الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٦٩٩ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٦٨ — الثلاثاء ١١ من صفر سنة ١٣٦٥ — ١٥ من يناير سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

رجال عرفتهم :

أســـد الجزيرة

أسد الجزيرة العربية وحاميها هو ملكها عبد العزيز آل سعود ، وهو رجل عصامى كوّن نفسه ، وبنى ملكه على قواعد من الحزم والعدل والرحمة بعد أن فتح الجزيرة كلها بسيفه وبسط عليها سلطانه .

وقد نشأ فى نجد كما ينشأ البدو ، وركب الخيل والجمال ، وينتضى السيف دفاعا عن الحق والأهل والعشيرة ، واشتهر بهيبته وقوته وتقواه ... وقد راقب حال الجزيرة عن كثب وما تفشى فيها من الفوضى والاضطراب أيام حكم الشريف ، فقرر أن يخلصها من هذا الحكم .

والحق أن الفساد فى عهد تلك الدولة استشرى ، فالأمن مضطرب ... حتى إن الحاج ما كان يأمن على نفسه أو ماله ، ويا ويل من كان يزمع زيارة المدينة ، فإن السلب والقتل كانا متربصين له فى الطريق ... حتى إنه قيل (إن من يخرج رأسه من الهودج فهو لن يعود له) كما انتشرت الرشوة والمحسوبية والجرائم .

عرف عبد العزيز كل هذا ولمسه بنفسه ورآه بعينه فآلى على نفسه أن يخلص الجزيرة من هذا الرعب والفساد ، وينشر فيها حكم الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) .

وأخذ يجمع قومه ويحدثهم ويحضهم على الجهاد ، ويدربهم على استعمال الأسلحة المختلفة التى مدته بها جهات عديدة . فجيش جيشه وتحرك به من نجد متجها إلى الحجاز ، وفى طريقه إلى مكة أخضع كل القبائل وجندهم حتى وصل إلى مكة فحارب فى شعابها ووديانها حربا دامية حتى استولى على أم القرى ... وعندئذ دخل المسجد هو وأصحابه

مكبرين مهللين ، بعد أن حرموا من دخوله أعواما ، فصلى لله شكراً وطاف بالبيت العتيق ، وعاهد الله على أن ينشر العدل والأمن فى أنحاء الجزيرة .

وسارت بعد ذلك جيوشه المظفرة إلى جدة والمدينة وجميع أطراف الجزيرة فاستولت عليها جميعاً .

الحكم :

قلّب عبد العزيز طرفه فى ملكه الشاسع الجديد ، ولم تداخله نشوة الظافر وغروره ، بل أحس نعمة الحاكم ... الحاكم الذى يريد أن ينشر السلام والأمن والعدل فى بلاد شاسعة كلها صحراء وجبال ... بلاد لا تنبت شيئا ولا تصنع شيئا ، بل تعتمد على ما يأتيها من مال وعروض فى مواسم الحج ، ولا وسيلة بها للنقل إلا الجمل .

فأمر أن يكون الحكم فيها لكتاب الله ، وطارد المجرمين وعاقبهم بلا رحمة ، وولى أبناءه وأقاربه إمارة البلاد ... وأنشأ مجلس الشورى بمكة التى جعل بها دواوين الحكومة . ومد شبكة المواصلات التلغرافية بين أنحاء البلاد وكذلك أدخل التليفون والسيارات وجعلها وسيلة المواصلات الأولى .

واتخذ له مقرين للحكم : أحدهما بالرياض عاصمة نجد ، والآخر فى مكة عاصمة الحجاز . أما فى الصيف فهو ينتقل عادة إلى الطائف ، كما اتخذ له علما يدل على إيمانه وسطوته ! فهو سيف كتب أعلاه لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وراح ينشر الدعاية للحج ويهتم بسلامة الحجاج حتى يتوفر له المورد المالى ، الذى يمكنه من إقامة دعائم الحكومة وتنفيذ الاصلاحات الضرورية ، وأنشأ العلاقات السياسية مع الدول المختلفة ، ولكنه حرم على غير المسلم أن يقترب من مكة أو المدينة حرصا على شعائر الدين وحرمته .

البترول :

وأراد الله أن يفرج كربته فاكتشف الأمريكيون منابع البترول فى شمال الجزيرة ولم يتردد عبد العزيز فى الاتفاق على استخراج البترول .

وهكذا عمرت الخزانة وتدفق الخير وعم الرخاء .

طويل العمر :

والملك عبد العزيز رجل مسلم مؤمن بكل ما فى هاتين الكلمتين من معنى وقوة ، فهو لا يعرف إلا الحق ، ويعيش فى بساطة طبيعية محببة ، لا يلبس إلا القطن ، وينتعل نعلا ويأكل بالطريقة العربية كما تعود .

وهو لا يسمح لأحد أن يدعوه صاحب الجلالة ... بل يناديه أهله «يا عبد العزيز» . أما رعيته فنداؤها المحبب هو «يا طويل العمر» .

ولكل شخص من رعيته أن يقابله ويرفع إليه شكواه ، وهو لابد منصفه حتى من نفسه ومن أقرب المقربين إليه . لا يعرف فى الحق كبيراً ولا صغيراً .

فى ثورة غضب صفع أحد أمرائه رجلا على وجهه . فرفع الرجل شكواه إلى طويل العمر فقرر أن يصفع الرجل الأمير ثم عزله من إمارته .

وهو لا يشرب الدخان ولا الخمر إطلاقا ، وقد حرم التدخين فى أول حكمه . أما الآن فقد أبيح . لكن من يشرب الخمر يقام عليه الحد .

الرجل السياسى :

إن هذا الملك البدوى الطويل ، الذى لم يدخل جامعة ولا تتلمذ على أساطين السياسة ، هو بلا شك داهية سياسى ، فهو يعرف ببديهته وفطرته السليمة وحنكته كيف يقود سفينته إلى بر السلام دائما . وهو مساوم بارع صريح يكسب من مساومته أكثر ما يمكن لبلاده .

ومما لاخفاء فيه أن هناك منافسة شديدة بين إنجلترا وأمريكا فى المملكة العربية السعودية ، وهو يستفيد كل الاستفادة من هذه المنافسة ، ويعرف فى كل حالة كيف

يحفظ استقلال بلاده ، وهو يوازن بين المتنافسين ثم يربح دائما .

وإنك لتحس كيف استغل ذلك التنافس . فالحجاز هو البلد الوحيد الذى ما زالت العملة فيه هى الجنيهات الذهبية ، وهى تتدفق على أسواقه كالسيل . وكلنا يذكر كيف أصر منذ عامين على أن تكون نقود الحجاج من الذهب ، وكيف اضطرت الحكومة الإنجليزية أن تعطى مصر والبلاد الإسلامية ما يلزم لحجاجها من الذهب .

وإنك لتجد أيضا ذلك السيل المتدفق من المؤن الذى ترسله أمريكا وخاصة الدقيق الأبيض والسيارات والإطارات .

وهو يعرف كيف يتخير الكفة الراجحة فى أشد الحالات حلوكا وغموضا ؛ فعند ما اشتدت الأزمة الدولية بين الديموقراطيات والمحور الذى تسير أساطيله فى البحر الأحمر وتحتل إحدى دول الحبشة ... أخذ يفكر ويتدبر ، وفى ذات ليلة اشتد به التفكير وسهر حتى الصباح مصليا ومرتلا للقرآن ، وبعد أن صلى الفجر جمع أعوانه وأبلغهم أنه قد قرر أن يقف بجوار الدول الديمقراطية .

وهكذا تخير الكفة الراجحة .

عبد العزيز الرجل :

رأيته لأول مرة فى حياتى فى اليوم السادس من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٣ واقفا على عرفات فى المكان الذى كان يقف فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فرأيته رجلا طويلا نحيلا يلبس ملابس الإحرام البسيطة . أما وجهه فهو طويل نحيل ينتهى بلحية سوداء ، وتشوبه السمرة البدوية ، وتظهر فيه علامات القوة والحزم . أما نظراته فثابتة توحى بالثقة والاطمئنان ، كما توحى بعمق التفكير والفطنة الشديدة والذكاء الفطرى .

وعند الغروب وقف خاشعا رافعا يديه إلى السماء ضارعا مبتهلا ، وكانت تظهر عليه علامات المرض والضعف .

وفى يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٣ تشرفت بمقابلته فى استراحته بمنى حيث ينزل أيام عيد الأضحى . فوجدته يلبس جلبابا من القطن عليه عباءة سوداء ، ويغطى رأسه بكوفية بيضاء من القطن الأبيض مزينة بنقوش حمراء ، وفوق رأسه عقال مقصب ، وكان يجلس فى بساطة وهيبة على كنبة كبيرة وثيرة . واستقبلنا هاشا باشا وأخذ يتحدث فى بساطة وتؤدة ونبرات صوته ضعيفة وكلماته بطيئة إلا أنها قوية ، وهو يسأل كل إنسان عن حاله ويزوده بنصائحه وهو يتكلم العربية الفصحى فى لهجة نجدية لطيفة .

وفى مجلسه تتجلى الديموقراطية الحقة . فالكل إخوانه وأحبابه وضيوفه ، وتقدم لك فى مجلسه القهوة العربية (جهاو) ثم الشاى ، ولا بد لك أن تشرب فى حضرته .

ويبدو لك كرمه فيما يخلعه من خلع سنية على كبار زواره ، وهو كريم غاية الكرم ، ويروى عنه أنه كان فى إحدى رحلاته من مكة إلى الرياض ، وهى رحلة يعتبرها أهل البادية موسما وعيدا ، إذ تتدفق عليهم فيها خيراته وينعمون بالكثير من لطفه وبره ، رأى أحد أولاده الصغار ، وكان فى صحبته ، بدويا يحمل غزالا فرغب فيه . فنادى الملك الأعرابى وأفهمه رغبة ولده فنزل له الأعرابى عن غزاله . ثم سأله الملك :

« أيش تريد » فقال الأعرابى :

« والله يا طويل العمر أريد هذه السيارة » وأشار إلى سيارة الملك .

فلم يتردد عبد العزيز ، بل نزل منها وأهداه إياها وركب سيارة أخرى .

وهكذا عرف هذا الملك كيف يرضى رعيته ويرغبهم فى حكمه .

وإذا دخل عليه أحد مجلسه وشكا إليه سوء حاله أمر

على هامش الحركة التعليمية :

خطــــرات

قامت بمصر في العام الماضي حركة تعليمية قوية شاملة ، لفتت الأنظار إلى الأمور المتصلة بتربية النشء ، وحولت الاهتمام إلى سياستنا التعليمية ، إلى أين تتجه ، وكيف نحتاط في رسمها ، وما أنفع الطرق التي يجب أن نسلكها لترقى الجيل الجديد خير تربية ، وتنهض بالبلاد نهضة قوية شاملة .

فهذا وزير المعارف قد توفر على دراسة حالة المدارس ، ونظر نظرة فاحصة في المناهج ، واستعرض مختلف المراحل ، واتجه في بدء العام الدراسي اتجاها جديداً يختلف عن الاتجاه الذي كان سائداً قبل توليه وزارة المعارف . وحين ناقشه النواب وأهل الرأي ذكر لهم أنه لا يزال يدرس ، وأنه لم يقطع برأي نهائي بعد ، ووعد بأن يعرض ما يستقر عليه رأيه بعد الفحص والدرس ، على الأمة لتدلي برأيها فيه .

وبعد ذلك رأيناه يجمع اللجان ، ويقلب فيها مختلف الآراء ، ويستمع لمختلف الاتجاهات ، ويزن حجج كل فريق ، ويبحث ذلك كله في ضوء ملاحظاته الشخصية ، وخبرته العملية التي اكتسبها من اتصاله بالعمل في المعارف وزياراته للمدارس ، ومناقشاته مع أولياء الأمور ونواب البلاد ورجال التعليم ، وكأني به وقد رسم لنفسه خطة عول على أن يسير فيها ورسم لنفسه سياسة اطمأنت إليها نفسه .

رجحنا ذلك حين رأيناه قد استصدر مرسوماً بإنشاء المجلس الأعلى للتعليم ، ولم يمض على صدور المرسوم طويل حتى حدد موعداً لجمع المجلس لأول مرة ، وافتتحه بالفعل بكلمة تبين منها أنه سيعرض سياسة مستقرة ، وقد رأينا المجلس قد اتخذ الخطة الحكيمة التي يجب اتباعها في مثل هذا الشأن من تأليف لجان صغيرة لدرس مختلف النواحي .

وها نحن نراه يسافر إلى السودان ليفتتح أول مدرسة مصرية صميمة في هذا القطر الشقيق الحبيب ، ويلوح فيها باتجاهات التربية الحديثة ويعلي من شأنها ، ويعلن اعتزامه

له بما يلزم من الدقيق والدهن وأعطاه من ماله الخاص ما يرد غائلة الدهر عنه .

ولذلك يعتبره أهل الجزيرة ملكا وأبا وزعيما .

عبد العزيز والوحدة العربية :

وهو يعطف أشد العطف على الوحدة العربية وآمال كل العرب وأمانيهم ، وطالما نادى بذلك في مجالسه في مواسم الحج ، وكثيرا ما جمع حوله رؤساء الوفود وذوي المكانة في البلاد المختلفة العربية واستفسرهم عن شئون بلادهم وحثهم على التآخي والاتحاد .

وهو يعتبر موسم الحج مؤتمراً عاما للمسلمين ويحرص على حضوره ويذاكر معهم شئونهم وآمالهم وآلامهم .

أما موقفه من فلسطين فهو واضح غاية الوضوح ، وصريح كل الصراحة ، وهو يصر على جعلها عربية لحماً ودماً . يشهد بذلك خطابه للرئيس روزفلت الذي نشر أخيراً .

أما مصر فهي حبيبته ، وفاروق الملك هو أخوه الذي يحتل من كل قلبه أعز منزلة وأكرم مكان .

وهو لم يخرج من بلاده قط إلا إلى مصر في الشتاء الماضي ، وهو يعرف من شئونها كل شيء ، ويعرف أكثر رجالها ، ويثق كل الثقة في عبد الرحمن عزام باشا ، حتى إنه لينزله ضيفاً خاصا عليه في قصره ويعطيه أقرب الحجرات إليه ، ويمنحه من الود والمحبة الشيء الكثير .

وهو بجانب ذلك حريص غاية الحرص على استقلال بلاده والبلاد العربية ، لا يفرط في ذلك ولا يتزحزح عنه قيد أنملة .

محمد عبد الفتاح زكي

على أن يسير على مقتضاها في جميع المدارس التي تحت إشرافه .

***

وهناك إلى جانب هذه الحركة المؤتمر الذي دعت إليه جمعية المعلمين ، وبحثت فيه سياسة التعليم ، وانتهت فيه إلى قرارات أبلغتها وزارة المعارف ، ورجت أن يكون لها نصيب من عناية القائمين بوضع السياسة التعليمية الجديدة .

وفي الشهور الماضية شهدت مصر حركة قوية لم يسبق لها نظير ، وهي اختيار عدد كبير من نوابغ الخريجين ومن الأساتذة النابهين للسفر في بعثات علمية وعملية إلى مختلف أنحاء العالم ، إلى انجلترا وفرنسا وبلجيكا وأمريكا ، وقد زاد عددهم على الثلثمائة ، وقد سافر معظمهم بالفعل ، وقد شرفهم مليك البلاد بتكريم منقطع النظير في حفل ملكي عظيم ، خطب فيه وزير المعارف خطبة ضافية .

وقد طلعت علينا الأهرام في الأسبوع الماضي بحديث قيم أدلى به حضرة صاحب السمو الأمير محمد علي توفيق ، تناول فيه « العلم والتعليم والنهضة العلمية في مصر » وأشار فيه إلى هذه البعثات واستحسنها وأثنى على فكرتها ، ولكنه لفت النظر إلى أمر آخر عظيم الأهمية ، ألا وهو أن العلم لا وطن له ، وأن سموه ينصح بضرورة استقدام عدد من فطاحل علماء الغرب ، للعمل في مساعدتنا ، كما أشار بضرورة توجيه الشبان إلى الهندسة والكهرباء والميكانيكا والكيمياء ، فإن هذه العلوم وأمثالها قد أصبحت عماد المدنية الحديثة .

***

من هذا العرض يتبين صحة ما قلناه في صدر هذه الكلمة من أن الاهتمام بشئون التعليم كان من الظواهر البارزة في العام الماضي ، وينتظر أن يكون كذلك في عامنا الجديد ، ولذلك رأينا أن ندلي هنا ببعض ملاحظات وخواطر ، قد يكون لها بعض الأثر في هذه الحركة المباركة .

وأول ملاحظتنا خاصة بتكوين المجلس الأعلى للتعليم ، فقد ضم إلى عضويته كل من تولى وزارة المعارف ، وهذا الاختيار في نظرنا قد يكون فيه شيء من الإسراف ، وكنا نؤثر أن يختار الأعضاء على أساس تمثيل مختلف وجهات النظر ، بمعنى أن يطلب من كل حزب من الأحزاب السياسية التي تتولى الحكم أو تشترك في مختلف الوزارات التي تقوم في مصر أن تختار من بين من تولوا وزارة المعارف منها عدداً مناسباً يمثلها في هذا المجلس ، كما يختار من بين من تولوا وزارة المعارف من الوزراء المستقلين بعض من كانت لهم آراء يعتد بها في هذا المضمار .

كذلك كنا نود أن تمثل الهيئات التي تعبر عن آراء المعلمين في مثل هذا المجلس ، فهناك جمعية المعلمين ، وإلى جانبها رابطة خريجي معهد التربية ، وكذلك رابطة التربية الحديثة ، فكان الأوفق أن يختار من هذه الهيئات أو يطلب إليها اختيار من يمثلها في هذا المجلس .

بمثل هذا الإجراء كنا نضمن تمثيل وجهة نظر كل حزب سياسي أو طائفة من طوائف رجال التعليم ، كما أن ذلك كان يحفز هذه الطوائف وتلك الأحزاب إلى أن تجعل من برامجها دراسة الأمور التربوية دراسة وافية ، وتكون لنفسها فيها سياسة واضحة ، فقد رأينا في العهد الأخير ، حين كانت السياسة التعليمية في انجلترا محل دراسة وبحث أن تقدمت كل طائفة وكل حزب بآراء واضحة مدونة مؤيدة بالحجج ، وكان في استعراض كل تلك الآراء منفعة عظيمة وفائدة كبرى لكل من اطلع عليها .

***

والأمر الثاني الذي خطر لنا ونود أن نلفت النظر إليه، هو أنه من المستحسن، في مثل الظروف التي نحن فيها، أن نبذل معظم الجهود في إصلاح الأساليب القائمة، وفي العمل على خلق روح جديدة قوية ملهمة، بدلا من أن نبذل جهودا كبيرة في إحداث تغييرات كثيرة في النظم وفي الأوضاع. فالعبرة في نظرنا بالأساليب المتبعة التي تمثل لب الموضوع والتي هي من صميم التربية. أما النظام نفسه فقد يكون أمرا شكليا ثانويا لا يستأهل إضاعة الوقت والجهد في تغييره.

ثم إننا ننصح بألا يحدث أي تغيير جوهري قبل أن يجرب على نطاق ضيق، وتستبين محاسنه ومساوئه، وتوجه العناية إلى استئصال ما به من عيوب، وتحسينه بقدر الإمكان، وعند ذلك فقط يصح أن يعمم.

ويقتضي ذلك بطبيعة الحال أن نعنى على الدوام من الآن فصاعدا بجمع الإحصاءات ودراستها والاستفادة من دلالاتها، وكذلك يحسن في مثل هذه المرحلة إجراء الاستفتاءات من آن لآخر لتعرف رأي رجال التعليم وأولياء الأمور وقادة الفكر في معظم المسائل والمشاكل والتحسينات التي تجرى والمشروعات التي يراد تنفيذها، وكذلك المشروعات التي تنفذ.

بمثل هذه الوسائل نضمن قيام كل تعديل أو تغيير على أساس علمي سليم، ونتقي عهد الارتجال، ويدرك الناس أن الأمر جد رهيب، وأنه لا يجوز فيه الأخذ بفكرة عابرة أو رأي فطير، فهو ليس بالهين الهين، وإنما هو متعلق بمستقبل أمة بأسرها وبسعادة الجيل القادم.

* * *

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثالثة، وهي ضرورة مراعاة المرونة في كل نظام، وتجنب القواعد الصارمة والخطط الجامدة، فإن من المصلحة أن يكون في استطاعتنا دائما أن نحوّر في خط سير التعلم تبعاً لما يظهر فيه من حسن استعداد وتقدم من جهة، أو من ضعف في الاستعداد وتخلف من جهة أخرى، فلو أن كل عقل قدم له ما يناسبه على الدوام لكان الإنتاج جيداً باستمرار، ولاطرد تقدم التعلم في كل مرحلة من مراحل تعلمه.

* * *

وأخيراً نعود للنقطتين الهامتين اللتين أشار إليهما سمو الأمير في حديثه، وهما الاهتمام بالعلوم العملية التي هي دعامة المدنية الحديثة. وفي رأينا أن خير مظهر لهذا الاهتمام هو تشجيع البحث العلمي بكل الوسائل الممكنة ومنها إرسال البعثات من الذين أتموا دراساتهم بنبوغ، وأظهروا استعداداً لمواصلة البحث، ومنها تشجيع الأساتذة القائمين بالبحوث بالفعل، وذلك بتسهيل مهمتهم بشتى الوسائل، وتشجيعهم بكل الطرق وفي كل المناسبات.

كما أن من أهم المظاهر لذلك التشجيع هو الأمر الثاني الذي أشار إليه سمو الأمير، ألا وهو العمل على استقدام طائفة من العلماء الباحثين من الطراز الأول، وانتخاب مجموعة من الجديين البارزين من الطلاب والمدرسين للعمل تحت إرشاد هؤلاء العلماء في البحث العلمي المنتج ليكتسبوا منهم خبرة بأساليب البحث الصحيحة، وسيراً على طرائقه بحيث تترقى لديهم المواهب التي يلمحون بها النقط الجديرة بالبحث، والملكات التي تمكنهم من رسم خطط البحث التي تكون أقرب إلى النجاح، فلا يمضي زمن طويل حتى نجد من بين شباننا من يستطيعون اقتفاء أثر هؤلاء الفحول من العلماء، فيحلون محلهم فلا نشعر بفراغ كبير إذا ما فارقنا هؤلاء العلماء الذين استقدمناهم وعادوا إلى بلادهم.

أحمد عبد السلام الكرداني

جريمة نكراء

فى مسـاء السبت الأسبق وقع حادث إجرامى مروع
هب ضحيته رجل من رجال السياسة المعروفين هو المغفور
ه أمين عثمان باشا . وقد أعاد هذا الحادث لذاكرة مقتل
زعيم السياسى الطيب الذكر المغفور له احمد ماهر باشا ولم
مض عليه إلا قرابة عام .

وتكرر هذه المأساة فى هذا الزمن القصير خليق
أن يفتح العيون على أن هناك عوامل فى حياتنا العـامة
ى لهذا الهوس الإجرامى ، وهو خليق بأن يحملنا على
لتفكير الجدى فى اقتلاع أسباب هذه الموجة الإجرامية
ى تهدد حياة كل رجل يشتغل بالسياسة بغض النظر عن
زبه ومذهبه السياسى .

ومن المقطوع به أن هذه النزعة الإجرامية محصورة
دائرة محدودة هى دائرة الشبان ذوى الأعصاب المريضة .
لا يمكن أن يجول بخاطر رجل متزن أن ينتهك حرمات
شعائر ويقدم على قتل رجل لأنه يخالفه فى رأى أو لأنه
س الأمور العامة بغير مقياسه . وإنما يجوز هـذا على
ى مختل الأعصاب مضطرب التفكير نائر الوجـدان
ل فى حياته ، فمن السهل أن يقع مثل هذا الشاب فريسة
زات خاطئة ويندفع بلا روية ولا تبصر فى هاوية
جرام والخطيئة .

وأمثال هؤلاء الشبان الشاذين يعرفون فى الأوساط
ى يعيشون فيها بسيماهم ؛ فهم فى الغالب يعتزلون الجماعات
زوون من مشاركة رفاقهم فى ألعابهم وحياتهم
تماعية ، وهم متمردون لا يخضعون للنظم والأوضاع ،
متشائمون ينظرون إلى كل ما يقع عليه بصرهم بمنظار
د . وهم بانطوائهم على ذوات نفوسهم ونفورهم من
ـال رفاقهم يعيشون فى أحـلام وخيـالات
يستسيغون التفكير المنطق المستمد من الواقع

والمحسات . فهم فى الواقع مرضى خليقون بأن يوضعوا فى المصحات أو تنشأ لهم معاهد خاصة يعالج فيها شذوذهم وتروض فيها طباعهم المنحرفة

ولكنهم هنا يعيشون كما يعيش الناس ويتصرفون بمطلق حريتهم كغيرهم من الشبان العاديين .

ولو أن الجو المحيط بهم هادئ خال من الزعازع والأعاصير لكان الأرجح أن يقف شذوذهم عند حد التبث بحياتهم الخاصة .

ولكن الجو الذى خلقته الحرب والاضطراب الذى خلقه النزاع السياسى العنيف القائم فى هذه البلاد، هذا الجو قد أتاح لشذوذهم ميداناً جديداً يعيثون فيه ، ويفضون فى مشاكله بعقولهم المختلة وأذهانهم السكابية وأعصابهم المختلة المريضة .

ومما يؤسف له أن الخصومة السياسية لدينا قد جاوزت كل حدود الاعتدال ، وأن كل فريق يصطنع فى حملته على خصومه أعنف الأساليب ، وأن الخلاف السياسى قد وصل إلى تقاطع متعصب واتهام متبادل لا هوادة فيه . فلا غرابة إذا كان لهذه الحملات صداها فى تلك النفوس الهوجاء النزقة ، ولا عجب إذا أنتجت مثل هذه الثمرات المريرة التى نتجرع اليوم غصتها .

فالسبيل الصحيح لإيقاف تيار هذه النزعات الإجرامية هو أن يصفو الجو بين الزعماء ، وأن يكون الخلاف بينهم جدالاً متعقلا هادئاً رزينا ، وألا يحول تباين الآراء دون معرفة أقدار الرجال وإيلائهم جميعاً ما هم خليقون به من الاحترام .

ولعل من الخير العمل على إبعاد الشباب الناشئ من دائرة الحياة السياسية العملية ، وقطع اتصال الأحزاب بالطلبة ، وترك الجو الدراسى فى دائرته البريئة ، وعدم الزج به فى خصومات رجال السياسة .

وكم نود أن تكون هذه الحادثة الأثيمة فرصة لتقارب المتنازعين وإصلاح العلاقات بينهم ، وألا يجعل منها بعض قصار النظر فرصة جديدة للتقاطع وإيقاظ الفتن النائمة وتحريك الأحقاد الكامنة . (. . .)

١٢ – من الأدب العربى

أخلاق السادة

من الأخلاق التى لفتت أنظار العرب فأكثروا فيها كلامهم وصاغوا منها أدبهم « خلق السيادة » وهو معنى غامض صعب التعريف والتحديد يختلف كثيراً باختلاف البيئة ، وباختلاف الحياة الاجتماعية ، وباختلاف الصبغة التى تغلب على الشخص والجماعة من حب المجد ، وزهد فيه ، ونحو ذلك .

فإذا نحن استعرضنا أركان السيادة فى الأدب الجاهلى وجدناها الكرم والشجاعة ، فيقول عامر بن الطفيل :

إنى وإن كنت ابن سيد عامر
وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة   أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى   أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وخلاصة رأيه فى السودد أنه يذود عن قبيلته ويحميها أن ينالها شر ويبذل نفسه فى الدفاع عنها ، فليست السيادة فى نظره مجرد الشجاعة ، ولكنها الشجاعة فى سبيل القبيلة .

وقالت ابنة حاتم الطائى تصف أباها : « إن أبى سيد قومه ، كان يفك العانى ويحمى الذمار ، ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ولم يطلب إليه أحد حاجة فرده » فجعلت سيادته فى الشجاعة والكرم .

ونقرأ المفاخرات بين السادة فى الجاهلية فنراها يدور أكثرها حول المباهاة بالكرم والشجاعة .

وظلت هاتان الصفتان هما دعامتى السيادة فى الإسلام وإن لونها بعضهم ببعض الألوان الأخرى التكميلية ، فيروى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « السيد : الجواد حين يُسأل ، الحليم حين يُستجهل ، البار بمن يعاشر » . وقيل لقيس بن عاصم : بم سدت قومك ؟ فقال : « ببذل القرى ، وترك المراء ، ونصرة المولى » فأضيف إلى الكرم والشجاعة ترك المراء ، وبعبارة أخرى الترفع عن الصغائر .

وعدّ فى العصر الأموى من أسود الناس الأحنف ابن قيس وسلم بن قتيبة ومحمد بن القاسم ؛ فأما الأحنف فأساس سيادته الشجاعة والكرم والحلم ، وقد رشحه زياد ابن أبيه ليتولى ثغر الهند فلم يرض معاوية بذلك وحفظ عليه عدم انضمامه إلى جيش عائشة ومناصرته لعلى بن أبى طالب ، فقال فيه زياد : « إن الأحنف بلغ من الشرف والسودد ما لا تنفعه الولاية ولا يضره العزل » .

وعدّ من أهم أسباب سيادة سلم بن قتيبة جرأته وشجاعته ، فقال بعضهم : « كنا نعرف سودد سلم بأنه كان يركب وحده ويرجع فى خمسين » أى خمسين أسيرا .

ومحمد بن القاسم فتح السند والهند وقاد الجيوش وهو ابن سبع عشرة سنة فقال فيه الشاعر :

إن السماحة والمروءة والندى
لمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة
يا قرب ذلك سوددا من مولد !

وأحياناً كانوا يلحظون فى « السيد » لين الجانب وسعة صدره للناس فى أن يعيبوه وينقدوه . قال رجل من العرب : « نحن لا نسوّد إلا من يوطئنا رحله (يريد يخدمنا فى حوائجنا) ويفرّشنا عرضه (يريد أنه لا يضيق بنقدنا له وعيبنا عليه) ويملّكنا ماله » وكما قال المقنع الكندى

ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقد
وليسوا إلى نصرى سراعا وإن هم
دعونى إلى نصر أتيتهم شد
إذا أكلوا لحمى وفرت لحومهم
وإن هدموا مجدى بنيت لهم

وأحياناً يلحظون في السيادة بعد النظر وقوة الفكر وسداد الرأي ، وهذا ما لحظوه أيضاً في سيادة الأحنف ، فقد كان من أسباب محبته الرأي يصيب والنظرُ يصدق ، وقال الكميت :

رُفِعتَ إليـك وما ثُغِّرْ — تَ (١) عيونُ مستمعٍ وناظرْ

ورأوا عليك ومنك في الـــمهد النُّهى ذاتَ البصائرْ

وقد لحظوا — أيضاً — أن السادة لا يسودون جميعاً بخصلة واحدة ؛ فقد يسود أحدهم بصفة ويسود آخر بغيرها تبعاً للشخص والظروف التي حوله ، فقالوا — مثلاً — « ساد الأحنف بحلمه ، وساد مالك بن مِسْمَع بحب العشيرة له ، وساد قتيبة بن مسلم بدهائه ، وساد المهلب بن أبي صفرة بهذه الخلال كلها » .

وفي بعض الأوساط عد أكبر ركن للسيادة اصطناع الرجال ، وهو ضرب من الكرم ، وهو أن يستجلب رضا الناس ببذل العطاء لهم وقضاء حوائجهم ، فيكونون أتباعه يجتمعون حوله ويصدرون عن رأيه ، وفشا هذا في العصر العباسي وخاصة عند البرامكة ، فقد كانت سيادتهم في إسداء البر للناس وتكوين الأشياع والأتباع ؛ رووا أن يحيى ابن خالد البرمكي دعا ابنه إبراهيم يوماً — وكان يسمى دينار آل برمك لجماله وحسنه — ودعا مؤدبه ومن كان ضم إليه من كتابه وأصحابه فسألهم : ما حال ابني ؟ قالوا : قد بلغ من الأدب كذا ونظر في كذا وكذا (من العلوم) قال : ليس عن هذا سألت . قالوا : قد اتخذنا له من الضياع كذا ومن الغلة كذا . قال : ولا عن هذا سألت إنما سألت عن (سيادته) وبعد همته ، وهل اتخذتم له في أعناق الرجال مننا وحببتموه إلى الناس ؟ قالوا : لا . قال : فبئس العشراء أنتم والأصحاب . هو والله أحوج منه إلى ما قلتم . ثم أمر بحمل خمسمائة ألف درهم إليه ، ففرقت على قوم لا يدري من هم .

ونظر المأمون يوماً إلى ابنه العباس وأخيه المعتصم فرأى ابنه العباس يتخذ المصانع ويبني الضياع والمعتصم يتخذ الرجال ، فقال في المعتصم :

يبني الرجال وغيره يبني القرى

شتان بين قرى وبين رجال

قلق بكثرة ماله وضياعه حتى يفرقه على الأبطال

فساد المعتصم وضاع العباس

ووجد في الإسلام من غلبت عليه النزعة الدينية وأمعن في فهم قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فربط هذا بالسيادة وجعل السيادة في التقوى . قال ابن الكلبي قال لي خالد القسري : ما تعدون السودد ؟ قال : « أما في الجاهلية فالرياسة (يريد الرياسة على القبيلة) وأما في الإسلام فالولاية (يريد ولاية أمور المسلمين بالخلافة أو ولاية مدينة أو إقليم) ، وخير من ذا وذلك التقوى » .

(يتبع) أحمد أمين

إيرادات ترتفع وجماهير تلح

أمام الإيرادات الضخمة وإلحاح الجماهير اضطرت سينما رويال أن تمد عرض فيلم العصر طيب أسبوعاً ثالثاً . لأنها لم تر إقبالاً على فيلم مصري يمثل هذا الإقبال الشديد من الجماهير المتدفقة . فهاهي نجمة كاريوكا تثير دهشتنا بروعة رقصاتها وتمثيلها القوي . ومحمود يرقى بفنه ويعلو بالخيال إلى الأحلام في أغانيه العذبة التي نظمها الشاعر الفنان الرقيق عبد الله خضر . وزكي رستم وزينب صدقي والليجي ينهضون إلى قمة المجد بتمثيلهم الحي الرائع . وبشاره واكيم وشكوكو يسيلان الدموع بتمثيلهم الكوميدي الفذ . تهانينا للمخرج الجريء الأستاذ حسين فوزي ولشركة أفلام الشباب التي تعمل للشباب في القرن العشرين

(١) يقال ثغر الغلام إذا سقطت أسنانه الرواضع

بين الصراحة والنفاق

من الشعراء الإنجليز شاعر أسكتلندي ظريف يمتاز بالشعر البلدي الاسكتلندي الخفيف الروح ، وهو روبرت برنز ، وقد أعجبني منه بيتان أرددهما دائماً فيما بيني وبين نفسي وهما في الترجمة البلدية المصرية :

« ليت أن الله في الخلقة أعطاني عطية :
أن أرى نفسي كما ينظر إخواني إليه »

وهو يعبر في هذين البيتين عن شعور إنساني عام أو شعور يكاد يكون عاما . فإن الناس يتوقون إلى معرفة رأى الغير فيهم وفى تصرفاتهم . وهناك مظاهر شتى لهذا الشعور ، وإذا شاء أحد أن يكشف بنفسه قوة ميل الناس إلى معرفة رأى الغير فيهم فليذهب إلى أحد أصدقائه وليسأله مبادراً :

« هل عرفت ما قال فلان عنك ؟ » . وأغلب ظني أن ذلك الصديق سوف ينصت إليه بكل شوق ليعرف ماذا قال ذلك الفلان عنه .

وأعتقد أن اختراع المرآة لم يكن سوى وسيلة لتحقيق رغبة الإنسان في معرفة كيف تبدو صورته في أعين الغير . وإلا فما هو القصد من اختراع هذه الآلة التي لا وظيفة لها إلا أن ترينا صورة أوجهنا ؟ فالرجل ينظر كل صباح في المرآة قبل خروجه لكي يعرف الشكل الذي سيطلع به على الناس ويطمئن إلى أنه سيقع منهم موقعا حسنا . وأما المرأة فإنها تحمل المرآة معها في حقيبتها لكي تتيقن بين حين وآخر من أن شكلها الذي اطمأنت إليه منذ ساعة لا يزال على عهدها به يسر الناظرين جميعا .

ولكن إلى جانب هذه الحقيقة توجد حقيقة أخرى تناقضها كل المناقضة . فقد كان المنتظر من الإنسان أن يهتم بمعرفة آراء الناس فيه لكي يصلح نفسه ويجعلها مقبولة عند الغير بقدر إمكانه . فإذا هو استعمل المرآة ورأى أن مظهره ليس كما ينبغي لمثله كان عليه أن يسعى في تعديل ذلك المظهر حتى يحوز القبول عند من يراه . وليس من العسير علينا أن نجد تعليلا لهذا المنطق البسيط فالإنسان اجتماعي ولا يمكنه أن يعيش إلا مع بني آدم ، ولا غنى له عن أن يعرف رأيهم فيه ، وأن يحاول كل جهده أن يكون منسجما معهم ، وأن يعيش بينهم على أحسن حال ممكنة من التوافق والتفاهم . هذا هو ما كان المعقول والمنتظر . ولكن الواقع يناقض هذا مناقضة عجيبة ، فكل فرد تقريبا يُعجب نفسه ويعتقد أنه مركز العالم . فإذا هو نظر إلى المرآة مثلا لم ينظر إليها إلا بعينه هو ، وإذا لم يعجبه شيء في مظهره عدله وأصلحه حتى يكون ذلك المظهر وفق هواه ، وليس معنى هذا أنه يكون وفق هوى الناس . فالمرآة لم تفد الإنسان كثيراً من هذه الناحية لأنها إنما تعطى الناس فرصة ليروا صور أنفسهم بأعينهم الخاصة ، وهذا هو السر في أننا ننظر إلى المرآة في كل صباح ثم نخرج إلى أعمالنا راضين عن أنفسنا منشرحي الصدور مما رأينا . ولم نسمع عن أحد أنه كسر المرآة قبل خروجه من منزله لأنه استقبح شكل نفسه . فنحن عند ما نريد معرفة رأى الغير فينا نضمر في الوقت نفسه رأياً ثابتاً في أنفسنا وهو في الغالب الرضاء التام والإعجاب .

فإذا تعارض رأى الناس مع آرائنا لم نتردد في أن نتهم آراء الغير وأذواقهم ، وقد يبلغ بنا الأمر إلى المخاصمة والمداوة اعتزازاً باعتقادنا في أنفسنا .

أليس في هذا شيء من التناقض ؟ .

ويمكن أن نذكر أمثلة كثيرة الدلالة على هذا التناقض العجيب في الضمير الانساني . فقد وردت في الأخبار قصص كثيرة عن بعض العظماء في التاريخ الذين كانوا يمتازون بشدة رغبتهم في معرفة آراء الغير فيهم . فكانوا يرسلون الرسل لكي يندسوا بين الناس ليحملوا لهم أصداء

الأحاديث عنهم . وكان هؤلاء الرسل يتفننون في طرق التدسس بين الناس في منازلهم ومباذلهم وفي أنديتهم ومتاجرهم فيجمعون من كل ذلك بضاعة عظيمة المقـدار من الأقوال ويحملونها إلى السادة الذين أرسلوهم . وكانوا يصيبون من وراء ذلك خيراً كثيراً ويفوزون بالجوائز السنية مكافأة لهم على خدماتهم .

ولكن العجيب أن العظماء كانوا إذا سمعوا هذه الأحاديث لم يهتموا بإصلاح ما يأخذه الناس عليهم ، بل كانوا يرسلون في اليوم التالي إلى أولئك الذين تحدثوا عنهم ويوقعون بهم أشد العقاب على فضولهم والخوض في مثل تلك الأحاديث .

وليس الأفراد العاديون بأقل من العظماء في هذه الناحية من طباعهم . ويستطيع كل منا أن يلمس هذا بنفسه إذا شاء ، فكثيراً ما يسألنا بعض الأصدقاء عن رأينا في بعض أعماله أو في كتاب ألفه ، وقد ينخدع بعضنا فيحسب أنه يريد حقاً أن يعرف آراءنا في تصرفه أو في كتابه ، فيمضي في إبداء رأيه في صراحة واطمئنان ظناً منه أنه قد اؤتمن على إبداء النصح وأن عليه أن يؤدي تلك الأمانة كاملة ، وينسى في أثناء ذلك أن صديقه الذي يسأله ما هو إلا إنسان ، وأنه إنما يطلب رأيه بشرط أن يكون رأياً موافقاً لرأيه هو . وهناك تقع الواقعة ويبدأ ميدان الخصومة . وقد يبلغ الأمر مبلغاً خطيراً لأنه قد ينتهي إلى زعزعة الصداقة وضياع المودة القديمة .

وأحكم الأصدقاء هم الذين يعرفون الطبائع البشرية حق المعرفة ، فإذا سألهم صديق عن آرائهم في تصرفه بادروا بإظهار وجوه المحاسن وأغفلوا وجوه المساوئ . والأعمال الانسانية لا يمكن أن تخلو من المحاسن ، فلا يمكن لأحد أن يتهمهم بالكذب الصراح وهم في الوقت نفسه يسرون صديقهم ولم يخسروا في ذلك شيئاً ، بل لعلهم يربحون ربحاً عظيماً من زيادة المودة والثقة . وإذا سألهم صديق آخر عن رأيهم في كتاب ألفه بادروا بالثناء على جهده والتمسوا كل الحسنات فنشروها ، وعمدوا إلى العيوب فبالغوا في التجاوز عنها وأغفلوها إغفالا تاما ، وهذا يرضي الصديق بغير شك ، بل هذا هو الذي كان ينتظره الصديق في أغلب الظن عند ما سأل صديقه عن رأيه .

فلست أدري مع هذا كله هل كان الشاعر الاسكتلندي الظريف صادق النية عند ما تمنى أن يهب الله له القدرة على رؤية نفسه كما يراه الناس أم لقد كانت تلك أمنية شاعر متسرع لم يعرف حقيقة ما يتمناه ! ولست أدري كيف تكون أحوالنا لو استطعنا أن نعرف رأي الناس فينا على حقيقته ، أيكون ذلك مساعداً على تحقيق السعادة لنا أم يكون عاملا على زيادة بؤسنا وعذابنا !

وهناك سؤال آخر يخطر على البال في صدد هذا الحديث . فإذا فرضنا أن رأي الناس كان سيئاً في أعمالنا وفي آرائنا فأي الطريقين أجدر بنا ، هل نساير رأي الناس ونعدل آراءنا وتصرفنا حتى نحقق رضاءهم أم نسير على هدى آرائنا وإن كانت مخالفة لآراء غيرنا ؟ .

لا شك أن القضاء كان قاسياً على هذه الإنسانية عند ما حكم على بني آدم أن يعيشوا معاً وأن يحتاج بعضهم إلى بعض في كل شيء ، وأن يكون كل فرد محتاجاً إلى معاونة الآخرين ورضائهم عنه . ولو كان بنو آدم مثل السباع يعيش كل منهم بمفرده ويصيد فريسته بغير حاجة إلى مساعدة أحد من السباع الأخرى لتغيرت كل أحوال الحياة ولكان الناس في غنى عن كثير من المواقف الحرجة . وإنه لما يزيد المشكلة تعقيداً أن بني آدم يمتازون عن سائر أنواع الحيوان بحب الثرثرة والدردشة والميل إلى إبداء الرأي وإن لم يكن عندهم آراء .

فكثيراً ما نجد الشخص يقذف بالآراء قذفاً في شتى مسائل الحياة والسياسة والأدب وغير ذلك وهو مشغول بالأكل أو الشرب . وكثيراً ما يحلو إبداء الرأي حول

تحيـــة العاهلين

[تحية الشعر لحضرتي صاحبي الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق الأول في زيارتهما للعاصمة ......]

ماجت مواكبُه ، ولاح لواؤُه
ملكٌ تهلّل في الوجوه لقاؤُه
وتسابق الوادي إليه حفاوة   بقلوبه قبل العيون جلاؤُه
إن السعود ! فيالهمن موكب   سعد الزمان به ، وفاض هناؤه
لم تَلْقَ مصرُ ضيوفَها يوماً كما
لقيتْهُ ، أو هزَّ الحمى نزلاؤُه
هذا الثرى الأبديُّ أصبح موطناً
لبَنِ الرمالُ المؤمناتُ وطاؤُه !
يا حسنها في البشريات ! محلُّكُ
روضُ النبوّة قصرُهُ وفناؤُه
المجدُ والعزُّ المنيعُ مُقامُهُ
والفضلُ والشرف الرفيع رداؤُه
يومٌ بأيام الزمان مضيئة
أن يغمر الوطنَ السعيدَ ضياؤُه

* * *

يا طلعة البشرى ، يمازج نورَها
نورُ النبيّ ، وعطرُهُ ، وبهاؤُه
ومَمَلَّكاً غشي الجزيرة ظلُّهُ
كالنسر أوراقُ الجلال فضاؤُه
لما رأت مصرَ هزَّ فؤادَها   سحرٌ أقرّ بفضله قدماؤُه
الكبرياء ملك الأرضِ كبَّرَ ساحةً
لما تهلّلتَ ، وسبَّحت أبناؤُه
ومشت على أنس الوجود جلالةٌ
فسما من الدهر العميق نداؤُه
وتخشع الأهرامُ وهو مشيدٌ   شدَّ الطبيعة عمرُهُ وبناؤُه
وتألقَ الروض المبارك ، وانبرت
كالطير في أغصانها شعراؤُه
وتهلل الوادي لمقدم ضيفه   حتى لقد لبس الربيعَ شتاؤُه !

* * *

موائد السهرات ، بل كثيراً ما نجد أن الآراء لا تتداعى ولا تتناثر كفراشات الربيع الزاهية إلا في مجالس السمر والفرجة . فماذا تكون الحال لو وهب الله لنا جميعاً مقدرة سحرية على معرفة آراء هذه الملايين الكثيرة المختلفة الألوان والأزياء ؟ .

إن من نعم الله على الناس أنهم كما هم ، وهذا الشاعر الاسكتلندي الظريف إنما كان يطلب للبشرية عذاباً شديداً ، ولكن الله قد لطف بالخلق فلم يلب دعوته وأبقى على الناس حواسهم الغليظة . فليس في الإمكان أبدع مما كان ، وخير للجميع أن يمضي كل فرد في حياته كما يوحي إليه طبعه بغير أن ينغص عيشته بمعرفة آراء الآخرين . ولا شك في أن بعض النفاق محبوب ومفيد ، لأنه يسهل معاملة بعض الناس لبعض . فإذا قال شخص لآخر : « نهارك سعيد » مع أنه لا يريد حقاً أن يتمنى له نهاراً سعيداً أو إذا قال له : « أشكرك لأنك تفضلت بزيارتي » مع أنه كان في أشد الضيق من زيارته لم يضر ذلك القول أحداً ، ولكنه في الوقت نفسه يسر السامع الذي يتلقى التحية . وقد يؤدي مثل هذا القول إلى أن يبعث شيئاً من السرور إلى القائل نفسه لأن تكلف الجميل يوحي إلى النفس بالمعنى الجميل .

فينبغي أن نعيد النظر في الشعور السائد ضد ما يسميه الناس عادة بالنفاق والمراءاة ، وحبذا لو أمكن أن نجد لهذه المعاني أسماء أخرى أكثر قبولا عند الناس فكثيراً ما كانت كراهتنا للمعاني والأشياء نتيجة لكراهة ورثناها لبعض الأسماء .

محمد فريد أبو حديد

ملكان يلتقيان، كلٌ منهما   كرُمت مناقبه، وجلَّ إخاؤه

بل ماهلان، كلاهما سيف الحمى
وكلاهما غرر الشموس فداؤه

بالأمس ضمّهما الحجاز فغرّدت
هتّافه، وتكلمت أصداؤه

وتخشّع «الفاروق» في حرم الهدى
عشيّ وأنوارُ النبيّ إزاؤه

أتى عنطقة المليك وسيفه
فكفاه قربُ المصطفى ووقاؤه

إن يسّق المجدَ العريق فسيّدٌ
بنت المكارمَ والعلا آباؤه

ولقد بنى «عبدُ العزيز» مؤثّلاً
في المُلك تم جلالُه وروُاؤه

ملكٌ يغار على الحنيفة قلبُه
في العاملين قليلةٌ نظراؤه

من شعلة الإيمان أضرمَ عزمه
ومن السداد تحوّرت آراؤه

هو حارس الحرمين كم بهر النهى
إقدامه، وسق السيوف مضاؤه

كالليث لم يوغ عليه عرينُه
لمهابة، أو روّعت صحراؤه

* * *

يوم اللقاء الجامس على المدى   عال محيّاه، سنيّة أضواؤه

الروضُ فيه تضاحكت أزهاره
والقصرُ فيه تجاوبت أنحاؤه

والجامعية أرسلت أبناءها   يستبشرون، كأنهم أبناؤه

مرح ستكسبه التجاربُ حنكةً
وصبىً ستُعرف في غد أنباؤه

وحقول مزهيات طلابها   كالنبت قوم نضرة علماؤه

يبنون للشرق الجديد ومجده   فالشرق يُرجى بينهم بنّاؤه

هذا نشيدي أمس في أشباله   ما زال من وتر الفؤاد غناؤه!

* * *

يا سيّدي هذا الزمان، فلو تما
وكلاكما فوق الشموس علاؤه

وسلما حتى يرى شعبا كما   أملا دراري النيرات كفاؤه

وبنيتما للشرق بإذخ نهضة   لم ينتهيا في أمسه حلفاؤه

فخسنا بإضمار للأوج سامق   دفما ترسم نهجه زعماؤه

الشرقُ إن لم تنصراه بقوة
متخاذلُ الخطوات قلّ رجاؤه

والدينُ إن لم تأخذا بيمينه
متثاقلُ الصلوات مات دعاؤه

والله لا يرضى لدين محمد   في الأرض إلا أن يعز لواؤه!

فتعهّداه بنهضة روحيّة   يبقى سناها خالداً وسناؤه

عامر محمد بحيري

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٢٦٩
القاهرة

(٤) الأشعار الأندلسية

وأثرها في الأشعار الأوربية

رأى المدرسة الأسبانية

ثم يمضى ريبرا في المقارنة بين الأشعار الأندلسية الأسطورية والأشعار الفرنسية خطوة أخرى، فيلاحظ أن إحدى الأساطير البروفانسية تزعم أن شرلمان طرد مرة من ملكه في فرنسا، فذهب يلتمس العيش في بلاط أحد الأمراء المسلمين في أسبانيا وتزوج أخته، وأن ملك المسلمين الذي يظهر في ملحمة رولان هو على التحديد صاحب سرقسطة الذي يظهر في قصة إزراق، وأن «مُمت» أو «مُنتيل» الذي تراه في قصة إزراق، تراه في الملاحم الخاصة بشرلمان تحت اسم أومنت Omont Aumont وألمنت Olmont. ويلاحظ كذلك أن كثيراً من مؤرخي الأدب الفرنسي يذهبون إلى أن الأساطير الفرنسية كتبت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، أي في عنفوان عصر انتقال عناصر الحضارة الإسلامية من إسبانيا إلى أوربا.

وكان منندث بيدال قبل ظهور أبحاث ريبرا يقول: «عبثاً نحاول أن نجد في أشعار الملاحم القشتالية آثاراً عربية» فاكتفى ريبرا بتنبيهه إلى أن ألفاظاً متواردة في هذه الملاحم كالغارة algara والدليل adalide والقاضي alcalde والنفر almofar والطلائع atalaya وغيرها كثير يثبت أثر المسلمين ونفوذهم في صميم هذه الملاحم، وأن الملك يختص نفسه بخمس الغنائم في هذه الأساطير، وهذه قاعدة شرعية إسلامية، ولفت نظره كذلك إلى تحجب كثير من النساء فيها، ولم يزل يناقش العالم الفيلولوجي الكبير حتى جعله يقول: «لا بد من الوصول إلى الأشعار القصصية الأندلسية (يسميها الموريسكية)، والأشعار القصصية التي ظهرت في نواحي الحدود الشمالية حتى نعثر على هذه التأثيرات الإسلامية التي يشير إليها ريبرا في الشعر القصصي القشتالي».

ويقول جُنثالث بالنثيا مزيداً في إيضاح نظرية أستاذه ريبرا «لا يمكن إنكار الأثر الإسلامي بأية حال: فإذا كان الناس لا ينازعون في أنه قد وجدت — وقتاً ما — أشعار جرمانية استعملها القوط الغربيون، فإن وجود أشعار أسطورية بين المسلمين الأسبان أمر أكثر احتمالاً؛ وإذا كانت أوصاف المجتمع التي ترد في القصائد القشتالية تتفق مع أوصاف المجتمع الجرماني كما يصفها تاسيتوس، فإن وجود ملامح عربية في هذه الأشعار أمر لا يقل احتمالاً عن وجود الملامح الجرمانية. فالكرم، ووجود نظام «الولاء» في الجيوش، وروح الانتقام، ودفع دية المقتول، وشعور الشرف المرهف، كل هذه صفات أصيلة في الخلق العربي. ولنضف إلى ذلك أن «السيد» عاش مع بعض ملوك الطوائف المسلمين (حتى اسمه، هو ترجمة لفظ العربي سيدى)، مما جعله يعامل المسلمين المنهزمين بكرم ظاهر كما يقرر بيدال نفسه، ثم إن قصيدة السيد نشأت ونمت في مناطق الحدود الشمالية، كل هذا يجعلنا لا نستغرب وجود آثار إسلامية. فهل من المعقول أن الأثر الإسلامي في الأدب الأسباني يبدأ فقط في القرن الخامس عشر بظهور ما بين أيدينا من الأشعار الموريسكية الشمالية مع أن المسلمين وجدوا على هذه الحدود نفسها قروناً طويلة قبل ذلك؟».

ومهما يكن من الأمر — يقول جنثالث بالنثيا مستطرداً — فإن الشعر الأسطوري القشتالي لا بد أن يكون قد قلد نموذجاً جرمانياً أو نموذجاً إسلامياً أندلسياً، فأما النموذج

الجرماني قديم جداً ، ثم إنه وصل أسبانيا معدلاً بتأثيرات رومانية حدثت على مر قرون طويلة ، وأما النموذج الإسلامي الأندلسي فقريب مرتبط بالشعر الأسباني برابطتي الزمان والمكان .

— ٣ —

ثم التفت ريبرا بعد ذلك إلى الأزجال الأندلسية ملتمساً فيها بعض البرهان على ما يقول ، وله في هذا الميدان آراء لطيفة لا بأس من تلخيصها ، وربما لم يجد القارئ المختص بالدراسات الأندلسية الآن في هذه الآراء كثيراً من الجديد ، ولكنه ينبغي أن يذكر أن ريبرا وصل إلى هذه الآراء سنة ١٩١٢ ، أي في زمن كانت معلوماتنا من الأدب الأندلسي الشعبي لا تعدو بضع إشارات من دوزي : قبل أن يطلع ريبرا على كلام أبي الحسن بن بسام عن مُقَدَّم القبري وأصل الأزجال قال في بحث له سنة ١٩١٢ إنه لا يشك في أنه قد وجد عند الأندلسيين نوع من الشعر الشعبي ، وأن هذا الشعر الشعبي هو المفتاح الذي نصل به إلى كشف كثير من النواحي المغلقة في حياة الأندلسيين وفنونهم ؛ وبعد ثلاث سنوات أي في سنة ١٩١٥ عثر على الفقرة الهامة من « الذخيرة » التي يقول ابن بسّام فيها إن أول من نظم الموشحات في القطر الأندلسي هو مُقَدَّم القبري الضرير ، وأنه كان ينظمها من أبيات قصار ، وأن معظم منظوماته من هذا الطراز لم يراع فيها دقة النظم ، وأنه كان يستعمل في نظمه ألفاظاً وعبارات مما يستعمله العوام : فكان يأتي بعبارة عامية ويجعلها مطلعاً لمقطوعته ؛ ثم ينسج على منوالها فقرتين صغيرتين ، من غير مراعاة كبيرة للقافية ثم يؤلف بيتين بالعامية على وزن وقافية جديدة يتبعهما بثلاث فقرات مماثلة للأولى في الوزن والقافية ، وعلى هذا المنوال يمضي في صياغة موشحته العامية .

وجاء بعد مقدم سعيدُ بن عبد ربه ابن عم الشاعر المعروف فوضع أزجالا بالعامية الصرفة وتلاه الرّمادي فجوّد هذا النوع الشعري ، ونسج على منواله كثيرون ؛ ثم جاء أبو عثمان بن سعيد الحوت ، وأخذ يقلد القطعات الشرقية المعروفة بالجالي ، وارتفعت قيمة هذا النوع الشعري الشعبي حتى إن ابن هانئ نفسه وضع موشحات ، ولكن الظاهر أن الموشحات كانت أسعد حظاً عند الشعراء ، فلم يخل واحد منهم في القرن الخامس من نظمها والتبريز فيها ، حتى إننا نجد ابن اللبانة يمدح الرشيد بن المعتمد صاحب إشبيلية في موشحة لطيفة ، وأبا بكر شاعر المأمون صاحب طليطلة يبرع في نظم الموشحات وتذيع منظوماته على كل لسان في الأندلس ، وكذلك يغني أبو عبادة محمد بن عبادة بفضل بني صمادح أصحاب المرية في موشحات رائقة .

لم يلبث هذا النوع من الشعر الموشح ومن الزجل أن شاع بين أهل الأندلس شيوعاً عظيما ، وجد العوام في الزجل مطلبهم من الشعر ، فنبغ منهم كثيرون أخذوا يجولون البلاد جماعات يغنون بأشعارهم ، وسماهم الناس « الأصحاب » وقد وصف المقري لنا هؤلاء الأصحاب بأنهم جماعات من الناس يميلون إلى اللهو والغناء والطرب ، يبرعون في النكات والفكاهات ، ويطوفون على الناس بأزجال فيها كثير من الفحش والمجون .

نبغ في هذا الفن الزجلي كثيرون منهم ابن بقي الأبيض وأبو القاسم الحضري ، وأبو بقي وهو زجل اشتهر بمجونه ، ولم يقتصر الزجل على هذا الشعر الفاحش الماجن ، بل شارك فيه كثيرون من أهل الوقار بأزجال لطيفة . وليس لدينا لسوء الحظ من هذا الإنتاج الزجلي الوافر إلا فقرات صغيرة وجزء كبير من ديوان زعيم الزجالين الأندلسيين أبي بكر بن قزمان الشاب ، وسنخصه بالحديث التالي .

(للحديث بقية)

حسين مؤنس

من صور الماضي :

الشيخ مرسي

أو عجيبة القرن العشرين

عملاق مكفوف البصر عريض المنكبين مفتول الذراعين قوي السواعد والبناء شرس الأخلاق ، تروع جهامته الأقوياء الأشداء رهبته وذيوع صيته في كافة أنحاء القاهرة ، فهو أشهر من الأشهر الحرام لمكانه المعروف في العنف وسرعة الغضب — تعرفه وزارة الداخلية كما تعرفه الحكمدارية والمحافظة والبوليس وهو من نزلاء السجون الدائمين .

هبط من بعض قرى الأرياف حوالي سنة ١٩١٩ إبان النهضة الوطنية يرتدي جلباباً أبيض وعمامة مفتولة كالحبل على ضخامتها ، ويلبس حذاء بلديا — بلغة — ويحمل في يده عصا غليظة — عكازة — من خشب الشوم وفي نهايتها وقاية من الحديد بداخلها ما يزيد على رطل من الرصاص المصبوب — وقد ربطها عند قبضته بحبل متين حذر أن يجتذبها من يده خصومه في مواقف الغضب والشجار .

ويحمل على كتفه زكيبة تلازمه مع العكازة ملازمة الظل للشبح والعرض للجوهر والاسم للمسمى . وإنما دعي الشيخ لأنه ضرير معمم فأدخل في زمرة الشيوخ ، وهو كما عرفناه لا يجيد حفظ الفاتحة بل كان يتلوها على لحن وسوء أداء مضافاً إليها فاتحة أخرى من تأليفه .

كان إذا غضب يوقظ عكازته بضربات أولية على الأرض بمثابة التنبيه ثم يدور بها يمنة ويسرة في سرعة فائقة ويقظة عجيبة كأنما هو يحذر النواحي المفتوحة لخصومه فيسد الفجوة التي يتوقع البادئة منها ، ثم تقع الإصابة في الغالب على الأبرياء من المارة رجالا ونساء فإذا ألم جندي البوليس يقف ضمن شهود المركة ينتظر الإمداد والنجدة حتى إذا وافته القوة الكافية أحاطوا به وانتزعوا عكازته من يده وتضامنوا فوضعوه فوق سيارة نقل وربطوه ، وبهذه الصورة وحدها يتيسر اللفي به للقسم ، وهي طريقة متبعة متفق عليها في عامة الأقسام والمخافر .

كان يغشى المطاعم والوكالات فإن جلس على أحد المقاعد استولى على ما يجاوره منها بوضع أمتعته عليها . ويتحاماه زوار المكان فيطلب ألواناً تتخم أربعة من ذوي البطون الخاوية ، فيأتي على آخر ما يجاء له به ثم ينهض فيغسل يديه ويستولي على الصابونة والفوطة ويمضي ، فإن طولب ردهما والوفاء بثمن ما أكله استعمل عكازته ، فما هي إلا بضع دقائق حتى يدع المكان أكواماً مبعثرة ، ويبصر الجلوس من الزبائن حيرى لا يجدون مخبأ يلوذون به ، وعند فقدان الحيلة يحملون المقاعد والمناضد كالمظلات الواقية فوق رؤوسهم إلى انتهاء المعركة ، وهكذا كان شأنه ، له في كل شارع صولة وفي كل جهة جولة في أحياء العاصمة وضواحيها ، فعرفه الجمهور وجعلوا له شبه أتاوة من ضرائب يتقاضاها في شتى الطرق والمسالك إن لم تكن من النقود فهي من تجارة المحل أيا كان نوعها يدخلها ضمن ضيوف الزكيبة ، وهي مجموعة لم تظفر بها حقيبة في العالم تلتقي فيها الأضداد وتجتمع المتناقضات ، فهو بينا يدخل بها فطيرة أخذها من حانوت يضع فوقها قسبخة من آخر ثم تسقية من السمط وضريبة من الكشري وشيء من الحلوى والجبن وقطعة من الباذنجان المقلي ومثلها من الطعمية وكيس من الملح الناعم وبعض من السكر وهكذا . ثم هو لا يضن على الزكيبة بمركوب قديم أهدى إليه من أحد شيوخ الأزهر ، وهكذا حتى تمضي سحابة اليوم فتكون متخومة بالأضداد يعيش في جوانبها مخلوقات من الذباب والصراصير وما إليها من أنواع الهوام .

والشيخ مرسي أن يفرض نفسه كمشترك في جميع

خطوط الترام والسيارات بعربزانه البارزة فيمتي من أثمان التذاكر بلا قيد ولا شرط . ثم هو يذهب للولائم والحفلات والأفراح بدعوة من عنده ، فإن مدت الموائد نهض مع الطاعمين وجلس معهم يحييهم كبعض أصحاب الدار ، فيأخذ نصيبه أضعافاً بالنسبة لغيره ، فأما إن رفضت دعوته لنفسه واندماجه مع المدعوين كان تكدير الصفاء وحدوث ما تخشى عواقبه أمراً لا سبيل مطلقاً إلى تفاديه .

ومر ذات ليلة بجهة الحنفي فسمع صوت قارئ وعلم أنه مأتم لأحد الأعيان ، فدخل وأسكت القارئ ووقف يقرأ الفاتحة بصوت جهير على روح المرحوم ثم أخذ يطالب بأجر الفاتحة فخرج بمبلغ خمسة قروش أثابه على قراءتها .

وذهب ذات يوم إلى المحكمة لتأدية شهادته على لص اتهم بسرقة كوتش عجلات سيارة وأقسم أنه رآه حال ارتكاب جريمته ، غير أن المحكمة لم تأخذ بقوله فوقف يحتج على الاستخفاف به فيما جاء لتقريره .

وكان ينتقد النظم والقوانين ويود لو أسعده الحظ بانتخابه لمجلس النواب فيضع تشريعاً جديداً للأمة يكفل لها السعادة والأمن والرخاء .

ظل هكذا على شهرته بالعنت والتجبر يطلب رزقه عن طريق العتو والإرهاب إلى أن دب الوهن في أوصاله فوهنت أعصابه وخارت قواه وبدأ يترنح في مشيته كالثمل النشوان ، لكنه بقي على مظهره الأول حتى لا يشعر الجمهور بضعفه وتخاذله ، فنظمت له كلمة دعابة في لغة شعبية وإليك بعض أبياتها :

كنت أشجع من أسد   صرت أجبن من نعامه

* * *

نعمل إيه في كبر سنك   في نفور الشعب منك
كل واحد راح يرنك   أزق والناس في كمد
وانت مشهور بالتلامه   صرت أجبن من نعامه

* * *

الـــترمواى تركبه   والى يمنع تضربه
يسحبك أو تسحبه   شيخ وفي شكل الوتد
عمره لم يخشى الملامه   صرت أجبن من نعامه

* * *

شعب زى البحر مايج   وانت زى القرد هايج
والمناكمه سوقها رايج   يبقى فوق راسك عدد
وانت أشهر من سلامه   صرت أجبن من نعامه

* * *

الحياة في الناس وديعه   وانت خالفت الشريعه
والبلاده فيك طبيعه   اقصد الفرد الصمد
قبل ما تشوف القيامه   صرت أجبن من نعامه

* * *

وما كادت تنشر كلمتي في مجلة النيل حتى قرأها له بعض قراء المجلة بالحسين فاهتاجت كوامن غضبه وعدها فاتحة عهد جديد يحفز الناس للعبث به ويفقده رهبته في النفوس فوقف ينادي بالويل والثبور لا لصاحب الكلمة فحسب بل المجلة ومن يتصل بها واشتغل بالبحث عن مسكني دائبا ويتفقد النواحي التي أتردد عليها أياماً متعاقبة إلى أن توسط بعض أهل الحي الحسيني في الصلح معه على شريطة أن أكذب نفسي فيما قلت عنه في نفس المجلة وأن أدفع له في أول كل شهر عشرة قروش ترضية له واعترافاً بقوته وشدة بطشه فدفعتها مرة واحدة ولم أعلن اعتذاري له ، وأجهده البحث عني فلم يوفق لمكاني إلى أن هاجمته الشيخوخة وتجهمت له الحياة ، فكنا نجمع له المؤونة عن طيب خاطر ، ولكن أمسى المسكين هدفاً لعبث العابثين وسخرية الناقمين ، فآثر التعاون على إدخاله ملجأ العجزة حيث قضى أيامه الأخيرة بعيداً عن شماتة الجمهور ومجون الشباب ، ولم نقف على شيء من أخباره بعد . هل كان التركيبة والمكازة ورثة وأعقاب بعده أو أضيفت مخلفاته لمتحف الآثار وصحف الأخبار .

حسين مظلوم رياض

العظمة ...

ما دامت العظمة تعلو على قدرنا ، كما يقول « مونتانى » فلننتقم منها بالحط من قدرها والتقليل من شأنها .

و « مونتانى » قد قال هذا القول وهو بالطبع يمزح . وإنى لأعرف كثيراً من الناس ومنهم من سوف يشفق على ، ومنهم من سوف يهزأ بى ، لمحاولتى خوض لجة هذا الموضوع الخطير .

وإنى لأحمد الله ، والرضا يملأ نفسى ، على أنه — سبحانه — قد خلقنى كما أنا .

وإنى لأعترف أنى أحب التواضع فى كل الأمور . فأنا أرضى بضيعة صغيرة تدر علىّ الخير القليل .

وأنا أرضى ببيت صغير يؤوينى . وأنا أرضى بأصحاب قليل عددهم . وأنا أرضى عادية غاية فى البساطة .

وإذا قدر لى أن أقع فى شرك الحب مرة أخرى فسوف أختار صاحبتى من صاحبات الملامح الحسنة والهيئة الظريفة لا من بين الساحرات الفاتنات اللائى يسميهن هومير بنات عبقر ...

ومن الناس من يأبى إلا أن يمشى فى الأرض مرحاً يختال فى ردبه وملء إهابه الكبر .

وإذا تكلم لوى شدقه للتفصح . وهو فى اختيار خدمه لا ينتقى إلا من لهم جثث ضخام .

وهو فى انتقاء أدوات المائدة لا يختار إلا الصحاف التى جاوزت المدى فى الاتساع .

وإذا مشى إلى جانب رجل طويل مط عضلاته وارتفع بقدميه حتى يبزه طولا ليكون — فى نظر نفسه — رجلا عالى الكعب عالى القدر ...

هذا ما وصف به سنيكا (أحد بلغاء الأدباء الرومانيين وقد توفى عام ٣٩ بعد الميلاد) هذا الصنف من الناس المولعين بالعظمة الخادعة الكاذبة .

هذا الصنف من الناس — على ضؤولة جهده وفقر وسائله — لا يرضى بما دون النجوم مقاماً ومستقراً ، وهو يقول لنفسه : — إذا أنا بلغت مكان كذا . إنى لسعيد . حتى إذا بلغ ذلك المكان طمحت به نفسه فطلب المزيد ، فإذا بلغ القمة كان عرضة للسقوط من أعلى الجبل .

ولكنه — كما تقول الأسطورة — لن يستطيع أن يظفر بالطمأنينة ومكانها فوق مكان القمر — كما تقول الأسطورة أيضاً .

وقد قيل إن الروّاد الأولين من الناس قد أرادوا — فى محاولة ملؤها الشجاعة والجرأة — أن يقيسوا السماء ، وظنوا أن الوسيلة لبلوغ ذلك أن يركبوا الجبال فوق بعضها ، فلما بلغ ما ركبوه جبالا ثلاثة قدروا أن لم يبق إلا جبلان أو ثلاثة ، ثم برق البرق وقصف الرعد فدك الجبال دكا . وباء أصحابنا بالخيبة الكبرى .

(وبعد) فإن العظمة كائنة ما كانت ليست لها حقيقة وجودية . إنما هى من نسج الخيال ، وهى مسألة نسبية لا يمكن أن تقاس إلا بطريق المقارنة .

فأنت ترى أن ليس هناك وقت للصبح ، ووقت للظهيرة ، ووقت للغروب . إلا بالقياس إلى بعض البلاد وليس بالقياس إلى جميع البلاد .

فكل شئ تافه وحقير ، وكل شئ عظيم وجليل . بالقياس إلى شئ يقارن به ويقاس عليه .

فهناك قرية فى الهند أو فى الصين قد أكون فيها أنا رجلا عظيما وقد أجد من يحملنى شبيها بقيصر .

ووجه الشبه أنى أصبحت أول رجل فى تلك القرية .

وإنجلترا — مثلا — اسمها بريطانيا العظمى . وقد سميت كذلك بالقياس إلى قسم من العالم . أقل منها مساحة ولكنه يشاركها الاسم .

فإذا قسنا بلاد بريطانيا العظمى ببلاد الصين ضؤلت

مشعل الحب الالهى . . !

هى قصة طريفة حقاً . . حكى فيها كاتبها الإنكليزى من نفسه وعن أخيه . . حكى قصة حياتهما ! فراقنى أنها جمعت إلى جمال العرض روعة المغزى ، وبهرنى أسلوبها الشائق الجذاب ، ومداخلها اللطاف الدقاق ، والصدق الذى يشيع فى ثنايا سطورها فيكسبها حياة ، ويسكب فى حروفها حرارة . !

قال الكاتب : « . . كان جميلا حقاً ذلك البيت الذى نشأت فيه . كان يتوسط مزرعة كبيرة يمتلكها أبى ، فكانت شرائط الحياة الصحية متوافرة فيه . كنا نملك ثروة كبيرة من فيض الطبيعة الدفاق : الشمس الساطعة ، الهواء النقى البليل ، ألحان الطيور الشادية ، لون القراص الأخضر الجميل ، والطلاقة . . الطلاقة والانفساح اللذين يتميز بهما ريف انكلترا العظيم . !

ولكن . . ماذا كانت تجدينا هذه الثروة العظيمة ؟ ! لقد كنا فقراء بنفوسنا . . أو بالأحرى . . كان أبواى كذلك يقولون إن النفس الرحيبة الممتلئة بالحياة هى التى تخلع على الطبيعة أكثر جمالها ؛ وهى مقولة بالغة الصدق ، أحسب أنى جربت صدقها من طريق عكسى . . فقد كانت نفوسنا المقفرة تسلب الطبيعة جمالها وتخلع عنها نضرتها ورواءها . !

أجل . . كانت ظلال نفسى الحزينة تخيل إلىَّ أن كلَّ شىء من حولى يبكى ، ! كنت أستريح إلى الكآبة

وكثيراً ما كنت أنطلق فى الليل البهيم سادراً لا ألوى على شىء ، فأحس وقر الظلمة الرهيبة ، وأستشعر كوابيس أحلام اليقظة المزعجة تخنق روحى ، وكثير فى حينا غريباً إلى الإجهاش بالبكاء المرير ! أما أخى . . فقد شاء قدرٌ رحيمٌ أن ينتزعه من أبويه إلى هذه « الجنة » التى هيَّأها له عمى ! لقد كان يرقب مقدمه . . فلما أهلَّ بطلعته المشرقة ، وصافح أديم وجهه الطرى أولى نسمات الحياة فتح له عمى أبواب جنته ، وقال له : « ادخل . . ادخل ملؤك العزم والطمأنينة . . إنها جنتك الخالدة ! » ولم تكن هذه « الجنة » سوى « قلب » عمى . . . ذلك الملك الكريم الذى عرف الحياة حبًّا خالصاً ، وتجاوب أرواح . . !

كان عمى يطلب الولد ويلح فى طلبه . . ولكن انسلاخ الأعوام كان يضيِّق من فسحة هذا الرجاء شيئاً فشيئاً . . حتى كان ذلك اليوم المشئوم . . يوم أن قبض المزوجته إليه فجأة . . وغدا عمى وحيداً . . !

كان يحبها . . بل كان يعبدها ، فآلى على نفسه ليمكثن فى جوارها بقية حياته . لم يكن يعتقد أنها ماتت ، وإن كان سلَّم أنها ماتت بالجسد . وكثيراً ما كان يتضوأ محياه بلمحة قدسية كنت أحار فى اكتناهها ، ثم لا يلبث أن يقول فى صوت متهدج النبرات : « إنى أحبها وإياها . . إنى أراها . إن الأرواح لا تفنى أبداً ولا تموت ! »

ولما أنجب أبى ولده الثانى — أخى — انطلق الحبيس من أشجان عمى ، وكانت له عند أبى رجاوة : أن يضم أخى إليه ؛ فأبى والدى — إزاء إصراره ولثيته — أن ينجمه فى أخريات أيامه ، وتطيب خاطره ، قائلا : « إنه ولدك منذ الساعة . . خذه إليك يا صاحبى ! » .

وانتقل الوليد الصغير إلى « جنته » . . كانت « قلب » عمى .

مبارك ابراهيم

ربطانيا العظمى وتوارت فى الحجاب .

وبلاد الصين قسم صغير جداً من الأرض إذا قيست بمساحة الأرض كلها .

وعالم الأرض صغير جداً إذا قيس إلى العوالم الأخرى التى لا عدد لها ولا حصر .

(من الإنجليزية)

ومنذ ذلك اليوم و تَقَطَّعَتْ بيني وبين أمي وشائج الاتصال ! .

• • •

كانت أمي عصبية المزاج .. تمثل « المرأة » في تقلبها وعنادها ولجاجتها ، وكان بها دائماً شعور الطائر الذبيح قلق دائم ، واضطراب ، وإجفال لا يُدْرَك لهما نهاية ! وكانت تجمع في أخلاقها النقائض كلها ؛ فهي تارة شرسة جموح ، تهدر بالوعيد ، وتنذر بالويل ، وتقذف بالحمم ؛ وأخرى لينة عطوف ، في هدوء الحمل الوديع ، تسرف في بذل حنانها وحدبها ، وتغالي في البذل ! .

وهي حيناً باكية ، وأحياناً متباكية ، وتراها ضاحكة شادية في أقل الأحايين ! أما أبي .. فقد كان رجلا مريضاً بالعقل وبالجسد وبالروح ! أحب في حداثته .. عشق في صباه .. لجج في أكثر من امرأة أكثر من مرة .. لج في اللهو وغرق فيه إلى أذنيه ! عرف الليالي الحمراء ، وزامل بنات الهوى الرخيص وأبناء الطرقات ! نالت حياته العابثة المستهترة من عقله ومن كيانه ومن روحه .. أهدرت في نفسه كلَّ تقدير للقيم .. أفقدته اتزان الرجولة ورجحان العقل .. سلبته راحة البال .. شبَّتْ نارها في أغوار ضميره وصيرته عبداً للهواجس والأوهام والأضاليل .. جنحت به إلى نزوات الاستبداد والجور والأخذ بالثأر ، فصار لا يغضى من هفوة .. ولا يفلت فريسة ، ولا يرضى أن يسكت على ضيم . !

... ولم نكن أغنياء .. كما أننا أيضاً لم نكن بالفقراء .. كنا في حال وسط بين الشدة والرخاء ، وكنا نستطيع أن نحيا وأن نتنفس سعداء ، لولا أن نفوسنا كليلة مرضى شوهاء ! .

وهكذا سلخت حياتي جلها ضحية هذين الوالدين . لم أعرف قط طعم الهناءة .. لم أذق أبداً لذاذات العيش .. لم أجد فرداً يحنو علي .. لم أجد صدراً يضمني إليه .. لم أر قلباً يخفق من أجلي .. لم أجد نفساً سليمة تحاوبني أحاسيسي العالية الرفيعة ! كنت أكبت مشاعري في أغوار نفسي . كنت أطوي صدري على ثورة عاتية تضج في مسارب كياني .. كنت أحيا على مثل الجمر المتقد يفري مهجتي ويقرض أعصابي ! .

• • •

وشب أخي .. فعرف الحب ... وشدا أغاريد الحياة العذبة .. غمرته أضواء الروح ، فاستشعر اضطرام النفس بفرائد الأحاسيس .. ذاق حلاوة الفيض الإلهي ، واغترف من ينابيعه الثرة ... أمده حبه بصوفية حبيبة مهدت له أسباب الاتصال بالروح الأعلى ، فاستقامت فطرته واعتدل زمامه وصار في الحياة رجلا كريماً . !

... لقيني ذات يوم .. فانفتح له قلبي ، وسالت من أجل فرحتي برؤيته عبراتي ! عرف همومي .. وغاص إلى ندوبي وجراحاتي ، فحاول — جاهدا — أن يقوم انحراف نفسي ويعالج فيَّ شذوذي واضطراب أعصابي .. ولكنه حاول عبثا !

كان حريصاً على ألا ينكأ جراحاتي القديمة الغائرة .. ولكن ... هيهات ! .. ثم غاب عني — كالطيف — بضع سنوات .. رحل إلى فرنسا .. كان يراسلني دائماً ويدأب في كل سطر يخطه لي على الكفكفة من تباريح آلامي .. ووردت منه ذات يوم رسالة ألقى إليَّ فيها نبأ زواجه .. ومضى عام .. فتلقيت يذكر أنه قد أنجب غلاماً جميلا .. طفلا يمثل في غرارته طهرَ حواري الجنة !

• • •

وهذا هو « جو » الصغير الآن إلى جانبي يداعب كلبه المزز ، ويبث أنغام الهناءة في بيتي المنعزل التعس ، بعد أن غيب القبر أبويه إثر حادثة — لا أريد أن أطيل الوقوف عند ذكراها الرهيبة ! — ذهبا ضحيتها ، وأبقيا لي « جو » رمزاً للحب .. عنواناً للفيض الإلهي الذي تفجر في قلب

محمد على الكبير

وقراءاته التاريخيـــة

لعل أهم فائدة لعلم التاريخ أنه صورة ودراسة لتجارب الإنسان فى عصوره الماضية ، لهذا عرف عن كبار الملوك والأمراء والقادة شغفهم بقراءة التاريخ ، وخاصة تاريخ أمثالهم السابقين ، والأمثلة كثيرة لا تعوز الباحث .

وسنتخير منها اليوم شخصية محمد على الكبير ، ومدى اهتمامه بقراءة التاريخ ، لنحاول إحصاء الكتب التى قرأها ونبين نوعها ، فقد يكون لهذا البحث فائدته لمن يحاول دراسة شخصية هذا الناهض العظيم ومقوماتها الثقافية .

فما لا شك فيه أن للكتب التى يقرأها أى إنسان أثراً قويا فى تكوين شخصيته ، وتوجيه حياته ، وتكييف أعماله لا يقل عن أثر البيت أو المدرسة ، أو البيئة أو الأصدقاء . . . الخ .

عنى ، وتسرب إلى جوانح أخى ، ومس قلبى منه رشاش رقيق !

وإنى لأحاول الساعة أن أبذل له حنان أبويه العظيمين مجتمعين . . عن أبيه وأمه — وأحس فى ملازمته فرحة . . افتقدتها طوال حياتى الماضية ، وأستشعر قوة ما شعرت بها يوماً قط . . ذلك أنى أعلم الساعة علم اليقين أن مشعل الحب الإلهى قد انتقل إلى يدى وجعل الرب الإله منى أميناً عليه !

ذلك الشعل الذى سلمه عمى إلى أخى ، فاستلمته من أخى بدورى ، وسأظل حفيظاً عليه . . حتى يجئ ذلك اليوم الذى يتلقاه منى فيه « جو » الصغير ليلقن النفوس البريئة الطاهرة — على وهيج شعلته المضيئة — أسمى دروس المحبة وأرق أنغام الصفاء . . !

(مصر الجديدة) عبد العزيز الكرداني

تُمثل محمد على بعلم التاريخ عناية كبيرة . فقد كان يرى نفسه — وهو منشئ دولة جديدة ، وصاحب سياسة إصلاحية جديدة — فى حاجة إلى أن يقرأ ويدرس تراجم أمثاله من القواد والملوك والمصلحين ليفيد من خبراتهم ، ويتجنب أخطاءهم . وإنا لنرى أنه أفاد من هذه القراءة حقا ، وهذا هو الفارق الكبير بينه وبين القائد العظيم نابليون ؛ كلاهما من أبناء عصر واحد ، ومن غمار الشعب ، وصلا إلى العرش بجهودهما — وخاصة الجهود الحربية — ولكل منهما تاريخ مجيد فى الإصلاح الداخلى ، غير أن نابليون لم يقدر قيمة القوة التى وقفت فى سبيله ، فلم يعترف بالهزيمة ، فقضت هذه القوة عليه وعلى ملكه . أما محمد على فقد ناضل حتى أيقن أن لا فائدة من النضال ، فخضع مكرهاً ، وقنع بولاية مصر مضطرا ، وبهذا احتفظ لنفسه ولأسرته بالملك .

يقول رفاعة بك الطهطاوى فى كتابه « مناهج الألباب » : إن محمد على (تعلم القراءة والكتابة فى أقرب وقت ، وعمره خمس وأربعون سنة إذ ذاك ، جبراً لما فاته فى زمن الصغر وتداركاً لما يزيد فى مجده فى زمن الكبر ، فرغب فى مطالعة التواريخ ، ولا سيما تواريخ الفاتحين : كتاريخ اسكندر الأكبر المقدونى ، وتاريخ بطرس الأكبر إمبراطور الروس — أى الموسكو — ، وتاريخ نابليون الأكبر ، وغير ذلك من التواريخ المترجمة إلى التركية ، مع المواظبة على الاطلاع على ما فى الكازيطات الافرنجية التى كانت تترجم له ، وكان صاحب فراسة ، إذا تكلم أمامه أحد بلغة أجنبية فهم من النظر إلى حركاته وإشاراته مقصده ، يستشير العقلاء والعلماء فى جل أموره . . .)

ويبدو أنه كان أكثر شغفا بتاريخ الاسكندر وقراءته يقول رفاعة بك فى نفس المرجع : (ولما كان محمد على يحس من نفسه بأن عزماته اسكندرية ، كان متولعا بقراءة تاريخ اسكندر ، ومنكبا عليه ؛ وشبيه الشئ — كما يقال —

منجذب اليه ، وفى الحقيقة كان بينهما من جميل الصفات والشمائل ما شهدت به الشواهد ، ودلت عليه الدلائل) .

قال محمد على للدكتور بورنج (Bowring) فى حديث له : (لقد أخبرنى الكولونيل دوهامل (C. Duhamel) أننى أصبح رجلا عظيما إذا قرأت التاريخ ، وألممت بالألفاظ اللطيفة التى يمكن أن أعثر عليها فى الكتب ، ولكننى الآن لست رجل ألفاظ ، بل رجل أعمال . . .) . ثم عاد فقال فى نفس الحديث : (لقد نصحنى الكولونيل أن أدرس التاريخ لأتعلم فن الحكم ، ولكننى وصلت سناً لا تسمح لى بدراسة التاريخ ؛ لقد كتب إلىّ ولدى يطلب تعليماتى عند ما أحاطت به الصعاب ، غير أننى رأيت أن خير تعليماتى هى أن أذهب بنفسى ، وقد سافرت إلى يافا ، وأخضعت الفتنة حالا ، وهذا هو الحكم العملى) .

هذه هى خطة محمد على فى الحكم : العمل لا الكلام ، غير أن تاريخه ينبئنا بأنه لم يهمل هذه النصيحة ، بل لقد أقبل على كتب التاريخ والتراجم ونظم الحكم بوازع أول من نفسه ، ووازع ثان من هذه النصائح .

ولما كانت الكتب العربية خالية من الحديث عن تاريخ الدول الأوروبية التى يحاول أن ينهج نهجها فى الإصلاح ، ومن الحديث عن قواد وملوك الغرب الذين يحاول أن يترسم خطاهم ، فقد أمر بأن تترجم له الكتب التاريخية من اللغات العربية والإيطالية والفرنسية إلى لغته الأصلية التركية — أو إلى اللغة العربية — ، فترجمت له كتب فى سيرة النبى محمد ، وفى تاريخ الاسكندر ونابليون وكاترين ملكة الروسيا ، وترجم له تاريخ إيطاليا ، وتاريخ فرنسا ، . الخ . . الخ .

وفيما يلى بيان تفصيلى بما ترجم له من هذه الكتب ، وقد ترجمها جميعاً موظفون يجيدون الفرنسية — أو الايطالية والتركية ، وهم مجموعة عجيبة ، فيهم السورى ، واليونانى ، والتركى ، وبعض هذه الكتب قد طبع — إما فى مطبعة بولاق فى القاهرة ، وإما فى مطبعة سراى رأس التين باسكندرية — ، والبعض الآخر لا يزال مخطوطا ينتظر من يعنى بنشره ودراسته :

١ — ترجمة « مظهر التقديس بخروج الفرنسيس » تأليف المؤرخ المصرى الكبير ، الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ترجمه من العربية إلى التركية السيد أحمد عاصم افندى ، وفرغ من ترجمته فى غرة ربيع الأول ١٢٢٥ (٦ ابريل ١٨١٠ ، ولا يزال هذا الكتاب (الأصل العربى والترجمة التركية) مخطوطا فى دار الكتب الملكية بالقاهرة ، تحت رقم ٨٨٥٤ .

٢ — « الأمير فى علم التاريخ والسياسة والتدبير » ، تأليف « مكيافلى » ، ترجمه من الايطالية إلى العربية الأب رفاييل أنطون زاخور راهبة ، ولا تزال نسخته المخطوطة — بخط المترجم[1] — محفوظة فى دار الكتب الملكية ، تحت رقم ٤٣٥ تاريخ وقد أمر محمد على كذلك أن تترجم له مقدمة ابن خلدون إلى اللغة التركية ليقارن بينها وبين كتاب الأمير ، وله رأى طريف فى تفضيل « المقدمة » على « الأمير » .

٣ — « التلخيصات المتعلقة بتدبير أمور سلطنة الدولة العثمانية » ، تأليف « الأمير قوجه مصطفى بك الكوجه لى » — قائد بغداد ومن أصحاب السلطان مراد خان الرابع — ، ألفها وقدمها له حين وقع الاختلال وظهرت القلق فى أوائل سلطنته ؛ ترجمه إلى اللغة العربية عبد الله افندى عزيز بن خليل — الكاتب والمترجم بديوان الخديو باسكندرية — وكتب له مقدمة فى صورة « عرض حال » ، ورفعها إلى محمد على باشا ؛ أتم ترجمته فى سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ ـ ١٨٢٦) ، ولا يزال هذا

(١) فصلت الكلام عن هذه الترجمة وعن المترجم وجهوده فى كتابى الذى لم يطبع بعد عن « تاريخ الترجمة فى عصر محمد على » .

الكتاب مخطوطا — ومعه الأصل التركى — فى دار الكتب الملكية .

٤ — « قرينه تاريخى » ، تأليف المؤرخ الفرنسى كاستيرا Castera وهو كتاب فى تاريخ الامبراطورة « كاترين الثانية » وبه مقدمة قصيرة من تاريخ الروسيا ، ترجمه من الفرنسية إلى التركية « جاكوفاكى أرجيروبولو » الموظف والمترجم بالديوان الخديوى ، وقد طبع فى بولاق فى جزء واحد ، فى سنة ١٢٤٤ (١٨٢٩) ، ثم أعيدطبعه فى سنة ١٢٤٦ (١٨٣١) تحت عنوان : « ايكنجى قترينه نام روسية ايمپرا توريجه نك تاريخى » ، بعد أن راجعه وصححه سعد الله آمدى افندى .

٥ — « تاريخ نابليون بونابرته » ، وهومذكراته التى كتبها بنفسه حين كان منفيا فى جزيرة « سانت هيلانة » ترجم من الفرنسية إلى التركية ، وطبع فى بولاق فى سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) ، ولم أعثر على اسم مترجمه .

٦ — ترجمه سير الحلبى » وهو ترجمة السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، ترجمها من العربية إلى التركية « سعيد أحمد بك افندى » ، وطبعت فى بولاق فى سنة ١٢٤٨ (١٨٣٨) .

٧ — « ترجمة تاريخ دولة إيطاليا » تأليف المؤرخ الإيطالى « بوتا Botta » ترجمه إلى اللغة التركية عبد الله افندى عزيز بن خليل وحسن افندى ، الكاتبان بالديوان الخديوى ، وطبع فى مطبعة سراى رأس التين باسكندرية سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) .

٨ — « تاريخ نابليون بونابرته » ، تأليف الدوق دى روفيجو Duc de Rovigo ترجمه من الفرنسية إلى التركية المترجمان السابقان — عبد الله افندى وحسن افندى — وطبع فى مطبعة سراى رأس التين باسكندرية فى سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) .

٩ — «سفارت نامه رفاعة بك» ، وهو رحلة رفاعة إلى باريس ، ترجمها إلى التركية — بأمر محمد على — المولى رستم افندى باسم « المرشحالى » بالدائرة السنية الخديوية وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٥ (١٨٤٠) .

١٠ — « شرح قصيدة البردة » ترجمه من العربية إلى التركية احمد افندى مصطفى ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤١ م) .

هذه هى الكتب التاريخية التى ترجمت فى عصر محمد على ، وبأمره ، إلى اللغة التركية ، تبين فى وضوح اتجاهه نحو تثقيف نفسه ثقافة تاريخية واسعة . ونستطيع أن نضيف إليها ما ترجمه[1] خريجو الألسن إلى اللغة العربية من كتب كثيرة فى تاريخ أوربا فى عصورها المختلفة ، وتاريخ فرنسا ، وبطرس الأكبر .. الخ .. الخ ، فما لا شك فيه أن كثيراً من هـذه الكتب قد ترجم إجابة لرغبة محمد على ، وأنها كانت تقرأ له ، أو تعرض عليه فيقرها قبل طبعها .

جمال الدين الشيال

(١) انظر تفصيل الحديث عن هـذه الكتب فى كتابى « رفاعة الطهطاوى » ص ١٠٠ — ١٠٩ .

بين المسموع والمقروء

العلم إلى التوحيد سائر

ولست أقصد بالتوحيد توحيد الله . ولو أني قصدت إلى هذا ما كذبت ، ولا كذّب العلم ، ولكني أقصد بالتوحيد توحيد العالم . وتوحيد الشعوب ، وتقارب الأمم على أي درجة كان هذا التوحيد وهذا التقارب .

وأول ما يتجه الفكر ، إذا ذكر العلم ، وذكر تقارب الشعوب ، يتجه إلى ما صنع العلم لوصل ما بين الأمم ، أرضاً وبحراً وهواء ؛ بالقاطرة ، وبالباخرة ، وبالطائرة ، وأمر هذا معروف مشهور .

ولكن التقرب قد يكون بالأجسام وقد يكون بالنفوس . وقد لا تلتق الأبدان ومع هذا تلتق الأرواح وتلتق الأفكار وتجتمع القلوب .

وقد اقتحم العلم طرقاً أخرى في سبيل التقريب بين شعوب الأرض ، تقريبَ أرواح ، وتقريب أفكار وقلوب . فكان التلغراف فالتليفون السلكي فاللاسلكي .

والتلغراف من مواليد النصف الأول من القرن الماضي ، أي أنه صحب القاطرة البخارية أو كاد في دخولها إلى الدنيا

والتليفون من مواليد النصف الثاني من ذلك القرن ، وعلى الأدق قد ولد عام ١٨٧٦ ، أولدَنا إياه مخترعه اسكندر جراهام بل بالولايات المتحدة . ومعنى هذا أنه لا يزال بين سكان الأرض من هو أكبر من التليفون سناً . ومما يقرأه القارئ، للعبرة في تاريخ التليفون جمود الجمهوري الأمريكي والإنجليزي الذي كان في صدد إنشائه . وعلى الرغم من هذا الجمود فقد أنشأ أصحاب الأموال الذين ظاهروا جراهام بل ، أنشأوا أول سنترال بمدينة نيوهافن New Haven بأمريكا عام ١٨٧٨ ، وكان المشتركون واحداً وعشرين مشتركا . والنجاح يدفع إلى النجاح . فلم يلبث التليفون أن مد شباكه في الولايات كلها ، ومدها بعد ذلك على ما هو معروف في الأمم قاطبة .

وصل العلماء الأرض بالتلغراف ووصلوها بالتلفون . والتلغراف يحتاج إلى أسلاك . والتليفون يحتاج إلى أسلاك ، والأسلاك لا تصل إلا الجامد من الأرض ، فما بال البحار وهي في وصل الأمم أشد خطراً . وبحثوا من مادة عازلة تحفظ على الأسلاك ما يجري فيها من كهرباء وهي في بطن الماء ، ووقعوا عليها فكانت الصمغ الهندي المسمى Guta Percha . وبحثوا من أضيق المياه ذوات الخطر فوقعوا على بوغاز دوفر . ففي مياه هذا البوغاز أرسلوا أول سلك مائي يصل دوفر بانجلترا بكاليه في فرنسا ، وذلك عام ١٨٥٠ . وطيروا الإشارات التلغرافية بين البلدين فطارت . ولكن لم يلبث هذا السلك المائي ، أو هذا الحبل ، أو هذا الكبْل كما يسمونه ، لم يلبث أن انقطع . وانقطع لضعفه ، فانصرفوا إلى تقويته ونجحوا . ثم جلوا هذا النجاح إلى شمال أوربا يصل مضايق الماء بين الدانمارك وبلاد السويد . وجلوه إلى البحر الأبيض المتوسط . وفي عام ١٨٥٧ جلوه إلى المحيطات — جلوه إلى المحيط الأطلسي يصل أوربا بأمريكا . وانقطع الكبل منهم على عمق ألفي قامة ، فما استطاعوا له إصلاحا . ثم عادوا يضمون غيره فخابوا . وبالصبر والمثابرة نجحوا بعد خمسة عشر عاما . وبالعلم وبالفن كثرت الكبلات ، وكثرت الوصلات حتى زاد عدد ما وُصِلَ منها بين شمال أمريكا وأوربا على عشرين كبلا . وزاد ما استقر منها في بحار الدنيا ومحيطاتها على ثلثمائة ألف ميل طولا .

وتقدم العلم فإذا بالأسلاك لا حاجة بالناس إليها لوصل ما بينهم ، وإذا بمركوني في عام ١٩٠١ يقف على جزيرة

نيوفوندلاند Newfoundland بأمريكا فيستمع لأول إشارة تعبر الأطلنطي من Cornwall بإنجلترا أي تعبر ألفاً وثمانمائة ميل (١٨٠٠) في لج البحر وبدون أسلاك .

ومن التلغراف اللاسلكي اشتق العلماء التلفون اللاسلكي أعني أنه بعد أن كانت تنقل بالتلغراف اللاسلكي الإشارات نقلت بالتلفون اللاسلكي الكلمات ، ومن التلفون اللاسلكي اشتقت الاذاعة اللاسلكية ، وكان طلوعها على الناس أول طلوع في عام ١٩٢٠ ، وكان طلوعاً على أمم الأرض بالخير والسعود ، لأن الإذاعة أطول وسيلة ، وأعرض وسيلة ، وأوسع وسيلة ، وأعم وسيلة ابتدعت إلى اليوم ، لا في وصل الشعوب فحسب ، بل للتعريف بها والتقريب بينها ، ووصل الجماهير بالجماهير على رغم الحكومات وعلى رغم السياسات . وهي على الرغم من ذلك رخيصة سهلة . فأنت في منزلك ، في الفراغ ، وعلى الراحة ، تستطيع أن تطّلع على آراء الأمم جميعاً ، وعلى أخبارها ، وعلى أدبها ، وعلى علمها ، وعلى فنها ، وعلى موسيقاها ، وعلى محازنها وأفراحها . فهل من وسيلة تعمل على الرفه ، في تقريب الأمم ، ثم توحيدها ، كهذه الوسيلة .

إن الوحدة العالمية لا تتحقق بتمامها ، ما دام أن لنا ألواناً مختلفة ، وألسنة مختلفة ، وأمزجة مختلفة ، وما دام أن هذا الاختلاف مردّه إلى الأرض التي نرتبط بها ، والأجواء التي نعيش فيها ، وهي جدّ مختلفة ، جد متباينة . ولكني أفهم أن يكون بين الأمم تقارب وتشابه يقترب من الوحدة في جواهر الأمور ، لا سيما تلك الأمور التي ترتبط بسلام الأرض وبهناءة الحياة .

والعلوم والفنون ، مؤتلفين ، صنعا ويصنعان الشيء الكثير في تآلف الأمم . وأول خطوة في التآلف إنما بالطبع هو الوصل والتقارب . والتآلف لا يكون على البعاد وانقطاع الصلات أبداً .

أيها المنكِح الثريا سهيلاً عمرَكَ الله كيف يلتقيان

ووسائل التقريب الجثماني من مواصلات أرض ، ومواصلات ماء ، ومواصلات هواء ، فعل لها العلم الكثير . والتقارب الجثماني مقدمة إلى التفاعل الفكري ، فالتقارب الفكري . ووسائل التقرب الفكري دون التقاء الأجسام فعل لها العلم الكثير أيضاً . ومما صنعه الراديو حمّالاً للأخبار والأفكار .

وكالراديو صنع السينما ، فحملت إلى بقاع الأرض صور الأمم وعاداتها وأساليب معاشها ، وحملت صوراً من فنونهم وعلومهم وأحداث الزمان فيهم . وصارت السينما عادة في الأمم ليس إلى اطراحها من سبيل ، يهرع الناس كل أسبوع إلى دورها ، فيُحمَلُون فيها حملا إلى ديار بعيدة وأمم بعيدة ، ومدن بعيدة وقرى بعيدة ، يقضون في صحبة أهلها الساعتين والثلاث ، يدخلون في بيوتهم ، ويرونهم في مآكلهم ومخادعهم ، ويرونهم في عملهم وفي بطالتهم ، ويرونهم في جدهم وهزلهم ، ويطلعون على مجاري الفكر ومرسومهم ويحسون خلجات قلوبهم . ثم يُنزل الستار ، ستار السينما ، فيعود الناس من تلك الرحلات الطويلة البعيدة إلى مقاعدهم من دور هذه الصور ، دور السينما ، وكأنما صحوا من حلم طويل . والصحو يفتتح باب النقد ، ويفتتح باب التقليد . وما ذكرت النقد إلى جانب التقليد إلا حفظاً للموازنة . لأن الواقع أن الذي يجري أكثره تقليد ، والتقليد هو الخطوة الأولى إلى التوحيد . ذلك أن الأمم التي تصدر عنها كل هذه الأشياء ، أمم أربع أو خمس ، هن مصدر المدنية ومصدر العلم ومصدر الفكر ، وهن متشابهات في العادات ، متجانسات في الثقافات . والأمم التي تستقبل هذه الأشياء ، أمم بادئة ناشئة . والحوض العالي يصب في الحوض الواطي فلا يستطيع لمائه رداً . وهذا الوضع عامل كبير في سبيل الوحدة إذا قدر لها أن تكون ،

وهو عامل قوى لم تستطع أمة كاليابان له دفعاً. فقد رأيناها على الرغم منها تلبس الملابس الغربية، وتتخذ العادات الغربية. حتى أذواق البناء لم يكن لها مندى من اقتباسها فما تكاد تفرق بين مدينة يابانية وأخرى أمريكية.

وحمل الأخبار وحمل الأفكار صنع العلم، وصنعت الصناعة التي هي وليدة العلم، وصنع الفن، أداة النشر المطبعي، تلك أداة الطباعة. وصنع المطابع هائلة الجرم دقيقة الصنع، تصنع الكتاب الواحد في النفس الواحد، وتصنع من الصحف مئات الألوف في اليوم الواحد، ويجرى الورق بين اسطواناتها بسرعة خمسين وستين ميلا في الساعة. وفي كل هذا دقة، وفيه سرعة، وفيه إرخاص، وفي الإرخاص تمكين لهذه الأوراق التي تحمل عصارة الذهن البشرى أن تصل إلى أطراف الأرض بأرخص الأثمان. وإن اختصت الكتب بالخاصة من الأمم، وبالصفوة فيها، يتأثرون بها ويؤثرون، ويرسلون على متونها الآراء ويستقبلون، فقد اختصت الصحف بالجماهير يقرأونها صباح مساء. وإن شئت مثلا لوحدة عالمية واقعة فتصور أمم الأرض على مائدة إفطارها، أو في الطريق صباحا إلى أعمالها، تجدهم مكبين على جريدة الصباح يقرأون ما فيها. وقد تكون لغة الجريدة العربية، وقد تكون الإنجليزية، وقد تكون الطليانية أو الفرنسية أو الألمانية، وقد تكون اليابانية أو الصينية أو حتى الحبشية، ومع كل هذا، فهم يقرأون من أخبار العالم شيئاً واحداً، ومن مخترعاته شيئاً واحداً، ومن خطب الزعماء ومن أقلام ذوى الأقلام شيئاً واحداً، تعاون على نشره في العالم واحداً ما هيأه العلم من أسباب.

على أن العلم فوق ما هيأ من أسباب وما ابتدع من وسائل، كان هو نفسه، وفي حدود ذاته، وسيلة للتوحيد كبرى بما انبث في نواحي الأرض، وبما انبث في حقل، أو انبث في مصنع، أو مصحة، أو مستشفى. ففي الحقل يدخل العلم بالتوحيد في معالجة الأرض وتسميد الزرع ومقاتلة الحشرات والآفات. وفي المصنع يدخل بالتوحيد، فالآلات والمكنات تبنى من نماذج هي في العالم كله واحدة أو متشابهة. وللتطبيب يدخل العلم المستشفى بأساليب من مناهج للبحث واحدة. ومن نعم الله على العلم أنه لا يتصل بجنس أو دين أو عقيدة أو حزب أو لون. فهو أعمى لا يفرق بين الألوان، وهو أبكم لا يعرف اللغات، وهو أصم لا يستمع الدعايات. ومن أجل هذا كان مُرَحَّباً به في كل بيت وكل أمة، مأذوناً له عند البيض وعند السود، مسموعاً له في المسجد وفي الكنيسة، مكرماً عند أزرق الذهب وأحمره.

وينبث العلم في المدارس والجامعات، في أي خط من خطوط العرض، وفي أي خط من خطوط الطول، فينشئ النشء على المنطق الواحد، ويعطيهم النظرة الواحدة إلى الأشياء، نظرة الفطرة التي لا تتأثر بالظروف الطارئة، ولا بالملابسات والأعراض. وإن كان العلم يدخل على الأمم بطرائقه المدنية فيوحد بالزرع الغذاء، ويوحد بالصناعة الكساء، ويوحد العمارة والبناء، ويعطيها كلها أساليب المدنية هي من خلقه واحدة، فهو يدخل على العقول في المدارس والجامعات بما هو أخطر وآثر، وأفعل من وجهة الوحدة العالمية، وذلك بما يضفيه على تلك العقول من أساليب للفكر واحدة، ومن منبع تستمدها العقول واحدة بالتأمل في نظم الكون وقوانين الحياة.

والعلم قد يعمل على الوحدة المنشودة من طريق أحق، وأحب أن أسميه طريق الرخاء. فاختلاف الناس واختلاف الأمم أكثره على لقمة العيش. فلو أن الأمم تركت العلم يعمل، وتركت العلماء أحراراً يدرسون ما هو أنفع وأجدى، ومهدت لهم سبيل التطبيق لخرجوا للعالم

بالكتابة من غذاء، وكساء، ومتعة ورخاء، فتزول بذلك أسباب العداء، وتزول أسباب البغضاء، وتجتمع الأمم على الغبطة والصفاء.

* * *

ومع كل هذا فلست أرى أن العلم بالغ مراده من توحيد الأمم وحده. لقد قلت إن العلم شيء على الحياد، لا يتصل بنعرة دينية، ولا نعرة جنسية، ولا نعرة مذهبية. ولكن العالم تمزقه اليوم هذه النعرات. والعلم لا حيلة له في هذه النعرات لأنها لا تدخل في اختصاصه. وإن تدخل فهو إنما يتدخل من طريق غير مباشر. فهو يتدخل بتثقيف العقول لتكون أقدر على الفهم وأقوى على استبانة الحق، وتعرف طريق الرشاد عند ما تدلهم الطرق وتختلط الأمور. وفي العالم اليوم، على الرغم من مظاهر المدنية، جهل كثير، وفطنة قليلة، وضيق في الأفق الفكري لا ينتج إلا الأنانية. والأنانية إن أفادت ساعة، وكسبت ساعة فمآلها إلى الخسران. والأنانية تنتج الحروب. والعلم في الحروب يساق كالدابة الذلول، لأن من خصائصه أن لا يرد طالبا. وهو كما قلت أعمى، أبكم، أصم، يستوي عنده سير في ظلمة وسير في نور، وسير في ليل وسير في نهار، وهو إذا سيق لا يدري من يسوقه ولا يأبه لمن يسوقه ولا إلى أين يساق. والأنانية التي تسوق العلم إلى الحرب تبوء دائما بالخيبة. فهي من أجل هذا أنانية جهالة، أنانية الرأي الفطير والنظر القصير. وقد بذل العلم مسخرا في هذه الحرب جهودا لو أنها بذلت في السلم لذهبت بأسباب الحرب وذهبت بأسباب الخصام.

ولكن الناس كما قلت، والشعوب، حظها من الغباء كبير. وليس هذا بغباء عقول، فإنما هو غباء قلوب. وليس هو بضلال في المنطق ولكنه ضلال في العاطفة. وليس هو بنقص في الفهم ولكنه نقص في الأخلاق وفي فهم واجب الإنسان نحو أخيه الإنسان.

فالإنسان تقدم من ناحية واحدة هي ناحية العلم، ولكنه تأخر في نواحيه الأخرى لا سيما ناحية العدل والإحساس بالنصفة، ناحية الخلق الإنساني الكريم.

وقد أنطقت الحرب في شدائدها المعروفة زعماء الأمم بمقاصد عن عالم جميل رضي كانت جديرة بمنطق الملائكة وأفواه القديسين. ثم ذهبت الشدائد فعاد الزعماء أشد ما يكونون بشرا، وأكثر ما يكونون على طيبات العيش كَلَبا. وما كانت أقاويل الحرب إلا نزعات أباطيل.

وجاءت القنبلة الذرية، وهي نتاج العلم الأخير، فقيل إنها ستوحد بين أمم الأرض، وقيل إن الأمم ستنصاع لصوت الحق تحت ظلها. وأنصتنا لصوت الحق فإذا هو صوت مشوب فيه الحق مزجا ومذقا. على أنه كيف تكون الوحدة على الخوف وعلى الإذعان؟

إن العلم يعمل لتوحيد العالم، ولكن لا نجاح لأعماله، ولا أثر لجهوده إلا إذا نظفت الناس عقولا، وتطهروا قلوبا، وصفوا أرواحا، ودون ذلك جهود الجبابرة والزمن الطويل المديد، ثم مشيئة الله من وراء ذلك.

أحمد زكي

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٧٠ — الثلاثاء ٢٥ من صفر سنة ١٣٦٥ — ٢٩ من يناير سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

السياسة المصرية فى ربع قرن

لما قامت هذه البلاد سنة ١٩١٩ تطالب بحقوقها وثارت لذلك ثورتها التاريخية كان لها هدفان تسعى لتحقيقهما :

الأول : الاستقلال التام الذى يكفل لها مركزاً دولياً تتمتع فيه بالسيادة الذاتية الكاملة بعيدة من أى خضوع لنفوذ أجنبى .

الثانى : قيام حكومة وطنية دستورية على أسس الديمقراطية الصحيحة التى تكفل الحرية والمساواة والعدالة لجميع أفراد الشعب والتى تجعل كلمة الشعب هى العليا فى كل شئون البلاد .

ولقد مر علينا منذ ذلك الحين أكثر من ربع قرن تقلبت فيه ظروفنا وأحوالنا السياسية واختلفت علينا فيه العهود والحكومات ، وقامت فى داخل البلاد وخارجها أحداث كان لها أثرها فى تقريبنا من أهدافنا أو إبعادنا عنها . فلننظر أين نحن الآن من هذين الهدفين وهل تقدمنا أو تأخرنا فى سبيل تحقيقهما .

فأما الاستقلال التام فقد كان أمنيتنا الكبرى التى انعقد عليها إجماعنا سنة ١٩١٩ . ولقد قابلت إنجلترا حركتنا فى بداية أمرها بالعنف والشدة فنفت من رجالنا من نفت وسجنت من سجنت ، ولكن العنف لم يجد أمام إجماع أمة موحدة الكلمة صادقة العزم ، ولهذا اضطرت الملاينة وإرجاع المنفيين وإطلاق سراح المسجونين ، ثم اضطرت لمفاوضة زعماء البلاد فى مطالبهم . ولكنها لم تكن مستعدة لإجابة هذه المطالب وحاولت إقناعهم بقبول عروض جزئية ، فلم تجد فى البلاد من رضى بها دون الاستقلال التام . وبدا أن المشكلة مستعصية الحل ، ولكن فكرة

تمت تلقفها المحتل بالارتياح وسارع إلى تنفيذها ، وهي إعلان إنجلترا اعترافها من جانبها بالاستقلال لمصر وبأنها دولة ذات سيادة مع تحفظات أوردتها ومسائل علقتها إلى أن يقوم بينها وبين مصر مفاوضات بشأنها .

ومع أن المصريين لم يرضوا بما أعلن إلا أنهم تقبلوه على أنه كسب مؤقت وخطوة تمهيدية تتبعها خطوات ، وزاد قبولهم لهذا الوضع أنه سيتيح لهم فرصة لتحقيق هدفهم الثاني وهو قيام حكومة وطنية على أسس ديمقراطية .

واستمرت الحكومات المصرية المتعاقبة تحاول إكمال هذه الخطوة وتفاوض الحكومة البريطانية في أمر إقامة العلاقات بين مصر وإنجلترا على أسس ثابتة توطد الصداقة بين الطرفين وتحقق لمصر أمنيتها الغالية وهي الاستقلال التام ، إلى أن تبلورت تلك المحاولات في معاهدة الصداقة التي تمت بينهما سنة ١٩٣٦ وفيها نصوص صريحة توقت الاحتلال لأمد وتحدد إقامته في منطقة خاصة ، وفيها حقوق والتزامات متبادلة .

وجاءت الحرب العظمى فخلقت ظروفاً غير عادية لم تكن مقدرة ومارست إنجلترا حقوقها الواردة في المعاهدة كاملة ، وحملتنا الالتزامات المنصوص عنها في المعاهدة لأبعد ما يحتمله تأويل نصوصها ، وأصبحت مواردنا ومدننا وموانينا ووسائل المواصلات لدينا تحت تصرفها ، واحتمل الشعب أكبر التضحيات في سبيل الوفاء بعهداته ، وصبر على ما أصابه من المتاعب والحرمان ومشاركة الملايين من جنود الحلفاء له في أرزاقه وأمواله . بل لقد قدم مختاراً كل ما استطاعه من المعاونة لنصر قضيتهم حتى انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ، فحمد الله على تلك النتيجة وارتقب الفرج بعد زوال هذه الغمة وتطلع بأمل كبير إلى حليفته العظيمة التي لمست ما تحمل لها من تضحية وما قدم لها من معونة ، راجياً أن يكون ذلك محل تقديرها ، واثقاً من أنها ستسبقه إلى أكثر مما يرجو منها وأنها ستبادره بسحب جنودها اعتماداً على صداقته التي شهدت بها ظروف الشدة والمحنة .

ولكن الأمر ما لا تزال الحليفة متمضية الطرف . وقد طلبت إليها الحكومة رسمياً فتح باب المفاوضات لتعديل المعاهدة على أساس الجلاء عن مصر وضمان وحدة وادي النيل . ومع أن الرأي العام البريطاني لا يبدي استنكاراً لهذا الطلب العادل ، ومع أنه لا مبرر لها في تأخير إجابة هذه الرغبة ، فإن الحكومة البريطانية تمالج الأمر ببطء يدعو للريبة ، ويبدو أنها تطاول كسباً للوقت . على أننا مطمئنون إلى عدالة قضيتنا واثقون من أن بريطانيا لن تجد لها عذراً تعتذر به عن إجابته ، والظروف الدولية موانية لنا واختيار مصر عضواً في مجلس الأمن يتيح لها الفرصة لعرض المشكلة على الدول إذا لم تنته فيها مع بريطانيا إلى حل يرضيها .

فإذا كنا لم نحقق هذا الهدف — الاستقلال التام — كاملا إلى اليوم فقد خطونا خطوات في سبيل ذلك ، وكل الظروف مساعدة على أن نصل إلى أمنيتنا قريباً إن شاء الله .

أما الحياة الديمقراطية وهي الهدف الثاني لنهضتنا ، فقد سارعنا منذ اعترفت انجلترا من جانبها باستقلالنا إلى العمل على تحقيقها ووضع لنا دستور مستمد من أحدث الأنظمة النيابية ، ووضع قانون للانتخابات العامة على طراز ما يعمل به في أرقى الدول الديمقراطية ، وأجريت الانتخابات وافتتح البرلمان وانتخبت الحكومة من ممثلي الأغلبية ، وبدا كأن كل شيء يسير في السبيل المرسوم وأن هذا الهدف قد تحقق على أكمل وجه .

ولكن الأمور لم تسر في هذا السبيل بهذه السهولة ؛ فالديمقراطية مذهب اجتماعي قبل أن تكون نظاماً للحكم ، وهو في صميمه قائم على احترام الفرد وعدم التعرض لحريته في حدود النظم والقوانين ؛ ونجاح مثل هذا النظام يتطلب من الحاكم البعد عن كل مظاهر السيادة والاستبداد ومن كل فرد من أفراد الشعب أن يدرك مكانته كمواطن وكرامته

من خدمات العلم للإنسان

فى تصميم السفن (١)

لكى ينجح المهندس المعارى البحرى فى تصميم السفن لابد له من استخدام كل فرع من فروع العلم :

فالعلوم الميكانيكية تستخدم فى تصميم المحرك والقلاّبة ليؤديا عملهما كما ينبغى ، وكذلك فى تصميم الهيكل أو البدن حيث يكون الهدف الجمع بين منتهى الخفة ومنتهى المتانة .

والعلوم الطبيعية تستخدم فى تصميم آلات الملاحة ، كجهاز صوت الصدى ، وأجهزة معرفة الأبعاد باللاسلكى ، وكذلك أجهزة التبريد أو تكييف الهواء فى عنابر السفينة ، وهذا التكييف وذلك التبريد مكنانا فى العصر الحديث من نقل اللحوم عبر البحور وكذلك من نقل الفواكه سهلة العطب كالموز مثلا .

والعلوم الكيماوية تستخدم فى استنباط الوسائل التى تتبع لتقليل حدوث التآكل وغيره من الفساد فى قاع السفينة ، تلك الوسائل التى تزيد فى عمرها وتحول دون هبوط سرعتها هبوطاً ذا بال .

والعلوم الطبية نفسها يُلجأ إليها عند وضع تصميم السفن المستخدمة كمستشفيات ، وتصميم مواضع عزل المرضى فى سفن نقل الركاب وفى السفن الحربية .

والعلوم الرياضية تستخدم بطبيعة الحال على نطاق واسع لإجراء الحسابات المتصلة بإتزان السفن ومتانتها والزحام .

(١) نقل عنها من L. Kent ، رئيس معمل فرود بالمعمل الأهلى الطبيعى بإنجلترا .

كانسان وحقه الكامل فى الحرية فى ممارسة حقوقه والارتياح لأداء واجباته .

فى شعب بادىء حديث العهد بمثل هذا النظام قريب العهد بالنظم الاستبدادية كان من الضرورى أن يسلك إلى تدعيم الحياة الديمقراطية برفق وحذر ، وأن يحرص القادة على تنوير الشعب وإفهامه حقوقه وكرامته قبل حرصهم على كسب ثقته ؛ ولو تواصوا بذلك لما قامت وسائل الدعاوة ولا نظمت طرق التأثير بالإغراء والتشهير ولما ارتفعت بعد ذلك شكوى من عمليات الانتخاب .

وقد جرت الأمور مع الأسف فى غير هذا الطريق ؛ فقد كان الساسة أحرص على كسب الأصوات من تنوير أذهان الناخبين وتعويدهم الحرية والمحافظة على الكرامة .

وكان من الطبيعى أن تقوم الأحزاب فى ظل الحياة النيابية ، ولكنها أحزاب لا تقوم على خلاف فى المبادىء والأهداف ، وإنما يقوم الخلاف على أشخاص الرؤساء .

وحيث يكون « شخص الرئيس » هو محور الحزب فإن من الطبيعى أن يحاط هذا الزعيم بهالة من التقديس والاحترام وأن يرتفع إلى مكانة تتنافى مع النظام الديمقراطى السليم .

فأنت ترى أننا ظفرنا من الحياة الديمقراطية — هدفنا الثانى — بشكلها وظاهرها ولم نصل إلى لبها ، وهذا الكسب الشكلى جر علينا ويلات كثيرة وخلق مشاكل اجتماعية كثيرة .

فمهمتنا الآن يجب أن تتجه إلى إشاعة الروح الديمقراطى الصحيح فى نفوس الشعب . وهذا العبء يقع أكثره على الشباب المستنير الذى لم ينغمس فى خلافات السياسيين ، فهو الجدير بأن يحمل الشعلة المقدسة وينير السبيل الصحيح للديمقراطية الخالصة التى تقوم على الحرية والعدالة والمساواة .

(. . .)

ومقاومتها (أو مقاومة الماء لحركتها) ، وبعض هذه الحسابات معقد إلى أقصى حد .

وعلم الاقتصاد يلعب دوره في دراسة الطرق التجارية وما يكتنفها من ظروف خاصة مما له أعظم الأثر في تصميم السفينة وتحديد أبعادها .

وهكذا نرى أن كل فرع من فروع العلوم يجب أن يساهم في معاونتنا على الوصول إلى التصميم الكامل لسفينة المستقبل الناجحة .

والأغراض التي تبني من أجلها السفن هي من الكثرة والتباين بحيث يكون لكل نوع منها صعوباته الخاصة ومسائله بالذات التي تتطلب الحل ؛ ونظرة سطحية عاجلة إلى عدد قليل منها تبين ، على ما أعتقد ، كيف يستخدم العلم لحل هذه المسائل والتغلب على تلك الصعوبات :

فالسفن الحربية قد يكون من واجبها أن تحمل المدافع الكبيرة الثقيلة مسافات طويلة بسرعة عظيمة ، وأن تعمل في أسطول متراص ، وأن تكون قادرة على القيام بالهجوم ليلا أو نهارا في جميع الأجواء ، هذا عدا ما يطلب منها فوق ذلك من حماية نفسها ضد مختلف الأعمال العدائية الموجهة نحوها ، كالقنابل والطربيدات والألغام ونيران المدافع .

ولتحقيق ذلك كله تحتاج هذه السفن إلى حشد متباين من آلات غاية في الدقة يتطلب تصميمها من المهارة الفنية الفائقة ما يبهر ويذهل .

والغواصات وحاملات الطائرات لم تصبح سفنا عملية إلا بعد أن أجريت بحوث علمية كثيرة على تصميماتها ، كما أن كاسحات الألغام لم يستفد الإنسان منها إلا بعد جهد علمي كبير ، أعان على الوصول بها إلى تلك الدرجة من النجاح .

أما فيما يتعلق بالملاحة التجارية فإن العلوم تعمل على أن تضمن للراكب وسائل الراحة ، بأن تهيئ له درجة حرارة معتدلة في مسكنه الصغير بالسفينة (أي في الكبين) الذي يتحتم أيضا أن يخلص من الروائح الكريهة ومن الأصوات البغيضة . ثم إن هذه الكبينات تفرش بما يتفق مع أبسط حاجيات الراكب ، ومع الذوق الفني السليم . كما تعمل العلوم جاهدة على أن توفر له مع ذلك كله أكبر قدر ممكن من الحيز .

بل إن ذلك القارب الأفقي القاع والمكعب الشكل تقريبا والذي يستخدم لنقل البضائع أحيانا وللسكن أحيانا أخرى (كدهبية) ، وينتقل في مجاري المياه الصغيرة وتجره الجياد أحيانا وهي على الطريق الجانبي ، هذا القارب كان موضع دراسة وتجربة وبحث علمي دقيق في إنجلترا زمنا طويلا ، وهي تجارب صارت تاريخية معروفة . وحتى إلى يومنا هذا لا يزال العلم يوحي بتعديلات في أشكال تلك القوارب كان من أثرها تقليل مقدار المقاومة التي تلقاها في سيرها في الماء ، بنحو ٤٠ ٪ بغير أدنى تضحية في الحيز المخصص لحمل البضائع ، وبغير أدنى مضاعفة في نفقات الصنع .

بل إن اليخت ومراكب السباق قد استفادت هي الأخرى في تصميمها واختبارها من البحث العلمي الذي يجرى على نماذج لها تسير في أحواض تجريبية خاصة . وكانت الفائدة عظيمة حقا من حيث تقليل المقاومة ، وتخفيف الوزن ، وزيادة المتانة .

* * *

ولكي نوضح كيف يسخر العلم الحديث لتصميم السفن نضرب مثلا صغيرا نسبيا يتصل بهذا التصميم ، لكنه على صغره عظيم الأهمية ، ألا وهو العمل على إيجاد أحسن شكل وأفضله للبدن أو للسطح الخارجي لكل نوع من أنواع السفن بحيث يتفق مع الغرض الذي أنشئ هذا النوع من أجله .

هنا يجب أن نفى بالأشكل من الأمور الآتية : تكاليف الصنع ، وضمان الأمن ، وتوفير السعة ، وسهولة الإنشاء ، ومختلف الأبعاد اللازمة ، والتسهيلات الضرورية فى مختلف الموانى التى فى الطريق ، كالرسو عند الأرصفة وما إليه ، إلى غير ذلك من الأمور التى لا بد من مراعاتها .

فيجب أن يكون الهدف إنقاص المقاومة حتى تقل كمية الوقود المستهلك ، ويتم هذا طبقاً لقواعد علم الإيدروديناميكا (أى الحركة فى السوائل أو بالأصح الموائع) . وإذ كانت القواعد والنظريات فى هذه الناحية لا تسعفنا ، لتخلف العلم من الناحية النظرية ، فإنا نلجأ إلى التجارب نجريها على النماذج التى نصنعها لكل شكل يراد تجربته . وبهذه التجارب نتغلب على العقبات العلمية ونتخطى ما فى معلوماتنا النظرية من ثغرات لم يقو العلم النظرى بعد على سدها .

وتُجرى هذه التجارب فى أحواض تجريبية منشأة لهذا الغرض تشبه حمامات السباحة الفسيحة التى فى اتساع الشارع الكبير عرضاً ، وتصل فى الطول إلى نحو ٣٠٠ ياردة ، وفى العمق إلى مابين ١٠ ، ١٦ قدماً ؛ كما تنشأ أيضاً نماذج مصغرة لفتحات قليلة العمق تمثل مصابّ بعض الأنهار الكبيرة ، وكذلك الطرق المائية التى فتحها الإنسان كقنال السويس ، لتدرس فيها المسائل العويصة التى من نوع تسيير السفن فى حيز محدود من المياه .

وهناك قنطرة (أو كُبرى) كبيرة من الصلب تزن عدة أطنان وتعبر الحوض ، ويمكن تحريكها بسرع مضبوطة فى اتجاه طول الحوض على قضبان أفقية مثبتة على جدرانه . وتستخدم هذه القنطرة كمركبة تجر النماذج فى الماء وتحمل الشخص القائم بالتجربة ومعه أجهزة القياس اللازمة له .

أما نموذج البدن أو الشكل الخارجى فيصنع عادة من الشمع الذى يصب فى قوالب من الصينى ويتحدد شكله بالدقة بواسطة آلة مصنوعة لهذا الغرض بتصميم خاص ، فهى تكشط من الشمع القدر المناسب حتى يأخذ البدن الشكل المطلوب . والجهاز يقوم بهذا الكشط (أو قطع الشمع) حالما يكون القائم بالعملية يمر بقلمه على الخطوط المحددة لهذا الشكل فى الرسم واحداً بعد واحد . أى أن العملية ميكانيكية تتم بصفة آلية .

وهذه النماذج الشمعية ليست بالصغيرة البسيطة فإن طولها يتراوح بين ١٦ ، ٢٠ قدماً ، ووزنها بين ¾ ، ١½ طن ، وقد يصل فى بعض الحالات الخاصة إلى أربعة أو خمسة أطنان حينما تكون كاملة الشحنة أو الحمولة . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يستدعى الأمر نزول الرجال إلى النموذج للقيام بعمل خاص ، وقد بلغ عدد من نزل منهم فى النموذج فى ظرف من الظروف ثلاثة أشخاص .

وحين يتم صنع النموذج يسحب فى ماء الحوض بسرع مختلفة ويقاس مقدار مقاومة الماء لحركته فيه ، وتؤخذ صور فوتوغرافية للأمواج الحادثة ، لتكون هذه الصور محل دراسة خاصة . وبهذا كله يستطيع المهندس المعمارى البحرى أن يحسب حساب الوقود المستهلك ويتأكد من مطابقته للقواعد الاقتصادية ؛ فإذا لم يجده منطبقاً عليها أخذ يستخدم خبرته ويستغل سابق تعليمه فى اقتراح التعديلات والتغيرات فى هذا البدن أو الشكل الخارجى التى من شأنها تحقيق الاقتصاد المطلوب ، وسرعان ما تنفذ هذه الاقتراحات على الفور وتُغير الآلة الشكل الخارجى للنموذج الشمعى طبقاً للاقتراح الجديد ، وتعاد التجربة ثانية وثالثة الخ حتى يتحقق الغرض المنشود .

بعد ذلك يعمل تصميم المروحة التى تدفع السفينة فى الماء ويركب نموذج لها على نموذج البدن ، وتجرى التجارب الأخرى اللازمة لحساب القدرة الحصانية المنتفع بها فى

مختلف السرع ومختلف عدد لفات المحرك الخ . وفي السنوات الخمس عشرة الأخيرة أدت أمثال هذه التجارب إلى إنقاص الوقود المستهلك (وبالتالي إنقاص تكاليفه) ٢٠ ٪ وتوفرت منه مئات الآلاف من الأطنان كان العالم في أشد الحاجة إليها .

هذا وتثار في مياه الحوض أمواج صناعية بواسطة جهاز خاص حتى تجرى التجارب على المياه الثائرة كما يحدث في الطبيعة بالفعل . وتوضع على النموذج أجهزة خاصة لتسجيل مختلف الحركات كالتموج (ارتفاع مقدم السفينة وانخفاضه بفعل الأمواج) . كل ذلك بقصد الوصول إلى اتزان السفينة وإنقاص الحركات التي تضايق الركاب وتمنعهم من الاستمتاع بالرحلة كما ينبغي .

وعلاوة على هذه الأحواض التجريبية الكبيرة تستخدم أنفاق مائية ينساب فيها الماء بالسرع التي نريدها وتحت الضغط الذي نشاؤه لدراسة المسائل المتصلة بتسيير الغواصات والمدمرات وما إليها . وهذه الأنفاق المائية تشبه الأنفاق الهوائية المستخدمة في دراسة مسائل الطيران والتي فيها يمر تيار الهواء السريع على أنموذج الجناح أو الطائرة ويكون لذلك نفس الأثر الذي لمرور هذه في الهواء بنفس السرعة . وميزة هذه الطريقة أننا نسيطر على السرع ونتمكن من ضبط القياسات إلى غير ذلك من المزايا التي لا يمكن شرحها هنا .

ويحدث أحياناً أن تتغير الأحوال الاقتصادية تغيرات سريعة كما يحدث في أوقات الكساد أو أوقات الرواج في التجارة العالمية . وعند ذلك تصبح السفن التجارية التي كانت إلى وقت قريب تؤدي وظيفتها على أكمل وجه — تصبح فجأة غير صالحة من الناحية الاقتصادية ولا سيما من حيث أبعادها وسعتها المخصصة للبضاعة ؛ فإذا أريد لها أن تتلاءم مع الظروف الجديدة فلا مناص من إجراء عملية جراحية تُشق في خلالها السفينة نصفين ويضاف إليها أو يقتطع منها أجزاء كاملة . فإذا استدعى الأمر إجراء شيء من هذا فلا بد من إجرائه طبقاً للقواعد العلمية الدقيقة ، وقد يقتضي الحال إجراء تجارب جديدة لهذا الغرض بالذات على نموذج السفينة المراد إجراء هذه العملية الجراحية لها . وكثيراً ما تتطلب أمثال هذه التجارب من القائمين بها تحمل المشاق وركوب الصعاب بل التعرض للأخطار . .

* * *

وهكذا ظل تصميم السفن قروناً عديدة فناً من الفنون يتوقف النجاح فيه على مهارة المهندس المعماري البحري والصناع المشتغلين تحت إشرافه ؛ وبتقدم الحضارة والعلوم استحال هذا الفن بالتدريج إلى علم من تلك العلوم ، وسيطرد تقدمه ويزداد تبعاً لذلك تحسن تصميم السفن ما دام العالم محافظاً على تشجيع البحث العلمي .

وبعد فهل بذل كل تلك الجهود والنفقات والوقت الثمين في الحصول على تصميم على جيد لحاملة بضائع أمر ضروري حقاً ؟ لقد علمتنا تجارب الحرب أننا حين نقتصر على مجرد الضروريات اللازمة لحفظ الحياة فإن الحضارة تضمحل وترتد إلى الوراء ؛ فليس من المغالاة أن نقول إن تقدم الحضارة واطراد سير المدنية يتوقف قبل كل شيء على توافر الكماليات التي تزدان بها الحياة كالفنون في جميع صورها والأشياء التي تسر الحواس الخمس كالفواكه والزهور والروائح العطرية وكالشاي والسكر والتوابل وكالمطاط الخ ، كل هذه يجب أن تصير في متناول الجميع .

ونحن نعرف أن النقل الجوي سيظل غالي التكاليف دائماً ، ولما كان كل عمل من شأنه إنقاص تكاليف النقل البحري وتسهيل هذا النقل خدمة للمدنية وتقدمها ، ومن ثم يكون لكل هذا الكلام الذي مر أهمية عظمى في الحياة العملية وفي التقدم الإنساني .

أحمد عبد السلام الكرداني

٢ - الاتجاهات الحديثة

في دراسة اللغة

الاتجاه النفسي والفلسفي والمنطقي — وتخصصت طائفة أخرى من علماء الغرب لدراسة اللغة دراسة فلسفية من حيث علاقتها بالنفس ومن حيث علاقتها بالمنطق وغير ذلك؛ فقد رأوا — مثلا — أن دراسة الكلمة ليست كدراسة أي شيء مادي كالعصا والكرسي والقلم والدواة، فهذه الأشياء ونحوها لا يحتاج في دراستها إلا لتحليل الشيء المادي نفسه ومعرفة عناصره، وما يجري على الشيء الواحد منها يجري على أمثاله. أما الكلمة أو اللفظة فلها روح، لها معنى؛ فإذا قلت محمد يقرأ فلا بد لفهمها من ثلاثة أشياء: عقل القائل وعقل السامع والفكرة التي انتقلت من عقل القائل إلى السامع — وكذلك لا بد من لفظة هي التي نطق بها القائل وسمعها السامع. ومن ناحية ثالثة لا بد من الحقائق نفسها وهي حقيقة محمد وحقيقة القراءة والعلاقة بين محمد والقراءة. وبالإجمال لابد من ثلاثة أنواع: الفكرة واللفظة والشيء ذاته المتحدث عنه — وعلى هذه الفكرة الأساسية البسيطة قاموا بأبحاث قيمة عميقة: هل كانت اللغة حادثاً طارئاً في تاريخ الإنسان أو نشأت عن قصد وتعمد؟ هل يمكن التفكير من غير ألفاظ؟ هل يمكن أن تكون لغة من غير ألفاظ؟ ما العلاقة بين اللفظ والمعنى؟ ما معنى المعنى؟ ما الذي يجعل لغة أرقى من لغة؟ إن اللغات القديمة كاللاتينية واليونانية تركيبية أكثر منها تحليلية، واللغات الحديثة تحليلية أكثر منها تركيبية؛ فهل الانتقال من التركيبية إلى التحليلية رقي أو تدهور؟ هل يمكن وضع لغة عالمية أو لا، وإذا أمكن فهل هو في صالح الجنس البشري أو لا؟. وهكذا من أبحاث لا عداد لها، وبعضها بل أكثرها لم يجد الإجابة الحاسمة عنها. وإني أدخل في باب عريض لو عرضت لحضراتكم ملخصاً للنظريات التي أثيرت حول كل موضوع.

واتجهت طائفة أخرى إلى العلاقة بين اللغة والمنطق، فاللغة ليست وظيفتها — فقط — نقل المعنى من ذهن إلى ذهن، ولكن لها وظيفتان أساسيتان: فهي إما إخبارية تنقل المعنى من ذهن إلى ذهن ككلامنا العادي وكصحيفة الحوادث الداخلية والخارجية في الجرائد وككتب العلوم مثل الرياضة والطبيعة والفلك وما إلى ذلك، وإما «ديناميكية» أي قوة محركة للعواطف. والناحية الأولى عقلية والناحية الثانية شعورية للتحدث عن العواطف أو تهييجها، فإذا قلت إن الإنسان حيوان ناطق فهو من الضرب الأول، وإذا قلت إنه حشرة أو قلت إن النساء ملائكة أو شياطين فهو من الضرب الثاني.

وكان هذا أساساً لبحوث كثيرة واسعة للتفريق بين القضايا الإخبارية والقضايا العاطفية وما تؤديه كل منها، وهل قضايا الأخلاق من النوع الأول أو الثاني — وبيان أن لغة الشعر من الضرب الثاني وما يتطلب ذلك من ألفاظ خاصة وأسلوب خاص وبيان الخطأ في استعمال اللغة الإخبارية محل العاطفية والعكس؛ كما أدى هذا إلى البحث الواسع في معاني الألفاظ على هذا الأساس وأثر القضايا المختلفة على العقل وعلى الشاعر — وكيفية بناء اللغة وتركيبها وكيفية بناء الحقائق وتركيبها وكيف يتلاقى بناء اللغة مع بناء الحقائق، ولماذا تتبع اللغة قواعد خاصة في بنائها دون غيرها، وهل لذلك سبب نفسي الخ.

وناحية أخرى توجه إليها بعض الباحثين وهي أن أهم بحث في الفلسفة «نظرية المعرفة» أي كيف نعرف الحقائق، ولهذا اتصال وثيق باللغة، فما لم يعبر عن الحقيقة لا يمكن أن يقال إنها حق أو باطل؛ وقد ذهب بعض الفلاسفة المعاصرين إلى أن أكثر مشاكلنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية يرجع إلى استبداد الألفاظ بنا وتحجرها وضياع الحقائق

ورائها ، وفلسفة اللغة كفيلة بإظهار هذا . ثم بحثت هذه الطائفة أيضاً في الرمزية وفي نظرية أن كل لغة ليست إلا رمزاً للحقائق والأشياء والمعاني وإن كانت تختلف الموضوعات في مقدار الرمزية فيها ، فلغة الشعر ولغة الدين ولغة ما وراء الطبيعة أكثر رمزاً ؛ وبحثوا — خاصة — في لغة ما وراء الطبيعة ورمزيتها ، إذ بدون شرح الرمزية فيما وراء الطبيعة يصبح الكلام فيها ضرباً من الخيال وسبحاً في الأوهام لا يدل على حقائق ثابتة معينة ، وهكذا .

الاتجاه الاجتماعي — هناك اتجاه ثالث وهو الاتجاه الاجتماعي ، وذلك من حيث إن اللغة نظام اجتماعي كالأسرة والدين والحكومة الخ لها أثر كبير في حياة كل جماعة وكل أمة . فهي واسطة الاتصال بين كل شخصين وكل جماعة ، وهي التي تمد الإنسان بالمعلومات والمعارف التي وصلت إليها الأجيال السابقة والحاضرة ، وهي التي ترعى الإنسان وتتعهده بالرقي من حين طفولته إلى حين وفاته — ومن عوامل رقي الأمم وانحطاطها لغتها ، فأدب كل أمة قوياً أو ضعيفاً يطبع الناس بطابعه ؛ ولو نزل غريب بلد وكان يعرف لغتها واطلع على جرائدها ومجلاتها وكتبها المؤلفة في عصرها الحاضر وأساليب أحاديثها لاستطاع أن يحكم لها أو عليها حكماً صادقاً بدرجة رقيها أو انحطاطها ؛ فاللغة هي التي تصور رغبات الأمة وعواطفها ودينها وعقليتها وشهواتها وكل شيء فيها ، وتنقل ذلك من الفرد إلى المجموع ومن المجموع إلى الفرد ، فيتفاعلون كما تتفاعل عناصر الكيمياء . وبدون اللغة (وأعني باللغة كل وسائل التفاهم من إشارة وإيماء وكلام) يكون الإنسان بجانب الإنسان كالحجر بجانب الحجر . إنما يربط بينهما اللغة ، وهي التي توحد بين الجماعة في المشاعر والأفكار ؛ ولذلك تجتهد كل أمة حية قوية أن تنشر لغتها في أوسع مدى ممكن علماً منها بأن ذلك من وسائل التفاهم وسهولة التعامل وعظم التقدير وخاصة من الضعيف للقوي .

هذه الناحية التي عرضتها عرضاً بسيطاً كانت مجالا لطائفة من العلماء بحثوا فيها كثيراً من المسائل اللغوية الاجتماعية بحثاً مستفيضاً : ما الذي تقوم به اللغة في مجال الرقي العقلي ؟ — إن اللغة نتيجة طبيعية من نتائج الحياة الإنسانية فكيف تستمر الحياة في تغذية اللغة من بداوة إلى حضارة ومن حضارة أولية إلى حضارة راقية حتى تساير الإنسان في نموه ورقيه ؟ — لقد راقبوا اللغة مراقبة دقيقة في نشوئها ورقيها ، وعرفوا كيف تمت بنمو الحياة وكيف تدرجت من تعبير عن العواطف إلى لغة عمل وأمر ونهي إلى لغة علم وأدب وهكذا ، وسجلوا في ذلك نتائج قيمة في هذا التطور .

واللغة مع أنها من نتاج الحياة وخاضعة لها فيها صفة المحافظة والتخلف والميل إلى الوقوف ، لا تندفع مع الحياة وتسايرها إلا بدفعة من أبنائها الأقوياء . ثم اللغة تختلف معاني كلماتها باختلاف الأفراد والطبقات مهما جهدت المعاجم في تحديد معانيها ، وتختلف عند العامة والخاصة . فكل لغة ليست لغة واحدة وإنما هي في الحقيقة لغات ، وقد يكون للكلمة معنى عند بعض الجماعات في مستوى عقلي خاص ، فإذا انتقلت الكلمة إلى جماعة أرقى عقلياً تطور معناها . وبالغ بعضهم فقال إن لكل إنسان لغته كما له وجهه . وعلماء اللغة ميالون إلى مراعاة وجوه الاتفاق أكثر من مراعاة وجوه الخلاف ، ومراعاة التعميم أكثر من مراعاة التخصيص

إن كل جمعية حية تعمل للانتفاع بلغتها وتسييرها في خدمتها وتبذل جهداً كبيراً لتكميلها من النقص وجعلها صالحة للحياة المتجددة .

وكذلك بحثوا بحثاً مستفيضاً في علاقة اللغة بالمدنية : أكلما رقيت المدنية رقيت اللغة ؟ وأداهم ذلك إلى الوقوف عند المدنية : ما معناها ، واللغة ما معنى تقدمها ؟ إلى كثير من أمثال ذلك .

فإذا نحن نظرنا إلى اللغة العربية في ضوء ما عرضنا تولانا الجزع من تخلف لغتنا عن مسايرة حياتنا . فالمعاجم التي هي سجل الكلمات المستعملة الصحيحة لا تفي بحاجاتنا

ولا نصفها، ووقفت عند العصر العباسي بل إن واضعي المعاجم في تلك العصور أبوا أن يدخلوا فيها كلمات كثيرة وردت في كتب الأدب والعلوم مما كان يستعمله العلماء والأدباء العباسيون، وأغمضوا عيونهم عن الأشياء المادية والمعنوية التي خلقتها الحضارة العباسية، ولم يعترفوا إلا بالألفاظ البدوية وما استعمل قبل الاختلاط بالأعاجم، وغفلوا عن أن اللغة تابعة للحياة يجب أن تنمو بنموها وأن الأمة إذا تقدمت لا يصح أن تكون أسيرة لآبائها قبل أن يتقدموا وأن ما علكه البدائي في خلق اللغة يجب أن علكه وأكثر منه المتحضر العالم. ولعل ما أداهم إلى هذا الموقف إعانهم بالنظرية الساذجة، وهي أن اللغة توقيف لا وضع، وأنها خلقت دفعة واحدة وانتهت، وقد كان عمل الأقدمين في قصر ما يأخذون على القبائل التي لم تختلط بغيرها عملا جليلاً من ناحية فهم اللغة العربية في أصلها وفهم الكتاب والسنة والشعر القديم؛ ولكن قصر مؤلفي المعاجم أنفسهم على هذا خلط بين غرضين، فالغرض الأول معرفة اللغة في أصل استعمالها، والغرض الثاني تسجيل ما يصح أن يتكلم الناس به، وفي الغرض الثاني تكون لغة الحضر أرقى وأنفع في الاستعمال من لغة الوبر؛ فبحثنا اللغوي الاجتماعي البسيط سيؤدي بنا حتما إلى المناداة بدفع اللغة أن تقفز من العصر العباسي إلى يومنا، وأن تفسح صدرها لحاجاتنا، وأن تتطور لتكون في خدمتنا، وأن يقر أهلها بأن رجال لغتها لهم الحق أن يعربوا كلمات وأن يخلقوا كلمات، وأن يشتقوا كلمات حتى يواجهوا موقفهم الحاضر، فلا تتخلف عقليتهم كما تخلفت لغتهم، كما سيتضح من أول بحث لغوي اجتماعي أن تقدم الأمة تقدماً حقيقياً مستحيل ما لم تتقدم اللغة وتستخدم في مصلحتها وتملأ كل فراغ موجود الآن من أسماء الماديات والمعنويات وما ولدته القرون الأخيرة من أفكار ومخترعات، كما سيتضح أن الأمة لا ترقى إذا كانت لغتها لا تصلح إلا لخاصتها دون عامتها؛ فالعصر الذي نعيش فيه ديمقراطي، لكل فرد الحق فيه أن يتعلم وأن يتثقف، وواجب الحكومات فيه أن تعلمه وتثقفه؛ ولا يمكن تثقيف الشعوب وتعليمها إلا بمرونة اللغة وتبسيطها وجعلها صالحة للشيوع والذيوع وحمل المعاني والأفكار والعلوم حملاً قريب المنال.

* * *

ثم آخرون من اللغويين الاجتماعيين اتجهوا في بحثهم إلى الناحية الاجتماعية الروحية — فالكلمات والجمل روح فعالة في النفوس غير معانيها التي في المعاجم؛ والفرق بين المعنى المعجمي والمعنى الروحي كالفرق بين النحوي في نظرته إلى تركيب الجمل وعوامل الرفع والنصب والجر والجزم وبين الفنان الذي يتذوق جمال الكلمات وجمال الأسلوب؛ وهذه الناحية الروحية للغة هي التي استخدمها ومهر فيها المتصوفة في أساليبهم ورجال الدين في وعظهم وإرشادهم وأمرهم ونهيهم وترغيبهم وترهيبهم، ورجال الشعر في خيالهم ورجال الخطابة في خطاباتهم. وكما كان في كل ناحية من النواحي مهرجون ومزيفون كان مزيفو هذه الناحية المشعوذين بالرقى والتعاويذ وأسماء الجن التي لا معنى لها، وهي مع ذلك تؤثر بروحها الضالة في النفوس الضعيفة فكتب هؤلاء الذين اتجهوا هذا الاتجاه الاجتماعي الروحي على البحث في الدور الذي تقوم به اللغة في الأديان وفي الشعر وفي العلم، وما للغة من ناحية باطنية تخلقها عواطف الفرد والأمة وناحية ظاهرية يتفاهمون بها في معاملاتهم ومحادثاتهم، وأن هناك صراعاً دائماً بين الناحيتين؛ وهذا قادهم إلى البحث في لغة الأمة وأثرها في عواطفها وعقليتها. وعلى الجملة فقد كان من مباحثهم أيضاً — اللغة الشفوية في العادة واللغة المكتوبة والفرق بينهما من حيث التأثير النفسي — واللغة والبيئة الطبيعية والاجتماعية التي نشأت فيها، واللغة والدين، والناحية العملية والناحية الميتافيزيقية للغة، واللغة والشعور القومي، واللغة والشعر الخ. وإذ كان هذا البحث حديثاً فقد وصلوا فيه إلى نظريات لا تزال مجالا للأخذ والرد ولم تستقر بعد.

* * *

الاتجاه التربوى — عند علماء التربية غرضهم الذى ينشدونه من تعليم اللغة ؛ وهو أن يمكنوا المتعلم — فى أقصر زمن ممكن وبأقل جهد ممكن — أن يفهم فهماً صحيحاً ما يسمع وما يقرأ وأن يعبر عن نفسه تعبيراً دقيقاً فيما يلفظ وفيما يكتب.

وهذا الغرض المحدود شعّب البحث فى أركانه وهى اللغة وطبيعتها والمتعلم وطبيعته والمعلم وطبيعته ومناهج تعليم اللغة ؛ فالبحث فى اللغة ومزاياها وعيوبها وما فيها من وجوه قوة وضعف يساعد كثيراً على وضع منهج التعليم ، والمتعلمون يختلفون فى القدرة على تعلم اللغة ، والمعلمون يختلفون فى القدرة على تعليمها ؛ فما هى ملكات اللغة وكيف تدرس ويوضع لها المناهج المختلفة ؟ وما هو الشكل الأمثل للبرنامج وكيف نضعه ؟

قد وصلوا من هذا إلى بحوث طويلة عريضة ، وقد استغل الباحثون استغلالاً بديعاً البحوث والنتائج التى وصل إليها علماء النفس والاجتماع ، وهذا باب من أنفع الأبواب. فالإصابة فى تعليم اللغة القومية يكوّن الأمة فى تفكيرها ويعودها الدقة والنظام فيما تقول وتكتب وتعمل ، وإذاعة فى أمة الفوضى فى التفكير والكلام السائب غير المنضبط والإقبال على الأدب الرخيص دون ما يتطلب الجهد. فمن أهم أسباب ذلك فساد تعليم اللغة القومية ؛ كيف نبدأ فى تعليم اللغة ، وكيف نتدرج مع المتعلم منذ الطفولة إلى أن ينتهى من مراحل التعلم ، وكيف أكوّن المتعلم معجمه وكيف أضبط فهمه وأضبط لسانه وأضبط كتابته فى أقرب زمن وبأقل جهد ؟ هذا ما يحاول هذا الاتجاه الاجابة عنه بشتى البحوث وشتى التجارب التى تشبه تجارب الطبيعة والكيمياء.

وأكتفى من هذه الناحية بهذه اللمحة.

لعل فى هذا العرض السريع عبرة ، فلغتنا العربية العزيزة علينا ، والتى تكوننا ونكونها ، والتى يبلغ عدد المتكلمين بها نحو سبعين مليوناً تتطلب من أبنائها البررة مجهوداً جباراً فى مثل هذه النواحى التى ذكرت.

تتطلب معجماً واسعاً تستغل فيه كل الدراسات التى عملت فى اللغات المختلفة وخاصة اللغات السامية والفارسية لمعرفة أصل الكلمة وممّ أخذت وكيف تطورت على مر الزمان — معجماً لا يقف عند كلمات العرب الأقدمين ولا كلمات واستعمالات العباسيين ، بل يجدّه حيث وقف على بعد ثمانية قرون إلى حيث نحن وحيث نحيا وحيث نستعمل وحيث نفكر.

وتتطلب اللغة العربية دراسة نفسية وفلسفية واجتماعية على النحو الذى ذكرت.

وتتطلب من رجال التربية أن يقولوا بعد البحث والتجارب كيف نعلم لغتنا على خير وجه وكيف نتغلب على صعوبتها.

إن اللغة العربية تتطلب منا كل ذلك ، وليس إصلاح اللغة العربية من هذه الجهات ينتج نفعاً للقلم واللسان فقط بل هو — أيضاً — إصلاح للأمة فى تفكيرها وفى خلقها وفى عقليتها وفى مشاعرها ؛ إن تعليم عدد قليل من الأمة لغات أوروبية يقرءون فيها ويستمتعون بها قليل الأثر فى حياة الأمم ، إنما الأثر الأكبر للغة القومية التى يفكر بها الشعب بأجمعه وترفعه أو تضعه ، وتحيى عقله وشعوره أو تميته ؛ وليست الأمة تصلح بنقل بعض أفرادها إلى حيث النور ، ولكن بنقل النور إلى حيث الأمة كلها حتى يتبدد الظلام.

والله ولى التوفيق.

أحمد أمين

كل شىء
فى
يد الله

إلى من يلزم من أولى الأمر والرأى العام :

وا قصر إسماعيل

هو قصر جليل ظريف تقبل عليه من أى النواحى أتيته فتجده منيفا يكتنفه روعة . ذلك لأن فيه شيئاً من روح الملك اسماعيل . وتدخل إلى حجراته وأبهائه فتجد فيه قطعاً من بقايا عزه القديم تلمح فيها روح الفنان الذى ابتدعها ، وكل جزء من تلك القطع جدير بأن يدخر مع محفوظات الآثار التى تتحدث عنها الأجيال ، لأن عصر اسماعيل كان عصراً فذا له شخصيته التى استمدها من ذوق الفنان اسماعيل . ومع ذلك فقد ترك ذلك القصر لكى يتهدم ولكى يتدثر قطعة بعد قطعة ولكى يتساقط حجراً بعد حجر بغير أن تعبأ العيون بما فيه من تحف وبغير أن تفطن القلوب إلى ما ينطوى عليه من روح . وهذه حديقته الفسيحة التى كانت بغير شك آية من آيات الإبداع فيها الكهوف الصناعية البديعة وفيها الوديان المبنية الأنيقة ، وفيها العيون تتفجر بالمياه الصافية كأنها قد نبعت من ثنايا الصخر ، وفيها الأشجار العجيبة التى لم يعرف أحد أن يجلب مثلها إلى مصر سوى الشاعر اسماعيل . بل إن هناك الحشائش ذات الأزهار الغريبة ، وهناك الشجيرات ذات الألوان الساحرة ، ولكن ذلك كله قد صار اليوم إلى أحراش موحشة شعثاء بعد أن كان جنة فيحاء ، وتحول إلى أكوام وأخاديد بعد أن كان من مسارح الروح ومساكن النعيم ؟ فواحسرتاه أهذا قصر إسماعيل ؟ .

وقد زار هذا القصر قوم بعد قوم من أهل البلاد الأخرى الذين يؤمون هذه البلاد ولكنهم لم يزوروا القصر لكى يروا بدائعه ويمتعوا بمباهج ذكرياته ، بل لكى يزوروا بعض معاهد العلم التى يؤويها ذلك القصر اليوم لأن قصور اسماعيل ما زالت هى المأوى الذى يظل المعاهد ودور الحكومة إلى اليوم . وسأل هؤلاء الزائرون عمن بنى ذلك الأثر الذى يأبى جماله إلا أن يظهر من ثنايا حطامه والذى يأبى جلاله إلا أن يشعر الزائرين الروعة من خلال أخاديده وكثبانه . ولما علموا أن الذى بناه اسماعيل تحركت قلوبهم عطفا يشوبه العجب وإجلالا ممتزجا بالرثاء ، وقال قائلهم : وكيف تكون هذه حال الأثر الجليل ؟ ثم علموا بعد ذلك أن القصر قد صار إلى أيدى الأفراد ملكيته ولها أن تتصرف فيه كما تشاء ، فقد تبيعه وقد تهدمه وقد تقسم أرضه إقتطاعا لمن يريد ، وتشق فيه الشوارع والأزقة ، فترمح من وراء ذلك ربحاً جليلا وقد تقيم فيه قصورا حديثة فتمحو بذلك على أثر قصر «اسماعيل» . وما إن سمع الزائرون بذلك حتى انطلقت منهم كلمة تكاد تكون صيحة ، فقالوا : أينبغى لهذه الآثار أن تباع ؟ وما الذى يباع منها ؟ أهى الأحجار والأخشاب وقطع من الجذوع والأغصان ؟ إن مصر إذاً تسرف فى بقايا مجدها ، وهى إذاً مثل الذى يملك تمثالا من تماثيل عباقرة القدماء ، فإذا احتاج إلى أن يسد ثلمة فى جدار حطم ذلك التمثال ليصيب منه قطعة من حجر . هذا ما قاله الزائرون الذين يأتون من بلاد غير هذه البلاد ، لأن أذهانهم لم تعتد تصور مثل هذا الإسراف . وأما نحن الذين نعيش فى مصر فقد تعودت أعيننا النظر إلى مثل ذلك التحطيم وتعودت أفئدتنا تصور مثل هذا التضييع . فهناك قصور أخرى آلت إلى أفراد من الناس بعد أن كانت منازل الملوك فاقتطع منها ما اقتطع من الأرض وبيع منها ما بيع من التحف واستقر فيها المالك الجديد يتمتع بما كان ينبغى أن يكون تراثاً للأجيال بعد الأجيال . وإنه ليحزن النفس أن ترى مثل هذا التصرف الذى يكاد يبلغ حد التدنيس ، فإن هذه القصور تمثل حقبة من حياتنا القومية وتصور لوناً من ألوان تطور حضارتنا الناشئة . ولم يكن إسماعيل يعيش لنفسه بل كان يعيش لمصر ، وما كان يبنى لنفسه بل كان يبنى لمصر ، وكان يحمل بين جنبيه نفساً

ممتلئة بحب مصر ويحمل في خياله صورة المثل الذي ينبغي أن تكون عليه مصر، فكان يعمر وينشئ ويتسق وينمق، ويتكلف النفقة الجسيمة ويواصل التفكير والابتكار في كل ما يؤدى إلى تحقيق تلك الصورة حتى تكون مصر حيث أراد وحتى تصبح صورتها وفق ما تخيله لها. وها نحن أولاء نتمتع إلى اليوم بآثار فنه ويتحرك الشعر في جوانحنا كلما جسنا خلال قصائده المجسدة في منشآته؛ فحديقة الحيوان مفخرة من مفاخره وهي في ظل قصر من قصوره، ودواوين الحكومة لا تزال تتمتع ببقايا عماراته، وطريق الأهرام متنزهنا وهو الذي بناه، وحدائق القناطر آية من التنسيق ونموذج البساتين وهي من الكنوز الفنية التي ورثها لمصر؛ ولو شئنا أن نعدد ما نتمتع به من عطايا عبقرية ذلك الرجل العظيم لطال بنا السرد والتعداد. وهذا كله طبيعي لأن الأمم مازالت منذ القدم تتمتع بمآثر قدمائها وتسمو بمجد عظمائها وتزهى بمفاخر آبائها وجدودها، ولكن العجب العجاب أن يخلف الأقدمون ميراثاً مجيداً لا يعرف الأبناء قيمته ويلقون به غير حافلين بما له من قيمة خالدة.

لم يبن إسماعيل قصوره لكي تؤول بعد جيلين إلى أفراد يشترونها بالثمن البخس ولا يلتمسون من ورائها إلا اختطاف الربح، بل إن هذه القصور لم تكن من أول الأمر محلا للبيع والشراء، وإذا كان ولا بد من بائع لها فما ينبغي أن يكون المشترى سوى الحكومة المصرية لأن واجبها أن تؤتمن على تراث البلاد. فالبيع من أول أمره منقوض لأنه بيع لما لا ينبغي له أن يباع. وإن من حق كل مصري أن يطالب باسترجاع الصفقة وإعادة الثمن إلى صاحبه بحكم القانون سواء أكان ذلك يرضيه أم لا يرضيه.

إن كرامة مصر تأبى أن ترى قصور إسماعيل في أيد من الأفراد؛ فهي إما أن تكون ملكا للأمة كلها وإما أن تكون محفوظة على أصحابها الأمراء الذين لهم صفة العموم، وإنها للدعة من الأمم أن ينظر المصري إلى مثل هذا القصر ويتحسر أن يجده حيث لا يعنى به ولا يفطن إلى قدره. إن هذه القصور القديمة تتنفس بالذكريات، والمعاهد التي تستظل بظلها تستطيع أن تستمد من تلك الذكريات مادة قومية لا تجود بها أعظم المباني الحديثة وأجملها وأبدعها هندسة. والأمة التي لا تحتفظ بذكريات ماضيها والتي لا تستشعر الكبرياء في اتصالها بأجيال آبائها وأجدادها تكون في خطر دائم من ضياع مثلها العليا وثقتها بنفسها.

ولست أريد أن أحتاط في التعبير أو أن أتجمل في الرجاء، فإني أطالب الحكومة أن تعمل على استرداد هذا القصر وأمثاله من قصور إسماعيل حتى تعود إلى الأمة المصرية التي تعرف كيف تحتفظ بها وكيف تتنفس من ذكرياتها وكيف تصل بها حاضرها بماضيها. وفي الجانب الغربي من النيل على الأقل قصران من تلك القصور؛ وإنها لأمانة في أعناقنا جميعاً أن نطالب الحكومة باستردادهما، ولن يكلفها العدل أكثر من رد ما دفع فيهما من الثمن في أول الأمر، وحسب الأفراد الذين ملكوهما أنهم فازوا منهما بربح وافر من ثمن ما حطموه منهما وما نزعوه من تحفهما، لأنهم لم يعرفوا لهما قدراً إلا فيما يعود عليهم منها من الذهب، ولم تتعلق أفئدتهم في شيء منهما إلا على أنهما سلعتان في تجارة تعود عليهم بالربح الوفير.

محمد فريد أبو حديد

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

يوحنا پستالوتزى

(١٧٤٦ — ١٨٢٧)

في اليوم الثاني عشر من شهر يناير الحالي احتفل المربون، والمصلحون الاجتماعيون، في مدينة جنيف، بمرور مائتي عام على ميلاد المصلح الاجتماعي والمربي العظيم بستالوتزي. وقد ساهمت وزارة المعارف المصرية في الاحتفاء بهذه الذكرى، وأرسلت برقية تشارك بها المحتفلين في نبيل شعورهم، وتسجل وافر تقديرها لما أسداه هذا المربي المتحمس للمجتمع وللتربية من خدمات جليلة.



وبستالوتزي سويسري الوطن ولد بزوريخ حينما كانت سويسرا مقسمة إلى ثماني عشرة إمارة مستقلة، وسبع وعشرين ولاية شبه مستقلة، ويربطها جميعها تحالف ضعيف. وكانت لكل إمارة وولاية إدارتها الداخلية القائمة على نظام الطبقات؛ هذا النظام الاجتماعي البغيض الذي تحكم به الأعيان والأغنياء في طبقة الفلاحين الفقراء، ووصلوا بهم إلى حال شبيهة بحال العبيد.

وكان لعزلة سويسرا عن بقية القارة الأوروبية نصيب في أنها لم تتأثر إلا قليلا بالأفكار الإصلاحية، التي ظهرت في أنحاء القارة. فقد كان الكتاب الفرنسيون يدعون إلى الإخاء الاجتماعي، وتحسين حال الفقراء، وكانت كتابات روسو في التربية والاجتماع قد أحدثت صدى قويا في المجتمعات الراقية. وبدأ الارستقراط يفكرون في إنشاء مدارس للفقراء، بعد أن كان التعليم مقصوراً على أبنائهم، وفي تحسين أماكن التعليم. أما في بروسيا فإن فردريك الأكبر قد أصدر قوانين سنة ١٧٦٣ و سنة ١٧٦٥، تحتم أن يكون التعليم إجباريا على كل طفل من سن الخامسة إلى الثالثة عشرة. وفي النمسا شرعت ماريا تريزا في تعميم التعليم بين الطبقات.

وإذاً فقد كانت في أوربا يقظة تربوية ديمقراطية. ولم يكن الباعث عليها في الواقع الشعور بحقوق الشعب، وإنما كان مبعثها خيرا إنسانيا. وظهر لهذه اليقظة صدى في سويسرا؛ فأخذ الكتاب ينادون بضرورة تعليم أبناء الفقراء، وأخذ الأعيان يقدمون المساعدات المالية للمدارس القائمة، ويقيمون مدارس جديدة لأبناء الفلاحين. ولكن هذا لم يكن إصلاحا شاملا، وإنما كان تفضلا قليلا وغير منظم جادت به أريحية الأغنياء، فلم يكن له أثر قوي. وإذاً فقد كانت البلاد في حاجة إلى رجل من أبناء الشعب الفقراء الذين نشئوا في أحضان البؤس والشقاء، وعرفوا الداء والدواء، حتى يكون الإصلاح مبنيا على الخبرة والشعور بمواطن النقص. وقد كان هذا الرجل بستالوتزي.

تيتم صاحبنا وهو في الخامسة. وكانت أمه رقيقة الحال، ولكنها صالحة طيبة القلب، غمرت ابنها بعنايتها وعطفها. ولم يكن هو مبرزاً في حياته المدرسية، ولا في دراسته بالكلية التي أمضى فيها سنتين يتعلم اللاهوت. وكان أثناء تلمذته يتردد على جده في قرية خارج زوريخ، فشاهد بنفسه ما كان فيه الفلاحون من بؤس، وهاله ما هم فيه من فقر وتعس. فصمم على أن يهب نفسه لخدمة الفقراء، ومقاومة الظلم. وهذا ما حدا به لأن يكون

قسيسا . غير أنه لم يوفق فى أول صلاة أقامها فى الكنيسة ، فترك مهنة اللاهوت وحاول أن يشتغل بالقانون لمحاربة رجال السياسة من أهل زوريخ . وكان أن اشترك فى الجمعية الهلفتية التى جعلت هدفها تحرير العامة من سلطان النبلاء ، وأغرتهم بكتابات روسو وآرائه ، وأخذ يحارب بقلمه ولسانه طغيان الأرستقراط . ولكنه طورد وسجن ، فقرر أن يعمل برأى روسو وأن « يرجع إلى الطبيعة » . فذهب الى الريف وهناك بنى على ضيعة كبيرة منزلا سماه « نيوهوف » وأراد أن يعيش وسط الفلاحين ليساعدهم ، ويعلمهم خير الطرق فى الفلاحة والحياة المنزلية . ولكنه كان سىء الحظ ففشل فى مشروعه .

لم يزعزع فشل بستالوتزى من إيمانه برسالته ، فقد كان يعتقد أن الفقر لا غضاضة فيه . وإنما الغضاضة فى أن يستعبد الفقراء لجهلهم ، وأن يعيشوا عيشة خالية من الكرامة . ولذلك قرر أن يجعل من منزله — نيوهوف — مدرسة صناعية يدخلها أبناء الفقراء لينالوا من التربية الجسمية والخلقية والعقلية ما يساعدهم على تحسين حالهم ، وخلع نير السيادة عنهم . ثم نفذ مشروعه الجديد ، ووقف زمنه ومجهوده وماله على تربية الفقراء . وكان تلاميذه يفلحون الأرض فى الصيف ، ويشتغلون بالغزل والنسج فى الشتاء . أما البنات فيتعلمن التدبير المنزلى والحياكة وفلاحة البساتين . هذا إلى ما كان يتعلمه الجميع من مبادىء القراءة والكتابة والحساب . وكان من المبادىء التى وضعها وطبقها ما قاله من أن تربية الفقير يجب ألا تمرقه من أن يعيش فى حال الفقر التى كان عليها . وهو لم يغفل مع هذا التربية الخلقية لأنه كان يعتقد أن التربية الصناعية وسيلة من وسائل التربية الخلقية ، ولم يغفل التربية الدينية بل رآها ضرورية لإيقاظ قلوب الفقراء ، وجعل وسيلتها الوعظ والإرشاد واشتراكهم معه فى الصلوات ، وقد أثمرت مجهودات هذا الرجل ، ورأى نمو الأطفال فى أجسامهم وأخلاقهم ، وعقولهم ، فزاد عددهم . ولكنه لم يستطع الاستمرار فى الانفاق على مدرسته ، فأفلس وأغلقها ؛ وقد كتب بهذه المناسبة يقول : « لقد بذلت أقصى جهدى ، وتعلمت كثيراً من الحقائق ، واكتسبت تجارب قيمة . ولم تكن ثقتى بالأهداف التى سعيت إليها ، ولا بأهمية المشروع الذى بدأته أقوى فى أى لحظة منها فى اللحظة التى فشلت فيها . »

ظل بستالوتزى بعد إغلاق مدرسته ثمانية عشر عاما — إلى سنة ١٧٩٨ — فى عيشة فقر مدقع ، وقد أنفق هذه المدة فى الكتابة والتأليف ، وتدوين آرائه وتجاربه فى التربية . وقد ذكرنا أنه كان نصير الشعب ، مدافعا عن حريته . فلذلك لا غرابة أن نجده من أكبر أنصار الثورة الفرنسية ، والداعين لها فى بلاده . وفى سنة ١٧٩٨ كان الجنود الفرنسيون قد خربوا مدينة ستانز ، وقتلوا كثيراً من سكانها ، وخلفوا وراءهم عدداً من الأطفال الأيتام ، فاستدعى بستالوتزى ليؤسس لهم مدرسة ، فلبى الدعوة رغبة صادقة . وهناك حول ديراً الى مدرسة . وعاش مع الأطفال كأنه واحد منهم . فكان يقوم بوظيفة الأستاذ والوالد والخادم والوصى والمرضة . ولم يكن عنده شىء من الأدوات المدرسية ، فاعتمد على الطبيعة وجعلهم يلاحظون ويختبرون ، ويكشفون ويفهمون . ولقد وصف حياته فى هذه المدرسة بقوله : « كنت ألازم الأطفال من الصباح الى المساء . ولم أدع فرصة يستعان بها على إنماء أجسامهم وعقولهم إلا انتهزتها . وكانت يدى الى أيديهم فى كل عمل وساقى تصحب سيقانهم فى كل حين . وكنا نقتسم الطعام والشراب ، ونمشى فى الحقول والزرع نستنشق طلق الهواء ، وكنت أحس الصحة والعافية ما داموا فى صحة وعافية » غير أن بستالوتزى لم يكن فى هذه المرة بأحسن حظا منه

فى المرات السابقة ، فلم تمض خمسة أشهر حتى اتخذ جنود فرنسا مدرسته مستشفى للجرحى فغادرها آسفاً .

لم يقف نشاط بستالوتزى عند هذا الحد ، بل أتيحت له الفرصة ليكون معلما فى مدرسة برجدورف . وقد وجد فى هذه المدرسة مجالا أوسع لتطبيق تجاربه ، وأفكاراً جديدة ، فقد ذهب الى أن الطفل مزود بقوى ومواهب ، وأن وظيفة المدرس هى إنماؤها . وذهب الى أن معارف الأطفال تأتى اليهم من طريق حواسهم ، فلا بد إذاً من تنمية هذه الحواس ، حتى يكون فهمهم لما يحيط بهم صحيحا . وهكذا نجد نظرياته التربوية قد صارت أشمل مما كانت عليه من قبل . ولم يلبث فى هذه المدرسة الجديدة أن حبب إليه التلاميذ فتعلقوا به ، مما أثار الحسد فى نفس الناظر فتخلص منه .

كل هذا لم يقض على آمال بستالوتزى ولم يثن من عزمه . وها نحن أولاء نجده فى سنة ١٨٠٥ شريكا فى معهد ايفردون ، وكان فى هذه المرة أكثر توفيقا؛ فقد وفد اليه التلاميذ من جميع أنحاء أوربا . وتنبه كثير من الحكومات لطرقه فى التعليم وإصلاحاته الاجتماعية ، فأرسلت أبناءها ليتلقوا تعاليمه ، وهكذا ظل بستالوتزى فى معهده عشرين عاما انتشرت فيها آراؤه ، ولكن فى النهاية دب الخلاف بينه وبين زملائه ، فترك المعهد ، ورجع الى نيوهوف موطن شبابه .

كانت حياة هذا الرجل سلسلة من المخاطرات فى سبيل الفقراء ، وحرية الشعب . فقد عمل وعلم وكتب وأنفق المال والجهد . وخلد له تاريخ التربية آراء لا تزال معالم يهتدى بها المربون ؛ ونادى بضرورة أن يتعلم الطفل بنفسه وعن طريق تجاربه ، حتى تنمو مواهبه وتكمل فرديته .

وبستالوتزى هو الذى نادى بأن تكون تربية الفقراء غير مانعة لهم من أن يعيشوا فى ظروف الفقر التى نشئوا فيها . وقد أراد بهذا أن تكون المدرسة إعداداً للحياة الخارجية ، والظروف الواقعية .

ثم عاش بستالوتزى للفقراء ، وأحب الفقراء ودافع عنهم . وكان فى طليعة القائلين بأن أى إصلاح لا يمكن أن يقوم إلا على تربية الجمهور ، وأن تعليم هؤلاء لا يجدى ما لم يكن مصحوبا بالحب والعطف .

عاش هذا الرجل ، وضحى وعمل ، وكتب ونشر فى سبيل التربية الشعبية الأولية . ولما مات كتب على قبره :

« بذل كل شىء فى سبيل غيره ، ولا شىء لنفسه »

عبد العزيز عبد المجيد

لوح الحياة

كل شيء مسطر مكتوب
وهو لوح من الورى محجوب
فيه هدى للنفس وهدى المحبوب

* * *

خط ما خط من سطور القضاء
لا تحاول إبداله بالبكاء
فالأواتى مقدرات تصير
والمواضى والحادثات سطور
شقت دربا بأمره لا تحو —
ل ، لا تطول ردها ، لا احتيالا

* * *

كذلك راح عمر بن الخيام ، الشاعر الفلكى الفارسى يطلق لتأملاته العنان ، وهو يطل من ثغرة خيمته المصنوعة من وبر الإبل ، وكذلك حاول أن يصور فى القرن الحادى عشر ، آواتى الحياة ومواضى الأيام ، فرفع بصره إلى الملاء ، وأجال طرفه فى النجوم والأقمار ، من « كل سار وغاد » وتشبههن هاغات فى « الفلك الدوار » « فاعتراه الدوار » أمام تلك القدرة الفائقة ، التى جعلت « هذى الحياة كالجوكان [1] » ونحن فيها :

تلك الكرات والخيال
هو رب القضا وهذا المجال

فتخشعت نفسه أمام ذلك « الخيال » الذى لا تدرك مدى قدرته أبصار الخلائق ، ولم يسعه إلا أن يقول :

فلنسلم له تسليما
فهو من كان بالضمير عليما
منذ كانت هذى البرايا سديما

وأدرك أن ذاك الذى كان بالضمير عليما ، يعرف أننا لا نستطيع علم الأشياء الغائبة إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة ، ولذلك لا يمكن أن تكون يده التى أعدت لنا لوح الحياة ، يداً مستبدة عاتية ، فإنها لا تسطر خطوط ذلك اللوح ، قبل أن نحيا هذه الحياة ، وكذلك يجب أن نوقن بأن الحظوظ وطوالع النحس ، لا تتصرف فينا ، إلا بقدر انقيادنا الأعمى لها ، واتباعنا بما ترسمه لنا ، وأن الذى نشكوه من نكود الحظ العاثر ، أو نحوس الطالع ، دليل جحودنا قدرة « رب القضاء » ولا ينبغى أن نعزوه إلى « النجوم والأقمار » . وينصحنا الخيام بأن « نعد أمثالا » وبأن نعلم أن الصنع متصل بالصانع أبداً ، وأن كينونة العوالم غير المنظورة توجهنا وتسدد خطواتنا ، وتسهر على حركاتنا وسكناتنا ، ولا تأخذنا بالجبرية فالإساءة والإحسان ، وكل ما يختلف علينا من النقم والنعم ، من فعلنا ، بل إن جميع ما يعرض لنا فى الدنيا من إيلاء وبلوى عمد أو اتفاق ! أو ليس الخيام هو القائل : « لقد بعثت إلى روحى فى العالم غير المنظور ، رسالة عن الحياة المقبلة لكى تقرأها فعادت إلى روحى بعد قليل وقالت : إنى أنا نفسى الجنة ، وأنا النار »

حقاً أن كل يوم من أيام حياتنا هو وحدة كاملة نحياها حياة مستقلة تامة ، ومتى انقضى ذلك اليوم سجلت سطوره فى لوح الماضى الأبدى ، الذى لا يمكن أن تنمحى منه كلمة أو حرف واحد . وها هى سنة جديدة ، قد سطعت علينا بإشراقها منذ أيام لتضاف إلى لوح وجودنا ، فهل يستطيع كل منا أن يقطع على نفسه العهود فى غضونها فيقول :

« إنى سأبدأ من جديد فى هذا الصباح ، فأصطنع لحياتى دستوراً أسمى وأنقى من ذلك الذى اتبعته فى سالف أيامى ! .

وسأثنى عزمى عن الوقوف ، لتعقب سقطات جارى ، وتتبع هفواته ، وترصد عثراته وإعلانها للملأ بالصوت الجهير .

(١) « الجوكان » اسم لعبة فارسية هى لعبة الصولجان (البولو) التى أخذها الانجليز عن الفرس وأغرموا بها

وسأحبس عنانى وأغل خطاى عن الجلوس ، للانصراف إلى التبرم والتذمر ، وسد أذنى عن الاستجابة للصوت الذى يدعونى إلى واجبى في صراحة ولين وحسم . ولن أضيع لحظة فى الرثاء والعويل ، ولن يعرف قلبي الوجل والنهيب .

وسأجيل الطرف حولى فى أحايين ، منقباً عن الآثار المحمودة ، والمناقب المشكورة التى يشيع بالثناء خبرها ، ويحمل فى الصحائف ذكرها ، وسأبحث عن الروائع التى تغيب عن بصر كل متأفف متسخط ! !

وسألتمس أسباب الرضى فى المسالك المحتومة التى لا تنطلق نفسى لاجتيازها ، وتجتوى مشارفها .

وسأتجنب الإحساس بالامتعاض والحنق حين أرى أن الآخرين قد سبقونى فى العلم والفضل ، وأربوا على .

ولن أدب لمنافسىّ فى قلبى عقارب الحسد ، وأبرز لهم صفحة المباراة ، لأنهم قد بلغوا المنزلة التى اشرأبت إليها أعناق الأمانى ، بل سأصفهم أجمل وصف ، وأذيع مفاخرهم ، وأطنب فى ممادحهم وفضائلهم ، وأقضيهم حق اللهج بها وأؤديهم مفترض إذاعتها ، وسأجاهد لكى أجرى معهم حثاً فى عنانى ، وأثبت أنى من أكفائهم وعدلائهم . وسأحاول أن أبصر على الدوام الجمال الماثل أمامى فى الصحو والغيم ..

وسأكف عن تقريع الغير والإقبال عليه باللوم ، والإلحاح فى مناداته إلى واجبه وإظهاره عليه ، لأزداد عناية بمعرفة واجبى ، مذكرة نفسى بقول الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا

كى ما تصح به وأنت سقيم

ولقد قال الخيام الذى انصرفت فى هذا الصباح النامى إلى تلاوة سيرته

فاغتنم فرصة البقاء فإن الـ

موت ما عود الفتى إمهالا

فما أحرانا بأن نغتنم فرصة هذا البقاء لكى نحيا حياة نافعة .

ما أحرانا بأن نمد يد العون إلى مجاهد نبيل أدركه فى كفاحه العثار والخوار كى نمكنه من استرداد أداة دفاعه ليستأنف اجتهاده المقدس !

ما أحرانا بأن نستعير من الشمس شعاعها كى تنفذ إلى بعض النواحى المظلمة فى وجودنا قبل أن يخط ما يخط من سطور القضاء فى اللوح المحجوب ولا نملك حولا ولا طولا لمحاولة إبدال الياء فيه بياء .

قال تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى » .

(الزهرة)

(٦) الأشعار الأندلسية

وعلاقتها بالأشعار الأوربية

رأى المدرسة الأسبانية

فى هذه الظروف السياسية المضطربة عاش ابن قزمان وكان بطبعه حساساً قابلا للتأثر بكل ما يحيط به ، وكان كذلك متداخلاً ميالا إلى المغامرة ، غير هياب من الإلقاء بنفسه فى معترك الحياة ، ولم يكن حاله بأحسن من حال معاصريه من حيث الشغف بالمتعة والميل إلى الإسراف فى اللذة وعدم الاكتراث بمصير الجماعة التى كان يعيش فيها . وكانت الجماعة القرطبية قد تطورت تطوراً ظاهراً خلال فترة الطوائف وتحت حكم المرابطين ، شملهم الأمن فترات متقطعة طويلة أو قصيرة ، وارتفعت منهم مطامع الثائرين والمتنافسين والنصارى وكان قد هاجر إليها نفر كبير من سروات الأندلس وأهل السلطان الذاهب فى كثير من المدن الأخرى ، هاجروا إليها بمالائهم وأموالهم ، وأخذوا يحيون حياة فراغ واستمتاع ؛ وكان فى قرطبة إذ ذاك ألوان شتى من المتاع أهمها النساء والخمر . فأما النساء فقد كانت تقبل على البلد جماعات لا حصر لها من الجوارى من كل صنف ولون . كان تجار الرقيق يحملون إلى البلد أطيب ما يصل إليهم من السبايا القشتاليات ، والكتلانيات ، والجليقيات والإيطاليات والبربريات ، فكثر الجوارى فى كل بيت ، وأخذ سادتهن يعلمونهن الغناء والرقص ، ويعدونهن للمتاع والتسلية ، فكان لكل سيد فى هذا العصر حريم صغير أو كبير فيه من المغنيات وصاحبات اللهو نفر كبير ، واستتبع ذلك الإسراف فى الجوارى إسرافاً فى الخمر . وأهل الأندلس معروفون منذ أقدم أيامهم بحبهم للخمر وتفننهم فى صناعتها ، وفى التغنى بمجالسها والتمدح فيها ، فلما سقطت خلافة قرطبة ، وزال عنهم سلطان الدولة أسرفوا فيها إسرافاً بالغاً ، وانعقدت مجالسها فى منازل المترفين والأوساط كل ليلة : يشرب السادة فيسرفون فى الشراب ، وتغنى الجوارى فيبدعن فى الغناء ، وتتصل أصوات المعازف من بيت لبيت ، ويتجمع الصبية والطغام والمارة على قوارع الطرق ينصتون ويرددون ، ويسود البلدة كلها فى الليل جو من المرح والمتعة والإباحة لم تشهده فيما سبق من تاريخها .

هذه المجالس الماجنة كانت فى حاجة إلى ما تتغنى به . فأما القصائد العربية القديمة فلم يكن لهم إليها ميل شديد ، بل كانوا يكرهون الإعراب فى أغانيهم ويؤثرون عليه « البلدى الغريب » كما يقول ابن قزمان نفسه ، وكانت الجوارى لا يحسنَّ حفظ القصائد الفصيحة أو إلقاءها ، وكان صبية الشوارع لا يستطيعون ترديدها . وإنما تعلقت الأنفس بالأزجال العامية والموشحات البسيطة المعنى الأندلسية الروح السهلة الحفظ والتلحين والإنشاد ، فبدأت موجة هذين الفنين الشعريين تعلو وتنافس فيهما أرباب الشعر ، بل أخذ الكثيرون من الشعراء يهجرون الشعر الفصيح والموشح المعرب إلى الزجل العامى البسيط .

فى مقدمة هؤلاء الذين هجروا الشعر إلى الزجل أبو بكر محمد بن قزمان ، وكان كما ذكرنا شاباً مترفاً فيه ميل شديد إلى اللهو والعبث ، وكانت له نفس وثابة تحدثه بالشهرة والتفوق ، فأخذ يقرض الشعر المعرب ، ولكنه أحس أنه لن يوفق فيه إلى نجاح كبير ، فانصرف إلى الزجل العامى ، وكان عليه أقدر ، ولما كان بطبعه مستهتراً فقد أخذ يضفى على أزجاله لوناً مستهتراً ، فوجد هذا الفحش قبولا من الناس ، فمضى فيه وأسرف إسرافاً شديداً ، وأخذ يضع أزجالا ، فيها من المجاهرة بالمنكر والتصريح بالفحش قدر يجرح الذوق السليم وينفر الحياء ، وليس إلى الشك سبيل فى أن ابن قزمان هذا هو غير ابن قزمان الذى تذكر المراجع أنه كان وزيراً للمتوكل بن هود ، لأن

المتوكل توفى سنة ١٠٩٥ أى وابن قزمان الزجال بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة من عمره ، ولا يمكن أن يكون قد تولى الوزارة قبل هذه السن ، ولا أدرى كيف خفى هذا على دوزى فى خطابه الذى أرسله إلى البارون فن روزن وأكد فيه أن ابن قزمان الزجال وابن قزمان الوزير هما شخص واحد ، معتمداً فى ذلك على عبارة لابن الخطيب يقول فيها «... ... ثم جرت عليه — أى على ابن قزمان ، محنة بسبب شكاسة خلق كان به شق بسببها وقد ذكر ذلك الفتح فى قلائده» وهى عبارة ليست من الصراحة والوضوح بحيث تسمح للانسان بالقطع فى هذا الموضوع . على أى الأحوال ثبت لنا الآن بصورة لا تقبل الشك أن ابن قزمان الوزير هو غير ابن قزمان الزجال ، وقد أطلعنى زميلى الأستاذ عبد العزيز الأهوانى على عبارة صريحة لابن سعيد لا تسمح بأى شك فى هذا الموضوع بعد ذلك ، وقد لاحظت فى كتابات الأسبان أنهم يعرفون هذه الحقيقة منذ سنوات فحددوا بالتنبيه بلقب ابن قزمان فى كتابه بالشاب أو الأصغر تفرقة له عن ابن قزمان الأكبر وهو الوزير . أما تسمية ابن قزمان لنفسه وتلقيب الناس إياه بالوزير فهذا لا يعنى شيئاً ، لأن هذا اللقب وغيره من الألقاب التى كانت معروفة حينئذ كالفقيه والأستاذ والحاجب ، كانت قد فقدت كل قيمة رسمية ، وابتذلت حتى تسمى بها كل من هب ودب من الناس ، وقد قرر المقرى ذلك فى نفح الطيب صراحة .

تصف المراجع ابن قزمان الزجال بأنه كان أشقر أحمر الشعر واللحية والشارب ، وقد أراد ريبرا أن يعلق على هذه الأوصاف أهمية خاصة ، فذهب إلى أنه من أصل قوطى ، وإلى أن هذا الأصل القوطى هو السر فى اتجاهه الشعرى الخاص ، وهو اتجاه مهما يكن من مشابهته لما كان ينظم فى وقته إلا أنه على كل حال فريد فى بابه غير مألوف عند العرب والمسلمين ، بل هو أقرب إلى روح الأشعار والقصائد التى كانت شائعة فى شمالى أسبانيا وجنوبى فرنسا والتى تطورت منها فيما بعد أشعار المغنين الجوالين المعروفين بالتروبادور ، ولكن هذه حجة واهية ظاهرة التكلف ، لأن الشقرة واحمرار الشعر كانا من الأوصاف الشائعة بين مسلمى الأندلس ، فقد كان الكثيرون منهم من أمهات شُقر ، ثم إن النقاد ومؤرخى الأدب تولوا دحض هذا الرأى من الوجهة الشعرية الصرفة ، فذكر جورج كولان فى مقال له فى الهسبريس أنه مع موافقته على أن أزجال ابن قزمان تمثل منزعاً جديداً غير معروف فى الأدب العربى ، إلا أنها على كل حال لا تعيننا على إيجاد حلقة الاتصال بين الأشعار الأندلسية وأشعار التروبادور ، بل إن للأندلسيين موشحات وأزجالاً هى أقرب إلى أن تكون أصل أغانى التروبادور من أزجال ابن قزمان هذا ، لأن أزجاله المسرفة فى الفحش بعيدة فى روحها من روح أغانى التروبادور بما تمتاز به من احتشام ، ولكن أزجال رجل كالأخطل ابن نمرة وأقاصيص ابن حزم التى أوردها فى «طوق الحمامة» أقرب فى روحها إلى الأشعار الأوربية التى نشأت بعد ذلك بقليل من أزجال ابن قزمان . فكولان ومن على رأيه من نقاد الأدب يقررون أن موشحات الأندلسيين وأزجالهم هى أصل أشعار التروبادور ، ولكنهم ينكرون أن ابن قزمان يمثل هذه الأزجال الأندلسية ، إنما يمثلها فى رأيهم ابن زهر فى غزلياته القليلة وأبو الهيثم الأشبيلى وأم الكرام بنت المعتصم صاحب المرية ، وإبراهيم بن سهل اليهودى ، بل إن السيو كور ناشر ديوان ابن زيدون وجارثيا جوميز مترجم قصائده إلى الشعر الأسبانى يريان فى ابن زيدون وأترابه الأصل البعيد لشعر التروبادور ، لأن فيها وقاراً وتسامياً يقربانها من الحب المحتشم Amour courtois الذى يشيع فى الأشعار التى ذاعت فى جنوبى أوربا ابتداء من القرن الثانى عشر

(للبحث بقية) حسين مؤنس

خطابات إلى شاعر ناشىء

كتبها الشاعر الألمانى رلكه

(١٨٧٥ — ١٩٢٦)

ترجمها الدكتور أبو ريدة

مقدمة

في يوم من أخريات أيام الخريف من سنة ١٩٠٢ كان يجلس في ظلال أشجار الكستناء العتيقة بحديقة الأكادمية الحربية بمدينة ڤينا فتى لم يبلغ بعد العشرين ، اسمه فرانتز كسافر كپس ، شاءت له الظروف أن يستعد لأن يكون ضابطا ، على حين كان ميله إلى الشعر أقوى من ميله للجندية .

انتحى الفتى من حديقة الأكادمية هذه الناحية يشبع شوق نفسه بقراءة كتاب يحوى قصائد للشاعر الألمانى رينر مريا رلكه (Rainer Maria Rilke) . وقد بلغ من شدة استغراقه في القراءة أنه لم يكد يتنبه لمجىء قسيس الأكادمية إليه ، وهو العلامة الفاضل هوراجيك ، الأستاذ الوحيد الذى لم يكن في سلك الضباط بين أساتذة الأكادمية .

أخذ الأستاذ الروحى الكتاب من يد الفتى ، ونظر غلافه ، فهز رأسه وسأل في روية : أشعار مريا رلكه ؟ ثم أخذ يقلب صحائف الكتاب ويقرأ بعض الأبيات قراءة هي أشبه بمرور الطائر ، ثم أرسل بصره في الفضاء البعيد متفكراً وقال : هكذا صار الطالب رينر مريا رلكه شاعراً .

قص القسيس على الضابط التلميذ قصة رينر مريا رلكه ، ذلك الفتى النحيف الباهت اللون الذى بعث به أبواه منذ أكثر من خمسة عشر عاما إلى المدرسة الحربية الاعدادية في سانكت بولتن غير بعيد من ڤينا كى يتخرج ضابطا . وكان هوراجيك في ذلك الحين يقوم بوظيفة أستاذ روحى في تلك المدرسة ، ولكنه رغم طول العهد كان لا يزال يذكر ذلك الفتى رلكه تماما ، يذكر أنه كان شابا هادئا عظيم الكفاية يؤثر أن يقف من زملائه جانباً ويحتمل صابراً كل ما في حياة الطالب الداخلى من قيود ، ويذكر أيضاً أنه بعد أربع سنين انتقل مع غيره إلى المدرسة الحربية الثانوية في إحدى مدن بوهيميا ، وهناك تبين أن جسم الفتى لا يقوى على احتمال الأعباء الحربية فأخرجه أبواه من المدرسة الحربية كي يواصل دراسته الأخرى في بلدهما براج . وإلى هنا انتهت حكاية هوراجيك للظروف الخارجية لحياة رلكه .

كان طبيعيا أن يقرر كپس في تلك الساعة إرسال محاولاته الشعرية إلى رلكه يطلب رأيه فيها ، وكأنما أحس بمناسبة روحية بينه وبين رلكه لأنه كان يشعر أن ميوله تعارض المهنة الحربية أشد المعارضة ، فرجا أن يجد عند رلكه ، الذى بدأ حياته ضابطا لكنه انتهى بأن صار شاعراً ، ما يشعر بحاجته إليه من العطف إن كان يأمل أن يجد ذلك عند إنسان ما . ولقد فاض عن نفس الفتى خطاب إلى رلكه أرفقه بأشعاره ، وأفضى له فيه بأسرار نفسه دون تحفظ وعلى نحو لم يصرح به لأحد قبل ذلك ولا بعده .

وقد انتظر الفتى أسابيع كثيرة حتى جاءه الرد ، وكان خطابا ثقيل الوزن يحمل ختما من باريس ، وعلى غلافه خط واضح جميل يدل على هدوء الكاتب وثقته واتزانه . وهكذا بدأت مراسلة منتظمة بين كپس الذى صار شاعراً وأديباً وبين رينر مريا رلكه واستمرت حتى عام ١٩٠٨ ، ثم تراخت حبالها شيئاً فشيئاً لأن الحياة ساقت فتانا إلى طرق كان رلكه يود بعناية رقيقة حارة مؤثرة أن يقيه إياها .

وبعد أن انقضت على انتهاء هذه المراسلة أكثر من عشرين سنة نشر كپس عشرة خطابات من التى بعث بها إليه رلكه ، وهى عظيمة الدلالة على روح هذا الشاعر الألمانى العظيم وعلى العالم النفسى الذى كان فيه يعيش وينتج كما أنها نافعة جداً لكثير من الشعراء والأدباء

الناشئين . ورغم أن خطابات كبس ليست بين أيدينا فإننا نستطيع أن نستشف موضوعها من وراء كلمات رلكه إن حاولنا إدراك مراميها وتنبهنا إلى دقائق ما تحويه من آراء ومشكلات لا تخلو منها حياة إنسان ناشىء . وأحب أن أعرض للقراء هذه الخطابات التي كانت في بعض سني الغربة الطويلة غذاء نفسياً لي وسلوى من كثير من الآلام.

الخطاب الأول

باريس في ١٧ فبراير ١٩٠٣

أيها السيد المكرّم

لم يصلني خطابك إلا منذ أيام قلائل ، وأريد أن أشكرك على ما تضمنه من ثقة كبيرة كريمة ؛ غير أني أكاد لا أقدر على أكثر من الشكر ، فأنا لا أستطيع أن أتناول خصائص أشعارك بالبحث الدقيق لأني أبعد ما أكون من القصد إلى النقد ، إذ لا شيء أبعد من فهم العمل الفني من كلمات النقاد ، لأنها دائما تتضمن سوء فهم يختلف حظه من التوفيق ؛ وليست الأشياء كلها في متناول إدراكنا وتعبيرنا كما يُراد في كثير من الأحيان إقناعنا بذلك ، بل إن معظم الحوادث العميقة في نفوسنا لا يمكن وصفها لأنها تحدث في مجال لم تطأه أقدام الألفاظ قط . وأعصى ما يكون أمام الألفاظ هي المبتكرات الفنية ، تلك الكائنات المحوطة بالأسرار والتي لا تزال تبقى بعد انقضاء حياتنا الفانية .

فأنا إذ أقدم هذه الملاحظة بين يدي خطابي ، أود رغم ذلك أن تسمح لي بأن أقول لك إن أشعارك ليس لها بعد طابع خاص يميزها ، هي بالأحرى مبادىء هادئة مستترة للتعبير عن شيء شخصي يميزك ، وأوضح ما أشعر بذلك في القصيدة الأخيرة التي عنوانها (روحي) . هنا ألمح شيئاً خاصاً بك يريد أن يتخذ لنفسه عبارة وصورة يظهر فيهما ، وربما يكون في القصيدة الجميلة التي توجهها إلى ليوباردي[1] شبه يتجلى بينك وبين هذا الشاعر العظيم المتوحد . ولكن قصائدك ليس لها رغم ذلك طابع خاص هي ليست شيئاً مستقلا بذاته ، حتى القصيدة الأخيرة والقصيدة الموجهة إلى ليوباردي . وإن خطابك الكريم الذي أرفقته بأشعارك لا يفوته أن يعلل لي بعض النقص الذي أحس به عند قراءة أشعارك والذي لا أستطيع مع ذلك أن أعبر عنه بالألفاظ .

إنك تسألني إن كانت أشعارك جيدة ، تسألني أنا ، وقد سألت آخرين قبل ، ثم إنك تبعث بها إلى المجلات ، وتقارنها بأشعار أخرى ، ويقلقك أن ترفضها بعض هيئات التحرير . والآن ، بما أنك قد سمحت لي أن أنصحك ، فإني أرجوك أن تترك هذا كله ، إنك تنظر إلى الخارج ، وهذا بنوع خاص ما ينبغي ألا تفعله الآن . لا أحد يستطيع أن ينصحك أو يساعدك ، لا أحد ؛ وليس أمامك إلا طريق واحد : أدخل إلى نفسك وابحث عن السبب الذي يدعوك إلى الكتابة ، وتحقق مما إذا كانت أصوله ممتدة إلى أعمق مكان في قلبك ، تحقق من أنك لا بد أن تموت إن حيل بينك وبين الكتابة ؛ اسأل نفسك قبل كل شيء ، في أهدأ ساعات الليل هذا السؤال : هل لابد أن أكتب ؟ ونقب في نفسك عن إجابة عميقة ، فإذا جاءت هذه الإجابة مُقرّة لك على ذلك ، وإذا استطعت الإجابة عن ذلك السؤال الخطير بعبارة بسيطة قوية هي : لابد أن أكتب ، إذاً فابن حياتك طبقاً لهذه الضرورة القاهرة ، ويجب أن تكون حياتك حتى في أقل ساعاتها شأناً وأضعفها اهتماماً ، يجب أن تكون شاهداً وعلامة على هذه الرغبة التي تدفعك . بعد ذلك اقترب من الطبيعة ، وحاول أن تعبر عما ترى وتحس ، عما تحب وتفقد ، كأنك أول إنسان يفعل ذلك ، وتجنب أن تكتب أشعاراً غرامية ، وتجنب أولا أنواع الشعر الجاري المألوف فهي أصعب أنواعه ، وإن ابتكار شيء جديد خاص ، حيث توجد مأثورات غزيرة جيدة بعضها باهر ، يقتضي قوة كبيرة ناضجة ؛ ولذلك فلتتخلص من

(١) شاعر إيطالي عاش بين ١٧٩٨ و ١٨٣٧ وهو من أكبر الشعراء المتألمين في القرن التاسع عشر وقد ساقته ظروف حياته إلى اليأس والتشاؤم .

الأغراض الشعرية العامة ولتقصد نحو ما تعرضه لك حياتك اليومية ، فصِفْ أحزانك ورغباتك وأفكارك الجارية السريعة وإيمانك بأى نوع من أنواع الجمال ، صف ذلك بإخلاص هادئ ، عميق متواضع ، واستعمل فى تعبيرك عن نفسك ما تجده حولك ، استعمل صور أحلامك ومادة ذكرياتك ؛ فإذا بدت لك حياتك اليومية فقيرة فلا تلُمْها بل لُمْ نفسك ، وقل لنفسك إنك لست بعدُ شاعراً لهمن ملكة الشعر ما يكفى لإدراك ما فى الحياة اليومية من كنوز ؛ ذلك أنه لا فقر بالنسبة للشاعر المبتكر ، وليس ثَمّ مكان فقير لا يثير الاهتمام . ولو أنك كنت فى سجن لا تدع حيطانه شيئاً يصل إلى حواسك من ضوضاء العالم الخارجى أليس لا يزال عندك بعد ذلك طفولتك ، تلك الثروة الملوكية الجميلة وذلك الكنز العظيم من الذكريات ؟ وجّه اهتمامك إلى هذا وحاول أن تستخرج الإحساسات التى غرقت وتوارت فى ذلك الماضى البعيد ، وهكذا ستقوى شخصيتك وتتسع وحدتك التى تشعر بها حتى تصير لك مأوى تمُرّ ضوضاء الآخرين بعيداً عنه . وعند ذلك فإذا خرجت أشعار من هذا الاتجاه إلى داخل نفسك ومن الغوص فى العالم الداخلى فيك فلا تفكر فى أن تسأل أحداً إن كانت أشعارك هذه جيدة ، ولا تحاول أن تجعل المجلات تهتم بها ، لأنك ستجد فيها ثروتك الطبيعية العزيزة وقطعة من حياتك وصوتاً لها . إن العمل الفنى يكون جيداً وذا قيمة إذا فاض من صاحبه ضرورة ، وقيمته والحكم عليها إنما يكونان بحسب صدوره على هذه الصورة لا بحسب شىء آخر . لذلك لا أعرف أيها السيد الكريم ما أنصحك به غير هذا : وهو أن تدخل إلى نفسك وتفحص الأعماق التى تنبع منها حياتك وفى هذا النبع ستجد الإجابة عن سؤالك : هل يجب أن أنتج ؟ خذ هذا الجواب كما هو بلا تأويل ، فربما تبين أنك مستعد ومُقدَّر لك أن تكون فناناً ، وعند ذلك فلتأخذ الأمر على عاتقك ولتحمل عبئه وعظمه دون أن تسأل أجراً قد يأتيك من الخارج ، لأن الفنان المنتج يجب أن يكون عالماً قائماً بذاته وأن يجد كل شىء فى نفسه وفى الطبيعة التى يعتبر نفسه جزءاً منها .

وربما اضطررت بعد الغوص فى نفسك وفى وحدتك إلى الزهد فى أن تكون شاعراً ، إذ يكفى كما قلت لك أن يشعر الإنسان بعدم قدرته على الحياة إن لم يكتب ، وإلا فينبغى ألا يكتب قط ، ولكن هذا الرجوع إلى نفسك ، وهو ما أرجوك أن تفعله ، لن يكون فى هذه الحالة سُدًى . ومهما كان الأمر فإن حياتك ستجد من عند هذه النقطة طريقها الخاص ، وإنى لأرجو لك أن يكون هذا الطريق خيراً غنياً فسيحاً فوق ما أستطيع أن أعبر لك .

ماذا عسى أن أقول لك بعد ذلك ؟ يظهر لى أنى قد أكدت ما أقوله بقدر ما ينبغى له من التأكيد . وأحب أخيراً أن أنصحك أيضاً بأن تنمو فى تطورك هادئاً جاداً ، ولا شىء يكدر عليك هذا النمو تكدراً شديداً أكثر من أن تنظر إلى الخارج وتنتظر الإجابة عن الأسئلة التى لعلك لن تجد الإجابة عنها إلا فى أعماق شعورك عند أهدأ ساعاتك .

لقد سرّنى أن أجد فى خطابك ذكر الأستاذ الفر هوراجيك ؛ فإنى أُكنّ لهذا العلامة الجدير بالحب إجلالاً كبيراً وشكراناً يدوم مع السنين ، فأرجوك أن تبلغه شعورى هذا ، ومن كبير البرّ أنه لا يزال يذكرنى ، وهذا ما أقدره منه حق التقدير .

أما الأشعار التى تفضلت بأن عهدت بها إلىّ فإنى أعيدها مع هذا إليك ، وأشكرك مرة أخرى لثقتك القلبية العظيمة . وقد حاولت بهذه الإجابة الخالصة ، التى أبعثها إليك بحسب خير ما أعرف ، أن أكون أكثر استحقاقاً لثقتك مما أنا بالفعل ، أنا الرجل الغريب عنك .

مع عظيم الإخلاص والعطف

رَيْنَرْ مَريا رِلْكه

(يتبع)

أحـــرار

وافت الاجازة فذهبت إلى القرية . ذهبت مشوقة إلى ريف جميل هادئ، تنسم فيه الحياة أجمل أنسامها ويخصه الله بأحسن ما يخص به مكاناً من أرضه .. ريف فطرى لم تلوثه الحضارة بقطعة أناس فطريون بلا فوت بما فى قلوبهم .. إنهم لم يتعلموا الذوق وآداب الواضعات ، وحبذا ذوقهم وحبذا أوضاعهم .. ثم لم يتعلموا كيف الخداع، ولم تلقنهم الحضارة كيف النفاق ، فعاشوا صرحاء . ذهبت إلى هؤلاء بعد أن خلصت من نفسي تقلب المدينة حتى أضطرب مع القوم فأستريح معهم وأرتع . ويتندر بالقرية المتعلمون فإن وجدوا ذهبوا إلى المدينة يلتمسون بها (تراب الميرى) . فها أنت ذا ترام يسلكون الحياة من أقصر سبيل وأسهله ، ولكن قد رزق الله القرية التعلم اللازم لها .. وكان أن رزق الله قريتنا فرداً من هذا الطراز ، وهو أديب شاعر وهو صديق الوحيد بالقرية ، وهو ذو نفس شفافة له شعر سهل يهدف إلى ما يريد فى أقصر طريق وأجمل لفظ ، وتعودت عند ذهابى إلى القرية أن أذهب إليه من فورى ، فهو فوق ما وصفت جذاب فى حديثه غير متكلف فى أسلوبه ولفظه .

لاقانى ببشر وترحاب ثم أخذنا فى السمر فقال :

— الحمد لله على سلامتك .. أو تاهيك القاهرة عنا هكذا ؟ .. معك حق . فهناك الحياة الجميلة وهناك الفن ومجالس الأدب . وهناك المكتبات تمدك بما تريد من كتب .. أما هنا فالقذارة والجهل والحياة الجدبة والمجالس التى تتلقى أخبار القاهرة وكأنها أقصى ما وصلت إليه الحضارة .

— لا والله فالحياة الجميلة عندكم ، فقد امتدت الحضارة فى القاهرة إلى نفوس القوم فجعلت منهم الناقمين والناقدين .. امتدت إلى نفوسهم فطوقتها بسياج لبس لها منه فكاك .... بعدنا هناك (الإتيكيت) والذوق والبروتكول .. والحضارة . ألا حبذا ريفكم !

— ألا حبذا مدينتكم أنتم .. مدينة النور مشعاً كالكوكب الدرى .. مدينتكم حيث يتسرب الماء داخل الجدران ثم تتحكمون فيه .. مدينتكم ياسيدى أتكرهها! وتدعى أن الريف خير منها وأن هؤلاء القوم العراة جسومهم البلهاء وجوههم ، هؤلاء القوم خير من شبان المدن الذين يضمخون أنفسهم بالأريج الذكى ، ويقصون ملابسهم مبرزة معالم جسومهم ، ويهدلون شعورهم فوق جباههم ، فتزيدهم روعة على روعتهم وتكسبهم جمالا على جمالهم .. لا ياسيدى إنى أراك متحاملا وإلا كيف ..

قطع علينا الحديث تحية مسلمة ألقاها ابن الفلاح يفلح أرضنا ، وكان أسمر الوجه خفيف الظل ، فوددت لو صحبنى إلى القاهرة فقلت له :

— إيه محسن كيف الحال ؟

— رضا .. والحمد لله

— أمسرور من أرضكم ؟

— أجل قد أنتجنا سبعة قناطير من القطن محصولا ثلاثين قيراطاً .

— ألا تود أن تأتى إلى مصر ؟

— فرد الأستاذ الشاعر :

— وهل يتوصل ؟ وكيف له بها .. مصر يامحسن أتفكر ؟

— لا ياعم الحج ... إنى لا أفكر ولا أقبل .

— كيف ؟ مصر ... حيث الكهرباء والسيارات ، وحيث تلبس الملابس الزاهية النظيفة ، وحيث كل شيء .

— نعم ؛ ولكننا هنا أحرار .

— طيب يابنى مع السلامة

نظرت إلى الحاج وقلت له :

— كيف الحال ؟ .

الرجل السعيد

لسومرست موم

من الخطر أن ينظم المرء حياة الآخرين ، ولطالما تعجبت من هؤلاء الساسة والمصلحين وأمثالهم الذين يثقون بأنفسهم والذين هم مستعدون لأن يسنوا قوانين من شأنها أن تغير من أخلاق بني وطنهم وعاداتهم ووجهة نظرهم . ولكم ترددت في إسداء النصح ، إذ كيف يمكن للمرء أن ينصح آخر بما يعمل وهو لا يعرف هذا الآخر كما يعرف نفسه ؟ ويعلم الله أني أعرف القليل عن نفسي ولا أعرف شيئاً عن غيري ، وإن كل ما يمكننا هو أن نحدس ما هي أفكار جيراننا وعواطفهم ، فكل منا سجين في برج منعزل يتصل بسائر السجناء الذين يكونون البشرية بواسطة مصطلحات لا تعني لهم ما تعني بالنسبة إليه . ومن سوء الحظ أن الحياة لا تعود القهقرى وأن الخطأ لا يمكن تصحيحه . ومن أنا حتى أوجه هذا وذاك إلى الطريقة التي يقضون بها حياتهم ؟ إن الحياة عمل شاق ومن الصعب جداً أن أحيا حياة كاملة مستقرة ولم تحدثني نفسي بأن أرشد أحداً عما يعمل في حياته . ولكن من الناس من يتعثرون في بدء الرحلة فتظهر الطريق أمامهم ملتوية خطرة ؛ ومع ذلك فقد حدث أني رغم إرادتي أشرت بإصبع القدر ، وقد كان الناس يسألونني في بعض الأحيان : ماذا سأفعل بحياتي ؟ حينئذ كنت أرى نفسي لفترة وجيزة متنكراً في ثوب القدر المظلم .

لقد عرفت مرة أخرى أني أسديت نصيحة طيبة .

كنت حديث السن وكنت أعيش في مسكن متواضع بالقرب من محطة فيكتوريا بلندن ، وذات مساء بينما كنت على وشك الاكتفاء بما عملت في يومي سمعت رنة الجرس ففتحت الباب لغريب لم أره من قبل ، سألني عن اسمي فأجبته ، وسأل عما إذا كان يمكنه الدخول فأجبته : بكل تأكيد .

وسرت أمامه إلى حجرة الجلوس وطلبت منه أن يجلس ، وظهر ارتباكه قليلاً . فعرضت عليه سجارة لاقى صعوبة في إشعالها دون أن يدع قبعته تسقط . وسألته عما إذا كان من الممكن أن أضعها على كرسي . ففعل هو هذا بسرعة ولكنه أسقط مظلته بينما كان يضعها ثم قال :

آمل ألا تؤاخذني على مجيئي هكذا لرؤيتك إن اسمي « ستيفنز » ومهنتي طبيب . وأظن أنك من الأطباء ؟

قلت : نعم ، ولكني لا أمتهن الطب .

فقال : أنا أعرف ذلك وكل ما هنالك أني قرأت

— إنه جاهل ، منعم نعيم البهائم .

— وهل تنعم البهائم الحرية ؟ ؟ لا يا سيدي . إنه سعيد السعادة التي نطلبها نحن في مصر فلا نجدها ، إنه يعرف أن لا حرية هناك .

— أجل ، لا حرية إذا كان سيعمل كأجير . أما السيد فلديه الحرية .

— لا يا سيدي ، وهل نحن هنا إلا أجير ، ولكنه يدري ما نحن فيه من قيود ، ونفسه لا تقبل هذه القيود .

— أراني سأهزم ، وعلى كل فأنت أدرى بالقاهرة منا .

ولكن لم إذاً يقول المصلحون إنهم يريدون تحسين حال الفلاح ، وإنهم :

— كنت إخالك ستقول هذا . . المصلحون يريدون تحسين حال الفلاح من الوجهة المادية ، وأنا لا أنكر أن حالة المعيشة هنا في حاجة إلى إصلاح . أما إذا قصدوا إصلاح النفوس ، فما أحرانا نحن بهذا الإصلاح .

— إذاً فنحن خير منكم .

— لا شك .

ثروت أباظة

كتاباً لك من اسبانيا وأود أن أسألك عنها .

فقلت : أخاف ألا يكون كتابي غاية في الجودة .

قال : ولكن الحقيقة ستظل أنك تعرف شيئاً عن أسبانيا ولا أعرف غيرك يعرف عنها شيئاً ، وظننت أنه ربما لا يكون لديك ما يمنع من إفادتي عن بعض المعلومات .

قلت : سأكون جد مسرور .

ثم ظل صامتاً لحظة سوى بعدها إلى قبعته وأمسكها بإحدى يديه في ذهول وربت عليها بالأخرى ، ومن ثم تسرب إلى ذهني أنها تكسبه إيماناً وقال :

آمل ألا تظن أنه من العجيب أن يتحدث إليك شخص لم تعرفه من قبل ، ثم ضحك ضحكة أراد بها الاعتذار وقال : إني لست أنوي أن أسرد قصة حياتي عليك وأنا أعرف أنه عند مايقول الناس هذا القول فإن يفعلوا شيئاً غير ذلك ، والحق يقال أني أستحسنه ، وواصل الحديث قائلا :

لقد تولى تربيتي عمتان عجوزان ولم يحدث لي أبداً أن ذهبت إلى مكان أو فعلت شيئاً ، وبرغم أني تزوجت من ست سنين فليس لدى أطفال وأنا أشغل وظيفة طبيب في مصحة كامبرويل ولا يمكنني الاستمرار فيها أكثر من ذلك .

وكان هناك ما يسترعي النظر في هذه الجمل القصيرة الحادة التي كان يستعملها . فقد كان لها رنين قوى ولم أكن قد نظرت إليه إلا نظرة عابرة فبدأت الآن أمعن فيه النظر . لقد كان رجلا صغيراً ملء البدن تقرب سنه من الثلاثين على وجه التقريب . له وجه مستدير أحمر تلمع فيه عينان صغيرتان سوداوان براقتان ، وقد قص شعره الأسود قصيراً لاصقاً برأسه الدبب وكان يرتدي رداء أزرق لا يصلح للبس بأي حال فقد كان مهدلا عند الركبتين له جيوب منتفخة وقال :

وأنت تعرف واجب الطبيب الموظف في مصحة . إن كل يوم كسابقه في كل شيء تقريبا ، وهذا كل ما أنتظره طوال حياتي ؛ فهل تعتقد أن هذا العمل يستحق ذلك ؟

فأجبته : ولكنه طريق لكسب العيش . قال :

نعم أعرف ذلك كما أعرف أن للمال فيه خير كثير .

فقلت : ولكني لا أعرف حقاً ما جاء بك إلى هنا .

قال : لقد أردت أن أعرف إن كنت تعتقد أن في أسبانيا مجالا لطبيب انجليزي .

فسألته : ولماذا أسبانيا ؟

فقال : لا أدري . إنها مجرد خيال عابر .

فقلت له : لعلك تعرف أنها ليست مثل كارمن ، وتبسمت .

قال : ولكن الشمس تشرق هناك ، كما أن هناك نبيذاً جيداً ومناظر ممتعة وهواء تستنشقه . على كل دعني أطلعك على ما أريد أن أقول فوراً . ذلك أني علمت مصادفة أنه لا يوجد في أشبيلية أي طبيب انجليزي . أتظن أنه من الممكن أن أكسب عيشي هناك أم أنه من الجنون أن أطيح بوظيفة حسنة آمنة في سبيل شيء غير مضمون ؟

قلت : وما رأي زوجك في هذا ؟

قال : إنها راغبة .

فقلت : إنها لمخاطرة كبيرة .

فأجاب : إني أعرف ، ولكن إذا قلت لي أقدم فسأفعل ، وإذا أشرت بالبقاء حيث أنا فسأبقى .

لقد كان ينظر إلى في إمعان بعينيه السوداوين البراقتين وتحققت أنه جاد في كلامه ففكرت قليلا وقلت : إن مستقبلك كله مرتبط بذلك ، ولذا يجب أن تقرر بنفسك . ولكن يمكنني إرشادك . ذلك أنه إذا كنت لا تريد مالا وكنت تقنع بما يمسك البدن بالروح ألا ينفصلا فاذهب فستحيا حياة عجيبة .

وتركني الرجل . وظل في ذاكرتي يوما أو اثنين ثم نسيته فقد امحى الموقف من ذاكرتي امحاء تاما . وبعد عدة سنين خمس عشرة على الأقل اتفق أن كنت في

أشبيلية وشعرت بتعب طفيف . فلما سألت البواب عما إذا كان هناك طبيب انجليزى . أجابنى بأنه يوجـد وأعطانى عنوانه ، فأخذت عربة إلى هناك ، وبينما كنت أقودها نحو المنزل خرج إلى رجل صغير ملىء وتردد قليلا عنـد ما رآنى ثم قال :

هل أتيت لتراني ؟ إننى الطبيب الإنجليزى .

ولما شرحت له سبب مجيئى طلب إلى أن أدخل . لقد كان يعيش فى منزل أسبانى عادى بدهليز . وفى حجرة الاستشارات فى نهاية الدهليز انتثرت هنا وهناك أوراق وكتب وأدوات طبية وأثاثات تالفة . إنه لمنظر يفزع منه المريض المتخوف . ولما قضينا أمرنا سألت الطبيب عن أتعابه فهز رأسه قائلا : ليست هناك أتعاب . فقلت : ولم بالله ذلك ؟ قال : ألا تذكرنى ؟ لماذا ؟ لقد جاءت بى إلى هنا كلمات قلتها لى . ولقد غيرت مجرى حياتى بأكمله . فأما استيفنز .

ولم يكن لدى أية فكرة عمن كان يتكلم عنه ، ولـكنه ذكرنى بمقابلتنا وأعاد على سمعى ما كان قـد قاله ، فأخذ الحادث قليلا قليلا وعادت تفاصيله إلى ذاكرتى وقال :

لقد كنت أسائل نفسى عما إذا كنت سأراك ثانية كما كنت أسائلها عما إذا كانت ستسنح لى فرصـة تقديم الشكر على ما فعلته من أجلى

قلت : لقد وفقت إذاً ؟

ونظرت إليه . لقد زاد جسمه الآن امتلاءً وأصبح أصلع الرأس ، ولـكن عينيه كانتا تبرقان فى مرح ، وقد ظهر على وجهه الملىء الأحمر أمارات السرور التام ، وكان يلبس ثياباً كالحة إلى حد مخيف من صنع حائك أسبانى ، وكانت قبعته اسبانية عريضة الجوانب ، ومع أن منظره كان مترهلا فلقد كان مقبولا ، وإنك لتتردد فى السماح له بإجراء عملية لك ، ولـكن لا يمكنك أن تتصور مخلوقا أمتع منه صحبة لشرب زجاجة من النبيذ .

قلت له : من المؤكد أنك كنت متزوجا .

فقال : نعم ! ولكن زوجى لم تحب أسبانيا فعادت إلى كامبرويل حيث ألفت الحياة .

فقلت : إن هذا لما يدعو إلى الأسف

فأبرقت عيناه بابتسامة سكير . فقد كان منظره يشبه منظر سيلينوس الصغير وقال : إن الحياة مليئة بالمسرات .

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى ظهرت أمام الباب امرأة أسبانية . قد تعدت سن الصبا ، ومع ذلك فقد كان فى جمالها جرأة وحيوية ، وكلمته بالاسبانية فعرفت أنها كانت مديرة المنزل .

وبينما كان يودعنى إلى الباب قال لى :

لقد أخبرتنى عند ما رأيتك آخر مرة أنى سأكتسب إذا أتيت إلى هنا ما يمسك بدنى وروحى ألا ينفصلا . ولكنى سأحيا حياة عجيبة . وأريد أن أخبرك أنك كنت على صواب ، لقد عشت فقيراً وسأعيش دائما فقيراً ، ولـكن يشهد الله لقد متعت نفسى ولن أبدل حياتى بحياة أى ملك فى العالم .

(ترجمة) السيد محمد عثمان

بين المسموع والمقروء

فى ضيافة فلاح يابانى

وتابع صاحبنا الأمريكي حديثه . قال :

ونزلت إلى الشاطىء أطلب البحر بعد الحقل ، فوجدت رماله بيضاء ناعمة ، ترتد عنها الشمس فتجهر بها العين . وكانت ناعمة فلا تكاد تجد حصاة فيها . وتدخل الماء فتجد الأرض من تحته تميل قليلا قليلا فى تدرّج صغير طويل . والماء رائق وبه دفء ، وهو يشف عما فيه ، فترى صغار السمك تعوم على قرابة من الشاطىء تستدفىء بشمسه . وتدخل فى الماء أبعد مما فعلت ، فتجد قناديل البحار ، بعضها أرمد اللون لا يؤذى ، وبعضها تجرى فى أجسامه خطوط حمراء ، فهو سام لادغ . وقناديل البحر لها أجسام كالفالوذج . وهى تعوم فتتراءى كالمظلة المفتوحة وقد استرخت أضلاعها . وهى تتموج للسير فى الماء . ومن تحت المظلة ، حيث وجب أن تكون يدها ، تجد بديلا عن هذه اليد ، أصابع كالشرائط رخوة تلعب فى الماء تتحسّس ما فيه .

وكان البحر هادئا فى ذلك اليوم . وهو هدوء قد يغرّ غير عارفه فيحسبه هدوءا فى الطبع لا يتغير . وما هو بذلك ، فتلك السواحل تأتيها الزوابع بغتة فتغدر بمن يكون فى الماء عند ذاك من أغراب يجهلون ، وما يكون على الماء من سفن صغيرة فتنقلب انقلابا . حتى السمك تصيبه الدواهى إذ يقذف به الماء على الأرض الجامدة ، ثم ينحسر عنه وعنها ، ويتركه على الرمل فيعجز عن العودة ، فهو بالطبع لا يتحرك إلا فى الماء .

حدث ذات مرة أن قامت على تلك الشواطىء اليابانية زوبعة ثم هدأت . وحضرت عند هدوئها ، فأغرانى طول السكون وجود الدم فى عروق ، أغرانى على دخول الماء . وكنت عوّاما ماهرا . فلم أخش من البحر غاشية . ومضت العشر الدقائق الأولى فى سلام ، بل قل فى متعة كبيرة . وعرفت كيف أروغ من قاصمات الظهور من الأمواج . فكنت أركب رأس الموجة وهى قادمة ، ويداى إلى جانبى ووجهى إلى أسفل ، ورأسى مرفوع بالقدر القليل الذى يمكننى من أن أرى وأن أستنشق الأنفاس . وتتالى الموج قاهرا قويا قاسيا ، فلم يتخلف قط ، ولم يخطىء قط . وما كان الموج العاتى أن يخطىء . ولكنى أنا الذى أخطأت .

أخطأت فى تقدير الزمن ، فانكسرت الموجة على رأسى ، وكان حقها أن تنكسر على ما دون صدرى . فلم أدر إلا وأنا فى قاع البحر ، وإلا ورأسى يدق أرضه كأنما غصت فى حوض السباحة لا ماء فيه ، وفقدت الوعى دقيقة . ولكن ما أجمل الجسم الإنسانى ، وما أبدع تركيبه . فما كاد يغيب وعيى برهة حتى أخذت أعصابى غير الواعية تحرك عضلاتى حركة ميكانيكية لم أفهمها معنى ، وصحوت من غيبتى القصيرة فوجدت يدىّ ورجلىّ تتحرك عارفة أو غير عارفة بالذى تفعل . وبلغت الشاطىء ، وخرجت أزحف عليه وقد خيلت أن الشلل أصابنى من خاصرتى إلى رأسى . وظهر على وجهى ما أضحك إخوانى ، غير عالمين بالذى جرى ، فأخذت أدمدم وأسب قوما يضحكون من رجل أوشك أن يكون له من الماء قبر بغير أكفان .

ذكرت فى هذا اليوم وأنا أرتاد الشاطىء تجربتى تلك الماضية ، فذهبت رغبتى فى نزول البحر . ونظرت فإذا الرجال غير بعيد منى يجرّون الشباك وقد ملأها الصيد . وهى شباك طويلة ، غير عريضة ، ربط أحد جانبيها الطويلين بعوامات تمنع هذا الجانب أن ينغطس فى الماء . أما الجانب الآخر فيتدلى فيه فيكتسح أمامه على الحركة الأسماك . وغنى أحد البحارة فأجابه الآخرون . وظل يغنى ، وظلوا يرددون . ولما اقتربوا من الشاطىء ، استدار الرجال ،

واستدارت معهم الشبكة ، وظلت القوارب الصغيرة داخلها تحرك الماء بمجاديفها . فلما تمت الحلقة أو كادت ، رأمت الأسماك متجمعة متزاحمة فزادوا في ضيق الشبكة ، وضيق الحلقة ، ثم أخذوا يرفعون السمك ويجمعونه .

وهو سمك صغير ، لا يزيد طوله على خنصر اليد ، ولكنهم يجففونه ، ويأكلونه كله ، حتى رؤوسه ، مع الأرز . فهذا طعام اليابانيين الشائع . والسمك على كل حال طعامهم لندرة المراعى ، فندرة اللحوم من شياه وأبقار .

وتَخرُجُ للصيادين في شباكهم قناديل البحر ، من سامّة وغير سامة . ومن عجب أنهم يرفعونها بأيديهم دون أن يصيبهم أذى . ولست أدرى كيف يفعلون . ولكنى أدرى أن القرصة من قنديل البحر ، وهو سام ، تورّم الرجْل فلا تلبث أن تصبح ضعف حجمها .

واليابانيون يقبلون على اصطياد السمك بالشباك ، وبالعود والصنارة . وجلست مرة على صخرة عند ساحل عميق أجرب حظى . فخرجت لى سمكة من نوع يكثر غيره من أنواع السمك فى تلك البحار . ويسمونه فوجو . وكانت سمكة صغيرة لها بطن أبيض . والتفّ حولى صبية جاءوا من قرية مجاورة ، وأخذوا يتسلون بمرأى هذا الغريب الذى جاء من بلد لا شك بعيد ليصطاد أسماكهم اليابانية فى غير حذق كبير . وسرّتهم غبطتى بأول سمكة اصطدتها . فجاء فى أحدهم يقول إنى لو أعطيته هذه السمكة لأرانى شيئاً عجباً . فخلّصتها من الصنارة وأعطيتها إياه ، فأخذ يحكّ بطنها ، فأخذت تنتفخ . وزادها حكاً ، فزادت انتفاخاً . فلما صارت كالكرة ، أخذها إلى حجر عظيم ، ودقها بقدمه العارية فانفجرت .

ونظر الصبية إلى . وكان قد ساءنى ما فى هذا الصنيع من غلظة ، فلم أتحرك الذى كان من فرقعة . نظروا إلى ثم عجبوا لجمودى ، فانصرفوا عنى . ومن بعيد سمعتهم يتناقشون فى أمر هذا العفريت الأجنبى ، فى زيه هذا الغريب ، وطباعه وهى أشد غرابة .

وقد علمت بعد ذلك أن هذا السمك ، الفوجو ، من ألذ أسماكهم . ولكنه لا يؤكل فى البيوت ، ولكن يؤكل فى المطاعم العامة . ذلك أن به غدة تفرز سماً ، لا تستطيع ربات البيوت أن تنزعها من غير أن تجرحها أو تفقعها غير واعية فيسيل بعض ما بها إلى السمك فيهلك آكلها . ولكن المطاعم بها رجال خبروا هذا الأمر وحذقوه ، فاطمأن إليهم آكلوه . على أن روّاد هذه المطاعم يأكلون هذا السمك ويحملون تبعة أكله على عواتقهم وحدها .

إن أحسن ما يمتع صائد السمك فى اليابان ، صائده بالعود والصنارة ، إنما هو منظر السمك فى ألوانه الجميلة وهو يعوم بين الصخر ، وبين العشب ، فى ماء يصفو كالبلور أو هو أشد صفاء . وتختلف ألوانه وتزهو ، وهو يترقط بها أو يتخطط ، ويتبع بعضه بعضاً فى مواكب من دونها كثيراً مواكبُ أعراس الملوك وأفراحهم .

وطالت ظلال الأشياء بانحدار الشمس المغيب . فلما قربت صعدتُ الجبل إلى القرية ، إلى بيت مضيف .

وجلسنا إلى العشاء وفرغنا من العشاء ....

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٩ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٧١ — الثلاثاء ٣ من ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ٥ من فبراير سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــــدد

السيطرة الكيماوية على الآفات[1]

الإنسان كبقية المخلوقات منهمك في صراع لا آخر له من أجل الحاجات الضرورية للحياة ، لأنه حيثما اتجه يلاقي غريما ينازعه . فكثير من أنواع البكتيريا مثلا تستطيع ، على الرغم من تفاهتها وهي فرادى ، أن تقتله بمجرد تجمعها عليه . والمحصولات التي يعتمد عليها في إقامة أوده عرضة لأن ينقض عليها جيش جرار من الكائنات الحية التي تسارعها ، وقد يبيدها المرض أو يخنقها نمو الأعشاب المتطفلة . وهناك أنواع من الحشرات لا حصر لها تناصب الانسان العداء فيما يتصل بحياته وسعادته ، بعضها كالجراد والنمل الأبيض ، يلتهم المواد الغذائية ويخرب الممتلكات ؛ والبعض الآخر ، كالبعوض والقمل ، ترجع خطورته إلى كونه ناقلا للأمراض . أما الفيران صغيرها وكبيرها ، والحشرات الخبيثة الأخرى ، فتلعب دورا خطيرا بطرق شبيهة بتلك . ومن ثم ظلت المشكلة القائمة منذ القدم ، مشكلة السيطرة على الآفات ، ولا تزال تنتظر الحل الحاسم الشافي .

وقد بعث تقدم الكيمياء قوة جديدة في سلاح من أقدم الأسلحة التي تدرع بها الانسان لحماية نفسه ، ألا وهو الانتفاع بالسموم . ويرجع استنباط المواد السامة واستخدامها إلى أقدم العصور ؛ ومعظم ما كان منها معروفا للأقدمين يرجع إلى أصل طبيعي ويشمل مركبات الرصاص والزرنيخ وسم الأفاعي ومستخرجات من نباتات معينة كالشوكران . ونعلم كذلك من كتابات هومر أن اليونان استخدموا ثاني أكسيد الكربون للتبخير به ، لأن أبخرته تقتل الجراثيم .

(١) نقل هنا من مجلة « Endeavour » التي تصدرها كل ثلاثة أشهر شركة الصناعات الكيماوية الامبراطورية لتسجل فيها بعض نواحي التقدم العلمي التي تسخر لخدمة الانسان .

وتحوى هذه القائمة كثيراً من السموم الفعالة لكن فائدتها كانت لا تزال محدودة بسبب أن فعلها لا تمييز فيه؛ فهى لا تميت الضحايا المقصودة بالذات فحسب، بل تميت الإنسان نفسه، وربما يميته أحياناً أشد فتكاً، ومن ثم كان استخدامها محفوفاً بالصعوبات الجسيمة والأخطار. وقد خطا العلم خطوة عظيمة إلى الأمام فى القرن التاسع عشر باكتشاف السموم النوعية أى التى يقتصر فعلها على نوع أو أنواع بالذات. وقد استطاع إرليخ الذى كان فى طليعة العلماء المشتغلين بهذه المسائل أن يبين أن مركبات معينة مشتقة من الزرنيخ تقتل البكتيريا التى فى جسم الإنسان بغير أن تحدث فى نفس الوقت لأنسجة جسم المريض من الأضرار ما لا سبيل إلى علاجه.

ثم لم يثمر التقدم العلمى لم يكتشف من هذه المواد المعينة إلا القليل، لكن سلطان الكيمياء وسيطرتها على الآفات البكتيرية قد قويت فى العقد الأخير إلى حد مدهش؛ وذلك أولاً باكتشاف العقاقير السلفوناميدية ذات الأثر الفعال ضد الاستفلوكوكس (البكتريا العنقودية) والاستربتوكوكس (البكتريا السبحية). ثم بما حدث أخيراً من اكتشاف البنسلين الذى هو مادة نوعية، إلى حد أن فعلها الشديد يقتصر على مقاومة نوع معين من البكتيريا بحيث لا يكاد يمرض المريض المعالج بها لأى خطر ناجم من إعطائه جرعة منها أكثر مما ينبغى.

ولا ترجع أهمية هذه الاكتشافات إلى استخداماتها المباشرة فحسب، بل إلى أنها قد أثبتت بغير أدنى احتمال للشك أن ميدان البحث عن السموم النوعية (أى التى يصيب مفعولها كما قدمنا نوعاً أو أنواعاً خاصة دون غيرها) قد أخذ ينكشف عن نجاح الإنسان فيه وقرب فوزه منه بثمرة كده؛ وقد فتح هذا النوع من السموم مجالاً جديداً للنشاط الكيماوى — مجالاً بدأت تظهر الثمار فيه بالفعل. ومن الظواهر الممتعة أن بعض هذه السموم النوعية قد عثر عليه فيما يتصل بنباتات معينة، وبدأ استخدامه بالفعل فى الزراعة لاستئصال الأعشاب الطفيلية؛ ومن هذه المواد مادة تسمى الميثوكسون تحضر الآن متجرياً، لأن الاختبار قد أثبت لها نفعاً عظيماً فى تنقية محاصيل الحبوب من الأعشاب الضارة دون أن تحدث أى أثر غير محمود فى تلك المحاصيل.

ومن أمثلة السموم الطبيعية التى لها مفعول نوعى بالنسبة للحشرات أوراق البيرثرم (عود القرح) والدريات، وقد أضيف إليها فى السنوات القليلة الماضية ما هو من أبها من بعض العقاقير التى لا توجد فى الطبيعة، ولكن يصنعها الكيماويون مثل مادة .D. D. T اختصاراً لاسمها الكيماوى الذى هو (dichloro — diphenyl — trichloroethane) وهى مواد على الرغم من أنها لا تؤثر فى الحيوانات أثراً يذكر، لا تكاد تؤثر أيضاً فى أوراق الأشجار، فإنها من أقوى ما عرف من مبيدات الحشرات.

والكثرة الغالبة من السموم النوعية التى تم فحصها إلى الآن قد اكتشفت إما بطريق المصادفة وإما بطريق الفحص العنى لآلاف من المركبات المختلفة رجاء العثور بينها إن عاجلاً وإن آجلاً على ما يدفع للغرض المطلوب. وكلتا الطريقتين أشبه بالبحث فى الظلام عن شئ لا ندرى أين هو. فلو أمكن الوصول إلى طريقة تكون أقرب إلى المنطق يستنار بها فى البحث لكان ذلك تمهيداً حقيقياً يعين على النمو السريع لهذا الفرع المهم من الكيمياء التطبيقية. ولما كان الوصول إلى طريقة كهذه غير ممكن إلا إذا فهمت الكيفية التى بها تؤثر تلك السموم النوعية وتسمم ما تسممه من الأنواع الحية، فإن مما يبعث على الرضا أن الطريق إلى هذا الفهم قد أخذ ينفتح، بعد أن ظهر ما يدل على أن بعض هذه السموم النوعية على الأقل يشبه فى شكله وترتيب الذرات داخل جزيئه الكيماوى بعض المركبات المعروف أنها لازمة لتمثيل خلايا الجسم للغذاء المهضوم. اقترح بعض المشتغلين بهذا الباب تفسيراً لعمل تلك السموم أنها تحل فى خلايا البدن محل المركبات الضرورية التى

تشبهها في الشكل الجزيئي ، كما يحل في قفل مفتاح دخيل محل مفتاح أصيل ليس بينهما من الشبه إلا ما يسمح بالدخول من غير أن يسمح بفتح القفل أو حتى بالخروج منه بعد تعذر الفتح به ، فينسد باب تمثيل الغذاء في الخلية بجزيئات السم النوعي ، كما يحول انسداد القفل بالمفتاح الدخيل دون افتتاح الباب . ويحدث التسمم نتيجة لتعطيل عملية التمثيل .

هذا التفسير لا يزال فرضياً إلى حد كبير ، لكنه على أي حال ابتداء يهيئ نقطة ارتكاز يرتكز إليها في معالجة الموضوع ومحاولة الوصول إلى الأصل أو الأصول التي يقوم عليها التأثير النوعي للسموم النوعية . وهي معالجة أو محاولة يرجى ازدياد التقدم فيها باطراد .

وسواء أكان التقدم سريعاً أم بطيئاً فإن اكتشاف السموم النوعية يبين بوضوح أننا نقترب بالتدريج من عصر يصبح فيه القضاء على الآفات أو السيطرة عليها بوسائل كيماوية أمراً عملياً . ويبدو للإنسان في أول وهلة أن المستقبل محفوف بالبهجة والغبطة ، فهو يتصور الغيطان والحدائق قد استؤصلت منها الأعشاب الضارة ، وأماكن خزن الحبوب قد خلت من الحيوانات التي تقرضها ، وكل مرض ناشئ من البكتريا قد صارت له مادة كيماوية مناسبة تبطل فعله . لكن الحذر مع ذلك يقضي علينا أن نحترس مما قد يكون مخبأ لنا في الطريق من أخطار . فالإنسان في هذا الكون يعيش في نظام معقد يحوي كائنات متفاعلة تقوم بينها جميعاً حالة شبيهة أو قريبة من الاتزان الديناميكي . وفي قبضة الإنسان في الوقت الحاضر الوسائل التي بها يسيطر على عدد من العوامل المؤثرة في هذا النظام سيطرة تغير منه تغييرات أساسية . وهو يحس بطبيعة الحال بدافع نفسي يغريه باستخدام هذه الوسائل في الحال فيما يعتقد أنه يؤدي إلى مصلحته . على أنه مع التسليم بأن النتائج المباشرة لمثل هذه السيطرة قد تكون في مصلحة بني البشر ، فإن ما لديهم من بعد النظر لا يزال محدوداً إلى درجة تجعلنا لا نقوى على الجزم بأن الآثار التي سينتهي إليها تصرفه ستكون في المصلحة . وعلى العكس من ذلك ، من السهل علينا أن نتصور أن القضاء على آفة قد يؤدي إلى انتشار آفة أخرى كانت الآفة الأولى تسطو عليها فتمنعها من الظهور .

فالتدخل فيما تحدثه الطبيعة من موازنة لا بد أن يكون محفوفاً بشيء من الخطر الكبير أو الصغير . ولا يحتاج الأمر لخيال بارع لتصور نتائج القضاء على البكتريا التي تمد الأرض بالأزوت مثلا ؟ وقد لا يكون من المحتمل حدوث مثل هذه الطامة الكبرى ، لكن حدوث شيء من نوعها وإن كان أصغر منها يصح أن يسبب قلقاً شديداً . ولا يجوز أن نسقط من حسابنا احتمال حدوثها إذا كانت السيطرة الكيماوية على الآفات ستطبق بغير الحذر والحكمة الضروريين ، وبدون إجراء مباحث تمهيدية ، هذه الاستنتاجات العامة يراها الإنسان بطبيعة الحال بديهية عند ما يفكر فيها ، لكن للأسف ليس هناك ما يدل على أنها تدرس دراسة جدية ؟ ويبدو من المحتمل أن استخدام السموم النوعية في المستقبل قد يكون له من الأثر في تغيير وجه الطبيعة الحية أكثر مما كان يحدثه فيما مضى تطبيق المعلومات العلمية ، وإذا كانت الاكتشافات ذات القدرة العظيمة على إنتاج الخير تتحول بسبب العجلة وقلة التدبر أو سوء الاستعمال إلى أداة تجر الوبال والشر على البشر ، فإن هذه ستكون مأساة مؤلمة حقاً .

وإذا كان هذا الكلام يقال بشأن الأمم الأوروبية التي لا يفتك بها من الميكروبات والجراثيم كالذي يفتك بنا ، والتي متوسط مستوى الحياة العامة فيها أرفع منه عندنا بحيث ينال الفرد من الغذاء والكساء ما يحميه ويقويه على المقاومة ، فكيف بنا نحن وحالتنا هي ما هي ، وحالة أرضنا الزراعية قد أصبحت من حيث فتك الآفات الزراعية بها تنذر بخطر وبيل إن لم يتدارك أمرها ؟ .

أحمد عبد السلام الكرداني

جانب من شخصية

نابليون

نابليون بونابرت من الأفراد القلائل الذين ملأوا الخافقين الأرض دويا ، وشغلوا الناس على اختلاف مذاهبهم طويلا ، وهو فى رأى الكثيرين أقوى شخصية وأعظم عبقرية عرفتها العصور الحديثة ، ولم يكن الرجل قديسا على خلق عظيم ، ولا بطلا قد اجتمعت له أسمى معانى البطولة وأجل صفاتها ، ولم تجر حياته على أصول الآداب المرعية ، وقواعد الأخلاق المتواضع عليها ، وكان لا يتردد قليلا فى اختيار الأساليب الملائمة لتحقيق أغراضه ، وقد قتل مليون من الرجال فى سبيل أطماعه ومآربه ، وترك فرنسا أصغر رقعة وأسوأ حالا مما كانت حين استولى على زمام الأمر فيها ، ولكن العظمة فى هذه الحياة الدنيا قد لا تقترن بالفضيلة فى مختلف الظروف والمواقف ، وحقيقة أن هناك العظمة الأخلاقية التى تتجلى فى حياة الأنبياء والقديسين والشهداء ، ولكن العظمة ليس من أول شرائطها أن تكون أخلاقية حريصة على الفضيلة ، بل هى فى الواقع قد تكون مناقضة للأخلاق ، وفى اعتقادى أنه لا فائدة من الإسراف فى انتحال الأعذار لأخطاء العظماء ونقائصهم حرصا على الجمع بين العظمة والفضيلة ؛ ولكن ما هى هذه العظمة التى قد تخلب ألبابنا وتسحر أبصارنا وتذهلنا عن الخير والشر والفضيلة والرذيلة ؟ ولماذا كان نابليون عظيما ؟ ولو أننا خصصنا بالعظمة كل من قام بعمل خالد الأثر لأخرجنا كبار السياسيين وعظماء الفاتحين من سلك العظماء الخالدين ، لأن الفتوح الباهرة عارية مستردة ، والدول تبنى وتهدم ، والقوانين تتغير وتبدل ، والأفكار تنقض وتبطل ، ويتنصل لونها ، وتنفد حيويتها ، فالعظمة إذاً لا تقوم على بقاء الأعمال ، فكل شيء فى هذه الحياة لا محالة زائل ، فلماذا نسمى أحد السياسيين أو الفاتحين عظيما وقد اندثرت آثاره ودالت دولته ، وذهبت فتوحه ؟ ولماذا نعجب بقيصر والاسكندر ونابليون ونسميهم عظماء ؟

هم عظماء فيما أعتقد لأنهم كانت لهم شخصية قوية منيفة ساحرة جذابة ، وقد كانت حياة نابليون على ما بها من سقطات ومآخذ ملحمة رائعة حافلة بالمفاجآت والمواقف الحرجة الحاسمة ، وقد كان رجلا من غمار الشعب ، ولكنه وصل إلى أسمى منصب بهمته وسعيه لا بحسبه ونسبه ، وقد التقت فيه القوة العملية الفائقة والقدرة الفكرية الممتازة ، وكان له جلد عجيب وقوة احتمال تفوق المألوف ، حتى يخيل إلى الإنسان أنه قد قد من الصخر أو صيغ من الفولاذ ، وكان يستطيع أن يمضى ست عشرة ساعة على متن جواده دون أن يعتريه الكلال ، وأن يظل أياما متصلة بلا راحة سوى لحظات قصار ثم يثب مع ذلك وثبة النمر ويهجم هجمة الأسد فى الوقت المناسب ، وكان يعرف ما هو صانع ، ويحكم الرماية ، ويصيب الهدف ، ولم يكن بطبيعته فظا غليظا ، وإنما كان لا يريد أن يقف شيء فى طريقه ، وقد ذكر عنه أصحابه أنه كان كثيرا ما يظلم كبار قواده وينتهب مفاخرهم ويعزوها إلى نفسه ، وأنه كان كثير الكذب ولوعا بالتأثيرات المسرحية ، ولكن حياته من ناحية أخرى أنموذج فى المثابرة والشجاعة والدقة والإحكام ، وهى فى مجموعها حياة تطلق الخيال وتفسح مجال التفكير .

ويروى عن نابليون بألسنة أصدقائه وأعدائه وأنصاره وخصومه كلمات مجنحة عظيمة وطرائف فريدة ونوادر مستملحة ، تكشف عن انفعالات إنسانية ، وتدل على نفس عميقة الإحساس جائشة العواطف : كان مرة فى الصيد والقنص فمر بكوخ الكاتب الكبير شاتو بريان الذى نفاه وأبعده ، فكسر غصنا من إحدى أشجار الغار ووضعه على باب خصمه ؛ ولما حملت له زوجته الثانية طفلا ليرث عرشه قال له الطبيب وهى تعالج آلام الوضع : « لا يمكن إنقاذ

الأم إلا بالقضاء على الطفل فى أثناء العملية » فأمره الإمبراطور قائلا : « أنقذ حياة الأم فى بادئ الأمر » .

وبعض هذه الحكايات والنوادر والملاحظات أدل على عظمته وكثرة جوانبه وسعة آفاقه من أعظم وقعاته وأروع انتصاراته .

والقصة الآتية التى أرويها من الكاتب كونراد فوس بارك لا أعرف مدى نصيبها من الحقيقة التاريخية ، ولكن كيفما كان الأمر فهى تشير إلى جانب من شخصية نابليون تواترت الروايات على تأكيده ، وقامت على صحته الشواهد ، وأثر هذا الجانب فى نفوسنا أقوى وأعظم وأبقى وأدوم ، لأنه يرينا أن هذا البطل الكرار الذى قضى خير أيامه فى زماجر الملاحم وتحت قساطل الوقائع لم يفقد إنسانيته ولم يتحجر قلبه أو يتبلد إحساسه ، وهى قصة مروية فى صورة خطاب من الدمو إدوارد حيرا إلى لوشيان :

عزيزى لوشيان

ستعلم أن ولنجتن كسب معركة وترلو ، ولكن برغم ذلك أتسامحنى إذا سألتك أن تسمع قصة الطفلة فى النزل القريب من نهر السومبر ؟

كان بناء قديما يرفرف عليه الهدوء والسكينة وقد توافرت فيه أسباب الراحة وظللته أشجار الدردار الفارعة ، وكان صغير الجرم محدود الذى لا يكاد يوجد به حجرة ثانية ، وكنت قد رقيت إلى مقر القيادة حديثا ، فلما وصلت إلى هناك لم أجد لى فراشاً لأنام فيه ، لجميع الحجرات التى يمكن الانتفاع بها كانت مكتظة بكبار الضباط والقواد .

وكان الإمبراطور يحرص فى كل يوم على أن يسمع أنباء الإجراءات التى تتخذ لراحة رجاله ، ويطلع على التقريرات الخاصة بحالتهم الصحية والتوسعة عليهم ، وتقضى زمن قبل أن أحظى برؤيته ، ودعيت أخيراً للمثول بين يديه وكان توهج ضوء الشمس الغاربة قد زايل الأفق ، وكان هناك مصباحان يشعان ضوءاً شاحباً على منضدة الخريطة التى كان يجلس قبالتها ، وكان يرتدى — إذا كانت ذاكرتى لم تخنى — سترة مارشال فرنسا ، ولم تكن تتسق بحال مع ضيق الحجرة التى كان يزحمها فراش كبير وكرسيان ومنضدة .

وألقى على نظرة حينما دخلت وأصغى إلى وقد وضع رأسه بين يديه الرشيقتين الحساستين وأنا أتلو على مسامعه التقرير الذى كتبته ، ولما بلغت منتصف التقرير اعترضنى :

— حسن حسن . ليس هناك نقص ولا تقصير ؟

— لا ياسيدى كل شئ على ما يرام !

فنظر إلى وتبينت من نظرته أنه متعب وأن الإعياء قد بلغ منه مبلغاً ، وكان قد قضى أسابيع مكباً على العمل ليلاً ونهاراً يصرف شئون الدولة ويعالج المشكلات .

— إذاً كان يجب أن تصل إلى النتيجة فى وقت أسرع من ذلك يا كولونيل !

وكنت أهم بالجواب ولكنى أبصرت عينيه شاخصتين نحوى فأدركت أنه من الحكمة أن ألزم الصمت ، ونهض من مقعده وأخذ يتمشى فى حدود الحجرة الضيقة صامتاً ، وكان فى حالة من تلك الحالات الهادئة الخطرة التى كانت تنتابه فى بعض الأحايين ، وكان الشعاع يغشى وجهه الحائل اللون ويحيط بمحجرى عينيه اللذين كان يبدو منهما أنه يحمل متاعب الدنيا جميعها ، فأى جهد وإعياء كان يبدو عليه ! وبغتة التقى ناظرى وناظره وعلقت عيناه عينى ، وكانت نظراته تنم على القسوة والجبروت .

ثم صاح فى فجأة وعلى غير انتظار : « حسن » فشعرت بأن سيفى يصل فى غمده ، وأؤكد لك ياصديقى أنى لست منخوب الفؤاد ولا ممن يسرع إليهم الجزع ، ولكن إمبراطورنا كان له أسلوب يسترهب كبار القواد ، وصدقنى أن هذا شئ يقام له وزن ويحسب له حساب ، ومهما يكن من الأمر فقد طفقت مهطرا خدائى واصطكا .

وسمعت فى تلك اللحظة قرعاً خفيفاً على الباب ، ودخل الضابط الموكل بالحراسة وبدا لى أنه مترددبين الإحجام والإقدام :

— سيدى !

وتوقف عن الكلام كأنه ليس على بينة من أمره ، وسرعان ما أدركت السبب ، فقد جاءت إلى ركن الحجرة طفلة صغيرة فى حالة عصبية ، وكانت سنها لا تتجاوز التاسعة أو العاشرة ، وقد ارتدت ثوباً قديم الطراز مهلهل النسج كان يسبغ عليها ألفة منزلية طريفة ، وكانت تحمل شيئاً ضخماً عرفت معرفة ملتبسة غامضة أنه ذلك الشئ الذى يضمه السيدات العجائز فى فراشهن التدفئة .

وكانت تبدو فى صورة فكهة مضحكة وهى واقفة فى طريق الباب وقد ظهرت عليها أمارات الخوف والقلق ومعها الضابط يشرف عليها من علیائه وهو يرتدى سترته الزرقاء الفضية .

وكان الإمبراطور أمامى ولذا لم أستطع أن أرى وجهه وقد انحنى قريباً من غدائرها الناعمة المسترسلة ، وخرج الحارس وقد تنفس الصعداء .

وقال الإمبراطور فى رفق : « حسن يا طفلتى » .

وكان صوتاً لم أعهده .

واطمأنت الطفلة وسكن روعها وألقت الإناء، وتهلل وجهها وقالت فى تلك اللهجة البغيضة ، لهجة سكان البسائط الشمالية : « الفراش » .

ويمكنك أن تتصور أن صبرى بدأ ينفد .

— لأجل فراشى ؟ .

وصعدت الطفلة طرفها وتغضن وجهها الصغير وأجابت : « لا أعرف ، لقد قالت لى أمى إن على أن أضعه فى الفراش الكبير ، هذا ما قالته لى أمى وهذا ما أمرتنى به » .

فاعترض الإمبراطور حديثها فى رفق ولين : « دعينى أحمله عنك » . وحمل الإناء من طرفيه وتعاون إمبراطور فرنسا والطفلة على رفع الإناء الساخن فى وقار إلى الفراش .

ونظر إلى غدائر شعرها السبط ولمسها فى رفق ، وخطر بفكرى أنه كان يأنس بالنظر إلى غدائرها وبراءتها بعد معاناة الأيام الموقرات بالمتاعب ، ورأيته ينحنى ويهمس فى أذنها وسمعتها تضحك ، ثم ربت وجنتها وقبلها قبلة الوداع فى أعلى جبينها :

— اذهبى الآن إلى فراشك ياصغيرتى .

ولكنها تعلقت بيديه وتشبثت بهما وقالت وهى مغيظة :

— لقد استأثر الجنود بالفُرُش .

— ما هذا ؟ .

فتجهم وجه الطفلة وقالت : « لقد غص النزل بالجنود وقد رقد فى فراشى أحد أعيان القواد بالحجرة المجاورة ، وفراشى لا يتسع له ، ولذا رأيت ساقيه متدليتين منه ، وأمى وأبى راقدان فى المرعى » .

وانتفضت الطفلة :

— أنا لا أحب المرعى ! .

— ولكنهم لم يخرجوك من مرقدك أيتها الصغيرة ؟ .

— لقد أخرجت ، وقد أخبرتك بذلك وقد شغله الرجل العظيم ، ووالدى تقول إن علينا أن نقدم فرشنا لأن الجنود لا ينامون فى المرعى ، ووالدتى تخشى بأسهم .

وبصعوبة كظمت غيظى من ثرثرتها ، ولكن الإمبراطور هب قائماً وأشار إشارة تنم عن الضيق والتأفف وقال فى حدة وقد حول وجهه إلىّ : « هذا غير ممكن ، ألا تسمع هذا يا كولونيل ؟ أنا لا أريد أن يستبد رجالى بالفلاحين ويأخذوهم بالعنف ، ابحث عن فراش لهذه الطفلة ، وأعطها فراشك إذا استدعى الأمر » .

فأجبت — وأنا أعجب من اهتمام إمبراطور فرنسا بطفلة صغيرة غريرة ابنة أحد أصحاب الفنادق البلجيكية :

— أنا كذلك أنام فى المرعى يا سيدى .

فنظر إلىّ نظرة عجيبة :

— أكبر الظن أنك أيها الشيطان جئت متأخراً إلى ميدان التزاحم على الفرش !

— نعم ياسيدي ، وفي هذا النزل سبع حجرات وقد بها خمسة عشر رجلا من رجال هيئة أركان الحرب ، ويخيل إلىّ أن المرى مزدحم كذلك .

فصاح وهو يضحك ضحكا خفيفة : « لتذهب في داهية ، وما أظن أحداً منهم قد فكر فيك أو اعتنى بك » وانحنى وابتسم للطفلة الصغيرة .

— حسن يا كولونيل ارفع هذه الستارة التي تحجب الفراش .

وكان هناك ستارة ملأى بالثقوب مستندة إلى الحائط

— ضعها هنا بحيث تحجب الفراش . والآن أيتها الصغيرة هنا مكان نومك هذه الليلة .

فحملقت إليه الطفلة مشدوهة مدهوشة وجمدت في مكانها .

— في الفراش الكبير ؟

— الفراش الكبير .

— ولكني لم أنم قط في الفراش الكبير

— إذاً ستكونين ناعمة مسرورة .

— ولكن والدتي .... ؟

— سأسوى الأمر مع والدتك ، وستكونين في حرز حريز ، إننا سنضع هذه الستارة بحيث تحجب الفراش ، فلا تخشى شيئاً أيتها الصغيرة ورددى صلواتك وأدعيتك .

وخطوت إلى الأمام .

— سيدي .

— نعم يا كولونيل .

— سيدي أستميحك العذر ... ولكن

— ولكن ماذا ؟ آه أنت لا توافق على ذلك .

ولم تكن المسألة كما ترى مسألة موافقة أو غير ذلك ، فقد كنا نعلم أن الإمبراطور كان متعباً منهوكاً ، وقد بلغ منه الإعياء إلى حد أنه ألغى عرضين للجيوش في ذلك الأسبوع ، وكانت أعباء الدولة ومستلزمات الحرب الراهنة قد أثقلتا عليه ، وكان مستقبل فرنسا في يد رجل واحد ، ومن اللازم أن لا يعرض هذا الرجل للخطر لقلة النوم ونقص الراحة ، وقد شعرت بهذا أكثر مما فكرت فيه حينما أجبته :

— في وسعنا أن نخرج أحد أركان الحرب من مرقده يا سيدي .

فابتسم وقال : « يا عزيزي الكولونيل ! أتقترح اقتراحاً جدياً أن أخرج أحد رجالي المحاربين الفدائي من مرقده في هذه الساعة من الليل لأضع هذه الطفلة مكانه ؟ فيا لله ! أتستطيع أن تتصور ماذا سيظنه بي ؟ لا أستطيع أن أتحمل عاقبة ذلك » .

وبدت له الفكرة مسلية إلى حد أني اجترأت على أن أذهب إلى أبعد من ذلك .

— حسن ياسيدي ، إنها تستطيع أن تنام في المرى

— ولكنها تخاف المرى يا كولونيل .

— إذاً في أي مكان مناسب ياسيدي وسأدبر ذلك ، لا في فراشك فإنك في حاجة إلى النوم في هذه الليلة .

— هكذا .

ودنا مني والطفلة تراقبنا .

— أتظن يا كولونيل أني في حاجة إلى النوم في هذه الليلة ؟ ومتى كان لك أنت أو أي شخص غيرك من هيئة أركان الحرب حق الفصل في مسألة متى وفي أي وقت أكون محتاجاً إلى النوم ؟

فأدركت أني قد تجاوزت حدى ، وكانت هذه هي طريقة الإمبراطور ، فهو يسمح لك بشئ من رفع الكلفة ثم فجأة بكلمة أو بإشارة يعرفك مكانك .

فأجبت في شئ من الخشونة : « أبداً يا سيدي ،

وإنما حرصى على راحتكم هو الذى أوحى إلىّ هذا الاقتراح .

فأعرض الإمبراطور من ملاحظاتى ولم يعبأ بها .

— الراحة ؟ هى أساس الموضوع ، إذا حرمنا الطفلة من الفراش فإنها حينما تشب وتكبر ستضع جيش فرنسا فى صف جيوش اللصوص والسلابين .

ونظر إلىّ كأنه إما أن يكون قد قال أكثر مما يلزم وإما أن يكون قد قال أقل مما يلزم ، ولم يكن على بينة من الحد الذى يسمح به لأحد أركان حربه بإحراز ثقته . وإلى أصارحك بأنى كنت عاجزاً من فهم وجهة نظره ، فأنا جندى خشن أكثر منى مفكراً أو سياسياً . ولست أستجيب لهذه البحوث الأخلاقية ، ولكنها كانت مزية أن أقف هناك وأستمع إلى هذا الرجل الذى طأطأت له رقاب عواهل أوربا وأعظم أبناء فرنسا وهو ينظر بجد واهتمام فى آراء طفلة فلاحة ! .

واتجه إلى الطفلة الصغيرة وكانت لا تزال واقفة وقد عرتها الحيرة وأمرها بأن تذهب إلى الفراش ، ولم تكن فى حاجة إلى أمر آخر لتختفى خلف الستارة .

— والآن يا كولونيل أرجو لك ليلة سعيدة .

— ليلتك سعيدة ياسيدى .

وتريثت قليلاً ، ولكنى لم أكن أستطيع شيئاً ، وكان الضابط الموكل بالحراسة ينتظر خروج الطفلة ، فرفع إلىّ حاجبه سائلاً مستفسراً ، فلم أستطع أن أمسك من الإفضاء إليه همساً بما حدث .

فانفجر قائلاً : « يا إلهى ، إنى أعلم أن هذه هى الليلة الثانية التى لم يذق فيها الامبراطور النوم ، ولو صنع بنفسه مثلى أو مثلك هذا الصنيع لفقد صوابه » ثم شد شاربه واسترسل يقول : « آه ولكن ماذا نعمل ؟ إن هذا شيمته ، أليس كذلك ؟ » .

وقابلنى خادمى فى أسفل النزل ، وتقدمنى إلى المرقى واستلقيت فى فراشى وقد ذهب بى الفكر كل مذهب ، وانتحتنى الهموم ، وتذكرت قول حارسه : « إنها الليلة الثانية التى لم يذق فيها الإمبراطور النوم » وتقلبت فى فراشى ، ونمت فى عقب ذلك نوماً مضطرباً متقطعاً .

وتقدمنا فى صباح اليوم التالى لقاء الجيش الإنجليزى الذى يقوده ولنجتن ، وشاهدت وأنا إلى جانب الإمبراطور كيف تبدد شمل حرسه الموكل وكسرت شوكته ، وكانت الدموع تسيل على خدى فى غير خجل ، وكنت قائد الحرس قبل ترقيتى إلى مقر القيادة العليا ، والتفت إلىّ الإمبراطور وفى عينيه بريق النصر وصاح بى : تقدم يا كولونيل جيرا بفرقتك إلى الجناح الأيمن ! لقد غلبه باصدق الإعياء من قلة النوم لا القائد الإنجليزى ، لقد أنساه أنى لم أعد قائداً للفرقة العاشرة من فرق الحرس .

الوداع

ادوارد جرا

جزيرة سنت هيلانة ، سنة ١٨١٦

عن أدهم

البول السكرى
فى الأطفال

تحسبه لفرط حلاوة اللفظ نهراً يجرى ويروى ، وهو فى الحقيقة والواقع نار تشوى وتكوى . لا يعرف سناً ولا جاهاً ولا مالا . له لسنة لينة تجعل من التبر ترابا ومن السهل الخصيب رمالا . الكل عنده سواء . الأطفال والرجال والنساء . لا يرحم طفولة بضة أو شبابا غضاً ، بل ينزل على الجميع كالصاعقة منقضاً . يتخفى حينا ويسكت حينا ، والمريض يهدأ تارة وطوراً يئن أنينا . تذوب منه الأنسجة وهو لا يدرى ، فلا يشعر إلا بالغصن اليانع يذبل ويذوى ، يعب الماء عبا جمًّا ، ويأكل الطعام أكلا لمًّا ، محاولا تعويض ما فقد ، أو استرداد بعض ما نفد ، وهو حائر لا يدرى إلى النجاة سبيلا ، حتى يهل عليه الطب الحديث فيشبع المرض طعنا وتقتيلا ، ويضمد من المريض الجرح دون أن يبرئه تماما ولو أنه يكفيه مؤونة عذاب طويل ، ويساعده على اجتياز مرحلة كلها منحنيات ومنعرجات . وقانا الله جميعا شرها .

ويندر أن يبدأ مرض البول السكرى فى الأطفال قبل السنة الثالثة ، ولو أن هناك حالات شاذة بدأ فيها المرض فى الشهور الأولى من العمر . وقد ثبت أن للوراثة علاقة وثيقة بهذا الداء اللعون ، وفى خمس وعشرين فى المائة من الحالات شوهدت إصابات مماثلة فى الوالدين أو الأعمام أو أبناء العمومة . ولا صحة لما يقال إن البول السكرى يكثر حدوثه بين الأطفال الولعين بالإفراط فى أكل الحلوى ، فأرونى الطفل الذى زهد فى الانغماس حتى قمة رأسه فى بحر ملىء بأنواع الحلوى والسكريات . إن هذا الحب العظيم لمن عادات الطفولة السيئة ، فمجرد حدوثه ليس إلا مصادفة لابد منها فى الأطفال الذين قسم لهم أن يقعوا فريسة لهذا المرض

وهجوم المرض فى الأطفال خاطف نوعا ما ، إذ قلما تزيد فترة الاستعداد والتغلغل عن شهور أو أسابيع يصبح بعدها المرض واضحا لكل ذى عينين ، فيشعر الطفل بهزال وضعف يتعب بسرعة لأى مجهود ، ويلتهم الماء فى شغف عجيب ، وقد يصل ما يستهلكه إلى بضع لترات فى اليوم الواحد ، لا يلبث أن يطردها من جسمه بولا ، فيبول بكثرة فى الليل والنهار ، فيأرق نومه ويسوء يومه ، وقد يبول على نفسه فيبتل ملابسه وفراشه ، وتنحط حالته النفسية عند ما يجد نفسه عرضة لهزء وسخرية من حوله ، وهم لو علموا لالتمسوا له العذر . ولكن قد يكون بول الطفل على نفسه أول علامة من علامات المرض ، وما لم يفطن الطبيب إلى ذلك ترك الداء يسرى ويتسلل فى ميدان خال من كل وسائل الدفاع ، ولا يشعر الطفل بالجوع الشديد إلا فى خمسة عشر فى المائة من الحالات ، وفى الأغلبية الباقية تكون الشهية أقرب إلى النقصان والفقدان . أما ما يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، فهو فقدان الوزن الذى قد يكون من السرعة بحيث يفقد الطفل من ستة إلى ثمانية أرطال فى الشهر الواحد ، فلا تمضى بضعة شهور حتى يجف الجسم ولا يبقى منه إلا هيكل بشرى يكسوه جلد مجعد خال تقريبا من الكساء الدهنى الذى يكسب الجسم الجمال وحسن الرونق .

هذه آفة البول السكرى فى الأطفال . هجوم خاطف وخط دفاع واه لا يلبث أن ينهار إذا لم تصله الإمدادات فى الوقت المناسب . فإذا وضع الطفل تحت إشراف طبى دقيق أمكنه أن يحيا حياة طيبة قريبة من التى يتمتع بها الطفل الطبيعى ، فتختفى الأعراض التى تنغص عيشه ، ويزيد وزنه وينمو وهو قانع راض إلى سن المراهقة ثم البلوغ ، ولكنه عرضة طوال هذه السنين إلى أن تنتكس حالته لأوهى الأسباب ، وخاصة إذا تهاون أهله فى نظام غذائه أو إذا أصيب بعدوى أحد الأمراض أو انتابته صدمة نفسية . ومن أهم المضاعفات استرسال الطفل فى غيبوبة كالتى تصيب الكبار . والواقع أن الطفل أكثر عرضة

لحصولها ؛ لذا كان حقنه بمادة الأنسولين بدءاً أساسياً منذ اليوم الأول فى العلاج . ومن كل هذا يمكننا أن ندرك أهمية التشخيص المبكر للمرض ، فيجب فحص البول لإثبات وجود المرض من عدمه فى كل الأطفال الذين يميلون إلى تجرع كميات كبيرة من الماء ، والذين يبولون بكثرة فى الليل والنهار وخاصة فى الحالات التى يبول فيها الطفل على نفسه . وكذلك فى الأطفال الذين يلاحظ عليهم الهزال وفقدان الوزن دون سبب ظاهر ، وأكثر مايخشاه الطبيب فى الأطفال المرضى بالبول السكرى حدوث إصابات نتيجة العدوى بجراثيم التقيح ، فيجب أن نعنى مثلا بصحة الجلد ونظافته ، فإن دملاً صغيراً قد يتحول إلى جمرة خبيثة إذا أهملنا علاجه . كذلك تجب وقايته من الأمراض بمختلف أنواعها ، كحقنه مثلا بالطعم الواقى من التيفود أو التيفوس أو الدفتريا أو الجدرى ، وعزله عن المصابين حتى بالرشح البسيط لأن العدوى به قد تمتد إلى الشعب والرئة محدثة التهاباً رئوياً شعبياً . ويجب فى الوقت نفسه أن يولد فى الطفل روح الثقة بنفسه ونشعره أنه يشاطر طبيبه مسؤولية العلاج ، فنعلمه كيف يفحص بوله لاكتشاف مادة السكر ونفهمه بالرفق والحسنى أن أى تراخ أو إهمال قد يؤدى إلى أوخم العواقب .

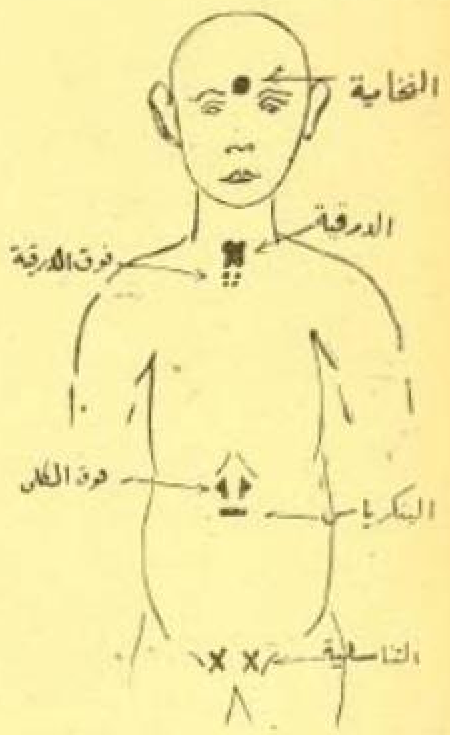
ولقد كان اكتشاف الأنسولين نعمة كبرى على الطفل بصفة خاصة . فقبل ذلك كان الأطفال المصابون بالبول السكرى لايعيشون أكثر من أشهر معدودات . أما الآن فإنهم يسعدون بحياة طويلة حافلة بالنشاط مادموا يجتازون السنتين الأوليين من العلاج بسلام ، لأن هذه الفترة بالذات تعد أشد مراحل المرض خطراً ، ويتأرجح المريض خلالها بين مد وجزر ، ولا يقربه إلى شاطىء السلامة والاستقرار إلا منطقة النجاة وهى الأنسولين ، فتزيد أو تنقص من كميته بحسب مقدار المواد النشوية والسكرية المسموح بها حتى نصل به تدريجيا إلى مستوى من الغذاء أو المعيشة يجعله يكاد لا يشعر بأنه يعيش على هامش الحياة . وما دمنا نقيه من الجراثيم على اختلاف أنواعها ونفهمه أن الشىء الكثير يتوقف على إخلاصه لنفسه ولطبيبه المهيمن على علاجه فلا يخدعه أو يكذب عليه أو يراوغه فى تنفيذ نظام الغذاء ، فإن أمامه فرصة طيبة ليحيا حياة هانئة لا تشوبها من العوارض المزعجة أكثر مما ينتاب الطفل العادى . وقد يتمرد الطفل إذا تقدمت به السنون إلى دور المراهقة الخطر حين يداخله الغرور ويتحدى من حوله ، فيطلب أن يترك وشأنه يأكل مايشاء بغير حساب ، فيجب أن نستعد لهذا الدور بإشراكه فى تنفيذ العلاج بشكل صريح ، فنعلمه كيف يحقن نفسه بالأنسولين وكيف يفحص بوله يوميا لاكتشاف وجود السكر من عدمه ، ونفهمه أن كل شىء يتوقف عليه وأن أى تقصير من جهته يضيع عليه وعلى طبيبه مجهود سنين طوال .

* * *

وقد يكون من لغو القول ذكر علاقة البول السكرى بغدة البنكرياس وإفرازها الداخلى الشهير بين الخاص والعام بالأنسولين ، فإن هذه العلاقة أصبحت أشهر من أن تعرف ، وفى مادة الأنسولين حياة لمرضى البول السكرى ، فطوبى لمكتشفه (بانتنج) الذى يرقد الآن فى مكانه المختار بين البررة والقديسين ، وكانت وفاته نتيجة حادث طيارة منذ سنوات قلائل ، ولم تحدث وفاته التأثير البالغ الذى كنا ننتظر ، لأن قصف مدافع الحرب الأخيرة طغى على كل شىء آخر ، فاكتنفت روحه وقنعت بصلاة رحمة هامسة أسبغها عليه كل معترف بجميله العظيم وفضله العميم .

وفى الطبعات القديمة الأولى من قصة البول السكرى سرق الأنسولين كل فصول الرواية ، وبدا كالبطل الفرد الذى دانت له الرقاب وخسفت بجانبه شموس كل الأبطال ، ثم برز فى الطبعات الجديدة أبطال جدد اختلسوا بعض أنوار المسرح ، ولكن الأنسولين بقى كما هو رئيس فرقة موسيقية

يعزف أفرادها فى نغم متزن ، والويل لجسم الإنســان إذا تنازع أفرادها الأسبقية أو أرسل أحدهم النغم نشازاً بقصد أو دون قصد ، فإن توازن الجسم يختل وتنتج من هــذا الاختلال أمراض كثيرة لا يهمنا منها فى هذا المجال سوى البول السكرى .



ونظرة واحدة إلى الرسم المرفق بهــذا تبين لنا فى وضوح أفراد الفرقة ، ونعنى بهــا مجموعة الغدد الصماء التى شغلت إفرازاتها الداخلية — أى الهورمونات — أذهان الأطباء وأنصاف الأطباء من الجمهور ؛ فهناك الغدة النخامية الموجودة داخل الجمجمة تحت المخ مباشرة ، والغدة الدرقية وهى المعروفة بتفاحة آدم وموقعها فى الرقبة ، والغدة فوق الكلى .

وهذه الغدد الثلاث تضع نفسها فى كفة واحدة محاولة الحد من فعل الأنسولين . فإذا زادت إفرازاتها من الحد الطبيعى تقهقر الأنسولين . وترك وراءه صواميل مفككة لا رابط لها فيفلت الزمام من الكبد ، وهذه تفشل فى اختزان المواد النشوية فترتفع نسبة السكر فى الدم لدرجة تعجز معها الكليتان عن احتجازه فيندفع إلى خارج الجسم فى البول حيث يسهل اكتشافه بالتحليل الكيميائى . وعلى العكس من هذا إذا قلّ إفراز الأنسولين نتيجة مرض فى غدة البنكرياس فإن إفرازات الغدد الأخرى — وهى دائما فى حالة تحفز — تزيل عن نفسها مركب النقص وتندفع إلى مخازن المواد النشوية فى الكبد والعضلات وتطلق سراحها إلى الدورة الدموية ثم إلى مجارى البول فتضيع هباء دون أن يستفيد منها الجسم ؛ وهذا سر الضعف والهزال اللذين يتميز بهما مرض البول السكرى . فنستنتج من هذا أن مفعول الأنسولين يتلخص فى تمكين الجسم من اختزان المواد السكرية والنشوية ثم إطلاق سراحها فى بطء واتزان حسب حاجة الجسم إليها . فإذا حقن فى المريض بالبول السكرى ساعد على الحيلولة دون ضياع هذه المواد السكرية هباءً ، وبتوفيرها يقى الجسم عن استهلاك مواده الدهنية التى يضطر إلى الالتجاء إليها ليستمد منها الحياة والنشاط ، ويزداد تبعاً لهذا وزن المريض فتمتلئ منه البروز العظمية ويبدو أكثر صحة وأسلم عاقبة .

ويميل الرأى الحديث فى علاج البول السكرى فى الأطفال والكبار إلى الإكثار من نسبة المواد السكرية والنشوية فى غذاء الطفل لأنه وجد أن هــذا ينبه غدة البنكرياس المريضة الضعيفة ويوقظها من سبات عميق ، وكأنه السوط يلهب به ظهر جواد متراخ كسول . ومن مزايا هذه الطريقة أيضاً أن المريض لا يشعر بالحرمان الذى يسيل بسببه لعابه عند رؤية الغير يتمتعون بألوان الطعام الشهية ، فيتعاون مع الطبيب المعالج ولا يرى نفسه مضطراً لسرقة ما حرّم عليه . وقد وجد أيضاً أن هــذه السياسة الغذائية تقلل من تعرض المريض لتصلب الشرايين الذى

خطابات إلى شاعر ناشيء

كتبها الشاعر الألماني رلكه

(١٨٧٥ — ١٩٢٦)

ترجمها الدكتور أبو ريدة

— ٢ —

فياريجو ، بجوار بيزا (إيطاليا)

٥ إبريل ١٩٠٣

لا بد أيها السيد العزيز المكرّم ، أن تتجاوز عن أنى لم أذكر خطابك المؤرخ ٢٤ فبراير إلا اليوم شاكراً لك عليه ؛ فلقد كنت طوال هـذه الفترة موجّعاً ، لم أكن مريضاً حقاً ، لكنى كنت أعانى تحت فتور من نوع الانفلونزا أعجزنى من كل شيء ؛ وأخيراً لما أبى الحال أن يتغير رحلت إلى هذا البحر الجنوبى الذى أفادنى أثره الحسن مرة من قبل ؛ غير أنى لم أعد بعد إلى الصحة ولا تزال الكتابة ثقيلة علىّ ، ولذلك لا بد أن تقوم هـذه الأسطر القليلة عندك مقام أكثر منها .

وبالطبع لا بد أن تعلم أنك تسرنى دائماً بكل خطاب تكتبه إلىّ ، ولكن لا بد أن تكون معفواً إذا جاءك الرد ، وربما تركك خالى اليدين ، لأننا فى الحقيقة وفى أعمق الأشياء وأهمها نكون فى وحدة تامة لا توصف . ولكى يتيسر للواحد أن ينصح الآخر أو يعينه فلا بد من أشياء كثيرة ومن أن يسعدهما الحظ الكبير ، لا بد أن تتحقق مجموعة كاملة من الأشياء لكى يسعد الحظ بذلك مرة واحدة ، وأريد اليوم أن أتحدث إليك فى شيئين اثنين فقط :

التهكم : لا تدع التهكم سبيلا إلى السيطرة عليك وخصوصاً فى أوقات عدم الابتكار . ولتحاول فى أوقات الابتكار أن تستخدمه وسيلة تضيفها لما عندك ابتغاء الفهم للحياة ، وإذا أنت استخدمت التهكم خالصا من الأغراض كان بريئا ولا غبار عليه وينبغى ألا تخجل منه ؛ أما إذا شعرت أنك قد ألفته فلتحذر ازدياد الألفة له ، وتحوّل إلى الموضوعات الجادّة الكبيرة التى يقف التهكم أمامها ضعيفاً عاجزاً ، ولتبحث من أعماق الأمور ، لأن التهكم لا يستطيع قط أن يبلغ هذه الأعماق ، وإذا أنت قاربت الأمور العظيمة فينبغى أن تتحقق فى الوقت عينه مما إذا كانت الطريقة التهكمية فى تصور الأشياء مصدرها ضرورة قاهرة فى ذاتك ، لأن التهكم بتأثير الجاد من الأمور إما أن يسقط عنك ، إن كان شيئا عارضا ، وإما أن يقوى ويصير أداة قوية ويندمج فى سلك الوسائل التى لا بد لك أن تبنى بها فنك ، إن كان التهكم من صفاتك الفطرية حقيقة .

وأما الأمر الثانى الذى أردت اليوم أن أتحدث إليك فيه فهو هذا : إنى لا أستطيع الاستغناء إلا عن القليل من كتبى ، وإن اثنين منها لا تزالان دائما ضمن حاجياتى أينما كنت ، وهما الكتاب المقدس ومؤلفات الشاعر الدنمركى العظيم ينس بيتر ياكبسن (Jens Peter Jacobsen)[1] :

(١) عاش هـذا الشاعر من ١٨٤٧ إلى ١٨٨٥ ، وكان يميل إلى المذهب الطبيعى وفى الوقت نفســه يقترب إلى ما فوق المحسوس ، وبسبب هذا الانقسام فى نفسه نجد فى طبيعة الشاعر وفى إنتاجه خصائص البطولة الحزينة .

يعد من أهم مضاعفات البول السكرى فى الكبار . أما الأنسولين فإنه يعطى بالمقدار الذى يجعل البول خالياً من السكر فى الوقت الذى يسمح فيه للمريض بنسبة معقولة من السكريات قد تصل إلى خمسة وأربعين فى المائة من مجموع غذائه اليومى وهـذه نعمة كبرى لمريض اعتاد فى الزمان الماضى الذلة والحرمان .

ويلاحظ عند حقن الأنسولين النظافة التامة والتعقيم الكامل ، وتغيير موضع الحقن بحيث لا يحقن فى المكان الواحد أكثر من مرة فى الشهر . وتزاد الكمية عند إصابة المريض بأى توعك لأن حاجة الجسم إلى الأنسولين تزيد فى المرض .

دكتور مصطفى الديواني

فليت شعري هل تعرف كتبه ؟ إنك تستطيع أن تحصل عليها بسهولة ، لأن طائفة منها ظهرت ضمن نشرات ركلام في ترجمة جيدة جداً ، فاطلب الجزء المسمى ست روايات (Sechs Novellen) من مؤلفات هذا الشاعر ، واطلب روايته المسماة نيلز ليني (Niels Lyhne)[1] وابدأ بقراءة الرواية الأولى من الست وهي التي عنوانها موجنس (Mogens). إن عالماً جديداً سينفتح عليك ، ستجد السعادة والثروة وعالماً لا تستطيع إدراك عظمته . فلتمش وقتاً في هذه الكتب ولتتعلم منها ما يبدو لك جديراً بالتعلم ، ولتحاول قبل كل شيء أن تحبها ، وهذا الحب سيعود عليك مضاعفاً آلاف المرات ؛ ومهما آلت إليه حياتك فإني واثق أن هذا الحب سيدخل في نسيج تطورك كأهم خيط من خيوط تجاربك وما ذقت من خيبة أمل أو نعمت به من سعادة .

وإذا كان لا بد أن أعترف بمن تعلمت منهم شيئاً عن ماهية الابتكار الفني وعن عمقه وخلوده فليس عندي إلا اسمان أستطيع ذكرهما : الشاعر الدنمركي العظيم ياكبسن والمثال الذي لا نظير له بين جميع الفنانين الذين يعيشون في عصرنا وهو أوجوست رودان (Auguste Rodins)[2].

ثم أتمنى لك كل نجاح فيما تسلك من طرق .

رينر ماريا رلكه

— ٣ —

فياريجو ، إلى جوار بيزا (إيطاليا)

٢٣ إبريل ١٩٠٣

لقد سرني خطابك أيها السيد العزيز المكرم ، بعاجل من تحية عيد الفصح سروراً عظيماً ، لأنه يخبرني بالكثير الطيب من أخبارك . وإن كلمة كلامك عن ياكبسن من فن عظيم محبوب ليبين لي أني لم أكن مخطئاً حين وجهت حياتك وما فيها من مسائل كثيرة إلى هذا المعين الفياض .

وإذاً فسينفتح أمامك الكتاب الذي عنوانه نيلزليني (Niels Lyhne) ، وهو كتاب حافل بكل ما هو سام وعميق ، وكلما كرر الإنسان قراءته ظهر له أن فيه كل شيء ، من أرق عبير في هذه الحياة إلى أكمل وأعظم ثمراتها الشهية الثقيلة . ليس فيه قط شيء إلا ونحن نفهمه وندركه ونحسه ونحتفظ به متردداً في ذاكرتنا كالنغم الرقيق . لا نجد فيه تجربة داخلية واحدة إلا وكانت عند المؤلف عظيمة الشأن ، ونجد أن أصغر الحوادث شأناً ينفتح وينمو كالقدر ، ونرى القدر نفسه كنسيج عجيب عريض كل خيط فيه تمسكه يد لا نهاية لرقتها وتضمه إلى جانب الخيوط الأخرى حيث تحمله وتمسكه مائة خيط أخرى . إنك ستشعر بأكبر سعادة حين تقرأ هذا الكتاب لأول مرة وستسير بين مفاجآته التي لا تحصى كأنك في حلم جديد . ولكن أستطيع أن أقول لك إن الإنسان فيما بعد أيضاً يسير في قراءته لهذه الكتب مندهشاً دائماً كما كان في أول مرة قرأها ، فهي لا تفقد شيئاً من قوتها العجيبة ولا من صبغتها الخيالية التي تغمر بها القارئ أول مرة ، فالإنسان لا يزال أبداً متلذذاً من هذه الكتب ولا يزال شاكراً ، وسيصير نظره في الحياة على نحو ما أجود وأبسط وسيصير إيمانه بالحياة أعمق ، وهو سيكون في الحياة أسعد وأعظم .

وبعد ذلك عليك بقراءة الكتاب العجيب الذي يتجلى فيه فعل القدر وفعل الشرق ، وعنوانه فراو ماري جروبه (Frau Marie Grubbe)[1] ثم اقرأ خطابات ياكبسن ويومياته وشذراته ، وأخيراً أشعاره . وهذه الأشعار وإن كانت في ترجمة متوسطة ، فإنها لا تزال لها رنينها الذي لا نهاية له . وأحب أن أنصحك إلى جانب هذا بشراء الطبعة الجميلة لجميع مؤلفات ياكبسن إن أردت ذلك ، وهي تحوي كل ما كتب ، وقد ظهرت في ثلاثة مجلدات مترجمة ترجمة جيدة

(١) رواية ظهرت عام ١٨٨٠ وبسببها اتهمه الجيل بالإلحاد .

(٢) مثال فرنسي عظيم عاش بين ١٨٤٠ و ١٩١٧ .

(١) رواية تاريخية من عصر النهضة الدنمركية ظهرت عام ١٨٧٦ وفيها تأثر ياكبسن بشتورم .

بقلم أويجن ديدريخس (Eugen Diederichs) عـدينة ليبزج ، وثمنها يحسب ما أظن خمسة أو ستة ماركات لشكل مجلد .

أما فيما يتعلق برأيك فى : « هنا كان يجب أن يكون ورد » (Hier sollten Rosen stehen) ، وهو الكتاب الذى لا نظير له فى صورته ورقته ، فإنك بالطبع على كل الحق فيما تقوله عند كتاب المقدمة ، وهنا أحب أن أرجو منك شيئاً : قلّل ما استطعت من قراءة النقد الذى يتعرض لما فى الإنتاج الفنى من جمال ، لأن هذا النقد إما أن يكون آراء متحجرة قد أصبحت سلبية متحجرة لا حياة فيها ولا معنى ، أو يكون لعباً حاذقاً بالألفاظ ينصر اليوم رأياً وغداً رأياً مضاداً له . إن الآثار الفنية توجد فى وحدة لا حد لها ، والنقد هو أقل شىء يوصلنا إليها ، فلا يدركها ويمسكها ويعطيها حقها إلا الحب . فلتقرّ دائماً نفسك وشعورك على مسلكهما إزاء مثل هذه المناقشات النقدية والبحوث وإزاء ما للأعمال الفنية من مقدمات تكتب لها . وحتى لو كنت مخطئاً فإن النمو الطبيعى لحياتك الداخلية سيؤدى بك رويداً ومع سير الزمن إلى معارف أخرى ، واتدع أحكامك تنمو وتنضج فيما ينبغى لها من هدوء لا يعكره شىء ؛ وهذا النضج ، شأنه شأن كل تقدم ، يجب أن يكون صادراً من الصميم ، ولا يمكن أن يستحثه أو يسرع به شىء مهما يكن ، إن كل شىء هو كتابة الحمل ثم الولادة ، فينبغى أن نترك كل أثر للفكرة وكل خبرة للشعور حتى يتكامل نموه فى نفسه ، فى الظلام ، فى ذلك المجال الذى لا يمكن وصفه ، فى اللاشعور ، فى الميدان الذى لا يصل إليه العقل ؛ وينبغى أن ننتظر فى تواضع وصبر ساعة الميلاد لنور جديد ؛ وعلى هذا النحو ، دون غيره ، تكون حياة الفنان ، فى فهمه للأشياء ، وفى إنتاجه الفنى .

وهنا ينبغى ألا نحسب بقياس الزمن ، هنا لا اعتبار للسنين ، فالعشر سنين ليست هنا شيئاً . إن معنى كون الإنسان فناناً هو أنه لا يحسب ولا يعد ، بل هو ينضج كالشجرة التى لا تستحث عصيرها فى مسيره ، بل تقف هادئة وسط عواصف الربيع دون أن تخشى عدم مجىء الصيف بعد تلك العواصف ، فإنه لا بد آت ، ولكنه لا يأتى إلا للصابرين الذين يقفون هادئين كأن الأبد كله أمامهم فى اتساعه وسكونه الذى لا يعكره القلق . إنى أتعلم هذا كل يوم ، أتعلمه بالآلام التى أنا شاكر لها : إن الصبر هو كل شىء .

أما ريخارد دهمل (Richard Dehmel)[1] فقد عرفته معرفة التامّة ؛ وإنه ليقع لى من كتب هذا الرجل ومنه نفسه أيضاً ، إذا قرأت له صفحة من الصفحات الجميلة ، أنى أخشى دائماً الصفحة التالية التى قد تفسد كل شىء ، والتى قد يقلب فيها ما هو جدير بالجمال شيئاً لا قيمة له ؛ ولقد أحسنت فى وصفه إذ تقول : « حياة شوق ملتهب وشعر » . والواقع أن الإحساس الفنى يقع قريباً جداً من الشعور الجنسى فى ألمه ولذته قرباً مدهشاً ، حتى إنهما فى الواقع ليسا سوى صورتين مختلفتين لشىء واحد هو الشوق والسعادة ، وإذا جاز لنا أن نقول بدل حياة الشهوة الجنسية الحياة الجنسية ، وأقصد الجنس بمعناه الكبير الواسع النقى الذى لم تلحقه الريبة بسبب سوء فهم الكنيسة ، فربما كان فن دهمل عظيماً جداً وذا شأن لا حد له . إن مقدرة دهمل الشعرية عظيمة وهى قوية كقوة الغرائز الأصيلة ، لها نوابض اندفاعها الخاصة التى لا تبالى بشىء ، وهى تنفجر منه كأنما تنشق عنها الجبال .

ولكن يظهر أن هذه القدرة ليست دائماً مخلصة تماماً ولا بريئة من التكلف (غير أن هذا أيضاً من أشق ما يُمتحن به الفنان المبدع : فإن الفنان ينبغى أن يظل دائماً غير شاعر بأحسن فضائله ، ولا متفطن لها ، وإلا فإنه يفقدها ببساطتها ونقائها) ، وهى ، إذ يموج بها باطنه ، إن انتهت إلى الجنسيات لم تجد فيه عند ذلك الإنسان

(١) عاش بين ١٨٦٣ و ١٩٢٠ ، من أكبر شعراء ألمانيا الغنائيين وأهميته تنحصر فى شعره الذاتى وفى محاولاته فى الدراما ، يتميز إنتاجه بشعور متفجر ، وتخلط فى نظرته السكون النزوع إلى الطهر إزاء الطلب .

الذي قد بلغ من درجة النقاء والوضوح والنضج ما نحتاج إليه ، لأنه لا يوجد عنده هنا عالم جنسي ناضج النضج التام ونقي النقاء التام ، أقصد عالما إنسانيا بالدرجة الكافية ، ليس هنا إلا عالم صبغته صبغة الرجل ، عالم مملوء بالشهوة المادية واللذة الثائرة والاضطراب مُثقل بالأحكام المعوجة الفاسدة وبضروب الغرور الكاذب التي شوه بها الرجل صورة الحب وحمّله أوزارها ، لأنه لا يحب إلا من حيث هو رجل لا من حيث هو إنسان ، ولذا تشغل في شعوره الجنسي ضيقا ووحشية ظاهرة ، فيه شيء محمل بالحقد ، وموقت لا دوام له ، وهذا يقلل قيمة فنه ويجعله ملتبساً مريبا ، هو فن ليس ريشا من التلطيخ ، هو مصطبغ بصبغة الشهوة والزمن ، وقلّ منه ما سيبقى ويدوم . على أن معظم الفن هو هكذا ، ولكن الإنسان يستطيع رغم ذلك أن يغتبط اغتباطا عميقا لما في فن دعلي من أشياء عظيمة ، ولكن ينبغي ألا يضل فيلحق بالعالم الذي يعيش فيه دعلي بما فيه من ألم وخوف لا حد لها وبما هو مملوء به من وصف الحياة الزوجية والاضطراب ، ولأنه بعيد من تلك الأقدار الحقيقية التي تدني صاحبها من الآلام أكثر من هذه الآلام المؤقتة . لكنها تهيئ له أيضا فرصة لتكبير الرفعة والسمو وتعطيه قوة أكبر على الخلود .

وأخيراً فيا يؤسفني بكتبي لا أحب إلى نفسي من أن أبعث إليك بكل ما يسرك منها أي سرور ، غير أني فقير جدا ، وكتبي تخرج من حوزتي بمجرد ظهورها ، ولا أستطيع أنا نفسي شراءها أو إعطاءها للكثيرين ممن يمرون من السرور بها .

ولهذا فإني أبعث إليك على ورقة اسم أحدث ما ظهر من كتبي واسم المطبعة ، وأقول : أحدث ما ظهر ، لأني قد نشرتُ في الجملة اثني عشر أو ثلاثة عشر كتابا ، وإني مضطر أيها السيد العزيز أن أترك لك شراء بعضها إن أردت . ويسرني أن تكون كتبي في حوزتك

(يتبع) مثى سعيدا معاق

ح · ج

لقيني ذات مرة صديقي الشاعر المحترم الأستاذ « حسن الجداوي » وكان ذلك عقب ظهور المقالات الأولى التي نشرتها « مجلة الثقافة » بتوقيع (ح . ج) وقال لي إنه تلقى عدة رسائل من أصدقائه الذين حسبوا أنه هو كاتب تلك المقالات وقال لي مازحاً : إنه يجب أن أتحمل التعب التي سببها له تشابه الحروف الأولى بين اسمينا مادمت أنا كاتب هذه المقالات ، فاعتذرت إليه من ذلك وفكرت عقب هذا الحديث في أن أوقع باسمي كاملاً على ما أكتبه من كلام حتى لا أسيء إلى إخواني — الذين تتشابه أسماؤهم مع اسمي في الحروف الأولى — بنسبة هذا الكلام إليهم .

ولكني ما لبثت أن أدركت أن قراء مجلة الثقافة التي اعتدت أن أكتب فيها — والتي لم أكتب قط في غيرها في السنوات الخمس الأخيرة على الأقل — قد عرفوا صاحب هذا التوقيع ، فلم أر بي حاجة إلى استعمال اسمي الكامل ، لا سيما في تلك الفترة التي كانت تقتضي تنكير توقيعي لأسباب ذكرتها في بعض تلك المقالات .

واليوم لفت نظري بعض إخواني إلى قصص ومقالات نشرتها بعض الصحف الأسبوعية بتوقيع (ح . ج) وكان آخرها قصة الأسبوع التي نشرتها مجلة (المصور) الغراء في عدد يوم الخميس ٢٤ يناير سنة ١٩٤٦ .

فرأيت المرة الثانية أن بقاء توقيعي على هذه الصورة المختصرة سوف يسيء إلى بعض زملائي من جديد ، إذ يسبغ علي فضل ما يكونون هم أصحاب الفضل في كتابته ، بعد أن لازمني التوقيع بهذين الحرفين كل هذه السنين

فأنا اليوم أبادر بنشر كلمتي هذه إقرارا للواقع ومنعاً لحصول لبس جديد ، لأن توقيعي بعد اليوم فيما يأذن الله لي بكتابته سيكون :

حسن جبيل

(٧) الأشعار الأندلسية

وعلاقتها بالأشعار الأوربية

رأى المدرسة الأسبانية

ولكن ابن قزمان يقترب من التروبادور فى أسلوب الحياة التى كان يحياها ، وفى الطريقة التى كان ينشد بها أشعاره ، فقد كان يقود فرقة من المغنين والموسيقيين ، وينتقل بها بين مجالس اللهو والغناء فى قرطبة وغيرها من مدائن الأندلس ، وكان مدار معظم أناشيده هو الحب : الحب بجميع صوره وألوانه ، ولما كان معظم أشعار التروبادور يدور حول هذه العاطفة الإنسانية الجليلة ، فقد حسب ريبرا أن ديوان ابن قزمان إنما هو الحلقة المفقودة التى تثبت لنا بجلاء مقدار دين المغنين المتجولين الفرنسيين لابن قزمان وأمثاله من زجالى الأندلس ، وزاده إيماناً برأيه ما وجد من تطابق بين الطريقة التى كان ابن قزمان يلقى بها أناشيده وطريقة التروبادور ، فقد كان ابن قزمان يقصد بأغانيه سراة الناس وأصحاب الجاه منهم ، فيقف مع فرقته فى فناء الدار أو على قارعة الطريق أمامه ، ويلتف الناس من حوله حلقة . ومن البديهى أن هؤلاء الذين كانوا يلتفون حوله لم يكونوا من علية الناس أو مثقفيهم ، وإنما كانوا خليطاً من طغام المدن من صبية الشوارع والخدم والجوارى والباعة . ولسنا ندرى إن كان هو الذى يلقى أغانيه بنفسه أو أنه كان يكتفى بوضع اللحن ومراقبة المغنين ، وكانت فرقته تتكون من ضارب للعود وزمار وضارب للدف وعدد من المغنين رجالا ونساءً ، وتبدأ الفرقة بإلقاء مطلع بسيط مكون من مصراعين مثل :

يا من مضى عنّى وانقطع خبَرُو
وليس لى سمعٌ وكبد منتظرْ

وبعد أن تنتهى الفرقة من ترديد هذا المطلع ، يأخذ مغن (أو مغنية) فى إنشاد البيت الأول من الأغنية ، ويتكون عادة من مصراعين مثل :

حتى نرى إن رأيتْ فيك أملْ
وتجتمعْ بكْ قبل أن يجين أجل

أو من ثلاثة مصاريع على نفس الوزن والقافية :

أنا الذى قد رَيتْ منهم طوايف
لم قط نُرى معشوقْ إلا مخالف
إن قلت له اجلس يقوم هوْ واقف

ثم تلى ذلك فقرة فاصلة من وزن وقافية المطلع ، فإذا فرغ المنشد من إنشادها ، رددت الفرقة كلها مطلع القطعة وصاحبها جمهور النظارة فى الإنشاد والتصفيق ، وربما صاحب الغناء الرقص ، فبرزت راقصة وأخذت ترقص رقصاً قريباً جداً من أسلوب الرقص الذى نراه الآن فى جنوب الأندلس وفى بعض نواحى الشمال الأفريقى .

وهذا زجل كامل من أزجال ابن قزمان لكى تأخذ فكرة عن الأسلوب العام لهذه الأزجال ، وقد وضعتُ الحركات على الحروف كما وردت فى النص ورسمت الكلمات التى شككت فى قراءتها كما هى :

صبى نعشق من السوق إن عرّضْ لك ستدريه
كن تقول كيف اسمُ وليس تجرى تسمّيه

١ أنت يا من يقتل الناس على يد ما يكلم
اش ذا السلك يا آخى سىْ رالك المنعم
والله إنك مُتّبه وارض بكار وسلم
وإذا تهت تستحسن أن يُنشا كلك التيه

٥ أنا نسكت ونصبر وبذا كلْ نمشى
وإذا ريتو نتبهت واش على مَنْ قال الحق
بالله لو كان بودي ما مشيت عن أحمق(١)
ولو أخفيت إلاّ لو قدر غير(٢) يخفيه

(١) أى ما اختلف حال من حال الأحمق .

(٢) غيرى .

٩ يا مُدَلَّلْ عَلَيّْ يا مليحْ التَّجَنِّي
إيش تَطْلِبْ لي حديثك وحديثك قتلني
عهد يا قلب انْبُتْ لا تَزُلْ قط يِني
إيش يكابد مُسْتَبْكِن بِكُفّ هِجْرٌ وقُربه

١٣ صاحب العين الأشهل الرقيق الحواجب
يقول إلى غلام ، والذى قال فواجب
لا يكن من عبيدُ إلا شاعر وكاتب
ليسْ ما عار عَلَيّْ ولاه يدٌ عار بيه[1]

١٧ كَفْ[2] يصح أن يهاوَد ومن يلو عنقه
وصَبَايا رأوه ورأوا حُسن خَلْق
قالت الواحدة للأخرى أبلاك الله بعشق
[3]

٢١ الشَّها مِنْ أقرب لا يغرّكْ سَلامْ
إنما يخدع الناس بحلاوة كلام
وترى فيه طهارة وهو يجمع لجام
وافخ منصوب بإصباح من يقع فيه

٢٥ كل يوم الطمع فيه والسَّمير كل ليله[4]
ليس بحى بعد قيس ق هواه إلا قبيله[5]
قد بغيت أن نُقَدّمه ق زجل قُبيله[6]
واش ق ذا لو عطاها لى قبل أن نُقَدّمه

(١) لم أستطع فهم المراد بلفظ يد بالضبط .
(٢) كيف
(٣) هنا مصراع ثالث استحسنت أن أستغنى عنه
(٤) أى السمير .
(٥) الغالب أن المراد بلفظ قبيله هنا : نادرا .
(٦) أى قررت أن أبادله زجلا جميلة .

٢٩ اختصر هذا كله واحمل مربوع القد
لك تريد أن تقبل البنان يا بن اجود
نحو حراماً عَلَيّْ إن درى ذا الخبر حسد
كل خبير زد لى ، الذى تطبخ أشويه[1]

٣٣ ومن ذا الليلة نفرح ومن ذا الليلة نَسْكَر[2]
ومن الفرح نسمن وغداً ليس نُعبَّر
شربنا الوشكى ماى على بطن ابن أبى الطر[3]
لم نقض طول الليل إلا نشرب ونسقيه

قد تمت الزجيل وهو من قلبي مقطوع
وجا من سحر بابل ومن الدُّر مجموع
تسمع الناس يقولوا إن ذا باخ مطبوع

ويلاحظ القارئ أن قراءة هذا الزجل قراءة صحيحة تستلزم إطالة بعض المقاطع وتقصير بعضها ، والضغط على مقطع دون آخر ، وقد رأى كاتب الديوان ذلك فحذف حرف العلة حيث ينبغى إغفاله فى النطق ، وأثبت حرف علة فى حيث يقتضى النطق إطالة الحركة كما يرى فى السطر السابع عشر مثلا فى تقصير كيف إلى كف و« مدّ عنقه » إلى « عنقو » مما يدل على أن أساس الوزن فى هذه الأزجال إنما كان طول المقاطع وقصرها وليس عددها ، وهذه مسألة اكتشفها نيكل عند ما نشر الديوان وصحح بذلك قراءة الأزجال مما قررها أستاذه ريبرا ، وقد علق على ذلك جورج كولان فى مقاله الذى سبقت الإشارة إليه فقال :

(البحث بقية) حسين مؤنس

(١) أى أنا دعى كلام الاغلاق وما عمله أنت أيه أنا .
(٢) أى نقز وهذا رأى دوزى فى تفسير هذا اللفظ .
(٣) أى فيضا ابن أبى الطر احد متزهات قرطبة .

الفكاهة فى الشعر المصرى

— ٤ —

رأينا ابن دانيال فى كتابه « طيف الخيال » يسلك مسلكا تهريجيا فى فكاهته ، فهو يضحك الناس من نفسه وبيته وأهله ، وقد ضمن كتابه بعض أزجال ، ولكننا لا نستطيع أن نعرض لها لما فيها من إثم وفحش . ومن يرجع إلى نصوص القرن السابع الهجرى ، قرن ابن دانيال يجد الأزجال تشيع بمصر وتكثر ، وقد عرض ابن سعيد فى كتابه « المغرب » زجلين كانا مشهورين لعهده ، ومطلع أحدهما : المليح قلبى عليه يخفق ومطلع الثانى :

تمشى من الدين الثانى   رجع لدينى الحقانى

والزجلان أيضا بهما بذاء ومجون ، وهناك زجل آخر ليس فيه إثم ولا بذاء ، وربما كان أطرف الأزجال التى وصلتنا عن القسم الأول من عصر المماليك ، وقد نظمه أحد الزجالة فى رثاء الفيل الكبير « مرزوق » وهو الفيل الذى أهداه تيمورلنك إلى سلطان مصر ، فقد تصادف أن فيالاته الموكلين به أخذوه وساروا نحو بولاق ، ثم رجعوا مجازفين من على قنطرة المخر وكان هناك بجمون (قنطرة ضعيفة على ماء) فسار الفيل على ذلك البجمون فخسف به ولم يقدر أحد على إنقاذه وبقى كذلك ساعة ثم مات ، فلما أشيع خبره فى القاهرة خرج الناس إليه زمرا يتفرجون عليه ، ورثاه بعض الزجالة بهذا الزجل اللطيف :

تعالوا اسمعوا بالله يا ناس   اللى جرى
الفيل وقع يوم الاثنين   فى القنطرة
لما أطلعوا فيلان الفيل   راموا الجراق
خدوه وراحوا صوب بولاق   يسقوا العتاق
رأوا شيخ من أهل الله   ما فيه خلاف
جنو بأخدو شاشو منو   بالمسطرة
دعا على الفيل انقنطر   فى القنطرة
قالوا بأنو فى البجمون   مغروس يصيح
فقلت حتى أروح أبصر   إن كان صحيح
أجى ألاقى الفيل ميت   ملقى طريح
والناس تطلع فوق ظهره   مستظهره
لما وقع يوم الاثنين   فى القنطره
وأولاد ديار مصر السادة   جوله زمر
يتعجبوا من هذا الفيل   اللى انحصر
رأوا دموع عينو تجرى   مثل المطر
ولو رحيم والعالم دول   متمسكره
لما وقع يوم الاثنين   فى القنطره
فقلت لو يا فيل مرزوق   يا اسود دفوش
أين حرمتك بين العالم   واتشا تهوش
وكنت يا فيل السلطان   زين الوحوش
وكنت بالإعجاب زهو   فى المنظره
وقد بقيت اليوم مطروح   فى القنطره
والفيل لسان حالو ناطق   للناس يقول
كم كنت نا ادور فى الزفه   فوق طبول
وكنت نا ادور فى المحمل   ولى قبول
حكى عروسه حين تجلى   فى المنظره
واليوم كان آخر مشيو   فى القنطره
وقالت الفيله امرأته   من لى معين
سهم الفراق قد صاب قلبى   يا مسلمين
ونا غريبه يعندبه   قلبى حزين
وكان هذا الفيل زوجى   لا متمسخره
واليوم كان آخر عمرو   فى القنطره
وعيطت حتى أبكت   جيرانها
من كتر ما ناحت نادو   لأخوانها
من دارها سارت تلطم   بودانها
حتى الزرافه جاتها   متحسره
تبكى على الفيل اللى مات   فى القنطره

وما من ريب فى أن هذا الزجال كانت لديه روح فكهة خفيفة كما كانت لديه لفتات ذهن بديعة ، وقد ظهرت هذه

الفتاة فى تصويره لزوج الفيل الهندية وما كان من لطمها «بودانيا» كما ظهرت فى استقلاله لما عرف من صمت الزرافة وما يبدو عليها من تأمل وحزن كأنما أفلت منها شئ ، وقد جاء بها هنا للسمة القبلة فى بكائها .

ونحن لا نمضى فى مصر المماليك إلى القرن التاسع الهجرى حتى نلتق بأكبر شخصية فكهة ، ونقصد شخصية ابن سودون . ويظهر مما ترجم له السخاوى أنه بدأ حياته جاداً فى تحصيل العلوم والفنون المعروفة لعصره وقد وظف إماما ببعض المساجد ، ولكنه سرعان ما تعلق بالهزل والخلاعة فراج أمره جداً وطار اسمه وتنافس الظرفاء فى تحصيل شعره .

وقد ترك ابن سودون ديواناً طريفاً سماه «نزهة النفوس ومضحك العبوس» وواضح من هذا الاسم أنه ملأه بالدعابة والفكاهة ، وهو نفسه يقول فى مقدمته إنه «يشتمل على أنواع من الأقاويل الهزليات» وفيه خمسة أبواب : الباب الأول فى القصائد والتصاديق ، والباب الثانى فى الحكايات اللاذيق ، والباب الثالث فى الوشحات الخيالية ، والباب الرابع فى الدوبيت والزجل وأنواع من المواليا ، والباب الخامس فى الطرف العجيبة والتحف الغريبة .

وإذاً فى هزليات ابن سودون بابان نثر خالص وهما : الحكايات اللاذيق والطرف العجيبة ، والأبواب الثلاثة الباقية شعر خالص ، وقد بدأها بباب القصائد والتصاديق ، وهو يريد بالتصاديق ما يتقدم به بعض قصائده من مقدمات نثرية تشبه ما نعرفه من المقامات إلا أنها قصيرة . أما قصائده فتمتاز بأنه يبقى فيها باللفظ العربى الفصيح على خلاف القسمين الآخرين من «الوشحات والأزجال» و«الدوبيت والمواليا» ، فهذه كلها بنيت على اللفظ العامى . وليس معنى ذلك أن قصائده تخلو من العامية خلواً تاماً فيها كثير من العامية أيضاً ، ولكن العامية فيها محدودة ، وقد صاغها على أوزان العرب المعروفة بخلاف أوزانه فى الوشحات والأزجال فهى تعتمد فى أكثر جوانبها على أذنه هو ، كما تعتمد على موسيقى عصره .

ونحن لا نكاد نلم بديوان ابن سودون حتى نجده يتبع فى هزله طريقة خاصة تقوم على عرض الحقائق مع ضروب من المفارقات المنطقية ، إذ ما زال يسمو بنا فى كثير من شعره بأنه آخذ مأخذ الجد فإذا هو ينتقل فجأة وبدون مقدمات إلى هزل خالص ، واستمع إليه يقول فى وصف الربيع :

إلى الربيع أرى الأهواء تحوينى
لما بدا زهرهُ فى حسن تلوينِ
وماس فى زهىّ الزهر ذا صلف
بين الرياض قضيبين الياسمين
كأنهُ وهْو بالكتّانِ مختلِطٌ
يهود بين نصارى فى شعانينِ
وعطر الأرض تنشر القول حين سرت
نسيمةٌ سحراً منهُ تحيّينى
كأن زهرته أمُّ الخلول إذا
فلقتها فوق نماع بصحنونِ
وكاد يشبه تاجُ القمح بأميّةً
لولا شعورٌ كأعراف البراذين
وانظر إلى زهر البرسيم كيف حكى
أبيضَ التوت فى أطراف مرسين
والعجب من الماء وسط البحر كيف غدا
يمشى بلا قدم سحباً على الطين
مسلسلاً قد جرى إصباح منطلقاً
فالعجبُ لمن جمع الضدين فى حين
ترى الغصون عليه ذاك منحنياً
وذاك من خشية تأواهُ حشّينى

وأنت تراه فى مطلع هذه المقطوعة يتخذ ثوب الحزم والجد ، فهو يعمد إلى الجناس كما يعمد إلى التصوير ، وهو يغرب فى تصويره ، إذ تراه يشبه زهر الياسمين والكتان بيهود ونصارى اجتمعوا فى عيد الشعانين وعليهم عمائمهم الصفر والسود . وبينا نحن نفكر فى تلك الصورة التى تجعلنا نظن بعض الظن أننا بصدد شاعر يتعب نفسه فى

صنع شعره إذا به ينقلنا فجأة إلى تشبيه زهر الفول بأم الخلول وعليها النعناع لا فوق صحن بل فوق صحنون . وهنا تأتي مفارقة ابن سودون ، فهو يخلط بين الجد والهزل هذا الخلط الذي نحس فيه دائماً انحرافاً عن المنطق بل نحس فيه غفلة وتبالهاً ، إذ نراه ينتقل من جد إلى هزل في غير روية ولا ترتيب . وأعد النظر في المقطوعة فإنك تراه يشبه زهر البرسيم بأبيض التوت كما يشبه سنابل القمح « بالبامية » وهي كلها تشبيهات مضحكة لأنه يعمد إلى صور بعيدة لا تفد في العادة على أذهاننا فيقرنها بعضها إلى بعض ، فإذا هي حينما تُقرَن تخرج منها ضروب من المفارقة المنطقية التي تجعلنا نضحك . وأي صلة بين الأصل والفرع المشبه به في هذه الصور جميعاً ؟ ! واستمر معه فستراه أثناء هزله وما يصوره من سحب الماء على الطين يدعونا إلى أن نقف معه متأملين في هذا الماء المتسلسل المتطلق الذي يجمع بين الضدين . فأين نحن ؟ وما هذه الفلسفة أثناء هزله ؟ ولكنها ضرب آخر من مفارقته . وإنك كلما قرأت فيه وجدت نفساً كثيراً ينصب من هذه المفارقة ، ومن الغريب أنها تستقيم له ، ولو لم يعتمد على مثل ما سبق من ضم صور متباعدة تؤدي ما يريد من هزل ، فقد يكتفي بذكر الحقائق ولكنها لا تسجل في شعره حتى نحس أنها أخذت شكلاً مضحكاً على نحو ما نجد في قوله :

عجبٌ عجبٌ هذا عجبُ ... بقراً تمشي ولها ذَنَبُ
ولها في بُزْبُزها لَبَنٌ ... يبدو للناس إذا حَلَبُوا
من أعجب ما في مصر يُرَى ... الكَرْمُ يُرَى فيه العِنَبُ
والنَّخلُ يُرَى فيه بَلَحٌ ... أيضاً ويُرَى فيه رُطَبُ
ووسيمٌ بها البرسيمُ كذا ... في الجيزة قد زُرِعَ القَصَبُ
والمركبُ معْ ما قد وسقت ... في البحر بحَبلٍ تَنسَحِبُ
والناقة لا منقار لها ... والوزةُ ليس لها قَتَبُ
لا بد لهذا من سببٍ ... حزّرْ فزّرْ ماذا السَّبَبُ

وليس في هذه القطعة شيء يضحك سوى ما استعان به من المفارقة ، فإنه يبدأ بقوله : « عجب عجب » وننتبه ظانين أننا سنستمع إلى عجائب ، فإذا هو لا يأتي بشيء لا نعرفه ، ومع ذلك نحس أننا بإزاء قطعة فكهة لا لسبب إلا لتلك المفارقة التي وصفناها ، فهو يدعو إلى العجب من أشياء معروفة لنا غير مجهولة . ولكنه يسوقها في صورة من التباله تجعلنا نحس عدواناً على منطقنا ، وخاصة حينما نصل إلى تعجبه من تلك الحقيقة المعروفة ، وهي أن الناقة لا منقار لها ، والوزة ليس لها قتب ، فقد قرن الناقة تلك الدابة الكبيرة إلى الوزة تلك الطائرة الصغيرة ، ثم ذهب يقول في غفلة وتباله : إن الناقة لا منقار لها كأنه يظنها من الطير ، فهو يرى أجنحتها ولكنه لا يرى منقارها ! أما الوزة فيظنها من فصيلة الإبل فهي ضخمة وتمشي على أربع ولكنه لا يرى قتبها ! ويدهشني ابن سودون من هذه الصور التي لا يكاد يفهمها فيتساءل متحيراً عن سببها ، وهو يقرن هذا التساؤل بكلمة « حزر فزر » التي تلوكها العامة عندنا في « الفوازير » . وما من ريب في أن هذه كلها مفارقات يعتدي بها على المنطق والواقع جميعاً ، وهذا هو سر ما فيها من فكاهة ، إذ نضحك منها لأنها جاءت في غير مكانها ومن غير أهبة لها ، وكأنها تهزنا هزاً لأنها تعتدي على حسنا كما تعتدي على عقلنا ، ولكن هل جاء ابن سودون بشيء سوى الحقائق نفسها ؟ ثم هو لا يصنع أكثر من وضعها في غير نظام ، فإذا هي تستوي في هذه الصور المضحكة التي تجعلنا نشعر كأن توازنها قد اختل ، فهي تصعد أمامنا وتهوي وكأنها تهوي من أمكنة عالية ، هي أمكنة المنطق والواقع ، فنضطرب معها ونضحك في غير نظام ، على نحو ما نجد في قوله :

البحر بحرٌ ولو سموه بالنيل ... ولو بدا فيه بلطيٌّ وبنّي لي
كم سُمَّطٌ في مائه حوتٌ وماطلني
فهل يجود بطوطار لمعطول
فيه الطيورُ مع الأسماك قد تركا
قلبي وطرفي كمسلوبٍ ومسبول
أحداقُ زهر القنائي فيه ساهرةٌ
والفرع يرقدُ كالمسطول بالطُّول

بحثت فيه دقيق الفكر منطرحاً
في ظل نخل به تخمير تخييل
حتى عرفت بأن الناس إن شربوا
لم ينقصوه ولو جادوه بالنيل
وليس ينقص من تحويل سافيه
ولا انسكاب عيون ذات تحويل
والوز فيه إذا ما عام يعجبني
وكلما مر فيه صار يحلو لي
أنا أنه زوجها الذكرور ينقضها
إذ سودته وروّاها بتذييل
مع القنابس في البحرور كم سرحت
وكم بهم سرحت في سرجة الفول
قاقت لهم أي تعالوا ها أنا أمكم
بالأنس فرو سنجابي وقاقوا لي

ولعلك لاحظت أنه يستخدم في كثير من جواب هذا الهزل ضروباً من مصطلحات اللغة التقليدية وما تعتمد عليه من جناس وطباق وصور بيانية ، وهو يضيف ذلك كله إلى لغته لا لسبب إلا لأنه يستمد منه ألواناً من المفارقة . وارجع إليه فانظر كيف يتغزل في الطيور والأسماك ، وإنه ليستمر فيتكلم عن زهر « القت » . أما القرع فإنه يرقد على الأرض كالمسطول بالطول ، وإنه ليجلس في ظل نخل « يخمّر » تخييله ويعجن فكره ، فإذا به يصل إلى هذه الحقيقة الغريبة ، وهي أن الناس لا ينقصون النيل بشربهم لا هم ولا سواقيهم ولا ما يسكب منه ، تسكبه عيون ذات تحويل . والتورية هنا واضحة ، وقد استمر فوصف الوز وهو يعوم فيه وأخرج هذا الوصف مخرجاً هزلياً طريفاً اعتمد فيه على أبنية غريبة من مثل الذكرور والبحرور والتبييض والتسويد ، وما زال به هزله حتى حكى لغة الوزة وأنها « قاقت » لأبنائها ، وكل ذلك ليشكل فكاهته ويتمم دعابته .

(للكلام صلة) شوقي ضيف

أقدم قصة في العالم

هي قصة « أنبو وباتا » ذكرها العالم فلندرز بتري في كتابه — « حكايات مصرية » وقد ترجمها من أوراق البردي .

وقال عنها الدكتور جاربنت : — هذه أقدم قصة وصلت إلينا مدونة مكتوبة وإن كان لا جدال في أن الخيال البشري كان خصباً وكان طيب الثمر لأجيال عديدة سبقت عصر هذه القصة .

وكذلك لا جدال في صحة حوادثها وفي الدقة التاريخية فيما لابسها من زمان ومكان .

ووقائعها باقية كما كتبها كاتبها لم يمسها التبديل والتحويل .

والأوراق التي كتب عليها القصة بخط يده الكاتب المصري « أنانا » لا تزال بالمتحف البريطاني .

وقد حلت رموزها . ثم ترجمت إلى الإنجليزية ثم أصبحت حقائقها — بعد أن خيم عليها الظلام — سافرة تمشي على الأرض .

والقصص المصرية — يقول العالم فلندرز بتري — ليست من نسج الخيال ووحيه . إنما هي قصص تحدثنا أحاديث الرجال والنساء الذين كانوا يعيشون عيشنا والذين أضحكهم الدهر وأبكاهم ، والذين شربوا كأس الحب حلوه ومره .

فإذا رأيت في ثنايا القصة أشياء لا يستسيغها عقلك فاعلم أن تلك الأشياء هي وليدة معتقدات القوم ووحي أساطيرهم .

ولكن جل ما جاء بالقصة ممكن حدوثه اليوم في أي زاوية من زوايا البيوت في أي ركن من أركان العالم . ما دام المعتقدات القديمة عند أصحابها مرتع ومصيف .

وأنت ترى المصريين في هذه القصة ليسوا بناة أهرام وصانعو موميات . بل تراهم رجالاً ونساءً عاشوا ولهم أهواؤهم وعيوبهم . ولهم إيمانهم وجنونهم .

والعالم « بتري » يرجع بالقصة إلى المائة التاسعة عشرة ، بل إلى أبعد منها في بعض المواضع .

وإليك القصة ملخصة : —

يحكى أنه كان هناك أخوان من أب وأم واحدة وكان اسم أكبرهما « أنبو » وكان اسم الأصغر « باتا » .

وكان لأكبرهما بيت . وكانت له زوجة . وكان أخوه الأصغر في مقام الولد . وكان هذا يخيط للأكبر ثيابه ويحرث له أرضه ويحصد له زرعه .

وكان يسوق الماشية صباح كل يوم إلى الغيط ثم يردها كل مساء إلى البيت محملة بخيرات الأرض وباللبن وبالحطب .

وكان يأكل ويشرب وينام مع الماشية حيث تنام ، وكان فوق ذلك من رعاة الغنم القادرين .

فإذا جاء أوان الحرث قال له أخوه الأكبر : — إن الأرض قد بلعت ماءها وأصبحت صالحة للحرث فأتنا بزوج من الثيران ثم أتنا بالبذور لكي نبدأ الحرث في صباح الغد .

وإذ هما يحرثان الأرض بدا للأخ الأكبر أن يبعث بأخيه الأصغر إلى البيت ليأتي بمقدار آخر من البذور .

وفي البيت لقي امرأة أخيه تمشط شعرها . فاستعجلها في طلب البذور فأشارت إليه أن اذهب إلى الصومعة وخذ منها ما تشاء . فصدع بما أمرت وقال لها إني أخذت ثلاثة مكاييل من الشعير ومكيالين من القمح . فوقفت تنظر إليه وهي تقول : — إنك لقوي متين وإني لأراك تزداد بسطة في الجسم كل يوم . وقد كان هذا القول بوحي من شبابها . ثم قامت إليه تكلمه وهي تقول : — تعال واجلس إلي فسوف أجعلك من السعداء . وسوف أصنع لك ملابس جميلة . فهاج لذلك الكلام هائج الفتى . وثار ثائره . فارتاعت المرأة لذلك وانذعرت .

ثم قال لها الفتى : — أنت مني في منزلة الأم وزوجك مني في منزلة الوالد ، فهو الذي رباني صغيرا . فما قول الزور هذا الذي تقولين ؟ أنصح لك أن لا تقوليه مرة أخرى .

ولست بقاتله لكائن من كان ذلك لأنى لا أريد أن يجيء القول فيه كائن من كان .

ثم احتمل حمله وسار إلى الغيط قدما . ولقى أخاه . فأكلا ما بدءاه من عمل .

وفى المساء سبق الأخ الأكبر أخاه إلى البيت وسار فى أثره بعد قليل أخوه يجر الثيران ويحمل إلى البيت ما وسعه حمله من خيرات الأرض .

ونحن الآن فى البيت ننظر إلى الزوجة وقد شربت مقداراً غير قليل من السمن فورم جسمها وبدت كأنما قد ضربت ضرباً مبرحا وكأنها تريد أن تقول لزوجها : —

إنه أخوك الأصغر هو الذى فعل بى ما ترى . ثم عبست فى وجهه وتولت . ولم تصب له الماء على يديه كعادتها . ولم توقد له القنديل . وامتدت فوق سريرها مريضة عليلة .

فسألها زوجها : ما بك ؟ قالت : إن أخاك قد أساء الى وقد مسنى منه الضر فقد راودنى عن نفسى فزجرته وقلت له : — ألست منك فى منزلة الأم . وأليس زوجى منك فى منزلة الأب ؟ فارتاع للقول وذعر ثم ضربنى ليخيفنى حتى لا أنبئك بما كان منه . فإذا أنت أبقيت على حياته مت أنا حزنا وغما .

فهاج هائج الزوج وأعد سكينا وأمسك بهـا ووقف خلف الباب ليذبح أخاه .

وإذ دخل أخوه الأصغر حظيرة الماشية قالت له أولى البقرات : — انظر الى أخيك إنه واقف أمامك وفى يده السكين ليذبحك فانج بنفسك هربا . ثم أبدت قولها بقرة أخرى ، فنظر فرأى أخاه فى الهيئة التى وصفتها البقرتان ، فرمى الى الأرض ما كان يحمله وولى هاربا .

فجرى أخوه وراءه فدعا الأخ الأصغر ربه وقال : — رب إنك أنت الذى تميز الخبيث من الطيب . وأنت خير الحاكمين . فسمع الإله صرخته وأجاب دعاءه وجعل الإله بينه وبين أخيه نهراً يعج بالتماسيح .

فكان أحد الأخوين على إحدى الضفتين وكان الآخر على العدوة الأخرى .

فنادى الأكبر أخاه وقال له : إنى لست بذابحك فأجابه الأصغر : أمهل كلانا أخاه إلى صباح الغد ولنحتكم إلى الإله « رع » عند شروقه . فهو أعدل من يحكم بيننا . وسوف لا ترانى بعد يومنا هذا . وسوف أهجرك هجراً طويلا . وسأذهب إلى وادى السنط .

فلما أصبح صباح اليوم التالى وأشرقت « رع » قال الأخ الأصغر لأخيه : ما الذى حدا بك أن تجرى ورائى لتذبحنى خيانة وغدرا ؟ ولماذا لم تستمع إلى حججى ؟ ألست أخاك ؟ أليست امرأتك منى بمنزلة الأم ؟ ولكن امرأتك قد ضلت بك . وكذبتك القول . وخلقت منى متهماً . وأنا البرئ العف الذيل ، وجعلت من نفسها بريئة وهى المجرمة الآثمة ... ثم أخذ الصغير سكينا وقطع قطعة من لحمه ورمى بها الى الماء فأكلها السمك .

ثم أغمى إغماءة من فاضت روحه . . . فندم أخوه على فعلته وود لو استطاع أن يمتطى ظهر تمساح ليلحق بأخيه على الضفة الأخرى .

ثم رجع إلى بيته يكاد يقتله الحزن ثم ما لبث أن ذبح امرأته ورمى بجيفتها الى الكلاب ثم جلس يندب أخاه ... »

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم

الطبيعة

لجوته Goethe

الطبيعة ! تحيط بنا ، وتلتف حولنا ونعجز عن التخلص منها ، والتعمق فيها . تدفعنا إلى مرقصها ، لم ترجُنا ، ولم تشعرنا . وتندفع معنا حتى نعيى فنرتمي في أحضانها .

تخلق دائماً أشخاصاً جُدُداً ؛ فما يكون لم يكن قط ، وما كان لا يعود أبداً . كل شيء جديد ، وهو مع ذلك القديم دائماً .

نحيا في قلبها ، ونظل غرباء عنها . تتحدث إلينا حديثاً متواصلا ، ولا تبوح لنا بسرها . نؤثر دائماً فيها ، ولا نتسلط مع ذلك عليها .

تبدو والفردية غرضها ، ثم لا تهتم بالأفراد . تبني دائماً وتهدم دائماً ولا يمكن الدخول إلى معملها .

تعيش في الأطفال وحدهم . فمن أمها ؟ فنانة ، هي الوحيدة التي تخلق من أبسط المواد أعظم الأشياء تبايناً ، وتتم من دون جهد ظاهر أروع الأشياء كمالا . تصل إلى أدق ضبط ، وعليها دائماً مسحة التراخي .

لكل من أعمالها كيان خاص ، ولكلٍّ من ظاهراتها معنى مستقل عن غيره كل الاستقلال ، منفصل كل الانفصال ؛ ومع ذلك فكل شيء عندها واحد .

تمثل رواية لا نعلم هل تشهدها هي ، ومع ذلك فهي تمثل لنا نحن الذين نقف متزوين .

فيها حياة ، وتطور ، وحركة ؛ ولا تتقدم مع ذلك . تتحول دائماً ، ولا تكف عن الحركة لحظة واحدة ، ولا تفهم معنى السكون لأنها لعنتها رهن بوقفتها .

مكينة ؛ مقيسة الخطوة ؛ نادرة الاستثناء ؛ ثابتة القوانين .

فكّرت وتفكر دائماً ، لكنها لا تفكر كما يفكر الانسان ؛ ولكن كما تفكر الطبيعة . اختصت نفسها بفهم محيط بكل شيء ، لا يستطيع الانسان إدراكه .

الناس جميعاً فيها ، وهي في الجميع . تلعب مع الجميع دوراً خفيّاً ، ويسرها أن يأخذ الناس عنها . وتلعب دورها مع الكثيرين لعباً خفياً ، فتنتهي منه قبل أن يفطنوا إليه .

أبعد الأشياء عن الطبيعة هي كذلك طبيعة . فمن لم يرها في كل مكان لم يحسن رؤيتها في أي مكان .

تحب ذاتها ، وتنظر دائماً إلى نفسها ، وتهفو بأعين وأفئدة لا حصر لها . تفرقت لتنعم بذاتها . لتتكثر من المستمتعين بها ، ولا تشبع من التحدث عن نفسها .

تُسر بالوهم ، فمن بدد وهمه وأوهام الغير بطشت به بطش الظالم الغاشم . من يسلس لها القياد تضمه كالطفل إلى صدرها .

أطفالها لا يحصون تحت حصر ، ولا تمنعهم شيئاً . لكن فيهم من هو أثير عندها ، تبذل له الكثير ، وتضحي له بالكثير . وهي لا تحمي الصغير ، بل تحمي الكبير .

تطلق مخلوقاتها من العدم ، ولا تقول لهم إلى أين يذهبون ، ولا من أين أتوا . عليهم أن يسيروا فحسب ، فهي تعرف الطريق .

موانعها قليلة ، لكنها لا تبلى أبداً . فعالة دائماً ، متفاوتة دائماً .

روايتها جديدة دائماً ، لأنها تخلق دائماً نظارة جُدُداً . الحياة أجمل ما ابتدعت ، والموت عندها هو الفن الأعلى للإكثار من الحياة .

تطوي الانسان في الظلام ، وتحثه أبداً على الخروج إلى النور . ترهقه بالأرض ، وتبتليه بالبلادة والتثقل ، ثم تستنهضه دائماً . تخلق له الحاجات لأنها تحب الحركة . ومن عجب أنها تبلغ كل هذه الحركة بالنزر اليسير . كل حاجة عندها خير ، تقضى بسرعة ، وتنبت ثانية بسرعة . فإذا قضت المرء حاجة أخرى ، فلونا جديدا من المسرة ، لكنها لا تلبث أن تعود إلى الموازنة .

تتأهب في كل لحظة لأطول شوط ثم تبلغها كل لحظة عند هدفها .

هي الغرور بعينه ، ولكن ليس في نظرنا نحن الذين باتت الطبيعة عندنا أعظم الأشياء شأناً .

تدع كل طفل يصلح من هندامه ، وكل غر يدين نفسه ، وألفاً من الناس يهملون ذواتهم في بلادة ، ولا يبصرون شيئاً . تغتبط بالجميع ، وتحاسب الجميع .

والناس يطيعون قوانينها حتى وهم يخالفونها ، ويعملون معها حتى وهم يعملون ضدها .

تحيل كل ما تهبه خيراً ، لأنها تجعله لازماً . تبطئ ليطلبها الناس ، وتسرع حتى لا يزهدها الناس .

لا لغة لها ، ولا كلام عندها . لكنها تخلق أفئدة وألسنة تشعر بها وتتكلم .

تاجها الحب . فبالحب وحده يقترب المرء منها . تحدث الهوة بين الشيء والشيء ، فيريد كل شيء أن يبتلع كل شيء . عزلت كل شيء لتجتذب كل شيء . تحمل الحياة المكدودة عديمة الأذى ببضع جرعات من قدح المحبة .

هي كل شيء ، تكافئ نفسها ، وتعاقب نفسها ، وتنعم بنفسها ، وتعذب نفسها . هي قاسية رحيمة ، لطيفة مرعبة ، عاجزة قاهرة . كل شيء موجود فيها دائماً ، لا تعرف ماضياً ، ولا مستقبلاً ، والحاضر أبدها . طيبة ، أحمد لها كل فعالها . حكيمة ، هادئة . لا تنتزع منها إيضاحاً ، ولا تغتصبها هبة لا تهبها طوعاً . خداعة ، ولكن لغرض حسن دائماً ، وخير لك ألا تلاحظ خداعها .

كلٌ كامل ، ومع ذلك ، فهي دائماً ناقصة . وكما تتصرف مرة تستطيع أن تتصرف دائماً .

تبدو لكل فرد على وجه خاص مختلف . تتنكر تحت آلاف من الأسماء والمصطلحات . وتظل دائماً هي هي .

لقد أدخلتني هذه الدنيا ، وستخرجني أيضاً منها . وإني لواثق بها ، فلتفعل بي ما تشاء ، فلن تبغض ما صنعته يدها . لم أتحدث بهذا الكلام عنها . كلا . بل كل شيء إن صدقاً وإن كذباً قد كان حديثها . كل ذنب ذنبها ، وكل فضل فضلها .

محمود الدسوقي

نبوءة صادقة

كانت حمى الانتخابات قد شملت فرنسا من أقصاها إلى أقصاها قبيل الانتخابات الأخيرة : استعمل الناس مئات الأطنان من الورق واستنفدوا مقادير هائلة من الحبر ، وشغلت كل خطوط البرق والتليفون بالدعاية .. وكل هذا لكي تعطي فرنسا جوابها على سؤالين اثنين ! وقبل ثمانية أيام من إجراء الانتخابات كانت النتيجة قد عرفت وأذيعت على الناس : ذلك أن المسيو جالوب محرر صحيفة L'aube نشر في صحيفته أن سبعة في المائة من الفرنسيين سيجيبون من السؤال الأول بلا ، وأن ثلاثة وتسعين سيجيبون بنعم . وأما السؤال الثاني فستكون نتيجته ٣٣٪ لا ، مقابل ٦٧ ٪ نعم .

ثم أتى يوم الانتخاب ، وبلغت الحمى أقصى درجاتها ، وأرسلت الحكومة مئات من الموظفين إلى دوائر الانتخاب في العاصمة وفي الريف لإحصاء الأصوات واستخراج النتيجة ، وأرسل كل عمدة نتيجة قريته إلى المديرية وأرسلتها هذه بدورها إلى الوزارة ، وهناك أخذ مئات من الموظفين يعملون في الإحصاء والحساب والجمع .

وفي فجر اليوم التالي أعلنت النتيجة فإذا هي بالضبط كما أعلنها المسيو جالوب قبل ذلك بأيام !

وقد سئل الصحفي النابه عن الوسيلة التي استعملها لمعرفة النتيجة بهذه الدقة ، دون الحاجة إلى جيش هائل من الموظفين فقال : في فرنسا ٣٩,٩٩٧,٠٠٠ ساكن وهؤلاء يتفرقون في ثلاثة آلاف طائفة كل منها ١٣,٣٣٣ فرنسياً يشتركون في الذوق والميول والتفكير والوضع الاجتماعي والآراء السياسية .

لقد أرسلت إلى كل واحد من هؤلاء الثلاثة آلاف وحصلت على آرائهم وكفى هذا مئونة إجراءات الحكومة المعقدة ! . (عن Temps Présent — باريس)

بين المسموع والمقروء

فى ضيافة فلاح يابانى

واستطرد الأمريكى يحكى : —

وجلسنا إلى العشاء ، وفرغنا من العشاء ، ثم أنصتنا للإذاعة ، وكانت على العادة ملخصا للأخبار يذاع على الموجة القصيرة باللغة الانجليزية . وبينا أنا أنصت ، لاحظت أن مضيفى يرشقنى بنظرات حادة طويلة .

وجلسنا من بعد ذلك على الأرض نتمدد فى غير كلفة ، وسكن المكان إلا من أصوات الحشرات وأنغامها خارج الدار . وسألت صاحبى : لم كان يرمينى بنظراته تلك الطويلة ؟ وكان سؤالا — لا شك — فاحشا ، فاختبل الرجل بعض حين ، ولكنه مالبث أن عاد يعتذر عن فعلته أحر اعتذار ، وأحماها سوء أدب . وحسب بذلك أنه خلص من سؤالى وهرب من جوابه . فألححت عليه . فقال إنه كان ينظر إلىّ متفحصا ليعرف وقع ما أسمع من أخبار المذياع فى نفسى ، ليعرف هل آمنت أم كفرت بها . إنه سمع كثيرا من الأجانب يقولون إن اليابان لا حرية للقول فيها ، لهذا توقع أنى أضحك مما أسمع خفية فى صدرى .

فأعطانى كلامه هذا فرصة كنت أنتظرها .

قلت : إنى أعرف اليابان ، وأفهم أهلها ، فقد عشت فيها دهرا غير قصير . وإنى لأعلم أن بعض الأخبار تصاغ هنا استجابة لبعض الظروف وبعض المواقف ، ولكنى أعلم كذلك أن فى بعض الأمم التى تدعى الحرية فى القول توجد رقابة لا مرية فيها على الصحافة وعلى الإذاعة ، رقابة مباشرة أو غير مباشرة . هذا رأيى . وهو لا قيمة له الآن عندى . إنما الذى له قيمته الآن هو رأيك أنت . هل تعتقد أنت صحة ما سمعت ؟ هل توافق على الآراء التى أذيعت ؟ هل تبرر سياسة جرت عليها دولتك ؟ .

ومضى غير قليل من الوقت قبل أن يقبل صاحبى على الحديث . كانت به خشية أن يخطئ فيترك عندى أثرا غير محمود . وأحس أن شرف أمته فى يده — فى لسانه ، فاختار أن يمضى فى القول على حذر . ولكنى أرثتُ فيه ثائرة الحجاج عمدا ، فاستجاب ، وانطلق لسانه بعض انطلاق .

قال : لقد قرأت بعض كتبك ، ووجدت فيها الكثير الحق مما تحكى عن هذه البلاد ، ولكنى وجدت أيضا فيها الكثير من الخطأ فى أشد الأمور خطرا . إنك لا تفهم الشعب اليابانى . إننا قبيل فى الناس غريب ، فينا صلف وفينا زهو وكبرياء . وإذا أساء الأقوام فهمنا ، فنقدونا ، أخذتنا العزة فلم نتنازل ، فنرد نقدا بنقد ، أو نصحح رأيا فينا فسد . إننا نعتقد أننا إنما نفعل صوابا ، وهذه العقيدة تكفى لأن يكون ما نفعل الصواب . ونحن فى غير حاجة إلى تأمين الغير على ما نفعل . تصور كم يغضب الانجليز إذا نقد الناقد صنيعهم فى ارلندا . ونحن مثلهم ، يجرح نفوسنا أن يساء فهم نياتنا ، ولكنا لا نتضع فنعتذر عنها أبدا .

فقطعت عليه الحديث . قلت : مهلك ، مهلك ! ما أسرعكم أيها اليابانيون إلى الحديث عن الشرف القومى ، وإلى الحديث عن بلادكم كأنها شىء واحد . على كل حال دعنا الآن من هذا ، فسوف يجئ وقت هذا . وحدثنى عما تراه فى أمر الشعب اليابانى . عما تراه فى أمر نفسك أنت ، وأمر امرأتك ، وكيف تنظر أنت وكيف تنظر هى إلى الأشياء . إن بعض الكتب التى ألفت عن اليابان ، وبعض كاتبيها ذوو سمعة وذوو نباهة ، هذه الكتب تصف اليابان على أنها تجلس على فوهة بركان لا يلبث أن يتحرك . إنهم يقولون إن اليابانيين على وشك الثورة ، وإنهم جياع ، ورجال الشرطة ورجال الجيش يسومونهم شر معاملة ، وإن أصحاب الأراضى يفرضون على الفلاحين الزارعين إيجارات باهظة معجزة ، وإن الأرز الذى ينتجونه لا يكاد يسد أرماقهم ،

وإن الدين يثقل بأعنائهم . لحدثني عما ترى في هذا . حدثني من هذا ، فهذا هو الأمر الأخطر الذي منه تُستنتج خاتمة الأمور .

فسكت صاحبي ساعة وهو ينظر إلى الأرض ، ثم رفع رأسه يقول في جمل زن ألفاظها وزنا : أنا لست ثوريا ، ولست أحاول أن أقطع أملاكاً ، من نظُم للاقتصاد أو نظُم للادارة ، ووطنى يطابق هذه الأرض التي تمدّ في الأرز كل عام فلا تخلف وعدا . إني راض بقسمتي . وقسمتي هذه خير من قسمة أبي ، ولي كل ما أحتاجه . وإن كان صاحب الأرض جشعا طامعا ، فهذه شيمة كل ذي أرض بكل بلد من بلاد الله . ويفيض لي من بعد طمعه وجشعه فضل على كل حال يكفيني . حتى إذا ساء المحصول عاما ففي قدرتي أن أصبر إلى عام يطيب المحصول فيه . وأنا في عيشي في سكون لا يهوشه عليّ أحد ، إلا إذا بدأت أنا بإثارة الناس إلى تهويشه .

قلت : ولكنك تضطر إلى دخول الجيش غصباً .

قال : نعم . ولكن كان هذا وأنا صبي ، فلم أكن ارتبطت عندئذ بأسرة ، ولم أكن بدأت أحصل العيش . ودخلت الجيش لمدة غير طويلة ، فأطعموني وكسوني ، وعلموني فيه الشيء الكثير ، وخرجت منه أقوى جسداً وأصح عقلا .

قلت : ولكني علمت أن العيش بالجيش ذو مشقة وذو غلظة ، وأن الناشز فيه يلقى شر عقاب .

قال : نعم كان العيش شاقا ، ووجب أن يكون شاقا . إن الجيش يعلم الرجل الحرب ، فيعوده ركوب الصعب ، ويدربه على احتمال الألم . وقد نمشي الأميال الطويلة في لفحة الشمس وهي من نار ، وقد يدوخ الجندي من شدة الحر فيؤذن له بالسقوط على حافة الطريق ، ويظل الباقون في سيرهم لا يلتفتون إلى الوراء ولا يتوقفون . ولم يشك منا أحد ، لأننا عرفنا الحكمة من كل هذا . إن التدريب في ساعة السلم ، ولو شاقا ، يهون أكبر الهون في ساعات الحرب ، حيث لا هوادة تُرجى ولا رحمة تساق .

قلت : فما بال الفشار ، وما يسام به صاحبه من قسوة ؟

قال : لقد حسبتك نسيت هذا ، فرضيت بأن لا أقول فيه شيئاً . ولكن إذ قد أصررت فاعلم أن الكثير من الجنود فقراء ، وهم على غير جانب كبير من الثقافة . وكثيراً ما يقعون نهبة لصنوف من الأفكار ضالة مضلة . فهذا لا يصبر عليه الجيش . فالجيش يعلم الجند الطاعة العمياء لضباطهم ، وللامبراطور ، فإذا حالت بين الجندي وبين هذا الواجب فكرة سياسية ، فالويل للجندي عند ذلك . والجندي على كل حال تجب حمايته من كل فكرة غريبة من جنسنا ، غريبة الأسلوب عن فكرنا .

قلت : لقد فهمت ما قلت ، ولكنك لم تقنعني بالذي قلته .

قال : إني لم أتوقع أنك تقتنع . إن بكم أيها الغربيون صفة من أجود الصفات ، تلك أنكم تستوعبون كل فكر ، وتجمعون كل علم ، ثم تصنفون ما تستوعبون ، وتغربلون ما تجمعون ، فتحتفظون بلبابه ، وترمون ما تخلف من خُشاره . أما نحن هنا في اليابان فحريصون كل الحرص على كل صنف من صنوف الفكر ، وكل نوع من أنواع العرفان أيًّا كان . وكل ما نجمع من هذا نحتفظ به ، لبابه وخُشاره .

قلت : هذا قول جميل حقاً . فلقد رأيت في طول البلاد وعرضها شباب الطلاب ، في أرديتهم السوداء ، يدخلون المدارس ، يحاولون جهدهم أن يجمعوا من صنوف العرفان ما استطاعوا . وهم يجمعون منه المقادير الهائلة على التعب الكثير وعلى الجهد الزائد ، ولكنهم لا يهضمون فينتفعون بالذي جمعوا . ويبين لهم بطلان ما اعتزوا به من غايات للحياة اعتنقوها دهراً ، فيرفضونها ، ويخرجون على العقائد ، ويخرجون على الأوضاع . ولكنهم لا يلبثون

أن يعودوا من الباب الذي منه خرجوا . إنكم أيها اليابانيون قوم ذوو ثبات وذوو احتفاظ ، ما أمسكتموه لا تفلتونه أبداً .

قال : هذا حق . أما سببه فإن الولد الياباني يذهب إلى المدرسة فيتعلم التاريخ الياباني ، وهو مزيج من دين قوي وقصص تقليدي ، ثم يمضي الطالب في دراسته فيكتشف روسو ، وفلتير وأشباههما ، فيعجب بهم ويسحر بآرائهم ، ويفرح بهم فرحه بالجديد . ويُشبع بهم ما في نفس الشاب من ميل إلى الثوران والثورة . ويتحمس لهم تحمساً كبيراً ، ويرى فيما يصفون عالماً جديداً ، وحياة جديدة ، ودنيا جديدة . ويرسل شعره ، ويخطب الخطب الجامحة ، ويزج في السجن ، فلا يزيده هذا إلا استشاطة . ولكنه لا يلبث أن يأتيه السأم فيرغب عن كل هذا . يأتيه السأم فلا يطول به الحال حتى يتكشف له أن هذه الآراء، آراء قد تكون طيبة نافعة للأجنبي، وللشباب أيضاً ، وحتى يدرك أنه من أمة غير الأمم ، من أمة نزلت من أصلاب أنقى وأفضل من أصلاب نزل منها الغربيون ، فهي أحسن مادة وأدق نسجاً ، وهم من أجل هذا ليسوا في حاجة إلى طلب الخلاص مما هم فيه من ضيق ، من آراء أجنبية ، وعقائد غريبة ، يقتبسونها ممن هم دونهم من عشائر بني الإنسان . وعندئذ تعود الوطنية الحارة ، وهي قديمة عتيقة ، إلى تلك القلوب الشابة ، وتتراءى بعد اختفاءه ، فتطغى على كل شئ وتملأ عين الشاب الياباني فلا يرى غيرها من الدنيا شيئا .

وزاد صاحبي فقال مبتسما : ثم بعد هذا ، فكل صبي إلى الرجولة صائر ، وفي الرجولة لا بد للرجل من تحصيل عيشه ومن الكسب لدنياه .

فقلت في شئ من السخرية : بالطبع أن الوطنية العتيقة لابد أن تُسعد أحيانا . ولكن ماذا ترى فيما نسمع به أمريكا وانجلترا من شباب ، لم يخرج في كثير من الأحيان عن دور اليفاعة ، يزجه بوليسكم في السجن ، على غضاضة من العمر ، فيقوم بتعذيبه على أبشع صورة ، رجاء أن يكف عن عقيدة الاشتراكية أو فكرة غير تقليدية ؟

قال : فكّر ياصديقي قليلا تجد أن ما تصف لا يختلف كثيرا عما يستطيع أن يصف به الواصف بعض ما يجري في أمريكا أو في انجلترا . خذ انجلترا مثلا : إن في انجلترا لا تقع الاضطرابات السياسية إلا نادرة ، لأن القوم محافظون ، ويرغبون عن التحول والتجديد . ولكن مع هذا فماذا ترى في بيترلو ، وماذا ترى في ميدان ترافلجار ، وماذا ترى في غاندي ، وماذا ترى في ارلنده ؟ وهذا قليل من كثير . وفي الولايات المتحدة ماذا ترى في العصابات ، وماذا ترى في الذي يصنعه البوليس عند الاعتصابات . وزر ألمانيا ، وزر أمم أوروبا ، وانظر ما الذي يجرى للأقليات فيها ، ولأحرار الرأي فيها ، وما تصنعه الحكومات ! كل هذه أخطاء لا تحسبونها كما تحسبون أخطاءنا ، ولا تذيعونها كما تذيعون أمثالا لها فينا .

وكان الليل قد تقدم . وأخذ التثاؤب ينتاب الضيف وصاحب الدار . فاقترحت النوم فما أسرع ما وافق صاحبي . أما سبب موافقته . . .

أحمد زكي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة
AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٧٢ — الثلاثاء ١٠ من ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ١٢ من فبراير سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

حديث المفـــاوضات

وأخيرا جاء الرد البريطاني على مذكرة الحكومة المصرية بطلب فتح باب المفاوضات بين الدولتين لتعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ ونشرت مذكرة الحكومة المصرية ورد الحكومة الإنجليزية عليها . فأثار نشر المذكرتين ضجة كبرى في الأوساط السياسية ، وسارعت الهيئات السياسية لنشر البيانات تعليقا عليهما ، وتسابق المفكرون في نشر آرائهم المختلفة عن الموقف وتحديد ما يرونه فيه من ربح للبلاد وخسارة عليها ، وتبارى خطباء البرلمان في التعليق وتخريج المعاني الظاهرة والخفية من محتويات المذكرتين ، وبالإجمال يمكن القول بأن نشر المذكرتين قد بعث نشاطا سياسيا كبيرا وأيقظ الحس الوطني أشد إيقاظ ، وحرك الأذهان لإعادة النظر في علاقتنا ببريطانيا وتدبر نياتها نحونا .

ويمكن تلخيص ما يقال حول المذكرتين فيما يأتي :

أولا : أن المذكرة المصرية أشارت بوضوح إلى حجة مصر في طلب تعديل المعاهدة ، فالظروف الدولية الشاذة التي عقدت فيها قيدتها بقيود شديدة تتنافى مع الاستقلال التام ، ولم يعد لها محل الآن مع تغير الوضع الدولي ووجود ميثاق الأمن بين الدول المتحدة .

ثانيا : أن المذكرة المصرية حددت أهدافها التي ترمي إليها من وراء تعديل المعاهدة ، وهي جلاء الجنود البريطانيين عن مصر . وبحث مسألة السودان على أساس تحقيق أماني السودانيين .

وهذه الناحية الأخيرة يأخذ عليها الكثيرون عبارتها المبهمة . وكانوا يرجون أن تكون صريحة في أن الغاية وحدة وادي النيل ، وإن كانت الحكومة تستطيع أن تقول إن ما لديها من معلومات يقنعها بأن رغبات السودانيين واضحة في تحقيق وحدة وادي النيل .

ثالثا : أشارت المذكرة إلى أنها ستقوى الجيش المصري حتى يستطيع الوقوف في وجه كل معتد على مصر

إلى أن توافيه النجدات من الدولة الحليفة والدول المتحدة.

ويرى بعض الناقدين أن الإشارة الأخيرة لم يكن لها ضرورة، فميثاق الأمن صريح بما صرح بمن يقع عليه الاعتداء إذا كان بحاجة لهذا العون.

رابعا: يرى بعض الناقدين أن المذكرة صيغت في لين وضعف، وكان الواجب أن تكون قوية صريحة تشعر الجانب الآخر بالإصرار والتصميم على تحقيق ما نقصد إليه.

هذا مجمل التعليق على المذكرة المصرية. أما المذكرة الانجليزية فالتعليق عليها ينصب على النقط الآتية:

أولاً: أشارت المذكرة إلى قبول بريطانيا مبدأ المفاوضة واعترفت صراحة باحترامها استقلال مصر. وهذا كسب لا شك فيه.

ثانيا: تحفظ الرد البريطاني تحفظا ظاهرا يذكره دروس الحرب الماضية وما تعلمته إنجلترا منها، وهي إشارة تنطوي وراءها معان لا تبعث على الاطمئنان. فلا بد أن تكون انجلترا ترمي من وراء ذلك إلى تمسكها ببعض الاعتبارات التي كانت تتمسك بها من قبل لما تسميه تأمين مواصلاتها، وغير ذلك من الاحتياطات الوهمية التي تخلقها العقلية العسكرية الضيقة.

ثالثا: ورد في الرد البريطاني إشارة إلى قيام العلاقات بين الدولتين على أساس المشاركة مع أجزاء الامبراطورية، وهي عبارة بغيضة تدل على نظرة خاطئة لمركز مصر وفهم غير مقبول لصلتها بها.

رابعا: مرت المذكرة البريطانية بمسألة السودان مرا خفيفا مشيرة إلى أنها علمت رغبة مصر في المباحثات بشأنها ولم تحدد بجلاء رأيها في ذلك.

والرأي المنصف أن المذكرة المصرية كانت وافية ببسط مطالب مصر وإن كان أكثر المفكرين على أنه كان من الممكن أن تصاغ على صورة أقوى مما صيغت به وأوضح دلالة على ما نريده وأكثر استمساكا بحقنا الدولي طبقا لميثاق الأمن، وأصرح تعبيرا في المطالبة بوحدة النيل.

أما المذكرة الانجليزية فقد صيغت بتحفظ يبعث على الريبة ويدعو للشك في حسن نيات انجلترا في إجابة ما نريده وأن المكسب الظاهر هو قبولها المفاوضة، وهي تعلم ما نريده وتدرك حق الادراك ما نرمي إليه.

فالأمر — على أسوأ الأوضاع — هو أننا صارحناها بأننا نفاوضها على أساس جلاء جنودها عن بلادنا وعلى أساس حل مشكلة السودان. وصارحتنا بأنها تقبل ذلك، ولكن لديها اعتبارات خاصة تحرص عليها قد تكون مقيدة لنا بعض التقييد.

والسؤال الذي يقوم بالذهن بعد ذلك هو: هل ندخل في المفاوضات على هذا الأساس أو لا ندخل؟

يذهب البعض إلى أن هذا الوضع لا يصلح أساسا للدخول في المفاوضات. وأنه لا يصح التفاوض حتى يعدل الانجليز عقليتهم ويقبلوا ما طلبناه بلا تحفظ. ولو صح هذا لما كانت هناك حاجة لمفاوضات. فالأمر لن يعدو في هذه الحالة أن يكون تبليغا من جانبنا وقبولا من جانبهم ومسارعة للتنفيذ (وكفى الله المؤمنين القتال).

وقد كان هذا طبيعيا وممكنا لو أن الانجليز يعالجون الأمر بعقليتنا ويفهمون عما نقتنع به من أن ما يتمسكون به من احتياطات وما يختلقونه من اعتبارات تمس مصالحهم الامبراطورية لا مبرر له مع قيام النظام الدولي الحاضر. ولكن جمود العقلية السياسية الانجليزية وبقايا الشكوك القائمة في أذهان ساستهم تجعلهم لا يدركون ما ندرك.

ونحن بحاجة إلى أن نتصل بهم ونحاول تغيير عقليتهم وإزالة الأوهام والشكوك القائمة في رؤوسهم ونلمس الوسائل لإدخال الطمأنينة على أنفسهم من حيث تلك المصالح المزعومة، ونحن بحاجة لإقناعهم بأن صلات الود والصداقة بيننا وبينهم أكفل بصون مصالحهم ولإشعارهم أن كل تدخل في شئوننا أو تقييد لحريتنا يفسد جو الصداقة المنشود بيننا وبينهم، وكل هذا هو ما نرمي إليه المفاوضة.

هناك أمر واحد يجب أن نطمئن إليه هو أن المفاوض المصري يكون مؤمنا بالأهداف الوطنية قادرا على إبرازها في أجلى صورها قويا في الدفاع عنها واسع الحيلة في سد

من الأقوال المأثورة
فى الأدب الغربى والعربى

من الإنجليزية والأمريكية :

حكومة المحافظين نفاق منظم .

سأل قسيس رجلا : لماذا ينجح الممثلون أكثر مما ينجح الواعظون ؟ فقال : « إن الممثلين يتكلمون عن الأشياء الخيالية كأنها حقيقية ، والواعظين يتكلمون عن الأشياء الحقيقية كأنها خيالية » .

إن قبلة من أى جمالتى فنانا .

إن المعرفة الإنسانية ليست إلا جهلا مبوبا .

كل عقلاء الناس على دين واحد .

قد يصح للانسان أن يغير رأيه ولكن لا يصح له أن يغير مبدأه .

يجب أن يصرف الإنسان بعض زمنه مع الضاحكين .

السفير رجل أمين أرسلته دولته إلى الخارج ليكذب لها .

كل إنسان يستطيع أن يعمل أى عمل عمله الآخر .

أراد ابن أن يقرأ لأبيه فقال الأب : كل شىء إلا التاريخ فإنه باطل .

إنما يعتذر عما لا يمكن تغييره .

الاقتيال لا يغير تاريخ العالم .

الجامعة يجب أن تكون مكان الضوء ومكان الحرية ومكان العلم .

كن عادلا وأنت لا تخشى شيئا .

الكتب والكنائس والحكومات هى ما نعمل .

الطرق على الأساليب السياسية الماكرة التى يتقنها الساسة الانجليز ، حريصا على ألا يقبل ما يتنافى مع كرامة البلاد واستقلالها ، وأن يرجع للأمة قبل أن يقطع برأى فى مصاير البلاد . وأن يقطع المفاضات إذا وجدها تتجه فى غير الاتجاه الذى تريده .

فلا ضير علينا أن نفاوض مادمنا ندخلها غير مقيدين إلا برغبات البلاد ، فإن نجحنا فيها ، وإلا فليست هذه أول مفاوضة بيننا وبينهم لم تتلاق فيها رغباتنا مع رغباتهم . وإن نخسر بهذه المحاولة شيئا ، وسنكون فى حل إن فشلنا من طرح قضيتنا على مجلس الأمن .

لسنا من المتفائلين ، بل لعلنا — على ضوء المذكرة البريطانية — أميل إلى التشاؤم ، ولكن هذا لا يسوغ أن نوصد بابا فتح أمامنا ، ولو كان كل ما يفتحه لنا بريق أمل ضعيف . إن أمامنا جهادا شاقا ، ولكن حجتنا قوية والظروف الدولية كما أشرنا فى غير هذا المقال مواتية لنا . ومصر تتمتع اليوم بمكانة دولية تجعل صوتنا مسموعا .

ومنزلتنا فى الجامعة العربية تزيدنا قوة وتمكينا ، ويجب أن نستثمر هذه الاعتبارات كلها ، ونحن نفاوض . ولا نتردد فى موقفنا ، فالحق معنا .

بقى أمر آخر له أهمية كبرى فى نجاح المفاوضات ، وهو أن تقف الأمة وراء مفاوضيها تسندهم وتؤيدهم وتبصرهم وتراقبهم ، ولا يكون هذا بتفكك القوى وتعارض الهيئات وتنازعهم على الشكليات وتقسيم الثمرات والمغنوات الصغيرة لإضعاف مراكز المفاوضين وتخذيلهم فى سعيهم .

ولعل الوسيلة العملية الوحيدة للتغلب على هذه الصعوبة أن يشترك أقطاب البلاد وزعماؤها وكبار ساستها جميعا فى هذه المفاوضات وأن يسموا جميعا أمام هذه المهمة الوطنية الكبرى عن الخصومات الحزبية والنازعات الصغيرة .

إن الشعب ليتطلع إلى الجميع أن يعيدوا الجبهة الوطنية الوحدة ، وأن يواجهوا خصمهم كتلة واحدة تشمل أكفأ عناصر البلاد وأقدرها على السير بالمفاوضات إلى النجاح المحقق . جمع الله كلمة الأمة ووفق قادتها للتعاون على خيرها .

(. . .)

قد لا يكون لمعرف حكمة القانون ولكنه أحب إلى الناس .

الديمقراطية كالقبر لا ترد ما تأخذ .

الخلاف في الدين ينتج من الخصومة أكثر مما ينتج الخلاف في السياسة .

يقول المثل الفرنسي : أجناس الناس ثلاثة : الرجل والمرأة ورجل الدين .

أداء الواجب يحدد القـدر .

لكل إنسان ثمنه .

في السياسة ليست هناك كلمة أخيرة .

القوة ليست علاجا .

كثيراً ما ترتقي الصداقة إلى حب ولكن الحب لا يهبط أبداً إلى صداقة .

أنا فقير وفقير جداً ولكن ملك انجلترا ليس له من الثروة ما يستطيع بها أن يشتريني .

حريتي أو موتي .

الشكر على نعمة الماضي أمل في نعمة المستقبل .

الأشياء العظيمة لا ترى إلا على بعد .

لو خدمت الله نصف ما خدمت مليكي لأسبغ عليّ نعمته في آخر أيامي ولم يتركني لأعدائي .

ليست السعادة غاية الحياة بل الخلق .

الناس لا يقدرون البساطة حق قدرها مع أنها مفتاح القلب .

إذا تحققت كل رغباتنا ضاعت أكثر لذائذنا .

إذا صوبت كل سيوف إنجلترا إلى رأسي لم يحرك ذلك من نفسي .

إذا كان لي ابن اجتهدت أن أعلمه الفرنسية والألمانية أما اللاتينية واليونانية فترف .

إذا أغرقنا كل المادة الطبية في قاع البحر كان ذلك خيراً على الإنسان وشراً على البحر .

الجهل لا يحسم نزاعا .

سأحاول ما عشت أن أخدم إلهي ومليكي ووطني ولذلك سيسكنني الله مع من أحبوه .

لقد وهبت حياتي للقانون والسياسة ، أما القانون فأمر مشكوك فيه وأما السياسة فلا شك أنها عبث .

قال أمير وهو يحتضر : لقد ملكت المال والجاه والقوة ولكن إذا كان هذا كل ما أملك فتعساً لي .

لقد سمعت أن شيئين سالبين يكونان موجباً ولكن لم أسمع أن لا شيء ولا شيء يكونان أي شيء .

لقد تعلمت أخيراً ما تعلمت قبل ، وهو أن لا شيء يصح أن يؤخذ قضية مسلمة .

لقد اقتنعت أن عظمة إنجلترا واستقرار أساس شؤونها إنما هو في أمريكا .

ما فائدة التاريخ وأقوال الحكماء وتجارب السلف إذا لم تكن دليلا هادياً للخلف ؟ .

لقد تعلمت من الحديث مع الناس أكثر مما تعلمت من كل ما قرأت .

في الأمة الناجحة يكون التغير دائماً .

الأفراد قد يكونون جماعات ولكن النقابات هي التي تكون الأمة .

لم يبلغ إنسان من الشر مبلغاً لا يستطيع معه أن يأتي بخير .

ثورة الأفكار تأتي دائماً قبل ثورة الجيوش .

ما أسفت على شيء أسفي على أن لي حياة واحدة أهبها لقومي .

الصلح الظالم خير من القتال العادل .

أحمد أمين

قصيدة

مهداة لحضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المعظم

بمناسبة عيد ميلاده السعيد — ١١ فبراير سنة ١٩٤٦

وحيٌ تهبُّ من الوادي نسائمُهُ
أم روضُ مشجرةٍ غنّتْ حمائمُهُ ؟
أم أنّهُ عصرُ أمجادٍ مذهّبةٍ
تفتّحتْ في الربى طيباً كمائمُهُ
وقفتُ .. والفجرُ بالأضواء منتصرٌ
والدجى عسكرٌ تجري هزائمُهُ
والدوح مفتتنٌ لحنُهُ عطرٌ
والجداولُ ترّانٌ يناغمُهُ
والسيلُ كالأبدِ الروحيّ منحدرٌ
من الغيوبِ ، وفي الفيض عارمُهُ
والربيع أغاريدُ الضحى سفرتْ
ألحانَها الوردُ قد غنّتْ براعمُهُ
هذا هو الوطنُ الباقي حضارتُهُ
من مشرقِ الدهرِ لا تخفى معالمُهُ
تألّقتْ ليلةَ الميلادِ فرحتُهُ
وهنّأتْ عيد « فاروقٍ » مواسمُهُ

* * *

تخيّرَ اللهُ للميلادِ .. مشرقَهُ
فجرُ الربيعِ قد افترّتْ مباسمُهُ
نعماءُ رمزاً لعدلٍ أنت شائدُهُ
نِعمَ البناءُ ، وظلمٍ أنت هادمُهُ
مولايَ ! بشرُ الروضِ أنت غارسُهُ
في ربوةِ النيلِ شاقَ السحرَ هائمُهُ
من الجمالِ معانيهِ منسّقةٌ
ومن شبابِ العلا زهرٌ مكارمُهُ

عيدٌ يهيمُ خيالي في مفاتنِهِ
والخيالِ حقيقاتٌ توائمُهُ
ولا يكون جمال الشعر متّسقاً
حتى يُرى واقعَ الأيام حالمُهُ
فما الذي أبصرت عيناي من شرفٍ
لغير وضعك لم تثبت دعائمُهُ ؟
بل رأيت وفود الشرق مقبلةً
إلى المليك الذي فاقت عظائمُهُ
ليثُ الجزيرة لاقى منك خير أخٍ
والشامُ بعدكما سالت ضراغمُهُ
وشعلة الحبِّ من لبنان صارخةٌ
إن يشعل الزيت فالوجدان ضارمُهُ
وشعلة الكرنك المسحور من قدمٍ
بداه رمسيس في البردي راقمُهُ
يهيب دونك : أتمم ما بدأتُ به !
فناره في يد الذكرى وصارمُهُ
سبحان من يجمع العصرين قدرتُهُ
مجدٌ تصافح ماضيه وقادمُهُ

* * *

مولاي ! عيدك أسرار تطالعنا
فأيُّ سرٍّ جديدٍ أنت كاتمُهُ ؟
من آية الله هذا العام أنّ له
من مولد المصطفى عيداً يلازمُهُ
عيد الرسول ، وعيد التاج قد جمعا
فنوّر الكون وانجابت غمائمُهُ
الدين بالعرش قد تمّت مباهجُهُ
والشرق بالنور قد ماجت مواسمُهُ
ومن يكن لرسول الله مصطحباً
فالله ناصره ، والله عاصمُهُ !

* * *

مولاى ! مصرُ ذكرناها وما برحت
في خاطر المجد أطيافاً تنادمه
لا أظلم الشعر إلا في الفتون بها
أما الرقيب فقد ساءت مزاعمه
إنا نسير إلى شماء عاتية
وقد شكا الصخرُ من لجٍ يلاطمه
وزورق المجد في يسراك دفته
والبحر حولك مجداف يصادمه
تجرُّ به عاصفات الريح مجنحاً
هوجاء لولاك ما كانت تسالمه
فإن حكمتك العلياء ما برحت
تحبو اليقين فؤاداً ضل واهمه
سدادُ رأيك شمسٌ طالما كشفت
بنورها من دجى خطب غمائمه
تحرر الجيل من قيد يئن له
فالجيل من ذهب أنت معاصمه !
زاد للقيد ألوانٌ ، فويح له !
وهل تكون سوى جرح علائمه ؟
وقد يعاني أشد القيد منطلق
على السبيل جميل الوشى ناعمه
لا كرّم الله حلفاً أنت ناقمه
ولا رعى الله جهلاً أنت عالمه
لا ينهض النسر إلا وهو مقتدر . .
عزت خوافيه واشتدت قوادمه
الشعب خلفك يا فاروق محتشد
وأنت بالحب والإخلاص حاكمه
فانهض به نهضة غراء خالدة
واكتب صحائف نصر أنت راسمه

مولاى ! هذا خيال الشعر منطلق
إلى سمائك لا طير يزاحمه
الصدق أغرودة أضحى يرقرقها
عطراً على الورد حتى هب نائمه !
فهل يوفَّق تشيدى بعض واجبه
وهل يوفق في الإبداع ناظمه
مولاى جددت عصراً أنت مالكه
فمن لشعرى بتجديد يلائمه ؟
إذا استمد ملاك الشعر من شرف
مستوحياً ، فلقد عزت ملاحمه

عامر محمد بحيرى
وزارة المعارف

* * *

حول مستحدثات العلم واستعمالها :

انقاذ الأرواح فى البحار (١)

كانت الأرواح التى تزهق على أثر غرق السفن فى البحار كثيرة بلغ عددها فى إنجلترا ١٣٠٠ عام ١٩١٢ . لكن العلم قد وصل فى الثلاثين سنة الأخيرة إلى اكتشافات أنقصت إلى حد كبير احتمال ارتطام السفن فى المحيطات وغرقها . ويكفى أن نشير هنا إلى الابتكارات والتحسينات التى أدخلت على اللاسلكى وغيره من وسائل الإشارات وجعلت فى إمكان المستغيثين وطلاب الغوث أن يدلوا على مواضع السفن التى تنقلهم ، أولئك الذين يبعدون عنهم أميالا عديدة . ثم نشير إلى الطائرة الحديثة التى مكنتها سرعتها العظيمة من ارتياد مساحات واسعة شاسعة فى زمن قليل نسبياً . وقد نتج عن ذلك كله أن أصبحت أخطار البحار فى أوقات السلم الطبيعية قليلة جداً بالنسبة لما كانت عليه منذ ثلاثين أو أربعين سنة حين كانت النجاة مرهونة إلى حد كبير بتصادف مرور سفينة بالقرب من المنكوبين ورؤيتها إياهم .

لكن قل أن يدرك الناس ماذا فعل العلم وماذا يفعل الآن فى سبيل تحسين تصميم قوارب النجاة وفى سبيل تخفيف متاعب من يركبون فيها حتى تصل إليهم المعونة أو يغيثهم من يلبون نداءهم .

ولننظر الآن فى الحاجيات الرئيسية للانسان : إنها الهواء للتنفس والماء للشرب والطعام للأكل والدفء، والملبس والمأوى للحماية من العوامل الطبيعية ، وأهم هذه جميعاً الهواء والماء ، فمن المعروف جيداً أن فى استطاعة الإنسان أن يعيش عدة أسابيع بغير طعام ، لكن ليس فى استطاعته أن يعيش أكثر من أيام قليلة بغير الماء .

ولا يدرك معنى العطش الحقيقى إلا أولئك الذين قاسوه بالفعل فى ظروف عز عليهم فيها الماء ، وجدوا فى البحث عنه جد المستميت ؛ ولك أن تسأل عن هذا جندى الصحراء الذى تصادف أن انحرف عن وحدته وضل الطريق ، أو البحار الذى ضربت سفينته بالطربيد وقضى أسابيع فوق قطعة خشب تلعب بها الرياح والأمواج

وقد لقيت بطبيعة الحال مشاكل إنقاذ الأرواح فى البحر عناية عظيمة فى خلال سنوات الحرب الأخيرة ، وكان من نتائجها أن أدخلت تحسينات على جانب عظيم من الأهمية فى وسائل الإنقاذ ودرست بصفة خاصة مسألة مياه الشرب وخير الطرق لتوفيرها ، وتعاونت على هذه الدراسة فرق من العلماء الباحثين التابعين لعدة مصالح حكومية ، ومنشآت أهلية ؛ ومن أهم هذه المشاكل البحث عن خير الطرق لاستخلاص ماء صالح للشرب من مياه البحور المالحة .

وأول ما يتحتم على المشتغل بحل هذه المسألة أن يعرفه هو كمية الماء التى يحتاجها الشخص فى اليوم الواحد ، وعدد الأيام التى يراد توفير الماء له فيها . ويقال إنه إذا كان الطقس معتدلا كان متوسط كمية الماء التى يحتاجها جسم الإنسان البالغ على وجه التقريب هى ٢ ½ باينت (١) فى اليوم لكن المعروف أن مقادير أصغر من هذه بكثير تكفى للابقاء على الحياة عدة أسابيع . فإذا فرضنا أن الإنسان يحتاج إلى باينت واحد فى اليوم لمدة أربعة أسابيع (وهو تقدير مناسب) كان الماء اللازم وجوده فى قارب النجاة الذى يحمل أربعين شخصاً هو ١٤٠ جالوناً . وليس من المستطاع عملياً فى الوقت الحاضر أن يتسع فى قارب نجاة مزدحم فراغ يكفى لخزن ١٤٠ جالوناً من الماء ، وذلك

(١) نقل هنا عن الدكتور ألبرت باركر مدير البحوث الخاصة بالوقود فى إنجلترا .

(١) الباينت هو المكيال الإنجليزى المناظر لمكيال رطل اللبن فى مصر وهو يعادل ⅛ جالون إنجليزى

بالنسبة لكثرة المعدات الأخرى الضرورية .

وكان المتبع قبل الحرب أن يحوى كل قارب من قوارب النجاة بعشرة جالونات من مياه الشرب تخزن فيه . لكن يلاحظ أن السفن فى أوقات السلام تتبع خطوط سير معروفة مطروقة ، ومن ثم يصلها الغوث عادة فى خلال ساعات أو أيام قليلة . أما فى زمن الحرب فقد تتأخر الإغاثة أكثر من ذلك لأن السفن تسير فى طرق متعرجة غير معروفة ولا مطروقة لتضليل عدوها . ولما جرت العادة أن يعد قارب النجاة فى الحرب بما يقرب من الثلاثين جالوناً من الماء المخزون فيه ، وهذا يعادل توفير نحو ½ جالون يومياً لكل فرد فى القارب لمدة أربعة أسابيع ، وقد اقتضى هذا التحسين مهارة فائقة فى التنظيم الداخلى للقارب، وبخاصة بالنسبة لفراغ المعد لخزن الأشياء المحمولة .

وفى الجو الممطر يمكن أن يزداد مدد الماء الصالح للشرب بجمع ماء المطر ، وقد صمم لهذا الغرض قماش يجمع المطر ، إذا طوى للحزم والخزن فلا يزيد طوله عن القدم إلا قليلا ولا يتجاوز عرضه بضع بوصات . أما إذا بسط فإن مسطحه الذى يجمع ماء المطر يبلغ نحو ست ياردات مربعة ، وعند ما يكون المطر غزيرا يصل ما يجمع به فى ساعات قليلة إلى نحو ٢٥ جالوناً . لكن المطر ليس بالأمر المستديم الذى يعتمد عليه ، فلا بد من وسيلة أخرى لتدبير الماء اللازم .

ولعلك تتساءل: كيف يعز ماء الشرب على الذين يحيط بهم من كل جانب ملايين من الجالونات من الماء ؟ والجواب على هذا : أن ماء البحر لسوء الحظ غير صالح للشرب لكثرة ما به من ملح ذائب يجعل شربه فى الواقع خطرا مالم يشرب الإنسان معه كذلك قدرا أكبر منه بكثير من المياه التى لاتحتوى أملاحا أو تحتوى منها مقادير لا تذكر .

وقد جرت بحوث متواصلة لمدة سنوات عديدة على أيدى هيئات دولية فى مياه البحار وفى كمية الأملاح التى تحتويها وفى طبيعة تلك الأملاح ، وتبين من هذه البحوث أن مياه البحر تحتوى مزيجا من الأملاح أربعة أخماسه هى بعينها ملح الطعام المستخدم فى الطهى، ويبلغ مقدار ما فى مياه البحر من الأملاح بوجه عام ما بين ٣ و ٤ فى المائة ، وهذه النسبة نحو أربعة أمثال نسبة الملح فى جسم الإنسان . ومن هذا يتضح الضرر الذى ينجم من شرب مياه البحر وحدها . ويلاحظ أن معظم الناس لا يستسيغون الماء الذى يحتوى عشر ما يحتويه ماء البحر من ملح ويجدون فى طعمه غضاضة كثيرة .

فنحن إذاً محتاجون وقت وقوع الخطر فى البحر إلى طريقة سهلة لإزالة الملح من بعض ماء البحر حتى يصبح صالحاً للشرب . وهناك عدة طرق لإجراء هذه العملية معظمها صعب ، وأقربها وأوضحها عملية التقطير أى غلى ماء البحر وتكثيف البخار . ومن المعلوم أيضا أن ماء البحر إذا برد إلى درجة التجمد كان الجمد (أو الثلج) المتكون أول الأمر لايحتوى من الملح إلا قليلا جدا ، لأن معظمه يظل ذائبا فى المياه التى لا تتجمد . وهناك طرق أخرى . فبإضافة كيماويات خاصة مثلا يمكن فصل الأملاح على صورة أجسام صلبة تخلص منها بالترشيح ، وهذه طريقة معقدة وغير مضمونة إذا لم تجر بغاية الدقة والعناية . ومنذ عشر سنين اكتشف بعض الكيماويين أن أنواعا من الراتينج التركيبى (Syntheaeresin وهى نوع من المواد المعروفة بالموالك) فى قدرتها استلاب الأملاح من ماء البحر، وذلك بأن يمرر ماء البحر هذا من خلال قطع مجروشة من أحد أنواع الراتينج ثم من خلال نوع آخر منها ، وفعل هذه الراتينجات مشابه لفعل المادة المستخدمة فى المنازل عادة لتحويل الماء من عسر إلى يسر . لكن من سوء الحظ أن حجم ماء الشرب المستخلص بهذه الطريقة لا يكاد يزيد على حجم الراتينج المستخدم فى الحصول عليه .

ومن أحدث البحوث نستنتج أن الطريقتين المنتظر أن تصادفا نجاحا فى تحقيق غرضنا هما التقطير والمعالجة

الكيماوية بطريقة شبيهة بالتى تستخدم فيها الراتينجات . وقد استقر الرأى بعد القيام بتجارب عديدة على أن التقطير هو خير ما يصلح من هذه الطرق لقوارب النجاة .

وتصميم مقطر صغير لقوارب النجاة ليس من السهولة بالقدر الذى قد يبدو ، لأنه لا بد من استيفاء عدة شروط عامة . فالحيز الذى يشغله المقطر والوقود المستخدم فيه يجب أن يكون أقل بكثير من الماء المقطر المستخرج بتشغيل المقطر بضع ساعات فى اليوم لمدة أسبوعين مثلا ، وإلا كان من الأفضل خزن الماء كالعادة ، ثم إن البساطة والسهولة فى تشغيل المقطر شرط أساسى ، كما يجب ألا يكون هناك نظام آلى معقد فيه أدنى احتمال للعطل وقت الحاجة الملحة . وأخيرا يجب أن يكون تصميم هذا الجهاز بحيث يسمح بصنع أعداد كبيرة منه بطرق الإنتاج بالجملة بأقل ما يمكن من العمل الذى يحتاج لمهارة يدوية .

وفى أول الأمر وضع تصميم عدة مقطرات تنتج ما بين باينت واحد وأربع باينتات من مياه الشرب فى الساعة ، وقام بصنع هذه المقطرات عمال فنيون فى درجة عالية من المهارة ، وأجريت فى الوقت نفسه تجارب عديدة تعاون فى إجرائها رجال صناعة الزيوت والوقود وغيرهم لاختيار الوقود المناسب والمصباح الصالح لتسخين المقطرات . وفى المرحلة التالية استخدم الجهاز فى تقطير المياه فى بحر الشمال .

ثم أجريت اختبارات فى الورش وفى الهواء الطلق فى ظروف مشابهة للتى يكون عليها القارب فى البحر ، ولتقليد حركات القارب شغلت المقطرات وهى كأراجيح كالبندول ولتقليد الرياح الشديدة سلط على الجهاز تيار من الهواء منبعث من مروحة ، وبعد ذلك أجريت اختبارات قامت بها عدة مجموعات من البحارة تستخدم المقطرات فى قوارب النجاة فى البحر ، ونتج من هذا كله إدخال عدة تحسينات . وفى خلال ذلك كله اشتغل العلماء متعاونين مع الشركات التى ينتظر أن تقوم بصنع المقطرات والمصابيح على نطاق واسع .

وهذه هى المرحلة التى يتحول فيها النموذج الدقيق الذى يشتغل عليه القائمون بإجراء البحوث الفنية إلى الشكل الحقيقى الذى يكون فيه سلعة تجارية تؤدى عملها كما ينبغى على الرغم من إنتاجها بكميات كبيرة على نطاق واسع .

وقد اختبر بالفعل نوعان من المقطرات يجرى صنعهما الآن ولا يزال الثالث قيد الفحص ، وكل من المقطرين ينتج نحو أربعة باينتات من مياه الشرب فى الساعة ، وحجم المياه الناتجة من المقطر إذا اشتغل عدة ساعات فى اليوم لمدة أسبوعين أكثر بكثير من حجم المقطر والوقود . وأحد المقطرين يتم التسخين فيه بمصباح يحرق زيتا ، والآخران يسخنان بحرق الوقود الصلب (قوالب الفحم أو الخشب أو غيرها) .

ولنتصور أننا فى قارب نجاة ونريد أن نشغل المقطر الذى يسخن بالزيت : هذا المقطر على شكل أسطوانة رأسية وفيه مدخنة متوسطة تحتوى المصباح ، ويثبت المقطر أولاً فى المكان المخصص له فى القارب ثم يصب ماء البحر فى الخزان الذى فى قمته ، هذا الخزان يشبه الدواة التى لا ينسكب منها الحبر ، وذلك حتى لا ينسكب ماء البحر حين تتلاعب الأمواج بالقارب ، وإذا أدرنا مسمارا محوريا فتح أنبوبة تغذى المصباح بالزيت من خزان يحيط بالمقطر ثم يضاء المصباح . وكل ما هو مطلوب بعد ذلك هو إضافة ماء البحر من آن لآخر ، فبعد فترة قصيرة من الزمن يفيض ماء الشرب باستمرار من أنبوبة قرب قاع المقطر ويستمر فيضانها بحيث تمدنا بأربعة باينتات فى الساعة ما دام المصباح مشتعلا .

وفى النية الاستمرار فى خزن مياه الشرب فى قوارب النجاة بالقدر الذى كان يخزن فيما مضى وأن يكون كل من القماش الذى يجمع مياه المطر والمقطر من المعدات الإضافية فى قارب النجاة ، وذلك كله فى سبيل المحافظة على أرواح المنكوبين فى البحار .

أحمد عبد السلام الكردانى

العربة والحصان

كثيرا مايسمع الإنسان فى أثناء المناقشات عبارة يلقيها بعض المتجادلين فى أسنان بعض ، ويكون لها فى أغلب الأوقات قوة سحرية عجيبة فى الإقناع . وأكبر ظنى أن كل من تقع عيناه على هذا المقال قد سمعوا هذه العبارة فى بعض الأوقات أو استعملوها لاقناع خصومهم فى المناقشات ، وهى عبارة : « هـذا قلب للأمور . هـذا وضع العربة أمام الحصان » .

فإذا اختلف جانبا المناقشة فى وجهة النظر ولم يجد أحد الجانبين حجة دامغة يقنع بهـا خصمه قال له : « ولـكن رأيك هذا يكون بمثابة وضع العربة أمام الحصان » ومعنى هذا كما هو معروف أن حجة الخصم وجيهة ، ولـكنها موضوعة فى مكان غير مناسب .

ولست أدرى أى الأمم اخترعت هذه العبارة ! فهى مستعملة فى اللغة الانجليزية وفى غيرها ، وقد نقلناها إلى العربية لأنها مفيدة جدا لمن يشعر بالحرج فى الجدال .

ومهما يكن من أمر هـذه العبارة فان الأمة التى اخترعتها ليست من الأمم العصرية بغير شك . فقد كانت صحيحة عنـد ما كانت الأمم تستعمل فى جر الأثقال تلك العربات الثقيلة البطيئة التى نسميها نحن « الـكارو » . وهذه يصح فيها أن يقال إن وضع العربة أمام الحصان ليس هو الوضع الصحيح ، لأننا لا نستطيع أن نتصور حصانا حكيما تصل به البراعة فى الاحتيال أن يدفع العربة أمامه . والخيل تسير على أربع أرجل ، ولا يمكنها أن ترفع أيديها الأمامية لتدفع بها العربة كما يفعل الباعة الجوالون .

فجمل القول أن هذه العبارة كانت صحيحة فى الأزمان الماضية عنـدما كانت الأمم لا تعرف سوى العربات « الـكارو » والخيل .

ولـكننا الآن لا نستعمل هذه العربات كثيرا ، وأغلب الناس يستعملون اليوم قطر البخـار وقطر الـكهرباء والموتورات ذات الاحتراق الداخلى . وكثيرا ما نشاهد القطار البخارى يدفع العربات أمامه ويسير فى سهولة ويسر كما لو كان يجرها من خلفه ، وكذلك الحال فى الترام ، فان القاطرة الـكهربائية تستطيع أن تجر العربة من خلفها إذا شاءت ، ولها مطلق الحرية فى أن تتخلف هى إلى الوراء وتدفع العربة أمامها ، فالعالم يتغير ومن الواجب أن نستعمل العبارات المناسبة للعصر الذى نعيش فيه .

وإنى أسوق هذه المقدمة لـكى أتقدم بها على نفسى لأنى كنت منـذ أيام غارقاً فى حلم من أحلام اليقظة ؛ وبهذه المناسبة أرجو ألا يساء فهم قولى . فانى لم أكن نائما بل كنت أفكر وأنا صاح ، ولـكنى كنت مستغرقا فى أفكارى إلى غاية بعيدة حتى كنت بمثابة المستغرق فى الأحلام . وكثيرا ما يصاب الناس بمثل هذه العادة التى يقول عنها علماء النفس بأنها من طبائع الطفولة ، ولهم فيها أقوال كثيرة لا أميل إلى تصديقها لأنى مصاب بأحلام اليقظة .

وكانت أفـكارى متجهة نحو تصور حالة مصر التى أعنى تحقيقها سريعا . فقد تصورت أنى أسير فى طرق القاهرة وكانت كلها مثل شارع سليمان باشا مع فارق واحد وهو أنها فسيحة لا تهدد السائرين فيها بالاصطدام فى كل لحظة . وكانت المتاجر على الجانبين مصرية فى الغالب ، وهذا طبيعى لبلد أكثر سكانه من المصريين ، وكان الشعب السائر فى الشوارع كله نظيفا يلبس الثياب التى نسميها (أفرنجية) والأحذية اللامعة تشع من أسفل أرجلهم جميعا وكلهم منصرفون إلى أعمالهم ، فلا تقع العين على (لمة) ملتفة حول منظر تافه لأن وقتهم جميعا ثمين ، وهم جميعا كما يلوح على وجوههم من المتمدنين الذين تظهر عليهم مظاهر الـكرامة والاعتداد بالنفس . وبعد أن تصورت سيرى فى هذه الشوارع ذهبت حينا إلى حى سيدنا الحسين لرؤية احتفال المولد

النبوى ، فلم أجد هناك تلك الثياب الرقعة وتلك الأعلام الخضراء ذات اللون الحائل ولا تلك الطبول المتخلفة من القرون الوسطى ولا تلك اللحى الرثة التى يخدع بها بعض الناس ويجعلونها من أهم شعائر الدين ، بل رأيت الاحتفال وإنما فيه روايات تمثيلية تعيد إلى الذهن عصور المجد القديم وسمعت موسيقى مطربة لا أثر فيها للميوعة التى اعتدنا سماعها ، ورأيت مواكب جميلة تمثل الحياة فى مختلف حقب التاريخ ، ورأيت ورأيت . . . وكان كل ما رأيت يشيع القلب فرحا ويهزه هزا ويعيد إليه كل ذكريات العز مجلوة فى أبهى مظاهرها .

ثم تصورت أنى خرجت من المدينة إلى الطرق المؤدية للريف ، وكنت أركب (أوتوبيسا) جميلا رشيقا كله درجة واحدة ، فليس فيه (ريمو) ولا (ترسو) وكل من فيه من الناس فى هيئة محترمة لا يحملون (زكايب) ولا أقفاص ولا (سلالا) بل كان ما معهم من المتاع موضوعا فى حقائب مختلفة الأصناف بعضها من الجلد المعتاد وبعضها مصنوع من القماش أو الخوص أو الليف ، ولكنها كلها جميلة المنظر سهلة التناول — وعلى فكرة — كان الأوتوبيس نفسه ملكا لشركة مصرية ومن صناعة مصرية — ولم لا ؟

ثم ذهب بنا الأوتوبيس فى طريق مرصوفة من تلك الطرق السوداء اللون الأنيقة التى أعدتها إلينا المعاهدة المصرية الإنجليزية منذ سنوات . وسرنا فى ذلك الطريق حتى وصلنا إلى وسط القرية التى نقصدها ، لأننا كنا نريد أن نقضى فسحة آخر الأسبوع فى الريف ، وكانت منازل القرية بديعة المنظر مع بساطتها ، وكان سكانها فى أتم حالات النظافة فى أجسامهم وملابسهم مع أن حالهم كانت كما يبدو رقيقة ليس فيها بذخ الغنى . وكان منظر القرية فى مجموعه رائعا لأن الحدائق تتخللها والشجيرات المتسلقة تكسو جدرانها بفروعها وأزهارها ، والحقول تبتسم بزراعها وخضرتها ، والجداول الصافية تجرى بينها فى مجار مبنية بالأسمنت — وعلى فكرة — كان مكتوبا على هذه الجداول الصافية « ممنوع شرب البهائم » لأن للبهائم أحواضا خاصة تملأ من حنفية الماء الصغيرة التى يديرها مجلس القرية بالكهرباء . ورأيت ورأيت مما يطول وصفه حتى انتهيت إلى الفندق الصغير الذى تحيط به حديقة صغيرة ظريفة فى آخر القرية ، وهناك قضيت يومى الخميس والجمعة للاستراحة من ملل العمل طول الأسبوع . وقد أوحى إلىّ الهدوء فى هذه البيئة الجميلة ذات الهواء الطلق بقصة صغيرة أرسلتها إلى مجلة الثقافة وأخذت أجرها مائة جنيه كاملة .

هذا ما تصورته ثم صحوت من أحلامى ، فإذا بى أضحك من نفسى وقلت لها : « متى يكون هذا ؟ » وقلت بعد ذلك فى نفسى قولا طويلا معناه أن هذه الحال تستلزم أولا أن نكون شعبا راقيا مستقلا . ثم عدت فقلت إننا نملك أن نصنع من أنفسنا شعبا على هذه الصورة لأنه لا توجد قوة على الأرض تمنعنا من الإصلاح حتى نبلغ مثل هذه الرتبة . فإذا نحن جمعنا هممنا وقمنا بما نعتزم عليه من إصلاح أنفسنا كنا بالفعل شعبا راقيا لا يمكن إلا أن يكون مستقلا . وهنا بدأت المعركة بين بعض نفسى والبعض الآخر . فأيها يبدأ أولا : الاستقلال أو العمل على الرقى ؟ فقال صوت فى داخلى : « الاستقلال بلا شك » وقال صوت آخر : « ولكن ما دخل الاستقلال فى أمر تملكه إذا توفرت لنا الإرادة ؟ » . وهنا سمعت صوتا يهمس فى أذنى قائلا : « إن هذا يكون بمثابة وضع العربة أمام الحصان » .

ولكنى قدمت فى مطلع هذا الحديث أن الحصان الحديث يمكن أن يوضع أمام العربة كما يمكن أن يوضع وراءها .

فالذين يريدون أن ينتظروا الاستقلال حتى يبدأوا السعى إلى التقدم غير معذورين ، لأننا نريد حياة طيبة كشعب متحضر جدير بماضيه العظيم ؛ هذا ما نريده وهذا هو المهم . وأما الحصان فليوضع فى أى وضع يحب والسلام .

محمد فريد أبو حديد

آذربيجان

يتردد اسم آذربيجان فى أخبار العالم كثيرا لحوادث أثارها جماعة منها يريدون الاستقلال الإدارى لها ، ولاختلاف الدول الكبرى فى موقفها من هذه الحوادث .

فرأيت أن أذكر طرفاً من أوصافها وتاريخها تعريفاً بهذا الإقليم الكبير .

آذربيجان اسم لإقليم واسع إلى الشمال والغرب من إران الحاضرة .

ولم تختلف حدوده كثيرا على مر العصور .

يصاقبها من الجنوب الشرقى إقليم الجبال الذى يسمى العراق العجمى ، ومن الشرق موقان وجيلان من أقاليم بحر قزوين ، ومن الشمال أرّان من أقاليم القوقاز ، ومن الغرب أرمينية ومن الجنوب الغربى الجزيرة . وهى اليوم مجاورة لتركيا والقوقاز الروسى .

وهى نجد يحيط به جبال أعلاها جبل أرارات الصغير فى الشمال الغربى ، ويعلو زهاء ٤٠٠٠ متر . وأوطأ جهاتها الوسط حيث بحيرة أرمية أكبر بحيرات إران والارتفاع هناك ١٣٠٠ متر .

وفى آذربيجان أنهار أعظمها نهر الرس (نهر أراس) فى الشمال الغربى يجرى مسافة طويلة جداً بين إران وروسيا ونهر قزل أوزون . ومعناه بالتركية النهر الأحمر الطويل . وهو يفصل بينها وبين العراق العجمى .

ومجراه الأسفل يسمى سفيد رود أى النهر الأبيض بالفارسية ، وكان هذا اسما للنهر كله فى الجغرافيا العربية .

وكلا النهرين يجرى إلى بحر قزوين .

ومساحة الإقليم ١٠٤ ألف كيل ، وسكانها زهاء ألفى ألف منهم تركمان فى الشمال الشرقى ، وكرد فى الجنوب الغربى ، وأرمن منثورون فى أرجائه . ومعظم الفرس فى الجانب الشرقى . وحول أرمية جاليات من السوريين .

وقال ياقوت فى وصف هذا الإقليم :

«وهو صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال ، وفيها قلاع كثيرة ، وخيرات واسعة ، وفوا كه جمة . مارأيت ناحية أكثر بساتين منها ولا أغزر مياها وعيونا ، لا يحتاج السائر بنواحيها إلى حمل إناء الماء ، لأن المياه جارية تحت أقدامه أين توجه . وهو ماء بارد عذب صحيح ، وأهلها صباح الوجوه حمرها ، رقاق البشرة ، ولهم لغة يقال لها الأذرية لا يفهمها غيرهم . وفى أهلها لين وحسن معاملة ، إلا أن البخل يغلب على طباعهم . وهى بلاد فتنة وحرب ، ما خلت قط منها . فلذلك أكثر مدنها خراب ، وقراها يباب » .

وحق أنه كان لهذا الإقليم خطر على مر العصور إذ كان ملتقى طرق بين شرق آسيا وغربها .

ويرجح الباحثون أن هذا الاقليم كان موطن زرادشت نبى إران فى العصور الأولى وأنه نشأ على شواطئ بحيرة أرمية .

وقد فتحت آذربيجان أيام عمر بن الخطاب وصارت قطرا إسلاميا خاضعا للخلفاء على امتناعه بوعورته وجباله . وفى شماليه كانت معاقل بابك الخرمى الذى ثار فى أوائل عهد المأمون العباسى ، واستمر زهاء عشرين عاما مستعصيا على جند الخلافة ، حتى رماه المعتصم بما لا قبل له به من الجند والقواد والقوة والعزمة ، فانتهى أمره إلى الفرار ثم الأسر وأتى به إلى سامرا فصلب .

وقد نظم أبو تمام وحده فى هذه الوقائع أكثر من عشر قصائد .

وكانت أردبيل حاضرته فى أوائل العصر العباسى ثم اتخذت تبريز مكانها .

وقد عنى بها المغول الإيلخانيون وأقاموا بها كثيرا وبنوا مدناً واتخذوا أردبيل حاضرة لها ثم تبريز ، وفيها نشأت الدولة الصفوية فاتخذت أردبيل دار ملك ثم تحولت إلى تبريز حينا .

وتبريز من المدن العظيمة فى التاريخ الإسلامى ، وهى اليوم أكبر مدن إيران بعد طهران .

وأما اللغة الآذرية التى ذكرها ياقوت فهى لهجة من التركية . وقد دخلت فى شعر بعض شعراء الترك العثمانيين مثل فضولى البغدادى .

ولا بد من كلمة فى اسم هذا الإقليم ، فقد اختلفت فيه الآراء كثيراً . وفسره بعض الفرس بأنه مركب من « آذر » ومعناه النار ، وبايكان . وزعموا أن معناه مكان النار . وسوغ لهم هذا التأويل أنه كان فى هذا الإقليم على عهد الساسانيين بيوت نار كثيرة ، منها البيت الكبير الذى كان فى مدينة جنزة . ويقال أيضاً إن النار تشتعل على سطح الأرض فى مواضع من هذا الإقليم . وليس هذا بعيداً فقد رأينا فى كركوك أرضاً نفطية إذا دلكها الإنسان برجله اشتعلت فيها نار زرقاء .

وقال ياقوت فى الكلام على هذا الاسم :

« وقيل بل آذر اسم النار بالفهلوية . وبايكان معناه الحافظ والخازن ، فكأن معناه بيت النار أو خازن النار ، وهذا أشبه بالحق وأحرى به ؛ لأن بيوت النار فى هذه الناحية كانت كثيرة جداً » . اهـ

أقول بل الأشبه بالحق ما فسره استرابو الجغرافى أن هذه التسمية نسبة إلى وال فارسى اسمه أرباتس ، انحاز إلى الإسكندر ثم استولى على هذا الإقليم حينما تقسم خلفاء الإسكندر مملكته ، وبقى لأسرة هذا الأمير ملك فيه إلى العصر الميلادى ، فسمى الإقليم أتروباتين . وقد كتبه مؤرخو الأرمن القدماء أتمرپتكان . وعرف فى القرن الثالث الميلادى باسم آذرباذغان ، وبقى هذا اسماً رسمياً فى الدولة الساسانية .

وذكرها كتاب السريان فى القرن الخامس باسم آذربيغان ، وسماها العرب آذربيجان وأذربيجان . وجاءت فى شعر الشماخ :

تذكرتها وهناً وقد حال دونها
قرى أذربيجان المسالح والجال

وقال أبو تمام فى القصيدة التى مدح بها المعتصم ووصف وقائع بابك :

فلأذربيجان اختيال بعد ما
كانت معرس عبرة ونكال

وقال العرب فى النسبة إليها : « أذرى وأذرى وأذربى » وقد جاء فى كلام الصديق رضى الله عنه : « حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذربى » .

وأظن أن كلمة آذر داخلة فى اسم آذربيجان على التأويلين كليهما ؛ فأرباتس هذا الذى نسب إليه الإقليم يظهر أن اسمه كان آذربد ، وأن أورباتس تحريف يونانى . ومعنى آذربد خازن النار . فإن لم يكن معنى آذربيجان مكان النار كما فسرها بعض المؤرخين فهو نسبة إلى رجل اسمه « خازن النار » .

ويؤيد هذا ما رواه ياقوت عن ابن المقفع أنها منسوبة إلى آذرباذ ، بن إيران ، إلى آخر الخرافة ، فآذرباذ أو آذربد هو فيما أظن أرباتس .

عبد الوهاب عزام

الرجل الذى اخترع لغة

فى اليوم الخامس من شهر ديسمبر من ستة وأربعين عاماً اجتمع عدد من الشبان فى وليمة أقاموها احتفالا بعيد ميلاد ، وكان ضيف الشرف فى هذا الاحتفال شاباً لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره يدعى لدفيك زمنوف ؛ ولكن ذلك اليوم لم يكن عيد ميلاد لدفيك نفسه ، بل إن هذا الشاب قد دعى إلى الوليمة فيمن دعى إليها من الشبان والرجال احتفالا بتذكار مولد اللغة التى اخترعها ، وليس فى لغات العالم لغة غيرها من اختراع إنسان . وهذه اللغة هى التى عرفت فيما بعد باسم لغة الإسبرنتو التى لم يسمع بها العالم إلا بعد أن مضى على اختراعها عدة سنين .

وذلك أن لدفيك زمنوف جالت فى خاطره ، وهو غلام صغير فكرة اختراع لغة دولية جديدة يتخاطب بها الناس كافة ، وكانت بلدته التى ولد فيها فى عام ١٨٥٩ لا ينقطع النزاع بين أهلها ، وكثيراً ما كان هذا النزاع يؤدى إلى قتال تسيل فيه الدماء ، ذلك أن أهلها كانوا خليطاً من الروس والبولنديين والليتوانيين والألمان واليهود التابعين لأمم مختلفة ، وقد شاهد هذا الفتى أن منشأ ما تنطوى عليه قلوب هؤلاء السكان من الريبة والبغضاء هو عجز كل طائفة منهم عن أن تفهم لغة كل طائفة أخرى ، وبدأ من ذلك الحين يحلم باختراع لغة عامة تتفاهم بها أمم الأرض قاطبة .

وكان وهو فى المدرسة محباً لتعلم اللغات قديمها وحديثها ، وظن فى أول الأمر أن اللغة اليونانية أو اللاتينية القديمة تفى بالغرض الذى يعمل له ، ولكنه وجد أن كلتيهما لغة ميتة وأن ليس من السهل تعلمها لكثرة ما بها من تعقيد ، وليس من المستطاع تجديدها أو تبسيطها . ثم أخذ ينظر فى اللغات القومية الحديثة لعله يجد منها ما يصلح لأن يكون لغة عالمية ، ولكنه أدرك أنه إذا اختار واحدة منها فإن ما يعقب هذا الاختيار من تنافس وتحاسد بينها وبين سائر اللغات سيزيد ما بين الأمم من بغضاء ونفور ، ولذلك قرر آخر الأمر أنه لا يصلح لغرضه إلا لغة جديدة كل الجدة .

وظل هذا الشاب البولندى يكد شهوراً وأعواماً ليصل إلى حل لهذه المشكلة حتى اهتدى إلى ذلك الحل فى آخر الأمر . فقد لاحظ أن كثيراً من الألفاظ فى بعض اللغات متشابهة فى هجائها ونطقها ، فاختار للغته الجديدة أكثر الكلمات شيوعاً فى اللغات المختلفة وكتب كل كلمة منها كما ينطق بها ، ولم يضع للغته من قواعد النحو والصرف إلا أبسطها وإلا ما تقتضيه الضرورة القصوى . ولم تزد تلك القواعد الأساسية على ست عشرة قاعدة ، وقد استغنى من الألفاظ الكثيرة بطائفة من المقاطع الإضافية توضع فى أوائل الكلمات وأواخرها ليبنى بها ألفاظاً جديدة ، وأتم مشروعه كله قبل أن يبلغ التاسعة عشرة من عمره .

ولكن زمنوف لم يذع على الناس مشروعه حين أتمه ، ذلك أن أباه وهو مدرس لم يرض عن آراء ابنه الخيالية الغريبة وطلب إليه أن ينصرف إلى عمل مفيد ويعد نفسه لمهنة فى الحياة أجدى عليه وأنفع ؛ فذهب الشاب إلى مسكو ليدرس الطب ، ولكنه عاد بعد سنتين إلى وارسو لعجزه عن نفقات الدراسة بعيداً عن أهله . فلما عاد وجد أن أباه قد أحرق كل أوراقه ليحول بينه وبين الاستمرار فى غوايته . لكن الفتى لم ييأس وبدأ من جديد يعيد من ذاكرته تجديد ما أتلفه أبوه ، وظل فى الوقت نفسه يدرس الطب فى بلده .

وشرع وقتئذ يترجم مختارات من التوراة ومن آداب اللغات الحية ، ويحاول ما استطاع أن يحتفظ لهذه المختارات بكل ما لها فى لغاتها الأصلية من رونق وبهاء ، وكان يقرؤها لنفسه بعد كتابتها بصوت عال ، ويحاول أن يجعل لغته الجديدة لغة موسيقية يسهل التكلم بها كما يسهل تعلمها ،

وأنشأ بها فضلا عن ذلك قطعاً أدبية منثورة أو منظومة، وكان المبدأ الذي وضعه نصب عينيه على الدوام أن تكون هذه اللغة بسيطة طبيعية، صالحة لأداء كل أغراض الحياة العامة، وأن تكون فوق هذا كله جميلة. وما وافت سنة ١٨٨٧ حتى طلع على العالم بلغته الجديدة.

وكان زمنوف في ذلك الوقت قد تزوج واحترف طب العيون في وارسو، وصعب عليه أول الأمر أن يجد ناشراً لكتابه، وكان يحتوي على قواعد النحو الأساسية وتمارين عليها ومختارات مترجمة من لغات أخرى ومعجماً بألفاظ هذه اللغة. وأخيراً أعانه والد زوجته على نشر كتابه وظهر الكتاب باسم «الدكتور اسبرنتو» أي «المرتجي».

وتقبل كثير من الناس كتابه بقبول حسن وتلقى رسائل التهنئة على عمله المجيد من بلاد كثيرة، وكان من بينها رسالة من الكاتب الروسي الكبير ليو تولستوي، وأعيد طبع الكتاب على الفور بالحروف الروسية والبولندية والألمانية والفرنسية، ولم يحتفظ المؤلف لنفسه بحق من الحقوق التي يحتفظ بها المؤلفون عادة، بل أهداه إلى العالم كله، وقال في مقدمته إن اللغة الجديدة ملك لكل من يريد الانتفاع بها. وفي السنة التالية نشر زمنوف كتاباً آخر كله بلغة الإسبرنتو، وما لبث أن التف حوله عدد كبير من الأنصار والمريدين من كافة أنحاء العالم، وأخذ هؤلاء الأنصار أنفسهم يكتبون بالاسبرنتو ويترجمون إليها ويتقابلون ليتحدثوا باللغة الجديدة؛ وفي عام ١٨٨٩ ظهرت في نورمبرج أول صحيفة بلغة الاسبرنتو وفي السنة التالية أصبح زمنوف نفسه رئيس تحريرها، وظل عدد أنصار اللغة الجديدة في ازدياد مستمر، وبقيت الصحيفة حتى عام ١٨٩٥ حين حرم الرقيب في الروسيا دخولها تلك البلاد بعد أن نشرت مختارات مترجمة من كتابات تولستوي.

ولما ناهضت الحكومة الروسية لغة الأسبرنتو وجه أصحابها جهودهم نحو فرنسا وانجلترا وكثر فيهما أنصارها، وكان من أعظمهم الصحفي المعروف وليم استد، وصدرت في انجلترا صحيفة جديدة في عام ١٩٠٤ وما زالت تصدر فيها إلى يومنا هذا.

وعقدت عدة مؤتمرات للغة الجديدة منها اثنان عقدا في كاليه ودفر سنة ١٩٠٤ وثالث في بولون سنة ١٩٠٥، وفي هذا المؤتمر الأخير ألقيت الخطب كلها ودار الحديث كله بلغة الاسبرنتو وتحقق حلم زمنوف إذ رأى رجالا من كافة الأجناس يتكلمون — وبعضهم المرة الأولى — بلغة واحدة ومنهم من لم ير محدثه من قبل رأي العين ولم يعرفه إلا بالمراسلة. وعقدت بعد عام ١٩٠٥ مؤتمرات في كل سنة عدا سني الحرب الأوربية الأولى، وأخذ زمنوف يتنقل بين سويسرا وألمانيا وأسبانيا وإنجلترا وأمريكا وهولندا والنمسا وبولونيا، يدعو إلى لغته الجديدة ويذيعها، ودعا إلى مؤتمر جديد في عام ١٩١٤، ولكن الحرب وقفت في سبيله فعاد إلى بولندا ليواصل جهوده، وظل يكتب بلغته الجديدة نثراً وشعراً ويترجم إليها من اللغات الحية، وكان من أعظم ما أخرج ترجمة للكتاب المقدس نقلها عن اللغة العبرية.

ثم مرض زمنوف في سني الحرب الأولى ولم يكن قد جاوز منتصف العقد السادس، ولكن جهوده العقلية الطويلة أثرت في صحته، ولم ينقطع في أثناء مرضه عن العمل حتى قضى نحبه في ١٧ إبريل من عام ١٩١٧ ودفن في وارسو.

مات زمنوف ولكن موته لم يؤثر في مشروعه العظيم بل ظلت اللغة تنمو وتنتشر ووفت بكثير من الأغراض التي كان يرجوها منها واضعها، فأفاد منها الرحالة والسياسيون ورجال الأعمال والعلماء، وكثير من الناس العاديين الذين يريدون أن يعرفوا شيئاً عن غير بلادهم وغير شعوبهم، وظلت اللغة آخذة في الانتشار وأوصت جمعيتها عصبة

لمـــاذا تعود الحيوانات

إلى منازلها ؟

تؤيد الأبحاث التي أجريت على الحيوانات لاختبار قدرتها على العودة إلى مساكنها الرأي القائل بأن لها حاسة سادسة هي حاسة الاتجاه، وقد انتهت الأبحاث التي قام بها معهد روزتن بإيجاد حل لهذه المسألة المعضلة . لاحظ العلماء في أول الأمر أن مالك الحزين الذي يولد ويتربى في شرق ألمانيا يسلك في هجرته طريقا غير الذي يسلكه مالك الحزين الذي يولد في في غربيها ، فالأول يسلك طريقا جنوبيا غربياً ويخترق فلسطين في طريقه إلى إفريقية ، وأما الغربي فيذهب إلى أفريقية عن طريق جبل طارق . فأخذوا عددا من مالك الحزين الشرقي وانتظروا حتى بلغ من العمر أشهراً ثم نقلوه إلى غربي ألمانيا ، وهناك أطلقوه ، فما أتى الخريف أخذ طريقه إلى إفريقية مخترقا فلسطين، فاستنتجوا من هذا أن هذا الطير توجهه في سيره حاسة داخلية مركبة في طبعه .

ثم أتى العالم روبنل بثلاثمائة وثلاثة وخمسين طيراً من ذوات الهجرة إلى برلين من نواح يتراوح بعدها عن برلين بين تسعة وعشرين ومائة وثلاثين ميلا وأطلقها في حدائق البلد ، فلم يلبث أن عاد كل منها إلى مسقط رأسه سالكا طريقاً معيناً ، مما دله على أن في طباع هذه الطيور شعوراً واضحا بالوجهة التي يهدف إليها .

ثم ذهب العالم باستيان شميد الذي توفى حديثا ، إلى أبعد من ذلك فأجرى تجارب على الكلاب ، فنقل ثلاثة كلاب بأقفة في سيارات إلى أماكن بعيدة تفصلها عن مساقط رءوسها غابات وجبال ووديان، وأطلقها في يوم عابس يملأ جوه الضباب ، فلاحظ أن أحدها أخذ في أول الأمر يجري في كل اتجاه ويشتم كل وجهة ، كأنه « يحلل » في نفسه كل الاتجاهات، ثم قفز إلى ربوة عالية ، ولبث لحظة اهتدى بعدها إلى الاتجاه الصحيح ، ثم لاحظ الكلب أثناء عودته إلى بيته فوجده يتجنب الغابات والقرى والناس والعجلات ، ويسلك أبعد الطرق عنها ، فلما صار على مقربة من قريته الأصلية رفع ذيله واتجه نحوها مسرعاً قبل أن يبدو له منزل واحد من منازلها . ولما أجريت هذه التجربة مرة أخرى بعد ثمانية عشر يوماً لامتحان قوة الذاكرة عند الكلب ، لوحظ أنه قضى خمس دقائق فقط في « تحليل » المكان الذي كان فيه ، قبل أن يهتدي إلى الاتجاه الصحيح بدلاً من نصف ساعة في المرة الأولى . فتبين من هذا أن للكلب ذاكرة صحيحة، ولوحظ كذلك أنه سلك طريقا أقصر من الأول، وأنه لم يعتمد كثيرا على بصره في تبين اتجاهه .

(من Bodensee — Rundschau كونستانس ألمانيا)

الأمم في تقرير لها وضعته عام ١٩٢٢ ؛ وأصدر بها مكتب العمل الدولي كثيراً من نشراته ، وأثنى عليها كثير من رجال التربية وأشادوا ببساطتها وفائدتها وهي تدرس الآن كما تدرس سائر اللغات .

وقد نشرت بها كتب ومسرحيات وأشرطة وأغان شعبية ، وكان كثير من محطات الإذاعة قبل الحرب الأخيرة يذيع بها برامج في أوقات منتظمة . وتصدر بها الآن مئات من المجلات ، وتطبع بها كتب كثيرة بالخط البارز للعميان يقرؤها آلاف ممن لا يبصرون في العالم كله، واعترف بها مؤتمر البرق الدولي الذي عقد في عام ١٩٢٦ كما اعترفت بها مصلحة البريد الإنجليزية .

والآن يستطيع السائح الذي يعرف الإسبرانتو أن يجد في كل بلد يحل به زميلا له يتحدث إليه بلغته ، وقد بلغ الناطقون بها الآن عدة ملايين وإن لم يكن عددهم معروفاً بالضبط حتى الآن .

محمد بدران

خطابات إلى شاعر ناشىء

كتبها الشاعر الألمانى رلكه

(١٨٧٥ — ١٩٢٦)

ترجمها الدكتور أبو ريدة

— ٤ —

فوربسفيدى ، قرب برمن
١٦ يوليه ١٩٠٣

غادرت باريس منذ نحو عشرة أيام موجعا جداً ومتعبا وقصدت سهلا شماليا فسيحا أرجو أن يعيدنى اتساعه وهدوؤه وسماؤه إلى الصحة ، ولكنى صادفت خلال مطر طال أمده ، ولم يرد الجو أن يصحو إلا اليوم على هذه البلاد المتموّجة بالرياح ، وإنى لأنتهز هذه اللحظة الأولى من الجو المنير لأحييك أيها السيد العزيز .

ياعزيزى هر كپس ! لقد تركت خطاباً منك فترة طويلة دون أن أجيب عليه ، لا لأنى نسيتك ، كلا : فهو من نوع تلك الخطابات التى يعيد الإنسان قراءتها إن وجدها بين خطاباته ، وفى هذا الخطاب قد عرفتك كأنى منك على قرب شديد . ذلك هو خطابك المحرر فى ٢ مايو ، ولاشك أنك تذكره ، وإنى اذا قرأته كما أقرؤه الآن فى الهدوء التام بهذا المكان النائى تهتز نفسى لما أراه من قلقك الجميل من أجل هذه الحياة . وإنى لأتأثر الآن من قراءته أكثر مما شعرت بذلك من قبل فى باريس ، فلكل شىء هناك صدى آخر فى ظهوره واختفائه بسبب ما يطغى عليه من الضوضاء الساحقة التى ترتجف منها الأشياء . أما هنا حيث يحيط بى سهل شاسع الأطراف تهب عليه الرياح من البحار الشمالية ، هنا أشعر أنه لايستطيع انسان الاجابة على تلك الأسئلة والاحساسات التى تحيا حياتها الخاصة فى أعماق نفسك ، وان أحسن الناس ليخطئون فى العبارة اذا أرادوا التعبير بالكلام عن أدق الأمور التى يكاد يكون التعبير عنها غير ممكن ، ولكنى أعتقد رغم ذلك أنك لن تبقى بدون حل لو أنك وقفت عند تأمل أشياء كالتى تجد عيناى راحة فى النظر إليها ، لو أنك عكفت بالطبيعة ، بأبسط وأصغر مافيها ، وهو الذى نكاد لا نراه ، والذى يمكن مع ذلك أن يكون دون توقع منا شيئاً كبيراً لاحدود له ، إن استطعت أن تمنح هذا الحب لأصغر شىء ، وحاولت فى إخلاص تام أن تكتسب كالخادم ثقة ما يبدو لك صغيراً فقيرا ، إذاً لسهل عليك كل شىء وأصبح وحدة أكثر انسجاما قد لا تتذوقها بطريق العقل الذى يقصر عن إدراك ذلك ، شدوها ، بل بطريق شعورك العميق ، بطريق اليقظة والعرفان . إنك ما تزال صغيراً ، لم تبدأ بعدُ شيئاً ، وأود جهدى أن أرجوك أن تتذرع بالصبر على كل ما لاتجد له حلا فى قلبك من أنواع المشكلات وأن تحاول أن تحب هذه المشكلات نفسها كما تحب غرفاً مقفلة أو كتباً مكتوبة بلغة غريبة جداً عنك . فلا تبحث الآن عن الأجوبة ، فهى لا يمكن أن تعطى لك ، لأنك لاتستطيع أن تعيشها وتحسّ بها ، والمهم هو أننا يجب أن نعيش كل شىء ونحسّ به ، فلتعش الآن هذه المشكلات ولتحسّ بها ، فربما استطعت فيما بعد ، دون أن تشعر وفى يوم بعيد ، أن تعيش الإجابة وتنفذ إليها ، وربما أنك تحمل فى نفسك القدرة على البناء والتشكيل كفنّ خالص تسعد به فى حياتك سعادة خاصة ؛ فلتربّ نفسك لذلك ، ولكن خذ ما يأتيك فى ثقة كبيرة ، وإذا صدر عن إرادتك ونشأ من صميم ذاتك ضرورةً ، فاحمله على كاهلك ولا تبغض شيئاً . إن الشعور الجنسى عبء ثقيل ، نعم ، ولكن كل ما كلف الإنسان به ثقيل أيضاً ، وكل جادّ وخطير من الأمور فهو ثقيل ، وكل شىء جادّ وخطير . فإذا عرفت هذا واستطعت ، من نفسك ، من استعدادك وخصائصك ومن تجاربك وطفولتك وقوتك ، أن تتوصل بالكفاح لأن تتخذ إزاء الجنس مسلكا خاصاً بك غير

متأثر في ذلك بالعُرف والعادة ، فلا ينبغي لك بعد هذا أن تخشى فقدان نفسك أو أن تصبح غير جدير بأعزّ ما فقدت.

إن اللذة البدنية تجربة شعور حسي ، وهي لا تختلف عن مجرد النظر أو الشعور الخالص الذي تملأ به لنا تفاحة كمثرىً طيبة ، وهي تجربة عظيمة لا نهاية لها أعطيت لنا ، هي معرفة ما بالكون ، هي نهاية المعرفة وأبهى جمالها ، وليس الشر في أن نذوق هذه المعرفة ، إنما الشر في أن كل الناس تقريباً يسيئون التصرف في هذه التجربة ويبدّدونها ويستخدمونها مجرد مثير للنقط الضعيفة في حياتهم لأجل التسرية عن النفس بدلاً من أن يجمعوا بها الهمّة إلى الأغراض السامية ، بل إن الناس قد جعلوا الطعام لغير ما ينبغي أن يكون له : فالفاقة في جهة والوَفر المفرط في جهة أخرى قد أفسدا نقاء هذه الحاجة ، وهكذا تكدرت جميع الحاجات العميقة البسيطة التي تتجدد فيها الحياة ، ولكن الفرد يستطيع أن يزيل هذا الكدر ويعيش على بساطة ونور ، وإن لم يستطع الفرد ذلك لفرط اعتماده على الآخرين فليستطعه التوحّد الذي ينسحب من الناس ويعتزلهم ، هو يستطيع أن يذكر أن كل جمال في الحيوان أو النبات إنما هو صورة هادئة دائمة من حب وشوق ، ويستطيع أن يشاهد أنواع الحيوان والنبات كيف تتحد وتتناسل وتنمو صابرة راضية لا عن لذة مادية ولا عن ألم مادي ، بل متجهة نحو قوانين ضرورية هي أكبر من اللذة والألم وأقوى من الإرادة والامتناع ، فياليت الإنسان يتلقّى في شيء أكثر من التواضع هذا السر الذي تفيض به الأرض حتى في أصغر الأشياء ! وياليته يحتمله في شيء أكثر من الجد ! يحتمله ويشعر بمقدار ثقله بدلاً من أن يستهين به ، وياليته يُجلّ ما في هذا السر من خصوبة ، هي في الحقيقة نوع واحد ، سواء أظهرت عقلية أو جسمية . ذلك لأن مصدر الإنتاج العقلي هو نفسه أيضاً مصدر اللذة البدنية ؛ والإنتاج العقلي يشترك مع اللذة في طبيعته ، وهو ليس إلا صورة أخرى للذة البدنية ، صورة رقيقة سامية خالدة .

« إن فكرة أن يكون الإنسان فناناً خالقاً ومنشئاً وبانياً » ليست شيئاً إن لم تتحقق ويتردد صداها على نطاق واسع تحققاً فعلياً مستمراً في الحياة ، هي ليست شيئاً إذا لم تجد ما يؤيدها من آلاف الحالات في الأشياء والحيوان ، غير أن لذة الخلق الفني إنما تكون غنية جميلة إلى درجة تسمو على الوصف ، لأنها تكون ممتلئة من الذكريات الموروثة وثمرة ميلاد جاء من طريق الملايين ، وعند كل فكرة لفنان مُبدع تستيقظ آلاف من ليالي الحب المنسيّة وتملأ الفكرة سمواً ، وإن الذين يجمعهم الليل في مهد اللذة المتأرجحة بهم إنما يعملون عملاً جاداً كأنهم نحل يجمعون الرحيق الحلو ويهيئون القوة والعمق لأغنية ينشئها شاعر آت سيصحو من ذلك النوم ويعبر عن سعادة لا توصف ، وهم يمهدون المستقبل ، وحتى لو لم يخطئوا إلا في عملهم من جدّ ، فإن المستقبل آت لا محالة ، وسينهض إنسان جديد ؛ وهنا يُخيل لنا أن الأمر أمر مصادفة ، لكنه هو القانون الذي بمقتضاه تشق النطفة القوية طريقها إلى البويضة التي تنتظرها بذراعين ممدودتين ، فلا تضللنك ظواهر الأمور، فى الأعماق كل شيء قانون . وإن الذين يعيشون هذا السر على غير وجهه وعلى خلاف ما ينبغي له ، وكثير ما هم ، إنما يفقدونه بالنسبة لأنفسهم فقط ، فهم يسلمونه لمن بعدهم كخطاب مغلق من غير أن يعلموا ما فيه ، ولا تضللنك كثرة الأسماء ولا تعقّد الحالات ، فلعل وراء كل ميل جنسي نوعاً من الأمومة الكبرى على صورة شوق عام ، وإن جمال الفتاة الناشئة ، هذا المخلوق « الذي لم يُنتج شيئاً بَعْدُ » ، كما قلت بهذه العبارة الجميلة ، إنما هو أمومة تشعر بنفسها في إبهام وتتأهب وتخاف وتشتاق ، أما جمال الأم فهو الأمومة الخادمة ، وهو في بيضاء الرأس ذكرى كبيرة . ويظهر لي أن في الرجل أيضاً أمومة بدنية وروحية ، فإن إنتاجه إنما هو أيضاً ضرب من الولادة ، وهو إذا فاض إنتاجه من المنابع الغزيرة في نفسه فكأنه يلد ،

وربما كان الجنسان أكثر تقاربا وأقوى نسباً مما نظن ، وربما يكون التجدد الكبير في الحياة منحصراً في أن الفتى والفتاة إذا تحررا من كل أنواع الشعور الضال ومن الآلام فإن أحدهما سيطلب الآخر لا كضدين بل كأخوين أو جارين ، وسيجتمعان كإنسانين ليحتملا معاً في بساطة وجد وصبر ما أُلقي على كاهلهما من عبء الاختلاف الجنسي.

ولكن كل ما قد يكون في يوم من الأيام ميسوراً لكثيرين يستطيع المتوحد الآن أن يهيئه ويبنيه بيديه اللتين قلّ ما تخطئان ؛ ولذلك فلتحب وحدتك يا سيدي العزيز ، ولتحتمل ما تسببه لك من ألم شاكياً شكواك الجميلة الصدى . تقول لي إنك تشعر بأن القريبين منك بعيدون منك ، وهذا يدل على أن الفضاء المحيط بك قد بدأ يزداد اتساعاً ، فتصير مركزاً لعالم خاص بك ، وإذا كان القريب منك بعيداً ، فإن ما بعُد عنك قد سار مع النجوم وصار مطلبك عظيما ، وإذاً فلتبتهج بهذا النمو في نفسك وهو الذي لا تستطيع أن تستصحب أحداً فيه ، ولتكن نبيلا مع الذين يتخلفون ، وكن أمامهم هادئاً واثقاً من نفسك ، ولا تؤلمهم بشكوكك ، ولا ترعبهم بثقتك أو بسرورك ، فقد لا يستطيعون إدراك ذلك ، حاول أن تحيا معهم حياة مشتركة في إخلاص ووفاء ، ولا يتحتم أن تتغير من ذلك ، وإن هم تقلبوا وتقلبوا ، ولتحب فيهم الحياة في صورة أخرى ، واصطنع العفو من الذين يكبرون ويتقهقرون عقلا من الناس والذين يخشون الوحدة التي تثق أنت بها ، وتجنب أن تهيء مادة لتلك الرواية التي لا تفتأ تدور فصولها محتدمة بين الآباء والأبناء ، إنها تستنفد الكثير من قوة الأبناء وتأكل حب الآباء ، هذا الحب الذي يؤثر ويدفئ ، وإن كان لا يفهم ، ولا تطلب منهما نصيحة قط ، ولا تنتظر أي فهم منهما لك ، ولكن اعتقد بالحب الذي يكتنزانه لك كميراث عزيز ، وثق أن في هذا الحب قوة وبركة لا ينبغي أن تخرج منها وتمعن في البعد عنها .

ويحسن أن تدخل أولاً في مهنة تجعلك مستقلاً ومعتمداً على نفسك اعتماداً تاماً من كل وجه ، فانتظر صابراً لترى هل ستشعر من أعماق نفسك بأن رسوم هذه المهنة ستضيق عليك ، إني أعتبر هذه المهنة شاقة وكثيرة المطالب لأنها مثقلة بكثير من المصطلحات الكبيرة ، وهي لا تدع مجالاً لمن يريد أن يتصور واجباتها التصور الشخصي الذي يريده ، ولكن عزلتك ستكون لك ، حتى في وسط هذه الظروف الغريبة جداً ، وطناً وعماداً ، ومن هذه الوحدة ستجد كل الطرق التي ستسلكها ، إن كل تمنياتي مستعدة أن ترافقك وإن تثق معك .

— ٥ —

رومه في ٢٩ أكتوبر ١٩٠٣

أيها السيد العزيز الكريم

تسلمت خطابك المحرر ٢٩ أغسطس وأنا في مدينة فلورنسه ، والآن — بعد شهرين — أحدثك عنه ، فاصفح عن هذا التأخير . على أني لا أحب كتابة الخطابات وأنا على سفر ، لأني أحتاج في كتابة الخطابات إلى أكثر من الأدوات التي لا غنى للكاتب عنها ، أحتاج إلى شيء من الهدوء والعزلة وإلى ساعة غير عادية .

زرنا رومة منذ نحو ستة أسابيع وفي وقت كانت فيه هذه المدينة لا تزال هي هي المدينة الحارة المشهورة بحُمّاها ، وانضمت إلى ذلك صعوبات عملية أخرى مصدرها أمور الإقامة هنا ، فكانت سبباً في أن قلة هدوئنا أبت أن تقف عند حد . ثم إن الاغتراب زاد فيما نحتمله من أعباء التنقل وقلة الاستقرار في مكان . هذا إلى أن رومة عند من لا عهد له بها تؤثر فيمن ينزل فيها أيامه الأولى تأثيراً محزناً يكسر الخاطر ؛ وذلك لأن الإنسان يشعر فيها كأنه في متحف غير منير ولا حياة فيه ، وهذه المسحة منتشرة فيها إلى حد تضيق له النفس ، وأيضاً بسبب غزارة ما فيها من معالم الماضي التي أبرزت وحفظت بعناية ، هذه المعالم

التي يحتذي منها حاضر صغير الشأن ، وبسبب المبالغة في تقدير كل هذه الآثار المشوهة التالفة التي ليست في الحقيقة أكثر من بقايا أخطأتها سهام الفساد فبقيت مصادفة من عصر سالف ومن حياة أخرى ليست حياتنا ولا ينبغي أن تكون حياتنا ، تلك المبالغة المفرطة التي يؤيدها العلماء واللغويون ويقلدهم فيها من يجري على عادة السفر إلى إيطاليا. وأخيراً بعد أسابيع لابد للإنسان فيها من أن يدافع عن نفسه كل يوم يعود الإنسان إلى نفسه ، وإن كان لا يزال به بقية من التشويش ، ويقول لنفسه : لا ، ليس هاهنا من الجمال أكثر مما في غيره من الأماكن ، وكل هذه الأشياء التي أعجبت بها الأجيال دائماً وتناولتها أيدي من ليسوا بصانعين حقيقيين بالتحسين والإكمال ، لا تدل على شيء وليست شيئاً ، بل هي لا قلب لها ولا قيمة . غير أن هنا الكثير من الجمال ، لأن الكثير من الجمال يوجد أيضاً في كل مكان ، في رومه مياه لا نهاية لها ، وهي تجري غزيرة متدفقة على الجسور القديمة صوب المدينة ، وهي ترقص في كثير من الميادين على صحون من الحجر الأبيض وتنتشر في أحواض واسعة ، ولها في النهار خرير يرتفع صوته ليلاً . والليل هنا رائع مزدان بالنجوم ناعم من النسيم ؛ وهنا حدائق وطرق وسلالم لا ينسى جمال منظرها ، سلالم قد اخترعها ميكائيل أنجلو ، وسلالم بنيت على مثال المياه المنحدرة إلى الوراء ، وهي عريضة المنحدر يخرج بعضها من بعض كموجة تلدها موجة . بتأثير مثل هذه الأشياء في النفس يستطيع الإنسان أن يجمع خاطره المشتت فيعود إلى نفسه مستخلصاً إياها من الكثير الذي يشغله والذي يتكلم ويثرثر (وما أكثر ثرثرته) ؛ وعند ذلك تتبين ببطء تلك الأشياء القليلة جداً التي تتمثل فيها حياة شيء خالد يستطيع الإنسان أن يحبه أو حياة شيء فريد يمكنه أن يتذوقه في هدوء .

وأنا أقيم في المدينة نفسها عند الكابتول غير بعيد من أجمل تمثال صنع لفارس ، ذلك هو تمثال مارك أوريل الذي بقي لنا من الفن الروماني ؛ ولكن بعد أسابيع قليلة سأنتقل إلى غرفة هادئة بسيطة عتيقة جداً تقع وسط حديقة عظيمة كأنها مفقودة فيها ، فهي مختبئة بعيداً عن المدينة وضوضائها وما يعرض فيها . هناك سأقيم الشتاء كله سعيداً بالهدوء التام الذي أنتظر منه أن يجود عليّ بساعات جميلة خصبة .

من تلك الغرفة التي سأكون فيها أكثر استقراراً وشعوراً بهدوء الحياة المنزلية سأكتب إليك خطاباً طويلاً وسأحدثك فيه أيضاً عن خطابك ، وأحب أن أقول لك وربما كان من الصواب أن أكون قلت ذلك من قبل ، إن الكتاب الذي أنبأتني به والذي يحتوي بعض أشعارك لم يصلني إلى هنا ، فهل عاد إليك ، من فوربسفيدي على ما يحتمل ؟ فالطرود لا تلحق صاحبها إلى الخارج ، وهذا الاحتمال هو أصح ما قد أستطيع تأكيده ، فأرجو ألا يكون قد ضاع ، وليس ضياع الرسائل ، للأسف ، من الأمور الشاذة في هذه الأحوال التي عليها البريد الإيطالي . ولقد كان يسرني أن أتسلم هذا الكتاب وكل ما يحمل شيئاً من أخبارك . أما الأشعار التي قد تظهر لك فيما بين ذلك فإني — إن أنت عهدت بها إلي — سأقرؤها مراراً وأتذوقها بقدر ما أستطيع من الإتقان وروح المودة ، مع تمنياتي وتحياتي .

رينر ماريا رلكه

قصة مراكشية :

فتاة من باريس

عاشت الفتاة كاوديت في جو مراكش عشر سنوات، وإنها لتحتفظ بأطيب الذكريات لذلك الشخص الذي التحقت بخدمته في باريس وهي في السادسة عشرة من عمرها ؛ وكانت فتاة مهيضة الجناح ، فرق ليتمها وعاملها معاملة ابنته : وهو الشخص الذي حرمته الحياة نعمة الأبوة وساق القدر إلى بابه هذه الفتاة .

ولما انتهت مهمته التجارية في تلك المدينة العتيدة وأصبح على أهبة العودة إلى بلاده تغلبت عليه عاطفته فعرض عليها أن تصحبه لتعيش معه ومع زوجته في منزلهما الجميل ، فاستعظمت هي أن تفارق بلادها لتعيش بين قوم لا تعرف عنهم شيئا ، ثم لاحت لها قساوة الحياة وما هي مهددة به من الشقاء إذا رفضت ، وقضت ليلتها تفكر وتتخيل دون أن تنام ، وفي الصباح قدمت إليه تقول له وفي صوتها نبرة البكاء : إنها لا تستطيع ؛ وودعت الرجل وزوجته في منظر مؤثر ، ولكنهما لم يكادا يغيبان من الأنظار حتى أحست بالوحدة تطبق عليها من جديد ، ولاح لها شبح الندم يهددها باقتفاء أرهاق الحياة ، وبدت لها الفرصة الذهبية تضيع بها وتستعجلها ، فلم تعرف كيف قادتها رجلاها إلى محطة القطار حيث وجدت الرجل وزوجته وكأنهما كانا ينتظرانها ، فاغرورقت عيناها بدموع الفرح وعانقتهما . لقد عزمت ، وهي لا تعرف ماذا ستكون نتيجة عزمها ولكنها تشعر من أعماق نفسها بأنها لم تخطئ الصواب .

***

وبرهنت لها الأيام بعد ذلك على أنها لم تخطئ الصواب، فقد لقيت بعض الصعوبة في الانتقال من حياة إلى حياة ، وقلقت لذلك بعض القلق ، ولكنها بدأت تعتاد عالمها الجديد رويداً رويدا إلى أن ألفته ثم أعجبت به . وأخيراً فهمت أن الإنسان إنسان في كل مكان ، وأن هذه الفروق الزيفة التي تفصل بين الأمم والشعوب إن هي إلا خزعبلات يهذي بها المؤرخون والرحالون ، بل إن حياة المراكشيين خالية من الرياء والتصنع بشكل لم تتخيله من قبل . إنها لتشرف على الحديقة الغناء من نافذة غرفتها ، ثم ترجع ببصرها إلى الوراء وتتصور طريق الوحل والظلام الذي أوشكت الأيام أن تنحدر بها فيه ، فتشعر بموجة من الحمد تغمر نفسها ، وتزداد حبا لذلك الرجل الذي أنقذ حياتها ، دون أن يكون له دافع إلى ذلك سوى العاطفة الرقيقة والشعور النبيل . لم تعد الحياة قاسية كالحة الوجه كما كانت ، أليست رحيمة وهي التي قادت إليها هذا الرجل من وراء البحار لينقذ حياتها .

ولكنها بالرغم من ذلك لم تكن بعيدة كل البعد عن الجو الذي كانت تعيش فيه ، فقد وجدت جوانب من الحياة الأوربية في بعض الأحياء ، فرادت المسارح واختلفت إلى دور الصور المتحركة ، واستطاعت أن تظل على اتصال بما يشبه الجو الذي كانت تعيش فيه .

أحاطها الرجل بكل ما تتمنى فتاة في سنها أن تحاط به ، وعاملها معاملة ابنته فعرفت الحرير والدعة والنعمة ، وسرت دماء الشباب في جسمها تتدفق وهي في سن العشرين : شعرها المتموج الفاحم ، أهدابها الوطفاء ذات الظلال ، قدها المشوق الرخص ، مشيتها المتكسرة الراقصة ، وجهها المشرق الضاحك ، صدرها الناضج المثمر . . . لم يعد هناك ما يدل على أنها عرفت الشقاء في حياتها .

وتفتحت أكمام الخير في نفسها عن ورود فاغمة ، فكانت فتاة مستقيمة رزينة ، ولم تعد تتخيل تلك الصور المبهمة الشوهاء التي كانت تقض مضجعها ؛ وقد كانت

فتنة للشبان الفرنسيين الذين عرفوها أو تقابلوا بهـا ، ولكنها لم تسمح لنفسها بمجرد التفكير في هواجس الشباب ، وانقادت مع الحياة في سهولة ويسر كما ينقاد الشراع الجميل لتيار هادئ وديع .

* * *

بيد أن الحب ليس غريباً من النفوس الخيرة ، فقد تبينت كلوديت أن الفتى هنرى يحبها ، ولم تستسلم له أبداً ، بل حاولت أن تقاومه ، ولكن أوتار الحب في نفسها بدأت تحدث ألحاناً جميلة خلابة ، فتبادلت معه الحديث مرة وأعجبت بأدبه ورقته ، ثم تقابلا مصادفة مرة أخرى ، ثم لم يكن بد من ميعاد .

كان هنرى يحبها ويقدرها ، وكانت كلوديت تبادله هذا التقدير والحب ؛ وقد كشفت له عن حياتها وكشف لها من حياته ، وما هي إلا أسابيع حتى انقلب ذلك الحب إلى نوع من الوله ، واقتنع الاثنان بأن كل واحد منهما قد خلق للآخر .

مضت مدة من الزمان ، وبلغ خبرهما الرجل المراكشى الذي تبنى كلوديت ، فلما علم أن هنرى يخطبها وافق على ذلك ، فإن كلوديت كانت قد بلغت سن الزواج ، وعندما تمت الخطبة ازدادت الحيـاة نضارة وجمالا أمامهما ؛ كانا سعيدين بالحب وبالتوفيق الذي أصاباه ، وكانا يشعران بأن الحياة تفتح لهما ذراعيها كما تفتح الأم الرؤوم ذراعيها لاستقبال طفلها المحبوب .

أصبحت حياتهما أحلاماً وخيالات ، وكانت نفساهما تزدادان رقة وصفاء ، وبانت للورود والأزهار والطيور والأعشاب والأشجار وكل ما في الحياة ، معان جديدة . استيقظا على الحب فإذا بروح جديدة تتغلغل في كل الأرجاء ، وتوحى بالابتهاج والانشراح .

* * *

وأمهلتهما الحياة سنة من الزمان ، وكانت الخطبة على وشك أن تنقلب إلى زواج ، فإذا بوحوش الحرب تنطلق من عقالها لتحطم الآمال والأحلام وتسوق الشباب المتفتح اليافع إلى ميادين القتال ، ومن بينها أحلام كلوديت وهنرى .

بكت الفتاة وهي تودع خطيبها الذاهب وشيعته بدموعها وهو يغيب عن نظراتها الشاردة في الأبعـاد ، لترجع إلى الحياة وحيدة تجر ذيول الخيبة والحسرة والتوجس ، فماذا تضمر لها الأيام في المستقبل ؟ أتنهار تلك الأحلام وتعصف بها أعاصير الحرب وزوابعها ، أم يرجع إليهـا هنرى مرة أخرى ؟ .

لقد انقلبت أحاديثهما الطويلة إلى رسائل تدبّج على الورق ويسعى بها البريد بينهما ، وأخيراً رجع إليها هنرى بعـد مدة طويلة ليقضى معها شهراً من الزمان ثم يعود إلى ميدان القتال ؛ ولـكن العاصفة أطبقت على فرنسا فجأة ، فترنحت ثم تداعت ثم هوت إلى الأرض صريعة تتخبط في الدماء . وإذاً فلن يعود هنرى إلى الميدان ، بل سوف يظل جندياً في مراكش ، إلى أن تنتهى الأقدار من كتابة هذا الفصل المهول من تاريخ البشرية .

كان يلقاها من آن لآخر حينما يقبل إلى المدينة ، فخفف عنهـا ذلك الألم المرير الذي خلفه في نفسها سقوط بلادها فرنسا ، ثم كتب لذلك الألم أن يتلاشى حينما بدأت كفة الحرب ترجح مرة أخرى ، وبدأت الجيوش الفرنسية ترجع قليلا قليلا إلى صفوف القتال .

عادت الحياة تبتسم مرة أخرى لكلوديت ، فلم تعد تخشى على حبيبها ما دامت قضية فرنسا في الميزان ... وأبلى الجنـدى هنرى بلاء حسنا في ميدان تونس ، فرقى إلى رتبة ضابط ، وقد ازداد جمالا في عينى كلوديت وهو يرتدى تلك البذلة الأنيقة .

* * *

هل تريد الحياة أن تبتسم لها مرة أخرى ؟ كلا ، فقد

استيقظت ذات صباح على صيحات مدوية فى الشارع ، فلما تساءلت عن الخبر ، قيل لها إن الشعب يتظاهر لأجل الحصول على حقوقه ، إنه يريد الحرية والاستقلال ، واستمر الأمر على ذلك أياماً متوالية والمدينة مضطربة هائجة . ولكن جاءت أمر الفرنسيون باحتلالها والقضاء على الحركة بحد السلاح .

ترددت كلوديت فى الحكم على الحركة ، ثم بدأت تتبين الحقيقة شيئاً فشيئاً ؛ ثم ذعرت وهى مارة فى الشارع إذ أبصرت هنرى فى لباس الميدان وهو مدجج بالسلاح يلقى الأوامر هنا وهناك ؛ نعم ، هنرى يأمر بإطلاق الرصاص على الأبرياء العزل ، وهيهم على خطأ ، هب أن حب الحرية إثم من الآثام ، فهل يقابل بالقتل والتشريد والقسوة ؟

وسمعت إليه : « هنرى ! ماذا تفعل ؟ » فابتسم لها ورجاها أن تعود لئلا تصاب بأذى ، وهو يعدها بأن يقابلها فى أول فرصة سانحة ، فرجعت وهى ترتجف ، لقد خيل إليها أن تلك المآقى السامية التى كانت تقرأها فى وجهه قد غارت جميعاً وحلت محلها سحنة كالحة تتوثب لسفك الدماء ، وتضطرم حقداً وضغينة .

وسألته أول ما جاء : « هنرى ! كيف تأمر بإطلاق النار على الأهالى ؟ » فابتسم وهو يقول : « لأنهم يعملون ضد فرنسا » .

— ولكنهم يطلبون الحرية التى تطلبها فرنسا .

— من الذى علمك هذه اللغة الجديدة ؟ لا تنسى أن فرنسا فوق الجميع يا كلوديت .

— هنرى . كيف تسمح لنفسك أن تتكلم هكذا ؟ كنت أعرفك إنساناً وحياً .

فاحمر وجهه بدافع مزيج من الغضب والكبرياء وهو يقول : نحن حماتهم ويجب علينا أن نربيهم حتى لا يلفظوا الحرية مرة أخرى .

— هنرى ، هـذا مروع ! إنى لا أصدق ما أسمع ، ألا تؤمن بأن هؤلاء أناس مثلنا يجب أن يتمتعوا بما نتمتع به ؟ .

فتضاحك : تسمين هؤلاء هكذا ؟ هذه الحيوانات !

— أرجو يا هنرى ألا تقول هذا ، إنى أحبك لأنك إنسان ، فارحمنى ولا تتكلم هكذا .

— إن مستقبلى يتوقف على هذا ، لقد أصبحت لى أطماع فى الجيش ، أريد أن أرقى .

— هل تريد أن ترقى بواسطة قتل هؤلاء الأبرياء ؟

— ليسوا أبرياء ، إنهم يتصفون برذيلة العمل ضد فرنسا .

— لا تقل ضد فرنسا ، ولكن قل إنهم يحبون الحرية .

— حيوانات تريد الحرية !

راعها عناده واستخفافه ، فصاحت به : إنى لا أسمح لك بأن تسميهم حيوانات . فأنا أعيش معهم وأحبهم وهم يبادلوننى هذا الحب ، فحكمك عليهم حكم علىّ أنا .

— إن المسألة بسيطة يا كلوديت ، لا تستدعى كل هذه المناقشة .

— لا تقل بسيطة ، فلست أستطيع أن أتصورك تحمل عاطفة ضد أناس أحبهم .

فقال لها وقد بدأ يتضجر : يظهر أن إقامتك بينهم قد أنستك فرنسا .

فلذعتها كلماته وصاحت فى غضب : « أنا لم أنس فرنسا يا هنرى » .

— إذاً فلماذا تحبينهم ؟ .

— واعجبا ! هل فى حبهم نسيان لفرنسا ؟ .

— أنا أعتقد ذلك .

— هنرى يا حبيبى أرجوك ، قل إنك هازل ، إن

عاماً من الماضي السامية بهار أمامي الآن، متى كان أبناء فرنسا جزارين ؟.

— لا تقول جزارين، نحن حماة فرنسا!

وتشعب الحديث، فتوسلت إليه، وبكت، وحاولت أن تصرفه، ولكنه ازداد تشبثاً بكلامه، وأخيراً بدأت تفهم أن هنري الوديع الرحيم قد تغير لطول إقامته في معسكرات مراكش الفرنسية.

كانت تمر بنفس المكان كل يوم وتقف بعيداً لترى هنري الضابط يوقف ويعتقل ويأمر بإطلاق النار، وكانت تبكي وتنتحب لأن حبيبها قد انقلب إلى وحش ضار سفاك، واضطربت أعصابها، وراعها أن يكون أبناء جنسها سبباً في تشريد شعب أحسن إليها أحد أبنائه.

وألحت عليه، وطاردته في كل مكان بدموعها وتوسلاتها، وبدأت تشعر بأنه يتضايق منها، وأن عواطفه نحوها قد بدأت تتغير، إنه يبتعد شيئاً فشيئاً من كل ما يتصل بالآدمية. وذات يوم وثبت إليه أول ما قابلته وشدته من سترته ترجوه وتستعطفه، فصاح بها في حدة: كفي يا كلوديت كفي! قال لها ذلك وهو يدفعها.

فردت عليه بين أسنانها وهي تبتعد عنه شيئاً فشيئاً كما لو كانت تتلمها سحابة: إذاً فالوداع يا هنري الوداع، سأختفي عنك إلى الأبد لأنك لم تعد تنتسب إلى عالمي، لقد أصبحت شخصاً آخر، لو أبصرتك أمك لأنكرتك يا هنري. الوداع الوداع، اذهب أنت إلى صفوف الطغاة، أما أنا فذاهبة إلى صفوف الأحرار، أجل سوف أسير معهم هاتفة في الشوارع، وسوف أموت معهم، وأحاول أن أمسح عن فرنسا ما ألحقتم بها من عار. وإذا واجهتني في الصفوف فاستمر في الأمر بإطلاق النار وامزج دمي بدمائهم، الوداع يا هنري الوداع!.

واختفت عن نظره وهو يرنو في الفراغ كالمشدوه.

عبد المجيد بن جلون

رجل يصور صراعه مع الموت

اشترك صحفيان سويديان في قافلة بحرية كانت مكلفة رفع سفينة كانت قد أغرقت عند زيبنداد منذ عامين حاملة قدراً عظيماً من الذهب، ولم يكن غرضهما الاشتراك في عمليات رفع السفينة وإنما تصويرها تحت الماء، فنزل أحدهما بآلته السينمائية الخاصة المصورة، وبقي الثاني على سطح الماء ممسكاً بحبل متصل بزميله ليتلقى إشاراته، وما هي إلا دقائق حتى جُذِب الحبل دليلاً على استغاثة المصور تحت الماء، فسارع العمال وأخذوا يجذبون الصحفي المستغيث، ولم تمض ثوانٍ حتى أحسوا أن شيئاً ثقيلاً قد انفصل من الحبل، وأعقب ذلك طفو جهاز التنفس الخاص بالصحفي المصور، فسارع زميله بالغوص لإنقاذه ولكنه لم يوفق، وذهبت كل الجهود التي بذلت عبثاً فلم يعثر عليه، وإنما عُثِر على آلة تصويره فاستخرجت. وعندما فتحت و « حُمِّض » الفيلم الذي كان فيها تبين الناس أن آلة التصوير الأوتوماتيكية قد صورت صراع الصحفي مع حوت ضخم من نوع الشارك، هاجمه أثناء عمله، فالتهم الصحفي عندما هوجم نحوه وآلة التصوير مثبتة في صدره، فسجلت عليها أدوار الصراع بين الإنسان والوحش تصويراً رهيباً، ومن الغريب أن الحوت حينما تمكن من الرجل سقطت الآلة المصورة إلى قاع الماء، وأخذت عدستها تسجل آخر لحظات صاحبها والحوت يلتهمه رويداً رويداً. (عن زرزور، بغداد، يوغوسلافيا)

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع السكرداني
التليفون — ٥٦٢٦٩
القاهرة

من آثار الحرب فى روسيا

من مقال الكبير صحفي الروس إيليا إهرنبرج

— فى أثناء حصار الألمان الأول لموسكو فى سبتمبر سنة ١٩٤١ كان ميدان القتال لا يبعد عن مركز صحيفتنا «الأزفزتيا» أكثر من ثلاثة أو أربعة كيلومترات ، وكانت مهمتنا من أعسر ما يكون : كان عددنا اثنين وثلاثين، فقتل منا برصاص الأعداء ستة عشر .

— رأيت فى منسك آلاف الجثث تحترق ، وبين موسكو وفيلنا مساحة تزيد على سبعمائة كيلو متر أصبحت خرابا بلقعا كأنها صحراء . وفى ستولنسك ، وهى مدينة كان سكانها قبل الحرب مائتى ألف لم يبق قائما أكثر من أربعة منازل . ولكنى أظن أن أحداً من الدنيا لم يقاس أكثر من أهل لننجراد : فى أثناء الحصار الطويل الذى دام أكثر من سنتين ، لم يكن أحد من الناس يصيب أكثر من ١٢٥ جراما من الخبز ، ولم يكن هناك ماء صالح للشرب ، وقد قتل من أهل هذه المدينة أكثر من مليون رجل وامرأة ، وقد أكل الناس كل الدواب حتى لم يبق منها إلا أربعة عشر كلبا ، عرضت على الناس بعد تحرير المدينة . وقد لقيت إحدى الفتيات فقالت لى : فى هذه الليالى الطويلة أعدت قراءة تورجنيف وفلوبرت . فقلت لها : وكيف ولم يكن لديكم ضوء فى الليل ؟ قالت : أريد أن أقول إنى كنت أخادع البرد والجوع أثناء الليل الطويل باستعادة كل سطر قرأته من هذه الروايات . . أعيد تأليفها فى ذهنى ! إن التاريخ لن يستطيع إيفاء نساء لننجراد حقهن من التمجيد . ومن الغريب أن هذه المدينة هى أسرع مدائن الروسيا نهوضا اليوم . فالبناء والإنشاء قائمان فيها على قدم وساق .

وإيليا إهرنبرج يهودى روسى ، وهو يحق نابه ، يقف اليوم على حدود الخامسة والخمسين من عمره ، وكان فى أحلك سنى الحرب مراسلا للنجم الأحمر ، وهو اليوم مدير مكتب الأنباء الروسية . وكان هتلر يكرهه كراهة بالغة ويذكره فى الكثير من خطبه ، وهو الآن فى نورنبرج يحضر محاكمة النازيين وينتظر بفارغ الصبر يوم يدلى بشهادته ضد خصمه اللدود واكيم فون ريبنتروب .

(من Les Lettres Francaise)

إنه فى يوم الأحد الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٦ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً وما بعدها بجهة كفر جعفر مركز كفر الزيات .

وفى يوم الاثنين ٢٥ منه من الساعة ٨ أفرنكى صباحا سوق بسيون .

سيباع بالمزاد العمومى الأشياء الموضحة بمحضر الحجز المؤرخ ٢٠ يناير سنة ١٩٤٦ ملك احمد محمد عبد الفتاح البربرى من كفر جعفر .

لطلب حضرة صاحب السعادة مراد محسن باشا بصفته مديراً لديوان الأوقاف الخصوصية الملكية تنفيذاً للحكم الصادر من محكمة مصر الوطنية بتاريخ ١٣ اكتوبر سنة ١٩٤٥ .

فى القضية المدنية نمرة ١٩٨٩ كلى سنة ١٩٤٥ وفاء لمبلغ ٢١٢ مليم و ٢٦٠ جنيها وما يستجد .

فعلى راغب الشراء الحضور .

بين المسموع والمقروء

فى ضيافة فلاح يابانى

قال محدثى :

وكان الليل تقدم ، وأخذ التثاؤب ينتابنى ، أما الضيف ، وينتاب صاحب الدار . فاقترحت النوم ، فما أسرع ما وافق صاحبى .

أما سبب موافقته فهو أن الغد كان عطلة رسمية ، وأنه كان يريد أن يذهب إلى المدينة ليرى أخاً له لم يكن رآه منذ سنوات . وكان من أغراض هذه الزيارة أيضاً أن تتيح لى فرصة أرى فيها مصنعاً لأخيه ، يصنع فيه ذلك الطلاء اليابانى الأسود الجميل المعروف فى العالم كله باللاكيه ، وتتيح لى الفرصة أرى فيها كيف امتزجت المدنية الحديثة فى اليابان بالذى فيها من عرف ومن تقاليد . وعلى هذا الأمل ذهبت إلى حجرة كى أريح رأسى وعظامى ، فوجدت الفراش قد افترش الأرض ، والكلّة التى تدفع الناموس قد تدلت من السقف ، والأبواب جميعاً قد أوصدت حتى الصباح الطالع .

واستيقظت فى البكرة الباكرة ، فوجدت صحابى قد لبسوا أحسن الثياب ، واستعاروا لهذا اليوم المختار من الآداب . وتركنا المنزل بالقرية فى الثامنة ، وركبنا الترام ليذهب بنا إلى القطار الذى يحملنا إلى المدينة . فوجدت فى المحطة جمعاً كبيرا ، قد لبسوا الجديد هم أيضاً كما لبس أصحابى ، وظلوا على الرصيف ينتظرون .

وحضر القطار ، فأسرع إليه هذا الجمع دفعة واحدة وازدحموا على مداخله . وعندئذ سأل صديقى زوجته أن تزحم فى الزاحمين ، وأن تحجز لنا أماكن ثلاثة حتى نجىء . فأخذت الزوجة تخرم طريقها فى هذا الزحام ، برأسها تارة ، وبمرفقها تارة أخرى . فلما دخلنا العربة وجدناها قد جلست فى شىء من التعجب والرضاء على مقعد ، وبسطت متاعها على المقعدين الآخرين احتفاظاً بهما . وجلسنا . ثم أخذت أنظر فيمن حولى ، فوجدت جمعاً من الناس قد ارتدوا مثل الثياب التى ارتداها صاحبى الفلاح . فكلهم لا شك فلاحون ذاهبون إلى المدينة ليستمتعوا فيها ببعض حين . وكلهم لبس السواد ، فهذا هو اللون الرسمى المختار . وكلهم تزينوا وتجملوا ، ولكن ما لبث أن قصّر جمال السلوك وجمال الآداب ، عن جمال الثياب .

ولم يكن بينهم من أفسد الشراب طبعه بعد ، ولكن كان فيهم من أوشك أن يفسده ، فقعدنا من هؤلاء على حذر . وكان مع الأزواج ، أو من بين طيهم الثراء ، بنات لا ريب استأجروهن على العادة ، لتكون ساعات النهار بهن ، على البهجة ، أقصر ، وظلها أخف .

وما بدأ القطار يتحرك حتى أخذ الرجال يتخففون من ملابسهم ، فخلعوا منها ما علا ، واضطجعوا فيما تحتها وهم يروحون بالمراوح على الوجوه استبرادا . ثم ما لبث أن غطّ بعضهم فى النوم غطيطا .

وجرى الأطفال فى العربة بين المقاعد من طرف إلى طرف ، أو هم ركبوا على المقاعد وأطلوا من النوافذ ، وفى أيديهم جميعاً أكياس واحدة من الحلوى ، بعضها الصغير بخمسة مليمات ، وبعضها الكبير بعشرة .

وكان القطار يجرى بالكهرباء . وكانت عرباته من نوع البولمان . وكانت المسافة إلى المدينة نحواً من أربعين ميلا ، قطعها القطار فى خمس وأربعين دقيقة لم يتوقف أثناءها غير وقفتين . ولم يتأخر من بلوغ وقفاته أو يتقدم عن الموعد المضروب أكثر من دقيقة أو دقيقتين .

ونظرنا إلى المحطات ، وإلى رجالها ، فوجدناها ووجدناهم غاية فى النظافة ، غاية فى الأمانة . واختصارا إن سكك حديد اليابان منظمة فائقة .

وما بلغ القطار المدينة حتى هجم علينا الحمالون ، ولهم

فلانس جزاء يعرفون بها . ولم يكن بنا إليهم حاجة ، فذهبنا قدماً إلى حاجز المحطة وعنده سلمنا التذاكر . وما تعدّينا من الحاجز حتى هجم علينا فئة أخرى من الناس تطلب وتصر وتصطخب ، وأحياناً تهدد . فهؤلاء هم أصحاب التكسيات . ولم يكن بنا إليهم حاجة ، فأغفلناهم ، وخرجنا من المحطة إلى ساحة عظيمة . ساحة اختلطت فيها الحركة واشتدت ، جرى فيها الترام ، وجرت البصات ، وجرت التكسيات ، وفي خلال كل هذه جرت العجلات (البسكلتات) آلافاً . فهذا ولد على عجلة قد أمسك يدها وهي جارية بشماله ، وحمل على يمينه في اتزان بارع صينية حملت غداء بعض الناس . وهذا صبي على عجلة أخرى يجر وراءها عربة قد امتلأت لحماً . وهذا رجل على عجلة ثالثة ، في جاكتة سوداء وبنطلون أسود (أدركنا يا مجمع اللغة أدركنا !) ، وعلى رأسه قبعة حمراء ، فلعله محام قد هرع إلى بعض زبائنه .

إن العجلات في اليابان رخيصة . وعليها ضريبة ولكنها غير معجزة . وهي وسيلة للتنقل السريع شائعة ، يقبل عليها كل من لا يجد غضاضة في استخدام عضله ، وكل من يأنس في نفسه القدرة على الخلاص برقبته سليمة بين الترامات والتكسيات والبصّات .

وصعدنا الترام فلم نجد به الراحة . ففيه الزحام شديداً . والناس من كثرتهم يقفون فيه على كل موقع لقدم ، ويستندون بأيديهم إلى كل مسند . وخير من الترام البصة فهي أخفض صوتاً وأروح مجلساً ، ولو أنها أعلى أجراً . وكماريو الترام من الرجال . وكماريو البصات من النساء ، وهن يتناولن أجوراً دون أجور الرجال ، على الرغم من مشقة الأعمال ، ولكنهن بذلك راضيات ، لأنه عمل خير من عمل الروتين ، وهو يحتاج إلى شيء كثير من اليقظة ، ومن الفهم ومن علم بالمدينة واطلاع على نواحيها .

وبالمدينة ترامات تحت الأرض ، هي قطر كهربائية ، وهي واسعة نظيفة سريعة ، وفيها التهوية كافية . ولكنها لم تتم بعد ، ومع هذا فقد خففت ضغط المرور تخفيفاً كثيراً .

وبينما نحن في الترام — فوق الأرض — لفتني مضيفي إلى كثير مما في المدينة من أشياء . لفتني إلى كل ما هو غربي . لفتني إلى الشوارع الواسعة ، والأبنية الضخمة العالية ، وإلى ما في المدينة من حدائق يستكنّ فيها الناس من زياط وصخب . وقد رأيت من ذلك الشيء الكثير ، ولكن رغبتي كانت في استطلاع جوانب المدينة اليابانية . جوانبها اليابانية الصميمة .

وقد كنا نأتي بين تلك الأبنية الحديثة الفارعة ، على أبنية قصيرة عتيقة خيل إلي أنها تنتظر هبّة من ريح لتسجد سجوداً ليس من بعده قيام . أو لعلها تنتظر هزة من تلك الهزات الأرضية التي صدمت اليابان الحين الكثير في عهودها الحديثة ، فكان منها هدم جاء من ورائه بناء وتجديد ، فهكذا تجددت يوكوهاما . وهكذا تجددت توكيو العاصمة .

حدث هذا في عام ١٩٢٣ . وكنت عندئذ في مصيف بالجبل . وبدأ الزلزال في الأول من سبتمبر ، واشتد غاية الشدة ، وظل يروح ويغدو سبع ساعات . وكان مصيفنا على بعد مائة ميل من طوكيو ، ولكنا رأينا أسرّتنا تجري في حجراتنا على عجلاتها من حائط إلى حائط ، ومن ركن إلى ركن . وأباريق الماء انكفأت وانصب ما فيها . ونظرنا نظرة تجاه العاصمة ، وتجاه يوكوهاما ، فوجدنا اللهب الأحمر يتصاعد منهما بدخانه إلى السماء . وانقطعت الأسلاك التليفونية ، وانقطعت الأسلاك التلغرافية ، ولم يأتنا خبر عن هذه المدينة أو تلك . ثم أخذت الأخبار تتنفّذ إلينا رويداً رويداً . لقد دُمرت العاصمة إلا قليلاً . وفقد فيها الألوف الحياة . وخرج الناس إلى الساحات ، وإلى الحدائق ، يطلبون النجاة ، فما أسعفهم دائماً نجاة . فئات في الحدائق أصابهم اللهب الطويل من كل جانب فاحترقوا . ودخل بعضهم

لإنقاذ مستقبل الأطفال الفرنسيين

في فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية التي دام الاحتلال الأجنبي بها، واكتوت بنيران الحرب أكثر من خمس سنوات. يتجه الاهتمام اليوم بشأن الأطفال الذين ولدوا قبيل الحرب أو أثناءها، وقضوا سنوات طفولتهم الأولى في جو من الحرمان من كل شيء، فمعظم هؤلاء الأطفال مرضى الأجسام بسبب سوء التغذية، ومرضى الأعصاب بسبب ويلات الحرب، ومعظمهم لم ير في حياته برتقالة ولم يذق الشوكولاته ولا الموز، ولم يأخذ كفايته أبداً من اللبن الدسم أو الخبز النظيف أو النوم الهادئ، فهم في حاجة إلى العلاج قبل حاجتهم إلى التعليم، وتركهم يشبون من غير علاج خطر عظيم على مستقبل هذه البلاد كلها.

ولما كان كثير من هؤلاء الأطفال يحبو اليوم بين السادسة والسابعة من عمره، فقد فكرت وزارة المعارف الفرنسية في وسيلة تجمع بها بين العلاج والتعليم حتى لا يضيع وقت هؤلاء الأطفال، فتقرر أن لا يكتفى بأن يكون طبيب المدرسة مشرفاً على صحة التلاميذ فقط، بل أن يشترك مع المدرسين اشتراكاً فعلياً في العناية بشئون الأطفال، فتوضع لكل تلميذ بطاقة طبية تعليمية، يقيد فيها طوله ووزنه كل ثلاثة أشهر، وعلى الطبيب أن يقرأ بعناية ما يقيده المدرسون من غياب التلميذ وحضوره وأسباب غيابه، وحالته الأسرية، ومقدار احتماله للتعب، وقدرته على العمل العقلي وملاحظاتهم على إبصاره وسمعه وانتباهه.

وعلى هذا الأساس تسير العناية بجسم الطفل جنباً إلى جنب مع العناية بعقله؛ فهيئة المدرسين وفيهم الطبيب تقرر نظام التغذية اللازم لكل طفل، وخطة علاج ما عسى أن يكون به من مرض جسمي أو عصبي، وترسله إذا شاءت إلى المصحة أو إلى مستشفى الوقاية، أو إلى فصول الطلبة المتأخرين، أو تحاول إصلاح وسطه العائلي.

ولما كان تنفيذ هذا المشروع يحتاج إلى نفقات كبيرة، فإن الحكومة ستتدرج في تنفيذه مراعاة لحالة ميزانيتها، فقد افتتحت فعلا مصحة من مصحات الطلبة وستفتتح الثانية عن قريب.

وهذه الرقابة الصحية لا تقتصر على التلاميذ، بل على المدرسين، وكل الأشخاص الذين يعملون في المدرسة كذلك، حتى لا يتعرض الأطفال لأي عدوى من الذين يتصلون بهم في حياتهم المدرسية.

عن: [Les Etoiles — باريس]

بحيرة الحديقة يحتمي في مائها، فغلى الماء بهم حتى تبخر.

وما سكن الزلزال حتى ركب الناس القطر من كل صوب يطلبون توكيو، ويطلبون يوكوهاما — يطلبون فيهما بيوتهم، ويطلبون أسرهم وأصدقاءهم. وتكدست على جوانب الطرق جثث الموتى. وسار الأحياء بين الركام يحملون لافتات عليها أسماء من يطلبون من آباء أو أمهات أو أبناء أو أخوات. وقل الطعام، وقل الدواء، وأخذت الأوبئة ترعى غير محجوزة أو مردودة.

وبقيت حيث كنت حتى تهدأ الأمور وتستقر الأحوال. ومن بعد أشهر وقف بي القطار في يوكوهاما، أو ما كان يوكوهاما، وهي ميناء اليابان الأعظم. ونظرت فلم يحجب بصري في الأفق حاجب. لم أر إلا رماداً بارداً قد امتد مع العين امتداداً.

وذهبت إلى طوكيو فوجدتها على نحو هذا الخراب.

واليوم (الحديث قبل عام ١٩٣٩)، كيف تجد هاتين المدينتين؟ تجد مكان هذا الخراب البيوت قد علت، والطرقات قد اتسعت، واستقر على تلك الساحات مدينتان تنافسان المدن رصانة بناء، وحسن تصميم، وعزاً ورفعة.

وهكذا تمهد المصائب للتقدم، وتخلق من الألم اللذة، ومن الخراب العمار.

أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرجاني عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٦ ، ٥٩٧٩٩

العدد ٣٧٣ — الثلاثاء ١٧ من ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ١٩ من فبراير سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

الاختلاف رحمة

لست أدري المصدر الأول المثل الذي يجري على ألسنتنا بأن « اختلافهم رحمة » . ولا أدري لمن يرجع ضمير « هم » . ومن هم أولئك الناس أو تلك الطائفة التي يكون اختلافها رحمة للعالمين ، فليس في اختلاف الإخوان والأصدقاء والأزواج والأحزاب رحمة ظاهرة ولا باطنة . فمن عساهم يكونون أولئك السادة الذين اختلافهم رحمة واتفاقهم نقمة ؟ .

من الجائز أن هذا الاختلاف الذي تتولد منه الرحمة هو اختلاف النحويين ، وهم طبقة من الناس تختلف لحسن الحظ اختلافاً كثيراً ، حتى لنستطيع أن نقول إنها ما وجدت على سطح الأرض إلا لكي تنشر ظاهرة الخلاف في جميع الأقطار والأمصار . فلقد اتفق النحويون فيما بينهم على أمر واحد وهو أن شخصاً اسمه زيد سيتولى ضرب شخص آخر اسمه عمرو على مدى القرون والأحقاب والأجيال . أما فيما عدا ذلك فقد شاع بينهم الاختلاف والانشقاق ، فكان اختلافهم نعمة ورحمة ، لأننا استطعنا أن نتكلم ونكتب ونخطب دون أن نخشى ارتكاب الخطأ أو الوقوع في الزلل . لأننا لن نعدم مذهباً من المذاهب النحوية يكون ذلك الخطأ عند أصحابه هو الصواب بعينه . ولا يزال بين زملائي من يذكر الكتاب الرابع المدارس الثانوية وفيه تلك العبارة الجميلة التي تبرق بين سطوره : « أما اسم كذا فلك أن ترفعه أو تنصبه أو تجره ... » لقد كانت هذه العبارة أحب العبارات إلى نفسي وأشهاها إلى قلبي . وهي عندي جديرة بأن تنقش بماء الذهب على صفحات من خالص الدمقس .

ومن منا لا يذكر دهشته عند ما سمع لأول مرة

مطلعاً للمتنبي يقول فيه : بأبي هواك صبرت أم لم تصبرا ؟ لقد دهش الناس في زمن المتنبي لهذا المطلع كما دهشنا نحن . ولكن كان في ركاب المتنبي شخص يحوي اسمه ابن جني — ولا أعرف لماذا كان أبوه جنيا مع أن والدته من الإنس — وقد تولى ابن جني الدفاع عن مطلع المتنبي دفاعاً عظيما لا يقل عن دفاع الروس عن ستالينجراد . فأذعن الناس لحجته الدامغة ، وأيقنوا أن مطلع المتنبي مطابق تماماً لأحدث الأساليب النحوية .

فاختلاف النحويين رحمة من أكرم الرحمات . . وهنالك طائفة أخرى يرى الناس أن اختلافها رحمة . ولعلها هي الجماعة التي يقصدها الناس بهذه العبارة أكثر من سواها . ألا وهي طائفة الفقهاء ، أصحاب المذاهب الدينية ، وبين يدي وأنا أكتب هذه السطور بعض الفتاوى في موضوع له خطره وشأنه في حياتنا . وقد قالت دار الإفتاء فيه : إنه مباح إطلاقاً عند الحنفية ، مباح بشروط عند الشافعية ، مكروه عند المالكية ، حرام عند الحنبليين . . لا شك أن اجتهاد الفقهاء رحمة كبيرة للناس . فقد مكنهم هذا الاجتهاد من أن يختلفوا ، وأن يجني عباد الله من هذا الخلاف وسيلة للتيسير والتخفيف . .

***

أنتقل الآن من ميدان النحو والفقه إلى الميدان الذي عودت القراء أن أتحدث فيه ، وهو ميدان السياسة الدولية ، فهنا مجال واسع عظيم لكي نطبق فيه مبدأ « الاختلاف رحمة » . وحسبي أن أقصر الكلام على ناحية واحدة ، ونوع واحد من أنواع الخلاف ، وهو أن اختلاف الدول التي يسميها الناس « الدول الكبيرة » فيه رحمة بالدول والشعوب التي يسميها الناس « الصغيرة » .

في عام ١٨٩٥ سولت لإيطاليا نفسها — والنفس أمارة بالسوء — أن تغير على الدولة الحبشية . وغاظها في ذلك الوقت منليك الثاني الإمبراطور الوطني العظيم ، وكان هنالك دولتان كبيرتان ترقبان ما يجري في هذا الركن من العالم ، باهتمام شديد ، وهما بريطانيا وفرنسا .

فأما بريطانيا ، فلم تكن راضية كل الرضى عن هذه المغامرات الإيطالية ، ولكن كان هنالك أمر تخشاه وتتحاماه أكثر من التوسع الإيطالي ، وهو التوسع الفرنسي . . فقد احتلت فرنسا إقليم جيبوتي ، أو السومال الفرنسي ، على بوغاز باب المندب ، مهددة بذلك طريق المواصلات إلى الهند . كما احتلت مساحات عظيمة في غرب إفريقية وحول بحيرة تشاد ، وكان يخشى أن تحاول وصل مستعمراتها في الشرق بممتلكاتها في الغرب وفي ذلك من الخطر ما فيه . لذلك رأت بريطانيا أن تشجع أو على الأقل تغض النظر عن التوغل الإيطالي في إريترية ، وعن المغامرة الإيطالية في الحبشة ، أملا بذلك أن ترى السياسة الفرنسية والسياسة الإيطالية يلقى بعضها بعضاً ، ويدفع الشر بالشر .

هذا ما كان من أمر بريطانيا ، وأما ما كان من أمر فرنسا فإنها عجبت أشد العجب من إيطاليا وهي تلك الدولة التي لم تولد إلا بالأمس ، والتي كان لفرنسا فضل كبير في إيجادها من العدم — كيف تسول لها نفسها أن تجاري الدول العريقة في الحضارة والاستعمار ، وأن تحاول منافستها في سياسة الإغارة والعدوان ! إن هذا السلوك العجيب ينطوي على جرأة منقطعة النظير . لهذا لم تحاول فرنسا أن تخفي سخطها على السياسة الإيطالية . . ولكنها لم ترد أن تقاومها برجال فرنسيين ودماء فرنسية مع وفرة الأحباش والدماء الحبشية . فاكتفت بأن أتاحت للنجاشي العظيم الحصول على عدد كبير من المدافع المتينة والذخائر الحربية الثمينة . ولم يفتها أيضاً أن تتقاضى أجراً على هذه الخدمة الجليلة بأن مكنت لبعض رعاياها من الحصول على امتياز

مد الخط الحديدي من جيبوتي على بوغاز باب المندب ، إلى العاصمة الحبشية أديس أبابا .

وأثمرت المساعدة الفرنسية والهمة الحبشية الحرة المرجوة ، فسحق الجيش الايطالي ، ومني بالهزيمة الشنيعة في عدوة (مارس ١٨٩٦) وارتد الايطاليون على أعقابهم خاسرين . ولم تقع هذه الضربة على إيطاليا وحدها . بل على السمعة الأوربية والشهوة الاستعمارية أيضاً . إذ استطاعت دولة إفريقية أن توقع الهزيمة بجيوش دولة أوربية .

وهكذا كان الاختلاف بين فرنسا وبريطانيا وإيطاليا رحمة من غير شك بهذا الشعب الحبشي البرئ النبيل الذي استطاع أن يشيد دعائم استقلاله ، وأن ينعم بهذا الاستقلال أربعين عاماً أي لغاية عام ١٩٣٥ . . . في هذا العام كانت تلك الدول الأوربية نفسها فرنسا وبريطانيا وإيطاليا ، مع الأسف الشديد مؤتلفة لا مختلفة . وثار الطمع الأشعبي مرة أخرى بالنفس الايطالية . فما كدت لها فرنسا في مؤتمر ستريزا بأنها « لا مانع » عندها من أن تغير إيطاليا على الحبشة مادامت تترك فرنسا في سلام في تونس . ولم تكتف فرنسا بهذا ، بل سلمت لايطاليا بنصيب الأسد في سكة الحديد الحبشية الممتدة من جيبوتي إلى أديس أبابا . وكان ممثل فرنسا في مؤتمر ستريزا هو بعينه المسيو لافال الذي كان لا يألو جهداً في اكتساب رضى إيطاليا .

ولذلك كانت فرنسا تؤيد إيطاليا في مغامرتها الحبشية الثانية كل التأييد . أما بريطانيا ، فقد كان موقفها من المغامرة الفاشية ، موقفاً غريباً . فقد كان نصفها يؤيد ، ونصفها يتظاهر بالمعارضة . والوثائق التي نشرت إلى اليوم تدل على أن العنصر المؤيد كان أشد قوة ونفوذاً في الحكومة البريطانية . ولكن عندما اتضح الأمر أو أوشك أن يتضح استقال وزير بريطاني وحل آخر محله عملاً بالتقاليد البريطانية المأثورة . وفي وسعنا أن نقرر أن الدول الثلاث كانت راضية في ذلك الوقت كل الرضى — أو معظم الرضى — عن الغزو الايطالي ، فكانت العاقبة ضياع استقلال الحبشة فترة من الزمن كما هو معروف .

وقد ساقنا الحديث عن مسلك الدول الكبرى حول الحبشة في أواخر القرن الماضي ، إلى الاشارة إلى الاختلاف السائد بين الدولتين الفرنسية والبريطانية . في ذلك الوقت لم تكن إحدى الدولتين تحاول إخفاء ما تكنه من المواقف المتجهمة نحو جارتها ، وكانت كل منهما تبذل الجهود الجبارة لمناوأة الأخرى في ميدان الاستعمار عامة وفي القارة الافريقية بوجه خاص . وقد كان لنا — نحن معشر المصريين — من وراء هذا الاختلاف بعض الرحمة . فقد أرادت فرنسا أن تحتل أعالي النيل في عام ١٨٩٨ ، فاعترضها الجنرال البريطاني كتشنر . ووقف بجيشه أمام قوة صغيرة يقودها ضابط فرنسي شاب اسمه مرشان . . التقى الجمعان في فاشودة ، حيث رفع الفرنسيون الراية المثلثة الألوان . فأجاب كتشنر على هذا التحدي بأن رفع الراية المصرية العثمانية !

فياله من يوم مجيد ، ونصر عظيم للراية المصرية ، قد أحرزته بسبب الاختلاف الكبير ، والهوة السحيقة ، التي كانت تفصل بين بريطانيا وفرنسا . في ذلك الوقت كانت فرنسا لا تنكف عن مناوأة السياسة البريطانية في وادي النيل ، حتى اضطر كبار الساسة وأولو الأمر في بريطانيا إلى أن يعلنوا مراراً أنهم سيرحلون عن وادي النيل بسرعة ، وأن احتلالهم لمصر ما هو إلا إجراء مؤقت . ثم دارت الأيام دورتها وعقدت فرنسا وبريطانيا اتفاقهما المشهور في عام ١٩٠٤ ، فإذا وعود الجلاء تختفي ، فلا يبدو لها أثر . وإذا جيش الاحتلال يتضاعف عدده وتتزايد عدته .

وبذكر الاتفاق الفرنسي البريطاني في عام ١٩٠٤

بالاتفاق المتمم له بين بريطانيا وروسيا فى عام ١٩٠٧ ، الخاص بإيران . قبل ذلك التاريخ لم تكن بريطانيا راضية عن سياسة روسيا القيصرية فى إيران ، لا حباً فى إيران ، بل شفقة من أن التوغل الروسى يهدد مركز بريطانيا فى الهند . ودام الخلاف بين الدولتين زمناً استطاعت فيه إيران أن تنظم شئونها بعض التنظيم ، وأن ترسم برامجها للتقدم والإصلاح . وكان من سوء حظ إيران أن اتفقت الدولتان بعد اختلاف ، وصفت علاقتهما بعد التكدر . فقسموا إيران إلى مناطق نفوذ : الأولى روسية فى الشمال ، والثانية بريطانية فى الجنوب ، وبينهما منطقة « محايدة » ! ولا أظن أن من الناس من يشك فى أن هذا الاتفاق كان نكبة على إيران ، كما كان الاختلاف رحمة من قبل .

* * *

والآن نستطيع أن ننتقل إلى ميدان السياسة الدولية فى زماننا هذا . فى العالم اليوم خمس دول يقال إنها هى الدول الكبرى ، وهى فرنسا والصين وبريطانيا وروسيا والولايات المتحدة ، ولكن هنالك من يرى أن الدول الكبيرة ثلاث فقط ، وذلك بحذف كل من فرنسا والصين ، فكلتاهما لا تعد كبيرة إلا بشىء كثير من التجاوز والتسامح .

وسواء أكانت تلك الدول الكبيرة خمساً أو ثلاثاً ، فإنها من غير شك تريد اليوم أن تقود العالم كله ، وهى تزعم أنها تقوده إلى الخير . ومنذ أن انتهت الحرب التى شنت على دول المحور ، قد ساد بينها الاتفاق تارة ، والاختلاف تارة أخرى . وليس من الاسراف فى شىء أن نقول إن الاختلاف بينها كان أكثر ظهوراً من الاتفاق . وكان الاختلاف يدور دائماً حول السيطرة والتسلط على بعض الأقطار ، أى أنه خاص بالميدان الاستعمارى ، أى بنفس الميدان القديم — ميدان التناحر والتكالب الذى كان سبباً فى إثارة الحرب العالمية الشعواء فى عامى ١٩١٤ و ١٩٣٩ .

وقد ظهر الاختلاف فى صورة حادة بين الاتحاد السوفياتى من جهة وبين بريطانيا من جهة أخرى . ومن حسن حظ الاتحاد السوفياتى أن له فى جامعة الأمم المتحدة دولتين ، هما جزء منه ، ولكن لهما مكانين مستقلين فى تلك الهيئة ، وهما أوكرانيا وروسيا البيضاء ، إلى جانب المكان الأكبر الذى يحتله الاتحاد السوفياتى نفسه . وقد رأت الحكومة السوفياتية من الخير أن تدع لأوكرانيا إثارة مسألة إندونسيا فى مجلس الأمن . فكان هذا عملا سياسياً بديعاً سواء أكان ذلك من ناحية الشكل أو الموضوع .

فأما من ناحية الشكل فإن تولى حكومة أوكرانيا نقد السياسة البريطانية يجعل من الممكن أن يقول الناس أن ليست حكومة الاتحاد السوفياتى هى وحدها التى اشمأزت من السياسة البريطانية فى إندونسيا ، وبذلك يكون الاختلاف من الناحية الشكلية اختلافاً بين بريطانيا وأوكرانيا .

أما من ناحية الموضوع ، فقد أحسنت روسيا كل الإحسان باختيارها إندونسيا بالذات . لأن قضية العدل والإنسانية فيها واضحة كل الوضوح . وقد أمكن لروسيا أن تشير إلى بعض الأعمال الشاذة التى ارتكبها البريطانيون ، فلقد ذهبوا إلى إندونسيا — فى زعمهم — لإجلاء الجنود اليابانية عنها ، فإذا هم يسخّرون هؤلاء الجنود لتنكيل بالوطنيين من أهل إندونسيا . وهذه الوصمة الهائلة لم يحاول وزير بريطانيا — على الرغم من لباقته — أن ينكرها أو يفندها .. وقد أحرج أشد الإحراج عندما طلب منه أن يسمح بإرسال لجنة تعاين أو تشاهد ما يجرى فى إندونسيا . ولو كان المسلك البريطانى بريئاً لا غبار عليه ، لما خشى من أن توضع التصرفات البريطانية تحت ضياء الحقيقة الساطع ولما تردد فى الترحيب بأية لجنة تطالع أو تحقق كما تشاء .

إن رفع قضية إندونسيا إلى هيئة الأمم المتحدة كان

(٢) من الأقوال المأثورة
فى الأدب الغربى والعربى

من الإنجليزية والأمريكية :

أن تنقد أسهل من أن تنشئ .

قد يكون بعض النساء أذكى من بعض الرجال ، ولكن هناك مستوى عقلى لا يصلن إليه أبداً .

من الصعب قيادة مجلس النواب ، وأصعب من ذلك إدارة مجلس الوزراء ، ولكن أصعب من الجميع قيادة جيش

كل الأشياء سواء فى النهاية .

الحب كمرض الحصبة ، خطير إن جاء متأخراً عن زمنه

الطبيعة تعمل أكثر مما يعمل الطب .

لا تنس ما قاله لك إنسان وقت غضبه .

الكتب أجمل أثاث ولو لم تفتحها أو تقرأ منها كلمة .

قد لا يستطيع إنسان أن يقدم لأمته خدمة جليلة ما لم يضح بالفضائل الصغيرة .

مظهراً من مظاهر الاختلاف بين بريطانيا وروسيا . ولا شك أن هذا كان لمصلحة قضية الوطنيين الأندونيسيين .

ولا يزال اختلاف الدول الكبرى — مع الأسف الشديد — من أهم العوامل فى أن تنال الشعوب الضعيفة شيئاً من العدل والانصاف . ولكن هذا لا يرجع إلى أن الاختلاف فى ذاته رحمة . ولو أن الدول الكبرى كانت كلها تسلك مسلكاً نظيفاً مبرأً من كل عيب ، وتنشد العدل والانصاف فى سياستها ، لأمكنها أن تتفق على البر والتقوى ، وعلى اتباع المبادئ الإنسانية السليمة فى السياسة العالمية . وعند ذلك يكون اتفاقها مصدر نعمة وسلم ورخاء لها ولجميع الشعوب .

محمد عوض محمد

لا يستطيع صديق حتى أن يبقى صديقه على توليه رياسة الحكومة ، فإن كل تصرف يتصرفه يزيد عدد أعدائه .

لا شىء يؤثر فى الأطفال كالثناء عليهم .

كان نابليون كاتب اسمه ديامونْد ، أفسد يوماً أصول تأليف له قيم . فلم يزد على أن قال : « ديامونْد ! ديامونْد ! قلما تعرف مقدار ما آذيتنى » .

سئل « ملتن » : هلاَّ تعلِّم ابنتك لغة أخرى ؟ فقال : لسان واحد يكفى المرأة .

إنه وطننا أخطأ أم أصاب ، أساء أم أحسن .

الحب فى الأسرة أساس الحكومة الطيبة .

الكلام فى البرلمان ، كالعزف على السكان ، يحتاج إلى مران .

الحزب فكرة منظمة .

الشعر بلاغة الدين وحرارته .

الشعر مهنة الكسالى .

إنما ينجح الشعراء فى التخيلات لا فى الحقائق .

إن أردت أن ترى المستحيل ممكناً فاقرأ الجرائد .

إن مالك الأرض عليه واجب يؤديه ، كما أن من حقه أجراً يقبضه .

عصيان الظالم طاعة لله .

الثورة لا تتراجع .

السخرية أسمج امتحان للحقيقة .

قيل لهنرى كلي Clay : إن القضية التى تدافع عنها تبعدك عن منصب الرياسة ، فقال : إنى أحب أن أكون محقاً أكثر مما أحب أن أكون رئيساً .

ست ساعات نوم كافية للرجل ، وسبع للمرأة ، وثمان للمغفل .

بعض الناس لهم مال كثير ولا عقل ، وبعضهم له عقل

كبير ولا مال ، ولا شك أن الأولين خلقوا الآخرين .

بعض النـاس يحمل بين جنبيه كتاباً واحداً ، وبعضهم مكتبة .

إذا كان القلب طاهراً فلا يهم ما فى الرأس .

احفظ القرش والجنيه يحفظ نفسه .

كانت آخر كلمة قالها نلسون : « الحمد لله ، قد أديت واجبى » .

ما يسمى ثباتاً فى العظماء يسمى بلادة فى الحمير .

عمل اليوم سابقة الغد .

إن معركة « واترلو » كسبت فى ملعب كلية إيتون .

خير ما خلفت لأولادى حرية القول وإعطاؤهم المثل كيف يستعملونها .

أحسن الأطباء هم الدكتور « حمية » والدكتور « راحة البال » والدكتور « سرور » .

كلما عظمت الحقيقة عظم نقدها .

الشعب لا يتخلى عن حريته إلا بضرب من الخداع .

أساس النجاح المثابرة على السير نحو الغرض .

العالم ملهاة لمن يفكر ، مأساة لمن يشعر .

العالم ليس إلا سجناً كبيراً ينفّذ حكم الإعدام كل يوم على بعض من فيه .

عند ما ينتهى القانون يبدأ الاستبداد .

يبقى الأمل ما بقيت الحياة .

لماذا نحرص على الحياة وأولها صراخ وآخرها أنين .

اكسب قلوب الناس تكسب مالهم .

للنساء فهم القلب ، وهو خير من فهم العقل .

* * *

من الأدب الفرنسى

لا شئ يستحيل على القلب الشجاع .

عند كل امرأة دائماً شئ تخفيه .

خير أن تعيش صياداً فقيراً من أن تحكم .

فرّق تحكم .

بين الجليل والهزأة خطوة .

قابل كل شئ بجد ، ولكن لا تقابل شيئاً بحزن .

الصديق كالقطعة من الأثاث يتغيّر إذا بَلِى .

لا جديد إلا ما نُسى .

بين لا شئ والواحد أكثر مما بين الواحد والألف

إنى أحب أسرتى أكثر مما أحب نفسى ، وأحب وطنى أكثر مما أحب أسرتى ، ولكنى أحب الإنسانية أكثر مما أحب وطنى .

أحمد الله إذ لم يجعلنى امرأة ولا قسيسا .

قال جَسَّندى « الفيلسوف الفرنسى » وهو يحتضر : لقد ولدت ولا أعرف لماذا ، وعشت ولا أعرف كيف ، وها أنا أموت ولا أعرف لماذا ولا كيف .

الثقة يجب أن تأتى من أسفل ، والقوة يجب أن تأتى من أعلى .

قال ميرابو وهو يموت : « دعونى أمت على صوت الموسيقى » .

الصقر يطير من قمة إلى قمة حتى يصل إلى برج « نوتردام » .

القراءة تعمل فى عقلك ما يعمل الطبخ على مائدتك فى غذائك .

الحب ملك الشباب وطاغية الشيوخ .

الحب أقوى من الصعاب التى تعترضه .

(يتبع) أحمد أمين

فى آخر قول من (الأقوال المأثورة فى الأدب الغربى والعربى) ذكرتم المثل المأثور الآتى : (الصلح الظالم خير من القتال العادل) مع أن العرب قالوا : (صلح مجحف خير من قضاء مخلف) أفلا يحسن إيراد الأصل العربى بدل الترجمة الأفرنجية ولا سيما أن الأصل العربى جمع بين الإيجاز والإعجاز ؟

عزيز خانكى

على ذكرى
المولد النبوى الكريم

يحتفل المسلمون كل عام بمولد النبي صلوات الله عليه ثم يمر الاحتفال كما ينقضى عيد أو ينفض سوق ، من غير أن يترك أثره العملى فى حياة الناس . لو كان المسلمون مستمسكين بسنته صلى الله عليه وسلم لكان مفهوماً أن يعودوا بعد الاحتفال إلى سيرتهم التى كانوا عليها قبله ، وإن كان هناك حتى فى هذه الحالة مستزاد من العمل بالسنة المطهرة . أما والمسلمون على ما هم عليه ، وبُعد ما بينهم وبين دينهم وسنة نبيهم هو ما هو ، فقد كان يرجى على الأقل أن يقربهم كل احتفال بالمولد النبوى من روح نبيهم ولو خطوة وأن تقربهم الذكرى المباركة بالاستزادة من العمل بدينهم ولو قليلا ، والقليل إلى القليل سيصير على الأعوام المتتالية كثيراً مباركا فيه ، فلا يكون المسلمون من البعد عن سنة نبيهم ولا من التأخر فى عصرهم على الحال التى هم عليها اليوم .

ما هو الحائل بين المسلم وبين العمل بالإسلام يا ترى ؟ إن كل فرد يملك أمر نفسه على الأقل إن لم يملك أمر أسرته إن كان رب أسرة ، فما الذى يحول بين المسلم وبين استمساكه بكتاب الله وسنة رسوله فى ذات نفسه ؟

إن الجهل بالكتاب والسنة عامل من عوامل الانصراف من العمل ، فإن العلم بما سيعمل به ضرورى للعمل من غير شك . وتعلم كل فرد ما يتعلق بحياته من الكتاب والسنة أمر ممكن ، لكن تحقيق ذلك من شأن القوامين على تربية الفرد فى الأصل ، فى البيت وفى المدرسة . فأولو الأمر فى البيت وفى البلد هم المسئولون إذاً عن هذا العامل من عوامل الحيلولة بين المسلم وبين العمل بالإسلام .

لكن فى الناس من يعلم من الإسلام ما يكفى لإسعاده وإسعاد كثيرين غيره لو عمل به ، ثم هو لا يعمل أو هو يقصر كثيراً فى العمل ؛ فلم كان هذا يا ترى ؟ أهو ضعف الإيمان جرد العلم بالدين من فائدته العملية للمتدين ؟ إن هذا على خطورته هو فيما يبدو التفسير الممكن لهذه الظاهرة الغريبة ، ظاهرة التدين الذى لا يعمل بدينه . إن الإنسان ليس فقط مدنياً بالطبع ولكنه أيضاً متدين بالطبع ، غير أنه فى تدينه يحتاج إلى شيئين اثنين لا غنى له عنهما كى ينتفع بدينه انتفاعاً كاملا : أن يعرف دينه الصحيح معرفة صحيحة كافية ، وأن يقوى إيمانه بدينه قوة تكفى لحمله على العمل به . إن الإيمان بمعناه المطلق هو فى الواقع القوة الدافعة إلى العمل فى حياة الإنسان . فالإنسان يعمل بما يؤمن به ، خطأ كان ما يؤمن به أو صوابا ، وهماً كان أو حقيقة . وكلنا يعرف فى طفولته بل فى رجولته كيف كان يتجنب الطريق إذا توهم أن به ما يؤذى أو يخيف من نحو جن أو وحش أو لص ، وإن خلا الطريق فى الواقع من كل ما توهم . فالإنسان فى الواقع هو فى عمله عبد الفكرة : تسيطر الفكرة عليه فيعمل بها ؛ بل يعمل بما يبلغ عنده درجة الرجحان بله درجة اليقين .

هذا هو الواقع . وهو أيضاً ما يقضى به العقل إن كان الترجيح على أساس ، بل هو ما يقضى ويعمل به العلم بالعقل فى فروضه ونظرياته . أفيكون انصراف المسلم من العمل بدينه راجعاً إذاً إلى ترجيحه المذاهب والآراء التى يعمل بها — إذ لا بد له من شئ يعمل به عندئذ — على دينه الذى يدين به ؟ هذه نتيجة حتمية لما ثبت من خضوع الإنسان لما يسيطر عليه من فكرة أو من أفكار ، وما جنون الفكرة المعروف فى الطب إلا مثل متطرف لهذا القانون النفسى العام : قانون استرقاق الأفكار للإنسان .

من هنا الأهمية القصوى للاستيثاق من صحة الأفكار التى نسمح بدخولها فى عقول أطفالنا ونشئنا وشبابنا ، وبعبارة أخرى لتعليم الدين والتنشئة عليه فى الصغر ، لأن الدين

هو الشيء الوحيد الموثوق به فيما يتعلق بالاجتماعيات والروحانيات ؛ ثم من هنا الخطر الكبير الذي يهدد الطفل المسلم والناشئ في فوضى الأفكار هذه النشأة فيما يلمع ويعلم ويذاع .

فانصراف المسلم من الأخذ بدينه كما ينبغي راجع إذاً إما إلى الجهل به ، وإما إلى ضعف الإيمان . والجهل وضعف الإيمان درجات يتسع كل منها ويضيق ليشمل الكثير أو القليل من الدين ، ثم كل منهما قد يتعلق بالأصول فيدخل بصاحبه دائرة النفاق والعياذ بالله ، أو يتعلق بالفروع فيشك في الحكم الفرعي أو يتأول النص إلى ما يعتقد أنه الصواب من غير أن يكلف نفسه البحث هل تأويله يتفق أو لا يتفق مع ما يسلم ويؤمن به من الأصول والأحكام الأخرى في الدين .

وإذا كان المسلم بعض العذر في الجهل بدينه لتقصير القوامين على تعليمه ، فليس له في الواقع عذر في ضعف إيمانه مهما كان الحال . إذ من الممكن أن يقسم غير العاملين بالإسلام من المسلمين على الإجمال والتقريب إلى قسمين كبيرين : إلى عوام شديدي الإيمان قليلي العلم ، وآفة هؤلاء الجهل ؛ فلو عنى بتعليمهم دينهم لكان رقي الأمة بهم سريعاً . وإلى متثقفين يجمعون بين ضعف الإيمان والجهل بالدين ، وهؤلاء من الصعب أن يلتمس لهم عذر الأولين لأنهم بثقافتهم قادرون على البحث والسؤال عما خفى عنهم من أمر دينهم حتى يعلموه . أما قوة الإيمان إذا توفر العلم فأمر مضمون في الإسلام ، لأنه قام على العقل ودعا إلى استعماله وإلى التدبر والتفكر وتطلب البرهان . ثم هو لا يخشى من العلم الطبيعي شيئاً لأنه « أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض » أي أنزله فاطر الفطرة التي كشف العلم ويكشف من أسرارها فصار بذلك مقداراً كسب الانسان قوة ، أحسن الانسان استخدامها أو أساء . فالاسلام من هذه الناحية عام من ثم : ينصر العقل والعلم معاً ولا يخاصمه أو يخالفه إلا الباطل . فالخطر الذي يتهدد الاسلام في صدر المسلم ليس هو الحق الذي كشف أو يمكن أن يكشف عنه العلم ، ولكن هو الباطل الذي يمكن أن يلتبس أو يُلَبَّس على المسلم بالحق .

هذه هي المسألة مختصرة مجملة . ويبقى هنا في التفصيل أن ننبه إلى أن الالتباس أو التلبيس قد يأتي من طريقين : سوء فهم الدين أو سوء فهم العلم . فلو أمن الانسان هذين مع قوة على التفكير لما كان هناك لاختلاف الدين والعلم أو العقل والقلب وما ينشأ عنه من ضعف الإيمان عند الانسان أي احتمال . وليس معنى هذا أن أسرار الدين ستصبح عندئذ كتاباً مفتوحاً للانسان يقرأه . إن كانت أسرار الفطرة عند علمائها كتاباً مفتوحاً يقرأونه فكذلك يصح أن يكون كتاب الدين . إن الكتابين كليهما من عند الله فاطر الفطرة ومنزل الدين ، فلا بد أن يكون فيهما ما يخفى على الانسان ويعلو على فهمه حتى يرقى فضلاً من الارتقاء يكفي لكشف ما خفي وفهم ما غمض . لكن الشيء الموثوق به في الاسلام هو أنه لن يكون هناك في تلك الحالة خلاف أو تناقض يحيله العقل .

على أن احتمال وقوع الخلاف عند المسلم بين العقل والقلب أو بين العلم والدين يتعلق بالفروع وبالاجتهادي منها ولا يمكن أن يتعلق بالأصول . فمن فضل الله على الإنسان ، ومن دلائل أن الإسلام دين الفطرة ، أن أصوله كلها معقولة ميسورة البرهان . وهذا هو السبب في أنه لا عذر لمسلم في ضعف الإيمان وما يؤدي إليه من ضعف في العمل بالدين . إنك من أي أقطار الإسلام تأتيه امتحاناً واختباراً تجده قائماً بالحق ، ثابتاً على الامتحان بالحق والاختبار : إذا أتيته من ناحية سيرة الرسول قبل البعثة وجدته ، أو بعد البعثة وجدته ؛ أو أتيته من ناحية القرآن وإحكامه وإعجازه وجدته ، أو تاريخه بعد الرسول وانتفاء التحريف والتبديل عنه وجدته ؛ أو أتيته من ناحية ما ينبغي أن يكون للدين

الصحيح من أثر فى المؤمن العامل به من فرد أو أمة وجدته؛ أو حتى من ناحية ما يعمل الله بمخالفيه والخارجين عليه وجدته. من أى النواحى أتيته وجدته ثابتا على الاختبار الدقيق الصحيح. فأى الأديان قبله بقيت معجزته فى كتابه خالدة على الدهر ليمتحنها من شاء، وليتجدد إعجازها بتصديق الأحداث لها؟ أى الأديان قبله أو أى المذاهب بعده كان له ما للإسلام من أثر، أو خرّج من الخلفاء مثل أبى بكر أو عثمان أو على أو عمر؟ ثم أى الأديان أو المذاهب قبله أو بعده وحّد الوجود وأزال التناقض بين الدين والفطرة، وبين العقل والوجدان عند الإنسان؟

ومع ذلك نجد من المنتسبين إليه من أهله من يطلبون التجديد والإصلاح من طريق غير طريقه، فيكونون عاملا من عوامل انصراف أهله عن العمل به، ومن عوامل تأخير نهضتهم بالتبع. يطلبون التجديد والإصلاح عن طريق فلسفات أوربا وسياساتها حتى بعد أن حاق بأوربا ما حاق، لأنهم ينزلون مذاهب أوربا الاجتماعية منزلة طياراتها ودباباتها واختراعاتها، فلا يفرقون بين قوة أوربا المادية المبنية على اختراعاتها العلمية، أو ما كان منها، وبين ضعف أوربا فى أمورها الاجتماعية والروحية التى لا تستند فيها إلى سنن الفطرة، أى سنن الله فى الاجتماعيات والروحانيات، كما استندت فى اختراعاتها إلى سنن الفطرة أى سنن الله فى الماديات. فكان مثلهم فى هذا كمثل الذى يستدل على رقى نفس النمر بقوته فى العضل والمخلب والناب. ولو نظروا لوجدوا فى اتفاق أوربا والغرب كله على ما به رقيه المادى من العلوم الطبيعية دليلاً على أن ذلك الرقى المادى صحيح وأن تلك العلوم الطبيعية حق، ولوجدوا فى اختلافها الشديد فى مذاهبها الاجتماعية الإصلاحية وفلسفاتها الروحية دليلا على أن تلك المذاهب إن لم تكن كلها باطلة فلا يمكن أن تكون كلها حقا. ففيم إذاً الدعوة إليها؟ وإلى أيها إذاً يدعون، وعن الإسلام دين محمد بن عبد الله يذهبون؟

إن علوم الغرب الطبيعية أدت إلى قوته المادية، ومذاهبه الاجتماعية أدت إلى استعمال تلك القوة على الوجه الذى خرب من أوربا وغير أوربا ما خرب، وشرد من أهلها من شرد، وجعل العالم كله يظل راثيا ولا يكاد يستطيع أن يدفع عن أمم بأسرها شبح المجاعة ولا رهق الذلة والضراعة. فلنأخذ من الغرب علومه الطبيعية ولنسأل الله أن يهدينا ويهدى الغرب إلى تطلب حلول ما نواجه ويواجه من مشاكل اجتماعية فى دين الفطرة، دين الله الذى أنزله على محمد بن عبد الله.

محمد أحمد الغمراوى

فى الموز :

كان أبو الحسين بن جبير الرحالة الأندلسى المعروف شاعرا لطيفا ولكنه كان مقلاً، فكان ينظم أبياتا لطيفة يبعثها إلى أصحابه فى مناسبات مختلفة، وقد ذكر هو نفسه بعض أشعاره فى رحلته، وروى المقرى طرفا آخر منها. ومن طريف شعره هذان البيتان اللذان بعث بهما إلى صديق له يشكره على هدية موز:

يا مهدى الموز تبقى ... وميمه لك فاءُ
وزايه عن قريب ... لمن تعاديه تاءُ

بين الأحياء المائيــة

تحت هــذا العنوان سأحاول أن أجول مع القــارئ بين أحياء عالم غير العالم الذى نعيش فيه . عالم يزخر بالغريب من الأحياء ، زاد عددها إلى حد استحال على البشر حصره ، وتنوعت أشكالها ، فمنها الدقيق فى حجمه حتى لا نراه إلا بالقوى من العدسات المكبرة ، ومنهـا ما كبر حجمه حتى صار أكبر المخلوقات . وهكذا نجد تباينا كبيراً بين الأحياء المــائية ، وإن كانت تعيش فى وسط واحد ، وقد كونت فيما بينها حلقة متصلة ، شأنها فى ذلك شأن الأحياء الأرضية . وسنتناول فى هذا المقال الـكائنات الهائمة أى Planktons

أول ما يتجه إليه الإنسان إذا فـكر فى الأحياء المائية ، هو ما فى البحر من أسماك وحيتان ودلافين (جمع دلفين) وقواقع وغيرها . وقد يذكر أعشـاب البحر إن كان من سكان الشواطئ . ولـكن هل هذا هو كل ما فى الماء من أحياء ؟ كلا ، فالبحر كالجو ، مزدحم بالـكائنات المتباينة ، منها الـكبير الذى أشرنا إلى بعضه ، ومنها الدقيق الذى يصعب على العين المجردة أن تتبينه إلا إذا استعانت بالمجهر وبينهما تدرج كالمألوف فى الطبيعة عادة .

فإذا ما أخذنا نقطة من ماء البحر ، الذى قد يبــدو لأعيننا رائقاً متجانسا ، ووضعناها على شريحة زجاجية ، وفحصناها بالمجهر ، تبين لنا أنها أشبه بحديقة الحيوان وقد انتشر فيها الـكثير من النباتات . ففى هذه النقطة المائية نجد أحياء دقيقة متباينة ، شـكلا ونوعاً وحركة ، هذه الـكائنات الدقيقة هى قوام الحياة فى البحار ، تحملها المياه من مكان لآخر على غير هدى ، ومن ثم سميت بالأحياء الهائمة .

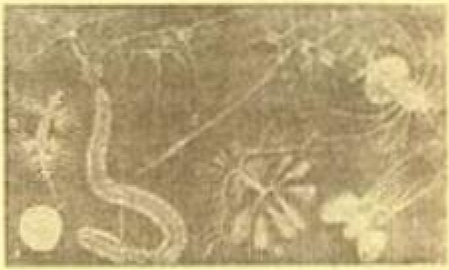
وهى نوعان : حيوانية ونباتية . والـكائنات النباتية أساس الحياة ، إذ أنها تعتمد على نفسها فى معيشتها ، تتغذى على البسيط من المواد وعليها تعتمد الـكائنات الحيوانيــة إذ تتغذى على بعضها . ثم إن عملية التمثيل الـكلوروفيلى التى تقوم بها الـكائنات النباتية تعوض الأكسجين المستهلك فى التنفس كما يحــدث على الأرض تماماً فتحفظ النسبة اللازمة ، وبذا تجعل مياه البحر صالحة لحياة هذه الـكائنات كما ينبغى .

وصغر الـكائنات النباتيــة يزيد من سطحها المعرض للماء ، وبالتالى لامتصاص الأغذية من المحلول الذى يحيط بها ، إذ المعروف أنه لو اجتمعت الأفراد الصغيرة وكونت فرداً واحداً كبيراً لـكان سطحه الخارجى أقل من مجموع أسطح الأفراد الصغيرة مجتمعة .

ولا تقتصر ميزة صغر الـكائنات عند هذا الامتصاص فحسب ، بل إن هذا الصغر يساعدها كذلك على أن تفوز بقسط أكبر من أشعة الشمس ، كما يساعدها فى أداء جميع وظائفها الأخرى بسهولة . فالـكائن منها على بساطة شكله وتركيبه ، يقوم بكل وظائف الحياة من تغذية وتنفس وإخراج وتكاثر .

وتتسكون الهــائمات النباتية غزيرة إلى حد كبير ، فتسبب تلون المــاء فى مساحات كبيرة على الرغم من أنها لا ترى بالعين المجردة . وكان المعتقد أن معظمها يمكن اقتناصه بالشباك الدقيقة جداً ، ولـكن ظهر بعد ذلك أن بعضها يستدق إلى درجة تمكنه من النفاذ من الشباك مهما ضاقت وتقاربت خيوطها . وقد استطاع لومان أن يجمع من هذه الـكائنات مقادير متكاثفة ، باستخدامه طريقــة الطرد المركزى وذلك بجمع كمية من الماء المتحمل بهذه الـكائنات فى أنبوبة ووضعها فى آلة طاردة مركزية . فإذا ما دارت الآلة وفحصنا الأنبوبة ، تبينا فى قاعها تكاثفا عرف بلونه القاتم . وإذا أخذنا جزءاً من هذه المنطقة التى فى قاع الأنبوبة ، أمكننا فحص هذه الـكائنات ودراســة خواصها .

والنباتات الهائمة كغيرها من النباتات المائية والأرضية تتغذى بامتصاص المحاليل الغذائية من الوسط الذى تعيش فيه ، كما تستعين بالضوء على القيام بعملية التمثيل ، لذا كان من الضرورى لها أن تبقى طافية على سطح الماء لينالها من الضوء المقدار الكافى ، ولأن الضوء كما نعرف يتناقص القدر النافذ منه إلى أعماق البحار حتى يتلاشى عند عمق لا يزيد على ثلاثين مترا .



مجموعة من أحياء البلانكتون ونرى فيها (ك) كوبيبود — (ل) ، (ج) حيوانات سوطية — (د) دياتوم متشابكة — (ه) يرقة حيوان اللابوست أو الوبستر — ويلاحظ كثرة زوائدها التى تساعدها على أن تطفو

وتتكون كل واحدة من هذه الهائمات النباتية من خلية واحدة ، وأهمها المجموعة المعروفة بالدياتوم شكل ا . وهى خلايا لها هيكل من السليكا ، ولونها بنى مخضر . وقد تحتوى الخلية على نقطة من الزيت تساعدها على الطفو ، كما قد يكون لأفرادها أشواك تتشابك لتكون سلسلة متصلة تساعدها على أن تطفو على سطح الماء .

وتتكاثر نباتات الدياتوم فى الربيع ، فإذا ما بلغت أوجها من النمو والكثرة صارت غذاء صالحا لبعض الكائنات الحيوانية . ولا شك أن كثرة هذه الكائنات تستنفد جزءا كبيراً من الأملاح فى المياه السطحية ، فإذا ما حل الشتاء وبردت هذه المياه السطحية زادت كثافتها ، وغاصت إلى الأعماق ، وحل محلها مياه أخرى غنية بأملاحها . وإذا ما أقبل الربيع وبدأ الدفء ، نشطت نباتات الدياتوم وتكررت الدورة التى شرحناها . ومعنى هذا أن نشاط هذه النباتات يسير مع فصول العام ، إذ تبلغ حدها الكبير من النشاط فى الربيع ثم لا تلبث أن تسكن ويقل نشاطها وتكاثرها فى الصيف ، ثم تعود فتنشط قليلا فى الخريف ثم تسكن فى الشتاء . وقد تعلل الزيادة فى الربيع فى معظم بلاد العالم بزيادة الضوء وارتفاع درجة الحرارة ، وهذه الزيادة كما ذكرنا تؤدى إلى نقص كبير فى المواد الأزوتية والفسفورية الضرورية ؛ لذا يقف النمو ، فإذا ما برد الماء تحدث تيارات مائية تغير من تركيب الماء ، فيساعد ذلك على نمو الدياتوم وتكاثرها . وفى الخريف يحدث نشاط محدود يعقبه سكون مدة الشتاء ، وذلك لانخفاض الحرارة بالرغم من تجدد المياه ووفرة الغذاء .

ومن الغريب أن هذا التعاقب الذى يلاحظ فى نشاط الدياتوم فى معظم بحار العالم ، لا ينطبق على الحالة فى مصر ، بل نلاحظ تباينا كبيراً ، يختلف عند قرب مصب نهر النيل ، وكذلك شمال قناة السويس وجنوبها . وهذا ما نرجو أن نبينه فى المقال الآتى إن شاء الله .

محمد أحمد بحيرة

خطابات إلى شاعر ناشىء

كتبها الشاعر الألماني رلكه

(١٨٧٥ — ١٩٢٦)

ترجمها الدكتور أبو ريدة

— ٦ —

رومه في ٢٣ ديسمبر ١٩٠٣

عزيزي هر كبس

لا ينبغي أن تمر عليك أيام عيد الميلاد من غير تحية مني ، إذا كان احتمالك لوحدتك في وسط هذا العيد أشق عليك منه في غيره ؛ ولكن إذا لاحظت أن هذه الوحدة عظيمة فاغتبط بذلك ، وإلا فتسائل نفسك : ما قيمة تلك الوحدة التي لا تكون عظيمة ؟ ليس ثمّ إلا وحدةٌ واحدة وهي كبيرة ليس من اليسير احتمالها . وإنه لتمر بكل إنسان ساعات قد يحب أن يفر منها إلى أية صحبة ولو كانت رخيصة مُبتذلة ، فهو يفر منها إلى أول من يلقاه من الناس وإلى أقلهم قدرا ، ممن لا يجد بينه وبينهم إلا وفاقا هو بالظاهر أشبه منه بالحقيقة ... ولكن ربما كانت هذه الساعات نفسها هي التي كانت تنمو فيها الوحدة وتثمر ، لأن نمو الوحدة مؤلم كنمو الطفل حزين كأوائل الربيع ؛ ولكن ينبغي ألا يضلك هذا لأن المهم هو شيءٌ واحد ، هو الوحدة ، الوحدة الداخلية الكبيرة ، وغَوْصُ الإنسان في نفسه ، وبقاؤه ساعات طويلة لا يرى فيها أحداً ، هذا هو ما ينبغي أن يستطيع الإنسان القدرة عليه ، فهو ينبغي أن يكون قادراً على أن يكون وحيداً كما كان في طفولته وحيدا ، حينما كان الكبار يطوفون حوله مشغولين بأشياء كانت تبدو له مهمة وعظيمة القدر لمجرد أن الكبار كانت تلوح عليهم علامات الاهتمام بها ولأنه لم يكن يفهم شيئا مما يفعلون . وإذا تبين للإنسان يوما أن مشاغل الناس حقيرة القدر وأن ما يشتغلون به من ضروب المِهَن قد أصبح جامداً ولا صلة له بالحياة فلماذا لا ينظر الإنسان إلى ذلك كما ينظر الطفل إلى شيء غريب عنه ؟ لماذا لا ينظر إليه من أعماق العالم الخاص الذي يعيش فيه ومن وراء عزلته البعيدة التي هي له عمل ومجد ومهنة ؟ ولماذا يريد أن يترك مسلك الطفل وحكمته إذ يقول : لا أفهم ذلك ، ويعرّض نفسه إلى احتقار الناس وترفّع أذاهم ، لأن عدم الفهم هو أيضاً وحدة ، أما الاحتقار وترفع الأذى فهو مشاركة للناس فيما يريد الإنسان بهذه الوسائل أن يفرّ منه .

فكِّر ياسيدي العزيز في العالم الذي تحمله في نفسك ، وسمِّ هذا التفكير بأي اسم تريد ؛ وسواء أكان تذكراً لطفولتك أم شوقاً إلى مستقبلك ، فعليك أن تكون متنبها لما يظهر في نفسك وأن تضعه فوق كل ما تشاهده حولك ، فإن ما يحدث في أعماق نفسك خليق بكل حبك ، وينبغي أن تشتغل به على نحو ما وألا تضيع من الوقت أو تفقد من القوة الروحية على الحياة أكثر مما ينبغي ، بأن تحاول أن تشرح موقفك للناس ؛ فمن قال لك إن لك موقفاً خاصاً بك على الإطلاق ؟ إني أعلم أن مهنتك شاقة مملوءة بأشياء لا تتفق مع طبيعتك ، وقد تنبأت بشكواك وتوقعت أنها ستأتي ، والآن وقد جاءت فلا أستطيع أن أهدئك ولا أملك إلا أن أنصحك بالتفكر في المهن كلها ، أليست كلها كذلك مثقلة بالأعباء ومعاداة الفرد ومشبعة أيضاً ببغض الذين يقومون بواجبهم العام صامتين صابرين ؟ إن الطبقة التي لا بد لك أن تعيش فيها الآن ليست مثقلة بضروب العادات الاصطلاحية والأخطاء والسبق بالفاسد من الأحكام أكثر مما عداها من الهيئات ، وإذا كان ثم من المهن ما يعطيك في الظاهر حظاً أكبر من الحرية فليس بين المهن قط مهنة فسيحة في ذاتها كبيرة المجال تصل بين صاحبها وبين الأمور الكبيرة التي بها قوام الحياة الحقة . والإنسان المتوحد هو ، دون من عداه كشيء

وضع تحت القوانين المعيقة ، فإذا استطاع أن يخرج في الصباح إذا طلع أو يخرج في الليل الذي يتمخض من ضروب الحوادث ، وإذا شعر بما يقع في ذلك سقطت عنه عند ذلك أعباء الهيئة التي يعيش فيها ، كما تسقط عن الميت ، وإن كان هو لا يزال يقف وسط معمعان الحياة النابضة . وإن ما لا بد لك أن تعانيه ، يا عزيزي هركيس ، في حياتك كضابط ، كنت تعاني مثله في كل مهنة من المهن الموجودة الآن ؛ بل لو كنت خارج كل المناصب وحاولت أن تنشئ بين نفسك وبين الجماعة صلة سهلة حرة لما بقيت بنجوة من هذا الشعور الذي يضيق له صدرك ؛ هكذا الحال في كل المهن ، ولكن ذلك لا ينبغي أن يكون سبباً للخوف أو الحزن ، وإذا لم يكن بينك وبين الناس حياة مشتركة فلتحاول أن تقترب من الأشياء ، فهذه لن تتركك ، ثم دونك الليالي والرياح التي تسير خلال الأشجار وتطوف بلاد كثيرة ، ودونك بعد هذا عالم الأشياء والحيوان وما يحفل به من حوادث ، فلتأخذ بحظ من النظر في ذلك ، ودونك الأطفال فهم كذلك هم ، كما كنت طفلا ، سعداء جداً وحزناء جداً ، وإذا ذكرت طفولتك فعش بين الأطفال مرة أخرى ، بين الأطفال الوحيدين ؛ أما الكبار فليسوا بشيء ، وقضاؤهم على الأطفال لا قيمة له .

وإذا ضاق صدرك وتألمت من تذكر طفولتك وما يتصل بها من بساطة وهدوء ، لأنك لا تستطيع بعدُ أن تعتقد بوجود الله ، مع أنه بادٍ في كل شيء فلتسائل نفسك ، يا عزيزي هركيس ، هل فقدت الله حقاً ؟ أليس الأحرى أن يُقال إنك لم تعرفه قط ؟ وإلا فمتى كان فقدانك له ؟ هل تعتقد أن الطفل يستطيع أن يتمسك بالله إذا عرفت أن الرجال لا يستطيعون حمل ذلك إلا بالجهد وعلى حين أنك ترى الشيوخ كأنما انحنت كراهلهم من طول حمل هذه الأمانة الثقيلة ؟ هل تعتقد أنه يمكن لمن عرف الله أن يفقده كما يفقد حجراً صغيراً ؟ أليس يجب أن تعتقد بخلاف ذلك أن من عرف الله فلن يفقده ، بل إن الله قد يتركه ؟ على أنك إذا كنت تعتقد أن الله لم يكن في طفولتك ، وإذا خطر لك أن عيسى من قبل قد خُدع بشوقه إلى الله وأن محمداً قد خدعه الغرور بأنه قد وصل إليه ، وإذا روّعك الشعور بأن الله ليس موجوداً الآن أيضاً في هذه الساعة التي نتكلم عنه فيها ، فأي شيء إذاً يبرر لك أن تفتقد شيئاً لم يكن قط كأنما قد كان أو أن تبحث عنه كأنك قد فقدته ؟

ولماذا لا تقول إن الله هو الآتي ، الذي كان مجيئه قريباً منذ الأزل ، وإنه هو المستقبل الذي هو الثمرة لشجرة نحن أوراقها ؟ وأي شيء يمنعك من أن تلقي ميلاده على لوحة العصور المتجددة ، وأن تحيا حياتك كيوم مؤلم جميل في تاريخ حَمْل كبير ؟ ألا ترى إذاً كيف أن كل ما يحدث فهو دائماً بداية ، أفلا يمكن أن يكون الوجود بداية له ، لأن البداية في ذاتها جميلة دائماً ؟ وإذا كان الله هو الأكمل أفليس ينبغي ألا يكون قبله شيء حقير قط ليستطيع أن يختار من غزارة ووفرة ؟ وأليس ينبغي أن يكون هو الآخر ليحوي في نفسه كل شيء ؟ وأي معنى كان يكون لوجودنا لو أن ما نطلبه كان موجوداً من قبل ؟ .

وكما أن النحل تجمع العسل فلنبحث عن أحلى ما في كل شيء ولنبنيه ، ولنبدأ بالصغير حتى بما لا نكاد نراه ما دام يصدر عن الحب وحده ، لنبدأ بالعمل وبالسكوت بعده ، بصمت أو بسعادة صغيرة نتمتع بها في عزلة ، بكل ما نستطيع فعله وحدنا بلا مشاركين ولا أنصار . لنبدأ غرس ما لن نشاهد ثمره قط ، كما أن أسلافنا لم يشاهدونا ، ومع ذلك فإن هؤلاء الأسلاف الغابرين يعيشون فينا في صورة استعداد وعبء على مصيرنا ، في صورة دم يجري فينا وإشارة ودليل يخرجان من أعماق الزمن البعيد ؛ وهل ثم شيء يجردك من الأمل أن تكون في الله يوماً ما أزلهم بعده القصي ؟ .

فلتحتفل يا عزيزي هركيس بعيد الميلاد بهذا الشعور

الأشعار الأندلسية (٨)

وعلاقتها بالأشعار الأوربية

رأى المدرسة الأسبانية

« وكان نيكل يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك فيقول : إن الزجل ما هو إلا موشحة مصوغة فى اللهجة الأسبانية الدارجة بدلا من العربية الفصيحة ، وقد أثبت هارتمان فى رسالته الصغيرة عن الموشح أن هذا النوع من الشعر ذى الفقرات strofhéique مبنى على طول مقاطع الكلمات وقصرها ، موزونة على أساس موازين الشعر العربى الفصيح » وأوضح هذا الكلام بمثال : لنأخذ الفقرة التى تبدأ بالمصراع الثالث عشر فنلاحظ أننا إذا قرأنا المصراعين الخامس عشر والسادس عشر كما نقرأ الشعر العربى الفصيح اختل الوزن ، وأن الاتزان لا يعود إلا إذا قصرنا « عبيده » إلى عبيدُ وإلا إذا قرأنا « عبيد إلا » كما نقرأ كلة واحدة وكذلك « لس دا عار علىّ » وكذلك « عاربيه » فالكلمات تنطق مجموعات لكل منها وزن واحد ، وهذا يقتضى بالطبع التصرف فى مد حروف العلة وتقصيرها كما نرى فى مد « به » إلى « بيه »

من التقوى ؛ وهو أن الله لعله يحتاج منك إلى هذا التلق على الحياة لكى يبدأ عمله فيك . وإن هذه الأيام التى تجتاز فيها مرحلة من مراحل حياتك هى الوقت الذى فيه كل ما فيك مشتغل بالله كما كنت أشتغل به طفلا إلى أقصى حدود قوتك . فلتكن صبوراً راضياً ، واعلم أنه مهما قل ما تستطيع أن تعمله فإنه لن يحمل الحى على الله أصعب مما تحمله الأرض بالنسبة للربيع إذا أراد أن يجئ وإذا انتظرت هى صابرة ؛ ولتكن مغتبطاً مُعْتَرِى .

رينر مريا رلكه

كما نفعل نحن فى لغتنا العامية ، وهذا يخالف قواعد الشعر العربى الصحيح مخالفة صريحة .

وليست ألفاظ ابن قزمان وعباراته كلها عربية فصيحة أو دارجة ، وإنما يختلط بها كثير من الألفاظ الأسبانية الرومانية التى كانت شائعة فى كلام المدجين فى أسبانيا كما نرى فى الفقرة التالية :

يا مُطَرِنِ شلبـــاطو
تونْ حزن تونْ يناطو
نرى اليـــوم وَسطاطو
لم نذق فيـــه غير لقيمه

فهذه فقرة أقرب إلى أن تكون أسبانية وقد ترجمها ريبرا إلى شعر أسبانى هكذا :

Oh ! mi inconstante Salvado
Tu estàs triste y apenado
Te hallaràs hoy disgustado
Sòlo hay un bocadillo.

وفى هذه الترجمة الأسبانية خطأ نشأ عن خطأ ريبرا فى قراءة بعض الألفاظ فقد قرأ « مطرن » مُطَرَّنِي وهذا لفظ لا معنى له ولهذا تصرف فيه فترجمه Triste أى حزن ، وصحته يا مطرنى ، وهناك كذلك خلاف كبير حول قراءة « تون حزن ... » وترجمتها بضمير المخاطب المفرد حقاً . وأمثلة هذا كثيرة ، وفى قراءتها وتفسيرها كذلك خلاف كبير .

ومعظم أزجال ابن قزمان يدور حول الغزل بالنساء والغلمان والخمر والموسيقى ومتاع الحياة ، وهو ينشدها على لسان النساء وصبية الشوارع والبائعين ، وبعضها على لسان نصارى أندلسيين أو نصارى أسبان من أهل الشمال ؛ ولهذا فهذه الأزجال تعرض علينا صوراً حية من الحياة اليومية التى كان يحياها الأسبان المسلمون والمستعربون ، وهناك فقرة لطيفة تبين كيف كان الناس يسمرون إذا خلوا مع عشاقهم :

واش إلاَّ القَلايا والقديد المشرح
وشوَّاى لجنبِ وأنا جالس علّنج
وتستمْتَع على النار ثم تبتدى ىُطنج
وأنا كَنْشطِّبطْ فى دخان مشمّر

ولأزجال هذا الديوان ميزة لا زال تفسيرها إلى الآن موضع خلاف بين الباحثين، هى أن كل زجل ينقسم قسمين قسم غزل وقسم مديح، فهو يبدأ كل زجل بأبيات فى الغزل، فإذا فرغ من هذا « التغزل » كما يسميه ختم الزجل بمدح صديق له أو أحد كبار الناس، وهذا يدلنا على أن ابن قزمان كان ينهج فى صياغة أزجاله منهج شعراء العرب، فهو يستعمل الزجل مدخلا للمديح، وربما استطعنا أن نستنتج من ذلك أن غزل ابن قزمان لم يكن هو الغرض الأول من أزجاله، وإنما كان تمهيداً فقط لما يأتى بعده، وفى هذا دلالة على أن الزجل كان يكسب عيشه بصياغة مدائح للناس فيتصدرهم مع فرقته، ويقف بأبواب دورهم، ويبدأ بكلام غزل يستجلب به النظارة والمتفرجين ويرغمهم به على الترديد والغناء معه، ثم يتخلص من ذلك إلى الغرض الأساسى وهو المديح.

والآن وقد ألقينا هذه النظرة العاجلة على ابن قزمان وأزجاله، نعود إلى العلاقة بينها وبين الأشعار الأوربية التى يظن أنها نسجت على منوالها.

* * *

لعل القـارئ قد لحظ من قراءة هذا المثل البسيط القيمةَ التاريخية واللغوية لهذا الديوان، فعلى الرغم من تفاهة المواضيع التى تدور حولها الأزجال، وعلى الرغم من تواتر المعنى الواحد فى أكثر من زجل واحد، فإن كل زجل يعرض علينا لوناً من الحياة الأندلسية عرضاً لا نجده عند أكثر مؤلفينا؛ فنحن نجد هنـا أسماء عشرات من أصناف الثياب والطعام وعشرات من أسماء أدوات المنزل وآنية الشرب وقطع الزينة للرجال والنساء، ونحن نستطيع كذلك أن نتصور كيف كان عامـة الناس يتكلمون وفيم كانوا يفكرون، وتلك كلها أمور فى المكان الأول من الأهمية للمؤرخ المدقق، ولا نظفر بها عند أحد من المؤرخين الأندلسيين.

ولكن أكبر قيمة لهذا الديوان هو أنه قرّر بصورة لا تكاد تقبل الجدال مقـدارَ دين الآداب الغالية لأدباء الأندلس، ذلك أن هذا الأسلوب فى صياغة الشعر عما فيه من الملاءمة للروح الشعبى وعما فيه من انسجام مع الإيقاع الموسيقى لم يلبث — كما رأينا — أن شاع بين الناس واجتذب إليه كبار الشعراء، فأخذ كثير منهم يصنع قطعاً من الزجل لا تلبث لسهولتها ومواءمتها للموسيقى أن تجرى على كل لسان ويتغنى بهـا فى كل ناحية من نواحى الأندلس؛ وقد بلغ الزجل هذا الذيوع قبيل زمان ابن قزمان وفى حياته نفسها، أى من أوائل القرن الحادى عشر الميلادى إلى منتصف الثانى عشر، ويفهم من قول ابن خلدون: « ولما شاع التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وتصريع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً (واستحدثوا فناً) سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجـال بحسب لغتهم المستعربة (وأول) من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية (أبو بكر بن قزمان) (المقدمة، طبعة كترمير ج ٣ ص ٤٠٤)، ومن قوله بعد ذلك وهو يتحدث عن ابن قزمان راوياً عن ابن سعيد: « ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب ... » (نفس المصدر والصفحة) أن الأزجال شاعت فى نواحى العالم الإسلامى شيوعاً عظيما، وأن أهل كل ناحية أخذوا يشتقون أزجالا بلهجتهم العامية، وأن هذه البدعة الفنية الأندلسية

أصبحت لوناً شعرياً مقرر القواعد والأصول في شتى نواحي العالم الإسلامي .

بل لم يقتصر أمرها على العالم الإسلامي ، وتعداه إلى العالم النصراني في شمال الأندلس وخلف البرانس ، ذلك أن الذي لا نزاع فيه أن ما بين يدينا من أشعار التروبادور لا يكاد يختلف في معانيه وأسلوب صياغته عن هذه الأزجال الأندلسية ، بل كان أول هؤلاء الشعراء الجوالين وهو الكونت دِ بواتييه معاصراً لابن قزمان (عاش من ١٠٧١ إلى ١١٢٦) ، ثم إنه اشترك في حملات كثيرة قام بها البروفنسيون ضد مسلمي إسبانيا ، وكان قبل اشتراكه في هذه الحروب ينظم قصائد صغيرة تتكون من فقرات كل منها أربعة مصاريع يتفق الأول والثالث منها في قافية والثاني والرابع في قافية أخرى ، أي أن نظام قصائده كان ا ب ا ب ، فلما عاد من هذه الحروب بدأت قصائده تأخذ صورة الزجل الأندلسي ، أي أنه أخذ يبدؤها بمطلع من مصراعين ، تليه فقرة من ثلاثة مصاريع على قافية واحدة ثم مصراع على نفس الوزن ولكن من قافية المطلع ، أي أن نظام قصائده أصبح ا ا ب ب ب ا ، وهذا وحده برهان كاف لإثبات أثر الفن الأندلسي في تطور فن التروبادور . ولو ذهبنا نحلل قصائد الكونت وغيره من أئمة الشعراء البروفنسيين لازددنا بهذا الرأي إيماناً ، فإن معانيها قريبة جداً من معاني أزجال الأندلسيين ، بل من أسلوب تفكيرهم وإليك أمثلة صغيرة تستطيع أن تجد لها أصولاً في أقاصيص طوق الحمامة وقصائده وفي أشعار الأندلسيين وموشحاتهم وأزجالهم : « إن ما تبثه (الحبيبة) من الغبطة في النفوس ليشفي العليل ، وهي إذا غضبت على أحد فإن غضبها هذا كفيل بأن يقتل أوفر الناس صحة ، وجمالها يسلب أعقل الناس لبه ، ويفقد أجمل الناس جماله ، ويستطيع أن يحيل أوفر الناس أدباً شريراً دميماً ، ويجعل من الشرير إنساناً مهذباً »[١] .

« عندما يأخذ النهار في الطول في الربيع ، أجد في نفسي لغناء الطير وقعاً جميلاً ، فإذا انقطع عني هذا الغناء تحسست في أعماق نفسي آثار حب بعيد ، فتجدني إذ ذاك غارقاً في الفكر حزيناً خافض الرأس ، وهنا لا أجد في نفسي لغناء الطير لذة ولا الزهر فتنة »[٢] .

« ليس بغريب أن يكون غنائي أجمل من غناء أي إنسان غيري ، لأنني أشد الناس خضوعاً للحب وانقياداً لأمره ، فإن قلبي وجسمي وفهمي وحسي ، وجاهي وقوتي كلها رهنتها بأمره ... »[٣] .

ولم يكتف التروبادور باقتباس هذه المعاني بل أخذوا يقلدون ما يسمعون من أشعار المسلمين وأزجالهم في كل شيء : فهم يشكون من قلب المرأة وطبعها ويحذرون الإنسان من كيدها[٤] ، ويزهدون في هذه الدنيا بكلام هو أقرب ما يكون إلى تفكير زهاد المسلمين من ناحية وابن قزمان من ناحية أخرى[٥] ، بل إن الكونت دِ بواتييه نفسه يتصنع التوبة في آخر أيامه ويعتزم الزهد في الدير كما فعل ابن قزمان إذ تاب عن شروره وعكف على الصلاة والأذان في أحد مساجد قرطبة في أواخر أيامه .

فالمسألة إذاً لم تعد مسألة نظرية غير مؤسسة كما كانت أيام دوزي ، بل حقيقة ثابتة يستطيع الإنسان أن يلتمس لها الدليل بعد الدليل ، ولا يضيرنا في هذا المقام أن نجزم

(١) Quillaume IX, Comte de Poitiers : Mout jauzen me prenc en amar.

(٢) Jaufré Rudel : Lanquam li jorn son lonc en mai.

(٣) Bernar de Ventadour : Non es maravela s'ieu chan.

(٤) Cerveri de Girone : A g.ea pot om Conno-isser en la mar.

(٥) Quillaume de Poiters : Pos de chantar m'es pres talenz.

بعض النقاد وأساتذة الآداب في فرنسا وإيطاليا موقف النقاد ، لأن غالبية العلماء في يومنا هذا يأخذون بنظرية الأصل الأندلسي بدون مناقشة ، وقد كان الناهضون لهذا الرأي يزعمون أن روح أشعار التروبادور أرفع بكثير من روح أشعار ابن قزمان وأن فيها تسامياً بالحب لم يخطر ببال المسلمين ، فلم يكد الباحثون يعرضون عليهم صوراً من تفكير ابن داود وابن حزم وغيرهما في الحب وتساميهم به وتعمقهم في فهم أسراره وأطواره حتى آمنوا أن الأمر أوثق أساساً مما يحسبون ، وأن الأدلة أنصع من أن يمارى فيها . وقد أشرت في أول هذا البحث إلى تحول منتقد عنيد إلى ناحيتنا وكان من قبل عدواً لكل ما هو إسلامي أو عربي لا يكاد يقبل حتى مجرد التفكير فيه .

* * *

وبعد فهذا موضوع شاسع لا يستطاع تفصيله في مقال صغير كهذا ، ولكنني حاولت جهدي أن ألفت نظر القارئ إلى جانب مجهول من جوانب فضل المسلمين على الحضارة الإنسانية ، فإن التروبادور هم آباء الأشعار الفرنسية والإيطالية والإسبانية ، فإذا كان قد ثبت على هذا التوالي أن المسلمين آباء شعراء التروبادور فإنه يثبت لنا بهذا أن أشعارنا وأزجالنا أصل من أصول الشعر الأوربي ، بيد أن الأمر لا زال محتاجاً إلى البحث والتحقيق ، ولم يعد الناس يقبلون فروضاً تعتمد على الإلهام أو على حسن الظن وحدهما ، وقد مضى الزمن الذي حسب فيه ريبرا أنه حل المشكلة حينما « اكتشف » أن تروبادور آتية من اللفظ العربي طرب !

حسين مؤنس

فى الأقصر

دفعنى موج الذكريات إلى أرض الذكريات . فذرعت الرمال والسهول بين وادى الملوك ووادى الملكات .

واستلهمت الوحى مما مضى وولى ، وترحمت على من قضى ومات ، وهتفت فى جنبات نفسى : هيهات نحن من هؤلاء ، هيهات . وعجبت لشعب ورث ذهبا ضخما فأحاله إلى تراب وذرات ، ومن قوم نسوا الماضى وانغمسوا فى عبث وملذات . فكفروا بنعمة خالق الأرض والسموات ، وحقت عليهم الذلة حتى يوم تبعث من قبورها الرفات .

ولا تظن يا أخى أنى ذهبت إلى هناك لأننى كنت أنسى افتقادى إياك لعالم الأبرار منذ ثلاثة شهور قصار ، وأقسم لروحك أنه لم يكن النسيان وإنما هو نشدان السلوى فى موج غاص من الأسى يبلغ الجبال طولا ، ولو شئت لبقيت مغمورا دون أن يطفو منى الرأس أو الجسد ، ولكن هى الأمواج ترفع وتخفض ، فكنت أجد نفسى أحيانا على الشاطئ زاحفا دون وعى وسط ظلام دامس ، ولكنى على الأرض على أى حال ، أدب كأى مخلوق يسعى وراء الحياة والرزق ، ثم لا يلبث الجزر أن يجرفنى إلى الأمام ثانية ، فأغوص فى خضم اليأس والاستسلام ، وكنت أنتصر حينا وأهزم حينا حتى دفعنى فيض الكأس إلى الهجرة إلى واد سحيق قيل لى عنه إنه خير مكان لدفن الذكريات ، ووالله ما غبت من خاطرى ولا ناظرى لحظة ، فكنت كلما تبعت الدليل إلى داخل قبر فى وادى الملوك هتفت من قلبى تحيا الأرواح الحائمة حول عسى أن تكون روحك بينها تنبعث فى عتاب ورجاء . وكنت كلما أشار الدليل بأصبعه العابثة إلى تابوت حجرى تخيلتك مسجى بين طيات الثرى جسدا هامدا ورفاتا لا يؤنسها فى وحدة قاتلة سوى حجر وسكون وتراب ، وياليتك جئت فى خاطرى وأنا أنظر إلى صورة عجل منقوشة فى حجر كبير بأحد المعابد ، فتخيلت العجل الصغير الذى ضحينا به وأنت تغادر الدار ، وتذكرتنى وأنا جالس على مقربة منه أنظر إليه وينظر إلى نظرات كلها تضرع وعتاب ، وكأنه يقول لماذا تذبحوننى وعمرى مبكر ، أطلقوا سراحى وأنا أشفع له عند من يفهمنا جميعا بلسانى وعقلى ، وكل قطرة من دمى الذى سوف يراق عبثا ، وتذكرتنى وأنا أنظر إليه شزرا وأقول وأنا أزم شفتى فى تصميم ضعيف الحيلة الذى وجد للانتقام من قسوة القدر منفذا : هيهات لك هذا ! من ذا الذى يشفع لك عندى وفى يدى روح أقبضها متى شئت لأربط مصيرها بمصير من أحب ، يا لى من قوى فى ساعة ضعف ومغرور فى لحظة انهيار وهوان ! والحقيقة أنها العجل أنى راجعت نفسى فيما بعد وندمت على مجرد خاطرى نحوك ، فكنت كلما زرت والدى الثاكلة ورأيت آثار دمك عند عتبة الدار وقفت عندها وتأملت كثيرا وترحمت على من ذبحت فداءه ، وقرأت الفاتحة التى لا بد أن ينالك منها نصيب ، فقد خلقك الله كما خلقنا ولا بد أن لك حياة أخرى كالتى وعدنا بها ، ألسنا نستوى جميعا أمام الله : الحشرة الحقيرة والحيوان الأعجم والإنسان المغرور والله أعلم أينا الفضل عند الديان الذى لا يعرف عند الحساب عزوة ولا جاها ولا مالا ولا ملكا ، وهو الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما .

وأقسم لك يا أخى أنى كنت ذات يوم أستمع إلى الدليل (عبد السيد) وهو يشرح صورة موكب جنائزى فلما أشار بأصبعه العابثة إلى الكهنة وهم يرتلون صلاة الجنازة تذكرت نفسى وأنا جالس فى الصيوان على بعد أمتار من غرفتك ، وكيف هامت روحى إلى قدمى وأنا أسمع الذين يقومون بواجباتهم الأخيرة نحوك وهم يرتلون الصمدية أى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) بصوت كان يعلو وينخفض ويسرع ويبطئ لم أدر لماذا ، ولكنهم لما قرأوا الفاتحة أدركت أنهم انتهوا من صب الماء الساخن ثم إلباسك الرداء الأخير الذى

كأن كل ما خرجت به من هذه الدنيا الزائلة. ولا بد أن روحك قد رأت كيف تهادت آثارك الحسناء عثل الروعة التي كنت عليها إبان حياتك. معذرة يا حبيبي على جريمة نشدان السلوى بين الوديان والرمال، فما كان هذا والله بنسيان بل مجرد محاولة لنقل صورة طيفك التي لا أود أن تفارقني، من العقل الظاهر إلى العقل الباطن الذي تدفن فيه أعز الذكريات وأحلاها.

* * *

إذا شئت أن تسافر إلى جهات بعيدة كالأقصر أو أسوان مثلا فلا تستعمل من مهمات سكة حديد الحكومة المصرية إلا القضبان والقاطرة، أما ما عدا هذه فإرهاق وكلال وملل. إن الفرق بين تكاليف عربات النوم التابعة لشركة أجنبية والعربات التابعة لمصلحتنا الحكومية لا يعدو بضعة جنيهات لا تزهق التقدم على رحلة طويلة كثيرة النفقات، إن المسافة بين العربتين لا تعدو بضع الخطوات، ولكنك تشعر بانتقال غريب من جو إلى جو. فموظفو عربة النوم من طينة أخرى مشبعة بطابع اللباقة واحترام الغير ونظافة المظهر، وكلها طباع لا تكلف صاحبها شيئا، ولكنها هداية من الله أسبغها على هؤلاء الأجانب بسخاء فاستغلوها أحسن استغلال حتى بزوا غيرهم في تأدية الواجب على الوجه الأكمل. لو علم الشرقي أن من أسهل السهل عليه أن يكون مؤدبا لبقا في معاملة الناس، لزالت من سحنته غبرة التحدي التي تلحظها في صغار المحتكين بالجمهور من موظفين في أول درجات السلم يحسبون من أنفسهم آلهة ويعاملونك بطريقة لا تمنعك من صفعهم بسببها إلا الأدب الذي لا يكلف شيئا!

* * *

تصل مدينة الأقصر فيستقبلك الضجيج المصري العادي على الأرصفة وفي الطرقات، وتحملك عربة الأجرة حملا إلى الفندق خلال شوارع من أقذر ما شاهدته العين حتى تصل بك إلى الجنة الموعودة وهي شارع البحر، وهناك تبتهج نفسك بعض الشيء، إذ تجد الفنادق التي ليس لمصري فضل في تأسيسها وتأثيثها، ولكنها ترحب بك ترحيبا عظيما وتغدق عليك من حسن المعاملة ما يجعلك تنسى أنك غريب في بلدك، وهذا هو فن الاستهواء الدقيق الذي يأسر القلب ويسلب ما في الجيب وأنت قانع مسرور. وفي الأقصر عدة فنادق من الطراز الأول تشرف على النيل الذي تتأمل من فرط ما تعززنا بطميه الأسود وانسيابه الخالد بين الشاطئين، ويلفت نظرك معبد الأقصر بأعمدته الضخمة التي يمكنك أن تميز خلالها تمثال رمسيس الثاني وقد وضع بحيث يتجه نحو الرامسيوم على الشاطئ الغربي، ويقع معبد الأقصر على الشاطئ الشرقي، بين الفنادق ومنازل الأعيان من أهل المدينة، فتعتاد العين رؤيته لأنك تمر عليه في الذهاب والإياب، حتى إنه لا يكاد يلفت نظرك في الأيام الأخيرة من رحلتك، وما أرخص الشيء، إذا اعتادته اليد والعين والنفس وما أعزه إذا ترفع وشح وندر. وفي هذا المعبد بالذات بدأ موكب الشعلة وكان لي حظ سماع خطبة ضابط عظيم اقتبس فيها بضع كلمات من دعاء نصف شعبان المعظم ليضفي عليها من السحر والجلال ما يتناسب مع فخامة مظاهره وروعة المناسبة.

وبجانب هذا المعبد العظيم يوجد مقام متواضع لشيخ يتبرك الناس به ولا ينعدم كل صباح زيارة سيدتين أو ثلاث يخلعن نعالهن في خشوع ويجلسن تحت قبته المتواضعة يتحدثن ويتسامرن وقد وضعت كل منهن يدها على خدها تشكو الأخرى عوادي الزمان ودلال الزوج، فلا تنس أن تقرأ الفاتحة على روحه عند زيارتك للمدينة، فأمل في قراءتها عزاء وسلوى لروحه التي تحتمل كل هذا وهي صابرة.

* * *

وفي الفندق قابلت صديقا طيبا لعله التزوج الوحيد في العالم الذي لم تخنه ابتسامته منذ أن تزوج، وكان أول

ما رأيت منه ظهره الذى انضخم نتيجة ترهل معقول ، وأقسم أنى رأيت الابتسامة مرتسمة على ظهره قبل أن يستدير بوجهه فى اتجاهى ، وقلت لنفسى لا بد أن هذا فلان ، وقد صدق حدسى ، وجلست معهما أتأمل فى التى روضت هذا المتمرد القديم ، فوجدت أدبا وخلقا جديرين بالاحترام ووجها ارتسمت عليه نصف ابتسامة دائمة أعتقد أنهـا تلازمه فى الصحو والمنام ، وكنت أينما أراهما منفردين فى أية ساعة من ساعات اليوم أدهش للبسمة العريضة على وجه الزوج مقرونة بدعابات مستمرة يسرّها فى أذنيها من فوق كتفها فيتحول إشراقها الدائم إلى ضحك خافت مكتوم يهتز له الزوج طرباً ، ولقد مضت على هذه الحال عشر سنوات ، فيالها من سيدة ويا له من زوج !

* * *

ولا بد أن تقودك قدماك إلى معبد الكرنك ، وإذا كنت ممن يترنمون بأغانى عبد الوهاب فانك لا بد مردداً أنغام أغنيته الجميلة وأنت تسير بين أرجائه مأخوذا مدهوشا لعجائب أجداد لسنا بهم جديرين ، وعندما يفسر لك الدليل الرموز المنقوشـة على الجدران وتفاصيل المعارك ورجوع المنتصر تتساءل بينك وبين نفسك قائلا :

أين يا أطلال جند الغالب أين آمون وصوت الراهب

والواقع أن هذا المعبد فخر للأولين والآخرين . ويا ليتنا نرى ونتعظ ونثبت للعالم أننا بأجدادنا جديرون ، ويكفى أن تسير فى طريق الكباش وتدخل من بابه لتدرك أنك مقبل على زيارة مجد غابر لأمة كانت عظيمة ، ولو حافظت على تراثها لكان لها شأن أى شأن .

أما زيارة وادى الملوك فتستلزم منك رحلة نيلية إلى الشاطئ الغربى ، وهناك تخرج من مقبرة لتدخل أخرى ، وفمك فاغر من فرط الدهشة ولا سيما لجمال ألوان الطلاء التى يخيل إليك أنها من صنع الأمس القريب رغم مرور أربعة آلاف سنة عليها .

ويدهشك أثناء كل هـذا أن العنصر المصرى بين الزائرين نادر حقا ، بينما إقبال الأجانب وخاصة ضباط الحليفة وضابطاتها يدعو إلى الدهش والاستغراب .

ولن أنسى وأنا أغادر الفندق فى اليوم الأخير فى ساعة مبكرة ، إذ كان بعض السادة والسيدات من جيش الحليفة على وشك بدء رحلة إلى الشاطئ الغربى ، وكنت أود لك أن ترى علامات المرح والانشراح على السيدات منهم ، وكأنهن مقبلات على غزو كبير مضمون ، وخيل إلى لفرط نضارتهن أن عشر ساعات على الأقل قد مضت منذ استيقاظهن الذى لم يكن مضى عليه سوى ساعة أو أقل . ووقفت بجانبهن أربع سيدات مصريات قضين الوقت فى تثاؤب وتثاقل وكأنهن مقدمات على واجب غير مرغوب فيه ، مع أن الأجداد جدودنا والآباء آباؤنا ، وكنت تسمع الانجليزيات يترنمن بأغنيات رقيقة ، عجيب كيف طاوعتهن حناجرهن على إخراجها فى هذه الساعة المبكرة ، ورنت ضحكاتهن ونغماتهن فى أذنى وأنا أبتعد من الفندق فى عربة تربع الكسل على راكبها وسائقها وخيلها ، واختلطت فى ذهنى ذكريات الرحلة الممتعة الحلوة ، ولم يخطر على بالى سوى بضع كلمات من أنشودة الكرنك التى يغنيها عبد الوهاب

أنا هيمان ويا طول هيامى صور الماضى ورائى وأمامى

دكتور مصطفى الديواني

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

الدمع

بحث رجل عن شيء أشاعه الناس في جميع بقاع الأرض التي توجد فيها أشعة الشمس ونور القمر وأضواء النجوم ، وجاهد في البحث عنه تحت جذور الحشائش ، وفي الترع الناضبة من الماء ، وفي تراب الشوارع ، وفي كل جزء من الهواء الذي يأتيه ، ولكن لم يجده في كل هذه ، فتنفس تنفساً أشد عمقاً وأكثر حزناً من تنفس النائمة الكئيبة ، وقال : « أين الشيء الذي أريده ؟ أين الشيء الذي أريده ؟ » .

وجاء « الرجل المتفائل » وسأله قائلا : « لماذا تبحث تحت جذور الحشائش ؟ هل ضاع منك اللؤلؤ ؟ ولماذا تبحث في الترع ؟ هل ضاع منك الزئبق ؟ ولماذا تبحث في التراب ؟ هل ضاع منك الدم ؟ ولماذا تبحث في الهواء ؟ هل ضاعت منك الرائحة الطيبة ؟ » .

فهز الرجل رأسه وزفر قائلا : « كلا ، لم تضع مني هذه الأشياء . »

فرد عليه المتفائل : « أنت أحمق إذاً ، فإن الإنسان لا يبحث مع التعب والجهد إلا عن هذه الأشياء القيمة ، وأرى أنه يجب عليك أن تستريح ولا تتعب نفسك وتهلكها لأجل شيء لا قيمة له . » قال المتفائل هذه الكلمات ، وقد ملأت الابتسامة وجهه ، وارتفع لحم خديه وتجعد الجلد الذي حول عينيه تجعداً عميقاً ، كما هي صفته التي تعودها كلما تكلم مع الناس .

وأجابه الرجل قائلاً : « إن الشيء الذي أبحث عنه أهم من الأشياء التي ذكرتها ، وإني قد بحثت عنه كل يوم وفي كل مكان فلم أجده ! إني أبحث عن الدمع . »

ولما سمع المتفائل كلام الرجل فتح فمه — كأنه الكهف العميق ورفع رأسه إلى السماء يقهقه بلا انقطاع ، وقال بعد حين : « الدمع وهل للدمع أتعبت نفسك وجاهدت في البحث عنه ؟ إني لا أدمع مبناي دمعة واحدة ، ولا أعرف أين منبع الدمع من جسم الإنسان ، وإنما رأيت بعض الحمقى تنزل الدموع من عيونهم ، وسأخبرك عن الأمكنة التي تنزل دموعهم فيها :

« اذهب إلى المحطات والمرافئ تجد هناك رجالاً ونساء كأن قلوبهم قد ربط بعضها ببعض ، لا يضيعون لحظة من الزمن ، وإنما يتحادثون فيها ولو بتكلف ، وإذا لم يتمكنوا من الكلام غابوا في أحلام ، كأن البرهة تساوي زمناً طويلاً لا نهاية له ، وتجد هناك أيضاً الأيدي بالأيدي ، والأذرع بالأكتاف ، والأفواه بالأفواه ، كأنها مشدودة ملتصقة ولا تنفك بعد ، فإذا اتفق أن صفرت ما سورة البخار انقطعت المحادثات ، واستيقظ الحالمون ، وانفكت الأيدي والأذرع المشدودة ، فسالت الدموع من عيونهم سيلان الماء من الينابيع ، وإني أرى أن هذه المناظر حقيرة مضحكة ، ولكن إذا ذهبت إلى هناك وجدت الدمع بدون تعب ولا مشقة . »

وأجاب الرجل قائلا : « لا أريد هذه الدموع لأنها دموع الحب والغرام ، وأنها كثيرة جداً يسهل علي أن أجدها ، وإذا كنت أريدها لذهبت إلى المحطات والمرافئ منذ زمن . »

وقال الرجل المتفائل : « لا تريد هذه الدموع ، إذاً فاذهب إلى حجور الأمهات أو إلى المهاد تجد فيها أطفالاً راقدين تعجبك وجوههم الحمراء الجميلة ، وشعورهم الصفراء الذهبية ، وعيونهم السوداء النيرة . وتدعوك إلى رحمتهم والعطف عليهم ، وتراهم يبكون فجأة بكاء شديداً ، ثم يوقفونه بدون تكلف ، ولا تكون دموعهم أكثر من الرجال والنساء المذكورين ، ولكنني أظن أنها تكفيك وتقنع أملك ، فاذهب إلى هناك . »

وأجاب الرجل قائلاً : « لا أريد هذه الدموع أيضاً ، لأنها دموع الطفولة ، وأنها موجودة في كل بيت يسهل علي

أن أجدها ، وإذا كنت أريدها ذهبت إلى حجور الأمهات أو إلى المهاد باحثاً فيها . »

وقال المتفائل : « إذا أنت لم ترد هذه الدموع فاذهب إلى الملاهي ودور التمثيل تر على مسارحها رجالاً ونساء يمثلون أحياناً روايات محزنة خيالية ، ويقومون فيها بأدوار مضحكة ومناظر محتقرة . كموت زوج المرأة ، أو مصرع قائد الجيش المدافع عن بلاده ، أو حب الفتى والفتاة وتعذر اجتماعهما . أو غير ذلك ، وإذا مثلوا في الرواية ووصلوا إلى أشد الأمور حزناً وألمها بكوا بكاء شديداً ، ونزلت الدموع من عيونهم ، ولا يهمنا أن الرواية حقيقية أو كاذبة ، فعلى كل حال هم يبكون ، وستجد على عيونهم الدموع ، فاذهب إلى الملاهي وابحث عن الدموع في مسارحها . »

وأجاب الرجل قائلاً : « لا أريد هذه الدموع كذلك لأنها دموع خيالية كاذبة ، ووجودها غير معتبر في العالم ، فماذا أذهب إلى الملاهي وأبحث عنها ؟ »

ولم يستطع الرجل المتفائل أن يزيد عن تلك الدموع المذكورة ، فنظر إلى الرجل فاتحاً عينيه ، وبعد برهة سأله قائلاً : « إذاً أي دمع تريد ؟ لأني أعتقد أنه لا توجد في العالم إلا الدموع التي ذكرتها ، فهل تعلم دمعاً غيرها ؟ »

وأجاب الرجل قائلاً : « نعم ، علمت أن في العالم دمعاً غير تلك الدموع ، وأنا لا أبحث إلا عنه ، وأصرح لك بأنه دمع العطف والرحمة لا غير . »

فعجب المتفائل من كلام الرجل ، وحدق بعينيه في وجهه ، وهز رأسه هزة خفيفة ، وقال : « لعل هذا الدمع ليس موجوداً في العالم ، دمع العطف والرحمة ، لم أكن أسمع هذا الاسم الغريب ، ولم أعرف من الذى ينزل من عينيه هذا الدمع ولأى سبب ينزل ، فإذا علمته فهل لك أن تخبرني عنه بالتفصيل ؟ »

فقال الرجل : « نعم ، سأخبرك عنه بكل رضى وسرور . إن دمع العطف والرحمة لا يسيل لشخص أو لشخصين فحسب ، بل للناس الكثيرين ، وإن صاحب هذا الدمع ينزل من عينيه إذا رأى المأساة وتأثر قلبه بها تأثراً شديداً ، وليس كدموع الأطفال لأنها طبيعية بغير تأثر ، وإن هذا الدمع يسيل للإخلاص والصدق ، ولا يوجد فيه شيء من الخيال والكذب ، وأما أى شخص يسيل منه هذا الدمع فإنى لا أعرفه ، وقد بحثت عنه في كل مكان ، ودققت النظر في عيون الناس ، فلم أجد قطرة من هذا الدمع ، ومن يدرى أنه ليس موجوداً ؟ وربما سقط وضاع من عيون الناس في مكان ، وكل شيء إذا ضاع يمكن أن يوجد بالبحث عنه ، وسأبحث عنه ، لعلى أجده وأرده إلى أصحابه ، وما عثرت على الذين يسيل من عيونهم هذا الدمع ، ولكن عسى أن أجدهم خلال بحثى عنه . »

ولم يصدق المتفائل كلامه ، وهز رأسه هزات ثم قال : « إنى لا أفهم كلامك ، وإنما إذا كان هناك شخص يسيل من عينيه هذا الدمع فإنه أكثر حمقاً وأشد سفهاً من الأشخاص الذين ذكرتهم لك ، فإن الإنسان أذكى وأعز من كل شيء ، ويستحيل أن يبلغ هذا المبلغ من الحمق والسفه ، فلا أستطيع أن أصدق كلامك . »

ونظر الرجل إلى المتفائل نظرة عطف وإشفاق ، ثم تنهد وقال بصوت رقيق : « وأنت أيضاً من الذين أضاعوا هذا الدمع ! فيجب عليك أن تبحث عنه معى ، وإذا وجدته استرددت الشيء الذى أضعته ، فهل لك أن ترافقنى ؟ »

ولم يرض المتفائل عن كلامه بالطبع وقال : « كيف ضاع مني هذا الدمع ؟ إن عينى لم تدمع دمعة واحدة ، ولا أحب أن يسيل الدمع منى ، ولا أرضى أن أعمل معك عملاً ليس فيه فائدة ، لذلك سأذهب إلى حفلة الغناء والرقص ،

أغني فيها غناء السرور، وأرقص رقصاً جميلاً .»

ولما رأى الرجل أن التماثيل لا يرضى أن يبحث معه من الدمع فارقه واستمر في عمله، ووقف التماثيل عند ذهاب الرجل يضحك ضحكاً عميقاً من حمقه وسفهه، ثم ذهب إلى مكان السرور، وشغل فيه باللهو والغناء.

ولم يجد الرجل الدمع في تلك الأمكنة، فغير رأيه، وذهب إلى مكان مزدحم بالناس باحثاً بينهم عن الدمع، فوقف بجانب شارع. ورأى السيارات تسير فيه أسرع من الريح، تأتيه فجأة وتروح لا يكاد يشعر بها، ورأى الماشين في الشارع يضطربون اضطراباً شديداً، وينظرون أمامهم وينظرون خلفهم خائفين من السيارات أن تقتلهم وتمزق أجسامهم إرباً، ووجد البغال تجر العربات الكبيرة المحملة بالفحم هزيلة الأجسام كأن اللحم لا يوجد فيها، والعرق المتصبب منها يبلل شعورها السوداء، وكلما خطت خطوة كادت تقع على الأرض وأخذت تجر قوائمها وتجدد قوتها في كل خطوة وتذهب بذهابها إلى الأمام تغمض بعض إغماض، وأما سواقوها فقد ملأ غبار الفحم وجوههم، وجعلها سوداء قاتمة، وكأن عيونهم مغمضة، وأصبحت شفاههم حمراء مخيفة، ورأى الرجل من ناحية أخرى رجالاً يجرون «العربات اليابانية»[1] التي يركبها الناس، يعدون كالخيل، ويمسكون بأيديهم أذرع العربات، يطوون أرجلهم في العدو حتى تكاد تصل إلى أدبارهم، ويرفعون أعضادهم كما ترفع الطيور أجنحتها. وإذا اتفق أن هاجت الريح التراب وألقته في وجوههم، فيدخل أنوفهم وأفواههم، يتنفسون بأصوات عالية خشنة كأنها البخار يخرج من أنابيبه، وتنزل العرق من وجوههم ولا تسمح الظروف لهم أن يمسحوه منهم، وإنما يسيل بنفسه إلى الأرض ويتلاشى في الرمل والتراب.

فقال الرجل في نفسه: «لعله هنا يوجد دمع العطف والرحمة.» ولكن لما بحث عنه بحثاً دقيقاً لم يجد قطرة منه، ونظر إلى سائقي السيارات والماشين والبغال وسائقي عربات الفحم وجارى العربات اليابانية والجالسين عليها كأنهم لم تسل منهم الدموع مطلقاً ولن تسيل منهم أبداً، فغادر ذلك الشارع خائب الأمل.

وذهب إلى دار الاحتفالات الكبرى، فوجد فيها الناس مزدحمين، أخذوا يعدون حفلة فخمة لاستقبال رجل عظيم، وسمعهم يتكلمون عن تاريخ هذا الرجل: «كان هذا الرجل العظيم يخوض غمار الحرب مرات كثيرة، وهزمت بخططه جيوش العدو التي كان عددها لا يحصى ولا يعد، وكانت كل جثة تستلقي على ظهرها أو تحبو على بطنها فوق الأراضي الواسعة الخضراء، وفي ترع الأوحال العميقة مصابة برصاصه وقنابله، وخربت الحقول، وهدمت الحدائق، وسكتت أصوات التلاميذ في المدارس، ووقفت حركات الآلات في المصانع بمدافعه وطائراته، وأصبحت الأيدي مقطوعة، والأرجل مكسورة، وفقدت النساء أزواجهن، والأمهات أبناءهن بقضائه وقدره، وهو يمر الآن بهذا البلد بعد انتصاره في الحرب.»

فقال الرجل: «لعل هنا يوجد دمع العطف والرحمة» ولكنه لما جاء الرجل العظيم ظهر على وجوه الناس كبير الاحترام وشديد الفرح، فقفزوا ورقصوا كأنهم جماعة من الضفادع، وظلت أصوات هتافهم كالأمواج تصخب، ورموا قلانسهم إلى السماء تتراقص في الهواء، وفي هذه الضوضاء وذلك الجنون دخل الرجل العظيم، وتبعه الناس، وافتتح الاحتفال! ورأى الرجل أنه لا يوجد في وجوه هؤلاء الناس إلا ابتسامة وسرور كأن عيونهم لم تسل منها الدموع مطلقاً، ولن تسيل منها أبداً! فغادر تلك الدار صفر اليدين.

(١) هي عربات يجرها الآدميون، يسميها الصينيون العربات اليابانية، لأن أحد أبناء اليابان اخترعها.

وذهب الرجل إلى مصنع كبير ، فوجد رجالا ونساء كثيرين يعملون فيه ، وقد أصمت أصوات الآلات آذانهم ، وسدت روائحها أنوفهم ، وما أكبر العجلات التي لا يستطيع الإنسان أن يحركها إلا بقوة كبيرة ! ورأى الرجل أن علامات الموت تدب على وجوههم من شحوب وامتقاع ويحنى بعضهم ظهره بجانب الآلات يأكل الطعام الخشن الردئ ، ويقف بعض النساء يفكرن في أطفالهن الذين تركنهم في البيوت ، فربما بكوا بكاء شديداً إذا لم يجدوا أمهاتهم ، ولكن لا يمكن لهؤلاء الرجال والنساء أن يضيعوا وقتاً كبيراً ، ويلزمهم أن يأكلوا بسرعة ، وعلى النساء أن يستيقظن من أحلام التفكير في أطفالهن ، ويجب عليهم وعليهن أن يواصلوا العمل ، ولما غابت الشمس خرج هؤلاء العمال من المصنع ، ومروا بالسوق الليلية التي يطوف بها الرجال والنساء يبحثون عن السعادة والفرح ، فدخل العمال في أمواج هؤلاء السعداء المزدحمين واختلطوا بهم .

وتبع الرجل هؤلاء العمال مفكراً : « لعله يوجد هنا دمع العطف والرحمة . » ولكن هؤلاء الناس كانوا كالنهر إذا دخله ماء آخر اختلطا وسارا معاً بدون تأثر ، وكذلك اختلط الناس في السوق بالعمال الذين دخلوا بينهم ، ولم يتأثر بعضهم ببعض ، فدقق الرجل نظره في عيونهم كأنها قبور الآبار الجافة لم تسل منها الدموع مطلقاً ولن تسيل منها أبداً ! فغادر تلك السوق يائس الرجاء .

ورأى الرجل أنه لم يجد دمع العطف والرحمة في الناس أيضاً فحزن حزناً كبيراً ، فمشى في الطريق حتى وصل إلى قرية بغير قصد ، ورأى كوخاً صغيراً ، أمامه ميدان واسع وحوله بضع أشجار من الصفصاف ، تجعل أشعة الشمس أوراقها الخضراء جميلة رشيقة ، ويظهر أن عند صاحب الكوخ ضيوفاً يعد لهم وليمة ، وبدأت امرأة تذبح الدجاج ، وبجنبها قفص فيه بضع عشرة دجاجة ، فأخذت المرأة دجاجة واحدة ، وأمسكت بيدها اليسرى جناحيها وعرف رأسها ، ونزعت بيدها اليمنى شعر عنقها ، ثم أخذت سكيناً وذبحتها ، فحركت الدجاجة رجليها كأنها تريد أن تدافع عن حياتها ، ولكن لم تقدر على ذلك ، فنزل الدم من عنقها في طاسة صغيرة ، فوضعتها المرأة على الأرض بعد انتهاء نزول الدم ، وتحركت الدجاجة على الأرض حركة خفيفة ، ولم تلبث أن أصبحت كومة من الريش من غير روح ، وذبحت المرأة الدجاجة الثانية والثالثة كما ذبحت الأولى .

ولما ذبحت المرأة الدجاجة الخامسة خرج من الكوخ ولد ذو وجه أحمر ، وعينين سوداوين يتطلع بهما . وسعى إلى المرأة ، فرأى أكواماً من الريش ودجاجاً في القفص ، ووجد واحدة منها في يد المرأة منتظرها يوم الغروب ، فأسرع ليمسك بيد المرأة اليمنى ، وخرج البكاء المحزن من فمه ، وتدفقت الدموع من عينيه كتدفق الينبوع .

ولما رأى الرجل هذه الدموع لم يصدق أن عينيه تريانها حقيقة ، ولكنها جزاء تعبه الطائل الذي أتى بدون حسبانه ، ودقق النظر فيها فوجدها حقيقية تسيل من عيني الولد قطرة قطرة كأنها درر لامعة ، ففرح فرحاً شديداً كأنه وجد اللؤلؤ ، وصاح قائلاً : « لم أكن أظن أني أجدها هنا ! » وتقدم إلى الولد ، ووقف أمامه ماداً يديه تحت عينيه ، وبعد برهة ملأت دموع الولد كفيه .

فقال : « لقد وجدت الآن هذه الدموع التي أضاعها الناس ! وإن واجبي الآن أن أردها إليهم » . فراح قاصداً إلى « الرجل الفاضل » ليردها إليه أولاً ، لأنه لم يصدق أنه أضاع هذه الدموع ، وطلب منه أن يحفظها ولا يضيعها مرة ثانية ، ثم ذهب إلى كل مكان ليهدى هذه الهدية القيمة الفاخرة التي لا مثيل لها عنده إلى كل إنسان ، استعدوا أيها القراء الكرام ، لتأخذوا هديته ، فربما ذهب إليكم قريباً .

عبد الله ما — جي — كر

بين المسموع والمقروء

فى ضيافة قوم يابانى :

فى زيارة مصنع يابانى

واستطرد محدثى يقول :

لم يكن فى أوسط المدينة غير مصنعين أو ثلاثة . ذلك أنهم جعلوا المصانع فى جهات معلومة خارج المدينة ، وبذلك حموا المدينة من ازدحام المرور ، وجعلوا النقل على تلك المصانع أسهل . وبتجميعها فى صعيد واحد تيسرت لها موارد الكهرباء والقوة ، وكانت قليلة الثمن ، وكذلك تيسرت الإدارة .

وأكثر المصانع الصغير الذى لا يضم من العمال إلا العدد القليل . وباليابان خمسون ألف مصنع ، ولكن أكثر من نصفها يشتغل بخمسة عمال أو تسعة . وليس منها غير خمسة فى المائة تضم أكثر من مائة عامل .

والمصانع الصغيرة تختص بإنتاج البضائع للاستهلاك المحلى . وهى بضائع قديمة الطلب ، طلبتها الجماهير اليابانية الكثيرة من مئات السنين على الصورة القديمة نفسها ، أو على صورة تقرب أن تكون كذلك . وقد أجروا إحصاء منذ سنوات فى أعمار هذه المصانع فوجدوا أن ٢٥٠٠ مصنع من تلك المصانع عاشت أكثر من سبعين سنة . وهو عمر طويل إذا اعتبرنا عمر اليابان وهى حديثة .

ويبدو قدم هذه المصانع ، وتبدو عتاقتها من زيارتها . فهذا مصنع علكه رجل واحد ، هو مالكه وهو مديره ، يساعده عاملان أو ثلاثة ، ثم نحوهما من الصبية ليتعلموا الصنعة . والمصنع يجرى على نفس الأسلوب الذى جرى عليه منذ عهد الإقطاع . فالعمال يناموِن فى المصنع ، ومن أجل هذا لا يأجرهم صاحب المصنع أجرا كبيرا . وهو مصنع لا يضم من الأجراء غير خمسة أو ستة ، لهذا لا ينطبق عليه قانون العمال والأعمال ، فهذا القانون إنما جعل للمصانع التى تضم أكثر من عشرة .

وإذا نظرنا إلى هذه المصانع الصغيرة وجدنا الأجور فيها واطئة ، واطئة بالنسبة لما تعودناه نحن أهل الغرب ؛ فالعاملة التى تصنع الكبريت تعطى ٦٥ مليما فى اليوم . والأوسطى الذى يقوم على الخرطة يعطى خمسين قرشاً . ومعيشة العمال فى هذه المصانع سيئة ، ومرافقهم الصحية غير مرضية . وطعامهم ليس فى استطاعته أن يهبط عن طعام الرجل العادى . وكيف يستطيع أن يهبط عنه وهو إنما يتألف دائما أبدا من أرز وسمك مملوح أو غير مملوح ، ومخلل . وهذه أرخص الأشياء فى اليابان . ومن نعم الله أنه لبساطتها لا يدخلها الغش أبدا .

ومع هذا ، وعلى الرغم من قلة الأجور ، فهذه المصانع الصغيرة نعمة على العمال لا شك فيها . وأحوال العيش السائدة فى المصنع لا شك خير من حال تسود منازل العمال . إن العامل تعوّد طول حياته الفقر ، فهو إذ يخرج إلى المصنع يجد فيه شيئاً من الغنى ، وشيئاً من الفرج ، ويستطيع مما يكسب أن يشترى بعض ملاذ الحياة ويتذوقها . ولا تألو الحكومة اليابانية جهدا فى تحسين الأحوال ، ورجال الشرطة يرقبون عن قرب مرافق الصحة بالمصانع ، ويحملون أصحابها فى شئ من الضغط على النظافة . ونحن الغربيين مهما قلنا فى هذه المصانع اليابانية وانتقدناها بنسبتها إلى ما فى أمثالها عندنا من صحة ونظافة ونعمة ، فهى مصانع خير ألف مرة من مصانع رأيتها فى الصين وأخرى رأيتها فى الهند .

وعدا هذا ، فلن ننسى أن قلة الأجور فى اليابان يصحبها قلة فى الأسعار . ولقد استطعت أن أشترى فى اليابان أشياء ، فى مثل جودة ما نشتريه فى بلادنا الغربية ، ودفعت ثلث الثمن . وبهذا الاعتبار يظهر أن العامل اليابانى ليس من السوء بما تدل عليه ظاهرا قلة أجره .

على أن فى اليابان مصانع أخرى كبيرة ، تلك التى تُصنع فيها الأشياء للاصدار . فهذه مصانع تضارع مصانع الغرب ضخامة ، وحسن إدارة ، وطيب رعاية لعمالها . فالأجور فيها حسنة ، وساعات العمل قصيرة ، والمرافق جيدة . وللعمال فراغ ينفق فى الدرس أحيانا ، تُدرّس فيه العلوم وتُدرّس الفنون ، وأحيانا ينفق فى الرياضة على ساحات خصيصة بها ، وأحيانا فى السباحة فى أحواض لها . إنها مصانع كبيرة ثرية فى مقدورها أن تنفق أكثر كثيرا مما ينفقه مصنع صغير كالمصنع الذى قصدنا إلى المدينة نبغى زيارته .

* * *

كان هذا المصنع كما قدمت مصنعا لأخ مضيق ، الفلاح اليابانى ، تاناكا . وكان اسم الأخ يوسوكى . وبلغنا منزل يوسوكى ، فتلقانا بالتأهيل والترحيب . وقدم لنا فناجين صغيرة من الشاى ، تحية القدوم ، قدمها إلينا فى احتفال كبير . وكان يوسوكى يتحرق ليرينا مصنعه ، واستيقظ فيه مُعجّب الصانع الناجح ، ولكنه ظل عاطلنا بحجة أن المصنع صغير حقير لا يستأهل منا أن نوسخ أطراف ملابسنا بالسير فى حجراته القذرة . ولكنا ألححنا فى طلب رؤيته ، وذكرنا أننا إنما جئنا خصيصا لزيارته ، وأن فى ردنا عنه خيبة عظمى ، وبعد لأى رضى .

وكنا فى القاعة السفلى ، وهى قاعة للاستقبال ، وقاعة للعرض أيضا فى يوم البيع رائج . وصعد بنا يوسوكى غرفة عليا ، وجدنا بها نماذج من أنتجة المصنع مرصوصة مصفوفة نضيدة . وتبينا بها نوعين : نوعا صارخ اللون زائفا رخيصا ، فهذا ما يُبعث به إلى خارج البلاد على أنه الشئ الأصيل من اللاكيه ، وما هو به . ونوعا آخر جيد الصنع بارعا ، ولكنه ذو كلفة ، فهذا يُستنفَد على الأكثر فى البلاد فلا يخرج منها . وسألَنا صاحبُ المصنع أن نختار لأنفسنا هدايا مما نرى . فأحرجنا بسؤاله . ومددنا أيدينا إلى أرخص الأشياء . فنزع من أيدينا ما اخترناه فى شئ من الشدة ، وأبدلنا به أشياء من جيد المصنوع وأغلاه . ولكنا خشينا الإجحاف به فسلكنا معه مسلكا وسطا ، فأخذنا شيئا من الرخيص وشيئا من الغالى . وأردنا دخول المصنع ، فحذرنا فى شئ من الاخلاص من خيبة تلحق آمالنا مما سنطلع عليه فى المصنع من وضاعة حال . وذكرنا بأن اليوم يوم عطلة ، ولكن بالمصنع بعض العمال يعملون . واطمأنت أننا نحقق أملى فى رؤية تلك الصناعة اليابانية البارعة التى بهرت أوربا وبهرت أمريكا ، زمانا ، أعنى صناعة اللاكيه .

وخرجنا إلى ساحة صغيرة فى ظاهر الدار ، فوجدناها مليئة بالخشب من كل حجم ، وكل شكل . ووجدنا بالساحة خزانة من الخشب مسقوفة ، بها منشار مكنى دوار . ولم يكن يدور فى ذلك اليوم . وكان دورانه بالكهرباء . فقلت لصاحبى : ألا يخشى الحوادث من هذا المنشار المكنى فى تلك الحظيرة الضيقة . فقال : إنها خاطرة لم تخطر بباله ، وإنه لم يقع من تلك المكنة فى حظيرتها الضيقة سوء قط . فذكرته بما صدر فى البلاد من قوانين تحمى العمال من أمثال هذه المكنات المكشوفة ، فقال إنها قوانين لا تعنيه ، لأنه لا يستخدم من العمال غير ستة . وهو بهذا جد سعيد ، فلا تقلقه طلبات السلطة ولا زيارة المفتشين ولا ينغص عليه تنكيدهم وتدخلهم فى أمره بالحق وبالباطل .

ودخلنا غرفة النجارة ، فكانت ضيقة أيضا . وفيها ينشر الخشب وفيها يدوّر . وكانت حجرة مظلمة ، تثقل فيها رائحة الغراء . ولكن راعنى منها ترتيبها ونظافتها . فكل عدة فى مكانها من الحائط ، والأرض ليس عليها من نشارة الخشب قطعة واحدة .

وأخيراً بلغنا الحجرة التى هى بيت القصيد ، حجرة اللاكيه . وهى حجرة كبيرة ، سدت فيها النافذ جميعا إلا بابا واحداً ، فهذا أغلق أيضا . والفرجات التى قامت فى النوافذ والأبواب المسدودة ، ألصقوا عليها أشرطة عليها الصمغ لسدها ، وذلك حتى لا يتسرب إلى الحجرة شئ حتى الغبار فهو إذا دخل أفسد الطلاء ، اللاكيه ، أى إفساد . ودخلنا

ذكرى الميلاد النبوى

عادت الذكرى لنا فاحتفلى
واعرضى الماضى على المستقبل
وأعيدى باسم طه موسما
للتهانى ، حافلا بالجحفل
واسألى التاريخ عن معجزه
فهو عنوان كتاب الأزل
هبت الصحراء من رقدتها
وتهادت للصراط الأمثل
ولدت للخلد ناموس الهدى
وهى غير التى لما تحمل
مولد البهجة ما أقدسه
إنه تاريخ وحى الدول

* * *

سائل البطحاء ماذا راعها
وهى فى غفلتها المنعزل
واسأل الأصنام من عليائها
من رماها للحضيض الأسفل
وادخل البيت فى جانبه
أمة مجموعة فى رجل
شيبة الحمد ، وما أعظمه
قائداً حاز وسام البطل
كم له دون العلا من موقف
سار فى الدهر مسير المثل
وانظرى الوفاد تسعى حوله
وتحيى مجده بالقبل
واسمعى الشاعر يشدو راوياً
قصة عن نغمات البلبل

الحجرة فكأنما صدمنا فيها صادم . ولم يكن ذلك من ثقل الرائحة ، ولكن من غيبة الهواء . وحلّ محل الهواء شيء خُيّل لنا أننا نراه رأى العين .

وتحدثت إلى صبيّ يقوم بالطلاء . فقال لى : إنه يحب عمله ، وليس يدرى لماذا يحبه ، وقد قضى فى المصنع سنتين ، وهو لا يأخذ أجراً على عمله ، ولكن صاحب المصنع يطعمه ويكسوه ويسكنه فى المصنع وأحياناً يعطيه نفقة جيب . ولا يحس بفقدان الهواء أو ثقل الجوّ إلا عند خروجه من البيت — من المصنع — إلى جوّ الدنيا . وأنس إلى حديثى فاستطرد يقول : إنه بدأ فى هذا المصنع بحمل الرسائل ، ويؤدى البضائع . وكان فى أثناء ذلك يدخل المصنع يجرّب يده فى الطلاء . وكانت تمرع نفسه فى تلك الحجرة . وظلّ أشهراً يحس باقتراب الزّ فيها . ولكنه اعتاد كل ذلك بالزمن ، وأصبح اليوم لا يلحظ كثافة الجوّ إذا دخل فيه .

وسألته : وما الذى حدا بك إلى اختيار هذه الصنعة بعد أن فارقت المدرسة ؟ ولم لم تقع على صناعة أكثر حركة وأنشط وأجدر بالشباب ؟

ففكر طويلا ، ثم اعترف لى بأنه حقا لا يدرى لم فعل هذا . إنه جاء هنا لأنه وجد مكاناً له هنا . وهو لم يحب هذا العمل لما بدأه ، ولكنه تعوّده بعد ذلك . وهو الآن قد عرف الكفاية منه فصار يتقنه ما الجودة وتلذّ له الاجادة ، ويرهوه الصنف الذى يخرجه كيفا وكمًّا . فلمّحت إلى أنها صناعة قد لا تعود على رئيته بالصحة التامّة . فهز كتفيه ، وقال : « شيكاًا جا ذى » ، وهى الكلمة العالية المعروفة ، وترجمتها : « ما باليد حيلة » . لم يكن الصبى مسدّدا بالذى هو فيه فحسب ، بل كان كأنه يعتقد أن هذا قضاء لا بد منه ، وهو واقع على كل حال ، أى صنعة اتخذ ، وفى أى مجرى من مجارى العيش سار .

أحمد زكى

يلفظ المعنى عما ينشده
والمعانى معجزات الجمل
ينشر النعمة فى بسمته
هل تذوقت الرنا بالغزل ؟
تحمل الحقل من الحانه
وانتشى من شعره المرتجل
انظروه ثورة هادئة
وأماناً باعثاً للوجل
يبعث الأفراح فى أنغامه
هاتفاً باسم الوليد المقبل
فنشت فى الحقل من ذكر اسمه
هزة أرت جلال المحفل
لست أدرى هل وعى باطنه
أن هذا اسم النبى المرسل

•••

ترك الأمة فى عاداتها
وانزوى فى ركنه المعتزل
يرمق الأجواء فى منظاره
خارقاً حجب الظلام السدل
ما هى الأصنام ما تأثيرها
فى نظام العالم المكتمل ؟!
لم يسرى الفكر فى منحرف
من طريق الواقع المعتدل ؟
هذه العادات أمضى فتكة
بالورى من فتكات الأجل

•••

نزل الوحى عليه فانبرى
يمحق اليأس بنور الأمل
يحمل الشمل بالحق وقد
خص بسراء لحمل المعول
فى سبيل الحق كم من مشكل
حله صبراً وكم من معضل
جاهد الأغراض حتى انهزمت
تمتغ العار بذيل الفشل
فإذا الشرق يصيح نسيج
بعد ما بات بليل أليل

(النجف) . محمد جمال الهاشمى

مما لم ينشر من شعر حافظ ابراهيم :

الى سعادة الدكتور على باشا ابراهيم

هل رأيتم موفقاً كعلي
فى الأطباء يستحق الثناء
أودع الله صدره حكمة العلم
وأجرى على يديه الشفاء
كم نفوس قد سلها من يد المو
ت بلطف منه وكم سل داء
فأرانا لقمان فى مصر حيا
وتحيانا لكل داء دواء
حفظ الله مبضعاً فى يديه
قد أمات الأسى وأحيا الرجاء

•••

أعلى ابراهيم دامت لك اليد
تشفى الجروح وبرؤها لك يشهد
من ذا الذى فى حسن طبك يمترى
من بعد رأيك لا يكون تردد
ولئن مضت روح على جسم ذوى
أصلحت بينهما وأنت السيد
علم وأعمال وأخلاق رضى
أحسنت فى كل فأنت المفرد

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٧٤ الثلاثاء ٢٤ من ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ٢٦ من فبراير سنة ١٩٤٦ السنة الثامنة

فهرس العدد

الموقف السياسى الداخلى

حوادث الطلبة — تغير الوزارة — يوم الإضراب العام للعمل

احتكاك الإنجليز بالجمهور ووقوع حوادث بوسف لها

جرت الأمور منذ ٩ فبراير الحالى بسرعة غير متوقعة وتتابعت منذ ذلك اليوم الحوادث ، وقد يكون من المفيد أن نعرض الموقف عرضاً سريعاً ونعلق على كل جانب منه بما نراه .

عاد طلبة الجامعة عقب عطلة نصف السنة الدراسية ، وكان المعروف أنهم سيجتمعون فى كلياتهم ليدرسوا الموقف السياسى للبلاد بعد نشر المذكرات التى تبادلتها الحكومتان المصرية والإنجليزية بشأن المفاوضات ، وليقرروا ما يرونه معبراً عن رأيهم وشعورهم . وكان المفهوم أنهم سيسلكون فى إعلان قرارتهم وإظهار شعورهم نفس المسلك الذى اتبعوه فى اجتماعاتهم عند افتتاح الدراسة ، فيكتفون بإبلاغ قرارتهم الجهات المختصة وينشرونها فى الصحف ويستأنفون دراستهم فى هدوء وسكينة . ولكن بعض خطباء

دعوهم للقيام بمظاهرة جامعة تسير إلى القصر هاتفة بما يعبر عن شعورهم وآرائهم ، واستجابت الكثرة لهذه الدعوة وخرجت جموعهم فى مظاهرة كبيرة من الجيزة قاصدة قصر عابدين .

كان البوليس متهيئاً لهذه الحركة ولديه أوامر بمنع المظاهرات ، ويبدو أن الحكومة كان يحملها على التشدد فى منع المظاهرات أمران الأول : أن القانون صريح فى منع التظاهر ، والثانى أنها كانت تخشى أن تندس فى صفوف الطلبة عناصر من الدهماء ، قد تحول المظاهرة البريئة إلى غير مجراها ، فيفلت عنان الأمن من يدها وتتكرر حوادث الاعتداء والتخريب والسرقة ، كما حدث فى مظاهرات نوفمبر الماضى ، ولكن البوليس لم يتوخ الحكمة فى تفريق المظاهرة بل لجأ إلى ...

معهم أشد قسوة ، فحدثت إصابات كثيرة بين الطلبة وذهبت بعض الأرواح ضحية هذه الاجراءات البوليسية الشديدة .

ثارت الأعصاب عقب هذه الحوادث وعم الاستياء من مسلك رجال البوليس واشتدت حملات الصحف على الحكومة . واشترك النواب في الحملة بتقديم الاستجوابات للحكومة والتنديد في البرلمان بمسلكها ، وانتهزت المعارضة الفرصة لإثارة الرأي العام وتهييجه ، وانتقلت عدوى الحوادث من القاهرة إلى الأقاليم ، فحدثت في الاسكندرية والمنصورة وغيرهما حوادث عنيفة ذهبت فيها بعض الأرواح ، وانضم وزراء حزب من الأحزاب المشتركة في الحكم إلى جانب الساخطين واستقالوا احتجاجاً على ما اتبع مع الطلبة من قسوة .

وبدا أمام ذلك كله ألا مندوحة من استقالة الوزارة فاستقالت ، وعهد جلالة الملك إلى حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقي باشا — وهو من النواب المستقلين — بتشكيل الوزارة ، فشكلها من رجال مستقلين معروفين بالكفاية والاستقامة بعيدين عن الصبغة الحزبية ، وأشرك معهم أعضاء يمثلون حزباً قوياً من أحزاب البرلمان هو أقرب الأحزاب إلى التسامح وأدناهم إلى التفاهم مع الجميع ، وأعلنت الوزارة برنامجاً قومياً رضي عنه الجميع ففازت بثقة البرلمان وإن كان الحزب الغالب فيه قد تحفظ فأرجأ ثقته حتى يتبين أعمالها .

هدأت الأحوال بعد هذا التغير وتوقع الجميع أن تعود الأمور لمجراها الطبيعي وأن يستأنف الطلبة دراستهم ويدعوا لرجال الأمة معالجة الأمور بالحكمة وتضميد الجراحات بالرفق ، ولكن الطلبة رأوا أن يقوموا بمظاهرتهم التي حال البوليس يوم ٩ فبراير دون إتمامها ، فقاموا بها في حراسة البوليس ومرت بسلام من غير أن يقع فيها ما يكدر ، وبدا أن الوزارة نجحت في مماشاة شعور الطلبة وحافظت في الوقت نفسه على الأمن ، فارتاحت لذلك النفوس .

ولكن بعض الصحف نشرت أن لجنة من الطلبة والعمال قد قررت أن يكون يوم الخميس ٢١ فبراير يوم إضراب عام للجلاء ، فأوجست بعض النفوس شراً من ذلك وأحس كثير من العقلاء أن الأمر لن يقف عند حد ، ومع هذا فإن الجميع رجوا أن يمر اليوم بسلام وأن تعالج الحكومة الأمر بحكمة وأن توفق لخطوات حازمة رفيقة تضع حداً لهذه الأحوال التي تخشى مغبتها . وأصبحنا صباح ذلك اليوم ويسود القاهرة إضراب شامل وقفت فيه المواصلات وأغلقت المخازن والحوانيت وظهرت فيه جموع الطلبة والعمال تسير في مواكبها وتهتف بمختلف الهتافات المعبرة عن شعورها ، ومر رئيس الوزراء في الطرق يتفقد الأحوال ، واستعدت قوات البوليس والجيش للطوارئ ، دون أن تتعرض للمتظاهرين ، وكانت الدلائل تدل على أن اليوم سيمر بسلام لولا أن حدثت حوادث عكرت صفو الأمور لا ندري حقيقتها ، ولكن الرواة يقولون إن سيارتين كبيرتين من سيارات الجيش الإنجليزي اخترقت بسرعة موكب المتظاهرين فسببت إصابات وقتل من المتظاهرين قتيل ، وكان هذا الحادث هو الشرارة التي ألهبت أعصاب المتظاهرين وكانهم في ذلك الحين من غير الطلبة فحرقوا سيارتين ، وقيل إن رصاصاً أطلق عليهم من بعض المساكن فهجمت الغوغاء على تلك المساكن وامتدت الأيدي للتحريق والتخريب والاعتداء ، حتى تدخلت قوات الأمن وفرقت الجموع وأعادت السكينة والهدوء .

هذا هو العرض السريع للأحوال ومنه يتبين :

أولا — أن الطلبة هم أول من بدأ الحركة وأنهم لو لم يلجئوا إلى التظاهر ويخضعوا لتحريض المهيجين واكتفوا بإعلان شعورهم بالطريق الحكيم الذي سبق أن اتبعوه لما وقعت هذه الحوادث ولما خسرت البلاد هذه الضحايا .

ثانيا — أن البوليس لو سلك طريق الرفق وترك الطلبة يتقدمون رغبتهم ووجه اهتمامه لإبعاد العناصر الخطرة الشاغبة من الدهماء عن الاختلاط بمواكبهم لما حدثت هذه الحوادث .

ثالثا — أن الصحف مسئولة عن إثارة الأعصاب

(البقية على صفحة ٢٨)

حول خدمات العلم للإنسان :

أهمية العلوم البحتة

[تحدثنا هنا فى عدة مقالات عن خدمات العلم للإنسان . ومن سلسلة هذه الأحاديث قد يتبادر إلى الذهن أن العلوم التى تستأهل التقدير وتستحق العناية هى العلوم التطبيقية وحدها . وهذه فكرة غير صحيحة ، ولذا بادرنا نقل هنا المقال الذى يبين أهمية العلوم البحتة أو النظرية الصرفة التى لولاها لما كان هناك تطبيقات عملية . ونحن ننقل هنا عن بلارو صاحب مقدمة كتاب « العلم فى خدمتك » وكتاب آخر نصوله .]

حين يصغى الإنسان إلى حديث عن أحد التطبيقات العملية للعلوم ، سواء أكان حديثاً فى المفرقعات أو فى النسيج أو فى بناء السفن ، أو فى أى موضوع عملى آخر ، يسهل عليه أن يدرك أن الأشياء التى يتناولها الحديث ممتعة وذات أهمية ؛ لكن ليس من السهل عليه أن يدرك أنها لم تأت عفواً أو بالمصادفة نتيجة لفكرة نيرة لمعت فى ذهن عبقرى ، وإنما جاءت كما سنبين هنا من تطبيق كنز المعارف العظيم الذى تراكم فى الثلاثمائة سنة الأخيرة والذى يطلق عليه اسم « العلوم الطبيعية » .

والآن فلنعرف « العلوم الطبيعية » : هى دراسة المادة الجامدة التى لا حياة فيها ، من حيث استجابتها للمؤثرات وسلوكها بوجه عام ، مثل حركة السيارات ، وتصميم المحرك البخارى ، واستخراج البترول ، وتحطم الموجة على ساحل البحر ، وألوان الصباغة والتركيب الداخلى للذرة . هذه كلها داخلة ضمن « العلوم الطبيعية » .

ومثل هذه الأشياء ندرسها لسببين : فقد ندرسها لأنها شيقة فى حد ذاتها ، ولأننا نستشعر رغبة داخلية فى إدراك العلاقات التى تقوم بين أشياء تبدو متباينة إلى حد كبير ، دون أن يكون هناك أى دافع خارجى يبعثنا على هذه الدراسة . أو قد ندرسها لسبب نفعى أى بقصد تحقيق غاية عملية . فالدراسة التى من النوع الأول تدخل ضمن « العلوم البحتة » والدراسة التى من النوع الثانى تدخل ضمن « العلوم التطبيقية » فالعلوم البحتة ذات صلة فى رأيى بالرغبة الملحة التى تبدو عند الصبى الصغير فتحمله على فك ساعة والده قطعة قطعة ، فهو لا ينتظر من وراء هذه العملية أن يجعل ساعة أبيه تسير خيراً من سيرها الأول ، وإنما يروم من وراء هذه العملية أن يشبع غريزة حب الاستطلاع، ويرى بنفسه كيف تدور مختلف العجلات التى تتركب منها الساعة ويحاول أن يتفهم الكيفية التى تشتغل بها .

ومن أمثلة المباحث العلمية التى لا تصدر عن باعث عملى أو تطبيقى ، تلك التجارب التى أجراها منذ قرن مضى ، كل من أمبير وفاراداى ، لمعرفة ما إذا كانت هناك علاقة بين التيارات الكهربائية وبين المغناطيسية . أما العلوم التطبيقية من الناحية الأخرى فأساسها اهتمام الإنسان وشغفه بحل مسألة تطبيقية أو مشكلة عملية ، مثل كيفية تصميم محرك كهربائى يكون أقدر على العمل فى آلات التنظيف الحديثة التى تشتغل على أساس إحداث فراغ يمكن من شفط التراب ، أو مثل كيفية جعل ماء البحر صالحاً للشرب .

والآن نذكر أنه من البديهى أنك لا تستطيع تصميم محرك جديد إذا لم تكن تعلم الشئ الكثير من التيارات الكهربائية ومن المغنطيسات كذلك ، وأن العالم الذى قام بوضع تصميم أول محرك كهربائى ما كان ليتسنى له ذلك لو لم تكن له معرفة واسعة بتلك الأشياء ، وما كان يستطيع أى إنسان أن يقول منذ مائة وخمسين عاماً أن هناك أدنى علاقة بين المغنطيسات وبين توليد القدرة اللازمة لكنس السجاجيد أو لصنع التليفونات . بل ما كان يجرؤ على أن يقرر أن لهذه المغنطيسات أى نفع

عمل ، اللهم إلا جمع الدبابيس المبعثرة ، أو صنع وصلات السفن .

ولما بين أمبير وفراداى أن السلك الذى يحمل تياراً كهربائياً يحرك المغنطيس الذى يمر التيار بجواره وبيّنا أيضاً أن تحريك المغنطيس بجوار سلك يولد تياراً يسرى فى هذا السلك ، وجد العلماء فى هذه الاكتشافات كنزاً لا يفنى ، وعليها أقيم صرح الصناعة الكهربائية الحديثة .

فالتطور والتقدم العظيمان فى توليد القدرة الكهربائية والنور الكهربائى فى أواخر القرن الماضى والصناعات الكبيرة التى قامت وتمت حولهما قامت كلها على أساس واحد ، وهو الاكتشافات التى قام بها كل من أمبير وفراداى . نعم لو لم يكونا قد عثرا عليها لعثر عليها غيرهما من الباحثين ، لكن المهم فى الموضوع أنه بدون تلك الاكتشافات ما كان يمكن تصميم المحركات الكهربائية التى تقوم عليها الصناعات فى الوقت الحاضر . فليس المحرك الكهربائى من الأشياء التى يمكن اكتشافها بطريق الصدفة أو نتيجة لفكرة نيّرة مفاجئة تطرأ على مهندس أو عالم من الذين كانوا يعملون فى صنع وتشغيل القاطرات والمحركات البخارية . وإنما كان اختراع أو اكتشاف هذا المحرك الكهربائى نتيجة لما تم قبله من اكتشاف القوانين الأساسية الكهربائية والمغنطيسية ، ولا أظن أنه كان فى الاستطاعة اكتشاف هذه القوانين إلا عن طريق البحث العلمى الاستطلاعى الصرف الذى يحمل الإنسان على الرغبة الملحة فى تعرف الكيفية التى بها تؤدى الطبيعة عملها وتقوم بوظيفتها . وهذه الرغبة الملحة وذلك البحث الاستطلاعى أمور عامة غير محدودة .

وقد يبدو عجيباً لأول وهلة أن نشوء عملية بحتة كالصناعات الكهربائية تبنى على أسس كهذه لا يبدو فيها أمل خاص ولا يستشف الإنسان من ورائها وجهاً محدداً ، لكن الواقع أن مثل هذه العلاقة شائعة بل عامة ، فإنك إذا أردت أن تحل مشكلة عملية كان أول ما توجهه هو العثور على ما ينير لك الطريق ويدلك على كيفية البدء ومكانه . ولابد لك فى هذا من الاعتماد على أعمال عادية ، نظرية فى أغلب الأحيان ، قام بها أناس غيرك من قبل . فما كان الصمام اللاسلكى مثلا ليخترع إلا بعد أن تمت دراسة طبيعة الالكترونات ونظام حركاتها — تلك الالكترونات التى تنبعث من المعادن الساخنة إلى درجة الابيضاض فى وعاء مفرغ من الهواء . لكن لا شك فى أنه حين كان طمسن وتلاميذه يجرون تجاربهم الأساسية على هذه الأشياء منذ أربعين سنة لم تكن تجول بخاطرهم أية فكرة عن الاتجاه الذى ستطبق فيه اكتشافاتهم تلك ، وإن كانوا ربما شعروا بأن التقدم الذى أحدثوه فى « العلوم البحتة » لابد وأن يكون له فى النهاية ثمرة عملية قيمة .

وقد صادفنى مثال آخر ظريف حين كنت أتحدث إلى واحد من رجال الفلك ، كان قد بدا عليه اهتمام وشغف بدراسة الفرقعات وانصرف إليها . قلت له : « حسناً فعلت ! فإنك على أى حال قد منحت نفسك بهذا العمل إجازة من اشتغالك بالنجوم » . فأجابنى : « لست أدرى فإنى أجد أن العمل الذى قمت به فيما مضى مما يتصل بالتغيرات من النجوم يفيدنى أكبر فائدة فيما أنا بصدده الآن . فالفرقعات على أى حال لم تخرج ، عقب انبعاثها بعد الفرقعة ، عن أن تكون كتلة من غاز ساخن ، وهذه هى بعينها طبيعة كل نجم من النجوم . فالنظرية تكاد تكون واحدة بالضبط فى الحالتين » .

فحل المسائل بهذه الكيفية ، أى بتلمس العلاقات التى تربط المسألة التى نحن بصددها بغيرها من الشئون المألوفة لنا ، هو الأساس الذى يقوم عليه الكثير من الدراسة

العلمية التطبيقية . لكن مثل هذه العلاقة لن تفيدنا ما لم نكن نعرف بعض الشيء عن تلك الأمور المألوفة التي تتصل بها المسألة التي بين أيدينا . فقولك إن الفرقعة تشبه من بعض النواحي النجم لا يفيدك قليلا ما لم تكن تعرف الشيء الكثير عن النجوم .

وأرجو أن أكون قد أوردت هنا ما يكفي لبيان تبرير الاهتمام بالعلوم البحتة من الناحية العملية نفسها . فأول ما يلزم لضمان محصول من الاكتشافات النافعة والاختراعات المفيدة هو بذر البذور باستمرار للبحوث النظرية البحتة ، تلك البحوث التي وقفت إلى حد كبير في الوقت الحاضر بسبب الحرب ، بحيث إذا لم تستأنف تلك البحوث بأسرع ما يمكن لم يكن لنا أن نتوقع أقل الآثار العملية العاجلة ، ونكون قد قضينا على الينبوع الذي كان يصح أن تتفجر منه الاكتشافات العملية في العشرين سنة القادمة

ولا بد من مرور زمن قبل أن يتسنى لأي اكتشاف في العلوم البحتة أن يطبق في الحياة العملية . ولكن هذا الزمن أطول مما قد يتصوره الإنسان ، فهو يبلغ في العادة ما بين عشرين سنة وخمسين . فالاكتشافات الكهربائية الأساسية التي ذكرناها منذ قليل ظهرت فيما بين عامي ١٨٣٠، ١٨٣٥ ، لكن لم يشرع في إضاءة شوارع لندن بالمصابيح الكهربائية إلا في العقد التاسع من نفس القرن

كذلك قام كلارك مكسويل ، أول أستاذ لعلم الطبيعة في كمبردج بإتمام النظرية الكهرطيسية ، وتنبأ بالأمواج اللاسلكية عام ١٨٦٥ وقام هرتز بتوليد هذه الأمواج عام ١٨٨٨ ، لكن التلغراف اللاسلكي العملي لم يظهر إلا سنة ١٩٠٠ ، وأما التليفزيون وتحديد المواقع باللاسلكي فلم يظهر في العالم العملي إلا في أواخر العقد الرابع من القرن العشرين ، والكهرب اكتشف عام ١٨٩٦، لكن الصمام اللاسلكي لم يبلغ شأوه ولم تظهر أهميته العملية إلا في سنة ١٩١٥

وهذه الفترات الزمنية تكون عادة من الطول بحيث لا يكون هناك بوجه عام أي احتمال لجعل البحث العلمي البحت يدر من المال ما يعوض الأموال التي تنفق عليه . فالأرباح العملية إنما تأتي بعد أن تندمج وتترابط بل وتنصهر معاً جميع الأعمال التي يقوم بها رجال عديدون في سنوات عديدة ، بحيث تتكون منها صورة متناسقة منسجمة للكيفية التي يجري بها العمل ، في حين أن معظم العناصر التي تتألف منها الصورة لا يكون لكل منها بذاته أية قيمة أو فائدة معينة . فالمهندس الذي يضع تصميم سفينة ما يستخدم كثيراً من المعلومات الواردة في ديناميكا الموائع أو السوائل التي منها الماء ، وهذه المعلومات قد تراكمت بالتدريج في خلال ٢٥٠ سنة أي منذ عهد نيوتن إلى يومنا هذا ، أو بالأحرى منذ ٢٠٠٠ سنة ، أي منذ طرأت على أرخميدس وهو يستحم في كبرا كوزة تلك الفكرة النيرة الشهيرة .

وواضح أن العلماء الذين عثروا على تلك النفائس العلمية وساهموا في تكديس تلك المعلومات ما كانوا ليستطيعوا أن يكسبوا عيشهم منها مباشرة ، أو أن يجمعوا الأموال التي صرفوها على تجاربهم من طريق بيع ما وفقوا إليه من تلك المعلومات عاماً بعد عام أولا فأولا بمجرد عثورهم عليها . ومن ذلك يتبين أن البحث العلمي البحت ، وإن كان ضرورياً لتحقيق بعض الأغراض العملية ، لا يمكن أن يأتي بربح يعادل ما ينفق عليه ، أي أن العلوم البحتة ، وإن كانت خير ما يصح أن تستثمره أمة من الأمم ، تكون على الدوام فقيرة ومحتاجة لمن يعد المشتغل بها بالمعاونة المالية باستمرار .

(للحديث بقية) أحمد عبد السلام الكرداني

(٣) من الأقوال المأثورة

فى الأدب الغربى والعربى

من الأدب الفرنسى :

ليس النبوغ إلا قدرة على الصبر .

• • •

الملك العادل عبد لرعيته الحرة .

• • •

قال نابليون وهو يجهز حملته على مصر : « لا تصنع الأعمال العظيمة إلا فى الشرق » .

• • •

لا ينال النصر بالأيدى بل بالأقدام .

• • •

ملعقة من عسل تصيد من الذباب مالا يصيده عشرون دناً من خل .

• • •

شرط السعادة معدة صحيحة وقلب مريض .

• • •

من أجل أن تنجح أمة فى الحرب يجب توافر ثلاثة شروط : الأول المال والثانى المال والثالث المال .

• • •

احتفل قوم بعيد سموه عيد العقل فقال « دانتون » ما هذه المهزلة ! لسنا نريد القضاء على الأوهام لنؤسس الإلحاد .

• • •

لا تسأل عن الأصطبل إذا كان البيت يحترق .

• • •

قال نابليون لجيشه عند ما وضع أقدامه فى مصر : « اذكروا أن أربعين قرناً تنظر إليكم من قمة هذه الأهرام » .

• • •

المرأة — غالباً — هوائية لا يثق بها إلا أحمق .

الممالك بلا عدل غابات ملئت باللصوص .

• • •

من خاف من حفيف الشجر لا يدخل الغابة .

• • •

من لم يعرف أن ينافق لم يعرف أن يحكم .

• • •

قال لويس الحادى عشر : « إذا عرفَتْ قبعتى سرى أحرقتها » .

• • •

قالت زوجة لويس الخامس عشر فى مرض الموت وطبيبها يبحث عن علاج لمرضها : « ارجع لى أبى وأولادى فهذا هو علاجى » .

• • •

فولتير : « إذا لم يكن الله موجوداً وجب أن نخترعه » .

• • •

إذا ملأت يدى من الحقائق يجب أن أحاذر من فتحها .

• • •

إذا كان المال عصب الحرب فهو أيضاً شحم السلم .

• • •

الدين مريض أحمق أطباؤه .

• • •

تُحبيك عنصبك دليل على أنك أقل منه .

• • •

قال رابليه وهو يحتضر : « أرخ الستار فالملهاة Comedy قد انتهت » .

• • •

حقل ولا مرأة ربيع ولا ورد .

• • •

كل شيء للوطن ما كان الوطن فى خطر .

• • •

كل أمة لها حكومتها التى تستحقها = كما تكونوا يول عليكم » .

كل شىء إلى زوال إلا الشرف .

* * *

قال لويس الرابع عشر : فى كل مرة أملأ منصباً خالياً أصنع مائة ساخطين وواحداً غير شاكر .

* * *

نفسى حقيرة جداً إن نظرتُ إليها وحدها ، عظيمة جداً إن قارنتها بغيرها .

* * *

كان ليونانى قيثارة بديعة القطع وتر من أوتارها فأبى أن يضع لها وتراً مثله ، وصنع بدلاً منه وتراً من فضة ففقدت القيثارة انسجامها .

* * *

الثورة لا يمكن أن تهيأ رياضياً (بالحساب الدقيق) .

* * *

الجندى الذى ينام جيداً يساوى جنديين .

* * *

من الأدب الألمانى

فن العمارة موسيقى متجمدة .

* * *

عندنا ، لا تنجح إلا حكومة بلا حزب .

* * *

الغريب فى نظرنا عليه مسحة أرستقراطية دائماً .

* * *

الجيش الألمانى هو الشعب الألمانى مسلحاً .

* * *

من المصائب أن ملوكنا لا يسمعون الحقيقة .

* * *

قد يكون الدواء أسوأ من الداء .

* * *

يجب أن يأخذ العدل مجراه ولو هلك العالم .

جوليس فردريك : « كلمة السلام ليست فى معجمى »

* * *

بسمارك : « إذا كان الألمانى من حزب الأحرار لم أعده ألمانياً ولا حراً » .

* * *

ليست السياسة علماً مضبوطاً .

* * *

الدعوة إلى الموت لا تجد لها صدى فى قلب الألمانى .

* * *

الحصان الشجاع يموت فى الخندق .

* * *

سيأتى زمن يحكم الأحرار ، وسيأتى زمن يحكم الدكتاتوريون — كل شىء يتغير ولا أبدية فى الأمور .

* * *

لا بد أن يكون هناك سحر خاص فى كلمة « ألمانى »

* * *

الدفاع عن ألمانيا بكل الوسائل حق كل ألمانى .

* * *

فى المعاملات « المالية » ليس للصداقة مكان .

* * *

رفض طحان أن يبيع طاحونه فقيل له إن الملك يستطيع أن يأخذها غصباً بدون ثمن ، فقال :

نعم ، ذلك إذا لم يكن فى برلين قضاة .

(يتبع) **أحمد أمين**

من الأقوال المأثورة فى (الأدب الفرنسى) المنشورة فى الثقافة عدد ١٩ فبراير قولهم (فرّق تحكم) . وهذا القول من (الأدب اللاتينى) ويعبّرون عنه بقولهم (Divide et impera.) ومعناه (فرّق بينهم تسد عليهم) .

عزيز خانكى

إلى من يلزمهم من الدول :

هذا الاستعمار !

متى استقر هذا العالم ؟ ومتى استقر هذا الإنسان وهدأ على هذه الأرض ؟ إنها قصة قديمة منذ دون التاريخ أخبار البشر ، قصة كفاح متصل ، ومنافسة لا تهدء ، ومناضلات لا تنقطع فى أيام السلم وفى أيام الحرب . فليس بالعجيب أن يكون العالم فى أيامنا هذه ثائراً مضطرباً قلقاً ، بل إنه ليس من الطبيعي أن يستشعر الإنسان فى أى وقت من الأوقات الطمأنينة إلى ما هو فيه ويحب الاستقرار والعافية وإبقاء كل ما هو قائم على ما هو عليه ، لأن هذا لا يكون دليلا إلا على الجمود وفتور النفوس . ولقد كانت أقل العصور جدارة بالإنسانية هى العصور التى شعر فيها الإنسان بالطمأنينة وحب الاستقرار .

ولسنا نشك فى أن الحروب ليست سوى مجازر بشرية تندفع إليها الشعوب بدافع يشبه أن يكون نوعاً من الجنون يستولى عليها بين حين وحين ؛ ولكن هذا الجنون الدموى ليس كله شراً ، بل لقد دلت حوادث التاريخ على أنه يكون دائماً مطلع عهد جديد فى حياة الإنسانية؛ فالحروب الصليبية التى مزقت الشرق وأهلكت كثيراً من بنى شعوب الغرب كانت مطلع فجر النهضة الأوربية الحديثة ، وحروب الهمج الذين أغاروا على أوربا كانت مطلع تكوين الأمم الحية التى تحمل لواء المدنية اليوم ، ومذابح الثورة الفرنسية وما أعقبها من حروب نابليون كانت بشائر ذيوع الفكرة الديمقراطية فى العالم ، ولم تكن حروب القرن العشرين سوى مقدمات لظهور أفكار اجتماعية خطيرة نلمس اليوم آثارها ونحس سريانها فى جميع شعوب العالم المتمدن . فالحروب الكبرى على هذا ليست كلها شراً . ولعلها تشبه الألم الذى يعترى الجسم إذا أصيب بالحمى من أو عدوى مرض خطير ، فإن هذا الألم ما هو إلا دليل الكفاح بين الجسم وبين جراثيم الداء .

والجسم إذ يخرج من المعركة منتصراً قانواً بالحياة يكون أقدر على مغالبة جراثيم المرض الذى اعتراه إذا هى هاجمته مرة أخرى .

فلا ينبغى لنا أن نيأس إذا شهدنا هذا الصراع الأليم الذى ينتاب الإنسانية . وجدير بنا أن نعده علامة على الحياة والمقاومة ، وإن الذى يسفك من دماء الإنسانية فيه لا يضيع هدراً ، لأنه يمهد السبيل لحياة جديدة بعد عودة السلام . والحرب القريبة التى شهدناها هذه السنوات الست كلفت الإنسانية سيلا من الدماء كما كلفتها كنوزاً عظيمة من الأموال . وقد تحمل العالم كله نصيبه من هذه الآلام ، سواء أكان ذلك فى الأنفس أم فى جهود البناء الإنسانى الذى دمر وخرب ، ولكنها تمتاز بأن العبقرية الإنسانية قد اهتدت فى أثنائها إلى كثير من الكشوف العلمية التى اتخذتها الشعوب المتحاربة آلات للفتك والتدمير . وليس مثل القنبلة الذرية الصغيرة ببعيد عن أذهاننا . ولقد كانت نتيجة هذه الكشوف أن الإنسان تعلم إذا كان فيه ذرة من الذكاء أن استمرار القتال بين الشعوب لا يمكن أن يؤدى فى المستقبل إلا إلى التدمير الشامل الذى يهدد بالقضاء عليها جميعا .

فليس شأن هذه الحرب القريبة مثل شأن الحروب الماضية . نعم إنها تشبه كل الحروب الكبرى فى أنها علامات على أن البشرية مصابة بعارض مرضى خطير ، وهى تشبهها فى أنها أعدت الأذهان لتقبل آراء جديدة فى الحياة السياسية والاجتماعية ، ودفعت نشاط الذهن الإنسانى إلى بذل مجهود هائل جدير بأن تتقدم به الانسانية فى السنوات القليلة المقبلة خطوات واسعة . فالأيام القريبة لا شك قادرة على أن تشهد تقدما ما كان الإنسان يستطيع إحداثه فى قرون طويلة .

ولكنها لا تشبه الحروب الماضية كلها من ناحية أخرى ، فإن الكشوف العلمية التي تمت في أثنائها قد جعلت من الضروري للإنسان أن يفكر في وسيلة لتنظيم علاقاته على أساس جديد يكفل السلام ، لأن السلام قد أصبح اليوم ضروريا أكثر مما كان في أي عصر مضى . وقد صار معنى الحرب بعد اليوم لا يقل عن معنى فناء الإنسانية وانقراض هذه المدنية الحاضرة انقراضاً تاما . ولو قامت حرب بعد اليوم لما بقي في الأرض من آثار المدنية القائمة شيء ، ولآل إرث الحياة كلها إلى المتوحشين البعيدين في فيافي الصحارى أو في أعماق الغابات الاستوائية أو في الكهوف الجبلية السحيقة . ولعل هؤلاء لا يقوون بعد حين على مقاومة الوحوش الحيوانية فتصبح هذه سيدة الأرض . وليس هذا المعنى ببعيد عن تصور العقلاء الذين يهتمون اليوم على مصاير البشرية ، ولكن السؤال الأهم هو : « كيف يمكن هؤلاء أن يكبحوا جماحهم ويعتموا الاضطراب ؟ » .

ونرى أن الجواب على هذا السؤال بسيط يمكن التعبير عنه في كلمات قليلة . ولكن المسألة ليست متوقفة على سؤال وجواب ، بل هي مسألة عاطفة وعقيدة . فزعماء العالم المتمدن لا يهتدون إلى هذا الحل البسيط ، لأن عقائدهم وعواطفهم تمنعهم من أن يتجهوا إليه . ولو كانت لنا أمنية لكانت تلك الأمنية هي أن يسمع هؤلاء الزعماء هذا الرأي المتواضع ويفتحوا له قلوبهم وعقولهم ، فليس فيه إلا ما يسلم به العقل ويقنع به المنطق السليم .

لقد صار العالم اليوم أقرب اتصالا مما كان ، حتى إنه يمكن القول إن العالم قد أصبح أضيق بكثير مما كان . فليس السفر إلى القطب الشمالي في هذه الأيام بالمخاطرة الجسيمة التي كانت تقف حائلا أمام رواد الكشف في القرون الماضية . وليس الذهاب إلى الصين أو أمريكا أو غيرهما بالأمر الشاق في هذه السنوات ، وقد علمنا كيف كان زعماء العالم يتنقلون في أيام قليلة بين أقصى الصين وأقصى أوربا وأمريكا وأفريقيا .

ولهذا أصبح العالم اليوم أحرى بأن يكون أكثر تماسكا وأوثق تعاونا مما كان ، وأصبح لا يحتمل الاستمرار على الخطط القديمة التي كان يسير عليها .

ولقد أصيب التفكير الإنساني منذ قرون بانحراف خطير أدى إلى ذيوع فكرة استعمار الشعوب المتقدمة القوية للشعوب الأخرى المتأخرة أو الضعيفة ، فتسابقت الدول الأوربية على فرض سيادتها على الأرض الآهلة التي تسكنها الشعوب الأفريقية والأسيوية . ولسنا نغالي إذا قلنا إن هذه السابقة كانت المسئولة عن كثير من الحروب الدموية التي ثارت في العالم منذ القرن السادس عشر إلى القرن العشرين . والآن فلنسأل أنفسنا سؤالا صريحا : هل لهذا الاستعمار من مبرر ؟ إن الكثيرين ممن تقع أعينهم على هذا القول ستتولاهم الدهشة إذا أنا قلت في الإجابة على هذا السؤال إن الاستعمار لا يخلو من مبرر . فهذه الأرض لم يخلقها الله لكي يهبها للأمم حتى تستحوذ كل منها على قطعة تستأثر بها وتكون مثل الكلب في المذود ، فهو لا يأكل العلف ولا يبيح لغيره أن يأكله . فإذا كانت أمة من الأمم تعيش في أرض وهب الله لها فيضا من خيراته فلم تكن تستطيع أن تستخرج تلك الخيرات ولا أن تستفيد بها ولا تفيد ، فإنها لا تكون خيرا من ذلك الكلب في المذود . ولا يستطيع أحد أن ينكر على الأمم المتقدمة في الحضارة فضلها على الإنسانية ، فإن قطعة واحدة من صناعة دقيقة تخرج من مصانعها تمثل فضلا كبيرا على كل الأمم التي تستفيد بها . وقد دلت هذه الحرب على مقدار الخدمات الجليلة التي تؤديها تلك الأمم المتقدمة في الحضارة لأمم العالم أجمع فإن صناعاتها عندما امتنعت في أثناء الحرب أحدثت في كل الأرض شبه مجاعة في كل مرافق الحياة . وليس

من العدل ولا من العقل فى شىء أن يسوقنا مقت الاستعمار إلى حد أن نقول إن العدالة تحتم على الدول الكبرى أن تدع كل إقليم للأقوام الذين اتفق وجودهم فيه بحجة أنهم أهله وأصحابه ، ولا تشارك فى الاستفادة من الخيرات الطبيعية التى يعجز أصحابه عن استغلالها . فمن العبث والهراء أن ندعى أن واجب الدول العظمى أن تترك مجاهل أفريقيا لقبائلها لكى تقاتل بحرابها فى غاباتها الفسيحة التى تنتج المطاط وغير المطاط من حاصلاتها ، فى حين أنها لا تقدر على الاستفادة بشىء منها ولا أن تفيد العالم بشىء من جهدها . ولكن ليس معنى هذا أن نقول إن الاستعمار بمعناه المطلق نظام إنسانى . فقد أدى إلى شرور كثيرة من استعباد أمم عاملة تجاهد فى حياتها لخير الإنسانية ولها من الرقى فى الحضارة ما يجعل لها حقا كاملا فى أن تكون من شركاء المجتمع العالمى المتعاون على خير البشرية جمعاء . فطغيان الاستعمار على تلك الأمم أدى إلى سلب حرياتها وإذلالها والانتقاص من حقها المقدس فى الحياة .

فالاستعمار على الصورة التى ظهر فيها بالفعل كان نظاماً مخالفا للعدالة ، بل كان منافياً للأخلاق ؛ وعلى هذا يمكن أن نقول إنه أصبح فى أشد الحاجة إلى النظر فى أساسه . فإذا كانت الغاية هى استفادة الإنسانية من كل خيرات الأرض فإنه من الممكن أن تنظم علاقات الأمم تنظيما جديداً يحقق هذه الاستفادة بغير اعتداء على الحقوق الإنسانية التى يجب تقديسها . فالأمم ذات الحضارة القديمة والتى كان لها فضل على العالم فى ماضيه وحاضره والتى تتعاون فى إنتاج خيرات الأرض وإفادة البشر بمجهودها لها حق فى الوجود لا ينبغى لدولة أخرى أن تعتدى عليه بصورة من صور الاعتداء . وأما الشعوب التى لا تستطيع بطبيعتها الحاضرة مثل هذا التعاون مع الشعوب الأخرى فإن شئونها تكون بمثابة أمانة عند الأمم الأخرى المتقدمة فى الحضارة ، ويكون من واجبها العمل مجتمعة على ترقيتها والأخذ بيدها وتربيتها وتعليمها كيف تستفيد من خيرات أرضها بغير أن توطأ ولا تهدر إنسانيتها .

فإذا لم تستطع أمم العالم ذات الحضارة المتقدمة فهم هذا والعمل على تحقيقه بإخلاص لم يبق أمامها إلا أن تستمر على تنافسها الذى دأبت عليه كل هذه القرون ، ولم يكن لها فى المستقبل مفر من التصادم وإشعال نيران الحروب المتصلة . ولن يكون عقابها أقل من الفناء والدمار . فالأمم التى تسميها الكبرى بين أحد أمرين : إما أن تعدل عن كبريائها وتعيد النظر فى كل علاقاتها مع الأمم الأخرى فتقيمها على أساس جديد من العدل والعطف والعمل على الخير ، وإما أن تصر على خطتها الحالية المنافية للخلق الكريم ، وسيكون عقابها على ذلك عقاباً صارماً لا بقاء لها بعده . إن تحطيم ألمانيا وإيطاليا واليابان لم يكن سوى مظهر واحد من مظاهر العقاب الذى تستحقه الدول الطامعة الجشعة التى تريد أن تذل غيرها . وقد كان جزاؤها على يد أمم أخرى تنافسها ، وليست كلها خالية من مثل جشعها وطمعها . فإذا بقى التنافس على السيادة ، وحمل الجشع الأمم المنتصرة على مواصلة خطة الاستعمار لم يكن المنتصرون اليوم بمنجاة من التصادم وإعادة الصراع فيما بينهم مرة أخرى . ولقد دلت الحوادث على أن أسرار وسائل التدمير لا يمكن أن تبقى محفوظة فى مأمن من الذيوع ، وأغلب الظن أن وسائل الفتك قد أصبحت اليوم فى متناول الجميع ، فالعدل والعقل والإنسانية جميعاً تدعو كل الأمم إلى العودة إلى قواعد الأخلاق السليمة فى معاملاتها ، وأول خطوة فى ذلك السبيل هى العدول عن فكرة الاستعمار التقليدية ، تلك الفكرة التى لو تأملنا صفحات التاريخ لوجدنا أنها أحدثت للأمم كلها من النكبات والآلام والخسائر أضعاف ما أفادتها بتوفير الخامات وزيادة الثروة .

محمد فريد أبو حديد

بين مريض وطبيبه

حدثني صاحبي قال :

أصيبت عيناى منذ شهور بما جعلني أفزع إلى طبيب العيون . وكانت الإصابة خطيرة غير مأمونة العواقب . فرأيت بدلا من التسكع بين (العيادات) القريبة . والتردد على (المعارف) من الأطباء أن أسلك أقرب الطرق إلى الغاية المنشودة بأن أعمد إلى أبرع أطباء العيون في القاهرة حتى لا تبقى في النفس رغبة إلى سماع فتاوى المفتين بعد أن يقول (مالك العيون) كلمته في الموضوع . وجعلت أسأل عن هذا الطبيب (الأبرع) حتى عرفته فقصدت إليه . وانتظرت في أروقة داره ما شاء الله لى أن أنتظر . ولما جاء دورى للمثول بين يديه أجلسنى تجاهه على مقعد لا ظهر له وسألنى عما أشكوه . فقلت :

— ستار مغبش آزله الزمان بين عينىّ وبين المرئيات البعيدة ، فهو يكاد يحجبها عنى حتى أقترب منها أو تصير على قيد باع منى أو ذراع .

فقال لى الطبيب : افتح فمك !

فأمسكت جفنىّ بأطراف أصابعي وأزحتهما عن مقلتىّ — صنعت ذلك وأنا واثق أن لسانه زل حين طلب إلىّ أن أفتح فمى ، لأنى أعرف أنه طبيب عيون وأنه لا دخل له في طب الأسنان . ثم أنى لم أقصد إليه شاكيا من أنى أرى الطعام فلا أستطيع أن آكله . ولكنى شكوت له أنى أجد الأشياء أمامى فلا أستطيع أن أراها رؤية حسنة .

ولكنه قال : فمك . فمك ! فإنى أريد أن أرى أسنانك أولاً !

فشعرت بفمى ينفتح . ولم أدر إن كان ذلك من الدهشة ، أو انصياعا لأمر الطبيب .

وتحسس الرجل لثتى . وفحص أسنانى . ثم قال :

— إنى لا أجد في فمك سبباً للشكوى !

قلت : ألم أقل لك ياسيدى إن فمى بخير . وإنى إنما أشكو من عينىّ ؟ .

قال : فما بال أضراسك ومعدتك ؟ .

قلت : سبحان الله في طبعك ! إن أمعائى خير من فمى . ومعدتى أحدٌ من أضراسى . فدعهما وخذ سبيلك إلى عينىّ .

فبدا على الرجل أنه لم يرتح إلى قولى ، ولكنه تحامل على نفسه وتصابر على اعتراضى . ثم قال في هدوء :

— أمثال شكواك قد يكون مردها إلى وعكة في الأمعاء . وما مثلى معك إلا كمثل الصياد الذى يبدأ بخبط أطراف الماء ، حتى يحصر صيده في المكان الوسط الذى يريد آخر الأمر أن يمد يده إليه فيمسك فيه بقنيصته ، فدعنى أدبر أمرى كما أرى ، واصبر ولا تكن من المتعجلين . فقعدت في مقعدى الجامد الذى أجلسنى عليه . وقد استحييت من نفسى وما بدر من خفتى وتدخلى فيما لا يعنينى — أقصد فيما لم يكن ينبغى لى أن أتدخل فيه .

فمد الرجل بعد ذلك يديه وتحسس ظاهر عينىّ وقلب جفنيهما ونظر فيهما ثم وضع لى في كل عين قطرات باردة فتحت له مصاريع أحداقى . فسلط على قاع العين من أضوائه الكشافة ما مكنه من أن يجوب بمنظاره في جنباتها ويتقلب بين أرجائها باحثا منقبا عن موطن الداء . وكانت له في كل ركن وقفة وبكل زاوية سكون . وطال تجواله واشتد أثر النور الساطع على أعصابى حتى آذانى وهو يذرع عينى من أقصاها إلى أقصاها بآلاته الدقيقة حتى حسب أنه اهتدى إلى ما يبحث عنه . فلانى بعد أن وضع في عينىّ نقطا أخرى ليغلق من خلفه المصاريع المفتحة . ثم اتخذ مكانه تجاهى وأطرق .

ورابنى أمره ولكنى احتفظت بتفاؤلى . فقلت :

— الحمد لله على السلامة بعد هذه الرحلة الشاقة !

فرفع رأسه ولم يزد على أن ابتسم في وجهى .

فصدت أقول له : خيرا إن شاء الله .

فقال : لقد وجدت في البلورية عتامات مبكرة .

قلت : مرحبا بالضيف ما دام يلتزم آداب الزيارة ! .

قال : وما آداب الزيارة ؟ .

قلت : أن يقيم الضيف أياما ثم ينصرف إلى أرض الله الواسعة ! .

قال : نعم الضيف من يفعل ذلك ! .

قلت : ماذا تريد أن تقول ؟ .

قال : إن هذه الحال التي تشكوها مما لا يعرف لها الطب علاجا بعد . ولكن هناك دعاية واسعة عن دواء جديد يقال إن له خواص شافية في مثل هذه الأحوال ، فلنعمد إليه ولنجعل شعارنا ونحن نتعاطاه : « اصبر على الكذاب حتى باب الدار ! » .

فوجئت من هذه الصراحة . وطارت من رأسي أشباح التفاؤل التي كانت تعمره . ولاح لي المستقبل الذي تزداد فيه تلك العتامات وتتكثف . ويثقل معها ذلك الستار الشفاف الخفيف الذي جئت أستنجد بهذا الطبيب على إزاحته من طريق إبصاري . وهالني أن يصارحني الطبيب بهذه الصورة . ورأيت في حديثه ما جعلني أعتقد أن الحالة أخطر مما توهمت . إذ لو كان هناك أي أمل في الشفاء لما أدلى إلىّ بهذا القول الصريح . ولو كان الأمر يحتمل المجاملة بالقول اللين لما نسي الطبيب في كلامه معي أن الأساس الأول الذي تقوم عليه صناعة الطب هو قول الرسول عليه السلام : بشر ولا تنفر ! ولم أطق الصبر على طريقته . وقلت في نفسي : ما دام أنه قد اختار طريق الصراحة فلأصارحه أنا أيضا برأيي فيه . فنظرت إليه وقلت :

— يسمح لي سيدي الطبيب أن أبدي له ملاحظة خالصة ؟ .

قال : نعم .

قلت : أرجو سيدي لو جاءه مريض غيري أن يسمعه كلمة مطمئنة يعده فيها بالشفاء . وأنا أؤكد له أن إيحاء الطبيب سيكون دائما أفعل في نيل الشفاء من عقاقيره . ولقد قرأت منذ أيام قولا أعجبني أحب أن أردده على سمع سيدي . وهو أن الناس لو ألقوا بما على ظهر هذه الأرض من العقاقير الطبية في جوف البحر لكان ذلك خيرا على الناس وشرا على البحر . ولقد مرضت زوجة فاندي مرة فحار في علاجها الأطباء ، ولما ساءت حالها وأشرفت على الهلاك استأذنها زوجها في أن يتولى علاجها بنفسه فأذنت له ، فاشترط عليها أن تنصرف من جميع ما في صوانها من أدوية الأطباء ، وأن تضع ثقتها فيه . فسمحت له بأن يلقي تلك الأدوية جميعها من النافذة . وجعل الزعيم الملهم يباشر بعد ذلك علاجها على طريقته الخاصة التي كانت تنحصر في الجلوس إلى جوارها والترنم بالأناشيد الخفيفة المحببة والتحدث بالأحاديث الرقيقة السارة . فساءت حال الزوجة العزيزة في الأيام الأولى التي انقطعت فيها عن الدواء . ولكنها ما لبثت بعد أيام قليلة أخرى أن تأثرت بروح زوجها المستبشرة وعاودتها ثقتها بنفسها واستردت رويدا رويدا صحتها حتى تم لها الشفاء .

فقال الطبيب : كل هذا صحيح . وأنا أومن بقوة الإيحاء وألجأ إليه أحيانا في علاجي ، ولكني لا أبالغ في استعماله حرصا مني على سمعتي عند مرضاي . فإني لا أحب أن أصف الدواء لمريضي على أنه شفاء مؤكد لشكواه ثم أراه يعود إلى بعد ذلك كما كان ، لم ينتفع بدوائي ولم يتأثر بإيحائي . وقد تعلمت من مزاولة مهنتي طوال هذه السنين مع مختلف أنواع المرضى دروسا لا أستطيع أن أنساها . وأول هذه الدروس أن كثيرا من المرضى يحملون أقوال أطبائهم دائما على محمل المواساة والمجاملة فلا يثقون بهذه الأقوال . فتعلمت من ذلك أنه يجب عليّ أن أقتصد في تفاؤلي وأنا أتولى علاج مرضاي . كما شاهدت أن أول ما يسأل المريض عنه هو : كم من الأيام سيطول به مرضه ، ولاحظت أنه ما من أحد

إلا يريد أن يأخذ على طبيبه عهدا يقطعه على نفسه بأن دواءه الذى يصفه سيأتى على الداء فى كذا من الأيام وبعد كذا من الجرعات . مع أن الطب الحقيقى الذى استطاع عـلم الإنسان أن يصل إليه حتى اليوم إنما هو الطب الوقائى الذى قد يساعد على تجنب الوقوع فى المرض لا الطب العلاجى الذى قد يساعد على التخلص منه بعد وقوعه .

وقد تلقيت أنا هذه الدروس من أمى التى ولدتنى ، فقد كنت إذ ذاك طبيبا ناشئا . وكانت هى سيدة مسنة من أهل الجيل الأسبق . زحفت عليها السنون وفى ركابها ما تجره الشيخوخة فى أذيالها عادة من صنوف الضعف والوهن . فكان من بين ما تشكوه قصر شديد أصاب قوة إبصارها . فلجأت إلىّ فقست بصرها . وصنعت لها منظارا يعالج ما تشكوه . فوضعته على أرنبة أنفها واستراحت إليه وبات ليلتها راضية عنى وعما صنعت لها . ولكنها فاجأتنى فى اليوم التالى بقولها :

— أهكذا تسول لك نفسك أن تضحك على ذقن أمك بهذه القطعة من الزجاج التى ألبستنيها ؟ .

قلت لها : خيرا إن شاء الله .

قالت : لقد عادت عيناى إلى ما كانتا عليه من ضعف ظاهر بعد أن خلعت منظارك .

قلت لها : يا أمى لا يمكن أن يخفى عليك أنى لم أعالج عينيك . وأنى إنما صنعت ما يصنعه الطبيب مع قصار النظر . فيضع على أعينهم هذا الزجاج الذى يقرب إليهم ما أبعدته عنهم الأيام ، فيكونون بخير ما داموا ينظرون من وراء هذا الزجاج .

قالت : بل أنت تخفى عنى حقيقة حالى . وها أنا صائرة إلى العمى وأنت لا تصنع من أجلى شيئا إلا أن تعطينى هذا المنظار لتخدعنى به عن أمرى .

قلت : يا أمى ! ألست الآن بخير . وإذا وضعت منظارك على عينيك ترين به القريب والبعيد ؟

قالت : بلى ! .

قلت : وهل يستطيع المؤمن أن يأمن قضاء الله أن ينزل به ليلا أو نهاراً ؟ .

قالت : لا ! .

قلت : فإذا نام الإنسان فهل أخذ على الله عهدا أن يقوم فى صباح اليوم التالى سليما معافى ؟ .

قالت : لا ! .

قلت لهـا : فعيشى يا أمى وانعمى بما أنت فيه حتى يوافيك الله برحمته أو يقضى الله أمراً كان مفعولا !

* * *

قال صاحبى :

وكنت قد هممت أن أسأل الطبيب قبل أن يحدثنى هذا الحديث الطبى إن كان يرجى لشكاتى شفاء أم أنها حال ستلازمنى حتى يقضى الله هذا (الأمر المفعول) الذى أشار إليه . فرأيت من الكياسة أن أقصر . وأحسست فى نفسى بأنى لا يجوز لى على الأقل أن أكون أقل إيمانا من أمه . فودعته وانصرفت لأمشى مع ذلك الكذاب الذى سطرت عنوانه فى (الرشتة) التى أعطانيها . . . حتى أبلغ معه باب الدار — وهى على كل حال ليست (الدار) الآخرة .

حسن مجول

الرادار أو العين الـكاشفة[1]

لقد كان للرادار أثر فى فوز الحلفاء فى الحرب الأخيرة أقوى من أثر كل كشف آخر لا نستثنى من ذلك القنبلة الذرية نفسها ، وسيكون لها أثر أعظم من ذلك فى عالم ما بعد الحرب .

والرادار عين سحرية عجيبة بها يستطيع الناس فى الهواء وفوق متن البحار وعلى الأرض الصماء أن يبصروا خلال الظلام والسحاب والضباب والمطر والدخان وأن يمتد بصرهم إلى أبعد ما تمتد إليه العين العادية وأن يرتد إليهم البصر مسجلا ما يبصرون .

١ — فهى ترسل فى الفضاء أشعة لاسلكية غاية فى القصر .

٢ — وتستقبل صداها حين يرتد إليها من جسم بعيد كما ترتد الأصوات عن الجدران .

٣ — وتقدر الوقت الذى استغرقته هذه الأشعة فى ذهابها وارتدادها فيعرف بذلك بعد الأجسام التى ارتدت عنها .

٤ — وتبين الاتجاه الذى سلكته الأشعة المرتدة فيعرف من ذلك أين يوجد الجسم الذى ارتدت عليه بالنسبة إلى الراصد .

٥ — وتسجل هذه الأشياء كلها فى صورة خطوط وبقع من الضوء على لوح ، بل إنها تسجل حركة الجسم فى الطائرة المرصودة .

وقد اتخذها الحلفاء فى الحرب الماضية أداة دفاع ، فاستعانوا بها فى الليل وفى النهار وفى كل الجواء على كشف مواقع الطائرات أو السفن المغيرة قبل أن يستطاع كشفها بالعين العادية فى الجو الصحو أثناء النهار ، واستطاعوا بها أن يعرفوا حقيقتها أهى صديقة أم معادية وأن يوجهوا الطائرات المقاتلة نحوها إذا كانت معادية قبل أن تقترب من أهدافها وأن يصوبوا المدافع المضادة للطائرات فتنطلق دون حاجة إلى من يطلقها على الأهداف المتحركة المختبئة أو التى لا يمكن رؤيتها لبعدها . واستخدموها أداة هجوم لإلقاء القنابل من نفسها على الأهداف التى لا ترى من الطائرة ولتمكين السفينة من كشف السفن المعادية وتبين جنسيتها واقتفاء أثرها وإطلاق النار عليها واعتراضها دون أن يراها إنسان . واستطاعوا بها أن يكشفوا الغواصات من الجو وهى على بعد عشرة أميال منها وأن يرشدوا الطائرات ناقلات الجنود إلى الأماكن التى استولى عليها الأعداء أو أحاطوا بها .

واستعان الحلفاء بها فى أعمال الملاحة الجوية والبحرية لرسم خرائط للأرض التى تطير فوقها الطائرة وتبين معالمها وكشف جبال الجليد فى البحار قبل أن يستطاع رؤيتها بالوسائل العادية .

الرادار فى السلم :

وستستخدم العين الكاشفة فى السلم فيما يشبه الأغراض التى استخدمت فيها فى الحرب ؛ فبفضلها تصبح الملاحة الجوية والبحرية آمنة لا تنقطع بالليل والنهار فى الضوء والظلمة والصحو والغيم . ولم يستطع الخبراء حتى الآن أن يستفيدوا منها فى النقل البرى ، وهم يقولون إنها لا تفيدهم فى السيارات أو القاطرات . ذلك أن السيارة والقاطرة تتبعان طريقاً معروفاً ، فالثانية تسير على قضبان حديدية والأولى فى طريق محددة لا تجعل للعين الكاشفة أثراً كبيراً ، اللهم إلا فى كشف ما عساه أن يكون فى طريقهما من عقبات .

ولننظر الآن كيف استخدم الحلفاء العين الكاشفة فى هذه الحرب .

إن انجلترا لم تؤخذ على غرة حين قذفها هتلر بطائراته فى الثامن من أغسطس سنة ١٩٤٠ . ذلك أنها كانت قد

(١) ملخصة من Science Digest

أعدت عدتهـا لهذا الهجوم من قبل فأنفقت ما لا يقل من عشرة ملايين من الجنيهات على إنشاء سلسلة متصلة الحلقات من الرادار الحارسة لتراقب الطائرات المغيرة بالليل والنهار ؛ وقد بدأت فى إنشائها من عام ١٩٣٥ ، إذ قررت فى ذلك العام إنشاء خمس محطات للرادار على شاطئ بحر الشمال ، ولما طار تشمبرلين إلى ميونخ وعاد منها فى عام ١٩٣٨ كان المهندسون البريطانيون ينشئون فى السر خمس عشرة محطة جديدة يضيفونها إلى المحطات القديمة . فلما عبرت الطائرات الغازية بحر الشمال كان البريطانيون متأهبين للدفاع عن أنفسهم بسلاحهم السرى ، وكان فى وسعهم أن يتبينوا كل غارة جديدة فى الوقت المناسب ويوجهوا ما عندهم من الطيارات لصدها . وكان فى وسع الألمان فى أول الأمر أن يتقوا من هذا السلاح السرى قبل إتقانه بأن يطيروا على ارتفاع قليل وأن يقصروا غاراتهم على الليل دون النهار ، فلما أتقن كانت خسائرهم فى الطائرات المغيرة كبيرة جداً ، ولعل هذا هو السبب فى أنهم لم يواصلوا غاراتهم الجوية بنفس القوة التى بدءوها بها .

وفى عام ١٩٤١ وضعت أول طائفة من أجهزة الرادار فى المقيرات الليلية البريطانية .

أثر الرادار فى حرب الغواصات :

كان الألمان يرجون أن يطهروا البحار من السفن البريطانية الحربية والتجارية بغواصاتهم الكثيرة ، ولقد أوشكوا أن يصلوا إلى هذا الغرض ، فقد كانوا فى عام ١٩٤٢ يغرقون من سفن الحلفاء ما حمولته ١٦٠٠٠ طن فى اليوم الواحد ، ثم بدأت الرادار عملها فقضت على هذا الخطر أو قللت من أثره إلى حد كبير .

فقد كانت الغواصة قبل اختراع الرادار تصعد بالليل إلى سطح الماء لتشحن بطاريتها وتأخذ حاجتها من الهواء ، ولكن الإنجليز أخذوا من عام ١٩٤١ يجهزون طائراتهم بالرادار وأصبح فى وسع هذه الطائرات أن تكشف الغواصة إذا كانت فوق سطح الماء ، وهى على بعد عشرة أميال ، فأفادوا من ذلك أكبر فائدة وبخاصة لأن الطائرة تستطيع أن تقطع مئات الأميال فى الساعة الواحدة فتكشف فى غمضة عين مساحة من البحر واسعة .

وعرف الألمان بطبيعة الحال شيئاً أو شيئين عن الرادار ، فقد أسروا سفينة تحمل هذا الجهاز واخترعوا جهازاً مضاداً له ينبه الغواصة إذا كشفت فتغطس فى الماء ، وعرف الإنجليز أيضاً ذلك فغيروا موجة الرادار ، ولم يتبين الألمان هذا التغيير إلا فى ربيع سنة ١٩٤٣ ، واستطاع الإنجليز بفضل هذا التغيير أن يغرقوا نحو مائة من غواصات الألمان فى ثلاثة شهور ، أغرق ثلثاها بقنابل ألقيت عليها من الهواء . وانتهت الحرب والألمان يوشكون أن يفلحوا فى تمكين الغواصات من أن تبقى تحت الماء على الدوام فلا تستطيع الرادار أن تكشفها لأن أشعتها لا تنفذ فى الماء .

وأفادت الرادار المدنيين فى أثناء الحرب أكبر فائدة ، فقد حمت قوافل المؤن فى المراحل الأخيرة من الحرب من خطر الغواصات بكشف مواقعها ومهاجمتها فى الليل والنهار ، واستعين بهـا فوق ذلك على كشف السفن التى تنفرد من قوافل المؤن أو تضـل فتتعرض بذلك للأسر أو التحطم ، بعد أن ركبت أجهزتها فى السفن التى كانت تصحبها لحمايتها .

أثر الرادار فى الهجوم على ألمانيا :

وفى عام ١٩٤٣ جهز أسطول من الطائرات بالرادار واستخدم هذا الأسطول لقيادة أساطيل جوية تزيد عليه ستين ضعفاً فى الغارات الجوية على ألمانيا ، واستخدم الحلفاء هذه الأساطيل لتحطيم أحواض السفن فى ولهلمزهيفن .

ولما ثبت الحلفاء أقدامهم على شاطئ فرنسا أقاموا عيناً كاشفة على أرض القارة الأوربية كان فى استطاعة أشعتها أن تخترق غرب القارة كله حتى تصل إلى برلين ، فكانت بذلك مرشداً لقاذفات القنابل تعرف به أهدافها وتكشف طائرات الألمان الغازية وهى فى طريقها لمهاجمة الطائرات

القيرة . ويرجع الفضل إلى الرادار في كشف الصواريخ الألمانية والقنابل الطائرة واتقاء كثير من أضرارها .

الرادار في السفن الحربية :

وقد أصبحت العين الكاشفة من القوة بحيث يستطيع العامل في السفينة الحربية أن يرقب القذيفة المصوبة نحوها وهي مقبلة على هدفها فيتقيها ، كما يستطيع وهو في سفينته أن يكشف المراكب المعادية ويتبين حقيقتها ويتعقبها ويطلق النار عليها ويغرقها ، وقد حدث هذا لأول مرة في مساء اليوم الرابع من نوفمبر عام ١٩٤٢ في جزائر سليمان في المحيط الهادى ، فقد كشفت سفينة إنجليزية مركباً حربياً معاديا على بعد ثمانية أميال منها ، فأطلقت عليه النيران وعرفت من اختفاء الهدف في صورة الرادار أن السفينة المعادية قد تحطمت .

وبفضل الرادار استطاعت أساطيل الحلفاء أن تحارب اليابانيين شتاءين متعاقبين عند جزائر الوسيان في أخطر قاع المحيط الهادى التي لم ترسم لها خرائط من قبل ، وبفضلها تمكنت هذه الأساطيل من الاقتراب في ظلام الليل الدامس من شواطئ لم تكن تجرؤ بحيرها على الاقتراب منها ودخول الموانى المعادية في الليل أو في الضباب وإطلاق النار عليها وتحطيم بطاريات الشواطئ في مكامنها .

والعين الكاشفة هي التي أمكنت الأسطول البريطاني من تحطيم الأسطول الإيطالي في شرق البحر الأبيض المتوسط في عام ١٩٤١ ، وإغراق المدمرة الألمانية بسمارك وحمولتها ٣٥٠٠٠ طن في نفس العام ، والمدمرة شارن هورست في عام ١٩٤٣ .

واستطاع الألمان أن يستولوا على بعض أجهزة الرادار من الطائرات التي أسقطوها في بلادهم وأن يستخدموها في بعض سفنهم ، ولكننا لم يصل إلى علمنا حتى الآن ما يثبت أنهم هم أو اليابانيين قد خطوا أية خطوة في سبيل تقدم هذا الاختراع العجيب

محمد بدران

اضطهـــــاد

الحياء علة من علل الإرادة وآفة من آفات الشخصية ، وقد عرفه أحد من توفروا على بحث طبيعته — وهو الأستاذ ديجا الفرنسي — بأنه حاجة ماسة إلى العطف وجدت ما يصدها ويدفعها أو ما يغرر بهـا ويخدعها ، والحيي إنسان عاطفي يود أن يفتح قلبه وينفض ما في نفسه ، ولـكنه يحجم عن ذلك ، فالحياء رغبة في الإفضاء بما في النفس ، ولـكنهـا رغبة خائبة محرومة مدفّعة مصدومة ، والحيي يشك في عواطفه وأهوائه ، ويستريب بأفكاره وآرائه ، فهو في حاجة دائبة إلى ما يرد عليه ثقته بنفسه ، بل هو في حاجة إلى رعاية يتفيأ ظلالها وعناية ينعم في بحبوحتها ، وكما أن المنفلت الأعصاب يبحث على الدوام عن سيد يحكمه ، وأستاذ يرشده ويعلمه ، فكذلك الحيي ما ينفك يبحث عن رفيق يفهمه ، ويبادله المودة والعطف ، ويمحضه النصيحة ويعينه في حل عقده ، وتذليل صعابه ، والحيي يكثر من النظر في نفسه ، والإكباب عليها ، والغوص في أغوارها السحيقة ، وعلاقاته بالناس في حالة من التوتر تجعلها كثيرة الاستهداف للانقطاع ، وعقليته ليست عقلية عملية ، ومن ثم تهوله كل عقبـة تعترض سبيله فيعتصم بعزلته ويود لو عاش في جزيرة نائية أو في رأس شاهق .

والحياء شعور يشبه الخوف ، ولـكنه يختلف عنه ، فالحياء شيء والخوف شيء آخر ، ولست أود أن أشرف المتوقحين المقاديم فأرفعهم إلى مصاف الشجعان ، ولا أن أسيء إلى من اتصفوا بالحياء فأسلكهم في عداد الجبناء ، والخوف ينشأ من أشياء مختلفة ولـكن الحياء لا يثيره سوى الأشخاص ، وقد يخشى الناس من يرهب بأسه وتتقى صولته كما يخشون الألم والموت والوحوش الضارية ؛ ولـكننا قد يتملكنا الحياء بإزاء أشخاص لا يملكون لنا نفعا ولا ضرا ولا يخيفوننا بحال ، بل قد نعلم حسن تقديرهم لنا وعطفهم علينا وإغضاءهم عن هفواتنا ومواطن ضعفنا ، والحيي يعلم أنه لا يشق من الرجال الذين يثيرون حياءه ، ولـكنه يعلم في أعماق سريرته أن هؤلاء الرجال قد يمسّون شعوره أو يثلمون إباءه ، ويسيئون تقدير بواعثه ، كما يخشى أن يخطىء السبيل إلى ترضيهم ، والتقرب منهم ، أو أن يسيء إليهم بغير قصد منه ، ومن ثم مخاوفه وأوجاله وهمومه وشجونه ؛ فالحياء شعور مجاور للخوف ولـكنه مختلف عنه ؛ والأقصوصة الآتية — وهي للكاتب الفرنسي بوتيه — بطلها رجل قد اصطلح عليه الحياء والخوف ، فنكبته مضاعفة ، وبلواه عظيمة ، وقد جعلتاه أضحوكة لزملائه وحرباً على نفسه ، وأخلي الآن ما بينه وبين القارئ :

اضطهدت باقة الأزهار الصغيرة المستر بولن حيناً من الزمن .

فني ذات مساء ، وقد غادر المصلحة التي يعمل بها رآها تشق طريقها في زحمة الجماهير ، وكانت فتاة ناشئة لا تتجاوز سنها الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، نابية الصورة ، مفرطة الدمامة ، شعرها القليل ضارب إلى الصفرة ، وعيناها المستديرتان بهما حول يجعلهما تميلان نحو أنفها الأفطس ، وكان يعلو وجنتيها وأنفها نمش ، وكان الثوب الرث الذي ترتديه يبدو كأنه منتزع من غطاء فراش قديم بال ، وكانت أصابع قدميها تطل من حذائها التي بالمسامير ، وقد جمعت ثلاثة أغصان ذاوية من نبات غير معروف ، وكونت منها طاقة أزهار واندفعت بها ناحية أنف المستر بولن وهزّت في وجهه بصوت منكر مزعج :

« أزهار جميلة ياسيدي »

وكاد المستر بولن يمضي في طريقه لولا أن الفتاة أعادت الكرة واستأنفت الهجوم بصوتها الدوّي وصراخها الملح ، ووقف الكتبة الآخرون المنصرفون من مكاتبهم ليروا ما نزل بالمستر بولن ، وكان المستر بولن رجلا مستطار الفؤاد جمّ الحياء يخشى على الدوام أن

يسىء النساس فهمه ، ويفزع من أن يلفت أنظار الناس ويسترعى أسماعهم، وفتش جيوبه ليبحث عن بنس يتخلص به من هذه الورطة ، ولكنه لم يجد سوى قطعة من النقود ذات ستة البنسات ، وانتظرت الفتاة فلم يجترئ على أن يخيب ظنها وأذعن للقضاء وأعطاها القطعة ذات البنسات الستة .

وفى اليوم التالى وجدها مترصدة له فى الوقت نفسه ، وقد جلست على قاعدة نصب تذكارى ، واستعملت نفس الأسلوب الذى هاجمته به بالأمس وكانت تحمل ضغثا من الأزهار كالذى حملته فى اليوم السابق .

فاستاء المستر بولن ، وتكدر صفوه وغام أفقه ، وبان على وجهه الضجر والملال ، وناولها بنسا واحدا وسار فى طريقه ، ولكن الطفلة تبعته وهى تصيح شاكية صاخبة مرتفعة العقيرة مما استرعى التفات الناس واستوقف السائرين فى الطريق ، وكان منظر هذا الرجل الكهل وهو يهطع فى سيره وقد أزعجته هذه الطفلة الدميمة وهى تجرى خلفه صائحة صارخة مستغيثة مستنجدة ، من المناظر التى رفهت عن نفوس السابلة وأشاعت فيهم المرح والسرور وحب الفاشة والدعابة .

وقالت إحدى الفتيات العاملات لزميلة لها : « تأملى هذا الرجل البخيل الأنكد ! »

واعتقد المستر بولن أنه قد أصبح هدفاً للسخرية ، ودريئة للكراهة والاحتقار ، فوقف مجهوداً لاهثا وأعطى الطفلة ستة بنسات كما فعل من قبل . وكان هذا هو ما تريده الطفلة ، وأعطته لقاء ذلك حزمة الأزهار الذابلة .

ومنذ ذلك ظلت فى كل مساء تقف له فى الطريق بإصرار وعناد ، ولا تقلع عن إثارة الضجة وإحداث الشغب حتى يؤدى لها المستر بولن ضريبة البنسات الستة ، ولحظ ذلك الكتبة الآخرون فأوسعوه سخرية واستهزاء ، وركبوه بالعبث والدعابة ، ولقى من ذلك الويل وعانى أبرح الألم ،

وأضيف إلى ذلك أن زوجته كانت شديدة الشح والحرص لا تفتأ تحاسبه على ما ينفق حساباً عسيراً ، وتلزمه مراعاة الاقتصاد التام ، وكانت ضريبة البنسات الستة اليومية تثقل كاهل ميزانيته ، وترهقه عسراً ، ولم يستطع أن يغطى هذا العجز فى بنود مصروفاته إلا بحرمان نفسه من تناول لفافات التبغ .

وثقل عليه هذا الكابوس ، ونغص عليه حياته ، وأصبح الخلاص من هذه الطفلة شغله الشاغل ، ومشكلته الحيرة ، والهم الذى يقض مضجعه ويظلم عيشته ، ونبذ فكرة الاستعانة بالشرطة لأنه لم يعرف على وجه التحديد مايستطيع أن يتقدم به فى شكواه ، وكان يخشى ما ينجم عن ذلك من الارتباكات والتعقيدات ، وفكر فى أن يغادر المصلحة من باب آخر ، ولكنه لم يجترئ على ذلك ، ومرت أسابيع وهو يؤدى الضريبة صاغراً ، وكانت الطفلة لا تزال تعقبه وترصده ولا تكف عنه وصار يعطيها البنسات الستة قبل أن تنبس بكلمة أو ترسل صيحة ، وكانت تتبعه نظرات زملائه الساخرة وهو يقدم لها الإتاوة المعلومة ، وكان يود لو صارح الطفلة بأن تنتظره فى مكان بعيد عن الأنظار ولكنه لم يجترئ على ذلك .

وساءه حرمانه لنفسه من لفافات التبغ ، وكبر عليه أن يظل موضوعاً للفكاهة والتندر ، وخشى أن يبلغ الأمر مسامع زوجته ، وأخذ يستنبط الحيل ويستفرغ الجهد لتفريج هذه الأزمة وكشف تلك الغمة .

ولما تزايد ألمه ، ولم يجد له حيلة ، بدا له أن يذهب إلى أحد أصدقائه يسأله الرأى ويلتمس النصيحة ، وكان هذا الصديق موظفاً حازماً جزل الرأى ، فأصغى إليه فى شىء من السخرية العاطفة وهو يروى قصة نكبته المؤرقة وآلامه المبرحة .

« أريد أن أتخلص منها ، ولكنى لا أود أن يحدث مايدعو إلى الأسف ، ولا أريد أن يعلم أحد بأنى قدمت شكوى » .

فقال له صديقه: «هوّن عليك، فالخطب يسير، وهناك مؤسسات كثيرة من مؤسسات البر والإحسان، ولن يحدث شيء مكدر، فاطمئن من هذه الناحية، وسأتولى الأمر بنفسي وأذهب إلى المكان الذي تقف فيه الطفلة مترصدة لك عند باب الديوان، وسأعرف خبيئة أمرها، وأرى والديها — إن كان لها والدان — وسأنقلها إلى المكان المناسب، وستتعلم هناك حرفة من الحرف، وسأرتب الأمر بحيث تستطيع كسب شيء بطريقة مباشرة، وسيكون هذا خيرا لها وأجدى عليها من التسول في الشوارع والطرقات».

فشكره المستر بولن شكراً مستفيضاً حاراً، وتركه مطمئن النفس عظيم الثقة، وفي مساء ذلك اليوم أعطاها البنسات الستة راضياً مغتبطاً، بل نظر إلى معذبته نظرة تنطوي على العطف، لأنه ربما كانت هذه آخر مرة يراها.

وهكذا كان؛ ففي اليوم التالي لم يلح له شبح الفتاة بالمكان المعهود، وشعر المستر بولن بأنه رجل حر، وتنفس بطلاقة وارتياح، وأحس أن الحمل الذي أثقل كتفيه قد زال، فأشعل سيجارة وسار إلى منزله يختال في برد جديد من الشباب والفتوة، ومر عليه يومان وهو هادئ البال آمن السرب، ونسي كابوسه الضاغط وهمه اللازم؛ وفي مساء اليوم الثالث خرج من الديوان في الوقت العادي، ولما بلغ الشارع تلقى صدمة شديدة، طاش لها لبه، ووهن جأشه، وامتقع لونه، ووقف حائراً لا يكاد يصدق عينيه، وأسقط في يده، وتخاذل واضطرب، وجمد مكانه، فقد رأى الفتاة الناشئة هنالك، على الأقل إذا لم تكن هي بالذات فقد كانت طفلة تشبهها الشبه كله حذوك النعل بالنعل، وأبصر المستر بولن نفس العينين الصغيرتين الحولاوين ونفس النمش الذي يعلو الوجه، والشعر الأصفر. ومهما يكن من الأمر فقد كانت هذه الطفلة أصغر سناً، وكانت تشد حول جسمها ثوب بال متخذ من غطاء فراش رث قديم، وكان حذاؤها الثقيل المستعمل لا يكاد يحتوي قدميها، وقد أقبلت من ناحية قاعدة النصب التذكاري حيث كانت ترقب قدومه، فلما أبصرته أسرعت إليه وهي تلوّح بطاقة من الزهر الذابل غير المعروف، وصاحت بصوت يصمّ وإن كان يسمع:

«أزهار جميلة ياسيدي!».

«حسن ..... حقيقة!» ثم تمتم قائلاً: «ما هذا ... ماذا في الأمر؟» وغلب على أمره، وزاغت فؤاده ونفدت حيله وارتبك.

وقالت الطفلة في حماسة وجرأة: «إني أختها — أعرف الحظ الحسن الذي صادفته سليتا؟ لقد أخذوها إلى بيت تحصل فيه على رزقها، ولقد سر ذلك والدي، وقالت لي سليتا: «هناك سيد ينتظر في كل مساء طاقة من الزهر، ويدفع ثمنا لها ستة بنسات، ولا يستطيع الإنسان أن يتخلى عن مثل هذا السيد، ويتركه في حيرة من أمره» وكلفتني بالبحث عنك ووصفت لي ملامحك وسماتك، وأنا كما ترى صغيرة لا أحسن مهنة من المهن، ولذا أخذت مكانها في بيع الأزهار».

وأخذت تهز الطاقة في ثقة واطمئنان، ولم ير المستر بولن مندوحة من الاستجابة لأمرها والنزول على إرادتها، وأخذ يفتش جيوبه باحثا عن قطعة من النقود ذات ستة بنسات.

علي أدهم

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
التليفون — ٥٦٢٦٩
القاهرة

من البحوث النفسية في كتب العرب :

أنباء نجباء الأبناء

لابن ظفر الصقلي

– ١ –

هذا الكتاب (١) حلقة أخرى من سلسلة البحوث النفسية العربية ، التي جلونا حلقة منها في أعداد ماضية من الثقافة (٢) ، حين تحدثنا عن كتاب « الأذكياء » لابن الجوزي ، وقلنا في سياق التعليق عليه : « ومن الإنصاف أن نعرف لابن الجوزي — على طول العهد بيننا وبينه — فضله في تهديه إلى جوهر الذكاء ، وأن ندل على نصيب أسلافنا في وصل سلسلة البحوث النفسية خلال العصور ؛ والواقع أن في تراثنا الأدبي من هذه البحوث ذخيرة صالحة جديرة بالكشف والإحياء » .

وابن ظفر (الشيخ الإمام أبو هاشم محمد بن أبي محمد بن محمد) المكي الصقلي — كابن الجوزي — من شيوخ الثقافة العربية الواسعة في القرن السادس الهجري (٤٩٧ — ٥٦٥ أو ٥٦٧ هـ) ؛ تنقل في كثير من عواصم الإسلام في الأندلس والمغرب وصقلية ومصر ومكة والشام وألف في التفسير والفقه والوعظ واللغة والنحو والتاريخ . وكتابه الذي نتحدث عنه اليوم رسالة سيكلوجية أدبية حاول فيها أن يجمع نتفا من أخبار طفولة العبقريين . وهذه الأخبار على الطريقة العربية الشائعة في التأليف الأدبي الأول — لم تخضع لتمحيص أو نقد ، ولم يسلك بها سبيل الدرس والتحقيق ، وإنما قصد بها إلى الإمتاع والإطراف وتلقيح الهمم وتنقيح الفطن ، كما يشير المؤلف في مقدمته القصيرة ؛ فهو يذكر أن من قسمة الله التي أمضاها أن جعل في ذريات الناس من هو قرة عين وغرة زين ، ومن هو عبرة عين وعرّة شين .. ثم يقول : « وبعد فهذا كتاب أودعته من أنباء نجباء الأبناء ما هو كشررة من ضرام ، بل كقطرة من رهام ، لأني قصدت تلقيح همة غلام ، وتنقيح فطنة كهام ؛ إلا أني أجنيت قارئه من هذا النوع ألذه وأطيبه ، وأحليته أمره وأعجبه ، مضرباً في القالب عما سجع به الحمام هاتفاً ، وهمع به الغمام واكفا ؛ لأن النفوس طلقة إلى الفائق العجيب ، مولعة بالرائق الغريب .. » .

جمع المؤلف أخباره حول أصناف من الناس أربعة : الأول عشرة من الصحابة ؛ والثاني رجال من ذريات الصحابة وغيرهم ؛ والثالث بعض من اتسم بالعبادة والزهد ؛ والرابع رجال سادوا في عصر الجاهلية من العرب ، ورجال من ملوك فارس . وجعل عنوان كل خبر « درة زين لقرة عين » . وسبق ذلك كله بفريدة يتيمة في أخبار طفولة نبينا محمد عليه السلام . وجعل من منهجه أن يشرح غريب الخبر كما رأى حاجة إلى ذلك ، وأن يستطرد أحياناً إلى أخبار أخرى إذا دعت مناسبات الحديث .

والمؤلف لا يحاول أن يحدد ما يعني بالنجابة — وهي محور أخباره — ولكنه يذكر في الصفحات الأولى من كتابه ما يشهد لسيادة الغلام من الأمارات الجثمانية والخلقية : فمن الأولى كبر هامته ، وسيلان غرته ، واتساع جبهته ووضوحها ، وسعة العينين من غير جحوظ ولا اضطراب ، وسجاحة الخدين ، وارتفاع قصبة الأنف وسعة الأشداق ، وطول اللسان .. ومن نعوت السيد انكسار طرفه ما لم يغضب ، ويكره شدة استدارة الوجه وقصر العنق وإفراط طوله ...... الخ . أما الأخلاق

(١) النسخة التي بين يدي من هذا الكتاب مطبوعة في مصر ، وليس عليها تاريخ ، وبها بعض أخطاء مطبعية في الغالب ، وهي منقولة عن نسخة في المكتبة العمومية بالأستانة ، ومقابلة على نسخة أخرى في المكتبة الخديوية ، ويذكر جورجي زيدان ؛ أن من هذا الكتاب نسخة في باريس ، وله مختصر في برلين وغوطا .

(٢) الأعداد ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٥ من الثقافة .

فيدل على سيادة الفتى تغاضيه عما يؤذى ، وقلة شرهه إلى الطعام . . . ، وتثاقله عن الشىء يطلبه ، واقتصاده فى غيرته ، والغيرة محمودة مأمور بها ، وإنما المذموم استطارتها وظهورها تسرعاً إلى الظِّنَّة من غير سبب ظاهر . ويكره تصنعه فى اللباس والمشية والعمة ؛ ولذلك قيل : عمامة السيد ملوية أى يديرها كيف اتفق . ويدل على سيادته أيضاً أنفته من صحبة بنى الأنذال ، وألفته لبنى الأشراف ، وقوله للصبيان : من يكون معى ؟ وتعالوا أكن أميركم ! ويكره تسرعه إلى الشتم وبذاءة لسانه ؛ ولن يسود غوم ولا كذوب ، وقلما ساد بخيل أو حسود . . »[1] .

والظاهر أن المؤلف حد النجابة بآثارها ، وتصورها تصوراً واسعاً يستطيع الباحث أن يلم أشتاته من مختلف الأنباء التى أوردها : فالفطنة ، والرغبة فى العلم ، وحسن السؤال والجواب ، وقوة الحجة وسرعة المعارضة ، وصدق الاستنتاج وسداد الرأى ؛ ثم نبل الخلق ، والتطلع إلى السيادة ، والتمسك بالحق والجرأة فيه ، والمداراة وضبط النفس ، والإيثار ، والعزة وعلو الهمة والأنفة من النقص ؛ ثم الورع والتقوى ، والإقبال على العبادة ، والتطلع إلى معرفة الله . . ؛ كل أولئك مخايل للنجابة فى صغار الأبناء إذا ظهرت فيهم كان ذلك إرهاصاً عما سيكون منهم رجالا وكهولا .

ومما يلاحظه القارئ لهذه الأخبار أن هناك صلة وثيقة بين مخايل الطفولة التى يرويها المؤلف لشخص ما ، ونوع الشهرة الذى أحرزه ذلك الطفل فى حياته الراشدة ؛ فأظهر شىء — مثلا — فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم — وهو طفل — علو همته كأنما كان يحس بما سيكون له من شأن فى رجولته ، وتمسكه بمكارم الأخلاق فى صورة لفتت أنظار قومه إليه . فالرواية تذهب إلى أنه (كان فى طفولته يدب فلا يثنيه عن الفراش المعد لجده عبد المطلب أحد ، حتى يجلس عليه ، فيزيله أعمامه ، فيبكى حتى يردوه إليه ؛ فطلع عليهم عبد المطلب يوماً — وقد أزالوا النبى صلى الله عليه وسلم عن الفراش ، فقال : « ردوا ابنى إلى مجلسه ، فإنه يحدث نفسه بملك عظيم ، وسيكون له شأن » فكانوا لا يردونه عنه حضر عبد المطلب أو غاب) .

وتذهب رواية أخرى إلى أن أكثم بن صيفى التميمى حكيم العرب حج فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى سن الحلم يتبع أبا طالب ، فقال أكثم لأبى طالب : يا ابن عبد المطلب ، ما أسرع ما شب أخوك ! يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو طالب : إنه ليس أخى ، ولكنه ابن أخى عبد الله . قال أكثم : هو ابن الذبيح ؟ قال : نعم . قال أكثم : إنى رأيته فى حجر عبد المطلب يوم أرسل الله السحاب إلى بلاد مضر ، فظننته ابنه . وجعل أكثم يتأمل النبى صلى الله عليه وسلم ويتوسمه . ثم قال : يا ابن عبد المطلب ما تظنون بهذا الفتى ؟ فقال أبو طالب : إنا لنحسن الظن به ، وإنه لحيى جرىء وفىّ سخىّ . قال : هل غير ما تقول يا ابن عبد المطلب ؟ قال : نعم ، إنه لذو شدة ولين ، ومجلس ركين ، ومفصل مبين . ثم قال : هل غير ذلك يا ابن عبد المطلب ؟ قال : نعم ، إنا لنتيمن بمشهده ونتعرف البركة فيما لمس بيده . قال أكثم : هل غير ذلك يا ابن عبد المطلب ؟ قال أبو طالب : نعم . إنه لغلام يعد ، وأحرى به أن يسود ، ويتخرق بالجود ، ويعلو جده الجدود . قال أكثم : لكنى أقول غير هذا يا ابن عبد المطلب . فقال أبو طالب : قل ، فإنك نقاب غيب وجلاء ريب . فقال أكثم : أخلق بابن أخيك أن يضرب العرب قاطبة (أى جميعاً) بيد خابط ورجل لابطة ، ثم ينعق بهم إلى مراتع مريع ، وورود تشريع ، فمن اخرورط إليه هداه . ومن احرورف عنه أرداه . فقال أبو طالب : إن عندنا لنزوا من ذلك (أى طرفاً من العلم به)

(١) نوقشت فكرة الصلة بين النواحى الجثمانية والنواحى العقلية والخلقية فى المقالة الأولى عن ابن الجوزى — عدد ٨ « ثقافة » .

ويروى المؤلف من طفولة أبي بكر الصديق رواية تقرب في دلالتها على رجحان عقله صبياً — مما يرويه القرآن من إبراهيم وموقفه من الشمس والقمر والأصنام. يقول: «روى أنه اجتمع المهاجرون والأنصار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: وعيشك يا رسول الله ما سجدتُ لصنم قط. فغضب عمر بن الخطاب وقال: تقول وعيشك يا رسول الله ما سجدت لصنم قط، وقد كنت في الجاهلية كذا وكذا سنة!! فقال أبو بكر: وذلك أني لما ناهزت الحلم أخذني أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشم العوالي فاسجد لها، وخلاني وذهب؛ فدنوت من الصنم وقلت له: إني جائع فأطعمني، فلم يجبني؛ فقلت له: إني عارٍ فاكسني، فلم يجبني؛ فأخذت صخرة وقلت: إني مُلقٍ هذه الصخرة عليك، فإن كنت إلهاً فامنع نفسك، فلم يجبني، فألقيت عليه الصخرة فخرّ لوجهه، فأقبل والدي وقال: ما هذا يا بني؟ فقلتُ: هو الذي ترى ...».

أما معاوية فيذكر له المؤلف في طفولته موقفاً في الصالحة والتوفيق ينهض عما سيكون له في رجولته من سياسة وحلم ودهاء، وحسن فهم للناس؛ فقد رووا «أن العباس بن عبد المطلب كان نديماً لأبي سفيان بن حرب في الجاهلية على شراب لهما في دار أبي سفيان، ومعاوية يسقيهما وهو إذ ذاك غلام. فلما أخذت الخمرة منهما تغنى العباس بشعر مطرود بن كعب الخزاعي.

يا أيها الرجل المحوّل رحله
هلا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك، لو نزلت إليهمو
ضمنوك من جوع ومن إقراف
الآخذون العهد من آفاقها
والظاعنون لرحلة الإيلاف
والملحقون فقيرهم بغنيهم
حتى يعود فقيرهم كالكافي

إلى أن يقول:

وإذا معد حصلت أنسابها
فهمو لعمرك جوهر الأصداف

قال فحمى أبو سفيان لما سمع الشعر، وجعل يعدد مآثر حرب بن أمية ومآثر نفسه. وتناقلا في المفاخرة، إلى أن قال له العباس: ناقرني إلى فتاك هذا فإنه نجيب — يعني معاوية. فقال أبو سفيان: قد فعلت هذا — وهند تسمع؛ فاغتنمت الفرصة وأنشأت تقول مخاطبة ابنها معاوية:

اقض فدتك نفسي لآل عبد شمس
فهم سراة الحسب على قديم الحرس

فقطع معاوية عليها قولها، وقال:

صه يا ابنة الأكارم فعبد شمس هاشم
هما برغم الراغم كانا كفرسي صارم

فلما سمع العباس وأبو سفيان مقالة معاوية ابتدراه أيهما يتناوله قبل صاحبه، فتعاوراه ضماً وتقبيلاً وتفدية، وافترقا راضيين.

(للكلام بقية) محمد خلف الله

رجل الأقدار

حين تحابي الأقدار ، تمد للفاني في حبل الرجاء ، وتمهد له الطريق الوعر ، وتنيم العقبات فلا تفطن إليه ، وتشغل النوائب فلا تنقض عليه ، وتذكي له نار الحماسة في الصدور ، وتخلص له الطوايا ، ولا يحاسبه الناس إذا أخطأ ، ويفسر خطؤه بالصواب ، وتكون له الظروف كالمد مؤاتية ، والصروف كالجزر مجافية ، ويظل موكبه يركض من مجد إلى مجد ، وعلمه يخفق من نصر إلى نصر ، وسلمه يحمله من درجة إلى درجة ، حتى يبلغ الذروة ، فيبدأ الانحدار .

عندئذ تفلت قدمه درجات السلم ، ويزل في السهل والوعر ، ويطوى علمه فلا يشهد النصر ، ويتفرق موكبه ، ويغيم أفقه ، ويغيض بحره ، ويكون كل شيء عنده جزراً ؛ وتصم الأذن عن أمره ونهيه ، وتنفض الجزعة من قدره ، وينفض الصديق من حوله ، حتى الأخ والأخت يشغل كل منهما عنه بنفسه ، ويفر كل شيء منه حتى الموت .

هكذا كان نابليون . أسعفته عبقريته وخانته ، وهي هي ذكاؤه الساطعة الهادية . ونفسه تصرفه أمس وأمس واليوم ، وهو هو الرشد والبصيرة . وعبده الناس وحطموا صنمه ، وهم هم الناس ، احتقرهم معبودا ، واحتقرهم منبوذا . لكنها الأقدار حابت ثم تحاملت ، ومدت ثم قصرت ، ومهلت ثم صمتت ، وأنامت ثم أيقظت ، وقيدت ثم أطلقت ، وأذكت ثم أطفأت ، وأخلصت ثم غدرت ، وأغضت ثم حاسبت ، والناس في الحالين لم يلهموا حكمة سليمان فيستبينوا ، ولم ينزل عليهم وحي الآلهة فيستنيروا . لكنها الشقاوة رفعتها الأقدار كما أسدلتها ، والقلب البشري القلب لا يعرف الثبات ، والملل من الطيب والخبيث على السواء ، والزهد في الحال الواحدة ولو كانت خيراً محضاً ، والرغبة في التبديل ولو كان سوءاً محضاً .

وقد قادته مبادئ الثورة إلى النصر ، وقاده الانتقاض على الثورة من نحر إلى نحر ؛ وغلب الأعداء بالقلة أكثر مما غلبهم بالكثرة ، وخذلت الأقدار كثرته ، وآزرت قلته ، وكان خليقاً أن تملكه الكثرة ما لم تملكه القلة ، ففنه في الحرب كان يزداد مع الأيام والمعارك خبرة ، ومجده يتسع مع النصر رقعة ، ويزداد رفعة . لكن الأقدار أوسع عقلاً من عقله ، وأشمل من شموله ، وأكثر إحاطة من إحاطته . فلما حاكت من حوله شبكتها ، كان لا بد أن يضطرب فيها ، ولما أرخت محوري في أداته لم يفطن إلى موضعه ، كان لا بد أن تتفكك أداته ، ويتزعزع بنيانه. وقد كانت الأقدار تحول عنه السهر والإصلاح ، فلما تخلت حاول الإصلاح وحاول السهر ، لخفيت عنه مواضع الخطر ، دون دلائل النذر .

إن نابليون موضوع واسع ، متشعب ، خالد ، يساير الأبد ؛ تحالف الخير والشر ، وتحالفت الأمانة والغدر على هدمه فنالت منه . وتعاونت شخصيتان هما موضوعنا اليوم على إزالته فأزالاه ، الأولى لتكسب عرشاً ، والثانية لتخدم وطنا . الأولى لتشفي غلاً ، والثانية لتحطم غلاً . الأولى عضت اليد التي أطعمتها ، وألحت عليها حتى هشمتها ، والثانية ساعت اليد التي لطمتها ، وألحت عليها حتى عصمتها . برنادوت مواطن نابليون ، وفوش شتاين طريد نابليون .

كان برنادوت رفيقاً لبونابرت ؛ حارب معه ، ونافسه وتزوج من حبيبته ، وأغدق عليه بونابرت نعمه ، ورفعه الإمبراطور إلى مرتبة الأمراء ترضية لهذه الحبيبة . وكان عديلا ليوسف ملك إسبانيا بنعمة نابليون ، وشقيق الإمبراطور . رشحه ملك السويد الوالي الذي خلف الملك العادي ، وليا لعهده لقرابته هذه من نابليون ، فكان

ولياً للعهد . ولم يشأ نابليون استبقاءه فى بلاده ، فسر بإبعاده ، اتقاء لدسائسه ، فوافق على ولايته لعهد السويد . ولو خطر له أنه ينقل عش الدسائس من الداخل المضبوط إلى الخارج المنفلت ، ويجعل الدساس يأمن من بطشه ، لآثر بقاء الشوكة فى جنبه . وبرنادوت خطر ، غامض ، ماكر ، كياد ، طموح أطمعه مركزه فى عرش فرنسا ، فهو عالٍ ، اجتلته عدوة نابليون ، ويصادق القيصر عدو نابليون ، فما إن يقترب الإمبراطور من موسكو ، ويطلب من القيصر الصلح ، حتى تكون إصبع برنادوت فى رفض الصلح إلى جانب إصبع البارون فون شتاين تحركهما إصبع القدر

أما البارون فون شتاين فرجل أودع الله صدره شعلة من نار ، هى قلب جسور . يخطف الرأى فى خاطره خطف البرق ، سريع الإدراك ، عنيف ، يكتسح كل ما يعترضه ، ويهدم كل ما يقف فى طريقه . نبيل ، عريق فى النسل ، صادق ، مستقيم . مستقيم فى نظرته ، مستقيم فى مشيته ، يسير من الطريق المستقيم إلى غايته . عاش لبلاده بروسيا ، وأخلص للملك المتردد ، وبذل فى سبيلهما كل جهد ، دخل الوزارة البروسية مرتين ، وأقيل فى المرتين ، وكانت أخراهما بتأثير نابليون الذى أطل دمه بعد خروجه ، لأنه كان فى وزارة حليفه خصمه العنيد ، وفى بلاد حليفه الداعى إلى الحرية والثورة على الأجنبى . والتجأ إلى النمسا ، ثم إلى الروسيا بدعوة من القيصر إسكندر ، فلما توغل الإمبراطور فى الروسيا انقسمت حاشية القيصر قسمين : فريق منهم أمه والغراندوقات ينصحون له بمصالحة نابليون ، وكانوا من قبل يشيرون عليه بمخاصمته ، وفريق منهم ضيفه اللاجئ فون شتاين يقوى ظهره ، ويمنع يده أن تمتد إلى قاهر بلاده .

وارتد نابليون ارتداده المشهور ، ولولا شتاين وبرنادوت ما ارتد ردة الدحور ، ولا كان المنظر المروع المأثور — منظر رجعة نابليون على رأس جيش كبير ، يسير فى مقدمته القواد على الأقدام ، ولا يركب إلا القليل . أشباح فى أسمال ، هزل ، غبر ، قد تصلبت لحاهم ، ووقفت ألسنتهم وتقوست ظهورهم ، وتوكأ الكثيرون منهم على العكاكيز ، وضمدت أقدامهم بخرق من فراء الحراف .

كانت إصبع القدر فى هذه الرجعة بارزة ، وكانت هنا نقطة التحول ، فزال السحر الذى كبل أوربا هذا الزمن الطويل ، وطمع فى الإمبراطور الصغير قبل الكبير ، وتقاطر الأمراء الذين خلقهم ، والذين ولَّتهم أمراؤهم أمراء ، يتهافت الفريقان على خصومه ، يدفعهم الخط للتحول ، لا الرغبة فى التحرر ، فقد كانوا تحت نفوذ هابسبورغ أسوأ حالا منهم تحت نفوذ نابليون ، وكانوا مطمع بروسيا والروسيا والنمسا أكثر مما كانوا صنيعة لفرنسا ، وكانوا على قول شتاين نفسه لا يستحقون المغفرة التى لقوها فى معسكر الحلفاء لأنهم عاشوا أهواءهم ، ومتعهم ، ولم يعيشوا لأممهم . لكن غراب الخط نعق فتبعه الغربان ، لا تسأله لماذا نعق ، ولا تسأل أنفسها لماذا تبعته .

ويتعقبه الروس ويتعقبه برنادوت ، ويمر بفايمر فيسأل عن حال السيد جوته ، والسيد جوته مشغول به وعنه بشعره ينظم فيه قصيدته التى يقول فيها :

« هكذا فعلت . فالبعيد العزيز تعلمت فى سكون أن تملكه ، »

« وما صادفت من صعاب رأيت وتأملت وعرفت أن تذلله ، »

« وطلع عليك نهار بهيج فلبيت دعوته . ودعوك للخروج فحرمت بهجته ، »

« وما تزال صامداً رغم ما شعرت ورغم ما يشهره العدا من حروب ، »

« وما يزل بك من خطوب من هناك وهنا : يريدون لك الهلكة » .

وتنقلب روسيا ، وتقف النمسا على عتبة الانقلاب ، ثم تنقلب ، ويهزم الإمبراطور في ليبزيج . ثم تعود الحرب سجالا فتارة ينتصر ، وتارة يذر قرن الخيانة فيهزم ، ويدخل الحلفاء باريس ، ويعتصم هو مع فلول جيشه في فونتينبلو وقد انضم إلى العدو أقدم رفاقه مارمو ، وهجره قواده إلا مارشالاً واحداً ، وانفلت وزراؤه إلا وزيراً واحداً . ويتنازل عن العرش ويرغمونه على حرمان فرخ النسر ، ويستعد لمغادرة قصر فونتينبلو إلى المنفى ، إلى جزيرة إلبا ، فهل جاء من يودعه ؟ .

بلى . ففي فناء القصر حرسه القديم ينتظمه صف ، فهو يهبط الدرج إليه ، ويتقدم منه ويتوسطه يريد أن يخطبه :

« يا جنود حرسي القديم ! إني أودعكم . عشرون سنة شهدتكم وشهدتكم معها في طريق الشرف والمجد . فلما كانت الأيام الأخيرة كنتم فيها مثال البسالة والولاء ، كما كنتم في السراء . . فأنا راحل . . فلا تندبوا مصيري ، ولتصحبكم تمنياتي . . وداعاً يا أولادي ، فكلكم وددت لو أضمكم إلى صدري ، فدعوني على الأقل ألثم علمكم ! » ليحيي الإمبراطور ! .

وتنطلق به المركبة . ويقف هؤلاء الرجال الذين وخط الشيب رؤوسهم ، ينتحبون ويعولون : فقد ذهب أبوهم ! .

لكنه كيف كان استقبال الشعب له ، وموكبه يخترق أرض الوطن إلى المنفى ؟ « ليسقط الظالم ! » وتزاحم النسوة الحانقات على مركبته يصرخن بها في أذنه ، وتنهال الحجارة عليه . ويمر بإحدى القرى فيلقى مشنقة تدلت منها دمية على صورته المزرية ملطخة بالوحل ، ملوثة بالدم ، وتحتها جوقة تردد : « اقتلوا القاتل ! » وبعد أشهر من هذا اليوم يهرب من إلبا ، ويحول إلى أرض الوطن فكيف كان استقبال الشعب له وهو يعود من نفس الطريق إلى باريس ؟ ! ندرت اللعنة ، وجف البصاق الذي تطاير من أفواه قذرة على وجهه ، حين أدبر الحظ وأدار له القدر ظهره ، وهتف الناس إذ رأوه ، وتصايحوا بعودته ، وجاءوا يستقبلونه ويودعونه كلا من بقربه ، وينضمون إليه كلا من يحاميه .

وينمي الخبر إلى الحلفاء فيكون شتاين أول من يطلب إهدار دم من أهدر من قبل دمه . والسن بالسن ، والعين بالعين ، والبادي أظلم . فيتحرج الإمبراطور فرانشس جو الأمبراطور نابليون ويسأل ابنته ماري لويز وفي ظنه أنها لن توافق على إهدار دم زوجها فينتهي الأمر . وهل توافق زوجة على إهدار دم زوجها ، وهذه الزوجة على الأخص ، وقد كان تفكيره يوم حزب الأمر ، فيها وفي ولده منها ، وبقي تفكيره فيهما إلى هذه اللحظة ، بل إلى لحظته الأخيرة ؟ حتى أنه لما جاءها المخاض ، وتعسر الوضع ، وتعرضت حياتها أو حياة الولد للخطر ، وسئل الإمبراطور ، لم يتردد في الجواب . وليس ولده كسكل ولد . فهو الوريث الذي أراد به حفظ دمه ، ودوام ملكه ، وضحى في سبيله رفيقة حياته ، والعزيزة عليه جوزفين ، وبحيطته من المسويين ، وكانوا عليه بلاءً أي بلاء . كان النابة وأمه الواسطة . وكان قبل ميلاده شغله الشاغل ، وعاملا أساسياً في تدبير سياسته ، ومع ذلك لم يتردد في الجواب : أنقذوا الأم ! أما الأم ، وأما الزوجة ، فلم تتردد في إطلال دم الزوج والأب . فهل من سبب لهذا الجحود البشع ، والخيانة الدميمة ؟ عشق امرأة .

هكذا من يرفعه القدر ، يخفضه القدر ، لتتم الرحلة بالذهاب والإياب ، ويعود التراب إلى التراب .

محمود الدسوقي

بين المسموع والمقروء

فى مصانع قموع يابانى :

صبي المصنع

وصف لي محدثي زيارته لمصنع « اللاكيه » الياباني ، وهو مصنع لأحدى مشيديه الفلاح . ووقف من حديثه عند صبي المصنع الصغير . ثم استطرد يقول : —

وأخذت أفكر في مصير هذا الصبي ، في ذلك الجو الخانق . وزاد تفكيري فيه ما كان من إجابة له رائعة . كان في نحو السادسة عشرة ، وكان في وجهه ذكاء ، وفي عينه بريق . وسألته السؤال تلو السؤال ، فكان يجيب دائمًا وسريعًا على الفور مما أعني . وسألت رب المصنع أن أزيد الصبي حديثًا ، فما أسرع ما أجاب سؤلي ، وزاد بأننا ربما فضلنا الخروج ، فما أسرع ما أمنت .

وخرجت أنا وأكيرا — فهذا اسم الصبي — خرجنا سويا إلى الطريق . وظهر عليه أول الأمر شيء من اضطراب نتيجة إحساس بإحراج أن يراه الناس في صحبة أجنبي . ولكنه ما لبث أن عاد إلى سكونه واطمئنانه . وأخذ يجيب ما أسأل في رفق وعن طواعية .

وأردت أن أتحدث إليه لأعرف منه كيف يعيش ، وكيف يفكر ، وأي النظرات ينظرها إلى الأشياء ، وكم يرضى من الحياة . ومشى إلى جانبي في خفة ، وخطا في حذائه ، ونعله من المطاط ، خطو النشط الواثق . وسألته فعلمت منه أنه يحب الرياضة ، وأنه كان يلعب الكرة وهو في المدرسة . وهو صباح يتحرق على ما سيكون من نصيب أمته في المباراة الدولية . وتحدث عن التمرين ، ومن مقاومة الجسم ، واسترخائه ، ومن رشاقة القدم ، وغير ذلك من الأشياء التي دلت على أنه في السباحة خبير . وذكر لي أن الفرص لم تعد تواتيه لمداومة رياضته الحبيبة . ثم إنه يذهب لاستحمامه في يوم عطلة ، أو يذهب لقذفة كرة ، ولكنه لا ينال ما يشبع من ذلك .

ولم يكن بالمدينة ساحات كثيرة ، ولكن كان بها حدائق عديدة ، ولكنها حدائق جعلت للزينة فضاقت عن لعب الأطفال والصبية .

وكان للصبي أبوان فقيران ، فلاحان في أوكاياما . وأرسلاه يتعلم حرفة « اللاكيه » بمجرد بلوغه الرابعة عشرة ، وهي السن الدنيا التي يجيز القانون عندها العمل . وكان قبل ذلك في المدرسة . وود أبواه لو استمر في التعليم ، ولكن ربما مائية عصفت بأرزها في الحقل فذهبت بمحصولها ، فلم يكن لهما غير الجوع والصبر ، ولم يكن لهما بد أن يرسلا ولدهما يطلب الرزق في المدينة .

وقال الصبي إن سعده الطالع هو الذي جاءه بالذي هو فيه من عمل ، وإن عيشه في المدينة أفضل كثيرا من عيشه بين أهله في الريف . ونعم ، إن العمل في المصنع متعب ، ولكن هكذا كل عمل . وعدا هذا فقد بلغ الرتبة التي عندها يحق له أن يرى اسمه نتيجة يعتز بها ويغتبط لها .

وقال إن معاملة رب المصنع إياه طيبة ، والغذاء الذي يعطيه طيب وكثير . وهو ينام في حجرة واحدة مع صبية المصنع الآخرين ، في شيء من ازدحام طبعا ، ولكن هنا يحدث الدفء في الشتاء ، والبرد قارس . وهو يعمل في اليوم عشر ساعات ، ولكنه بعدها ينطلق حرا يعمل ما شاء . وهو عندئذ قد يذهب إلى الماء فيسبح ، أو هو يذهب مع صديق إلى السينما . ويوسوكى ، صاحب المصنع ، هو الذي يعطيه ثمن التذكرة ، فهو رجل كريم حنون .

وعندئذ أردت أن أمتحن رأيه في صاحب المصنع ، فأظهرت ارتيابي ، وأن يوسوكى إنما يستغله هو والصبية استغلالا . ومن ذلك أنه لا يدفع له أجرا ، وهو يشغله أطول الساعات ، ويجشمه أصعب الأعمال ، وهو لا يعطيه

الكفاية من الغذاء أو الكساء . ثم هو يبقيه إلى أن يكبر ، فيطلب الأجر الأكبر ، فلا يكون له منه إلا الفصل والاستغناء .

فأبى الصبي أن يتقبل شيئا مما أقول . وآمن بأن يوسوكي صاحب عمل خيّر، وأنه يعمل لنفعهم في حدود طاقته وأنه أفضل من أصحاب أعمال آخرين سمع منهم من الكثير من أصحابه . وأنه يطعمه ويكسوه لأن هذا واجبه ، وليس من واجبه أن يأجره حتى يكتسب الصنعة ويمهر فيها . وإنما هو صرفه عندئذ ، من بعد مهارة ، فأغلب الظن أنه واجد عملا في غير مصنعه .

لقد تلقى الصبي فكرتي بأن صاحب المصنع يستغله في شيء كثير من استغراب . فلم يكن يتوقع أن يدور في خلدي شيء من ذلك . وهو لم يدر قط في خلده شيء من ذلك . وتقبل موقفه من صاحب المصنع على أنه الشيء الطبيعي الذي يقفه كل صبيّ في مثل سنه وفي مثل طبقته .

وإني أعترف بأن يوسوكي كان حقا فوق أصحاب الأعمال الآخرين رعاية بعماله ، ولكن أثر في نفسي رؤية هذا الصبي يجهد كل هذا الجهد ولا يأخذ عليه أجرا ، وليس له من بعد ذلك في المستقبل بارقة من أمل تعينه على حمل أعباء اليوم الحاضر .

ورجعنا إلى المنزل ، وهو منزل ومصنع معا . فكان الطعام حاضرا فجلسنا إليه توّا ، وبعد الطعام تحدثت إلى يوسوكي في أمر مصنعه ، واعترضت بمثل ما اعترضت به للصبي . فقال لي : إنه أسس هذا المصنع من مبلغ زهيد كان اقتصده زمانا . وإنه بدأ كما بدأ الصبي ، أجيرا ، ولما عرف الصنعة خرج يتجر ، فلما اكتسب ، فتح هذا الذي أرى .

ولما بدأ ، لما بدأ هذا المصنع ، كان يقوم بالعمل هو والصبية في ساعة واحدة . وكان يعمل ما يعملون من ساعات ، ثم هو بعد ذلك يقوم وحده بعمل الحساب ، وعدّ ما صُنع وما لم يصنع ، وما بقي من الخامات ، ويحصي كل ذلك ويرقمه ، فبلغت مدة عمله بذلك في الواقع خمس عشرة ساعة .

ولما حكى لي ذلك ، لم أحس الميل بإتهامه باستغلال صبيته ، ولكني قمت لأرى أثر ذلك في نفسه . فكان أثره حيرة ركبته . ولكنه لم يغضب ، ولم يخجل مما قلت . واعتقد أني مخطئ ، وأنه لا يمكن على أي زعم ، وبأية مندوحة ، أن أكون مصيبا . وأخيله وحيرته ذلك الداعي الذي دعاني إلى أن لا أعده متوثا خيّرا .

واستأنف يقول : إن الحال اليوم خير من حال عرفها لما كان صبيا . فصبيّ اليوم يعمل ساعات أقل مما عمل هو صبيا ، ويأكل طعاما خيرا مما أكل . وإذا كبر أخذ أجرا أكبر مما أخذ . وإنه في أول الأمر كان حريصا على نجاح مؤسسته ، فعمل الساعات الطوال ، وطلب من صبيته وعماله أن يعملوا ساعات طوالا مثله . ولما ظهرت له بوادر النجاح ، أخذ في تقصير ساعات العمل قليلا ، فهاله وأعجبه أن مقدار الانتاج زاد عما كان والساعات طويلة . فشجعه ذلك على تقصير الساعات مرة أخرى ، فزاد الانتاج مرة أخرى . ومن بعد ذلك أخذ يوازن بين مدة العمل ، وفترات الراحة ، وسعة المكان وحاجة العمال من ذلك ، وتفاصيل كثيرة غير ذلك ، حتى اهتدى أخيرا إلى ما هو قائم اليوم في مصنعه الصغير . ووصفه بأنه أكبر إنتاج بأقل مجهود . وقال : إنه شاء أن يترسم خُطَى العلم في ذلك ، وأنه معجب بتجربته ، مغتبط بنتائجها . ثم سألني عما حملني على اعتقاد أنه غير منصف لعماله .

وأخيرا أجاب على السؤال بنفسه . قال : « أنا أقول لك السبب . لو أنك عشت في اليابان يابانيا طول حياتك ، إذاً لرأيت الأشياء كما نراها . إني أعلم أنك عشت في اليابان سنوات كثيرة ، ولكنك لم تعش فيها يابانيا . إنك تلبس ملابس غير ما نلبس ، ومن قماش غير قماشنا ، وتطعم طعاما غير طعامنا ، وتدفع في كرسي سينماك فوق ما ندفع . وأنت تشتري كتبا لا نقدر على دفع أثمانها . وأنت تنام على

السرير وتقعد على الكراسي . واختصاراً لست يابانيا . وأما بدورى لو كنت انجليزيا أو كنت أمريكيا لما استطعت أن أتذوق الحياة في اليابان . ولكنك كثير التسآل دائماً : لمَ تفعلون هذا ؟ ولمَ تفعلونه هكذا ؟ وكيف ؟ وإلام وحتّام ؟ بل لو أني أنا اليوم ذهبت إلى أمريكا أو انجلترا ، فأغلب الظن أني آخذ مآخذ كثيرة على مصانعكم ، وطريقة معاملتكم عمالكم ، لغير سبب إلا أنكم تصرّفون أموركم بطريقة لا أعهدها . فعندئذ قل لي : أينا يكون المخطئ وأينا المصيب ؟

واضطررت عند ذلك أن أقول : إن في الذي تقول يا صديق لحقا لا سبيل إلى نكرانه . أحمد زكى

إعلان

رياسة القوات المرابطة

تقبل العطاءات برياسة القوات المرابطة ٢٤ شارع اسماعيل سرى باشا بالمنيرة بمصر لغاية ظهر يوم ١٨ مارس سنة ١٩٤٦ عن توريد خبز ولحوم وخضروات طازجة وظهر يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٤٦ عن توريد حطب الحريق اللازمة لمعسكرات القوات المرابطة خلال عام ١٩٤٧/٤٦ ويمكن الحصول على المواصفات وشروط التوريد الخاصة بهاتين المناقصتين من الرياسة وثمن النسخة الواحدة من كل منهما ٢٥٠ مليما بخلاف ثلاثين مليما دمغة عن الطلب لكل منهما .

٤٩٣١ ١ — ٢

الموقف السياسى الداخلى

(بقية المنشور على صفحة ٢)

وتهييج الشعب بما تنشره من أنباء ومقالات مثيرة دون أن تنصح بالسكينة وتبصر بعواقب الاندفاع واستمرار الاضطراب .

رابعا — أن هناك بلا شك عناصر تعمل على امتداد الاضطراب واستمرار الشغب بما توحي به من آراء متطرفة ترددها الجموع دون أن يدركوا عقمها ، وقد يكون هم هؤلاء إثارة الصعوبات والعقبات أمام كل حكومة .

خامسا — أن القوات الانجليزية لم تلزم ثكناتها وتحاذر الاحتكاك بالجمهور كما حدث في غير هذه المناسبة . ولو لزمت هذه الخطة لما حدثت تلك الحوادث التي يؤسف لها .

سادسا — أن كل تسامح في إخلال صغير بالأمن قد يجر وراءه اختلالا كبيرا يجر على البلاد متاعب هي في غنى عنها .

والآن وقد مرت هذه الحوادث بخيرها وشرها ولمسنا عن قرب ما يؤدى إليه اندفاعنا في هذا الطريق من إضرار بقضيتنا أصبح واجبا وطنيا على كل مصرى أن يخلد للسكينة وأن يدع للحكومة ورجال الأمة معالجة الأمر بحكمتهم .

وإلى الطلبة خاصة وهم أمل البلاد ومعقد رجائها نسوق الحديث آملين ألا تستهويهم عواطفهم الجياشة الحكمة والتبصر في العواقب ، وأن يذكروا أن البلاد تدخرهم لمهمات أجل من الصياح في الشوارع والأوقات أصعب من هذه الأوقات . وهي ترجو أن يغلبوا الحكمة والرشد ، وألا ينساقوا وراء مهيجين مدفوعين بغيرهم أو عابثين يستلذون اللعب ولو بالنار .

أيها الطلبة إن بلادكم مسكينة ضعيفة يتهز خصومها كل فرصة للتدخل في شئونها والقضاء على أمانيها ، فلا تمكنوهم من هذه الفرصة من حيث لا تقصدون بإشاعة الاضطراب وإظهار حكومتكم بمظهر العاجز الذي لا يستطيع حفظ الأمن فيها . (...)

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٧٦ — الثلاثاء ٨ من ربيع الثانى سنة ١٣٦٥ — ١٢ من مارس سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

حديث المفـــــاوضات

وأخيراً تم تشكيل الوفد الذى يتولى المفاوضات مع الحكومة البريطانية فى أمر تعديل المعاهدة المصرية . وقد كان تشكيل هذه الهيئة محل مباحثات بين الحكومة وأقطاب الأحزاب المختلفة ، وكانت الرغبة متجهة إلى أن تكون ممثلة لجميع الأحزاب والهيئات السياسية التى تشترك فى الحكم والتى تقف فى صفوف المعارضة داخل البرلمان وخارجه . وبذلت المساعى خاصة لإشراك الوفد المصرى فى هيئة المفاوضين ، وقبل الوفد مبدأ الاشتراك ، ولكنه أصر على أن تكون له الرياسة والأغلبية فى تلك الهيئة ، فكان هذا الإصرار سبباً فى فشل تلك المساعى ، وانتهى الأمر باختيار المفاوضين من غير أن يكون للوفد المصرى ممثلون فيهم .

وإثارة المشاكل حول أشخاص المفاوضين ، وجعل اختيارهم مسألة حزبية يحرص فيها كل حزب على أن يكون له منهم عدد يتناسب مع ما يراه لنفسه من مكانة فى الأمة ، مثل من أمثلة تفكيرنا السياسى الذى يدور كله حول الأشخاص ويتمسك بالظاهر والشكليات ؛ فأهداف الأمة واضحة لا لبس فيها ولا خفاء ، وإجماع الأمة منعقد على ألا ترضى بما دون الجلاء الشامل وتحقيق وحدة وادى النيل ، ووطنية الزعماء جميعاً لا يرقى إليها شك . وإذاً فقد كان المعقول أن يكون انتقاء المفاوضين على أساس تخير أفضل الكفايات المشهود لها بالحنكة السياسية وأقدرها على السير بسفينة المفاوضات إلى الغايات التى تنشدها الأمة من غير نظر إلى لونهم الحزبى أو صفتهم السياسية .

بل لعل المفاوضين الذين لا تدعمهم أغلبيات حزبية ولا يشفع لهم عند الأمة عن تقصيرهم فى أداء واجبهم

شافع - يكونون أحرص الناس على الاستمساك بحقوق البلاد وأشدهم قوة في الدفاع عن قضيتها، وأكثرهم جهداً في العمل على إرضائها وكسب ثقتها، وأعظمهم تحرياً لرغباتها وأبعدهم عن التورط في التزامات لا تطمئن لقبول الأمة لها.

والكلمة الأخيرة للأمة فهي صاحبة القول الفصل في نتائج المفاوضات. فلن تقبل ما لا ترضى ولو جاءها به أحب الناس إليها، ولن ترفض ما فيه خيرها عن أي طريق أتاها.

وقد استيقظت الأمة وتنبه وعيها السياسي، فهي تقدر الغايات لا الوسائل وتنشد أهدافها الحقيقية، ولن تخدع عنها بالكلمات الموهمة والعبارات البراقة. فنجاح المفاوضات لديها مرهون بأن يكون جلاء القوات الأجنبية عن كل بقعة في ديارها حقيقة ملموسة، وأن تكون صلتها بالسودان واضحة قائمة على أساس اتحاد جزءي وادي النيل في كيان مستقل، وهي لا تنظر في تقديرها المفاوضين إلى أشخاصهم، ولكن تنظر إلى أعمالهم وجهودهم في سبيل تحقيق تلك الغاية، فإن نجحوا كانت هاماتهم بالحمد، وإن قامت في سبيلهم عقبات فقطعوا المفاوضات بشرف وإباء ورفضوا قبول ما هو دون أهداف الأمة فلن يقل تقديرها لموقفهم واعترافها بما بذلوه في صون كرامتها وأداء أمانتها.

من أجل هذا كله نرجو ألا يثار الغبار حول هيئة المفاوضين وألا يجرحوا وهم على أبواب القيام بمهمتهم الثقيلة، وأن تقف الأمة منهم موقف المراقب المنتظر لما تسفر عنه جهودهم، وأن يزودوا بالتشجيع والتأييد، حتى يقبلوا على واجبهم دون انشغال بالحملات الحزبية التي تقوم وراء ظهورهم، وأن يمدهم كل قادر بالعون والمساعدة والنصيحة تيسيراً لمهمتهم.

على أننا نتوجه إلى هيئة المفاوضين راجين أن يكون لهم في دروس الماضي عبرة وأن يتدبروا ما كان من تساهل منا في معاهدة سنة ١٩٣٦، وما جره ذلك علينا. لقد تنبه المغفور له محمد محمود باشا إلى أخطار بعض نصوص تلك المعاهدة، ولكن حرص المفاوضين على إتمام المفاوضات وحسن ظنهم بالإنجليز أغفلاهم من أن يولوا تلك الاعتراضات ما هي جديرة به من العناية، وقد أثبتت الأيام صدق نظر من تنبهوا لتلك الأخطار. واليوم نحس أن تلك المعاهدة التي سميت في ذلك الحين معاهدة الصداقة والشرف وحمل الشعب على التهليل لها والاغتباط بها كانت معاهدة جائرة تحملنا فيها وحدنا كل الغبن وقيدنا فيها بقيود والتزامات فعلية، في حين أن الجانب الآخر لم يحتمل إلا التزامات صورية وهمية لا يمكن أن توضع يوماً موضع التنفيذ.

وهكذا الشأن في كل معاهدة تقوم بين قوي وضعيف تكون نصوصها مقيدة للضعيف لا فكاك له من احتمال التزاماتها، وتكون تعهدات القوي صورية لا يعدم وسيلة للتحلل منها. ولدينا مثل ظاهر في اتفاقية السودان، فهي تجعل الحكم ثنائياً تشترك فيه مصر وبريطانيا، ولكن قوة بريطانيا جعلت الأمر فيه لها وحدها، وضعف مصر أعجزها من أن تمارس حقها وأقنعها باشتراك رمزي صوري.

فيجب أن يكون واضحاً بجلاء أن ما تقيدنا به المعاهدة من التزامات ستكون قيوداً حقيقية تستغل لأقصى حدودها، وما تتعهد به انجلترا من التزامات مقابلة ستكون أموراً صورية لا تنفذ إلا إذا شاءت لها مصالحها وظروفها ذلك.

إن الأمر بيننا وبين انجلترا عجيب. فنحن نفاوضها في أمر الجلاء عن بلادنا وهو حق طبيعي لنا باعتبارنا دولة مستقلة، وبقاء جنودها في بلادنا إجراء تعسفي غير شرعي من جانبها كان يجب عليها المبادرة إلى إنهائه من غير حاجة منا إلى مطالبة ومن غير ضرورة لمفاوضة. ولكن قوتها والنزعات الاستعمارية التي لا تزال غالبة على عقلية بعض ساستها قد سوغا لها أن تجعل لنفسها حقاً في

أن تساومنا على إرجاع حقنا إلينا ، وتكسب منا بعض المزايا مقابل أدائها هذا الواجب ، وهي تعبر عن ذلك بلغة السياسة بما تسميه « الصداقة والتعاون » و « المشاركة » .

ويجب أن نكون صرحاء في إفهام انجلترا أننا لم نعد أغرارا نخدع بالألفاظ الجوفاء ، فالصداقة لا تفرض ، والتعاون إذا جاء من طريق التقييد كان إكراهاً بغيضا . ومصر لا تفهم المشاركة إلا على أنها تدخل من جانب القوى وحده في شئون الضعيف .

لقد شبت مصر عن الطوق وأصبحت تسمى الأشياء بأسمائها وتقدر الأمور بحقيقتها . وهي ترى أن بريطانيا إذا كانت حقيقة تنشد صداقة مصر فالوسيلة الوحيدة ألا تجرح كرامتها ولا تقيدها بقيود تشعر بسوء الظن بها .

على أننا إذا حللنا الموقف تحليلا دقيقا صريحا قلنا إن الأمر الذي يعني انجلترا من بلادنا هو أن تطمئن على سلامة مواصلاتها بإمبراطوريتها ، وأن تطمئن إلى أن قوة أخرى لا تزاحمها في البحر الأبيض المتوسط ، وليس بقاؤها في مصر حلاً لهذا الإشكال . وإنما الحل الصحيح أن يسود التفاهم بينها وبين روسيا . وروسيا وبريطانيا إنما تتبادلان سوء الظن لما تعتقده كل منهما في الأخرى من أن سياستها قائمة على نزعات التوسع والاستعمار . ولو تجردتا معا من تلك النزعات لاستراح بال العالم . ولو سبقت إحداهما الأخرى إلى التجرد من تلك النزعة الرجعية لرجيح أن تلجأ الأخرى إليه ، وإلا سقطت حجتها وقام العالم كله جبهة واحدة في وجهها . فلا محل لتحكيم صفونا وتجريدنا من حياتنا الحرة المستقلة بسبب منافسات سياسية بين دولتين تستطيعان حل مشاكلهما بالتفاهم إذا خضعتا معا لصوت الحق وتجردتا معا من مطامعهما الاستعمارية .

إن على مفاوضينا ألا ينحنوا ولا يلينوا ولا يهنوا ولا يتورطوا ، وأن يواجهوا الإنجليز بصراحة ، فالأمة لا تغتفر ضعفا يقيدها بأي قيد . (. . .)

آراء في الإنجليز

— إذا أردت أن تدخل معركة فاجعل على يمينك إنجليزياً وثانياً على يسارك وثالثاً أمامك ورابعاً خلفك ، فإن هؤلاء الإنجليز شيء ما يضمن السلامة ، ولا تنس ذلك حتى ولو أثار غضبك ما يأتيه هؤلاء المجانين المجذوبون من أمور غريبة .

(فولتير)

— يشعر الإنجليز أنهم في أسعد حالاتهم حينما يقال لهم إن الدمار قد حاق بهم .

(آرثر ميرق)

— الصمت هو محادثة مع رجل إنجليزي .

(هيترش هيني)

— كل إنجليزي في نفسه جزيرة ، مثله في ذلك مثل بلاده .

(نوفاليس)

— . . . . وإني لأود أن أحمد الله آخر الأمر على أن جعل الإنجليز يسرفون في المال ، ولم يجعل المال يستبد بهم ، وعلى أن أيديهم ليست رهن قلوبهم وإنما قلوبهم على أكفهم ، وعلى أنهم يتقدمون في السن ، وتظل وجوههم خالية من التجاعيد وتبقى عيونهم كعيون الأطفال ، وعلى أنهم أعرق الناس في الحرية ومع هذا يعرفون كيف يقولون « شكرا » ، وعلى أنهم يقتصدون فيما يصدر عنهم من عبارات الثناء ، وعلى أنهم لا يهتمون كثيرا بأن يكون الإنسان من أحدث طراز ، وعلى أنهم لا يحاولون أن يجعلوا من الكلاب رجالاً كاملين ومن الحدائق غرف استقبال ، وعلى أنهم قد أنشأوا هذه الدرة البديعة التي تسمى لندن !

بول موران — من Merage

(صحيفة بلجيكية تصدر في لندن)

(٥) من الأقوال المأثورة

في الأدب الغربي والعربي

من الأدب الإيطالي :

« أنا لا أومن بالجغرافيا »

قالها البرنس أودوراتو كايتاني أثناء رياسته الجمعية الجغرافية الإيطالية ، وأسلفها الدوق ميكلانجلو وقد عرض عليه رجل تقبل كتاباً في الجغرافيا بثمن غال وألح عليه فقال : « إني آسف ! فأنا لا أومن بالجغرافيا » .

•••

الحكومة الملكية توحدنا ، والجمهورية تفرقنا .

•••

(علم) الحساب ليس رأياً .

قالها وزير مالية في البرلمان بعد أن استقال إثر مشادة ، وقد نصح باحترام الآراء المختلفة فقال : « إني أحترم كل الآراء وإن اختلفت ، ولكن الحساب ليس رأياً » يعني أن الأرقام والإحصائيات فوق الآراء التي تعتمد على الجدل

•••

ولدت حراً وعشت حراً وسأموت حراً .

كلمة كتبت على وسام ضرب في روما .

•••

إيطاليا ستشق طريقها .

قالها كارل ألبرتو (١٧٩٨ — ١٨٤٩) .

•••

أجيب بأني لا أجيب .

قالها وزير زراعة في البرلمان .

•••

قال رجل لوزير في عهد جريجوري السادس عشر : إن السجون امتلأت بالمجرمين السياسيين ، فقال الوزير : إذا كانت السجون ملأى فالقبور فارغة .

•••

من الأدب اللاتيني :

اللعبة انتهت .

قالها فيلسوف وهو يحتضر إشارة إلى أن الحياة لعبة ، ومثلها ما ينسب إلى أوغسطس (٦٣ قبل الميلاد — ١٤ بعد الميلاد) وقد سأل أصدقاءه وهو يجود بنفسه : هل أجدت لعب دوري في الحياة ؟ .

•••

قال أرسطو : أفلاطون عزيز علي . ولكن الحق أعز علي منه (١)

•••

ألا تعلم يا بني أن العالم محكوم بقليل من الحكمة .

•••

من عجل عطاءه فقد ضاعفه .

•••

كان من عادة الرومان القدماء إذا انتصر قائد أن يكرموه ، ولكن يركبون مملوكاً خلف عربته يقول له وسط هتاف الجماهير :

« حاذر أن تسقط » .

•••

لقد خسرت يوماً .

قالها الإمبراطور « تيتوس » وقد ذكر أنه مر عليه اليوم لم ينفع فيه أحداً .

•••

أنا ملك الرومان وفوق النحو .

---

(١) عدت هذه الكلمة لاتينية لأنها رويت في اللاتينية ولم يعثر على أصلها في اليونانية .

قالها الامبراطور سيجسموند وقد أخطأ فى قواعد النحو فنبه إلى خطئه .

اعدل ولو انطبقت السماء على الأرض .

* * *

الرجل الشجاع يهضم الأشياء القاسية .

* * *

أرت امرأة امرأة أخرى جواهرها الثالية فقالت الثانية وأشارت إلى أولادها : « هذه هى جواهرى » .

* * *

تذكر أنك إنسان .

أسرّها مملوك لسيده القائد الظافر والناس يهتفون له

* * *

لقد قضيت حياتى مشغولا ولم أعمل شيئا !

قالها هوجو جروتيوس وهو يحتضر .

* * *

ليس يسعد أحد ما دام هناك الموت .

* * *

ما من كتاب — مهما قبح — إلا وفى بعض ما فيه فائدة .

* * *

قال بلوتارك فى ترجمة أحد رجاله إنه كان يحدث عن نفسه أنه « قام بأعظم أعماله فى أوقات فراغه » .

* * *

سئل « ستلبو » أحد فلاسفة اليونان وقد نهبت بلدته : هل فقد شيئا ؟ فقال : « لا . كل ما أملك معى » .

* * *

ما أقدسك أيتها البساطة !

* * *

إن الأمير الذى لا يعاقب المسيئين يشجعهم

* * *

إذا كنت فى روما فافعل ما يفعل الرومان .

* * *

من لم يعرف أن يتصنع لم يعرف أن يحكم .

* * *

من أوعز بالعمل فعُمل كان مسئولا كما إذا عمل .

* * *

السكوت رضا

* * *

إذا عشت وفقاً للطبيعة لم تكن فقيراً أبداً ، وإن عشت وفقاً للأوهام لم تكن غنياً أبداً .

* * *

دعهم يكونوا كما هم أو لا يكونوا أبدا .

كلمة قالها رئيس الجزويت وقد طلب منه أن يغير فى نظامهم .

* * *

هل دائماً تجور — أيها الجزار ؟

كلمة وجدت مكتوبة للأمبراطور أوغسطس وقد همّ بالأمر بقتل عدد من رجاله . فلما قرأها كف عن القتل .

* * *

لقد تسلمتُ روما طوباً وخلّفتها مرمرا .

* * *

ومثله قول بعض الإنجليز بمناسبة إصلاح القوانين : لقد كانت المدينة فى المزاد لو وجدت مشتريا .

* * *

أتيت فرأيت ففتحت .

كلمة تنسب إلى يوليوس قيصر بعث بها فى وصف غزوة انتصر فيها .

(يتبع) أحمد أمين

نظرات
في الفلسفة والسياسة
منتخبات من غوستاف لوبون

« إن الرق الحق هو رق العواطف » هذا ما قاله عالم بإبان لأحد الفرنسيين . وقد كان بوسعه أن يضيف إلى ذلك أنه إذا كانت بضع سنوات يقضيها الطالب في التعلم الجامعي قد تضمن له الرق العقلي ، فلا بد من أحقاب طوال لكي تتحضر عواطف شعب ما .

* * *

يمكن أن يقال عن الغذاء العقلي الذي يقدم بالتربية والتثقيف مايقال تماماً عن الغذاء المادي : « ليس كل مايؤكل يغذي ، ولكن ما يهضم فقط . »

* * *

قد نرى أحياناً رجالاً يهجرون دينهم ، ولكن قلّ أن نرى بينهم من يتجرد في الوقت نفسه من الأفكار التي تفرّعت من هذا الدين ، واكتسبها بالوراثة . وهذا يفسر البغض الشديد ، والحقد الكثيف ، اللذين نجدهما عند بعض الدبلوماسيين ، نحو السلفيين .

* * *

إن عدم عرفان الأسباب الحقيقية في الحادثات ، هو في السياسة ، ينبوع ثرّ للأخطاء الخطيرة .

* * *

إن من أعظم أخطاء رجال الثورة ، في العصور كلها ، اعتقادهم أن القضاء على الخصوم هو أحسن وسيلة لجعلهم يصمتون . ولكن التجربة دلّت ، مع ذلك ، على أن الموتى يتكلمون أحياناً بصوت عال أكثر من الأحياء ، وأنه يصغى إليهم أيضاً أكثر من أولئك .

* * *

لكي نزيل الحروب من العالم ، ينبغي أن نجد السبيل لنزع الغرائز القاتلة المتوارثة التي تحرك ، منذ الطفولة حتى الشيخوخة ، معظم المخلوقات .

* * *

لا يذكر ، منذ أقدم العصور ، سبب واحد كله شر ، وخاصة في السياسة ، إلا وجد من يدافع عنه ! حتى قابيل نفسه ، لو أدركه الساسة يوم فعل فعلته لا لتمسوا له عذراً .

* * *

لو أنهم شرطوا ، لقبول إنسان ما في السلك الدبلوماسي ، أن يمتحن في معرفته أخلاق الشعوب ، والوسائل التي تؤثر في سلوكها وتبدلها ، وتوجيهها ، لما وجدت ، من المحتمل ، في أوروبة كلها ، عشرة رجال قادرين على هذا الامتحان .

* * *

إن حياة الفرد ، في الحقيقة ، هي تتابع لحياة أجداده الأسلاف الطويلة ودوامها . فإذا أضفنا إلى هذه الحياة السلفية ، حياة الأبناء ، والأحفاد ، الدائمة فينا ، وبأولادنا . . . استطعنا أن نقول : إن حياة الفرد ، رغم قصر وجودها الظاهر ، ذات طول عجيب لا ينتهي .

* * *

إن الديموقراطيات ، وهي أبعد من أن تذيب الأحقاد الدولية ، لم تفعل إلا أنها جعلتها تزيد وتقوى .

* * *

إن من المفيد كي يعرف الإنسان كيف يتجه في الحياة ، أن يفكر ، بعض الأحايين . ولكن لا ينبغي أن يفكر كثيراً إذا أراد أن يبقى سعيداً .

(دمشق) صموع الدبه المتحد

ألوان النفوس

لا نزاع فى أن عالم المعرفة فى العصر الحديث قد اتسع نطاقه وغزرت مادته ، والمرجح أنه قد بلغ مستوى لم تصل إليه العصور الخالية والحضارات القديمة ، ولكن الذى يسترعى النظر أن معرفتنا بالأشياء البعيدة عن علاقاتنا الإنسانية واهتماماتنا الدنيوية أوفر وأوثق ، فنحن نعلم عن حركات الكواكب وتكوينها ومتون البحار وقيعانها أكثر مما نعلم من مدى رغباتنا وأغوار نفوسنا ، وقد ألمع كثير من المفكرين إلى تخلف العلوم الاجتماعية والنفسية والاقتصادية عن العلوم الطبيعية ، وقد ذكر العلامة ماكدوجال فى رسالته القيمة عن « الفوضى العالمية » أن علم النفس وعلم السياسة وعلم الاجتماع لا تزال أسماء لطيفة جذابة تكشف عن ثغرات فى معرفتنا ، وأنها تمثل أمانى وطمحات أكثر مما تعبر عن أعمال تمت وغايات تحققت ، وأنها تصف برامج للعمل ومناطق لا تزال تسودها الفوضى ويغمرها الظلام ، ولكن هذه المناطق يجب أن يشملها النظام ويصل إليها الضوء الذى يجلو الظلام إذا قدر للحضارة البقاء والاسترسال فى النماء ، والشىء الغريب أن أساس المعرفة نفسه وهو كيف نعرف حقيقة الأشياء لا يزال موضع التساؤل والأخذ والرد ولم ينحسر عنه النقاب .

ومعرفة العلاقات المتبادلة بين مختلف النفوس وتأثير بعضها فى البعض من المسائل التى لم تدرس دراسة مستفيضة ، ولم يكثر من تداولها الباحثون ، وهى من المسائل التى تتصل اتصالا وثيقاً بعلم النفس والأخلاق والفلسفة . ومهما يكن من الأمر فإنها موضوع شائق قد يستعصى على البحث العلمى ، ويتأبى على التحليل ، وتتعارض فيه وجهات النظر ، ولكنه يتناول الكثير من الحقائق الشديدة الاتصال بالحياة ، والتى تمدنا بنتائج هامة وتبشر باقترابنا من آفاق رحاب من آفاق المعرفة رغم وعورة مسالكها والتواء مسالكها .

وأول ما يواجه الباحث فى ألوان النفوس هو مسألة الاستعانة بالمنهج العلمى ، وهو يعتمد أول ما يعتمد على تقسيم الأشياء إلى طبقات وأنواع ، فهل هذا ينطبق على دنيا الشخصية وتطرد أحكامه فى عالم النفس وملكوت الروح ؟ لا شك أنه لا ينطبق ولا تسرى قوانينه إذا حاولنا تطبيقه على السمات البادية واللامح الخارجية لسبب بسيط ، وهو أنه ليس للنفوس أشكال معروفة ولا سمات بارزة ملموسة ، ولكن يمكن أن نقسم النفوس بطريقة تكشف عن صفاتها المشتركة ، وخصائصها العامة ، وأظن أن ذلك قد يلقى شيئاً من الضوء ، ويعين بعض الإعانة على التبصر والفهم .

والنفس الحبيسة الجسمة هى أول ما يطالعنا من ألوان النفوس ، وأوضح مميزات هذه النفس أنها — على حد تعبير المتنبى — تسكن اللحم والعظم وتكتسى رداء الجسد ، ولكن هذه الميزة قد تكون مصدر شقائها وسبب محنتها ، فإن الجسد قد يعوق هذه النفس الهابطة من المحل الأرفع ، ويرى البعض أن الصراع العنيف الناشب بين النفس والجسد يكشف عن قوتها ، ويبين معدنها وطبيعتها ، وعلى هذا الصراع تقوم مأساة الإنسان فى الحياة ، وكذلك ملهاته ومجده وسقوطه ، وشعورنا بأننا شىء أكثر من الجسد وأسمى شأناً هو نفسه دليل على أن فى نفوسنا شيئاً يسمو على الطبيعة وأن البستى على حق فى قوله : « فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان » . ولكن كيف اتجه الإنسان إلى التفريق بين النفس والجسد وأنزل النفس منزلة أسمى من منزلة الجسد ؟ وما معنى هذا وأثره فى العلاقة بيننا وبين غيرنا ؟ . .

قد يعيننا على إيضاح ذلك النظر إلى لون آخر من ألوان النفوس ، وهى النفوس غير المجسمة ، وفكرتنا عن هذه النفوس كثيرة الدلالة فياضة المعانى ، وقد نتساءل : هل لها وجود قائم بذاته شاعر بكيانه ؟ وهل هناك وجود بوجه عام وراء انفصال هذه النفوس عن أجسادها وخلاصها من قيودها وسجنها ؟ أم المسألة لم تخرج عن كونها ضرباً من ضروب التفكير الإرادى الذى ينشأ من رغبتنا فى أن نمد حياتنا إلى ما وراء الحاضر لنستمر مستمتعين بنوع من الوجود لا نعرف له سابقة ولا نظيراً ؟ وهل لأمثال هذه النفوس المفارقة لأجسادها شعور بالواقع وإحساس بالحقائق ؟ .

هذه مشكلة شائكة طال عليها القدم وكثر حولها الخلاف فلنتركها كما هى ، والواقع الذى لا يمكن إنكاره أن بعض هذه النفوس التى نطلق عليها تلك اللفظة البغيضة « الموتى » لا تزال موجودة بالقياس إلينا ، فهى حية فى نفوسنا وقوى روحية تؤثر فى حياتنا ، وكثير من الأعزاء علينا الأثيرين فى نفوسنا الذين فارقوا الحياة وطوتهم القبور ونال من عظامهم البلى لا تزال ذكراهم نضيرة فى نفوسنا نستنجد بها فى الملمات ، وربما أدركنا الحياء والخجل إذا تصرفنا فى أمر من الأمور تصرفاً نعلم أنه لم يكن يرضيها فى حياتها ويلائم رغباتها ومطالبها .

ومن النفوس التى فارقت هيكلها فرقة يصح أن نسميها النفوس التاريخية ، فقد أخذت مكانها فى طليعة العناصر التى يتكون منها التاريخ ، وارتسمت فى خيال الإنسانية العام متنقلة من جيل إلى جيل . ومن الناس من يحسبون التاريخ مجرد تسجيل للحوادث بعد أن استقرت حركتها واستوفت سيرتها ، ولكن التاريخ على نقيض ذلك ، فهو قوة حية مؤثرة فى أحوالنا ومذاهبنا وأفكارنا ، وهو الأساس الذى تقوم عليه الحضارة والعرف والتقاليد ، وهو أشبه بنهر تتدفق مياهه من منابع الماضى السحيق وتروى وادى الحاضر المرع الخصيب ، ولولاه لأصبح الحاضر والمستقبل بلاقع وأجادب ، والنفوس التاريخية من عناصره الفعالة وقواه المؤثرة ، ولا نستطيع أن نذكر التاريخ وننسى عظماء الأنبياء ، وقادة الأمم وكبار الساسة ونوابغ القادة ، والمصلحين والهداة والعبقريين من الشعراء والكتاب والعلماء والفلاسفة ، وأمثال هؤلاء الرجال الأفذاذ قد غابت عنا أجسادهم ولكنهم برغم ذلك على مقربة منا ويعيشون معنا ، ونحن نهتدى بهديهم ، ونترسم مثلهم العليا ، وننتصح بنصائحهم ، ونفيد من حكمتهم ، ولا ينقص من قيمة هذه الشخصيات الكبيرة والنفوس العظيمة اعتقاد بعض الناس أننا نضفى عليهم حلة من خيالنا وأن حياتهم فى عقولنا وقلوبنا مختلفة عن حياتهم الأصيلة وحقيقتهم الواقعية ، فإن هذا التعظيم من شأنهم لا يشوه حقيقتهم ولا يزيف من معدنهم ، وإنما يكشف عن أنفسهم خالصة من الشوائب نقية صافية ، ويبرز صفاتهم السامية الجليلة ، ويجلى جوهر وجودهم ، وأساس عظمتهم ، وسر تفوقهم ، ويطرح القشور ويبقى اللباب ، والصورة التى تمحو من الوجه الكلف والنمش ، ولكنها توضح ملامحه ومعارفه وتكشف عن معناه ، لا تعد صورة زائفة مزورة بل هى تزيد الحقيقة وضوحاً وتؤكد الواقع .

ومن ألوان النفوس التى أثرت فى الحياة الاجتماعية والثقافية نفوس تبدو فى بادىء الأمر خيالية ليس لها وجود حقيقى ، ولكن إذا نظرنا إلى تأثير هذه النفوس وجدنا أننا مضطرون إلى أن نعزو إليها نوعاً خاصاً من أنواع الوجود ، فقد تبوأت مكاناً رفيعاً فى عالم الأدب والثقافة والفكر والنقد ؛ فهملت ودون كيشوت وفاوست وجلفر وأمثالهم من ذوى الشهرة الذائعة لهم تأثير ملحوظ

في تشكيل مثل الحياة ، وتكوين الأفكار ، وإحداث الاتجاهات الأدبية ، والتيارات الثقافية ، وقد تكونت هذه الشخصيات في عقول خالقيها ، وقد صاغوها على أمثلة رجال حقيقيين عاشوا في هذه الدنيا ، ولكن بنوع من الاختيار والتركيب والحذف والاضافة ، وفي ذلك توسيع لآفاق النفس الانسانية ، وإغناء لتجاربها واختباراتها ، وأمثال هذه النفوس لايبلي جدتها الزمن ، بل هي كقصائد أبي تمام التي يقول فيها :

وزيدها مر الليالي جدة
وتقادم الأيام حسن شباب

وهذه الأنفس بالرغم من أنها وليدة عقول موجديها ومن خلق خيالهم فإنها مع ذلك لها وجودها الخاص وأثرها البارز .

وهناك لون آخر من ألوان النفوس قد خلقتها الأوهام ومفزعات الأحلام ، ولها في الحياة الاجتماعية تأثير غير منكور ، ولهذا الاعتبار لا يمكن تجاهلها ، ومن خصائص الخيال الانساني العجيبة أنه قد يستخرج من العدم وجوداً ويدعو من عالم المحال والهباء الأشباح والأخيلة والظلال والهامات والأرواح والشياطين والمردة والتوابع ، ويصورها صوراً تثير الخوف والرعب ، وتكشف عن قدرة الانسان على إيلام نفسه وتعذيبها ، وتبين ما بالضمير الانساني من علل وآفات وأسقام ، وقلما كان ضررها أكثر وأعم من نفعها ، وأشهر هذه المخلوقات الوهمية هو الشيطان ، وقد صاغه الانسان من مخاوفه وأوهامه فأصبح الانسان خالقه أسيره الذي يرهب سطوته ويخشى تأثيره ، وقد وجد من يعبدونه ويقدمون له القرابين ! وربما ذلك كيف يلتوي الخيال ، ويخفق العقل ، ويتعثر الفهم . فالخيال عمله الأصيل هو توسيع جوانب الحياة وإكمال نقصها وإشاعة السرور والابتهاج في مختلف نواحيها ، ولكنه هنا يخلق أسباب الألم والعذاب والشقاء ، وطالما عذب البريء الخلي وآذى السليم القلب والطوية .

هذه ألوان النفوس التي لها مكانة في المجتمع وأثر في التاريخ ، ولكل منها طبيعته ومميزاته ، وبعض الحقائق تقربنا بالذهاب إلى أن النفس المجسمة هي وحدها النفس الحقيقية ، ولكن هل هذا الوجود المجسم هو الأسلوب الوحيد من أساليب الوجود ؟ الواقع أن الجسم وحده لا يكفي في الدلالة على النفس وما نعده من عالم النفس والروح والشخصية قليل لا ينقع الغلة ، وقد استولى العلم الطبيعي على عقول الأمم التي لها الصدارة في حياة الفكر والثقافة . وربما كان الشاعر بوب على حق في قوله : « الدراسة الحقيقية للنوع الانساني هي الانسان » ولكن الانسان في العصر الحاضر كما سماه ألكسيس كاريل « الانسان المجهول » .

علي أدهم

من عجائب الماء :

الأحياء الهائمة (١)

شرحنا في مقالنا السابق البلانوم ، وبينا كيف يتأثر نموها وتكاثرها في جميع مناطق العالم باختلاف فصول السنة ، إذ تبلغ نهايتها العظمى في الربيع ثم يقل نشاطها في الصيف لتنشط مرة أخرى في الخريف ، ولكن بدرجة أقل ، وتبقى ساكنة مدة الشتاء . أما في مصر فيختلف نشاط هذه الكائنات عن ذلك ، مما سنبدأ هنا بشرحه مستندين على البحوث التي أجراها الدكتور فتحي الزراوى المدرس بكلية العلوم بجامعة فاروق الأول بالإسكندرية الآن ، والذى كان بمعهد الأحياء البحرية حين أجرى تلك البحوث . وكان بحثه على النباتات الهائمة في قنال السويس ، ونشرت نتائجه في عام ١٩٣٩ ومنها يتبين ما يأتى :

١ — تبلغ الهائمات النباتية نهايتها العظمى في الجزء الجنوبي من القنال في الخريف .

٢ — تبلغ الهائمات النباتية نهايتها العظمى في الجزء الشمالى من القنال في الصيف كما توجد نهاية عظمى في الشتاء .

ويلاحظ أن هذا النظام يخالف ما يلاحظ في معظم مناطق العالم من حيث أن النهاية العظمى تكون في الربيع وفي الخريف . ويرجع السبب في ذلك إلى أن شدة الضوء والحرارة في مصر يتغيران كثيراً بتغير الفصول ، ومعنى هذا أن العاملين متوفران طول السنة ، وكان الواجب تبعاً لذلك أن لا تظهر نهاية عظمى بل يستمر النمو ما دامت ظروفه متوفرة . ولكن وجد أن في جنوب القنال تبلغ درجة الحرارة حداً يساعد أنواعاً من البكتريا على النمو ، وهذه البكتريا تؤثر في المواد الأزوتية فتحللها وينبعث الأزوت منها ، وبذا تحرم نباتات البلانوم من عنصر هام لا غنى عنه لنموها وتكاثرها .

أما في شمال القنال فتبلغ البلانوم نهايتها العظمى في الصيف . ومن الطبيعى أن درجة الحرارة في هذه المنطقة لا تختلف عن الدرجة في المنطقة الجنوبية ، فكيف لا يظهر أثر البكتريا في هذه المنطقة ؟ السبب في ذلك هو فيضان النيل . فمياه الفيضان تزخر بالمواد الغذائية ، وتزيد هذه المواد إلى حد يتغلب على أثر البكتريا التى تحلل الأزوتات ، وعلى ذلك تجد البلانوم ما يكفيها لنموها وتكاثرها ، فتبلغ نهايتها العظمى وقت الفيضان أى في الصيف ، ويعقب ذلك سكون في الخريف ، إذ يستنفد جزء كبير مما بالماء من مواد غذائية . وفي الشتاء يؤدى الاختلاف النسبي في درجة الحرارة إلى تزويد الماء بمواد غذائية نتيجة لحركة المياه تبعاً لاختلاف درجة حرارة المياه السطحية عن مياه القاع ، فتنشط البلانوم مرة أخرى ولكن بمقدار أقل .

وما يحدث شمال القنال يتكرر عند نهايتى فرعى دمياط ورشيد ، إذ يصب النيل هناك ماءه المتحمل بالغذاء والذى يساعد على تكاثر البلانوم إلى حد كبير ، فيؤدى ذلك أيضاً إلى توارد الأسماك المهاجرة (ومنها السردين) نحو هذه المناطق فتجد فيها ما يساعدها على السمن والتكاثر

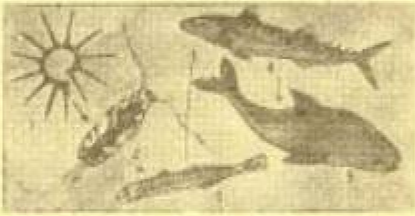
وليست البلانوم هي كل ما نجده في الأحياء الهائمة من نباتات ، بل هناك أنواع أخرى وحيدة الخلية ، تطفو على سطح الماء ، فتكسبه لوناً أخضر ، ومن ثم سميت مراعى البحر ، تشبيهاً لها بمراعى الأرض التى يغطيها الكلأ الأخضر .

هذا من ناحية الهائمات النباتية ، والتى تعيش معتمدة على نفسها في غذائها . أما الحيوانات الهائمة ، التى تتطفل على غيرها فتستمد منه غذاء مجهزاً ، نباتياً كان أو حيوانياً ،

(١) تتمة البحث الذى نشر في العدد ٣٢٣ من (الثقافة)

فهذه أيضاً تلعب دوراً هاماً بالنسبة لأحياء البحار . فهي تتغذى وتنمو وتتكاثر ، ثم لا تلبث أن تموت فتصبح أجسامها مرتعاً لفعل البكتريا التي تحلل المقد من أجسامها فتتكون الأملاح ، وتنبعث منها الغازات ، وكل هذا يمد الماء بما أخذ منه ، من مواد تساعد النبات على النمو .

والهائمات الحيوانية كثيرة متباينة : متباينة في أشكالها وفي أحجامها ، فقد تكون مجهرية ، وقد يصل بعضها إلى القدم طولا ، ومثال ذلك قناديل البحر ، التي تتقاذفها الأمواج أحياناً وقد تسبح أحياناً أخرى على الجزء الأكبر من الهائمات الحيوانية ، ينتمي إلى قسم القشريات أمثال أبي جلمبو والجمبري وغيرها . وهذه لها أطوار صغيرة في أول حياتها ، وهذه الأطوار تعيش هائمة ثم لا تلبث بعد أن تنمو ، أن تصبح حرة تسبح أنى تشاء .



وتلعب صغار القشريات دوراً هاماً في البحار ، فهي تشمل حيوانات الكوبيودا Copepoda أي مجذافية القدم ، وهذه تعتبر أكبر غذاء للحيوانات البحرية . ومن بين هذه حيوان الكلانس Calanus الذي يبلغ طوله ٧ مليمترات ، وهو أكثر الحيوانات عدا ، فيطغى على ما سواه ، فهو أهم غذاء لأحياء البحار .

ويتغذى الكلانس على نباتات الدياتوم أحياناً ، وعلى صغار الحيوانات أحيانا ، ثم يصبح الكلانس بعد ذلك غذاء لغيره وخاصة يرقات الأسماك . وهذه اليرقات تتغذى عليها أسماك أكبر مثل الرنجة ، فهذه تتغذى على الهائمات طول حياتها ، وربما تعجب القارىء إذا عرف أن الحوت الذي يبلغ حجماً كبيرا يجعله أكبر المخلوقات ، هذا الحيوان يتغذى على الهائمات دون غيرها ، إذ أنه يدخل الماء في فمه ثم يصفيه من خلال الصفاة التي توجد في فمه من الداخل ثم يبتلع ما يبقى بعد ذلك ، ومريئه ضيق إلى حد كبير ، فلا يسمح إلا بمرور هذه الهائمات الدقيقة .

ويكون بيض الأسماك جزءاً من الأحياء الهائمة ، ويجد البيض وسطاً مناسباً لتكوينه وفقسه ، لأن الطبقة السطحية تكون أدفأ مما تحتها ، كما أنها تحوى مقداراً من النباتات تقوم بعملية التمثيل الكلوروفيلي فتزيد من نسبة الأكسجين في الماء ، وهذا يساعد على نمو الجنين في بيض السمك . وإذا ما خرجت اليرقات بعد ذلك وجدت من الغذاء ما يكفيها .

وتكون الأحياء الهائمة سلسلة متصلة في عالم البحار إذ تنمو الدياتوم وغيرها من النباتات ، وهذه تكون غذاء الحيوانات الهائمة التي يتغذى عليها صغار الأسماك ، وهذه الأخيرة يتغذى عليها أسماك أكبر وهكذا . فإذا ما وصلنا إلى أقوى الحيوانات نهما ، فهذه تصبح بعد أن تبلغ نهايتها ، تصبح مرتعاً خصباً للبكتريا ، فتتحلل أنسجتها ويتحرر مابها من أملاح ومركبات ، تعود إلى مياه البحار لتصبح غذاء للنبات ، وهكذا تدور الحياة .

محمد أحمد بيومي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
التليفون — ٥٦٢٦٩
القاهرة

خطابات إلى شاعر ناشىء

كتبها الشاعر الألمانى رلكه

(١٨٧٥ — ١٩٢٦)

ترجمها الدكتور أبو ريدة

— ٧ —

روما فى ١٤ مايو ١٩٠٤

عزيزى هر كپّس

مضت حقبة طويلة من الزمن على تسلمى خطابك ، فأرجو منك المعذرة . عاقنى فى أول الأمر العمل ، ثم أعقبه اضطراب البال ، وأخيراً جاء توعّك . إلخال ذلك دائماً بينى وبين الإجابة التى كنت أحب أن تصلك صادرة من أيام طيبة هادئة ، ثم إن بداية الربيع عما فيها من فترات انتقال سيئة متقلبة كانت هنا أيضاً ثقيلة على النفس . والآن أشعر بشئ من التحسن ، فأريد يا عزيزى هر كپّس أن أحييك وأحدثك عن نقط شتى من خطابك بقدر ما أعرف ومع عظيم سرورى وصادق شعورى بذلك .

وقد نسخت «السونيت» التى بعثت بها إلىّ كما ترى ، لأنى وجدتها جميلة غير متكلّفة ، وقد وضعتها فى بحثك فى الصورة التى هى عليها من الجمال الهادئ . وهذه الأبيات هى أحسن ما قرأت لك من النظم ، والآن أعيد إليك صورتها بخطى لأنى أعلم أن قراءتك لأشعارك بخط شخص آخر مهم وهو يفيض بتجربة جديدة ، فلتقرأ هذه الأبيات كأنها غريبة عنك ، وستحس فى أعماق نفسك أنها أبياتك التى تصورك تماماً ، ولقد سرّنى أن أقرأ هذه القصيدة وخطابك مراراً ، وأشكرك عليهما جميعاً .

ويجب وأنت فى هذه العزلة ألا تضل إذا وجدت أن شيئاً فيك يضيق بهما ذرعاً فيود أن يخرج منها ، فإنك إن تفكرت فى هذه الرغبة هادئاً واستخدمتها كأداة أعانتك على توسيع ما تضيق به من الوحدة . وقد استعان الناس بأنواع المصطلحات ليحلّوا كل شئ بحسب ما هو أسهل عليهم وبحسب أسهل النواحى السهلة . ولكن من الجلى أنه ينبغى علينا أن نتمسك بما هو شاق ؛ لأن كل كائن حى يسير على هذه القاعدة ، وكل ما فى الطبيعة ينمو ويدافع عن نفسه بحسب طريقته ، جاعلا لنفسه شخصيته الخاصة ، ومحاولا جهده ومهما كلفه الأمر أن يكون كذلك رغم كل مقاومة . نحن لا نعرف إلا القليل ، ولكن وجوب تمسكنا بما هو شاق حقيقة مؤكدة لن تتركنا . وإن من الخير أن يكون الإنسان وحيداً لأن الوحدة شاقة ، وإذا كان الشئ عسيراً فيجب أن يكون ذلك سبباً جديداً يدعونا لأن نفعله .

ومن الخير أيضاً أن نحب ، لأن الحب شاق ، وأقصد الحب من إنسان لإنسان ، فربما كان هو أعسر ما نحن مكلفون به ، لأنه الغاية والامتحان الأخير ، والعمل الذى كل ما عداه فهو استعداد له ؛ ولذلك لا يستطيع صغار الشبان أن يحبوا ، لأنهم لا يزالون فى كل شئونهم فى دور البداية : فيجب عليهم أن يتعلموا الحب تعلما ، يجب أن يتعلم الفتى كيف يحب بكل كيانه وبكل قواه مجتمعة حول قلب وحيد متألم ينبض بالسمو . لكن وقت التعلم هو دائماً وقت طويل قائم بذاته ، وكذلك الحب الذى نريد أن يدوم طويلا ويصل إلى أعماقنا : ليس الحب إلا الوحدة التامة العميقة ، وليس أول ما ينبغى أن يفهم من الحب أن يكون فناء فى شخص آخر وتضحية من أجله وارتباطاً به ، لأنه أى اتحاد ذلك الذى يكون بين شخصين غير ناضجين لا يزالان فى حالة الاضطراب ولم يخلصا بعد من العناصر التى تشوب وضوح الشخصية ونقاءها ؟ إن الحب يتيح للشخص فرصة جليلة لكى ينضج ويصير شيئاً فى نفسه ، ليصير عالماً بذاته لأجل إنسان

آخر ، وهذه مهمة كبيرة ليست هينة ، هي مهمة تتطلب من صاحبها الكثير ، هي مهمة تختاره وتكلفه بمهمات أخرى أوسع مدى ، على هذا النحو دون ما عداه يجب على الشبان الناشئين أن يعلموا الحب إذا نزل على قلوبهم ، أمنى أن يجعلوا منه واجباً لمعالجة النفس « والإصغاء لما يجول فيها وصقلها ليلا ونهارا » ؛ أما الفناء في الآخر والتضحية من أجله وكل ضروب الاتحاد بالغير فليس للشبان أن يرتضوا أنفسهم لها ، لأن واجبهم في شبابهم هو أن يقتصدوا من قوتهم ويستجمعوها زماناً طويلا ، أما الأول فهو الغاية الأخيرة التي ربما لا تكاد حياة الإنسان الآن تكفى لها .

ولكن الشبان يخطئون في ذلك في كثير من الأحيان خطأً كبيراً ، وذلك أنهم بما في طبيعتهم من التعجل وقلة الصبر يرمى أحدهم بل الآخر إذا نزل على قلبه الحب ، فتتشقق عند ذلك شخصيتهم بسبب ما فيهم من كل أنواع الاضطراب وما في نفوسهم من الفوضى وما يشوبهم من عناصر يجب إزالتها أولاً لتنمو الشخصية وتتميز وتتضح . وأى شيء يمكن أن يصير من شخصية غير ناضجة ولا واضحة ؟ وماذا تؤول إليه حياة شاب هو أشبه بكوم من أشياء نصف محطمة ، وهو ما يسميه الشبان الرابطة التي تجمع بينهم وبين من يحبون ، ويسرهم أن يسموه سعادتهم ومستقبلهم ، لو كان ذلك حقاً ؟ في هذه الفوضى يفقد كل منهم نفسه ويفقد من يحب ويفقد كثيرين غيره ممن كان يأتى ، ويفقد أيضاً كل الفرص المؤدية للسمو وكل الغايات الكبيرة ، ويستبدل بتلك الأسرار الدقيقة التي يحس الإنسان بها ولا يدرك كنهها التي تقرب ثم تفر وتبقى مصدرا يوحى للإنسان كثيراً من الأشياء . . هو يستبدل بذلك حيرة عقيمة لا يمكن أن يأتى منها إلا الضجر والضيق وخيبة الأمل وفقر الروح وطلب النجاة من طريق إحدى العادات الاصطلاحية العديدة المنشأة على هذا الطريق الذى هو أخطر طريق يسلكه الإنسان ، كأنها أكواخ عامة يأوى إليها جميع الناس . وليس بين جميع نواحى الحياة الشعورية الإنسانية ما قد أعد فيه من الأوضاع الاصطلاحية مثل ما في هذه الناحية : هنا أحزمة للنجاة قد اخترعت على كل طراز ، وقوارب نجاة ، وكرات منفوخة للعوم ، وقد عرف عقلُ الجماعة أن يستحدث وسائل يُلجأ إليها ويُتخلص بها من كل طراز ، لأن روح الجماعة تميل إلى اعتبار حياة الحب ضرباً من المتاع المسلى ، فكان لا بد أن تُصوَّر هذه الحياة في صورة سهلة رخيصة مضمونة لا خطر فيها كأنواع التسلية العامة .

ولا جرم يحس الكثيرون من الشبان الذين أحبوا مسرعين نحو الجود بالنفس وقبل أن تنضج أرواحهم في عزلة الحب (وسيظل الأكثرون دائماً كذلك) ، يحسون بما يُثقل الروح من عواقب خطئهم فيريدون أن يعالجوا هذه الحال التي وقعوا فيها ليجعلوها منتجة قادرة على الحياة ، وكل منهم يحاول ذلك على طريقته الخاصة وبحسب تصوره الشخصى ، وذلك لأن طبيعتهم تقول لهم إن مسائل الحب ، دون كل ما عداها من المسائل الخطيرة ، لا يمكن أن تُحلّ أمام الناس جميعاً وبحسب تواضع ما كأنها مسائل عامة ، بل هم يعتبرونها مسائل شخصية خاصة بين إنسان وإنسان ، وهى تتطلب في كل حالة من الحالات حلا جديداً خاصاً وشخصياً فحسب . ولكن كيف يستطيع من رمى بنفسه مع آخر ، ولم يُرِدْ أن يكون لكيانه حدودٌ تميزه ، بل أصبح لا يملك شخصية خاصة به ، كيف يستطيع على غير هذا النحو أن يجد مخرجاً من نفسه ، من مهواة وحدته وشخصيته التي تحامت أركانها ؟

إن أساس عمل الطرفين هو ما يشتركان فيه من قلة الحول ، وإذا أراد الشبان عند ذلك أن يتجنبوا ، مع

أحسن قصد ، الوضعَ الذى يواجههم كالزواج مثلا وقعوا فى شرك حل اصطلاحى آخر أقل تجليَةً ولكنه مهلك كصاحبه ؛ لأن كل ما يحيط بهم على مسافة بعيدة إنما هو أوضاع قد اصطُلح عليها . وإذا كانت الأعمال أساسها اشتراك اثنين فى وقت مبكر اشتراكا مضطربا فكل عمل بمملأه إنما هو وضع اصطلاحى ، وكل علاقة يقود إليها هذا الاضطراب لها أساسها الوضعى ولو كان غير معمول به أعنى غير خلق بالمعنى العام ؛ نعم حتى الانفصال قد يكون خطوة وضعية اصطلاحية وقراراً غير شخصى لا قوة فيه ولا ثمرة له .

ومن نظر بجدّ وجد أن الحب الشاق سرٌ لا حلّ له ، هو فى هـذا كالموت ، والموت شاق أيضاً ، فليس للحب تفسير ولا حل ، ولم يهتد أحد فى ذلك إلى علامة ولا إلى طريق . فى هـذين الواجبين اللذين نحملهما محجّبين ونسلمهما لمن بعدنا دون أن نفض غلافهما لا يمكن البحث والاهتداء إلى قاعدة عامة مريحة بما فيها من اتفاق الطرفين ، ولكن إذا بدأنا تجربة الحياة كأفراد واجهتنا كأفراد أيضاً هذه المسائل الكبيرة من قرب شديد ، وإن الأعباء التى يلقيها علينا فى أثناء مجرى حياتنا واجبُ الحب بما فيه من مشقة هى أكبر بكثير من حياتنا ، ولسنا كمبتدئين كفؤا لحمل هذه الأعباء . لكن إذا صبرنا وثبتنا وقبلنا احتمال الحب كعبء وكوقت للتعلم بدلا من أن نفقد أنفسنا فى العبث السهل الطائش الذى يستتر وراءه الناس مما هو غاية الجد فى حياتهم فربما استطعنا أن نخطو خطوة صغيرة ونيسر المهمة على من سيأتى بعدنا بكثير ، فإذا ظهر لذلك أثر ما ، فقد لا يكون هذا بالشئ القليل . إذا وصلنا إلى هذه النقطة — لا قبلها — فإننا نستطيع أن ننظر فى علاقة إنسان منفرد بإنسان آخر منفرد نظراً يعتمد على الواقع ولا يشوبه السبق بالحكم الفاسد . وإن محاولاتنا أن نعيش على مثل هذا النحو من العلاقة ليس لها منوال سابق ،

وفى تطور الزمن بلاريب كثير من العوامل التى قد تساعدنا فى حالة الابتداء التى لا نزال فيها ، والتى لا تخلو من وجل واضطراب .

أما الفتاة والمرأة فإنهما فى تطورهما الجديد الخاص بهما لن يدوم تقليدُهما للرجال فى الحسن والقبيح من الخصال وفى اتخاذهما صناعات الرجال إلا زمناً قصيرا ، وسيتبين بعد أن تمضى مثل هذه الفترة الانتقالية بما فيها من الاضطراب وقلة الثبات أن المرأة والفتاة لم تعمدا إلى ما نشاهده من تقليد الرجال تقليداً مضحكا فى كثير من الأحيان إلا لتخليص طبيعتهما الخاصة مما قد شوهها من آثار فعل الجنس الآخر . وإن النساء ، وفيهن تستقر الحياة وتستوطن على نحو أطهر وأخصب وأكثر اطمئنانا مما فى الرجل ، سيصبحن ضرباً من الإنسان أنضج وأكثر إنسانية من الرجل الطائش الذى لم يعان مشاق الخصوبة البدنية والذى قد أنزل إلى ما تحت سطح الحياة والذى يستهين بسبب ما فى طبيعته من غرور وتعجل بما يريد أن يحب . هذه الإنسانية الجديدة التى ستتمخض عنها المرأة بعد حمل تمّ فى ضروب الآلام والمشاق التى تزرى بالطبيعة وتهذبها ستظهر إلى الوجود إذا محت المرأة فى تطور مركزها الخارجى تلك الأوضاعَ التى لم تقم إلا على اعتبار مجرد الأنوثة فى المرأة . أما الرجال الذين لا يشعرون بمجئ هذا الانقلاب فسيُفاجأون ويُهزمون ، وسيأتى يوم تتجلى الآن علاماته الأكيدة وتنطق فى ممالك الشمال تكون فيه الفتاة والمرأة موجودات مستقلة بذاتها ، ولن يكون اسمهما دالا على موجودات كل ما فيها أنها تضاد الرجال ، ولن يشعر الإنسان بأنهما مجرد عنصر مكمل للرجال ولن يشعر الإنسان بحدود تفصل المرأة عن الرجل ، بل سيرى فى المرأة الحياة والوجود فحسب ، سيرى فيها الإنسان الأنثى . وهذه الخطوة ستغير حياة الحب والشعور به وما يلازمها الآن من الأخطاء تغيراً أساسياً ، وذلك قبل كل شئ وإلى حد كبير رغم

إرادة الرجال بعد أن يكونوا قد سُبقوا فى المضمار ، هذه الخطوة ستجعل الحب علاقة بين إنسان وإنسان لا بين رجل وامرأة ، وهذا الحب الأكثر إنسانية والذى سيجعل الواحد أكثر مراعاة للآخر وسيكون رفيقاً هادئاً خيِّراً يتمّ واضحاً فى الحل والعقد سيشبه الحب الذى نُعِدُّه نحن فى كفاحنا المؤلم ، الحب الذى هو عبارة عن أن وَحدَتَيْن تحمِّى إحداهما الأخرى وتحميها وتحادثها .

وأحب أن أقول لك أيضاً : لا تحسبن أن ذلك الحب العظيم الذى نزل مرة على قلبك وأنت ما تزال الفتى الصغير ، لا تحسبن أنه قد ضاع ؛ فهل تستطيع أن تنكر أنه فى أثنائه قد نضجت فيك رغبات كبيرة طيبة ومبادئ لا تزال تعيش منها إلى اليوم ؟ إنى أعتقد أن ذلك الحب إنما بقى فى ذكراك بمثل هذه القوة لأنه كان يقوم على وحدتك الأولى العميقة ، ولأنه كان أول عمل داخلى قمت به فى حياتك .

مع أحسن الأمانى لك يا عزيزى هر كپُس
رينر مريا رلكه

* * *

تتمشى فى حياتى وحدة ألم غامض جداً بلا شكوى ولا تنهّد ، وإن أحلامى الصافية كالثلج الأبيض هى صلاة أيامى الهادئة .

ولكن كثيراً ما يعترض طريقى السؤال الخطير ، فأتضاءل وأمضى كأنى أسير على بحيرة لا أجسر أن أسبر غورها .

ثم تنزل على قلبى أغنية مضطربة مظلمة كليلة صيف وكسماء الشتاء فيها قليلة الضوء إلا من نجم يلمع فى سوادها بين حين وآخر .

عند ذلك تتلمس يداى نحواً من الحب ، لأنى أود أن أصل بنغمات لا يستطيع أن يجدها فى الحان .

فرانز كپُس

اليهود وتاريخ فلسطين

يقول عقلاء اليهود عن أمتهم إنها أمة الفرص الضائعة ، ويعنون بذلك أن متاعبهم في الماضي والحاضر إنما أتت من عجزهم عن الاستفادة من الفرص التي سنحت لهم ، وقد أتاحت لهم ظروف التاريخ في الواقع فرصاً لم تسمح بها لشعب آخر من شعوب الأرض ، فهؤلاء اليهود أو العبرانيون قد عاصروا المصريين القدماء ، ولهم تاريخ محقق منذ قرون طويلة قبل الميلاد ، وصاحبوا التاريخ البشري في كل أدواره : وُلِدَت المسيحية بين أظهرهم ، ونشأ الإسلام تحت بصرهم ، ونهضت الأمم القديمة والحديثة بمنظر منهم ، وكانوا في يقظة ظاهرة حينما كان معظم الأرض خلاء ، وأوطاناً للإعمار ! . ومع هذا فهم يجدون أنفسهم الآن كما كانوا منذ أكثر من ألف سنة شعبا مُشَرَّداً في الآفاق مقسماً بين الأمم : ازدهرت النصرانية وأنشأت للإنسانية حضارة كبرى ، وازدهر الإسلام وأنشأ للبشر حضارة زاهرة ونظاما عظيما ، وما زال هؤلاء اليهود حيارى في أمرهم لم ينشئوا لأنفسهم بنيانا ولا أقاموا حضارة أفاد منها غيرهم من الناس ، وقد كشفت الدنيا الجديدة بمرأى منهم ، واشترك تجارهم وأصحاب المال فيهم في إعداد الهجرات وتسفير المهاجرين ، وكانوا يعلمون أن هذا العالم الجديد يفتح ذراعيه يستدعيهم لاستصلاح جزء من أرضه وإقامة الحضارة والنظام فيه ، ولم يكن ليوجد في هذا الزمان ما عسى أن يحول بينهم وبين إنشاء وطن لهم لو أنهم كانوا يفكرون حقا في شيء اسمه الوطن ، ولكنهم لم يفعلوا ، واكتفوا باستغلال أموالهم في حماية الآخرين : يقرضون المال المهاجر الفقير ، فيذهب ويبيع حياته في المخاطرة لكي يتسلم اليهود بعد ذلك الأرباح ويكدسوها في باطن الأرض أو في المصارف : وتقسم الناس الدنيا القديمة والدنيا الجديدة ، واستقر كل قوم من الناس في بيتهم ، فلما رأى اليهود أن الفرص كلها قد تولت ، وأن أهل كل بلد يضيقون بالغرباء من كل صنف يهودا أو غير يهود ، وحينما شعروا أن ضيق الناس هذا بهم يهدد أموالهم ، انتبهوا وأسرعوا يعوضون على أنفسهم ما فاتهم ، فذكروا أنه كان لهم في جزء من فلسطين دويلة صغيرة دامت مائتي سنة منذ أكثر من ألفي سنة ، وتجمعت آمالهم حول هذا الشبح البعيد من التاريخ حاسبين أن الاستمساك بهذه الذكرى القديمة فرصة يبلغون بها من الانصاف ما يعوض عليهم مرارة الفشل المتواتر القديم . من هنا ذهبوا يزعمون أنهم أولى بأرض فلسطين من العرب الغزاة «الطارئين» ، وهم قد بالغوا في الكلام في هذا الموضوع مبالغة كادت تخدع بعض من لم يعرف الأمر ويدرسه . فلنحاول أن نلقي نظرة على تاريخ فلسطين لنرى مكان اليهود والدولة اليهودية منه .

— ١ —

تعتبر الشام وفلسطين من مواطن الساميين من أقدم العصور ، إذ يبدو أن قبائل سامية هاجرت إليها من الجزيرة العربية منذ أزمان سحيقة في القدم ، وهذه الجزيرة العربية هي مهد الساميين جميعا : هاجر إليها أجدادهم الأول من أفريقية (عن طريق باب المندب) أو من حوض الدجلة والفرات ، وفي وديانها وصحاريها تربوا وكثروا ، ثم أخذوا يخرجون منها على هيئة موجات بشرية تغزو الأراضي الخصبة المجاورة وتختلط بمن تجده فيها من عناصر بشرية ، وتنشئ معها شعوبا جديدة لها طابعها ومميزاتها الخاصة ، وكانت فلسطين والشام من البلاد التي توالت هجراتهم إليها ، فسادتهما عناصرهم وأصبحت تعد موطناً من مواطنهم الأولى .

وكان أقدم العناصر السامية هجرة إليها هم الكنعانيين ، وكنعان ليس اسماً جغرافيا للأراضي الواقعة غربي الأردن ، وإنما هو اسم جنس يطلق على مجموعة من الشعوب الصغيرة التي جمعتها لغة وحضارة واحدة ، وكانت هذه المجموعة تسكن فلسطين على جانبي الأردن ثم امتدت مع الزمن نحو الشمال .

ويعتبر الفينيقيون فرعاً من الكنعانيين . ثم نزل أرض الشام وفلسطين بعد الكنعانيين العموريون ، وهم طائفة سامية أيضاً ، اختلطوا بالكنعانيين ، وكونوا طبقة ممتازة من الناس خصوصاً فى فلسطين ، ومدوا سلطانهم حتى وصلوا جنوبى لبنان حيث اتصلوا بالحيثيين ، وهؤلاء الأخيرون لم يكونوا شعباً سامياً وإن كان العهد القديم يجعلهم ساميين بل كنعانيين .

ثم هاجرت إلى البلاد بعد ذلك قبائل الآراميين والعبرانيين ؛ فأما الآراميون فقد أتوا بلاد الشام من حوض الدجلة والفرات ، وأخذوا ينبسطون فى الإقليم الواقع جنوبى دمشق ، وامتدت أطراف منهم إلى الشمال حيث اختلطوا بالحيثيين ، ولم يدم سلطانهم طويلا ، إذ وهن أمرهم وتفرق كثير منهم فى القبائل الأخرى ، ولكن معظم قبائلهم ظل متماسكا .

وأخذوا هم وقبائل العبرانيين التى أتت معهم ينتشرون فى نواحى فلسطين حتى ملأوا الاقليم كله عدا المنطقة الساحلية التى كان فيها الفينيقيون . ويعتبر المؤابيون والأدوميون من العبرانيين ، ولهم كذلك بطون وفروع أخرى سنعرض لها بعد قليل ، ويغلب على الظن أنهم تحدثوا فى أول أمرهم لهجة كنعانية .

وكانت أهم قبائل العبريين أول الأمر هى قبائل إسرائيل وأمون ومؤاب ، وكانت لكل قبيلة ناحية انفردت بها وحكمها فيها ملك ، ثم حدث أن اشتبكت أمون مع قبائل العموريين فى نزاع انتهى بانهزامها وطردها من عاصمتها حسبون على مقربة من جرش الحالية ، فسارعت قبيلة إسرائيل لعونها ، وكانت اسرائيل هذه قد اتخذت البيداء الواقعة بين فلسطين وجزيرة العرب مقاماً لها ، فلما طردت العموريين من ديار بنى عمومتها أمون امتد إقليم نفوذها امتدادا محسوسا نحو الشمال

وأخذت قبيلة اسرائيل العبرية تنتشر من ديارها فى جنوبى فلسطين إلى شبه جزيرة طور سيناء ، ومن هنا بدأت صلاتهم بمصر وفراعنتها ، وكان أكثر فروع إسرائيل صلة بمصر هو فرع يعقوب . إذ وفقوا إلى نجاح مذكور عند الفراعنة ، وامتاز أحدهم – يوسف – فأصبح ذا مكانة خاصة فى بلاط أحد فراعنة الأسرة التاسعة عشرة ، فارتفع تبعاً لذلك مقام هذا الفرع من إسرائيل ارتفاعاً كبيرا ، ونشأت حول يوسف أساطير شتى جعله بعضها أول شخصية فى تاريخ إسرائيل .

والظاهر أن هذا التوفيق شجع بطوناً عبرية أخرى من إسرائيل وغيرها من قبائل العبريين على الهجرة إلى مصر حيث كونوا مستعمرة نعمت وقتاً ما برفاهية ظاهرة ؛ ولكن العلائق بينهم وبين الفراعنة لم تلبث أن ساءت ، فاضطهدهم الفراعنة ، وظلوا على هذه الحال حتى ظهر من بينهم موسى وهو إسرائيلى مصرى ، فتزعمهم وأخذ يعمل لاخراجهم من مصر والنجاة بهم من هذا الحال السيء ، فغادروا مصر إلى طور سيناء حيث أقاموا زمناً طويلا ، ثم ذهبوا إلى جنوبى فلسطين ، وهناك عمل موسى على توحيد قبائلهم المختلفة ، حتى تكونت منهم وحدة تعرف بقبائل إسرائيل أو بنى إسرائيل . ولم تكن كل الفروع التى دخلت هذه الوحدة من إسرائيل وحدها ، بل كان فيها عناصر أخرى غير إسرائيلية ، ولكنها عبرية ؛ وكان فرع يعقوب هو أعلى فروع هذا الحلف مقاماً ، أما الستة الأخرى المكونة للحلف فكانت روبن وشمعون وليفى ، ويهوذا ، وإساخار وزبولون .

وتعتبر الفترة الموسوية من تاريخ القبائل الإسرائيلية فترة التكون والنشوء ، ذلك أن موسى كان زعيما قادرا ، فألف وحدة الشعب ورسم له أهدافه ، ووضع له قانونه ، ولم يكن موسى هو واضعه ، وإنما كان جامعه ومؤلف أجزائه ، ذلك أن هذا القانون تكون على زمن طويل يرجع إلى أول ذهاب بعض الإسرائيليين إلى طور سيناء ، جمعه موسى فى كتاب مقسم إلى أجزاء خمسة تعرف إلى اليوم بالبنتاتوخ ، وهو لا يصور لنا الفكر الإسرائيلى كما يظن

كثير من مؤرخي اليهود ، وإنما يصور لنا دوراً من أدوار تطور هذا الفكر فقط ، والصورة الباقية لدينا منه ليست هي الصورة التي وضعها موسى ، وإنما هي صورة حديثة كتبها قسس اليهود بعد ذلك بقرون ، فهي على هذا لا تصور لنا تفكير موسى نفسه بالدقة .

وأهم ما في هذه الكتب الخمسة هو التشريع الذي وضعه موسى ، ونصيب موسى فيه هو نظام العبادات كما أوحاه إليه الله ، وبين أنبياء إسرائيل الذين أتوا بعد موسى خلاف شديد حول نظام هذه العقائد والطقوس ، ولكن لا اختلاف بينهم في أن موسى هو صاحب الفضل الأكبر في توحيد إسرائيل على نظام واحد من العبادات ، فهو الذي جمعهم على عبادة الله وحده ، بعد أن كان كثيرون منهم وثنيين لا يؤمنون بالوحدانية .

وعلى هذا النظام الذي وضعه موسى ، والقانون الذي جمعه في الكتب الخمسة نشأت الحكومة بين قبائل إسرائيل ، وهي حكومة دينية رأسها القسس أو الأنبياء ، وكان قبيل ليفي قد نهض قبل موسى نهوضاً بعيداً حتى صار إليه السلطان بين القبائل الأخرى ، فنازعه القسيسون والأنبياء على السلطان وانتزعوه منه ، ولم تلبث القبائل الأخرى أن نفرت من سلطان رجال الدين هؤلاء ، وظهر من الإسرائيليين قوم يسمون « القضاة » نازعوهم السلطان واجتذبوا إلى صفهم ناساً كثيرين ، وكانت نتيجة هذا أن اضطربت وحدة إسرائيل .

وكانت حكومة رجال الدين هؤلاء فريدة في بابها ، فإن الحبر كان يعتبر نفسه ممثلا لسلطان الله (يهوذا) على الأرض ، وكان يقول : إن الله يدبر لعباده كل شيء ، وأن لا عمل للعباد إلا عبادة الله وتمجيده في شخص الحبر ، حتى الحرب : لم يكن على الناس أن يستعدوا لها ، لأن الله يرد الأعداء عن عباده الصالحين ، وكان غرضهم من ذلك جمع السلطان في يدهم ، والقضاء على كل سلطان أوحاه الزعماء الآخرون من رجال الحرب ، وكان فريق كبير من إسرائيل قد اتبع زعماءه (القضاة) الذين أجازوا له ما كان الأحبار يحرمون عليه من المتاع ، فنشأ في صلب الوحدة الإسرائيلية تياران ، تيار ذوي السلطان الذين يتبعهم معظم الناس ، وينصرفون إلى ما ينصرف إليه غيرهم من متاع هذه الدنيا ، وتيار الأحبار الذين لم يكن لهم هم إلا البكاء على مصير غيرهم وإنذارهم بكل شر وبلاء ! ومن هؤلاء الأحبار تلك السلسلة الطويلة من أنبياء إسرائيل وعرافيهم ، الذين ملأوا الدنيا نصحاً وعويلاً . أما معظم إسرائيل فقد انصرف عنهم وآذاهم ، ولهذا لا مبالغة في القول بأن بني إسرائيل كانوا أقل أهل الأرض اتباعاً لمبادئ موسى وقوانينه ، وسيكون من هؤلاء الأحبار والأنبياء عيسى بن مريم نفسه ، وسيكون في موقفهم منه وأذاهم إياه أنصع الدلائل على أن إسرائيل كانت أعق خلق الله بموسى ومن خلفه من الأنبياء والأحبار والصالحين .

أما نشوء الملكية في إسرائيل فترجع أسبابه إلى ما وقع بينهم وبين الفلسطينيين من حروب ، وكان الفلسطينيون أعداء لبني إسرائيل ، حاربوهم وانتصروا عليهم واستذلوهم فترة طويلة دون أن يستطيع المقاومة فعل شيء ، فقام زعيم قادر من غير رجال الدين وهو شاءول ، وقاد الكفاح ضدهم واستطاع بهذا أن يجعل نفسه قائداً لشعب إسرائيل وملكا له ، ثم خلفه داوود فأتم ما بدأ به شاءول وطرد الفلسطينيين وقتل ملكهم جالوت ، فتحررت إسرائيل وأصبح لها ملك موحد ! وهنا يبدأ الدور الثاني من تاريخ فلسطين .

كان بطل هذا الدور الأول هو موسى : أخرجهم من الهوان ، وجمعهم على التوحيد ، ووضع لهم أسس العقيدة والوحدة القبلية ، ولكنه لم يقل أبداً إن الله هو إله إسرائيل وحدها أو أنها شعب الله المختار ، إنما نشأ هذا فيما بعد في عصور الاضمحلال الروحي ، وسيكون في نشوئه إيذان بذهاب دولة إسرائيل وانهدام وحدتها الروحية .

حسين مؤنس

ذكريات المنصورة

يا عذارى النيل « والبحر الصغير »
كصنوف الزهر والدر النثير
أين آمالي على الشط النضير
والليالي في سنا البدر المنير
حينما تضحي وتمسي   بين أفراح وأنس
أمزج الصفو بكأسي   وأغني ما بنفسي
لأريح القلب من نار السعير
يا عذارى النيل والبحر الصغير

* * *

كم تمتعنا بمساء وصباح
واقتنينا بين ريحان وراح
بالليالي الحمر والبيض الملاح
كخدود الورد زينت بالأقاحي
وعلى الشاطئ نسري   كقطا زغب ونسر
أسرته أي أسر   آه لو أملك أمري
لجعلت الدهر كالليث الهصور
يا عذارى النيل والبحر الصغير

* * *

ذكريات تملأ العين جمالا
وصبا كالظل قد ولى وحالا
في حمى المنصورة اختال اختيالا
ورأى المنصورة السحر الحلالا
فتغنى بهواها   وتغنى في شتى حلاها
فتنة جازت مداها   غيها صار هداها
وجمالها كفردوس نضير
يا عذارى النيل والبحر الصغير

* * *

حبذا الجسر وحسن قنطرة
وعبور النيل أشكو عثرة
وزمان الصفو عند « الشجرة »(1)
تملأ الأشداق ريا عطرة
من ورود وخدود   وغصون وقدود
فيذكرني بعهود   من عهود ووعود
لم تزل تشفع قلبي بالعبير
يا عذارى النيل والبحر الصغير

* * *

سطرت « دار ابن لقمان » سطورا(2)
سطعت في صفحة التاريخ نورا
يا فرنسا قد أذقناك ثبورا
وملكنا مليك الشعب أسيرا
فأفيقي يا فرنسا   واذكري أمسك أمسي
وصمة هيهات تنسى   أن للشرق بأسا
واصرعي ما شئت في الحسن الغرير
يا عذارى النيل والبحر الصغير

* * *

ذكريات النيل والشط الجميل
ردديها يا نسيمات الأصيل
وعلى « الكافورة الغناء » ميلي
ما بقلبها تطفئ نار غليل
وتعالي كالمحبين لتعودي بحنين !
وبشوق وأنين   وغنائي كل حين :
أين آمالي على الشط النضير
يا عذارى النيل والبحر الصغير

أحمد أحمد العجمي

---

(1) شجرة الدر : حديقة مشهورة بالمنصورة .

(2) دار ابن لقمان : سجن فيها لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٤٩م في عهد الملكة شجرة الدر وأسرها الملك توران شاه ، في الحرب الصليبية الرابعة .

ألبانيا اليوم

كما يصفها صحفي روسي

تركنا بلغراد في طائرة في طريقنا إلى تيرانا ، وكانت الطائرة تضيق بركابها ، لأن أعداداً عظيمة من الناس تسافر الآن كل يوم إلى تيرانا ، ويوغوسلافيا هي البلد الوحيد الذي اعترف بألبانيا إلى اليوم ، وهي كذلك البلد الوحيد الذي تقوم بينه وبين هذا البلد الإسلامي الصغير علائق تجارية متصلة الآن ، ولمحنا أثناء طيراننا عدداً من القلاع الصغيرة الحصينة التي ابتناها الألبانيون في عصور كفاحهم مع الترك ، ومنظر البلاد في مجموعها أشبه شيء بكثبان كثيرة من الرمال تتخللها وديان صغيرة وطرق ضيقة كثيرة الالتواءات .

وتقع تيرانا عاصمة البلد وسط منخفض واسع بين الجبال ، وأول ما يلفت نظرك من بعيد هو كثرة عدد المساجد ، لأن سبعين في المائة من سكان هذا القطر مسلمون ، والباقي نصارى تابعون للكنيسة الشرقية وقليل جداً من الكاثوليك ؛ ومعظم هؤلاء النصارى يسكن الجنوب .

وسكان تيرانا يبلغون في التعداد الرسمي أربعين ألفاً ، ولكن يقال إن البلد يسكنه الآن مالا يقل عن ستين ألفاً ، لأن عدداً عظيماً من أهل القرى والأرياف في ألبانيا كانوا قد غادروا قراهم ، وفروا إلى الجبال حيث ظلوا طيلة مدة الاحتلال الإيطالي والألماني ، ثم عادوا الآن ليجدوا قراهم ومساكنهم خراباً ، فاضطر كثير منهم إلى اللجوء إلى المدن حيث يمكنهم أن يجدوا منازل تأويهم ، وموارد رزق تقيم أودهم ، ولهذا ازدحمت مدن ألبانيا مثل تيرانا ودورازو وإلبسان .

وليس في ألبانيا كلها ميل واحد من السكك الحديدية ، وفيها كذلك قليل جداً من الطرق المعبّدة ، وقد خرب الألمان معظم ما كان لألبانيا من هذه الطرق ، وهدموا أثناء كفاحهم مع رجال العصابات القليل الذي كان هناك من القناطر والمعابر البدائية .

وحظ ألبانيا قليل من التقدم الاقتصادي ، وهذا على الرغم من أن فيها موارد طبيعية للثروة لا بأس بها ؛ وقد اجتهد ذوو المطامع من الإيطاليين والفرنسيين والألمان والإنجليز في إثارة الفتن من كل صنف في هذه البلاد لكي يزيدوا أهلها ضعفاً ، ويوجدوا لدولهم السبيل إلى التدخل وبسط السلطان على هذا البلد ذي الموقع الجغرافي الحربي الفريد ، وازدادت هذه المحاولات نشاطاً منذ خمسين سنة ، أي منذ اكتشفت في البلاد منابع للبترول على مقربة من البحر ، وطبقات من الاسفلت وخامات أخرى ذات قيمة كبيرة .

وقد شعرنا في أول يوم لنا في تيرانا أننا في أتون ، لأن درجة الحرارة وصلت ١٢٢ فهرنهيت ، وقد استحال علينا مع هذه الحرارة الخروج والتمشي في شوارع المدينة ، والناس لهذا يبدءون عملهم في الصباح الباكر ويفرغون منه حوالي الواحدة بعد الظهر ، ويعود النشاط إلى البلد حوالي الخامسة مساء ، فتفتح الحوانيت ومحال الحلاقين والمقاهي ، وتستمر الأسواق مفتوحة إلى ساعة متأخرة من الليل ، بل يظل بعضها عامراً إلى الثالثة والرابعة صباحاً ، لأن الجو إذ ذاك يكون على ألطف حالاته هناك .

وتيرانا بلدان : البلد القديم والبلد الجديد ، فأما الجديد لحديث الطابع ، متسع الشوارع نظيفها ، وفيه دواوين الحكومة والبنوك ومحال الأعمال ، وأما القديم فمعظمه منازل للسكنى ، وفيه كذلك الأسواق القديمة وحوانيت أصحاب الحرف ، وشوارعه مبلطة بحجارة جافية ومنازله صغيرة متلاصقة .

وأسواق تيرانا شرقية الطابع والروح ، تملؤها ضوضاء صاخبة ، يمر في شوارعها الخيل والحمير والبغال والدراجات ، يزحم بعضها بعضاً ، وعند الظهر يعلو صوت المؤذن من أحد المساجد المجاورة ، ومع ندائه يصمت الناس ويسود السوق سكون شامل .

وتيرانا هي مركز الجمعية الناهضة للفاشية . التي هي في نفس الوقت الهيئة التشريعية في البلاد اليوم ، وفيها كذلك مقر حكومة الجبهة الديموقراطية الشعبية ، ورئيس الحكومة هو أنور هُجا قائد الجيش الأعلى ، وقد تحدثنا إلى مساعده كوتشي دوزى ، فأخبرنا أن هذا الجيش تألف في أصعب أوقات الكفاح ضد المتطرفين ، ويخدم في الجيش أهل البلاد من كل ملة : مسلمون وأرثوذكس وكاثوليك ، وقال : « لقد قتلنا كثيراً من الألمان والإيطاليين ، لقد حلنا بينهم وبين الهرب من اليونان ، وقد أدينا بهذا خدمة كبيرة للجيش الأحمر الذي كان يحارب في المجر والنمسا ، ولا تحكموا علينا بظهرنا وفقر ملابسنا ، لأن أكسيتنا ممزقة قذرة وكثير من جنودنا لا يرتدى ملابس عسكرية ، ولكن جيشنا رغم ذلك جيش قوى قادر على مناضلة أى معتد خارجي . لقد قضى جنودنا خمس سنوات في الجبال ، لم يبعث لهم أحد ثياباً ولا مئونة ، وبلدنا تحوب ضعيف ، وقد نفدت مؤننا ، ولكننا انتصرنا ، وهذا هو المهم ، وستعيد كل شيء إلى نصابه في القريب » .

وتجتاز ألبانيا أزمة اقتصادية حادة ، وهي مهددة بمجاعة شديدة ، فإن المطر لم ينزل منذ ستة شهور ، وقد أحرق الألمان مقادير عظيمة من المحاصيل قبل رحيلهم ، وليس أمام البلاد سبيل لاستيراد الحبوب من الخارج ، ومحصولها لا يكفي لأكثر من تسعة أشهر . ومشكلة الغذاء هي المشكلة السياسية ، وقد ذكر لنا مدرس ألباني أنه إذا استطاعت البلاد أن تنجو من هذا الشتاء فإن موقف الحكومة سيتعزز ، وربما استقرت الحالة السياسية في البلاد ، والحكومة الحالية ماضية في إصلاح الأحوال على أسس اشتراكية ، وقد تمكنت من إنقاذ البلاد من مآزق شديدة ! والمرة الأولى في تاريخ ألبانيا تكون الآن نقابات العمال ، وتقف موقفاً حاسماً من أصحاب الأعمال . وقد استولت الحكومة على منابع البترول وهي تستغلها الآن ، وقد تم تأميم صناعات الدخان والصابون والمأكولات وغيرها من المؤسسات التي كانت من قبل في يد ناس تبت اليوم أنهم من مجرمى الحرب .

ورأينا في دورازو سفينة إيطالية آتية من نابلى محملة بالأدوية والدقيق ، وهذه السفينة تابعة لهيأة الإنشاء والتعمير التابعة للحلفاء ، وكانت السيارات وعربات النقل تنقل حمولة السفينة بسرعة وتمضى بها نحو تيرانا ، وكانت السفينة راسية بعيداً عن الشاطئ لأن الميناء ملىء بالألغام والأسلاك الشائكة .

وحينما نادى المؤذن بصلاة المغرب استأذنا شيخ البلدة الديني في زيارة المسجد ، فرأينا الناس يصلون على عادتهم ، وبعد أن فرغوا من الصلاة خطب « المولا » شيخهم الديني خطبة دينية ، فدعا إلى الوحدة وإلى تأييد الحكومة . وقد علمنا أن غالبية المسلمين والأرثوذكس كانوا من ألد أعداء الألمان أثناء احتلالهم البلاد ، وقد حمل عدد كبير منهم في صفوف العصابات ، وكان شيخ جامع دورازو يحمل مدفعاً رشاشاً ، وكان المؤذن وغيره من رجال الدين أيضاً من رجال العصابات .

وقد زرنا أثناء مرورنا أحد خانات الدراويش البكتاشية ، وقد ذكر لنا أحدهم واسمه قاسم أن الألمان استعملوا خانهم ومسجدهم كمخزن لعلف الخيل ، فلم يبق للدراويش بد من أن يلجأوا للجبال وينضموا للعصابات ، وكان قاسم نفسه يدير مدفعاً أخذه الثوار غنيمة من

مونتانی ...

Montaigne

رالف والدو إمرسن

الكاتب والشاعر الأمريكي

مونتانی هو أبو المقالة ومنشئها في الأدب الفرنسي ، وهو الذي قيل فيه إن مقالاته كان لها أثر أي أثر في الأدبين الفرنسي والإنجليزي .

وإمرسن كاتب من كتاب المقالة البارعين ، فليس أجدر بالكلام عن منشئ فن المقالة غير فارس من فرسان المقالة .

قال إمرسن :

إن مونتانی هو أكثر الكتاب صراحة في القول ، وهو في الخلق الطيب قد أوفى على الغاية .

وإن الحرية عنده لتحور غلظة وفظاظة ، وكثيرا ما كان يلق لوامه وعذاله بوابل من اعترافاته .

وقد كانت الكتب في أيامه تكتب لواحد من الجنسين ، وكانت تكتب — في الأعم الأغلب — باللاتينية .

من أجل ذلك كان مباحا لكتاب الفكاهة أن يترخصوا في القول ترخصا لا تجيزه آداب الكتاب الذين يكتبون اليوم لكلا الجنسين . وكان في كتابته يجيد عرض صوره كل الإجادة .

وما كان أحد يستطيع أن يسيء الظن به أو يسيء القول فيه أكثر منه هو .

فكان يدعي لنفسه كل رذيلة ، وكان يقول من ظن بي خيرا فليعلم أن ذلك الخير إنما جاءني خلسة واغتصابا . .

وكان يرى أن ليس في الناس من لا يستحق أن يشنق خمس مرات أو ستا ، وإنه في هذا الحكم لا يستثني نفسه .

وهو يقول : إن من أراد أن يقتص سيرة حياتي لواجد من قصص السوء خمس قصص على الأقل ، شأني في ذلك شأن كل إنسان يعيش على ظهر هذه الأرض .

ولكن على الرغم من هذه الصراحة التي جاوزت كل حد فإن أحدا لا يشك مطلقا في نزاهة قصد مونتانی وحسن طويته .

ومونتانی هو القائل :

« عند ما أحاسب نفسي حسابا عسيرا أجد أن الرذيلة تخالط أحسن الفضائل عندي وأقربها إلى الكمال » .

ونحن إذا تقصينا حياة مونتانی لوجدناه يوما قلقا سريع الغضب صعب الرضا يسب ويلعن .

ويوما نجده يحادث الحمّارة ويكلم التجر ، ويلجأ في مخاطبتهم إلى ما اعتادوه من ألوان القول ، ثم يغني غناءهم ويرقص على أهازيجهم .

ويوما نجده قد لزم داره حتى أضر به الثواء .

ويوما نجده يجوب شوارع البلد تحت وابل المطر .

ويوما نجده قد سئم مخالطة أصحاب الجاه والثراء حتى ليود أن يكون خلطاؤه من آكلي لحوم البشر ، وكان يقول في ذلك :

الإيطاليين ، وكان غيرهم من الدراويش يملكون بنادق سريعة ومدافع رشاشة ويستعملونها بمهارة ، وقد عاد البكتاشية إلى مساجدهم اليوم ، وهم يقرأون الصحيفة اليومية التي تأتيهم من تيرانا بلهفة كبيرة ، ولديهم جهاز راديو يستمعون إليه .

وقد تقسم الفلاحون في كل ناحية أراضي كبار الزراع الذين ثبت أنهم مالأوا العدو ، وأحسسنا في كل مكان رغبة أهل البلاد في التعاون الحر الديمقراطي مع غيرهم من الأمم .

[من مقال بقلم فيسكو ستريفسكي في صحيفة نوفايا فريميا (العصور الجديدة) موسكو]

كلما كان المرء أقرب إلى الهمجية كان أقرب إلى المستوى اللائق .

وأنت إذا أردت أن تقرأ شيئاً فى اللاهوت أو فى النحو أو فى الغيبيات فاقرأها عند واحد غير مونتانى .

أما مونتانى فيكتب لك ليذيقك طعم الحياة ، حلوها ومرها ، وهو يكتب ليجعلك تحس لذعات الحياة .

وهو لا يتردد فى أن يكتب لك — فى تفصيل دقيق — عن مرضه وعن رحلته التى ارتحلها إلى إيطاليا فذاق فيها من المرض كأساً مرة المذاق .

ومونتانى هو الذى كتب اسمه فوق صورته ورسم فوق اسمه ميزاناً وكتب تحت الميزان الكلمات الآتية : « ما الذى أعرفه أنا ؟ » .

ومونتانى هو الذى يقول : إنه مما لا شك فيه أنى أعرف — معرفة مؤكدة — بيتى وغيطى ، وأعرف أبى وزوجتى ، وأعرف الزارعين كما أعرف حرات أرضى .

وأنا أعرف صنف اللحم الذى أفضله كما أعرف شرابى المفضل .

وأنا أحب الأيام التى شابت نواصيها ، وأنا أحب هواء الخريف كما أحب برد الشتاء ، ذلك لأنى فى خريف حياتى وقد وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً .

وأنا أحب الحذاء القديم الذى طال تردادة إلى الاسكاف مادام لا يحز قدمى ، وأنا أحب الصحاب القدماء الذين لا يحرجوننى ، وأنا أحب الحديث السهل المرسل .

ولماذا أحمل عقلى فوق ما يحتمل وأجعله تثقل مراجله وأنا أتفلسف .

وماذا على لو عشت فى حدود طاقتى الإمكانية .

(وبعد) فالمقالة عند مونتانى إنما هى حديث نفسه ونجواها ، وهو إذا كتب لا يحفل كيف تجئ كلماته مادام ينظر فيما يكتب نظرة مذكرة .

وقد كان هناك أناس يفوقون مونتانى فى التعمق فى التفكير . ولكنك قلما تجد كاتباً يقاربه فى الثروة الفكرية .

ولن تجد مونتانى يوماً ما يليهذا فى تفكيره أو ينقصه الصدق فى القول .

وإن أسلوب مونتانى فى الكتابة هو أسلوب حديثه منقولاً فى كتاب .

وأنت إذا أمسكت بكلماته ووضعتها على الشرحة لوجدت الدم يسيل منها فى حيوية دافقة . ذلك لأنها كلمات تتخللها أوعية دموية ، وذلك لأنها كلمات تفيض منها الحياة . . . . »

(من الإنجليزية) مبارك إبراهيم

زعماء النازية والذكاء

يقوم العالم النفسى الأمريكى جوستاف م . جلبرت بتجارب لاختبار ذكاء زعماء النازية المسجونين رهن المحاكمة فى نورمبرج ، وقد انتهت تجاربه بالنتائج التالية :

أذكى الموجودين الآن هو هيالمار شاخت وزير المالية ومدير مصرف الريخ فى عهد هتلر ، فقد وجدت عنده عبقرية ممتازة فى التنظيم .

ويليه يوليوس شترايخر عدو اليهود اللدود وصيادهم الماهر، فقد وجد الأخصائى الأمريكى أن ذكاءه « متوسط » ويلى هذين آرثر سايس انكوارت حاكم النمسا أولا ثم هولاندا فى عهد النازيين .

وقد لقى العالم الأمريكى صعوبة فى اختبار رودلف هس لأن هذا الأخير خدعه بتصنعه الجنون ، ولكنه حتى بعد عودته إلى الحالة الطبيعية لم يحصل على درجة كبيرة .

ويلى هؤلاء على الترتيب هرمان جورنج وكارل دونتز وفرانتس فن بابن وهانز فرانك وهانز فيرتشه وبالدور فن شيراخ .

أما أقلهم ذكاء فكان يواكيم فن ربنتروب وفلهلم كيتل . (من Science Digest)

تاريخ النقائض
في الشعر العربي

الأستاذ الجليل احمد الشايب

هذه طرقة جديدة يهديها مؤلفها إلى الباحثين في تاريخ الشعر العربي ، يحاول أن يسد هذا النقص في دراسة النقيضة وتاريخها وما مر بها من أحداث وأطوار . وما من ريب في أننا نعجب بهذا العمل الذي يحاول فيه صاحبه أن يفسر موضوعاً من الموضوعات الصعبة في تاريخ أدبنا العربي ؛ وهو يبدأ هذا الكتاب ببحث واسع عن النقيضة ما هي ؟ وما مفارقتها من المعارضة والنافرة والمناظرة ؟ حتى إذا استوفى ذلك استيفاء دقيقاً تقدم يعلل لظهور النقيضة في العصر الجاهلي من الوجهتين النفسية والاجتماعية ، وقد ذهب إلى أن الشعر ينشأ هجائياً ، ولعله يتأثر في ذلك برأي أرسطاطاليس القائل بأن أصل الهزلة عند اليونان شعر الهجاء ، وكأنما تطور شعر الهجاء عند اليونان أنتج الهزلة ، بينما تطوره عند العرب أنتج النقيضة ، تلك القصيدة التي يرد فيها شاعر على آخر من نفس الوزن ونفس القافية ، ينقض له آراءه وأفكاره .

ويقدم الكتاب حديثاً مفصلا عن مقومات النقيضة وعناصرها ، فيعرض للأنساب والآباء وما كان من تفاخر بهما عند عرب الجاهلية ، مما أدى إلى هذه الحال المعروفة في تاريخ العرب ، حال العصبيات التي لم يستطع الإسلام أن يحد من شوكتها إلا قليلا ؛ وقد هاجمها الرسول عليه السلام فقال في خطبة الوداع : أيها الناس ! إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . غير أن هذه الصرخة الإسلامية العظيمة لم تؤت أُكلها المنشود ، إذ استمرت العصبيات واستمر معها الشعر الذي كان يؤجج نارها ، ونقصد شعر النقائض الذي أذكى فيه الإسلام نفسه بعض الذكاء على نحو ما هو معروف في تاريخ البعثة المحمدية ، إذ كان شعراء المدينة ومكة في معارك جدلية دائمة . ثم تسلم مكة وتدخل الجزيرة العربية كلها في الإسلام وتخمد نار هذه النقائض وما يتصل بها من عصبيات ، ولكنا لا نكاد نتقدم بعد عصر الخلفاء الراشدين ، حتى تعود هذه النقائض جذعة ، ولعل من الغريب أنها لم تعد في الحجاز ، فقد كان مشغولا بضروب من شعر الغناء وما يتصل به من لهو ، وأيضاً فإنها لم تعد في نجد ، فقد كانت مشغولة هي الأخرى بضروب من الغزل الرقيق عند جميل وأضرابه ؛ إنما عادت في العراق ، بين هذه القبائل التي فتحت فارس ، ثم رجعت فأقامت في البصرة والكوفة اللتين اختطهما عمر لهذه الجيوش التي هدمت إطار الدولة الفارسية هدما .

وكأنما كان ارتداد هذه القبائل الظافرة إلى المعيشة على هامش الجزيرة الشرقي إيذاناً بانتكاسها وعودتها إلى الحياة القديمة بكل ما فيها من فخر وعصبيات وما يتصل بذلك من هجاء ونقائض ؛ ويظهر أنه كان لفراغ هذه الجماعات العربية أثر في هذه الظاهرة ، فقد رجعوا — بعد ما أفاء الله عليهم من الغنائم — إلى هاتين البلدتين ، وأخذوا يعيشون فيهما معيشة فارغة عاطلة ، إلا ما كان من ثوراتهم على الأمويين . وهذا التعطل وهذا الفراغ هما اللذان أعدا لاشتعال نار الهجاء بين الشعراء حتى يشغل الناس وقتهم الفارغ الطويل بشيء يسلون أنفسهم به ، وعاذا يسلي العربي نفسه ؟ إنه يجتر حياته القديمة بما فيها من آباء وأنساب وأخبار وأيام . وقد دفع هذا الاجترار الشعراء إلى أن ينظموا نقائضهم يصورون فيها أعمال قبائلهم في الجاهلية والإسلام وما كان لهم من مآثر ، مضيفين إلى ذلك النقض من القبائل الأخرى نقضاً فيه إقذاع قبيح .

وكان الناس يحتشدون في المربد لسماع هذه النقائض التي كانت تقع منهم حينئذ موقع الصحف من حياتنا الحديثة ، فهم يسمعون فيها حوادث الجاهلية كما يسمعون فيها حوادثهم اليومية . وما من ريب في أنهم كانوا يعلقون على ما يسمعون بضروب من الأقاصيص والروايات ، ويعجب الباحث إذ يرى الحزازات الجاهليـة بين القبائل تعود كما هي ، فقد سعرها الشعراء وعلى رأسهم جرير والفرزدق والأخطل . وما زال هؤلاء الشعراء الثلاثة يمدون نيران هذه الحزازات هم وأمثالهم بكل ما يمكن من وقود وسباب وهجاء .

ويستغل الأمويون هذه الفرصـة فيعملون على إثارة هذه النيران حتى تشغل العراق عنهم بمـا فيها من معارك الهجاء ، وما يستتبع ذلك من انقسام القبائل بعضها على بعض . ونحن نعرف أن العراق منذ حروب على ومعاوية كان يقف موقف الخصومة من الأمويين ، فكان ذلك سبباً في أن يثيروا هذه المعارك الجدلية بين الشعراء ، وأن يعملوا على استمرار نيرانها مشتعلة متأججة هناك .

ويفسر كتاب تاريخ النقائض هذه الصور كلها ، حتى إذا ألم بتاريخها وأطوارها أخذ يتكلم من فن النقائض في كل عصر من العصور الثلاثة للنقيضة ، وهي الجاهلية والبيئة المحمدية ثم عصر الأمويين ، وإنه ليمعن خاصة ببيان فن الفرزدق وصاحبيه ، وقد وقف وقفة طويلة عند تعقيد الفرزدق وما امتاز به من شـذوذ على النحويين والنحويين ومقاييسهم ، ويظهر أنه كان يقصد إلى ذلك قصـداً حتى يعنت على ابن أبي إسحق وأضرابه من النحويين الذين كانوا يعرضون له ، ويكثرون من الرد عليه ، وما زالت الخصومة ترتفع بينه وبين ابن أبي اسحق الذي كان يراجعه ويتلوّمه كثيراً حتى قال فيه :

فلو كان عبـد الله مولى هجوته

ولكنّ عبـد الله مولى مواليـا

وقد تعلق النقاد بهذا الجانب في الفرزدق ورووا منه شعراً كثيراً . وأظن ليس منا إلا من يحفظ هذا البيت الذي يرويه البلاغيون في أوائل كتبهم في البلاغة :

وما مثله في النـاس إلا مملكا

أبو أمـــه حيّ أبوه يقاربه

وماذا في هذا البيت سوى أن الفرزدق يريد أن يقول إن الممدوح لا يماثله أحد في الناس إلا ملكا أبو أمه أبوه أي أنه ابن أخت الممدوح ، فانظر كيف عقد الفرزدق تعبيره ؟ ولكن هل هذه العقد كان يأتي بها الفرزدق عامداً ليؤذي النحويين ومن يتصلون بهم من اللغويين ، أو أنه كان يعبر بها عن المرحلة الأخـيرة للشعر الإسلامي الذي يعد امتـداداً للشعر الجاهلي ، وكأن ذلك كان إيذاناً منه بما ينبغي أن يتحول إليه الشعر العربي في العصر العباسي ، من اتخاذه لموضوعات جديدة ؟ أ كبر الظن أن هذا التعقيد عند الفرزدق كان تعبيراً عن المرحـلة النهائية للشعر القديم ، وأنه ينبغي أن يعدل الشعراء عنه إلى الشعر العباسي الحديث . ومن هنا ترتفع ملاحظة الأستاذ الجليل احمد الشايب ، إذ يلاحظ أن الشعر العربي تعقد مرتين : مرة في القرن الأول عند الفرزدق ، ومرة أخرى في القرن الرابع عند المتنبي .

والحق أن كتاب تاريخ النقائض يفتح آفاقا طريفـة في دراسة الشعر العربي ، وقد عاني فيه صاحبه جهدا شديدا في جمع الملاحظات وبيان الصـلة بين النقائض والتـاريخ السياسي والاجتماعي ؛ وقد أضاف طائفة من التحقيقات الجديدة حول بعض النقائض بين جرير والفرزدق ، أما نقائض جرير والأخطل فقد رأى أنه يصفهما ما يصف اختيارات أبي تمام دائماً من أنها لا تروى القصائد جملة ، وهـذا هو سر اضطرابها وسر قصرها . وإذا كان هناك شيء يمكن أن يلاحظ على هذا البحث الطريف ، فهو كثرة ما حشد فيه المؤلف من تفاصيل ودقائق ، وأيضاً

فإنه عنى بفكرة التطور للنقيضة، ولذلك قدم لدرسها فى العصر الأموى بمقدمات طويلة ستظل محل نظر بين الباحثين وخاصة فيما اعتدّ به من شعر. وقد جرى مع الفكرة العامة بين النقاد وهى أن جريراً والفرزدق والأخطل يؤلفون شعراء الطبقة الأولى فى العصر الأموى. ولكن هل حقاً ما يقوله النقاد أو أنهم يغالون بعض الشىء حين يجعلون شعراء الهجاء والنقائض هم الشعراء الأولين، بينما يجعلون شعراء الغناء من أمثال عمر بن أبى ربيعة شعراء ثانويين؟ وأكبر الظن أنهم اعتنقوا هذه الفكرة متأثرين بما ذهبوا إليه من تفضيل الشعراء المتبدين على الشعراء المتحضرين، وخاصة أنهم وجدوا فى شعرهم بغيتهم من الشواهد والأمثال التى كانوا يطلبونها. على أن هذا لا يغض من قيمة ذلك البحث القيم الذى أتاح فيه صاحبه لقرائه أن يطلعوا من خلاله على تاريخ النقيضة وما تمتاز به من خصائص اجتماعية وتاريخية وفنية، فقد ساق ذلك كله فى استقصاء بالغ وتحقيق بارع.

شوقى ضيف

سكان العالم فى ازدياد

يقدر دَوْلى كيرك الاخصائى فى مسائل السكان فى جامعة برنستون فى الولايات المتحدة أن عدد سكان روسيا يزداد زيادة مطردة رغم خسائرها الفادحة فى الحرب الماضية، فقد كان عدد سكانها سنة ١٩٤٠ نحو ١٧٤ مليونا وسيبلغون ٢٥١ مليونا سنة ١٩٧٠، أى أن عدد سكان روسيا سيزيد فى هذه الفترة على مجموع سكان شمال وغرب أوربا بستة وعشرين مليونا من الأنفس، وسيزداد عدد رجالها القادرين على حمل السلاح بمقدار ما كان عند ألمانيا فى أوج قوتها أى حوالى سنة ١٩٣٧.

ونستطيع أن نذكر على سبيل المقارنة أن عدد سكان الهند ارتفع خلال الأربعين سنة الماضية من ٢٨٤ إلى ٣٨٨ مليونا من الأنفس، وكان عدد سكان الجزائر اليابانية جميعها خمسة وثلاثين مليونا فى سنة ١٨٧٠ فأصبحوا ضعف هذا العدد فى سنة ١٩٤٠، بل زادوا على سبعين مليونا بحسب آخر إحصاء بعد ذلك بسنوات؛ وعدد سكان الصين اليوم ٤٠٠ مليون ولكنه سيصبح ٦٠٩ مليون سنة ١٩٩٠، وسيصبح عدد سكان الهند حتى ذلك التاريخ ٧٠١ مليون؛ ومن الممكن أن يصبح عدد سكان الصين وجنوب شرق آسيا معاً فى سنة ١٩٩٠ معادلاً لجميع سكان ما عداها من بقاع الأرض، إذ سيصل هذا العدد إلى ١٦٧٨ مليوناً فى حين أن عدد سكان روسيا سيصل إلى ٣٢٨ مليوناً.

(عن Common Sense، نيويورك)

عربات الصين التى يجرها الناس

الجنريكشا — واختصارها ركشا — هى عربة الركوب الصغيرة التى يجرها رجل، وهى من خصائص مدائن الصين وترى فى شوارعها كما ترى عربات «الحنطور» عندنا.

وقد حسب الناس أن هذا النوع من العربات اختراع صينى قديم، ولكن الواقع أن صاحب الفكرة كان مبشرا أمريكيا كان يعمل فى شنغهاى خلال النصف الثانى من القرن الماضى، ويقال إن غرضه الأول منها إنما كان نقل المرضى، وقد أعطى الفكرة لنجار يابانى فى شنغهاى فصنع أول عربة من هذا النوع على هيئة عربة أطفال كبيرة، ثم تناول اليابانيون الفكرة فما زالوا يعدلونها حتى صارت إلى هيئتها الحالية، وأول عربة من هذا النوع جرت فى شوارع شنغهاى كانت فى سنة ١٨٧١، وقد تطورت صناعتها اليوم حتى أصبح بعضها يحاكى أفخر عربات «الحنطور» الخاصة عندنا جمالا وفخامة، ولكن العادى منها رخيص الثمن يتكلف بين أربعة وعشرة من الجنيهات.

بين المسموع والمقروء

في ضيافة فيلسوف ياباني :

قلب حائر

واستطرد محدثي السكسوني يحدثني من اليابان قال :

إن عدد الجامعات في اليابان قليل بالنسبة لمجموع السكان ، فهي لا تستطيع أن تقبل كل من يطلب دخولها ، هذا مع أن عددها المطلق قد يزيد على عدد الجامعات في إنجلترا . والتعليم في الجامعات يجري على مستوى أعلى كثيراً من مستوى المدارس التي تؤدي إليها . فمدرسوها وأساتذتها خير الأساتذة والمدرسين ، وما من نفقة باهظة تقف دون استجلاب أقدرهم واستهواء أحسنهم . وهم من أجل ذلك لا يقنعون بالطلاب دون ما يستطيعه الجهد الأكبر من الثقافة والتعليم .

ومن الممتع أن يرقب المرء كيف يتدرج الطالب الياباني في تقبّل ما يُلقى إليه من علم ، وما يعطى له من آراء . ففي درجات التعلم الأولى يأخذ ما يُعطى ، ويتقبله دون سؤال . إنه العلم وإنه الحق . ثم يبلغ ذروة التعليم الثانوي ، أو هو يبلغ الجامعة ، وعندها يأخذ يدرك أن ما تعلمه ليس أكثره الحق . وهو عندئذ يرى بكثير مما حمل على أنه خرافة وبطلان لا داعي لإثقال الأذهان والقلوب بهما . إنه ليس علماً ، بل هو ينقض العلم ، والعلم ينقضه . ويأخذ يستبدل بآرائه القديمة آراء جديدة هي على عكس ما عرف وما تعلم .

وهو لا يلبث أن يجد نفسه في أزمة وضيق . لا يلبث أن يجد الحاجة إلى الغير ليتبادل معه شيئاً من النقاش يتبين له ما وقع فيه من ظلمة . إنه يريد نصحاً أو كلمة إيحاء تهديه أو لا تهديه من ضلال . وينظر إلى أصدقائه فلا يستطيع أن يكشف لهم من خبيئة نفسه ولا يستطيعون .

وقد يتصل ما قام في نفسه من التشكك في أصل أمته . فقد تعلم صغيراً أن اليابان ولد أبناؤها الأولون في السماء ، وأن الإمبراطور إله يعبد . ثم هو يتعلم كبيراً ما لا يجيز في عقله أن مثل تلك الأشياء جائزة أو ممكنة . ومع هذا فهو يرى أهله وقومه ، ممن هم أكبر سناً وأرجح عقلا ، يراهم يؤمنون بالذي كاد به يكفر . فمن يستنصح ومن يستنجد ؟

إن زملاءه كلهم ، هم في مثل حيرته ، وقد جاز أن يتحدث إليهم ويشتق ، ولكنه إن فعل فقد انكشف وتعرض لعقاب السلطة . وعلى هذا فهو يكظم الذي به ، ويحاول أن يحل عقدته بنفسه ، أو هو يدع العقدة على انعقادها ، بحسبان أنها أعقد من أن تحل . وأحياناً يجد احتمال حلها ويطلبه عند أحد مدرسيه الأجانب وهم عديدون .

ويقترب الطالب الياباني من مدرسه في شيء كثير من الحياء ، وفي كثير من الحيرة ، ويفضي إليه معتذراً بخبيئة نفسه . ولا يفضي بها كلها دفعة واحدة ، ولكن حصصاً وأقساطا .

جاء طالب إلى أستاذه على مثل تلك الحال ، وأخذ يعبر عما في نفسه في غير انطلاق الواثق ، وتعثر تعثر المريب . وأدرك الأستاذ أن هناك شيئاً تخلف في قلبه بعد كل ما قال ، يريد أن يبوح به وتبخل نفسه . وأخيراً يتقدم التخلف ويبوح الكاتم ويجود الباخل . « إنها هكذا ياسيدي ... » . ثم يفيض القلب الملآن ... كان هذا الطالب يدرس الفلسفة ، والفلسفة شيء لا تؤمن دراسته على كل طالب . وكان هذا الطالب من أسرة فقيرة تعمل في الحقل ، وكان جَلداً على العمل قديراً ذكيا . وعنّه أن قرأ ذات يوم في كتاب وصفاً لنظام جديد تتجدد به الحياة فوق الحقول . إنه الاشتراكية في أقصى غلوائها . وقد كانت الاشتراكية التالية لا يثير اسمها عنده ، عند رفاقه في الزمان الأول ، غير حس عميق بالفكاهة ، وغير صراخ عال ممتع ، يستمتع به الطلاب في الشوارع حيناً ، إذ يلوّحون بالأعلام

ويقومون بإلقاء الخطابات ، ومن ورائهم البوليس يخفر تلك الجماعة الثائرة . وقد تنقلب الجماعة إلى مجزرة تؤدى إلى حجز بعض الطلبة يوماً أو أياماً يخرجون من بعدها فى صحة وعافية ، وعلى لذة يثيرها تذكر المغامرة التى انتهت بسلام .

هذا بالأمس . أما اليوم ، فهذا الذى يقرأه يتراءى له أنه الجد الذى لا سخرية فيه . أنه الحق الذى لا يحتاج إلى الأعلام والهتافات . ومن الجائز جداً أن يكون فيه نفع للأسر الكثيرة التى هى كأمثال أسرته تعمل فى الريف وتحرث الأرض وتنبت النبات . إن الاشتراكية هذه العالية تتراءى له ، ولو نظرياً ، نظاماً يضمن الخير للجميع ويتقى الظلم والفقر والفساد .

ولكن الاشتراكية الغالية كلمة سيئة الرائحة فى أنوف اليابانيين . إنها الإثم الكبير . إنها شىء يقضى على المدنية الحاضرة بالزوال ، وعقيدة لا يقف أربابها من استباحة أية وسيلة لبلوغ مآربهم ، حتى الثورة يطلبونها ثورة عالية تلف الأرض بالنار والدمار من شرقها إلى غربها .

ويقع الطالب المسكين فى خبال ، خبال من كراهة فيه مبذورة على الصغر للاشتراكية وكل ما يتصل بها من نذر ، ومن تلك الاشتراكية التى يقرأها فى كتابه فتأتلف مع عقله الناشئ ، ومنطقه البرئ الساذج ، ويظهر له فيها الخير يأتى الناس جميعاً ولو تأخر عن بلوغه بعض حين .

وهو لا يريد من أستاذه جدلا بعد الذى قرأ . إنه اقتنع بالذى قرأ . ولكن الذى يريد أن يستفتى فيه هو ما الذى يصنعه بعقيدته فى قومه وفى أمته . إنه لو آمن بهذه الاشتراكية الموصوفة المكتوبة فقد كفر بأهله ، وهو إن آمن بأهله فقد كفر باشتراكيته .

وأحس الأستاذ بحرج الموقف . لقد وجد فى حديث الطالب رنة إخلاص لا يشوبها كدر . إنه إخلاص التائه حقاً ، وهو يرجو الهدى ويرجو الخلاص . وهو فى إخلاصه لا ينغض ولا يحقد ، ولكنه يطلب الحق خالصا .

أحس أستاذه بذلك فاعتدل فى جلسته يستقبل الموقف بالحسم الذى هو به جدير . قال للطالب : إنه لا يستطيع أن يختار له ، ولا أن يفكر له ، فهو وحده الذى يستطيع أن يفكر لنفسه وأن يختار . وأضاف أن الأشياء ، ولو غير مرضية ، لن تتغير فى يوم وليلة . وهو إذا ساءه نظام حكومته ، فليعلم أن هناك من أبناء وطنه ألوفاً وألوفاً لا يسوؤهم هذا النظام . فهو إن حاول وحده تغيير الحال فقد حاول المحال . وهو لو وجد حتى من الرؤساء أعواناً نصراء فهؤلاء تأبى عليهم الحكمة أن ينقلبوا إلى حال يريدونها ، من حال للناس قديمة عتيقة ، يضرب العرف فيها وتضرب التقاليد ، بعيدة الجذر فى أرض الزمان . وغير هذا فالأشياء سائرة مع النية الحسنة من سىء إلى ما هو أقل سوءاً ، ومن حسن إلى ما هو أكثر حسنا ، فلنترك الأشياء تجرى على سجيتها .

وأخيراً أقنع الأستاذ تلميذه بأن الحكمة تقضى بأن لا يفعل شيئاً وحده ، لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً وحده ، إلا الإضرار بنفسه من غير فائدة أو عائدة . وأقنعه بأن واجب العمل يسقط عن المرء إذا لم يكن له عون من زمانه .

واقتنع الطالب بالذى قال أستاذه . واستراح بالاً . وسر الأستاذ أن يسمع تلميذه يقول : أما الآن أرى وجوه النفع فى نظم للحكم غير نظمنا ، فى نظم غريبة أجنبية عنا . وسأعمل وسعى أن أنتفع بوجوه النفع هذه ، وأن أقتبس منها لنظام حكمنا — أن أقتبس منها ما أضيفه إلى أحسن مما أجد فى نظام حكمنا ، وسأجتهد أن أعمل فى حياتى هذه القصيرة خير ما أستطيع لنفع الانسانية جمعاء .

أى نعم لنفع الإنسانية جمعاء !

هذا قول قد يثير الضحك عند من لم يألف اليابان واليابانيين . أما من ألفهم فيدرك أن اليابانيين قوم يتعلقون بالخيال وبالكمال . أنهم قوم مثاليون . وإن قال الطالب إنه يريد النفع للانسانية جمعاء فصدقوه . فإنما قال جدا .

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٧٧ — الثلاثاء ١٥ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٥ — ١٩ من مارس سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

إلى وفد المفاوضة :

التشريع الحديث والتشريع المجحف بالأجانب

نشرت صحيفة الأهرام برقية لمراسلها من لندن بشأن ما أجملته البرقية مشروع القانون المصري الجديد الذي يتعلق بالشركات التجارية ، جاء فيها أنه قد استرعى النظر في المشروع ما ينص عليه من أن عدد الموظفين المصريين في الشركات يجب ألا يقل عن ثلثي مجموع عدد موظفيها وأن يكون ٩٠ ٪ من عدد عمالها من جميع الطبقات من المصريين ، وألا تقل مرتبات الموظفين المصريين من ٦٠ ٪ من مجموع مرتبات كل شركة وألا تقل أجور العمال عن ٨٠ ٪ من مجموع ما تدفعه الشركة من الأجور لعمالها »

ثم تضمنت البرقية قبيل ختامها العبارة الخطيرة الآتية وهي التي حركتني لكتابة هذه الكلمة : « والمفهوم أن الحكومة البريطانية لا تريد التدخل فيما لمصر من حق تنظيم شئونها الاقتصادية ، ولكن الأمل معقود بمقتضى معاهدة سنة ١٩٣٦ وفي سبيل تنسيق العلاقات في المستقبل على ألا تعمد مصر إلى إصدار تشريع ينطوي على إجحاف بالأجانب » .

هذه هي المسألة الشكلية التي أرى واجباً أن نعالج وأن نحدد المقصود بالتشريع المجحف بالأجانب .

إن معاهدة ١٩٣٦ وهي التي تشير إليها البرقية قد سجلت بالمادة ١٣ اعتراف بريطانيا العظمى بأن نظام الامتيازات « لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة » . ثم أوردت ملحقاً للمادة ١٣ المذكورة نص بنده السادس على ما يأتي : « يصرح صاحب الجلالة ملك مصر بمقتضى هذا أن أي تشريع مصري يطبق على الأجانب لن يتنافى مع المبادئ المعمول بها على وجه العموم في التشريع الحديث ، وأنه فيما يتعلق بالتشريع المالي على وجه الخصوص فإن هذا التشريع لن يتضمن تمييزاً مجحفاً بالأجانب بما في ذلك الشركات الأجنبية . »

فما هو مدى هذا التصريح الذى يراد تحميله ما لا يحتمل وتأويله تأويلاً يعيد الامتيازات الأجنبية من جديد ؟ .

لقد أدلى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى باشا النحاس رئيس مجلس الوزراء آنذاك فى جلسة مجلس النواب المعقودة فى ٢١ يونيه ١٩٣٧ ببيان عن اتفاق مونترو تناول فيه بالتوضيح والتحديد هذا الشرط الذى كرر بالمادة الثانية من اتفاق مونترو ، فقال رفعته :

« وهذا الشرط يطابق فى الواقع ما تجرى الحكومة المصرية من تلقاء نفسها عليه من إقامة تشريعها على أحدث المبادىء العصرية ومن عدم الإجحاف بالأجانب حرصاً على استمرار التعاون الوثيق بينهم وبين المصريين وقد قيد فوق ذلك بالقيود الآتية :

أولا — جاء فى الفقرة الأولى من البروتوكول أن أحكام هذا الشرط يجب أن تفسر على ضوء العرف الدولى الخاص بهذا النوع من الالتزامات بين الدول المتمتعة بالسيادة التشريعية .

وجاء فى تقرير المسيو (بوليتيس) تعليقاً على هذه الفقرة أن لجنة التحرير تبادلت الرأى فى تفسير العبارة الخاصة بعدم التمييز طبقاً لما يفهم من مناقشات اللجنة العامة فرأت من المهم أن يتضمن البروتوكول نصاً خاصا بهذا الشأن والواقع يا حضرات النواب المحترمين أن الوفد المصرى حرص أشد الحرص فى مناقشات اللجنة العامة على توضيح عبارة عدم التمييز وتحديدها وبين بكل جلاء وصراحة أنه يفهم هذه العبارة بأضيق المعانى فى حدود ما يقره العرف الدولى وبشرط عدم المساس بسيادة مصر التشريعية على أى وجه كان ، وأن هذه العبارة وإن كانت عامة المدلول فإن المسائل التالية هى المقصودة أكثر من سواها ، وشرح معالى وزير المالية على سبيل التمثيل أحوالاً يجب ألا تعتبر تمييزاً مجحفاً بالأجانب ، كالشروط التى قد تشترط لمزاولة بعض المهن مثل الإلمام باللغة العربية أو حيازة الإجازات العلمية أو أداء مدة التمرين فيما يختص بمهنة المحاماة أو اجتياز الامتحان فيما يختص بمزاولة الطب ، وكرسم التأشير على جوازات السفر ورسوم البورصة وضريبة الدخل ورسم الدمغة ، فأمن مندوبو الدول على هذا الإيضاح والتحديد .

ومن هنا حرصت لجنة التحرير والتنسيق كما جاء فى تقرير رئيسها على أن يذكر فى البروتوكول أن شرط عدم التمييز يجب أن يفسر على ضوء العرف الدولى الخاص بهذا النوع من الالتزامات بين الدول المتمتعة بالسيادة التشريعية » .

وجاء فى تقرير لجنتى الخارجية والحقانية بمجلس الشيوخ عن هذا الشرط ما يأتى : « ... ولم تر مصر حرجاً فى النص على عدم التمييز المجحف بالأجانب تمشى ذلك مع رغبتها الصادقة فى تأكيد صلتها بهم ولأنها مطمئنة لنفسها ... ... أما النص على عدم منافاة التشريع مع المبادىء المعمول بها على وجه العموم فى التشريع الحديث فأمر مفروغ منه إذ أن التشريع فى مصر قد توطد وصار على أحدث المبادىء ، فضلا عن أن النص الخاص بمراعاة قواعد القانون الدولى قصر أمرها على فترة الانتقال » .

فهل تنطوى الأحكام المتعلقة بنسبة المصريين من العمال والموظفين ونسبة مرتباتهم إلى مجموع المرتبات فى الشركات ، هل تنطوى هذه الأحكام على إجحاف بالأجانب أو تعتبر خروجاً على المبادىء المعمول بها على وجه العموم فى التشريع الحديث ؟ .

إن مفهوم الإجحاف هو أن يحرم الأجنبى ضمانة أساسية يتمتع بها المصرى كحرمة المسكن مثلا ، فإذا أجاز التشريع انتهاك مسكن الأجنبى دون المصرى بغير اتباع الإجراءات القانونية أو حرم المتهم الأجنبى ما خوله المتهم المصرى من حقوق الدفاع مثلا كان تشريعاً مجحفاً بالأجانب ، وإذا فرضت ضريبة من الضرائب وجعل سعرها بالنسبة للأجنبى عشرين فى المائة وبالنسبة للمصرى

عشرة فى المائة فقط فقد يكون فى هذا إجحاف بالأجانب .

أما تأمين العمال ضد البطالة ، بل تأمين المجتمع المصرى كله شاملا المصريين والأجانب ضد نتائج البطالة ، بإلزام الشركات مصرية وأجنبية توظيف نسبة معينة من المصريين يكون مجموع أجورهم ومرتباتهم نسبة معينة من المجموع الكلى فليس فيه إجحاف بالأجانب لأنه تشريع عام ولأن عدد الأجانب المقيمين فى مصر يجعل النسبة المتروكة لهم فى الوظائف والرتبات أقل بكثير مما يتكافأ مع نسبتهم العددية ، فالإجحاف إذاً واقع على المصريين وليس على الأجانب .

وقد صدرت فى مصر قبل معاهدة ١٩٣٦ وقبل معاهدة مونترو تشريعات مشابهة لهذه الأحكام المعترض عليها ، فهل انحطت سيادتنا التشريعية بعد إلغاء الامتيازات عما كانت عليه قبل إلغائها ؟

فإن المادة الأولى من قانون التجارة البحرى الصادر سنة ١٨٨٣ قد نصت على أنه لا يجوز أن يكون مالكا لجميع سفينة رافعة للعلم العثمانى (المصرى) ولا لبعضها ولا أن يكون عضواً من أى شركة لتشغيل سفن رافعة للعلم المذكور إلا من كان من رعايا الدولة العثمانية العلية (المصريين) .

كما أن المادة الثانية من القانون المذكور تقول : « يجوز لرعايا الدولة العثمانية العلية (المصريين) أن يمتلكوا سفناً أجنبية ويسيروها فى البحر بالعلم العثمانى (المصرى) بعين الشروط المقررة فيما يختص بسفن الرعية (المصريين) ولكن لا يجوز أن يشتمل سند التملك على أى شرط أو قيد يخالف المادة السابقة لنفع أجنبى ، وإلا فيعاقب المتملك بضبط السفينة لجانب الحكومة » .

وقد ثار البحث فى مدى انطباق هاتين المادتين على شركات الملاحة التى يصدر بتأسيسها مرسوم ملكى (أى شركات المساهمة) ويظهر أن بعض التفسيرات ذهب إلى أن من حق شركات الملاحة « المساهمة » أن تطبق عليها الأحكام العامة للشركات « المساهمة » وليس فى هذه الأحكام المبينة فى قانون التجارة ما يحتم القيود ، فانتهى البحث بأن أصدر مجلس الوزراء قراره المؤرخ فى ١٨ مارس ١٩٣٠ « بإيجاب توفر أغلبية من المصريين فى تأليف مجلس إدارة الشركة » أى شركة الملاحة البحرية المساهمة .

وأسوق مثلاً آخر هو قرار مجلس الوزراء المؤرخ فى ٣١ مايو ١٩٣٧ الذى أوجب « أن يكون ربع موظفى الشركة المساهمة غير العمال من المصريين . ويشمل هذا التعبير كل شخص قائم بعمل كتابى أو حسابى أو إدارى أو فنى تحتاجه الشركة عن عمله . »

يضاف إلى ذلك قرار اللجنة المالية بوزارة المالية المؤرخ فى ٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ الذى جعل المادة ٣٠ من مشروع نموذج شركات المساهمة متضمنة لما يأتى : « ويجب على الشركة أن يكون لديها من الموظفين التابعين ذوى المرتبات الشهرية ٥٠ ٪ من المصريين ، ومن العمال ذوى الأجور اليومية ٩٠ ٪ من المصريين » .

وكان هذا كله سابقاً على معاهدة الصداقة والتحالف وعلى اتفاق إلغاء الامتيازات ! .

* * *

أما أن هذه الأحكام التى يتضمنها المشروع تخالف مبادىء التشريع الحديث فزعم ظاهر البطلان ، بوضعه أن هذه البرقية بالذات قد أشارت إلى قوانين مشابهة سنتها فرنسا و « إلى ما اتخذته رومانيا ويوغسلافيا وغيرهما من القوانين المماثلة لذلك » .

بل إن العراق قد أصدر منذ أعوام كثيرة قانوناً اسمه قانون « حصر المهن بالعراقيين » ولم يقل أحد إن فيه خروجاً على المبادىء التشريعية الحديثة . وكثير من القوانين تحرم على الأجنبى أن يتملك عقاراً ، ولم يقل أحد إنها تتضمن خروجاً على المبادىء الحديثة . فهل فى مبادىء التشريع الحديث ما يوجب تجويع أهل الوطن وترك البطالة تستشرى فيهم ليزداد حظ الأجنبى من النعيم ؟ .

* * *

منذ سنين قلائل تقدم النائب المحترم الأستاذ أبو بك باشا أبو العز إلى مجلس النواب بمشروع قانون يمنع أن يتملك أجنبي في المستقبل أرضاً زراعية إلا إذا كان دائناً لمالكها ونزعت ملكيتها توفية للدين ورسا مزادها على هذا الأجنبي الدائن .

ومع أن هـذه الاستثناءات هي استثناءات أساسية واسعة تقصر تطبيق المشروع على المستقبل ، وتقصره على أرض الزراعة دون أرض البناء وغيرها ، وتقصره على البيوع والتصرفات الاختيارية دون البيوع الجبرية التي يرسو المزاد فيها على الدائن الأجنبي ، مع ذلك كله وُئِدَ المشروع وقيل يومها إن بعض المرضيين أثاروا ضده هذا الالتزام المصري باجتناب كل تشريع مجحف بالأجانب وفسروه تفسيراً مطاطاً مخطئاً ومغرضاً مثلهم .

* * *

وذهب بعض المحامين عن بعض التجار الأجانب أمام القضاء المختلط إلى أن لجان التقدير المنصوص عنها في قانون الضرائب لا تملك أن تقوم ببحوث وتحريات عن حقيقة أرباح التاجر بغير إشعاره بها وفي غيبته وبغير إبلاغه نتائج هذه البحوث ليرد عليها قبل أن تربط الضريبة عليه ، وأن قانون الضرائب لم يخولها هذا السلطان ، ولو فعل لكان « منافياً للمبادىء المعمول بها على وجه العموم في التشريعات الحديثة » فمخالفاً بهذه المثابة لاتفاق مونترو .

وقد يكون هذا التفسير للنصوص الحالية لقانون الضرائب تفسيراً سليماً ، ولكن الأمر الذي يهمنا هنا هو قول الدفاع إن التشريع المصري يكون « منافياً للمبادىء المعمول بها على وجه العموم في التشريع الحديث » ومخالفاً بذلك لاتفاق مونترو لو أنه سمح — فرضاً — للجان التقـدير بإجراء البحوث والتحريات توصلاً لمعرفة الربح الحقيقي للممول بعيداً عنه ودون إعطائه الفرصة لمناقشة هذه البحوث قبل أن تربط اللجنة الضريبة عليـه . فإن مثل هذا الحكم يصح أن يكون موضع انتقاد ومطالبـة بالتعديل ، ولكنه لا يصل إلى أن يكون تشريعاً مخالفاً للمبادىء المعمول بها « على وجه العموم » في التشريع الحديث ؛ أو هو — على الأقل — لا يدخل في نطاق الصورة الظالمة الوحشية التي تصورها المتعاهدون وخافوها وقصدوها حين نصوا على هذا الاحتياط .

ويزداد قولنـا ظهوراً إذا عرفنا أن قانون الضرائب هذا قد أتاح للممول فرصة واسعة للدفاع عن نفسه أمام مأمور الضرائب الذي يتولى تقدير الربح ابتـداءً قبل أن تتصل لجنة التقدير بالموضوع ، كما نص على أن للممول أن يختار تاجرين أو صانعين من أنداده فيضمان — وجوباً — إلى عضوية لجنة التقدير وتصبح بهما لجنة خماسية ، كما نص على أن للممول أن يوكل من يدافع عنه أمام اللجنة محامياً كان أم غير محام ؛ وفوق هذا كله أتاح قانون الضرائب لهذا الممول أن يطعن أمام القضاء في قرارات لجنـة التقدير ولم يحرمه أي وجه من وجوه الطعن المقررة في قانون المرافعات .

* * *

هذه أمثلة ثلاثة لو جازت « المفاضلة » بينها في مقدار الخطأ لقلنا إن الخطأ في شأن مشروع الشركات هو الأعظم وإن الدهشة من الاعتراض الإنجليزي عليه تزداد وتشتد ، لأن الوزارة الإنجليزية القائمة ما فتئت تتراءى برغبتها في رفع مستوى معيشة الطبقات المختلفة في مصر ، فكان المعقول أن ترحب كل الترحيب بمثـل هذا المشروع لأن أحكامه تلبي هذه الرغبـة وتهيئ للعمال المصريين ومن في حكمهم من صغار الموظفين الأهليين فرصة أوسع وأحسن للعمل والحياة .

* * *

ولـكن هذه الأمثلة تشترك في إنذارنا بأنا مستهدفون لخطر تفسيري يجب ألا نسمح له بالتمادي ، حتى لا نخلق بالتسامح الجديد امتيازات أجنبية جديدة ، كما خلقنا بالتسامح

على هامش الحياة الزاهرة .

الطـــــرق

تتطور الحياة فى هذه البلاد تطوراً عظيما فى معظم النواحى ، وتساير التقدم العصرى والمدنية الحديثة فى أغلب مرافق الحياة . وفى وسع الإنسان أن يتناول كل ناحية من هذه النواحى بالشرح والتعليق ، وسنقتصر فى هذا المقال على التحدث عن واحدة منها ، وهى فرع من التقدم الميكانيكى وما يتصل به ؛ وقد تمثل هذا التقدم الآلى فى البلاد وسائل النقل بالسيارات ، كما تمثل استخدام الآلات بكثرة فى تحسين الصناعة والنهوض بها ، وذيوع استعمال الآلات المختلفة الحديثة فى الزراعة وما إليها . ومجال الكلام فى كل فرع من هذه الفروع واسع ومفيد ، ولكنا سنكتفى هنا بالكلام على أهم شىء يتصل بالسيارات وتقدمها ، ألا وهو الطرق .

قد ازداد عدد السيارات فى هذه البلاد زيادة عظيمة ما كانت لتخطر على بال أحد . بدأت هذه الزيادة بعد الحرب العالمية الأولى بخطى وئيدة ، ثم أسرعت هذه الخطى فى التقدم قبيل الحرب الأخيرة ، وطفرت الزيادة فى خلالها ، وينتظر أن تستمر بل وتطرد بعدها ، وذلك لأن السيارات التى كانت تستخدمها السلطات العسكرية فى مصر لن تغادر البلاد ، بل ستباع إلى الهيئات والأفراد بأثمان زهيدة بطبيعة الحال ، فيتيسر لكثيرين اقتناؤها ، ولا سيما الذين كسبوا فى خلال الحرب وبعدها أموالا كثيرة ، وأخذوا يفكرون فى مشاريع يستغلون بها ما فى أيديهم من أموال .

ونحن نعرف أن الضغط قد زاد على وسائل النقل من الأرياف إلى المدن ، وأن استغلال مثل هذه السيارات فى مشاريع كهذه لا بد وأن ينجح . فقد صار الناس يدركون الآن أهمية السرعة فى النقل ، والسيارات أسرع من السكك

القديم الامتيازات الأجنبية القديمة .

وإنه ليجمل بوفد المفاوضة أن ينتهز الفرصة فيستصدر نصاً حاسماً بشأن المادة (١٣) وملحقها يقطع الطريق على أى تملل من هذا القبيل ، فإن قيود المعاهدة ليست قيوداً عسكرية فقط .

* * *

حاشية :

كان الحكم المقرر فى المادة ١٣ من المعاهدة الثنائية بين مصر وبريطانيا العظمى مقدمة للحكم المقرر فى المادة الثانية من اتفاق مونترو بين مصر والدول الاثنتى عشرة ، فقضت الفقرتان الثانية والثالثة من المادة المذكورة بما يأتى :

« ومن المفهوم أن التشريع الذى يسرى على الأجانب لن يتنافى مع المبادىء المعمول بها على وجه العموم فى التشريع الحديث ولن يتضمن فى المسائل المالية على الخصوص تمييزاً مجحفاً بالأجانب أو الشركات المؤسسة وفقاً للقانون المصرى والتى يكون فيها للأجانب مصالح جدية .

والحكم السابق فيما لا يعتبر من قواعد القانون الدولى المعترف بها لا يطبق إلا أثناء فترة الانتقال » .

فليس ما يمنع من علاج هذا الأمر أولا فى المفاوضات الثنائية بين مصر وبريطانيا العظمى علاجاً ينصب على المادة ١٣ من المعاهدة التى يعاد النظر فيها ثم يكون هذا العلاج مقدمة لعلاج جماعى بين مصر والدول الاثنتى عشرة (وبريطانيا العظمى واحدة منها) أو يكون على الأقل تفسيراً رسمياً تنتفع به فى القضاء على مثل هذه التعلات إذا أثارتها دولة من الدول المتعاهدة أو تعلل بها بعض الأجانب فى نزاع قضائى .

عبده حسن الزيات
المحامى

الحديدية بكثير، كما أن النقل بالسيارات أضمن فى المحافظة على الأشياء المنقولة وفى صيانتها من التلف ومن العبث.

كذلك لن يمضى زمن طويل حتى تعود المصانع الأجنبية إلى صنع السيارات وإنتاجها بكميات وافرة، وإدخال تحسينات عظيمة عليها، نتيجة الخبرة المكتسبة أثناء الحرب، وهى خبرة لها قيمتها وسيكون لها أعظم الأثر فى تقدم السيارات تقدماً محسوساً فى كل جزء من أجزائها.

ومتى بدأ ورود هذه السيارات إلى البلاد فإن الإقبال عليها سيكون عظيما من الطبقات التى تملك السيارات فى الوقت الحاضر، ومن التى تتطلع إلى اقتنائها من جديد بمجرد سنوح الفرصة. أما الطبقة الأولى فإن سياراتها دون ما تبتغى وهى تحتفظ بها على كره منتظرة بفارغ الصبر أن تهيأ لها الظروف والفرص لاستبدالها بما هو أفضل منها، سواء من ناحية الجدة أو من ناحية الاتساع أو من ناحية التحسن الشامل الخ. وأفراد هذه الطبقة بمجرد اقتنائهم السيارات الجديدة سيبيعون بطبيعة الحال سياراتهم القديمة إلى من هم على استعداد لاستغلال أمثالها كما قدمنا.

ونتيجة هذا كله أن عدد السيارات فى البلاد لن ينقص عما كان عليه أثناء الحرب، بل المنتظر أن يزداد زيادة كبيرة، كما أن ما سيرد إلينا من السيارات الحديثة سيكون متفوقاً على السيارات الحالية فى الشكل والقدرة والسرعة بصفة خاصة. فهل الطرق التى عندنا فى مصر مستعدة لهذه الزيادة الكبيرة فى حركة المرور؟.

إن كل إنسان يشعر بأن الطرق فى الوقت الحاضر لا تحتمل ما فيها من حركة، فالضغط شديد عليها، والطرق الرئيسية بصفة خاصة يجتازها الإنسان فى أضعاف الزمن الذى كان يجتازها فيه لو أن المرور لم يكن بهذا الاكتظاظ وتلك الصعوبة. وقد يكون الحال فى المدن أشد منه فى الريف من بعض النواحى، ولكنه من نواح أخرى أصعب فى الريف منه فى المدن، فصيانة معظم الطرق الريفية (ولا سيما غير الرئيسية) لا يعنى بها كما يعنى بالطرق فى المدن.

والواقع أن الذين وضعوا تصميم الطرق الرئيسية فى البلاد لم يكن لديهم من بعد النظر ومن الإلمام بالضرورات والمستحسنات قدر كاف. ولنستعرض هنا بعض ما يرد على خاطرنا من هذه الأمور، ولعل هذا يحفز بعض المتخصصين فى هذه المسائل الحيوية فيتقدموا لبحثها بحثاً وافيا ويشرحوا دقائقها ويفيضوا فى دراستها تنويراً للرأى العام، وتنبيهاً للحكومة علها تقوم بما يجب عليها فى هذا السبيل:

أهم شىء فى نظرنا هو ضرورة إدراك القائمين على إنشاء الطرق وبنائها أنه لابد من أن توفى هذه الطرق بجميع حاجيات من يستخدمونها. فهناك أولا المارة أى السائرون على أقدامهم، وهؤلاء يجب أن يعد لهم مكان خاص فسيح مريح يحملهم، هم وأطفالهم وعرباتهم الصغيرة ومواشيهم، فى مأمن من أخطار العربات والسيارات التى تجرى فى الطرق.

ثم إن الطرق يجب أن يراعى فيها أمر على جانب عظيم من الأهمية، ألا وهو تهيئة المكان الملائم والطريق الصالح للسيارات السريعة، بحيث لا تتعرض هذه السيارات لخطر، ولا تعرض غيرها من السيارات أو العربات البطيئة أيضاً للخطر.

ويتحقق هذا بإحدى وسيلتين: فإما أن تكون الطرق من الاتساع ومن الانتظام بحيث تهيىء مكانين محددين لهذين النوعين من السيارات يقوم على تنظيم حركة المرور فيهما بدقة وصرامة رجال أكفاء بعدد كاف أيضاً، وإما أن تخصص طرق معينة للسيارات السريعة وحدها

كما يعمل فى أمريكا مثلاً ، ويبذل الجهد فى تقليل التقاطع فيها بقدر الإمكان ، والاحتياط الفعال فى أمكنة التقاطع بحيث تمتنع حوادث التصادم بالعربات أو بالأشخاص أو بالحيوانات .

وهذا الأمر الأخير على جانب عظيم من الأهمية ، فانه لا معنى لأن يشترى الإنسان سيارة تعب مصمموها وبانوها فى إعدادها لأن تسير بسرعة كبيرة ، ودفع المشترى فيها ثمنا غاليا أساسه ما بذل من جهد وما اتخذ من عدة لتوفير هذه السرعة الكبيرة وضمان عدم إضرارها بالمحرك وأجزائه ، كل ذلك لتوفير الوقت وتقليل متاعب السفر ، لا معنى لأن يشترى الإنسان سيارة من هذا النوع ثم يجد نفسه مضطرا لأن يسيّرها فى طرق لا تصلح إلا للسير بنصف هذه السرعة التى أعدت لها السيارة ، بحيث إذا اضطر السائق إلى استغلال محاسنها والانتفاع بمزاياها وهى توفير الوقت والراحة ، عرض نفسه ومن معه ومن فى طريقه من أشخاص وحيوانات وعربات للخطر الداهم .

الواقع أن هذه المسألة تستحق من الدولة كل عناية ، فقد أصبحت الطرق لا تتفق بأية حال من الأحوال مع مقدار الحركة التى فيها . ومن المستحيل تنظيمها وهى على هذا الضيق وذلك الازدحام . وينطبق هذا الكلام على البدو والحضر على السواء ، فالطرق فى القاهرة وعواصم المديريات والطرق الزراعية كلها من هذه الناحية سواء .

فمن منا لم يضايقه أن يصرف فى قطع شارع صغير مثل شارع سليمان باشا فى بعض أوقات النهار دقائق عديدة ، بينما هو يركب سيارة تستطيع قطع المسافة فى ربع هذا الزمن أو أقل ؟ وكم منّا عدل نهائيا عن السفر على الطرق الزراعية بالسيارة لكثرة ما يلاقيه فيها من متاعب ناشئة عن الزحام تارة ومن سوء العناية بالطرق تارة ومن جهل معظم من يسيرون فى هذه الطرق بقواعد المرور تارة .

كل هذا من ناحية اتساع الطرق وكفايتها والأمن بالنسبة للسير فيها . ولكن هناك ناحية لا تقل عن هذه كلها أهمية ، ألا وهى ناحية تجميل الطرق . فمن حق الذين يسيرون فى الطرق ابتغاء النزهة ، والذين يسيرون فيها ابتغاء السفر للفسحة والترويح عن النفس ، من حق هؤلاء وهؤلاء أن يتمتعوا بالمناظر الجميلة الجذابة التى تشرح الصدر وتمتع البصر وتستهوى النفس . وهذا أمر له أثره البالغ فى راحة السكان ومتعتهم وتحسن صحتهم وصفاء نفوسهم وأذهانهم .

وهو أمر توليه الحكومات فى البلاد الأخرى عناية كبيرة ، بحيث تجعل من معظم الطرق متنزهات عامة ، سواء فى المدن أو فى الريف ولا سيما فى الطرق الرئيسية ، أما فى الأماكن المزدحمة التى تكون طرقها من الدرجة الثانية فيسد هذا النقص عن طريق إيجاد الحدائق الواسعة للسكان يمضون فيها بعض الوقت للترويح .

وإذا قيل إن الأخذ بهذا كله يكلف الدولة نفقات كبيرة ، قلنا إن من حق من يدفعون رسوم السيارات أن يطالبوا الحكومة بمثل هذا العمل الضرورى ، حتى يشعروا بأن الضريبة التى تحصل منهم يعود عليهم منها نفع يذكر ، لا سيما بعد أنه رفعت هذه الضريبة بمقدار ٥٠٪ من قيمتها الأصلية . فالمشاهد أنه منذ فرض هذه الضرائب لم يحدث أى تحسن محسوس أو تجديد ملموس كالذى نشير هنا إليه

ولا ننس أن أثر هذا سيكون عظيما بالنسبة للحركة التجارية فيما بين العواصم والقرى ، علاوة على ما فيه من تسهيل لمقام كبار الزراع فى القرى لأنه يطمئنهم إلى سرعة انتقالهم منها إلى المدن فى أى وقت شاءوا ، مع توفير فى الزمن وضمان للراحة واطمئنان لعدم احتمال وقوع الحوادث بكثرة كما هو الشأن فى الوقت الحاضر .

فهل لنا أن نطمع فى أن تعير الحكومة هذا الموضوع شيئاً من عنايتها التى هو جدير بها ؟

أحمد عبد السلام الكردانى

(٦) من الأقوال المأثورة

فى الأدب الغربى والعربى

من الأدب العربى :

إن من البلية أن يكون الرأى بيد من يملكه ، دون من يبصره .

قالها المهلب بن أبى صفرة وقد أمره الحجاج بأمر فى الحرب لم يره فى المصلحة ، وكان المهلب هو القائد ، والحجاج هو الأمير .

● ● ●

الحرب أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى

تنسب لعنترة :

● ● ●

الشر حلو أوله ، مر آخره .

● ● ●

كثرة الصياح من الفشل .

لأكثم بن صيفى ، ومثله قول عائشة يوم الجمل وقد رأت أصحابها يتنازعون ويتصايحون : « المنازعة فى الحرب خور والصياح فيها فشل » .

● ● ●

احرص على الموت توهب لك الحياة .

قالها أبو بكر لخالد بن الوليد .

● ● ●

بقية السيف أنمى عددا وأطيب ولدا .

قالها على بن أبى طالب ، ويريد ببقية السيف القوم داهموا من أنفسهم بالسيف ، ومات أكثرهم فى القتال ، وبقيت منهم بقية .

● ● ●

قبلة الإمام فى اليد ، وقبلة الأب فى الرأس ، وقبلة الأخ فى الخد ، وقبلة الأخت فى الصدر ، وقبلة الزوجة فى الفم .

● ● ●

أناة فى عواقبها فوت خير من عجلة فى عواقبها درك .

المهلب بن أبى صفرة .

● ● ●

كن كالتاجر الكيس إن وجد ربحاً تجَر ، وإلا تحفظ رأس المال .

قالها عبد الملك بن مروان ينصح أميراً ولاه حرب الروم .

● ● ●

لو غضب « مالك » لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه فى أى شئ غضب .

قالها ابن مطاع العنزى وقد استوصفه عبد الملك بن مروان مالك بن مسمع ، فلما سمعها عبد الملك قال : هذا والله السؤدد .

● ● ●

إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير كلما خفقت الريح خفقت ، فأف للجبناء .

عائشة فى وصف الجبان .

● ● ●

كان الناس يفعلون ولا يقولون ، ثم صاروا يقولون ويفعلون ، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون ، ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون .

عمر بن الحارث .

● ● ●

أفضل العطاء ما كان من معسر إلى معسر .

● ● ●

الأيام مزارع ، فما زرعت فيها حصدته .

● ● ●

إن الله عودنى أن يتفضل علىّ ، وعودته أن أتفضل على عباده .

عبد الله بن جعفر .

* * *

من أصابه غبار مركبى فقد وجب علىّ شكره

خالد بن عبد الله القسرى .

* * *

طلب جسيما ، وركب عظيما ، ومات كريما .

قالها يزيد بن عبد الملك فى وصف يزيد بن المهلب وقد نال منه بعض الحاضرين فقال : إنه الخ .

* * *

إن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى .

قالها يزيد بن المهلب وقد أعطى أعرابية خمسة آلاف درهم ، فقال له ابنه : إنها لا تعرفك .

* * *

التثبت نصف العفو .

قالها أبو مجلز لقتيبة بن مسلم وقد اتهمه ببعض الأمر فقال ابو مجلز : أصلح الله الأمير ، تثبت فإن التثبت الخ .

* * *

الذنوب تخرس الألسنة .

* * *

حبس الرشيد رجلا فكتب إليه :

إن كل يوم يمضى من نعيمك يمضى مثله من بؤسى والأمد قريب والحكم لله .

* * *

ما رأيت أشرف نفساً من الفرزدق ، هجانى ملكا ومدحنى سوقة !

يزيد بن المهلب .

* * *

ذاك علم حُمل ، وهذا علم استعمل .

قالها المهلب وقد سئل : بم أدركت ما أدركت ؟ قال : بالعلم . قيل له : فإن غيرك قد علم أكثر مما علمت ولم يدرك ما أدركت ! فقال الخ .

* * *

لا أوعظ من قبر ولا أمتع من كتاب .

* * *

كنت إذا أخذت كتاباً جعلته مدرعة .

قالها محمد بن عبد الله بن عمر وقد سئل عن سبب تميزه فى العلم .

* * *

الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان .

* * *

ارحموا عزيزاً ذل ، وارحموا غنياً افتقر ، وارحموا عالماً ضاع بين جهال .

* * *

رأى الشيخ خير من مشهد الغلام .

* * *

لو كان للناس كلهم عقول خربت الدنيا

الحسن البصرى .

* * *

سارق السريرة يقطع سارق العلانية .

قالها عمرو بن عبيد وقد رأى حاكما يقطع يد سارق

* * *

إنى أجلُّ عن دقيقك وتدقين عن جليلى .

قالها نوفل بن مساحق وقد نقدته امرأة لأنه لا يكلمها

* * *

ليس له صديق فى السر ولا عدو فى العلانية .

قالها شبيب بن شيبة فى ذم خالد بن صفوان . يقول إنه مهيب غير محبوب .

* * *

كل واحد ينفق مما عنده .

تنسب إلى المسيح وقد مر بقوم من اليهود فقالوا شراً وقال خيراً ، فسئل فى ذلك فقالها .

* * *

ما استبّ اثنان إلا غلب ألأمهما .

* * *

إياك وعزة الغضب فإنها تصيرك إلى ذل الاعتذار .

* * *

أنا ابن نفسى

قالها رجل وقد تكلم بكلام أعجب عبد الملك بن مروان فسأله عن نسبه .

* * *

لو علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه .

قالها عبد الملك بن مروان فى وصف خصمه مصعب ابن الزبير .

* * *

لا مرحباً بهذه الوجوه التى لا ترى إلا فى كل شر .

قالها عمر بن الخطاب فى قوم يتبعون رجلا أخذ فى ريبة

* * *

إنى لأبغض شق الذى يليه إذا جلس إلىّ

قالها رجل فى وصف ثقيل .

* * *

قيل لبعض الولاة : كم صديقاً لك ؟ قال :

لا أدرى ! الدنيا مقبلة علىّ والناس كلهم أصدقائى . وإنما أعرف ذلك إذا أدبرت عنى .

* * *

لا يضيق سم الخياط بمتحابَّين ، ولا تسع الدنيا متباغضين

الخليل بن أحمد .

* * *

تواضعك فى شرفك أكبر من شرفك .

ابن السماك لعيسى بن موسى .

* * *

من لم يجلس فى الصغر حيث يكره لم يجلس فى الكبر حيث يحب .

* * *

المرء يصنع نفسه ، فإن ما تبله ينزع إلى العِرْق .

قالها حفص بن النعمان .

* * *

لو جمعت قريش من أقطارها ثم رمى به فى وسطها لخرج من أى أعراضها شاء .

هند تصف مهارة ابنها معاوية .

* * *

لن يَفْرِس الليث الطَّلا وهو رابض (الطلا الأعناق)

* * *

كل كريم طروب .

معاوية وقد حرك رجله من سماع غناء ، فسئل عن تحريك رجله فقالها .

* * *

قلة العيال أحد اليسارين .

* * *

أعظم المصائب انقطاع الرجاء .

* * *

إن أعظم ما أخاف الله فيه ما كنت أصنع لك .

معاوية لابنه يزيد وهو يحتضر .

* * *

ونكتفى بهذا النموذج من الأدب العربى ، فهو فى هذا الباب ملىء . وسنعود إلى نماذج منه أخرى فى فرصة أخرى

أحمد أمين

إلى من يلزم من المواطنين :

شد الحبل

كنا فى أيام التلمذة بالمدارس الثانوية نحب أن نشهد مباراة رياضية ظريفة اسمها (شد الحبل) وهى لا تعتبر الآن من فنون الرياضة ، لأن الزمان قد تغير ولكل وقت أزياؤه الخاصة به فى كل شئ . ومهما قيل فى هذه المباراة من حيث صلاحها لأن تعد نوعاً من الرياضة ، فإنها بغير شك درس مفيد جدا للصغار وتنطوى على فلسفة عميقة ويتمثل فيها سر عظيم من أسرار الحياة .

كان الفريقان يختاران اختياراً دقيقا ، وكان أنصار كل منهما يقفون حوله ويهتفون له ويصيحون له صياحا عاليا لكى يثبتوا أقدامه بتشجيعهم ، ولكن المباراة كانت لا تقيم وزنا للصياح ، بل تنتهى بفوز الفريق الأقوى المتضامن الذى يشد أفراده معا ويثبتون أقدامهم ويصبرون على بذل الجهد ويطيلون أنفاسهم حتى لا يصيبهم التعب والإعياء سريعا .

وهكذا الحياة دائما ، فإن الناس فيها يعيشون دائما على مبدأ (شد الحبل) فإن المكابرة لا تغنى فيها شيئاً ، والذى يفوز فيها هو الرجل أو الجماعة التى تحسن الشد وتتضامن فيه وتصبر على بذل المجهود .

والطبيعة نفسها لا تخادع أحدا . فإذا أراد أحد أن يضع قطعة ثقيلة من الحديد على كرسى واهى الأركان قد أكل السوس دعائمه لم تلبث أن تدكه وتخر به إلى الأرض . فالحياة فى كل يوم تعلمنا أن الطبيعة تعمل دائما على مبدأ الضغط والمقاومة ، ولا يمكن أن يزيد الضغط على حقيقته ، ولا يمكن كذلك أن تزيد المقاومة على حقيقتها .

وحبذا لو خرج شبابنا من الحياة الرياضية بمكسب واحد ، وهو أن يتعلم أن حقائق الحياة ليست سوى تجارب للقوى المختلفة لإثبات أيها أعظم وأيها أضعف .

ومن السهل علينا أن ندرك أن الحياة الاقتصادية كذلك تسير على نظرية (شد الحبل) فقد شهدنا فى أيام الحرب أن التجار يشدون حبلهم شدا أقوى من طاقة الجمهور المستهلك ، ولهذا جرفوا ذلك الجمهور ودعدعوه ومرغوه فى التراب ، وباعوا له السلع كما يريدون ، ونالوا من الأرباح ما طاب لهم أن يجنوه ، ولم يجد معهم الاسترحام ولا الاستعطاف ولا اللجوء إلى روح الوطنية ولا العاطفة الإنسانية . والجمهور المستهلك فى هذه الأيام يريد أن يرد لهم الجميل مضاعفا ، فهو الآن يشد الحبل من ناحيته شدا عنيفا ، ولهذا بدأ التجار يلينون جانبهم ويسترحمون عواطف الجمهور ويلجأون إلى العواطف الوطنية لكى يحملوا الناس على أن يشتروا بضائعهم ، وسيأتى يوم يعود فيه التجار إلى الإعلانات وأنواع الترغيب المختلفة ويتأدبون فى المعاملة ويتواضعون فى الخطاب ليحملوا الناس على الشراء . ولكن الجمهور كما هو طبيعى لن يتأثر بشئ من هذا ، لأن المسألة لا تزيد على أن تكون تطبيقا لنظرية (شد الحبل) فالفريق الأقوى هو الذى يهدد الفريق الآخر دائما ويمرغه فى التراب .

ومن الممكن بعد هذه المقدمة أن نطبق النظرية نفسها على مسائلنا العامة والسياسية والقومية ، فإنه من السهل جدا على كل الناس أن يتكلموا وأن يصيحوا ، ولن يتكلف أحد شيئاً إذا أعلى صوته بالصياح إلا أن يبح صوته أحيانا إذا لم يرزقه الله حنجرة متينة . ومن السهل جدا على كل واحد أن يزعم للناس أنه الوطنى الأول وأنه هو المخلص الأعظم لمصر ، وأنه أحرص الناس على مصالحها وأقدرهم على خدمتها . هذا سهل جداً وهو فى الوقت عينه لذيذ جدا . لأن الإنسان إذا زعم للناس أنه وطنى عظيم وأنه مخلص كبير كان المنتظر طبعا أن يحبه الناس وأن يمجدوا وطنيته وأن يتخذوه إماما لهم . وهكذا الحال دائما فى الرجل الذى يقف بين الناس وينفخ نفسه كما ينفخ الطير ريشه ويصيح

فاذا إنه أقوى الناس وأشدهم بطشا . فإن الناس كثيراً ما يخدعون بالمظاهر وينكشون له ويتخذونه بطلا ، ولكن التجربة لا تلبث أن تظهر حقيقته ، فاذا ما وقف فى حلبة المصارعة ونازله القرين القوى لم يبق محل المكابرة ولا الصراخ ولا الاستجداء ولا البكاء ، بل كان القول الفصل دائما لمبدأ (شد الحبل) فالرجل الأقوى هو الذى يفوز ، كما أن الفريق الأقوى هو المنتصر دائما . وقد وجد فى مصر رجال كثيرون تصدروا فى المسائل القومية وتظاهروا بكل مظاهر الإخلاص والقوة ، وكانوا فى كثير من الأحيان طيبين لا يضمرون إلا كل الخير . فمثلا كان عرابى باشا بغير شك رجلا طيباً أو على الأقل هـذا رأيى الشخصى فيه ، بناء على ما عرفته من سيرته وتاريخ أيامه ، وكان كذلك بغير شك رجلا مخلصا لوطنه ولا يمكن أن يداخلنى ريب فى ذلك . ومع ذلك فقد اضطر إلى النزول إلى الميدان وطولب بالمصارعة أخيراً فماذا كان ؟ هناك تدخل مبدأ (شد الحبل) فلم يبق محل المكابرة ولا للصراخ ولا للادعاء ولا لاستجداء العطف ، ولا للتبرير بالاخلاص والوطنية ، فان الفريق الأقوى لا يعذر الفريق الأضعف ولا يتنازل عن دهدهته وتمريغه فى التراب . ولهذا كان من الضرورى لنا أن نقلل من الكلام والتظاهر بالوطنية وادعاء الاخلاص . بل إن هذا أمر من الجدير بنا أن ندعه جانبا ، لأنه قد آن لنا أن نعرف أنه لا يوجد مصرى يضمر الخيانة لبلاده — واذا وجد المصرى الضعيف أو الأنانى الذى يسعى إلى مصلحته الشخصية ، فهذا لا يمكن أن يخدع الناس طويلا ، ومن السهل أن يكشف المصريون أمره . وأما سائر المصريين فانهم بغير شك مخلصون لوطنهم ، فلا محل لأن يصيح قوم لكى يظهروا أنهم أكثر إخلاصا . وواجبنا أن ننظر إلى الأمور بعين بصيرة يحكم فيها الذكاء وتدرك بها الحقائق ، بغير أن نسمح لأنفسنا بأن يجرفنا خداع النفس إلى مواقف لا ننتج لنا إلا الضرر . فلنفرض أننا جميعا فريق واحد نريد أن ننزل إلى مباراة (شد الحبل) ولنثبت أقدامنا معا ولتكن صيحتنا (شد !) فى وقت واحد وفى نفس واحد . وعند ذلك فقط يمكن أن نطمئن إلى الفوز — هذا لا جدال فيه لأن قضيتنا عادلة ، والشد من جهتنا لا يكون إلا باظهار حجتنا القوية وحسن نيتنا وادراك حقيقة مصالحنا . فاذا نحن فعلنا ذلك وفزنا كان بها ، وإلا عدنا إلى الحبل فاعتصمنا به وأخذنا نجذب مرة أخرى بثبات وذكاء وصبر حتى نفوز أخيراً .

لست أشك فى فوزنا فى النهاية لأننا شعب جدير بالحياة . فنحن نستطيع أن نتعاون مع الإنسانية تعاونا صحيحا قويا ، ونحن شعب قديم لنا مدنية راقية ، ونحن شعب فيه كل عناصر الذكاء الذى يمكننا من الانتاج فى كل نواحيه وبلوغ الرتبة العليا من العلم . وإن شعباً مثل هذا لا بد له أن يفوز أخيرا إذا عرف كيف يأخذ بمبدأ (شد الحبل) . وأما هـذا الذى نتجه إليه من مجرد التسابق فى التظاهر والمزايدة فى ادعاء الاخلاص فانه لا يفيدنا إلا شيئا واحدا ، وهو أن تحمر وجوهنا اليوم من الحماسة وتحمر غدا من الخجل .

محمد فريد أبو حديد

كونيات

حدثني صاحبي قال :

أعطيت صغيري واجبه اليومي من المسائل الحسابية ، وأجلسته على مكتبه الصغير وواعدته أن أعود إليه بعد زمن قصير حددته له لأرى ماذا فعل بها . وكان حتما على أن أفعل ذلك لكثرة ما عودني من تشاغله عن واجباته التي أكلفه بها وانصرافه إلى غيرها مما لا يدخل في برامج دراسته ومما لا يتفضل أساتذته بسؤاله عنه في امتحاناتهم . فكنت إذا سألته مثلا (تمرينا) في تكوين الجمل دخلت عليه بعد قليل فوجدته منهمكا في خلط بعض ألوان الماء تمهيدا لرسم صورة تشبه الصورة الجميلة المعلقة على الحائط الذي يواجهه — وإذا كلفته بحفظ آية من آيات الكتاب الكريم ثم عدت إليه في موعد تسميعها وجدته يلهو بصنع علبة من ورق الكرتون . . وهكذا . . . فلما سألته أمس هذه المسائل لحلها شددت عليه في وجوب الفراغ منها في أجل حددته له وأقفلت عليه بابه . . ثم عدت إليه في الأجل المضروب فوجدته يمسك بحدوة ممغنطة . وقد وضع أمامه على المكتب بضعة دبابيس ، منها الدقيق ومنها الغليظ ، وهو يداعبها بمغناطيسه . يجذبها فتنجذب نحو يده ثم يفر منها فتقف . ويجعل بعضها يقف فوق سنه ثم يرفع يده ويخفضها بالمغناطيس فوقه ويلهو بمنظر الدبوس وهو يتراقص تحت أصابعه كما تفعل السيدة العابثة بكلبها المدلل . فلما أحس بوجودي تجاهه ألقى ما في يده وبسط كفه الصغيرة من فوقه يريد أن يخفيه . فتجاهلت ما رأيت ، وسألته عن المسائل وما انتهى منها . فلاذ بالحرج في أول الأمر . ولكنه ما لبث أن نظر إلى نظرة تحد ظاهر وقال :

— أي جدوى في مطالبتي بتحويل هذه الأرادب التي أعطيتنيها إلى أقداح . وفي حساب مكسب هذا التاجر وخسارته ؟ وهذا المغناطيس أجدر أن يشغل أحسن العقول . فتعال قل لي أنت أولا لماذا يفعل هذا المغناطيس فعله بهذه الدبابيس ؟

فوجمت . . . وعز على أن أرى نفسي معه في موقف الدفاع المهين ، وقد كنت تجاهه منذ لحظة في موقف الهجوم الحصين . وخشيت أن أتقهقر فيطبق على الخبيث ويجرحني في كرامتي العلمية التي أتيه عليه بها كثيرا وأنا أشرح له غوامض عمليات الجمع والطرح التي يقوم بها و يخطئ فيها . ولكن الله من على في تلك اللحظة بخاطر كنت قد استخلصته لنفسي وأنا أطالع كتابا عن « الحاسة السادسة[1] » ومؤدى هذا الخاطر أن كل مادة في هذا الوجود تنبعث منها موجات ذات خواص معينة وأن ما ائتلف من هذه الموجات يتنافر ويستجيب بعضه لبعض . وذكرت أن مؤلف هذا الكتاب ضرب عدة أمثلة لتوضيح هذا المعنى . فرأيت أن أستعين بهذه الأمثلة أولا أشرحها لصبيي لعل من بعدها أستطيع الوصول إلى سر هذا المغناطيس الذي في يده .

فقلت له : أترى إلى هذه النحل التي تحوم أمام عينيك في الحديقة ؟

قال : أجل !

قلت : هل تعرف أين خلاياها ؟

قال : إني لم أر قط حول منزلنا عشا من أعشاش هذه النحل .

قلت : فاعلم أن خلاياها قد تكون على مسيرة ساعات من بيتنا هذا ، أو هي قد تكون في بلدة أخرى لا صلة لها قط بضاحيتنا هذه التي نسكنها .

قال : وهل يعقل هذا الكلام ؟

قلت : وما وجه الغرابة فيه ؟

قال : إن خادمنا الجديد ظل أكثر من سبعة أيام كلما

(١) تأليف جوزيف سينل وترجمة الأستاذين بدران وعبد الخالق بك .

بعثناه إلى السوق يضل الطريق عند عودته إلى المنزل . وهو على كل حال من بني آدم . فكيف يتسنى لهذه النحل — وهي حشرة — أن تعود إلى مساكنها التي تفصلها عنا الساعات الطوال ؟

قلت : هذا ما أريد أن أدلك عليه . فقد رأى بعض العلماء أن في جسم هذه النحل خلايا تهتز اهتزازات لطيفة غير محسوسة تطابق في خواصها موجات أخرى تنبعث من عش النحل . فتطوف هذه المخلوقات ما تطوف في أرض الله الواسعة حتى إذا استوفت حظها من رحيق الزهور عادت على متن هذه الموجات تستهدي بها في رحلتها كالعمل الترام وهو ينطلق فوق قضبانه .

قال : هذا كلام يسهل على كل إنسان أن يقوله . ولكن يصعب على أعقل الناس أن يقدم الدليل عليه .

قلت : لقد قام العلماء بإثباته إلى حد كبير .

قال : فكيف صنعوا ؟

قلت : يروى عن عالم فرنسي مشهور اسمه جان فابر — Jean Fabre — كان لا يزال حيا حين كنت أنا في مثل سنك — أنه كان مولعا بدراسة الحشرات كالنحل وغيرها . وأنه ذات يوم عثر على يرقة كبيرة في بعض الحقول فحملها إلى منزله ووضعها داخل صندوق في غرفة مكتبه . وبينما هو جالس في غرفة الطعام ذات ليلة إذ دخل عليه خادمه فزعا ، وأخبره أن غرفة مكتبه امتلأت بفوج كبير من الذباب الضخم . فلما ذهب ليرى ما حدث وجد أن يرقته — وكانت أنثى — قد خرجت من هذا الطور وأن عددا كبيرا من ذكورها يحوم حول الصندوق . ولما كانت كلها من نوع غير مألوف في هذه المنطقة فقد حكم بأنها لا بد جاءت من مكان سحيق . فأغلق النافذة . وأمسك بها جميعا وعددها خمسة عشر ذكرا . وأراد أن يعرف هل استعانت هذه الذكور في حضورها بحاسة الشم أولم تستعن بها فنزع منها ملامسها . وهي الأعضاء التي تحمل هذه الحاسة . ثم وضع الذكور في كيس ووضع هذا الكيس في قطر — وفي صباح اليوم التالي نقلها إلى غابة بعيدة تبعد عن منزله نحو ميلين . وأطلق سراحها جميعا . ولكنها لم تلبث بعد الغسق أن شوهدت كلها متجمهرة في حجرة مكتبه لم يتخلف واحد منها . عندئذ أيقن أن حاسة الشم لم تكن النبراس الذي اهتدت به الذكور إلى مكان الأنثى . وقد انتهى هذا العالم من هذه التجربة ومن غيرها من التجارب الكثيرة التي قام بها هو ومن كان يعاونه من العلماء الكبار إلى أن هذه القدرة المدهشة في النحل وغيرها قد يكون مردها إلى قوة تشبه المغناطيس .

* * *

فسكت الصبي الخبيث هنيهة شعرت في خلالها أني بدأت أسترد في نظره اعتباري العلمي . بيد أنه ما لبث أن ابتدرني بقوله :

— ولكني بدأت كلامي معك بسؤالي إياك عن قوة المغناطيس ما هي . ثم ها أنت تدخل معي في مبحث آخر عن النحل وغير النحل لتنتهي من شرحك إلى أن هذه القوى الغريبة التي تتمتع بها هذه الحشرات تشبه قوة المغناطيس ؛ فلنبدأ إذاً من جديد . ولأذكرك بسؤالي الأول وهو : ما الذي يجعل المغناطيس يجذب هذه الدبابيس ؟

فبلعت ريقي وأنا أتميز من الغيظ ، إذ أرى هذا الصبي العنيد لا يرضى بكل هذا الذي سقته إليه من علم مفيد ، ويصر على أن لا تصرفه الحواشي عن أصل الهدف الذي سدد نحوه سؤاله الأول ، فاستنجدت بكتابي الذي استقيت منه هذا العلم . وقلت لعل الكلام المطبوع يكون أقوى عنده حجة من كلامي الذي أجادله به وهو لا يرى مصدره ووقعت عيني على مثل آخر كان قد أورده ذلك الكتاب في صفحاته الأولى فجعلت أقرأ له :

« إن من يمعن الفكر في فعال الكائنات الحية ينتهي حتما إلى الاعتقاد بأنه لا بد من وجود طريقة أخرى للمعرفة

خلاف الحواس الخمس المعلومة . فى عالم النبات نبتة صغيرة تسمى (ورد الشمس) لا تقنع بالحصول على غذائها من الأرض والهواء كغيرها من النباتات . بل تتطلب أيضاً غذاء لها من الحشرات . ولذلك كان لها وريقات مستديرة فى حجم القرش تقريباً صالحة لأن تقتنص الذباب فى سهولة عجيبة . وهذه الوريقات قائمة على سوق دقيقة طول الواحدة منها بين بوصة واحدة وثلاث بوصات . وعلى الجانب الأعلى لكل ورقة عدد من الشعيرات الحساسة تغطيها مادة صمغية رقيقة . فإذا مستها ذبابة أمسكت بها الأوراق وأطبقت عليها الشعيرات إطباقاً محكماً . فأما أطيب ما فى الذبابة فيهضم ويمتص وأما أخس ما فيها كالأجنحة والأجزاء القاسية فينبذ نبذ النواة .

فإذا أنت نقلت واحدة من هذه النباتات إلى دارك . ووضعتها تحت ملاحظة دقيقة بعد أن تكون قد أبعدت عنها الذباب وغيره من الحشرات بضعة أيام رأيتها تتحرك حركة ظاهرة ، فترى الوريقات التى كانت شعيراتها دائمة الانتصاب قد نكست رأسها كأنها تبحث فى الأرض أو فيما يحيط بها من الطحلب عن بعض الحشرات الدقيقة التى قد تكون سائبة حولها . إلا أنها تؤثر الذباب على غيره دائماً . وآية ذلك أنك إذا رشقت فى طرف إبرة ذبابة ووضعتها على بعد بوصة أو بوصتين من هذه النبتة رأيت الوريقات تبعاً فتتحرك ببطء نحو الذبابة . ورأيت أن أقرب هذه الوريقات تحاول الوصول إليها .

فهل فى استطاعتنا أن نفسر ذلك ؟ أما الجواب فنعم . ذلك بأن كل جزء من جزئيات المادة فى هذا الكون فى حالة ذبذبة مستمرة وينبعث منه على الدوام نشاط إشعاعى . ويلاقى كل جزء فى الأثير إشعاعاته الخاصة به . فإن هى التقت بموجات مماثلة لها حصلت الاستجابة حتماً . وهذه النبتة قد تأثرت بالمادة الحية فكانت هذه الاستجابة الواضحة . ولقد اعتادت أسلاف هذه النبتة من آلاف الأجيال أن تقتنص الذباب حتى صارت هذه العادة المتوارثة جزءاً من طبيعتها ، أى أنها ضبطت نفسها على طول الموجات التى تنبعث من الذباب !

وأيسر من ذلك أن تلاحظ عادات النباتات المتسلقة . ذلك إن غرست شيئاً منها إلى جنب جدار أملس لا تجد فيه لنفسها دعامة أو متكأ قريباً منها ، ألفيتها تلجأ إلى واحدة من اثنتين : فإما أن ترسل فرعاً من فروعها ، وإما أن تتجه بِرمتها نحو أقرب مسمار فى ذلك الجدار . بل إنها لتفعل أكثر من هذا . فهى إذا وجدت فى طريقها مسمارين متقاربين اختارت أكثرهما ملاءمة لها . فهى تفضل مثلاً المسمار القديم الذى تقوض ظهره وعلاه الصدأ .

وهذه التجارب وأمثالها لا بد مقنعة كل مفكر دقيق الملاحظة أن ثمة وسائل أخرى للإدراك لا تستخدم فيها حاسة من الحواس الخمس » .

* * *

قال صاحبى :

ولما فرغت من قراءتى هذه الفقرات لمحت على وجه الفتى أنه ارتاح لهذه الملاحظات والشاهدات التى قصصتها عليه وآنست فيها أنها شغلت باله وصرفته عنى . ورأيت الفرصة مواتية للانسحاب قبل أن يعود بى إلى حديث المناطيس . فانطلقت مسرعاً إلى خارج الغرفة . وتركت عوضى على الله فى مسائل الحساب التى كنت كلفته بحلها . وعدت راضياً من الغنيمة بالإياب .

حسن حبول

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك
الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

كلام عجيب
باليته يصح

[بمناسبة ظهور كتاب قصتى الكبرى لصحفي الأشهر هانن سوافر] *

قبل أن أجول مع قارئ الثقافة فى عالم الروحيات ، أود أن أؤكد له أنى لست فى هذا الميدان سوى عابر سبيل محايد ، اجتذبته الأنوار فتأمل فيها هنيهة دون أن يأخذه بريقها ، أو سائر على الشاطئ رأى الأمواج عن بعد تعلو وتنخفض حتى إذا ما اقتربت من الشاطئ "اليسر" فى أذنه قصتها التى لن تنتهى رغم بدئها مع الزمان ، حاد عن طريقها فلم تمس له ثوبا أو تبلل له حذاء ، حتى إذا تضاءلت وتلاشت وعادت منسحبة إلى حيث أتت ، عاد يتأمل من جديد كيف يتفادى الموجة التالية ، وياليته يفلح . ولقد كنت أفلح فى معظم الأحايين متعمداً أن أخرج من المناورة محايداً كما بدأتها لأقص عليك يا قارئى العزيز أمتع القصص وأحسنها دون محاباة أو مغالطة ، املك واجد فيها السلوى عن غصن ذوى أو حبيب مات وقضى ، وياليتنا نعرف ونحن نقترب من خريف الحياة أو نجتازه لأى غرض نعيش ونكافح ، وماذا بعد تلك الحفرة التى فيها نودعون .

فى أمسية باسمة من أمسيات الشهر الماضى كنت أسير فى شارع من أكبر شوارع القاهرة فاجتذبتني لافتة إحدى المكتبات الكبرى ، وكانت منسقة فى بساطة وإبداع ، فأخذت أتأمل محتوياتها فلفت نظرى كتاب بعنوان « قصتى الكبرى » لهانن سوافر . وكنت أثناء إقامتى بإنجلترا أطلب النظر ، أقرأ لهذا الكاتب فى كبريات الصحف والمجلات . وكنت أعلم أنه من عمالقة (فليت ستريت) وهو حى الصحافة فى إنجلترا . ومن طبيعة هذا الكاتب الهجوم والهدم والتدمير والنقد المر والسخرية اللاذعة فى كتاباته ، حتى أصبح الكل يخشونه ويعملون له ألف حساب . وكان لا يقبل كل ما يقال ولا يستسيغ إلا ما يعتقده الحقيقة التى لا مرية فيها . لذلك كانت دهشتى عظيمة عندما وجدت كتابه يبحث فى عالم الروح . ولم أكن أظن أن هذا الملحد — وكان يعرف علناً بإلحاده — يسمو فى بحثه وتفكيره إلى عالم مابعد الموت ، وهو الذى كنت أتخيله يهتم بيومه دون غده . وعجبت عندما قرأت أن هذا البحث قد شغل تفكيره خلال العشرين سنة الأخيرة ، وبدأه ساخراً متحديا هدّاما كعادته ، ثم دخل قلبه الإيمان رويداً رويداً حتى اتخذ من الروحيات ديناً فبدأ كتابه بالكلمات الآتية :

« أنا لا أعترف إلا بديانتين : الروحية والاشتراكية . أنا أومن بوجود إله فوق الجميع يدفعنا إلى الخير والشر حسبما تقتضى مصلحة العالم . وإنى أعتقد بإخلاص أنه إذا آمن الناس بديانتىّ وجعلوا منهما أساساً للمعاملة لزالت الأحقاد ولدفنت الخلافات الدينية إلى الأبد ، ولبدأ عالم جديد يعيش الكل فيه كأفراد عائلة كبيرة لا يمتاز الواحد فيها عن الآخر إلا بما يسديه من خير للمجموع . لقد ثبت لى بصفة قاطعة وبعد تجارب طويلة مرهقة أن الحياة لا تنتهى عند القبر وأن هذه الدنيا بكل ما فيها من مصاعب ومتاعب ما هى إلا روضة أطفال يهيئنا لمهمة أكثر روعة وأكمالا فى عالم آخر ، سوف تتاح الفرصة فيه لمن قصر فى أداء مهمته فى هذه الدنيا ، أن يصل ما انقطع ويجرب حظه مرة أخرى ليسدى بعض الخير لمن حوله » .

كلام جميل ، ياليته يصح ! ألفاظ تستسيغها نفس كل من فى قلبه جرح لم يمحه بعد ميعاد التئامه . معان يتقبلها بترحيب هائل كل من فقد حبيبا فيتمزى بتخيله سعيداً فى جوه الجديد بين السابقين ممن عرفهم ومن لم يعرفهم ، وبتيقنه أن يوم اللقاء لا بد آت إن عاجلا أو آجلا . مفيدة تتفق مع مختلف الكتب السماوية التى أنزلها العزيز الحكيم ، والتى أجمعت على وجود روح دوم

(*) My greatest story By Hannen Swaffer

حساب ، يوم تجزى كل نفس بما عملت ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره .

ولهؤلاء الروحيين منطق لطيف كالنسيم العليل ، ينزل على الجرح العميق في النفس الحائرة الحزينة كالبلسم الشافي فيلتئم على غير ميعاد وقد اعتنقوا منطقهم كدين لا يقبلون فيه نقاشا ، وهو يتلخص في أن هناك جسما أثيريا يفارق جسد الإنسان عند الوفاة ، ويتكون من مادة اسمها الإكتو بلازم توصل العلماء إلى تحليلها ميكروسكوبيا وإلى تصويرها بالأشعة تحت الحمراء فوتوغرافيا سينمائيا . والروح حسب اعتقادهم خفيفة لطيفة مهما بلغ ثقل دم صاحبها وسماجته أثناء رحلته في العالم الفاني ، إذ يبلغ وزنها بضع عشرات من الجرامات . وهذه المادة هي التي تنبثق من جسوم الوسطاء لتصول وتجول مخترقة الحجب ومتعدية حدود الفضاء والزمن ، فهي تتخطى آلاف الأميال في ثوان أو دقائق ، فتصل إلى أماكن قاصية ، فتمكن الوسيط وهو جالس أمامك من وصف منزلك أو الاتصال بشخص آخر في قارة بعيدة كأمريكا مثلا . وهم يفسرون إسراء النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأنه طرح روحي لا جسدي ، ويصفون محمداً في مختلف الكتب التي تبحث في هذا الموضوع بأنه من أعظم الروحيين الذين وجدوا على سطح البسيطة منذ بدء الخليقة ، ويفخرون بهذا . وهم يعتقدون أن الأنبياء والرسل قد أغدق عليهم الله ميزتين عظيمتين : أولاهما الجلاء البصري أي القدرة على الرؤية بشكل يخالف العرف ودون استعمال الحواس المادية ، وثانيتهما الجلاء السمعي أي القدرة على إدراك التأثيرات الصوتية بما يخالف العرف دون تقيد بالزمان أو المكان . ويفسرون نزول الوحي على الرسل بأنه قد تعتريهم — كوسطاء روحيين من الدرجة الأولى — غيبوبة تصحبها تغيرات فسيولوجية كتيبّس الجسم مثلا ، تغادر خلالها الروح الجسد مع بقائها متصلة به بحبل أثيري ، وفي الوقت نفسه تكون روح أخرى قد هيمنت على الجسد فتنطقه الإعجاز المبين . ويقول المؤرخون الإسلاميون إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحي مضى في شبه غيبوبة وانتابته رعدة وتيبست منه الأطراف ، وفي خلال نوبات الغيبوبة هذه أنطقه الله بالقرآن الكريم الذي هو الإعجاز بعينه والذي لو حاول الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثله لعجزوا وارتدوا خاسرين . والذي يقرأ القرآن يدرك دون إجهاد ذهن أنه فوق طاقة البشر وأنه لا يمكن إلا أن يكون تنزيل العزيز الحكيم على لسان نبيه الكريم .

وهم يدللون على إمكان وجود الغيبوبة الوساطية بأمثلة كثيرة لا حد لها ؛ منها أن الوسيطة الشهيرة صوجري عقيلة الدكتور كلاندون أستاذ الجراحة بجامعة هارفارد كتبت وهي واقعة في هذه الغيبوبة تسعة موضوعات مختلفة بتسع لغات مختلفة ، من بينها اللغة الصينية التي لا تعرف منها حرفاً . ويذكر الدكتور كلاندون أن زوجته ، وهي وسيطته ، تكلمت في إحدى الجلسات بست لغات مختلفة مع أنها لا تعرف غير اللغتين الإنجليزية والسويدية . وكل هذه الأمثلة تدل على استحواذ شخصيات غير منظورة على هؤلاء الوسطاء ، تنطقهم بما لا يعلمون في حياتهم الجسدية .

وهم يعتقدون أن النوم طرح للروح وأن الأحلام سياحات بالروح . فالروح تغادر الجسد خلال النوم وتمضي في سياحتها فتجوب في عالم المادة وعالم الروح وينعدم لديها الزمان والمكان بالمعنى المفهوم لدينا ، وتبقى متصلة بالجسد المادي بحبل أثيري يستطيل وينكمش وينثني وينفذ من الجدران . وأن انسحاب الروح من الجسم خلال ساعات النوم يهيىء لها الحصول على تقوية وتغذية روحيتين خلال استيطانها المؤقت في عالم الروح . والغريب أن هذا ينطبق مع قوله تعالى في كتابه العزيز : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » أي أن النوم

طرح روحي مؤقت والموت طرح روحي مستديم ، كما يقول أصدقاؤنا الروحيون . والغريب أنهم يدللون على صحة هذا بصور فوتوغرافية مأخوذة بالأشعة تحت الحمراء تبين بجلاء ووضوح انسلاخ الروح من الجسد في حالات الغيبوبة . وهناك أشخاص عندهم ميزة الجلاء البصري — أي رؤية ما وراء الحجب — تمكنهم من رؤية أرواح الموتى وأرواح الأحياء المطروحة .

والطرح الروحي في عرفهم نوعان : إجباري ، وهذا يمارسه الناس كلهم عند النوم ، واختياري وهذا لا يقوم به إلا الموهوبون . ويقولون إن هذه الموهبة تولد مع الشخص ولا توجد إلا في أشخاص معينين قد يعثر عليهم بطريق المصادفة ، وهم لا يعلمون أن الله قد أغدق عليهم نعمة الاتصال بالعالم الآخر . وقد تتجسد الروح بعد طرحها فتشعر أهل المكان الذي وصلت إليه بوجودها فيرونها أحيانا ويسمعونها تتكلم ، وأحيانا يحسون بها وهي تلمس أجسامهم أو يرونها وهي تكتب أمامهم كتابة تبقى ظاهرة بعد انصرافها ، أي أن هناك جسداً جديدا ثانيا مؤقتا له نفس ميزات الجسد القديم من حيث الشكل والتكوين يمكن الشخص العادي من رؤية الروح بعد طرحها . ويروى أن سير كارن راش رؤى في مجلس النواب البريطاني بينما كان طريح الفراش في داره ، وأن سير جلبرت باركر وسير آرثر هيتر قد رأياه بوجهه الشاحب وجسمه الذي أمضه المرض ثم اختفى فجأة . ويروى بارزلي أن الدكتور مارك ماكدونيل قد ظهر في المجلس بينما كان مريضا طريح الفراش في داره ، وقد رآه زملاؤه أعضاء المجلس في يومين متتاليين وهو يعطي صوته .

والطريف في هؤلاء السادة أنهم لا يعترفون بوجود كلمة مات ومشتقاتها في قاموسهم ، فيقولون إن فلانا انتقل Passed on ، وإذا اضطرتهم الحاجة إلى ذكر كلمة الموت وضعوها بين قوسين ، وكأنها كلمة أجنبية أو عامية دخيلة على معجمهم . وهم لا يحزنون لموت أحد بل يغبطونه لانتقاله إلى عالم سوف يجد فيه مجالا واسعا لتحقيق الرسالة التي خلق من أجلها . كنت أقرأ أخيرا مجلة إنجليزية وردت من الخارج ، فاسترعى نظري عنوان ضخم عن (انتقال) المستر ويليام باريش الطبيب الروحي المشهور الذي يقولون إنه عالج أربعمائة ألف حالة مستعصية دون سلاح أو دواء . ذكر كاتب المقال أن وسيطتين معروفتين وهما إستل روبرتس وكاثلين باركل — بما حباهما الله من قدرة الجلاء البصري — شاهدتا روحه أثناء صلاة الجناز التي كان يقوم بها موريس باربانيل . وكانت الروح جالسة على كرسي بالقرب من النعش المغطى بالأزهار . وكان (الميت) — واضع الكلمة بين قوسين حتى لا يحتج علينا إخواننا الروحيون — يبدو سعيداً مرحا ، ينظر إلى جثته من آن لآخر ، حتى إذا ما حان ميعاد حرقها وذر رمادها في حديقة داره حسب وصيته ، انسحب وهو يبتسم ولوح بيديه مودعا جسده المادي . وكان مظهر زوجته أثناء الجناز وحرق الجثة داعيا إلى الدهش والإعجاب . فلم تكن هناك دموع أو ملابس سوداء أو حزن أو شجن ، بل ابتسام ومرح وملابس زاهية ازدهرت بأجمل ورود الربيع . وكانت تبتسم في وجه كل من يحدثها وكأنها في حفلة عرس ، وكتبت على البطاقة الملصقة بباقة الزهور التي وضعتها على نعشه : « عيد ميلاد سعيد في بيتك الجديد . أزهار على طول الطريق » وطلبت من حارق الأرض أن يعزف القطع التي أحبها زوجها . وعندما عادت إلى المنزل مع أصدقائها مدت لهم موائد الشاي كالعادة وصبت الشاي في فناجينهم وأخذت في تسلية ضابط لم يتمكن من ضبط عواطفه فانهارت الدموع من عينيه ، فربتت على كتفه مشجعة طالبة منه أن يكون مرحا كباقي المدعوين ، لأن ما حدث أثناء النهار مدعاة للفرح والانشراح لا للحزن والانقباض ! .

والله إن هذا لهو الإيمان بعينه مهما كان الدافع إليه . ألسنا في طريق الفناء سائرين مهما طال بنا المقام في هذا العالم ؟ وما الذي يدفعنا إلى الغرور والاعتقاد أن عالمنا هو

اليهود وتاريخ فلسطين

— ٢ —

خلال هذا الاستقرار فى البادية بين فلسطين وجزيرة العرب ، أحست بطون إسرائيل أنها فى حاجة إلى أرض جديدة ، فأخذت تتسرب نحو الشمال ، وأخذت بطونها تنزل نواحى فلسطين على جانبى الأردن ، أى فى النواحى التى كانت تسكنها قبائل كنعانية ، فكان لا بد والحالة هذه أن يثور كفاح بينها وبين هذه القبائل ، وقد طال هذا الصراع ، واشتبكت بطون إسرائيل خلاله فى نزاع مع أهل مدين ، وكانت إسرائيل فى عنفوان قوتها ووحدتها ، فتمكنت من النصر على أعدائها وبسط سلطانها على جزء كبير من فلسطين الغربية ، وقد سجل كتاب إسرائيل هذا النصر فى قصيدة تعد أقدم آثار الأدب اليهودى هى التى تسمى عادة بالزبور (دبورا) ، وليس فى كل ما لدينا من الآثار الأدبية القديمة ما يعدل هذه القصيدة شناعة وقسوة ، فهى ملأى بالحقد والبغض والشماتة ، والدعوة إلى الحرب واعتبارها عملاً مقدساً ، وهى تفسر لنا هذا الحقد الكبير الذى ملأ قلوب شعوب العالم القديم على إسرائيل هذه ، لأنها حينما انتصرت وحينما وقع أعداؤها فى أيديها لم تعطهم من أسوأ أنواع الظلم ، ثم إن الاستكبار ملكها فغدت تنظر إلى جيرانها نظر القوى المعتد بقوته . وقراءة الزبور تدل على أن شيكسبير لم يبعد عن الحقيقة حين صور شيلك بهذه البشاعة والقسوة ، حينما أتيحت له فرصة الظفر بعدوه ، فإن إسرائيل كلها قد فعلت أشد من ذلك مع كنعان حين انتصرت عليها ، وفى حوادث التاريخ السائر اليوم مايدل على تأصل هذا الخلق فى روح إسرائيل ، فهاهم بعد عشرات القرون يريدون أن يفعلوا ذلك مع عرب فلسطين ، فاليهود ضعاف مسالمون ما داموا ضعفاء ، فإذا بلغوا من القوة شيئاً فويل لعدوهم منهم ، ولا بد أن الإنجليز يشعرون هذا الشعور اليوم .

وكانت إسرائيل إذ ذاك قد بلغت مبلغاً عظيماً من

الأول والأخير ؟ قد تكون هناك كواكب أخرى يتضاءل بجانبها شأن عالمنا الذى قد لا يزيد عن كونه حقل تجارب يهيئ لمرحلة أخرى أكثر جمالا وكمالا فى عالم يسع آلاف الملايين من الأرواح التى صعدت إليه منذ بدء الخليقة حتى يومنا وحتى يوم يبعثون . ألم يأتك نبأ الأسطورة الخرافية التى لا تخلو من طرافة وعظة . قيل إن روحا نزلت إلى الأرض لترى ما حل بأهلها منذ أن تركتهم فوجدت ما لا يسرها ، فصعدت ثانية لتشكو إلى شخصية سمتها الأسطورة « حكمدار العالم » فلما رأى الروح سألها عما تريد فقالت : إنى نزلت إلى الأرض حيث كان موطنى قبل انتقالى وأريد أن أبث لك شكواى مما رأيت فهل أنت مستمع إلى ؟ . . فتأمل فيها مليا وقال بعد تفكير طويل : تتحدثين عن شىء اسمه الأرض . . . دعينى أتذكر . . . الأرض ؟ امنحى لى مهلة أرجع فيها إلى خرائطى لأتحسس موقع هذا الكوكب الذى غاب عنى موقعه . . . ثم غاب عنها مدة ساعتين رجع بعدها يقول : أف لك ! لماذا لم تقولى إنك تقصدين تلك الرقعة المظلمة التى تتطفل على الشمس لتضيئها فى النهار ، وعلى القمر ليهتدى به أهلوها أثناء الليل ، وعلى السحب تروى أرضها لتخرج منها أرزاقهم . اذهبى من وجهى واحمدى ربك ، أنك انتقلت من هذه الرقعة الدنسة المظلمة المجهولة إلى عالم النور والفضيلة الذى تنعمين فيه الآن ، تتنقلين من كوكب لآخر وأنت آمنة مطمئنة ، والويل لك إذا أزعجتنى مرة أخرى بترهات عالمك الأرضى . . .

بعد هذه المقدمة الرحة الطريفة دعنى أنتقل بك إلى كتاب هانز سوافر الذى افتتحت به مقالى لأحدثك عما أعجبنى فيه وأطربنى .

(للحديث بقية)		دكتور مصطفى الديرانى

القوة والمنعة ، وانضم إليهـا من بقى من قبائل العبريين وأصبحوا جميعاً شعباً واحداً يعرف بإسرائيـل — مع أن إسرائيل لم تـكن إلا إحـدى قبائله ، وكان الظهور فى إسرائيل نفسها لبيت بنيامين الذى ينتمى إليـه شاءول ، وكانت لهذا الأخير صلات متينة بقبيلة يهوذا فبدأ نجمها يعلو إلى جانب بنيامين ، وقد ظهرت لشاءول أثناء حكمه ملامح من القسوة جعلت جيرانه يهابونه وينفرون منه ، فقد كان يقتل أعداءه بيده ويشرب من دمائهم على يديه ، وانتهى أمره بأن مات قتيلا فى ميدان القتال مع بناته الثلاث .

وخلفه كما رأينا داود ، وكان رئيس حرسه ، وكان رجلا ممتازاً استطاع بحسن قيادته أن يقضى على الفلسطينيين ، وكان فى أول أمره من رجال الجندية ، فلم يلبث أن نافسه رجال الدين بزعامة صموئيل ، وكان حبرا جليلا حسن السمت ، ولـكنه كان يسعى إلى السلطان ويحقد على داود حقداً شديداً ، فقضى داود هذا حياة مجهدة ملأى بالمصاعب فى الداخل والخارج ، ومات فى شيخوخة عالية تكتنفه الهموم .

واشتدت المنافسة من بعده بين أبنائه ، ونازعهم رجال الدين ، وكاد أمر الوحدة يتفرق بدداً لولا أن سارع سليمان بالقبض على السلطان بمعاونة رجال القصر ، فاستطاع أن يعيد النظام والأمن . ومهما يكن من عبقرية سليمان كنبى إلا أن التاريخ لا يستطيع إلا أن يسجل عليه أخطاء عدة فى سياسة بلاده : كان مشغوفاً بحب المال ، مسرفاً فى الاستمتاع بخيرات هذه الدنيا ، ولـكى يحصل على أكبر مقدار ممكن من المال لم يتردد فى تقسيم إسرائيل إلى اثنى عشر قسما إدارياً أقام فى كل قسم منها عاملا له ، فكان فى هذا الإجراء منفراً للقبائل ، واهتم بالبناء اهتماماً عظيما ، فأنفق فى بناء معبده المعروف مالا طائلا أضعف خزانة الدولة ، وبنى قصوراً شتى واقتنى حريماً عامراً بعشرات النساء الجميلات .

إلى هنا يصل تاريخ المملكة الإسرائيلية فى فلسطين إلى أوجه . ومن اليسير أن نلاحظ أن هذه الدولة لم تبلغ فى هـذا الأوج من الاتساع ما يسمح لأهلها بأن يزعموا بأن فلسطين وطن لهم ، فإن دولتهم لم تعـد أبدا شريطاً ضيقاً من الأرض على جانبى الأردن . أما سواحل فلسطين فلم تكن أبدا بلداً من بلاد إسرائيل وإن كان نفوذهم قد امتد إليها ، وأما جنوب فلسطين فقد كان دائماً جزءاً لا يتجزأ من مصر ، وأما ما يلى الأردن شرقاً فلم يكن فيه أثر لسيادة إسرائيل ، ثم إن عمر هـذه الدولة لم يزد على قرن ونصف من الزمان ، فأين قرن ونصف من ثلاثة عشر قرنا ونيف للعرب فى فلسطين ؟ ثم أين حكومة إسرائيل فى فلسطين بما فيها من العسف بالفلسطينيين وبكنعان وبعدين وبما فيها من التعالى والتجبر على جيرانها ، من حكومة العرب الذين سيدخلون البلاد دخول المواطن وطنه ؟ لا عسف ولا اضطهاد ولا إفناء لأعدائهم كما كانت إسرائيل تفعل ، إن منطق التاريخ وإن مجرد تأمله ليقرر بأجلى بيان أن الأرض للعرب دون سواهم : هم بناة تاريخهـا ورعاة أهلها وحفاظ حضارتها كما سنرى .

وليس أدل على ما كانت عليه إسرائيل من سـوء السياسة فى فلسطين من أن عقلاء اليهود وأتقياءهم أنكروا على شعبهم ضلاله وسوء سياسته ، وقد أشرنا إلى موقف صموئيل رئيس الأحبار من داود وسياسته ، وقد خلف صموئيل أحبار آخرون أخذوا لا يكفون عن العويل على مصير بلادهم ، إذا استمر شعبهم وقواده فى هذا السبيل . جعل هؤلاء الأحبار يتنبئون بخراب إسرائيل ، وجعلوا يكتبون نبوءاتهم فى كتب تناقلهـا اليهود فيما أتى من الأزمان ، وكان كثير منهم على درجة كبيرة من الصلاح والتقوى والخلوص لله ، فارتقوا إلى مراتب الأنبياء ، ومن خلال نبوءات هؤلاء الأنبياء التى نجد الـكثير منهـا فى العهد القديم نستطيع أن نضع أيدينا على النقط الضعيفة فى خلق إسرائيل ، هذه النقط التى ميزتهم عن غيرهم من معاصريهم ، ولسنا نستخرج مواضع النقد هذه من أعداء لإسرائيل وإنما من كتابات أنبيائهم أنفسهم ، أو هى كتابات لا زالوا يتناقلونها ويحفظونها فى بيعهم إلى اليوم : يأخذ

أنبياؤهم عليهم حرصهم البالغ على المال والمتاع العاجل وشغفهم بالذهب شغفاً يصل إلى العبادة، ويأخذون عليهم أنهم لا ينفقون المال الذي يجمعونه إلا على أنفسهم وحدهم، وأنهم يبالغون في إمتاع أنفسهم مبالغة تخرج بهم في كثير من الأحيان عما ينبغي لهم من الخلق وما ينبغي لهم من الدين، ولا تكاد تخلو كتابات واحد من هؤلاء الأنبياء الكثيرين من اتهام اليهود بالكفر بدينهم في سبيل المال والمتاع، ويكفي أن يقرأ الإنسان الفصول الكثيرة المنسوبة إلى آموس في العهد القديم فيجد فيها تفصيل ما أجملناه، وكان آموس من غير شك نبياً فاضلاً صادقاً، وكلامه حجة عند اليهود قبل أن يكون حجة لنا، وفي كلامه ما يقنع القارئ بسوء ما أتته إسرائيل في حق فلسطين وأهل فلسطين في زمان عزهم القصير وزمان بؤسهم الطويل.

ولعل أغرب ما يعيبهم به أنبياؤهم هو انصرافهم عن الدفاع عن بلادهم وتخاذلهم في هذا السبيل، نقول «أغرب» لأن أنبياء إسرائيل لم يكونوا ليأخذوا على مواطنيهم هذا النقص الذي لا يتصل بالدين في كثير، إلا ويكون بنو إسرائيل قد تهاونوا في ذلك الواجب تهاوناً أكبر حتى أبعد الناس عن الحرب وهم الأحبار ورجال الدين.

وربما كان أشد ما أخذ أنبياء إسرائيل على شعبهم هو هبوطهم بدينهم السماوي الجليل إلى لون من الوثنية رخيص، فهم لا يصلّون في بيعهم ومعابدهم، وإنما يكتفون بإهداء آنية من الذهب والفضة إلى هذه البيع وأهلها، وهم ينسون شرائع موسى وقوانينه فلا يكاد يحفل بها منهم أحد.

ولم يكف الأنبياء لحظة عن التنبؤ لإسرائيل بالفناء العاجل إذا هم لم يعودوا إلى دينهم وينصرفوا عن غيهم. وتبالغ الأنبياء في تهويل سوء مصير إسرائيل، فلا تكاد تقرأ أسطراً لأحدهم حتى يخيل إليك أن هذا الشعب هو أسوأ شعوب الله أجمعين.

— ٣ —

وقد صدقت نبوءات النبيين: سدر بنو إسرائيل في غيهم، واشتد ضغط أعدائهم عليهم، ولم يحفلوا كثيراً لتلافي الأخطار المحيطة بهم، اكتسح الأشوريون قبائل جاد ومنسّا وروبن من قبائل إسرائيل فلم يتحرك الآخرون لإنقاذها، حتى أتى سنحاريب فقضى على ما كان باقياً لإسرائيل من قوة، واستولى على بيت المقدس، وخرب معبد سليمان، ونقل ما بقي من اليهود إلى بلاد آشور: جرهم من بلادهم حفاة فمات منهم في الطريق آلاف، ووصل من بقي منهم إلى نواحي نينوى حيث أقاموا في ذل كان أشد عليهم مما قاسوه مع فراعنة مصر، كان هذا قبل ميلاد المسيح بثمانية قرون. كانت روما قرية صغيرة في سبيل التكوين وكانت بلاد اليونان تحبو نحو الحضارة والنظام.

وعاد من بقي منهم إلى بلاده بعد انهدام دولة بابل، عادوا وكانوا قلة لا تذكر. كان عدد اليهود في أواخر أيام سليمان بضعة ملايين، فلم يبق منهم بعد هذا النفي الطويل غير بضعة آلاف. أنجدوا إلى بيت المقدس، وأخذوا يقيمون معبد سليمان من جديد، وكانوا في هذه المرة قوماً مسالمين كسرت الأيام شرّتهم. ثم إن حضارة اليونان كانت قد أخذت تطغى عليهم، فشغل بها كثيرون منهم عن دينهم. وفي سنة ٣٣٢ قبل الميلاد مر بهم الإسكندر وزار معبدهم وصلى فيه وقرب له، ثم أقبلت عليهم بعد زيارة الإسكندر ألوان شتى من الفلسفة اليونانية بعضها قريب جداً من تفكيرهم الديني، فقبسوا من هذه الفلسفة شيئاً كثيراً خلطوه بآرائهم وعقيدتهم، وهذا الخليط أنشأ لوناً من الحضارات التي شاعت في الدنيا قبل ميلاد المسيح بقرنين من الزمان، والتي تعرف بالحضارات الهيلينية. وكان هذا اللون خليطاً من توحيد اليهود وفلسفة اليونان، فذاع في نواحي الشرق الأدنى. وفي حماية اليونان استطاع اليهود أن ينشئوا مُلكاً صغيراً كان في طبعه وروحه أبعد ما يكون عن روح العقيدة الموسوية، وكانت الروح اليونانية غالبة عليه إلى حد لا نستطيع معه أن نحسب هذه الدولة اليهودية التي عاصرت البطالسة دولة إسرائيلية وإنما هيلينية.

(يتبع) صبحي مؤنس

قصة مصرية:

وبدأنا حياة جديدة

قالت السيدة (م) تحدثني:

— لهذا اليوم قدسية في نفسي وذكريات عذبة أستعيدها دائماً، إنه يتحدث عن حياتنا أنا وزوجي ويعود بنا إلى السنوات التي مرت من عمرينا معاً، ونحن نكافح في سبيل سعادتنا.

ولماذا أخفي عليك، سأحدث إليك بهذه الذكريات في هذا الحديث كل المناداة لي.

كان يوم زفافنا يوافق تاريخ اليوم، كنت لا أتعدى العشرين عاما، يحسدني بعض زميلاتي على مسحات من الجمال أعتز بها. وكان زوجي شابا مثلي في حوالي الثامنة والعشرين يهتم بأعماله التجارية التي ورثها عن والده. كان شابا دائب النشاط، شعلة من حركة، يسعى نحو المجد دائما. ولما ضمني إلى صدره في ليلتنا الأولى كان يهمس في أذني: إني سعيد لأنك سترفعين عن كاهلي بعض الأعباء التي تثقله، ستشاركيني حياتي الطامحة وتورقي الدائمة.

وعشنا في قبلة حارة تحوي كل معاني الإخلاص.

وبدأنا معا حياة جديدة..

كان زوجي دائم الاهتمام بي ولم يتوان في أن يوفر لي كل ما أطلبه في سرعة فائقة وكنا في بسطة من العيش، فلم أشعر بفارق بين حياتي الأولى في منزل والدي، حياة الفتاة الوحيدة العزيزة المكرمة المجابة طلباتها دائما، ووطنت نفسي على حبي الدائم لزوجي ووجدتني أشعر معه في مشروعاته التي يحدثني بها دائما. كان محبا لعمله متفانيا فيه، دائم التطلع إلى الثروة الضخمة وكان يقول دائما: أني أعمل ذلك لأجلك ولأجل أولادنا في المستقبل. إن أملي كله هو أن أوفر لنا حياة سعيدة مستقبلة إن شاء الله.

ومع ذلك لم ينسه ذلك الانهماك في أسواق تجارته حبه الدائم لي. كان يعود في المساء متعبا فيلقي برأسه على صدري ويأخذ يدي يقبلهما في حنان، وأدفن أنا أصابعي في شعره الأسود الغزير، فيغمض عينيه ويهمس: لو تعرفين كم أحبك. فأقبله في شغف ونقضي وقتا طويلا على هذه الحال متحدثين عن حبنا.

كان ذلك الحديث يتكرر في كل الليالي ولم يكن يعرف الملل طريقه إلى نفوسنا، بل كان حبنا دائم التجديد، فنشعر وكأن تلك القبلة هي قبلتنا الأولى وأن تلك الليلة هي ليلتنا الأولى.

وعشنا سعيدين كعصفورين حبيبين، يعملان دائما لهناء عشهما. كنا نقيم في (الدقي) في (فيلا) جميلة ذات حديقة صغيرة غرسنا فيها بأيدينا زهورا عطرة متعددة الألوان. وكانت تلك الحديقة هي الجنة التي تجمعنا في أمسيات الصيف، نتناول فيها عشاءنا، والسكون يحيط بنا، والنسمات تهب رقيقة فتزيل عن نفسينا كل المتاعب.. وكم قضينا الوقت في سمر وسرور حتى وقت متأخر من الليل.

آه! إني أحلم دائما بذكرى تلك الليالي، كانت حياتنا قصيدة من السعادة والهناء، وكنا لا نخشى من الأيام شيئا ما دام حبنا يعمر قلبينا معا.

ودارت الأيام دورتها.. الأيام التي لم نكن نفكر فيها ولم تخطر لنا على بال، هاجمتنا فجأة فوقفنا حيالها باهتين، ونظرت إلى زوجي فوجدت الدموع تترقرق في عينيه، ولكنه سرعان ما مسحها ورفع رأسه يحاول أن يعود إلى حالته الأولى، وأحسست وكأن يدا باردة تعتصر قلبي، وحاولت أن أرفع رأسي مثله..

... وبدأنا حياة جديدة..

لقد تقلبت أحوال السوق التجارية على زوجي فخسر

جملة صفقات متوالية وإذا به يهبط من عل .. ووجد نفسه أخيرا لا يملك سوى القليل النادر .

إن تغير الأحوال بهذه السرعة أصعب على النفس من أى شيء عداه ، حين ينام المرء موسرا ويستيقظ فقيرا يتملكه نوع من الصمت والذهول حتى إذا به لا يشعر بكل ما حوله . لقد مرت هذه الحال علينا — أنا وزوجي معا . كانت أعيننا تتقابل في دهشة ولكنها سرعان ما ترتد حتى لا نتحدث عما أصبحنا عليه .. كان يلذ لنا أن نعيش بالخيال ولو لفترات قصيرة في الماضي السعيد الذي فقدناه فجأة ، فلكن الحسرة تقسينا وشغل الأسى قلبينا . وزفر زوجي زفرة حارة خارجة من فؤاده المكلوم ، ثم قام الىّ وأخذ يدى بين يديه وهو يقول : كفاني أني أحبك .. أما المال فلقد عرفت الآن أنه ليس كل شيء في الحياة .. إن الأحوال لا تدوم يا عزيزتي ولنحاول أن نكافح من جديد حتى نعود سيرتنا الأولى . اعتقدى دائما أن حبي لا يمكن أن تثبط يوما ما ، إن حبك سيضيء جنبات نفسي وسيشمل روحي دائما بالأمل المتجدد والكفاح الدائم .. وأرجو الله أن يعيد إلينا نعيمنا وهناءنا السابقين .

فلمعت الدموع في عيني وأنا أقول وقد أخفيت رأسه بين يدى : ياعزيزي دعنا نجرب الحياة في كل أطوارها .. إن هذه التجارب هي التي تصهرنا وتكوّننا من جديد فنعرف كيف نتفادى هفواتنا التي أوقعت بنا في المرة الأولى ، ولكن تأكد أن حبي لك راسخ كالطود فأنت كل ما يشغل قلبي ، والتاج الذي أفخر بأن أضعه على رأسي دائما ، وما وجودى معك سوى نهاية سعادتى سواء كان على ثروة أو على فقر . وتقابلت شفاهنا في قبلات حارة وخفق قلبانا مصدقين على كلماتنا وعواطفنا .

... وبدأنا حياة جديدة ..

اضطر زوجي لأن يبيع (الفيلا) ويسدد بثمنها ديونه وانتقلنا إلى حى عابدين في منزل صغير مكون من طابقين شغلنا الطابق الثاني منه . كنا قد بعنا أثاث منزلنا فاشترينا أثاثا بسيطا يناسب حالتنا الجديدة وانزوينا في تلك الشقة الصغيرة المكونة من حجرتين ضيقتين . وبدأ زوجي يشترى ويبيع صفقات صغيرة بما تبقى لنا من مال .

كان والداى قد توفيا قبل هذه الفترة الجديدة من حياتنا فلم يبق لي سوى زوجي ، فاندمجت في حبه دائما كما بدأنا حياتنا الزوجية من اليوم الأول .

وانقطعت عن صديقاتي وعن الناس جميعا ، كان زوجي هو المركز الذي يدور عليه اهتمامي كله . وكان يجب عليّ أن أنقطع عنهن حتى لا ألاحظ في عيونهن أي شعور من عطف أو رثاء أو شفقة ، وبدا لي في مستهل هذه الحياة أني لن أتعب ولن يتسرب الملل إلى نفسي .. ومرت شهور على ذلك ونحن ننعم بالحب معا في ظل تلك المعيشة التي لم نعتدها ، وبذلك كنا نطرد من حياتنا تلك الصورة البشعة للفقر .

وكان يسكن الطابق الأول من المنزل عائلة يونانية ، رجل يعمل ساقيا (جرسونا) في أحد المقاهي وزوجه وولداه الصغيران ، كنا نبادلهم التحية ليس إلا كلما تقابلت وجوهنا . وكان يبدو لي أنهم قوم ذوو قلوب طيبة ، وكانت الزوجة تظهر لي كثيراً من الود ، ولكني كما أسلفت كنت أبتعد قدر المستطاع عن الاتصال بأحد .

ويوما احتجت لأن أشترى بعض لوازمي فخرجت إلى الموسكي بعد أن انقطعت عن الخروج شهورا ، وبينما أنا أتأهب لدخول أحد المحلات إذا بي أفاجأ بإحدى صديقاتي تواجهني . تهلل وجهها بشرا وهي تستقبلني وشعرت أنا بغصة تملأ حلقي لأني لاحظت أن عينيها وقفتا على ثوبي الرخيص ، ولمحت مع ابتسامتها المهللة صورة من الرثاء تنطق بها عيناها ، وسألتني : أين أنت يا صديقتي ؟ . لماذا انقطعت عنا طيلة هذه المدة ؟ . أين تسكنين ؟ .

بودى لو أزورك ونعود كما كنا أولا . . كيف حالك ؟ .

وأمطرتني بوابل من الأسئلة المتلاحقة حتى حرت بماذا أجيب ، وحاولت أن أتخلص منها بكافة الطرق حتى نجحت فى ذلك ، وعدت إلى المنزل . لم يكن زوجى قد عاد بعد ، فأسرعت إلى فراشى واستلقيت عليه وأنا أنظر شاردة إلى سقف الحجرة . . وفجأة أجهشت بالبكاء ، وتملكتنى ثورة عنيفة ، وكنت أرتجف وأنا أنشج والدموع تنهمر من عينى مدرارا . وبينما أنا فى هذه الأزمة النفسية الحادة إذا بى أجد زوجى واقفا أمامى ، لقد دخل دون أن أشعر به وكانت تعلو وجهه كآبة مسرعة وأخذ يدى وهو يقول : ما بك يا عزيزتى . . خبرينى ؟ ولكنى انفجرت فى البكاء من جديد دون أن أنبس ببنت شفة ، تغلبت علىّ ثورتى فلم أقو على كتمانها ، وكنت أسمع زوجى وهو يهمس فى صوت باك : مابك يا عزيزتى ؟ . . خبرينى . . خبرينى . .

ولكنى لم أكن أجيبه بكلمة واحدة ، وفجأة وجدت الشيطان أمامى بجانب زوجى ، هذا يهمس فى أذنى ، وذلك يهمس فى الأخرى ، والغريب أنى لم أسمع زوجى ولكنى سمعت الشيطان ، ووجدت همساته تصل إلى الصميم من نفسى ، كان يتمثل الأسف والحزن من أجلى ، وجعل يدفعنى وأنا فى ذهول من أمرى ، يدفعنى دفعا قويا . . . حتى إذا بى أصرخ فى وجه زوجى . . صائحة : اتركنى الآن . . ابعد عنى . . لقد حطمت حياتى وجعلتنى أضحوكة فى أعين صديقاتى . . اتركنى . . أنا لا أحتمل هذه المعيشة معك . . إن الفقر ينشب أظفاره فى رقبتى ، ويخيل إلىّ أن السماء تسيل منها . . إنك أنت المسئول عن هذه الجراح التى تنتابنى . . إنك أنت الذى غرست القلق فى روحى ولوثت نفسى بالسواد . . ابعد عنى . .

تلقى صيحاتى هذه فى هدوء والألم يرتسم على وجهه ، ولمحت الدموع تترقرق فى عينيه ، وكل ما فعله أن خطا نحو الخارج حين سمعنا طرقا متواصلا على الباب ، ففتحه ، ووجدنا أمامنا جارتنا السيدة اليونانية ، كانت الدهشة تعلو وجهها وهى تقول : ماذا ؟ . هل حدث شئ سئ . . ما لكم تصيحون هكذا ؟ . . وسمعت زوجى يقول : كلا . . لم يحدث شئ . . إن زوجتى متعبة قليلا . . نحن نشكرك كثيرا على هذا الشعور . وأدخلها إلىّ ثم تركنا وانصرف من المنزل . وبقيت معى ، كانت فى منتصف الحلقة الخامسة من عمرها ، هادئة الملامح ، فجلست بجانبى وأخذت راحتى بين يديها وهى تقول : انهضى يا صديقتى ولا تبكى . فكفكفت دموعى ، ونظرت إليها طويلا ، ووجدتنى أشعر نحوها بحب غريب . إنها الأنيس الذى يجب أن أتخذه . . إنها زميلة الفقر . فلماذا انقطعت عنها طيلة هذه المدة التى قضيتها بالمنزل وأنا التى كنت أشعر أنها تحاول بقدر المستطاع أن تتدخل فى حياتى كصديقة فأمنعها ؟ ! كان هناك فارق فى عمرينا ولكنى مع ذلك أنست إليها فابتسمت فى وجهها وأنا أهمس : أشكرك . . لقد انتهى كل شئ . . إنها بعض المتاعب التى تحدث بين زوجين . . ودعوتها لأن تظل معى حتى يعود زوجى فرحبت بذلك وجلست تحدثنى من أخبارها . . كان حديثها عذبا شائقا ، وكنت ألاحظ عليها القناعة التامة بما هى فيه ، كانت تشكر ربها دائما على نعمته ، وحدثتنى من حياتها مع زوجها ، الحياة الهادئة ، يملأ الحب قلبيهما ويعملان جهدهما معا لتربية أولادهما . . لم تكن تشكو أو تتبرم ، بل هى فرحة سعيدة ما دامت تشعر أن حب زوجها لها لا يتأثر ودائما فى ازدياد .

وأعادتنى كلماتها تلك إلى صوابى ، ووجدتنى قد أخطأت فى حق زوجى ، وانتظرت عودته بفارغ صبر حتى أعتذر له . وأصبحت أتلهف على لقائه ، وكان قلبى يخفق وأنا

أقلب الأمر على شتى وجوهه ، ترى إلى أين ذهب الآن وهو متعب ؟ ووجدت ضميرى يؤنبنى ، فبدلا من أن أهيىء له سبيل الراحة بعد عمله ، أبادره بتلك الثورة .. ترى أين هو الآن ؟ وبدأ الانفعال والانشغال يسلكان طريقهما إلى قلبى .. حتى .. عاد ..

انسحبت جارتى ، ودعتنى لتناول العشاء أنا وزوجى على مائدتها فقبلنا بعد إلحاح ، وتركتنى لأستقبل زوجى . نظرت إليه مستغفرة نظرة كلها اعتذار ، وأخذت يده بين يدى ، وانهلت عليها بالتقبيل ، فرفع وجهى وأطال النظر إلى عينى ثم ضمنى إلى صدره وهو يبكى .. كان اعتذارى وغفرانه صامتين !

وليلتئذ تناولنا العشاء على مائدة جيراننا ، كان يتكون من أشياء بسيطة ولكنها غاية فى النظافة والنظام والترتيب ، واجتمعنا على المائدة ، أنا وزوجى وهى وزوجها ، ذلك الرجل الطيب الذى وخط الشيب رأسه ، وقد تعدى الخمسين من عمره ، كان حديثه رقيقا هو الآخر ، جعل يحدثنا عن مشاهداته وزياراته ، وسهرنا معا حتى وقت متأخر ، وصعدنا إلى مسكننا والبشر قد أخذ طريقه إلى نفسينا أنا وزوجى .

وكثرت زيارات جارتى وزوجها لنا كما كنا نزورهما حتى غدونا كعائلة واحدة .. وكان زوجى سعيدا لذلك ، وكان يقول دائما : إن سرورى لا يقدر بهذه الصداقة الطيبة مع هؤلاء الناس ، ألا تلاحظين ذلك الحب الذى يغمر فؤاديهما .. إن كل حركاتهما وسكناتهما تنطق بتلك الصلة المقدسة بينهما .. آه يا عزيزتى .. إنهما خير مثال لنا يجب أن نحذو حذوه ، فهما يقاسيان الفقر مثلنا ولكنهما قانعان ، ينتظران ما يجود الله به عليهما وهو رحيم بعباده لا ينسى أحدا .. إنى سعيد لذلك ..

وحقا ، لقد كانا خير مثال ، ووجدتنى كلما لمست الحنان الذى ربطهما والحب الذى يختالان منه أتفانى فى حبى لزوجى ، وكلما تذكرت ذلك اليوم ، يوم أن ثرت فى وجهه ، أشعر بالندم يغمرنى فأبكى وأنا ألعن نفسى . وبذلك كنت أكفر من الذنب الذى ارتكبته فى حقه من طريق ذلك البكاء الصامت . ولاحظت السعادة التى غمرتنا لهذا الحب بيننا وقد عاد سيرته الأولى ، بل كنت أشعر أنه ازداد عنه من قبل ، إنه الآن حب عظيم .. علوى .. إن الحب فى الفقر غيره فى الغنى ، فهو فى الحالة الأولى يمتاز عنه فى الحالة الثانية بأشياء كثيرة نبيلة متفوقة ، فهو ينتج من عواطف شريفة حقا ، ولا يجرى وراء غاية ما ، وأهم نتائجه هى دوافع الكفاح والطموح والجد وهكذا .. دأب زوجى على عمله ، وجعل يكافح حتى نجح أخيرا فى أن يحصل على بعض صفقات رابحة أتبعها بأخرى ، حتى انتعشت حالتنا المالية ، وكنت فرحة لذلك .. إن حبى هو الذى كان يدفعه نحو الكمال فى أعماله ، إن حبى هو الذى يقوده نحو سعادتنا الدائمة .. ألست أنا شريكته فى ذلك الفضل ؟ .. ألا أفرح ويهزنى السرور حقا ؟ .. ومرت الأيام وتجارته فى تقدم وصعد السلم درجة .. درجة .. حتى وصل إلى ما هو عليه الآن من نجاح .

... وبدأنا حياة جديدة ...

عدنا إلى معيشتنا الأولى ، فاشترينا هذه (الفيلا) ، إن هذه السنوات التى قضيناها فقراء هى التى صهرتنا وأنبتت فى قلبينا ذلك الحب الناصع جذوره ، الذى لا يذوى ولا يموت أبدا ..

نحن لا ننسى ذكريات هذه الأيام ، كما لا ننسى يومنا الأخير فى منزلنا الصغير ، تناولنا العشاء مع جيراننا ، وقامت الزوجة فقبلتنى وهى تجهش بالبكاء لفراقنا ، ولكنى لم أنسها . إنى أدعوها دائما لزيارتى هنا هى وزوجها وأولادها .. ولتبق ضيفتى أياما طويلة .. إنها الأستاذة التى تلقيت على يديها دروس الوفاء .. فلا عجب أن كانت أحب صديقاتى إلى قلبى .. وستكون دائما »

حسن فتحى خليل

بين المسموع والمقروء

في ضيافة نعوم ياباني :

حب وموت

واستطرد محدثي يقول :

إن الانتحار شائع بين الطلبة في اليابان شيوعاً عجيباً .

وإن طلبت أسبابه وجدتها في سوء صحة الطالب ، وفي المجهود المفرط الذي يبذله في الدرس ، وفي ارتباك نفسه واختبالها بين الذي يتعلم كبيراً وما تعلمه وتنشأ عليه صغيراً . وسبب آخر ، أن الحب يأتي الطالب الياباني فيخيب فيه .

وفي أمم الغرب يطلب الرجل لنفسه الموت ، فيدخل رأسه في فرن الطبيخ ، ثم يفتح صنبور الغاز ، فلا يلبث أن يموت موتة غير رائعة . ولكن الحال غير هذا في اليابان . فالرجل هناك إذا طلب الموت لنفسه اختار له أسلوباً رائعاً صارخاً .

ومن أشهر هذه الأساليب وأروجها الهبوط من حالق عال ، من سطح ناطحة من ناطحات السماء ، أو من حرف بركان يقف الهاوي منه على فوهته ثم يلقي بنفسه فيها . وكثيراً ما مررت بأشهر شوارع توكيو ، شارع جنزا ، فوجدت البوليس يمسح ما سال على أرضه من دم ، ويلم ما انتثر على رصيف الشارع من قطع من اللحم والعظم — عظم ولحم كانا منذ دقائق إنساناً يتحرك ويتكلم ، ويجري في مجاري الحياة ، ثم توقف ، ومن عمد توقف . رأيت بعض هذا في ظهر يوم وأنا غاد إلى عملي . وبعد بضع ساعات ، وأنا رائح من عملي ، وجدت على الجانب الآخر من الشارع نفس الذي وجدته في الصباح ، زحاماً على لحم وعظام — نفس أخرى ضاقت بها الحياة فقذفت بنفسها من نافذة الحياة .

وكثيراً ما يكون الانتحار بسبب الحب . وعندئذ يهم المنتحرَ صفةُ المكان الذي يضحّي فيه بروحه على مذبح الحب في معبد العشاق . وهو عندئذ يختار المكان الجميل الذي يأتلف والعاطفة الجميلة التي دعت إلى رحيل ، وجب أن يكون الوداع فيه في أحضان الشجر بين الزهور وعلى أغاريد الطيور . وتتعدد حوادث هذا في المكان الواحد البديع ، فتسوء سمعته ، وهنا يتدخل رجال الشرطة يحمون سمعة المكان كما يحمون سمعة الرجال .

ومن أمثال ذلك جزيرة أوشيما . وهي تقع من البحر قرب الساحل غير بعيد من العاصمة . وكان بها بركان ، ولم يكن البركان خامداً ، ولكنه ثائر ثورة هادئة تغري الناس بارتياده . ولم يكن في هذه الجزيرة غير هذا .

ولأمر ما شاء شاب ياباني وشابة أن يختما حياتهما على هذه الجزيرة أول خاتمين . كان قد أصابهما الحب ، وكان حب يفاعة اشتدت في نفسيهما ثورته وضاع أمله ، فركبا القارب إلى تلك الجزيرة ، ثم صعدا الجبل ، حتى إذا بلغا فوهته ، كتبا على الورق كلمات الوداع حارة ، ثم أمسك كل بيدي صاحبه ، وقذفا بنفسيهما في تلك الفوهة قذفاً .

وخرجت الصحف في الصباح الباكر تنبيء بالذي حدث عند جبل النار هذا . فتحركت لقصة القلوب ؛ وما لبثت جزيرة أوشيما أن صارت المكان المختار لكل من خاب في حبه ، فأراد أن يحتج له ، قبل مغادرة دنياه ، احتجاجاً مسموعاً من فوق هذا المنبر الذي ذاع في الناس صيته وارتفعت عندهم حجته . ومشى الناس أفواجاً يطلبون مسرح هذه المآسي . وتبدلت الجزيرة من حال إلى حال . لم يكن بها خان واحد ، فإذا بالفنادق تنبت فيها كما تنبت الأزهار . وتعددت سبل النقل إلى الجزيرة بحراً ، وتقاربت أوقاتها . وكان الزائر يطلب التحرك في الجزيرة فلا يجد غير عربة واحدة أو عربتين ، وبعض الخيل . أما الآن فقد دخلتها التكسيات وكثرت . وتعددت

الهراب فيها فبلغت الثلث ، لتحمل الزوار أمواجاً إلى قمة الجبل . وجلس الناس عنده فيه ينظرون فيه على السكة ويفكرون . ويحاولون ويتخيلون . وقد يخرج أحدهم من الجد الأسود إلى المزح المازح ، فيصيح في الناس : الفوهة واسعة ، فمن يكون النازل أيها المشاق ؟

وأخيراً تحرك البوليس يحمي الناس مما هم فيه ، وذهب إلى فوهة البركان وأقام على أخطر جوانبها سياجا . وأقام عليها مرايا كبيرة عاكسة ، تكشف للناس صورا ما في جوف الجبل من حمم منصهرة متقعة راغية جياشة . وكان لهذا العمل بعض الأثر ، فنقص عدد المنتحرين ولكنه لم يتوقف.

وحدثت من بعد ذلك حادثة مروعة مفاجئة حركت مشاعر الناس وألهبتها . مأساة الحب منجمة . وعندئذ عمدت جريدة يومية إلى عمل شيء . خطر لها أن تبعث إلى جبل النار بعثة علمية يكون نصيب الأسد فيها لرجل يوضع في سبت من الزجاج ، يغلق عليه إغلاقا ، ويمهد له فيه سبيل الحياة ، من هواء وماء وضياء . وكذلك يوصل بتلفون . ثم يدلى الرجل بسبته في الفوهة ، ويأخذ يصف ما يرى وهو هابط فيها . ويحكي كل ما يرى للناس فوق الأرض بصوت مسموع تحمله الكهرباء . وارتأت الجريدة أن في الذي سيحكي لا شك ما يخيف ويفزع ، ووجت أن يكف الأحباب بعد ذلك من تلك المغامرة القطيعة النابية .

وأعلنت الجريدة إعلانها في الفداء ليتطوعوا . فما تطوع لهذا منهم أحد . أبوا جميعا أن يهبطوا في السبت هبوطا ، على غير عشق ، قد يكون فيه الموت على غير تأجج في العاطفة . وإذاً فماذا تصنع الجريدة بعد هذا الإعلان الواسع ؟ إنها لا يسعها أن تتقهقر . وإذاً وجب على الرجل الذي ابتدع الفكرة أن يقوم هو بهذا الدور . وجاءوا إلى المحرر المسكين يلقونه قرارهم . فانتفض الرجل انتفاضا ، فما كان يخطر له وهو يبتدع الفكرة أنه سيكون كبش الفداء . واحتج ولم يجد له احتجاج . ورتب أمور دنياه .

وأمنت الجريدة على حياته تأمينا كبيرا .

وجاء اليوم الموعود . وتكوكب الناس عند حافة البركان ، وكان جهاز الهبوط قد تجهز . وخطب الخاطبون ، وتحدث وكلاء الجريدة عن الغرض من هذا العمل ، وقالوا : إنه واجب علمي بحت لغرض واحد هو خدمة الناس والإنسانية ، ولم يذكر هؤلاء الوكلاء كلمة عن الربح الفادح الذي ربحته الجريدة ورواجها الهائل من وراء هذا العمل الإنساني الجليل.

وتساق المحرر إلى مكانه من الجهاز وهو ثائر الجأش أصفر الوجه . وما هي إلا دقيقة حتى أغلق عليه الجهاز . وما هي إلا دقائق حتى كان الرجل في قفصه المحكم يهبط إلى بطن الأرض . وأخذ الرجل يصف ما يرى تحت الأرض ، ويردد المذياع صداه للناس من فوقها . ووصف الجدران وما برز فيها من صخور ، ووصف ما اشتبك في رؤوس هذه الصخور من أجسام آدمية منعها اشتباكها من الوصول إلى مداها . وتحدث عن غازات حارة تتصاعد من العجينة النارية المتفجرة بقاع الفوهة ، فتهز السبت المغلق الذي هو فيه هزاً . وتطايرت من تلك العجينة الحامية كتل من نار مرت بالسبت ، فكادت تصيبه ، ولكن الله سلم .

وزادوا الرجل في جوف الجبل هبوطا ، فأخذ يشكو الغاز الذي كاد يخنقه ، ويشكو الأبخرة الصاعدة ، وقد أخذت تؤرجح مركبه أرجحة تزيد كلما هبطوا به خطوة . وبدأ الضعف يدخل على صوت الرجل ، وبدأ الإعياء يعتريه ، وعندئذ قدر القائمون بالأمر أنهم بلغوا مما أرادوه الغاية . فرفعوا الرجل فلما فتحوا عنه وجدوا وجها أبيض كالقطن ووجدوا أضلاعا محطمة . وعينا جاحظة من هول ما رأت وأعصابا محطمة من طول ما صبرت .

وتقدم رجال الإسعاف يردون الرجل إلى الحياة . وانتهت التجربة العلمية ، أو التي هكذا أسموها . وأشبعت رغبات الألوف من الناس الذين اجتمعوا ، وارتوت أحاسيسهم من تلك القمة السوداء .

وتسألني عما يحدو بأهل اليابان أن يقتلوا أنفسهم هكذا ؟ وإنك لواجد سبب هذا فيما طرأ على اليابان في السنوات الأخيرة من تبدل في الرأي والعقيدة والعادات . ومن ذلك رأيهم في الحب . ففي الأجيال الماضية لم يخطر لرجل قط أن يتحدث من حبه لزوجته . إذاً لسمه العار الذي لا يمحى . إن الزوجة تختار للرجل اختيارا ، فلها منه حقوق الزوجة ، أما الحب فللخليلات والبغايا . ثم بدأت آراء الغرب الحديثة تدخل اليابان ، وأخذت فكرة الحب وضرورة وجودها بين الزوج والزوجة تشيع في الناس ، وألهبت خيال الشباب من بنين وبنات . وقرأوا وقرأن قصص الغرب وما احتوته من صنوف الحب ، فزاد خيالهم وخيالهن بها إلهابا . وطلب الشبان الشابات للحب ، وذهبوا بهن إلى أسرهم يطلبون التأمين على ما اختاروا لأنفسهم من زوجة . وعندئذ يصطدم الحاضر بالماضي ، والحديث بالقديم ، والشبان بالشيب ، فتأبى عليهم الأسر ما زعموا ، فيضيع الأمل فيهم ، وتسود الدنيا في أعينهم ، فيجدون الخلاص في مثل ما كان لبطل قصة قرأوها من خاتمة . وما ذاك إلا الموت يهويان إليه معا ، حضنا في حضن ، وشفة على شفة .

فكرة جميلة ! ولكن جمالها لا يبقى طويلا . بل ما جمال فكرة يفنى بها الحب والأحباب !

أحمد زكي

الهنود والانجليز

إذا دخل الهندي منزل صديق أو مكانا مقدساً خلع نعليه واحتفظ بعمامته . أما الإنجليزي فيحتفظ بنعليه ويخلع قبعته ، وقد اعتاد الهنود إذا لبسوا اللباس الأوربي أن يدعوا القميص يتدلى على السراويل ، ولكن الإنجليز يفضلون العكس فيجعلون السراويل على الأقمصة ، وإذا جلس الهندي فضل تربيع ساقيه ، أما الإنجليزي فيستحسن تعليق ساق على الأخرى ، ويزين الهندي رأسه بعمامة ضخمة يلفها على « طاقية » صغيرة ، أما الإنجليزي فيلف شريطا صغيرا على قبعة هائلة ، والهندي يلف عنقه بكوفية طويلة يدعها تتدلى خارج معطفه في حين يفضل الإنجليزي أن يلف عنقه بشيء صغير يخفيه تحت معطفه ، والهندي يعتبر اللحية والشارب مقدسين ، أما الإنجليزي فيخالفه ويحلقهما جملة ، ويدع الهندي خصلة من الشعر في مؤخرة رأسه فيأبى الإنجليزي أن يفعل هذا ويدع خصلة الشعر في مقدمة رأسه ، وإذا أراد الهندي أن يغتسل وضع الماء في حوض وأخذ يغترف منه ، أما الإنجليزي فيجد أن الأحسن هو أن يجلس في الحوض نفسه . . .

فهل رأيت تناقضاً أكبر من تناقض هذين الشعبين ! . (من National Call الهند)

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردامي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٧٩ — الثلاثاء ٢٩ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٥ — ٢ من إبريل سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

في ميدان الســـياسة العليا

لا يزال العالم مقسماً إلى دول كبيرة وغير كبيرة كما كانت عليه الحال قبل الحرب . وقد قيل لنا في كثير من المناسبات إن الدول الكبيرة خمس ، وهي : أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا والصين ، وإن من أهم الأدلة على كبرها أن لها خمسة مقاعد دائمة في مجلس الأمن ، تلك الهيئة الصغيرة العدد ، الكبيرة الخطر ، التي لها المكان البارز في نظام الأمم المتحدة كله . ولكن على الرغم من هذا التأكيد بأن الدول الكبيرة يبلغ عددها خمساً ، فإننا نسمع من آن لآخر أقوالاً ، ونشاهد أيضاً أعمالاً تدل على أن الدول الكبيرة هي في حقيقة الأمر والواقع ثلاث فقط : ألا وهي أمريكا وروسيا وبريطانيا .

وقد سمعنا أحد الأساتذة الإنجليز ، وهو مستر هارولد لاسكي . من أساتذة جامعة لندن ، ومن الرجال النوابغ في العلوم السياسية ، ورئيس اللجنة التنفيذية لحزب العمال . وممن يشار إليهم بالبنان أو بالذراع في ميدان التفكير السياسي . سمعناه يقول في إحدى خطبه الشهيرة : إن بريطانيا قد أصبحت دولة من الدرجة الثانيـة . وقد هاجت الخواطر وثارت النفوس الحساسة من هذه العبارة ، ولامه كثير من الناس على الإدلاء بمثل هذا البيان .

ونحن يسرنا هنا أن نخالف مستر لاسكي ، وأن نقرر أن بريطانيا لا يزال لها الحق في أن تعد من دول الطبقة الأولى . فعلى الرغم من أن مساحة المملكة المتحدة البريطانية مساحة صغيرة ، وسكانها لا يعادلون ربع سكان روسيا أو الولايات المتحدة . فإن كبر الدولة البريطانية لا يرجع إلى عامل المساحة والسكان وحده ، بل يرجع إلى عدة اعتبارات أخرى : منها البراعة في السياسة الدولية ، والماضي الطويل الحافل بالانتصارات الدبلوماسية ؛ ومنها امتلاك مستعمرات مترامية الأطراف ، تدر أموالاً طيبة

على رجال المال والشروعات ! ومنها عطف الأقطار المستقلة المتحدة فى مجموعة الأمم البريطانية مثل كندا وأستراليا وغيرها ؛ ومنها أن ملك إنجلترة هو أيضاً إمبراطور الهند ، وهى تلك الإمبراطورية الضخمة التى أعلنت بريطانيا أنها تود أن تراها مستقلة تمام الاستقلال ، وتؤيدها فى أى نظام للحكومة تختاره ، وهى تعلم تمام العلم أن الهند عاجزة تماماً عن أن تتفق على نظام واحد للحكم .

هذه الاعتبارات وغيرها تمد بريطانيا بكل تأكيد واحدة من الدول الكبرى ؛ فإن هذه كلها اعتبارات خطيرة جليلة ، وليس أقلها خطراً أو جلالا أن لبريطانيا عدداً من نوابغ الساسة ، الذين تسر الكرة الأرضية لوجودهم على سطحها ، سواء أكانوا نازلين فى لندن على ضفاف التيمس أو سافروا إلى أمريكا ليقضوا فيها شهور الشتاء .

وأظن القارىء يوافقنى من غير شك على أن حيازة رجل سياسى عظيم مثل ونستن تشرشل هو فى حد ذاته ذخيرة لا يستهان بها ، وكيف لا وقد أثبت أنه قائد عظيم للجيوش فى البر والبحر والجو ، وخطيب مفوه مصقع إذا جد الجد ، وأحياناً إذا لم يجد الجد ، وكاتب نحرير فى السياسة والتاريخ . ولا يزال ، وهو بعيد عن مقاعد الحكم ، يؤدى لوطنه الخدمات الجليلة ، أو ما يخيل إليه أنه خدمات جليلة . وهو رجل برلمانى ، ولذلك كان عيبه الأول أنه يحب الكلام ويغتبط بالمواقف الخطابية العظيمة ، ذات الصفة المسرحية ، التى يعجز عن مثلها أبطال التمثيل والسينما .

ومن هذه المواقف الخطابية الرائعة الساطعة ، التى خانه فيها التوفيق خطبته الشهيرة التى ألقاها فى الأسبوع الأول من شهر مارس الماضى . فى جمع حاشد من أكابر الساسة وعظماء الرجال فى الولايات المتحدة الأمريكية .

كانت خطبة عظيمة جليلة فى موضوعها وفى خطيبها والمستمعين لها ، وقد أعد المسرح إعدادا ممتازا ، واحتفلت لها الهيئات والجماعات ، وأعدت لها الأذهان بالدعايات الواسعة والتحبيذات القاطعة . واشترك فيها من كبار الممثلين الرئيس ترومان نفسه ، زعيم الولايات المتحدة الأكبر ، الذى اطلع على الخطبة قبل إلقائها ، وتولى بنفسه تنقيحها وتهذيبها ، ورضى أن يكون رئيس الاجتماع عند إلقاء الخطبة . وهو شرف عظيم لا شك فى أن مستر تشرشل جدير به كل الجدارة . وألقيت الخطبة فى جامعة صغيرة بولاية ميسورى ، وهى الولاية التى ينتمى إليها الرئيس ترومان نفسه على ما أذكر . وفوق ذلك فقد اطلعت السفارة البريطانية فى واشنطن على الخطبة قبل إلقائها ، والراجح أنها أسبغت عليها بركتها سراً . إذ لم تكن قادرة على أن تباركها علناً . وكذلك اطلعت عليها حكومة لندن من غير شك . ورأت أنها محاولة تستحق التجربة ، فإذا نجحت فحبذا النجاح ، وإن فشلت فمن السهل التنصل من تبعتها ، لأن قائلها شخص يتكلم عن نفسه ولا يعبر إلا عن رأيه الخاص .

ثم وقف الممثل العظيم للإدلاء بخطبته العصماء ، التى كان الناس يترقبونها بفارغ الصبر فى مشارق الأرض والمغارب ، وأخذ يتكلم بصوته الأجش ، البالغ التأثير ، الذى عرفناه جيداً وألفناه من إذاعاته اللاسلكية أثناء الحرب . وجعل يتحدث عنتهى القوة والصراحة ، ولم يلجأ إلى التمويه أو للمواربة أو إلى الكلام المعسول ، الذى يخفى خلاف ما يظهر . واستهل خطابه باقتراح شركة بين الأخوين — أو على الأقل بين أبناء العم — البريطانى والأمريكى ، الذين تجمع بينهم رابطة اللغة الإنجليزية . ثم حمل على الشيوعية حملة شعواء ، وقال إن خطرها على المدنية المسيحية يزداد من يوم إلى يوم . ولا ندرى لماذا وصف المدنية بأنها مسيحية ، وعهدنا بالمدنية أن قد اشترك فى بنائها وإقامة دعائمها أمم من جميع اللغات والديانات.

ثم طالب بانتهاج خطة حازمة تجاه موسكو — والحزم فى لغة السياسة معناه التهديد بالقوة ، ثم استخدامها بعد ذلك إذا لم ينفع التهديد . ولام روسيا أقذع اللوم لأنها تحاول أن تفرض سيطرتها وسلطانها فى كل مكان فى آن واحد .

ولم يفته أن يشير إلى أن مقدرة روسيا الحربية محدودة على كل حال ، لأنها مقصورة على القوات البرية . ولأنها ليست بذات خطر فى الميدان البحرى والجوى . وطالب بأن يظل أمر القنبلة الذرية سراً مكتوماً بين بريطانيا وأمريكا ، ولا يفضى به حتى إلى هيئة الأمم المتحدة ، لكى يتسنى للأمم المتكلمة باللسان الإنجليزى أن تمتلك وحدها ذلك السلاح الجهنمى العنيف ، من أجل المحافظة على السلم والأمن .

وصفوة القول أن الخطيب العظيم قد طالب باتحاد سياسى عسكرى مالى ثقافى بين بريطانيا وأمريكا ، من أجل كبح جماح روسيا . ولم يفته أن يقول إن مثل هذا الاتحاد لا يتناقض مطلقاً مع نظام الأمم المتحدة ، ومثل هذا التأكيد لا يمكن أن يحمل إلا معنى واحداً ، وهو أن هذه الهيئة العالمية ستصبح أداة يسيرها الاتحاد الجديد كيفما شاء ، ويوجهها حيثما أراد .

وأخيراً جلس الخطيب بين تصفيق المعجبين ببراعته وشخصه ، ولكن إعجابهم لم يتعد إلى تحبيذ أقواله أو الإعجاب بآرائه ، وقد أنصت إلى الحديث وطالعه الملايين من الناس فى أمريكا وغير أمريكا . ولا شك أن نتيجة تلك الخطبة جاءت مخيبة لظنون الخطيب ولمن أيدوه من وراء الستار .

ومن الغريب أن مستر تشرشل بعد هذا العمر الطويل والخبرة الواسعة العريضة لا يزال عاجزاً عن فهم الجمهور الأمريكى ، سىء التقدير لما يجول فى نفوسهم من الخواطر والعواطف نحو دولته العزيزة بريطانيا . ومن الصعب أن ندرك كيف غاب عن فهمه وعلمه أن فى الولايات المتحدة عصبة قوية ، تؤيدها صحافة جبارة واسعة الانتشار ، وهى تسىء الظن دائماً فى بريطانيا ونياتها ، وتعتقد اعتقاداً راسخاً أن الحكومة البريطانية لا هم لها سوى تسخير الولايات المتحدة لتأييد مآربها الاستعمارية ، وهذه الطائفة لم تكف عن التنديد ببريطانيا وسياستها ، حتى فى أثناء الحرب ، وعن الإشارة إلى التضحيات الهائلة التى تبذلها الولايات المتحدة ، وأن هذه التضحيات كلها لفائدة بريطانيا وسياستها المبنية على الأثرة والأنانية . فليس من السهل أن ندرك كيف غاب عن الرئيس السابق أن فى أمريكا جمهوراً عظيماً يرى هذا الرأى ، وينظر إلى الساسة البريطانيين دائماً نظرة الشك والريبة . ولعله قد غره ما قدمته أمريكا من المساعدة الجليلة لقضية الأمم المتحدة ، أثناء الحرب ، فخيل إليه أنه يستطيع أن يستدر هذه المساعدات وأن يستزيد منها فى وقت السلم .

ولا شك أن الجمهور الأمريكى قد نظر إلى هذا الاتحاد المقترح كما ننظر نحن فى مصر إلى صاحب الدكان الصغير الذى يقترح اتحاداً مع البنك الأهلى ، بتوحيد الموارد والأموال والأعمال والأرباح لمصلحة الطرفين المتعاقدين . فمن المعلوم أن بريطانيا قد خرجت من الحرب فى حالة إجهاد شديد ، لا يتفق مع التبعات الضخمة التى تحملها الامبراطورية البريطانية . فليس أحب إلى نفسها من أن تستفيد من الموارد الأمريكية الضخمة حتى تستعيد قوتها وتسترد مكانتها . وقد ظن المستر تشرشل أنه يستطيع أن يخفى هذه الحقيقة عن الشعب الأمريكى ، الذى يتوهم الناس أنه لم يبلغ بعد مرتبة من النضج السياسى تمكنه من اكتشاف مثل هذه الأساليب . ولكنه قد أخطأ فى ظنه هذا كل الخطأ ، لأن الأمريكيين مدركون ما للبريطانيين من البراعة السياسية . وسواء أكان رأيهم هذا خطأ أو صواباً ، فإنه على كل حال يدفعهم إلى إساءة الظن بكل

اقتراح يعرضه البريطانيون ، فكيف باقتراح ضخم هائل يرمي إلى تقسيم العالم إلى شطرين ، وإلى وضع بريطانيا في الكفة الراجحة .

وهكذا استقبلت الخطبة التاريخية العظيمة استقبالا فاتراً في الولايات المتحدة ، حتى أوشكت أن تفسد من حيث أرادت أن تصلح العلاقات بين الأمتين . وأدرك البريطانيون أن قضيتهم قد خسرت بدلاً من أن تكسب شيئاً من هذه الخطبة العصماء ، فبادرت الحكومة والساسة في لندن إلى التبرؤ منها والتنصل من تبعتها .

ورأى الرفيق ستالين بثاقب نظره أن في أمريكا سخطاً عاماً على الخطبة والسياسة التي اشتملت عليها ، وأن الفرصة سانحة لأن يلقي على تشرشل وشيعته درساً في آداب السياسة الدولية . وأن يكتسب من فشل الزعيم الإنجليزي نصراً لروسيا ولزعيمها . فبادر هو أيضاً بتأليف مقالة ونشرها في صحيفة « برافدا » شبه فيها تشرشل وشيعته بهتلر وأنصاره ، لأن قوام سياسة هتلر هو تلك النظرية العنصرية التي نادى بها الزعيم الجرماني ، وصرح فيها بأن الشعب الذي يتكلم الألمانية هو سيد شعوب الأرض ، وأنه يجب أن يحتل منها مكان السيادة والقيادة . كذلك ذهب تشرشل إلى أن الشعوب المتكلمة بالإنجليزية هي التي يجب أن تقود العالم ، وأن تهيمن على شعوبه ، لأنها هي وحدها حامية ما تسماه المدنية المسيحية .

وسواء أكان هذا التشبيه دقيقاً في جميع التفاصيل ، أو كانت تعوزه الدقة ، فلا شك أن الزعيم الروسي قد استطاع أن يسجل نصراً واضحاً على الخطيب البريطاني . ولقد كان مستر تشرشل في غنى عن هذا كله ، لو أنه أدرك حقيقة المشكلة الروسية . فليس بصحيح أن السياسة الروسية هي وحدها التي ترتكب الإثم والعدوان . بل الوصف الصادق لها هو أن روسيا تقتفي الأثر وتجاري بريطانيا في خططها الاستعمارية . فإن ما فعلته في إيران أو في غير إيران من الأقطار لا يخرج من كونه تكراراً للخطط التي سارت عليها بريطانيا والتي لا تزال تسير عليها في كثير من جهات العالم . ولو أرادت بريطانيا أن تلقي على روسيا درساً نافعاً ، فليس السبيل لإلقاء مثل هذا الدرس أن تفزع إلى الولايات المتحدة ، وأن تناشدها المعونة ، بل السبيل القويم أن تقوّم بريطانيا من سياستها وأن تسلك نحو الدول الضعيفة سياسة قوامها الصدق والمحافظة على العهود ، والاعتراف بما لكل أمة من الحق الطبيعي في حياتها واستقلالها . وألا تتذرع بالأعذار الواهية من أجل إقامة جيوش احتلال لا فائدة فيها ، سوى الاعتداء الصارخ على شعوب ليس بينها وبين الشعب البريطاني عداوة أو خصومة .

ولو أن بريطانيا استطاعت أن تسلك نحو الأمم الضعيفة سياسة طاهرة نبيلة ، وأن تكفكف من مسلكها الاستعماري ، الذي لا يعرف الحدود أو الروادع ، لو أنها فعلت هذا لوجدت من الشعب الأمريكي آذاناً تصغي لها ، ونفوساً تعطف عليها . أما السياسة التي ترى أن الشرور لا بأس بها ما دامت ترتكبها بريطانيا ، ولكنها قبيحة مذمومة إذا ارتكبها غير بريطانيا من الدول ، فسياسة لا تخدع أحداً ، ولا يمكن أن تزيد في مكانة بريطانيا أو أن تعلي من شأنها بين الأمم . فعلى ساستها العظماء، وشعبها المجيد أن يدرك هذه الحقيقة الأولية ، وأن يبني عليها سياسته الخارجية .

إن سياسة الأثرة والأنانية قد جرّت على الأمم حربين عالميتين أشاعتا الويل والدمار في الأرض . فليس بكثير أن نطالب بأن تحل محلها سياسة جديدة قوامها العدل والتعاون والإنصاف .

محمد عوض محمد

فى الهواء الطلق

وفينا بوعدنا وخرجنا هذا اليوم إلى القناطر الخيرية .

هذا هو الربيع ، هو موسم الحياة ، ومحفل الجمال ، ومعرض الألوان ، تختال فيه الرياض بما لبست من ثياب ناضرة زاهية ، وتترنح فيه الأغصان بما طربت من أغانى الطيور الصادحة ، يروق العين بأزهاره البديعة ، تجلى كما تجلى العروس فتختال وتتبرج ، وتتعطر وتتأرج ، وترفل فى حللها وحليها بين مخطط وملون ، ومدبج ومنمنم ، ويروق السمع بأغاريد طيوره ، وشجى بلابله ، ويروق الشم بجمال عبيره ، وعطر نسيمه ، وهو فوق ذلك يروق النفس بكل ما فيه ، فكل شئ فيه جميل ، فهو — حقاً — شباب الزمان ، ونموذج الجنان ، وخلاصة العام ، وصفوة الأيام ، لوددت أن هذا الجمال كله تجمع فى فم فقبلته ، أو فى كوب فشربته ، أو فى جسم فاحتضنته ، فإن لم يكن ، فوددت أن تذوب نفسى فيه فتسرى فى ماء أزهاره ، أو تفنى فى غناء أطياره .

* * *

وركبنا باخرة نيلية تشق عباب الماء ، وعلى الجانبين المزارع المنبسطة ، والأشجار الباسقة ، والنخيل يفرع الجو إلى السماء ، ويتمم بأغصان يداعبها الهواء ، والنسيم عليل يميل إلى البرودة ، ننتقل إلى الشمس فندفأ ، ثم إلى الظل فنبرد ، ونظل ننعم بدفء من برد ، وببرد من دفء .

(ح) هات وعدك أيها السيد (ب) فقد وعدتنا أن يكون حديثك كله اليوم ضحكا .

(ب) نعم وعدتك هذا ، ولكن .

(ح) إنى أكره « لكن » هذه .

(ب) لك الحق أن تكرهها ، ولكن .

(ح) قلت إنى أكره لكن .

(ب) بالأمس ذكرت وعدك وقدرت تبعتى ، فعكفت على مجموعة عندى من نوادر جحا ، ثم عكفت على مجموعة من مجلة إنجليزية ، وأخرى فرنسية فكاهية ، أجمع لك منها نوادر مضحكة ، ثم وجدتنى أغرق فى بحث عميق فى الفرق بين الفكاهة الشرقية والفكاهة الغربية ، ومقدار استخدام الذكاء فى التوميين ، ومقدار اللعب بالألفاظ فى إحداهما واللعب بالذكاء فى الأخرى ، والأدب المكشوف فى ناحية والمستور فى ناحية ، وظللت أبحث حتى أنسانى هذا البحث النوادر نفسها إلا أن تكون شاهداً ، ثم رأيتنى أمد يدى إلى كتب فى علم النفس تبحث فى الضحك وأسبابه . فوجدت العلماء يثيرون سؤالين : لم نضحك ؟ وما هو الضحك ؟ وخرجت من هذه القراءات بنتائج قيمة .

فسبنسر بحث فى أسباب الضحك من ناحية فقال : إن الضحك قد ينشأ من لذة حادة كضحك السكران ، وقد ينشأ من ألم حاد كضحك المصاب بالهستريا ، وقد ينشأ من منظر فكه . ووظيفة الضحك إفراغ شحنة التعب العقلى بواسطة عضلات الوجه والصدر ، وهو ينفس عن التعب العقلى ، كما تنفس أعمال القسوة عن الغضب ، وكما ينفس البكاء من الحزن .

وجاء « برجسون » فعالج الضحك من وجهة أخرى فبدأ حديثه بقوله : إذا داس رجل قشرة موز فتزحلق فلماذا نضحك ؟ إنما نضحك لأن الرجل مثل دور الجماد فى خضوعه لقانون الجاذبية ، ولم يحتفظ بمركزه كانسان ، فالضحك عقوبة للسلوك السيء ، أو الأعمال الآلية السخيفة . وأخذ برجسون من هذا المثال البسيط يطبق نظريته هذه على كل الأعمال المضحكة ، حتى الحركات البهلوانية وإشارات الخطباء السمجين ، والملح والنوادر .

(ا) يخيل إلىّ أن برجسون مبالغ فى نظريته وتعميمها ، وجعل سبب الضحك كله « عقوبة على عمل آلى سخيف » ، فهناك اللاعبون والمضحكون لا يرون عقوبة

لهم في ضحك الجمهور، بل هم يسرون لضحكه، ويجب أن نقرر أن هناك ضحك عقوبة، وضحك استحسان — ولماذا نضحك ممن زلقت رجله فتمدد على الأرض، ويصيبنا الرعب لا الضحك إذا انزلقت رجله من قمة جبل فتردى؟

(ب) لقد أدرك برجسون هذا، فاشترط فيما يثير الضحك ألا يكون مما يثير انفعالا قويا كهذه الحالة.

وعلى كل حال فأنا أعرض ما قرأت وقد يكون فيه بعض النقد. واستمر يقول:

وجاء «مكدوجل» فبحث في نظرية الضحك فقال: إن للضحك وظيفتين وظيفة نفسية ووظيفة فسيولوجية، فمن الناحية النفسية هو يقف مجرى الفكر وتسلسله ويريحه من جهده، ومن الناحية الفسيولوجية يزيد في جريان الدم وسريانه إلى الرأس والمخ، بتنشيطه الدورة الدموية، ويتبع ذلك ما نرى من أثر الفرح والسرور. أما ما يسبب ضحكنا فهو الأضرار الخفيفة التي تنزل بغيرنا فتثير عطفنا عليه، عطفاً ممزوجاً بشيء من الألم، فيأتي الضحك ليقطع تسلسل هذا الفكر الذي بدأ يتألم، فنحن لم نضحك لأننا سررنا، بل إننا سررنا لأننا ضحكنا.

(ا) لعلي أستخلص من هذه النظرية أن الضحك أتى لينفس عن ألم صغير وليبعد استمراره، وهذا صحيح في بعض الحالات حتى في الألم الصغير يلحقنا نحن، ولكنه لا يصح أن يكون سبباً عاما، فبعض الألم الصغير يضحك وبعضه لا يضحك، فانزلاق الرجل قد يضحك، ووخزة بإبرة قد لا تضحك. على أن كثيراً مما يضحك ليس مما يسبب ألماً لا صغيراً ولا كبيرا.

(ب) قلت إني أعرض ولست أنقد — وجاء باحثون آخرون فعرضوا أيضاً لمشكلة الضحك. فالأستاذ «جريجوري» عنى ببيان أن الضحك أنواع: فضحك انتصار، وضحك ازدراء، وضحك إعجاب الخ، وكلها تنتج تنفيساً عن النفس — ومهما كان فإن الباحثين لم يستطيعوا — إلى الآن — أن يجدوا قانوناً واحداً لكل أنواع الضحك.

(ا) يخيل إليّ أن سبب خطئهم راجع إلى أنهم يريدون أن يرجعوا كل الأسباب إلى سبب واحد. وأنواع الضحك مختلفة جداً، فيصح أن تكون أسبابها مختلفة جداً؛ فمثلهم كمثل من يحاول أن يرجع أسباب المرض المختلفة إلى سبب واحد مع أنه قد يكون سببه القلب وقد يكون سببه الأسنان.

(ب) هذا صحيح — وبعد أن فرغت من تصفح كتب علم النفس أمضيت ساعات في كتب علم الاجتماع، فرأيت بعضهم أيضاً يبحث في الضحك من الوجهة الاجتماعية، وبدءوا حديثهم من نقطة أن الإنسان لا يضحك إن كان وحده — غالباً — مهما كانت النكتة التي استحضرها في ذهنه مثيرة للضحك العميق. إنما يستثار الضحك العميق في جماعة من الأصدقاء أو المعارف؛ ولهذا الضحك وظيفة هي توثيق الروابط بين الجماعات — وهناك فرق بين أن نضحك من الشخص وأن نضحك على الشخص؛ فإذا ضحكنا من ممثل أو ماجن أو متندر فإننا نحاول ضمه إلى المجتمع ونوثق معه روابطنا، وإذا ضحكنا على شخص فضحك ازدراء، وتحقير لأخطاء ارتكبها أو لقلة ذوق منه أو غفلة فإنما نشعر بارتباطنا ضده، ونعلن بضحكنا عليه أن بيننا صلة مشتركة، وهي أننا لا نقع في مثل ما وقع فيه — وقد عرف البلغاء ما يوثقه الضحك من الترابط، فجرت عادة الخطيب أن يبدأ حديثه وينثر في ثناياه ما يضحك ليوثق الصلة بينه وبين سامعيه، فيستغلهم في قبول موضوع خطابته، وكذلك يفعل الكاتب الروائي وغيره. ثم لاحظوا في المجتمع الضاحك أنه لا بد لضحكهم من أن يكون بينهم قدر مشترك من الذوق والعاطفة والثقافة؛ ولهذا قد يغرق قوم في الضحك من نكتة، على حين أنها لا تستخرج من قوم آخرين ولا التبسم، بل قد تدعو إلى

الأمراض النفسية الوهمية[1]

كثيراً ما يكون للخوف من المرض ما للمرض نفسه من أثر في تحطيم القوى تماما وجعل الإنسان غير قادر على العمل. فهذا الخوف قد يجعل من الشخص السليم مريضاً يلزم الفراش، ويعتقد اعتقاداً جازما أنه مريض بعلة أساسية على الرغم من عجز الفحص الطبي عن العثور على ما يثبت وجود هذه العلة عنده.

ومع ذلك فإن مثل هذا المريض يفضح نفسه عادة بما يبدو بين أقواله وأفعاله من تناقض، فكيف يتسنى مثلا لمن يدعي مرضاً شديداً في القلب أن يعمل في حديقته طول النهار تحت أشعة الشمس القاسية، أو أن يشتغل في محل عمله أو متجره شغلا شاقا متواصلا دون أن تبدو عليه علامات واضحة لمرض القلب؟ والرجل الذي يدعي الإصابة بقرحة في معدته كيف يفسر إقباله على الأكل بشراهة وهو خارج بيته حتى إذا ما آوى إليه عاف الطعام وزهد في الأكل!

إن المرض الحقيقي لا يحفل بالمجتمعين حول المريض، أما الخوف من المرض فيزداد في الغالب أو ينقص في حضرة أشخاص معينين أو غيبتهم، ومن هؤلاء بصفة خاصة الوالدان والزوجة (إن كان المريض متزوجاً)، فأعراض المرض الذي يدعيه الشخص تزداد شدة في حضرة من يمتون إليه بصلة قوية. وهكذا يُنزل مثل هذا الإنسان بمن حوله من الأهل ما لا قبل لهم بتحمله من الآلام والقسوة (الفكرية بصفة خاصة)، فبمجرد دخوله البيت يتحول إلى مستشفى وتستحيل الزوجة ممرضة، ويتحتم على الأطفال أن يكفوا من اللعب ويلتزموا السكون.

وفي مثل هذه الأحوال قد يصير القلب أو المعدة أو عضو آخر من أعضاء الجسم، مهمازا قاسيا على أقرب الناس

(١) مستقاة من كتاب حديث لأستاذ طب الأمراض النفسية بجامعة كولومبيا.

الاشمئزاز والنفور، كما أن الأفراد والجماعات والبلدان يختلفون في «حس الضحك». فمنهم من فقد هذا الحس فلا يضحك مما يضحك منه، ومنهم من نما عنده هذا الحس حتى ليضحك مما لا يضحك — وعلى الجملة فالضحك يخدم المجتمع من نواح كثيرة: من ناحية تفريجه وإدخال السرور عليه، ومن ناحية توثيق الروابط بين جماعاته، ومن ناحية تخويف من يخرج على تقاليده — وعاداته وأخلاقه — بالضحك عليه ضحك سخرية واستهزاء، وهكذا.

وكنا بهذا قد وصلنا إلى القناطر.

(حـ) ما شاء الله، ما شاء الله! أهذا كل محصولك من الضحك؟ والله إن نكتة واحدة باردة خير مما قلت كله، وليس في كل ما ذكرت شيء له قيمة إلا إذا أخذته على أنه نكتة سمجة. ولكن يا أخي صدقني أن لك موهبة لا تجارى، وهي أنك تستطيع بقدرة قادر أن تقلب كل سرور إلى غم، وفي باطن نفسك «مستودع» من الزفت، كلما رأيت شيئا جميلا أو منظراً سارا أخرجت من هذا الزفت ولطخت به هذا المنظر، فانقلب أسود حالكا بعد أن كان أبيض ناصعاً أو أحمر زاهياً؛ فليبارك الله لك في موهبتك، وليزدك بركة حتى تملأ عيشتك سوادا. وإلا فقل لي: كيف استطعت أن تحول نوادر جحا ونوادر المجلات المضحكة في الإنجليزية والفرنسية إلى هذه السخائم؟ أما أنا فلو أعطيتني كل كتب علم نفسك واجتماعك العابسة لقلبتها نكتاً مشرقة.

(ب) أقر لك بعجزي في هذا الباب، وسأترك لك الميدان من الآن إلى أن نعود في إمتاعنا بحديثك وملحك، ولكن اسمح لي بشيء واحد، وهو أن أطبق على كل ملحة من ملحك نظرية سبنسر ومكدوجال وجرجوري لأتعرف صدقها من كذبها.

(حـ) والعياذ بالله، أبيحك هذا بشرط واحد، وهو ألا تحدثنا بما يدور في خلدك.

أحمد أمين

إلى المريض وأعزهم عنده ، بينما تبدو على هذا المريض سيما الألم المبرح لما تسببه أعراض مرضه (لا شخصه بالطبع) لهؤلاء الأعزاء من متاعب ومشاق .

فهذه زوجة تدعى حب زوجها وتتظاهر به بل وتعلنه للناس ، ومع ذلك تحرم زوجها هذا من النوم الليلة فى أثر الأخرى ، فتراها تنام فى النهار عدة ساعات ، فاذا ما آوى الزوج فى المساء إلى بيته حتمت عليه أن ينظفه ، وأملت عليه ، بين فترات الأنين الذى يصدر عنها ، ما يجب عليه أن يقوم به ويعمله ليتم هذا التنظيف على الوجه الأكمل .

ومما يحز فى نفس هذا الزوج ويغيظه أنها كانت قبل مرضها قليلة الاهتمام بشئون المنزل لا تؤدى من واجباتها فيه إلا القليل النادر ، ولكنها الآن وهى تصدر له الأوامر والتعليمات قد صارت شديدة الحرص على ألا تفوتها أدق صغيرة ، وألا تغفل عن أية دقيقة من دقائق العمل . ثم هى إلى جانب هذا تثقله بطلباتها الشخصية واحدة بعد أخرى ، فيظل المسكين راكضاً غاديا فى خدمتها وخدمة منزلها حتى يهلك .

هذه الأمور كلها وأكثر منها تحدث بالفعل فى عالم الواقع لا فى عالم الخيال وحده .

ثم إن مرضى العقل والنفس يكونون على جانب عظيم من الذكاء والحذق ؛ فى استطاعتهم مثلا أن يحبوا ويكرهوا فى نفس واحد ، مستغلين الحب إلى أقصى حد ، ومتنصلين من الكره بلباقة فينسبونه إلى ما بهم من علة .

***

وهذا الخوف من المرض ينشأ أول الأمر عادة فى الطفولة ، ويرجع فى أكثر الحالات إلى الوالدين أنفسهم . فالخوف من المرض هو الرباط الذى يربط الطفل فى صغره بوالديه ، فإذا ما شب وترعرع كان هذا الخوف ذريعة لاستمرار الطفل فى كنف الوالدين وملازما لهما ، ويصدق هذا بصفة خاصة على الأشخاص الذين يعز عليهم أن يتخلصوا من تلك الصلات العائلية التى تربط أفرادها ، وعلى الأشخاص الذين إذا ما واجهتهم صعوبات الحياة التى لا قبل لهم بها لجأوا إلى والديهم تحت ستار المرض والضعف الجثمانى يلتمسون لديهم المعونة .

فالطفل الذى رُبّى على تقديس النظافة إلى حد غير عادى قد ينشأ عنده نوع من الفزع من كل ما هو غير نظيف ، يكون فى أول الأمر خوفاً من المرض ، ثم لا يلبث أن يصير مرضاً واقعيا . وعجز الإنسان عن العمل الجثمانى قد يكون نتيجة نظرته لنفسه واعتباره إياها حليفة الفشل خصيمة للنجاح .

وهناك أفراد عديدون لا يستطيعون إتمام طفولتهم فى سن الخامسة ، ومن هؤلاء نجد ٥ أو ٦٪ يظلون أطفالا مدى الحياة ، لاسيما أولئك الذين يستسلمون للأمراض النفسية .

وهناك طائفة أخرى كثيرة العدد من الأشخاص الذين يهدفون إلى التوفيق بين الحالتين ، الرجولة والطفولة ، فيتقبلون حالتهم الجديدة بشرط أن يحتفظوا بالقديم فيصيرون أطفالا كبارا قد تم نضجهم من الناحيتين العقلية والجسمية ، لكن حياتهم لا تزال متعلقة بأهداب الطفولة من الناحية العاطفية .

وكل كبير فى العادة يحتج بشدة على من يعتبره طفلا ، لكن يندر وجود من يعترض من هؤلاء الكبار على موقف التبعية الحقير الذى يؤدى به إليه ما يتصنعه من مرض قد لا يشعر هو بأنه مجرد وهم وادعاء لا أكثر .

وهناك صنف من الناس قد تركز تفكيرهم فى جسمهم إلى حد كبير ، بحيث يصير الواحد منهم دائرة معارف للأمراض متنقلة ؛ وعلى الرغم من أن متاعبه (إن وجدت) قد تكون ناشئة عن علة فى عضو أو عضوين من جسمه فهو يصر على أن يكون كل عضو من أعضائه بغير استثناء موضع شكوى وألم وتبرم ، يوما بعد يوم .

فإذا ما أفاق من نومه في الصباح شكا من أنه متعب إلى أكبر حد ، ثم أخذ يستعرض كل أوجه النشاط التي قام بها في اليوم السابق لعله يعثر على سبب لما يشعر به من تعب . ولاشك في أنه سيجد لهذه العلة سبباً يرتاح إليه . وأي شيء يصلح لأن يكون السبب المنشود ، فقد يكون الفطيرة التي ختم بها غداءه بالأمس لم تخبز جيداً أو لم توافق معدته ، ثم يتذكر أنه منذ تسع سنوات أكل في عيد ميلاد شقيقه فطيرة شبيهة بهذه فأتعبته في اليومين التاليين ، وقد يعزو سبب تعبه إلى اضطراره للوقوف في الترام أو الترام في عودته لمنزله مساء اليوم السابق ، أو إلى ضيق حذائه أو إلى غير ذلك من الأسباب الوهمية .

فكل شيء وأي شيء يمكن أن يتجمع ويتركز على جسمه فيفسر أعراض المرض الذي يشعر به ؛ وعلى مر السنين يصبح الوسط الذي يعيش فيه بأسره مصدراً لجميع تلك التأثيرات الضارة بصحته : ضوء الشمس والمطر ودرجة الحرارة والريح والضغط الجوي والربيع والصيف والخريف والشتاء وإقامة بناء بجوار مكتبه . كل شيء في الوجود يصلح لأن يكون مصدراً لمتاعبه الجثمانية .

مثل هؤلاء الأشخاص يؤذون عقولهم بقدر مايؤذون أجسامهم فهم لا يقدرون ما يتمتعون به من نعم ، وإنما يكبرون ويبالغون فيما ينالهم من نقم . ويفحمون سوء الظن لا سوء التقدير في جميع شئونهم المالية والدينية والرياضية والوطنية والزوجية والاجتماعية ؛ فهم يغلقون أنفسهم في شعور من الضعة ويتسلط عليهم مركب النقص النفسي .

ويقترن بكل شعور بالنقص كهذا (عقلياً كان أو جسميا) شعور آخر مضاد (وإن خفي) بالقوة والتفوق ، فترى الواحد من هؤلاء يفتخر بأنه يعرف أثر ارتفاع الحرارة وانخفاضها في جسم الإنسان . وكذلك أثر التغير الذي يحدث في ضغط الهواء أو في رطوبته ، ويعرف كيف يتقي تلك الآثار السيئة ، ويدعي أن تعاطي نقط فقط (لا سماً ولا سماً) من دواء ما تحدث النتائج المبتغاة . ويعرف بالضبط ماذا سيحدث له لو أكل أكثر مما ينبغي أو أقل مما يجب ، ويعرف متى يستحب لبس الصوف ومتى يستحب لبس القطن ، وهكذا .

هذا من ناحية المعلومات العقلية والجسمية ، وأما من الناحية العاطفية فإن هذا الشخص يكون عبداً لماضيه أو بالأحرى لطفولته ، ويخضع نفسه لكل إنسان كما كان يخضعها لوالديه ، هذا نوع من النوروستانيا كالسرطان لا علاج له ، وهو يتغلغل في شخصية الإنسان كلها متى كان مريضا بمثل هذا المرض النفسي .

. . . .

وخير نوع عرف من أنواع العلاج لمثل هذه الحالات هو أن يمنع الطفل من أن يستمرئ التوعك ويسايره ويرتب نفسه عليه ، وأن يمتنع كذلك الوالدون من تشجيع الضعف والمرض عند الأطفال بقصد استبقائهم تحت رعايتهم وفي كنفهم وهم كبار كما كانوا وهم صغار .

ولنضرب مثلا لواحدة من الحالات التي توضح كيف أن المتاعب تنشأ دائماً من هذين العاملين اللذين نشير عنهما ، والتي توضح أيضاً كيف أن الأطباء يكونون أحياناً شركاء للوالدين المخطئين في العمل على إفساد الطفل دون أن يشعروا بذلك .

فهذا شاب خجول يستحي بصفة خاصة من جسمه النحيف ويبذل قصارى جهده في إخفائه عن أعين الناس ، وقد استطاع بواسطة شهادة طبيب أن يحصل على إعفاء من مزاولة الألعاب الرياضية بالمدرسة ، ولم يشترك مع زملائه كذلك في ألعابهم العادية غير الرسمية ، كما أنه لم يذهب معهم إلى الحمام قط .

وقد تبين أن سبب هذا كله يرجع إلى أن أمه قد عاملته كما تعامل البنات حتى شب وكبر ، فكانت تطيل شعره إلى أن بلغ سن التاسعة ، وظل يلعب « بالعرايس »

أنانيـــــة

كنا قد تواعدنا على أن نقضى يوماً من أيام راحتنا فى جهة من جهات الريف أنا وزميلان من زملائى . ورغبنا فى أن نتقاسم أعباء طعامنا وشرابنا فيما بيننا . ولكنى قبل أن أسترسل فى سرد ما جرى أرى أن أقدم هؤلاء الثلاثة ليعرفهم القارئ قبل أن أحدثه عنهم .

فأحد هؤلاء الثلاثة هو أنا بطبيعة الحال وكما هو ظاهر . وإنما قدمت نفسى على زملائى لأنى سأنسبهم إلى فأقول مثلا إن الثانى كان صاحباً من أصحابى المقربين الذين أطمئن إليهم وآنس إلى عشرتهم . أما الثالث فإنه كان صاحب صاحبى . ولم تكن تربطنى به صلة وثيقة . ولكنى جالسته مرة أو مرتين فوجدته شاباً من النوع الرياضى الذى يعرفه الناس باسم (سبور) . وكان خفيف الظل لطيف المحضر فيه شىء من الخفة المستحبة . سهل الأخلاق ، فى طبعه مرونة وكياسة . فهو يكاد يقبل من إخوانه كل شىء ، ويكاد لا يعترض من تصرفاتهم معه على شىء ، فحبيه هذا إلى نفسى . وليس شىء فى الواقع أقرب إلى القلوب من السهولة والبساطة .

قلت إننا رغبنا فى حمل زاد ذلك اليوم . فعرض صاحبى أن يتولى عنا الشحم واللحم . وتقدمت أنا لأتعهد بتوريد الفاكهة والحلوى . وبقى الخبز والقهوة والماء ، فجعلناها من نصيب ثالثنا — صاحب صاحبى — وبعد أن تفاهمنا على ذلك وتواعدنا على أن نلتقى فى الصباح الباكر لندرك القطار الأول انصرف كل منا إلى سبيله ، ولم أشأ أن أعود إلى دارى قبل أن أقوم شخصياً بتدبير ما تعهدت به ، فجعلت أطوف على الفاكهيين أحصل من هذا موزاً مغربياً ، ومن ذلك بلحاً عراقياً ، ومن ذلك برتقالا فلسطينياً ، أريد أن أفاجئ زملائى بما لم يكونوا يتوقعونه . والتيسير فى هذه الشئون كما لا يخفى واسع كثير . فما بالك بفاكهة كثيرة

حتى بلغ سن السابعة عشرة ، ولو أنه اضطر أن يفعل ذلك فى خلوته مع أمه وحدهما .

كما تبين فوق هذا أن الشهادة الطبية التى أعفى بها من الألعاب الرياضية لم يكن الباعث للطبيب على كتابتها رأيه الشخصى فى هذا الشاب ، وإنما كان طبقاً لرغبات الوالدين وتقريرهما من أبيهما . وهذا أمر شائع جداً ، فالطبيب الذى لا يقر الوالدين على رأيهما فى طفلهما يتهم بالجهل أو سوء التقدير ، ويعرض عنه الوالدان ، وسرعان ما يعثران على الطبيب الذى يقر وجهة نظرهما ، وهذا هو الذى يشهد له بطول الباع والمهارة .

وهكذا قضى الشاب حياته كلها فى ضعف من الناحية الجثمانية ، وإن كانت ناحيته العقلية قوية ، مع أن الناحية التى أهملها على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة للشباب ، فهى التى تجعل منه رجلا كامل الرجولة .

ولكنه أحس ببطء وتدريجياً بمرور الزمن بموقفه الحقيقى ، وأخذ يرى نفسه كما يراه الغير ، وبدأ يصلح من شأنه ويتشجع ، وإذا كان لم يبلغ من القوة العضلية ما يرجو فلا تنقصه الشجاعة على أى حال فى الوقت الحاضر . لكن لاشك فى أن ضعفه وما حرم منه من صحة ومتاع ومرح أثناء دراسته بالمدرسة ، وما أثقل عقله من متاعب بهذا السبب ، يرجع إلى تصرف الوالدين أو أحدهما .

فهلا يجد أمثال هؤلاء الوالدين عظة فى مثل هذه الحوادث فيرحموا أبناءهم وبناتهم من نتائج مثل تلك الأخطاء ؟

أحمد عبد السلام الكرداني

لا مقطوعة ولا ممنوعة كالتي اشتريتها ...

وأصبح الصباح وبكرت إلى المحطة ، فوجدت صاحبي وقد أتخم جعبة احتقبها فبدت تحت إبطه عظيمة حافلة توحي إلى الناظر إليها أنها جمعت فأوعت . وتساءلنا عن زميلنا ما أخره ، وقد اقترب موعد القطار ، وخشينا أن يكون قد اعترضه ما عوقه . وأزفت الساعة وبدأ المسافرون يجرون ليدركوا القطار بعد أن كانوا يخبون ويهرولون . وأطلقت القاطرة من صفارتها ما يؤذن بقرب قيامها . فقلنا ندخل ويدركنا صاحبنا ونحن في القطار إن كان لنا نصيب في صحبته . وفعلنا ، وما كدنا نقع على مكان نجلس فيه حتى تحرك القطار . ونظرنا فإذا زميلنا الثالث يدخل علينا وفي يده خيزرانة رفيعة ذات مقبض كحلية جميلة ، وفي طرفها جلدة عريضة يضرب بها فوق كفه الأخرى وهو يقول :

— سلام عليكم ! .

ففرحنا بمقدمه وحمدنا الله على أنه لم يفته القطار . وتطلعت أنا أنظر إلى ما وراءه لعلي أرى الخادم الذي جاء يحمل متاعه . فلم أجد أحداً ، وفطن هو إلى ما أريد فقال :

— كلا . ليس معي أحد . ولقد قدرت أن فيما حملاه الكفاية . ولم أشأ أن أزيد الطين بلة بمائي وقهوتي ، على أن هذا الماء ميسر بإذن الله في كل مكان . والقهوة سنجدها إن شاء الله في كل مقهى . والخبز ما أظننا في حاجة إليه ...

فنظر كل منا إلى صاحبه نظرة استفسار عن حقيقة ما يرى وما يسمع . إذ من أين نجد في الريف ماء صالحاً لشرب أمثالنا ؟ وأين نجد تلك المقاهي التي يتحدث عنها هذا الزميل المتفائل الطروب ؟ ثم ما هذا الرأي الغريب الذي يراه في عدم حاجتنا إلى الخبز ؟ ..

وظهرت على وجهي أمارات خيبة الأمل . وأوشكت أن تفضحني ملامحي فتنم لهذا الرجل العابث من عدم ارتياحي لمسلكه . ولكن صاحبي تدارك الموقف بضحكة من ضحكاته الخفيفة وقال :

— هكذا دأبه في كل شأن ! فلا يسوؤك صنيعه . وستعرف كيف نعالج هذا الحرج الذي أوقعنا فيه متى وصلنا إلى مستقرنا سالمين .

فبلعتها ... ولم أجد بداً من أن أتذرع بالصبر . وتظاهرت بتذوق هذه الدعابة السمجة . وجلست معهما متجلداً أحاول أن أظهر لهما غير ما أبطن ، وثقل ذلك على نفسي ، فإني رجل صريح ، حبب الله إلي الإيثار ، فصار يعنيني أن أعطي أضعاف أضعاف ما يصيبني من السرور حين آخذ ، ولكن كل ذلك بشرط أن أجد من يبادلني هذا الطبع . فإن أنا صادفت ذا أثرة أدركت طبعي نكسة . وانقلبت عليه صفواناً لا يلقى مني مهما هزني غير التراب .

وأخيراً وصلنا متنزهنا فنزلناه ، وكان الأثر السيء الذي تركه صاحبنا في نفسي قد تقشع عنها في الطريق رويداً رويداً . ورأيتني أعود إلى راحتي واستبشاري بفضل هواء الصباح البليل ومناظر الروح التي ليثنا نجتازها قرابة ساعة ، وقضينا صباحاً هنيئاً مليئاً بالنشاط والاغتباط . فلعبنا كما يلعب الأطفال . وتواثبنا كما يتواثب الفراش . وضحكنا كما يضحك السكارى — ونحن صاحون علم الله .

فلما حان وقت الطعام بسطنا ما حملنا . فأقبل الزميل الثالث ينهش ويقضم وهو يهز رأسه يميناً وشمالاً من فرط تقديره لجودة ما يمضغ وما يزدرد . ولما فرغ من ذلك عرج على موزي يلقمه . وعلى برتقالي يمتصه واحدة بعد واحدة . حتى إذا استوفى مال واضطجع ، وادعى الشبع ، وقال : عجبت لكم كيف فكرتم في الماء مع هذا البرتقال السائغ الذي أطعمنا وأسقانا ! ثم أين يكون الماء القراح إلى جانب هذا الشراب المقم الطهور الحلو الذي لا يعدو المعدة ولا يثقل الأمعاء .

وكنت كما قلت قد سرى عني ، وزال من مزاجي

ما كان قد عكره في الصباح . وبدأتُ أحس صحة نظر صاحبنا . فإننا حقيقة لم نكن في حاجة ماسة إلى الخبز أو الماء بقدر ما كنا نظن ، وبدت لنا القهوة نافلة لا لزوم لها بعد ما أصبنا في يومنا ذاك من طعام شهي ووقت هني

ولم أكتم زميلنا في ساعة رضاي هذه أنه رأى رأياً فأحسن فيه التفكير والتقدير . فابتسم لهذه النتيجة السارة وقال مازحاً : يا بني لقد بدأت مثلك أتوخى راحة من حولي قبل أن أنظر إلى أمر نفسي . وكنت أعتقد أني بذلك وصلت إلى غاية الغايات في حسن الخلق ، وبلوغ الكمال في آداب المعاشرة . ثم ظهر لي آخر الأمر أن ذلك كله لم يكن إلا عنواناً على ضعف الخلق . وضيق الأفق عند النظر في شئون هذه الحياة . وأن الرجل السمح هو الرجل السهل الذي لا يضيق بشيء ، والذي يرضى عن أي شيء ، وعن كل شيء . ولقد كان لي صديق — أماني حقاً — هو الذي تلقيت عنه هذه النظرة إلى الحياة فهذبتها وشذبتها ، حتى صارت إلى ما أنا فيه اليوم . أما هو فكان لا يرى في هذا الوجود غير شخصه . ولا يقيس أمراً من أمور هذه الدنيا إلا بمقياس مصلحته الخاصة .

كنا نركب الترام فتجيء جلستي إلى جوار النافذة ويرى هو أن هذه النافذة ترسل نسمات بليلة إلى وجهي — والوقت حر والهواء مرغوب فيه — فيطلب إلي في بساطة أن أقوم من مكاني فأفعل وأنا لا أعرف ماذا يعني ولا ما هو صانع بعد ذلك ، فيجلس مطمئناً في مكاني ، ويترك لي مكانه البعيد عن النافذة مشيراً إليَّ بطرف إصبعه أن أجلس فيه . . . فإذا كنا في الشتاء وآذته النافذة بما ترسل عليه من لفحات البرد جلس هو في مكاني البعيد وأجلسني أنا إلى جوار النافذة .

كان يدعوني إلى لعب التنس فإذا استقر كل منا في مكانه وبدأنا اللعب لا ألبث حتى أراه قد وقف واستوقفني ثم دعاني إلى أن نتبادل أماكننا . فإذا أخذت مكانه تبين لي أن الشمس كانت تواجهه وأن ضوءها آذاه وبهر عينيه وعطل نشاطه في اللعب ، فتخلى لي عن هذه المتاعب كلها لأتصرف في مغالبتها كما يحلو لي ، ووقف هو راضيا عن نفسه في الجهة الأخرى كأن شيئاً لم يحدث بيني وبينه .

ومن عجيب أمر صاحبي هذا أنه كان حسن النية سليم الطوية ، بلغ من سذاجة النفس وطهارة القلب ما كان يحملني أنظر إليه لا على أنه زميل أو صديق ، بل على أنه ولد من أولادي الذين يسرني ويسعدني أن أضحي بشيء من نفسي في سبيل إسعادهم وراحتهم . ولذلك كنت أتقبل فصوله هذه بالقبول الحسن . وتطيب لها نفسي ولا ينقبض خاطري

كنت لا أمسك مسبحة — وقد كنت من هواة السابح ، أتخيرها ، وأجدّ في البحث عنها ، وأدفع فيها أثماناً غالية — أقول كنت لا أعثر على مسبحة تعجبني فأزدهي بنظرها في يدي ، وأبدأ في ذكر الله عليها حتى تمتد أصابعه إليها بحركة آلية فيتناولها مني وتبقى في كفه طول الوقت الذي يجتمع بي فيه ، فيحرمني لذة تقليبها بين راحتي والاستمتاع برنة حباتها وأنا أساقط بعضها فوق بعض .

وكنت لا أمسك عصا — وأنا من هواة العصي أيضاً — إلا ويسحبها مني ثم يظل يعبث بها ويتوكأ عليها متثاقلا ، ويضرب بها الأرض ، ولعلها أرق من أن يفعل بها مثل ذلك . فيحول بيني كذلك وبين ما طمعت في الاستمتاع به منها . ويذهب هو بكل ثمرات اقتنائها ، ولا يكون نصيبي منها إلا أني أنا الذي اشتريتها ودفعت ثمنها .

وإن أنس لا أنس يوماً كنا فيه معاً في أحد المصايف السورية . وهناك عرض علينا بعض التجار عباءات فاخرة ذات وشي حسن وتطريز جميل ، يكفي أن يسبل الإنسان واحدة منها على كتفيه لتركبه كل خيلاء المطاريف من أجواد العرب في أيامهم الأولى . فوقعت هذه المطارف في نفوسنا أحسن وقع . ولم أتردد لحظة في شراء واحد منها لنفسي . وعرضت على صاحبي أن يشتري واحدا لنفسه

أيضاً ولكنه قال إنه لا يرى موجباً لذلك رغم استحسانه لها وإعجابه بها . ولم أكن أدرى كيف يستطيع مثل هذا الرجل الغريب أن يوفق بين هذا الإعجاب الذى يبديه وبين عدم الحرص على أن يكون له واحد مثل لنختال فيهما معا وتسترعى بهما أنظار المصطافين إلينا كلما رحنا بهما أو غدونا . ولكن اليوم التالى مباشرة كان كفيلا بأن يكشف لى من كل شيء . فإنى لم أكد أستيقظ من نومى حتى كان صاحبى يختال فى بردتى الجديدة ذهابا وجيئة فى شرفة الفندق الذى كنا ننزل فيه . ولم يبق واحد من نزلاء ذلك الفندق إلا وقد اقترنت عنده صورة هذه العباءة الفخمة بشخص صديق هذا من دونى . وعافت نفسى أن ألبسها بعد ذلك حتى لا يظن القوم أنه هو الذى خلعها على .

وإنى أفرغ من حديث هذا الصديق إذا أنا استرسلت فى ذكر قصصه معى . ولكنى أكتفى بأن أقول إنه هو الذى أمدنى بهذا الخلق الجديد الذى دخل على طبعى فأنكرتموه منى هذا الصباح . والمرء — كما يقول الرسول الكريم — على دين قرينه .

* * *

ولاحت منى نظرة إلى صاحبى فرأيته يتنهد وقد استهواه هذا الحديث العجيب ، وأدركت أن تنهده هذا لابد أن يكون له شيء ، وأن من ورائه قد تكون قصة طريفة يحلو الاستماع إليها فى هذا المجلس الطريف . فألححت عليه فى أن يفضى إلينا بما فى نفسه إن كان هذا الحديث أثار فى ذهنه ذكريات قديمة . فقال :

— وأى ذكريات ؟ لقد كان سبب بقائى إلى اليوم كاليهودى التائه أنانية زميل لى كنت قد اتخذته لنفسى صديقا وعشت معه زمانا لم يخطر ببالى فيه أن أتخذ لى صاحبة أو أن يكون لى ولد . ثم جاء العهد الذى لابد فيه للطائر الهائم أن يتخذ لنفسه وكرا . فأخذت أبحث عمن أكمل به نصف دينى . وأخيراً سمعت عن أسرة طيبة تقيم فى الاسكندرية ومن بين أفرادها فتاة تجمعت فيها كل المزايا التى يبحث عنها مثلى . فقد كانت فتاة مثقفة ، ووديعة ، من منبت طيب . وهى — كما وصفها الواصفون — فوق ذلك ذات سماحة تحببها إلى القلوب . وكان لصاحبى هذا فى الثغر أقارب وأصهار . وكنا قد اعتدنا أن نصطاف معا وأن يقصد هو إلى هناك فى مستهل كل صيف ليدبر لنا أمر المكان الذى نقيم فيه . فأوصيته فى ذلك العام أن يتصل بأهل عروسى ، وأن يخبرهم عن كثب ، وأن يرى (بضاعتى) ليعرف كيف تقع فى نفسى . . .

وسافر البطل على بركة الله فأعجبته العروس . فدخل بها فى نفس المنزل الذى كنت أقدر أن أصطاف معه فيه . وتركنى وراءه لأبحث عن عروس غيرها بل لأعمل ما هو شر من ذلك أيضاً ، وهو أن أبحث عن صديق غيره لأقضى معه بقية حياتى . . .

ثم اتجه صاحبنا بحديثه إلىّ وقال :

— والحمد لله على أن وهبنى على الكبر صاحبى هذا الذى لم يعجبك فى أول النهار وإن كان — كما يبدو لى — قد أعجبك فى آخره . فهذه هى الأنانية كما عرفتها أنا ، لا كما تتحدثون عنها أنتم فى مسبحة أو فى عصا . . . إنها زوجة صالحة وبيت عامر قد طارا جميعاً بفعل زميل أنانى !

— قال صاحبنا الثالث العابث : ما أراك إلا كافراً بنعمة الله ! فمن يدريك ؟ لعل صاحبك يتلظى الآن فى تلك النار التى خطفها منك ليستأثر بها من دونك ، فى حين تنعم أنت بصحبة أمثالنا وتتقلب معهم فى هذا الرغد الذى نحن فيه ؟

وسمعت صاحبى يعود فيتنهد وهو يقول :

— أجل ! من يدرى ؟

حسن جلول

من البحوث النفسية في دراسات الأدب العربي

٢ – ذوق الأدب

الإمام عبد القاهر الجرجاني هو العالم الثاني الذي نريد أن نعرّف – في اختصار – بجهوده في هذه البحوث . وهو – كالقاضي – جرجاني النشأة والوطن ، إلا أنه أوسع من شيخه أفقاً ، وأدق تحليلاً ، وأكثر التزاماً لمقتضيات النهج العلمي ، وأخلد أثراً في تاريخ الدراسات العربية . وهو – في رأينا – أعظم علماء النقد العربي على الإطلاق ، وأحد الأفذاذ من علماء النقد في تاريخ الإنسانية كلها ؛ وإذا كان شيخه قد مثّل ثقافة القرن الرابع الهجري في تخصصها وإنتاجها ، فإن عبد القاهر يمثل القرن الخامس في تلاقي التيارات العلمية فيه ، وانتفاع بعضها بنتائج بعض ، والإحاطة بموضوع البحث من أطرافه .

ألّف عبد القاهر – فيما ألف – كتابين في النقد العربي : أحدهما « دلائل الإعجاز » والثاني « أسرار البلاغة » وضمّن كلا الكتابين نظرية واضحة المعالم وافية البسط والتقرير ، والاعتراض والرد ، والنظر والتطبيق . والنظريتان – فيما نرى – متكاملتان تؤلفان مبدأ ذوقياً واضحاً في فلسفة الفن ، هو أن للعمل الأدبي ناحيتين : الأولى نظمه وتأليفه وطرق تركيبه ، والثانية صياغته وجماله وألوان صوره وكل ما يمتّ فيه إلى الروعة والتأثير .

على هاتين الناحيتين قام الكتابان ، فتخصص « الدلائل » في بحث الأولى ، وتفرغ « الأسرار » للثانية . ولكن جوّ الكتابين واحد ، فالمؤلف في كليهما يحمل راية العلم ، ويُحذِر من التقليد ، ويدعو إلى ضرورة المعرفة المفصلة ، وإلى تعمق بحث الأسباب والعلل ، وإلى وجوب الجمع في بحوث الأدب بين رقة العلم وحرية الذوق ، أو بعبارة حديثة – إلى التوفيق بين الاعتبارات الموضوعية والذاتية في هذه البحوث .

وسندع الآن كتاب « الدلائل » جانباً ، لنتفرغ لتلخيص وجهة النظر في كتاب الأسرار[1] . إن هذا الكتاب في الواقع رسالة نفسية ذوقية في نواحي التأثير الأدبي ، وفكرتها الرئيسية هي : أن مقياس الجودة الأدبية تأثير الصور البيانية في نفس متذوقها . والفكرة في ذاتها إنسانية قديمة ؛ فقد تنبه الناس منذ العصور البعيدة إلى أن الأدب نوع من التواصل الفكري ، وأن نجاحه يكون على قدر نفاذه إلى عقول سامعيه وقلوبهم . فليس من العجيب – إذاً – أن نظفر بإشارات هنا وهناك في كتب المؤلفين السابقين من عرب وغير عرب إلى فكرة التأثير الأدبي . ومعظم النظريات الخالدة في العلم لا تعدم أن نجد لها سوابق في إشارات المتقدمين وكتاباتهم ؛ ولكن الفكرة التي تستحق اسم نظرية هي ما كان لصاحبها فضل عرضها وتحقيقها وتعليلها واستقراء أمثلتها ، وإزالة ما يعرض لها من شبهات ، ومحاولة تطبيقها في ميدان الدراسة الخاصة .

وهذا هو ما قام به عبد القاهر في فكرة التأثير الأدبي . فقد عرضها – أولا – فرضاً كدأب العلماء في عرض نظرياتهم ، ثم رسم الخطة لتحقيقها ، فناقشها في بعض فنون البيان ، ثم فصل القول فيها تفصيلا بارعاً في أبواب التشبيه والتمثيل والاستعارة – إذ هي الأبواب التي تفسح المجال لضروب التصوير الأدبي وخلق الصور الفنية – وكان كلما قطع مرحلة وقف ليحقق مثلا أو يزيل شبهة ؛ وهو لا يكتفي بشرح الظاهرة وتطبيقها ، ولكنه يحاول أن يجد لها العلل والأسباب ؛ وإذا عرض عليك نماذج من الشعر

(١) فصلنا الكلام على « نظرية عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة » في بحث نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول – المجلد الثاني سنة ١٩٤٤ . وحاولنا هناك أن نقدمها ونبين الصلة بينها وبين نظريته في الدلائل ؛ ثم ناقشنا مقدار ما في نظرية « الأسرار » من ابتكار أو تقليد ؛ وما يمكن أن يكون عبد القاهر مديناً به في بحثه لأرسطو والسابقين من مؤلفي النقد العربي .

ونقدها جلاها أولا في نظمها الظاهر ، ثم كرّ عليها مرة أخرى فصوّر لك كل ما همست به في نفسه ، وما خلّفت في ذهنه من أثر ، وأعاد لك خلْق الجو الذي قيلت فيه حتى لكأنك تشهده رأى العين .[1] فلم يعُدْ النقد على يديه جملا قصيرة وأحكاما مبتسرة ، ولكنه أصبح جولة يجولها الناقد في الآفاق التي هام فيها الشاعر ، ثم يعود ليقص على الناس ما رأى ، وليكون الترجمان بين الشاعر وبينهم .

فمن فضيلة الاستعارة عند عبد القاهر أنها تبرز البيان أبداً في صورة مستجدة تَزيد قدره نبلا ، وتعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ؛ وإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية ؛ وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خفايا العقل كأنها جسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون .

أما التمثيل فإن مما اتفق عليه العقلاء أنه إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي في معرضه ، كساها أبهة ورفع من أقدارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها . .

هذا التأثير الذي يتميز به التمثيل إنما يرتكز على أسباب وعلل ، كل منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل : فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ ، وتأتيها بصريح بعد مكنيّ ، وأن تردّها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، نحو أن تنقلها من العقل إلى الإحساس ، وعما يُعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد

(١) راجع — مثلا — تحليله للأبيات المشهورة : « ولما قضينا من منى كل حاجة ... » الخ .

من طرق الحواس — أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة — يَفْضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام .

وضرب آخر من الأنس هو ما يوجبه تقدم الإلف ؛ ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة النظر والروية ، فهو — إذاً — أمَسّ بها رحماً وأقدم لها صحبة . فأنت مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ثم مثّله ، كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ثم يكشف عنه الحجاب ويقول : ها هو ذا فأبصره تجده على ما وصفت .

وهناك سرّ ثالث من أسرار روعة التمثيل ، هو أنه يتيح لك الفرصة لتصور الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله : ذلك أن التشبيهات لا يكون لها موقع من السامعين ، ولا تهز وتحرك ، حتى يكون الشبه مقرراً بين شيئين مختلفين في الجنس كتشبيه العين بالنرجس ، والثريا بعنقود الكرْم النور . وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب .

وهناك لطيفة رابعة ، وهي أن المعنى إذا أتاك ممثلا فهو في الأكثر يتجلى لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة ، وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه . وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر . ومن المركوز في الطباع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى وبالمزية أولى[1] .

* * *

على هذا النحو ، وبهذه الدقة ، يمضي عبد القاهر في رسالته في أسرار بلاغة الكلام ، راجعاً ظواهر التأثير إلى

(١) هذه ناحية في سيكلوجية تذوق الشعر لم يفطن لها القاضي الجرجاني تمام الفطنة حين عرض لشعر الطبع وشعر التكلف .

المركوز في طبيعة النفس ، والمستقر في فطرتها ، مطبقاً الفكرة بنفسها على الشعر يشرحه شرحاً ذوقياً ممتعاً . وهذه النظرية التأثيرية في جودة الأدب جزء من تفكير سيكولوجي أعم ، يطبع كتاب الأسرار كله بطابعه : فالمؤلف لا يفتأ يدعوك بين لحظة وأخرى — كما فعل شيخه القاضي من قبل — إلى تجربة الطريقة النفسانية التي يسميها المحدثون « الفحص الباطني » ؛ ذلك أن تقرأ الشعر وتراقب نفسك عند قراءته وبعدها ، وتتأمل ما يعروك من الهزة والارتياح والطرب والاستحسان ، وتحاول أن تفكر في مصادر هذا الإحساس ؛ فإذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت ، فانظر إلى حركات الأريحية مم كانت وعند ماذا ظهرت .

ثم يخوض بك المؤلف في سيكلوجية الإلف والغرابة والعيان والمشاهدة ، والخلاف والوفاق ، والسهولة والتعقيد وأثر كل منها على النفس ، ويعرض لشرح الإدراك ، وقيامه أولاً على المعلومات التي ترد من طريق الحس ، ثم ازدياد ثروته بعد ذلك من طريق الروية والتأمل ، ويميز لك بين إدراك الشيء جملة وإدراكه تفصيلا ، فيحدثك هنا حديثاً يذكرك النظرية الحديثة التي يسميها علماء النفس نظرية « الجشتالت » أو الهيكل العام .

ومن العناصر الإنسانية البارزة في نظرية المؤلف حرصه على مكانة الذوق والطبع والحس الفني في المتعة الأدبية : فهو يقول لك في الكلام على الاستعارة والتخييل — مثلا — « وهذا موضع في غاية اللطف لا يبين إلا إذا كان المتصفح للكلام حساساً يعرف وحي طبع الشعر ، وخفي حركته التي هي كالهمس ، وكسرى النفس في النفس . ويقول في تعليل ما يصادفه من عناء مع خصوم نظريته : « لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحية ، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث له علماً بها ، حتى يكون مهيأ لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة » .

ويتصل بهذا ما يلجأ إليه مراراً من إحالة قارئه على الراسخ في غرائز العقول ، والخواص التي قد فطر الإنسان على أن يرتاح لها ، ويجد في نفسه هزة عندها . وله أحياناً استطرادات طريفة يناقش فيها خصائص الدلالة مناقشة تقرب كثيراً مما يتحدث فيه علماء النفس الآن تحت اسم سيكلوجية كذا وكذا من الأشخاص والظواهر .

عبد القاهر — إذاً — صاحب نظرية في الذوق الأدبي يستحق بها أن يأخذ مكانه في تاريخ هذه الدراسات . وهذه النظرية ذات طابع سيكلوجي وذوقي واضح وهي بهذا الطابع تمت بكبير صلة إلى اتجاه من أهم الاتجاهات المعاصرة في دراسة النقد ، يقوم على العناية بالعناصر الأصيلة في الفن ، وبتواصي تأثيرها في النفوس .

محمد خلف الله

صيد من بلاد الشام

١ — القانون المدني في الجمهورية السورية

قررت وزارة العدل في سورية وضع قانون مدني للجمهورية السورية يحل محل كثير من القرارات والأنظمة التي كان مندوبو فرنسة في سورية يضعونها ، فيتفقدها القانون على الأمر .

وقد انتدب رئيس محكمة النقض والإبرام مصطفى بك ومدا لهذا العمل .

قلت : ليت القائمين على الأمور عندنا يستشيرون سيد القانون في البلاد العربية ، وحجة الفقهاء فيها ، معالي السنهوري باشا . فيفيدوا من علمه الواسع ، ورأيه الثاقب ، وتجاربه الطويلة . فلقد بلا وضع القوانين المدنية . ولست أعرف أحداً أعلم منه بالتوفيق بين ما خلفه شرعنا وما يقتضيه عصرنا . وبتوجيه القوانين المدنية وجهة تفيد وتوحد وتقوى . فهذه فرصة تتقرب فيها سورية ، في قانونها المدني ، من مصر والعراق . فلعل ذلك يؤدي بعد زمن إلى توحيد هذه القوانين كلها ، فلا يكون في البلاد العربية إلا قانون واحد يخضع له العرب جميعاً .

٢ — دار الكتب الأهلية بدمشق

تقرر استملاك أرض واسعة ، في دمشق الجديدة ، لبناء دار للكتب تنقل إليها دار الكتب الأهلية الظاهرية

فلقد لوحظ أن المدرسة الظاهرية (نسبة إلى السلطان الملك الظاهر بيبرس) لم تعد تتسع للكتب ، وأنها ضاقت بالمخطوطات ، وأن عدد الكتب المطبوعة والمخطوطة التي تدخلها ، في ازدياد ، يضاف إلى ذلك أن نمو سورية ونهضتها ، يوجبان إيجاد دار للكتب تشاد على أحدث الأساليب . تكون فيها قاعات واسعات تتسع لآلاف من المجلدات .

ودار الكتب الظاهرية تأسست سنة ١٢٩٥ هـ . على قول بدران . ومن الطريف أن ننقل إليك نصاً يقص عليك خبر نشأتها :

قال بدران في كتابه « منادمة الأطلال » المخطوط ، وهو كتاب نادر جيد يبحث في مدارس دمشق القديمة ومساجدها وربطها وزواياها . . . . — عند كلامه على المدرسة الظاهرية الجوانية . ما يلي :

« ولما كان المرحوم مدحت باشا والياً على سورية اهتم بإنشاء المكاتب ثم علم أن بدمشق ما لا يعد من خزائن الكتب الموقوفة على المشتغلين بالعلم وقد امتدت إليها أيدي المختلسين بالنهب والبيع حتى لم يبق منها إلا النزر القليل ، لخاف على الباقي من الضياع ، فكتب إلى مقر السلطنة فصدر الأمر بجمعها وجمعها في مكان مخصوص ليكون الانتفاع بها عاماً . فجمعت الكتب الموجودة في المدرسة العمرية ، ومدرسة عبد الله باشا العظم ، ومكتبة سليمان باشا العظم ، ومكتبة الملا عثمان الكردي ، ومكتبة أسعد باشا العظم ، ومكتبة المدرسة المرادية ، ومكتبة الخانقاه السميساطية ، ومكتبة المدرسة الياغوشية ، ومكتبة الأوقاف ، ومكتبة بيت الخطابة بالمسجد الأموي . وجعلت كلها في المكتبة الظاهرية » اهـ من بدران مختصراً .

ونستدل من هذا أن المكتبة الظاهرية قد حوت نفائس المخطوطات التي كانت في خزائن الكتب المبعثرة . وهي تعد من أغنى المكتبات العامة بمخطوطات الحديث .

وقد أخبرني الأستاذ عمر كحالة ، محافظ دار الكتب الظاهرية ، أن عدد المخطوطات فيها قد بلغ في أوائل هذا الشهر ٥٢٠٠ مخطوط مسجل ، وأن هناك زهاء ثلاثمائة مخطوط لم يسجل بعد . فيكون العدد الصحيح هو ٥٥٠٠ مخطوط .

ويهدف محافظ المكتبة الجديد الآن إلى جمع النوادر المخطوطة ذات الشأن فقط ، أو الوثائق التي يمكن أن تؤرخ الشام وتظهر فيها الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية ، كالفتاوى ، وكتب الوقف ، والصكوك ، وغير ذلك . وهذه

خطة جديدة جيدة ، تعود على الباحثين والمؤرخين بالفائدة ، لأن دار الكتب الظاهرية ، فدمشق ، وينبغي أن يكون فيها صور لكل عصر مر بدمشق ، يستطيع الباحث أن يرجع إليها لفهم هذه البلدة العظيمة الخالدة .

٣ — براكين على براكين

ومن حق أدباء البلاد العربية علينا أن ننقل إليهم في صبدنا ، ماينظمه شعراؤنا ويتندر به أدباؤنا . وهذه أبيات من الشعر ، تحسب أنها نقلت من حماسة أبي تمام الطائي أو أن قائلها شاعر من شعراء العصور الخوالي . وما أدري أتعمّد الشاعر أن تكون كذلك . أم أن مراً أثر فيه لجمل أبياته من هذا الطراز .

وقصّة الأبيات طريفة فقد كانت وزارة المعارف السورية ، قد انتقت الأستاذ عز الدين التنوخي — عضو المجمع العلمي بدمشق — ليكون مفتشاً ثم مديراً للمعارف في جبل الدروز . وفي الجبل ، ثبت أن نسبه يتصل بالأمراء التنوخيين ، فاعترف له أمراء الجبل ، كما حدثني ، بإمارته ووكّدوا صحة نسبه . فأصبح في المجمع العلمي ثلاثة أمراء : الأمير شكيب أرسلان ، والأمير عز الدين التنوخي ، والأمير جعفر الحسني .

وصادفه تلاميذه القدماء . فسألوه عن جبل الدروز . فأنشد شعراً وقال :

وسائلٍ من بني التجهيز عن جبلٍ
عزّ امتناعاً على بَغْيِ السلاطين
يحتلُّه من (بني المعروف) طائفة
من اليمانين والغُرّ الميامين
في شرايينهم يجري الندى شرفاً
كما جرى العزّ منهم في الشرايين
ترى شيوخ الهدى والعقل بينهم
تنافسوا كرماً بالبأس والدين
أما الرجال فآلٌ في ندىً ووغىً
عرفتهم بالمطاعيم المطاعين
في الصافنات تخالهم ملائكة
وفي الوغى الجنّ تستعصي على الهون
أطفالهم لا تسَلّى عن حماستهم
فهم براكين من فوق البراكين
لولاهمُ في (سويداء) الجزيرة ما
أقرُّ والشوق بالهيجاء يُغريني
أبنائي الغرّ للهيجاء داعيةٌ
وللسويداء آبائي تناديني
لي في السويداء أبناء غطارفة
إذا أناديهمُ يوماً يلبّوني
ولي بكل القرى جند أشاوسة
من كل أروعَ بالهيجاء مفتون
إني لأفديهم بالروح إن نُكبوا
وهم لعمرك بالهيجاء يفدوني

وقد أنشدني شعره هذا — فطربتُ له . والحق أنك لتشمّ منه رائحة الإمارة ، وسمح لي بنشره — فاصطدته ونشرته ، لأنه يصف قطعة من الوطن السوري ، ويصف أهلها وأبناءها .

٤ — ديوان الجزري

حسين بن أحمد بن الحسين الجزري . شاعر من (حلب) . ولد في القرن العاشر ، وتوفي في القرن الحادي عشر . (٩٩٧ — ١٠٣٣ هـ) . أصله من جزيرة ابن عمر ونسبته إليها ؛ تنقّل بين الشام والعراق ، وبلاد الروم ، ومدح بني سيفا أمراء طرابلس الشام ، واستقر في حلب ، ثم توفي في حماة . وقد ترجم له المحبّي . وقال إن له ديوان شعر .

وقد دخل هذا الديوان منذ قريب دار الكتب الظاهرية بدمشق . ومقدّمة الشاعر ، تنبىء عما في الديوان كله .

«... يقول العبد الفقير إلى رحمة فيض فضل الله العزيز ، حسين بن أحمد بن الحسين الجزرى : لقد سألنى من كنت بالإجابة لسؤاله جديراً ، أن أجمع ما تيسّر لى نظمه وإن كان شيئاً يسيرا . فامتثلنا أمره ، وملأنا له حلوه ومرّه ، وقلت ما قلت ، غير محتشم . ولكننى اخترت أن أصدّر ما صدر منى فى مدح العلماء والفضلاء الأعلام ، ثم الأمراء والكبراء الكرام ، وما يلى ذلك من مواعظ ونصائح وتغزّلات ومراسلات ومجون ومداعبات ، ورثاء صديق ، وهجاء زنديق . . . . » .

وقارىء الديوان يُلاحظ كثيراً من مظاهر الحياة الاجتماعية بحلب والشام فى ثنايا الأشعار ، وإذا كان للديوان قيمة ، فمن هنا تأتى . كما أنه يفيد لتاريخ الحركة الأدبية فى الشام ، فى القرن الحادى عشر .

ومن الأشخاص الذين مدحهم : محمد باشا بن منجك ، حسين باشا بن جانبولاد ، مصوع باشا بن جانبولاد ، الشيخ حسن البورينى ، الشيخ فتح الله البيلونى ، وغيرهم .

وتاريخ النسخ سنة ١١٠٠ ، وهو تاريخ قريب من وفاة الشاعر .

٥ — كتب عربية صدرت

ومن الكتب التى صدرت بدمشق ما يلى :

١ — كتاب « بيمارستان نور الدين » ، للأستاذ صلاح الدين المنجد ، وهو دراسة تاريخيّة آثارية ، للبيمارستان الذى بناه نور الدين محمود بن زنكى مؤسس الدولة النورية بدمشق . وقد مهّد المؤلف لبحثه بوصف حالة الشام والعراق ومصر ، فى القرن السادس (النصف الأول منه) ، وكيف دخل نور الدين دمشق ، ومن هو ، وما هى آثاره التى تركها فيها . ثم انتقل إلى الكلام على البيمارستان ، فحدد موقعه وذكر سبب بنائه ، وأوقافه ، ومرضاه وأطباءه ، وخزانة كتبه ، ودروس الطب فيه ، ثم وصفه فى مختلف العصور ، وبيّن الإصلاحات التى أجريت فيه ، وما أضيف إليه منذ بنائه إلى هذه السنة . ثم وصف تخطيطه ، وتكلم على بنائه والمواد التى استعملت فيه ، وما فيه من الزخارف والنقوش ، كالقرنصات وزخارف النحاس ، والخشب المنقوش ، وزخارف الرخام ، وزخارف الحجر ، وزخارف الجصّ ، والزخارف الملوّنة على الجدران . وختم بحثه بسرد الكتابات القديمة الموجودة فى البيمارستان .

وقد طُبع الكتاب على ورق أبيض صقيل ، وزيّن بسبع عشرة صورة وتخطيط ، وعدد صفحاته أربعون من القطع الكبير .

٢ — كتاب « أيها العرب اتحدوا » للأستاذ منير الشريف .

وهو كتاب يدل على اندفاع شديد فى سبيل الوحدة العربيّة ، وقد بيّن المؤلف عناصر الوحدة ، والوسائل التى توصل إليها ، والفوائد التى تجنى منها ، فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع . ثم ذكر الأخطار التى قد تؤديها . وقد عقد المؤلف فصلاً تحدث فيه عن العرب وأصلهم ، وسكان البلاد العربية اليوم واقتصادياتهم ، وختم كتابه بفصل عن الجامعة العربية ، وضرورة الاتحاد العربى ، والمراحل التى تقوّى الوحدة وتحققها .

والكتاب فى ٢٩٢ صفحة ، على ورق عادى .

(دمشق) « ف . ز »

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك
الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٢٦٩
القاهرة

الحروفية

- ٢ -

أسس فضل الله الاستراباذي مذهبه في نهاية القرن الثامن للهجرة وأدخل هذا المذهب إلى تركيا أحد خلفائه «خليفة» (علي العلاء). بعد أن أصبحت إقامة الحروفيين غير ممكنة في إيران بالنظر إلى تشكيل الحكومة المتوالية بهم.(١) وقد اندمج هؤلاء في البكتاشية، وظهر من بينهم بضعة شعراء نظموا بالتركية والفارسية(٢).

وقد استفاد فضل الله الحروفي من النظرية الإسماعيلية بالنسبة إلى قيم الحروف العددية، إذ نجد بين أفكار الإسماعيليين بالنسبة إلى هذا الباب تشابهاً كبيراً مع أفكار الحروفيين، وعند الحروفية تكتم شديد بالنسبة إلى التعاليم الدينية وبالنسبة إلى نشر تلك التعاليم، لاسيما إلى الأجانب. ونجد مثل هذا التكتم عند الحروفية كذلك(٣).

ونجد تعاليم الحروفية في الكتاب الكبير «كتاب جاويدان كبير» وهو كتاب كتبت بعض فصوله باللغة العربية وبعض فصوله الأخرى باللغة الفارسية. وتنتهي عناوين فصوله عادة بلفظة «نامه» (كتاب) «حقيقت نامه» «استواء نامه» «هدايت نامه» «محرم نامه» ولغته الفارسية هي بلهجة أهل استراباد(٤). وعدد هذه الكتب ستة، وقد كتب أحد هذه الكتب فضل الله الحروفي نفسه. وأما الكتب الخمسة الباقية فالظاهر أنها من تآليف «خلفائه»(٥). وتوجد نسخ من «جاويدان كبير» في المكتبات الأوربية (مثل مكتبات لايدن

(١) نفس المصدر
(٢) راجع Vol. 3. P365. Browne. A. History of Persiom. Liter.
(٣) نفس المصدر
(٤) دائرة المعارف الإسلامية ج ٢ ص : ٣٢٨
(٥) Browne. P.365

ومكتبة المتحف البريطاني ومكتبة كامبردج) وقد اعتنى بعض المستشرقين بهذه الكتب مثل المستشرق الإنكليزي براون والمستشرق الإنكليزي جب "Gibb" والمستشرق الإفرنسي كليمان هوارت وأمثالهم(١).

وسيرة مؤسس هذه الفرقة سيرة غامضة ومعلوماتنا عنه قليلة جداً، ولم يتعرض الكتاب الذين عاصروه إلى ترجمة حياته. ما خلا ما جاء في كتاب «مجمل فصيحي»(٢) للخوافي في حوادث سنة ٨٢٩ للهجرة (١٤٢٦م) وما جاء بصورة أوسع في كتاب «حبيب السير»(٣). الذي يتكلم عنه بعد سنة. وقد ذكره ابن حجر العسقلاني في «أنباء» (المتوفى سنة ٨٥٢ هـ) بصورة مجملة(٤). فقال عنه: إنه فضل الله بن أبي محمد التبريزي الحروفي، وكان يعتقد بالحروف، وهو من الهراطقة في الإسلام، وكان من المقربين عند تيمورلنك إلا أنه تآمر على اغتياله، فسمع بذلك ميرانشاه بن تيمورلنك وكان الحروفي قد التجأ إليه. فقطع رأسه بيده، ولما سمع تيمور بالخبر أمر بإحراق جسد فضل الله ورأسه سنة ٨٠٤ للهجرة(٥). (١٤٠١ — ١٤٠٢ م) وقد عمد أتباع فضل على ما يظهر إلى طريقة الاغتيال وإثارة الرعب في النفوس على طريقة القتل كما فعل الحشاشون. حاول «أحمد لور» أحد أتباع فضل الله الاستراباذي ومريديه اغتيال «شاه رخ بن تيمور» في ٢٣ ربيع الثاني من سنة (٨٢٩) للهجرة أو سنة (٨٣٠ هـ) فطعنه في بطنه في مدينة هرات أثناء خروج شاه رخ من الجامع، إلا أنه لم يصبه إصابة مميتة(٦).

أما الجاني فقد قتل لساعته وفي نفس المكان الذي

(١) Vol. 1, PP, 343 Gibb. History of Ottoman Poetry.
(٢) Browne. p, 365
(٣) حبيب السير ج ٣ ص : ١٢٧ وما بعدها
(٤) ابن حجر العسقلاني الأنباء Browne. p, 367
(٥) Browne. p, 367
(٦) نفس المصدر ص ٣٦٦

حاول فيه قتل السلطان ، قتله أحد خدم الأمير . وقد عثر بعد التفتيش فى جيوبه على « مفاتيح » أسماء بعض الأشخاص الذين تآمروا معه . فقبض عليهم وقتل بعضهم وسجن البعض الآخر ونفيت جماعة . وكان ممن أصابهم الاضطهاد « مولانا معروف » أحد العلماء الذين كانوا فى خدمة السلطان أحمد الجلائرى [١] ، وميرزا اسكندر الشيرازى الذى جاء به شاه رخ إلى شيراز [٢] ، وخواجا عضد الدين حفيد مؤسس هذه الفرقة ، والشاعر المشهور (قاسم أنوار) الذى نفى من هرات [٣] .

ولد فضل الله الحروفى — على ما يظهر من بعض المخطوطات التى ألفها الحروفيون — فى عام (٧٤٠) للهجرة (١٣٣٩ — ١٣٤٠ م) . وفى عام (٧٧٥) للهجرة غادر وطنه حاجاً إلى بيت الله الحرام وقد نشر مبادئه فى الحروف فى عام ٧٨٨ للهجرة (١٣٨٦ — ١٣٨٧ م) وكان مقرباً فى بلاط المغول . إلى أن حاول اغتيال تيمورلنك سلطان المغول الشهير ، فقتل عام ٨٢٢ للهجرة (١٤١٩ م) [٤] .

اعتقد بالحروفية خلفاؤه بعد مقتله ، وقد توفى خليفته الأول « حضرة على الأعلى » فى سنة ٨٢٢ للهجرة (١٤١٩ م) . وانتقل الحروفيون بعد اضطهاد حكومة المغول لهم إلى تركيا وهنالك إشارات وردت فى بعض كتب الحروفيين تشير إلى أن الاعتقاد بالحروف كان شائعاً فى الإمبراطورية العثمانية منذ زمن السلطان محمد الثانى الفاتح ، وأن مفتى القسطنطينية كان قد حرم تعاليمهم وأمر بتقتيلهم وإحراقهم فى النار [٥] . على أننا نسمع من مصادر موثوق بها أن الحكومة العثمانية قتلت شاعراً من شعراء الحروفية اسمه « تمنائى » (Tamanna'i) مع جماعة من أبناء مذهبه فى عهد السلطان بايزيد الذى أسره تيمور فى معركة أنقرة سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠٢ م) والذى توفى بعد ذلك بمدة قليلة [١] وربما فى نفس السنة التى قتل فيها فضل الله الحروفى .

(١) نفس المصدر (٢) كذلك (٣) كذلك
(٤) راجع Mss. British Museum. Browne, P. 374 Or. 6380 f. 26.
إسحاق افندى كشف الأسرار . Gibb-memorial. Vol. 9
el, Huart. Textes Persans
(٥) Brown. P. 370

والظاهر أن تنكيل السلطان بايزيد ومن جاء من بعده بالحروفيين أوقف دعوة الحروفيين وجعلهم يتكتمون ويتظاهرون بزى الدراويش البكتاشية . على أن البكتاشية نفسها لم تنج من اضطهاد السلاطين العثمانيين مثل السلطان محمود (١٢٤١ هـ) (١٨٢٥ — ١٨٢٦) . وقد ترك هؤلاء الحروفيون آثاراً فى الأدب التركى بما ألفوه فى هذه اللغة من كتب وبما نظمه شعراؤهم من أشعار [٢] . وقد بحث المستشرق الإنكليزى « جب » فى كتابه تاريخ الشعر العثمانى [٣] عن أثر شاعرين تركيين كانا من معتنقى مذهب الحروفية هما « نسيمى » و « رفيعى » كما بحث عن مخطوطات أخرى تتعلق بهذه الفرقة [٤] وقد نشر اسحاق افندى بعض كتبهم مثل كتاب « عشق نامه » لفرشتازاده عبد المجيد بن فرشتا عز الدين [٥] .

مراد على

(١) نفس المصدر
(٢) Gibb. History of Ottaman Poetry. vol. 1. pp. 343 Brown. A History of Persian Literature. pp 365.
(٣) نفس المصدر
(٤) راجع أيضاً Jacob, Bektaschis, Huart. Txtes, Persan.
(٥) إسحاق افندى The Revealer of mysteries and Reppeler of miscreants, 1874

يوحنـــا المنحوس

أسطورة مقتبسة من الأدب الروسي

في بلاد غير معروفة كان يعيش رجل رقيق الحال اسمه يوحنا ، وكان يلقب بالمنحوس ، وكان يقيم في غابة ويحترف صناعة الملاعق الخشبية وعمل الكيزان وما إلى ذلك من الأشياء التي تحتاج إليها المنازل ، وكان هذا العمل لا يدر عليه سوى القليل من الرزق ، ولما كان يلاقي صعوبة في الحصول على ما يقيم أوده ويمسك عليه رمقه ، ورغم ذلك كان خطر بفكره أن يتزوج ابنة جاره قاطع الأخشاب ، ولم يكن صداق زوجته سوى ساعدين قويين وعينين دعجاوين يشعان النور في وجهها الصبيح كما تضيء الكواكب ، ولم يكد ينتهي العام حتى ولد له غلام قوي البنية موفور العافية خفيف الحركة ، وشرع يوحنا يفكر في أمر ولده ، وعقد العزم على أن يلتمس له إشبينة ترعاه إذا ما جاء الموت .

وانطلق يسعى في طلب الإشبينة ، وغذّ السير حتى ضل الطريق ، واشتبهت عليه المعالم وما هَمَّ أن لحظ امرأة مقبلة نحوه ترتدي ملابس أرجوانية وقد توشحت بوشاح أزرق اللون ، وكان على رأسها إكليل من الورود ، وفي عينيها صولجان ذهبي له بريق أخاذ ، ولما دنت منه قالت له :

— عم صباحاً يا سيدي الطيب ، وإلى أين تغدو مبكراً ؟ .

— أبحث عن إشبينة لنجلي .

— اتخذني إذاً فإن ذلك يسرني .

فقال لها يوحنا : أشكرك ، ولكن اعلمي أني أريد إشبينة عادلة .

— حسن ، اتخذني إذاً ، فإني مليكة الحظ ، وأنا المسيطرة على أرجاء هذه الغابة .

أدهش ذلك يوحنا وحيره .

— إذاً أنت الجنية ! يؤسفني ذلك ، وأخشى أن لا تكون هناك فائدة في هذا الحديث .

فقالت الجنية وقد ساءتها لهجته وجرحت إباءها :

— ولم ذلك ؟ .

— لهذا السبب ياسيدتي ، ولست أدري أنحن مقصرون في احترامك أم أننا لا نقدم لك ما يليق بمقامك من الإجلال والإعظام ، والواقع أننا جميعاً صغيرنا وكبيرنا نجيء إلى كهفك كلما تبلجت أنوار الربيع ، ونزينه بالأزهار المختلفة الألوان ، ومن أجلك نقدم أكبر باقة من الزهر ، ولصحتك نشرب أول نخب من النبيذ ، ونؤمل أن نظفر بعطفك ويلين لنا قلبك ، ولكن ماذا نرى بدلا من ذلك ؟ فإنك تستيقظين من نومك شرسة الأخلاق متعكرة المزاج فتلتوي علينا الأمور ، وتضطرب الأحوال ، فمن يشتاق إلى الجو الصحو الجميل ترسلين له هوج العواصف ، ومن يحتاج إلى الغيث تسلطين عليه الجفاف ، ويجهد الرجل الفقير جهده وينفق ما عنده وأنت لا تحفلين به فتيلا ، ويندر أن تحرك إصبعاً للأخذ بيده ، وتغدقين عطاياك على الكسول المتبلد . لا يا سيدتي ، أنت لا تصلحين إشبينة لولدي ، وأستودعك الله يا سيدتي ! .

وتركها يوحنا المنحوس ومضى لطيته ، وأمعن في السير حتى أفضى به التجوال إلى روض أريض حافل بزنابق الوادي ، وأبصر هنالك غادة حسناء وجهها كالربيع روضه القطر ، وقد ارتدت ثياباً خضراً وبيضا ، وكانت تحمل في مئزرها بعض الأزهار .

وقالت له : إلى أين تهرول ؟ .

— أبحث عن إشبينة لنجلي .

فقالت له في صوت رقيق : أريد أن أكون إشبينة له ؟ إن ذلك مما يسرني .

— أشكرك ، وأرجو أن تعلمي أني أريد إشبينة

شيمتها العدل ، ومن أنت أيتها الحسناء ؟ .

— أنا الملكة فينوس التي تهب الناس الجمال ، وتمنحهم الحب ، وهو خير ما في الدنيا .

فهز يوحنا المنحوس رأسه وقال : كلا يا سيدتي العزيزة ، أنت لا تصلحين لنا .

فأجابته فينوس دهشة مستنكرة : ما أشد غفلتك ! ولم لا ؟

— لم لا ؟ لأنك لست عادلة ، هذا هو السبب ، فأنت تجودين بالوجه الوسيم على قوم أرواحهم أشد ظلاماً من الليل البهيم ، وترسلين الرجل الطيب القلب الصادق السريرة إلى الدنيا شتيما مسيخاً ، وأما من ناحية الحب فإن الأمر أفظع والخطب أفدح ، فأنت تجرينه جزافاً ذات اليمين وذات اليسار في غير روية ولا تدبير ، ومن جراء هذا التخليط لا نرى أينما حللنا أسرة تنعم بالسعادة ، فالزوج يريد شيئاً والزوجة تريد شيئاً آخر ، فاغربي عني يا سيدتي الحسناء .

فقالت فينوس وقد هزت كتفيها : ما أكثر حماقتك وما أقل فطنتك ! .

فأحنى يوحنا رأسه واتصلت في طريقه ، وقال مخاطباً نفسه في صوت مسموع : حقيقة أنني مشئوم منحوس . ولم يكد ينطق بهذه الألفاظ حتى رأى نفسه في وسط مدينة كبيرة ، ولم يحلم في حياته بأنه سيرى مثل هذا البهاء الذي يحار فيه اللب . فما شئت من جواسق فخمة ، وكنائس مذهبة القباب ، وحدائق فينانة الظلال ، وشوارع كبيرة قد حفلت واجهات حوانيتها الزجاجية بنفائس السلع والمعروضات وغوالي التحف ، وكانت المتاجر والحدائق والشوارع جميعها ملأى بالناس ، وكان فريق من الناس يجري في هرج ومرج ، وفريق آخر منهم قد جلسوا في عرباتهم يرمقون المارة في فتور وعدم اكتراث . ثم هدأت الضجة فجأة وخفتت الأصوات ، وبدت في سوق المدينة مركبة تجرها جياد صافنات بيض ، وقد سار في مقدمتها وإلى جانبيها جماعة من النافخين في الأبواق وضاربي الطبول ، وكانت تقف في وسط المركبة امرأة في رداء فاخر من الحرير المشجر المحلى بالفضة وشرائط الذهب وعلى رأسها إكليل من الغار ، وكانت راحتاها المدودتان تساقطان مرة غصناً من الغار وأخرى باقة من الزهر ، وسرعان ما نشبت الحرب بين الناس واشتد بينهم التناحر وحمي الوطيس وسقط بعضهم تحت سنابك الخيل ، وكان من الحين إلى الحين يوفق بعضهم إلى تسلق المركبة والاستيلاء على بعض الأغصان الملقاة ، وكان كلما سقط قوم في حومة النزال تقدم آخرون وشغلوا مكانهم ، وأخيراً أخذت المركبة تتهادى في تؤدة ووقار إلى الأمام . ووقعت عين المرأة فجأة على يوحنا المنحوس ، وكان قد تملكه الرعب وبان عليه الفزع ، وقد وقف مستنداً إلى جذع شجرة حابساً أنفاسه ، فأوقفت المركبة وسألته :

— من أنت .

فقال لها : أنا يا صاحبة السمو يوحنا المنحوس .

— ولماذا تستتر ؟ .

فهمس يوحنا في حياء وخوف قائلا : لأنني أخافك .

— أنت تخافني ؟ وكيف جئت إلى هنا إذاً ؟ .

— كنت أسير على غير هدى ، ولم أكن أنتظر أن ينتهي في التطواف إلى هنا . وقد كنت أبحث عن إشبينة لولدي .

ففكرت المرأة هنيهة ثم قالت : أتقبلني إشبينة ؟

— من أنت ؟

— أنا الشهرة والمجد .

— إني أريد إشبينة ديدنها العدل .

— أتراني غير عادلة ؟ .

فهز يوحنا رأسه وقال متنهداً : من المؤكد لا ، انظري كم من الناس يهلكون من أجلك ، على حين تقفين في مركبتك المطهمة الفاخرة باسمة غير حافلة ،

وكل إنسان يجرى فى وهمه أنك تبتسمين له ، وتعطفين عليه ، وأنت لا تحملين سوى التغرير بهم ، والسخرية منهم ، ولا تكترثين لأنين الذين يسقطون تحت عجلات من كبتك .

فصاحت به قائلة فى كبرياء وخيلاء :

— أيها الفظ الغليظ القلب عد إلى غابتك !

ثم ألهبت الجياد بالسياط فانطلقت تعدو كالريح العاصف

واستأنف يوحنا السير حتى وصل إلى مكان قد حشد فيه بعض المجرمين لينفذ فيهم حكم الإعدام . وأبصر هناك امرأة عجوزا تبدو عليها القسوة والصرامة ، وفى إحدى يديها موازين وفى اليد الأخرى عصا سحرية مصنوعة من الأبنوس .

ونظرت المرأة العجوز إلى يوحنا وخاطبته بلهجة جافة قائلة : إلى أين تسرع أيها الشاب ؟

— أبحث عن إشبينة لنجلى .

— إشبينة ! حسن ، اصغ إلى ، لقد أحببتك منذ وقع نظرى عليك ، وإنى مستعدة أن أكون إشبينة لنجلك .

فأجاب يوحنا فى حذر : أشكرك على هذه المكرمة ، وأحب أن أعرف فى بادئ الأمر من أنت ياسيدتى لأنى ألتمس لنجلى إشبينة عادلة .

— هذا حسن وطيب ، فالماثلة أمامك هى العدالة نفسها !

فصاح يوحنا وقد ملئت نفسه رعباً : العدالة ! رحماك يارب ، إذاً أنت التى تشرفين على المحاكم ، وتصدرين الأحكام فى القضايا ؟ .

— نعم أنا .

— كلا ياسيدتى ، هذا لا ينفعنى أبدا ، فأنت ياسيدتى من الفظاظة والغلظة والتنطع بحيث لا يمكن أن يستقيم نظرك ، ويصدق حكمك . وطالما ياسيدتى قضيت بإعدام الأبرياء ، وأطلقت سراح القتلة السفاكين ، وكثيراً ما تعاقبين من اعترض طريقك أو من لم يخف ظله على قلبك لسبب من الأسباب ، لا ياسيدتى ، لست أرضاك إشبينة لنجلى .

— أنت تستطيل على العدالة أيها التعس المنكود وتسبها ، وسأريك عاقبة حماقتك وسوء أدبك .

ومهما يكن من الأمر فقد كان ليوحنا التعس ساقان سريعتان ، فانطلق يعدو لينجو بنفسه ، ولم يكف عن العدو إلا بعد أن نال منه الإعياء ، ووجد نفسه فى مقبرة ، وعرضت له جثة امرأة فارعة القامة ملفوفة فى أكفان بيض ، وقد أرخت جدائل شعرها على كتفيها وسألته : ما الذى جاء بك إلى هنا أيها الرجل ؟ .

— أبحث عن إشبينة لنجلى .

— أتخذنى إشبينة له .

— أريد إشبينة عادلة .

— ليس هناك من هو أعدل منى .

— آه ياسيدتى العزيزة ، الجميع يدعون ذلك ، ومن أنت ؟ .

— أنا المنية .

ففكر يوحنا برهة ثم قال : حقيقة أنت صادقة فيما تقولين ، فالعدل أوضح خلائقك ، فأنت تسوين بين الصغير والكبير والغنى والفقير ، فإذا ما أزفت الساعة وحم الرحيل فإنك لا تحفلين بالدموع والحسرات والتوسلات والشفاعات ، وإذا ما قرعت باب أحد فلا سبيل له سوى الطاعة والاستسلام ، نعم ياسيدتى أنت عادلة ويستطيع الإنسان أن يطمئن إلى ذلك ، فكونى إذاً إشبينة لنجلى .

وأخذ يوحنا المنحوس المنية من يدها وقادها إلى كوخه ، ووقفت المنية إشبينة لنجله ، وبعد انتهاء الحفلة أولم يوحنا وليمة وأكل الجميع وشربوا وظلوا فى سمر إلى ساعة متأخرة من الليل .

ولما حان ميعاد الانصراف قالت المنية ليوحنا : إنك ياصديقى رجل طيب النفس ، وسأثيبك على ثقتك بى بأن أعلمك مهنة تدر عليك المال الجزيل وتجعلك من الأغنياء

الذين يشار إليهم بالبنان ويتحدث عنهم الناس .

فسألها يوحنا متعجباً : ما هي هذه المهنة ؟

— الطب !

— أنا أصبح طبيباً ؟ إني يا سيدتي أجهل حتى القراءة والكتابة ! .

— هذا ليس بشيء ، وعليك أن تصغي لما سأقوله لك . فحينما تدعى لفحص مريض انظر في بادئ الأمر إلى مقدمة الفراش ، فإذا أبصرتني بغير شفائر فاعلم أن المريض سيبل من مرضه ، ويسترد عافيته ، وتستطيع في هذه الحالة أن تصف له ما تشاء ، فكل شيء يشفيه حتى الماء القراح ، ولكن حينما ينعكس على الحائط خيال شفائري فاعلم أنه قد انتهى أجله وبادر إلى استدعاء الكاهن .

وهكذا تم الاتفاق بينهما ، وغادرت المنية الكوخ ، واشترى يوحنا لنفسه حلة ذا كنة وقبعة ، وصار طبيباً مداويا ، وكان جريئاً لا يتردد ، والجرأة كما هو معروف من أسرار النجاح ، ودواعي ثقة الناس بالإنسان ، واشتهر أمر يوحنا وصار يستدعى لزيارة المرضى من الأطراف البعيدة والجهات النائية ، وكان يضع نصب عينه السلامة التي يتلقاها من المنية ، ولذا لم يخطئ الحكم ، ولم تند عنه الحقيقة ، فكان إذا قال عن المريض الوصب « هـذا على ما يرام » اطمأن أهله واستبشروا ، وغطوا أخضيمش ويبرأ من العلة . وبعدت شهرته وعظم أمره وكثرت عنده الفضة والذهب .

ونشأ ابنه غلاماً حسن الشمائل ، رضي الأخلاق ، مشرق الوجه ، وعلت سن يوحنا ، واشتعل رأسه شيباً . وحينما كانت المنية تحضر إلى النواحي المجاورة له لإنجاز عمل من أعمالها كانت تغتنم الفرصة وتزوره في قصره الفخم ، وكان يضيفها ويحتفي بها ، وكانت تسر برؤية الغلام الناشئ وتلاطفه ، وتظهر إعجابها به ، ثم تستنشق السموط من عليه يوحنا وتودعهما وتنصرف .

وقالت المنية ومازالت للطبيب : لقد أكثرت من زيارتك يا صديقي وأنت لم تزرني قط . فتكلف يوحنا الابتسام وقال : لا يزال هناك متسع من الوقت ، ولو أقدمت على زيارتك في بيدي ؟ ربما لا تسمحين لي بالعودة .

— آه ! لا . اطمئن من هذه الناحية ، فأنا لا أحتجز إنساناً قبل أن يجيء أجله ، وأنت تعرف استمساكي بالعدالة ، فاحضر لتناول العشاء معي ولا تخش شيئاً .

وبعد فترة قصيرة صمم يوحنا على زيارة صديقته ، وتلاقيا في الغابة وساراً معاً فوق الهضبات والتلال والوهاد والأهضام ، واجتازا غابات كثيفة حتى انتهيا إلى مكان موحش مهجور قد قام به قصر خيم عليه الصمت ، وجلله السواد ، وتعلق بجدرانه الإبلاب .

وفتحت المنية الباب ، وأذنت لصديقها بالدخول .

ولما احتواه القصر تأوه وقال : لقد سرنا طويلا ، وأراني لا أستطيع الوقوف على ساقي .

وأعدت المائدة ، وبعد أن تناولا الطعام واستراح قليلا انتقلا إلى قاعة الاستقبال ، ووقفت المنية إلى جانب النافذة ، وكان المطل من هذه النافذة يشرف على براح مترامي الأرجاء قد انتثرت به ألوف من المشاعل مغروسة في الأرض .

وأدركهما الليل ، وكانت مشاعل لا ينالها العد تنير ظلمته وترسل أشعة غامضة عجيبة ، وكان بعض المشاعل شديد التوقد ، وهاج الضوء ، وبعضها قليل اللألاء ، واهي الضوء .

وأدهش يوحنا هذا المنظر وأثار تعجبه ، فقال للمنية :

— ما خبر هذه المشاعل ؟ .

— هذه مشاعل الحياة .

— مشاعل الحياة ! ما معنى هذا ؟ إني لم أفهم عنك .

— ستفهم في التو واللحظة ، فكل كائن حي يستمد حياته من ضوء مشعله الذي يتقد هنا .

بين المسموع والمقروء

نجاح يغرى بالخيبة

ذهب دى ليسبس إلى إنجلترا يروج لقناة السويس عند رئيس وزرائها ، وعند شعبها ، ولكن على غير جدوى ، لأن الإنجليز أبصروا أصبع فرنسا فى الحيلة ، وتخيلوا من نياتها فى مصر ، وما وراء مصر ، الخيالات .

ولكن دى ليسبس ، وقد فاز برضى الوالى ، والى مصر ، وبتأييده ، مضى قدما رغم معارضة أهل التاميز ، ورغم أن الباب العالى ، بإيعاز هؤلاء ، رفض أن يؤيد أو يرضى .

وفى عام ١٨٥٨ نشر دى ليسبس أمر الشركة ، وعرض فى السوق ٤٠٠,٠٠٠ سهم ، ثمن السهم الواحد ٥٠٠ فرنك . أى أنه بدأ برأس مال قدره ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مائتا مليون من الفرنكات . ولم يمض شهر حتى اكتتب المكتتبون فى ٣١٤,٤٩٤ سهما ، منها ٢٠٠,٠٠٠ سهم نالها الفرنسيون ، ومنها أكثر من ٩٦٠٠٠ سهم أخذتها الدولة العثمانية . أما باقى الأسهم وقدرها ٨٥٥٠٦ فقد أخذها والى مصر . وظلت إنجلترا وأمريكا وروسيا والنمسا واقفة تنظر ولا تكتتب .

وبدأ العمل فى إنشاء القناة عام ١٨٥٩ . وكان الكثير من الناس يحسبون أنه عمل خائب ، ولكن ما لبث المشروع أن تراءى بفضل صاحبه أنه ليس من الصعوبة بحيث وصفوه .

ومر على القناة وهى تحتفر أوقات كادت ترتطم فيها بالعقبات ، وتنهدم بما نصب لها الخصوم من فخاخ ، ولكن دى ليسبس صبر ولم ييأس . ومات سعيد الوالى ، ففقد دى ليسبس فيه صديقا حميا ، وعونا كبيرا ، ولكنه

فتمتم يوحنا قائلا : ولكن لماذا تتفاوت أضواء المشاعل ، فبعضها باهر الضوء وبعضها واهن الشعاع ؟

— لأن الحياة هكذا ، فالبعض ينمو وتتزايد قوته ، والبعض قد أخذ يدب فيه البلى ، وذهبت نضارته ، والمتقدمون فى السن تنطفىء شعلتهم وتخور ومادا .

فقال يوحنا وقد تلعثم لسانه وشعر برعدة من الخوف تسرى فى أوصاله : أرى هنالك مشعلا لامع السنى جم الضوء .

— هذا مشعل طفل حديث الميلاد .

— وهذا المشعل الوقاد .

— هذا مشعل شاب فى العشرين من عمره .

فقال لها يوحنا : خبرينى ياصديقتى أين شعلة حياتى ؟

— هنا أمامك .

فصاح وقد اصفر وجهه : هذا غير ممكن . لقد فنيت ذبالتها وأشرفت على الانطفاء .

— نعم ياصديق ، فالباقى لك من العمر لا يتجاوز ثلاثة أيام .

— ما هذا ؟ وماذا تقولين ؟ لم يبق من عمرى سوى ثلاثة أيام ! إننا صديقان أيتها المنية ، أليس كذلك ؟ أما فى وسعك أن تمدى فى عمرى ؟ ألست صاحبة الكلمة النافذة هنا ؟ اجعل شعلتى أكبر وأقوى واستعيرى لها جزءاً من ذبالة الشعلة الوهاجة المجاورة لها .

— لا أستطيع ذلك ، إنها شعلة نجلك ، ولو فعلت ذلك لأصبحت ظالمة ، وأنت تعلم أنى العدالة نفسها .

فتنهد يوحنا وطأطأ رأسه وقال : هذا حق .

وقالت المنية : غاية ما أستطيع عمله هو أن أجعلك أكثر شيخوخة حتى يهون عليك الموت .

وقد وفت بوعدها فإن يوحنا لما عاد إلى منزله كان قد أضعفته الشيخوخة وهدمت بنيانه ، حتى عجز عن ارتقاء درجات قصره وتساقطت نفسه فى اللحظة التى خبت فيها شعلته .

على أدهم

ما لبث أن استعاض عن عاطل بعاطل، فأعطى اسماعيل له المون وبذل له من صداقته. وجاء عام ١٨٦٦، فلم يجد الباب العالي عند ذلك بداً من مسايرة الزمن والموافقة على القناة.

وجاء اليوم المشهود، يوم افتتاح القناة. كان هذا في نوفمبر عام ١٨٦٩. وبدأ باحتفال كبير في ميناء بورسعيد، فاجتمع عنده أسطول كبير من سفائن الأمم، ثمان وستون سفينة، وعلى رأسها «النسر» وقد حملت إمبراطورة فرنسا، أوجيني. ودخلت السفن القناة أول مرة. وفي نفس اليوم بلغت بحيرة التمساح. بلغت الإسماعيلية. وفي اليوم التالي سار الموكب حتى بلغ البحيرات المرة. وفي اليوم الذي تلا هذا بلغوا السويس.

ولأول مرة في التاريخ اتصل البحران الكبيران، الأبيض والأحمر، بقناة طولها مائة ميل.

وجاءت الساعة الكبرى عندما مُنح منشيء القناة نيشان الضابط العظيم في جوقة الشرف. منحته إياه فرنسا. وكانت سنّه أربعة وستين. وكأنما نفخ هذا النجاح العظيم في الشيخ بعض نسائم الشباب، فتزوج بعد أسبوع من افتتاح القناة زوجة شابة أعطته من بعد ذلك خلفاً كثيرا. واختاره علماء فرنسا عضواً في أكاديميتها.
وإنجلترا، تلك التي تعززت وتمنعت طويلا، رأت أن تُرضي وتترضى أخيرا. فمنحته الملكة فكتوريا نيشان الصليب الأحمر من مرتبة نجم الهند. واختارته لندن مواطناً. وذهب إليها فاستقبلته احتفالا، ولما دجى الليل أرسلت له في الجو الصواريخ ألوانا.

وقامت الحرب بين فرنسا وألمانيا، الحرب السبعينية، فأسرع إلى باريس. وقامت الدهماء تطلب الإمبراطورة أوجيني، وهي تترك قصرها إلى منفاها، فذكر جميلها، فحماها مع الحامين.

لم يكن دي لسبس يهتم بالسياسة، وقصر همه على الأغراض العلمية والمآرب الإنسانية، إلا مرة واحدة كادت تصيده السياسة بحبالها: رشح نفسه للنيابة البرلمانية ولكن فاته تحقيقاً، فلم يحزن، وإنما ابتهج، لأنه رأى في هذه الخيبة مشيئة الأقدار في أن يظل كما ودّ هو دائماً بمعزل من السياسة والسياسيين.

وكان لا بد لشركة القناة من سنوات تمضي قبل أن تستقر وتستتب أمورها.

ثم ظهر مشروع شق قناة بنما، فدعوه أن يترأس المؤتمر الذي انعقد من أجل ذلك. وقد كان من الخير له وهو في السبعين، أن يرفض، ومن الخير أن يقنع من المجد بالذي كسب، ولكنها الآمال الإنسانية لا ترتوي أبداً. فرضي في اغتباط ظاهر. ودعوه إلى ترأس المشروع بعد ذلك، فنصحه ولده شارل بالرفض، ولكنه أبى إلا قبولا. قال للمؤتمرين في ختام أيامهم: «منذ أسبوعين لم يكن يخطر لي في بال أني سأدعى إلى ترأس مشروع جديد. ولقد حاول أخلص أصدقائي أن يثنوني عن قبول ذلك قالوا: ليس بعد السويس إلا الراحة. ولكن قائد الجيش الذي يحارب فينتصر، ثم يدعى من بعد ذلك إلى حرب جديدة فنصر جديد، كيف يتسنى له أن يقول لا!».

واصطحب زوجته، واصطحب أولاده الثلاثة منها، اصطحبهم إلى بنما يمسح الأرض مع الماسحين. وبدا أولَ الأمر أن الأمر سهل. ولكن ما لبث أن عبثت به العابثات من كل فج: عبثت به الزلازل، وعبثت الأمراض، وسوء الإدارة وسوء الحساب، وعبث به العصيان، وعبثت به الحوادث صنوفاً وأشكالا. ولم يعد رجلنا ذا طاقة على أن يباشر العمل بنفسه، فانتدب.

ومضت السنوات، وأخذت موارد الشركة تهبط هبوطاً سريعاً. وأخذت نهاية السوء تبين. وبذل الرجل ذو الثلاثة والثمانين جهد الجبابرة ليمنع هذه النهاية أن

تكون . وفى عام ١٨٨٨ نشر استحثاثا لحملة الأسهم، قال: «إنى أنادى كل فرنسى، وكل صاحب سهم وكل مشارك معين، وأقول لهم إنى وهبت حياتى لعملين كبيرين اجتمع الرأى على أنهما مستحيلان: هما قناة السويس وقناة بنما. أما قناة السويس فقد فُتحت، وفُتحت بها صناديق فرنسا لتمتلىء ذهبا. فإذا أردتم للقناة الثانية مثل الذى كان للأولى، ومن الأولى، فشيئة ذلك فى أيديكم. لكم وحدكم الخيار أيها السادة».

وأقاموا «بانميا» فقُدِّر له أن يأتى ببضع مئات من الألوف، ولكنه قصر عن بلوغ الحد الأدنى. فلم يكن بد من تصفية الشركة. وتحدث عن تلك الفضيحة، فضيحة بنما، كل لسان.

واعتزل دى ليسبس، واعتكف فى بيته، ودخل فى سبات المرض عميق، وهاج الرأى العام، وطلب تحقيقاً. وجاء البوليس إلى منزل الرجل الشيخ المريض يستدعيه. ودخلوا بالخبر إليه على التدرج مدخلا سهلا. ومن عجب أن الرجل استفاق للخبر، ونهض من مرض، ولبس ثيابه، وحمل على صدره نيشاناً للشرف وهبته إياه أمته، وركب يطلب الدفاع عن نفسه. ولكن الهزة التى اهتزتها نفسه، فاحتملها أولاً، عادت تنوء بها وهو فى الطريق. فرجعوا به إلى البيت.

وأصبح الصباح فهال الناس أن الحكومة قررت محاكمة دلسبس وشركائه — محاكمته بتهمة النصب والاحتيال. وافتتحت المحاكمة فى محكمة الاستئناف فى باريس فى العاشر من يناير عام ١٨٩٣.

ولم يستطع الشيخ أن يحضر المحاكمة. ولكن دافع عنه المحامون الفرنسيون ذلك الدفاع الرائع الذى لا يستطيعه كل إنسان، وكل لسان. وكان محاميه الأستاذ بربو. قال: «لقد كان فى إمكانى أيها القضاة أن أحمل إليكم ذلك الشيخ الفانى على كرسى. ولكنى رحمتكم من منظر قد لا يسركم كثيرا. لو أنى حملت فردناند دى ليسبس إلى هذه القاعة، أيها السادة، لقام كل هذا الجمع المحتشد إجلالا، ولأفسحوا له الطريق صفا صفا احتراماً له وتعظيما. ولرأيتم بأعينكم كيف يُحتفل بالمجد الباهر حتى على المشيبة الباهرة. ولكنى أخشى إن أنا هكذا حملته، أن ينتبه ساعة من نومه، فينظر، فيهوله ما يرى. وقد تدب القوة فى لسانه، وتنطلق الريح فى صوته الواهى، فيحتج على قوم جاءوا به يهلهلون شرفه، وشرف ابنه، ويمزقون . . . ولكنى لا أستطيع حمله، لأنه نزل إلى حال ليس منها صعود ... إنه لا يستطيع أن يتحدث إليكم، فليقم لسانى عن لسانه بديلا. وسأتحدث إليكم فى غير حرج، لأن الرجل الذى أتحدث عنه لا يسمعنى، ولن يسمعنى، لأنه فى طريقه إلى التراب ... إن الرجل العظيم الذى أدفع عنه، رجل بسيط لا يحتاج وصفه إلى عناء. اجمعوا إلى المغامرة الجسارة، واجمعوا إلى قلة الخوف التماسك والصبر، واجمعوا إلى هذا وهذا حب الوطن ومجد الأمة، اجمعوا كل هذا، يكنْ لكم ما تريدون من وصف الرجل ومن تحقيقه».

ولكن كان كل هذا عبثا. فقد حكمت المحكمة على الرجل، حافر القناة، وواصل البحرين، بالحبس خمس سنوات، وبغرامة ٣٠٠٠ فرنك. واستأنف المحامون، ولخطأ فى الشكل، قضى القضاة بإلغاء الحكم، وبتسريح الحبساء.

ولكن بقى شرف الرجل مخدوشاً، إلى يوم فى ديسمبر عام ١٨٩٤. ففى هذا اليوم تطهَّر الرجل من دنس، واغتسل الشرف الملوث، طهره وغسله جنازة للجمهور حاشدة طويلة، مشى فيها الناس عارية رؤوسهم، يشيعون إلى المقابر هيكلا حطاما، ناء بحمل ثقل السنين تسعة وثمانون عاما.

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٦٢٦٩

العدد ٣٨١ | الثلاثاء ١٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ — ١٦ من إبريل سنة ١٩٤٦ | السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

حول مؤتمر المهندسين :

في سبيل العلم

كلمة صريحة لرئيس المؤتمر

كتبنا في هذه المجلة مراراً عن نهضة رجال العلوم في مختلف نواحيها ، وتيقظهم لحقيقة موقفهم وتصميمهم على أن يدلوا بأنفسهم وضع السياسة العلمية ، ويساهموا في توجيه المجتمع نحو الحياة المنتجة التي تمكنه من استغلال كنوز الأرض لخير الإنسان وسعادته ، لا لبؤسه ونكبته والقضاء عليه .

وأشرنا إلى ما صدر في أواخر هذه الحرب وبعدها من كتب عديدة توضح موقف العلماء في العصر الماضي وترسم الطريق لهم في العصر الحديث . فقد كان هؤلاء العلماء فيما مضى منصرفين إلى بحوثهم وابتكاراتهم ، واستغلال نتائج هذه البحوث والابتكارات في اختراعات جديدة أساسها الانتفاع بها جميعاً وبتطبيقاتها العملية في الحياة الفعلية .

وقد كان من نتائج هذا الانصراف أن ظل رجال العلم في عزلة عن عالم السياسة وتقلباته وتطورات الحكم ، قانعين بالإنتاج وحده تاركين لغيرهم الاستغلال والانتفاع بنتائجه .

ولم يكن في ذلك بأس حين كانت الجهود منصرفة إلى تسخير هذا الإنتاج وذلك الابتكار في تطبيقات عملية لخير الإنسان وراحته ومتعته ، وحين كانت تلك التطبيقات محدودة المدى . ولكن الأمر تطور في العصر الحديث حيث بدأ رجال السياسة يستغلون نتائج العلم في إقامة معاول

لهدم الإنسانية وآلات لتعذيب بنى البشر ، كما بدأ رجال الأعمال يجمعون الثروة الطائلة من وراء ما يخترعه العلماء الذين لا يظفرون من الاختراعات ومن تلك الثروة إلا بنصيب ضئيل تافه لا يكاد يفى بحاجاتهم الشخصية الضرورية .

ومن أجل هذا أخذ بعض العلماء يهيب بإخوانه أن يفكروا فى موقفهم ويهبوا من سباتهم ويخرجوا من عزلتهم ويطالبوا بحقهم المشروع فى أن يكونوا العامل الأول فى توجيه سياسة البحث والاختراع والتطبيق العملى للابتكارات فى سبيل سعادة الإنسان وحدها وفى سبيل تحسين المجتمع ورقيه وتخفيف ويلات الإنسانية ؛ وبالجملة توجيه السياسة العلمية والسياسة الدولية الوجهة الصحيحة السليمة التى تهدف للخير العام لا للشر ، وللبناء لا للهدم ، والمتعة والسعادة لا للبؤس والشقاء .

كما أخذوا يطالبون بحقهم المشروع فى أن يتمتعوا بقسط معقول وعادل مما تدره تلك النتائج العلمية والتطبيقات العملية من أرباح وما تجمعه من ثروات ، بدلا من أن يكون ذلك من نصيب أفراد قلائل من أصحاب رءوس الأموال الذين يتفننون فى استدرار أموال الناس ، وفى زيادة كسبهم وإنماء ثروتهم على حساب المستهلك بغير ما رحمة ولا شفقة ولا عدالة ، بينما العالم المسكين الذى أنار السبيل والمهندس البائس الذى صمم الأجهزة المستخدمة فى تلك التطبيقات ، كلاهما لا يجد ما يسد أوده وما يمكنه من أن يعيش عيشة هادئة ناعمة مستقرة سعيدة ، لا يحمل فيها هماً ولا يشغله فيها من متاعب الحياة شاغل ، حتى ينصرف بكلياته إلى زيادة الثروة العلمية وتحسين التطبيقات العملية باستمرار .

تحدثنا عن كل ذلك وأوردنا للقراء خلاصة لبعض ما قرأنا من تلك الكتب التى ظهرت فى السنوات الأخيرة تعالج علاقة العلماء بالمجتمع وعلاقتهم بالحكم وعلاقتهم بالسياسة الاقتصادية والتوجيهات المالية . وأشرنا إلى ضرورة انتفاع مصر من هذه الحركة المباركة على أكمل وجه ومسايرتها لهذا الاتجاه الجديد الصائب .

* * *

واليوم نغتبط أشد الاغتباط ونثنى أعظم الثناء ونؤمل أكبر الأمل ، إذ نجد عالماً من علمائنا وعظيماً من عظمائنا بل ووزيراً من وزرائنا يقف فى جمع حاشد يفتتح مؤتمراً خطيراً فى حضرة مندوب جلالة الملك المعظم فيلقيها صيحة مدوية ، وينادى بها كلمة صريحة قوية ، ويعلنها حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، فيقول فى شجاعة وصراحة : « أحسب الوقت قد حان لترى الأمم أن من الخير لها أن تسلم للفنيين قيادها وتدعهم يسيطرون بعلمهم على مقدراتها ، ويسددون بعلمهم خطواتها . ومن الخطل فى الرأى والخطر على مستقبل المدنية أن تعيش الأمم فى عصر التخصص محكومة بالهواة أو المحترفين من السياسيين » .

فهل رأيت انتصاراً للعلم والهندسة أكبر من هذا ؟ وزير يتبوأ منصباً رسمياً فى الدولة ينادى أمام مندوب جلالة الملك فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة فؤاد الأول الناصة بالألوف من المستمعين فى خطبة افتتاح مؤتمر الهندسة الثانى ، ينادى بأن يتسلم رجال العلم القيادة ويساهموا مساهمة فعالة فى توجيه سياسة البلاد ، ويشتركوا اشتراكا قوياً فى الحكم ؛ وذلك حفظاً للمدنية وحرصاً على خير الإنسانية وتحقيقاً للأهداف العالية الاجتماعية ووضعاً للأمور فى نصابها الصحيح ، ومسايرة للنهضة العلمية الحقة فى بلاد العالم كلها .

إننى أعد هذا انتصاراً كبيراً ، لا لرجال العلم والهندسة وحدهم ، ولكن لمصر كلها ، وأعده فألا عظيما وبشيراً بعهد ذهبى جديد يوشك أن يطلع فجره ، وتدل الدلائل كلها على أنه سيكون عهد يمن وبركة وخير عظيم لهذه البلاد . فليس

أنفع لها ولا أضمن لتوجيه سياستها فى الاتجاه الصحيح من أن يتولى كل مرفق من مرافق الحياة فيها رجل علمى مختص ، وأن يتبوأ بطبيعة الحال كل وزارة من الوزارات رجل من رجال العلم والفن الخبير بشؤونها القادر على حسن توجيهها .

فالبلاد قادمة على مرحلة من أدق مراحل نهضتها وعلى عهد إصلاح وتجديد فى جميع مرافقها ، فكل ما فيها محتاج إلى تعمير وإنشاء وتجديد وإصلاح ، وكل هذا محتاج إلى تفكير ناضج سليم وإحاطة علمية شاملة وخطط قوية صالحة ، وتنفيذ محكم على أسس متينة ؛ وبالجملة تفتقر الأمة فى الوقت الحاضر للعمل الصامت الهادئ ، المرتكز على دعائم فنية ، لا للكلام الطويل العريض الخلاب البراق فحسب ؛ فكفى هذه الأمة سنين طويلة قضتها فى الكلام ، فقد حان الوقت الذى يجب أن تعطى فيه الفرصة لمن يتقنون العمل وإن لم تسعفهم براعة الكلام .

« لقد درج رجال العلم والهندسة (كما قال معالى عبد القوى أحمد باشا فى هذا الخطاب الرائع الفريد) على أن يعملوا لحساب غيرهم ، فيحققوا فى الحرب وسائل الغلبة والنصر للقائد ، وينشئوا ويعمروا ويمهدوا الطريق لنجاح السياسى فى وقت السلام » بما تنتجه قرائحهم وتهديهم إليه عبقريتهم ، وبما تقيمه سواعدهم وتنشئه مقدرتهم الهندسية وبراعتهم الفنية . وكثيراً ما أساء هؤلاء السياسيون استغلال ذلك كله وأفاد هؤلاء المنتفعون إفادة شخصية بدلا من أن تستفيد البلاد وينهض المجتمع .

فالوقت قد آن بغير شك لأن يتسلم العلماء والمهندسون راية القيادة ويجربوا حظهم فى التوجيه ، وتعطى البلاد فرصة الانتفاع برجال الحقائق ، وبالخطط المرسومة على أساس من الوقائع والأرقام والعلم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبتنفيذ تلك الخطط على أيدى رجال العمل الصامتين ، تؤيدهم وتعضدهم وترشدهم قيادة تفهمهم وتقدرهم وتقوى على تبين أخطائهم وتقدر على تصحيحها وعلى حسن توجيههم وإرشادهم .

والأمر هنا لا يتعلق بمصر وحدها ، بل إنه ينصرف إلى العالم العربى كله الذى صمم فى نهضته الجديدة ووضعه الحالى على أن يتكاتف ويعمل فى إخاء وتساند وتعاون . ولذلك راقتنا كلمة معالى الوزير فى هذا الشأن ، فجعلناها ختام هذا المقال : « ولعل أدوم صور الإخاء بين أبناء العروبة وأبقاها على الأيام ما كان فى سبيل العلم ، وكل حركة تستند إلى حقائق العلوم إنما هى حركة مباركة فى عصر يسمى بحق عصر العلم » .

والله الموفق الهادى لما فيه خير هذه البلاد العربية ومصالحها المشتركة .

أحمد عبد السلام الكرداني

كتاب نهاية الرتبة

أعدت لجنة التأليف والترجمة والنشر كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيخ عبد الرحمن بن نصر الشيزرى .

ويقوم على نشره الأستاذ الباز العرينى بإشراف الدكتور محمد مصطفى زيادة .

وقد كادت اللجنة تفرغ من طبعه .

الأستاذ رينولد نيكولسن

وردت الأنباء قبل بضعة أسابيع بوفاة العلامة الجليل الأستاذ رينولد ألن نيكولسن (Prof. R. A. Nicholson)، أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة كمبردج بإنجلترا ؛ فشق نعيه على عارفي فضله في عالم الاستشراق. وكان الخطب في موته أليما في نفوس أصدقائه وزملائه وتلاميذه. عرفت الأستاذ نيكولسن أول ما عرفته، سنة ألف وتسعمائة وأربع وعشرين عند ما كان مدرساً للغة الفارسية بكمبردج في نفس الوقت الذي عرفت فيه أستاذه العلامة إدوارد ج. براون (Prof. E. G. Brown). فلمست في الرجلين سمات العبقرية والعظمة العقلية والروحية على اختلاف ما كان بينهما — رحمهما الله — من تباين يكاد يكون تاما في الشخصية والمزاج. هذا براون، أحد أساطين كمبردج الذين يشار إليهم بالبنان، قد ملأ اسمه الأسماع وطبق ذكره الآفاق وعرفه الناس في كل مكان في العالم العربي والفارسي، يلعب دوره السياسي كاملا في خدمة الشرق وإيران خاصة، كما يقوم بدوره كاملا في عالم التأليف والتصنيف. قد جعل بيته في خارج كمبردج منتدى للعلماء والأدباء من شرقيين وغربيين على تباين ما كان بينهم من لغات وأزياء وعادات، حتى ليهبط الشرق إلى كمبردج، وأول اسم ينطق به لسانه هو اسم براون.

وذاك نيكولسن يعيش للعلم وحده، ولا يعرفه إلا العلماء. يفر من الناس فراراً ومن الحياة الاجتماعية الصاخبة، ويتهيب الوقوف إلى الناس ولو في محاضرة علمية عامة ؛ يأنس بالهدوء والوحدة ويقضي بياض نهاره وجزءاً من سواد ليله بين تلاميذه وكتبه. يغلب عليه الحياء والخجل، وتنطوي نفسه على نفسه، حتى لكأنما يريد أن يخفيها من أعين محدثيه.

وازدادت صلتي ومعرفتي بالأستاذ نيكولسن منذ سنة ١٩٢٧، بعد ما أصبح أستاذاً للغة العربية بكمبردج خلفاً لأستاذه براون. وأصبحت أنا من تلاميذه في دراسة التصوف ومن مساعديه في قسم الدراسات الشرقية.

وكانت دراستي للتصوف تحت إشرافه، النافذة التي أطللت منها على قلب هذا الأستاذ العظيم ونفسه وعقله، فإني عرفت أن وراء شخص نيكولسن الخجول الحيي المتواضع، والمتواضع إلى حد الضعف تقريباً، شخصية فيها من القوة العلمية والقوة الروحية العالية ما يجعله في الصف الأول، لا بين دارسي التصوف من الإنجليز فحسب، بل بين دارسيه من علماء العالم.

وليس المقام هنا مقام تفصيل للآثار العلمية الكثيرة التي خلفها الأستاذ نيكولسن. وحسبنا أن ننظر نظرة عاجلة إلى هذا التراث، وأن نقف وقفة قصيرة نشير فيها إلى بعض صفاته ومزاياه.

انفرد الفقيد من بين مستشرقي بلاده بتوجيه نظره إلى الحياة الروحية الإسلامية في أخص وأبرز مظاهرها. ووجد ذلك في التصوف الإسلامي. ولذلك كرس حياته الطويلة — أو نيفاً وخمسين سنة منها — في دراسة التصوف في مصادره الأولى عربية كانت أم فارسية، ومعرفة العوامل التي ساعدت على نشأة التصوف في الإسلام وعلى نموه.

وقد كان نيكولسن في مزاجه العقلي والخلقي وتصوره الشعري صوفياً بالفطرة، ولا شك عندي في أنه شاطر الصوفية أذواقهم ومواجيدهم، وإن لم يحي معهم في زواياهم وربطهم. ولذا استطاع — كما استطاع زميله الفرنسي العلامة لويس ماسينيون الذي يشاركه في جميع هذه الصفات — استطاع أن يسبر غوراً في الحياة الروحية في الإسلام لم تصل إليه أفهام المستشرقين من قبل، وأن يدرك أسراراً في التصوف الإسلامي خفيت عليهم، وأن يوجه دراسة التصوف وجهة جديدة ويقيمها على أسس علمية تتوافر فيها كل مزايا منهج البحث العلمي.

على أن نيكولسن قد انفرد عن غيره من المستشرقين المشتغلين بالتصوف عن فيهم ماسينيون، بموهبة أخرى نادرة قد لا نجد لها أثراً إلا في أستاذه براون: وهي مقدرته على نقل الشعر العربي والفارسي إلى شعر أوربي نقلا يحقق معه كل معالم الترجمة، ويظهر لك فيه الناقل متقمصاً شخصية المنقول عنه مع المحافظة التامة على روح الأصل المنقول ومعناه. فهو شاعر مطبوع وفنان بارع ومصور مبتدع ومترجم عن لسان أحوال الصوفية وأذواقهم ومحاتهم وإشراقاتهم قبل أن يكون عالماً وباحثاً في التصوف.

استغل نيكولسن هذه الموهبة النادرة فيما نقله إلى الإنجليزية من درر الشعر الفارسي الصوفي، لاسيما كتاب المثنوي لجلال الدين الرومي، وفيما نقله من الشعر العربي الصوفي، لاسيما ترجمان الأشواق لابن عربي وبعض القصائد الصوفية الخاصة لابن الفارض، فأضاف بهذه الطريقة إلى لغته من نفائس الشعر الصوفي الإسلامي ثروة روحية ولغوية خالدة سيعرفها له الناطقون بالإنجليزية في كل مكان وسيعرفها له التاريخ.

وما إن اشتغل نيكولسن بالتصوف حتى أدرك استحالة وضع تاريخ له قبل أن تعد مصادره الأولى إعداداً علمياً دقيقاً، فيطبع منها ما لم يطبع، وينشر منها ما لم ينشر نشرات علمية محققة. وقام نيكولسن نفسه بهذه المهمة الدقيقة الشاقة، فأعد عددا غير قليل من أمهات كتب التصوف القديمة ونشرها بلغتها العربية أو الفارسية، وترجم بعضاً منها إلى الإنجليزية مذيلة بالتعليقات والتحقيقات التي تشهد له بالدقة والصبر. ولم يقف عند هذا الحد، بل بث هذه الروح نفسها في تلاميذه الذين أصبحوا يكونون مدرسة يصح أن نطلق عليها مدرسة نيكولسن، في انجلترة نفسها وفي الهند ومصر وغيرها. فقاموا ولا يزالون يقومون بمثل ما قام به أستاذهم في هذا الميدان.

وفي أثناء هذا المجهود الشاق الطويل — مجهود النشر والترجمة — كانت تفيض المجلات العلمية ودوائر المعارف الكبرى بمقالات الأستاذ وبحوثه في التصوف، وكل منها درة من درر العقد العلمي الذي خلفه، وحجة من الطراز الأول لعالم ثبت مدرك لغاية المطمح التي أخذ نفسه بالاضطلاع بها، موف لها بكل حقوقها.

كان آخر ما رأيت الأستاذ نيكولسن سنة ١٩٣٨ وهي السنة التي منح فيها الوسيمة الذهبية التي تمنحها عادة كبار الكتاب والمؤلفين من الإنجليز. فذهبت لأهنئه، فقبل تهنئتي وعلى شفتيه ابتسامته المتواضعة المألوفة، ولكنه سكت هنيهة ثم قال: ولكني أرجو أن يمد الله في أجلي حتى أتم كتاب المثنوي.

رحم الله نيكولسن! لئن فارقنا اليوم، فقد خلف فينا ما سيحيي ذكراه إلى الأبد في نفوسنا ونفوس الأجيال المقبلة من بعدنا.

(عن المجمع العربي) دكتور ابو العلا عفيفي

كلام عجيب

يأتيه بصح

— ٤ —

[بمناسبة ظهور كتاب قصص الكبرى للصحفي الأشهر هانن سوافر]

ياروح يسى مانتج ! كما تحيك تفاصيل محاولاتك الاتصال بعالمنا اهتزت منى المشاعر، واختلطت فى ذهنى ذكريات لابد أنها كانت عزيزة على من حولك . أم تحب ووالد برى وإخوة فرحين معهم ، ثم إذا بالذى تتصوره عدواً لدوداً ذا مخالب دونها مخالب النسر يختطفك من جو كله سعادة ونشوة ، إلى عالم تتخيله سوادا ووحشة وسكوناً، لابد أنك كنت بنتاً حيية شفافة الجمال ، فتحت صدرها للعالم بما فيه من خير وشر فرحبت رئتاك بجرثومة الداء الوبيل، وسمحتا لها أن تسرح وتمرح حتى امتصت آخر قطرة من دمك ، وحتى سدت منك منافس الهواء فرحت مبكياً عليك إلى العالم الذى تصفينه بلهجة تشوق السامع وترخ النفس الحائرة .

بدأت هذه القصة الرائعة فى حلقة استل رويرتس ذات الصوت الباشر ، وكانت هذه الوسيطة القديرة تتكلم بلسان روح (رد كلاود) التى قالت : « هناك فتاة طلبت منى اليوم أن أحاول مساعدتها على الاتصال بوالدتها ، وستقدم نفسها إليكم الآن » . ثم سمع بعد ذلك صوت الفتاة وهى تقول : « حسناً ، حسناً ! ها أنذا معك ! » وعقب هذا سمع صوت يشجعها على الاقتراب من الحلقة لأنها على وشك بعث رسالتها فقالت : « حسناً ، دعونى أخبركم ياسادة أن رجلا طيبا قادنى إلى هنا . إن اسمى يسى مانتج ، وأود أن أبعث برسالة خاصة إلى والدتى . ولابد أن أرشدكم إلى عنوانها . دعونى أفكر وأحاول . إنها تسكن فى المنزل رقم ١٤ بشارع كانتربرى فى بلاكبورن . إن اسمى يسى مانتج وقد توفيت فى عيد الفصح الماضى نتيجة إصابتى بالتدرن الرئوى . لقد اصطحبت معى إلى هنا أخى الذى مات قبلى نتيجة حادث سيارة » فقال أحد أعضاء الحلقة : « سوف نرسل فى طلب والدتك غداً » . وعند ذلك أضافت يسى : « قولوا لها إن جدائل شعرى لا زالت طويلة ، وهى مسترسلة على ظهرى كما عهدتها إبان حياتى . إننى أبلغ الآن الثانية والعشرين من عمرى ، ولى عينان زرقاوان . خبروها أنى جد مشوقة إلى التحدث إليها . ولكن كيف تأتى إلى هنا وهى فقيرة لا تساعدها مواردها المالية على تحمل نفقات السفر ؟ » فقال لها المستر سوافر : « سوف نعمل كل ما فى وسعنا لإحضارها إلى هنا » فقالت الفتاة : « جزاك الله خيراً . إنها تعسة وتتحدث دائماً من الصدمة التى تلقتها نتيجة فقد ابنها وفقدى . أشكركم . أشكركم » .

وفى اليوم التالى أرسلنا برقية لوالدتها على العنوان الذى أعطته لنا الفتاة . وكان نص البرقية ما يلى : « تحدثت ابنتك الينا فى حلقة رد كلاود » . ولم نتلق رداً على البرقية فأعقبناها بأخرى وتسلمنا خطابين قالت الأم فى أحدهما : « لا يمكننى أن أعبر عن سعادتى وسرورى لما قرأته فى برقيتكم . لقد كنت والله أقفز من شدة فرحى ، وكنت أضحك وأبكى فى آن واحد كلما استعدت كلماتها . إن هذه الوريقة لتساوى عندى ذهب الأرض كله . ولكن هلا أخبرتمونى ماذا قالت ابنتى العزيزة فى تلك الجلسة ؟ » .

وقالت فى خطابها الثانى « إنى آسفة لكونى كلفتكم مشقة إرسال برقية ثانية ، ولكن ضعف مواردى المالية هو الذى حدا بى أن أرد عليكم بالبريد العادى — لا يمكنكم أن تتصوروا كم أنا مدينة لكم — إن ابنتى قد ماتت فى يوم عيد الفصح الماضى ، وسبقها ابنى إلى نفس المصير منذ تسع سنوات نتيجة حادث سيارة . وإن اتصالى بأحدهما يلهمنى العزاء الجميل . فشكراً جزيلا أيها الأصدقاء » .

يتبين من هذا أن جميع المعلومات التي أدلت بها بيسي كانت صحيحة ، بما فيها ضيق ذات يد والديها الذي حال دون الرد على المستر سوافر تلغرافياً . وقد قدرت الجماعة هـنا



استل رو برتس
وسيطة « الجلاء البصرى » الشهيرة

الظرف الخاص فأحضروا الوالدة على نفقتهم إلى لندن ومن هناك أخذت إلى منزل الوسيطة في تدنجتون ، وهناك حدث الاتصال بين الأم وابنتها . وكانت كلمات الفتاة الأولى : إن بيسي تتكلم إليك ياما (وهكذا كانت تناديها أثناء حياتها) فأجابت الأم في هـدوء : « نعم يابيسي . وأنا مصغية » ولـكن الفتاة كانت في حالة اضطراب شديد لدرجة أن سقط البوق من يدها ! فشجعتها الأم قائلة : « إن هذا رائع يابيسي . تشجعى ، فأنت تعلمين كم أحبك » فقالت الفتاة : نعم ياما ، إنه رائع جداً . كيف حال والدى . إن أخى توى معى الآن ويود أن يتحدث إليك . إن هذا شيء عظيم ! إنى مضطربة جدا ولا أقوى على التعبير عما يخالجنى » . فشجعتها أمها قائلة: « كونى رابطة الجأش ياحبيبتى . تكلمى إلىّ وخبرينى هل تأتين إلى منزلنا أحيانا » فأجابت الفتاة: «بالطبع يا أماه . وأنت تعلمين هذا وتحسينه . إنى أذهب إلى هناك وأحاول التحدث إليك ولـكنك لا تجيبين . إنى أراك دائماً تتحدثين إلى صورتى ، وكم شاهدتك واقفة أمامها تنظرين إليها في عبادة وولع ثم تأخذينها بين يديك وتقبلينها . ولقد كنت هناك اليوم ورأيتك تبدين ملحوظة لوالدى من حذائه وتقولين له إنه في حاجة إلى الإصلاح . أليس كذلك ! ! » فقالت الأم : « لقد حدث هذا تماماً ياعزيزتى » .

وختمت الفتاة حديثها قائلة : « إنى أذكر ياما كيف كانت صدمة فقد أخى شـديدة عليك . إنه هنا معى فلا تجزعى » ولما انصرفت الفتاة قالت الروح الوسيط : « لقد أحضرت أخاها معها . إن اسمه توى كاسم أبيه . ولقد رأيته معها » .

إن المستر سوافر رجل صادق ، وليس بالساذج الذى تحيل عليه ألعوبة أفاق ، وليس هو بالدجال الذى يحاول غش الآخرين وخداعهم . والواقع أنه تخصص في التحقيق الصحفى لـكبريات الجرائم ، فكان يعهد إليه دائماً فك طلاسمها وكتابة التقريرات الوافية عنها في كبريات الصحف الإنجليزية . فليس من المعقول أن نتهمه بتلفيق حادث بيسى ماتنج هذا ، ولقد تتبعه من أوله لآخره ، ولو شك في صدقه لما أورده في كتابه ولما وصفه بقوله إنه من أروع عجائب تحضير الأرواح ، وأنا شخصـياً أنصح بتصديقه لما أعهده فيه دائمـاً من تحرى الصراحة والصدق في كل ما يكتبه .

• • •

يحدثنا المؤلف في أحد فصول كتابه عن حديث جرى بينه وبين برنارد شو ، بدأه بالسؤال الآتى : « هل كونت فكرة صحيحة عما ينتظرك بعد الموت ؟ » فأجاب شو في صراحة وبساطة : « كل ما أعرفه أنى بعد الموت أذهب إلى غير رجعة . إنى لا أعتقد في خلود الروح ، ولا أظن أن هناك عاقلا يمكنه قبول مثل هذه الفكرة أو هضم الأسس التى بنيت عليها . إن خلود شخص مثل برنارد شو يبدو مروعاً ومخيفاً ، وإنى أهب خمسة جنيهات لمن يطلق علىّ رصاصة ويمحى من نفسى ويريح العالم منى . إن جسمى الذى تراه الآن ما هو إلا خليط من أملاح الـكربون

والبوتاس وبعض المواد الكيماوية الأخرى تسبب بتفاعلها قوة الاندفاع التي نسميها الحياة ، وسيأتي اليوم الذي تقف فيه الآلة فجأة وينتهي كل شيء .. تفنى الأشخاص والدنيا



هانن سوافر
الصحافي الانجليزي الكبير(*)

باقية . نموت نحن ويعقبنا آخرون يتولون إدارة مجلة الحياة الدائمة ويعيشون كما عشنا ثم يأتي غيرهم وهكذا . قد أسمح لك أن تعتقد أن روحا أخرى تقمصتني وقضت معي كل عمري لتنتقل بعدها إلى جسم آخر وهكذا ، ولكن ليس معنى هذا خلود الشخص نفسه بعد الفناء . وليكن في علمك أني أتحدث في موضوع لا أفقه فيه شيئاً » .

وجرنا الحديث إلى موضوع مفارقة الروح للجسد بعد الموت ، فقال سوافر : إن الروحيين يعلمون من رسالات وصلتهم من عالم الروح أن روح الانسان لا تفارق جسده تماماً إلا بعد الموت ببضعة أيام . وهم لذلك يصممون على ألا تحرق الجثة أو تدفن إلا بعد الموت بأيام . وعندما قال سوافر : « إني على يقين أنك ستحضر بعد أسبوع من وفاتك إلى حلقتي الروحية وتقول أنا برنارد شو . خبّر العالم أني لم أمت » أجابه شو في سخرية : « هلا جربت خداع أحد قبل الآن ؟ » فقال المؤلف : « أبداً . أنت تعلم أني صحفي وغير أمين ، تعقب قضية خلود الروح ، ولا تبقى منها نشرها على الملأ . ما رأيك في أني رأيت أخت زوجتي تمشي أمامي في إحدى الجلسات الروحية بشعرها الطويل المسترسل على ظهرها ؟ » وعندها قال شو : « هذا لا يثبت لي أكثر من كونك رأيت أخت زوجتك لمقدرة بصرية وُهبت إياها تمكنك من رؤية أرواح الموتى » . ويعلق المؤلف على هذا الجواب في سخرية لاذعة قائلا : إن من الأسف أن كاتباً عظيما مثل برنارد شو لا يعرف أن الجلاء البصري نوع من الوساطة .

جرى هذا الحديث في عام ١٩٢٤ ، ويقول المؤلف إنه لم يحاول مناقشته ثانية في هذا الموضوع رغم مقابلتهما العديدة منذ ذلك التاريخ ، لأنه عنيد لا سبيل إلى إقناعه — وسوف يقنعه الواقع عندما يحس بروحه تصعد الى عالم آخر تستأنف فيه نشاطها الذي بدأته على الأرض بنفس الحماس والغيرة والنضج التي عرفت من المستر شو .

● ● ●

ويمضي المؤلف في سرد ما يمتع نفس القارىء العادي ويثير رغبة البحث والاستقصاء في الباحث المدقق ، ويغري بغزو هذا الميدان الثالث الذي يضل في أرجائه الفسيحة أمثالنا . وليتنا نوالي ضغطنا عليه حتى ينجلي السر الأكبر أو نعود مدحورين مقهورين . « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » صدق الله العظيم .

دكتور مصطفى الديواني

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

(*) هذه الصورة وما نشر سابقا نقلا عن مجلة "Psychic News" .

فى ضيافة الشعر العربى :

قصائد شرقية

فى المدائح الإلهية

للشاعر الفارسى السعدى(١)

يا كثير الرحمات نحن أسرى الشهوات
مالنا إلاك يارب غفور الهفوات
رب فاغفر هفواتى واهدنى للطيبات
أرنى نهجك يارب وسدد خطواتى

***

فى المدائح النبوية

طالما كان لسانى فى فمى
فلتطب نفسى بتمجيد النبى
يا حبيب الله ما الكون سوى
قبس من ضوئك الزاهى السنى
فارس يسمو على ظهر البراق
فيشق الأرض والسبع الطباق
حيث لا يبلغ فى الآفاق حى
بلغ الذروة فى المجد النبى

***

فى خطاب النفس

لم لم تزل طفلاً وقد جاوزت سن الأربعين
أيام عمرك تنقضى بين الدعابة والمجون
لم تدخر من لحظة تجديك فى دنيا ودين
لا تطمئن إلى حياة لم يحملها السكون
لا تطمئن إلى السلامة إن حظك قد يخون

(١) طبعة الحكمة الشرقية ترجمة المستر آرثر ولستون .

فى مدح الكرم

إذا ما دعا للبر داع ترنمت
نحييه دنيا الناس بالجود والكرم
فإن توصق بالجود يا نفس تسعدى
فما فى الدنا إلا المكارم والعدم
ولا فى الدنا أجدى من البر متجر
وأجلب للإسعاد منه وللنعم
تجار حياة الناس إحسانها الذى
يخفف عنها ما أجنت من الألم
فأغدق على الدنيا حناناً ورحمة
تقربك للرحمن أرحم من رحم

***

فى وصف الإحسان

ليس يختار سوى الإحسان وصفا
وافر الصحة فى جسم وروح
ليس يشرى المرء إلا محسنا
فانتصر للنفس بالبر الصريح

***

كن بدنيا الجود من أشراقها
إنه أسمى صفات الشرفاء
ما اتقى الرحمن ذو البخل ولا
عرف البخل سراة أتقياء

***

ليس تبدى أنفس جوهرها
قبل أن تبلوها بالكرم
هو يجلوها ويشفى داءها
ويُبرّى ما بها من ألم

***

فإذا ما اسطعت لا تخشَ الندى
موردا تنفق منـه فتزيد
نل المجـد الذى خص به
كل ذى بر وإحسان وجود

* * *

في ذم البخل

لو تصير الأرض من أطرافها
مِلْكَ مطبوعٍ على البخل حقير
لم تزده الأرض إلا خِسَّةً
فهو عبد النفس فى سمت أمير

* * *

مال قارون إذا مَلَّكَهُ
وإذا حُكِّمَ فى مُلك فسيح
فهو ما زال بخيلاً غير أهل
أن يسمى باسمه العارى الصريح

* * *

وإذا ما خدم الحظ بخيلاً
فهو لا يخدم إلا خَدَمَهْ
تصبح الأرضون والبحر له
وهو ما زال بنفسٍ معدمه

* * *

قد قضى الله بأن تنكره
نسمة الدنيا وجنات النعيم
كيفما كان كثيراً ما اقتنى
فهو بالمال على الفقر مقيم

* * *

يجتنى الأجوادُ مما بذلوا
ثمرَ الحمد ولذات الرضى
ويعانى المرّ من أمواله
كانزُ المال البخيلُ المجتوى

(عن الترجمة الانجليزية) عبد اللطيف النشار

التهيج العصبى والهضم

يؤكد الأطباء وعلماء النفس وجود علاقة وثيقة بين الجهاز العصبي والجهاز الهضمي ، فكل الانفعالات النفسية العنيفة والأحاسيس القلقة كالغيرة والإجهاد والخوف الدائم تؤثر تأثيراً مباشراً على الجهاز الهضمى ، فيضطرب الهضم وربما توقف تماماً ، وبهذا تكون الانفعالات النفسية عاملا مباشراً فى هدم كيان الجسم الإنسانى

ومن الأمثلة الجلية على العلاقة بين الأعصاب وأجهزة الهضم كثرة أمراض المعدة والأمعاء وقروحهما والتهاباتهما عند سائقى السيارات الكبيرة والصغيرة الذين يختطفون وجباتهم اختطافاً فى حمى العمل وهم مجهدون ، فهذه الأكلات لا تهضم ، وإنما تبقى فى المعدة وتسبب متاعب لا نهاية لها .

ومن الناس من تجدهم دائماً وقد اصفرت وجوههم وعلاهم الهزال رغم كثرة ما يصيبون من طعام ، فإذا دققت الملاحظة وجدت أن معظم هذا الصنف من الناس يأكل طعامه خطفاً ، أو يزدرده دون مضغ كاف ، وتجده فى الغالب إنساناً عصبياً مهموماً يقاسى أزمات نفسية — خفيفة أو حادة — من حين لحين ، ومعظم الناس يظنون أن الحالة العصبية ناشئة عن حالة الهضم بينما العكس هو الصحيح .

ولهذا ينبغى أن تراعى تناول وجباتك وأنت مستريح النفس ، بل يحسن أن تؤجل الأكل أو تقلل منه إذا كنت مضطرب الأعصاب أو مهموماً لسبب ما ، ولا تأكل وعينك على الساعة لتقفز بعد آخر لقمة إلى الطريق ، فهذا طعام لا خير فيه ، بل منه الضرر كل الضرر .

ولتلاحظ ذلك مع أبنائك — إن كان لك — فلا تناقشهم أو تضربهم أو تؤنبهم على الطعام ، ولا تتشاجر مع أحد آخر أمامهم ، لأن هذا يثير أعصابهم ويفسد هضمهم ويعرضهم لأخطار جسيمة .

(عن The Psychologist. London.)

مقارنة بين أسلوبين

— ٢ —

للأستاذ أحمد أمين أسلوب عادى، شعبى قريب من حديث الناس ، لايتطرف ولا يشذ حتى لتشعر أن الأديب يتكلم ولا يكتب .

وهو يستعيض عن الصناعة البيانية وبأس المنطق ولباقة التهكم بأن يجمل لحديثه جو ألفة وعطف بينه وبين سامعيه ، وبأن يستعمل من المفردات ماله ذكريات سارة ، وبأن يثير بتداعى الأفكار خواطر تساعد على إضعاف مقاومة قارئه النقدية .

وفى العدد ٤٧ من مجلة الثقافة يكتب الأستاذ مقالا عنوانه « البركة » أظنه يحوى جل مميزات أسلوبه ؛ فروحه فكهة متواضعة ، وألفاظه مألوفة وجمله قريبة فى تركيبها من جمل لغة الحديث ، وأثره فى قارئه لايعتمد على بيان أو قوة منطق أو محسنات لفظية أو حيل خطابية ، والأخيرة لاينتفع بها إلا فى الخطابة ولا تستعار إلا فى الكتابة . والأستاذ بمقارنته بالدكتور طه بك حسين لايخطب ولا يكتب ولا يملى إرادته إملاءً دكتاتورياً ، فيهدد بالجهل من لم ير رأيه من القراء ، بل هو فيما يبديه يتحدث كرجل جالس بين رفاقه يسر إليهم خواطره ، مثلا :

« أما بعد فإنى أميل إلى الرأى الثانى ورزقى على الله »

أو « إن كان هـذا المقال سائراً على قوانين الفن مثيراً للنظر ناجح الأثر ففيه البركة ، وإلا فلا بركة فيه والعلم عند الله » .

والتعبيران « رزقى على الله » ثم « والعلم عند الله » من التعابير المألوفة لنفس المصرى ؛ فالأول يثير بتداعى الأفكار صورة رجل اختار خيرته فى أمر اعتماداً على طبيعة نفسه ، لا على تفكيره وقوة منطقه ، فهو من العامة لا من الخاصة ، إذ لا ينتظر من مستشار ملكى أو محام أو أستاذ فى جامعتنا (لا الجامعات الأخرى) أن يظن أو يفعل كذا ورزقه على الله !.

والتعبير لا يقترن فى الذهن برجل مثر ، بل برجل فقير كصاحب حرفة يشترى بطيخة لأولاده فى آخر النهار فيقول للبائع : « هاخد دى ورزقى على الله » أو بعامل طرده صاحب متجر فيخرج يتمتم لنفسه : « مرفوت مرفوت ! رزقى على الله » . فالتعبير فى استعماله العادى يثير فى القارىء عواطف الشفقة والعطف ، ومنه يستمد الأسلوب قوته ، فهو أسلوب أدبى لا مجرد كتابة .

والتعبير الثانى هو أيضاً من التعابير المألوفة للنفس ، إذ هو يثير فى الذهن ذكريات عصر كان التواضع فيه من خصائص العلماء، وكانت « والله أعلم » نهاية كل بحث .

والأستاذ أحمد بك أمين مهد لنفسه « والعلم عند الله » تمهيداً هو فى فنه نقيض فن الدكتور طه بك حسين ؛ فالأخير كما بينت فى المقال السابق أعطى رأيه فى فن الدعاية والإعلان وألزمه القارىء بقوله : إنه حق واضح وحديث معاد ، والأول يفسر رأيه فى معانى البركة ويرجع كل معنى فيها إلى قانون اقتصادى ، وينتهى إلى نتيجة فيقول :

(... حينئذ يكون معنى البركة التوفيق فى سير المرء أو المرأة أو الحكومة حسب قوانين الاقتصاد)

ثم هو يرجع على منطقه ونتيجته فيعارض رأيه متذكراً أن المسألة ليست بهذا القدر من البساطة والوضوح ، وأن فى الحياة أموراً معقدة خفية ، وأن القوانين الاقتصادية قد لا تؤدى إلى بركة أو يسر أو توفيق ، وأن هناك تضارباً بين الواقع والمنطق يستوجب التفكير .

واللغة الإنجليزية تختلف عن اللغة الفرنسية فى كثير من هذه المميزات التى يخالف فيها الكاتبان أحدهما الآخر ؛ ففى الفرنسية دقة ووضوح وصناعة يسهل معها على العالم بها ممن يستعملون عربية التعليم أن ينزلق أسلوبه من

هندسة وأوزان فنيين إلى مجرد صنعة . واصطناع الكتابة هو أكبر خطر تعرضت له اللغة العربيـة منذ أن خرجت من جزيرتها ، فلم ينجها منه حديثاً إلا الترجمة من اللغات الأوربية .

وفى الانكليزية كره للصنعة والتنميق واعتماد على الأثر النفسى أكثر من الأثر المنطق ، وعلى خلق جو من الألفة يتحدث فيه الكاتب إلى سامعه ويحاول أن تنسجم عواطفهما ليكون الإقناع من طريق هذا الانسجام . فالكاتب تشارلز لام مثلا ، وهو أقرب أدباء الإنكليز شبها بالأستاذ أحمد بك أمين ، تحاشى الترتيب والنطق والتقسيم ، وهو أيضاً استعمل أسلوباً غير فردى قريب من الوسط اللغوى ، وتجول فى مقالاته تحت تأثير تداعى الأفكار من نقطة إلى نقطة بغير نظام يستطيع الناقد ضبطه وتفسيره .

وهذا النوع من الأسلوب له مزايا تلطف حتى يظن غير الخبير أنه مجرد كتابة لا أسلوب لها ؛ والسبب فى ذلك هو أنه أسلوب يعتمد على شعوره وما يثيره من ذكريات ليؤدى للقارىء من المعانى ما لا تؤديه الألفاظ ، ويعتمد على الاقتصاد فى اللفظ .

وخطر هذا الأسلوب هو أن ينزلق المقال فيه لقربه من حديث الناس إلى نوع من مواضيع إنشاء طلبة المدارس . هذا هو السبب فى أن أصحابه يتحاشون الترتيب والتقسيم والتدرج المنطق ، حتى لا يثيروا فى الذهن فكرة « نمط الموضوع » .

* * *

وبعد فللأدب فى أى لغـة حية موردان يستق منهما لغته : أولهما رئيسى ، وهو لغة الناس عالمهم وأديبهم ، تاجرهم وصانعهم . ومن هذا المورد يختار الأديب من الصياغة وتركيب الجمل والمفردات الخ ما يلزمه به فنه ، فإذا تحدث كان حديثه فى أغلبيته كحديث الطبقة المهذبة فى بيئته ، وإذا تحدث من لسان عامل كان حديثه فى أغلبيته كحديث العمال وهكذا . والسبب فى ذلك هو أن الأدب يستمد روحه ومادته من هذا المورد الرئيسى .

والمورد الثانى هو تراث اللغة الأدبى[1] من شعر ونثر ، ومن هذا يستمد الأدب قوالبه (forms) كالحدوته والمقامة والرباعية ، وتقاليده كأوزان الشعر والبحور ، وكالمفردات الدالة على معان لا ترد عادة فى الحديث أو التى بليت أو دنست مرادفاتها بالاستعمال[2] ، وكطرق التعبير التى دل تاريخ الأدب على أنها أدق وأوفى بغرض الأديب .

ولأثر التراث الأدبى على أدب أى جيل معاصر نتائج واضحة ثابتة بالمشاهدة ، فقد يزيد فيدل على ضياع الشخصية وانعدام النبوغ وفقر الإنتاج ، وقد يقل فيدل على قيام نهضة جديدة وعلى التجديد والخلق .

ولكنه مهما قل فإنه لا ينعدم إلى درجـة أن تنقطع صلة الماضى بالحاضر ، ومهما زاد فإنه لا يطغى حتى يصبح المورد الرئيسى لأدب حى فى لغة حية .

وفى الرجوع إلى التراث الأدبى لا يكون النقل والمحاكاة والأخذ بالقوالب حيثما اتفق ، ولا يكون اتصال الماضى بالحاضر إلا تدرجا ، فليس هناك مثلا من شبه كبير فى القوالب والتقاليد والمفردات والتراكيب بين أدب القرن الرابع عشر الفرنسى وبين أدب القرن العشرين ، ولكن أدب القرن التاسع عشر له اتصال وثيق بأدب القرن العشرين ، وأدب القرن الرابع عشر له اتصال بأدب القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، وهكذا . هذه هى الحال فى أدب الغرب . أما فى الأدب العربى المعاصر فقد جمع الأدباء فى التقاليد والتراكيب والمفردات والأساليب بين الأندلس وبادية الجزيرة العربية ، وبين القرن السادس والقرن العشرين ! ! ترى هل يعرف أحد أديباً معاصراً

(١) وتراث اللغات الأخرى طبعاً ، ولكن هذا ليس مجال بحث

(٢) مثل كلة « النهى » فى العبارة الأكيدية « والنهى صحيح الكلام ده ! » فعى كلة أبلاها الاستعمال ثم كلة « مره » فعى كلة دنسها الاستعمال . قارن بين « مره عاقلة » و « امرأة عاقلة » .

غربيا يلتبس أسلوبه بأسلوب كاتب سبقه بثلاثة قرون ؟ ومع ذلك فبيننا من تلتبس أساليبهم بأساليب أدباء سبقوهم بثلاثة عشر قرناً !

إن حديثي هذا عن الأدب العربي ليس بتشريح نافذ ولا بحديث فيما يجب أن يكون ، فقد ترك نقد القرن العشرين التشريح والكلام فيما يجب وما لا يجب لمعلمي المدارس وفقهاء الأكاديميات ، وتعلم النقاد التواضع فدرسوا ما خلا من الأدب كحقيقة علمية بدل أن يشرعوا للأدباء ، واستخلصوا من دراستهم صفات الأدب وحقائقه ، فدونوها ليهتدوا بها إلى التمييز بين الغث والسمين .

* * *

لأسلوب الأستاذ أحمد بك أمين إذاً قيمة خاصة في مصرنا الحاضر حيث لا يزال بيننا رأي سائد يقول بإمكان إحياء اللغة العربية القديمة ونشرها من قبرها لتصبح لغة أدب ، فقد قل من أدباء القال بيننا من مصّر عربيته كما مصّرها الأستاذ ، وقل بينهم من لا تلهيه الزركشة الأدبية عن المعاني وتأديتها بغير إسراف لفظي ، ومن يستخدم قوة الإيحاء الكامنة في اللغة .

ولقد تمكن الأستاذ لقرب أسلوبه من الوسط اللغوي أن يصف من حوله من الناس والأشياء أحياناً ، وأن يتحدث من قراءاته أو يعبر عن أفكاره في مرونة لا يفقد أسلوبه معها خصائصه ؛ فإذا تحدث عن بيئته اقتبس من لغة الحديث بقدر ما سمح لنفسه أن يعارض آراء المحافظين بيننا ، وإذا تحدث من قراءاته رجع إلى عربية سلسة مألوفة يستمد منها ذلك الوقار الذي لا يجده كتابنا في لغة الحديث ، والذي هو في رأيي أحد أسباب انصرافهم عنها ، والذي يسهل جداً أن يسبغوه عليها لو أنهم استعملوها .

أما إحياء العربية التي يسميها البعض « فصحى » والتي يُرجح جداً أنها اليوم أقل اللهجات العربية فصاحة وأقصرها عن التعبير عن حياتنا الحديثة ، فهذه تجربة حاولناها في مصر خلال نصف القرن الأخير فما منعت عالماً أو أديباً من أن يقول « مقبش » أو « منين » (بدل من أين) مهما كان تعليمه أزهرياً ومهما كان إيمانه بما تعلم ، فكل ما يحدث فيه التجربة هو أنها زادت من تناقضنا مع أنفسنا ، فذهب الرجل منا ينهى عن شيء ، ويأتي الفرصة ويفعل ما ينهى عنه داخل البيت .

فما بلغتنا من حياة سوف يبقى دائماً بقدر كونها مصرية متداولة ، لأن اللغة لا ترث الحياة عن لغة سابقتها ولا تستمدها من قواميس ، فكما أننا لا نرث روحنا عن أجدادنا ولا ننميها في أجسادهم ، كذلك لا ترث اللغة روحها من أجيال مضت وماتت ، ولا تنمو فيما تحدثوا به ، بل هي تحيي على أفواه الناس ، وبذلك تحيي في أدبهم ، سواء أتت بها المعاجم أو لم تأت .

أما ذلك الخوف الطفولي على القرآن الكريم ولغته فقد آن الأوان أن يعلم رجال الدين منا أنه لو فرض وزالت مصر من الوجود ، بل وزال العالم العربي بأسره ، بل وخمس قارات هذه الأرض ، لبقي القرآن مع من تبقى عليها ، كتاباً يقرأ ويفهم لمن شاء أن يقرأه .

مصطفى مشرفة

عيون الحيوانات

أوسع الحيوانات عيوناً هو الحوت ، فإن الساع عيون بعض أصنافه يزيد على حجم البرتقالة الكبيرة ، وأوسع الحيوانات الأرضية عيوناً هي الخيل ويليها النعام .

وبمناسبة عين الحوت نذكر أن بصره رغم اتساع عينه ضعيف جداً ، بل هو أضعف ناحية فيه ، فهو لا يرى مسافات بعيدة ، وهذا مما يسهل صيده .

وللحوت نقطة ضعف أخرى تقابل قوة مقاومته ، هي ضيق بلعومه ، فهو لا يزيد اتساعاً على تسع بوصات ، ولهذا يقضي المسكين طول يومه في ازدراد ما يقع في فمه من صغار السمك ليغذي جسمه الضخم .

وهنا نتساءل : كيف استطاع الحوت أن يبتلع النبي يونان ؟ .

من Better Vision Institute News Bulletin

فى طريق «مالابار»

اخترقنا لدى عودتنا من « مدراس » إقليم « سالم » الخصب ، حيث اشتهرت النساء بجمالهن . وهن فى الحقيقة فاتنات ، وتزيد ملابسهن البراقة ذات الألوان الصارخة فى فتنتهن . ثم رأينا بعد ذلك سلسلة « الجبال الزرقاء » الجميلة تظهر فى الأفق من جديد . وقد طربنا كثيراً لرؤيتها مرة ثانية فى ذلك الصباح المشرق الجميل من أيام شهر أغسطس . وشاهدنا قممها العالية وهى متشحة بردائها الأبدى من الأبخرة الزرقاء .

وقبل أن نبدأ تسنمها ، ذهب خادمنا « رضوان » ليحضر لنا من قرية « ميتو بالام » الرائعة ، التى ترتكز على سفح الجبل ، طعاماً شهيا التهمناه تحت ظلال قبة من سعف النخيل . كم كان هناك من التوابل فى ذلك « الكارى » المكون من الأرز والبطاطس والقنبيط والرثيئة (١) ، والذى قدم لنا على صحاف من أوراق شجر الموز الكبيرة . إننا لم نذق أشهى من هذا « الكارى » الهندى قبل الآن .

وفى ذلك الصباح وفى ساعة مبكرة بعد وقفة قصيرة وأخيرة فى « أوتاكاموند » بدأنا سيرنا من جديد خلال ساعات وساعات كانت تلوح قصيرة رغم وعثاء السفر والغبار ؛ فلقد كانت هناك أشياء كثيرة تستحق المشاهدة وتبقى ذكراها طويلا ! هناك المقابر الملكية قبل المدينة إلى اليسار ، وهى مشيدة تحت أغصان النخيل على شكل هياكل الهند والصين « الباجود » ، وفيها تثوى رفات مهراجات « ميسور » ... ها هى ذى طرق المدينة وهى واسعة وقد غرست الأشجار على جانبيها ، وها هو ذا قصر المهراجا ، والميدان الرئيسى ... الساعة الآن الثانية بعد الظهر ولا يوجد غير قليل من الناس فهذه فترة القائلة . وها نحن فى الحدائق الغناء اليانعة الشاسعة ، حيث تكون الورود الحمراء وزهور عباد الشمس تحت غطاء من أغصان النخيل عالماً عجيباً يبهر ويسحر . وفى ظلال شجر الأرز المهيب ، تصدر من الأغصان أصوات وأنغام كما لو كانت الريح الدافئة تعزف فيها على أرغن تختلط ألحانه بنعيق الغربان . ها نحن نتناول غداء سريعا ، إذ يجب الرحيل بسرعة ، والغداء يتكون من قليل من البسكوت والخبز والجبن والموز والأناناس . وترسم مئات من الغربان حولنا نقوشاً كنقوش الفن العربى (الأرابسك) ... إنها جائعة تلك الغربان المسكينة . آه ! ها هو ذا أحدها يهبط علينا بجرأة كما يهبط طيار بطائرته فى خط عمودى ، ويقبض بمنقاره الأصفر على قطعة من الخبز عليها زبدة ويختطفها من يد أحد الرفاق بسرعة مفاجئة وبنهم وشره ... لكم يتخذ لنفسه من الحرية بدون مراعاة لآداب المائدة أو قواعد السلوك . لقد كان يستطيع أيضاً أن يختطف إصبعه مع قطعة الخبز . ولكن ليس الأمر بذى بال ! إننا نغفر له فهو غراب .. من الهند . ومع ذلك فهو يغالى .. ها هوذا يعود مرة أخرى ... إنه يحوم ويدور بنا ينعق نعيقاً ملحاً كأنه يطلب ملحاً ... إنه كالإنسان الذى يمتلك ويريد أن يمتلك أكثر . . . وإنه يذكرنى بالقصة الجميلة التى ألقيت على مسامعى فى أحد الأيام فى « الجبال الزرقاء » :

« كان أحد النساك يعيش وحيداً فى مغارة ، وكان يغسل كل يوم إزاره الذى لم يكن يمتلك غيره . ولكن وا أسفاه ! كانت الفئران تقرض كل يوم قطعة من الرداء المسكين عند ما كان يبسطه على العشب ليجف فى الشمس ، وأخيراً فكر الناسك : « ينبغى أن يكون لدى قط » . وفى اليوم التالى كان لديه القط .

وبعد بضعة أيام بان على القط الهزال لعدم وجود لبن ، فقال الرجل الزاهد لنفسه : « ينبغى أن يكون لدى عنز »

(١) الرثيئة : اللبن الرائب ، اللبن الخاثر .

وقد وجد من أهل الكرم من أعطاه إياها .

ثم حدث أن المعز وصغارها والقط صرفت الناسك من صلاته وتأملاته . وعند ذلك قال لنفسه وكأنه ألهم هذه الفكرة الناجعة الثاقبة : « ينبغى أن يكون لى امرأة » فتزوج ، ولكن لبن المعز لا يكفى اثنين ومعهم قط . فابتاع الزوجان بقرة مما تجمع لديهما من الصدقات . واحتاج الأمر إلى حظيرة وإلى كوخ بدلاً من المغارة . ثم وجد الناسك نفسه بعد ذلك مرغماً على تأجير حقل لكى يطعم البقرة والقط والزوجة .

وبعد بضع سنين أصبح رجلنا أوسع رجال القرية ثراء . وهكذا تسير الحياة فى هذا العالم العجيب ! » .

لم تمكننا هذه الخطرات من أن نودع « ميسور » وحدائقها و « شاموندى » القائمة هناك فوق التل .

وعاودنا السير من جديد ، وها نحن نمر بسيرانجا باتام ، ويقوم هناك معبد جميل وهو مكان مشهور يقصده الحجاج وتظله أشجار التين . وها نحن نرى عند الخروج من القرية قلعة السلطان تيبو القديمة . وقد استردت الطبيعة فى هذه النواحى حقوقها الشرعيـة بعد معارك الأمس التى دارت بين الفرنسيين والانجليز . عاد إلى النبات ازدهاره وإلى النهر قداسته . ولا يزال نهر الكوفيرى الذى سيفيض قريباً حينما تسقط الأمطار الموسمية ، يلطف جو الناحية .

وزرنا فى طريقنا القصر الفخم الذى كان فيما مضى أحب أماكن الخلوة للسلطان تيبو . وإن النفس لتمتلىء بالإعجاب حين يشاهد الإنسان داخله وما يحليه من رسوم ونقوش دقيقة تذكرنا بقصور أصفهان . وفى الحديقة الجميلة ذات المياه الراقدة يقوم الضريح الذى دفن فيه السلطان ... ولكن يجب أن نغادر هذا المكان الذى يشيع الصمت فى جنباته ، حيث الطيور تغرد وحدها فى عزلتها الموفقة .

ووصلنا إلى مفرق الطرق فتركنا الى يميننا الطريق الذى يؤدى إلى براندافان التى تسمى « فرساى » ميسور ، حيث قضينا ليلة جميلة منذ شهرين بالقرب من بحيرة من أكبر بحيرات الهند الصناعية تمد الناحية بمياهها . وقد وفق المهندسون الذين أقاموا هذه المنشآت الجبارة بين المفيد والبهيج . فهناك حيث كانت تمتد فى الماضى سهول مجدبة ، توجد الآن إلى جانب المزارع التى تزيد ثروة الاقليم بمحاصيلها ، حدائق شاسعة ومنحدرات مائية ونافورات جميلة تضاء فى الليل بأنوار كهربائية ، مما يخلع على المكان حلة من السحر والفخامة ... ليس من شك فى أن دولة ميسور عظيمة من كل النواحى . ولقد صدق ميشو المؤرخ الفرنسى إذ قال فى عام ١٨٠٠ : « إن سهول ميسور أجمل مقام على ظهر الأرض يمكن أن تمنحه الطبيعة للانسان » .

ها هى سيارتنا تطوى الآن طريقاً تقوم على جانبيه غابات ممتدة لا سبيل إلى النفاذ إليها ، وهى مأوى للفيلة البرية والنمور . وها نحن نزيد من سرعتنا لكى لا يفاجئنا الليل فى هذه الغابة المخيفة التى تفيض مع ذلك جمالا . وها نحن نتغلب على هاتف الإغراء الذى يدعونا إلى التوقف مرة أخرى . وهاهو « ك » ينظر فى ساعته بقلق . الساعة الآن الخامسة بعد الظهر وفى السابعة يسود الظلام فى هذه النواحى . ولا يزال شاطىء مالابار بعيداً ، بعيداً جدا . وكان علينا أن نخترق سلسلة من الجبال تمتد سلطان الغابة عليها . ولكن ما أهمية ذلك إذا كانت النفس والعين تمتلئان بروعة هذه المشاهد ! إن هذا يعوض ذلك .

... ... الساعة السادسة والطريق ينحدر فى خطوط ملتوية ، وتلك هى اللحظة التى ينبعث فيها السحر . وتبدو التلال فى غمرة ضياء الغروب فيها كما لو كانت النار قد شبت بها ، إذ تبدو الغابة فى لون أحمر ثم فى لون البنفسج ، وقد أنسانا هذا المشهد جوعنا ...

ثم حل الليل ولا زال الطريق ينحدر فى عقد ملتوية متجهاً نحو المحيط الهندى . وها نحن نغفو من أثر التعب

الذى أنهك أجسامنا . وها أنا أنظر فى ساعتى . لقد انتصف الليل ، ولقد مرت ثلاث ساعات . أين نحن ؟ .

لقد جمدت أطرافنا وتخدرت حينما نزلنا من السيارة ... الغابة تحيط بنا ... الغابة الكثيفة . إن « ك » يستشعر السعادة ، فقد التقى بها ثانية ... غابته التى يحبها كثيراً ! لا يوجد سوى بضعة بيوت خشبية متناثرة وقنطرة صغيرة ومجرى مائى ، والطريق الذى يمتد كشريط أبيض ينساب نحو البحر النائى ؛ كان منظراً طبيعياً جميلا يخلع عليه نور البدر سحرا ... ولقمر الهند روعة وجمال يجلان عن الوصف . أى دعة ونعومة فى هذا الهواء النقى ! وأكثر من ذلك ... الصوت ... صوت الغابة ! حياة الغابة ! إن هذا لشىء عجيب ! نقيق الضفادع الذى يختلط بصياح طيور الليل ، وصفير الجراد المستمر ، وحركة الهوام التى لا يحصى عددها ، ودواب الظلام التى تزحف فى الآجام فتطقطق من تحتها الأغصان الميتة ، وزفير ابن آوى وصراخ الفيل المتوحش ، وريح الليل التى تشق طريقها بجهد خلال أغصان الأشجار المتشابكة ، وأخيراً رقصة الجعلان الذهبية المضيئة ، كأنها عدد لا يحصى من شرر متوهج ينبعث من لهب خفى . وكانت تتصاعد من الأرض الناعمة ، رائحة الياسمين البرى الذى اختلط بعفونة التربة على مدى الدهور . إن ليالى الغابة لمثيرة حقاً ! .

وها نحن نعاود الرحيل . ولسوف نحتفظ دائماً بذكرى هذه الوقفة التى أرغمنا عليها ، وسيعاودنا الحنين إليها . . .

. . . الساعة الآن الثانية صباحاً ، والهواء أكثر برودة ، وقد أصبح شاطئ ملابار قريبا . وها هى ذى بيوت تليشيرى المتقدمة يغمرها ضوء القمر ، ونحن نمر سراعاً بأشجار جوز الهند . وها هى شوارع المدينة حيث لا يزال بعض الهنود يتسامرون .... وهـذا الصوت الأصم ! إنه صوت أمواج بحر أومان .

وها نحن نمر بشارع جديد . ونرى بيوتاً بيضاء اللون قائمة تحت أشجار جوز الهند . وأخيراً وقفت السيارة . ها هو « البنجالو » مسكن صديقنا « ك » ... نحن الآن « فى دارنا » وقدم الخدم الذين طال انتظارهم لنا ، وقد أثقل النعاس جفونهم . وطفقنا نزور المسكن الواسع اللطيف . ثم ذهبنا إلى غرفة الاستحمام لنأخذ « دوشاً » ، وبعد ذلك إلى غرفة المائدة حيث يوجد شيئان لا يقدران بثمن ! طاه يضع على رأسه عمامة جليلة و .... طبق الأرز على المائدة ... الأرز العجيب الذى طال انتظاره !

(عن مجلة فرانس أوريان)

عبد القادر السماحى

المأساة فى القرآن

وددت لو أن أحداً من فلاسفة اليونان كأرسطو وأفلاطون وغيرهما أدرك القصص فى القرآن وأعمل فيه عقله وذوقه كما أعمل هؤلاء الفلاسفة عقولهم وأذواقهم فى الآداب اليونانية القديمة ، وكان من نتيجة ذلك كله أن خلفوا للناس طائفة من الآراء القيمة فى النقد الأدبى لا يزال العالم ينتفع بها إلى اليوم

أجل ظهرت المآسى فى الأدب اليونانى القديم ونظر فيها أرسطو وأفلاطون ، وتناولاها كما يقول الناس بحثاً ودرساً وتنظيما وتوضيحا ، ولكنهما اختلفا بعد فى هدف المأساة Tragidy ، فرأى أرسطو أن المأساة بما اشتملت عليه من عنصرى الخوف والرحمة تحدث فى نفس السامع أو القارىء تطهيراً أو تنفيساً لهذه العواطف ، فقد تزيد هذه العواطف نفسها أو تنقص فى الإنسان عن القدر المعتاد ، وزيادتها أو نقصانها يعتبر مرضاً فى تكوينه يجب علاجه ، فالمريض بهاتين العاطفتين لا بد له من تلقيح بنفس هاتين العاطفتين ، وذلك بما يشبه فى الطب الحديث طريقة التطعيم بحقن الجدرى لمرضى الجدرى أو حقن التيفود لمرضى التيفود .

هذا ما قاله أرسطو وهذا ما عناه . فلما نظر أفلاطون فى قوله عارض فيه وأنكر أن يكون هذا هو الغرض من المأساة ، وتولى الرد على أرسطو ، فتساءل أولا :

كيف يستثير البطل فى المأساة مشاعر الناس ؟ أليس يفعل ذلك بأن يندب حظه المنكود ويشكو ما ألم به من أهوال وخطوب ؟ أليس تزداد إعجابنا نحن بالبطل بازدياد قدرته على إشعارنا بأحزانه وآلامه وإشراكنا معه فى هذه الأحزان والآلام ؟ ولكن أيهما أولى فى الحقيقة بالإعجاب والإكبار ؟ أهو الرجل الذى لا يخجل من أن يسرف فى ندب حظه أو فى أن يحمل أصحابه وجيرانه كل همه وحزنه ؟ أم هو الرجل الذى يصمد للأحداث صمود الجبل ، أو الرجل الذى يثبت للكوارث ثبوت الطود ، فلا يشكو ولا يتذمر ، ولا يجزع ولا يتزعزع ، ولا يبدو عليه وهن أو ينطق عنه خور ؟ لا شك أن الناس يعجبون بالأخير ، ويمنحونه كل ما عندهم من حب وتقدير ، ولكنهم يقفون عند حد الإشفاق فقط على الأول ، ذلك أنه ليس من الصواب أن نمنح إعجابنا بطلاً ما لأنه إنما يأتى أفعالا نحتقرها نحن فى حياتنا العامة أو الخاصة . . .

ومضى أفلاطون فى حديثه هذا فقال : ولا ينبغى أن ننسى أنه متى سمحنا لأنفسنا بأن نأسى ونحزن بالطريقة المصيبة التى يأسى بها البطل فى المأساة ويحزن فإن الحزن نفسه يصبح أمراً سهلا علينا ، وبذلك تضعف كل مقاومة فى نفوسنا ، ويصعب علينا ضبط أعصابنا ، ونصبح عاجزين عن تحمل آلامنا الشخصية ، وأى خسران هذا الذى نجنيه من المآسى على هذا النحو ؟ .

ذكرت هذه المقدمة بين يدى الموضوع الذى أعرضه عليك الآن لتشاركنى تقدير المزايا التى يتمتع بها القصص فى القرآن ، وعلى ضوء هذه المناقشة حول وظيفة المأساة يصح أن ننظر معى فى أبطال المآسى القرآنية بالقياس إلى أبطال المآسى اليونانية . والقياس هنا مع الفارق العظيم كما يقول المناطقة ؛ فأبطال القرآن كلهم أو أكثرهم من الأنبياء والرسل ، وأبطال المآسى اليونانية ليسوا من الأنبياء أو الرسل ، وأبطال القرآن إنما هم أبطال قصص واقعية يصلنا كتاب الله تعالى بها ، وأبطال المآسى اليونانية رجال مسرحيات خلقهم الخيال اليونانى خلقاً فليس لهم وجود فعلى .

والقرآن الكريم هو الكتاب الذى أدب الله به محمداً وأتباع محمد ، وهو الجامعة الكبرى التى تخرج فيها محمد وأصحاب محمد ، وقد سلك القرآن فيما سلك طريقة القصص التى نجحت نجاحاً باهراً فى تكوين المثل الأعلى للخلق ، غير أنه كما كان أسلوب القرآن فريداً فى بابه بحيث لم نجد أسلوبا يشبهه بوجه ما ، فكذلك كان القصص

القرآنى وحيداً فى نمطه ومنهـاجه بحيث لم نجد نموذجاً يقاربه على هذا الوجه ، أجل فلقد بحث النقاد فى أسلوب القرآن فقالوا إنه ليس شـعراً وليس نثراً ولـكنه قرآن ، وننظر نحن فى القصص القرآنى فلا نرى أنه أقصوصة conte ولا قصة novelle ولا رواية Roman . ولـكنه قصص قرآنى .

ولقد أتى القرآن على ذكر الرسل والأنبياء وحكى تاريخ الجهاد الذى بذله كل واحد من هؤلاء ، وهؤلاء ، فجاءت حكاية كل نبى منهم مأساة فى ذاتها تستخرج العبر من قرائها وتثأر النفوس بسماعها ، ويترك هذا كله أعظم الأثر فى أخلاق السامعين ونفوسهم فيطبعها على غرار خاص ، ويجعل لهذه النفوس العظيمة أخـلاقاً من طراز خاص . وليس هـدف من أهـداف القصص الأدبى هو أسمى من هذا الهدف . . .

ولنـا بعدُ أن نستعرض طرفاً من القصص القرآنى فستجد أنه حرص كل الحرص على أن يظهر البطل فى كل قصة من هذه القصص بمظهر الرجل الذى يصبر على المطلوب ، لا يستطيع خطب منها أن ينـال من عزمه أو يوهى ما اشتد من قوته أو يضعف شيئاً من إيمانه وعقيدته .

فى قصة الشيخ يرى ابراهيم فى منامه كأنه يذبح ولده ، وإذا رأى النبى شيئاً فى النوم وجب عليه القيام به فى اليقظة ، وإذا هذا الشيخ الهرم الذى كان طول حياته يأمل فى الولد حتى إذا بلغ من الـكبر عتيا رزقه الله بولد سماه إسماعيل ، ثم يرى فى المنام أنه يذبح هذا الغلام الوحيد . يا للهول . . ! ويا للمصيبة . . ! ويا للأمر الذى صـدر من الله تعالى . . ! ولـكن هنا يكون الصبر . . . فليصدع إبراهيم بما يؤمر ، وليتقدم بخطى ثابتة إلى ولده وليصارحه بأمر ربه ، وليقل له والدمعة تترقرق فى عينه : « يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى؟» . وليبادر الفتى بقوله : « يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين» . . ولا أريد أن أمضى فى هذه المأساة المؤلمة إلى نهايتها ، لأنى أريد أن أنتقل إلى مأساة أخرى من مآسى الرسل ، ومنها مأساة يوسف ويعقوب ، وقد حرص القصص القرآنى على أن يظهر لنا هذا الأخير بمظهر الرجل عظيم الجلد شديد الإيمان بربه ، والثقة بنصره ، مهما أظلمت حوله الـكرب ، ومتى حلّ إيمان كهذا فى قلب رجل فإنه يعينه على تحمل الشدائد كلها مهما كان نوعها ، وبذكر الله تعالى فى أحرج المواقف وأظلمها . وهكذا فعل يعقوب حين كذب عليه بنوه وقالوا له إن يوسف أكله الذئب ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ، ثم هكذا فعل يعقوب إذ دخل عليـه أولاده مرة أخرى وقد فقدوا أخاهم الآخر حين أمرهم يوسف بتركه إلى أن يرجعوا عليه بأخيهم الحرم . وكظم يعقوب فى جميع هذه المصائب غيظه ولم ييئس ربه ، وإن كان الحزن برّح بقلبه وذهب ببصره ، ولم يزد على أن قال : « إنما أشكو بثّى وحزنى إلى الله » .

ويطول بنا القول لو أخذنا نستعرض أنماطاً من هذا القصص القرآنى . وفيها يظهر الأنبياء بمظهر الأبطال فى ميدان الإيمـان وقوة الأخـلاق . وللقائل أن يقول : لا بد أن يكون الفرق عظيما بين الأنبياء ومن دونهم من الناس . ولـكننا لا ننظر إلى الأنبياء فى المـأساة القرآنية إلا على أنهم جزء من الحياة ، ولا ينبغى أن ننظر هنا إلى أن البطل ملك أو نبى أو قائد حربى ، بل ينبغى أن نصرف النظر عن نوع البطل كائناً من كان ، وأن نـكتفى بالنظر إلى خلق هذا البطل ، وهو ما حاولت المقارنة على أساسه بين المأساة فى القرآن والمأساة فى الآداب العالية فيما عدا القرآن .

أجل — وددت لو أن أرسطو أو أفلاطون أو غيرهما من فلاسفة اليونان قد أدركوا القرآن ونفذوا بأعينهم إلى أعماقه وأغواره ، وأعملوا عقولهم فى أساليبه وأهدافه ، وإذاً لـكانت لهم فى النقد الأدبى عامة وفى المأساة خاصـة آراء ربما خالفت ما وصلوا إليه إذ ذاك .

عبد اللطيف حمزة

خطابات إلى شاعر ناشيء

كتبها الشاعر الألماني رلكه

(١٨٧٥ — ١٩٢٦)

ترجمها الدكتور أبو ريدة

— ٩ —

فوروبورج ، يونسيرد ، السويد
٤ نوفمبر ١٩٠٤

ياعزيزي هر كبس !

في هذه الفترة التي انقضت دون أن أكتب إليك فيها كنت أحيانا على سفر وأحيانا مشغولا ، فلم أستطع الكتابة ، ولا أزال إلى اليوم أجد الكتابة شاقة ، لأني كان لابد أن أكتب خطابات كثيرة حتى تعبت يدي ، ولو أني كنت أستطيع الإملاء لقلت لك الكثير ؛ فاتقبل هذه الكلمات القليلة رداً على خطابك الطويل .

إني أفكر فيك كثيراً ، ياعزيزي هر كبس ، وأتمنى لك من الأماني العميقة ما كان يجب أن يعينك على نحو ما معونة حقيقية . أما أن خطاباتي يمكن أن تساعدك حقاً ، فهذا ما أشك فيه غالباً ؛ فلا تقل إنها تساعدك ، بل خذها في سكون وبدون شكر كثير ، ودعنا ننتظر ما سيأتي . ربما لا تكون هناك جدوى في مناقشة عباراتك واحدة واحدة ، لأن ما أستطيع أن أقوله لك فيما يتعلق بميلك إلى الشك أو بعجزك من التوفيق بين ظاهر حياتك وباطنها أو بكل ما يضيق له صدرك فهو دائماً عين ما قلته لك من قبل ، وهو أني أحب لك أن تجد في نفسك من الصبر ما يكفي لكي تحتمل ، ومن السذاجة ما يكفي لكي تؤمن ؛ يجب عليك أن تزداد دائماً ثقة بما هو شاق وثقة بوحدتك بين أقرانك ؛ وفيما عدا ذلك فلتدع الحياة تجرى مجراها ، وصدقني أن الحياة على حق في جميع الأحوال .

أما من إحساساتك فالحق الطاهر منها هو الذي يشمل كل ناحية من كيانك ويسمو بك ، وضده هو الذي لا يشمل إلا ناحية واحدة من ذاتك فيضيق عليك الخناق . وإن كل ما تذكره فيما يتعلق بطفولتك فهو خير ، وكل ما يجعل منك شخصاً خيراً مما كنت من قبل في أحسن ساعاتك فهو خير أيضاً ، إن كل محاولة منك للسمو بنفسك تكون خيراً إذا كانت في كل قطرة من دمك ، إذا لم تكن مجرد نشوة خادعة ولا اضطرابا ، بل إذا كانت غبطة واضحة ترى كل ما فيها إلى الأعماق ، فهل تفهم ما أعني ؟

أما الشك فقد يكون صفة حسنة لو أنك هذبته ؛ إن الشك يجب أن يكون شكا مستنيراً عارفاً ، هو يجب أن يكون نقداً وتمحيصاً ، واسأله كلما أراد أن يفسد عليك شيئاً : لماذا هذا الشر ، وطالبه بالبرهان وامتحنه ، فربما وجدته حائراً لا حجة بيده ولا رأيا صائباً . وربما وجدت أنه غاضب عنيف في اشتهائه ، فلا تطعمه ، ولا تسلم نفسك له ، بل طالبه بالأدلة ، وكن على هذا النحو متنبها مستقيم المنطق دائماً ؛ وسيأتي اليوم الذي يصير الشك فيه ، بعد أن كان عاملا مخربا ، من أحسن معاونيك ، بل ربما كان أمهر عامل تبني به حياتك .

هذا كل ما أستطيع اليوم ، ياعزيزي هر كبس ، أن أقوله لك ، وأرسل لك مع هذا مستخرجا منفرداً من قصيدة صغيرة ظهرت الآن في مجلة « العمل الألماني » (Deutsche Arbeit) بمدينة براج . في هذه القصيدة أواصل حديثي معك عن الحياة والموت وعن أن كلا منهما عظيم وجليل .

رينر ماريا رلكه

— ١٠ —

باريس في اليوم الثاني من أيام عيد الميلاد
سنة ١٩٠٨

لابد أن تعلم ، ياعزيزي هر كبس ، كم أسعدني أن

أتلق منك هذا الخطاب الجميل ، فان الأنباء التى تذكرها بما أراه فيها من أنك قد انتهيت إلى واقع تعبّر عنه بوضوح هى أنباء طيبة كما يظهر لى ، وكلما فكرت فى ذلك شعرت أنها طيبة حقاً . وقد كنت أحب فى الواقع أن أكتب إليك هذا الخطاب ليلة عيد الميلاد ، ولكنى قضيت هذا الشتاء كله فى عمل لا ينقطع ، ثم جاء العيد القديم مسرعا . حتى لم يكن لدى من الوقت ما يكفى للقيام باعداد ألزم الضروريات فضلا عن الكتابة .

ولكنى فكرت فيك كثيراً فى هذه الأيام ، أيام العيد ، وصورت لنفسى كيف أنك لا بد أن تكون هادئاً فى حصنك المنعزل بين تلك الجبال الخالية التى تهجم عليها رياح الجنوب الشديدة كأنها تريد أن تبتلعها قطعاً كبيرة .

إن السكون الذى يتسع لهذه الرياح بما تحدثه من ضوضاء وحفيف لابد أن يكون كبيرا ؛ وإذا صوّر الإنسان لنفسه إلى جانب هذا كله قربَ البحر يضم إلى ذلك صوته الذى ربما كان أعمق نغمة فى هذا الانسجام الذى لا تبلغه ذاكرة التاريخ ، فإنه لا يستطيع إلا أن يتمنى لك أن تترك صابراً واثقاً هذه الوحدةَ العظيمة تعمل عملها فيك ، هذه الوحدة التى لا يمكن أن تخرجها من حياتك والتى ستظل عاملاً مستترا يؤثر فى كل ما تحس به وما تفعله أو يقع لك تأثيراً حاسماً هادئاً ، كدم الآباء الذى يجرى فينا دائماً وينضم إلى طبيعتنا الخاصة فيتحد معها ويؤلف ذلك الشيء الفريد الذى لا يتكرر والذى هو نحن فى كل نقطة حاسمة من حياتنا .

نعم إنه ليسرنى أنك تحيا هذه الحياة المستقرة الواضحة ، وأن لك هذه الرتبة وهذه الخدمة العسكرية ، أن لك كل هذه الأشياء المحسوسة المحدودة التى تبدو ، فى مثل تلك الجهة التى أنت فيها مع فئة منعزلة من الجنود ، فى صورة جادة ومُلزمة . هذا سيمكنك من أشياء وراء ما يُلعب به ويُتسلى لقضاء الوقت فى المهنة الحربية ، وهو يقتضى منك أن تستعمل وقتك استعمال التيقظ ، هو لا يتطلب من الإنسان انتباهاً واستقلالا فحسب ، بل هو يربيه أيضاً ، ومن النافع أن نكون فى ظروف تعمل عملها فينا وتضعنا بين حين وآخر أمام الأشياء الطبيعية الكبيرة .

والفن إنما هو طريقة فى الحياة ، ويستطيع الإنسان أن يستعد له دون أن يشعر بذلك ، ومهما كانت صورة حياته . ونحن نكون فى كل أمر من الأمور الواقعية أقرب إلى الفن وأدنى جوارا مما لو كنا فى تلك المهن التى ليس فيها شيء حقيقى والتى هى نصف فنية ، والتى توهم بقربها من الفن ، لكنها تنكر فى الواقع وجود كل فن ومناهجه ، وهذا ما تفعله طريقة الصحافة بكل أنواعها وما يفعله كل النقد تقريبا ، وثلاثة أرباع ما يُسمى الأدب أو يريد أن يسمى كذلك . وبالاختصار يسرنى أنك قد تغلبت على الخطر الذى كان محدقاً بك وأنك تعيش وحيداً سعيداً فى مكان ما من الواقع الشاق ؛ وإنى لأتمنى أن السنة التى على الأبواب تحفظك فى هذا وتقويك ، لك دائماً .

(انتهت الخطابات العشرة) رينر ماريا رلكه

سحر مصر

لروبرت هتشنز

٧ – الكرنك :

إن للأبنية لشخصيات ، فنها ما يغنى كما تغنى النساء الحسان ، ومنها ما يخلب كطفل غرير سحر سذاجته لا يقاوم ، ومنها ما يشبه القراة رجال الدم والحديد ، ليس فى مشاعر الرحمة مكان ، قدوا من قسوة وإصرار ، وهذه تملأ النفس رهبة يمازجها إعجاب بالقوة كامن فى جبلة الإنسان . ومنها ما يستنزل على القلب شآبيب سلام ، ومنها ما يناجى فطرة النفس فى روعة رقيبة كما تفعل الموسيقى وتحيل القلق إلى اطمئنان ، ومنها ما يداعب هيام النفس بالمجهول فتستجيب له فى نشوة وارتعاش ، ومنها ما يبكى مع الموتى وما يضحك مع الأحياء . والسائح المصعد فى النيل يلتقى بالكثير من هذه الشخصيات على اختلافها ، فهو محزون كما حزنت فى دندرة ، وهو حالم فى النور بأبيدوس ، وهو متأمل فى الأقصر تحت المئذنة الصغيرة المتدفقة تتوق بالنداء إلى الصلاة فتتبعها الكنيسة بدق ناقوس ، وهو شارد فى « مكان التفكير » لرمسيس الثانى عند المارد الجبار الذى كان يوماً أكبر تماثيل مصر ، وهو متعبد فى إدفو ، وهو مأخوذ بعظمة التفوق فى الدير البحرى ، وفى أنس الوجود يؤخذ به إلى عالم رقيق سحرى . كل يثير فيه شعوراً وكل يحيله إلى حال . وفى الكرنك ما شعوره وما حاله ؟ أهو محزون أم مفكر ؟ أهى دهشة أم نشوة ؟ .

سمعت مرة سيدة عجوزاً فى قبعة عريضة وأشياء أخرى تناسب مصر أكثر مما تناسبها ، تصف الكرنك فى جملة فتقول بلهجة اسكتلندية : « إنه لطيف حقاً » وهنا تخطىء الاسكتلندية العجوز ، فليس الكرنك بالشىء اللطيف ، وليس بين معابد مصر فيما أعرف ما يمكن وصفه بأنه « لطيف » والكرنك لا تحيط بأوصافه كلمة أو كلام .

منذ عهد بعيد رأيته ذات ليلة فى أضواء زاهية من أجل الخديو . كان جلاله الذى امتهن يصطبغ بألوان وردية وخضرة وزرقة رصاصية ، وأبراجه تسطع فى زيف من ذهب ، وجمهرة تماثيله ومسلاته وعمده تتحول من أطياف أحلام وظلال تمس إلى أشياء صلبة صادمة استجابة لإرادة أقزام قساة قابعين بين جدرانه . وها أنا بعد سنين عديدة أراه لأول مرة فى هدأة نور القمر بعد أن شهدت مغرب الشمس من أعلى أبراجه . ذلك مشهد أعلى مما شهد الخديو

كنت بأطباق الجو أسرح البصر فى مهبط السماء بالقباب الشاسعة ، وأمامى نيل يلتمع ، ومن دونى القرية الريفية مهدى بها فى النهار مغبرة شعثاء ، فإذا هى الآن فى حلة من ذلك الخفاء اللين المخملى الذى يتولد فى السماء تحت النخيل ، وعلى الطريق الآتى منها إلى الكباش الحارسة أبد الدهر أمام باب المعبد مشى جمل أبيض يركبه صبى صغير فى رأسه طاقية ضيقة بيضاء . كان الصبى يشدو مغنياً ؛ أتراه كان يغنى لجلال مغرب الشمس أم لجلال آمون « الواحد الخفى » الذى كان يوماً إله طيبة وأقامت له أكبر معبد فى الوجود ؟ أصغيت لصوت الصبى الرفيع المرتعش كأنه تغريد طائر ، فأخذ مسمعى من أغنيته كلمة واحدة ، كلمة تسمعها فى مصر من كل شفة ناطقة أو شادية ، تسمعها من النوبيين حول نيرانهم بالليل ، ومن الملاحين فى قواربهم على النيل ، ومن الصبية وراء الحمير فى القرية ، ومن الأعراب بالصحراء ، ومن قارىء البخت فى ماء طبق ، ومن الدرويش ذى الشعر الجعد المدهون بالزبد : « الله » هى الكلمة التى استقرت بمسمعى من أغنية الصبى وهو ماض بسبيله .

وحامت حمائم على أبراجها اللطيفة ، وخرجت الخفافيش من مخابئها ، كأنما تعرف كم هو جميل سوادها على ذلك الأثير الليموفى والبرتقالى والأحمر ، وتبدلت السلة الصغيرة فيما

إلى الكباش كما يتبدل كل شيء في مصر وقت الغروب ، وبدت كأصبع يد خفية تشير في تحذير الواعظ نحو السماء ، والتمع النيل وعلى صفحته من حديد وفضة اشتعلت نيران كهرمانية ، واستحالت الجبال الليبية فيما وراء وادي الملوك إلى أطياف ، والبركة البعيدة بجوار النيل يحف بها النخيل اصطبغت بحمرة رمانية ، والقبة الصغيرة الساذجة الرثة القائمة على ضريح قرب الكباش بدت الآن كأنما صيغت من معدن نفيس .

ونظرت ورائي فرأيت القمر قد طلع وأرسل أشعته الفضية على أطلال الكرنك ، على غابة من عمد في رسم زهرات اللوتس ، على بوابات مستفردة تؤدي اليوم إلى غير قاعات ، على البركة المقدسة يقوم عليها قصب الغاب وينام البط ، على جدر متحدرة تمسكها ركائز ضخمة كأنها ضلوع حيوان هائل من قبل التاريخ ، على غرف صغيرة على كتل من البناء منهارة وقطع من حطام سجف وطنف وعمد ، على أهل قرية الكرنك ، القوم المعجب المتزن بوطنهم المستمسكين بخرائبهم في إخلاص لا تزعزعه نوب الزمان وأخذ السنين ، على أبي الهول الصغير المتعزل له وجه امرأة تنفض جفون عينيها في إغراء ناعس ، على رمسيس الثاني له وجه طفل وديع لا وجه ملك ، على أبي الهول الذي تشكل قريناً له فهو قابع في وحشة أمام جوسق «طهرجا» ملك اثيوبيا ، على الاثنين الواقفين معاً كرفيقين حميمين وهيئة كل تم من خلق نقيض ، فأحدهما يضم ذراعيه إلى صدره يعلن سلاماً ، والآخر يشد ذراعيه إلى أسفل في تحفز يبغي حرباً ، على قدم من جرانيت عميد رمسيس الثاني يذكرني رقيع فيها بتمثال النصر ناقص الرأس في باريس ، فكلاهما عنوان شخصية أخاذة إن تلقها لا تنسها ، على هذه وغيرها من آثار معتصمة بقاماتها وأبهائها ومغاني عزها الخالي .

ثم طلع القمر ، لكن ما يزال الغرب حافلاً بالأضواء والألوان ، ثم ذوت هذه ولم يبق منها غير خط أحمر كاب ، ثم كانت فترة هي عندي حافلة بالتشوف والخيال ، كان كل شيء في نبض خفي يجيش به كما يهيج الصدر بالأنفاس ، والهواء الساكن كأنما رجف بهمس يعلو رويداً رويداً .

في الشرق رأيت آية ، وفي الغرب كان تأويلها . إن نور الشمس إذ يموت هنا يولد هناك من جديد ، وحورس لن يدع « توم » يعيش برهة ، وسيشهد «خنسو» رب القمر نضالا حلواً في الشاطئ الغربي من بحر السماء حيث سبح زورق الشمس في موج خضيب وغاب وراء الجبال . وما نور الغسق إلا نضال حلو فانتفاض يائس فهزيمة من ظلمة وسكون . وخلال ذلك النضال الحلو عاشت الدنيا من حول بضع دقائق حياة واهمة متوجسة سحرية ، وخلالها استرجعت السماء أضواءها فعادت أثيرية مرتعشة كأنما استرجاعها اختلاس لا يجوز ، ولقد عادت مصفاة رطيبة بلورية ، وما كانت الأطيار السابحة عليها أطياراً ، بل حليا متحركا صاغه مفتن قدير ليبلغ بالسماء من الجمال الذروة ، بل إن كل متحرك في نور الغسق من رجل وامرأة وطفل وجمل وحمار وكلب ومعزى وجاموسة وانية وحصان مارق قد استحال إلى حلية يضيفها مفتن عبقري ليجلي بها بهاء السماء ، وفوق هذا كله يشرف خنسو في هدوء العارف بما سيكون . ثم انتهى النضال الحلو فجاءة وعاد كل شيء إلى ما كان . تلك البركة البعيدة بجوار النيل لم تعد جوهرة حمراء في إطار ريشي غريب النسق ، بل هي ماء يتوارى من ناظري في خميلة من نخيل ، وذاك الذي دوني ليس سوى جمل يروح لداره ، وما هذا إلا صبي يسوق نعجة برتقالية اللون جعدة الصوف ، وتلك زريبة مقفرة ، وليست طيف دار يسكنها الجن أو يقيم بها ساحر يصنع المعجزات ، ولم يعد الهواء يرجف بالنغم ، والصدر الذي يهج بأنفاس ربانية همد كصدر جثة .

واستوى خنسو في هدوء على عرش الكرنك . . .

(لهذا الفصل بقية) عبد المغني علي حسين

الشيخ محمد عياد الطنطاوى

أحد علماء الأزهر فى القرن الماضى

(١٨١٠ – ١٨٦١)

هذه شخصية تكاد تكون شبه مجهولة من شخصيات علماء مصر الأفذاذ الذين عملوا على نشر الأدب العربى وثقافة الأزهر خارج حدود وطنهم ، ونعنى به الشيخ محمد عياد الطنطاوى الذى أهمل ذكره مؤرخو الأدب العربى الحديث. وقد كانت جهوده العلمية وآثاره الأدبية مطموسة، إلى أن أزاح الستار عنها العلامة الروسى اغناطيوس كراتشقوفسكى فى كتاب ظهر له حديثاً يحمل عنوان « من خلال المخطوطات العربية » وقامت بنشره أكاديمية العلوم بلينتجراد .

ولعل الكتاب الذى نحن بصدده هو أول كتاب من نوعه يصدره عالم من علماء الشرقيات ، فهو عبارة عن ذكريات مشوقة اقتطفها المؤلف من حياته العلمية الطويلة ، وساقها إلى القارىء فى أسلوب قصصى مشوق ، وحاول أن يحيى فيه نفراً من المؤرخين والكتاب والشعراء والرحالة العرب ، المعاصرين منهم والقدامى ، وهو يحوى تفصيلات علمية عن سياحات المؤلف إلى المعاهد والبيئات العلمية فى الشرق العربى ، وسجل فيه أحاديثه مع مختلف رجال الفكر والأدب والدين ، ونفض فيه غبار الأجيال عن جانب من المخطوطات العربية النادرة والكنوز الفكرية التى كانت مطمورة تحت أطباق الثرى وفى بطون المكتبات ودهاليز الجامعات .

ولنرجع إلى الشيخ محمد عياد الطنطاوى الذى خصه المؤلف بفصل واف فنقول : إنه ولد فى مدينة طنطا فى عام ١٨١٠ ثم التحق بالجامع الأزهر عند ما أتم عامه السابع عشر، فدرس على شيوخه كالعطار والبيجورى وخليل الرجبى، ثم تصدر التدريس حيناً . ويقول فولر فى دائرة المعارف الإسلامية : إنه كان يدرس مقامات الحريرى والمعلقات السبع مع شرح الزوزنى ، وإنه لا يعرف أحداً من رجال الأزهر سبقه إلى ما قرأه واستوعبه من العلوم العصرية .

وكانت روسيا فى ذلك الحين على أهبة نهضة فى الاستشراق لا سيما ما يتصل منها بعلوم العرب ، وكان قد خلا فى ذلك الحين منصب أستاذ اللغة العربية بمعهد الدراسات الشرقية التابع لوزارة الخارجية ، فتطلعت روسيا إلى شغل هذا المنبر من بين علماء العرب أنفسهم . وعن طريق السفارة الروسية بإستامبول دعى الشيخ محمد عياد الطنطاوى ليشغل هذا المنصب ، فشخص إلى سانت بطرسبرج ، وظل محافظاً على زيه الأزهرى فلم يخلعه وهو فى هذه البلاد النائية بين البرد القارس والثلوج ، وقد وصفه أحد كتاب عصره من الروسيين بقوله : « إنه رجل وسيم ، يرتدى حلة شرقية ، وعمامة بيضاء ، وله لحية فاحمة سوداء ، وعينان براقتان ، ووجه متوقد الذكاء ، تدل سمرته على أنها ليست من أثر شمسنا الشمالية غير المحرقة ، وهو يسير الهوينا شامخ الرأس يتهادى على الجانب المشمس من شارع نيفسكى — بروسكت » .

والطريف أنه عند ماوصل الشيخ عياد إلى مقر منصبه وسمع بمهمته أحد وزراء القيصر خاطب المستشرق بقوله بقوله : إن الحكومة لا تكترث لهذه المعارف الواردة من الخارج . بيد أن هذا العالم الفاضل أوقفه عند حده بقوله : — بالعكس ، ففى وسعنا الآن أن ندرس اللغة العربية فى عقر دارنا دون حاجة ما إلى مغادرة سانت بطرسبرج .

وقد ظل الشيخ عياد يشغل منصبه العلمى زهاء أربعة عشر عاما أى من سنة ١٨٤٧ ، تخرج فى خلالها على يديه عشرات الطلاب الذين أكبوا على دراسة العربية وما يتصل بها من علوم اللغة وفقهها وآدابها ، وتعرف فى فترة إقامته بروسيا بنخبة من العلماء ورجال الحكم ، وعمل أحياناً بالشعبة الشرقية بدار وزارة الخارجية ، وقام بعدة رحلات إلى الجنوب ، فزار القوقاس والتتار وكان على صلات طيبة بالطوائف الإسلامية هناك . وتقديراً لجهوده العلمية أنعم عليه بوسام (حنة) ، وكان الأستاذ عند ما عزم بنظر إلى

بين المسموع والمقروء

زواج بالإنابة

[ماتيلدة الصغيرة أخت الملك جورج ، ملك انجلترا ، تتزوج كرستيان ملك الدانمركة . وهو ملك مرزوء في عقله وجسمه . فتسوء عشرتهما ، وتسوء أيام الملكة معه . ثم يصبح الملك ، ويعود إلى مقر ملكه وفي صحبته طبيب شاب]

بدأت خطة الطبيب الشاب بالتحبب إلى الملكة . وكرهته الملكة لا لشيء إلا أنه صاحب الملك وخصيصه ، ولكن حدث أن مرضت ، فأرغمها الملك على أن تقبل زيارته إياها . فلما زارها اختفى في الساعة الأولى كرهها إياه . كان حاذقاً ، وكان مطرفاً ، وكان لبقاً . وشفاها . ثم هو من بعد ذلك أغراها على الخروج وترك العزلة ، وأغواها بركوب الخيل تظهر على ظهورها في الناس ، وكان عجيباً في الدولة أن تظهر امرأة ملكة على ظهر جواد . ولكن الشعب سرّه ما رأى . وعيّن الملك صاحبنا قارئاً له ، وكاتباً للملكة ، فعاش في القصر ، وبينهما كما يقع الظل الأشياء . وخرج الثلاثة دائماً معا ، ولم تستطع الملكة على فراق طبيبها ، وكاتم أسرارها ، صبرا . وفي صيف عام ١٧٧٠ ذهب الثالوث إلى بلدة هلشتين يتروّحون . وكانت الملكة فرحة مرحة . وصفا الجو فتغلغل إلى رأسها كما تتغلغل الخمر ، فسكرت ، ونسيت . نسيت أنها ملكة ، بل نسيت أنها امرأة ، فخرجت إلى الناس في زى الرجال .

وأخذ الملك يزداد ضعفاً ، ويزداد عقله كلالا . وأخذ الطبيب يزداد على الشباب ، وعلى القوة ، وسامة وإشراقا ،

قلادة الوسام المتدلية من عنقه فوق ملابسه العربية ويقول لجلسائه وسماره : « في سانت بطرسبرج رأيت أمراً عجيبا ، شيخاً مسلماً يضم « حنة » إلى أحضانه في الشارع .

وقد تأثر بآراء الشيخ عياد نفر من المستعربين الروسيين ، وخلف وراءه ثروة علمية وذخيرة أدبية طبع منها كتاب واحد أثناء حياته ، وهو « أحسن النخب في معرفة لسان العرب » وقامت بنشره إحدى دور الطباعة بليبزج عام ١٨٤٨ . أما ما لم ينشر من مؤلفاته فكثير ، وفي مقدمتها كتاب اكتشفه الأستاذ كراتشقوفسكي في السنوات الأخيرة بعنوان : « هدية العاقل » وهي رسالة مخطوطة تحتوى على معلومات خاصة أهداها المؤلف للسلطان عبد المجيد ، وتتضمن وصف رحلته من القاهرة إلى سانت بطرسبرج وشرح الأثر الذى خلفه في نفسه احتكاكه بالشعب الروسي في بلاده وما شاهده في مقاطعات البلطيق وفي فنلندة أثناء زيارته إياها في فترة العطلات المدرسية . ثم كتاب الحكايات العامية المصرية ، وتاريخ العرب ، وترجمة الباب الأول من كتاب كلستان للسعدى . وهناك عدة حواش لم تطبع بعد ، منها حاشية على شرح العلامة برهان الدين أبي المعالى السقاء ، وحاشية على رسالة الشيخ البيجورى في العقائد ، وشرح الشيخ خالد الأزهرى .

وظل الشيخ عياد ينشر ظلال أفكاره في كل بيئة علمية بروسيا ، فقد كان إلى جانب عمله بمعهد الدراسات الشرقية يلقى دروساً أخرى في مدرسة اكاديمية كانت معروفة باسم « معهد لازاروف » ، يساعده في مهمته المستعرب نفروتسكي ، وألقى محاضرات أخرى في اللهجات العربية الدارجة ، إلى أن مرض « بشلل الأطراف » وظل ملازماً الفراش عدة أشهر ، ووافاه الأجل المحتوم وهو في ديار الغربة في السابع والعشرين من اكتوبر عام ١٨٦١ ، فدفن في قرية فولكافا ، ونصب على القبر لوح من الرخام نقشت عليه هذه العبارة بالعربية والروسية : « الشيخ محمد عياد الطنطاوى مستشار بالدولة وأستاذ معين بجامعة سانت بطرسبرج » ولهذه المقبرة صورة شمسية يراها الزائر بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية .

محمد أمين حسونة

وللملكة الصبية توهجت وجنتاها على الصحة، وجرى الدم في عروقها حارا .

ولم ينقض هذا العام حتى خلع الطبيب الثائر عن نفسه ثوب التخشي ، وظهر في وضح النهار ، يطلب زمام الحكم ويأخذه، فعزل من عزل ، واستبقى من استبقى ، ثم بدأ عهداً للحكم جديدا ، عال الارستقراطية وسر الأحرار حتى تقدم فلتير إلى الملك بتهنئته الشهيرة . كان إصلاحاً لاشك فيه ، جرى فيه على تحرير الفقير ، وإنجاد المظلوم ، وإعطاء المحروم ، وتحطيم البالي من الأمور . وكان أجنبيّ المولد ، أجنبي النظرة ، فرأى على البعد ما رأى من أحوال هذه الأمة على صفاء ، فلم يكدر نظرته منافع له قديمة ، ولا عرف مألوف .

وخطا خطوته الكبرى ، لحمل الملكَ المأفون على طرد وزيره القديم ، برنشتورف . وحل على مجلس الدولة — مجلس الملك ، فعطّله . وأصبح دكتاتوراً ، يأمر ولا يُردّ له أمر ، ويُبرم ولا تُنقض له أحكام . وارتاعت أوربا للذي جرى . وكترينة ، قيصرة روسيا ، ضحكت ضحكا عاليا . وجورج الثالث ملك الإنجليز ، غضب ، وبعث إلى أخته الملكة يؤنّب ، فأشاحت عنه بوجهها .

وظل هذا الطبيب ، هذا الحاكم الآمر الناهي الجديد ، يتابع الإصلاح في غير خوف ، ويستمد القوة من شغفاء لم يستطع أن يعقد عليها . وفي إصلاحه خاصم الأشراف ، وخاصم الكنيسة ، وخاصم القضاء . وفي إصلاحه أرخص الخبز وأسس المستشفيات . وفي إصلاحه أعطى الحرية للقلم واللسان . كان إصلاحاً على غير رويّة ، وكان سريعا . كان إصلاح من يرى أن المساء لا بدّ آتٍ ، وأنه عند الظلام تتوقف الأعمال . وكان إصلاحاً تحت وقدة الحب ، وشمس الحب لا بد آفلة وإن طال النهار

وتحدثت الصحف عن الثائر الفاجر ، وأخذت تسخر به وتهزل . وبالصور الوحية أخذت تنوّه بالذي يجري وراء الستار ، وهو هو الذي فك من الصحف عقالها ، وحل عقدة من لسانها . وشاعت الشائعة بأن وليّ العهد الطفلَ ، تساء معاملته ، وأن الملك يُضرب ، وكانت شائعات كاذبات . وولدت الملكة ابنتها ، فقال الناس إنها الطبيب أبوها .

وزاد الطين بلة أن تدخّل الطبيب الحاكم الآمر في أمر الجيش وأمر الأسطول . وهنا اشتد التبرم به . وأخذ لا يخرج إلا في حرس .

وجاء يوم ميلاد الملك ، وكان فيه احتفال عظيم . ولكن شاع أن هناك مؤامرة دُبرت لاغتيال الطبيب في تلك الليلة . فما كان منه إلا أن أحجم عن الذهاب . وفعل أكثر من ذلك : رفض أن يأذن الملك والملكة أن يذهبا ، وبقي الناس ينتظرون رأس الدولة أن يظهر بغير طائل .

إن الحكومة قد يكرهها الناس ، ولكنها تبقى ، لأنها تخيف الناس . ولكن إذا خافت هي ، على الكره ، كان في هذا القضاء عليها . وكذلك الرجال . ولأول مرة أظهر الدكتاتور لأعدائه خوفاً كان فيه القاضية . وتحركت جليانة ، الملكة السابقة ، زوجة أبي الملك الحاضر ، تحركت تتقاضى دينها القديم من الملكة الحاضرة ومن صاحبها العاشق .

وجاءت ليلة من يناير عام ١٧٧٢ ، أقيم فيها مهرجان للرقص كبير . وظهرت الملكة في ثوبها الجميل ، وهو أبيض من حرير ، زيّنها الورود مزركشة . وظهر الدكتاتور في ثقة من نفسه كالتي كانت له قديما .

وانفض الحفل ، فذهب المتآمرون إلى حجرات الملك ، وبإغراء قليل جعلوه يُمضي ورقة فيها القبض على الطبيب وعلى أتباعه . وعقب ذلك قدموا للملك ورقة أخرى طال إغراؤهم إياه بإمضائها ، ولكنه أمضاها أخيراً . وكان بها سجن الملكة بعض حين .

وذهبوا إلى حجرة الطبيب الدكتاتور ، فأخرجوه من فراشه ، ووضعوه في الأغلال . وعلمت الملكة بالذي

سيجرى ، فهمّت تطلب حجرته ، فوجدت عند بابهـا الحراس . وما لبثت أن أدركت أنها جرت فى لباس نومها فرجعت مسرعة إلى حجرتها . وتبعها الحراس يقبضون عليها ، فأرادت أن تقذف بنفسها من النافذة فما استطاعت .

وأخرجوها بالليل ، تحمل طفلتها على ذراعيهـا ، فأركبوها عربة ، ظلت تجرى بها على ثلوج الطريق بضعة وعشرين ميلا ، حتى بلغوا بها بلدة كرونبرج ، وأودعوها سجنها . وفى السجن عوملت كبعض السجينات . وكان كساؤها القليل ، وغذاؤها ما لا يؤكل .

ومن كوّة فى سجنها رأت على البعد أنواراً تضىء ناحية العاصمة . وسألت ، فقيل لها : إن الشعب يحتفل بسقوطها .

وتحدث الناس فى لندن همساً بأن أميرة من الأميرات أسيرة فى برج بمدينة ما . وزاد روّاد المقاهى لغطا لما ظل القصر صامتاً ، وظلت الحكومة . وحاول سفير انجلترا فى الدنمركة أن يزور أخت مليكه ، فما أفلح . ولم يكن السفير ذا صلة وثيقة بالملكة ، بل لم يكد أن يكون له بها صلة أصلا ، إلا كلمات معدودات بادلها إياها فى مناسبات وجبت فى رأى الدكتاتور أن تكون قليلة . ولكن منذ حدث ما حدث لم يستقر بالسفير مقعد . وكتب إلى مليكه يخبره الخبر . وكان الملك غاضباً على أخته فلم يتحرك سريعاً .

وبكت ماتلدة فى السجن ، لا على شىء ، إلا أن حبيبها قد سجنوه ، وقد جرّدوه . أما هو فقد رأى فى أمر الحب غير ذلك . رأى أن البلاط الإنجليزى لا يود الفضيحة ، فكتب وثيقة يعترف فيها بعلائق غير شريفة كانت بينه وبين الملكة . وظن بذلك أن القصور ستتحرك ، لتقتل الشر فى مهده ، فيكون لنفسه من ذلك الخلاص .

ولكن اعترافاً كهذا ، إذا لم يثبت ، ولم يستطع صاحبه أن يدلّل عليه ، كان جزاؤه الموت . وعرفت الملكة السجينة ذلك ، فلم يشغلها قدر حبيبها ، ولكن شغلها خلاصه كيف يكون . فكتبت هى الأخرى وثيقة تؤمّن فيها على ما قال . أمّنت على دعواه لينجو ، فقضت بذلك على نفسها ، وعلى ملكها ، وعلى شرفها ، وعلى كل شىء فى الدنيا . كانت تحبه حتى على القدر . وحفظت له الجميل بأنه جعل من سواد حياتها بياضاً ، وبدّلها من بؤسها ويأسها النعيم والأمل .

ولكن لم ينفع كل هذا ، فحكموا على الدكتاتور بالموت . ومات ولم يرسل إليهـا كلمة ، ولم يطلب إليها العفو والمغفرة . وكانت تصغره بسنين .

وحاكموا الملكة ، وطالبوا بطلاقها . واحتج السفير البريطانى بأنها محاكمة غير عادلة . ولم يكن عند القضاة الكفاية من أدلة . وكان من وراء الحكم بطلاقها السجن تقضى به كل عمرها . ولما لم يستجب القضاء لاحتجاج السفير ، زأر الأسد الرابض وراء البحر ، وتحرك الملك جورج أخيراً يدفع عن أخته الصغيرة ، ماتلدة ، وقد تراءى له وجهها من وراء قضبان . وهدّدت انجلترا بالحرب تشنها عارمة مهلكة . عندئذ رأت جليانة ، الملكة السابقة ، التى قامت تشق غلها ، وتثأر لنفسها ولولدها ، رأت جليانة أن وقت التقهقر قد حان .

وفى ليلة من ليالى يوليو تراءى الأسطول البريطانى عند الساحل . فخرجت الملكة السجينة إليه ليحملها إلى حيث يستقر بها المقام . إلى لندن ؟ لا . فقد حُرّم عليها دخول انجلترا . ولكن إلى هانوفر . وذهبت وحدها دون ابنتها ، فقد قضى القضاء الدنمركى بشرعية هـذه الابنة وبأنها ابنة الملك حقاً . وشق ذلك على الأم البائسة .

وقضت فى مهبطها الجديد بضع سنوات ، قامت من بعدها حركة فى الدنمركة تهدف إلى ردّها إلى الملك ، ولكنها ماتت قبل أن تتمخض هذه المحاولة عن شىء .

وكان عمرها عند زواجها خمسة عشر عاماً ، وكان عمرها عند موتها ثلاثة وعشرين عاماً .

أحمد زكى

بقعة فى البيد

[افتتح جلالة الملك مسجد القصاصين الذى أمر تخليداً لذكرى شفائه]

بقعة فى البيد أمست علماً ترشد الركب وتهدى الأنجما
كان يشكو أهلها من ظمأ فغدت ريّاً لمن يشكو الظما
لم تزل صحراء حتى حلها ركبُ فاروقٍ فصارت حرما
قد أحالتها يداه كعبة يفد الناس عليها أمما
النجوم الزهر فيها انتظمت ويتيم الشعر فيها انتظما
ما رأت أيام فاروق بها هذه الصحراء إلا حلما
ما درته مليكاً أم مَلَكاً من وراء الغيب ساقته السما ؟
فاخر التبرَّ حصاها بعد ما نقل الفاروق فيها القدما
قفرة حل بها موكبُهُ فسقتها راحتاه الدِّيما
كلما مر على حصبائها سال فيها الماء والزرع نما
أنس الوحش بفاروق فلو كان للوحش بيان سلّما

* * *

لبست مصر لعمرى حزنها
وتشكت إذ تشكّى الألما
ثم هزت مصر بشرى برئه
وسرت فى كل أذن نغما
نبأ مدّ أبو الهول له
أذنيه واستخف الهرما
برء الفاروق من أوصابه
فتمشى البرء فى جسم الحمى
دعوات الشعب كانت رقية
ودموع النيل كانت بلسما
قسما بالعرش والتاج وما
أصدق القول وأغلى القسما
ما بوادى النيل قلب نابض
ليس بالفاروق صباً مغرما
حب فاروق بمصر شرعة
ما نفس القبطى فيها المسلما
ملك يعتصم الدين به
وهو بالله القوىّ اعتصما
فى سبيل الله ما شاد له
من بيوت أو بنى أو دعما
ذكّر الإسلامَ فى طلعته
« عمراً » فى عدله إن حكما
وملوكاً قسموا أعمارهم
بين تقوى الله أو بذل الدما
المحاريبُ رأتهم سجّدا
لجلال الله فيها قوّما
والميادين رأتهم جنة
فى لظاها يشعلون الحمما

* * *

يارجاء الشرق فى محنته
وسناه إذ يخوض الظلّما
أنت للشرق طبيب إن شكا
أنت سهم فى يديه إن رمى
إن أبان العُرب عن مجدهم
كنت للعُرب لساناً وفما
خيرة الصحراء هم أول من
شرع المجد وسن الكرما
ما رأى التاريخ قوماً مثلهم
أرهفوا السيف وسلوا القلما
حملوا السيف ليهدوا للورى
أين من شيّد ممن هدما ؟
ما تحدّوا للكون إلا شرعة
أو رسولاً أو كتاباً محكما
عبس الدهر لهم حيناً فهل
آن للأيام أن تبتسما

محمود غنيم

ذكريات الطفولة

[عن « لامارتين » بتصرف]

يارياضاً تضاحك الزهر فيها
واستراحت على رُباها الليالى
لك والله فى ثنايا فؤادى
ذكريات تدوم مرّ الليالى
أخواتى النسمات الصبايا
كن يمرحن فيك مثل الرئال
يتمادين ضاحكات فتذرى نسمات شعورهن الغوالى
كم ليال أوقدت فيهن ناراً قد أنارت ظلام تلك المجالى
بهشيم جمعته وشوك
كنت أهدى الرعاة فوق التلال
كم قضيت الساعات بالقرب منها
والهجير الوهاج يصلو حيالى
اتخذنا الصفصاف درعاً يقينا
فى الأماسى عصف ريح الشمال
كنت أصغى إلى العواصف تسرى
سافرات فى سوقه باعتلال
منشدات لحناً يرن صداه
هادراً فى جوانحى وخيالى
هذه الدوحة الجميلة كم بتنا عليها نلهو بأحسن حال
علقنا أغصانها فى ذراها ثم راحت تميل ميل الدلال
وجرى النهر تحتها يتلوّى
فى المروج الخضراء فوق الرمال
كلما ألقيت قواربنا البيض إليه مضت لغير مآل
صخرةَ اللهو والطفولة كم من
ذكريات لدىّ منك حوال
ولدى سنديانة نبتت قر بك كنا نلهو مع الأطفال
ولدى الحائط الذى ألبسته الـ
شمس ثوباً من نورها المتلالى

كم قضيت الخريف فى ظله الوا
رف أصغى إلى حديث الرجال
وشهدت احتضار يومى وقد غا
بت ذكاء الحمراء خلف الجبال
كل شىء هنا — كما كان — حى
ما دنت منه بعدُ أيدى الزوال
وُلد اليومُ من جديد بعينىّ
كنور أضاء بين الظلال
تلك آثار سيرنا لم تزل فى الـ
رمل لم تفنَ بالسنين الخوالى
كل شىء هنا ينادى أطيلوا
مُكثَ عندى واستمتعوا بجمالى
غير أنّ النهار عما قليل
سوف يفنى والعمر ومضة آل
بعثرتنا الحياة فاقتنصت أر
واح آبائنا بلا إمهال
فلبثنا هنا كسنبلة القمح
رمتها الأقدار بين النصال
وغدت دارنا البهيجة أطلا
لا ويا شؤم هذه الأطلال
فرّ منها الحمام واحتجب القمـ
رىّ عنها يا للديار الخوالى
ونما العشب قائماً فى ثراها
فغدا أنسها بعيد المنال
أين آثارها الحسان وما أ
شىء فى رحبها بأبهى مثال ؟
أين تلك الورود والعبق المسكى
أين الجنان ذات الجلال ؟
قد محا الموت كل ذاك كما تـ
محى قصور شيدت بنسج الخيال

دمشق ناجى الطنطاوى

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٣٨٤ — الثلاثاء ٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ — ٧ من مايو سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

عيد الجلوس الملكى

فى مثل هذا اليوم من عام ١٩٣٦ استوى الفاروق على عرش مصر ترمقه العيون بالإجلال والإكبار، وتحوطه القلوب بصادق المحبة والولاء، وتتطلع إليه الأفئدة بكبير الأمل وعظيم الرجاء، فكان للأمة فى طلعته المشرقة الوضاءة وشبابه الغض النضير وما تجلى لها منه فى نشأته الأولى من مخايل الذكاء وكريم الأريحية عزاء عن فقد والده العظيم الذى رعى نهضتها وقاد سفينتها فى لج الحوادث بحكمة الربان الماهر القدير حتى أرساها على بر السلامة والأمن.

واليوم بعد عشر سنوات تحتفل الأمة بعيد جلوس المليك الشاب، وهى أشد ما تكون التفافاً حول عرشه وتفانياً فى محبته والإخلاص له. ترى فيه رمز عزتها وكرامتها ومعقد آمالها والملجأ الذى تفزع إليه إذا كربتها الحوادث، والملاذ الذى تلوذ بساحته إذا ادلهمت الخطوب.

ولعل سر تعلق الأمة بالفاروق ما تجلى لها منه فى كل المناسبات من حب قوى صادق لشعبه وحرص كبير على الأخذ بيده والنهوض به، وعطف شديد على الضعفاء والبائسين من أفراده، ورغبة قوية فى تعرف أحواله عن قرب، وتقدم الصفوف فى كل عمل صالح نافع، وتشجيع العاملين وتوجيههم لخير الطرق فى خدمة الأمة، وما لمسته فيه من وطنية سامية وشجاعة عالية وثبات أمام الشدائد وسداد فى الرأى وحكمة فى معالجة أخطر المواقف.

ولقد كانت البلاد فى أكثر تلك الفترة خاضعة لظروف الحرب مقيدة باعتبارها مزدحمة بمن جلبتهم لها من جيوش ولاجئين، مرهقة بما فرضتها عليها محالفتها من التزامات، فعانت كثيراً من الضيق والمتاعب، وحرمت كثيراً مما كانت تستورده من المواد والمعدات. ولكنها مع ذلك كله لم تقف نشاطها ولم تفتر لها همة فى العمل لتحقيق أهدافها، واستطاعت أن تخرج من هذه الشدائد سليمة الكيان

قوية الروح شديدة الإيمان بمستقبلها عظيمة الثقة بذاتها لتستأنف من جديد جهـادها في سبيل إعلاء كلمة مصر ورفع شأنها بين الأمم .

وإن التاريخ ليسجل لهذه السنوات العشر من عصر الفاروق المحبوب الذي نرجو أن يطول بقاؤه وتمتد على الأيام ظله ، أنها خطت بالبلاد خطوات كبيرة إلى الأمام على الرغم من ظروف الحرب وقيودها .

فقد تقدم التعليم واتسعت دائرته وزاد عدد المتعلمين في كل مراحله ، وأسست جامعة فاروق الأول بالاسكندرية لتكون منار هدى يعيد لهذا الثغر مكانته الأولى أيام كانت الاسكندرية أكبر مركز ثقافي في التاريخ القديم .

وأنشئت مدرسة الملك فاروق بالخرطوم لتكون رمزاً دائماً للصلة القوية التي تربط بين جزءي وادي النيل برباط لا ينفصم مهما حاولت العوامل التي تسعى لفصم عرى اتصالها .

وزيدت البعثات العلمية إلى أوربا وأمريكا زيادة كبيرة لتواجه الرغبة القوية في توفير كل الكفايات التي تحتاجها البلاد .

وأنشئ كثير من المعاهد للدراسات التطبيقية ولتخريج المعلمين والمعلمات .

وتقدمت العناية بالشئون الاجتماعية ، فيسر التعليم لكل أبناء الشعب ، وجعلت مراحله الأولى بالمجان ، وعممت التغذية في كثير من النواحي للبادئين في التعليم .

وبذلت جهود صحية واسعة لمقاومة الأمراض التي تجتاح البلاد ولإنشاء الوحدات العلاجية في كثير من جهات القطر .

وأعيد النظر في كثير من التشريعات وعدلت بما يلائم تطور الأحوال وحاجات العصر الحديث .

وفي هذا العهد تم إنشاء جامعة الدول العربية وتوثقت الصلات بين مصر وهذه الأمم الشقيقة . وكان لمصر ومليكها المظيم قسط موفور من النشاط في تحقيق هـذه الأمنية .

ولقد كان لموقف مصر ومليكها العظيم في قضية سوريا ولبنان أكبر الأثر فيما أحرزه القطران الشقيقان من اعتراف باستقلالها وما تم أخيراً من جلاء الجيوش الأجنبية عنهما .

واليوم ومصر تفاوض بريطانيا العظمى في تعديل المعاهدة القائمة بينهما وتحقيق جلاء الجيوش الأجنبية عن وادي النيل ، وتحقيق الوحدة بين مصر والسودان ، تتطلع البلاد في ثقة وطمأنينة إلى ما ستسفر عنه تلك المفاوضات ، وهي صادقة اليقين موطدة العزم على أنها ستحقق أهدافها ، ولن تحول أية قوة في الأرض بينها وبين حقها الطبيعي .

وهي تتجه إلى مليكها العظيم راجية أن يكتب الله له التوفيق ويجعل عهده عهد خير وبركات وسلام على البلاد ، وأن يتوج جهوده وإخلاصه بتحقيق آمال البلاد .

(. . . .)

في سبيل الاستقرار

كل مواطن في هذا البلد يطلب الإصلاح وينشده ، ويتلمس الطريق له ، ويتحمس لكل دعوة في سبيله ، ويستجيب لكل نداء ، ويساهم في كل مشروع يقترح أو خطة ترسم لتحقيق أي نوع من الإصلاح في أي مرفق من المرافق أو ناحية من نواحي الحياة ، أو منشط من المناشط العامة ، سواء اتصل بالسياسة القومية أو الاقتصاد المالي ، أو رفع مستوى المعيشة أو تحسين الحياة الاجتماعية . وبالجملة أية محاولة لإسعاد سكان الوادي وزيادة نصيب كل فرد منهم من العافية وراحة البال والاستمتاع بالخيرات وتجنيب الويلات ودرء البلايا .

والمتتبع للصحف يقرأ كل يوم في الأنباء الداخلية ما يملأ النفس اغتباطاً ويفتح أبواب الأمل في تحقيق السعادة للأغلبية العظمى من البؤساء الذين يعيشون عيشة يخيم عليها الفقر المدقع ويشيع فيها الجهل المخزي وينخر في هيكلها المرض الفتاك . فلا يكاد يمضي يوم إلا ونسمع فيه من جماعة ألفت أو جمعية أنشئت أو مشروع بدأ لتحقيق بعض ما يتطلع الناس إليه وتصبو النفوس إلى نجاحه .

والمتأمل بعد ذلك في حالة السكان والمجتمع يعجب كيف أن التحسن بطيء ، والأثر غير محسوس والشكوى لا تزال عالية والحال على ما هي عليه ؛ وكان المنتظر بمنطق الحوادث العادي أن تؤدي هذه الحركة الإصلاحية وتلك المشروعات التي تبدأ والهيئات التي تقوم ، إلى عمل منتج وتقدم محسوس وتحسن ظاهر في كل مظهر من مظاهر الحياة ، يطمئن الإنسان على أننا سائرون في السبيل المؤدي إلى كل ما ننشده من آمال ونبتغيه من إصلاح .

فما هي العلة يا ترى في ذلك كله ؟ وما هي الأسباب المؤدية إلى هذا التناقض بين الدلائل الظاهرية والنتائج الفعلية ؟ السبب في ذلك كله في رأينا أن عناصر الاستقرار غير متوافرة ، ودوافع الاستمرار غير موجودة ، ومن ثم فالنجاح غير مضمون ، بل لعله غير متوقع ! فكل جماعة تتألف أو جمعية تنشأ تبدأ متحمسة نشيطة ولا تلبث بعد قليل أو كثير من الزمن حتى تفتر عزيمتها ويقل نشاطها ويتسلل أعضاؤها ، ثم تفتش عنها بعد هذه الفترة الزمنية القليلة فلا تجد لها أثراً .

وكذلك المشروعات تبدأ كبيرة نشيطة على نطاق واسع ثم تصادفها العقبات وتصطدم بالصعوبات التي لم تكن متوقعة ولم يعمل حسابها ، فلا تقوى على منازلتها والتغلب عليها ، ولذا سرعان ما تفشل وتموت .

ولا يقتصر الكلام هنا على المشروعات الأهلية ، بل يشمل الأهلية والحكومية على السواء . وهذه ظاهرة مؤلمة طالما شكونا منها ، وقد آن الأوان لأن نلقي عناية وتحليلا حتى يتغير هذا الحال ، ويتحقق ما نرجوه للهيئات المنشأة والمشروعات المبتدأة من النجاح والثبات واطراد التقدم

وهذا لا يتأتى في نظرنا إلا إذا توافرت لهذه جميعاً عناصر الاستقرار ودوافع الاستمرار ، وهي في نظرنا تتلخص فيما يلي :

أولاً : أن يكون القائمون بأي عمل من الأعمال أو مشروع من المشروعات غير مدفوعين إليه بمجرد العاطفة أو التحمس الوقتي الذي يثيره ظرف خاص أو حادث معين أو خطيب مؤثر أو غير ذلك من الدوافع الوقتية ؛ وإنما يجب أن يكون الأساس هو الميل الشخصي والاستعداد الفطري والرغبة المتأصلة في النفس والمسيطرة على الشخص تدفعه إلى الأمام بقوة .

ثانياً : أن يبدأ العمل على صورة مصغرة ولو على سبيل التجربة ، وأن ينمو ويتسع ويتشعب تبعاً لتراكم الخبرة وظهور أمارات النجاح وإقبال الجمهور واطمئنانه واطراد الزيادة في ثقته بنجاح المشروع وثقته بالقائمين عليه وإحساسه بفائدته المؤكدة .

ثالثاً : ألا يبدأ بتأسيس المشروع إلا بعد دراسة جدية تحيط بكل ما يكتنفه من ظروف ، وما يعترضه من صعوبات ، وما يدعو إليه من احتياجات ، وما يقدر له من نجاح ، وما يخشى عليه من فشل ، وهذه الدراسة الجدية يجب أن تقوم فى كل عمل من الأعمال وبالنسبة لأى مشروع من المشروعات على أساس علمى رقمى أى إحصائى ، لا على أساس من التخمين والظن والاستماع لملاحظات عابرة أو أقوال تلقى بغير أن تدعم ببيانات حقيقية مؤيدة . كما يجب أن تشمل هذه الدراسة الدقيقة المشروعات المشابهة التى نفذت من قبل سواء أكانت فى بلادنا بالذات أو فى بلاد أجنبية مع الالتفات بنوع خاص إلى العوامل التى أدت إلى النجاح فتوفرها أو التى سببت الفشل فتتجنبها

رابعاً — ألا تقتصر هذه الدراسة على المرحلة الابتدائية من تنفيذ المشروع ، بل تصحبه باستمرار ، فكل عمل يعمل أو خطة تنفذ يجب موالاتها بتعرف أثرها عند الناس ووقعها لدى جميع المتصلين بها ؛ على أن يعهد بهذه الدراسة للقادرين عليها المخلصين فى أدائها ، بحيث يصورون الوقائع كما هى لا كما يتمناها المنفذون للعمل ، أو كما يصورها ذوو الأغراض المتملقون الذين يجرون وراء إرضاء هؤلاء المنفذين ابتغاء منفعة شخصية يظفرون بها .

خامساً : يجب أن يكون رائد القائم بأى عمل من الأعمال أو مشروع من المشروعات التجديد والتحسين المستمر ؛ فالعالم يقفز الآن فى كل يوم قفزات واسعة فى سبيل تحسين الآلات وتطور الوسائل ودراسة نفسية الجماهير وقواعد الاقتصاد ، ويقضى التزاحم الشديد والمنافسة العنيفة بالحرص على تخفيض الأسعار واجتذاب رضا الجمهور ؛ كما أن ضمان تحمس القائمين بالعمل سواء أكانوا موظفين أو متطوعين أو ممولين يتوقف على استمرار اهتمامهم به وعدم إرهاقهم بما لا يطيقونه ، سواء من حيث الجهد الذى يبذلونه أو الزمن الذى يصرفونه أو المال الذى ينفقونه .

سادساً : وأخيراً لا بد من موالاة الاتصال بالجمهور دائماً . فالمشاريع كلها ترمى إلى سعادة الفرد ورفاهيته ، فلا يصح أن يكون القائمون بها فى واد والمتصلون بها فى واد آخر . بل يجب أن يكون هناك تفاعل مستمر وصلة مستديمة بين هذين الطرفين حتى نضمن تعاون الجمهور واستمرار حماسته هو أيضاً ، وذلك من طريق تعرف رغباته وتحقيق المشروع منها والنافع وصرفه عن غير المشروع منها والضار بالإقناع والهوادة والحسنى .

هذه هى عناصر الاستقرار ودوافع الاستمرار كما نتصورها وهى ليست على سبيل الحصر ، وفى استطاعتنا أن نحلل كل مشروع من المشاريع التى بدأت ثم فشلت أو هيئة من الهيئات التى ظهرت ثم انحلت ، ونرجع ما أصابها من فشل أو انحلال إلى عدم توافر هذه العناصر أو معظمها . ولكنا نكتفى بهذا القدر فى هذه المرة .

وفى المقال التالى سنحاول ضرب أمثلة عملية لما هو حادث بالفعل خصوصاً فى المشروعات الحكومية والتعديلات التى نرى إدخالها على وسائلنا وأساليبنا وخططنا لضمان توافر عناصر الاستقرار والاستمرار هذه ، وبالتالى لضمان النجاح والاستفادة حتى تكون النتائج أجدى وأنفع . جدير بنا من غير شك أن نفتح صفحة جديدة جديرة بماضينا المشرف وبما نرجوه من مستقبل زاهر لبلادنا إن شاء الله .

أحمد عبد السلام الكرداني

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك
الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

نظرات ...

حينما كنتِ تنظرينَ إلينا
كانَ قلبي يُطلُّ من ناظرينا
ليرى الحُسنَ والسَّنا والحبيبا
وأفانينَ من فنونِ الحبيبا !
ناظراتٍ إليَّ تحنو علينا

* * *

نظرةٌ بعدَ نظرةٍ بعدَ نظرهْ
أحسبها كأنّما هي خمرهْ
أنا منها سكرتُ أولَ سكرهْ
بعدَ ما ذقتُ قبلَها ألفَ مرّهْ
من كؤوسِ الطِّلا شرابًا شهيّا

* * *

سدّدي مقلتيكِ بالنظراتِ
كالظُّبا والسِّهامِ والجمراتِ
واقتليني لكيْ تموتَ حياتي
بكِ ذكرى من أخلدِ الذكرياتِ
وشهيدُ الجمالِ يُخلَدُ حيّا

* * *

قد رأيتُ العيونَ ترشُفُ رشفا
ما بعينيكِ من رحيقٍ مُصفّى
نظراتٍ تسيلُ عطفًا ولُطفا
وصداها بالقلبِ يعصفُ عصفا
كالأعاصيرِ إذْ تدوّي دويّا !

* * *

نظراتٌ من كلِّ لونٍ وفنٍّ
فمَنْ يستطيعُ أن يجتني ؟
أتقيين بعدَ طولِ التمنّي !
وأمسي بسحرهنَّ كأنّي
أنا ظمآنُ والطِّلا في يديّا !

* * *

يا لعينيكِ حينما تومضانِ !
تُلقيانِ النعيمَ في أحضاني
فأحسُّ الحياةَ ملءَ كياني
وأراني أحيا بغيرِ عنانِ
في الثلاثينَ ما أزالُ صبيّا

* * *

فاهجريني إن شئتِ أن تهجريني
وصليني إن شئتِ أن تصليني
قد عرفتُ الهوى وسرَّ الفتونِ
ورأيتُ الوجودَ طوعَ يميني
حينما كنتِ تنظرينَ إليّا !!

محمد أحمد العجمي

إلى كتاب التراجم

[هـذا خطاب مفتوح يوجهه الكاتب الإنجليزي هافلوك أليس إلى كتاب التراجم]

سادتي :

لقد قضيت في الأيام الأخيرة في صحبتكم ساعات ساعات طوالا ، قضيتها في شيء من المتعة والسرور . وإني لأعود بذاكرتي إلى تلك الساعات بشيء من الرضا يمازجه السخط ، ولذا فإني أتقدم إليكم الآن بهذا الخطاب .

أحب أن تعلموا قبل كل شيء أني قصدت إلى صحبتكم أولاً ككاتب يبحث من تلك الصفة الإنسانية العجيبة النادرة التي تطلق عليها هذه الكلمة الغامضة « العبقرية » . وأحب أن أجمع — ما استطعت إلى ذلك سبيلا — المادة التي تمكنني من الوصول إلى نتائج صادقة نوعاً فيما يتعلق بأسباب النبوغ وطبيعته المعقدة . ومن ثم ترون أني يصح أن أكون خير قرائكم . إني أقصدكم لا لأزجي أوقات فراغي ، ولا لأني أجل هذا الزعيم الديني ، أو أتبع ذلك الرجل السياسي ، أو لأني أقدس ذلك الموسيقي أو المصور أو الشاعر . وإنما أقصدكم بغية أن تحدثوني بأروع ما لديكم عن شخصية فذة معينة مهما تكن الصورة التي تبدت فيها هذه الشخصية . لأنكم جميعاً تزعمون أنكم تبذلون الجهد في عرض أمثال هذه الشخصيات الفذة . وقد بحثت عندكم عبثاً عن عرض لأعظم الشخصيات ، وأقصد « حياة الرجل المتوسط » . لقد أخذتم على أنفسكم أن تحدثوني عن الحيوات الفذة . وإني — ورأسي مفعم بالأسئلة — أتناول القلم لأسجل ما تجيبون به ، وطالما ألقيت من هذا القلم على أنه دليل على الخمول ، وزائدة لا ضرورة لها .

لهذا أتقدم إليكم الآن جامعة لأظفر بالجواب . ولطالما أصغيت إليكم في صمت واحترام . غير أن السنين أوحلت على احترامي لكم شيئاً من النقد ، وإني لأرجو عفوكم من الملاحظات التي أشق بها الآن صمتي .

إنكم — كما قلت — لا تجيبونني عما يشق علي فيما أحب أن أعرف . وسأزيدكم إيضاحاً من ذلك فيما بعد ، أما الآن فإني أحب أن أنبهكم إلى أنكم تحدثونني عن أمور كثيرة لا أرغب في معرفتها . فأنتم تحدثونني عن حياة الرجال الذين اتصل بهم البطل الذي تكتبون عنه . وتحدثونني عن ملاحظاته العادية عن الناس العاديين الذين التقى بهم في حياته ، والمدن التي تخلف فيها . وقلما تملون من إخباري بالتفصيل المسهب عن ألقاب الشرف التي أمطرها في أخريات أيامه . ولكن هذا كله ليس (بترجمة الحياة) وهناك خطأ أدق من هذا في عملكم كثيراً ما تقلبون فيه رأساً على عقب . ذلك أنكم تقومون بعمل المؤرخ . وليس المترجم بالمؤرخ . أجل إن الرجال يخلقون التاريخ . ولكننا لا نستطيع أن ندرس الفرد بالطريقة عينها التي ندرس بها إنتاج نشاط رجال عديدين . فإن أمثل الطرق للبحث في « حركة الإصلاح الديني » ليست أمثلها لدراسة شخصية لوثر ، ومن يترجم (لود) ترجمة وافيـة قل أن يصلح لتأريخ « الثورة الإنجليزية » في ذلك العهد تأريخاً وافياً ، بل إنه كلما ازداد تأهيل الكاتب للعمل الأول قل تأهيله للعمل الثاني ، لأن معالجة الترجمة تختلف تمام الاختلاف عن معالجة التاريخ ، وكثرة التدرب على الترجمة لا تزيد المهارة في كتابة التاريخ إلا بمقدار ما ينفع التدريب على عزف البيانو في إتقان العزف على الأرغن ، ولكن أكثر البارزين منكم يمارسون الترجمة بعد التدريب على كتابة التاريخ . وكثيراً ما تسود أنكم تؤدون عملاً آخر ، وبعضكم يشتغل الآن (بقاموس التراجم القومية) ، وهو عمل نافع جذاب ، وسوف يفوق بعد إنجازه أي عمل آخر من حجمه في اللغة . ولكني أقلب في أي مجلد من هذا القاموس فأنتقل من ترجمة إلى

ترجمة ، بيد أنى لا أجد ترجمة حقيقية ، فأنتم تقدمون لنا عوضاً من ذلك نبذاً من التاريخ وضعت فى غير موضعها . ومن الجلىّ أنكم قلما سألتم أنفسكم : ما هى ترجمة الحياة ؟ إنكم افترضتم فى سذاجة أنها الدور الذى يلعبه المرء فى تاريخ الحضارة ، ولكنكم بهذا الرأى تشوّهون الترجمة والتاريخ على السواء ، فإننا لا نصيب الرأى فى التاريخ إذا نظرنا إليه من زاوية الفرد الواحد ، ومن ثم فإن ترجمة حياة الفرد تاريخ مشوه ، لا جدال فى أن الرجل العظيم يحمل بين جنبيه روحاً تعاونه على خلق تاريخ الحضارة — سواء أكان ذلك فى فعاله أو مكتشفاته أو إنتاجه الفنى — ولكن سرد هذه الأعمال شىء يختلف عن الغرض من الترجمة ، كما أن وصف سطح الأرض شىء يختلف عن غرض العالم الفلكى ، مهما تكن العلاقة وثيقة بين الأرض والشمس . نعم ليس من المستحيل أن نستنبط حياة الفنان وروحه من عمله ، ولكن هذا لا يتيسر إلا ليد صناع كتلك التى مدها ليناردى إلى الكوميديا الآلهية فشرّحها تشريحا ، ولا يستطيع ذلك الكاتب الذى يتناول الكوميديا بالتعليق فيحدثنا عن كل شخص وكل مكان ورد ذكره عند دانتى . إنك إن أردت أن تؤرخ لأمة أو مدنية لا بد لك من أن تكتب عن شىء جامع معقد يختمر فيه ما أنتجه نشاط عدد كبير من الرجال لكى يثمر شيئاً يبعد عن عقول الرجال الذين خلقوه وعن حياتهم ، كما تبعد المسيحية عن عقل المسيح وحياته . إن وصف إنتاج نشاط الفرد — إذا كان هذا الإنتاج مما يستحق الذكر — إن هو إلا بمثابة المقدمة للتاريخ . أما وصف مولد الرجل العظيم ونموه كما كان على طبيعته الحقيقية من الناحيتين الجثمانية ، والنفسية — كعنقود العنب على شجرة الحياة ، لا كقطرة الكحول فى دن الدنية — فذلك هو ترجمة الحياة

ولذا فإنى أتهمكم يا من تتصدون لهذا العمل العظيم بأنكم تعملون دائماً على إغراقه فى عمل أحط منه شأناً أو على الأقل يختلف عنه اختلافاً جمّا . غير أنى رغم ذلك كنت أقنع لو أنكم مكنتمونى فعلاً من استيعاب صورة الرجل الذى له تترجمون .

لو فعلتم ذلك لشددت على خصرى نطاقى ولوّحت بيمينى ويسارى ، لكى أزيل من حولى تلك المادة الزائدة التى تكدسونها تكديسا ، وأصل رأسا إلى الحقائق الحيوية . ولكن هذه الحقائق لا وجود لها ! كم من مجلد ضخم يحوى ترجمة من التراجم أستطيع أن أختصره فى صفحتين . وأكبر الظن أن هاتين الصفحتين تكشفان لنا من الحقائق أقل مما تكشف لنا تلك الصور الحية المقتضبة التى يقدمها لنا كارليل من الرجال الذين التقى بهم مصادفة وكأنه يلقى عليهم ضوءاً خاطفاً من البرق .

ومن ثم فإن الترجمة الوحيدة المعتمدة التى لدينا من (ينج) ، والتى لم تنشر إلا بعد مدته بسنوات عدة ، يمكن أن تختزل فى ستة أسطر فيما يتعلق بالحقائق البارزة الهامة حقا ، ذلك لأن الحقيقة الفذة اللامعة فى هذه الترجمة هى صورته المنشورة . هذا بطل من أبطال العلم الذين أنتجتهم هذه الأمة متوقد الذكاء متنوع المواهب ، تضعه فى صف هارفى ، ونيوتن ، وداروين ، ويتحتم علينا أن نفقد إلى الأبد فرصة معرفته كرجل جسماً وروحا . ولم يبق لنا منه سوى صورة وجهه الجميل الذى ينم عن الطفولة ، وذلك الثغر الحلو ، وتينك العينين الواسعتين النفاذتين ، كما صوره لورنس . إن كل رجل عبقرى يحمل بين جنبيه قوة جديدة عجيبة يأتى بها إلى العالم . والمترجم من حياته هو العالم البيولوجى الذى يعرف هذه الحياة الجديدة . وإنى لأقصدكم أيها المترجمون لأتعلم منكم مصادر هذه الطاقة الكبرى ، وتلك القوى التى دفعتها والتى سيرتها فى اتجاه دون الآخر . وإنى أعترف بسرور أنكم فى هذه الأيام كثيراً ما تحدثوننى عن أسلاف البطل .

وكنتم فيما سبق لا تحدثوننى بشىء من أمهات العظماء ، وقلما كنتم تذكرون حتى أسماءهن . وهذا نقص ظاهر فى دراسة العبقرى وفهمه فهماً صحيحاً . كم كان يسرنى أن أزداد علماً بعنصر وطبيعة تلك الأم التى أنجبت ذلك القديس الذى ! كتسب محبة الإنجليز عدة سنوات ، والذى كاد قبره ينهار من كثرة ما ركع عنده حجاج شوسر ! ولكنى — مع ذلك — أقول لكم إنه بالرغم من أن العنصر والأسرة هما من غير شك عاملان هامان فى تكوين أى رجل ، فهما ليس كل شىء ، وإلا لكان إخوان البطل وأخواته أبطالاً كذلك . ولذا فلا حاجة بكم إلى أن تزجوا أنفسكم أو تزجوا بالتفصيل الدقيق عن حياة الأسلاف . بيد أنه يجدر بكم أن تحدثونا بشىء عن تلك الكواكب التى تألقت فى تكوين حياة الفرد ؛ يجب أن نعرف المؤثرات البدنية والخلقية التى أحاطت به أيام الحمل ، كما يجب أن نعرف الظروف المادية التى سبقت مولده ، وهل كان مولده طبيعيا وفى الأوان ؟ ولا شك أن دائرة أسرة البطل كانت فى وقت من الأوقات تعرف كل هذه الحقائق ، وبعضكم على الأقل كان يستطيع أن يحدثنا عنها فيوضح لنا كثيراً مما يغمض علينا اليوم ، ولكنكم قلما فعلتم ذلك ؛ بل قلما اعترفتم بأن أمثال هذه الموضوعات جزء من المعرفة ، ومع ذلك فإن مصيرنا جميعاً يتقرر إلى حد بعيد فى اللحظة التى نخرج فيها من الأرحام ، ويتلو ذلك فى الأهمية ذلك الدور من الحياة الذى يبلغ قمته فى سن البلوغ والذى ينتهى بانتهاء دور المراهقة ، فإن كل ما بقى من عوامل تكوين الفرد ينتهى بهذا الدور . لقد تم تركيب الآلة ، ودارت دورتها الأولى ، وليس بعد ذلك إلا أن تؤدى عملها فى هذه الدنيا ، وذلك أمر له أهميته ولكنه عديم الأثر فى التكوين ، إنكم مهما حدثتمونا عن السنوات الأولى من الحياة ، لن تكونوا مسهبين فى الترجمة الصحيحة وفى وصف الحياة وإننا لنرحب حتى بالوصف المفصل للألعاب والملاهى التى كان يمارسها البطل فى صباه إن تيسر ذلك ، كما حدثتنا أخت نيتشة ومؤرخة حياته عنه . وذلك لأن حياة الرجل بعد ذلك لا تزيد كثيراً من هذه الألعاب نفسها ، يلعبها البطل الآن فى أسمى مرائيه وفوق ميدان فسيح . وبعد سن العشرين تسهل مهمتكم وتتضح . وماذا بقى لكم تحدثوننا عنه بعد الثلاثين إن بلغتموها ؟ إن كل ما يحدث بعد الثلاثين أشبه ما يكون بانسياب الماء بعد انبثاقه من الينبوع العظيم ، أو انحدار الطاقة انحداراً بطيئاً . فى هذه السنوات يتراجع الرجل ويخلى السبيل لأعماله ، سواء كانت هذه الأعمال مجوماً على قلعة منيعة أو تغلباً على الألفاظ الشاردة . فجهود البطل وعمله فى الحالين واحد ، سواء فى ذلك (جدفرى) عند ما تسلق أسوار بيت المقدس أو (فلوبير) وهو يدبج رسائله وهو فوق أريكته فى روان .

ولكنى أقول — كما حاولت أن أوضح ذلك من قبل — إن مجرد التحدث عن الأعمال ليس هو مأربنا عندكم أيها المترجمون . إذا كانت أعمال الأبطال حقيقية فسوف تتحدث عن نفسها فى التاريخ أو الشعر أو فى أية صورة مما يضمن لها البقاء . إنى إن أردت أن أرى صور (فلاسكى) فإنى لا أقصدكم وإنما أقصد متحفه . ولكنى أود لو أنكم تستطيعون أن تخبرونى كيف تسنى له أن يصورها ! إذا ما فهم البطل الكامل من خلال أعماله فإن الخدمة الكبرى التى تستطيعون أداءها ، والتى أرى أنها أهم خدماتكم ، هى أن تحدثونا لا عن عمله ولكن عن الظروف التى تم فيها هذا العمل . فإن أديتم واجبكم من هذه الناحية عرفنا طبيعة القوة . ثم نريد بعد ذلك أن نعرف فى أى مسلك سارت هذه القوة . وإنى أتهمكم صراحة أنكم قلما تحاولون أداء هذا الجانب من واجبكم إلا إن كان ذلك عرضاً ومن زاوية واحدة ، وغالباً ما يكون ذلك نفاقاً ورياء . إنكم ترون أنه أيسر لكم أن تضربوا

فى أحشاء العمل وتقبل النـاس له من أن تصفوا طريقة الرجل فى الأداء ، وأى عامل عاقه أو عاونه على الأداء . وكثيراً ما تحبون أن تصوروه لنا وكأنه يؤدى عمله مرتدياً حلة من الحـديد لا تخترقها سهام الضعف الإنسانى . وإنكم لتقصرون عند ما تتناولون رجـلا حقيقياً — كأبراهيم لنكلن ، وهو رجل إلى عز الرجال — يسرد حياته سرداً قوياً معتمداً ، وفى خلال ذلك تفقدونه الحياة حتى يصبح كالدمية المتحجرة . ويبدو لى أنكم كذلك الغلام الذى ورد ذكره فى الأمثال والذى لا يرى مولاه بطلا من الأبطال . إن البطل فى ميدان القتال قد يكون جباناً فى يد طبيب الأسنان ، والرجل الذى استطاع أن يواجه ثورة اشتراكية فكرية قد تعوزه الشجاعة لكى يسير فى إشْنْ جروف (يشير هاتفوك أليس بذلك إلى رجل مشهور من كبار المفكرين) . إن هذه الأشياء لا تضعف البطولة ، وإنما هى جزء منهـا ، فالمرء لا يستطيع أن يكون قوياً فى ناحيتين فى آن واحد . ولابد أن تعرف موطن الضعف عند الرجل قبل أن تعرف قوته معرفة صحيحة . وكثيراً ما يكون ضعف البطل مصدر قوته . ذلك الضعف الذى يقول عنه هِتْشُن إنه طريق المقاومة السلبية الذى سلكته الطاقة الطبيعية الأصلية لتحل بالرجل ، وتستطيعون أن تستغنوا عن سرد ضروب الضعف بالتفصيل إن رأيتم لذلك مبرراً — وهناك ما يبرر ألا تكون الترجمة سرداً تاريخياً مشيناً بسمعة الرجـل — ولكنكم إن أبيتم أن تدونوا هذا الضعف فقـد أخطأتم فهم وظيفة التراجم فهماً سادقاً ، وليس تاريخكم إلا أكذوبة حدثتم فيها عن قواعد الأخلاق كما تحيد عنها أية صورة من الحياة غير صادقة . إن حب ميخائيل أنجيلو الرجال حباً أفلاطونياً آثر فى نحت تماثيله ، وحياة فكتور هوجو العائلية الفارغة لم تكن مدعاة الصلة بمثله العليا فى الطهارة السماوية . والأدب ملىء باقترافات متعاطى الأفيون ومدمنى الخمور وما إلى ذلك مما لم يذكره المترجمون صراحة . إن شجرة الحياة لتفسد فى صميمها لو أنا سلبناها هذه الاتصالات ، ولم نشر إلا إلى الأوراق والزهور التى يسميها الناس « خلقية » ، وتجاهلنا الجذور التى يسمونها قذرة « غير خلقية » ، وربما كانوا فى ذلك متأثرين بنفاقكم وريائكم . يجب ألا يثنيكم شىء من الاعتراف بأن أخيل كان له عقب يتأثر بطعن السهام[1] فإنكم لو فكرتم فى الموضوع تفكيراً صحيحاً لعلمتم أن أخيل بغير ذلك العقب ما كان ليحشر فى زمرة الأبطال .

لقد أشرت مرة أو مرتين إلى وظيفة التراجم . وإنى لأسائل نفسى أحياناً : كم منكم يا ترى فكر فى حقيقة هذه الوظيفة ، وكيف تعدون أنفسكم عادة لهذا العمل ؟ وإنى لأحس أنكم قد تعتبرون سؤالى هذا إهانة لكم . ولكنى رغم ذلك أشير عليكم بالتفكير والتدبر . إن الروائى لا يمهر فى عمله إلا بعد الفشل ، وربما صادفه الفشل مراراً كما حدث لبلزاك وزولا . وقلما يفلح الروائى لأول وهلة . والروائيون الذين اشتملت مواهبهم بين عشية وضحاها انطفأت فيهم جذوة هذه المواهب كذلك بين عشية وضحاها . والتراجم التى بين أيدينا اليوم تشبه ما كنا نتداول من قصص إذا لم يخرج لنا إلا قليل من الروائيين أكثر من محاولاتهم الأولى الناقصة التى صدرت منهم أيام التمرين . مع أن القصصى يتولى عملا صعباً إذا قيس إلى عمل المترجم ، فهو يصور حيـاة الأشخاص السذج الذين يخرجهم من بنات أفكاره .

واذكروا أن ترجمة حياة الفرد ليست وحدها الفرع الوحيد فى باب التراجم . فإلى جانب ترجمة حياة الفرد هناك

---

(١) إشارة إلى الأسطورة اليونانية التى تقول بأن أخيل كان محصناً فى كل جسده ضد السهام إلا فى موضع واحـد وهو عقبه الذى يمكن أن تخترقه الطعنات .

دراسة حياة الأجناس البشرية — أو دراسة حياة الجماعة ويحتاج مؤرخ حياة الجماعة — مثل أدولف باستيان — إلى تدريب تمهيدى فى علم الحياة وعلم النفس وإلى علم واسع فى الأدب ، وبحث شاق خلال رحلات يقوم بها بين الهمج المتطرفين ، وإلى تنبه مستمر لصغار التفصيلات . ولكن هل يقر مؤرخ حياة الفرد راضياً أن حياة الجماعة أحق بالدراسة الجدية من حياة عظمائها ؟ اذهب إلى المتحف البريطانى أو إلى معهد الدراسات الإنسانية وانظر إلى مجموعات الصور الفوتوغرافية التى تدعو إلى الإعجاب ، والتى يصور بها مستر بورتمان كل خطوة فى تطورات الحياة بين (الأندامانيين) فى صنع القوس والنشاب مثلا ، أو انظر — إن استطعت — إلى الصور الشمسية الرائعة التى يسجل بها مستر إم تيرن هنود غينا ذوى البشرة السمراء الجميلة ، فى كل مرحلة من مراحل عملهم وبخاصة ألعابهم . أليست صياغة المقطوعة الشعرية التى تخترق قلوب الرجال فى كل الأجيال جديرة بالدرس كصنع الرمح ؟ وهل لا يثير الرجل النابغ بجمع الأصداف من سواحل الأبدية الاهتمام ، كما تثيره ألعاب الهمج ! ومع ذلك فقلّ من يحسب أن البحث فى الطريقة التى ألف بها (بيرنز) أغانيه أو صاغ بها (نيوتن) نظرياته جدير بالعناية . لقد كان يكفيهم أن يقولوا هذه الكلمة المقدسة « إلهام ! » ثم يضطجعون على ظهورهم مطمئنين . ولكن علماء التشريح لم يدركوا أسرار التنفس بهذه الطريقة ! .

إن تاريخ حياة الفرد شبيه كل الشبه بتاريخ حياة الجماعة . فتاريخ حياة الجماعة صورة حياة جنس من الأجناس ، وتاريخ حياة الفرد صورة دقيقة لحياة رجل واحد . وكلاهما فرع من فروع علم النفس التطبيقى ، وهى طريقة دقيقة للبحث العلمى . ولم يكن علم النفس إلى عهد قريب طريقة دقيقة من طرق البحث ، وكان الفيلسوف يستوى فوق مقعد وثير يكتب تاريخ النفس البشرية فى استخفاف ، كما يجلس المترجم حتى هذه اللحظة ليكتب تاريخ نفس واحدة . وقد انقضى هذا العهد فيما يختص بعلم النفس البحت . وأصبح علم النفس علماً صحيحاً لأول مرة منذ أسس (ونت) من عشرين عاماً مضت أول معمل لعلم النفس . وفى ألمانيا والولايات المتحدة — وهما الدولتان اللتان نتطلع إليهما اليوم للاستنارة فى هذا العلم الجديد — علمتنا مجهودات منشتربرج وبرور وستانلى هول وجاسترو وسكربتشر كيف نصل بالطرق الدقيقة إلى إدراك أسرار العمليات العقلية للرجل المتوسط . ولا يجرؤ اليوم أحد أن يسمى نفسه عالماً نفسياً إلا إن كان يألف طرق هؤلاء الرجال العاملين وما وصلوا إليه من نتائج . وقد زج قليل من علماء النفس فى إيطاليا وفرنسا بهذه الطرق فى بحث الشواذ من الرجال . وقام أوتولنق بفحص ميدان الفكر الذى يجول فيه بعض النابغين من الرجال ، كما قام بينى بتتبع الطرق التى يسلكها بعض كتاب المسرحية فى التفكير فى مسرحياتهم وفى كتابتها ، أمثال دعاس وجنكور وساردو ومياهاك وبخاصة دى كيرل ، ووصل إلى نتائج شائقة جداً . ولكن كم من المترجمين بذل جهداً — مهما تكن المادة الميسرة ناقصة — فى تعريفنا من قلب شخصية كبيرة مبتكرة أو من ذهنها الجبار ؟ والمترجم مع ذلك يزعم أنه يعرض علينا « حياة هذه الشخصية » وكم مترجم يدرك أنه عالم نفسى وأن قواعد فنه قد وضعت الى حد بعيد — وأستمتع فى ذلك مثر الباحثين الحقيقيين .

إنى على يقين تام أيها السادة أنكم تحسون إحساساً غريزياً بأن ما قدمت لكم هراء باطل . ثم إن عليكم واجباً للجمهور ، وهو يدفع لكم بسخاء على عمل تؤدونه على عجل ، لأن الجمهور عنده شعور قلق بأن شهرة الرجل العظيم تفسد إذا لم تلتهم عاجلا . ثم إن عليكم واجباً آخر نحو الأقرباء والأصدقاء الشخصيين للبطل الذى تؤرخون له ،

في ضيافة الشعر العربي :

قصائد شرقية

— ٦ [١] —

الأميرة زبن النساء الشاعرة الفارسية

مُسرِقَ القلبُ كنزَهُ ترك القلبُ مهملا
ابق ياقلب ما حييـ ـتَ ملوماً مُعَنَّداً لا
آن أن تذرف الدمو ع ذليـلاً ومخجلا

* * *

بيـدى أوقد اللظى فى محاريب معبدى
فتمشى لهيبـه فى فؤادى وفى يدى
الأمانىّ كاللظى أحرقت جسم مُوقِد

* * *

نارُ طيشى تبدلَّت بلهيبٍ من الندمْ
فلعلى يُراح قلـ ـبى قليلاً من الألم
أنا فى بحر حبكم غائب الرأس والقدم

* * *

أنا فى القاع راسب لست أطفو من التعب
بحرُ حبٍ إذا مشى نحوه عاشق رسب
يحمل الموجُ جسمه لحظةً ثم ينسحب

* * *

فيك ياقلب وحشة وحشة البيد فى الغلس
طاف بى الحب فانجلت وحشة القلب والنفس
أصبح القلب جنةً عندها الأنس يلتمس

* * *

لو تحولتِ يا أخا سبس قلبى أغانيا
لغدا الحزنُ نغمة تترك السمعَ صاديا
مثل داود فى المزا مير يشدو قوافيا

(١) هذا الرقم هو ترتيب القصيدة فى الطبعة الانكليزية

وهم لا يعاونونكم إلا إذا قدمتم لهم شخصية سمحة محتشمة محافظة على التقاليد مهذبة لا غبار عليها ولا شية فيها ، حتى ينظر إليها الرائى دون أن يجد فيها مغمزا . ثم إنكم قد تقرون فى النهاية أنكم فى الأعماق لا تثقون فى أنفسكم أو فى قرائكم ، فلا تجرؤون على مس البطل من موطن ضعفه — أو على جذب الثور من قرنيه .

ولا شك فى صحة هذا . وإن فيه لكثيراً من الصدق ، ما دمتم تكررونه خلال السطور فى كتبكم فى جد وغير انقطاع . ومع ذلك فقل من الرجال من لم تمت شهرته بين عشية وضحاها ، وبقى حياً بعد ما بات أقرباؤهم وأصدقاؤهم تراباً من التراب . وهذه الحالات النادرة هى التى تحملنى أسائلكم : هل من الحكمة أن نضحى بمصلحة العالم فى سبيل مصلحة جيل زائل ؟ ألا يجدر بنا أن نلبث خمس سنوات — أو حتى خمسين سنة ، أو إن اقتضى الأمر خمسمائة سنة — ثم نظفر فى النهاية بسجل أبدى مُلْهِم لذلك الروح العظيم ؟ ألا يجدر بالمرء أن يعد من الغافلين قرنا ثم يصبح فى النهاية من الخالدين ؟ إنما الرجل الوضيع هو الذى يرتعد من إمكان الحصول على ترجمة الصبوح كترجمة بوزول لجونسن ، أو أحاديث مع هومر كأحاديث أكرمان مع جيتة ، أو مجموعة لذكريات شيكسبير كتلك التى جمعها فرود ؛ وهو الذى يخلق جواً يجعل إنجاز هذه الأعمال من الصعوبة بمكان . وهذا الجو فى نفس الوقت هو الذى يجعل من الممكن أن يوجد نوع من البطل نادر فى الدنيا — وذلك هو البطل المترجم .

وعند هذه النقطة أحب أن أختم خطابى . إن كتابة الترجمة ليست عملا يسيراً . إنما هى عصارة حياة طويلة شاقة ، ولا تتم إلا فى وجه عقبات تعدو الحصر ، وأهوال تفوق الوصف ......

محمود محمود

أنا في الحقل كالطيو ر وعيني إلى الثمر
لم أجد فيه حبة بل دموعاً على الزهر
ودموعاً من السما ء جرت تشبه المطر

***

هذه حفلة الهوى قائم ما بينها المرح
ابقه يا حكيم فيـ ـها وحاذر على القدح
أنا في ميعة الهوى أطلب الصفو ما صلح

***

بك يا مختنق نعا س يطغى على النظر
بلغ الهم حده هذه غاية السهر
فاسترح واطلب السكو ن في ظله القمر

***

– ٣٤ –

أكان حتماً علينا ألا نصل فرادى
ولا نسافر عشراً في دورنا آحادا

***

إني أصلي وحيداً فقد مقت الرياء
وما أبالي أجهراً شربتها أم خفاء

***

وفي الطريق سنلقى من شعلة الوحي نورا
وأكثر الناس عمي والنور يهدي البصيرا

***

جفت دموعي لما غاضت ينابيع نفسي
لم يبق في جدب قلبي سوى بلابل خرس

***

مقدر كل شيء قضي في يوم خلقه
سيان خيراً وشراً كل على قدر حقه

***

فكيف تطلب حظاً يربو على حظ غيرك
تريد إغفاء خيرك ؟ تريد تخفيف ضيرك ؟

***

يا مختفي كيف تنجو من لوم أبناء جنسك
كتمت منهم هداء تخفيه في حب نفسك

***

إن يسألوك لماذا فضلت نفسك عنهم
فهل تطيق جواباً إخفاء وجهك منهم؟

(عن الترجمة الإنجليزية) عبد اللطيف النشار
وحسين محمود البشبيشي

بين النقاد والـكتاب

ضايق النقاد الـكاتب الروسى الـكبير إيفان ترجنيف واشتدوا عليه ورموه بأنه لا يعرف روح عصره ولا يحسن تصويره ، وكان الرجل فناناً شاعراً لا يجيد صناعة الجدل ، ولا يحسن فن المهاترة ، فرأى أن يهدى إلى النقاد طرفة من شعره المنثور عنوانها « السخيف » وفيها يقول :

— كان يعيش أحد السخفاء .

وقضى ردحاً من الزمن آمن السرب ، هادىء البال راضياً قانعاً ، ولـكن ذاع عنـه فى الآفاق شيئاً فشيئاً أنه عاى الذهن فسل الرأى .

فحز ذلك فى نفسه وأحفظه وأهمه ، فأخذ يشحذ ذهنـه الـكليل ويكد فـكره ليهتدى إلى حيلة تنقذه من هذه السمعة ، وتبطل تلك المقالة .

وأخيراً أومضت فى ذهنه الخابى الضئيل فكرة ... وبدون أدنى تردد أخذ فى تنفيذها .

لقيـه أحد أصـدقائه فى الطريق وبدأ يثنى على مصور معروف .

فصاح به السخيف : أؤكد لك أن هـذا المصور قد أصبح من الطراز العتيق الذى مضى أوانه ، وأنا أعجب كيف تجهل ذلك ؟ ومثل هذا لا ينتظر منـك ... أنت يا صاحبى متأخر ...

فأخاف ذلك الصديق فسارع إلى مشايعة السخيف على رأيه .

وقال له صديق آخر : لقد قرأت بالأمس كتاباً بارعاً !

فقال له السخيف : أنا أعجب لك ، هـذا الـكتاب لا قيمة له على الإطلاق ، وصدقنى أن كل ما فيه أشياء مبتذلة قد لاكتها الألسن ، ومجتها الأسماع ... ولست أدرى كيف غاب عنـك ذلك ؟ ... أنت متـخلف من العصر .

وأفزع ذلك الصديق فبادر إلى موافقة السخيف والأخذ برأيه .

وقال له صديق ثالث : لله صديقنا (ن . ن) ما أنبـل أخلاقه ! لقد آمنت بأن فى الدنيا رجالا كرام النفوس !

فصاح به السخيف : إنه وغد زنيم يخدع النـاس ويغرر بهم ، وقد عرف الناس جميعاً عنه ذلك ... أنت يا صاحبى متأخر جداً ... !

فهال ذلك الصديق ، وأقر السخيف على رأيه ، وهجر صديقه .

واتخذ السخيف هذا المذهب ولم ينحرف عنه ، فكان كلما ذكر فى حضرته ثناء على أحد أو على أى شىء من الأشياء انبرأ عليه بالانتقاص والزراية والتحقير .

وفى بعض الأوقات كان يضيف إلى ذلك قوله لمحدثه : ألا تزال تؤمن بهؤلاء الذين يسمونهم العارفين الثقات ؟

وأخذ أصدقاء السخيف يقولون عنه : إنه حقود شتـام ولـكنه مشتعل الذكاء لامع التفكير !

وكان غيرهم من الناس يقولون : ما أحد مقوله الصارم ! وكان يضيف البعض إلى ذلك قوله : لا جدال فى أنه نابغة !

وانتهى الأمر بأن أحد أصحاب المجلات اقترح على السخيف أن يتولى كتابة العمود الخـاص بنقد الـكتب

وأخذ السخيف يصول ويجول ناقداً كل شىء ، محقراً كل إنسان ، دون أن يغير أسلوبه ولهجته ، أو يطامن من عنفه وشدته .

وأصبح هذا الذى كان يفخر بازدراء المراجع والاعتماد على أقوال الثقات إماما يؤتم به ويستضاء برأيه ، وصار الشبان يعبدونه ويخافونه .

وماذا يستطيع أن يصنع هؤلاء الشبان الصغار !

كانت القاعدة العامة عدم توقير أى إنسان ، ولـكن الذى يقصر فى احترامه وتوقيره سيغدو متخلفاً عن العصر

والسخفاء صرعى خصيب فى نفوس الجبناء ...

وهجا ابن الرومى أبا عيسى بن القنوط بقصيدة مليئة بالسب والإقذاع . والتهمة الخطيرة الموجهة إلى الرجل فى رواية ابن الرومى نفسه هى ما يأتى :

أتانى عنك أنك « عبت شعرى »
وما زلت المضلل فى قياسك

ولست أشك فى أن ابن الرومى من أعظم شعراء العربية وأقدر شعراء العالم ، ولكنه كان سخيفاً سخفاً مزرياً حينما سخر عبقريته فى هجاء إنسان ذنبه الوحيد أنه عاب عليه بعض أبيات من إحدى قصائده الكثيرات الطويلات ! وبعض كبار الخالقين فى الأدب والفن تنقصهم الروح العالية ، والخلق العظيم ، وفيهم من أخلاق النساء الولع الشديد بالثناء ، وحب التدليل ، وهم يصدقون المدح المبالغ فيه ، ويطمعون فى المزيد منه ، ويضيقون ذرعاً بالتقدير المعتدل ، والاحتياط فى التشجيع ، وربما عدوه تقصيراً فى حقهم وإهداراً لمكانتهم .

ويتطرف بعض الشعراء والكتاب فينكرون فائدة النقد على الإطلاق ، وليس ذلك عجيباً ، فإن هناك من ينكر قيمة الشعر والتاريخ ، وإذا كان هناك من يشك فى قيمة الحياة نفسها فليس من المستنكر أن يزهد فى أى مظهر من مظاهرها . وقد وجه إلى النقاد الكثير من اللوم والتأنيب ، وقذفوا بمختلف التهم ، وقيل عنهم إنهم كتاب أخفقوا ، وشعراء أخطأهم التوفيق ، وخذلتهم مواهبهم ، وأرادوا أن يثأروا لعجزهم ، ويستروا تقصيرهم ، فعمدوا إلى معالجة النقد لينالوا من الشعراء والكتاب . وقد قال الوزير السياسى الأديب دزرائيلى فى رسالة له إلى أحد أصدقائه : « أتت تعرف من هم النقاد ، هؤلاء الذين أخفقوا فى الأدب أو الفن » ، وقال كولردج عن النقاد : « النقاد فريق من الناس لو استطاعوا لكانوا شعراء أو مؤرخين أو كتاب تراجم ، وقد جربوا ملكاتهم فى معالجة هذه الألوان من الأدب ولما أخفقوا انقلبوا نقاداً . »

وهــذا رأى خطير ، وكلام غير مأدوم بالسداد ، ولا يرغمنا على احترامه صدوره من رجال ممتازين مثل دزرائيلى أو كولردج أو غيرهما من الأعلام . والعبقريون فى الأغلب الأعم شديدو الشعور بالنقد ؛ فإذا عاب الناقد عليهم شيئاً ضاقوا بالنقد جميعه ، وبعض المؤلفين يقولون إنهم لم يفيدوا من النقد ، ولكن النقد ليس هدفه الأول أن يفيد المؤلف أو يعينه ويأخذ بيده ، ولكنه برغم ذلك قد يصلح من شأن المؤلف ويجنبه الكثير من المزالق ويوجهه توجيهاً حسناً ، والناقد يكتب للقارىء قبل كل شىء لا للكاتب أو الشاعر ، وهو يكتب ليمتع القارىء ، أو ليرشده ويهديه ، ولعله — على الأصح — يكتب ليمتعه ويرشده معاً ، فهو يستثمر المتعة فيما يقرأ . ويمكن أن نسمى نقده فيض العواطف والأفكار التى أثارها فى نفسه الكتاب الذى قرأه ، وحماسة الناقد تثير حماستنا وتحفزنا فى دورنا إلى قراءة الكتاب والاستمتاع به ، وقد أجاد أناتول فرانس فى قوله عن النقد « إنه مخاطرات الروح بين الطرائف » .

وأخطاء النقاد كثيرة لا يحركها الحصر ، ولكن لهم ظروفهم المختلفة ؛ فمن الطبيعى أن ينظر الناقد بشىء من الحسد إلى الخالقين الموهوبين الذين يعبرون فى يسر وسهولة عن أحزانهم ومسراتهم ، ويرخون العنان لخيالهم الوجد ، وعواطفهم الجائشة ، فى حين أنه محروم من هذه القدرة الخارقة ، ولا يحسن سوى التحدث عما ينتجه الغير وشرحه وتفسيره . والمؤلف ينام ملء جفونه ، ويستيقظ فيرى نفسه مشهوراً ، كما حدث للشاعر بيرون ، تردد شعره أعذب الأفواه ، وتقرأ قصصه أجمل العيون وأرق النفوس ، وتأتيه كلمات التشجيع والإطراء من كل صوب ، ثم ماذا يبقى من الناقد ؟

يبقى من حياة الناقد بعد موته بعض جمل ونصوص وأحكام يحفظها الطلبة ويرددونها ترديد الببغاوات ، وهم

يلعنون اسمه واليوم الأسود الذى ولد فيه . أما خلفاؤه من النقـاد أتراهم ينصفونه ؟ كلا ، لأنهم إذا أنصفوه ، واعترفوا بفضله وكفايته ، وصحة أحكامه ، وصدق نظراته ، فمـلى من إذاً يتعالون ويتفيهقون ، ويظهرون الحصافة والعمق ، والأستاذية والتمكين ، واللقـانة والأصالة ، والطرافة والتجديد ؟ فتنقصه والغض منه وإظهار ما فى آرائه من الاعوجاج والشـطط يكاد يكون فريضـة عليهم ليسوغوا بها مكانتهم ، وليكونوا مجددين ! وربما كان بعض هؤلاء النقاد فى عصور مجدهم يخفضون ويرفعون ، ويخملون ويشهرون ، ويخلقون من النكرة معرفة ، ويحيـلون المعرفة نكرة .

والخلاف القديم بين النقاد والمؤلفين لاينتظر أن ينتهى ويتم التفاهم بين الفريقين . والنقد ملـكة من الملكات الإنسانية اللازمة المطلوبة فى كل عصر ، وكلما تـكاثرت الـكتب وتعقدت المشـكلات ازداد اعتمادنا على إرشاد الناقد البصير ، وطلبنا إليـه أن يجلو لنا الغامض ، ويمهد السبيل للقراءة المنتجة المجدية ، وأن يرينا كيف نفهم الـكتب ونخلص إلى سرها ولبابها ، لنسـتطيع بعد ذلك أن نتحدث عنها فى الأندية والمجتمعات ، ونظهر بمظهر ذوى العـلم الراجح ، والمعرفة الراسخة ، والذوق المهذب المصقول ، وليعرف النـاس جميعهم من بدو وحاضرة — أننا عصريون غير متخلفين عن قافلة الزمن ! وبعض الناس قد لا يحجم عن ارتـكاب الجرائم ، وإتيان الـكبائر ، ومصاحبة الشياطين ، خشية أن يرمى بالتخلف والجمود ! وأمثال هؤلاء يجدون فى اتباع آراء النقاد أيسر السـبل ليتراءوا فى صورة المجددين العصريين !

والناقد فى العصر الحديث يحتاج إلى ثقافة واسـعة وعلم غزير ، ولا معدى له عن الدراية بعلم النفس وعلم الاجتماع وفلسفة الجمال . وحقيقة أنه كثيراً ما يتمخض الجبل فلا يلد إلا فأراً ، ولـكن الاعتماد على الذوق وحده فى نقد الـكتب لا يكفى ، والنقـد لا يخلق العبقريات ولـكنه قد يشحذ المواهب والملـكات ، ويعينها على التفتح والازدهار ، وهو الوسيط بين جمهور القراء والمؤلفين الخالقين ، والنقد فى العصر الديمقراطى شأن ملحوظ ، والواجب الملقى على عاتق الناقد خطير . وحقيقة أن العبقرية تشق طريقها ، وتخلق جمهورها ، وترغم الناس على سماعها ، ولـكن طريقها قد يكون شاقاً ممتلئاً بالأحجار والصخور ؛ ومما يجدى على المجتمع أن يتأثر بالـكاتب الـكبير فى حياته ، والنقاد الأكفاء هم أقدر الشراح والمفسرين ، فهم عنصر قوى فى تقوية القدرة على الحـكم والتمييز ، وتهذيب الذوق والشعور بالجمال . ولقد قال ليناردو دافنشى : « الناس ثلاث طبقات : طبقة لا ترى الأشياء ، وطبقة ترى الأشياء عند ما تبصّرها بها ، وطبقة ثالثة تستطيع أن ترى بنفسها » فأهل الطبقة الأولى ينصرفون عن الأدب الجيد ، والفريق الثانى ينتظرون المفسر البارع ، والدليل الحرّيت الذى يريهم رؤيا الفنان ، ويجلو غامضها ، ويكشف سرها . والفريق الثالث كثيراً ما يشتغلون بأنفسهم ، ولايقومون بواجبهم . والناقد الصالح هو الذى ينهض بهذه الفرائض ويحتمل هذه التبعات ، وعصور الخـلق العظيم فى الأدب والفن كثيراً ما يسبقها ويمهد لها عصور نقـد ، وتمحيص لمحاولات الأدب والفن ، والقوى الناقدة لازمة للحضارة لزوم القوى الخالقة .

علي أدهم

حقنة واحدة

بدأت الفكرة كضرورة حرب ، فكان رجال البحرية في كل ميناء حب جديد ، وكان يغمرهم شعور الذي لن يعود أبداً ، ويأس الذي قد يموت غداً ، فلم يكن البحار يبالي في علاقاته الجنسية بحماية نفسه من الأمراض السرية ، وإذا أصيب بالسيلان هز كتفيه في استخفاف الذي يعتقد أنه قد يكون غداً أو بعد غد الصنف المفضل على مائدة الأسماك والحيتان ، فلتذهب جرثومة السيلان معه إلى الجحيم ما دامت هي التي شاءت هذا لنفسها . أو قد يبدأ العلاج بحماس الذي يود لو تخلص من عذاب المرض ، ثم لايلبث أن تستهويه مبهجات السويعات الباقية من إجازته القصيرة ، فيقول ياليت الماضي يذهب إلى غير عودة وياليت المستقبل القريب لا يأتي أبداً ، فلأعش دقائق أو سويعاتي الباقية ، فلقد أراحتني بضع الحقنات الأولى التي أخذتها ولأتمم العلاج من باكر . وقد لا يأتي باكر أبداً . مع مثل هؤلاء تحير طبيب البحرية ، فدبت فكرة علاج السيلان بحقنة واحدة من البنسلين .

أحدث اكتشاف البنسلين تطوراً هائلا في علاج السيلان . فكان العلاج لسنين مضت طويلا مرهقاً يحيل بعده المرض إلى الإزمان مهما بذل الطبيب من جهد ، وكان علاج مرض الزهري رغم بشاعة اسمه يبدو رحلة سهلة ميسورة مضمونة النتائج ، فكانت تكفي للشفاء منه بضع حقن ، بعضها في الوريد وأخرى في العضل ، لايلبث المريض بعدها أن ينقى دمه ويتطهر من أدران الداء الخبيث . أما السيلان فكان علاجه مسئولية كبرى اختص المريض منها بجانب الآلام وطول المدة ووخيم العواقب من إزمان إلى عقم مستعص إلى نكسات متكررة ترهق حديدي الأعصاب والذي ورث من أيوب صبره المثالي . أما الطبيب فقد كان يبذل الجهد تلو الجهد ويطبق كل ما جد في ميدان العلاج من وسائل تبدو الآن من أساطير الأولين ، فكان ينجح حيناً ويفشل حيناً ، ويرقب من كثب مظاهر الملل في وجه مريضه فيطلب منه التمسك بأهداب الصبر حتى يلوح بريق الفرج أو حتى يأذن الله بالشفاء .

وفجأة لاح في الظلمة نجم جديد خطف بريقه الجواري الواقفات . وهتف المريض والطبيب : ما هذا الضياء الذي ملأ الفضاء ؟ وما هذا الحسن المجسم في قرص أبيض لم ساحة الكف منه المئات ، والذي إذا ابتلع طرد من الجسم دنيء الحشرات ؟ نعم ، ظهر السلفاناميد بمشتقاته الجذابة ، وأصبح علاج السيلان أيسر من ذي قبل . وأصبح الداجينان والسيبازول أسمى علم ، وتعلق بهما ضحايا المرض ، وصار تعاطي هذه الأقراص العجيبة عن طريق الفم وسيلة الهجوم على الجرثومة في مخابئها بين ثنايا المسالك البولية ، فهي تفرز في البول بعد امتصاصها من الأمعاء ، وتسيح معه باحثة منقبة من الأوكار المتخمة بالجراثيم ، وتنقض كصاعقة ذرية فتشل منها القدرة على الحركة والتكاثر والمقاومة ، وتسلمها لوسائل دفاع الجسم الطبيعية لتتولى أمرها ، وينتهي الأمر في الغالب بانتصار الجسم البشري بعد معركة سلمية لاسلاح فيها ولا ألم .

ثم جاء البنسلين . هـذا العملاق الضخم الذي هو لفرط حقيقته كالماء ، يخاله التائه الظمآن سرابا ، ويحسبه المصطلي بالجحيم لجنة متدفقاً وبابا . ولقد علم منـذ الأيام الأولى من اكتشافه أن مفعوله ضد جرثومة السيلان حاسم وأكيد . فصار يعطى بنفس النظام المتبع في الأمراض الأخرى ، أي يحقن ١٠,٠٠٠ وحدة في العضل كل ثلاث ساعات لمدة خمسة أيام أو أكثر . ولما كان هـذا المرض سرياً فلا عجب إذا طالب المصاب به بتبسيط إجراءات العلاج واختصارها ، فهو دائماً أبداً يظن أن كل العيون ترمقه في ريبة وإشفاق ، ويعز عليه كثيراً أن يوخز بالإبر أياماً طوالا من ممرض أو ممرضة عالمين بمرضه ، أو قد

بصايقه تردده على عيادة طبيبه بضع مرات أثناء النهار على مرأى من رواد العيادة وعامل المصعد والتسكعين من معارفه على مقهى قريب . لم يرسل المريض الصيحة فى أذن طبيبه ، بل كانت الرغبة شعوراً مكتوماً خرج من القلب فصادف وتراً حساساً فى نفوس أطباء مرهفى الحس أمثال ماسكلان وهاريسون وميتلند وهاموند ، فابتدعوا طريقة علاج السيلان بحقن ثلاثين ألف وحدة من البنسلين كل ٣ ساعات حتى يأخذ المريض خمس حقن ، أى أن المريض يتناول ما مجموعه مائة وخمسون ألف وحدة فى نهار واحد . وقد ثبت أن الجرثومة تختفى فى كل الحالات تقريباً بعد ساعتين إلى أربع ساعات ، ثم سرعان ما يتحول الإفراز من صديدى إلى مخاطى ، ثم لا يلبث أن ينقطع تماما خلال أربع وعشرين ساعة . وفى الحالات القلائل التى لا تشفى تماماً ، يكرر العلاج بنفس الطريقة فى اليوم التالى ، وعندها لا مفر من الشفاء إلا ما ندر .

امتدت رأفة الطبيب الواسعة إلى مدى أبعد من هـذا فسأل نفسه : ألا يمكن علاج هذا المرض بحقنة واحدة ؟ . فجاء الجواب على لسان روماسكى وموريل ورينهان الذين أجروا تجاربهم على مستحضر البنسلين مذاب فى زيت الفول السودانى المقم ، ويحتوى السنتيمتر المكعب الواحد منه على مائتى ألف وحدة من البنسلين . وعندما يحقن سنتيمتر واحد فى عضل الألية تحدث المعجزة الكبرى ! يتحول الإفراز من صديد إلى مخاط بعد مدة تتراوح بين ساعتين واثنتى عشرة ساعة ، وفى المتوسط ثمانى ساعات ، ويختفى الافراز كلية بعد مدة تتراوح من ٢٤ إلى ٤٨ ساعة . أما جرثومة السيلان فإنها تختفى من الإفراز بعد ست ساعات . والغرض من إذابة البنسلين فى الزيت هو الاحتفاظ به لأطول مدة ممكنة فى موضع الحقن ، ومن هناك يرسل على دفعات متواصلة يمتد إرسالها طوال اليوم نفسه ، فيتأكد استمرار مفعوله المدة المطلوبة . أما مستحضرات البنسلين المائية فإن آفتها سرعة الامتصاص الموضعى وسرعة الإفراز فى البول ، فيفقدها الجسم بسرعة ما لم تسعفه بنجدة أخرى بعد ثلاث ساعات من الحقنة السابقة ، وهذه هى الحكمة فى جعل المدة بين الحقن فى علاج البنسلين ثلاث ساعات .

وقد يؤدى علاج الحقنة الواحدة إلى بعض الالتهاب الوضعى المصحوب بغضاضة وألم ، وقد يصحبه ارتفاع فى الحرارة وصداع وغثيان وقشعريرة ، ولكن كل هذه تهون إذا صح ما أنتجته النتائج الأولى لهذه الطريقة .

أيها البنسلين ؟ إلى أين المستقر ؟ لك معجزات كم أنقذت من أرواح ، ولقد شفيت السيلان فى أيام فشكرناك وسبحنا بحمدك ، ثم شفيته فى يوم واحد فزدناك تمجيداً وحمداً . فماذا تقصد إذاً بمعجزة الحقنة الواحدة ؟ إنك تضع فى أيدى بنى البشر سلاحا يمكنهم من القضاء على جرثومة السيلان بعد بدء غزوها بساعات ، فتقطع منها الرأس والذنب قبل أن يستفحل أمرها وتنخر فى جسم المريض أو تنتقل منه إلى مخالطيه . لقد أرسلت إلى ابن آدم رسالة عملية سهلة إلى عتبة داره وكلك رجاء أن يستغلها لمصلحته فينقرض مرض السيلان ويصبح أسطورة تاريخية . ولكن لهفى عليك أيها البنسلين عندما تصبح زيل الأكواخ بعد أن كانت تشنيك القصور ! وا حرقى عليك عندما تمل اسمك الأذن وتعتاد رؤيتك العين ! سوف يستعملك ابن آدم لسبب ولغير سبب . وليس هو الجرثيم بالغافل الذى تظنه . إنه يتنهز هذه الدفعات المتقطعة غير المنتظمة منك فيستعد لها ويولد فى نفسه مناعة ضدك تزيد تدريجياً حتى يأتى اليوم الذى تهاجم فيه فتجد عدواً صامداً فترتد متعجباً ذاهلا ! وهذه الظاهرة موجودة فى الوقت الحاضر فى قلة من الناس ، وقد تصبح القلة كثرة مع مرور الأيام والأعوام ، وقد تفقد هيبتك وصيتك لأنك سلمت سرك كله لابن آدم الذى لا يؤتمن على سر ولا يعترف بجميل ، بل لن يتورع بعد أن يستنزف دمك ويمتص خيرك حتى الثمالة ، أن يلقى بك فى أقرب ماخور ثم يدير ظهره فى غير مبالاة ، ويولى وجهه نحو الأفق باحثاً عن صيد جديد .

دكتور مصطفى الديواني

هملت

ذهبت لأشهد « هملت » على مسرح دار الأوبرا الملكية حيث قام بدور البطل الممثل المعروف « جون جيلجود » وفى ذهنى العبارة التالية : « إن مسرحية هملت بعيدة كل البعد من أن تكون غرة شكسبير ، وهى من غير شك عمل فنى فاشل (١) » . وقائل هذه العبارة ت . س . اليوت وهو أكبر النقاد وأبعدهم صوتاً فى العالم الأنجلوساكسونى . ومذ أسدل الستار غرقت فى بحر من التأملات ... عجباً ! هل يمكن أن يخطىء النقاد كل هذا الخطأ ! ولم أنقطع من التفكير لحظة فيما عسى أن يكون قد أوحى لهذا الناقد الكبير بمثل هذا الرأى وخلف فى نفسه ذلك الأثر .

فى سنة ١٩٢٣ كتب اليوت فى مقال له من « وظيفة النقد » يقول : « إن الفرق بين ما هو كلاسيكى وما هو رومانتيكى يبدو لى أنه الفرق بين الوحدة والجزء ، بين الناضج والفج ، بين المرتب والمشوش » (٢) . وقال فى موضع آخر فى « محاورة عن الشعر التمثيلى » على لسان إحدى شخصياته : « للوحدات جاذبية وسحر يؤثران فىّ بلا انقطاع » وهو يتحدث بعد ذلك عن القوة والتركيز اللذين يساعد التزام هذه الوحدات الثلاث على تحقيقهما . ولكن يجب أن نقلب الصفحات لكى نعثر على ما يوضح لنا ملاحظته عن هملت إذ يقول : « كل ما أعرفه هو أن هناك شيئاً ينقص شكسبير فى مسرحياته ، وهى تترك فى نفسى عند قراءتها شعوراً بعدم الرضا والانزعاج . وإنى أعتقد أن هذا الشعور يستولى على كثير من قارئيها » (٣)

وفى الحقيقة لم تثر قصة مسرحية من المناقشات والتعليقات والتفسيرات كما أثارت « هملت » ، فقد كانت دائماً صعبة المنال على الأفهام ، وكان علينا أن ننتظر إلى أواخر القرن الثامن عشر حتى نجد بين النقاد من يستطيع أن يستخلص شيئاً له قيمة من شخصية هملت . وقد وجد بينهم من أصدر نظريات مضحكة ، فزعم بعضهم أن هملت لم يكن غير امرأة متنكرة وقعت فى غرام هوراشيو ، أو أن هملت شاب بلغ به الأمر من الخبث والدهاء أن اخترع قصة الشبح لكى يخلع عمه البرىء من العرش . وتساءل أحدهم فى حيرة عن السبب الذى جعل هذا الأمير الشاب لا يقضى فى الحال على حياة مغتصب التاج . ثم عاد وأوضح الأمر بقوله : إنه لو فعل شكسبير ذلك لانتهت القصة قبل أن تبدأ .

فإذا تركنا هذه الآراء السخيفة جانباً ، فما هو الاعتراض الذى يمكن أن يوجه من ناحية النقد ؟ إن القصة تدور كلها حول دراسة شخصية هملت الفريدة ، فإذا أخرجناها من القصة فإنه لا يتبقى شىء . كما أن هذه الشخصية التى تجتذب وتسحر تبدو غامضة غير مفهومة . ولعل النقد الذى يوجه إليها بسبب غموضها وإبهامها ، هو نفسه السبب فى ذلك السحر وتلك الجاذبية ، فهى صورة من الحياة . ألا تبدو الحياة فى كثير من الأحيان غامضة وغير مفهومة ؟ ثم إننا لا نعجب بهملت لأنه سر مستغلق فقط يحار فى فهمه العقل والمنطق — وإلا فإنه يكون من أيسر الأمور رسم شخصيات غير مفهومة . ولكن ما يثير إعجابنا ويمتلك حواسنا هو ذلك التناقض الظاهر فى شخصه ، هو ذلك المزيج من القوة والضعف ، من سمو الإدراك والخيبة والشقاء اللذين قضى بهما عليه ، وتلك هى المأساة .

إن هملت يبدو لنا غامضاً لأننا لا نتبين سبب تردده الذى يتأتى منه شقاؤه ، فهو لو انتقم لأبيه ولنفسه لزال

(١) ت . س . اليوت ، صفحة ١٢٣ (Selected Essays), « Hamlet and his Problems »

(٢) ت . س . اليوت صفحة ١٥ , (Selected Essays) (The Function of Criticism)

(٣) ت . س . اليوت صفحة ٤٦ , (Selected Essays) (the Function of Criticism)

سبب عذابه وحيرته . ولكن لماذا لم يأخذ بثأره في الحال بعد أن ألقى إليه الشبح بذلك النبأ المحزن ؟ لقد رأينا « لايرتس » يذهب إلى الملك في غير تردد يبغي محاسبته ، وكان الملك بريئا من دم أبيه ، فكل ما اقترفه من ذنب هو أنه لم يحاكم القاتل — أي هملت — وترك الجثة تدفن من غير احتفال . ولكن الملك ارتكب في شأن هملت أشنع وأقبح ما يرتكبه إنسان من جرائر : قتل أباه لكي يحظى بأمه وينعم بالتاج ، فهو قاتل وفاسق ومغتصب . وقد رأينا لايرتس أيضاً ينجح في إثارة الشعب وتأليبه على الملك ، وقد كان هملت حريا بأن ينجح في ذلك ، وهو الذي يحبه الشعب ويحترمه ويجل ذكرى أبيه . فهل كانت أمام هملت عقبات خارجية تحول بينه وبين الانتقام ، ولا سبيل إلى التغلب عليها ؟ ربما قيل إن الملك كان محاطا دائما برجال البلاط وكان حرسه السويسري يسهر عليه . ولكن هملت عثر عليه مرة وكان وحيداً راكعا على قدميه يصلي ، لا يستطيع دفاعاً عن نفسه . ونحن إذا صدقنا هملت في قوله إنه لم يرد أن يدع روح عدوه تصعد إلى السماء وهو يبتهل إلى الله مخافة أن تغفر له ذنوبه ، فإننا نعتقد أن هذا ليس كل ما في الأمر ، وأن هملت تذرع بهذه الحجة التي قدمها له القدر لكي يسوف في ساعة الحساب ... ذلك التسويف الذي كان سبباً في كل ما وقع من بلايا : قتل بولونيوس وموت أوفيليا وإعدام روزنكرانس وجولدنشترن ، ثم موت لايرتس وموت أم هملت وموته هو آخر الأمر .

كلا لم يكن هناك عامل خارجي ولم يشر هملت نفسه إلى شيء من ذلك . بل كان يؤكد دائما أن في وسعه أن ينفذ أمر الشبح وأن لديه « الحافز والإرادة والقدرة والوسائل » . كان سبب التردد إذاً داخليا . . . كان عاملا نفسيا . . . فما هو ؟ هل كان ضميره لا يستريح إلى ارتكاب جناية حتى ولو كانت لتغسل آثار جناية سابقة ؟ هل كان يأنف من الثأر للدم بالدم ؟ كلا ، فإن هملت كان يردد دائماً أنه « ينبغي » أن يثأر لأبيه . وحتى عندما كان نهبة للشك ، فإن هذا الشك كان بشأن حقيقة الشبح ومقدار الصدق في قوله ، ولم يكن بشأن ما ينبغي له أن يفعل إذا كان الشبح صادقا ... أهو عامل الجبن والإشفاق ؟ لقد وجه إلى نفسه هذا السؤال ، ولكن هملت لم يكن بالجبان . . . بل إنه أبدى في مواضع عدة شجاعة ظاهرة . . . فليس جبانا من اندفع صوب الشبح لدى ظهوره لأول مرة أمامه بالرغم من تحذير رفاقه له ، فإذا حاولوا منعه من اتباعه خشية على حياته ، هددهم بالقتل . وليس جبانا من كان لا يخاطب الملك من غير أن يكون في كلامه إهانة له ، ولا يتحدث إلى بولونيوس — ومكانه لدى الملك ملحوظ — من غير أن يسخر منه . وليس جبانا كذلك من أشهر سيفه لدى سماعه صوت استغاثة خلف الستار في غرفة أمه وغرسه في صدر من صاح . وليس جبانا من قاتل القرصان أثناء الرحلة إلى انجلترا ، ومن صارع لايرتس في المقبرة ، ومن اندفع صوب الملك بعد المبارزة كالقدر المحتوم أو كالعاصفة ، وأغمد السيف في صدره وأرغمه على تجرع السم وهو يستغيث بحاشيته دون أن يجسر واحد منهم على التقدم لإنقاذه . وليس جبانا أو خائرا من اختطف الكأس المسممة من يد هوراشيو وهو صريع يعاني سكرات الموت . . . وأخيراً لم يكن عامل الشك في صدق الشبح هو السبب في التسويف ، فقد قضى مشهد التمثيل الذي هيأه هملت بكل مهارة على كل شك .

فإذا لم يكن ضميره يقف حائلا أمامه ، وإذا لم يكن الجبن هو الذي قعد به عن تنفيذ ما أراد ، وإذا كان يعتقد في عدالة قضيته ويثق في نفسه ، ولديه الوسائل لتحقيق غايته ، فما هو إذاً ذلك العامل الحق الذي جعله يتردد كل هذا التردد ويبطيء كل هذا الإبطاء ؟ . قال بعض النقاد : إن « هملت » هي مأساة الفكر ، وإن سبب تباطؤ البطل هو التردد وإن سبب تردده هو اعتياده التفكير

والتحليل . فالمفكر هو الفتى « أضنى على مرآته ذلك اللون الباهت » كما يقول هملت نفسه . ويؤيد شليجل هذه الفكرة بقوله إن هملت « بطل في تيه الفكر » .

ويرى كولريدج كذلك أن ما لدى هملت من القدرة على التفكير يعادل ما لديه من كراهية للعمل ، ومصدر هذه الكراهية هو نفس تلك القدرة . كذلك يقول بروفسور داودن : « إن كل شيء ، وكل حادث يتحول في نفس هملت إلى فكرة » ، وهو يعزو ذلك إلى تربيته وثقافته اللتين لم تكونا مطبوعتين بالطابع العملي . فما مكان هذا الرأي من الصدق ؟ ليس من شك في أن شدة العزم تضيع هباءً من كثرة التفكير ، وأن الانهماك في التحليل والتقليب والتدقيق يشل الهمة — إلى حد ما — ويورث القعود عن العمل . قلت إلى حد ما ، لأننا إذا تأملنا سير كبار المفكرين والفلاسفة لوجدنا بينهم الكثيرين ممن كانوا ذوي همة قعساء ، وذوي عزم وتصميم ، وأن كثرة التفكير والتحليل لم تمنعهم من القيام بجلائل الأمور . وليس من شك في أن تفكير هملت المستمر كان يشل حركته ، وأن الأعمال التي قام بها في غير تردد مثل قتله بولونيوس وقتله الملك ، وقعا مفاجأة ، وقد دفع إليهما دفعاً بسبب طوارئ لم تكن في الحسبان ، ولم يكن لديه وقت للتفكير فيهما . . . في حين أنه عندما وجد الملك يصلي استل حسامه ثم أخذ يحلل وقال مخاطباً نفسه : « إن الأمر يدعو إلى التفكير » ، فكانت نتيجة التفكير والتحليل أن هبط الحسام من يده . ولكنني لست أميل إلى الأخذ بالقول إن عادة التفكير والتأمل كانت السبب المباشر في تردده . وإنما أعتقد أنها لعبت دوراً هاماً في إيجاد حالة نفسية معينة كانت هي السبب المباشر في ذلك الجمود وذلك القعود عن العمل . هذه الحالة النفسية المعينة هي كما يرى برادلي كآبة عميقة وحزن شامل استوليا على نفسه وروحه . ونحن ندرك منذ أول كلمة في مناجاته الأولى لنفسه أنه متعب من الحياة ، برم بها ، راغب في الموت ، ولا يرده عنه غير عامل الدين وخوفه مما بعد الموت . فما سبب ذلك ؟ موت أبيه ؟ إن موت الأب لا يجعل الإنسان — مهما بلغت حساسيته — شقياً كل هذا الشقاء ، يكره نفسه ويلعن العالم ويشمئز من الوجود ومن الحياة ... ثم إن هذا السبب لا يمكن أن يكون فقده التاج ، فهو لم يشر إلى ذلك مطلقاً وكانت نفسه أكبر وأسمى من التفكير في ذلك الأمر ... ولكن السبب كما يظنه هو تلك الصدمة العنيفة التي هزت أعماق نفسه وروحه وزعزعت أركان ثقته في كل شيء بسبب سلوك أمه ... أمه التي كان يحبها ويحترمها ويثق فيها ... أمه التي خانت عهد أبيه قبل أن ينقضي شهر على موته ، فرآها هملت في أحضان عمه وهو رجل كريه فاسق سكير يمقته ويحتقره ... « إن الوحش ليحزن أكثر مما حزنت » . وهو لا يعتبر ذلك زواجاً ولكن فسقاً ، فهي لم تتزوج لأن خير المملكة يقضي بذلك ، ولم تتزوج بحافز حب قديم متأصل ، ولكنها تزوجت إرضاء لشهوة حسية . كان ذلك أكثر مما يحتمل... كان امتحاناً قاسياً لعواطفه ومشاعره ... كان جرحاً بليغاً أصاب روحه المهذبة . وقد تبدلت نظرته للحياة وللإنسان ، وأصبحت كلمة « امرأة » مرادفة لكلمة « ضعيف متهافت » . وصار لا يرى أوفيليا بنفس العين التي كان يراها بها من قبل . وكان يكفي أن تقال أمامه كلمة « قصير الأجل » لكي يردد في الحال « كحب المرأة » . وكانت آخر كلماته في مناجاته لنفسه : « ولكن لتتحطم يا قلبي فإنه يجب أن أمسك لساني » ... ثم يجب أن يتألم من غير أن يتكلم ، وأن يرى الجريمة أمامه من غير أن يتحرك . ولكنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير .. فهو خيالي بطبعه ، والتفكير حياته ، وقد تسمم فكره ، وأخذ السم يسري في كل جارحة فيه . ولذا فهو يصيح : « هل يجب أن أذكر ؟ » ... « فلأكف من التفكير

فى هذا الأمر » ... ولكن أنى له ذلك ! .

تلك الحالة النفسية هى التى جعلته يشعر بالتعب من الحياة والرغبة فى الموت . وهذه هى اللحظة التى اختارها القدر القاسى لكى يطلق عليه الحقيقة المرعبة من عقالها فتبدت له فى كل بشاعتها : لقد قتل أبوه وزنت أمه وعليه أن يأخذ بالثأر .

هذه الكآبة هى المحور الذى تدور القصة حوله ، وهى التى توضح لنا كل شىء ... توضح لنا الغموض فى شخصية هملت والتناقض الظاهر فيها : طيبته ونبله ورقة حاشيته وإرهاف حسه وكراهيته للشر وعاطفة الصداقة النبيلة لديه وعبادته لأبيه وازدراؤه لعمه السكير وأمه المنقادة لشهوتها ، واحتقاره للنفاق والخداع والادعاء . ومن ناحية أخرى ظهوره بمظهر المجرد من العاطفة عند قتل أبى حبيبته وعند إرساله لرفاقه فى المدرسة لحتفهم وهما بعيدان عن الجريمة التى ينبغى إنزال القصاص بمرتكبها ، وكذلك خشونته لأوفيليا وقسوته عليها وتوجيهه العبارات النابية لها فى غير مبالاة أثناء مشهد التمثيل . ذلك التناقض بين نشاطه الذى يظهر فى ترتيب مشهد التمثيل وإقدامه ومهارته فى قلب الخطط التى دبرها الملك لإعدامه فى انجلترا ، وبين جموده وخموله وقعوده عن العمل . ذلك التناقض بين حماسه لهذا العالم وإعجابه بالأرض والهواء والسماء وخصوصا بالإنسان ، تلك « القطعة الفنية » ، الإنسان بتفكيره السامى وقدرته العظيمة ، الشابهة للآلهة فى إدراكه وفى أفكاره التى « تتجول خلال الأبدية » ، وبين نفوره من كل ما يتصل بهذا العالم وتعبه من الحياة وطموحه إلى الفناء .

هذا التناقض هو السر فى ذلك السحر الذى يفيض من تلك الشخصية العجيبة المتناقضة ، إذ أن الحالة النفسية ما كانت لتؤثر فينا كل هذا التأثير ، لو لم يكن إلى جانبها تلك الحالة الفكرية الفلسفية التى أصيب بها هملت . فهذا التناقض بين عبقريته فى التفكير وخيبته فى العمل ، بين مواهبه العالية التى كان ينبغى أن تكون من أسباب نجاحه فإذا هى نفسها سر فشله ، بين سمو أفكاره وبين ضعفه وخوره إزاء عمل بسيط لا يحتاج إلى جهد ، بين قوة الحافز وبين ذلك الجمود والتراخى ... ذلك التناقض بين لا نهائية الروح وبين الدائرة الضيقة المحدودة التى يحبس نفسه فيها ، وذلك الإحساس بالقضاء الذى لا سبيل إلى التخلص منه والذى يرسم حدود تلك الدائرة ويبدو فى نفس الوقت ثمرة تلك اللانهائية . هذا هو ما يطبع القصة بطابع المأساة ، ويعطيها ذلك اللون القاتم المؤثر . . وهذا هو ما يخيفنا فى هملت ، إذ أننا نجد فيه صورة المصير المشئوم الذى ينتهى إليه عباقرة الفكر حينما تمتد ظلال الكآبة إلى نفوسهم ، ويبرز الشك لهم ... وهذا هو ما جعل اليوث يحس بذلك الإحساس من عدم الرضا والانزعاج لدى قراءة هملت .

عبد القادر السماحى

قصة:

دمعة ...

كان اسمها صبيحة . هذه الفتاة القاهرية الحسناء والتى لم تكن تحلم يوما أن تظفر بفتى مثل فيروز زوجا لها . لولا أنه خشن جاف . ولكنه لم يكن مثل سائر الفتيان . كان من ذلك النفر القليل الذى يثق من نفسه فى خلق وبأس قد تميز عندها دون سائر أصحابها وأصحابه .

وكان حبه لها حبا طاغيا قاسياً ، لا تكاد تقرأه إلا فى عينيه النفاذتين تغالبه عزة الرجل أن يذل ، لولا أنه حب عرفته ينطلق به قلبه يئن وهو مكبوت .

وكانت قد عرفته منذ كانا معا فى كلية واحدة أثناء مرحلة التعلم . ولم يكن بينهما غير نظرات يعجز عن معناها اللسان ، ثم ضربت بينهما الأيام حتى لقيته عرضا فى عمله الذى يعمله وسمع لقلبيهما دقات كانت منذ كانا طالبين .

لكأنه يبدو لعينيها اليوم إنساناً جديداً ، قد صقلته التجارب ومحصته الأحداث ، فغدا أرزن مما كان عليه منذ عرفته . وقد طالما أعجبت بعفو بساطة مظهره ، يتأبى رجولته أن تكون إلا حيث يكون الرجل ، منذ كانت تهوى أن تراه يذل لها ذل أصحابه . ولكنها رجولته وكبرياؤها .

وقد طالما كان يغالب تهالكه عليها ، وإنها لتعلم بفطرتها مبلغ مغالبته لهواه .

وودت لو كانت تبذل له فيقبل عليها وإن لها لعفة . .

وأما اليوم — إذ هما يلتقيان — فقد تجاوب الصدى لنفسين تآلفتا وذكرى الأيام الخوالى . .

وعرفت عند ذلك أنه وحده بغية القلب وأنس الفؤاد .

وإذا الشجن يحييه اللقاء . وإذا هو يحل من قلبها ما لم تكن تتوقع أن يحل منه .

ومضت الأيام ...

وخطبها لنفسه .

وأمنية بلغتها . .

* * *

... ... وكانت وهى مستلقية بجواره فى مركبة القطار تشعر بالأسى بداخلها ، إذ لا يستطيع أن يرى أهلها قبل أن يصحبها معه إلى أهله . وحبذا لو كان يفعل . إذاً لرأى هذه الضياع الواسعة التى يمتلكها أبوها فى أرياض القاهرة ، ثم قصرها الجميل الأنيق تحف به الحدائق الغناء . ولقد كان يحق لها أن تفخر به عندهم . ولقد كانوا يفخرون به متى عرفوا من يكون فتاها هذا .

ومضى القطار يدوى ويصفر ، وهى إلى جواره حالمة تفكر . فما عسى أن يقول أهله . وهل تقع فى قلوب أمه وأخواته — اللواتى تسمع لذكراهن نفسه — بما تهوى أو قد يستكثرنه عليها . ولعلهن ممن قد يصعقن لو علمن أن فتاة مثلها تقبل على الزواج على غير معرفة بأهلها وأهله . هذا الأسلوب الرجعى البالى الذى خلفته الحرية وراءها منذ زمان بعيد .

والطريق يتقاصر ، والقرية تدنو ، وإن لقلبها لوجيبا ، وإن ضربانه لتعنف . فهلا يكون من الخير أن تبقى فى نزل مجاور — لو كان — تهيأ للقاء . ويكون لها فرجة من الوقت تغتنمها لاستقبال أهل الخطيب الحبيب !

والخيال إبداع فى نسجه الجميل ، إذ تدنو قريته . فهذه أمه يحفها الوقار فى « دوارها » يحوطها الخدم والحشم ينتظرون مقدم الابن الواحد العزيز ... وخطيبته .

وكأنما كانت تشعر بالضعف وبالحاجة إلى هذا الذى يشد من أزرها ، ويقويها . وإذا هى تتحرك إليه فى مجلسها لتلتصق به ، لعلها أن تجد فى قربه ما يخفف منها . ووصلا .

ولم تجد أحداً فى استقبالها . والطريق وعر إلى القرية التى كانت على مبعدة من محطة القطار ، يتعثر فيه سير

العربات . ولذلك لم يخبر أهله بموعد قدومه . ولكن . . هلا تكون أمه — وقد علمت — قد امتنعت عن إرسال المركبة تقله وهذه القاهرية المتصبة « المتفرنجة » الخطيبة التى ترتضى بالزواج بغير المقدمات . .

وأشرفا على القرية ، وكأنه أبى أن يخلص إلى الدوار من طرفها إلا أن يجوس خلال أزقتها فيذكر الماضى الجميل وملعب صباه . . بالحنين القوى !

وشعرت برغبة ملحة فى أن تتجنب هذه القرية الوحشة التى انقبضت لها نفسها لتشرف من فوق ربوة بعيدة عنها على دواره الضارب فى أعماق الخضرة والنبات والزهر .

وبينما كانت فى لجة من أفكارها إذا هو يقبل عليها باسماً وقال :

— سميحة أغمضى عينيك ، فالدار على خطوات من المنحنى القادم ، وحذار أن تفتحيهما قبل أن آذن لك .

وأغمضت عينيها . . كانت جميلة فاتنة مغرية ، كاد يقبلها لولا الوقار وأهل القرية .

ودارا مع المنحنى . . بضع خطوات . وفتحت عينيها ثم نظرت .

كان البشر يفيض من وجهه وهو يمسك بيدها كأنها طفلة ثم قال وهو يشير بيده : هناك .

ووقفت تنظر . . . . . .

. . ورفعت إليه وجهها ، ولا تكاد تقوى على الوقوف ولا على النظر ، قالت : أتعنى !

قال : نعم هذه الدار التى فوق « الدكان » ، إنه محل تجارتنا ، وأمى صاحبته . لو رأيت أمى يا سميحه إذاً لصدقت أنها طيبة جداً ، ولقدرت ما قد تحملته فى تربيتى .

وخيل إليها كأنه لا يزال يتكلم ، على أنها لم تكن تقوى على أن تصدق أذنها ولا أن تصدق عينيها ، هذا « الدكان » للتجارة الريفية والبيت الخرب وأمه !

وكانت صدمة لم تكن تقع فى حسبانها شعرت لها برعدة أخذت أطرافها ، وقلبها !

وغاض لون وجهها الذى علاه قطرات من العرق البارد !

وإذا ضباب من الحسرة يغشاها وكأن العمر قد تقدم بها فهدأ من سعيها إذ هى تمشى بجنبه .

وأبى الظن أن يكون إلا حكماً . وأنه قد غرر بها فغلب عليها شعور من المقت له . ومن الاستخفاف .

فكيف . . كيف يجرؤ ؟ هلا كان يعرف فى أى بيت نشأت ؟ وهل لم يسمع أحاديث القوم من أصحابها عن أبيها وعن ثرائه ومن الضياع والخدم والعربات والخيول ؟

أين هذه أو بعضها مما ترى الساعة ؟ !

كيف ، وأين ! ؟

أى هذه « الرؤى » تصدق وأيها تكذب ؟ وإنها لرؤى لولا أنها فى اليقظة !

وخيل إليها كأنه لا يزال يتحدث ، وكأنه يفخر ، ثم سمعته وهو يقول : وسيحبونك يا سميحة .

يحبونها ! هلا كان الأجدر به أن يقدر كيف يتأتى لها هى أن تحبهم !

وأقبلت عليه أمه تضمه إليها وتقبله وتتحسس أجزاء جسمه كأنها لا تصدق أنه رجع إليها .

واستضحك « فتاها » إذ ينظر إليها إذ تقبله أمه وهو يقول : هذا شأنها معى دائماً يا سميحة .

ثم قدمها إلى أمه ، فحيت ورحبت وناشدتها أن تجعل من بيتها « بيتاً ثانياً » لها حتى تعود .

« بيتاً ثانياً » . . ؟ كيف يتحدث هؤلاء الناس ! وهل علموا أنها زوجة أو خطيبة أو . . رباه !

أهذه سيدة « الدوار » الذى كانت تتشوف لأن تراه وكانت تخشاه ! وهذه الأحاديث والفظاظة . إنهم لا يعرفون حتى كيف يتحدثون مع من نشأت مثل نشأتها وفى طبقة مثل طبقتها التى تنتمى إليها .

وجعلت تستعرض أفراد العائلة الكريمة ! أخت وأخت وثالثة وأبناؤهن وبناتهن يتوائبون عليه ، ثم أمه ، صاحبة الدكان ! الصفيقة القاوية القاسية التي صرفت عليه وأنشأته !

كانت تنظر إليها في شيء من الريبة ، وهذا الوجوم يغشاها في حسرة وألم .

وتحلقوا « الخوان » عقيب جهد السفر !

وجيء بالذي حضر من الطعام على عجل حتى يتجدوا « الست » فإذا كان المساء هيأوا لها ما تحب وما يتناسب وقدرها الكبير .

كانت تتحرك بينهم كأنها آلة ولا يعنيها مما حولها إلا دنياها من الشرود والوجوم . فما هذا الطعام الذي تصف أطباقه فوق الخوان ؟ وهل هي كانت في حاجة إليه ؟ رأى طعام ! وأية وسيلة في تقديمه ! أين منها نظام التأنق بينها !؟

أيها الخيال الضال ! سحقاً لك .

لو أجازت لنفسها عاطفة هوجاء أشائها فصورته أبعد من حقيقته ، فكيف فاته هو أن يقدر مكانتها منه فيزيل الفارق ؟

وقد تمضي بها الذاكرة إلى زعمه أن أهله قوم رقيقو الحال ، ولكنها كانت تحمل منه زعمه هذا على محمل التواضع وليس على هذا الواقع المر .

ورفعت إليه وجهها الذي دلت قسماته على مبلغ ما تضطرب به نفسها من اللوعة والشجن .

ونظر إليها .

وهي لمحة خاطفة كان حسبه منها أن ينفذ إلى هذا المعنى الذي فاض منها

وغشيته غاشية من عزة طعينة لم يشأ أن تلحظها شيفته ولكنها كانت قد قرأت في عينيه معنى لم تكن لتدركه إلا في لمحته !

وإذا الضباب الذي كان يغشاها ينجاب عنها شيئاً بعد شيء .

واختلجت نفسها خلجات واهنة إذ تراه طعيناً ، ويعز عليه أن يعاود النظر إلى التي رمته كأنه يخشى عليها حتى وهي تدميه .

وتحرك إليهم في رقة وهي تبتسم كأن لم يكن ثمة إلا من جهد السفر لولا أنها دمعة !

دمعة كبيرة كانت لا تزال تترقرق في عينيها .

فهل كانت .. أو هي دمعة الـ ..

أو لعلها ..

لست أدري !

ياقوت صبري

بين المسموع والمقروء

مارتن لوثر مؤسس البروتستانتية

وسارت الحوادث بعد ذلك سريعاً . ذلك أن البابا بعث إلى لوثر بأمينه ، فون ملتتس Von Miltitz ، ليأتى به إلى روما بطريقة ما . ولكن الأمين المسكين لم تطأ قدماه ألمانيا حتى وجد الأمة كلها قائمة على قدم وساق . فعاد يقرر لسيده أن خمسة وعشرين ألفاً من الجند ، على أتم أهبة ، وفى أثقل سلاح ، لا تكفى لإخراج لوثر من مربضه

وفى يوليو عام ١٥١٩ ، بمدينة أوجزبرج ، وقعت مناظرة كبيرة بين لوثر ، وبين رجل ذى حجة فى النقاش غلاّب ، لم يكن لوثر قد لقى مثله من قبل . وكان هذا الرجل الدكتور جون إيك John Eck . جرّ لوثر فى المناقشة جراً ، حتى حمله على الدفاع عن مبادىء فى الدين أحرق جون هوس John Huss ، المصلح التشكى ، من أجلها منذ قرن سبق . فثبت لوثر على ما رأى ، ودفع وقطع فى غير مبالاة . وانتهى النقاش بأن أخذت الدوائر البابوية تجهز ما لم يكن منه بدّ ، ذلك المرسوم الذى يقضى على لوثر بالطرد .

وقبل أن يأتى المرسوم ، غرق لوثر فى عمله وغلا . فإلى جانب واجباته العادية ، فى عام ١٥١٩ ، كتب رسالات ثلاثين ، من بينها كتب ثلاثة كبيرة ، دعا الأمة الألمانية فى إحداها إلى الإصلاح ، دينياً ، واجتماعياً ، وسياسياً . وشغل فى نشر ما كتب بضعةً من مطابع لم تعرف إلى التراخى سبيلا .

وجاء المرسوم أخيراً . وصل ألمانيا فى خريف عام ١٥٢٠ ، وقضى بالزيغ على ما كتب لوثر من كتب ورسائل ، وناشد المؤمنين أن يحرقوها . وقضى على لوثر بالطرد من الناس المسيحية ، وأنذر كل من شايعه أو حماه بالطرد أيضاً . واقتبس المرسوم مما كتب لوثر إحدى وأربعين قضية كلها كفر وضلال ، خرج منها بالحكم عليه أن يخرج من كنيسة الله ، إذا هو لم يتُبْ ولم يثُبْ ، فى بحر ستين يوما .

وفى العاشر من ديسمبر ، من نفس العام ، فى مدينة فيتنبرج ، على مشهد من حفل عظيم ، قام لوثر فأحرق مرسوم البابا عمداً وإعلاناً .

وبهذا أطلقت الطلقة الأولى فى الصراع الذى لم يكن فيه من تراجع .

وفى الثالث من يناير عام ١٥٢٠ ، أعلن البابا أنه يطرد لوثر من كنيسته طرد زنديق كافر . وكان معنى هذا الموت للوثر . ولكن أمير سكسونية كان من قراء لوثر ، فصمم أن الأستاذ لابد من استماع له ، ونقاش قبل القضاء عليه .

لقد كان طرد لوثر من الكنيسة أمراً متوقعاً . فكان أن الامبراطور شارل الخامس ، الامبراطور الرومانى ، كتب إلى الأمير فردريك الألمانى أن يرسل لوثر إليه ، إلى المجلس الامبراطورى الذى يترأسه فى مدينة ورمز Worms فى عام ١٥٢١ ليدفع عن نفسه إذا هو شاء ، فى حضرة زمرة من العلماء . وركب لوثر فى أبريل عام ١٥٢١ يطلب مدينة ورمز . ركب فى عربة مغطاة هيأتها له مدينة فيتنبرج . وصحبه فى سفره الناس فكان موكباً لجباً . ولما دخل المدينة حيث انعقد المجلس حتى تصايح له الناس من واقدهم يثبتونه حتى لا يرجع عما قال .

ودخل الزنديق الأعظم قاعة القصر وعلى فمه ابتسامة . وفى القاعة وجد منضدة عليها ركام من كتب ، عشرين عدداً . فسألوه : هل هذه كتبه ، وهل هو مستردٌ بعض ما قال فيها أو كله ؟ أما عن السؤال الأول فأجاب بأنها لم كتبه وأنه كتب كثيراً غيرها . أما عن السؤال الثانى فطلب مهلة ليجيب . فأذنوا له بمهلة أربع وعشرين ساعة .

فقضى الليل فى محبة من أصدقائه يتشاورون

وطلع الصباح فقام لوثر أمام قضاته مرة أخرى . وألقى عليهم بياناً ، وزن كلماته ، وشبر مقاطعه ، فكان فيه حذر ، وكان إحكام ، خلاصته أنه لا يسترد مما قال إلا ما ثبت من الانجيل أنه الباطل . فلم يعجبهم هذا ، وطلبوا إليه أن يجيب بلا أو نعم . وعندئذ قال : لن أستطيع أن أسترجع ولن أسترجع شيئاً . ذلك أنه ليس من العدل ولا من الخير أن يعمل المرء بغير وحى من ضميره . ورفع بصره إلى السماء وهو يقول : منك العون يارحمن ، آمين ، آمين .

وما فاه لوثر بهذه الكلمات الحاسمات ، حتى زاط الجمع واختل النظام . أما الاسبانيون فصاتوا غضباً . وأما الألمان فصفقوا ابتهاجا . ولم يعد خافياً على أحد أن الأمة المسيحية أخذت تتشطر . ولم يسع الامبراطور إلا أن يؤجل الاجتماع

وبعد أسبوع ترك لوثر مدينة ورمز يطلب بيتسه فى فيتنبرج . ولكنه لم يبلغه سريعاً . فقد عاقته العوائق دونه

ذلك أن الامبراطور شارل كان قد أمضى وثيقة يدمغ فيها لوثر بالكفر ، ويصف آراءه بالمحنة ، ويأمر الناس أن لا يقرأوا كتبه ، ولا يُنزلوه من بيوتهم منزلا ، وأن يقبضوا عليه ويُسلموه للشرطة .

وبينا لوثر ماض فى طريقه ، إذ قبض عليه خمسة رجال مسلحون ، هم رجال صديقه الخلص ، الأمير فريدريك ، وحملوه سراً إلى قلعة من قلاع الأمير . وفى القلعة بذل له قائدها من الضيافة ما يُبذل للأمراء ، فسامت من دسم الطعام صحته .

وفى منفاه هذا ، من مايو عام ١٣٥١ إلى مارس عام ١٥٢٢ ، كتب لوثر مجلداً ضخما من عظات ، ومقالة عن الرهبنة وما يعطيه الراهبون والراهبات من عهود ، أهداها لوالده . وفى الأشهر الثلاثة الأخيرة ترجم الإنجيل — العهد الجديد — ترجمة بارعة من الإغريقية إلى الألمانية .

وفى فيتنبرج هذه أخذت الثورة تنتشر انتشار النار فى الهشيم . ففى كل ليلة ظهر مصلح ، وفى كل نهار نبت مصلح . ولم تمض أشهر حتى أدخل المصلحون فى مدينة فيتنبرج عدداً عديداً من الاصلاحات كاد يؤدى بالمدينة إلى الفوضى . وقام رجال يفترضون على الناس رفض الحكومات جميعاً من مدنية أو دينية .

ولم يكن بد أن تخلص بالنظام من هـذه الفوضى يد قوية . فاعتزم لوثر أن يعود . أحس بتبعته فى تنظيم هـذه الثورة ، وفى تدعيمها وفى تنظيمها ، وهو الذى بدأها ، فنزل إلى الميدان خشية أن يتولى عنه قيادها الشيطان .

وأخبره صديقه الأمير ، أن الدوق جورج قد يختطفه فيبعث به إلى البابا . فأجاب لوثر أنه لا يهتم بالدوق ، ولا يخاف ولا ينكص ولو ظلت السماء تمطر الدوقات سبعة أيام متواليات . وخرج من مخبئه فى اليوم الأول من مارس عام ١٥٢٢ ، وعاد إلى فيتنبرج ، وأخذ يخطب الخطب متتابعة متلاحقة . خطب خطباً ثمانياً فى ثمانية أيام ، فعملت فى الفوضى الضاربة عمل السحر ، فبددتها كما يبدد شعاع الشمس الطالعة ضباب الصباح .

ومن فيتنبرج ذهب إلى مدن أخرى ، يخطب ويعظ ويتعاون مع السلطة المدنية ، ويعين فى كبح الفتنة ، ويؤسس دينه الجديد على أسس متينة . ووجد الناس قد رأسوه وهو لا يدرى على حركة امتدت فى الأوسط من أوربا ، والشمال منها — حركة لها خطرها الكبير الواسع من سياسى واجتماعى ودينى .

وجرى الزمن سريعاً ، واشتغل الإمبراطور الرومانى ، شارل ، فى حربه فرنسا وحربه الترك ، ولما عاد من بعد ذلك يجمع مجلسه الإمبراطورى فى مقاطعاته الألمانية ، فى أوجزبرج ، وجد الحال قد تبدل أى تبدل . ولم يكن أنفذ أمره فى لوثر . ولم يكن مستطاع أن ينفذه الآن . وكيف يفعل وقد أجمع خمسة من الأمراء العظام ، وأجمعت معهم أربع عشرة مدينة حرة ، أجمعوا على الدفع عن

شاعرة

دنياي هذي أم رُؤى دنياكِ
حُلُمٌ تجلَّتْ سماه يومَ لقاكِ
وخواطرٌ كادت تذيب حشاشتي
من سحر ما ألقيتُ في مغناكِ
وطرائفٌ من كلِّ موشيِّ الرؤى
نسجتْ مغانٍ وشيها بجناكِ
رَقَّت كأعطاف النسيم وأمجزتْ
مُثُلَ الجمال بنهجها إلّاكِ
أضفيت فوق روائهـا شغفَ الهوى
فبدت غلائلها كلطيف مناكِ
ومزجت ماء صفائها بعـذَّبٍ
من مهجة حيرى وقلب شاكِ
وخطرت بين رسومها في وحدة
مشبوبة النزعات والإدراكِ
وفنيت منهـا بعض ما وفيته
بجهادِ مُستبقٍ وهمّة ّ عراكِ
وصرفت من عُمُر الحياة ربيعَهُ
وشبابه الأسنى بمحض رضاكِ
فرأيت معنى العيش بين معاهدٍ
تختال فوق منابت الأشواكِ
وجنيت من أيامها حلو الجنى
أدباً يضوع بأليّ حجاكِ
فقرأت ما تهوين من سِفر وما
ترضين من شعر شدا بهواكِ
وهصرت ليلات السنين دراسة
حتى انتشيت بكل ما رواكِ

هذا الدين الجديد، واحتجوا على إنفاذ حكم الإمبراطور في لوثر في بلادهم. ثم احتجوا، وسموا من أجل ذلك بالمحتجين. والكلمة الإفرنجية «البروتستانت» معناها المحتجون.

وعاد الإمبراطور فوجد تبدلاً أعجب من تبدل الناس. وجد الراهب المنعزل المتوحد، لم يعد متعزلاً ولا متوحداً. فقد كان لوثر الراهب قد تزوج، وتزوج راهبة هربت من ديرها عام ١٥٢٣. وقال من ظل على دينه القديم: الآن صار الأمر هزلاً. فالراهب المارق قد تزوج راهبة هاربة، فإذا خرج من صلبهما شيء، فلن يكون هذا الشيء غير إبليس نفسه.

وقال لوثر: إنه لم يتزوج من حب. وقال إنه تزوج ليسر أباه، ويغضب البابا، ويجدع أنف الشيطان. وهي مقالة فيها من اللباقة أكثر مما فيها من الحق. فالذي عرفه الناس أن لوثر كان في زواجه سعيداً.

وأنجب من زوجته ستة أطفال، أضاف إليهم بالتبني أحد عشر، وأعاش معهم نفراً من الطلاب كثيراً. وفي بيت الضيافة الكريمة هذا، جرَّب لوثر أدعيته الجديدة قبل أن يخرجها إلى الناس.

وقضى لوثر سنواته الأخيرة يكتب ويخطب ويتبادل الرأي مع المصلحين. ولكنه منذ عاد من محبسه في قلعة صديقه الأمير، كان أكثر احتفاظاً مما ظن الناس. كان لا يريد أن يغير من الكثلكة إلا ما خالف الإنجيل، ولكنه لم يستطع أن يحبس الناس عند هذا، فاندفعوا فسبقوه. ومع هذا فقد كان له الفضل الأول في كل ما حدث إن كان ما حدث فضلاً. كان له فضل توجيه الأنظار بعض الوقت إلى الأرض، وكانت معلقة دائماً في السماء، وبدّل من التقشف والزهد على انفراد، الخدمةَ يسديها المتعبد إلى الناس، وفتح الأنفس والأذهان إلى معنى الديمقراطية والحكومة الدنية.

ومات عام ١٥٤٦. مات بداء في قلبه.

أحمد زكي

عيناك ما أدواهما أفوانةٌ
طالت بليل أم قليل كراك

كانا وما زالا كأعذب منبع
للفتنة السكرى بخمر صباك

أشفارها شبيح أراه مزفزفاً
بجناح عربيد وريش ملاك

يهفو على جفنيهما حلم الهوى
فيذوب في خفقاته جفناك

وعد من خلل العيون مصارعاً
للناظرين بسهمه الفتاك

يا ظبية لعبت بألوان الهوى
من كل فنٍّ عبقريٍّ زاكي

ونشرتِ من أسفره عجيبةً
صعدت بها في مسبح الأفلاك

فرأيت أجرام السماء ضئيلةً
صغرت مراتبها بقدس علاك

ورأيت دونك كل نهية راسخ
في العلم لم يظفر بغطب نهاك

أهواك بل أهوى حجاك ولبابي
سفر تقلِّبُ صفحتيه يداك

أهواك ما مرَّ النسيمُ بأيكتي
يسري إليَّ معطراً بشذاك

أهواك ما ضمنت قريحة شاعر
من كل معنىً في البيان صباك

أهواك للأدب الذي قدَّسته
بأعز ما تهوين في دنياك

أودعته حلو الحياة ومرَّها
وسقيته بهواك بل بدماك

ونسيت في مغناه كلَّ محبب
لك وارتضيت الشوك في مغناك

وقهرت قلباً لا تلينُ قناته
إلا لسكل رزينة وهلاك

وسحقته سحقاً فبات غرامه
حب العلوم ومطمح الأملاك

* * *

باريس هل نامت لديك عهودها
أم لا تزال عهودُها تلقاك

متعت بالنعمى هناك وبالهوى
وبكل ما شاق العيون هناك

وقضيت حقبة حالم في ليلة
من حلم (هيجو) أو هوى (بلزاك)

بالله من ذاك الذى أحمته
في هذه الدنيا صدى نجواك

بالله من ذاك الذى ناجيته
وسقيته بَرد اللمى وسقاك

بالله من هو ذاك أول عاشق
خفق الفؤاد له بيوم هواك

أتراه يخطر رغم طول تباعد
بخيالك المشبوب أم ينساك

أم جد في دنياك صبٌّ غيره
ملك الفؤاد عليك واستهواك

* * *

كأسي خُذيه وٱحْتَسِيك لَعلَّهُ
أمل يروِّي غُلتي وظماك

لا تعجبي فلقد مَزَجت سلافَهُ
برحيق حرماني وطول مناك

طيفان نحن على الهوى نمشي معاً
لكننا نمشي على الأشواك

محمد البرعي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٨٥ — الثلاثاء ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ — ١٤ من مايو سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

بين مصر وبريطانيـــــا

في الأيام القليلة الماضية اجتازت المفاوضات المصرية مرحلة خطيرة ، بأن انتقلت من دور المحادثات التمهيدية إلى تقرير الأساس الذي يمكن أن تدور عليه المفاوضات . ولقد كان الناس يلومون وفد مصر على أنه لم يجتمع برجال الوفد الآخر لمبادلة الرأي والمناقشة . ورأى البعض أن يؤاخذ رئيس وفد مصر على استئثاره بهذه المحادثات الأولية . ولعل أكثر الناقدين قد خففوا الآن من نقدهم بعد أن صدر البيان البريطاني عن الجلاء وشروطه ، فأثبت أن المدة التي سبقت اجتماع الوفدين لم تذهب عبثاً . وسواء أكنا راضين عن البيان البريطاني كل الرضى أو بعض الرضى ، أو لم نكن راضين عنه مطلقاً . فإن من المسلم به على كل حال أن من المستحب أن يكون هناك أساس تدور عليه المناقشات بين الوفدين ، وأن يتقرر هذا الأساس بصورة مقبولة ، قبل أن تبدأ المفاوضات في التفاصيل التي تبنى على هذا الأساس .

وعلى الرغم من أن هذا الأساس الذي تدور عليه المفاوضات قد صدر به بيان بريطاني ، فقد وافق عليه رئيس الحكومة المصرية ، مما يدل على أنه كان نتيجة الجهود التي بذلها الوفدان ، وبعد مشاورات كثيرة جرت في مصر ولندن . وقد أعلن هذا البيان في يوم الثلاثاء ، أي في صباح اليوم التالي لعيد جلوس جلالة الملك ، حتى لقد رأى الكثير من الناس أنه لم يكن مجرد بيان عن العلاقات بين مصر وبريطانيا ، بل أن صدوره في هذه المناسبة ، كان بمثابة تحية يرفعها الجانب البريطاني إلى مصر ومليكها بهذه المناسبة الكريمة .

ومن الواجب علينا أن نطالع هذا البيان بكثير من الدقة وإنعام النظر ، دون أن نتأثر بالصيحات المختلفة التي تصدر عن بعض كتابنا ، سواء أكانت صادرة عن نية خالصة ، أو كانت مما يقصد به شيء آخر سوى وجه الله والوطن .

يقول البيان المذكور : « إن السياسة المقررة للحكومة البريطانية هي توطيد محالفتها مع مصر على أساس المساواة بين أمتين تجمع بينهما مصالح مشتركة » وليس في هذا النص أمر يجوز لنا أن ننفر منه أو أن نسيء الظن به . إذ لا شك أن بيننا وبين البريطانيين مصالح مشتركة ، اقتصادية وسياسية . وعلاقات صداقة ومودة لا سبيل إلى جحودها . بل إننا لا نغلو كثيراً إذا قررنا أن المصالح المشتركة بيننا وبين الانجليز لا يزيد عليها في القوة والخطر ، سوى المصالح التي بيننا وبين العالم العربي . ومهما اختلفنا في تقدير ما لهذه المصالح من الخطر ، فإننا لن نختلف في أنه ما دامت هنالك مصالح ، فلابد من صيانتها والمحافظة عليها ، من كل خطر تتعرض له ، سواء أكان هذا الخطر صادراً من دولة ثالثة ، أو من الرجعيين البريطانيين أنفسهم .

أما النص على المساواة بين الأمتين فلست أظن أن هنالك من يعترض عليه . وحسبنا أن هذا النص يتيح المفاوض المصري حجة قوية يرد بها كل عدوان يمس تلك المساواة التامة بين الدولتين ، التي لم تعد الآن موضعاً للأخذ والرد .

أما النص ، على توطيد المحالفة مع مصر ، فقد يعترض عليه بأنه لم تعد هنالك حاجة شديدة لعقد محالفة ، بين دولتين كلتاهما عضو في هيئة الأمم المتحدة . وهذا اعتراض قليل الغناء ، لأن كثيراً من الأمم المتحدة قد عقدت بينها محالفات خاصة ، كما هي الحال بين روسيا وفرنسا ، وبين روسيا وتشيكوسلوفاكيا ، وكما هي الحال في الحلف الأمريكي الذي يضم جميع الدول الأمريكية . وفي الجامعة العربية نفسها ، التي يرجى أن تضم في وقت ما جميع البلاد العربية . فليس في هذه المحالفات وما يجري مجراها ما يناقض نظام الأمم المتحدة ، ما دامت شروطها لا تتعارض وميثاق الأمم المتحدة . ولقد كان الرأي السائد في سان فرانسيسكو أن مثل هذه المحالفات فيها تأييد للنظام الاجتماعي وتقوية له . ولذلك أفرد لها باب خاص في الميثاق تحت عنوان « الاتفاقات الاقليمية » .

ولهذه « الاتفاقات الاقليمية » في الوقت الحاضر على الأقل فائدتان : الأولى أن هيئة الأمم المتحدة لا تزال في بدء عهدها ، ولم يتم بعد تأليف أركانها السياسية والعسكرية ، ولابد من تدابير مؤقتة تستطيع الاضطلاع بعبء الأمن ورد العدوان ريثما تستكمل الأمم المتحدة نظمها ويشتد ساعدها . الفائدة الثانية أن هذه الاتفاقات الاقليمية تحدد المجال الذي تستخدم فيه القوات العسكرية لكل دولة . بحيث لا يكون هنالك داع لأن تنقل تلك القوات إلى أقطار بعيدة من أجل المحافظة على الأمن فيها ، بل تتكفل كل هيئة إقليمية بأعباء الدفاع في منطقتها ، حيث تتركز مصالحها المباشرة .

وهكذا لا يبدو أن هنالك بأساً كبيراً في أن ينص البيان البريطاني على « توطيد المحالفة مع مصر » وخصوصاً أن المحالفة قائمة فعلا بمقتضى المعاهدة المعقودة بين الدولتين . ومع التسليم بأن الظروف قد تغيرت ، وأن شروط هذه المعاهدة لم تعد تتمشى مع التطورات التي ترتبت على الحرب الأخيرة ، فإن الاعتراض لا ينصب على مبدأ التحالف ، بل على الشروط التي تضمنتها وثيقة التحالف .

* * *

ننتقل الآن إلى الجزء الثاني من البيان البريطاني ونصه : « عملا بهذه السياسة بدأت المفاوضات في جو من المودة وحسن النية . فعرضت الحكومة البريطانية أن تسحب جميع قواتها البحرية والبرية والجوية من الأراضي المصرية ، وأن يتقرر بالمفاوضات تحديد مراحل جلائها ، والموعد الذي يتم فيه والتدابير التي تتخذها الحكومة المصرية لتحقيق التعاون في حالة الحرب أو خطر حرب وشيك

الوقوع ، طبقاً للمحالفة » .

وإذا ضربنا صفحاً عن الديباجة نرى أن هذا الجزء من البيان ينص على ما يأتي :

أولا : أن تسحب الحكومة البريطانية جميع قواتها من غير استثناء .

ثانياً : أن تجرى بين الطرفين مفاوضات من أجل أمور ثلاثة وهي :

(١) تحديد مراحل الجلاء .

(٢) الموعد الذي يتم فيه .

(٣) التدابير التي تتخذها مصر في حالة حرب أوخطر حرب ، للتعاون طبقاً للمحالفة .

وهكذا عرضت الحكومة البريطانية أمرين متصلين مرتبطين ، لا شك أنها أرادت أنهما لا يقبلان الانفصال . فأما الأمر الأول وهو الجلاء التام عن الأراضي المصرية ، فلا أظن أن أحداً سيعترض عليه . اللهم إلا القائلين بأن من الواجب الجلاء التام عن مصر والسودان في آن واحد . وأن يتم هذا الجلاء تماماً قبل أن تكون هنالك مفاوضات أو محادثات أو محالفات من أي نوع كان . وعلى الرغم من أن هذا الفريق موجود في مصر وله صوت محترم ، فإن أكثر أصحاب الرأي في مصر يرون أن هذه السياسة ليست « عملية » وأنها لن تأتي بالفائدة المرجوة ، ولن تؤدي إلى تحقيق الهدف ، الذي لم يختلف في أمره أحد .

لهذا رأينا أكثر الكتاب يرحبون بما عرضته الحكومة البريطانية من أمر الجلاء التام عن الأراضي المصرية ، ويرون أن هذا الإعلان خطوة حميدة ، لأنها تزيل أكبر العقبات القائمة في سبيل أي تفاهم من أي نوع كان بين مصر وبريطانيا .

ولم يكن مما يقبله العقل أن تصر بريطانيا على بقاء قواتها في مصر بعد أن بذلت هي جهداً مشكوراً من أجل الجلاء عن سوريا ولبنان . وبعد أن قرر ميثاق الأمم المتحدة المساواة التامة في السيادة السياسية بين جميع أعضائه .

أما الجزء التالي من البيان وهو أن تجرى بين الطرفين مفاوضات فليس عليه اعتراض من جهة الشكل . فإن البرلمان المصري قد اختار وفداً خاصاً للقيام بهذه المفاوضات . ولكن الذي يجوز الاعتراض عليه هو « الموضوع » الذي تضمنه البيان ؛ وذلك أن المفاوضات ستتناول ثلاثة أشياء .

(١) أولها تحديد مراحل الجلاء . أي أن هذا الجلاء سيكون على مراحل قليلة أو كثيرة ، كأنما يراد ألا يتم دفعة واحدة . فيبدأ مثلا الجلاء من مدن كالقاهرة والاسكندرية ، ثم جلاء القوات البحرية والجوية ، التي لا تستطيع بعد ذلك أن تزور المياه والمطارات المصرية إلا طبقاً للقانون الدولي ، أو الاتفاقات الدولية . ثم يتلو ذلك تصفية المنشآت العسكرية ونقلها ، وغير ذلك من الأمور التي قد تتطلب إجراءات خاصة في نقلها وإجلائها .

ولا شك أن جلاء قوات مضى على وجودها في مصر نيف وستون عاماً ، وازدادت منشآتها وتعقدت أحوالها بسبب حرب عالمية ضخمة ، ليس بالأمر الذي يتم بين عشية وضحاها . ولكن من الجائز أن يكون هنالك إسراف في تقدير مراحل الجلاء . وربطه بشروط وملابسات قد لا تمت إلى الحقيقة بصلة . ولكننا إذا افترضنا حسن النية من جانب أولي الأمر من البريطانيين ، فليس من المعقول أن تؤول فكرة مراحل الجلاء تأويلا يهدم مبدأ الجلاء من أساسه .

(٢) لذلك جاء النص الثاني متمماً للأول ، وهو تحديد الموعد الذي يتم فيه الجلاء . فليس مما يهمنا كثيراً أن يحدث الجلاء على (مراحل) مهما تعددت أو تنوعت ، وإنما يهمنا أن يتم في موعد قريب معقول . وأن يحدث بنية خالصة ، لا يشوبها تردد أو تلكؤ .

(٣) أما الموضوع الثالث للمفاوضات ، فلعله أهمها جميعاً وهو التدابير التي تتخذها مصر في حالة حرب ،

أو خطر حرب وشيكة الوقوع .. وذلك طبقاً لمبدأ التعاون بين الدولتين ، ذلك المبدأ الذي قررته المحالفة .

فى هذا النص توكيد جديد لفكرة المحالفة ، وتقرير مبدأ التعاون بين مصر وبريطانيا فى حالة العدوان أو احتمال العدوان ، على الأراضي المصرية ، ومدى هذا التعاون ، والصورة التى سيتخذها هذا التعاون . ولست أظن أن لنا الحق فى أن نخشى فكرة المحالفة ، أو أن نوجس شراً من أن هذا التعاون فى وقت الحرب سيخول البريطانيين سلطاناً ونفوذاً فى وقت السلم ، وقد كان بين بريطانيا وفرنسا مثل هذا التحالف والتعاون قبل الحرب ، فلم يكن فى ذلك ما يجرح كرامة الدولتين أو ينقص من سيادتهما . فليست العبرة فى هذا بتقرير مبدأ التعاون فى ذاته ، بل فى الشروط التى يقوم عليها هذا التعاون . ومن أجل هذا يحسن بنا أن ننظر إلى الشق الأول من هذا النص ، وهو الذى ينص على أن موضوع المفاوضة هو التدابير التى تتخذها مصر .. ولم يقل التدابير التى تتخذها الدولتان . ومعنى ذلك فيما يبدو هو أن العبء الأكبر فى العمل لدرء الخطر سيقع على مصر . على الأقل فى أثناء المراحل الأولى من العدوان . ولئن كانت مصر هى التى ستتخذ التدابير اللازمة لدرء الخطر ، فإن هذا يتطلب من غير شك أن يكون لها من العدة الحربية والقوات البرية والبحرية والجوية ما يمكنها من مواجهة العدوان بمفردها ، فإذا استطاعت أن تتغلب عليه وحدها ، كان هذا خيراً . وإلا فلاشك فى أن مصر لن تتردد فى طلب معاونة حلفائها من أعضاء هيئة الأمم المتحدة أو من الأمم المتحدة نفسها . وأهم شيء فى هذا النص هو أنه يلزم مصر أن تؤلف قوة دفاعية لرد العدوان عن المنطقة التى تهم مصر ، وهذا الأمر سيتطلب من مصر أن تعنى بجيشها وبقواتها البحرية والجوية . حتى تستطيع أن تضطلع بنصيبها فى قضية الأمن الدولى . ولئن أصبحت لمصر هذه الكفاية الدفاعية فليس هنالك أدنى خطر عليها من أن يؤدى التعاون بينها وبين بريطانيا إلى عودة النفوذ البريطانى أو العدوان على استقلال مصر .

وهكذا يرى القارىء أن ليس فى البيان البريطانى نص — مهما أسرفنا فى تأويله أو تفسيره — يضر بالمبدأ الأساسى للمفاوضات ، بل لعله يمثل نقطة ابتداء طيبة لتلك المفاوضات . ومما يؤسف له كثيراً أن حزب المعارضة فى بريطانيا لم يستطع أن يؤيد هذا الاتجاه الجديد لسياسة الحكومة البريطانية ، ولقد أثبت مستر تشرشل أنه قائد عظيم للحرب . ولكنه قصير النظر فى شئون السلم ، وكأنه قد مرت به هذه الأحداث الهائلة دون أن يتعلم منها حرفاً أو أن تغير من جبلته وطباعه . فأصبح يتنكر هو وعصبته تلك المبادىء الإنسانية العظيمة التى تضمنها الميثاق الأطلسى ، ولم يجدوا بأساً فى الحنث بالعهود التى قطعوها على أنفسهم بأنهم إنما يشنون هذه الحرب من أجل إنشاء عالم جديد ، قوامه السلم والرخاء والحرية لجميع الشعوب .

ولقد اشتركت حكومة مستر تشرشل فى إنشاء نظام الأمم المتحدة ، ولسنا ندرى كيف طوعت له نفسه أن ينادى بهدم الأركان الأساسية التى يقوم عليها هذا النظام !

إن من المؤلم حقاً أن تصبح العلاقات بين مصر وبريطانيا مسألة حزبية ، فإننا لا نريد أن يكون لنا أدنى صلة بالاختلافات الحزبية فى بريطانيا . ويهمنا أن يدرك المحافظون كما يدرك غيرهم أن اكتساب صداقة الشعب المصرى هو خير وسائل الدفاع عن مصر وعن قناة السويس . وأن قضية السلم العالمى قضية واحدة لا تقبل التجزئة ، وأن هذا السلم لا يمكن أن يستقر إلا على أساس من العدل والإنصاف . وأن أبعد شيء عن العدل الدولى أن تقيم أمة جيشاً أو قواعد عسكرية فى أرض أمة أخرى .

محمد عوض محمد

الزعامة والزعماء

عودتنا الطبيعة أن نرى — في كل مجموعة من المجموعات — من يحتل مكان الصدارة منها ، ويتميز بصفات خاصة عن سائر أفرادها .

حتى في النبات ، نجد في كل مجموعة نبتة رائعة تلفت الأنظار إليها بسمُوٍّ في نموها ، أو بإزهارها زهرة تميزت بالجمال ، وفي البستان سرعان ما ترى شجرة فاقت أقرانها بجمال استوائها ، أو علوها وتفوقها ، أو بكثرة أثمارها ، أو حلاوة ثمرتها ، والكل يزرع في أرض واحدة ويسقى بماء واحد .

وهذا في عالم الحيوان أظهر ، فلكل خلية نحل لها ملكة تأمر فتطاع ، وتدعو فتجاب :

مملكة مُدَبَّرة بامرأة مؤمَّرة
تحمل في العمال والـ صناع عبء السيطرة
فاعجب لعمال يو لون عليهم قيصرة

وفي كل قطيع خروف متميز ، وفي كل عش دجاج ديك متفوق .

فإذا أتيت إلى الإنسان فالأمر فيه أبين . في كل مجتمع رئيس ، بدواً كانوا أو حضراً ، أطفالاً أو كباراً ، رجالاً أو نساء ، تجمع الطلبة في الفصل فيكون لهم في الذكاء أول ، وتجمعهم في الألعاب الرياضية فيكون بينهم في ألعابهم ماهر ، وتجرى بينهم سباقاً في أي ضرب فيكون منهم الفائز ، وفي البدو شيخ القبيلة ، وفي الحضر الأمير ، وفي الديانة الشيخ والقسيس ، وفي الحكم المدير والوزير ، وفي شؤون الاجتماع المصلح ، وفي السياسة الزعيم .

● ● ●

وإذا كان هناك تفوق ورياسة فذلك يستلزم سلطة وسيطرة من جانب ، وخضوعاً وطاعة من جانب .

قف وقفة في حظيرة الدجاج تر السيادة والخضوع بين الديكة بعضها وبعض ، والدجاج بعضه وبعض ، والديكة والدجاج معاً ، عند التقاط الحب ، وحسو الماء ، واختيار المكان الصالح للنوم ، وهكذا .

وانظر إلى الأسرة يسودها الرجل ، واستعرض ضروب السيطرة وضروب الخضوع ، وانظرها تسودها المرأة ، واسمع الأمر والنهي والذلة والاستسلام ، وهكذا . فمتى كانت سيطرة هنا كان خضوع هناك — وقد تتداول السلطة والذلة على الشخص الواحد ، فقد يكون الرجل مسيطراً عاله وشبابه ، ثم ينقلب خاضعاً لفقره وشيخوخته ، وقد تسيطر المرأة لجمالها ، ثم تزول السيطرة بزواله .

● ● ●

ومخايل السيطرة والسيادة كثيراً ما تظهر في الأطفال منذ نشأتهم ، كالذي روى أن رجلاً نظر إلى معاوية وهو غلام صغير فقال : إني أرى هذا الغلام سيسود قومه . فقالت أمه هند : ثكلته إن كان لا يسود إلا قومه .

وقد تكون هذه من وراثة ربَّنها ، كالبذرة الطيبة تختار لتثمر ثمراً طيباً ، وتأتي البيئة فتنمي هذه الوراثة وتغذيها ، وقد تسوء فتضعفها أو تفنيها ؛ فمنزلة الطفل في الأسرة لها أثر كبير في تقوية خلق السيطرة أو إضعافه ، فقد يكون الطفل أول ولد لأبويه ثم يرزقان بطفل آخر فيحولان عطفهما وتدليلهما إليه ، فيثور الأول ويجتهد أن يلفت النظر إليه بعنفه وقوته وسطوته ، فينشأ عنده حب السيطرة ، ثم تساعده الظروف الأخرى خارج البيت كمهارته في اللعب أو أوليته في فصله ، أو نحو ذلك ، فيمتد كل ذلك إلى السيطرة في الحياة ، وقد يقسو الأب أو المعلم على الناشيء ، فيدفعه ذلك إلى مقابلة القسوة بالقسوة ، فيتولد عنده حب السيطرة ، وقد تزيد قسوة الأب أو المعلم فتميت نفس الناشيء وتذله ، وهكذا . مئات ومئات مما يجرى في الحياة — من كتاب يقرؤه ودين يدين به وأصدقاء يعاشرهم وعمل يتولاه ، وروايات يراها ،

وشعر بحفظه الخ — كلها تؤثر في مصيره من السيطرة أو الخضوع .

والزعيم يتفاعل مع بيئته فتكوّنه ويكوّنها ، وتغذيه ويغذيها ، وبعض الناس قد منح من القوة ما يمكّنه من الزعامة حيثما حلّ وأين رميت به ، كالذي يصفه المتنبي :

إن حلّ في فُرْس ففيها ربها[1]
كِسْرَى تَذِل له الرقاب وتخضع
أو حل في روم ففيهـــا قيصر
أو حل في عُرْب ففيها تُبَّع

* * *

وليست كل سيطرة زعامة ، فهناك سيطرة بحكم المنصب كالمأمور في مركزه أو المدير في مديريته أو الوزير في وزارته أو القائد في جيشه ، فهذه كلها لا تخول لصاحبها أن يسمى زعيماً .

وهناك سيطرة بسبب الملكية ، كسيطرة مالك الأرض على فلاحيه ، أو صاحب المصنع على عماله .

وهناك سيطرة بسبب نظام الطبقات كسيطرة ذوي البيوتات الكبيرة على ذوي البيوت الصغيرة ، وسيطرة الباشا على من هم أقل منه رتبة ، أو الموظف في الدرجة الأولى على من في الدرجة الثامنة ، أو نحو ذلك ؛ فهذه كلها ليست زعامة ، إنما ركن الزعامة هو خضوع الجم الغفير من الناس بإرادتهم واختيارهم لمزايا خاصة يرونها في الزعيم .

* * *

والصفات التي تستوجب الزعامة تختلف باختلاف نوع الزعامة ؛ فهناك زعامة سياسية وزعامة علمية وزعامة دينية وزعامة حربية الخ ، كما أنها تختلف باختلاف الجماعات وتصورهم المثل الأعلى للحياة . فلما كان عند العرب — مثلا — المثل الأعلى عماده الشجاعة والكرم كانت الزعامة عمادها هاتان الخصلتان . وقد قال عمر : « السيد هو الجواد حين يسأل ، الحليم حين يستجهل ، البار بمن يعاشر » فجعل السيادة في الكرم والحلم والعطف ، وعدوا سلم بن قتيبة سيداً « لأنه كان يركب وحده ويرجع في خمسين » فجعلوا السيادة في الشجاعة ، كما جعلوا من شروط السيادة صفات سلبية كالترفع عن الصغائر فقالوا : « لا سودد مع انتقام » الخ . واليوم تعد من أهم صفات الزعيم الذكاء ، وسعة العقل والثقة بالنفس والرحمة بالناس والعطف عليهم والقدرة على ابتكار الخطط وحب العدل والفصاحة في القول مع القدرة على الدعاية ، هذا إلى الصبر على الشدائد واحتمال المكروه ، فلا زعامة من غير عناء ، كما يقول الشاعر :

أترجو أن تسود ولا تُعَنَّى وكيف يسود ذو دعة بخيل؟

ويختلف الزعماء في تفوقهم في هذه الصفات أو بعضها ونسبة تفوقهم فيها ، وقد يفقدون بعضها ويتعاضون عنها بتميزهم في بعضها الآخر ، وهكذا .

ثم إن هذه الصفات قد يتصف بها الزعيم حقاً ويتخلق بها صدقاً ، وقد يتصنعها رياء ، فلا تنطلي إلا على رأي عام لم ينضج ، وشعب لم يكتمل .

* * *

كذلك الزعماء أشكال وألوان : فهناك الزعيم الضاغط المتحكم الذي يضطر الجمهور أن يؤمن به وأن يتوجه كما يوجهه ، ويسد عليه منافذ تفكيره ومنافس مشاعره ، ثم يدفعه دفعاً إلى ما يريد هو ، مثل هتلر وموسوليني وبعض مؤسسي المذاهب الدينية — وهناك الزعيم الذي يمثل عواطف الجماعة ومشاعرها ، فيكون للجماعة آمال ومشاعر فيها شيء من الغموض وشيء من الميوعة ، فيأتي هو ويوضحها ويعقلها ويبلورها ، ويكون لسانها القوي في التعبير عنها وقلبها الحار الذي ينبض بأمانيها ، ويكون هذا سر زعامته ،

(١) أي فهو فيها ربها وكسرى بدل من ربها وكذلك قوله ففيها قيصر وفيها تبع أي فهو فيها قيصر وتبع .

في سبيل الاستقرار :

كلمة صريحة

[قلنا في العدد الماضي إن أسباب فشل هيئاتنا وموت مشروعاتنا ترجع إلى عدم توافر عناصر الاستقرار ودواعي الاستقرار ، وذكرنا أهم هذه الدواعي وتلك العناصر في رأينا . والآن نورد أمثلة عملية لذلك ولا سيما فيما يتصل بالمشروعات الحكومية أو التي لها اتصالات رسمية ونقترح ما نراه لمعالجة هذه الحال]

لننظر أولاً إلى الناحية السياسية وما يتصل بها : فالأحزاب عندنا تقوم على أسس مائعة غير محددة ، وليس لأي واحد منها برنامج عملي واضح ، ولا تربط بين أعضائها وحدة خاصة في التفكير ، أو اتجاه خاص في الشئون القومية العامة .

وقد جرت العادة أنه حين تأليف الحكومة الجديدة عندنا تتقدم سواء في خطاب العرش أو غيره ببرنامج واسع تعرض فيه سياستها ولا تدع فيه شاردة ولا واردة من أوجه الإصلاح إلا أتت عليها وتصدت لمعالجتها ووعدت بتنفيذ إصلاحاتها في أقرب وقت . وعند ذلك يهلل لها الناس ويكبرون ويتفاءلون بعهدها ويرجون الخير الكثير على يديها ، ولكن هيهات أن تتحقق آمالهم وينفذ البرنامج

ومن الظواهر المؤلمة المحزنة أن تغيير الحكومة في مصر يصحبه في معظم الحالات وقف دولاب العمل ، بل واضطراب في سير معظم الأعمال الحكومية ، ولا سيما المشروعات الجديدة . فكل ما فكر فيه الوزير السابق وشرع بعد المدة لتنفيذه يقف أو يلغى أو يوضع على الرف ولو مؤقتاً .

ثم يبدأ الوزير الجديد في دراسته الجديدة لجميع نواحي وزارته دراسة تكون بطبيعة الحال سطحية ولو في أول الأمر ، لأنه يريد أن يكسب الوقت ويختصر الطريق رغبة منه في رسم خطة جذابة جديدة ، يطلع على الناس بها فتستهوي نفوسهم وتفوز بإعجابهم حين تملأ الملأ منهم ، كما فازت سياسة سلفه ، أو لعلهم يجدونها أدنى إلى آمالهم من التي تقدمتها ، فيتفاءلون كما فعلوا من قبل ، ويهللون ويستبشرون ويتطلعون إلى الفجر الجديد .

وهذا الذي يحدث عندنا ليس له نظير في البلاد الراقية الأخرى التي استتبت فيها الأمور واتزنت المسائل واستقرت بها سياسة محددة لكل ركن من أركان الحياة العامة ولكل إدارة من الإدارات الحكومية .

يستطيع أن ينطق بما يشعرون ولا ينطقون ، ويحدد الأغراض التي لا يحددون ، ويقودهم إلى تحقيق ما يؤمل ويؤملون .

ومن ناحية أخرى هناك الزعيم الثائر والزعيم المعتدل ؛ فالزعيم الثائر لا يرعى التقاليد والأوضاع ويدعو إلى الوصول لهدفه بعنف وقوة ، لا ينظر إلى الماضي ولا إلى الحاضر ، ولكن يُسْتَحَر بالصورة التي يرسمها للمستقبل — والزعيم المعتدل يرعى الأوضاع والتقاليد ويدعو إلى التقدم البطيء ، ويربط الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل ، ويرى أن الطفرة محال ، وخير الإصلاح ما استطاعه الشعب ، وخير السير ما كان إلى الأمام في أناة — ولذلك يرمي الثاني الأول بالتهور ويرمي الأول الثاني بضعف العزيمة والجمود .

ومن ناحية الموضوع نرى أن هناك زعيماً دينياً وزعيماً سياسياً وزعيماً اقتصادياً وزعيماً علمياً ، وهكذا .

وهم على اختلاف أنواعهم وألوانهم تحتاج إليهم الأمة حاجة الجيوش إلى قوادها ، والسفينة إلى ربانها ، وكما يحتاج قائد الجيش وربان السفينة إلى ثقافة خاصة ومرانة شاقة ، كذلك الزعامة من كل نوع ، ليست لعب أطفال ولا اعتماداً على زرزرة كلام ، ولا على ضخامة مال — إنها قيادة أمة ، تعتمد على فلسفة وعلم وفن واستعداد خاص ومران طويل .

(يتبع) أحمد أمين

ويرجع ذلك إلى أن القائمين على تسيير دفة الأعمال وتشغيل دولابها هناك ليسوا هم الوزراء، كما هي الحال بمصر، وإنما هم موظفون دائمون لهم أقدام فنية راسخة، وخبرة عملية عالية، ورأي ناضج مجرب ومعترف به، وحرية كاملة لا تتقيد بأي اعتبار سوى المصلحة العامة والمقتضيات الفنية. ومن ثم كان تغيير الوزارات في أمثال تلك البلاد لا يحدث أدنى اضطراب بل ولا يسبب أدنى قلقلة.

فلا نزاع إذاً في أن الحل الوحيد لمشكلتنا هذه في مصر هو حل أستأذن أصحاب المعالي الوزراء في أن أقوله بصراحة، ألا وهو ألا يتدخل الوزير في دراسة مشروعات وزارته وإعدادها، ولا أن يترأس اللجان التي تؤلف لهذا الإعداد وتلك الدراسة تمهيداً لوضع سياسة عامة ثابتة يتوافر لها الاستقرار والاستمرار المنشودان والضروريان.

والأسباب التي أملت علينا هذا الحل واضحة، وتتلخص في أن دراسة المشروعات وإعدادها ورسم الخطط وإحكامها يحتاج كما قدمنا في مقال الأسبوع الماضي إلى دراسة فنية هادئة مستفيضة يفسح للقائمين بها من الوقت ويكفل لهم من الحرية القدر اللازم ليخرج المشروع متيناً ناضجاً مضمون النجاح.

والوزراء يكونون غالباً غير فنيين، ولا يتسع وقتهم لتفاصيل الفنية والدراسة الدقيقة إن كانوا فنيين، كما أنهم جد حريصين على الخروج للناس بسياستهم الشخصية في أقرب وقت مستطاع. هذا إلى أن نفوذهم قد يفرض على لجان البحث والدرس إذا اشتركوا فيها اتجاههم إن لم نقل آراءهم، وهذا الفرض قد يأتي ظاهراً أو مستتراً، وقد يأتي مقصوداً أو عفواً.

والمهمة الحقيقية الأصولية للوزراء هي استعراض النتائج التي يصل إليها الفنيون ودراسة التقارير التي يقدمها هؤلاء بروح محايدة وبأفق واسع غير متحيز لفريق ولا لرأي ولا متأثر بأي اعتبار شخصي أو حزبي. وهذا لا يتأتى للوزير أن يقوم به على الوجه الأكمل لو أنه زج بنفسه في ميدان البحث الأولي التفصيلي، كما رأينا بعض الوزراء يفعلون في العهود الأخيرة.

ولنضرب مثلاً بوزارة المعارف، وهي من أكثر الوزارات تأثراً بعدم الاستقرار في حين كان يجب أن تكون من أكثرها استقراراً. فمنذ أن تسلم المصريون زمام هذه الوزارة نرى كل وزير يأتي فينفذ ما يعن له من مقترحات كان أغلبها سطحياً لا يتناول الأساسيات، اللهم إلا ما حدث في عام ١٩٢٥ ولم يكتب له الاستمرار.

وقد كانت النتيجة أنه لم ترسم للآن سياسة ثابتة للتعليم تقوم وزارة المعارف بتنفيذها.

ومنذ سنوات قليلة تراءى لمعالي وزيرها أن يحدث تغييراً جوهرياً في نظم التعليم، فاعتمد على نفسه في البحث وعكف على الكتب والتقارير الحديثة يدرسها، وصرف صيفاً كاملاً خرج على الناس في آخره بتقريره المشهور الذي ضمنه سياسته التعليمية الجديدة، ثم أخذ يصدر القرارات للرجال الفنيين لتنفيذها، ولكن لم تنقض شهور على بدء هذا التنفيذ حتى بدأت العيوب تظهر كما كان مقدراً لها، لأن عناصر الاستقرار ودواعي الاستمرار لم تتوافر لهذه السياسة الجديدة.

ومن الغريب أن معالي الوزير قد اعتمد في دراساته على كثير من التقارير التي وضعت في انجلترا، ولم يوح إليه الأسلوب الذي أعدت به تلك التقارير إلى أن يحذو حذوه هنا بمصر. ذلك الأسلوب الذي اقتضى إفساح الوقت للجان التي وضعت كل واحد من هذه التقارير، وحرص هذه اللجان على تعرف آراء الفنيين على اختلاف اتجاهاتهم واختلاف مراكزهم، وأولياء الأمور على اختلاف نزعاتهم وميولهم وعقلياتهم، ورجال الأعمال التي توظف المتعلمين وتعرف عيوبهم وما يجب أن يتوافر في تعليمهم. ولذلك جاءت تلك التقارير غاية في الإحكام والاعتدال والمرونة.

وهذا الأسلوب هو الذى ندعو إلى الأخذ به فى مصر أيضاً .

وكانت النتيجة بطبيعة الحال أنه بمجرد تغير هذا الوزير بدأت العملية التقليدية ، وهى التغيير والتبديل والترقيع والتماس سياسة أخرى على غير السبيل أو ما يشبهه ، وهكذا دواليك .

وقد آن الأوان لأن تؤلف هيئة فنية قوية دائمة يعهد إليها بدراسة من النوع الذى ندعو إليه ، حتى يتفسح الأمل فى أن نظفر بعد زمن معقول (لا يقل من عام) باقتراح لسياسة مدروسة قائمة على أساس من الإحصاءات الدقيقة والاستفتاءات الوافية ومراعاة ظروفنا الخاصة الاجتماعية والاقتصادية ، ثم تطرح هذه السياسة على الناس ، وتكون محل مناقشة بكل حرية بواسطة الهيئات العامة تعليمية وغير تعليمية ، والمجلس الأعلى للتعليم ومجالس الأحزاب والبرلمان بمجلسيه فى هدوء وأناة ، فى مدى فترة معقولة (لا تقل من عام آخر) حتى نصل إلى سياسة رشيدة يطمئن إليها الجميع ويرجون لها الاستقرار والاستمرار اللذين توافرت عناصرهما ودواعيهما .

ومن أهم دواعى هذا الاستقرار أن تكون تلك الهيئة الفنية كما قدمنا دائمة بحيث يعهد إليها بالإشراف على تنفيذ السياسة التى يتفق عليها وعلى تبين عيوبها فى دور التنفيذ ، واقتراح إصلاح هذه العيوب أولاً فأولاً ، فى ضوء ما تسفر عنه التجربة ، فلا يمكن أن يكون أى مشروع كاملا من الناحية العملية ، وهو إنما يكمل مع الزمن بشرط موالاة الملاحظة والفحص ، والاستماع للنقد واقتراح المناسب لمعالجة كل عيب أو نقص .

وهـذا الكلام الذى قيل عن سياسة التعليم وكيفية رسمها يصح أن يقال مثله عن مشروعنا الجديد لمكافحة الجهل والفقر والمرض . فإنا نرجو أن يكتفى أصحاب الدولة والمعالى الوزراء بوضع الخطة العامة التى يصح أن تكون محل اعتبار فى وضع السياسة النهائية ، ثم تؤلف الهيئة الوزارية الحالية التى تعنى بالموضوع هيئة أخرى من رجال فنيين يتولون دراسته بالأسلوب الذى ندعو إليه ، والذى يضمن للسياسة التى ترسم لهذا المشروع الخطير عناصر الاستقرار ودواعى الاستمرار .

وهذا المشروع سيكون أصعب من غيره لما يقتضيه من تعاون بين مختلف الهيئات والمصالح ، وقد علمتنا التجارب أن هذا التعاون لم يتحقق للآن فى أى عمل من الأعمال على الصورة الواجبة ، ويكفى أن نشير إلى مسألة واحدة يلمسها كل منا فى الحياة العامة كل يوم ، ألا وهى أن الشارع يرصف اليوم وينفق فى إنجازه وقت وجهد ومال كثير ، ولا نلبث أن نرى مقتضيات مصلحة أخرى (كالمجارى أو المياه أو الغاز) قد استلزمت حفره من جديد وهدم العمل الذى تم .

وقبل أن نختم هذا المقال نشير إلى مثل آخر غاية فى الأهمية ، ألا وهو مشروع « كهربة خزان أسوان » فهو قد خضع فى جميع أدواره لتقلبات السياسة ، وللاعتبارات الحزبية على الرغم من أنه مشروع فنى اقتصادى صرف ، وكان الواجب من يوم أن ظهر فى الوجود أن تتولى دراسته لجنة فنية قوية ، ولو تم ذلك لسكان اليوم بين يدينا تقرير عظيم عنه ، هو وحده الذى يشبع الباحث وعليه ترتكز القرارات التى تصدر بشأن هذا المشروع الخطير ، ولتفاديناً أن يطلع علينا والمشروع كاد يدخل فى دور التنفيذ أستـاذ مختص من أساتذة كلية الهندسة يتشكك فى صلاحيته ويطالب بدراسته دراسة جدية ، وينادى بأنه يرى المشروع مشروعاً غير مجدٍ من الناحية الاقتصادية وأنه لم يدرس الدراسة الواجبة الكافية .

فهل مثل هذا كله يمكن أن يحدث فى بلد آخر غير مصر ؟ اللهم ألهمنا الرشاد والتوفيق وانتهاج الخطة المثلى للدراسة التى تضمن لمشاريعنا الاستقرار والاستمرار .

أحمد عبد السلام الكرداني

إلى من يهمهم من أولي الأمر والمصلحين :

بدرة الملبس

في تقاليدنا القديمة كثير من الطرافة ، وقد حاولت أن أعود بالنظر نحوها كلما أردت أن أمتع نفسي بتأمل المباهج التي تدخل السرور إلى قلبي في وسط زحمة الحياة الحاضرة بعد أن أصبحت حياة نثرية لا شعر فيها .

كنا ونحن صغار ندعى إلى بعض حفلات الأعراس . ولست أريد أن أصف تلك الحفلات في شيء من التفصيل ، فهذا أمر يطول ، ويحتاج إلى سلسلة مقالات قائمة بذاتها . وإنما أريد أن أصف هنا شيئاً واحداً كان له امتياز خاص في نفوس عامة الحضور ، وذلك الشيء هو « بدرة الملبس » .

كان بعض أصحاب العرس يخرج على الجموع الغفيرة المتزاحمة في العرس من خارج الدار وينادي بأعلى صوته « بدرة ملبس » ثم يرمي بحفنات كثيرة من الملبس الفاخر فوق رؤوس الجمع الحافل ، فينقلب المنظر فجأة إلى صراع عنيف فيه تسلية عظمى . إذ كان الجميع يتسابقون إلى التقاط الملبس المذهب المختلف الألوان من أخضر وأحمر وأبيض وأصفر ، ولا يعبأون بما يصيبهم من جراء ذلك من الدفع والخبط والتعثر والوقوع ، وكانت الضحكات ترتفع عند ذلك ويعم المرح كل الحفل ، فالناظرون من بعيد يرحبون المنظر المسلي ، والمتسابقون في الزحام يرحبون بما يصيبون من الملبس ، ولاشك في أن الفوز في ذاته مجيد وإن كانت الجائزة ملبسة واحدة .

وكان أغنياء (المرسان) يبدرون بدرة من الذهب بدلا من بدرة الملبس ، وكانت تلك العصور الماضية ذات رخاء ويسر ، فقد كان الناس يتعاملون بالذهب ، عندما كانت الجنيهات من الأصفر الرنان لا من الورق الهاهل ، وكانت الريالات كذلك من الذهب الإبريز ، وكذلك أنصاف الريالات وأرباع الريالات ، فكانت البدرة في العادة من أرباع الريالات الذهبية ، فإذا نثرت على الجمع انقض الناس على الأرض يجمعونها في حماسة عظيمة ، وكانت التسلية لذلك أكبر والضحكات أعلى والفوز أعظم أثراً في النفوس .

ولكن هذا العصر قد تصرم وانقضى فيما تصرم وانقضى من أيام (زمان) الطريفة . ونحن اليوم نعيش في عصر جاد لا يعرف شيئاً من هذه التقاليد المرحة البهجة .

وقد كان السبب في إنكار العصر الحديث لبدرة الملبس أننا اليوم نريد أن تكون أعمالنا مطابقة لما يرضاه عقلنا . فنحن نقول مثلا إن تلك العادة القديمة فيها نوع من الفوضى ، وفيها نوع من التظاهر لا يليق بنا ، ونزعم كذلك أن الكرامة الإنسانية ترتفع بنا من أن نرى الملبس على الناس ثم ننظر إليهم وهم يتهافتون على التقاطه مثل القردة ، وقد يتغالى البعض فيقول إن بدرة الملبس تعود الناس أن يمدوا أيديهم إلى العطاء ، ويجعلونها سهل ترضى بالإحسان ، وإذا كان الإحسان يبعث شعور الرضى في قلب المحسن ، فإنه يبعث الشعور بالمذلة والتفاهة في قلوب المحسن إليهم ، والإحسان على هذه الصورة ماهو إلا نوع من مركب السيادة . فالمحسن بهذه الصورة لا يزيد على أنه يريد أن يقف من جمهور الناس موقف القوي القادر المسيطر الذي يهب الضعفاء . وهذا يعيد إلى الذهن تلك المناظر التي يراها الإنسان عادة فوق جدران المقابر المصرية القديمة التي تصور الأمير الميت في هيئة عملاق ، وتصور من حوله من أتباعه في صور الأقزام القصار القامة .

وقد أثرت أمثال هذه الآراء في الناس فانصرفوا من بدرة الملبس ، تلك العادة القديمة الطريفة ، فأصبحنا اليوم لا نراها في الأعراس ، ولو فرضنا أن أحد (المرسان) حدثت نفسه اليوم بأن ينثر بدرة على الناس لما وجد أحداً ينحني إلى الأرض لالتقاط الملبس المتساقط ، لأنهم بلاشك

يخجلون من أن يظهروا في هذا المظهر بعد أن سمعوا الأقوال التي تتفزّم منه .

ومع ذلك كله فإن الماضي لا يزال يطل علينا من نوافذه بين حين وآخر ، والتقاليد القديمة وإن أغفلها العصر الحاضر لا تزال حية في دمائنا وميولنا ، ولا عجب في ذلك ، فإن العلم يدلنا على أن الوراثة تحمل إلى الأجيال الجديدة طبائع الأجيال القديمة ، والطبيعة تأبى أن تخلق جيلاً من القطط لا يابس ذيله في طرف جسمه كما كانت أجداده القدامى تفعل منذ أجيال بعيدة .

فإذا كانت بدرة الملبس قد اختفت من الأعراس فإنها لا تزال تظهر في مظاهر أخرى في أركان أخرى من حياتنا .

فنحن وإن كنا لا نعرف اليوم حفلات الأعراس كما كان يعرفها الأجداد ، ولا نعرف بدرة الملبس ولا بدرة الذهب كما عرفها القدماء ، فإننا لا نزال نحنُّ إلى فكرة البدرة ، ونرحب بها في صور جديدة غير التي عرفها العصر الماضي .

والملاحظ المدقق لا يجد صعوبة في أن يلمح عادة (البدرة) في مظاهرها الجديدة المتعددة ؛ وأضرب على سبيل المثال هذه الحفلات الطريفة التي تقام في هذه الأيام كما قيل لتشجيع طلاب العلم على الجد والتعمق في الدرس . وقد حضرت حفلة من هذا النوع منذ حين قصير وأستميح القارىء العزيز عذراً إذا بينت له كيف تطل فيها تقاليد البدرة من نافذتها على عصرنا الحاضر .

تجرى كل عام امتحانات الطلاب بعضها بعد نهاية الدراسة الابتدائية وبعضها بعد نهاية الدراسة الثانوية ، ومنها ما يتم بعد انتهاء الدراسة الجامعية والعليا بأنواعها المختلفة . ومن الطبيعي أن يكون في هذه الامتحانات ترتيب للناجحين ، فلا شك في أن كل عام يخرج لنا في كل صف من الطلاب فتى يزيد في درجاته على الآخرين فيكون ترتيبه الأول ، ثم يليه آخر يكون ترتيبه الثاني ، وهكذا .

وهذا يذكرني بأن الإنسان قد يكون ترتيبه الأول والأخير في وقت واحد ، وذلك إذا كان هو الممتحن الوحيد في شهادته الدراسية ، ولكن هذا قول نظري محض ، لأن الطلاب في مصر كثيرون ، فالأول يستطيع أن يباهي بأن وراءه مئات من الطلاب المتخلفين عنه . ولكن مهما يكن من الأمر ، فالشيء المؤكد هو أن كل امتحان لا بد أن يخرج لنا طالباً ترتيبه الأول ، وآخر ترتيبه الثاني ثم الثالث وهكذا .

فلنعد إلى ذكر الحفلة التي حضرتها منذ أيام ، فإنها كانت لتوزيع بعض مبالغ من المال على الأوائل في الامتحانات العامة بأنواعها . وسألت نفسي عند ذلك : ما الذي يقصد من هذا الاحتفال الكريم ؟ . لقد كان بغير شك احتفالاً رائعاً ، وكانت العاطفة التي أوحت به عاطفة كريمة نبيلة ، ولكني مع ذلك سألت نفسي عن القصد منه . فهل كان لتشجيع الطلبة على أن يكون منهم أول وثانٍ وثالث ؟ وسألت نفسي عما عسى يكون لو منع هذا الاحتفال وأبطلت هذه الجوائز السنية . أيمكن أن يوجد امتحان يدخله الطلاب ثم يكون ترتيبهم جميعاً (الأخير) ؟ لقد جرت العادة على أن يكون لكل امتحان (أول) سواء جعلت له الدولة جائزة أو ضنت بها .

فما السر الذي حدا بنا إلى كل هذا التفكير ؟ لقد قلبت الرأي على وجوهه والتمست الأسباب في مظانها ، فلم أخرج بعد الفكر الطويل إلا بأن هذا مظهر جديد من تقليد قديم أبى إلا أن يطل علينا من نوافذ العصور المنصرمة . إنها بدرة الملبس وقد اتشحت بوشاح جديد . إني أفهم الفكرة الأولى التي بدأت في أول الأمر عندما كان الطلاب يكلفون دراسة معينة في الأدب ثم يتقدمون إلى امتحان مسابقة فيفوز المبرز فيهم بمساعدة وامتياز في

نهاية دولة

كانت الأيام تمر سراعاً وصلاح الدين قلق لا يهدأ ، مضطرب لا يستكين ، فقد أهمه حديث والده ورسالة نور الدين التي أمره فيها بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد ، وإقامتها للخليفة العباسي ؛ إنه يريد أن ينفذ وصية مولاه نور الدين ، ولكن الحوادث والمؤامرات التي مرت أمام ناظريه منذ ولي الوزارة جعلته يتريث قليلا حتى يعد عدته ، ويتخذ للانقلاب الجديد أهبته ؛ فقد كان للفاطميين أتباع منبثون في أنحاء مصر ، وكانت هناك بقية من أمراء الجيش الفاطمي تدين للعاضد بالولاء ، وكان جنود الجيش من السودانيين والأرمن يعتبرون الدولة دولتهم ، ويرون فناءهم في فنائها ، وكانت ثغور الدولة وأسوارها وحصونها مهدمة خربة لا تقف أمام مهاجم ، ولا تصد عدوان معتد ؛ وكان المذهب الفاطمي أخيراً هو المذهب الرسمي ، يلقن الدعاة مبادئه في المساجد .

استعرض صلاح الدين هذه الحالة كلها أمام عينيه ، ورأى بثاقب نظره أنه يجب عليه أولا أن يقضي على هذه المظاهر ، فإذا وفق كان من اليسير عليه بعد ذلك أن يخطو الخطوة الأخيرة فيقطع الخطبة للعاضد .

وكان أخوف ما يخافه صلاح الدين أن يجد أمراء الجيش وجنوده الثورة ، أو أن يتصلوا بالفرنج في الشام يستعينون بهم ضده ، ولهذا بدأ يتفقد سور القاهرة فوجده خربا مهدما ، وقد غدا كالطريق العامة لا ترد داخلا ، ولا تمنع خارجا ، فاستدعى مولاه بهاء الدين قراقوش ، ووكل إليه أمر ترميمه وتجديده ، وكانت لبهاء الدين إرادة من حديد ، وعزمة صنديد ، فجمع العمال والأسرى والساجين ووكل بهم الجنود الأشداء يعملون ليل نهار ، وهو يتنقل بينهم لا يهدأ ولا ين ، فلم ينته شهران حتى كان السور يحيط بالقاهرة والفسطاط عاليا متينا ، سليم الجدران ،

مراحل التعليم المقبلة . وأفهم كذلك أن يطلب إلى الفتيان أنواع أخرى من المسابقات لغرض معروف ، وهو تشجيع ناحية من نواحي التبريز والامتياز ، فإن هذا يتيح لنا فرصة الكشف عن المواهب المخبوءة ، وإيقاظ الهمم الناعسة . ولكني مهما قلبت الرأي لم أفهم معنى لمكافأة الأوائل في الامتحانات العامة ، لأننا لا نشجع بهذا على شيء ، ولا نكشف به عن شيء . إنها لا تزيد على بدرة ملبس كريمة .

وهنا نسأل سؤالا آخر : لقد كانت الجوائز في أول عهدها نيفا ومائة من الجنيهات ، وقد أصبحت اليوم عشرة آلاف من الدنانير . ألا يصح لنا أن نتساءل : أيها أصلح لنا ، ولمستقبل أبنائنا ، أن نعطي الأوائل هذه الدنانير أيا كانوا على هذا النمط البدائي ، أم أن نعد الحياة كل عام بمشروع جديد يفسح أمام الشباب مجالا للعمل وإظهار المواهب الدفينة فيهم ؟ إنها عشرة آلاف دينار أيها السادة ، وأظنها تكفي كل عام لإنشاء مصنع صغير أو مشغل ينفسح فيه المجال لأعمال الابتكار الفني أو معمل للبحث العلمي أو مدرسة أهلية نموذجية تساعد على التثقيف الصحيح ، أو ، أو الخ . فإذا عز علينا الاهتداء إلى المشروعات المفيدة التي نصرف فيها هذه الدنانير ونستفيد بصرفها ، فلا أقل من أن نصور لنفسنا هدفا واضحا ، ونسأل أنفسنا سؤالا صغيرا : ماذا شجعنا بهذه الآلاف من الدنانير ؟

فإذا كان ولابد لنا من أن نصرف هذه الألوف بغير قصد ، فلنعد إلى تقاليدنا القديمة الصريحة ، ولنأخذ هذا الذهب الوهاج ، ونتجه به إلى ساحة نجمع فيها مئات الألوف من الأبناء ، ثم ننثرها عليهم كما كان (العرسان) يفعلون من قبل ، فهذا على الأقل يحيي لنا تقليدا مرحا ، ونكون قد عرفنا حقيقة ما نفعل ، إذ نكون قد عمدنا إلى شيء مقصود لذاته ، وهو إحياء سنة (بدرة الملبس) .

محمد فريد أبو حديد

قوى البنيان ، تمر أبراجه وقلاعه حاميات من جنوده الأكراد والأتراك .

وذهب صلاح الدين بعد هذا إلى الاسكندرية ، فخرج أهلوها لمقابلته والترحاب به ، فكان لحفاوتهم أجل الأثر في نفسه ؛ وجاشت في نفسه أحاسيس كثيرة متباينة وهو يمر في شوارعها ، وموكبه يشق الجموع المتزاحمة الفرحة برؤيته ، فقد استعاد في تلك اللحظة الأيام السوداء التي قضاها محاصراً في الاسكندرية إبان قدمته الثانية إلى مصر ، وتذكر الصعاب التي عاناها ، والمشاق التي تحملها ، وهو يحارب الفرنج في البحر ، وجيوش الملك مرّى والوزير شاور في البر ، ولولا ما لقيه من معونة أهالي الاسكندرية لقضى عليه وعلى جيشه وقتذاك ؛ وكان صلاح الدين ممن يذكرون الجميل ، فأكرم أهل الاسكندرية في زيارته هذه ونثر عليهم الدراهم والدنانير ، وأنعم على أعيانهم حتى انطلقت ألسنة الجميع تدعو له بالنصر والظفر ؛ وكان صلاح الدين منذ حوصر في ذلك الثغر أعرف الناس بقلاعه وحصونه وأسواره ، ونقط ضعفها ، وما أصابها من إهمال أو وهن ، ولذلك قضى أيامه في الاسكندرية يشرف على عمارة أسوارها وأبراجها وأحداثها حتى اطمأن إلى قوتها ثم عاد إلى القاهرة .

ولم يقم صلاح الدين في القاهرة إلا أياماً ريثما أعدت قطع السفن الجديدة التي أمر بإنشائها في دار الصناعة ، ثم حملت تلك الأجزاء على الجمال ، وتقدمها بفرقة من جيشه حتى وصل إلى مدينة أيلة ، وكانت بها قلعة حصينة للفرنج يهددون منها الحدود الشرقية لمصر ، والملاحة في البحر الأحمر .

وركبت السفن ، وأنزلت إلى البحر ، وشحنت بالمقاتلة وهاجم القلعة براً وبحراً حتى خضعت ، وأسر جميع من فيها ، فأمر بترميمها ، وملأها بالأشداء من رجاله ، وعاد إلى القاهرة والأسرى في ركابه .

وما إن انتهى من تحصين العاصمة ، وتأمين الثغور والحدود حتى التفت إلى النواحي الدينية ، وكانت سياسته ترمى إلى النيل من حدة المذهب الشيعي ، والحد من قوته بإفساح المجال للمذهب السني ، ونشره بين الناس ، وتثقيفهم على أساسه ، وكانت لدعاة المذهب الشيعي ودعاة دعاته مراكز قوية في مساجد الفسطاط والقاهرة ، فوجد صلاح الدين أنه من الخرق في الرأي أن يقتحم على هؤلاء الدعاة معاقلهم في تلك المساجد خوفاً من أن تثور المنازعات بين أتباع المذهبين ، فيؤدي هذا إلى اضطراب الحالة في مصر . ولكنه اقتدى بمولاه نور الدين ، ورأى أن ينشىء في مصر المدارس ، ولم تكن مصر تعرفها من قبل ، وبدأ بسجن المعونة القريب من مسجد عمرو بالفسطاط فأحاله مدرسة للشافعية ، ثم أتبعه بدار الغزل فأحالها مدرسة المالكية ؛ وحذا حذوه أقرباؤه ، فاشترى ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه منازل العز بالفسطاط ، وجعلها مدرسة للشافعية ، وأوقفت الأوقاف الكثيرة للصرف على تلك المدارس ، وأجزلت العطايا لمدرسيها وفقهائها وطلابها ، فأقبل الناس عليها ، وبدأوا ينفضون عن المذهب الشيعي وأشياعه .

وثنى صلاح الدين بعد هذا فألغى شعار الإسماعيلية ، وأمر بإسقاط « حي على خير العمل » من الأذان ؛ وكانت هذه التغييرات تحدث في بطء وكياسة ، فلم يحس بها عامة الناس ، ومن أحس بها كان يستنكرها أولا ، ثم لا يجد صدى لاستنكاره فيلوذ بالصمت ، والحياة تجرف الجميع في تيارها ، وتشغلهم بشؤونها .

ولم يبق أمام صلاح الدين إلا رجال القصر وأعوانه ، فبدأ بأمراء الجيش الفاطمي فعزلهم ، واسترد منهم إقطاعاتهم ، وأبعدهم عن منازلهم وقصورهم ، وأسكنها قواده وجنوده ، ثم أمر أخاه توران شاه ، فتتبع الجنود السودانيين في الصعيد حتى شتتهم ، فلاذوا بأذيال الفرار ، ولجأوا إلى بلاد

النوبة والسودان .

وعند ذلك بدأ صلاح الدين يقص جناحى العاضد ، ويسلبه قواه المادية ، فقطع عنه إقطاعاته ، واستولى على جميع ما كان بيده من البلاد ، ثم استولى على القصور الفاطمية ووكل بهـا وبمن فيها قائده الجبار بهاء الدين قراقوش ، فتولى حراستها بعين لا تغفل ، فكان لا يخرج منها خارج ، ولا يدخل إليها داخل إلا بإذنه .

وكان العاضد يرقب هذه التغييرات كلها دهشاً متعجباً، فقد خيب صلاح الدين ظنه : إنه اختاره من بين القواد جميعاً ليكون وزيره لأنه رآه شابا صغير السن ، فحسب أنه يكون فى يده أداة طيعة ، فإذا به قد فاق جميع الوزراء السابقين دهاء ومكراً ، وقوة وجبروتاً ، . لقد كان له فى عهد الوزراء السابقين أثارة من قوة ، وها هو صلاح الدين قد قضى عليها ، وتركه سجيناً فى قصره لا يستطيع حراكا إلا والعيون ترقبه من كل مكان ! لقد كان له فى الماضى جيش وقواد ، وها هو صلاح الدين قد أبعد منهم من أبعد وشتت من شتت ، وأصبح الجيش جيشه ، كل قواده وجنده من الأكراد والأتراك . لقد كان له منذ ولى الحكم ماله الخاص ، وهو سلاح نافع ، وها هو صلاح الدين قد سلبه هذا السلاح الأخير ، فلم يبق له من مظاهر عزه الغابرة إلا فرس واحدة ، وحتى هذه الفرس الأخيرة لم يشأ صلاح الدين أن يتركها له ، فأرسل بالأمس يطلبها منه ، فأجابه العاضد إلى طلبته ، ولم يتمالك نفسه بعد خروج الرسول ، وقد طغت عليه الآلام ، وألمت به الأحزان ، فانفجر باكياً ، وظل على ذلك ساعة من الزمن وهو فى بستانه ، ثم أحس قدوم قادم ، فمسح دموعه ، وانقلب إلى غرفته ، وأقفلها عليه ، وقد أحس المرض يدب فى جسمه دبيباً .

ونام العاضد فى تلك الليلة نوما متقطعاً تخللته الأشباح والأحلام المزعجة ، واستيقظ عند بزوغ الفجر وهو قلق مضطرب منقبض الصدر ، فقد رأى فيما يرى النائم أنه ذهب إلى قبة الإمام الشافعى ، فصلى وجلس ، وإذا بعقرب مخيفة قد سعت إليه فلدغته .

قام العاضد من سريره فتوضأ وصلى الفجر ، وأحضر المصحف ، ولبث يقرأ فيه ساعة من الزمن ، فلما هدأت نفسه قليلا ، استدعى أحد رجال قصره ، وأرسله إلى قبة الشافعى ، وأمره أن يحضر من يجده بها من الرجال .

ذهب الرسول إلى القبة ، فلم يجد بها إلا رجلا صوفياً غريباً هو الشيخ نجم الدين الخبوشانى فأحضره معه ، وسأله العاضد عن حاله وأخباره ، غير أنه وجده رجلا فقيراً لا ينبىء حاله عن شر ، فأكرمه وصرفه .

وكان صلاح الدين يتخذ طريقه هذه إلى هدفه على هدى من بصيرة نفاذة ، وتجربة حكيمة ؛ غير أن نور الدين كان ثائراً لا يهدأ ، فهو يرسل إليه الرسل بعد الرسل يستعجلونه الضربة القاضية على هذه الدولة المحتضرة ، وهو يبدى الأعذار ، ويستمهل حتى يستكمل عدته ، ويهيئ جميع الظروف ؛ فلما أحس أن الظروف قد أصبحت مواتية جمع مجلسا من أمراء جيشه وقواده ، وفقهاء السنة ومتصوفيها ، وعرض عليهم رسائل نور الدين ، وسألهم المشورة والنصيحة ، فتردد البعض ، وأبدوا مخاوفهم أن يثور الإسماعيلية وأنصارهم ، وتحمس البعض الآخر للفكرة وأيدوها ؛ ومن عجب أن أشد الناس مهاجمة للعاضد ، وطعنا فيه ، وذما له ، وتحبيذاً لقطع الخطبة باسمه كان هو ذلك المتصوف نجم الدين الخبوشانى .

وكثر القول ، وطال النقاش ، وانتهى الرأى أخيراً إلى أن يترك صلاح الدين تنفيذ الخطة لأبيه نجم الدين ، حتى إذا فشلت تدارك هو الأمر ، واعتذر بأن القوم أقدموا دون علمه وموافقته .

وفى يوم الجمعة الأول من المحرم سنة ٥٦٧ هـ ذهب نجم الدين أيوب ، ومعه جماعة من أصحابه ، وأمراء دولته

إلى المسجد الجامع بالفسطاط ، واستدعى إليه خطيب المسجد فقال له :

— إن أنت ذكرت هـذا القيم بالقصر فى خطبتك ضربت عنقك :

فشُده الخطيب وعجب ، ثم سأل :

— فلمن أخطب إذاً ؟

فقال نجم الدين :

— لمولانا الخليفة العباسى المستضئ بالله .

وصعد الخطيب المنبر ، وقد استولت عليه الحيرة ، ونال منه الذعر ؛ إنه إن أطاع أمر نجم الدين فلربما ثار به المصلون وقضوا عليه ؛ وإن هو لم يطعه عرض نفسه للقتل ؛ وألقى الرجل خطبته مضطربا مرتبكا على غير عادته ، وهو لا يدرى ما يقول ؛ وأخيراً هداه الموقف الشائك إلى أن دعا « للأئمة المهديين » ، ثم للسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ونزل فصلى بالناس وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الخوف ، فلما انفض الناس دعاه إليه نجم الدين وسأله :

— لِمَ لم تفعل كما أمرت ؟

فقال الخطيب معتذرا :

— إنى لم أعرف اسم المستضئ ولا نعوته ، فإذا علمتها دعوت له فى الجمعة القادمة إن شاء الله .

وآثر نجم الدين العفو ، وخرج لجمع فى داره جماعة من الفقهاء ، وطلب إليهم أن يختاروا من بينهم واحداً يتولى الخطبة للخليفة العباسى فى الجمعة القادمة ، فتردد البعض ، وتخوف البعض ؛ وأخيراً تقدم منهم رجل موصلى كفيف البصر اسمه « الأمير العالم » ، وقال :

— أنا لها أيها الأمير .

وفرح به نجم الدين ، فصافحه وقال :

— بارك الله فيك أيها الشيخ .

وتناهت هذه الأخبار إلى العاضد فى مرضه ، فأدرك أن الأمر جد لا هزل ، وأن هذه نهاية النهاية ، فاشتد به المرض ، وكانت تعتريه نوبات من الغيبوبة ، فإذا أفاق جمع إليه أهله وأولاده ، وطفق يقبلهم ، ويضمهم إليه ، وعبراته تنهمر من عينيه . لقد آمن أن دولته ودولة الفاطميين قد انتهت ، ولكنه أصبح يخشى على أهله وأولاده عوادى الزمن ، فماذا هو فاعل من أجلهم ؟ ! ليس فى الأسرة رجل كبير رشيد يوصيه بهم خيراً ، ولم يبق من أمراء الدولة وقوادها أحد يعهد بهم إليه ، وأخيراً لجأ إلى ما يلجأ إليه المضطر ، فأرسل يستدعى إليه صلاح الدين .

وحضر صلاح الدين ، واستمع إلى وصية العاضد إليه تخرج فى كلمات متهالكة متقطعة أن يرعى أهله وأولاده من بعده ، وتأثر صلاح الدين لقوله ، وبكى لبكائه ، ووعده خيرا وانصرف .

واشتدت وطأة المرض على العاضد حتى قام لبعض حاجته فعثر وسقط ، وأرسل أهله فى طلب طبيب القصر « ابن السديد » ، فتلكأ واعتذر ، وعلم العاضد باعتذاره ، فاشتد به الألم ، وقال :

« لقد انفض عنى الجميع حتى الطبيب ، لم يبق فى الدنيا إذاً خير . . » ، ورفع خاتما مسموما فى إصبعه كان قد أعده لمثل هذا اليوم ، ومصه مرتين ، فاسترخت أعضاؤه ، وظل طول الليل يتلوى من الألم .

وأشرقت شمس يوم عاشوراء على أصوات النعى ، وبكاء الباكين ، وصراخ الصارخات والنادبات ، يعلنون جميعاً للملأ كله موت خليفة ، ونهاية دولة : دولة سمت مصر فى عهدها إلى أعلى مراتب العز والمجد ، وأسمى طبقات الرفاهية والسؤدد .

جمال الدين الشيال

الجامعات الشعبية

[تلقت الكاتبة الفاضلة العلم وكانت من بين أولى طالبات كلية «نيوبائل آبى» فى اسكتلندا — وهى كلية شعبية من الطراز الأول . ثم بعدها توجهت إلى الدانيمرك حيث تلقت العلم فى الكلية الخاصة بتعليم الكبار البالغين] .

تقدمة :

لم تعد بالناس حاجة إلى أن ينبئهم مخبر بأن «العلم نور» فهؤلاء الناس عيون هى بالطبع أقدر من الآذان على إدراك ذلك النور، ويحسبهم أن يفتحوا عيونهم ليروا نور العلم ظاهراً. وأثره فى كل شىء ظاهراً .

ولقد تحقق القائمون على تعليم الشعوب أن الإنسانية لا يرجى لها أمن ورخاء . وسلم وارتقاء . إلا أن يسلكوا بالناس إلى العلم أقرب السبل وأيسرها . ويذللوا للطالبين صعابه . ويفتحوا للراغبين أبوابه . وعلى هذا الأساس نشأت فكرة الجامعات الشعبيـــــة . وانتشرت فى معظم البلاد الأوربية .

كذلك كان مستقبل التعليم الشعبي موضع دراسة للمؤتمر السنوى الذى عقده المعهد البريطانى لتعليم البالغين من عهد قريب . وانتهى الرأى فيه إلى الاعتراف بأهمية الحوار فى التعليم . وهو اتجاه يدل على حقيقة فهم ما ركز فى طبائع الناس ، من حيث إن الإنسان بطبعه طامح ، نزاع بفطرته إلى تعرف ما يجهل .

وفى المقال الآتى تحدثنا الآنسة « روى رفيعة بدر » إحدى طالبات أولى الجامعات الشعبية باسكوتلاندا عن حركة تعليم البالغين فى أوربا، ثم تقارن بين معهد «دونيوبائل» والجامعات العادية .

توفير التعليم الجامعى للجميع

معهود دير «نيربائل» بمهد السبيل للجامعات الشعبية البريطانية

ألم تر أيها القارىء الكريم كيف وجهت الحرب أنظارنا إلى حاجة عالم الغد للعقول السليمة الناضجة ، وما للتعليم من أثر فى إعدادها ؟ وهل أتاك حديث القوة الذرية التى لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض من وراء كشفها أم أراد بهم ربهم رشداً ؟

لا جرم أن تبعة الخلاف المالى تقع الآن — أ كثر منها فيما مضى — على عاتق الرجل العادى . ولن يتيسر لهذا الرجل العادى الاضطلاع بحملها بغير التعليم . وأن الواجب يقضى بتعبيد مسالك التعليم وتمهيد سبله لكل فرد من المهد إلى اللحد . ذلك بأن من السخف أن يتصور إنسان أن التعليم والنضج الفكرى يقفان عند سن السادسة عشرة أو الثالثة والعشرين على أثر ترك المدرسة أو التخرج من الجامعة ، وهى السن التى يغلب أن تقتصر معلومات الطالب فيها على ما تلقنه من الكتب دون أن تكون قد تولدت فى نفسه الرغبة فى الاطلاع أو الميل إلى التحصيل .

فأما من حيث تعليم النشء، فإن لائحة التعليم الحديثة تبشر بأعظم إصلاح عرف فى تاريخ انجلترا إلى الآن . وما زال مشروع تعميم تعليم البالغين وهم فى عقر دورهم موضع البحث والتمحيص .

ولكن ماهو نظام تعليم البالغين كما نعرفه الآن ؟ وكيف يمكن أن يؤثر فى الحياة العامة ؟ إنه نظام يرمى إلى إشباع روح الاستقصاء والتحدى . تلك التى لا تكتمل فى امرىء إلا بعد أن يكون قد جاوز سن الرشد . وهو نظام يعنى بإيقاظ الرغبة فى استيفاء المعلومات التى يعتقد الفرد أنها تنفعه ويتحرق به عن مجرد جمع معلومات ليس من ورائها فائدة فى الحياة العملية . ويقرب للطالبين من آثار العلم ما كان بعيد المنال .

وبهيء لهم تعرف مدى ما وصل إليه الجنس البشرى من تقدم وارتقاء . وما حققه من جليل الأعمال .

وإذا كانت الحروب تجر فى أذيالها الخراب والدمار ، فإنها كذلك منزل وحى الدهشات ، من المكشوف والمخترعات . وهى التى توسع للناس آفاق المدارك . وتفتح عيونهم إلى ما يحيط بهم من مساوىء اجتماعية . وتستنهض الهمم لمواجهة الحقائق والمطالبة بما هو خير منها . ولا شك فى أن تغير الظروف وتطور المعلومات يستلزم العمل على إعداد مواطن يدرك حقوقه ويقدر تبعاته ويستطيع مقاومة المؤثرات التى قد تهدد الاستقلال وحرمة الإنسانية بأبلغ الأخطار .

وفى هذا المقام يخلق بنا أن ننوه ببلاد الدانمارك ، فنذكر أنها من أكثر الديمقراطيات تقدما بما أصابت من نجاح باهر فى تثقيف جمهرة الشعب من طريق تعليم البالغين . والتى اعتبر « جروندفيج » رسول فكرة تعليم الجماهير ولسان وحيها . فإن أول جامعة شعبية هى التى تأسست فى هذه البلاد عام ١٨٤٤ بقصد مكافحة الدعاية الألمانية فى إقليم « شلزويج هولستين » . أما اليوم فإن فى بلاد الدانيمارك على ضآلة رقعتها ستين كلية شعبية داخلية .

أما فى انجلترا فقد نبتت حركة تعليم البالغين على أثر الحرب العالمية الأولى ، ثم اتسع نطاقها وازداد الإقبال عليها فى أوساط العمال الذين استطاعوا بمعاونة نقاباتهم وجمعيات تعاونهم وغيرها من الهيئات إنشاء معاهد تعليمية خاصة بهم . ومن أبرز هذه الهيئات تلك التى تعرف باسم « جماعة تعليم العمال » فهى صاحبة الفضل فى تيسير أسباب التعليم للعمال فى جميع أنحاء البلاد ، بإنشاء دراسات ليلية فى مختلف العلوم والفنون ، يضطلع بها محاضرون نابهون فى مقابل جعل زهيد يقدر بنحو خمسين قرشاً فى الدور الواحد .

وقد تجدد الاهتمام بتعليم البالغين إبان الحرب الأخيرة بما هيأته إدارة الشئون العامة للجيش من إتاحة الفرصة لجميع المجندين والمجندات أينما كانوا وحيثما حلوا ، لزيادة معارفهم وتوسيع نطاق مداركهم ، بتأليف جماعات البحث والمناقشة والتى تلقى فيها أبحاث عديدة فى واجبات المواطنين والتعليم بعد الحرب ونظرات فى أحوال الممالك المختلفة ، وغيرها من المسائل المادية التى تفتح عيونهم إلى ما يحيط بهم كما يحيطوا به من أهون سبيل . وحديثاً أيد المؤتمر السنوى الذى عقده المعهد البريطانى لتعليم البالغين فكرة البحث والمناقشة بطريقة الجماعات ، على أنها عامل ديموقراطى عظيم الأثر فى التربية السياسية .

الكليات الداخلية

لم يمض طويل وقت منذ كتب المركيز زيتلاند إلى جريدة التايمز مقترحا أن ينزل أعيان الريف للدولة عن بيوتهم الريفية الكبيرة طالما تبهظهم نفقات صيانتها وأن يردفوا هذا التنازل بالموافقة على اتخاذها كليات شعبية . والبيوت الريفية الإنجليزية بما لها من جمال الموقع وما يحيط بها من حدائق بديعة وأراض نضرة شاسعة ، تعتبر من أجل المناظر التاريخية الانجليزية ، وليس هنالك هدف لاستخدامها أسمى من جعلها مراكز لزيادة تثقيف الشعب البريطانى .

وليس هذا الاقتراح بدعة مبتكرة ، فقد سبق أن نزل المرحوم اللورد « لوذيان » من قصره الريفى المعروف باسم « نيوباتل » بمقاطعة والكيث بالقرب من أدنبرة ليكون أول جامعة شعبية داخلية للعمال فى اسكتلانده . وكانت الفرصة التى أتاحت لى أن أكون من أوائل من التحقوا بهذه الجامعة من أنفس وأثمن تجاربى فى الحياة .

ولو أنا وازنا بين كليات البالغين والجامعات العادية وتقصينا مزايا الالتحاق بهذا النوع الجديد من المعاهد لوجدنا أن كليات البالغين لا ترمى إلى إعداد الطلاب لمهنة أو حرفة خاصة . ولا تهدف إلى اجتناء مزايا اقتصادية . ولكنها تنزع إلى وضع الأسس لتربية إنسانية حرة .

ومناهجها معدة خصيصاً لمن يدرك من الرجال والنساء . أن مصير مواهبهم إلى الفناء ، سدا لما ينقص هذه المواهب من حاجة إلى الإرشاد والمران . أولئك الذين يرحبون بتضحية مرتباتهم نحو عام ليعودوا إلى طوائفهم أو هيئاتهم أو اتحاداتهم ، وقد عولوا على أن يبذلوا ما اكتسبوه في خدمة مواطنيهم . أما نفقات التعليم فتتكفل بها السلطات المحلية ومجالس المقاطعات . كما تتبع بعض الكليات ، كمعهد « درنيوباتل » مثلا ، نظام قبول الطلاب بالتبادل مع معاهد البلاد الأخرى .

وقلما يصادف الإنسان في جامعات العالم ما يضارع قصر « درنيوباتل » من حيث فخامة البناء ، وما تذخر به جنباته من ذخائر أدبية وفنية رائعة ، كلها مهداة لتكون في متناول الطلاب . وتزدان الجدران بصور ثمينة مما أنتجته عبقرية « رمبرانت » و « موريللوس » . بينما تشهد في قاعة الجلوس تلك الصورة الأصلية التي نقشتها ريشة الرسام « فانديك » وتمثل الملك شارل الأول ممتطيا صهوة جواده .

على أنه يتعذر أن تجد في غير هذا المكان مثل هذا الخليط من الطلاب الذين قدمت لهم في أول يوم لي بمعهد درنيوباتل ، فقد كان من بينهم عامل منجم وصانع بمصنع فولاذ وموظف حكومي وصحفيون ومؤلف مسرحي وسائق ترام وبناءون ومحاسب دانمركي ؛ فهم جمهور لن يعجز أي إنسان عن أن يفيد من مخالطته ، وكلهم تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعشرين والخمسين ممن عركوا الحياة العملية ، ثم جاءوا إلى درنيوباتل طائعين مختارين لا يدفعهم إلى ذلك مطمع اقتصادي ، ولكن يحدوهم فضل العلم والرغبة في دراسة المشاكل الإنسانية . وسرعان ما تتوثق الصلة بينهم وبين أساتذتهم بسبب إقامتهم بالكلية . بعيدين من متاعب الحياة الخارجية ومشاغلها ، تلك التي لا يسلم منها حتى الطالب الراهق العادي إذا هو حاول الدراسة في منزله ، حيث لا يتيسر في الغالب أن يحظى بحجرة مستقلة ومعزل من باقي أسرته .

وأبلغ من هذا أثراً أن تجارب هؤلاء الطلبة في الحياة تؤهلهم لاستيعاب ما يتعلمونه وتقديره حق قدره . خلافا لطلبة المدارس الثانوية أو الكليات الجامعية من المراهقين الذين لن تتهيأ لهم الفرص الكافية لاختبار الحياة . كيما يدركوا قيمة التعليم تمام الإدراك .

ولعل من أبلغ مزايا درنيوباتل — كما في غيره من معاهد تعليم البالغين — أن الدراسة تقوم فيه على مبدأ الحوار والمناقشة ، كما أشرت من قبل . وتتألف الفرقة الواحدة من أربعة من الطلبة على الأكثر ، ولكل جماعة دراسة صامتة خاصة ، وهذا مالا يتوافر في معظم الجامعات العادية

على أن أهم أغراض كليات البالغين تتجه إلى دراسة العلوم في جميع مظاهرها والمعايير التي تقوم النظم الاجتماعية على أساسها . ولذلك كان من بين المواد العملية التي يتألف منها البرنامج الدراسي بمعهد درنيوباتل المسائل العامة والسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس والفلسفة والتاريخ والجغرافيا . غير أنه لما كان هذا المعهد ثقافياً أصلا فقد عنى فيه بصفة خاصة بالآداب والتاريخ والموسيقى بوصف أنها تمثل صور الحياة العليا كما يوحي بها الفن والفكر .

وقد يتساءل الناس عن إمكان توفير التعليم لجميع البالغين ، وكيف يتسنى لكل عامل بالغ أن يعتزل عمله لتحقيق ما تصبو إليه نفسه من الالتحاق بكلية داخلية مدة سنة على الأقل ! والجواب على ذلك أن كل عقبة تقف في وجه تحقيق هذه الآمال لابد لها من الانهيار لو أننا كنا صادقين في إيماننا بأن هذا الاتجاه من التعليم محمل له خطره ، لا بالنسبة إلى الفرد فحسب ، بل بالنسبة للمجتمع ومستقبل العالم أيضاً . مثلنا في ذلك مثل ما بدا من روح المصانع والمتاجر ومصالح الحكومة والجامعات والمدارس إبان الحرب من استعداد بل ومن رغبة ملحة في إخلاء موظفيها وعمالها من أعمالهم ، فضلا عن أنها كانت في كثير من الحالات تدفع أجورهم

رباب الصبي «هايج»

كان ذلك الكوخ صغيراً قديماً ، يقع بالقرب من شاطئ ترعة صغيرة ملأها الماء الأخضر الرقراق . أما جدرانه فقد أثرت فيها السنون حتى تركتها لا تكاد تمسك نفسها لثقوبها الكثيرة ، وأصبحت ممراً مباحاً للريح ، وأشعة الشمس وضوء القمر تدخل منه وتخرج ولا مانع ، وصارت عمده الخشبية كشكل حلوى «السمسمية» تنخرها النمل ، وذهبت الرياح الأربع وأمطار السحاب بلون الأعشاب الصفراء التي فرشت على سطح الكوخ ، فأصبحت ذات لون أشهب ، وانعكست صورة الكوخ في قاع الترعة فراع ذلك السمك الصغير ، وعندما طلع القمر ألقى ضوءه الفضي على الكوخ ، فأرسل هذا ظله ممتداً على شاطئ الترعة والحقل ، فراع الطيور التي تستيقظ في منتصف الليل .

وكان يسكن في هذا الكوخ القديم صبي يدعى «هايج» ومعه أمه . وعندما كان أبوه في النزع الأخير لم يوص له بشيء ، ولكنه أشار إلى رباب معلقة على الحائط وقال بصوت خافت يقطعه التنفس : «يابني اعذرني إن لم أترك لك ما ترثه عني ، اللهم إلا هذه الرباب ، فلذلك أرجو منك أن تحافظ عليها» .

ولكن «هايج» لم يفهم كلام أبيه لصغر سنه ، وعندئذ بكت أمه بكاء حاراً ، ولم يلبث الرجل أن توفي .

وكان والد «هايج» يعزف دائماً على هذه الرباب التي تغير لونها لتقدم الزمان بها ، ونخر السوس بعض أجزائها . كان يعزف عليها في ليالي الصيف حين تنتثر النجوم اللامعة بكثرة في عرض السماء ، أو في ليالي الخريف حينما تهب الرياح الخفيفة ، فتسمع مختلف الألحان وجميل التوقيع من ربابه الخالدة ، وعندما ينجم بذر زرعه وتظهر براعم خضراواته وأشجاره يهب إليها ينزع من بينها الحشائش

وتضمن لهم وظائفهم إذا ما عادوا إلى الحياة المدنية .

وفي هذا المقام يحسن أن نعود بالقارئ الكريم إلى ما ارتآه المربي القدير «السير ريتشارد ليفنجستون» من أننا يجب أن نعلم أن كل شخص يؤدي عملاً عادياً ، آلياً كان أم عملياً ، وبخاصة إذا كان يشغل مركزاً رئيسياً ، لا بد له من فسحة من الوقت يصرفها في دراسة منتظمة يتجدد بها الذهن ويتزود منها العقل ويصقل بها نشاط التفكير . وآية ذلك أنه لا توجد ولن توجد حرفة أو مهنة لا تكون الدراسة المنظمة لمن تقدمت به الأيام أنفع لصاحبها وأجدى عليه ، وأنه يندر أن يكون بين بني الإنسان من لا يستفيد منها . ومما يدعو إلى التفاؤل ما نشرته الحكومة البريطانية في الكتاب الأبيض عن تقرير المراكز التعليمية من إعداد مناهج دراسية للمسرحين والمسرحات من القوات الإنجليزية لإعدادهم إعداداً صالحاً للعودة إلى الحياة المدنية . وقد افتتحت بالفعل كلية التعليم التابعة لإدارة الجيش ، واتخذ «دبروليك» وهو قصر دوق نورثلاند مقراً لها . والآمال معقودة على أنه سوف يفتتح كثير غيرها عما قريب .

إننا الآن مقبلون على أكبر تغيير في حياة العالم ، والتعليم هو السبيل الوحيد إلى إعداد الرجل العادي للمساهمة في تقدم المجتمع والمشاركة في العمل على سعادته واطمئنانه .

[illegible]

(ترجمة) عبد العزيز [illegible]

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
التليفون — ٥٢٧٦٩
القاهرة

والطفيليات ، ثم يدركه التعب ، فيتناول ربابه ويسترسل مع قوسه حين تتحرك على أوتارها ، كما يدخن غيره من الفلاحين وينفخ دخان غليونه حلقات في الهواء ، بل كنا نسمع ربابه عندما يشتد البرد ، ويغطي الثلج وجه الأرض وتتلبد الغيوم في السماء ، وتصفر الرياح .

ووري الأب التراب ، ولكن الرباب لم تزل معلقة على الحائط . فلما هبت الرياح ونفذت إلى الكوخ من ثقوب جدرانه اضطربت الرباب وتحركت يمنة ويسرة . وكلما أرسلت الشمس أشعتها أو دخل ضوء القمر من ثقوب الكوخ انطرح ظل الرباب على الحائط كغرف الماء ، فلما رآه « هيانج » فرح ، وظن أن اضطرابها من سحر الجن وأن ظلها من رسمه .

وبينما كانت أم « هيانج » تنسج حصيراً في يوم من الأيام ، إذا بها تتوقف قليلا عن النسيج ، وتتأمل ابنها في امعه ، ثم تشير إلى الرباب قائلة : « يابني ! إن أباك ترك لك هذه الرباب ميراثاً ، فإذا استطعت أن تعزف عليها كما كان يفعل فإني أعجب بك وأسر منك . » ولكن « هيانج » لم يفهم كلامها ، وإنما نظر إلى الرباب واجماً ، ولما حل وقت الأكل أشارت أم « هيانج » إلى الرباب قائلة : « يابني إن أباك ترك لك هذه الرباب ميراثاً ، فإذا استطعت أن تعزف عليها كما كان يفعل فإني أعجب بك وأسر منك . » ولكنه لم يفهم كلامها ، وإنما نظر إلى الحائط واجماً ؛ ولما أصبح الصباح واستيقظ « هيانج » من النوم كانت أمه بجواره فأشارت إلى الرباب قائلة : « بني ! إن أباك ترك لك هذه الرباب ميراثاً ، فإذا استطعت أن تعزف عليها كما كان يفعل فإني أعجب بك وأسر منك . »

ولما بلغ « هيانج » من العمر أربع سنوات أخذت أمه الرباب من على الحائط وناولتها له وهي تقول : « أنت الآن تستطيع إمساكها والعزف عليها ، فأرجو أن تعزف عليها ألحاناً جميلة مثل ألحان أبيك » . فحمل « هيانج » الرباب بين يديه ، وقد عرفها ، فهي صديقته الحبيبة التي يراها كل يوم على الحائط ، ولكنه لم يعرف كيف يعزف عليها ، فحرك القوس على أوتارها ، فسمع لذلك صوت كصوت نشر الخشب ، واستمر يحرك القوس جيئة وذهاباً فابتسمت الأم قائلة :

« إنك لذكي يابني »

وأصبحت القوس وتحريكها على الرباب درس « هيانج » الجديد ، فذاكر ذلك الدرس في البيت وعلى شاطئ الترعة وفي السوق وبين أرباض المدينة . وصادف أن سمع صوت الرباب صياد كان يجلس على شاطئ الترعة ، فضحك من « هيانج » وقال : « هل صوت الرباب الذي تعزفه فأصبح كصوت نشر الخشب أجمل أم الصوت الذي عزفه عليها أبوك ؟ » وضحكت منه امرأة عجوز كانت تغسل الملابس في جنب من الترعة وقالت : « هل ترك أبوك هذه الرباب القديمة القبيحة ميراثاً لك ؟ » وتبعه أولاد السوق وصاحوا به : « ياله من صوت قبيح يجمل بك أن تهدي هذه الرباب إلينا فنعزف عليها » ولم يعر « هيانج » كلامهم سمعاً ، وانطلق يعزف على الرباب ويطوف بها في كل مكان .

وذهب « هيانج » إلى مكان بعيد عن الناس وخال من الضوضاء ، فرأى حوله جبالا مرتفعة شاهقة ، وأمامه غابة كبيرة ، فعزف على الرباب بكل جهده ، فأطربه صوتها وهز نفسه لحنها ؛ وبينما هو كذلك إذ فاجأه صوت رقيق يقول : « أخي الصغير أتريد أن تعزف ألحاناً جميلة ؟ إن كنت تريد فتعال أعلمك » . فاطلع حوله فلم ير أحداً ، فهمس خائفاً يخاطب نفسه : « عجباً ! من ذا المتكلم آنفاً ؟ » ثم لم يلبث الصوت أن عاد يقول : « انظر ياصغيري تحت قدميك تجدني ، اخفض رأسك ياصغيري تجدني تحت قدميك . » ولما خفض رأسه رأى ترعة يسيل ماؤها سريعاً نقياً رقراقاً ، ويوقع على حصى الشاطئ أنغاماً رائعة ، وانتثرت كسر الصخور مختلفة الألوان في قاعها ، وقد

سقاها من السماء فاستدارت .

عندئذ صاح « هيابخ » فرحاً : « يا أختى الجميلة ! إن رضيت أن تعلميني لحنا من ألحانك العذاب فما أعجزني عن شكرك ! » فردت الترعة قائلة : « إذا سمعت منى لحناً فجارنى فيه ربابك . » ثم رفعت لحنها مرة ثانية ، وأرهف « هيابخ » سمعه لحنها ، ففهم كل دقائقه ، وتابعه مع الرباب ، فلم يسمع منها صوت كصوت الخشب حين ينشر ، وإنما تتابع الحنان ، لحن الرباب والترعة ، ثم اجتمعا ، فلم يعرف الفرق بينهما . وشغل « هيابخ » والترعة بالتوقيع والغناء ، وغفلا عن كل شيء ، ثم أبطأت الترعة في لحنها تريد أن تستريح ، ولم تلبث أن أتمت اللحن ، وقالت « لهيابخ » : « لقد أصبحت ألحان ربابك جميلة جداً ، فدعنى الآن لأنام قليلا وإلى اللقاء يا صغيرى . » وخف صوتها شيئاً فشيئاً ، فلم ينتظر « هيابخ » وإنما انطلق سائراً إلى الأمام .

ووقع « هيابخ » ألحانه الجديدة ، فرددت الجبال صداها ، فكثرت الأصوات ثم اختلطت متجاوبة ، كأنها تجيبه عن لحنه ، فطرب لذلك أيما طرب . وبينا هو غارق بين لحنه وصداه إذا بصوت حنون يناديه : « أخى الصغير أريد أن تتعلم ألحاناً جديدة ؟ إن كنت تريد فتعال أعلمك » فالتفت ونظر من حوله فلم يجد أحداً ، فروع وهمس يخاطب نفسه : « عجباً ! هل استيقظت الترعة من نومها ولحقت بى ؟ » ولكن الصوت عاد يقول له : « أنا هنا يا صغيرى ، فارفع رأسك تجدنى . » فلما رفع رأسه وجد نسمة رقيقة واقفة هبت فوق رأسه ، ثم تماوجت أعطافها كما يختال الملك بين أجنحته ومطارفه ، وأخذت تغنى لحناً جميلا رائعا ، فأخذت الحشائش والزهور ترقص طربا على وقع لحن النسمة .

ففرح « هيابخ » وأجابها قائلا : « يا أختى اللطيفة ! إن رضيت أن تعلميني غناءك الرائع ولحنك الظريف فما أعجزنى من شكرك » فأجابته النسمة قائلة : « إذا سمعت غنائى فتابعه بربابك . » ثم غنت مرة ثانية ، وأرهف « هيابخ » سمعه إلى غنائها حتى فهم دقائق لحنها ، فتابعه بربابه مجهداً نفسه كل الجهد أن يحاكيه ، فتابع صوت الرباب وصوت النسمة ، ثم اجتمعا صوتاً واحداً ، فلم يظهر فرق بين الصوتين ، عند ذلك فرح « هيابخ » والنسمة فرحاً شديداً ، فأخذت النسمة توقع لحنها و « هيابخ » يتابعه ، يسرعان مرة ، وأخرى يتمهلان ، ومرة يرفعان الصوت ، وأخرى يخفضانه ، طرب في طرب بدون توان أو فتور ، وبهر اللحن الحشائش والزهور فرقصت متمايلة يميناً مرة ويساراً أخرى حتى كلت من الفرح . ولما أرادت النسمة أن تتحول من مكانها كفت من الغناء وقالت « لهيابخ » : « الآن قد تعلمت ألحاناً جديدة ، فدعنى أذهب إلى مكان آخر ، وإلى اللقاء يا صغيرى » ثم غادرت مكانها في حركة خفيفة وانطلق « هيابخ » سائراً إلى الأمام .

ووقع ألحانه الجديدة واحداً بعد آخر ، فكلما رتلت ربابه ألحان الترعة تذكر جمالها ونشاطها ، وكلما رتلت ألحان النسمة تذكر خفتها ولطفها ، واستمر يوقع الألحان حتى دخل الغابة وهو لا يكاد يشعر ! وبينا هو يسير إذ سمع صوتا يقول : « أخى الصغير أريد أن تتعلم ألحانا جديدة ؟ إن كنت تريد فتعال أعلمك . » ولكنه لما نظر حوله ولم يجد أحداً قال في نفسه : « عجيب ذلك ! من ذا الذى يريد أن يكون أستاذى في الموسيقا هذه المرة ؟ » وإذا بالصوت يعود فيقول له : « يا صغيرى انظر إلى بين أوراق الأشجار الخضراء الكثيفة ، فإنك إن فعلت وجدتنى . » فنظر « هيابخ » في التجاويف التى بين أوراق الأشجار ، فوجد طائراً جميلا يغرد تغريداً رائعاً حسناً ، ويرقص بين فروع الأشجار الخضراء كأنه راقصة حسناء ترقص في قاعة الرقص الجميلة .

ففرح « هيابخ » وأجابه قائلا : « يا أخى الطائر الجميل ! إن رضيت أن تعلمني غناءك فإنى أشكرك من كل قلبى » .

فقال الطائر : « إذا سمعت غنائي فتابعني بربابك . » ثم غنى مرة ثانية ، وأرهف « هيابغ » سمعه إلى غنائه حتى فهم دقائق اللحن ، فتابعه بربابه ، وقد مرنت يده على إثارة أوتارها ، فحرك القوس صاعداً هابطاً بخفة ويسر ، وكانت الرباب تتبع صوت الطائر ثم اجتمعا ، فلم يكد يبين فرق بين الصوتين ، وابتهج « هيابغ » والطائر لذلك أشد الابتهاج ، وأخذ يوقع أحدهما اللحن على ربابه والآخر يغني في مواجهته ، وقد أشرق وجهاهما بالابتسام ، ثم ظمىء الطائر وأراد أن يشرب الماء فتوقف عن الغناء وقال « لهيابغ » : « الآن تعلمت ألحاناً جديدة كثيرة فدعني لأشرب وأستحم ، وإلى اللقاء يا صغيري » وخرج الطائر من الغابة .

وبعد ذلك استطاع « هيابغ » أن يوقع على ربابه كل لحن جديد وكل نغم رائع ، ليست ألحان الترعة ولا ألحان النسمة ، ولا ألحان الطائر ، ولكنها ألحان جديدة مؤتلفة من كل تلك الألحان كألوان مختلفة اختلط بعضها مع البعض الآخر فصارت لوناً واحداً . وذهب « هيابغ » مرة إلى الترعة ، ليرى هل استيقظت أم ما زالت تستمر في النوم ، فلما رأته وسمعت ألحانه الجديدة قالت له : « إن ألحانك الآن أصبحت أجمل من ألحاني ، فأرجو منك أن تعيد التوقيع مرة ثانية لأسمعها فأنام نوماً لذيذاً . » وأخرى ذهب إلى النسمة ليزورها ، فلما رأته وسمعت ألحانه الجديدة قالت له : « إن ألحانك الآن أصبحت أروع من ألحاني ، فأرجو أن تعيد التوقيع مرة ثانية كي أسمعها وأسر بها » . وثالثة ذهب إلى الطائر ليرى رقصه الجميل ، فلما رآه وسمع ألحانه الجديدة قال له : « إنك الآن تستطيع أن تغني ، فأرجو أن تعيد توقيع ألحانك الجديدة كي أتعلمها منك » . وكاد « هيابغ » يطير فرحاً حين حيته بهذا الإطراء ، وأعاد ألحانه الجديدة واستمر يعزفها دائماً ، فنامت الترعة نوماً عميقاً ، وابتسمت النسمة ابتسامة خفيفة ، وغرد الطائر تغريداً

رائعاً . وذهب « هيابغ » بعد ذلك إلى الترع والنسمات والطيور الأخرى ليزورهن ويعقد معهن صداقة جديدة ، فلما سمعن ألحانه الجديدة التي ابتدعها سررن بها غاية السرور وغنين له أغانيهن الجميلة الرائعة الألحان .

وكادت أم « هيابغ » تجن من شدة الفرح بابنها وألحانه الجديدة . فلما بلغ رشده صارت ألحانه في غاية الروعة والجمال ، فقالت له أمه : « إن ألحانك الآن أصبحت كألحان أبيك تماماً ، وإعجابي بك قد بلغ غاية الإعجاب ، فاخرج يا بني من البيت بهذه الرباب ميراث أبيك وانشر ألحانك بين الناس » . فأطاع « هيابغ » أمر أمه وخرج من الكوخ .

ـ وكان في المدينة قاعة للموسيقى والغناء ، بنيت درجات مدخلها وأعمدتها من الرخام الأبيض ، وحجب مسرحها بستار من الحرير وأحيط بالأطر المزركشة والزخارف الذهبية ، كلها جميلة طريفة تأخذ بمشاعر القلوب ، وكان يحيي حفلات في هذه القاعة كبار الموسيقيين ومشاهير المطربين ، وإذا ما ظهروا على المسرح كانت المقاعد غاصة بالسامعين من الرجال والنساء ذوي الشخصيات الموقرة والملابس الفاخرة . كان أولئك الرواد كلما سمعوا لحناً جديداً أو أغنية رائعة أغمضوا عيونهم وأومأوا برؤوسهم مظهرين قدرتهم على تذوق لذة الموسيقى والغناء ، ومعرفتها التامة ، وإذا ما انتهى موسيقار من توقيع لحن ، أو أتم مطرب غناء قطعة ، عبروا عن سرورهم بالتصفيق الرقيق الوقور ليشعروا الناس أنهم من ذوي الوجدان الحي ، وأن ذلك اللحن أو تلك الأغنية طربت رضاهم ، وعند ذلك يطير صيت الموسيقار أو المطرب في المدينة .

ولما ذهب « هيابغ » إلى المدينة دعاه صاحب القاعة ليعزف فيها على ربابه ، وأعلن الخبر بين الناس ، وحدد لذلك الميعاد ، وألصقت إعلانات جميلة ملونة على جدران

المنازل في الشوارع الكبيرة ، وقد كتب عليها «الألحان الجديدة . الأنغام الرائعة . الموسيقار الريفي » . وكان خط هذه العبارات ظريفاً عجيباً رائعاً يجتذب القلوب . فلما جاء الميعاد غصت مقاعد القاعة بالرواد الكثيرين الذين تعودوا التردد على هذه القاعة ، وقد فغروا أفواههم استفهاماً كأنهم ينتظرون الطعام .

صعد « هيابح » إلى المسرح وكان يلبس جلباباً قديماً ممسكاً بيده الرباب ميراث أبيه ، فأدى التحية للرواد . ولكنهم لما رأوه عبست وجوههم ، وقالوا في أنفسهم : « لقد رأينا كثيرين من الموسيقيين والطربين ، ولكننا لم نر مثل هذا الموسيقي الفلاح ، وما أقبح هذه الرباب التي تشبه رباب الشحاذين التي يسألون بها الناس ! » وعزف « هيابح » ربابه فانتشرت ألحانها في القاعة ، وكان الجو هادئاً ، فسمعها الرواد في وضوح وجلاء . ولكن بعد برهة صدرت منهم أصوات خفيفة ، ثم ارتفعت شيئاً فشيئاً تهدر كموج البحر ، فأسرع « هيابح » في العزف وارتفعت ألحان ربابه ارتفاعاً كبيراً . ولكن الضوضاء طغت على صوتها كأنها تريد أن تقتلها ، وخيل إلى « هيابح » أن الرواد يقولون : « لم نكن نسمع مثل هذه الألحان ؟ ... ليست لها روعة ولا لذة ؟ ... من أين جاء هذا الشحاذ ! . إنه خداع وموسيقى دعى ! ... لقد وسخت ألحانه آذاننا فيجب علينا أن نغسلها » . ثم قاموا وتفرقوا يريدون أن يغسلوا آذانهم ، ورفع الشيوخ شواربهم ، واحمرت وجوه السيدات وانتفخت ، ولعنه الفتيان والفتيات ، وغضب الرواد المترفون غضباً شديداً ؛ فخرجوا من القاعة حتى لم يبق إلا « هيابح » وحده على المسرح ، فتوقف من العزف وخرج هو أيضاً من القاعة ، وبعد أن سار برهة أدار رأسه ونظر إليها نظرة ساخرة وانصرف .

ورجع « هيابح » إلى شاطئ الترعة ودخل الكوخ الصغير القديم . فلما رأته أمه سألته قائلة : « إني أمرتك بأن تخرج إلى الناس وتنشر ألحانك بينهم ، فلماذا رجعت سريعاً ؟ » فأجابها قائلا : « إن الناس لا يريدون أن يسمعوا ألحاني لذلك رجعت » . فضحكت أمه وأخذت رأسه في حجرها قائلة : « لا بأس عليك يابني ! إذا كان الناس لا يريدون أن يسمعوا ألحانك ، فإني أريد أن أسمعها ، فوقع على ربابك لأنني إذا سمعتها زاد نشاطي في نسج الحصير » . وقبلت وجهه قبلات حارة كما كانت تقبله في طفولته .

وبعد ذلك كنا نسمع ألحان الرباب خرجت من الكوخ الصغير القديم حيناً بعد حين ، في ليالي الصيف حين تنثر النجوم اللامعة الكثيرة في السماء ، أو في ليالي الخريف التي تهب فيها الرياح الخفيفة ، أو في مواسم حصاد الفلاحين زروعهم ، أو في الشتاء القارس عند ما يغطي الثلج وجه الأرض ، وفي القرى التي تقرب من الكوخ أو تبعد عنه ، فنسمع خرير الماء في الترع ، وهبوب خفاف الرياح بلطف ، وتغاريد الطيور الجميلة ، كأنهن يطربن مع ألحان رباب « هيابح » . وصارت الحقول بجوار الكوخ الصغير القديم قاعة الموسيقى والغناء .

وعند ما قاومت ألحان رباب « هيابح » أصوات الترع والرياح والطيور ، وانتشرت في الجو وعمت ، صارت كأنها حلم لذيذ خفيف يطغى على أجسام السامعين ، فرجعت قوة الفلاح المكدود إلى جسمه ، ونشطت روح العامل المتعب الأعصاب ، ونسى الحداد حرارة النار وألهبها ، وذهب حزن المرأة العجوز التي فقدت وحيدها وحسرتها . سمعها كل الناس ، فشعروا براحة وسرور ، فغنوا جميعاً : « نشكر للصبي « هيابح » ألحان ربابه » .

ولكن رواد قاعة الموسيقى التي بنيت بالرخام الأبيض زهدوا في سماع تلك الألحان .

عبد الله مايى . كر

بين المسموع والمقروء

ملك الكبريت

أمة السويد أمة من أسبق الأمم إلى الناصرة . ظهر ذلك في مقامرتهم في صناعة الكبريت حين لم يكن لجيبهم من خامائه شيء . وبالجهد الشديد ، والصبر الذي لا ينفد ، ملكوا ناصية هذه الصناعة ، لا في السويد ، ولكن في أوربا كذلك . ونحن هنا في مصر ، وفي الشرق ، لا نزال نذكر كبريت الجبّال ، وغير الجبّال ، وكانت كلها من السويد . والذين ملكوا الكبريت ، في السويد ، ملكوه في الأرض .

وأسطع نجم كان لهم في هذه الصناعة ، رجل اسمه كروجر ، كان ملك الكبريت ، ورجلا من أكبر رجال الصناعة في الدنيا ، ومن أثرى الأحياء الذين عرفوا في القرن العشرين .

وفي اليوم الثاني عشر من مارس عام ١٩٣٢ سمع الناس خبراً هائلا : أن إيفار كروجر أطلق الرصاص على نفسه فأصاب مقتلا ، في شقة في منزل من منازل باريس .

وما سمعت الدنيا هذا الخبر الفاجع حتى اهتزت له أكبر اهتزاز . وأخذ الصناعيون من كل جانب يرثونه بالمراثي الطوال الحزان . وجريدة التيمس ، كبرى جرائد الإنجليز ، كتبت عنه افتتاحية أخذت فيها تعدد مناقبه ، وتقول عن هذا الرجل العجيب إنه قضى سنوات ما بعد الحرب الماضية يحاول أن يعود بالدنيا التي أمرضتها الحرب إلى ما كان لها من صحة ، وأخذ بذراعها ، كالمرضة الرؤوم قامت ليلها ونهارها إلى جانب صاحبها العليل تعطيه الدواء ، وترجّيه بالشفاء .

ودفن الرجل . ولم يمض على دفنه ساعات حتى أخذت تشيع عنه الشائعات السود . وأخذت الأيام تتوالى فيكشف كل يوم عن خبيئة تدل على أن الرجل كان دجالا كبيرا ، وكان نصابا خداعا ، وأنه سلك كل طرق الاختراع والابتداع والكذب لتظهر شركاته العديدة الواسعة المنتشرة كل انتشار في أوربا ، في مظهر الدعة والرخاء ، وما كانت كذلك .

فأي رجل كان هذا ؟ إن الذين سمعوا باسمه كانوا أعداداً كبيرة . أما الذين رأوه رأي العين فكانوا أقل من أولئك كثيرا . أما الذين تحدثوا إليه وعرفوه فأقل من هؤلاء قلة . وعرفه العالم بأنه البليونير ملك الكبريت السويدي .

كان كروجر رجلامن أغرب ماخلق الله . إن الناس إذا بلغوا الجد ، أحبوا الشهرة . والكثرة الكبرى تحبها وهي لم تبلغه . تحب الشهرة وهي من الجد على بعد القمر . ومن الناس من يتجافى ظاهراً عن السمعة الحسنة واحتفال الناس ، طلباً لزيادة من السمعة واحتفال الناس . ولكن ما هكذا كان كروجر . كان يكره الظهور أكبر الكره . كان يكره أن يُرى ، ويكره أن يُسمَع ، ويكره أن يتحدث عنه الناس . كان في الندوة ، بين إخوانه ورفاقه ، قليل الكلام قليل الإفاضة ، حتى أسموه بالشاب الصموت . وكان في الدنيا ، في عالم الأعمال وعالم الصناعة والتجارة وشتى النشاط ، يحسن الهرب من الناس ، ويحسن التخفّي ، فأسموه بالطيف الخفي والخيال الهارب .

وكره في كراهته الظهور فنادق المدن ، فلم يكن ينزل بها . فكان له عوضاً منها في كل عاصمة ، في أوربا وأمريكا ، شقة لا غير . شقة ضمت كل وسائل الراحة ، وكل متعة من متع الحياة ، إلا الخدم . وكان بكل شقة خادم عجوز واحدة على استعداد لنزوله في أي حين .

على أن كروجر لم يكن من ذوي الحاجات الرفيعة ، ولم يكن له من متع الحياة متع سامية إلا « زهرة الوادي »

كان يود أن يراها فوق مائدته كل حين ، مهما اختلفت الفصول وتباينت الأجواء . وكان يحب الكتب ، ويحب من الفنون الصور ، ولكنه لم يكن جمّاعا لهذه أو تلك ما عاش .

وكان قرّاء ، عزّافا بأكثر الآداب الأوروبية ، يقرأها من أصولها لا من الترجمات . وأعانه على هذا علم باللغات واسع . فكان إلى جانب لغته السويدية ، يحسن الإنجليزية ، ولكن كان ينطقها بلهجة أمريكية شاهدة على السبع السنوات التي قضاها في تلك الربوع ، من سن العشرين إلى السابعة والعشرين . وكان يحسن الفرنسية . وأحسن الألمانية ، ونطقها كما ينطق الأمريكان لا كما ينطق السويديون .

وكان مثل نابليون ، يطلب النوم في أية ساعة فيجيبه . عاد ذات ليلة ، بنيويورك من سهرة في مؤتمر ، وعاد معه أحد أعوانه ، فبدأ عونه يكتب تقرير ما دار في المؤتمر من نقاش . ولكن كروجر لم يستقر به في المنزل قعود حتى نام ، ونام عميقا . وأخذ العون يكتب ، وكلما كتب شيئا أيقظه ليقرأه عليه ويرى رأيه فيه . وكان يصحو على أتم استعداد للفحص والمجادلة ، فيصحح حذفا وإثباتا ، ثم يعود في توان إلى النوم ، ليستيقظ من بعده استيقاظا جديدا ، لنقاش جديد ، يجيء من بعده نوم ، وهلم جرا .

وجع إلى هذا الأمر نقيضه . كان إذا شغله شاغل ، أو قام يصمم لمشروع ، نسي النوم ليالي متتالية ، ونسي مع النوم الطعام . وقد يغريه أصحابه بلقيمات فيأ كلها وهو جالس على مكتبه .

وكان أعزب ، وعاش حياته أعزب . ولم يعرف عنه أحد طول عمره أنه اتصل بامرأة ، ثم يتكشف الأمر عن صلة له بامرأة دامت سنين ، ولم تكن تلك المرأة بذات بال .

فهذه صفاته . كان لا بد من ذكرها لنقرنها بالعمل الجبار الذي قام به هذا الرجل في حياة حافلة . فالذي قام به ، وبالسرعة التي قام بها ، لم يقم بمثله أمثال له كثيرون .

فقد صيّر هذا المهندس السويديّ ، من نفسه ، في زمن غاية في القصر ، دكتاتوراً في عالم الكبريت ، يتصرف في حاضره وفي مستقبله ؛ لا في السويد وحدها ، بل في الدنيا كلها . وشركاته عدّدها ، ومدّدها ، ونشرها في شرق أوربا وغربها ، وشمالها وجنوبها ، حتى صارت أكبر وحدة اقتصادية في قارة العلم والصناعة والمال .

ولم يقتصر نشاطه على الكبريت ، فقد امتلك حصصاً في مؤسسات أخرى ، كانت أكثرها حصصا فعّالة ، تدور بمؤسساتها حيثما دار ، وتفعل بها ما أراد . فكان له في البنوك الأوربية حصة ، وفي الرهونات الدولية حصة ، وفي السويد كان يمتلك في صناعة الورق ، ويمتلك في خامات الحديد ، وفي الأسمنت والكهرباء والتلفون وغيرها . وكان يوسّع سلطانه كل عام . وقبل أن يموت بقليل كان قد توجه إلى استعدان الذهب يمتلك في صناعته .

كان كروجر مهندساً مدنيا ، وخبيراً في الفولاذ . وعاش في أمريكا والمكسيك وجنوب أفريقيا عيشة شاب مغامر ، فيها القلب الناشئ ، إمتاع ، وفيها غبطة وإشباع . وعاد إلى استكهلم ، عاصمة السويد ، وهو ابن بضعة وعشرين عاما ، فألف شركة أسماها « كروجر وتول » ، لم تلبث أن كسبت مكانا مقدّما ممتازا . وفي عام ١٩١٣ وجّه كروجر همه أول ما وجه إلى صناعة الكبريت . ولم تكن غريبة عنه كل الغرابة . فأبوه ، أرنست كروجر ، كان مديراً لشركة للكبريت صغيرة في بلدته التي نشأ بها ، بلدة كلمار .

وجه كروجر همه إلى صناعة الكبريت ، ولم تمض سنوات أربع على الشركات الكبريتية التي اتصل بها ، حتى استطاع أن يغري منافسيه من صناع الكبريت أن ينضموا إليه ، بقضهم وقضيضهم ، وكل ما يمتلكون من عدة ومال . ومن هذه الشركة الجديدة خرجت مجموعة المصانع الكبريتية السويدية المتحدة عام ١٩١٧ ، ورأس مالها ٤٥ ألف ألف كرون .

وما استقرت تلك المصانع . . . أحمد زكي

أغنية الريف :

ناعورة الرياض (*)

ناعورة في الرياض تغري الدجى بالأنين
وتشتكي كالمراض في لوعة وشجون
وصبوة ، واحتراق !
من قسوة وفراق
كزفرة العشاق

لا ترقد الليل إلا سويعة ثم تنهض
تصحو إذا الليل ولى وأقبل الفجر يركض
على غنا الفلاح !
تصحو كطفل ملاح
من بين نسج الوشاح

من « الأولب » البعيد أتت إلى البلدان
تجر ذيل الخلود من بدعة الرومان
تمضي العصور وتفنى !
وعمرها ليس يفنى !
وليس تعرف وهنا

قد أقبلت من « أثينا » بنت تئن أنينا !
آلامها لن تهونا والدمع يجري هتونا
كديمة وكفاء !
تروى به الغبراء
فتشبه الحسناء

كأنها بالدموع ترجو من الحب قربا
لكنه في هجوع يتيه كبراً وعجبا
وإذ ترى منه صدا
تسقي الحشاشة ردا
من منهل صار عِدا

في قلبها يتوقدْ جمر يذيب الجلمدْ
إن يحتس الماء يزددْ لجذوة الحب تخلدْ
كالدهر إذ يتجددْ
فعمره ليس ينفدْ
وما مضى اعتاض في الغدْ

تقضي الدجى تتصور خياله في النجم
وحينما الليل يُقهر تقوم ، والهم يصمي
فؤادها بالسهم
من ربة الحب ترمي
به الحشا المستدمي

قد أبدعتْ من جماد تغلغل الحس فيه
في انسدال السواد يبكي على ماضيه
بأنة ، وزفير
ولوعة المهجور
يفتن في التعبير

تعبيره كالكمان به يبث الحزنا
يبثه كل آن ولا يني يتغنى
بحزن الأغنيات !
وأوجع الأنات
تقبض بالحسرات

ناعورة ألهمتني أنشودة للغناء
وطالما سامرتني في الليلة الظلماء
في حين لم ألق سامرْ
فأقطع الليل ساهر
أحصي النجوم الزواهر

(مكة)

أحمد عبد الغفور العطار

(*) الرياض : عاصمة نجد ، وهي مشهورة الآن بنواعيرها

في ضيافة الأدب العربي :

الموت يتكلم

[للشاعرة إيلا هويلر ولكلكس بتصرف]

يا مَنْ يُراعُ إذا تمثّل صورتي فيم ارتياعُك ؟
هوّن عليك ففي ابتعادك من بني الدنيا انتفاعُك !
لك ضجعةٌ عندي تُريحك هل سيؤذيك اضطجاعُك ؟

* * *

أو لست من دنياك تسبح في خضمٍّ هائلِ
يغشاك موجٌ فوق موج تحت غيث هاطلِ
لِمْ لا تُسرّ إذا وصلتَ مبكّراً للساحلِ ؟

* * *

أنا في الحياة كمنجلٍ في كفّ حصّادٍ بصير
أهوى على الذاوي فأقصيه عن الزهر النضير
لولا مبادرتي لضاق الروض بالعدد الكثير

* * *

كم مِنْ مريض قد غزاه الدهر بالداء العياء
متململا يرجو الشفاء من الطبيب ولا شفاء
يمّمتُ منزله فكان له على يديّ الدواء

* * *

سيزول عنك الجهد حين تنيمه في نوم عميق
يا طالما كانت تصادمك المآزق في الطريق
فإذا انتصرت على مضيق زلّ نعلك في مضيق

* * *

ماذا تركت على الحياة سوى جناة آثمين
كانت قلوبهم تنزّ عليك بالحقد الدفين
قد بتّ مرتاحاً وباتوا – رغم بعدك – متعبين !

* * *

يا رُبّ مُلتاعٍ كئيب عذّبته يدُ القدرْ
غمرتْه دنياه بمختلف الكوارث والغِيَرْ
وجد الحِمامَ يريحه مما يكابد فانتحرْ

* * *

يا من يُراع إذا تمثّل صورتي فيم ارتياعُك
هوّن عليك ففي ابتعادك عن بني الدنيا انتفاعُك
لك ضجعة عندي تُريحك هل سيؤذيك اضطجاعك ؟

محمد رجب البيومي

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٨٦ — الثلاثاء ١٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ — ٢١ من مايو سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

خواطر وآراء

حملة المحافظين على تصريح الجلاء :

أثار تصريح مستر أتلى رئيس الحكومة الإنجليزية الذى أعلن فيه أن الحكومة قررت جلاء القوات البريطانية عن مصر فى البر والبحر والهواء حملة شديدة من جانب المعارضة تولى كبرها المستر تشرشل والمستر إيدن وتابعهما فى ذلك صحف المحافظين .

وقد تولتنا الدهشة من أن يكون مثل هذا القرار محل معارضة من أحد من الساسة الإنجليز . فقد حمدنا لبريطانيا العظمى موقفها من مشاكل إيران وسوريا ولبنان وإصرارها على أن تجلو القوات الأجنبية عن تلك البلاد لأن بقاءها يتنافى مع استقلالها التام . ولم نكن نتصور أن يكون هناك إنجليزى يأبى على مصر ما رآه حقاً طبيعياً لتلك الدول . فهل يكون وجود القوات الأجنبية فى بلد [illegible]

أو فرنسية ولا يكون كذلك إذا كانت إنجليزية .

وأدهشنا أن يتكلم القوم عن ضرورة بقاء القوات الإنجليزية على القنال تأميناً لسلامة الإمبراطورية . فقد كنا نظن أن قيام جمعية الأمم ومجلس الأمن قد فتح عهداً جديداً بين الأمم ، وكفاها مؤونة التفكير الفردى فى الاستعداد لمقاومة ما قد تتعرض له من عدوان . وكنا نظن أن الأمم الكبرى التى أسست الجمعية ودعت الأمم إلى ميثاقها أشد الناس إيماناً بقوة هذه الأداة الدولية فى منع العدوان وحل الخلافات بين الأمم بالطرق الودية . وكنا نظن أن الجو الدولى تسوده الثقة والمودة وأنه ليس بين الدول الكبرى دولة تنزع إلى الاعتداء على غيرها . ولكن هذه الأقوال تشير إلى أن القوم لا يؤمنون بهذا النظام الدولى الجديد وأنهم يرونه لعبة تتلهى بها الشعوب الصغيرة ، أما الأمم الكبيرة فتجرى على سياستها القديمة [illegible]

على أن سلامة الامبراطورية مع هذا لاتتعرض لخطر قريب أو بعيد ، ولكن الوهم يخيل للأذهان الاستعمارية أخطاراً مخبوءة ، والخوف أساس عدم الثقة ، وانعدام الثقة بين الأمم مبعث الخلافات والخصومات .

وما لمصر ولهذا كله ؟ فلتكن الامبراطورية معرضة لأشد الأخطار ، فهل يقتضي هذا أن تستذل رقابنا وتحتل ديارنا لدرء تلك الأخطار ؟ ولماذا لا تتولى الامبراطورية تدبيراً أو صيانة أملاكها بعيداً عنا ومن غير أن تسيء إلى كرامتنا .

إن العقلية الاستعمارية الرجعية التي تبيح أن يعتدى على حرية شعب في سبيل الاحتياط من خطر موهوم ، والعقلية التي تقوم على الشك والحذر وسوء الظن وتأبى إلا الرجوع لسياسة تقسيم العالم إلى معسكرات متحابة في الظاهر متعادية في الباطن ، والعقلية التي تقيس الأمور بمقياس أناني لا ينظر إلا المصلحة الخاصة ولا يستطيع أن يقدر أثرها في غيره من الأمم — هذه العقلية هي أكبر أسباب ما يسود العالم في هذا الزمان من متاعب وقلاقل واضطرابات .

وإن مصر لتضبط أعصابها أمام هذه الحملات الطائشة وترقب بثبات ما سينتهي إليه الأمر بينها وبين إنجلترا ، وترجو أن تغلب الحكمة والسداد ، وأن يسود الحرص على قيام العلاقة بيننا وبين الإنجليز على أساس الصداقة والمودة .

مصير ليبيا :

ومن سخرية القدر أن تنبت فكرة في اجتماع مجلس وزراء خارجية الدول الأربعة ، وهي جعل طرابلس تحت وصاية إيطاليا . وأن يقال ذلك في الوقت الذي يحمل فيه مستر تشرشل على مصر في خطابه بالبرلمان ويمن عليها أن إنجلترا قد أنقذتها من اعتداء إيطاليا وألمانيا على حريتها .

فإذا كان مستر تشرشل قد نسي أنه إنما كان يدافع عن امبراطوريته أولا وبالذات ، وإذا كان قد نسي أننا أدينا للحلفاء من المساعدات ما كان له أكبر الأثر في نجاحهم ، وإذا كان قد نسي أننا إذا حمدنا الله على أنه لم يبتلنا باحتلال الطليان أو الألمان لبلادنا فإن ذلك لا يمكن أن يسوغ رضانا باحتلال الإنجليز ، فالاحتلال الأجنبي شر كله .

إذا كان قد نسي ذلك كله فلعله لم ينس ما أطلقه خلال الحرب من وعود وما تقرب به إلى الشعوب من تعهدات ومواثيق ، ولينظر ما انتهت إليه مواعيده وكيف يفكر بعض الدول في أن يقدم شعب طرابلس هدية لإيطاليا المهزومة مكافأة لها على ما أذاقته الحلفاء من متاعب وما كبدتهم من خسائر وضحايا وما أعانت به حليفتها ألمانيا في تلك الحرب . وهكذا يكون العدل الدولي يقدم المعتدى عليه هدية للمعتدي ليجهز على البقية الباقية منه .

لا نجد تفسيراً لهذا التفكير العقيم إلا أن تكون صلة الرحم الأوروبية قد تغلبت على كل الاعتبارات وأن الشعوب الصغيرة أصبحت سلماً لمساومات الدول الكبرى وحل خلافاتها .

إن ليبيا شعب عربي قاسى من ظلم الطليان وقسوتهم الكثير ، وقد كان يظن انهزام إيطاليا الذي ساهم فيه بما استطاع سيطلع عليه عصراً جديداً من الحرية والعدل . وإنه ليحز في نفس هذا الشعب وفي نفوس الشعوب العربية التي تشعر بأنه عضو من جسمها وقطعة من كيانها أن تقضي الدول قضاء جائراً في مصير هذا الشعب .

فلتقدر الدول مغبة هذا التفكير وأثره في العالم العربي ، فإنه سيكون مبعث مرارة وألم ، ومصدر فساد في علاقات أممها بالأمم العربية .

تقرير فلسطين :

ويذكرنا هذا الرأي المتعسر بتقرير لجنة التحقيق الإنجليزية الأمريكية وما اقترحته بشأن فلسطين .

لم تكن لجنة تحقيق ، وإنما كانت هيئة تمهد لإقرار

الأوكسيجين والحياة

لا اختلاف بين الناس في أن الحياة لا تقوم بغير أوكسيجين ، وأن هذا الغاز الحيوى إذا انعدم توقفت الحياة بشتى صورها فلا يبقى حيوان ولا نبات .

ولكن الواقع أن بعض فصائل البكتريا يعيش من غير أوكسيجين . وقد أجريت تجارب ثبت بها أن بعض الحشرات واليرقات استمرت على قيد الحياة في مستودعات محكمة الإغلاق على الرغم من دفع درجة حرارتها إلى درجة الغليان ، وقد استمرت هذه الحشرات ويرقاتها على قيد الحياة بعد وضعها تحت آنية زجاجية مفرغة من الهواء

وقد أسفرت هذه التجربة عن نفس النتيجة حينما أجريت على بعض أنواع الأسماك والحيوان ، وقد ذهب العلماء إلى أبعد من ذلك فأدخلوا في هذه الآنية غازات سامة فلاحظوا أن بعض هذه الأحياء قد استمرت على قيد الحياة .

وقد أجهد العلماء أنفسهم للوصول إلى تفسير لهذه الظاهرة حتى اهتدى أحدهم إلى التعليل الوحيد المعقول ، وهو أن هذه الكائنات الحية التي تستغنى عن الأوكسيجين انحدرت من فصائل كانت على قيد الحياة في العصور الجيولوجية الأولى ، أي قبل أن تنتظم أحوال كوننا الأرضى على النحو الذى نراه ، وقبل أن يصبح هواؤه على هذه الصورة وبهذا التركيب الذى نجده عليه اليوم ، فكانت أجهزتها مهيأة على نحو يلائم الجو الذى كانت تعيش فيه ، وهو جو نعتبره نحن اليوم ساماً لكثرة ما كان يخالطه من الغازات السامة ولقلة ما كان فيه من الأوكسيجين .

ويظهر هذا بوضوح في بعض أصناف الأسماك ، فقد ثبت أن من فصائل ما ينمو ويتكاثر في جو مشبع بغاز ثاني أوكسيد الكربون ، وليس فيه من الأوكسيجين شيء ، ومن المعروف أن بيض الدجاج يفرخ في غاز ثاني أوكسيد الكربون . وتمتاز خياشيم بعض الأسماك بظاهرة غريبة ، هي تصفية الهواء من الأوكسيجين .

ومن فصائل نمر البحار « الشارك » ما يعيش في مياه لا تزيد كمية الأوكسيجين الذائب فيها على سنتيمتر مربع في كل ألف سنتيمتر ، ومع هذا فهي موفورة القوة والنشاط ولو كانت تحتاج إلى مقدار الأوكسيجين الذى يستلزمه العلماء لحياة الأسماك لوجب أن يمر في خياشيم هذا الشارك أربعة براميل ضخمة من الماء في الدقيقة ، وهو أمر غير محتمل ، لأن حجم هذا النوع لا يزيد على حجم الرجل العادى . وقد قام العلماء بتجارب أثبتت أن هذا الصنف من السمك لا يحتاج إلا إلى شيء ضئيل جداً من الأوكسيجين .

وقد أدت هذه التجارب بأحد العلماء إلى القول بأن نشاط الكائن الحي لا يتأتى من تأكسد الغذاء فقط ، وإنما من عوامل أخرى لم تكتشف حتى الآن .

سياسة خاطئة رسمها الصهيونيون وحملوا أمريكا وانجلترا بنفوذهم على متابعتها .

فلا العدالة تقر تحميل هذه الرقعة الضيقة الفقيرة من الأرض كل هذه الأعداد من المهاجرين وفي بقاع الأرض متسع لهم .

ولا مصلحة اليهود تتفق مع الزج بهم في هذا الجو يثيرون به العداوة والبغضاء لهم من الأمم العربية المحيطة بهم .

ولا مصلحة العالم تقضى بخلق مشاكل متصلة في هذه النقطة الحساسة التي تتلاقى عندها القارات والشعوب والأديان .

ولو كان لليهود حقيقة قضية يراد حلها لما أعجز العالم الاهتداء لحلها بتوزيعهم بين أمم الأرض أو بإقرارهم في إحدى القارات الفسيحة الخالية من السكان .

ولكن الصهيونيين لا يريدون إلا فلسطين ، وأمريكا تجارى رغباتهم وانجلترا تتردد أمام نفوذهم . والعرب يأبون أن يسامو الخسف في ديارهم . وسنرى إلى أين تنتهى الأمور . (...)

الزعامة والزعمـــاء

تتطلب الزعامة قيادة الجماهير ، وهو عمل من أشق الأمور وأصعبها ، لأن الجماهير — عادة — تخضع للعواطف والانفعالات الوقتية أكثر من خضوعها للعقل والتفكير الهادئ المتزن ، ولذلك قد تتحول من عاطفة الرحمة إلى القسوة العنيفة في لحظة ، وهذا هو السر في أن الزعيم الثائر الهائج الشبوب العاطفة أنجح في قيادتهم من الزعيم الهادئ المفكر .

ومن ثم كانت العلاقة بين الزعيم وأتباعه من أدق العلاقات وأكثرها تعرضاً للخطر . فالزعيم دائماً في الميزان ، كل كلمة منه وكل فعل يصدر عنه وكل كلمة أو فعل من مؤيديه أو معارضيه تؤثر في ميزانه بالرجحان أو عدمه .

ولشخصية الزعيم أثر كبير في هذه العلاقة ؛ فلكل زعيم صورة تنعكس في خيال أتباعه وتؤثر فيهم ، وكثيراً ما يضيف الأتباع إلى هذه الصورة خيالات وأوهاماً من عندهم يخلعونها على الزعيم وقد يعتقدها هو أيضاً في نفسه ، ومن ثم كان التفاعل بين الزعيم وأتباعه تفاعلا قويا .

والنظر إلى الزعيم يختلف باختلاف حالة الأتباع العقلية والخلقية والاجتماعية ، والجماعة الضعيفة العقلية قد تزعم الهرج الثرثار ، وقد تزعم الهائج الشديد الانفعال أو كثير الملق لهم من غير اعتبار جدى آخر أو نحو ذلك . وقد تخطىء الجماعات — حتى الراقية منها — فتمنح من نال ثقتها في ناحية من النواحي ثقتها في النواحي الأخرى ، فقد ينبغ الزعيم في السياسة فيمنح الثقة في الاقتصاد أو العكس ، وقد ينبغ في الإصلاح الديني فيمنح الثقة في السياسة وهكذا . وقد تكون الأمة في حالة ثوران واضطراب فتكون العلاقة بين الزعيم والأتباع علاقة مضطربة كذلك ، كما في زعماء الثورة الفرنسية ، كانوا يرفعونهم فوق الأعناق ثم ينفضون أيديهم منهم فيسقطون ثم يدوسونهم بالأقدام .

* * *

والمثل الأعلى للزعيم السياسي يختلف باختلاف العصور والبيئات ، وهو في هذا العصر — في الأمم الديمقراطية — يتكون من عناصر أربعة لابد منها جميعاً ليكون الزعيم زعيماً حقا ، وهي : الأمانة والشجاعة والذكاء والتعاطف مع الناس .

فأما الأمانة فلسنا نعني بها ألا يسرق ولا يخون ولا يرتشي ، فهذه أمور تطلب من كل فرد في الأمة مهما حقر شأنه ، تطلب من الموظف الصغير والتاجر الصغير وكناس الشارع والفلاح الفقير . إنما تطلب من الزعيم الأمانة بمعنى أدق وأرقى ، وهو أن يكون جاداً صادقاً مخلصاً في فكره وقوله وعمله ، فهو ليس أميناً إذا أخفى الحقائق عن أمته أو راءى وتظاهر بما ليس فيه ، كما أنه ليس أمينا إذا أغمض عينه من خيانة يرتكبها المقربون إليه أو راعى أسرته أو حزبه على حساب أمته ، الأمانة في الزعيم السياسي ألا يسمح لعقله أن تسكن فيه فكرة إلا إذا اعتقد أنها حق ، ولا يجرى على لسانه قول إلا الحق ، ولا يصدر منه عمل إلا إذا آمن بنفعه — فإن لم يتوافر فيه هذا العنصر فهو زعيم مزيف .

أما الشجاعة فلابد له منها في كثير من المواقف ، فقد يضلل الشعب بشتى الأضاليل ، فيحتاج الزعيم أن يجاهر بما يعتقد ولو أغضب أتباعه ، ولو أغضب الرأى العام ، لأنه ليس تابعاً للرأى العام ، بل هو قائده ومرشده ، يخاصمه أحياناً إذا رأى الخطأ في اتجاهه ، وقد يخاصم الحكومة في تشريعها الضار أوفي تصرفها السيء فيحتاج إلى الشجاعة ليهاجمها ويثور عليها . ليس الزعيم الشجاع هو الذى يعيش على التملق للجماهير وكسب إعجابهم بالحق أو الباطل والكلام بما يسرهم ويرضيهم . إنما الزعيم الحق من له من الشجاعة الأدبية ما يمكنه من أن يسمعهم الكلام المر إذا اقتضى الحال ، ويخالفهم إن رآهم على ضلال ، ويقومهم إن اعوجوا ،

ويدعوهم إلى الصراط المستقيم إن انحرفوا ، ولو عرّضه ذلك لفقد زعامته وتشويه سمعته .

ثم لابد للزعيم من ذكاء ممتاز يدرك به الحقائق ولو بَعُدَ إدراكها ، وهو في عصرنا هذا عنصر أساسي أكثر مما كان قبل ، لأن الحياة الاجتماعية تعقدت وظروف الأمة تعمل فيها عوامل مختلفة خفية وظاهرة ، والنافع والضار على أشد ما يكون من الاشتباك ، وليست أية أمة بمعزل عن العالم ، فهي نقطة من محيطه تتأثر بما يجري فيه ، وليست العوامل الداخلية بأقل تعقداً من العوامل الخارجية — كل هذا يتطلب ممن تصدّر للزعامة أن يكون له من الذكاء ما يدرك به هذه الشؤون المعقدة إدراكاً صحيحا ليبني عليه حسن تصرفه .

ثم إن علماء النفس اليوم يقسمون الذكاء أقساماً وينوّعونه أنواعا : فهناك الذكاء في فهم النظريات والمسائل المجردة كذكاء الفلاسفة والجامعيين. وهناك الذكاء العملي ، والزعيم السياسي أحوج إلى هذا النوع العملي ، وهو إدراك العلاقات الواقعية للمسائل والأشخاص ، وهو ذكاء مكتسب من التجارب أكثر مما يستفاد من دراسة النظريات وعمق التفكير ، هو ذكاء كالذي يكسبه المهندس من كثرة ممارسته ، والطبيب — بعد دراسته — من طول مزاولته . فالزعيم السياسي في حاجة قصوى إلى ذكاء عملي يفهم به عقلية الناس الذين يعاملهم ويتزعمهم ويعمل لهم وكيف يساسون ووسائل إقناعهم وتوجيههم ومواطن القوة والضعف فيهم ، فإن لم يدرك ذلك واكتفى بالنظريات وفهمها فشل فشل المحامي الذي يقتصر على دروس المدرسة ، أو الاقتصادي الذي فهم النظريات ولم ينزل السوق .

وأخيراً لا بد من عنصر « العطف » أو بعبارة أخرى شعور الزعيم بأواصر الأخوة بينه وبين من يتزعمهم ، ولا يكون ذلك مجرد قول يقوله أو يتملق الجمهور به . إنما هو شعور صادق يتغلغل في نفسه ويفيض على أقواله وأعماله . يشعر بعذاب الناس وآلامهم وآمالهم كما يشعرون بل أكثر مما يشعرون ، ثم يشعر لهم ، — يحمله صدق هذا الشعور على أن يسير بهم إلى الغرض الذي ينشد وينشدون ، لا أن يستخدمهم في تحقيق مصالحه الشخصية ، وأغراضه الذاتية — بهذا العطف يستحل العذاب في خدمة الأمة ويهزأ بالمتاعب في سبيل تحقيق الغرض ، وبدونه يكون آلياً جافاً إن خدع الناس حينا فلابد أن ينكشف عاجلا أو آجلا — إذا ملأ الزعيم هذا الشعور استساغ التضحية واستعذبها ، وإلا كان شرها في كسب الخير لنفسه من وجوهه المختلفة .

* * *

ما أحوجنا في الشرق اليوم إلى زعماء من هذا القبيل تجمعت فيهم هذه العناصر ، فيأخذون بيده في نهضته ، وينيرون السبيل أمامه ، ويهدونه إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع السكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

شوبنهاور والنقد الأدبي

شوبنهاور من الفلاسفة القلائل الذين شغفوا بالكتابة من الفن وعنوا بالأدب ، ولعل سبب ذلك أنه لم يكن فيلسوفاً ممتازاً فحسب بل كان كذلك كاتباً كبيراً ، وهو يعتبر في طليعة من نهضوا بالنثر الألماني وطوّعوا اللغة الألمانية ، وآراؤه عن التأليف والأساليب وصور الأدب والنقد والعبقرية لها قيمتها ، ومعظمها مستمد من تفكيره الخاص وتجاربه الشخصية ، وهو يكاد ينكر وجود الملكة الناقدة في الإنسان لندرتها وقلة شيوعها ، وهو يشبهها بطائر العنقاء الخرافي الذي يقال إنه يظهر مرة واحدة كل خمسمائة سنة .

والنقد عنده لا يرجع إلى قاعدة ولا يعتمد على أصل من الأصول ، وإنما مداره على الذوق المهذب المصقول الذي يهتدي إلى كشف الجمال ويوفق في إصابة الهدف ، والذوق الناقد يعجز عن خلق الآيات الفنية ، وإنما شأنه التلقي والاستيعاب والتفريق بين الحسن وما ليس بالحسن والجيد والردىء .

وحينما يحاول النقد أن يزن العبقرية ويقدرها لا يجمل به أن يقتصر على تعديد الأخطاء وإحصاء العيوب ، ويكتفي بالإشارة إلى نواحي الضعف والتهافت ، وإنما يجب أن يتجه أول ما يتجه إلى ذكر الصفات التي يتفوق فيها العبقري ويمتاز بها ؛ وذلك لأنه في عالم الفكر — كما في سائر العوالم — يأبى الضعف والالتواء إلا التعلق بالطبيعة الإنسانية والتشبث بأهدابها ، وأقوى العقول البشرية وأسماها ليس سالماً من الضعف ولا بريئاً من أسباب النقص والعجز . ومن ثم الأخطاء الجسيمة التي تدب إلى أكثر أعمال العبقريين وتشوب روائعهم وتشوّه محاسنهم .

والذي يميز أعمال العبقريين ويجب أن يكون معياراً للحكم عليهم هو مدى السمو الذي يرتفعون إليه حينما تواتيهم الإجادة ويسعفهم الإلهام ، وهو ارتفاع قلّ أن يبلغ ذروته ذوو المواهب العادية والقدرات المحدودة .

ومن الخطر كذلك الموازنة بين رجلين عبقريين من طبقة واحدة كشاعرين عظيمين أو موسيقارين كبيرين أو فيلسوفين ممتازين ، وذلك لأن في هذه الموازنة ظلماً لأحدهما لا محيد عنه ، لأننا في عقد الموازنة ننظر إلى ميزة خاصة في أحدهما ، ونرى في الوقت نفسه أن هذه الميزة غير موجودة في الآخر ، ولذا تنتقص قيمته ويرخص قدره ، وإذا عكس الأمر وبدىء بالثاني وكشفت ميزته الخاصة التي تختلف في نوعها عن ميزة الأول ، فإن نتيجة ذلك هي انتقاص ثمن الاثنين بدون مسوغ ، على أن الموازنة تصلح في إظهار أنماط التفكير وألوان الإحساسات إذا استعملت في حذر واحتياط مع تحري الإنصاف وعدم الميل مع الهوى .

ويرى شوبنهاور أن القسوة في النقد لا تفيد إذا تجاوزت الحدود ، كجرعة الدواء لا تحدث التأثير المطلوب إذا كانت أكبر من المقدار المناسب . وأشد ما يبتلى به ذوو المواهب الحقة أن أعمالهم تظل في انتظار التقدير الذي يسخو به الذين لم يخرجوا للناس سوى مسفسف الكتب وهزيل البحوث ، وأكثر الناس لا يفرقون بين الزائف والصادق ولا يعرفون الحنطة من الزوان ولا النحاس من الذهب .

وأصعب عقبة تعترض سبيل المؤلف القيم حين ظهوره هي كثرة المؤلفات السخيفة التافهة التي تزحم الميدان ، وإذا استطاع الكاتب الصادق أن يشق طريقه ويفرض نفسه فسرعان ما تقوم في سبيله عقبة أخرى ، هذه العقبة الجديدة هي ظهور المقلدين الذين يجرون في غباره ، ويحتذون مثاله ، ويلتبس الأمر على الناس فلا يعرفون الأصيل من المقلد ، وقد يضعون المقلد البارع في مكانة أسمى من المبتكر الخالق .

ويجد شوبنهاور في ذلك منفذاً للنيل من أقرانه في الفلسفة الألمانية ، وهم الثالوث المكون من هجل وشلنج وفخت ، فيقول إن فلسفة كانت المجدية الصادقة طاولتها

فلسفات هؤلاء الثلاثة وجاذبيتها مكانتها ، كما طاولت الأرض السماء سفاهة وكما فاخرت الشهب الحصى والجنادل ، ويشير كذلك إلى الذين اقتصوا أثر ولتر سكوت وضربوا على قالبه في مزج التاريخ بالقصص ، والجمهور لا يدرك وجوه التفوق والامتياز ، ولذا لا يعرف ندرة الاجادة في الشعر والفلسفة والفن ، ولا أن هذه الأعمال الممتازة وحدها هي الخليقة بالاعجاب والتقدير ، وتقدير أعمال العبقريين يأتي في أغلب الأوقات متأخراً .

ويسترعي شوبنهاور نظرنا إلى مسألة هامة جديرة بالتأمل في تاريخ الأدب والنقد ، وهي أن بدائع الماضي وروائعه تظفر في كل حين بالإجلال والإعجاب ، في حين أن الروائع المعاصرة لا تقدر ولا يعترف بقيمتها ، ويوجه ما هي جديرة به من الالتفات والرعاية إلى أشياء لا تدانيها في المكانة ، وعجز الناس عن إدراك البراعات المعاصرة يدل دلالة واضحة على أنهم لا يحسنون تقدير البدائع التي طال عليها الزمان وهم يظهرون الاعجاب بها نزولا على حكم التقاليد واتباعا لآراء العارفين .

والواقع أن من أخطر العيوب التي امتلأ بها تاريخ النقد عجز النقاد عن تقدير المبتكرات الفنية والأدبية المعاصرة لهم ، وكثيرا ما تعثر النقد في هذا التقدير وضل وغوى ، ولم تسلم صحائف كبار النقاد المعروفين من هذا النقص ، فجونسون مثلاً يقول عن منظومة ملتن العظيمة المعروفة « بالفردوس المفقود » : « إن قراءتها واجب وليست متعة » وقد قوبلت أشعار كيتس وشلي مقابلة سيئة من نقاد عصرهما ، وكتاب كارلايل العظيم عن الثورة الفرنسية واجه عاصفة من النقد الحانق حين ظهوره ، وكذلك ثكري وجين أوستن لم يرحب بهما في بادىء الأمر ، وقد ثنى النقد عزيمة بعض كبار الشعراء والكتاب ، فلزموا الصمت حينا من الزمن مثلما حدث لوردزورث في بعض مراحل حياته الأدبية ، ولتوماس هاردي في عقب ظهور رواية جود الغامض . والناقد الذي يسيء فهم ذوي المواهب ويؤلم نفوسهم بتحامله ولجاجته يحول بين الجمهور وبين الاستفادة من أصحاب القرائح ، وفي بعض الأحيان يغمر الشعراء والكتاب بالمدح السطحي البالغ فيه فيضللهم ويفتنهم عن أنفسهم .

وقد كان جيفري شاعرا ناقدا ، ومع ذلك فإن أحكامه على شعراء الإنجليز والفرنسيين المعاصرين له تحيّر الفكر وتربكه ، فقد رفض أن يقدر شلي ، وفي سنة ١٨٢٤ تكلم عنه مع صاحبه المستشار ميلر باستخفاف وكان قد مضى على وفاة شلي عامان ، وكذلك لم يعجب بكولردج ، وكان يغالي بقيمة بيرون وصرح بأنه الشاعر الوحيد الذي يعتبره نظيراً له . والناقد الكبير سنت بيف على فضله وسعة ذرعه لم يقدر ستندهال وتنكّر لبودلير ومريديه ، وكثيراً ما كان للتحيز السياسي أو الديني أثر في إفساد أحكام النقاد .

ويرى شوبنهاور أنه كما أن الشمس لا ترسل ضوءها إلا للعين التي تبصرها وكما أن الموسيقى لا تعانق أنغامها إلا للآذان التي تسمعها ، فكذلك الكتب القيمة والطرف الممتازة في الأدب والعلم لا يعرف فضلها ووزن قيمتها إلا من كان راجح العقل نافذ النظر ، وذو البصيرة يجد كلمة السحر التي تحرك الأرواح المختبئة في العمل الفني العظيم ، والطرف الأدبية عند ذوي الأذهان العادية صناديق مقفلة وأشياء ملففة وآلات موسيقية لا يستخرج منها من يجهل طرائق استعمالها سوى نغمات مختلطة ، وتأثير الطرف الفنية يتفاوت بتفاوت العقول التي تجهد في تفهمها واستيضاح معناها ، والأمر كما قال المتنبي :

ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم

والعمل الجليل الممتاز يحتاج إلى عقل يدرك جماله ونفس تعي روعته . ومما يثير الأسف أنه كثيراً ما يحدث أن يكون الذي يقدم الأثر الفني الرائع الجميل مثل صانع الأسهم النارية الذي تتقد نفسه حماسة وهو يقدم الأعاجيب التي قضى زمنا في ابتكارها وبذل جهدا في إعدادها ، ثم يعرف

في نهاية الأمر أن المكان الذي اختاره لعرضها لم يكن به من النظارة سوى فرد واحد ، وأن سائر الأفراد الذين أبصرهم كانوا جماعة من المقيمين في أحد ملاجئ العميان ! على أن ذلك ربما كان أصلح له ، لأنه لو كان هناك رجال من الذين كانوا ينافسونه في عمل الأسهم النارية ورأوا أن ما يعرضه بإهي ممتاز لكلفه ذلك على الأرجح فقدان رأسه !

ومصدر النقمة والارتياح هو شعور الإنسان بالألفة والتجانس والمقاربة ، وفي مخالطة الناس يميل النظير إلى نظيره ، وشبه الشيء ينجذب إليه ، والسخيف يشعر بمتعة في مصاحبة عديله في السخافة وتفاهة التفكير وعامية الذهن ، ولا يطمئن إلى معاشرة ذوي الألباب الراجحة والعقول الكبيرة والآفاق الواسعة ، وكل إنسان بطبيعة الحال يروقه عمله ، لأنه مرآة شخصيته وصورة نفسه وصدى تفكيره ، ويتلو ذلك أعمال الذين يشبهونه ، ويشاركونه في خصائصه ومميزاته . فالسخيف الذي لا يدري سوى بضعة ألفاظ وصيغ يرددها بلا فهم ترديد الببغاوات يحب ويؤثر من كان مثله سخيفاً سطحياً ، وهو يسلم بأهمية الكتب القديمة — وإن كان يجهل فيها مواضع الحسن ومواطن القوة — خشية التصريح برأيه ، والاعتراف بالأعمال الممتازة حين صدورها يحتاج إلى تفوق عظيم وملكات جد ممتازة .

ويرى شوبنهاور أن المجلات الأدبية يجب أن تكون حجازاً يتقي به طغيان الكتب غير النافعة ، ويجب أن تكون أحكامها عادلة غير مغرضة ، وصارمة لا تعرف المجاملة ولا الموارية ، وأن تمزق جلود الكتب التافهة بالسياط في غير هوادة وبلا رحمة ، وبذلك تؤدي هذه المجلات واجبها وتنهض برسالتها ، وهي أن تضع حداً لخديعة الجمهور وتغفله وإفساد ذوقه ، وهي إذا التزمت الاعتدال والقصد أو السكوت والإغضاء تمكن المؤلفين السخفاء والناشرين الجهلاء . ولو عرف كل شويعر متشاعر أو فيلسوف زائف أو كاتب كليل الحد ناضب المعين أن كتبه ستستهدف للنقد الحر الصريح لارتدع وأحجم وأراح القراء من هرائه وسخفه وفكر في ارتياد ميدان آخر من ميادين الدجل والخديعة والتزوير . ومن الخطأ في عالم الأدب والفكر ملاينة الأغبياء واحتمال من لا عقل لهم ، لأنهم فيه دخلاء وطفيليون ، وواجبنا نحو المجيدين السابقين يقضي بإبعاد الضعفاء المتخلفين ، والمجاملة في النقد ضارة لأنها تستلزم أن تسمى العمل الرديء حسناً ، وهذا يبطل الغرض الذي ينشده العلم والفن ، والجملة التالية هي الجملة التي يكتبها قوم لا يسمو إلى أمانيهم وإخلاصهم الشك ، ويضاف إلى ذلك صدق الحكم وثقوب الفكر .

ويحمل شوبنهاور حملة شديدة على النقد المقنّع ، وهو يرى أن هذا الأسلوب في النقد كان سببه تجنيب الناقد غضب الجمهور أو سخط المؤلف وشيعته وأنصاره ، ولكن كثيراً ما يتخذه النقاد الأدعياء الذين لا يرغبون في احتمال تبعة آرائهم والوقوف إلى جانب ما يقولون . وهو يشبّه الناقد المقنع الذي يهاجم المؤلفين بالرجل الذي يرخي قبعته على وجهه ثم يهاجم المارة غير المتنكرين ، وهو عمل لا يرتضيه الرجل المهذب ، ولا يقوم به إلا كل وغد زنيم أو جبان حقود ، وكل رجل أمين يحترم نفسه ورأيه يجب أن يمهر مقالاته بإمضائه ، ومن خالف ذلك فإن أمانته — في رأي شوبنهاور — موضع الشك . ويقول ريمر في ذكرياته عن جيتي « العدو الصريح الذي يلقاك وجهاً لوجه رجل أمين يحسن معاملتك ، وتستطيع أن تتفق معه اتفاقاً وتزيل الخصومة ، ولكن العدو الذي يستتر ويتقنع عدو سافل جبان ليس عنده من الإقدام ما يكفي لإعلان رأيه ، وهو لا يعنيه رأيه وإنما يهمه سروره الخفي في صب غضبه ونفث حقده دون أن يلحقه لوم أو يصيبه عقاب .

هذه خلاصة رأي شوبنهاور في النقد وهو لم يأت في النقد بجديد والجديد في النقد من الأشياء النادرة ، ولكنه يعرض الشائع المعروف عرضاً طريفاً قوياً ويشير إلى حقائق تستحق أن يلتفت إليها وينوه بها .

علي أدهم

من شعر الثورة
في الأدب العربي

لشعر الثورة مقام خاص بين أبواب الأدب العربي . فقد شاهد هذا الأدب بمختلف عصوره وأدواره ألواناً كثيرة من الشعر تختلف في القوة والضعف والغاية والأسلوب ، ظلت هذه موضع العناية والدرس . ولكن هذا النوع لم ينل إلا حظاً يسيراً من الدرس والشرح ، فقلما تطرق إليه الباحثون قديماً وحديثاً . وهم في الغالب يحشرونه في باب الهجاء أو التخلع أو التصعلك ، فلم يخصوه من عنايتهم بشيء فبقي هذا النوع من الأدب مهملا وبقيت نزعات أصحابه وأفكارهم في طي النسيان . وإن أبطال التمرد موجودون في كل أمة وعند كل شعب وفي كل زمان منذ أن عرف الإنسان الشعر والأدب واستطاع أن يعبر عن شعوره وعواطفه وإحساساته . وأدب الثورة ملازم لوجود المجتمع . فليس كل ما يقع في المجتمع مهما كان مصدره مرضياً لدى جميع أفراده . فلا بد من وجود طبقة تسخط وتتذمر لا سيما وأن أفراد المجتمع الواحد يختلفون في النزعات والأهواء والرغائب ، فما يرضي فرداً لا يرضي الآخر وهكذا . وما دامت المجتمعات البشرية تتخبط في دياجير الظلم والعسف ، وما دام الحيف والغبن يلحق كثيراً من الطبقات والأفراد ، فليس من الغريب أن تشحذ أدمغتهم كثيراً من بوادر النقمة فتطفح على ألسنة الشعراء منهم تلك القصائد والمقطوعات التي يتخللها الشيء الكثير من الثورة وعدم الرضى من الأوضاع السائدة سواء أكان ذلك من نظام المجتمع أم شكل الحكم القائم وأصحاب السلطة فيه . ولم يكن لهذه الروح الثورية مجال لأن تظهر بشكل صريح واضح ، وإنما تتخذ مظهراً آخر يسترها عن عيون السلطان ويدفع عنها طائلة العقاب ، فسلك الشعراء طرقاً متعددة بقصد التنديد بالسياسة العامة وبسياسة الدولة ، وكان أقرب هذه الطرق طريق الهجاء ، لأن بواسطته يستطيع الشاعر أن يجد في الأشخاص متنفساً ينفذ منه إلى التنديد والتعرض بالمبادئ العامة كما سنرى ، وهذا يعطينا صوراً كثيرة من الشعر السياسي في عصوره المختلفة .

والأمثلة على هذا النوع من الشعر كثيرة سأكتفي بواحد منها أعتقد أنه كاف للإلمام بشيء من هذا الباب ، وذلك هو الهجاء عند (دعبل الخزاعي[1]) لأن في الهجاء تتجلى جميع مميزات هذا النوع من الشعر ولأن دعبلا بروحه المتمردة الصاخبة يعد بحق شيخ هذه الطريقة . ولعل من الأفضل أن نستقرئ أفكار الشاعر وآراءه من قصائده التي كان لها دوي هائل في عصره وأقلقت خليفتين من أقوى خلفاء بني العباس هما المأمون والمعتصم ، فقد كان دعبل يمتاز بهذا اللسان اللاذع السليط . وقبل أن أستطرد في الحديث عن هذه الناحية أحب أن أشير إلى تلك العوامل التي دفعت بالشاعر إلى الاتجاه بكليته إلى هذا الهجاء الذي بلغ من حبه له أنه كان يعد قصائد في الهجاء قبل أن يجد من يقولها فيهم ، وإن سئل عن ذلك أجاب : (ما استحقه أحد بعينه بعد[2]) .

ولمعرفة البيئة التي عاش بها هذا الشاعر المتمرد نرجع إلى كتب تواريخ الأدب وهذه تقول إن دعبلا ما كاد أن يترعرع ويشتد ساعده حتى صحب الشطار في الكوفة وعاشر جماعات المتمردين على السلطان وعاش عيشة متقلبة كلها أسفار وهرب دائم متصل فتجشم المصاعب وركب الأخطار وهذا ما يتأيد للقارئ من شعره :

نفسي تنازعني في كل مكرمة
إلى المعالي ولو خالفتها أبت

(١) هو دعبل بن علي بن رزين بن سليمان ويكنى أبا علي وينتهي نسبه إلى خزاعة . ولد في الكوفة سنة ١٤٨ هـ ، وبها نشأ وترعرع ولازم مسلم بن الوليد وتتلمذ عليه في قرض الشعر .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٣١ الطبعة القديمة .

وكم زحمت طريق الموت معترضاً
بالسيف ضيقا فأداني إلى السعة

وقوله :

حلت محلا يقصر البرق دونه
ويعجز عنه الطيف أن يتجشما

ولقد كان لا يقيم للحياة وزناً فهو (يحمل خشبته على كتفه خمسين عاماً ولا يجد من يصلبه عليها[1]) . ولقد ثار في وجه الدولة العباسية فسلط قوارصه على الخلفاء والوزراء والأمراء فوتر أناساً كثيرين . ولذلك مال كثير من قدامى المؤرخين ومحدثيهم إلى انتقاصه والإسراف في ذمه فتناسوا العوامل التي أحاطت به فدفعته إلى الهجاء والتمرد ، العوامل التي كان لها المكان الأول في مقاييسه والأثر العظيم في نفسيته وصبها في هذا القالب المتمرد ، فقد نشأ في الكوفة حيث البيئة المخصبة للمنازعات والمشاحنات السياسية والمسرح الملائم للفتن والقلاقل . هذا من جهة ومن الجهة الثانية نشأته في أوساط علوية تدين بالعدل الاجتماعي وتسعى جهدها لإسعاد أكبر مجموعة من أفراد المجتمع ، وهذه الأوساط لا ترى في السلطة العباسية أهلا للقيام بهذه المهمة وهي ليست المثلة الحقيقية للمثل والمبادىء الإسلامية الصحيحة . هذا بالإضافة إلى خيبة الأمل التي نتجت عن تصرف خلفاء بني العباس وسلوكهم الناقض لما دعوا إليه من تحقيق هذا العدل الذي كانت تتوق إليه الأمة بمختلف طبقاتها وخصوصاً تلك التي نالها الكثير من الحيف أيام الحكم الأموي ، فلم يربط هؤلاء بالسلطة القائمة رابطة الولاء فخرجوا عليها أفراداً وجماعات كان من بينهم دعبل الخزاعي وكان هذا من أشدهم خطراً وأكثرهم فتكاً في الناحية المعنوية والتأثير في سواد الأمة فشنع على العباسيين أشد التشنيع معلناً أنهم ظلمة سفاكون خدعوا الشعب واغتصبوا الحكم . فلا حكم لقضاتهم ولا أمر لسلطانهم . وليس من الغريب أن يقوم دعبل بتوجيه قوارصه إلى ولاة الأمور الذين فسدوا ففسدت معهم الرعية ونهجوا منهجاً سيئاً للناس فتغير الناس وفسدت طباعهم وخبثت نياتهم فما عادوا يستحقون المدح ولا هم أهل للثناء ، أكثرهم لا ينتفع بهم وعيوبهم أكثر من محاسنهم فهو يجيب من يلومه على الهجاء : (وجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالي بالشاعر إن كان مجيدا إذا لم يخف شره . ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك بتشريفه . وعيوب الناس أكثر من محاسنهم وليس كل من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك فإذا رآك قد أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر . وإن الهجاء المقرع آخذ بضبع الشاعر من المدح المضرع[2]) . فالشاعر إذاً يرى أن الهجاء وسيلة للإرشاد والإصلاح لأن عن طريقه يتناول الأشخاص أولا ثم يتعرض للسياسة العامة تعرضاً قوياً مبيناً مفاسدها ونقائصها ساخطاً منها فيقول :

قتل وأسر وتحريق ومنهبة
فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين إذ قتلوا
ولا أرى لبني العباس من عذر

ثم يتعدى إلى أكثر من ذلك فيهاجم ولاية العهد ونظام الخلافة فيقول :

أني يكون وليس ذاك بكائن
يرث الخلافة فاسق عن فاسق

وعنده أن الطريقة التي اتبعت في تعيين الخليفة ليست صائبة لأن هذا لا يقع إلا على الأقرب فيؤدي إلى اعتلاء أفراد ليسوا من الجدارة والصلاح في شيء . فهو يخاطب الخليفة المعتصم :

وقام إمام لم يكن ذا هداية فليس له دين وليس له لب

(١) الأغاني .

(٢) الأغاني ج ١٨ .

صيد من بلاد الشام

يوم الجلاء :

صيدى اليوم لحم سمين ، وحديثى مثير شهى .

وهل أشهى من حديث الحرية التى يهفو إليها قلب كل حى ، تراها خفاقة رفافة ، فى بلدى الحبيب ، وفى وطنى الجبار ، فى دمشق والشام . بعد أن زهقت أرواح وسفكت دماء ، وهدمت بيوت ، وأثكلت أمهات ، ولوعت قلوب ، وملئت سجون ، وشهرت حراب ، وأطلقت مدافع وتعالت نيران ...

أترى ألذ من هذا الحديث بعد أن خرج المستعمر وجنده خزيان . يجر العار ، تاركا آثارا كاذبه ورياءه وسفكه وتوحشه ! .

اليوم نغنى ونزهو .. نختال فرحين رافعى الرأس .

لقد خرج المستعمر من بلدنا .

لقد شعرنا اليوم بأقدس وأنبل ما هتف به اللسان ، منذ خلق الإنسان .

لقد شعرنا اليوم بالحرية ! .

* * *

لقد كان يوم الجلاء ، يوم الفرحة الكبرى .

كنت لا ترى ، أينما سرت ، غير ضحكات ترن ، وابتسامات ترف ، وأناس يهزجون ، ونساء يزغردن .

وكنت لا تسمع غير هتافات تعلو ، وأغاريد تملأ الفضاء .

وكنت فى دنيا من نور . نور فى النهار ، وأنوار فى الليل ، حتى لتحسب أن دمشق أضحت مدينة النور ... وأنها لا تعرف الظلام .

وإن تسلم هؤلاء الخلفاء دفة الأمر لم يكن عن إرادة الأمة أو عشيئتها ولا هو فى صلاحها ومنفعتها ؛ فمجىء الخليفة الجديد حدث لا تبتهج الأمة إليه ، وموت السابق أمر لا تأسف عليه ، لأن التجارب وتعاقب الخلفاء علمتها أن هؤلاء لم يقبضوا على زمام الأمور إلا وتعمل الأهواء والرغبات عملها فى سلطة الخليفة المطلقة وتسييرها حسب الشهوات وحب الذات :

خليفة مات لم يحزن له أحد   وآخر قام لم يفرح به أحد

ولا ينكر أن دعبل هذا اتصل بالخلفاء العباسيين بادىء ذى بدء ، وكان أول من اتصل به منهم الرشيد على أثر سماعه قصيدته :

لا تعجبى ياسلم من رجل   ضحك المشيب برأسه فبكى

ثم اتصل بابنه المأمون من بعده وكان اتصاله وثيقا إلا أنه لم يدم طويلا حيث هجا الشاعر المأمون وأباه وشتمهما شتما قارصا . ويظهر أن روح السخط والحنق كانت عاملا قويا فى انفصاله من المأمون وحمله على هجائه كما أن علويته كان لها الأثر القوى فى ذلك . فتجد أن فى القصيدة التى يهجو بها الخليفتين ويندد بالعباسيين تنديداً قويا يقف باكيا الإمام على بن موسى الرضا ومترحماً على العلويين ، وليس من شك أن موت هذا الإمام الفاجع ، هو الذى أيقظ علويته وحمله على مقاطعة العباسيين وإعلان سخطه عليهم فيقول :

أربع بطوس على القبر الزكى إذا
ما كنت تربع من دين على وطر
قبران فى طوس خير الناس كلهم
وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكى ولا
على الزكى بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت
له يداه فخذ ما شئت أو فذر

(وهذان القبران هما قبر الإمام على بن موسى الرضا وقبر هارون الرشيد) .

على ناصف القطاء

(لها بقية)

وكنت تحس أن هذا الشعب الذي ذاق العذاب الشديد، قد جاء فرحان ليظهر فرحته، ويستريح.

ما أعظمك يا يوم الجلاء!

إنه يوم نار، وخطر.

يوم كان له ما قبله، وسيكون له ما بعده.

●●●

الأدب في عيد الجلاء:

وفي الحفلة التي أقيمت في القاعة الكبرى، بالجامعة السورية، ظهرت ألوان أخرى من الفرح.

لقد خطبت وفود البلاد العربية، فغبطت سورية على عيدها، وأظهرت فرحها .. وتنافست في إظهار حبها السوريين، وسورية أيضاً ..

وليس بمدني أن أبحث في هذه الخطب السياسية .. وحسبي أن أتحدث عن نصيب الأدب في هذه الحفلة.

والواقع أن هذا الأدب الذي سمعناه، كان — إذا استثنيت قصيدة شفيق جبري — هزيلاً.

فبدر الدين الحامد، شاعر حماة، كرّر وأعاد، معاني شائعة معروفة، ولقد سما في بيت أو أبيات.

وأنور العطار، لم يساعده إلقاؤه على إرضاء الناس ولا قريحته على نظم ما يهز، وأغلب الظن أن هذا الشاعر قد أملق، وأنه ليس بقادر على أن ينظم شبيه ما كنا نقرأ في «الرسالة» في سنواتها الأولى.

وسليم الزركلي، أكثر وأرضى، وفاق العطار والحامد في أبيات.

أما الذي جلّى وبرّز فهو جبري.

قصيدة جبري:

وقصيدة الأستاذ جبري، كانت أحسن ما ألقي من الشعر في الحفلة، والواقع أنه أجاد، وإن كانت قصيدته هذه، لا تنسي قصيدته التي ألقاها في مهرجان أبي العلاء، فتلك سفحة مهذبة قوية. والظاهر أن الوقت القصير لم يسعف شاعر الكبير، هذه المرة، ولم يمكنه أن يصقل قصيدته، ومع هذا فإنها رائعة جيدة.

بدأ الشاعر قصيدته بقوله:

حلم على جنبات الشام أم عيد
لا الهمّ همٌّ ولا التسهيد تسهيدُ

أتكذبُ العينُ والرايات خافقةٌ
أم تكذب الأذن والدنيا أغاريدُ

ويلُ الجلاميد، لا حسٌّ ولا نبأ
ألا ترى ما غدت تلك الجلاميد

كأن كل فؤاد في جلائهم
نشوان، قد لعبت فيه العناقيد

لو جاء داود والدنيا تضاحكنا
لهنأ الشام في المزمار داوود

على النواقيس أنغام مسبحة
وفي المآذن تسبيح وتحميد

لو ينشد الدهر في أفراحنا صلوات
جواب الدهر في البشرى الأناشيد

وإني لأتخيل الآن جبري، وقد تقدم إلى منصة الإلقاء، كأنه «جبل من لحم ودم» كما وصفوه، بكبرياء الشاعر العالم، وأخذ يلقي بصوت بدأ هادئاً، ثم علا، فإذا بالناس قد ثاروا، وإذا بالقلوب تهتز، وبالأكف تصفق ..

وبعد هذا المدخل الذي نوّه فيه بأفراح دمشق، مضى يصف المستعمر، وكيف طرد، وماذا فعل:

هذي بقاياك يا حطين بددها
له ظل بأرض الشام ممدود

ليث العيون، صلاحَ الدين، ناظرة
إلى العدو إذا ترمي به البيد

اضرب بسيفك هل تلقى له أثراً
كأنه شبح فى الليل مطرود
أين الأعاجم ؟ ما حلوا ولا رحلوا
كأنهم حلم فى الفجر مردود
من كان يحسب أن الشام يلفظهم
وأن طيفهم فى الشام مفقود
تمكنوا من جبال الشام واعتصموا
فكل حصن على الأجيال مزيد
فما حمتهم قلاع فى مشارفها
ولا أظلهم حشد وتجنيد
أيحسبون قصيف الرعد مرعبة
قصيف رعدهم فى السمع تغريد !

ثم انتقل بعد ذلك يصف ما فعله الفرنسيون بدمشق فى حوادث أيار الماضية :

يا يوم أيار والنيران ملهبة
على دمشق تلظّيها جلاميد
ذكرى شجونك ما تنفك ماثلة
لم يمح من هولها عيد وتعييد
الطفل فى المهد لم تهدأ مضاجعه
مروّع من لهيب النار مكمود
تلفه أمه ما بين أضلعها
ومُوقدُ النار مطراب وغرّيد
فقل لصحبك والأمواج تحملهم
هل الحضارة تذليل وتعبيد ؟

* * *

يا نازحين ونار الجرح تأكلهم
وما لجرحكم برء وتضميدُ
تلك التقاليد ألقينا سلاسلها
ألم تروا ما جنت تلك التقاليد
جنات عدن رتعتم فى نواضرها
خليتموها ، ولا ماء ولا عود
هل التدبر إلى توطيد دولتكم
بالعنف ؟ هيهات ما فى العنف توطيد
لا تستقيم مع التهديم مملكة
وإنما الملك بنيان وتخليد

* * *

وقد أنهى قصيدته بما يلى :

يا فتية الشام للعلياء ثورتكم
وما يضيع مع العلياء مجهود
جدتم فسالت على الثورات أنفسكم
علمتم الناس فى الثورات ما الجود
بنيتم الملك من أشلاء عترتكم
يوطد الملك مهشوم ومحصود
تلكم قريش ، وأنتم فى ذؤابتها
توحى إليكم على الأيام أن سودوا
وللمروءة فى أطلالكم لجب
لها من الوحى والقرآن تأييد
ما فى النعيم عن استقلالكم عوض
وكيف ينعم مغلول ومصفود
فإن جمعتم شتات الأمر بينكم
فالملك متسع الأفياء موطود
إن لم تكن مضر الحمراء سيدة
فما يقر عيون العرب تسويد

* * *

فهذه منتخبات من قصيدة الأستاذ جبرى . أما قصائد الأساتذة الشعراء الحامد والزركلى والعطار . فسننقل منها طرفاً فى الأعداد القادمة .

(دمشق) « فرّوخ »

أقوال مأثورة في الكتابة

١ — الكتابة لا تعتبر أدباً ، إلا إذا بعثت في نفس القارىء سروراً . ليس مبعثه الألفاظ التي قيلت ، بل مبعثه الروح التي أملت تلك الألفاظ وأوحت بها .

٢ — إن الكاتب القدير هو الذي يعطيك أكبر مقدار من المعرفة ، ويأخذ من وقتك وجهدك أقل مقدار .

٣ — الكتاب الذين يكتبون في شتى المواضيع هم في كل أمة أحب الكتاب عند القراء . ذلك لأنهم الصلة بين المثقفين وغير المثقفين . وهم القادرون على أن يجعلوا من ثقافتهم جسراً يصل بين ذينك الفريقين من جمهور القراء .

٤ — إن كبار الكتاب يكتبون والكبرياء ملء نفوسهم وهم لا يكلفون أنفسهم مؤونة الشرح والتفسير ؛ ذلك بأنهم يعلمون أن القارىء الذكي سوف يظهر آخر الأمر فيحمد لهم ويشكر .

٥ — السبب في أن الكتب القيمة نادرة جداً هو أن القادرين على الكتابة فيما ينفع ويفيد هم أقل من القليل .

٦ — إذا أردت أنا أن أقرأ كتاباً بادرت أنا إلى كتابة ذلك الكتاب .

٧ — قد يستطيع كاتب من الكتاب أن يكتب في أي وقت شاء إذا هو راض نفسه على ذلك ، ولم ينقطع من تلك الرياضة .

٨ — لم يكتب كاتب أبداً إلا من أجل المال . ويستثنى من ذلك بالطبع الحمق والأغبياء .

٩ — إذا جعل دارس الفن المال هدفه ، فاستودع الله في الفن الجميل وترحم على الفن الخالد .

١٠ — يهيج أحدهم بغتة فيحضر قلماً وحبراً وورقاً دون أن تكون في ذهنه من قبل أية فكرة عما سوف يكتب . ثم يعقد العزم فيما بينه وبين نفسه على أن يكتب كتاباً .

مثل هذا الرجل لم يهبه الله ملكة الكتابة ، ولكن شيطانه وهبه ملكة جمع الجنيهات الحسنين .

١١ — لم يظهر في عالم الكتب كتاب يستحق الثناء ويستأهل المدح إلا كان كاتبه ممن ربي في مهاد الفقر والفاقة .

١٢ — في عالم الآداب ، في عصرنا هذا ، قد تقدمت صناعة البناء الكتابية ، ولكن قد انحطت صناعة هندسة ذلك البناء .

١٣ — إذا كتبت فاكتب للعقل والقلب ، ودع الأذن تسير في أثرهما .

١٤ — الكتابة التي مصدرها القلوب مرجعها إلى القلوب .

١٥ — الجزء الأكبر من وقت الكاتب ينفق في القراءة . وذلك لكي يستطيع أن يكتب .

والكاتب قد يقرأ نصف ما في مكتبته من كتب لكي يكتب كتاباً واحداً .

١٦ — أيها الكاتب : إذا أردت أن تكتب فاختر لنفسك موضوعاً يتفق مع قدرتك .

١٧ — أيها المؤلفون الأعزاء : لا تحاولوا حمل عبء الكتابة ، قبل أن تعرفوا وزنه وثقله ، ولا تحاولوا رفع ذلك العبء على كتفيكم حتى تستيقنوا من قوة السواعد ومتانة الأضلاع .

١٨ — أيها القارىء : إنك أنت السبب في أني أكتب كتابة تقرأ لتزجية وقت الفراغ . وإذا تركت لنفسي فإني لا أكتب إلا كتابة قد أوفت على الغاية في المهارة والجد .

١٩ — الكتابة في كل شيء هي الفرصة الوحيدة التي تؤدي بالكاتب في النهاية إلى الانحدار إلى درك قلة المعرفة في كل شيء .

٢٠ — ليس هناك مقال رديء تافه . إنما هناك كتاب تافهون أغبياء .

المرأة الحديثة فى الغرب

تنظر المرأة الشرقية إلى زميلتها الأوروبية أو الأمريكية نظرة ملؤها الإعجاب ، وتحاول فى الوقت نفسه تقليدها ، يحفزها على ذلك كثير من الغبطة أو قليل من الحسد ، وتأسف المرأة عندنا وتشكو أن ليس لها ما لزميلتها الغربية من الاستقلال والمساواة مع الرجل . ولكنها تنسى أن هذا الأمل المنشود ، وذلك المثل الأعلى المرسوم يحمل كل منهما فى طياته جراثيم انحلال الأسرة وبواعث القضاء على أهم ما تملكه المرأة وهو أنوثتها ، وتنسى أيضاً أن مشكلة المرأة الحديثة قد اتجهت اتجاهاً خطيراً فى الغرب ، وأن مظاهرها التى تفجأ النظر هى سهولة الطلاق وأزمة الزواج وأكثر ما يظهر هذان الأمران فى المجتمع الأمريكى .

فلا عجب إن رأينا أن موجة الطلاق الزاحفة عليه قد بدأت تشغل عقول الطائفة المثقفة ثقافة عالية هناك . والحق أن هذه المشكلة تساير خطوة بخطوة ما تسميه الحركة النسائية ، وقد انفجرت هذه الأخيرة بعنف فى الولايات المتحدة .

ويدل على ذلك أن الطلاق بلغ هناك رقمه القياسى — وقد أخذ هذا الرقم فى الصعود منذ سنة ١٨٨٥ ، إلى درجة أنه وصل فى نهاية الربع الأول من القرن العشرين إلى ثلاثة أضعاف ما كان عليه منذ خمسين عاماً .

ولهذا السبب يميل بعض المفكرين إلى اعتبار ظاهرة الطلاق ظاهرة اجتماعية جديدة بأن تنسب إلى المجتمع الأمريكى وأن توقف عليه وحده . فمثلا يرى المستر « هنرى جراى » أن ارتفاع رقم الطلاق يعود ، قبل كل شىء ، إلى استقلال المرأة استقلالا اقتصاديا ، وهو يرى أيضاً أن هذا الاستقلال ليس سوى النتيجة الحتمية للتقدم الصناعى العنيف فى القارة الجديدة ، ولذلك أصبح المال وما يقدمه كل من المرأة والرجل هو الرباط الوثيق الذى يربطهما بدل العاطفة أو العناية بأمر النسل ، فلا غرو إن صح هذا التعبير : « إذا طرقت الحرية والمساواة باب البيت خرجت الأخوة والأمومة من النافذة . »

أما الحل الذى يقدمه المستر « هنرى جراى » كعلاج ناجع لهذه المأساة الاجتماعية فيتلخص فى ضرورة العودة إلى النظام التقليدى الذى يقضى بأن تخضع المرأة الزوج من جهة تحصيل المال ، وبأن يخضع الرجل الزوجة فيما يمس تدبير المنزل ؛ وذلك لأن هذا الخضوع التبادل هو ، من غير شك ، أساس الانسجام فى الأسرة . وتكاد العائلة الأمريكية أن تذهب أدراج الرياح بسبب فقدان هذا العنصر الهام ، وأعنى به عنصر الانسجام ؛ وذلك لأن الرباط العاطفى كثيراً ما يهن بعد السنوات الأولى من الزواج ليحل محله رباط أشد أثراً ، وهو الاهتمام بتربية

---

٢١ — قال لى شيطانى : أيها الأحمق الغبى انظر فى ثنايا قلبك ثم اكتب .

٢٢ — أيها المؤلفون . ويا كتاب المقالة ، ويا أيها الروائيون ، وأنتم أيها الشعراء : ليؤد كل منكم واجبه وليلعب كل منكم دوره . صوروا الطبيعة وزينوها بزخرف الفن .

٢٣ — إن الكاتب القدير هو بستانى أولاً وقبل كل شىء .

وواجبه الأول أن يعنى بانتقاء آرائه ثم يعنى بحرثها وريها . حتى إذا أينعت وحان قطافها كانت قطوفها دانية .

٢٤ — إذا ترجمت من لغة إلى أخرى فإياك والترجمة الحرفية . إنك إن تفعل ذلك تكن عبداً من عبيد الترجمة .

٢٥ — إذا أمسكت بالخيط الأول من موضوعك فقد اجتزت أصعب العقبات .

٢٦ — الروائى الحق هو من يجعل قراءه يضحكون ثم يجعلهم يبكون ثم يجعلهم ينتظرون .

(من الإنجليزية) مبارك ابراهيم

الأبناء . ولكن قلما يخرج هذا الرباط الأخير إلى عالم الوجود ، وسبب ذلك هو أن الطلاق المبكر لا يسمح كثيراً الزوجين اللذين ابتدأت عاطفتهما في الخمود بتحويل مجرى هذه العاطفة وتوجيهها في سبيل آخر هو العناية بثمرة حبهما العاطف .

ولقد حاول أحد القضاة الأمريكيين ، وهو المستر ليندسي ، تحديد مشكلة المرأة الحديثة تحديداً كافياً حتى يتم له بناء الإصلاح على أساس قويم . وقد عرض لهذا الأمر ككتابين له ، أحدهما « ثورة الشباب » ، وثانيهما « زواج الأصدقاء » . ويتساءل المستر « ليندسي » في لهفة : هل يصح اعتبار انحلال الأسرة وتفكك روابطها ثمناً تدفعه المرأة مقابل الحرية والمساواة اللتين ظفرت بهما ؟ أو هل يجب ، على العكس من ذلك ، مقاومة تلك الحرية وتلك المساواة بين الرجل والمرأة ؟

ويتفاءل المستر ليندسي ، ويعتقد أنه قد عثر على حل وسط حين يقول : إن سبيل الخروج من هذا المأزق ، دون المساس بما كسبته المرأة من الحقوق ، هو العمل على إحياء العواطف العائلية ، وأهمها عاطفتا الشعور بالواجب والشعور بالمسئولية ؛ إذ هما العاطفتان اللتان يجب على جيل الغد أن يضعهما نصب عينيه .

ولكنا نرى نحن أن الغد لم يأت بعد ، وأن المشكلة ما زالت ، حتى اليوم ، تمر بدور حاد ؛ وذلك لأن الأسرة الأمريكية ، ومثلها الأسرة الأوربية ، تمر بمرحلة انتقال ، أقل ما توصف به تلك المرحلة — هو أنها مرحلة شذوذ . وقد بلغ هذا الشذوذ حداً أباح لبعض الكتاب وصف الأسرة الأمريكية بأنها مسخ ذو رأسين .

ومن الخطأ أن ينسب هذا الشذوذ إلى نشأة الحركة النسائية في أمريكا ، فإن هذه الحركة ليست في الحقيقة سبباً فيه ، وإنما هي نتيجة لعوامل أخرى . ويجب البحث عن تلك العوامل في ميدان آخر ، وهو ميدان العوامل الاقتصادية التي ابتدأت تؤثر في المجتمع الأمريكي منذ منتصف القرن الثامن عشر ؛ فهذه العوامل هي السبب الحقيقي للأمرين معاً ، أعني بذلك الشذوذ العائلي ونمو الحركة النسائية ، ولا عجب فالأمران مرتبطان أشد الارتباط . ولقد لعبت تلك العوامل الاقتصادية دورها الهام ، لا في أمريكا فحسب ، وإنما لعبته أيضاً في أكثر دول أوربا ، وخاصة في ألمانيا وفرنسا وانجلترا . ولكن بدا تأثيرها الشديد العنيف خاصة في الولايات المتحدة ، ويمكن تلخيص هذه العوامل في كلمتي « الثورة الصناعية » .

فنشأة الحركة النسائية الحديثة قد قامت على أسس حقيقية في أمريكا خاصة وفي الغرب عامة . وهذا عكس ما نراه في الشرق اليوم ، فإن اشتراك المرأة مع الرجل في العمل يكاد يكون معدوما رغم بدء حركة صناعية عندنا في تلك السنوات الأخيرة ، وربما قدر للشرق عكس ما نتوقع أن يمر بهذه المرحلة الخطيرة التي يمر بها الغرب اليوم ، ولكن ربما تطلب ذلك قرناً أو قرنين من الزمان ، حتى تتحقق الأسس الاقتصادية التي تسوى المرأة بالرجل تماماً .

ولقد اضطرت هذه العوامل الاقتصادية — وبجانبها عامل آخر هام هو الحرب الدولية المتكررة — نقول لقد اضطرت هذه العوامل كلها المرأة إلى خوض غمار الحياة إلى جانب الرجل . وكانت نتيجة اشتراكها في معركة العمل فقدها لمزاياها الخاصة ، مع أن المرأة أكثر محافظة من الرجل من تلك الناحية .

ومن المجازفة في الحكم القول بأن مطالبة النساء بالمساواة بينهن وبين الرجال في المركزين الاجتماعي والاقتصادي ، كانت عاقبة جهادها في سبيل التخلص من نير الرجل . فإننا حين نمعن النظر نرى على العكس من ذلك ، أن المرأة لم تسع إلى التخلص من نير الرجل إلا مضطرة تحت ضغط هذه العوامل التي سبق أن ذكرناها ؛ وذلك لأن

طبيعة المرأة تأبى التمرد على نفوذ الرجل وسيطرته ، والمرأة المكونة تكويناً طبيعياً هي التي ترى الخير كل الخير في أن تضع نفسها وادعة تحت حماية ونفوذ رجل تثق فيه وتحبه . ولكن لما رأى الرجل أن يتنازل عن نفوذه على المرأة وعن حمايته لها لم يكن لهذه الأخيرة بد من أن تشاركه المسئولية وأن تبحث عن ذلك النفوذ وتلك الحماية ، فلم تجد غير المال والعمل الذي ينتجه . وإن الرجل لو تنبه في الوقت المناسب إلى خطر هذه المشاركة عليه وعلى المرأة ، فطلب إلى هذه أن ترد عليه نفوذه ، وأن تلقي إليه زمامها ليحميها ، نقول لو تنبه الرجل لذلك لما ترددت المرأة لحظة في أن تعترف له بالأمرين جميعاً أعني بالنفوذ والحماية ، ولكن السهم كان قد نفذ ، وكانت نظرة الرجل أقصر مدى فلم يفعل ، بل اتخذ طريقاً آخر باعد الشقة بينه وبين المرأة ؛ وذلك لأنه بدأ يقاوم المرأة ويحاول منعها من التساوي معه في ثمرة عملها معه جنباً إلى جنب في مصنع أو مزرعة أو مدرسة ، بعد أن سمح لها ، أو على الأصح ، بعد أن دفعها دفعاً إلى مشاركته في العمل . وهذا هو ما حدث في بلد كانجلترا مثلا ، فإن الرجال وإن اعترفوا للنساء بحق المشاركة في العمل فإنهم لم يعترفوا لهن مباشرة بحق المساهمة والمساواة في جنى الثمر .

وهكذا استغلت النساء من تلك الناحية أسوأ استغلال دون شفقة ما أو رحمة ما ، وذلك لأنهن كن ولا زلن ضعيفات . ولم يكن التشريع بأكثر شفقة من الرجال على المرأة ؛ إذ أنه أغفل العواقب الوخيمة التي تصيب الحياة المنزلية وحياة الأولاد ومستقبلهم بسبب استغلال اليد العاملة للجنس الضعيف على هذا النحو .

فلم يبق للمرأة إذاً إلا سبيل واحد يحفظ عليها حريتها ويكفل لها المساواة الحقة ، ولم يكن هذا السبيل غير اعتماد المرأة على نفسها ، ومحاولتها الاستقلال المادي عن الرجل ولكن لا يصح اعتبار هذا الاستقلال نصراً أو غاية سعت إليها المرأة مختارة . وإنما هو ، كما قلنا ، ضرورة رأت المرأة أولا أن تكابدها وتعانيها ، ثم سعت أخيراً إلى التخلص من مضارها ، والانتفاع بمزاياها إلى أقصى حد ممكن .

ولا يصح لنا أن نعتبر ظهور الحركة النسائية بمثل هذا العنف في السنوات الأخيرة دليلا على انتصار المرأة أو رجحانها على هزيمة الرجل ، وذلك لأن رسوخ أقدام تلك الحركة خير شاهد على اندحارهما معاً . ولا مبالغة في ذلك ، فإن النساء بمساهمتهن الرجال في العمل الآلي قد بدأن يخشوشن ويكسبن بعض مظاهر الرجولة ، على حين بدأ الرجال من جانبهم ، بسبب سد المرأة فراغهم إلى حد ما ، يفقدون شيئاً من حدة الفروق التي كانت تميزهم عن المرأة . والذي لا شك فيه هو أن الحياة العصرية تساهم إلى حد كبير في تطور طبيعة الجنسين والتقريب بينهما ، وذلك لأن المرء لا يعدم أن يجد نساء يشغلن أماكن الرجال أمام المواقد والمصاهر ، على حين يلجأ الرجال إلى المكاتب يحتجبون خلفها ، أو إلى الفصول الأولى للدراسة ليقوموا بمهمة كان يتسنى للمرأة القيام بها على وجه أتم وأجدى .

فالمرأة تكتسح شيئاً فشيئاً مناطق نفوذ الرجل . ولا نقول إنها ستتمكن من قلب الأوضاع جملة ، وذلك بطردها الرجل من الحياة الخارجية وإلزامها إياه القيام على تدبير المنزل حتى تنتقم بذلك لنفسها من عبودية آلاف من السنين لا ندري على وجه التدقيق كم عددها ، وإنما نقول إن المرأة تحتل نقطاً استراتيجية يتركها لها الرجل دون مقاومة ، ولا ننكر أن لاشتراك المرأة في الإنتاج منافع ذات قيمة ، ولكننا لا ننكر أن لتقهقر الرجل أمامها عواقب سيئة تبدو واضحة في النواحي الاجتماعية والخلقية والنفسية وحتى في الناحية « الفيسيولوجية » أيضاً . ويكفي أن نشير إلى تلك العواقب السيئة مبتدئين بظاهرة حب الترف والسعي الضني رجاء تحصيل أسبابه إلى درجة أن بعض المفكرين الفرنسيين يعتقد أن العقلية الأمريكية تدعو إلى الرثاء .

[وذلك لأن تحسين المركز المادى أصبح ، كما يقول هذا المفكر ، مثلا أعلى للأمريكى ، لا وسيلة يحقق بها غاية عقلية أو ثقافية سامية تستطيع تسميتها بالترف العقلى . وربما أخطأ هذا المفكر الفرنسى ، وربما كذبه الغد ، وربما انتهى الشعب الأمريكى إلى تحديد مثل عليا أكثر نبلا من الترف المادى] . ولكن الذى يهمنا الآن هو الحالة الراهنة وهى حالة أقل ما توصف به هو أنها وجهت الحركة النسائية توجيهاً سيئاً .

فقد امتدت يد المرأة إلى ناحية أخرى وهى ناحية السياسة ، وأصبحت العاطفة عاملا ودافعاً فى توجيه السياسة العامة ، ولا شك أن المرأة تفوق الرجل فى هذا النوع من الوجدان أعنى فى العاطفة . حقاً لقد ظلت المرأة الفرنسية بعيدة ، إلى حد ما ، عن تدبير سياسة بلادها ، ولكنها ظفرت أخيراً سنة ١٩٤٥ بما ظفرت به من قبل زميلتها الانجليزية أو الأمريكية .

ولكن تأثير الحركة النسائية على الناحية السياسية لا يقاس بتأثيرها على الناحية الخلقية . فمن المحسوس البدهى أن مستوى الرجولة قد انحط بسبب ظهور الطابع المادى وغلبته على كل شىء ، حتى على العلاقات بين الجنسين . فقد كاد ينقضى العصر الذى كان يتقابل فيه الرجل والمرأة عرضاً فتدب فيهما عاطفة الحب والانسجام ، ثم تتكرر المقابلة وتتفق الميول والآمال ، ويوضع الأساس لعائلة أهم ما توصف به هو أن المساواة التامة ليست من أهم عناصرها . وجاء عهد جديد أصبح فيه الاثنان خصمين يتنافسان ، ويجاهد كل منهما محاولا الغلبة على الآخر . وقد زاد فى حدة هذا التنافس طريقة التعليم المشترك بين الجنسين ، فقد نجم عن هذا الاختلاط المبكر فى دور العلم أن غدا الرجال أقل حساسية وتأثراً بسحر المرأة وفتنتها ، وفقدوا هم الآخرون هالة الغموض التى كانت تحيط بهم ، وعدموا الجاذبية التى كانت تدفع بالمرأة إلى أن تلقى بنفسها وادعة سعيدة تحت حماية الرجل وسيطرته ، وقامت على أنقاض هذه العاطفة الطبيعية ، التى هى فى الحقيقة عماد الأسرة الحقيقى ، عاطفة أخرى قوية ترمى إلى التحلل من قيود الزواج التقليدى وإلى إباحة التمتع الوقتى الذى ينظر فيه إلى الحب كنوع من الرياضة والتسلية .

فأزمة الزواج كمشكلة الطلاق — وكلا الأمرين مرتبطان أشد الارتباط — ليست فى الحقيقة إلا وليدة هذه المساواة بين الرجل والمرأة فى المسئولية وفى العمل ، دون الحرص على تقسيم العمل تقسيماً يكفل للمرأة أنوثتها وللرجل رجولته .

ولما كان الرجل قد شغلته أعماله واستوعب له جهاده العنيف فى تحقيق أسباب الترف المادى ، لم يجد بداً من أن يجود على زوجته بحريتها الكاملة ، ولما وجدت هذه الأخيرة أن فى هذا الكرم لوناً من الإهمال وعدم الاكتراث تفننت فى ضروب استخدام تلك الحرية التى ما كانت تطمع فيها أو ترضى بها . أما الفتيات وقد نشأن فى حياة مادية سعيدة ، فقد أصبحن غير معدات كما ينبغى لمواجهة صعاب الزواج ، وتحمل واجباته ومسئوليته ، وأنى لهن ذلك وقد دللن وعودن حياة المرح ؟

فلا عجب أن انعكست الأوضاع وأصبح مركز المرأة مع شذوذه ممتازاً بالنسبة إلى مركز شطرها الآخر : [وهذا ما نلاحظه فى بلد عجيب كأمريكا] وانعكاس الأوضاع معناه هنا أن الرجل أصبح مضطراً إلى تكييف قلبه وعواطفه حتى يتمشى مع تطور عقلية المرأة غير المنقطع . وقل أن يتسنى للمرء أن يتبع خطوة بخطوة هذا التطور [وهذا هو أحد أسباب فقدان عنصر الانسجام العائلى] ومما يخفف من وقع الكارثة على الشعب الأمريكى مثلا هو أن التفاؤل ميزة عقلية لساكنى القارة الجديدة . وذلك أن الناس يعتقدون هناك أن هذه الثورة الاجتماعية الاقتصادية لابد أن تنتج شيئاً جديداً غير هذه الآلام والمساوىء . فربما تركت المرأة المطبخ دون أن يعرض ذلك الترك المنزل للخطر ، وربما عادت المرأة إلى العناية بأمر دارها لتجد فيها

هجرة العرب إلى أندونسيا

لم تكن هجرات عرب جنوب شبه الجزيرة (حضرموت) إلى خارج بلادهم ظاهرة تاريخية بسيطة يمكن نسبتها إلى مجرد ظهور الإسلام، وإنما هى قديمة، فقد كونوا جالية كبيرة فى الهند فى جدروزيا الواقعة بين جبل كربيلا ومصب نهر السند، وبنوا هناك مدناً وأنشأوا أسطولا تجاريا يغدو ويروح بين الهند وجنوب الجزيرة بأصناف المتاجر وأنواع البضائع. يقول المسيو جيان Guillain فى كتابه Documents Sur L'Histoite Le Geoqraphie et Le Commerce de L' afrique Orientale.

قبض العرب منذ أقدم العصور على زمام التجارة البحرية وبخاصة فى الشرق فكانت سفنهم تجرى فى المحيط الهندى وبخاصة فيما بين بلادهم والهند التى كانت لهم جالية كبيرة على سواحلها قرب نهر السند، هى التى سماها الهنود «Arabitoe» ولما أرسل اسكندر المقدونى قائد أسطوله نيارك Nearque لاستكشاف بحر الهند وجد بسواحل جدروزيا آثاراً دالة على نفوذ العرب من مدن عربية وأساطيل عربية، وكان الربان الذى أرشدهم فى ذلك البحر عربياً.

أما أسباب هجراتهم فترجع إلى عوامل طبيعية فى مناخ الجزيرة وأحوالها الجغرافية العامة. فمن المعروف أن مناخ جنوب شبه الجزيرة من النوع الصحراوى الحار، وليس للأمطار هناك مواعيد مضمونة، فهى من النوع «الطارئ» غير المنتظم. وفى القرون السابقة لظهور الإسلام اعترت بلاد العرب «أزمات مناخية» شح فيها المطر تدريجاً من بداية القرن السادس الميلادى وازدادت ندرته فافتقرت الحياة النباتية افتقاراً شديداً، ولا زال

سلوة عن لذة الكفاح فى الحياة الخارجية، وربما ساعدت على تلك العودة أسباب وعوامل اقتصادية جديدة، وربما كان الكشف عن الطاقة الذرية سبباً فى إشباع هذه الحاجة الملحة إلى الترف المادى، وربما وجد المرء، باستخدام تلك الطاقة، فراغاً يكرسه لزوجه وأولاده وربما وربما الخ.

وربما لم يحدث شىء من ذلك كله، ولكن هناك أمر لا شك فيه، وهو أن الغرب ليس سعيداً بشذوذ مركز المرأة فيه، وأنه يشاهد اليوم صراع لونين متناقضين من التفكير يدعو أحدهما إلى الرجوع إلى الحياة التقليدية، أعنى إلى حياة العائلة ذات المنزل الدائم، ويرمى ثانيهما إلى تحرير المرأة تمام التحرر من نير الرجل، وذلك بإباحة الزواج العابر إن صح هذا التعبير — وثانى هذين المذهبين هو صاحب الغلبة، وأنصاره عديدون، ويعمل هؤلاء الأنصار على نشره هنا وهناك، أعنى فى أمريكا وفى غيرها من القارات، وقد بلغ هذا المذهب مبلغاً من النجاح يهاب له الأخلاقيون والمفكرون من ذوى العقول المتزنة.

وربما قدر لهذا المذهب أن ينتصر فى الغرب انتصاراً تاماً. ولكن نعود فنقول إنه يحمل فى طياته جراثيم انحلال الأسرة، وإنه يعمل على حرمان المرأة أهم عوامل فتنتها ونعنى بذلك أنوثتها.

ولا ندرى إن كان فى فقدان الأنوثة ما يغرى المرأة الشرقية على محاولة تجربة القيام بحركة نسائية فى الشرق شبيهة بتلك التى قامت فى الغرب. ولا ندرى أيضاً إن كان فى القضاء على العائلة ما يغرى الشرق على التحمس لمذهب اجتماعى جديد لا يتفق مع تقاليده، ولا ينسجم مع مزاجه وتكوينه!

[ومهما يكن من شىء، ومهما أرادت المرأة الشرقية أو رغب الرجل الشرقى فإن الأسس الاقتصادية الضرورية لنشأة المرأة الحديثة بالمعنى العصرى لم تتحقق بعد فى الشرق، وربما كان فى ذلك كثير من العزاء من تلك الناحية فقط]

محمود محمد قاسم

معظم تلك الأصقاع يعانى متاعب الجفاف حتى الآن .

والأدلة الأثرية توضح تغير الأحوال المناخية وحلول الجفاف التدريجى . ففى حضرموت وظفار واليمن آبار كثيرة بعضها محفور فى سفوح التلال ، وهى فى الوقت الحاضر جافة أو يكاد يغيض منها الماء ، وكانت فياضة فى العصور القديمة . ولما كانت مياه الآبار إنما ترجع فى الأصل إلى مياه الأمطار الساقطة والتى تتشربها الأرض فإن انخفاض مستوى مياه تلك الآبار دليل قاطع على قلة الأمطار فى الوقت الحاضر عنها فى أيام السبائيين والحميريين .

وفى اليمن (فى منطقة الجوف) وحضرموت (فى إقليم وادى عمد) مدائن كثيرة ترجع إلى الحضارات المعينية والسبائية والحميرية وهى الآن كلها فى مناطق جافة . وهناك حقول منتشرة قاحلة وأحواض واسعة ماحلة كانت ترويها الأمطار إما بالمباشرة وإما بواسطة مشروعات الرى كالسدود التى بناها القدماء .

وهناك صهاريج عظيمة خلفها السبائيون والحميريون كصهريج عدن الذى يسع ثلاثين مليون جالون ، وهى تقع فى ربوات مرتفعة تتلقى المياه ويستقى منها الناس طوال العام ، وفى الوقت الحاضر لايحدث أن تمتلىء تلك الصهاريج ولا يتجمع فيها غير قليل من الماء لا يلبث أن يتغير لونه وطعمه . وهناك ضرب آخر من الأدلة يستخلص مما خلفه القدماء من كتابات وقصص تدل على أن الأمطار فى العصر الجاهلى كانت أغزر وأكثر انتظاما منها الآن . فاليونان والرومان تحدثوا عن وفرة مياه حضرموت واخضرار مناظرها الطبيعية وعن بساتين الفواكه وحقول التوابل ونباتات البخور التى تصدر من هناك إلى موانى اليمن وإلى أسواق الشرق الأدنى وبلاد الرومان ، وكثير من هذه التوابل والبخور لا تنبت الآن إلا فى الجهات الموسمية أو فى شرق افريقيا حيث الأمطار أغزر بكثير فيها عن حضرموت .

نخرج من هذا كله بأن هجرات عرب جنوب الجزيرة (الحضارمة) إنما ترجع إلى الظروف الجغرافية وتغير المناخ وطول الجفاف التدريجى . ولما ظهر الاسلام فى القرن السابع الميلادى كان الحضارمة فى أشد الحاجة إلى الهجرة طلباً للعيش والحياة ، فاندفعوا وحدانا وجماعات إلى الهند ثم إلى جزائر الشرق الأقصى إلى أندونسيا الخضراء ، وهناك استقر بهم الترحال . على أن جماعات منهم نزحوا إلى شرق افريقيا وإلى مصر والأندلس ، ولكن عدد هؤلاء قليل . وتعتبر هجرتهم إلى أندونسيا أعظم ظاهرة تاريخية فى حياتهم الجديدة . وكان نزولهم أولاً فى ثغور سومطرا وجاوه ومدوره ، ومن هناك اندفعوا إلى الجزائر الأخرى ، وكانوا لايلوون على شيء سوى الأخذ والعطاء . ولقد أثبتوا أنهم من أنشط الشعوب فى الشئون الاقتصادية وأقدرهم على طرق التجارة ، فسرعان ما كونوا لهم مركزاً اقتصاديا عظيما . ملكوا زمام التجارة فى البر والبحر ، فكان لهم أكثر من أربعين سفينة تجوب بحار جاوه ومكاسر والصين ، وساعدهم على ذلك صفاء قلوب الاندونسيين وكرم ضيافتهم وحسن معاملتهم ، الأمر الذى شجعهم على البقاء هناك والاستقرار حتى أصبحوا يعتبرون أندونسيا وطناً ثانياً لهم . ولقد قام العرب بأعظم نصيب فى نشر الإسلام حتى تلاشت البوذية والبرهمية . وتزوج العرب من الاندونسيين ، فتوطدت بذلك صلات القرابة وقويت روابط الصداقة . وبالرغم من الجهود التى بذلتها الحكومة الهولندية لإضعاف العلاقات بين العرب والاندونسيين فان العرب نالوا بفضل إخوانهم الاندونسيين السيادة الاجتماعية والأدبية . وليس من شك أن هذا يرجع أيضاً إلى فضل الاسلام . يقول المسيو بيير غونو Pierre Gonnaud مؤلف كتاب الاستعمار الهولندى لجاوه : لم تكن العلاقات التجارية مهما كثرت وانتشرت تكفى لنيل العرب هذه السيادة الاجتماعية والأدبية على جزائر كثيرة الخيرات ، بل كانت معهم قوة

أعظم من هذه وهى قوة العقيدة المحمدية التى هى من الجلاء والبساطة بحيث يفهمها الخاص والعام .

واليوم أصبحت للعرب جالية كبيرة لا يقل تعدادها عن مائة ألف نسمة معظمهم مواليد من أمهات أندونيسيات ، وهؤلاء المواليد أصبحوا يعتبرون أندونيسيا وطناً لهم ولا يرضون بها بديلا ، يشعرون نحوها بما يشعر به الأندونيسيون من الحب والولاء والوفاء . وقبل الحرب العالمية الثانية أنشأوا لهم جمعية (P. A. I.) أى مواليد عرب أندونيسيا . والأسباب التى دفعتهم لتكوين هذه الجمعية هى :

١ — تصدع مركز العرب الاقتصادى والأدبى والاجتماعى .

٢ — عجز المدارس العربية عن تخريج شبان مثقفين ثقافة عالية .

٣ — عجز العرب عن مجاراة الهولنديين والصينيين فى ميادين الحياة لتفوق هؤلاء عليهم فى العلم والعمل .

أما أغراض الجمعية فهى :

١ — توجيه أبناء العرب إلى المعاهد العلمية الحكومية .

٢ — مطالبة الحكومة منحهم كل الحقوق التى يتمتع بها الأندونيسيون .

٣ — حصر جهودهم لإصلاح شئونهم وتقوية مركزهم بأندونيسيا دون غيرها .

٤ — توطيد العلاقات وتقوية الصلات بينهم وبين إخوانهم الأندونيسيين .

وقد نجحوا فى أغراضهم هذه إلى حد كبير ، فقد ألحق كثير من العرب أبناءهم وبناتهم بالمدارس الحكومية ، وقووا صلاتهم بالوطنيين ، وأصبحت اللغة الملايزية لغتهم الرسمية فى مجتمعاتهم وخطبهم وصحفهم . وإذا كان هناك خلاف بين هؤلاء المواليد وبين آبائهم من مواليد حضرموت ، إذ يرى هؤلاء أنهم انسلخوا من العروبة ، أو أنهم يحاولون الانسلاخ منها ، فإن هذا الخلاف نتيجة طبيعية لكل حركة فكرية جديدة مهما كانت على جانب عظيم من الحق والصلاح . وإذا كان لآبائنا بعض الحق فيما رأوا فى أبنائهم من الغلو والتطرف على حد تعبيرهم ، فإننا نحن المواليد معذورون إذا حصرنا كل جهودنا فى إصلاح شئوننا ، وتوطيد مركزنا بأندونيسيا ، ولم نفكر فى شىء اسمه حضرموت ، لاسيما وعلاقاتنا اليوم بأندونيسيا أصبحت أقوى وأكثر من علاقاتنا بحضرموت . ونحن وطدنا أنفسنا ونوينا البقاء فى أندونيسيا مدى الحياة ، فمصيرنا قررناه ورسمناه ، وهو البقاء فى أندونيسيا ، ولا نريد بها بديلا . فيجب والحالة هذه أن نعمل ونحصر جهودنا لبناء مستقبلنا فى أندونيسيا كشعب يريد أن يعيش معززا مكرما .

إنى لا أدعو إلى الانسلاخ من العروبة والاندماج فى شعب آخر ، فعاداتنا العربية محفوظة فى قرارة نفوسنا ، ولن تزول منا مدى الحياة ، ولكن اتجاهنا جميعا إلى المدارس العربية ، وانكبابنا على دراسة كتب النحو والفقه أضعف مركزنا الاقتصادى والأدبى ، حتى أصبحنا عاجزين كل العجز عن مجاراة الأوساط المحيطة بنا فى العلم والعمل . إذاً فالغلو أو التطرف الذى يتهمنا به الآباء لا نجد له حظا من الصحة ، وغدا سيعلم الذين يرموننا بالغلو أننا على حق . ولعله من دواعى السرور أن حرارة ذلك الخلاف أخذت تهبط وتهدأ الأعصاب المضطربة والعواطف الثائرة فى كل من الفريقين . ومما يجب الاشارة اليه أن العرب سواء مواليد أندونيسيا أو الذين ولدوا فى حضرموت انضموا إلى الأندونيسيين فى نضالهم وجهادهم لنيل الحرية والاستقلال ، وقاتلوا معهم جنبا إلى جنب ضد أولئك الذين أرادوا تحطيم الجمهورية الأندونيسية الفتية . وليس من شك أن هذا أقل ما يجب أن يعمله العرب لأندونيسيا والأندونيسيين .

وها هو رئيس وزراء أندونيسيا صرح فى بيان أعلنه للملأ منذ بضعة شهور بمساواة عرب اندونسيا لإخوانهم الأندونيسيين فى كل الحقوق والواجبات .

صبوح البكرى

قصة :

حب القط الصغير الأصفر

قال ابني : « عجيب ! لماذا لم أر قطي الصغير أكثر الأحيان في هذه الأيام الأخيرة ؟ » .

كان ابني يظل مع قطه الأصفر طول اليوم يلعبان لعبة الكرة ويطاردان الفراشة الجميلة ، وعندما يأتي وقت الأكل يجلسان على المائدة فوق كرسي واحد ، ويطعم ابني القط الطعام الذي يشتهيه ، وحين يجيء ميعاد النوم ينامان في سرير واحد ، ويرقد القط بجوار كتف ابني ، ولم يفترقا أبداً ، ولم يتغيب أحدهما عن الآخر كثيراً من الزمن ولا قليلا ، حتى كان ابني يرى في المنام أن القط يلعب معه .

ولكن في الأيام الأخيرة غاب القط عن ابني كثيراً ، وغادر البيت وتركه منفرداً ، فشعر ابني بوحشة شديدة لم يذقها في عمره ، فأراد أن يراه ويبحث عنه ، فبحث عنه بجوار الدفئة المهملة ، وفي مخزن الأشياء القديمة ، وفي زوايا البيت ، وتحت السرير ، وفي كل مكان من البيت ، ولكنه لم يجده ، فحزن حزناً شديداً . ثم فجأة جاء القط بنفسه ، ولما رآه ابني استقبله بكل فرح وحمله بين يديه ، ومسحه وقبله وأظهر له حباً أكثر مما كان يحبه قبل غيابه ، ولكنه شعر في الحال بأن القط لم يقبل عطفه الآن كما قبله من قبل ، فلم يغن أمامه غناءه ولم يرقص معه رقصاً ، وكأن عنده فكرة تشغله عن كل شيء ، حتى إذا سنحت له الفرصة غادر البيت ولم يهتم ابني كأنما يسعى لتحقيقها . وحصلت أمثال هذه الأحوال بين ابني وبين القط مرات كثيرة في هذه الأيام الأخيرة .

وأما ماذا جعل القط الصغير ذا العينين اللامعتين والشعر الأصفر الجميل ، يتغيب عن ابني ولا يلعب معه ، فلذلك قصة طريفة :

كان بجوار بيتي حوض فيه ماء قليل نقي ، وأمامه شجيرات مدت فروعها فوقه تتحرك حركة خفيفة تجعل منظر الحوض بهياً رائعاً ، وكانت صورة زهورها الزرقاء والبنفسجية قد انعكست في قاع الحوض واضحة جلية ، وكانت أوزة تعوم في هذا الحوض الجميل ، وحجبت فروع الشجيرات الخضراء فوق رأسها أشعة الشمس ، فظهر ريشها الأبيض فوق الماء الأخضر جميلا هادئاً يعجز عنه الوصف ، وجاء القط الأصفر إلى شاطئ الحوض ، ولما رأى الاوزة أحبها حباً تأجج في قلبه كأنه نار .

وكانت الاوزة جميلة ظريفة ، على جسمها ريش ناعم أبيض ، ولها عينان صغراوان لامعتان ، وفوق رأسها عرف ذهبي كالتاج ، وحركاتها الظريفة الخفيفة تأخذ بمشاعر القلوب ، فمن الذي لا يحب هذه الاوزة الجميلة ، خصوصاً وقد رآها القط الصغير الأصفر أول مرة !

وقرب القط من الاوزة ، فقال لها بصوت رقيق : « أيتها الفتاة البيضاء الشقراء ! إنك تعومين في هذا الحوض الجميل وما أسعدك ! » .

فقالت الاوزة : « نعم أنا سعيدة هنا » ثم أدارت رأسها قليلا ، وأغمضت نصف عينيها ، فزاد شكلها جمالا على جمال . ولما رأى القط هذا الشكل الجميل فرح غاية الفرح ، وأغمض عينيه ، وأخذ يتذوق طعم هذا الشكل كأنه يتذوق قطعة من الحلوى .

وبعد برهة سأل القط الاوزة قائلا : « أنت تلعبين وحدك هنا ، فهل تشعرين بوحشة ؟ » .

فقالت الاوزة : « إني لم أشعر بوحشة أبداً ، ولكن إذا كان أحد يريد أن يكون لي صديقاً ويلعب معي أكون في غاية الانبساط » .

وقال القط مسرعاً : « إني أكون صديقاً لك وألعب معك » .

فقالت الاوزة : « إذا رضيت عن ذلك فإني أشكرك شكراً عظيما » .

وهكذا تصادق القط والاوزة ، وبعد ذلك بقى القط يذهب كل يوم إلى شاطىء الحوض ليزور صديقته الاوزة وليتحدث إليها ويمتع سمعه بحديثها العذب من منظر الحوض الجميل ، وكانا يتساءلان : متى تأتى الفراشة الجميلة المختلفة الألوان إلى الشاطىء ؟ ومتى تتفتح الزهور الجميلة ؟ ومرة يغنى كل منهما لصاحبه غناء رائعاً ، ويقص عليه قصصاً ظريفة ، وأخرى تذهب الاوزة إلى الشاطىء وتنام مع القط تحت أوراق الشجيرات الخضراء ، وأحياناً تسابقه فى البحث عن الحشرات ، ومن وجد حشرة جميلة منها فهو الذى يكسب المسابقة ، وطوراً يعدان السحب التى تمر فوق الشجيرات ، ومتى تنتهى ؟ ومتى تأتى مرة ثانية ، فلذلك نسى القط ابن صديقه الوفى الذى كان يلعب معه طول اليوم

ومع أن القط كان يلعب مع الاوزة كل يوم ويتحدثان حديثاً لذيذاً فإن قلبه كان يضطرب اضطراباً شديداً عندما يهم أن يكاشفها بحبه ، لأنه كان يعتقد أن الحب أحسن من اللعب ألف مرة ، وقال فى نفسه : « كيف أتكلم معها عن الحب ؟ وإذا كلمتها فكيف ترد على ؟ » وفكر فى ذلك كثيراً وأراد أن يصبر ولكنه لم يقدر على ذلك ، وأراد أن يتكلم معها ولكنه خاف من سوء النتيجة ، فلذلك كان إذا فارقها ورجع إلى البيت بقى مشغولا بها ومستغرقاً فى ذلك الحب ، ولذلك لم يلعب مع ابنى ولم يقبل عطفه عليه بفرح ، وابنى يعجب منه كثيراً ولا يفهم سبب ذلك .

وذات يوم لم يملك القط نفسه ولم يتمكن من الصبر ولم يبال بالنتيجة ، فعزم على أن يتكلم مع الاوزة عن ذلك الحب ، فأعد سلة وملأها محاراً وربط فى يدها حزمة من الأزهار الحمراء ، وأراد أن يهديها إلى الاوزة ، فخرج من البيت ومشى فى الطريق يفكر ويشجع نفسه قائلا : « إذا قابلتها فقول لها ذلك الحب ولا تخاف » ثم ذهب إلى شاطىء ترعة ، فرأى صورته فى الماء ، ورفع يده فنظم شعره الأصفر وجعله مصقولا لامعاً ، وفتل طرفى شاربيه وتركهما منصوبين على جانبى شفته العليا ، فعجب من نفسه قائلا : « إنك لقط جميل بغير شك ! »

وذهب القط إلى الحوض ، فرأى أن الاوزة قد دنت إلى جانبه ، وظهرت صورتها فى الحوض جميلة جذابة ، فقرب منها وقد علت وجهه ابتسامة مرحة ، وقال لها : « ياأختى الصغيرة الشقراء ! قد جئت هنا قبلى ، فهل انتظرتنى كثيراً ؟ » ولم ينتظرها تجيبه حتى قال لها : « إنى قد جئت لك اليوم بهدية ضئيلة بخسة القيمة ياأختى الصغيرة ! فأرجو أن ترى إخلاصى لك وتقبليها ! » وقدم لها السلة ، ولما رأت الاوزة فى السلة المحارة التى تحبها والأزهار الجميلة سرت غاية السرور ، وقبلتها بكل فرح ، وشكرت صنيع القط عظيم الشكر ، ووضعت الأزهار فى صدرها ، فزاد شكلها جمالا أخذ بقلب القط ، ولعبا كما يلعبان كل يوم .

وقال القط لنفسه : « لا تخاف قول لها الحب ! لا تخاف ! » وشجعها مرات كثيرة ، ثم أقدم فقال للاوزة : « ياأختى الصغيرة الشقراء ! هل يمكننى أن أتكلم معك كلمة واحدة . . . وهى : « إنى أحبك ! إنى أحبك ! » هكذا قال لها تلك الكلمة التى يظهر فيها اضطراب قلبه .

فعجبت الاوزة من هذه الكلمة وسألت القط قائلة : « إنك تحبنى ؟ » وفكرت كثيراً ثم قالت بصوت رقيق : « إنى أشكرك جزيل الشكر لحبك لى . ولكننى أرجو أن تبين لى أولا أى شىء تحب فى جسمى ؟ وإذا بينت لى ذلك أعطيتك إياه وأرضيتك به » .

ولما سمع القط هذه الإجابة فرح فرحاً كأن قلبه يريد أن يطير من مكانه ، فأراد أن يقرب من الاوزة ويقبلها قبلة الحب ، ولكنه قال فى نفسه : « ماذا أريد من جسمها ؟ » وفكر كثيراً ثم قال لها : « إنى أحب ريشك الأبيض الجميل الذى يشبه لون الثلج . »

فقالت الاوزة : « إنى أعطيك ريشى الأبيض الجميل

الذى يشبه لون الثلج . » وخلعت ريشها أمامه ، وهبت الريح فبعثرته على الأرض ، ولكنها أسرعت فجمعته وأعطته للقط .

وقال القط : « إنى أحب عينيك المتحركتين الجميلتين اللتين أرسلتا أشعتهما الذهبية لامعة . »

فقالت الاوزة : « إنى أعطيك عينى المتحركتين اللتين أرسلتا أشعتهما الذهبية لامعة » فأخرجت عينيها ودفعتهما للقط فقبلهما بمخلبيه .

وقال القط : « إنى أحب عرفك الأحمر كالتاج المقيق »

فقالت الاوزة : « إنى أعطيك عرفى الأحمر كالتاج المقيق » وأسقطت عرفها أمام القط .

وقال القط : « إنى أحب فمك الجميل الذى يستطيع أن يغنى غناء رائعاً . »

فقالت الاوزة : « إنى أعطيك فمى الجميل الذى يستطيع أن يغنى غناء رائعاً . » وسقط فمها أمام رجليه .

وقال القط : « إنى أحب رجليك الظريفتين . »

فقالت الاوزة : « إنى أعطيك رجلى الظريفتين » وسقطت رجلاها ، فبقى لها جسم عار من الفم والريش والعينين والرجلين .

وقال القط : « إنى أحب جسمك العارى القشيب »

فقالت الاوزة : « إنى أعطيك جسمى العارى القشيب » فتحرك الجسم يدور أمامه . ولما رأى القط أن الاوزة أجابت كل مطالبه وأعطته كل أجزاء جسمها ولكنه لم ير شكلها الكامل الجميل قائماً أمامه ، حزن حزناً شديداً كأن قلبه قد طعن بسهم ، فنادى الاوزة قائلا : « يافتاتى الصغيرة الشقراء ! أين أنت الآن ؟ » ولما لم تجبه رجع إلى البيت مطأطئ الرأس صفر اليدين ، وحينما رآه أبى استقبله بكل عطف وحمله بين يديه يداعبه ، ولكنه رأى الدموع تملأ عينيه .

وعندما أصبح صباح الغد ذهب القط إلى شاطئ الحوض يريد أن يرى الريش والعرف والعينين وغيرها من أجزاء جسم الاوزة ، ولم يصل إلى الشاطئ ، حتى رأى أنها تعوم فى الحوض كما كانت تعوم فيه كل يوم سليمة الجسم جميلة الشكل ، ظريفة الحركة ، وسمع صوتها رقيقاً ناعماً لم يتغير مطلقاً ، ففرح كل الفرح ، وناداها قائلا : « يافتاتى الصغيرة الشقراء ! إنى أشكرك عظيم الشكر ، لأنك أعطيتنى أمس كل أجزاء جسمك ، ولكن أين ذهبت أنت نفسك ياحبيبتى ؟ . »

فقالت الاوزة : « إنى أرجو منك أن لا تطلب منى الحب بعد اليوم ، فهلا اقتنعت بصنيعى لك بالأمس ؟ فأرى أنه يجمل بنا أن نكون صديقين فقط » . وهكذا صحت تسميته من غير تكلف .

وقال القط : « نكون صديقين فقط ؟ »

فقالت الاوزة : « نعم ، نكون صديقين فقط ، لأن صنيعى لك بالأمس يخبرك أنه لا يمكننا أن نكون حبيبين . فإن كنت تطلب منى الحب وأجبتك فلا يفيدك ذلك لأنك لن تجد نفسى الكاملة . »

فقتل القط أخيراً .

عبد الله ماجى . كو

بين المسموع والمقروء

ملك الكبريت

وما استقرت تلك المصانع ، حتى أخذ كروجر يطلب لنفسه السيطرة عليها بواسطة شركته الصغيرة الأولى . وبإجراءات مالية معقدة ، وحيل غريبة بارعة ، نال كروجر ما تمناه . وتمت إمرته . وبما اختط من خطط ، وبما استدعى من العلم والعلماء من عون ، أخذت شركة الكبريت السويدية تغزو الأسواق الخارجية سوقاً سوقاً .

وانتهت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٩ ، فاعتزمت أمم كثيرة أن تقيم داخل حدودها مصانع للكبريت ، وأن تقوم عليها بالجمارك تربيها وتحميها . وقد كان في هذا العزم مايقلم من كروجر أظفاره ، ويقصر آماله . ولكن كروجر على العكس من ذلك ، رأى في مشاريع تلك الأمم ما يقفز به إلى أمنيته أسرع مما خال . ذلك أن هذه الأمم كانت تفرض على الكبريت الضرائب ، فكانت صناعة الكبريت في كل أمة من تلك الأمم ممتزجة بماليتها . فهي وإن كانت صناعة حرة ، إلا أن الأمم اعتمدت عليها فيما تعتمد لموارد ميزانيتها . وكانت هذه الأمم خارجة من حرب ، والخارج من الحرب لا يحمل جيوبه ثقيلة بالذي فيها من مال . وهنا رأى كروجر أن فرصته سنحت . إن لديه الخبرة الفنية في صناعة الكبريت ، وعنده المال أو هو يستطيعه . وإذاً فأخذ يعرض على تلك الأمم أن يقيم هو مصانعها ، أو على الأقل أن يشاركها في إقامتها ، وذلك داخل حدودها ، وفي ظل قوانينها ، ثم هو يقرض حكوماتها الأموال على أن تسددها المصانع ضريبة على مر الأيام .

ورحبت الأمم بالفكرة ، وأخذ كروجر يحتكر صناعة الكبريت في أمة بعد أمة . وأخذ يفرق على الأمم القروض ففرق أربعة عشر قرضاً بلغت بليوناً ومائتي مليون من الكرونات .

ومن أين جاء بكل هذا المال ؟ جاء به من خزائن المال الكبرى ، من انجلترا وأمريكا . فقد اتصل بكبار ماليها ، وشرح وأقنع ، ففهموا منه واقتنعوا . وكون منهم شركة عظيمة أسماها شركة الكبريت الدولية ، كان لها من الموارد المالية شيء عظيم .

ومدت الشركة الجديدة نشاطها ، تحت عين كروجر ، عبر أوربا ، إلى كندة ، وأفريقية الجنوبية ، وإلى اليابان . وأخذت تتسع أعمالها عاماً بعد عام ، حتى صارت عاملا من عوامل الاستقرار ، أو غيره ، في عالم الأموال .

وأموال طائلة كهذه ، وقوة هائلة كالتي تقمصها كروجر لا يُقدَّر لها سكون أو ركود . فطبيعتها تطلب التمدد ، تطلب زيادة من قوة وزيادة من غزو . وعدا هذا ، فالكبريت ككل بضاعة أخرى ، له أيامه البيض وأيامه السود . فلا بد إذاً من ضمان المستقبل . فرأى كروجر أنه لابد له من الدخول في صناعات أخرى ، يدخلها بالشراء . فاشترى ، واشترى ، حتى بلغت مشترياته حداً هائلا ، فاق في سرعة اتساعه سرعة اتساع مصانعه الكبريتية أول الأمر .

وصار له في العالم الدولي مكانة لا تجارى ، وله كلمة لا ترد .

وجاءت الأزمة العالمية . بدأت في أواخر العقد الثالث من القرن الحالي . فأخذت تتأثر بها كل التجارات ، وتنوء بها كل الصناعات . وبغتة خرجت إنجلترا عن قاعدة الذهب ، فارتاعت لذلك الأمم ، وأخذ كل يحتمي فيما استطاع أن يحتمي فيه من قوانين تصاغ في طلعة النهار الواحد . وأخذت حوائط الحماية تزداد ارتفاعاً عند حدود الأمم ، فتمنعت بينها التداول وزادت الأزمة سوءاً .

ووقعت شركات كروجر فيما وقعت فيه شركات العالم . غطاها حيناً بأثمان مصطنعة قررها في لندن ونيويورك .

وعاونه أصحاب البنوك على ذلك ثقة فيه. ولكن أخذت الأصوات تتصايح أن في الأمر شيئاً خبيثاً، وأن ما يذاع من نشرات لا يدل على حقيقة.

والشركات كالأشخاص لها أعداء ولها خصوم، تنام عنها ما قدرت الشركات على الصحو والقيام، ولكنها إن مالت رقابها، قام ألف سكين وألف خنجر يطلب نحورها.

وادعوا على كروجر أن روسيا من ورائه تسويئاً لسمعته، وتعجيلا لسقطته. وادعوا أن اختراعاً تم مؤداه خروج صنف من الكبريت دائم، يُطفأ عوده ثم يُشعل ثم يطفأ ويشعل، عدداً غير محدود من المرات. واخترعوا هذه الفرية هزءاً لهذا الصرح القائم عسى أن يتصدع فينهار. ولم تلبث الدنيا أن كشفت أمر تلك الفرية وخرج منها كروجر، وخرجت شركاته موفورة العافية.

ولكن تشعّب هذه الشركات في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، وكثرة التزاماتها، جرّها إلى يومها الأسود سريعاً. وقد كان كروجر يدفع عنها كلما أزَمَتْها الأمور، أيام الرخاء، بالسندات يخرجها فتأتيه الأموال تجرى من كل صوب كما يجرى الماء انحداراً. ولكن سوق الأموال عندئذ كانت قد نضبت، وثقة الناس كانت قد ضاعت.

ولم يبق لكروجر إلا أمران: فإما أن يستقيم ويعلن عن حقيقة موقفه وموقف شركاته، ولتكن العاقبة ما تكون، وإما أن يعوج فيخادع ويصانع ويموّه ويدلس. وكان بطبعه لا يعرف الأخلاق، لا حسنة ولا سيئة. فاختار ما يستر الموقف ولو إلى حين. ولم يفارقه أمله في الكشاف الغُمّة أبداً. وأخذ يكتب ميزانية هذه الشركات بأرقام من عنده. وكان دكتاتوراً جباراً، فلم يجرؤ أحد على مراجعته أو مناقشته. وارتاب مدير له في لندن في أمر، فذكره له، فما كان من كروجر إلا أن قال: هل معنى هذا أنك تتهمني؟ فما كان من المدير، وهو رجل له في عالم المال مكانة كبيرة، إلا أن صمت.

وذهب كروجر في تهدئة الخواطر واصطناع اليسر والظهور بحسن الحال إلى أن أعلن اشركاته أنه أقرض إيطاليا، في السر، قرضاً، ٢٥ مليوناً من الجنيهات، دفعته إيطاليا سندات. ولكنها سندات كانت مزوّرة، مزورة طبعاً وإمضاء.

وطلبه أعوانه في أمريكا أن يظهر بينهم فعل. واستفسروا منه عن أمور، فلم يقتنعوا بتفسيره. وجعلوا الاجتماع إلى باريس، ليكون الاجتماع أوسع ونطاقه أعم. وعندئذ عرف كروجر أن الأمر مكشوف وأن حاله مفضوح. فكتب إلى أصدقائه وعملائه، وكل من عرف، بالوداع. ثم ألغى كل ذلك بالتلغراف كأن بادرة له قد بدرت، وأملا في النجاح قد برق.

وحضر إلى باريس فالتقى بذلك المجمع. ولأول مرة وجد ذاكرته تخونه، وهو أحوج ما يكون إليها في التدبير والتنظيم. وطال الاجتماع حتى استغرق كل النهار.

وأجل الاجتماع إلى غد.

وفي الغد انتظروه ثم انتظروه. فلما تأخر، طلبوه في منزله من باريس. فلما دقوا الباب، ففتحوه، لم يجدوا كروجر الذي عرفوه. ولكن وجدوا مكانه جثة هامدة لا تنطق ولا تعي، ولا تستطيع أن تدفع بالحق أو بالباطل، كانت فيما مضى تأمر فلا يُردّ لها أمر، وتنهى فلا يرد لها نهي، وتُثبت فلا يكون من بعد إثباتها نفي، وتنفي فلا يكون من بعد نفيها إثبات — تلك جثة كروجر، العبقري الكبير والنصّاب الأكبر. دكتاتور المال والأعمال الذي حكم أوربا والدنيا دهراً، ثم تهاوت امبراطوريته في صبيحة يوم أسود الطالع منحوس الضحى.

أحمد زكي

جامعة الدول العربية

[مهداة إلى سعادة عبد الرحمن عزام باشا]

ولدت في القلوب من قبل أن تنـ
بت في الأرض فاحتوتها القلوب
فلها في مسارب الروح إشرا
ق وفي ساحة الضلوع وجيب
غُذِّيَتْ في الرضاع من لبن الحق
فلا غرو فهي فيه غضوب
جمع الحب والوفاء بنيهـا
فإذا هم على الخطوب خطوب
يتفانون في سبيل بلاد
قد تفنّوا بها فكلٌّ طروب
أيخافون أن يصيبهم المو
ت وكلاّ إذا دعاه يجيب ؟ !
ليس موت يكون فيه خلود
مثل عيش يكون فيه ذهوب
هكذا يتبع الخمودَ شبوبُ
وكذا يتبع الركود هبوبُ
إن يكن مسها اللغوب طويلا
فكما يعتري الوضيء شحوبُ
عالجتها الأيام من أثر الدا
ء كما عالج المريضَ الطبيبُ
وأصابت من الحياة كما كا
نت على عهدها القديم نصيب
خَبَرَتْ باطن السياسة في الغر
ب فلم يُغْرِها الحديث الخلوبُ
لم تكن هذه الحضارة إلا
غربها في العقول وهي جُدوب
كم زهت على يديها بلاد
وبنى المجد في حماها شعوب

أوْرَدَتهم مناهل العلم والحكـ
ـمة حتى لم يشْك منهم طلوب
وإذا عاهدت فديدنها الصد
ق ، وشتان صادق وكذوب
إنّ هذي الأقدار تجري على النا
س فيوم طلْقٌ ويوم قطوبُ
وإذا ما قسَتْ فلابدّ يوماً
تنجلي على الزمان الكروب

* * *

جمع الله شملها وقديمـاً
فرّقتها حوادث وحروب
فإذا أصبحتْ موحّدة الرأ
ي فبين القلوب شوق غلوبُ
لم تهن أمة على الأرض ما اصطف
بنوهـا والاتحاد مهيب
أرأيت الأسودَ تقصف كالرعـ
د وقد حفّ بالعرينة ذيبُ
جعلَتْ نصب عينها أن يكون الشـ
رق حُرّاً وما عليه رقيب
يتولّى شئونه حالة الأمـ
ن وفي النائبات حين تنوب
وإذا العيش لم يكن في ظلال
من فخار وعزة لا يطيب

* * *

كل ما نبتغيه أن يصفوَ القلـ
بُ فلا يعتريه ودٌّ مشوبُ
ويعم السلام في الأرض حتى
لم يكن للحروب فيها نصيب
إنما الناس في الحقوق سواءٌ يتلاقى عدوّهم والحبيب
إن صدر الحياة لا يسع الظلـ م وإن قيل إنه لرحيب
فشعار القلوب نصر من الله وفتح ، إذا يشاء ، قريب

بهيه أحمد

المعلم وتلاميذه

... ... أظن أن المعلم الناجح ينبغي أن يكون أقرب شيء إلى الفنان المبتكر، ولا بد أن تكون ممارسته للتعليم إشباعاً للذة خاصة في نفسه لا مجرد أداء للواجب، ولكي يستطيع الإنسان أن يمارس التدريس بنفس اللذة التي يعالج بها الفنان فنه، ينبغي أن يكون مُطَّلِعاً، لا يقل شوقاً للاكتشاف والتعلم من أصغر تلاميذه، لابد أن يكون تطلعه إلى تعلم ما لا يعلم أقوى من ثقته فيما يعلم! ينبغي أن لا يغمره الشعور بأنه قد أوفى على النضج وبلغ من المعرفة ما يريد، وينبغي أن تظل في نفسه تلك الروح التي تجعلنا ننظر إلى الأشياء العادية التي يخيل إلينا أننا نعرفها نظرتنا إلى ما لم نسمع به من قبل؛ بدون هذه الحاسة يستحيل عليه النفاذ إلى نفوس تلاميذه واستشفاف أرواحهم، بل يستحيل عليه أن يرى الأشياء بعيونهم. إن معلماً كهذا لخليق أن يفهم قول إمرسون: «أريد أن أنفذ إلى عقل غيري . . . ولكنه يأبى إلا أن يمرض على عقلي أنا».

ينبغي أن يتعلم التلميذ في المدرسة كيف يعبر عن نفسه، ولكن الذي يحدث في معظم الأحوال هو أنه يتعلم كيف يعبر عما يدور في نفس مُدَرِّسه، وليس ذلك ضاراً في ذاته إذا كان عند مُدَرِّسه ما يستحق عناء التعبير عنه، ولكنه ضار إذا لم يكن في نفس المدرس شيء يستحق هذا العناء. فكيف والغالب على المعلمين أن لا يكون لديهم إلا مناهج ومعلومات رسمية مقررة يرددونها في أمانة ومقدرة تختلف من واحد لواحد . . . معلومات مقررة لا تسمح للمعلم أو للمتعلم بالتفكير والابتكار ...

ولم يكون الطفل سعيداً حين يجد أن اهتمام معلمه ليس مركزاً في إرغامه على كتابة صفحات جميلة تعجب المفتشين بمظهرها وبنظامها لا بروحها، وإنما إلى ما يهم الطفل نفسه ويشتغل باله . ! ما أسعده حين يحس أن معلمه يشاركه السرور بطائرته الورقية حين تحلق في الهواء، أو بحصانه الظريف حين يجري في خيلاء، أو بكلبه الحبيب حين يأتي من الألاعيب ما يملأ النفس بهجة! لو شارك المعلم تلميذه الفرح بهذه المتع الصغيرة لكان معلماً عظيماً حقاً ... ولأخرج من هؤلاء الأطفال رجالاً ونساء يفخر بهم فيما بعد ...

من مقال في مجلة Listener

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكردايس عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٦٩٩ / ٥٢٧٠٩

العدد ٣٨٧ — الثلاثاء ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ – ٢٨ من مايو سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

بعد عام

في أوائل سنة ١٩١٨ ، وقبل انتهاء الحرب العالمية الأولى ببضعة أشهر أعلن الرئيس ولسون مبادئه الشهيرة لعقد صلح عالمي على أسس شريفة عادلة ، كان في مقدمتها الاعتراف لكل أمة بحق تقرير المصير ، وإنشاء عصبة أمم تشرف على تحقيق الاستقلال السياسي والسيادة الإقليمية لجميع الأمم صغيرها وكبيرها ؛ ولكن سرعان ما تبددت هذه المبادئ الخلابة في مؤتمر الصلح ، وفي المؤتمرات التي تلته ، وبدأت معركة اقتسام مناطق النفوذ بين الدول الظافرة ، وظهرت المطامع الاستعمارية في أعنف صورها ، وشرعت بدعة الانتداب على الشعوب الصغيرة ، وجاءت عصبة الأمم لتغدو أداة في يد الدول الظافرة توجهها كيف شاءت لتأييد نفوذها وسلطانها .

وجاءت الحرب العالمية الثانية بالأخص نتيجة للأخطاء التي ترتبت على المنافسات والشهوات الاستعمارية الخطرة التي اضطرمت بها الدول الظافرة عقب الحرب العالمية الأولى ، وعلى إخفاق هذه الدول في إقامة سلم شريف دائم يعترف فيه بالحقوق المشروعة للدول المهزومة والدول الصغرى التي اعتقدت أن فجر السلام والحرية قد بزغ ، فصدمت في أعز آمالها وأمانيها ؛ وهكذا شهدنا الحرب العالمية الثانية تضطرم لنفس العوامل والأسباب القديمة التي نشبت من أجلها الحرب العالمية الأولى .

وهنا يعيد التاريخ نفسه بصورة واضحة ، ونشهد خلال هذه المعركة العالمية الكبرى نفس المأساة تمثل مرة أخرى فينهمر سيل التصريحات والوعود الخلابة القديمة . ولما كانت المعركة في هذه المرة أروع وأشد خطرا ، فقد كانت الوعود ألمع وأعظم ، وهكذا طلع علينا تصريح الحريات الأربع مؤكداً أنه يجب أن يكفل للعالم حرية القول والعبادة والتحرر من الفقر والخوف ؛ ثم طلع علينا

ميثاق الأطلنطيق يؤكدان أن بريطانيا وأمريكا لا تسعيان إلى توسيع أملاكهما ، ولا ترغبان أى تبديل إقليمى لا يتفق مع رغبة الدول صاحبة الشأن ، وأنهما تحترمان حق جميع الشعوب فى اختيار شكل الحكومة التى تلائمها ، وتأملان بعد سحق الاستبداد النازى أن تتوطد دعائم السلم ، فتعيش الأمم فى سلام آمنة من الشقاء والخوف ؛ ولبثنا بعد ذلك خلال أعوام الحرب العصيبة نسمع الخطب والتصريحات الرنانة من الغايات التحريرية والإنسانية السامية التى تخوض الديمقراطية من أجلها غمار القتال ، حتى إذا لاحت طوالع النصر ، عاد أقطاب الجبهة الديمقراطية فى مؤتمر يالتا يؤكدون حرص الأمم المتحدة على تنفيذ كل ما جاء فى ميثاق الأطلنطيق من المبادىء والوعود .

وانتهت الحرب العالمية الثانية بانتصار الأمم المتحدة انتصاراً لا مثيل له ، وتطلعت الأمم فى نشوة النصر ، إلى اجتناء الأمانى السعيدة فى ظل السلم العالمى الموطد والآفاق الحرة الكريمة ، التى وعدت بها ؛ ولكن الصدمة كانت بكل أسف فى هذه المرة سريعة مؤلمة ؛ وجاءت حوادث الأشهر الأولى التى أعقبت النصر ، لتبدد بقسوة كل الأحلام السعيدة التى تصورها العالم ، وتصورتها الأمم الصغيرة مدى لحظة ؛ وسرعان ما بدت النافسات والشهوات الاستعمارية القديمة سافرة فى غير ما حياء أو تحفظ ، وأخذ حلفاء الأمس يختلفون ويتنازعون على اجتناء الأسلاب والغنائم ، واقتسام مناطق النفوذ فى أوربا وآسيا وأفريقية ؛ وأخذت الأمم الصغيرة — وهى الفرائس — تنظر حيرى إلى ذلك المسلك الصارخ المشين من جانب أولئك الذين غروها بالأمس القريب بالوعود المعسولة ، فوقفت إلى جانبهم وقت المحنة تشد أزرهم ، وتؤيد قضيتهم فى صراحة وإخلاص .

* * *

ولقد شهدنا خلال العام الذى انقضى منذ يوم النصر كثيراً من التجارب الأليمة المرة ، فرأينا إيران التى اتخذها الحلفاء أثناء الحرب معبراً من معابر الإمداد والنصر ، تضحى بقسوة وشراهة فى سبيل التنافس الاستعمارى بين روسيا وبريطانيا ، وهى اليوم تغدو فريسة حرب أهلية مريرة لم تردها ولم تسع إليها ، وشهدنا المعركة السافرة بين الدول الكبرى فى مؤتمر وزراء الخارجية على مناطق النفوذ الأوربى ، ثم على اقتسام المستعمرات الإيطالية ؛ ومع أن مصر لها مصالح مباشرة فى مسألة عقد الصلح مع إيطاليا ، وفى مسألة المستعمرات الإيطالية ، فإنها لم تدع إلى مؤتمر الصلح ، ويراد أن يقضى فى غيبتها أو ربما قضى بالفعل فى مصير ليبيا وطرابلس جارتى مصر من الغرب وفقاً لصالح الدول الاستعمارية . هذا وقد فشل مؤتمر وزراء الخارجية نفسه ، ولم يوفق إلى عقد أية معاهدة من معاهدات الصلح التى اجتمع لوضعها ؛ وذلك بسبب الرغبات والأطماع المتضاربة التى تنافست فى إبدائها الدول الكبرى .

وفى الشرق العربى تبدو السياسة الاستعمارية فى أوج نشاطها ، فانجلترا تحتفظ بقواعدها العسكرية فى شرق الأردن المستقلة ، ولجنة التحقيق الإنجليزية الأمريكية تصدر تقريرها الشهير فى مسألة فلسطين ، وتقضى بالإعدام على فلسطين العربية بكل جرأة ، دون أن تعتبر بالحقائق الواقعة ، أو تصغى إلى الأصوات المنبعثة من كل صوب ، وأمريكا تحتضن تقرير اللجنة الظالم وتؤيده جهاراً ، وهى التى بذل عميدها الراحل المغفور له الرئيس روزفلت ما بذل من وعود رسمية بشأن فلسطين .

وفى مصر تحاول السياسة الاستعمارية أن تلعب دورها المأثور ، فنرى المحافظين يثيرون فى مجلس العموم ضجة كبيرة حول التصريح الذى أصدره وفد المفاوضة البريطانى بعرض الجلاء عن مصر أساساً للمفاوضات القائمة ، ونرى

زعيمهم مستر تشرشل الذي طالما بهرنا أيام الحرب العصيبة بنطقه الخلاب عن مقاومة الطغيان وعن حقوق الأمم وحرياتها ، يبدو في ثوبه الاستعماري القديم الذي عرفناه في سائر مراحل القضية المصرية ؛ ثم نقرأ حين كتابة هذه السطور ، أن المفاوضات المصرية البريطانية قد وقفت لاصطدامها بتشدد الجانب الإنجليزي وتمسكه بما تعتبره مصر منافياً لسيادتها واستقلالها ؛ وهذا بعد كل الذي بذلته مصر خلال الحرب من خدمات جليلة لإنجلترا إبان محنتها .

تقع هذه الأحداث وتتتابع بصورة لا تدع مجالا للشك في حقيقة الاتجاهات التي تتجه إليها الدول الكبرى ؛ فالسياسة الاستعمارية تكشر الآن عن أنيابها في سائر ميادين نشاطها القديمة دون حياء ولا وازع ؛ وقد أيقنت الأمم التي خدعتها الوعود البراقة خلال الحرب ، أنها يجب أن تتدبر أمرها ، وأن تعتمد على نفسها في العمل لتحقيق أمانيها . ولقد جاءت هيئة الأمم المتحدة التي لاحت مدى لحظة معقد الآمال في تحقيق العدالة الدولية وحماية الدول الصغرى ، لتثبت من جانبها أنها بعيدة كل البعد عن تحقيق مثل هذه الغاية ، وأنها لم تك سوى مظهر جديد من المظاهر الطنانة التي تستتر وراءها الدول الكبرى ؛ فقد دلت التجارب القليلة التي اضطلع بها مجلس الأمن ، أنه ليس بعيداً عن وسائل عصبة الأمم القديمة ، وأنه ليس على استعداد لأن يصدر حكم العدالة الحاسم في أية مسألة من المسائل الشائكة التي طرحت عليه ؛ وقد كان موقفه بالأخص في مسألة إيران أسطع دليل على أنه ليس هو الملاذ الذي يمكن أن تتجه إليه آمال الدول الصغرى .

تلك هي الصورة المظلمة التي تبدو لأعيننا اليوم من شئون العالم واتجاهاته . وذلك لعام فقط من وقوع النصر ؛ فإذا كانت الأمم المتحدة قد خاضت غمار الحرب العالمية الثانية حقاً لأجل مكافحة الطغيان والدفاع عن حريات الأمم فإنها ترتكب اليوم أعظم نكث لوعودها وعهودها .

محمد عبد الله عنان

تغريدات الصباح

أهدى الشاعر محمد الأسمر نسخة من ديوانه «تغريدات الصباح» إلى صديقه الشاعر محمود غنيم فبعث إليه بهذه الأبيات :

ما بال شعر الشاعر الأسمر ... أبيض مثل الفلق المسفر ؟
فتشت ما فتشت من لفظة ... نابية فيه فلم أعثر
فيه على ما فيه من قوة ... رقة ماء النيل والكوثر
كالزهر إلا أنه خالد ... مثل خلود الهرم الأكبر
قد بعث الأسمر في شعره ... عهد أبي الطيب والبحتري
وشاد للنيل بأبياته ... ما لم تشيده يدا جوهر
شعرك يا أسمر في قربه ... أنأى من الأنجم والمشترى
عجبت يا صاح لصاح ثلا ... ديوانك العذب ولم يسكر

محمود غنيم

مجلة المنهل الغراء

في المملكة العربية السعودية حركة أدبية ناشطة يقوم بها شباب مثقفون من أبناء البلاد . ومن مظاهر هذه الحركة الميمونة التي تبشر بمستقبل زاهر ، مجلة «المنهل» الغراء التي يقوم بإصدارها ورئاسة تحريرها في مكة المشرفة ، الأستاذ عبد القدوس الأنصاري . فقد اطلعنا على الأعداد الأخيرة منها فإذا هي حافلة بالموضوعات القيمة الطريفة من أدبية وعلمية وثقافية وغيرها . فنرجو لها اطراد التقدم والازدهار والانتشار . وتطلب المجلة المذكورة من مكتبة الخانجي بشارع عبد العزيز بمصر .

زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث :

الشيخ محمد عبده

١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ

١٨٤٩ — ١٩٠٥ م

يعتمد نبوغ النابغ على عنصرين أساسيين : استعداده الفطري ، أو بعبارة أخرى طبائعه الموروثة ، وبيئته التي عاش فيها ، كالشجرة الطيبة إنما تنبت نباتاً حسناً إذا حسنت بذرتها ووجدت من التربة والهواء والماء ما يصلح لها ، فإن كانت البذرة سيئة فلا أمل في شجرة ممتازة ، وكذلك إن حسنت البذرة وساء الغذاء .

وقوانين الوراثة في الإنسان في منتهى التعقد : ماذا يرث من أبيه ؟ وماذا يرث من أمه ؟ وماذا يرث من آبائه الأقربين ؟ وماذا يرث من آبائه الأبعدين ؟ كل هذا لا يزال غامضاً مع عناية علماء الوراثة بالبحث والتقصي .

على كل حال ورث « محمد عبده » صفات نشأ عليها وساعدت بيئته على نموها ، أهمها ثلاث : الذكاء ، والثقة بالنفس والاعتداد بها ويتبع ذلك حب التفوق ، والعطف .

من أين نبعت هذه الصفات ؟ من تركمانية أبيه كما يقال أو من عربية والدته ، إذ يقال إنها من بني عدى . ولكن ما هذا ولا ذاك بكاف ، ففي كل من التركمان والعرب الذكي والغبي والعزيز والذليل ولا نستطيع أن نتثبت من موضع الوراثة حتى نكون على علم بآبائه وأمهاته فرداً فرداً وأنى لنا هذا ؟ فليس لنا إذاً إلا أن نقول إنه هكذا خلق .

ثم كم من الفلاحين الفقراء في الحقول وصغار الصناع في المصانع من ورث من الصفات ما ورث الشيخ محمد عبده بل خيراً مما ورث ، ولكن لم تسعفهم البيئة وقست عليهم ، وعاشوا وماتوا لم يشعر بهم أحد ، ولو وجدوا من الظروف ما وجد الشيخ محمد عبده وأمثاله لظهر نبوغهم وعلا اسمهم وآمن الناس بتفوقهم ، والناس كالكنوز المدفونة ، أحياناً يقضى عليها بالدفن الأبدي ، وأحياناً يعثر عليها فتكون مصدر ثراء . وفي عصر الشيخ محمد عبده إلى عصرنا لم تسعفنا نظم التربية وحالة البلاد الاجتماعية لتستكشف الأحجار الكريمة ، بل هي في أغلب الأحيان تعمل على دفنها في الرمال .

لا تعجبن من هالك كيف ثوى

بل فاعجبن من سالم كيف نجـــا

هذا محمد عبده ينشأ في قرية من قرى الريف كما ينشأ ابن كل فلاح في ذلك العصر ، فإذا كان لأبيه بعض اليسر وبعض الوجاهة وبعض الدين فدرّ ابنه في الكتّاب ، ثم بعث به إلى الأزهر أو إلى معهد ديني ، وكذلك فعل أبوه فأرسله إلى الجامع الأحمدي بطنطا القريب من بلده وليجوّد القرآن بعد أن حفظه ثم ليتعلم العلم . فأما تجويد القرآن فأمر ميسور ، يستمع ما تيسر فيأخذه الشيخ بضبط مخارج الحروف ومقاييس المد والغنة والإدغام وما إلى ذلك . وأما العلوم التي يدرسها فطرقها في منتهى العقم — على المبتدىء أن يقرأ على شيخ كتاباً في الفقه وكتاباً في النحو ، وأمر الفقه محتمل ، فهو يبدأ يعلمه في دقة كيف يتوضأ وكيف يصلي ، وهي أمور مارسها في حياته العملية ، فمن السهل التدقيق فيها ما دام الأساس معروفاً . أما النحو فهو الطامة الكبرى ، فهو لا يعلم كما نعلمه نحن اليوم ، فنبدأ بأن الكلمة اسم وفعل وحرف ، ونأخذ في مميزات كل منها . إنما كان يستمع كما في كتاب « الكفراوي على الأجرومية » وأول درس فيه .

[« بسم الله الرحمن الرحيم : الباء حرف جر واسم مجرور بالباء ، وعلامة جره كسرة ظاهرة في آخره ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره أؤلف ، وأؤلف فعل مضارع مرفوع لتجرده من الناصب والجازم والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره أنا ، هذا إن جعلت الباء أصلية وإن جعلتها زائدة فلا تحتاج إلى متعلق تتعلق به ، وتقول

فى الإعراب حينئذ : الباء حرف جر زائد واسم مبتدأ مرفوع بالابتداء، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والخبر محذوف تقديره اسم الله مبدوء به »] الخ .

باسم الله ما شاء الله ! هذا أول درس لمن لم يعرف فى النحو شيئاً ، فلو أن متكلما تكلم بالسريانية لكان أهون ، وكيف يستسيغ هذا وهو لم يسمع قبل إعرابا ولا رفعاً ولا نصباً ولا جرا ولم يفهم لها معنى ، ومثل هذا مثل كنا نتضاحك عليه وكان أعجوبة الأعاجيب وهو أن مدرساً فى مسجد سيدنا الحسين كان يعظ النساء اسمه الشيخ يوسف ، كان يجلس ويتحلق حوله عوام النساء للتبرك فيقرأ عليهن حديثاً من الأحاديث النبوية ويأخذ فى شرحه ، ولكنه ينسى أنه يدرس لنساء أميات جاهلات ، أو لا يستطيع ذوقه أن يدرك مقتضى الحال وما يصح أن يقال وما لا يقال ، فيتساءل فى أثناء شرحه : « لم حذف المسند إليه » ، فيكون الكلام كتلاوة اللاتينية فى الكنائس لمن لم يعرف كلمة لاتينية ، أو خطبة الجمعة بالعربية على أتراك لم يعرفوا شيئاً من العربية

كذلك كان تعليم النحو فى الأزهر والجامع الأحمدى للمبتدئين . فلو اعلمت البيداجوجيا لطمة مميتة لم تجد شراً من هذه اللطمة . ورحم الله الشيخ الكفراوى ، فلو علم ماذا يجنى على المتعلمين كتابه ما خط منه حرفاً .

كانت سن « محمد عبده » إذ ذاك خمس عشرة سنة ، واستمر على هذا عاما ونصف عام يحاول أن يفهم فلا يفهم ، وكيف يفهم الوضع المقلوب على أنه وضع صحيح ؟ الجمهرة العظمى من المتعلمين على هذا النحو يملون ويسأمون وينقطعون من الدراسة ، وبعضهم كانوا يخدعون أنفسهم فيزعمون فيما لا يفهمون أنهم يفهمون . وتجلت فى صاحبنا سجاياه الثلاث فى هذا الموقف ، فهو ذكى إذ فرق بين ما يفهم وما لا يفهم ، وهو معتد بنفسه إذ كبر على الاستمرار على هذه الحال وأبى أن يرضى بهذا الهوان ،

واختزن هذا الدرس فى نفسه فتجلى فيما بعد فى حمله عب ، إصلاح الأزهر والعطف على أهله .

حاول أن يتجه إلى الزراعة فيكون فلاحاً كسائر أهله ، وصمم على ألا يتعلم ، وصمم أبوه على أن يتعلم ، واصطدمت الإرادتان ، فلما أكرهه أبوه هرب إلى بلدة فيها بعض أقاربه ، وشاء القدر أن يلتقى بشيخ صوفى ، هو الشيخ درويش خضر خال أبيه ، فينقلب محمد عبده كأنه شخص آخر ، حتى كأن عصا سحرية مسته ، وهنا يتجلى فعل المصادفات فى حياة العظماء ، فلولا هرب محمد عبده إلى هذه البلدة وملاقاته لهذا الشيخ لكان محمد عبده المشهور هو محمد عبده المغمور الذى لا يعرفه أحد إلا بلده ، ولكان شأنه شأن أى فلاح فى أى بلدة لا يسجل اسمه إلا فى دفتر المواليد ودفتر الوفيات .

وشخصية الشيخ درويش من الشخصيات اللطيفة التى تظهر فى بعض الأوساط المصرية على قلة ، وقد شاهدت منها فى حياتى شخصين ، هى شخصية متصوفة تمتاز بنور البصيرة أكثر مما تمتاز بسعة العلم ، تعرف الدنيا وشؤونها وتزهد فى قيمتها عن علم لا من غباء ، وخير عبادتها ذكر الله بالقلب لا باللسان ولا بالأوراد ، تعمل فى الدنيا كما يعمل أهلها ولكن فى رفق وتسامح وميل إلى الخير ، ترى الدنيا جسراً إلى الآخرة ، فلابد أن يعبر الجسر فى أمان ، يألمون لغفلة الناس وطغيان المادة عليهم وتورطهم فى المفاسد ، ويشفقون عليهم ويعملون ما أمكنهم لإنقاذهم فى هوادة ، يشع النور فى قلوبهم على وجوههم ، فيكون منظرهم وتصرفهم وحركاتهم وسكناتهم منظراً جذاباً يستدعى الحب والإعجاب .

اتصل به محمد عبده فكان شخصاً آخر . ولم يكن ذلك من عصا سحرية ولا معجزة سماوية ، وإنما هى ظاهرة طبيعية . كان عند محمد عبده عقدة نفسية كونها شرح الكفراوى على الأجرومية ، فاعتقد أنه لا يفهم ولن يفهم ، فلما

فائدة الاستمرار ؟ وهنا يذكرنا بعقدة مثلها حدثت لعلي مبارك عند تعلمه للهندسة ، فقد صدم بقولهم المثلث (ا ب ح) فظن أن هذا اسم ثابت ، لهذا المثلث لا يصح أن يتغير ، كمن سمى بأحمد لا يصح أن يسمى بمحمد ، وتعقدت هذه المسألة في نفسه فمنعته من أن يفهم أي شيء حتى رزق بمدرس ذكي واضح أدرك العقدة فحلها ففتح الباب أمام علي مبارك وصار أولا بعد أن كان آخراً . كذلك حل الشيخ درويش عقدة محمد عبده بأن أعطاه كتابا سهلا في المواعظ والأخلاق ، وجعله يقرأ وأخذ الشيخ يشرح ، فإذا بالطالب يفهم ، وإذا العقدة تحل ، ويعتقد محمد عبده أن في الإمكان أن يفهم .

ودرس آخر علّمه له الشيخ ، وهو درس «القيم» فقد كان محمد عبده كعامة الناس يرون مظاهر الحياة من مال وجاه وزينة وتفاخر وتكاثر في أعلى القائمة ، وأن المسلم بنطقه بالشهادتين سيد الناس ولا بأس عما ارتكب ، فمصيره الجنة ، فجاء الشيخ ومحا له هذه القائمة وأثبت غيرها ، وجعل القائمة الجديدة مظاهرها العمل الصالح بدل المال والجاه ، وأن اسم الإسلام لا يصح أن يكون غطاء ترتكب فيه الجرائم ، فالإسلام عقيدة وعمل لا ألفاظ سيالة تنتهي بمجرد النطق . وأن المسلمين محاسبون على أعمالهم ، وأن أكثر من يسمون مسلمين لا يصح أن يدخلوا في عداد المسلمين ، وأن التعاليم الفاسدة ليست من الإسلام في شيء ، وأن أساس الإسلام وأساس العقيدة الصحيحة هو القرآن والقرآن وحده ، وأن خير عبادة هو تفهم معانيه .

وكان الشيخ درويش متأثراً بتعاليم السنوسية التي تتفق مع الوهابية في الدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام الأول في بساطته الأولى وتنقيته من البدع ، وذلك على أثر رحلته إلى طرابلس الغرب واجتماعه بأتباع السنوسي هناك .

في سبعة أيام تغير محمد عبده الذي يريد الزراعة والتفوق على الشبان في ألعاب الفروسية إلى محمد عبده الذي يريد الصفاء الروحي والتعلم ليستطيع فهم القرآن وإعداد نفسه ليهتدي ثم يهدي .

فإلى الجامع الأحمدي إرضاءً لوالدي وإرضاءً لنفسي فقد اتفقت الإرادتان .

وبدأ بدرس النحو فإذا هو يفهم لأن العقدة النفسية قد زالت ، ولأنه بدأ يقرأ الكتاب الثاني في النحو وهو شرح الشيخ خالد على الأجرومية ، وسوء الوضع جعل الكتاب الثاني أسهل من الأول ، ولأنه قد رزق بشيخ خير من الأول استطاع أن يوضح له ما غمض ويبين ما أبهم .

وإذا بالشيخ محمد عبده يلتف حوله بعض زملائه ليشرح لهم الدرس قبل بدء الأستاذ ، فتعود إليه ثقته بنفسه ويسير على الدرب .

كانت هذه الأيام السبعة أيام حضانة تكون فيها كل ما اتجه إليه بعد من إصلاح . فاهتمامه بعد بتفسير القرآن ، وجعله أساساً للدعوة الإصلاحية ، وتنقيته للعقيدة الإسلامية مما أصابها من دخيل ، وتلون حياته بلون صوفي راق ، وزهادته في المال ، وغيرته الشديدة على إصلاح المسلمين ، كلها غرست في هذه الأيام السبعة ، ثم نمت وازدهرت وتعدلت وفقاً للظروف والأحوال .

يتبع — أحمد أمين

أنت الأمير وكلهم ....

أذكر أنى ذهبت يوماً من الأيام منذ سنوات إلى مسرح « كشكش بك » لكى أروح من نفسى فرأيت قطعة من تلك القطع التمثيلية (الخفيفة الظل) التى يمتاز بها مسرح « الريحانى » وفيها رجل شاعر يمدح رجلا آخر فى عبارة ظريفة عامية فيقول له : « أنت الأمير وكلهم زكش » الخ . وسمعت قرقعة الضحكات تتردد فى جوانب المكان ، فانطلقت كذلك أضحك من أعماق قلبي وأحسست بأنى لم أدفع نقودى عبثا . ولكنى عند ما خرجت من الملهى عاودنى الفكر كما هى العادة عندى بعد كل ساعة أقضيها فى سرور . وكانت الكلمة التى يتردد صداها فى خيالى هى مطلع القصيدة التى مدح بها الشاعر صاحبه قائلا : « أنت الأمير وكلهم زكش » . جعلت أعيدها وأجيلها وأبحث عن السر الذى جعلها تعلق بذهنى مع أنها كلة عابرة صغيرة فى تمثيلية فكاهية لا يقصد منها سوى السرور . وأخيراً وجدت أنى قد بنيت حول هذه الكلمة فلسفة متشعبة النواحى ؛ فهذه الكلمة القصيرة تمثل فى إيجاز طريف ناحية من عاداتنا الأصيلة الموروثة من ثقافة أجيال طويلة . كان أجداد الكثير منا منذ عصور طويلة يضربون فى بلاد صحراوية ويعيشون فيها على الخيرات القليلة التى وهبها الله لأرضهم الجدبة . فكانوا بالطبع يتنافسون على تلك الخيرات القليلة تنافساً شديداً ويتقاتلون كلما وقفت جماعة منهم إزاء جماعة أخرى . كانت كل قبيلة تتماسك فيما بينها لكى تستطيع أن تتعاون فى حرب القبيلة التى تجاورها ، حتى صارت الحرب مهنة لهم كما يتخذ الناس فى البلاد الأخرى مهناً يعيشون منها . وقد كان هذا القتال المستمر سبباً فى أنهم نظروا إلى الحياة نظرة صادقة لم تضللهم فيها الزخارف الباطلة ، ولهذا امتازوا بفضائل كثيرة لا محل لحصرها هنا . فقد كان أجدادنا العرب بغير شك أشجع الناس فى القتال ، وكانت هذه الشجاعة تحملهم بالطبع على احتقار كل مادة هذه الدنيا ، فكانوا لا يضنون بالمال إذا هو أكسبهم المجد ، وكانوا من أرهف الشعوب إحساساً يطربون لكل جميل سواء فى الطبيعة أو فى المثل العليا . وهذا شأن الشعوب التى لا تهتم بمادة التراب وتصرف كل همها إلى ملاقاة الإنسان بالإنسان ؛ فأجدادنا العرب كانوا بغير شك من الناحية المعنوية من أقرب الشعوب إلى الكمال الإنسانى ، ولكنهم إلى جانب هذه الفضائل الكثيرة أصيبوا بعادة سيئة أو بعادتين نشير إليهما فى اختصار .

كانت القبيلة فى حاجة إلى زعيم لأنها محتاجة إلى أن تكون كلها موحدة فى حروبها التى لا غنى لها عنها . وكان هذا الرئيس مالكا مطلق السلطة فى قبيلته ، فإذا غضب غضبت القبيلة ، وإذا رضى رضيت ، وإذا ضحك ضحكت ، وإذا بكى بكت ، وإذا أخطأ قالوا له نحن معك ، وإذا أصاب قالوا له : « الحمد لك ! » ، وإذا خالفه أحد فى رأى قالوا لزعيمهم : « أنت الأمير وكلهم زكش » . وهذا شىء كله جميل جداً بالطبع عند ما كانت القبيلة تعيش هناك فى الصحراء . ولكننا معشر أبناء هذه القبائل نعيش الآن فى بلاد غير صحراوية وقد نسينا أسماء القبائل التى انحدرنا من صلبها . ومع ذلك فقد احتفظنا بالطبع البدوى الأول . فإذا كان عندنا زعيم عاملناه كما كان أجدادنا يعاملون زعماءهم فى الصحراء ، فإذا غضب غضبنا ، وإذا رضى رضينا ، وإذا ضحك ضحكنا ، وإذا بكى بكينا ، وإذا أخطأ قلنا له نحن معك ، وإذا أصاب قلنا له : « الحمد لك ! » ، وإذا خالفه أحد فى رأى قلنا له (أنت الأمير وكلهم زكش) . هذه هى العادة الأولى . وأما العادة الثانية فهى نتيجة للأولى .

كانت القبيلة فى حاجة إلى (دعاية) أو كما يسمونها هذه الأيام (بروباجندا) ، ولكن دعايتهم كانت من نوع خاص يناسب بلادهم الصحراوية البدوية . لم يكن عندهم

صحف ولا سينما ولا راديو ولا مطابع ولا كتب ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً من أساليب البروباجندا الحديثة التي اخترعها الإنسان في العصور الحديثة في الأمم المتقدمة . فكانت عدتهم الوحيدة في الدعاية هي الشعر الذي يسهل حفظه على الناس ويسرعون إلى روايته والتغني به . فكانت الألسنة تتناقله وتذيعه في أطراف البلاد وبذلك يتحقق غرض الدعاية المقصود . ولهذا كان الشاعر شخصاً عزيزاً عندهم يتقرب إليه الجميع لأنه يقوم إلى جانب الفرسان ، فيحارب بشعره كما يحاربون بسيوفهم . وصارت وظيفة أكثر الشعراء أن يمدحوا قبائلهم ويذموا القبائل الأخرى وملخص هذا أنهم كانوا يقولون : « قبيلتنا هي القبيلة وأما القبائل الأخرى فكلها لا تستحق شيئاً » .

وكانت القبيلة الواحدة في بعض الأحيان تضم رجلين عظيمين من الفرسان الشجعان فكل واحد منهم يطمع أن يكون هو الشيخ المطاع . ولا شك في أن الأمر كان ينتهي بينهما دائماً بأن يقسما القبيلة إلى قسمين وكل قسم يحارب الآخر حتى يهزم أقواهما الأضعف ، فيهرب الضعيف في وديان الصحراء ، ويترك المنتصر يتغنى بنصره في شعر صريح ظريف . وكان للشعراء نصيب كبير في مثل هذه المنافسات ، فكل من الفارسين المتنافسين كان يحرص على أن يكون له شاعر يقول له : « أنت الأمير وكلهم ركس » . ولا شك في أن كلا من الشاعرين كان يحاول أن يبهر الناس ويجعلهم يصدقون أن أميره هو حقيقة الأمير الجدير بالسيادة ، وأن منافسه ما هو إلا المثل الأدنى في الأخلاق ، وأنه لا يصلح مطلقاً للسيادة . وكان الشاعر لا يتردد في أن يخدم قضيته بكل حيلة ممكنة ، فكان لا يبالي إذا كان قوله صادقاً أو كاذباً مادام قوله عذباً جميلا يحفظه الناس ويرددونه ويتغنون به وينقلونه على ألسنة الرواة إلى أطراف الصحراء . ومن هنا نشأت الخرافة التي تزعم أن أعذب الشعر أكذبه ، وأصبح الشعر العربي يحتوي على أجمل القطع المعروفة في الذم والمدح في العالم كله بغير نزاع . وأظن أن شعر المدح والذم هو أكبر أبواب الأدب العربي .

وقد كان هذا مفهوماً عند ما كان أجدادنا يعيشون في وديان الصحراء ، وينقسمون إلى قبائل وبطون وأفخاذ . ولكنا نحن أبناء هذه القبائل نعيش في هذه الأيام في بلاد أخرى ليست في الصحراء ، وبلادنا تنقسم إلى دول منظمة وإلى مديريات ومراكز ، ومصالحنا تتحقق إذا استطعنا أن نبحث عنها بالعقل والحجة . فلا محل عندنا للتعصب ولا لالتماس الحيل والوسائل لنصر القضايا الباطلة .

ومع هذا فقد بقيت عندنا عادة المدح والذم كما كانت عند أجدادنا ، ولا زلنا إلى اليوم حريصين على أن نسمع المدح والذم بالأسلوب القديم الذي يمكن تلخيصه في كلمة واحدة وهي « أنت الأمير وكلهم ركس » . وقد بالغنا في هذا الاتجاه حتى اخترعنا صنوفاً جديدة من التكريم ، فإذا ربح صديق في (لوتريه) أقمنا له حفل تكريم ، وإذا أحيل رجل إلى المعاش أقمنا له حفل تكريم ، وإذا عين رجل غيره أقمنا له حفل تكريم . والعادة عندنا في مثل هذه الحالات أن نجلس زمراً في حلقات بهيجة زاهية بالأنوار والأزهار فننعم فيها حيناً بأطايب الأطعمة من سنبوذج وفالوذج ولوزينج وخشكانج ، ونتلذذ بالأشربة المختلفة من ساخنة ومثلجة وفائرة ، وقصدنا من كل ذلك أن نجعل نفوسنا في حالة (انبساط) ، ونستعد لسماع أقوال الشعراء وغير الشعراء ليرددوا معنى واحداً في مدح الرجل الذي نكرمه ، وذلك المعنى هو « أنت الأمير وكلهم ركس » .

ولست أدري ماذا كنا نفعل لو كان المستر (تشرشل) أو المستر (ترومان) أو المرحوم المستر (روزفلت) من المصريين . وأستطيع أن أقسم أن هؤلاء لو كان أحدهم من المصريين لقام ألوف وألوف من الشعراء فألقوا عشرات الألوف من القصائد يقولون له فيها : « أنت الأمير

حكم بالاعدام

لم يصدر هذا الحكم من إحدى المحاكم المصرية . ولم يصدر ضد أحد الجناة الخطرين . ولكنه صدر من محكمة من محاكم الروسيا في زمان غير هذا الزمان . وصدر ضد نابغة عبقري قد ليت الزمان يجود بمثله في أية أمة ولو في كل قرن من الزمان . ذلك هو « فيدور دوستوئفسكي » الذي عاصر تولستوى العظيم . والذي قال عنه تولستوى عندما علم بوفاته في سنة ١٨٨١ :

« لم أكن رأيت دوستوئفسكي قط . ولم تنشأ بيني وبينه أية صلة مباشرة . ومع ذلك فإني لم أكد أسمع بموته حتى أحسست بأني فقدت بفقده أقرب الناس مني ، وأعزهم علي ، وألزمهم لنفسي » !

* * *

ولد دوستوئفسكي في مستوصف الفقراء موسكو سنة ١٨٢١ . وفي سنة ١٨٤٤ أخرج قصته الأولى « الفقراء » . وفي سنة ١٨٤٩ قبض عليه بتهمة الانتماء إلى جمعية « اشتراكية » وحكم عليه بالاعدام .. !

لقد كتب دستوئفسكي قصة تنفيذ هذا الحكم بخط يده . وها هي مذكرته من ذلك أمامي فلا محل لأن أرويها عنه ..

« لقد لبثت أنتظر في سجني . ولم يتل الحكم على مسمعي إلا في الثالث والعشرين من شهر فبراير من السنة التالية . وكان هذا الحكم يقضي بإعدامي رمياً بالرصاص !

« لم ينص الحكم على الموعد الذي تحدد لتنفيذه . ولكن لم تنقض على ساعة واحدة حتى كان السجان على بابي يطلب إليّ أن أرتدي ثيابي . فخرجت إلى فناء السجن يحف بي حراس أشداء . وفي وسط المكان رأيت تسعة عشر زميلا من زملائي ينتظرون انضمامي إلى صفهم وكانت الساعة السابعة صباحاً ولم يكد يلتئم جمعنا حتى أودعوا في عربات كل أربعة منا في عربة يحرسها جندي مسلح ، فسأل سائل منا : « إلى أي مكان نحن مسوقون ؟ » ولكن الجندي أجابه في حدة : ليس لي أن أرد عليك . وسارت بنا العربات ونحن لا نكاد نرى ما وراء نوافذها لأن الثلج المتساقط عليها كان يحجب عنا ما خلفها .

« وأخيراً بلغنا ميدان سميونوفسكي وشاهدنا في وسطه منصة عليها وضع فارتقينا السلم واوقفنا الحراس تجاه الوضع في صفين طويلين . وبلغ من شدة الرقابة المفروضة علينا

وكلهم ركس » . ولكنا نحمد الله على أن المستر (تشرشل) وزملاءه يعيشون في أمم أخرى لم تقل لأحد منهم سوى كلمة واحدة : (لقد أديت واجبك) .

إنني أعتقد أنه قد آن لنا أن نراجع أنفسنا في هذه التقاليد الطريفة التي كانت تليق لأجدادنا في العصور الغابرة ، وخير لنا أن نسرع في إيجاد تقاليد أخرى تناسب حياتنا الجديدة . فقد قاسينا الشيء الكثير من غرور الذين نكرمهم ، لأنهم يصدقون ما نقول في مجاملتهم ، مع أننا لا نريد سوى المجاملة خضوعاً لتقاليدنا القديمة . وهم إذا صدقوا هذه المجاملة حملهم الغرور على الكبرياء . وقد يبلغ بهم الأمر إلى الإفراط في الثقة بنفوسهم فيصبحون من الطغاة . والمسئول في طغيان الطغاة إنما هم الذين يملأون أدمغتهم غروراً ، ويجعلون الناس يطأطئون لهم الرؤوس خضوعاً .

إن الضحايا هي التي علمت المعتدين الاعتداء . ولو عرف الناس أقدارهم الإنسانية لما استطاع مغرور أن يتكبر أو يطغى . ولله در كشكش بك إذ أوجز وصف المسألة في كلمة واحدة .

محمد فريد أبو حديد

أننا لم يكن أحدنا يستطيع أن يسر إلى جاره أكثر من كلة واحدة أو كلمتين .

« وبرز فوق المنصة (المأمور) الذي تلا علينا صيغة الحكم ، فإذا هو يقضي بأن يكون تنفيذه فورا .

« وقد رددت تلك الكلمات القاتلة عشرين مرة : الإعدام رمياً بالرصاص ! حتى لقد ترك ترديدها في ذهني أثراً غائراً لا يمكن أن تمحوه يد الأيام . ولقد ظللت بعد اليوم المشئوم سنين عددا وأنا أهب من نومي مذعورا في وسط الليل على صوت هاتف ما زال يتلو على نص تلك الكلمات . على أن أمرا آخر لا يزال حاضرا في ذهني من صور تلك اللحظة الرهيبة ، ذلك أن الضابط ما كاد يفرغ من تلاوة الحكم حتى طوى ورقة ودسها في جيبه ثم نزل من المنصة ، وفي تلك اللحظة نفذ شعاع من ضياء الشمس خلال السحب الملبدة في السماء ، وهجس هاجس في نفسي أن ذلك مستحيل وأنهم لا يمكن أن يكونوا جادين في تنفيذ حكم الإعدام فينا ، وهمست بخلجات نفسي هذه في أذن أقرب زملائي إلي . ولكنه بدلا من أن يجيب على قولي أشار بأصبعه إلى صف من التوابيت التي أعدت لدفننا وقد رصوها إلى جانب المنصة وبسطوا فوقها قطعة واسعة من القماش .

« عند ذلك تبخرت كل آمالي في طرفة عين ، وتوقعت أنه لن تنقضي على لحظات قليلة إلا وتكون النار قد نسفت رأسي نسفاً .

« ولشد ما أفزعني ذلك ، غير أني تجلدت واحتفظت بسري في قرارة نفسي ، وجعلت أتحدث إلى جاري في مختلف الشئون ، ولقد أنبأني هو بعد ذلك بأني كنت من رابطة الجأش بحيث لم يبد على أي أثر من آثار الخوف ، حتى لوني لم يكد يمتقع !

« وعلى حين فجأة ظهر فوق المنصة قسيس وأخذ يسأل المحكوم عليهم إن كان بينهم من يرغب في الاعتراف بخطاياه ، فلم يستجب لدعوته إلا واحد منا ، ولما بسط القسيس يده بالصليب لثمناه جميعاً بشفاهنا .

« وفي خلال ذلك كان ثلاثة من زعماء الرفاق قد شد وثاقهم على اعتبار أنهم أكثر الجماعة إثما . وغطيت رؤوسهم بما يشبه الأكياس ووقف الجنود تجاههم ينتظرون الأمر بإطلاق النار .

« وأيقنت أن كل ما يمكن أن يكون قد بقي لي من هذه الحياة هو دقائق معدودات . وما كان أروع تلك الدقائق ! لقد علق بصري بكنيسة كانت أمامي فجعلت أحدق في قبتها الذهبية وقد انعكس عليها ذلك الشعاع الوضاء ، وخامرني إحساس بأن هذا الضياء إنما ينبعث من ذلك العالم الذي سأدخله بعد هذه اللحظات القصار .

« وعند ذلك أحسست بموجة هرج تغمر المكان ، وكان في بصري قصر يحول دون أن أتبين مايدور حولي ، ولكني أحسست بأن ما يجري لابد أن يكون أمراً غير عادي . وأخيرا استطعت أن أتبين ضابطاً على صهوة جواد ينهب به الأرض نهباً وهو يقبل نحونا وفي يده منديل أبيض يلوح به في الفضاء . لقد كان رسول الامبراطور إلينا ليحمل إلى جلادينا أمر عفوه . ولقد عرفنا فيما بعد أن حكم الإعدام لم يكن إلا وسيلة لتهديدنا وإلقاء درس علينا لا ننساه . ولكن هذا الدرس القاسي كانت له نتائجه الخطيرة الخالدة في حياة كثير منا . فإن جريجوريف لما حل وثاقه كان قد طار صوابه ، وأدركته لوثة الجنون وهو في لجة من الفزع عندما كان يترقب صوت ذلك الطلق الذي سيودي بحياته . ولقد عاش المسكين بقية عمره في بحران هذا الخبل الذي أصابه . ولم يكد ينجو واحد منا من أثر تلك الصدمة العصبية التي كابدناها في ذلك الموقف المشهود .

« وفوق ذلك فإننا قبل أن نصعد إلى المنصة كان الحراس قد نزعوا عنا ثيابنا ، وبذلك قضينا نحو عشرين دقيقة وليس على أجسادنا إلا قميص واحد كان علينا أن نتقي به بردا قارساً وصلت درجة الحرارة فيه إلى عشرين

الخلق القومي

أحقيقة هو أم أسطورة

من الآراء الغالبة والاعتقادات الشائعة أن لكل أمة من الأمم خلقاً خاصاً يميزها عن غيرها من الأمم ، وأن هذا الخلق يثبت على الزمن ويغالب الأحداث والمحن ، وتتسم به أفكارها وأعمالها ، ويبدو أثره في كل جانب من جوانب حياتها ، وكل ركن من أركان حضارتها ، وهذا الاعتقاد عنصر قوى من عناصر تصوراتها القومية ، وعامل هام في تكوين مثلها الوطنية التي تدين بها وتستوحيها حين المناضلة عن كيانها ، والمفاخرة بقوميتها ، والاعتزاز بشخصيتها ، وهو يقتضي تمجيد الأمم لمزاياها وخصائصها وإعجابها بتقاليدها وعاداتها ، والتعالي على غيرها من الأمم وانتقاصها .

وأكثر الناس وبينهم جمهرة كبيرة من المفكرين وذوى الرأى يقبلون هذه الفكرة قبولا مطلقاً ، ويعتبرونها فرضاً لا سبيل إلى الشك في صحته ، وأنها من الوضوح كالنهار في قول المتنبي :

وليس يصح في الأفهام شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل

على أن مجافاة التعصب وتحرى الاعتدال لم يذهب من الدنيا ، فإن هناك فريقاً من المفكرين لايتطوحون كل هذا التطوح ، ويحاولون أن يخضعوا أمثال هذا الرأى للبحث الخالص والنظر العلمي المجرد ، وينبذون منها ما كان يتبين المغالاة مسرفاً في الادعاء ، ولكنهم مع ذلك يسلمون بأن وجود الخلق القومي مما لا يمكن نكرانه والمماراة في وجوده ، ولو أنهم قد يعجزون عن اكتناه حقيقته وكشف سره .

وقد انتهى المؤرخ الألماني المعروف فون رانك إلى هذه النتيجة وهي « إن الروح القومية يحس بها ، ولكن لا يمكن فهمها ، فهي هواء روحي يغشى كل شيء » وهو كما يرى القارئ يتحاشى التورط في التفاصيل وتناول الدقائق واستيعاب الحقائق ، ولكن مؤرخين كثيرين غيره لم يلتزموا مثل هذا الاحتياط .

ومعظم الآراء التي من هذا القبيل تقوم على إرجاع كل أمة من الأمم إلى سلالة من السلالات البشرية ، والقول بأنها تستمد ملامحها النفسية وصفاتها العقلية من ملامح هذه السلالات وصفاتها .

وقد لحظ الرحالة القدماء والسياسيون والكتاب اختلاف القوانين وتباين العادات ، وتناقض الأمزجة والمشارب بين مختلف الأقوام ، وأجالوا الفكر في تعرف أسباب ذلك وتعليل حدوثه . والمعروف عن مفكرى العصور الوسطى أنهم لم يحفلوا كثيراً بهذا التنوع ، ولم يعيروه كبير عناية ، ولكن المفكرين الإنسانيين جددوا الاهتمام به ، وأعادوا النظر في تعليل القدماء لذلك ، ومنذ ذلك الحين كثرت الكتب عن الخلق القومي . وبعض هذه الكتب يكتفي بوصف الخصائص القومية وبعضها يحاول التعليل وتحرى الأسباب والأصول . وقديماً كانوا يعللون الخصائص القومية بتأثير القوى الطبيعية مثل النجوم والجو أو التربة في الدم والإفرازات الداخلية وأمزجة الناس ، ومصدر معظم النظريات الخاصة بتأثير الجو هو الكتاب

درجة تحت الصفر . ولما ارتد بنا حراسنا إلى السجن بعد ذلك الصباح الأغبر كانت قد تجمدت آذان بعض الرفاق وسقطت أطراف بعض . وأصيب واحد منا بالتهاب رئوى ما لبث أن تطور إلى سل .

« أما حكم الإعدام فكان قد أبدل إلى ثماني سنوات مع الأشغال الشاقة نقضيها في سجون سيبريا ، ثم تأتى من بعدها فترة أخرى نرزح فيها تحت نير النفي والتشريد ! » .

* * *

هذا ما كتبه دوستويفسكي وصفاً لتلك اللحظات الخالدة ، ورأيت أن أمهد به لدراسة بعض النواحي الفنية التي تتجلى في كتابات هذا الفنان الموهوب . فإلى لقاء قريب إن شاء الله .

محسن جمول

المنسوب إلى أبقراط . أما الرأى القائل بتأثير النجوم فقد تكفل ببيانه بطليموس وجالينوس . على أن بعض مفكرى اليونان أدركوا أن تأثير الطبيعة فى الدم أقل أثراً فى تكوين عقلية الأقوام من العوامل الجغرافية ، والعوامل الجغرافية تؤثر فى الأحوال الاجتماعية ، والأحوال الاجتماعية فى دورها تؤثر فى صوغ عقلية الأمم وتوجيهها . والنظرية الأولى القائلة بتأثير الطبيعة فى الدم تعلل خلق سكان الصحراء بفعل أشعة الشمس المباشر . أما النظرية الثانية القائلة بتأثير العوامل الجغرافية فى الأحوال الاجتماعية فإنهـا توضح أن الصحراء تستلزم الحياة البدوية المتنقلة ، وهذه الحياة من شأنها أن تطبع الخلق القومى بطابعها الخاص . وقد لوحظ بعد ذلك أن الأمر أكثر تعقيداً مما يبدو ، وأن القوى التاريخ الفعالة مثل الحروب والهجرة والتجارة والاختلافات الاجتماعية والكشوف والمخترعات والثورات والاحتكاكات الثقافية ، وما إلى ذلك من العوامل ، أثراً فى خلق سمات الحضارة وإقامة بنائها ؛ وهذه العوامل التاريخية إلى حد ما من مستحدثات الطبيعة . ولكنه أصبح واضحاً بوجه عام أن الطبيعة عامل نسبى ، وأن تأثير الطبيعة يختلف باختلاف الأقوام والظروف والأحوال ، وهو يتوقف على مجموعة من العوامل العديدة ، وأن الشخصية الفردية أو الاجتماعية عامل بعيد الأثر فى هذه المنظومة من العوامل المؤثرة .

وفى الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر كانت مسألة تنوع العادات واختلاف النظم والقوانين وتعليلها من الموضوعات التى تداولها البحث وكثر فيها الخوض ، وكان لما كتبه بودان ومنتسكييه أعظم تأثير فى هـذا الصدد . وقد بسط بودان رأيه فى كتابه عن « المنهج التاريخى » ، وقد أشبع الحديث عن تأثير الجو فى أحد أجزاء هذا الكتاب ، وأضاف الكثير إلى ما قاله القدماء فى هذا الموضوع . أما منتسكييه فقد تناول هـذا الموضوع فى كتابه القيم المعروف عن « روح القوانين » وقد حاول منتسكييه فى هذا الكتاب أن يكشف روح القوانين وأن يفسرها ، وأن يقتفى أثر علاقتها بالعادات والمعتقدات ، وصور الحكم والأحوال الجوية ، وكتابه حافل بالملاحظات الهامة والآراء السديدة . على أنه قد بالغ فى تقدير قوة الجو وتأثيره . وقد كان هيوم وهردر فى طليعة المفكرين الذين هونوا من فكرة أن تأثير الجو عظيم شامل . وقد بالغ كتاب القرن الثامن عشر بوجه عام فى تقدير أثر الجو ، وجاء فى آثارهم أنصار مذهب الرومانسيزم فأكدوا فكرة « التطور التاريخى العضوى » ونوهوا بالروح القومية التى يمكن أن تقتفى آثارها خلال تاريخ أى أمة من الأمم . وحاول كثير من المؤرخين وبخاصة فى ألمانيا وفرنسا أن يثبتوا أن تاريخ أممهم يؤكد ثبات الخلق القومى وتأبيه على التغيير ، وكانوا يعزون كل مظاهر نجاح الأمة إلى عبقريتها القومية . أما ما كانت تخفق فيه فكان يعزى إلى التأثير الأجنبى الغريب عن خلقها . وهذا الرأى لم يثبت طويلا للبحث ، ولذا أعرض عنه الباحثون .

وقد أدى تقدم المعلومات الجغرافية والتاريخية إلى بحث هذه المسائل بحثاً انتقادياً علمياً ، وتناول مشكلة الخلق القومى بطريقة منظمة ، وتسمى هذه البحوث « الجغرافيا الإنسانية » ، وقد عنى كثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلماء علم الإنسان وعلماء النفس بتوضيح السمات القومية ؛ وكان مما زيد قيمة هذه البحوث أنها لم تقتصر على تناول المسألة من ناحية عامة ، وإنما تناولت أحوال الأمم الخاصة ونظرت فى تقاليدها ومثلها العليا وميولها الفكرية ونزعاتها العقلية ، وقد أسفر النظر إلى المسألة من الناحية الجغرافية عن تعميمات عريضة مؤيدة بأمثلة مستمدة من حياة أمم مختلفة وحضارات متباينة . وقد أحدثت هذه الطريقة ، لأن دراسة البناء الاجتماعى لكل أمة من الأمم فى ضوء أحوالها الطبيعية وتطوراتها التاريخية والنظر إلى العقلية القومية باعتبارها نتاجاً للقوى الاجتماعية والتاريخية يجنبنا الكثير

من الأخطاء والأحكام العجلى . وقد كان الكتاب السابقون يبدءون بحثهم بفكرة غامضة عن الخلق القومي ، ويتحرون إظهار أثره في حياة الأمم وتاريخها . ولكن الباحثين الآن يعمدون إلى وصف النظم الشائعة عند أي أمة من الأمم ويحللون مظاهر حضارتها ، ويستخلصون بعد ذلك الخصائص العامة للأمم . على أن هذا الأسلوب نفسه لم يخل من إثارة بعض الشكوك الانتقادية ، فما يمكن أن تتسع فيه شقة الخلاف مسألة هل تسيطر الاتجاهات العامة التي يتكون منها ما يسمى بالخلق القومي في نواحي الحضارة المختلفة جميعها مثل الناحية الاقتصادية والناحية السياسية والناحية الأدبية والفنية ؟ فالوحدة والاتساق في الناحية الواحدة من نواحي الحضارة من الأمور التي قد يرتفع إليها الشك ، وقد يشك مثلا في وجود روح عامة للأدب الإنجليزي أو الفرنسي أو الألماني ، وفضلا عن ذلك فإن الحضارة القومية ليست تعبر تعبيراً خالصا عن الخلق القومي ، لأن كل أمة من الأمم قد استوردت من الخارج أجزاء هامة من حضارتها ، وفي بعض الأحيان فرضت على الأمم بعض النظم بطريق القسر والإرغام ؛ فقبائل الساكسون مثلا أرغمت إرغاما على الدخول في الديانة المسيحية بعد أن قاومت ذلك مقاومة عنيفة ، وهذه النظم قد أثرت بعد ذلك تأثيرها في حياتها . والدراسة المقارنة للأمم التي يتشابه مستواها في التطور الاجتماعي تظهر أنه ليس هناك سمة من السمات مقصورة على أمة من الأمم وتخلو منها عقلية الأمم الأخرى خلواً تاماً ، وأن الاختلافات إنما هي اختلافات في الزمن والدرجة والتركيب ؛ فبعض السمات قد تظهر مبكرة في حياة أمة من الأمم ، أو قد تظهر في شكل أوضح في إحدى الأمم ، أو قد تأتلف بصفات أخرى بنسب متفاوتة في أمم أخرى .

والحجج المناهضة لفكرة الخلق القومي أهمها وجود تنوعات كثيرة وفروق ملحوظة في ملامح الأفراد الخلقية وسماتهم الثقافية ، وذلك في كل أمة من الأمم . ثم التغيرات الجوهرية التي تتناول الآراء السابق تكوينها عن الخلق القومي وثباته وتأبيه على التغير ، وحدوث هذه التغيرات ينقض فكرة امتياز الخلق القومي وبقائه على حالة واحدة ، ويهدم الفكرة القائلة إن الاختلاف في الخصائص العقلية بين الأمم اختلاف عميق ولا يمكن أن يزول أو أن يتغير ؛ وبالرغم من وضوح هذه الملاحظات والانتقادات فإن فكرة الخلق القومي لا تزال مسيطرة على العقول ، ويرجح أن يكون سبب ذلك تلك الفكرة الخاطئة عن «الخلق» بوجه عام ، فالخلق الفردي نفسه ليس ثابتاً ثباتاً مطلقاً ، ولا مطرداً اطراداً فوق منال التغيير ، وهو يشمل مجموعة من النوازع والميول المحتربة المتناقضة القابلة للتغيير إلى حد ما ، ويمكن أن نفهم الخلق على أنه تلك المجموعة من القوى المتجهة إلى نوع خاص من الوحدة والاتساق والثبات تحت تأثير الميول الموروثة والإرادة المركزية وضغط الظروف الخارجية . وواضح أن الفرد الواحد في العادة يبدو أكثر تماسكا وتوحداً وثباتاً من الجماعة ، والسبب في ذلك أن إرادة الفرد قوة أكثر تركزاً مما يسمى « الإرادة المجتمعة » ، وأن الجماعة تحوي عناصر أكثر تنوعاً من عقل الفرد ، وأن الجماعة أطول عمراً من الفرد ، فهي من ثم أكثر قابلية للتطور والتغير وتعديل أحوالها ؛ فالحديث عن الخلق القومي من قبيل المجاز والتشبيه ، وربما كان استعمال كلمة « التقاليد القومية » أنأى للغموض وأقرب إلى الوضوح من استعمال كلمة « الخلق القومي » . على أن عقلية الأمم لا تتأثر بالتقاليد وحدها ، وإنما تتأثر كذلك إلى حد كبير بالبناء الاجتماعي والشخصيات القوية الممتازة ، وربما كانت « العقلية القومية » التي تكونها مجموعة التقاليد والمصالح المشتركة والمثل العليا الدائمة هي الاصطلاح المناسب الواضح الدلالة للمفهوم المنشأ .

علي أدهم

أساليب التأليف العلمي في الإسلام :

٢ - النهج عند المقدسي

اتباع النهج الواضح في التأليف ، من أبرز الأساليب العلمية التي تضمن جودة البحث ودقته ، وبلوغ الهدف بيُسْر . لأن السير على خطة واحدة ظاهرة المعالم ، يجعل الموضوع متماسكاً ، تُسلِمهُ المقدمات ، بيراعة إلى النتائج ، وتؤدي النتائج إلى الهدف الذي يبتغيه الكاتب . ولذلك نجد أن النهج هو أول ما يفكر فيه الباحث ، إذا أراد أن يبحث ، فيأتي بالبحث العلمي الصحيح .

وقلّ أن نجد عند مؤلفينا السلفين ، في الأعصر القديمة ، من عني بالنهج ، أي بوضع خطة واحدة لزمها في كافة أبحاثه . فقد غلب على أكثرهم في تآليفهم الاستطراد الممل ، وسرد ما لا علاقة للموضوع به .

ولعلّ مؤلفات الجاحظ — وهو أكبر الكتاب المؤلفين — مثال جيد للفوضى في التأليف ، أي لعدم الترتيب ، وعدم التزام موضوع واحد ، وغلبة الاستطراد في كل صفحة .

وما نجده عند الجاحظ نجده عند غيره . فأنت لا تصادف كاتباً باحثاً قد قيّد نفسه بخطة اتبعها . لكنك تصادف من يبدأ السير من هنا ، ثم يعرج على اليمين ، ثم يعود من حيث بدأ ، ثم يتقدم ، ثم يعرج شمالا . وأنت بين هذا كله ، لا تدري متى تصل إلى غايتك ، أو تقع على طِلْبتك .

على أننا نستطيع أن نستثني من هذا التعميم ، في عدم اتباع النهج ، علماء قلائل ، قيدوا أنفسهم بنهج واضح ظاهر ، منهم (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري) صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .

* * *

وقبل أن نتكلم على هذا النهج الذي اتبعه المقدسي في تأليفه الذي أشرنا إليه ، يحسن بنا أن نذكر أن هذا الكتاب مؤلَّف فَرْد ، قد لا نجد من ألّف مثله . ومعنى ذلك أن المقدسي قد تفرّد بفنّه بالنسبة لمن سبقه . وقد لاحظ هو نفسه ذلك فقال :

« ووجدتُ العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنّفوا على الابتداء ، ثم تبعهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيتُ أن أقصدَ علماً قد أغفلوه ، وأنفردَ بفن لم يذكروه إلا على الإخلال » .

ولكن ما هو الفن الذي تفرّد به المقدسي ، ولم يسبقه إليه أحد ؟

يجيب المقدسي عن ذلك فيقول :

« هو ذكر الأقاليم الإسلامية ، وما فيها من المفاوز ، والبحار ، والبحيرات ، والأنهار ، ووصف أمصارها المشهورة ، ومدنها المذكورة ، ومنازلها المسلوكة ، وطرقها المستعملة ، وعناصر العقاقير والآلات ، ومعادن الحمل والتجارات ، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصروفهم ، وصفة طعامهم وشرابهم ، وثمارهم ومياههم ، ومفاخرهم وعيوبهم ، وما يُحمل من عندهم . وذكر مواضع الأخطار في المفازات ، وعدد المنازل في المسافات .. وذكر المشاهد والمراصد ، والخصائص والرسوم ، والصنائع والعلوم ، والمناسك والمشاعر »[(١)] .

فهذه الأشياء كلها جديدة ، لا نجدها كلها عند أحد قبل المقدسي . وهذه الأشياء مجتمعة تجعل كتاب أحسن التقاسيم أبرز الكتب في التآليف الاسلامية ، التي لها شأن كبير في تبيان ووصف الحياة الاجتماعية في البلاد الاسلامية في القرن الرابع الهجري .

وهذه الدعوة التي يدّعيها المقدسي ، يدلّل عليها بالحجة القوية والبرهان . فمن هم الذين سبقوه ، وقصّروا عنه ؟

(١) أحسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٦) ص ١ و ٢ .

يقول : « . . . وكل من سبقنا إلى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها ، ولا طلب الفوائد التي أردتها .

« أما عبد الله الجيهاني فإنه كان وزير أمير خراسان . وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة ، فجمع الغرباء وسألهم من الممالك ودخلها ، وكيف المسالك إليها .

« ألا تراه مرة يذكر النجوم والهندسة ، وكرة يورد ما ليس للعوام فيه فائدة ، وتارة ينعت أصنام الهند ، وطوراً يصف عجائب السند ، وحيناً يفصل الخراج والرد ، وهو لم يفصل الكور ، ولم يرتب الأجناد ولا وصف المدن .

« أما أبو زيد البلخي فإنه قصد بكتابه الأمثلة ، وصورة الأرض ، وهو مختصر ، وترك جزءاً من أمهات المدن ، وما دوّخ البلدان ، ولا وطئ الأعمال .

« وأما ابن الفقيه الهمذاني ، فإنه سلك طريقة أخرى ، ولم يذكر إلا المدائن العظمى ، ولم يرتب الكور والأجناد ، وأدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم . مرة يزهّد في الدنيا ، وتارة يرغّب فيها . ودفعة يبكي وحيناً يضحك .

« وأما الجاحظ وابن خرداذبة ، فإن كتابيهما مختصران جدا ، لا يحصل منهما كثير فائدة .

« فهذا ما وقع إلينا من المصنفات في هذا الباب بعد البحث والطلب وتقليب الخزائن والكتب .

« وقد اجتهدنا في أن لا نذكر شيئاً قد سطروه ، ولا نشرح أمراً قد أوردوه إلا عند الضرورة ، لئلا نبخس حقوقهم ، ولا نسرق من تصانيفهم ، مع أنه لا يعرف فضل كتابنا إلا من نظر في كتبهم »(١) .

فمن هنا نرى أن المقدسي قد ذكر من سبقه في تصنيف كتب لها صلة بموضوعه ، فلا يجد غير الجيهاني ، والبلخي ، والهمذاني ، والجاحظ ، وابن خرداذبة ، ثم ينقد كل واحد من هؤلاء ، ويبين ضعفه ويدل على علته . ليخلص من هذا كله إلى أنه قد انفرد حقاً بفن . وأنه أتى بما لم يأت به غيره ، مما يجعل في كتابه أصالة Originalité لها قيمتها .

* * *

على أن انفراد المقدسي بفن لا يجعل له شأناً كبيراً جداً ، ولكن يجب أن نعلم أمرين :

١ — كيف عرض المقدسي موضوع كتابه . وهل اتبع نهجاً معيناً أم لا ؟

٢ — كيف جمع المقدسي مواد كتابه . وما هي الوسائل التي اتبعها في سبيل ذلك ، وهل وفق أم أخفق؟

وهنا نجيب عن الأمر الأول ، لأنه موضوع مقالنا هذا .

الحق أن المقدسي كان من أوائل المؤلفين في الإسلام الذين اتبعوا نهجاً معيناً قيدوا أنفسهم باتباعه في أبحاثهم .

والنهج الذي اتبعه المقدسي ، ظاهر واضح ، نجده في كل فصل يفرده على إقليم من الأقاليم التي تكلم عليها .

أما هذا النهج فهو كما يلي :

١ — التعريف بالإقليم

٢ — تقسيمه إلى كور ، والكلام على كل كورة ، ووصف كل مدينة

٣ — جملة شؤونه ، ويدخل في هذا :

٤ — المناخ ، الهواء

٥ — المذاهب

٦ — القراآت

٧ — اللغة والألسنة

٨ — التجارات

٩ — الخصائص

١٠ — المكاييل

١١ — الأرطال

١٢ — النقود

١٣ — الرسوم

١٤ — المياه ، الأنهار

١٥ — العيوب ، المضار

(١) أحسن التقاسيم ص ٥ — ٦ .

الصحافة العربية

في فلسطين

ربما يلذ للقارئ العربي خارج فلسطين أن يطلع على ناحية هامة من نواحي النهضة الأدبية عندنا . وأقصد بذلك الحركة الصحفية في فلسطين العربية ؛ ليزداد التعارف الأدبي بين مختلف البلاد العربية ، إذ أن ذلك عامل كبير في توحيد الناطقين بالضاد .

لقد أنشئت في فلسطين خلال الخمسين سنة الماضية أكثر من مائة صحيفة ، بين دينية وأدبية واجتماعية وسياسية ؛ ولكن أكثرها احتجب من الصدور لأسباب اقتصادية وغيرها .

إن أقدم صحيفة تصدر في فلسطين اليوم هي جريدة « فلسطين » التي أنشأها الأستاذ عيسى داود العيسى سنة ١٩١١ ، ومازالت تصدر من يافا يومياً ، وتعد في الطبقة الأولى بين الجرائد العربية في العالم ، من حيث أخبارها وموادها ، وتبويبها وافتتاحيتها ؛ ويتولى تحريرها الأستاذ يوسف حنا المعروف بمقدرته الصحفية وأسلوبه اللاذع .

ثم هنالك جريدة « الدفاع » التي أنشأها الأستاذ إبراهيم الشنطي في يافا منذ ثلاث عشرة سنة ، وقد شقت طريقها إلى القدمة بين الصحف اليومية في العالم العربي .

وتطبع كل من هاتين الجريدتين حوالى عشرة آلاف نسخة يومياً ، وهو عدد كبير نسبياً .

كذلك تصدر من يافا جريدة « الصراط المستقيم » المسائية لمحررها الشيخ عبدالله القلقيلي .

• • •

ويصدر اليوم في فلسطين عدد من الصحف الأسبوعية الراقية ، التي تأسست حديثاً ، كجريدة «الوحدة» ، التي يصدرها في القدس الأستاذ اسحق عبد السلام الحسيني في ثماني صفحات كبيرة ، وتساهم هذه الجريدة في النهضة الأدبية والثقافية والوطنية مساهمة فعالة .

ثم مجلة «الحرية» في يافا لمحررها الأستاذ على العورى ، وتصدر في ثماني صفحات كبيرة أيضاً ، ولها مكانة محترمة لدى جمهور القراء .

« والهماز » في حيفا ، والتي شقت طريقها بسرعة إلى القدمة ، وهي سياسية تمتاز برسومها الكاريكاتورية وتعليقاتها الوطنية اللاذعة ؛ ولا تقل في مستواها الصحفي عن أرقى صحف البلدان العربية .

١٦ — الأثواب

١٧ — العصبيات

١٨ — المشاهد

١٩ — العجائب

٢٠ — القبائل

٢١ — الولايات

٢٢ — الخراج والدخل

٢٣ — الضرائب والمكوس

٢٤ — المساحة

٢٥ — المسافات

فهذا هو النهج الذي تبعه ، استطعت أن أثبته بعد أن استقريت كل ما كتبه في كتابه . وهذا النهج نجده في جميع البلاد التي تكلم عليها . على أنه قد يخرج عنه في بعض الأحايين ، فلا يذكر بعض أجزائه التي لا توجد في البلد الذي تكلم عليه ، أو يزيد عليه جزءاً لا يوجد في بلد آخر . ونستطيع أن نعتبر هذا الهيكل الذي رأيته ، هو الهيكل العام تقريباً لجميع مباحثه في كتابه .

يتبع صموئيل الدرب المجيد

كذلك « المستقبل » في القدس ، التي يصدرهـا الأستاذ خيري حماد سكرتير تحرير « الدفاع » سابقاً ، وهي أيضاً سياسية كاريكاتورية لاذعة .

و« الاتحاد » التي تصدرها في حيفا عصبة التحرر الوطني ، وهي يسارية وطنية متطرفة .

وأخيراً تأتي « المنتدى » التي يصدرها مكتب المطبوعات لحكومة فلسطين ، بالاشتراك مع مصلحة الإذاعة الفلسطينية ؛ وكانت تصدر شهرياً لمدة سنوات ، وأصبحت أسبوعية قبل مدة وجيزة ؛ وتمتاز بمواضيعها الثقافية والأدبية التي يساهم في كتابتها كبار كتاب العالم العربي .

وتطبع كل من صحفنا الأسبوعية ، بين أربعة آلاف وعشرة آلاف نسخة ، وأهم ما يعوق زيادة هذا العدد غلاء الورق — الذي تبتاعه أكثر صحفنا من السوق السوداء ، وارتفاع تكاليف الطباعة ، وقلة الإعلانات .

وهنالك أيضاً مجلتان نصف شهريتين ، وهما « الغد » التي تصدرها في القدس رابطة المثقفين العرب ، وهي يسارية لا بأس بها . و « الهدف » في القدس أيضاً وهي خاصة بالرياضة والنهضة الاجتماعية .

وأخيراً « المجلة الطبية الفلسطينية » التي تصدرها الجمعية الطبية العربية الفلسطينية باللغتين العربية والانكليزية ، ولها مكانة ممتازة لدى أطباء العرب في مختلف ديارهم .

هـذا عدا النشرات التي تصدرها بعض الأندية ، كنشرة نادي الاتحاد الأرثوذكسي العربي بالقدس ، ونادي الاتحاد القروي بالقدس أيضاً ، وجمعية شبان رام الله ، وغيرها . ويساهم في الكتابة بهذه الصحف جميعها نخبة ممتازة من كتابنا وشعرائنا الشباب الذين يرجى لهم مستقبل باهر في عالم الصحافة والأدب .

ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن عندنا نخبة ممتازة من القراء الذين يعرفون عن دقائق السياسة ، والحوادث المحلية في مصر وكافة البلدان العربية أكثر من أبناء تلك البلدان .

ولعل خير مصداق أقول ذلك التعلق الشديد بالصحافة المصرية ؛ فإن بلادنا سوق رائجة لها ، ولكل منها قراؤها الذين يترقبون مجيئها بفارغ الصبر . ولعلي أكون قد أعطيت القارىء فكرة واضحة عن حياتنا الصحفية ، وحفزت عدداً جديداً من قرائنا العرب على الاهتمام بإخوانهم أبناء فلسطين المجاهدة كاهتمامهم بهم ، والله الموفق لما فيه خير هذه الأمة . والسلام .

جورج خوري سمعان

الكتاب

أقوال مأثورة

«الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا» (قرآن كريم)

١ — إن الكتب هى التراث الذى يخلفه الرجال العبقريون للناس ، وهى التراث الذى ينتقل من جيل إلى جيل هدية الأجداد الذين ضمتهم القبور إلى الأحفاد الذين لم يولدوا بعد .

٢ — الكتب هى البوصلة (إبرة الملاحين) ، وهى التلسكوب وهى المزولة ، وهى الخرائط التى صنعها الكتاب والعلماء ، لكى نهتدى بها فى ظلمات خضم الحياة الإنسانية .

٣ — الكتب هى أقرب الأشياء إلى طبائعنا ؛ ذلك لأنها تضم بين دفتيها آراءنا وأطماعنا وأحقادنا وأهواءنا وإخلاصنا للحق فى ذاته ، كما تضم ميلنا الملح إلى الخطأ والخطيئة .

٤ — فى أعلى مراقى الحضارة يبدو الكتاب الدرة التى تتلألأ بهجة وضياء .

٥ — تحت أطباق الكتب ترقد روح الماضى جميعه ، ومنها يسمع صوت الماضى بعد أن ينال البلى أشخاص أصحابها وبعد أن تنقضى تلك السنون وكأنها وكأنهم أحلام
وعلى صفحات الكتب تصان كل قنية مختارة خلقها كاتبوها . وكأنما توثق مبانيها يد ساحر .

٦ — الكتب هى القلوب التى تظل تخفق بعد موت أصحابها . وهى الجمال مجسما . وهى القوارير من فضة ملئت بكل أنواع العطور الغالية . وهى البلابل التى تظل تغنى إلى الأبد فوق أزهار الحياة .

٧ — الكتاب القيم هو الدم الغالى لجسم كان فى حياته وعاء لروح ممتازة . وقد حنط ذلك الجسم وادخر لحياة متكررة تخلف حياة أصحابها .

٨ — إذا مت فلا تنسوا أن توسدوا رأسى كتابا .

٩ — الكتب هى الكعبة التى تحج إليها عقول من ضلت نفوسهم .

١٠ — مثل الكتب كمثل الرجال . القليل النادر منها هو الذى يلعب الدور المهم . أما الباقون فهم كقدح الزاكب .

١١ — إننا نستمتع بالتحدث إلى العقول الممتازة عن طريق الكتب .
وفى الكتب القيمة يتحدث إلينا الرجال العظماء ويغدقون علينا أخصب أفكارهم ويصبون فى عقولنا عصارة عقولهم .

١٢ — مثل الرجل العاقل كمثل مستخرج الذهب البارع فى فنه . فهو يستطيع أن يستخلص لك الذهب من الرغام .

١٣ — هناك كتاب واحد هو فى نظرى أفضل مما كتب أرسطو أو بلينى أو بوفون . ذلك الكتاب هو قصة روبنسون كروزو .
إن ذلك الكتاب فوق أنه يقتضب رضا أشد المتعنتين من النقاد فهو يظفر بإعجاب لا حد له من أصحاب النفوس النقية .

١٤ — مثل مكتبة الرجل كمثل « الحريم » يمنع تمسك أصحابها بدواعى الاحتشام أن يبيحوها لغير المحارم .

١٥ — يدخل المرء منا مكتبته فيستمتع بصحبة قوم يؤنسون وحدته . لا تدب الغيرة فى نفوسهم إذا خصصنا أحدهم بالحديث . ولا يغضب أعلم علمائهم إذا أكثرنا الأسئلة أو إذا قطعنا الحديث فى غير استئذان ، ولا يثير اختلاف الرأى بيننا وبينهم أى عراك . ونستطيع أن نعقد جلساتنا أو أن نفضها كما شئنا .

١٦ — مثل الحب للكتب كمثل الحب للخمر ، كلما أدمن القراءة تمشت القراءة فى مفاصله فأصبح قارئا مدمنا .

(عن الانجليزية) مبارك ابراهيم

في حديقة الشعر العربي :

قصائد شرقية

— ٣٠ —

الحساب

للأميرة زين النساء الشاعرة الفارسية

ما أحرز القوم نصراً   إلا بفضل الإمام
لتركه جيش عُلاه   وَجُنْدَهُ في النظام
يا سيدي يا حبيبي   أمسيتُ بفضل زمامي
لولاك غاب نضالي   لولاك تم انهزامي

• • •

قل للفراشة حبُّ النيران فيك جلال
في الحب والموت أبديت غاية لا تُنال
قد سرك النور لكن   مسُّ اللهيب وَبالُ
والموت بالنار فيه   بما عشقت اتصال

• • •

يا قاسياً ستجازى   في البعث حقَّ الجزاء
يجزيك ربك عما   سفكته من دماء
بم اعتذارك عما   صنعتَ بالأبرياء
لم عليك تكن الشهيد في كربلاء

• • •

أعطف على كل جانٍ   يا ربِّ يا ديّانُ
على الوجوه من الخز   ي ذلة وهوان
ونادمين وقد فا   ت في الحساب الأوان
أليس يكفي عقاباً   أن حوسبوا فاستكانوا ؟

• • •

حياتنا كالصحارى   يضل فيها الساري
والحب فيها دليلٌ   يسير ليل نهار
يهدي الشريد وينجي   مستهدفاً للبوار
قد ضلَّ مجنون ليلى   فريداً في الديار

— ٣١ —

لا تيأس

طريق لن تؤدي بي   مسالكها إلى الجنّة
وعيني ... عين الظمآن   إلى ما فيك من فتنه
ستحرم وجهك الضاحي   وتزداد الهوى حسنه

• • •

تنهدت وأذرفت   دموع العين من حسره
فما ردَّ الهوى دمعي   ولا أجدتني الزفره
سوى ذكرى اللقاء كا   ن لكن ماله كرّه

• • •

وأذكر منصبي العالي   ومن طلبوا بي المجدا
فما ألقى سوى ذُلّ   فقد أذلني وجدا
فأرفعُ في يدي كأسي   ورابت خمارها أجدى

• • •

أيا قلبي لا تيأس   وإن أثقلت أحزانا
سقيتَ الرمل بالدمع   وظلَّ الرمل ظمآنا
وتطلب رحمة الله   وكان الله رحمانا

— ٢٤ —

قلب محترق

كيف تخفى يا قلب والنار فيكا   لهب الحب لم يزل يصلوكا
وبخار الزفير قد جلّل الأفق ستاراً يخفي النجوم سميكا

• • •

سأجوب الصحراء أطلب ليلا   ى كما كان يفعل المجنونُ
في هجير يذيب رأساً وجيماً   عبثاً ما تغيض منه الشئونُ

• • •

لا يخاف الحتوف من عرف الحب فبالحب تُفسح الآفاقُ
تنجلي بالحب جنة دنيا   وجمالٌ يحوطها ألأق

• • •

وصف الناس بالجنون المحبين وفي الحب حكمة ونعيم
عالم من مفاتن لو رآه لتمناه عاقل محروم

* * *

ما ترى الحب فارساً يتهادى
خاضب السيف من دماء القلوب
ما تراه يا عتيق فتأمل
كيف يُزمي بسيفه المخضوب

— ٢٥ —

طائر السعادة

أبصر الروض في الربيع فأشدو
فرحاً بالربيع مثل الطيور
وإذا ما أراد قطفي جان
فابتسامي له ابتسامُ الزهور

* * *

ونسيم الصباح من جانب الرو
ض حبيبٌ إن كان يحمل ريحك
فابتهاجي وفرحتي وسروري
أنني في الرياض أبصر روحك

* * *

أتراني أعدُّ نفسي شقياً
وأنا الآن عند باب الروضه
حاش لله بل أراني سعيداً
ويهذب المبين أكنس أرضه

* * *

طائر القلب في شباكك مازا
ل جناحاه يهفوان فكاكا
زفرتي لن تردَّها تفؤادي
ولو أني أصبحتُ من أسراكا

* * *

أنا يا طائر السعادة يا فونكـ
ـس(١) لمّا أزل بظلٍّ جناحك
مستظلا به وأبحث عنه
أترى أنت مستظلا بساحك ؟

* * *

ياعدوي يا مائي من صدادي ليس يجديك أن تخوض البحارا
زفراتي تجفف البحر لا مهرب مني حتى أنال الثارا

* * *

بلبلٌ في الربيع فرحان يشدو
سيحلُّ الحقُّ فيه مكانه
تاركاً ما بقلبه من شقاء
مستمداً من الصبا رَيْحانَه

عبد اللطيف النشار
وحسين محمود البشبيشي

---

(١) فونكس Phoenix طائر أسطوري إذا أظل إنساناً بجناحيه صار ملكاً. ولا يوجد في العالم منه في وقت واحد سوى طائر واحد وعمر هذا الطائر ٢٠٠ عام .

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٦٢٣٦٩ ٥
القاهرة

على هامش الثقافة الجنسية

[من كتاب Health & Strength للدكتور Bowen Partington]

يملأ الشبان معلومات كثيرة جداً من الأمور الجنسية، ولكنها لسوء الحظ خاطئة غالباً لأنها مستقاة من غير مصادرها الصحيحة، ومن ثم تكون محققة الضرر. والشبان معذورون لأن الأحاديث الجنسية شائعة بينهم بشكل غريب، والذين يتحدثون عنها يتحدثون بلهجة العارفين الواثقين من معرفتهم وهم فى الواقع يجهلونها أفظع الجهل. وآفة الآفات أن الأبحاث الجنسية ليست كالأبحاث الأخرى مقصورة على الكتب العلمية والمحاضرات الجامعية، بل إنها أصبحت ملء الأسواق والمنتديات التى يؤمها الجمهور غير المثقف. وفضلا عن ذلك فالمجلات الحيوية الواسعة الانتشار محشوة بالحكايات والنوادر الجنسية. ولا توجد كوميديا موسيقية، ولا مقطوعة فنية، ولا فودفيل تمثيلية إلا وهى مرتكزة على العناصر الجنسية. هذه وأمثالها هى مصادر المعرفة الجنسية، وواضح أنها غير وثيقة، والأدهى من ذلك أنها متيسرة للأفراد من بنين وبنات. فإذا استعصى عليهم شىء مما بها فسرعان ما يستشيرون من يعتقدون أنهم أكثر منهم عقلا وخبرة كصديق أو شقيق أو شقيقة، ونادراً ما يكون هؤلاء على شىء من الصواب.

والمسائل الجنسية هى محور الحياة فى حقيقتها لذلك فإن الجهل بها نتائج وخيمة جداً على المجتمع وتشيع فيه أعراض الاضطرابات العقلية والعضوية. ونحن إلى الآن لا نزال نكافح ذلك بوسائل لينة أو ضعيفة، بينما الواجب يقضى علينا بأن ننهج سياسة حازمة صارمة بدون تردد. يجب أن نضع نصب أعيننا أننا نكافح مساوىء رهيبة خبيثة يزيد تفاقمها انعدام الضمير والشرف عند كثير من الرجال والنساء على السواء.

والواقع أنه أينما يأخذ الإنسان على عاتقه مناقشة مثل هذه الموضوعات يستهدف لرأيين متعارضين لكل منهما جمهور كبير له اعتباره.

أصحاب الرأى الأول يقولون: إن هذه موضوعات خطيرة فيلزم قصرها بقدر الإمكان وعدم إذاعتها. وصحيح أن هذه هى الطريقة السائدة منذ قرون. ولكن الشىء الذى لا شك فيه أنها سقطت أينما كانت وحيثما كانت، لأنها لم تمنع ولم تقلل الإجراءات الجنسية الخاطئة والشاذة أو الأمراض المروعة الفتاكة.

أما أصحاب الرأى الثانى فيقولون بضرورة المناقشة العلنية، فقد برهنت دائماً على فائدتها وصلاحيتها حتى ولو تسبب عنها إيقاظ الغرائز فى الكتل البشرية.

وهذا الرأى — فى نظرنا — أفضل. ولكن ما هى الطريقة المثلى لتحقيق أهدافه وتجنب الفوضى التى قد تنجم عنه؟.

يحسن أن نبدأ دائماً بتلقين الأطفال فى سن مبكرة أصول المسائل والمشاكل الجنسية بواسطة معرفة الآباء والأمهات فقط، لأنهم أقرب وأحب الناس للأبناء، وبذلك يستطيعون دون غيرهم معالجة هذه الموضوعات، بشرط أن يكونوا مثقفين ثقافة كافية بهذا الصدد. والمعلوم أن كل الأطفال يريدون من تلقاء أنفسهم أن يستفهموا وهذه رغبة طبيعية، وغالباً ما تكون غير محددة ولا يعبرون عنها بصراحة. وهنا تكون الفرصة سانحة للأمهات أولاً للتدخل بلباقة واحتياط ولكن فى صدق. هذا هو أهم دور تقوم به الأمهات فى أخطر أطوار نمو الأطفال. ويأتى بعد ذلك دور الآباء، وعليهم أن يستيقنوا من أن أولادهم يفهمون المسألة الجنسية فهماً صحيحاً ويفهمون الأخطار التى تنشأ من خرق قوانين الطبيعة ويفهمون أيضاً أن الإقلاع والوقاية لا غناء عنهما بالنسبة لتكوين أجسامهم بناءً واحتمالا. بهذا نجعلهم يدركون أن

نظرية جديدة فى أصل المجموعة الشمسية

ينعقد اتفاق معظم العلماء اليوم على أن الأصل فى مجموعتنا الشمسية هو أن الشمس كانت تجرى فى الفضاء أول الأمر بدون كواكب ، ثم حدث أن اقترب منها نجم آخر عظيم فحدث بينهما من قوة الجذب ما أدى إلى انفصال أجزاء من جسم الشمس تناثرت فى الفضاء حولها ؛ وكانت هذه الأجزاء أول الأمر غازية ، ولكنها أخذت تبرد رويداً رويداً حتى تجمدت ثم تكورت بسرعة الدوران حتى أصبحت الكواكب المعروفة ومنها أرضنا .

وتلك هى نظرية العالمين الأمريكيين تشمبرلين ومولتن .

ولكن عالماً طبيعياً سويدياً يرى أن هذا التفسير غير مقبول على علاته ، ويقترح نظرية أخرى تقوم فى أساسها على النظرية القديمة التى لم تترك جانباً من جوانب العلم الطبيعى والكيميائى إلا ألقت عليه حجباً كثيفة من الشك .

ونظرية العالم السويدى « هانس آفن » تفترض أن سحابة كبيرة مكونة من ذرات من نجوم أخرى اقتربت من الشمس .

فلما اقتربت منها ولامستها شحنت ذراتها بالكهرباء ، ولما كانت ذرات الشمس مشحونة بطبيعتها بالكهرباء فقد حدث بين ذراتها وذرات هذه السحابة تنافر أدى إلى ابتعادها من جديد ، ولم تستطع الخروج من مدى جاذبية هذا النجم الكبير ، فأخذت تدور حوله على مسافة بعيدة ، وكلما مضى زمن تكاثفت ذرات بعضها وتكورت وكونت كوكباً أخذ هيأته الكروية من سرعة دورانه .

أما الأقمار فأصلها أجزاء كبيرة من هذه السحابة لم تستطع الالتصاق بها ولا التكاثف منها بقوة الجاذبية ، فظلت معلقة على مسافات متقاربة من الكواكب وأخذت تدور حولها .

وهذه النظرية تبيح لنا تفسير ما نرى من الدوائر الغازية التى تحيط بزحل ، فهذه غازات لم تتكاثف أو تتجمد ، فظلت على حالتها الغازية تدور حول هذا الكوكب الغريب الهيئة .

وقد رجعنا لتحقيق هذه النظرية الجديدة إلى ما كتبه العالم الجغرافى المصرى الدكتور محمد متولى موسى فى كتابه « وجه الأرض » عن أصل المجموعة الشمسية ، فوجدنا أن العالم السويدى قد أهمل نظرية جفريز وجينز التى تصحح نظرية تشمبرلين ومولتن . وتقرر أن سبب انفصال الكواكب عن الشمس هو مرور نجم كبير ، ولكن مروره لم يحدث فى جرم الشمس انفجارات ، وإنما اجتذب منها جزءاً وفصله عنها بقوة الجاذبية ، فلما انفصل هذا الجزء وابتعد عن مصدر الحرارة أخذ يبرد أثناء دورانه ، وتفككت أجزاؤه مكونة الكواكب المعروفة ، وهذه النظرية تفسر لنا وجود الكواكب على مسافات مختلفة من الشمس ، ولو كان أصل الكواكب سحابة واحدة لوجب أن تكون أجزاؤها على مسافة واحدة من الشمس .

المسؤولية فى الحياة الجنسية مسؤولية جسيمة وأن الطهارة لازمة وممكنة وأن الثقافة فى هذا الصدد ضرورية لحماية حياة العائلات وقطع دابر الأوصاب التى تفشى كالسموم فى المجتمع المتمدين .

وفى حالة عدم توفر عنصر الآباء والأمهات — فى حالة السفر والافتراق والفقد مثلا — يقع العبء كله على المجتمع ، فيجب أن تقوم المدارس به . والمشكلة هنا هى : كيف تلقن المعلومات الضرورية فى علم الصحة الجنسية فى جميع المدارس بصفة عامة كما هو متبع فى العلوم الأخرى بينما المسائل الجنسية حالات خاصة فردية ؟ لا يكفى وضع برنامج محدد ، بل يجدر أن يكون مرناً يعتمد على التجارب التى لا نهاية لها . وهذا غير متوفر . وكل ما يمكن عمله هو تخطيط خطوط رئيسية لهذا الموضوع الخطير وعمل تجارب وتفصيلات لا حد لها . وإنما يجب أن يراعى فى ذلك منتهى الصبر وبعد النظر والحذق .

عبد الفتاح البارودى

ملاحظات بسيطة

تميط اللثام عن جريمة قتل

[في كل جريمة تقع بعض تصرفات غير طبيعية تكفى إذا تنبه لملاحظتها عقل منطقى دقيق خبير بطبائع النفوس البشرية لأن تميط اللثام عن سرها ودوافعها وتهدى لفاعليها]

هذه قصة واقعية حدثت بإحدى مدن أمريكا فى أغسطس سنة ١٩٣٢ . وهى قصة عادية يتكرر مثلها فى عالم الإجرام فى كل البلاد ، وليس الغرض سرد حوادث تثير اهتمام القراء ، ولكننا نقصد إلى عرض أسلوب البحث والتحقيق المثمر فى مثل هذه الحالات .

وقائع الجريمة :

وجد أحد التجار فى إحدى مدن أمريكا مقتولا فى مسكنه الخاص الذى يقطن فيه هو وزوجته وحدهما . ووجدت زوجته وقد أوثقت برباط إلى مقعد فى المطبخ ، وذكرت الزوجة أنها أحست حوالى الساعة الثانية بعد منتصف تلك الليلة بحركة فى المنزل ، فهبت من نومها واتجهت إلى المطبخ مخترقة قاعة الطعام التى تتوسط الشقة ، فلم تشعر إلا بهجوم رجلين عليها جاءاها من خلفها وسارع أحدهما بسد فمها حتى لا تصيح ثم تعاونا معا على شدها بوثاق متين إلى مقعد بالمطبخ ، وبقى أحدهما معها وتسلل الآخر إلى غرفة النوم حيث يرقد زوجها ، وبعد ذلك بلحظة سمعت طلقا ناريا ، وعلمت أن زوجها قتل . وكل ما استطاعت أن تتبينه من ملامح الجانيين أن أحدهما طويل ، والآخر قصير .

وتولى رجال التحقيق بحث الوقائع واتضح لهم أن القتل كان بقصد سرقة مبلغ سحبته الزوجة فى نفس اليوم من البنك ، وبعد تعقب كل من يشتبه فيهم فى الجهة ، وتعرف كل من يصح أن يكون قد حام حول البنك فى ذلك اليوم منهم ، لم يستطع التحقيق أن يصل إلى نتيجة فى تحديد الفاعل فى هذه الجريمة .

وبعد ثلاثة أيام من الحادث رأى المحقق أن يستعين بخبير من رجال الباحث معروف بخبرته الواسعة بالجرائم والمجرمين وقد سبق أن أماط اللثام عن أسرار كثير من الجرائم الغامضة .

الخبير يتولى بحث القضية :

حضر هذا الخبير وهو رجل هادئ بسيط لا يكاد يشعر الرائى بأنه رجل غير عادى ، وهو فى الواقع ليس أكثر من ذلك ، وكل ميزته أنه يستطيع أن يكشف ما هو غير عادى من التصرفات التى تصدر عن المجرمين ، وبذلك يمسك بالخيط الذى يجذب به الحقائق من أعماقها .

كان أول ما قام به الخبير أن اتصل بالمحقق واستمع إلى ما أورده من الوقائع وما اتجهت إليه شبهته . وأراد المحقق أن يتصل بالمشتبه فيهم ويستمع إلى أقوالهم . ولكنه قال رفق إنه يفضل أن يبدأ بزيارة مكان الجريمة . فوافقه المحقق وقال له إنه سيجد هناك أرملة القتيل وقد يستفيد منها بعض الفائدة على الرغم من فداحة ما تشعر به من الألم للفاجعة التى رزئت بها .

قصد الخبير إلى سكن القتيل تصحبه سكرتيرته الخاصة التى تدون كل ما يقوم به ، فوجد الأرملة جالسة وبيدها الإنجيل تقرؤه ، فقال لها :

— صباح الخير يا سيدتى . إنى أنا رجل الباحث الذى استدعى للنظر فى القضية ، وإنى أرجو ألا أزعجك كثيرا ، فإنى أقدر مبلغ ما سببته لك الفاجعة من متاعب وما أرهقتك به رجال التحقيق من أسئلة . وكل ما أرجوه أن تأذنى لى بإلقاء نظرة على المسكن ومحتوياته .

فشكرته السيدة وانفجرت باكية ، فربت كتفها

وطيب خاطرها قائلا لها : ما جـدوى البكاء ، وهو لا يرجع ذاهبا ؟

ثم انصرف إلى مهمته وأخذ يرسم تخطيطا للمسكن وغرفه ، والشقة مكونة من ثلاث غرف إحـداها للنوم وبها سرير واحد ينام عليه الزوجان ، وغرفة جلوس ، وكلتا الغرفتين لهما منافذ خارجية على الشارع ، ثم تليهما قاعة الطعام وليس لها نوافذ على الخارج ، ثم تتصل قاعة الطعام بالمطبخ وهو واقع على شارع عام وبه منافذ ، وبعد أن أتم المعاينة وأتم الرسم ، عاد إلى السيدة وقال :

— والآن أيتها السيدة أرجو منك أن تتفضلى إذا لم يكن فى ذلك إزعاج لك بتمثيل ما حدث تماما فى تلك الليلة .

— لقد كنت نائمة فى الغرفة مع زوجى .

— وأين كان وضعك وأنت نائمة ؟

— كنت على الطرف الخارجى .

— حسن . هذا يفسر قيامك على أثر سماعك الحركة دون أن يستيقظ زوجك .

— وسمعت حركة فخرجت من الغرفة إلى قاعة الطعام متجهة نحو المطبخ .

— أظن يا سيدتى أن الليلة كانت مقمرة ولابد أن الضوء كان يتسرب إلى المكان من النوافذ .

— هذا صحيح . ولكن قاعة الطعام لم تكن مضيئة بدرجة كافية . ولهذا لم أتنبه لوجود أحد ولم أشعر وأنا على أبواب المطبخ إلا وقد هوجمت من الخلف . وسارع أحد الهاجمين إلى سد فمى وتقييد حركتى بينما أسرع الآخر إلى شد وثاقى وربطت إلى مقعد بالمطبخ .

— هل تبينت ملامح الرجلين ؟ أظن ضوء القمر فى المطبخ كان يسمح بشىء من ذلك .

— أنت تدرى حالة الإنسان فى مثل هذه الظروف . كل ما استطعت أن أتبينه أن أحدهما طويل والآخر قصير .

— وهل كان الطويل يلبس قبعة صغيرة ويضع على عينيه نظارة سوداء ؟

— يالله ! هذا صحيح . كيف فاتت منى هذه الملاحظة فلم أذكرها إلا الآن وأنت توردها ؟

— استمرى يا سيدتى .

— ثم تسلل الرجل القصير إلى غرفة النوم وسمعت طلقاً نارياً .

— ماذا حدث عند سماع الطلق ؟ هل قال أحد الرجلين شيئاً ؟

— نعم . قال الرجل الطويل القائم إلى جوارى عند ما سمع الطلق : ما هذا ؟ هل كانت له ضرورة ؟ فأجابه القصير من الغرفة : لم يكن من ذلك بد ، فقد استيقظ الرجل وأراد مقاومتى .

— وأين كان المال الذى سرق ؟

— كان تحت الوسادة .

— شكراً يا سيدتى .

والتفت الخبير إلى سكرتيرته وسألها إن كانت قد أثبتت ذلك كله . ثم استأذنا وانصرفا .

وفيما هو خارج التقى الخبير بطائفة من مكاتبى الصحف سمعوا بنبأ حضوره فبادروا ليتحسسوا منه جديداً عن القضية ، فقال لهم : لقد أعطتنى أرملة القتيل أوصاف أحد الرجلين وقد كنت كونت عند حضورى فكرة عن القاتل ، وأظننى قد انتهيت إلى ما يؤيد فكرتى .

وقصد الخبير إلى المحقق فسارع إليه بلهفة قائلا : ما وراءك ؟ لقد نقل إلى الصحفيون أنك اهتديت إلى القاتل ، فمن هو ؟

فقال : ستتبينه عند ما تسمع المحضر من سكرتيرتى .

وأمرها أن تتلو المحضر ، وبعد أن فرغت من تلاوته . قال المحقق لم تزدنا جديداً ، فكل ما ذكرته كنا نعرفه

من قبل . وأين من هذا ما تقوله من أنك اكتشفت القاتل ؟ إن كل ما وصلت إليه أنك علمت أن القاتل كان يلبس قبعة مستديرة ويضع منظاراً على عينيه — وهي معلومات قيمة أعجب كيف فات الأرملة ذكرها لنا — ولكن كيف تستطيع من هذه الأوصاف وحدها الاهتداء إليه .

فقال له الخبير : إذا لم تستطع من هذا المحضر أن تحدس من القاتل ! إن القاتل ياسيدي هو أرملة القتيل .

— هذا عجيب ! إنها امرأة صالحة معروفة بالاستقامة والمواظبة على الكنيسة ، وفوق ذلك فقد وجد في فمها وجسمها آثار مجهوداتها مع القاتلين .

— اسمع ياسيدي حجتي القاطعة في أنها هي القاتلة :

أولا — لقد ذكرت أن أحد الرجلين بعد أن سمع الطلق خاطب الآخر قائلا : لماذا قتلته ؟ وهل كانت هناك ضرورة ؟ فأجابه الآخر قائلا : لقد استيقظ وأراد المقاومة فلم يكن من قتله بد .

هل تتصور أن هذا طبيعي ؟ ضع نفسك مكان أحد الرجلين وتصور أنك سمعت طلقا في الغرفة الأخرى ، فهل تقطع بأن المقتول هو الرجل النائم لا زميلك وتخاطبه بلهجة الواثق مؤنباً ؟ إن حالة الشك والذعر والقلق التي تداخلك لا تسمح بمثل هذا الوثوق . فهي قصة غير طبيعية تنم عن الوضع والاختلاق .

ثانياً — لقد ذكرت أنها سمعت حركة فقامت من نومها لتتبينها . هل هذا طبيعي ؟ هل تعلم أن امرأة في الوجود ترقد إلى جانب زوجها فتحس بحركة غير عادية تبعث على الهلع فتقوم من غير أن توقظ زوجها ليتولى بنفسه تبينها ؟ أليس الطبيعي أن تبادر إلى إزعاجه وتحمله على أن يقوم هو بنفسه لحمايتها ودرء الخطر عنها ؟

أما الوثاق والجروح والبكاء والإعياء فكلها حيل بدائية يلجأ إليها البسطاء من المجرمين .

(. . .)

فلسفة الجماجم

هل هناك علاقة بين هيأة الرأس والجنس ؟ هل ينبغي لكل من وهبه الله رأساً ضخما وجبهة عريضة أن يكون من عنصر معين ؟ لقد أنفق علماء الإنسان في ذلك جهداً ووقتاً عظيمين ، ولكن الدكتور فرانز فايدن رايخ البحاثة في متحف التاريخ الطبيعي يؤكد لغيره من العلماء أنهم يضيعون وقتهم هباء إذا أصروا على تقرير قواعد في هذا الموضوع . بل هو لا يؤيد غيره من العلماء الذين يريدون تقسيم البشر طبقات بحسب مقاييس رءوسهم ، ويذهبون إلى أن الأوربيين ينقسمون إلى طبقتين : طبقة عليا ذات رءوس مستديرة ، وهم شعوب الشمال وشعوب البحر الأبيض ، وطبقة دنيا ذات رءوس طويلة أو متوسطة وهم أهل أوربا الوسطى (الألبية والدينارية) ويظن أنهم نتجوا من الاختلاط مع شعوب مستديرة الرأس آتية من آسيا .

فالآن قد انتهى الدكتور فايدن رايخ بعد أن قاس عددا كبيراً من الرءوس إلى النتائج الآتية . أولا : أن الأسيويين (وخاصة المغول) — الذين كان يظن أنهم أصل الرءوس الأوربية المستديرة — هم في الواقع ذوو رءوس مستطيلة لا مستديرة . ثانيا : أن الشعوب الوحيدة ذات الرءوس المستطيلة هي الشعوب المتوحشة في إفريقية واستراليا . ثالثاً : أن الناس المتحضرين من كل شعب تستدير رءوسهم شيئاً فشيئاً .

من Time نيويورك

بين المسموع والمقروء

الجبل الأعظم

نحن ، بنى الإنسان ، إذا ذكرنا المجد لم نذكره إلا الرجال ، وإذا ذكرنا العظمة فلا نعنى بها غير عظمة الرجال. ولكن فى غير دائرة الرجال ، وغير عظمة الرجال ، توجد عظمة تتضاءل إلى جانبها كل العظائم ، وإلى جانب مجد الرجال ، يوجد مجد تتضاءل إلى جانبه كل الأمجاد .

وأعنى فى هذه المرة عظمة الطبيعة الصامتة ، عظمة الطبيعة العارمة التى لا تأذن لحىّ أن يتنفس بها . ومن تلك عظمةُ الصحراء الواسعة ، المحرقة آناً ، والباردةِ المُثلجة أحياناً . وعظمة البحار عند رأس الكرة وعند قدمها ، حيث لا وطء إلا على الثلوج ، ولا ضرب إلا فى فجاج بيضاء لا يُعرَف لها أرض من سماء ، ولا يعرف لها ليل أو نهار . ثم عظمة الجبال السامقة التى طالت فأعجزت ، وقامت وقد استقرت قواعدها عند أحرٍّ من الجمر وحلتْ على رأسها ألوف الألوف من أطنان الجليد .

وأكبر الجبال من العظمة حظّاً ، وأكثرها إعجازاً للإنسان أن يركب أكتافها أو يبلغ قُنتها ، ذلك الجبلُ الأرفع ، الذى استقر بين زملاء لها فى رفعته نصيب . وأسموها جميعاً جبال الهملايا .

وكان هذا الجبل ، أرفعُ جبال الأرض رأساً ، لا يتحلى باسم ولا يُعرف له لقب ، ولا يُذكر إذا ذكرت رؤوس الأرض الفخمة ، إلى أن جاء عام ١٨٥٢ .

فى هذا العام كان كاتب هندى ، فى إدارة المساحة الهندية ، يفتش فى دفاتر بها أرقام عديدة لا تكاد تحصى ، رقمها مساح إنجليزى نتيجة أعمال المساحة واسعة أجراها فى نواحى الهند ، وفى جبالها ، فوقع على رقم يشير إلى ارتفاع قُنة فى سلسلة تلك الجبال أسماها القنة الخامسة عشرة ، قال إنها أكبر قنة فى العالم .

وكان الرقم الذى وقع عليه هذا المساح تقريبياً جاء به وهو يرصد القنة ، من الأرض البسيطة ، ثم بالحساب .

وكان اسم هذا المساح إفرست Everest ، فسميت هذه القنة باسمه ، وعرفت بهذا الاسم ، عرفها به كل دارس جغرافيا ، من كل أمة ، وكل لون ، وكل لسان .

ومن وقت أن عُرفت تاقت الأنفس إلى الصعود إليها ، إلى أعلى سقف فى الدنيا .

ولم يكن الوصول إلى هذه القنة ، إلى هذا الجبل الأعظم والأضخم والأقرب إلى السماء من كل جبال الأرض ، لم يكن الوصول إليه فى أوسط جبال الهملايا إلا زحفاً زحفاً إليه من جبل إلى جبل ، حتى إذا اقتربوا منه ، هجموا عليه طلباً لرأسه ، وإذلالا لكبريائه ، بعد أن بقى القرونَ يطاول الناس فلا يطولونه ، ويغالبهم فلا يغلبونه .

وزحفت البعثة تلو البعثة ، لا إليه أول الأمر ، ولكن إلى قنن من أمثاله ، وأخذت تحظى فى قنن الهملايا بارتفاع من بعد ارتفاع . فبعثة فى العقد الثامن من القرن الماضى بلغت فى قنة من قنن الهملايا علواً مقداره ٢٤٠٠٠ قدم ، وأخرى فى عام ١٨٩٢ صعدتْ إلى ارتفاع ٢٥٠٠٠ قدم من قنة أخرى . وتلتها أخرى مات قائدها . ثم أخرى . حتى إذا كان العقد الثانى من القرن الحاضر ، قبيل الحرب العالمية الأولى ، قام رجل عجيب يدعى نوئيل ، خرج يضرب فى الجبال ولم يخبر أحداً . وخرج معه طبيب فى مثل غرابته . ووصلا إلى نحو أربعين ميلا من القنة العظمى ، جبل افرست

وعاد نوئيل يصور مما رأى ، حتى جبل الثلج على حافة التيبت ، صوّره . وفى محاضرة ألقاها فى الجمعية الجغرافية الملكية بلندن فتح الباب واسعاً لهجمة يهجمها الروّاد من بعد ذلك على هذا الجبل البعيد العاصى .

ولكن قام دون ذلك عقبات . فامارة نبال ، وهى أقرب طريق إلى الجبل ، أبت أن تعطى رخصة لأحد بالمرور إليه منها . وولاية التيبيت ، فى الشمال ، فى الصين ، كان موقفها غير ذى وثوق . وأحجمت الحكومة البريطانية ، وأحجمت حكومة الهند ، من أن تضغط على هذه الولاية أو تلك طلباً المرور . وبالتؤدة ، وعلى الصبر ، وانتظاراً الزمن أن يسهل الصعب ، ويلين الجامد ، زالت هذه العقبات . وأذنت التيبيت أخيراً أن يمر بها الطالبون .

وفى ربيع عام ١٩٢١ تألفت أول بعثة غرضها صعود الجبل ، جبل افرست . وتألفت ، لا لتصعد الجبل . لا . فهذا كان أملا بعيداً لا يتحقق فى الهجمة الأولى . وإنما تألفت لتتعرّف الجبل ، وتتعرف مواقعه ، تمهيداً للصعود إليه فى محاولات تكون من بعد ذلك .

وخرجت البعثة إلى التيبيت تقطع سهولها ، وتدور مع طرقاتها بأحمالها ، ثم تهبط إلى حيث الجبل من شماله . فيتراءى لها جبل الثلج العظيم الذى كان منه ثم انفصل عنه . وداروا حول الجبل يتعرفون أى المداخل تكون إليه أقرب ، وأيها يكون ولو على الراوغة أيسر . وصعدوا ثم صعدوا . وبعد أن صعدوا عادوا . واستقروا منه بعد تسلق بارع عند ارتفاع ٢٣٠٠٠ قدم . وهبت الرياح الموسمية فآذنت بختام الرحلة ، فلم يكن بد من العودة . ولكنهم بنوا ، حيث بلغوا ، تلك المدرجة الأولى التى كان على كل طالع هذا الجبل من بعد ذلك أن يدرج إليها ، ويبدأ منها الطلوع .

وبهذا تم « تعرفهم » للجبل .

وعادوا إلى بيوتهم ، ليعودوا إلى مثل ما كانوا فيه بعد عام . واتخذوا معهم هذه المرة كل حيلة ، وتوسلوا بكل وسيلة ، يسهل بها السفر ، ويخف بها الصعود . الصعود إلى القمة هذه المرة .

وحطوا أول حطة على ارتفاع ١٦٥٠٠ قدم . حطوا عند هذه الحطة الأولى زادهم ، واتخذوها مبدأ لأعمالهم . وهى أعلى من جبل منت بلانك ، أكبر جبل فى أوربا ، بنحو ١٠٠٠ قدم . ثم استمروا صاعدين . وكلما بلغوا علوا ذا بال ، عند موضع به رحابة ، أناخوا . وبنوا المُناخ تلو المُناخ ، ورقوا المناخات أرقاماً . حتى بلغوا المناخ الخامس ، أو الخيم الخامس ، وعلوه ٢٥٠٠٠ قدم . وجمعوا كل ما بهم من قوة ، وفى يوم غير محمود الهواء ، غير محمود الأرض ، زجوا بأنفسهم زجة أخرى ذهبت بهم صعدا إلى علو ٢٦٩٨٥ قدماً . ولم يبلغها جميعهم . فمنهم من تخلف من إجهاد . ومنهم من تخلف من بعد أن تجمدت أطرافه بالصقيع ، والصقيع يُميت كما تميت النار . ومنهم من زهقت نفسه إلا رمقاً . وجاءت الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر فقرروا العودة إلى الخيم — الخيم رقم ٥ . ولم يكن هؤلاء قد نفد صبرهم ، أو فرغ جهدهم ، ولكن السرعة لم تسعفهم . وخشوا هبوط الليل .

عادوا إلى الخيم ليعاودوا الكرة . وأصبح الصباح فخرج ثلاثة منهم ، لم يلبث ثالثهم أن توقف . ومضى الاثنان صعدا يطلبان القمة التى لا تغلب . واستعانوا هذه المرة بالأكسجين ، يلبسون جهازه على وجوههم ، ويحملون ثِقْله على ظهورهم . وفجأة تعطل أحد الجهازين . فما كان من الآخر إلا أن حاول أن يصل جهازه بجهاز صاحبه حتى لا يموت اختناقا . وأصلحا الخلل ولكن بعد أن كادا يهلكان جميعاً . وكانا قد بلغا ارتفاع ٢٧٣٠٠ قدم . أى أكثر مما ارتفع أى انسان فى الوجود . وعادوا إلى الخيم ، خيم رقم ٥ .

فهل منعتهما ، أو خذّلت غيرهما ، كل هذه الصعوبات واحتمال هاتيك المهالك ؟ بالطبع لا .

وقامت جماعة أخرى منهم تطلب ما استعصى .

وصعدوا . ولكن فجأة ، وبغير إنذار ، سمعوا دويا هائلا . . .

أحمد زكى

تلاميذى

نفحات من رياحين الصّبا ... طوّفت بالروح حتى طربا
وزهور من أزاهير المنى ... وهب الخلد لها ما وهبا
تعصف الدنيا، فإن مرت بها ... أقبلت أطيب من ريح الصبا
وطيور وادعات قد حبت ... تبتغى الطيران الرغبا
ووجوه باسمات ، كلما ... ضاق صدرى، قرأها حُبّا
ونجوم نحن نرعاها لكى ... نجتليها ، بعد حين ، شهبا
يا رعاها الله من ناشئة ... تعشق العلم ، وتهوى الأدبا

***

أين من عينى منظار الصبا ... هل دجا من صدأ ، أو ذهبا ؟
كم أضاء الكون فى نفسى ، فلم ... أدر للعيش شقى أو وَصَبَا ؟
فأرونى فى سنا أعينكم ... مجتلى صفوا ومرأى عجبا
أعبر الدنيا كأنى ناشىء ... لا أبالى جدها واللعبا

***

بهجة الوالد ما أروعها ... حينما يلقى بنيه النجبا !
نعمة لم يسل عنها بشر ... ربّ جاه أو عديماً متربا
«زكرياء» وهو هاد مرسل ... لم يطب بالعقم حتى أنجبا

***

يارياضا نحن نكسو دوحها ... من دم الأذهان زهراً أطيبا
تخلع الأثمار فى إبانها ... وتساقى فى ذراها الأربا
جددت أحلامكم فى خاطرى ... سُنَناً خصباً ، وقالا أخصبا
فكأن النبت قد من له ... قصبى يكشف عنه الحجبا
ويحيى فى العلا أبناءه ... موكبا يزحم فيها موكبا
مثلكم أكرم ذخر للذى ... لم يخلف فضة أو ذهبا
حسبى اليوم عزاء بينكم ... أن أرانى قبل إعراسى أبا
نحن إن لم نأتلف من رحم ... فلنعم العلم فينا نسبا
دام للآمال فى آفاقكم ... مطلع الفجر على أفق الرّبا

(دمنهور) عبد الحليم داود

النافذة المغلقة

لمن يشرق الفجر ضاحى الجبين ، ويمضى بموكبه الزاهر
تحف به صادحات الطيور بإنشادها الملهم الساحر
وتهتز تيجان تلك الأزاهير فى فرحة الشرق الباكر
سألت لمن راح يمشى الصباح محركا بموكبه الباهر ؟

***

تساءلت حتى تبدى هنالك يطرق نافذة مغلقه
يهز أناملها فى ازدهاء لينها .. آه ما أحمقه
لقد تركته ولاذت بحلم عميق تقصر أن يلحقه
وجف على بابها مدمع بهذا الندى كان قد رقرقه

***

وعاد بأطياره الصادحات يجمع ألحانها الذائعه
ليغرى مسامعها القافيات بسر تمنى لو ان تسمعه
ونضر فى وجنات ورود تفوح بأعطارها فائحه
ولكنها لم تبال الغناء ، ولا العطر ، واسترسلت نائمه

***

مضى يتسكع فى بابها ليارحا آن أن نرمقه
ولكنها لم تبال به وظلت نوافذها مغلقه
فولى زهاء وعاد يجرر ثوبا من الصفرة الزعفه
تراءى الطيور بأعقابها تعود بأحزانها مطرقه

***

تأسّ أيا قلب .. لست بأول صب على بابها يجرح
ولست بأول زهرة حب تعود بأحزانها تنفح
ولكن كما الفجر سوف يعود إليها غدا ضاحكا يصدح ؟
كذلك يا قلب سوف نعود .. لعل نوافذها تفتح !

محمد الحافى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٣٦٩

العدد ٣٨٨ — الثلاثاء ٥ من رجب سنة ١٣٦٥ — ٤ من يونيه سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العــــــدد

توحيد المرحلة الأولى

في التعــــليم

أخذ المجلس الأعلى للتعليم في بحث هذه المسألة وما يتصل بها، ولا نغالي إذا قلنا إنها في نظرنا أهم المسائل التعليمية وأجدرها بالعناية والدرس. فالمرحلة الأولى من التعليم هي التي تخلق الجيل الجديد وتكوّنه وتصقله، فإذا أرادت الأمة لمستقبل أبنائها وللسواد الأعظم من شعبها صلاحاً ونجاحاً وسعادة فسبيلها الطبيعي إلى تحقيق ذلك هو العناية بالمرحلة الأولى من التعليم لتهيأ فيها كل الوسائل المعدة الضرورية لتحقيق هذه الأمنية القومية العزيزة.

هذه حقيقة لا نظن أنه يختلف فيها اثنان. فالناس من قديم الزمان يعلقون أهمية كبرى على التعليم في الصغر، وفيه قال الحكماء أقوالا عديدة مأثورة توارثها الناس جيلا بعد جيل. وجاء العلم الحديث، فأيد وجهة النظر هذه، وذهب رأي من أحدث الآراء إلى أن الطفل يكاد يكون قد تكون تماماً من الناحيتين العقلية والخلقية في نهاية هذه المرحلة الأولى من حياته بل وقبل نهايتها.

لذا نرى أن الأمم الراقية على اختلاف اتجاهاتها وتباين طبائعها تولي هذا التعليم وافر عنايتها وتتعهده بكل ما في طاقتها وتغدق عليه نسبة كبيرة من ميزانياتها المرصودة للتعليم بوجه عام. ونحن في مصر قد نكون أحوج من هذه الأمم كلها إلى انتهاج هذا النهج واتباع هذه الخطة وتأييد كل حكومة تسير في هذا السبيل ومقاومة كل حكومة تتنكبه أو تحيد عنه أو تقره ظاهراً ومن طريق الكلام وتخالفه عند التطبيق والتنفيذ مخالفة قد تكون مستترة.

وإنا نصارح المجلس الأعلى بأن الوسيلة الوحيدة لإصلاح هذه المرحلة الأولى من التعليم هي توحيدها توحيداً

صادقاً لا مواربة به ولا استثناء، توحيداً يدفع بأبناء حضرات أعضاء المجلس الأعلى إلى نفس المدرسة التي يؤمها أبناء مرءوسيهم أو أمثال هؤلاء المرءوسين من طبقات الشعب.

ولا أقصد أن يتحقق ذلك في الحال اليوم أو غداً، ولكني أقصد أن يتحقق في القريب العاجل أو في زمن معقول يقتضيه التطور الطبيعي ويكون ذلك عن طريق حشد القوى جميعاً إلى النهوض بهذه المرحلة الأولى من التعليم الموحد وتوجيه الجهد الرئيسي ومعظم المال المرصود للتعليم إلى هذه المرحلة.

أما أن يقال إنه لا مانع من العناية بهذا التعليم على صورته الغالبة في التعليم الأولي والعناية في الوقت نفسه بهذا التعليم على صورته الموجودة في التعليم الابتدائي وعلى الصورة الجديدة التي طرحت للبحث في المجلس الأعلى هذه المرة وهي المدارس الخاصة، فهذا طريق قد جربنا بعضه من قبل وكانت النتيجة إهمالاً للتعليم الأولي الذي هو لعامة الشعب وعناية نسبية بالتعليم الابتدائي الذي هو للخاصة، وليس هذا من العدل في شيء.

وإني أقرر هنا أن تعليم الغالبيـة العظمى من الشعب في أمس الحاجة إلى الإصلاح العاجل الشامل الذي يتطلب مالاً وافراً وجهداً مضنياً. وأما التعليم الابتدائي فيصح أن تظل مدارسه الموجودة قائمة تؤدي مهمتها ريثما يرتفع مستوى المدرسة الموحدة فتندمج فيهـا تلك المدارس الابتدائية، ولا يصح أن يزاد في عدد المدارس الأخيرة أو يتوسع فيها، فإن ذلك سرعان ما يرهق الميزانية ويعجزها عن العناية بالتعليم الشعبي.

وإصلاح المدرسة الابتدائية الحالية ينحصر في نظرنا في إصلاح الروح السائدة فيهـا والعناية بالتهذيب والتربية بقدر يوازي العناية الحالية بالتلقين والإعداد للامتحان.

وأما المدارس الخاصة فإني أقرر هنا أنها ليست من عمل وزارة المعارف، وما ينبغي لها أن تشغل وقتها بها، وليس لديها من الوسائل ما يكفل النجاح في مشروع كهذا، وذلك لعدة أسباب نشير إلى بعضها فيما يلي:

إن فكرة المدرسة الخاصة مرتبطة تمام الارتباط بالشخص المشرف عليها، وهي في الغالب من وحي تفكيره ومستمدة من فكرة مسيطرة على صاحبها تكيف روح المدرسة وتسيطر على كل نواحيها سيطرة إيحاء وتوجيه لا سيطرة رياسة وقمع، وهذا هو الشاهد في بلاد كانجلترا في معظم المدارس الخاصة بها إن لم يكن في كلها.

وقد مضى علينا زمن ليس بالقليل منذ تسلمنا مقاليد أمور التعليم، فلم نشهد رجلا اعترفت له الوزارة بأصالة الرأي وصواب الفكرة وسلمت إليه مدرسة ترك حراً في تسييرها وتوجيه سياستها والنظر إليها والتكلم عنها كمدرسته الخاصة التي ترجع كل خصائصها ومميزاتها إلى شخصه. بل الشاهد أن النظار يتغيرون كل عام كقطع الشطرنج بغير أدنى استثناء.

والواقع أن العمل في أية مدرسة من مدارسنا يجري نتيجة لعدة تيارات متباينة وقد تكون في كثير من الأحيان متعارضة؛ فالناظر له رأي والمفتش له آخر والمراقب له ثالث وهكذا. فهل يصح لنا أن ننتظر أن نظاماً كهذا تنبت فيه وتنمو مدرسة خاصة تستحق هذا الاسم المستمد من فكرة خاصة ومميزات خاصة وأسلوب خاص الخ؟ هذا بعيد عن تصورنا.

ولكن هبه كان ممكنا، فهل وظيفة الدولة أن تنصرف لنوع من المدارس لن يضم جزءاً من مائة ألف جزء مما تضمه المدارس الشعبية؟ كلا. إن كل ما تستطيعه الدولة تجاه مدارس كهذه أن تشجع الأفراد القائمين عليها تشجيعاً أدبياً ومادياً محدوداً. أما هذه المدارس الخاصة فيجب أن تقوم على أكتاف أصحاب الفكرة فيها، وأن يتحمل نفقاتها الأبناء الذين يختارون التعلم فيها، وهذا خير لهم وأوفر، لأن الفرد حين يدير مدرسته يديرها إدارة تدبير واقتصاد،

فلا تتكلف عشر ما تتكلفه لو قامت بإدارتها الحكومة .

ثم إن الدولة تستطيع أن تعين أصحاب المدارس الخاصة بوسيلة أخرى فنية ، وذلك عن طريق الدراسات النفسية الفنية على أيدى العلماء المتخصصين عندها ، وإسداء النصح وإبداء الرأى الفنى إذا طلبه أصحاب تلك المدارس الخاصة

هذا رأينا أوردناه بكل صراحة ، ونرجو أن يتدبره أولو الأمر وأعضاء المجلس ويصرفوا جهدهم كله أو معظمه على الأقل فى سبيل إصلاح تلك المدرسة الموحدة التى نرجو أن تكون بمثابة العمود الفقرى الصحيح القوى الذى يشد أزر الجيل الجديد ، وتكون منبع الثقافة والنور للقرية كلها كبارها وصغارها ومركز الإرشاد والإصلاح الاجتماعى فى الوسط الذى تقوم فيه .

لقد انقضى العهد الذى كانت الإصلاحات التعليمية تبدأ فيه فى المدارس الراقية غير الأولية ، وأصبحنا الآن فى عهد ينبع فيه الإصلاح الحقيق من هذه المدارس الشعبية التى كنا إلى عهد قريب نقلل من شأنها .

ولقد شاهدت بنفسى قبيل الحرب فى أوربا كيف أن معظم جهود الإصلاح موجهة إلى تحسين هذا التعليم فى المرحلة الأولى التى تعم على جميع أفراد الشعب بلا استثناء ، ورأيت أحدث الآراء تطبق فى مدارس هذه المرحلة .

ومنذ أيام قليلة عثرت على وصف جميل لمدرسة أولية حديثة نزت كل ما تقدمها فى أساليبها ، وهى فى الواقع مدرسة خاصة أنشأها رجل اكتوى بنار التعليم الأولى الرجعى وقاسى فى حياته المدرسية الأولى آلاماً مبرحة ، فآلى على نفسه أن يخرج للناس بمدرسة يحقق لتلاميذها السعادة والهناء إلى جانب التعليم ويذيقهم طعم الحياة الحقة التى يكسبون بها المران والخبرة التى تعينهم على حسن التصرف فى حياتهم العملية المستقبلة ، وحسن التصرف فى الواقع هو فى رأينا أعظم كفيل للسعادة فى الحياة .

نظر هذا المصلح إلى كل ما كان يضايقه فى صغره فى حياته المدرسية فاجتثه من أساسه فى نظامه الجديد ، ووفر لتلاميذه فى مدرسته الحرية وأسباب المسرة ومرغبات الدرس ، بحيث أصبحوا راغبين فى البقاء بها من تلقاء أنفسهم من أول النهار إلى أن تحين ساعة نومهم . وهو لا يثقل عليهم فى واجباتهم الدراسية ولا يكلفهم بأكثر من ساعة واحدة إجبارية فى النهار كله .

وقد نستطيع أن نأتى فى أحد الأعداد التالية من هذه المجلة على وصف لهذه المدرسة ، لعلنا نجد فيه شيئاً ينفعنا ونحن نرسم لأنفسنا صورة لما نحب أن تكون عليه هذه المدرسة الموحدة الجديدة التى نرجو أن تقوم بمصر بأول فرصة فتقضى على فروق الطبقات كما تقضى على تعاسة الحياة المدرسية . والله الموفق الهادى .

أحمد عبد السلام الكرداني

مبالغة فى التقدير

ارنست همنجواى من أكثر الروائيين الأمريكيين نجاحاً ، وكتبه تطبع عشرات الطبعات ثم تباع بعد ذلك لشركات السينما فيربح من وراء ذلك أموالا لا تحصى ، وتتهافت الطلب عليه من الشركات ، فهو لهذا لا يجد متسعاً لكتابة القصص الطويلة لشركات السينما ، وإنما يكتفى بكتابة الفكرة وتلخيص خطوات الرواية فى كلمات قليلة ، وقد دفعت له إحدى الشركات أخيراً ٢٥٠,٠٠٠ جنيه فى قصة لا تزيد عدد كلماتها عن ٣٥٠٠ كلمة أى أنه تقاضى عن الكلمة الواحدة واحداً وسبعين جنيهاً .

وقد كان الناس يظنون أن أحداً لم يكسب من كتاباته بقدر ما كسب كبلنج ، كانت تدفع له ستة بنسات عن الكلمة الواحدة ، فأين هذا من ذلك ؟

عن سكوتسمان

٢ - الشيخ محمد عبده

تحول محمد عبده من الجامع الأحمدي إلى الجامع الأزهر لأن الأزهر هو المثل الأعلى للتعليم في المعاهد الدينية.

والتعليم في الأزهر إذ ذاك - وكما رأيناه إلى عهد قريب - يلقي عبء الطالب كله على نفسه من غير أن يحمل أحد أي عبء عنه، فما عليه إلا أن يسجل اسمه في دفاتر الأزهر ثم يفعل ما يشاء، إلى أن يتقدم لامتحان العالمية، فهو الذي يختار مدرسه ويختار علومه ويحضر أو لا يحضر، ويجد أو يلعب، ويفهم أولا يفهم، كل هذا متروك إلى نفسه، وهو أسلوب يفيد الخاصة ويضر العامة.

يأتي الطالب من بلده فيسكن في غرفة في حي الأزهر، وقد يشركه في الغرفة طالب أو أكثر، وفي الغرفة كل أدواته وأدواتهم، حصير مفروش على الأرض وصندوق فيه بعض الملابس وبعض الزاد ومرتبة ولحاف يفرشهما ليلا ويطويهما صبحاً و«حلة» يطبخ فيها بنفسه من حين لآخر في نفس الغرفة - وقد حدث محمد عبده عن نفسه أنه غضب على كتاب فطبخ به عدساً - ومن حين لآخر يأتيه الزاد من البلد، بعض الخبز وبعض الجبن وشيء من السمن، فإن كان أهله في شيء من الثروة فشيء من الفطير وشيء من الدجاج المذبوح وهذه هي دنياه.

والطالب المجد يصحو عند أذان الفجر فيصلي الصبح ويذهب إلى الأزهر ليحضر درس الفقه ويستمر الدرس إلى الضحى، والشيخ يقرأ في الكتاب وهو متربع على كرسي حوله الطلبة، فإن كان عدد الطلبة قليلا استغنى عن الكرسي وجلس على «فروة»، أما الطلبة فيتربعون على الحصير، ومن كان منهم من أبناء الأعيان جلس كذلك على فروة، والشيخ يقرر الجملة ويشرحها والطلبة يسمعون أو يعترضون والشيخ يجيب، وأحياناً يحتد الشيخ فيضرب أو يلعن، ولا ينتقل الشيخ من جملة إلى جملة إلا بعد أن يقتلها بحثاً، وقد تضيع الساعتان أو الثلاث في سطر إذا اقتضى الحال، فإذا ختم الشيخ درس الفقه بقوله: «والله أعلم» انصرف الطلبة يبحثون عن «فطورهم» فمن كان منهم له «جراية» - وهي رغيفان أو ثلاثة أو أربعة - تسلمها من رواقه وخرج إلى محيط الأزهر حيث دكاكين الفول المدمس والطعمية فاشترى منها ما شاء، وإن كان طالباً متقدماً بعث طالباً صغيراً يقوم عنه بهذا العمل، وإن كان فقيراً باع رغيفين أو أكثر من الجراية ليشترى بثمنهما إداماً، وإن كان مترفاً استعاض عن الفول بألوانه بالجبن والزيتون والحلاوة الطحينية في بعض الأيام، وإذ ذاك ترى الأزهر كله مائدة للطعام، حلقات حلقات، ويُعد هذا فطوراً وغداء معاً.

فإذا انتهى الطلبة من هذا جلس المجدون يطالعون درس النحو القادم، فإذا فرغوا منه كان الظهر قد أذن فتقام الصلاة ويبدأ درس النحو على نحو درس الفقه فيمتد ساعات وقد يصل إلى العصر.

وبعد استراحة الطالب بعد درس الفقه القادم وينتهي بذلك يومه العلمي فيعود إلى بيته، وإن احتاج إلى ضوء فمصباح يشتعل بالجاز بواسطة فتيلة من غير زجاج ولا بأس بدخانه، وإذا اشترك جماعة في غرفة وكانوا فقراء تقاسموا ثمن الجاز كلٌّ عليه ليلة أو أسبوع، وقد حدث الهلباوي أنه تنازع مع زميله على ثمن الجاز لأنه لم يشأ أن يدفع نصيبه.

ويتدرج الطالب في الكتب، كل سنة كتاب في الفقه وكتاب في النحو، إلا إذا طال الكتاب فيقرأ في أكثر من سنة، ولكل كتاب - تقريباً - متن هو الأصل وشرح يشرح المتن، وحاشية تشرح الشرح، وقد يكون تقرير يشرح الحاشية، والشيخ يطالع كل هذا استعداداً لما يعطره الطلبة عليه من الأسئلة، فيبدأ الشيخ بقراءة المتن

ويشرحه بجميع ما كتب عليه مناقشا مهاجماً مدافعاً حتى تنتهي المعركة بإنهاء الدرس .

وإذا انتهت كتب الفقه حل محلها كتب أصول الفقه ، وإذا انتهت كتب النحو حل محلها كتب البلاغة .

وعلى هامش هذه الأوقات قد يحضر الطالب المتقدم دروساً صباحية بعد صلاة الفجر مباشرة أو دروساً مسائية بعد المغرب في علوم أخرى كالتفسير والحديث والمنطق .

وليس بالنادر أن تسمع صيحة تقوم في الدرس أو قبله أو بعده لاختلاف طالبين على مكان في الحلقة أو نحو ذلك ، فيتضاربان ويتعصب أهل الصعيد للصعيدي وأهل البحيرة للبحراوي فتكون معركة حامية يتدخل فيها جنود الأزهر المسمون بالمشدّين .

فإذا مررت بصحن الأزهر رأيت حصراً مفروشة نثر عليها خبز مما أرسله أهل المجاورين إليهم ليتجفف في الشمس خوف العفن .

ورأيت ثيابا منشورة ومياهاً مصبوبة الخ وفي الدروس ترى مريضاً بجانب صحيح ، وقذراً بجانب نظيف ، ولم يفكر أحد في إشراف طبيب .

وقلّ أن تسمع مدرسا تعرض في درسه لمسألة خلقية أو حث على فضيلة أو حذر من رذيلة .

كل الكتب التي كانت تدرس في الأزهر من نتاج العصور المتأخرة تحدرت من العصور الزاهية ، ولكن عدا الزمان عليها فأفقدها روحها فصارت شكلا . النحو كان يراد منه النطق الصحيح والكتابة الصحيحة وفهم كتب الأدب فهماً صحيحاً فصار مجرد تفهم لألفاظ المؤلفين في النحو . وأصول الفقه كان يقصد منه التمرن على الاجتهاد في التشريع فأصبح ولا اجتهاد ولا تشريع . والبلاغة كان يقصد منها كيف يكتب القول البليغ فصار المؤلفون فيها أعاجم لا يحسنون التعبير كالسعد التفتازاني ، أتيح لهم التأليف أيها لم تعد بلاغة ، وأتيح لنفسه الشيخ أحمد الرفاعي أن يدرس أكبر كتاب في البلاغة على هذا النحو وهو المطول ، ثم يعترف أنه لا يحسن أن يكتب خطابا ولو غير بليغ ، لأن هذا من عمل تلاميذ المدارس المدنية ، وهكذا .

واشتهر من فطاحل العلماء في هذا العصر الشيخ أحمد الرفاعي هذا ، وأساس شهرته أنه يحسن فهم الكتب ويستطيع تحليل الجمل وإثارة الشبهات حولها حتى يعقد السهل ويغمض الواضح . والشيخ عليش وهو شيخ من أصل مغربي شهرته في تدينه وعصبيته ورميه الناس بالكفر لأوهى سبب وضيق أفقه وشدة غيرته على الدين بالمعنى الذي يفهمه . ولكن كان هناك آخرون هيأتهم الظروف لأن يتصلوا بالدنيا وحركة التعليم المدنية فاتسع أفقهم كالشيخ البسيوني إمام المية ، وكان ظريفاً في شكله وفي ملبسه وفي تآليفه ، والشيخ حسن الطويل ، وكان ذكياً حكيما له نظرات في الحياة صائبة يقرأ الفلسفة غير مبال بالزندقة .

هذا هو الأزهر الذي رآه محمد عبده . يقوم التعليم فيه على الفلسفة اللفظية ، ويعلم طالبه الدقة في الفهم والقدرة على الجدل . وهذه محمدة ، ولكن مع الأسف لا تستخدم هذه الدقة ولا الجدل إلا في الألفاظ وتجعل صاحبها غارقاً في الاحتمالات مما يراه في الحواشي والشروح من التأويلات ، فكل شيء يجوز حتى دخول الجمل في البندقة على حد تعبير الشيخ محمد عبده نفسه — يتم الدراسة فيه فيخرج وقد قرأ بضعة كتب ، أما الدنيا وشؤونها فإنه يجهلها كل الجهل ، فلا جغرافيا ولا تاريخ ولا طبيعة ولا كيميا ولا رياضة ، فكل هذه علوم أهل الدنيا ، وما للآخرة والدنيا ! ومع هذا فالنزاع على الجراية كثير وعلى الوظائف الصغيرة أكثر ، كل شيء خارج من المألوف كفر أو حرام أو مكروه ؛ فتحويل «البشأة» القذرة إلى «حنفيات» حرام وذهاب البركة ، وقراءة كتب في الجغرافيا أو الطبيعة أو الفلسفة حرام ، ولبس «الجزمة» بدعة .

فإن تحركت نفس صالحة للإصلاح خنقت دعوتها في مهدها ورميت بالزندقة .

ومثل هذه البيئة تنتج عقولا جامدة ونفوساً خامدة إلا أن يتداركها الله بمدد من الخارج ، وقد ذكر الشيخ محمد عبده نفسه أنه حاول أن يغسل أثر هـذه البيئة فنجح في بعض وفشل في بعض . فإن رأيت نابغة خرج منها فبرغمها لا بفضلها . ومن الأسف أن ولاة الأمور من أول الأمر مع علمهم بنقصه وحاجته إلى الإصلاح خوفاً من العلماء ، ورأى العامة ، تركوه وشأنه يأكل بعضه ، وأنشأوا بجانبه المدارس المدنية يشكلونها كيفما يشاءون .

***

في هذا الجو عاش صاحبنا نحو اثنى عشر عاماً ، من سنة ١٢٨٢ — ١٢٩٤ حيث نال شهادة العالمية من الأزهر

وفي هذا الجو المظلم كانت تلمع ثلاثة نجوم أضاءت جوانب نفسه : الشيخ درويش والشيخ حسن الطويل والسيد جمال الدين .

فالشيخ درويش كان يلقاه الشيخ محمد عبده في بلده في الاجازة من نصف شعبان إلى نصف شوال كل عام ، فيتمم له ما بدأه منذ لقنه الدرس الأول في التصوف وتنقية العقيدة ، ويعرض عليه الشيخ محمد عبده ما درسه في العام وما في نفسه من أزمات فيتلقى ملاحظات الشيخ وإرشاداته ، وقد لقنه درسين جديدين هامين : الأول نقده لمحمد عبده على عزلته وعدم اتصاله بالناس وقصر عنايته على تكميل نفسه من غير اتجاه إلى إصلاح من حوله ، ولم يكتف الشيخ درويش في ذلك بالكلام النظرى بل حمله على أن يغشى المجتمعات في البلد معه ويتحدث إلى الناس ويعظهم ويذكرهم ، ويدعو محمد عبده للتحدث معهم كحديثه ونصحهم كنصحه ، وهو درس انتفع به محمد عبده ونفذه طول حياته إلى نفسه الأخير ، فإن زاد السيد جمال الدين شيئاً في هذا الدرس فهو تعليمه كيف يختار موضوعات الكلام في الإصلاح . والدرس الثاني الذي علمه الشيخ درويش هو هدمه للنظرية الأزهرية التي تقول إن هناك علوما تعلم وعلوماً لا تعلم ، فكسر الشيخ درويش هذه الحدود وقرر أن كل العلوم يجب أن تعلم ويجب أن يطلبها الطالب ما أمكن ، ولا يستثنى من ذلك شيئاً إلا ما يتخذ شكل العلم وليس بعلم كالسحر والشعوذة أما المنطق والفلسفة والرياضيات وما إلى ذلك فليست بحرام بل هي واجبة على طالب العلم . ومن أجل ذلك عاد الشيخ محمد عبده إلى الأزهر يطلبها فوجدها عند الشيخ حسن الطويل ، وهو شخصية غريبة ، ذكاء حاد ، ومعرفة بالرياضيات حتى كان يحل لطلبة دار العلوم ما أشكل عليهم من تمرينات هندسية ، واتصال بكتب الفلسفة القديمة وعلم بمصطلحاتها ومعرفة بالدنيا وبالسياسة ، وشجاعة في الكلام عما يعتقد ولو حرم منصبه في دار العلوم ، وزهد في الدنيا حتى لا يهمه منها شيء ، يلبس قفطاناً من البفتة وجبة من البفتة أيضاً ، ويقال له : إن علي مبارك باشا سيزور دار العلوم غداً فيعزم أن يلبس كما يلبس كل يوم ، فينصح بأن يتخذ شيئاً من الأناقة ، فيقول : إذاً أبعث بجبة من الصوف وقفطان من الحرير إلى دار العلوم ، أما إن أردتم « حسن الطويل » فهو هو في ملبسه . ويدعى إلى موائد الأغنياء للإفطار في رمضان فيأكل من طبق الفول ويزهد فيما عداه ، ويطرد من دار العلوم لكلامه في السياسة فينفق عليه صاحب مقهى بلدى ، فإذا عاد إلى عمله سلمه الشيخ حسن الطويل مرتبه ليصرف عليه كما كان يفعل وهو مطرود . ويدرس في الأزهر الفلسفة والمنطق فيحضر دروسه نخبة من الطلبة مثل محمد عبده فيرمى هو وتلاميذه بالزندقة .

ولكن دروس الشيخ الطويل تفتح شهية الشيخ محمد عبده ولا تغذيه ، فيجد الغذاء الكافي عند السيد جمال الدين عند حضوره إلى مصر ، فيتصل به ويلازمه وتتفتح له آفاق كانت مغلقة ويحس أنه وجد طلبته .

(يتبع) أحمد أمين

الحروفية

— ٣ —

ولم يكن أتباع فضل الله الحروفي أول من أشاد بذكر أهمية الحروف في نظام الكون وفي الخطوط الإنسانية ، فقد دان المتصوفة وأصحاب العقائد الباطنية بهذه الفكرة قبل تكون فرقة الحروفية بزمان . في شرق المملكة الإسلامية وفي غربها . اعتقد بها من درس علم « الجفر » وهو « العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحتوى على كل ما كان وما يكون كليا وجزئيا . »[1] . ودرسها من اعتقد بعلم السيمياء ، وهو « علم أسرار الحروف واستخراج الأجوبة من الأسئلة »[2] ومن اعتقد بعلم التنجيم والسحر والطلسمات .

وقد وزعت الحروف على صورة جداول تتناسب مع عدد البروج والطبائع الأربع وقيمها العددية . وترتيب ألفاظ الجلالة والأسماء الحسنى . ويجد الإنسان في هذا التوزيع العقائد الشرقية ممزوجة بالأفكار الغريبة ، يجد « التعاليم السرية » التي كانت شائعة عند البابليين والصابئة والسريان و« القبالة » اليهودية وأسرار حروف التوراة التي أجهد الفيلسوف اليهودي فيلون (Philo Judaeus) (ولد حوالي سنة ٢٥ قبل المسيح)[3] للتعرف عليها ولتفسير معانيها الباطنية ، ممزوجة امتزاجاً عجيباً بالأفكار اليونانية القديمة ، لاسيما أفكار متصوفة اليونانيين . والفيثاغوريين والأفلاطونيين والثيوصوفيين منهم[4] .

(١) راجع كشف الظنون لحاجي خليفة جـ ١ ص ٥٩١ .

(٢) كشف الظنون جـ ٢ ص ١٠٢٠ ومقدمة ابن خلدون ص ٤٤٣ .

(٣) راجع كتب هذا الفيلسوف ورسالته وقد طبعها بالألمانية العالم Cohn Wendland في سبعة مجلدات ١٨٩٦ — ١٩٢٨ م .

(٤) راجع قاموس الفلسفة لعالم المجيد ص ١٥٧ .

يحاول الحروفية وهم من جملة أصحاب المذاهب الباطنية إرجاع أسس مذاهبهم إلى أصول قديمة جداً قد يرجعونها إلى الآلهة نفسها أو إلى الإله الواحد بحسب نوع ديانة تلك الفرق . ويرجع الحروفية المسلمون أساس الحروف الثمانية والعشرين مثلا إلى الإمام على بن أبي طالب ، وقد أخذها هذا الإمام على رأيهم عن الرسول ، وقد أخذها الرسول عن طريق الوحي من الله[1] .

وزعم أصحاب الجفر وهم يعتمدون في علمهم إلى حد كبير على الحروف بأن آدم أبو البشر كان قد سجل الحروف في سفر دون فيه ما جرى للأولين وما سيجرى للآخرين[2] وأن الإمام علياً قد سجل علمه على رق وقد توارث أبناؤه هذا العلم من بعده . وكان أعلمهم في هذا الباب الإمام جعفر الصادق الذي ينتسب إليه بعلمهم أكثر أصحاب علم الجفر[3] .

يستند الحروفية في تفسير قيم الحروف على أسماء الجلالة وعلى ترتيب حروف أبجد . وعلى ما وجدوه من تناسب بين العدد وبين ترتيب الحروف وقد أدى بهم اعتقادهم بأسماء الجلالة إلى الاعتقاد بحقيقة أجزاء تلك الأسماء ، وهي التي تسميها «الحروف» . فالحروف على زعمهم حقائق ثابتة بل هي أثبت من الحقائق المادية نفسها ، حتى قالوا بأنها أقدم من الحقائق ، لأن المحسوسات متأخرة بالنظر إلى المعاني ، ولذلك فالحروف حقائق تختلف باختلاف مراتب تلك الحروف ، وأعلى الحروف مرتبة هو حرف الباء في « بسم الله الرحمن الرحيم » وأعلى ما في الباء النقطة ، ولولا هذه النقطة لما حصل الباء ، ففي هذه النقطة تلتقي الأسرار وفي

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٥٩١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٢ وكشف الظنون جـ ١ ص ٥٩١ .

هذه النقطة تجمع كل معاني الوجود[١].

والحروف هذه صلة وثيقة بكلام الله وبكيفية الكلام، فإذا كان الكلام هو كلام الله فهل يكون كلام الله إذاً حادثاً أم قديماً وإذا قلنا إنه قديم فهل تكون الكلمات والحروف قديمة أم حادثة. وهل تعتبر الكلمات وبضمنها الحروف مجرد رموز وإشارات لمعان قديمة أم أن المعاني نفسها صورة طبق الأصل للكلمات والحروف، لا تظهر إلا بها ولا تبرز إلا بهذا الشكل الذي نسميه نحن «كلاماً».

وقد تعرضت اليهودية لهذه المشكلة كما تعرضت المسيحية لها أيضاً. تعرضت في أوائل أيامها وتجسمت في العصر «المدرسي» حيث اصطبغت الفلسفة المسيحية بالفلسفة اللاهوتية (Scholastic) فظهرت في أوربا ثلاثة مذاهب: مذهب الواقعيين (Realismus) الذين فرقوا بين المادة والمعاني[٢] ومذهب أصحاب المعاني (Nominalismus) وهو المذهب الذي يقول بأن وجود المعاني قبل وجود الحقائق وأن وجود الأشياء إنما هو بوجودها في الذهن. وكان (Johann Roscellinus) (١٠٥٠ – ١١٢٠م) من أعظم المتأثرين بهذا الرأي[٣]. ثم مذهب (Konzeptualismus) أو مذهب أصحاب الخواطر، وهم الذين يقولون بإدراك الخواطر والطيف المعقل قبل إدراك الماديات[٤].

ويمكن إرجاع هذه المشكلة التي تعرضت لها الفلسفة الأوربية المسيحية إلى المؤثرات الفلسفية الإسلامية، التي دخلت إلى المسيحيين عن طريق الأندلس ولا سيما عن طريق آباء الكنيسة الذين درسوا في اسبانيا واليهود الذين تأثروا بالفلسفة العربية. وإلى الآراء الصوفية المتقاربة المشتركة فيما بين المسيحيين والمسلمين.

وللحروف نفس هذه الأهمية عند المتصوفة وعند الاسماعيلية وعموم الفرق الباطنية. وفي كتب البوني وابن عربي الذي فسر القرآن كتفسير أصحاب الحروف فيما بعد، وابن سبعين والجيلي وأمثالهم ما يظهر أهمية الحروف بالنسبة لأصحاب التصوف[١].

وفي كتاب «جاودان كبير» وهو أساس كتب أتباع فضل الله الحروفي تفاصيل عن الحروف وخصائص تلك الحروف. وعلاقتها بالنسبة للخالق والكون. أول ما خلق الله من الأشياء الحروف ومن الحروف تكونت النسب والمراتب، وعلى تلك النسب يتوقف الكون.

ولهذا الكتاب قدسية خاصة في نظر الحروفية وهم يتدارسونه فيما بينهم ويحافظون عليه، ويعرف باسم «جاودان كبير» تمييزاً له عن الكتب الخمسة الأخرى التي عرفت فيما بعد باسم «جاودان» وهي من الكتب السرية التي لا يجوز أن يطلع عليها الغرباء، وقد كتبت في الأصل باللغة الفارسية المحلية بلهجة أهل استراباد[٢]، وكتب بعض أجزائها باللغة التركية. وقد نشر المستشرق الافرنسي كليمان هوار نصوصاً من نصوص الحروفيين بسلسلة «جب» (Gibb) التذكارية. وقدم عليها بمقدمة باللغة الافرنسية، وقد اشترك معه في إصدار هذه النصوص الدكتور رضا توفيق[٣].

ولدى المؤرخ العراقي المحامي عباس العزاوي، وهو ثقة بتاريخ المغول وبالعصور المظلمة التي تلت سقوط الدولة

(١) راجع الباء، وهو الحرف الأول من القرآن الكريم Harlen. Philosophy. P. 130 وللباء أهمية في تعاليم البابية أيضاً. فيه تنيل كل المعاني. Harlen. P. 145.

(٢) Hartmann. Metaphesik of Knowledge. 1925

(٣) windelband. P. 221

(٤) windelband. introduction for Pyliosophy P. 227. (Sermonianws)

(١) Gold Ziher. P. 246, 274, 362

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٣٣٨.

(٣) راجع Clemant Huart. Hurufis Texts. Gibb memorial Seric .XV

الباطنية، أكثر كتب الحروفية الأساسية مثل « جاودان كبير » والكتب الخمسة ، وبعض دواوينهم مثل « ديوان نسيمي البغدادي » (نسيم الدين) وهو شاعر عراقي الأصل أخذ بطريقة أهل الحروف[1].

وقد انتقلت آراء الحروفية إلى جماعة من المتصوفة هم « البكتاشية » وهم أتباع « بكتاش ولى » الخراساني الأصل ويعرف أيضاً باسم « الحاج بكتاش » وهو درويش ادعى الولاية وأخذ الطريقة عن درويش آخر اسمه « الشيخ لقمان »[2].

وقد دون أتباع الحاج بكتاش سيرة وليهم في كتبهم ولاسيما في كتاب « ولا يتنامة » . ويتحدث هذا الكتاب عن مناقب الشيخ وكراماته وماقام به من معجزات وأعمال خارقة[3]. وفي كتاب آخر هو كتاب « مناقب بكتاش ولى » وأكثر ما ذكر في هذه الكتب عبارة عن أمثال هذه المعجزات التي تحيط شخصيته بشيء كثير من الغموض والظلام ، حتى ليخيل إليك أنه شخص خرافي أو بطل من الأبطال الذين تخترعهم المخيلة الشعبية عند أكثر الأمم[4].

وقد تأثر البكتاشية بآراء الحروفية ودانوا بأكثر آرائهم حتى يمكن أن يقال بأن البكتاشية هم البقية التي تبقت من الحروفية ، كما أن المعتزلة كانت البقية التي توارثت عقيدة القدرية التي قاومها الأمويون . ولكتب الحروفية في قلوب البكتاشية نفس المنزلة التي تمتعت بها عند الحروفيين . وتكاد كتب البكتاشية — وعند صديقنا العزاوي طائفة منها ذكرها في كتابه « العراق بين احتلالين » — تكون صورة طبق الأصل لكتب الحروفية وآرائهم وأفكارهم بالنسبة

(١) تاريخ العراق بين احتلالين للعزاوي جـ ٢ ص ٢٥٠ وما بعد .

(٢) تاريخ العراق بين احتلالين جـ ٢ ص ٢٥٠ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٤ عدد أول ص ٣٧ وما بعد (الترجمة العربية)

(٤) نفس المصدر. أيضاً Jacob. Bektaschija. Itroduction

إلى الله وإلى الاتحاد وعلم الباطن والحروف[1].

والظاهر أن « بالم سلطان » وهو درويش من دراويش هذه الجماعة كان أقوى شخصية ظهرت في عالم البكتاشية وأنه هو الذي نظم صفوف البكتاشيين ووضع قواعد طريقتهم وأصول اجتماعاتهم وتعليم تكاياهم وأسلوب معيشة دراويشهم الذين تجولوا في أنحاء تركيا العثمانية والذين أثروا على « الانكشارية » تأثيراً كبيراً حتى كان وعاظهم وخطباؤهم منهم . ولذلك عده أكثر العلماء المؤسس الحقيقي لفرقة البكتاشية[2].

وكان للبكتاشية منزلة مهمة في الحياة الدينية والاجتماعية بل وفي الحياة السياسية للامبراطورية العثمانية ، وكان لدراويشها الذين انتشروا في سائر أنحاء تلك الخلافة صوت مسموع كما كانت أعمالهم منسقة منظمة ، وكان لزعيمهم « البير » أو « حاج بابا » سلطان كبير على نفوس أتباعه ، سلطان يهدد نفوذ الحكومة . ولذلك حاول بعض السلاطين الاستفادة من هذا النفوذ ، كما حاول البعض الآخر التخلص منه ، ولذلك قاوموا البكتاشية وطاردوهم[3].

جواد علي

(١) Jacob Turkr Biblio. Bd. 19.

(٢) أحسن من كتب عن البكتاشية هو المستشرق Jacob في كتابه Die Bektaschije. Bayer. Aka. der Wissen. وفي المكتبة التركية .

(٣) Goldziher. Vorles. P. 158 .

فلنتعلم الحب...

حديث الناس عندنا عن الحب لا ينتهي ، تحدث الغلام اليافع فإذا به يشكو من الحب ، وتحدث الرجل الناضج فإذا حديثه كله شوق إلى الحب أو ألم من الهوى.. وتفتح الصحف فتجد أحاديث الهوى في المكان الأول ، وتفتح الراديو فتجد سيلا لا ينتهي من الدموع وآلام الصبابة ... وتجلس بين الناس فتجد حديثهم حباً خالصا : يا أخي أوحشتني وأظلمت الدنيا بنا في بعدك ! يا أخي أنت نور عيني وأنا عاتب عليك انقطاعك ! وهكذا ، حتى يخيل إليك أن هؤلاء الناس تفيض قلوبهم بهذه العاطفة النبيلة المباركة .... .

ثم تستمع إلى همس الناس إذا خلا بعضهم إلى بعض ، فإذا هو خلو من الحب أو ما يشبه الحب : هذا ساخط على ذاك ، وتلك غيرى من تلك ، وفلان حاسد لفلان ، ورابع كاره لزوجه ، وخامس برم بحبيبته يستفتى الناس : كيف أخلص منها ! وقد ترى الناس وهم ينصتون إلى أغنية غرامية فيها البكاء وفيها الشكوى ، فتجدهم كلما توقف المغنى يضجون ويصيحون كأنهم لم يفهموا من كلام الفتى شيئاً ، وكأن إنصاتهم هذا لم يكن إلا تصنعاً أو تظاهراً .

أحد أمرين : إما أن هؤلاء الناس لا يعرفون الحب أو أنهم يعرفونه ولكنهم لا يعرفون كيف يحسون به ..

• • •

الواقع أن هؤلاء الناس مشوقون إلى الحب ، وأن قلوبهم عامرة به لأنها قلوب ساذجة طيبة ... ولكنهم لا يعرفون ما هو الحب ولا يعرفون السبيل إليه .

هم لا يعرفون أن الحب في أساسه تضحية حتى لو بادلك الحبيب عاطفتك : الحب هو بضعة من نفسك تمنحها من تحب — رجلا كان أو امرأة — ولذة الحب هي في هذا الاعطاء ، والحب الذي يفكر في أن يأخذ قبل أن يعطى ليس حباً بل هو طامع وطالب كسب ، والحب الذي يتصور أن الحب لا يكون حباً حتى يكون متبادلا يخطىء في فهم هذه العاطفة ويشقى بها ، لأنه يجد من نفسه الميل إلى هذا الشخص أو ذاك ، ولكنه يشترط أن يعطيه الآخر قلبه مقدماً .. فإذا لم يعطه فهو يسخط عليه وهو يحقد عليه ، فلا هو أكرم عاطفته ولا هو ظل على حاله من غير حب أو كراهية ...

وهم يحسبون أن الحب لا يعرفه الإنسان إلا للمتعة واللذة وأنه لهذا لا يكون إلا بين رجل وامرأة وهذا خطأ ، فالحب ينبغي أن يكون أساس علاقاتنا كلها : ينبغي أن نحب عملنا من كل قلوبنا ، ينبغي أن نحبه ولو لم نبلغ عن سبيله كل ما نرجو من المال وراحة البدن ، ينبغي أن نمارس عملنا ونحن نعرف أننا نضحي ، وأن لا نغضب إذا لم ننل جزاء هذه التضحية ، ينبغي أن نحب بيتنا ولو لم يكن أجمل البيوت ولا أغلاها أثاثاً ، لأن هذا الحب يسعدنا ويملأ قلوبنا بهجة ويعوضنا عما ينقصنا من المتاع المادى . ينبغي أن نزين بيوتنا بالزهر ونسقها بذوق وحنان ..

ينبغي أن نعلم أولادنا الحب : لا نثير بينهم المنافسة ولا البغضاء ، نعلمهم أن يحبوا زملاءهم ويضعوا أنفسهم في خدمتهم ، لأن من يريد حب الناس ينبغي أن يبدأ هو بحبهم ، ينبغي أن نعلمهم حب الفقير والمعوز ، ينبغي أن نعلمهم حب الطير والحيوان والزهر والشجر حتى تمتلىء قلوبهم من الصغر بهجة وسعادة ، ينبغي أن نعلمهم كما يعلم الأوروبيون أولادهم ، حب الطبيعة الساجية بما فيها من زهر جميل وزهر غير جميل ، لأن هذا الزهر الذي نعتقد أنه غير جميل جدير بالحب ، لأنه من صنع الخالق ومن إبداع أمنا الطبيعة .

علموهم أن يتأملوا الحشرة الصغيرة ويتبينوا ما في خلقها من الإبداع والجمال . علموهم الرفق بالحيوان

والإشفاق عليه ، لأن الطبيعة بما فيها هي مدرسة النفس : من جمالها وفي أحضانها تتغذى الإنسانية الكريمة وتنمو .

لا تحدثوا أمامهم عن البغض أو الكراهية ، لا تدفعوهم إلى الحسد أو الحقد ، بل علموهم أن يحبوا عدوهم وأن يحاولوا كسبه بالمودة والحب وأن يقابلوا إساءته بالإحسان ، لأنكم بذلك تعينونهم على الارتفاع بنفوسهم والسمو من الأحقاد والأضغان التي هي صفات الإنسان المسكين الضعيف العاجز الذي يخلو قلبه من الإنسانية .

علموهم وعلموا أنفسكم أن الحب من صفات الانسان الرفيع الكريم ، وأنه في أساسه تضحية لا ينبغي أن ينتظر منه الإنسان مكافأة ولا متاعاً مادياً عاجلا .

أحبوا بعضكم وأحبوا كل ما يحيط بكم ، فستجدون أنكم تملأون بهذا الحب حياتكم سعادة وتفاؤلا ...

صبحي مؤنس

السيطرة على البحار من خلق السيادة

كلما طالعنا صحف التاريخ تبينا أن الجرأة على ركوب البحار والصمود لأهوالها خلق تمتاز به الأمم الفتية الصاعدة في مدارج السيادة والسلطان ، فإذا ضعف أمر الأمة ووهنت عزائم أهلها كان من مظاهر هذا الضعف الخوف من البحار والعجز عن ركوب متونها . ولا يشذ العرب عن تلك القاعدة ، فقد ركبوا البحار في أول أمرهم في جرأة تدفع إلى العجب على الرغم من حداثة عهدهم بها ، بل هم سجلوا لأنفسهم خلال القرن الأول انتصارات بحرية مجيدة على الروم سادة البحار إذ ذاك . فلما ضعف أمر العرب ودب الانحلال في كيان مجتمعهم اقترن هذا بالخوف من ركوب البحر ، فأدى هذا إلى فقدانهم السيطرة على حوض البحر الأبيض خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري . وكتب الرحلات فياضة بهذا الخوف من البحر والرعب من أمواجه . ومن أطف ما يعبر لنا عن روح الضعف هذه هذان البيتان الطريفان للمقري يعلل فيهما سبب خوف الإنسان من ركوب البحار :

البحر صعب المرام جداً لا جعلت حاجتي إليه
أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه

مهرجانات جامعة ادباء العروبة في الأقطار الشقيقة

اعتزمت جامعة أدباء العروبة أن تقيم مهرجانات أدبية في القدس ودمشق وبيروت تحقيقاً لغرضها الأسمى وهو وحدة الفكر العربي والنهوض بالأدب ليحمل رسالة الإصلاح والبعث والتوجيه .

وسيسافر أعضاء الجامعة برياسة معالي ابراهيم دسوقي أباظة باشا إلى الأقطار العربية في الأسبوع الأول من شهر يوليه القادم . وقد تبرع الأستاذ محمد عبد المنعم ابراهيم عضو الجامعة بسيارته لنقل حضرات المدعوين ، كما ستنزل الجامعة في ضيافته خلال هذه الرحلة .

وقد تألفت لجنة لإعداد هذه المهرجانات من حضرات الأساتذة الدكتور محمد دسوقي ومحمد عبد المنعم ابراهيم وطه عبد الباقي سرور وجميلة العلايلي ومحمد عبد الوارث الصوفي وعبد الله شمس الدين .

والجامعة تدعو أدباء العالم العربي للمساهمة في هذه الأسواق الأدبية الكبرى نظماً ونثراً وترسل الكلمات إلى سكرتيرية الجامعة ١٩٦ شارع محمد علي بالقاهرة .

السكرتير العام

طه عبد الباقي سرور

من شعر الثورة

فى الأدب العربى

– ٢ –

وقد حاول المأمون أن يقربه ويصطنعه ولكن لم يفلح فى كسب ولائه ، إذ سرعان ما يعود الشاعر لهجائه والتشفى منه . ويروى صاحب الأغانى أن المأمون حينما سمع منه هجاءه فيه وفى عمه ومنافسه ابراهيم بن المهدى فى القصيدة التى يقول فيها :

إن كان ابراهيم مضطلعاً بها
فلتصلحن من بعده لمخارق (١)

ضحك الخليفة وقال : « قد صفحت عن كل ما هجانا به إذ قرن ابراهيم بمخارق فى الخلافة » . على أن قوارصه فى المأمون لم تكن قليلة الشأن تافهة الخطر فهى من الجرأة والصراحة بمكان ، فى الوقت الذى يهجوه فيه يهدده ويذكره بالكيفية التى توصل فيها إلى الحكم وأنه لم يأت إلا بعد مصرع أخيه وخاتمته الحزنة ولم يتسلم كرسى الخلافة إلا على رأسه ، فيقول فى القصيدة التى مطلعها (أحد الشيب من الشباب الأغيد .....)

أيسومنى المأمون خطة عاجز
أو ما رأى بالأمس رأس محمد
إنى من القوم الذين سيوفهم
قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
رفعوا محلك بعد طول خموله
واستنقذوك من الحضيض الأوهد

ويظهر أن المأمون كان كثير التسامح معه فهو يجيب أبا سعد المخزومى عند ما طلب منه أن يأذن له بقتله قائلا : (هذا رجل فخر علينا فافخر عليه كما فخر علينا . أما قتله بلا حجة فلا) . ولكن عند ما مات المأمون كان المعتصم شديد النقمة عليه ، طارده حيناً من الزمن وأراد قتله فهرب دعبل إلى الجبل وأخذ ينظم القصائد فى هجائه ويندب حظ الإسلام فى عهده :

وقام إمام لم يكن ذا هداية
فليس له دين وليس له لب
وما كانت الأنباء تأتى بمثله
يملَّك يوماً أو تدين له العرب
ولكن كما قال الذين تتابعوا
من السلف الماضين إذ عظم الخطب
ملوك بنى العباس فى الكتب سبعة
خيار إذا عدوا وثامنهم كلب
وإنى لأعلى كلبهم عنك رفعة
لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم
وصيف وأشناس وقد عظم الكرب

فالخليفة المعتصم فى نظر الشاعر كلب ولم يكن كلبا وبئا وإنما هو كلب ذو ذنب ، ولقد ضاع ملك الإسلام حينما تولى أمرهم أشناس ووصيف قواد الخليفة وأصحاب السلطة الفعلية فى زمانه . هذا الهجاء المقذع للخليفة عند ما كان على قيد الحياة ، ولم يكن الموت يشفع لأحد عند الشاعر ، فما كاد دعبل يسمع بموت الخليفة حتى هجاه أشنع الهجاء فهو يقول فى هجائه :

الحمد لله لا صبر ولا جلد
ولا عزاء إذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد
وآخر قام لم يفرح به أحد

وهو يعارض محمد بن عبد الملك حينما قال راثيا الخليفة :

قد قلت إذ غيبوه وانصرفوا
فى خير قبر لخير مدفون

(١) مخارق — مغن مشهور فى العصر العباسى

لن يجبر الله أمة فقدت
مثلك إلا بمثل هارون

فيجيب دعبل معارضاً :

قد قلت إذ غيبوه وانصرفوا
في شر قبر لشر مدفون
اذهب إلى النار والعذاب فما
خلتك إلا من الشياطين
ما زلت حتى عقدت بيعة من
أضر بالمسلمين والدين

وبعد ذلك هجا المتوكل بقصيدة مقذعة رميه فيها بالأبنة فيقول في مطلعها :

ولست بقائل قذعا ولكن
لأمر ما تعبدك العبيد

أما القسم الآخر في هجائه وهو الذي قاله في مهجويه من غير الخلفاء ومن كبار رجال الدولة من وزراء وولاة وأمراء وكتاب ، فهو كثير كثرة هائلة ، ومنه نتعرف على مميزات أسلوبه السهل الرقيق الذي يجرى مع الطبع . وكأن الشاعر يجوحن فيه الصنعة فينظمه على الأوزان السهلة ، فلذلك يشيع ويحفظ وينتشر بين الناس ، مضافاً إلى هذه السهولة أنه يمتاز بهذه السخرية اللاذعة والتنديد الممض الذي يقضى بسرعة على المهجو ، وقد يتضمن هذا الهجاء سباً وفحشاً ، ولكن السخرية شائعة شيوعاً كبيراً على شعره . فمن أمثلة ذلك قوله في أبي عباد كاتب المأمون ومعتمده ومحل ثقته :

أولى الأمور بضيعة وفساد
أمر يدبره أبو عباد
وكأنه من دير هرقل مفلت
حرد يجر سلاسل الأقياد
خرق على جلسائه فكأنهم
حضروا الملحمة ويوم جلاد

فاشدد أمير المؤمنين وثاقه
فأصح منه بقية الحداد (١)

وقوله في هجاء المطلب والى مصر في زمن الشاعر :

تعلق مصر بك المخزيات
وتبصق في وجهك الموصل

ومن هذه السخرية اللاذعة التي تبعث على الضحك قوله في جملة من أمراء الدولة ورجالها ، وهم الحسن بن سهل والحسن بن رجاء وابنه ودينار بن عبد الله ويحيى بن أكثم :

ألا فاشتروا منى ملوك المخرم
أبع حسنا وابنى رجاء بدرهم
وأعطى رجاء فوق ذاك زيادة
وأسمح بدينار بغير تندم
فإن رد من عيب على جميعهم
فليس يرد العيب يحيى بن أكثم

ورغبة في عدم التوسع أقتصر على هذا المثال من عيون شعر الثورة في الأدب العربي . ولعل الله يوفقنى في الحديث عن غيره من الأمثلة في المستقبل القريب .

بغداد على كاشف الغطاء

(١) بقية الحداد — اسم مجنون في المارستان

رأيان في معرض الفن الشعبي

ميور تاج :

معرض الفن الشعبي

من عام كامل منذ أقام الأستاذ حبيب جورجي معرضه الذي سماه « معرض الفن الشعبي » ووجهت نفسي أجول خلال المعروضات فيه لأني لم أملك أن أحرم نفسي من فرصة تتبع الفكرة الجليلة التي يتجشم حبيب جورجي في سبيلها كل ما يتجشم من مشقة .

لست من فن الرسم والنحت في شيء — علم الله — ولو كان الأمر لا يزيد على أنه فن رسم أو نحت لما تجرأت على أن أتحدث فيه إلا لخاصة الأصدقاء، كما يفضي الإنسان إلى خلصائه بخاصة أحاسيسه . ولكن معرض الأستاذ حبيب ينطوي على معنى أقرب إليّ من الرسم والنحت . فما هو في نظري إلا محاولة تعليمية من الطراز الأول ، ولهذا أحاول أن ألخص فكرته كما استطعت أن أؤولها لنفسي .

من أهم خصائص الإنسان أنه يتوق إلى التعبير عما يحسه بوسائل مختلفة . فهو يعبر باللغة ، وهو يعبر بالموسيقى ، وهو يعبر بتجسيد المعاني أو تصويرها . والتصوير إذا كان منبعثاً عن وحي النفس كان جديراً بأن يسمى فنا .

والتعبير عرضة للتأثر بعوامل مختلفة تعوق نموه أو تحرفه وتجعله متكلفا . فالإنسان إذا عبر باللغة عن حقيقة أحاسيسه الخاصة ، وكانت لديه المواهب الطبيعية التي تؤهله لهذا التعبير الصادق في أسلوب جميل يقع في النفوس كان أديبا أصيلا . وكذلك إذا استطاع أن يعبر عن تلك الأحاسيس بالتصوير أو النحت ، وكانت لديه المواهب الطبيعية التي تؤهله لذلك في أسلوب جميل كان فنانا أصيلا ، وهكذا . وأما إذا كان يردد ما ينقله من أساليب غيره في التعبير عن أحاسيس لا ينبض بها قلبه ولا تصدر من وحي نفسه فإنه لا يمكن أن يزيد على أن يكون صانعاً ماهراً .

ولهذا كانت التربية تهدف دائماً إلى إتاحة الفرص للناشئة أن تدخر المعاني والأحاسيس وأن تزيد ثروتها الفكرية والروحية ، ثم لا تزال تنمي ذلك الكنز المدخر وتجيله في محاولات تعبيرها ، وهذه المحاولات تنتهي دائماً بزيادة المقدرة والتفنن في أساليب التفكير والتعبير .

هذا غرض من الأغراض التي تهدف التربية إليها ، وهذا ما حاول الأستاذ حبيب جورجي أن يحققه من ناحية الفن ، فإنه اختار بعض من لهم استعداد للتعبير الفني وتوفر على حمايتهم من المؤثرات التي تعوق نمو مواهبهم ، وجعلهم ينطلقون في سبيل التعبير الذاتي ، وما زال يواصل عرض أعمالهم عاماً بعد عام مدة ثلاثة أعوام حتى أتى لنا هذا العام بمرحلة من مراحل تطورهم ، فكان في معرضه برهان جديد على صدق نظريته التربوية التي أشرت إليها .



هذا ما يدعوني إلى الكتابة عن هذا المعرض الفني ، وهذا ما ينبغي لكل مهتم بأمور التربية أن يعنى بالتحقق منه ومتابعة الاهتمام به .

وتلاميذ الأستاذ حبيب جورجي ثلاث بنات : كبراهن سيدة ووسطاهن صبيرة وصغراهن بدور . فأما الأولى فقد ظهر في هذا العام أنها قد وضعت قدميها على طريق التفنن البارع .



(سميحة)

فني معروضاتها خمس قطع تليق لأن توضع في معارض أصحاب المذاهب الفنية في النحت بغير مبالغة . وآثارها تشع ذلك الروح الريفي الساذج الذي ينبض بالرثاء لما في حياة مصر الشعبية من هموم (انظر الشكل الأول) .



وأما الوسطى سميرة فإنها قد وثبت هذا العام وثبة نحو الانطلاق في التعبير وإن كانت معروضاتها تمتاز بالنظرة المرحة الداعبة المستبشرة . فقد اختارت موضوعها (الأرجحة) فأبدعت في تصويرها في جلسة (متبذلة) غير مبتذلة لا يملك معها الإنسان إلا أن يبسم للحياة . واختارت موضوعاً آخر (الزوجان الريفيان) ولا يملك الإنسان إذا وقع نظره عليه إلا أن يغتبط لمنظر السعادة الساذجة البلهاء .

وأما الصغرى بدور فإنها لا تزال في أول دور الاهتمام (بالمدرسة) ، فهي في سن الحادية عشرة ، ويبشر أسلوبها بما سوف تكون عليه من تبريز في ناحية يمكن أن نسميها (الفن الاجتماعي) . فلكل من البنات الثلاث تدرج في مرحلتها وفي سنها وتمتاز بأسلوبها ، ويشترك الجميع في ذلك الصدق الذي تهيأ لهن من قلة التأثر بالإملاء من الشخصيات المسيطرة .



(سميرة)



(بدور)

هذا رأي صريح أحسسته عند زيارتي المعرض ، وقد أوحت لي الزيارة في هذا العام بما يجعلني أزيد ثقة بنظرية حرية الانطلاق في التربية . وسوف أكون في انتظار العام المقبل إن شاء الله لأرى مدى التطور الجديد الذي أرجوه لهذه التجربة الكبرى آملا أن أرى في المعرض المقبل آية أخرى تدعم صدق هذه النظرية الطريفة .

وإن كانت لي نصيحة للأستاذ حبيب فإني أشير عليه بأن يعمل على زيادة كنز الأحاسيس في تلك الصدور الصغيرة ، وأن يعمل على رفع المستوى الثقافي لتلميذاته حتى يواصلن التقدم المنشود في سبيل هذا التعبير الصادق من آلام الإنسانية ومسراتها ومعانيها العليا .

محمد فريد أبو حديد

معرض
الاستاذ حبيب جورجي

إلى الأستاذ محمد بك فريد أبو حديد .

ها نحن يا صديقي بعد عام كامل من معرضه السابق ندعى لحضور افتتاح معرضه لسنة ١٩٤٦ القائم الآن في السراى الصغرى بالجمعية الزراعية ، فنقضى ساعة أو بعض ساعة نشاهد تماثيله الأنيقة فتبهر أبصارنا ونسمع لشرحه الممتع فتطرب أسماعنا .

إخالك يا صديقي الكبير وأنت في المعرض وقد استرعى نظرك القطعة رقم ٣ لفلاحة أخذتها سنة من النوم وهى جالسة فمال رأسها إلى اليمين وتراخت قسمات وجهها . وإخالك أيضاً وقد انتقلت بعد ذلك إلى القطعة رقم ٥ ويقال إنها لامرأة أخرى . ولا شك أنك ترددت مثلى في أنها ربما كانت نفس الفلاحة رقم ٣ فالرأس واحد في الحالتين بدليل أنها وقد وقفت منتصبة وقد جمعت أطراف ملابسها ورمت ببعض منها على ساعدها الأيسر ، لا تزال تحتفظ بإمالة رأسها إلى اليمين كما كانت وهى جالسة في سباتها في الوضع السابق ، في حين أن قسمات وجهها لا تزال مسترخية كما كانت في الوضع الأول . ويغلب على ظنى أن حبيباً يرمى إلى تمثيل عادة المشى أثناء النوم ، وهذا موضوع لم يطرقه مثال غيره من قبل .

وأظنك أيضاً يا صديقي الكبير قد استرعى التفاتك ميل حبيب للوجه الزنجى ، وأنك إن كنت قد سرت في المعرض حسب ترتيب الأرقام وكنت قد أعجبت بالقطعة رقم ٤ ولاحظت بروز خدودها وتفرطح أنفها وغلظ شفتيها ، ثم عدت بناظرك إلى القطعتين المعروضتين قبلها وكنت قد احتفظت في ذهنك بهذا الشبه وقارنته بشبه باقى النساء المعروضات في قطعه الأخرى بالترتيب ، إن كنت فعلت ذلك يا صديقي فلا شك أنك أدركت مثلى السبب فيما كانت تلوكه ألسنة المتفرجين من تشابه الوجوه ومن أن حبيباً كان يتخذ امرأة واحدة بالذات نموذجاً يمثلها في أوضاع مختلفة . وهذا يفسر أيضاً ما سمعته من أحد أصدقائى المتفرجين وقد أدلى إلى بقول عجيب وسؤال أكثر عجباً هو : — هل عثر حبيب على اختراع جديد يماثل آلة التصوير الضوئى في إنتاجها يخرج بها الفنان الصورات مجسمة فاستعملها في تشكيل قطعه على هذه الصور المتكررة ؟

ماكان منى يا صديقي عند سماع ذلك إلا أن أخذت بيد هذا السائل ومررت معه نشاهد المعرض من جديد وأنا أجادله وأدله إلى مواضع الدقة والجمال في القطع المعروضة ، وسألته إن لم يكن قد رأى تلك الفلاحة وهى تهم بالوقوف مرتكزة بكفيها على ركبتيها ، وإن كان لم يسترع نظره هذا القطيع من الغنم وهو يموج ويتزاحم ويتدافع وينضغط بعضه البعض الآخر ، وتلك الجمال وقد تلاصقت أجسامها متدافعة تكاد تجرى إلى غير مستقر ، وهذه الأرانب الثلاث وكأن أجسامها تنبض بالحياة في كسل رقدتها المعروفة وفي ملل تحتها المعهود . وهذا الجاموس في بطء حركة الجاموس الحى وما يحيط بهذه الحيوانات جميعاً من جو تشعر به من غير أن يكون له وجود — كيف تنكر قدرة حبيب الفنية وهذه أعماله تنطق بفنه ، وهذه لمساته جلية في كل قطعة ، وهذا وحيه ظاهر في جميع معروضاته ؟

قال : لقد رأيت كل ذلك في معرضه في العام الماضى ولكنه لم يجدد في مواضيع عرضه في هذا العام شيئاً اللهم إلا إعادة عرضها مكبرة قليلاً عن ذى قبل ، فالمعرض الحالى ما هو إلا تكرار لمعرض العام الماضى .

قلت : ليكرر حبيب عرض قطعه عاماً بعد عام حتى يقتنع الناكرين أمثالك بأنه قدير في فنه الشخصى جرىء في دعايته الخاصة ، وأن ليس من قبله أو من بعده من

يجاريه في هذا الأسلوب الرائع الذي خلقه بنفسه .

ثم انضم إلينا صديق ثالث يسألني أن أفسر له السر في الشكل المتكرر في أغلب أجسام أشخاص المعرض ، ذلك الشكل الذي يشبه قمع السكر الذي اختلفت أحجامه وقد ركب على كل منها رأس آدمي واحد مع ما علائه من بعض أجزاء من أطراف في أسلوب عجبه ذلك الصديق عاماً بعد عام .

فسألته بدوري : ألا يعجبك هذا التبسيط ؟ وهل يمكنك أن تنكر لكل قطعة صرخة تدوى بالموضوع الذي خلقها حبيب من أجله وأبرزتها به أنامله الرشيقة ؟

ووفد صديق رابع وهو يدعوني لأرى معه بعض معروضات قليلة صغيرة نسقت على ثلاثة حوامل بجوار الحائط الشرقية بصالة المعرض ، وتبادلنا المناقشة فيها وانتهينا بالحكم على أنها من غير شك شغل أطفال مبتدئين ، فهي تمثل الفن البدائي على فطرته ، وقد تجلت فيها التشويهات الفنية المحببة إلى نفوسنا والتي كنا ونحن ندرس الفنون ونشرف على تدريسها في مراحل التعليم نكاد نطير من فرط الفرح عندما تنتهي حصة الرسم بمثل هذا الإنتاج البدائي السليم .

ثم تفرقنا يا صديق الكبير في المعرض ، ووفد إلى حبيب جورجي وبدأ حديثه الذي يضحكات دائماً فلا تمجه نفسك مهما أطال فيه ، وتكلم عن تلاميذه من صغار الفنانين الذين يعزو إليهم هذا الإنتاج الرائع المعروض ، وقد ابتكر لهم في المعرض الحالي دعاية جديدة محاكاة لعاملات المحال التجارية الكبيرة ، فقد ألبس أربع فتيات أو خمساً على ما أذكر أردية رمادية مزرقة وأطلقهن بين المعروضات نماذج حية يمرحن ويلعبن ويسترعين الأنظار ، وكأنه يقول إنهن كل تلاميذ مدرسته وإنهن مصدر وحيه في حين أنه هو بالذات مصدر وحيهن .

وبعد كتابة ما تقدم خطر لي أن أعود إلى مقال كتبته في الثقافة الغراء في العدد ٣٣٧ من العام الماضي عن معرض حبيب جورجي سنة ١٩٤٥ ، فإذا بي من حيث لا أدري أفسر الجملة التي جاءت في آخر ذلك المقال ، وكان قد أسقط في يدي عندما أردت كشف السر في نجاح ذلك المعرض وتساءلت عمن يدلني عن كشف ذلك السر ، ويمكن للقارئ إذا شاء العودة إلى ذلك المقال إن أراد زيادة في التفسير .

ولا يسعني في الختام إلا أن أنصح إلى حبيب بالإقلاع عن تسمية معرضه بالفن الشعبي ، وليسفر عن الحقيقة الثابتة فيه ، وهي أنه فنه الشخصي ، إلا إذا كان يرغب في التواضع كما أعهده يذوب خجلا وتواضعا ، فعندئذ يمكنه أن يطلق عليه أي اسم آخر يختاره غير الشعبي ، وإلا كان مدعاة للنقد والاستنكار . وقد أفرد إن سمحت لي الثقافة الغراء مقالا خاصاً بالفن الشعبي المصري لأثبت للقارئ الكريم بعد فن حبيب عن النزول بتواضعه إلى المستوى الذي لا أرضاه له .

محمد يوسف همام

إنه في يوم الأحد ٢٣ يونيه سنة ١٩٤٦ الساعة الثامنة أفرنكي صباحا بشارونة مركز مغاغة وفي يوم الخميس ٢٧ سنة الساعة الثامنة أفرنكي صباحا بسوق مغاغة إن لم يتم البيع في اليوم الأول .

سيباع هذه الأشياء الموضحة بمحضر الحجز . ملك دسوقي محمد أحمد من شارونة السابق توقيع الحجز عليها تنفيذا بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩٤٦ نفاذاً للحكم الصادر من محكمة بني مزار الجزئية الوطنية في القضية رقم ١٧٤٦ سنة ١٩٤٦ محكمة مغاغة الوطنية .

كطلب شركة أراضي الشيخ فضل العقارية الكائن مركزها بشارع طلعت حرب باشا رقم ٨ بمصادرين . وفاء لمبلغ ٨٠ مليم و ٤٠٤ جنيه بخلاف ما يستجد . فعلى راغب الشراء الحضور .

مشروع فني ناجح

قرأت في إحدى المجلات الفنية الأمريكية أن الولايات المتحدة قد نجحت في مشروع حكومي جليل كان تنفيذه منذ سنة ١٩٣٣ .

والمشروع يمثل أكبر مجهود بذل لإزالة العوائق الشائكة بين الفنون الجميلة وتمتع الطبقات الدنيا بها .

يولد الإنسان ويولد معه الظمأ إلى الجمال . ويرى أن الفنون هي التي تستطيع وحدها أن تطفئ هذا الظمأ . ولكن مما يحزن في أدب الإنسانية أن أجيالا تولد وتعيش وتموت ، ويموت معها ذلك الظمأ المكبوت في النفوس إلى الفنون ، صوراً كانت أو تماثيل أو أي لون من ألوان الفنون ، فلا تذوق الجمال ولا ترى أي شعاع من شعاعاته . وإلى جانب ذلك نرى أكثر الفنانين يكتب لهم مثل ذلك المصير الأليم ، فيعيشون محرومين مغمورين ، ويتركون الحياة دون أن يتاح لهم أو يواتيهم الحظ في أسباب المعيشة .

وما هذه الأدواء السابقة إلا من فساد النظم الاجتماعية السائدة في عصرنا الراهن . إذ كانت الفنون في العصور الوسطى عماد الحياة ، بل كانت جزءاً لا يتجزأ من حياة الإنسان . لكن هذه الفنون أخذت تتوزع على الاختصاص الشخصي منذ عصر النهضة في أوربة . حتى أصبح الفنان في القرن العشرين بمعزل عن العالم ، وغدا الجمهور لا يعبأ بالفن . فبقي الفنان يتضور جوعاً إذ لم يجد من يقتني نتاجه وألواحه .

لقد نجح المشروع الأمريكي بفضل كبار رجال الفن ومديري المتاحف ومدرسي الفنون الجميلة ، فوصلوا إلى وسائل مجدية في تشجيع الفنون، وكلفوا الفنانين بأن يعدوا صورا وتماثيل بشتى النواحي التي تروقهم، وتركوا لهم الحرية على شرط أن يكون إنتاجهم مناسبا لأحد المباني العامة مثل الأندية ودور الملاهي وحمامات السباحة والمكاتب والمحاكم والحدائق ...

وبهذه الوسائل التي اتبعوها ظهر ناجحا أكثر من ثلاثة آلاف وستمائة فنان ، أنجزوا ما لا يقل عن ستة عشر ألفاً من الصور والتماثيل .

يتقاضى كل فنان أجره حسب موهبته ومقدرته ، وبهذه الطريقة أيضاً وصلوا إلى فن شعبي شائع ليس موقوفاً على الأغنياء وذوي الثراء . فشاع هذا الفن في جميع أنحاء البلاد الأمريكية ، وامتلأت المحلات العامة حياة ونشاطا ، إذ تحولت من مبان كئيبة صامتة يسأمها الإنسان إلى بيئات متمدينة بهيجة ، تدخل السرور والغبطة على القلوب وتذيع الروح الفنية فيها ، وبذلك تنتعش حواس الإنسان ويكتسب انسجاما وصفاء يجعل الحياة سعيدة أمامه فيؤدي عمله على أحسن وجه .

وبهذه الطريقة أيضاً استطاعت الأمة الأمريكية أن تكتشف فنانين عظاماً ، وأن تحول غير الموهوبين منهم إلى أعمال أخرى تناسب استعدادهم .

فحبذا لو أن وزارة معارفنا الجليلة تعد مشروعاً كالمشروع الأمريكي في تشجيع الفنانين وتشغيلهم في تزيين المباني والمشروعات الحكومية وتنسيقها تنسيقاً فنياً ، فتكون بذلك قد شجعت بني الوطن وبناته الموهوبين الذين يموتون جوعاً ولا يدري بهم أحد .

هذا ولا ريب خير من إنفاق آلاف الجنيهات كل عام لشراء صور من المعارض المختلفة ثم يقذف بها إلى مستودعات متحف الفن الحديث فتحرم حتى من النور .

فهل يأتي يوم على هذا الوطن العزيز نرى فيه مبانيه العامة كالحمامات والأندية ودور السينما والمحافل وصالات الجامعة والمستشفيات ومصلحة البريد كل هذا مزين الجدران بصور فنية بأيدي الموهوبين والموهوبات مما يتناسب وموضوعات المباني ويحث الجمهور على تذوق الفن وتقدير أهله والانتفاع بثمراته وخيراته ؟

كوكب يوسف

من الأدب الصيني الشعبي :

لوصن الصبي الأعمى

كان « لوصن » صبياً أعمى ولم يكن له بيت يأوي إليه شأنه في ذلك شأن الكثيرين ممن ابتلاهم الله بتلك العاهة في الصين ، فلقد طرده أبواه من البيت ليبحث من التسول في الطرقات . ولكم جاب شوارع المدينة وأزقة القرى ممسكا أبداً عصاه التي تهديه الطريق . لقد أتقن استعمالها فلم يعد يخطئ، المخطئ ، بل لقد استطاع بفضلها أن يتنقل في أنحاء المدينة كلها والقرى المجاورة في سهولة ويسر .

ولم يكن للوصن في هذا التجوال الطويل سوى رفيق واحد ، تلك هي كلبته « فان » . ولكم أعانته على أن يعثر على النقود التي كانت تلق إليه من المارة ولم يكن ليهتدى إليها . وكانت الكلبة الماهرة كلما طرقع لها سيدها بأصابعه ثلاث مرات تنحنى إلى الأرض فتركع على قدميها الأماميتين وتمس بجبهتها الأرض علامة التحية والاحترام ، وكثيراً ما أعجب المارة بتلك الحركة المتقنة فوقفوا في سيرهم قليلا ليتصدقوا على الصبي بدراهمهم القليلة . وبعد قليل أصبح للصبي في الأحياء التي يرتادها أصدقاء يعرفونه لمجرد سماع خطواته من بعيد ، فكانوا يحيونه ، بل كثيراً ما تحدثوا إليه .

وبينما كان الصبي وكلبته يتجولان في طريق ريفي عام هاجمهما الليل ولم يكن لهما بد من الالتجاء إلى مكان ليناما فيه . ولم يخافا من أجل ذلك ظلمته السوداء ، بل أخذا يبحثان في سرعة عن المكان الملائم يأويهما إلى الصباح ، ولم تلبث فان أن وجدت شجرة باسقة كبيرة يمكن النوم عند جذعها في أمان واطمئنان ، وزفت بنباحها البشرى إلى سيدها . لقد عثرت على المكان المطلوب ، وفهم منها سيدها ما أرادت أن تقول ، فلقد أصبح يفهم منها الكثير من طول ما عاشرها . وهكذا قادته فان إلى شاطئ الأمن والراحة ، إلى جذع الشجرة . ولم يمض زمن طويل حتى اعتنقا كجروين صغيرين وغرقا في سبات عميق من التعب .

وفي الليل رأى لوصن رؤيا عجيبة . إذ هتف به هاتف في رفق قائلا : « يالوصن أتراني ؟ » فأجاب الصبي : « وا أسفاً إني أعمى » فقال الهاتف : « أيها المسكين إن العمى لبلوى عظيمة ، ولكن قد أستطيع أن أعينك عليها » فصاح لوصن : « آه ياسيدي الرحيم ! أتستطيع أن ترد إلى بصرى ؟ » فقال الهاتف : « كلا أيها الصبي لن أستطيع ذلك ، ولكني سأدلك على الطريق التي ترد بها بصرك إلى نفسك ، فأنصت إلى جيداً وافقه قولى تستطع أن تبرئ نفسك من عاهتك . سترى منذ اليوم أنك كلما أتيت عملا صالحا مهما يكن تافها فسيدخل في أثره نور ضئيل على عينيك المظلمتين ، وكلما تضاعفت أعمالك الطيبات سترى أن هذا النور سيتضاعف مثلها ، وستشعر بالفرق البين أثناء ذلك ، حتى ترتفع أخيراً تلك الحجب عن بصرك ، وتستطيع آخر الأمر أن ترى بل أن ترى جيداً وفي وضوح تام . ولكن وأنصت جيداً لما أقول لك ، إذا نسيت هذا الوعد مرة ولوثت قلبك الطاهر بخبيث الأعمال وشرها فستتضاعف تلك الحجب التي تسد النور عن بصرك وسيظلم نور عينيك . إنك يابني ستفقد من النور بالعمل الخبيث ضعف ما جنيت منه بعملك الطيب » .

وسكت الهاتف العجيب عن القول . واستيقظ لوصن من حلمه فزعاً مرعوبا . لقد كانت الشمس تلفح وجهه . وإذا العالم كله وكأنه أسطع من ذي قبل وأكثر إشراقا . و« فان » هي أيضاً سعيدة تلعق يد سيدها كأنها هي تشاركه فرحه . وقال لوصن : « أأقدم على هذا العمل العظيم يافان ؟ » وكأنما هي كانت معه في حلمه سمعت الهاتف وفهمت منه أقواله كما فهمها هو ، فنبحت الكلبة في فرح ظاهر لما سمعت صوت سيدها ، فقال لوصن : « ما دمت قد وافقت

بالأمس فإنى سأستعيد بصرى . أنت واثقة من أنى لا أستطيع كثيراً من دونك ياصديقتى العزيزة » وألقى ذراعيه حول عنقها الغليظ السكث ، وضمها إلى صدره ضمة قوية .

وبدأت رحلتهما نحو المدينة ، والصبى لا يستطيع أن يفكر إلا فى كلام الهاتف الحنون الذى ظهر له فى حلمه . آه لو استعاد بصره ! كم يكون سعيداً . فلسوف يقنع هذا الأب القاسى الذى قذف به إلى الشارع دون رحمة أن لوسن شىء عظيم فى هذا العالم . إنه يستطيع أن يسمو فوق هذه الحال الرقيقة التى يعيش عليها والداه . وبالقرب من سور المدينة عندما كان على وشك أن يجتاز البوابة الكبيرة عثرت قدمه فى شحاذ هرم كان نائماً على قارعة الطريق . وتمتم البائس : « تصدق على الأعمى الفقير المسكين أيها السارى ولا تمر دون أن ينال شيئاً من عطفك . بالله ترحمه » . وضحك لوسن وقال : « إننا فى البلوى سواء أيها الصديق . إنى أنا أيضاً أعمى » فقال الرجل الهرم : « ولكنى أشد منك بؤساً فإنى مقعد أيضاً » .

فصاح لوسن مشفقاً وأخرج الدرهم الوحيد الذى يملكه دون أن يفكر فى وعد الهاتف له . ولما أعطى المسكين كل ما يملك قال له : « خذه أيها المسكين إنى لا أملك غيره »

وفجأة مس بصره شعاع من نور . إن الظلام الذى خيم على بصره طويلا بدا أشف سواداً وأخف ثقلا ، فصاح فى فرح : « إن الرؤيا حقيقية واقعة » فلما سمعه المارة يحدث نفسه هكذا فى صوت عال ظنوا به مساً من الجنون ، فجذبوا ثيابهم حتى لا تمسه وابتعدوا عنه حذرين . ولكن لوسن لم يحس الفرح والانشراح بقدر ما أحسهما فى هذا اليوم . إن العالم كله يبسم له ويملأ قلبه حياة ونوراً كنور الربيع وحياته .

ونام ليله فى معبد المتسولين ، ذلك البناء المتهدم المتداعى عند باب المدينة الشمالى . لقد هجره الكهنة من قديم ، وتم الاتفاق بين أهل المدينة جميعاً على أن يترك هذا المعبد مأوى للبائسين الذين لا يجدون لأنفسهم مكاناً يلجأون إليه إذا ما جن الليل . وفى ركن من أركان هذا المبنى القديم جلست عجوز شمطاء ، هزيلة ضعيفة من الجوع ، فناولها لوسن من طيب خاطر قطعة الخبز الجافة التى كانت ستسد رمقه هذه الليلة ، وإذا جذوة من النار تنير له لبه وتشع فى ظلمات بصره ، فتعجب من ذلك وسر له ، ولكنه اضطر هو وفال أن يبيتا على الطوى .

وفى الصباح الباكر أيقظته معدة جائعة تؤلمه . وبدأ الصبى الأعمى يسير فى الطريق المترب الشاق نحو المدينة . ولم يكن فى الطريق أحد بعد فقد كان الوقت مبكراً جداً ، وكان ما يزال يعمل فكره لحل مشكلة الجوع الذى يعانيه عندما وصلت فال إلى حلها بالفعل . فلقد عدت على دجاجة سمينة كانت تعبر الطريق وأحضرتها إلى سيدها . أى سعد يصادف هذا الصبى الأعمى الجائع . فليس فى الطريق أحد لا ولا صوت عجلات آتية من بعيد . وأخذ لوسن الدجاجة من فم فال وهى تنبح فى فرح متزايد وسيدها يمدح مهارتها فى الصيد والقنص . ولم تمض عشرون دقيقة على هذا حتى كان لوسن قد باع الدجاجة فى السوق على ضفة النهر . لقد قبض ثمنها غالياً دون أقل عناء أو مساومة فى البيع .

ولكنه ما كاد يقبض يده على الثمن حتى نزل ستار كثيف على عينيه . لقد امحى أثر العملين الطيبين اللذين أتاهما فى لمح البصر . وإذا حاله تعود إلى ما كانت عليه ساعة ترك الشجرة الباسقة حيث رأى فى ظلها الحلم الذى فجر الأمل فى نفسه .

ولكن هذا لم يكن ليئس الصبى . لقد كان واسع الأمل قوى الرجاء . وسلم بينه وبين نفسه أنه ارتكب إثماً وصمم على أن يعود أدراجه ، وأن يمحو ما قدم من شر بأن يبحث عن صاحب الدجاجة المسروقة ليعيد إليه ثمنها ، وظل طوال اليوم يذرع الطريق العام الذى يمر بمعبد المتسولين

جيئة وذهاباً سائلا دون جدوى كل من يصادفه . ولكن أحداً منهم لم يعرف صاحب دجاجة سرقت منه . وما جن المساء حتى كان قد كلّ من التعب وآلمته قدماه الصغيرتان ألماً شديداً ، وغمرت وجهه المشرق سحابة مغبرة من تراب الطريق ، وآلام الجوع التى أيقظته فجراً لم تعد تطاق بعد هذا النهار الطويل الشاق ، ولكنه بالرغم من ذلك قاوم الرغبة الملحة فى أن ينفق شيئاً من هذا المال الحرام . وفى الصباح عندما استيقظ من نومه أحسّ أن إبصاره قد تحسن شيئاً ما وكأنه فعل سحر . فسر لذلك أيما سرور . إنه ندمه على ما ارتكب من وزر كان قاسياً أو إذاً ولم تذهب آلامه أدراج الرياح .

ومضت أسابيع ولوصن يواصل عمل الخيرات فيتقدم بذلك سريعاً نحو الغاية المنشودة ، نحو استعادة بصره . حتى استطاع آخر الأمر أن يميز بعض ظلال كثيفة وسط الظلام الذى يحيط به . لقد كان يحس مثلا أن أحداً يتقدم نحوه دون أن يستعين فى ذلك بالصوت الذى قد يسمعه ، بل لقد خيل إليه أنه استطاع أن يميز شيئاً من روعة غروب الشمس وجماله . ولما وصل إلى هذا الحد من الشفاء من جراء عمره القرح العظيم وصمم على أن يدخر كل درهم يصل إليه ليشترى لنفسه « نظارات » . فلقد سمع من حوله يقولون إنها تعين ضعاف البصر على أن يروا جيداً .

ولكنه قابل يوماً ما هـذا الشيخ الأعمى المقعد الذى أعطاه كل ما كان يملك . ولما استعطفه الشيخ كعادته قال له : « وأسفاه ! إنى لا أملك شيئاً » وإن كانت الدراهم قد بدأت تتكاثر لديه ، وأضاف : « لا شىء أستطيع أن أعطيه لك » واسترحمه الشيخ قائلا : « ولكنى أموت جوعا » . فأجابه لوصن : « وأنا أيضاً » وفجأة نزل على بصره حجاب كثيف حجب عنه روعة الشمس فى مغربها وحرمه بهجتها .

هنالك يئس لوصن . لقد حاول جاهداً أن يعيش حياة نقية لا شر فيها . كم حرم نفسه ما كان فى أشد الحاجة إليه ، وماذا كانت النتيجة لكل هذا العذاب وماذا كان الجزاء لكل هذا الحرمان ! وفكر فى مرارة قائلا فى نفسه : إنى أفقد فى يوم ما أجنيه فى أسبوع . وتملكه اليأس فاستمر يقول : وماذا يستطيع صبى أعمى فى بلاد الصين التى تتنكر لهؤلاء المنكوبين ! فلا مدارس لهم فيها بل ولا هم يطاقون فى بيوتهم ، وإنه ليقذف بهم فى الشوارع قذفاً دون رحمة أو شفقة .

وسخط على الدنيا وعلى الناس وعلى حظه السيىء الذى ابتلاه بتلك العاهة التى سلبته كل أمل فى الحياة . ولم يجد إلا شاطىء النهر المتدفق الهائج يسعى إليه . لقد كان موسم الأمطار الهاطلة ، فاندفعت المياه فى القنوات الساكنة الهادئة غاضبة عنيفة . وجلس الصبى على شاطىء النهر الصاخب الهادر ، فخيل إليه أنه كالعود الذى يحمله الفيضان تارة على الشاطىء وتارة يرتفع الماء إليه فيدفعه فى مجرى النهر فيسير مع مياهه إلى حيث لا يعلم . أليس الصديق الوحيد الذى له فى كل هذا الوجود الواسع المريض هو هذه الكلبة الأمينة ؟ وماذا تستطيع تلك المسكينة ؟ إنها مهما سمت قدر طاقتها أو فوق طاقتها فماذا يمكن لها أن تقدم لسيدها البائس وصديقها المسكين ليستعيد به بصرا حرمته إياه الآلهة ؟ وماذا يستطيع هو دون إبصار أن يجنى من الحياة ؟ وأى سعى يمكن أن يسعاه مع الساعين فى سبيل المجد والمال ؟ وولول باكياً : « مسكينة أنت يا فان إنك تسعين جهدك لتقدى إلى ما أريد ، ولكنك لن تستطيعى أن تنجينى من بلواى » . والتقت الكلبة الأمينة يد سيدها فقال لها : « إنك كل ما أملك . إنك كل شىء لى فى الوجود . لن يفرقنا أمر مهما يكن ، إذ ماذا عساى أن أفعل من دونك إلا أن أموت » .

وفى تلك اللحظة ارتفع الصياح من النهر . إن رجلا يغرق وتصايح الناس : « أنظروا إنه وسط التيار . إن مركبه قد انقلبت وهو لا يقوى على العوم » . وهرع الناس من

كل صوب وتجمهر الجمهور في حال شديدة من التوتر والتطلع . ولقد كانوا جميعاً ينظرون إلى الغريق ولكن يداً واحدة لم تمد لإسعافه أو إنقاذه .

وصاحوا مرة أخرى : « إن قوى الغريق لتضعف وإن مركبه قد جرفها التيار وجرف معها آخر أمل له في أن يصل إلى الشاطئ . وعما قليل سيغمره الماء فلا ينحسر عنه »

وأنصت الصبي الأعمى إلى صياحهم وقد امتلأ قلبه حزناً وفاض أسى . كيف يقف كل هؤلاء الناس وهم أقوياء أصحاء قادرون على عون هذا الغريق ولا يمدون إليه يداً ؟ بل إنهم ليقفون ليروه يموت بالفعل أمام ناظرهم . لو كان مثلهم ، لو كان مبصراً لقفز في سرعة إلى النهر ينقذ الغريق ويشعر الجمع بجبنهم وافتقارهم إلى المروءة والرجولة .

وفجأة جاش صدره تأثراً وامتلأت نفسه حياة وأملا . أيمكن أن يتم ذلك ؟ نعم وإنه لحرى أن يحققه . نعم هو الضرير المسكين سيفعل ما لم يستطعه كل هؤلاء الجامدين الفاقدى الحس والشعور . وصاح قافزاً من مكانه : « إن فان تستطيع ذلك ، إن كلبتي ستنقذه » فقال له أحد الذين إلى جانبه وكان قد رأى الصبي كثيراً وعرفه وأراد أن يبصره بالخير ويدله على ما فيه صلاحه : « قف يابني لقد فاتت الفرصة . إنك تفقد كلبتك بهذا العمل ولا تفيد الغريق شيئاً . دعه يغرق فما هو إلا متسول حقير » فأجابه الصبي : « وما أنا إلا هذا ، وإن الشحاذ لأحرى أن يساعد مثيله » .

وفي لمح البصر جذب فان من عنقها وجرها إلى حافة النهر ثم دفعها نحو التيار الجارف وهو يصيح بها : هيا يافان هيا إليه . وتبحث فان نبحة الفاهم المدرك لحقيقة الحال ، وضربت بأرجلها التيار في عنف حتى تصل إلى الغريق وهو يجاهد غمرات الماء . وازداد حماس الناس على الشاطئ ، وهم يتصايحون : « لقد فات الأوان ، إن الرجل لا يستطيع أن يقاوم أكثر مما قاوم ، لا ولا دقيقة واحدة ، والكلبة لن تصل إليه .

ولم يحس لوسن حاجته إلى الإبصار قدر ما أحسها في تلك اللحظة . فهذه صديقته الوحيدة تجاهد التيار وهي معرضة لخطر الغرق — لخطر فقدها إلى الأبد . وحاول جاهداً أن يتخيل الواقع في مخيلته فارتسمت له بعض معالمه

ومن صياح الناس أدرك لوسن أن الغريق وقد رأى ريقاً من الأمل ضاعف قوته ليغالب التيار بعزم قوى حتى تتمكن فان من أن تصل إليه . وقليلا قليلا كانت فان تعلو زبد الماء الثائر وهي تقترب نحوه . لقد أمرها سيدها وهي لا تستطيع إلا أن تنفذ له ما أمر به . واستطاعت الكلبة الذكية أن تقدر مقدار دفع التيار للغريق وقد بدأت قواه تخور فنشبت أنيابها في ثيابه قبيل أن ينطمس تحت الماء ليواريه لآخر مرة ، فصاح الجمهور ثائراً متحمساً وهو يشاهد الحيوان النبيل يمسك بالثوب الخلق الذي كان يرتديه الغريق . وهنا بدأ أعنف جهاد وأمجده في حياة هذا الحيوان المسكين جهاد مع الطبيعة الجبارة العنيفة لتنقذ حياتها وحياة من أمسكت به . وجاهدت عائدة إلى الشاطئ ، وعيناها عالقتان بسيدها وهو يروح ويجيء مع الجمهور يهتف بها ويشجعها ويحثها على النصر . وأخيراً استطاع رجل على الشاطئ ، أن يصوب خطافاً إلى الغريق فعلق بثيابه واستطاع بذلك أن يجذبه منها . وكانت فان لما رأت أن عملها انتهى قد فتحت فاها وأطلقت الغريق لينشده هذا المنقذ الجديد . ولكن ويالقسوة القدر ! ما كادت الكلبة تتخلل من ميثها حتى صادفها تيار قوى جانبي ليدفع بها في عنف إلى قاع النهر . ولما كانت قواها قد خارت من طول ما جاهدت فإنها لم تستطع مقاومته فاندفعت معه وفي الحال غرقت .

وأدرك لوسن ما حل بفان من تصايح الجمهور فولول وبكى وارتمى على الطين يدفن وجهه فيه ويقلبه من شدة الألم وعنف الصدمة . ونظر الناس إليه حيناً ثم تنبهوا إلى أن الليل بدنو فتركوه لآلامه .

ولما أشرق الصباح أفاق لوسن كعادته مبكراً ، ولكنه

لم يجد إلى جانبه الرفيق الصدريق الذى يلعق يده ويتبيح فرحا كأنما يعلن العالم بصحوة سيده . ولكنه لشدة عجبه رأى نورا عظيما يكاد يعشى عينيه من بريقه وجلاله . ونظر فإذا هو يرى فملأ كل ما حوله . فهذا هو النهر بشاطئيه ، وهذا هو الصفصاف على حافته كأنه يرسم النهر حدوده ، ووراء كل هذا بدت أسوار المدينة من بعد . نعم إنه لم يكن ليرى الأشياء الصغيرة الدقيقة ، ولكن ما كان أسعده برؤية هذه المناظر الجليلة العجيبة التى حرم رؤيتها طوال هذه السنين . وبينما هو يتأمل تلك المعجزة راضيا فرحا أحس فى أعماق نفسه أن تضحيته بفان من طيب خاطر فى سبيل السائل الغريق كانت السبب فى هذه النعمة التى لا تقدر بثمن .

لقد كان جالساً على الأرض ينعم بالتأمل فى هذه القوة الجديدة التى أحسها لما رأى رجلا يدنو إليه . لقد استطاع أن يرى قامة الرجل تتجه نحوه وإن لم يستطع أن يتبين ملامحه . ودنا الغريب منه قليلا قليلا حتى وقف أمامه وقال : «يابنى إنك أنت الذى أنقذت حياتى أمس» وتطلع لوصن فى لهفة إلى هذا الرجل يريد أن يستدل من ملامحه على شخصيته ليعرف من هو هذا الذى بذل فى سبيله كل ما عنك فى هذه الحياة . وفجأة صاح هذا الرجل : «ماذا ؟ أنت لوصن الذى طردته من بيتى فحرمته البيت والمأوى ؟» .

وولول لوصن فى مرارة وحسرة وهو يخفى وجهه بين يديه . لقد كان والده . والده الذى عنفه كل العنف لقسوته . نعم هو هذا القاسى الذى ضحى من أجله بكلبته الأمينة التى أحبته وأحبها كل الحب .

وجاش صدر لوصن بالمرارة والألم ولم يجد ما يعبر عنهما به . وكان على وشك الانفجار بكل هذه المرارة فى وجه والده ، على وشك أن يلعن هذا الذى أساء إليه فى حقارة ولؤم ، ولكنه أنصت إلى صوت رفيق يحذره من ذلك ، وإذا هو يمد يده إلى أبيه قائلا : « إنى أغفر لك يا أبى كل ما مضى » .

وتأثر الرجل تأثراً بليغاً بعظمة الصبى . فمد إليه ذراعيه وضمه إلى صدره ضمة قوية ، وهو يقول : « ارحمينى أيتها الآلهة ، فلقد ارتكبت وزرا كبيرا . لقد تخليت عنك يابنى ، لقد طردتك من بيتى ، فإذا أنت الذى تنقذ حياتى » .

وبينما كان لوصن يضم بدوره أباه إلى صدره سقط آخر حجاب من حجب الظلام من عينيه ، وإذا نظره يتصوب نحو العالم الجميل من حوله حراً طلقاً لا يقف فى طريقه أقل عائق من ظلمة أو غمام .

سهير القلماوى

هدوء النفس يطيل العمر

درس أحد الباحثين حياة عدد عظيم ممن تخطوا التسعين من سنى العمر ، فتبين أنهم جميعاً يشتركون فى خصلتين : هدوء النفس وقلة الاكتراث للمخاوف .

عن نيوزيلند ويكلى نيوز

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكردانى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

من أشهر الرسائل العالمية

جان دارك

تأمر الانجليز أن يستسلموا قبل موقعة أورليان

فتاة أمية في السابعة عشرة من عمرها تسير إلى شينون في فرنسا وتثير بسيرها هذا مجرى تاريخ هذه البلاد. اشتهرت جان دارك في حداثتها كصبية من أعمال اللورين براعتها في حلب البقر وحرث الأرض وخياطة الملابس، كما اشتهرت بالرؤى التي كانت تنظرها «والأصوات» التي كانت تسمعها من سنت كثرين وميكائيل ومرجريت بل ومن جبريل نفسه. وجاءت جان إلى شارل ولي عهد فرنسا إطاعة لهذه الأصوات تعرض عليه خطتها التي رسمتها لطرد الإنجليز من الأقاليم الواسعة التي كانوا يحتلونها وقتئذ في فرنسا، ولإخضاع البرغنديين أحلاف الإنجليز.

ترى أية فتاة كانت جان دارك؟ ذلك ما اختلف فيه الكتاب. فأما فلتير فيراها بطلة وإن كانت لا تسلم من بعض العيوب الخلقية، وأما شيلر فقد وصفها بأنها فتاة جميلة عنيفة ثائرة غريبة الأطوار، وأما أناتول فرانس فيصورها في صورة آداة طيعة في يد كنيسة العصور الوسطى وقواد جيش شارل. وتخيلها مارك توين عذراء طاهرة جميلة عفيفة شريفة. وجاء برنرد شو بعد هؤلاء كلهم فجعلها أول امرأة عصرية[1]. ولعل أقرب وصف لأخلاقها أنها جمعت القليل من هذا كله، فكانت فتاة قوية الشكيمة، مجازفة، واسعة الحيلة في القتال، مستمسكة بأهداب الدين. فأما أنها كانت جميلة غريبة الأطوار فذلك من نسج الخيال، وأما أنها طاهرة عفيفة فلم يشك في هذا أحد من معاصريها حتى قضاتها أنفسهم.

وإذا تصورنا ما كانت عليه فرنسا في أيام شارل السابع الخامل الضعيف الإرادة لم نعجب من استجابة الفرنسيين لنداء هذه الفتاة الريفية القوية الشكيمة.. وسارت جان يصحبها مشهورو الفرسان أمثال دونوا وجيل دە ريه لترفع الحصار عن أورليان، وكان رفعه عنها هدفها الأول. ولعلها لم تكن تعلم وقتئذ أنها بعملها هذا تبث في فرنسا روحاً قومية ونزعة وطنية لن تقفا عند حد طرد الإنجليز من البلاد بل ستدفعان فرنسا إلى بسط سيادتها على أقاليم واسعة تمتد إلى جبال الألب.

واستفاضت الأخبار عن الجيش الصغير تقوده فتاة قروية في ملابس بيضاء، تمتطي صهوة جواد أسود، تمسك في يدها فأساً، ولكنها تهزم الأبطال بدعائها وصلاتها، فاستسلمت لها القرى دون قتال. وقبل أن ترفع الحصار عن أورليان أملت الرسالة التالية تطلب فيها إلى الإنجليز الذين كانوا يحاصرون المدينة أن يستسلموا لها، وكانت هذه الرسالة من الأدلة التي قدمت لقضاتها لإثبات زيغها وكفرها.

«لقد بعث بي إلى هنا الله ملك السموات ...»

المسيح ومريم

يا ملك الإنجليز! وأنت يا دوق بدفورد! يا من تسمى نفسك نائب الملك في فرنسا! وأنت يا وليم دە لا بول ويا إرل سفك وياجون تالبت، وأنت يا توماس ويا لورد اسكيلز، يا من يسمون أنفسهم نواباً عن بدفورد هذا —

اخضعوا لملك السماء، وقدموا إلى الفتاة التي أرسلها الله مفاتيح المدن العامرة التي استوليتم عليها وانتهكتم حرمتها في بلاد فرنسا. لقد جاءت بأمر الله لتعيد الدم الملكي إلى البلاد، وهي على استعداد للصلح إذا خضعتم

(١) انظر رواية شو «جان دارك» في سلسلة عيون الأدب الغربي بلجنة التأليف

واستسلمتم، على شريطة أن تغادروا فرنسا وتؤدوا ثمن ما اغتصبتم منها. وأنتم أيها الرماة والأسياد والجند على اختلاف درجاتكم، يا من تحاصرون أورليان، أستحلفكم بالله أن ترحلوا إلى بلادكم، فإذا أبيتم فما قليل ترون الفتاة التي سيحل بكم على يديها الدمار.

أما أنت يا ملك انجلترا فإذا لم تجب طلبي فاعلم أنني زعيمة عسكرية وأن رجالك أينما واجهتهم في أرض فرنسا سيفرون من أمامي أرادوا ذلك أو لم يريدوه، فإن عصوا أمري فسآمر بقتلهم. لقد أرسلني الله ملك السموات إلى هذا المكان لألقاهم وجها لوجهه، وأخرجهم من أرض فرنسا. فاذا استسلموا فسأعفو عنهم. فلا يخالجك في هذا شك. ولن يهبك الله مَلِكُ السموات ملك فرنسا، بل سيكون هذا الملك لشارل وارثه الشرعي، لأن الله يريد هذا، وقد أوصى له به على لسان الفتاة، وسيدخل باريس في موكب عظيم.

فاذا لم تؤمن بهذه الأنباء التي أرسلها إليك الله والفتاة فستقضي عليكم أينما وجدناكم، وإذا لم تستسلموا فسنجملكم عبرة لم تر فرنسا مثلها من ألف سنة. واعلم أن الله سيهب الفتاة قوة تعجزون معها عن مصلاتها هي وجنودها الأبطال.

وأما أنت يا دوق بدفورد فإن الفتاة ترجو منك وتطلب إليك ألا تسعى إلى حتفك بظلمك، فإذا لبيت نداءها استطعت أن تنضم إلى رجالها، حيث ترى الفرنسيين يعملون للمسيحية أعمالا لم تشهد مثلها من قبل. أجب من فورك هل تقبل الصلح في مدينة أورليان أو لا تقبله. فإن كانت الثانية فتذكر هذا وأنت تعض بنان الندم.

• • •

وسخر الانجليز من جان واتهموها بأنها ساحرة، ولكن سخريتهم لم تقدم شيئا، فقد هزمتهم بجيشها الصغير وبددت شملهم. وعلل دوق بدفورد هذه الهزيمة المنكرة بقوله:

«لقد كان سببها دون شك أن ولية الشيطان التي يسمونها الفتاة قد استمالت علينا بفنون السحر».

وبعد ثلاثة شهور من ذلك الوقت، أي في السابع عشر من شهر يوليه سنة ١٤٢٩، توجت جان شارل ولي العهد ملكا على فرنسا في ريمز. ولكن حفلات التتويج أمكنت الانجليز من أن يلموا شعثهم، ويحصنوا باريس، ويستقدموا المدد من بلادهم ويعززوا مواقعهم. فلما سارت جان إليهم بعد ذلك كانت كأنما تسير إلى الهزيمة. وفي شهر مايو من عام ١٤٣٠ قبض عليها البرغنديون أحلاف الإنجليز في كبيني. وغدر بها شارل السابع بعد أن توجته ملكا على فرنسا ولم يعد له حاجة بها، فلم يعمل شيئا لخلاصها. وباعها البرغنديون للانجليز بعشرة آلاف قطعة من الذهب، وأسلمها هؤلاء إلى أسقف بوفيه، واتهموها بأنها كافرة وساحرة.

وجيء بها أمام جماعة من القضاة ورجال الدين، يتراوح عددهم بين خمسين وستين، واتهمت بسبعين تهمة: منها سماع الأصوات، ورؤية الأشباح، والتزيي بزي الرجال، ووضع اسم المسيح ومريم على رسائلها، والطعن في دين الله. وحاكموها وثبتت عليها اثنتا عشرة تهمة، أنكرتها جميعا، غير أنها وجدت بعد بضعة أيام تلبس ملابس الرجال فحكم عليها بالإعدام.

ووضع على رأسها صليب كبير من الورق كتبت عليه هذه العبارة: «الكافرة التي عادت إلى المعصية، المرتدة، عابدة الأوثان» وأحرقت حية في ٣٠ مايو سنة ١٤٣١، وأخرجت جثتها المحترقة من اللهب بعد أن احترقت ملابسها وعرضت على الناس ليتبينوا أنها امرأة حقا. ولما تم حرقها أخذ رمادها وبعثر في نهر السين حتى لا تعود روحها فتنقذ مرة أخرى إلى أرض فرنسا، ولكنهم قدروا فأخطأوا التقدير.

محمد بدران

بين المسموع والمقروء

الجبل الأعظم

وقامت جماعة أخرى منهم تطلب ما استعصى من صعوده.

وصعدوا. ولكن فجأة، وبغير إنذار، سمعوا دويا هائلا. لقد انهار جانب من الجبل من تحت أرجل الرجال. ونجا النفر المتقدم، أما النفر المتأخر، وعددهم تسعة، وفيهم الحمالون، فقد هبطوا مع حطام الجبل ثلاثين مترا. وهرع الأحياء يبحثون عمن وقعوا تحت الركام. وظلوا يجاهدون رخاوة الأرض خشية أن تزل بهم، ويجاهدون هواء الجبل الرقيق وهو لا يكاد يعين على العمل بملء صدورهم، وأخذوا يضربون الصخر والثلوج يرفعونها عن رفاقهم. وبعد الجهد الطويل والتعب المضنى، ضربت فأس شيئا ظنه ضاربه قدما. وقد كان حذاء لأحد الرجال. فما لبثوا أن أخرجوه فاقد الوعى، ولكن به أنفاس. وتابعوا الضرب والحفر حتى وقعوا على رجل آخر ذهبت عنه الحياة إلا رمقاً. أما السبعة الباقون فكانوا أجساداً سبعة خامدة جامدة لا حراك فيها.

فهؤلاء تركوهم يرقدون على فراش من ثلج لا يسوح أبداً ولا يسيل.

وعادت البعثة بعد ذلك، فلم تحاول صعود الجبل محاولة أخرى هذا العام، عام ١٩٢١، وتوقفت المحاولات إلى عام ١٩٢٤

فلما جاء هذا العام أخذت الأشواق القديمة تتجدد، وأخذت العزوم تتجمع، وتألفت بعثة جديدة، بها الجديد الغر، وبها العتيق المجرب.

وبدأت بسوء حظ غير منظور. فقد مرض رئيس البعثة الجنرال، أصابته الملاريا، فكان لابد من حمله وإرجاعه وتولى القيادة من بعده «نرتون». وبدأوا بالمخيم الأول القديم، واتخذوه قاعدة يثبون منها إلى ما علاه من مخيمات أخرى قديمة. ولكن ساء الجو، وبرد الهواء، وهبت العواصف. وكلما حاولت البعثة صعودا ارتدت إلى قاعدتها عاجزة فاشلة.

ويقضى العرف في الصعود أن يتقدم أقل الرجال إحسانا للتسلق، وأن يتأخر أكثرهم إحسانا، ادخارا لهم للوثبة الأخيرة إلى ذروة الجبل. ولكن اختلال الأحوال دفع المتقدمين إلى أن يتأخروا، والمتأخرين إلى أن يتقدموا. وكان من المتقدمين المدرس «مالورى»، كان له في البعثة السابقة سابقة، وكان له فيها إحسان وتبريز. وقاد «مالورى» فئته، يغالب الطبيعة القاسية، ولكنه مالبث رجاله أن أصابهم الظمأ الشاهق بالداء في حلوقهم، وأصابهم الثلج بالعمى في أعينهم، وأصابهم البرد الشديد بالقرص في أيديهم وأرجلهم. وأرادوا الطعام فما استطاعوه. وتخلف من هذه الفئة أربعة من الحمالين عند المخيم رقم ٤، فهرع إليهم من سبقوهم، فلما بلغوا إليها، زل اثنان منهم وتعلقا بحرف هاوية ليس لها قرار. وبالجهد الجهيد أنقذوهم من فم الموت.

وأحس قائد البعثة، نرتون، أن الحمالين قد خذلت نفوسهم، وضاعت الثقة من قلوبهم، فلم يكن له بد من الرجوع بهم إلى اللاما، شيخهم، في بطن الوادى، ليباركهم، وليثبت قلوبهم، ويشيع الثقة في نفوسهم. وعادوا إلى الجبل من بعد ذلك أقوى قلبا وأشد عزما.

واختطوا الخطة: أن يسبق «نرتون»، و«سومرفيل» إلى الصعود. وأن يصعدا بغير أكسجين. فإذا عجزا، لحقهما «مالورى» و«إرفين» بجهاز هذا الغاز.

وفي الثانى من يونيه بلغا في الصعود المخيم رقم ٥، فأعادوا إنشاءه، على ارتفاع ٢٥٠٠٠ قدم. وفي اليوم التالى تقدما صعدا وأقاما خيمتهما من الجبل عند ارتفاع ٢٧٠٠٠ قدم. وشجعهما هذا فبذلا جهداً أكبر، ولما بلغا ارتفاع ٢٨٠٠٠ قدم، توقف «سومرفيل» عجزاً

واستنفاد قوة . أما « ارْتون » فذهب قدماً . وعند الساعة الواحدة رجع . لقد خاب السعي . وفي تلك الليلة عمي « ارْتون » ، وقيد مكفوف البصر وهو يهبط على تلك الحائط ، وهي من ثّلج ، يهدي رجليه إلى مواطئهما الوثيقة أيد رفيقة ، جمّدها الصقيع ، لرفاق كادت تخنقهم رقة الهواء .

عندئذ صعد « مالوري » و « إرفين » ، يجربان حظهما ، وتبعهما أودبل جيولوجي البعثة . وبلغوا المخيم رقم ٥ وفاتوه حتى بلغوا الخيمة التي أقامها صحابهم عند ارتفاع ٢٧٠٠٠ قدم . وفيهما ناموا تلك الليلة . وفي الصباح ، ومن تلك الخيمة ، وهي تشرف على فراغ لا قاع له ، رموا أبصارهم عبر هذا الفضاء إلى أسفل ، فتراءت لهم دنيا هذه الجبال ، جبال الهملايا ، شاسعة واسعة مخوفة مرهوبة . قال مالوري ، وقد وقف يشير الجمال بعينيه ، وكان له قلب الشاعر : إنه لعزو رائع لجبل عظيم جليل ، كان من حقه أن لا تستباح حرماته . فأنا مغتبط آسف . فإن زادت غبطتي على أسفي ، فمنذري هذه الروعة ، وذلك الجمال ، وتلك الفخامة ، وهذه العزة التي لم يستذلّها من قبل إنسان .

ولم يدر هذا الشاعر السلاق أن هذه آخر قولة يقولها ، وأن هذه النظرة آخر نظرة من نظرات الجمال ينظرها .

وفي اليوم التالي بدأ الصعودَ هو وصاحبه إرفين ، وقام أودبل من ورائهما يطلب المخيم رقم ٦ ، وقد أشرف صغيراً على ذروة إفرست كالطائر الخائف . وصادف في أول أمره ضباباً ، إلا أنه لم يمنعه من صعود . وأخذ يحاور سبيله ويداور ، ويخاتل السحاب ويماكر ، وهو ينظر إلى الأمام ، إلى علٍ ، عسى أن يرى ماذا جرى لصاحبيه اللذين سبقا .

وبينا هو في منتصف طريقه إلى المخيم رقم ٦ ، انقشع الضباب بغتة ، فأخذ يجيل البصر في حوائط الثلج التي علته يطلب صاحبيه ، فرأى على كتف الجبل ، عند قاعدة ذروته الأخيرة ، على الصفحة البيضاء ، شيئين اثنين يتحركان صُعُداً .

ثم انعقد الضباب مرة أخرى فقام دون عينيه كما يقوم الستار ، فلم يعد يرى صاحبيه . ولم يقدّر له من بعد ذلك أن يراهما أبداً .

وفي اليوم التالي ، تطلّع من تخلف من البعثة من المخيم رقم ٣ ، تطلّعوا إلى ذروة الجبل يطلبون أخبارها . فرأوا في المدى البعيد شكل إنسان يفرش على صحيفة الثلج وهي بيضاء ، مفارش النوم ، وقد صالب بينهما . فقامت علامة الصليب هذه تدل على أن نكبة وقعت ، وعلى أن روحاً افتقدت .

ومن تلك الساعة لم يسمع أحد من « مالوري » ولا من صاحبه « إرفين » ، إلا بلطة وجدوها من بعد ذلك في ذلك الطريق ، عرفوا أنها بلطة « مالوري » ، لابد أنها سقطت منه وهو يتحسس طريقه في الظلام .

لقد اقتربا من ذروة هذا الجبل العاصي أي اقتراب ، ولم يبق إلا ألف قدم ، فهل يا ترى قطعا هذه الألف الباقية ؟ إنه سؤال لا جواب له ، ولن يكون له جواب أبداً .

أحمد زكي

حلم عذراء...

[آثرت أن أدع هذه العذراء تقص حلمها الذي رأته بنفسها ، وهى ترى أن الحلم كالطائر : إذا قص وقع .]

رأيتُ كأني حيرى على طيفٍ من النورِ
وأنّ كواكبَ الآما لِ ضلّتْ في الدياجيرِ

• • •

وطال الليلُ واستاقَ على الأكوانِ كالدهرِ
وأُفقٌ سادرًا حتى كأنّ الليلَ لا يَسري!

• • •

كأنّ الليلَ مشغولٌ من الآلامِ بالنوحِ
وهل يعلم أحزاني ولا يحنو على همّي؟

• • •

وتمّ الصمتُ كالأحلا مِ لا تلقَ لها صوتا
كأنّ الأرضَ والأفلا كَ باتتْ كلُّها موتى!

• • •

ولاحتْ ساحةُ الليلِ صحارى مثلَ أيامي
قد اسودّت كأحزاني وطالت مثلَ آلامي

• • •

وسال الدمعُ من عيني دمًا ينسابُ من قلبي
فيُروي غلّةَ الصادي ويَروي قصّةَ الحبِّ

• • •

وبينا كنتُ في صمتٍ إذا بالقلبِ يرتجُّ!
كأنّ القلبَ ميدانٌ به جندُ الوغى ضجّوا!

• • •

وشعَّ النورُ مختلفًا لعيني جلوةَ العُرسِ
أهذي صفحةُ البدرِ؟ نعمْ! بل طلعةُ الشمسِ

• • •

نعمْ بل هذه الأنوا رُ طرًّا نورُ محبوبي
لقد وافى به الشوقُ فولّى ليلُ تعذيبي!

• • •

فيا ألحانُ صوّري الحبَّ أنغامًا وغنّينا!
كفانا ما لقينا من تنائينا أمانينا

• • •

وبارحَ الصبَّ كُرَبٌ وخافَ حرُّ أشواقي
وغضَّ الطرفَ بالليلُ من السكرانِ والساقي

• • •

ونامي يا عيونَ الوهْ مِ كلُّ سعادةٍ خلسُ
دعيني ها هو الينبو عُ في كفّي ينبجسُ

• • •

حبيبي! إنني ظمآ نُ إليكَ ومهجتي تحرقُ
إذا ما عربدَ الشوقُ فماذا تعملُ الأنثى؟!

• • •

تخفّفْ من أمانيك الـ حِبى حامتْ على قبري
فكم ماتتْ لها نفسي وكم جاشَ بها صدري

• • •

حبيبي! كم تودّدتُ إليكَ وأنتَ في قلبي
ونحنُ الآنَ في ظلٍّ !! نهوى جنبًا إلى جنبِ

• • •

ولمّا أشعلَ الشوقُ لهيبَ الحبِّ في كبدي
تعانقنا كأنّا قد تعانقنا إلى الأبدِ!!

• • •

وأجّجَ الحبُّ في القلبيْـ ـنِ أشواقًا لها شُعَلُ
وماذا تحرقُ الأشوا قُ مما تطفئُ القُبَلُ؟!

• • •

ولكنْ أحسّ الشوْ قَ كالنيرانِ في نفسي
إذا بحرارةِ الأشوا قِ تلكَ حرارةُ الشمسِ!

• • •

فقد لاحتْ بعيني مُحيّاها بترحيبِ
إذا بي كنتُ في حُلمٍ وأينَ الآنَ محبوبي؟

أحمد أحمد العجمي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٩١ — الثلاثاء ٢٥ من رجب سنة ١٣٦٥ — ٢٥ من يونيه سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــــدد

المعارض الثقافية

«على هامش المعرض الأول للكتاب العربي»

من الوسائل الثقافية العظيمة النفع الكبيرة الأثر في نشر الثقافة وإثارة الاهتمام بموضوعاتها ، إقامة معارض تتناول مختلف الموضوعات العامة ، وتجمع شتات الجهود المختلفة فيها ، وتنسق بينها في وحدة شاملة تعطي صورة وافية صحيحة عنها . ومن الطبيعي أن يتوفر المختصون الذين يعهد إليهم في إقامة هذه المعارض على دراستها دراسة طويلة مضنية ، ويتتبعوا الموضوع من بدايته ، وينظموا حلقات تطوره ، وأدوار ترقيه في سلسلة مرتبطة واضحة ، ليقدموا ذلك كله للزائر مبسطاً خالصاً من الاضطراب بين العالم ، فيستطيع في فترة قصيرة أن يلم بأطراف الموضوع ، ويكون فكرة جلية عن المراحل التي سلكها منذ نشأته إلى أن بلغ صورته الحاضرة . وبهذا يحيط في ساعات بما كان يقتضيه زمناً طويلاً في الدرس والبحث والتنقيب .

وقد تنبهت لذلك وزارة المعارف العمومية حين أقامت المعرض الأول للكتاب العربي الذي لا يزال مفتوح الأبواب للزائرين خلال هذا الأسبوع ، فخرجت بذلك من أن تكون مجرد «ديوان المدارس» لا يشتغل بغير شئون المدارس ومناهجها وامتحاناتها .

والحق أن مهمة وزارة المعارف العمومية في معناها الواسع تتطلب منها أن تعنى بنشر الثقافة والعرفان خارج

دور المدارس ، كما تتولاها داخلها ، وأن تكون راعية العلم والفن ونصيرة خدام العلم والفن الذين يكرسون أوقاتهم للانتاج الثقافي للشعب كافة والذين يسدون بانتاجهم الحاجات الفكرية لمختلف طبقات الشعب على اختلاف حظوظهم من الثقافة.

ويبدو أن الوزارة تتجه في هذا السبيل ، فقد جعلت من برامجها تعهد المكتبة العربية بما يتممها ، ويكمل النواحي التي تنقصها ، واستحدثت المواقيع والترجيح بالمكافأة على زيادة الانتاج الثقافي. وقد كان الجائزة الملكية السامية التي خص بها جلالة الملك أفضل إنتاج أدبي في كل عام وسماها « جائزة فؤاد الأول » والجائزة التي قررتها الوزارة اقتداء بسنة المليك لأفضل إنتاج علمي وسمتها « جائزة فاروق الأول » أثر عظيم يرجى أن يكون من أكبر العوامل على تشجيع الإنتاج الثقافي.

كذلك كان اهتمامها بالانتفاع بالمتاحف كأداة لتثقيف الجمهور واهتمامها بالتعاون الثقافي مع الأمم الشرقية والغربية ومتابعتها الحركات الثقافية الخارجية والإفادة منها في تطعيم الثقافة المصرية ومسايرة التقدم الفكري العام ، مظهراً آخر من مظاهر العناية بالشئون الثقافية التي تتجاوز غرف الدراسة وجوها المحدود الأفق.

وبافتتاح المعرض الأول للكتاب العربي تفتتح وزارة المعارف عهداً جديداً لنشر الثقافة العامة ، نرجو أن تواصل السير فيه بخطى واسعة ، وأن تجعل من هذه المعارض المؤقتة نواة لمعرض ثقافي دائم يجد فيه الزائر كل نواحي النشاط الفكري ميسرة السبيل لكل طالب ، يتعلم منها بالمشاهدة والمعاينة في ساعات ما لا يستطيع تحصيله بالكد والدرس في سنوات

ولقد وفقت الوزارة إذ جعلت « الكتاب العربي » موضوع معرضها الثقافي الأول . فالكتاب هو الأداة الكبرى للتثقيف ، وهو سجل الحياة الفكرية للأمة تعبر فيه عن مثلها العليا وتفصح عن ذوقها وعقليتها . والموضوعات التي تتناولها الكتب تمثل ما تجيش به الصدور وما يهتم به المجتمع . فالكتاب في كل عصر مقياس صحيح للمجتمع وميزان صادق لما بلغه من النضج وما أحرزه من التقدم .

والتراث العربي القديم في الأدب والعلوم ، ذخيرة ثمينة مجهولة للكثيرين . وإنتاجهم الحديث على سعته قد لا يحس الكثيرون بقدره ولا يلمون بنواحيه المختلفة الإلمام الكافي . فعرض ذلك كله خليق أن يعرف المثقفين بكثير مما لا يعلمون من الكتاب العربي وما كان عليه وما صار إليه ، وهي معرفة لا تكمل بغيرها ثقافة المثقف .

* * *

ولقد تناول المعرض إيضاح جانب يخفى على الكثيرين ، وهو أن الكتاب العربي طبع لأول مرة في أوربا عقب اختراع الطباعة بزمن غير طويل . ولا غرابة في ذلك ، فالمراجع العربية كانت أهم المصادر الثقافية في العالم إلى أوائل القرن السابع عشر ، وكان من الطبيعي أن تنشر أمهات الكتب العربية ليتوفر العلماء على درسها ونقلها والاقتباس منها .

وفي المعرض طائفة كبيرة من الكتب العربية التي طبعت في إيطاليا وألمانيا وفرنسا وانجلترا وهولندا . وفيه كذلك ما طبع في الأقطار الشرقية كالهند وإيران وتركيا . وهذا القسم وحده يستحق من الزائر عناية وإطالة نظر ، وسيخرج منه بفائدة غير قليلة .

وعرض الكتاب العربي في مصر منذ بدأ منشئ مصر الحديثة رأس الأسرة العلوية بتأسيس مطبعة بولاق . وسيلمس الزائر مبلغ عناية هذا العاهل الكبير بالثقافة ، وسيجد ما أنتج في عهده في مختلف العلوم والفنون . وسيبهر الزائر بصفة خاصة مجموعة الكتب الطبية ودقة المصطلحات

العلمية التي وفق لها المؤلفون في ذلك العصر .

وتلمس الركود الثقافي في عصر عباس الأول وسعيد حيث نرى قلة الإنتاج واقتصاره أخيراً على الناحية الثت من الأدب والشعر .

ثم نجد إحياءً جديداً للثقافة في عصر اسماعيل يمتاز بوفرة الإنتاج وتنوعه وظهور طائفة ممتازة من المؤلفين والكتاب والأدباء .

ونرى بعد اسماعيل فترة ركود أخرى مظهرها قلة الإنتاج وضيق مجاله . وتلمح أثر الاحتلال الانجليزي جليا في ضعف الابتكار وقصور الموضوعات التي تتناولها الكتب

ثم تلمح نهضة قوية في عصر المغفور له الملك فؤاد الأول ، تزدهر فيها العلوم والفنون ، وتتعدد ألوان الإنتاج الثقافي ، وينشط فيه التأليف والترجمة وتخرج باللغة العربية مؤلفات كثيرة في موضوعات كان عهد الاحتلال يقصر تناولها على اللغات الأجنبية .

وأخيراً نجد العصر الذهبي للانتاج الثقافي ، عصر الملك فاروق حفظه الله . ففيه خطت المكتبة العربية خطوات واسعة ، وكثر الإنتاج الثقافي وتعددت أنواعه ، فلا تكاد تجد ناحية من النواحي الثقافية لم تنل نصيبها الكامل من العناية والاهتمام ؛ فتجد كتب التاريخ على اختلاف العصور ، وكتب الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة والقصص ، وكتب القانون والتجارة والزراعة والاقتصاد . وتجد كتب الفنون الجميلة والفنون النسوية والفنون الحربية ، والكتب العلمية ، وكتب الصناعات ، وكتب الطب والصحة ، وكتب الدين ، وكتب الأطفال ، وغيرها مما جعل المكتبة العربية الحديثة كاملة وافية مستقلة بنفسها .

هذا إجمال لعرض الكتاب . على أننا لا نكون قد وفيناه حقه إذا لم نشر إلى أن سر هذا التقدم يرجع إلى أن الطباعة والنشر قد خرجا في هذا العصر من أن يكونا احتكاراً للحكومة . بل لقد نهضت الجهود الحرة في هاتين الناحيتين نهضة كبيرة ، وتعددت دور الطباعة والنشر ، وارتقت في فنها وأساليبها حتى ضارعت مثيلاتها في أوربا وأمريكا .

ويجد القارئ المعرض عرضاً وافياً لأهم دور النشر والطباعة ، تعرض فيه كل منها إنتاجها وتبين خصائصها ومبلغ نشاطها . ويجد القارئ في هذه الجهود الحرة ما يثلج صدره ويطمئنه على مستقبل الانتاج الثقافي في البلاد .

وقد فاتنا أن نشير إلى أن الصحافة قد نالت نصيبها من هذا المعرض ، فعرضت الصحافة المصرية والعربية في القرن التاسع عشر والقرن الحالي ، وفي هذا القسم مجال لدارس التطور الذي دخل على الصحافة ، وما يتميز به المعرض الصحفي في القرنين ، ويبين ارتقاء الصحافة في إخراجها وأسلوبها .

(. . .)

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

٥ - الشيخ محمد عبده

هذا هو الشيخ في بيروت بعد أن قبض عليه لاشتراكه في الثورة العرابية وأودع في السجن ثلاثة أشهر للتحقيق، لاقى فيها الأمرّين من اضطهاد وإهانة وشماتة أعداء، وتنكر أصدقاء، وتضييق بالأسئلة وإحراج في الاستجواب، ثم حكم عليه بالنفي ثلاث سنوات.

يقيم في بيروت نحو عام — سنة ١٨٨٣ — وسنه إذ ذاك نحو أربع وثلاثين سنة.

ثم لا يلبث أن يدعوه أستاذه السيد جمال الدين ليوافيه إلى باريس فيلبي الدعوة، ويشتركان في إخراج مجلة «العروة الوثقى»[1]، للسيد التوجيه والروح ورسم الخطط وإيحاء الأفكار، وللشيخ التحرير والصياغة وتفصيل المعاني.

إدارة الجريدة في غرفة صغيرة في سطح منزل في باريس، هي مكان التحرير وملتقى الأتباع، ومجمع الأفكار وهذه الغرفة الصغيرة أثارت الأفكار وأخافت الإنجليز والفرنسيين، وأقلقت راحتهم، أكثر مما أخافتهم عمارات ضخمة وإدارات فخمة، بل أكثر مما أخافتهم الجنود والبنود، فالعبرة بالسكان لا بالمكان.

وهذا الشيخ محمد عبده يتجوّل بباريس، عساه يطلع على شؤونها ومعيشة أهلها، فيطيل شعر رأسه ويلبس الطربوش ويحتفظ بالجبة والقفطان. ولكن — مع الأسف — لم يكن له من الفراغ ما يتعلم فيه الفرنسية، فهمته تستغرق كل وقته، فهو وأستاذه وقليل من الأتباع يحملون عبء التفكير والتحرير والتصدير، وتمهيد السبل السرية والعلنية لوصول المجلة إلى أنحاء العالم الإسلامي، وتأسيس فروع مركزية لمساعدتها وانتشارها وتحقيق أغراضها.

والقارىء المقالات التي كان يحررها الشيخ محمد عبده في الوقائع المصرية ومقالات «العروة الوثقى» يرى الفرق

(١) انظر أغراض المجلة في ترجمتنا «جمال الدين».

الكبير بينهما في الاتجاه والغرض والأسلوب والحرارة.

كانت مقالات «الوقائع» بحكم الطبيعة تقصد إلى الإصلاح الاجتماعي في مصر وحدها بأسلوب هادئ، يغلب عليه العقل والتحفظ والتدرج. ومقالات العروة الوثقى تنظر إلى العالم الإسلامي كله على أنه وحدة، فإن ذكرت مصر أو الهند فعلى سبيل المثال، وكانت تقصد أول ما تقصد إلى مناهضة الاحتلال الأجنبي بجميع أشكاله، وتهدف إلى دفع نيره من العالم الإسلامي كله من طريق ثورة الشعوب وبث روح العزة القومية بواسطة العقيدة الدينية الصحيحة، وخلق الأمل في النجاح مكان اليأس، وتوثيق الصلات بين الشعوب الإسلامية كلها للتعاون على دفع أذى الأجنبي عنها، والتخلص من المستبدين الظالمين من أهلها، وتأسيس الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية على أسس أصول الإسلام الأولى: من إعداد السلاح ومقابلة القوة بالقوة وطرح العقائد الدخيلة التي تدعو إلى الاستسلام، مثل رمي العبء كله على القضاء والقدر، وإفهام الشعوب أن الإسلام في شكله الصحيح لا يتنافى مع المدنية ولا يعوق من التقدم والوصول إلى ما وصلت إليه الأمم الأخرى.

هذه المعاني القوية أكسبت أسلوب الشيخ محمد عبده قوة لا نجدها في «الوقائع». ثم إننا نلاحظ أن «الشيخ» متى اتصل بالأستاذ فتارى من ناره وثار من ثورانه وعاطفته، فإذا انفصل عنه عاد إلى حكم العقل والمنطق وزالت ثورته، وخفت حدته.

وحدث في هذه الأثناء أن سفر الشيخ محمد عبده إلى «لندن» وكانت الثورة المهدية في السودان، والإنجليز لم يثبتوا أقدامهم في مصر، ووعودهم بالجلاء تتابع، فلعل في رجال الإنجليز من أعضاء البرلمان من يصغي إلى صوت الإنسانية، وحق البلاد في الاستقلال، فكان الشيخ محمد عبده — وقد عاد إلى عمامته — في البرلمان الإنجليزي يحدث أعضاءه، ويحدث رجال السياسة، ورجال الصحافة — وهو في كل ذلك وطني مصري مخلص يطلب الجلاء

والوفاء بالوعود، ويوضح حقيقة الحال في الثورة العرابية ودسائس الأوربيين فيها، وكراهية الشعب للحكم الأجنبي، وأنهم يفضلون استبداد الحكام من أهلها على الأجنبي من غيرها مهما كانت سيرته، ويهدد بأن المصريين سوف لا يدفعون الضرائب، وسيجعلون حكم الأجانب مستحيلا سواء أكانوا إنجليزاً أو فرنسيين، ويقرر أن انتشار الأمية في مصر لم يفقد أهلها الشعور الطبيعي برغبتها أن تحكم نفسها، والإسلام الذي بين جوانحها يحرم عليها الاستسلام لغيرها.

ولكن متى خضعت القوة للحق، ومتى حنت المصلحة للإنسانية، ومتى عفا الأسد عن فريسته؟

لقد عاد الشيخ محمد عبده إلى باريس يائساً، وزاد الأمر سوءاً أن نجحت إنجلترا في اضطهاد «العروة الوثقى» والتضييق عليها، فاحتجبت بعد ظهور ثمانية عشر عدداً منها في ثمانية أشهر، وسافر السيد جمال الدين إلى فارس وعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت، فإن كانت «العروة الوثقى» لم تخلق أشجاراً كما كانا يؤملان فقد نثرت بذورا تنتظر الجو الطبيعي والغذاء الصالح لتبدأ في النمو وتتكون بعد أشجارا وإن انتفع بها الأعقاب.

سكن الشيخ محمد عبده بيروت فانقطع عنه مدد الثورة والهياج السياسي الذي كان يمده به السيد جمال الدين، وعاد إلى طبيعته من ميله إلى الإصلاح العقلي والديني وتجنب السياسة، وكانت الظروف حوله تدعو إلى ذلك؛ فقد فشلت الثورة العرابية وأقفلت جريدة العروة الوثقى ولم تنجح مفاوضاته مع الإنجليز، وهو الآن يقيم في بيروت حيث الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الذي يخنق الحرية ويملأ البلاد بالجواسيس يحصون على الناس أنفاسهم

لهذا كله كان الشيخ محمد عبده في بيروت عالماً ومعلماً فقط، يملأ زمنه بالتأليف والتعليم، شرح نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان، وأخذ يدرس تفسير القرآن في مسجدين من مساجد بيروت على الطريقة التي اتبعها بعد في مصر، لا يتقيد بكتاب في التفسير خاص، إنما يقرأ الآية من القرآن ويفسرها من عنده بما يختار من التفسير، ويستطرد في شرح أحوال المسلمين وتقدمهم حسبما تلهمه الآية.

ودعى للتدريس في المدرسة السلطانية فأصلح برامجها ونقلها إلى درجة أرقى بكثير مما كانت، نقلها من شبه مدرسة أولية إلى شبه مدرسة عالية، وشغل نفسه بالتدريس فيها أكثر الوقت، فكان يدرس التوحيد والمنطق والبلاغة والتاريخ الإسلامي، والفقه على مذهب أبي حنيفة، واتخذ بيته ندوة للحديث العلمي والأدبي والسمر المفيد، وكان لبقاً في دروسه وأحاديثه، يشتاق إليها المسلم والنصراني.

وكان من آثار إملائه ودروسه ما كان أساساً لما نشره بعد في مصر من رسالة التوحيد وشرح البصائر النصيرية في المنطق.

وعلى الجملة فقد خلق في بيروت حركة علمية راقية استفاد منها كثير من أهلها.

ولم ينس الجرائد، فكان يكتب في جريدة «ثمرات الفنون» مقالات تشبه تلك التي كان يحررها في الوقائع، مثل مقالته في الدعوة إلى «النقد» والحث عليه وأنه أداة تمحيص الآراء، ومعرفة وجه الحق في الأفكار الخ.

والتفت إلى المصالح العامة للدول الإسلامية، فوضع لائحتين في إصلاح التعليم الديني في مدارس المملكة العثمانية بمناسبة صدور إرادة سنية من السلطان عبد الحميد بتشكيل لجنة تحت رياسة شيخ الإسلام لإصلاح البرامج والمدارس الإسلامية، وقد رفعها الشيخ محمد عبده إلى شيخ الإسلام في الآستانة، يرى فيها أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة والجهل بأصول الدين، وأن ذلك أضاع أخلاقهم وأفسدها، وأن العلاج الوحيد هو إصلاح التعليم الديني، وقد رسم لذلك خططه.

ووضع لائحة أخرى رفعها إلى والي بيروت تتضمن إصلاح سوريا ووصف سوء حالها وتقدم النزعات السياسية

لها بانتشار المدارس الأجنبية فيها ، واقترح تعميم المدارس الوطنية ، وإصلاح برامج التعليم الديني والعناية به .

ومع انقطاعه للعلم وبعده عن السياسة لم يخل من متاعب ، بسبب حسد من الضعفاء الجبناء ، أو بسبب حدة مزاجه ، وكان إذا احتد جرح ، فاضطر إلى ترك التدريس في المدرسة السلطانية لما شعر بسوء جوها .

كانت مدة نفيه التي حكم عليه بها ثلاث سنوات ، ولكنه مكث في المنفى نحو ست سنين ، لأن الأمر لم يكن حكما بالنفي فقط ، بل كان أكثر من ذلك غضب الخديو توفيق عليه ، لأنه كان ممن اتهم في الثورة العرابية بجهره بخلع الخديو ؛ وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في محاكمته دون غيره ممن اشتركوا في الثورة العرابية مثل اشتراكه . وقد كرر هذا المعنى أثناء حديثه وهو في إنجلترا مع بعض مكاتبي الجرائد ، فقد سأله مكاتب « البول ميل جازيت » عن رأيه في الخديو ، فقال الشيخ : « إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم إلى أعدائنا أيام الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه — إنما لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » .

لهذا كان من العسير عودته إلى مصر في عهد توفيق ؛ ولكن عادت وزارة رياض باشا إلى الحكم وسعى عند الخديو جماعة في العفو عنه ، منهم الأميرة نازلي ، ولم تكن تعرفه ولكنها سمعت عنه كثيراً من رجال منتداها ومنهم سعد زغلول ، وكانت حسنة الصلة مقبولة الرجاء عند اللورد كرومر ، ومنهم الغازي مختار باشا ، وأهم شفاعة كانت — بطبيعة الحال — شفاعة اللورد كرومر ؛ وقد قال في كتابه « مصر الحديثة » : « إن العفو صدر عن الشيخ محمد عبده بسبب الضغط البريطاني » . وينسب بعضهم الفضل الأول في العفو لمختار باشا . والمطلع على الأحوال في ذلك الوقت يعرف أنه ما كان الخديو توفيق يعفو إلا برضا اللورد كرومر أو ضغطه .

وهنا يصح أن نتساءل : ماذا كان وراء الستار ؟ واللورد كرومر لا يقدم على هذا لمجرد رجاء البرنسيس نازلي ورجال ندوتها ، وهو يعلم ما كان من الشيخ محمد عبده مع السيد جمال الدين في العروة الوثقى التي هاجمت إنجلترا أشد مهاجمة وعدتها أكبر خصم للمسلمين ؟

الذي يظهر لي أن أصدقاء الشيخ محمد عبده في مصر استوثقوا منه أنه إن عاد لا يشتغل بالسياسة العليا فقد جربها واكتوى بنارها ، ولم يفد منها ما يرجو لأمته والعالم الإسلامي ، وإنما يعمل على الإصلاح الديني والنظم الدينية ، وهذا لا يضر موقف الإنجليز في مصر في شيء . وعلى هذا الأساس قبل اللورد كرومر شفاعة الأصدقاء ، وضغط على الخديو توفيق فسمح له بالعودة ، وسار الشيخ محمد عبده على النحو الذي سنبينه .

ونتساءل أيضاً : هل يلام الشيخ محمد عبده على هذا الموقف ؟ .

ونرى أيضاً أنه لو أعد نفسه ليكون زعيما سياسياً يرمي إلى تحرير وطنه لكان موضع اللوم في هذه الخطة ولعد ذلك تراجعا . ولكن يظهر من تاريخ الشيخ محمد عبده كله أنه لا يحب السياسة ويلعنها ويلعن مشتقاتها ، ولم يشتغل بالسياسة إلا حين دفعه التيار في الثورة العرابية أو حين كان تحت تأثير أستاذه السيد جمال الدين الثائر الزاخر في « العروة الوثقى » . أما هو فيرى في نفسه أنه معلم منير عقول ، مفهم للحقوق والواجبات ، مصلح للعقيدة الإسلامية ، مدافع عن الإسلام . كان كذلك قبل الثورة ، وكان كذلك في بيروت ، فلم يتنكر لمبادئه حين أفهم اللورد كرومر موقفه بواسطة أصدقائه . ولعل هذا هو سبب ما نلحظه من فتور في العلاقات بين السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده من ذلك الحين ، « وكل ميسر لما خلق له » .

(يتبع) أحمد أمين

الاصلاح الصحى

فى ريف مصر

أصبح شعار المصريين فى الإصلاح الاجتماعى محاربة الفقر والجهل والمرض ، وقد تعددت الاقتراحات والآراء فى كيفية تنفيذ ذلك ، وتشيع كل فريق لرأى خاص ، وساهمت الصحافة المصرية بنصيب كبير فى تدوين آراء الكتاب فى معالجة الحال . ولكننا فى الحقيقة من الوجهة العملية نسير ببطء شديد ، وحال الفلاحين فى القرى المصرية لم يطرأ عليها تغيير ملحوظ منذ بدأ القرن الحالى ، إذا قدرناه بالمعايير الدقيقة وهى نسبة الوفيات ، ومعدل طول حياة الفرد ، ووفيات الأطفال ، ونسبة الإصابة بالأمراض ، وحالة نمو الفرد الجسمانى والعقلى ، وتفشى الأمراض الناتجة عن قلة التغذية أو نقص بعض المواد الحيوية فيها ، ونسبة الإصابة بالأمراض الطفيلية وانتشار الأوبئة .

وربما كان للعامل الاقتصادى أكبر الأثر على صحة الطبقات الفقيرة من المصريين من أى مجهود وجه إلى رفع مستواهم الصحى ، فرواج ثمن المحاصيل الزراعية وزيادة الطلب على الأيدى العاملة فى الصناعة أو فى الأعمال العسكرية كما حدث أثناء الحرب ، رفع مستوى المعيشة والصحة بين الطبقات الفقيرة إلى حد ما ، ويخشى بتغيير هذه العوامل أن يعود الحال إلى ما كان عليه .

وليس هناك أدنى شك فى أن النابهين من المصريين يبذلون أقصى جهودهم ويعربون عن خير ما عندهم من الآراء الصادرة عن إخلاص وإيمان لإصلاح الحال ، ولكن التقدم بطىء ، ويرجع ذلك لا إلى صعوبة الإصلاح وتكاليفه الباهظة فقط بل أيضاً إلى :

١ — عدم الاستمرار فى تنفيذ أى مشروع بالذات إلى نهايته نظراً إلى التغيير الذى يجريه بعض الوزراء فى الخطة التى اتبعتها وزارة سابقة ، وقد يكون هذا لا علاقة له مطلقاً بالاتجاهات السياسية .

٢ — عدم تحقق الكفاية فى بعض القائمين على تنفيذ الإصلاحات أو عدم إيمانهم بفائدتها .

٣ — الاتجاه إلى تقليد آخر ما وصلت إليه الأمم الغربية فى الاصلاح بدون مراعاة تنفيذ الخطوات الأساسية التى بنيت عليها مشروعاتهم وبدون مراعاة خصائص البيئة المصرية .

وعلى أن كل ذلك لا يدعو إلى اليأس من الإصلاح فمجرد الشعور السائد فى البلاد بأن الحالة الحاضرة يجب إصلاحها هو ضمان بأننا متجهون الاتجاه الصحيح ، ولو أننا قد لا نسلك أسهل الطرق إلى الوصول ولا أقلها نفقة ولا أسرعها .

فموضوع « إصلاح القرية المصرية » موضوع شغل المصلحين ولا زال يشغلهم ، ولم نصل بعد إلى طريقة تنال موافقة الأغلبية لمدة طويلة كافية لتنفيذ خطة ما .

فإذا درسنا هذا الموضوع بدون تدخل العواطف أو الاعتبارات الشخصية لوجدنا غالبية المصلحين يريدون بهذا الاصلاح أولا وقبل كل شيء إصلاح مساكن القرية المصرية وتخطيطها على النظم الحديثة حتى لا تكون كما هى اليوم أذى فى عيون الناظرين .

ولما كان عدد القرى المصرية ٤٠٠٠ قرية يتبعها ٢٠٫٠٠٠ عزبة ويسكنها حوالى ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة فإن ما يتكلفه بناء المساكن اللازمة مبلغ هائل مهما تواضع المصلحون فى تقدير تكاليف انشاء المسكن الواحد حتى دعا ذلك إلى اقتراح الاكتفاء بتخطيط أرض بجوار كل قرية وعدم السماح لأى فرد بإنشاء منازل جديدة فى القرى الحالية واشتراط بناء المنازل على الموقع الجديد على أحد النماذج المقررة . وقد اقترح حل وسط بأن تبنى الحكومة عدداً من المنازل على الموقع الجديد وتترك الباقى لنشاط

الأفراد . وإذا علمنا أن متوسط عدد أفراد العائلة الواحدة في مصر هو ٥ فيلزم لسكان الريف حوالى ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ مسكن . وإذا قدرنا النفقات لبناء كل مسكن ١٠٠ جنيه وهو أقل تقدير في الوقت الحالى لسكان المطلوب ٢٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون جنيه عدا ثمن الأرض والمنافع العامة وما إليها ، وهو رقم يقف أمامه المصلحون حيارى لضخامته بالنسبة إلى موارد البلاد ومقدرتها المالية .

ولو درسنا الأمر موضوعياً لوجدنا أن إنشاء هذه المساكن حتى لو تم لما كان له من الأثر الصحى إلا القليل ، وقد لا يزيد على ٥ ٪ من الاصلاح الصحى الذى ينقص الفلاح فى الوقت الحاضر .

والحقيقة أن الفلاح المصرى أحسن طبقات الأمة اصالة فى الرأى فيما يحتاج إليه من الاصلاح ، وهو أكثر المصريين تقديراً للحلول العملية وبعداً عن النظريات ، ولو جبت القرى لما سمعت من أحدهم شكوى من مساكنهم أو اهتماماً بمشروع إعادة بناء القرى المصرية ، ولكنهم يطلبون بحق ماء صالحاً للشرب وغذاء وكساء وأجراً مجزياً على عملهم .

إن المساكن لها أثر ضئيل فى إصلاح الحال الصحية . فالجيوش تقيم فى خيام والمصطافون يقيمون فى عشش ، وهم فى أحسن حال من الصحة . والحقيقة أن الماء النقى والغذاء الجيد ، ونقل الفضلات والقمامة هى الاصلاحات الصحية الحقيقية ، وأما ماعدا ذلك من جدران وطلاء فأمر ثانوى . ولا شك أننا لو بدأنا بإصلاح حال الفلاح باعطائه مورداً للماء النقى ، ويسرنا أمر الغذاء الكافى ونقل الفضلات والقمامة لما كلفنا ذلك عشر ما يتطلبه بناء المساكن .

والحقيقة أن المصلحين المصريين الذين يطالبون بإصلاح القرية المصرية ببنائها إنما يعبرون عما يشعرون به من المهانة والخجل أمام الأجنبى عند ما يرى القرى المصرية على حالتها الراهنة ، وبعضهم ممن زار أوربا يصدمه عند عودته لمصر منظر القرى المصرية من نافذة القطار أو السيارة عند مقارنته بما رآه فى أوربا ، حيث تعتبر القرى مكاناً للاستجمام والراحة والمتعة ، بينما يفر المتعلمون من القرى المصرية إلى المدن فراراً ولا يطيقون الإقامة بها إلا مرغمين . ولكن ذلك لا يبرر أن نضع مسألة المساكن قبل تيسير موارد صالحة لماء الشرب أو نقل الفضلات أو ضمان تغذية الفلاح .

بل لو فرضنا جدلا أننا قد أقمنا مساكن للفلاحين لما وجد الفلاح ما يؤثثها به ، وأعنى بذلك الفلاح الأجير أو من فى حكمه من صغار الملاك ، فهذا الفلاح إن افترش شيئاً خيراً من القش فهو الحصير الذى يطويه نهاراً لئلا يبلى ، وغطاؤه مايتدثر به شتاء كحرام أو زعبوط ، وهو يعتمد فى الشتاء على تلاصق أفراد العائلة ليلا لينتشر الدفء فى أجسادهم ، كما تفعل الدجاجة مع فراخها ، وآنية الماء هى البلاص ومرحاضه فناء الدار أو المسجد ، ومرحاض الأطفال الحارات والأزقة ، وآنية الطبخ واحدة ، والمطبخ جداران من الطين أو من القوالب ، وكل ما يملكون من ملابس إن وجدت — وقل أن يوجد سوى ما عليهم من الثياب — فيستوعبه صندوق واحد إن كانت العائلة ميسرة ، وقد يدخرون القليل من الحبوب أو الدقيق فى كيس من الخيش ، وقل أن يوجد عندهم مواشير .

فهذا المسكن سيكون مسكناً شبه خال كما هى الحقيقة لو زرنا عدداً من القرى وتركنا منزل العمدة والمشايخ وكبار الملاك جانباً .

وماذا يحدث لو انكسر زجاج نافذة المنزل ؟ قد يسرع الفلاح بسدها بالطين لأنه أرخص طريقة لوقايته من تيار الهواء شتاء ، وهذا ما يحدث الآن فى منازل العزب التى يبنيها كبار الملاك ويسكنها الفلاحون ، لأن الفلاح لا يمكنه فى حالته الاقتصادية الراهنة شراء الزجاج وتركيبه ، على أن شبابيك الزجاج غير مرغوب فيها إذا كانت منفذاً يرى

منه الجيران أو المارة داخل منزله « فيجرحونه » كما يقول .

بل لو بنينا جميع مساكن القرى المصرية وأهديناها إلى الفلاحين بدون مقابل وتفقدناها بعد جيل واحد لتبدلت معالمها ما لم نحمها بنظم وقوانين ، وهو الأمر الذي لم يفكر فيه كثير من المصلحين . فالفلاح عندما يموت ويقتسم الورثة داره ، وأبناؤه بعد زواجهم لا يطيقون المعيشة مع بعضهم في أغلب الأحيان لتنافر الزوجات والأمهات ، فيعمدون إلى تقسيم الدار بفواصل داخلية ، وقد يريد أحدهم التوسع فيما بعد فيعمد إلى شراء غرفة في منزل مجاور ليصلها بالقسم الخاص به ، وهكذا حتى تعود الحال كما هي عليه الآن .

وإصلاح مساكن القرية المصرية يجب أن يسبقه تشريع يحرم قسمة أي دار إلى جملة مساكن ويراعى فيه تقرير خطة للتنظيم ، ولا يمكن أن يشرف على ذلك سوى إدارة محلية قروية وإلا كان كل إصلاح غير مجد ولا مستمر .

يجب الاسترشاد بآراء الفلاحين الفقراء

في طرق الإصلاح

لقد دلت التجارب في جميع بقاع العالم أن الإصلاح الذي لم يكن موضع مطالبة لا يقدر التقدير الكافي ولا يدوم ، وذلك أن الإصلاح يجب أن يكون لسد نقص أو إجابة مطلب هناك شعور عام بضرورته . والفرد الذي يراد إصلاح حاله أقدر شخص على تقرير الأولية لمطالبه . وقد دلت التجارب العلمية حتى في المسائل الفنية البحتة أن الفلاحين والأشخاص المحليين مهما قل تعليمهم يعرفون بشكل عام السبب الحقيقي في المشكلة أو الحل العملي لها ، أو على الأقل أن اعتقادهم فيه بعض الحقيقة قد ينبتون حولها خرافات وقد يعممون النتائج ، وهو ما يجب على الباحث دراسته حتى يفصل الغث من السمين . ولكن يجب دائماً أن توضع آراء الأشخاص المحليين حتى غير المثقفين موضع الاعتبار والدراسة الفنية ، وكثيراً ما أتى ذلك بخير النتائج .

لو درسنا اليوم مقدار ما يصل إلى الفلاح في القرية من العناية الصحية لوجدناه ينحصر في الأشياء القليلة الآتية :

١ — هناك حلاق صحة أو عامل تليفون أو معاون صحة يقوم بتسجيل المواليد وكذلك الوفيات وإجراء التطعيم ضد الجدري .

٢ — إذا زادت الوفيات عن حد معين أو علم بطريقة ما أن هناك مرضاً وبائياً قام طبيب صحة المنطقة باتخاذ الإجراءات اللازمة لمقاومة الوباء .

٣ — قد يكون على مقربة من القرية مستشفى يهرع إليه الفلاح عند مرضه ، وقد يسعده الحظ بأن يكون في دائرته مركز لرعاية الطفل .

ولكن العناية الكاملة بصحة الأفراد يجب أن تتوفر أشياء أخرى وهي أمور متقدة فعلا في أكثر البلاد الراقية ، ونحن مطالبون بتنفيذها كأمانة في عنقنا نحو الشعب المصري ، وهي مرتبة حسب أهميتها :

١ — مورد ماء نقي للشرب والاستعمال المنزلي .

٢ — مرافق صحية لكل عائلة (خصوصاً المرحاض الصحي) ونظام لإزالة القمامة .

٣ — مقاومة الأمراض المتوطنة .

٤ — ضمان الكفاف من الغذاء لكل عائلة بنظام التأمين والإعانة .

٥ — ضمان العلاج والتمريض لأفراد العائلات وذوي الإيراد المحدود .

٦ — عدد من الغرف صالحة لمسكن كاف للعائلة بمعدل غرفة لكل فردين ، ومكان صالح لتخزين المأكولات ومواد الوقود ، وتشريع يمنع تقسيم المسكن .

وهذه الإصلاحات لا تستقيم بدون إدارة محلية تشرف عليها كمجلس قروي أو مجلس لمجموعات من القرى تكفي مواردها للإنفاق على القيام بهذه الأعمال ، ويكون لها حق تقرير ضرائب محلية . وإصلاح الريف بدأ في بريطانيا في

الخليفة المأمون في دمشق

في سنة أربع عشرة ومائتين ، هَفَتْ نفس الخليفة المأمون إلى دمشق ، وكان خلفاء بني العباس يخفّون إلى دمشق الخضراء ، طلباً للصحة وحسن النظر ، فمياهها الغزيرة المتدفقة ، وغوطتها الفاتنة الثانية ، وفاكهتها الفذة المختلفة ، وهواؤها الرقيق البليل ، ومسجدها النادر المثال العظيم ، كل أولئك كان يجعل لدمشق في قلوب الخلفاء العباسيين منزلة ومكانة ، وكان لا يثنيهم عنها إلا أهلها ، وهم أمويو الهوى ، وإلا كونها مقرّ أعدائهم وعاصمة أعظم دولة امتدت فتوحها في مشارق العالم المعروف يومئذ ومغاربه .

وكان المأمون ، إلى ذلك ، يقصد أن يمسح أجناد الشام ويعدّلها ، فأحضر معه المُسّاح والمعدّلين ، ليعدلوها ثم يمسحوها ، وكان من بين هؤلاء مُسّاح العراق والأهواز والري ، ومن بينهم حرب بن محمد الطائي ، أحد كبار المعدّلين .

ورحلة كهذه ، يقوم بها خليفة كبير ، لابد من أن تكون عظيمة ، بالغة من الأبهة مبلغاً عظيما ، وأن يكون فيها من الحاشية عدد كبير من الأمراء والوزراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين والملهّين والخدم .

فكان معه من الأمراء المعتصم بالله ، وسليمان بن عبدالله الهاشمي ، ومن الوزراء عمرو بن مسعدة ، ومن القضاة يحيي بن أكثم ، ومن الكتاب مُعلّى بن أيوب ، ابن خالة الفضل والحسن ابني سهل ، ومحمد بن يزداد ، وأحمد بن يوسف الكاتب ، وكان قد تولى ديوان رسائله ، ومن الندماء ابراهيم بن يحيي اليزيدي ، وكان عالماً بالأدب شاعراً ، وعلي بن هشام . أما المغنون فقد حمل معه منهم سيدهم اسحق بن ابراهيم أمير الغناء ، وعَلُّوية ، ومخارقا ، ثم أرسل فأحضر أبا حشيشة الطنبوري .

سنة ١٨٣١ بإنشاء هذه الهيئات المحلية وسميت « اللجان الصحية المحلية » ومنحت سلطة تعيين ملاحظين منوط بهم تلافي العيوب الصحية ، خصوصاً منع تراكم القاذورات ، وفي ذلك العهد لم يكن في بريطانيا أي إدارة صحية مركزية .

يعتبر هذا أول إصلاح صحي واجتماعي وإداري في مصر وبدونه لا تستقيم الأمور ، وهذا هو نظام اللامركزية .

« فمجلس المجموعات القروية » يناط به الإشراف على صحة القرى التابعة لها بواسطة طبيب ويكون عدد سكان المجموعة حوالي ٣٠٠٠٠ حتى يكفي ما يحصل منهم من الضرائب للقيام بهذه الأعباء ، وقد تساعد الحكومة بقسط في المصاريف .

ويجب أن يكون هذا الطبيب إخصائياً في المسائل الصحية ولا ينصرف إلى العلاج ، وهذه المجالس القروية هي التي يمكن أن تقوم على جميع الاصلاحات بما في ذلك « محاربة الجهل والفقر والمرض » وتكون هي الأداة المحلية للاصلاح الاجتماعي والصحي والزراعي والتعليمي ، وهي أقدر في هذا الشأن من أي إدارة مركزية بعيدة مرهقة بالأعمال الإدارية التافه منها والخطير ، وتتفرغ الإدارة المركزية لدراسة المشروعات العامة الكبيرة والإشراف الفني على الهيئات المحلية . ولو قارنا حال الإدارة الصحية في بريطانيا حيث نظام اللامركزية بالنظام الحالي في مصر حيث المركزية ، لوجدنا أن الإدارة المصرية بها ١٢٠٠ طبيب وما يتبعهم من الموظفين الفنيين والإداريين والكتابيين والعمال ، تستغرق العناية بشئونهم الإدارية وتنقلاتهم وترقيتهم وتعيينهم ومراقبتهم أكثر وقت الرؤساء ، بينما يعمل في الإدارة الصحية المركزية البريطانية ٨٣ طبيباً فقط متفرغين للمرض الأصلي وهو العمل الفني ، ويشرفون على الأعمال الصحية لأكثر من ضعف عدد سكان البلاد المصرية .

(له بقية)

دكتور محمد خليل عبد الخالق

وسار المأمون ... حتى بلغها ، وعسكر بدير معروف اسمه دير مران .

كان هذا الدير على تل في سفح قاسيون ، بناؤه بالجص الأبيض ، وأكثر فرشه بالبلاط الملون ، وكانت قلاليه تدور به ، وكانت تتراكب حوله الأشجار ، وتتدفق المياه ، وتحدق إليه الرياض .

وأعجب المأمون بالمكان بما حوله من رياض حسان ، وكان الرشيد من قبله قد نزله ، وأحبه ، وشرب فيه .

وأمر المأمون فبني في أعلى الجبل قبة صيرها موقداً ، فكان يوقد فيها النار ، لكي ينظر إلى ما في عسكره إذا جن الليل . وكان ضوءها وضياؤها يبلغ إلى ثنية العقاب وإلى جبل الثلج .

* * *

كان همُّ المأمون ، بعد أن فرَّق السماح والصلات ، أن ينظر إلى ثلاثة : مسجد بني أمية ، وغوطة دمشق ، ثم يطوف في آثار أعدائه الأمويين .

وعزم على أن يزور مسجد دمشق .

ودخل إليه يجر وراءه حاشية عريضة ، وكان على يمينه المعتصم أبو العباس ، وعلى يساره ابن أكثم ، فبهت لما رأى من نقش خشبه ، وتزويق حيطانه ، ورخامه الأبيض والمنقط والأخضر والشحم والسماق ، وفسيفسائه المذهب والملون المعجون ، وقبته الشاهقة العظيمة ، وبرابيه الزجاجية الفاخرة ، وأروقته القائمة على العمد والعضائد التي أزرت جدرها بالرخام الأبيض والمجزع ، والأحمر المنقط ، والأخضر المرشوش ، والأسود الترابي والأبقع . فأطرق مفكراً ، ثم نظر إلى المعتصم وابن أكثم وقال :

« ما أعجب ما في هذا المسجد ؟ » .

قال المعتصم : ذهبه يا مولاي ، ودهانه وبقاؤه . فإنا نموه به قصورنا فلا تمضي عشرون سنة حتى يتغير ، وهذا باق بحاله كأن الصانع قد فرغ منه الآن .

قال المأمون : ما ذاك أعجبني .

فتقدم يحيى بن أكثم فقال :

— نعم ، إنه تأليف رخامه ، فإني رأيت فيه عقوداً ما رأيت مثلها !

قال المأمون : كلا ، فما ذاك أعجبني .

وحارا في أمرهما ، وقالا له : فما الذي أعجبك منه يا أمير المؤمنين ؟

قال : بنيانه على غير مثال متقدم !

قال الجميع : صدقت يا أمير المؤمنين .

وطاف المأمون بالمسجد ، حتى وقف في قبلته ، أمام صفائح مذهبة باللازورد فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الله لا إله إلا هو .. (الآية) لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ولا نعبد إلا إياه ، ربنا الله وحده ، وديننا الإسلام ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم . أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه ، عبد الله الوليد أمير المؤمنين ، في ذي القعدة من سنة ست وثمانين »

وكانت هذه الكتابة في ثلاث صفائح منها ، وفي الرابعة سورة الفاتحة إلى آخرها ، ثم النازعات ، ثم عبس ، ثم التكوير بتمامها .

ونظر المأمون إلى اسم الوليد ، ثم همس في أذن أمير البلد ، وأنهى طوافه ومضى .

قال يعقوب بن سفيان : وقدمت بعد ذلك ، فرأيت هذا قد مُحي !

* * *

وشاقه جمال الغوطة ، فدفعه إلى زيارتها ، فأعجب بالتفاف شجرها وسعة أرضها ، وخلابة مناظرها ، وعجب فيه إذ رأى فيها من الفاكهة ما يشتهي ، أصنافاً وضروباً ، وكلها ذكي الرائحة ، حسن الشم ، لطيف الشكل ، فإذا جمعته بين أسنانك ، ذاب حلاوة ورقة وطيباً .

فلما طاف بها ما حلى له الطواف، وزار أديارها، ومبانيها عاد إلى ديره يتحسّر على أن لم يكن في بغداد، عاصمة ملكه، مثلها. فلما سأله صحبه عنها، حلف بالله أنها خير مغنى على وجه الأرض.

فقال في ذلك أحد الشعراء:

نظر المأمون يوماً في دمشق من الباني
في رياض مونقات بين أشجار حسان
فثنى شوقاً إليها ضاحكاً بين غواني
ثم آلى بيمين إنها خير المغاني

* * *

وتاقت نفسه إلى التصعيد في جبل الثلج، ورؤية بركة من آثار بني أمية، في الطريق إليه، فحمل حاشيته ومغنيه، ومضى... فلما مرّ بالبركة، وكانت عظيمة ضخمة البنيان، وعلى جوانبها أربع سروات، أعجبه المكان واستحسنه، وكان الماء يدخلها ثم يخرج منها، وطلبت نفسه الشراب، فدعا بزماورد ورطل شراب، وأخذ يكرع الخمر كرعاً، ويذكر بني أمية فيضع منهم ويتنقصهم. ثم طلب من علوية أن يغني، فأقبل علوية على العود واندفع يغني:

« أولئك قومي بعد عز وثروة ... »

فثار ثائر المأمون، وضرب الطعام برجله، وقال له: يا ابن كذا لم يكن لك وقت تذكر فيه أولئك إلا في هذا الوقت. قال علوية: نعم، مولاكم زرياب عند موالي يركب في مائة غلام، وأنا عندكم أموت من الجوع!...

فغضب المأمون عليه، وقام من الموضع، لا يكلمه ولا ينظر إليه.

* * *

وأقام المأمون بدمشق تلك السنة، وطابت له دمشق الجميلة فأحبها وأقبل على مآكلها يلتهمها، وقد دجاجها السمن، وأقبلت عليه العافية، حتى قال الفضل بن مروان: لقد صار أمير المؤمنين إلى دمشق وهو رقيق، فعاد منها وهو غليظ، قد أخذ بعض اللحم، وكان أكله قبل ذلك ثماني عشرة لقمة في كل يوم، فلما أقام بها صار أكله أربعاً وعشرين لقمة.

ولقد مضى عنها وفي نفسه أن يعود إليها.

إنها دمشق![1].

(دمشق) صموح الدرب المجبر

(1) استخرجنا عناصر هذا المقال من مخطوط تاريخ دمشق لابن عساكر الموجود في المكتبة الظاهرية بدمشق، من محال مختلفة فيه.

الأمبراطور الفيلسوف

— ١ —

فى اليوم السابع من شهر مارس السنة الميلادية ١٦١ مات الإمبراطور الرومانى الأروع النبيل أنطونينوس بيوس بقصره فى لوريام ميتة وقورة هادئة جديرة بأن تختم بها حياة كحياته المثالية الرفيعة. ولما شعر بدنو الأجل ووشك الرحيل أحكم تدبيره، ونظم شؤون أسرته الداخلية، وأصدر أمره بنقل تمثال الحظ المصنوع من الذهب من حجرته إلى حجرة ابنه المتبنى مرقس أوريليوس، وكانت التقاليد المرعية أن يوضع هذا التمثال فى حجرة الإمبراطور الجالس على العرش، وأغمض الإمبراطور الصالح بعد ذلك جفنه وودع عالم الدثور والفناء، وقد شمل الحزن عليه الإمبراطورية جميعها، وأقيم له فى كل قلب مأتم، وتبارت شتى الطبقات فى الاحتفال بنعاه، وتكريم ذكراه، والإشادة ببره وتقواه، والتحدث عن خلاله الكريمة، ومناقبه البارعة، وكيف لم يظلم أحداً، ولم يسفك فى خلال حكمه قطرة واحدة من الدم!.

وكاد يكون من حق أنطونينوس بيوس أن يظفر بالسبق والتبريز فى حلبة الفضائل الإنسانية، والمحاسن الملوكية، لولا أنه اختار خلفاً له قد استطاع أن يساميه فى الفضائل والمناقب، ويرجحه بالذكاء الخارق، والشخصية المهيبة الجذابة. وقد كان أنطونينوس رقيق القلب، جم العطف، كثير البشر والطلاقة والإيناس، وكان فيلسوفاً دون أن يدعى ذلك ويفخر به ويتعالى على الناس، وكان مرقس فيلسوفاً مفكراً نظرياً تخاص السمو، عف النفس، قد ابتلى بهذا المرض الغريب وهو داء البحث الذى لا يهدأ فى نواحى النفس، والكشف عن ميولها ودوافعها، ورفع النقاب عن أوهامها وأضاليلها، وهو داء يقربه من أبناء هذا العصر، ويثبت له المودة فى قلوبهم، ويجعلهم يعطفون عليه، ويمرحون على ذكراه، ويعجبون بشخصيته ويفيدون من حكمته، ويستريحون فى ظله الظليل، وينهلون من نبعه الشبم القراح.

ومثل مرقس أوريليوس ممن يشرفون الإنسانية، ويظهرون لنا مراقى السمو التى يمكن أن يبلغها الإنسان على ضعفه وعجزه وقصوره، وليس أدل على ما قد يرتفع إليه الإنسان فى مدارج النبل والعظمة الأخلاقية من تلك الأمثلة الطيبة والنماذج الصالحة التى تأتى من هؤلاء الذين وضعهم القدر فى أرفع الدرجات، وأسمى المنازل! فرقس أوريليوس كان حاكم أعظم امبراطورية عرفها التاريخ فى عصر من أزكى العصور، وكانت الدنيا عليه مقبلة، وعنه راضية، وفى يده أزمة البسط والقبض، وأعنة الأمر والنهى، ومع ذلك الجاه العريض والنفوذ العظيم استخلص لنفسه حياة الزهد والورع، وطريق الحكمة والفلسفة، وغض جفنه عن كل ما يريب، وتمس وتأبى على الدنايا والمغريات والنقائص والهفوات، وظل فى حلبة الملك وألجه وحركته وصخبه محتفظاً بخلقه القويم، ونفسه العالية. ولست أزعم أن هذا الرجل العظيم كان معصوماً من العيوب، موقى من العثرات، فإن الكمال فى هذه الدنيا لم يكتب لأحد، ولم يرزقه إنسان. وإرنست رينان وهو من أشد المؤرخين والفلاسفة تحمساً له لم يعفه من اللوم والنقد والتفنيد. ولكن الذى أستطيع أن أؤكده فى ثقة واطمئنان وقد قبله أنصاره وخصومه أنه من الأفراد القلائل فى التاريخ الإنسانى الذين اقتربوا من الكمال وكانوا قدوة صالحة ومثلا عالياً. وقد نشأ أوريليوس فى أسرة الأنطونينوسيين، وكانت الحكمة والفضيلة وراثيتين فى هذه الأسرة النبيلة، وكانت حكومة الأباطرة نرفا وتراجان وهادريان وبيوس أنطونينوس تغشاها روح الفلسفة وتنزع إلى الإصلاح وأداء الواجب على خير وجه. وكان الإمبراطور يرى أن وظيفته العالية لم تخرج عن

كونها نوعاً من أنواع الخدمة الدنية ، فلا يرقى بالله إلى إحاطة العرش بهـالات النور والبهاء ، ومظاهر العظمة والأبهة ، ولا يسترهب الناس ولا يستذلهم ، وإنما يتحرى جهده إسعادهم والأخذ بيدهم والنهوض بهم ، فلا يعنيه ويهمه ولا يقيمه ويقعده سـوى صيانة مصالحهم وتدبير الرخاء لهم ، وقد نبذ هؤلاء الأباطرة الفلاسفة المتشككون من الملك ذلك الغموض والخفاء والروعة الكاذبة والقداسة الزائفة ، واحترموا سلطة السناتو ورفعوا كلمته وانقادوا لأوامره .

وفى مثل هذا الجو المشبع بالاعتدال والحكمة درج مرقس أوريليوس ، وقد رآه الإمبراطور هادريان وهو فى الثامنة من عمره فأعجب به واسترعى نظره محياه الهادىء الحزين وكراهته للكذب والخداع وإيثاره الصدق والأمانة .

وقد قضى طفولته وبواكر أيامه فى الريف بين أحضان الطبيعة ، وتلقى دروس البلاغة والفلسفة وسائر ضروب المعرفة على أحسن مفكرى عصره وخير أساتذته ، ومال إلى مذهب الرواقيين ، وأخذ نفسه بقوانينهم الأخلاقية الصارمة ؛ ففى الثانية عشرة من عمره كان يلبس الثياب الخشنة الغليظة ، ويأبى إلا أن ينام على ألواح من الخشب عارية مجردة ، وكان يقتضى الأمر تدخل والدته لتنصحه وتلح عليه فى وجوب وضع بعض الفراء فوق تلك الألواح الخشبية إبقاء على صحته وراحته . وكان يعيش معيشة الراهب الذى يقسم وقته بين العمل المتصل والتأمل والتفكير المستمر ، وكان وجهه شاحباً لا يظهر فيه أثر نضرة النعيم ولا ترف الملك ، وكان فى عينيه أثر الإجهاد والتعب ، وكان لا يعنيه سوى مسألة القيام بالواجب واتباع الوصايا الأخلاقية .

ومثل هذه النشأة الجافة الصارمة الشديدة الوطأة على الطبيعة الإنسانية لا تسفر فى أغلب الأوقات عن خير كثير ، وقد ينتهى هذا التقشف والتقشف إلى العبوس والارتداد وتحجر القلب ، وتبلد العواطف ، والحذلقة البغيضـة ، والتفيهق المقوت . فما الذى صان مرقس أوريليوس عن ورود هـذا المورد الراكد العطن والضرب فى الصحراء القاحلة الجديبة ؟ تفسير ذلك هين ، فقد كان ملء عينيه مثل حى للفضيلة الإنسانية هو الإمبراطور أنطونينوس الذى كان يجله ويحترمه ، وقيمة الإنسان الأخلاقية رهن بقدرته على الإعجاب والتقدير ، فمرقس أوريليوس بلغ ما بلغه من السمو الأخلاقى والرقى النفسى لأنه رأى إلى جانبه أجمل مثل من أمثلة الحياة الكاملة الفاضلة ، وكأنه كان يشير إلى ذلك حينما كتب فى تأملاته يقول : « حاذر حتى لا تصبح قيصراً وتصطبغ بتلك الصبغة ، وهذا من الأمور التى يسهل الانغماس فيها ، فانظر لنفسك ، وكن صريحاً خالصاً مستمسكاً بالفضيلة والتواضع والجد والوقار ، وتحر العدل ، واخش الله ، وترفق بالناس ، وعاملهم باللين ، واجهد فى أداء الواجب ، واعمل على أن تكون كما ترضى لك الفلسفة ، واحترم الآلهة . وادفع السوء عن البشر . وهذه الحياة قصيرة المدى ، وكل ما تستطيع أن تغنمه من فوائدها هو التقوى والأعمال النزيهة الخالصة ، ولتكن قدوتك فى أعمالك جميعها أستاذك أنطونينوس ، فتشبه به فى اتباعه الدائم لما يوصى به العقل ، وسيره على منهج واحد فى مختلف الظروف والأحوال ، وطهارة نفسه ، وهدوء نظرته ، ورقة روحه وعذوبتها ، واحتقاره للشهرة والظهر الكاذب ، ونفاذه العميق الولاج . وانظر كيف كان لا يغادر موضوعاً من الموضوعات إلا بعد أن يوسعه بحثاً وتنقيباً ويحيط بكلياته وجزئياته ويستوعبه استيعاباً ، فلا تند عنه شاردة ولا واردة ، وكيف كان يحتمل ما يوجه إليه من اللوم والتأنيب الظالم دون أن ينبس بكلمة ، وكيف كان يسد أذنيه عند سماع أقاويل السوء ، وكيف كان ينظر إلى أعمال الناس وأخلاقهم ويدرسها دراسة منزهة عن سوء الظن والرغبة فى استنباط العيوب والتهدى إلى المساوىء ، والتزام السفسطة والمغالطة ،

وكان يراعي الاقتصاد في بيته وملبسه وطعامه ، وكان دأبه الصبر والجلد والعكوف على العمل حتى المساء . ويذكر حبه لأصدقائه وكيف كان يحتمل المعارضة ، والسرور الذي كان يلم بنفسه حينما كان يأخذ بالرأي الذي يفضل رأيه ، وتقواه التي لم يكن بها أدنى أثر للاعتقاد بالخرافات . فكر في ذلك كله وتشبه به في هذه الصفات جميعها حتى تلقى ساعتك الأخيرة بنفس مطمئنة وضمير خالص كما لقيها » .

على أن القدوة الصالحة والمثل الحي لم يكونا كافيين لتجنيب مرقس أوريليوس الخشونة والجفاف والعنف الذي تسوق إليه مثل هذه الفلسفة الزاهدة المترفعة . وإنما يضاف إليهما سجاحة الخلق وسماحة النفس التي لم يكن لها نظير في الرقة والعذوبة والرحمة والحنان ، وقد كانت قسوته مقصورة على نفسه ، وقد قضى حياته في دراسة كيف يقابل الإساءة بالإحسان ويلاقي الشر بالخير . وبعد إحدى تجاربه الحزينة للالتواء البشري جلس في المساء ليكتب ما يأتي : « إذا استطعت أن تصلحهم وتقوم اعوجاجهم فافعل ، فإذا أعياك ذلك فاعلم أنك أوتيت الرحمة لتشملهم بها ، والآلهة أنفسها تتولى هذه الكائنات برحمتها وتعينها على نيل المال والمجد والصحة ، فاعمل وتفضل كما يعملون ويتفضلون » .

وفي يوم آخر يظهر أن الناس أفرطوا في الإساءة إليه ، فقد كتب في سجله الخالد حينما خلا إلى نفسه في هدأة الليل : « هكذا نظام الطبيعة ، والناس الذين هم من هذا الطراز لا يستطيعون العدول عن ذلك ، وليس لهم فيه حيلة ولا عنه مذهب ، واستعجابنا من ذلك يشبه دهشتنا حينما نرى شجرة التين وهي تحمل التين ، وتذكر أنك أنت وخصمك بعد فترة جد قصيرة سيمضي بكما الموت وسرعان ما يغمر جسميكما النسيان » .

وكانت خواطر العفو الشامل والغفران التام كثيرة الطواف بنفسه ، وفي لحظات نادرة كانت تعلو هذا العطف السمح بسمة خفية كما في قوله « خير وسيلة للانتقام من المسيئين هو أن لا نصبح مثلهم » .

وقد وجه إلى نفسه في ذات يوم هذا اللوم « لقد نسيت رابطة القرابة المقدسة التي تربط كل إنسان بالنوع البشري ، وليست هي قرابة الدم والولادة ، وإنما هي أنهم يشتركون في نفس الفهم والذكاء ، وقد غاب عنك أن روح كل إنسان مستمد من الله ، وأننا لا نملك ما لنا ، فأطفالنا وأجسادنا وأنفاسنا كلها مستعارة من السماء ، كل ذلك على ما يظهر قد نسيته » .

وكان في حياته العملية سهل الجانب دمث الأخلاق ربما تغلب عليه البساطة مثل أغلب الناس الطيبين ، وكان جم التواضع بغير رياء ولا تظاهر ولا ادعاء أو مغالطة للنفس ، ومن حكمه البارعة أنه كان يعتقد أن الرجل الشرير شقي بما في نفسه من الشر ، وأن الشرير شرير على الرغم منه ، وكان يرثى لحال الذين لا يشبهونه في أخلاقه ولا يسيرون في الناس سيرته ، ولكنه كان في الوقت نفسه يعتقد أنه ليس من حقه أن يفرض على الناس مذهبه ويلزمهم باقتفاء أثره والاهتداء بهديه .

ولم تغب عن عينه الفاحصة وخاطره الجوال سخافة البشر وحمقهم وضعة نفوسهم ، ولكن كان يأبى له كرم أخلاقه وصفاء نفسه إلا أن يغمض الطرف من ذلك ويغالط فيه نفسه ، وربما كان هذا التعامي المقصود المتعمد من لوازم النفوس النبيلة ومن عيوبها ، ويقرب من ذلك قول أبي تمام :

ليس الغبي بسيد في قومه ... لكن سيد قومه المتغابي

وأصحاب هذه النفوس الكريمة الحليم يرون أن الدنيا ليست على ما يريدونه لها من الكمال فيخدعون أنفسهم ليروها على الصورة التي يريدونها لها ، وهذا النوع من النبالة يصادف في بعض الأحيان قراء تأملات مرقس أوريليوس ودارسي سيرة حياته ، وهو في تأملاته يثني على أساتذته

الخبز الأسمر عصب الحياة

الجسم كالآلة الميكانيكية التي لا تسير إلا بوقود يولد طاقة تتحول إلى حركة ، ووقود الجسم الغذاء الذي يتحول إلى طاقة ، والطاقة هي المقدرة على إحداث الحركة ، والطاقة تتحول في الجسم إلى عمل نافع ، وإلى حرارة تحفظ درجة حرارته ، كما تحول الطاقة التي في الشلالات إلى كهرباء تستغل للاضاءة ، وإدارة الآلات ، وفي الطهي والكي والغسل والتنظيف والعلاج .

وكل أنواع المواد الغذائية تستعمل في الجسم وقوداً ، ولكن أكثرها استعمالا المواد النشائية (كربوهيدرات) بصفة عامة ، والمستمدة من الحبوب بصفة خاصة ، كدقيق القمح والأذرة والشعير والأرز ، وذلك لوفرة وجودها بها ولشيوعها في كل مكان ورخص ثمنها ، فتوجد بنسبة ثمانين في المائة في الأرز ، و٧٥ في المائة في دقيق القمح ، و٦٩ في المائة في دقيق الشعير ، و٧٠ في المائة في دقيق الأذرة ، و٦٩ في المائة في دقيق الأذرة الرفيعة . ويصنع الخبز عادة من القمح أو الأذرة أو الشعير ، إما من كل على حدة ، أو مخلوطا من اثنين منها ، ويصنع إما من الدقيق كاملا ، أي بنخالة ، أو خالياً منها خلواً شبه تام . ويعرف هذا هذا الدقيق بالدقيق الأبيض . وقد تصل درجة نقاوته إلى حد البياض الشاهق ، أو يُنَقّ الدقيق بالنخل على درجات ، فبعضه لا يستخلص منه حتى لتابة ثمانية في المائة من النخالة . وهذا الدقيق ما يسمى بالدقيق الكامل .

ومن حيث الثمن فيتبين ذلك من أن معظم تشاثياتنا في القطر المصري نستمدها من الدقيق ، لأنه علاوة على رخص ثمنه فإنه يأخذ فراغا كبيرا من المعدة ، ويسد فراغ الشعور بالجوع . وإذا علمنا أن المصري المتوسط العمل يأكل كل ثلاثة أرغفة في اليوم ، والرغيف زنته حوالي مائتي جرام أي أربعة وستين درهماً ، وثمنها قبل الحرب ستة مليات وبعد الحرب خمسة عشر مليا ، بينا إذا استمد الإنسان هذا القدر من النشاء من البطاطس أو الموز ، وهما

ويشيد بقدرتهم ، ويغالي بقيمتهم ، ويجعلنا نظن أن كل من حوله كانوا من ذوي الفضل والرجحان ، ولكنه حينا يستدق الكواكب لينظمها عقود مدح لأخيه في التبني وشريكه في الحكم الدعو لوشياس قيراس — ذلك الرجل السادر الخليع — يثير تعجبنا ودهشتنا . لقد كان الإمبراطور الفيلسوف الصالح يستهدف للوهم حينا يحمله قلبه الطيب ونفسه الخيرة على أن يخلع صفاته الكريمة على قوم غير جديرين بها ولا هم أهل لها .

ولا نزاع في أننا هنا نلقاء نفس كبيرة وقلب عظيم . فهل كان عقله عظيما كنفسه كبيراً كقلبه ؟ يؤكد لنا رينان أنه كان عظيم القلب والعقل ، ورينان من أعرف الناس به ، وأقربهم إليه ، ويستدل على ذلك بقدرته الفائقة في النظر إلى أبعد أعماق هاوية الواجب والغوص في مسارب الوعي ، ومجاهل الضمير ، وإن كان ينكر عليه عدم اجترائه وتردده في إنكار ما هو فوق الطبيعة . ويقول رينان : « إننا نفهم غرضه وندرك مغزاه حينا يتحدث عن مظاهة الدنيا إذا خلت من الله والعناية الإلهية ، ولكن الذي لا نستطيع أن نفهمه الفهم كله هو كيف استطاع أن يتحدث حديثاً جديا عن تدخل الآلهة في شئون البشر في حالات خاصة من حالات تدريب الإرادة ؟ » ويرى رينان أنه لا يستطيع أن يفسر ذلك النقص في ثقافة مرقس أوريليوس إلا بضعف تربيته المذهبية . على أن الذي يجب أن نسلم به أن مثل هذا العيب ليس له أهمية تذكر ، فقد كان اعتقاده بالحياة الأخلاقية قائماً على إيمانه بالعقل والطبيعة ، وهو في ذلك عصري النزعة .

علي أدهم

مصدران غنيان به ، إذ بكل منهما حوالى ثمانية عشر فى المائة — ا لتكاليف فى حالة البطاطس ثمن حوالى أقة وأوقيتين ، أى أحد عشر مليما قبل الحرب ، و٧٥ مليما بعدها ، وفى حالة الموز ما ثمنه ٢٢ مليما و ٧٥ مليما على التوالى فى الحالتين المذكورتين ، لأن الخبز يحتوى على نصف وزنه دقيقاً تقريباً ، فيكون ما يتناوله الشخص يومياً ثلثمائة جرام من النشاء ، أى ما يعطى خمسى ما يلزم الإنسان من الحرارة ، وباقى ما يلزمه من الوقود النشائى وهو معادل ما يأخذه من دقيق ، يستمده من السكريات والفواكه ومن غيرها ؛ فمن هنا نرى رخص ثمن دقيق الحبوب كوقود ، وندرك سر ذيوع استعماله كوقود ، حتى إن بعض سكان القطر المصرى لا يستمدون على غيره كوقود ، وإن كان لهذا ضرره لما يحدثه من حموضة وانتفاخ وعسر هضم ، إذا بولغ فى الكمية التى تؤكل منه .

ويدرك القارىء من هذا أن تسمية الخبز عصب الحياة لها أساس من الصحة وليست كل الصحة ، وذلك بفضل المدنية حيث أطاحت بنا بعيداً عن وسائل أسلافنا فى تحضير طعامنا ، ليكون أجمل منظراً وأحسن مذاقاً وأطيب رائحة وأسهل تناولا ، لأن أجدادنا كانوا يأكلون الحبوب كما هى أو مجروشة كما يفعل العرب الرحل ، أو مطحونة بطاحونة من حجر ، وكانوا يجهزون خبزهم بأسهل الطرق وأبسطها ، أى أنهم كانوا يأكلون الحبوب كاملة بقشورها الداخلية ، وكان دقيقهم أسمر اللون لا ناصع البياض كدقيقنا ، ولكنه من يوم أن اخترعت آلات الطحن والنخل حرمنا من بقايا المواد التى تتركب منها الحبوب .

وهذه المواد لم توجد عبثاً بها ، فإننا نحرم فصلا من الجزء الحى بالنبات ، لأنه بالطحن والنخل نزيل القشرة الداخلية وجنين الحبة ، بحيث لو قسمت حبة إلى قسمين ووزعت الجزء النشائى منها والجزء الذى به الجنين كلا على حدة لما أنبت إلا الجزء الثانى ، أى أننا يأكلنا الدقيق الأبيض لا نأكل إلا الجزء الميت من الحبوب . وقديما كان الكثيرون من القاهريين يأكلونه فى الخبز المصنوع من السن .

وأهمية الردة والسن يدرك كنهها القارىء إذا علم أنها تحتوى على أملاح حديدية ، وهى لازمة لتكوين المادة الملونة بالدم (الهيموجلوبين) الذى تحمله كريات الدم الحمراء ، والذى باتحاده مع أكسجين الهواء الذى نتنفسه يحمل الأكسيجين لجميع أجزاء الجسم ، ولا تجرى عملية احتراق فى الوجود بغير أكسجين ، وفى حالة نقصه تقل الطاقة اللازمة لكل عمليات الجسم الداخلية والخارجية ، ونقص الهيموجلوبين فى الدم تنشأ عنه الاصابة بفقر الدم (الأنيميا) .

وفى السن والنخالة أملاح الكالسيوم والفسفور ، وهى لازمة لتكوين العظام ولأغراض أخرى كثيرة .

ويوجد بهما غير ذلك فيتامينات أهمها فيتامينات ا و ب وه وبنقصها نتعرض لانحراف الصحة والضعف ، وأخص بالذكر مرضى بربرى والبلاجرا ، وليس مجال الثقافة مجال الكلام عنهما ، والمرض الأول غير منتشر بالقطر المصرى ، والثانى كثير الحدوث لاسيما بشمال الدلتا . ويلاحظ القارىء بعض أعراض نقص فيتامينات ب لأنها عديدة حتى بين الميسورين كفقد شهوة الأكل أو الامساك أو عسر الهضم أو الإسهال أو الصداع أو فقر الدم أو الرعشة أو فقد الهمة ، ونقص الوزن والاكزيما والتهاب الجلد لاسيما حول زاويتى الفم ، وقد يسبب نقصها ونقص فيتامين ا ضعف الخصوبة ، وبعضها يسبب العقم فى الذكور والاناث ، والإجهاض فى الاناث ، ويقال إن نقصها يسبب وحم الحوامل . وإن كانت بعض هذه الفيتامينات قد تصنع فى الأمعاء أحياناً ، ولكنه لو حصل ذلك لا يكون أبداً بكميات كافية لجسم الإنسان .

كما أن القشور التى فى الدقيق والخبز الأسمر تقى

تاريخ اندونيسيا

القومي الحديث

حزب الشركة الإسلامية :

السياسة الاستعمارية الغربية في أي قطر من أقطار العالم الشرقي ترى إلى استنزاف موارد البلاد المستعمرة وتسخير شعوبها فيما يعود لصالح الشعب الحاكم . وقد مثلت الحكومة الهولندية السياسة الاستعمارية في أندونيسيا تمثيلا دقيقاً لم تحد عنه قيد شعرة . وكان للاستغلال الهولندى واستعباده للشعب الأندونيسي أثر كبير في قيام (الشركة الإسلامية) التي كان الغرض من إنشائها حفظ الثروة الأهلية ، وإنشاء صناعة حديثة ، تقوم بها الأيدى الوطنية ، ولاقى قيام الشركة الإسلامية نجاحا عظيما بين الشعب ، حيث إن حزب بودى أوتومو أثار الروح القوى والحركات التحررية . ولا غرابة من أن تجد الشركة الإسلامية عطفاً ومؤازرة من الشعب ، فالعقول مضطربة ! والنفوس قلقة ! من جراء الضغط الهولندى على الحريات العامة والحكومة الهولندية تنظر إلى هذه الحركات الوطنية الرائعة بعين قلقة ، لأنها ستقضى على غطرستها وكبريائها وعلى هيكلها الذي دام ثلاثة قرون رمزاً لحكمها الاستعماري في أندونيسيا ! . . .

في عام ١٩٠٩ أنشأ الحاج محمد سمهودى شركة تجارية إسلامية بمدينة (بوقور) لحفظ الثروة الأهلية وإنمائها وإنشاء حياة اقتصادية جديدة للشعب . وقامت الشركة بمجهود عظيم في سبيل تخطى العقبات الأجنبية التي وضعت أمامها لعرقلة سيرها ، وفي عام ١٩١١ تطورت أعمال الشركة وزاد نشاطها ، فأصبحت شركة تجارية إسلامية متحدة ، وأسندت عمل قانون جديد لها إلى الصحافي الأندونيسي رتو ادبسودرتو محرر جريدة (الميدان التجارى) وأسندت أيضاً القيام بالأعمال الاقتصادية والدينية إلى الحاج محمد سمهودى . وأصدرت جريدة تجارية باسم (Saratomo) بمدينة سوراكرتا . وانضم إلى الشركة عضو جديد بارز في المجتمع الأندونيسي هو الحاج عمر سعيد شكرو أمينوتو .

وفي ١٠ سبتمبر عام ١٩١٢ زيدت كلمة واحدة على اسم الشركة تدل على مقاصدها وغاياتها . وأصبحت تعرف باسم (جمعية الشركة التجارية الإسلامية) وأصبح عمر سعيد عضو الشركة العمود الفقرى للجمعية في السياسة والاقتصاد . فقد كان قبل التحاقه بالجمعية يتولى تحرير جريدة (Oetoean Hindia) أو (النتيجة الهندية) بمدينة سورابايا وجريدة (Padjar Asia) أو (فجر آسيا) واشتغل أيضاً في أحد المحلات التجارية الكبيرة في سورابايا ، وداعياً لحزب بودى أوتومو في غرب جزيرة جاوا . وقد أكسبته هذه الأعمال دراية وإلماماً في كيفية إيقاظ الشعب والدعوة للتحرر من النير الهولندى .

برامج الجمعية الإساسية :

١ — ملاحظة شروط الدين الإسلامي في العبادة والمعاملات .

من الإمساك لأنها تنبه الأمعاء للتقلص والتخلص من الفضلات التي بها .

وقد يرد على خاطر القارئ ، أن حرارة الفرن تقتل الفيتامينات التي بنخالة الحبوب ، ولكن هذا لا يحصل ، لأنها تتحمل درجة حرارة فوق درجة الغليان

فمن هذا يرى القارئ ، أن الخبز الأسمر هو بحق عصب الحياة ، ولا سيما إذا كان هو المصدر الأول للطاقة ، كما هو الحال في القطر المصرى .

الدكتور محمد زكي شافعي

٢ — القيام بأعباء الحياة التي يتطلبها الدين .

٣ — عدم التعرض لقانون البلاد .

٤ — إنهاض الحركة الفكرية .

٥ — الدفاع عن الإسلام .

٦ — إصلاح الحالة الثقافية .

٧ — إصلاح الحالة الاقتصادية .

٨ — تهيئة الشعب للاستقلال .

على هـذه البرامج سارت جمعية الشركة التجارية الإسلامية في طريقها ، واستطاعت أن تستولى على شعور الشعب وتحفزه للتوثب والنهوض . ففي مدينة (ملانج) بجاوا هجم البوليس الهولندى على فرع الجمعية ، وصادر أوراقه ورسائله ، لأن سكان هـذه المدينة رفضوا أداء الضرائب الرسمية للحكومة الهولندية . ولكى يعلم القارىء مقدار ما تجبيه الحكومة الهولندية من كل أندونيسى نوضح له أنواع الضرائب ومقدار رسومها .

١ — ضريبة الرأس وهى ضريبة تؤخذ من كل أندونيسى ذكراً أو امرأة ، من ثلاث ربيات إلى مائة وثلاثين ربية ، تدفع سنوياً .

٢ — ضريبة الطريق وهى ضريبة تؤخذ من كل أندونيسى مقابل سيره فى البلاد تبلغ خمس ربيات سنويا .

٣ — ضريبة المسكن ، تؤخذ على كل منزل حسب مساحته وإيجاره إن كان مؤجراً .

٤ — ضريبة الزراعة والعمل والتجارة زيادة على رسوم المحصولات الزراعية والمنتوجات الصناعية والمواشى

والأدهى والأمر من كل هـذه الضرائب ، أن الحكومة الهولندية تأخذ رسماً على كل كرسى زائد فى المنزل وعلى كل طبق وعلى كل ملعقة ، وإلا فالضرب والسجن . وقد أعطت الحكومة الهولندية سلطة تامة لجنودها أضرب الأندونيسيين إذا أظهروا استياءهم من دفع هـذه الضرائب التى نكبت حياتهم وبلادهم شر نكبة ! وقد صرح الدكتور سوكارنو رئيس الجمهورية الاندونيسية خلال جهاده فى عام ١٩٢٧ للحكومة الهولندية مبينا لها ضعف حالة البلاد الاقتصادية والثقافية لعدم إفساح الحكومة الهولندية المجال للشعب بإنشاء صناعات وفتح مدارس عالية — صرح الدكتور سوكارنو بقوله : « لو جمعت الأموال التى سلبتها الحكومة الهولندية من الأندونيسيين منذ استعمارها اندونيسيا إلى اليوم لأمكن بناء جسر عظيم من ذهب يمتد من اندونيسيا إلى هولندا . »

وليعلق القارىء الكريم على هذا التصريح ، وليصور حالة أندونيسيا . فهذا التصريح أكبر دليل على فظاعة الاستعمار الهولندى فى أندونيسيا .

واسمع أيها القارىء ماذكره الأستاذ ك . برج بجامعة ليدن فى كتابه (وجهة الإسلام) فى الفصل الخاص عن اندونيسيا . قال :

« عندما بدأت الحكومة الهولندية تتدخل فى إنتاج نباتات استوائية معينة لسوق العالمى أدخلت « النظام الزراعى الإجبارى » وقوى حتى صار بالفعل وسيلة لنزف ثروة البلاد وتعمير خزائن هولندا . وقد عمل بهذا النظام فى أقوى صوره تطرفاً مدة أربعين سنة . وكان له نتائج سياسية عظيمة وإن لم تنشأ عنه مباشرة . ذلك أنه جعل الزراع الأندونيسيين يشعرون تمام الشعور لأول مرة تقريباً وطأة السيادة الاستعمارية الاقتصادية »

ليس النقد موجهاً من الاندونيسيين للحكومة الهولندية تجاه جشعها واستعباد الشعب . بل النقد أيضاً موجه من الهولنديين . وقد ذكر الأستاذ ك . برج الهولندى فى بحثه عن أندونيسيا فى كتاب (وجهة الإسلام) ما يلى : « ولم يكن بد من أن يثير غلو النظام الزراعى الإجبارى آخر الأمر مقاومة ترتكن إلى أسس خلقية يوجهها له الهولنديون أنفسهم فى هولندا وفى المستعمرات أيضاً . ولم تمر السنة الثائرة (١٨٤٨) من غير أن تترك لها

أثراً . وسرت هذه المقاومة إلى الجمهور في شيء من الضوضاء بعد أن نشر « دوزديكر » الهولندى كتابا ثوريا في ١٨٦٠ ، انتحل هذا العالم الهولندى اسم « مولتاتولى » من « ماكس هافلار » وشن الغارة على جشع التجار الهولنديين وعلى الحكومة الاستعمارية .

وفي ولاية سوراكارتا رفض المزارعون أعضاء الجمعية أداء الضرائب للسلطة الهولندية . وإزاء هذا العصيان المدنى ، أو الجهاد السلبي ، دعا حاكم سوراكارتا الزعيم عمر سعيد شكرو أمينوتو وحقق معه عن الأسباب الداعية إلى رفض المزارعين أداء الضرائب للحكومة الهولندية . واتهم الحاكم الشركة الاسلامية بأنها بثت بين أعضائها روح التمرد على الحكومة الهولندية . وقد دافع شكرو أمينوتو عن التهم الموجهة للشركة . فأصدر الحاكم منشوراً للشعب يمنع أي شخص من الانضمام إلى جمعية الشركة الاسلامية ، ومنع الشركة من قبول أعضاء جدد لأنها خطر على الأمن العام . وعلى الرغم ذلك ، فإن الشركة مستمرة في تسجيل أسماء أعضاء جديدين مستندة إلى حق الشعب في الحرية ، ولم تستطع المادة (١١١) من نظام الحكومة أن تقف نمو الشركة سياسياً واقتصادياً . قال الدكتور محمد حتى نائب رئيس الجمهورية الأندونيسية في كتابه « الحركة الأندونيسية » المطبوع في ليدن حول نشاط حزب الشركة الاسلامية في أعمالها السياسية « إن المادة (١١١) الخاصة بمنع الأندونيسيين من الاشتغال بالسياسة لم تستطع أن تقف تيارات الشعب السياسية المتدفقة على أسس حزب الشركة الاسلامية . فالشعب — أفراده وجماهيره — ينضمون إلى الشركة ، ويقومون بالدعاية لها . وهذه الروح الجديدة تثبت حيوية الشعب الأندونيسي وتطلعه إلى حياة جديدة ذات طابع استقلالى ، وليس اليوم الذى يستعد فيه الشعب ليتولى أمور نفسه بنفسه ببعيد مادامت روح الحرية تقمصته وجعلته يلتهب التهابا شديداً ، يحطم القوى الاستعمارية ويقضى عليها » .

لقد حطمت القوى القومية المتركزة في حزب الشركة الإسلامية الوسائل التى وضعتها الحكومة الهولندية لمنع الشركة من المضى في أعمالها . وأثبتت الشركة أنها لا تمس سياسة الحكومة الهولندية بنقد أو ثلم . وقد أقامت مؤتمراً عاما في ٢٦ يناير سنة ١٩١٣ بسورابايا لإيضاح سياسة الشركة والدفاع عنها . وحضر هذا المؤتمر آلاف الرجال والنساء ، وترأسه الحاج عمر سعيد بصفته رئيس الحزب . ولما وصل إلى محطة سورابايا استقبله أعضاء الحزب وحمل على الأعناق بين هتاف الجماهير حتى مقر المؤتمر . ولما افتتح المؤتمر وخطب شكرو امينوتو قال ضمن خطابه : « إن هذا المؤتمر يعد أول بوادر النهضة الإسلامية الشعبية في أندونيسيا ، ويشعرنا بأننا مطالبون بالعمل لاستقلالنا . وثقوا أن أية قوة تريد قمع حركاتنا القومية ستجد قوى متحدة منبعثة من نفوسنا لتصرعها وتقضى عليها . وإن علينا أن نعمل في جميع الميادين التى تستلزم تقوية نهضتنا الحديثة . وقد أنشأنا مؤسسات قومية للتربية والتعليم والصناعة والاقتصاد . وإن حزب الشركة يسعى بجد ونشاط لإيجاد رابطة إسلامية عامة تجمع الشعوب الإسلامية في جامعة واحدة لتأييد الإسلام . وإن سياستنا تجاه سياسة الحكومة الهولندية واضحة جلية ، وهى السعى للحرية بالطرق المشروعة . وذلك بإنشاء برلمان وحكومة وطنية . وسنسعى إلى إيجاد حكومة وطنية للشعب بعد أن لمس قوته وعرف مستوى ثقافته وتربيته السياسية . وإن الحزب لا ينشر آراء وأفكاراً تناوىء سياسة الحكومة الهولندية . وما الحوادث التى حدثت في ولاية سوراكارتا من رفض القرويين أعضاء حزب الشركة الإسلامية أداء الضرائب للسلطة الحاكمة إلا دليل ناصع على بلوغ الشعب مرتبة سياسية حسنة ، تهيئه للحرية والاستقلال . وإن الحزب لن يتوانى في أعماله التى وضعت على أعناقه . وسيقوم بتنفيذها ما دام رائدنا الإخلاص لخدمة الدين

أقصوصة

[وُلد الشاعر يوسف فون أيشندورف كاتب هذه الأقصوصة في ليوبتش من أعمال سيليزيا في ١٠ مارس ١٧٨٨ وتلقى تعليمه الثانوي في برسلاو ثم دخل المدرسة العالية في مدينة هال حيث درس القانون ، وانتقل منها إلى جامعة هيدلبرج . وهناك اتصل بكثير من رجال الأدب منهم أرنيم وبرنتانو وجوريس ، فألم بذلك بالتيارات الأدبية في عصره . وقد نشر أول قصائده باسم مستعار هو فلورنس ، وساح في فرنسا والنمسا ليستكمل علمه بأحوال العالم ، ثم رجع إلى ضيعة آبائه حيث عاش كما يعيش النبلاء . لكنه لم يلبث أن سئم الوحدة فارتحل إلى فينا ، والتحق بخدمة الحكومة النمسوية . وقد اشترك في حرب التحرير ضد نابليون ، وعين بعد الحرب مستشاراً بوزارة المعارف ببرلين . واستقال من منصبه لخلاف مع وزيره . وظل من ذلك الحين يتنقل بين ألمانيا والنمسا حتى مات في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٥٧

وكان أيشندورف كلفاً بالطبيعة ، فكانت أول ما حرك خياله . ووضع قصره في ليوبتش — ولعله القصر المذكور في هذه الأقصوصة — قد كان من شأنه أن يحبب لذلك الغلام الشديد الإحساس ، الطليق الخيال ، تيه الطبيعة الساحر . فلما كان في جامعتي هال وهيدلبرج عرز تأثير الرومنتيين هذه النغمة الساحرة ، وخص من هؤلاء بالذكر أرنيم وهاردنبرج ثم بعد ذلك فريدريك شليجل في فينا .

وأيشندورف شاعر غنائي وكاتب روائي ومسرحي]

كان في سالف الزمان طفلان يدعيان كاسبرل وأنبرل . وكان كلاهما يحب الآخر حبا جما ، فجلسا ذات مرة أمام البيت ، ينظران إلى صور في كتاب ضخم جاءت به أنبرل . وكانت الطيور تغرد في الغابة ، والشفق يجاهها يعتلى الجبال . وكان في الصورة بقعة متناهية في الحسن : مروج خصيبة ، وأنهر عذبة ، وقرى وقصور ، ومن خلف ذلك جبال متموجة ، في تموجها رائعة ، ذات كنائس وغابات تخيم عليها الوحدة . وكان على أطرافها موكب يسير ويرفع أعلاما بهيجة الألوان . وانتشر الشفق فوق الصورة فأنعم كاسبرل وأنبرل النظر وحدقا فيها ، وأطالا التأمل ، فإذا بالأشجار الملونة يسمع لها دفعة واحدة حفيف خفيف ، وإذا بالطيور الجميلة المبرقشة تطير فوق المنظر ، وعيون الينابيع ترقرق في الجبال ، وترفرف الأعلام ، وترتفع من الموكب ، وهو سائر من بعيد ، أصوات الغناء . وقبل أن يفيق الغلام من دهشته أبصر أنبرل وسط هذا المنظر تومىء إليه مسرورة فتشجع أخيرا ، وقفز وراءها ، وجريا معاً فرحين ، يوغلان في الكتاب ، ويتعمقان في النظر — وإذ يلتفت كاسبرل وراءه لا يجد أثراً للبيت ولا للناحية التي كانا فيها ، لكنه ما زال يتناهى إليهما من الموكب صوت الغناء ، حينا بعد حين . وقد غربت الشمس من أمد ، وبعد بهما الطريق ، فكلما أوغلا فيه ، اشتدت وحدتهما ، وتجهم ما حولهما .

والوطن . إن الإسلام يدعونا إلى الجهاد لإعلاء كلمته وسيعلو الإسلام في هذه البقعة الإسلامية التي يعيش فيها ما يزيد على سبعين مليون مسلم . فعلينا أن نضع أمامنا الطرق المثلى التي نسعى إليها ، لنستطيع أن نحقق برامج الحزب كاملة » .

لقد صرح الزعيم عمر سعيد عن مقاصد الحزب وأهدافه . فاضطربت الأداة الحكومية الهولندية اضطراباً ظهرت آثاره في رفض الحكومة الهولندية الاعتراف بفروع الحزب المنتشرة في أنحاء أندونيسيا . وتجاه هذه السياسة الهولندية قرر الحزب إضافة كلمة واحدة تمكن الفروع من الانضواء تحت لوائه . وهذه الكلمة هي « سنترال » وبذلك أصبحت هذه الكلمة قائمة بعمل مزدوج ، وهو ضم فروع الحزب إليه ، ووضع الحكومة الهولندية أمام الأمر الواقع . وأصبح الحزب يدعى باسم « سنترال الشركة الإسلامية » .

وفي مقال آخر سنوضح الحركات التحريرية التي قام بها « سنترال الشركة الإسلامية » واعتراف الحكومة الهولندية بالشركة أنها حزب سياسي . وانقسام الحزب من جراء سياسته لاعتناق بعض أعضائه البارزين المذاهب السياسية الحديثة .

محمد حيدري

وإنهما ليخرجان من قوس صخرى اجتازاه ولما يكادا ، إذا بهما دفعة واحدة يريان حيالهما جبالا شاهقة فيشدهان ، ثم لايلبثان أن يلمحا فوق أعلى جبل قصرا رائعا ، شيد من فضة خالصة ، وا كتسى بالذهب ، تجلس أمام بابه امرأة رائعة الحسن ، بارعة الجمال ، عليها النعاس قالت على قيثار ، ينبعث من خصلها المرسلة ، وثيابها الفضفاضة ، ضياء ساطع مثل ضوء القمر ، ينير جبال الألب ، والشعاب والغاب ، والهُوَّى العجيبة الحدقة . وفى أسفل ، حيث لا تصل الأشعة ، أقزام حُدْب يتشقلبون من صخرة إلى صخرة ، ويثبون مرحين ، ومن بعيد يرن جرس أحد النساك ، وعلى الصخرة القائمة حيال ضل الطريق ، ينفخ بين الحين والحين فى البوق محاوراً هذا الرنين . أما فوق حيث يقوم القصر فترعى على المنحدرات خراف بيض ، ومن برج القصر المنيف ملائكة تزمر فى مزامير من الفضة نغمات عذبة ، ترِنّ فوق سكون الوديان .

وقالت أنيرل وهى تشير إلى المرأة الجالسة أمام باب القصر : هذه هى الإلهة لونا (*)

فسألها كاسبرل : أو تعرفينها إذاً ؟

فضحكت وقالت : ما زال فى سنك هذه غبيا جدا . إبق ملاصقا لى ولا تبتعد عنى ، أو ضللت هنا .

لكن كاسبرل رأى فى هذه اللحظة رجلا هرما ، شخا ، قائما على جانب الطريق ، وفى عنقه كيس ملئ بالتفاح النضر ، فسال لعابه ، واشتهى أن يشترى بضع تفاحات فى طريقه على عجل . غير أنه ما يكاد ينظر إلى داخل الكيس ، حتى يقتنصه الرجل من قدميه ، ويحسه فيه ، ويربط الكيس فوقه ، وهو يقول له : الآن تقع فى يدى . وعد ساقيه منتبطا ، ليستريح قليلا .

وجعل كاسبرل فى خوفه وفى الظلام الذى يكتنفه يتخبط عنقا ، ويدفع فى التفاح عرقتيه . لكن صوتا رقيقا صر بغتة بجانبه يقول : لا تكن فظا إلى هذا الحد ، فإنك تضغطنى .

فسأله كاسبرل خائفاً : أهو أنت ؟

قال الصوت : أجل إنه أنا . قد أسرت مثلك ، ولى أمد طويل أقرض الكيس ، حتى كلت أسنانى . الآن قد استغرق الشيخ فى النوم ، أما تسمع غطيطه ؟ ولك أصابع قوية ، غليظة ، فتفضل فساعدنى قليلا على تمزيق الكيس

وكان الصاحب الذى يتكلم بهذا الكلام المهذب فأرا لطيفاً ، صغيراً . فرق كاسبرل عاذرا مزقا من الكيس انسل منه الفأر ، ولم ينس وهو يفلت أن يعضه من إزمه فى أصبعه ، وانساب مسرعاً فى ضوء القمر ، وكاسبرل يسمعه بين الحجارة المبعثرة يضحك من بعيد . وزحف كاسبرل أيضاً فى سكون ، وبدس فى جيبه على عجل تفاحة جميلة ، وهو يخرج من الكيس ، ثم ينطلق سريعاً . — لكن الشيخ كان يرتدى ، عز الله ، ثوبا خشناً ، ذلك أن كاسبرل وقع مرة واحدة فى شىء مشوش ، غير ممشط ، يشبه الدغل ، إذ ضل الطريق فى عجلته ، فبدلا من أن ينحدر ، تسلق كم ثوب الشيخ . فلما اعتلاه تملكه العجب ، فقد كان الصبح تنفس ، ولم يكن آ كل لحوم البشر من تحته سوى الصخرة العتيقة الغبراء ، القائمة تجاه بيت أبيه ! وحيث رأى القصر البديع والشعاب العجيبة فى ضوء القمر ، يرى سحباً كثيفة شُهباً ، مستقرة بعضها فوق بعض طبقات ، ما زال تتمطى فى نومها ، ورأى كاسبرل مداخن القرية يتصاعد منها الدخان ، والجار يتثاءب عند الباب ثم يناديه : كاسبرل يا ديك الصباح ! ألعلك تريد أن تعلن النهار بالصياح . أوفقا اعتلاؤك الصخرة فى هذا البكور !

وذهبت أنيرل الجميلة ولم تعد ، ولم يكن أحد يعلم عنها شيئاً ، فقد كانت دائماً تأتى من الغابة لتلعب معه عند كل مساء . فلما افتقدها حزن عليها حزناً شديداً . وكان

(*) القمر .

عليه أن ينمو كثيراً ، وكان يشتاق إلى النمو اشتياقاً كبيراً ، وينمو فى تلك الأثناء ، ويشتد ساعده قليلا قليلا . وفى ذات ليلة والقمر يرسل ضوءه الساطع فوق الغابات ، خيّل إليه أن تلك المرأة الرائعة الحسن ، البارعة الجمال ، تجلس فوق الجبل ، قبالة البيت ، وفى يدها كتاب الصور القديم تتصفحه ، وأنها كلما قلّبت أوراقه انعكست لألاء الصور الذهبية على النافذة تتخطى الشجر ، فتولاه القلق . ولم يكد يتبين بياض النهار حتى كان فى غرفته مرتديا ملابسه ، جالساً إلى خوانه ، معتمداً رأسه بين يديه . وتذكر الآن فقط أن التفاحة التى التقطها يومئذ من الكيس ما تزال فى جيبه ، فأخرجها وقضمها من الهم يريد أن يأكلها ، وما كاد يفعل . فقد صاح شىء فى داخلها على الأثر ، وأطل رأس يجاهد فى الخروج ، وحين كسر التفاحة أخيراً متعجباً ، خرج من كِنّ البذور مخلوق صغير ، أحمر اللون ، يحمل كيساً ، ويتوكأ على عكاز .

وسأله كاسبرل : من أنت ؟

فأجابه رجل التفاح : وداعاً ! ومشى فوق الخوان ، ثم وقف فجأة على حافته ، لأنه لا يستطيع الهبوط .

وقال كاسبرل : سأعينك على النزول أيها الرجيل المسكين ، على أن تمدنى شيئا . أيسعك أن تقتادنى إلى الإلهة لونا ؟

قال الرجيل : ولم لا ؟ .

فحمله كاسبرل بين أصابعه ، ووضعه خارج البيت فوق الكلأ ، وارتحلا معاً . وكان الصغير يعرج فى مشيته ، إذ كان كاسبرل قد عضه فى إبهام رجله ، وهو يقضم التفاحة . لكنهما ما إن يوغلا فى البرية حتى يطلق الرجيل ساقيه للريح ، يرك كالجندب ، ثم يضحك ويصيح بكاسبرل : الحق بى ، الحق بى ! فلك هاتان الساقان المديدتان ! وقبل أن يفكر كاسبرل فى اللحاق به ، كان قد اختفى بين

العشب النامى ؛ ففكر كاسبرل هذه المرة كما فكر به أول مرة واتفق أن كان اليوم أحدا ، وكان الصباح صباحا جميلا . وكانت شجرة كمثرى تجتاز الحقل فى طريقها إلى الكنيسة ، تحف فى سيرها بحمد الله ، فحياها كاسبرل بتحية الصباح وسألها هل رأت جوّابا أحمر اللون ، بهذا الحجم ؟ — فأجابت الشجرة : أعتقد أنى وطأت من هنيهة مثله ، وهو بين العشب . — فقال كاسبرل : رباه ، لقد أضللت الطريق ، فبت لا أعرف أين أنا ! ليتنى أعرف صخرة أو ربما أطل من أحدهما على ما حولى لعلى أهتدى إلى سواء السبيل .

ورأت شجرة الكمثرى أن وقتها أضيق من أن يتسع للخوارق ؛ وأحزن كاسبرل هذا الرأى فيه ، إذ كان يريد المضى إلى غرضه . وقالت الشجرة : تعال ، تعال ، فما أكثر متاعبكم أيها الصغار ! وأخذت تصعد جبلا عاليا ، مبهورة من الجهد ، تزفر وتئن . فلما بلغت الغاية وقفت ، واستعرضت ، وأصلحت من شأنها ، ومدت أغصانها النضرة الخضراء فى جو له مثل زرقة السماء . ودعت كاسبرل إلى تسلقها ، فلم يتردد فى تبوء عاليها ، وما كاد يفعل — فقد صاح بغتة : مرحى ! مرحى ! وطوّح بقبعته إلى أعلى . ذلك أنه تبين فجأة فى الناحية الأخرى ، ما كان يطلب من جبال عجاب ، وقد كاد يصيبه الدوار من فرط الغبطة .

وقالت الشجرة : لا تجذبنى هكذا ، فشدك مؤلم .

وأسرع كاسبرل بالهبوط عن الشجرة ؛ واهتزت الشجرة من نسيم الصباح ، وغطت العشب بثمارها البهية ، الجميلة الذهبية ، فذهبت تتدحرج ، وتثب جذلانة فوق المنحدر الأخضر ، وكاسبرل فى أثرها يقب وثبا فى أضواء الصباح ، إلى الناحية البهيجة . وإذا كانت الجبال فى ضوء القمر جميلة مرة ، فكل شىء الآن فى نور الصباح ، وضيائه اللامع ، أجمل ألف مرة . فالقصر الفاخر وأبراجه السامية ، بقمرها وهج أحمر كالورد ، والقدران تلمع وكأنها ذهب

نقد وتحليل

لكتاب الدكتور شوقي ضيف

«الفن ومذاهبه في النثر العربي»

في شهر إبريل سنة ١٩٤٣ أخرج الدكتور شوقي ضيف كتابه الأول عن «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» يصف فيه تطور المذاهب الفنية في الشعر العربي منذ أقدم عصوره حتى اليوم.

وفي شهر إبريل سنة ١٩٤٦، بعد ثلاثة أعوام كاملة يخرج لنا كتابه الثاني عن «الفن ومذاهبه في النثر العربي» يصف فيه تطور المذاهب الفنية في النثر العربي في مختلف أطواره ومراحله منذ أقدم عصوره حتى اليوم. وهو ينهج في هذا الكتاب نفس منهجه في سابقه، وينتهي إلى نفس الغاية من أن النثر العربي — كالشعر العربي — مر بثلاثة مذاهب فنية واضحة هي الصنعة والتصنيع والتصنع.

والدكتور شوقي ضيف بهذا يتم جانبي اللوحة التي رسمها للأدب العربي في مختلف عصوره وأقاليمه، فالكتابان يؤلفان خطين متوازيين في تاريخ الأدب العربي تاريخاً شاملاً دقيقاً.

أما أنه تاريخ شامل فهذا يتجلى في تتبعه للمراحل التي مر بها الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث، وهو يأبى إلا أن يتتبع هذا الأدب في الغرب العربي كما يتتبعه في الشرق العربي، فيدرسه في الأندلس وفي مصر. هكذا فعل في كتابه الجديد، وهكذا فعل في طبعته الثانية من كتابه الأول، حيث أضاف فصلا عن المذاهب الفنية في الشعر المصري، ولعل في هذا مثلا لنزوع الدكتور شوقي إلى الكمال في أعماله.

وأما أنه تاريخ دقيق فهذا ما نحاول تجليته في هذه الكلمة:

أول ما يلفت النظر من هذه الدقة العلمية تلك المراجع الكثيرة التي اعتمد عليها الأستاذ المؤلف في جمع مادته، وفي بحث الظروف التي أنشئت فيها هذه المادة، وفي فهم الأجواء التي أحاطت بهذا الإنشاء. وهو بهذا يعد لنفسه «متكأ» صالحاً يهيئ له أن يصدر أحكامه في صدق وأمانة. ونظرة في هذه المراجع التي تحتشد في أسفل صفحات الكتاب تشعرنا بذلك المجهود الشاق المتصل الذي بذله الأستاذ المؤلف في بحثه، حتى كاد ألا يترك مرجعاً من المراجع الرئيسية في الأدب العربي وما يتصل به من

خالص، والغابات تخشخش وتبرق من الياقوت والزمرد، وفوق الأكم ملائكة واقفة تروّح على حمرة الشروق بأجنحتها المنتشرة، المشبهة في ألوانها قوس قزح.

وإذ يبلغ الغابة أخيراً، يرى دفعة واحدة فتاة آية في الحسن، على وعل أبيض، يزين شعرها تاج بهيج براق، فيصيح في عجب: رباه، هذه أعرفها — فهي عزوته أبريل وتقف أبريل ضاحكة تقول: لقد غربت السيدة الجميلة «لونا» في الليلة الفائتة، وهي تقرئك السلام. أما أنا فابنتها أوروا(*) ملكة الغاب.

فيصيح كاسبرل وهو يثب وراءها فوق الوعل: فلأكن أنا الملك.

وانطلقا في عتمة الغابة، مارين بقصور منعزلة، وجداول باردة، وحدائق، وأبعاد لامحة، وكل من رآهما من بعيد يكاد قلبه يثب من الفرح. — وهما من ذلك الحين يقيمان معا في هناء طاغ رنان، وما داما لم يموتا فلا بد أنهما يعيشان إلى الآن.

محمود الدسوقي

(*) الفجر.

دراسات متشعبة ، بل إن الأمر ليتعدى هذا إلى دراسات المستشرقين للأدب العربي والحياة العربية ، بل إنه ليتعدى هذا إلى شيء أهم منه هو تلك المخطوطات التي يبتغيها الباحث من مراقدها في دور الكتب وخزائنها ليراجع ما فيها وينتفع به . وليس الرجوع إلى المخطوطات بالأمر الهين القليل الخطر ، وإنما هي مجموعة من الصعوبات لا يدركها إلا من اصطدم بها ، وليس من شك في أن تلك المادة الخامة التي يعثر عليها الباحث في تلك المخطوطات تحتاج إلى جهد كبير من التحقيق ، وتستلزم مقداراً ليس بالقليل من الذكاء وسعة الاطلاع ، حتى يستطيع الباحث أن ينتفع بها ، وليس من شك في أن الانتفاع عما في هذه المخطوطات لا يقف عند تعديل الأحكام التي يصدرها الباحث أو توكيد النتائج التي يصل إليها ، وليس هذا بالشيء القليل الخطر ، وإنما هو يتجاوز هذا إلى إتاحة الفرصة لإثارة أبحاث جديدة وإصدار أحكام جديدة ، وأمثلة هذا واضحة في الكتاب الذي نحن بصدده في أبحاث المؤلف في الحصكفي وابن الشخباء وغيرهما . وإنها لبراعة تستحق التسجيل أن يستطيع الباحث هذا الانتفاع الواسع بكل تلك المراجع المختلفة منذ أقدم عصور الكتاب العربي إلى أحدث ما أخرجته المطبعة العربية من أمثال « ظهر الإسلام » الذي صدر منذ قليل . ولعل في هذا التسجيل ما يهوّن على الأستاذ المؤلف مجهوده الشاق الذي بذله في زياراته الكثيرة لدار الكتب ومكتبة الجامعة .

ولون آخر من ألوان الدقة العلمية التي تتجلى في أبحاث الكتاب هو هذا الصبر على البحث ، وهذه الوقفات الطويلة الدقيقة أمام مصادره ، وهذا الاتزان والاعتدال في أحكامه ، وإنها حقاً لسمات العلماء . فليست المسألة عند الدكتور شوقي يسيرة ، وإنما هو يأخذ نفسه بضروب من القسوة العلمية التي لا ترحم باحثاً مخلصاً في بحثه ، وبألوان من الجهد العقلي الممتاز ، حتى جاء كتابه لم يفرط فيه من شيء ، وهو لا ينسى أنه مؤرخ عليه أن يستخلص نتائجه وأحكامه من المادة التي وضعها أمامه ، فما من سبيل إلى تحيز لنتيجة بعينها ، وما من سبيل إلى تطرف الحكم بذاته ، وإنما عليه أن يمضي مع مقدماته حتى تسلمه إلى نتائجها . انظر إليه يناقش فكرة نشأة الكتابة التاريخية عند العرب ومدى تأثرها بالعناصر الأجنبية ، وكيف ينتهي في ذلك إلى نتيجة ينتفع بها في بحثه للكتابة السياسية الرسمية ، ثم كيف ينتفع بهذا وبذاك في مناقشة من يزعمون أن العرب استعاروا كتابتهم الفنية من الفرس ومن يذهبون إلى أن العرب عرفوا الكتابة الفنية منذ العصر الجاهلي ، وكيف يضع أمامك كلا الرأيين المتطرفين ومصادرهما ثم كيف ينتهي إلى رأي معتدل متزن ، أو إلى « مرحلة وسطى بين الرأيين » كما يقول (ص ٣٥ وما بعدها) .

ويحق ما يقوله المؤلف في تمهيده من أن غايته الأساسية منذ الخطوات الأولى في بحثه أن يضع « أمام القارىء الصور الدقيقة للنثر العربي في مختلف أطواره ومراحله » محتفظاً لها بخصائصها ، فلم يعتمد على « حكاية إحساسه وشعوره إزاء نماذجها » ولم يعتمد في مسألة على « الفروض والأوهام ، وإنما على النصوص الحسية نفسها » .

والأستاذ المؤلف في كتابه يشاء ماهو خير بفنه ، فهو قد وضع لنفسه منذ بحثه الأول في الشعر منهجاً يقيم عليه صرحه الركين ، فقد رأى أن الشعر العربي مر بثلاثة مذاهب فنية هي الصنعة والتصنيع والتصنع ، ورفض فكرة الطبع التي تشيع في النقد العربي ، ثم رأى أن هذه المذاهب الثلاثة مر بها النثر العربي أيضاً ، فأقام على أساسها بحثه الجديد . غاية ما في الأمر أنه لاحظ أن الصنعة والتصنيع في الشعر يلتقيان لجمعهما معاً في القسم الأول من بحثه ، وأفرد القسم الثاني للتصنع ، ولاحظ أن التصنيع والتصنع

بالمقيان في النثر يجمعهما معاً في القسم الثاني من بحثه ، بينما أفرد القسم الأول للصنعة . ومضى المؤلف يرفع القواعد من صرحه الركين فلا يضع لبنة حتى يهيء لها مستقراً تطمئن فيه . فهو يرسم أولاً صورة للعصر الذي يدرسه ، صورة خالية من الفضول ، يجمع عناصرها من المادة التي يبحثها ، ثم يضع الخطوط الرئيسية للنثر في هذا العصر ، ثم يأخذ في دراستها دراسة هادئة دقيقة ، ثم يتابع هذه الدراسة عند أشهر من يمثلها ، موضحاً المذاهب الفنية التي اتبعوها وخصائصها . هكذا منهج الدكتور شوقي في بحثه ، شأنه في ذلك شأن البناء الماهر ، كما قلت ، أو شأن المصور البارع يعطي للوحته أولاً ما يسمونه (Background) ثم يصور عليها ما يشاء بألوانه وأصباغه .

والدكتور شوقي إلى جانب هذه « العلمية » التي تصبغ بحثه بألوانها العميقة ، فنان مبدع يمزج بهذه الألوان العميقة ألواناً زاهية مشرقة يستمد أصباغها من مزاجه الفني المرهف . فهو مؤرخ يجب عليه أن يلزم هذه « العلمية » ولكنه مؤرخ للفن ، عليه أن يعتمد على الذوق الحساس والمزاج الفني التواق في تحليل اللوحات التي يدرسها إلى الألوان والأصباغ التي عملت في تأليفها .

ويستخدم المؤلف الفنان في هذه الناحية عنصرين أساسيين : هما الألوان والألحان . فالقطعة الأدبية عنده ، أحياناً ، لوحة نمقتها ريشة رسام ، وعليه أن يدرس كيف مزج هذا الرسام أصباغه ، وكيف استخدم بعد هذا ألوانه ، ومن أي زاوية نظر إلى نموذجه ، وكيف وزع على لوحته الظل والنور . وهي عنده ، أحياناً أخرى ، قطعة موسيقية ألفتها قيثارة موسيقار وعليه أن يردها إلى أنغامها الأولى ، وكيف استخدمها صاحبها في تأليف ألحانه ، وما الآلات الموسيقية التي تعاونت على عزف مقطوعته وكيف وزع عليها ألحانه .

هكذا يمضي المؤلف الفنان في تحليل نماذج بحثه ، وهو يستخدم هذين العنصرين ببراعة وإلحاح ، تنقل القارئ إلى مهرجان الفن بلوحاته ورناته .

وهو من أجل هذا يطوّع اللغة لمصطلحاته التي يصف بها المذاهب الفنية وخصائصها ، هذه اللغة التي « لمّا تمرن على طرق التعبير في المذاهب التي تفسر صناعة الفنون » كما يقول في تمهيده لكتابه الأول .

ولعل مما يتصل بهذا ، وإن يكن من لون آخر ، ولع المؤلف بأن يشتق طائفة من ألفاظه التي يفسر بها النماذج التي يدرسها من هذه النماذج نفسها ، فهذا عمر بن الخطاب يقول في يوم السقيفة « كنت زوّرت كلاماً أردت أن أقوم به فيهم » يعني حبّرت ، فيتخذ المؤلف من مصدر هذا الفعل اصطلاحاً يفسر به النماذج التي يوردها لعمر . (ص ٢١ وما بعدها) .

وثمة شيء آخر يشيع في أثناء البحث فيضفي عليه ظلالاً محببة إلى النفس ، هو ذلك التواضع الذي هو من أخص سمات الدكتور شوقي في كل أعماله . وهذا التواضع هو الذي يحملنا على أن نعترف له بفضله في عمله بقدر ما يحاول هو أن يواريه وراء أستاره .

وإذا كان هناك شيء نأخذه على هذا البحث فإنما هو الإيجاز في بعض مواضعه ، حتى ليخيل للقارئ أن المؤلف يطوي أشياء عنه ، مما جعل بعض أحكامه أشبه شيء باللمحات الخاطفة ، ولقد كان في طبيعة الموضوع ما يساعده على البسط والسعة ، ولكن لعلّ في ظروف الطباعة هذه الأيام ما يفسر لنا هذا ، أو لعل الدكتور شوقي يطوي هذه الأشياء الآن ليظهرها في أبحاث مقبلة بصورة مفصلة ، وإنه لفاعل إن شاء الله .

يوسف خليف

هكذا تعاتبنا

جاءت تعاتبني لبعض ذنوبي
ومشت إليَّ بعارض مكذوب
نقل الوشاة لها حديث غرامنا
صورًا مطرزة بكل عيوب
وتقولوا بالمرجفات وأسرفوا
في الظن والتفنيد والتعقيب
قالت: حسبت هواك في إشراقه
أملًا أضاء مفاوزي ودروبي
وحسبت أن سناه لمن يحبو له
نور يشع بحالكات خطوبي
وحسبت أن نسيمه في مرة
سحر يهدهد بالشفاء ندوبي
ما كنت أحسب أن حبك خادعي
يومًا وأنك مشرقي ومغيبي
دنياك لي فيها هوى قدسته
ورضيت في تقديسه تعذيبي
وحبست في جنبي شكوى حائر
حذر شماتة عاذل ورقيب
فإذا لقيتك ألتقي وعلى فمي
بسمات مجروح الفؤاد منكوب
وإذا رأيتك مرة متجهمًا
خففت عنك وساوس المكروب
ومسحت مقطب جبهة بترفق
وتدلل حتى أراك مجيبي
فتفيض لي عما تغالب من أسى
تطويه بين أضالع وجنوب
فأبثك النجوى التي ما بعدها
نجوى حبيب يلتقي بحبيب

* * *

فعجبت من هذا العتاب وربما
كان العتاب مثار كل عجيب
ودنوت منها قائلًا ما ضرنا
من قول واش لم يكن بمصيب
لا تغضبي إنا عقدنا في الهوى
عهدًا وصلت شبابه بمشيبي
إن كنت حافظة العهود فديدني
حفظ العهود وليس ذا بغريب
أنا من أطعت القلب في نزواته
وتركته كالشارد المسلوب
وربيته بين اللهيب وجمره
ونعمت أنت بحرقتي ولهيب
ومشيت فوق حطامه ورماده
مشي النمي على رفات قلوب
لم تحفلي يومًا بعاطفتي التي
ألهبتها في خاطري المشبوب
وتركتني نهب السقام ولم أزل
في عمره سقمًا بغير طبيب
فلتهدئي روعًا فإني في الهوى
صب وليس الصب بالمغلوب

* * *

فتأبت دلًا وقالت: ما أرى
إلا هوى في القلب غير مريب
إني أردت مثار كامن لوعة
لأرى هواك وأستشف نصيبي
فإذا الذي عاهدته لما يزل
عند العهود ولا يزال حبيبي
فضممتها ضم الشوق ومدمعي
يجري كأنه صيب مسكوب

محمد البرعي

الثقافة

AL-THAQAFA

الوزارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٢٦٩

العدد ٣٩٢ — الثلاثاء ٣ من شعبان سنة ١٣٦٥ — ٢ من يوليو سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العــــــــدد

مشاكلنا الداخليـة

وموقف الحكومة منها

كنا نتمنى ألا تقوم فى وجه الحكومة الحاضرة متاعب داخلية تشغلها عن مهمتها الكبرى التى أخذت على عاتقها أداءها ، وهى مفاوضة الإنجليز فى إنهاء الاحتلال وتقرير وحدة وادى النيل .

وكنا نتمنى أن تتوفر على هذه المهمة وتكرس لها كل جهودها حتى تفرغ منها ، فتصرف جهودها بعد ذلك لمعالجة الإصلاحات الداخلية التى تفتقر إليها البلاد .

ولكن نشأت متاعب ، منها ما خلقته الحكومة لنفسها بنفسها ، ومنها ما كان نتيجة إلحاح ظروف اقتصادية سيئة وأوضاع خاطئة لا يحتمل الأفراد والجماعات بقاءها بغير علاج .

فمن المتاعب التى خلقتها الوزارة لنفسها — وإن نشأت خلقه فرط حرصها على تحقيق مذهبها فى بعض الاصلاحات الداخلية — أنها جاءت ومشروع ميزانية الدولة معد معروض على البرلمان ، وقد علمت به الهيئات والجماعات وارتضته علاجاً لحالها ، فسحبت المشروع لإعادة النظر فيه ، واستغرقت زمناً فى تعديله ، فشاعت الشائعات عن نياتها نحو ما يمس بعض الطوائف منه . واضطرت أن تطمئنهم بأنها ستعالج الأمر معالجة شاملة تحقق العدالة والمساواة . ولو أنها تركت المشروع على الوجه الذى أعد عليه لتفادت كثيراً من المتاعب ولما أخرت البت فى الميزانية بعد مرور عدة شهور من السنة المالية يتعذر معها تنفيذ

كثير من الأمور والمشروعات التي لا يمكن البدء فيها قبل إقرار الميزانية .

وما شكاوى المهندسين والمدرسين إلا نتيجة من نتائج هذا الموقف الذي لم تكن له ضرورة ماسة . وكان في وسعها بعد أن تنتهي من المفاوضات — إذا مد لها الأجل — أن تبدل وتعدل على أسس جديدة بعد أن تتوفر على درس كل هذه المسائل غير مشغولة البال ولا موزعة الجهد .

ومن الأمور التي نشأت من الحرب تعطل فريق من العمال الذين كانوا يعملون في مصانع الجيش . وقد كان تعطلهم متوقعاً قبل أن يحدث ، وكان الواجب أن يدبر أمره بحيث يكون حل المشكلة معداً مهيأ يوضع موضع التنفيذ حين ينتهي عمل هؤلاء مع السلطات الحربية . ولكن المسألة لم تعط العناية الكافية ، فلما حان حينها اضطرت الحكومة لتلمس الحلول الوقتية المرتجلة .

ومما لا شك فيه أن مشكلة المهندسين والمدرسين ليست إلا مشكلة الموظفين جميعاً . فهذه الهيئة على الرغم مما يروق للبعض نعتها بأنها عبء على الدولة يستغرق الجزء الأكبر من الميزانية — هذه الهيئة تعاني كثيراً من الضيق ، وفي الوقت الذي ارتفعت فيه الأسعار خلال الحرب وبعدها إلى أربعة أمثال ما كانت عليه لم تمنح فيه سوى إعانة غلاء ضئيلة لا تعدو في متوسطها ثلث المرتب ، وحرمت من العلاوات ، وقيد الترقي بأشد القيود ، فكانت أشد طوائف الأمة غبناً وحرماناً وكانوا بالقياس إلى غيرهم ممن يعملون خارج دوائر الحكومة أقلهم حظاً .

ومشكلتهم الحقيقية تنحصر في أن الكثرة الساحقة المنتجة منهم تحرم حقها الطبيعي في الأجر الكافي وفي العلاوة الدورية المتصلة وفي الترقي الذي يتناسب مع إخلاصهم وجهدهم ، وأنهم يحملون جيشاً من العاطلين الطفيليين يحسب عليهم . وهم ليسوا مسئولين عن استغراقه جزءاً من الميزانية دون أن يقدم مقابل ذلك عملاً مكافئاً ، بل المسئول هو الأهواء السياسية .

ومشكلة العمال المتعطلين هي مشكلة الفقراء جميعاً ممن لا يجدون في محيط الحياة المصرية العمل الذي يكفيهم أجره لسد حاجتهم . فهؤلاء تجب المسارعة لتدبير أعمال جديدة تكفل تشغيلهم ، والتعجيل في مشروعات الري والصرف والطرق ، وإنشاء مصانع حكومية تمون بعض المصالح ، وإصلاح البائر من الأراضي الزراعية وتوزيعها عليهم مع إقراضهم ما يقيم أودهم ويساعدهم على السير في حياتهم حتى ينتجوا ما يمكنهم من الاعتماد عليه .

* * *

وليس الأمر في علاج المشكلتين بالذي يلقى عبؤه على الحكومة وحدها . فالأمر يقتضي تشكيل مجلسين قوميين قويين : يختص أحدهما بدرس مشاكل الموظفين وإعادة فحص أعمال الدواوين وحقيقة حاجتها منهم ، ويحدد لكل عمل أجره المناسب لمسئوليته وجهده ، ويرتب قواعد سليمة لتأمين الموظفين وضمان ترقيهم تبعاً لمرور الزمن عليهم مع أداء واجبهم على الصورة المرغوبة . ويختص المجلس الثاني بتدبير موارد جديدة وأبواب مستحدثة للعمل تتكفل بشغل الأيدي المتعطلة وتكفل لهم الرزق المناسب .

ويجب أن يزود المجلسان بالسلطة التنفيذية الكافية والمال الكافي وأن يفوضا في العمل بغير العقبات الشكلية الروتينية .

إن البطء في معالجة المشاكل يزيدها تعقداً ، والحلول الجزئية شر من إهمال الحل كلية . والحكومات لا يتسع وقتها لمعالجة قوية حاسمة لهاتين المشكلتين ، فليسارع باختيار رجال أكفاء نزهاء أقوياء يمتازون بالحزم والسرعة ، وليوضع الأمر في أيديهم .

(. . .)

أنواع طريفة من العملة

يحتفظ بنك تشيس مانهاتن في الولايات المتحدة بمجموعة عظيمة من العملة تختلف أنواعها تنوعاً شديداً في العالم ، فهي تضم أقدم ما عرف من أنواع العملة في التاريخ وهي الحلقات المعدنية التي كان الناس يتعاملون بها في مصر القديمة ، وأحدث ما صدر منها وهي عملة صغيرة استحدثتها رودزيا في يناير هذا العام ، وفيه كذلك قطع من العملة صكتها أسرة منج الصينية في القرن الرابع عشر ، إلى جانب ورقة مالية أمريكية ذات عشرة آلاف دولار طبعت في أمريكا هذا العام .

وفي المجموعة إلى جانب ذلك بضعة أشياء كانت تقوم مقام العملة في بعض النواحي ، ومن أطرف ما يرى الإنسان من هذه الأشياء ذيل فيل وبعض أصناف المحار وأسنان الحوت وقطع من الصمغ العربي وألوان من الخرز الرخيص والأزرار البراقة وغير هذا .

وتضم المجموعة طائفة من أغرب ما ورد على المصارف من الصكوك المالية (الشيكات — ولفظ شيك الافرنجي مأخوذ من صك العربي) ، فمنها صك مبلغ ٢٢٥ مليون دولار وهو أكبر صك قدم إلى صراف مصرف تشيس مانهاتن ، وإلى جانبه يجد الإنسان صكاً متواضعاً مبلغ سنت واحد ...

ويجد الإنسان في هذه المجموعة طائفة من الأوراق المالية التي صكها الألمان والإيطاليون في بعض ما كانوا يحتلونه من البلاد .

من The Wall Street Journal

في طبقات الجو العليا

تقوم وزارة البحرية الأمريكية بإعداد ما يلزم لدراسة طبقات الجو العليا على ارتفاع يتراوح بين مائة ألف وخمسمائة ألف قدم ، وهي تنشئ لهذا بالونات ضخمة تحمل أجهزة دقيقة تسجل كل ما عسى أن يحيط بها من الحالات الجوية بطرق آلية محضة ، وهذه الأجهزة كلها جديدة التركيب لأن أجهزتنا العادية التي نقيس بها الضغط والحرارة والرطوبة وقوة الريح وما إلى ذلك على سطح الأرض لا تصلح لقياس هذه الظواهر الطبيعية على ذلك الارتفاع الشاهق . ويعلق علماء الطبيعة أهمية كبرى على ما تسفر عنه هذه التجارب ، لأن الظنون الآن هو أن كثيراً جداً مما يفاجئنا من تغيرات الجو مصدره طبقات الجو العالية جداً .

من Science Digest.

٦ - الشيخ محمد عبده

ماذا يصنع الشيخ محمد عبده في مصر وقد عاد إليها ؟

إن مصر التي يدخلها اليوم غير مصر التي تركها .

لقد أصبح كل شيء في يد الإنجليز ، لهم في كل نظارة من يستبد بالأمر فيها دون الناظر ، حتى الداخلية وحتى التعليم وحتى الأزهر والمحاكم الشرعية . النظار قطع شطرنج والمديرون في البلاد خاضعون المفتش الإنجليزي ، والعميد الإنجليزي مقصد كل ذي حاجة ، والمقرب إلى الإنجليز مقبول الشفاعة ، مقضي الحاجة ، واسع الجاه ، والبعيد عنهم معطل الحوائج ، مضطهد ، محارب حتى في أدق الأمور — والخديو توفيق مسالم يأخذ بنصائح الإنجليز حتى في الجلاء عن السودان ، ويقول لكاتب التيمس : « إن أمامي واحدة من ثلاث خطط في الحكم : إما اتباع نصائح إنجلترا ظاهراً والعمل على محاربتها في الخفاء ، أو إطاعتها إطاعة عمياء ، أو أناقش نصائحها بكل صراحة وأبدي آرائي فيها ، فإذا قبلت فيها ، وإلا فأنا مضطر لقبولها ، وقد اتبعت في الحكم الطريقة الأخيرة ، فرميت بالضعف ، فهل كان يمكنني أن أقاوم إلى النهاية ! » .

إن أهم غرض للشيخ محمد عبده كان إصلاح العقيدة الإسلامية والمؤسسات الإسلامية كالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، ومثل هذا الإصلاح لا بد أن يعتمد فيه المصلح على سلطة قوية تحمي ظهره ، وإلا كان كأي عالم من علماء الأزهر لا تسمع له كلمة ، ولا يؤبه له بدعوة . فعلى أي السلطات يعتمد ؟ أعلى الخديو توفيق وهو يكرهه كل الكراهية ، ولو ترك له الأمر ما أعاده من منفاه ؟ ثم هو ليس له من الأمر شيء ، ولكنه على كل حال السلطة الشرعية ، والمؤسسات الدينية التي يريد إصلاحها أمس به .

أم على الإنجليز وفي يدهم القوة ، ولو عاونوه في الإصلاح لتحقق بفضل نفوذهم ، ولكن أليس من المهانة أن يستعان بالأجنبي المحتل للبلاد ؟ ولو استعان بهم لظُلّلت دعوته بظلال من وحي الأجنبي ، وظن الناس الظنون بكل ما يدعو إليه . ولكن هم الذين لهم الفضل في دخوله مصر ، ولولاهم لظل مبعداً ، ثم هم لا يمانعون في الإصلاح الديني والمؤسسات الدينية ، إذ هذا الإصلاح لا يؤثر في مركزهم في مصر ، فما الضرر من الاستعانة بهم لتحقيق الغرض ولو انهم وكره ؟

أم يعتمد على الأمة وهي ضعيفة منهوكة ممزقة لم يتكون فيها وعي قومي ، ولا شعور بالعزة ، وكبراؤها أسوأ ما فيها ؟ ثم إن إصلاح العقيدة والمؤسسات الدينية يهيجها — كما هو الشأن دائماً — لأنها ألفت الفاسد حتى لم تشعر بفساده ، فإذا دعيت إلى الإصلاح هاجت وماجت ورمت الداعي بالكفر والزندقة ، فكيف يعتمد عليها في الاصلاح ؟

أعتقد أن هذا وأمثاله هو ما كان يدور في ذهن الشيخ محمد عبده ويحيره في طريقه إلى مصر وعند عودته .

وأظن أنه وضع قراراً في أعماق نفسه بمسالمة الخديو ما استطاع والاستعانة بالانجليز فيما ينوي من إصلاح .

يدل على هذا أنه وضع تقريراً بعد عودته عما يراه في وجوه إصلاح التعليم في مصر ، ورفعه إلى اللورد كرومر تسليما منه بأنه القوة الفعالة ، ويدل عليه سيرته الواقعية ؛ فقد ظل طول حياته بعد عودته يسالم الانجليز ويتعاون معهم ، وهي سياسة لها منطقها ؛ فقد كان يرى أن جلاء الانجليز وصلاح السياسة المصرية لا يأتي إلا عن طريق استنارة الشعب وفهمه لحقوقه وواجباته وغضبه من الاعتداء على حقوقه وهمته في أداء واجباته ، ومصر لم تبلغ هذا المبلغ ، ووسيلة إصلاحها التعليم — ثم يرى أن مسألة مصر لا تحل بمواجهة مصر لانجلترا ، بل بالحالة الدولية العامة ، والتفات الدول إلى أن مصلحتها في استقلال مصر ؛ وإلى أن يحدث ذلك يجب على القادة أن ينيروا الشعب بالتعليم ولا يحملوا كل همهم الاشتغال

بالسياسة؛ فهو ينقد جمال الدين لأنه صرف كل جهوده في السياسة دون الإصلاح الداخلي للشعوب، وينقد الأميرة نازلي في أنها انصرفت إلى المجهود السياسي ولم تؤسس جمعية النهضة النسائية — مثلا، وإذا حضر مجلسها لم يحب أن يتكلم في السياسة، وهي لا تحب إلا أن يتكلم في السياسة.

وكان في مصر رأيان: رأي يقول إنه لا أمل في الإصلاح الحقيقي إلا بزوال الاحتلال أولاً، ورأي يرى أن الإصلاح الحقيقي الداخلي هو وسيلة الجلاء، وعلى الرأي الأول كان الشيخ محمد عبده وأصحابه، وعلى الرأي الثاني كان فيما بعد مصطفى كامل وأصحابه، وبينهما حرب عوان، يتهم الأولون الآخرين بالرعونة، ويتهم الآخرون الأولين بالرجعية والضعف.

وطبيعي أن يكون الزعماء السياسيون من الصنف الثاني، والمصلحون الدينيون والاجتماعيون من الصنف الأول. وفي الحق أن السيد جمال الدين كان زعيما للناحيتين أو على الأقل اعتقد أن رسالته إصلاح العقيدة الدينية والاصلاح السياسي بمهاجمة الاحتلال الأجنبي، ولكنهما لم يجتمعا إلا في يده، ثم من بعده دعا دعاة إلى هذا ودعاة إلى ذلك، فخلفه في مصر في إصلاح العقيدة الشيخ محمد عبده وتخلى عن السياسة، وخلفه في السياسة فقط عبد الله نديم، ثم مصطفى كامل، ثم سعد زغلول.

ومن الإنصاف إذا قومنا الشيخ محمد عبده في هذه الناحية أن نراعي كل ظروفه وكل الأحوال في زمنه، ولم يكن الشيخ محمد عبده بدعاً في هذا الاتجاه، فمثله في ذلك كان السيد احمد خان المصلح العظيم في الهند فقد رسم خطته أن يصلح الشؤون الاجتماعية والدينية لمسلمي الهند مع مسالمة الإنجليز حتى لا يحاربوه في إصلاحه.

ولما اقتنع بهذه النظرية سار عليها قولا وعملا، وقد استفتي مرة في الاستعانة بالأجانب فكان من فتواه: « قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين، وأن الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أيتامهم وما فيه خير لهم لم يفعلوا إلا ما اقتضته الأسوة الحسنة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأن من كفّرهم أو فسّقهم فهو بين الأمرين إما كافر أو فاسق، فعلى دعاة الخير أن يجدّوا في دعوتهم وأن يمضوا على طريقتهم، ولا يحزنهم شتم الشاتمين ولا يغيظهم لوم اللائمين، فالله كفيل لهم بالنصر إذا اعتصموا بالحق والصبر ».

فهو في هذه الفتوى يعبر عن مذهبه ويبرر موقفه. والقارىء يشعر بما يشعر الأستاذ فيها من مرارة وغيظ.

على كل حال هذا مفتاح لفهم سياسته وما لاقى في حياته من عناء، وفي إصلاحه من دسائس وفي شخصه من تهم وفي طريقه من عوائق.

* * *

عاد الشيخ محمد عبده وهو يأمل أن يكون ناظراً لدار العلوم أو أستاذاً فيها، فيعيد فيها مابدأ ويثير أذهان المعلمين ليثيروا أذهان الطلبة، ولكن لم يرض الخديو توفيق بذلك، لأنه إذا قبل أوصل التيار الكهربائي إلى الأسلاك، وهو تيار بغيض إليه، ولعل الإنجليز أيضاً لم يرضوا ولو شاءوا لضغطوا، فعين قاضياً أهلياً في محكمة بنها ثم الزقازيق ثم عابدين، ثم عين مستشاراً في محكمة الاستئناف ولم يكن هذا غريباً، فقد كان يعين في القضاء أي مثقف ممن تمرن على المحاماة ولم تكن معه شهادة، أو ممن تخرج في دار العلوم أو نحو ذلك.

ورأى نفسه — وهو قاض — في وسط يُدل بمعرفته القوانين الفرنسية وشروحها، فأبت نفسه الطموح أن يكون أقل شأناً منهم، فبدأ يتعلم اللغة الفرنسية وهو قاض في عابدين وسنه إذ ذاك نحو الأربعين، وجدّ فيها حتى بلغ شأواً لا بأس به، وقد أطلعه تمكنها على ميدان فسيح استفاد منه كثيراً مما

قرأ في اللغة الفرنسية ، وقد ترجم كتاب التربية لسبنسر بعد أن نقل من الإنجليزية إلى الفرنسية ، وكان يكمل نقصه الفرنسية برحلاته إلى سويسرا وفرنسا يستمع إلى بعض المحاضرات ، ويقابل بعض العلماء ، وكما يقول يجدد نفسه

وقد امتاز في قضائه بتحريه الحق وتقديره العدالة أكثر مما يقدر نصوص القانون ، ويرجع هذا إلى سعة أفقه ودراسته للشريعة الإسلامية وعدم تشكله تماماً بالقالب القانوني ، ولذلك شكا بعض زملائه من أنه يتحرر من النصوص القانونية ، ولما سئل في هذا اعترف به ودافع عن وجهة نظره .

* * *

مات الخديو توفيق وتولى الخديو عباس سنة ١٨٩٢ وقد عاد من فينا ممتلئاً حماسة وغيرة وتصميماً على مناهضة الاحتلال ، وأخذه خطة جديدة غير خطة أبيه المستسلمة ، والتف حوله بعض شباب مصر المتحمسين وبقايا رجال الثورة العرابية الذين تألموا من الهزيمة ولم ييأسوا من تغير الحال ، ووراءهم تركيا وفرنسا تشجعانهم على حركتهم ، وقد ضاع نفوذهما على يد توفيق فأملا عودته على يد عباس .

وبدأ الخديو عباس بتغيير رجال الحاشية وإحاطة نفسه بما يتفق وسياسته ، وبدأ يتعرف أحوال مصر بنفسه ويتصل بالموظفين والأعيان وأحياناً يرأس مجلس النظار ، وبدأت انجلترا تشعر بما سيصادفها من متاعب على يد هذا الشاب وتتهز الفرص لإحراجه ، وقد وجدوا هذه الفرصة عندما أقال الخديو مصطفى فهمى باشا من رئاسة النظار وعين حسين فخرى باشا بدله من غير رجوع إليهم ، وجاءت برقية من وزارة خارجية انجلترا بعدم الموافقة على تعيين حسين فخرى وأنه لا بد من أخذ رأيها فيمن يعين وأن الخديو إذا رفض فإن العاقبة ستكون وخيمة . وتحرجت الأمور ، ورأى عباس أن تنازله عن العرش أهون من رجوع مصطفى فهمى ، وأكثر من الاستشارات والاتصالات ، وأخيراً وجد الحل في استقالة حسين فخرى وتعيين رياض باشا بالاتفاق مع اللورد كرومر ، فكانت هذه أول صدمة للخديو عباس .

رأى الشيخ محمد عبده أن آمال عباس في الإصلاح يجب أن تستغل ، ووضع خطة أن يتقرب إليه ويوثق الصلة به ، ويحسن إليه برنامجه في الإصلاح مع حسن علاقته أيضاً بالإنجليز ، فيكسب السلطتين ويعتمد عليهما في تحقيق أغراضه الإصلاحية ويتم له ما يريد . ولكن ستبين الحوادث أن هذا خيال ، وأن الجمع بين صداقة السلطتين كالجمع بين الماء والنار ، وأن إرضاء إحداهما إغضاب للأخرى .

على كل حال تقرب محمد عبده من عباس بواسطة محمد ماهر باشا ، ورحب الخديو بذلك ، إذ كان يسره أن يجمع حوله أقوياء الرجال ، وتقابلا مراراً سراً وجهراً ، وحسّن إليه الشيخ محمد عبده أن يتجه إلى إصلاح الشعب الثلاث المتصلة بالدين ، والتي لا شأن للانجليز بها ، والتي في صلاحها صلاح للأمة ، وتقوية لمركز الخديو . إذ في ذلك برهان قوى على أنه إذا وكل إليه الأمر أحسن خيرا مما يحسن الإنجليز في إدارتهم — وهي : الأزهر ، والأوقاف ، والمحاكم الشرعية . وليكن البدء بالأزهر . فاقتنع الخديو بذلك ، وكلفه تقديم تقرير ، ففعل واعتمد ، وصدر القرار بتشكيل مجلس إدارة للأزهر برياسة الشيخ حسونة ، وفيه الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، مندوبين عن الحكومة ، واعتمده مجلس النظار سنة ١٨٩٥ ، وصدق عليه الخديو ، وأتيحت الفرصة للشيخ محمد عبده لإصلاح الأزهر الذي تمناه من يوم أن كان مجاوراً ساخطاً على سوء حاله .

يالله وإصلاح الأزهر ! ما حاوله أحد ونجح ، ولا الشيخ محمد عبده ، لأن كل المحاولات كانت تتجه إلى هامش الموضوع لا أساس الموضوع وكانت من سبيل استرضاء أهله والخوف من أي قلق واضطراب ، وهم يتزعمهم طائفة ألفت القديم حتى عدته دينا ، وكرهت الجديد حتى عدته كفرا ،

وعاشت فى المغارات فلم تر ضوءاً ، وأفنت عمرها فى فهم لفظ ، وتخريج جملة ، وتأويل خطأ . فلم تر حقائق الدنيا . فإذا أتى مصلح سمم أهله الجو حوله ، واستعانوا بالذين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة الشعب ، وخنقوا الطائفة القليلة من شبابه النازعين إلى التجديد ، وحرصوا على صغار كرهم أن يكتسحها الإصلاح ، وجاههم أن ينتقل إلى يد المصلحين ، وبجانبهم طائفة أخرى تؤمن بالقديم عن صدق وإخلاص ، ولكن عن ضيق أفق ، وغفلة عن الحق ، هم من جنس ما قال أهل الحديث عن بعضهم : « نتطلب دعوتهم ولا نقبل شهادتهم » ، فتتجمع كل هذه العوامل ، فتضطر المصلح إلى الانسحاب إن غضب ، أو المداراة والمسالمة والرضا بالموجود إن لم يغضب . وتضطر الحكومة أن تتنحى حباً فى السلامة ، وتتركه يأكل بعضه بعضا ، وتنشىء بجانبه المعاهد لمعلمى اللغة العربية والقضاء الشرعى ، لتستطيع تنظيمها والإشراف عليها إذ أعجزها الإشراف على الأزهر ، ومع هذا لا يخلو الجو من شغب يقلق بال الحكومة الحين بعد الحين ، بين الأصل والفرع ، وما يحتضنه الأزهر ، وما تحتضنه الحكومة ، وتترك ذلك الزمن ، والزمن لا يحل المشكل ، والمشكل لا يحل إلا بالعلاج الحاسم ، وهو أن يتبع الأزهر الحكومة تبعية الجامعة ، ويستقل استقلالها ، ويخضع فى نظمه لما ترشد إليه علوم التربية الحديثة ويرقى برقيها ، ثم ينفذ ذلك من غير خشية .

أخذ الشيخ محمد عبده بحرك مجلس الإدارة للإصلاح ، وبدأ بالمسائل الشكلية من زيادة مرتبات المدرسين وتنظيمها ، ووضع لائحة لكساوى التشريف ، وتنظيم الجراية ، ومساكن الطلبة والإشراف الصحى عليهم ، والامتحان . فلما تعرض لشىء من الأساس ، وهو ماذا يدرس فى الأزهر واختيار الكتب ، وطرق التدريس ، وبرامج الدراسة . زادت العقبات فى سبيله ، واضطر أخيراً إلى الانسحاب . فكانت معالجته برشاماً للصداع لا علاجاً لأصل الداء ، وفى الحق أنه لم يكن يمكنه فى مثل ظروفه غير ذلك .

أحمد أمين

بُناة العلم فى الحجاز الحديث

قد أخرج الأستاذ عبد القدوس الأنصارى أخيراً الكتاب الأول من سلسلة « بُناة العلم فى الحجاز الحديث » وخصصه بسيرة المرحوم فضيلة « السيد أحمد الفيض آبادى » مشيد دار العلوم الشرعية بالمدينة المنورة ومديرها . وقد استعرض فى هذا الكتاب ناحية هامة من نواحى النهضة العلمية والأدبية الحديثة بالحجاز استعراضاً جمع بين روعة التنسيق ودقة التحقيق .

وقد طبع الكتاب بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعاً متقناً .

فنرجو له الرواج والانتشار .

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
التليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

الاصلاح الصحى

فى ريف مصر

– ٢ –

١ – مورد ماء نقى للشرب والاستعمال المنزلى

هذا هو أول إصلاح صحى يجب تنفيذه وهو أبعد الإصلاحات الصحية أثراً فى حياة الفلاح . وقد ظلت مصر طول العشرين سنة الماضية تدرس طريقة توفير الماء الصالح للشرب فى القرى ، وانصرف المسئولون إلى طريقتين : إحداهما تمهيد مشروعات التنقية الكبرى التى تشمل محطة رئيسية كبيرة وشبكة من المواسير تربط جميع القرى فى مديرية أو أكثر ، وقد نفذ ذلك فعلاً فى جزء كبير من مديرية الفيوم ، وبدىء به إلى حد ما فى بساط كريم وفوة . والطريقة الأخرى منشآت صغيرة فى كل قرية على حدة ، أساسها مضخات تجلب الماء من باطن الأرض بدون حاجة إلى ترشيح ، ويكون التوزيع محدوداً فى القرية الواحدة . والنظام الأخير يمكن تطبيقه فى ثلاثة أرباع القرى المصرية حيث المياه الجوفية صالحة للشرب وخالية من جراثيم الأمراض ، وهذه الطريقة الأخيرة قليلة التكاليف ، فقد وجد أن تكاليف مشروع مد مديرية الفيوم بالمياه تساوى جميع العمليات الصغيرة التى تمد ثلاثة آلاف قرية مصرية بالماء الصالح للشرب من المياه الجوفية .

وقد قيل – وربما كان هذا غير صحيح – بأن أكثرية المحبذين للطريقة الأولى هم من المهندسين الذين تستهويهم المشروعات الضخمة الكبيرة ولا يأبهون كثيراً بالعمليات الصغيرة المحدودة مهما تعددت مزاياها .

وقد بروا موقفهم بأن المصريين لا يقبلون على شرب الماء الجوفى لأنهم يعتقدون أنه يؤثر تأثيراً سيئاً على القوى التناسلية ، وهذا غير صحيح ، فقد رد على ذلك المغفور له الدكتور عبد الواحد الوكيل بك وزير الصحة الأسبق فى إحدى جلسات اللجنة الصحية بمجلس الشيوخ ، بأن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم عاش وتوفى ولم يشرب سوى مياه الآبار ، ولم يقل أحد إن به ضعفاً فى القوة التناسلية . بل إن سكان مصر الجديدة يشربون مياهاً جوفية هى أكثر المياه الجوفية فى مصر أملاحاً ، ولم يتبين من إحصاء المواليد فى هذه الناحية أنها تختلف عن أى منطقة أخرى تشبهها فى طبقة السكان تسقى المياه المرشحة من النيل أو الترع ، وإنه لو كان هناك أقل احتمال فى تأثير المياه الجوفية على القوى التناسلية لهجرت مصر الجديدة من زمن بعيد .

وقد ظل هذا الموضوع يدرس طوال عامين فى لجنة الشئون الصحية بمجلس الشيوخ ، وتقدمت عنه عشرات من الرسائل الفنية تقع فى أكثر من ألف صفحة ، وانتهت اللجنة إلى أنه من الخير لمصر أن تنشىء هذه العمليات الصغيرة التى تستمد ماءها من باطن الأرض كلما أمكن ذلك ، وهو ما سبق أن أشرنا إلى أنه ممكن فى ثلاثة أرباع القرى المصرية وهى مصر جميعها ما عدا مديرية الفيوم وشمال الدلتا ومنطقة القنال وبعض مناطق قليلة أخرى حيث المياه الجوفية مالحة .

وقد ضيع على مصر هذا الجدل فوائد بعيدة الأثر فى ترقية صحة الفلاحين ، وقد آن الأوان وقد انتهت الحرب وتيسر الحصول على الأدوات أن تقوم مصر بهذا الإصلاح الحيوى فى أقرب وقت .

٢ – مرافق صحية لكل عائلة

يلى فى الأهمية لموضوع المياه الصالحة للشرب موضوع نظافة القرية وإزالة الفضلات من منازلها وإنشاء مرحاض صحى فى كل منزل ، وهذا أيضاً إصلاح أهم بكثير من إعادة تشييد مبانى القرية .

والمرحاض الصحي الذي يصلح لسكان القرى المصرية لم يستقر الرأي بعد على نوعه بصفة نهائية ، ولكن الأفضل إلى الآن هو مرحاض البئر الاسطواني وهو مرحاض اقتبس من جزيرة جاوه وطبقته مبرة روكفلر في عدد من القرى المصرية ، وهو يتكلف حوالي ٨٠ قرشاً ، وإذا أدخلت عليه بعض التحسينات يتكلف ١٢٠ قرشاً ، وهذه التكاليف حسب أسعار ما قبل الحرب ، ولا شك أن كل منزل مصري في حاجة لمثل هذا المرحاض ولو دعا الحال لاستبداله بنوع أفضل فيما بعد .

أما إزالة القمامة من شوارع القرية ومن حول منازلها فهذا يدعو لإنشاء الإدارة القروية المحلية التي تعين كناسين وتعد مكاناً حول القرية للتخلص من القمامة سواء بحرقها أو بتحويلها إلى سماد أو بردم بعض البرك مع اتخاذ الاحتياطات الصحية اللازمة .

٣ — مقاومة الأمراض المتوطنة

تكاد تكون الأمراض المتوطنة أكبر عائق في نمو الجسم والعقل في سائر أفراد الطبقات الفقيرة التي تسكن القرى المصرية ، ويعتقد الكثيرون أنها أكبر عقبة لنهضة مصر ، وقد تردد ذلك في مجلس النواب البريطاني في صدد ادعائهم عدم كفاية الجيش المصري للدفاع عن مصر نظراً لتفشي هذه الأمراض .

ويرجع انتشار هذه الأمراض إلى مشروعات الري المصرية الحديثة التي بدأت بإنشاء خزان أسوان سنة ١٩٠٣ وما تبع ذلك من إقامة السدود على مجرى النيل وإنشاء الترع الصيفية وتحويل جزء كبير من الأرض من ري الحياض إلى الري المستديم ، خصوصاً إدخال نظام الري بالراحة ، والمسئول من كل ذلك هم المهندسون البريطانيون الذين لم يدركوا علاقة هذه المشروعات بانتشار البلهارسيا والإنكلستوما والملاريا وغيرها من الأمراض الطفيلية .

وقد تقدم العلم في السنوات الأخيرة تقدماً كبيراً مما أدى إلى إمكان التمتع بفوائد الري المستديم مع مقاومة انتشار هذه الأمراض ، وقد أمكن أيضاً في الربع قرن الأخير الوصول إلى طرق حاسمة في العلاج وصار في الإمكان التغلب على هذه الأمراض ولو أن ذلك لم يبدأ جدياً في مصر بعد ، بل وضعت الأسس الصحيحة اللازمة لذلك العمل ولا ينقصنا سوى إعداد الرجال والاعتمادات للقيام به .

والبلهارسيا وهي أهم هذه الأمراض من الممكن استئصالها إذا امتنع المصريون قاطبة من تلويث مجاري المياه بالبول والبراز ، وهذا أمر يمكن تحقيقه إذا اقتنع المصريون جميعاً بفائدته ، ولا سبيل إلى إقناع الفلاح إلا إذا تفاهم معه في ذلك رجال هم موضع ثقته من الناحية الدينية ومن الناحية الاجتماعية .

وهناك كثير من الجمعيات التي تنشد الإصلاح الاجتماعي وتحسين حالة الفلاح ، ولو وجهت اهتمامها إلى هذا الموضوع لأفادت مصر فائدة عظمى بدون أي نفقات تذكر ، ولعل بعضها يعمل على ذلك قريباً .

٤ — ضمان الكفاف من الغذاء

لكل عائلة بنظام التأمين والإعانة

إن العناية بالآلة الجسمانية للإنسان وتزويدها بما يلزمها من وقود (أي غذاء) والتخلص من فضلاتها والمحافظة عليها من المؤثرات الخارجية وتوفير ما يلزم لها من ملبس ومسكن ضروري لسلامتها وتمتعها بالصحة . والنفقات اللازمة لذلك (وهو ما نعتبره الكفاف) يجب أن تضمنها الدولة بواسطة إدارتها الصحية ، وهي متروكة الآن في مصر للمصادفات وعناية الأقدار ، وإلى شعور المحسنين . وحرام أن نترك حياة الأفراد لرحمة الظروف

والمصادفات . وظاهر من الحالة في مصر أن هذا الحد الأدنى لا تحصل عليه نسبة لا يستهان بها من السكان لقلة أجور الأيدى العاملة وكثرة أفراد العائلات التي يعولها القادرون على الكسب وعدم توفر العمل في سائر أيام السنة وعدم وجود مدخرات مالية لمفاجآت المرض أو الحوادث

وقد تركت مسألة الأجور خاضعة لنظام العرض والطلب ، وهو نظام يؤدى في الأماكن المكتظة إلى قلة أجور العمال من الحد الأدنى اللازم لتدبير ضروريات المعيشة

وقد قاوم الرأسماليون كثيراً تحت ستار ترك السوق حرة تدخل الهيئات التشريعية في تقرير حد أدنى للأجور وتأمين الطبقات العاملة ضد المرض وضد البطالة على حساب الخزانة العامة . ولكن في العصر الأخير تغلبت النظرية الإنسانية ورجحت كفة الإنصاف للطبقات العاملة على الرأسمالية ، وقد تبين أن في السوق الحرة لا رحمة للضعيف ، وقد حدد الأجر لأول مرة منذ عهد قريب في مصر ، إذ قرر مجلس الوزراء أن لا يقل أجر العامل في خدمة الحكومة عن خمسة قروش في اليوم ، ونصح الهيئات الأخرى باتباع ذلك ، وهذا عمل يعود بالفائدة الكبرى على الرأسماليين أنفسهم بمنع الانقلابات الاجتماعية العنيفة التي تنتج حتماً من سوء حالة الطبقات العاملة .

وإننا نطلب المستحيل من المعوزين والفقراء عندما نطالبهم بالمحافظة على صحتهم والنظافة والتغذية الضرورية والسكن في أماكن ملائمة ، فليس في مقدورهم مطلقاً التغلب على العوامل السيئة المحيطة بهم .

وقد ثبت أن الفاقة تؤدى إلى المرض بطريق مباشر أو غير مباشر في ٣٠ ٪ من الحالات ، كما دلت الاحصاءات في كثير من البلاد على أن المرض من أهم أسباب الفاقة ، فقد بلغت ٦٠ ٪ في بعضها ، عدا أثر المرض في تسبيب الفاقة لأفراد العائلة التي مرض كاسبها ، والفقر يدعو إلى استغلال الأطفال في العمل في سن مبكرة فينشأون ضعافا وتتفاقم حالهم .

وقد كان أول عمل صحى في تاريخ المدنيات هو العناية بالفقراء ورعايتهم منذ أقدم العصور . ولا زلنا نرى في بلادنا هذه آثار التكايا والملاجئ والأسبلة والأوقاف الخيرية ، وذلك قبل أن تعرف مصر أى نوع من الإدارة الصحية

إن الرجل القادر على العمل حقاً في الحصول على كفاف من العيش له ولعائلته ما دام على استعداد تام لأن يشتغل ، فإذا لم يجد عملا وجب على الدولة أن تعوله هو وعائلته ، ولكن يجب أن لا تشجعه على البطالة بأن تعطيه أقل قليلا من أجره اليومى إذا تعطل عن العمل .

وقد حلت هذه المشكلات في البلاد الأخرى بطرق شتى من السهل اقتباسها بعد جعلها ملائمة للبيئة المصرية . فمن هذه الحلول :

١ — التأمين ضد البطالة .

٢ — إعانة وإيواء غير القادرين على العمل من الرجال وإعانة وإيواء النساء والأطفال الذين لا عائل لهم .

٣ — التأمين العلاجى لكل شخص يقل دخله عن رقم محدد .

٤ — معاشات للشيخوخة يتناولها كل رجل وامرأة جاوز الستين من العمر إذا لم يكن له إيراد كاف .

٥ — نشر الصناعات المنزلية في البيئات الزراعية التي لا يتوفر فيها العمل على مدار السنة .

ومما هو جدير بالذكر أن وزارة الشئون الاجتماعية قد بدأت بداية طيبة في معالجة هذه المشكلة الصحية من أساسها في القرية المصرية مستعينة على ذلك بالتعاون والتبرع والمساعدة الحكومية ، وتبشر هذه الأعمال بنتيجة مرضية .

التأمين ضد البطالة

هذا النوع من التأمين يطبق في الأوساط الصناعية بواسطة مكاتب (بورصة العمل) حيث يتقدم لها يومياً

كل عامل لم يجد عملا ، وكذلك يلزمها أصحاب الأعمال من حاجتهم من العمال ، فيتم التوزيع ، ومن يبقى من العاطلين تقرر لهم إعانة البطالة من اعتماد يخصص لذلك يجمع من أجر كل عامل مشتغل ومن كل صاحب عمل ومن الحكومة بنسب مقررة .

وصعوبة تطبيق هذا النظام على عمال الزراعة يرجع إلى أن العمل الزراعي ليس مستمراً على وتيرة واحدة في جميع أيام السنة ، وكثير من الزارعين لا يستخدمون عمالا ، بل يتعاون أفراد العائلة الواحدة في العمل ، ويزامل بعض الزراع جيرانهم فيكون عاملا عند جاره في مقابل أن يعمل جاره عنده يوماً .

ولكن هذه الصعوبات لم يمكن التغلب عليها ، فمواعيد الزراعة والحصاد لا تقع كلها في وقت واحد في سائر أنحاء المملكة نظراً لاختلاف حالة الجو ، ولذلك يرحل العمال من منطقة إلى أخرى للعمل في فصول معينة ، ويمكن استخدام العمال الزراعيين في موسم البطالة الزراعية في صناعات زراعية أو صناعات منزلية لو أحسن تنظيمها زادت في دخل العمال ، وهذا ما بدأت تعمله وزارة الشئون الاجتماعية في القرى ؛ فتربية دودة القز وتربية الدجاج والنسيج والغزل وعمل الأسبتة والأقفاص والصناعات الزراعية — إذا شجعت في القرية تكون مصدر عمل رابح في فصول البطالة الزراعية إذا أحسن تنسيقها . وكذلك يجب أن يلاحظ في أجر العامل الزراعي مدة تعطله حتى يكفيه ما يكسبه أيام عمله لإعاشته في أوقات البطالة . وقد يظهر لأول وهلة أن ذلك سيرهق الملاك ويزيد في تكاليف الإنتاج الزراعي ، والحقيقة أن إيراد الأرض الزراعية ليس موزعاً توزيعاً عادلا بين رأس المال والزراع والعمال ، ففائدة رأس المال في مصر مرتفعة جداً خصوصاً الأموال المضمونة بأرض زراعية ، وقد تدخلت الحكومة أخيراً لخفضها من ٩ إلى ٨ ٪ ومع أن مثل هذه الأموال المضمونة بأرض زراعية في أوربا لا تزيد فائدتها على ٢ ٪ إلى ٣ ٪ ، وإيراد الأرض الزراعية من الإيجار يجب أن لا يتجاوز ٥ ٪ لعدم تعرض الملاك لخطر ضياع رؤوس أموالهم كما في الصناعة أو التجارة . فهناك معركة قائمة في مصر بين أصحاب رؤوس الأموال كالبنوك العقارية والملاك الزراعيين وعمال الزراعة للاستئثار بمعظم الربح الناتج من الأرض ؛ وقد ذهب ضحية هذا التنازع أضعف الثلاثة وهو العامل الزراعي ؛ وهذا يدعو لتدخل المشرع بتخفيض سعر الفائدة إلى ٥ ٪ على الأكثر ، وتحديد الإيجارات بنسبة تتمشى مع الضرائب ورفع أجر العامل وتأمينه ضد البطالة ، وهذا الموضوع متشعب خطير لا يمكن الدخول في تفاصيله في مثل هذا الحديث .

إعانة الفقراء غير القادرين على العمل

ومعاش الشيخوخة

حان الوقت لتدخل المشرع في هذا الأمر في مصر ، فهناك مقادير وافرة من الأموال تصرف في هذا السبيل ؛ أهمها إيراد الأوقاف الخيرية ، وما يصرف على الملاجئ الحكومية والأهلية والمستشفيات المجانية ومطاعم الشعب والصدقات التي يجمعها جيش من محترفي الشحاذة وما يوضع في صناديق الأولياء ، وإيراد الحفلات الخيرية وجمعيات الإحسان وما يخرجه عدد كبير من المسلمين زكاة من أموالهم حسب تعاليم الإسلام ، كل هذه مبالغ طائلة يمكن الاستفادة منها لو أحسن تنظيمها ، فكثير منها يذهب إلى غير من يستحقه ، وتدر الشحاذة في مصر في بعض الأحيان ما لا يدره العمل .

وأول خطوة في هذا السبيل أن يكون مع كل مصري تذكرة لإثبات الشخصية حتى يمكن التثبت في كل وقت من حالته المدنية ، وهذه التذكرة ذات أهمية في أعمال

الأمن العام والتأمين العلاجي والمراقبة الصحية ، وهي متبعة في كل البلاد الراقية .

والحقيقة أن قليلا جداً من المصريين يموتون كنتيجة مباشرة لفقرهم ، فهم يتحايلون على العيش بشتى الطرق — بالشحاذة والسرقة والنصب والاعتماد على الأقارب وتهديد الأغنياء .. ويلزم الدين الإسلامي الأقارب بإعالة فقيرهم ، ولكن طريقة تنفيذ ذلك بالالتجاء إلى المحاكم الشرعية تستدعى إجراءات طويلة لا يتحملها الفقير ، وتنظيم كل ذلك لا يستدعى عبئاً إضافياً كبيراً ، فتقوم كل قرية أو دائرة صحية محلية بتحمل نفقات إعانة الفقراء وغير القادرين على العمل وكبار السن والقيام بدفن من يموت منهم على حساب الدولة .

٥ — التأمين العلاجي

لكل شخص يقل دخله عن رقم معين

سبق أن وفينا هذا الموضوع حقه في المجلة الطبية المصرية عدد شهر مارس سنة ١٩٣٤ ، وهو ينفذ الآن مع بعض التعديل في مشروع المراكز الاجتماعية التي تنشئها وزارة الشئون الاجتماعية ، وستظهر التجربة العملية قيمة إقامة الطبيب في وسط قروى تعداده ١٠,٠٠٠ شخص للعناية بهم طبياً وإلى حد ما صحيا ، وأثر ذلك في تقدم الصحة وتخفيف الضغط على المستشفيات .

٦ — بناء مساكن القرية

ذكرنا في مقدمة هذا الكلام أن المساكن من حيث المباني والطلاء والنوافذ ليست بذات أثر كبير في الصحة ، وهي آخر ما يجب التفكير في عمله في إصلاح حال الريفيين في الوقت الحاضر ولو قصرنا الأمر على المشروعات الخمسة التي تناولناها بالبحث مع إنشاء المجالس المحلية المجموعات القروية لأدى ذلك فعلا إلى قيام السكان بأنفسهم بإصلاح مبانى القرية ، ويكون واجب الإدارة المحلية التوجيه فقط بعمل تخطيط للقرية ، ولا يسمح للسكان بإصلاح المبانى القديمة أو بناء جديد إلا حسب الاشتراطات الجديدة مع استصدار تشريع لعدم قسمة المسكن الواحد إلى مساكن منفصلة كما يعمد الورثة في كثير من الأحيان إلى عمله .

هذا القروى الذى يشرب الماء النقى ويعيش في وسط صحى من حيث التخلص من الفضلات ومن القمامة ، والذى يتناول ما يكفى حاجته من الغذاء ، والذى تتكفل به الهيئة الاجتماعية عند بطالته أوشيخوخته ، سوف لا يقنع بمسكنه الحالى وسوف يقوم هو بإنشاء المسكن الجديد أو سينشئه غيره ليستأجره هو حيث يكون هناك حاجة وحيث يكون هو قادراً على دفع إيجار مكافئ لرأس المال .

والخلاصة أن أول إصلاح في ريف مصر يجب أن يكون تعميم المياه النقية الصالحة للشرب ، وهذا وحده سيحدث انقلاباً هائلا في تحسين صحة القروى لا يعدله أى مشروع أو جملة مشاريع يمكن تصورها .

ويجب أن يصحب ذلك إنشاء مجالس محلية للمجموعات القروية تعنى بنظافة القرية وتقرر الضرائب المحلية التى تنفق في وجوه الإصلاح الصحى الأخرى ؛ وفى الوقت نفسه تقوم هذه المجالس على الإصلاح الاجتماعى والزراعى والتعليم ، لأنه يجب أن تسير هذه الإصلاحات جميعها جنباً لجنب ، فلكل من هذه الإصلاحات له أثره البعيد على ضروب الإصلاح الأخرى .

يشبه الإصلاح الذى عددته في هذه الكلمة الإصلاح الذى تضمنه مشروع بيفردج . وقد يدهش الكثيرون من أن هذا المشروع المصرى سبق بسنوات مشروع بيفردج ونشر في المجلة الطبية المصرية في عدد مارس سنة ١٩٤٢ ، ولكن لم يلق ما يستحق من العناية لأننا ما زلنا في مصر نتبع الأشخاص لا جوهر الموضوع ، وتستهوينا الدعاية لا الكفاية ؛ ولكن ذلك لا يدعو لليأس فهو أحد مظاهر التأخر الاجتماعى الذى نشكو منه .

دكتور محمد خليل عبد الخالق

عودة الروح

يا دنيا الأحلام ارحميني ، ويا أطياف الذكرى فكي قيدي وأطلقيني ، ويا أيتها الروح اغرقي في وساعديني ، ويامن رحل من أقسم لا الذكرى خففت ولا انساب مني موج الحنين ، كل لحظة مرت منذ انتقالك زادتني شوقاً إلى من كنت أصطفيه وكان يصطفيني ، ولولا رجولة فُرضت لما بخلت عليك بدمعي وأنيني ، ورب مُقلة جافة أهطل من دمع هتون ، وشعور مكبوت أشد فيضاً من سيول الحزين ، ياروح أخي هل سمعت نجواي أم لم تسمعيني؟

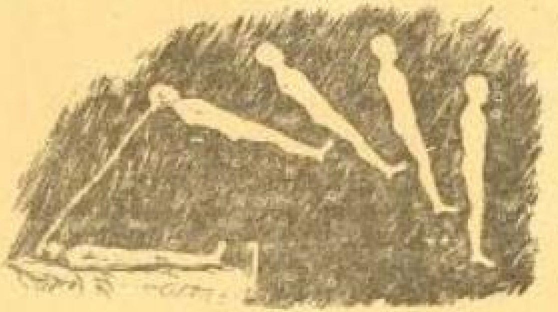
زرتني في منامي بالأمس معاتباً لا أدرى لماذا . والحقيقة أنك لم تنبس ببنت شفة ، ولكنك وقفت تنظر إلى النائم في فراشه دون أن تتكلم ، وكنت مجيباً في زيك الأنيق ، وكانت تتجلى في عينيك مظاهر عتاب هادئ ، لم أدرك بعد الدافع إليه . والغريب أن زيارتك الليلية هذه وافقت وفاة جارتي السكينة في الشقة الملاصقة ، والظاهر أن روحها قبضت في نفس اللحظة التي هلت علىَّ فيها طلعتك . لأني حال استيقاظي بعد الرؤيا مباشرة سمعت بكاء خافتاً يصدر من شقتها ومجبت لحدوثه ، ثم استغرقت في النوم ثانية حتى استيقظت في الصباح حين علا الصياح وبدأت الاستعدادات لما يجرى في مثل هذه المناسبة . إني أحاول أن أفسر توافق زيارة ملاك الموت للشقة المجاورة وزيارتك لي في منزلي في نفس اللحظة والدقيقة . ألستم في عالم الأرواح تنظرون أولا فأولا من السعداء الذين سوف يحظون بقربكم ، فلما علمت أن الملاك أوأحد أعوانه سيزور عمارة معينة في الشارع الذى أقطن فيه وجف منك القلب فاستفسرت وألحفت ، فلما علمت أن المرور على غيري تنفست الصعداء ، ثم طلبت أن يكون لك حظ المرافقة لتلتقي روحك الهائمة بروح أخيك المطروحة أثناء نومه . ويظهر أنك أتيت للرؤية فقط لأنك نظرت إلى في سكون ولم تتكلم . فما الذى يؤلمك يا أخى؟ أنت تعلم أنى أفرطت في الشجن بعد انتقالك ، وهانت في ناظرى كل مصائب الدنيا . ولقد صعقني فقدك ، ويا له من ثمن غال دفعته لأصبح الشخص الذى أنا عليه الآن . كنت أظن أن الابتسامة لن تعرف تقاسيم وجهي بعد هذه الصدمة ، فإذا بقضية النسيان تطغى تدريجيا كعادتها ، فسرعان ما تربعت البسمة الحائرة على عرش الغضون والتجاعيد ، ثم تنادر الأصدقاء من حولي ليسروا عني فضحكت ، وبالغوا في التنادر والقهقهة فقهقهت ، وأقسم أنها قهقهة من طرف اللسان وثنايا الحنجرة ، أما القلب فقد جفت موارده وشحت مباهجه ، وأصبح آلة تدق لتتدفق على الجسم الدفء والحياة . والواقع أن النسيان هو المصير المحتوم لمرز الصدمات ؟ ولكن هناك شخص ينسى في يوم وآخر ينسى بعد شهور أو سنوات ، والنتيجة واحدة إذا استعرضنا سجل الحوادث بعد مضى الوقت الطويل . ألم ترى يا أخي قد سامك مني تصرفي عند ما ذهبنا إلى المقابر في الأسبوع الماضي لنستودعها ابنة عمك التي قضت في ذلك اليوم . ولابد أنك علمت أنها توفيت بالإسكندرية ، وكان علينا أن ننتظر وصول جثمانها بجوار مقبرة حفرت لها لتستقبل الضيف الجديد . وطال انتظارنا لعطل أصاب السيارة التي تقلها من الإسكندرية عن طريق الصحراء ، ذلك الطريق الذى طالما خطرت فيه بسيارتك الأنيقة . وأراد حفار القبور أن يرفه عن أخي الأصغر وصديق له ، فسار بهما إلى جوار القبر المفتوح وأخذ يشير بأصبع جامدة محايدة إلى الأبرار الذين سبقونا وسبقوك ويسميهم واحداً فواحداً ، وعد منهم ثمانية عرفتهم جميعاً أثناء حياتهم ممتلئين صحة وقوة وشباباً ، وكنت أخشى أن يختم السلسلة باسمك لولا لطف الله ، لأنك لا زلت حياً في قلبي ، ومرز على أن أخيب ظن القلب بمواجهته بدليل قاطع دامغ على زوالك من العالم المادى .

أقلقني الانتظار لا من ملل ولكن لأن الأمس عاض بي

ولم أطق أن أتحيلك صنوا لهذه الأحجار والعظام البالية ، فقمت من كرسى وانصرفت دون استئذان إلا من روحك التى قرأت لها الفاتحة فى كل خطوة خطوتها نحو سيارتى التى علاها غبار طاهر أصبح جسمك من جزئياته .

* * *

استعرضت هذه الخواطر وأنا أستعد لتصفح كتاب (الطرح الروحى) تأليف مولدن وكارنجتون . ولم يكن بينى وبين هذا الكتاب استلطاف فى مبدأ الأمر ، فتركته على مكتبى حوالى شهرين دون أن أمسه حتى جاشت فى نفسى هذه الذكريات ، فأمسكت به فى تثاقل وحملته حملا إلى السيارة لأحاول تصفحه وأنا جالس فى مقعدى لا رقيب على سوى السائق وعابرى السبيل . وأردت أن أجد فيه ما يفسر اتفاق حدوث زيارة أختى الروحية فى الحلم مع قبض جارتى المتوفاة ، فراجعت فهرس الكتاب بسرعة آلية حتى وقفت عند كلمة (النوم) فقلت لنفسى : ترى ماذا يقول هؤلاء الروحيون عن هذه الظاهرة الطبيعية من حياتنا اليومية . فوجدت اعتقاداً راسخاً بأن الروح تغادر الجسم أثناء النوم وتبقى متصلة به بحبل أثيرى يستطيل وينكمش حسب مقتضيات الرحلة التى تسيح الروح فيها فى عالم المادة والروح ، فترى من الأحداث ما نسميه بالأحلام ، ويحدث هذا الطرح الروحى أيضاً خلال الغيبوبة الوساطية أو السبات العميق الذى ينتج عن مخدر كالكلوروفورم مثلا ، أو خلال ما يسمى « تعليق الحيوية » عند ما يدفن فقراء الهنود أنفسهم أياماً أو أسابيع . ويصف المؤلفان بعض عجائب الظاهرة الأخيرة فيقولان إن أحد الفقراء المصريين وهو (حامد بك) أبدى فى هذا الميدان مهارة عجيبة . فبقى مدفوناً مدة ساعة فى أتلانتا ، وثلاث ساعات فى نيوجرسى ، وسبع ساعات فى سان دييجو ؛ والغريب فى حالته أن التراب أهيل على جسده فى حفرة عميقة دون أن يوضع فى تابوت مغلق كعادة فقراء الهنود وغيرهم . وذكرا مثلا آخر لفقير هندى ظل مدفوناً فى قبر محكم الإغلاق مدة ثلاثين يوماً بالتمام بعد وضعه فى صندوق أحكم إقفاله تحت رقابة لجنة محايدة من كبار موظفى المنطقة منهم الأمير رانجيت سنج والسير كلود ويد . والفرق بين كل هذه الحالات والموت الحقيقى هو بقاء الحبل الأثيرى سليماً يصل الروح المطروحة بالجسد المادى . فإذا أفلت هذا الحبل من الجسد حدث الطرح الروحى الدائم أى الموت . أما النوم فهو طرح مؤقت للروح ، وما الأحلام إلا سياحاتها فى عالم المادة والروح ، فترى المنظور وغير المنظور ، وتقابل الأحياء والأموات على حد سواء . وهذا الاستيطان المؤقت فى عالم الروح يهىء لأرواحنا فرصة الحصول على تغذية وتقوية روحيتين لا تلبثان أن تنعكسا على الجسم عامة فيصحو الإنسان من نومه منتعشاً متجدد النشاط .



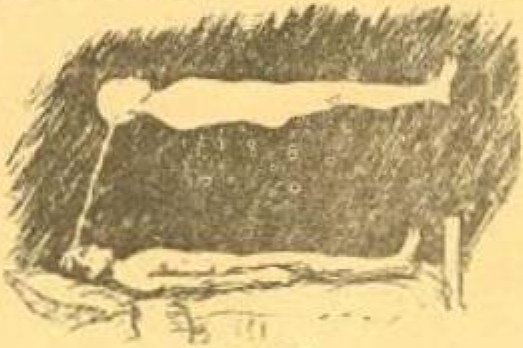
(شكل ١)

ما هذا الحبل الأثيرى الذى يفرق بين الحياة والموت ؟

يجزم الروحيون أنه فى حالات النوم والغيبوبة تفارق الروح الجسد ، ولكنها تظل مرتبطة به بحبل أثيرى مطاط يطول ويقصر ، ويخترق الحجب والحواجز والجدران مع الروح الهائمة . ويقولون إنه يبدأ فى مكان حيوى فى المخ المادى حيث تجتمع جميع المراكز الحيوية التى تسيطر على القلب والتنفس ، وينتهى فى نفس المكان من الروح الأثيرية ،

فإذا كان الشخص مستلقياً على ظهره (انظر شكل ١) ووجهه إلى أعلى طرحت الروح ووجهها إلى أعلى أيضاً ، وبرز الحبل الأثيري من الجبهة لينتهي في مؤخرة رأس الجسم الأثيري . وتكون الروح في مبدأ الأمر موازية في اتجاهها للجسم المادي ، ثم تتخذ بالتدريج وضعاً عمودياً قبل أن تبدأ سياحتها في عالم الروح . وعند الاستيقاظ نتيجة ضجة أو انفعال شديدين تعود ثانية إلى وضعها الأفقي ثم تقترب من الجسم ، بينما يقصر حبل الاتصال حتى تحل الروح في الجسد مرة ثانية (أنظر شكل ٢) .

ويقول أحد المؤلفين (مولدن) — وقد أوتي القدرة على النوم الاختياري — إنه جرب هذه الظاهرة في نفسه فشعر أولاً برأسه ينثني حتى لامس ذقنه صدره ، ثم راح جسمه في استرخاء النوم ، بينما صعدت روحه الأثيرية تدريجيا نحو سقف الغرفة ، وكان يشعر بما يشبه نبضات القلب عند مؤخرة رأسه مما أثبت له أن الحبل الأثيري يبدأ هناك . ثم لم يلبث جسمه الأثيري أن تحول تدريجياً من الوضع الأفقي إلى الوضع العمودي ، وعند ما أراد إنهاء التجربة أخذت الروح تعود تدريجياً إلى الوضع الأفقي ثم تقمصت الجسم مرة ثانية . وهو يصف التفاصيل بدقة الذي يعتقد أنه رأى شيئاً محسوساً ملموساً . ولا تشعر وأنت تقرأ السطور أو ما بينها بأن في الأمر ابتداعاً أو خيالا .



(شكل ٢)

* * *

ويقول المؤلفان إنه متى انقطع هذا الحبل الأثيري فلا أمل مطلقاً في عودة الميت إلى الحياة . ويقولان إن معجزات يسوع عليه السلام من إحياء الموتى لا يمكن تفسيرها إلا إذا افترضنا أن الذين بعثوا إلى الحياة لم يكونوا موتى بل كانوا في غيبوبة شديدة . وضربا لذلك مثلا : معجزة المسيح عليه السلام في إحياء صديقه لازارس . فإن يسوع بوصفه وسيطاً روحياً من الدرجة الأولى — يرى غير المنظور لما كان له من ميزة الجلاء البصري — أدرك أن لازارس لم يكن ميتاً ، إذ قال عليه السلام : « إن لازارس لم يمت ، إنه نائم وسأذهب إليه وأحاول إيقاظه » ثم ذهب إلى القبرة وأمر بإزالة الحجارة ثم نادى قائلا : « قم يا لازارس » .

فهب الأخير من نومته وتقدم إلى يسوع . أي أن المسيح عليه السلام قرر وهو يتقدم نحو القبر أن صديقه نائم فقط وليس بميت . وضرب المؤلفان مثلاً آخر من معجزات المسيح وهو نفخ الحياة في ابنة الحاكم الميتة ، فإنه دخل بيت الحاكم بين أصوات العويل والنحيب ، ولما اقترب من فراش الميتة نظر إلى من حولها وقال : « إن الفتاة ليست ميتة . لماذا تبكون إذاً ؟ » ثم أمر بإخراج جميع من بالغرفة إلا والدة الفتاة ووالدها ، وأمسك بيد الفتاة وصاح فيها قائلا : « قومي يا فتاتي قومي ! » ، فوقفت الفتاة لتوها ومشت إلى خارج الغرفة .

ويقول المؤلفان إن المسيح أقر في هذين المثلين أن بطل الحادث لم يكن ميتاً بل كان نائماً فقط ، وإلا لتكررت المعجزة من مئات أو آلاف من الحالات الأخرى ، الشيء الذي لم يحدث إلا في حالتين أو ثلاث . ويخرج المؤلفان من هنا إلى القول بأن عودة الروح إلى جسم ميت شيء مستحيل ما دام الحبل الأثيري قد انقطع ، إذ عندها ينطلق

الأمبراطور الفيلسوف

– ٢ –

كثير من المؤرخين الذين يكرهون النزعة الفلسفية ويؤثرون ما يسمونه السياسة العملية يرون فرصاً عليهم أن يثبتوا أن الحاكم الفيلسوف من طراز مرقس أورليوس لابد أن يكون سيء الإدارة غير قادر على النهوض بأعباء الملك . وحقيقة أن هناك ما يثبت أن فرط تسامح مرقس أورليوس قد جنى على سياسته وأساء إليه . ولكن عهده برغم ذلك كان حافلا بالإصلاح والأخذ بأسباب التقدم والنهوض والرقى . ولقد كانت له ثروة ضخمة ولكنها كانت تنفق جميعها فى الصالح العام ، وكان يحترم السناتو ويرعى جانبه ، وكان فى كل عام يشن حرباً لحماية الثغور ، على فرط كراهيته للحرب وحبه للسلام ، وقد حارب الكوادى والمركومانى حرباً مظفرة لا لين فيها ولا هوادة .

وكان ديمقراطى النزعة يمقت الارستقراطية الرومانية القديمة ، ولا يرى قيمة لغير الامتياز الشخصى ، ولم يجد فى أشراف الرومان من يؤيد أفكاره فى الحكومة الصالحة ، ولذا آثر أن يستعين برجال لم يرشحهم للحكم سوى كفايتهم واستقامة أخلاقهم . وقد أخذت الحكومة الرومانية فى القرن الثانى لأول مرة فى التاريخ بتلك النظرية السليمة التى تقول إن الحكومة عليها واجبات أبوية نحو الشعب . وكان أهم ما يشغل بال السياسيين مشكلة تعليم أولاد الفقراء والصعاليك والعبيد . وكان النظام الاقتصادى السيء لا يحمل علاج هذه المسألة من الشئون الهينة ؛ وقد عالج تراجان هذه المشكلة بوضع مبالغ من المال على الأشياء المرتهنة ، وعهد إلى وكلاء من قبله فى جمع ريع تلك الأموال ، فلما جاء مرقس أورليوس جعل هؤلاء الوكلاء من موظفى الدولة الملحوظين ، وكان يختارهم بعناية بالغة وتدقيق شديد . وناط بجماعة من الفقهاء المتمكنين مهمة تهذيب القوانين القديمة وتنقيحها وتعديلها وإشاعة الروح الإنسانية فيها ، وتلطيف قسوتها وشدتها ، وجعلها ملائمة لحالة قوم متحضرين .

وأخذ الإمبراطور على عاتقه حماية الضعفاء والعاجزين ، ولم يكن لهم قبل ذلك نصير ؛ فأصبح الطفل اليتيم أو المريض يظفر بالعناية ويحظى بالرعاية . وقام الإمبراطور بوضع خطط وأساليب تبث روح الرحمة والعطف والإنسانية فى مختلف أعمال الدولة وإداراتها ومصالحها .

وموجز القول أن هذا الرجل النبيل والحاكم القدير كان لا يرى الإنسان العادى آلة من الآلات أو وسيلة من الوسائل ، كما هو شأن بعض أدعياء السياسة وفريق الحكام الغلاظ الأكباد القساة القلوب ، وإنما كان يعتبر الإنسان كائناً أخلاقياً له حقوق كما أن عليه واجبات .

وقد حاول أن يبطل تلك المظاهر القظيعة التى كانت تجعل المسارح الرومانية مؤذية للمشاعر السليمة ، ولكنه لم يوفق فى ذلك ، فقد كانت هذه المشاهد الكريهة جزءاً من حياة الأمة الرومانية ، ولما سلح المصارعين وأرسلهم

الجسم الأثيرى – أى الروح – ويترك الجسد المادى بكل دنسه وموبقاته . فالموت عبارة عن طرح روحى دائم . أما النوم فطرح روحى مؤقت تكون الروح خلاله متصلة بالجسم بالحبل الأثيرى ، فتصول وتجول وتتمتع بالاتصال بأرواح الموتى السابقين والأحياء المعاصرين ؛ وهذا منطق معقول ينطبق على قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » صدق الله العظيم .

دكتور مصطفى الديرانى

الاقتباس والصور من كتاب Projection of the astral body—by Mouldoon and Carrington

إلى الحرب التي قام بها لدفع غارة القبائل الألمانية كانت تحدث ثورة جاطمة وأخذت الأوشاب والدهماء تقول: «نريد أن يسليا تسليتنا لبرغمنا على أن نكون فلاسفة». واضطر مرقس أوريليوس أن ينزل على حكم الرأي العام، وقد حاول تلطيف الشر الذي لم يستطع دفعه، فأمر بوضع فراش تحت الراقصين على الحبل وأن تكون الأسلحة التي تستعمل في المبارزات غير حادة ولا مسنونة، وكان يتحاشى جهده حضور تلك الحفلات.

واتخذ الإمبراطور من أساتذته وزراء وسياسيين ورفع مكانتهم، وكان لأستاذه جونياس راستيكاس منزلة سامية في نفسه، على أن هذا العطف الذي أسبغه الإمبراطور الفيلسوف على جماعة المفكرين وبينهم الصالح والطالح كان لابد أن يتمخض عن بعض العيوب، وقد استدعى مرقس أوريليوس الفلاسفة المشهورين من كل ناحية من نواحي الإمبراطورية المترامية الأرجاء، وكان من بين هؤلاء جماعة من الدجالين والمتطفلين العاجزين، وكان شعرهم الأشعث ولحاهم المرسلة وأظفارهم الطويلة تجعل منهم موضوعاً صالحاً للفكاهة والتندر، وكان الإمبراطور يغدق عليهم المال ويظلهم برعايته حتى صار يقال إنهم عبء على الدولة، واضطر الإمبراطور أن يبرر موقفه ويدافع عن سياسته.

ولم يحاول مرقس أوريليوس إخفاء عيوب أصدقائه، ولكن حكمته كانت تقيم حداً فاصلا بين النظرية الفلسفية في ذاتها، وضعف الذين يقولون بها، وكان يعلم أن الفلاسفة الذين يأخذون أنفسهم بما يقولون للناس قليلو العدد أو أنهم غير موجودين على الإطلاق، ولكنه كان أرجح عقلا، وأعمق حكمة، من أن ينتظر الكمال في الناس، وعيوب الفلاسفة لم تنقض إليه الفلسفة.

وكان من الطبيعي «أن يكبر» على ممثلي الروح الرومانية القديمة أن يروا مناصب الدولة الكبيرة نهباً مقسماً بين هؤلاء الناس الذين ليس لهم حسب ولا نسب، وقد قدموا من الشرق الذي ينظر الرومانيون إلى أهله نظرة تنطوي على الزراية والاحتقار؛ وهذا هو الموقف الذي شاء سوء الحظ لاستديس كاسياس أن يقفه من مرقس أوريليوس، وهو بطل مجاهد وسياسي على جانب من الاستنارة والثقافة، وكان يعطف على مرقس أوريليوس، ويضمر له الحب، ولكنه كان مقتنعاً الاقتناع كله بأن فن الحكم يستلزم شيئاً آخر غير الموهبة الفلسفية، ونبز الامبراطور بأنه «امرأة عجوز تتفلسف»، وآل به الأمر إلى إعلان الثورة والخروج على الإمبراطور؛ وكانت التهمة التي قذف بها الإمبراطور هي إسناد مناصب الدولة إلى قوم ليس لهم ضمان من المال أو سابقة من الفضل وبعضهم لم يحصل علما ولم يتلق درساً.

وكان الإمبراطور ينظر إلى أصدقائه الفلاسفة نظرة احترام وتقدير، ويعدهم إخوانه في الحكم وسياسة الدولة، وكان هذا المظهر الغريب ملائماً لأخلاق الإمبراطور ومتمشياً مع طبيعة الإمبراطورية، وتصور الرومان للدولة، وكان تصورهم لها تصوراً عقلياً خالصاً، وقد كان القانون هو المعبر عن العقل، فمن الطبيعي إذاً أن يجيء اليوم الذي تلقى فيه مقاليد الأمور إلى أيدي أصحاب العقول، وقد كانت الفلسفة حينذاك تقوم مقام الدين، وكان لها دعاتها الذين يبشرون بها ويعملون على إذاعتها وتغليبها، وكان من العادات المتبعة أن يدعو الناس قبل أن يموتوا أحد الحكماء ليهون عليهم احتمال الموت ويشجعهم في الساعة الأخيرة من حياتهم، وكان أول واجبات الفيلسوف هو أن ينير بصيرة الناس وأن يسندهم ويأخذ بيدهم ويهديهم سواء السبيل، وحينما كان يصيبهم حزن شديد كانوا يدعون الفيلسوف ليرفه عنهم ويعزيهم ويواسيهم، وكان الحكيم هو الصديق الحميم للأمير يستشيره في دخائله ويفضي إليه بأسراره ويتقبل نصيحته ومشورته.

وقد مهد ذلك لحدوث ما قال عنه رينان « إنه يشبه المعجزة » وهو ما يمكن أن يسمى « بحكم الفلاسفة » ، وهذا الحكم عنى بتوفير أسباب التقدم الاجتماعى والأخلاق وهذب القوانين وصقل العادات والآداب ، وأقام الدولة على قواعد الحكمة والعقل والبر والصلاح ، ولكن من ناحية أخرى اعترى الضعف القوة الحربية وهبط مستوى الأدب ، فقد كان الفلاسفة قوماً غير الأدباء ، وكان الفلاسفة ينظرون فى شىء من التعالى والاشفاق إلى خيلاء الأدباء والكتاب وصلفهم وإسرافهم على أنفسهم وفرط حبهم للشهرة والمديح ، وكان الأدباء فى دورهم يسخرون من أسلوب الفلاسفة الحوشىّ الناقر المتعاظل وتجافيهم عن رقة الآداب وحسن السلوك ولحاهم القزرة وملابسهم الخشنة الثقيلة ، وتردد مرقس أورليوس حيناً من الزمن بين الفلاسفة والأدباء ثم قطع الرأى واختار جانب الفلاسفة ، وأمدهم بتأييده وناصرهم ما وسعه الجهد ، وأهمل فى سبيل ذلك اللغة اللاتينية ، وآثر اليونانية ، وخصها بعنايته لأنها لغة الفلسفة ولغة المؤلفين والمفكرين الذين كان يحبهم ويولع بقراءتهم ، وكان لذلك أثره البعيد فى تقهقر الأدب اللاتينى وعودة الازدهار إلى الفكر اليونانى ، ولم يتقدم الفن كذلك فى عهده لأن اتجاه العصر لم يكن يحفل بالجمال والفن ، وإنما كان فى طليعة ما يشغل الساسة والمفكرين النهوض بالضعفاء وتيسير أسباب الحياة لهم ، وترقيق قلوب الأقوياء ، وكبح شرهم ، وتقليم أظفارهم .

وكانت الفلسفة الشائعة فلسفة أخلاقية خالصة تقمصها الروح الدينية ، وقد سمت بالقلب ولكنها لم ترتفع بالعقل : فكثرت الخرافات ، وذاع الاعتقاد بالسحر والرؤى والأحلام ، وتفشت الأوهام والخزعبلات ، وتبع ذلك ضروب شتى من الجهالات والحماقات ، وكثر الدجالون والمخرفون وأدعياء السحر والشعوذة ، ولم يقترن التقدم الاجتماعى بالتقدم الفكرى ، ولم يكن للامبراطور الفيلسوف حيلة فى ذلك ، فالعمل الذى كان يستطيع القيام به قد قام به خير قيام ، وكان الهدف الذى يرمى إليه هو الإصلاح الاجتماعى ، ولكنه كان يستلزم زمناً طويلا وجهداً متوالياً .

على أن هذا الإمبراطور الفيلسوف الصالح قد وقع فى خطأ خطير عرضه للكثير من اللوم ، وذلك الخطأ هو إحجامه عن حرمان نجله كومودس من وراثة العرش ، وقد وجه إلى سياسة مرقس أورليوس الكثير من النقد من جراء ذلك ، وقيل عنه إن حبه لابنه تغلب على فكره ، وأضل رأيه ، وجعله لا يبصر مصلحة الدولة والملايين من أفراد الشعب . وقد التمس له رينان شيئاً من العذر ، فكتب فى هذا الصدد يقول : « هذه المسألة من الأشياء التى يسهل أن نراها من بعيد حيث لا تكون العقبات بارزة حاضرة ، ويفكر الإنسان فى الأمر بمعزل من الحقائق وخارج نطاق الوقائع ، ويُنسى قبل كل شىء أن الأباطرة الذين ساروا على سنة التبنى منذ عهد نرفا لم يكن لهم أولاد ، وقد كان التبنى مع حرمان الابن أو الحفيد متبعاً فى القرن الأول للامبراطورية ، ولكنه لم يسفر عن نتائج محمودة ، وكان مرقس أورليوس على ما يظهر يفضل الوراثة المباشرة لأنه كان يرى أن ذلك يحول دون المنافسة ، فلما ولد كومودس فى سنة ١٦١ أظهره لقبائل الجيش بالرغم من أنه كان له ابن آخر ولد معه ، وفى سنة ١٦٦ طلب لوشياس فيراس أن يصبح ابنا مرقس أورليوس — كومودس وإنياس فيراس — وريثين للعرش ، وكان أساتذة كومودس قد لحظوا فيه الأدلة والعلامات والظواهر التى تنم على الطبيعة الشريرة والخلق الفاسد ، ولكن كيف يصدرون أحكاماً سابقة على غلام فى الثانية عشرة من عمره ؟ على أن كومودس كان يحاول كبح جماح نفسه ، ولما ظهرت بوادر سوء خلقه فى النهاية واستبان الإمبراطور أن الذى سيخلفه على العرش كان عُولَة سيسير على خلاف منهجه ، وينحرف عن الطريق السوى ، خطر له بغير شك خاطر حرمانه من

على هامش المعارض :

تعليم الفنون الطرزية بمصر

هيأت لى رئاسة إحدى لجان الامتحانات فى نهاية العام الدراسى الماضى فرصة ثمينة درست أثناءها مناهج مدارس الفنون الطرزية ، ورأيت أعمال طالباتها ومشغولاتهن فوجدتها أنفع ما تكون للفتاة المصرية بعد إتمامها الدراسة الابتدائية ، لأنها تمدها لاكتساب مهارة فنية ذات بال فى تفصيل وخياطة الفساتين والمعاطف والملابس الخارجية والداخلية وصنع البياضات والمفارش المختلفة الأنواع وما يتبعها من أشغال الأجور والدنتلا ، ثم الحصول على خبرة كافية لمعرفة أنواع القماش تبعاً لنسج خيوطه وطرق عمل الأرانيك (النماذج) واستعمال آلات الخياطة لا فى الخياطة وحسب ، ولكن فى توابع الخياطة ، مما تعرفه سيداتنا الماهرات فى هذه الفنون البديعة .

وهذه المدارس تمد فتياتنا أيضاً للتمكن من فن التطريز ودراسة كل أنواع الغرز المتعددة وتطبيقها على أنواع عديدة من الأقمشة وفى صنع المناديل والجوارب والقفازات بأنواعها ، وكذلك ملابس الأطفال بأنواعها .

وتشتمل الدراسة أيضاً على دروس وافية فى التنظيف والغسل والكى ، وما يتبع ذلك من ترقيع ورفو ؛ وهذه كلها دراسة عملية أساسية وعماد متين من أعمدة التدبير المنزلى ، فكل فتاة فى احتياج لمعرفة طرق إزالة جميع البقع بأنواعها الناشئة من الحبر والشاى والفاكهة والدواء والشمع والشحم والصدأ والدم وغيرها ، وهى أيضاً فى احتياج مستمر للتمكن من المهارة فى طى الملابس وجندرتها وغسل مختلف أنواع الأقمشة الحريرية الطبيعية أو الصناعية ثم الصوفية والقطنية والتيلية والقطيفة السوداء منها والبيضاء والملونة ، وكذلك الدنتلة والشاش ثم تشبيتها ومعالجة الشيلان والملاحف والفراء وما إليها . ولم ينس المنهج التنظيف الجاف والمحافظة على قوة الأصباغ بأنواعها وطرق صبغ الملابس حتى ولا طرق تخزين الملابس الصيفية والشتوية مع مقاومة العتة والعفن ، مع مراعاة الاقتصاد التام فى نفقات العمل والاستفادة من جميع بقايا الأقمشة والقصاصات وكل الحاجيات المنزلية وتحويلها إلى أشياء

وراثة العرش ، ولكن ذلك جاء متأخراً ، وفضلا عن ذلك فإن كومودس كان فى السابعة عشرة من عمره ، فمن يستطيع أن يجزم بأن أخلاقه لن تتحسن وتتهذب ؟ ولقد استمر هذا الأمل حتى بعد موت مرقس أورليوس ، وقد أظهر كومودس فى بادىء الأمر أنه سيتبع نصائح الرجال الذين اختارهم والده ليكونوا إلى جانبه . هذا هو رأى رينان فى هذه المسألة ، وهو كل ما يستطاع أن يقال فى الدفاع عن هذا الإمبراطور الفيلسوف الذى شاء سوء الحظ أن يكون نجله وخليفته على نقيضه فى كل شىء . كان الإمبراطور مرقس أورليوس مثلا أعلى فى الحكمة والفضيلة ، وكانت حكمته أكبر من عصره ، ولذا عجز عن إنقاذ الإمبراطورية ؛ وإذا عيى الطبيب النطاسى من علاج المريض فليتقدم إذاً الأدعياء والدجالون لمباشرة العلاج ، وإذا أخفقت الحكمة والفلسفة فى إصلاح العالم فليتول ذلك الجهل والحماقة والخفة والنزق . وحيث لم يوفق الفيلسوف القديس والحكيم الصالح مرقس أورليوس فليحمل عنه العبء ، نجله كومودس الفاسد الشرير السادر فى الغواية المنغمس فى البهيمية . وهكذا شاءت الأيام أن تقرن فى الطابقة فيجىء كومودس شر الناس بعد مرقس أورليوس خير الناس وأعقلهم وأرجحهم وزناً وأسماهم حكمة .

على أدهم

ناعمة من السكايات التى تتطلبها أصول الخياطة وتزويق الملابس وزخرفة الحجرات والمنازل .

ويحوى المنهج فوق ذلك مقررا فى طرق التجارة ومسك الدفاتر لتحصل الفتيات بذلك على العلم اللازم لإدارة محلات الخياطة والتطريز على أسس تجارية صحيحة ، مما يشجع الكثيرات منهن على طرق أبواب العمل الحر ؛ فهن يتعلمن كيفية تحرير الراسلات وتوجيهها لمختلف الطبقات مع أخذ صور الراسلات بالكربون وبطريقة دفتر الكوبيا وطرق حفظها وتحرير الرسائل البرقية ودفتر اليومية ودفتر الأستاذ والترحيل من اليومية إلى الأستاذ وترصيد الحسابات وعمل الفواتير وكشوف الحساب وعمل ميزان المراجعة والجرد وحسابات المتاجرة والأرباح والخسائر ورأس المال والميزانيـة ودفاتر الشيكات وحسابات البنوك والسندات والكمبيالات وطرق الإعلان فى الجرائد والمجلات وإعداد المطبوعات .

وأحاط المنهج بدراسة كافية للغة العربية والفرنسية والدين الحنيف ، ولم يهمل التربية البدنية تقوية للأجسام .

رأيت كل هذا الإنتاج وتعمقت فى درس كل تلك المواد فدعانى ذلك إلى فسحة الأمل بما ستؤدى إليه تلك المدارس بالتدريج من الدفع بفتيات بعض الطبقات المصرية إلى غزو هذا الميدان الفسيح من العمل الحر الذى كان مقصوراً على فئة معينة معظمهن أجنبيات أثرين وتمكن فمكن . إنها ستكون منافسة شريفة تفتح باب الرزق الحلال أمامهن . وواجب على الكتاب أن ينشروا الدعوة لهذه المدارس فى المجالس والجرائد والمجلات لتشجيع الأسر المصرية على إلحاق بناتهن بها ؛ فالفتاة فى منزلها متزوجة كانت أو غير متزوجة لا تجد أفضل من صرف مجهودها ووقتهـا فى هذا المضمار الذى إن لم يصبح هواية لها فهو عماد أساسى للتدبير المنزلى ، فضلا عن أنه مورد رزق كثير الإدرار لمن تشاء أن تضرب فى هـذا النوع من الجهاد المثمر الراقى الشريف .

وقد لفت نظرى بنوع خاص أثناء سير ذلك الامتحان إحدى تلك المدارس ، فقد كانت أشغال طالباتها بالإجماع من الطراز الأول ، ولما أعلنت نتيجة الامتحان كانت تلك المدرسة هى الأولى ، وقد نجحت جميع طالباتها ، وقد كانت من بينهن أوليات القطر فى الترتيب ، واستحقت ناظرتها الترقية ، وفعلا أسندت إليها فوراً إدارة المدرسة العليا للفنون الطرزية بدرب الجماميز . ثم مر العام الدراسى الحالى وأقامت هذه المدرسة العليا فى آخره معرضاً عاماً لمشغولات طالباتها . وقد أسعدنى الحظ بزيارة ذلك المعرض ، فرأيت الإبداع والإتقان وليس بعدهما من مزيد . وها أنا ألخصه فيما يلى : —

كان المعرض أقساماً حوى أحدها وهو قسم التفصيل والخياطة مجموعة نادرة من الفساتين الليليـة (سواريه) والبلاطى والأردية ذات القطعتين (تاييرات) وبعض المفارش القيمة . وأهم ظاهرة فى هذا القسم هى الذوق الفنى الذى تتحلى به طرز القص والخياطة ، وكلها تدل على مزاج راق متزن رصين ، لا هو بالمتبذل المستهجن ولا هو بالجاف الجامد ، فقد جمع بين حسن المظهر وجمال الشكل وبديع الهيئة .

وقد حوى القسم الثانى وهو قسم التطريز مجموعة بديعة من الأردية (روب) وقمصان النوم وقمصان النهار المصنوعة من الحرير والبريتون ثم المفارش النادرة .

ومما لفت نظرى فى هذا القسم انسجام الحليات ووحدات الرسم والزخرفة لطراز كل قطعة ، فكل وحدة تلائم القطعة التى تتحلى بها ، بل تلائم جزء القطعة على انفراد ، وبالجملة لم أجد نابية أو نافلة أو نشازاً ، بل تماسكا زخرفياً وانسجاماً فنيا .

ويجوز لى أن أشير هنا إلى دقيق الزخارف فى التطريز معجباً بها أشد الإعجاب ، ومشيداً بالشعور بالفخر الذى غمرنى وأنا أجول بين القطع المعروضة وهى تنادى فى صمت

بعد عام :

أحمد محرم

فى مثل هذا اليوم ، فى ١٣ يونيه من العام الماضى ، مات الرجل الذى كافح فى الحياة ومن أجل الحياة كفاح الأبطال ، ولم يفقد حتى اللحظة الأخيرة إيمانه بالخير فى هذا الكفاح .

فى مثل هذا اليوم مات الشاعر الذى استقبله الجحود على عتبة الدنيا ، وسايره خلال أشواطها الطويلة القاسية ، حتى شيعه إلى مثواه الأخير .

كان شاعراً يعرف هدفه ، فاطمأن فى دمنهور القلقة الصاخبة وادع النفس ، مستريح الضمير ، يعمل له فى صبر وإيمان ، دون أن يبالى عنات الحياة ، أو يضج من جحود الأحياء . بل كان فى هذا وهذه ما يحفزه إلى المزيد من الكفاح الشعرى الوثاب فى سبيل هدفه الأسمى ، فعاش عظيما ومات عظيما .

وبعد عام نذكره — رحمه الله وأحسن إليه — أبوة صبورا ، منبسط الأفق كالبحر ، يرسل أمواجه فى قوة لا حد لها . خلف لمصر والشرق ثروة ضخمة فى الأدب والشعر .

وحسبنا . فى هـذه المناسبة أن نوجز ما استطعنا فى الحديث من هذه الثروة .

قيثارة الشاعر :

عدَّ أستاذنا أنطون الجميل باشا فى قيثارة « شوقى » فى كتابه عنه خمسة أوتار . هى : وتر الدين ، ووتر الوطن ، ووتر الحكمة ، والوتر المصور ، والوتر الخاص . وفى قيثارة الشعر وتر سادس ضرب عليه الكثيرون من الشعراء ، وهو وتر المجون والهجاء ، وهذا الوتر قطعه شوقى من قيثارته .

وهذه الأوتار هى بعينها التى نجدها فى قيثارة محرم ، وقد قطع الوتر السادس من قيثارته قطعا ، فكان مثل شوقى — على حد تعبير الجميل باشا — عف الإلهام كما كان عف اللسان .

وتر الدين :

نقر محرم على وتر الدين نقراً لا يستغرب من شاعر ولد فى مهد من مهود التقوى ، وحفظ القرآن صغيرا ، ودرس بعد ذلك ما درس على علماء الأزهر ، فلما شب ، جعلت هـذه البذور تنمو فى تربة صالحة ، وتقوده طائعاً مختاراً — إلى قبلتها .

إليك عهده — وهو عهد المؤمن :

أقول لصاحبىَّ وعاهدانى ... كتاب الله بينكما وبينى
فكونا صادقين ولا تخونا ... فإن لنا لإحدى الحسنيين

بذوق فتياتنا المصريات وبراعتهن التى لا أبالغ إن قلت إنها تضارع أعمال بيوت الحياطة الشهيرة إن لم يعلُ مستواها عن مستوى الكثير منها .

وقد عمدت المدرسة إلى العناية ببعض الفنون الأخرى . فها هى فنون منزلية هامة تعرض فى غير زحمة كالمربات المختلفة وزجاجات الشراب والروائح العطرية والمساحيق ، ولم تهمل المدرسة الفنون الغذائية كعمل الفطائر والحلوى المختلفة .

ثم انتقلنا لصالة المسرح ورأينا فنونه المختلفة من موسيقى وأناشيد وتمثيل ورقص وغناء ، فكان الطرب الجذل الذى سما بنفوسنا إلى السماء . وقد أجادت الطالبات أدوارهن خير إجادة ، وظلت نغماتهن وحركاتهن وأصواتهن وتمثيلهن فى ذهنى وقتاً طويلا . فرحى سيدتى المربية الفاضلة ومرحى بناتنا وأخواتنا ، درستن فأخلصتن ففزتن ، وسمت مصر بكن ، وستسمو أكثر بما ستنتجن من جيل فتى فريد .

محمد يوسف همام

ولست ببائع نفسي وديني ولو أوتيت ملك الشرقين
على التاريخ بعد الموت حق وعند الله يوم الدين ديني

ويحيي عاما هجريا :

هلال العام أنت لمصر دنيا نعظمها وأنت لمصر دين
نحب «محمداً» ونصون فيه «المسيح» مايحب ومايصون
ونكرم قومه ونكون منهم بحيث يكون ذو الرحم الضنين

ويرحب بـ « دين الحياة » في حرم الله :

مرحبا بالإخاء في حرم الله وأهلا بقومنا الصالحينا
حيّ آل المسيح وابعث وافد الحق من آل أحمد أجمعينا

ويعد أن يدين الجميع بهذا الدين :

يا أمة الانجيل آمنا به ما «بالنبي» ولا «يسوع» جحود
الدين في أمر ونهي واحد والله جل جلاله المعبود
دنيا الممالك لا تحد ودينها وقف على دنيانا محدود

وتر الوطن :

وضرب الشاعر على وتر الوطن ، فكان قائداً يقول :

مصر الحياة وحبها الشرف الذي بطرازه العالي أدل وأعجب
نفسي وماملكت يداي لأمتي وسراة آبائي ومن أنا منجب

ويهيب بالقادرين :

أغيثوا مصر واستبقوا بنيها فقد ضاقت وجوه العيش فيها
رأيت الهول يبعث ارتجالا فتنصدع القلوب له بديها

والحال هي :

رعينا الجدب في تلعات مصر وخلينا الرياض لمرتعيها
لقد أعيت مواردها علينا وما أعيت على من يحتويها

فليكن :

زعمتم أننا شعب سفيه صدقتم اعلموا الشعب السفيها
حماة النيل إن النيل عان يريد العدل والحكم النزيها

ويذكر وقت ذاك حرية الشعوب فيصيح :

مدوا السواعد وارفعوا الأبصارا لم لا نعيش أعزة أحرارا ؟
من ذا أتاح لنا الجمود ومن قضى أنا نظل مكبلين أسارى
إن الذي خلق النفوس حرائرا فك الشعوب وحرر الأقطارا

وتر الحكمة :

ووتر الحكمة هو وتر الاجتماعيات أيضاً ، ضرب عليه الشاعر كثيراً ، فمن نغماته في تدبير الملك :

الملك إصلاح وعدل شامل يحمي الضعيف ويقمع المتكبرا

والحذر من الفوضى فإنه :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ويقول :

دعاة الشر يتفقون فيه ولا يرجون في الخير اتفاقا

والغاية هي الدين :

وما الناس لولا الدين إلا طوائف
مضللة من جاهل الحيوان

الوتر المصور :

قال يصور ما أبقت الأيام من قصر كليوباترا :

تدير عيونتا شرقا وغربا وتأخذنا يمينا أو شمالا
فتصعد تارة وتكون أخرى كمثل الجن منزلة وحالا
تفيئنا المغاور وهي شتى تحاذر في مساربها الضلالا

وفي الحاكي :

ما عهدنا الحديد قبلك يحكي ساجع الطير ساجعاً غريدا
يأخذ النطق الفصيح أمينا ويؤديه عبقريا مجيدا
نغمات ترينها نبرات صادقات ، أوتين حسنا فريدا

الوتر الخاص :

يصدر الغزل والمدح والرثاء عن هذا الوتر ، وقد مدح الشاعر ثم تاب من المدح ، وقال في الغزل وفي الرثاء طويلا .

والغزل يشغل من حياة الشاعر ثلاث فترات لكل فترة طابعها . أما الرثاء فيشغل جل حياته .

وإلى القراء هذه الشواهد من فترات الغزل :

كان في الفترة الأولى يتحسر ويقول :

كنا قسيمي صبوة وهوى   فسلوا وظلت متيماً وحدي
هجموا وبت مسهّداً ولكم   ليل أعاوف على السهد
ما حيلتي إن خانني جلدي   إلا البكاءُ ، وقلما يجدي !

وفي الفترة الثانية يضج مع الهوى :

يا طير حسبك ما حملت من الأسى
وكفى ذوى الأشجان ما حملوه
هوّن عليك فما تزيد من البكا
بعد الأليف وما الذى ترجوه
لما دعوت على الأراك سحرة
ضج الهوى ، ودياره ، وذووه !

وفي الثالثة تنقلب حياة الشاعر رأساً على عقب :

أنت حولت حياتي   كلها يمناً وسعداً
ما لمست الشوك حتى   صار ريحاناً ووردا

ويتساءل في غبطة لا حد لها :

أنت يا من كنت في وادي الغيوب
عكان السر من وادي القلوب
أو كثوى الشمس في جوف الغروب
أو كنفس في غيابات الخطوب
أنت — من أنت ؟ ويا لي من أنا !

ويتطلع إلى الفردوس :

ليس في الأرض لنا من وطن   فدعيها واصعدي ، لا تحزني
دارنا الفردوس فيها نجتني   أرج الورد وعطر السوسن
ثم نحيا كيف شئنا — لا نبالي

ولكنه يستدرك فيصيح :

ويح نفسي هل إليها من سبيل
آه ، لو يمكن بعض المستحيل
إن مثلي ليس يرضى بالقليل
ضاقت الدنيا على الحسر النبيل
آه يا دنيا — أما للهزل حد ؟

* * *

وضرب الشاعر على الوتر الخاص رثاياجل حياته ، فلم يترك صديقاً إلا شيعه ، ولا خليلاً إلا بكاه . قال في والدته :

لحمنا بها كالشمس سال شعاعها
يفيض الهوى والخير ، أوهى أفضل
لئن ضمها بيت من الترب موصد
لقد ضمنا ليل من الحزن أليل

وفي شقيقه الأكبر :

بكيتك حتى عافت الدمع نفسه
وحتى ارعوى من خشية الله ساكبه
أجلك عن رقراق دمع إذا جرى
ترقرق فيه الحزن واستق ذاهبه

وفي والده :

بني وإخوتي وأبي وأمي   أيسمع في قبوركم النداء
نزلتم منزل القوم الأسارى   فلا من يصاب ولا فداء
حللت قبوركم فمبيت حتى   اطوى قبل موعده العناء

وفي البارودي :

أحيا البلاغة بعد ما لعب البلى
برفاتها ، وقضى على البلغاء
هى دولة الآداب مات أميرها
وتحاسن الدولات بالأمراء

وفي الشيخ إبراهيم اليازجي :

ذهب اليازجي بالنظم والنثـر وحسن البيان والإعراب
لم تمت واحداً فنأسى لنا   ك أسانا لذاهب الأصحاب
إنما أنت أمة غالها الموت ومثلك طوته أيدي التباب

وفى حسن حسنى باشا الطورانى :

كم زأرة لك حول الملك هجت بها
روع العداة ، فلم تأمن ولم يخف
حفظت عهد بنى عثمان فى زمن
ضاع الحفاظ به ، إلا من الصحف

وفى الشيخ نجيب الحداد :

أنوم نجيب لو ترد منية   لظل وما يلقى إليه سبيل
وليس رثاه ما أخط بمهرق   ولكنه دمع اليراع يسيل

وفى بشارة تقلا :

لله رزؤك يا بشـــارة إنه   رزء يهد الراسيات جليل
قد كنت عدة أمة محروبة   ما ينقضى منها عليك عويل
وكأن بالنيل الأسود فلا تخف   بعد ارتحالك أن يباح الغيل

وفى إسماعيل صبرى باشا :

أمنزل إسماعيل جوك طيب   وواديك مأمون وجارك مجمل
زيلك عصر للأعاريب كارز   وضيفك جيل للنوابغ أمثل

وفى فرح أنطون :

أيها الثاوى بأوطان البلى   عمرك الدهر ومثواك الشبر
أنت فى الباقين ذكر كلما   خلد الدهر وأهلوه ، استمر

وفى محمد بك أبو شادى :

أشادى سكت وكنت صوتا   شديد القصف يخترق السحابا
نمت عن الحوادث وهى يقظى   تنازعنا المضاجع والثيابا

وفى يعقوب صروف :

كبرت لخطب لما قال ناديه
طوى الردى علما من آل صروف
الموردى العلم من أقلامهم أمما
عافت من الجهل ورداً غير مألوف

وفى أمين بك الرافعى :

بوركت من مؤمن ما كان أطهره
على تصاريف دنيا ذات أرجاس
مستيقن النفس ، ما يغشى سريرته
ما فى السرائر من ظن ووسواس

وفى عبد اللطيف بك الصوفانى :

سكنت جراحك وانتهيت إلى مدى
يقى الهموم ويطـــرد الأوجالا
تجرى الخطوب فإن بلغنك ركضا
جنح الزمان يهون عنـــك فالا

وفى الشيخ عبد العزيز جاويش :

نزع الموت من سجية نفس
صيغ منهـا ، وركب الخلد طبعا
جاوز النيـــل أمة وربوعا
ينفض الشرقين ربعـــا فربعا

وفى السيد أحمد السنوسى الكبير :

من حق « أحمد » أن يكون رثاؤه
زجل التكبر عنـد كل أذان
لو زيد ركن فى الصلاة على يدى
لجعلتـــه من أوثق الأركان

وقال فى مصطفى كامل :

من يصرع الخصم العنيد مدججا
من بأســـه بأسنة ونصال ؟
من يأخـذ الجبار أخذ مدرب
ساس الأمور ، وجال كل مجال

وفى الشيخ محمد عبده :

كر والقـــوم يمعنون فرارا
خيفة الموت فى ظـلال القراع
فرمى الدارعين منـــه بعزم
ظل يفرى ســوابغ الأدراع

له بقية   ابراهيم عبد اللطيف نعيم

من فجر الاسلام إلى ظهره

لما أجمعت النية على أن أكتب كلمة من كتاب (ظهر الإسلام) الذي أخرجه أخيراً الأستاذ الكبير أحمد أمين بك — وذلك بعد أن قرأته — رأيت أن الكتابة فى ذلك لا تكون مستوفاة إلا إذا وطأت لها بذرو من القول فيما صدر قبل اليوم من أجزاء هـذا الكتاب من فجر الإسلام وضحاه ، ليكون القارىء على بينة من هذه الموسوعة العلمية .

أما (فجر الاسلام) فقد كان كما جاء فى عنوانه : كتاب فى ثلاثة أجزاء ، يبحث عن الحالة العقلية والسياسية والأدبية فى صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية ، اشترك فى تأليفه : طه حسين ، وأحمد أمين وعبد الحميد العبادى .

وكان الباعث على إصداره ما ذكره هؤلاء الأساتذة من أنهم قد أرادوا أن يدرسوا هـذا الأدب على منهج مستقيم من البحث والاستقصاء كما تدرس كل العلوم ، ولأن الأدب العربى متصل بما حوله ولا تكمل دراسته إلا إذا درست حياة الأمة العربية الخاصة والعامة ، والداخلية كانت أو خارجية ؛ فقد قسموا بحثهم فى دراسة هذه الحياة إلى ثلاثة أقسام : الأول (الحياة العقلية) ويتولاه الأستاذ الكبير أحمد أمين بك ، والثانى (الحياة السياسية) ويقوم به الأستاذ عبد الحميد العبادى والثالث (الحيـاة الأدبية) ويعالجه الدكتور طه حسين بك .

ولقد أحسن الأستاذ أحمد أمين بك فى أنه لم يرض بالقعود عن هـذا العمل الجليل ، بل مضى فى طريقه يمشى فيه وئيداً إلى أن يبلغ مداه — إن شاء الله — فأخرج بعد فجر الإسلام (ضحى الاسلام) وقد درس فيه الحياة العقلية فى المائة سنة الأولى للعصر العباسى (١٣٢ — ٢٣٢) أى إلى خلافة الواثق بالله ، وهو عصر كما يقول حضرة المؤلف « له لون علمى خاص كما أن له لوناً فى السياسة والأدب خاصاً امتاز بغلبة العنصر الفارسى وبحرية الفكر إلى حدما ، وبدولة المعتزلة وسلطانهم وبفنون الأدب من شعر ونثر لوناً احتذى على كر العصور ، كما امتاز بتحويل ما بالعسان العربى إلى قيد فى الدفاتر وتسجيل فى الكتب وما باللسان الأجنبى إلى لغة العرب » .

وقد صدر من (ضحى الاسلام) هذا ثلاثة أجزاء : الأول والثانى منها فى ثلاثة أبواب : أولها فى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ، والثانى فى (الثقافات المختلفة دينية وغير دينية) والثالث فى (الحركات العلمية ومعاهد العلم وحرية الفكر فى تلك الحركات) .

أما الجزء الثالث فإنه يبحث فى العقائد والفرق الاسلامية من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج ، وعرض من كل فرقة لنواحيها الدينية والسياسية والأدبية ، ووقف منهـا موقف القاضى العادل يحكم بالحق بينها بعد أن ينضج الرأى والبحث فى آرائها .

هذه إعادة خاطفة إلى (فجر الاسلام وضحاه) نمهد بها لكى نربط القارىء بين ما صدر من هذا الكتاب من قبل وما صدر منه اليوم ، وما سيصدر منه إلى أن يتم فى (عصر الاسلام) إن شاء الله .

و (ظهر الاسلام) الذى نتحدث عنه اليوم فى كلمتنا هذه قد قال فيه مؤلفنا الجليل « وقد قصدت أن يكون — مقدمة — لدراسة واسعة للحركة العقلية فى النصف الأخير من القرن الثالث وفى القرن الرابع ، وهى أوسع حركة وأخصبها وأعمقها فى تاريخ المسلمين إلى اليوم ، وقد حزرت أن يستغرق وضعها خمسة أجزاء أحدها للأندلس » وهذا الجزء الذى قد جعله مقدمة قد وقع فى كتابين :

الأول فى الحياة الاجتماعية فى عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجرى ، وقد عنى المؤلف بوصف هذه الحياة لأنه لا « يمكن فهم الحياة العقلية إلا بفهم بيئتهـا التى نشأت فيها والعوامل التى ساعدت عليها وطبيعة الناس

الذين أنتجوها » وما إلى ذلك .

والثانى فى مراكز الحياة العقلية فى ذلك العصر .

وقد فتح فى الكتاب الأول بابين — عقد أحدهما على سكان المملكة الاسلامية ، فتحدث عن عنصر الترك الذى ظهر فى هذا العصر ليحفظ الدولة بعد أن كان الفرس نحو قرن هم عمادها ، وعرض إلى ما قام من نزاع العصبية بسبب التسابق إلى الغلبة بين الفرس والترك ، وقد كان عنصر الترك مصدر قلق واضطراب وبخاصة بعد أن قتلوا المتوكل واستولوا على كل شىء فى الدولة .

وبعد أن أتى على سائر العناصر التى كان لها أثر فى الحياة الاجتماعية فى هذا العصر كالروم والزنج قال :

« هذه العناصر الجنسية من أتراك وفرس وعرب وروم وزنج وغيرهم وما تستلزم من عصبيات ، وهذه العصبيات المذهبية والطائفية من تسنن وتشيع ، ومن حنابلة وشافعية وحنفية ومن مسلمين ويهود ونصارى وغير ذلك — كانت كلها حركات تموج بها المملكة الاسلامية ، تتعاون حينا وتتفاعل حيناً ، وتؤثر فى السياسة وفى الدين وفى العلم ، وتنشأ عنها المؤامرات السرية أحيانا والقتال الصريح أحيانا ، وكان لها كلها أثر واضح فى كل ناحية من النواحى الاجتماعية .

« قد أثرت فى الحالة المالية إما مباشرة وإما من طريق الحكم والسياسة ، فعمرت فى ناحية وخربت فى أخرى ، وعدلت فى ناحية وظلمت فى أخرى » .

أما الباب الثانى فالذى يدخله يجد فيه بيان « أهم المظاهر الاجتماعية والسياسية فى ذلك العصر بعد انقسام الدولة » وقد أعطى هذا الأمر عناية فائقة من الدرس ، وبحث بحث خبير عما إذا كان هذا الانقسام فى مصلحة الأقطار الاسلامية أو فى غير مصلحتها ، وقد خرج من بحثه هذا الممتع إلى « أن كثيرا من الأقطار الاسلامية كانت بعد استقلالها عن الخلافة خيرا منها قبله » .

وكذلك رأى « أن العلم والأدب رقيا عما كانا عليه من قبل ، وأنه لم يؤثر فيهما كثيراً ضعف خلفاء بغداد » .

أما حال الشعب فقد « كان هناك طبقتان متميزتان كل التمييز ، فالخليفة ورجال الدولة وأهلوهم وأتباعهم طبقة الخاصة وهم عدد قليل .. وبقية الناس فقراء إلا من اتصل منهم بالخلفاء والأمراء » .

ولم يغفل الكلام عن الرقيق الذى كثر فى هذا العصر كثرة بالغة وامتلأت به القصور وكان له أثر كبير فى الحياة الاجتماعية . وأشبع القول كذلك فى شعراء هذا العصر ونزاجهم .

أما (الكتاب الثانى) فقد بناه على مراكز الحياة العقلية فى ذلك العصر ، وجعل له أربعة أبواب يفتح كل باب منها على قسم من أقسام المملكة الاسلامية .

(فالباب الأول) تدخل منه على مصر والشام فتجد الحركة العلمية فى عهود الدول التى توالتها فى هذا العصر « تنمو تبعاً لسنة النشوء والارتقاء » وأظهرها الحركة الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات ؛ ذلك بأنها « كانت هى الحركة العلمية الغالبة فى المملكة الاسلامية » وأعقب ذلك بالتعريف بأشهر علماء هذه العلوم ، ثم تشهد ما انتقل إلى مصر من خلافات متكلمى العراق ، وماظهر على يدى ذى النون المصرى من التصوف ، وتطلع كذلك على الحركة اللغوية والنحوية التى قامت بجانب الحركة الدينية ، وتقف على مبلغ مداها وقد كانت حركة قوية .

أما الحركة الأدبية فقد كانت ضئيلة وكان الشعر فيها هزيلا ، وقد قضى بحق أنه « منذ الفتح الإسلامى إلى العهد الطولونى والاخشيدى لم تخرج مصر شاعرا كبيراً يضاهى شعراء العراق أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى » . ثم تنظر إلى جانب هاتين الحركتين — الدينية والأدبية — فترى حركة العلوم الفلسفية التى تشمل الطب والنجوم والإلهيات وما إليها « وهى بقية من بقايا مدرسة الاسكندرية »

وبعد أن تفرغ من أمر مصر تجد وصفاً دقيقاً لبلاد الشام ثم تلتفت فتجد سلطان الدولة الفاطمية الذي انبسط على مصر والشام ونهضت في ظله حركة علمية نشيطة « قدمت العلم والأدب والفن خطوات » .

أما (الباب الثاني) فتسلك منه إلى العراق وجنوب فارس ، وهناك يبدو أمامك تلك المدن الكثيرة التي تميزت في هـذا العهد وقبله بقوة الحركات العلمية والأدبية ، مثل بغداد والبصرة والكوفة في العراق ، والري واصبهان في فارس . ومما يستبين لك أنه كان للعراق في عهد المتوكل إلى آخر الدولة البويهية الصدارة في العلم والأدب والفلسفة وبحسبك أن تقرأ ما جمعه الخطيب البغدادي من تراجم لعلماء بغداد نبغوا في جميع فروع العلم والأدب ، ولولا أن المتوكل قد نصر أهـل الحديث على المعتزلة واضطهدهم — وهم رجال الفكر — لكانت الحركة الفكرية قد اشتدت قوتها واستحصدت ؟ ذلك أن المتوكل كان قد قوض سـلطان المعتزلة ، وأعلى شـأن المحدثين ، وأوقع بالشيعة إيقاعاً بالغا حتى أمر بهدم قبر الحسين ، ومنع الناس من إتيانه . وكان ذلك من الأسباب التي دفعت الشيعة إلى تدبير المؤامرات والدسائس والفتن وإلى الخروج على الدولة العباسية في بغداد .

ثم تلج (الباب الثالث) فتجد بلاد خراسان وماوراء النهر التي ازدهرت في عهد السامانية ، وبعد أن تقف هنيهة بين مدنها العظيمة ، يقابلك فيها ما جمعت من علماء الحديث والفقه كالبخاري ومسـلم والقفال وابن فورك وغيرهم ، ثم تطلع على حركة التصوف والفلسفة ، ويستهويك ما تقف عليه من قوة الحركة الأدبية .

وتخرج من هذا الباب إلى (الباب الرابع) فتقابلك بلاد (السند وأفغانستان) التي تتولاها الدولة الغزنوية وهي دولة تركية ، فيعجبك ما تجد فيها من نوابغ العلم والفلسفة ، وتنتهي من هناك إلى (الباب الخامس) فتنفذ منه إلى بلاد المغرب ، ومن ثم ترى مؤلفنا الجليل يعهد بشيء من تاريخ ووصف بعض بلدانه العظيمة كالقيروان والمهدية وسجلماسة وفاس ، ثم يقول في الوصف العام لهذه البلاد : « وقد اشتهرت بلاد المغرب بالعناية بالحديث والفقه وتقصيرها في العلوم النظرية من الفلسفة وفروعها » ومن أجل ذلك ظهر فيها كثير من الفقهاء ، وخاصة من المالكيين . ولما تغلبت عليها الدولة الفاطمية نشرت فيها فقهها الشيعي ودعوتها الشيعية كما نشرتهما في مصر ، أما الأدب فكان شأنه في أول الأمر مثل ما كان في مصر من ضعف الشعر ، وجرى أمره على ذلك إلى أن أخذ يقوى في دولة الأغالبة ودولة الفاطميين ودولة الصنهاجيين الذين قال فيهم ابن خلدون : « كان ملكهم أضخم ملك عرف للبربر بإفريقيا وأترفه وأبذخه » .

وينتهي بك المطاف إلى (الباب السادس) فتطل منه على جزيرة العرب لترى وصفها في زمن الخلفاء الراشدين لما كانت موطن الخلافة ، وفي عهد الأمويين لما انتقلت الخلافة إلى دمشق ، وتشاهد تغلب العنصر الفارسي في زمن العباسيين ، وما فعل العنصر التركي بالعرب في عهد المعتصم من إسقاطهم من الدواوين ، وبذلك انحط شأنهم وألم فيهم ذلك ما ألم وبخاصـة على يدي اسماعيل بن يوسف والقرامطة الذين جاءوا بعده ؟ وفي هـذا العصر انتشر في اليمن فقه الزيدية ، وهم أتباع زيد بن علي بن زين العابدين .

أما الأندلس في هـذا العصر فسيفرد له المؤلف جزءاً خاصاً .

هذه لمحة يسيرة من الجزء الأول من « ظهر الإسلام » لم أستوعب فيها الإشارة إلى كل نواحيه لأن إيثار الاختصار قد فوت علي شيئاً كثيراً حتى في الإيجاز . ولعل هذه اللمحة الخاطفة تكفي لأن تهدي القارىء إلى هذا الكتاب القيم الذي ختمه مؤلفنا الجليل بهذه العبارة :

« وبعد — فهذا عرض سريع للحركة العلمية

والأدبية يتلوه إن شاء الله البحث التفصيلي في تاريخ كل علم ومدى تقدمه ومركز هذا التقدم ، وهذا هو موضوع الجزء الثاني من ظهر الاسلام ، أعاننا الله على إتمامه » إنه سميع مجيب .

كلمة خاصة :

لم أكد أتناول القلم لكتابة هذه الكلمة حتى انبعث في نفسي ذكريات عزيزة مما كان يجري بيني وبين كاتب العربية البليغ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ، فلم أملك أداء لحق الوفاء له إلا أن أشير إليها هنا ، وأرجو أن يكون في ذكرها تحية طيبة تصعد إلى روحه الطاهرة في جنانها . ذلك أني لما قرأت فجر الاسلام والجزء الأول من ضحاه كتبت كلمة في مجلة الرسالة الغراء [1] وصفت فيها هذين الكتابين ، وكان مما قلته حينئذ :

« لو أردت أن أصف أمري بعد أن فرغت من قراءته في عبارة صغيرة لقلت : إني على كثرة ما قرأت من كتب العلم والأدب لم أفد من كتاب مثل ما أفدت من هذا الكتاب ، فقد كشف عن الحياة العقلية الإسلامية في القرن الثاني الهجرة بما لم يكن معروفا مثله لأحد ، فظهرت أشياء لم تكن معروفة من قبل ووضحت أمور كانت غامضة أو مبهمة ، وصححت مسائل كان الناس يعلمون منها غير الذي حققه ببحوثه العميقة عالمنا الجليل .. وبعد أن قرأت كتابي فجر الإسلام وضحاه قد تغير رأيي في كثير من أمور ديننا الحنيف الخ » .

وبعد نشر هذا القول زرت الرافعي رضي الله عنه في طنطا لجري الحديث بيني وبينه فيما كتبت في الرسالة الغراء ، فكان مما قاله لي طيب الله ثراه : « ألا ترى أنك قد بالغت فيما وصفت ؟ » .

قال ذلك وهو يعلم أنه لا يكاد يفوتني كتاب . فأجبته بأني لم أعد الحقيقة ، ولو أنك رأيت ما رأيت لتبين لك أني لم أبالغ ! فتعجب رحمه الله ، ثم طلب الكتابين بعد ذلك وقرأهما .

هذا وإني قبل أن أضع قلمي أتوجه إلى الأستاذ الجليل أحمد أمين برجاء ، وأتمنى أن يقع منه موقع القبول : ذلك أن يدع كل عمل يجري به قلمه ويفرغ لهذه الموسوعة حتى يتمها ، لأن القيام بهذا العمل الجليل فرض عين عليه وما سواه فهو نافلة . ولعله — وهو يرى أن « ظهر الاسلام » سيكون في خمسة أجزاء وقد تزيد ! و « عصر الإسلام » قد يقع في نحو عشرة أجزاء — يستجيب إلى ما نطلب ويطلب الناس جميعاً منه . وفقه الله وأعانه .

المنصورة

محمود أبو رية

---

[1] مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٩٣ — الثلاثاء ١٠ من شعبان سنة ١٣٦٥ — ٩ من يوليو سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــدد

حوادث فلسطين

اتخذت السلطات البريطانية في فلسطين أخيراً وبعد طول الانتظار ، بعض إجراءات حازمة لوقف تيار الإرهاب اليهودي المنظم في فلسطين ، فألقت القبض على أعضاء اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ، واحتلت منشآتها وصادرت أوراقها ، واحتلت الأحياء اليهودية الهامة في بيت المقدس وتل أبيب ، وفرضت فيهما نظام منع التجول ، وقبضت على ألفي يهودي للتحقيق معهم وأصدر المندوب السامي البريطاني بياناً مسهباً نوه فيه بأن الحكومة البريطانية صرحت غير مرة بأن مشكلة فلسطين لا يمكن أن تحل بالالتجاء إلى القوة ، وأنها لا يمكن أن تسمح بأي حل تحاول القوة فرضه سواء من جانب العرب أو اليهود ، وأن الجالية اليهودية قامت في المدة الأخيرة بسلسلة من أعمال العنف ضد الأرواح والأملاك البريطانية ترتبت عليها خسائر في الأرواح والأموال ، وأن السلطات البريطانية مصممة على قمع الإرهاب والعنف وعدم السماح لأي الفريقين باستخدام القوة ، وأنها ستقابل في المستقبل كل إخلال بالقانون والنظام بمنتهى الحزم والشدة ، حتى يستقر النظام ، ويمكن الوصول إلى حل لمشكلة فلسطين .

وأيد مستر أتلي رئيس الحكومة البريطانية أمام مجلس العموم تصرف حكومة فلسطين ، وأكد أن واجب بريطانيا كدولة منتدبة أن تحافظ على الأمن والنظام في فلسطين ، ولن تسمح بأية محاولة من أي جانب للتأثير في مصير فلسطين بطريق القوة .

وهذه الإجراءات التي ترغم السلطات البريطانية على

اتخاذها اليوم في فلسطين بعد طول الأناة والإغضاء لم تكن مفاجأة ولم تدهش أحداً ؛ بل كان مبعث الدهشة في الواقع ما جرت عليه في المدة الأخيرة من مطاولة حركة الارهاب اليهودي والإغضاء عن أعمال العنف المتوالية التي يرتكبها أعضاء الهيئات السرية اليهودية ، في صور من العنف والجرأة تدل على مبلغ ما انتهت إليه هذه الجمعيات الارهابية من التسلح والقوة ، وما يهدد الأمن والنظام في فلسطين ، بل وفي الشرق الأوسط كله من جراء تركها تمضي في هذا العدوان المنظم الذي يستفحل خطره يوماً بعد يوم . وقد لمسنا ولمس السادة الانجليز خطورة هذا التيار الإجرامي منذ تسرب بعض أولئك الارهابيين إلى مصر وقتلوا وزير الدولة البريطاني اللورد موين في نوفمبر سنة ١٩٤٤ ، ومن ذلك الحين تتفاقم حركة الارهاب الصهيونية في فلسطين ويتسع نطاقها ، حتى لقد بلغ عدد القوات السرية المسلحة المندمجة فيها حسبما صرح رئيس الحكومة البريطانية في بيانه زهاء مائة ألف ، وهذا الاحتشاد الارهابي القوي يكشف بوضوح عما ينطوي عليه من الغايات الخطيرة البعيدة المدى .

إن الحركة الصهيونية لا تخفي حقيقة ما ترمي إليه من حشد القوى السرية الارهابية في فلسطين وتسليحها بأحدث الأسلحة ، ودفعها إلى ارتكاب أعمال العنف المنظم ؛ فهي تجاهر في صراحة وجلاء أنها ترمي إلى تحقيق حلم الدولة اليهودية ، وتحويل فلسطين العربية إلى دولة يهودية . ولما كانت الوسائل السياسية والاقتصادية لم تنجح حتى اليوم في تحقيق هذا الحلم ، فإن الصهيونية تحاول أن تلجأ في تحقيقه إلى سلاح القوة والعنف ، وإلى وسائل التدمير والسفك ؛ فلعل هذه الحركة الارهابية المريبة تنتهي بتحطيم القوى المناوئة للصهيونية في الداخل وفي الخارج ، وحملها على الخضوع والإذعان لمشيئة الصهيونية واليهودية الدولية .

وهذا التجني الصارخ يدلنا إلى أي حد تطورت الأطماع الصهيونية في مدى ربع قرن من الزمان ؛ فقبل أن يصدر تصريح اللورد بلفور في نوفمبر سنة ١٩١٧ ، كان أقصى ما ترمي إليه أماني الصهيونية الدولية هو أن تفوز بركن متواضع في فلسطين أو غيرها ، يلجأ إليه المضطهدون من اليهود ؛ ولما صدر تصريح بلفور مقرراً «أن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، على أن لا يعمل شيء يضر بالحقوق الدينية أو المدنية للطوائف الأخرى » اعتبرت الصهيونية أن أعز أمانيها قد تحقق ، وعكفت على إنشاء « الوطن القومي » وتدعيمه بالهجرة والمشاريع الاقتصادية ، واعتبر العرب من جانبهم أن قيام هذا الوطن اليهودي الدخيل في بلادهم اعتداء صارخ على حقوقهم التاريخية والوطنية ، وخطر يلوح على كيانهم وحياتهم ، ولم يدخروا وسعاً في مقاومته منذ الساعة الأولى ؛ وما لبث أن غدا هذا الصراع المضطرم بين اليهود والعرب مشكلة دولية شائكة حارت السياسة البريطانية — وهي المسئولة الأولى عن إثارتها — في معالجتها ؛ وتعددت لجان التحقيق والمقترحات البريطانية ، ووضعت في سنة ١٩٣٩ تسوية جديدة للمشكلة الفلسطينية صدر بها كتاب أبيض بريطاني ، تقرر فيها أن يقفل باب الهجرة اليهودية بعد خمسة أعوام ، وأن تحمى أراضي العرب من التسرب بطريق البيع إلى اليهود ، وكانت هذه تسوية لا بأس بها ؛ وبالرغم من أنها لم تعرض لتغيير الأمر الواقع ، فقد اعتبرت يومئذ أساساً صالحاً لحل المسألة ، والحد من طغيان الوطن القومي اليهودي وأخطاره .

ولكن السياسة الاستعمارية التي فرضت الوطن القومي اليهودي على فلسطين ، لم ترتض ذلك الحل الذي وضعته بنفسها ، والذي ارتضاه العرب على مضض ؛ فما كادت

الحرب العالمية الثانية تنتهى حتى بدا ضغط اليهودية الدولية ماثلا فى تدخل أمريكا فى المسألة الفلسطينية ، وفى اقتراح الرئيس ترومان أن يصرح فى الحال لمائة ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين ، ثم فى انتداب لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية ، وفى توصياتها التى أيدت اقتراح الرئيس ترومان بنصه ، وأوصت بإلغاء الكتاب الأبيض وفتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مصراعيه ، وإلغاء الحظر المتعلق ببيع الأراضى . وقد رأينا ما أثارته هذه المقترحات الجائرة فى فلسطين وفى العالم العربى كله من آيات الإنكار والسخط . ومع أن توصيات اللجنة ما تزال إلى اليوم مثار خلاف بين بريطانيا وأمريكا ، فإنها تعتبر بلا ريب خطوة جديدة فى تقريب آمال الصهيونية ومشاريع السياسة الاستعمارية .

لقد ظفرت الصهيونية فى أواخر الحرب العالمية الأولى بتصريح بلفور وإنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ؛ وهى تحاول اليوم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية أن تظفر بتحقيق الخطوة الثانية ، وهى تحويل هذا الوطن القومى إلى دولة سياسية ؛ وقد استطاعت طيلة هذه الأعوام أن توسع نطاق الوطن القومى بمضاعفة نشاطها الاقتصادى وبالهجرة غير المشروعة ، حتى أصبح عدد اليهود اليوم فى فلسطين زهاء سبعمائة ألف مقابل مليون عربى ، وهى نسبة مزعجة جداً ؛ ثم هى تحاول الآن بتشكيلاتها السرية الإرهابية أن تفرض إرادتها ، وأن تحقق مطامعها فى إنشاء الدولة اليهودية بالقوة والعنف .

ولكن العنف يثير العنف ، والاعتداء يقتضى الدفاع عن النفس ؛ والصهيونية تخطئ أشد الخطأ إذا اعتقدت أنها تستطيع أن تصل بالقوة القاهرة إلى ما تصبو إليه ؛ فإن المسألة الفلسطينية لم تبق مسألة محلية ، ولم تبق مسألة فلسطين فقط ، ولكنها غدت مسألة الشرق العربى كله . ويجب أن تذكر الصهيونية دائماً أن هذا الوطن القومى الذى تحاول إنشاءه بالقوة فى ديار ليست لها ، إنما يقع فى قلب العالم العربى ، ويحيط به من سائر نواحيه أمم عربية تنكر وجوده وتتحفز لمقاومته بكل ما وسعت من أسلحة سياسية واقتصادية ، بل وبالقوة والعنف إذا اقتضى الأمر ؛ والصهيونية لا تستطيع أن تعيش وأن تزدهر فى هذا العالم الخصيم الذى يضطرم من حولها بغضا وتحفزاً للنضال ؛ وقد أبدت دول الجامعة العربية فيما اتخذته من قرارات مختلفة عزمها الثابت على مقاومة كل حل للمسألة الفلسطينية لا يكفل حماية فلسطين من الاعتداء الصهيونى ، وتحتفظ فيه فلسطين بكيانها العربى الصميم .

وإذا كانت السلطات البريطانية فى فلسطين قد رأت بعد طول الانتظار والإغضاء أن تنشط بدورها لقمع الإرهاب الصهيونى ، وأعلنت الحكومة البريطانية أنها لن تتسامح بعد إزاء هذا العنف المنظم ، فإنه يجب على السياسة البريطانية من جانبها أن تفطن إلى الحقائق الواقعة ، وأن تعيد النظر فى خططها إزاء المسألة الفلسطينية بعد ما تفاقمت إلى هذا الحد وظهر لها خطر المطامع الصهيونية واضحا على الأمن والنظام فى الشرق الأوسط كله ؛ ولقد كان تأثر السياسة البريطانية فى الآونة الأخيرة بتوجيهات اليهودية الدولية والسياسة الأمريكية عاملا جديدا فى تعقد الموقف ، وإذكاء أطماع الصهيونية وجرأتها واستهتارها ؛ ولا بد أن تتحرر السياسة البريطانية من هذه المؤثرات لكى تستطيع إعادة النظر فى الموقف كله على ضوء علائقها مع دول الشرق العربى ، وعلى ضوء ما يمكن أن يتمخض عنه الاحتشاد الصهيونى وعدوان الصهيونية من الأحداث الخطيرة فى الشرق الأوسط ؛ وقد أضحى واضحاً أن ربط المسألة اليهودية العامة بمسألة الوطن القومى اليهودى هو من أفدح أخطاء السياسة الدولية ؛ ولو خلصت نية السياسة الدولية حقا فى محاولة حل المسألة اليهودية وإيواء اليهود المشردين بطريقة ميسورة عادلة لا قصر عب ، هذا الحل على فلسطين

مستقبل الانسان [1]

إن سيطرة ابن آدم على الطاقة الذرية يطلقها متى شاء وكيفما شاء، تعتبر أعلى ذروة انتهينا إليها بعد قرنين من البحث العلمي . وقد يتبين أنها أخطر حادث في تاريخ الجنس البشرى .

وهناك فريق عديد من الناس (ليسوا أقل من غيرهم عقلا وحكمة) يرون أنه لا أمل للجنس البشرى في الحياة إلا إذا أقلع من البحث العلمي ، ولذا يؤثرون بث الدعوة إلى إيقافه والكف عنه تماما . وإن ما لقى العالم في سنوات الحرب الأخيرة من فزع رهيب يصور لخيالات هذا الفريق من الناس تصوراً واضحاً تلك الكارثة العامة التى يحتمل أن تصيب العالم على أثر استخدام مصادر أخرى جديدة للطاقة في الحروب القادمة .

ومن العبث إنكار احتمال وقوع هذه الطامة الكبرى . لكن العلاج الذى يقترحونه ليس بالعملى ولا بالمستحب .

وذلك لأن التنقيب والبحث عن مجالات جديدة للكشف سواء في النواحى الفكرية النظرية أو في النواحى التطبيقية العملية ، هو من الأمور المستقرة في طبيعة البشر ، وليس في مقدور أى نوع من التشريع أن يقتل هذه الرغبة عند الإنسان أو يكبتها .

ولابد لنا من جهة أخرى أن ندرك أن المعارف العلمية فيها من القدرة على الخير بقدر ما فيها من القدرة على الشر ، وأن حرمانها من الإنسان يقطع الأمل في رقيه ورفع مستواه وتحسين حالته بوجه عام .

والذى يجرى في المرحلة التاريخية الحالية هو أن العلوم تخلق كل يوم من المعضلات التى تتطلب الحل عدداً أكبر من العدد الذى يستطيع الإنسان أن يلتمس له الحل بما لديه من استعداد وبما يملك من وسائل ؛ لكن هذا الوضع قد يتغير مع الزمن وتتعدل الأمور بحيث يحدث الاتزان بين عدد المعضلات التى تستجد في المستقبل وبين مقدرة الإنسان على حلها

ويختلف الإنسان عن غيره من الكائنات الحية بما أودع فيه من ملكة التفكير نامية إلى أقصى حد ، وتمكنه

(١) منقولة عن افتتاحية الجزء ١٧ من مجلة انديفر التى تصدر كل ثلاثة شهور .

العربية ، وقد احتملت منه أعظم نصيب ، ولبادرت الدول الكبرى وفي مقدمتها أمريكا إلى فتح أبواب الهجرة اليهودية في أراضيها أو مستعمراتها الشاسعة . ولكن السياسة الاستعمارية التى درجت على أن تحمل غيرها عبء تسوية المشكلات التى تثيرها ، لا ترى بأسا من أن تقضى بالموت على أمة صغيرة عزلاء في سبيل إرضاء اليهودية الدولية .

إن المسألة الفلسطينية لا يمكن أن تحل حلا شريفا عادلا إلا إذا روعيت حقوق العرب القومية والتاريخية ؛ ولن تتحقق هذه التسوية العادلة إذا استمرت الحكومة البريطانية على استمدادها للإصغاء لتحريضات والشطون المغرقة ؛ وقد أثبتت الحوادث مدى الخمسة وعشرين عاما الأخيرة أن المسألة اليهودية لا يمكن من الوجهة العملية أن تحل بطريق القهر والإرغام على حساب فلسطين والأمم العربية ؛ وقد بقى الوطن القومى اليهودى منذ وعد بلفور وبالرغم مما بذل لتدعيم أسسه وتوسيع نطاقه المادى ، مشروعا غامضا تنقصه جميع المقومات الأدبية والقومية ؛ وإذا كانت السياسة الاستعمارية لم توفق حتى اليوم إلى إيجاد حل مقبول لتلك المشكلة الشائكة التى أثارتها ، فإن الأمم العربية من جانبها ترمع دون تردد أن تخوض أى صراع يفرض عليها لمقاومة مشاريع الصهيونية الباغية والسياسة الاستعمارية التى تؤازرها .

م . ع . ع

من أن يتحكم فى الوسط الذى يعيش فيه . ومن ثم كان فى استطاعته أن يحقق بتفكيره عمليات يحتاج غيره من الحيوانات لتحقيقها إلى أعضاء خاصة أو إلى اكتساب مهارة بالذات . فالإنسان مثلا فى مقدوره أن يطير بغير أجنحة وأن يعبر البحار دون أن يعتمد على إتقان العوم الخ

ولما كان الانسان بتقدم الحضارة يزداد اعتماده شيئاً فشيئاً على مقدرته التفكيرية ، فان أى تطور أو تحسين فى قواه العقلية قد يكون له أثر بالغ فى تقدمه . ومن الصعب أن نقدر احتمال وقوع تطورات من هذا النوع . فنحن إذا استعرضنا السجلات القديمة ونقبنا فى الديانات العتيقة لم نجد مفراً من الحكم بأنه لم يحدث للعقل البشرى أى تقدم محسوس فى خلال الخمسة أو الستة آلاف سنة الماضية . فالعلماء والحكماء الذين نشأوا فى العصور الخالية بمصر القديمة وبابل والهند والصين والدول الاسلامية وغيرها — كل هؤلاء كانت لهم على ما يظهر لنا مقدرة على التفكير العميق المنتج لا تنقص عن مثيلاتها لدى نظرائهم من المحدثين .

ثم إن تفكير القدماء قد اتجه إلى نواح تختلف عن النواحى التى يتجه إليها التفكير فى العصر الحديث . لكن ليس هناك ما يحملنا على الظن بأن لو أتيحت للقدماء من التقاليد ومن كنوز المعارف ما أتيح للمحدثين من رجال القرن العشرين لعجز أولئك القدماء عن الوصول إلى ما وصل اليه الأخيرون من اكتشافات هى موضع الفخر ، وإن كان بعضها ينطوى على كثير من بذور الشر .

ولا نزاع فى أن الرجل العادى فى سنة ١٩٤٦ أكثر علماً وإحاطة بأمور الدنيا ممن سبقوه (حتى من أولئك الذين لم يسبقوه إلا بقرن واحد) لكننا نستطيع بغير شك أن نرجع هذا إلى تحسن وسائل نشر العلم والعرفان فى العصر الحديث ، لا إلى المقدرة على هضم هذه المعلومات . ولا يكاد يخالفنا أحد حين نقرر أن بعض متاعبنا الحالية ترجع أسبابها الرئيسية إلى عظم اتساع نطاق إذاعة المعلومات ، بحيث إنها أصبحت تصل فى الأيام الأخيرة إلى أناس لم يثقفوا تثقيفاً يكفى لتمكينهم من استغلال هذه المعلومات على الوجه الصحيح .

وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نقطع باستبعاد احتمال حدوث تطور فجائى فى القوى العقلية البشرية يقفز بها فى المستقبل إلى الأمام من عدة نواح ، فان المحتمل على ما يبدو أن يستمر الانسان ماضياً فى الوصول إلى الاكتشافات العلمية وفى إحسان استخدامها أو إساءته بنفس مستواه الحالى من حيث الذكاء .

لكن هناك عاملا آخر محتملا يستحق النظر . ألا وهو أننا إلى الآن لم نلمح أية علامة تدل على أن التقدم العلمى قد صادف عقبات تعرقل سيره ، ناجمة عن قصور العقل الانسانى . لكن قد يكون لنا الحق فى أن نتكهن بأننا سنصل عاجلا أو آجلا إلى مرحلة يصير فيها العقل غير قادر على إحداث التقدم والمساهمة فى زيادة الثروة العلمية

ولعل فى استمرار قيام الحروب دليلا على أن بنى البشر قد وصلوا بالفعل إلى تلك المرحلة ، على الأقل فيما يتعلق بالناحية الأخلاقية ؛ وهنا قد يشعر المرء بشىء من الوثوق بأن مثل ذلك سيتحقق فى النهاية أيضاً فيما يتعلق بالمعلومات العلمية

وتنتهى بنا مثل هذه التأملات إلى البحث الطريف الممتع فيما إذا كان لنا أن نتوقع فى المستقبل أن يكون فى استطاعتنا تحسين « مخ الانسان » بوسائل صناعية . وإن الحوادث العلمية التى وقعت فى السنوات الأخيرة فى معظم فروع العلوم لتمنعنا من أن نطوح بهواجس وخيالات كهذه فى سلة المهملات ، ونعتبرها مجرد أوهام لا مبرر لها . فكم من أحلام للعلماء الأقدمين قد اعتدنا فى الحقبة الأخيرة أن نراها متحققة .

فهناك مواد معروفة بالفعل كالأمفيتامين تبين من

بعض اختبارات الذكاء البسيطة أنها تزيد على ما يظهر فى القوى التفكيرية بصفة مؤقتة ، كما أن تأثير الكوكايين فى شحذ القوى الفكرية قد تواترت أنباؤه من زمن بعيد فى الروايات الخيالية (وقس على ذلك ما يقال فى أوساطنا الشرقية عن الحشيش وآثاره فى تصفية الذهن وشحذه أحيانا .)

على أن جميع العقاقير التى اكتشفت من هذا النوع لها مع الأسف مساوىء خطيرة تحول دون تعميم استعمالها ، حتى ولو كانت آثارها فى تحسين القوى العقلية قيمة ومقطوعاً بها . لكن من يدرينا ! فلعل جيلا جديداً من علماء الكيمياء يوفق فى المستقبل إلى تركيب مواد صناعية تكون فيها التأثيرات النافعة قوية متضاعفة ، والتأثيرات الضارة أو السامة ضعيفة مختزلة إلى الحد الأدنى ، بحيث يمكننا التغاضى عنه وإهمال شأنه .

على أن شحذ القوى الفكرية بالطريقة الكيمياوية ليست إلا واحدة فقط من الطرق التى نستطيع أن نتصور استخدامها لجعل العقل الإنسانى أكثر مقدرة على مسايرة التقدم العلمى والنهوض بالأعباء التى ستقع عليه . فالتقدم الحديث فى علم الحياة التجريبى يشير إلى أن التسلط على الكروموسومات قد يكون آلة فعالة فى تكييف صور الحياة ، وذلك قد يستطاع مع الزمن تطبيقه على الإنسان نفسه .

وعلى كل حال فنحن مؤمنون (ولدينا من الأسباب القوية ما يعزز هذا الرأى) بأن الإنسان سيكون فى استطاعته أن يحسن حالته الطبيعية التى خلق عليها بغض النظر عن الزمن الذى سيتحقق فيه ذلك والكيفية التى سيتم عليها . ولن يكون ذلك بدعا أو نوعاً من المعجزة إذا قيس بكثير من نظائره من أنواع التقدم العلمى التى تحققت بالفعل .

أما الذى لا يزال موضع شك فهو ما إذا كان التقدم العلمى قد جاوز التقدم الخلقى بحيث تعتبر السنوات القريبة القادمة أخطر الأحقاب وأحرجها فى تاريخ العالم . ولا يدهشنا أن تتباين الآراء فى أمر كهذا ، فنجد من ناحية أن التخريب المدهش الذى أصاب اليابان من القنبلتين الذريتين وحير الألباب قد ملأ بعض الناس أملاً فى أن جميع الأمم ستمتنع عن استخدام تلك القنابل الذرية ما دام الغالب والمغلوب سيصيبهما نفس المصير المحتوم . ونجد آخرين متشائمين لا ينتظرون أن يثوب الإنسان إلى رشده ، ويتوقعون للمدنية بل وللإنسان الانتحار بتلك الآلة التى تمثل أرفع نتاج لجهود التفكير المنطقى . والزمن وحده هو الذى سيقرر أى هذين الفريقين على صواب (إن كان أحدهما فعلا مصيبا)

لكن لعله من التشاؤم الذى لا مبرر له أن نفترض أنه حتى فى الحروب الذرية سيكون عدد الناجين من القلة بحيث يصير الجنس البشرى عاجزاً تماماً عن أن يبعث الروح من جديد فى الحياة التمدينية ؛ فكم من مدنيات عظيمة حطمت أو تدهورت وتلاشت ! لكن هذه الحوادث المفجعة لم تقف حائلا دون تطور الجنس البشرى وتقدمه بوجه عام . وإذا كان نمو الحضارة عملية تطورية فيجب أن نتذكر أن التطور لم يعد يعتبر مدموغاً بالاستمرار ، وإنما ينظر إليه الآن على أنه نامىء من جهات مختلفة عديدة ، وسائر فى عدة مسالك تبدو أحيانا متباعدة بعضها عن بعض وأحيانا أخرى متقاربة . ومن يدرى ! فلعل العالم يقف فى الآونة الحاضرة عند مفترق الطرق ، فلنرتقب .

أحمد عبد السلام الكردانى

٧ - الشيخ محمد عبده

ظل الشيخ محمد عبده يعمل فى القضاء، ويحرك مجلس إدارة الأزهر للاصلاح حتى سنة ١٨٩٩، وحدث أن كثرت الشكوى من المحاكم الشرعية وقضاتها، ففكر مستشار الحقانية الإنجليزى فى إلغائها وضمها إلى المحاكم الأهلية، ولكن حسبوا حساباً لهياج الرأى العام فأرادوا أن يفعلوا ذلك تدريجاً، وذلك بتعيين مستشارين من محكمة الاستئناف عضوين فى المحكمة الشرعية العليا، فلم يرض جمال الدين افندى قاضى مصر التركى، ولا الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية. وعرض المشروع على مجلس شورى القوانين فرفضه، ووقف الشيخ حسونة موقفاً شديداً صلباً انتهى بترك التعيين، ووقف المشروع، وكان الشيخ محمد عبده يطمح فى أن يعين مكان الشيخ حسونة فى المنصبين، فيقبض على ناصية الأزهر ويتمكن مما ينوى من إصلاح، ولكن أسرع الخديو فعين الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى المشيخة، والشيخ محمد عبده للافتاء، فأثر ذلك فى نفس الشيخ محمد عبده وآمن بأن الخديو لا يطمئن إليه فى باطن نفسه، ولم يمض نحو شهر حتى مات الشيخ القطب وعين مكانه الشيخ سليم البشرى، فاعتقد الشيخ محمد عبده أن إصلاح الأزهر قد تعقد بهذا الوضع، فلم يكن يطمئن إلى الشيخ البشرى اطمئنانه إلى الشيخ حسونة، ويراه لا يؤمن بإصلاح، ويدارى ولا يصارح، ويعمل بإشارة السلطة لا بوحى من نفسه! ومع هذا فنصب الإفتاء خلع على الشيخ محمد عبده وجاهة دينية ممتازة، وهو نفسه قد خلع على المنصب بشخصيته إجلالاً واحتراماً، وزاد فى ذلك تعيينه فى السنة نفسها عضواً دائماً فى مجلس شورى القوانين.

وظلت العلاقة بينه وبين الخديو عباس حسنة فى ظاهر الأمر؛ فالخديو يستشيره إذا تعقدت الأمور بينه وبين الإنجليز، كاستشارته له عند ما أرادوا تعيين قاض مصرى بدل القاضى التركى، وكان الخديو لا يرى هذا الرأى لأنه يضعف صلة مصر بتركيا ويمكن من سلطة الإنجليز، وكاستشارته له فى مسألة ليون فهمى الأرمنى، وكان قد قبض عليه الخديو وحبسه فى سراى رأس التين لاتهامه بتزوير أختام باسم رئيس كتاب «يلدز» وأراد اللورد كروس أن يفتش عنه فى السراى، ورأى الخديو أن هذا منتهى الإهانة، وقد أشار الشيخ محمد عبده على الخديو بما أنقذه من الموقفين.

كان الشيخ محمد عبده إلى هذا الحين يتفق ورأى الإنجليز فى أن الخديو ليس له أن يستبد بتصريف الأمور وأن يكون حكومة داخل حكومة، وأن ليس من مصلحته ولا مصلحة مصر أن يحارب جماعة تركيا الفتاة خدمة لتركيا وفيهم قوم أحرار لم يرضهم ظلم عبد الحميد ولا عسفه ولا استبداده، وأن من الخير للخديو أن يوجه النظار إلى ترقية الشؤون المصرية كالتعليم وإصلاح المحاكم الشرعية وإصلاح الأزهر، فهو بذلك يخدم بلاده.

والشيخ محمد عبده يصدر فى هذا عن مزاجه وطريقته فى التفكير والإصلاح، ويتكلم فى ذلك فى مجالسه الخاصة فيبلغ الخديو فيُسِرها له.

ولكن حدث أن خلا مكان لكسوة التشريفة فى الأزهر فأراد الخديو أن يشغلها الشيخ محمد راشد مفتى المعية، ولم يكن تنطبق عليه اللائحة الموضوعة، فأوعز الشيخ محمد عبده بعدم تنفيذ ذلك الأمر وإعطائها المستحق، وزاد الطين بلة أن العلماء لما اجتمعوا عند الخديو فى التشريفات كلم شيخ الجامع فى غضب وتوبيخ، فرد الشيخ محمد عبده فى حدة: «إذا شاء أفندينا أن تكون كساوى التشريف بمقتضى إرادته الشخصية فليصدر بذلك قانوناً آخر ينسخ هذا القانون» فلما سمع الخديو هذا الرد احمر وجهه ووقف إيذاناً للحاضرين بالانصراف — وآلى على نفسه أن يحرج المفتى ويدبر له حتى يخرجه من منصبه وينتقم من فعلته.

ثم أعقب ذلك وقوف الشيخ محمد عبده وحسن باشا عاصم فى أرض يريد الخديو استبدالها ، ورأيا أن هذا العرض ليس فى مصلحة الوقف ، وحملا مجلس الأوقاف الأعلى على رفض هذا الاستبدال إلا إذا دفع للوقف عشرون ألفاً فرقاً بين الصفقتين .

انكشف الغطاء ، وظهر العداء ، ودبرت المؤامرات ودست الدسائس ، وكلما أمعن الخديو فى ذلك اضطر الشيخ محمد عبده إلى كثرة الاتصال بالانجليز ، وكلما اتصل زاد غضب الخديو حتى اقدم الخديو بعزله من الإفتاء ، فصرح اللورد كرومر « أنه لا يوافق على عزله من منصب الإفتاء مهما كانت الأحوال ما دام موجوداً » .

والشيخ محمد عبده جاد فى إصلاح الأزهر والنهوض بالجمعية الخيرية الإسلامية لنشر التعليم وإعانة المنكوبين ، ورسول السلام بين مجلس الشورى والحكومة ، وداعى المصالحة فيما تعقد من الأمور ، يكسب من الإنجليز بقدر ما يستطيع ، وهو موضع ثقة المجلس وثقة الحكومة وثقة الإنجليز ، يستشيرونه فى كثير من الأمور فيشير بما يعتقده الحق ؛ ثم هو بين الخاصة بما ينشر من أفكاره فى الدين والإصلاح الاجتماعى والأخلاقى والسياسى على مذهبه .

وهو يحارَب أشد محاربة وأعنفها من جهات متعددة : الخديو عباس يتخذ السيد توفيق البكرى وغيره وسيلة للافساد بينه وبين رجال الأزهر ، وتحريض أعضاء المجلس على الاستقالة حتى يحل محلهم من يكرهون الشيخ محمد عبده ويقفون فى سبيله . وكثير من شيوخ الأزهر يخاصمونه لأنه يهدم قديمهم وإلفهم ويطلع عليهم بجديد لم يألفوه ، ويشيعون بين العامة كفره وزندقته .

والحزب الوطنى وعلى رأسه مصطفى باشا كامل يحاربه ويرميه بالمروق من الوطنية ، لأنه يشايع الإنجليز ويتخذهم أعوانه ، وتكتب التقارير السرية ضده للآستانة ، فإذا سافر إليها استقبل استقبالاً سيئاً ، وعملت التدابير لإهانته لولا أن لطف الله .

والجرائد الهزلية تشهر به أشنع تشهير ، إما بإيعاز من خصومه وقبض الثمن منهم ، وإما مجاراة للعوام وأشباههم واسترضائهم لترويج جرائدهم .

فى كل يوم حادثة ، وفى كل ميدان موقعة ، وفى كل جريدة ذكر وفى كل مجلس مناظرة بين الاتهام والدفاع ، واسم الشيخ محمد عبده على كل لسان ، وعيشته عذاب فى عذاب ، وهو لا تفتر قوته ، ولا تخبو عزيمته ، وإن كان كل ذلك يهد فى أعصابه ويهدم فى كيانه .

لقد تلقى المفتى سؤالين من بعض مسلمى الترنسفال وهما :

(١) بقر يضرب على رأسه بالبلطة حتى تضعف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله عليه ، فهل يجوز أكل لحمه ؟

فأفتى الشيخ بحلها فقامت عليه قيامة العلماء يقولون إنها محرمة لأنها هى الموقوذة التى حرم الله أكلها ، والشيخ يقول إن الموقوذة هى ما ضربت بشىء غير محدد كالحجارة والخشب حتى ماتت ، وهذه ذبحت قبل موتها .

والسؤال الثانى : يوجد أفراد فى هذه البلاد (الترنسفال) يلبسون البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد عليهم ، فهل يجوز ذلك أم لا ؟

فأفتى أيضاً بالجواز وقال : « أما لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول فى دين غيره فلا يعد مكفراً ، وإذا كان اللبس لحاجة من حجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك » .

فهيجت عليه الجرائد كجريدة الظاهر ، وأثارها محمد بك أبو شادى عليه حرباً شعواء ، وكذلك جريدة اللواء .

وزاد خصومه وقاحة فلفقوا صورة شمسية له مع بعض نساء الافرنج وحملوها للورد كرومر ، وأفهموه أن هذا فى عرف المسلمين لا يجوز صدوره ممن يتولى منصب الإفتاء ،

قد بأنه لقولهم . وصورته الجرائد الهزلية « كالأرنب وحمارة منيتى » بصور شنيعة ، وحكم على أصحابهما بالحبس .

وهكذا لم يتورع خصومه أن يحاربوه بأسفل الوسائل ، وكان بعض هذا يكفى لصدوله عن جهاده ، وكان بعض أصدقائه كسعد زغلول وقاسم أمين يعيبون عليه إلحاحه فى إصلاح الأزهر ، وهو غير ممكن بهذا الوضع ، وهو — مع كل هذا — مصر على المضى فى عمله لشحذه الخصومة ، ويأرق بعض الليالى مفكراً فى وسائل الإصلاح ويقول : إن وجدانى الدينى لا يرضى بالصمت عن المفاسد .

وآخرون من خلصائه كانوا يعيبون عليه عداء الخديو على هـذا الوجه ، ويرون أن الأجـدر به أن يغضى النظر عن هفواته ، ويقولون : ماذا عليه لو أعطى كسوة التشريف لغير مستحقها أو تساهل فى استبدال الوقف ، ثم كان ثمن ذلك أن تطلق يده فى الإصلاح كما يريد ، وحينئذ يجد من الخديو كل عون ! ولكن فاتهم أن الطبيعة تأبى أن تخلق من علىّ معاوية أو أن تجعل من عمرَ عمْراً .

وعابوه أنه نظر إلى الخـديو عباس من جانبه الأسود وهو شرهه المالى ، وجشعه المادى ، ووسائله الوضيعة فى ذلك ، ولم ينظر إلى جانبه الأبيض وهو إباؤه الاستسلام للمحتلين وتشجيعه الحركة الوطنية وتغذيتها وتنميتها . بل إن (الشيخ محمد عبده) كان يناهض أيضاً دعاة الحركة الوطنية ، ويرميهم بالتهور ويقنع فى آماله الوطنية بالقليل ، كما يدل عليه خطاباه اللذان نشرا بعد موته وكان قد أرسلهما إلى صديقه مستر « بلنت » يشرح فيهما مذهبه فى الإصلاح السياسى ، وفيهما قناعة لا ترضى الوطنيين ، وقد أثارا نفوس الخديو والوطنيين وحتى بعض المتدينين .

ولكن — مهما كان الأمر — فإن العظيم يجب أن يقدر من جميع جوانبه لا من جانب واحد ، وقد كان الشيخ محمد عبده مصلحاً دينياً ومصلحاً اجتماعياً ومصلحاً للغة والأدب ، وشخصية بارزة فى التفكير ، ثم سياسياً . فإن هو لم يوفق فى سياسته فهذا لا يقلل من نواحيه القيمة الأخرى ، ويسقط الرجل فى السياسة أن يشترى بمال أو بيع ذمته لمنصب . ولكنا نجزم أن الشيخ محمد عبده كان وفياً لأمته مخلصاً لربه ، يسلك هذا السلك السياسى عن عقيدة وتقدير للمصلحة ، ويجتهد أحياناً فيخطئ ، وتحمله الظروف القاسية أحياناً على ما يكره .

والحق أن كثيراً من شيوخ الأمة كانوا فى ذلك الوقت على مثل رأيه السياسى ، كسعد باشا زغلول ، وفتحى باشا زغلول ، وحسن باشا عاصم ، ومحمود باشا سليمان وغيرهم من رجال حزب الأمة ، ولكنه هوجم من هذه الناحية أكثر مما هوجموا ، لأن الخديو عباس كان يؤلب عليه أكثر مما يؤلب عليهم ، ولأن الناس اعتادوا أن يروا رجال الدين بعيدين من السياسة وخاصة مع المحتلين .

فى سنة ١٩٠٥ كان الأزهر هادئاً وعلى رأسه السيد على الببلاوى ، وكان رجلا يرتاح إلى الشيخ محمد عبده ويرتاح محمد عبده إليه ، والأمور سائرة سيراً طبيعياً ، فظهرت فجأة حركة تدعو إلى الشغب وتشكو من شيخ الأزهر ومن مجلس الإدارة ، وكان القائمون بها من المتصلين بالسراى ، على أثر رفض الشيخ محمد عبده وحسن عاصم استبدال الوقف الذى أشرنا إليه — وعلى أثر هـذا الشغب استقال السيد على الببلاوى ، وعين الخديو عباس الشيخ عبد الرحمن الشربينى ، وهو ممن لا يستطيع الشيخ محمد عبده العمل معهم لرجعيته وجموده . وخطب الخديو فى حفلة الإنعام بالخلعة على الشيخ الشربينى خطبة فيها خفة تدل على الغيظ الشديد من الشيخ محمد عبده وصحبه ، قال فيها : « إن الأزهر أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر علوم الدين فى مصر وجميع الأقطار العربية ... ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً ، ولكن من الأسف رأيت فيه من يخلطون الشغب بالعلم ومسائل الشخصيات بالدين ، ويكثرون من أسباب القلاقل .. وأول شىء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً

عاهات نفسية

كنا نعرف الصحة والمرض . ولكن معرفتنا بهما كانت في الأغلب الأعم تقترن بالجسم بأعضائه وحواسه . واليوم أصبحنا نعرف صحة النفس وأمراضها . وتبين المشتغلين بالعلوم النفسية أن للنفس عاهاتها كما قد يكون للجسم عاهاته . بل إن عاهات النفس قد تكون في كثير من الأحيان نتيجة مباشرة لعاهات الجسم . والناس في هذه الدنيا – مع الأسف البالغ – ينقصهم الكثير من العلم بآداب السلوك . فهم إذا وقعوا على صاحب عاهة جسمية رجموه بسلكهم معه بلاء على بلاء . وتكون نتيجة ذلك أنهم ينقلون العاهة من جسمه إلى عقله ونفسه .

وهذا الكلام – وإن كان حقاً – إلا أنه لا يخلو من غموض . فلنوضحه بالمثال الآتي :

ذكرت الدكتورة « دوروثيا فرجسون » في مقال لها بمجلة « كورونت » عن السرقة العصبية المعروفة باسم (كلبتومانيا) أن سكان إحدى المدن الأمريكية روعوا من تعدد حوادث السرقات التي كانت تقع ليلا في مدينتهم والتي كانت تتم في كل الحالات بطريقة واحدة وتسرق فيها أشياء متماثلة لا تمتد يد السارق إلى غيرها ، مما حمل رجال البوليس على الاعتقاد بأن الجاني لابد أن يكون شخصاً واحداً . وقد دلت المعاينة في جميع هذه الحوادث على أن الجاني اعتاد أن يقتحم الطوابق الأولى من المنازل أو (الفيلات) الصغيرة . وأنه لا يدخل غير حجرات نوم السيدات . ولا يسرق سوى أدوات الزينة والحلى والملابس الداخلية . ويهتم بوجه خاص بسرقة رسائل الغرام التي ترسل إلى السيدات . وقد بلغ عدد ما ارتكبه من جرائم في أقل من سنة نحو أربعمائة سرقة .

وتنشط البوليس في تعقب آثار الجاني حتى وفق إلى إلقاء القبض عليه (متلبساً) وهو يقارف فعلته . وتبين

في الأزهر ، والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة من زيغ العقائد وشغب الأفكار ، لأنه مدرسة دينية قبل كل شيء ، وقد استقال السيد علي الببلاوي رياسة لصحته ، وقد جرت منذ اثنتي عشرة سنة على أن أقبل استقالة كل من يستقيلني من وظيفته ، فقبلت استقالته ، ومن يستقيلني من وظيفته سواء ، فأنا مستعد أن أقبل منه جرياً على العادة التي اتبعتها ... ومن يحاول بث الشغب بالوساوس والأوهام أو الإيهام بالأقوال ، أو بواسطة الجرائد والأخذ والرد ، فليكن بعيداً من الأزهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء (يريد السيد محمد رشيد صاحب «المنار») فأولى أن يرجع إلى بلاده ، ويبث فيها ما يريد من الأقوال والآراء الثائرة الذين ولمصلحة الأزهر والأزهريين » .

لم ير الشيخ محمد عبده بداً من الاستقالة ، وقد آمن بعجزه عجزاً تاماً من إصلاح الأزهر الذي يريده .

لم يلبث بعد هذه الحادثة أن أحس وطأة المرض ، فعزم على السفر إلى أوربا للاستشفاء ، ولكن لم يمنعه ذلك من العمل في مجلس الشورى ومجلس الأوقاف والجمعية الخيرية الإسلامية ، وامتحان دار العلوم ، وإعداد مشروع مدرسة القضاء . ثم ألح عليه المرض واختلف الأطباء في تشخيصه : هل هو المعدة أو الكبد ؟ ثم تبين أنه – مع الأسف – السرطان ، فأشاروا عليه بعدم السفر . وفي يوم ١١ يوليه سنة ١٩٠٥ قضت روحه إلى ربها من نحو ستة وخمسين عاماً ، وكان برمل الإسكندرية في منزل صديقه محمد بك راسم . وقرر مجلس النظار أن تحتفل الحكومة رسمياً بتشييع جنازته في الإسكندرية ومصر ، وكان مشهداً مهيباً رائعاً ، ثم دفن بقرافة المجاورين .

وكان الخديو متغيباً عن مصر فأناب من احتفل به أو احتفى بجنازته من رجاله . رحمه الله .

وبعد فما إصلاحه ؟ وما مبادئه في الإصلاح ؟ وما أثرها في الأمة ؟ (يتبع) أحمد أمين

من تفتيشه أنه يحمل عدداً كبيراً من (رسائل الغرام) ويخفيها تحت ثيابه كما لو كانت أنفس شيء لديه.

وكان هذا اللص الرهيب .. شاباً نحيل الجسم، قمىء الهيئة، دقيق العظام، رقيق الحس، لم يلبث أن اعترف وهو بين يدى المحقق بجميع جرائمه. وكان اعترافه طلقاً مفصلا لم يحاول فيه إخفاء شيء مما اجترح. ولما مثل أمام القاضى أعاد اعترافه وقال إنه يعلم تمام العلم أنه اجترأ على القانون، وخالف الوضع الاجتماعى الصحيح، وأنه لذلك يستحق العقاب.. ثم أضاف إلى قوله هذا أنه مع ذلك لم يكن يسرق لكى يعيش، ولكنه كان يحس وهو يقارف جرائمه بأنه مدفوع إلى ارتكابها بعامل خفى لم يكن يدرك كنهه. وأنه لم يكن يستطيع كبح جماح نفسه إذا ما أرخى الليل سدوله عن أن يخرج فى تلك الجولات التى كان يقوم بها، والتى كان يعود منها راضياً عن نفسه كل الرضا، مطمئناً كل الاطمئنان، مستشعراً راحة نفسية تامة لم يكن ليحصل على شيء منها أثناء النهار.

ومحاكم أمريكا — كمحاكم غيرها من بلاد الله — لا يتسع صدرها لمثل هذا الهذيان. فتوكل قاضيها على الله وأنزل بهذا المجرم الجرىء الفاجر أشد العقوبة.

وكان مدير السجن الذى نزل فيه صاحبنا من رجال العصر الحديث الذين يقضون أوقاتهم فى القراءة والاطلاع على ما يستحدثه أولو الألباب من البحوث والدراسات. وكانت قد طغت على المكتبات فى بلده موجة العلوم النفسية الحديثة؛ فقرأ لفرويد ولأصحابه ما قالوا. وعرف الشعور واللاشعور. كما عرف العقد النفسية وكيفية انعقادها ووسائل حلها. ورأى أن يجرب شيئاً من معرفته هذه مع ضيفه الجديد، لينظر هل يفلح فى العثور على عقدته ثم هل يوفق بعد ذلك إلى معالجة حلها. فصار يستدعيه إليه ويخلو به كلما سمح له عمله بذلك، ثم يحادثه ويعاوده، ويستمع إلى حديثه، ويوجهه فيه. ويسائله ويناقش جوابه حتى وقف على قصة حياته، وعلى التيارات التحتية التى أثرت فى سلوكه، وانحرفت به عن طريق الهداية إلى ذلك الطريق المعوج الذى ركبه. فعرف كيف أنه فى طفولته أصيب بشلل الأطفال. وأن ذلك أثر فى نمو جسمه فنشأ ضعيفاً عاجزاً متخلفاً عن أقرانه فى الجد وفى اللعب. وأنه كانت له شقيقة قوية البنية مفتولة العضلات تمارس كثيراً من الألعاب الرياضية، فكانت كثيرة الاستهزاء به والحط من شأنه والتهكم عليه والتنديد بضعفه وعجزه.

فلما شب وكبر هفت نفسه إلى الفتيات اللاتى فى مثل سنه بحكم غرائزه الفطرية. ولكنهن أعرضن عنه وازدرينه. فشعر بشيء من التحول فى عواطفه نحوهن. وذهب الشوق وحل محله النفور. وتبخر الحب وانعقدت مكانه سحب الكراهية والمقت. وانعكست عاهته الجسمية على نفسه فشوهتها هى الأخرى. وأصبح يحس بهذا الدافع الخفى الذى كان يدفعه إلى تحسس فرائسه فى مضاجعهن وسلب أمتعتهن واسترقاق رسائلهن وهتك أسرارهن والاستمتاع بآثارهن.

ووضع مدير السجن إصبعه على (العقدة) بعد أن تكشفت له نفس صاحبه على هذه الصورة الواضحة.

فإن ما أصاب الشاب فى طفولته من الشلل، وما أورثه هذا الشلل من عجز. وما واجهت به أخته هذا العجز من زراية وسخرية — كل أولئك أشعر الصبى بنقصه وحقارة شأنه. ولكن «غريزة السيطرة» — وهى إحدى الغرائز الرئيسية فى الإنسان — تأبى عليه أن يعيش فى هذا الهوان الذى سببته له عاهته. فهو لابد له من الكفاح للخروج من هذه الورطة، ولرد ما يستطيع أن يرده إلى نفسه من الاعتبار. ولكنه شب وكبر، وأصبح يلقى من الفتيات أقسى مما كان يلقى من أخته. وفى الوقت الذى تفتحت فيه نفسه للصواحب والصديقات. غلقت دونه الأبواب فى كبر واشمئزاز. وارتدت حرارة عواطفه فلم

يلق من جزائه إلا الماء البارد يلق على ثاره الشبوبة . إنها إذاً الحرب قد أعلنت بينه وبين هذا الجنس الآخر المتمرد المتغطرس .

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جبانا

ورأى المسكين أنه استدرج إلى معركة لم يكن له يد فيها . ودفعته « غريزة البقاء » إلى الثبات والدفاع عن نفسه . فنزل إلى الميدان ولكن بسلاحه الخاص الذى يسرته له الطبيعة ، والذى لم يكن يملك غيره ، سلاح السطو والاغتصاب والتمثل فى حياته الجديدة بقول ذلك البدوى الأديب :

وأنى أسائل المرء اللئيم بعيره
وبعران ربى فى البلاد كثير !

وقام بأولى غزواته الليلية على مخدع فتاة ممن تأبين عليه . مع كثرة صلاتها بشبان الحى أجمعين فسلب ونهب وخرج من الموقعة بغنائمه وأسلابه راضياً عن نفسه ، معتزاً بشجاعته وقد تولاه إحساس مريح بأنه عرف كيف يسترد شخصيته التى آس المجتمع على أن يفقده إياها . ومنذ تلك الليلة التى استشعر فيها كل تلك الراحة جعل دأبه أن يقوم مع الليل فيجدد نشاطه ويفتتح ميادين جديدة يستمتع فيها بإثبات شخصيته وكان كل عمل يؤديه يرمز إلى ناحية من نواحى النقص الذى يحسه ، ويثير فى نفسه الشعور بالتعويض والرضى . فاقتحام المنازل كان يشعره بالقوة الجسدية التى لم يكن يتمتع بشىء منها ، لأنه مصاب بذلك الشلل الذى لا يشعره إلا السقم والضعف ، وسرقة أدوات الزينة وباقى تلك التوافه التى يحرص عليها النساء كان يعوضه عن حرمانه من مجلسهن والاستمتاع بهن ، وسرقة رسائل الغرام كانت تعوضه عن تحريرها بنفسه وتبادلها مع غيره .

• • •

تلك كانت قصة هذا الشاب العجيب . ولكن أعجب منها كانت قصة مدير السجن .

فإنه عول على انتشال الشاب من ذلك التيار الذى جرفه ، وعلى العودة به إلى المجتمع سليما معافى مما ألم به .

فما زال به حتى جعله يقتنع بأن مرضه وعجزه هما اللذان دفعا به إلى سلوك الحال ، وأنه كان ضحية أخته القاسية بقدر ما كان ضحية ذلك العجز الطبيعى ، وأنه لو كان فى طفولته قد صادف من يخفف عنه وطأة عاهته بالمحافظة على شخصيته والقيام على توجيهه نحو العمل الذى يلائم حالته لما اندفع نحو السرقة ليعوض بها ما فاته على النحو الذى قدمناه .

وما كاد الشاب يرى نفسه على حقيقتها فى ضوء هذا التحليل حتى أبدى رغبته فى الإقلاع عن تلك العادة التى تحكمت فيه ، وصار يلح فى طلب أى عمل مشروع يمارسه . فلما أرشده المدير إلى العمل الذى اختاره له أقبل عليه بكل جوارحه حتى أتقنه ، وسار فى السجن سيرة محمودة . فلما أتم مدة عقوبته خرج وهو يشعر أنه قد خلق خلقاً جديداً وزكاه مدير السجن لدى شركة كبيرة ، فقدمت له عملا مما تعلمه وهو فى السجن ، فكان فى عمله الجديد موضع رضاء من معه وانجاب عن نفسه إحساسه بنقصها ، وصلح حاله وتزوج وعاش بقية عمره عيشة راضية .

• • •

ترى هل يقدر لمصر قريباً أن يكون فيها من يصنع صنيع ذلك المدير ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؟

حسن جبول

صيد من بلاد الشام

يوم ميسلون :

لعل أعظم يوم فى تاريخ سورية الحديث ، قبل يوم الجلاء ، هو يوم (مَيْسلون) .

وميسلون ، بقعة هادئة ، انتصر فى روابيها الجيش الفرنسى وعلى رأسه (غورو) عام ١٩٢٠ ، على الجيش العربى الفتى ، وعلى رأسه (يوسف العظمة) . فهزم الجيش العربى وصُرع القائد البطل ، ودخل الفرنسيون (دمشق) فاحتلوها ، واحتلوا من بعدها (سورية) .

هو يوم خابت فيه آمال العرب ، وآمال الأحرار الثائرين .

يوم فشل فيه رجال الثورة العربية ، بعد أن أحبط أعمالهم وبدد أحلامهم ، ومزق شملهم ، دسائس الفرنسيين وخداع الإنجليز .

لقد كانوا يريدون تحقيق حلم راحت جيل .. فإذا بهم يرون المأتم المؤلم الحزين .

مأتم بدأ ، فطوى عهداً من أعنف عهود الثورة والتحرر فى تاريخنا الحديث ، وبدأ معه عهد الظلم والعسف والتنكيل ، على يد الفرنسيين .

هذا اليوم الذى محا سواده تألق يوم الجلاء ، ذو قصة غريبة .

لقد ولدته حوادث كثيرة سبقته .

حوادث اشتركت فيها دول كثيرة ، وراوغت فيهـا دول مختلفة ، وكانت هذه الحوادث مظهراً لخداع الغربيين وكذبهم ، ونكثهم بالوعود وبالعهود .

هذه القصة ، يقصها علينا اليوم ، بعد ستة وعشرين عاماً رجل من أعظم رجالات العرب ، القوميين ، فى الشرق العربى ، هو العلامة ساطع الحصرى .

هذا الرجل الذى رافق ثورة العرب ، منذ فجرها ، وسهم مع الأمير ثم الملك فيصل ، فى دمشق ، فى شؤونها ، وحل كل ما فى وسعه لنهضة العرب ، فى العراق ، وفى سورية .

فهو إذا تحدث ، تحدث من اطلاع ، إنه شاهد عيان .

وقد قسم قصة يوم ميسلون هذه ، التى فرغ من تدوينها ، والتى ستظهر قريبا ، إلى مدخل وثلاثة أقسام .

أما المدخل فذكر فيه يوم ميسلون ومكانته فى تاريخ العرب الحديث ، وأبان عن مطامع الفرنسيين ، فى مصر أولاً ، ثم فى سورية أخيراً .

وفى القسم الأول ذكر المقدمات الخارجية ، وتنازع الدول على الشرق الأوسط ، وتقاسمها إياه ، ثم المقدمات الداخلية ، وكيف اطمأن العرب إلى وعود الإنجليز ، وكيف باءوا بالفشل لركونهم إلى أقوال أولئك اللاعبين .

وفى القسم الثانى بدأ بذكر الوقائع : قبل الإنذار ، وبعد الإنذار ، وبعد يوم ميسلون .

وفى القسم الثالث سرد الوثائق الرسمية ، التى تتعلق بما قبل إعلان استقلال سورية ، والتى تتعلق بالاستقلال وتتويج الملك فيصل ثم وثائق الإنذار ، ثم الوثائق التى ظهرت بعد يوم ميسلون .

والكتاب ، يجمع تاريخ العرب الحديث كله بين دفتيه . وأعتقد أنه سيكون له شأن ، وسيشغل الناس طويلا ، وسيطلعهم صفحة رائعة من صفحات جهاد العرب ، فى سبيل استقلالهم ، واستعادة مجدهم .

ترى من يكون له شرف نشر هذا الكتاب ؟ .

تراجم :

أفادتنا كتب التراجم فى إظهار عصورنا الخالية ، فائدة كبرى . فنحن ما نزال ندرس طرفاً كبيراً من تاريخنا ، من خلال تراجم أولئك الأشخاص الذين شغلوا

تلك العصور بأعمالهم وآثارهم وأخبارهم .

وآخر ما أُلف في التراجم «سلك الدرر في تراجم أعيان القرن الثاني عشر» ، ولم يؤرخ رجالَ القرن الثالث عشر أحد على ما أعلم .

وها هو ذا أستاذ دمشق قد قام بهذا العمل . هو الشيخ جميل الشطي مفتي الحنابلة بدمشق ، فقد ذيل سلك الدرر ، وجعله في تراجم أعيان القرن الثالث عشر .

والكتاب يجمع تراجم الدماشقة في القرن الحالي ، وتراجم عدد كبير من المسلمين وأعلامهم في البلاد الأخرى الذين أحاط بهم علمه .

وقد فرغ من الكتاب وسيطبع قريباً .

تأريخ المدن :

تعجبني الدراسات التي تؤرخ المدن . ويزداد إعجابي ، عند ما أرى المؤلف ينظر إلى المدينة كأنها كائن حي . ولد فدرج ، ثم ترعرع فنما ، ثم شب فاشتد ، ثم اكتهل ثم شاخ . فهذه النظرة وحدها تأتي بخير . لأنك ترافق نمو المدينة في جميع أحوالها ، وتستمع إلى طرائف أخبارها وتطلع على دقائق أمورها ، وتشهدها في عظمتها وضعفها وفي سعدها وازدهارها ، ونحسها وانحطاطها ، وترى ، بعد ذلك ، صفاتها في كل حال من هذه الأحوال .

ولقد عني الغربيون بتأريخ مدن الفن والحضارة ، وبتأريخ العواصم الكبرى ، تأريخاً كهذا . فأنت تجد من كل مدينة كان لها في تاريخ الحضارة اسم ، كتاباً . تقرأ فيه ما تشاء ، فلا تخفى عليك خافية ، لأن فيه ما تتوق النفس إلى عرفانه . وهكذا نجد تأريخاً لباريس ولندن وبرلين وأثينة وغيرها .

ما أحوج مدن الشرق ، إلى دراسات كهذه ! .

لقد ذكرت هذا ، عند ما قرأت دراسة المستشرق سوفاجيه عن مدينة حلب (١) ، وهي دراسة ظهرت منذ سنوات ، ولم نقرأها ، بسبب الحرب وانقطاع المواصلات ، إلا اليوم .

هذه الدراسة هي محاولة لإظهار نمو عاصمة الحمدانيين منذ نشأتها ، إلى منتصف القرن التاسع عشر . وقد تقدم بها هذا المستشرق إلى جامعة باريس ، لنوال شهادة الدكتوراه . وقد حدثني من شهد نقاشها أنها كانت فتحاً في الدراسات الآثارية لتاريخ المدن . ولقد قرأتها فلمست الجهد الكبير والوقت الطويل اللذين بذلهما المؤلف لوضعها ؛ فقد بدأ بموقع المدينة ، وذكر كيف نشأت ، ثم حلل العوامل التي ساعدت على نموها . ثم أخذ يصف المدينة الهلينية والمدينة الرومانية ، ثم ما كانت عليه زمن البزنطيين ، ثم ما آلت إليه تحت حكم العرب المسلمين ، في زمن الأمويين ، والعباسيين ، والسلاجقة الأتراك ، والنوريين ، والأيوبيين ، والمماليك ، وأخيراً العثمانيين .

وقد ألحق المؤلف بدراسته مجموعة من الصور ، بلغ عدد صورها سبعين لوحاً .

فعسى أن نقوم نحن بدراسة مدننا .. فمن العار أن يعلمنا الأجانب ما ينبغي أن نكون أول من يعرفه .

نهضة في حلب :

وما دمنا نتحدث عن حلب الشهباء، فمن الواجب أن نذكر تباشير نهضة ظهرت فيها .

فقد كان فيها دار كتب ، ترتبط بالمجمع العلمي العربي بدمشق . وكانت مهملة ، في مكان مظلم ، ينفر الناس منه إذا رأوه .

وبعد عام ١٩٣٦ ، بُدئ ببناء دار كتب عظيمة فيها ،

(١) Alep. Essai sur le developpement d'une grande ville Syrienne des Origines au milieu du XIX Siècle (Paris)

وكان الذى سعى فى بنائها معالى الأمير مصطفى الشهابى ، محافظ حلب يومئذ ، ومحافظها اليوم .

وتم بناؤها ، فغالت بسمعها دار الكتب الظاهرية بدمشق . ولكنها ظلت مهملة :

وضحك لهذه الدار الحظ ، فمضت من الجمع ، وإذا بها تزدهر ازدهاراً رائعاً ، فيشترى لها عدد عظيم من الكتب ، وتقوم الآن بمشروع عظيم .

هذا المشروع هو دعوة كبار الأدباء والعلماء فى الأقطار العربية كلها إلى حلب لإلقاء محاضرات فى دار الكتب الوطنية .

وتكون النفقات كلها على دار الكتب ، مذ يخرج المحاضر من بلدته حتى يعود إليها .

وقد دعى محاضران من لبنان ، وسيدعى أدباء وعلماء من فلسطين والقاهرة .

ويقوم اليوم على رأس دار الكتب بحلب الشاعر السورى النابغة عمر أبو ريشة

وسنعنى ، فى عددنا ، بالتنويه بأدباء حلب وأخبارهم وآثارهم ، إن شاء الله .

اقتراح :

يظهر أن أدباءنا وعلماءنا وباحثينا قد بلوا بداء التكتم . فهم يكتمون ما يشتغلون به ، وما يؤلفونه . وكل يعمل سراً ، يخاف أن يدرى به الآخر ..

ولكن هذا التكتم يجر إلى مساوىء كثيرة

فقد يدأب اثنان على دراسة موضوع واحد فإذا فرغا منه أو كادا ، علم كل بعمل الآخر ، فندم ، وود لو علم قبل ذلك ، فانصرف عن الموضوع إلى موضوع آخر .

وقد يقبل اثنان على تحقيق كتاب قديم واحد ، فإذا قطعا فيه أشواطاً علم كل بخبر الآخر . وعندئذ يصر كل على إخراج الكتاب ، وهذا أمر لا يستحسن ، أو يهملان الكتاب ، وذلك أمر فيه كل الشر ..

ومازلت أذكر كيف تشاحن الأستاذان كوركيس عواد ، من بغداد ، وصلاح الدين المنجد ، من دمشق ، لأجل كتاب «الديارات» . فقد كان الاثنان يحققانه . ولما علم كل بأن الآخر يحققه تشاحنا وأصر كل على إخراجه .

وكان الدكتور أحمد سامح الخالدى ، من القدس ، قد حقق كتاب الفاضل للوشاء المنسوب خطأ لابن الأعرابى ، وقد كاد الكتاب أن يطبع ، وإذا بالأستاذ أحمد محمد شاكر يعمل على تحقيقه ، أو أنه حققه فعلا وبدأ بطبعه فى دار المعارف . . .

ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، تطبع الآن كتاباً للأستاذ الباز العرينى ، من الحسبة ، وفى الوقت نفسه ، ذكرت إحدى المجلات الأدبية فى القاهرة أن الدكتور طلس يحققه ، أو يريد أن يحققه ..

والأستاذ خليل مردم بك ، يخرج الآن ديوان ابن عنين ، وهو يشتغل به منذ ست سنوات أو أكثر ، وقد علمت أخيراً أن أحد كبار أدباء القاهرة قد حققه أيضاً ، وأنه اتفق مع إحدى دور النشر لطبعه .

فهذه أمثلة ذكرناها ، لأننا عرفناها ، ولعل هناك أمثلة أخرى — لا نعلم بها ، لأن الأدباء يتكتمون ، ولا يخبرون عما يعملون .

لذلك نقترح أن تخص مجلة الثقافة فى كل عدد صفحة يذكر فيها الأدباء والباحثون فى البلاد العربية ، مايؤلفون من الموضوعات أو ما يحققون من الكتب ، ويسأل بعضهم بعضاً فيها عن المصادر أو الأمور التى لا يجدون لها حلا ؛ وبذلك تصبح الثقافة سجلا لأعمال العلماء والأدباء فى البلاد العربية ، ويعلم كل عما يعمل الآخر . ويساعد كلٌّ أخاه فيما يريده ، وتعلم دور النشر عما يؤلف . فتنتقى ما تريد نشره .

لعل أستاذنا الجليل أحمد أمين بك يوافق على هذا الاقتراح ويساعد على تأييده ، ولعل الأدباء والباحثين يسمعون هذا النداء ويسعون إلى تحقيقه .

ز ز

الثقافة اللبنية

لا أقصد بالثقـافة اللبنية الثقافة الأولى أو ثقافة الرضع والأطفال ، بل أقصد معرفة كل ما يتعلق باللبن ووسائل الانتفاع به إلى أقصى حدود الانتفاع ، لأن اللبن مادة غذائية هامة ؛ وأبرز دليل على مركزه الممتاز بين المواد الغذائية أنه غذاء الرضيع الوحيد لمدة أشهر من وقت ميلاده ، لأن فيه الكفاية له من العناصر اللازمة تمده بكل حاجيات جسمه ، إذ به مواد زلالية للبناء والتجديد ومواد دهنية ونشائية (سكرية) تحدمع ماتبق من المواد الزلالية بعد البناء والتجديد بالوقود ؛ وبه أملاح معدنية وأهمها الكالسيوم والفسفور ؛ والأملاح لازمة لحفظ تعادل الدم ولتنظيم ضربات القلب واستجابات العضلات للتيارات العصبية ؛ وبه ماء وهو ألزم ما يلزم للإنسان الذي لا يمكنه أن يعيش على غذاء جاف خال تمام الخلو منه لمدة أكثر من يومين إلى عشرة أيام ؛ كما أن الحياة تنقل المواد الغذائية لأجزاء الجسم المختلفة المتباعدة وتحمل الفضلات إلى الكلى وتذيب كل هذه المواد ليسهل نقلها وتوزيعها وإخراجها . وباللبن أيضاً فيتامينات ضرورية لحفظ الجسم من الأمراض ، إذ يوجد به فيتامين ا الذي يشجع النمو ويقى من العشا ويحفظ الأغشية المبطنة لأجهزة الجسم ، فيقى من البرد والسعال والتهاب الكلى وحتى من الحصوات ، وفيتامين ب المركب الذي يقى من الانقباض النفساني والتهيج وحتى من الجنون ، ويحفظ التركيز الذهنى ويقى من الأكزيما وغيرها من الأمراض الجلدية ومن أمراض عصبية كعسر الهضم والإمساك . وإذا أطعمت الماشية خضرة سلطت عليها الأشعة فوق البنفسجية احتوى اللبن على فيتامين د الذى يقى من الكساح ولين العظام واستر قاقها ، ويفيد في نمو العظام والأسنان ، وبه القليل من فيتامين ح ويقى من الأزفة والتهاب اللثة وفقر الدم وغيرها .

ويحتوى لبن الأم — علاوة على ذلك — على أجسام مضادة لبعض الأمراض المعدية كالحصبة .

فمن هذا نرى أهمية اللبن كمادة غذائية ، وإن كان فقيراً في الحديد اللازم للدم حيث ينقل الأكسجين بوساطته من الرئتين إليه ، وبغير الأكسجين لا يحصل احتراق المواد الغذائية ، فلا تتولد الطاقة التى تتحول إلى حرارة ونشاط ؛ وهذا النقص يمكن التغلب عليه بأكل خضر خضراء وكبد وحبوب ودقيق كاملين أى بغير تجريدها من القشرة الداخلية . هذا ومن اللبن يتولد فى الأمعاء فيتامين ب المركب بفعل الجراثيم التى بها وإن كان ليس بقدر يسد حاجات الجسم .

فالثقافة اللبنية مثلها مثل كل أنواع الثقافة يجب أن تأخذ السكان الجدير بها ، وللأسف أنها غير معنى بها أو الذين يعلمون عنها شيئاً لا يعملون به ؛ ولا يعلمونه لغيرهم .

والثقافة اللبنية تشمل الوقوف على تركيب أنواع اللبن المختلفة وقيمتها الغذائية ومصادرها ومنتجات اللبن وفوائدها ووسائل العناية بالأم وبالمصادر الأخرى وبالماشية ومسكنها وغذائها وبالقائمين عليها وبوسائل نقله وحفظه وغشه ، وعما ينقله من أمراض ، وبالدعاوة لشربه وأكله ، وبوسائل تحضيره وطهيه — هذه هى الثقافة اللبنية ؛ وسأذكر بعض النقط البارزة فيها .

مصادره : الأم — وهذه يجب أن يعنى بغذائها ، فهى تغذى اثنين ويقدر غذاؤها بغذاء أنثى تعمل عملا شاقاً ، على أن يكون محتوياً على كل المواد اللازمة لنمو الجنين والتى سبقت الإشارة إليها ، وأن تتمتع برياضة خفيفة كالمشى وراحة كافية ومدة من النوم لا تقل عن ثمانى ساعات ، وأن تكون بعيدة كل البعد عن الاضطراب النفسانى وأن يعنى بصحتها ولا سيما الجهاز الهضمى ، وأن تكون خالية من الأمراض المعدية .

وأما الحيوانات الحلوب التي تستمد منها اللبن بالقطر المصري فهي الجاموس والبقر والغنم والماعز والجمال ، وفي بعض الأحيان نحصل عليه من الحمير في أحوال الضرورة بأمر الطبيب . وأكثر الألبان استعمالا لبن الجاموس ويليه لبن البقر وأخفها هضماً لبن الحمير .

لبن البقر : ويتركب لبن البقر من مواد زلالية بنسبة ٣ر٥ ٪ ومواد نشائية (سكرية) بنسبة ٤ر٧٥ ٪ ومواد دهنية بنسبة ٣ر٧٦ ٪ وأملاح معدنية بنسبة ٠ر٧٢ ٪ والباقي ماء .

لبن الجاموس : ويتركب من مواد زلالية بنسبة ٤ر١٦ ٪ ومواد نشائية (سكرية) بنسبة ٤ر٧ ٪ ومواد دهنية بنسبة ٧ر٥ ٪ وأملاح معدنية بنسبة ٠ر٨ ٪ والباقي ماء

لبن الحمير : ويتركب من مواد زلالية ١ر٦٦ ٪ ومواد نشائية (سكرية) ٦ر٥ ٪ ومواد دهنية بنسبة ١ر٣٦ وأملاح ٠ر٤٦ ٪ وأكثر من ٧٩ ٪ ماء .

ولبن الأم يحتوي على ٢ر٢٣ ٪ مواد زلالية و٦ر٣٦ ٪ مواد نشائية (سكرية) و٣ر١٥ ٪ مواد دهنية و٠ر٣٢ ٪ أملاح والباقي ماء .

فمن هذا نرى أنه لجعل اللبن معادلا للبن الأم من حيث العناصر الأساسية يجب تعديله ولا سيما الجاموسي لاحتوائه على مواد دهنية أكثر من ضعف ما بلبن الأم ، ولذلك يعسر هضمه على الطفل لأن الدهن يعطي حرارة ضعف ما تعطيه المواد الزلالية والنشائية ، ولذلك إذا أكل إنسان مادة دسمة طال زمن فتح شهوته للأكلة الثانية حتى يستنفد جسمه الحرارة التي قد تولدت من الدهن .

وأما الفيتامينات فنضرب مثلا بلبن البقر الذي يحتوي على كمية وافرة جداً من فيتامين ا ، وهو ما لا يوجد إلا قليلا في تلك لحم مشوى ، وكميات من فيتامينات ب ، حـ . فأوقية لبن بها ثلاثة أمثال فيتامين ا مما يوجد بأوقية لحم بقر .

هذا وزلاليات اللبن يمكن الاستعاضة بها عن زلاليات اللحم وهي أرخص ثمناً ، فما يلزم الإنسان يومياً من الزلاليات الحيوانية يقرب من ثلاثين جراماً ؛ وهذه توجد في أربع أوقيات من اللبن العادي وثمنها حوالي ثمانية وعشرين مليما ، بينما نحصل عليها من قطعة لحم ضأن بنفس الوزن وثمنها يقرب من ستة قروش صاغاً ، فضلا عن أنه باتحاده مع الزلاليات النباتية كزلاليات الفول والعدس واللوبيا يحسن نوعها ، وهي ما نكمل بها ما يلزمنا من زلاليات للنمو والتجديد ، فضلا عن المواد الأخرى كالزبد الذي يحتوي عليها ولها قيمتها الغذائية والنقدية .

وقاية اللبن وحفظه : ولما كان اللبن مزرعة من الدرجة الأولى للجراثيم ، فتنتقل بواسطته أمراض كالحميات التيفودية والدوزنتاريا وإسهال الأطفال وغيرها ، فيجب أن نعنى بحفظه بأن يغلى إذا لم يشرب طازجاً ، وإن كان الغلي يؤثر في الزبد ويحرق السكر ويرسب الأملاح فيجعله أعسر هضما ، ويحفظ بالغلي لدرجة سبعين مئوية ، وهذه الدرجة كافية لقتل معظم الجراثيم ، أو بالكهرباء أو بالتثليج ، وهذا لا يقتل الجراثيم بل يوقف نموها وتكاثرها والغلي يقتل فيتامين حـ .

ولوقاية اللبن يجب أن يعنى بصحة الماشية لأن بعض الأمراض كالدرن غير الرئوي ينتقل من الحيوان للإنسان ، بفحصها من وقت لآخر وبالعناية بمسكنها وغذائها ونظافتها .

ويجب أيضاً لمن يشتغل في اللبن أو في العناية بالماشية أن يكون سليما من الأمراض لأن بعضهم يحمل جراثيم المرض وإن كان لا تظهر عليه أعراضه كجراثيم الحمى التيفودية

والخلاصة : أن اللبن مواده الزلالية من نوع جيد سهل الهضم ، وهو غني بالفيتامينات والأملاح ، نافع للمرضى ببعض الأمراض الذين يوصف لهم غذاء سائل لزمن معين ، وثمنه في طاقة كل إنسان ويمكن تسويغه لمن لا يطيقه أو يستسيغه بتعديل نسب عناصره بسهولة أو بإضافة

مواد تهش صلابة وجسامة روبانه ، أو بأكل متنتجاته أو بتبريده أو تسخينه أو بتخميره ، فيؤكل كاللبن الزبادى ، أو بتحميضه فيؤكل كاللبن الرائب ، أو بتغيير نكهته بإضافة الشاى أو القهوة أو الكاكاو ، أو بأكله مثلجاً أو بطهيه بشتى الأشكال ، فهو غذاء مطواع تأكله على أى لون تريد ، وتجده فى كل وقت بشتى الأشكال .

وأخيراً : أعتقد أنى قد أتيت على بعض ما يجعل نشر الثقافة اللبنية من الضروريات لحفظ صحة الإنسان ، التى بها يقدم على شرب اللبن والعناية بتربية الماشية والإكثار منها . وقد نقص عدد الأبقار فى زمن الحرب إحدى عشرة فى المائة وعدد الجاموس ٥ فى المائة .

ومقدار ما يلزم الطفل منه يومياً حوالى اللتر والبالغ نصف اللتر ، والحامل والمرضع ثلاثة أمثال ما يلزم البالغ .

الدكتور محمد زكى شافعى

الامبراطور الفيلسوف

– ٣ –

فى حياة الإمبراطور مرقس أوريليوس مسألة شائكة لا تزال يدور حولها البحث ، ويختلف الرأى ويشتد الجدل ، وهى موقفه من الاضطهاد الذى أصاب المسيحيين فى عصره . وقد حاول بعض المؤرخين أن يشكوا فى صلة الإمبراطور بحوادث الاضطهاد التى وقعت فى مدينة ليون ، ولكن يظهر أنه من الثابت أن مرقس أوريليوس قد أقرها — كما يقول ماثيو أرنولد وهو أحد المعجبين بالإمبراطور الفيلسوف . والواقع أن جانباً مما أصاب المسيحية فى عصر الأباطرة الصالحين من أمثال تراجان وانطونينوس بيوس ومرقس أوريليوس كان يرجع إلى تصورهم الخاص للمسيحية التى كانوا يحاولون إطفاء نورها وإخماد أنفاسها ؛ كانوا يرونها من الناحية الفلسفية شيئاً سخيفاً لا خير فيه ولا غناء ، وكانوا يعتقدون أنها من الوجهة الأخلاقية تغرى بالفساد وتبعث على الشر والإجرام . أما من الناحية السياسية فكانوا يرونها هادمة للدولة مفككة لعرى المجتمع . وكانت الفكرة الغالبة هى أن للمسيحيين جمعية سرية تعمل فى الخفاء لتحقيق أغراض مريبة ، وكانت جمهرة الشعب الرومانى لا تشك فى أن هؤلاء المسيحيين كفرة ملاحدة يستحلون المحرمات ولا يتورعون من أكل لحوم البشر ، وكانت الديانة الرومانية من ناحية أخرى بغيضة إلى نفوس المسيحيين ، يمقتونها أشد المقت ، ولا يكتفون فى معارضتها بالمقاومة السلبية الصامتة ، ولا يمتنعون من تقديم القرابين فحسب ، بل يحرضون غيرهم من الطوائف على أن يسلك مسلكهم ، ولا يكتفون بترك تماثيل الآلهة ، بل يعمدون إلى إسقاطها من فوق القوائم التى ترتكز عليها ؛ ولذا كان الرومانيون يمقتون المسيحيين ويسيئون بهم الظن ، وكانت الاجتماعات التى يعقدها المسيحيون مثاراً لأعاجيب الروايات وغرائب الظنون فى الأوساط الرومانية . وكانت كراهة الشعب الرومانى للمسيحيين من القوة والتأصل بحيث كان يجد الحكام والأمراء صعوبة كبيرة فى كبح جماحها وصد تيارها الجارف ، وكان من السهل أن تنتقل هذه الآراء والمعتقدات من العامة إلى الخاصة . وقد يعجب الإنسان كيف أن تعاليم سامية كتعاليم السيد المسيح تستهدف لمثل هذا التصوير الخاطئ والعرض المشوه . ولكن السبب الحقيقى لذلك هو أن المسيحية كانت روحاً جديدة فى العالم الرومانى ، وكان مقدراً أن هذه الروح الجديدة ستزلزل قواعده وتحلل كيانه ، وكانت هذه الروح الجديدة فى العالم الرومانى تشبه الروح الديمقراطية فى العالم الحديث ، ومثل كل روح حديثة ينفر الناس منها فى مستهل أمرها نفوراً غريزياً لأنها تبيح لهم بعالم جديد مجهول ، ولا عجب أن تلقى الروح الجديدة شدة ومقاومة من العالم الذى يشعر شعوراً غامضاً خفياً

بأنها ستقلبه رأساً على عقب وتقوم على أنقاضه ، وكانت الدولة الرومانية شديدة الحرص على نفوذها وتقرير سلطانها ، فهي لا تسمح بأن تقوم في داخل حدودها وبين بصرها وسمعها جماعة تتحداها ، وتخلع طاعتها ، وتخرج عليها . وكان الإمبراطور مرقس أورليوس يحكم مركزه حامي التقاليد الرومانية والقيم على الدولة وشؤونها ، ولم يكن في وسع مرقس أورليوس بحكم نشأته وتقاليد قومه أن يرى المسيحية على حقيقتها ، ويقدر ما في آدابها من سمو وتسامح وإنسانية ؛ وكان حتما عليه أن يراها شيئاً مناقضاً للنظام هادماً للمجتمع ، فواجب الدولة مقاومته وكسر شوكته والقضاء عليه ، وهو أول من يفرض عليه الإشراف على ذلك رعاية للأمانة وصيانة للملك . ولكننا نرى برغم ذلك كله أن هذا الحكيم الفيلسوف العظيم القلب والحب قد أساء بعض الإساءة من غير قصد إلى المسيحية ، وقد تغتفر هذه الإساءة لغيره ، ولكنه كان رجلا الكمال بغيته والحق طلبته ، فهو لا يقاس على غيره ، ويطلب منه أكثر مما يطلب من سواه ، وقد يكون بريء الساحة واضح العذر ، ولكنه مع ذلك كله كان سيء الحظ في هذه المسألة ، وليست هي أول مسألة لازمه فيها سوء الحظ وتنكر له القدر ، فقد أساء إليه الحظ إساءة أخرى شابت صفو حياته واستنفدت مقداراً غير يسير من حلمه الرزين وصبره الطويل وتجلده المنقطع النظير ؛ فقد كانت فاوستينا زوجة الإمبراطور الصالح لا تفهمه ولا تقدره ولا تحبوه بعطفها ، ولا تبادله الحب ، وكانت في بادىء الأمر تضمر له شيئاً من الحب ، ولكنها سرعان ما ملت حكمته ، وسامتها جهامة ورعه ، وذلك الحزن الصامت الوديع الذي كان يلازمه ويغلب عليه ، وكانت فاوستينا امرأة رائعة الجمال فاتنة جذابة ، كثيرة البدوات ، حادة الطباع ، وقد كثرت حول سمعتها الشائعات وتناثرت الأخبار السيئة . ويقول رينان : إن البحث التاريخي الدقيق أظهر بطلان الكثير من التهم التي قذفت بها . وهو مع ذلك يرى أن البقية القليلة من التهم التي لم يستطع التحقيق التاريخي تفنيدها من الخطورة بمكان ، وهي لم تقبل أن تشارك زوجها في ميوله ونزعاته ، وكانت تمقت أصدقاءه وصحابته ، وكان ذوقها يخالف ذوقه واتجاهها يناقض اتجاهه .

وكان الإمبراطور يعرف ذلك ، ويشقى به ، ويحتمله صابراً محتسباً ، ولم تخذله هنا تلك النظرية العجيبة التي كان يحرص عليها ، وهي أن يرى الأشياء كما يجب أن تكون لا كما هي عليه ، وسد أذنيه من سماع أخبار السوء ، ولم يتحول عن خطته ، وظلت فاوستينا « زوجته الصالحة الوفية المخلصة التقية » ولم ينبذ هذه الأسطورة حتى بعد موتها ، وقد استطاع في أعوامه الأخيرة أن ينسى كل شيء ، ويغالط نفسه في كل الأمور ويخدعها ، ولكنه لم يرتفع إلى هذه القمة إلا بعد معارك حامية وصراع داخلي رهيب ، كان جوهر فلسفته الخضوع والاستسلام ونبذ كل شيء ، وكان لزاماً عليه أن يحمل نفسه على توديع السعادة الدنيوية والمآرب الأرضية ليصل إلى هذه الحالة ، وربما لم يكن في مقدور البشر أن يقدروا مدى الآلام التي عاناها مثل هذا الرجل لبلوغ هذه الحالة النفسية العجيبة النادرة ! .

ورينان يقول في هذا الصدد : « حقيقة أن توديع السعادة هو بدء الحكمة وآكد طريق للظفر بالسعادة » وردف ذلك بقوله : « لا شيء أعذب من السرور الذي يعقب تنازلنا عن السرور » فهل الأمر كذلك ؟ هذه مرتفعات قد لا نقوى على السير في دروبها ، وربما كان إخواننا أصحاب الأمزجة الصوفية أقدر منا على فهمها ! .

وقد ذكرت في المقال السابق نكبته بابنه كومودس ، ذلك الفظ الغليظ القلب المتكس الطبيعة المجبول على الأذى والشر . وقد ألمع في تأملاته إلى بعض ما عاناه منه في قوله : « ما الذي يستطيع أن يفعله شر الناس من الأعمال السيئة إذا ظللت مصراً على العطف عليه والإحسان

إليه ، وإذا ترفقت فى لومه حينما تلوح الفرصة وألقيت عليه فى اللحظة التى يحاول فيها الإساءة إليك أمثال هذا الدرس فى غير غضب (أعرض عن ذلك يا ولدى فقد ولدنا لغايات أخرى ، إنك لا تسىء إلىّ وإنما تسىء إلى نفسك) وأبصره بلباقة البادىء العامة التى تقضى بأن تكون هذه هى القاعدة وأنه لا النحل يعمل عمله ولا الحيوانات التى تعيش فى القطيع ، ولا أنتقصه أو أعيبه، بل أقول كل ما أقوله له بلهجة الوامق العاطف كأنه صادر من قلب لم تؤثر فيه مرارة الغضب ، ولا أحدثه كأنى معلم المدرسة ، أو لأكسب إعجاب الحاضرين ، وإنما أستعمل نفس الصراحة التى أتحدث بها إليه حينما نكون منفردين معاً » ولكن هذه البلاغة الأبوية لم تصلح لسوء الحظ من شأن نجله كومودس ، وكانت تنتظره فى سنواته الأخيرة آلام أخرى ، وتجارب جديدة مرة شديدة ، فقد تخطف الموت أصدقاء طفولته وشبابه ، وأصبح هؤلاء السادة النطارف الذين جمعهم حوله أنطونينوس ولم يصحبهم مرقس أوريليوس طى الأرماس ، وأحس أنه فى جيل لا يفهمه ، وأخذ يطيل التفكير فى الموت . من ذلك قوله فى تأملاته : « لا تلعن الموت بل رحب به لأنه فى عداد تلك الظاهر التى تريدها الطبيعة ، وانحلال كياننا شىء طبيعى مثل الشباب والشيخوخة والنمو والنضج التام ... وإذا كنت فى حاجة إلى تفكير خاص ليصلح ما بينك وبين الموت فما عليك إلا أن تفكر فيمن سيطوى الموت ما بينك وبينهم ، فلا تفكر فى مناصبتهم والحقد عليهم ، وإنما خذ نفسك بحبهم واحتمالهم فى رفق ولين ، ولكن برغم ذلك تذكر أنك لا تفارق قوماً يشعرون بمثل شعورك ، والشىء الوحيد الذى يستطيع أن يجعلنا نستمسك بالحياة ويقيدنا بها هو تلك الصحبة المباركة ، صحبة من هم على شاكلتنا وأشباهنا ؛ ولكن لما كانت الأمور كما ترى فانظر القصص الدخيلة التى تعانيها حتى لتنبعث منك هذه الصيحة : « أيها الموت لا ترجىء قدومك خشية أن أنسى نفسى » .

وأخذ يمعن فى تحليل الحياة وتشريح أجزائها حتى أصبح الفرق يسيراً بينها وبين الموت ، ووصل من هذا الطريق إلى التسامح العام وعدم الاكتراث الذى كان يلطف من حدته الإشفاق والاحتقار ، وكان الهدف الذى يرمى إليه هو « أن يعيش زاهداً مستنفداً بين الرجال الزيفين الظالمين » والطيبة الصادقة الوطيدة هى التى تقوم على الزهد فى كل شىء والملل منه والتبرم به ، والإحساس بأن كل ما فى هذه الحياة تافه حقير سطحى زائل ، وإذا بدت الدنيا للإنسان أطلالا دارسة ورسوماً عافية فماذا يبقى ؟ الشر والحقد والضغينة ؟ كلا فإن الأمر أهون من أن يستحق هذا العناء ، والقيام بالأعمال الشريرة يستلزم على الأقل الإيمان بما فيه من متعة والاعتقاد بالانتقام والطموح . ولكن الرجل الذى زالت عن بصره غشاوة الأوهام ، وعرف أن كل رغبة تنطوى على حماقة لا يكلف نفسه مثل هذا العناء . ولقد وصل مرقس أوريليوس إلى ما يشبه النرفانا عند البوذيين .

وفى العاشر من شهر مارس للسنة الميلادية ١٨٠ مرض الإمبراطور واستعد للقاء الموت الذى كان يطلبه ويدعوه ، وأمسك عن الطعام والشراب ، واستدعى ابنه كومودس ورجاه أن يتابع الحرب القائمة حتى يصل بها إلى النهاية . وفى اليوم السادس من مرضه استدعى أصدقاءه وخاطبهم بلهجته المألوفة وسخريته الخفيفة المهذبة وتحدث إليهم من غرور الحياة وباطلها وعدم الاكتراث بالموت ، فتفجرت عبراتهم فقال لهم : « لماذا تبكون من أجلى ؟ لا تفكروا فى غير إنقاذ الجيش ، وكل ما فى الأمر هو أنى أسبقكم .. فالوداع ! » ، وسئل : من يوصى بابنه ؟ فأجاب « أوصيكم به إذا وجدتموه جديراً بذلك وأوصى الآلهة الخالدين » وحزن الجيش على فقده حزناً شديداً لأنه كان يعبده عبادة ، وكان الجيش يعرف التحدر الذى

ستسقط فيه الدولة بعد موته ، وكان لا يزال به بقية تكفى لتقديمه نجله للجيش ، وقد مكنته براعته فى الاحتفاظ بهدوئه رغم الآلام الشديدة التى يعانيها من أن يظل جلداً رزيناً فى تلك اللحظة القاسية .

وفى اليوم السابع شعر بقرب الخاتمة وكان لا يرى غير نجله ، وأبعده بعد دقائق خشية أن تصيبه عدوى المرض ، وربما كان ذلك حجة ليريح نفسه من محضره البغيض ، ثم غطى رأسه كأنه يحاول النوم ، وفى الليلة القادمة أسلم الروح ، ونقلت جثته إلى روما ودفن فى مقبرة الإمبراطور هادريان ، وفى يوم الاحتفال بدفنه لم يكد يسفح عليه دمع ، فقد كان الجميع يعتقدون أنه قد عاد إلى الآلهة التى أعارته الأرض حيناً من الزمن ! وكان الذى تمكنه أحواله من اقتناء تمثال للامبراطور فى منزله ولا يفعل ذلك يذم ويلام ، وكان جيلا من الناس ومشرفاً للانسانية هذا الوفاء النزيه والتقدير البرىء لهذا الرجل الراحل العظيم !

وقد ترك مرقس أوريليوس للانسانية كتابا يعد من أسمى الكتب التى كتبها القدماء ، وهو كتاب التأملات ، وليس هذا الكتاب مجرد مجموعة أفكار فلسفية أو خواطر أخلاقية صالحة للوعظ والتبشير والهداية والإرشاد ، وإنما هو قصة نفس كانت تنشد الحقيقة ، وتمتى بمشكلات الحياة الكبيرة ، وتديم التفكير فى معنى الحياة والموت ، وهو مناجاة مستمدة من مأساة حياة رجل كبير القلب ، راجح العقل ، لا يريد أن يذيع عقيدة أخلاقية ، أو أن يقدم لك مذهباً فلسفياً ، ولكنه مع ذلك يستولى عليك ويلمس قلبك .

وقد انتهى إلى فكرة أن على الإنسان أن يخمد رغباته إذا أراد أن يكون سيد نفسه ، وهى نفس النتيجة التى انتهى إليها شوبنهاور والبوذيون ، وهى نوع من الانتحار الداخلى وكبت للرغبات والميول والأهواء .

والوصية التى يوصينا بها الرواقيون والبوذيون وشوبنهاور ومرقس أوريليوس هى أن نعمل على أن نكون كالأحجار التى لا تحس شيئاً ، ولكن إذا كانت الأحجار لا تحس وبذلك تتخلص من الألم ، فهى كذلك لا تستشعر الحب ولا تعرف الإيمان . وقد كان قلب مرقس أوريليوس حافلا بالحب والعواطف الإنسانية الكريمة ، عامراً بالإيمان بعدالة الكون وقداسته ؛ وواضح أن هذا نوعاً من أنواع التناقض ، ولكنه تناقض مقبول لأنه أنقذه من جفاف الشعور ، وجمود الحس ، وقساوة القلب ، التى استهدف لها الرواقيون ؛ فقد حاولوا إخماد العواطف نزولا على حكم العقل ، وكان لزاماً عليهم أن يخمدوا كذلك الحب والعطف ، أما مرقس أوريليوس فقد سلم بوجود حرية الإرادة ليستطيع الصفح عن الغير ، وكان يرى كذلك أن الخير والشر طبيعيان كازدهار الورود فى الربيع ؛ وهذا التناقض أفسد مذهبه القلق ولكنه أفاض عليه روحاً إنسانية .

ولم تنقذه من صرامة النسك وظلام اليأس طيبة القلب وحدها ، وإنما لذلك الإيمان بقوة العقل الانسانى ، فهو يقول لنفسه فى تأملاته : « اعمل على أن تتذكر على الدوام أنك رجل وأنك رومانى ، وليكن ديدنك أن تؤدى أعمالك فى رزانة غير متكلفة وبإنسانية وحرية وعدالة » ويقول كذلك : « إن السلطة المقدسة ليست سوى الروح والعقل اللذين يملكهما كل إنسان » فإلهه هو الضمير الإنسانى ، وليس له إيمان محدد فيما يخص الآلهة سوى هذا الإيمان ، وهو لا يؤكد شيئاً ، ولأفكاره دائما وجهان : وجه يفترض وجود الله والروح ، ووجه آخر يفترض أنهما غير موجودين « الدنيا إما أن تكون أخلاطا من من الذرات تجتمع حيناً ، وتفترق حيناً آخر ، وإما أن تكون وحدة متسقة خاضعة لقوانين النظام والعناية ، فإذا صح الرأى الأول فلماذا أطلب البقاء حيث الطبيعة فى فوضى والأشياء تخبط خبط العشواء فى اجتماعها وتفرقها ؟ ولماذا أعنى بأى شىء آخر غير عودتى إلى عنصر الأرض

في أسرع وقت مستطاع ؟ ولماذا أجشم نفسي المتاعب وأسوءها العذاب ؟ فلأحمل ما أريد فإن عناصري ستتبدد وتتفرق ، ولكن إذا كانت هناك عناية فإني سأكبر حاكم الدنيا العظيم وأطمئن إلى رعايته وألوذ بحماه » ويقول في مناجاة أخرى : « إعمل وتحدث وفكر كأنك معرض للموت في كل لحظة من لحظات حياتك ، وماذا في الموت مما يروع ويهول ؟ إذا كان هناك آلهة فإنك لن تعذب لأنها لا تمسك بسوء ، وإذا لم يكن هناك آلهة أو كانت لا تحفل بالمخلوقات الفانية أمثالنا فإن عالماً بغير آلهة ولا عناية إلهية لا يستحق أن يعاش به » ولم يستطع مرقس أوريليوس أن يخرج من هذه الحيرة ويطمئن إلى حل لهذا المشكل ، وهذا هو مصدر مأساة حياته الأخلاقية ، فكان هناك صراع دائم في نفسه بين اليقين وبواعث الشك ؛ كان هذا اليقين الذي لا يفتأ يطارد الشك ويغالبه مصدر همه ونصبه وعذابه وآلامه . وقد ظل كذلك إلى النهاية يشك ويؤمن ويحارب إغارة الشكوك ، وقد مات وهو في غمرة الهيجاء وخضمها الثائر ، ولكنه لم ينهزم .

وقد كان يسمو أحياناً إلى القمم العالية حيث الصمت الذي لا تصل إليه ضجة الأرض وضوضاؤها ، والهدوء الذي لا تشوبه عواصف الأهواء والشهوات ، والحكيم الذي يظل متوقلاً في تلك الأعالي والمرتفعات لا مفر له من أن يقضي على إرادة الحياة في نفسه ، وإذا قضى الإنسان على إرادة الحياة في نفسه فقد قضى كذلك على إرادة الفضيلة وإرادة الخير . وقد استطاع مرقس أوريليوس أن يقمع أهواءه ، ويروض جماح نفسه ، ولكن نبع الحب والعطف ظل في نفسه عذباً فياضاً ، يذكرنا بتلك الأسطورة التي تروى من ساكيامونى البوذا ، وذلك أنه في خلال السنوات الطويلة التي قضاها في الصحراء جالساً بغير حراك كانت عيناه معقودتين بالسماء ، وكان دائم التفكير في الأبدية حتى قارب الوصول إلى النرفانة ، وتصلبت مفاصل ذراعيه الممدودة ، وطارت فوقه خطاطيف ، فلما رأته ثابتاً لا يتحرك ظنته حجراً أو جذع شجرة فعششت في راحة يده ، وكانت تعود إليها في كل ربيع ، ولكنها في يوم من الأيام طارت لكي لا تعود مرة ثانية ، فلما عرف ذلك هذا الذي أخمد في نفسه كل رغبة ، وقمع إرادة الحياة ، والذي أصبح لا يألم ولا يفكر ، واستمتع بهدوء النرفانة عز عليه فراق الخطاطيف فطفرت الدموع من عينيه .

وهكذا القلب البشري — كما يقول الكاتب الروسي الكبير مرزكوفسكي — « لا يصل إلى الهدوء المطلق والحكمة الخالصة لأنه لا يستطيع أن يحرّم على نفسه الحب » وربما كان هذا الضعف هو مصدر قوته وآية مجده وعظمته .

علي أدهم

الفشل والنجاح (١)

أودى الفشل والنجاح من الدنيا، وألفيا ذاتهما في أرض غريبة. وكان النجاح لا يزال متوجاً بإكليل الغار الذي فاز به حين كان في الدنيا، وكانت شارات الدعة والغبطة تحف به، وعلى ثغره ابتسامة رخية، كأنما وقر في نفسه أنه أكثر السعي، وأحسن العمل، واستحق ما نال من كرامة وحفاوة. أما الفشل فقد كان حسيراً، مطأطئ الرأس، مجرداً من مظاهر الإكرام، وكان وجهه ضامراً كامداً، حفر عليه الألم خطوطاً عميقة واضحة، بعد أن كانت تلمع أساريره، ويطرد في جبينه ماء البشر وضوء الرجاء. ولكن الأمل والروعة جميعاً قد غيبا عنه.

ووقف ذانك الرفيقان معاً، ينتظران أن يؤذن لهما بالمثول بين يدي ملك تلك البلاد الغريبة. فتقدم نحوهما رجل أقر ليل شبابه وعلته أبهة الكبر، وسألهما عن اسميهما، فقال أحدهما وهو يتقدم إلى الأمام خطوة، ويبسم للشيخ، ويشير إلى إكليل الغار الذي يتألق على مفرقه: «أنا النجاح» فهز الشيخ رأسه وقال: «لا تبالغ في الاعتداد بمواهبك، فكثيراً ما يستقر الرأي، في هذه البلاد، على وزن الأمور بغير موازينكم، فلا نتفق معكم في فهم الأشياء وتقديرها، ولا في البت فيها والحكم عليها. وما تعدونه أنتم نجاحاً نعدوه نحن فشلاً في غالب الأحيان، وما تعدونه أنتم فشلاً نعده نحن نجاحاً. انظر. أترى الرجلين الواقفين هناك! إن الرجل الأقرب إلينا، كان يعد في دنياكم من الصالحين الأخيار، أما الآخر فقد حسبوه في عداد الطالحين الأشرار. ولكننا هنا نعد أولهما شريراً وثانيهما صالحاً. ولعل ذلك يدهشك!! ولكن سرح الطرف فيما هو أمامك. لقد كنتم تحسبون ذلك السياسي مخلصاً. ولكننا نقول إن إخلاصه مشوب، وإن شعوره الوطني مكذوب.. وذلك الشخص، الذي بإمضاء إمارة الشعر، وذكرناه أجل ذكر، وآثرناه بشرف العبقرية، وحلناه لواءها، واصطفيناه ليخلد لنا مواهب المجد والفخر، قد اتخذه عالمكم سخريا!! بل أترى هاتيك الأزهار النابتة هناك؟ إن لها في نظرنا سحراً، يغلب على القوى الحاسة فيغرقها في فيض من الشعور الرضي الرخي، فهي تقيد أبصارنا بفتنتها، ونحن نحب أن نتوخى أفياءها، ونحوم بين مغارسها، ونروي أحاسيسنا من جمالها الثري، وننتشي من عبيرها المنعش. ولكنكم لا تعنون ذواتكم بالتقاطها من مغارسها وشواطئها، الكاسية بضياعها وفنونها، بل إنكم لا تعيرونها نظرة. وأنت ترى أنكم تستهينون بكل ما نحرص عليه من ذخائر هذه الحياة، فإذا هو غاية في تقديركم.

ثم التفت إلى رفيقه الآخر، وترددت في أطواء صوته لهجة العطوف العارف، وسأله قائلا: «وأنت ما اسمك؟» فأجابه ذلك قائلا: «أنا الفشل»! فجذبه من يده في حنان بالغ وقال: «إلي أيها النجاح. دعني أمض بك إلى السدة الملكية».

فرفع الفشل رأسه الطارق، ونصب قامته المقوضة المهدمة، وهش لرنين اسمه الجديد، الذي أطلقه عليه ذلك الشيخ المهيب. وردت إليه تلك الابتسامة نضارته وأمله، كما ردت إليه النضارة والأمل قوته وكفايته، وأشار في اهتمام إلى نده قائلاً: «وهذا؟ هل نتركه هنا وحيداً؟ ألا يسير مع الركب؟».

فهمس الشيخ قائلاً: «سيغدو بصيراً عارفاً، بل إنه يثبت المعرفة منذ الآن، لأن المعرفة تستفاد من التجاريب، كما يرجع السلوك إلى الاكتساب، فتمهلوا. ولا تعجلوا».

ونفذ صاحب الاسم الجديد إلى الحضرة الملكية، ولكن الملك قال له: إن العالم في حاجة إليك، أيها العامل

(١) من قصة الحكاية المعروفة بياتريس هارادن ترجمتها وتمدها لمطبع الزهرة.

هَوِّنْ عَلَيْكَ

كانت بزته غالية الثمن ولكنها قذرة .. وقميصه حريريا ولكنه متغير .. ورباط رقبته ثمينا ولكنه يشاطر القميص اغبراراً .. وهكذا بدت عليه مظاهر البؤس ، ولو شاء لبدت مظاهر النعمة .. أطال الحديث من نفسه ومن يأسه وسأمه ، ولم يتكلم من ماله أو موارده .. ولم أكن أعرفه من قبل فهو صديق لرفيق ، ولم يحاول الرفيق أن يعرفني به ، وبين جهل المتكلم وبين سقم الموضوع وطوله تسرب الملل إلى نفسي ، وكدت أن أقوم لولا أن أنقذنا صديق المتكلم بنداء وأخذه لبعض شأنه .. قال رفيق :

— من تظن ذلك الرجل ؟ .

— أظنه رجلا فقيراً ينعم عليه بعض الأغنياء بملابسه أو نقوده ! ! .

— بل إنه غني لو رام لعاش في سعة ، ولكنه ... كما ترى .

كنت أتوقع أن يكون ذلك الرجل أي شيء إلا أن يكون غنياً ، وما كنت بحاجة إلى التساؤل .. قال رفيق :

— إن هذا الرجل لا يطيق أن يجد نفسه سعيداً ، فهو يلتمس لنفسه أسباب الشقاء ، وإذا حاولت أن تجلو نظرته هذه أبى .. واستمسك بأهداب التعاسة متشبثاً . لا يعرف ولا يحاول أن يعرف معنى السعادة ، فإذا مر أمامه طيف لها تنكره ، وتنكر له ، وإن فيه لعبقرية تقلب السعادة بؤساً .

— يصعب عليك يا صاحبي أن تحدد معنى السعادة .

وإني لتحضرني بضعة أبيات متناثرة من قصيدة الأستاذ إيليا أبي ماضي يقول فيها :

قلت السعادة في النقى فرددتني

وزعمت أن البؤس في ظل الغنى

ورأيت في ظل الأنى تمثالها

ورأيت أن البؤس في ظل الأنى

وأقول إني مؤمن بوجودها

فتقول ما أحراك ألا تؤمنا

المرز البجيل ، وأنت تعرف اسمك الصحيح الآن ، فلا تبيأ شيئاً بالنعوت والأسماء ، التي قد يخترعها لك الناس ، حقد وامحل ، ولكن استصحب معك الأمل الذي يغلب ، والنزم الرجاء المتفائل الجرئ الذي ييسر قصة مشرقة لكفاح شديد ، وتتجلى فيه الهمة الخالقة ، والطموح المبدع ، والإيمان بالنجاح المتوثب من وراء اليقظ والمنطق .

وكر راجعا ، وأخذ يجد ويكدح بإرادة قوية ووجدان يقظ ، وذكر النطق الذكي الكريم الذي لقنه العزم الذي لا يلين . ورجع قلبه صدى أنغام ذلك الاسم العذب الرنان الذي طالعه به الرجل الشيخ قائلاً : إنه الاسم الصحيح لحقيقتك ، والعنوان الصريح لقوتك ، والوثيقة الثابتة لطاقتك .

الزهرة

صاحب المجلة ورئيس تحريرها
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٢٦٩
القاهرة

وأقول سرٌّ سوف يعلن في غيه
فتقول لا سرٌّ هناك ولا هنا

ياصاحبي هذا حوار باطل
لا أنت أدركت الصواب ولا أنا

وإني لا أرى هذا الكلام حقاً و . . .

— كفى ياصاحبي . فما قيمة الاستشهاد بالشعر وأنت تستطيع أن تجد في الشعر البرهان على كل رأى ونقيضه ؟ !

— إن رأيي أن السعادة لا يمكن أن تضع لها تعريفاً محدوداً . . فكثير أولئك الذين لا يشعرون بها ، أمثال صديقك هذا ، وكثير أولئك الذين يتمتعون بها ولا يدرون لهذا سبباً ولا ندرى نحن أيضاً لسعادتهم مبرراً ، فغالباً ما يكونون فقراء نصيبهم من الحياة كسرة يتبلغون بها . . ومع ذلك فهم سعداء . . وقد نجد أغنياء يرون سعادتهم في جمع المال . . نظنهم نحن أشقياء وهم يحسبون أنفسهم سعداء ! وهكذا ياسيدى لكل فرد سعادته التى يجعلها مقياساً للسعادة عند كل الناس . فالفقير السعيد يعتبرك شقياً لأنك غنى ، والبخيل السعيد يعتبرك سفيها شقياً إذا دعوت صديقك لمنزلك . فهل يمكنك أن تضع تعريفاً للسعادة والحال على ما نرى من اختلاف المقاييس ؟

— كل مايهم المرء أن يكون سعيداً فحسب . . ولا يهمه بعد ذلك اعتبره القوم سعيداً أم لا ؛ فالفقير السعيد . . سعيد مهما اعتبرته أنت بائساً . والبخيل سعيد مهما عده الناس شقياً ، وكل قانع بسعادته . . والسعادة الحقة لا تكون باعتقاد الناس بل باقتناع النفس بها . فأنت إذا شعرت بالسعادة كنت سعيداً . . وصديق هذا بائس لأنه لا يحاول إشعار نفسه بالسعادة . بل لعله سعيد ببؤسه . . فإنك لتراه يتهلل وتنفرج أساريره إذا اقتنع أحدهم بشقائه .

فالسعادة إذاً هى أن تشعر بها دون أن يحد هذا الشعور رأى الناس . وقد سمعت البخيل مرة فى فلسفة فى البخل يخادع بها نفسه ، فهو يقول : « إن الناس يحسبوننى بخيلا ، وهذا حسبان خاطىء . فالبخيل هو الذى تشتهى نفسه الشىء ، ولا يفعله ، أما أنا فنفسى لا تشتهى شيئاً ، فأنا إذاً لست بخيلا » . وهذه كما ترى فلسفة مغالطة ، ولكنه يحاول أن يشعر نفسه بالسعادة من سبيلها فهو سعيد . فاشعر بالسعادة تكن سعيداً .

— وهل فى يدى أن أشعر نفسى بالسعادة ؟ وكيف يكون ذلك إذا كان الشقاء ماثلا أمام عينى ؟ إنى أراك تصف القاعدة وكأنك مشرع . . . لا تثق بنفسك إلى هذا الحد وتفكر فيما أنت قائل .

— إنما الشقاء والسعادة وهمان ، فى مقدورك أن تمحو أحدهما لتتوهم الآخر ، وإن كنت قوى الإرادة فالأمر طائع بين يديك تختار منه الذى تشاء ، وما إخالك مختاراً لنفسك الشقاء .

عز علىّ أن أهزم مرة ثانية فتسللت فى سرعة .

ثروت أباظة

ذلك الأسلوب الجديد

طلع علينا الأستاذ عبد الفتاح البارودى فى عدد فات من الثقافة الغراء برأى مبتكر، إذ اقترح كتابة نوع جديد من المقالة أكد أنه قد آن الأوان لظهوره. هذه المقالة يرى الأستاذ أن يقتصر كاتبها على حشد أكبر عدد ممكن من المعانى الجديدة المركزة فى أضيق مكان دون التمهيد لها بالمقدمات المألوفة واصطناع التعليل والتأويل، بل يكتفى بسرد الحقائق عارية من الزخرف، واشترط أن تكون هذه المعلومات مما لم يسبق للقارىء الاطلاع عليها، لأنه مثقف فرضا كما شاء كاتب المقال أن يسميه.

وإنى أرى أن هذا النوع من المقالة إذا قدر له أن يذاع على الناس — وما أتوقع ذلك فى المستقبل القريب على الأقل — فسيسلك ضمن موضوعات المجلات العلمية الخاصة التى تكتب لفئة من المتخصصين فى مادة ما؛ إذ كل القراء فى هذه الحالة عندهم علم سابق بما كتب فى هذا الموضوع الذى تخصصوا فيه. أما قراء المجلات العامة فإنهم يختلفون فى درجة ثقافتهم كماً ونوعاً، فمثل هذه المقالة لن يستفيد منها إلا فئة ضئيلة جداً من القراء، هم من أسعدهم الحظ فسبق اطلاعهم على المعلومات التى افترض الكاتب سابق علمهم بها.

والمقالة التى تحوى المعانى المجردة دون العناية بالثوب الذى تظهر فيه هذه المعانى هى من عمل العالم، ولا يمكن أن تكون موضوعاً لدراسة الفنان أو إنتاجاً فنياً لأديب، فالأديب يعبر عن شخصيته عن طريق أسلوبه فى الأداء.

كما لا يخفى أن استيعاب هذا الضرب من المقالة لن يكون سهلا ولا سائغاً، فذاكرة الإنسان لا تعى معنى من المعانى فى يسر وسهولة إلا إذا ارتبط هذا المعنى بمعنى آخر، فيسهل ذلك على الذاكرة القيام بعملها من طريق التداعى؛ وقد يكون هذا هو السبب فى مراعاة الكتاب للتلوين والاتساق والتداعى حتى تظل المقالة باقية الأثر فى ذهن القارىء.

وما أظن أن الكاتب الفاضل قد آمن بفكرته التى يدعو إليها، وإلا لكتب مقالته بأسلوبه الجديد فظهرت فى بضعة أسطر على الأكثر. ولكنى أظن أنه لاحظ مبالغة بعض الكتاب فى الاحتفال بالمعانى، فالكاتب منهم يطيل المقدمة والخاتمة، ويسرف فى التعليق والتذييل، حتى يكاد المعنى الذى يرمى إليه يختفى بين طيات المقالة ولا يكاد يبين. فلا يخرج القارىء بعد قراءة كذا من الصفحات بأكثر من معنى بسيط لا يستحق ما بذل فى سبيله من وقت وعناء.

ولعل هذا هو الغمز الذى أراد الأستاذ البارودى أن ينبه إليه من طرف خفى بأسلوب جديد.

عمر عيسى ماهر

الأمريكيون والفرنسيون

يتألم الفرنسيون كثيرا من شعور الكراهية — أو عدم الاحترام على الأقل — الذى يبديه الأمريكيون نحوهم، ومما يزيد هذا الألم حدة أن الأمريكيين ينظرون بكثير من الاحترام، بل الحب، نحو الألمان، ففى البلاد الفرنسية التى كانت تضم معسكرات من الأسرى الألمان، كان الأمريكيون لا ينفكون يدعون هؤلاء الأسرى للمباراة فى كرة القدم أو الملاكمة وما أشبه، ثم هم بعد ذلك يستنكفون أن يلاعبوا الفرنسيين.

وقد سئل أمريكى كبير فى ذلك فقال: لا أدرى! ولكننى أظن أن الأمريكى العادى يعتقد أن الفرنسى رجل شيوعى والشيوعية فى نظر الأمريكيين خطر ماثل يهدد بلادهم، أما النازية فإن الأمريكى لم يتصور فى يوم من الأيام أنها خطر يهدده... ثم إنها أصبحت أمراً من أمور الماضى المندثر... والألمان يسيرون اليوم نحو الديموقراطية بخطى فساح.

من Free world نيويورك

بعد عام :

أحمد محرم

- ٢ -

وقال فى صديق سورى من الأطباء، أدركته المنية فى أمريكا، وكان قد عالجه من جرح فى يده ظل أثره باقياً :

لا أنسين خلالا منك طيبة
ما اختار أمثالها المجد مختار
وكيف أنسى « المنصور » مودته
وفى يدى منه طول الدهر تذكار ؟

وفى محمد بك فريد :

يا سيد الشهداء بعد « رفيقه »
أرضيت ربك فى الجهاد فأنعم
ليس الذى بدأ الجهاد فلم يتم
إلا كبادئ حجة لم تختم

وفى يوم واحد خرج نعش الشاعر عبد الحليم المصرى والكاتب فرح أنطون يحملهما من هذه الدنيا الفانية إلى العالم الباقى، فقال محرم من قصيدة طويلة مبكية :

هوى « شاعر » على البيان و « كاتب »
حصين النهى فى الكاتبين حصيف
أقلب كفى أكبر الرزء فيهما
وأنظر ريب الدهر كيف يحيف

وفى حفنى بك ناصف :

نبه يراعك من طويل رقاده
وصف الحياة لراقدين كسالى
وابعث بيانك فى المدائن هادياً
ومر القرى أن تصلح الأعمالا

وفى الشيخ أمين الحداد :

ألا فى سبيل الله من كان لى أخاً
وفياً إذ الإخوان بالغدر أولعوا
بموت « أميناً » فى الحياة فكان لى
رضى النفس ما تعدوه أيان تنزع

وفى محمد امام العبد :

غضبت على الحياة فلم تصنها
وكيف يصون علته العليل ؟
قضيت قصيرها تعباً فكانت
وليس يحمدها فى الدهر طول
وما أدب الأديب سوى عناء
إذا ما خانه شعب جهول

وفى قاسم بك أمين :

رمى الحجاب فلولا الله يمسكه
لانشق، أو طار، أو خرت به العمد
إن لامه القوم، أو ضجوا معتبة
فقد أصاب به رأى ومعتقد

وفى فتحى زغلول باشا :

له الآثار تجرى الشهب فيها
ويسبح فى جوانبها الصديع
يفيض شعاعها فيذيع فينا
من السر المحجب ما يذيع

وفى الشيخ سلامة حجازى :

أقضيت نحبك أم تمثل للورى
هول الردى ؟ فكفاهمو وكفاكا !
النيل يهتف بالرثاء تحية
فدع السكوت وحى من حياكا

وفى عبد القادر حمزة باشا :

قلب يشب البأس منه على شبا
فـلـم يهز الواديين شجاع
فى حكمة تزن الأمور وفطنة
تقى من الأنصار والأشياع
تبنى وتهدم ما تشاء بمنطق
راسى الجوانب ، ليس بالمتداعى
قم من رقادك يا فتى الجُلّى فما
بالدهر من نوم ولا تهجاع

وفى ميرئيل نقلو باشا :

نعوه إلى الناس فهو ذكر
يجاوز موقع القطبين بعـــدا
تناهى فى الوميض فكان برقا
وأمعن فى الدوىّ فكان رعدا

• • •

هو الجدّ الحقّ يا « ابن تقلا »
بلغت به المدى شرفاً ومجدا
بنيت فكنت للبانين شيخا
وشيع للبنـاء من استعدا
وأديت الحقوق أداء حر
يرى أسمى المناقب أن تؤدى
ومن عرف الحياة وكيف تقضى
فذلك أكثر الأحياء رشدا

وفى صديقنا اسكندر مكاريوس وهو آخر ما قال فى الرثاء :

قيم المقام وقد تقاذفت النوى
ومضى الحداة بمن نحب ونكرم
لم يبق من نعمى الحياة وطيبها
ما يشفى التاوى ولا المتلوّم

قل للرفاق النازحين تأهبوا
أزف الرحيل وحان حين التقدم

• • •

هذا هو حديثنا الموجز عن الثروة الأدبية التى خلّفها أحمد محرم . وإنه لقطرة من بحر امتدت آفاقه ، وبعُد به العهد ، وتفرقت أمواجه حتى كاد يجهله الكثيرون من أبناء هذا الجيل .

وهو من قبل ومن بعد الشاعر الذى ضرب على وتر الدين من قيثارته ، أول ما ضرب — فكان من نغمه السهم الذى انطلق من خلال الواجب القوى الذى أداه ، حتى استقر فى النهاية عند نظم مجد الإسلام فى ديوان فريد .

رحم الله أحمد محرم ، وأحسن إليه كفاء ما أحسن إلى العروبة والإسلام .

ابراهيم عبد اللطيف نعيم

استدراك

فى الإعلان رقم ٥٥٣٨ المنشور بالعدد ٣٩١ من الثقافة بتاريخ ٢٥ يونيه سنة ١٩٤٦ ورد أن المبنى الأول يحتوى على ٣٠ حجرة وصحتها ٢٠ حجرة .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٩٤ | الثلاثاء ١٧ من شعبان سنة ١٣٦٥ — ١٦ من يوليو سنة ١٩٤٦ | السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

مصير المستعمرات الايطالية

انتهى مؤتمر وزراء خارجية الدول الأربع (بريطانيا وأمريكا وروسيا وفرنسا) بعد مناقشات طويلة إلى اتخاذ قرار تمهيدي في شأن المستعمرات الإيطالية السابقة، وهو يقضي بأن تنزل إيطاليا عن جميع حقوقها في هذه المستعمرات، وبأن يدمج هذا التنازل في معاهدة الصلح التي تعقد مع إيطاليا، وأن تبقى هذه المستعمرات خاضعة لنظام الحكم الحالي حتى يصدر في شأنها قرار نهائي، وأن تتخذ الدول الأربع قرارها النهائي في هذا الشأن خلال عام من التاريخ الذي يبدأ فيه تنفيذ معاهدة الصلح مع إيطاليا.

وهذا القرار هو الجزاء العادل لإيطاليا الفاشستية المعتدية، ولم يكن من المعقول أن يسمح لإيطاليا المهزومة بعد الذي ارتكبته خلال الحرب العالمية الثانية من ضروب البغي والعدوان، أن تستبقي مستعمراتها في إفريقية، وقد كان من الثابت المحقق أن يصدر مثل هذا القرار منذ البداية، لولا أن تدخلت بعض الأهواء والدسائس الاستعمارية تحاول أن تستبقي للاستعمار الإيطالي وكراً في افريقية، فكانت فرنسا تقترح مثلا أن تعاد طرابلس لإيطاليا، وتسعى جهدها في تأييد وجهة النظر الإيطالية، لكي يكون بقاء إيطاليا في هذه المنطقة سنداً للاستعمار الفرنسي في شمال افريقية، وكانت روسيا تحاول أن تحصل على قواعد بحرية في طرابلس أو أريتريا، وكانت بريطانيا وأمريكا تقاومان كل اقتراح من هذا القبيل؛ واستمر الجدل والصراع طويلا بين الرغبات والأهواء المختلفة، حتى

انتهت الدول الأربع إلى اتخاذ قرارها بوجوب حرمان إيطاليا من مستعمراتها السابقة .

وقد وضع مؤتمر وزراء الخارجية قواعد معينة لتكون أساس البحث لتقرير مصير المستعمرات الإيطالية النهائي ، وسيكون البت في هذا المصير خلال عام من تنفيذ معاهدة الصلح مع إيطاليا ، وذلك على النحو الآتي :

أولا — تقرر الدول الأربع العظمى مصير هذه المستعمرات وفقاً لأحد الأنظمة الآتية أو لبعضها مجتمعة ، وعلى أن يشمل النظام المقرر جميع المستعمرات أو يقصر تطبيقه على جزء منها — وذلك حسبما تقضي به رغبات السكان وما تدلي به الحكومات ذات الشأن : (١) الاستقلال (٢) الانضمام إلى أحد البلدان المجاورة (٣) الوصاية وتتولاها هيئة الأمم المتحدة أو إيطاليا أو إحدى الدول المنضمة إلى هيئة الأمم المتحدة .

ثانيا — إذا لم تتفق الدول الأربع على حل معين عرضت المسألة على الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة لتوصى في شأنها بما تراه . وتتعهد الدول الأربع أن تقبل توصيات الجمعية العمومية وتنفذها مع مراعاة الوعود التي بذلتها الحكومة البريطانية للسنوسيين خلال الحرب .

ثالثاً — يولى مندوبو وزراء الخارجية البحث في مصير المستعمرات الإيطالية ويخولون الحق في إرسال لجان التحقيق إليها وجمع المعلومات التي يتخذونها أساساً لتوصياتهم لوزراء الخارجية في شأن الحل النهائي لهذه المسألة

وهذه قواعد لا بأس بها من الناحية الشكلية خصوصاً وأن الدول الأربع لم تغفل من بينها مبدأ الاستقلال ، كما أنها قررت الالتجاء إلى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة إذا عجزت عن الاتفاق فيما بينها على حل معين . بيد أنه ليس فيما أبدته الدول الأربع حول هذا الموضوع في مختلف المناسبات من الرغبات والمناقشات السافرة ما يشجع على الاعتقاد بأنها قد تفكر حقا في تطبيق مبدأ الاستقلال بالنسبة لبعض المناطق التي تطالب بتطبيقه . وربما وجد مثل هذا الاحتمال بالنسبة لبرقة فقط ، حيث ترى بريطانيا تحرص على التنويه بوعودها للزعماء السنوسيين خلال الحرب ، وهي وعود تنطوي فيما نعلم على منح برقة نوعا من الاستقلال . ولكن برقة ليست إلا جزءا فقط من منطقة لوبية الكبرى . وأكبر الظن أن مباحثات الدول الأربع سوف تدور حول تطبيق الوصاية على معظم المستعمرات الإيطالية السابقة ، وفي هذا النطاق فقط يمكن أن تتحقق رغباتها .

على أنه يبقى بعد ذلك أن نعرف ماذا يراد بالمستعمرات الإيطالية السابقة بعد نزعها من إيطاليا ؟ ذلك أن الالتجاء إلى وضعها تحت الوصاية الدولية لن يكون إلا محاولة مستورة لتقسيمها بين الدول الظافرة . ونحن نعرف أن هذه المستعمرات تشتمل على عدة مناطق ترى مصر لأسباب تاريخية وجغرافية وغيرها أن تهتم بمصيرها كل الاهتمام ؛ وقد طالبت مصر منذ الساعة الأولى بأن تمثل في المؤتمر الذي يتولى وضع معاهدة الصلح لإيطاليا لكي تبسط وجهة نظرها في مسألة المستعمرات الإيطالية وفي مسألة التعويضات وغيرهما من الشئون الحيوية ؛ ولكن الظاهر أن مساعي مصر في هذا السبيل لم تنجح مع الأسف ، فقد أذيعت أسماء الدول التي دعيت إلى مؤتمر الصلح الذي سوف ينعقد في التاسع والعشرين من يوليه دون أن يكون بينها اسم مصر . ومن الغريب أن دولا مثل الصين والبرازيل وتشيكوسلوفاكيا ليست لها أية مصالح ظاهرة في التصفية الإيطالية قد دعيت إلى المؤتمر ، بل لقد دعيت إليه الهند وهي من الأملاك البريطانية ؛ وكل ما سمح به لمصر حسبما ورد في الأنباء الأخيرة هو أن تدعى إلى المؤتمر للإدلاء برأيها باعتبارها « دولة يهمها إلى أبعد حد مصير

المستعمرات الإيطالية في شمال أفريقية » وذلك على مثل ما سمح به لإيطاليا ذاتها من الإدلاء بوجهة نظرها .

إن مصالح مصر الحيوية بالنسبة لمصير المستعمرات الإيطالية هي أخطر مما يريد أن يصورها مؤتمر وزراء الخارجية ، وهي لا تقف عند المستعمرات الواقعة في شمالي أفريقية (أو بعبارة أخرى لوبية) بل تتعدى ذلك إلى المستعمرات الواقعة في شرقي أفريقية ؛ وهذه المصالح فوق كونها ترجع إلى اعتبارات تاريخية وجغرافية ، تتعلق بسلامة مصر من الناحية الاستراتيجية . فأما عن لوبية (برقة وطرابلس) فهي قطر عربي يجاور مصر من الغرب ؛ وقد ثبت من حوادث الحرب العالمية الثانية أنه يجب لضمان سلامة مصر ألا تحل في لوبية مكان الاستعمار الإيطالي الآثم أية دولة أو قوة استعمارية أخرى ؛ وقد قطعت بريطانيا لزعماء لوبية وسكانها خلال الحرب وعوداً باحترام حقهم في تقرير مصيرهم ؛ ولكن الظاهر أنه يراد الآن تقسيم لوبية إلى منطقتين ، وأن يمنح نوع من الاستقلال الذاتي إلى برقة ، على أن تحتفظ انجلترا فيها بقاعدة بحرية ، وأن تمنح الوصاية على طرابلس إلى بريطانيا أو دولة أخرى ربما كانت إيطاليا ذاتها ؛ ومثل هذا الحل الجائر لا يمكن أن ترضاه لوبية أو جارتها مصر . وقد اقترحت مصر من جانبها أن يجرى استفتاء الشعب اللوبي في مصيره ، فإذا تعذرت الموافقة على منحه الاستقلال ، وأريد وضعه تحت الوصاية ، فإن مصر وهي جارة لوبية وشقيقتها في اللغة والدين والتقاليد التاريخية أحق بتولى هذه الوصاية من أية دولة أجنبية ؛ وهذا الاقتراح يدخل ضمن نطاق القواعد التي وضعها مؤتمر وزراء الخارجية ، لأن مصر عضو في هيئة الأمم المتحدة .

وأما عن مستعمرات إيطاليا في شرقي أفريقية ، فإننا إذا تركنا الصومال الإيطالي جانباً ، نجد أن مصر لا تستطيع أن تتخلى عن مصالحها وحقوقها التاريخية في مقاطعة أريتريا التي كانت تعرف أيام خضوعها للحكم المصرى وانضمامها إلى السودان المصرى « بمحافظة مصوع » ؛ وقد احتلت إيطاليا هذه المنطقة غيلة وغدراً في سنة ١٨٨٥ على أثر انسحاب الحامية المصرية منها من جراء حوادث السودان ؛ كما احتلت من قبل ميناء عصب بالرغم من احتجاج مصر ؛ ولم توافق مصر قط على هذا الاحتلال غير المشروع ؛ وقد كانت منطقة مصوع وشاطئ أريتريا مخرج السودان ومطلة على البحر الأحمر ؛ وقد ثبت أثناء الحرب المنقضية ، أن أريتريا يمكن أن تتخذ قاعدة لمهاجمة وادي النيل من الشرق ؛ وهو ما يهدد سلامة السودان وسلامة مصر في الوقت نفسه ، فإذا لم تكن مصر تطمح اليوم إلى امتلاك أراض جديدة ، فلا أقل من أن يكون لها صوت في تقرير مصير هذه المنطقة التي تتصل من الناحية الاستراتيجية بسلامتها وسلامة وادي النيل ، والتي تسكنها كثرة مسلمة ؛ هذا عدا ما للسودان - وهو شطر مصر الجنوبي - فيها من حقوق ومصالح قديمة اقتصادية وغيرها .

ولسنا نفهم إزاء هذه الاعتبارات الخطيرة كلها كيف يراد أن تحرم مصر من الاشتراك في مؤتمر الصلح الذي سيعني بوضع معاهدة الصلح الإيطالية ، في حين أنه قد دعيت إليه دول ليست لها أي علاقة أو مصلحة مباشرة أو غير مباشرة بمصير إيطاليا والمستعمرات الإيطالية ؛ وإذا كانت قاعدة الدعوة هو الاشتراك الفعلي للدول المدعوة في الحرب ضد دول المحور ، فإن ما بذلته مصر من المجهود والتضحيات خلال الحرب إلى جانب الأمم المتحدة ، وما احتملته من اعتداء إيطاليا ، يجعلها من هذه الناحية في مركز أفضل من مركز دول لم تشترك في الحرب إلا بطريقة رمزية كالبرازيل وتشيكوسلوفاكيا . على أن الباب ما زال مفتوحاً لتدارك هذا الخطأ والاعتراف بحق مصر الواضح في التمثيل في مؤتمر الصلح ، وفي الأنباء

٨ - الشيخ محمد عبده

صوره السيد جمال الدين مرة تصويراً لطيفاً ، إذ رأى منه عزة نفس وإباء ضيم ، وترفعاً عن سفاسف الأمور وطموحاً إلى معاليها ، فقال له : « أى ملك فى جلدك ؟ » .

ومع هذه العزة والإباء كان حى الضمير حساس النفس عطوفاً على البائسين والمنكوبين ، فالله أعلم له وأكثره الإغاثة والإعانة والنجدة ؛ يصف شعوره فى حريق ميت غمر فيقول : « لما قرأت وصف الحادثة كان لهب الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك الساكين ، ويصهر من فؤادى ما يصهر من لحومهم ، أرقت تلك الليلة ولم تغمض عيناى إلا قليلا ، وكيف ينام من يبيت يتقلب فى نعم الله وله هذا العدد الجم من إخوة وأخوات يتقلبون فى الشدة والبأساء ، أردت أن أبادر بما أستطيع من المعونة وما أستطيع قليل لا يغنى من الحاجة ولا يكشف البلاء ، ثم رأيت أن أدعو جمعاً من أعيان العاصمة ليشاركونى فى أفضل أعمال البر فى أقرب وقت » وكذلك فعل فى كثير مما أصاب البلاد من بلاء .

وصوره السيد جمال الدين مرة أخرى فقال له : « إن بين برديك قرداً يخرج رأسه فى بعض الأحيان » يشير إلى ما يعتريه من الحدة أحياناً كالذى كان منه مع الخديو عباس مما رويناه قبل ، وفى الدرس إذا سئل سؤالا سخيفاً ، وفى بعض تصرفاته ، ولكن هذه الحدة كانت أيضاً مصدر قوة له ، فكان يغضب لما يعتقده الحق ، وينفعل لما يصيب الناس من أذى ، والمنكوبين من مكروه ، ثم هذه الحدة أضفت عليه من المهابة والتوقير الشيء الكثير .

وهو — مع هيبته وحدته — طيب القلب سليم الصدر ، وفى لأصدقائه ، لطيف الحديث ، سمح النفس ، ينصف الناس فى الحق حتى من نفسه ، أميز شيء فيه

الأخيرة ما يفسح مجال الأمل فى أن تحقق هذه الخطوة قبل اجتماع المؤتمر فى ٢٩ يوليه الجارى .

إن مصير المستعمرات الإيطالية لا يمكن أن يتقرر بطريقة عادلة إلا إذا روعى حق سكان هذه المناطق فى تقرير المصير ، ولا سيما لوبيه أكثرها تقدماً ونضجاً ، وسمعت آراء الدول ذات المصالح الحيوية فى هذا الموضوع وفى مقدمتها مصر . أما استئثار الدول الكبرى بتقرير مصير هذه المستعمرات وفقاً لما تمليه مصالحها الخاصة فهو محاولة سافرة لتوزيع الغنائم الاستعمارية ، وذلك مهما أخفيت هذه المحاولة تحت ستار الوصاية الدولية أو غيرها ، وهو إحياء للأساليب الاستعمارية العتيقة ، وافتئات على حقوق ذوى المصالح الأصيلة ، وخروج على المواثيق والعهود الدولية .

محمد عبد الله عنان

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٢٦٩
القاهرة

شجاعته الأدبية ، لا يدارى ولا يمارى ، ويقول ما يعتقد أمام أى عظيم ، ويعتمد فى شجاعته على ربه وإيمانه ، وكم سببت له شجاعته وصراحته من متاعب احتملها فى صبر وثبات علماً منه بأن المقدمة لابد أن تتبعها النتيجة .

وكان أهم خصائصه غيرته الشديدة على الإسلام والمسلمين ، هى محور أعماله ومصدر آلامه وآماله . حدثنى صديق قال : « كنت أسير مع الأستاذ فى « جنيف » من أعمال سويسرة ، وكنا نتلقى معاً بعض المحاضرات الصيفية فى جامعتها ، فجاء ذكر الإسلام والمسلمين ، فقال الشيخ : إنى وهبت حياتى لإصلاح العقيدة الإسلامية وتنقيتها مما علق بها من الخرافات والأوهام . فقلت : وهل الدين عند العوام إلا الخرافات والأوهام ؟ وماذا يبقى عندهم لو زالت ؟ فرأيته وقد احمر وجهه وغضب غضبة ما رأيته غضب مثلها ، فتأولت ما قلت حتى هدأت ثورته .

كم لاقى من عناء فى سبيل إصلاحه ، وكم اتهم وكم سب وكم دس له ، وكم نصحه أصدقاؤه أن يستريح من هذا العناء ويعود إلى القضاء فما طاوعته غيرته أن يسمع لقولهم .

لقد ذكر الشيخ محمد عبده ما يصح أن يكون مجمع إصلاحه ، ومجمل رسالته فقال : « ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ... وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث فى أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل . . . وقد خالفت إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن فى ناحيتهم . والأمر الثانى إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير سواء كان فى المخاطبات الرسمية أو فى المراسلات بين الناس — وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمجه الذوق ، وتنكره لغة العرب : الأول ما كان مستعملا فى مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم لا فى صورته ولا فى مادته . والنوع الثانى ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان بارداً ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وإن كان رديئاً فى الذوق بعيداً عن الفهم ثقيلا على السمع غير مؤد للمعنى المقصود .

« وهناك أمر آخر كنت من دعاته والناس جميعاً فى عمى عنه .. ولكنه الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه . وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهى لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد على عشرين قرناً ؛ دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وأنه لا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل . جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أى عبيد .

« ولم أكن فى كل ذلك الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعوة وهى لا تزال بى فى كثير مما ذكرت قائمة ، ولا أبرح أدعو إلى عقيدتى فى الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة وقد قارب . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأنى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمة من غراس

تغرسه وتقوم على تنميته السنون الطوال ، فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن والله المستعان » .

في هذا القول الوجيز كل حياة الشيخ محمد عبده الإصلاحية ، وكل رسالته ، وكل نجاحه وفشله . ثلاثة أمور اتجه إليها : إصلاح الدين وإصلاح اللغة والأدب وإصلاح السياسة ، فلنذكر كلمة في عمله في كل منها .

فأما إصلاحه الديني فاتجه فيه إلى إصلاح الأزهر ، وكان رأيه أنه إذا أصلح خدم العالم الإسلامي أكبر خدمة ، لأنه سيخرج قوماً غيورين على الدين متنورين يبثون في جميع أنحاء العالم الإسلامي فيحملون مثل رسالته ويقومون بمثل دعوته ؛ وقد استعان على ذلك بالخديو والإنجليز وعصبيه وجاهه وأصدقائه ، ثم كان من أمره ما ذكرنا ؛ ولهذا وأمثاله وصفه اللورد كرومر بأنه كان رجلاً مستنير الرأي بعيد النظر ، خيالياً ، حالماً بعض الشيء ، ولكنه كان وطنياً صادقاً » .

ومع أنه لم يصل في الأزهر إلى ما يريد ، ولا إلى بعض ما يريد فقد خلف فيه طبقة مستنيرة ، وإن كانت قليلة اعتنقت مبادئه وتشبعت بآرائه ، وإن لم تكن لها حماسته وغيرته .

واتخذ أهم وسيلة لإصلاح العقيدة تفسير القرآن الكريم ، جعله ديدنه ، يدرسه في بيروت في مسجدين ، ويدرسه في أحد مساجد القاهرة وهو قاض ، ويدرسه في الأزهر وهو في القضاء والإفتاء ، ويتخذه موضوع محاضرته في الجزائر تفسير سورة العصر ، ويفسر جزء عم لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، وينشر هذا التفسير في مجلة المنار ليقرأ في العالم الإسلامي .

كان يقرأ الآية فإذا اتصلت بالعقيدة شرحها شرحاً وافياً مستعرضاً ما ورد في القرآن في موضوعها مبيناً ما دخل على المسلمين في هذه العقيدة من فساد ودخيل . وإذا اتصلت الآية بالأخلاق أبان أثر هذا الخلق في صلاح

الأمم وضياعه في فسادها ، وإذا اتصلت بحالة اجتماعية أوضح أثر هذه الحالة الاجتماعية في حياة الأمم ، مسترشداً بالواقع مستشهداً بما يجري في العالم ، في بيان متدفق ولسان ذلق وصوت جميل أخاذ ؛ فهو تفسير عملي يشرح الواقع ويبين سببه ، وهو أخلاقي يدعو للعمل على مبادئ الإسلام ويبين أنها منبع السعادة في كل العصور ، وهو روحاني يدعو إلى السمو بالنفس إلى العالم العلوي ، وينزه الله عما دخل على العقيدة من فساد بالإشراك مع الله الأولياء ، وعبادة الأضرحة والتشفع بأهل القبور وإقامة الموالد ونذر النذور ؛ وهو في كثير من مبادئه يشبه تعاليم الوهابية في الرجوع إلى الأصول الأولى للإسلام ، وتنقيته من البدع والخرافات والأوهام ؛ ولكنه أوسع أفقاً بتقبله ما صلح من مبادئ المدنية الحديثة والأخذ بها ما اتفقت والإسلام .

الإسلام دين توحيد لا شرك فيه ، تنزيه لا تجسيم فيه ، وهو دين يعتمد على العقل ويستنهضه لإدراك أن العالم له صانع واحد عالم قادر ، والعقل ضروري للدين ، فهو المرشد إليه ، والدين ضروري للعقل لأنه يكمله ويقومه .

والإسلام يفسح صدره للعلم ويدعو إليه ، لأن العلم يكشف أسرار الكون ، وذلك يفضي إلى معرفة الله وإجلاله .

وهو في تفسيره يحاول التوفيق بين الإسلام ونظريات المدنية الحديثة ؛ ويتبع طرقاً من التأويل وتفسير نظريات العلم يخونه فيها التوفيق أحياناً .

أكبر قيمة له في تفسيره أنه كان يحيي العواطف ، ويحرك المشاعر أكثر مما يستقصي بحث المسائل العلمية ؛ فهو يتجه إلى القلب أكثر مما يتجه إلى العلم والعقل ، متأثراً في ذلك بطبيعة الدين نفسه ، أفادته سعة اطلاعه على الفلسفة الإسلامية ، ثم اتصاله بالثقافة الغربية وقراءته بعض أصولها ورحلاته إلى أوربا وملابسته لحياتها ومقابلته

لبعض فلاسفتها وجماعة ببعض عاصرتها ، أن ينظر إلى حال المسلمين نظرة إشفاق فى عقيدتهم وأعمالهم ، فيبث كل ما يرى من إصلاح حول تفسير آيات القرآن .

واستمر يدرس هذا الدرس فى الأزهر نحو ست سنين ، كان يحضره كثير من علية القوم وكبار القضاة والموظفين وشباب الأزهر والمدارس العالية ، وكان درسه ذا أثر كبير فيهم .

كان يرى أن إصلاح المسلمين من طريق دينهم أيسر وأصح من إصلاحهم من طريق الإصلاح المعتمد على مجرد العقل ومقياس المنفعة والتقليد الأوربى ، وأن هذا الطريق هو الذى سلكه جميع المصلحين المسلمين . يقول : « إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد ، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية ، دينية ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الصلاح منهم إلى الأمة . . وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما ليس لغيره وهو حاضر لديهم ، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟ » .

وعلى هذا الأساس فى التفكير كان يريد أن يسيطر على برامج التعليم فى المدارس حتى يصلح النفوس من هذا الطريق بالتوسع فى التاريخ الإسلامى ، وبث مبادىء الدين الصحيح ، ولهذا كان ينتهز كل فرصة لتقديم تقرير عن التعليم ؛ فعل ذلك لما كان فى الوقائع قبل الثورة العرابية حتى شكل مجلس التعليم الأعلى بناء على سعيه وكان هو فيه عضواً بارزاً ، وفعل ذلك عندما كان فى بيروت ، فكتب تقريراً فى إصلاح التعليم رفعه إلى شيخ الإسلام فى الأستانة حتى لم يتحرج أن يرفع تقريراً بذلك إلى اللورد كرومر بعد عودته ، فلما لم تتحقق مطالبه رجا أن يكون على رأس دار العلوم يبث روحه فى طلبتها فيبثون روحهم فى طلبتهم ، فلما يئس من ذلك أيضاً وجه همته إلى الجمعية الخيرية الإسلامية يضع لتلاميذها مناهج دراستهم ويؤلف لهم تفسير جزء عم . وهكذا كان دائماً يريد أن يسيطر على التعليم ليوجهه الوجهة التى يريدها .

وكما جد فى نشر تعاليمه وآرائه فى الإسلام جد فى الدفاع عنه ، وكانت تأخذه الغيرة الشديدة إذا مسه أحد بسوء . يتجلى ذلك فى موقفين شهيرين :

١ — رده على هانوتو . ففى أوائل سنة ١٩٠٠ نشر هانوتو مقالا عن الإسلام بمناسبة سياسة فرنسا فى المستعمرات الإسلامية ، ثم تعرض للمقارنة بين الديانة النصرانية والإسلامية ، ووازن بينهما فى مسألتين : ذات الله والقضاء والقدر . فاعتقاد النصارى فى التثليث وتصورهم للإله الإنسان جعلهم يرفعون مرتبة الإنسان ، ويحولونه حتى القرب من الذات الإلهية ؛ على حين أن العقيدة الإسلامية بدعوتها إلى التوحيد وتنزيه الله من البشرية ، حطت الإنسان على الضعف والوهن ، والعقيدة المسيحية القائلة بحرية الإنسان وإرادته ، دفعته إلى العمل والجد . أما عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر فحملتهم على الجمود والركود .

ونشرت ترجمة هذا المقال فى المؤيد ، فلم ينم الشيخ محمد عبده ليلته حتى كتب الرد عليها ، وظهرت أول مقالة له فى تالى يوم . ثم تتابعت مقالاته ، بين فيها فضل الإسلام على المسيحية ، وبين أن عقيدة التوحيد أسمى فكرة ، وأن فكرة التثليث لا يستطيع أن يقبلها العقل ، وأن الإسلام لم يدع إلى الجبرية بالمعنى الذى يفهمه هانوتو ، وأن فى القرآن أربعاً وستين آية تثبت حرية الإرادة الخ . وكان من نتائج هذا كتابه المشهور « الإسلام والنصرانية » .

٢ — وأما الموقف الثانى فقد نشر فرح أنطون فى

مشكلة الموظفين

مضت الحرب بخيرها إن كان لها خير وبكل شرورها التي قاساها البشر جميعاً في هذه السنوات الطويلة . ولسنا نريد الخوض في حديث هذه الحرب هنا ، لأن أحاديث الحياة الحاضرة كلها ليست سوى ترديد لما خلفته تلك الحرب من آثار . سوف تذكر تلك الحرب لمدة عشرات من السنين على أنها العامل الأكبر لما اعترى العالم أجمع من تطورات في شتى نواحي الحياة .

ولكن الحرب أجهدت أهل مصر كما أجهدت سائر الأمم ، لأن مصر قطر متوسط في العالم المحترق ، وكان لابد لها أن تكون قاعدة من أهم قواعد الجيوش . كانت مصر كما قال المستر تشرشل أكثر من مرة هي الدنيا الخصيبة التي تستطيع أن تؤوي مئات الألوف من الجنود ، وهي بحكم موقعها متصلة أوثق الاتصال بالعالم الغربي والعالم الشرقي على السواء .

وقد كان لهذه الحقيقة أثرها العظيم في حياة سكان القطر ، فإذا نحن ضربنا صفحاً من كل مخاوف الغارات وأضرارها وبسطنا الأمر في أبسط صوره ، قلنا إن أهل مصر شاركوا جيوش الحلفاء في أقواتهم الضرورية وفي كسائهم ومسكنهم ، بل فيما هو أخص من ذلك كله وأغلى .

ولهذا آل الأمر في مصر إلى صورة بسيطة من صور الحياة . وذلك أنه كان على كل ساكن في مصر أن يقدم ضريبة غير مباشرة من قوته وملبسه ومسكنه ومسراته . وكان الأثر الظاهر لهذا كله هو الغلاء الفاحش الذي عم البلاد مدة ست سنوات طويلة ، ولا يزال يعمها إلى اليوم بعد انقضاء مدة الحرب . فزادت نسبة الأسعار في كل مرافق الحياة زيادة حسبتها الدوائر الحكومية بما يقرب من أربعة أضعاف الأسعار المعتادة ، وأحسها الناس فعلا إحساساً يزيد على الأربعة أضعاف . وإنه لمن أعجب العجب كيف تمكن أهل مصر من اجتياز مدة الحرب مع هذه الحال بغير أن يشيع فيهم الاضطراب ، أو تجتاحهم الكوارث من الأوبئة الجسمية والخلقية . وإذا كانت البلاد على وجه العموم قاست من الحرب ما قاست فإن هناك طائفة خاصة كان ألمها أشد الآلام ، وكان وقع الحرب عليها يقرب من أن يكون استحالة مادية ، وتلك هي طائفة موظفي الحكومة .

ولسنا نحب أن نفيض في شرح ما قاساه موظفو الحكومة في سنوات الحرب ، لأن الإفاضة في ذلك الشرح لا يمكن أن تصور صورة كاملة للمأساة ، ولأن وصف القليل منها يعيد إلى النفوس من الآلام ما يزعجها في غير قصد . وحسبنا أن نأتي هنا بمثال مما نشر في الصحف من المآسي التي تنم عما كان في نفوس هؤلاء الموظفين من الآلام اليائسة التي لم يكن من اليسير الاحتيال على الخلاص منها . فقد نشر في الصحف أن موظفاً رأى أن الحياة قد أصبحت فوق ما يحتمل ، فجمع أهله من زوج وأطفال ثم سدد قذائف مسدسه إلى الزوجة فقتلها ثم إلى أطفاله الصغار فقضى عليهم ثم أدارها إلى قلبه فانتحر أخيراً .

هذه مأساة نشرت أخبارها في الصحف على أنها حادثة عابرة ، فلم يعلق عليها أحد ، بل أغلب ظني أنها كانت فلتة من رقباء النشر الذين ما كان ينبغي أن يغيب عنهم أن نشر أنباء مثل تلك الكارثة الأليمة غير مرغوب فيه لاعتبارات تتصل بسير الحرب .

مجلة « الجامعة » مقالا من ابن رشد قرر فيه أن المسيحية كانت أوسع صدراً وأكثر تسامحاً للعلم والفلسفة من الإسلام ، فرد عليه الشيخ محمد عبده في سلسلة مقالات يثبت فيها سعة صدر المسلمين للفلاسفة وأهل العلم والأديان الأخرى ، مما لم يكن له نظير في أي دين آخر .

وهكذا كانت حياته في خدمة دينه

(يتبع) أحمد أمين

وقاسى الموظفون ما قاسوه فى صمت وإن كنت لا أستطيع أن أؤكد أنهم قاسوه فى عفة وتجمل . فلاشك فى أن الكثيرين منهم قد مدوا أيديهم إلى ما تستطيع أن تصل إليه من الأموال بالطرق المشروعة وغير المشروعة . ومنهم من تنزل إلى ما دون الرشوة ليستطيع مقاومة تيار الحياة . وهل يمكن أن يوجه اللوم إلى الأحياء لأنهم يحاولون التمسك بالحياة ؟ إن هذا فوق طاقة البشر . وقد قيل إن قانون سلامة الحياة هو القانون الأسمى فى السلوك وفى الأخلاق على السواء . فلست أجرؤ على أن ألوم موظف التموين الذى كان ينتهز الفرص ويمد يده إلى أموال التجار ثم يغضى عما يفعلون . ولست ألوم موظف الحسابات إذا هو مد يده إلى أمانته حتى كشف أمره بعد أن سلب من أموال الدولة مئات الألوف . لست ألوم أحداً من هؤلاء ، ولكننى ألوم شخصاً معنويا واحداً هو الدولة ذاتها . لقد كان من غير المعقول أن يتصور وزير أو رئيس وزارة أن موظفاً له عائلة يستطيع أن يعيش على عشرين جنيها فى مثل تلك الظروف التى مرت بالبلاد . وغنى عن القول على ذلك أنه مستحيل على الموظف أن يعيش على عشرة جنيهات أو خمسة أو أقل من ذلك كما هو الحال فى كثير من الحالات . وقد كانت الدولة تضن على الموظفين حتى بالنظر فى أحوالهم . وإنه لمن المضحك أن تنشر دوائر الحكومة بين حين وحين أن الأسعار قد قاربت أربعة أضعاف ما كانت عليه ومع ذلك فالحكومة نفسها لاتأبه لما يعمل موظفوها ، ومرتباتهم لا تزال باقية على ما كانت عليه لم تزد إلا مقداراً يسيراً فى نسبة تتضاءل فى شكل عجيب مع زيادة المرتبات .

فليس من العجيب إذاً وقد انقضت مدة الحرب واستقرت الأحوال بعض الاستقرار وزال كابوس المخاوف الذى كان يجثم على النفوس ، ليس من العجيب أن يعود الموظفون إلى أنفسهم فيتساءلون : ما هم فاعلون بعد أن قاسوا ما قاسوا فى مدة السنوات العجاف الثقال الماضية . وقد كان مما زاد الحال شدة أن الحكومة ساوت منذ حين على سنة ممقوتة ، وهى منع العلاوات الدورية عن موظفيها ، مع علمها بأن الموظف يكبر ويتزوج وأنه يأتى بعد كل سنة أو سنتين بمولود جديد يحتاج إلى داية وإلى ثم إلى طعام وملبس ثم يحتاج بعد ذلك إلى مدرسة . ولست أجد تعبيراً يصور الحقيقة كما أراها إلا أن أقول إن المتصرفين فى شئون الموظفين ومرتباتهم لايحسون حقائق الحياة التى يحياها هؤلاء الموظفون .

فمن ذا الذى يستطيع مع كل هذا أن يلوم الموظفين إذا هم قاموا اليوم بالإضراب تلو الإضراب والاحتجاج تلو الاحتجاج ، يطلبون تحسين أحوالهم التى طال عليها الانتظار وهى لا تزداد إلا سوءا ؟ من ذا الذى يجرؤ على أن يلوم الموظفين إذا هم طلبوا أن ينصفوا بالطرق المشروعة حتى لا يمدوا أيديهم إلى الطرق غير المشروعة ؟ ومن ذا الذى يجرؤ على أن يحتم على الموظف الشاب أن يضحى بكل شىء فى سبيل المصلحة العامة مع أنه يحس إحساساً قويا بأن الأمناء على المصلحة العامة لا يوجهون إليه الرعاية التى يتطلبها الإنسان من أولى الأمر لأنه إنسان ؟

إن فى وسع الحكومة أن تشرع من القوانين ما تشاء ، ولها أن تكفل سير الأمور فى المصالح العامة كما ينبغى لها . ولسنا نزعم أن الموظفين حقا فى أن يضربوا بمصالح الناس وهى المصالح التى اؤتمنوا عليها . ولكنا مع ذلك لا نرى هذه الحلول التى تلجأ إليها الحكومة حلولا معقولة . فإن فرض العقوبات لا يمنع اليائس من ارتكاب العمل الذى يعاقب عليه . وإنما نعتقد أن الحل الأمثل لهذا الاضطراب النفسانى كله أن تبادر الحكومة إلى التوسعة على الموظفين ، وحسبهم ما قاسوه فى مدة السنوات الطويلة التى مرت بهم إلى الآن . وإن الحكومة لتحسن الإحسان كله إذا هى بادرت إلى التوسعة وإصلاح الحال ، فإن هذا يقر القلوب فى الصدور ويعيد الثقة إلى النفوس القلقة التى تزعزعت فيها الثقة فى عدالة أولى الأمر .

محمد فريد أبو حديد

لغز العقد الماسي

امتازت العصور الحديثة بثورتين كبيرتين ، وهما الثورة الفرنسية والثورة الروسية ، وكانت كلتا الثورتين نتيجة محتومة لبواعث عدة وأسباب مختلفة اقتصادية وسياسية ونفسية . وقد رمت الثورة الفرنسية إلى تحقيق مبادىء الإخاء والحرية والمساواة ، وقد أخفقت في تحقيق هذه المبادىء تحقيقاً عملياً ، ولكنها نجحت نجاحاً باهراً في جعلها أمل الأمم المرجو وغايتها المنشودة ؛ وما تلا الثورة الفرنسية من الأحداث الجليلة والانقلابات الخطيرة يؤيد ذلك الرأي ويعززه . أما الثورة الروسية فقد قامت لاستكمال نقص مبادىء الثورة الفرنسية وتقصيرها عن الوفاء بنوازع الإنسانية وطموحاتها ، فقد رمت الثورة الفرنسية إلى المساواة السياسية ، وهي ليست بذات قيمة إذا لم تتبعها المساواة الاقتصادية ، فجاءت الثورة الروسية لاستدراك ذلك النقص ، وقد حققته إلى حد بعيد بإلغاء فوارق الطبقات إلغاءً تاماً . وقد سبق هاتين الثورتين في فرنسا وروسيا حوادث عجيبة كانت بمثابة إرهاصات ونذر بالعاصفة القادمة العاتية المدمرة ، وقد سبقت الثورة الروسية غرائب راسبوتين وفضائحه ، كما تقدمت الثورة الفرنسية محرفة أمثال كاليسترو وقضية العقد الماسي ، وقد كانت تلك القضية النادرة المثال المدهشة الوضع والتأليف من الأسباب القوية المباشرة للثورة الفرنسية ، ولا تزال تختلف فيها الآراء ، وتتعارض في اكتناه أسرارها وجهات النظر ، وقد كان لهذه القضية تأثير بليغ في تشويه سمعة الملكة ماري انطوانيت وزيادة نفور الشعب الفرنسي من البلاط الملكي ؛ وقد كشفت بصورة واضحة عن فساد المجتمع الفرنسي ، وانحلال الطبقة العليا ، كما أظهرت فضائح راسبوتين مدى تغلغل الفساد في الطبقة العليا الروسية ، وامتناع البلاط القيصري عن الإصلاح ، وعجزه عن مسايرة حركة التقدم .

وملخص قضية العقد الماسي أنه في فرنسا القرن الثامن عشر ، اللاهية العابثة ، المسرفة في الترف ، العاكفة على المتعة ، نشأت في مهاوي الفاقة وشظف العيش فتاة اسمها جان دي فالوا ، وقد عرفت فيما بعد باسم الكونتس دي لاموت وعاشت عيشة الحرمان والكفاف ، فكانت تستجدي كرم الناس ، وتستدر عطفهم ، وتتوسل إليهم وهي في أطمارها الرثة قائلة : « أكرموا يتيمة من سلالة آل فلوا » . وكانت تجمع الصدقات التي يتسخى بها عليها الناس وتهرع إلى أمها العجوز ، وأبصرت بها يوماً ما إحدى المركيزات وهي في عربتها الفخمة ، واسترعى سمعها انتساب جان إلى بيت فالوا ملوك فرنسا السابقين ، فدعتها وتحرت حقيقة نسبها ، وعرفت أنها من سلالة الملك هنري الثاني زوج كاترين دي مدتشي ، وأثر ذلك في نفس المركيزة الرقيقة القلب فعملت على أن تبسط عليها حمايتها ، وتفيئها ظل عطفها ، وأدخلتها ديراً من أديار الراهبات لتنشأ نشأة صالحة ، ولكن الفتاة لم تكن من الطراز الذي يصلح للدير وزراة التدين وحياة الصون والعفاف وكبح الأهواء ، وكان دم أسرة الفالوا يجري في عروقها ، فبعد أن أمضت في الدير سنوات ضاقت بحياة التدين والعزلة ، ففرت من الدير وهامت على وجهها ، وكانت قد أصبحت فتاة ناضجة ، ريانة الشباب ، مليحة القد ، تجيش نفسها بالمطامع ، وحلت ضيفة في الريف على سيدة تدعى مدام دي سيرمون . وتزوجت بعد ذلك برجل أفاق فقير سيء السمعة ، كان ديدبانا بالجيش ، وأبى له غروره وادعاؤه إلا أن يزيف لنفسه لقب كونت ، فأصبحت جان تسمى « الكونتس دي لاموت » ، وأقاما في باريز ، وظلت جان ماضية على غلوائها ، متحللة من قيود العرف ، خارجة على آداب المجتمع ؛ وقد علمتها الحاجة سعة الحيلة ، وشحذت خبرتها بمواضع الضعف في نفوس الناس ، والقدرة على العبث بعقولهم ، والاجتراء على الكذب والمخاتلة ، حتى استطاعت

أن تخدع فيمن خدعت الرجل الذى خدع ملوك أوربا وأمراءها ، وهو الكونت كاليسترو الدجال الذائع الشهرة ، وقد استطاعت أن تتسلل إلى الأوساط العالية ، وأن تتصل بالأسر الأرستقراطية ، ومهد لها ذلك شبابها الغض وجرأتها والمطامع التى استأثرت بنفسها ، على أنها لم تكتف بما بلغته من جاه ومنزلة ، ورمت إلى أن تتعرف بالملكة مارى أنطوانيت . ولكن باب الملوك ليس مفتوحاً على مصراعيه لكل من هب ودب ، والمبث برأسها المطامع واستطارته الأهواء . وما دام قد أعجزها الدنو من الملكة فى الواقع والحقيقة فلتظفر بصداقتها ورعايتها فى عالم الوهم والخيال ، فراحت تزعم للناس أنها صديقة الملكة المقربة ، ومستودع أسرارها ومناط ثقتها ، وصارت فى كل مجلس تطنب فى الثناء على الملكة ، وتتغنى بوصف شمائلها الغر ، وأياديها الحسان ، وتخلع عليها أجمل الصفات حتى تستقر فى الأذهان حقيقة علاقتها بالملكة . وشاء القدر أن تتعرف بالكردينال لويس دى روهان عميد الكنيسة الفرنسية وابن عم الملك لويس السادس عشر ، وكان رجلا مثلافاً متهالكا على النعمة ، لا يراقب نفسه ، ولا يملك عنانها ، وقد عينه الملك سفيراً فى بلاط النمسا فلم يعقه ثوبه الكهنوتى ولا لقبه الدينى من الإسراف فى اللهو ، وبلغت الملكة ماريا تريزا عنه كلمة نابية وملاحظة ساخرة أبداها بمناسبة اشتراك النمسا فى تقسيم بولنده ، فكتبت إلى البلاط الفرنسى لاستدعائه من فينا ، فعاد إلى فرنسا وتسلم منصب عميد الكنيسة الفرنسية ، وعبثت به الآمال والمطامع فحاول أن يتشبه بالكردينال ريشليه والكردينال مازارين فى توثيق العلاقة بالملكة ليتخذها وسيلة لتحقيق مآربه ، فيصبح سيد فرنسا الحقيق ، وتعظم مهابته ، ويعلو شأنه فى أوربا جميعها . ولكنه سرعان ما علم أن الملكة كانت منغيظة منه ، ناقمة عليه ، معرضة عنه ، فكان شغله الشاغل وأمله المالئ لشعاب نفسه هو أن يبذل الجهد فى استرضائها واجتلاب عطفها مهما كلفه الأمر ، واتصل بكاليسترو وآمن بقدرته الفائقة ومواهبه الخارقة ، وهكذا جمع القدر بين كاليسترو وجان وروهان ! وكان ينقص الثلاثة شخص رابع هو تاجر الجواهر بوهمر الألمانى الأصل النازح إلى فرنسا ، لينتظم عقد القصة وتتم حبكة المهزلة أو المأساة !

وأقبلت جان على الكردينال روهان تحدثه عن حاضرها وماضيها وما صادفته من أزمات فاجعة ، ولواعج مروعة ، وتثير عطفه ، وتحرك شفقته ، حتى خصها بنصيب من صندوق النذور ، وحاول زوجها فى الحصول على رتبة فى الجيش ، وتوثقت بينهما الملاقاة ، وكثرت الأحاديث والمفاوضات ، وجاء ذكر الملكة عرضا فى خلال الحديث . ومن عجائب هذه القصة الغريبة أن هذا الكردينال الذى كان يطمع فى أن يصبح خليفة ريشليه خدع بثرثرة جان ، وصدق بتلك الصلة المتينة المزعومة التى تربطها بالملكة ، وأراد أن يستغل جان فى تحقيق مطامعه ، والتقريب بينه وبين الملكة النافرة النائية ، وأدركت جان هذه العقدة النفسية فى الكردينال ، وعملت على الانتفاع بها ، وتغلب شيطانها على شيطانه ، فأوهمته أنها تسعى لتحسين العلاقات بينه وبين الملكة ، وتصفية الجو ، والتمكين له فى قلب الملكة ، وسلمها الكردينال كتاباً إلى الملكة ضمنه ما يختلج بصدره من الإخلاص ، وما يضمره لها من الولاء ، وتضرعه إليها أن تشمله بعطفها ، ولا تحرمه من رعايتها ، وحملت الكونتس الكتاب وعادت إليه بعد أيام برد مكتوب بخط الملكة وعليه توقيعها ، مضمونه أنه قد زال من نفسها ما كان بها من النقمة عليه ، وأنها قد غفرت له ذنبه ، وصفحت عنه . وسر الرجل سروراً لا مزيد عليه ، وطارت بلبه نشوة الفرح ، فلم يفطن إلى التزوير ، وراجت عنده الحيلة وطوته الشبكة وتعددت الرسائل ، وتوالت الردود ، وثارت هواجسه بعد ذلك فسأل : لماذا لا تخطو الملكة خطوة أخرى تظهر فيها الرضى بشكل ظاهر ؟ فأوهمته جان أن

الملكة تتحين الفرص لقائه . ولم يكن كاليسترو يعلم بالمكيدة التي تدبر لصاحبه الكردينال روهان ، ولكن كان يوهمه أن آماله في طريق التحقيق .

وتعرف زوج جان في إحدى التنزهات بامرأة تشبه الملكة ماري أنطوانيت في قوامها وتقاطيع وجهها ، ولم تكن الفيرة من خلق جان ، وكان يكفي أن تكون هذه المرأة صديقة زوجها لترحب بها جان في منزلها وتقبل عليها ، ونشأت بينهما ألفة ومودة ، وخطر بفكر جان أن تستفيد من مشابهة صديقتها الملكة ماري أنطوانيت ، فعرضت عليها أنها ستصحبها إلى حدائق فرساي ، وأن عليها أن تقف إلى جانب أحد الأكشاك منفردة حتى يحضر رجل ويجثو أمامها ويقبل حاشية ثوبها ، وذهبت بعد ذلك إلى الكردينال دى روهان مهللة الوجه بادية السرور ، وأفضت إليه ببشرى استعداد الملكة للقائه في حديقة قصرها بفرساي بعد منتصف الليل ، وفي الليلة الموعودة أرسلت شبيهة الملكة مع زوجها وتم اللقاء حسب الخطة المرسومة ، وجثا الكردينال دى روهان على ركبتيه أمامها وقبل يدها وعاد فرحا مسروراً ، وهو يعتقد أن آماله قد أصبحت قريبة المنال . واتفق في هذه الفترة أن علمت جان بخبر العقد الماسي النفيس الذي كان قد أعده الجوهري بهمر لمدام دى باري حظية الملك لويس الخامس عشر ، ولكن لويس توفي ، فحاول عرضه على الملكة ماري انطوانيت ، وكان ثمنه ١٫٦٠٠٫٠٠٠ ليرة (وهو ما يعادل ٦٤٫٠٠٠ من الجنيهات الإنجليزية) . واضطرت الملكة إلى أن ترفض شراءه لارتفاع ثمنه ، ولأن حالة فرنسا المالية لم تكن حينذاك على ما يرام ، وكان الإفلاس يدق الأبواب ، وكان على الملوك أن يفكروا في أشياء أخرى غير شراء عقود الجواهر وغوالي اللآلئ .

وكبر على بهمر الأمر وضاقت به الحيل فذهب في ذات يوم إلى القصر وتقدم من الملكة وجثا عند قدميها وتوسل إليها أن تجيبه إلى أحد شيئين : وهما إما أن تشترى العقد وإما أن تأذن له في أن يلقي بنفسه في نهر السين ! فرقت له الملكة واقترحت عليه أن يجزئ العقد ، وأضافت إلى ذلك أنه إذا أراد أن يغرق نفسه ففي استطاعته أن يفعل ذلك دون الحصول على ترخيص منها . والذي يسترعى النظر في هذه القصة أن بها رجلين قد استأثرت بكل منهما فكرة خاصة ، واستغرقت حواسه ، وملكت عليه سبله ، وهما لويس روهان وبهمر تاجر الجواهر ، وقد علمت جان بما دار بين الملكة وبين بهمر من الحديث لأن مثل هذه الأشياء سرعان ما تذاع في المجالس ، وتتداولها الألسن ، فيسر لها ذلك اغتنام الفرصة والاستفادة من الموقف .

وذهبت جان إلى الكردينال دى روهان ، وأخبرته أن الملكة ترغب في شراء العقد الماسي ، ولكنها تريد وساطته عند الجوهري ليقبل تجزئة الثمن على أربعة أقساط ، فسر الكاردينال بذلك العرض أعظم سرور لأنه دليل على ثقة الملكة به ، وإيثارها إياه ، وليس عليه في ظاهر الأمر أي غرم ، فوافق على القيام بتلك المهمة ، وتوسط عند الجوهري وأعد الكردينال الشروط ، وصار مسؤولا عن قيام الملكة بدفع الثمن . وأحضرت جان وثيقة عليها توقيع الملكة ، وحمل روهان العقد إلى جان رسولة للملكة المزعومة ، ولم يشك روهان ولا بهمر في حقيقة توقيع الملكة على العقد ، وكان هكذا «ماري انطوانيت فرنسا» . وقد استرعى كاليسترو نظر روهان بعد فوات الأوان إلى أن الملكة لا يمكن أن تستعمل هذا التوقيع ! وكان الذي يعين جان على تزوير الرسائل والتوقيعات أحد عشاقها البارعين في التزييف ، ويدعى فيلت ، وكان أحد الذين اشتركوا في تمثيل رواية اللقاء في فرساي .

وعجب روهان لأنه لم ير الملكة بعد ذلك وهي مزدانة الجيد بالعقد الماسي ، واستفسر جان حقيقة الأمر ، فأتحفته بأكذوبة جديدة من أكاذيبها ، وأخبرته أن الملكة تنوى

أن لا تفاجىء به زوجها إلا بعد أن تدفع الجانب الأكبر من ثمنه ، وكان العقد فى أثناء ذلك قد قطع إلى أجزاء فى منزل جان ، وعبر زوجها به القنال إلى انجلترا ، وباع الكثير من أحجاره هناك ، وحل ميعاد دفع القسط الأول فلم يدفع شىء ، ونقلت جان إلى بهمر أن وثيقة الملكة التى قدمتها إلى الكردينال مزورة ، وكانت جان ترمى بذلك إلى إرغام الكردينال على أن يدفع الثمن ليدرأ الفضيحة عن الملكة ، ويضحى بماله من أجلها ، فلم يجسر الجوهرى على إبلاغ الأمر إلى الكردينال ، وعلم الكردينال أنه قد خدع ، واستشار صاحبه كاليسترو ، فأكد له أن الوثيقة مزورة ، وأن خيراً له أن يذهب إلى الملكة ويرتمى عند أقدامها ، ويعترف بكل شىء . وتقدم الجوهرى بشكواه إلى الملك ، وعلمت الملكة مارى أنطوانيت بتفصيلات المسألة ، وفى يوم ١٥ أغسطس سنة ١٧٨٥ رأى الملك الكردينال روهان بمناسبة الاحتفال بذكرى صعود العذراء إلى السماء ، فقال له : « يا ابن العم ، ما قصة هذا العقد الماسى الذى اشتريته باسم الملكة ؟ » .

فتعثر الرجل المنكود الحظ وعجز عن الكلام ، وسمح له بأن يكتب قصته فى خمسة عشر سطراً .

وقالت له الملكة وقد بدا فى عينيها الغضب الشديد : « كيف صدقت أنى أعهد إليك فى هذه المهمة وأنا لم أوجه إليك كلمة خلال ثمانية أعوام ؟ » .

ووعد بأن يدفع ثمن العقد ، وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ويسدل عليه الستار . وقد وُجّه اللوم إلى الملك لأنه أمر بالقبض على روهان علانية وهو فى ثيابه الكهنوتية فى قصر فرساى ، وعُدّ من أخطائه الكبيرة إحالته الأمر إلى المحكمة والبرلمان . وقد أرادت الملكة أن تقول العدالة كلمتها صوناً لشرفها ، وحرصاً على نقاء سمعتها . وكانت قضية مدوية اهتزت لها أرجاء فرنسا ، وذاعت أخبارها فى أنحاء العالم ، وبرأ القضاء الكردينال روهان من تهمة سرقة العقد ، وقضى على جان دى فالوا بالجلد والسجن . وبرغم حكم القضاء ببراءة الملكة مارى أنطوانيت كانت هذه القضية من القضايا التى أساءت إلى سمعـــة الملكية أبلغ إساءة ، وجرت عليها الرزايا والكوارث . ولقد قال نابليون : « إن الملكة كانت بريئة ولكى تعلن عن براءتها وتذيعها أرادت الاحتكام إلى البرلمان ، وكان نتيجة ذلك أنها اعتبرت مجرمة » . وأكثر المؤرخين مجمعون على تبرئة الملكة ، وفى طليعتهم كارلايل والخرولانج والكاتب الفرنسى فنك برنتانو .

وقد ظهر فى سنة ١٩٣٩ كتاب جديد فى هذا الموضوع بقلم مؤرخ بحاثة اسمه كامبير ، روى القصة كما ظهرت فى ساحة المحكمة ، وأقام الرواية بعد ذلك على أسس النتائج التى استخلصها ! وهو يرى أن الملكة كانت مسرفة كثيرة البدوات ، متبرمة غير قانعة ، لم تجد فى زوجها ولا فى أولادها ولا فى البلاط ما يرضيها ، ويستريح إليه قلبها ، وفى سنة ١٧٨٣ عاد الكونت إكسل فيرسن من أمريكا ، وكانت أحبته منذ كانت فتاة ناشئة ، لجددا العلاقة السالفة ، وكانت الملكة قد حلت جيدها بالجواهر الماسية ، وكان يروق الكونت فرسن أن يراها حالية الجيد بالدر والماس . وفى الصيف أقامت حفلة فى تريانون فى الظاهر تكريماً لملك السويد ، وكان اكسل فرسن هو المقصود بالحفاوة ، وازدان جيدها بجواهر ماسية شتى ! وكان يحدوها على الاستكثار من الجواهر حرصها على إرضاء عشيقها الكونت فرسن ، وكان بهمر قد عرض عليها مرات شراء العقد الماسى ، واضطرت إلى رفض الشراء ، وبدا لها أن تشتريه ويرجى دفع الثمن وتلبسه سراً للكونت فرسن وحده ، وحينما تمله وتقضى حاجتها منه تقسمه إلى أجزاء ، وتستبقى أحسن أحجاره ، وتبيع الباقى . ولم تكن تستطيع بحكم مركزها مباشرة ذلك بنفسها ، فاتخذت مدام دى لاموت وسيلة إلى ذلك ، وكانت مقربة منها ، أمينة على بعض أسرارها

مؤلفات من سورية :

نقـــد وتعريف

١ – التشريع العقارى

تأليف عبد الجواد السرميني

عبد الجواد السرميني قاض من قضاة سورية اللامعين ، انتدبته كلية الحقوق فى الجامعة السورية لتدريس مواد معينة من القانون ، والقانون فى سورية مضطرب فاسد ، ورثته من العهد العثمانى بالياً مفككاً ، فزاده الأجنبي ، يوم كان فيها ، تشويشا بما أضاف إليه ونسخ منه ، وكان التشريع العقارى من المواد التى كلف الأستاذ السرميني بتدريسها ، فاستطاع أن يتحف المكتبة العربية بموجز المحاضرات التى كان يلقيها على طلبته ، انتهى طبعه حديثاً ؛ والأستاذ فى مقدمة محاضراته ينفى عنها صفة الكتاب قبل أن يتمكن من إعادة النظر فيها لتنقيحها وتهذيبها وتنسيقها ، ومع هذا فيصح لى أن أعتبرها من كتب القانون العربية التى يبدو المؤلف فيها واضحاً بيناً ، ومن يقرأ فى مقدمة الكتاب هذه الحقائق : « ... ويؤخذ على قوانيننا العقارية أن أكثرها منقول من لغتين أجنبيتين ، فالقوانين العثمانية منقولة عن اللغة التركية ، وقرارات المفوضية منقولة عن اللغة الفرنسية ، وقد جاءت النصوص العربية مضطربة فى معناها وسقيمة فى مبناها . . . ويضاف إلى ذلك أن هذه مصادر متفرقة لا يجمع بينها جامع . . . » يدرك قيمة الجهد الذى يبذله من يحاضر فى كلية الحقوق من التشريع العقارى ، ثم يعمل على إخراج محاضراته بشكل يرضى رجال القانون .

إن التشريع العقارى يعتبر اليوم من أهم النواحى القانونية المتصلة بالحالة الاجتماعية والوضع الاقتصادى فى

الخفية . وقام الكردينال روهان بعقد الصفقة ترضيا الملكة التى كانت معرضة عنه ناقمة عليه ، وحل ميعاد القسط الأول ، وكانت الملكة خالية الوفاض ، قد تجاوزت أثمان ملابسها المستحضرة المبالغ المقدرة لها ، فماذا تصنع إذاً ؟ لقد انتهت مهمة العقد فلتجزئه إذاً ، ولتحول بعض تلك الأجزاء إلى نقود . ويعتقد كامبير أن الملكة وجان قد اشتركتا فى تجزئة العقد ، وخرجت جان من القصر وجيوبها ملأى بأجزاء العقد ، وباعت جزءاً منها ، وأحضرت ثمنه لسيدتها ، ورحل زوجها إلى انجلترا حاملا خير أجزاء العقد ، وتكرر تأثر الملكة ، وراوغت جان فى بادىء الأمر ، ثم تحدث الملكة بعد ذلك ؟ وحقيقة أنها كانت لصة مجرمة ، ولكن ألم تكن الملكة شريكة لها ضالعة معها ؟ وعجزت الملكة عن الدفع ، وغص الجو بالإشاعات والأقاويل ، وتقدم البارون دى بريتيل وزير البلاط من الملكة ، وكان عدو روهان اللدود ، ورسم لها الخطة التى تتبعها ، وهى تقوم على إنكار علمها بجريمة الكردينال دى روهان ، والقانون كفيل بعد ذلك بإدانته ، ووجدت الملكة — التى خدعتها جان دى لاموت واعتقدت أنها مخبة — أن ذلك هو خير سبيل للخروج من المأزق ، واستعمل البلاط الأكاذيب والدسائس وطرق الإرهاب والتزوير وتزييف الشهود لمناصرة الملكة . وكان الرأى العام يعطف على روهان ، فاكتفى البلاط بإدانة جان دى لاموت ، وقد نجت الملكة من المحاكمة ، ولكن صنيعها هذا كان مما عجل بفرع الثورة الهادمة التى طاحت برأسها ؟ وهذا هو التفسير الجديد لسر العقد الماسى ، وأوضح مزاياه أنه لا يجعلنا ندهش من غفلة روهان وغباءه ولا من طيش الملكة وحماقتها ؟ وكان هذا هو الرأى الذى استقر إلى عقل الشعب الفرنسى فى عصر لويس السادس عشر .

على أدهم

البلاد العربية ، مما يوجب على رجال القانون والتشريع العناية به ، العناية التي تضمن التوجيه نحو أعدل المبادئ وأفضل قواعد التوزيع الاجتماعي ، وكتاب الأستاذ السرميني خطوة في هذا السبيل .

٢ – الشباب العربي

وكيف ينجح في الحقل الاقتصادي ؟

تأليف منير الشريف

منير الشريف علم من أعلام سورية في الاقتصاد ، لايترك مناسبة إلا ويكتب فيها الأبحاث الاقتصادية التوجيهية مقرونة بالإحصاءات والوثائق ، وقد أخذ في أبحاثه الأخيرة يخرج من الأفق السوري ، إلى بحث مشاكل البلاد العربية عامة من الوجهة الاقتصادية ، وعندما كانت وفود جامعة الدول العربية مجتمعة في بلودان ، كان الناس يقرأون فيما يقرأونه في صحف دمشق ، مقالات الأستاذ الشريف مدعمة بالأرقام ناشداً من ورائها توجيه أنظار رجال الجامعة إلى النواحي الاقتصادية الواجب معالجتها والعناية بها .

وآخر مؤلفات الأستاذ الشريف التي ظهرت حديثاً كتيب عنوانه « الشباب العربي ، وكيف ينجح في الحقل الاقتصادي » نشرته دار اليقظة في دمشق ، عقد فيه فصولا من زراعة البلاد العربية وصناعتها والتجارة فيها ومعادنها والسيا مقفيها . تقرأه فتجد في كل سطر منه دعوة إلى شباب العرب للنزول إلى الميدان الاقتصادي ، ليضمنوا بذلك مستقبلهم من جهة ، وليقوموا بقسطهم في تعزيز مكانة بلادهم الدولية من جهة أخرى .

إن العالم اليوم ما زال في مفترق الطرق ، والاقتصاد هو المصباح الذي أنرف به الأمم طريقها . والأستاذ الشريف يدعو في كتيبه إلى إيجاد مصباح قوى منير ، يهدى البلاد العربية إلى الطريق السوى ويضمن لها عيشة رغد .

٣ – دمشق القديمة

تأليف صلاح الدين المنجد

صلاح الدين المنجد أديب معروف لدى قراء « الثقافة » بما ينشر فيها بين الفينة والفينة ، وبما يصطاد لهم من بلاد الشام حيناً بعد حين ، وهو أديب منتج أخرج للناس في مدة وجيزة بضعة مؤلفات ، نعقد اليوم هذا الفصل لنقد كتاب من أحدث كتبه عنوانه « دمشق القديمة — أسوارها ، أبراجها ، أبوابها » أخرجته له مطبعة الترقي بدمشق على نفقة الحكومة السورية .

وذلك لأن المكتبة العربية كما يؤكد الأستاذ (خالية من الكتب التي تبحث في آثار سورية ، بحثاً يجمع بين التاريخ والفن) ولما ينقل إليها شيء مما كتب باللغات الأجنبية في هذا الموضوع قبل كتابه هذا .

لا شك أن كتاب « دمشق القديمة » يحوى شيئاً من التاريخ والفن ، كما يقول مؤلفه الأديب ، ولكن الفن على ما يبدو لمن يقرأه ، طغى على التاريخ ، واقتصر على ناحية الإخراج ، لأن صفحات الكتاب تعد (٦٤) منها (١٤) بيضاء ، وفي (٢٥) منها رسوم ومصورات ، والثنتان عددت فيهما المصادر المخطوطة والمطبوعة من عربية وفرنسية وانكليزية وألمانية ، ومقدمة الكتاب استنفدت صفحة منه ، وفي الصفحات الاثنتين والعشرين الباقيات نثرت الأسطر والعناوين نثراً فنياً شائقاً ، وربع هذه الأسطر ، على وجه التأكيد ، نصوص منقولة من الآثار المترجمة في الكتاب .

ومما لا شك فيه أيضاً ، أن كتاب الأستاذ المنجد يعطي قارئه فكرة موجزة عن دمشق القديمة ، قد تغنى من لا يود الرجوع إلى الكتب المطولة ، ولكنه يحوى مسائل تلفت النظر منها : أن باباً من أبواب دمشق يعرف اليوم « بباب السلام » غير أن اسمه ورد في بعض كتب التاريخ « بباب السلامة » . ويظهر أن الأستاذ أراد إحياء الاسم

القديم ، فذكر في ستة مواضع من كتابه لفظة «السلامة» دون أن يشير إلى مصدرها في كتب التاريخ القديمة ، وهو لم يقف عند هذا النقص ، بل ذكر لفظة «السلام» في سبعة مواضع أخرى . ومن أغرب الغرائب أن في الكتاب صفحتين متقابلتين ، في الأولى تخطيط لباب كتب تحته «باب السلام» وفي الثانية رسم له كتب تحته «باب السلامة» وهذا مما يتنافى ومنطق التأريخ وجمال الفن .

ويذكر الأستاذ في أكثر من موضع أن كنائس النصارى جعلت مساجد للمسلمين ، ويذكر مثل هذا الكلام دون بيان مصدره التاريخي أو التحقق من صحته علمياً بعد أن ثار جدل كبير بين المؤرخين في إثباته ونفيه .

وعند ما قدم الأستاذ كتابه نعته «بالبحث المبسط» وهو يصف بالعمق أحد الأبراج بستة أسطر ، ولكنا نجد سطراً منها ينص على : «ويسكنه الآن نجار يدعى السيد ابو فواد التوتون» وأنا لست أدري ما علاقة سكنى السيد أبو فواد (النجار !) ببحث مبسط ؟! إن كان المذكور قصة تستحق التأريخ أفلم يكن من الواجب أن يشير الأستاذ إليها ؟ . إلا أن أكثر الآثار التي وضع الكتاب من أجلها عليها حقوق ارتفاق لم يذكر لنا الأستاذ حقاً واحداً منها سوى منفعة «السيد أبو فواد التوتون !» من سكنى برج الصالح أيوب ! كما أن المؤلف لايشرح لقارئيه معنى لفظة «باشورة» وهي لفظة غير معروفة في بلاد الشام بمعنى «السوق»[1] إلا بعد ورودها بضع مرات ، مما يضايق القارئ، الذي ينشد المعلومات «البسطة» !

ويعرض الأستاذ في كتابه لمهندس فرنسي هدم مئذنة دون أن يناقش الأسباب التي استند إليها ذلك المهندس ويبين لنا خطلها ، كما يقتضي البحث العلمي النزيه ، ودون أن يؤكد للناس أن المئذنة ذات قيمة تاريخية ، تجب إعادتها من جديد من قبل دار الآثار المسئولة عن ذلك .

(١) يطلق أهل الساحل السوري الباشورة على الكبرة ولم أجدها في القاموس .

ومما يستحق التعرض له في نقد هذا الكتاب ، ما أشار إليه الأمير جعفر الحسني مدير المتحف السوري السابق في مجلة المجمع العلمي العربي ، فقد جاءت في الكتاب هذه الجملة (المصحة) « . . . إن السيل حمل رجاً صحيحاً ومعه في جانبيه مدينتين ! » ويظهر أن الأستاذ النجد عند ما نقل هذا النص من المؤلفات الأجنبية توهم أن المئذنة هي مدينة ، لأن المؤلف الأجنبي دونها بحروف لغته كما ينطقها العامة عندنا غير مهموزة وبدال مهملة !

إن هذا النقد لايؤثر على إعجابنا بإنتاج الأستاذ النجد وأدبه ، آملين أن تكون مؤلفاته المقبلة فيها كل التاريخ وكل الفن ، وكل المتعة .

عدنان الخطيب

رغيف من الخبز

ليس أشهى إلى نفس الأوربي اليوم ولا أجلب لسروره من منظر رغيف كامل من الخبز الأبيض الناصع الجميل وقد علمت الحرب الماضية الأوربي المترف الأشر أن ينحني على كسرة الخبز التي يخلفها غيره على الخوان ويأخذها ويلفها في منديله باحترام ويمضي بها إلى بيته ليأكلها وينعم بطعمها اللذيذ .

ولعل القارئ، لايعلم أن الأوربيين لم يعرفوا الخبز الأبيض حتى سنة ١٨٢٠ ، وأنه ظل بعد ذلك زماناً طويلاً معتبراً كلون من ألوان الترف المقصور على ذوي اليسار . إنما كان خبز عامة الناس هو الخبز الأسود المخلوط ، بل كان هذا الخبز الأسود نفسه عزيزاً لا يناله كل من أراده ، وتاريخ القرن التاسع عشر حافل بأخبار الثورات والمظاهرات التي كان أصحابها لا يطالبون بأكثر من الخبز ، ولم يشبع الأوربي من الخبز ويعتد أكله إلا بعد استعمار بلاد الشرق واستغلال حقول قمحه الواسعة ، فأخذت السفن تتوارد إلى المواني الأوربية حاملة القمح الذهبي العزيز .

إنما كان الخبز قوام الحياة عند المشارقة من فجر التاريخ ، وقد كان شائعاً بين قدماء المصريين منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة . . . من Belfast Telegraph

صفحة الفنون :

أثر الفن فى الفرد والمجتمع

يجتاز العالم الآن مرحلة انتقال بالغة الخطورة ، وقد وضع كل شىء موضع البحث والاختبار ، وما من ميدان من ميادين الحياة الإنسانية سلم من الفوضى والاضطراب والتغيير والتبديل ؛ فى ميدان العلم والصناعة تتلاحق البحوث والاختراعات التى غيرت كثيراً من أسس الحياة المادية ، وفى ميدان الحياة الاجتماعية جرب الإنسان وما زال يجرب كثيراً من النظم وأشكال الحكم ، وفى ميدان الفكر كثرت مدارس الفلسفة وتعددت الآراء فى الإنسان وعلة وجوده ، والحياة والغاية منها ، وترتب على ذلك أن فقدت المعتقدات والآراء والقيم التى كانت موضع الاحترام والتقديس منذ عشرات القرون كثيراً من هيبتها وسلطانها على النفوس .

وقد تجلت هذه الفوضى على أتمها وأكملها فى الإنتاج الفنى لهذا العصر الذى نعيش فيه ، وكان الفن هدفاً لحملات طائشة ظالمة وميداناً لمحاولات فاشلة خاطئة أفقدته كثيراً من قيمته وجلاله ؛ فمن قائل إن الفن ليس إلا هرباً من مواجهة الحياة ومسئولياتها ، إلى قائل إن الفن هو الغريزة الجنسية تنكرت وتزينت وسارت بين الناس فى غير أثوابها الحقيقية ، وما من طائل وراءه إلا التنفيس عن الشهوات المكبوتة ، إلى قائل إنه نوع من اللعب . وهب بعض الساسة داعين إلى أن يسخر الفن فى ركاب الدعوة السياسية يروج لمبادئها ويشرح غاياتها .

وكانت النتيجة أن تدهور الفن وتسربت إليه عناصر كثيرة لا تمت إليه بسبب ، وحار النقاد والجمهور فى تمييز الفن الحقيقى من الفن الزائف ، ووقفوا من سيل الإنتاج الفنى الحديث موقف الحائر المرتاب : أيرضى أم يسخط ، يقبل أم يرفض ، ويسأل نفسه : ما هو أثر الفن فى الفرد والمجتمع ؟ .

وقد يبدو مما قدمنا أن الإجابة على هذا السؤال عسيرة كل العسر ، لا سبيل إليها والحال كما صورنا . ولكن هناك تراثاً فنياً ضخماً خلفته لنا القرون الطويلة التى اجتازها الانسان منذ عرف الحضارة إلى الآن . وقد سلم الزمن لهذا التراث بالبقاء ، وحكم له بالخلود ، وحكم الزمن أعدل وأكثر حكمة وسداداً من حكم الانسان . وإذا تأملنا مثلا ما تركه لنا هومر وفدياس وليوناردو دافنشى وشكسبير وجوته وبيتهوفن ، وجدنا أن الانسانية لم تجز لنفسها أن تستغنى من هذه الأعمال فى عصر من العصور ، ومعنى ذلك أنها تسد حاجة رئيسية أولية فى كيان الانسان . وإذا درسنا هذه الأعمال وأثرها فى الانسان خلصنا إلى النتائج الآتية :

ابتدع الانسان الفن فى مختلف صوره وألوانه بدافع لا شعورى من طبيعته ، وظل مداوماً على إنتاجه منذ العصور البدائية حتى الآن ، ومعنى هذا أن الحافز الفنى عنصر أصيل فى طبيعة الانسان زودته به الحياة كما زودته بالفكر والغرائز ، والانسان يتجه إلى الفن من تلقاء ذاته متى خلص من شواغل الحياة المادية ؛ فالفن إشباع لملكة نفسية لو أهملناها وتركناها معطلة لظلت حياة الانسان كالقيثارة الناقصة الأوتار لا تؤدى لحناً على وجه كامل . وعندما يدخل الفن حياة الانسان ويتيح له أن يحيا حياة أكثر قوة وامتلاء ونضجاً من الحياة المادية الساذجة ، يعاونه على أن يعرف نفسه ويكتشف ملكاته الراقدة وتزيده معرفة بالدنيا التى وجد فيها وما تتيحه له من متع وفرص للحياة ؛ ومتى فهم الانسان ذلك وقدره حق قدره عز عليه أن يفقده أو يهمل فى شأنه ، فيعمل على تكييف ظروف حياته الخارجية والنفسية تكييفاً يعطى هذه العناصر الجديدة فسحة للحياة ، ويأبى أن يبقى رهناً لمشيئة

الأهواء والظروف ، بل يصر على الاحتفاظ بقواه المعنوية ككائن بشرى يطمح إلى حياة أكمل وأجمل من حياة الواقع .

والفن كذلك هو التعبير الملح عن حاجتنا إلى الحرية ، لأن الانسان يصور فى الفن ذاته كاملة وحقيقة حياته غير منقوصة ، وبتصويرها يخرجها من ظلام نفسه إلى نور الدنيا ، وكلما تخلص الإنسان من الابهام والغموض المحيطين بعواطفه ومشاعره، اتسع أفق حياته وازداد فهماً لنوازعه وأهدافه .

والجمال عنصر من عناصر الفن أو غاية من غاياته ، والجمال فى الفن غير الجمال فى الطبيعة - ونحن نحكم على العمل الفنى بالجمال عندما يؤدى رسالته ، أى عندما يبعث فى نفوسنا العواطف والاحساسات التى حفزت الفنان إلى الإنتاج . والفنان لا ينتج إلا استجابة لعاطفة وخيال قويين . والعاطفة فى الحياة تنصرف إلى غاية ، أما فى الفن فلا غاية لها إلا نفسها . وعندما تكون العاطفة غاية فى حد ذاتها ترتفع بنا عن مستوى الحياة الدنيوية ، وتنقلنا إلى عالم نقى لا أثر فيه للمطامع والشهوات والغرائز الدنيا التى تمتلىء بها حياتنا اليومية المادية والتى نضيق بها ونتمنى أن نتخلص منها ، والفرح الذى تحدثه مثل هذه العاطفة فى نفوسنا يأتى نتيجة لخروجنا من أسر نفوسنا واستمتاعنا باحساسات ومشاعر نقية لا تربطها بمطامعنا ودنيانا صلة ما ، وهو دليل لا ينقض على احتفاء الإنسان بذاته وتمجيده لعواطفه وقواه النفسية متى خلصت من ربقة المادة وتحررت من عبودية الرغبات . والخيال عند الفنان ليس الهرب من الواقع كما يظن الناس ، إنما هو تكملة للواقع . ويحسن بنا أن نضرب لذلك مثلا : يتكيف الطفل منذ ساعة ميلاده ببيئته ، وتتحكم الظروف فى صحته وعقليته وأعصابه . وقد تكون ظروفه من السوء إلى حد مؤلم ، فيحرم بذلك من كثير من الفرص والامكانيات . وليست هذه الفرص والامكانيات مستحيلة أصلا ، بل ممكنة لو أتيحت لمثل هذا الطفل الظروف المؤاتية . والإنسانية ليست إلا هذا الطفل السيء الحظ المحروم من كثير من الفرص والامكانيات التى تبقى مطمورة مجهولة فى خفايا النفس لضغط ظروف الحياة المادية والحياة النفسية . وفى الفن ، مستعيناً بالخيال ، نجد صورة كاملة العالم للانسان وقد تخلص من هذه الظروف المعسرة التى تحرمه من ميراثه الطبيعى فى حياة أكمل وأجمل ، والفن بذلك مرشد وملهم للانسانية فى سيرها إلى الأمام .

والحافز الفنى حافز روحى ينبع من وراء الوعى ، والإنتاج الفنى يشتمل على هذا العنصر الروحى غير القابل للتحليل ؛ فنحن إما أن نتأثر به أو لا نتأثر ، حسب طبيعة ملكاتنا واستعدادنا ، وتأثرنا به معناه تقوية الإحساس الروحى فى نفوسنا والاندماج فى الطبيعة والكون . وهذه التجربة الصوفية من أثمن وأغلى ما يمكن أن نحسه أو نجربه فى حياتنا ، وفى أثنائها يتبدل الإنسان غير الانسان فيؤمن بخيرية الطبيعة وسمو غاياتها ، ذلك الايمان الذى قد يكدح العقل سنيناً طويلة ولا يعثر عليه .

وكى نوفق فى حياتنا لابد لنا من الايمان بالحياة والاطمئنان إلى غاياتها ، والفن يساعدنا مساعدة ثمينة على تحقيق هذه الأمنية .

وقد يقول قائل : إن مزايا الفن التى ذكرناها مزايا نفسية عاطفية لا صلة لها بحياة الواقع التى نحياها . والرد على هذا هو : أن الحياة كلها وحدة لا سبيل إلى تجزئتها ، وهى وحدة ذات عنصرين : العنصر العملى والعنصر التأملى ، وكلاهما يؤثر ويتأثر بالآخر ، وكلما اندمج الانسان فى الحياة ذلك الاندماج الذى لا نعثر عليه إلا فى الطبيعة والفن حدث التوافق . وعثر الانسان على نفسه . والفن ذو قيمة فى الحياة المادية حتى من الوجهة البيولوجية المحضة ، لأنه يقوى وينشط الحياة الروحية ، ومن ثم الحياة العملية

والصعوبة . ونظرة سريعة فى حياتنا الحاضرة ترينا نتيجة غيبة الفن الحقيقى من الحياة ، فقد بدأت تسيطر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى موجة من التطور الصناعى والتجارى كان لها أثرها الكبير فى طغيان « التورستانيا » على مختلف الأفراد فى مختلف الأمم ؛ ومرجع ذلك إلى أن هذا التطور المادى الجديد لم يكن له مقابل من تطور نفسانى يسايره ويهذبه ويسمو بأهدافه ، فارتسمت أمام العالم الجديد صور تبعث على فساد النفس البشرية ، ومرجعها تعدد المطامع التى خلقتها الحياة المادية الصناعية ، والتى لم تجد فى أساليب سلوك الانسان وتربيته ما يمكنه من مواجهتها .

والفن يوسع أفق الحياة النفسية والروحية ، وبذا يتيح لمختلف قوى النفس أن تتوازن ، وبذا يستطيع الانسان أن يقدر الأمور تقديراً أقرب إلى طبيعة الحياة .

ومن آثار الفن أيضاً أنه يقوى الشخصية ؛ وفى هذا العصر الذى تتعاون فيه عشرات العوامل السياسية والاجتماعية على طمس معالم الفرد وإدماجه فى الجمهور إدماجاً يتعذر معه عليه أن يجد الفرصة الواتية للاستقلال بشخصيته ، ليس هناك إلا الفن ليساعد الفرد على الإحساس بذاته كانسان ذى كيان عقلى ونفسانى مستقل .

وللفن أثر لاينكر فى الأخلاق ، لأنه يقوى ويبث فى النفس الإحساسات العالية والنزعات الشريفة ، وعند ما يعلى الفن من شأن الجمال ويجعلنا أكثر قابلية له وتأثراً به ، يجعلنا فى الوقت نفسه أكثر بغضاً لكل ما هو قبيح ، ويخلق فى نفوسنا الرغبة لإزالته .

تلك هى الآثار المباشرة لدراسة الفن . ونختم حديثنا بكلمة عن أثر الفن فى نواحى الحياة الأخرى وفى المجتمع بصفة عامة ، مقدمين لحديثنا بكلمة للشاعر « جيته » تلق شيئاً من الضوء على الموضوع . قال جيته : كى نفهم أى شىء فهماً دقيقاً ونتذوقه تذوقاً حقيقياً علينا أن ندرسه لذاته لا لغاية خارجة عنه . وقال أيضاً : إن كل ما يتناوله العقل الضيق يصبح تجارة ، وكل ما يتناوله العقل السامى يصبح فناً . وعندما يباشر العقل الأسمى شيئاً يباشر فيه كل شىء ، أو بلغة أقل تناقضاً إنه يرى فى الشىء الواحد الذى يعالجه معالجة صحيحة نموذجاً للنهج السديد لمعالجة أى شىء .

وإذا درسنا الفن من أجل الفن وحصلنا على كل النتائج التى سبق لنا ذكرها وجدنا بعد ذلك أن الفن يعطينا نموذجاً رائعاً لما يجب أن تكون عليه الحياة الإنسانية الرفيعة والشخصية الناضجة المتوازنة ، لأن العمل الفنى يشتمل على « الوحدة » وقوامها التوافق والانسجام بين عناصره كلها . كما أن هذه العناصر لم تجتمع فى العمل الفنى اعتباطاً ، بل بعد اختيار وتهذيب وترتيب وفق المثل الأعلى للفنان ، وقد روعى فى التعبير عنها الدقة والعناية التامة فى الإخراج ؛ فإذا طبقنا هذه النظرية على السلوك الإنسانى العام فى الحياة وجدنا أن « الخير » ينطوى على نفس هذه العناصر ، لأنه لا يصدر إلا من شخصية كل التوافق والتنسيق بين عناصرها وفق المثل الأعلى الذى يؤمن به صاحبها ، ونقيضها الشخصية التى تتحارب عناصرها المتنافرة فيلغى بعضها بعضاً .

ونخطو بعد هذا خطوة لنقول إن المجتمع البشرى المثالى هو المجتمع الذى يحقق التوافق بين أفراده ، فلا تتصادم مصالحهم وغاياتهم ، بل يجتمع حول هدف واحد يتجهون إليه .

والفن يساعد مساعدة جوهرية على إحداث التوافق والتجانس بين عناصر المجتمع وطبقاته ، لأنه يخلق نفس المشاعر والإحساسات فى نفوس الجمهور ، وبذلك يحقق التجانس الروحى والثقافى ، وهو أساس التجانس الاجتماعى والاقتصادى .

وأخيراً ، لابد للفن أن يؤمن بالمثل العليا الوطنية ، ولا نقصد المثل السياسية ، بل الاجتماعية والإنسانية ، وهو بذلك يدخل هذه المثل فى نطاق تفكير الشعب ، ويجعلها جزءاً من إحساسه وكيانه ، وبذلك يحفزه إلى تحقيقها .

نصرى عطا الله سوس

لمناسبة الاحتفال بمرور ٣٥٠ سنة على مولد ديكارت :

ديكارت والمجتمع

الإنسان كائن اجتماعي ، تأبى طبيعته حياة العزلة ، لأنه جزء من كل ، ولابد أن يعيش في جماعة من الجماعات . وقد كتب ديكارت إلى الأميرة « إلزابث » في ١٥ سبتمبر سنة ١٦٤٥ فقال : « ينبغي أن يعلم كل واحد منا أنه وإن كان شخصاً منفصلا عن غيره . . . لا يستطيع أن يعيش وحده ، وأنه في الواقع جزء من أجزاء الكون ، وهو على الخصوص جزء من أجزاء أرض بعينها ، وجزء من أجزاء دولة بعينها ، وجزء من أجزاء أسرة بعينها ، قد اتصل بها بمسكنه وبعهده ومولده » .

ذلك إحصاء للوحدات الاجتماعية عند الفيلسوف الفرنسي ديكارت ، وفيه إقرار بحال الفرد في المجتمع ، وبمصيره باعتباره جزءاً من كل .

ولكن ديكارت يبدو قريباً جداً من نظرتنا الحديثة حين يرى أن حياة الناس في المجتمع ليست أمراً طبيعياً فحسب ، بل هي قائمة على أعمال متبادلة وعلاقات اجتماعية خاصة بالإنسان من حيث هو إنسان . ذلك أن الناس مرتبطون بعضهم ببعض ، لا بالمهن والقسم فحسب ، بل بالصداقة والأخوة أيضاً . وتقوم الجماعة عند ديكارت على صداقة شعورية أكمل وأكثر تحققاً مما نجد في أخلاقيات أرسطو . وقد كتب ديكارت إلى « شونيوس » مصرحاً بأنه « ليس في الحياة الاجتماعية خير أعظم من الصداقة » . وكتب في رسالة إلى الأميرة إلزابث : « ولكني أستثني نوعاً من الخادعة يتعارض مع مصلحة الجماعة تعارضاً مباشراً يجعلني أعتقد أنه لا يسوغ استعماله ، وهو تظاهر المرء بصداقة من يريد هلاكهم ، ليتيسر له أن يباغتهم فيصيب منهم مقتلا » .

ولكن الصداقة باعتبارها شعوراً اجتماعياً عميقاً ورابطة إنسانية مقدسة ، ليست مع ذلك هي المظهر الوحيد الذي يميز الحياة الاجتماعية ويطبعها بالطابع الإنساني : فهنالك أيضاً « الكرم النفسي » (générosité) الذي يتحدث الفيلسوف عنه في « رسالة الانفعالات » فيقول : إن كرام النفوس قوم يقدرون أنفسهم إلى أعلى درجة يسوغ لهم أن يبلغوها في تقدير النفس . وكما أنهم يعرفون قدر أنفسهم كذلك يعرفون أقدار غيرهم ، فلا يضعون أنفسهم دون من يفوقونهم مقاماً ومجداً ومعرفة ، ولا يتعالون على من هم دونهم ، لأنهم يرون أن جميع هذه الأمور ضئيلة القيمة بالقياس إلى « الإرادة الطيبة » (bonne volonté) التي هي وحدها ميزان تقديرهم لأنفسهم ، والتي يفترضون أيضاً وجودها أو إمكان وجودها عند غيرهم من الناس . ولهذا نجدهم لا يحتقرون أحداً ، ويميلون إلى العفو عن الإساءات والتغاضي عن الهفوات . وكرام النفوس مطبوعون على القيام بجلائل الأعمال ، وإن كانوا لا يقدمون على شيء ما لم يشعروا بأنهم أكفاء له . وهم ، على قلة مبالاتهم بمصالحهم الشخصية ، لا يرون أعظم من أن يعملوا خيراً ، وأن يسدوا إلى الناس إحساناً . لهذا تراهم دائماً كاملي الأدب والبشاشة والدماثة ، وعلى أتم استعداد لخدمة كل واحد من الناس . ومع هذا نجدهم سادة لعواطفهم ، مسيطرين على رغباتهم ، منزهين عن نوازع الحسد والحقد والخوف والغضب في معاملاتهم مع الناس .

هذه صورة ديكارتية لكريم النفس ، أو « الرجل الفاضل » وهي أشبه في كثير من الوجوه بصورة « الحكيم الرواقي » ورجل المجتمع المثالي الذي يطلق الإنجليز عليه اسم « جنتلمان » (gentleman) . ويحس القارئ ، فيما يكتبه ديكارت تصويراً للرجل الكريم ، أنه يعبر عما يراه الإنجليز اليوم مثلا أعلى للرجل « الجنتلمان » ، سواء في الحياة الخاصة أو في الحياة العامة . نجد ديكارت مثلا يناقش آراء « مكيافلي » في السياسة ، فلا يقبل أن تكون الغاية مبررة

الوسيلة ؛ ويرى أننا لا نستطيع أن نكون فضلاء حقاً إلا إذا اتجهنا إلى الخير بوسائل لائقة شريفة ، وأن الخير المكتسب بالقوة والطغيان أمر شائن غير فاضل. ويحمل ديكارت بهذا الصدد على الساسة والأمراء الذين يستعملون في سبيل الوصول إلى الحكم مختلف أساليب البغي والخادعة ونقض مبادىء الشرف ونكث العهود .

على أن الحياة الاجتماعية تعرف أيضاً ما يخالف الصداقة والمحبة من تضارب الرغبات وتنازع الأهواء . ولكن هنالك طريقاً لتلطيف حدة الخلاف في حياة المجتمعات وإقامة الاتفاق والوئام بين الناس : وهو أن نجعل العقل حكماً في جميع الخصومات والمنازعات ، وأن نزيد عدد الحقائق العقلية اليقينية ، وأن نعمل على إذاعتها في العالم على أوسع مدى . فمن المحقق أن الاحتكام إلى العقل يجعل الحياة الاجتماعية أسمى منزلة وأرفع قدراً .

وللعقل وظيفة أخرى : فهو الذي يقرر في حال التصادم بين الفرد والجماعة ، أيهما على حق وأيهما ينبغي أن يضحي بنفسه من أجل الآخر . لم يرد ديكارت أن يخضع الفرد للدولة ، كما فعل «هيجل» وغيره من الفلاسفة ممن جاءوا بعد ديكارت ، وإنما ذهب فيلسوفنا في «المقال في المنهج» إلى أن المفكر يستطيع ، لو نظر في نفسه واستعمل عقله ، أن يهتدي إلى السبل التي ينبغي أن يسلكها ، خيراً مما يجد من ملاحظة أخلاق الناس في المجتمع ؛ وذهب في رسالته إلى الأميرة إليزابث ، في ١٥ سبتمبر سنة ١٦٤٥ ، إلى أن من الخطأ أن نعرّض أنفسنا لشر عظيم ، لا لشيء إلا لكي نحصل خيراً قليلا لوالدينا أو لبلادنا . و« لو أن شخصاً واحداً أرقى في قيمته على سائر أهل مدينته لكان من الخطأ أن يورد نفسه موارد الهلاك لإنقاذهم . »

ويجد الفيلسوف ، في رسالة إلى الأميرة إليزابث في ٤ أغسطس سنة ١٦٤٥ ، يعود إلى المبادىء الأخلاقية التي صاغها مذهباً في «الأخلاق المؤقتة» سنة ١٦٣٧ ، ولكنه يضع في المنزلة الأولى القاعدة الرابعة وهي استخدامه حياته كلها في تثقيف العقل والتقدم في معرفة الحقيقة .

وإذاً فالإنسان الذي يهب نفسه الحقيقة تزيد قدره على سائر أهل مدينته . ولكن الأمر على خلاف ذلك إذا كانت الجماعة التي ينتسب الفرد إليها جماعة تتعهد الحكمة وتوليها كبير عناية . وقد كتب ديكارت في ذلك : « يزيد حظ الأمة من التمدن والتهذيب بمقدار حظ أهلها من حسن التفلسف . وأعظم خير تظفر به دولة من الدول أن يكون فيها فلاسفة .

فليس الفرد بحاجة إلى شيء آخر غير التأمل لكي يجد في نفسه المقياس الذي يقيس به خدمته المجتمع . يقول ديكارت في رسالة إلى الأميرة إليزابث : « أعترف أن من العسير أن نقدر ، على وجه الدقة ، إلى أي مدى يأمرنا العقل بأن نعنى بمصالح الجمهور . ولكن ليس هذا من الأمور التي يلزم فيها تحرّي الدقة الشديدة ، بل حسب المرء أن يرضى ضميره ، ويحلّ له أن يجاري في هذا ميوله . فالفيلسوف يقيم هنا وزناً كبيراً للوجدان الانساني وذلك الهاتف الداخلي الذي كان سقراط يصغي إليه في الساعات العصيبة ، ولكن المنهج الأعلى عند ديكارت يبقى دائماً ممثلا في الاجتهاد على العقل ، كما أن القصد الأخير هو تحقيق الخير الأسمى .

ولما كان ديكارت محباً للقيم الروحية مؤثراً جانب الاتزان والاعتدال في الأمور ، فقد كان طبيعياً أن يقصر تقديره على المجتمعات التي تسودها الحكمة ، وكان طبيعياً أيضاً أن يستهجن الأفعال الخرقاء والتصرفات الحمقاء أو التي لا مبرّر لها . ومن أجل هذا بدا طابع الحكمة والرزانة والارستقراطية على مذهبه في الأخلاق الاجتماعية ، تلك الأخلاق التي تجعل المنزلة الأولى لتفاضل القيم وتقديس الكفايات وإيثار الأعمال الرشيدة .

ولما كان العقل عند ديكارت صفة إنسانية عامة ، لا فرق فيها بين طبقة وطبقة أو جنس وجنس ،

قصة مراكشية :

الأسيرة

جلس في ظلمة الليل يرنو إلى ألسنة اللهب التي كانت تنعكس على وجهه معنى رهيباً . ولقد كان هناك تجاوب شديد بين هذه النار ونار أخرى كانت تتراقص ألسنتها في جوفه . كان يشعر وهو غائص في أعماق الغابة بالصمت والحزن والظلام ، كما لو كانت كارثة عظمى قد نزلت بالعالم ؛ فهدأ وميض النجوم وحفيف الأغصان أمام ما تشرئبه هذه الكارثة من شكل وهم وبوار .

والحقيقة أن كارثة مهولة كانت قد نزلت بهذا الجزء المجهول من العالم ، الذي صب عليه آلهة السادة نقمتهم وغضبهم ، ولكن صاحبنا لم يكن يفكر في شيء من هذا ، وإنما كان يفكر في أخيه الذي رآه بعيني رأسه يتخبط في دمائه تحت طلقات الرصاص التي أفرغها في رأسه وصدره قائد أسباني غليظ ، فترك الذبيحة هامداً على وجهه إلى أن استقر به المقام هنا ، فلما أدركه الليل أوقد هذه النار ليبادلها الحديث في صمت الغابة وظلامها البهيم .

وأي حديث ! حديث ذكريات الصبي يوم كان هو وأخوه يؤنسان البيت بلعبهما وضجيجهما ، وما كان يضمره من الحب لهذا الأخ الحنون الكريم ، والحزن للكارثة التي حلت بأبيه وأمه ، والملل من الحياة بعد أن أصبح فيها وحيداً ، والغضب لتلك الصورة البشعة التي لقي عليها أخوه حتفه القاسي . أيقتل ذلك الأخ الوديع الرحيم كما تقتل الكلاب الشريرة على قارعة الطريق ! وهكذا تضارب في نفسه الحزن والملل والغضب ، وثارت هواجسه إلى أن أصبحت ألسنة اللهب عاجزة عن متابعة الحديث .

كان أخوه جندياً أسره الأسبانيون في إحدى الوقائع

ولما كان الفيلسوف يحب الحكم الفطري السليم ، ولا يترفع عن الاتصال بالشعب ، ولا يزدري أن يتكلم لغة الشعب ، فمن الطبيعي أن تكون أصول الأخلاق الاجتماعية الديكارتية أصولا ديمقراطية ، باعتبار أن الغرض الأقصى للديمقراطية هو التكافؤ في الأحوال الاجتماعية ، بحيث يهيأ لذوي الفطر الموهوبة أن يبلغوا في المجتمع ما هم أهل له من مراتب . لكن تنظيم المجتمع الديكارتي ينحو أيضاً نحو الارستقراطية الفكرية ، أرستقراطية الفرد الذي يزكو بالحكمة ، ويكتمل وجوده بالعقل ، ويتعهد الحقائق الروحية بمزيد العناية .

ويبدو من هذا الوجه أن المجتمع الفاضل الذي يطمح ديكارت إليه مجتمع تشرف عليه أرستقراطية فكرية ، وقد يرأسه حاكم فيلسوف يكون في الوقت نفسه هو المشرع الوحيد الحصيف . ألم يصرح ديكارت بأن الشعوب التي تحترم من أول الأمر قوانين مشرع حكيم أكثر تقدماً من الشعوب التي لم تضع قوانينها إلا كلما تألمت من جراء فقد تبصرها ؟ ثم ألم ير أن ازدهار أسبرطة لم يكن راجعاً إلى صلاحية قوانينها واحداً واحداً على انفراد ، إذ أن الكثير منها بلغ الغاية في الشذوذ ومخالفة الأخلاق الكريمة ، وإنما مرجعه إلى أنها كانت تنحو نحو غاية واحدة لأن واضعها رجل واحد ؟

آمن ديكارت بمشرع واحد حصيف ، وآمن ببعض القوانين الأساسية أكثر مما آمن بالناس وبالتجربة الاجتماعية . ولم ير للسياسة معنى سوى احترام بعض المبادئ العقلية التي يضعها ذلك المشرع الوحيد البصير الذي خول له حق التصرف في الشئون الإنسانية .

ذلك هو الأفق الاجتماعي الأخلاقي لفلسفة ديكارت .

وربما أمكن تلخيص المثل الأعلى الديكارتي في جملة : العمل على توحيد المجتمع وجمع كلمته بالعقل ، وبتشريع واحد ، وبزعامة الصفوة المفكرين

عثمان أمين

وأرغموه على الالتحاق بخدمة ضابط برتبة جنرال ، وكان هذا الضابط خير وارث لتلك الأحقاد التاريخية الصبيانية التي يضمرها الأسبانيون للمراكشيين ، فتفنن في التنكيل به وفي إذلاله . كان يرغمه على أن يلبس ثياب النساء ، ويحمل القاذورات بيديه ؛ وأرسل الأسير ذات يوم يطلب زيارة أخيه ليستشيره ، وبينما كان الاثنان يتجادلان ، باغتهما الضابط وأرسل سيلا من السباب في وجهيهما . ثار الأسير ثورة جامحة يائسة ، فأجابه الجنرال بثورة مماثلة ولكن بواسطة مسدسه .

رقت عينا محمود فجأة ، وهو يرنو إلى النار ، وأحس بصوت يهتف به من أعماق نفسه : «إلى جيش عبدالكريم» هذا هو النداء الذي طغى عليه ، وكان قوياً غامراً حتى خيل إليه أنه يسمع صداه يتردد في أنحاء الغابة مدوياً مجلجلا .

* * *

لم تصرفه المعامع التي خاضها في الجيش المراكشي الباسل عن التفكير في الجنرال السفاك ، بالرغم من توالي الانتصارات ، وقد طال الزمن ، ولذلك عزم على زيارته في غارة مباغتة .

كانت العادة أن تفاجىء مدينة تطوان من آن لآخر عصابة مسلحة قوية لتحطيم المراكز الحيوية ، ومغادرتها قبل أن يتنبه الأسبانيون ، ولا سبيل إلى زيارة الجنرال إلا أثناء غارة من هذه الغارات .

دخل المدينة على حين غفلة من حراسها أثناء الليل ، في جماعة من الجنود ولم تكن هذه مهمة صعبة ، لأنه لم يكن من السهل تمييز أنصار عبد الكريم المحاربين ، ودخل حديقة المنزل بعد أن خدع الحارس ، ثم تسلل إلى الداخل فوجد الغرف كلها ساكنة مظلمة إلا واحدة ، فتقدم إليها وأخذ يتنصت فإذا بصوت غليظ يقول مخاطباً شخصاً آخر وكان الصوت متقطعاً منهوكا كأنه الحشرجة :

« اسمعي يا ابنتي ! لقد دوختنا هؤلاء الأوغاد ، أبناء الجبال وقطاع الطرق . إن المسدس الذي صرعت به عشرات منهم لم يعد يشفي لي غليلا . هؤلاء الصعاليك الذين جللوا بنات أسبانيا الجميلات بسواد الحداد ، كما فعلوا حينما نازلونا في بلادنا من قبل . لن يلذ لي نوم إلا بعد إحراق بضعة آلاف منهم وهم أحياء . نعم ، سوف تحطمهم لعنة أسبانيا مهما صمدوا للقتال ، وسوف تشرق الشمس ذات يوم ومراكش كلها راكعة عند قدمي أسبانيا ، تكفر بذلها ومهانتها عن هذه الدماء الزكية التي سفكتها . إننا نكسب الآن نقطة ارتكاز في الشمال للزحف على هذه البلاد كلها ، ولسنا نعمل ذلك لاستعمارها بقدر ما نعمله للقضاء عليها وأخذ ثأرنا القديم منها . آه يا ابنتي ! إن ما أريده هو أن أضرم النار بيدي في شخص واحد منهم على الأقل قبل أن أموت » .

هنا فتح الباب بضربة قوية من رجل محمود ، فإذا بالجنرال المخمور أمام الخطر الداهم ، فقام مترنحاً ، ولكن رصاص المسدس أرجعه إلى مقعده ، وصحب ذلك صراخ الفتاة ، فوثب إليها محمود ليخنق صوتها ، وخشي أن تفضحه إذا هو تركها ، فسحبها من يدها فلما اعترضه الحارس أرداه ، ثم قفز بها إلى ظهر الفرس ، وانطلق بها في شوارع المدينة في جرأة وبراعة ، بحيث لم يفطن أحد لما حدث إلا في صباح اليوم التالي .

* * *

أقامت ماريا مع محمود في كوخه قريباً من خطوط النار ، كأنها المرأة الشرسة ، ولكنها لم تجرؤ على الهروب خوفاً من أن يمزقها الرصاص . كان يرجع إليها كل مساء لتنغص عليه الليل بالبكاء والعويل ، ولم يكن يقيم لها وزناً في أول الأمر ، ولكن صورتها الجميلة ما لبثت أن بدأت تتسرب إلى نفسه قليلا قليلا ، إلى أن بدأ يعطف عليها ، فلم يزدها ذلك إلا شراسة ، ثم شعر بالحب يهمس في أعماقه ،

ثم هام بها إلى أن هيمنت على فكره، حتى في خطوط النار.

ومرت شهور، فإذا بها هي أيضاً تحس نحوه بشعور مبهم لم يكن من السهل تجاهله، ولكنه قاتل أبيها.

— إنك قاتل أبي يا محمود، إنك سفاك مروع، فكيف يعرف الحب إلى قلبك السبيل؟

— ولكن أباك هو البادئ، ألم يقتل هو أيضاً أخي، وليس بإنسان من لم يأخذ بثأره.

— وإذاً فلا سبيل إلى ما ترمي إليه، لقد فصلت بيننا الأيام يا محمود.

كان جسمها يطفح بالأنوثة والنعومة والجمال، أما هو فكان مثالاً للرجولة والمتانة والقوة، وكان مع ذلك رقيق العاطفة، فلم تكن لتخطئ الإخلاص الذي يغمر قلبه، لأنها كانت نافذة البصيرة. ومرت الأيام فإذا بكل واحد منهما يهيم حباً بالآخر بعد أن لم يعد هناك مجال المكابرة وتجاهل ما يخفق به القلب! وهكذا تلاشت الأحقاد وامحت معالم الدماء في حياتيهما.

ولكن ماريا ضاقت ذرعاً بالحياة في هذا الكوخ الحقير، وبهذا الشذوذ الذي باتت فيه حياتها، إنها تعرف أنه أنقذ حياتها في نفس الوقت الذي أراق فيه دم أبيها، وقد فكرت في الثكر به وقتله خيانة، ولكنها بعد أن أحكمت المؤامرة خانتها عواطفها! وكان محمود يعرف أن في استطاعتها أن تقتله، فقد كان ينام ملء جفونه وإلى جانبه أسلحة مختلفة، ولكنه مع ذلك لم يفكر في حماية نفسه منها.

— لنتزوج يا ماريا.

— محمود، أرجوك، لقد قتلت أبي كما قتل أبي أخاك، ولن نستطيع أن نتجاهل هذه الحقيقة الدامية مهما عشنا سعيدين. إنك وديع ورحيم بالرغم من الدماء التي سفكتها. وإني لأستغرب كيف يكون مثلك مرا كشياً. فأرجعني إلى قومي يا محمود، لست أستطيع أن أعيش هنا أكثر مما فعلت.

كانت تبكي وتنتحب في حزن عميق وقد عصف بقلبها الحب والألم، ولكن محموداً كان عاجزاً من تنفيذ رغبتها، وتقدمت الأيام فإذا ماريا تنتحب، وإذا بها عاجزة عن مقاومة هذه التيارات المتضاربة في نفسها، فمرضها الشراسة من جديد، وأرغمه ذلك على أن ينزل عند رأيها بعد أن تيقن بأن كل محاولاته قد ضاعت سدى.

وبكيا وهما يستعدان للفراق وسارا في الطريق صامتين حزينين، ولكنهما معاً كانا مؤمنين بأن هذا هو الحل الوحيد، وتسلل بها داخل خطوط النار معرضاً حياته للخطر، ثم اقترب بها من المدينة معرضاً نفسه لخطر أشد! وهناك في منحدر قريب منها وقف ليودعها، فإذا بهما ينتحبان والألم يمزق نفسيهما. وفجأة، فغرت إليه وعانقته في حرارة وشدة، ثم انطلقت نحو المدينة مهرولة إلى أن غابت عنه وهو واقف يرنو إليها بعينين دامعتين.

* * *

انتهت الحرب الآن وماريا تزحف نحو الأربعين من عمرها، وقد عرفت رجالاً كثيرين، ولكن أحداً منهم لم يشغل من نفسها مكانة قاتل أبيها، ولذلك فإنها فضلت أن تعيش عذراء. بيد أن الأمل لم يمت في نفسها أبداً، بل ما تزال إلى الآن تجوب بوادي مراكش ومدنها باحثة عن محمود، وهي تزور مكان الكوخ القديم الذي عاشت فيه مع حبيبها ثلاثة شهور هي أسعد أيامها، بالرغم من أنها كانت أسيرة، وبالرغم من الخطر الذي كانت محفوفة به. وإذا كانت تذكر أباها والصورة التي لقي عليها حتفه، فهي تعرف أن المقادير — مقادير الغزو والفتح — هي التي كتبت هذا الفصل من حياتها بقطع النظر عن أبيها وعن محمود.

وهي بعد ذلك ما تزال أسيرة، ولكن الذي أسرها هذه المرة هي الحوادث والأيام.

عبد الحميد بن جلون

في متحف الشعر العربي :

قصائد شرقيـة

خمر العبير

الأميرة زين النساء

ليس بالي الصهباء بي حاجة
في الروض زهرٌ عَرفه يسحر
ما نشوة في الزهر قدسيةٌ
يبــالغ مبلــغها السكر

• • •

عفواً إذا جاءت كأس الطلى
في المحفـل الحاشـد يا داعي
حسبي من النشـوة علوية
كاسانهـا ما بين أضـلاعي

• • •

قلـــبي كالعصفور لكنه
لا طـار في الجو ولا غنّى
لمّـا يزل في قفص ضيّق
ترى رياضاً عينـــه الوسنى

• • •

إن يكتم الشكوى لساني فقد
باحت بشكوى الظلم أوصاليه
تشكو السماوات التي هيأت
لي زمناً ضاعف آلاميَـه

• • •

يا حظ هبني مطلباً واحـداً
يوماً ربيعـــياً به أفرحُ
يسرُّ نفسي الموت لو جاءها
ومي ولو في قفص تصدح

• • •

إن أكُ في فقر فلا ترثِ لي
لم ينتقص فقري من كبري
ما زال في صدري سرٌّ ولم
تجرُؤْ ليـــالٍ على صبري

• • •

كم حجة أقضى بسجن الأسى
كأنني يعقوب في البـــلوى
في وحشة ليس بها مؤنس
وأدمعٌ تُهمى بلا جـدوى

• • •

وكبريائي إن تكن أُنزلت
من برجها العالي إلى الترب
فإن رجـــلَ تقـــلاني
في مهيع أسلكه رحب

• • •

هذا طريق الحج يا عشـــق
فكن دليل السير للركب
قوافـل العشـاق تمشي على
وقع الخطى في مسلك الحب

بين الفقر والغنى

على غير جدوى يا عدوُّ جهادي
وما منك خوفي بل أخافُ فؤادي
لقد خانني حتى انصرفت لشأنه
وحقَّ انتصاري لو أطلتُ جلادي

• • •

وهل عجبٌ أن يصبح الشوق جامحاً
بوجهه في الخافقين زفيري

أكون على ألهوبه ودخانه
فيبلغنى أوجَ السماء سعيرى

* * *

لئن كنت قد غادرتُ حفلة عيدى
فدون اكتفاره قد تركتُ سعودى
ولكنْ أحلامى بلذة خمرها
تراجعنى من نشوة بجديد

* * *

وماذا على الأيام إن هى سامحت
وإنى لفى بأس وطول شجون
براحة يوم أو سلامة ليلة
دعاءَ مقيم فى الهموم حزين

* * *

من الهم والتبريح والحزن والضنى
عجزت وإنى كادحُ الدهر جاهدُ
لأصقل مرآة الرغائب مرة
وهيهات أن تجلى وحظى معاندُ

* * *

وإن كان بى فقرٌ فما بىَ جرأة
على أن أنال المال غير حلال
ولو شئت إدراك الغنى لوجدته
ولكن فقرى فى العفاف جمالى

* * *

ولولا ضلال الناس يا مختق لما
رأوا فى الغنى والفقر شتى المذاهب
فثوب فقير الهند ليست تبزه
مطارف يكساها كبار المراتب

المصـــباح المنطفىء

من قلّة الصبر يا فــؤادى
عجزتَ عن هذه العُقَد
لو أنها أمكنَتْ لحُلّتْ
ما عشتَ فى البؤس والكمد
ضاعت حياتى بغير جـــدوى
وطول شكواى لم يُفــد

* * *

رغائبى كُنّ فى فــؤادى
مجـــامراً نارُها الأمـــانى
كانَ عجيباً : أمدُّ كفى
فأطـــفىءُ النار فى كيانى
أطفأتها جـــذوة فأخرى :
من قـــلة الصبر ما أعانى

* * *

أزاهرُ النُجح لم يُفتّح
نوّارها قـــطُّ فى فؤادى
روض أمانىَّ فى ظـــلام
وسحرُهُ شـــدّةُ الســواد
مصباح حظى بلا ضيـــاء
ونار قـــلبى بلا اتقاد

* * *

يا خائن العهـــد يا حبيبى
ما زلت فى الحب تستزيد
بادتْ هذى الهـــوى وعندى
وكلُّكم بالهـــوى سعيد
وفى شقائى بقيت وحـــدى
ماذا بقـــلبى إذاً تريد ؟

عبد اللطيف النشار

رصيص محمود البشبيشى

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٩٨ — الثلاثاء ١٦ من رمضان سنة ١٣٦٥ — ١٣ من أغسطس سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

مؤتمــــــر الصلح

يجتمع مؤتمر الصلح منذ أسبوعين في قصر لوكسمبورج التاريخي بباريس ، وهو الذي كان فيما مضى داراً لمجلس الشيوخ الفرنسي ، وتشترك فيه إلى الآن إحدى وعشرون دولة ، منها الدول الأربع الكبرى وهي بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا السوفيتية وأمريكا ، وسبع عشرة من الدول الوسطى والصغرى ، وذلك باعتبار أن هذه الدول الإحدى وعشرين هي الدول التي خاضت غمار الحرب بصفة فعلية وما تزال ثمة بضعة أخرى من الدول الصغرى تطمح إلى الاشتراك في أعمال المؤتمر ، وفي مقدمتها مصر وألبانيا والمكسيك وكوبا ولوكسمبورج ، وذلك لكي تستطيع بسط وجهات نظرها فيما له مساس بحقوقها ومصالحها قبل دول الأعداء السابقة .

وتنحصر مهمة مؤتمر الصلح الحالي في بحث مشاريع معاهدات الصلح التي أعدها مؤتمر وزراء الخارجية من قبل مع إيطاليا والمجر ورومانيا وبلغاريا وفنلنده ، وذلك بعد مباحثات ومناقشات طويلة ؛ وقد تولى مؤتمر وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى وضع هذه المشاريع بمفرده ، وروعي في وضعها بادئ ذي بدء التوفيق بين مصالح الدول الكبرى ، وكان من الواضح أن روسيا السوفيتية تتجه اتجاهاً خاصاً فيما يتعلق بمعاهدات الصلح مع بلغاريا ورومانيا والمجر وفنلنده ، وأن الدول الغربية الثلاث لم تبد كبير معارضة في إقرار معظم وجهات النظر الروسية في هذه المناطق التي ما زالت تحتلها الجيوش الروسية وتبسط عليها روسيا شبه حماية سياسية . وأما فيما يتعلق بإيطاليا فقد اتخذت مباحثات الصلح شبه مساومة بين الفريقين ، وبحث روسيا في ثوب المدافع عن مطالب يوجوسلافيا

وألمانيا ، ولكنها كانت رفيقة فى التمسك بوجهات نظرها مقابل ما لقيت من تساهل الدول الغربيـة فى الناحية الأخرى .

وقد أذيعت نصوص مشاريع المعاهـدات الخمس التى وضعها مؤتمر وزراء الخارجية . ولا ريب أن أهمها جميعاً هو مشروع الصلح مع إيطاليا . ويمثل هذا المشروع فى مجموعه اتجاهين واضحين : أولهما أن إيطاليا قد عوملت فى بعض نواحيه بقسوة ظاهرة باعتبارها دولة معتدية من دول الأعداء ، والثانى هو أنها عوملت فى بعض النواحى الأخرى بشىء من التساهل والرفق لقاء ما بذلت بعد تسليمها فى سبيل تدعيم مجهود الحلفاء الحربى . فإيطاليـا تفقد بمقتضى هذا المشروع سائر مستعمراتها وممتلكاتها السابقة ، وتعترف باستقلال الحبشة وألبانيا اللتين كانتا من مجالا لمغامراتها الإمبراطورية ، وتتنازل عن جزر الدودكانيز اليونانيـة لليونان ، وتتنازل ليوجوسلافيا عن منطقة فنيزياجوليا والأراضى الواقعـة شرقى تريستا وعن ثغر زارا والجزائر الواقعة قريباً منه . أما منطقة تريستا ذاتها فتغدو منطقة دوليـة حرة يكفل مجلس الأمن الدولى استقلالها وسلامتها ، وتعدل الحدود الإيطالية الفرنسية تعديلا بسيطاً . أما التيرول الجنوبى وهو منطقة نمسوية محضة فسوف يترك لإيطاليا بعد تعديل بسيط فى الحدود ؛ ويسمح لإيطاليا بجيش لا يزيد على ٢٥٠ ألفاً من الضباط والجنود ، وقوة جوية ضئيلة ، وأسطول لا يتجاوز بضع قطع ، وسوف يقسم الأسطول الإيطالى الحالى بين الحلفاء ، وتتعهد إيطاليا بتسليم مجرمى الحرب . أما عن التعويضات فقد عوملت إيطاليا معاملة رفيقة جداً ، وفرض عليها أن تؤدى لروسيا تعويضاً عينياً صغيرا ، على أن يفصل مؤتمر الصلح فى باقى طلبات التعويض التى سوف تتقدم بها فرنسا ويوجوسلافيا والحبشة واليونان .

وأما المعاهدات الأخرى التى وضعت لرومانيا وبلغاريا والمجر وفنلندا ، فتبدو فى نصوصها رغبات موسكو واضحة ، فهى فى الواقع معاهدات روسية وضعت لضمان مصالح روسيا وتحقيق سياستها فى دول تعتبر فى نظرها مناطق نفوذ روسية لا شأن للحلفاء بها . وتقوم المعاهدات الأربع على مبادئ واحـدة تقريباً ؛ ولا تتناول تغييرات إقليمية ذات شأن إلا فيما يتعلق برومانيا حيث نص على أن تعود حدودها إلى ما كانت عليه فى يناير سنة ١٩٤١ ، وهو ما يعنى أن تبقى ولاية بسارابيا داخل الحدود الروسيـة ، وفيما يتعلق بفنلندا حيث نص على استرداد روسيا لإقليم بتسامو وحقها فى تأجير منطقة بوركالا — أود كقاعدة بحرية . ويسمح لكل من الدول الأربع بالاحتفاظ بجيش صغير ، وتلزم كل منها فيما عدا بلغاريا بأن تؤدى للاتحاد السوفيتى تعويضاً عينياً قدره ثلاثمائة مليون دولار . وتحتوى المعاهدات الخمس كلها على بعض النصوص المشتركة المتعلقة بضمان حقوق الإنسـان والحريات العامة وإلغـاء القوانين العنصرية ، والمعاقبة على جرائم الحرب ، وسحق النزعات الفاشستية وغيرها .

والمفروض أن مشاريع معاهدات الصلح الخمسـة ، وهى التى وضعها مؤتمر وزراء الخارجية ، هى مشاريع تمهيدية قابلة للتغيير والتعديل ، وستكون صياغتها النهـائية هى أخص مهام مؤتمر الصلح الذى ينعقد الآن فى قصر لوكسمبورج ؛ وستعطى الفرصة للدول السبع عشرة التى تجتمع الآن مع الدول الأربع الكبرى لكى تبدى وجهة نظرها ، كل فيما يتعلق بمصالحها التى تمسها المعاهدات المذكورة ؛ وسيكون ليوجوسلافيا واليونان والحبشة فيما يتعلق بالمعاهدة الإيطالية آراء ومطالب خاصـة إقليمية وغيرها . وإذا أتيح لمصر فى النهـاية أن تظفر بالمثول فى مؤتمر الصلح ، وهو ما يسعى إليه الآن وفدها فى باريس ، فسيكون لها أيضاً قبل إيطاليا مطالب خاصة بالتعويضات ومصير المستعمرات الإيطالية فى أفريقية . هذا ومن جهة

أخرى فإنه قد أصبح فى حكم المقرر أن يسمح لدول الأعداء السابقة التى وضعت من أجلها المعاهدات ، وهى إيطاليا ورومانيا والمجر وبلغاريا وفنلنده ، أن تمثل فى مؤتمر الصلح لتبسط وجهات نظرها ولتدافع من حقوقها فيما ترى أنه إجحاف بها .

وما زال مؤتمر لوكسمبورج حتى كتابة هذه السطور يعنى بتنظيم الإجراءات الشكلية والأغلبية التى تصدر بها قراراته ؛ وهنالك فوق ذلك دلائل كثيرة تدل على أن المؤتمر سيعنى بالإجراءات والرسوم أكثر مما يعنى بالموضوع . ذلك أنه يمكن القول بأن مشاريع المعاهدات التى وضعها مؤتمر وزراء الخارجية تعتبر فى جوهرها قرارات واجبة التنفيذ ، وأنه قد روعيت فى وضعها فضلا عن رغبات الدول الكبرى رغبات الدول التى تنضوى تحت لوائها وفق المستطاع ، وأنه ليس من المحتمل أن يدخل المؤتمر على نصوص هذه المعاهدات تغييرات أساسية ، اللهم إلا فيما احتفظ به لبحثه بواسطة المؤتمر كبعض المسائل الإقليمية ومسائل التعويضات . وإن فى تنظيم المؤتمر ذاته وما هو ملحوظ من انتماء كل دولة من الدول الوسطى أو الصغرى إلى دولة من الدول الكبرى تؤيد رأيها وتدعم قراراتها ، ما يؤيد أن نشاط المؤتمر من الناحية الموضوعية سيكون محدوداً .

هذا وسوف يستمر مؤتمر الصلح فى انعقاده إلى نحو العشرين من شهر سبتمبر ، ثم لابد من انفضاضه حول ذلك التاريخ ، خصوصاً إذا تقرر بالفعل أن تنعقد الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة فى الثالث والعشرين من سبتمبر ؛ وهنالك ما يدل على أن المؤتمر متى انتهى من تنظيم مسألة الإجراءات فإنه سوف يمضى قدماً فى أعماله .

• • •

وإنه لمن غرائب القدر أن نشهد هذا المؤتمر الضخم ينعقد لإقرار معاهدات الصلح التى فرضت على إحدى دول المحور وبضعة من الدول الصغرى ، ولا نسمع فيه ذكراً لمعاهدة الصلح مع ألمانيا ، وهى العدو الرئيسى . والواقع أنه شتان ما بين مؤتمر الصلح الذى عقد فى فرساى فى سنة ١٩١٩ عقب الحرب العالمية الأولى ، والذى مثلت فيه ألمانيا المهزومة مع خصومها وجها لوجه ، وبين مؤتمر لوكسمبورج الذى تملى فيه نصوص معدة على أعداء الأمس ، وليس بينهم ألمانيا التى تحمل أعظم تبعة فى إثارة الحرب العالمية الثانية ؛ وتفسير ذلك بسيط واضح ، هو أن ألمانيا الإمبراطورية استطاعت بالرغم من هزيمتها فى الحرب الكبرى أن تحتفظ بوحدتها وشخصيتها كدولة عظمى ، وقد اتخذ الحلفاء الظافرون نصوص معاهدة فرساى لتحطيم ما بقى من حيوية ألمانيا ومواردها ، ولكن معاهدة فرساى أثبتت أنها لم تكن أداة صالحة لتحقيق هذه الغاية . ولهذا فطن الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية أنه لابد للقضاء على ألمانيا النازية من تحطيمها وسحقها فى ميدان الحرب أولاً ؛ وهكذا فعلوا واستمرت المعارك الطاحنة تضطرم حتى خرت الريخ الثالثة صريعة دامية على ركبتيها ، واحتل الحلفاء الظافرون سائر أراضيها ، وما زالوا منذ أكثر من عام يعملون على سحق قواها ومواردها ، وتطبيق شروط التسليم التى فرضت عليها بأقسى الوسائل وأشدها ؛ وإذاً فليس الحلفاء بحاجة إلى التعجيل فى عقد الصلح مع ألمانيا ، وقد حققوا غايتهم من تحطيمها وسحقها بصورة عملية ؛ أضف إلى ذلك أن ألمانيا ليس لها الآن وجود كدولة مستقلة ، وليست بها حكومة قومية يمكن المفاوضة أو التعامل معها ؛ فإلى أن تسترد كيانها كدولة ذات سيادة وإلى أن تقوم بها حكومة قومية ، يستطيع الحلفاء أن يكتفوا بتنفيذ شروط التسليم المرهقة التى فرضت عليها فى ظل الاحتلال القوى المستمر .

وثمة ظاهرة أخرى تستحق التسجيل فى هذا المقام وهو أن مؤتمر فرساى عقد فى سنة ١٩١٩ ومشروع

(٣) أمارات رمضان :

فى الحياة الروحية

أسمى ما قرره الإسلام ودعا إليه « الوحدانية » ولذلك كان شعاره دائماً « لا إله إلا الله » .

فالله خالق كل شئ من سماء وأرض ، وجبال وبحار وأشجار ، وحيوان وإنسان . هو رب العالمين لا رب غيره ، وهو القادر على كل شئ ، مدبر الكون وواضع قوانينه ، ومؤلف نظمه ، وهو العالم بكل شئ « ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » كل شئ فى الوجود يستمد منه وجوده وحياته ، لا خلق إلا خلقه ، ولا قوة إلا قوته — هو الحق وهو العدل ، وهو المثيب على الخير والمعاقب على الشر « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

هذه العقيدة بالوحدانية تكسب معتنقها قوة وعزة ، فالله وحده هو القوى وهو العزيز ، ليس الناس كلهم إلا خلقه ، متساوين فى الخضوع لقوته ، والانقياد لإرادته ، هو وحده المعبود ، وهو وحده المستعان : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

معتنق الوحدانية ليس عبداً لأحد إلا الله ، فهو فى العالم مستقل حر ، لأن العالم ليس له إلا سيد واحد وهو الله ، وأما باقى الناس فإخوة متساوون ، فعقيدة الوحدانية كما تتضمن سيادة الله وحده تتضمن أيضاً أخوة الإنسان للإنسان ، فلا سيادة طبقات ، ولا سيادة أجناس ، ولا استعباد ملوك ، ولا استبداد طغاة ، ولا اعتزاز بنسب أو مال أو جاه أو قوة ، ولا خضوع لمن يريد أن يتصف بصفات الله زورا ، من بسط سلطان وفرض حماية ومحاولة استعباد — إن حاول أحد ذلك قال المؤمن : « لا إله إلا الله » مدركاً معناها ، رافضاً ما عداها .

عقيدة الوحدانية تشعر الإنسان بالنبل والسمو ، فخضوعه لله وحده يشعره بالتحرر من سيادة أحد عليه ، سواء فى ذلك سيادة الناس أو سيادة قوى الطبيعة ، فليس النيل معبوداً تقدم إليه الضحايا ، ولا العواصف والنجوم والشمس والقمر مما يخشى بأسها ، ويتقرب إليها بالقرابين ، لأنها مخلوقة لله مثله ، بل كل قوى العالم يصح أن يستخدمها الإنسان لخيره ، لأن الله منحه عقلا يستطيع أن يفهم به قوانينها فيسخرها لمنفعته .

وكذلك لا تستعبده قوة الناس لأن الناس ليسوا إلا عبيداً مثله لله ؛ فليس لأمة — مهما كانت — أن تستعبده أو تستعبد أمته ، وهو لا يخضع لسيادتها لأنه لا يخضع إلا لسيادة الله ، ولا يستعبده حاكم ولا سلطان ، ولا أى مخلوق فى العالم لأنه يعتقد أن « لا إله إلا الله » ، كل ما يجب عليه نحو حاكمه أو سلطانه أن يطيع قوانين العدل ، لأن الله أمر بالعدل وبإطاعة العدل ،

عصبة الأمم لا يزال حلماً يرجو التحقيق ، وقد لقى مولده الأول فى معاهدة فرساى ذاتها ؛ ولكن مؤتمر الصلح الحالى يعقد ، وهيئة الأمم المتحدة أو عصبة الأمم الجديدة قد أصبحت حقيقة واقعة ، وقد وضع دستورها وأقيمت دعائمها الأولى بعيداً من مؤتمر الصلح ومن معاهدات الصلح ، ولكن هذا الاستقلال الملحوظ فى إنشاء هيئة الأمم المتحدة أيضاً من عبر فرساى ؛ وقد اعتمدت مشاريع المعاهدات المعقودة بالفعل على معاونة هيئة الأمم المتحدة فى أكثر من موضع ؛ فمنطقة تريستا الدولية توضع تحت كفالتها ، والمستعمرات الإيطالية قد توضع تحت وصايتها إذا لم تتفق الدول على حل آخر ؛ وهكذا تغدو هيئة الأمم المتحدة منذ الآن عاملا ذا شأن فى تنفيذ معاهدات الصلح ، وفى تصفية كثير من المسائل التى ترتبت على الحرب العالمية الثانية محمد عبد الله عنان

ولا يخضع لظالم لأن الله نهى عن الظلم وعن طاعة الظالم أيًا كان ، وهو لا يخضع لجبروت من أى صنف لأنه ليس لأحد حق الجبروت ولكن له حق الأخوة

إن الذى يريد أن يستعبدنا يريد أن يكون إلها و « لا إله إلا الله » ، والذى يريد أن يكون سيداً طاغياً يريد أن يكون إلها ، و « لا إله إلا الله » ، والحاكم الذى يريد أن يذلنا يريد أن يكون إلها و « لا إله إلا الله » . إنا لا نقبل من إنسان أيا كان ولا من أمة أيا كانت إلا أن يكون أخا أو يكونوا إخوة . فأما السيادة والاستعباد فلا ، لأنه لا إله إلا الله . إنا لا نقبل أن نشرك مع الله أحداً غيره مهما كانت منزلته ولو كان نبياً مرسلا ؛ فلا نتقرب بالنذور إلى الأولياء ، ولا نمنحهم شيئاً من القداسة ، ولا نعظم الحكام تعظيم عبادة ، ولا نخضع لهم خضوع ذلة ، إنما نطيع فيهم العدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأن هذا وحده هو الذى يتفق ولا إله إلا الله . ليس يستعبدنا المال ولا الجاه ولا القوة ، لأنها أعراض زائلة وليست من الألوهية فى شىء ، ولا إله إلا الله .

إن شئت فاستعرض تاريخ المسلمين تجد عزهم جميعاً أو عزة أمة من أممهم مقرونة بالتمكن من عقيدة الوحدانية فيهم ، وما توحيه من نبل شعور ، فإذا زالت عقيدة الوحدانية زالت معها عقيدة الأخوة الإنسانية ، وجاء الطغيان من ناحية والعبودية من ناحية ، فزالت العزة ، وفشا الذل والمسكنة ، وأصبحت « لا إله إلا الله » ليست عقيدة تعتقد ولكن لفظاً يؤدى ، وغناء يغنى ، وقولاً يسير مع الريح . إن الديمقراطية والاشتراكية والعدالة الاجتماعية بمعانيها الصحيحة مقدر لها البقاء والتقدم لأنها داعية إلى الأخوة الإنسانية وهى من مستلزمات « لا إله إلا الله » .

* * *

والوحدانية الخالصة — مع بساطتها ومعقوليتها — من أصعب الأمور على النفوس ، تحتاج فى اعتناقها إلى نوع من السمو ، كما تحتاج إلى حياطة تامة حتى لا تشوبها شائبة من وثنية ، لأن الناس سرعان ما ينزلقون إلى الشرك .

اليونانيون ألهوا قوى العالم ، والفرس اختصروا الآلهة إلى اثنين : إله الخير وإله الشر وجعلوهما يتنازعان ، والعرب ملئوا الكعبة أصناما ، فلما أتى الإسلام وحطمها ودعا إلى الوحدانية الخالصة وجعل لا إله إلا الله شعارها فى كل مناسبة : فى الأذان ، فى الصلاة ، فى كل عارض ، لم تلبث بعض النفوس أن تسربت إليها الوثنية فى أشكال خفية ؛ بدأ بعض المسلمين يعظمون شجرة بيعة الرضوان ، فقطعها عمر ، وبدأ بعضهم يعظم أهل بيت الرسول تعظيما يقرب من العبادة ، فنهاهم على ، ثم سال سيل الوثنية على مر الأيام ، وامتلأ العالم الإسلامى بأقطاب يتصرفون فى الكون تصرف الله ، وأقيمت الأضرحة تقدم إليها النذور ويستشفع بها ويتقرب إليها كأنها آلهة . وانقلبت الخلافة إلى ملك عضوض ؛ فالحكام كانوا يأمرون ولا رادّ لأمرهم ، ويتصرفون ولا معقب لحكمهم ، وذهب معنى أخوة الحاكم المحكوم ، وحل محله نوع من الألوهية ، واستعبد الناس من ناحية الدين ، واستعبدوا من ناحية الدنيا ، وذهب معنى « لا إله إلا الله » إلا من قلوب الخاصة .

« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

* * *

لكل زمن وثنية ، ولكل حضارة أصنامها ، حتى هؤلاء المثقفون المتعلمون العاقلون الذين يهزءون بعبدة الأحجار وعبدة النجوم قد يحجبون هم أنفسهم عن الوحدانية بضروب دقيقة من ضروب الوثنية .

إلى من يلزم في وزارة المعارف :

بدرة الملبس أيضاً !

من البديهيات في الشئون الاقتصادية أني إذا صرفت جنيهاً واحداً ولم أحصل من ورائه على فائدة تعادل قيمته كان ذلك إسرافاً شديداً ، ولكني — إذا كان معي ألف جنيه — وصرفت ذلك الألف كله في أبواب تعود بالنفع الذي يكافئ قيمتها كان ذلك هو الاقتصاد بعينه .

ويخيل إلي أننا عند ما نعرض للأموال العامة وطرق التصرف فيها نميل دائماً إلى تقدير أحكامنا على أساس مقدار الأموال التي تصرف . فمثلا إذا رأينا أن الميزانية تحتوي على مبلغ ضئيل أرصد على عمل من الأعمال لم نقف عنده طويلا ، لأن صرف المبالغ الصغيرة لا يتعرض في نظرنا لخطر الإسراف ، وأما إذا كانت المبالغ المرصدة في الميزانية كبيرة فإننا نقف عندها مترددين ولا نطمئن إلى صرفها إلا على مضض وكراهة ، لأننا تعودنا أن نحكم على الذين يكثرون من الإنفاق بأنهم من المسرفين .

وقد كنت منذ حين أتحدث مع بعض المسئولين عن المبالغ التي أرصدت لإزالة الأمية في وزارة الشئون الاجتماعية ، وكان الذي يحدثني مهتماً بالدفاع عن سياسة الوزارة في هذا الشأن ، فكانت حجته التي دافع بها عن تلك السياسة أن المبالغ التي صرفت لا تتجاوز ربع الميزانية التي أرصدت لهذا الباب من الإصلاح . وهذا يدل دلالة واضحة على أنه كان يرى أن السياسة المالية الحكيمة لا تتعدى الإقلال من الصرف . في حين أن المال القليل إذا صرف ولم ينتج فائدة تعادله كان صرفه تبذيراً وإسرافاً عظيما كما قدمنا .

نقول هذا القول على سبيل التقديم لموضوع آخر سبق لنا التحدث فيه من المكافآت السنوية التي اعتادت وزارة المعارف العمومية أن تصرفها لمن تسميهم النوابغ حتى تشجع على زيادة الاهتمام بتحصيل العلوم .

وهذه المكافآت نوعان : أما النوع الأول فهو الذي يخصص للمتسابقين في العلوم المختلفة في نهاية التعليم الثانوي ، وفائدة هذا الامتحان مزدوجة ، فهو يحفز الطلاب إلى الإقبال على التحصيل والدرس ، وفي هذا ما فيه من فائدة محققة ، وهو في الوقت عينه يتيح لأولي الأمر فرصة لتصفية أبناء الأمة في نهاية مرحلة التعليم الثانوي ، وبذلك يتمكنون من معرفة النوابغ في المواد العلمية المختلفة .

وهؤلاء النوابغ إذا تمكنوا من مواصلة الدراسة في الجامعة كانوا من أجدر الناس بالنبوغ في العلوم التي ظهر استعدادهم لها . والوزارة تشجعهم على مواصلة الدراسة بالجامعة لأنها تعفيهم من رسوم الكليات المختلفة ، ولا شك أن أكثرهم ينتهزون هذه الفرصة لمواصلة حياتهم العلمية

فهذه السنة التي سنتها وزارة المعارف في عقد امتحانات المسابقة في المواد المختلفة ومكافأة المبرزين فيها بالأموال

إن المعبود الأول اليوم في المدنية الحديثة هي الآلات الصناعية ، لها تتجه الأنظار ، وإليها ترفع أكف الدعاء ، وإياها يعبد أرباب رؤوس الأموال ، ولها يستعبد العمال ، ومنها تشتق المبادئ السياسية والتعاليم الأخلاقية ، وبقوتها تستعبد الأمم وتثار الحروب ، وتطعن في الصميم الأخوة الإنسانية .

إن المذاهب السياسية من ديمقراطية وفاشية واشتراكية وشيوعية مؤسسة عليها وناظرة إليها ، والنظريات الاقتصادية مشتقة منها ومتفرعة عنها .

والإنسان يشقى بهذه الآلات لتأليهها ؛ وكانت تكون نعمة عظمى ومصدر سعادة كبرى لو نظر إليها في ضوء وحدانية الله يشق معتنقها من تأليه الله وحده وما تستلزمه من أخوة الإنسانية .

وبعد فما أكثر من يقول : « لا إله إلا الله » وما أقل من يحققها .

أحمد أمين

والإعفاء من رسوم الكليات الجامعية ، لا شك في أنها سنة حميدة ، نرجو من الوزارة أن تواصل السير عليها وأن تتعمق فيها ، وأن تعممها إذا استطاعت في مراحل الدراسة العليا . فكل مال يصرف في هذه السبيل يؤتى ثمرته ، ولا يمكن أن يتهم الذي يصرفه بالإسراف بأي وجه من الوجوه .

ولو خصصت وزارة المعارف لهذه الغاية مئات الألوف بدلا من عشرات الألوف من الجنيهات سنوياً لما وجد عاقل مطعناً على سياستها في ذلك .

ولكن هناك نوعاً آخر من المكافآت سبق لنا التعرض له بالنقد ، وقد كان يلوح لنا دائماً في صورة « بدرة اللبس » القديمة التي يعرفها شيوخنا والتي يمكن شبابنا أن يسألوا عنها من هم أكبر منهم سناً .

ففي كل عام تعقد وزارة المعارف حفلا عظيما يشيع فيه المرح وتخفق فيه القلوب سروراً وكبرا ، ويشترك فيه الكبار والصغار في هزة تشبه هزة الابتهاج بالأعياد ، ثم توزع في هذا الحفل مقادير من المال على الأوائل في الامتحانات العامة !

وقد حاولت بكل ما استطعت من تفكير أن أدرك الحكمة من صرف هذه الأموال ، فلم أقدر أن أدرك شيئاً ، وحاولت أن أكشف عن الفائدة التي يحققها صرف هذه العشرة من الألوف من الجنيهات فلم أهتد إلى فائدة .

وقد تحدثت إلى بعض الفضلاء في هذا الشأن ، فكان رأيهم أن في صرف هذه الأموال نوعاً من الإسراف والتبذير . ولكني أبعد الناس من النظر إلى الموضوع من هذه الناحية ، فلو صرفت وزارة من الوزارات الملايين من الجنيهات في أبواب يمكن أن ندرك حكمتها لحمدنا لها الصرف واعتبرنا عملها منتهى مراتب الاقتصاد والحكمة في التصرف . فالذي لا نقر وزارة المعارف عليه ليس هو مجرد صرف الأموال بل هو عدم ظهور الغاية التي تصرف فيها هذه الأموال .

فنحن اليوم على أبواب العام المقبل ، ونخشى أن صيحتنا الماضية سوف تذهب في الهواء كما اعتدنا أن يذهب كثيراً من الصيحات في الهواء ، ولهذا بادرنا منذ الآن وقلبنا مملوء بالإخلاص لأولي الأمر والعطف والتلطف لكي نوجه الأنظار إلى هذا الأمر ؛ ولا نطلب أن تعدل الوزارة عن خطتها ، بل نطلب أمراً واحداً ، وهو أن تكشف لنا عن غايتها وعن الفائدة التي تلتمسها من وراء صرف هذه الأموال .

قلنا من قبل إن الله عند ما خلق الامتحانات قدر أن يكون للطلبة الناجحين فيها ترتيب مدرج ، فلابد أن يكون منهم أول وثان وثالث ، وهكذا . فما حاجتنا إلى صرف الأموال للأوائل في هذه الامتحانات ؟ وهل نساعد أحداً أو نحقق غرضاً بأن نعطي كل واحد من الأوائل في معاهد العلم المختلفة مقدارا من المال ؟

إن المال الذي يصرف لابد أن يجيء للأمة بفائدة جديدة . فأية فائدة جديدة تهيئها لنا هذه المكافآت ؟ لقد كنت أفهم أن هناك حكمة إذا كانت المكافآت تصرف للذين يصلون إلى مستوى معين في علم من العلوم أو في مجموعة من المواد . ولو كانت الوزارة تكافئ الممتازين في دراستهم لما كان في رأيها غموض ولا عليها انتقاد ، ولكنها تكافئ الأوائل أياً كانوا وأياً كانت مقدرتهم العلمية . فهذه الخطة لا تزيد في نظرنا على أن تكون تملقاً للكبرياء . إن المنافسة المثلى هي منافسة الإنسان لنفسه . أو بقول آخر يجب أن نشجع على أن يقيس طلاب العلم مقدرتهم إلى مستوى خاص يرضونه لأنفسهم . ومن العار أن نشجعهم على أن يقيسوا مقدراتهم بالنسبة إلى الغير دائماً .

قد يعتذر الضعيف عن ضعفه بأن غيره أضعف منه ، وقد يعتذر المقصر عن تقصيره بأن غيره أكثر منه تقصيراً . وهذه علة اجتماعية فينا آن لنا أن نحاربها فيما نحارب من أمراضنا . وينبغي لنا أن نجعل طالب العلم يحاول أن يقيس نفسه إلى المثل الذي يجب أن يكون عليه لا إلى

تحية الشعر

من الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

الى الدكتور محمد صبرى مؤلف كتاب الشوامخ .

قرأ الأستاذ «أحمد الزين» الجزء الرابع من كتاب «الشوامخ» الخاص «بأبي عبادة البحترى» للأديب الكبير الدكتور «محمد صبرى» فأعجب بهذا الكتاب إعجاباً شديداً . دفعه إعجابه إلى أن يحيى مؤلفه الفاضل بهذه الأبيات الرائعة

قال :

سكرت وليس بدعاً كان سكري
بشعر «البحترى» وبنثر «صبرى»
وأيهما تراه أرق فناً
وأعمق فى النفوس جمال سحر
ومن فى لفظه أحلى بياناً
لعمرك فيهما قد حار أمرى !
إذا ما فاز بالتفضيل «صبرى»
رأيت البحترى يميل فكرى
وإن قلت «الوليد» أرق نسجاً
أرى «صبرى» يقول «وأين نثرى؟»
فتلك «شواهقى» عزت وطالت
على الفصحاء من «بدو وحضرى»
فيعنو البحترى له مقراً
يقول «صدقت» نثرك زان شعرى

أحمد الزين

أقرانه الذين يبارونه مكتفيا بأن يكون الأول بينهم . وفى هذا انعدام للغاية المثلى ، وفيه انحراف بالشباب عن الطريق الجدى فى الحياة . ينبغى أن يكون لكل من شبابنا غاية يحاول الحصول عليها فى ذاتها . ينبغى أن يكون لكل منهم غاية يخصص حياته لتحقيقها فى ذاتها سواء أكانت هذه الغاية بحثاً علميا أو عملا أدبيا أو اقتصاديا أو رحلة أو مخاطرة أو تبريزا رياضيا .

وبهذا وحده تكون الاستفادة بحماسة شبابنا وتوثبه نحو المستقبل . فينبغى لوزارة المعارف أن تشجع على أن يكون للشباب غايات محدودة ، ولها فى هذا وسيلة قوية فى تلك المكافآت التى تصرفها كل عام . فبدلا من صرفها لأوائل الامتحانات أيا كانوا ، يمكنها أن تصرفها لمن يحقق غاية بذاتها من غايات الحياة ، ويظهر فى تحقيقها جدارة أو تبريزا .

فنحن نرجو أن يكون فى وزارة المعارف هذا العام تجديد فى سياسة منح المكافآت ، غير هذا الأسلوب الذى يشبه جرة المليس التى تصيب الناس عفواً كأنها ضربات القضاء والقدر المعياء . ولعلنا نكتب مرة أخرى فى هذا الموضوع شاكرين على أن صرخات المخلصين لا تذهب صرخات فى واد .

محمد فريد أبو حديد

خطيب هايد بارك

أهديها إلى من ضل سواء السبيل

أمسكت السماء عن المطر بعد شهر كاد أن يكون المطر فيه موصولا فى لندن ، فذهبت أستنشق الهواء فى « هايد بارك ».

وهايد بارك متنزه فسيح يقع فى قلب هذه العاصمة الكبرى ، له خصائص يتميز بها فى أذهان عارفيه ، منها هؤلاء الخطباء عند مدخله ، خمسة منهم أو ستة يرتقون المنابر ليخطبوا فى الدين أو السياسة أو الاجتماع من شاء أن يستمع إليهم من رواد الحديقة ، فهؤلاء يتحلقون حول الخطباء تفريجاً عن أنفسهم وإزجاء لأوقات فراغهم ، ما أقل فى هذه الدنيا من يفرج عنك لوجه الله لا يريد [illegible]ك جزاء ولا شكورا ! فإن أردت لنفسك لهواً وفكاهة فاقصد سوق الخطباء فى هايد بارك لتقرن حماسة الخطيب باستخفاف المستمع .

قصدت الحديقة أريد الهواء النقى ولا أريد حديث الخطباء ، فقد كانت تأبى غذاء الرئتين لا غذاء الرأس ؛ فالرأس عندئذ كان فى تخمة مما يحمل من غذاء ! لكن ما أكثر ما ترغمك الظروف على غير ما تريد ! فقد استوقفني بين الخطباء منظر عجيب : خطيب من هؤلاء رأيته قائماً على منبره يخطب ولا من سميع ! لم يقف أمام الرجل إنسان واحد يستمع إليه ، ومع ذلك مضى المسكين فى خطابه يرفع صوته ويخفضه ، ويشير بيمناه تارة وبيسراه طوراً ، وينحنى ويستقيم ، ويضرب النضد الصغير الذى أمامه بيده ، مقبوضة مرة مبسوطة أخرى ! دنوت منه ووقفت إزاءه أنظر إليه ، وما هو إلا أن طاف برأسي خاطر عجيب ، إذ خيل إلى أنى أنظر إلى نفسى فى مرآة . وإنها لفرصة نادرة الوقوع أن تجد لنفسك مرآة تصورها لك فتهديك بعد ضلال ؛ فما أهون أن تنظر إلى وجهك فى مرآتك لتصلح ما اختلط من شعرات رأسك ، وتشذب ما عاش من شاربيك ، لكن أنّى لك مرآة تجلو أمام ناظريك ما خفى من شعاب نفسك لتصلح منها ما اعوجّ إن كانت بذات عوج ، أو لتزهى بها إن كانت قمينة بالإعجاب ؟ رأيت فى ذلك الخطيب مرآة لنفسى ، وأخذت دقة الصورة تزداد فى عينى جلاء ووضوحاً فابتسمت ثم ضحكت فى نبرة مسموعة .

قال الخطيب : ما يضحكك يا صاحبى ؟

قلت : يضحكنى أننا شبيهان .

قال : شبيهان ؟ .

قلت : نعم ، وليس الشبه فى هيئة الجسم ، فأنت إنجليزى أصفر الشعر أزرق العينين أحمر البشرة ، وأنا مصرى أسود الشعر والعينين أسمر اللون ، لكننا شبيهان ؛ فكلانا يمتز فى الهواء طاقة وهبه الله إياها لينفقها فى الجرى والقفز واللهو واللعب ، أما هواؤك فطلق نقى ، وأما هوائى فحبيس تحده الجدران ؛ كلانا يبذل الجهد فيذهب الجهد أدراج الرياح .

عجيب هذا الضوء الذى تلقيه تجارب الأيام على القول المكرور المعاد ! فقد تردد العبارة الواحدة ألف مرة وتحسبك قد فهمت معناها لأنك عرفت معانى ألفاظها كما تشرحها القواميس ، فإذا بك تنطق بها مرة أخرى فتحس فيها حياة نابضة لم تعهدها من قبل ، فكأنما أشرق عليك منها معنى جديد ، لأنها فى هذه المرة كانت قطعة من حياتك ، وقبساً من روحك ، ولم تكن ألفاظا مرصوصة يقولها الناس فيرن صداها بين شفتيك ؛ فكم رددت مع الناس قولهم « لا فى العير ولا فى النفير » ولم أكن أدرى أنى إنما كنت أرددها ترديد الببغاوات عن غير فهم حى صحيح ، حتى قلتها منذ قريب فأحسست لها هزة تشيع فى وجودى ، وأدركت أنها لم تعد مثلا يقال ، بل أصبحت جزءاً من صميم الحياة ؛ وحدث مثل ذلك حين قلت لصاحبى الخطيب إننا نبذل الجهد فيذهب الجهد أدراج الرياح ! .

رحمك الله يا « سيرفانتيز » ، ترى من ذا كنت تعنى إذ صورت لنا « دون كيشوت » يمتطى جواده الهزيل الكسيح ، ويحمل سيفه المحطم المثلوم ، ويجوب الأرض محارباً ليعده الناس فارساً من الفرسان ؟ فيأتى « دون كيشوت » إزاء طواحين الهواء ويخيل له الوهم أنها جماعة من الأعداء ، ويسل سيفه ويظل يضرب فى الهواء ، ثم يغمد السيف منتفخ الأوداج من كبرياء ، لأنه قتل العدو وصرعه وأرداه ! من ذا كنت تعنى حين صورت لنا هذا الفارس الحالم الذى يحارب فى وهمه ، وينتصر فى وهمه ، والناس من حوله لا يرون حرباً ولا نصراً ؟!

أرأيت يا خطيب الهواء سيارة أمسكها الوحل فأخذت عجلاتها تدور وهى فى مكانها لا تتحول ؟ لو كانت هذه السيارة تنطق لزعمت لك أنها طوت من الأرض فراسخ وأميالا ، لأنها تحس فى حشرجة أنفاسها حرارة الجهاد ، وتحس عجلاتها تدور ، فهيهات أن يقع فى ظنها أنها تدور فى غير سير إلى أمام ، إيماناً منها بأن ذلك ضد طبائع الأشياء ، وما تدرى أن هذا الوحل الذى يأذن لعجلاتها أن تدور ثم يمسك جسمها من السير هو أيضاً من طبائع الأشياء !

نحن أيها الخطيب شبيهان ، كلانا رأى الهدف وأخطأ سواء السبيل ؛ أراد لنا نحس الطالع فى صبانا أن يخدعنا المعلمون ، والمعلمون أحياناً يخدعون ، ويبشرون بما لا يؤمنون ، فأوصونا أن نحمل من النجم غايتنا ، فأبت علينا الأمانة البلهاء إلا أن نكد ونكدح لنبلغ النجم . وفاتنا الحيلة التى يدركها الألوف إدراك البداهة فى غير عسر ولا عناء ، وهى أن نلتمس النجم فى صورته على صفحة الماء ، وأولو الأمر لا يفرقون بين النجم وصورته ، فكلاهما فى أعينهم لامع لألاء ؛ وربك لا تقل إننا إذ نروم النجم فى سمائه نستقيم منا الظهور وتشرئب الأعناق وتشمخ الأنوف ، أما إن أردنا الصورة فلا بد من « انحناء » ، فتلك حكمة القدماء ، والحكمة إنما تساير وسائل النقل فى تطورها ، فلا ينبغى أن تكون حكمة الطائرة مثل حكمة « الحمار »

قال « مكيافلى » لأميره ناصحا : ليس المهم أن تكون رحيما بشعبك ، إنما المهم أن يقال عنك إنك رحيم ، فاقس ما شئت وابطش بمن شئت ، لكن ليكن لك فى ذلك من يخدع الناس عن حقيقة نفسك ، فإذا أنت فى ظنهم الأمير الذى يحنو على البائس ويعطف على المحروم ؛ ألقى مكيافلى درسه على أميره ، وكان درسا فى سياسة الملك ، فتلقفه من فيه أصحاب الفطنة وجعلوه دستور الحياة ؛ فليس المهم أن تكون ذا علم ، وإنما المهم أن يعدك الناس بين العلماء ، وكم من رجل رأيته يتربع على كرسيه رزينا رصينا وعلى وجهه مخايل العلم والحكمة ، وقد علق فوق رأسه قيثارة فخمة ضخمة مشدودة الأوتار ؛ فتأتى إلاهة الشهرة فتربت على كتفه وتمضى تحوراً بابنها النجيب ، ولا تنى تنشر ذكره فى طول البلاد وعرضها ، لأنه « لو » عزف كان خير العازفين ؛ فلئن جمدت الألحان على أوتار قيثارته الآن ، فما أيسر عليه أن يذيبها نغماتشجيا طروبا إن أراد ؛ وقد صفقت بغفلتها ذات يوم فصحت بها : يا إلاهة الشهرة لا تصدقيهم ، إنهم لا يعزفون لأنهم لا يعرفون ؛ لكنها ازورت عنى وأدارت إلى قولى أذنا صماء ؛ وما أكثر ما تخرج أولئك الإلاهات صدرى لأنهن ينخدعن كما ينخدع البشر !

نحن أيها الخطيب شبيهان ، كلانا يبذل الجهد فى غير موضعه فيذهب الجهد أدراج الرياح ؛ القيمة كلها فى اختيار الوضع اللائم لجهدك المبذول ؛ فالمسافر الذى كان يقطع الصحراء جائعا فوجد كنزا من الجوهر ، لم يعدل عنده هذا الكنز النفيس رغيفا من الخبز ! لم تعد للجوهر نفاسته لأنه أخطأ المكان الصحيح ؛ تسعة أعشار الرزق فى التجارة ، والتجارة هى أن تضع السلعة فى مكان تباع فيه ؛ إن عبارة واحدة من خطبتك تلقيها فى مجلس النواب خير من مائة ألف خطبة تلقيها فى « هايد بارك » ؛ وكتاب واحد أقرأه أنا فى « هايد بارك » — أفهمه أو لا أفهمه — خير من مائة ألف كتاب أكتبه فى حديقة قصر النيل

قصر من قصور هارون الرشيد

في أكتوبر من عام ١٩٤٤، أخذت مديرية الآثار القديمة في سورية، تنقب في مدينة (الرقة) من قصور العباسيين بصورة عامة، وقصور هارون الرشيد بصورة خاصة.

والرقة بلدة كبيرة في شمال سورية، بين (حلب) و(دير الزور). كانت تقوم في الأعصر الخالية على حدود بزنطية. وكان لها في التاريخ الإسلامي، وخاصة في القرن الثاني للهجرة، شأن كبير؛ فقد كانت مركزاً من مراكز المكوس، وكانت مقراً يمتاز فيها الغزو، وبياع السبي والرقيق، ثم كانت، إلى ذلك، عاصمة ملك هارون الرشيد الثانية، ومصطافه مدة ثلاثة عشر عاماً.

وقد كان من القصور التي تقرر التنقيب عنها، قصر ذو شأن عجيب. له قصة طريفة لطيفة، لها جانب عاطفي وَثّر. ولعل في هذا الجانب العاطفي من الشمعة الشيء الكثير، بل لعل هذا الجانب العاطفي هو كل شيء فيها. فقد كان القصر، في ماضيات أيامه مثاً للحب والهوى، وكان الحب السبب الأول في ازدهاره ومجده.

فهناك، في أرض منبسطة بجانب الرقة، يقطعها الفرات الجيّاش، قام هذا القصر الجميل، تحيط به الحدائق، وتقوم من دونه الأسوار، وتنساب حوله الجداول المتفرعة عن الفرات.

لقد بني في بقعة هواؤها لطيف، من أجل فتاة حلوب، على يد خليفة عظيم.

أما البقعة فهي (هرقلة)، بجانب الرقة، وأما الفتاة، فبزنطيّة حسناء، اسمها، على قول، هيلانة. وأما الخليفة فهو هارون الرشيد.

إن قصة هذا القصر، قصة عجيب. تجتمع فيها بطولة الحرب، وبطولة الحب! لقد بدأت بالحرب، ولكنها انتهت بالحب.

قال: وما قصر النيل؟

قلت: حديقة في القاهرة، وطن الحبيب.

قال: ولماذا؟

قلت: لا تسلني لماذا؛ لماذا يكون الماء في النهر ماء فإذا انتقل إلى خزان القاطرة تحول بخارا يشد العربات؟

قال: لأنه جاور نار الأتون فاستفاد.

قلت: وقارئ الكتاب في معابد بارك ربما استفاد لأنه جاور القيد الحسان اللاتي لبس لهن أضراب في قصر النيل؛ أو ربما استفاد لأنه استمع إلى خطباء هذا المكان، أو من يدري؟ لعل مذهب التفاوت بين الأجناس يلعب هنا لعبته؛ فلما ساد اليونان كانوا هم الأحرار وغيرهم العبيد، ولما ساد العرب كانوا هم الأشراف وغيرهم عجم، ولما ساد الآريون حقت اللعنة على أبناء سام؛ أفلا يجوز أن يكون أصحاب السلطان من فصيلة هايد بارك، فكانوا هم العلماء وغيرهم في الجهالة يعمهون؟ وربك لا تقل إنه لا ينبغي أن يكون امرئ فضل على أعجمي إلا بالتقوى، فتلك حكمة القدماء.

العبرة يا صديقي في اختيار المكان الصحيح؛ فالوسخ وسخ لأنه مادة أخطأت مكانها، ولو اختارت مكانها الملائم لشرفت كما تشرف سائر المواد؛ فهذا الغبار على منظاري قذارة يجب أن تزال، ولو اختار الغبار وجه الأرض مكانا لاختار موضعه وما عرض نفسه لألوان الهوان؛ وقل مثل ذلك في الرجال، فرب بلد في جماعة من الناس مجلبة للصَّغار، ولو انتقل زيد إلى حيث ينبغي له أن يكون لأصبح لأقرانه مدعاة للفخار.

على أن القذر قد يكون له فضل عظيم، فلوح الزجاج إن خلا من الغبار خفي عن العيون فصدمه السائرون وهشموه حطاما، وإن أردت له أن يُرى فلا مندوحة لك عن شيء من العكر فيه؛ إذ ليس من حقك أن تكلف الناس ما لا يطيقون، فللأبصار حدود فرضتها عليهم الطبيعة فرضا ليس لهم منها محيص؛ فامزج صفاءك بالعكر، ولا تقل إن الصفاء خير من القذر، فتلك حكمة القدماء.

(لندن) زكي نجيب محمود

فى غزوة من الغزوات التى كانت دائرة بين العباسيين والروم ، غزا هارون الرشيد بَزنطية فتغلغل ، هو وجنده ، فيها ، وغنم منها . لقد كان جند العرب فى هذه الغزوات يُقدمون على الألوف من الروم بقلوب حديد ، وعزم شديد ، فلا يُبقون منهم غير طريد مهزوم أو جريح مكلوم . وتُفتح لهم البلاد فينالون منها ما يشتهون .

وبلغ الرشيد مدينة فى بزنطية اسمها (هرقلة) ، وكانت منيعة حصينة عظيمة ، فأحاط بها . وما زال يُطحطحها بضرباته حتى فتحها ، وأخذ الجند يغنمون مما فيها ويسبون من أسراها .

وكان هذا السبى الذى سباه الغالبون يحمل فيباع بالمزاد . فكانت النساء تباع بيعاً رخيصاً ، ما يحفل بهن أحدٌ لكثرتهن . ولا ينظر إليهن أحد لوفرتهن . إلا فتاة واحدة ، فتاة شقراء ناعمة ؛ ذات دل وخلابة ، ما كادت تظهر وينادى عليها بيعها حتى حُشد الناس ، وتسابقت إليها العيون ، وشخصت الأبصار ، وهدأت الأصوات . لقد كانت بارعة الجمال . جمالها غضٌ نادر . كأن فيها سحر الشرق ورقة الروم . فدبّت الحماسة فى نفوس الجند والناس ، وأخذوا يزايدون فى ثمنها ، وكلٌ يرغب فيها ، ويطمع أن يكون صاحبها .

وكانت الفتاة تنظر إليهم جميعاً .. تنظر وتبكى . لقد كانت ابنة قائد المدينة ، وأجمل فتاة فيها . سباها أحد الجند وعرضها للبيع .

وبرز نخاسة صاحب قيان الرشيد ، فرأى جمال الفتاة ، وعلم أن الخليفة سيعجب بها . فما زال يدفع الدنانير الكثيرة فيها ، ويزيد فى ثمنها ، حتى عجز الناس عن شرائها ، فانصرفوا عنها وفى نفوسهم لوعات وحسرات عليها .

وحُملت الفتاة إلى الرشيد . ما أسعد حظها ! . لقد أعجب بها ، ثم أحبها ، ثم شغلته عن كل شىء ، وصارت مُنية قلبه ، ونعيمه من عمره .

إنه يريد أن يذوق المتعة صافية معها ، وأن ينعم بالحبّ الحلو بجانبها وبغداد ، بغداد لا تضمن له التفرد بها . وهى تحن إلى ربعها وأهلها . فليحملها إذاً إلى الرقة ، إلى مصيفه الشامىّ الجميل ، وليَبنِ لها ، على أميال منها ، قصراً رائعاً حسناً ، ليذوق فيه ما يشتهى بهدوء وسلام .

وشيّد القصر من أجلها [1] – كما يقول المؤرخون العرب ومنهم المسعودى – وبالغ فى زخرفته وتزويقه ، وسمّاه ، كرماً لفاتنته « قصر هرقلة » ، ذكرى انتصاره فى تلك المعركة ، وتحبيباً لهيلانة به . لكى تذكر أنها انتقلت من هرقلة الروم إلى هرقلة العرب .

وسرعان ما ازدهر هذا القصر ، فكان كعبة القُصّاد إذا قصدوا الرشيد ، وأمل الطُلّاب إذا طلبوا عطاياه . وجُمعت فيه فتن الحياة وملاهى الدنيا ؛ جمعت كلها من أجل هذه الفتاة الحلوب ، وكان مسرحاً لهوى عنيف ، عصف فى قلب الرشيد ، فدفعه أن ينفق ويبذل كلّ غالٍ من أجل مَن أحبّ .

وماتت الرومية الحسناء ، ثم مات الرشيد ، فهُجر القصر ، وضاعت تلك الليالى المترعات بالمتعة والسرور .

وهزأت الأيام بقصر الحب ، قصر هرقلة ، وصبت عليه غضبها ، فتحطم وتهدم واختفى تحت كومة من تراب .

واليوم ، بعد ألف ومائة سنة ، تأتى مديرية الآثار القديمة فى سورية لتكشف عن هذا القصر ، وتظهر قصور الرشيد كلها .

تلكم قصة هذا القصر ، وهى قصة لطيفة . ومن يدرى ! فلعل هذا القصر الذى ترتبط به صفحة من تاريخ البطولة والحب والعمران عند هارون الرشيد سيقدم لنا وثائق جديدة عن حضارة العرب فى تلك الأزمنة يفيد منها الناس ، وتزدهر بها الفن ، وترحب بها الإنسانية .

(دمشق) صبحى الديه المجبر

(١) هذا ما يقوله المؤرخون العرب . وأغلب الظن ، بعد زيارتى لهذا القصر فى يناير ونوفمبر من عام ١٩٤٥ ، أنه بناء تركى جدده هارون الرشيد . ولا يمكن الجزم بشىء إلا بعد معرفة نتائج التنقيب .

في مباءة الأدب العربي :

أشعار شرقية

سلاح النجوى

للأميرة زين النساء

حبيبي أنت بإطنابي بقلبي مثل طغيانك
فما قلبي كما تقسو أقلّي بعض أعوانك

• • •

فؤادي رغم ما يلقا ه من صلف ومن كبر
على عهد الوفاء لكم يجازي الظلم بالشكر

• • •

فؤادي وهو مرآتي قد انتثرت شظاياه
ولكن ظلّ مزهواً فؤادي أنت تيّاه

• • •

ألا يارب لا أرجو مظاهر عطفك الحاني
ولكن رب أبدل لأقهر جيش أحزاني

• • •

خلقتَ الرأس مرفوعاً وفي حزني سأدميه
سأدني الرأس في حزني ولكن لست أدنيه

• • •

ولم أكُ قط مفتوناً إذا لاحت مسرّاتٌ
خطاي إلى هوى نفسي بطيئات بطيئات

• • •

طريق ليس بالسهل ولم أجهل مصاعبه
سأعبره لغايته وأستمري متاعبه

• • •

ألا يا عشق أبصر فرار الليل في فجره
فرار الليل منهزماً وسير الصبح في إثره

• • •

مع الليل مضى همي وجاء الصبح بالنصر
لقد جدت أعماقي بنجوى الله في السر

روح شاردة

جُنّ الجنون عشقاً جنوا بشائر سحرك
لما تطاير في الر ح مرسل من شعرك

• • •

وادي هواك لماذا أوقفت فيها مسيره
نفوسنا من جواها شقية مهجورة

• • •

لا بلبل أنا أشدو فيه ولا أنا وردة
خيّبت الريح مسعى من لست أسطيع بعده

• • •

أبعدت عنك طرداً فصرت في التيه أسري
كريشة حملتها ريح الغير مغبر

• • •

غادرت واديك روحاً مشرداً دون جسم
خفاقة تتلوى على أعاصير همي

• • •

فإن مررت بروح يوم في الصحراء
قد بالسكون فهذي تدري بسر شقائي

• • •

لا يشكون إليها شجونه وهمومه
عان فيقضي عليها بالأسهم المسمومة

عبد اللطيف النشار

رحسين محمد البشبيشي

اللغة العالمية (الاسپرانتو)

ESPERANTO

طلعت علينا مجلة الثقافة الغراء فى عددها الصادر بتاريخ ١٣ فبراير بمقال شائق عنوانه «الرجل الذى اخترع لغة» ديجه يراع الأستاذ الكبير محمد بدران ، وقد شرح فيه باختصار حياة الدكتور لودويك زامنهوف L. Zamenhof واضع لغة الاسپرانتو . هذا ولما كان موضوع اللغة العالمية من المواضيع الهامة فى الوقت الحاضر لاسيما وأنه سوف يطرح على بساط البحث فى هيئة الأمم المتحدة قريباً للنظر فى تقرير تدريس الاسپرانتو بالمدارس واستعمالها بالتجارة وغير ذلك . . . . جئت بهذا المقال تعقيباً على مقال الأستاذ بدران ، محاولا إعطاء القارىء فكرة عامة عن تقدم هذه اللغة فى العالم وحالتها بمصر ، شارحاً بعض قواعدها .

إن النجاح الذى لاقته لغة الاسپرانتو رغم المدة الوجيزة التى مضت على ظهورها لما يشير بأن هذه اللغة ستلعب دورا هاماً فى سبيل التفاهم بين أبناء الشعوب المختلفة ، وأرجو ألا يتسرب إلى ذهن القارىء أن الشعوب سوف تضطر إلى إهمال لغتها القومية والاستعاضة عنها بلغة الاسپرانتو . كلا — وألف مرة كلا — فالاسپرانتو لا تعدو أن تكون كلغة ثانوية تستعمل إلى جانب اللغة الوطنية كواسطة لتفاهم الشعوب المختلفة اللغات ؛ فلغتنا فى وطننا هى العربية ، ونستطيع الاتصال بالشعوب الأخرى التى تختلف عنا فى اللغة بواسطة اللغة المحايدة ؛ ألا وهى الاسپرانتو . والاسپرانتو أيها القارىء العزيز ليست لغة نظرية خيالية ، ولكنها لغة حية يتكلم بها الملايين فى الشرق والغرب ، وقد عقدلها حتى الآن واحد وثلاثون مؤتمرا عالمياً ، كان أولها فى مدينة بولون سورمير بفرنسا سنة ١٩٠٥ ، وآخرها فى مدينة برن بسويسرا سنة ١٩٣٩ ، وكان معدل من يحضر فى هذه المؤتمرات ٥٠٠٠ شخص ينتمون إلى ٥٠ أمة مختلفة ولايجدون أى صعوبة فى التفاهم مع بعضهم . وقد ظهر حتى الآن ما لا يقل عن ١٢٠٠٠ مجلد فى مختلف العلوم والفنون والآداب أصلية أو مترجمة عن جميع اللغات ، كما ترجم أيضاً إليها التوراة والإنجيل والقرآن . وتصدر بها أكثر من مائتى جريدة ومجلة . وقد اعترف ٤٠ عضوا من أعضاء الإكاديمية الفرنسية للعلوم بأن الاسپرانتو أسمى اللغات فى الفهم والسهولة . وقررت تدريسها بجميع أقسامها .

وكذلك تستعملها الغرف التجارية بفرنسا وتدرسها بالمدارس التابعة لها .

وفى سنة ١٩٢٣ قرر اتحاد التلغراف العالمى قبول الاسپرانتو كلغة واضحة لاستعمالها بالمراسلات التلغرافية الدولية . وفى السنة الماضية عقد بالبرازيل المؤتمر العاشر لاسپرانتى البرازيل تحت رئاسة رئيس الجمهورية ، وألقى كلمة الافتتاح بالاسپرانتو وزير الخارجية ، كما أصدرت الحكومة طوابع بريد تذكارية بالاسپرانتو لهذه المناسبة .

ولا يخلو الآن أى قطر من أنصارها والجمعيات الداعية لنشرها . غير أنه مما يؤسف له أن الحركة ببلادنا المصرية ليست قوية . ولا تحوى الآداب الاسپرانتية كتباً منقولة عن العربية . إلا أنه قد كون بعض أنصار هذه اللغة من المصريين منذ عهد قريب « جمعية الاسپرانتو المصرية — بالقاهرة » للعمل على نشرها .

والاسپرانتو أيها القارىء لا تضارعها أى لغة بالعالم فى سهولتها ؛ فقواعدها لا تتجاوز ١٦ قاعدة خالية من الشواذ ، يمكن استذكارها فى مدة ربع ساعة . وبواسطة مقاطع مبدئية أو نهائية يمكن أن تحصل من الكلمة الواحدة على مفردات عديدة كما يتضح مما يلى :

الأسماء فى الاسپرانتو تنتهى دائماً بالحرف O فنقول : كتاب Libro رجل Viro صديق Amiko والمؤنث

يصاغ من المذكر بإضافة المقطع النهائي ino فنقول : امرأة Virino صديقة Amikino والصفة تنتهي دائما بالحرف A مثل : جيد Bona ساخن Varma

وإذا أضفنا إلى أول الكلمة المقطع MAL فإننا نحصل على المعنى المكسى ، فنقول : ردىء Malbona بارد Malvarma .

وإذا أضفنا المقطع النهائي ETA فإننا نحصل على التصغير مثل : فاتر Malvarmeta والمقطع ega نحصل على التهويل أو التعظيم : مثل ساخن جداً (غالى) Malvamega

أما تصريف الأفعال الذى يقضى الإنسان سنيناً مديدة لاستذكاره باللغة الفرنسية مثلا فيمكن حفظه فى الاسبرانتو فى دقائق معدودات ، وإليك الدليل :

الأصل فى كلمة الحب هو AM والقراءة LEO فإذا أردت الحصول على الفعل المضارع أضفت المقطع AS مثل : أنا أحب Mi amas هو يقرأ Li legas وبالمقطع IS نحصل على الماضى : نحن أحببنا Ni amis أنت قرأت Vi legis .

أما المستقبل فيأخذ النهاية OS سيحبون Lli amos سأقرأ Mi legos والأمر u للمفرد والجمع مثل : اقرأ Legu

وهذه النهايات تسرى على جميع الأفعال ولجميع الأشخاص ، مذكراً ومؤنثاً ، مفرداً وجمعاً دون استثناء .

ويسرنى أن أضع للقارىء فقرة من الخطبة التى ألقاها الدكتور زامنهوف فى المؤتمر الأول للاسبرانتو ، ومنها يتبين القارىء عذوبة اللغة (إنما أرجو ملاحظة نطق الحرف J مثل الحرف (ى) فى العربية والنبرة تقع دائماً على المقطع السابق للأخير من الكلمة

La unuan fojon en la homara historio ni Esperantistoj, membroj de la plej malsamaj popoloj, staras unu apud alia ne kiel fremduloj, sed kiel fratoj, kiuj, ne altrudante unu al la alia sian nacian lingvon, kompenas sin reciproke . . . fratoj, kiuj amas sin reciproke kaj premas al si la manojn ne hipokrite, sed sincere, kiel homo al homo.

الترجمة : لأول مرة فى تاريخ البشرية نقف نحن الإسبرانتيين بجانب بعضنا ، ليس كأجانب ولكن كإخوة ، لا يفرض أحدنا على الآخر لغته القومية ، بل يسودنا التفاهم . نحن إخوة نحب بعضنا ، ويهز بعضنا يد البعض ، ليس عن رياء ، ولكن بإخلاص كما ينبغى بين رجل وآخر

ولعل الغرض الأساسى الذى وضعت من أجله لغة الإسبرانتو هو العمل على نشر لواء السلام والمحبة والإخاء بين جميع الشعوب دون التفريق بين اللغات أو الجنسية أو الدين ، وهذا هو سبب انتشارها فى جميع بقاع الأرض . والإسبرانتو أيها القارىء تعد وسيلة الدعاية لبلادنا ؛ فقد تعلمت هذه اللغة من أكثر من ستة عشر عاماً وراسلت زملاء فى أكثر من ٦٠ دولة فوجدت أن الكثيرين لديهم فكرة خاطئة عن مصر والمصريين ، فكنت أحاول إزالة ما علق بأذهانهم . فالفرصة أمامكم ، أيها المصريون . تعلموا الاسبرانتو — تخدموا بلادكم أجل خدمة

تادرس مجلى

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

—

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف بك

—

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى

تليفون — ٥٦٣٦٩

القاهرة

نظرات في أدب المتأخرين

الأدب والحرفة :

منذ احتاج الأديب إلى استكمال عدته من الدراسة والثقافة اضطر إلى استدبار وجوه المكاسب ، ونحى عنه الصوارف ، وراح يمتص رحيق الآداب ليخرجه للناس أدباً مصفى . واتخذ كثير من الأدباء بعض آدابهم بضاعة نافقة في سوق المدائح ، فطافوا بها على القصور وانتجعوا الغنى . وقد جعل ابن الرومي مكافأة الأديب حقاً لازماً إذ قال :

إن امرأ رفض المكاسب واغتدى
يتعلم الآداب حتى أحكما
فكسا وحلى كل أروع ماجد
من حر ما حاك القريض ونظما
ثقة برعي الأكرمين حقوقه
لأحق ملتمس بألا يحرما

فاجتمع لأولئك المال وإحكام الآداب . على أننا لم نعدم من عزف عن ذلك المورد ، وعكف على منهل الأدب ينهل منه ويعل ، ويفيض على خاطره ، فيرسله غزلا وتشبيبا أو حكمة وفلسفة .

وكثيراً ما حاق البلاء بالمشتغلين بالأدب لما شغلهم عن تدبير أمرهم ودفع ما نزل بهم ، حتى عدت «حرفة الأدب» علية للبؤس وشؤماً على من أدركته . قال يعقوب الخريمي

ما ازددت في أدبي حرفاً أسر به
إلا تزيدت حرفاً تحته شوم

وقرنها شاعر آخر بإجادة الخط ، فشكا من اصطلاحهما عليه :

لما أجدت حروف الخط حرفني
من كل حظ وجاءت حرفة الأدب
أقوت منازل مالي حين وطئها
محيا سقط الأقلام والكتب

ولقد وصل ما جرته حرفة الأدب إلى قصر الخليفة الشاعر ابن المعتز حين قتله المقتدر ، وزعم أنه مات حتف أنفه ، فقال علي بن محمد بن بسام :

لله درك من ميت بمضيعة
ناهيك في العقل والآداب والحسب
ما فيه لو ولا ليت فينقصه
وإنما أدركته حرفة الأدب

قال مؤرخو الأدب : ولما ولي الأمور أولياء من الأعاجم لا يقيمون للشعر وزناً أهملوا الشعراء ، فانصرف هؤلاء إلى الحرف والصناعات ؛ فكان منهم الجزار والحائك والقصار ، وكثر قولهم في الأشياء التافهة كالسبحة والمخدة والمروحة ؛ وعدوا ذلك نزولا بالأدب عن درجاته وحطاً له في دركاته . وقد رأيت أن هذا ليس صحيحاً كله ، ولئن صح أن الشعر فقد شيئاً ببعده عن ظل الممدوحين الوارف لقد كسب به أشياء ، أولها أن هؤلاء الشعراء — وقد عدموا الممدوحين المغدقين من الملوك والأمراء — وجدوا بديلا أجل منهم وأعود عليهم باللذة الروحية وهو سيد الخلق ، فهشت له نفوسهم ، وجعلوا ينشدون المدائح النبوية ، وازدهر هذا الفن في قصائد لا تتأخر قيد أنملة عن قصائد الفحول من المتقدمين ، وحسبك بردة البوصيري التي أولها :

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وقد كان من الشعراء ذوي الصناعات المعيشية من أجاد وافتن في القول كأبي الحسين الجزار ؛ وإلى جانب

إجادتهم في أغراض الشعر المختلفة وزنت صناعاتهم في أشعارهم ، واستخدموا مصطلحاتها في معانيهم ، فأحسنوا وظرفوا ، قال الجزار :

لا تلمني مولاي في سوء فعلي
عند ما قد رأيتني قصابا
كيف لا أرتضي الجزارة ما عشـ
ـت قديما وأترك الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجّيـ
ـني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وكتب إليه النصير الحمامي :

ومذ لزمت الحمام صرت به
خلاً يداري من لا يداريه
أعرف حر الأمور وباردها
وآخذ الماء من مجاريه

فكتب إليه الجزار :

حسن التأني مما يعين على
رزق الفتى والعقول تختلف
والعبد مذ صار في جزارته
يعرف من أين تؤكل الكتف

على أنه لا يقدم الأدب ولا يؤخره — من حيث القيمة الذاتية — أن يكون الأدباء من ذوي الحرف أو من أهل الرياسات

وصف الأشياء التافهة :

رأيت مما عابه مؤرخو الأدب على الشعراء المتأخرين وصفهم للأشياء التافهة ، ولست أدري كيف يعد هذا تخلفا في مضمار الشعر ! كأن مقياس الإجادة في الوصف عندهم أن يكون الموصوف جليلا ، فمن يصف الفيل مثلا أشعر ممن يصف العصفور ، لمجرد أن العصفور صغير والفيل كبير ! وواصف جبال (الهملايا) — على هذا القياس — أشعر شعراء العالم ولا جدال ..!

والهبل لأم عنترة القائل :

وخلا الذباب بها فليس ببارح
غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه
قدح المكب على الزناد الأجذم

لأنه يصف الذباب فيشبهه في مرحه بالشارب المترنم ، ويمثله وهو يحك ذراعه بذراعه بمقطوع اليد مكبا على الزناد ليقدحه ، وما الذباب ؟ وما الأجذم المكب ؟ أوليسا تافهين حقيرين ؟! وما إعجاب النقاد ومنهم الجاحظ بهذا التصور ؟! .

وما ورع امرئ القيس ! ألم يجد غير قلوب الطير المتناثرة والحشف البالي فيرى لها بيتا تافها كهذا :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالي

والعجب العجاب أن يكون العائبون مؤرخي الأدب المحدثين ، وهم يعلمون أن كل شيء يصلح موضوعا للأدب ما دام موضع حس الأديب وانفعال نفسه ، ولا يهم بعد ذلك أن يكون هذا الشيء جليلا أو تافها . ثم لننظر ماذا قال شعراؤنا المتأخرون في أشيائهم التافهة . قال شهاب الدين الحلبي في سبحة :

وسبحة مسودة لونها
يحكي سواد القلب والناظر
كأنني عند اشتغالي بها
أعد أيامك يا هاجري

وقال محمد بن سوار بن إسرائيل في مروحة :

ومحبوبة في القيظ لم تخل من يد
وفي القر تجفوها أكف الحبائب

إذا ما الهوى المقصور هيج عاشقاً
أتت بالهوا الممدود من كل جانب

وقال ابن نباتة في دواة فولاذ :

دواة لها جنس الحديد وبأسه
وزادت عليه في الندى فهي أبهر
وكل معانها يراعك منشئاً
فولاذها في الحالتين مجوهر

على أنك ترى هؤلاء الشعراء لم يقصدوا لوصف هذه الأشياء باستقصاء أجزائها وصفاً مقصوداً لذاته ، وإنما استثاروا بها خواطرهم فأتت بهذه المعاني الشعرية الجميلة ، فجاء قولهم متحركاً نابضاً بالحياة ، لا عيب فيه إلا أنه ليس مقولاً في رضوى وثهلان .. !

البديع :

يكاد ينعقد الإجماع على استهجان ما امتلأ به أدب المتأخرين من ألوان البديع ، فهم يأخذونه جملة واحدة بأن الصناعة مبذولة فيه إلى الزخارف البديعية والتحسينات اللفظية ، مرتبين على ذلك انتقاصه وتهجينه وتنفير المتطلعين منه ، ولعلهم يشفقون من وراء ذلك صرف الناشئين من التكلف إلى الاسترسال . ولكني أقرر أولاً أن ثمة فرقاً بين الصنعة والتكلف ، فالصنعة لابد منها في كل عمل فني يقترب من الكمال ، يزاولها الفنان فتكون من تمام جمال الفن . ولقد كان زهير يأخذ شعره بالصنعة إذ كان يعاود حولياته بالتنقيح والتثقيف . وتعاقب بعده شعراء تناولوا أشعارهم بالتصنيع والتحسين كالحطيئة وبشار ، حتى كان مسلم بن الوليد وأبو تمام وابن المعتز ، فالتفتوا إلى المحسنات اللفظية والمعنوية وحسن موقعها في الكلام ، فاتخذوها في صناعتهم الشعرية قصداً ، وكثيراً ما كانت تواتي أسلافهم عفواً ومن فيض الخاطر ، وازدانت بها آيات الكتاب وأحاديث الرسول . أما شعراؤنا المتأخرون فقد زادوا فيها وأكثروا منها حتى صارت ركناً من أركان الأدب ، وأصبحت فرض كل أديب ؛ وقد تمادى بها الحال حتى جاوزت الألفاظ إلى الأشخاص في البيتين الطريفين الآتيين :

وقالوا بالمليح الوجه تهوى
مليحاً دونه السمر الرشاق
فقلت : وهل أنا إلا أديب
فكيف يفوتني هذا الطباق !

ولا ينبغي أن يغض التكلف المرذول من قدر البديع المحكم الصنع ، وما البديع إلا مادة زينة كالذهب والأزهار ، يختلف التزين بها باختلاف الصياغة والتنسيق ، وهنا الحد بين الصنعة والتكلف .

وكيف نعمل على التخلي من الصنعة في الآثار الأدبية ؟ أليس اختيار الألفاظ وإحكام النسج وترتيب الأفكار والمعاني صناعة ؟ ولو تخلينا عنها لما استقام للشعر وزن ولا اطردت له قافية .

ويقولون : إن المتأخرين كانوا يصنّعون في أدبهم ليعوضوا فقره في المعاني ، ولو أنهم شعروا بشيء من ذلك لعملوا على تلافيه ، والشعور بالنقص مبدأ الكمال ، كما يقال . ولا يصح الخلط بين أدب عصر المماليك وبين أدب العصور السابقة ، فإن الأول كان حقاً فقيراً في المعاني والأفكار ، بل كان فقيراً في الصنعة نفسها .. وكان متكلفاً غير مقبول ، وما عنه نتحدث .

وبعد :

وبعد فقد قصدت إلى نفض الغبار عن محاسن في أدب المتأخرين غطت عليه مساوئ ، ولعلي بهذا قضيت بعض حق لمن من المتع بقراءة بعض هذا الأدب زمناً لقيت فيه العنت من نبش قبور المخطوطات بدار الكتب المصرية ، وإلى القائمين على إحياء الآثار الأدبية يساق الحديث .

عباس حسان خضر

إسحاق نيوتن

١٦٤٢ — ١٧٢٧

[سيظل العقل إلى الأبد يجوب البحار الغريبة بالفكر وحده] (نيوتن)

في يوم عيد الميلاد من عام ١٦٤٢ ، وفي نفس السنة التي توفي فيها غاليلو ، ولد في مزرعة تبعد ثمانية أميال من كرنثام تدعى (ولس ثورب) رجل كان مقدراً أن يسطع اسمه في مجالي العلم سطوع اسم شكسبير في عالم الأدب . كان إسحاق نيوتن ابن فلاح صغير توفي قبل ولادة ابنه ، فتزوجت أمه ثانية من قسيس ويتام . وقد حدث هذا في أيام الحرب الأهلية العاصفة وفي زمن انتشار الوباء وفشل المحاولات المتكررة لنشر الأمن وإعادة الأمور إلى نصابها ، عندما توجهت عقول الناس بقوة وبنشاط نحو البحث العلمي لحل أسرار الكون . وقد زادت من قوة هذه الرغبة في المعرفة الاكتشافات العظيمة التي توصل إليها كبار الأفاق وغاليلو الإيطالي وديكارت الإفرنسي .

ذهب إسحاق نيوتن إلى مدرسة كرانثام الأجرومية التي لم يستطع فيها في السنين الأولى أن يأخذ فكرة عن صناعته بأي معدل كان ، ولو أنه أغرم بصنع الطيارات الورقية والعجلات المائية والمذنبات الصناعية ليرعب بها القرويين عن طريق ربط الفانوس الورقي بذيل الطيارة .

وقد رغبت أمه أن يكون مزارعاً ، ولذلك غادر المدرسة وهو في الخامسة عشرة من عمره . ولكن سرعان ما بان جلياً أنه غير صالح لحياة المزارعين ، فصرف أكثر وقته في المطالعة وإجراء التجارب . وقد استعاد مراسل التيمس في ذاكرته حديثاً بأنه في أحسن غرفة للنوم داخل بيت مانر في ولس ثورب لا زال من الممكن ملاحظة القطع الخشبية التي صنعها نيوتن بيده . وهكذا نرى أنه استطاع أن يبحث بهدوء في حياة ريفية مشغولة . وقد سجل عنه أنه استطاع أن يقيس قوة الريح بملاحظة البُعد الذي يستطيع أن يقفزه معها أو ضدها ؛ وفي هذا الوقت أيضاً استطاع أن يصنع ساعة مائية وأن ينقش تصميم مزواتين لا زالت صورة إحداهما على الصوان موجودة في مكتبة الجمعية الملكية . ورتب على شغفه هذا أن أرسل ثانية إلى المدرسة فقضى فيها مدة قصيرة غادرها بعد ذلك نهائياً إلى كمبردج ، وهناك حصل على مكانة ممتازة حتى إن مدير المدرسة ألقى كلمة أثنى فيها على أخلاقه وكفاءته .

وفي نفس الوقت الذي توجه فيه نيوتن إلى كلية ترنتي سنة ١٦٦١ لم يطل البحث لشغل كرسي الرياضيات الذي كان يختار له أقدم أستاذ للرياضيات في كمبردج ، وكان أول من احتله الدكتور بارو الذي شجع نيوتن واعترف بمواهبه ، فكان من نتيجة هذا التشجيع أن خطا بسرعة خطوات واسعات . وقد كرس نيوتن وقته في هذه الفترة للرياضيات . ولكنه مع ذلك بحث في علم الفلك والبصريات والكيمياء ، كما ساعد الدكتور بارو في تحضير أبحاث في البصريات . وكانت أولى اكتشافات نيوتن العظيمة نظرية المعادلة الجبرية ذات الحدين ، وحين بلغ الرابعة والعشرين من عمره باشر دراساته في النتائج غير المحدود وفي التفاضل الحسابي واستخلص منهما الفروق الإحصائية . ومما هو جدير بالاعتبار أن نيوتن كان يحتفظ بهذه الإنجازات لنفسه ويستخدمها في كل جزء من مرافق حياته ، وهو بهذا عرض طبيعة العالم الصادقة التي تمتاز بشيء من الأنانية فتتجنب النشر والتعميم . وفي سنته الثالثة في كمبردج ابتدأ بدراسة الهالات المحيطة بالقمر وقياس زواياها ؛ وبعد ذلك وصل الطاعون إلى كمبردج فأغلقت الكلية بكاملها ، وذهب نيوتن إلى بلده حيث صرف هناك عدة شهور مفكراً في مشاكل متعددة ، وخاصة في الخطوة التالية لاكتشافات كبلر التي أظهرت بأن السيارات تتحرك حول الشمس . لماذا وكيف تدور في هذه الاتجاه ؛ وبالتأمل العميق في

هذه المواضيع تمكن الطالب الذى يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً أن يضع النظريات المتعلقة بالقوة المركزية الطاردة والقوة المركزية الجاذبة اللتين تعتبران مفتاح اكتشافات كبلر وغاليلو . وقد كان يمكنه استناداً إلى قوانين كبلر أن يبرهن بأن النظام الشمسى يرتكز على قوة مركزية صادرة من الشمس تختلف عكسيا مع مربع المسافة ، ولذلك — وبالاستناد إلى نفس المبدأ — فإن الحركة القمرية تضبط بقوة منبعثة من الأرض تزداد طرديا مع المسافة . ولكنه بعدئذ واجه الكمية المجهولة . وكان متيقنا من وجود مثل هذه القوة — فما هى ؟

إن حكاية التفاحة الساقطة من الشجرة والتى رويت من قبل فلتير فى رسالته عن الإنكليز قدمت له أن فكرة الجاذبية هى الجواب على هذه المشكلة . وقد يقال أحياناً إن نيوتن هو مكتشف قانون الجاذبية ، ولكن الحقيقة أن هذا القانون كان معروفاً منذ سنين ، وكل ما فعله نيوتن أنه حصل بواسطته على الجاذبية الكونية . وعلى كل فقد مرت عدة سنين قبل أن يستطيع تقديم الدليل القطعى لإثبات رأيه . وقد أقام إحصاءاته الأولى على فكرة عامة ، وهى أن ستين تساوى درجة واحدة ، فقدمت له هذه الفكرة تقديرا غير محكم عن حجم الأرض ؛ لأنها بدلا من أن تسقط ١٦٠١ قدم كما يجب أن يحدث وفقاً لقانون الجاذبية سقطت ١٣٠٩ أقدام . وقد قلبت هذه الظاهرة فروض نيوتن رأساً على عقب ، فشملت حتى الحلول التى كانت تقريبا فى قبضته . وقد صدمه هذا الفشل فتوجه باحثاً فى قضايا أخرى ، ولم يستأنف جهوده إلا بعد ست عشرة سنة أخرى

وقد أصبحت البصريات الآن محور دراسات نيوتن ، وأخذ يقوم بتجاربه على الدوام بواسطة المنشورات والعدسات مسترشدا بنظرية تحسين عدسات التلسكوب على الأخص ؛ وعلى الرغم من إحصاءاته الدقيقة فإن الصور المنظورة من خلال العدسات ظلت مشوهة ، وبعد عمل طويل عن له بأن هذا التشويه من المحتمل أنه قد تسبب من الضوء أكثر من كونه قد تسبب عن طريق العدسات ، ولذلك اشتغل فى سلسلة تجارب عبقرية فى طبيعة الضوء قادته فى النهاية إلى نتيجة دلته على أن اللون — بعكس ما كان يظن لحد الآن — غير كامن فى موضوع اللون ، بل هو كامن فى الضوء الذى به ينير ، وأن هذه الاشعاعات تختلف فى اللون كما تختلف فى سهولة الإنكسار . وقد وجد بأن هذه الإشعاعات الضوئية المختلفة الألوان المنبعثة من الضوء والتى تجلب إلى البؤرات من مختلف المسافات هى التى أسفرت عن صورة غامضة ، ولذلك فمن المحتمل لعدسة واحدة أن تظهر صورة واضحة . فوجه اهتمامه لبناء تلسكوبات عاكسة وصنع أول واحد منها ، وكان قطر دائرته نصف عقدة وطوله ست عقد ويكبر أربعين مرة ؛ وأكبر تلسكوب صنعه بعد ذلك ترجع ملكيته الآن للجمعية الملكية ، وهو يعتبر النموذج الأصلى للتلسكوبات الجبارة التى تنتج اليوم ، وقد نقشت عليه الجملة التالية « أول تلسكوب عاكس اكتشفه السير اسحاق نيوتن وصنعه بيده الخاصة »

وهكذا ، وفى سن الرابعة والعشرين توصل نيوتن إلى ثلاثة اكتشافات عجيبة ولو أنه لم يستطع أن يسير بها إلى الكمال .

وفى سنة ١٦٦٧ قضى على الطاعون ، وعاد نيوتن ليواصل تجاربه فى البصريات كما اعترف به منذ الآن كرياضى ممتاز ، ونصب كنموذج للطالب الجامعى فى كليته . وبعد ذلك بسنتين تخلى الدكتور بارو عن كرسى الأستاذية فاستخلف من قبل نيوتن الذى شغله ثلاثين عاماً .

وفى أيام الرابطة الإمبراطورية أسس هون روبرت ريل وبعض أصدقائه من العلماء جمعية علمية ، وطلبوا من كافة الأشخاص الخلقى الجدارة ومن المتعمقين فى فلسفة الطبيعة أن يجتمعوا أسبوعياً فى لندن للتفاهم والباحثة

في هذه الأمور. وفي سنة ١٦٦٢ منح الأعضاء الوشاح الملكي بنعمة ومحبة جارلس الثاني. ومنذ هذا الحين عرفت جمعيتهم بـ «جمعية لندن الملكية لترقية المعرفة الطبيعية».

إن سمعة نيوتن الجيدة عرفت من قبل الأعضاء، وعند ما سلمهم إحصاء التلسكوب العاكس وأهداهم إياه مع الآلة أخذوا عنه انطباعات حسنة تبعها انتخابه ممثلا للجمعية في الانتخابات التي تلت ذلك سنة ١٦٧١. وبعد ذلك كتب سلسلة من الدراسات للجمعية نشرت له كأبحاث في البصريات.

ولقد كان انتخابه للجمعية الملكية نقطة فاصلة في حياته، إذ سهل له الاطلاع على الفكر العالمي المتطور في ذلك الزمن. وفي خلال أحد الاجتماعات سمع بأن بيكار الفرنسي عين بدقة طول الدرجة فوجدها تساوي سبعين ميلا تقريباً، فحثته هذه الأنباء على الرجوع إلى إحصاءاته حول نظرية الجاذبية، وعند ذلك، وبعد دراسة وتفكير عميقين، حصل على الجواب الذي أملت منه سابقاً. ومرة ثانية بسبب عدم تطلعه للشهرة حبس أبحاثه في خزانته. وفي سنة ١٨٨٣ انتشرت عدة نظريات حول الجاذبية، كما أخذ هيكل النظام الشمسي يتضح باطراد. وفي السنة التالية وهب السير كريستوفر رن، أحد المبرزين بكافة أنواع العلوم، جائزة يتنافس عليها العالمان النابهان هوك وهالي، وتعطى لأي واحد منهما يستطيع أن يقدم خلال شهرين برهاناً يثبت به أن مدار السيارات الخاضع لقانون التربيع المعكوس هو شكل إهليلجي. وقد وهب الزمن للتجربة القصر، فقد التجأ هالي أخيراً إلى نيوتن عارضاً المشكلة عليه، فجهزه بالإجابة من فوره كما زوده بمعلومات ثمينة من المادة اعترف هالي في حينه بأنها عظيمة القيمة، وقد حمل هالي هذه المعلومات إلى الجمعية الملكية التي طلبت إذن نيوتن لنشرها فأذن. وهكذا خرج مؤلفه الفريد (المبادي The principia) إلى الوجود فقوبل بحماس، ووجد مؤلفه الذي كان يتجنب الظهور دائماً نفسه على حين غرة مشهوراً تخضع لمتطلبات هذه الشهرة التي جاءته. وقد تبع هذا أن ادعى بعضهم لنفسه ادعاءات سابقة حول اكتشافاته، فكانت هناك خيانة ونقد وهجوم خرجة من التوسع جدا بنيوتن إلى القول: «بأن الفلسفة كالمرأة الوقحة المترافعة يكون من الخير للرجل أن يواجهها بالتمادي كما يفعل تماماً مع مثل هذه المرأة». وبسبب هذه الأمور تردد بعض الوقت في طبع المجلد الثالث لمؤلفه (المبادي) الذي يبحث في النظام الشمسي، ولكن من حسن الحظ تمكن هالي أخيراً من التغلب على تردده حتى اضطره إلى طبعه. وكان تاريخ نشر كتابه (مبادي الفلسفة الطبيعية الرياضية) سنة ١٧٨٧ عند ما كان نيوتن في الخامسة والأربعين من عمره آنذاك.

ومن الغريب، بل من سخرية القدر، أن يرغم واحد من أعظم عباقرة العلم ورجل كان يتعمد الانزواء والانطواء على خوض معمعان السياسة، إذ بينما كان مؤلف نيوتن (المبادي) في دور التحضير أمر جيمس الثاني في محاولته لكثلكة البلاد بأن ينتخب أساقفة معينون للوعظ في كلتا الجامعتين بدون أداء اليمين التقليدية. وقد رفضت كيمبردج أن تخضع لذلك، وكان نيوتن أحد الأعضاء الثمانية الذين أرسلوا لشرح وجهة نظر الجامعة أمام القاضي جفريس في لجنة المحكمة العليا، ولكنهم لم يوفقوا في مهمتهم وطرد معاون مستشار كيمبردج من وظيفته. ولكن كفاءة نيوتن لم تجمد من قبل أتباعه فأرسلوه نائباً محافظاً إلى البرلمان، وشغل مقعده من كانون الثاني ١٦٨٩ إلى أن حل المجلس سنة ١٦٩٠. ولم يكن نيوتن موسراً يوماً ما، وقد شعر بذلك أولئك الذين قدروا عبقريته فقرروا وجوب القيام بعمل شيء لمساعدة وضعه المالي، فعين مديراً لمدرسة (مثت) سنة ١٦٩٩ بتقوة اللورد هاليفاكس، واحتفظ

وظيفته هذه حتى وافاه الأجل . وقد قدم عدة تقارير عن سك النقود بين سنتى ١٧١٧ ، ١٧١٨ ، وفى عام ١٧٠١ مثل الجامعة ثانية فى البرلمان . وبهذا الضمير الحى محى بعمله العلمى فى سبيل أداء واجباته السامية ولو أنه لم يفقد الرغبة فى البحث العلمى بأى طريقة من الطرق . وتولى رئاسة الجمعية الملكية من سنة ١٧٠٣ إلى حين وفاته ، وفى خلال رئاسته هذه صدر كتابه (ملاحظات عن كرنولوج الملم ستيد) . وفى عام ١٦٩٩ انتخب مساعداً خارجياً لأكاديمية العلوم ، وفى سنة ١٧٠٥ منح لقباً من قبل الملكة آنا ، ثم توفى وهو فى الخامسة والثمانين ودفن فى مقبرة وستمنستر ووضع نعشه بجانب ستة أعمدة له . وقد أقيم له تمثال بكامل طوله منحوت من قبل (روبلايك) فى كنيسة ترنتى التذكارية فى كمبردج .

ملك نيوتن كل صفات البساطة والتواضع التى تعتبر من خصائص العبقرى الفذ . وإن عدم اعتداده المطلق بالعظمة جعله بطلا بين الرجال فى جميع الأزمان . وكان متديناً مخلصاً درس اللاهوت طول حياته وعند ناشريه كتاب يبحث فى تنبؤات دانيال ومن كشف القديس جون . وتعزى عبقريته العظيمة إلى صبره الطويل الذى استمر يناضل به جميع أنواع الفشل ، وإلى بحثه المستمر الذى لم يكن ينشد من ورائه أية منفعة ذاتية بحال من الأحوال .

وأخيراً تروى عنه قصص مسلية تعرض صفة لازمته وهى نسيانه السريع عند ما كان مكرساً نفسه للعمل العلمى . ومن تلك القصص أنه دعا مرة صديقاً له لتناول الغداء ، وعند حضوره أجلسه إلى المائدة وذهب فى مهمة قصيرة نسى خلالها ضيفه ، فانتظر هذا رجوعه على غير جدوى ، وأخيراً نفد صبره فأكل الدجاجة الموجودة فى الصحن المغطى ووضع العظام تحت الغطاء . وبعد أن أتم غداءه حضر نيوتن وجلس إلى الغداء ورفع الغطاء وقال : عزيزى أظن أنى لم أتناول غدائى ولكنى سأتناوله .

ويقال إنه كان ينهض مبكراً ويهمك فى فكرة ما ويظل جالساً على جانب السرير لابساً نصف ملابسه حتى وقت الغداء .

وعلى تمثال نيوتن فى كمبردج نقشت جملة ثمينة الكلمات أخذت من (المقدمة) :

« إن مهرس العقل سيظل إلى الأبد .
يجوب مجاهل البحار الغريبة بالفكر وحده » .

وفى الحقيقة أن عقله امتد حين تمكن قليل من الناس من اتباع خطاه ، ولكن نبل صفاته جند البشرية لحبه وتشريفه .

عن (Staples Commonplace Book)

فؤاد طرزى

المكتبـــان

«الجـــونه»

كان لى صديق نبيل شجاع يسكن قصراً قديماً مع أسرة كبيرة ربت فى أحضانها فتاة يتيمة. فلما ترعرت الفتاة وبلغت الرابعة عشرة من عمرها كانت من حول سيدة البيت تلازمها وتقضى لها حاجاتها الشخصية. وكانت الأسرة جد مرتاحة إليها راضية عنها، وكانت هى لا تتمنى سوى أن تبذل للمحسنين إليها من التفاتها ووفائها ما يوفى دينها، وكانت حسنة التعليم والتهذيب فحام حولها بعض الخطاب، فلم تجد الأسرة فى زواجها من أحد هؤلاء سعادة لها، ولم تبد هى أدنى رغبة فى تبديل حالها.

وفجأة حدث أن الفتاة وهى ذاهبة فى البيت جائية تسمع من تحتها دق هنا وههنا. فبدا هذا لأول وهلة من عمل الصدفة. لكنه لما لم ينقطع الدق وظل يسم كل خطوة من خطواتها ساورها القلق، وباتت تهيب الخروج من حجرة ربة البيت إذ كانت لا تستشعر الاطمئنان الا فيها.

وقد سمع هذا الدق كل من ماشاها فى البيت أو كان على مقربة منها، فكانوا يتندرون به بادىء الأمر، لكنهم أخيراً ضاقوا به، فجعل رب البيت، وهو رجل نشيط الذهن، يتحرى ظروفه، ويحقق أسبابه. ولم يكن الدق يسمع إلا حين تسير الفتاة، وكان يسمع حين تضع قدمها على الأرض تأهبا للمشى، وحين ترفعها ماضية فيه. بيد أن الدقات كانت أحيانا غير منتظمة، وكانت على الأخص قوية جداً، حين تخترق الفتاة فى طريقها بهواً فسيحا.

وأخيراً احتفظ رب البيت ذات يوم ببعض العمال واستبقاهم قريبا منه، فلما كان الدق على أشده كلفهم فى الحال بنزع بعض الألواح من أرض المكان إثر مرورها عليها، فلم يجد تحتها شيئا، اللهم الا ظهور بعض الفيران الكبيرة، فطوردت، وكان لمطاردتها ضجة فى البيت أية ضجة.

وأغضب رب البيت هذا الحادث وما أشاع من اضطراب فلجأ إلى الشدة، وتناول سوطه من الحائط، وأقسم ليقتلن به الفتاة ضربا إذا سمع الدق مرة أخرى. من ذلك الحين صارت الفتاة تسير بسلام، ولم يعد أحد يسمع من الدق شيئا.

ورأت لويزة وهى من أهل البيت أن هذا دليل على أن عفريت الطفلة الجميلة كان من ذات نفسها، وأنها السبب من الأسباب مزحت هذا المزاح وعبثت بسادتها.

فعارضها فريتس: فقد كان من أهل البيت من ينسب هذه الظاهرة إلى روح من الأرواح، ويعتقد أن الروح راعية الفتاة تريد حملها على مغادرة البيت. لكنها بعد تهديد ربه لم تشأ أن تسبب لها أذى. ورأى غير هؤلاء رأيا أقرب إلى المعقول، ففسر الأمر بأن أحد محبيها المغرمين بها أوتى من العلم أو من الحذق ما مكنه من إحداث هذه الأصوات ليحمل الفتاة على ترك البيت والارتماء فى أحضانه. وسواء كان هذا أو ذاك أو لم يكن فإن الطفلة الطيبة ذوت من جراء هذا الحادث وذبلت، وباتت تشبه الطيف الحزين، بعد إذ كانت فضة، مرحة، طروبا، هى أطرب من بالبيت جميعا. بيد أن هذا الهزال قد يكون له علة أخرى.

وقال كارل: من أسف ألا نستطيع تحرى هذه الأحوال بالدقة، وأننا فى حكمنا على الحوادث التى تثير اهتمامنا نظل نتراوح بين مختلف الاحتمالات، لأن الظروف التى وقعت فيها أمثال هذه العجائب تخفى علينا فى الغالب.

فقال الشيخ رب البيت: لو لم يكن من العسير تحقيق هذه الحوادث واستحضار نقطها وبواعثها إثر وقوعها كيلا يفوت المرء شىء يمكن أن ينطوى على الخداع أو الخطأ! هل يستطيع المرء ملاحقة حاو فى خفة حركاته ورشاقتها مع أننا نعلم أنه يمكر بنا؟

ولم يكد يفرغ من كلامه حتى سمعت فى زاوية الغرفة فرقعة قوية على حين غفلة، فهب الجميع مذعورين، وقال

بعد ذلك كارل مازحاً : آمل ألا نسمع صوت عاشق يحتضر !

وكأنه ندم على ما قال فودّ لو يسترد عبارته إذ امتقع لها لون لويزة واعترفت بأنها ترتعد خوفاً على حياة عريسها .

وتناول فريتس المصباح ليسرّي عنهم ، وتوجه إلى المكتب القائم في زاوية الغرفة ، فألفى غطاءه المقوس مشقوقاً شقاً أفقياً كاملا ، فأدرك سبب الصوت .

لكن أهل البيت تذكروا أن هذا المكتب هو خير ما صنع رونتجن ، وأن له في مكانه عدة سنين لم يصبه شيء ، فكيف اتفق أن ينشق في هذه اللحظة ! . لقد كانوا دائماً يباهون بأنه أنموذج للنجارة المتينة البديعة ، وكانوا يرونه الغير مفاخرين ، فإذا به الآن ينشق دفعة واحدة من دون أن يشعروا في الجو بأقل تبدل .

وقال كارل : دعونا نحقق هذا الظرف في الحال ، ونتبين مقياس الجو .

فألفوا الزئبق على حاله لم يتحرك منذ بضعة أيام . وكذلك وجدوا مقياس الحرارة لم يسقط إلا بقدر تحول النهار إلى ليل .

وصاح كارل : من أسف أن مقياس الرطوبة ينقصنا ، فهو ألزم ما يلزمنا .

وقال الشيخ : يلوح أنه تنقصنا دائماً ألزم الأشياء ، كلما أردنا امتحان الأرواح .

وإنهم لفي تأملاتهم إذا بخادم يقطعها عليهم ، فيدخل الغرفة مسرعاً ، ويعلن إليهم أن حريقاً كبيراً يلوح في السماء ، وأنه لا يعلم أيشب في المدينة أم في الناحية .

ولما كان أهل البيت قد باتوا من جراء الحادثين أشد حساسية بالمدهر فقد وقع عليهم الخبر وقعاً هو أشد مما يكون في العادة . وقد سارع فريتس إلى منظرة البيت وكان على لوحة أفقية فيها خريطة مفصلة للإقليم يمكن بواسطتها تعيين مواضع مختلف النواحي بالضبط تقريباً حتى أثناء الليل ، وبقي سائر أعضاء الأسرة في انتظاره مهمومين لا يستقرون .

وعاد فريتس يقول : إن ما أخال لا يسر . فالحريق في أكبر الاحتمال ليس بالمدينة ، ولكن في ضيعة خالتنا . إني أعرف الاتجاه بالضبط وأخشى ألا أكون مخطئاً . وأسف أهل البيت لما يذهب الآن طعمة للنيران من المنشآت الجميلة ، وقلقوا في تقدير الخسارة .

وقال فريتس : إن فكرة عجيبة خطرت ببالي في تلك الأثناء ، وقد تهدئ روعنا على الأقل من ناحية ما بدا على المكتب من ظاهرة غريبة . فلنعين قبل كل شيء الساعة التي سمعنا فيها الصوت .

فحسبوا الوقت المنقضي فرأوا أن الساعة كان يمكن أن تكون حوالي منتصف الثانية عشرة .

واستطرد فريتس يقول : والآن اضحكوا أولا تضحكوا ، فإني أريد أن أحدثكم بما وقع في خاطري . إنكم تعلمون أن أمنا أهدت إلى خالتنا من عدة سنين مكتباً شبيهاً بهذا ، بل قولوا مكتباً مثيلا لهذا . وقد صنع كليهما معلم واحد ، في وقت واحد ، من خشب واحد ، وبذل في صنعهما عناية فائقة . وقد عاش كلاهما إلى الآن في حالة جيدة ، وأراهن أن المكتب الثاني يحترق الآن في مصيف خالتي ، وأن التوأم أخاه يكابد من هذا . وسأذهب غداً بنفسي ، وأتحرى هذه الواقعة الغريبة ما أمكن التحري .

ولست أدري أكان هذا الرأي يحدو فريتس حقاً أم أن الرغبة في تهدئة روع أخته هي التي أوحت إليه بهذا الخاطر . وعلى كل فقد اغتنم أهل البيت هذه الفرصة للتحدث من حالات من التعاطف لا سبيل إلى إنكارها ، وانتهوا إلى أن التعاطف بين الخشب الذي نشأ في جذع واحد وبين المصنوعات التي صنعها فنان واحد ، أمر لا يستبعد . بل إنهم اتفقوا على أن هذه الظاهرات يمكن أن تعد من الظاهرات الطبيعية كتلك التي تتكرر كثيراً

أفكار غريب

كفاني ما ظفرت به كفاني
من الأحباب والهمم الرواني
وإخوان بذلت لهم فؤادي
وحباً مستجناً في جناني
فدانيهم تخوف البعد نائ
ونائيهم لقرب الود دان
ملأت بهم فؤادي مستجيراً
بهم من كل خطب قد عناني
أرى في منهم أخاً كريماً
يفيض على العواطف بالمعاني
إذا سفروا على الآمال أشرقوا
عليهـــا كل فن ذي بيان
أحبهم وأعلم أن حبي
لهم باق على ريب الزمان
أعـــذبه فيطهر كل يوم
ويسمو بين أحـــلام الأماني
ويبقى والزمان له أسير
وقد نسب الخلود إلى الهوان
سلاف خواطري، ومعين نفسي
وكون ليس يفصل من كياني
فأحتقر الزعانف في هوام
وأهزأ بالعواطـــل والغواني

* * *

ورب أخ بذلت له ودادي
له في الناس شـــأن غير شاني
يذم صـــديقه من غير ذم
وينهض الملالة غـــير آن[1]

(١) اسم فاعل منقوص.

ونلمسها بأيدينا، ولا نستطيع تعليلها.

وقال كارل: يلوح لي أن كل ظاهرة وكل واقعة هي ما يبعث الاهتمام في ذاته. فالذي يحاول تعليلها أو الوصل بينها وبين حوادث أخرى إنما يلهو بذلك ويضحك على ذقوننا، كما يفعل بنا على سبيل المثال كل من الباحث الطبيعي والقاص. إن العمل أو الحادث الواحد لا يثير اهتمامنا لأنه قابل للتعليل أو محتمل، ولكن لأنه حقيق. فإذا كانت النار قد التهمت مكتب خالتنا حوالي منتصف الليل فيكون الانشقاق الغريب الذي وقع لمكتبنا في نفس الوقت حادثاً حقيقياً، وليكن بعد ذلك قابلا للتعليل أو ذا صلة بغيره ما يكون.

* * *

ووثبت لويزة إلى النافذة حين سمعت فريدريك يدخل فناء القصر، ثم ذهبت لملاقاته، واقتادته إلى الغرفة. وكان يبدو متهللا وإن كان قد جاء من مشاهد البؤس والخراب. وبدلا من أن يأخذ في سرد تفاصيل الحريق الذي شب في بيت خالتهم أنشأ يؤكد أن المكتب كان يحترق هناك في نفس الساعة التي سمعت فيها فرقعة مكتبهم بهذا العنف.

قال: وفي نفس اللحظة التي اقتربت فيها النار من غرفة المكتب أنقذ مدير البيت ساعة كانت موضوعة على المكتب. ولا بد أنه وقع لها شيء وهو يحملها إلى الخارج، لأن حركتها وقفت في منتصف الساعة الثانية عشرة تماما. فقيما يتعلق بالزمن على الأقل قد ثبت التوافق التام.

فابتسمت البارونة. وزعم ناظر القصر أنه ليس بعد في الإمكان أن نستخلص صلة بين شيئين لمجرد توافقهما. بيد أنه راق لويزة أن تربط بين الحادثين، لاسيما وقد سمعت من صحة عريسها ما طمأنها عليه، وأرخى للخيال العنان يجول ويصول.

محمود الدسوقي

سيبقى بعدنا فرداً وحيــداً
فَدُوٌّ فرائدِ الزمن الحسان
يعالج كل هاجسـة ويمضى
ويضجر بالزمان وبالمكان
وفينا – لو يؤانسنا – صديق
إليه جانح وعليـه حان
فتى ! لكنّ فى الفتيان عيباً
يباعدهم من الكرم الهجان
هجرناه ملالة ما جهلنـا
وفى الجهل التخبط والتوانى
نذم به خسـارتنا ونلقى
نرض بالودادة للشوانى (١)

* * *

فقلت لأحمد : هلا كشفنا
فؤاداً منه معسول المجانى ،
وألفناه تأليفـاً فـلانت
جوامح منه شامسة الحران ؟
ألم نرد الحياة وإن فيهـا
رباعاً عامرات بالمغـانى ؟
نلذ بصابها ونعب منهـا
سلاف الخمر مترعـة الدنان
ونحتقر المنـايا والمنـايا
رواصـد لا تبالى من تعانى
ولو أنا خلدنا لاصطفينـا
عيون الله من أضراب طان (٢)
تشجعنا على الدنيـا وآلت
لتصطنعنّنا حلل الجبان (٣)

(١) جمع شانئة شوانئ ، وحذفت الهمزة للضرورة وهو جائز
(٢) طان صاحب صبى نستدين منه .
(٣) لتصطنعن لنا ، بنون التوكيد الخفيفة . ولكنى آثرت الثقيلة وحذف حرف الجر وهو جائز .

فـلو أنا عرفناها لآبت
تخر على الجبين بهـا اليدان .
تأمل فى فؤادك تلق فيـه ال
مباعِدَ والداجيَ والـدانى
سجايا تصطفيك وأنت منهـا
بعيد الصون فى حرب عوان
إذا عاصيتهـا غدرت وخانت
وليست ما يؤلف باللّيـان
نذم النـاس ؟ فاذممها خبيرا
بهـا جنّدَ المزعة غير وان

* * *

أقول – وطال فى كادوقلَ ثوى
وأسلمنى الملال إلى الضمان (١)
وقد حجب الرباب الشمس عنى
وحز البرد أطراف البنـان
(٢) (وقد كان الغمام يلذ نفسى
ويسكرنى ربا كردفان (٣)
وكنت أرى المطايا مرديات
بسهب كالصحيفة صحصحان (٤)
ديار من فؤادى كنت فيها
وكان أبى وكان بنو لبـان
أرى فى بدوها الأعراب شعثاً
وفى فتيانهـا الغر الهجان
رهائن فى ضميرى تائقـات
إلى عيش الطـلاقة والرهان

(١) كادوقلَ قرية فى غرب أعالتها جبلة فى الربيع .
(٢) الكلام الذى بين الأقواس اعتراض طويل بين القول ومقوله دعا إليه التذكرى وأعل مثل هذا التطويل عيب فى البلاغة .
(٣) كردفان هى السهل الغربى من السودان بين الأبيض وغرب الخرطوم إلى فريبس دارفور، وهذه البقاع جميلة فى الخريف
(٤) البيت كله مأخوذ من بيت تأبط شراً
ولكن قد لقيت الفول تردى بسهب كالصحيفة صحصحان

ألستُ من البداوة أىَّ عهدٍ
حويتُ وأى ربع قد حوانى ؟
فإن أكُ نلت من نُدَى سواها
فإن لبانها أبقى لبانى
ولم أبرح ، على مضض ، إليها
أميل مع الحنين إلى الحنان
أت أجواء لندن أن أراها
كما شامت وتجزع أن ترانى
أأرع للحضارة ذا فؤاد
منيبٍ لا يحيدُ عن الرهان
أداعع من تأدب فى ذَراها
رفيقَ السير مثنىّ العنان ؟(١)
إذاً والله قد يممتُ بوناً
على السير فيه الفرقدان .
ولكنى أخو دهرى جديرٌ
بما ألقى إلىَّ وما يلاقى
فألقاه جرىء القلب حراً
ألدَّ على الخصومة ذا بيان
أناضل أو أقاصر لا أبالى
رميت أخا البداوة أم رمانى
وأحجم ثم أقدم غير دارٍ
وقد أحجمت ماذا قد عرانى
ولكنَّ الزمانَ يكون ليلاً
فيجلوه نهارٌ فى ثوانى
أطلَّ به على الدنيا فتبدو
فدافدها وهن من الجنان
و ألست ترى الدجاج كسين روشاً(٢)
عليه الطير تصدح كالقيان

(١) رفيق السير حال من المفعول .
(٢) هذا مقول القول : أقول وقال فى كاوول الخ .

وقد سرت الحياة بها وجاشت
تُصَارع فى البقيَّة والتفانى ؟
فراجفةٌ تروم العيش كدحاً
ومصعقةٌ ووانيةٌ ووان
وقد كان الشتاءُ قسا عليها
وألبسها ملابس كالدخان »

* * *

وما حبُّ الحياة أرى بقائى
ولكن كلُّ أروع نبهان(١)
يهين المال كى يحيا عزيزاً
ويثأر للمجاف من الهوان
برى رأى المقنع فى ثغور
تبيح الدين إلا فى الحوانى(٢)
ويختبر الأنام بعين طب
إلى الأعماق أنفذ من سنان .
هناك وإن يكن فى الفقر ينصو(٣)
أموناً مثل ألواح الإران
أحب إلىَّ من قوم تراهم
لطافاً مشرقين من الدهان
توثَّبُ فى صدورهم وحوش
تعطَّش للضراب وللطعان

(١) النبهان والنيهان هو الفرس يعرض نشاطاً فى مشيته ، وهنا استعملها مجازى ، حب نصب على أنها مفعول لأجله ، وكل اصبت على النيابة من المفعول لأجله إذ تقديرها : ولكن حب كل أروع الخ
(٢) المقنع الكندى صاحب (يعاتبنى فى الدين قومى) الحوانى الحوانيت وقد قال ابن أحمر الأوانى فى الأرانب وهى حانات الخمر ولا يجوز فيها الدين :
(٣) ينصو أو ينصا . من نصأ فإذا خففت الهمزة بعداً وجئت بالمضارع صارت ينصو ، وإذا خففت همزة المضارع صارت ينصا ، وهنا من بيت طرفة :
أمون كألواح الإران نصأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

على أرواحهم صمداً وفيها
دم من مصرع الأهواء قانِ

* * *

تولى الأحدان العيش هلا
أفادك ما تولى الأحدان
ترى شيخ المعرة مطمئناً
بمقل عن فتنات المجد غانِ
رأى بغداد ثم أفاد منها
زرابة من يقعقع بالشنان
وذاق ابن الحسين العيش خزياً
يكون به الشجاع أخا الجبان
قضى أيامه وثباً فهلا
ترفق حين جد الحادثان
فؤادٌ كالشرارة لم يصابر
ولم يثبت لأحداث الزمان
وإنسان كريم النفس ألقى
به الطَّبَعُ المهين إلى الهوان
فهل علمت خيول أبي شجاع
مَن المرءُ المضرج بالغوانى ؟(١)
تطهر بالمنية من حياة
بلاها من غرور وامتهان
فأصعده الخلود إلى مكان
بعيد القصد عن راضٍ وشانِ

* * *

هى الدنيا أخا الدنيا أخاك
وأنت فى سبيلك بالجران
فسايرها وياسرها وضاحك
صروف الدهر واصدح بالأغانى

(١) أبو شجاع فاتك الأسدى قال أحمد بن الحسين المتنبي. الغوانى أى النساء الغوانى.

ولولا الصبرُ ما ألفيتُ نفسى
ألاين من جفوت ومن جفانى
أحبُّ الأصفياء وأصطفيهم
وأصفو فى التباعد والتدانى
وأفسح للكريم رحاب صدرى
وأكرمه وأسرع إن دعانى
وأغضى الطرف عن زلات خل
وأروى بالمدامة من سقانى
وأرويه على يده وألقى
فصيحاً حين أشربها لسانى(١)
إذا خفَّت حلوم القوم أبقى
عَلَيَّ الحلمَ عِرقٌ قد نمانى

عبد الله الطيب
معهد التربية بلندن

(١) لسانى بدل اشتال .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٩٩ | الثلاثاء ٢٣ من رمضان سنة ١٣٦٥ — ٢٠ من أغسطس سنة ١٩٤٦ | السنة الثامنة

فهرس العــــــدد

أحاديث رمضان :

فى الحياة الروحيـــة

الناس يختلفون فى أرواحهم اختلافهم فى ألسنتهم وألوانهم وأجسامهم ، وهم — لهذا الاختلاف فى الأرواح — معرض لا مثيل له بين المعارض ، منه يستمد المصور لوحته ، والشاعر فى الوصف قصيدته ، والأديب المصوِّر صورته ، والقصاص قصته .

فمنهم من بردت روحه فكانت ثلجاً ، وضمرت حتى كانت ذرة ، يقضى وقته بين مال يجمعه ، ومال ينفقه ، ومال يدخره ، وموازنة بين وجوه الاستغلال أيها أكسب ، ومحاسبة دقيقة لكل من يتولى له عملا ، ذهنه مستغرق بذلك من حين يصحو إلى حين ينام ، حتى إن حلم فإنما يحلم فى سلعة ربحت أو خسرت ، وتجارة راجت أو بارت ؛ فإن كانت له لذة فى الحياة وراء ذلك فلذة عابرة فى مأكل أو مشرب يستمتع بها بطرف من ذهنه ، وسائره مشغول بماله وتدبيره .

أو موظف ينفق حياته فى مذكرة يكتبها ، أو مسألة يحضرها أو ورق يمضيه ، أو رئيس يرضيه ، ولا تفكير له وراء ذلك إلا فى أمور الحياة العادية ومطالب المعيشة اليومية .

أو فقير همه كله فى تحصيل رزقه وتدبير العيش له ولأسرته ، يكدح فى ذلك نهاره وجزءاً من ليله ، لا يفكر إلا فى إعداد قوت لمعدات تنتظره ، وأفواه تلتهمه .

كل أولئك حرموا الروحانية ، غنيهم وفقيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، تنظر إليهم بعين البصيرة فترى ظلاماً موحشا

وجفافاً مرعبا ، قد فقـدوا نفوسهم وإن كسبوا أى شىء آخر ، هم آلة من جنس الآلات الحاسبة تجمع وتطرح وتضرب وتقسم ، ولا شىء غير ذلك . قد ينجح بعضهم فى الحياة فيكون من ذوى الثراء الواسع والمناظر الأنيقة والألقاب الفخمة والمظاهر الضخمة ، ولـكن هل هذا نجاح ؟ فأين – إذاً – نفسه ، وأين روحه ؟ .

بل من هذا القبيل عالم ينفق كل وقته فى مسألة يحققها أو نظرية يجربها ، وحياته كلها محدودة بالأفق الضيق الذى يقتصر على نظرياته وتجاربه وأقوال العلماء فيهـا وترجيح بعض الأقوال وتوهين بعضها وما إلى ذلك .

هذا نموذج من الناس تشترك أنواعه فى أنها كلها تحيا حياة لا روح فيها .

وهناك نموذج آخر يحيا حياة ليس لها صلة بالنـاس إلا أن يطعموه أو يسقوه ، حياته كلها متصلة بالسماء ولا شأن له بالأرض ، يعيش عالة على الناس ولروحه فقط ؛ كل حظ الناس منه أن يعبد ويتأمل ، يعتزل الناس فى دير أو تكية أو يجعل من بيته ديراً أو تكية ، ليس من شأنه سعد الناس أو شقوا ما دام يسعد هو بلذته الروحية ؛ إنه أنانى كاللآلى الشره ، إنه خلق فى الدنيا ويأبى إلا أن يستعجل الآخرة ، إنه أكل مال النـاس ولم يدفع ثمنه ، إنه – فى غذاء جسمه – قد استدان ولم يف بدينه .

أما من تاجروا بالروحانية فهم أسوأ حالا ممن أمعنوا فى تجارة السلع وقضوا فيهـا كل حياتهم ، لأنهم تاجروا فى غير متجر ، وزيفوا على الناس فباعوا ما لا يباع ، إنهم حواة يضللون الناس بألاعيبهم ، ويضحكون على أذقانهم ؛ هؤلاء ليسوا من الروحانية فى شىء . إنهم باعة أسهم لا يملكونها . إنهم يبيعون الزجاج باسم الماس ، والنحاس المموه باسم الذهب ، وأصناف هؤلاء كثيرون .

ليس يعجبنى هؤلاء ولا هؤلاء . إنمـا يعجبنى من مزج مادة بروح ومد بسبب إلى الأرض وبسبب إلى السماء . وإذا كان الإنسان جسما وروحاً فلم لا يغذيهما جميعا ، ويعيش بهما جميعاً ؟ إن لم يعجبنى ذو الوجهين فإنه يعجبنى ذو الجانبين ، جانب الروح وجانب المادة . قد يكون هذا رجل أعمال دقيقاً فى عمله منظماً لإدارته يسير فى عمله على آخر طراز وصلت إليه المدنية ، من دفاتر منظمة ومواعيد محددة ، وهو مع ذلك له نزعة روحية لطيفة ، وله مثل أعلى فى الحياة ، عنده الشعور بالله وعظمته ، وأن الدنيا ليست كل شىء ، وأن خير الناس أنفعهم للناس ؛ هذه الروحانية تلطف من حدة ماديته ، فهو لا يعيش لنفسه فقط أو لأسرته فقط ، ولـكن يعيش أيضاً للناس كما أمر الله ؛ روحانية هذا الرجل بجانب ماديته تسبغ على قلبه الرحمة للنـاس وحب المونة لهم ، وإيصال الخير إليهم ؛ ومثل هؤلاء الناس قليلون فى المجتمع ، تعرفهم بسيماهم ، قد خلعت عليهم الروحانيـة نوعاً لطيفاً من الرقة والوضاءة والدعة مع الجد فى أعمال الحياة الدنيوية ؛ ولو كثر مثل هؤلاء لتغير وجه العالم ولساده السلام .

الفرق بين نابغة له روح ونابغة لا روح له كالفرق بين عمر بن الخطاب وتيمورلنك .

ليست الحياة أن تأكل وتشرب وتتزوج ، بل إن للحياة غرضاً أسمى . الحياة رسالة ، وليست الحياة عملاً مادياً متواصلا ، تصبح فتعمل وتعود إلى بيتك فتأكل ، ثم تعود فتعمل ، ثم تعود إلى بيتك فتأكل ثم تنام ؛ فهذا شأن الآلة لا شأن الإنسان ، إنها تدور وتتغذى وتهدأ ، وهذا فى الآلة طبيعى ، ولـكنه فى الإنسان ليس طبيعياً ؛ لأنه منح ملـكات وراء هذا العمل الآلى .

بل ليست الحياة – أيضاً – عملا عقلياً بحتا ، ونضجاً فـكرياً فقط . فالعقل وحده لا يفسر الحياة ولا يحل مشـاكلها ، والعقل وحده يجعل الحياة جافة مخيفة ،

والاعتماد على العقل وحده كثيراً ما أدى إلى الشك ، والشك عذاب وفراغ — وكثيراً ما يصل العقل إلى درجة النبوغ الفائق مع انحلال في الخلق وضيع ، كما كان الشأن في نابليون وبيكون وبيرون وأمثالهم ؛ وحتى مع اجتماع العقل والخلق المؤسس على العقل ، فإن العقل والخلق إذ ذاك يكونان كالتمثال الجميل ينقصه الروح . إن الاعتقاد بأن للعالم إلها يسيطر على العالم وينظمه ، وأن لكل إنسان بهذا الإله العظيم صلة ، وأنه سائله عن عمله ، وأنه سيزن أعماله بميزان دقيق ، وأنه يمد الروح التي تتصل به بروح منه — كل هذا حق ، وكل هذا يبعث القوة في الإنسان ، وهو خير دعامة للنفس تستند عليها في الحياة .

ما أسعد الإنسان يشعر بأن يد الله العظيم تعمل في الكون أبداً ، وتمده بالحياة ما عاش ، وتعينه على الخير إن أراد ، وأن الله العظيم متصل بقلبه ، وحاضر عنده ، ومطلع على أدق ما في نفسه ، وأنه بصفاته العظيمة جدير بالحب والتقدير والحمد .

هذه العقيدة الروحانية تحيي الدنيا وتحيي الآخرة ، وتبعث على العمل لا على الخمول ، وتصبغ العمل في الدنيا صبغة جميلة رحيمة خيرة ، هي التي تحول الجفاف إلى رحمة ، وتحول القبح إلى جمال . إن المادي ينظر إلى الوردة فيقدرها بثمنها القليل في السوق ، والروحي ينظر إليها فيرى جمالها لا يقدر بثمن . إن المادي بارد العواطف يقدر الناس بقدر ماينال منهم ، وهم ليسوا إلا ضيعة تستغل ، وكلما كان الشخص مليئاً بالمال يُمتص والدم يستنزف كان أحب إليه لماله لا لشخصه ، والروحاني يرى في كل إنسان أخاً يعان إذا أمكن ، ويؤخذ بيده إذا عثر ، ويُرحم إذا كبا ، ويُمد بالسعادة إذا شقي .

لو مست الروحانية قرداً لأحالته إنساناً ، ولو مست شيطاناً رجيماً لجعلته ملكاً كريماً ، ولو مست جباراً عتيداً لجعلت منه أباً رحيماً ، ولو مست قلوب الساسة لعم السلام وبطلت الحروب ، ولم يكن مستعمر ومستعمر ، ومستغل ومستغل ، وعزيز وذليل ، ولكن إخوة متعاونون شركاء فيما لديهم رحماء فيما بينهم .

ليس العالم الآن محتاجاً إلى تنظيم أسواق التجارة ، ولا إلى تنظيم وسائل الدفاع والهجوم ، ولا إلى ضبط السلطة على القنابل الذرية والمخترعات الحديثة المبيدة ، ولا إلى تنظيم توزيع الأسلاب ووضع شروط الصلح ؛ فكل هذا هو منطق الساسة القدماء ، وهو المنطق الذي ساد رجال السياسة عقب الحرب العالمية الأولى ، فكان نتيجته الحرب العالمية الثانية ؛ فإن استمر هذا المنطق بعينه سائدا فستكون النتيجة حربا ثالثة لا محالة ، ضرورة أن المقدمات الواحدة تنتج نتائج واحدة . وإنما العالم يحتاج إلى روحانية — وليهزأ بذلك من يهزأ — روحانية تبيد الطمع بين الأفراد والأمم ، وتقضي على شح الأنفس وحب السيطرة والانتقام ونزعات الجنس والوطنية والطبقات ، وروحانية تنتشر بين الشعوب فترى أن زعماءها السياسيين الماديين غير صالحين للحكم فتنحيهم وتنصب مكانهم من جمعوا بين المادة والروح ، قد اصطبغت نفوسهم بحب الخير للإنسانية وحب العدل في العالم وحب الإخاء بين الأمم .

العالم محتاج إلى ريح عاصف تجتاح الأساليب القديمة في حب السيطرة والتأله والسيادة القومية والنعرة الوطنية ووضع الساسة أنفسهم في موضع الله ومن عداهم في موضع العبيد ، وتجتاح النزعات إلى الإفراط في اللذائذ الحادة غير المشروعة وعدها مطلب الحياة .

العالم لا يحتاج اليوم إلى إصلاح المادة ، ولكن إلى إصلاح الروح .

قد يرى قوم أن هذا حلم . ولكنه حلم لا بد منه وإلا فالعالم في شقاء دائم .

أحمد أمين

من أحاديث الريف :

الذباب والبعوض

ينعم المصريون الذين يعيشون في المدن الكبيرة والذين آتاهم الله سعة في المال ، بحياة هادئة نظيفة لا يعكر صفوها معكر . وإذا صادفتهم حيث يسكنون كثرة من ذباب أو بعوض (ناموس) لم يعز عليهم أن يلجأوا إلى مكاتب الصحة تسعفهم بالمواد المبيدة وإلى مصلحة التنظيم تعمل على تنظيف الأحياء المحيطة بهم ، وأن يشتروا لأنفسهم من الشباك الدقيقة أو الأسلاك ما يقف حائلا دون الذباب والبعوض من ولوج منافذ دورهم ، وأن يشتروا كذلك من الأقمشة الدقيقة الغالية ما يصلح لصنع الناموسيات ينصبونها على أسرتهم فيحولون بين أنفسهم وبين ما تسرب إلى المنزل من ذباب وبعوض بعد تلك التحوطات الكبيرة التي ذكرناها . وهكذا ينامون ملء الجفون ويحفظون أبدانهم وأبدان عيالهم من العلل والأمراض والأوبئة التي يحملها الذباب والبعوض .

هذا حال الميسرين من أفراد الشعب الذين يعيشون في المدن أو المراكز الكبيرة . أما بقية أفراد الشعب من الفقراء والفلاحين الذين يعيشون في القرى ، فحالهم من هذه الناحية تدمي القلوب وتفتت الأكباد وتجعلنا نعجب كيف تكون أمة راقية تريد أن تتبوأ مكانها بين الأمم المتحضرة وتتزعم أمم الشرق ، وتسكت مع ذلك عن حال كهذه لا يدرك شدة وطأتها تماماً إلا من عاش في صميم الريف وشارك المساكين من أهله معيشتهم واكتوى بما يكتوون به وتعرض لما يتعرضون له ؟ .

فهناك في هذا الريف التعس بمجرد أن يصبح الصباح وقبل أن تشرق الشمس تبدأ جحافل الذباب تنقض على الأهلين فتهاجم أعينهم وأعين عيالهم الصغار وتتجمع على أجسادهم وملابسهم وعلى مواشيهم وحيواناتهم . فإذا ما سطع ضوء الشمس كان كل ما حول الإنسان مهاجماً بهذه الحشرة السوداء البغيضة التي تحمل القاذورات وتحمل معها بذور الأمراض الفتاكة ، وأشدها خطراً ما يصيب العين ويؤدي إلى فقد عدد كبير من الناس أعينهم أو إحداها .

ومن المؤلم أنك ترى الفلاحين وقد اعتادوا هذه الحال لا يحركون ساكناً لما يصيبهم ، بل ولا يدفعون الذباب حتى من على أعينهم ، فتراه يجول ويصول فيها بمنتهى الحرية وهم عنه لاهون وبخطره غير شاعرين .

فإذا ما غابت الشمس وبدأ الظلام يخيم أخذت تنقض على الأهلين جحافل الناموس ، تلك الحشرة التي لا ترحم والتي تمتص دماءهم على قلتها وتحقنهم ببذور الحميات وغيرها من مختلف الأمراض التي تودي بحياة نسبة كبيرة منهم . وحتى إذا صرفنا النظر عن هذا الخطر ولم نعمل له حساباً فإن لدغات هذا البعوض تقض مضاجعهم وتقلق منامهم إلا إذا كانوا من التعب بحيث لا يؤثر فيهم إلا اللدغة القوية .

فهل ترضى أمة متمدينة بهذه الحال ؟ وهل تقبل سبة كهذه وتتحمل مثل هذا العار ، وتسكت على هذه الخسارة الفادحة في دماء أبنائها وعيونهم وحياتهم ؟ أليست ثروة مصر كلها متوقفة على مقدرة الفلاح المسكين على العمل وعلى قدرته على الإنتاج وعلى نشاطه وإقباله واهتمامه ؟ وهل من المستطاع أن ينشط الإنسان وهو يتأذى بالليل والنهار ويغار على دمه وعينيه وأولاده ، وتفتك الأمراض به وبأسرته باستمرار ؟ كيف ينشط إنسان والمرض ينخر في عظامه والدماء تمتص من جسمه ؟

ألا إن هذه سبة في جبين كل مصري وعار يجب أن تعمل كل حكومة على محوه . وفي اعتقادي أن مقاومة هاتين الآفتين الذباب والبعوض من أهم الواجبات وألزمها

على كل متعلم وقائد وزعيم وولى الأمر . ويجب فى رأينا أن ترصد الحكومة مبلغاً كبيراً من المال لمحاربة هـذا الوباء ، وتجند رجال العـلم لمقاومته ، فيقومون بالبحوث العلمية الواجبة حتى يستنبطوا خير الوسائل لمقاومة هاتين الآفتين والوصول إلى حل ناجع يؤدى إلى إبادة الذباب والبعوض من كافة أنحاء البلاد .

وقريباً قرأنا أن البرازيل كانت ترزح تحت كابوس كهذا ووباء أشد منه إذ أصيبت ببعوض الجامبيا . فأخذ رجال العلم والبحث يعملون ليل نهار فى مكافحته حتى وصلوا بفضل جهودهم إلى تخليص البلاد منـه نهائياً فى خلال عشرة أعوام فقط .

* * *

ومن الغريب أننا هنا لانتحرك إلا إذا بدأ الناس يموتون بكثرة ظاهرة وعلى صورة تلفت النظر ، أو إذا قامت حملة شديدة تهلل وتكبر وتبرز الخطر ، أو إذا التفت مليك البلاد إلى الأمر ولفت نظر رجال حكومته إليه ، وعند ذاك فقط تقوم الدنيا وتقعد وتفتح الخزانة وترصد الأموال وتجند الأعداد الهائلة للمقاومة بصفة وقتية ، حتى اذا ما تحسن الحـال نوعا ما وهدأت العاصفة عادت الأمور الى مجاريها الطبيعية الأصلية ونسى الناس كل مجهود ووقفت البحوث وطويت الأوراق وانتهى الأمر عند هذا الحد .

أما الموت التدريجى المستمر الذى يدل عليه علو نسبة الوفيات وارتفاع الرقم الدال على الإصابات وغير ذلك من نذر الشر المستترة نوعا ما ومن الآلام التى يتحملها أصحابها فى صبر وجلد واستسلام — كل ذلك لايحرك ساكناً ولا يدفع إلى العمل المنتج ولا يحمس لرسم خطة ولا يؤدى إلى دراسة جدية منظمة وحملة علمية مستمرة ، لو أنها جميعاً بدأت لجنت البلاد من آثارها منافع لاحصر لها .

فهل آن الأوان لأن يظفر هـذا الخطر الداهم بشىء من عناية الحكومة واهتمامها ؟ فتعيره مايجب له من اهتمام وتهىء الحملة القوية الكافية لمحاربته وتخليص البلاد من ويلاته .

* * *

ومن العجيب أنك تسمع الناس يتحدثون وتقرأ لهم فيما يكتبون دعوة حارة إلى الاستقرار فى الريف وتعميره ووقف الهجرة منـه ، وتحميس شباب المستقبل وشاباته للسكنى فيه والاستمتاع بجماله ، وحسن استغلال خيراته . وهذا كلام نظرى حسن لاغبار عليه . لكن الذى يعيش فى الريف شهراً بعـد شهر وسنة بعد أخرى ويشعر بتلك المنغصات التى يحمله فى إشفاق دائم على أولاده من خطر الذباب وفى ألم بالغ حين يجن الليـل من لدغ الناموس ، هـذا الألم وذاك الإشفاق ينسيانه ما فى الريف من جمال ومتعة ويعكران عليه صفو الحياة فيه ، ويدفعانه دفعاً إلى الهرب من هـذه الحياة المؤلمة المقلقة حتى يطمئن على أهله وعياله ويعفى نفسه شر الإشفاق على المساكين المعذبين حوله من العمال والأجراء الزراعيين .

دعوت صديقا لى من المدينة لقضاء بضعة أيام معى فى الريف ، فهزه الحنين الشعرى إلى حيـاة الفلاحين وذكر ما يكتبه الشعراء والأدباء فى وصف الحياة الجميلة فى الريف وفى الإشادة بجماله وشاعريته ، فلبى دعوتى ووصلنا إلى حيث أقيم فى وقت جميل من النهار وجلسنا فى شرفة حيث الهواء عليل ، وأخذنا نتسامر ونسترخى ونسر بكل ماحوله من خضرة ونسيم وسماء وهدوء شامل مريح للأعصاب .

ثم نزلنا لنمر فى العزبة ثم فى الغيط فأخذت عينه تقع على مناظر الذباب وفتكه ولاسيما بالصغار ، فمر عليها سريعاً وتغاضى عنها حتى لاينغص على نفسه متعته . ثم عدنا فى المساء وجلسنا فى نفس المكان الهادئ الطلق الجميل الذى استمتعنا به فى النهار ، فما إن غابت الشمس وأخذ الظلام يسدل ستاره حتى تحركت رجلا صديقى ويداه ، وما إن جاء وقت العشاء حتى أحس بوطأة الناموس تشتد ، فضج وتألم

وقال : أعوذ بالله ! كيف تصبرون على هذه الحال وتعيشون في هذا الجحيم ؟ .

قلت : هذا هو نعيم الريف الجميل .

فقال : قبح الله الريف وما فيه وتعساً لساكنيه مادام هذا الوباء اللعين مسلطاً عليهم يغزى في أجسادهم ويستنزف دماءهم ويصب الأمراض في أجسامهم على هذه الصورة . لقد أدهشت عيني من الذباب وأثره في الفلاحين عند مرورنا في وسطهم ، ولكن كيف تحمون أولادكم الصغار منه نهاراً ومن البعوض ليلاً ؟ .

فقلنا : نحبس الصغار معظم النهار في حجرة نصب على منافذها الشباك ونفرد لهم واحدة منا ترقبهم وتضمن عدم سطو ما تسرب من الذباب على أعينهم ، ثم تمنعهم من النوم في خلال النهار ، حتى إذا قاربت الشمس المغيب أطعمناهم ، وبمجرد حلول الليل نضعهم في الفراش ونرغمهم على النوم بعد أن نتخذ من التحوطات ما يتعب ويضني ، لكي لا يتسرب الناموس إلى داخل الناموسيات فيقض مضاجع الساكنين .

ومن الغريب أننا وجدنا بالتجربة أن معظم الناموسيات التي أحضرناها غير وافية بالغرض ، لأنها وإن حبست الناموس الكبير فهي لا تمنع ما هو أدق منه بكثير وما يسمى « بالسكيت » الذي يبلغ حجم العشرة منه حجم ناموسة واحدة ، ذلك السكيت الذي يلدغ لدغاً لاسعاً مقرحاً . ولقد اضطررنا إلى دفع مبلغ كبير للحصول على ناموسيات أدق كثيراً من سابقتها لتقينا شر هذا السكيت اللعين .

قال صاحبي : هذه ليلة أقضيها معكم بالطول أو بالعرض ، وفي الصباح الباكر أنطلق عائداً إلى بلاد النعمة والنعيم ، إلى المدن الجميلة ، وقبح الله ريفكم ووقاكم شره .

هذه حقائق الواقع يجب أن يتدبرها القادة ، ليعلموا أن الواجب يناديهم ليدبروا حملة قوية تخلص البلاد من هاتين الآفتين اللعينتين قبل أن يؤملوا خيراً في نهضة الريف وسعادة أهله وسعادة مصر من ورائهم .

أحمد عبد السعوم الكرداني

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي

تليفون — ٥٦٧٦٩

القاهرة

هذه القلعة الشهباء

هل يستطيع غير أهل مصر أن يدركوا مغزى رفع علم البلاد فوق السارية الشامخة في قلعة القاهرة ؟ ليست هذه القلعة الشهباء مجرد بناء يقوم على جانب الوادي فوق تلال المقطم الجرداء ، إنها قطعة من روح مصر ومعهد صاحب الأجيال الطويلة من تاريخ مصر .

فقد كان صلاح الدين يضع أساسها منذ نحو ثمانية قرون عندما كانت أمم أوربا كلها لا تزال تهيم في ظلمات الفوضى والجهالة .

كان النرمانديون عند ذلك لا يزالون يحاولون تدعيم حكمهم الجديد في بلاد الإنجليز بعد مضي قرن واحد من موقعة (وليم الفاتح) الذي أتى إلى تلك البلاد غازيا من الجنوب .

وما زالت تلك القلعة قائمة منذ ذلك الحين تشهد أيام مصر على تعاقب الأجيال وتشارك في عزة مجدها ونواحي في شدة نكباتها إلى أن قدر لها منذ أيام أن تشهد يوما آخر مجيدا عندما رفع عليها الفاروق السعيد علم الهلال الثلث النجوم .

شهدت تلك القلعة أيام سلاطين بني أيوب وهم يدفعون عن مصر غارات الصليبيين المسرفة ، وكانت تستقبل فرسان مصر بعد عودتهم من ميادين القتال التي أخرجوا فيها المعتدين من أرض الوطن بأجنحة دامية مهيضة . وشهدت سلاطين (المماليك) وهم يتجردون لدفع غارات التتار المدمرة ، وفتحت أبوابها لجيوشهم المنتصرة بعد أن حفظوا المدنية الإنسانية من الدمار . وشهدت أيام بيبرس الفاتح إذ يخرج بفرسانه البواسل في مواكبه الباهرة تملأ مصر ثقة في حماتها ، وليعرض على أهلها كتائبه التي كانت تنحدر في القتال كأنها صفوف من الحديد تنطوي دروعها على قلوب من حديد . ثم شهدت أيام السلالة المجيدة من السلاطين إذ تعود جيوشهم بالنصر المؤزر من ميادين الشمال وميادين الجنوب بعد أن أمتت حدود مصر مما يلي الفرات والأناضول أو مما يلي قلب أقاليم السودان .

وكم دخل من أبوابها السفراء يأتون من دول الغرب الناشئة ، يفتحون أعينهم من الدهشة كلما وقعت أنظارهم على ما فيها من قصور حيرت ألبابهم بما فيها من جمال وحسن هندسة وفن رفيع .

كان هؤلاء السفراء يعرفون أن مصر أعز دول الأرض جميعاً وأن خيراتها تفيض على الآفاق ، وأن جهود أبنائها في التجارة والصناعة تخدم أطراف الأرض من شمالها وغربها . كانوا يعرفون ذلك كما كانوا يعرفون أن مصر العظيمة لا تدل بقوتها على ما جاورها من دويلات البحر الأبيض ، ولا تستأثر بالخيرات دون شعوب الأرض جميعا .

صاحبت القلعة مصر في حربها وفي سلمها وكانت مسرحاً لمفاوضاتها وتعاونها مع أمم الأرض ، وشهدت من تحففها ومن تكرمها ما لا تزال أصداؤه تتردد في جو هذه القلعة المجيدة . . .

ثم شهدت أيام قانصوه الغوري وقد تفتحت أعين أهل الغرب لأول أشعة العلم ، وتحركت نفوسهم إلى أول خطوات المغامرة ، فكانت همتهم متجهة إلى الاستئثار بالخيرات التي لم تستأثر بها مصر يوماً من الأيام ، وكانت غايتهم تحطيم مدنية مصر التي كانت منذ أقدم العصور تنشر مدنيتها على الآفاق المظلمة ، لا تضن ولا تسرف في منحها حدوداً .

وخرج الغوري آخر الأمر من هذه القلعة يدفع عن مصر جيوش العثمانيين الذين هبطوا إلى حدودها تدفعهم الكبرياء والرغبة في التحكم والطغيان .

وما زال يدافع حتى قضى في المعركة ، فلم يرجع إلى مصر ، ولم تفتح القلعة أبوابها مرة أخرى لجنوده وأعلامه التي تعودت من قبل أن تعود مظفرة من ميادين القتال .

وشهدت القلعة بعد ذلك طومان باي الباسل وهو

يقف في وجه الألوف المؤلفة من جنود الانكشارية الذين انحدر بهم سليم العثماني بملابسهم التي لا من قبها وسلاحهم الثقيل وحركتهم البطيئة. ولكن الألوف المؤلفة التي أتت مع سليم كانت أكثر مما يستطيع طومان الباسل أن يحطمه بسيفه، فاستسلم لينقذ البلاد من استمرار القتال. ولكن القتال استمر حتى اضطر الفاتح الغازي إلى الموادعة والمفاوضة وعقد الصلح على أن يحفظ لمصر شيء من كيانها

وفتحت القلعة أبوابها لأحد أمراء مصر وهو يدخلها نائباً عن السلطان الأجنبي الفاتح سليم القاسي.

ولكن قلعة القاهرة بقيت قاعدة لصاحب الحكم الأجنبي العثماني وما توالى فيه من نكبات جرتها على البلاد أنانية الحكام وغباوتهم وقلة إدراكهم لواجبات أولياء الأمور. وكانت قصورها القديمة التي شهدت مجد مصر لا تزال باقية تضم بين جدرانها الطغاة وهي منطوية على نفسها تناجي ذكريات ماضيها وتتطلع إلى المستقبل الغامض في صمت.

ثم أتى محمد علي العظيم بعد نيف وستة قرون من بناء هذه القلعة الشهباء، فضم إليها أثره الجليل الذي لا يزال قائماً يشير إلى السماء بمئذنتيه الرشيقتين اللتين تلوح إليهما العيون من أقصى المدينة وأدناها. وترددت أصداء الحركة الجديدة التي بعثها ذلك الحاكم العظيم بين جدران القلعة القديمة، وعادت أعلام الاستقلال ترفرف فوق أبراجها الشاهقة مؤذنة بزوال الحكم الأجنبي وطلوع فجر عهد جديد ممتلئ بالشباب.

وكانت حوادث العالم الكبرى قد توالت في أركان العالم البعيدة في تلك القرون الستة الطويلة، فنهضت شعوب الغرب وبنت مدنية طريفة أساسها المنافسة المرة والأنانية التي لا تعرف السلام، وارتدت موجة تلك المدنية الحديثة العنيفة نحو الشرق في حركتها الشديدة التي تشبه تيار المحيط الأعظم، فإذا بهذه القلعة الشهباء تشهد مرة أخرى دخول الجيوش الأجنبية وتحني هامتها لغير علمها العزيز.

فإذا كان العلم المصري يرتفع في هذا العام مرة أخرى فوق أبراجها الشاهقة على يد مليك مصر الموفق السعيد، فإن هذا الحادث الجليل جدير بأن يعد علماً من أعلام تاريخ مصر تشهده هذه القلعة القديمة وتفتتح به عهداً جديداً من عهود استقلالها النبيلة.

فاليوم تحس مصر بنشوة لا يمكن أن تقاس سورتها، ولا تبدو قوتها إلا إذا قرنت بما انطبع وراءها من مناظر الماضي وذكرياته.

فالقلعة التي تنفست فيها عصور مصر من فجر دولتها الإسلامية أكرم في نفوسنا من أن تعتبر بناء. فهي قطعة من روح مصر الحديثة، وهي معهد من معاهد مجدها الغابر وهي رمز الأمل في الحياة المقبلة لهذه الأمة الفتية وسميها لمثلها العليا في خدمة الإنسانية والسلام العالمي.

ولئن كانت قلعة القاهرة بالأمس موطناً للسلاطين الذين دبروا أمور أكبر شطر من هذا الشرق العربي وأدوا المدنية والفنون أجل الخدمات، فإنها اليوم جديرة بأن تكون بشيراً بنهضة مصر الجديدة التي تفتح ذراعيها وقلبها للتعاون مع أمم القرن العشرين على تحقيق رسالة المدنية التي بنت أسوها منذ القدم في أرض الفراعنة والسلاطين.

محمد فريد أبو حديد

علي هاشم

حكايات من الصين

أضاف الكاتب الأديب الأستاذ عبده حسن الزيات كتيباً جديداً إلى المكتبة العربية . ذلك هو كتاب « حكايات من الصين » . ومن قبل كان الأستاذ قد أمد هذه المكتبة بنحو مائتي حكاية من الهند في مجلدين جعل عنوانهما « حكايات من الهند » .

وإذا كان من غايات الأدب التعبير الجميل عن المعنى الجليل ، فإني أعتقد أن الأستاذ قد نقل إلينا من الهند ومن الصين تحفاً أدبية رائعة . فليس أنبل في المعنى من الحكمة . وليس أجمل في التعبير من الأقصوصة . وهذه الكتب التي قدمها لنا الأستاذ هي مجموعة من الأقاصيص التي تعبر عن أروع المعاني الإنسانية .

وليس من أغراضي في هذه الكلمة أن ألخص شيئاً من هذه القصص أو أن أعلق عليها ولكني أريد أن أضيف إلى هذه الأقاصيص أقصوصة وقعت بين الأستاذ المترجم وشقيقه . تلك هي الأقصوصة التي قدم بها الأستاذ كتيبه الجديد إلى القراء . وهي عندي من أمتع قصص الكتاب وإن كانت قصة مصرية صميمة لا شأن لها بالصين ولا بالهند .

فالأستاذ على ما يبدو لي كان قد أهدى شقيقه « مجلة الكاتب المصري » فاطلع في عدد من أعدادها على مقال الدكتور طه حسين بك عن « النساء في كتابة فولتير » وقد عرض الدكتور طه في ذلك المقال لكتاب من كتب فولتير هو قصته المشهورة المعروفة باسم (زاديج) ورأى أن يلخص تلك القصة في مقاله تلخيصاً سريعاً بأسلوبه الخاص ، فذكر من بطل القصة — زاديج — أنه هم أن يتزوج فخطب فتاة أحبها كل الحب وهي سمير . وأنه خرج معها ذات يوم يتروضان في ظاهر المدينة . وكان لها عاشق من الأشراف هم أن يخطفها ، فأبلى زاديج في الدفاع عنها بلاء حسناً حتى استنقذها . ولكن سهماً أصابه قريباً من إحدى عينيه ؛ فلما أيأس الأطباء سمير من شفائه صدت عنه وقالت إنها لا تحب العور ! ثم تسلى عنها زاديج وتزوج من فتاة أخرى فتنت به أشد الفتنة . وكونت لنفسها في الحب رأياً صارماً حازماً — إذ كانت ترى أنه رباط مقدس بين الرجل والمرأة يقوم على الإخلاص المطلق والوفاء الشديد . وأقبلت ذات يوم على زوجها ساخطة أشد السخط . فلما سألها عن ذلك أنبأته بأنها ذهبت تعزي إحدى صديقاتها عن موت زوجها . وكانت هذه الصديقة مشغوفة بزوجها قد نذرت الوفاء لحبه ما دام الجدول المجاور لقبره يمضي في مجراه . وقد أقامت على قبره لا تريد أن تفارقه . ولكن صاحبتنا في ذلك اليوم رأتها تصنع شيئاً عجيباً . . . رأتها تعمل على تحويل الجدول عن مجراه لتتخلص من هذا النذر الثقيل . . .

وأحدثت هذه القصة أثرها في نفس زاديج وزعزعت ثقته في قدرة النساء على الوفاء . ورأى أن يمتحن امرأته الحبيبة في ذلك . فاحتال مع صاحب له وفي ليعلم علمها ، وأظهر المرض ، وتكلف الموت ، ودفن في حديقة الدار . وأقبل صاحبه — طبقاً للخطة الموضوعة — على الأرملة يواسيها ويسليها . فكان الحديث حزيناً أول الأمر ، ثم جعل يرق شيئاً فشيئاً ويعذب قليلاً قليلاً حتى انتهى إلى ما يشبه الحب . ثم أظهر الصديق أن نوبة شديدة من المرض قد انتابته . فتعطف عليه الأرملة وتريد أن تطب له . ولكنه ينبئها بأن الطب له مستحيل ، فليس إلى علاجه من سبيل إلا أن يوضع على موضع الطحال منه أنف مجدوع . فتشك غير قليل ثم تقول لنفسها : وأي بأس على زوجي الفقيد إن لقي الآلهة بأنفه كاملاً أو منقوصاً ! ثم تهبط إلى

الحديقة وفي يدها حديدة تريد أن تجدع بها أنف زوجها الفقيد النشق به طحال عاشقها الجديد ! فيهب زاديج من رقدته وقد تبين أن زوجته التي همت أن تجدع أنفه أشد غدرا من تلك التي لم تستطع صبرا على ما نذرت من الوفاء

هذا هو تلخيص الدكتور طه لقصة زاديج . وقد رأى بعد أن فرغ من إيراده أن يعلق على القصة بكلمة أو كلمتين فقال :

« وفي هذه القصة شيء من الشرق لأن القصة نفسها شرقية قد ترجمت فيما يقول فولتير لمدام دي بومبادور من العربيـة مع ألف ليلة وليلة ونقلها هو إلى الفرنسية . . . ولكن أمثال هذه النماذج النسائية التي ضمنها فولتير قصصه ليست لهـا من الشرق إلا أيسر الظاهر . فالنساء اللاتي يعرضهن فولتير في هذه القصة غربيات السيرة والتفكير ، يعشن جميعـا في القرن الثامن عشر الفرنسي . وأكبر الظن أن كل واحدة منهن ترمز من بعيد أو من قريب لامرأة عرفها فولتير أو عرف من أمرها القليل أو الكثير » .

* * *

فلما فرغ شقيق الأستاذ الزيات من قراءة هذا المقال لم يعجبه ما قيل فيه من أن القصة عربية . وبعث إلى شقيقه رسالة يقرر فيهـا أنها قصة صينية لأنه قرأ ملخصاً لهـا في كتاب صغير اسمه « حكايات من الصين » وأرسل نسخة من هذا الكتاب إلى شقيقه فعلا . وهكذا ظفرنا نحن القراء بترجمة لهذا الكتاب الصغير . وكان من وفاء المترجم لهذه الظروف السعيدة التي أوقعت تلك « الحكايات » في يده أن عمـد إلى الأقصوصة الصينية الأصيلة التي عنها أخذت قصة فولتير عناصرها لجعلها في صدر مجموعته وجعل عنوانها « قصة تشوانج تزو » .

ونحن نرى إتماماً للفائدة أن نضع هيكل هذه الأقصوصة الصينية إلى جوار أقصوصة فولتير ليتسنى للقارئ أن يقارن بينهما ويستخلص لنفسه ما يشاء .

فقد كان تشوانج هذا رجلا حكيما كتب له أن يكون في الخالدين ، ولم يمنعه من مغادرة أرض الناس هذه ليلحق بالخالدين في دارهم الأخرى إلا حبه الشديد لزوجه الشابة الحسناء التي لم يكن يقوى على التخلي عنها . وفي ذات يوم وهو يسير في سفح بعض الجبال المحيطة بمنزله رأى شابة جميلة يجللها السواد وهي تجلس على قبر حديث مازال ترابه رطبا نديا ، وفي يدها مروحة تُرَوِّح بها على هذا التراب تريد أن تجففه . فدهش الحكيم لعملها وسألها : فيم تصنع ! فأنبأته أن هذا قبر زوجها الحبيب الراحل . وأنه كان لحبه إياها قد أوصاها قبل موته ألا تقترن بغيره قبل أن يجف ثراه . وأنها استعانت بمروحتها هذا الثرى ليجف حتى تكون في حل من الزواج . فأكب الحكيم على القبر يعينها على تجفيفه . ولما فرغ من ذلك قدمت له الأرملة الصغيرة مروحتها تقديراً لصنيعه الجميل . وعاد الحكيم إلى منزله محزوناً وفي يده المروحة . فانهالت عليه زوجه بالأسئلة — كدأب بنات حواء — تريد أن تعرف لمن هي وكيف صارت إليه . فلما أنبأها بنبئها اشمأزت ، وأبدت دهشتها لوجود مثل هذه المرأة الغادرة بين الناس . ولكن تشوانج الحكيم كان أحكم من أن يثق في تلك العواطف التي جاشت بهـا نفس زوجه . وعلى الرغم من أنها قامت إلى المروحة فمزقتها إربا ، وعلى الرغم من أنه كان يعتقد أن جبلة النساء من طينة واحدة ، فإنه رأى أن يعتذر لزوجته من تأثره من صنع تلك الأرملة . وأبدى سروره لما قالته زوجته من أن المرأة الصالحة لن تسمح لنفسها أن تكون لبعل جديد ، وأنه لو قُبض زوجها الحكيم قبلها لظلت مخلصة لذكراه إلى الأبد . . . .

ودارت الأيام دورتها ومرض تشوانج ، وساءت حاله ، فسهرت عليه زوجه لم تغادره ليلا ولا نهارا . وقد أشفقت على الهلاك من تفانيها في خدمته . ولكن جهودها كلها ذهبت أدراج الرياح . ولفظ الحكيم العظيم أنفاسه الأخيرة

بين يديها ، وهي تؤكد له أنها تود لو سمح لها أن تقتل نفسها أمام عينيه ليعرف مبلغ حبها له .

وظل أتباع الحكيم يترددون على داره بعد موته يقدمون لجثمانه احترامهم . وظلت الزوجة على عهدها لا ترى في الدنيا غير آثار هذا الزوج العظيم الراحل . ولا تجد أنساً عند أحد من تلاميذه الذين ملأوا عليها الدار بعد وفاته ، حتى كان اليوم السابع حين أقبل أمير شاب جميل الطلعة قال إنه جاء يلتمس العلم عند الأستاذ الكبير . أما وقد أدركه بعد أن قضى نحبه فإنه سيحيي من أجله (أشهر الحداد الثلاثة) وهو أقل ما ينبغي على المريد نحو معلمه . ثم إنه خلع ثيابه الجميلة المزركشة وارتدى بدلا منها ثيابا خشنة . وبعد أن أدى مراسم الاحترام لجثمان الحكيم أبدى رغبته في مقابلة السيدة ليقدم لها من الاحترام مثل ما قدمه لمعلمه . فأقبلت عليه . فبهرها حسنه وأكبرته وفتنت به . ولما رأته يبحث عن غرفة قريبة من المنزل يحيي فيها (أيام الحداد) عرضت عليه أن يقيم معها في دارها . وهيأت له الغرفة التي تجاور غرفة زوجها التي تضم رفاته العزيز . وكانت بعد أن تقدم إلى جسد زوجها كل صباح شعائر الولاء تعرج على غرفة الأمير فتحدثت إليه مليا . وقد شغفها حباً . وهيج من حبها أنها لم تكن تستشعر منه أنه يبادلها شيئاً مما تحسه نحوه من هذا الحب القوي العنيف . وأخيراً لجأت لخادم الأمير ووعدته بجائزة سنية إذا هو أفلح في توجيه الأمير نحوها وإغرائه بالزواج منها . وشاء الله أن يفلح هذا في سفارته ، وأن يعود إليها مملوء اليد . فاستخفها الطرب وكادت تطير من الفرح . ولكن الأمير كان قد أشار إلى قيام بعض الصعوبات التي قد تعطل هذا الحادث السعيد شهوراً أو أياماً . فمن ذلك أن جثمان الحكيم لم يدفن بعد . وبقاؤه في الغرفة المجاورة يجعله كنذير السوء لهذه الزيجة المباركة إن شاء الله . ومنها أنه إذا قدم ليرى أستاذه دون أن يجول بخاطره أية سانحة عن الزواج ، فمن الصعب عليه أن يواجه الآن مقتضياته . ومنها أن المتوفى كان رجلا ممتازاً على الصفات ، وهو يخشى أن لا تجده السيدة كفؤاً لها حين توازن بين قديمها وحديثها .

فأسرعت امرأة العزيز الراحل إلى تفنيد هذه الأمور : فمن الأمر الأول قالت إنه يوجد منزل صغير خلف منزلها ، ومن السهل نقل الجثة إليه . أما من الأمر الثاني فإنها قالت إن الزواج مادام سيتم في منزلها فعليها هي — لا على الأمير — أن تقوم بتدبير كل شيء . وأما من الأمر الأخير فإنها قالت إنها تريد أن تعلن في صراحة رأيها الحقيقي في زوجها الفقيد فإنه كان في الواقع رجلا سيء الرأي ضعيف التدبير ، وذلك فوق أنه لا ينتمي إلى مثل ذلك البيت العالي الذي ينتمي إليه الأمير .

وفي تلك الليلة بالذات حمل الخادم الجثة إلى مقرها الجديد تمهيداً لإتمام مراسم الزواج . وارتدت الأرملة أملح ثيابها ، وازدانت الدار بكل ما فيها من مصابيح . ونثرت الزهور الجبلية العبقة حول فراش الزوجية ، وأضاءت حوله الشموع المعطرة . ولكن ما كاد يلتئم جمع العروسين حتى حلت بالأمير نوبة مرض خطير تركته طريحاً في الفراش على هيئة الموتى . فدهشت السيدة ولم تدر كيف تواجه هذا الخطب . فأقبل عليها الخادم ينبئها أن مثل هذه النوبة تنتاب الأمير من حين إلى حين ، وأنهم كانوا يعالجونها في بلاده بإعطائه بضعة من مخ إنسان ممزوجة بخمر دافئة . وكانوا هناك يلتمسون تلك الأمخاخ عند من يكون قد صدر الحكم بإعدامهم جزاءً على ما اقترفوه من الجرائم البليغة . أما هنا في وسط الجبال فكيف السبيل إلى العثور على هذا الدواء النادر .

ففكرت السيدة قليلا ثم سألت : ألا يصلح مخ أي رجل للعلاج ؟

فنبأها الخادم بأنه يشترط على الأقل أن لا تكون قد انقضت سبعة أسابيع على وفاة صاحبه .

فقالت فى سرور وفرح : ولماذا إذاً لا نتمتع بمخ شوانج !.

وأسرعت إلى بلطة قوية كانت فى الدار وتناولت شمعة فى يدها . وقصدت إلى النزل الصغير حيث يرقد شوانج ، ووضعت الشمعة على طرف الصندوق . وعمدت إلى طرفه الآخر فانهالت عليه بضربات سريعة حطمت غطاءه . . .

ولكن أمراً مروعاً وقع لها فى تلك اللحظة . . . ذلك أنها رأت شوانج يرفع رأسه من تلك الفجوة وقد وقعت عيناه على عينيها فجعلتها تثبت فى مكانها كأنما دقت فى موضعها ذاك بالمسامير . وبرز الرجل من صندوقه . وسار إلى منزله فتبعته والشمعة فى يدها وهى تلهث من الرعب والخجل . ودخل إلى حيث كان الأمير وتابعه . وما كان أشد دهشة الزوجة إذ لم تجد أحداً منهما . فسُرِّى عنها وأسعفتها بديهتها بإيجاد حل لموقفها على ضوء هـذا الواقع الجديد ، فأقبلت على زوجها تمسح رأسه وتقول له : لقد خيل إلىّ أنى كنت أسمع صوتك ينبعث من صندوقك . والليلة لم أطق صبراً على هذه الحال ، فاحتملت فأسى لأفتح الصندوق ، وما أسعدنى إذ أراك مرة ثانية إلى جانبى !

فقال الرجل : هذا لطف عظيم ! ولكن ما سبب ارتدائك لكل هذه الثياب الجميلة ؟ قالت فى عناد وإصرار وثبات : هذه عادة الناس منذ أزمان إن أرادوا أن يتهيأوا لاستقبال موتاهم إذا أنشروا من جديد .

قال شوانج : ولكن لم أفهم بعد لماذا وضعتنى فى النزل الخلق القديم ؟ أكنت تحدثينى لا أبيت إلا فيه ؟!

وبهتت الزوجة لهذا السؤال . . . وأحست بحركة خلفها فاستدارت فرأت الأمير وخادمه يدخلان الغرفة فى هدوء . فأدركت أن التجربة كانت قاسية وأنها لا تقوى على احتمالها . وأنها افتضحت وانكشف من أمرها ما لا سبيل إلى تغطيته . فخرت على الأرض وباتت ليلتها مريضة . وفاضت روحها قبل الصباح .

أما شوانج فإنه بعد ذلك أشعل النار فى بيته وانطلق عبر الجبال فلم يره بعدها إنسىٌّ . وقيل إنه ذهب إلى أرض الخالدين !

* * *

هذه أقصوصة الصين . وإن الإنسان ليراها جاثمة خلال سطور الأقصوصة الأخرى التى رواها الدكتور طه من فولتير . والتى قال فولتير إنه استقاها من العربية ، فكان هذا القول العابر باعثاً على ظفر العربية بالترجمة الصحيحة لتلك المجموعة الرائعة من « حكايات الصين » .

وبقى أن نقول مع الإعجاب إن مثل هذه النتيجة السعيدة لم تكن لتظفر بها إلا من أخوين يتهاديان الكتب ويناجى أحدهما شقيقه فى خطاباته الخاصة ببحث فى الأدب .

حسن جمول

العادة السرية

يقصد بالعادة السرية التمتع بالشبق الجنسى عن طريق اليد أو حك الفخذين أو بمجرد تخيل طيف المرأة فى محيط التفكير . وهى أوسع الأمراض التناسلية انتشاراً ، حتى ليعتبرها علماء الألمان ظاهرة طبيعية فى جسم الحى ، ويقولون فى سخرية الواقع : إن الشاب أو الرجل الذى ينكر أنه مارسها فى أحد أدوار حياته هو الذى ما زال يصطلى بجحيمها حتى الساعة . وهى لفرط انتشارها بين المريض والسليم وبين العاقل والأبله ، وجهت إليها اتهامات خطيرة ومثّلت ملاقيها بمستشفيات الأمراض العقلية ونزلائها . ولا عجب إذا وجدنا فى تاريخ هؤلاء المرضى إفراطاً فى ممارسة هذه العادة ، فهم والأصحاء سيان فى الانغماس فيها .

وقد تبدأ هذه العادة — التى ألصقت بها صفات القبح والرذيلة والسرية — فى سن الطفولة الأولى عند ما يكون الطفل خالى الذهن من خزعبلات الشهوة الكامنة فى جسمه البض . فقد ينتابه مرض جلدى فى هذا الوضع الحساس فيضطر إلى حكه بأصابعه ، فإذا ما توقف عن الحك بسبب المرض أخذ يداعب أعضاءه التناسلية لقتل الوقت ، فيشعر بلذة يطرب لاكتشافها فيتخذ منها وسيلة لشغل أوقات الفراغ . وقد تبدأ العادة نتيجة لجوء بعض الأمهات أو المربيات إلى مداعبة أعضاء الطفل بقصد تسليته أو إسكاته إذا بكى . وقد يشعر الطفل باللذة للمرة الأولى عند ما يساعده شخص أكبر منه على إخراج عضوه من السروال بقصد التبول ، وهو منظر شائع فى الشارع أو مدارس الأطفال . وهناك عادة شائعة وهى عقاب التلاميذ بضربهم بالعصا على الأليتين ، وهى — لو علم المربون — قد تكون أول ما يجذب الطفل نحو هذا الجزء الحساس من جسمه . وما دام الحديث قد جرنا إلى الجو المدرسى فلا بأس من القول بأن التلميذ قد يتلقى أصول ممارسة العادة من تلاميذ آخرين معه يفوقونه سناً وإدراكاً . وقد لا تبدو على الطفل أعراض غير عادية ، ولكن كلما كان الطفل كبيراً عند إفراطه فى ممارسة العادة بدت عليه بعض الأعراض التى تكشف هويته السرية ، فهو فى الغالب خجول ميال إلى العزلة قد يعتريه صداع متكرر ، يتعب بسرعة ، ويتجنب الاجتماعات ومصاحبة الغير . وقد يتقدمه أستاذه لهدوئه وأدبه غير العاديين ، ويلاحظ فى الكثيرين منهم شحوب وذبول يعزى فى كثير من الأحيان إلى عسر الهضم أو الإجهاد المدرسى .

وغنى عن القول أنه من العبث سؤال التلميذ عما إذا كان يمارس العادة أم لا فهو لا بدّ منكر بشدة ، ولكن على الطبيب إذا لاحظ على التلميذ الأعراض السابقة الذكر أن يفحص أعضاءه التناسلية بدقة عسى أن يجد دليلا موضعياً يشجعه على مواجهة التلميذ بشكه فى لهجة قاطعة لا يرى المجرم الصغير بعدها بدّاً من الاعتراف ، اعتقاداً منه أن الطبيب قد وجد بنفسه الدليل القاطع . ويجب ألا يترفع الطبيب عن التفكير فى علاج العادة السرية اعتماداً على أنها تملكت كل كائن آدمى فى أحد أدوار حياته ، وأنها لا بد أن تشفى دون علاج ، وأنها لا تؤدى إلى العواقب الوخيمة التى يهول لها بعض الناس ، ولكن يجب أن نتذكر أن الإفراط فى ممارستها يهد من قوى الطفل ويحول مجرى تفكيره عن مصالحه الخاصة من قراءة واستذكار ورياضة .

وتسرى قاعدة (الوقاية خير من العلاج) فى حالتنا هذه . فيجب أن نبحث عن وجود حالة موضعية ترغم الطفل على حك أعضائه التناسلية ، كالأمراض الجلدية المصحوبة بهرش ، وديدان الأمعاء ، وضيق مجرى البول الذى قد يستدعى إجراء عملية الختان ، ويجب أيضاً أن نمنع التلميذ الصغير من مصاحبة التلاميذ الكبار حتى لا يتلقن منهم العادة وهو فى سن مبكرة . وينصح علماء

الآن بتعويد التلاميذ وضع أيديهم على الأدراج أثناء الدرس حتى لا نعطى لهم الفرصة للعبث بأعضائهم التناسلية فى غفلة من المعلم ، وكذلك يصممون على ألا يكون لسراويل التلاميذ جيوب جانبية لأنها سبيل هين سهل للوصول إلى مكان اللذة من جسمه فى أى وقت يشاء ، سواء فى المنزل أو الشارع أو المدرسة . ومن أسباب الوقاية أيضاً أن نحسن اختيار المربيات اللاتى نعهد إليهن بأولادنا ، فكثير منهن يلجأن إلى مداعبة الوتر الحساس لتهدئة الطفل وإسكاته . والمعلوم أيضاً أن المثانة الممتلئة بالبول قد تسبب انتصاباً فى العضو الصغير ، لذا يجب أن نعود الطفل على التبول قبل النوم وعقب الاستيقاظ مباشرة . ولا بأس من التحدث إلى الطفل الكبير الذى يدرك مصلحته فى صراحة سهلة قريبة إلى إدراكه وتفكيره ، ومناشدة همته وقوة إرادته بطريقة تكسبنا ثقته وتقنعه بالتخلى عن العادة وهو راض مسرور . ويجب أن نعلم أنه من العبث استخدام شخص لمراقبة الطفل فى حله وترحاله ونهيه عن لمس أعضائه التناسلية فى الوقت المناسب . فالطفل لن يعدم طريقة يرضى بها هوايته فى غفلة من الحارس الأمين . وقد يذكره وجود هذا الحارس دائماً بالغرض الذى يرافقه من أجله ، فيركز همه وتفكيره فى مراوغته ومحاورته ليرضى شهوته على سبيل التحدى ، وكأنه يقول سوف ترى أينا أكثر حيلة أيها الحارس العزيز . وأعرف مثلاً ولداً من عائلة كبيرة جزع أهله لإفراطه فى العادة السرية فعينوا له مربيتين لمراقبته فى الليل والنهار بالتناوب ، فكانتا تلازمانه أينما ذهب ، ولا تتركانه فى خلوة مع نفسه لدرجة أنهما كانتا ترافقانه عند دخول الحمام ، ومع ذلك لم يعدم الولد وسيلة لإرواء غليله فى غفلة من المربيتين الساهرتين . ولا يمنعنا هذا من مراقبة الطفل دون أن يلحظ ذلك ، فإذا رأته أمه وهو يحاول لمس أعضائه التناسلية طلبت منه تأدية أى عمل فى المنزل يشغله وينسيه ما كان على وشك بدئه . وقد يلجأ الطبيب إلى وضع جبائر خشبية أو معدنية عند الفخذين أو الذراعين تمنع الطفل من لمس عضوه التناسلى أو حك الفخذين ببعضهما بغية اللذة . وهنا يجب إفهام الطفل أن الغرض من هذه الجبائر هو معالجة مرض فى ذراعيه أو فخذيه ، لأنه إذا علم أن الغرض منها الحيلولة دون لذته تمادى فى عادته القبيحة عند إزالة الجبائر ، مثله فى ذلك كسجين يستنشق نسيم الحرية بعد سجن طويل . وأجدى من هذا كله تحسين حالته الصحية وشغل فكره بأشياء أخرى كممارسة الألعاب الرياضية وتغيير المناظر والهواء والذهاب إلى شاطىء البحر واقتناء الكتب المصورة والاهتمام بحديقة المنزل .

• • •

أتى على العادة السرية حين من الدهر رميت فيه بأشنع التهم ، ونظر إليها كرذيلة أو عادة قبيحة أو حالة عصبية ، وكانوا يلجأون إلى العقاب الجسمانى والتعذيب ليرغموا فريستها على التخلص منها . ولعل المثل التالى يظهر فى جلاء تام العقلية التى ينظر بها الكثيرون إلى العادة السرية . فقد روى مدير أحد ملاجىء الأحداث فى أمريكا من طريقته لعلاج نزلاء الملجأ الذين يضبطون وهم متلبسون بالجريمة . يقول هذا المدير الحصيف إنه يترك المذنب وحيداً فى زنزانة مظلمة مدة أسبوع ، ويقتصر غذاؤه اليومى خلاله على أكلة واحدة لا تزيد على رغيف وجرعة ماء . ولكنه يعجب من أن الأولاد اللاعبين لا يلبثون أن يعودوا إلى عادتهم القبيحة بعد إطلاق سراحهم بقليل . وهى نتيجة يجب ألا نستغرب حدوثها !

ويميل الأطباء وعلماء النفس إلى الاعتقاد بأن معظم التهم الموجهة إلى العادة السرية مفتعلة ولا أساس لها . ويقول ستيكل — وهو من كبار علماء النفس — إن الكثيرين يلجأون إليها لإرضاء غريزتهم الجنسية خوفاً من الأمراض التناسلية التى قد يصابون بها نتيجة جماع

غير شرعي ، أو قد يدفعهم إليها تمسك بمبادئ الدين القويم التي تحرم الزنا والفسق . فإذا هولنا وبالغنا في مضار العادة السرية اندفع الشباب في تيار من المغامرات قد لا تحمد عقباه ، وقد يؤدي هذا إلى ارتكاب جرائم خلقية ما كان أغنى المجتمع عنها لو تركنا صمام الأمان مفتوحاً .

ويبالغ العلماء في الدفاع عن العادة السرية فيقولون إن الأعراض العصبية التي يقاسي منها بعض الشبان ليست نتيجة العادة نفسها ، بل منشؤها الحقيقي محاولة الحد من ممارستها . فالعادة السرية عند بعض الناس لا يعادلها شيء في الوجود . بل الواقع أنها قد تكون مخرجهم الوحيد من الضيق والكبت النفسي ، فإذا حرموا منها فقدوا كل ما في حياتهم من جمال ، فتضيق الدنيا في عيونهم وقد يدفعهم هذا إلى الانتحار . أي أن الدافع إلى الانتحار ليس ضعف الأعصاب الناتج عن العادة نفسها ، بل الضيق النفسي الناشيء عن محاولة إيقافها !.

والطبيب العاقل هو الذي يتخذ من هؤلاء الشبان مركزاً وسطاً ، فهو ينصح مريضه أحياناً بأن يجد مبرراً في الاتصال بالنساء من آن لآخر في اعتدال واحتراس محذراً إياه من الأمراض السرية ومرشداً إياه إلى طرق الوقاية منها ، كي لا يخرج به من جحيم ليصطلي بآخر أشد خطورة ، أو قد ينصح الطبيب مريضه بالاقتصاد في ممارسة العادة السرية وقصرها على الأوقات التي يشعر فيها باشتداد الشبق الجنسي .

* * *

نعود الآن إلى هذا السؤال الهام : هل العادة السرية مرض عضوي أم هي مرض عصبي مبني على الخيال والأوهام ؟ إن الرد الذي أجمع العلماء عليه أخيراً هو أنها مرض حقيقي منشؤه وجود حالة احتقان مزمن في الجزء الخلفي من قناة البول ، وهذا يسبب حساسية خاصة في العضو التناسلي تؤدي إلى تلبية الدعاء الجنسي بمناسبة ودون مناسبة . وما دامت هذه الحالة الوضعية المرضية موجودة فلا فائدة من علاج مبني على النصح والإرشاد أو التهديد والتقريع والضرب بالعصا . هل رأيت مريضاً مصاباً بداء الجرب اللعين وهل شاهدته وهو يهرش متألماً في الليل والنهار حتى يكاد يدمي منه الجلد ؟ هل أمكنك أن توقف ميله إلى الهرش بالنصح والإرشاد أو التقريع واللوم أو مناشدة قوة إرادته وقدرته على ضبط عواطفه ؟ إنك لن تبلغ به بر الشفاء إلا إذا عالجت الداء نفسه بمختلف العلاجات الوضعية ، وعندها فقط تهدأ حالته ويحسن يومه ونومه ويدعو لك بالخير وحسن المآل . كذلك الحال في العادة السرية ، فلا تنتظر أية فائدة من العلاج الكلامي ولا تستجدي عطف المريض ومعاونته ، فنحن لسنا في حاجة إليهما . وهل نطلب معاونته أو عطفه إذا عالجنا كسراً في إحدى عظامه أو فتحنا بطنه لإزالة المصران الأعور الملتهب أو وصفنا له دواء لحالة جرب شديدة ومؤلمة ؟ إننا أمام حالة مرضية يعالجها الطبيب دون أن يبالي بمناشدة عطف المريض ، والعادة السرية تتسبب عن وجود احتقان مزمن وحساسية في الجزء الخلفي من قناة البول — وهو الجزء الذي يخترق غدة البروستاتا قبل أن ينتهي في المثانة البولية . فالطفل عند ما يداعب عضوه التناسلي للمرة الأولى ينبه مركزاً خاصاً في المخ سرعان ما يرسل إشارات خاصة إلى عضو الذكر الذي سرعان ما يتوتر نتيجة احتقان حاد في أوعيته الدموية ، فيحتقن معه الجزء الخلفي من قناة البول ، وبتكرار العملية على مر الأيام والشهور والأعوام تنشأ حالة احتقان وحساسية مزمنة في القناة البولية الخلفية فينتقل إليها مركز القيادة وتصبح سيدة الموقف ، ترسل إشاراتها إلى المخ حيثما تشاء ، فيجد المريض نفسه في حاجة ملحة إلى العبث بعضوه المنتصب رغم أنفه ، ولا يكسر من حدة الموقف إلا تقهقره واستسلامه .

(للحديث بقية) دكتور مصطفى الديواني

رد على نقد :

حول كتاب دمشق القديمة

سيدى الأستاذ العلامة أحمد أمين بك .

قرأت فى العدد ٣٩٤ من الثقافة نقداً لكتابى « دمشق القديمة » بقلم السيد عدنان الخطيب .

ولقد دهشتُ يا سيدى الأستاذ لجرأة هذا الشاب ، وخوضه فيما لا يحسنه ، وإقدامه على التعريف بكتاب فى الاقتصاد ، ونقده كتاباً فى الآثار القديمة ، وكل منهما فى علم بعيد عن الآخر البعد الواسع . والنقد لا يُسمع ويوثق به إلا إذا صدر عن أهله من العلماء ، ذوى الاختصاص ، المشهود لهم بسعة الاطلاع وجودة التمييز والفضل . ولم يُعرف أن السيد عدنان كان يوماً اقتصادياً كبيراً يفهم شؤون الاقتصاد ، أو آثارياً مُطلعاً ينقد كتب الآثار . اللهم إلا أن يصبح اقتصادياً كل من قرأ رسالة فى الاقتصاد ، أو آثارياً كل من قرأ رسالة فى الآثار .

وأنا أعلم أن من يريد التصدر للنقد العلمى الصحيح ، يجب أن يستكمل شرائطه ، ولعلّ أولها فهم الموضوع الذى ينقد فيه ، والإحاطة به إحاطة واسعة ، ومعرفة المصادر ومظانها ، وحسن النية ، والبعد عن الغمز الذى يرغب فيه العوام . ولقد ظهر لى من كلام السيد عدنان أنه ليس بذى اطلاع على الموضوع الذى ألفتُ فيه ، ولا على مصادره ، وأنه عمد إلى الغمز الذى كنت أود أن يتعالى عنه ، وهو المهذب .

وها أنذا أبين أوهامه وسوء نيته .

قلتُ إن كتابى يجمع بين التاريخ والفن . ففهم من الفن (إتقان الطبع والإخراج) وهذا فهم عامى . ويؤسفنى أن يفهم هذا من ينقد كتب الآثار . فكتابى يبحث فى (الأركيولوجى) ، ولابد فى هذا من أن يجتمع إلى المعلومات التاريخية ، الرسوم والتخطيطات الهندسية الفنية ، وهذا ما أردته عند ما قلت : (يجمع بين التاريخ والفن) وهذا ما يفهمه كل من له إلمام بموضوعنا ، ولا يحتاج إلى شرح إلا لمن كان بعيداً عنه .

وأنا لم أذكر فى حواشى الكتاب أى مصدر ، بل سردتُ المصادر كلها فى أول الكتاب . ومع ذلك فهو يسألنى عن مصدر (باب السلامة) وهذا من أعجب العجب ، ينقدنى وهو لا يعرف مصدر تسمية هذا الباب ! ولو أنه كان قد قرأ الجزء الأول من مهذب ابن عساكر ، أو نزهة الأنام للبدرى ، لعلم أن هذا الباب هو (باب السلامة) ، وأنه لم يُسَمّ (باب السلام) إلا فى القرنين الماضيين .

أما ذكرى باب السلامة ، وباب السلام ، فما فيه جناية ، ولا يستدعى الهذر الطويل ، مادام الاسمان يستعملان .

ولو أن السيد عدنان ، عرف تاريخ بلده ، وتتبع حوادث دمشق زمن الفتح ، وأحصى ما فيها من كنائس وما استجد فيها من مساجد ، وعرف الكنائس التى كانت على أبواب المدينة ، وكيف أصبحت ، فيما بعد ، مساجد ، لما علق على ذلك . وأنا أعذره ، فلا خبرة له فى هذا الموضوع .

ولو أنه قرأ ابن عساكر أيضاً ، أو البدرى — ولا أذكر غيرهما — لفهم معنى كلمة الباشورة . هذه الكلمة الفنية المختصة بالسويقة التى تكون أمام باب السور . وهذه الكلمة لا يبحث عن معناها فى القاموس ، بل فى الكتب الخاصة بها . وقد كنتُ أحسب أن معناها واضح فى كتابى يفهمه من أوتى ذكاءً متوسطاً . على أنى أشكر له ملاحظته وجوب شرح هذه الكلمة ، فقد فطنت إلى أن فى الناس ناساً يجب أن تشرح لهم كل شىء

كما تفعل التلاميذ الدارس .

ولقد ذكرت اسم ماكن البرج ، ليهتدى إليه من أراد زيارته ، لأنه اتخذ داراً ، وصدقه لا يدل على أنه هو البرج . أفلق وصحت وذكرت اسم ساكنه كان فى ذلك خطأ ، واتخذه سبيلاً لهذر لا يفهم ؟ اللهم إلا أن تصبح الحسنات عند هذا الشاب سيئات .

ثم ختم نقده بنقل فقرة من نقد السيد جعفر الحسنى مدير المتحف السابق ، النص ورد فى كتابى وأراد تصحيحه . ولقد كنت أحسب أن السيد جعفر عند ما تصدى لتصحيح النص كان قد أعد للأمر عدته . فرأيته يصحح تصحيح من لم يعان قط تصحيح النصوص وله العذر . فلقد ظل مديراً للمتحف خمسة وعشرين عاماً ، ولم يعرف أنه صحح طوال هذه السنين كتاباً قديماً ، ولا ألف كتاباً جديداً . فقد وردت فى مستدرك كتابى جملة هى (إن السيل حل رجاً صحيحاً ومعه فى جانبيه مدينتين) ، فقال السيد جعفر : إن الصواب أن تكون (... ومعه فى جانبيه مأذنتين !) وما أدرى كيف تخيل رجاً يكون على جبينه مئذنة وعلى شماله مئذنة ؟ . ثم أقره السيد عدنان على تصويبه هذا ، وأضاف (ويظهر أن الأستاذ النجيد عند ما نقل هذا النص من المؤلفات الأجنبية توهم أن المئذنة مدينة لأن المؤلف الأجنبى دونها بحروف لغته كما ينطقها العامة عندنا غير مهموزة وبذال مهملة) . وهذا كلام فيه جهل . وأترفع عن نعته بما يستحق . ولقد أراد الطعن ، فرُدّ الطعن إليه وظهر أنه كالسيد جعفر الحسنى فى عدم فهم النص . فالنص عربى قديم ، منقول من كتب عربية ، لا أجنبية ؛ ورد فى (البداية والنهاية) وورد فى (مختصر تاريخ الإسلام) وقد ورد سهواً فى كتابى ، ولا علاقة له بموضوعى ، وله قصة غريبة لا أحب القراء فى سردها . وقد وقع خطأ مطبعى فى الكلمة التى صححها السيد جعفر فجعلها (مأذنتين) وصواب الجملة أن تكون (إن السيل حل رجاً صحيحاً ، وحمل معه فى جانبيه بَدَنَتين) فـ (بدنتين) هى الصحيحة ، لا (مدينتين) المغلوطة مطبعياً ، ولا (مأذنتين) المصححة من السيد جعفر الحسنى . فلو عرف السيد عدنان هذا لما أسف فيما قال ، ولو رجع المصحح الحسنى إلى هذه المصادر لما جعل (البدنة) ، (مئذنة) . وخاصة أن (البدنة) معروفة عند من قرأ ما يتعلق بالزيارة العربية ، وبعلم الآثار الإسلامية .

وبعد ، فإنى أدع لك يا سيدى الأستاذ ، وأنت الحكم المنصف ، أن تحكم على نقد أبان فيه صاحبه أنه ليس من أهل العلم الذى ينقد فيه ، وأنه ينقد على غير اطلاع ، ثم يتحامل ويتهجم .

وإنى لآسف أن ينحط النقد إلى هذه الدركة ، وأن تفتح له المجلات الرصينة صفحاتها .

إن النقد الصحيح العلمى ، الذى يهدف الفائدة والحقيقة ، مركب صعب . وخير لكل ناقد أن يتريث فيما ينقد ، وأن يسأل ويتعلم قبل أن يكتب . فما فى ذلك عيب ، إنما العيب أن يكتب الناقد من غير اطلاع فيفتضح أمره ويحتقر .

وإذا كان السيد عدنان يشتهى أن ينال الشهرة بالطعن على ، فليطعن ما شاء له الطعن بعد اليوم ، وليشتهر بين الناس بما يستحق .

رحم الله رجلاً عرف قدر نفسه فوقف عنده .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

بغداد (لبنان)

صموع الدرب المجيد

(الثقافة) هذا آخر ما ننشر فى هذا الباب . ولعل النقاد يترفعون من لغة السباب والمقهورين يترفعون من ضيق الصدور .

هذا الشعر بعد شوقي

لعل أقرب الموازين إلى الصواب في تقدير قيم الأشياء هذا الفراغ الذي نحسه عند فقدها .

وقد تستطيع إلى حد أن تعالج أثر هذا الفقدان بما تلتمسه من وسائل آنية ، تحاول بها أن تسد هذا الفراغ . ولكنك لا تستطيع بحال أن تشغله ، وكل محاولة تعلل بها النفس — أو بالأحرى تضللها — هي في الحقيقة نداء صارخ بأن مكان المفقود لا يزال شاغراً .

كم من الأعوام مضى بعد وفاة شوقي ؟

ثلاثة عشر عاماً أو تزيد .

وكم مضى من أحداث العالم بوجه عام ، والشرق العربي بوجه خاص ؟

أظنها تزيد على عدد السنين :

إيطاليا تغير على الحبشة على مرأى من الدول الديمقراطية

والحرب الأهلية الإسبانية تأكل أبناء البلاد كما تأكل النار الهشيم .

والخلاف يبلغ أشده بين عاهلي الجزيرة العربية وتوشك الحرب أن يتطاير شررها ، لولا سعي مشكور في حقن الدماء .

ومؤتمر المائدة المستديرة يعقد في لندن لحل مشكلة فلسطين — هذا البلد المعذب — ويحضره الساسة من زعماء العرب .

ويجلس الفاروق على عرش آبائه في صبح العمر ، تحفه قلوب أمة ، وتنعقد حوله آمالها .

ويلمع نجم النازية والفاشية في أوربا حينا من الزمن ثم يأفل بعد حرب عوان ، فإذا هتلر مقتول بيده والدوتشي معلق من قدمه ، ورأسه ملتصق بالرغام والأقدام تركله حتى تتحطم أسنانه ويتقنع وجهه .

وتحاول فرنسا أن تحنث في عهدها للقطر الشقيق فتلق بالزعماء في أعماق السجون ثم يكتب له النصر ولها الجلاء .

وتنتهي الحرب العالمية الثانية فتهوى معها تيجان لبعض الممالك الغربية من جباه ملوكها .

وأخيراً دولة (القنبلة) هذه التي أصبحت حديث العالم .

كثير وكثير من الحوادث .

وكم من الشعراء أرخ لهذه الحوادث ؟

لا أحد .

والسؤال الذي يسبق إلى الذهن :

لو كان شوقي حياً أكان يترك هذه الحوادث تمضي دون أن يؤرخ لها ، ودون أن يأسو جراح العرب في مآسيها ، ويهز جوانحها بالرقيع الخالد في بشائرها ؟

إن الجواب يعرفه كل عربي

وسنفترق — أنا وأنت منذ الآن — إذا قلت إن بعض هذه الحوادث قد أرخ لها الشعراء . فإنما أردت — أيدك الله — هذا التأريخ الذي يكتب له الخلود ، فيشرف الحادث به ، ويعرف من طريقه ، فيصبح تابعاً له ، كأنما تأخر الحادث عنه في الوجود .

لم يستطع الشعر أن يؤرخ لآمال الشرق وآلامه بعد شوقي . ولقد تضاءل الشعراء في ذلك واضمحلوا ، حتى أصبحوا أجدر بالرحمة والعطف منهم باللوم على التقصير .

وهل أبعث على الرحمة بهم من أن يلتمس الناس شعراً يسمعونه في دمشق حين رماها الفرنسيون أخيرا بقنابل طائراتهم فلا يجد الملتمسون غير قصيدة قالها شوقي حين رموها منذ أكثر من عشرين سنة .

ومع ما في القصيدة من روعة فنية — حتى لتعتبر أثراً من آثار شوقي الخالدة — فإنها لا تصلح في هذا الظرف من ناحية الشكل السياسي أو الشعور القومي وإن صلحت موضوعاً .

وإذا كان الشاعر قد حشد لها ألواناً زاهية من الفن الرفيع ، فإنه لم يتجاز في نفس الوقت أن يرجى اللوم رفيقاً إلى الفرنسيين حتى ليوشك أن يكون عتاباً ، وأن يبصرهم بسياسة الشعوب ، ويذكرهم بهذه الحرية التي بذلوا من أجلها الفداء في ثورتهم .

وهذه معان — وإن منحها شوقي الفنان روعة في التصوير ، وعبقرية في الأداء — فإنها هادئة فاترة في الحادث الأخير ، ينقصها حماسة الوعيد ، وإذكاء الهمم لاستكمال الاستقلال ، والحث على دفع العدوان . وهذا ما يدعو إليه الوضع السياسي والشعور القومي في سورية بعد الحرب الثانية .

لم يعد الجمهور العربي يرهف أذنه للشعر في حماسة بعد شوقي ؛ وليس مرد ذلك إلى انصرافه عن مطالعة هذا اللون من الفنون ، ولكنه فقد الثقة بالشعراء — أو على الأقل ضعفها — قد حمله على هذا الانصراف . ومن المؤكد أنه أصغى بعد شوقي لما عسى يقول الشعراء ، وكان هذا الإصغاء يقويه حسن النية ويحدوه الأمل في العثور على شوقي جديد ، ولكنه عاد بشيء من اليأس — إن لم يكن اليأس كله — في العثور على شوقيه المنشود .

ومع هذا فإني أعرف لبعض الشعراء مخايل أو لمحات تبدو بين الحين والحين ، يشارفون فيها سمات الشعر الذي ننشده ، وتلمع ديباجتهم أحياناً بإشراقة واضحة ، يقربون فيها من عمود الشعر العربي .

ومع أن هذه الديباجة المشرقة لم تخل من جهد الصناعة ، وعنت التكلف الذي يقطع الصلة بينها وبين الطبع الأصيل ، فإن الجمهور العربي قد كان على استعداد للاغضاء عن ذلك لو أنهم أظهروا تقدماً في مناح أخرى تتصل بالقيم الفنية التي يتألف منها الشعر الممتاز .

ولكن معانيهم بقيت كما هي مألوفة محلة ، وعمد هذا الفريق من الشعراء إلى عناصر من الصور وجدوها موضوعة في رفوف التاريخ ، فأخذوا يؤلفون كل خيال من مجموعته المرصوفة على طريقة رتيبة مملة ، ولم يفكروا في الافتنان أو التغيير ، ولم يفكروا حتى في محاولة تغيير المواضع التي تشغلها هذه العناصر في تأليف الصورة ، فجاء خيالهم مطبوعاً بطابع الفتور ، موسوماً بالكسل المعيب .

الديباجة تفترّ أحياناً عن إشراقة عربية تظهر حيناً وتختفي أحياناً ، والمعنى ضحل ساذج قريب ، والخيال رتيب قديم محفوظ .

هذه هي سمات الشعر عند طائفة قليلة من الشعراء بعد شوقي ، وهي الطائفة التي كان يرجو العرب أن يجدوا شوقياً آخر من بينها . وقد مضى بعض الزمن — وأظن أن الكثير منه سيمضي — دون أن تحقق هذه الأمنية .

ولا أحب أن يفهم من حديث المعاني (الضحلة) أن الشعر الممتاز يجب أن تكون الفلسفة بعض أدواته ، فإن ذلك على التحقيق يفسده ، ويباعد بينه وبين الفن ، ذلك الذي يجب أن نفهمه بقلوبنا أكثر مما نفهمه بعقولنا .

وإنما أريد هذه المعاني الفطرية المتصلة بكل نفس بشرية دون أن يكون للصناعة أثر في تحويرها ، أو وضع عناصرها على ترتيب آخر يغاير صورتها الأصيلة — التي خلقت عليها في أعماق النفوس .

وليس من الصواب أن نظن أن هذه المعاني الفطرية التي تشترك في حملها كل نفس — مثقفة كانت أو غير مثقفة — ستكون ساذجة قريبة التناول ، وبالتالي لا يكتب لها الإعجاب لأنها في متناول كل إنسان ، وتحت يد كل طالب .

والصواب أن فطرية هذه المعاني هي سبب روعتها وسر الإعجاب بها ، حتى ولو اشتركت في حملها كل النفوس ، ومن المحال أن تصف شيئاً بالحسن إذا خالف فطرة أصيلة ركبت في نفسك .

والصواب أيضاً أن هذه المعاني على فطرتها وسذاجتها واشتراك النفوس في حلمها — ليست في متناول كل إنسان ، ولا تحت يد كل طالب . وهنا تظهر موهبة الفنان — تلك الموهبة التي لابد له منها — في التماس هذه المعاني والتقاطها من هذا البحر الزاخر الذي تسبح فيه في حنايا النفس .

وهنا فقط سر الإعجاب بها والاهتزاز لها ، لأنها جمعت بين شيئين : وأعني بهما الألفة الحبيبة إلى النفوس ، تلك الألفة التي تحاولها الفطرة ، وبين المهارة في انفراد الفنان وحده بالتنقيب عنها والعثور عليها .

وقد كنت سمعت شعراً للأخطل الصغير في حفل حشد له شعراء الأقطار العربية لرثاء شوقي ، فسمعت شعراً رائعاً جميلا .

أما اللفظ فقد كان لايعدله عندي غير وسوسة الحلي في أيدي المترفات من الحسان . وأناقة اللفظ وترفه — إن صح هذا التعبير — شيء بلغ الغاية منه شاعر لبنان .

أما المعنى وتأليف الصور الفنية في بناء الخيال فإني لا أعرف في الشعر العربي على الإطلاق أروع ولا أجمل من ذلك ، ولا يطمع الفن العربي في أكثر من هذا .

امتاز بشارة الخوري في هذه القصيدة بالخلق الفني الرائع من ألفها إلى يائها ، ولم يحاول أن يقرضه الشعر العربي شيئاً من معانيها أو أخيلتها لجاءت آية رائعة .

وقد كنت لم أقرأ كثيراً لهـذا الشاعر قبل هذه القصيدة ، فراجعت شيئاً مما قال ، وأصغيت إلى شيء مما يقول ، فماذا رأيت ؟

رأيت أن الترف لم يفارق لفظه . أما المعنى وتأليف الخيال فغاية مايدركه الشاعر فيهما مرتبة الجودة أحياناً ، والامتياز حيناً — إذا قارنته بشعراء عصره — ولكنه بعد لايشغل هذا المكان الذي تركه شوقي ، ولا ينهض لحمل اللواء كشاعر جيل .

يبدو لي أن هذا المكان الذي تركه شوقي — وإن شئت قسمته إمارة الشعر — لايخضع لظروف الجيل ، ولا يريد أن يؤمن بأن للشعراء طاقة فنية تقف عندها قدرتهم على الخلق والإبداع .

إن هذا المكان الذي خلفه شوقي — ولم يشغله شاعر بعده — أشبه ما يكون بقمة الجبل ؛ فمن استطاع من الرواد أن يبلغها فإنه سيشرف على المتسلقين بصخوره ، وعلى من لايزالون في السفح أو بطن الوادي ، وقد يعجز الرواد جميعا عن بلوغ هذه القمة ، فتنتهي الرحلة دون أن يكتب لأحدهم هذا السبق ، وإن شئت فقل : ينتهي الجيل دون أن يدرك شاعر فيه هذه الغاية .

كنت لم أفرغ من كتابة هذه الكلمة ، فوقع لي مجلة أسبوعية جعلت موضوع حديثها (البحث عن شيء) ، ورأيت أن الوزير الشاعر معالي الأستاذ ابراهيم دسوقي أباظه باشا يبحث عن قصيدة فلا يجدها ، فقلت : اقتربنا . ولكنه لم يلبث حتى أفضى بذات نفسه ، فإذا به في نهاية الحديث يبحث عن شوقي ، ولم يفته أن يمسح على رؤوس الشعراء قبل أن يلقي إليهم بهذا التصريح .

أربع لم تتهيأ لشاعر غير شوقي ، استطاع بها أن يكون السابق المقدم في حياته وبعد وفاته : العبقرية — أو القدرة على الخلق الفني — . ورحابة صدر ساعدته على امتداد نفسه في القريض مع الاحتفاظ بنفس القوة التي بدأ بها الشوط الأول من القصيدة . وشعور دائم الاتصال بالعالم بوجه عام والشرق العربي بوجه خاص . وثقافة واسعة استوعبت نتاج الشرق والغرب في صورة كاملة .

الخلق الفني هو سر الخلود . وقد يظفر الأديب غير الخالق بأن يصغي إليه فريق من الجمهور ، ولكن عليه أن يوطن النفس على أن التاريخ لن يصغي له بحال .

(للحديث بقية) علي شرف الدين

بمناسبة الاحتفال بمرور عام على إعلان قيام :

الجمهورية الأندونيسية

إن هذا الشهر ومثله من كل عام لشهر العسل عند الأندونيسيين ، بل عند عشاق الحرية في العالم بأسره ؛ فيوم النصر الحقيق الذي يجب أن نحتفل به هو يوم يتحرر فيه كل شعب من شعوب العالم من قيود الاستعباد والاستعمار ، يوم الاحتفال هو يوم لقاء العاشق عشيقته ، يوم اقتران كل شعب بحريته واستقلاله .

فالإندونيسيون — وقد يشاركهم الآخرون من أنصار الحرية — يحتفلون الآن ، لأنه في مثل هذا الشهر من العام المنصرم شاء القدر أن كانت اليابان — تلك الدولة القوية التي سبق أن صرح رئيس وزرائها الجنرال توجو بأنه سيملي شروط الصلح في واشنطون — قد رُوِّعت عقب إلقاء القنبلة الذرية على مدينتي «هيروشيما» و «نجاساكي» وهما من مدنها الكبرى الصناعية ، فذبلت روح اليابانيين المعنوية ذبول الزهرة الناضرة عند ما تدهمها أشعة الشمس المشرقة ، فانحنت اليابان على ركبتيها استسلاماً للحلفاء ، وتنفس الإندونيسيون الصعداء حيث سنحت لهم الفرصة للوثوب على الحكام اليابانيين والتحرر من حكمهم القاسي والتخلص من سيطرتهم المتسلطة التي ذاقوها مدة ثلاث سنوات ونصف سنة . وانتهزوا تلك الفرصة ووثبوا على كل حاكم ياباني في كل بلد من بلدان إندونيسيا ، حيث قامت وقتئذ ثورة عامة مشتعلة من أقصى البلاد إلى أقصاها ، ونشبت معركة عنيفة بين الإندونيسيين وبين القوات اليابانية القوية التي سبقت أن طردت قوات الحلفاء من سنغافورة ومن سائر تلك الجزائر في بداية الحرب ، والتي لا تزال إلى ذلك الوقت قوية جبارة ، لا تستطيع قوات الحلفاء في بورما وفي أستراليا وفي المحيط الهادي أن تخترقها وأن تتغلب عليها . ولكن قوة العقيدة الوطنية المتغلغلة في نفوس الأندونيسيين ساعدتهم وأمدتهم بالحيلة والقوة حتى تغلبوا على قوات اليابان وانتزعوا السلطة من الحكام اليابانيين وأسروا رجالهم وجنودهم . ثم أعلن الإندونيسيون على الملأ بلسان قائدهم المجاهد الكبير الدكتور أحمد سوكارنو وزعيمهم المجاهد المفكر الدكتور محمد حتى — استقلال بلادهم أندونيسيا وقيام الحكومة الجمهورية في ربوعها .

أظن بل أعتقد أنه لم يكن قراء هذه المجلة إلا من عشاق الحرية ، لذلك أحادثهم بهذه المناسبة — وما ألذ حديث العشاق فيما بينهم — عن مقومات الجمهورية الإندونيسية الفتية .

أم مقومات الدولة هي شخصيتها . وبالأحرى أن مقومات حياة دولة من الدول هي التي تكوّن شخصيتها وهي التي تتجسم فيها .

الدولة كما لأي فرد من بني الإنسان شخصية ، لأن الدولة ما هي إلا عبارة عن مجموعة أفراد من الناس يعيشون في أرض معينة لها حدود تربطهم وحدة التقاليد والعادات واللغة ، وتوحدهم مصلحة مشتركة ، ويتألمون لأحزان متشابهة ويتغنون بآمال وأماني واحدة ، ويستهدفون في حياتهم الجماعية غاية واحدة تحت نظم سياسية موحدة .

وكما أن شخصية الإنسان تتوقف على ماضيه وتظهر في قدرته على فهم الماضي وعلى إدراك ما قصد من الحاضر ، وفي كفايته في تخطيط ما المستقبل من غايات وأهداف ، فكذلك شخصية الدولة ؛ إذ أن شخصية الدولة لا يمكن أن تتكون فجأة ، وليس من المعقول أنها تنشأ مصادفة وعفواً ، لأن حياة الدولة الحاضرة ما هي إلا امتداد لحياتها الماضية ، وحياتها الحاضرة هي أساس مستقبلها ؛ فلابد لنا إذاً عند الكلام عن شخصية هذه الجمهورية الإندونيسية الفتية من أن ننظر إلى الوراء وأن نتتبع صفحات تاريخ هذا الشعب الأندونيسي .

كما أن تاريخ أمة من الأمم أو شعب من الشعوب طويل متشعب، كذلك تاريخ الأمة الاندونيسية. فتاريخها لا ينحصر في تاريخ مملكة واحدة ولا في تاريخ جزيرة واحدة، وإنما هو تاريخ عدة ممالك تربط بعضها ببعض وحدة الدم والعادات والتقاليد، و تشتمل على بضع مئات من الجزائر المبعثرة بين آسيا وأستراليا وبين المحيطين الهادي والهندي، توحدها وحدة الإقليم والجو والموقع الجغرافي؛ فلا يمكن أن نجد في تاريخ هذه البلاد حداً فاصلا بين مرحلة وأخرى أو بين عصر وآخر؛ وإنما نذكر تطورات الحوادث المتتابعة ونذكر الأعمال الجسام المتتالية التي حدثت في ربوع هذه البلاد يتسنى لنا الكلام على تاريخ الشعب الاندونيسي، وتتضح لنا بتتبع هذه الحوادث التاريخية شخصية الجمهورية الإندونيسية الفتية.

١ — تسرب حضارة الصين القديمة إلى إندونيسيا: منذ ألفين أو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد قامت في الصين حضارة عظيمة كانت تناوىء حضارة الإغريق القديمة وحضارة مصر الفرعونية؛ ومنذ ذلك الوقت كان الصينيون قد زحفوا شيئاً فشيئاً إلى الجنوب وزحزحوا سكان الهند الصينية حتى اضطروهم إلى الخروج من بلادهم الأصلية والهجرة إلى تلك الجزائر المبعثرة بين المحيطين الهادي والهندي حاملين معهم بذور تلك الحضارة الصينية، فزرعوها في أراضي تلك الجزائر الخصبة، حتى نمت وتكونت فيها عدة دويلات قديمة عاشت مدة طويلة ينافس بعضها بعضا، ثم جاء بعد ذلك الصينيون أنفسهم إلى إندونيسيا، وبمجىء هؤلاء الصينيين القدماء، جاءت معهم الديانة الكونفوشيوسية التي ظهرت في الصين منذ بضعة قرون قبل الميلاد، وانتشرت هذه الديانة في إندونيسيا، ولا تزال آثارها موجودة إلى اليوم في بعض أجزاء هذه البلاد.

٢ — تسرب الحضارة الهندية القديمة إلى إندونيسيا: إن معظم حضارات الأمم القديمة لم تكن حضارة مادية كحضارة أوربا الحديثة، وإنما هي حضارة أومدنية تتركز أو تقوم على أساس اعتقادات تؤمن وتتمسك بها تلك الأمة، حتى يبلغ إيمان هؤلاء الناس بها مبلغ الدين، وكانوا لا يقدمون على تنفيذ أي عمل إلا بدافع من ذلك الدين؛ فحضارتهم كانت خادمة الدين وخاضعة لسلطته، حيث لا نجد أوضاع حياتهم السياسية والاجتماعية إلا وقد نسجت بخيوط تلك الديانة، فتظهر حضارتهم بمظهر ديني وتبقى آثار حضارتهم ذكرى خالدة لتلك الديانة.

فحضارة الهند القديمة كانت تتركز أو تظهر في الديانتين العظيمتين: وهما الديانة البراهمية والديانة البوذية. وقد وصلت الديانة البراهمية إلى اندونيسيا منذ مدة طويلة قبل الميلاد، فوصولها اليها يعاصر مجيء الديانة الكونفوشيوسية إليها. وقد انتشرت الديانة البراهمية في إندونيسيا حيث أقبل الاندونيسيون عليها إقبالا شديداً، بل كانوا يتسابقون إلى التمسك بها والقيام بنشرها كما يتسابقون أيضا في تولي الحكم في البلاد، أي في إقامة الدويلات وفي تقويتها، ويتنافسون في إظهار شجاعتهم وشكيمتهم في الجيش أو يتبارون في إتقان مختلف الحرف ويتنافسون في ترقية تجارتهم وفي ترويجها وتوسيعها. ولم يكن لهم من الدوافع إلى تلك المنافسة وإلى تلك المسابقات والمباريات بل إلى خوض ذلك التطاحن في الحياة إلا دافع واحد، ألا وهو محاولتهم المستمرة في الوصول والترقي من درجة في المجتمع إلى درجة أخرى أعلى مما كانوا فيها؛ وذلك لأن الناس في الديانة البراهمية ينقسمون إلى أربع طبقات: أولاها وهي أعلى الطبقات في المجتمع، طبقة «البراهما» وهي طبقة الرهبان وعلماء الدين. وتليها الطبقة الأرستقراطية وهي طبقة الحكام والجيش ويسمونها طبقة «كشاتريا» Kchattriya. والثالثة طبقة «ويشا» وهي طبقة التجار وأهل الحرف. والأخيرة وهي أدناها مرتبة، طبقة «سودرا» وهي طبقة عامة الشعب من الذين لا ينتمون إلى إحدى

الطبقات الثلاث الأولى ، فهى طبقة الفقراء والبؤساء فى الحياة .

فنظرية وجود الطبقات فى المجتمع التى جاءت بها تلك الديانة البراهمية كانت ترشد الاندونيسيين إلى التمسك بالحكمة والزهد والاتزان ، وتحضهم على إظهار البسالة والشجاعة فى الجيش ، وتدفعهم بل وتحمسهم إلى النضال والكفاح ، وتحثهم على خوض معركة التطاحن فى الحياة ؛ ويظهر من تلك الحركة أن البقاء للأصلح والرقى لأصحاب الكفاءة والمقدرة .

(الكلام بقية) فهد العربي برنس

كتب ومؤلفون من سورية :

نقد وتعريف

١ — يقظة العرب

تعريب على حيدر الركابى

دمشق مطبعة الترقى ١٩٤٦ صفحة ٤٦٤

كان جورج أنطونيوس ، مؤلف كتاب « يقظة العرب » ، كما يصفه عبد الرحمن عزام باشا : « رجلا عربياً فاضلا خبيراً بالمسائل العربية والإنكليزية » ، وهو قد نشأ ، كما يقول معرب كتابه : « فى أحضان القضية العربية وهى تجتاز أدق مراحلها ، ثم رافقها واختلط بقادتها المعروفين والمجهولين ، ودرس أحوالها من أمام الستار ومن ورائه ، وكان إلى جانب ذلك مثقفاً ثقافة إنكليزية ممتازة » .

هذا هو مؤلف « يقظة العرب » الكتاب الذى أحدث عقب صدوره سنة ١٩٣٨ فى الأوساط العربية والإنكليزية واليهودية ضجة كبرى ، اختلفت دوافعها باختلاف وجهات النظر إلى القضية العربية . أما على حيدر الركابى ، الذى قام بتعريب كتاب أنطونيوس ، فهو فى طليعة الشباب السورى ثقافة عالية ، وأخلاقاً سامية ، ترك أطيب الأثر فى مدارس العراق وعند تلامذته فيها ، يوم عاد إلى سورية ليخدمها فى عهدها الجديد ، فإذا بنجمه يلمع فى وزارة الخارجية منذ تأسيسها إلى أشهر خلت ، إذ استحال عليه العمل فيها وكركن من أركانها ، فتركها وحمل نفسه رسالة « الجيل العربى الحديث » فى صحيفة يومية أخذ يصدرها بدمشق ، وهو يناضل اليوم فى خضم من الصحف التى تصدر فى سورية ليثبت للناس قدرته على حمل الرسالة التى ندب نفسه لها راضياً مختاراً .

إن كتاب « يقظة العرب » سجل موجز لتاريخ الحركة العربية ، ومؤلفه يرمى به كما يذكر لنا فى أول فقرة من مقدمته : « إلى رسم الخطوط الكبرى لأصول تلك الحركة ونموها ، والمشاكل الرئيسية التى جابهتها ، وذلك بعرض متصل للوقائع يتخلله شىء من التحليل » ، وأنا أعتقد أن الأستاذ الركابى أسدى بعمله إلى المكتبة العربية خدمة خالدة ؛ لأن القضية العربية ، على خطورة شأنها ، لم تؤرخ حتى اليوم التأريخ الكامل ؛ ومما يجعل لهذا الكتاب قيمة كبرى أنه جمع بين آراء رجالات العرب وبين آراء رجال الغرب فى الحركة العربية ، مما لم يسبق لأحد من مؤرخى القضية العربية أن وفق لمثله .

هذا وإنى ما كدت أنتهى من قراءة الكتاب حتى أخذت أشعر بشعور مؤلفه الذى ، على حد تعبيره ، كان يحس (أن ميزة الكتاب الوحيدة ، هى فى أنه حوى بعض المعلومات التى لم تكن معروفة لدى الجمهور ، والتى قد يكون لها نفع فى تسوية المشاكل التى تجابه العالم العربى فى علاقاته مع دول الغرب الكبرى) .

هذا هو أحدث كتاب يخرج للناس بلغة عربية صحيحة من تاريخ القضية العربية ، وضعه مؤلفه كما يقول عزام

بإنشا لخدمتها ، وعرفه معرفة خدمة لبلاده الذى (انبعث منه أول صوت فى الدعوة إلى الوحـدة العربية) وللبـلاد العربية جميعها .

إن نيـة المؤلف الطيبة التى تبدو واضحـة فى كتابه ، تحملنا نشكره مبدئاً على جهوده من جهة ، وتحملنا على غض الطرف من النواقص التى لم يخل الكتاب منها من جهة أخرى ، ولسنا اليوم فى معرض تعداد هـذه النواقص ، وحسبنا أن المؤلف نفسه يؤكد فى مقدمته أن فى الكتاب (بعض الهفوات فى الوقائع) ولكنها كما يذكر (تغتفر بالنظر إلى صعوبة البحث وتشعبه ، وفقدان المصادر الموثوقة أوتشوشها) . ويظهر أن الأعذار التى أبداها الأستاذ الزكانى لعدم إخراج ملاحق الكتاب الكثيرة مع نسخته ، نتيجة ظروف الحرب القاسية ، هى نفسها التى جعلته يلمح لنا من تلك الهفوات دون أن يعمل على الإشارة إليها فى هامش الصفحات أو فى ذيل الكتاب ، ونرجو أن نرى هذا فى الطبعة الثانية .

إن مكتبة كل عربى جديرة ، بعد اليوم ، بأن تحوى نسخة عربية من كتاب « يقظة العرب » ليكون صاحبها قد أدى واجبه نحو نفسه قبل كل شئ ، ومن ثم نحو مكتبته إن كانت محترمة عنده .

— فى بلاد اللؤلؤ

تأليف فيصل المظمة

مطبعة الاعتدال دمشق ١٩٤٥ صفحة ١٥٦

فيصل المظمة من محامى دمشق الشباب المتوقدين حماسة الذين كرسوا خطواتهم للسعى فى سبيل خدمة العروبة وقضية العرب الكبرى ، ما كاد ينجح فى الحصول على إجازة الحقوق حتى قبل العمل فى معارف الكويت ، وهو شاب منعم ، لم يغترب ولم يسافر ، فلما كان يوم السفر اضطر للبكاء فى موقف الوداع ، وغادر داره وبلده كما يقول « مشيعاً بالدموع ... دموع الأهل والأصدقاء » حتى إذا ما انتهت السنة الدراسية أسرع بالعودة إلى دمشق ، وفى ردهة المجمع العلمى حاضرنا عن البلاد التى كان فيها ، فلذّ نفوسنا لذة معرفة ما كنا نجهله عن جزء من بلادنا العربية . ثم أخرج للناس قبل بضعة أشهر كتاباً أسماه « فى بلاد اللؤلؤ » يصف نفسه فى مقدمته فيقول : (أنا شاب أومن بفكرة الوحدة العربية ، وهى غايتى فى الحياة ، وأعمل لها بكل قواى) ثم يبين غايته من الكتاب قائلا : (وغايتى من إصدار هذا الكتاب تعريف الوطن العربى الأكبر على الكويت القطر العربى الأصغر ، لأن التعارف كما ذكرت ، خطوة نحو الوحدة العربية المنشودة) .

إن فى كتاب الأستاذ المظمة صوراً هامة عن بلاد الكويت يبدو صدقها من خلال الزخارف الكثيرة التى اقتضتها المجاملة ، ودفعه إليها حب مدح الكويتيين ، بعد أن ترك فيهم أصدقاء كثيرين أكرموا وفادته ، وخففوا عنه ألم الاغتراب الذى لم يفارقه مذ ترك دمشق ، حتى عاد إليها ، واطمأن إلى أهله وأصدقائه فيها .

إن كتاب « فى بلاد اللؤلؤ » قد سد فراغاً هاماً فى مكتبتنا ، مما يجعل له قيمة كبرى عند من يؤمن بأن بلاد العرب يجب ألا تبقى مجهولة لدى العرب أنفسهم ، وزادته جامعة الدول العربية إيماناً بضرورة تقارب الأقطار العربية والتكتل فى وجه أعدائها ذوى المطامع الواسعة والرغبات الاستعمارية .

إن جهود الأستاذ المظمة فى إخراج كتابه هذا ، واضحة يشكر عليها . والأمل فيه أن يبر بالوعد الذى قطعه على نفسه ، فيعمد فى الطبعة الثانية إلى تركيز كتابه ورفع ما فرضته عليه ظروف المجاملة ودعت إليـه العواطف الرقيقة التى يتحلى بها ، والتى تبدو فى بعض الفصول أكثر مما يجب ، ليأتى كتابه بعدئذ قوياً كاملا .

عدنان الخطيب

الملاحان الصغيران

تجاوز نهرا « الرين » و « الميز » في ليلة من ليالي الزمن القديم ، الجسور التي أقامها أهل هولندة لحماية أراضيهم ، ولما تجاوزا الجسور بدآ زحفهما على تلك المدينة الفتية ، مدينة دورت .

وفي تلك الليلة كان الطفل « كورنيليس » أو « كيس » — كما كان يسميه أبواه تدليلا له — نائماً في مهده الخشبي متدثراً غطاء كثيفاً وكان المهد على صورة زورق جمع إلى حد كبير بين الأناقة والمتانة ، فإن والد كيس لما كان دهاناً للسفن ، صنع لابنه هذا المهد من خشب البلاط ودهنه جيداً بالقطران ، ثم جعل له بعد ذلك عظلة صغيرة الحجم كان ينام عليها كل ليلة صديق محبوب « لكيس » وهو قط جميل أحمر . وقامت أم « كيس » بنصيبها في الزورق ، إذ سردت لمهد الصبي غطاء كثيفاً ، وحشت بالريش فراشه ووسائده .

وهكذا كان « كيس » نائماً تحت حماية قطه حين فهر الموج الجسور فجأة ، فهاجم أكثر ما يكون عنفاً منازل المدينة الوادعة ، فاقتلع الأشجار من أصولها ، وقلب الجدران المتداعية رأساً على عقب ، ودفع في طريقه السفن الطليقة كما لو كانت هذه كتلا صماء من الخشب ، وساقها ارتطم بالدور الجميلة : دور صناع السفن ودور التجار .

أما كوخ أسرة « كيس » ، ذلك الكوخ الساكن ، فقد كان أول منزل هاجمه الموج ، وسرعان ما قدّ بطنه وسرعان ما خرّب ! وذلك أن موجة عظيمة خلعت بضربة واحدة الأبواب والنوافذ وأطفأت الوقد ، وقلبت المجمرة والمائدة .

ولما أنهضت الكارثة والدى « كيس » من مضجعهما ، ودفعتهما يتطايران هنا وهناك أخذا يستغيثان وقد غمرهما الماء حتى منتصفهما ، وطفقا يبحثان من الهدق الوقت الذي كان فيه هذا الأخير قد جرفه التيار حاملا معه راكبيه الصغيرين .

وكم كان هذا الزورق ، أعني مهد الطفل ، محكم الصنع ! فقد ذهب محوّماً متغيراً اتجاهه بين آونة وأخرى ، يطرده تيار ويدنيه تيار آخر ، ولكن الأمواج ، وقد هيجتها الريح ، جاءت ترقص رقصتها الجهنمية الكبرى ، وشرع مهد « كيس » حينئذ يجري ويرقص ، كما تجري وترقص سفينة تناولتها أيدي بحر صاخب .

وفي هذه اللحظة العصيبة أظهر القط الأحمر ، والحارس الرفيق والصديق ذو الفراء ، أن قطط هولندة ملاحون ماهرون حينما يريدون وحين تريد ذلك السماء أيضاً ؛ فقد هب قائماً على كفوفه ، متمكناً من وقفته على مظلة الزورق ، وكلما أمالت المهد موجة مال القط نحو الجانب الآخر ليحفظ التوازن .

وقد استيقظ « كيس » أول الأمر من نومه ، وردد وسط العاصفة صرخات ما كان لأذن أن تسمعها . ولكنه فهم أن هناك من يهز مهده بمهارة فائقة ، فأرخى ، من غير عناء ، للكرى جفنه .

ولحسن الطالع هبت ريح من الغرب ، فصارت المظلة شراعاً تدفع فيه الريح ، وغدا المهد ، بمقاومته التيار ، ينتقل على غير هدى فوق سطح الماء دون أن يدع نفسه نهبة للأمواج .

ولما بدا الصباح لم يبق من معالم نهرات « الرين » و « الميز » المديدة أي أثر ، ولم تظلل السماء سوى بحيرة من الوحل قد غرست فيه ، على غير نسق ، بقايا البيوت والسفن والأشجار .

أما سكان مدينة دورت — الذين وجدوا ملجأ في بعض القوارب ولشبث آخرون منهم بسقوف المنازل العالية — فقد كانوا يتأملون تلك النكبة العظمى ، وينادي بعضهم بعضاً بصوت كله أنين . أما والدا « كيس » فقد كانا جائعين

عصفورتي

[إلى الربيع الراحل]

عصفورةٌ ألفتْ غصونَ شجيرتي
صدّاحةٌ تشدو بجانب غرفتي
كانتْ رفيقي كلما نثرَ الضحى
أبرادَه الشفقي فتوقظُ مقلتي
وترف في نسج الضياء بفرحةٍ
سعدتْ بها زمناً جوانبُ غرفتي
كانت تداعبني إذا حييتها
ردّتْ إليّ مع الصباح تحيتي
طارتْ وغابتْ في السماء ولم تعد
فبكيتُ من فرطِ الأسى عصفورتي

* * *

كانتْ لها في كلّ فجرٍ رنّةٌ
عشقتْ مقاطعَها زهورُ النرجس
فتمد من أكمامها أعناقها
ولهاً بأطيافِ الضياءِ المُشمِس
حتى إذا انتشر الضياء مبدّداً
فجرَ الحديقةِ بالصباح المشمس
طفقتْ ترفّ على سقيفةِ غرفتي
بتودّدٍ وترفّقٍ وتحسّسِ
كانتْ رفيقي كلما نثرَ الضحى
أبراده الشفقي فتوقظُ مقلتي
طارتْ وغابتْ في السماء ولم تعد
فبكيتُ من فرطِ الأسى عصفورتي

* * *

عشقَ الربيعُ غناءَها حتى إذا
غنّتْ تبسّم ثغرُه المتألّقُ
وتمايلَ النسرينُ فوقَ غصونه
وتفتّح الوردُ الخجولُ العبقُ
وعرائسُ الأزهار مخضّلةُ الندى
أرجاً يضوعُ مع النسيم ويعبقُ

على قمة إحدى طواحين الهواء رقبان، دون أمل كبير، تلك المياه الثائرة حنقاً وتلك الأمواج التي اغتصبت منذ الأمس طفلهما المحبوب. وفجأة انفجرت من صدرها صرخة عجب وفرح سرعان ما جاوبها الصدى ألف صرخة من جميع الجهات.

فإن مهد «كيس» بدا يتهادى وسط الأمواج كمهد في العهد القديم، وظهر على حافة المهد قط صلب القوائم، مقوس الظهر وقد رفع ذيله مرهفاً لا اعوجاج فيه، وعرض المريح شاربين نافرين كما لو كان في معركة. وكان يقود، وهو يميل ذات اليمين وذات اليسار، ذات الأمام وذات الخلف، سفينته الواهنة بنفس المهارة التي يستطيع بها ملاح هرم عركه البحر أن يتغلب على اضطراب جوانب سفينته الكبيرة، وأن يتجنب هزات مقدمها ومؤخرها. ومع كل هذا فإن «كيس» كان غارقاً في سباته وهو يمص إبهامه.

وقد استقبل الملاحان استقبالا رائعاً وكرما خير تكريم، وعاش القط في مدينة «دورت» — التي عمرت من جديد — حياة جللها الشرف، ورفق من حواشيها العطف، حياة هي أقصى ما يتوق إليه قط في عالمنا هذا. أما «كيس» فقد أصبح ملاحاً مقدماً شديد اليقظة. وأما قصتهما فقد سطرت على إحدى لوحات زجاج كنيسة «دورت» الكبرى.

محمود قاسم

كانت لأيام الربيع وعهده
حلماً يطوف بجفنيه ويصفق

كانت زقزق كلما نشر الضحى
أبرادَهُ النشوى فترقظ تعشق

طارت وغابت في السماء ولم تعد
فبكيت من فرط الأسى عصفورتي

* * *

سأل البنفسج هامساً نوارة
كانت بجانب غصنه المتأود

أين التي كانت زقزق في الضحى
أرق لحن في الحياة مجدد

أين التي غنت فغنيت الربى
أنشودة من قبلها لم تنشد ؟

فأجابت الأخرى وفي ورقاتها
دمع كأرهام الندى المتبدد

طارت وغابت في السماء ولم تعد
فبكيت من فرط الأسى عصفورتي

* * *

حتى إذا نسج المساء غلالة
سوداء طرزها وشاح أبيض

وعدا الظلام بجيشه نهد الضحى
تجرى بأعقاب الهزيمة وتركض

وتناثرت قطع النجوم بأفقه
فكأنها سفر حلاه مفضض

غنت أناشيد الدجى عصفورتي
فتطوف بي ذكرى الهوى فأغمض

وأقول من كانت زقزق في الضحى
بلاحن نشوى فتوقظ تعشق

طارت وغابت في السماء ولم تعد
فبكيت من فرط الأسى عصفورتي

* * *

وبكى الغصين أليفه وترنحت
أعطافه بتذلل وتقشف

وتناوحت فيه الزهور وأطبقت
أجفانها أسفاً لفجر مخزن

وتذكرت أنشودة هتفت بها
عصفورتي يوماً لغصن السوسن

كانت تناجيه الغداة وحينا
تلقاه كانت في دلال تنثني

سألت عليه الياسمين فأومأت
زهراته والدمع ملء الأعين

طارت وغابت في السماء ولم تعد
فبكيت من فرط الأسى عصفورتي

* * *

إني لأذكر والمساء مزيد
حولي وأطياف الدجى تتمايل

وأنا على الروض الأغن مسهد
نشوان أستوحي الربى وأسائل

وحمامة كانت تبادل جبلا
حبا بحب حين راح يبادل

فسألت أشباح الغصون ولوعة
تفرى حشاي وكم مضت أسائل

أين التي كانت تسيل في الضحى
أنغامها النشوى فتوقظ تعشق

فترى القرنفل هائماً وكأنه
مستهزئ بمدامعي وتحرقي

طارت وغابت في السماء ولم تعد
فبكيت من فرط الأسى عصفورتي

محمد البرغي

محكمة البدارى الجزئية الوطنية

إعلان بيع عقار

للمرة أولى فى قضية البيع رقم ٢٣٤٠ سنة ١٩٤٥

إنه فى يوم الاثنين ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٦ من الساعة ٨ الإفرنكى صباحاً بقاعة المزايدات بسراى محكمة البدارى الوطنية سيباع بالمزاد العلنى العقار الآتى بيانه بعد المملوك إلى صبحى بك ولى جرجس بصفتها الشخصية وبصفتها وصية على عطا الله زكى وسعديه وفريده وكريمة قصر المرحوم يعقوب بطرس من زراعة الملك تبع الساحل والآن مقيمة بمصر شارع ورشة حمدان شبرا منزل نمرة ٣٩ وفاء لمبلغ ٩٩٠ مليم و١٦٦ جنيه وما يستجد من المصاريف وهذا بيان العقار السكانى بزمام ناحية الثانية والساحل مركز البدارى مديرية أسيوط ، زمام الساحل مركز البدارى ،

٩س ٣ ط بحوض السبخة ن ٣٩ ص ٥ بالشائع فى القطعة المذكورة البحرى ورثة جرجس أيوب وآخرين نمرة ٤ بحوضه والشرقى مصرف الساحل المستجد والقبلى هارون بشاى ن ٦ بحوضه والغربى الصليبه بحوض نمرة ١٢

٦س ١ط بحوض السبخة ن ٣٩ ص ٣٨ بالشائع البحرى ورثة مصطفى درويش ن ٣٧ بحوضه والشرقى مشروع مصرف الساحل والقبلى ميتى نخلة ن ٣٩ بحوضه والغربى فاصل أطيان ورثة مصطفى درويش ن ٣٦ زمام ناحية الثانية مركز البدارى .

٢ س ٢٣ ط بحوض الجرف ن ٣٠ ص ٢ بالشائع البحرى ورثة رضوان أبو زهو ن ٥ بحوضه والشرقى مصرف الجرف والقبلى طريق فاصل أطيان صبالى حنا ن ٨ بحوضه والغربى بولس بشاى وآخرين نمرة ٥ و٦ و٩ بحوضه بما فيهم من النخيل .

٥س بحوض القنارة القبلى نمرة ٢١ ص ٦ بالشائع فى الجزء المحدد البحرى ثابت أحمد نمرة ٥ بحوضه والشرقى باوى دوس نمرة ٢ و٨ بحوضه والقبلى زرزور عبد الملاك ن ٩ بحوضه والغربى مصرف الساحل .

١ ط بحوض القنارة القبلى نمرة ٢١ ص ٦ بالشائع البحرى ثابت أحمد نمرة ٥ بحوضه والشرقى مصرف الساحل والقبلى زرزوق عبد الملاك وآخرين ن ٩ بحوضه والغربى مصرف الجرف ن ٧

١٥ س القنارة القبلى نمرة ٢١ ص ٥ بالشائع فى الجزء المحدد بحد البحرى ابراهيم عبد المسيح وآخرين ن ٤ بحوضه والشرقى أرمانيوس عبد النور وآخرين نمرة ٣ بحوضه والقبلى يعقوب بطرس وآخرين نمرة ٦ بحوضه والغربى مشروع مصرف الساحل

١٥ س القنارة القبلى نمرة ٢١ ص ٥ بالشائع فى الجزء المحدد بحد البحرى ابراهيم عبد المسيح وآخرين نمرة ٤ بحوضه والشرقى مشروع مصرف الساحل والقبلى يعقوب بطرس وآخرين نمرة ٦ بحوضه والغربى مشروع مصرف الجرف .

٢ س ١٠ ط فقط عشرة قراريط وستة أسهم .

وهذا البيع كطلب حسن سيد عبد الناصر أبو تيج

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٩٤٦ ومسجل بقلم كتاب محكمة أسيوط الوطنية بتاريخ ١٦ مايو سنة ١٩٤٦ نمرة ١٣٦ وأن يكون الثمن الأساسى الذى تبدأ منه المزايدة ٩٠٠ مليم ١٠٢ جنيه

وجميع أوراق البيع وشروطه وحكم نزع الملكية موضوعة بدوسيه الدعوى لمن يرغب الاطلاع عليها فعلى راغب الشراء الحضور للمزايدة فى الزمان والمكان الموضحين أعلاه .

كاتب البيوع

إعلان

عن قبول دفعة من الطلبة الجدد

بالكلية الحربية الملكية

تعلن إدارة الكلية الحربية الملكية أنه ستكون بها محال خالية للطلبة من حملة شهادة الدراسة الثانوية القسم الخاص (التوجيهية) فى ١ أكتوبر سنة ١٩٤٦ .

وشروط الالتحاق تطلب من الكلية الحربية الملكية بكوبرى القبة ابتداء من يوم السبت الموافق ١٠ / ٨ / ١٩٤٦ من الساعة العاشرة صباحاً إلى الساعة الثانية عشرة ظهراً فى أيام العمل .

ويمكن الاطلاع عليها بأعداد الوقائع المصرية التى ستصدر فى الأيام ١٢ و ١٩ و ٢٦ أغسطس و٢ و٩ سبتمبر سنة ١٩٤٦ .

وسيقفل باب الطلبات فى يوم الخميس الموافق ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٦ وسيعرض الناجحون فى الكشف الطبى على كشف الهيئة يومى الأربعاء ١٨ سبتمبر ١٩٤٦ والخميس ١٩ منه .

٥٨٠٠

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٢٦٩

العدد ٤٠٠ | الثلاثاء ٣٠ من رمضان سنة ١٣٦٥ — ٢٧ من أغسطس سنة ١٩٤٦ | السنة الثامنة

فهرس العدد

أزمة بين روسيا وتركيا

عادت مسألة المضايق التركية وعلائق روسيا وتركيا تثير من جديد سحباً في الأفق الدولي ؛ وقد عكفت موسكو منذ نحو عام على إثارة هذه المسألة من وقت إلى آخر . فقدمت مذكرتها عقب انتهاء الحرب إلى تركيا تطلب استرداد مقاطعتي قارص وأردهان ، ووضع المضايق التركية (البوسفور والدردنيل) تحت نظام إشراف جديد يسمح لروسيا بالاشتراك مع تركيا في الدفاع عنها وفي الحصول على قواعد استراتيجية فيها ؛ وقد ردت تركيا يومئذ برفض المطالب الروسية ، وصرحت بأنها لن تقبل أي مطلب يمس استقلالها ، وأنها سوف تدافع عن كيانها ووحدة أراضيها بكل ما وسعت ، وأن مسألة المضايق قد نظمتها معاهدة دولية هي معاهدة مونترو ، فالسبيل إلى تعديلها لا يكون إلا بتعديل هذه المعاهدة باتفاق الدول الموقعة عليها .

والواقع أن نظام المضايق التركية قد تقرر باتفاق مونترو المعقود في سنة ١٩٣٦ ، وكانت روسيا من موقعيه إلى جانب بريطانيا وفرنسا وتركيا ورومانيا واليونان ، وهو ينص على حق تركيا في تحصين المضايق ، وتنظيم الملاحة فيها ، وإغلاقها أثناء الحرب أو خطر الحرب في وجه السفن من أي نوع وبالنسبة لسائر الدول إلا في أحوال استثنائية نص عليها . ولما كان نظام المضايق يعتبر على هذا النحو نظاماً دولياً محضاً ، فإن وجهة النظر التركية هو أنه ليس لروسيا حق الانفراد بإثارته أو تسويته ، ولابد لتغييره من عقد اتفاق دولي جديد تشترك فيه الدول ذات الشأن إلى جانب تركيا وروسيا .

وأما روسيا السوفيتية فترى من جانبها أن مسألة المضايق لا تمس أولاً سوى الدول الواقعة على البحر الأسود وهي روسيا وتركيا ورومانيا وبلغاريا ، وأن الظروف

الدولية قد تغيرت ولم يبق نظام مونترو صالحاً لتحقيق الغاية منه ، وقد ألقت تجارب الحرب الماضية في هذه المنطقة على روسيا دروساً ألجمة ، تتلخص في حصر أسطولها والحيلولة دون إنجادها بحراً من حلفائها ، وذلك من جراء موقف تركيا ونظام معاهدة مونترو ؛ فهي لا تستطيع بعد أن تبقى بمعزل عن الاشتراك في الإشراف على هذه المضايق التي تعتبر بالنسبة لها مخرجاً طبيعياً يتعلق الإشراف عليه بسلامتها ومستقبل تجارتها في البحار الجنوبية .

ولهذا فان روسيا السوفيتية تعود اليوم فتوجه إلى حكومة أنقره مذكرة جديدة تطلب فيها إعادة النظر في اتفاق مونترو ووضع نظام جديد يسمح لها بالاشتراك في الدفاع عن المضايق والإشراف عليها ؛ وتعود تركيا من جانبها فتقابل المذكرة الروسية بالرفض المطلق ، ويزيد على ذلك رئيس الوزارة التركية فيصرح بأن الجيش التركي سيبقى مدى حين دون تسريح ، وأن وجود الجيش التركي على قدم الأهبة هو الذي منع الروس أثناء أزمة أذربيجان من الزحف على تركيا واحتلال الدردنيل .

ويجب أن نلاحظ أن تركيا تستند في موقفها إلى تأييد بريطانيا العظمى وأمريكا ، وأنها تعمل معهما في تفاهم تام . وبريطانيا هي إحدى الدول الموقعة على معاهدة مونترو ؛ وفضلا عن ذلك فهي ترتبط حتى الآن مع تركيا بميثاق دفاعي ينص على أن تقوم بريطانيا بمساعدة تركيا إذا هاجمتها دولة أوربية . أما أمريكا فهي ثانية الدولتين الديمقراطيتين الغربيتين اللتين تكونان مجاجهة سياسية موحدة قبل الجبهة التي تمثلها روسيا السوفيتية في أوربا الشرقية والوسطى ؛ ولهذا قيل لنا إن كلا من حكومتي لندن وواشنطون سوف تقدم إلى روسيا في شأن مسألة المضايق مذكرة تؤيد فيها وجهة النظر التركية برفض المطالب الروسية وتقترح تعديل معاهدة مونترو في مؤتمر دولي خاص .

على أنه يحق لنا أن نتساءل عن مدى استعداد بريطانيا وأمريكا لتأييد تركيا ومقاومة السياسة الروسية . ومن المحقق بادئ ذي بدء ، أن تركيا مهما كان من عزمها وضخامة جيشها لا تستطيع حقاً أن تغامر بالدخول في حرب مع روسيا السوفيتية ، ولا يمكن أن يعتقد إنسان أنها تستطيع وحدها مقاومة الجيش الأحمر وهو الذي لم تقو على صده جيوش « الريخ » المتحدة . والظاهر من جهة أخرى أن روسيا السوفيتية تزمع العمل على تنفيذ خطط السياسة القيصرية القديمة في محاولة الخروج إلى البحار الجنوبية والاندفاع نحو الشرق الأوسط ؛ وقد كان تصرف السوفييت في أذربيجان مظهراً من مظاهر هذا الاندفاع ، وما زالت موسكو تسعى إلى الحصول على قاعدة في بحر إيجه أو في طرابلس ، وسعيها إلى فتح البوسفور والدردنيل والاشتراك في الإشراف عليهما ، كل ذلك من مظاهر سياستها الطموحة إلى التوسع وإحراز النفوذ في مناطق جديدة بصورة تتفق مع ما هيأته لها انتصاراتها في الحرب العالمية الثانية من مركز ممتاز .

ولا ريب في أن بريطانيا العظمى وأمريكا لا تنظران إلى هذا الاندفاع الروسي نحو الجنوب بعين الارتياح ، وليست مسألة المضايق التي تثيرها روسيا اليوم على خطورتها إلا جزءاً من المشكلة الروسية العامة التي تواجهها الدولتان الغربيتان وتعملان على تذليلها بكل ما وسعتا من حزم وبراعة . ومما يلفت النظر أن أمريكا بالرغم من كونها ليست من الدول الموقعة على معاهدة مونترو ، وليس لها مركز خاص في البحر الأبيض المتوسط ، ليست أقل من بريطانيا معارضة لسيطرة الروسية على الدردنيل ، وقد أكدت واشنطون هذه المعارضة في مذكرتها التي وجهتها أخيراً إلى موسكو ؛ وتصر تركيا من جهة أخرى على أن تكون أمريكا إحدى الدول المشتركة في تعديل معاهدة مونترو ، بينما تنكر روسيا على أمريكا هذا التدخل وتصر من جانبها على أن يقتصر بحث مسألة المضايق على دول البحر الأسود .

وهكذا تغدو مسألة المضايق ، فضلا عن كونها نزاعا روسيا تركيا ، نزاعا دوليا خطيرا بين روسيا السوفيتية وبين بريطانيا وأمريكا ؛ وإذا كانت تركيا تبدى إصرارا وحزما فى مقاومة المطالب الروسية ، فلأنها تعتمد كل الاعتماد على تأييد الجبهة الإنجليزية الأمريكية . بيد أننا لا نعتقد على أى حال أنه يمكن أن يقع فى المستقبل القريب أى نزاع مسلح بين روسيا السوفيتية والدولتين الغربيتين مهما تفاقم النزاع الدبلوماسى بينهما ؛ ولسنا نعتقد أنهما يمكن أن تخوضا من أجل تركيا حربا مع روسيا ، كما أننا لا نعتقد أن روسيا يمكن أن تندفع فى سياستها إلى حد إثارة النزاع المسلح فى الوقت الحاضر . وأغلب الظن أن مسألة المضايق ستبحث مع باقى المسائل التى تتعلق بالتنافس على السيطرة ، واحتلال النقط الاستراتيجية فى الشرق الأوسط ؛ وستكون المسائل مجتمعة موضع التبادل والمساومة ؛ ونحن نعرف أنه من المسلم به بين روسيا وبريطانيا وأمريكا منذ مؤتمر يالتا أن تركيا تقع فى منطقة السلامة الروسية ، وأنه فيما عدا اليونان فإن البلقان يعتبر كله منطقة نفوذ روسى . وإذاً فقد يغدو من الممكن أن تحل مسألة الدردنيل حلا يرضى روسيا ، إذا أبدت روسيا تساهلا فى بعض المسائل الأخرى ، وإذا اطمأنت بريطانيا إلى سلامة مركزها فى شرق البحر الأبيض ، وسلامة مواصلاتها الامبراطورية عبر العراق وإيران ، وإذا نزلت روسيا بالأخص عن منازعة انجلترا فى احتلال شواطىء برقة وطرابلس .

ومما يتصل بمسألة المضايق بصورة مباشرة سعى بلغاريا إلى الحصول على مخرج بحرى على بحر إيجه ، وهو سعى تؤيده روسيا لدى مؤتمر الصلح . فإذا ذكرنا أن بلغاريا تقع فعلا تحت الحماية الروسية ، فإن حصول بلغاريا على مثل هذا المخرج إلى بحر إيجه يمكن روسيا من أن تطل على هذا البحر بواسطة بلغاريا .

والظاهر أيضا أن تشدد الدكتاتورية العسكرية التى تسيطر على مصاير تركيا إزاء المطالب الروسية ، على هذا النحو القاطع ، لا يروق لفريق كبير من الرأى العام التركى . ويرى هذا الفريق أن تركيا يجب أن تسوى علائقها مع جارتها التاريخية على أسس التفاهم والصداقة ، ولو اقتضى ذلك بذل بعض التضحيات المعقولة ؛ ويذكر هذا الفريق ما أسدته روسيا من المعاونة الصادقة للحركة الكمالية وللجمهورية التركية الناشئة ، وقد ظهر التصدع فى صرح الدكتاتورية العسكرية الكمالية فى الانتخابات التركية الأخيرة ، حيث استطاعت الجبهة الديمقراطية المعارضة أن تحتل ، بالرغم من وسائل الضغط التى لجأت إليها الحكومة ، نحو سبعين كرسيا فى المجلس الوطنى الجديد ، وهى ظاهرة لم تعرفها تركيا الكمالية منذ عشرين عاما، إذ كان حزب الشعب، وهو حزب الدكتاتورية العسكرية ، هو الحزب الوحيد فى تركيا ، وهو المستأثر بكل رأى وتوجيه ؛ ونحن نذكر أن روسيا قدمت ضمن مطالبها فى العام الماضى إلى حكومة أنقره ، أن تقوم فى تركيا حكومة ديمقراطية صديقة مكان الحكومة الدكتاتورية الحاضرة ، وكان ملحوظا فى المعركة الانتخابية الأخيرة هذا الخلاف فى الرأى بالنسبة لمسألة العلائق التركية الروسية؛ ولكن الدكتاتورية استطاعت بوسائلها الخاصة أن تكسب المعركة مرة أخرى .

والخلاصة أن مسألة المضايق ليست مسألة مستقلة بذاتها ، وليست مسألة تركية روسية فقط ، بل هى جزء من كل ، وهى أحد عناصر هذا المعترك الدولى الجديد الذى يضطرم بين روسيا السوفيتية وبين الدولتين الغربيتين الكبيرتين ، والذى ينتظر تسوية عامة شاملة تتناول شئون شرق البحر الأبيض ، وشئون الشرق الأوسط كلها . فإذا وفق الفريقان إلى تحقيق هذه التسوية العامة . فإن مسألة المضايق سوف تلقى الحل الذى ترتضيه روسيا وترتضيه تركيا

محمد عبد الله عنان

٥ — أحاديث رمضان :

فى الحياة الروحية

يتناوب العالم موجات بين إلحاد وإيمان ، وقد كانت موجة الإلحاد طاغية عاتية فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، ففشا بين طبقة المثقفين عدم الاكتراث بالدين ، وإهماله فى أبحاثهم وأعمالهم ، أو مهاجمته بالقول والعمل ، وبسط ألسنتهم فى الكنائس وأعمالها وشعائرها ، وآخرون وقفوا موقف الشك فلا إيمان ولا إلحاد ، ومنهم من يؤدى شعائر الدين لا عن روح واعتقاد ، ولكنها جزء من برامج الحياة ، فكما أن هناك زمناً يقضى فى لعب الكرة ومشاهدة السينما ونحو ذلك ، فهناك زمن عابر يقضى فى الكنيسة ، وهذا هو كل الدين .

وكان كل يوم يمر تزيد موجة الإلحاد والشك قوة واتساعا ، وأسست الأخلاق والتربية على قواعد العقل لا على أساس الدين .

وعمل على طغيان هذه الموجة وقوتها واتساعها عوامل كثيرة أهمها : انتشار نظرية « دارون » فى تسلسل الأنواع ونشوئها وارتقائها من خلية نباتية صغيرة إلى شجرة كبيرة ، ومن حشرة حقيرة التكوين إلى أن وصلت إلى الإنسان بالبيئة والانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح وما إلى ذلك ، فأولع الناس بهذه النظرية واعتنقوها ، وبنوا عليها تفكيرهم ، وأسسوا عليها علومهم ، ورأوا أن هذا الرأى المؤيد بالبرهان لا يتفق مع حرفية الكتاب المقدس فيما حكى من خلق آدم وحواء .

فزلزل هذا من إيمانهم — وبدلاً من رؤية الله فى الخلق وتطوره قصروا النظر على الخلق ونشوئه وارتقائه — وبدأ رجال الدين يدافعون عن موقفهم بأن قصة آدم وحواء الواردة فى الكتاب المقدس لا يصح أن تؤخذ على حرفيتها ، وإنما هى رمز لنضج النوع الإنسانى ، ثم اختلفوا فى دلالة هذا الرمز .

وعاصر حركة دارون ومدرسته حركة علمية أخرى اتجهت إلى وضع الكتاب المقدس موضع النقد ، وتسليط أدوات البحث العلمى عليه ، كما سلطت على كل الوثائق التاريخية ، فكما بحثوا فى الإلياذة ووصلوا فى بحثهم إلى أنها ليست من عمل هوميروس وحده ، وإنما هى من عمل أناس مختلفين فى عصور مختلفة ، كذلك بحثوا الكتاب المقدس ، وأداهم البحث إلى أنه وضع فى عصور متوالية فى بيئات مختلفة ، ونقدوا ما جاء فيه من تحديد السنين التاريخية ، وساقهم البحث إلى أن بعض ما نسب لموسى ليس لموسى ، وبعض ما نسب لداود ليس لداود ، فزاد ذلك الناس زلزلة وشكاً .

ثم كان نشوء علم مقارنة الأديان ، فبحثوا فى أديان العالم ووازنوا بين تعاليمها ، ووضعوا أسساً لما يعدونه منها راقياً وما ليس راقياً ، وعرضوا لمسائل خطيرة مثل من أين جاءت فكرة التثليث ، ومن أين أتت سلطة الكنيسة ، فكانت نتائج هذا البحث سبباً آخر من أسباب زلزلة العقيدة .

ثم جاء علم النفس يحلل الشعور الإنسانى ، ومنه الشعور الدينى ، ويشرحه كما يشرّح الأطباء الأجسام ، ويبحثون فى منشأ فكرة الله ، ويقولون إنها فكرة خلقها الخوف فزادوا فى الطنبور نغمة .

وكان الدين يُعلى من شأن الإنسان لصلته بربه ولماله من روحانية ليست لغيره ، فجاء علماء النشوء والارتقاء وعلماء الإنسان وعلماء الفلك ونحوهم يحقرون من شأن الإنسان ويجعلونه دودة كبيرة ، فسلبوا الإنسان عظمته واعتزازه بروحانيته .

وقارن هذا دعوة الدعاة إلى تفاهة الحياة ، واختطاف ما أمكن من اللذائذ ، والتحرر من القيود القديمة ، سواء

كانت قيوداً ضارة أو ناقمة ، وما دام هناك شك فى الآخرة فليكن الهناء فى الدنيا بقدر المستطاع ، وقالوا حديثاً ما قال طرفة قديماً « فدعنى أبادرها بما ملكت يدى » .

هذه هى أهم الأسباب فى موجة الشك والإلحاد فى الغرب ، وقد قال قوم من المثقفين فى الشرق إذا كان الغرب قد تقدم بالإلحاد أو على الأقل تقدم مع الالحاد ، فلنلحد لنتقدم أو نلحد ونتقدم ، وإذا كانوا ملحدين وهم الحاكمون فلنقلدهم لعلنا نساويهم ونتخلص من حكمهم . وسافرت الأفكار والآراء والكتب من الغرب إلى الشرق ، فعملت عملها ، وجرت جريها ، وتركت آثارها ، ورأى بعضهم أن يأخذ المدنية الحديثة بحذافيرها ومنها الإشادة بالبحث العلمى ، وإضعاف الشعور الدينى ، وحملت الدعوة إلى انتهاب اللذائذ عملها أيضاً فى الشرق فكانت لها سطوتها .

وكان من ذلك كله أن عمت الموجة الغرب والشرق ، وخاصة بين طبقات المثقفين وأنصاف المثقفين .

* * *

ولكن يظهر أن هذه الموجة بدأت تتكسر فى الغرب فتتكسر فى الشرق ، وسبب ميلها إلى الانكسار أن الناس نظروا فرأوا أن المادة لما بلغت أوجها لم تنتج للعالم سعادة بل شقاء وخراباً ، وأن الضمير العقلى لم يستطع أن يحل فى إراحة النفس وطمأنينتها محل الضمير الدينى ، وأن هذا النقد الحر إذا وجه إلى تفاصيل الدين وسلطة رجال الدين ، فإنه لم يمس جوهر الدين وإن مسه فلم يستطعه ، إنما كان يستطيعه لو أنه أمكنه بنفسه أن يفسر جميع ظواهر الكون تفسيراً محكماً ؛ أما وهو لم يستطع أن يفسر إلا الظواهر فإذا وصل إلى الصميم — كالحياة وعينها وتصرفها ، ومنشأ وحدة العالم وقوانينه ونظامه وجماله ، فليس — إذاً — له الحق فى الإلحاد والغرور بالأفكار ، فالدين من ناحية عزاء للنفس الإنسانية وسند ، وفوق ذلك هو حقيقة لا بد منها لإمكان تفسير العالم .

حتى العلم نفسه بدأ يتراجع فى بعض نظرياته أو يؤمن بقصورها ؛ فنظرية النشوء والارتقاء قد تفسر التطور ، ولكن لا تفسر الحياة فى الخلية الأولى ، حتى قال قائلهم — إن العالم على اختلاف نباته وحيوانه وجماده يدل على أن كل نوع منه يؤدى عملا ويحمل رسالة ، وأنها كلها تتساند وتترابط ، وتهدف إلى غرض حتى لا يستطيع عقلك مهما تشبعت من العلم إلا أن يؤمن بأن للعالم مؤلفاً واحداً قويا حكيما عليما .

وهذه الدعوى بأن أساس الأديان الخوف قد أخذ بعض علماء النفس يشك فيها ؛ فالخوف قد يحرم على الانسان بعض الأعمال ، وقد يدفع إلى الاضطهاد والانتقام ، وقد يحمل على الكره والحرب ؛ ولكن هل هذا باعث الدين ؟ إن باعث الدين الراقى يدعو إلى إجلال إله خالق العالم ومدبره ، إله قوى نستمد منه القوة ، عظيم نستمد منه العظمة ، روحى نستمد منه الروح ، فيه كل صفات الكمال ؛ هو للعالم كإرادتنا فينا ، إن الدين الراقى يدعو إلى التسامح لا التعصب ، والعفو لا الانتقام ، والحب لا الكره ، وقد يصل بعض الناس فى الدين إلى حب الله كحبهم أنفسهم أو أشد حبا ، ويعجبنى فى ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى وصف صهيب : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » . فهل يمكن تفسير كل هذه الظواهر النفسية بدافع الخوف كما يقول بعض علماء النفس ؟ .

ثم إن الدين دائماً كان من أهم البواعث على الفنون الجميلة ، فالقرآن أعجز بفنه ، والدين كان مبعث الفنون الجميلة فى فن عمارة المعابد وفى الموسيقى والتصوير ، فهل يتفق هذا ودعوى أن الدين خلقه الخوف ، والخوف لا ينتج فنا ؟ .

* * *

إن الدين الحق يوسع النظر فلا يحده بقبيلة ولا طائفة ولا جنس ولا أمة ، لأنه يدعو إلى أن الله رب العالمين ،

وهو وحده الحاكم والمحكومون متساوون أمامه ، كما يدعو إلى سعة العواطف فلا عصبية ولا انتقام ، ولكن أخوة وتعاون ورحمة .

الدين الحق يحيى الضمير ، ويدعو للعدل بين الجميع ، بين من تحب ومن تكره ، ومن هو من جنسك ولونك ومن ليس من جنسك ولونك ، ويهدم الأنانية الفردية والأنانية القومية ليحل محلها عاطفة الأخوة العالمية . إن أهم وظيفة للدين الحق أنه يحول العاطفة من أنانية شخصية إلى عاطفة إلهية تتجه إلى تحقيق الخير العام . إذا أراد المصلحون بث الشعور بوحدة الجمعية البشرية وتعاونها وقطع دابر أسباب الخصومة والانتقام فلن يجدوا أساساً خيراً من الدين الحق الذي يوحد العلاقة بين الإنسان والله الواحد ، ويوحد العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان الذي هو من خلق إلهه .

إن هذا الغرض يدعو إلى تغيير برامج التربية في العالم من أساسها ووضعها على أساس آخر هو حب الله خالق الناس أجمعين ، وحب الانسان للانسان من غير تفريق بين جنس وجنس ، وأمة وأمة ، ولغة ولغة ، ودين ودين ، وهذا وحده هو الذي ينقص العالم اليوم .

إن العالم محتاج الى مصالحة بين العلم والدين ، فللعلم أن يبحث في المادة كما يشاء ، ويستكشف قوانينها كما استطاع ، ولكنه لايتجاوز دائرته فينكر ما وراء مادته ؛ وللدين أن يؤمن بالروحانية ، وعالم الغيب وما إليه ، فهذه لا تتنافى مع العقل بل تكمله ، ولكن ليترك للعلماء بحوثهم في مادتهم ، فما جاء الدين لشرح نظريات العلم ، وليستفد منها بنظرته الروحية إليها ، فهذه القوانين التي يستكشفها العلماء هي القوانين التي بثها الله في كونه ، وما جاء العلم ليبحث فيما لا يستطيع من كشف ما وراء المادة ، إن العالم محتاج إلى تديين العقل وتعقيل الدين .

إن تم هذا ساد العالم عقل سليم يرقبه العلم وعاطفة نبيلة يرقبها الدين إن تم هذا فلا حرب ، لأن العاطفة النبيلة تمنعها والأخوة الإنسانية تحرمها ، والعقل لايستسيغها .

وإن تم هذا فلا خرافات حول الدين ، لأنها لا يرتضيها العقل الصحيح ولا الدين الصحيح .

وإن تم هذا فلا عاطفة وطنية ولكن عاطفة إنسانية .

وإن تم هذا فلا صهيونية لأنها مبعث فكر ضيق وعاطفة ضيقة وتحريك عقرب الساعة إلى الوراء ، ولا حروباً صليبية ولا غير صليبية ، لأن مبعثها ضيق عقل في تصور الدين ، وحماسة جاهلة في خدمة الدين .

وعلى الجملة فلو تم هذا لزالت كل العوائق التي تعوق الإنسانية ، ولتقدم العالم في عام ما لم يتقدمه في قرون .

فهل يتمخض القرن العشرون من هذه الموجة العالية يكتسح بها الموجة المنحطة التي خلقها أخوه القرن التاسع عشر ، أو لا يزال ذلك أملاً بعيداً ؟

علم ذلك عند الله .

وإلى هنا تنتهي هذه الحلقة من أحاديث رمضان . وكل عام والقراء بخير .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

إلى من يلزم من رجال فني تدبير المياه :

لا مؤاخذة يا سادتي الفنيين

أرجو ألا يغضب الفنيون من حديثي هذا فإنه لا يزيد على مداعبة في بعض ليالي شهر الصيام ، وكل عام والجميع بخير.

ليس يقدم على الأعمال الجليلة إلا من يجهل خطورتها ، والأمثلة كثيرة على ذلك . وقد قيل إن كثرة العلم تميت الهمة ، وإن كثرة التفكير تقتل الإقدام .

فلو كان كولمبس مثلا من البحارة الفنيين وأخذ يفكر كما يفكر البحارة الذين تعودوا السير في البحار لما أقدم على رحلته التي كانت نتيجتها كشف أمريكا ، لأن الفنيين لا يقدمون على عمل جديد لم يسبق لهم عهد به إلا بعد أن يقتلوا الموضوع بحثاً وينظروا في كل احتمالاته ، ومتى قتلوا الموضوع ببحثهم انتهى الأمر فلا داعي للتفكير في القتيل .

ولكن كولمبس كان رجلا من الحالمين الذين يذهبون في أحلامهم إلى أبعد مدى ، ويمتاز الحالمون بأنهم مؤمنون بأحلامهم ، ويخيل إليهم أنها حقائق فيسيرون معها حتى يصحوا أخيراً على مفاجأة عظيمة .

وقد آمن كولمبس بأحلامه ، ولم يستمع إلى خبرة الخبراء ، ولم يتقيد بقيود المألوف ، وضرب في المحيط يريد أن يذهب إلى الشرق عن طريق الغرب . ألم يكن هذا أشبه بالجنون ؟ ومع ذلك فقد فتح كولمبس الطريق إلى الشرق بأن اتجه غرباً ، وحدثت أعجوبة من أكبر الأعاجيب .

فأنا أستميح الفنيين جميعاً بعض التحلل من الاحترام الواجب لهم ، وأتجرأ على أن أقترح بعض مقترحات هي بغير شك سخيفة جداً في نظرهم وهم الخبراء الذين يعرفون الأصول .

وقفت إلى جانب النيل في هذا العام الذي اشتد فيه الفيضان حتى هدد البلاد بالغرق . وكان قلبي يحس ألماً شديداً لما حاق بالوادي من الكوارث وما نزل ببعض أهله من الشدائد ، وما ضاع من حاصلات ثمينة نحن في أشد الحاجة إليها والعالم المسكين كله يتمنى لو حصل على شيء منها بعد هذه الحرب الطاحنة التي كانت فيها الأمم المتمدنة تتسابق في التدمير والتخريب .

ولكن الألم كان أشد ، لأني كنت أرى هذا الماء الأحمر الثمين يسير في تياره القوي متدفقاً نحو الشمال متجهاً إلى البحر الملح الذي لا يهمه كثيراً إذا قل الفيضان أو طغى .

وسألت نفسي : هل من سبيل إلى ادخار هذه المياه الكثيرة أو الاستفادة منها ؟

لقد مرت السنوات الطويلة والفنيون يرون بأعينهم كل عام هذه المياه تضيع سدى في وقت الفيضان ، حتى إذا جاء وقت الربيع وأول الصيف جف مجرى النهر وتمنى الناس لو كان في الإمكان الاحتفاظ ببعض مياه الفيضان لتلك الأيام القائظة . ولكنهم لم يستطيعوا إلا أن يحتفظوا بجزء صغير من هذه المياه لا يبلغ عشر معشار ما يضيع سدى في البحر الملح . ومعنى هذا أن أصول الفن قد عجزت حتى اليوم عن تدبير وسيلة لحفظ هذه المياه المتدفقة .

ولكني كما قدمت غير فني ، ولهذا تجرأت وقلت إنه لا يوجد شيء مستحيل . وغاية الأمر أن لكل شيء ثمناً وكل غاية ممكنة إذا وجدت لها الوسيلة الكافية .

فهناك كما قيل وديان عالية في الصحراء يبلغ علوها نحو سبعين متراً . ومن السهل أن نأتي هذه المياه فيها لنحفظها هناك على صورة خزان ، وإذا خفنا أن المياه تتسرب في رمال هذه الوديان فلا أقل من أننا نكسب الثواب لإطفاء عطش هذه الرمال المسكينة .

وأظن أن هناك آلات يمكنها أن ترفع المياه إلى

سبعين مترا ، بل لقد قيل إن القوة كفيلة بأن ترفع الأثقال كلها إلى السماء مادامت كافية . ولقد روى عن أحد السادة الفلاسفة أنه قال : « أعطني رافعــة ونقطة ارتكاز وأنا أقذف الأرض كلها إلى أعلى الفضاء » .

فلم لا تستطيع قوة الآلات رفع المياه الحمراء إلى الهضبة الصحراوية المتواضعة ؟

هذا ما تصورته أنا لأنى غير فنى ، وأتمنى لو وجد رجل مثلى بين الفنيين لعله يهديهم بأحلامه إلى ما لم يهتدوا إليه بعلمهم .

وهناك رأى آخر يمليـه على أنى لا أعرف شيئا من أصول فن تدبير المياه . فإن صحراءنا واسعة ، وفيهـا مئات الألوف من الأميال المربعة من الأرض ، ولا عيب فيها إلا أنها عالية قليلا . فهناك مثلا بين القاهرة والسويس مساحات هائلة لا ترتفع إلا قليلا عن مستوى النيل . فقد قيـل إن أعلى نقطة فى الطريق بين القاهرة والسويس لا تزيد على خمسين مترا فوق سطح مجرى النهر .

فهل يتعذر علينا أن نجد وسيلة لنلقى فى كل عام بعض ملايين من الأمتار المكعبة من المياه الحمراء فى هذه المساحات؟

ولا شك أن هذه المياه لا تذهب هدرا هناك ، لأنها بالطبع تحيى الموات ، وتهتز لها الأرض وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج .

ولقد عجبت من أننا نعجز عن نقل مياه الفيضان إلى فيافى الصحراء ، فى حين أنه كان من الممكن نقل البترول فى أنابيب عظيمة عبر الصحراء ، من أقصى الأرض إلى أدناها ، فالبترول ينقل من خليج العجم إلى ساحل الشام ، وسوف ينقل من بلاد العرب إلى بيروت قريبا . ولم يتطلب ذلك الأمر إلا أن تبـذل فى سبيله الأموال الـكافية . فالعلم والآلات والذكاء الإنسانى تكفل تحقيق كل غاية إذا أعدت لها عدتها .

فما الذى يمنع من نقل مياه الفيضان فى أنابيب عظيمة توصلها من النهر إلى هذه الصحراء الواسعة ؟

هذا سؤال أراه طبيعيا وإن كنت أعتقد أنه سيضحك الـكثيرين من سادتى الخبراء الفنيين .

ولقـد رأيت فى الصحراء كثيرا من الوديان الخصبة التى تنبت الصبير الطويل ذى الأذرع الخضراء التى تبلغ علو الشجر العالى ، وتنبت الحنظل العظيم الذى يبلغ حجمه حجم البطيخ الشيليان بلاك — بغير مبالغة — وفيها من أنواع الحشائش ما يكفى لألوف الجمال البيضاء الحرة الطريفة التى ترعى هناك آمنة . ورأيت طينها الناعم الأصفر وقد جف بعـد موسم الأمطار فتشقق حتى كان بين كل كتلة منه والأخرى نحو شبر . ومعنى هـذا أنه طين ناعم يصلح للانبات إذا وجد الماء الـكافى .

وهذه الوديان تضمن لنا أينع الفواكه من عنب وزيتون وكمثرى وتفاح وتين وتمر إذا هى وجدت من الماء ما يسقيها ، كما أنها تكفل لنا ملايين الضأن والماشية التى بلغت لحومها أسعاراً تمنع الناس من شرائها . فما الذى يمنع من أن ننقل مياه الفيضان الضائعة — تلك المياه الحمراء العذبة — إلى تلك الوديان الفسيحة ؟

هذا سؤال آخر لا شك فى أنه سيضحك الـكثيرين من الخبراء الفنيين إذا وقعت أعينهم عليه . ومع ذلك فإنى أتمنى لو وجد بينهم مثلى من الجهلاء بأصول الفن حتى يتجرأوا على التفكير فى مثل هذه الأخيلة المطلقة .

هناك حقيقة ماثلة أمام أعيننا لا يمكن أن يشك أحد فيها وهى أن مياه الفيضان تضيع هدرا وتتدفق فى البحر بغير فائدة مع أنها لا تقدر بثمن . وهذه الحقيقة كافية لأن تدفعنا إلى الذهاب مع أبعد جولات الخيال لنلتمس وسيلة من الوسائل للاحتفاظ بها . وليس أخطر علينا من الاستمرار فى السير على الدرب القديم الذى اختطه من سبقونا . فالمشروعات العظيمة التى تستفيد البلاد بها اليوم كانت فى أول أمرها صورا خيالية فى أذهان بعض الحالمين ، ثم تحققت فصارت الآن أشياء عادية لا تثير دهشة

عند أحد منا . فما أحرانا أن نضرب أحيانا فى الخيال لعل الصور التى نحسبها بعيدة تصبح بعد حين حقائق لا تدهش ، بل يكون عجب الأجيال القبلة من أنها بقيت مدة طويلة بغير أن يفطن إليها أحد من الفنيين .

فلا مؤاخذة أيها السادة من الفنيين إذا كنت أتدخل فيما لا أعرف شيئا من أصوله ، وأرجو أن يكون فيكم أحد من الحالمين الذين شذوا من طريق الأحلام إلى الصفوف المحترمة التى تعرف أصول الفنون ؛ لعل مثل هذا القول لا يبدو عندهم غريبا مضحكا .

محمد فريد أبو حديد

متزيـــــنى

— ١ —

حالة إيطاليا فى أوائل القرن التاسع عشر — نشأة متزينى وثقافته — بدء انصرافه للسياسة

تعزى يقظة إيطاليا فى القرن التاسع عشر إلى حادثتين عظيمتين : وهما الثورة الفرنسية وغزو نابليون ، وقد كانت إيطاليا قبل ذلك مستغرقة فى رقاد العصور الوسطى ، متقاعدة الهمة ، متقاصرة السعى فى سبيل الوحدة والاستقلال ، يستغل أشرافها الضرائب فى سبيل الاستمتاع والإسراف ، ويشاركهم رجال الدين فى إهدار حقوق الشعب وإهمال مصلحته ، على حين يشقى الفلاحون فى الحصول على ما يقيم أودهم . ولما هبت على إيطاليا رياح الثورة زلزلت قواعد الأرستقراطية ، وهزت نظم الحكم السائدة .

وقد كان تأثير الثورة مقصوراً على أقلية من المفكرين ، ولكن برغم ذلك ظهرت بوادر تدل على الضيق بنظم الحكم المطلق والتمرد عليها ، وخشى الأمراء الإيطاليون مغبة سريان الأفكار الحرة وتغلبها فحاولوا أن يوطدوا نفوذهم المطلق بتشجيع دعاة الإصلاح والمشاركة فى الحركات التقدمية والعطف عليها ، ولكن سرعان ما توقفت هذه الحركة ، وتلاها رد فعل شديد ، ومهما كان من الأمر فقد وجدت المثل العليا للحرية والتقدم صدى لها ومعبراً عنها فى الأدب الإيطالى ، فقد كان فيتوريا الفيرى (١٧٤٩ — ١٨٠٣) شاعر النهضة الحديثة والجيل الجديد ، وقد ضمن مآسيه أفكاره عن مصير إيطاليا ومستقبلها المرجو ، وذكر الشباب بعظمة إيطاليا السابقة ومجدها القديم ، وكان تأثيره عظيما فى إثارة النخوة القومية والشعور الوطنى ، حتى قال النقادة الإيطالى الكبير دى سانكتيز فى سنة ١٨٥٥ : « فى كل مرة تجدد إيطاليا قوتها ويشرق فى تكوينها الحديث فجر إحياء جديد فإنها ترجع فى حماسة بالغة إلى الفيرى .

وقد بدأ القرن التاسع عشر فى إيطاليا بغزو نابليون ؛ وقصة غزواته بها وأساليبه فى حكمها وما استحدثه من تغيير ، قصة طويلة مسهبة لا حاجة بنا إلى الخوض فيها ، ونكتفى بالإشارة إلى أنه انتزع نيس وسافوى من بيدمونت وأخذ اللومباردى من النمسا وكون من الولايات الصغيرة الواقعة فى جنوب نهر البو جمهورية ، واستولى على سلطة البابا الزمنية فى روما ، وأقام هناك جمهورية ، ثم حول جنوا إلى جمهورية ليجوريا ، ولما أصبح امبراطوراً فى سنة ١٨٠٥ جعل الجزء الشمالى من شبه الجزيرة ما أسماه « مملكة إيطاليا » واحتفل بتتويج نفسه فى ميلان قائلا وهو يضع التاج الحديدى على رأسه : « لقد أعطانيه الله والويل لمن يمسه » . ولكن إخفاق نابليون فى الحملة الروسية هدم سلطانه فى إيطاليا ، وقوض نظامه بها ، وبانهيار ذلك السلطان وزوال ما أدخله من نظم أخذت الولايات الإيطالية تستعيد أحوالها السالفة ونظمها الضيقة البالية .

ففي بيدمونت أخذ فكتور عمانويل الأول يبيد كل شيء إلى ما كان عليه قبل عهد نابليون حتى كأن لم يحدث شيء ، وألغى التشريع النابليوني ، ورد الامتيازات للأشراف وبعث القانون القديم من رمسه ، وضم جنوا إلى ولايته . أما في الولايات البابوية فقد كان رد الفعل تاماً كاملا ، فقد أعيدت بها دواوين التفتيش وتوطدت أقدام اليسوعيين (الجزويت) وأبعد عن الحكم جميع الرجال العلمانيين . . .

وسيطرت النمسا على لومبارديا وفينيتا ، واستطاعت بذلك أن يكون لها الرأي الأعلى والكلمة النافذة في شبه الجزيرة ، وتم الاتفاق بين حكومة النمسا وسائر أمراء الولايات الإيطالية على أن لا يكون هناك أي تغيير في إدارتهم وسياستهم لا يلائم نظام الحكم الملكي القديم . وكان من جراء تركز السلطة في يد حكومة أجنبية أن اعتاقت العوائق مختلف ضروب الحركة القومية ، وأقيمت العقبات في سبيل إذاعة المثل العليا للاستقلال والدعوة إلى الوحدة وجمع الشمل المبدد والقوى المنتثرة ؛ وهكذا أصبحت أحوال إيطاليا من السوء والانتكاس والتأخر والرجعية بحيث لا يجدي إلا العمل في غلس الظلام وفي تكتم وخفاء ، وأوجد أنصار الاستقلال الإيطالي جمعية الكاربوناري التي نبه شأنها بين سائر الجمعيات السرية الكثيرة التي عمت إيطاليا ، وقد استمدت هذه الجمعية اسمها الرمزي من الفحم فإن لونه أسود ولكنه إذا اتقد واشتعل لمع لونه ، وأشرق وهجه ، وأضاء الغياهب ، وبدد الظلام ، وكانت تشبه الجمعيات الماسونية في حفلاتها ومراسمها وشعائرها وأقسامها وعهودها ، وكان أعضاؤها يعتبرون السيد المسيح الضحية الأولى من ضحايا الظلم والطغيان ، ويقطعون على أنفسهم عهداً بأن يقاوموا الظلم والطغيان الأجنبي مقاومة مستدعة مصممة لا تلين ولا تنثني .

وقامت الثورة الأولى في نابولي سنة ١٨٢٠ ، وكان أكثر القائمين بها من رجال الجيش الذين انضموا إلى جمعية الكاربوناري ، وسرعان ما سرى لهيبها في أنحاء مملكة نابولي ، واضطر الملك إلى أن ينحني للعاصفة ويوافق على إقامة الحكم النيابي ومنح الدستور ، وساء ذلك دول الاتحاد المقدس ، وهي النمسا وبروسيا وروسيا ، واستدعت ملك نابولي للمشاورة والمفاوضة ، وأغروه بسحب الدستور وتكفلت النمسا بصيانة الحكم المطلق في نابولي ، وفي مدى قصير ألغي الحكم النيابي ، وأعيدت الرقابة على المطبوعات ، وأزيلت سائر النظم الديمقراطية التي وعد بها الملك ، وقام الملك فرديناند بتمثيل دور المستبد الغشوم الذي ينزل العقوبة الصارمة بكل من يجترىء على إعلان الولاء للثورة وقضيتها .

وفي أثناء ذلك كان أعضاء جمعية الكاربوناري في بيدمونت مجدين ناشطين ، وكانوا يرمون إلى هدفين ، وهما إعلان الحرب على النمسا وإقامة الحكم النيابي في بيدمونت تحت ظلال سلطان بيت سافوى ، وكان دعاة الحركة وقادتها من المستنيرين وعدد قليل من الأشراف الإيطاليين ، وقد تولى إخماد الثورة وخنق الحركة جيش نمساوى جرار ؛ وقد دلت هذه الحركات والثورات رغم إخمادها وحبوطها وعجزها عن تحقيق أهدافها على أن المثل العليا القومية قد استقرت في النفوس وتملكت الأرواح ، وقد رفض الشاعر الإيطالي أوجوفوسكولو أن يحلف يمين الولاء للحكومة المستبدة وفر إلى انجلترا ليضرب لإيطاليا الحديثة مثل الإباء ، وبطلها احتمال النفي والتشريد ، وبرح إيطاليا فوج من الكتاب والسياسيون الأحرار والوطنيون الأوفياء ، وجعلوا أوربا جميعها تشعر بحركة الإحياء الإيطالية . وقد كان للأدب الرومانتيكي نصيب وافر في هذه الحركة المثمرة ، فقد جدد ذكريات الأمجاد السالفة ورد على الأمة الإيطالية كبرياءها ، وثقتها بنفسها ، وشعورها بقوميتها ، وجعلها مستهامة بالحرية ، صبة

بالاستقلال ، متطلعة إلى المستقبل فى ثقة ورجاء .

وهكذا كانت التيارات الغالبة على الفكر الإيطالى فى إبان نشأة مترينى وحداثته ، وقد شاء القدر أن يكون هذا الرجل العظيم العبقرى الموهوب نبى هذا البعث ومحور حركاته وأكبر عامل فى تحقيق أهدافه وأقوى معبر عن مثله العليا وغاياته السامية .

وقد ولد مترينى يوم ٢٢ يونيو سنة ١٨٠٥ وكان أبوه طبيباً معروفاً وأستاذاً للتشريح فى جامعة جنوا ، وكان رجلا ديمقراطى العقيدة نزاعا إلى الأفكار الحرة ، وكانت أمه امرأة ممتازة قوية النزعة بارزة الشخصية تنشئ أولادها على احتمال الشدائد ، ومصابرة الحوادث . وقد كان مترينى طفلا ضعيف البنية ، رقيق المزاج ، سريع الفهم ، متوقد الذكاء ، قوى التحصيل ، وقد تلقى فى المنزل مبادئ الديمقراطية وإيثار النظام الجمهورى الذى ظل متعلقاً به طوال حياته .

ولما بلغ السادسة عشرة من عمره قامت فى بيدمونت الثورة الخفقة التى أشرت إليها ، وقد أخمدها النمساويون فى غلظة وعنف بالغين ، وعاملوا الكثيرين من الأحرار الإيطاليين معاملة منكرة وحشية ، وهرع إلى جنوى كثيرون من الثائرين زرافات وأفراداً وفى مأمولهم أن يبحروا منها إلى اسبانيا ، وكان أكثرهم قد افتقروا وأعدموا . واتفق فى ذات يوم أن كان مترينى يسير مع والدته وأحد أصدقاء الأسرة فى شارع من شوارع جنوا وإذا رجل طويل القامة أسود اللحية يبدو على محياه الشدة وحدة النشاط وتقدح عيناه الشرر ، يتقدم منهم ويبسط منديلا أبيض اللون قائلا : « للإيطاليين اللاجئين » فألقت والدته وصديق الأسرة شيئاً من النقود فى المنديل ، فتركهم وتقدم بنفس الطلب إلى آخرين . وكان هذا الرجل أحد اللاجئين إلى جنوا بعد هبوط الثورة ، وقد تركت هذه الحادثة أثراً عميقاً فى نفس مترينى الحساسة اليقظة ، وأخذ يدمن التفكير فى تحرير بلاده وخلاصها من نير الحكم الأجنبى ، وكانت هذه اللحظة من اللحظات الفاصلة فى حياته المليئة العاصفة ، فقد امتلأت فيها شعاب نفسه بالعقيدة القومية حتى ملكت عليه مذاهبه واستغرقت تفكيره فى آناء الليل وأطراف النهار ، ولم يبرح مخيلته منظر هؤلاء المهاجرين الذين خانهم الحظ ، وغدر بهم الأصدقاء ، وتنكرت لهم الأيام ، ولكنهم لم يغلبوا على أمرهم ، ولم تلن قناتهم ، ولم يدب إليهم اليأس ، وإنما كانوا يريدون الذهاب إلى بلاد أخرى ليستأنفوا جهادهم فى سبيل الحرية والاستقلال . ولحظ أقرانه فى الجامعة حيث كان يدرس الآداب أنه فى خلال أيام قليلة قد بدا أكبر سناً مما كان ، وأنه قد أصبح مؤثراً للصمت ساهماً مشغول البال شارد الفكر ، وأنه يلبس سود الثياب ويتخذ ربطة للرقبة سوداء ، وقد أصبحت هموم بلاده وأحزانها همومه الخاصة وأشجانه الشخصية ، وظل هذا دأبه حتى توفاه الله .

ولما استفاق من هذه الغاشية التى غشيته ، وتضام شتات نفسه ، واستعاد توازنه ، عاودته حماسته القديمة للمطالعة والدرس ، وكان فى تلك الفترة قد بدأ يدرس الطب ليزاول مهنة أبيه ، ولكنه حينما حضر فى قاعة العمليات لأول مرة أغمى عليه ، وكان من الواضح أنه لا يصلح لتلك المهنة ، وكانت خيبة أمل قاسية احتملها أبوه صابرا ، ولم يجد مندوحة من النزول على حكم الضرورة فسمح له بدراسة القانون ، ولم تكن دراسة القانون حينذاك شائقة محببة تروى غلة شاب متفتح الذهن متطلع إلى المعرفة ، ولكنه ثابر وواظب ، وبرز فى الامتحان ، وذلك بالرغم من أنه كان يقضى معظم وقته فى المطالعات الأدبية ، وبخاصة فى قراءة الشعر والتاريخ ، على أن مترينى الطالب لم يكن بالشخص الخاضع السلس القياد ، وإنما كان طالبا متمردا لا يطيق الاستسلام للأوامر والنواهى ، وقد رفض إلى النهاية القيام ببعض الفرائض الدينية ، لا لأنه

كان يكرهها، وإنما لأن الطلبة كانوا يحتملون عليها حملا، وكانت الجامعة تقضي على تمرده وعصيانه، وكان يعيش عيشة دراسة واعتزال، وكان ولوعا بالألعاب الرياضية واللعب بالسيف، ولا يعرف من الملاهي سوى احتساء القهوة وإشعال لفافات التبغ، وكان يقضي نهاره بين الكتب وأمسياته مع والدته أو في جولات طويلة منفردة أو في زيارات نادرة مختلسة للمسرح، وكان يضطر إلى تركه بعد الفصل الأول، لأن باب منزل أسرته كان يقفل في الساعة العاشرة! ولم يكن سريعا إلى عقد الصداقة مع الناس، ولكنه مع ذلك لم يكن كارها للبشر، وكان يجيد العزف على القيثار، ويحسن الغناء، وقد اشتهر ببراعته الموسيقية وحسن الإلقاء، وكان فيه حينذاك دعابة وميل إلى الفكاهة، ولم يكن قد ألم به بعد ذلك الحزن المرير الذي لازمه بعد انقضاء تلك الأيام، وتوالي الحوادث الفاجعة، والصدمات الساحقة، وكان في تلك الأيام كما كان في سائر أيام حياته — كما يقول المتنبي:

تلذ له المروءة وهي تؤذي ... ومن يعشق يلذ له الغرام

فكان يقاسم أصدقاءه الفقراء كتبه وماله، ولا يضن عليهم بملابسه، وكان سر تفوقه عليهم سمو تفكيره، وسراوة أخلاقه، وطبيعته المائلة إلى العدل، الكارهة للجور والظلم، لا تلك الأثرة الخلابة، والميل إلى المفاخرة، وتقرير السلطان، وفرض الإرادة الذي تظهر لوائحه في طبائع المزعمين الولوعين بقيادة الأحزاب، والمتهالكين على الرياسة! وهذه الروح الصافية العالية التي لم تشبها شوائب الأنانية، والتي كانت لا تعرف الخوف أسبغت عليه وهو لا يزال يافعا لم يطر شاربه قداسة لا نعهدها في غير الصالحين من أولياء الله الذين استعلوا على الضرورات الانسانية، وتخلصوا من إسار الأهواء والصغائر البشرية.

وكان أقرب أصدقائه إليه، وآثرهم عنده الإخوة الثلاثة: جاكوبو، وجيوفاني، وأجوستينو رافيني، وكان جاكوبو أكبر الثلاثة وأكثرهم تأثيرا في حياة متزيني، وكان من لداته، ويشابهه في رقة الإحساس ورهافته، وحماسة النفس ويقظتها، وقد قوى هذا التأثير في نفس متزيني مصرعه الباكر، وظلت ذكرى هذا الصديق العزيز الذي جاد بنفسه في سبيل خلاص بلاده مصدر وحي وإلهام لمتزيني، ينير له السبيل، ويرد عليه اليقين، ويزوده بالقوة في سنوات الإجهاد والإعياء والهزيمة، ولم يكن أخواه في مستواه العقلي أو الأخلاقي، وقد أنبهما متزيني فيما بعد حتى انقطعت بينه وبينهما الأسباب، وقد كون متزيني من أصدقائه المقربين وفي ظل زعامته ورعايته جمعية لدراسة الأدب والسياسة والعمل على استحضار الكتب التي يحرمها الرقباء، وتجلى في هذه الحقبة من حياته ولعه الشديد بالأدب، ونهمه بالقراءة والاطلاع، وكان يقرأ كثيرا في الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والمترجمات من اللغة الألمانية؛ وكانت الكتب التي يؤثرها ويديم القراءة فيها هي الكتاب المقدس ودانتي وشكسبير وبيرون، ودراسته للأناجيل واضحة في كتاباته؛ وقد مرت به نوبة من نوبات الشكوك استنقذته من مخالبها والدة رافيني، واستولى عليه شعور ديني عميق ظل هو النبع الذي يستمد منه القوة في أزماته الحازبة المتوالية، ومآزقه الحرجة العديدة، وكان أحب الشعراء إلى نفسه دانتي وبيرون ولم يفتر إعجابه بهما وحبه لهما؛ وقد استمد من دانتي الكثير من أفكاره الرئيسية، وتعلم منه الوطنية الصادقة الحارة، والثقة بإيطاليا، والإيمان بوحدتها. وقد كتب وهو لا يتجاوز العشرين مقالا عن دانتي ووطنيته دل على معرفة واسعة بأدبه وآثاره؛ وكان بيرون حينذاك في أوج مجده وشهرته، وكان متزيني يعتقد أنه أعظم شعراء انجلترا المحدثين، وربما أعظم شعراء أوربا الحديثة جميعهم، وظل ثابتا على هذا الاعتقاد؛ وكان معجبا بجيتي، ولكن إعجابه به لم يدم طويلا، على حين أن إعجابه ببيرون أخذ

بنمو وزولا ، وكان يكبر شلر ويضعه إلى جانب أسكيلوس وشكسبير ؛ ويعتقد أن هؤلاء الثلاثة أعظم كتاب الدراما في العالم ، وكان في بادىء الأمر متحمساً لولتر سكوت ثم قل اهتمامه به . ولم يكن يعجبه من الكتاب الفرنسيين المعاصرين سوى دى فى وفيكتور هيجو وجورج صاند ، وكان يتعصب لألفيرى وفوسكولو من شعراء إيطاليا المحدثين ، ولم يكن كثير الميل إلى مانزونى . والذى أثر فيه من القدماء هما تاسيتاس المؤرخ وأسكيلوس ، وقد قضى جانباً من وقته في قراءة الفلاسفة والمفكرين السياسيين وألم بفلسفة هيجل ، ولكنه كان يمقتها لزعتها القدرية ، وقرأ كانت وفخته ، ولكن المفكر الألمانى الذى أثر في تفكيره هو المفكر المنسى الآن هردر ، فقد تأثر بتصوره الروحى للحياة ، واعتقاده بالخلود ورأيه في تقدم الإنسانية ، وقد عنى بدراسة الفيلسوفين الإيطاليين جوردانو برونو وفيكو ، وكان يقدر مكيافللى ، ويرى أن أخلاقه كانت ثمرة عصره ، ويبدو أنه قد عرف الكثير من أفكار روسو وفولتير ، وقد ألم بآراء كوزان وجيزو ، وهما من المفكرين الفرنسيين المعاصرين له .

ونرى من ذلك أن مترينى كان ولوعاً بالأدب محباً للاطلاع واسع الأفق غزير المعرفة ، وكان يتطلع إلى أن يكتب روايات مسرحية أو قصصاً تاريخية ، وكان يستشرف ذلك اليوم الذى يرى فيه إيطاليا حرة موحدة فيفرغ للأدب والاطلاع والكتابة والتأليف ! ولكن حب بلاده كان ثقيلاً على كاهله ، وقد أقنع نفسه وهى تعاصيه وتتأبى عليه أن الوقت ليس وقت الانقطاع للأدب والدراسة والاستمتاع بالكتابة والتأليف ، فليس الأدب الخالص هو أول واجبات الوطنى ، وأن الكاتب الذى لا يحاول أن يحط عن كاهله الواجب القوى يجب أن يشتغل بالسياسة ، وليس العصر عصر دراسة لدانتى أو وضع رواية تمثيلية . على أن جانب القدرة على النقد الأدبى ظل ظاهراً في شخصيته ، ولم تستطع السياسة أن تصرفه عنه أو تقتلعه من نفسه ويشعر الإنسان حين قراءة فصوله في النقد بأن هذا الرجل الموهوب لو كانت يسرت له الظروف التفرغ للنقد لكان في طليعة نقاد أوربا في عصره .

ولما ثار النزاع في إيطاليا بين أنصار الأدب الدرسى وأنصار الأدب الرومانتيكى ، انحاز مترينى إلى صفوف أنصار الأدب الرومانتيكى . ولعل السياسة كان لها أثر في هذا التفضيل ؛ فالأدب الدرسى يميل إلى التعبد للقدماء ، والسير في منهجهم ، والضرب على قالبهم ، ومترينى يرى في ذلك تكبيلاً للروح الإنسانية التى يجب أن تكون طليقة حرة لا ترهقها الأصفاد ، ولا تتحكم فيها الحواجز والأسداد . وكان مترينى يرى أنه لن يكون لإيطاليا حياة سياسية حرة إلا إذا كان لها أدب ينشد الحرية ، وينزع إلى التقدم ، والثقافة العقلية قرينة الحياة السياسية .

وكان مترينى في تلك الفترة يوالى الكتابة في المجلات الأدبية حتى قبلت مجلة انتولوجيا — وكانت حينذاك أول المجلات الإيطالية — أن تنشر له ، وكانت مسرحاً لأقلام قادة الفكر في إيطاليا . وقد دلت الفصول التى نشرت له بها على النضج وطرافة التفكير وأصالة الرأى .

وكان في أثناء ذلك يحترف مهنة المحاماة ، وكان يؤثر الترافع في قضايا الدفاع عن الفقراء ، وكان الإقبال عليه كثيراً لبراعته واهتمامه وتفانيه .

وأخذت السياسة تطغى عليه ، وكانت إقامته في جنوا تغرى بذلك ، لأن النبلاء والأشراف بها لم يكونوا على وفاق مع حكومة بيدمونت ، على أن هذا الباعث المحلى لم يكن هو أقوى الأسباب في توجيه حياة مترينى وانصرافه بكليته إلى السياسة ، وقد التحق بجمعية الكاربونارى لينفذ برامجه ويحقق أهدافه .

على أدهم

العادة السرية

— ٢ —

ورب سائل يقول: ما الفرق بين العادة السرية والجماع الطبيعي؟ ورداً على هذا نقول: إن الأولى تبدأ في سن مبكرة حين لا يكون الجهاز التناسلي قد بلغ دور الكمال بعد، وتكون خلايا المخ على حال من الحساسية تجعلها تنتبه لأقل سبب، فتتكرر العملية بدرجة لا يحتملها الجسم البشري إذا كان الشخص شاباً أو رجلا مكتمل النمو يحاول جماعاً طبيعياً بنفس عدد المرات التي يحاول فيها ولو بدافع عادته السرية. ولقد سبق القول أن العادة السرية تتسبب من وجود احتقان مزمن في الجزء الخلفي من قناة البول، فلا فائدة إذاً من محاولة علاجها بنصح المريض بالاتصال بالنساء ليتحول تيار تفكيره إلى اتجاه آخر، لأن الجماع يزيد من الاحتقان الزمني الذي هو أس الداء. ومهما فعل الشاب في هذا السبيل فإنه يجد نفسه مضطراً إلى الرجوع إلى عادته المحبوبة من آن لآخر.

وإذا تحدثنا عن أعراض العادة السرية يجب ألا نلقي بالا إلى مبالغات بعض الكتاب الذين يلصقون بها تهماً خطيرة كالجنون وانقباض النفس وعسر الهضم المزمن والأرق المستعصي والذبحة الصدرية وخفقان القلب والربو والصرع والارتخاء الجنسي وغيرها. ولو كانت هذه التهم صحيحة لما ظهر على سطح الأرض عظيم نابغة. لأن القول أن خمساً وتسعين في المائة من عظماء العالم انغمسوا في العادة السرية خلال فترة من حياتهم وعاشوا في جنتها راضين مغتبطين — ولعل أهم الأعراض التي تلاحظ فيمن يمارسها هي ضعف الذاكرة، وهذا ليس ضعفاً بمعناه الصحيح، وإنما يرجع إلى ميل إلى العزلة وعدم اهتمام بما يحدث حول الشاب الذي هو في أغلب الأحيان خجول منطو على نفسه يظن لفرط خجله أن كل الناس يقرأون في عينيه وفي أسارير وجهه تفاصيل ما يرتكبه في وحدته المتواصلة. وهو يتذكر جيداً إذا حاول ذلك، وقد يحصل على درجة الشرف في المدرسة أو الكلية إذا شمر عن ساعد الجد.

وهناك أعراض أخرى قد يشكو منها هؤلاء الشبان وهي حدوث آلام في الفخذ والساق، وصداع في الرأس ودوار يعود من حين لآخر وخاصة بعد ارتكاب الزلة السرية. وإذا فحص الجهاز البولي لوحظ وجود قضاضة وحساسية في قناة البول، وإذا فحصنا غدة البروستاتا عن طريق الشرج وجدناها بدورها حساسة تؤلم عند جسها بالأصبع، وقد تكون متضخمة بعض الشيء، ولو أن هذا ليس دائم الحدوث. ولعل وجود هذه الحساسية في القناة البولية والبروستاتا أكبر إثبات على تأصل العادة السرية في فريستها.

ومن خطل الرأي تبرئة الرجل المتزوج من العادة السرية. فهناك أشخاص متزوجون يمارسونها بجانب الجماع الطبيعي عند توعك الزوجة أو تغيبها. بل هناك من يفضلونها على الزوجة نفسها وخاصة إذا كانوا قد تزوجوا بدافع التخلص من العادة السرية، فيجدون بعد فوات الوقت أنهم لا يزالون أسرى بين مخالبها. فالزواج لا يشفي من العادة السرية المتأصلة ما لم تعالج في الوقت نفسه حالة الاحتقان الزمني في قناة البول والبروستاتا.

وتتميز أخلاق أسرى العادة السرية بهدوء غير عادي وعزوف عن المجتمعات وخجل وابتعاد عن الجنس اللطيف، ومسالمة قد تصل إلى حد الجبن والخنوع.

ويختلف عدد مرات الاستمناء في اليوم الواحد في مختلف الأشخاص، وقد يصل إلى حد لا يصدقه العقل، ولا يمكن حدوثه في الجماع الطبيعي دون أن يؤدي إلى أوخم العواقب. ومع مرور الوقت يجد الشاب نفسه مضطراً إلى الاستمناء بيده — لا لأنه يريد ذلك، بل

لأنه يشعر بتهيج فى قناة البول يدفعه إلى العبث بعضوه التناسلى رغم أنفه ، فيمارس العادة دون أن يشعر باللذة أو السعادة ، ويقل فى الوقت نفسه مقدار السائل المنوى الذى يطرده من جسمه ، ثم يأتى الدور الأخير الذى يجد نفسه فيه عاجزا عجزا تاما حتى عن ممارسة العادة . فهو يشعر بالألم والتهيج فى قناة البول ، ويشعر بالرغبة فى الاستمناء ، لكن مهما حاول العبث بأعضائه التناسلية ، أو تنبيه دعاء الجنس والشهوة فى خلايا مخه الخامدة فإنه يفشل فشلا تاما فى الوصول إلى غرضه من انتصاب ثم قذف ، فتنحط حالته النفسية إلى أسوأ الدركات وأقساها . وعند ما يصل إلى هذا الدور يكون جهازه العصبى قد تأثر تأثرا بليغا فترتعش منه اليدان ويكثر عرقه ، وتنتابه آلام جسمية ، وتخبو قوة ذاكرته ، ويقل انتباهه ، ويسوء هضمه ، ثم يحاول أن يجد من الضيق مخرجا فيلجأ إلى الجماع الطبيعى فيجد نفسه عاجزا ، ويكتشف أن به عنة مستعصية ، وقد تؤدى المحاولة غير الناجحة إلى إصابته بمرض سرى .

ويمكننا أن نتصور حالته النفسية وهو يتخبط كالفأر فى المصيدة ، وقد تأكد أنه لم يعد هناك أمل فى الشفاء من علته حتى يقع فى يد الطبيب الذى يحول هذا الحطام البشرى إلى شخص نافع مسئول ، يرى جمال الدنيا فى وضوح وجلاء .

ولكن كيف السبيل إلى هذا ؟ إن أول خطوة فى العلاج هى التأكد من أن بعض الأعراض التى يقاسى منها المريض غير ناتجة عن وجود أمراض أخرى فى الجسم ؛ ففقدان الوزن والشهية قد يكونان نتيجة لوجود إصابة درنية بالرئتين . وقد يكون الصداع وألم العينين ناشئين من قصر نظر لا يثبت وجوده إلا بعد عرض المريض على طبيب إخصائى . أما خفقان القلب فقد يتسبب من أمراض القلب أو الإفراط فى التدخين . ويجب التأكد أيضاً من عدم وجود إصابة قديمة أو حديثة بالسيلان ، فإن علاجها يساعد على شفاء سريع من العادة السرية . فإذا ما استبعدت هذه الاحتمالات بدئ بعلاج العادة نفسها ويتلخص العلاج فى عمل تدليك لغدة البروستاتا عن طريق الشرج ، ويتسبب عن هذا ألم فى مبدأ الأمر ، ولهذا يكتفى فى الجلسة الأولى بالتدليك لمدة بضع ثوان ، وتزاد المدة وقوة التدليك تدريجياً فى حدود قدرة احتمال المريض .

وبعد هذه العملية ينام المريض على ظهره وتدخل فى قناة البول قسطرة يحقن بوساطتها محلول نترات الفضة المخففة بدرجة واحد إلى ثلاثة آلاف ، ويكون إدخال القسطرة بحيث تصل إلى الجزء الخلفى من قناة البول حيث يوجد الاحتقان المزمن الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى هو موطن الداء فى العادة السرية . وباستمرار عملية تدليك البروستاتا وحقن سائل نترات الفضة القابض فى مجرى البول يقل الاحتقان تدريجياً ثم يختفى تماماً فى خلال ستة أشهر من بدء العلاج .

ويمكننا استنتاج الآتى من كل ما سبق قوله :

(أولا) أن العادة السرية مرض عضوى لا علاقة له بالتوهم والخيال .

(ثانياً) أنها ناتجة من حالة مرضية فى غدة البروستاتا والقناة البولية .

(ثالثاً) أنها قابلة للعلاج والشفاء .

(رابعا) أن العقاب والتقريع والنصح لا تجدى فى الحالات المزمنة ما لم تعالج الحالة المرضية الموضعية .

(خامسا) أن ممارسة الجماع الطبيعى لا يشفى من العادة السرية فى الحالات المتأصلة .

(سادسا) أن ممارستها فى اعتدال وإقلال لا يضر الصحة العامة .

• • •

كنت جالسا فى مقهى « التريانون » بالإسكندرية فى أحد أيام الأسبوع الماضى فإذا بصديق الطبيب يقبل على

من بعيد فى لحظة . وكان ممسكا كعادته بغليونه التقليدى يعض عليه بأسنانه فى شغف الولهان ، فبدأنه الحديث كعادتى قائلا : هل قرأت (الثقافة) هذا الأسبوع ؟ فأجاب كعادته كل مرة أوجه إليه هذا السؤال بقوله : أنت تعلم أنى لا يمكننى أن أعيش بدونها ، وقد لفت نظرى مقالك عن العادة السرية .

ثم دار بيننا الحديث الآتى :

هو — أنا أوافقك على دفاعك عن العادة السرية وعلى قولك إن جميع رجال العالم عاشوا فى جنتها فى طور الشباب ثم خرجوا منها آمنين سالمين ، إلا فى حالات الإسراف والإدمان التى قد تؤدى بصاحبها إلى الانحلال العصبى والنفسى . ولكن كل ما قلته من كلمات التهدئة لم يحل دون انشغال فكرى نحو طفل ، فإن ما أفكر فيه دائما هو كيف أجنبه شرورها التى قد تبدو منذلة بعد كل ما كتبت .

أنا — وما عمر طفلك يا خير الآباء ؟

هو — ثلاث سنوات على وجه التقريب .

أنا — ها ها ها ! لك الله أيها الوالد القلق . فكر أن تجتاز به مرحلة الطفولة فى خضم أمراضها الكثيرة من حيات وغيرها قبل أن يقذف بك تفكيرك العميق البعيد إلى قمة النخلة .

هو — دعنا من المزاح فقد رأيته بعينى رأسى يلعب بأعضائه التناسلية ، وبالرغم من دخولى عليه وهو يمارس هذه العملية فإنه استمر فيها بلا خجل ولا حياء . كان الشق اللعون فى شبه نشوة وقد برقت عيناه واحمر وجهه ثم لم يلبث كل هذا أن تحول إلى تراخ وخمول وصفرة فى الوجه . ولقد حاولت أن أمسك بيده لأبعدها عن هذا الوضع الحساس فجذبها بعنف وصرخ فى وجهى محاولا إبعادى عنه .

أنا — وما الذى يقلقك من هذا ؟ إن الطفل فى هذه السن يجهل تماما ما هى اللذة الجنسية وما وظيفة أعضائه التناسلية . فالعادة السرية تبدأ كمجرد محاولة لقتل الوقت فهناك طفل يمص أصبعه وآخر يقرض أظافره وثالث يداعب أعضاءه التناسلية لكى يشغل أوقات فراغه . واعلم أيها الطبيب اللبق أن العادة السرية لا تدل على شئ من أخلاق الطفل حاضراً أو مستقبلا . وهى فى سن الطفولة لا تعدو مجرد مداعبة يتسلى بها الطفل دون أن ينتهى به الأمر إلى حدوث رعشة عصبية يعقبها إفراز سائل منوى كالذى يحدث عند الولد اليافع .

هو — مع اقتناعى بما تقول هلا دللتنى على طريقة أساعده بها على التخلص من ربقة هذه العادة رغم تفاهتها ؟

أنا — لعل أجدى وسيلة هى ألا تترك له فراغاً دون أن يشغله بطريقة ما . راقبه عن بعد ، حتى إذا ما رأيته يحاول لمس أعضائه التناسلية فلا تنهره ، بل اطلب منه تأدية أى عمل بالمنزل ، واشغل أوقات فراغه بأشياء محببة إليه ، وإذا ذهب إلى فراشه فلا تتركه وحيداً واقصص عليه أحسن القصص حتى يستغرق فى النوم .

هو — لقد طمأنتنى يا صديقى فقد كانت هذه المسألة شغلى الشاغل .

ثم أشعل غليونه وعض عليه بأسنانه بطريقة جعلته يتطلع إلى أعلى متحدياً السماء ، فقلت له : وى وى ! لقد هززت من كتفيك مركبة النقص بعد أن كنت منذ دقائق ضئيلا لا تساوى شيئاً . إنك مهما تعاليت برأسك فلن تبلغ الجبال طولا . أنت الآن طبيب عظيم ، فهل تنكر زلة صغرى ارتكبتها عندما خلوت بيدك فى غفلة ممن حولك ، ألم تمش فى جنتك الصغيرة المتواضعة شهوراً بل سنين حتى فتح الله عليك بما فى الدنيا من حلال وحرام ؟ لماذا تلوم ولدك إذاً ؟ أليس له الحق فى تتبع خطوات أبيه النابغة ؟

فودعنى صديقى مبتسما ولم يقل شيئاً .

(للحديث بقية) دكتور مصطفى الديواني

معاهد عاليـــة

للأمومة المصرية

فماذا للأبوة المصرية ؟

عنيت وزارة المعارف بالأمومة فأنشأت لها أو أزمعت إنشاء معهدين عاليين تتخرج منهما الفتيات وقد أعددن لأن يكن أمهات صالحات .

وإذاً فقد اقتصر تثقيف الأمومة على من يلتحقن بهذين المعهدين ، أما سائر الفتيات اللائى يتعلمن فى المعاهد الأخرى ولا يلتحقن بهذين المعهدين — ومعهدان لا يعقل أن يتسعا لكل من تريد أن تتعلم الأمومة من فتيات مصر — أما سائر الفتيات فسوف يظل تعليمهن على ما هو عليه الآن ، مع أن الأمومة ليست حرفة تختص بها طائفة دون سائر الفتيات .

يجب أن يكون للأمومة علم يدرس فى مدارس البنات جميعاً ، يقرر منه عليهن فى كل سنة مقرر بجزء كالحساب والجغرافيا والتاريخ وغيرها .

وعلم الأمومة الذى أقصده ليس التدبير المنزلى ، ولا مبادىء علم الصحة والإسعاف الأولى ، إنما أقصد بعلم الأمومة مختارات من علم النفس والتربية ، حتى تتصرف الأم مع أطفالها تصرفاً صحيحاً فى مواجهة مشاكلهم وعلاج ما يظهر عليهم من صفات يحتاج تقويمها إلى أساليب تختلف باختلاف هذه الصفات ومزاج الطفل ووراثته ؛ فالسائد حتى الآن أن كل أم تربى أطفالها كما يعن لها وكما تعتقد أنه الصواب ، لا ترجع فى ذلك إلى ما كشف عنه علم النفس فى السنين الأخيرة من طرق .

ولو أن علم الأمومة أوجد كما أوجدت سائر العلوم التى تدرسها البنت ، ولو أن الأم وهى تربى أطفالها كانت مزودة بأصول هذا العلم لكانت تربية الأطفال تربية صحيحة مبنية على العلم الصحيح لا متروكة لمزاج الأم واجتهادها ومشورة غيرها ممن يشيرون بما يعن لهم وبما يعتقدون أن فيه الخير من غير علم .

الحق أن برنامج تعليم البنت حتى اليوم يعدها للمجتمع ولإدارة البيت ، ولكنه لا يعدها لمواجهة مشاكل الطفولة ، وهى فى الواقع أهم وظائف الأم وأبقاها أثراً . فالسيدة الناجحة فى المجتمع ، والتى تدبر بيتها إدارة حازمة سليمة ، وتعنى بصحة أولادها ، إن أخطأت فى علاج ما يبدو على أطفالها من سيء الصفات ، فشبوا على غير ما يجب من كريم الخلق ، هذه السيدة فى نظرى سيدة مخفقة لأنها ستقضى أيام كبرها فى حسرات متتابعة ، لا يكشف عن نفسها الحزن ما صادفت من نجاح فى المجتمع وما ساد بيتها من نظام وحسن إدارة .

قد يقال إن أمهاتنا لم يتعلمن علم الأمومة ، وقد أحسنّ تربيتنا . وردّى على هذا هو أن تربيتنا فى الواقع وليدة المصادفة الحسنة ، وعيوبنا وفضائلنا لم تتكوّن نتيجة لنظام معين ، إنما تكونت لأنها كان يجب أن تتكون تحت حكم الظروف التى مرت بنا . والدليل على ذلك أنك تجد أخوين أحدهما مثل أعلى لكل الصفات الجيدة ، والآخر وصمة فى جبين العائلة . والسبب فى ذلك أن الأخوين وهما طفلان عاملتهما أمهما معاملة واحدة أملاها عليها مزاجها وتفكيرها ، وكان الطفلان مختلفين مزاجاً واستعداداً ، فنفع نوع المعاملة أحدهما ، وأفسد الآخر . ولو أن الأم كانت قد تعلمت علم الأمومة كما حددته ، لعاملت كلا من الطفلين بما يصلحه ، ولأدركت أن فى أحدهما شذوذاً يحتاج إلى استشارة طبيب نفسانى عالم فيرشدها إلى ما يصلح ذلك الشذوذ .

يجب أن يوضع هذا العلم ، ويجب أن يقسم إلى مراحل تدرس فى مختلف مراحل التعليم ، وأن يعمم فى كل مدرسة .

أما المعهدان اللذان أشارت الصحف إلى أن وزارة المعارف آخذة فى إنشائهما ، فيجب أن يحولا من الآن إلى

معاهد لتخريج مدرسات هذا العلم الجديد ، علم الأمومة .

وننتقل الآن إلى الشق الآخر الذى لا يفترق عن الأمومة ، أعنى الأبوة ، والأب والأم كشقى الرحى .

لا يدرس الأولاد والشبان فى مراحل التعليم شيئاً عن الأبوة البارة العاقلة الحازمة البصيرة ، فإذا أصبح الشاب أباً ، فإن عليه أن يضرب فى هذا الطريق على غير هدى من علم أو دراسة . فماذا يكون الحال إذا تزوج إحدى خريجات معهد الأمومة ، وبدأت الأم تسير فى تربية أطفالها على أسس العلم الذى تعلمته ، ورأى الأب فيما تفعله الأم أشياء لا يعلم عن كنهها شيئاً ، وإنما هو يرى أنها مخالفة لما ربته عليه أمه .

لا شك أنه سيعترض ، ولا شك أن الأم ستعتز بما علمت وتتمسك به ، فيقوم بينهما نزاع . الأب وهو رب البيت جاهل بما تعلمته الأم ، ومن جهل شيئاً عاداه . والأم يعز عليها أن تخالف أسس العلم الذى سهرت الليالى فى تحصيله ! ونتيجة هذا النزاع تتبع طريقة تفكير الأب ومزاجه ، فإن كان عنيداً ، فإن على الأم أن تتنازل عن علمها ، وأن تفعل ما يريده الأب . وإذاً فقد ضاعت ثمرة علمها ، بل انقلبت الثمرة حسرة ، إذ ترى أن أطفالها يربون تربية ستنتهى بهم إلى ما لا خير فيه ، إن صح العلم الذى علّمته .

وإن كان الأب لين العريكة ، ترك أمر التربية للأم لا يتدخل فى شىء ، ولهذا خطره ، فإن الأطفال إذا شبوا بدأوا — وخصوصاً الذكور — يستهينون بسلطان الأم ، ولا يجدون للأب السلطان الذى يخشونه فينفلت قيادهم ، لا الأم احتفظت به ، ولا الأب أمسك به .

وتقرير علم الأمومة وحده إذاً سيكون سيىء الأثر على كيان الأسرة ما لم يصاحبه علم يضارعه ويسايره جنباً إلى جنب هو علم الأبوة ، يرتكزان على أسس واحدة ، ويشيران إلى أساليب فى التربية واحدة ، حتى إذا اجتمع الفتى والفتاة زوجين ، وتكونت منهما الأسرة ووُجِدَ الأطفال ، كانت تربية الأم لأطفالها على هدى علم الأمومة غير غريبة على الأب لما تعلمه من علم الأبوة .

وإذاً فلا خلاف بين الأم والأب ، وتجد الأم فى تربية أطفالها العون والسند فى الأب ، ويجد الأطفال أمّاً ترشد وأباً يرقب ويشدد ، وهكذا تسير أمور الأسرة فى نظام وانسجام .

* * *

ولابد وقد أوجد هذان العلمان من علم ثالث ، هو أساس لما يبنيه العلمان من سعادة ، لأن أثره يظهر قبل أن يبدأ أثرهما ، أو حتى عملهما .

ذلك هو علم الزوجية ، وهو أيضاً يجب أن يدرس للبنين والبنات على السواء ؛ ومنبعه كذلك والمأخذ الذى يؤخذ منه هذا العلم هو علم النفس والتجارب .

هذا العلم يجب أن يقسم أيضاً إلى مقررات ومراحل كالطبيعة والكيمياء ، فيعطى منه كل عام ما يناسب سن التلاميذ . يوضح فيه فضل الحياة الزوجية ، ويوضح فيه شر العزوبة والاسترسال فيها ، ويشير إلى ما قد يصادف الزوج والزوجة من مشاكل لاختلاف المزاج أو البيئة التى نشأ كل منهما فيها ، وكيف تعالج تلك المشاكل ، فلا يتزوج الشاب وهو خالى الذهن مما سيصادفه من عقبات تؤدى فى كثير من الأحيان إلى هدم الأسرة .

هذه العلوم الثلاثة غير موجودة فى مصر ولا فى غيرها ؛ فإن أوجدناها فى مصر فقد سبقنا سائر الأمم فى هذا المضمار ، وإن أوجدناها فإنى أعتقد أن نسبة الطلاق ستنخفض كما انخفضت نسبة الوفيات ، بعد أن انتشر علم الصحة العامة بين الناس . وله نتيجة لا تقل عن ذلك قيمة ، وهى إقلاع المتصلفين من الإضراب عن الزواج المبكر ، ولهذه النتيجة عودة أثبتها فيها بالدليل .

ولابد هنا من الإشارة إلى أن دراسة هذه العلوم

الثلاثة يجب ألا تقتصر على المدارس ، بنين وبنات ، بل يجب أن تلقى فيها محاضرات فى كليات الجامعة . وأن تعنى بها الجامعة الشعبية ، والمدارس التى تنشأ لمكافحة الأمية ، لأنها لا تخرج فى الواقع من إحصاء لمشاكل فاشية فى جميع الأوساط ، وذكر خير الطرق لعلاج تلك المشاكل ، ولا فرق بينها وبين علم الصحة العامة ، إلا أن هذه تعنى بسلامة الأجساد ، وتلك تعنى بسلامة الأرواح والأخلاق .

عبد الله يوسف سعد

فيضان النيل

بين الخرافة والحقيقة

تقديس النيل قديما :

منذ عصور متوغلة فى القدم سرى على العقلية المصرية طور جرت فيه مع الخيال وابتدعت الأساطير وآمنت بعدد من الآلهة ، أثبتت لهم كثيرا من الصفات البشرية وأسكنتهم السماء تارة والأرض طورا ، وأنزلتهم من السماء أحيانا كى يراقبوا أعمال الناس ويجزوهم بما عملوا جزاء وفاقا .

وقد قدس المصريون الأقدمون النيل واتخذوه إلها لهم — لما له من فضل وإفضال عليهم — وأطلقوا عليه شتى الأسماء ، فاسمه المقدس عندهم هو « حعبي » ، فإن جردوه من صفة التقديس أسموه « يومع » ومعناه اليم ، أما كلمة « النيل » فيونانية الأصل ، وهى عند اليونان « نيلوس Nilos » ، والغالب أن اليونان أخذوا هذه التسمية من الفينيقيين أو الحيثيين .

أما تمثال النيل الذى نحتوه من الصخر الصلد فهو آية فى الإتقان والإبداع ، فقد مثلوه رجلا وسيما منتظم الخلق له نضارة وفيه غضارة ، وعليه وقار ، تلمح فى وجهه نضرة النعيم ، وفى سحنته رسوخ النسب وعراقة الأصل ، قوى الجسم ممتلئه مع خصر نحيل ، وجعلوا له نهودا قد تدلت على صدر رحيب سمين ، وعلى أفخاذه طين يسيل ، والماء ينبع من نهديه ؛ وله قرينة تشاهد واقفة أمامه وذراعاها مرتفعتان كأنها تسأله الماء لإخصابها ؛ وإنك لتقرأ تحت هذا التمثال تلك العبارة « حعبي (أى النيل) هو رب الأرباب ومانح الغذاء ، ومخرج المأكولات بخصبه ، ومالىء القطرين بغلاته ، وهو واهب الحياة ومفعم البلاد خيراً ، ومزيل المجاعات » .

أسطورة الفيضان :

هكذا مثل الأقدمون النيل ، فلما أرادوا تعليل فيضانه ابتدعوا أسطورة « أوزوريس » الطريفة ، التى تتلخص فى أن الإله « أوزوريس » نزل من السماء على هيئة إنسان كى يعلم الناس السلام ويرشدهم إلى الهدى فأحبوه ، حتى حقد عليه أخوه « ست » فدبر له مكيدة قاسى فيها من الآلام ما قاسى حتى كاد يهلك ، فحزنت عليه « إيزيس » امرأته وبكته بكاء مراً ، وفى أثناء بكائها سقطت من عينها دمعة فوق نهر النيل ففاض على الفور وأترع الوادى وملأ البلاد خصبا وأشبعها ريا ، ومنذ ذلك الوقت ظل يفيض عاما بعد عام ، ويجرى بالزيادة والنقصان فى أيام معلومة .

الفيضان ونجم الشعرى :

وقد كان من عادة المصريين الأقدمين أن يخصصوا لكل معبود من معبوداتهم كوكبا أو نجما من النجوم التى تتألق فى سمائهم ، فخصصوا المعبودة « إيزيس » النجم المعروف الآن باسم « الشعرى اليمانية » ، وكان أعظم نجم عندهم ، ويسمونه « سوثس » ، وأحيانا « إيزيس » باسم المعبودة نفسها . واعتبر المصريون ظهور الشعرى بشيراً بالفيضان إذا ما أشرقت فى منتصف الصيف مع الشمس ، وكانت هذه الظاهرة دليلا على مبدأ الفيضان ومبدأ السنة التى بنى عليها التوقيت فى البلاد ، ثم قسموا السنة إلى

فصول ثلاثة تتفق مع حركات مياه النيل ، وهي فصل الفيض ، وفصل البذر ، وفصل الحصاد . وبهذا سبقوا أمم العالم قاطبة في تقسيم السنة إلى فصول ، وتقسيم الفصول إلى شهور .

وقد جعل المصريون يوم ظهور الشعرى على النحو الذي أسلفناه عيداً لهم ، كما كانوا يقيمون عيداً آخر عند قطع الجسور ، وثالثاً عند شق الترع . هذا وقد خلدوا « الشعرى » في رسومهم التي تركوها لنا ، إذ قد عثر بعض المنقبين أخيراً في هيكل دندره على رسم لمنطقة فلك البروج وعلى حواشيها نجوم شتى أشهرها الشعرى على هيئة بقرة نائمة في سفينة وعلى رأسها نجم وفي جيدها علامة الحياة

الشعرى في الفلك الحديث :

تعتبر « الشعرى » من أزهى نجوم السماء التي ترى في مصر ، وهي بزهائها وسطوعها تسترعي الأنظار وتعد أفضل مثل للنجوم البيضاء إلا أن تلألؤها يجعلها تبدو كأنها تبعث وميضاً ذا ألوان شتى تغلب عليها الزرقة ، والعرب تسميها الشعرى اليمانية لأنها تغيب في شق اليمن ، وهم بهذا يميزونها عن الشعرى الشامية ؛ وفي أساطير الأولين أن الشعرى الشامية بكت على أختها « سهيل » حتى غمصت عيناها ، فسميت بالشعرى « الغميصاء » بعكس اليمانية التي عبرت المجرة إلى أختها نحو الجنوب فابتهجت ولمعت عيناها وتألقتا ، وكانت تسمى أيضاً عند عرب الجاهلية بالشعرى العبور ، وقد عبدتها بعض قبائل العرب ، وورد ذكرها في القرآن الكريم « وأنه هو رب الشعرى » ، أي أنه سبحانه — أعلى وأجل .

ومن أراد أن يرصد الشعرى في هذه الأيام فليطلع إلى السماء في الناحية الجنوبية الشرقية بعيد الفجر ليشاهد مجموعة رائعة من النجوم مؤلفة من أربع أضلاع داخلها ثلاث نجوم على خط واحد يخطف البصر بريقها وتعرف عند العوام بالعصي . هذه المجموعة يسميها الفلكيون « كوكبة الجبار » وترى وراءها كوكبة أخرى على شكل مثلث أسطع كواكبه الشعرى وبجانبها مجموعة ثالثة هي « كوكبة الثور » هذه المجموعات الثلاث المتجاورة خلبت لب الأولين فنسجوا أسطورة تزعم أن الجبار خرج بسطاه وتمنطق بحزام متألق وحوله كلاب صيده وهو يهز هراوته في يده متأهباً للقاء الثور المندفع نحوه بقرون قد خفضها للنطاح . ولا شك أن تألق هذا النجم مع الفجر في الصيف القائظ هو الذي أوحى بتسميته ، فاسمه عند اليونان Sirius « سيريوس » ومعناه المحرق . وقد تنبه إلى ذلك الشاعر العربي حين قال :

يسوم من الشعرى يذوب لعابه
أفاعيه في رمضائه تتململ

بدء التفسير العلمي للفيضان :

ظل الفيضان أسطورة قروناً عديدة إلى أن استولى النوبيون على مصر وأسسوا فيها امبراطورية حكمت البلاد باسم الأسرة الخامسة والعشرين ٧٣٠ — ٦٦٣ ق . م . وكان من بين ملوكها « طهراقه » وفي عهده دونت وثيقة ذكر فيها أن النيل فاض وأن الفيضان كان نتيجة سقوط أمطار غزيرة على بلاد النوبة . وبذا حوت هذه الوثيقة أول تفسير علمي لظاهرة الفيضان .

الفيضان العزيز والفيضان الشحيح وعلاقة ذلك بكلف الشمس :

لم يحاول المصريون الأقدمون تفسير الفيض الذي يجيء تارة والشحيح تارة أخرى ، وتركوا ذلك للمحدثين من العلماء الذين يربطون — بدورهم — هذا النوع من الفيض بظواهر فلكية ولكن من نوع جديد ؛ فهم يرجعونه إلى ما يظهر على صفحة الشمس من بقع قاتمة تعرف بالكلف . وقد أثبتت مراصد العالم منذ نحو أسابيع ثلاثة أن هذه

البقع قد تزايدت على وجه الشمس تزايداً محسوساً وأنها سوف تقذف الأرض بتيارات كهربية تؤثر في المواصلات البرقية في جميع أنحاء العالم تقريباً ، وسيكون لها أثرها الفعال في تكوين السحب وزيادة الأمطار وسيتبع ذلك فيض عميم تفيض به الأنهار .

ومن الكلف ما لا يمكن رؤيته إلا بأدق المناظير ، ومنه ما هو عظيم الحجم شبيه بفجوات مظلمة هائلة كفوهات البراكين الثائرة تقذف بالنار والحمم ، والكلفة الواحدة من المعظم بحيث تستطيع أن تبتلع أرضنا كلها إذا سقطت فيها كما تسقط كرة البلياردو في أحد جيوب النضد .

أسبابه :

أرجح الآراء في أسباب حدوث هذا الكلف ما قال به العلامة « لكير » الفلكي الشهير مؤسس ومحرر المجلة العلمية ذائعة الصيت (Nature) ويتلخص في أن قرص الشمس يرد إليه باستمرار هواء صادر من مناطق الشمس الأخرى فيظهر مظلماً بالقياس إلى قرصها باهر النور. ومن شأن هبوط الهواء على قرص الشمس أن يحدث فيه فجوة لشدة ضغطه فيكون جسم الكلفة النازل في حين أن ضغط الهواء النازل يحدث ارتفاعاً في الأجزاء المجاورة للفجوة ، ولهذا نرى الكلفة بقمة قائمة حولها منطقة مضيئة .

أثر كلف الشمس في الظواهر الجوية :

يجمع العلماء على ترجيح الفكرة القائلة إن هذا الكلف تندفع منه في الفضاء دقائق « إلكترونات » محملة بشحنات كهربية سالبة بتحرك حركة مستديرة تؤدي إلى حدوث مجال مغناطيسي ، فإذا ما انتشرت المواد المكهربة في الفضاء مالت إلى الاستفراغ أو التعادل والانتشار في الأرض نفسها ، وهي إذا تراكمت بشدة انفجرت بثقلها على مقاومة الهواء الأسفل وتطاير منها شرر وأحدثت عواصف كهربية يكون من نتيجتها تكاثف البخار وتكوين السحاب وزيادة الأمطار تبعاً لها . وقد لوحظ أن عدد الكلف كان على أقله والمغناطيسية الكهربية على أضعفها في السنوات ١٨٤٩ ، ١٨٧٨ ، ١٨٩٠ ، ١٩٠٠ وفيها قل المطر قلة محسوسة في جهات الأرض مما يؤيد هذا الرأي ، وسنوات القحط في الهند في آخر القرن الماضي كان يصحبها انحطاط مقدار الكلف . وقد ظن أن انخفاض فيض النيل في سنتي ١٨٤٩ ، ١٨٧٨ يعزى إلى السبب عينه . وقد امتازت سنة ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ، ١٩٤٢ ، ١٩٤٦ بكثرة الكلف وبالفيض العالي الشديد .

وهناك من الافتراضات الجغرافية الحديثة الأخرى ما يفسر فيض النيل العالي ، وكلها قائمة على نظرية الضغط المنخفض؛ ذلك أن الهضبة الحبشية تقع بين منطقتين يختلف فيهما الضغط الجوي زمن الصيف اختلافاً بيناً ، وهما : منطقة الضغط المنخفض الأسيوية ومركزها الخليج الفارسي ، وتمتد أطرافها أحياناً حتى تشمل جزءاً كبيراً من هضبة الحبشة فتكثر الأمطار هناك تبعاً لذلك . ومنطقة الضغط المرتفع في المحيط الأطلسي (حول آزورا) قد تمتد أطرافها أحياناً وتسبب انخفاض الضغط على الحبشة وبالتالي كثرة الأمطار . ولا يزال أمام العلماء مجال فسيح لافتراضات أخرى .

نسأل الله تعالى أن يقي البلاد شر هذا الفيض العالي ، وأن يلهم أولى الشأن العمل على تجنب البلاد ويلات الفيض الشديد في المستقبل ، فيعملوا على تنفيذ المشروعات التي تدرأ الخطر عن الوادي حتى يتحقق في النيل قول شوقي رحمه الله :

ابن ماء السماء ذو الموكب الفخـ
ـم الذي يحسر العيون ويخسي
لا ترى في ركابه غير مثن
بجميل أو شاكر فضل عرس

عبد الفتاح الزيادي

نبات البردى

وفضله على الحضارة الفرعونية

« يجب فضل إلى ما وتذكر بالماضي من الحوادث إلى نبات البردى » .

(بلين)

المؤرخ الروماني المتوفى في سنة ٧٩ ميلادية

البردى نبات مائي كان يزرع في مصر السفلى في عهد الفراعنة في مساحات واسعة . وقد وصف تيوفراست[1] هذا النبات وطبيعة نموه فقال : « كان يزرع البردى المصرى في المياه الراكدة التي قلما يزيد عمقها عن تسعين سنتيمترا ، وكانت كل شجيرة من شجيراته تنشأ من جذر يمتد في الأرض امتداداً أفقياً ، طوله يقرب من أربعة أمتار ، تنبثق منه جذور صغيرة تمتد في الطين . أما سيقانه فمثلثة تنمو وتعلو حتى يبلغ ارتفاع كل منها نحو مترين . والشكل ساق رأس يتفرع فروعاً خضراء متدلية تشبه الخيوط ، وإذا رأيت إحدى الشجيرات وجدتها مثلثة الشكل » .

وكان هذا النبات لا يقطع من المستنقعات التي ينبت فيها ، بل كان ينزع نزعاً لأن الجزء الأسفل من الساق خير من بقيته بالنسبة لمتانته . فإذا نزعت سيقان البردى من مستنقعاتها قطعت الأجزاء السفلية منها قطعا متساوية الطول وربطت حزماً . أما السيقان المتوسطة الغلظ فكانت تشد بعضها إلى بعض شداً وثيقا لصنع القوارب الخفيفة التي كانت تستخدم لعبور المستنقعات أو لاجتياز النهر من شاطئ إلى شاطئ . أما سيقان البردى الدقيقة جداً فكانت تشق نصفين وتستعمل كأربطة لحزم الربطات .

ولاستخدام هذا النبات في الكتابة كان الفراعنة يشقون البردية شرائح يضعونها جنباً إلى جنب موازية بعضها لبعض ثم يصفون فوقها طبقة من الشرائح بوضع عكسي ثم تلصق الطبقتان بمواد ملصقة . وبعد ذلك كانت تدق لتسويتها ثم تدلك بقطع من العاج أو الصدف المصقول ليصير سطحها مستوياً تام الملمس .

وكانت صحائف البردى تضم بعضها إلى بعض وتلصق بعجينة خاصة فتتألف منها أدراج أو لفائف طويلة ، حتى إن بردية « هيرس » وصل طولها إلى ما يقرب من ١٣٠ قدماً . وهذه أطول وثيقة انحدرت إلينا من هذا الماضي الفرعوني المجيد .

وكان المصريون القدماء يستخدمون في الكتابة قلماً من البوص أو القصب بعد إعداده بجعل طرفه مدبباً ، ثم استبدلوه فيما بعد بريش الطيور وبأقلام معدنية . أما المداد فكان أغلبه ذا لون ثابت ، ويكفي للدلالة على ذلك بقاء هذه المخطوطات الفرعونية في حالة جيدة حتى الآن .

وكانت الكتابة في أوراق البردى في غالب الأمر على الوجه الذي تكون فيه ألياف البردى أفقية الوضع حتى يسهل سير القلم . أما الكتابة على الوجهين فكانت في حكم القلة .

وكانت لفائف البردى تطوى بحيث يكون وجهها المكتوب إلى الداخل . وكانت اللفافة تثبت في نهايتها بعصا ، وكان يلحق بها في أغلب الأحيان قطعة صغيرة تحمل اسم المخطوط وبعض بيانات عنه .

وقد ظل المصريون القدماء يزرعون هذا النبات ويصنعون منه لفائفهم دون أن ينافسه في ذلك منافس ، إلى أن فتح العرب مصر فكان هذا بداية تحول ، فإذا بالورق العادي يكتسح أمامه البردى شيئاً فشيئاً ، فما إن حل القرن العاشر الميلادي حتى كانت صناعة الورق من نبات البردى قد بطلت ، وحل محلها صناعة الورق من الخرق البالية ومن بعض الأعواد النباتية .

(١) تيوفراست فيلسوف ومؤرخ عاش في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد .

وقد كان للعرب فضل نقل زراعة البردى وصناعته إلى أوربا . فعندما فتحوا جزيرة صقلية زرعوه بها ، فكان ينمو هناك بكثرة فى مستنقعات « بالرمو » ولا يزال يوجد حتى الآن فى هذه الجزيرة .

* * *

وبفضل صناعة أوراق البردى من هذا النبات كانت مصر القديمة كما قال الدكتور جوستاف لوبون مغرمة بتأليف الكتب النباتية ؛ فمن كتب دينية إلى شعر إلى مراسلات ، ومن بنود علمية وأخلاقية إلى وثائق وإحصائيات ، حتى القصص كانت تشغل حيزاً كبيراً من هذه الأوراق .

ومن أقدم أوراق البردى « كتاب الموتى » الذى كان يوضع مع الميت فى تابوته وهو يحوى توسلات ودعوات موجهة إلى عدة آلهة استعطافاً لها على الروح الصاعدة إليها ، أو إلى الشمس حيث تستجلى هذه الروح إليها وهى خالصة من اللحم . ثم تأتى فيه فصول أخرى باحثة فيما وراء المادة فتوضح أن الميت لا يؤتى النعيم الأبدى إلا إذا كان يعرف خفايا النفس والدين وسر طبيعة الآلهة .

وقد احتوت أوراق البردى على كثير من الأدب الفرعونى ؛ ففيها نصائح فلسفية لبعض الحكماء أمثال « بتاح حتب » و « آنى » . وتناولت أيضاً سرد الكثير من القصص أمثال قصة سنوهى وقصة البحار الغريق وقصة تحوتى . وكان التلاميذ فى هذا العهد الفرعونى يحفظون الكثير من هذه الأدبيات عن ظهر قلب وينسخونها فى كراساتهم .

أما من الناحية العلمية فقد تناولت لفائف البردى الكثير من النباتات الطبية وطرق استخدام بعض الأدوية البسيطة التى لا يزال استخدامها شائعاً حتى اليوم مثل زيت الخروع .

وقد أوضحت الأوراق البردية الفرعونية مدى تقدم المصريين القدماء فى علوم الحساب والهندسة والفلك وأوضحت لنا كيف عرفوا مساحة المربع والمستطيل والمثلث والدائرة .

وها هى أوراق البردى تحتل مكانها ، لا فى متاحف القاهرة فحسب ، بل فى متاحف لندن وبرلين وباريز وليد ؛ ففى المتحف البريطانى نجد عدة أوراق بردية ، منها واحدة غاية فى النفاسة ، تروى بدء قتال المصريين ضد الهكسوس . وفى متحف برلين وجدت مذكرات سينيه المشهورة تحتوى — غير شكوى كاتبها من نفيه — على كثير من العادات الحربية عند الأسرة الثانية عشرة وما كان يجرى فى بلاط فرعون والمصائب التى تنزل عن يحل عليه غضبه والشرف الذى يناله من كسب رضاه . وفى متحف ليد توجد أوراق بردية تعالج موضوعات خلقية وفلسفية .

وفى الجمعية التاريخية فى نيويورك نجد قرطاساً طبياً اشتراه إدوين اسميث وأهداه الجمعية ، ويحتوى على وصف ٨٤ حالة مرضية .

من هذا العرض القصير نرى أنه بفضل البردى دونت كل مظاهر النشاط الفكرى والسياسى والدينى فى عهد أجدادنا الأول ، فكان هذا بمثابة النواة الأولى التى تجمع حولها كل ما استجد من نشاط فكرى على مر الأيام والقرون .

وهنا نتساءل : ما ذا يكون تصورنا لحياة أجدادنا القدماء ، لو لم تدون مظاهر حياتهم وألوان معتقداتهم على أوراق البردى ؟ !

لاشك أنه سيكون مليئاً بالغموض والتشويه فى كثير من نواحيه .

وعلى العموم يمكن القول أن الحضارة القديمة مدينة فى نموها لورق البردى ، كما أن الحضارة الحديثة مدينة فى انتشارها للورق العادى الذى نستخدمه فى أيامنا هذه لطبع صحفنا وكتبنا .

عز العرب فرج

نداء . . .

اهتزت أرجاء السفينة لوكـل هول فى أعماق الليل ، وكانت ضربة الطوربيد الذى أصابها من العنف حتى لكأن أركانها قد تأودت وانخلعت .

وكانت أليس كارى — أو « الأم كارى » كما يسميها البحارة لا تزال فى قمرتها لا يطاوعها النوم ، وكانت تحدق فى صورة زوجها وابنها . لقد ناداهم البحر ونداهم الوطن فلبوا النداء جنوداً بواسل . لم يبق لها منهم إلا هذه الصورة الحبيبة تنطق وجوههم فيها بأنبل آيات التضحية والفداء ، ثم ذكراهم التى ما برحت تؤنس وحشتها بعد هذا الغياب الطويل . . .

قالت تحدث نفسها : إنى لأبغض البحر . . إنه ليخيل إلى أن هذه آخر رحلة أطوف بهـا البحار وأرعى شؤون رجاله . لقد سئمت هذه الحياة وسئمت العيش فى غمارها ، فإلى . . متى آوى إلى كوخ بمصمى ؟ .

وسمعت عند ذلك ضربة السفينة التى اهتزت لهـا أرجاؤها ثم أبواق الخطر تنطلق تنذر بأرهب ما تسمعه الأذن . وإذا الأقدام تغدو وتروح فى اضطراب وفوضى فهمت من مناجاتها إلى سطح السفينة فسمعت صوتاً جهورياً ينادى : الجميع يغادر السفينة .

وعرفت نهايتها . . إن شيطان البحر يدعوها إليه اليوم دعوته لرجالها منذ أمس الذاهب .

لقد عاصرت حرباً فى صدر أيامها منذ نيف وعشرين عاماً . وها هى ذى لتشهد الأخرى وقد بدأ الشعر الأبيض يغزو فوديها بعد إذ تصرم حبل الشباب وولى ربيع العمر .

وأقبل عليها شبح فى حلكة هـذا الليل والفوضى الضاربة ، فصاح بها : « أليس » وكان صوت القبطان . واهتزت نفسها عند سماعها ذلك الصوت رغم هذه اللحظة الحرجة الدقيقة . فإنه لم يكن يدعوها باسمها المجرد قبل ذلك قط . وإنما ألفت منه أن يدعوها بمسز كارى . . ثم سمعته وهو يقول : أسرعى . هيأت لك مكاناً فى القارب رقم ١ . لقد أصاب الأوغاد سفينتى بطوربيدهم . أسرعى . . أرجو لك حظاً طيباً . وهز يدها يصافحها ثم انحنى فجأة وقبلها .

لقد عرفت هذا الرجل منذ بعيد . منذ فارقها زوجها وابناها . وأبحرت معه . وعرفت نفسه وعرفت خفاياه . رجل بحر وهب له كل ما قلك . حتى ابنه الواحد . ذهب فيمن دهامم البحر بندائه الرهيب . وها هوذا اليوم بشعره الأبيض إلا من بعض شعرات سود ، وهيئته التى لا تزال تحتفظ بشىء من نضارة ذاهبة ، يخطو خطوته الأولى نحو شتاء الأيام . ولكنه لا يزال متوثباً جم النشاط .

قالت له : وأنت يا بول . . ألست بقادم معنا ؟ فقال لها : سأنظر فى ذلك .

وعرفت ما يعنيه بالنظر فى أمر نفسـه . عرفت أى مصير هو صائر إليه . إنه عين المصير الذى آل إليه رجالها . . بالهؤلاء الرجال ! إنهم لا يزالون يتمسكون برمز بطولتهم الجوفاء . يقفون على أطراف سفنهم ثم يغيبون معهـا شيئاً فشيئاً تحت أطباق هذا اليم العميق .

وغاب عنها يصدر أوامره بصوته الجهورى وسط رجاله ونزل الجرحى ثم بقية الرجال . وأصـوات الضحكة بين ذلك يغمغم بها الجميع . وسمعت أحدهم يضحك وهو يقول لصاحبه : « لا عليك من أمرى . فإنى أستطيع المحاولة . فلا زالت لى سـاق واحدة صحيحة . عليك بالآخرين . وشعرت بالفخر يغمرها . فقد رعت هؤلاء جميعاً . إنهم أبناؤها . خاطت ثيابهم . ومرّضت مريضهم . وواسـت آلامهم . وأحبتهم وأحبوها . . ثم سمعت اسمها يتنادى به الجميع : « أين الأم كارى . . أين الأم كارى ؟ » فأجابت تهدىء من جزع صيحاتهم عليها قائلة لهم : ها أنذا فى القارب . فاطمئنوا .

لم تكن في القارب . لقد وقفت عند حافة السفينة ولم تغادرها . وكان كل قارب يأخذ حظه من الرجال ثم يبتعد في لجج اليم عن موطن الخطر . لم يداخلها الخوف لموقفها هذا الذي وقفته وآثرته على غيره . فقد أحبت السفينة وأبناءها من البحارة . فلن تبارحها الساعة ما ظل أحدهم فوق سطحها . فذلك هو مكانها الذي لا ينبغي أن تكون في مكان غيره .

ولمحت عند الطرف الآخر من السفينة أمام قمرة القبطان لفافة مشتعلة . إنه هناك . . أي عاصفة من الغضب سوف يقابلها بها ؟ وإن السفينة لتتخذ طريقها إلى القاع في هوادة قليلا . قليلا . . أينتظر إليها الساعة نظرته إلى مرؤوسة له . يصدر إليها أوامره ؟ ولكن . . ألم يناديها منذ قليل باسمها المجرد وقبلها ؟ لقد عرفت منذ لحظة أنها لم تكن في عينه مجرد مرؤوسة . بل امرأة مقبولة . محبوبة . قالت تهامس نفسها : إني لحمقاء . أي نفع في هذه الأم كارى . إنها لا تصلح إلا أن ترعى بحارة قد قسا عليهم البحر فأقصى رقهم وأغلظ من طباعهم . وعادت إلى نفسها تستوثق مما ذهبت إليه . لا . إنها لا تزال جميلة . وإن هواء البحر وضوء الشمس وكثرة الرحلة ، لم تقس على طبعها أو تمس جلدها . وإنما حفظت عليها جمالا تميزت به منذ فجر الشباب . وهو ؟ . إنه لا يكبرها إلا بقليل من السنين رغم شعره الأبيض الذي مدت عليه الأهوال . ولكنه لا يزال يبدو فتياً .

أكان عجباً أن تتناولها أمثال هذه الخواطر في ليلة قد تكون آخر لياليها . وهذا بول كيجان يمثل لها في أدق لحظة وأخطرها . ولكنها لم تستطع رغم ذلك كله دفع هذه الخواطر عنها . فقد تولت بول بعنايتها بعد أن نادى البحر رجالها الثلاثة .

ومضت إليه في قمرته . ووقفت عند الباب ، جامدة لا تتحرك . ولكنها لم تجد أثراً للفافته المشتعلة . ونادته ، فلم تحظ بجواب لندائها . . وتولاها شيء من الذعر . أترى قد أبطأت عيناها النظر تخيل إليها أنها رأت لفافة مشتعلة ؟ وهل يكون قد غادر السفينة فيمن غادرها من رجاله ، وبقيت هي . . وحدها !

وجعلت تضحك ضحكات جافة يغلب عليها اليأس . ووجدت نفسها تتحرك في بطء تحملها قدماها نحو قمرتها نحو الوحدة الأبدية الصامتة .

« أليس . . ما الذي يبقيك هٰهنا يحق السماء ؟ » . ذلك أول ما سمعته عند دخولها القمرة . وعلى ضوء مصباحها الباهت رأت بول ينهض إليها . قالت له وكأنه لم يروعها بلقائه : هـذا هو مكاني . فما الذي تفعله أنت الساعة ؟ فأمسك بذراعها يهزها في شيء من العنف وقال لها : أيتها الحمقاء . ثم لانت هزته لها . ثم بدأت ترق . . ثم ضمها إليه وهو يهمس : « لماذا بقيت ؟ » ورمت برأسها فوق صدره الخشن القوي . وأحست بشفتيه تلثمان شعرها في رفق . .

قالت له : لست أدري ! يخيل إلي أن المرأة أكثر تعلقاً من الرجل بالسفينة .

وتراخت عند ذلك يداه وقال لها : أهي السفينة إذاً ؟

فأمسكت به وقالت له : لا . إنه أنت . أنت يابول . لقد رعيتك . وحنوت عليك . ونظرت إليك كرجلي الواحد في دنياي هذه بعد وحدتي التي تعرفها .

قال لها : ذلك ما ظننته . ومن أجله جئت إلى قمرتك هذه يا أليس . لقد يكون فقدي لك أشد من فقدي لسفينتي . . . أحببت أن أكون في آخر لحظاتي بجانبك أو بجانب هذه الأشياء التي تحبينها !

قالت له : نعم . إني أفضل هذه القمرة على بيت يكون لي على الشاطىء .

قال لها : بيتك ! . . لقد كنت أحدثك فيه منذ حين .

وأنت تنسجين أو تطبخين والحديقة التي تحيط به . وأشجار الفاكهة . ثم صوتك الحبيب الذي أحن إليه . أتخيل هذا كله وأنا بجانبك . فأراه خيراً من حياة الجحيم فوق صفحة الماء . . لكن هيا بنا فقد نستطيع النجاة فالشاطىء ليس ببعيد عنا .

قالت له : أرى أن تتمهل حتى تأتي النجدة ، فإنه لا يزال بالسفينة رمق من الحياة .

قال لها : لا أقوى على أن أخاطر بهذا الأمر وأنت معي .

قالت له : ولكنك كنت مخاطراً به وحدك . فاصبر ولا تعجل .

قال لها : أما إذا أبيت . فلنتأهب . حتى إذا لم تواتِ الفرصة نجونا . ثم أقبل عليها فقال لها : وإذا نجونا فهل . . ترضين بي زوجاً يا أليس ؟

قالت له هامسة : إنها عين رغبتي يا بول . إنك لتبعث في حياة جديدة . لن ترى البحر بعد ذلك . فقد أساء إليك وأساء إلي وأساء إلينا جميعاً . لن نعود إليه .

وكانت السفينة مثل الجندي الباسل الذي يأبى أن يموت ميتة سهلة رخيصة . فقد صمدت رغم جرحها العميت لقلبات المياه وشدة وطأتها . وإذا طائرة من طائرات الدوريات الساحلية تلمحها من بعيد ، فدنت منها . وكان ذلك بعد الفجر من أول النهار . ورآها الطيار . فلوح لها ليشد من أزرها ولوحا له . . ونظر بول الى مجاهل هذا الفضاء الواسع من دنيا البحر ، وقال كأنه يحدث نفسه : لقد ركبت هذا البحر قرابة أربعين عاماً . عرفت فيها ويلاته وأهواله . وعرفني . . إني أبغضه . ولن أعود إليه .

فقالت أليس كأنها تجيبه : لكأنك تعبر من خلجات نفسي يا بول . ولن يكون سلامنا إلا في ذلك الكوخ الهادىء . . وأنت !

وجاءت النجدة . وإذا سفن الإنقاذ تأخذ زمام السفينة الجريحة نحو الشاطىء . وإذا عاصفة من الإعجاب والتشجيع يقابل بها الأبطال الثلاثة : كارى . وبول . والسفينة الباسلة .

وتحقق الحلم . حلم الشيخين الذي كانا يحلمان به . فها هو ذا الكوخ اللطيف الصغير يأويان إليه على الشاطىء البعيد من شواطىء الاطلنطى في الدنيا الجديدة . وها هي ذي حديقته الجميلة ، وأشجار الفاكهة تمايلت أغصانها نوافذه البيضاء كلما هب عليها النسيم ، وهذا البحر إلى جوارهم بصبحاته وعشياته فتعاودهما ذكريات الماضي القريب . إنه عين الحلم الذي كان يطوف برأسيهما في أحرج أوقاتهما وأحبها .

ومضت الأيام . وكانت أليس تبدو فيها شابة في تعهدها البيت بالنظافة والطبخ والنسج ، وأغنياتها العذبة الرقيقة ، وكان بول يعنى بالحديقة ينسقها ويتعهد أشجارها وثمارها . وكان يتبعه في سيره أو يقعى ينظر إليه صامتاً إلا من هزات ذيله الطويل . ومضت الحياة على هذه الوتيرة ذات النغم الهادىء الوادع الرقيق . . حتى جاء يوم .

وكان يوماً صحواً رأيا فيه السفن تنتظم على مقربة من الساحل وبينها قطع الأساطيل تحرسها كأنها الأرصاد . ووقفا بجانب بعضهما صامتين ، لا يكاد ينبس أحدهما بكلمة يخشى معها أن يستشف منها صاحبه هذا الذي يفكر فيه .

وقالت أليس : إنهم ذاهبون بين فكي الوحش .

فقال بول : نعم . ولكنهم أبطال .

وجلسا إلى المائدة صامتين أيضاً . . وكانت الأنباء تتوالى من ضحايا البحر ومهاجمة الغواصات وفتك الطوربيد ، ووحشية الأعداء ، وعن الوقى . والجرحى والمفقودين والأيامى واليتامى وكل ما يصطخب به البحر في طغيانه وغموضه وويلاته .

وكان أن قذف إليهما البحر يوماً بقارب فيه ثلاثة نفر

من البحارة ، أحدهم قد شوهته النيران في وجهه وعينيه ، حتى لقد كان يخشى من شدة الحروق على قوة إبصاره . فضيفاه وبذلا كل ما يستطيعانه للترفيه عنه وتمريضه في تعهده الطبيب . وكان الفتى جلداً مستبشراً لا أثر لليأس في قلبه . قال لها يوماً يحدثها عما أنبأه به الطبيب : سوف أسترد بصري عما قليل . وسوف . . سوف أعود للبحر ثانية . وأقاتل مرة أخرى . فنظرت كارى إلى بول نظرة صامتة ونظر إليها ، ولا يكاد أحدهما يلبس بكلمة إلى صاحبه .

ومضت أيام وشهور . .

وجاء يوم ذهبا فيه سوياً إلى المدينة يقضيان بعض حاجاتهما مما يفتقدانه في هذه الضاحية البعيدة التي يسكنانها

قال لها بول : لست من أهل البيع ولا الشراء . فهذا شأنك . وإني ذاهب لأطوف في أنحاء هذه المدينة الكبيرة وموعدنا الساعة الخامسة في هذا المكان .

فنظرت إليه باسمة وقالت له : كما تشاء .

وغابا عن بعضهما بضع ساعات . ثم التقيا . وقالت له في بعض الطريق إلى القرية : هل أمضيت يوماً طيباً يا بول ؟ فقال لها من فوره : جداً . . جداً . فقالت له : وأنا أيضاً . ولكن أحداً منهما لم يجرؤ على أن يفاتح صاحبه من جولته في أنحاء المدينة .

وكان المطر قد بدأ يتساقط . وكانت أوراق أشجار الحديقة تئن تحت قطراته الكبيرة عند وصولها إلى العش الجميل الصغير . وهبت الرياح من نحو البحر تحمل إليهما صخب الأمواج الثائرة وتلاطمها بصخور الشاطئ الناتئة . وجعلا يصغيان إليها كأن الرياح تحمل بين طياتها رسالة مبهمة تأتي إليهما من وراء الأفق البعيد . .

ونهض بول إلى النافذة يتسمع إلى هذه الأصوات التي تحملها الرياح . وجعل يحدق نحو هذا الفضاء الواسع . وكانت أليس ترقبه بعينيها وهي إلى جوار النار تستدفئ ، قد تزاحمت في رأسها الخواطر واستبهمت عليها استفهام هذه الرسالة الغامضة التي حملتها الرياح من وراء هذا الأفق البعيد . .

لكأنه النداء ينبعث من وراء هذا الأفق الغامض مثل انبعاثه من أعماق نفسيهما منذ ترجع الصدى والتقت الرغبات .

قال لها بول : أليس . . وصمت شيئاً ثم رفع يده يتقى على صفحة الزجاج . ولا ينظر إليها ثم قال : سحقاً لي لست أدري ما الذي أقوله . . لقد زرت اليوم سفينتنا القديمة .

وساد السكون لحظة أخرى ثم قالت أليس في صوت خفيض : لقد زرتها أنا الأخرى . . . إن قمرتي أصبحت أحسن مما كانت عليه .

فنظر إليها بول يحملق فيها وقال لها : أحقاً ! لقد ظننت أنك لا ترغبين في رؤيتها مرة ثانية .

قالت له : ذلك ما ظننته فيك أنت أيضاً .

ثم استدار بول ينظر إلى البحر وقال وهو يحاول ألا تلتقي عينيها بعينيه : أليس . . لقد وقعت عقداً كقبطان للسفينة مرة أخرى . .

وتحركت أليس إليه في بطء حتى وقفت بجانبه ووضعت يدها في رفق فوق كتفه وقالت له : بول ! فقال يقاطعها ولا زال مشيحاً عنها ينظر إلى البحر : سامحيني يا أليس إذ أفاجئك بمثل هذا الحمق بعد الذي كان منك إلي . . وهل أرجو ألا تكوني غاضبة علي ؟

فازداد اقترابها منه وهي تبتسم وقالت له : أغضب ! وكيف . وإني وإياك في « الحمق » سواء ! فقد وقعت على مثل عقدك الذي وقعت عليه .

ولانت نظرتها إليه وهي تقول له : نعم . ليس ههنا مكاني . وإنما حيث تكون أنت يا بول !

ياقوت صبري

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٢٦٩

العدد ٤٠١ — الثلاثاء ٧ من شوال سنة ١٣٦٥ — ٣ من سبتمبر سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

الاصـــــلاح الداخلى

وأداة التنفيذ الثابتة

كانت هذه المجلة منذ إنشائها ولا تزال تنادى بوجوب فصل مسائل الإصلاح الداخلى ووضع برامجه ورسم خطط تنفيذه من السياسة وتقلباتها ، وترفع صوتها عالياً مطالبة بعدم تدخل الوزراء فى هذه المسائل الإصلاحية الداخلية ، لأنهم مؤقتون ويتغيرون باستمرار وبسرعة ، وناديناً بأن هذا التدخل يعوق سير الإصلاح ويعطله . وهكذا يجدنا من يراجع الأعداد السابقة لهذه المجلة من أنصار الارتفاع ببرنامج الإصلاح من الاعتبارات السياسية والحزبية والشخصية ، وإبعاد هذه الاعتبارات بتاتاً عن أداة التنفيذ وإسناده إلى الموظفين الفنيين الدائمين الأكفاء فى جميع الوزارات .

من أجل هذا سررنا كل السرور وتفاءلنا أعظم التفاؤل عند ما وجدنا جريدة الأهرام الغراء ، تلك الجريدة الواسعة الانتشار والعظيمة النفوذ والمعروفة بالاتزان والحذر ، تدعو نفس الدعوة وتنادى نفس النداء وتؤيد تلك الخطة التى انتهجناها ، وتندد بسياسة الارتجال التى تعلق مشاريع الإصلاح بشخص الوزير ورأيه ، فإذا ترك منصبه وقفت المشاريع وجاء خلفه فاقترح غيرها وهدم ما بنى سلفه . وهكذا ندور فى حلقة مفرغة .

قالت الأهرام هذا الكلام بمناسبة طول أمد المفاوضات المصرية الإنجليزية وانصراف الوزارة بكلياتها وجزئياتها إلى هذه المفاوضات التى تشغلها وتستنفد الجزء الأكبر من وقتها وجهدها . والوزارات المتعاقبة تجد على الدوام أموراً سياسية كهذه أو ما يشبهها تشغلها هذه المشغولية بحيث إذا سئلت عن هذه الإصلاحات وعدت بالتفرغ لها بعد اجتيازها العقبات السياسية التى تعترضها ، ولكن هيهات .

وبغض النظر عن الناحية التي انتهزتهـا الأهرام لإرسال هذه الصيحة القوية والدعوة الحقة فانا نرى أن هذا هو الواجب دائما ، ونرحب بهذه الدعوة ونطرب لتلك الصرخة ، ونرجو أن تلقى العناية التي هي جديرة بها والتأييد من كل جانب بحيث لا يمضي وقت طويل حتى نجد هذه السياسة الرشيدة سائدة ، ونجد المصريين جميعا يعملون على تنفيذها بغض النظر عن ميولهم الخاصة ومن مصلحة حزبهم الخاص .

فالمسألة ليست مسألة ميول ومصالح خاصة ، وإنما هي مسألة مصلحة عامة للبلاد يرتبط بها ويتوقف عليها مستقبلها ورقيها ومسايرتها للأمم المتحضرة ؛ فكل مرفق من مرافقها بحاجة إلى الإصلاح العاجل الشامل ، ومن ثم يجب أن توضع المسألة فوق كل اعتبار ، وأن يضحى من أجلها وفي سبيلها بكل ميل خاص أو مصلحة خاصة . بهذا تنادي الوطنية الصحيحة ، وإلى هذا يدعو الإخلاص الحقيق لقضية البلاد ، والحرص على رقيها وسعادتها ورفاهيتها .

* * *

على أن المسألة ليست بالسهولة الظاهرة ولا من الوضوح الواجب ، وذلك لأن لهـا بعض نواحٍ شائكة أو صعبة تستحق الدرس والبحث . نعم إن معظم الأسس واضحة ومسلم بها . ولكن بعض التفاصيل الهامة لا تزال غامضة ، ومن الخير أن نواجه بشجاعة وصراحة ، وتدرس بإخلاص وهدوء ، وتقلب أوجه الرأي فيها حتى تتجلى ويستبين السبيل القويم فيها .

وأول هذه الأمور الشائكة هي علاقة الوزارة القائمة ببرنامج الاصلاح ، فجريدة الأهرام تقول في مقالها المنشور في عدد ١١ أغسطس الجاري : إن مسائل الاصلاح ينبغي تكون قائمة على سياسة ثابتة لا يعتورها إلا أقل التغيير ، أو لا يعتورها التغيير إطلاقا . وينبغي أن يتم إقرار هذه السياسة بعد دراسة وافية شاملة ، ثم يترك أمر تنفيذها إلى أيدي الوظفين الدائمين الذين لا يتغيرون بتقلب الوزارات .

ولكن الكاتب الكريم لم يذكر من الذي يجب أن يتولى هذه الدراسة الوافية الشاملة ، أو يشرف عليها وعلى وضع أسس السياسة المطلوبة ، ورسم الخطط لتنفيذها ثم تسليمها إلى الوظفين الدائمين في الوزارات ؟ وهـذا هو ما يحتاج لتمحيص والقول واضح صريح .

ثم يعود فيقول في موضع آخر من مقاله : وليس معنى ذلك أن تنقطع صلة الوزير بحركة الإصلاح والتجديد في وزارته . ولكن معناه أن يسير الإصلاح على قواعد ثابتة يشترك الوزير في وضعها بمعاونة الفنيين في وزارته ، ثم يدع لهم تنفيذها دون تدخل منه أو رجوع إليه .

وليأذن لنا سعادة الكاتب أن نخالفه في هذا الرأي . إذ كيف نوفق بين ما قلناه سابقا من أن البرنامج سيكون ثابتا وأداة التنفيذ ستكون دائمة ، وبين دراسة كل وزير في وضع السياسة بالاشتراك مع الفنيين في وزارته ؟ لقد سبق أن تعرضنا لهذا الموضوع بالذات في مقالات سابقة ، وكان رأينا ولا يزال أن اشتراك الوزير في وضع قواعد الإصلاح الثابتة ، فضلا من أنه أمر غير عملي كما قدمنا ، فمعناه بصريح العبارة إعطاء الوزير الحق في التغيير والتبديل المستمر ، وهذا ما يؤدي إلى القلقلة من جديد .

وليس يعصم من هذه القلقلة اشتراك الوظفين الفنيين مع الوزير في الدرس ، فكلنا يعرف معنى اشتراك الوزراء في مصر ، وكيف يتعصب الكثير منهم لرأيه إلى حد مناصبة مخالفيه العداء ، والكيد لهم ، وإنزال جام الغضب عليهم ، من أجل هذا وذلك نرى أن هذا الرأي غير عملي ولا يؤدي إلى ما يقصد إليه سعادة الكاتب ، ونوجس خيفة شديدة من تنفيذه ، ولا نرجو خيراً من ورائه .

أما الخطة المثلى للدراسة الوافية الشاملة ، ولوضع قواعد الإصلاح وخططه الثابتة ، فهي في رأينا تكوين هيئة فنية عليا ثابتة قوية يشترك فيها ممثلون لجميع الأحزاب السياسية

على أن يختار كل حزب عددا يتفق عليه من أعضاء هذه الهيئة ، كما تمثل فيها الهيئات الحكومية الفنية والهيئات الحرة التي تضم فنيين مشتغلين بالأمور المتصلة ببرنامج الإصلاح المعني .

وهذه الهيئة العليا القوية يجب أن يقرها ممثلو البلاد ويصدر بتكوينها مرسوم ملكي ، ويعهد إليها وحدها بالمشروع كله من دراسة ووضع برنامج ورسم خطط التنفيذ والإشراف عليه . هيئة كهذه لها احترامها ومكانتها وتتمتع بثقة الجميع هي الضمان الوحيد للثبات والاستقرار والبعد من عواصف الأهواء وتقلبات السياسة ودوافع المصالح الشخصية . . .

والآن نعرض لعلاقة الوزير بحركة الإصلاح بصفة عامة ونفرض أن وزيرا رأى أن السياسة المرسومة للعمل في الوزارة التي يتولاها لا تروقه ، وله عليها بعض اعتراضات أو يرى فيها بعض العيوب التي تدعو إلى تعديل أو تغيير من أي نوع . فماذا يكون تصرفه في هذه الحالة ؟

إنا نرى أن يطلب الوزير دعوة تلك الهيئة الفنية العليا التي تضم أقرانه وأنداده وفطاحل الرجال الفنيين الأكفاء ، ويعرض عليها ما يراه من اعتراضات ، ويبسط أمامها ما يعن له من آراء ، ويقترح عليها في الاجتماع ما يريد تغييره أو تعديله ، ويكون لهذه الهيئة الحكم الفصل بعد سماع كلام الوزير وحججه ومناقشته في ذلك كله .

فإذا اقتنعت الهيئة بوجهة نظره ، وأقرته بعد الدرس والفحص على رأيه ، أجرت المناسب من التعديل والتغيير ، وأعلنته الملأ ، وعندئذ تكون جميع الأحزاب والهيئات مقرة لهذه التعديلات والتغييرات ضمنا لاشتراك ممثليها في الهيئة العليا التي وضعتها . ويكون الوزير قد أفاد السياسة العامة باجتهاده ، وفاز بكسب فني لنفسه وللمصلحة العامة .

أما إذا لم تقر تلك الهيئة الفنية العليا الوزير على رأيه ، واقتنع الوزير بحججها ، واطمأن إلى صحة السياسة القائمة ، وزال اعتراضه عليها ، فعليه أن يدع الموظفين يسيرون في تنفيذها كما كانوا بهمة وإخلاص . ولا يتعرض لهم بما يعرقل أو يعطل سيرهم بأية حال من الأحوال .

وأما إذا لم يقتنع الوزير بوجهة نظر تلك الهيئة الفنية العليا فعند ذلك يجب عليه أن يستقيل ويفسح المجال لغيره ممن يطمئنون إلى السياسة المرسومة ، ويدعون الفنيين في وزارته يمضون في تنفيذ السياسة كما رسمتها الهيئة العليا .

* * *

بعد ذلك تأتي تفاصيل أخرى مهمة متصلة بالموضوع وجديرة بالبحث والدرس ؛ فمثلا : هل ستكون لكل وزارة هيئة فنية عليا خاصة بها ؟ وما علاقة الهيئات العليا لمختلف الوزارات ؟ أم يكون لكل جانب من جوانب الإصلاح هيئته الفنية العليا الخاصة به ، تضع برنامجه ، وترسم خطط تنفيذ هذا البرنامج في مختلف الوزارات ، كل حسب اختصاصها ، وتقوم على تحقيق التناسق بين أعمال هذه الوزارات المختلفة ، وتشرف على العمل بحيث تضمن وضع كل إنسان في المكان المناسب وتكليفه بالعمل الذي يحسنه ، ضمانا لحسن استغلال المجهود كلها على الوجه الأكمل المنتج

وهناك مسألة أخرى أساسية جديرة بالدرس والتمحيص ، وهي إحاطة الموظفين الفنيين الذين سيقع على عاتقهم عبء التنفيذ بجميع الضمانات الواجبة التي تكفل لهم حرية التصرف ، وتدفع عنهم شر الوزير المعاند الذي يبدي غير ما يضمر ، وبالجملة تؤمنهم على وظائفهم ومعاشهم حتى تكون لهم الشجاعة الواجبة لتنفيذ البرنامج كما هو بأمانة وإخلاص .

هذه النقط وأمثالها جديرة بالدرس ، ولن يصعب حلها متى اتفق الجميع على الأساس وخلصت النية للعمل على ما فيه خير هذه البلاد . والله الموفق الهادي .

أحمد عبد السلام الكرداني

عصر الحيرة

لا يخطىء من يسمى عصرنا هـذا فى مصر عصر الحيرة ، فإننا جميعا لا نعرف الاستقرار على رأى ، بل نضرب فى لجة مضطربة يحيط بها ظلام من فوقه ظلام ، إذا أخرج الإنسان يده لم يكد يراها . ولست أدرى إذا كانت هـذه الحيرة مما يأسف له الإنسان ، أو هى مما يغتبط له ، لأن الحيرة تمتد إلى كل شىء ، حتى إننا لا نستطيع أن نصدر حكما قاطعا فى أمر من الأمور .

لقد مر علينا عهد كان أهل الشرق ينعمون فيه فى نوع من الخمول ، لا يعرفون فيه مثل هذه الحيرة ؛ فقد كانوا قانعين بما عندهم من تقاليد ومن عقائد ، وكانوا قانعين بما أتيح لهم فى حياتهم من قسمة . كانوا يرون أنهم خير أهل الأرض ، وأن أمصارهم أمهات القرى ، وأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان . حتى لقد كانوا يرون الخروج عن مألوفهم بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

ولكنهم كانوا بذلك يعيشون فى عالم من الأوهام ، لم يلبثوا أن يصحوا منه على أصوات عجيبة لم يسبق لهم عهد بها ، وعلى مناظر غريبة لم تقع أعينهم من قبل على مثلها ؛ فبدأ الشك يتسرب إليهم ، وصاروا يتعجبون مما سمعوا ومما رأوا ثم أحسوا أن هـذا الذى طرأ عليهم قد جلب معه سيادة أجنبية ، وأنهم قد أصبحوا تبعا ، وقد تقلت من أيديهم ما كان فيها من سيادة ومن مال ومن جاه ، بعد أن تحولت السيادة ، وتسرب الجاه والمال إلى أيدى هؤلاء الغرباء الذين جاءوا إليهم من وراء البحار .

وبدأوا عند ذلك يتساءلون : أنستطيع أن نكون مثل هؤلاء ؟ ومنذ ذلك الحين دخلت إلى قلوبهم الحيرة ، وما زالت تزداد بهم كلما اطلعوا على جديد لم يكن لهم به عهد ، وكلما عرفوا من أمور أنفسهم ما كانوا من قبل يجهلون .

فهم اليوم يتألمون لأنهم فقدوا ذلك الوهم الذى استقروا عليه حينا من الدهر ، واطمأنوا إلى هدهدته ، ويتألمون لأنهم لا يجدون السبيل واضحة إلى تغيير حالهم ، والأخذ بما أخذ به الناس الذين أتوا من وراء البحار .

فنحن فى مصر مثلا قد تنبهنا فى هذه الأيام إلى أن بلادنا فقيرة ، وإلى أن شعب مصر مريض وجاهل ، وقمنا نصيح ونصيح شاكين من هذه الأعداء التى قعدت بنا عن بلوغ ما نتمنى من الحياة بين الأمم . ولكننا عجزنا كل العجز عن الاهتداء إلى طريق محاربة الأعداء ، واكتفينا بأن نتحدث عن الحرب التى نزعم أن نشنها عليها . ففى كل يوم نسمع إعلان الحرب ، ولكننا لا نرى عدة ولا خطة ، ولا نبصر سوى الحيرة التى تدلنا على مقدار ما عندنا من الألم ، ومن حسن النية فى التخلص من الأعداء ومحاربتها .

وقد تنبهنا كذلك إلى أننا فى حاجة إلى العلم والبحث ، لأننا رأينا الأمم الأخرى تأتى بالمعجزات من بحث علمائها ، وتأتى بالعجب العاجب من مهارة صناعها وأصحاب الفنون فيها .

وحاولنا أن نقلد ، فصرفنا الأموال لتخريج العلماء ، وبعثنا منهم طوائف إلى ما وراء البحر ، وعاد هؤلاء إلينا بألقابهم ودرجاتهم ، ثم قعدوا على الكراسى كما قعد من قبلهم بنو العباس .

ولا نزال فى حيرة من أمرنا لا ندرى هل نستطيع يوما أن نبلغ شأو من بحثوا ، أم أن هناك شيئا لا نعرفه يقعد بنا عن بلوغ الرتبة التى بلغها العلم فى البلاد الأخرى .

وكان من أعجب ما حير ألبابنا أننا فى أثناء هذه الحرب الطاحنة احتجنا إلى كل ما هو ضرورى من المصنوعات ، وكنا نرجو أن يهب من عندنا من أهل الصناعات وأصحاب الفنون فيملأوا علينا البلاد إنتاجا ، وينتهزوها فرصة لإنماء الصناعة فى وادى النيل ، فماذا وجدنا ؟ وجدنا الأموال تنتج لنا نسيجا مهلهلا لا نكاد نلبسه حتى يبلى ، ووجدنا المسابك تخرج لنا (عدد) مواقد البترول ، إذا

أصابتها النيران انفجرت وسالت ، ووجدنا مصانع الخزف تقذف علينا كل مموج قبيح من الأواني التي لا تتحمل سخونة ولا برودة بل تتفلق من كل عنف في الحر والبرد .

ومع هذا فقد كانت هذه الأقمشة المهلهلة ، وتلك العدد الرقيقة ، وهذه الأواني الشوهاء تباع لنا بالأضعاف المضاعفة من الأثمان ، فلم نستفد من ذلك إلا أن تكدست الأموال عند صناع السوق السوداء وتجارها .

فنحن اليوم في حيرة : أنستطيع ما يستطيعه الناس في الصناعة ، أم أن شيئاً لا نعرفه يقعد بنا عما يبلغه غيرنا .

ونحن في حيرة فوق هذا كله من أمر الحكم والسياسة ؛ فقد عرفنا أن أداة الحكم في البلاد المتمدينة تؤدي ما عليها من خدمة عامة في صمت ، ويقوم كل موظف بالمسئولية الواقعة على عاتقه في أمانة ؛ فإذا نظرنا إلى أنفسنا وجدنا أداة الحكم قد تراكم عليها تراب الأجيال ، فلا هي بالقديمة المحضة ، ولا هي بالحديثة حقاً .

ولقد كان أهل مصر قانعين بأداة حكمهم القديم الذي كانوا يستسلمون له ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله قد قسم لهم الخضوع . فكانوا لا يزيدون على أن يسألوا الله « أن يولي من يصلح » . ولكنا اليوم نتطلع إلى هذه الأداة في حيرة وأسف ، ولا نريد أن نقنع بأن نسأل الله أن يولي من يصلح ، بل نزعم أن من حقنا أن نشكو ، وأن نشير بالإصلاح ، وأن نلوم المقصرين ، وأن نسقط الظالمين . على حين أننا نرى الأداة أمامنا تخبط وتتعثر ، ويعلو ضجيجها مما علاها من الصدأ والغبار ، ولا نستطيع شيئاً غير الشكوى . بل إننا نرى أولي الأمر المسئولين يكتفون بالشكوى ولا يقلون عن سائر الناس حيرة ، فلا يعرفون سبيل الإصلاح ، ولا يظنون أنهم يستطيعونه .

فنحن اليوم في حيرة لا ندري هل يقدر لنا يوماً أن نرى أداة الحكم تتجه في وجهتها في سهولة ويسر وثقة ، فتؤدي واجبها ، وتقوم برعاية مصالح الناس في جد واهتمام ، أم أن هناك شيئاً لا نعرفه يمنع تلك الأداة من السير السليم في وجهتها كما تسير أداة الحكم في بلاد غيرنا .

وأما السياسة فلا يتسع لها القلب الحائر بعد كل هذا التيه الذي نضل فيه ، ولا نجد خيطاً يهدينا بين تعاريجه وتلافيفه .

فقصارى القول فيها أننا نسير إلى غير وجهة . فأحزابنا تتبع مبدأ واحداً وهو « مخالفة رأي الآخرين » ، وقد تعودنا فيها أن نقنع بالألفاظ والظاهر دون الحقائق العملية ، مع أن السياسة أولاً وآخراً لا تزيد على أن تكون رعاية الحقائق العملية ومصالح الحياة التي لا يغني فيها زخرف القول .

فنحن في حيرة من أمر السياسة ، فلا ندري إذا كنا نعرف غاياتنا ، أم أننا نتجه مع تيار قوي في محيط واسع مظلم الآفاق . ويخيل إلى هذا الضعيف كاتب هذه السطور أن هذه الحيرة الشديدة التي نعانيها ناشئة من سبب واحد وهو نقص « الجد » . وأعتقد أن علاج كل هذه الحيرة يأتي من جانب واحد ؛ وهو أن نأخذ « بالجد » ، فإذا استطعنا أن نأخذ أمورنا « جداً » ، ونواجه الحقائق ، ونصارح أنفسنا بما نستطيع ، وبما نحن في حاجة إلى استكماله مع التواضع وعدم الادعاء فلنفعل . ولكن هذا أمر يكاد يكون مستحيلاً علينا . ولا شك أن هناك سبباً لا نعرفه يجعلنا لا نستطيع الجد ولا نحب مواجهة الحقائق ، ولا نحب أن نصارح أنفسنا بما نستطيع ، وبما نحن في حاجة إلى استكماله .

ولست أدري هل هناك وسيلة يمكن أن تعد جيل الغد إلى هذا « الجد » ، أم أن كل حياتنا الاجتماعية لا تعمل سوى تخليد ما تعودناه على مر السنين .

وأعود في آخر هذا المقال الحزين فأسأل : هل هذه الحيرة موجودة حقاً ، أم هي في قلبي أنا وحدي ، وهي التي تجعلني أحسبها قائمة في الحياة حولي كما ينظر صاحب المنظار الأسود فيرى الكون كله مظلماً ؟

محمد فريد أبو حديد

وفاة أديب كبير



توفي في الثالث عشر من هذا الشهر المستر هـ . ج . ولز العالم والقصصي والكاتب الاجتماعي الكبير في الثمانين من عمره بعد أن خلف وراءه سجلاً حافلا من الأعمال الأدبية ما بين تواريخ وقصص وروايات قصصية وسينمائية ومقالات علمية وأدبية ومحاضرات وأبحاث اجتماعية وسياسية يخطئها الحصر .

ولد هربرت جورج ولز في برملي من أعمال كنت في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٦٦ ، وكانت أسرته تنتمي إلى الطبقة المتوسطة الفقيرة ، وقد أمكنته نشأته هذه من معرفة أحوال هـذه الطبقة وأخلاقها وعاداتها في عصر الملكة فكتوريا ، فاستطاع بذلك أن يصفها في قصصه ورواياته الشهيرة وصفاً صادقاً ممتعا تسري فيه روح العطف والفكاهة .

واضطرت الأسرة ظروفها الاقتصادية السيئة إلى إخراج هربرت من المدرسة في الثالثة عشرة من عمره للعمل عند بائع أقمشة ثم عند بزاز ؛ ولكنه استطاع أن يواصل الدراسة وأن ينتقل بفضل ما منح من مساعدات وإعانات إلى الجامعة حتى أتم دراسته العليا ، وحصل في عام ١٨٨٨ على درجة بكالوريوس في العلوم من جامعة لندن مع مرتبة الشرف من الدرجة الأولى في علم الحيوان .

واشتغل بعدئذ بضع سنين بالتدريس والمحاضرة في علم الأحياء ، ولكن شغفه بالكتابة أخذ يزداد رويداً رويدا حتى ألجأه إلى ترك التدريس والمحاضرات إلى الصحافة في عام ١٨٩٣ . وبعد سنتين من ذلك الوقت نشر كتابه الأول وهو « أحاديث مختارة مع عم » "Select Conversations with an uncle" .

وكانت حياة ولز من ذلك الحين هي قصة تطوره العقلي الذي نستدل عليه من كتبه الكثيرة ، وهو تطور بلغ من الكمال حداً جعل أناتول فرانس يقول عنه فيما بعد إنه « أعظم قوة ذهنية في الناطقين باللغة الإنجليزية » . وفي نفس العام السالف الذكر نشر ولز أولى رواياته الناجحة « آلة الزمان The Time Machine » فكشفت عن عقل علمي ناضج وخيال واسع قوي وثاب ؛ وتتلخص القصة في أن العلماء قد استطاعوا أن يخترعوا آلة تنقل الإنسان من الزمن الحاضر إلى الماضي وإلى المستقبل كما تنقله وسائل النقل العادية في الفضاء ، فيطل من هذه الآلة على أحداث الماضي والمستقبل . وتبدو في هذه الرواية الأولى ميوله الاشتراكية وكرهه للنظام القائم في العالم في وقته ، كما يتضح ذلك من الصورة التي رسمها لبعض شخصيات الرواية .

ويحدثنا ولز في سيرته التي كتبها لنفسه بأنه اعتنق مبادئ الاشتراكية بقراءته لأفلاطون ، ولكنه اختط لنفسه من صغره خطة اشتراكية مستقلة عن سائر الاشتراكيين ، وظل طوال حياته محتفظاً بهذا الاستقلال ؛ بيد أن حيويته ونشاطه الذهني الشديد جعلاه سريع التنقل من موقف إلى موقف ، يبدل آراءه من حين إلى حين . غير أنه كانت له وراء هذه العقلية المتقلبة التي حيرت أصدقاءه وأعداءه على السواء ، فلسفة واسعة لا تتبدل

أبدا. فقد كان ولز يشعر شعوراً عميقاً بأن عليه رسالة إصلاح اجتماعي شامل يجب أن يؤديها، وقد بذل في أدائها من الجهد والحماسة الشيء الكثير. لقد كان ولز قليل الثقة بالعواطف شديد الإيمان بالعقل. نعم إنه كان يصب كرهه وحبه في حماسة وقوة، ولكنه كان يتصامح على الدوام لحكم العقل. ولعل هذه النظرة كانت كبرى أخطائه، فلم يكن يطيق ما في حياة الناس المادية من حمق وسخافة، ولقد أعماه عدم صبره على هذا الحمق وهذه السخافة واحتقاره لهما عما في الطبيعة البشرية من حقائق لا يصح إغفالها بحال من الأحوال.

من أجل هذا بدأ ولز حياته الأدبية داعية من الدعاة وظل كذلك إلى آخر أيامه؛ لقد كانت له مواهب يستطيع إذا شاء أن يصير بها أعظم كاتب روائي في عصره، ولكن الاشتغال بالفن للفن نفسه كان مبدأ بغيضاً له؛ ولما سأله في ذلك صديق له أديب كان جوابه: « أما أنت فإن الفن لديك كالتصوير غاية في ذاته، أما أنا فإن الأدب عندي كفن البناء مجرد وسيلة لغاية ».

ومن هذه الفكرة نشأت سلسلة الروايات التي تعد أعظم الآثار في الأدب الحديث، ونعني بها تلك الروايات التي تتابعت بعد « آلة الزمن » ومنها « الرجل الخفي » The Invisible man (وقد مثلت على المسرح بنجاح في عام ١٩٣٤) و« حرب العوالم » The War of the Worlds و« أول من سكن القمر » The First Men in the Moon و« طعام الآلهة » The Food of the Gods و« حرب الهواء » The War in the Air (١٩٠٨) — وفي هذه الرواية الأخيرة تنبأ بالحرب العالمية الأولى ووصفها كما لو كانت قد وقعت فعلا — و« العالم المحرر » The World Set Free (١٩١٤). وتمتاز كلها بتقدير كاتبها لآثار العلم وما يستطيع العالم أن يفيد منه، كما تمتاز بالأسلوب القصصي القوي والتجربة اللازمة. ولا شك في أن نشأة الكاتب العلمية قد أفادته كثيراً في هذه الناحية.

وكتب ولز طائفة من القصص تكشف كلها من فكاهته ومن سيطرته على فن القصة القصيرة، وتظهر فيها كما تظهر في رواياته قدرته على وصف حياة الناس الاجتماعية ونقدها.

وتشمل كتابات ولز في خلال الحرب الكبرى الأولى عدة روايات منها « الحرب التي ستنهي الحرب » و« السلام العالمي » وروايات أخرى منها رواية « العام الرابع » التي وصف فيها عصبة الأمم وكشف عن عيوبها ونقائصها. ولم تكن الآراء التي تضمنتها هذه الروايات ولا النتائج التي أراد من قارئه أن يستخلصها منها صائبة على الدوام، ولكن شجاعته قد جعلته لا يتردد مطلقا في أن يعترف بخطئه متى تبينه؛ من أجل هذا رفعه واطلقوه بعد نهاية الحرب الأولى إلى مصاف الزعماء في الحركة الفكرية التي أوحت بها المُثُل والآمال الجديدة التي ظن أن العالم سيقوم على قواعدها. ويتبين الإنسان فيما كتبه بعد الحرب الأولى خيبة أمله في هذه المثل والآمال الجديدة؛ فبينا يرى الإنسان هذه المثل والآمال تتجلى بأجلى مظاهرها في روايتي « إنقاذ المدنية » The Salvaging of Civilisation ١٩٢١ و« رجال كالآلهة » Men Like Gods ١٩٢٣، وهما اللتان يعدهما بعض النقاد أجمل صورة تصورها إنسان لعالم المستقبل، إذ هو يعود بعدئذ إلى ألمه المرير من المجتمع وغضبه الشديد، ويرى ذلك واضحا كل الوضوح في رواية « الحلم » ١٩٢٤، و« الديمقراطية يعاد تنظيمها من جديد » Democracy Under Revision ١٩٢٧، و« محاضرات السربون » و« الطريق الذي يسير فيه العالم » The way the World is Going ١٩٢٨، و« بعد الديمقراطية » After Democracy ١٩٣٢ و« صورة الأشياء المقبلة » The Shape of Things to Come ١٩٣٣؛ وتدل هذه كلها على أن

ولز وإن ظل محتفظاً بحماسته ومثله العليا قد تزعزع إيمانه بالإنسانية . وهذا الكتاب الأخير (The Shape of Things to Come) من أمتع كتب ولز وأجدرها بالقراءة ، وهو يحتوي على سلسلة من الموضوعات المختلفة تجمع بينها كلها فكرة واحدة ، هي الصورة التي يرى ولز أن العالم سيكون عليها في النصف الثاني من هذا القرن .

وقد كشف ولز في بعض فصول الكتاب عن مساوىء معاهدة فرساي ، وعن عيوب التسوية التي أعقبت الحرب الأوربية الأولى ، وعن رأيه في الدول الجديدة التي أقامتها هذه التسوية ، وتنبأ بالحرب الأوربية الثانية قبل ست سنين من تطاير شررها ، وحدد تاريخها بدقة متناهية لم يخطىء فيه إلا ببضعة أشهر ، وعين سببها المباشر وهو النزاع على الممر البولندي ، وإن كان قد أخطأ في مداها وفي الطريقة التي انتهت بها .

على أن تزعزع إيمانه في الإنسانية لم يؤثر في عبقريته أو يقلل من نشاطه . فقد كان يفكر من زمن بعيد في كتابة قصة الإنسانية الطويلة بأسلوب جديد ، وأنجز الحلقة الأولى من مشروعه الضخم رغم مشاغله الكثيرة بعد الحرب العالمية الأولى بزمن قليل ، وهذه الحلقة هي تاريخه الشامل الواضح المعروف باسم The Outline of History ١٩٢٠ ؛ وقد نحا ولز في كتابه هذا منحى جديداً ، فكتب تاريخ العالم الفلكي والجيولوجي والحيواني والبشري ، ولم يقصره على التاريخ القومي وعلى الحروب والفتوح .

ولكي يفهم الإنسان المبادىء التي اتبعها ولز في كتابة تاريخه هذا وفي كتابه الآخر A Short History of the World يجب أن يقرأ محاضرته التي ألقاها على جماعة المدرسين في أستراليا وزيلندة الجديدة والتي نشرها في كتابه In Search of Hot Waters تحت عنوان (السم الذي يسمى تاريخاً the Poison called History) . ويقول في هذه المحاضرة إن الطريقة الخاطئة التي يدرس بها التاريخ في الوقت الحاضر واقتصارها على دراسة التاريخ القومي هي أكبر الأسباب في المنازعات والحروب التي ستقضي لا محالة على المدنية الحاضرة . ذلك أنها تضفي على الغزاة والفاتحين من المجد ما يغري بالنسج على منوالهم ، وتذكي في نفوس الشعوب الروح القومية الضيقة العارمة . ويستطرد إلى مشكلة اليهود فيقول : إن الطريقة التي يدرس بها تاريخهم كما ورد في التوراة ، والتي تؤكد أنهم شعب الله المختار ، وأن فلسطين هي أرضهم الموعودة — هذه الطريقة هي التي جرت على اليهود أعظم النكبات وحالت بينهم وبين الاندماج في الأمم التي عاشوا بين ظهرانيها ، وجعلتهم فئة منعزلة يرتابون في غيرهم ، ويرتاب غيرهم فيهم . وهو يرى أن التاريخ يجب أن يدرس كما تدرس الكيمياء والطبيعة وعلم الأحياء ؛ ويضرب مثلا لهذا تاريخ المعادن ، وتاريخ الصناعات ، وتاريخ الفنون ، وتاريخ العلوم ، وتاريخ الحركات الاجتماعية الكبرى وما إلى ذلك . هذه في نظره هي النواحي التي يجب أن يعنى بها في دراسة التاريخ .

وكانت الحلقة الثانية في قصة الإنسانية هي كتابه المعروف بعلم الحياة The Science of Life ١٩٢٩ ، وقد اشترك معه فيه جوليان هكسلي Julian Huxley ، وج . ب . ولز G. P. Wells وهو قصة مفصلة لتطور الأحياء . أما الحلقة الثالثة فهي عمل الإنسان وثروته وسعادته The Work, Wealth & Happiness of Mankind ١٩٣٢ ويشتمل على خلاصة وافية لعلم الاجتماع .

وكان ولز من أنصار « الدولة العالمية » ومن أقوى الداعين لها . ذلك أنه قد أدرك من زمن طويل أن المنازعات القائمة بين بني الإنسان من الناحيتين الاقتصادية والسياسية هي السبب الأكبر فيما يحل بالعالم من خسائر فادحة في الأموال والأرواح تقضي إذا استمرت على المدنية . ولهذا كرس ولز حياته للدعوة إلى قيام الدولة العالمية . والطريقة

متزيـــنى

- ٢ -

انضمامه لجمعية الكاربوناري . تأليفه جمعية إيطاليا الفتاة

فشل الحركة التي دبرتها الجمعية

كانت جمعية الكاربوناري حين التحق بها متزيني تعاني الجمود والوهن الذي سرعان ما يدب إلى أمثالها من الجميات السرية ، وقد أشرت إلى الثورتين الفاشلتين اللتين قامت بهما الجمعية ، وهما ثورة نابولي وثورة بيدمونت ؛ وقد استلزمت المحافظة على كيان الجمعية بعد هاتين الثورتين الكثير من الحذق والبراعة والمثابرة ، ولكن طبيعة الجمعية أخذت تتغير وتتحول ، فلم تعد جمعية إيطالية خالصة ؛ وذلك لأن أعضاء الجمعية الذين شردوا من وطنهم جعلوا مقرها الرئيسي في باريس ، حيث حاول بعض الساسة الفرنسيين استغلالها في تكوين حلف لاتيني بين فرنسا وإيطاليا لمقاومة الاتحاد المقدس ، وأصبحت الجمعية بمعزل عن الشعب ، وفتر شعورها الديمقراطي ، وكان أغلب قادتها من المتقدمين في السن ، ولما كانوا لا يرحبون بانضمام الشبان المتحمسين للجمعية ، ولم تكن لهم رغبة قوية في مراجعة مبادىء الجمعية وتجديد قواها .

ولم يستطع متزيني أن يهضم بسهولة ولع الجمعية بالحفلات ومراسيمها وشعائرها ، ولم يكن قانعا بالمكانة التي وضعته بها الجمعية بوصفه أحد الشبان . ولكنها كانت الجمعية الثورية الوحيدة في إيطاليا ، وكان متزيني يعجب بالرجال الذين لا يخشون السجن ولا النفي مهما كانت أغراضهم غير كافية ، وقد وجد بعد أن حلف يمين الولاء للجمعية أنه يدين بالطاعة العمياء لرؤساء مجهولين ، وأنه لا يسمح له إلا بمعرفة اثنين أو ثلاثة من الأعضاء الذين يعملون معه ، وقد اشتبه في برنامجهم السياسي وشك

التي تصورها لإنشاء هذه الدولة هي تنظيم الذكاء العالمي كما يبدو في رؤساء المنشآت التجارية والصناعية الكبرى وفي العلماء ورجال الأعمال الفنيين . ولقد رسم صورة لهذه الدولة في كتابه (صورة الأشياء المقبلة) وبخاصة في الفصل المعنون « سمو القصد » The Sublimation of Interest وتألفت في عام ١٩٢٩ جمعية « ه . ج ولز » لتحقيق هذا الغرض واتخذت مبادىء الكاتب الكبير قاعدة لأعمالها .

وكان ولز واسع الأفق ، كثير الاطلاع ، عظيم المعرفة ، متعدد نواحي الذكاء ، كثير الأفكار ، عظيم القدرة على نشرها وإيضاحها . وكان هذا كله سبب ما وصل إليه من عظمة . وكان ولز من الرجال الذين احتفظوا في شيخوختهم بجدة آرائهم وقوة عقلهم وسلامة تفكيرهم .

ولا يسعنا أن نختم هذا المقال دون أن نشير فيه إلى بعض أمور طريفة قد لا يعرفها إلا القليلون ، منها أن ولز كان صديقا حميما للمرحوم حمد باشا الباسل — كما أكد لي أحد الأصدقاء — وأن الكاتب الكبير أهدى إلى حمد باشا طائفة من كتبه ، ومنها أن كتابين من أهم كتب ولز قد ترجما إلى اللغة العربية وسيصدران بعد قليل ، أحدهما طعام الآلهة ، والآخر نظام العالم الجديد The New World Order وأن مقالين من مقالاته قد ترجما ونشرا فعلا ضمن مجموعة « المقالات المختارة » التي أصدرتها لجنة التأليف ، وهما : سمو القصد وحرب الجراثيم . ومنها أن ولز وشو كان بينهما كثير من المنافسة والدعابة ، وقد وصفه شو بقوله : إنه هو الرجل الذي مات في سن الأربعين ودفن في سن الثمانين . وكان في ذلك صادق النبوءة ، إذ بلغ ولز الثمانين من عمره لا تنقص إلا شهرا وبضعة أيام .

محمد عبد الله

في قيمته ، وكان لا يعجبه منهم وهو الإيطالي الوطني استهانتهم بقوة بلادهم واستخفافهم بها وتبشيرهم بأن خلاص إيطاليا لا يتم إلا بمساعدة فرنسا ؛ ولم يعجبه ما كانت الجمعية تحاول أن تدخله في روع أعضائها من ناحية تصميمها على اغتيال كل من يجترىء من أعضائها على نقد قادة الجمعية ورؤسائها . والظاهر أن زعماء الجمعية المجهولين كانوا يحسنون به الظن ، فقد عهدوا إليه في القيام بالدعوة في تسكانى حيث استطاع أن يكسب أنصاراً للجمعية ؛ والظاهر أنه شرع يكون جمعية أخرى من الشبان الذين يشبهونه في نزعته تحت ستار اسم الكاربونارى ، وكان غرضه أن يستبدل بجمعية الكاربونارى جمعية أنشط وأقوى عزماً وأنهض بالأعباء ، وكانت ثورة يوليو في فرنسا قد نمت بآمال الأحرار في كل مكان ، وبدأ مزيني وأصدقاؤه يبثون الدعوة ويحشدون الأنصار ، ولم يحفل بطريقة الكاربونارى في أخذ الأيمان المغلظة على الأعضاء الجدد واستعمال الشارات السرية ، وإنما كان يكتفي منهم بأن يقطعوا على أنفسهم عهداً بأن يعملوا إذا لاحت فرصة للثورة ، وكان للحكومة عيون بين جماعة الكاربونارى فقبض على مزيني بتهمة الإغراء على الانضمام للجمعية ؛ وكانت الحكومة قد بدأت تشتبه فيه وتراقبه من قبل ذلك ؛ فقد قال حاكم المدينة لأبيه « إنه على جانب من الذكاء وولوع بالمشيات المنفردة في جنح الليل ، وهو مستغرق في التفكير ، فما الذي يفكر فيه شاب في مثل سنه ؟ نحن لا نريد أن يفكر الشبان دون أن نعرف موضوع تفكيرهم » واعتقل في حصن سافونا حيث كان يشغل بالنظر إلى البحر وإجالة الطرف في السماء ، ونظرت قضيته أمام مجلس تورين ، وقد كان بارعاً في إتلاف جميع المستندات التي تؤيد التهمة الموجهة إليه ، ولم يكن هناك سوى شاهد واحد ، وكان القانون يتطلب وجود شاهدين . وقد أنكر مزيني التهمة ؛ ولعله كان يبرر هذا الإنكار أمام ضميره بأن الناس ليس عليه التزامات أدبية نحو حكومته ؛ ومهما كان من الأمر فإني أعتقد أن هذا الإنكار من الأخطاء الأدبية القليلة التي وقع فيها مزيني ، وقد يغتفر ذلك لغيره ممن لم يصلوا إلى مستواه الأخلاقي ، ولكني أقيسه بالمقياس الذي كان يجب هو أن يقاس به ، وهو مقياس الرجل الذي تقوم سياسته على أساس وطيد من اليقين الديني والسمو الأخلاقي والتطلع المثالي . وقد برأته المحكمة ، ولكن الحكومة لم تر هذه التبرئة كافية لإخلاء سبيله ، فخيرته بين النفي وبين الإقامة في بلدة صغيرة ، وقد اختار النفي ، وهو اختيار أملته عليه الحوادث الجارية المعاصرة ، فقد كانت الثورة قد اشتعلت نيرانها في إيطاليا الوسطى ، وكانت الحكومة الفرنسية قد شجعت الكاربونارى وجعلتهم يترقبون المساعدة المباشرة أو غير المباشرة . واعتقد مزيني أنه في باريس يكون أقدر على خدمة بلاده ، وقوى أمله في أنه سيعود بعد قليل إلى إيطاليا الحرة المستقلة ؛ ففي فبراير سنة ١٨٣١ ودع أسرته التي هرعت إلى سافونا ، وعبر جبال الأبنين ثم جبال الألب ، وقد راقب شروق الشمس من مونت سنيز ووصفها وصفاً فنياً بديعاً ، ولما كان في سويسرا أشير عليه بالانضمام إلى المنفيين الإيطاليين في ليون فتوجه إليهم ولم يذهب إلى باريس . وامتدت الثورة التي قامت في إيطاليا الوسطى إلى الولايات البابوية وتقدم جيش الثائرين إلى روما ، وكان قادة الثائرين يعلمون أنهم يستطيعون التغلب على البابا وإزالة حكم الدوقات ، ولكن لم يكن لهم قبل بمقاومة الجيش النمساوي ، وإنما كانوا يعتمدون على مؤازرة فرنسا ، وكانت الحكومة الفرنسية قد وعدت جمعية الكاربونارى بأنها ستعلن الحرب على النمسا إذا عبثت بمبدأ الحياد وتدخلت في شؤون إيطاليا الداخلية ؛ ولكن أكثر الوزراء لم يكونوا مخلصين في هذا الوعد ، ورأى لويس فيليب أن إثارة حرب لتأييد مبدأ القومية قد تحدث حركة ثورية تزلزل عرشه المتداعي ،

وأفضت حكومته إلى مترنخ بأنها لا تؤمن بنظرية عدم التدخل. ولم ينقض شهر مارس حتى كانت الثورة قد أخمدت، واتضح أن من أسباب فشل الثورة عجز قادتها من رجال الكاربوناري عن اجتذاب الشعب إلى صفوفهم، كما أن فرط اعتماد القائمين بها على فرنسا أضعف فيهم روح المقاومة. وقد أقنع فشل هذه الثورة متزيني بضرورة إنشاء جمعية على نظام جديد. وكان يرى أن سبب فشل الثورة سوء القيادة، فاذا حرص القائمون بالثورة التالية على النجاح فلابد أن يضطلع بقيادتها الشبان المتحمسون الواثقون ذوو الأفكار الجديدة. وأصر متزيني على هذه الفكرة، فحينما شرع في تأسيس جمعية إيطاليا الفتاة كان لا يقبل في عضويتها — إلا في حالات خاصة — من جاوزوا الأربعين؛ وكانت ثقته بالناس في هذه الفترة من حياته عظيمة وثقته بنفسه أعظم، وكان يعتقد أن الحركات القومية العظيمة يقوم بها رجال مجهولون من غمار الشعب ليس لهم من سند سوى اليقين والإرادة، والحركة الجديدة لابد لها أن تستمد القوة من وحي العقيدة الدينية، وإيطاليا في حاجة إلى من يقيل عثرتها ويستنهض عزمها ويستنقذها من اليأس وآلام الهزيمة.

وأدرك متزيني بعبقريته النافذة أن الذي يريد الناس على القيام بالأعمال الجليلة والمطالب السامية لابد له أن يعتمد على بواعثهم المتسرحة من سلطان الأثرة والجرى وراء المصلحة الخاصة، حتى إذا أهاب بهم المبدأ ارتفعوا إلى مستوى البطولة وضحوا بكل ما يستوجب الحرص على الحياة والتعلق بها. ومحاولة تحرير إيطاليا وتوحيدها ليست بالمطلب اليسير، ولا الغاية القريبة المنال، وهي تستلزم التضحية بآلاف الحيوات واحتمال آلام النفي والتشريد والسجن والفقر والحرمان. ولا يستطيع الناس مواجهة ذلك إلا تلبية لنداء الواجب، وجماعة الكاربوناري لم تقدر ذلك ولم تذهب هذا المذهب، ولهذا باءت جهودها بالفشل وعجزت عن تحقيق أغراضها. فجمعية إيطاليا الفتاة ليست إذاً حزباً سياسياً خالصاً، وإنما هي عقيدة ومبدأ، ولا يجيء النصر إلا باحترام مبادئها والاستمساك بالحق والعدالة والإقبال على التضحية والإصرار على ذلك، وهم كأفراد وكأمة لهم رسالة قد ندبهم لها الله، وقانون الواجب الذي سنه الله يأمرهم بالقيام بها، وقانون التقدم الذي سنه الله يمدهم بتحقيقها.

والمبدأ الآخر الذي قامت عليه جمعية إيطاليا الفتاة هو الإصلاح الاجتماعي، وقد لاحظ متزيني أن الحركات السالفة لم تفكر كثيراً في الجماهير، ولم تشعرها بما يعود عليها من فائدة إذا نجحت الحركة، وجمهرة الشعب لا تلبي نداء الثورة إلا إذا قدرت ما تسفر عنه من الخير للمجتمع. وإنجيل الواجب قد يهيب بالطبقة المستنيرة المثقفة، ولكن الشعب الضعيف المحقوق المهدر الكرامة لا يستجيب لنداء الواجب إلا إذا ملأ نفسه الأمل في الخلاص من المساوئ الاجتماعية التي ترهقه وتأخذ بأكظامه؛ ولن تقوم حرب مظفرة إلا إذا استشعرت الجماهير ذلك، ومتى عرف الشعب سبب شقائه وطرائق الفلاح وأدرك أن الله في جانب المظلومين نهض للمطالبة بحقه؛ وعلى هذا الأساس وضع متزيني برنامجه السياسي، وكان مولعاً بتنسيق البرامج ورسم الخطط، لأننا لا نستطيع توحيد الجهود وتنظيم الصفوف بغير ذلك؛ وكان يرى أن من الخير تسوية الخلافات وتصفيتها قبل أن يحين وقت العمل حتى لا ينجم الخلاف الذي يشل القوى حينما تحتشد للقاء العدو؛ وكان عنده أن من أسباب فشل الكاربوناري عدم الاتفاق على برنامج ثابت، وكانت سياستهم لا ترمي إلى أبعد من إسقاط الحكومات القائمة.

ويرى متزيني أن قوة الجماعات لا تجيء من ناحية كثرة عدد الأفراد، بل من ناحية التجانس والاتفاق على الهدف؛ ويرى القارئ من خلال ذلك أن متزيني كان

صارما في مبادئه ، وهو لم يكن يقبل في جمعيته إلا الذين يوافقونه على مبادئه في كلياتها وجزئياتها ؛ وكان لا يلين في ذلك ولا يساوم ؛ وكان يرى أن الجبن هو الذي يمنع المتذبذبين من قبول موقفه ؛ ومن أقواله في ذلك «لا يوجد اعتدال فيما بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والتقدم والرجعية» ومع تقديري لموقف متزيني وإعجابي بآرائه أرى أنه كان كثيرا ما يعتقد أن الحق مقصور على التعلق بآرائه والولاء لنظرياته ؛ ولما كان لا يتسامح مع الرجال الذين يوافقونه على مقدماته ولا يتابعون منطقه حتى النهاية ، وقد أحبط هذا التطرف الكثير من مساعيه ، وجعله يبدد قوته في مجاهدة رجال كان يمكن أن يميل إلى جانبهم . وعلى أية حال قد كان متزيني يطلب من الذين كانوا يعملون معه قبول نظرياته التي تشمل كل ناحية من نواحي الحياة القومية والدين والسياسة والأدب والفن ؛ وفي طليعة مبادئه الوحدة الإيطالية ، وإيثار الحكم الجمهوري ؛ ويرجع استمساكه بالحكم الجمهوري إلى اعتقاده الراسخ الوطيد أن النظام الديمقراطي لا يقوم في ظل الملكية على أية صورة من صورها ؛ ولعل من أسباب إيثاره النظام الجمهوري أن الأمراء الإيطاليين كانوا يدينون بالولاء للنمسا ، ويناصرون الرجعية . أما رأيه في الوحدة الإيطالية فما يدل على بعد نظره وقوة حدسه ، فقد آمن بها وسعى لتحقيقها وبشر بها في الوقت الذي كان يشك الجميع في إمكان حدوثها ؛ فقد كان في إيطاليا ملكان لا يعدو أحدهما للآخر إلا بعد معركة حامية مدمرة ، وكان العداء مستحكما بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وكان لكل ولاية قوانينها وأساليبها في التربية والحياة ؛ وتعلق متزيني بفكرة الوحدة وإصراره عليها وتأكيدها وحمل الإيطاليين على الإيمان بها وتحقيقها يجعله يحق في طليعة صانعي أوروبا الحديثة .

ولكن الوحدة لن تتم إلا بعد الاشتباك في حرب مع النمسا ، فهي لا تتنازل عن سلطانها في ولاياتها الإيطالية إلا بقوة السلاح ؛ وكان متزيني يرى أن المسألة لا يمكن أن تسوى تسوية سلمية وأن مصير إيطاليا سيفصل فيه في سهول اللومباردي ، وكان يرحب بالحرب ما دامت القضية التي تقوم من أجلها الحرب قضية عادلة ولا تعالج بغير هذا الأسلوب ؛ ومن أقواله في ذلك : « إن الحرب هي القانون الأبدي الذي يقف بين السيد والعبد الذي يصدع أغلاله » . وكان يرى اللجوء إلى حرب العصابات لأنها الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها الثائرون أن يقاوموا الجيوش المنظمة ، ويؤيد هذا الرأي بشواهد تاريخية كثيرة .

وما العمل الذي تقوم به جمعية إيطاليا الفتاة إذاً ؟ عمل جمعية إيطاليا الفتاة هو التنظيم والتربية ؛ والتنظيم الممكن لابد أن يكون سريا ، على أن التنظيم السري له عيبه الأصيل ، فإن الجمعيات السرية سرعان ما تصبح مباءة للجواسيس ورجال المباحث السرية ، وقد كان متزيني على الدوام ضحية المخبرين والجواسيس ، وكانوا يكتسبون ثقته في يسر وسهولة !

وقد كان لهذه الجمعية عيوبها ، ولكن كان لها أعظم الأثر في تربية الشعب الإيطالي ؛ فقد كانت الرسائل والنشرات والبيانات التي تصدرها تصل إلى كل ركن من أركان إيطاليا وتتغلغل في كل ناحية من نواحي حياتها ، فتحفز النفوس وتثير الحماسة والنخوة . وكان متزيني يعتقد حينذاك أن الثورة آتية وأن ميعاد نشوبها قريب وأنها تهدد أوروبا ، وأن إيطاليا يجب أن لا تتخلف عن سائر الأمم ، وكان واثقاً من النجاح .

وقد انتقل متزيني من ليون إلى مرسيليا ، وهناك بدأ إصدار جريدة « إيطاليا الفتاة » واشترك معه في الإدارة والتحرير جماعة من الإيطاليين المنفيين ، وظل مثابراً على الكتابة مدة عامين ، وقد بذل هو وأصحابه مجهوداً ضخما ، ولم يبال من عزمهم الفقر والحرمان ، وقد استطاع في خلال هذين العامين أن يبذر بذور الثورة القادمة ، وقد أعدى

زملاءه بحماسته وبث فيهم روحه ، فارتفعوا إلى مستواه ، ولم يقصروا فى مسايرته والمساهمة فى وجوه نشاطه ، وكان الجميع يشعرون بالغبطة والسعادة برغم ما يعانونه من الضيق والعسر ، وقد أصابت دعوته فى إيطاليا آذاناً صاغية وقلوباً واعية ، وأسمعت كلماته من به صمم ، وأثارت هوامد الهمم ، وأحيت فى قلوب الشبان ميت الأمل ، وعلمتهم أن يكونوا جديرين بقول المتنبي :

وإنا لنلقى الحادثات بأنفس
كثير الرزايا عندهن قليل

فالمجهود الضخم وتجشم العناء والدمع المسفوح والدم المراق ، كل ذلك مما يمهد السبيل ويزيل العقبات ويدنى من الغاية المنشودة ويسمو بالبلاد ويزيل عنها أوضار الذل والمهانة .

ولقى متزينى فى مرسيليا شاب شديد الإيمان بمستقبل إيطاليا ، وكان لا يقل حماسة من متزينى وقد قام بنصيب وافر فى حركة الاستقلال الإيطالى ، وهذا الشاب هو غاريبالدى ، وقد انضم إلى الجمعية . وأرسل الفيلسوف الإيطالى جيوبرتى إلى الجمعية رسالة تأييد وتشجيع .

وكثر تهريب الأسلحة والذخائر وسائر معدات الثورة من الموانى الإيطالية ، وقام الاستعداد على ساق وقدم فى كل ولاية من الولايات للثورة العامة وطرد النمساويين .

وكان جاكوبو رافينى صديق متزينى الحميم يمثل رئيسه فى توجيه الحركة ، ولاح لمدبرى الثورة أن النصر قريب وأن بوادره قد لاحت ، ولكن جواسيس الحكومة كانوا ساهرين ، وعرفت الحكومة تفصيلات المؤامرة ، وألقت القبض على مئات من أعضاء الجمعية ، وتبع ذلك المحاكمات العسكرية والتعذيب والقتل والتمثيل وهكذا أغرقت الحركة فى سيل من الدماء ، وكان من بين القتلى اثنا عشر شاباً ذنبهم الوحيد أنهم كانوا يقرأون بعض مطبوعات جمعية إيطاليا الفتاة ؛ وافتنت الحكومة فى ابتكار طائفة من التهم السخيفة لتشوه سمعة متزينى وتحط من قدره .

على أن الضربة الصادعة التى أصابت متزينى فى غمرة هذه المجزرة الرهيبة التى لوثت سمعة الملك شارل ألبرت هى انتحار جاكوبو رافينى أعز أصدقائه عليه وأحبهم إليه ، وقد تخاذل تلقاء هذه الحادثة صبر متزينى ، ووهى تجلده ، وكاد يذهب الحزن الشديد بعقله .

وأصدرت الحكومة الفرنسية أمراً بنفيه وإبعاده وتعطيل جريدته ، فاختفى فى منزل أحد أصدقائه الفرنسيين وبدأ يصدر نشرات سرية .

ثم غادر مرسيليا إلى جنيف كسير القلب محزون النفس ، وقد زاده حبوط الثورة الأخيرة إيماناً بضرورة قيام ثورة أخرى فى بيدمونت .

على أدهم

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٢٧٦٩
القاهرة

العادة السرية

— ٣ —

سأطرق هذه المرة ميداناً شائكاً قد تعرض قدماي في رماله، وبالتالي أعفيت نفسي منه. ولكن كان لابد لختام هذا الموضوع الهام أن أذكر شيئاً من العادة السرية عند الجنس اللطيف. ولقد قيل إنها قد تبدأ فيهن من الطفولة وتستمر خلال سنيّ العمر الطوال حتى آخر العمر بعد سن اليأس بقليل أو كثير. وقد تحدث في غير المتزوجات كما قد يكثر حدوثها عند المتزوجات. فإذا بدأنا بالفتيات البالغات غير المتزوجات ودرسنا تاريخهن وجدنا في الأغلبية منهن حسا مرهفاً وعاطفة رقيقة، ويزيد من إشعال لهيبهن الكامن اختلاط مبكر بالذكور والسماح لهن بالاطلاع على كتب تبحث في التناسليات في صراحة تشعل مخازن البارود الكامنة في الجسم الغض البض. وقد لاحظ العلامة هوارد في كثير من حالاته أن مسخ الخطبات الطويلة الذي وانقطاع السيل العاطفي الجارف الذي كان يضفيه الخطيب على خطيبته يشعر الأخيرة فجأة بنقص في الجو الذي تعيش فيه، فتجد نفسها وقد اندفعت في تشدان السلوى بينها وبين ونفسها ولعلها تفلح. ويحمل الدكتور هنتر في كتابه حملة شعواء على الجرائد والمجلات الأمريكية التي تسمح بنشر بعض الإعلانات الغامضة التي يفهم من كلماتها التشجيع على اقتناء بعض الأدوات التي تستعملها السيدات لإرواء الغليل الجنسي. ومن أمثلة هذه الإعلانات: «أدوات من المطاط»، «الطريق إلى السعادة»، «كيف تسعدين وأنت عازبة» ويقول أيضاً: إن هذه الإعلانات ترشد السيدات إلى محلات لبيع أدوات خاصة لممارسة العادة السرية مع تجنب التصريح العلني على صفحات الجرائد، واللبيبة المتطلعة الطامحة يكفيها خفيف الإشارة.

أما في السيدات المتزوجات فقد تكون العادة قديمة متأصلة من عهد الطفولة والصبا، فلا يمنع الزواج الفتاة من الانغماس فيها، لا يشغلها عنها زوج محب ولهان، أو أمومة أو حمل، وقد تستمر العادة إلى سن اليأس بعد انقطاع الطمث. والواقع أن السيدة المدمنة على العادة السرية لا تجد لذة في الجماع الطبيعي؛ وقد تستسلم لزوجها في آلية لا حسّ فيها ولا عاطفة، حتى إذا ما خلت لنفسها كانت اللذة الكبرى والنعيم الذي يصطلي به كل من عاش في جنة المجنون! ويعزو علماء التناسليات هذا إلى أن كثرة الحك في البظر والشفرتين والصماخ البولي يولد فيها حساسية شديدة فتبدو جدران المهبل ميتة نسبياً، فإذا حصل الاحتكاك الجنسي فشلت محاولات عضو الذكر في إيقاظ مركز التنبيه الجنسي مهما لاعب وداعب الغشاء الداخلي المهبلي، وقد تلجأ المرأة المتزوجة إلى العادة السرية إذا لم يباشر الزوج واجباته الجنسية كما تشتهي وتريد، ومن أهم هذه الأسباب شدة الحساسية وسرعة القذف، ومحاولة منع الحمل بطريق الانسحاب أي القذف خارج المهبل.

أما عن الطرق التي تمارس بها السيدة العادة السرية فيقول العلامة (ماكس هنتر): إن من أوسعها انتشاراً الحك باليدين مع ضم الفخذين لبعضهما، ولما كان الصماخ البولي أشد هذه الأجزاء — بما فيها البظر — حساسية فقد تلجأ المرأة وهي في أشد حالات الشبق إلى إدخال قلم رصاص أو إبرة (التريكو) في القناة البولية وقد تصل بها إلى تجويف المثانة. ويصف هذا العلامة طرقاً أخرى شائعة الاستعمال مثل احتضان الوسائد، والزج في المهبل بقضيب صناعي من المطاط أو مفتاح أو موزة أو خيارة. ويصف العلامة (تالي) الطريقة التي تباشر بها السيدة اليابانية العادة السرية فيقول: تأتي السيدة بكرتين مجوفتين في حجم بيضة الحمامة، وتترك إحداهما فارغة وتضع في الأخرى

كرة صغيرة من معدن ثقيل . والفكرة في هذا هي أنه إذا وضعت مثل هاتين الكرتين في راحة اليد إحداهما بجانب الأخرى فإنهما لا تهمدان عن الحركة المستمرة وعند الاقتضاء ترج المرأة الكرة الفارغة أولاً في المهبل حتى تصل بها إلى عنق الرحم ثم تتبعها بالأخرى وتحشر سدادة من القطن لتحول دون سقوطهما ثم تجلس على كرسي هزاز أو سرير من الشبك يهتز كالأرجوحة ، فتحدث الحركة البطيئة الناعمة اهتزازات عنيفة في لطفها تسري في الجسم المتهالك على عرشه سريان الكهرباء .

* * *

كيف يمكن أن يدفع الزوج زوجته دفعا إلى الانغماس في العادة السرية ؟ أقول بكل أسف إن هـذا يرجع إلى تصرفه نحوها أثناء الجماع . فأعضاء المرأة التناسلية لها تصرفاتها وتغيراتها أثنـاء هذه العملية وقبلها وبعدها ، ففي البداية احتقان وفوران ، وعند الختام الطبيعي بالوصول إلى درجة الشبق والارتواء هدوء وهمود واستقرار موضعي ونفسي وعصبي . والويل لأعضاء المرأة إذا تركت في منتصف الطريق نتيجة عيب في الزوج أو بسبب اتباع طريقة الانسحاب لمنع الحمل فإن الأعضاء تبقى مع تكرار الواقعة في حالة احتقان مزمن قد تؤدي إلى أوخم العواقب .

والواقع أيها القارىء العزيز أن ما يسمونه جماعا طبيعيا لا يؤدي في معظم الحالات كما يجب . فإن الأنانية تتغلب على الموقف ولا يحفظ الرجل للمرأة حقها من متعة الجسد والروح . فهو يقتحم الدار متى ثارت ثورته ، سـواء كان الطرف الآخر على استعداد لاستقباله أم لا ، بل قد يكون صاحب الدار مستغرقا في النوم فيوقظه دون إنذار أو تمهيد وبعد حديث قصير ومداعبة مختزلة ينزل الستار ، ويرتمي الزوج في إجهاد ، ثم لا يلبث أن يستغرق في النوم وهو يشخر شخيرا ، بينما تكون الزوجة قد بدأت تتنبه منهـا الحواس ، فتنظر في حسرة إلى الذي حاولت أن ترتفع معه إلى السموات العليا ، فإذا به يهوي قبل الميعاد إلى أسفل سافلين . وسواء منيدة نهازة للفرص ، لا تحب أنصاف الحلول ، فتحك بيدها أو تحتضن وسادتها وتضغط بهـا بين فخذيها حتى ترتوي وتشبع .

ولملافاة هذا الموقف الشاذ ، وما قد يؤدي إليه يصر العلامة (هدتر) على وجوب إرشاد الأزواج إلى الطريقة المثلى لمباشرة عملية الخلود الأكبر ، وهو ينبه الزوج إلى ضرورة اعتبـار الزوجة طرفا ثانيا ، له حقوق والتزامات لا تقل من حقوقه والتزاماته ، وأن عليه أن يطيل مدة الجماع حتى يشعر بارتوائها إلى حتى ما بعده من مزيد ، ويحذره من تركها في منتصف الطريق تتمنى الدار وتلعن زائر الدار . وهو يقول إن إطالة مدة الجماع تتوقف على أمور أربعة : الأول أن تكون الزوجة متيقظة تماما حتى تتفتح بكل عواطفها الكامنة في أتون الشغف المتأجج فتبادله حبا بحب ، وتقابل هجوما عنيفا باستسلام أشد عنفا . والثاني ألا يحاول الزوج الوالج وهو نصف منتصب ، لأن هذا من أهم أسباب سرعة الدفق . والثـالث ألا يكون بين عضوي الذكر والأنثى خشونة أو جفاف . فقبل محاولة الولوج يجب أن يدهن رأس النازي بمـادة زلقة مثل الفازلين مثلا ، وقد يجد الزوج الطريق ممهدا إذا أطال فترة المنازلة والتدليل التي تسبق الجماع . فإن أنسجة المرأة تفرز إفرازا مخاطيا لزجا أثناء تمضمضها وبدء استسلامها . ولعل خشونة جدران المهبل من أهم أسباب قصر مدة الجماع . أما الأمر الرابع والأخير فهو ألا يبدأ الزوج حرث جدران المهبل حال ولوجه ، بل يجب أن يتصرف كالمك حارس لا كوحش مفترس ، فيقضي فترة من الزمن يهمس في أذني الضحية القوية ويبين شفتيهـا أحلى السخافات ليتغلب على تحمس الدقائق الأولى ، متجاهلا الامتزاج الـكائن تجاهلا تاما . فمتى ملك زمام الموقف وتغلب على فترات الضعف الأولى أصبحت مدة الجماع ملك يمينه

يطيلها ويقصرها كما يشاء . والفرق بين شخص يطيل وآخر لا يطيل ، أن الثانى يبدأ فى العبث والحركات العنيفة حال ولوجه فى الركن الحصين ، دون أن يبالى بالحصول أولاً على صك الاستسلام من النفس الثائرة والجسد الفائر والذهن المتيقظ ، فسرعان ما تكسر حدته ويصبح فى ذلة مخلفا فى موقع المعركة القصير تخبراً محيا ، وبالبته ما فعل .

فإذا تصرف الزوج نحو زوجته بطريقة مثالية منظمة ومتمشية مع نواميس الطبيعة ، وقاها شر بردها وسادتها .

* * *

وتنقسم أعراض العادة السرية فى السيدات إلى موضعية وعامة . أما الموضعية فتتلخص فى تضخم ظاهر فى الشفرين الصغيرين سببه كثرة الحك والجذب والعبث العنيف . وقد يبدوان من فرط تضخمهما كأذنى كلب صغير أفزعته المفاجأة فرفع أذنيه فى يقظة الحارس الذى يود أن يكون أمينا . ويلاحظ أيضاً وجود حمرة شديدة حول فتحة المهبل ، وإفراز مخاطى يغمر الوضع الحساس ، وبطبيعة الحال يبقى غشاء البكارة سليما فى غير المتزوجات .

ولا تختلف الأعراض العامة عنها فى الذكور . فالفتاة غير المتزوجة تكون فى العادة خجولا ميالة إلى العزلة ، تنفر من الجنس الآخر قائمة بجنتها الصغيرة ، تحمر منها الوجنتان فى سرعة عجيبة فى أقل المواقف حرجا . فإذا ما تزوجت نظرت إلى عملية الجماع نظرة فتور وعدم اهتمام ، وقد تلجأ إلى مداعبة بظرها بأصبعها الرقيقة أثناء الجماع أو بعده أو قبله مباشرة لتحصل على لذتها الكبرى فى غفلة من الزوج المغبون .

وقد تشكو السيدة من خفقان فى القلب واشتداد فى نبض شرايين الرقبة . وقد يقف الطبيب حائراً أمام هذه الحالات ولا يفطن للسبب الحقيق إلا إذا تذكر العادة السرية كأحد مسببات هذه الأعراض . ويقص علينا الدكتور (هنتر) قصة فتاة انتابتها هذه النوبات فشك طبيبها فى وجود مرض بالقلب ، حتى إنه أجل ميعاد زواجها عاماً بأكمله . ولكن الأعراض لم تلبث أن اختفت عقب الزواج ، وأنجبت السيدة ولدين ثم عاودتها نوبات الخفقان مرة ثانية . ولما اختلى بها لفحصها صارحته بأنها كانت مدمنة على العادة السرية وهى فتاة ، وشفيت بعد الزواج ، ولكنها خوفاً من تكرار حدوث الحمل اتفقت مع زوجها على أن يقتصر فى علاقاته الجنسية معها على حك القضيب المنتصب بين فخذيها ، وهـذا عمل لا يختلف كثيراً عن العادة السرية . ولما أرشدها الطبيب إلى الطريقة المثلى لمباشرة الجماع فى أمن وطمأنينة من حدوث الحمل اختفت الأعراض بسرعة عجيبة .

ومن الغريب أنه ليس للعادة السرية عند الفتيات غير المتزوجات أى تأثير جسمى أو نفسى ضار ، فهن يمارسنها فى بساطة تامة دون أن يعوقهن هذا عن نشاطهن اليومى ، سواء فى العمل أو المدرسة ، ويبدون فى صحة وإشراق كأن لم يكن هناك شئ . وقد طلبت كاترين دافيس كتابيا من ألف فتاة متعلمات تعليما عاليا وخريجات فى أكبر الجامعات أن يوافينها عن تجاربهن فى هذا الصدد ، فثبت من إجاباتهن أن الأغلبية العظمى منهن مارسنها أو لا زلن يمارسن العادة السرية فى انتظام دون أن يؤثر هـذا على نشاطهن أو مستقبلهن الزاهر . والواقع أنه قلما تأتى الفتيات إلى عيادة الطبيب كنتيجة للانغماس فى العادة السرية ، بل إن معظمهن يأتينها فى بساطة ويسر قانعات بها حتى يأتى يوم الفتح الأكبر حين يرزقهن الله بالزوج الصالح .

ويجب ألا يمنعنا هذا من وقاية الفتيات من شر الوقوع فى حبائلها . فعلينا أن نمنعهن ما أمكن من قراءة النشرات المثيرة للعاطفة ومشاهدة الأفلام الغرامية العنيفة ، وأن نشجعهن على ممارسة الألعاب الرياضية كالسباحة وكرة المضرب ، وإذا عقدت خطبة فتاة وجب عدم إطالة مدة الخطبة ، فإن هذا يثير ما كمن من عاطفة الفتاة ويجب

استطلاعها ، فإذا وقعت الواقعة وأولمت الفتاة بالعادة السرية فيجب أخذها بالنصح والإرشاد والتكلم إليها في صراحة تامة عن مساوئها دون أن نسرف في المبالغة والتحذير ، وتكليفها بعمل مرهق يشغل أوقات فراغها دون أن تشعر بالمؤامرة المحبوكة الأطراف . أما في السيدة المتزوجة فيجب أن نبحث عن عيب في الزوج كما سبق شرحه وتفصيله . ويجب إرشاد الطرفين إلى أمثل الطرق للاستمتاع دون خطر الحمل إذا شاءا تجنبه ، وإلى جعل هذه الفترة الملائكية جديرة بالقدسية التي تصقل النفس الآدمية وترتفع بها إلى أرق الدرجات وأشدها حساسية ولو لفترة وجيزة .

دكتور مصطفى الديواني

المقالات الثلاث مقتبسة بأمانة من كتاب :
(Sexual Disorders By max Hunter)
طبعة ثالثة ١٩٤٥ .

من محاضرة لبرنارد شو :

الديمقراطية

أحدثكم اليوم عن الديمقراطية حديثاً سافراً ، أي كما توجد وكما يجب أن نعرفها جميعاً مهما اختلفت بيننا وجهات النظر . لنفرض أني كنت سأحدثكم عن البحر لا عن الديمقراطية ، فهو في بعض خواصه قريب الشبه منها . إن لكل منا نظرته الخاصة إلى البحر وشعوره الخاص نحوه ، فالبعض يكرهه ويشعر بالدوار إذا كان على ظهر سفينة ، والبعض يحبه ولا يشعر بالسعادة إلا إذا كان يمخر عبابه أو يداعب أمواجه أو يتأمل منظره الجميل على الأقل ؛ ولكن هناك ولا شك حقائق ثابتة عن البحر لا تتوقف على نظرتنا إليه ولا على نوع الشعور الذي نشعر به نحوه ؛ فإذا قلت لكم إن البحر موجود فإن أحداً منكم لن يعارضني ، وإذا قلت إن البحر في بعض الأحيان يكون عاتياً غير مأمون الجانب وإن أقرب الناس إليه هم أقلهم ثقة فيه فإنكم لن تصيحوا في وجهي قائلين إني عدو للبحر أريد أن أمحوه من الوجود وإني سأحرم الاستحمام وأقضي على التجارة وعلى رجال البحرية البريطانية . وإذا قلت لكم إنكم لا تستطيعون التنفس وأنتم تحت الماء فلن تأخذوا قولي هذا على أنه إهانة شخصية لكم ، فيسألني سائل في أنفة إن كنت أعتبره أقل مرتبة من الأسماك . إذاً أرجو أن تتقبلوا بنفس هذا الصدر الرحب ما سأحدثكم به من حقائق مؤلمة عن الديمقراطية . إذا قلت لكم إنها في بعض الأحيان خطرة لها قوة طاغية غير مأمونة وإن هؤلاء الذين هم أقرب الناس إليها بحكم عملهم كرجال الحكومة هم أقلهم ثقة فيها ، فلا تتسرعوا بالحكم على بأني مأجور لأحد أو أني انضممت في أخريات العمر إلى حزب المحافظين ، ولا تتهموني بأني سأحرمكم من التصويت في الانتخابات وألغي البرلمان وأمنع الاجتماعات العامة والخطابة الحرة . وكذلك أرجو أن لا تأخذ الحماسة بعضكم فيهتف لي كفارس من فرسان العصور الوسطى وعهود الاستبداد ، فإني بريء من كل هذه المغالاة . إن كل ما أرمي إليه هو أنه سواء أكنا ديمقراطيين أم محافظين ، كاثوليكيين أم بروتستانت ، فاشيين أم شيوعيين ، فإننا جميعاً وجهاً لوجه أمام قوة معينة في هذا العالم تسمى الديمقراطية ، فيجب أن نعرف حقيقة هذه القوة ومنشأها سواء أردنا أن نحاربها أو ندافع عنها .

إن الديمقراطية كما يعرفها أكثركم ليست أكثر من كلمة طويلة يتقبلها البعض بإكبار وتبجيل ، ويلفظها البعض في احتقار بغير بحث ولا استقصاء ! وهذا خطأ ، إذ يجب علينا قبل أن نتقبل شيئاً بإكبار أو نلفظه باحتقار أن نسأله أسئلة كثيرة ، أولها : من أنت ومن أين أتيت ؟

فإذا سألنا الديمقراطية هذه الأسئلة فإن إجابتها ستكون : « إن اسمي هو (ديموس) ، وأنا أعيش في

الأمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية وفى كل مكان يلتهب فيه قلب الإنسان بحب الحرية . إنك يا صديق شو وحدة من وحدات الديمقراطية . إن اسمك أيضاً دبعوس ، وإنك أحد أفراد شعب ديمقراطى كبير وعضو عامل فى برلمان الإنسان الذى يربط بين دول العالم » .

ولكنى أقول لها : « كفى هراءً ، إن اسمى هو برنارد شو لا دبعوس ، وإن عنوانى ليس هو الأمبراطورية البريطانية ولا الولايات المتحدة الأمريكية ولا أى مكان يلتهب فيه قلب الإنسان بحب الحرية ، بل عنوانى هو رقم كذا بشارع كذا بلندن ، وسأجد وقتاً كافياً للتحدث عن عضويتى فى برلمان الإنسان حينما يكون لهذا البرلمان الموقر وجود . إنى لا أعتقد أن اسمك دبعوس ، فدبعوس ليس اسماً لأحد ، وكل ما استطعت أن أعرفه عن عنوانك هو أنه ليس لك عنوان وأنك لست إلا شاردة ضالة إذا كان لك وجود على الإطلاق .

أظنكم لاحظتم أنى مؤدب جداً إذ لم أقل لدبعوس إنك ثرثارة كثيرة الكلام .

فلنبدأ بحثنا إذاً عن الديمقراطية بأن نعتبرها كبالون كبير مملوء بغاز أو هواء ساخن يطلق فى الفضاء حتى تظل أبصاركم معلقة به فى السماء بينما الناس ينشلون جيوبكم ، وحينما يهبط البالون إلى الأرض كل خمس سنوات تقريباً فإنكم تدعون إلى ركوبه إذا استطعتم أن تدفعوا خارجاً بأحد الركاب الرابضين بداخله ، ولكن لما لم يكن عندكم لا الوقت الكافى ولا المال اللازم لذلك ، ولما كان عددكم يربو على الأربعين مليوناً بينما عدد الكراسى التى بالبالون لا تزيد عن ستمائة كرسى ، فإن البالون غالباً ما يرتفع ثانياً بدون حدوث أى تغيير يذكر فى ركابه ، أما أنتم فتظلون على حالتكم التى كنتم عليها من قبل . أظنكم إذاً تتفقون معى على أن البالون كصورة للديمقراطية يمثل ما يحدث فى البرلمان .

والآن أنتقل بكم إلى ناحية أكثر شاعرية من نواحى الديمقراطية ! تعلمون أن إبراهام لنكولن يظل دائماً كبطل واقف فى معركة جيتزبرج معلناً أن هذه المذابح التى حدثت بين بعض الأمريكيين وبعضهم الآخر لم تحدث إلا لكى تمنع الديمقراطية (التى تعرف بأنها حكم الشعب لمصلحة الشعب بوساطة الشعب) من الفناء من على سطح الأرض . لنفحص إذاً هذا الكلام جيداً لنعرفه على حقيقته .

أما البند الأول فى تعريف الديمقراطية وهو حكم الشعب فهذا ضرورى بلا شك ، فإن الأمة الراقية لا تستطيع أن تحيا بغير حكومة كما لا يستطيع إنسان أن يحيا بغير حركة منتظمة للتنفس والدورة الدموية . وأما البند الثانى وهو الحكم لمصلحة الشعب فهذا مهم جداً وقد أوضح لنا « إنج » هذه النقطة جيداً حينما قال إن الديمقراطية نوع من المجتمع تتساوى فيه المعاملة بين جميع الأفراد ، وقد أضاف أنها مبدأ مسيحى ، ولما كان مسيحياً فهو يؤمن به وكذلك أنا ؛ ولهذا أصر على المساواة فى الدخل ، إذ لا تمكن المساواة فى المعاملة بين شخص دخله مائة جنيه فى العام وآخر دخله مائة ألف جنيه . وأما البند الثالث وهو الحكم بوساطة الشعب فهذا هو نقطة الخلاف . إننا جميعاً على اختلاف مبادئنا نعترف بأنه يجب علينا أن نحكم ، وقد اتفق الديمقراطيون من أمثال « إنج » وأمثالى على أن الحكم يجب أن يتسم بالمساواة فى المعاملة بين جميع الأفراد ، وهذا هو الذى لا يجعلنا نعترف بالبند الثالث ، لأن الشعب لا يستطيع أن يحكم نفسه ، فليس فى استطاعة كل مواطن أن يكون حاكماً ، كما أنه ليس فى استطاعة كل طفل أن يكون سائق قطار أو قرصاناً . فالحكم بوساطة الشعب لن يكون فى يوم من الأيام حقيقة واقعة ، ولكنها فقط صيحة يخدعنا بها الزعماء الدجالون لنصوت لهم فى الانتخابات . فإذا كان أحدكم فى شك من ذلك وسألنى : لم لا يستطيع

الشعب أن يضع لنفسه القوانين ؟ فما علىّ إلا أن أسأله : لم لا يستطيع الشعب أن يكتب لنفسه المسرحيات ؟ ذلك لأنه لا يستطيع .

وهنا تعترضنا مسألة هامة ، وهي إذا كنا لا نستطيع أن نحكم أنفسنا ، فما هي الوسيلة التي نستطيع بها أن نتجنب الويلات التي يصبها علينا أولئك الذين في استطاعتهم أن يحكموا إذا اتفق أن كانوا من الخونة المرتشين . قد يكون الجواب البسيط على ذلك هو : حيث إننا نمثل الأغلبية العظمى فإن في استطاعتنا أن نحرق بيوتهم ونمزقهم إربا إربا ؛ ولكن هذه الطريقة غير مجدية ، فالقوم العقلاء لا يرتكبونها ، اللهم إلا إذا هم فقدوا عقولهم ، وفي هذه الحالة لا نستبعد عليهم أن يحرقوا بيوتاً آمنة أو يمزقوا رجالا مظلومين . المشكلة إذاً هي أن الشعب لا يستطيع أن يحكم نفسه ، ومع ذلك فليس هناك رجل طيب لدرجة أنه يصلح لكي يكون سيداً لرجل آخر كما يقول « وليام موريس » . نحن في حاجة إلى حكومة ، ولكننا في حاجة كذلك إلى توجيه الحكام . ولما كان الحاكم النزيه لا يستمع إلى صوت آخر غير صوت ضميره ، ولما كنا كمحكومين عرضة كذلك لإساءة استعمال حقنا في مراقبة الحكام ، فإن حل المشكلة من أصعب المسائل كما ترون .

فإذا كنا لا نستطيع إذاً أن نوجه حكامنا أليس في استطاعتنا أن نختار أولئك الذين يحكموننا ونستبدلهم بغيرهم إذا دعت الحال وكانوا غير لائقين لمراكزهم ؟

دعوني أضرب لكم مثلا بسيطاً من طريقة اختيار الحكام في الديموقراطية ، وليكن هذا المثل خياليا ، فالخيال لا يضر أحداً . لنفرض أننا في قرية صغيرة وأردنا أن ننتخب شخصاً ما لشغل وظيفة ساعي البريد . أمامنا كثير من المرشحين ، ولكن أبرزهم لنا شخص اعتاد أن يتناول معنا في الأسواق وأن يتبرع لنا بشلن في معرض الزهور ، وهو طيب القلب يداعب الأطفال بكلمة حلوة كلما مر بهم ، لذا فإننا ننتخبه على الفور بحماسة فائقة ونمنحه الزي الرسمي والدراجة الحمراء ، ونزوده بكمية من الخطابات لتوزيعها . ولما كان الدافع الوحيد لهذا الشخص لنيل الوظيفة هو حب الظهور ، فإنه لم يفكر كثيراً قبل اليوم في الواجبات التي ستلقى على عاتقه ، والآن يخطر على باله لأول مرة أنه لا يعرف القراءة ، فماذا يفعل إذاً ؟ إنه يستأجر صبياً يرافقه عند التوزيع لقراءة العناوين ، ويختفي الصبي بينما ساعي البريد يوزع الخطابات ويحمل صناديق عيد الميلاد ، ويرجع كل الفضل إليه وحده . وتمر الأعوام ويموت هذا الشخص فننعاه كضحية لكثرة الواجبات ثم ننتخب شخصا آخر جاهلا بنفس الطريقة التي انتخبنا بها سلفه . ولكن الصبي في هذا الوقت يكون قد شب واتسعت مداركه فيعرض نفسه على الساعي الجديد كشيء ضروري لابد منه لنظام التوزيع ، وأخيراً تعرفه القرية وتعطيه أجره على هذا الأساس .

وقد تنجح هذه الطريقة نجاحاً باهراً ، فساعي البريد وإن كان غير مثقف إلا أنه قد يكون شخصاً كفئاً ، والصبي الذي يقرأ له العناوين لا يستطيع أن يعمل شيئاً أكثر من ذلك . ولكن هذا لا يحدث دائما ؛ وسواء حدث أو لم يحدث فهذه الطريقة ليست بحقيقة ديمقراطية ولكنها خدعة ديمقراطية ؛ فالصبي حينما يستطيع أن يستغل مركزه يصبح على الفور سيداً الرجل ؛ فالشخص الذي انتخب إذاً للقيام بهذا العمل لا يقوم به في الحقيقة ، ولكن الذي يقوم به صبي مأجور على إرادته عليه .

أليست هذه هي بعينها الطريقة التي يحكمنا بها وزراؤنا الديمقراطيون وتجرى بها الانتخابات في البرلمان . أهذا إذاً هو حكم الشعب بواسطة الشعب ؟ أتعجبون إذاً أن « إيج » لم يستطع أن يؤمن بهذه الخرافات ؟ إني إذا آمنت بها أكون غير أهل للتصويت على الإطلاق .

محمد جمال الدين حسين

كتاب :

تاريخ التعليم فى مصر

فى عصور عباس وسعيد وإسماعيل

كان لمصر محمد على الفضل كل الفضل فى تزويد المكتبة العربية بهذا العدد الضخم من الكتب التى ترجمت من اللغات الأجنبية التى شارك فى نقلها أفراد وهيئات ومدارس مختلفة ، وساهم فيها نفر غير قليل من السوريين وخريجى البعثات ومدرسة الألسن وموظفى الحكومة ، والتى كانت تهدف إلى نقل علوم الغرب إلى مصر لابتعاث نهضة جديدة تربط بين الكنانة وبين العالم المتمدين ؛ وقد أدت حركة الترجمة فى ذلك العصر واجبها . وكان من الممكن أن تؤتى أكلها فتبعث المتعلمين من المصريين إلى أن يخطوا الخطوة التالية فيؤلفوا ، وقد بدأوا يخطون هذه الخطوة فعلا — وخاصة فى عصر إسماعيل — ولكنها كانت خطوات متعثرة ، ولتعثرها أسباب كثيرة لا داعى لمناقشتها هنا .

حتى إذا كان عهد فؤاد وفاروق ، وحتى إذا أنشئت جامعة القاهرة ، واستطاعت أن توحى إلى طلابها وخريجيها أن يكتبوا ويؤلفوا ، وألقت إليهم بطرق البحث ومناهج الدراسة العلمية ، أقبلوا يدرسون ويبحثون ، واتجهوا فى بحثهم ودراستهم إلى مصر — وطنهم العزيز — أولا ، يحاولون التعرف إلى نواحيها المختلفة ، وخاصة إلى تاريخها وتاريخ نهضتها وتقدمها فى العصور المختلفة .

من هذه البحوث المباركة « تاريخ التعليم فى مصر الحديثة » . وهو الموضوع الذى توفر على دراسته — منذ سنوات طويلة — صديقنا الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم — مدرس التاريخ الحديث بجامعة فؤاد الأول

وقد بدأ الدكتور عزت دراساته فى تاريخ التعليم منذ أكثر من عشر سنوات ، فلما كانت سنة ١٩٣٥ تقدم إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالقسم الأول من بحثه وهو « تاريخ التعليم فى مصر محمد على » فأجازته الكلية لدرجة الماجستير مع مرتبة الشرف ، وقد طبع هذا البحث فى مجلد ضخم فى سنة ١٩٣٨ ، فتداولته الأيدى وأفاد منه — ولا زال يفيد — الكثيرون من أساتذة الجامعة وطلابها والمثقفين عامة .

وفى صيف سنة ١٩٤٦ تقدم الدكتور عبد الكريم إلى نفس الكلية بالقسم الثانى من بحثه عن « تاريخ التعليم فى مصر من نهاية عصر محمد على إلى أوائل حكم توفيق (١٨٤٨ — ١٨٨٢) » ، فأجازته لدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الممتازة ، وقد طبع هذا البحث منذ شهور قليلة على نفقة وزارة المعارف المصرية ، والكتاب يقع فى أربعة مجلدات كبيرة ، تحدث المؤلف فى الأول منها عن تاريخ التعليم فى عصر عباس وسعيد ، وفى الثانى والثالث عن تاريخ التعليم فى عصر إسماعيل ، ثم خصص المجلد الرابع للملحقات ، وهى مجموعة قيمة من الوثائق المتصلة بتاريخ التعليم فى تلك الحقبة من الزمن ، والتى لم تنشر قبل الآن ، وقد قدم للكتاب تقدمة قيمة المؤرخ الكبير الأستاذ شفيق غربال بك ، فأجمل الحديث عن السمات الظاهرة التى تميز تاريخ التعليم فى تلك الفترة ؛ وخلاصة رأيه : أن التعليم فى عصور عباس وسعيد وإسماعيل كان متأثرا كل التأثر بالجهود والأسس التى أقامها منشىء مصر الحديثة محمد على الكبير ، فهو — كما يقول الأستاذ الكبير — « قد بنى البناء وأحكمه ، فلم يستطع من جاءوا بعده إلا السكنى فيه ؛ فلازم بقادرين — من جهة — على مغادرته والسكنى خارجاً عنه ، وليست لديهم — من جهة أخرى — الكفاية والوسائل لهدمه وإقامة غيره ، فلم تكن لهم مندوحة عن الاستقرار فيه ومحاولة أن يعدلوا فى أقسامه ، ليتمكنوا من

ذلك الاستقرار ؛ ومن هنا جاءت نظم التعليم وخططه ومشكلاته — في ذلك العهد — متأثرة كل التأثر عما وضع محمد على من خطط ونظم ، وما واجه من مشكلات ؛ ولا زال ظل محمد على — وإن انتهى حكمه — مخيما على العصر التالى له — عصر خلفائه — ، ولا زال الميراث الذي خلفه محمد على ذخراً يستمد منه خلفاؤه مادة للعمل ؛ ولا نكاد نلحظ أثراً لمؤثرات قومية أو خارجية حولت تطور تاريخ التعليم عن مجراه المرسوم ، وعدلت به إلى أهداف جديدة ؛ لهذا جاء تاريخ التعليم في عصر عباس الأول وسعيد وإسماعيل استمراراً لتاريخ التعليم في عصر محمد على ، وجاء كتاب اليوم للدكتور عزت استمراراً لكتابه الذي وضعه منذ سنين .

وانتقل الأستاذ — بعد هذا — إلى العالم الأوربي ، فأثبت أن العصر — الذي يؤرخ الدكتور عزت للتعليم في مصر فى إبانه — كان يمتاز في دول أوربا المختلفة بأنه « عصر نمو الديموقراطية ، والسعى إلى بث الفكرة الديمقراطية في نظم الحكم والاقتصاد الأهلي ، وفى التربية والتعليم ، فبعد أن كان التعليم ترفا لا يناله إلا الأغنياء والمحظوظون أصبح حقاً شائعاً للجميع ، تكفله الدولة للشعب بجميع طبقاته في مدارس التعليم الأولى » .

أما فى مصر — فى ذلك العصر — فقد اتخذت الأمور وضعاً مغايراً ؛ فقد بدأ التعليم في عصر محمد على متخذاً شكل الهرم المقلوب ، أى أن مصر بدأت بإنشاء المدارس الخصوصية — لحاجة محمد على وحكومته إلى الفنيين — ثم اضطرت إلى إنشاء المدارس الأخرى — الابتدائية والتجهيزية — لتمد المدارس الخصوصية بالتلاميذ ؛ ومثل هذا — كما يعقب الأستاذ — « لا يمكن أن يكون نظاماً قومياً للتعليم » .

والحقيقة أن قاعدة الهرم — أى معاهد التعليم الشعبي — كانت موجودة ، وتتمثل في تلك الكتاتيب المنبثة في الريف المصرى ؛ ولكن هذه الكتاتيب كانت لها عيوبها ، كما أنها لم تكن تتسق والنظام التعليمي الحديث ، فكان لا بد من سعى لساسة مصر إلى إيجاد نظام جديد يحقق للشعب أمانيه في تعليم ديمقراطى يتمتع به الجميع ، ويوائم — في نفس الوقت — بين نظام الكتاتيب القديم ونظام التعليم الأوربي الحديث ؛ وقد حاولت مصر هذه المحاولة مرتين :

الأولى بدأها على مبارك باشا في لائحته المعروفة بلائحة رجب .

والثانية بدأها مصطفى رياض ناظر النظار ، وعلى إبراهيم ناظر المعارف ، وإدوار دور المفتش العام للتعليم في سنة ١٨٨٠ .

غير أن الظروف السيئة سارت بمصر بعد ذلك إلى الاحتلال ، فتعطلت هذه المشروعات قليلا ؛ ومع هذا فقد أفادت الإدارة الحكومية في عهد الاحتلال كثيراً من هاتين المحاولتين عند تدبيرها لشئون التعليم في مصر .

هذه هى السمات الأساسية لتاريخ التعليم في ذلك العصر ، كما أجملها وعرضها هذا العرض الجميل الأستاذ شفيق بك فى مقدمته للكتاب ، وكما فصلها الدكتور عزت في مجلداته الثلاثة تفصيلا دقيقاً ممتعا ، ألم فيه بكل دقيقة من دقائق البحث ، وحلل فيه المقدمات والأسباب ، وعرض التيارات المختلفة ، وأوضح النتائج والآثار ؛ وكان هدفه عند كتابة هذا البحث — كما يقول في مقدمته — درس المسائل الآتية :

١ — نظم التعليم الحكومى والأهلى والأجنبى ، وسياسة التعليم فى كل منها ، ومعاهدها وعلاقة كل منها بالأخرى .

٢ — المحاولات التى بذلت — فى عصر إسماعيل خاصة — لإيجاد نظام قومى للتعليم فى مصر .

والحقيقة أن القارئ يجد في كتاب الدكتور عزت

حديثا دقيقا مفصلا عن دواوين المدارس وأقلامه المختلفة كقلم الوقائع وقلم الترجمة وقلم الروضة والمطبوعات ، وعن المدارس الخصوصية : كالطب والهندسة والألسن والبيطرة والفنون والصنائع والحربية والبحرية ، وعن المدارس التجهيزية والمركزية والمكاتب الأهلية ، وعن مدارس العميان والخرس ، ومدارس البنات — فى عصر إسماعيل — ، وعن البعوث العلمية : أفرادها ووجهاتها وما تخصصت فيه ، وعن مشروعات التعليم القومى — فى عصر إسماعيل — ، وعن تاريخ التعليم ومدارسه فى السودان ، وعن الأزهر وتطور نظم التعليم فيه ، وعن مدارس الإرساليات الدينية والجاليات الأجنبية والطوائف غير الإسلامية .. الخ .. الخ .

والكتاب إلى هذا كله سجل ومرجع هام لتراجم قادة النهضة الفكرية فى ذلك العصر ؛ فقد عنى الدكتور عزت بتقصى أخبار هؤلاء القادة عند التحدث عنهم كمبعوثين إلى الخارج ، أو كنظار المعارف ، أو كنظار المدارس المختلفة ، أو كواضعين لمشروعات الإصلاح التعليمى ... الخ .

وهذه المدارس والمؤسسات العلمية المختلفة لا تبدو فى الكتاب جامدة منفصلة ، بل إنها لتبدو حية متصلة . وإنك لتحس — وأنت تقرأ عنها — كأنها كائنات حية تنمو وتتطور بين يديك .

ومعلومات الكتاب دقيقة كل الدقة ؛ فقد رجع المؤلف — عند كتابة بحثه — إلى المراجع المطبوعة التى أرخت للعصر ، ولكنه رجع أول ما رجع إلى وثائق العصر المودعة فى دور المحفوظات بعابدين والقلعة ووزارة المعارف ومتحف التعليم ؛ فادة الكتاب — فى معظمها — مادة جديدة ، ترى النور ، أو تراها النور لأول مرة . وقد بذل المؤلف الفاضل جهدا كبيرا — لا يدركه إلا من عاناه — فى التوفيق بين هذه المواد الكثيرة المبعثرة ، حتى أخرج منها هذا الكتاب القيم ، شأنه فى ذلك شأن المصور الماهر يؤلف بين الألوان المبعثرة فى أنابيبه وأوانيه ليخرج منها صورة جميلة تشيع وتشع الحياة من نواحيها وقسماتها . ولسنا — فى الحق — مبالغين فى تقدير هذا الكتاب ، فقد وصفه الأستاذ شفيق بك — فى مقدمته — بقوله : « والكتاب الجديد يمتاز بما امتاز به الكتاب الأول من مزايا الرجوع للأصول ، ودقة البحث ، واتزان الحكم ، واعتدال الرأى ، وتحرى الحقيقة فى التفكير والتعبير » وهى شهادة لها قيمتها .

وبعد ، فهذا كتاب قيم ، نود — مخلصين — أن يقبل المثقفون جميعا على قراءته ، لنضع خططنا المقبلة على ضوء من تجاربنا الماضية ، لأن دراسة تاريخ التعليم — كما يقول المؤلف — « لا تقتصر قيمتها على توضيح ماضى الأمة فى أعز ناحية من تاريخها القومى ؛ وإنما هذه الدراسة خير هاد فى معالجة مسائل التعليم وتدبير أحكامه فى حاضر الأمة ومستقبلها » .

وغاية ما نرجوه — كما يقول الأستاذ شفيق بك — : « أن يستمر المؤلف فى بحثه لتاريخ التعليم فى مصر إلى أن يصل إلى الوقت الحاضر ، حتى تصبح الصورة أمام القارئ والباحث واضحة ، والمادة كاملة ، ووسائل الحكم أهدى سبيلا » ، وإنا لنعلم أن الدكتور عزت باذل جهده لتحقيق هذا الرجاء . وفقه الله .

جمال الدين الشيال

قصة مراكشية :

وادى الدماء

أقنا خباءنا على مرتفع فى قلب الحقول ، وكانت الزروع الخضراء تحيط بنا فى كل اتجاه إلى أن تغيب خلف الأفق البعيد ، فيخيل إلينا والنسائم تميس بها أننا نقيم فى جزيرة تتراقص حولها أمواج ناعمة صغيرة خضراء ؛ وكان كل شىء يدل على أن الأقدار سوف تبتسم فى تلك السنة لهذه البلاد التى يرتبط تاريخها بنسبة ما يسقط فيها من الأمطار . . . وإنه ليخيل إليك أن فى استطاعتها أن تسقط دولة .

وتفتحت قلوبنا الصغيرة للربيع ، وكانت الطبيعة تقدم إلينا أعز ما فقدناه فى المدينة ، وهو الحرية ، كانت تتمثل لنا فى السماء والأرض وفى كل كبيرة وصغيرة بينهما . وكانت الحياة جديدة بالنسبة لنا ، ولذلك كنا نتأمل باغتباط كل شىء نراه : نجمة فى السماء ، سنبلة بين السنابل ، طائراً فوق غصن ، كل شىء نراه كان يسترعى انتباهنا .

ولم يكدر علينا هذا الصفاء إلا قدوم جباة الضرائب الفرنسيين ، فما كادوا يصلون حتى نادوا بجمع كل الفلاحين والرعاة ليستخدموهم فى إقامة معسكرهم ، وفى شق الطرق لهم بين الزروع . والحقيقة أنهم لم يكونوا فى حاجة إلى كل هذا ، لأنهم كانوا يقدرون الضرائب بنظرة من النظرات . ولو سمعت الجباة يتحدثون إليهم لحسبتهم أصحاب الأراضى يتحدثون إلى العمال والمستخدمين ؛ كانوا صخابين جبارين قاهرين ، ولكن رئيسهم كان يفوقهم فى ذلك ، فقد كنا نتسلل إلى قريب من معسكرهم لنتسلى بالنظر إليه وهو يصيح ويلعن ويضرب الهواء بيده والأرض برجله ، ولا يرى إلا غاضباً مزمجراً .

لم يكن من الغريب فى مراكش أن تستتر شمس الربيع خلف رباب بيضاء فاوبل طليسل كما يقول الناس هناك . بل إن فى ذلك ما يزيد الربيع بهجة وجمالا ، ولكن حدث ما أنسانا جباة الضرائب وصخبهم ، فقد تلاحقت السحب بالسماء إلى أن أصبحت دكناء كئيبة ، وأنذرت الأرض اليانعة الخصبة بالتلف والبوار ، وبين عشية وضحاها غارت أنوار الربيع المتألقة خلف سحب قاتمة كأنها قطع من الظلام . وساد الحقول صمت رهيب كما لو كانت تشعر بأن كارثة توشك أن تنزل بها وتتلف أثمارها . وجلس الفلاحون والرعاة ينظرون بعين الرعب إلى طلائع العاصفة . وهبت لجأة ريح صرصر عاتية ، وازداد الجو إظلاماً ، ثم تساقط رذاذ ما لبث أن انقلب إلى مطر غزير ، ثم انطلقت العاصفة من عقالها ترعد وتبرق وتمطر ، فملأ ذلك قلوبنا حسرة وأسى ، فإن ساعة واحدة من الأمطار كافية لإتلاف محصول السنة كلها .

علّلنا النفس بأنها عاصفة عابرة ، ولكننا بقينا نسمع هديرها إلى الصباح ، واستمرت طول اليوم التالى . وأخيراً عرفنا أننا انقطعنا من المدينة وأنه قد أصبح من المستحيل علينا عبور الطرق الزراعية راجلين أو راكبين لكثرة ما تكدس فيها من الأوحال ، وصمد خباؤنا للعاصفة سبعة أيام كاملة ، ثم بدأت المياه تتسلل إليه . ولما نفد زادنا وذهب أحد الرعاة ليأتينا بغيره من قرية قريبة تبعد عنا مسافة نصف ساعة ، غاب عنا حوالى عشر ساعات . والحقيقة أننا وجدنا بعض اللذة فى ذلك ، ولكن الأمر طال فتسرب الرعب إلى نفوسنا ، وبدأنا نشعر بأننا مهددون بخطر مستطير . وماذا يكون لو انهار ما بقى من خبائنا ؟ على أن الشىء الذى خفف عنا بلوانا قليلا هو أن جباة الضرائب وقعوا فيما وقعنا فيه ، فكانوا يتسلون بالنظر إلينا كما كنا نتسلى بالنظر إليهم ، وربما تبادلنا بعض الإشارات التى لا معنى لها .

* * *

لم يعد في استطاعتنا أن ننام بعد الليلة العاشرة ، إذ ابتل كل شيء في الخباء فجلسنا نتحدث ساهرين . كانت الليلة تبدو لنا أشد هولا من الليالي الماضية ولم تكن العين تدرك وسط الدياجي سوى ضوء خافت في اتجاه خباء جباة الضرائب ، وكنا نقفز في أحاديثنا من موضوع إلى موضوع شأن من تحدثوا عشرة أيام ؛ بيد أن أعرابياً من الرعاة استطاع أن يشغلنا بموضوع جديد ، وأي موضوع ! قال لنا وهو يشير بيده في ضوء البرق : انظروا ، هل ترون ذلك الوادي ؟ سأحدثكم عنه ، إنه وادي الدماء .

كان كل شيء حولنا يبعث الرعب في النفوس ، ولذلك حل هذا الاسم إلى قلوبنا معنى رهيباً ، كان يتحدث والسماء تبرق ، وكنا نرى على ضوء البرق ذلك الوادي البعيد وكأننا لم نره من قبل ، وهو انحدار هائل يقع عند سفح جبل قديم محطم ، وقد امتلأ بالصخور الكبيرة المبعثرة

وسألنا الأعرابي بصوت واحد : وادي الدماء ؟!

فقال : نعم ، وادي الدماء . كانت تقوم هنا في الزمان القديم قرية يحكمها حاكم ظالم ، حياته تمج الدماء والفضائح والسرقات . وكان هذا الوادي هو الجزرة التي يذبح فيها ضحاياه ، فتكونت نتيجة لذلك في أعماقه بركة من الدماء . وبلغ من تهتك ذلك الحاكم الطاغية أنه أقام حول هذه البركة القصور والبساتين وجعل منها مرتعاً لأهوائه الجامحة . وكان يمد البركة دائماً بالجداول من دماء الضحايا ، ولكن ذات ليلة بينما كان الحاكم في إحدى السهرات على حافة بركته الحمراء يشرب الخمر ويغازل النساء ، قام مترنحاً لينظر إلى وجهه في صفحة البركة على ضوء القمر ؛ ولكن بالهول ما حدث ! فما كاد يصل إلى حافتها حتى امتدت إليه آلاف الأيدي من أعماق الوادي ، من أيدي ضحاياه ، وجذبته وهو يصرخ إلى الأعماق حيث اختفى الحاكم إلى الأبد .

وما زال الوادي محفوفاً بالأسرار منذ ذلك الزمان ، فما يوجد أحد يستطيع أن يقترب منه ؛ ذلك أنه يستدرج إليه الظالمين دائماً حتى إذا اقتربوا منه اختطفتهم تلك الأيدي وجذبتهم إلى الأعماق .

وارتفع صوت الرعد ليضاعف هلعنا ، ولكن عيوننا المرعوبة ، كانت مثبتة في الوادي لكي نراه كلما أضاء البرق السماوات بالفجيعة ! لم يكن الأعرابي يتحدث عن خرافات الأولين ، إننا جميعاً نرى أعماق الوادي ، وليست هناك صخور ولا فراغ ، بل إنه يطفح بذلك السائل الأحمر المروع ، نراه كلما أبرقت السماء يغلي بالدماء ، فأصابتنا رعشة أخرست ألسنتنا .

وانطلق الرعد مدوياً صاخباً كما لو كان قد أهاجته قصة الأعرابي ، وانحدرت أصداؤه تتدحرج إلى الأرض لتتردد في أعماق الوادي رهيبة مفزعة ، كما لو كان قد اجتمعت فيه كلة من العمالقة أغرقوا في ضحك ساخر مهول . ثم انطلق الرعد مرة أخرى . فرد عليه الوادي في ضوء البرق رداً آخر مفزعاً ، ولم تنجل عنا نوبة الفزع إلا بعد أن هدأ الرعد قليلا .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ؛ فقد سمعنا في الصمت الذي أعقب الرعد صياحاً مزعجاً ، وكان من الواضح أنه صوت إنسان يصرخ ، وما زال يقترب ويقترب إلى أن بدأنا نميز ما يقول : « تباً لك يا بلاد العواصف والرعود ! ويل لك مني غداً ! لأمزقنك إرباً وأذرونك في الرياح ! آه إني جننت ! هل تسمعين أيتها الرعود ؟ أنا مجنون ! أنا مجنون ! » . ثم تعالى الرعد مرة أخرى . فأعقبه الصوت بضحك متواصل أليم

ثم بدا أن صاحب الصوت قد اقترب منا . وفعلا رأينا على ضوء البرق إنساناً يزحف إلينا ، وجفلنا حين اقتحم علينا الخباء ملطخاً بالأوحال ، منفوش الشعر ، محمر العينين ، منتفخ الأوداج ؛ فعرفناه ! إنه هو ، رئيس جباة الضرائب ! وفي اللحظة عينها وصل أعوانه وأشاروا إلينا أن بعقله خللا ، فلا داعي لمقاومته أو الرد عليه ،

من روائع طاغور

— ١ —

نجم يهوى . . .

في موجة من موجات الجنون قذف نجم بنفسه من سمائه العالية وهوى إلى أعماق البحر القاتمة . . . وحلقت ملايين النجوم فزعة مروعة وهي تشاهد هالة من الضوء تغيب في هذا الفضاء المطلق في لحظات معدودات . لقد اندفع النجم إلى أعماق المحيط ذات القاع الصخري ، واستقر هناك مع نجوم لاقت مصيره وابتلع البحر نورها قبله .

ماذا كان سبب مأساة هذا النجم الهاوي . . . ؟

أنا وحدي أعرف الجواب . أنا وحدي أعرف ماذا كان يُبليه ويفنيه أثناء إشراقه ولمعانه

إنه دفع ثمن لمعانه المستمر وكفر عن تلألئه الدائم . ! كقطعة من الفحم الحي تضحك وتبين من ثناياها لتخفي ظلمتها وسوادها . وكلما زاد تلألؤها ازداد احتراقها . وهكذا ضحك النجم وتوهج نورا ، وحينما لم يستطع أن يتحمل آلام الاحتراق هوى من سمائه من مملكة الضوء متجها إلى ظلمات المياه . . .

ملايين النجوم أبصرت النجم الساقط وضحكت في سخرية قائلة . . . لا خسارة بالنسبة لنا . . . فلا تزال السماء منيرة كما كانت من قبل .

— ٢ —

الملاك البريء

إنهم يقتتلون ويتصايحون .

إنهم يشكون ويقنطون .

بينما كان هو يصيح في وجوهنا : أنا لا تخيفني رعودكم ، بل إني أحتقر عواصفكم ، ولا أسمح لها بأن تحاصرني ، لأقتحمن الأوحال والبرك إلى الطريق الممتدة دون أن أشارككم مصيركم المخجل ، موتوا أنتم هنا ليجدوكم بعد العاصفة جثثاً ملطخة بالأوحال يتعثر فيها عابرو السبيل . هل أنتم فاهمون ؟ لن يقال عندنا إن عاصفة مرا كئيبة أردت فتى من فتيان قريتنا » .

ثم رفع يده مهددا ، فتأخرنا خطوة إلى الوراء ، وقد اندكت نفوسنا لهـذه الأهوال التي أحاطت بنا .

حاول أعوانه أن يمسكوا به ، ولكنه وكزهم وقفز من بينهم إلى الأوحال فساروا في إثره . وهناك تنفسنا الصعداء ، وحاولنا أن نضحك لكي نقنع أنفسنا بأن الأزمة النفسية التي كنا فيها قد انقشعت . ولكن أحدنا التفت على ضوء البرق وقد رأى رئيس الجباة يزحف في طريق . . الوادي . وأشار إلينا صامتا فرأيناه ، وتبادلنا النظرات .

ولكن الأعرابي الذي أفزعنا بقصته المزعجة لم يستطع أن يكتم شعوره ، فصاح : « ألم أقل لكم ! أنظروا ، إن قصص آبائنا صحيحة دائما ، إن الوادي المنتقم يجذب الظالم إليه ، لن يجيء ضرائب بعد اليوم ، سوف يصل إلى حافة البركة الحمراء ، فتتخطفه أيدي ضحاياه ، ضحاياه الذين أفقرهم وشردهم وأذلهم ! سوف تتخطفه كما تخطفت الحاكم الظالم من قبل وكما سوف تتخطف كل ظالم عاتية في المستقبل ، بل إن الجباة جميعا سائرون نحو الوادي ليلحقوا بضحاياهم . سوف تتقاضى منهم تلك الأيدي الخفية ثمن الزروع التي أفسدوها والتي سرقوها والتي اغتصبوها » .

ونظرنا ، فإذا بهم يسيرون خطوة خطوة وسط الأوحال نحو الوادي الرهيب ، الوادي الذي يغلي بدماء الضحايا ودموع العذارى وصراخ الأطفال وأنين الأمهات وعويل الشيوخ . وكان الرعد يخف والمطر ينحسر كلما اقتربوا . ولم يبق بعد ذلك من العاصفة سوى برق صامت ينير لهم الطريق إلى وادي الدماء .

عبد الحميد ب. جبارة

أعلام عابرة :

عنترة بن شداد

جاء دور هذه القصة متأخراً في قراءاتي لسبب بسيط جداً هو أني — غالباً — لا أقرأ للأستاذ الفاضل (أبي حديد) إلا على مهل وفراغ نوعاً ما ليتسنى لي بعض النفاذ إلى الخصائص التي تكمن دائماً وراء بساطته ودعابته. وأحسب أني باتباع هذا النهج في هذه القصة بالذات — لأنها قصة قديمة معروفة — قد استطعت أكثر من ذي قبل أن أتعرف إلى أشخاصها جيداً وأسبر أغوارهم وأتفهم مشاربهم وأندمج معهم على اختلاف ألوانهم وأغاليطهم، فأنصتُّ لشيخ القبيلة (شداد) إذ يقول: « إن الحرية تشترى ولا توهب والعبد هو الذي يمشي وهو قاعد » . وأعجب بحكمة (النعمان) وحنكته إذ يصير على تهجم (عنترة) الأعزل الأسير عليه وهو في مجلسه المحتشد الموقر، حتى إذا فطن إلى حسن طويته وندرة بطولته استضافه وأكرمه بعد أن كاد يسفك دمه .. وأشفقُ على (مالك بن قرادة) إذ ضاقت به الحياة في قومه منذ سمع الصعاليك ينشدون غزل (عنترة) في ابنته (عبلة) فلم يجد مفراً من الرحيل بأهله من مواطنهم العزيزة عليهم إلى أرض شيبان .. وأسخرُ من (شيبوب) إذ يترك أخاه حامي القبيلة كلها (عنترة) وقد أحاطت به جنود (النعمان) الجبارة، ثم يولى هارباً جباناً لينجو بنفسه. وأحزَنُ على (زبيبة) إذ تسمع ابنها (عنترة) يقول لها: « إنك تكذبين يا امرأة » بينما هي كانت تقول له: « أي ولدي الحبيب فداك نفسي، ولو استطعت أن أذهب عنك الحزن بفقد عيني لكان أحب شيء لدى أن أفقد عيني!! » وأمرح بين الفتيات إذ يرقصن أو يغنين في كل حين يمكن أن يجوز فيه رقص أو غناء. فيرقصن متهكمات على (عبلة) أن أحبها عبدها (عنترة) ويغنين مهنئات إياها بوشك زفافها الذي لم يتم إلى (عمارة بن زياد). ويرقصن ويغنين كذلك فرحات بزفافها بعدئذ إلى (عنترة). وأميل مع (عبلة) إذ تميل على حوض الماء لترى صورتها وتصلح من شعرها .. وأثور مثل (عنترة) ثورة عنيفة على العبودية إذ يسمع كأنما النجوم تصيح به: أيها العبد لم جئت إلى هذه الأرض؟ وإذ يسمع أخاه يقول له: « لكن قضاءك ظلمك ولست بأول رجل ظلمته الحياة » وإذ يجيب أخاه قائلا: « لا أريد على أن أكون عبداً في نظر هؤلاء، ولا أستطيع أن أمحو صورتي التي تقع في عيونهم وفي قلوبهم، ولكني أملك شيئاً واحداً: أملك نفسي التي لا ترضى »

ذلك بعض ما يستفيده المتمهل من قراءة (أبي حديد) في قصته الخالدة. وصحيح أنَّ التمهل واجب في كل قراءة، غير أن الأولى بالتمهل حيالهم أولئك الذين يحفون أكثر مما يبدون، وهم قبل كل شيء عندهم ما لابد أن يقال وما لابد

إنهم لا يعرفون حدودا لشاحناتهم وخصامهم.

دع حياتك يا ولدي تشرق عليهم سراجا منيرا تطهرهم، وتزرع في نفوسهم الطهر، وتملأ قلوبهم بالرضا والأمان.

إنهم قساة في شرههم ونهمهم وغيرتهم وحسدهم، كأنهم خناجر مغمدة عطشى إلى الدماء.

اذهب يا ولدي وقف بين قلوبهم المتهجمة، ودع عينيك الوادعتين ترنوان إليهم كأنهما سلام الليل الشامل يغمر ضوء النهار بعد الكفاح والجهاد.

دعهم يروا وجهك يا بني، ومن ثم يعرفون ما غمض عليهم من الخوافي والأسرار.

اجعلهم يحبونك ومن ثم يحب بعضهم البعض الآخر.

تعال وخذ مجلسك في صدر اللانهائية. وعند شروق الشمس افتح قلبك وارفعه كزهرة يانعة.

وعند ما تغرب الشمس أطرق برأسك وأكمل عبادة النهار في صمت عميق. ابراهيم أبو الفتوح يوسف

أن يستمر في نفس الوقت ولو على غير « من يلزم من القراء » !!

وغنى عن البيان أني لا أقصد بالتمهل مجرد التلكؤ ، وإنما أقصد الإمعان والدقة ، وإلا فأنا مع التزام التمهل قد أتممت قراءة القصة كلها في جلسة واحدة . وبالطبع لا أنكر أن بعض ذلك راجع إلى صغر حجمها من جهة ثم إلى توفر عناصر التشويق والتنسيق والطرافة من جهة أخرى ؛ فهذا وذاك حفزاني إلى الانسياق بحيث لم أتوقف من الاستطراد الذهني أكثر من مرتين :

المرة الأولى عند ما كان (عنترة) يناقش أمه حول حقيقة انتسابه إلى (شداد) شيخ القبيلة ، إذ قال لها في ختام المناقشة : « لقد عطف قلبي على هذا الرجل بعد وصفك فإني أحس له رقة » بينما كان يقول لها في أول المناقشة : ألا كفى عن ذكر اسمه فإنه أشد الأسماء كراهة عندي » !! كان يجوز أن يستقيم هذا لو أن أمه لم تنبئه بالأمر من قبل . ولكن من السياق أنها شرحته له قبل ذلك مراراً بدليل قولها وهي تحاوره : « إنه أبوك يا ولدي وقد طالما حدثتك بقصته » .

والمرة الثانية عند ما عاد من بلاد (النعمان) — وكان ذهابه إليها للحصول على مهر (عبلة) — إذ علم من أخيه أنها ستزف بعد ثلاثة أيام لقريبه بعد ما يئس الجميع من عودته هو . . . فاعتراه اليأس وعول على أن يضرب في فجاج الصحراء شارداً عاكفاً على الخمر . إلى هنا والسبك جيد والوصف رائع ومشوق كالمعهود . غير أن الأستاذ المؤلف يتبع هذا بشرح وافٍ لشجون (عنترة) واشتداد هيامه ساعتئذ . ولا بأس بذلك مطلقاً لولا أنه يتوسع بلا مبرر ظاهر في نواح ربما لا يصح التوسع فيها على هذا النحو ، كأن يقول : « وكأنما كان يشعر في قرارة قلبه اطمئناناً إلى أنها لن تتزوج ولن ترضى بأن تزف إلى غيره وأنها سوف تعود إليه معتذرة باكية » . هذا وأكثر منه محتمل جداً أن يجول في خاطر (عنترة) مهما كان مبلغه من اليأس ، ولكن هل كان ينبغي أن يتكشف هكذا للقارئ قبل حدوثه ؟ مثل هذه « التفصيلات » ليس من الضروري سردها لا سيما وقد حدث بالضبط بعد ذلك . وكان يمكن بل يستحسن الاستغناء عنها إطلاقاً أو الإيماء إليها إيماء عابراً خفيفاً .

أما بخلاف هاتين المرتين فلم أتوقف إلا للاستعادة المتعة إعجاباً بالمذهب القصصي وبالحوار وبالتنسيق جميعاً . وبصفة خاصة أشير إلى الفصل الخامس فهو غاية في الروعة والحيوية .

ولكم حمدت للأستاذ (أبي حديد) نهجه المعتدل في خلق بطله ؛ فقد كان يستطيع أن يسويه ملكاً أو شيطاناً أو شاذاً خارقاً للعادة ؛ لكنه آثر — وهو الأديب المتمكن — أن يبقى عليه آدمياً معقولاً فيه شتى العواطف البشرية : يحب حتى يتهالك ويغضب حتى يسب أمه . ويتكبر حتى يمن على سيده أن حارب في سبيله وذاد عن حريته . ويتشفى حتى ليترك الأعداء يقوضون دعائم قومه ويفزعون أولادهم ويدوسون أطفالهم ونساءهم . ويتحين الفرصة بمهارة وقسوة حتى ليرفض أن يجير قبيلته وقد استجاروه إلا إذا اعترفوا له أولاً بحريته . ويضعف حتى ليقول لعشيقته : « أنا بين يديك أضعف من فرخ الحمام وأخف من ريشة في الهواء » ، وهكذا . هذه « الواقعية » كما يسميها المذهب القصصي الحديث ، هي طابع القصة الممتازة أولاً وقبل كل شيء .

والأسلوب . الأسلوب عظيم بلا جدال . ويودي لو يتصفح المؤلف البارع النسخة التي بين يدي ؛ إذاً سيجد أني وضعت خطوطاً بالغة الكثرة بالقلم الأحمر تحت الألفاظ الرائعة والتراكيب الخلابة ، كقوله مثلا وهو يصف وجه (عنترة) الأسود الخشن : « وأنفه الأقنى ينحدر إلى فم قوي » . فكل لفظ في مثل هذا التركيب يدل على فن تصويري عريق . . . كما سيجد أني وضعت خطوطاً

ابني

يا ناشري وقد طوتني السنون
أأنت لي أمنية ، أم منون ؟

أكرةٌ لصولجان الحيا
ة لي يا ترى ، أم قرة العيون ؟

بلْ يابني أنت أم هادمي ؟
سبحان من يعلم ماذا تكون

اختلفت فيك ظنوني ، وما
أنبي بين اختلاف الظنون

كنت مراحاً من فتون ولـ
ـكنك قد عرضتني للفتون

أتيتني في حين لا مال لي
وحبنا فيه وفيكم فتون

ولو أني المال ولم تأتني
لقلتُ : يا رباه أين البنون ؟

يا زينةٌ تنقصها زينةٌ
لله ، جل الله ، فينا شؤون

شاعر البرارى

إعلان بيع — رقم ٣ سنة ١٩٤٦

إنه في يوم السبت ١٤ سبتمبرسنة ١٩٤٦ الساعة ٨ افرنكي صباحاً بجهة عزبة أبو طالب تبع بني خلف مركز مغاغة وعزبة الكاشف تبع بني عامر مركز مغاغة

سيباع بالمزاد العمومي قطن وذرة صيفي وغيرها السابق الحجز عليها تنفيذياً بتاريخ ٣٠ / ٧ / ١٩٤٦ المملوكة للشيخ محمد محمد أبو بكر وأحمد أفندي آدم الكاشف

وذلك البيع بناء على طلب حضرة صاحب المعالي إبراهيم دسوقي أباظة باشا بصفته وزيراً للأوقاف وناظر أهلي وقف أمين أغا الكاشف أهلي نفاذاً للحكم ٣٠٨ — ٩٤٤ كلي بتاريخ ٣٢ / ١٠ / ١٩٤٥ من محكمة المنيا الابتدائية الأهلية وفاء لمبلغ ٦٠ مليم و٢٢٧ جنيه بخلاف ما يستجد . فعلى راغب الشراء الحضور

أخرى — وسيرى أنها قليلة بل نادرة — تحت التعبيرات التي تحيل إلى أنها ليست في مستواه الممتاز. وهكذا سيمضي حتى يأتي إلى آخر مشهد من مشاهد القصة وهو عناق بين (عنترة) و (عبلة) فسيجد أني وضعت خطاً ثقيلا جداً تحت اللفظ «لبد» في قوله : «ثم ضمها بين ذراعيه فلبدت في صدره» لأن هذا اللفظ وإن كان صحيحاً فصيحاً لغة ومعنى إلا أني أحس بأنه غير جذاب وأظن أن اصطناعه هنا وفي هذا المشهد بالذات اصطناع لعله غير صريح.

والشيء الذي آخذه على هذه القصة من الناحية الشكلية هو إخراجها في وقتنا الحاضر الذي تصطرع فيه الأمم العاتية ابتغاء السيادة بالقوة، وتجاهد فيه الشعوب المهضومة ابتغاء السيادة بالحق — وذلك لأنها نموذج واضح لسيادة القوة !! فقد ظل (عنترة) بين القبيلة «عبداً» حتى إذا انتصروا على قبيلة أخرى بقوته وجبروته أقاموا له الولائم ، فإذا دارت الكؤوس كان هو «أول» الشاربين .. وإذا أنشدت الأشعار كان شعره على كل لسان .. وإذا أقبلت الفتيات إلى حلقات الرقص كان هتافهن باسمه !!.

ونحن عفت العبودية والاستعباد وعلى الأقل لايضيرنا أن يزداد الأحرار واحداً ، ولكن يضيرنا حقاً أن يكون المعول في التحرر بل في السيادة على السيف والبطش والبطولة الجسمانية .

عبد الفتاح البارودي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٠٢ — الثلاثاء ١٤ من شوال سنة ١٣٦٥ — ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

فى محيط السياسة الدولية

انتهت الحرب منذ أكثر من عام . ولكن السلام العالمى لا يزال مطلباً بعيد المنال ، ومشاكل الأمم التى نشأت من الحرب لا تزال باقية بغير حل . ولا تكاد الدول تعالج مسألة من المسائل وتخطو إلى الأمام خطوة فى سبيل حلها حتى تصطدم بعقبات وتتسع بينها أسباب الخلاف ويشتد الجدال والنزاع وتثار مشاكل جديدة تعقد الموقف فتقنع فى تسوية الأمر بالتأجيل والإرجاء .

فهل أصبحت الحالة مستعصية ؟ وهل أصبح من المتعذر تلاقى وجهات النظر والوصول إلى تفاهم يحقق السلام ويعيد العالم إلى حالة الهدوء والاستقرار ؟

إن أمور العالم قد أصبحت — بعد هذه الحرب — بأيدى ثلاث دول عظمى هى الروسيا وانجلترا والولايات المتحدة . وهى الدول التى خرجت من هذه الحرب ظافرة محتفظة بقوى عظيمة وقد خلا لها وجه الأرض بعد أن سحقت ألمانيا واليابان وإيطاليا وبعد أن فقدت فرنسا فى أوائل الحرب قوتها وحكمت عليها الظروف بأن تقنع فى المحيط الدولى بمنزلة ثانوية حتى يشتد ساعدها وتستعيد قوتها .

ولقد كان يظن أن من اليسير أن تجتمع هذه الدول الثلاث على رأى فى السلام كما اجتمعت كلمتها فى الحرب ، ولكن الأحوال دلت على أن الاتفاق فى وقت الشدة أيسر من التعاون فى ظروف السلام . ولم تكد كل منها تفرغ من عدوها المشترك حتى عاودتها طبيعتها الخاصة وتكشفت نياتها التى كانت الحرب تخفيها ورجعت لأسلوبها الخاص الذى تراه أنجع فى تحقيق أغراضها . وظهر بجلاء

أن سياسة كل منها تتعارض مع سياسة غيرها فى مراميها وأساليبها . ومن هنا كانت صعوبة التوفيق بينها وعجز الاتصالات والاجتماعات والمؤتمرات عن التقريب بين وجهات النظر المختلفة .

ومما لا خلاف فيه أن كلا من تلك الدول خرجت من الحرب مؤمنة أشد الإيمان بالقوة وبأنها الأداة الفعالة فى تحقيق أغراضها ، وأن كلا منها تستزيد منها باستحداث الأسلحة الجديدة واستبقاء قواها من غير تسريح ، وهى وإن جهرت جميعا باستنكار قيام حرب جديدة إلا أن كلا منها تؤثر الحيطة والاستعداد وترقب فى حذر جهود سواها وتعد العدة لأسوأ الافتراضات . وقديماً كان الاستعداد للحرب مولداً للحرب ، والحذر وسوء الظن مبعث الشك والعداء . فلا غرو إذا كان التفاهم فى مثل هذه الأحوال بعيداً ، فكل فريق يتلقى آراء الفريق الآخر بسوء الظن والارتياب .

وتحتفظ السياسة الروسية بطريقتها العنيفة التى انتهجتها فى الحرب والتى سيرت عليها أمورها منذ قيام النظام السوفيتى . فهى تقصد إلى غرضها وتهاجم هدفها بلا تردد . وهى تستغل ما تعرفه من تردد الدولتين الديمقراطيتين وتفاديهما أخطار الحرب ، فتتقدم على تحقيق ما تستطيع تنفيذه ، وتضعهما أمام الأمر الواقع ، وهى لا تتراجع فى شىء من ذلك إلا إذا تفاقم الأمر وأصبح يخشى أن يصل إلى قيام حرب .

هذه هى سياستها التى وضعت بها شرق أوربا ودول البلقان تحت نفوذها التام وعزلتها عزلا محكما عن الاتصال بالدولتين الديمقراطيتين ، وهى سياستها فيما تحتله من ألمانيا والنمسا ، وهى سياستها التى اتبعتها فى إيران وتراجعت عنها مؤقتاً ، وهى سياستها فيما تشنه من حرب الأعصاب على تركيا .

وهدفها ظاهر وهو امتداد نفوذها شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً لأبعد مدى تستطيعه . ومن هنا كان تعارضها مع السياسة الإمبراطورية البريطانية ؛ فإن هذا الامتداد على ما فيه من خطر فى ذاته يمس نفوذ الامبراطورية البريطانية أو يخلق مناطق احتكاك بينهما .

والسياسة البريطانية تعوزها الصراحة ويغلب عليها اللف والدوران إلى أغراضها ، وهى تكره الالتجاء إلى القوة أو التلويح بها ، وتحتمل من أجل كذلك كثيراً من العنت ، وتعتمد على الزمن وعلى إظهار خصمها بمظهر المتعنت المتجنى ، حتى تقيم عليه العالم وتؤلب عليه القوى ، فتكسب بذلك المعركة ، وهى طريقتها فى السلم كما كانت طريقتها فى الحرب .

والسياسة الأمريكية سياسة ينقصها وضوح الهدف ويسودها الفتور ؛ فهى قد تؤمن برأى ولكنها لا تذهب فى تأييده إلى آخر المدى ؛ ولعل ذلك بقية من سياسة العزلة التى درجت عليها ومن كراهية الحرب التى تبدو جلية فى روح الشعب الأمريكى ؛ وهى لهذا — مع أنها أقوى أمم الأرض وأقدرها على أن تقول الكلمة الحاسمة التى تخضع الجميع — لا تستغل مركزها الاستغلال الكافى ، ولا تقف من المشاكل الدولية الموقف القاطع الذى يتقبله الجميع لبعدها عن الأغراض الاستعمارية الخاصة .

والواقع أن المتاعب الدولية الحالية ناشئة عن النزعة الاستعمارية السافرة لروسيا والنزعة الاستعمارية الأصيلة لبريطانيا . ولا سبيل إلى حل المشاكل حلا تاماً حتى يأذن الله بتغليب نظرة جديدة على سياسة الدولتين ، نظرة ترى الاستعمار كما رأى العالم المتمدين الرق ، فتخرجا كلتاهما عن النزعة الاستعمارية وتنهجا أسلوباً إنسانياً جديداً فى السياسة أساسه حرية الشعوب والأفراد واحترام حقوق الجميع قويهم وضعيفهم على السواء .

(. . .)

بالبريد المستعجل :

إلى معالى وزير المعارف

اقتربت أيام الدراسة وفيها يحل موسم عظيم من مواسم القلق فى كل مكان . فكل والد كما تعودنا فى الأعوام السابقة يريد أن يدخل ابنه إلى المدرسة الأميرية ، وأكثر الآباء من الفقراء — ولا راد لقضاء الله — فهم يسعون جهد الطاقة أن يتخففوا من أعباء المصروفات .

وقد تعودنا فى كل عام أن نسمع صيحات الخائبين الذين ردتهم المدارس عن أبوابها وأن نرى دموع المحتاجين الذين يلتمسون كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة للحصول على مجانية التعليم . وإذا كانت الأرض تدور من المغرب إلى المشرق ، وإذا كانت الشمس تشرق من الشرق فى كل صباح فسوف نسمع هذا العام ما تعودناه من الصيحات وسوف نرى ما تعودنا رؤيته من الدموع — ولا حول ولا قوة إلا بالله ! ولا راد لقضاء الله !.

ونسأل أنفسنا كل عام عن علة كل هذا الضجيج وهذا العويل ، ونحاول أن نلتمس السبيل إلى إقرار القلوب فى الصدور ، فلا يزيدنا السعى إلا قلقا ، ولم نستطع إلى اليوم أن نستقبل الأعوام الدراسية فى هدوء كما يستقبلها عباد الله الآخرون فى الأقطار الأخرى . فما هو السر الذى ينطوى تحت هذا ؟

تعاقب الوزراء على وزارة المعارف واجتهد كل منهم فى حل هذه المشكلة المتوطنة على طريقته . ولسنا نريد أن نبخس أحداً منهم حقه ، فإنهم جميعاً مشكورون على التفكير والسعى . وسنكتفى بتلخيص حلولهم على وجه الإجمال لعلنا نجد فيها ما يشير إلى تلافى المشكلة فى هذا العام الجديد .

رأى أحدهم — ولا نريد أن نذكر هنا الأسماء — أن المصروفات المدرسية كلها إذا جمعت من المدارس الابتدائية والمدارس الثانوية لم تكن سوى مبالغ ضئيلة إذا قيست بالأموال الطائلة التى تصرف على التعليم . فاجتهد فى مواجهة المشكلة — وهو مشكور بغير شك على اجتهاده — ورأى أن يحلها بإباحة المجانية فى التعليم الابتدائى جملة وبالتوسيع العظيم فى مجانية المدارس الثانوية . وهذا حل أرضى الكثيرين بغير شك ولا سيما وقد جاء فى وقت كانت فيه الحرب الطاحنة تشعر الجميع بثقل وطأتها ، والغلاء الفاحش يحمل الأغنياء أنفسهم يطلبون الستر من الله .

ولكن هذا الحل إذا أرضى من فاز بالدخول فى المدارس الابتدائية والثانوية فإنه لم يرض الذين لم تتسع لهم تلك المدارس . ولهذا انتقد البعض هذه السياسة لأنها أغفلت جانباً كبيراً من المشكلة ، وهو أن الأماكن فى المدارس لا تتسع لكل طالبيها . والعدالة الاجتماعية تقضى بأن تزيد تلك المدارس حتى تكفى كل طلابها .

وقد أدى حرص ذلك الوزير الفاضل على التوسعة على الناس إلى أنه (بحبح) فى دخول المدارس فاكتظت الفصول بالأبناء إلى حد أغضب المخلصين من رجال التعليم الذين رأوا أن الرغبة الحسنة فى التوسيع على الناس قد أدت إلى إضاعة كثير من الفائدة المقصودة من التعليم .

فهذا الحل على ما فيه من حسنات لم يخل من وجوه النقد . ونحن نرى أن الوزير المجتهد قد نال مع ذلك أجر الاجتهاد ، وحسن القصد ، وإن كان التوفيق الكامل لم يتح إلا للمعصومين من الأنبياء .

وجاء بعده وزير آخر — ولا نريد كذلك ذكر الأسماء ، — فرأى أن يصلح ما ظهر له من النقص فى سياسة سلفه . فاجتهد ، وهو مشكور بغير شك على اجتهاده ، ورأى أن ينظم الدخول فى المدارس مع الاحتفاظ بمجانية التعليم .

وحاول جهده أن يزيد عدد المدارس الابتدائية ويبنى الفصول الجديدة فى المدارس القديمة، واحتال بكل ما استطاع ألا يصد طالباً عن مدرسة. ثم أقبل على المدارس الثانوية فبذل جهداً جباراً فى فتح أبوابها لطلابها، ونظم قواعد المجانية فيها حتى يتمتع بها كل مستحق لها بحسب التقدير الذى أداه إليه اجتهاده، فيسر بذلك فرصة التعليم الثانوية لألوف ممن كانوا لا يستطيعونه من أذكياء التلاميذ. ومعنى هذا أن الوزير اللاحق قد رأى سلفه يخطو خطوة جريئة فلم ينكص عنها، بل حاول أن يسددها وأن يصلح من اتجاهها لتكون أكثر تحقيقاً لغاياتها.

فإذا كان الوزير الأول مشكوراً على اجتهاده وحسن نيته فإن الوزير الثانى مشكور على اجتهاده وحسن نيته، وليس فى عمل الثانى إبطال لعمل الأول، بل هو فى صميم تهذيبه وتسديده على السنة التى ينبغى لكل وزير أن يعمل عليها، وهى سنة السير إلى الأمام والتطور وإكمال وجوه النقص التى لا تظهر إلا فى أثناء العمل.

وقد زاد الوزير الثانى سنة جديدة، وهى أنه فكر فى وضع سياسة ثابتة للتعليم فنظر حوله إلى الميدان التعليمى نظرة شاملة وسمع من كل من يريد أن يتكلم من أفراد أو مؤتمرات أو مجموعات، ثم عقد لجاناً استشارية ثم تقدم بما هداه إليه اجتهاده إلى المجلس الأعلى للتعليم لكى يضع أساس السياسة الثابتة طريقة الذى التى طال الشعور بالحاجة إليها فى مسائل التعليم.

فنحن الآن أمام عام جديد ننتظر فيه أن تواجهنا المشكلة ذاتها فى صورة جديدة، وليس يجدينا أن نستأنف تفكيراً جديداً. بل ليس من مصلحة البلاد أن نخرج عن الطريق الطبيعى الذى دفعتنا إليه ظروف حياتنا العملية وفقا

وهذا الطريق واضح أمامنا نلخصه فى ألفاظ قليلة، فأما المجانية ففيها قوتان قويتان تحتمان علينا الاحتفاظ بها: الأولى أن الأموال المحصلة من التلاميذ ضئيلة لا تستحق كل الصيحات ولا كل الدموع التى تبذل فى سبيلها.

والثانية أن من حق الجميع أن يتعلموا فى المدارس الابتدائية، وواجب الدولة العمل على توفير الأماكن الكافية لكل طلابها، وأنه من حق الأذكياء أن يواصلوا الدراسة فى المدارس الثانوية، وألا يقف الفقر حائلا دون استمرارهم فى الدراسة، فحجر الزاوية فى الخطة التى نقابل بها العام الجديد فيما يتصل بالتعليم الابتدائى هو العمل على توفير الأماكن اللازمة لكل طلابه. ونعتقد أننا نرتكب غلطة كبرى إذا حاولنا الرجوع عن المجانية بصورة من الصور.

وأما فى التعليم الثانوى فقد اتجهت نية البلاد إلى أن تبيح لكل الطلاب الأذكياء الجديرين بهذا التعليم أن يجدوا أماكن لهم فى المدارس. وقد وضع فى أول السنة الماضية نظام يكفل إباحة المجانية لعدد وافر من هؤلاء الجديرين بالتعليم. فليس من المصلحة فى شىء أن نبدأ بالانحراف عن تلك السنة التى أرضت البلاد وليست هناك مصلحة تستحق أن نضحى فى سبيلها بتلك السنة. فالأموال التى ينتظر جمعها من الطلاب لا تبلغ شيئاً إلى جانب الملايين التى تصرف على التعليم كما تقدم.

وحجر الزاوية فى الخطة التى نقابل بها العام الجديد فى التعليم الثانوى هو توفير الأماكن اللازمة لكل طلابه؛ فأما الذين يستحقون المجانية فيفوزون بها فى يسر بحسب القواعد التى رسمت، وهى قواعد فيها تيسير ولم يظهر فيها ما يدل على فسادها.

وأما الذين لا يستحقون تلك المجانية فلهم أن يدفعوا المصروفات إذا شاءوا التعليم الثانوى، وإلا كانت لهم عنه مندوحة بالدخول فى مدارس التعليم الفنى.

هذا ما يقضى به المنطق الذى يعترف بأن اتجاه الأمم فى الإصلاح لا يكون سليما إلا إذا كان مطرداً غير معرض للانحراف والنكول بين حين وحين.

ونعتقد أن المصلحة تقضى بأن نسير على الاتجاه الذى

حب متأخر

[ذكرى ، إلى فتاة يوم الثلاثاء ١٤ مايو سنة ١٩٤٦]

بدا عليك نحولُ الحبِّ فاعترفي
عينيه وتمـالَكْ واشهدى لهفي
في مثلُ ما بك ، أخفيه وتعلنه
مرارةُ الوجد والحرمان والشغف[1]
دلائلُ الحبِّ تبدو في نواظرنا
فضّاحةً وجنونُ الشوق غير خفي
وإن تكتم قلبٌ حبَّه فضحت
أسراره ضرباتُ الواجف ، الكلف
لا تبذل النصح إني لست مستمعاً
لغير صيحة قلبينا فلا تخفي
يا طيرَ غيرى ! هل في السمع فاحشةٌ
إذا أصختُ لسكم في الروضة الأنف
وإن صبا نظرى للحسن يرمقه
في حسنكم وعلاهُ على كلف ؟

(١) الشغف بالغين المهملة : شغفه الحب أحرق قلبه وأمناه وأمرضه .

إن قيّد العُرفُ جسمينا فإن لنا
في عالم القلب حباً غيرَ منحرفِ
استمتع الحبُّ صفواً لا يكدره
وخز الضمير ولا قدّاحةُ الأسف
وإن نفرت كصداح على فنن
أو انصرفت ، فقلبي غيرُ منصرف
غيّبت عنى ، وظلَّ القلبُ مضطرباً
يخشى من الغيب ، لا يحيى وتعشق
إن القضاء — إذا أمعنت لاعبةٌ
هو اللومُ — فلا تسعى إلى تلف
جرى القضاء بهذا ، وهو منحرفٌ
عن الصواب ولم يجنح إلى هدف
ما كان يحدُثُ لو خبّ[1] القضاءُ بنا
قبلاً ومهّد أقيانا ، ولم يقف ؟

• • •

أستغفر الله ! إني لستُ معترضا
على القضاء ، ولم أجنح عن الشرفِ

المندرة — الرمل حسين مهدى الغنام

(١) خب أي عدا وأسرع .

قضينا فيه هذه السنوات الأخيرة كلها بعد إطالة التفكير وبعد التمحيص الشديد الذى لم يخل من العنف فى المراجعة فى بعض الأحايين .

فالتفكير فى تغيير الاتجاهات الأولى يعرضنا لخطر الزلل والاصطدام بصعوبات جديدة لم تكن فى حسباننا . وحسبنا أن نتأمل الصعوبات التى قابلت الأسلاف ونعمل على تذليلها وإصلاح ما فيها من هفوات .

وهناك أمر آخر يجب علينا ألا ننساه ، وهو أن سياسة التعليم التى بدأت الوزارة فى رسمها فى العام الماضى جديرة بأن توضع موضع البحث الجدى ، فإذا وجدنا فيها نقصاً أكملناه ، وإذا وجدنا فيها ميلا قومناه . ولكن علينا ألا نعدل إلى سياسة جديدة أخرى إلا إذا حكمنا على تلك السياسة الأولى بالفساد واطمأننا إلى صحة حكمنا بالمنطق الصحيح .

فإن أكبر ما كنا نشكو منه فى التعليم وغير التعليم هو الإسراع إلى ابتكار الخطط الجديدة بغير أن نؤمن إيماناً واضحاً بفساد الخطط القديمة .

وإنا إذ نقول هذا القول نضمر فى أنفسنا كل تقدير للنيات الحسنة التى لا نشك لحظة فى توفرها فى كل من ولى أمر وزارة التعليم .

محمد فريد أبو حديد

الجريمة والشذوذ الجنسى

تشغل الرأى العام من حين إلى حين جريمة من الجرائم الجنسية فيقبل الناس على أنبائها متهافتين يترقبونها فى الصحف والمجلات ، ويتلمسونها فى المجالس الخاصة والعامة . ويجعلونها موضع سمرهم وحديثهم . يجترون تفصيلاتها فى كل مناسبة . ويديرون ذكرها فى كل مكان . ويكون لكل إنسان فيها رأى . ولكل متحدث عليها تعليق . وقد تقوم فى بلد من بلاد الله عصابة مسلحة تهلك الزرع والنسل وتعيث فى الأرض فساداً فلا تنال من اهتمام الناس مثل ما يناله رجل فرد التوت به غريزته الجنسية مثلا فأصابه من الشذوذ والانحراف ما يجعله يقتل فريسته بعد أن ينال أربه منها ، كما حدث منذ سنوات فى فرنسا وكما حدث عندنا منذ أسابيع عند ما روع ثغر الاسكندرية بسلسلة من الجرائم الغامضة المتشابهة التى قيل إن بطلها كان واحداً من هؤلاء الشواذ (الساديين) .

وقد نشرت (الثقافة) منذ أمد قريب مقالا وافيا من (السادية) و (الماسوكية) بين فيه كاتبه معنى هذين الاصطلاحين ، وردهما إلى أصليهما . وذكر أن السادية انفعال جنسى مصحوب بالرغبة فى التعذيب واستعمال العنف والقسوة مع الجنس الآخر . وأن الماسوكية . على عكسها هى انفعال جنسى مصحوب بالرغبة فى الاستسلام المطلق لسيطرة شخص من الجنس الآخر والوقوع تحت تأثيره والشعور بلذة فائقة فى تلقى كل مسبة وإهانة تصدر عنه . وأن (السادية) منسوبة إلى رجل فرنسى يدعى الكونت دى ساد أصابته فى شبابه مشكلات جنسية خطيرة انحرفت بغريزته ذلك الانحراف الذى جعله لا يستكمل نشوته عند اجتماعه بمن كان يتصل بهن من النساء إلا إذا أمعن فى تعذيبهن وضربهن بطريقة وحشية . أما (الماسوكية) فإنها تنسب إلى ماسوك النمسوى الذى نشأ أيضاً من الناحية الجنسية نشأة خاطئة أثرت فى مستقبله ذلك التأثير الشديد وكانت السبب الأكبر فى انحرافه الجنسى الذى ابتلى به . حتى قيل عنه إنه طلب إلى زوجته الأولى عقب زواجه منها أن تضربه بالسوط ، فلما لم تجبه إلى طلبه اقترح عليها أن تقوم الخادم بضربه بدلا منها . وكان يقوم بنفسه بإعداد السوط الذى يريد أن يضرب به . فكان لا يكفيه فى ذلك متانة خيوطه وقوة نسيجه ، بل كان يضع فى آخره كثيراً من المسامير . !

ونحن فى مبحثنا هذا نرجو أن نضيف إلى تلك التعريفات كلمة عن التعليل الذى يقدمه علماء النفس الحديثين لهذه الظواهر الشاذة .

ويرى (ألفرد أدلر) أن عقدة النقص هى أصل الشذوذ الجنسى بكافة أنواعه . وذلك لأن من تصيبه عقدة النقص فى حياته النفسية يلجأ على الدوام إلى البحث عن خير الطرق لتغطية نقصه ، وقد تحدثنا عن ذلك مراراً فى مقالاتنا السابقة . وبينا أن (عقدة النقص) فى ذاتها تعترى معظم الناس بسبب عدم إمكان بلوغ مراتب الكمال من جميع النواحى فى هذه الحياة الدنيا . وأن كل إنسان لا يخلو من صفة تنقصه فتشعره بنوع من الضعف قد تتولد عنه (عقدة النقص) . وليس فى ذلك على الإنسان من بأس إذا استطاع أن يتخلص من هذه العقدة بطريق التسامى والتعويض . فقد كان نابليون قصير القامة ضعيف الجسم رقيق الحال فى وسط كانت مظاهر الارستقراطية قد بلغت فيه ذروتها فلم يمنعه ذلك أن يعمل على تعويض نقصه بالعكوف على الدرس والطموح إلى المجد . وقد نال عن هذا الطريق كل ما كانت تصبو إليه نفسه . وكان إذا ذكر اسمه بعد ذلك لم تنصرف أذهان الناس إلى قصر قامته وضعف بنيته وفقر أسرته ، وإنما انصرفت إلى علو همته وإلى نبوغه فى الفنون الحربية وغيرها . فعقدة النقص

لاشبر منها . وإنما الذى يضير هو الاستسلام لها والقعود بها فى مواطن الذلة والهوان التى توحى بها إلى النفس .

وقد يحدث لمن تصيبه هذه العقدة أن يعمد إلى أسهل الطرق للفرار من تأثيرها المهين ، وذلك بأن يحجز نفسه عن معظم نواحى الحياة ، وأن يبالغ فى الحياة الجنسية ومن الشاهدات ذات الدلالة أن المبالغة فى الصلات الجنسية كثيراً ما نشاهد بين الأشخاص الذين توجد فيهم الفروة المقوية كمن يمارسون عادة الاتصال بشخص من جنسهم . وهم فى الواقع يسرفون فى ميلهم إلى هذا الالتواء ليضمنوا بهذا الإسراف عدم اضطرارهم إلى مواجهة مشكلة الحياة الجنسية السادية التى يرغبون فى تجنبها . ويغلب على هؤلاء أن تتكون عقدة النقص فيهم بسبب اعتقادهم أنهم غير قادرين على أن يجعلوا أنفسهم موضع اهتمام الجنس الآخر . ويمكن تتبع عقدة النقص فيهم إلى سن الطفولة .

ويروى (أدلر) للتدليل على صحة هذا الرأى حالة رجل اتهم بالسادية وبتعذيب الأطفال ، ولما بحثت حالته تبين أنه كانت له أم ذات بطش وسطوة وأنها فى طفولته لم تكن تفتأ تعنفه وتقرعه على ما كان يجترح من حماقات الطفولة وعلى ما لم يكن يجترح أيضاً . وعلى الرغم من أنه كان فى مدرسته تلميذاً طيباً ذكياً فإن أمه لم تكن تعير نجاحه هذا أى التفات إذ لم يكن يعنيها إلا تعقب سقطاته وإذلاله من أجلها بالكلام القارص والتقريع المهين . فاضطر الصبى أن يخرج أمه من نطاق عواطفه العائلية . ونفر منها . ولم يكن يشعر بأى ميل نحوها — وكثيرون من أعداء المرأة يمكن فهم عداوتهم على ضوء هذه المعلومات . فإن من ينكب بمثل هذه الأم تنشأ معه عقيدة أن النساء قاسيات جاهلات ، ويرمى الجنس كله بداء بعض أفراده . ويستقر فى نفسه أن الاتصال بالنساء لا يمكن أن يكون مصدر سرور ، وأنه يجب أن لا يتعدى الضرورات القصوى . وكان هذا الرجل

من النوع الذى يهتاج جنسياً إذا خاف ، فكان يبحث عن الظروف التى تمده منه الخوف . ومن المألوف فى مثل هذه الحالة أن يلجأ الإنسان إلى التقبض . ونحن نرى الطفل الذى يخاف من الظلام مثلا يرفع عقيرته بالغناء أو نحوه ليطارد أشباح تلك الظلمة التى ترهق خياله كأنما يريد بصياحه أن يقول : « أنا هنا ! وهذا صوتى الجهورى يدل على فوقى . وإنه لن يستطيع أحد أن ينال منى ! » فكذلك يحدث مع من تملكته هموم الخوف الأخرى أيا كانت مصادرها . فهو يحاربها باصطناع العنف وتقترن عاطفته الجنسية بالرغبة فى التعذيب والإيلام . وينقلب إلى تلك الحالة السادية التى تكلمنا عنها فى صدر هذا المقال . ويدل هذا المثال الذى ساقه (أدلر) على مبلغ ما يؤدى إليه التدريب الخاطئ من نكبات عائلية وخلقية .

* * *

والواقع أن التربية الجنسية تكاد تكون معدومة تماما عندنا وعند كثير من الأمم غيرنا ، مع أن هذه التربية تجىء فى المرتبة الأولى من حيث أهميتها لتكوين النشء ومن حيث تأثيرها فى مستقبل حياتهم .

فالعادة السرية مثلا التى أفاض الدكتور الدمرداش فى بحثها فى أعداد الثقافة الأخيرة قد يكون الوالدان هما سببها الأول والأخير بسوء تصرفهما مع طفلهما الذى قد يعبث بحسن نية فى بعض أجزاء جسمه من باب العبث المجرد أو حب الاستطلاع العادى . فيأخذهما الذعر لهذه الحركة . ويخاطبان الطفل فى شأنها بعقلهما البالغين وينهرانه عن العودة إلى ما كان فيه . ويشددان عليه من ذلك . ويعملان على مراقبته . فيوجهانه بذلك إلى ما كان عنه غافلا وبه جاهلا . ويدفعانه دفعا إلى ممارسة عمل كانت كل رغبتهما فى أن يحولا بينه وبين إتيانه . وقد وصل الأمر فى حالة من الحالات إلى حد أن قام الوالدان بربط يدى الطفل ورجليه كلما أوى إلى فراشه . فكان ذلك سببا

فى تركيز اهتمام الطفل بأشد صورة ممكنة إلى نفس الاتجاه الذى كان الوالدان يرغبان فى صرفه عنه . ومن المتفق عليه بين جميع الباحثين فى هذه الشئون أن علاج مثل هذه الحالة إنما يكون فى تحويل اهتمام الطفل إلى نواح أخرى بتهيئة وسائل التسلية التى تشغله عن جسمه . وبتوفير ميادين النشاط واللعب التى تصرفه عن التفكير فى لهو رخيص كالذى تلهو به اليد الفارغة !

ومن المجمع عليه أيضاً أن المشكلات الجنسية التى تعانيها نسبة مئوية كبيرة من الرجال إنما ترجع إلى أسباب نشأت فى عهد الطفولة . وليس الأمر فى كل الحالات راجعاً إلى سوء تصرف الوالدين أو سوء توجيههما . فقد أورد الأستاذ القوصى فى كتابه (أسس الصحة النفسية) حالة رجل كان يشكو مشكلة جنسية معقدة . إذ لم يكن يستطيع أن يجتمع بزوجته اجتماعاً طبيعياً ، مما أدى إلى انفصاله منها ، وقد حاول الزواج أكثر من مرة ، ولكنه كان فى كل مرة ينتهى إلى نفس النتيجة . وبدراسة حالته تبين أنه رجل فى العقد الرابع من عمره ، وأنه ينتمى إلى أسرة محافظة متدينة ، لم يكن يجرى حديث أفرادها إلا فى أطهر الموضوعات ، ولم تكن تشير هذه الأحاديث أدنى إشارة إلى شىء من الجنسيات ومسائلها أو مشاكلها . بل كانت تستنكر هذه الموضوعات استنكاراً شديداً . فنشأ الولد فى هذا الجو ، لا على احترام أمه فحسب ، بل على تقديسها أيضاً . مما جعله يرى فى زوجته صورة تلك الأم ، فكان يخفق عند محاولته الاجتماع بها إخفاقاً تاماً . ولم يكن مرد ذلك إلى علة فى جسمه ، فقد ثبت أنه كان يحسن الاجتماع بالمومسات ومن فى طبقتهن . ومن الواضح أن ذلك كان لبعد الشبه بينهن وبين أمه . ولقد تبين من استقصاء هذه الحالة أن هناك عاملا آخر كان له أثره فى تدعيم صلة هذا الرجل بالمومسات خاصة ؛ وذلك أنه فى دور مراهقته كان قد وقع فى أزمة عصبية بسبب حالة العفة المطلقة التى نشأه عليها أبواه . فأشار عليه صاحب سوء أن يلتمس الترفيه عند المومسات — وهى أروج النصائح انتشاراً بين الشبان الذين يتخلى عنهم أهلوهم ويتركونهم للخدم وأصحاب السوء يثقفونهم فى هذه المسائل — فكان من نتيجة ذلك أن الصورة الأولى التى ارتبطت فى ذهنه بتلك العملية كانت صورة المومسات . وقد زاد فى حالة هذا الشخص تعقيداً أن خطيبته الأولى لم تكن تميل إليه وكان هو يحس ذلك ، ويشعر به شعوراً واضحاً . فانعقدت من أجله ومن أجل باقى الأسباب السالفة تلك العقدة الخبيثة التى أفسدت عليه حياته المشروعة .

* * *

ونحن إذا كنا أشرنا فى مستهل هذه الكلمة إلى أن الغريزة الجنسية قد تنحرف إلى سادية مجرمة تقترن بارتكاب الجرائم الشائنة التى تمقتها قوانين الأرض والسماء ، فإننا نود أن نشير قبل أن نختمها إلى ما بين الجريمة والغريزة الجنسية على إطلاقها من روابط ، بصرف النظر عما إذا كانت هذه الغريزة ملتوية أو غير ملتوية . فقد شوهد أن الجريمة كثيراً ما تقترن بتهييج جنسى . ويقول النفسيون فى تفسير ذلك إن المجرم يجد نفسه بعد ارتكاب جريمته مجهداً مكدوداً متعب الأعصاب تواقاً إلى الترفيه عن نفسه والتخفيف من حدة هذا التوتر الذى اعترى أعصابه ، ثم هو فوق ذلك يريد أن يقنع نفسه بما له من قوة وسيطرة ، وأن يثبت أنه لا يزال مخلوقاً قوياً لا نفساً محطمة ضائعة . ومن حسن الحظ أن رجال الشرطة يعرفون على الأقل هذه الحقيقة ، فإنك لتراهم يتجهون أول ما يتجهون فى البحث عن المجرمين إلى دور الساقطات ؛ وفى تلك المراتع الوخيمة كثيراً ما تظفر عدالة البشرية بضالتها الزرية التى تنشدها وتتشمم ريحها وتنقب عليها .

حسن جمول

مترينــــى

– ٣ –

مترينى فى سويسرة – فشل الثورة التى أعدها فى مهدها – أثر المرأة فى حياة مترينى

ذهب مترينى إلى جنيف كسيف البال مكتئب النفس ، لكنه مع ذلك مصمم على معاقبة الملك شارل ألبرت لتنكيله بإخوانه الأحرار ، وكان يرى أن يستغل النيران المشتعلة ليضرب ضربته البكر ويقدم إقدام الأبى ، وكان يعتقد أن الحالة فى أوربا عامة تؤذن بقرب انعقاد الثورة وحدوث الانقلاب وأن انبعاث الحركة الجمهورية فى إيطاليا سيكون بمثابة إعلان لقيام الثورات فى فرنسا واسبانيا وألمانيا ، وكان هذا كله للأسف خيال متحمس وحلم حالم ألهته آماله المترامية عن الحقائق الواقعة !.

على أن هذه الآمال البعيدة كان لها إلى حد ما مايسوغها ، فإن روح الثورة التى خلقتها جمعية إيطاليا الفتاة كانت قد تملكت النفوس واستقرت بها ، وكان هناك استعداد وقابلية للثورة فى نواحى جنوا وسافوى والولايات البابوية وفى بعض أجزاء من نابولى . وأكد مترينى لنفسه أنه فى اليوم الموعود ستبدأ حرب العصابات فى نواح عدة وتلوذ بالجبال ، واختار مترينى سافوى لتكون مكان بدء الحركة وقيام الثورة .

وفى خريف سنة ١٨٣٣ احتشد فى سويسرا مئات من المنفيين كان أكثرهم من البولنديين والألمان ، ورحب مترينى بالمساعدة والتطوع لأنه كان يعتقد أن ذلك خطوة صالحة نحو الاتحاد الدولى الديمقراطى وسبيل إلى تكوين جمعية « أوربا الفتاة » واستعان ببعض الضباط المنفيين على تكوين فكرته من تنظيم الجيش الإيطالى ، ووقع الاختيار على قائد اسمه رامورينو وكان محارباً مجرباً ، وأتم مترينى استعداده فى أكتوبر ، وأصبح عنده ثمانمائة رجل مجهزون بالسلاح ومتأهبون للعمل ؛ وكانت هناك خطط لتنظيم الثورات فى جنوا ونابولى وغيرهما فى الوقت نفسه ؛ وتعهد غاريبالدى بأن يضم أسطول بيدمونت إلى جانب الثوار ، ولكن القائد المدعو رامورينو أضاع فرصة النجاح ، ولم يكن على ما يظهر حريصاً على اجتناء النصر ، ويظن أنه حصل على رشوة من الحكومة الفرنسية لإحباط الحملة ، وقد ذهب إلى باريس وتلبث بها وأخذ يبدد نقود الحملة التى جمعها مترينى بصعوبة ، وأخذت الحكومات تضغط على الحكومة السويسرية لتفرق شمل المتطوعين . ولما أصر مترينى أخيراً على قيام الحملة رفض المتآمرون فى سافوى التعاون معه إلا إذا جاء رامورينو ، وبذل مترينى جهداً جباراً لإنقاذ الموقف ، ولما جاء رامورينو فى يناير كانت الفرصة قد أفلتت وماتت الثورة فى مهدها .

أثرت هذه الحوادث المتوالية فى مترينى تأثيراً سيئاً وأضنته وزعزعت كيانه وأعنتت نفسه ، وكاد ينوء به حمل التبعة التى اضطلع بها لولا رسائل التشجيع التى كانت تأتيه من بعض السيدات الفاضلات اللواتى كن يعطفن عليه ويناصرنه بقلوبهن الكبيرة وعواطفهن النبيلة .

ولما تماسك واسترد همته ويقينه وجد أن إقامته فى سويسرة قد أصبحت مهددة ، فقد كانت الحكومات الأجنبية تمطر الحكومة السويسرية وابلا من الاحتجاجات لطرد المتطوعين ، وأخافت هذه الاحتجاجات المتوالية الحكومة السويسرية ، ولم يكن من المنتظر أن تقبل الحكومة السويسرية التورط فى مضايق الخلافات الدولية من أجل نفر من اللاجئين قد أساءوا الضيافة حسب حكم وجهة النظر العادية ، وأرسلت بعضهم عبر الحدود واستتر فريق منهم ، وصمم مترينى على ألا يبرح سويسرة ، فقد كانت خططه تقتضى أن يكون قريباً من إيطاليا ، وكان

لا يميل إلى الابتعاد عن بلاده المحبوبة ، واستهواه حب سويسرة وبخاصة منظر جبال الألب ، وظل في سويسرة ثلاث سنوات متنقلا فيها بين لوزان وبرن وسوليز ، ورجال الشرطة تارة يطاردونه ويضيقون عليه الخناق ويشتدون في طلبه ، وطوراً يتغاضون عنه ، ولكنه كان يعيش عيشة السجين في البيوت التي يلوذ بها ، وقد ظل سبعة أشهر يأوى إلى بعض المنازل المهجورة ولا يبرحها إلا تحت ستار الظلام ، وقد مارس حياة النفي والتشريد بكل ما فيها من قسوة ومرارة وضيق وحرمان ، واحتمل تلك الآلام التي تخترم الجسم نحافة وتبدل نضارة الوجه شحوباً ولكنها لا تقتل ولا تهتصر عود الإنسان ولكنها لا تكسره ؛ وكان يزيد في مضايقته قلة ما بيده من المال ، وكانت والدته ترسل إليه ما تستطيع أن تقتصده ، وكان أصدقاؤه يقرضونه ولكنه كان لا يتأخر عن سد حاجة المنفيين وإغاثة الملهوفين ، وكانوا يضجرونه بكثرة الطلبات حتى يستثيروه ، وكان ينفق ما يتبقى معه على مطبوعات جمعية إيطاليا الفتاة لأن الاشتراكات كانت قليلة لا تفي بحاجة الجمعية .

وأخذت تتكاثر عليه الهموم وتساوره الأفكار المؤلمة ، وقد أوقعت الحملة الفاشلة الخلاف في صفوف الجمعية ، وكانت الأخبار التي تجيء من إيطاليا تثبط العزم وتثير الهم ، وألقى عليه المنفيون تبعة الهزيمة ، وألقى نفسه دريئة للاتهام والسباب وقوارص النقد ، وكان يقابل ذلك كله بالاحتقار وسوء الظن ، وتبدل صفاء نفسه عبوساً وجفوة ، وألم به لون من ألوان كراهة البشر والضيق بالناس كان غريباً عن طباعه ومألوف عاداته ، وأصبح وعر الجانب بادي الشراسة يؤثر العزلة ويتحاشى لقاء الناس . قال عن نفسه في تلك الفترة : « إني أميل إلى حب الناس من بعيد لأن الاحتكاك بهم يجعلني كارهاً لهم » وكان أشد ما يؤلم نفسه ويهيج حرقاته ، وينكأ جروحه ويجره إلى الهاوية السحيقة التفكير في الشقاء الذي يتجرع مرارته أصدقاؤه وأنصاره ، وكان يحدث نفسه بأنهم شقوا من أجله ، وإن كان هذا الشقاء في سبيل قضية تضحى لها هو بكل شيء ! وقد أصبح أترابه وأصدقاء شبابه وخاصة أصحابه جميعهم في المنفى يعانون آلام التشريد وذل الاغتراب ، وأخذ يشك في نفسه وفي أعماله ويتهم نفسه بأنه ضحى بأصدقائه ، وساق النكبات إلى أهله وأصحابه وأحبابه ، وكاد يضل في بيداء الشكوك ، فهل ذهبت دماء أصحابه هدراً ؟ وهل ضحى بحياتهم من أجل أمل خلب كذوب ممتنع التحقيق ؟ وقد كان يعلم أنه مخلص النية صحيح الطوية ، ولكن ما الذي يحدوه على التبشير بعقيدة تضحى الكثيرين وتسلط عليهم عوادي الشقاء ، وتقحمهم بأقسى ما يمتحن به الناس ؟ ألا يجوز أن يكون ذلك كله من جرائر خطئه وعواقب قصور تفكيره ؟ وكانت هذه الأفكار تجعله في النهار حليف الهم ، وتؤرق جفنه في الليل ، حتى أشفى على الجنون ، وخطرت له فكرة الانتحار ، ولم ينقذه من غمرات هذا اليأس الضيق القاتل إلا قوة يقينه ، ومتانة خلقه ، وعطف تلك السيدة النبيلة القوية الروح مدام رافيني والدة صديقه الشهيد جاكوبو ؛ وطالعته فكرة الواجب في جلالها الشامل لكل نواحي الحياة فشددت من عزمه ، وبددت ظلمات يأسه ، وعرف أن الرجل كل الرجل هو الذي يدين بديانة الواجب ، ويأنس به ، فلا يتحرق إلى الحب والعطف ، ولا يخشى الانفراد والوحدة ، ولا ينال منه تنكر الأصدقاء ، ولا تشهير الأعداء ؛ وقد كتب في هذه الفترة إلى صديق له يقول : « حينما يكون الإنسان قد قال لنفسه في تفكير جدي وشعور صادق إني أومن بالحرية والوطن والإنسانية فإنه يكون قد عاهد نفسه على أن يجاهد في سبيل الحرية والوطن والإنسانية ما دام حياً ، جهاداً لا هوادة فيه ولا مهادنة ، وأن يحارب بكل سلاح وأن يواجه كل شيء من الموت إلى السخرية والاستهزاء ،

ويلقى المعاداة والاحتقار ، ويظل مقبلا على العمل مثابراً ، لأن ذلك واجبه لا لأى اعتبار آخر » .

ونصح له بعض أصدقائه بالانسحاب من الميدان وهدده والده وتوسلت إليه والدته ، وكان يسره — أو على الأقل كان يطن ذلك — أن ينسحب من الميدان إذا تقدم زعيم آخر ليحمل عنه العب ، ويدير الحركة ؛ وهبه انسحب من الميدان فهل يستطيع أن يفرغ للأدب أو الدعوة الأخلاقية فى بلاد محرومة من حرية الرأى والتفكير ؟ لقد كان يرى أن خير وسيلة لإيقاظ أمته من رقدتها هى أن يقدم لها أنموذج حياة ، ويضرب لها مثلا صالحاً ، ولكى يكون كذلك يجب أن لا تروعه الخطوب ولا تنال منه الحوادث ، ولا يثنيه شىء من عزمه ، أو يصرفه عن غايته ؛ وإذا تراجع فى تلك الآونة فان الكثيرين سيحذون حذوه ، ويقتفون أثره ، ويصبح نكبة على نفسه وعلى بلاده وأتباعه .

وأخذ يفكر فى أسباب هبوط الثورات التى قامت فى خلال السنوات الخمس التى تصرمت ، ولماذا تصامت الناس عن سماع دعوة الحرية سواء فى فرنسا أو إيطاليا ، وكان كثيراً ما يسائل نفسه : لماذا نجحت المسيحية ؟ ولماذا أخفقت حركة الخلاص الاجتماعى والسياسى وهى شبيهة بحركة الديانة المسيحية ؟ وقد وجد أن الجواب الصحيح من ذلك هو أن علة الإخفاق هى أن الثورة أخطأت تقدير القوى الروحية ؛ وقد اعتمدت الثورة الفرنسية على استثارة حرص الإنسان على مصلحته الشخصية وحقوقه وحبه للسعادة ؛ ولقد كانت ثورة على الشر ولكنها لم تكن رسالة لطلب الخير والصلاح ؛ ولقد كانت لها فائدتها ولكنها قد أنجزت مهمتها ، والقرن التاسع عشر يلتهب أفكار القرن الثامن عشر ، فى حين أن تلك الأفكار قد مضى عهدها وأصبحت الحاجة ماسة إلى مبدأ جديد ، وهذا المبدأ يجب أن يكون مبدأ روحياً ؛ فالثورة الجديدة يجب أن تثير شعور الناس بالواجب وأن توحى إليهم أن يعملوا للانسانية لا لأنفسهم ؛ ولا يمكن التخلص من الصغائر التى أفسدت الأمور ، وهبطت بالنفوس ، إلا بقوة ذلك المبدأ .

ورغم ما منى به من الفشل كان لا يزال يعتقد أن أوربا ناضجة للثورة إذا فتحت لها الطريق أمة من الأمم وقدمت لها المثال ، وكان كذلك لا يزال يعتقد أن الأمة الإيطالية هى التى تستطيع ذلك ، لأن فرنسا لم تعد صالحة لهذا العمل لشدة تعلقها بمبادئ الثورة الفرنسية وتقاليدها . ومن الملاحظ فى حياة متزينى كراهته لفرنسا واعتقاده أن التقدم فى أوربا لا يسير فى طريقه السوى إلا إذا تخلصت أوربا من تأثير فرنسا الأدبى والسياسى ؛ وربما كان متزينى متأثرا فى هذه المعاداة التى لازمته طوال حياته بذلك التنافس القديم بين الأمتين اللاتينيتين . ثم لماذا لا تجىء القدوة والإشارة إلا من إيطاليا ؟ يخيل إلىّ أن عاطفته القومية هى التى كانت تلون تفكيره وتوجهه هذه الوجهة ، وليس عليه فى ذلك كبير بأس ، فنحن جميعا مهما كانت نزاهتنا تؤثر عواطفنا فى أفكارنا .

وكان لا يزال على اعتقاده أن الثورة هى وسيلة الخلاص ، وقد خالفه فى ذلك الفيلسوف الإيطالى جيوبرتى الذى كان معاصراً له ، لأن الثورات الفاشلة تضعف من عزيمة الوطنيين وتزيد الضغط والاستبداد ، ولم يقنع ذلك متزينى ، ولكنه مع ذلك أخذ يعتقد أن إعداد الثورة يحتاج إلى زمن أطول لإزالة الجمود الذى ابتلت به الناس عصور الظلم والاضطهاد والاستبداد ؛ وليس معنى ذلك التقاعد والتوانى لأن الفتور فى السعى معناه الإحجام والجبن ؛ وقد ظل مثابرا على إعداد معدات الثورة رغم ضيق مواردة والهم الذى كان يحالفه . وتوقفت « إيطاليا الفتاة » عن الصدور ، ولكنه ظل يكثر من كتابة الرسائل ويكسب الأنصار والعاطفين على الحركة ، ويرسل رجالا من قبله

ليوافوه بحقيقة الأحوال فى إيطاليا ، وكانوا يعودون إليه حاملين أخبارا تفت فى العزم ولا يروق سماعها آذان الأحرار .

وبالرغم من أن الاشتغال بالسياسة كان يستغرق جهده فقد كان يجد فى بعض الأيام متسعا من الوقت لكتابة الفصول الأدبية ، وقد كتب فى تلك الفترة رسالته عن فلسفة الموسيقى والفصل المأثور الذى وازن فيه بين بيرون وجيتى موازنة بديعة عميقة ، وجمع المواد اللازمة لطبع مؤلفات الشاعر فوسكولو الذى كان يحبه ويولع بشعره ، وكان يريد أن يشرف على طبع مجموعة من الروايات التمثيلية بينها رواية الكاتب الألمانى ورنر وأخرى لكاتب الفرنسى الفرد دى فينى ، وحاول إصدار مجلة للأدب الأوربى ولكنه لم يوفق لأنه لم يجد المال الكافى .

وقد كان متزينى ممن يحترمون المرأة ، ولم تكن تعجبه الفلطة والسوقية والعامية التى يبديها بعض الكتاب فى كتاباتهم عن المرأة ؛ ومن أقواله فى ذلك : « حب المرأة واحترمها ولا تلتمس عندها الدعة والراحة ، وإنما التمس القوة والإلهام ومضاعفة قواك العقلية والأدبية ، وامح من عقلك فكرة التفوق والأفضلية فإنك لا تملك ذلك . وليس هناك تفاوت بين الرجل والمرأة ، ولكن هناك اختلافا فى الاتجاهات والوظائف الخاصة كما يحدث بين الرجل والرجل ، والرجل والمرأة تمثلان بدونهما لا يمكن الضرب على الوتر الإنسانى » .

وقد كان للمرأة أثرها الواضح فى حياة متزينى ، لا من ناحية الحب ، فقد كان بطبيعته من الرجال الذين لا يسهل على كويد أن يستهويهم أو يرميهم بسهامه ، وقد استأثرت مجهوداته السياسية بقواه الحيوية ، ولم يكن حسن الرأى فى الرجال الذين يحجمون من الاشتراك فى الحياة العامة حرصا على حياتهم المنزلية الخاصة ، وبرغم رقة حاشيته وخفة ناحيته وعذوبة نفسه ورهافة حسه وشاعريته وقدرته على فهم عواطف النساء فهما لم يتيسر إلا لقليل من الرجال ، فإن علاقته بهن لم تتجاوز حد الصداقة الخالصة والعطف الطاهر النقى ، ولم ترتفع إلى مستوى الحب إلا مرة أو مرتين

ولما ذهب إلى منفاه كانت المرأة التى لها فى نفسه أكبر منزلة بعد والدته هى مدام رافينى ، وقد كان حبه لوالدته عميقا قويا ، ولكن كان بينهما شىء من الاختلاف الفكرى ، وكان مع ذلك يجد فى إعجابها به وعطفها عليه ما يشجعه ويجنبه خطر الانزلاق والنكوص على الأعقاب . أما مدام رافينى فكان متزينى يعجب بها ويحترمها لنبلها وشجاعتها وعمق يقينها الدينى ، وهى التى هدته حين كاد يضل فى تيه الشكوك ، وردت عليه عزمه ويقينه حينما انهارت نفسه وتخاذل صبره ووهى جلده .

وقد كان لهاتين المرأتين أثر عظيم فى حياته وجهاده ، وقد أحب وهو فى سويسرة السيدة جوديتا وهى سيدة إيطالية من أسرة عريقة اشتهر أفرادها بالوطنية ، وكان أخوها من أعضاء حزب إيطاليا الفتاة ، وكذلك كان زوجها ، فلما توفى أوصاها بأن تظل وفية لمبادىء الحزب ، وكانت تكبر متزينى بعام واحد ، على أن الأيام لم تسمح لذلك الحب بأن ينمو ويقوى ويصبح شغلا شاغلا ، فقد أطفأت حرارته كثرة الفراق وطول البعاد ، وكان لها من أولادها عنه منصرف ، وكان لمتزينى من رسالته الخطيرة وحياته غير المستقرة ونضوب موارده ما يتجافى به عن سبيل الحب والزواج والسعادة الدنيوية ؛ وقد استحال الحب بينهما صداقة عاطفة ومودة باقية ، وقد قال متزينى فى ذلك : « إن الذى قضت عليه الظروف أن لا يعيش عيشة زوجية هادئة يظل فى قلبه فراغ لا يملؤه شىء ، وأنا الذى أكتب ذلك أعرفه » .

وفى أوائل سنة ١٨٣٧ غادر سويسرة إلى لندن ؟؟

على أدهم

هل توجد فترة أمن من الحمل؟

سألني شاعر كبير صديق معيل من فترة الأمن من الحمل، ففطنت لأربه وتنبهت لمسائله التي تنطوي على التحدث عن تحديد النسل، فصارحته بخبيء غرضه وأنه رغب في إيقاعي في فخ موضوع شائك له نواح دينية واجتماعية واقتصادية وطبية؛ فمن الناحية الأولى فلست إخصائياً فيها، ومن الثانية فإنها محبذون ومنفرون، وأما الناحية الاقتصادية فواضحة كل الوضوح ولا تحتاج إلى تبيين. وأما من الناحية الطبية فالطبيب لا يشير بتحديد النسل إلا عند وجود خطر على الأم من الحمل.

ولما كان الكثيرون غير صديق الشاعر يسألون عن فترة الأمن من الحمل لدى الإناث لأنهم قرأوا عنها في الكتب، وقد يكون ما قرأوه مكتوباً بلغة علمية أو غير مبسط، فرأيت أن أبسط هذا الموضوع على صفحات الثقافة تنويراً لأذهان قرائها المثقفين.

خلق الإنسان من اتحاد البيضة التي تخرج من مبيض الأنثى بجرثومة الذكر، وتخرج بيضة واحدة من كل مبيض في كل شهر بالتناوب عادة، وقد يخرج بيضتان أو أكثر وقد تلقح.

ويحصل التلقيح عادة في البوق الذي يوصل بين المبيض والرحم وإن كان قد يحصل في المبيض نفسه في أحوال نادرة أو في الرحم. وبحصول الاتحاد بين البيضة وجرثومة الذكر يحدث الحمل وينقطع الحيض، وإن لم يحصل التلقيح لقيت البيضة حتفها لأن عمرها لا يتجاوز ساعات، وإن قال البعض إنها قد تعيش إلى أربع وعشرين ساعة، وحينئذ ينزل الحيض، ويحدث ذلك عادة بعد اثنى عشر يوماً من خروج البيضة من المبيض.

ومن الطريف أن نذكر أن أنثى الحيوان لا تقبل الاتصال بذكرها إلا وقت خروج البيضة من المبيض ما عدا أنثى الحمار فإنها تقبله في أي وقت كأنثى الآدمي.

وتحيض المرأة عادة كل ثمانية وعشرين يوماً، وتحسب الدورة الحيضية من أول يوم للحيض إلى اليوم السابق للحيض التالي؛ فإذا حاضت سيدة في الخامس من أغسطس يكون ميعاد حيضها التالي في اليوم الثاني من سبتمبر، ووجد أوجينو الياباني في سنة ١٩٣٠ وأيده البعض في ذلك أن خروج البيض من المبيضين يحصل في الفترة ما بين اليوم الثاني عشر والسادس عشر قبل يوم الحيض، وتعرف هذه الفترة بفترة الإخصاب؛ ففي المثل السابق تكون ما بين اليوم السابع عشر والحادي والعشرين من أغسطس، ولكن يمكن جرثومة الذكر أن تعيش ثلاثة أيام في جهاز الأنثى التناسلي وإن كانت تعيش في أحوال نادرة حتى ثمانية أيام، ولذلك يضاف ثلاثة أيام لفترة الإخصاب عادة، فتكون حينئذ ثمانية أيام بدل خمسة أيام، أي في المثل المذكور تكون من اليوم الرابع عشر إلى اليوم الحادي والعشرين من أغسطس؛ وإذا عاشت الجرثومة الذكرية ثمانية أيام تكون من اليوم التاسع إلى الحادي والعشرين من أغسطس، أي تكون فترة الإخصاب ثلاثة عشر يوماً.

وقد تشعر الأنثى إذا انفتحت البيضة ببعض الألم في البطن وقد ينزل منها بعض نقط من الدم في أحوال نادرة.

وعلى هذا الأساس يوجد فترتان لا يحدث فيهما إخصاب لعدم وجود بيضة تلقح: فترة سابقة لفترة الإخصاب والأخرى لاحقة لها، وتعرفان بفترتي الأمن من الحمل، وهما في المثل السابق الفترتان اللتان تقعان بين الخامس والثالث عشر من أغسطس، والثاني والعشرين من أغسطس وأول سبتمبر، أي لا يحصل حمل في هاتين الفترتين وفي أثناء الحيض.

ولكن مدة الدورة الحيضية ليست واحدة في كل الإناث؛ فبعضهن قد تكون مدتها لديهن سبعة وعشرين

أسبوع الاحتفال لمرور سنة من العهد قيام :

الجمهورية الأندونيسية

– ٢ –

٢ – تسرب الحضارة الهندية إلى أندونيسيا :

تكلمنا في العدد ٣٩٩ من انتشار الديانة البراهمية في إندونيسيا ومن فوائدها العظيمة التي جناها الإندونيسيون القدماء ، إذ كانت قوة الإيمان ورسوخ العقيدة وروح التطاحن بين الطبقات التي غرستها تلك الديانة في نفوس الإندونيسيين – كل ذلك أدى إلى تقدمهم في الحضارة ، تلك الحضارة التي نعجب بها إعجابنا بتلك الآثار القديمة الموجودة الآن في جاوة وبالي وسومطرة ، مثل معابد منديوت و « بوروبودور » وفرامباهن وغيرها من الآثار الخالدة التي تساوي ، آثار مصر الفرعونية من ناحية جمالها وروعتها .

وعندما أشرقت نجوم تلك الحضارة على الأفول جاءت الديانة البوذية ، وبالأحرى تلك التعاليم والفلسفة الاجتماعية البوذية التي ارتقت وبلغت مرتبة الدين ، أتت بفكرة جديدة في الحياة ، وجاءت بإصلاحات كثيرة واسعة النطاق في المجتمع ، بل إنها جاءت بالمبادئ التي تشبه أو تقرب من المبادئ الديمقراطية الحديثة ، إذ أنها ترمي إلى غرس بذور العدالة والمساواة بين أفراد المجتمع ، وتدعو إلى محو الفوارق بين الطبقات وإلى إلغاء الطبقات نفسها .

وترجع سرعة انتشار هذه الديانة في إندونيسيا إلى أن عامة الشعب الإندونيسي في ذلك الوقت كانوا يعيشون تحت كابوس الاستعباد والاستغلال من قبل الطبقات العليا ، ويعانون الفقر والجهل والمرض ، فوجدوا في الديانة البوذية منفذاً للتخلص من سيطرة الطبقات العليا عليهم ،

يوماً أو ستة وعشرين أو ثمانية وعشرين أو تسعة وعشرين أو ثلاثين ، وقد يتناوب أدوار قصيرة وأدوار طويلة ، وقد لا تنتظم الدورة أو تنقطع بسبب المرض أو الاضطراب النفساني كالقلق والهم والحزن والفرح والخوف وغيرها . غير أن الغالبية العظمى من السيدات يكون متوسط مدة الدورة عندهن ثمانية وعشرين يوماً كما أسلفت القول .

وعلى كل حال لتعيين فترتي الأمن من الحمل يتعين على السيدة أن تراقب مدة دورات حيضها لستة أشهر وأن تسجل هذه المدة في مفكرة مؤرخة تثبت فيها مواعيد بدء الدورة ومواعيد انتهائها باليوم والساعة . وقد أعدت في بعض الممالك مساطر لاستخراج فترتي الأمن من الحمل ؛ وعلى من تكون دورة الحيض لديها أقل من ستة وعشرين يوماً أن تعتمد على فترة الأمن الثانية ، ومن تكون دورة الحيض لديها أكثر من ثلاثين يوماً أن تعتمد على فترة الأمن الأولى .

وتيسيراً لحساب هذه الفترات أذكر أن اليوم العشرين من تاريخ نزول الحيض يدخل في فترة الأمن .

وقد هدمت فترة الأمن الاعتقاد السائد بأن أخصب وقت للأنثى هو الوقت السابق لنزول الحيض أو اللاحق له

ومن الغريب أنه بعد ثلاثة آلاف سنة كشف العلم أو أيد ما لاحظته شريعة موسى من قبل وكان سبباً في تضاعف عدد بني إسرائيل رغم ما لاقوه ، لأنها كانت تعتبر المرأة غير نظيفة لمدة أربعة عشر يوماً منذ بدء الحيض ، ولذلك كان يمتنع بنو إسرائيل عن الاتصال الجنسي في هذه الفترة ، ولا أظنهم يحافظون على ذلك الآن .

ولكن يقول بحاث كثيرون إن درجة الخصوبة في الجنسين ليست واحدة في كل فرد منهما وإن ذوي الخصوبة القوية لا يتمشى عليهم هذا القانون .

وأخيراً لعلي أكون قد وفقت في شرح وتبسيط موضوع فترة الأمن من الحمل إجابة لسؤال صديقي الشاعر الكبير وقراء الثقافة .

الدكتور محمد زكي شافعي

ومجالا واسعاً لتحسين حالهم الاجتماعية والمادية ، إذ أن من أهم تعاليم الديانة البوذية هو — كما قلنا — محو الفوارق بين طبقات المجتمع وتحقيق المساواة بين أفراده .

ومن ناحية أخرى فإن الروح الوطنية بدأت تنمو منذ ذلك الوقت في نفوس الإندونيسيين ؛ وذلك لأن الهنود الذين هاجروا إلى إندونيسيا كانوا من طبقة « ويشا » أي الطبقة الثالثة في ترتيب الطبقات عند البراهميين ، لأنهم كانوا تجاراً وأصحاب حرف ، فلما وصلوا إلى إندونيسيا بذلوا أقصى جهودهم في تحسين حالتهم المادية وفي ترقية مراكزهم الاجتماعي ، فكانوا يحاولون دائماً أن يرتقوا إلى الطبقة الثانية أو الأولى ، وهما طبقة « كساتريا » وطبقة « البراهمانا » ولا سبيل لى ذلك إلا بالاستيلاء على الحكم وعلى أمور الدين ؛ فأصبحوا فعلا جنوداً وحكاماً ، كما أصبح بعضهم رجال دين ورهباناً ، وبذلك ارتقوا من الطبقة الثالثة التي كانوا فيها إلى الطبقة الثانية أو الأولى ، وأصبح الأهالي في نظرهم من الطبقة الدنيا ، وأخذوا يبسطون نفوذهم وسلطانهم عليهم حتى لم تمض مدة إلا وقد استطاعوا أن يستعبدوهم .

والأهالي يشعرون بالكراهية نحو هؤلاء الحكام الأجانب الذين يعتبرون أنفسهم من الطبقات العليا ويعتبرونهم من الطبقة الدنيا . فلما جاءت إليهم الديانة البوذية التي تدعو إلى المساواة وجدوا فيها مخرجاً للتخلص من استغلال الأجانب واستعبادهم ، فكانت الديانة البوذية قد أيقظت في نفوس الأهالي الوعي القومي وأشعلت فيهم الروح الوطنية التي تدعوهم إلى التعاون والاتحاد فيما بينهم .

وبعد انتشار الديانة البوذية في إندونيسيا واشتعال الروح الوطنية عند الأهالي نشبت المعارك بينهم وبين هؤلاء الحكام الأجانب ، وكان النصر في تلك المعارك حليف الأهالي ، وعقب ذلك النصر أسسوا ممالكهم الإندونيسية القديمة التي اندمجت أخيراً في « إمبراطورية سرى ويجايا » .

هذه الإمبراطورية الإندونيسية التي وحدت جزائر إندونيسيا تحت حكم واحد قد تأسست في أوائل القرن الخامس الميلادى وعاشت ورفرف رايتها فوق تلك الجزائر مدة طويلة تقرب من ألف سنة .

٣ — تسرب الحضارة الفارسية إلى اندونيسيا :

إن الحضارة الفارسية التي قامت وازدهرت في بلاد الفرس قبل ظهور الإسلام قد تسربت كذلك إلى إندونيسيا ، وذلك عن طريق تجار الفرس الذين أتوا إلى إندونيسيا منذ القرن الثامن ؛ وقد تركت تلك الحضارة بعض الآثار في حياة الإندونيسيين ، وبالأخص في اللغة وفي أسماء المأكولات والأدوية والعقاقير وفي غيرها .

٤ — المقومات الداخلية للجمهورية الإندونيسية الفتية :

قبل أن أتكلم عن مجيء الحضارة الإسلامية والأوربية إلى إندونيسيا أرى من الضروري أن ألخص مقومات الجمهورية الإندونيسية الداخلية ، أعنى بها تلك المقومات التي نشأت في إندونيسيا قبل أن تتأثر بتلك الحضارات التي جاءت من خارجها .

فالحضارات التي تأتي من خارج البلاد مهما بلغت مرتبتها وقوتها لا يمكن أن تنمو وتنتشر في أي بلد إلا إذا كان المجتمع فيه صالحاً لها ومستعداً لقبولها ، وتلك الحضارات التي قدر لها أن تنمو وتنتشر فيه لا يمكن أن تصطبغ بالصبغة الوطنية أو الأهلية إلا إذا كان الأهالي حضارة أصيلة أقوى من الحضارة التي تأتي إليهم حتى تذوب هذه الأخيرة في الحضارة الأصيلة وتندمج فيها .

وإذا كان الأمر بالعكس بحيث كانت الحضارة الآتية من الخارج أقوى مما في داخل البلاد ، فلابد أن تكون النتيجة من دخولها فيها خطراً على حضارة تلك البلاد

الأصيلة ، بل خطرا على كيانها كدولة أو كأمة ، إذ أن تلك الحضارة الأجنبية في هذه الحالة لابد أن تطبع الحضارة الأهلية بطابعها وتقضى عليها صفاتها ومميزاتها حتى تدمجها في نفسها وتمحو بذلك معالم تلك البلاد كدولة مستقلة ، وتذهب مظاهر هؤلاء الأهالي كأمة قائمة بذاتها ، وعلى هذه الحقائق ندرك خطر تلك السياسة الاستعمارية التي تلجأ إليها بعض الدول الكبرى الاستعمارية في عصرنا الحاضر ، ألا وهي سياسة التدميج أو الاندماج Assimilation

كان في إندونيسيا قبل مجيء تلك الحضارات التي ذكرناها والتي سنذكرها بعد هذا ، حضارة قد استطاعت هضم الحضارات الآتية إليها حتى أذابتها وصبغتها بصبغتها الإندونيسية ؛ فمثل الحضارات بالنسبة لأمة أو لشعب ما كمثل الأطعمة بالنسبة للجسم ، فالأطعمة تغذى الجسم وتذوب فيه وتندمج في خلاياه ، والأمة التي لا تستطيع هضم الحضارات التي تأتي إليها تضعف شيئا فشيئا ثم تموت وتمحى من الوجود .

فالأمة الإندونيسية تحتفظ بحضارتها التي تتغذى بالحضارات الآتية إليها . ولهذه الحضارة الإندونيسية القديمة مظاهر كثيرة ومعالم ملموسة واضحة :

(١) التقاليد والعادات في مملكة آتشية بشمال سومطرة .

تلك التقاليد والعادات (أو قانون العادة كما يسميه الآتشيون) هي التي كانت ولاتزال تتحكم في حياتهم الاجتماعية والسياسية والقضائية ، وليس ذلك لتعصبهم لها ، وإنما لصلاحية تلك التقاليد ولمتانة تلك العادات وللاءمتها مع مرور الزمان .

فهذه العادات والتقاليد مرآة تظهر فيها حضارة تلك البلاد وينعكس منها نور تلك الحضارة ، فلولا حضارة هؤلاء الآتشيين القدماء ومدنيتهم وفهمهم لمعنى الحياة ما استطاعوا ابتداع مثل هذه العادات المتينة ومثل تلك التقاليد القومية ، ولا استطاعوا تكوين مثل هذه الأوضاع السياسية والاجتماعية التي قامت على أساسها مملكة قوية وهي مملكة آتشية التي قاومت الغزاة الهولنديين الاستعماريين مدة إحدى وثلاثين سنة ، إذ دارت رحى الحرب بينهما من سنة ١٨٧٣ إلى سنة ١٩٠٤ .

(ب) القانون الدستوري السرمدي في مملكة « مينتكابو » في سومطرة الوسطى :

وبحسب تقسيم القوانين إلى المدونة وغير المدونة نجد أن هذا القانون الدستوري — لمملكة مينتكابو القديمة — الذي لا يزال يعمل به إلى الآن من القوانين غير المدونة ، إذ أنه ليس من تسنين السلطة التشريعية أو الجهة الوطنية ، وإنما هو كان ينمو تدريجا ويسري على المجتمع أو المجتمع هو الذي يسير عليه ، وفيه نصوص وقواعد نظامية بعضها خاص بنظام الدولة وباختصاصات الحكام والأخرى تنظم المسائل الدينية والاجتماعية .

وبفضل هذا الدستور السرمدي كان نظام الحكم في مملكة مينتكابو إن لم يكن ديمقراطيا بمعناه المفهوم الآن القائل بأن الحكم لابد أن يكون بإرادة الأمة عن طريق مباشر أو عن طريق النيابة ، فإنه يقوم على أساس الشورى ، إذ كان لكل بلد من بلدان تلك المملكة دار خاصة يجتمع فيها كلما اقتضى الأمر نواب سكان هذا البلد الذين نالوا النيابة عن طريق الوراثة .

وقد قال الأستاذ صالح جودت في كتابه « الملايو » : « وكان بجزيرة سومطرة مملكة اسمها « مينتكابو » عاصمتها « فاقر رويونج » وكانت لهم قوانين لا يزالون متمسكين بها وفي شرائعهم قواعد نظامية يستطيعون بها مراقبة تصرفات رؤسائهم » .

فنظم هذه المملكة وأوضاعها السياسية والاجتماعية التي كانت ولاتزال تسير طبقا لهذا القانون الدستوري ، وبعبارة أخرى : إن تلك النظم السياسية والاجتماعية التي تنمى

وتهذب هذا القانون وتحافظ عليه كانت ديمقراطية وأريستقراطية فى آن واحد ؛ فهى ديمقراطية من ناحية اشتراك الأمة فى الحكم عن طريق النيابة، وهى أريستقراطية من ناحية كيفية انتخاب هؤلاء النواب ، إذ أن الحكم فيها يقوم على أساس الشورى بين نواب الأمة المنتخبين من طريق التفوق فى الإدراك والعرفان لا التفوق فى الملكية والثروة .

ومما يدعونا إلى الإعجاب بهذا القانون هو مرونته حيث إنه يلائم كل عصر وكل أمكان من المجتمع الإندونيسى ؛ فكان القضاة والحكام — ولا يزالون إلى اليوم — يفسرون هذا القانون ويطبقونه على المسائل المطروحة أمامهم بحسب فهمهم وإدراكهم لروح هذا القانون ، لأنهم يرون أن العبرة فى القانون بروحه لا بنصه وحرفيته .

وقد أصبح هذا القانون بسبب مرونته منبع الحضارة الفكرية ومعقل حرية التفكير ، لأن مرونته تفتح مجالا واسعا للأهالى فى أن يتقبلوا الأفكار والتعاليم الجديدة التى قد تظهر فى المجتمع أو تأتى من الخارج ، ثم إذا اتضحت لهم صلاحيتها وملاءمتها لظروفهم يتخذونها ويطبقونها فى حياتهم بدون أن يخشوا تعارضها مع ذلك القانون ، لأنه — كما قلنا آنفا — روح القوانين والنظم ، فالروح تتفق غالبا أو دائما مع ما يرجى منه الفائدة ولا يخشى أن يكون فيه ضرر .

وهذا القانون رغم تغلغل الشريعة الإسلامية فى إندونيسيا ورغم تسلط القوانين الهولندية فيها مدة طويلة فإنه باق لا يزال يعمل به ، بل وقد تقدم وارتقى بتقدم المجتمع ورقيه أو المجتمع هو الذى ارتقى به ؛ فلا عجب إذاً أن يعجب به الجميع ، بل قد يرى من يشعر بواجب الخدمة للعلم والمجتمع أن هذا القانون السرمدى الذى اتضحت لنا صلاحيته كأساس لتقدم المجتمع ورقى الأمة ، يستحق بحثا دقيقا مستقلا .

وإن هذا الدستور السرمدى لعامل من العوامل الهامة التى أدت إلى تقدم اللغة الملايوية وهى لغة سكان « مينڤكابو » وقد أصبحت هذه اللغة منذ مائة سنة لغة الكتابة والخطابة والتخاطب الرسمية فى أنحاء جزائر إندونيسيا ؛ وبانتشار هذه اللغة التى أصبحت اللغة الإندونيسية الرسمية انتشر معها ذلك القانون السرمدى الأساسى ، بل قد اندمج فى آداب هذه اللغة وفى ثقافتها . وإن كان قد حدث بعض تغيير فى شكل هذا القانون فإن روحه لا تزال باقية تجرى فى شرايين نظام المجتمع الحالى ، وجوهره لا يزال يتغلغل فى نفوس الأهالى ويتحكم فى أحاديثهم وحركاتهم ، وينظم معاملاتهم الاجتماعية والمدنيـة .

فلا غرابة إذاً أن يكون هـذا القانون الدستورى السرمدى أحد مقومات هذه الجمهورية الإندونيسية الفتية .

فريد الدين برناس

فى حدائق الشعر العربى :

أشعار شرقيـة

طريق الحب

للأميرة زين النساء

فقــدت خمر سرورى طعمها
وغدت أرضى وجودى مقفره
ما بها غير جذور صوحت
بعد أفنـــان ربيعى المزهره

* * *

من سرورى جدّ بى السعى فلم
أرَ إلا أثراً من بعد عين
وطلبت الود من موطنــه
فثنانى فقدُه صــفرَ اليدين

* * *

أنا إن لم يصفح الخالق عنى
مصفقة فى الريح من فرط القلق
أيهـــذا الخلق لا تبتئس
رحمـــة الخالق أدنى وأحق

* * *

فى طريق الحــــب كدٌ وضنًى
وبه الأشواق تستحيى الأمل
تبعث القوة فى مســـلوبها
ليس لليأس مع الحب محل

جحيم القلب

انظر إلى النار فى فؤادى
يهيج ألموبهـــا الرفيع
القلب فى صــدره حبيس
همّ فما اســـطاع أن يطيرْ
لذاب من رقـــة ولين
ما اشـــتدّ من قسوة الصخور
قافلة العمر قـــد دعاها
داع من القلب أن تســـير

* * *

أشكو من الظـــلم ياحبيبى
من ظلمك القـــاهر الوجيع
أشكو ولما أجـــد حميماً
ولا مجيبا ســـوى الدموع
تسمـــو على الذل كبريائى
وما بذل الهـــوى خضـــوع
تسعى إلى حاتم جـــروع
ولست أنســـى مع الجوع

* * *

من ليـــلة الهجر ياحبيبى
لم ينعم القلـــب بالسرور
وخضب الدمع فى عيونى
أسوان فى صـــدره يمور
قـــد طهر الحزن ياحبيبى
قلـــبى وآماله تثـــور
دب دبيب الحيـــاة فيا
حف وفاحت به الزهـــور

* * *

وحيـــنما كنت ياحبيبى
فانى فى رضى أكون
مقيـــد قانع بقيـــدى
فانى كلبك الأمـــين

راضٍ بمـــا شئت لى غذاءٌ
بالعظم تلقيـــه كل حين
حسبى ولا حسب لى وقاءٌ
هون ما كان لا يهون

* * *

لو أرســـل العشق زفيراً
للبحر ذى المــوج والهدير
مهما نأى منه جانبـــاه
لثار من وقـــدة الزفير
يظهر من قاعـه لهيبٌ
فى جنحه المظـــلم المنير
قلبــك يا عشق جحيم
أشــد روعاً من البحور

ربيع الحب

ياحبيبى عبدُ رق لـــكو
أنا ، لا يبغى من الرق فراراً
أنظر السوسن تبصر عجبــاً
كادت الزهرة أن توقد ناراً

* * *

وبهــا فى موضع من تاجها
بقعة كالفحم لما احتـــرقا
ما سواد القلب إلا مثلهـــا
جذوة أججت ففاحت عبقـــا

* * *

باعثُ الزهـــو بنفسى أننى
أعشق الدأبَ ولا أدرى الملل
باحثاً فى الـــكون عن زهرته
زهرة تعبق عن روح الأمــل

* * *

ما تشكيت وإن ذبت ضنًى
لا ولا قلَّ اعـــتزازى تمى
ذاك فخرى أرفعُ الرأس به
إنمـــا الذلة تركُ الطلب

* * *

لا أرى الآلام إلا متعـــا
فأنا أحفظها حفظ الضـــنين
فلقِ العذب حيـــاتى فإذا
ملّت الراحة لى حلَّ المنون

* * *

وبصـــدرى أطلب الروح ولم
أر فى الصدر سوى قلب جريح
جدَّت الآلام فى تمزيقه :
عبثاً لم تبدُ لى فى الصدر روح

* * *

شاهد النورَ الذى يبعثـــه
فى حنايا النفس مصباحُ هواكْ
ياحبيبى هو نور قـــدسى
فى سنا المصباح مصباحُ سناكْ

* * *

فى بياض النور ، فى بهجته ،
فى سناه ، قد خبا ضـــوء الشموس
لا تقاسُ الشمس إما وزنت
بضياء الحب فى الـــكون العبوسْ

* * *

جلس الأبرار فى كعبتهـــم
ودنا الـــكل إلى الداعى المجيبْ
وأنا الجـــالس منها أمماً
لم أنل من حظهم أدنى نصيبْ

* * *

كلمات مأثورة

في المدح والثناء

١ — التصفيق (وهو المدح باليد) إنما هو صدى التفاهة والسخف .

٢ — التصفيق هو الحافز للعقول الكبيرة وهو نهاية الشوط عند أصحاب العقول الضعيفة .

٣ — إن تصفيق فرد من أفراد الناس له أثره الكبير وله قيمته العظمى .

٤ — يستطيع كل من رزق الحصافة والحجى أن يتخذ من تصفيق الشعوب قبساً يستضيء به في طريقه إلى المجد .

٥ — هل يجرؤ كائن من كان أن يقول إن هناك إنساناً كائناً من كان ينكر على نفسه الرغبة في الظفر بتصفيق الناس ؟ .

٦ — إن تصفيق الجماهير يصيب المرء بالدوار . ولكن شهادة رجل من أصحاب العقول الراجحة تجعل القلب يفيض غبطة وسرورا .

٧ — إذا صفقت للخطيب عقب تركه المنبر مباشرة أيقن أن تصفيقك قد أوحى به التظرف الذي يقضي به العرف . ولكنك لو جعلت بين نهاية الخطبة وبين تصفيقك فسحة من الوقت ثم قلت للخطيب إن ما جاء في خطبتك من حكم وعظات لا يزال باقي الأثر عندي بعد أن كنت أظنه سوف ينسى بعد حين . كان لهذا المدح أثر أدوم وأبقى .

٨ — مدح من لا يستحق أن يمدح هو سخرية مستخفية (قالها رود هرست) .

٩ — مدح من لا يستحق أن يمدح هو فضيحة مستخفية (قالها بوب) .

١٠ — المدح لوم وتقريع للرجل الذي لا يسمح له ضميره بقبوله .

١١ — مدح من لا يستحقون المدح إنما هو سرقة لحقوق الأكفاء الجديرين به .

١٢ — إن فن إرضاء الناس قائم أولاً على أكتاف فن المدح .

١٣ — ماذا ينفع المدح عند رجل في حاجة إلى جزاء مادي؟ (شبيه بهذا قول الشاعر: وأحسنت لا يباع الدقيق) .

١٤ — المدح يجعل الرجل العظيم أكثر تشبثاً بأسباب السمو والرفعة . والمدح يجعل الرجل الحقير أكثر حقارة وأشد سخفا .

١٥ — المدح ينسى بعد حين إن لم تأت دائماً بجديد يستحق الحمد ويستأهل الثناء .

١٦ — إذا مدحت رجلا من أصحاب السخف فأنت بذلك تلوى بالحق والرى أشواك سخفه .

١٧ — في طبيعة الناس كلهم في كل عصر وجيل حب الثناء .

غير أني ليس بي جارحـــة
لا تناجي الله في همس الضمير
ربما بارك ربي كلمي
فهو أدرى بالذي تخفى الصدورْ

* * *

أيهـــذا المتق في حزنه
أبوادي اليأس والحزن تقيم ؟
نفس العاشق من رقته
كندى الصبح وأنفاس النسيم

* * *

إن في روضك زهراً خضلا
ما رواه غير أنداء الدمـــوع
زفرة حرَّى ودمع هـــامل
جددا في الروض أيامَ الربيع

عبد اللطيف النشار

وحسين محمود البشبيشي

١٨ — إن التواضع الذى يظهره المرء إنما هو الطعم الذى يرمى به إلى الوصول لصيد ثمين .

١٩ — أية امرأة تستطيع أن تقاوم حب الثناء ؟ (والغواني يغرهن الثناء) .

٢٠ — إنما نحن نمدح لكى نمدح .

٢١ — رفض الثناء إنما هو رغبة فى الوصول إلى ثناء مضاعف .

٢٢ — حبنا لأن يثنى علينا لا يقوم دليلا على استحقاقنا للثناء .

٢٣ — من دلائل استحقاقنا للثناء حبنا للفضائل .

٢٤ — حبنا للثناء مهما بالغنا فى إخفائه ومهما أجدنا صناعة الإخفاء فإن سلطانه علينا لا يمكن إخفاؤه ، ذلك لأنه سلطان قوى الاشعاع فى كل قلب .

٢٥ — لا تغدق علىّ الورود والرياحين بعد مماتى . فإن ورود الحياة ورياحينها لن تبعث فىّ السرور واللذة يومئذ . فإذا شئت فأغدق على الورود والرياحين وأنا فى عالم الأحياء .

٢٦ — إن وردة تقدم لحى خير ألف مرة من إكليل ورد يوضع على نعش ميت .

٢٧ — أغدق على أحبابك الورود اليوم مهما يكن لون الورود ومهما يكن مقداره ، ذلك أولى وأجدى من أن تضع على قبورهم أحمالا من الورود والرياحين .

٢٨ — لا تبالغ فى الثناء على من تحب من أصحابك ، فإن هذا قد يحمل نفوس سامعيك تجيش وتجيشا .

٢٩ — إذا أثنيت على كل أحد فكأنك لم تثن على أحد .

٣٠ — إنى أتقى مدحك . ذلك لأنى أمتدح غناءك .

٣١ — لا تمدحنى . ذلك لأنك تتحدث إلى اليونانيين الذين يعرفوننى (من إلياذة هوميروس) .

٣٢ — إنما الثناء يفيض من ينبوعين : الاستحقاق والتملق .

٣٣ — لو كنت قلت من ثنائك على لكنت أنا أكثرت من الثناء عليك .

٣٤ — يسرنى أن يثنى علىّ رجل يثنى عليه كل الناس .

٣٥ — إن كلمة أو إيماءة من رجل عظيم قد ترجح ألف كلمة من كلمات الآخرين .

٣٦ — إنى أرفع الصوت وأجهر بالقول إذا مدحت . وأخفض الصوت ويكون قولى همساً إذا ذممت .

٣٧ — الثناء كالعنبر هفة منه فى فترات متباعدة تطيب لها النفس . أما إذا قرب المرء قرصاً منه إلى أنفه فإنه يجده أذفر كريه الرائحة .

٣٨ — إنه أبعث على الخجل أن يمدح (بضم الياء) المرء فى أسلوب بارد متهافت من أن ينتقد فى أسلوب عنيف قاس . ذلك لأن الرجل الذى يذم هو فى نظر الناس معاد وغير عادل . ولكن الرجل الذى يمدح مدحاً بارداً متهافتاً هو فى رأى الناس صديق يريد أن يمدح ولكنه لا يجد شيئاً يستحق أن يمدح .

٣٩ — إن الذى يمدحك فى العلانية سوف يذمك فى الخفاء .

٤٠ — إن ثناء الصديق والذم من عدو كلاهما ضائع الأثر عند من يعرفون قيمتنا الحقيقية .

٤١ — إن ذم المرء لنفسه يصدق دائماً . أما مدحه لنفسه فلن يصدق أبداً .

٤٢ — إنك جميل المحيا — نعرف ذلك — وفتىّ السن — وهذا صحيح ، وعريض الثراء — ومن يستطيع أن ينكر أو يكابر ؟ ولكنك عند ما تبالغ فى مدح نفسك فإنك تبدو عرياناً من كل هذه المحاسن .

٤٣ — لا تثن على نفسك فلن يصدقك أحد . ولا تذم نفسك فإن الناس سوف يأخذون بشهادتك .

(عن الإنجليزية) مبارك ابراهيم

هذا الشعر بعد شوقي

- ٢ -

أما العبقرية — أو القدرة على الخلق الفني — ففضل لابد لشوقي فيه ، وموهبة مطيعة مواتية في كل غرض قال فيه ، وهي ناحية قد يستطيع الاستغناء عنها إلى حدّ شاعر القريحة ، إذا أوتي فضلاً من حذق الصناعة ، ولباقة الأداء ، ولكنه سرعان ما ينكشف ، ولا تسعفه هذه الصنعة — قريبة الشبه بالعبقرية — في كل مراحل القصيد ، ويدعوها فلا تجيب ، لأن القريحة ليست طبعاً — حتى ولو كانت في أسمى مراتبها المتاخمة للعبقرية — ولكنها رياضة لها طاقة تقف عندها ولا تلبي النداء . ولا كذلك العبقرية ، لأنها شيء ركب في الطبع واتصل أوثق الاتصال بالفطرة الفنية .

ومع أن حافظاً قد استجابت له السهولة — في كل شعر قاله — تلك السهولة التي يبلغ من انقيادها له ، استلامها على القارئ غير الحاذق بالطبع الأصيل ، فإن هذه السهولة — مع أنها محببة إلى نفوس الجماهير — لم تستطع أن تنظم حافظاً في سلك شعراء الطبع .

وصحيح أن السهولة والطبع يكادان يكونان توأمين ، ولكنه يتخلف عنها — أو تتخلف هي عنه — إذا طال الشوط على الشاعر ، وانشعبت عليه مذاهب القول ، وفنون المعاني .

وهنا قد لا تفارقه السهولة ، ولكن الصنعة تصبح من أدواتها إذا طال الشوط ، وظهرت عليها آثار الجهد ، فيفارقها الطبع ليحلّ محله فنون من الأداء ، تأخذها الرياضة من أقطارها . فإذا أخذ الطبع يتقلص عنها تعرضت بعده لألوان من التكلف هي نذر الفقر الفني الذي تعانيه كل صناعة لا تمتّ إلى الطبع بصلة .

تستطيع أن تسمع لشاعر القريحة سهولة في شعره ، ولكن هذه السهولة سيطالعك من خلالها فنون من الجهد والتكلف ، يفطن لها الناقد الحاذق ، وسيحاول الشاعر — شاعر القريحة — أن يلهي القارئ بهذه السهولة ، ليدخل في روعه أن العبقرية لم تفارقه . وأن الطبع الأصيل القادر على الخلق الفني ، كان يجيب كلما ناداه

ولكن القارئ الفطن بشيء من الالتفات يستطيع أن يفرق بين شعر القريحة — حتى ولو كان مسمحاً شبيهاً بما يصدر عن الطبع — وبين شعر العبقرية ، وأن يرد كل شية من شياتهما إلى لونها الأول .

ولا يمكن لناقد أن يتهم الطبع — حتى ولو فهما أوليًّا ساذجاً — بأنه صنو العبقرية ؟ ولكن قد يقول إنه شديد القرب منها ، وهي في النهاية قدرة الأديب على الخلق والإبداع .

وليس من الصواب أن نربط بين السهولة والطبع ، فقد تسودها الرياضة المتيقظة ، والشعر الجاهلي لم يعرف السهولة ، ولكنه مع هذا كان مطبوعاً لا أثر فيه للتكلف ، وقصائد شوقي في آل عثمان تكاد تكون وعرة من الناحية اللغوية ، ولكن الطبع المجاوب للفطرة لم يفارقها .

ومع هذا فأنا لا أحاول أن أربط دائماً بين الشعر المطبوع وبين العبقرية التي ترضى الفن إلا في حدود ضيقة وصور محدودة جداً . وذلك حين تستجيب الجودة للطبع وتواتيه ؛ فكثيراً ما تتخلف العبقرية مع وجود الطبع

الشعر المطبوع ترانيم نفسية ، صدرت عن قلب صادق في انفعاله ، بريء في دوافعه ، ولكن قل لي : أمن الحتم الضروري — وبصفة دائمة — أن كل شعر صدر عن عاطفة صادقة يلزم الناس أن يضموه في سلك النتاج العبقري ؟ أظن لا .

صدق العاطفة هو الصك الذي يثبت شرفها ، أقول شرفها فحسب ، وحسبها أن يخلع الناس عليها هذا اللقب الجميل

أما العبقرية فشيء آخر قد يواتيها ، وقد يتخلف عنها ؛ فقد يبكي الشاعر في ذكريات حارة صادقة ، ولكنه مع ذلك قد لا يحسن البكاء من الناحية الفنية ، وقد لا تجاوبه العبقرية في خلق معان يصغي لها قلب السامع ، فهو رجل يفيض شعوراً ، ولكنه لا يحسن القول .

لو أن العبقرية كانت مجرد شعور صادق لكان رجل الشارع عبقرياً ، فكم فاضت نفسه بألوان من هذا الشعور .

صحيح أن صدق العاطفة من مقومات الشعر الجيد ، ولكن يجب أن نفهم أن الفن ليس شعوراً فقط ، ولكنه شعور وأداء ممتاز .

عماد الشعر الممتاز طبع تواتيه العبقرية أو على الأقل تسعفه القريحة القوية الختالة التي يبلغ من حذقها التلبيس على القارىء ، فتقدم إليه شيئاً مصنوعاً وكأنه طبيعي .

ربما سمعنا الشاعر بعد شوقي معاني أو صورا تكسب شعره صفة الجودة أحياناً ، ولكننا لم نسمع لشاعر بعد شوقي معاني أو صوراً يستحق بها لقب الأديب الخالق . وتستطيع إذا أصغيت لشعر عربي في هذه الفترة أن تضع يدك في سهولة على مصدره أو شبيهه في التراث العربي ، ولكن مع فارق جليل : وهو أن الصورة الجديدة شوهاء ممسوخة إذا قارنتها بأصلها العربي ، أو معادة مملولة سرقت من غير تعديل .

سر هذا الجفاف في الشعر العربي الحاضر أنه فقد روعة الخلق والإنشاء ، لأنه فقد العاطفة الصادقة . وأظن أن من البلاهة أن يكذب الأديب فيما يقول ، ويلقي على الناس شعوراً مزوراً لم يتحقق له صدره ، ولم تجاوبه نفسه ثم يرجو بعد هذا أن يوفق في شراء إعجاب الناس بهذه العملة الزائفة .

وعلى كل شاعر أن يسأل نفسه في مطلع كل عام : كم من القصائد قلت في العام الماضي هي بنات نفسي وأفلاذها ؟ فلعله لن يظفر بشيء من هذا النوع ، أو يظفر باليسير ، وعليه أن يعيد النظر في هذا اليسير ، فسيرى حتما أنه خير ما قال ، وأنه — بالقياس إلى ما قاله — يعتبر فيه ملهماً موهوباً .

سر هذا الجفاف في الشعر الحاضر أن نظرته ودواعيه تجري في حدود ضيقة ، تدور كلها حول الشاعر ، أو بتعبير أوضح حول شخصه المادي ومصالحه ، ولو أن الشعر عالج هذه الموضوعات ذوات النزاع العالية التي تتصل بالخير والجمال ، لكان أجدى عليه ، ولأجابته العبقرية التي هجرته بعد شوقي .

لم يدع شوقي مناسبة عالية ؟ أو حادثاً شرقياً له جلاله وخطره في القومية العربية . دون أن تهتز له شاعريته ، ودون أن يجيب لدعائه في رضى وارتياح عميق يشعر به الفنان الذي يؤمن برسالته .

والاستجابة لهواتف الخير والجمال كانت أساس الموضوعات التي تناولها شعر شوقي — حتى الإخوانيات — فإن لها نصيباً من هذه النزعة العالية .

ولا أستطيع أن أقول إن صلة الموضوع بهذه الناحية السامية كانت وحدها سبب الامتياز في شعر شوقي — ولكنها كانت على الأقل — دافعا شريفا يبشر بالتوفيق ، إذا انضم إليها عبقرية خالقة كعبقرية شوقي .

فهل نرى أن دوافع الشعر الحاضر ، ذوات منازع عالية يقويها سمو القصد ، ويشد أزرها نبل الغرض ؟

لابد للشعر الممتاز من عناصر تحمل عوامل الرجاء والأمل في امتيازه . وأولها نبل الغرض ونزاهة الإيحاء ، وسيجد الشاعر في ذلك ما يساعده على الإجادة ، ولو بمعاونة الرياضة والصنعة ؛ ومع أن حياتنا الشرقية بوجه عام والمصرية بوجه خاص ، قد صارت أكثر اضطرابا وتلونا وعدم استقرار مما كانت عليه في عهد شوقي — فإن شاعراً لم يحاول أن يستلهم وحياً جليلا في هذه النواحي السامية ، التي تحمل معها أسباب النجاح والتوفيق للشاعر ،

وانصرف الشعر إلى فنون — مهما داقعنا عنها فإنها غير نفيسة ، وأقصى غايتها أن تلبي — عن طريق مباشر أو غير مباشر — رغبة من رغبات المعدة .

حاولت أن أتصور أن شوقيا — لو كان حيًّا — لأهمل الحديث عن الذرة ، وخطر الشيوعية ، والوحدة العربية ، ومؤتمر باريس ، وصراع العرب والصهيونية وغيرها من الموضوعات التي تشغل العالم ؛ ولكني وجدتني عاجزاً من هذا التصور .

إن فنون الشعر التي تبعد فيها نظرة الشاعر ، ويمتد أفقها فتمس الحياة الإنسانية قبل أن تمس القومية ، وتتحدث من الجيل قبل أن تتحدث عن الفرد ، هي ذخر من المعاني لاينفد ونبع من الصور الحية لاينضب .

ولا يهولن الشاعر أنها لوحة جديدة ، لن يجد لها رسما سابقاً يحتذيه فيما قال الشعر القديم ، ولن يجد لها رنينا سابقاً في أذنه ، أو هتافا ماضيا في جوانحه — لايهولنه ذلك ، فإن اللوحات القديمة — مع ما فيها من جمال باهر — هي سبب اضطراب الشعر الحديث ، بل وابتذاله أحياناً — إذا أصرّ الشاعر على استيحائها ، أو التأثر بخطوطها ، وستجيء لوحته دون ما يقلده ؛ لأنه قيد نفسه مرتين ، حين أصبح تابعاً مقلداً ، وحين منع فطرته من الكشف والإفضاء بهذا الحديث البكر ، فسلبها ظلما هذه الثقة القوية ، دون تجربة سابقة تستحق عليها هذا الإجحاف .

ليس أبعث على إرضاء الفن ، وأكثر أملا في الوصول إلى نتاج عبقري باهر — من هذه الفنون التي يحاول الشاعر أن يتحدث عنها ، دون أن تكون لها نغمات متخلفة في أذنه ، أو صدًى قديم بين جوانحه .

ومن الرغبات القاسية التي يصاب بها صدر الأديب في عهوده الأولى — هذه الرغبة الهالكة في الوضوح والتي تغلب عنده المخطط على الجمهور ، هذا الذي لا يعترف له بالامتياز ولا يقطع من الرحلة إلا أقلها . وإن فريقا لتلج بصدره هذه المحنة ، فتملأه غروراً محبوباً يبعث على الإشفاق فيحاول أن يقطف الثمرة قبل نضجها أعني ثمرة السلطة الزمنية عن طريق الأدب .

(أشوقاً ولما يمض لي غير ليلة ؟)

إنك أديب مترف تعيش في خفض من العيش إذا قارنت نفسك بالمثال والرسام والموسيقار . ولا تمدَّنَّ عينيك إلى الكاتب ، فقد اتصل الغرب بالشرق فخفف كثيرا من غلواء هذه الروحانية الشرقية التي يعتمد عليها الشاعر في غزو الوجدان . واحتلّ الكاتب المقعد الأول لأن بضاعته حقيقة تمس الحياة الاجتماعية ويندر فيها الخيال .

وما أقول إن الأديب ناسك لا تطمح نفسه إلى الثناء ، وإلى المكافأة المادية أحياناً . فمن العدل الجميل أن يلتفت إليه ، وأن يكون الإعجاب حمايا في بعض الظروف ، فلا شيء أشد إيلاماً لنفسه من أن يعمل دون أن يجد تقديراً لذلك ، ولو في التفاتة عابرة ، أو ثناء مقتضب .

ولكن على الأديب أن يوطن النفس ، على طول الرحلة ، وبعد الشقة ، والسفر المضني الذي لا يخلو من سراب ويأس ودموع . فإذا شارف النهاية ، وكانت شمس الحرمان المحرقة قد لوحت وجهه الصابر ، وظهرت على جسمه المكدود وعثاء السفر ، وصرت نفسه على هذا اليأس المترفع الجميل — هنالك يسرع الجمهور ليعاونه على أن يحط عن مناكبه وقر السنين الماضية ، ذلك الحمل الذي يتألف مما كتب وسطّر في عهود الحرمان . وهنالك سيرجوه أن يقدم إليه شيئا من السلطة الزمنية .

ولكن هذا الذي كان بالأمس مشغوفا بها ، حريصا عليها ، سيزهد فيها اليوم ويرفضها ويستقبل مطمئنا سعيداً هذه الهدية التي تقدمها إليه يد التاريخ ، حين تضفر على جبينه المحروم غار الخلود .

علي شرف الدين

عند جثة شوبنهور

قصة : للكاتب الفرنسي « موباسان »

كان يموت ببطء ، كما يموت المسلول الدنف ، فلقد كنت أشاهده حوالي الساعة الثانية من كل يوم جالساً قرب شرفات الفندق على مصطبة وضعت له في الرحبة المطلة على صفحة البحر الهادىء . هكذا كان يجلس مدة — دون أن يتحرك — وهو مستلق بدفء الشمس ، ينظر إلى البحر الوسيع نظرة أمجة نادبة . وكان بين آن وآخر يرفع بصره فيلمح الجبال الشاهقة وقد تعممت ذراها الرفيعة بالغيوم . . ثم يحرك ببطء ساقيه وكأنهما عظمان أجردان ، لولا ما بقى عنهما ذلك قماش السراويل . وكان يفتح كلما التقى به بصرى كتاباً هو نفس الكتاب الذى أشاهده يقرأ فيه كل يوم . يفتح الكتاب فيقرأ بعينيه وعقله ، ويشاركه في القراءة حتى جسمه الضنى ، كأن روحه قد غطست في لجة الكتاب فطفق يفتش عنها في الأعماق . ويستمر كل يوم في مثل هذه الحال حتى يفاجئه الهواء البارد الندى فيشتد عليه السعال ، ويضطره إلى ترك مكانه والعودة إلى مخبئه في الفندق .

كان هذا الرجل ألمانياً طويلاً بلحية خفيفة ، وكان معروفاً بين النازلين في الفندق بأنه هو الذى يتناول فطوره وغداءه في غرفته الخاصة ، وأنه هو الذى نذر له صوماً فلا يكلم أحداً .

جذبنى إليه شيء مبهم غريب ، فلقد جلست يوماً بجنبه ، أمثل دوره الذى يمثله كل يوم . وأخذت كتاباً أيضاً لأخفى بالنظر فيه ما قد يظهر على وجهى من ملامح التدقيق . وكان السفر ديواناً للشاعر (موسيه) ، ففتحته وشرعت أقرأ قصيدة بعنوان « رولا » . وبينما كنت غارقاً في صفحات كتابى فاجأنى جارى وهو يحدثنى بلغة فرنسية سليمة ويقول :

— أتعرف الألمانية ياسيدى ؟

— كلا ، لا أعرفها .

— أنا آسف لذلك ، فهذه مصادفة سعيدة رمت أحدنا بقرب الآخر ، وإنى لمشوق أن أبحث معك عن هذا الشيء ، الذى لايقدر : هذا الكتاب الذى تحمله يدى ، كما يحمله عقلي . فقلت له :

— ما هذا الكتاب ؟ أهو كتاب صلوات ؟

— إنه نسخة أستاذى شوبنهور ، وعليه شروحه الخاصة وتعليقاته التى كتبها بخطه . انظر إلى الهوامش الكثيرة التى كتبها بيده في هذا الكتاب .

وهكذا أخذت الكتاب من يده باحترام وتبجيل ، وطفقت أنظر الأشكال المشوشة التى خطها شوبنهور ، فظهرت أمام عينى تلك الأفكار الخالدة التى أذاعها أعظم فيلسوف هشم الآمال والأحلام وجد على هذه الكرة المظلمة ، عند ذلك تذكرت أبيات موسيه التى تخاطب فولتير وتقول :

« هل وجدت يافولتير أن الموت سعادة وهناء .

وهل لا تزال ابتسامتك الساخرة منبسطة على أسارير وجهك البالى ؟؟؟ » .

* * *

وفي الحقيقة فقد كنت مجبراً أن أقارن سخرية فولتير بتهكم الفيلسوف الألماني ، ذلك التهكم الذى لا يقاوم ، والذى ما يزال تأثيره غير منقطع ولم ينطمس مفعوله . وإنه مهما أكثرنا من الاحتجاج والغضب ، وألححنا في سخطنا وتعصبنا ، مهما كنا غيورين ، فإن شوبنهور قد وسم الإنسانية بطابع بصيرته وازدرائه . لقد كان مخرباً ، وطالباً للسرور ، وقد نبذ العقائد ، والمثل الشعرية والأوهام ، لقد هدم الطموح وبث في ثقة النفوس وأمات الحب والهوى ، وثل عبادة الفروسية والنساء ، وسحق غرور القلوب ، وأكمل أعظم عمل جبار كان قد حاوله الشاكون والملحدون .

إنه لم يدخر شيئاً مع روحه الساخرة ، لأنه قد أفنى كل شيء .

وحتى هذا اليوم فإن أولئك الذين يدعون عليه ويلعنونه يظهر أنهم يحملون في خفايا نفوسهم ذرات من آرائه ودقائق من أفكاره .

وبعد فقد التفت إلى الألماني وقلت له :

— يظهر أنك كنت صديقاً محبا لشوبنهور ؟

فابتسم جاري ابتسامة حزينة وقال :

— نعم حتى حانت وفاته ياسيدى .

ثم أخذ يحدثني عن الفيلسوف ، وأخبرني عن الانطباع الخارق الذي يحدثه هذا المخلوق الغريب في كل من يكون قريبا منه . لقد سرد لي أخباراً عن شوبنهور هدام الصور الدينية واجتماعه بسياسي فرنسي جمهوري . وذكر لي أن الفرنسي أراد أن يشاهد الفيلسوف وكيف أنه وجده في حانة صاخبة وهو جالس بين حوارييه ومريديه ، وقد ظهرت كرشه وسمعت قهقهته التي لا تنسى . وكان يتحدث مهاجما الأفكار وممزقا المعتقدات بكلمة تسرى بين رفاقه . لقد كان في حديثه كالكلب الشجاع يمزق في عضة واحدة من أسنانه نسيج اللحم الذي يداعبه ! ! .

ولقد أعاد على سمعي حديث ذلك الفرنسي وهو يفارق شوبنهور متعجبا ومذعوراً ، فكان قد قال : « لقد فكرت وأنا بالقرب منه أني قد قضيت ساعة مع الشيطان » .

ثم أضاف محدثي فقال :

— وفي الواقع لقد كانت ابتسامته مخيفة ياسيدى ، كانت تخيف حتى بعد مماته . وإنه ليمكنني أن أخبرك بنادرة عنها لايعرفها أحد .

وبدأ حديثه بصوت واهن كان يقاطعه السعال فقال :

— الآن وقد مات شوبنهور وقد رتبنا نحن تلاميذه أن ننتظر جثته بالتناوب اثنين اثنين حتى الصباح . ولقد كان راقداً في شقة واسعة بسيطة جداً ، قد خيم عليها ظلام كثيف . وكان فيها شمعتان في كل زاوية شمعة .

وكان الوقت منتصف الليل عند ما جاء دوري للانتظار بصحبة رفيق من التلاميذ بدلا من الرفيقين اللذين انتهت مهمتهما ، فأفسحا لنا مجالا لأن نكون عند موضع القدمين من الفراش .

وأضاف محدثي مستمراً فقال :

— لم يتبدل الوجه ، وقد كان بسام السحنة ، وإن تلك الثنية التي عرفناها جيدا قد بقيت في موضعها حول شفتيه ، وخيل لنا أنه على وشك أن يفتح عينيه ، وأن يتحرك ويتكلم وأحسسنا بأفكاره تلفنا لفا . لقد شعرنا أكثر من أي وقت آخر أننا في جو عبقريته ، وكأنه قد تشربنا واحتوانا من جديد ، وقد ظهر لنا أن سلطانه قد أصبح عند موته وهو أنفذ من ذي قبل ، فخيم علينا إحساس خفي لبس القوة الروحية من شبيه .

إن أجسام هؤلاء العباقرة تختفي ولكن نفوسهم تبقى . وفي الليلة التي تلي توقف التدفق في قلوبهم يكونون أؤكد لك ياسيدي مخيفين . وفي نغمة خافتة كنا نتحدث عنه معيدين إلى الذاكرة بعض أقواله ، وبعض حكمه واصطلاحاته ، وعباراته التي رأيناها تشع في ظلام الحياة المجهول . لقد بدا لي أنه سيتكلم ، ذلك ما قاله صديقي ، وأخذنا معاً نرتعج خائفين عند النظر إلى الوجه الراكد بابتسامته الخالدة . وأخذنا بالتدريج نشعر بالألم والضجر ، حتى خيل إلى أني سأقضي ساعة إغماء ، ثم قلت لصديقي : لا أدرى ما الذي يعتريني ، لكني أؤكد لك بأني لست مرتاحاً . وفي تلك الدقيقة لاحظنا أن رائحة مؤذية قد انبعثت من الجثة . فاقترح صديقي أن نذهب إلى الغرفة المجاورة ، وأن نترك الباب مفتوحاً .

أعجبتني فكرة صديقي ، فانصعت إلى آرائه طائعاً ، وأخذت إحدى الشمعتين لتضيء المكان الآخر ، ثم ذهبنا لجلسنا في الشقة المجاورة بحيث مكنتنا رؤية الجثة وسائر الفراش . ومع ذلك فكنا نرى أنه ما زال يحدق فينا ببصره

وكان ما يزال مستوليا علينا ، يحيطنا بروحه الحرة ، ويقيدنا بسلطانه النافذ ، ومع هـذا فكانت تزهقنا كذلك رائحة الجثة الخانقة ، والنبعثة من الجسد المتفسخ ، حتى كأننا نغطس في ألم عظيم لا حيلة لنا على تفسيره . وفجأة مرت رعشة باردة في عظامنا ؛ ذلك أن صوتا ، صوتا ضعيفاً قد انبعث من غرفة الموت ، فحدقنا الجثة بنظراتنا مباشرة ورأينا ، نعم ياسيدى ، رأينا بوضوح شيئاً أبيض يمر على الفراش ويسقط على البساط ويختفى ويزول تحت الكرسى . لقد نهضنا على أقدامنا قبل أن يكون لنا من الوقت ما نفكر فيه بشيء آخر ، لقد حطمنا الخوف واستولى علينا الفزع ، وهيأنا أنفسنا للهرب وأخذ كل منا ينظر إلى صاحبه نظرة التحير الخائف ، وكان أحدنا أصفر من شدة الخوف ، وكان وجيب قلبينا يسمع وحركات أفئدتنا ترتفع حتى كانت ملابسنا ترتفع مع صدورنا . لقد كنت البادىء في الحديث فقلت :

— ألم تر ؟

— نعم لقد رأيت .

— أمن الممكن أن لا يكون قد مات ؟

— ولماذا ؟ وحتى عند ما يكون الجسد قد تعفن ؟

— وماذا نفعل ؟

فقال رفيق بنغمة سريعة :

— يجب أن نذهب ونرى .

فأخذت الشمعة ودخلت أنا أولا ، ناظراً في جميع زوايا المكان المظلم ؛ لم أجد شيئاً يتحرك الآن ، واقتربت من الفراش ، ولكنى وقفت مربوطاً بالدهشة والخوف ! لقد كان شوبنهور وما يزال ضاحكا ؛ لقد كان عابسا بشكل مخيف ، فقد تضاغطت شفتاه وظهرت في خديه حفرتان عميقتان . . . فصرخت : إنه لم يمت .

ولكن الرائحة الكريهة صعدت إلى أنفي فأيستني ، ثم لم ألبث أن تحركت ولكنى بقيت محدقا فيه ، وقد تملكنى الخوف كما لو كنت في حضرة شبح مخيف من الأشباح ! !

أما رفيقى فإنه قد أمسك بالشمعة الأخرى وانحنى إلى الأمام ، ثم أمسك بذراعى دون أن ينبس بكلمة ، فعقبت نظراته فرأيت على الأرض وتحت الكرسى وبين الفراش والبساط القائم شيئاً أبيض وقد فغر فاه كأنه يريد أن يهش ، كان ذلك طقم أسنانه الصناعية فإن تقلص اللحم والفكين قد أخرجه من داخل الفم إلى الخارج .

— لقد كنت مذعوراً في ذلك اليوم يا سيدى ؟! لقد كان وقتاً مشؤوماً .

* * *

وفي الوقت الذى كانت الشمس فيه تغوص في لجة البحر الفسيح تحرك الألمانى الهالك قائما من مجلسه وانحنى في أدب لتحيتى ، ليأوى إلى الفندق .

ترجمة : عبد الستار فوزى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٠٣ | الثلاثاء ٢١ من شوال سنة ١٣٦٥ — ١٧ من سبتمبر سنة ١٩٤٦ | السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

معركة السيادة العالمية

يبدو الأفق الدولي في هذه الأيام كدراً تتشاءه السحب، ولم يبق ريب في أن الدول الثلاث الكبرى التي اتحدت جهودها وأهدافها أيام الحرب العصيبة لبلوغ النصر على العدو المشترك ، أضحت وقد غاض تضامنها وافترقت كلمتها ؛ بل أضحت وقد انقسمت إلى معسكرين تبدو الخصومة واضحة بينهما ؛ فروسيا السوفيتية قد ألقت القناع ، وكشفت عن اتجاهاتها في إحراز مناطق النفوذ والسيادة والسيطرة على الشعوب السلافية ، والاندفاع نحو الجنوب والغرب ، وتحدي الإمبراطورية البريطانية في بعض مناطق نفوذها ولا سيما في الشرق الأوسط وشرق البحر الأبيض المتوسط ؛ وبريطانيا العظمى وإلى جانبها الولايات المتحدة تبديان عزمهما الواضح في مقاومة التوسع الروسي سواء في غربي أوربا أو في الشرق الأوسط ؛ وتدور المعركة بين الفريقين سافرة سواء في هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن أو مؤتمر الصلح المنعقد الآن في باريس ، أو في الخطب والتصريحات الرسمية ؛ والحوادث الدولية الأخيرة تحمل كلها طابع هذه المعركة الخطيرة ، فمسألة تريستا وموقف روسيا منها في تأييد يوجوسلافيا ، وحوادث اليونان التي انتهت أخيراً بتغلب النفوذ البريطاني وعود النظام الملكي ، واتهام أوكرانيا اليونان لدى مجلس الأمن بارتكاب حوادث ابيروس والعمل على تعكير السلم ، واتهام بريطانيا بأن قواتها في اليونان تشجع العناصر الفاشستية ، وضغط روسيا على تركيا من أجل مسألة الدردنيل ومؤازرة بريطانيا وأمريكا السافرة لتركيا في معارضة المطالب الروسية ، كل هذه دلائل ناطقة بما يسود المعترك الدولي من أسباب الاضطراب والقلق ، وما يسود علائق الاتحاد السوفيتي وحليفتيه الديمقراطيتين من كدر وفتور .

وقد ألقى مستر بيرنز وزير خارجية الولايات المتحدة

أخيراً فى مدينة شتوتجارت بألمانيا خطاباً خطيراً يوضح فيه سياسة أمريكا إزاء الشئون الأوربية . أكد فيه أن أمريكا تنوى أن تؤدى دوراً كبيراً وطويلاً فى الشئون الأوربية ، وأنها لا تقر الأمر الواقع فيما يتعلق بحدود ألمانيا الشرقية ، ولا تنوى أن توافق على اقتطاع بولونيا وروسيا لهذه الأقاليم الألمانية المحضة ، ولا على أن يكون نهر الأودر هو حد ألمانيا الشرقى ، وإن كانت لا تعارض فى تعديل الحدود لصلحة روسيا وبولونيا ، وأن أمريكا تعارض مطالب فرنسا فى منطقتى الرور والرين ؛ وأعرب مستر بيرنز عن رغبة أمريكا فى توحيد ألمانيا من الوجهة الاقتصادية ومعاونة الشعب الألمانى على النهوض من كبوته والتحول إلى شعب قوى مسالم ، وأنها تؤيد وحدة ألمانيا السياسية وقيام حكومة دمقراطية ألمانية ، وندد بسياسة فرنسا وروسيا فى مقاومة هذه الأهداف ، وحذر مستر بيرنز أخيراً روسيا من التمادى فى محاولة دفع نفوذها إلى غرب أوربا ، وأكد أن أمريكا ستقاوم هذه المحاولة . وقد كان هذا الخطاب الجرىء أقوى وأصرح بيان ألقى منذ انتهاء الحرب عن السياسة التى تنوى الولايات المتحدة انتهاجها إزاء الشئون الأوربية . ومن المعروف أن السياسة البريطانية تؤيد معظم هذه الأهداف . وقد اعترضت بريطانيا منذ الساعة الأولى على إعطاء روسيا لبولونيا أقاليم ألمانية محضة ، وما زالت تبدى رغبتها فى العمل على توحيد المناطق الألمانية الممزقة فى ظل إدارة موحدة ، وهى محاولة تقاومها روسيا وفرنسا .

وروسيا السوفيتية لا تترك من جانبها أية فرصة للتنديد بسياسة بريطانيا العظمى وأمريكا ، وهى تتهم السياسة البريطانية بنوع خاص بأنها ما تزال تضطرم بنزعتها الاستعمارية القديمة ، وأنها تحتفظ بقوات عسكرية ضخمة فى اليونان ومصر وفلسطين ، وتعمل لتدعيم سيطرتها الاستعمارية فى الشرق الأوسط من مصر إلى إيران ، وأنها تقاوم أمانى روسيا المشروعة فى شرق البحر الأبيض وتفرض على الشعب اليونانى بقوة السلاح حكومة لا يرضاها ونظاماً لا يرضاه لتدعيم مركزها الاستراتيجى فى البلقان ، وأنها نكثت عهودها فى ميثاق الأطلنطيق ، إلى غير ذلك من أوجه النقد والتجريح ؛ وكذلك تحمل روسيا على السياسة الأمريكية فى تدخلها فى الشئون الأوربية بطريقة تعارض الأمانى الروسية ، وتأييدها لسياسة المقاومة والخصومة التى تبديها بريطانيا نحو الاتحاد السوفيتى ، واتجاهاتها الاستعمارية الجديدة فى البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى ، وتنعى روسيا على أمريكا بالأخص ما تبديه من حرص على الاستئثار بسر القنبلة الذرية وخاصة فى التسليح ، وهو ما يؤيد فى نظر روسيا نياتها العدائية نحو السلام ونحو الاتحاد السوفيتى ؛ وقد كان آخر مظهر من مظاهر تحدى روسيا لبريطانيا وأمريكا ، ما طلبه المندوب الروسى فى مجلس الأمن من أن تقدم كل دولة من الدول بياناً بما تحتفظ به من القوات العسكرية والعتاد فى البلاد الأخرى ، وذلك بقصد التنديد بأعمال انجلترا فى اليونان ومصر وفلسطين وغيرها من البلاد التى تحتفظ فيها بقوات عسكرية كبيرة بالرغم من إرادة أهلها ، وهو اقتراح تعارض فيه بريطانيا وأمريكا ، لأن توزيع القوى العسكرية فى المناطق المختلفة أمر لا يهدد الأمن .

وهكذا تضطرم المركة الدولية جهاراً بين المعسكرين الجديدين اللذين انقسم إليهما عالم القوة والنفوذ بعد الحرب العالمية الثانية . والعالم يرقب هذه المركة حائراً ، ويساوره الجزع أحياناً فيتساءل : أيكون هذا التنافس الخطر على إحراز السيادة العالمية هو مقدمة لحرب عالمية جديدة ؟ ويؤيد بعض المتشائمين هذا الرأى المزعج . ويقولون إنه لا مناص من أن تصفى بريطانيا العظمى وأمريكا حسابهما مع روسيا السوفيتية قبل أن يتاح للعالم ما ينشده من أسباب السكينة والاستقرار ، وإنه لا مناص أن تتم هذه التصفية بقوة

السلاح . والحقيقة أن المبالغة فى التشاؤم إلى هذا الحد أمر لا مبرر له . ثم إن معظم ما يعانيه العالم الآن من أسباب القلق يرجع إلى تنافس هذه القوى الخصيمة التى أصبحت تسيطر على مصايره ، وهى منافسة لا تقتصر على ميدان التوسع والنفوذ السياسى ، بل تقوم فى الوقت نفسه حول النظم الاجتماعية التى يعيش فى ظلها كل من المعسكرين الخصيمين ؛ فروسيا السوفييتية تعيش فى ظل النظم الاشتراكية الجماعية ؛ وتعيش كل من بريطانيا وأمريكا فى ظل النظم الفردية الديمقراطية أو النظم البورجوازية كما ينعتها الفريق الآخر ؛ وربما كانت هذه المعركة بين النظم هى أخطر مظاهر هذا النضال ، وأعظم بواعث هذا القلق . ذلك لأنها لا تقف عند تناجز القوى السياسية الظاهرة ، بل تنفذ إلى أعماق الجماعة ؛ ففى أوربا الخربة الجائعة ، وفى بريطانيا ومعظم أنحاء الإمبراطورية البريطانية ، وفى الولايات المتحدة ، تهب على المجتمع ريح من الاضطراب والقلق ، وتتجاذب الأذهان مختلف النزعات والاتجاهات ، وتقف الحكومات والقوى السياسية والعسكرية من وراء هذه المجتمعات القلقة تؤيد النظم القديمة وتذود عنها ؛ وقد تكون المعارك السياسية فى معظم الأحيان صدى هذا النضال الداخلى ؛ وتدرك روسيا كل الإدراك خطورة هذه العوامل الداخلية فى البلاد الأخرى ، وتحاول أن تعمل على استغلالها ما وسعت . وتعمل الدولتان الديمقراطيتان من جانبهما على مقاومة هذه العوامل المزعجة والقضاء عليها.

ويلوح لنا أن بريطانيا وأمريكا قد استطاعتا حتى الآن أن تصمدا أمام الهجوم السياسى والاجتماعى العنيف الذى تشهره عليهما روسيا السوفييتية ، بل هما تشنان اليوم عليها هجوما مضاداً ؛ فضلا عن المقاومة السافرة التى تبديانها اليوم لمطامع روسيا ومحاولاتها فى سبيل التوسع ، فان الحديث يكثر اليوم عن مثالب الدكتاتورية البلشفية ، ومن أساليب الإرهاب التى يخضع لها الشعب الروسى ، وعن النزعات الداخلية التى تضطرم بين الزعماء البلاشفة حول إحراز السلطان وغير ذلك مما يراد به إبراز روسيا فى صورة قاتمة . والحقيقة أن الدعاية تلعب فى ذلك سواء من هذا الجانب أو ذاك دوراً كبيراً .

على أن معظم هذه العوامل المزعجة تمت بصلة وثيقة إلى تركة الحرب المنقضية ، وما زالت هذه التركة المثقلة رهن التصفية ؛ ومن المعقول أنه كلما تقدمت الدول خطوة جديدة فى سبيل هذه التصفية ، خفت عوامل القلق الدولى . وبالرغم من أن الخلاف بين روسيا السوفييتية وبين الدولتين الديمقراطيتين يبدو اليوم فى أوجه ، فانه من الرجح أن تنتهى المحاولات والمساومات المختلفة إلى نوع من التسوية. وليس من شك فى أن الزمن سوف يفعل فعله فى تقريب وجهات النظر بين الفريقين . ومن المبالغة أن نعتقد أن حربا جديدة قريبة الوقوع ، لأن رحاها تدور بين روسيا وبريطانيا أو أمريكا على مناطق النفوذ ؛ وإذا كان كل من الفريقين يحتفظ إلى اليوم بقوات عسكرية كبيرة أو يمضى قدما فى التسلح ، فذلك لكى يدعم وجهات نظره فى ميدان السياسة والنفوذ .

ومن واجبنا نحن أبناء الأمم الشرقية أو الأمم المغلوبة التى ما زالت ميداناً للتنافس الاستعمارى ، أن نرقب هذه المعركة على السيادة العالمية بين حلفاء الأمس بمنتهى الاهتمام واليقظة ؛ بيد أنه يجب علينا أن نذكر دائما خلال الأزمات التى تنتاب جهادنا القومى أنه من الخطأ أن ننشد العون والمؤازرة فى هذا الفريق أو ذاك ؛ فكلاهما يعتبر الشرق الأوسط ميداناً لبسط النفوذ واجتناء المغانم ؛ وكلاهما تحدوه نفس النزعة الاستعمارية ونفس النيات الخطرة على سلامنا وحرياتنا .

محمد عبد الله عنان

بالبريد غير المستعجل :

إلى الأستاذ فريد بك أبو حديد

في العدد الماضي من هذه المجلة خطاب طريف وجهه الأستاذ فريد بك عميد معهد التربية المعلمين إلى معالي وزير المعارف بالبريد المستعجل ، لأن العام الدراسي قد أوشك على البدء وموسم الترشيحات والمشروع قد صار قاب قوسين أو أدنى . .

تضمن الجزء الأكبر من الخطاب دفاعاً مجيداً عن الوزيرين اللذين وليا وزارة المعارف قبل معالي وزيرها الحالي — ولم يشأ الأستاذ العميد أن يذكر الأسماء — وبين كيف أن كلاً منهما قد اجتهد مشكوراً في حل تلك المشكلة المتوطنة على طريقته :

الأول : بإباحة المجانية في التعليم الابتدائي جملة ، وبالتوسع العظيم في مجانية التعليم الثانوي مما أدى إلى اكتظاظ فصول الدراسة بالمدارس إلى حد أضاع كثيراً من الفائدة المقصودة من التعليم .

والثاني : بإصلاح ما ظهر من النقص في سياسة سلفه ، وذلك عن طريق تنظيم الدخول في المدارس ، مع الاحتفاظ بمجانية التعليم ، ومحاولة زيادة عدد المدارس الابتدائية ، وإنشاء فصول جديدة في المدارس القديمة ، والاحتيال قدر الاستطاعة ألا يصد طالب عن مدرسة . ونظم قواعد المجانية في المدارس الثانوية بحيث تتاح فرصة دخولها لأوفر ممن كانوا لا يستطيعونه من أذكياء التلاميذ ، وزاد هذا الوزير الثاني على ذلك كله أن تقدم بما هداه إليه اجتهاده إلى المجلس الأعلى للتعليم لكي يضع أساس السياسة الثابتة التي طال الشعور بالحاجة إليها .

وقد استغرق هذا التلخيص الجميل المفهوم نحو نصف خطاب الأستاذ العميد الموجه إلى معالي الوزير . أما النصف الثاني من الخطاب فقد تضمن خطة العمل بنصح عزته باتباعها ، وهذه الخطة تكاد تنحصر في متابعة السير في الطريق الذي رسم وبدىء في العام الماضي ، لأن ذلك يؤدي إلى الاستمرار ويجنبنا القلقلة . وهذا رأي للأستاذ فريد بك نقدره . لكن هذا الجزء الأخير من الخطاب قد تضمن مع الأسف عبارات لم نفهم القصد منها تماماً ، لأن ظاهرها يكاد يسد الطريق على المفكرين والمجتهدين ومنهم أعضاء المجلس الأعلى أنفسهم ، وهذا ما لم نكن نظن أن يقول به الأستاذ العميد .

إذ ماذا نفسر قوله : « ليس يجدر بنا أن نستأنف تفكيراً جديداً » هل يصح أن يدعو عميد المعلمين إلى عدم استئناف التفكير وإلى تجنب مستحدثات الجديد ؟ ربما كان قصد عزته ضرورة تجنب الثورات الانقلابية وضرورة التزام خطة التعديلات الطفيفة . وفي هذا على ما نرى شيء من الحجر على حرية التفكير وإن كان بلا شك غير مقصود .

ثم انظر إلى قول عزته : « ليس من مصلحة البلاد أن نخرج عن الطريق الطبيعي الذي دفعتنا إليه ظروف الحياة العملية دفعاً » لقد حاولت مخلصاً أن أتبين هذا الطريق الطبيعي وأتعرف ظروف الحياة العملية التي دفعتنا إليه فلم أهتد إلى هذه الظروف ولا إلى ذلك الطريق .

وإني لست مؤمناً بأن الاتجاه الذي نسير فيه والذي رسمه الأستاذ فريد بك في خطابه هو ما أوصلتنا إليه إطالة التفكير وشدة التمحيص . وأظن أن صديقي الكاتب يذكر أن الذي هدانا إليه طول التفكير وشدة التمحيص منذ عام ١٩٢٥ هو ضرورة توحيد المرحلة الأولى من التعليم لكافة المصريين على السواء ، والإقلاع من هذا الازدواج المفوت الذي لا وجود له في غير مصر والذي

كانت نتيجته وستظل دائماً الاهتمام بالتعليم الابتدائي وإهمال التعليم الأولي ؛ أو بعبارة أصرح الاهتمام بالتلميذ الذي يستطيع أن يلبس البدلة وإغفال شأن التلميذ الذي يلبس الجلباب العادي وينحدر من الأسر الفقيرة .

وقد استغربت أنه لم يرد في خطاب صديقنا الأستاذ فريد بك سطر واحد عن التعليم الأولي ؛ ولعل هذا راجع إلى أن موضوع الخطاب أساسه الإشارة إلى الصيحات العالية والدموع المنحدرة في أول العام الدراسي ، والمعلوم أن أبناءنا الذين يتلقون التعليم بالمدارس الأولية هم وآباؤهم قانعون به على سوئه ، لا يضجون ولا يصيحون ولا يسكبون الدموع ، والغرض الأول من الخطاب هو السعي لتخفيف حدة الصيحات وكفكفة الدموع ، وهذه لا تصدر عادة إلا من طالبي الالتحاق بالمدارس الابتدائية أو بالمدارس الثانوية .

وقد وقفت طويلا عند قوله : « الحجر الزاوية في الخطة التي نقابل بها العام الجديد فيما يتصل بالتعليم الابتدائي هو العمل على توفير الأماكن اللازمة لكل طلابه » . وعند قوله : « وحجر الزاوية في الخطة التي نقابل بها العام الجديد في التعليم الثانوي هو (أيضا) توفير الأماكن اللازمة لكل طلابه » فهل المسألة مسألة أماكن فقط أم مسألة مدرسين أيضا لم يعدوا بعد ؟ ثم هل هذا أوان الكلام في هذا الموضوع أم أوانه وقت وضع الميزانية ، لأن تدبير الأماكن المناسبة والمدرسين الصالحين يحتاج لميزانية واسعة — إن كنا نبغي بالطبع أن نتجنب إفساد التعليم باكتظاظ فصول الدراسة .

الحق أن على الذين يقولون القول الذي ننقله عن الأستاذ فريد بك أن يقنعوا نواب الأمة به ، ويتفقوا معهم بصراحة على تحويل التعليم الأولي في القطر كله إلى ابتدائي ، ويرسموا معهم متكاتفين الخطة اللازمة لتدبير الأموال الطائلة التي يقتضيها هذا التحويل . أما التحدث في هذا الموضوع الخطير في موسم افتتاح المدارس فلا يكون له من نتيجة سوى انحطاط التعليم وتأخره بسبب حشد التلاميذ بكثرة قبل الاستعداد لإيوائهم وتعليمهم كما ينبغي .

بعد ذلك تأمل معي قول الأستاذ فريد بك : « إن السياسة التي بدأت الوزارة في رسمها في العام الماضي جديرة بأن توضع موضع البحث الجدي ، فإذا وجدنا فيها نقصا أكملناه ، وإذا وجدنا فيها ميلا قومناه . ولكن علينا ألا نعدل إلى سياسة جديدة أخرى إلا إذا حكمنا على تلك السياسة الأولى بالفساد ، واطمأننا إلى صحة حكمنا بالمنطق الصحيح » . هل تتفق هذه الدعوة مع ما قيل من قبل من ضرورة قيام المجلس الأعلى بوضع سياسة عامة ثابتة ؟ ألا تتضمن عبارة الأستاذ العميد حداً من حرية هذا المجلس وتقييده فيما قد يراه من آراء وإلزامه باتباع ما رسم في العام الفائت ؟

الحق أننا نود أن نستأذن صديقنا الفاضل في أن نخالفه في كل ما ورد في خطابه من عبارات يشتم منها الحد من حرية التفكير والنفور من التجديد والدعوة إلى التزام خطة رسمها هذا الوزير أو ذاك . ورأينا في هذا معروف صرحنا به في افتتاحية العدد الذي قبل الماضي ؛ فرسم السياسة العامة للتعليم (أو غيره) ليس من عمل الوزير ، وما ينبغي لنا أن نعطي الوزراء هذا الحق ، بل يجب أن نسعى لتسليمهم إياه ونعطيه لهيئة عليا مستقلة لا سلطان لأحد عليها ولا تستمع لغير الصالح العام والاعتبارات الفنية .

ولا شك في أن ما عانيناه من فوضى في أمور التعليم يرجع إما لعدم محاولة وضع سياسة عامة أو لوضع سياسة ارتجالية تقوم على اجتهاد وزير من الوزراء أو اتجاه خاص عند وزير آخر ؛ والواجب أن توضع هذه السياسة العامة بالطرق الدستورية التي تضمن أن يقول كل مفكر رأيه بكل حرية وأن يستمع لجميع الآراء ، سواء أكانت صادرة

أسلوب السادة

أو بقول آخر أسلوب (الإمارة) كما يقولون. والإمارة أصلها أن يكون الإنسان أميراً. والأمير هو الذى يأمر. وكان الأمير عندما اخترعت الإمارة فى المجتمع الإنسانى هو الرجل الذى يقود قومه فى الحروب ويدفع عنهم غارات الأعداء بحد سيفه ويتصدر الصفوف فى مواقع الخطر لشجاعته وقوة حماسته وشعوره بمسئوليته عن سلامة قومه؛ وكان هو أحكم الناس عند الرأى وأعلمهم بمصادر الأمور ومواردها. وكان من أدب الإمارة فى تلك الأزمان رحمها الله أن يكون سيد القوم خادمهم، يجعل كل وقته رهن قضاء مصالحهم، ويعف عن المغانم الصغيرة التى يتنافس عليها سرعان العامة، ويتكبر عن الدنايا، ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة. وبالجملة كانت الإمارة فى عهدها الصحيح رمزاً للسيادة الحقيقية. فالسيد هو الذى يسود الناس لأنه أفضلهم وأكثرهم نفعا للمجموعة التى يسود فيها. ولكن الزمن يتغير والناس يتبدلون بتغير الزمان، واللغة تتم عن تغير الزمان والناس. فنحن اليوم نستعمل لفظ الإمارة للدلالة على معنى آخر، هو نقيض ما كان يدل عليه لفظها القديم، وهذا دليل على أن الحياة دائماً فى تطور وتغير. وسبحان الدائم الذى لا يتحول ولا يتبدل!

فنحن الآن نقول فلان (يتأمر) علينا إذا كان يدل علينا إدلالا ثقيلا، وإذا كان يتعجرف فى معاملاته. والموظف المصرى (يتأمر) فى كثير من الأحوال. فالكاتب الصغير يحتفظ بالأوراق فى درجه ويكتفى بأن يشرب القهوة فى كل صباح والمرطبات بين ساعة وأخرى، فإذا جاءه طالب مصلحة (شخط) وغضب وتأمر عليه. والرئيس المصرى يتأمر فى كثير من الأحوال على مرءوسيه ويستأثر بكل امتيازات الرياسة، ومع قلة العمل والحرص

من أفراد أو من هيئات، وأن تجرى قبل وضع السياسة العامة استفتاءات يشترك فيها المتعلمون وغير المتعلمين من ذوى الرأى ومن رجال الأعمال ومن عامة الشعب، وأن تلحظ فيها حاجيات البلاد العملية وظروف أغلبية الشعب وقدرتنا المالية، إلى غير ذلك من الاعتبارات، وأن يكون الحكم فيها لا إلى الوزراء ولكن إلى هيئة فنية عليا كما قدمنا أو إلى مجلس أعلى مكون تكويناً على أساس غير الأساس الحالى، بحيث يصير ممثلا لجميع وجهات النظر لمختلف الهيئات والأحزاب ورجال الأعمال، ويمثل وزراء المعارف السابقون لطائفة من الطوائف بعدد محدود.

وغنى عن البيان أن هيئة أو مجلساً كهذا يجب ألا يتقيد عند بحث السياسة العامة اللازمة بأى قيد كالقيود التى يبدو أن الأستاذ العميد يريد أن يقيد بها المفكرون. وإنا نرجو ونؤمل أن تكون هذه السياسة العامة عندما يتم وضعها تهدف لصالحة الأغلبية العظمى من أبناء الشعب لا لصالحة الأقلية المحظوظة، كما نرجو أن يجد فيها كل ذى موهبة عالية فرصة لإنماء موهبته حتى تستفيد الأمة مما أودعه الله فى أبنائها من استعدادات عالية وكفاءات ممتازة.

وإنى إذ أقول هذا القول أضمر فى نفسى أيضاً كل تقدير للنيات الحسنة التى لا أشك فى توفرها فى كل من يلى أمراً من أمور الدولة ويجتهد مخلصاً فى إصلاحه وفى كل من تدفعه الغيرة على المصلحة العامة للإدلاء بكل رأى يعن له، علـه يعاون فى الوصول إلى الخطة الناجحة النافعة والهوقة التى نبتغيها جميعاً. والله الموفق الهادى.

أحمد عبد السلوم الكردانى

على مصالحه وإقفال كل مصلحة أخرى . فإذا اعترضه مرءوس شاذ فراجعه فى أمر من الأمور استعمل حقه فى الإمارة وسود له عيشته . ونحن لا نريد بهذه الأمثلة سوى أن نوضح للقارئ العزيز ما نقصده من لفظ الإمارة ، فإن المثال كما هو معروف خير ما يوضح المعنى .

فلنعد الآن إلى أسلوب الإمارة فى إدارة مصالحنا العامة . وهذا الأسلوب بسيط جداً ، يتلخص فى أن تقفل الإدارة الحكومية أبوابها وتضع على الباب إعلاناً بما يجب على الذين يريدون قضاء مصالحهم أن يفعلوه ، والشروط التى توضع لقضاء المصالح لا يراعى فيها إلا أن تقلل المشقة على موظفى الدولة ، سواء أ كانت هى ممكنة فى ذاتها أو غير ممكنة ، وسواء كانت مفيدة للمصلحة العامة أو غير مفيدة . وعلى الناس الذين يريدون قضاء مصالحهم أن يطيعوا وأن يذهبوا حيث شاءوا لتوفية كل الشروط المطلوبة حقها ، فإذا أتموها لم يبق إلا القليل بعد ذلك من إمارة الموظفين ، وإذا لم يتموها كان الذنب ذنبهم والعيب عيبهم ، ولا ينبغى أن يلوموا إلا أنفسهم .

وربما كان من المفيد أن نورد مثلا صغيرا يتعرض له كل والد فى هذه الدولة المصرية ؛ فإذا أراد أب أن يدخل ابنه فى مدرسة أميرية وجد إعلاناً على باب المدرسة أنه من الضرورى أن يبرهن الوالد على خلو ولده من أمراض البلهارزيا والانكلستوما . وقد يكون الولد فى العام السابق تلميذاً فى مدرسة أميرية وكان من سوء حظه أنه نجح فى إتمام الدراسة بها ، وأراد الانتقال إلى المرحلة التى بعدها . فإذا أراد الوالد أن يناقش فى الأمر لم يجد من أحد استعداداً للمناقشة ، فلا يكون له بد من طاعة الإعلان ، فيذهب إلى حيث يشاء ليحضر شهادة بطريقة من الطرق ليبرهن على الورق أن ولده سليم من الأمراض ، وعند ذلك تقبل أوراقه ، وكفى الله المؤمنين القتال .

أما لماذا كان هذا الإعلان ، أو لماذا يتحتم على الرجل أن يبرهن بين عام وآخر على خلو ولده من الأمراض ، وأما لماذا لا يقبل المريض بالبلهارزيا ثم يقوم أطباء المدارس بعلاجه وهو فيها ، فتلك هذه أسئلة لا محل لها لأن الإعلان قد وضع على الباب ، ولأنها كذا خلقت . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومع ذلك فالرجل يذهب إلى أحد المستشفيات ليأتى بالورقة المطلوبة ، فيجد أكداساً من البشرية تتزاحم حول موظف مسكين يحاول أن يتخفف من الزحام الثقيل بوضع العراقيل وإقفال الأبواب ، وإقفال لغة الآداب . فلا يسعه إذا كان من المساكين إلا أن يتحمل الإمارة فى المستشفى حتى يحقق كل الشروط المطلوبة للإمارة فى المدرسة .

نضرب هنا مثلا واحداً ، ولكل من القراء أن يتذكر مما وقع له أمثلة عدة بغير شك . وما قصدنا من هذا المثل تشهيراً ولا حصرا ، لأن مصالحنا بحمد الله كلها أمثلة يمكن أن نضرب لهذا الأسلوب ؛ والسر فى كل هذا هو أن أسلوب الحكم عندنا مشبع بتقاليد (الإمارة) منذ عهد بعيد . والمبدأ العام الذى نسير عليه هو أن الناس عليهم أن يسترضوا صاحب الأمر حتى يرضى ، ويصبروا عليه حتى يريد أن يعمل ، مع أن المبدأ العام الذى تسير عليه الأمم المتمدنة فى إدارة مصالحها هو أن الموظف يرى من واجبه أن يعين بكل ما عنده من علم وتجربة وذكاء على قضاء مصالح الناس لأنها أمانة فى عنقه .

فإذا استطاع أن يعمل ما يحقق المصلحة قام بذلك ، وإذا علم ما يساعد صاحب المصلحة على قضائها عند غيره أفاده بعلمه ، وإذا رأى عقبة حاول أن يذللها ، وإذا وجد صاحب المصلحة حائرا حاول أن يهديه .

فأسلوب الإمارة فى مصر لا يزيد على أن يكون أسلوبا سلبيا غايته الخمول ووسيلته المنع والصد وقول (لا) .

هرة بشرية

كان رئيس مباحث مديرية القاهرة يجلس في مكتبه في صبيحة يوم قائظ من أيام شهر يونيه سنة ١٩٤٣ وهو يمنى نفسه بأن ينقضى ذلك الصباح على خير ، فإن سيل البلاغات لم يكن ينقطع عنه طوال الأيام السالفة . وكان بحث تلك البلاغات يتطلب من الجهود ما لا يتفق مع حرارة ذلك الشهر المعروف فى القاهرة بشدة وهجه وقسوة هجيره . ولكن أحلامه فى قضاء صباح هادىء ما لبثت أن تبددت حين دخل إليه أحد (السعاة) ليسلمه البلاغ التالى :

حضرة صاحب العزة رئيس المباحث بالقاهرة

يتشرف كاتب هذا البلاغ بأن يحيط عزتكم علماً بأنه توجد امرأة من الجنس اللطيف فى المنزل رقم — بحارة — بجزيرة — ويعلم الله أن الجنس اللطيف برىء منها ؟ فإنها ترتكب من الفظائع ما لا يجرؤ على ارتكابه الشياطين ، وهذه المرأة تسعى — وهى تتصيد الغلمان من الشوارع لاستخدامهم فى أعمال غير شريفة . وبعد أن ينتهى غرضها منهم تسيء معاملتهم وتذيقهم ألوان العذاب . ومن عهد قريب أحضرت غلامين اختنق أحدهما بعد بضعة أشهر والآخر مسجون الآن بالشقة التى تسكنها بالمنزل المذكور . ولما كنت من جيران هذا السكن وأسمع أنين هذا الغلام ليلا ونهاراً بصورة تفتت الأكباد لا سيما وقت أن تدخل عليه هذه المرأة لتفرغ سمومها فى جسده البالى بالضرب والسكم مستعملة فى ذلك يديها ورجليها وأسنانها وكل ما تصل له يدها من أدوات المنزل . فإنى ألجأ بهذا البلاغ إلى عدالتكم لتدركوا برحمتكم هذا الغلام قبل أن يختنق كما اختنق زميله من قبل . والله وحده هو الذى يعلم أين يذهب هؤلاء المساكين . لا زلتم ملاذاً للمظلومين والمتصفين . والله يوفقكم للكشف من هذه الفظائع التى ترتكب علناً فى رابعة النهار . أفندم .

« مجهول »

* * *

فى حين أن الأسلوب الصالح تاجشه بذل الجهد ووسيلته بذل المعونة والاستعداد العاطف للتيسير .

ومن الواضح أن أسلوب الإمارة سهل جداً على كل إنسان يحب الحمول ، فى حين أن الأسلوب المتواضع يكلف الموظفين مشقة وعناء ، وقد يسلبهم المظهر البراق الذى يدل على عظم الشأن وخطورة المكانة فى المجتمع .

ومن العجيب أن الأسلوب الناجح فى هذه الأزمان هو الأسلوب السهل السلبى .

فالموظف الذى يحاول أن يقوم بعمله على وجهه الصحيح ينقلب فجأة إلى أحد العامة الذين يجب عليهم أن يتحملوا فتوناً لا عد لها من (الامارة) لأنه يصير رجلا يريد تحقيق مصلحة .

وذلك يتطلب منه الاتصال بشتى المكاتب والمصالح . وكل منها يحيط به سياج شوكى يحتم عليه أن يتحمل وخزاته فى صبر .

وأعرف رجلا أراد يوماً أن يؤدى عمله على الوجه الذى يرضاه ، فانقلب بإذن الله من موظف له الحق فى الإمارة إلى طالب مصلحة من واجبه تحمل الامارة . وكم حدثته نفسه أن يستعمل حقه فى الجلوس وراء الأبواب والاحتماء بالسعاة والحجاب وترك الأمور تجرى فى مجراها ، لا يعنيه أولاها ولا أخراها . ولكنه إلى اليوم لا يزال يحدث نفسه بذلك ، ونسأل الله له اللطف والهداية ، إنه سميع مجيب .

محمد فريد أبو حديد

فنس رئيس الباحث نفسه بعد تلاوة هذا البلاغ الغريب، وكان عند حسن ظن المبلغ به. فقام من فوره واستصدر أمراً من النيابة بتفتيش مسكن تلك السيدة. ثم عهد إلى أحد رجاله بالانتقال (لضبط الواقعة) وتفتيش المسكن وإجراء التحقيق على ضوء ما يسفر عنه هذا التفتيش

وقام الضابط إلى المنزل الذي وصفه البلاغ. فوجد الشقة التي تسكنها السيدة مقفلة، ولم يجد صاحبتها فيها، فسأل عنها جارتها فعلم أنها تزور أختها في منزل مجاور فقصد إليها فوجدها. وطلب إليها أن تعود معه إلى مسكنها بعد أن أفهمها بحقيقة مهمته. فقامت معه إلى شقتها وفتحت بابها بمفتاح كانت تحمله. ودخل الضابط فوجد أن هذا المسكن يطل على السكة الحديدية من ناحيته الخلفية وأنه كما وصفه في محضره (عبارة من حجرتين متجاورتين وصالة ودورة مياه تشتمل على مرحاض وحمام ومطبخ. ولوحظ أن باب المطبخ مغلق بقفل من الخارج... الخ) وبعد أن أتم الضابط معاينته لمحتويات المسكن طلب إلى السيدة أن تفتح باب المطبخ فاعتذرت بأن المفتاح مع زوجها فرد عليها الضابط بأنه لم تجر عادة الأزواج بأن يحملوا معهم مفاتيح مطابخهم عندما يتركون بيوتهم. ولكن العادة أن تبقى الزوجات في هذه المطابخ لتهيئة الطعام وإعداد العدة لاستقبال أزواجهم عند ما يعودون من محل عملهم للغداء. فتظاهرت السيدة بأنها ستبحث عنه لعل زوجها أن يكون قد تركه في مكان ما من الشقة. وظلت تخرج من إحدى الغرفتين لتدخل الأخرى. وتقلب ما يقع في طريقها من أثاث المنزل. وطال الأمر حتى أدرك الضابط أن المقصود بكل هذا الهرج هو كسب الوقت لعل الله يلهمها بشيء تقوله أو تصنعه فتخرج من ورطتها تلك التي لم تكن تخطر لها على بال. وأخيراً هددها بأنه سيفتح باب المطبخ بالقوة إذا لم تتقدم له فوراً بمفتاحه. فأخذت تستمهله فترة أخرى. ولما أن رأى أنه لم يعد هنالك أمل في تقدمها بالمفتاح وأنه لم تبق فائدة من المطاولة والانتظار أمر بباب المطبخ أن يفتح. فاقتحمه رجاله ودخله من ورائهم فوجده (عبارة عن غرفة صغيرة مساحتها متران طولا في مترين عرضاً ولها نافذة من الزجاج تطل على السكة الحديدية. ولوحظ أن هذا الشباك مغلق من الداخل بقفل)... واستمر الضابط يصف في محضره ما وقعت عليه عينه عقب دخوله المطبخ فقال:

« ووجدت في ركن من الأركان غلاماً هزيل الجسم سنه حوالي ١١ سنة وهو في حالة ضعف شديد. ويكاد لا يقوى على الكلام أو الحركة إلا بصعوبة. وليس عليه من الملابس إلا قميص ممزق ولباس قديم. وشاهدت على جسمه آثار كي وحروق بعضها قديم وبعضها حديث. ووجدت بساقه اليسرى ورماً شديداً والقروح القبيحة تغطي جسمه كله تقريباً. وعرفنا الغلام أن اسمه — من ناحية — مركز — وما إن وقعت عينه على صاحبة الدار حتى ظهر عليه الخوف والفزع وحاول الهرب وهو يمشي على بطنه. فطمأناه، وسألناه عن حاله. فقال: إن (سته) كانت تضربه وتعذبه وتكوي جسمه بالنار وتحرمه من الأكل بلا سبب، وأنه كان له أخ يدعى — كانت تعامله نفس المعاملة. وتمنع عنه الأكل وتعذبه. وكانت لا تعطيه إلا قليلا من الماء. فضعف ضعفاً شديداً حتى توفي منذ خمسة عشر يوماً تقريباً وقال إنه لا يعرف ماذا جرى له بعد أن فارق الحياة. وأنه كان يسير في الطريق مع أخيه يوم التقت بهما « المتهمة » منذ ستة شهور تقريباً. فأغرتهما بالحضور معها إلى مصر لتطعمهما وتكسوهما وتعطيهما أجراً كبيراً مقابل خدمتها، ولكنها لما حضرا إلى القاهرة أرغمتهما على خدمتها بغير أجر. وكانت تضربهما وتعذبهما حتى فارق أخوه الحياة. وبقي هو وحيداً في المطبخ لا يقوى حتى على الاستغاثة... »

فأخذ الضابط الغلام والمرأة إلى القسم وتولى التحقيق

بالتفصيل فقال الغلام : إن المتهمة كانت تعذبه بسيخ من الحديد له طرف مدبب . أما طرفه الآخر فكان على شكل حلقة . وكانت تحتفظ به داخل (دولاب) فى إحدى الغرفتين . فكانت إذا أرادت تعذيبه قامت إلى (الدولاب) فأخذت منه السيخ ووضعته على النار حتى يسخن ثم تلسعه به فى أى مكان تصيبه من جسمه . وقد قام الضابط إلى مسكن (المتهمة) مرة أخرى وبحث عن هذا السيخ فاهتدى إليه فى الموضع الذى وصفه الغلام .

وتبين من التحقيق أن أخا المجنى عليه توفى فى يوم — سنة ١٩٤٣ ، وأن زوج (المتهمة) قام بالتبليغ عن وفاته . وزعم أن زوجته وجدت فى الطريق غلاماً مريضاً منطرحاً على الأرض بشارع — فأخذتها الشفقة عليه ، وأحضرته إلى المنزل رأفة بحاله وأطعمته وكسته وأخذت فى العناية به ، ولكنه توفى متأثراً بمرضه . فقام أحد رجال البوليس إلى منزل هذا الزوج . وأثبت أنه (انتقل إلى هناك فوجد أن المتوفى شخص يبلغ من العمر حوالى ١٢ سنة ، وعليه من الملابس جلابية ممزقة . ولاحظ أنه كان فى منتهى الضعف . وأنه عبارة عن هيكل عظمى . عارى الرأس حافى القدمين . . الخ) .

وقد عرض البوليس أمر هذا البلاغ على النيابة فطلبت أن يقوم الطبيب الشرعى بفحص الجثة لمعرفة سبب الوفاة . فقرر الطبيب المختص ما يأتى :

(كطلب نيابة — فى المحضر رقم — قسم — أثبت أنا الدكتور — أنى انتقلت صباح يوم — لدار فحص الموتى حيث أجريت الكشف الظاهرى والصفة التشريحية على جثة المدعو — الذى كان مريضاً مرضاً طبيعياً ، وذلك لمعرفة سبب الوفاة . وأقرر الآتى :

الجثة لفتى يبلغ من العمر حوالى ١٤ — ١٥ سنة له عينان سليمتان قاتمتان وهو طويل القامة نوعاً بالنسبة لسنه . ووجدنا عليه من الملابس قطعتين من قماش متسخ : الأولى تتكون جزءاً من جلابية زفير والثانية جزء من قميص من البفتة . وتحوى هاتان القطعتان كثيراً من القمل . والجثة فى انتهاء دور التيبس الرمى والزرقة الرمية ظاهرة بالوجه الخلفى من الجسم فى مواضعها الطبيعية . والتعفن الرمى آخذ فى الظهور بشكل اخضرار فى مقدم جدار البطن . وتبدو الجثة بلون باهت مبيض وفى حالة هزال وضعف فى البنية شديد . ونتوءات الهيكل العظمى تظهر جلية . والطبقة العضلية بالجذع والأطراف ضامرة معدومة . والقفص الصدرى يبدو ضامراً للغاية . ويشاهد بالمنطقة العجزية تقرح فراشى سطحى متقيح . ووجدنا منتشراً على الأطراف بقعاً من الجلد المبيض اللون بأشكال ومساحات مختلفة — وفيما عدا ذلك وجدت الجثة فى حالة قذارة شديدة ويسرح عليها من القمل الشىء الكثير لا سيما بشعر فروة الرأس الذى وجد حالقا . . . وقد نشأت الوفاة من حالة الضعف المتقدم مع الهزال الشديد وما صحب ذلك من سل رئوى ... الخ)

وأعيد سؤال الغلام الباقى على قيد الحياة :

س — كيف التقيت بالمتهمة أول مرة ؟ .

ج — فى يوم خميس من خمسة شهور تقريباً خرجت مع أخى من بلدتنا قاصدين مدينة — لزيارة خالنا — وقبل دخول البلدة قابلتنا الست وعرضت علينا أن نسير معها لنشتغل عندها مقابل خمسين قرشاً فى الشهر ثم أخذتنا إلى منزلها فى مصر . وهو الذى وجدتنى حضرتك فيه . ومن ذلك التاريخ لم نخرج من هذا المنزل . وكانت الست تحبسنا فى المطبخ بعد القيام بالخدمة المطلوبة . وإذا تأخر أحد منا أثناء العمل تكويه بالسيخ . وقد توفى أخى منذ أسبوعين من تأثير الجوع فأدخلتنى المطبخ وحبستنى وهددتنى بالذبح بالسكين إذا استغثت أو اعترضت .

س — ومتى بدأ التعذيب ؟ .

ج — قضيت عشرة أيام كويسة معها وبعدها ابتدأت

تمنع عنا الأكل وتعذبنا بالسيخ . ولما مات أخى كنت أشتغل لوحدى فى خدمة البيت وبعدها تحبسنى .

س — وكيف كان التعذيب ؟ .

ج — كانت لا تعطينى أنا وأخى إلا نصف رغيف مرة الصبح ومرة آخر النهار ، ولا تعطينا أكثر من هذا الرغيف الواحد طول النهار . وأحياناً كانت تعطينى قطعة جبنة ناشفة وساعات عيش حاف . وكانت تكوينا بالسيخ الحديد بعد ما تحميه على وابور الغاز . وتضربنا أحياناً بعصا تخينة .

س — وأين كنت تنام أنت وأخوك ؟ .

ج — كانت فيه حتة خيش بسيطة فوق السطح ليلة أنام عليها وأخويا ينام على البلاط والليلة الثانية نغير .

س — وما سبب وفاة شقيقك ؟

ج — مات مثلى من الجوع والتعذيب .

س — وهل كانت تحصل منكما استغاثة ؟

ج — ما تقدرش أحسن تدبحنا وترمينا على شريط السكة الحديد .

* * *

وبعد هذا الاستجواب أحيل هذا الغلام الباقى للكشف عليه فقرر الطبيب ما يأتى :

« المذكور غلام يبلغ من العمر حوالى ١٢ سنة هزيل وضعيف البنية وفى حالة إعياء ، وطول القامة ١٢٩ سنتيمتراً ووزنه ٢٢,٥ كيلو ! وشاهدنا به من الإصابات ما يأتى » :

(وهنا أثبت الطبيب وجود عشرات القروح المتقيحة فى الجبهة ، والعنق ، والصدر ، والساعدين . وقرر أنها حدثت منذ أسبوع تقريباً . وأثبت وجود آثار التحامات على جميع الجسم تتخلف من الكى بسيخ محمى من الحديد كالسيخ المضبوط . وقرر أن تاريخ حدوثها قد يرجع إلى حوالى خمسة أو ستة أشهر) .

* * *

ولم يبق بعد ظهور هذه الحقائق أمام المحكمة التى تولت نظر القضية إلا إدانة (المتهمة) التى يجب المبلّغ المجهول بحق من حسابها امرأة تتمتع برعونة جنسها المطيف . وهى سبة فى وجه الإنسانية كلها لا فى وجه جنسها فحسب .

وقد قالت المحكمة كلمتها فى أمرها . وكانت كلمة قوية عنيفة . نرجو — إن لم تكن نافعة لهذه المرأة نفسها — أن تكون رادعة لغيرها من ذوات الأسياخ والأقفال . تلك الحمر الآدمية اللاتى يخفين تحت خضرة عيونهن دماء الفيران التى تلوث أفواههن !

حسين جمعة

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

من إميل زولا

إلى رئيس الجمهورية الفرنسية

يطلب إليه أن يرد على الناس إيمانهم بالعدالة الإنسانية

يصف أناتول فرانس إميل زولا بأنه أكبر قوة دافعة في ضمير الإنسانية . وسنرى في هذه الرسالة التي كانت نقطة الانقلاب في قضية دريفوس كيف استحق هذا الوصف :

في عام ١٨٩٤ اتهم الكبتن ألفرد دريفوس وهو ضابط نابه في الدفعية الفرنسية كريم الخلق وابن صانع يهودي — اتهم بأنه باع إلى الأعداء وثائق هامة ذات قيمة حربية خطيرة وأيدت التهمة بخطاب قيل إنه بعث به إلى موظف ألماني وصودر قبل أن يصل إلى المرسل إليه . وحوكم الضابط الشاب وأيدت التهمة بأدلة مزورة وحكم بإدانته وجرد من رتبته وشرفه العسكري وحكم عليه بالسجن في جزيرة الشيطان بالقرب من جيانا الفرنسية ، وجرد دريفوس من رتبه في احتفال عام ونزعت شاراته العسكرية وأزراره وكسر سيفه . وبينما كان الجمهور الصاخب الهتاج يطالب « بقتل الخائن » وقف دريفوس رابط الجأش وخاطب الضباط والجمهور قائلا : « إني بريء وستعرفون الحقائق يوماً ما ، لتحي فرنسا » .

وقضى دريفوس الأمرين في جزيرة الشيطان الموحشة المنعزلة ، وكلف ستة من الحراس بمراقبته ليلا ونهارا ، وعذب عذاباً أليما في الجسم والعقل . ولما ثبت بعد ثلاث سنين من هذا الحكم أن الخطاب المزعوم مزور وأن كاتبه رجل من أسافل الناس يدعى استر هازي وقفت القيادة العليا الفرنسية في طريق العدالة ، وأبت أن تنقض الحكم لئلا تفقد حرمتها أمام الأمة . وفي ذلك الوقت أخذ الأحرار في جميع أنحاء فرنسا بوجه خاص وأوربا كلها بوجه عام يعنون بهذه القضية ، وانقسمت الأمة الفرنسية بين مؤيد لإعادة النظر وممانع فيها ؛ وأثارت القضية من أول الأمر اهتمام إميل زولا وكان وقتئذ في عنفوان مجده الأدبي ذائع الصيت في جميع أنحاء العالم لما كتبه من الروايات الخالدة أمثال نانا وجرمنال ، يحترمه الناس ويخشون قلمه ، ويجلونه أعظم إجلال لما اشتهر به من عداء شديد للظلم والرياء . وفي شهر يناير من عام ١٨٩٨ تطوع للدفاع بقلمه من قضية الحق والعدالة . وثارت ثائرته وغضب غضبة مضرية حين حكم ببراءة إستر هازي بعد محاكمة صورية .

وقدم الأحرار الفرنسيون لزولا ما جمعوه من الحقائق المتصلة بالقضية ، فاعتمد عليها ووجه الخطاب المفتوح التالي إلى فليكس فور رئيس الجمهورية الفرنسية في جريدة لورور (الفجر) إحدى جرائد الأحرار . وتعد هذه الرسالة من أشد الرسائل التي كتبت في التاريخ كله . وقد قضى يوماً كاملا في كتابتها وكان وهو يكتبها « يلهث من الغضب ومن خوفه ألا يكون أول من يكتب مثل هذه الرسالة » . وقد كان لها أعظم الأثر في البلاد ، وكتب جورج كلمنصو وكان وقتئذ شاباً صحفياً متطرفاً — عنوانها الشهير : إني أتهم .

يناير سنة ١٨٩٨

ياجناب الرئيس :

أرجو أن تسمح لي نظير ما أسديت إلى قبل من جميل أن أصرح لك بشدة قلقي على ما نلت بحق من مجد وسؤدد ، وأن أخبرك أن سجل أعمالك الذي ظل حتى الآن ناصعاً موفقاً يتهدده في هذه الأيام عار ينكس من الأبصار ولا يمحى أبد الدهر .

لقد نجوت من أشنع التهم فلم تصب منها بسوء ، ولقد أسرت جميع القلوب ، وها أنت ذا تنعم الآن بمجد الاحتفالات الوطنية . وتستعد لرياسة المعرض العام الذي ستختتم به جهود مائة عام من الأعمال الصناعية ومن

الجهاد في سبيل الحق والحرية . ولكن أي وصمة سيوصم بها اسمك — ولقد كدت أقول عهدك — من جراء هذه القضية المهينة قضية دريفوس . لقد جرؤت محكمة عسكرية من زمن قريب على أن تبرئ بناء على أمر تلقته رجلا يدعى استرهازي ، وكان عملها هذا في واقع الأمر لطمة للعدالة ما أشدها . ولكن قضي الأمر وتسربلت فرنسا بهذا العار ، وسيقول التاريخ إن هذه الجريمة الاجتماعية قد ارتكبت في أيام إدارتك .

لقد جرءوا على ارتكاب هذا الإثم ومن أجل هذا سأجرؤ أنا أيضاً . سأقول الحق لأني عاهدت نفسي على قوله إذا كان القضاء قد أبى أن يقوله وكان من حقه أن يفعل ، وسأقوله كاملا لا أجامل فيه ولا أخفف من وقعه . ذلك أن الواجب يقضي علي أن أتكلم ولست أريد أن أكون شريكا في الجريمة ، وإذا لم أفعل سينقض على أحلامي شبح ذلك الإنسان البريء ، وهو يكفر بأشد أنواع العذاب عن جريمة لم يرتكبها قط .

وسأصارحك أنت يا جناب الرئيس بهذا الحق بكل ما لدي من قوة تبعثها في الرجل الشريف ثورته على الظلم ، على أن هذه الجريمة لم تمس شرفك لأني واثق من أنك تجهل حقيقة أمرها ، ولكن من ذا الذي أشكو إليه أولئك السفلة الأراذل المجرمين بحق إذا لم أشكهم إليك وأنت أكبر المصرفين لشئون البلاد ؟

إني أتهم الكولونل دوباتي ده كلام بأنه هو الأداة الشيطانية التي أدت إلى ارتكاب الغلطة القضائية ، وسأحمل نفسي على الاعتقاد بأن ذلك كان على غير علم منه وبأنه كان خلال الثلاث السنين الماضية يدافع عن عمله المشئوم بأسخف الوسائل وأبعثها للاشمئزاز .

وأتهم القائد مرسييه بأنه اشترك في ارتكاب أشنع الجرائم في التاريخ كله ، وأكبر الظن أنه فعل هذا لخبال في عقله .

وأتهم بيلو بأنه كانت تحت يده الأدلة القاطعة على براءة دريفوس ، ولكنه أخفى هذه الأدلة وارتكب جريمة الخيانة العظمى ضد العدالة والإنسانية لأسباب سياسية وليستر بذلك جريمة هيئة أركان الحرب العامة .

وأتهم بوادفر وجنز بأنهما اشتركا كلاهما في هذه الجريمة نفسها ، وقد ارتكبها أولهما لأحقاد دينية بلا شك ، أما ثانيهما فقد فعل ما فعل انتصاراً لزملائه .

وأتهم ده بلييه والميجر رفري بالتزوير في التحقيق ، أي أن تحقيقهما كان أبعد ما يكون عن النزاهة ، وإن التقرير الذي يتضمن هذا التحقيق لهو الوقاحة المجسمة في أشنع مظاهرها .

وأتهم خبراء الخطوط الثلاثة — بلوم ، وفاريناز ، وجوار بأنهم قد وضعوا تقارير كاذبة مزورة إلا إذا أثبت الفحص الطبي أنهم تعوزهم قوة الإبصار والقدرة على التمييز .

وأتهم وزارة الحربية بأنها دبرت حملة دنيئة في الصحف وبخاصة في جريدتي الكلير ، (الضياء) والإكو (الصدا) لتضليل الرأي العام وستر جرائمها .

وأخيراً أتهم المحكمة العسكرية الأولى بأنها اعتدت على جميع الحقوق البشرية بحكمها على سجين بناء على أدلة لم يطلع عليها ، وأتهم المحكمة العسكرية الثانية بأنها أمرت بإخفاء هذه المخالفة القانونية وارتكبت جريمة قضائية ، إذ برأت رجلا مذنبا رغم علمها الكامل بجريمته .

ولست أجهل أني حين أتهم هؤلاء كلهم بما اتهمتهم به أعرض نفسي للعقاب بمقتضى المادتين ٣٠ ، ٣١ من قوانين جرائم القذف الصادرة في ٢٩ يوليه سنة ١٨٨١ ، وهما اللتان تنصان على عقاب من يطعن في حق الناس . ولكني أعرض نفسي باختياري لهذا العقاب .

أما الذين أتهمهم فلا أعرفهم ولم أرهم قط ، ولست أشعر نحوهم بشيء من الكراهية أو الحقد ، وليسوا جميعا بالنسبة لي إلا مجرد كائنات ورموز للاجرام الاجتماعي . وليس

العمـل الذى أضطلع به هنـا إلا خطوة ثورية يقصد بها التعجيل بانفجار بركان الحق والعدالة .

وكل الذى أحمل له هو أن أكشف الستار عن هذه الأساة باسم الإنسانية التى أوذيت وطال صبرها والتى ترى أن السعادة من حقها ، وإن احتجاجى الحار لهو صرخة صادرة من أعماق قلبى ، فليكن لديهم من الشجاعة ما يمكنهم من إرسالى إلى محكمة الاستئناف لتحقق معى فى ضوء النهار الساطع .

وإنى لمنتظر

وأرجو بجناب الرئيس أن تقبل عظيم إجلالى .

إميل زولا

وسيق زولا على أثر نشر هـذا الخطاب إلى المحكمة بتهمة القذف الجنائى ، وكانت البلاد يومئذ تغلى كالمرجل ، وقامت المظاهرات والاضطرابات فى كل مكان ، وتعرض زولا وزملاؤه المدافعون عنه — وكانوا كلهم من الأحرار النابهين — لأشد أنواع الخطر من اعتداء الرعاع عليهم .

وحرم على زولا والمحامين عنه أن يقدموا إلى المحكمة فى أثناء الإجراءات المرئية الجناء أية حقائق تتصل بقضية دريفوس نفسها . وأدين زولا بطبيعة الحال وحكم عليه بالسجن سنة وبغرامة قدرها ثلاثة آلاف فرنك ، ولكنه استطاع بمساعدة أصدقائه الأحرار أن يفر من سجنه وأن يهرب إلى إنجلترا .

وحدث فى أثناء إقامة زولا فى منفاه أن اعترف المفتنت كولونيل هنرى أحد كبار المتآمرين بأنه زور الوثائق التى قضت بإدانة دريفوس ، ثم انتحر بعد هذا الاعتراف ، وأقر إسترهازى نفسه بما كان له من نصيب فى هذه المؤامرة .

وفى عام ١٨٩٩ أعيد دريفوس وهو معتل الصحة من جزيرة الشيطان بعد ست سنين من الحكم عليه ، وصدر عنه عفو عن جريمة الخيانة ، ولكنه بقى من غير أن يصدر عنه عفو شامل إلا فى ٢١ يوليه سنة ١٩٠٦ حين أعيد إلى الخدمة فى الجيش وبرئ من جميع التهم ، وأعيدت إليه شاراته العسكرية فى نفس المكان الذى جرد فيه منها قبل ذلك باثنتى عشرة سنة .

وعاد زولا بعدئذ ظافراً إلى فرنسا .

وتطوع دريفوس للخدمة العسكرية فى الحرب العالمية الأولى ، وعين ضابطا فى المدفعية وأظهر شجاعة فائقة فى حصار باريس أولاً وفى الجبهة الغربية ثانياً ، ثم صار أخيراً ضابطا فى فرقة الشرف وتوفى فى يوليه سنة ١٩٣٥ فى الخامسة والسبعين من عمره .

ويقول والتر لتلفيلد أحد الثقات فى هذا الموضوع إن دريفوس « ظل إلى آخر أيامه يعتقد أنه لم يكن إلا ضحية خطأ قضائى شنيع من غير شك ، ولكنه مما يمكن إدراكه وأن معظم الشهود الذين جىء بهم ليشهدوا عليه وجميع القضاة الذين أدانوه قد أخطأوا ولكنهم كانوا أشرافاً . . . لكن الحقيقة أنهم لم يكونوا أشرافاً ولا مخطئين ، فقد كانوا على بكرة أبيهم يعلمون أن دريفوس برىء أو أنهم كان فى وسعهم على الأقل أن يصلوا إلى الحقيقة . لقد كان دريفوس هو الوسيلة التى اختاروها لينفذوا فيها جريمة دنيئة يقصد بها القضاء على الجمهورية الفرنسية . . . ومما هو جدير بالذكر أن دريفوس منع لابورى أحد محاميه من إلقاء خطبة تكشف الستار عن المتآمرين وعن جرمهم الشنيع ؛ ولم يكن الدافع له إلى ذلك العمل هو خوفه من إصابة القضاة وإدانتهم عليه ، بل دفعه إليه حرصه على ألا تضيع ثقتهم بقيادة الجيش الفرنسى وعلى ألا يعرض على أنظار الألمان ما كانت عليه القيادة الفرنسية وقتئذ من انحلال وضعف معنوى ومادى . والحق أن هذا الرجل كان ذا شخصية عجيبة غامضة لا يستطاع سبر أغوارها . . . »

أما زولا نفسه فإنه لم يطل ولم يَرَ فى حياته الرجل الذى دافع عن حريته دفاع الأبطال والذى ضحى من أجله بكل شىء . ومات كاتب « إنى أتهم » فى عام ١٩٠٢ فى الثانية والستين من عمره .

محمد بدران

هل الأنثى
دائماً مصدر المصائب

سيدى الفاضل رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء .

قرأت فى كتاب طبع حديثاً عن العدوى — بصدد الكلام من طريقة نقل القمل لعدوى التيفوس — العبارات الآتية « ومن الشاهد أن الأنثى فى القمل أكثر عدوى من الذكر ، وذلك لأن الجرثومة تتوالد فيها أكثر بكثير مما تتوالد فى الذكر ، فقد يصل عدد الجراثيم فيها إلى أكثر من ثلاثة أمثال ما يصل إليه فى الذكر — وأمثال ذلك فى الأمراض كثير ، فأنثى البعوض فقط هى التى تنقل الملاريا والحمى الصفراء ، وأنثى البهائم والماعز تنقل بألبانها حمى مالطه . وأنثى الآدميين تحمل ميكروبات الحميات المعوية أكثر بكثير مما يحملها الذكر ، ولا شك أن حامل هذه الميكروبات منبع عدوى هذه الأمراض ، والأنثى فقط هى التى تنقل مرض الهموفيليا إلى أنجالها الذكور دون الإناث ودون أن تصاب به هى . هذا فضلا عما تنقله إلى الذكور من متاعب الحياة . فالأنثى فى جميع المخلوقات من الإنسان إلى أدنى الحيوانات — تسبب أضراراً كثيرة وقلما تحل مصيبة ليس للأنثى فيها نصيب الأسد » .

وقد لاحظت ما فى هـذه العبارات من تجوز وإقحام لمسألة اجتماعية ، وهى التعرض لما تلعبه الأنثى من دور فى الحياة ، فى بحث علمى أريد به أن يحمل طابع العلم ويكون من وسائل التثقيف ، فتحيرت أن أستفتى العلم من طريقكم فيما يأتى :

١ — هل هناك أساس صحيح للقول المطلق بأن أنثى القمل أكثر عدوى من الذكر للسبب الذى أوضحه حضرة الكاتب فى بحثه بالنسبة لعدوى الملاريا والحمى الصفراء ، وحمى مالطه — وبالنسبة لأنثى الآدميين فيما يتعلق بميكروبات الحمى المعوية ونقلها مرض الهيموفيليا إلى أنجالها الذكور دون الإناث ؟ وهل يستتبع ذلك إذا صح ترتب النتيجة التى أشار إليها الكاتب كحكم عام ؟

٢ — هل يجوز فى بحث علمى عام إقحام حكم خاص — كما هو ظاهر من عبارات حضرة الكاتب — فى سلسلة القضايا العلمية التى ساقها كان الحكم الخاص جزءاً ، مما يحمل المطالع غير المتعمق فى العلم على الاعتقاد بأن هذا الحكم الخاص قاعدة علمية مسلم بها ، وما هو نصيب هذا الحكم العام من الصحة فى تطور العلم بأن الأنثى — فى جميع المخلوقات ، من الإنسان إلى أدنى الحيوانات — تسبب أضراراً كثيرة ، وهل ما تنقله من متاعب الحياة إلى الذكور يعتبر ناتجاً لنقلها إلى الإناث .

٣ — هل يجوز فى بحث علمى التعرض إلى قضية اجتماعية من دور الأنثى فى الحياة ، بأن ينسب إليها نقل متاعب الحياة للذكور أسوة بما تنقل من أمراض أخرى ، وأنه قلما تحل مصيبة ليس للأنثى فيهـا نصيب الأسد ، وإيراد هذه الأحكام كأنها نتائج علمية ممحصة ؟ وهل هذا الجمع بين أحكام اجتماعية بحتة وقواعد علميـة خالصة بغير الإشارة إلى حقيقة أصل كل منها يصح فى الأسلوب العلمى ؟

أفيدونا ولحضرتكم الشكر .

(قارئ غير طبيب)

* * *

اطلعت على ما كتبه حضرة القارئ غير الطبيب وبصفتى طبيباً وإخصائياً فى علم الحياة أستطيع أن أقرر رداً على أسئلته ما يأتى :

١ — لا يمكن علمياً تعميم أن الأنثى إطلاقاً تفوق الذكر كمصدر للعدوى بالأمراض المعدية المتعددة .

أما ما ذكره حضرة المؤلف فى كتابه الذى أشار إليه حضرة القارئ ، وقد قرأته كما قرأه الكثيرون ، فهى أمثلة محدودة ، وقد قالت حضرة الكاتب أن الأنثى فى بعض هذه

الأمثلة هي في الواقع ضحية المرض ، شأنهـا في ذلك شأن من يتلقى العدوى منها ؛ وهذا هو الحال في عدوى القمل والبعوض ؛ فني أنثى القمل يوجد البيض والبويضات ، وهي غذاء سائغ للجراثيم لا تلقاه في أحشاء الذكر الضامر . أما أنثى البعوض فهي تتغذى على دماء الإنسان ، ولا يتغذى ذكر البعوض على الدماء مطلقاً . وبما أن جراثيم المرض موجودة في دم الإنسان فلا سبيل لذكر البعوض لتلقي العدوى ، وبالتالي لا سبيل له لنقلها .

أما أنثى الماعز والواشي التي تنقل حمى مالطه فالجراثيم في ألبانها ، وطبعاً لا سبيل للمذكر لنقل العدوى إذ لا ينتج لبنا .

بقي أنثى الآدميين التي أراد الكاتب أن يصب على رأسها كل المصائب ، فإن أمعاءها أكثر تعرضاً للميكروبات المعوية نظراً للتغيرات التي تحدث في جسمها إبان الحمل والولادة ، وهي في ذلك ضحية أكثر منها مصدر خطر . وأما أنها مصدر للعدوى فهو راجع إلى قيامها بالأعمال المنزلية وتحضير الطعام بصفة خاصة .

٢ — أما السؤال الخاص بجواز إقحام حكم خاص — هو اجتماعياً أكثر منه علمياً — في سلسلة قضايا علمية تعرض لها الكاتب بصفته إخصائياً في فرع من العلوم ، فهو غير مقبول ، إلا إذا كان المقصود منه الدعابة ليخفف من أثر جفاف الحقائق العلميـة لقراء أكثرهم من الأدباء أو من غير المتخصصين في فروع العلم البحتْ .

وفي الواقع يمكن القول بأن تعرض العلماء لإقحام المسائل غير العلمية في سلسلة قضايا علمية بحتة يكون له نتائج ضارة وبعيدة المدى ، لأن الشخص العادي قد يقبلها كقضية مقطوع في أمرها من الوجهة العلمية التي لا تقبل التشكك وقد يبني عليها نتائج خطيرة . وهاك بعض الأمثال مما يحضرني الآن :

(ا) ذكر العالم اليوت سميث الإخصائي في علم التشريح (والذي اشتغل في مدرسة الطب بالقاهرة زمنا) عقب ثورة ١٩١٩ وقد كان في لندن — أن المصريين غير جديرين بالاستقلال ، لأن في تلافيف المخ عندهم أخدوداً سماه الأخدود القمري لا يكون واضحاً عند أي شعب من البشر وضوحه في المصريين ، ويشترك في ذلك بعض القردة العليا ، واستنتج من ذلك أن المصريين قوم بدائيون . وهذا أبعد ما يكون من الحقيقة ، والتاريخ يثبت عكس ذلك ، ولا تدل مثل هذه المعالم التشريحية على انحطاط . فمن المعلوم أن الشفاه الغليظة في بني الإنسان تظهر في الشعوب المتأخرة وتكاد تكون الشفاه الرقيقة وقفا على الشعوب الأكثر تقدماً في المدنية ، ومع ذلك فالقردة العليا ذات شفاه رقيقة ، وعلى ذلك يجوز القول بأن الأخدود القمري قد يكون علامة رقي لا انحطاط . ولكن الأستاذ اليوت سميث ساق ذلك في سياق علمي ، وبنت عليه إحدى الصحف الاستعمارية البريطانيـة نتائج سياسية تقبلها كثير من البريطانيين كقضية مسلم بها .

(ب) ذكر أحد الإخصائيين الانجليز في محاضرة في طب المناطق الحارة في لندن في غضون الثورة المصرية أن أكثر المصريين مصاب بالبلهارسيا ، وربما كان ذلك سبباً في عدم نمو إدراكهم العقلي لترجيح يتبينون ما هو في صالحهم ، وقد ذكر ذلك ليلبسه ثوب الحقيقة العلمية التي لا تقبل الشك ، وقد حاجّه بعض المصريين فاضطر أن يقول إن ذلك كان على سبيل الدعابة .

(ح) القول بأن كثرة الشعر على الجسم دليل على التأخر في المدنية الانسانية هو قول غير مقبول . فالشعر كثيف في القردة العليا ، بينما بعض سكان أواسط أفريقيا ممن يعدون بمقاييس أخرى علمية في الدرجات السفلى من سلم التطور تكاد تكون أجسامهم ملساء .

٣ — أما عن السؤال الثالث وهو جواز التعرض لدور الأنثى في الحياة والقول بصفة قاطعة بأنها هي التي

جون بول وجزيرته

كتب « ماكس أوريل » وهو اسم القلم للكاتب الفرنسي « بول بلويه » (١٨٤٨ — ١٩٠٣) هذا الكتاب بعد أن أقام في لندن عشر سنوات .

وقال في مقدمته التي أغفلها من النسخة الفرنسية :

عزيزي جون بول

طالما لمت الأجانب — والفرنسيين منهم على وجه الخصوص — على أنهم يتحدثون عنك في كتبهم وهم لا يعرفون شيئاً عنك .

وطالما قلت في شكيتك : « إن أكثر الكتاب يجيئون إلى لندن فيقضون فيها شهراً ثم يعودون إلى بلادهم فيمسك الواحد منهم بالقلم ويكتب كتاباً عن انجلترا . . »

أما أنا — وأنا صديقك والمعجب بك — فإني أكتب هذا الكتاب بعد أن قضيت في بلادكم عشر سنين ، وإني لأكتبه باسم مئات المرات من أوجاع الحلق . وباسم مئات المرات من نوبات الزكام التي أصابتني في بلادكم بفضل الضباب وبفضل رياحكم الشرقية .

وإني لأكتبه كمواطن من المواطنين الصالحين باسم الضرائب التي دفعتها . كضريبة الفقراء وضريبة الدخل وغيرهما . من تلك الحلاوات التي تجعل بلادك محببة إلى كل قلب ملىء رحمة .

(وبعد) فإني ناقل على هذه الصفحات طرائف مما جاء في فصول هذا الكتاب .

قال الكاتب تحت عنوان « العادة تخلق السيادة » :

في مدينة من مدن نورماندي حيث يقيم كثير من العائلات الإنجليزية التي اختارت تلك المدينة موطناً لحسن موقعها ، أراح طبيب من أصدقائي لعملائه من الإنجليز أن يضعوا يدهم على نصف الساحة في غيط كبير يقع على مسافة

تسبب المصائب لبني الانسان بصفة عامة ، فإني أعتقد أن هذا لا يجوز صدوره في مجال علمي ، إذ ليس له سند من الحقائق العلمية التي يجب أن يستند عليها أي مقال علمي أو شبه علمي .

بل إني أعتقد أن صدور مثل هذا القول على مواهنته في كتاب متداول بين أفراد الجمهور الذين يقبلون الآراء المطبوعة بدون تردد أو مناقشة ، قد يجر إلى إشكالات وخيمة ؛ فمثلا قد يستند زوج متبرم من زوجته فيقنع نفسه زوراً وبهتانا أن طبيعة الأنثى من الوجهة العلمية هي مصدر شر ، فيساعد هذا على تكوين عقدة أو مركب نفساني يعتقد فيه ، فتسوء الحال بدلاً من تمهيد السبيل إلى إصلاح ذات البين ؛ وليس هذا مقصوراً على زوج وزوجته ، بل قد يمتد إلى العلاقات في العائلات أو العلاقات بين الجنسين عامة ؛ ونحن في الشرق بل في العالم كله أحوج ما نكون في هذه الظروف العصيبة إلى التعاون التام بين المرأة والرجل ، فلا محل لأن نسعى بتفرقة أو سوء تفاهم أو خلق جو من عدم الثقة بينهما .

وإني أنتهز هذه الفرصة لشكر حضرة القارئ غير الطبيب لإثارته هذا الموضوع الشائق ، وأرجو أن يتناوله الكتاب والعلماء بصفة خاصة ، لأني أرى أن واجب العالم يقضي عليه بالتحقيق والحرص التام عند ما يخاطب الجمهور الذي لا يملك من المعلومات في علوم التخصص ما يمكنه من تمحيص ما يقرأه ونقده ؛ ولهذا أناشد كل عالم يتعرض لتبسيط قضايا العلم لخدمة الجمهور أن يتقي الله في كتابته وأسلوبه حتى لا يقحم في ثنايا القضايا العلمية مسائل هي موضع شك بدون تأصيلها وإبراز وجهات النظر فيها .

نجيب رزير لوجي

ألف متر من المدينة . وقد أعجبت جماعة العملاء بقطعة الأرض تلك ، وألفتها صالحة للعبة الكريكيت .

وبعد بضعة أيام وصل إلى صاحبنا الطبيب الخطاب التالي

« إن أعضاء نادي الكريكيت يقدمون تحياتهم إلى الدكتور . . . وسوف يكونون له جد ممتنين إذا تفضل فأمر بإزالة زراعة البطاطس التي تغطي نصف أرضهم التي أعدت للعبة الكريكيت . والتي تغوص فيها الكرة وتضيع في كل آونة . . » .

* * *

ثم جاء تحت عنوان : « إن جون بول رجل مختال فخور وهو شجاع . وهو هادىء الطبع وهو صلب عنيد ، وهو في السياسة لا يشق له غبار » : إن اختيال « جون بول » يجعله لا يشك أبدا في نجاحه في كل عمل يعمله . وسبيله إلى ذلك شجاعته التي تيسر له سبل النجاح ، وطبعه الهادىء الذي يجعله يواجه ما يلاقيه من النجاح المادي في غير اكتراث ، وصلابته التي تجعله يحتفظ بثمار مجهوده ، وحسن سياسته التي تتكفل بالباقي .

* * *

وجاء تحت عنوان « شهر العسل في العربة » :

وهذه الدراجات ذات الثلاث عجلات . وذات المقعدين لها اسم بالانجليزية يناسبها غاية المناسبة وهو كلمة (Sociable) ومعناها « الأنيس المحب للألفة » وهي عجلات وضع تصميمها لتفي بحاجات شهر العسل .

وقد جعل كلا المقعدين لصق صاحبه ليسمحا للقلب المحب أن يبوح بمكنون أسراره لقلب حبيبه . وليسمحا ليدي العاشقين أن تتماسا واشفتيهما أن تتبادلا القبلات . .

* * *

وجاء تحت عنوان « جون بول والتحية برفع القبعة » :

إن جون بول لا يرفع قبعته بالتحية إلا في المناسبات الكبرى . كسماعه نشيد « حفظ الله الملك » . وهو بذلك يحيي بلاده ويحيي مليكه ، الذي هو علم بلاده ، ورمز عظمتها وإن شئت فقل إنه بذلك يحيي نفسه وشخصه . .

ويبقى رأسه غير حاسر في المخازن الكبرى وفي النوادي وفي « البرلمان » .

وذلك على عكس الرجل الفرنسي ، فإني أعرف فرنسيا خسر عمله الذي كان يدر عليه لبناً وعسلا . ذلك لأن رئيسه لم يرد عليه التحية . .

* * *

وجاء تحت عنوان « جون بول والصدق في القول » :

إذا تقدم جون بول يطلب عملا أرسل نسخاً من شهاداته ، وإذا أراد أن يتزوج ذكر بصيغة التوكيد عمره وحالته الاجتماعية أأرمل هو أم أعزب . وجون بول يقول : إن من يكذب أمام القانون فعقابه عقاب الحانث . أما من يكذب لدى فرد من الأفراد فعقابه بأن يلقى به في الشارع . .

* * *

وجاء تحت عنوان « جون بول وحب الاغتراب » :

إن الطبيب في انجلترا يصف لمريضه أن يغير الهواء في أستراليا . فيتلقى المريض هذا القول كما يتلقى الباريسي أمراً بالسفر إلى ضاحية سان جرمان أو إلى فينشى .

ثم يسأل المريض الإنجليزي طبيبه : أتريدني أن أعود إلى انجلترا بطريق الصين أو بطريق أمريكا . . ؟

* * *

وجاء تحت عنوان « جون بول ونفقات أولاده » :

أعرف أباً أسكتلندياً اعتاد أن يقدم لكل ولد من أولاده عند بلوغه سن الرشد بياناً بما أنفقه عليه على ذلك

أجر القابلة التي أولدت أمه وكذلك أجر المرضع . فيوقع الولد بإمضائه على البيان على أن لا تبرأ ذمته إلا بعد أداء تلك النفقات ..

* * *

وجاء تحت عنوان « جون بول وأمهات نسائه » :

أم الزوجة في انجلترا ليست شيئاً يثير الرعب والفزع ، وليست هي صاحبة أمر ونهي . وهي لا تجيء إلى صهرها لتقيم عنده .

وقد قال فكتورين ساردو (الكاتب الروائي الفرنسي) : « إذا خيرت بين أن تقيم مع أم زوجتك وبين أن تنتحر بإطلاق الرصاص فلا تتوان في الانتحار » .

والفرنسيون يقولون : إذا وقعت أم زوجتك في البحر عد ذلك من الحوادث العارضة . أما إذا نجت من الغرق عد ذلك مصيبة عظمى . .

وفي إنجلترا لا يلجأون إلى وسائل العنف للتخلص من أم الزوجة . ولكنهم يلجأون إلى الكياسة . وإني أنصح للأزواج الحديثي عهد بالزواج بالعلاج التالي ، فقد جربه واحد من أصحابي فألفاه علاجاً نافعاً . فقد جاءته أم زوجته في العام الأول من زواجه لتقيم عنده . فكان معها كريماً ، سمح الكفين ، وكان جواداً أريحياً وكان موطأ الأكناف . وكان كثير التبرع ، جزيل الصلات .

وكانت إذا ذهبت إلى الكنيسة مشى في ركابها يحمل عنها كتب الأدعية والصلاة .

وإذا خرج ثلاثتهم (هو وزوجته وأمها) تأبط ذراع الأم وجعل الزوجة تسير وراء خطوهما ، حتى إذا عادوا إلى البيت ، وأوت زوجته إلى فراشها ظل مع أمها يسامرها ويلعبان الورق ... وإذا بصاحبنا بعد ثمانية أيام لا يرى أم زوجته ، فقد اختفت بقوة سحرية . وكان الفضل كل الفضل في اختفائها يرجع إلى زوجته الشابة أو إلى بنتها .

* * *

وجاء تحت عنوان « مقارنة بين الفتاة الإنجليزية وأختها الفرنسية » :

إن المرأة الإنجليزية تفوق المرأة الفرنسية في أمور كثيرة . فهي أقرب إلى الطبيعة . وهي لا تشكو السوداء ولا تشكو الصداع . والفتاة الإنجليزية ليست ساذجة كالفتاة الفرنسية ، وهي كذلك أقل منها بلاهة .

والفتاة الإنجليزية تخرج في غير صحبة أمها أو وصيفتها . وهي تلكمك بين عينيك بجمع يدها إذا دعا الداعي لذلك .

والفتاة الإنجليزية حرة كالهواء الطلق ، وهي تتنزه وترود المسارح مع الشبان . وهي زعيمة الجماعة ، ومشيعة المرح في كل اجتماع من اجتماعات السرور واللهو البريء .

وهي إذا تزوجت لا تحاول أن تجر زوجها بالخطام ، بل جعلت وكدها العناية بأمور بيتها وأطفالها ، وهي قد لا تلاعب زوجها أو تغازله . ولكنها لا تسمح لامرأة أخرى أن تلاعبه وتغازله .

* * *

وجاء تحت عنوان : « جون بول والروح الوطنية في الشراء » :

إن جون بول — كوطني مخلص لبلاده — يفضل البضاعة الإنجليزية على كل بضاعة أخرى .

فإذا اضطر أن يشتري شيئاً يشك في مصدره فإنه يطلق عليه اسماً غريباً .

وفي انجلترا إذا قيل « بضاعة ألمانية » فقد قيل بضاعة رديئة .

والإنجليز يقولون لمن فارق أصحابه بغير وداع : إنه فارق أصحابه على الطريقة الفرنسية .

(To take French leave)

(المختارات بقية)

مبارك ابراهيم

متزيني

– ٤ –

حياة متزيني في لندن — متزيني وتوماس كارلايل

قدم متزيني لندن بصحبة صديقاه الشقيقان أجوستينو رافيني وجيوفاني رافيني ، وقد اضطر متزيني إلى مبارحة سويسرة لأن حياة الاستخفاء والمطاردة الدائمة والمراقبة التي لا تغفل طرفة عين استنفدت صبره وحيله وقوة احتماله وأصبحت لا تطاق . وقد تنسم في لندن ريح الحرية وخلع رداء التخفي ، واستراح من الرقباء ، ولكن الانتقال من مشاهد سويسرة الرائعة ولا سيما منظر غروب الشمس بها إلى ضجة لندن وقذارة أحد شوارعها الخلفية ملأ نفسه هماً ووحشة وتضجراً حتى قال : « لقد حرمنا حتى من السماء التي يستطيع أشقى الناس في القارة الأوربية أن يجيل فيها الطرف ! » .

وأقام هو والفيف من أصحابه في منزل بشارع جورج ، وظل به ثلاث سنوات وهو يعاني الفقر والضيق ، وكان مع ذلك يشمل أصحابه بعطفه ، ويفيض عليهم من كرمه ، ويضحي راحته في سبيل إسعادهم ، وفي بعض الأحيان لتلبية نزواتهم . وحدث خلاف بينه وبين أجوستينو كان مصدره أثرة أجوستينو وسلاطة لسانه ، وكان يعرف فضل متزيني ولكنه كان لا يملك عنان نفسه ، ولم يكن بطبيعته مستعداً لطاعة إنجيل الواجب إلى النهاية ! وكان أخوه جيوفاني أهدأ منه طبعاً ، وأرق حاشية ، ولكنه كان مثله لا يؤمن كثيراً بشريعة الواجب ؛ وكان هذا الاختلاف يحز في نفس متزيني ، ويزيد في همه حتى قال « إني لا أحب أحداً ولا أريد أن أحب أحداً » . وقد ظلم نفسه بهذا القول ، ولكنه يدلنا على حالته النفسية السيئة في تلك الفترة . وكان لا يبرح المنزل الذي يقيم به إلا إلى المتحف البريطاني ، ولم يكن يملك من النقود ما يكفي لشراء ما يحتاج إليه من الكتب والمراجع ، ولم يجد أحداً يعيره نقوداً لأن معظم المنفيين كانوا مثله فقراء مأزومين ، وكان يعيش هو وأصحابه في أكثر الأيام على الأرز والبطاطة . وأرسل إليه والده نقوداً ليضارب بها في زيت الزيتون ولكنه بددها ، ولما جاءته رسالة تعنيف من والده أبى مدة سنوات أن يقبل من أسرته أية مساعدة ، وحاول عبثاً البحث عن عمل ، ولم يشق طريقه إلى المجلات الإنجليزية إلا ببطء ، وكانت الفصول التي نشرها في بادىء الأمر لا تدر عليه سوى القليل بعد أن يدفع منها جانباً للمترجمين ، وكان مع ذلك لا يتردد عن مساعدة المنفيين الذين يلوذون به ويشكون إليه حاجتهم ، ورهن أكثر ما يملك مثل ساعته وكتبه ومصوراته وخاتم والدته ، وعرض صحته في الشتاء للخطر بإعارة معطفه الوحيد لأحد أصدقائه من المنفيين ، ولم يستطع مرة الذهاب إلى المتحف البريطاني لخلو خزانة ثيابه من الثياب التي أعار بعضها لأصدقائه ورهن بعضها لشدة حاجته إلى النقود . ولما علمت والدته بذلك كانت ترسل له ملابس زهيدة القيمة ليستبق منها شيئاً لنفسه .

وكان أصدقاؤه الميسورون يعرفون فرط كرمه وسرعة تفلت النقود من بين يديه ، ولما كانوا إذا استسلفهم نقوداً يمطلون عليه ويعتذرون إليه . ولما بلغه أن جماعة من أصحابه في تورين يقومون بعمل اكتتاب لجمع نقود وإرسالها إليه لم يقبل ذلك ورفضه رفضاً باتاً ، ولم يكن أمامه سوى طريقين : طريق الانتحار وطريق المرابين ؛ وكانت فكرة الانتحار تخايله وتلوب حوله ، ولكنه نأى عنها ، ورآها جبناً لا يليق بأقوياء الرجال ، وآثر أن تتلقفه أيدي المرابين الذين يمتصون دماء الناس في غير رحمة ولا حياء ، فكان يقترض بفوائد بين ثلاثين في المائة وأربعين في المائة ، وأرغم مرة على أن يقبل دفع مائة في المائة .

ورغم هذا العسر المالي والضيق الخانق أخذت حياته

الخارجية تشرق وتنجلي سحبها . وفي سنة ١٨٤٠ انتقل إلى شلسي ليكون على مقربة من أسرة الكاتب البريطاني الكبير توماس كارلايل ، وليريح أعصابه المنهوكة من ضجيج لندن وزورة الزوار الكثيرين المملين الثقلاء .

وآلمته الوحدة وثقلت عليه وطأتها ، فلم يكن حوله صديق يفتح له قلبه ويفضي إليه بأحزانه ، وكان لا يرى سوى غدر الأصدقاء ، وتنكر الأنصار ، وتباعد الأتباع ، حتى صار يعتقد أن العصر عصر انحلال أخلاقي قد فسدت فيه الضمائر ، وتقلبت النيات ، وغاض الوفاء ، وفاض الغدر ؛ وكان هذا الاعتقاد يثير روافد آلامه ، ويسعّر مواجده ، ويشعره بأن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح ، وأنه يكدم في غير مكدم ، وأنه قد ضحى بنفسه وببعض الأعزاء من أصدقائه ومع ذلك لم يحقق أملا ولم يصنع شيئاً !

ولكن الذي أنقذه من ظلام هذا اليأس المرير أنه كان في سويسرة قد طلق فكرة السعادة الشخصية ، لأن الجري وراء السعادة يؤدي إلى غلبة الأثرة ، وأقنع نفسه بأن التضحية هي الفضيلة الحقة ، وأن واجب الإنسان نحو الله والإنسانية والوطن هو قانون الحياة الذي يتبعه أفاضل الناس وصفوة الرجال ؛ وقد استحالت هذه الفلسفة في نفسه عقيدة صوفية جميلة منقذة ، ورأت له الحياة نوعا من التكفير عن الذنوب وتطهير الروح من الخطايا والآثام وإعدادها لعالم آخر أسمى يتلاقى فيه الأصدقاء ، وقد صفت قلوبهم من الغل وزال ما بينهم من خلاف وقطيعة ، وأظلهم الحب والتعاطف ، وحتى في هذه الدنيا قد يكون الحزن نصيب الفرد ، ولكن الإنسانية وهي الكائن الكلي العظيم ستتقدم إلى عوالم جديدة من المعرفة ، وتطالع طريف الآمال ، وتضع قواعد جديدة للحياة أنبل وأسمى .

واستحال حبه لصاحبته جوديتا إلى نوع من التقدير الخالص والإعجاب الصافي بطهارة نفسها وأصمعية قلبها . وانقطعت الرسائل بينه وبين مدام راغبي تلك المرأة الفاضلة التي كان يجلها ويحترمها وينزلها من نفسه منزلة الوالدة ؛ فقد وقعت النبوة بينه وبين ولدها فدملا على النفس منه وتشويه مغارمه عندها ، حتى أفلحا في إحداث القطيعة وحرمانه من عطفها السابغ وتشجيعها الخلص .

وأخذ زايله حزنه الملازم وخف أثقال همومه لما بدأ أن يكون له أصدقاء في انجلترة . وحقيقة أن أفكاره السامية ونظرياته الحالمة ، ونمهاته المريضة ، لم تكن مما يميل إليه الإنجليز ويسيغونه ، لحبهم الحقائق الملموسة بحملهم يشتبهون في النظريات والنظم الفكرية . وكان جريبي يرى ذلك ضربا من ضروب المادية التي تقضي على التفكير الروحي أو الفلسفي ، وكان سيء الرأي في السياسيين الإنجليز ، ولا سيما حزب الأحرار ؛ ولم ترقه كذلك تلك الحركة السياسية المعروفة باسم حركة الكارتزم لأن القائمين بها في رأيه كانوا من الإنجليز الثائرين بمذهب بنتام ، وليس لهم من مبدأ سوى طلب أعظم ما يستطاع من السعادة ، وهو عنده مترتبي مطلب مادي لا يستوجب الحماسة ، ولا يستحق العناية ؛ وكان يرى أن الخلاف بين طبقة العمال وطبقة المتوسطة ينذر بثورة خطيرة وشر مستطير ؛ ولكن طول إقامته في الجزائر البريطانية جعله يتبين الجانب الحسن في حياة الإنجليز ، وصار يعجب باعتدالهم ، وحسن تأنيهم في الأمور ، وقوة مثابرتهم ، وشدة مصابرتهم ، وحسن بصرهم بالناحية العملية في الأفكار الجديدة ، وأنهم إذا تقدموا خطوة إلى الأمام لا يرجعون القهقرى ، وصار يراقب في شيء من العطف تقدم حركة الكارتزم .

وكانت أولى صداقاته في انجلترا مع أسرة كارلايل . وقد كتب إلى والدته في سنة ١٨٤٠ يقول لها من رسالة : « إنهما يحبانني حبهما لأخ لهما ، ويرغبان في أن يسديا إلي من الجميل أكثر مما في طوقهما أن يفعلا » . وقد كان في بادئ الأمر يحب كارلايل حبا جما . كتب عنه يقول : « إنه رجل طيب ، جد طيب ، وفي اعتقادي أنه يرغم شهرته

العظيمة بإرس شق » . وكان يحترم إخلاص كارلايل وحريته وسعة أفقه وصراحته ، قال عنه : « إنه قد يشير بمزية الصمت لهؤلاء الذين يخالفونه فى الرأى ولكن موهبة الصمت ليست من مزاياه » . وقد رحب متزينى بمعرفة كارلايل لاعتقاده أن كارلايل يعبد نفس الإله الذى يعبده متزينى وإن اختلفت طرق عبادتهما ، فهو ضريبه فى مواجهة النفعية ؛ ومما ساعد على تقريب ما بينهما إعجابهما الشديد بدانتى ؛ على أن ذلك لم يمنع متزينى من وضع كتب كارلايل على المشرحة ونقدها نقداً عميقا وافيا . وقد قرأت ما كتبه من كارلايل كبار النقاد أمثال تين ومورلى وإدوارد كيرد وجون نيكول وغيرهم فلم أر أحداً منهم قد فاق متزينى فى أصالة تفكيره وعمق نظراته ؛ وقد كان هذا النقد على قوته وصراحته مشرباً بالعطف ، ممزوجا بالاحترام والإعجاب . وأعتقد أنه لم يحدث صدعاً فى صداقة الرجلين ، وقد أشار فيه متزينى إلى نزعة كارلايل الفردية ، وعبادته للبطولة ، وانتقاصه من قيمة الحركات العامة ، وإحجامه عن النزول إلى ميدان العمل ، وتردده وعجزه إذا واجه مسألة عملية . وقد اتسع بعد ذلك بينهما الخلاف ، وتباعدت وجهات النظر ، حتى أصبحا على طرفى نقيض ، فلما رأى متزينى فتاة تقرأ فى كتب كارلايل قال لها : « إنك تنحدرين فى مزالق المادية ، أنت ضالة تائهة ، إن كارلايل يعبد القوة ، وأنا أحاربها بكل ما أوتيت من جهد ، إنه شيخ المتشككين ، وهو نجم هائل حينا يهدم ، ولكنه يعجز عن البناء ، وإذا كنت بدلا من أن تحبي الأمم والإنسانية وتعجبى بهما تحبين الأفراد وتعجبين بهم وتحترميهم فإنك لابد أن تصبحى فى النهاية من العابدات من الطغاة » .

وكان كارلايل من ناحيته لا يعطف على آراء متزينى ويراها آراء لا يمكن تصديقها وأخذها مأخذ الجد ، وهى عنده محزنة ومضحكة فى الوقت نفسه ، وكان يضيق ذرعاً بأحاديث متزينى عن « النظام الجمهورى » و « التقدم » وما إلى ذلك مما كان يسميه كارلايل « التهويسات المستمدة من روسو » ، وكان برغم ذلك يقدر متزينى الرجل ويعتقد أنه شجاع صادق وموهوب إلى حد كبير ونبيل النفس . وقد تكلم مرة وزير بيدموت للفوض عن متزينى باستخفاف فى حضرة كارلايل ، فقال له كارلايل : « سيدى أنت لا تعرف متزينى على الإطلاق ، أنت تجهله الجهل كله » وقام غاضباً وترك المنزل ، وفى عقب الخلاف الذى وقع بينهما أثيرت مسألة فتح الرسائل التى كانت ترد إلى متزينى من إيطاليا ودافع السير جيمس جراهام عن الحكومة فى مجلس النواب البريطانى دفاعاً اتهم فيه متزينى بالتشجيع على القتل ؛ فأبت لكارلايل رجولته إلا أن يقف إلى جانب صديقه رغم ما بينهما من خلاف ، فأرسل إلى جريدة التايمز يقول : « مهما يكن رأيى فى بصيرته العملية وبراعته فى الشئون الدنيوية ، فإنى أستطيع أن أقرر لجميع الناس بغاية الحرية أنه رجل عبقرية وفضيلة وأنه رجل صدق لا تشوبه شائبة ، وإنسانية ونبل عقل ، وأحد هؤلاء الرجال النوادر المعدودين للأسف ، ولكن كوحدات فى هذه الدنيا ، الذين يستحقون أن نسميهم الأرواح الشهيدة ، والذين يفهمون ويمارسون المقصود من ذلك مع التقوى فى حياتهم اليومية وهم صامتون » .

وترك هذا الدفاع فى نفس متزينى أثراً جميلا ، فقال لأحد أصدقائه : « هذا ما أسميه النبل » .

أما علاقته بمسز كارليل فكانت علاقة ودية أخوية ، وكانت ثقتها به عظيمة ، وقد عطفت على أفكاره السياسية حيناً من الزمن ثم مالت شيئاً فشيئاً إلى أفكار زوجها ، وقد حدثت مرة بينهما مناقشة حلوة بسط أثناءها متزينى إحدى خططه الحربية فى الثائرة بحياته فى إيطاليا وقال : « ألا يوجد أشياء أهم من رأسى ؟ » . فأجابته مسز كارليل : « بالتأكيد . ولكن الرجل الذى ليس عنده مسكة من العقل تكفى للمحافظة على رأسه بين كتفيه حتى

يستطيع أن يكسب شيئاً عفارقته ، ليس عنده من العقل ما يكفي لتدبير أي أمر من الأمور الخطيرة » . ولكنها مع ذلك ظلت تواليه بعطفها إلى النهاية . وفي سنة ١٨٤٦ لجأت إليه لينصحها في متاعبها الزوجية ، وقد كتب إليها رسالتين بليغتين من أجل وأحكم ما كتب (١) .

وكان متزيني يتردد على منزلهما الفينة بعد الفينة ، وفي بعض الأحيان يقص على مسامع مسز كارلايل بعض النوادر المضحكة ليسري بها عن نفسها ، وأحياناً أخرى كان يبحث مع جون كارلايل بعض مشكلات ترجمة دانتي إلى اللغة الإنجليزية التي كان يقوم بها جون ابن أخي توماس كارلايل . وقد وصفت السيدة مارجريت فولر أمسية قضتها معهم في منزل كارلايل ، وكيف أدار متزيني الحديث على مسألة التقدم والموضوعات المثالية ، وكيف كان كارلايل متحمساً متدفقاً في الحملة على هذه « السخافات المعطرة بماء الورد » وكيف كان استخفافه وزرايته وانزلاق لسانه يحزن متزيني ويؤلمه ، وقالت مسز كارلايل للسيدة مارجريت : « إنها آراء في نظر كارلايل ولكنها عند متزيني الذي ضحى من أجلها بكل شيء وساعد على سوق أصدقائه إلى المشنقة من أجل أمثال هذه الموضوعات مسألة حياة وموت » . وفي إحدى المرات بعد أن استأثر كارلايل بالحديث وأخذ يعرض في موكب متلاحق الأمداد عظماء الأرض الصامتين ، تحول إلى متزيني وخاطبه قائلا : « إنك لم تنجح بعد لأنك أسرفت في الكلام » وأخذت المجادلات بينهما تزداد حدة وتتوالى عنيفة مؤلمة ؛ وكان متزيني يجادل بالحسنى وقد ظهر عليه التأثر العميق ، ويدافع بكل قلبه دفاعاً بليغاً في انجليزيته المتعثرة ، والآخر يسخر ويهضب في لغته المتدفقة البالغة الساخرة المتهافتة . وكان متزيني يجلس على مقعده صامتاً وقد شحب لونه ، وفي بعض الأحيان مهتاجاً قد كادت تطفر الدموع من عينيه ، وهو يدخن لفافات تبغه الصغيرة ، على حين كان كارلايل ينقل في قلق غليونه الطويل المصنوع من الخزف وهو يقذف بحممه . ورغم ذلك استمرت صداقته الأسرة أو على الأقل لمسز كارلايل طوال إقامته الأولى في لندن . ولما ترك لندن إلى ميلان في سنة ١٨٤٨ أوصاها بأن تتشجع حتى يعود ، ولما عاد مهيض الجناح منزوف القوى واسته وساعدته على إيجاد منزل ليسكنه ، ولكن الخلاف بينه وبين زوجها تزايد وتفاقم حتى افترقا افتراقاً تاماً ، وظل كل منهما يحترم شخص الآخر ويحتقر آراءه إلى النهاية . وقد التقيا بعد سنوات وتحدثا حديثاً وديا ، وقال عنه كارلايل بعد ذلك : « إن متزيني هو أتقى رجل حي عرفته » ولكن الصداقة بينهما لم تعد بطبيعة الحال إلى ما كانت عليه ، والحقيقة أنه كان من الصعب على هاتين الشخصيتين القويتين أن يحاول التفاهم بينهما ولا تنجم نواجم الخلاف ؛ وقد كان الخلاف بينهما خلافاً أصيلا بعيد الأعراق ؛ فمتزيني في تفسيره للتاريخ وفهمه المبادىء السياسية والآراء الاجتماعية يمثل الفكرة الديمقراطية ؛ وكارلايل الذي كان يحتقر الجماعات ولا يؤمن إلا بالأفراد العظماء يمثل الفكرة الأرستقراطية ؛ فالخلاف بينهما كان خلافاً بين مبدأين ، وخلافاً بين طبيعتين ، وقد تحريت بعض الإطالة في وصفه لأنه يعيننا على تفهم طبيعة متزيني الذي يهمنا الآن .

علي أدهم

(١) وقد ترجمت هاتين الرسالتين ضمن كتاب تحت الطبع عنوانه « ألوان من أدب الغرب » .

الجراثيم المسروقة

قصة للكاتب الكبير هـ . ج . ولز

المتوفى فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٦

[كثيراً ما يمزج ولز العلم بالخيال فى قصصه ورواياته . ولا تخلو هذه القصص من فكاهة تصل أحياناً إلى حد السخرية . وترى هاتان الصفتان واضحتين أعظم وضوح فى القصة التالية وقد صب فيها سخريته على العلماء كما فعل فى روايته المشهورة طعام الآلهة]

قال العالم البكتريولوجي وهو يضع زجاجة صغيرة تحت المجهر : وهذه أيضاً جراثيم الكلرا .

ونظر الرجل ذو الوجه الأصفر الكالح فى المجهر بإحدى عينيه نظرة من لم يتعود هذا العمل ووضع يده النحيلة فوق عينه الأخرى وقال : إنى لا أكاد أرى شيئاً .

فقال له العالم : أدر اللولب قليلا فلعل بؤرة المجهر فى حاجة إلى الضبط لتلائم عينك . إن عيون الناس تختلف أعظم اختلاف ، وامض إذا أدرت اللولب قليلا إلى هذه الجهة أو تلك رأيت ما أراه أنا .

وقال الزائر : الآن أستطيع أن أرى وإن كان ما أراه قليلا لا يستحق كل هذا العناء . فكل ما أبصره الآن خيوط ونقط صغيرة قرنفلية اللون ؛ فهل تستطيع تلك الخيوط والنقط أو قل تلك الجزيئات والذرات أن تتضاعف آلاف المرات وأن تهلك مدينة بأكلها ؟ يا للعجب ! .

ثم وقف الزائر وأمسك الزجاجة فى يده واتجه بها نحو النافذة وقال وهو ينظر إليها بإمعان : إنها لا تكاد ترى . وهل هى كائنات حية ؟ وهل منها الآن خطر ؟ .

وقال العالم : لقد قتلنا هذه الجراثيم وليتنا نستطيع أن نقتل كل ما فى الكون منها .

وسأله الرجل الأصفر وهو يبتسم قليلا : أظنك لا تحتفظ بشىء منها حيا ! .

فأجابه العالم : بلى . إنا مضطرون إلى ذلك اضطرارا ثم اتجه إلى أحد أركان الحجرة وأخذ أنبوبة محكمة السداد وواصل حديثه قائلا : فى هذه الأنبوبة طائفة من هذه الجراثيم حية نشطة . هذه زرعة من جراثيم المرض ولدينا منها عدة أنابيب ، فهى الكلرا محبوسة فى زجاجات — إذا صح هذا التعبير .

وأبرقت أسارير الرجل الأصفر لحظة قصيرة ، ثم قال وهو ينظر إلى الأنبوبة نظرة فاحصة كأنه يريد أن يلتهمها التهاما : إن من أخطر الأشياء أن تحتفظ بهذه الجراثيم كلها فى معملك .

وراقب العالم ما بدا على وجه زائره من سرور عجيب مريب وقال وهو مستغرق فى التفكير :

— ثم هذا الموت السجين فليس عليك إلا أن تكسر هذه الأنبوبة الصغيرة فى حوض ماء الشرب وأن تقول لهذه الجسيمات الدقيقة التى لا تستطيع العين أن تبصرها حتى بعد تلوينها إلا بأقوى مجهر والتى لا يستطيع الإنسان أن يشمها أو يذوقها — ليس عليك إلا أن تقول لها : سيرى فى طريقك وازدادى وتضاعفى واملأى الحوض . فينطلق الموت فى المدينة ، الموت الخفى الغريب السريع الفظيع الملىء بالألم والعذاب ، والذى يعجز من صد تياره أعظم الأطباء . الموت الذى يختطف الزوج من بين ذراعى زوجته ، والطفل من أحضان أمه ، ويريح العامل من كده ونصبه ، ثم يسير فى مجارى المياه وفى الشوارع والطرقات يختار بيتاً هنا وبيتاً هناك يعاقب أهله على ما أهملوا من طرق الوقاية ، ويزحف بجيوشه الجرارة على منابع المياه المعدنية ، ويكمن فى الخضر وينام وسط الجليد ، ويختبئ فى أحواض شرب الخيل لينقض عليها حين تأتى إليها فى طلب الماء ، وللأطفال حين يعبثون فى مساقى المياه العامة . وتمتصه الأرض فيعود إلى الظهور فى الينابيع والآبار وفى آلاف من الأماكن التى لم يكن

ينتظر ظهوره فيها. وقصارى القول أنه إذا تسرب إلى مورد ماء فلن تستطيع أن تقبض عليه فيه إلا بعد أن يفتك بأهل المدينة التي تستقي منه.

ثم سكت الرجل لحظة، فقد كان يعلم أن الخطابة وزلاقة اللسان من أسباب ضعف العلماء، ولكن غلبته حماسته فواصل حديثه قائلا: ولكننا آمنون من شره في هذا المكان — فهو هنا حبيس لا خوف منه على الإطلاق.

وهز الرجل الأصفر الوجه رأسه وأبرقت عيناه وتنحنح ثم قال: إن هؤلاء الفوضويين حمق بلهاء، إنهم عمى لا يبصرون، ولو كان لديهم شيء من العقل لما لجأوا إلى القنابل ولديهم ما هو أشد منها فتكا. إني أظن..

وسمع نقر خفيف على الباب، ففتحه العالم ونادته زوجته بصوت لا يكاد يسمع: أستأذنك دقيقة واحدة يا عزيزي.

ولما عاد بعدئذ إلى معمله رأى زائره ينظر في ساعته، فلما وقعت عينه عليه قال: لم أكن أظن يا سيدي أني أضعت من وقتك ساعة كاملة، إن عملك هنا ممتع غاية الإمتاع ولكني لا أستطيع البقاء هنا دقيقة واحدة. إني على موعد في الساعة الرابعة تماماً.

وخرج الزائر من المعمل وهو يكرر الشكر للعالم، وصحبه هذا إلى بابه ثم عاد مرة أخرى إلى معمله وهو يقول في نفسه: ما أشد نظراته إلى هذه الجراثيم. ثم سار إلى منضدة حمام البخار ثم عاد إلى مكتبه وقلب جيوب سرواله واندفع نحو الباب وهو يقول: لعلي قد وضعتها على منضدة الدهليز. ونادى زوجته وسألها: هل لم يكن في يده شيء حين كان يتحدث إليها منذ قليل؟ فأجابته أن لم يكن معه شيء. فلم يكد يسمع منها هذا القول حتى انطلق إلى الباب الخارجي ونزل على الدرج وخرج من البيت إلى عرض الشارع.

وسمعت ميني الباب يغلق بقوة فأسرعت مذعورة إلى النافذة وأبصرت رجلا نحيفاً يركب عربة ثم رأت زوجها عاري الرأس يجري خلفه وينادي التارة بأعلى صوته. وخرج أحد خفيه من قدمه ولكنه لم يعبأ به. وقالت ميني في نفسها: لقد جن من غير شك، وأوشكت أن تناديه من النافذة. والتفت الرجل النحيف الأصفر خلفه وكأنه هو الآخر قد أصيب بمس في عقله، فأشار بيده إلى العالم وقال شيئاً إلى الحوذي فساط هذا جواده، ولم تمض إلا لحظة حتى كان الرجل قد اختفى عن عينيها وزوجها في أثره.

وبقيت ميني في النافذة لحظة أخرى ثم عادت إلى الحجرة وقد عقد لسانها من الرعب وقالت في نفسها: إنه غريب الأطوار بلا شك، ولكني لم أكن أعتقد أنه يجري في شوارع لندن في هذا الوقت من غير قبعة أو حذاء. ثم لاحت لها فكرة جديدة فلبست قبعتها وأخذت حذاءي زوجها في إحدى يديها وأمسكت باليد الأخرى قبعته وسترته ونزلت على الدرج ونادت سائق عربة كانت لحسن حظها قريبة منها وأمرته أن يسير بها في الطريق العام مقتفياً أثر رجل عاري الرأس والقدمين. وألهب الرجل بالسوط ظهر جواده واندفع كأنه يسير إلى مكان يعرفه ويذهب إليه كل يوم من أيام حياته.

ولم تمض على ذلك بضع دقائق حتى كان المتعطلون المتسكعون في الشوارع يبصرون عربة تمر بهم في سرعة البرق ومن ورائها عربة أخرى يركبها رجل كأن به مس تتبعهما عربة ثالثة بها سيدة تحمل في يديها حذاءين وقبعة وسترة. وقال شاب خبيث: إنها المرأة تجري وراء الرجل هذه المرة وقد تعودنا أن نرى العكس.

وانطلقت مركبة ميني بين تصفيق النظارة وهتافهم تتبع عيناها ظهر سائق العربة التقلة لزوجها. أما الرجل الأصفر الوجه فقد جلس في أحد جانبي العربة الأولى مطوي الذراعين يمسك بإحدى يديه الأنبوبة المحتوية على الجراثيم المهلكة وتبدو عليه أمارات الابتهاج والخوف معاً.

فأما الخوف فقد كان بعضه ناشئاً من خشيته أن يقبض عليه العالم قبل أن ينفذ قصده ، ولكن كان وراء هذا خوف أعظم منه وأكثر غموضا ، وهو خوفه من شناعة الجريمة التي يوشك أن يرتكبها . على أن ابتهاجه مع هذا كان يفوق خوفه بتوفيه . وكيف لا يبتهج ولم يفكر أحد من كبار الفوضويين قبله فيما فكر فيه هو ! فإذا استطاع أن يصل إلى مورد الماء الذي تستقي منه المدينة فإنه سيكسر فيه الأنبوبة المحتوية على جراثيم الكوليرا ، فيحقق من أغراض الفوضويين مالم يحققه قبله أحد منهم . وكان قد دبر أمره تدبيراً بارعاً محكما ، فزور خطاب التوصية ودخل المعمل وانتهز فرصة دخول زوجة العالم فأخذ الأنبوبة وخرج على عجل . وهكذا سيسمع العالم بأعماله ويذكر اسمه ، وسيجله في آخر الأمر كل أولئك الذين يسخرون الآن منه ويهملون شأنه ويرغبون عن صحبته ويفضلون عليه من لا يستحق التفضيل . لقد كانوا يرونه رجلا حقير الشأن ويأتمرون به ليبقوه خاملا مغموراً ، ولكنه سوف يعلمهم عواقب عملهم هذا . وأطل من العربة فرأى غريمه في أثره لا يكاد يبعد عنه أكثر من خمسين ياردة . وأكبر الظن أنه سيلحق به ويحول بينه وبين قصده . ووضع يده في جيبه وأخرج منه نصف جنيه ودفع به السائق وقال له : لك أكثر من هذا إذا أوصلتني إلى حيث أريد قبل أن يدركني هذا الرجل .

واختطف السائق النقود من يده وقال وهو يلهب بالسوط ظهر الجواد : لك ذلك .

وانطلق في الطريق انطلاق الريح . وقبض الفوضوي على جانب العربة بيده التي كان يمسك بها الأنبوبة الزجاجية الصغيرة . وفي هذه اللحظة كسرت الأنبوبة وسقط الجزء الأكبر منها في المركبة ، ونظر هو في حزن واكتئاب إلى ما سقط منها من ماء على ملابسه وقال وهو يضطرب في مقعده :

— إذاً سأكون أول الضحايا ! سأموت شهيدا ! إن في هذا بعض العزاء ، ولكنها ميتة خبيثة ما في ذلك شك ! ولست أدري هل يؤلم هذا الموت الأليم الذي يصفونه به !

ثم لاحت له فكرة جديدة ورأى نقطا قليلة لا تزال في جزء الأنبوبة الذي بيده ، فما كان منه إلا أن تجرعه لكيلا يكون ثمة شك في مصيره المحتوم .

ثم بدا له أن لا حاجة له الآن إلى الهروب من العالم البكتريولوجي ، فأمر السائق أن يقف ونزل من العربة وهو يحس بدوار في رأسه . لقد كان السم سريع المفعول من غير شك . ثم أشار إلى السائق أن يذهب في سبيله ووقف على الطوار وذراعاه مطويتان على صدره ينتظر قدوم العالم . وكانت وقفة حزينة مؤلمة ، وقد أكسبه اعتقاده بقرب ميتته قدرا غير قليل من المهابة ، ولما أقبل غريمه حياه بضحكة متحدية ساخرة وقال :

— لتحي الفوضوية . لقد جئت بعد فوات الوقت ياصديق ، لقد شربتها وخرجت الكوليرا إلى العالم !

ونظر إليه العالم وهو في مركبته من خلال منظاريه وقال في دهشة : شربتها ! أفوضوي أنت ؟ لقد عرفت إذاً . وهم أن ينطق بشيء آخر ولكنه منع نفسه من قوله وبدت ابتسامة على جانب فمه وهم بالنزول من العربة . وحياه الفوضوي تحية ساخرة وسار يترنح نحو جسر ووترلو وهو يحشر جسمه بين أكبر عدد من المارة يستطيع حشره فيهم . وشغل مطاردوه بأمره . فلم تظهر عليه أية دهشة حين أبصر زوجته إلى جانبه وفي يديها قبعته وحذاؤه وسترته ، وقال لها وهو لا يزال غارقاً في تفكيره ينظر إلى شبح الفوضوي الذي كان يختفي من ناظريه : « لقد أحسنت إذ أتيت بملابسي . وخير لك أن تركبي هذه العربة » .

ولم تشك ميني وفتتذ في أن الرجل قد جن ، فأمرت السائق أن يعود به إلى المنزل . وقال هو بعد أن أدار السائق جياده : نعم سألبس حذائي الآن يا عزيزتي . ثم لاحت له فكرة غريبة فضحك وقال : ومع ذلك فإن

الأمر جد خطير . ثم التفت إلى زوجته وقال لها :

« لقد جاء هـذا الرجل إلى بيتى ليزورنى . ولـكنه من الفوضويين — لا . لا تراعى وإلا عجزت عن أن أقص عليك القصة كلها . وأردت أن أثير دهشته ولم أكن أعرف أنه فوضوى ، فأخذت مقدارا من الزرعة الجديدة من جراثيم الـكوليرا التى حدثتك عنها ، وهى التى أماتت القردة ، وقلت له إنها الـكوليرا الأسيوية ، وسرقها الرجل وخرج من عندى ليسمم بها الماء الذى يستقى منه أهل لندن ، ولو أفلح لـكان فى ذلك الطامة الـكبرى على أهل المدينة . وقد ابتلعها الرجل . ولست أدرى ماسوف يحدث ، ولـكنك رأيتها تميت القطة الصغيرة والـكلاب الثلاثة الصغيرة . على أن أكثر ما يضايقنى أنى سأضطر إلى إعداد زرعة منها جديدة وأنفق فى إعدادها كثيراً من الوقت والمال » .

م . ب

منطقة مصر العليا الشمالية

تعلن عن مناقصة لتوريد الأغذية للتلاميذ وتلميذات جميع المعاهد على اختلاف أنواعها الكائنة بدائرة المنطقة عام ١٩٤٦ — ١٩٤٧ .

ويمكن الحصول على استمارة العطاء وشروط المناقصة من منطقة أسيوط مقابل دفع ثمنها وقدره ثلثمائة مليم ، خلاف أجرة إرسالها بالبريد المسجل وقدرها مائة مليم مع تقديم طلب الشراء على ورقة تمغة من فئة الثلاثين مليما .

وآخر ميعاد لوصول العطاءات لحضرة مراقب المنطقة هو الساعة العاشرة من صبيحة يوم الثلاثاء الموافق ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، حيث تفتح المظاريف .

٥٩٧٩

همس الماضى

همس من الماضى السحيق دعا بيه
متأرج النفحات عذب القافيه
فتجسدت صور له بسامة   فتانة الرؤيا تجيش أماميه
قد كرته والذكر من عاداته   إيقاظ آلام النفوس الغافيه
مالى والماضى ؟ فقد كفنته   ودفنته بين السنين الماضيه
الأمس قد ولى وفى طياته   ولت حياة لن أراها ثانيه
بالأمس كنت أرى الجداول نبعة
من روحى النشوى ومن إحساسيه
والنهر كنت أراه يبحث جاهداً
مستقصياً سر الصحارى النائيه
كم سار يبحث فى الوهاد مدفدفا
أعطافه متحدر وسرة رابيه
فإذا أتى الصحراء رزء الأسى   ومضى يشتته بكف قاسيه
يا نهر ! قلبى كان مثلك سادراً
متطلعاً نحو الحياة السامية
يبغى الحياة من الجمال معينها   ويريد أن تبقى الحقيقة عاريه
واليوم لا تغرى بهدهد روحه   أو يستفزه له مناه الغاليه
قد حطمته يد الزمان وأصبحت   دقاته نذر الحياة الثانية
فاليوم لست أراك إلا دمعة
سالت هباء من دموعى الهاميه
والحسن كم صليت فى محرابه   وجعلته « أوزيس » فى محرابيه
وتخذت « انجيل » روائع سحره
وتلوت من آياته « قرآنيه »
للناس من هذا الجمال مناهل   شتى ولى منه المناقى الصافيه
والحب كم ذابت على أنغامه
روحى وهامت فى دنا أحلاميه
غذيته من مهجتى ومواطنى   وسقيته من مدمعى وجنانيه
واليوم لست أرى الجمال سوى دمى
شوهاء تعبث فى النفوس الواهيه
والحب لست أراه غير خرافة   علقت على شفة الزمان الداميه

(المملكة الأردنية الهاشمية)   شجاع الأسد

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكردانى عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٥٢٦٩٦٢ / ٥٦٣٦٩

العدد ٤٠٤ | الثلاثاء ٢٨ من شوال سنة ١٣٦٥ — ٢٤ من سبتمبر سنة ١٩٤٦ | السنة الثامنة

فهرس العــــــدد

قصة التعويضات الايطاليــــة

لما انتهى مؤتمر الصلح إلى الاقتناع بوجهة النظر المصرية ، ووافق على اشتراك مصر بصفة استشارية فى المباحثات التى تجرى حول معاهدة الصلح الإيطالية نعم بشىء من الغبطة والتفاؤل ، واعتبرنا هذا القرار خطوة لا بأس بها ، إذ يتاح لمصر بمقتضاه أن تسمع صوتها لهذا المؤتمر العالمى الخطير وأن تشرح وجهات نظرها فيما يتعلق بمطالبها الإقليمية والاقتصادية من الدولة التى اعتدت عليها دون مبرر ، واستباحت أراضيها ، وحاولت أن تقضى على استقلالها وكيانها بقوة الاعتداء الهمجى .

ولكن هذا الشعور انقلب إلى خيبة أمل مرة حينما قرأنا البيان الذى ألقاه مندوب مصر فى المؤتمر ، فقد كان بياناً فاتراً تنقصه كل عوامل الإقناع والقوة ؛ وكان من أشد بواعث الدهشة أن يغيض مندوب مصر فى الإشادة بفضل الخصوم الذين يتقدم إلى اتهامهم وإقامة الحجة على مسئوليتهم ؛ وفضلا عن ذلك فقد اقتصرت مطالب مصر بصدد التعويضات من الناحية الإقليمية على المطالبة بواحة جغبوب وهضبة السلوم ، ووجوب استقلال لوبية أو وضعها تحت وصاية إحدى الدول العربية ؛ ولم تشر مصر قط بكلمة واحدة إلى حقوقها التاريخية فى باقى المستعمرات الإيطالية ، ولاسيما أريتريا التى انتزعتها إيطاليا من مصر بطريقة غير مشروعة ، والتى تطالب الحبشة الآن بضمها إليها .

ومازالت مطالب مصر الإقليمية مطروحة أمام المؤتمر ، ولكن مسألة التعويضات المطلوبة لمصر من إيطاليا قد انتهت إلى ما يشبه المأساة ؛ ذلك أنه قيل لنا فجأة إن اتفاقاً خاصاً عقد بين مصر وإيطاليا خارج أبواب المؤتمر بشأن التعويضات ، وإن مصر تنال بمقتضاه من إيطاليا تعويضاً قدره أربعة ملايين جنيه ونصف هذا مبلغ ٣٩٠ ألف

جنيه دفعت من الأموال الإيطالية المحجوزة بمصر تعويضاً لضحايا الغارات الجوية ، وبذلك تبلغ جملة التعويض الذى تدفعه إيطاليا لمصر أربعة ملايين وثمانمائة وتسعين ألف جنيه مصرى ؛ ولا تؤدى إيطاليا من هذا التعويض الآن سوى مبلغ مليون جنيه نقداً من الأموال الإيطالية الموضوعة تحت الحراسة ، وأما الثلاثة ملايين ونصف الباقية فتسدَّد خلال خمس سنين إما نقداً وإما سلعاً وإما سندات وأسهماً فى الشركات الإيطالية بمصر حسبما يتم عليه الاتفاق فى ظرف ثلاثة أشهر ؛ وتبقى الحراسة مفروضة على الأموال الإيطالية إلى الحد الكافى للوفاء بالمبالغ التى تتخلف إيطاليا عن دفعها ، وترفع فيما عدا ذلك ، وتتعهد إيطاليا بتعويض الرعايا المصريين عما أصابهم من الضرر فى إيطاليا وترفع الحراسة عن أملاكهم .

تلك هى قواعد الاتفاق المصرى الإيطالى بشأن التعويضات ؛ ولقد كان هذا الاتفاق العجيب الذى نالت إيطاليا فيه كل شىء ولم تنل مصر سوى قطرة ، مثار الدهشة البالغة ؛ إذ كيف يتصور إنسان أن تكون أربعة ملايين ونصف هى تعويض عادل أو معقول عما ارتكبته إيطاليا فى حق مصر من اعتداء أثيم حين اجتاحت جيوشها المدحورة الأراضى المصرية من السلوم إلى العلمين وحين كانت طائراتها توالى القيام بغاراتها الدموية على المدن والثغور المصرية ، وهى غارات ذهب ضحيتها ألوف من الأبرياء ، وترتب عليها تخريب كثير من المرافق والمنشآت المصرية ، وقد بلغت الأضرار والخسائر المادية التى أصابت مصر من العدوان الإيطالى حسبما قدرت مختلف الجهات والمصالح الحكومية نحو مائتى مليون جنيه ؛ وأشارت المذكرة المصرية التى قدمت إلى مؤتمر الصلح إلى أن التعويضات الحقيقية التى تستحقها مصر من إيطاليا بما فى ذلك النفقات العسكرية تبلغ هذا القدر ؛ ولكن المذكرة المصرية لحكمة لم ندركها اقتصرت بعد إبداء هذه الحقيقة على المطالبة بما أسمته بالتعويضات عن الخسائر المباشرة عن أسباب الموانى ، والطرق والسكك الحديدية والسفن والأملاك الخاصة من الخسائر ، وقدرت هذه الأضرا والخسائر جميعها بمبلغ عشرة ملايين و٣٨٥ ألفاً من الجنيهات هى التى طالبت مصر بالحصول عليها من إيطاليا .

وبعد ذلك ، ولحكمة لم ندركها أيضاً تتضاءل مطال مصر إلى أقل من نصف هذا المبلغ ، وتقنع مصر بالحصو على تعويض قدره أربعة ملايين جنيه ونصف . وإذا ك نحن فى مصر لم نفهم حكمة هذا الكرم المدهش الذ أبدته مصر نحو المعتدين عليها ، فقد نجد تفسير ذلك ذكره البلاغ الإيطالى الذى صدر عن الاتفاق من « الحكومة المصرية قد أعربت من جانبها عن رغبتها فى الاتف مع إيطاليا على شئونها الاقتصادية مساهمة منها فى إصلا الحالة الاقتصادية فى إيطاليا وصرحت بأن هذا الاتف يمكن من استئناف العلائق المصرية الإيطالية على أسا طبيعى من صادق التعاون ، ووصل ما انقطع من أسبا الود القديم . »

مرحى مرحى ! أجل إن مصر التى تحاول أن تكا الفقر والمرض بين الملايين من أبنائها يجمل بها أن تتجر عما تستحقه من التعويضات قبل إيطاليا لكى تعاونها إصلاح شئونها الاقتصادية ! ولهذا أيضاً لم ترد الحكو المصرية أن تتعرض لمركز الرعايا الإيطاليين فى مصر ، تفكر فى إجلائهم من البلاد كما فعلت الحبشة ، بل تفكر فى حرمانهم من الامتيازات التى كفلتها لهم معاه مونترو أسوة بما وقع للرعايا الألمان عقب الحرب الكبر من حرمانهم من الامتيازات الأجنبية ؛ ولم تفكر فى مسألة المنشآت الإيطالية فى مصر ؛ لم تفكر فى شىء ذلك كله ؛ وكان طبيعياً بل كان واجباً قبل أن تعقد هذه الصفقة المؤلمة أن تفكر فى ذلك كله ، وأن تسعى تصفية هذه المسائل كلها بما يصون مصالح البلاد ومصـ

ـيها . أما الآن فسوف تبق الجالية الإيطالية العديدة (وهى ـالغ نحو ٦٠ ألفاً) كما كانت فى الماضى تمرح فى البلاد ، ـثرى وتزدهر على حساب المصريين ، وتسيطر على طائفة كبيرة من المهن والأعمال التى كان واجباً أن تترك للمصريين

لقد خصت مصر عقب الحرب الكبرى قبل ألمانيا الإمبراطورية بتعويضات قدرت يومئذ بواحد فى المائة من مجموع التعويضات التى فرضت على ألمانيا وقدره ألف مليون جنيه ، وذلك بالرغم من كون مصر لم تتعرض لاعتداء ألمانيا بصورة مباشرة كما حدث فى الحرب المنقضية من جانب إيطاليا ؛ وكانت انجلترا تقبض هذا التعويض باسم مصر حتى ألغيت التعويضات الألمانية بعد ذلك ، وعقدت بين مصر وانجلترا تسوية خاصة حصلت مصر بمقتضاها على ما حصل باسمها من هذه التعويضات وقد كان جديراً بمصر أن تكون فى حق نفسها فى هذه المرة التى احتملت فيها العدوان المباشر مضاعفاً ، أشد مراساً وأقل تهاوناً .

إن العراق تطالب إيطاليا بتعويض قدره ألف وستمائة مليون جنيه ، بالرغم من أن العراق لم تتعرض لاعتداء إيطاليا المباشر ، وتطالب الحبشة إيطاليا بتعويض قدره ١٨٤ مليون جنيه ، وكذا اليونان وفرنسا تطالب كل منهما إيطاليا بتعويض ضخم ؛ ولسنا نعتقد أن أية دولة أخرى ستحذو حذو مصر فى هذا التساهل المدهش ، فترتضى جزءاً من خمسين مما تطالب به . ولسنا نعتقد أن أية دولة أخرى غير مصر يمكن أن ترغب حقاً « فى المساهمة فى إصلاح الحالة الاقتصادية فى إيطاليا » على حساب حقوقها القومية ؛ فى مصر وحدها يسمع بمثل هذه التناقضات .

ولسنا ندرى بعد كل ذلك هل قدر مندوبو مصر لدى مؤتمر الصلح ما سوف يترتب على تراجع مصر فى مسألة التعويضات من أثر سئ فى مطالبها الإقليمية وموقفها من مسألة لوبية ؛ بيد أنه من الطبيعى أن تشعر دوائر المؤتمر أن مصر التى لم تبد صلابة كافية نحو حقوقها الاقتصادية لن يتعذر عليها أن تبدى مثل هذا اللين نحو مطالبها الإقليمية ؛ كما أنه من الطبيعى أن يخالج إيطاليا شعور بأن مصر التى تنشد صداقتها ، وتتبرع بالمساهمة فى إصلاح شئونها الاقتصادية ، قد لا تضن عليها بمثل هذا العطف متى جاء دور المسائل الإقليمية .

الحق أننا قد شغلنا بأمر المفاوضات مع الإنجليز من كل شيء آخر من شئوننا الداخلية والخارجية . على أنه مهما كان من خطورة هذه المفاوضات ، فإنه مما يثير الأسف والألم أن يصل تصرفنا فى إحدى مسائلنا الخارجية الحيوية ، وهى تسوية حقوقنا العادلة قبل إيطاليا ، إلى مثل هذا المدى من التساهل الذى يبلغ حد التفريط ، وذلك فى الوقت الذى تشهد فيه سائر الأمم الأخرى ، الكبيرة والصغيرة ، تدافع أمام مؤتمر الصلح عن كل ذرة من حقوقها ومطالبها بكل ما وسعت من أساليب القوة والمنطق .

« مصرى »

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٢٦٩
القاهرة

بيان من معالى وزير المعارف

[كتب الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك مقالا عن بعض مسائل خاصة بالتعليم ورد عليه حضرة الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى بك فى بعض آرائه . وقد أرسل إلينا حضرة صاحب المعالى محمد حسن العشماوى باشا وزير المعارف بهذا البيان . ونحن نرحب بنشره فنكون بذلك قد عرضنا مختلف الحجج على قراء الثقافة] .

عزيزى صاحب العزة الأستاذ المحترم رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء .

لمناسبة ما خاضت فيه بعض الصحف منذ أسابيع من حديث المجانية والسياسة العامة للتعليم ، وما نشرته (الثقافة) فى عددها الماضى بقلم الأستاذ فريد أبو حديد بك تحت عنوان « إلى معالى وزير المعارف » يعنينى أن أجلو لقراء الثقافة بعض ما يحتاج إلى الجلاء فى هذا الموضوع . وأبادر فأشير — قبل أن آخذ فى تفصيل الحديث — إلى أن مذهبى الذى لزمته منذ توليت المناصب العامة يقوم على تقدير جهود العاملين ومحاولة إتمام ما يبدؤه غيرى من وسائل الإصلاح ، إذ ليس يعنينى من الأمر إلا ما ينتهى إليه من نتيجة يتحقق بها النفع العام ، لا ألتفت إلا إلى غير ذلك من ملابسات الأمر وأسبابه والدوافع إليه والمسائل الشخصية التى تتصل به ؛ وليس من طبعى فوق ذلك الثورة أو علاج بعض ما يعرض لى من مشكلات بالطفرة أو بالعنف ، وبهذا وذاك يتنفى أن يقال عنى أو يظن بى أنى أميل إلى هدم ما بناه غيرى أو النقض من قيمته أو إنكار ما فيه من نية الإصلاح والخير .

وقد عرض كاتب « الثقافة » لحديث المجانية فى مرحلتى التعليم الابتدائية والثانوية ، فسرد ما مر بها من أدوار وأورد حجج المؤيدين لها والمعارضين ، وأشار إلى ما يعترض حجج الفريقين من أسباب الوهن أو من مقتضيات العلاج لينتهى من ذلك كله إلى أن يقول فى لهجة تشبه التحذير « وليس يجدينا أن نستأنف تفكيراً جديداً ، بل ليس من مصلحة البلاد أن نعرج عن الطريق الطبيعى الذى دفعتنا إليه ظروف حياتنا العملية دفعاً . . . ونعتقد أننا نرتكب غلطة كبرى إذا حاولنا الرجوع عن المجانية بصورة من الصور . . فليس من المصلحة فى شىء أن نبدأ بالانحراف عن تلك السنة التى أرضت البلاد ، وليس هناك مصلحة تستحق أن نضحى فى سبيلها بتلك السنة . . . » إلى آخر ما قال مما يوهم أن لوزارة المعارف فى العهد الحاضر بإزاء المجانية اتجاهاً يغاير ما انتهى إليه الرأى فى العام الماضى وما سبقه من أعوام . والأمر فى حقيقته لا يؤيد هذا الوهم ، فلم يدر فى خاطرنا قط أن نحاول العدول عن المجانية المقررة فى المرحلة الأولى للتعليم وعما اتجهت إليه النية ثم التوسع فى نسب المجانية فى المراحل التالية حتى يتيسر سبيل التعليم لكل راغب فيه من ذوى الاستعداد العقلى اللازم ، لا يصد أحداً منهم عن تحقيق رغبته فقره أو انقطاع أسبابه ما دام فيه الأهلية للتعليم ؛ وإنما اقتضانا تنظيم هذا الحق أن نتخذ بعض الوسائل التى تكفل تحقيق مبدأ « تكافؤ الفرص » على وجهه الصحيح بحيث تتاح به الفرص لكل ذى حق أن ينال حقه من التعليم ، لا أن يكون المقصود منه تهيئة الفرص للأغنياء على حساب الفقراء . وقد رأينا النظام الذى كان معمولا به فى المدارس الابتدائية ينافى هذا المبدأ منافاة ما ، فقد سوى تنفيذ الفكرة بين الأغنياء والفقراء فى التمتع بامتيازات المجانية بما فى ذلك ثمن الغذاء الذى تقدمه المدارس للتلاميذ ، على حين كانت العدالة الاجتماعية تقتضى — وقد تقررت مجانية التعليم — أن يساهم أبناء القادرين فى ثمن ما يقدم من الغذاء للتلاميذ ولذلك قررنا فى هذا العام — مع الإبقاء على مجانية التعليم — أن يفرض على القادرين دفع مقابل ما يقدم إليهم من الغذاء مع إعفاء العاجزين إعفاءً تاماً ، غير مقيدين فى ذلك بنسبة معينة ، كما قررنا الإعفاء من التأمينات الصحية والرياضية والاجتماعية فى حدود نسبة معينة ، ولم يكن هنالك إعفاء منها من قبل ؛ ومن ذلك يظهر أننا لم نتعرض

القرار المجانية في التعليم الابتدائي ، ولكننا نظمناه وحددنا ضوابطه ، بل توسعنا فيه من بعض النواحي .

وثمة ناحية أخرى حملتنا على إصدار هذا القرار لتنظيم وضبط المجانية المقررة في حدودها التي تقتضيها الحالة الاجتماعية في البلاد ؛ ذلك أن من الخطأ الفاحش أن يتوهم متوهم أن التعليم الابتدائي الحالي هو المرحلة الأولى للتعليم التي يجب أن تفتح أبوابها لكل طالب ، فهناك مرحلة أخرى ينطبق عليها هذا الوصف ، هي مرحلة التعليم الأولي في صوره المختلفة ، فإن عدد تلاميذ المدارس الابتدائية في الوقت الحاضر لا يزيد كثيراً على خمسين ألف تلميذ ، تنتظمهم المدارس الابتدائية في المدن والحواضر ، على حين يبلغ عدد الأطفال الذين تؤهلهم سنهم لهذه المرحلة أكثر من ثلاثة ملايين صبي وفتاة ، يتعلم منهم نحو مليون في المدارس الأولية المختلفة ؛ فأين من هذا العدد الضخم تلك القلة الضئيلة التي تنتظمها المدارس الابتدائية ؟ أفيمكن أن يقال بعد هذا إن مرحلة التعليم الابتدائي الحالي مرحلة عامة ينبغي أن تفتح أبوابها بالمجان — وبغير قيد ولا شرط ولا حد ولا ضابط — لكل طالب ؟ .

الواقع أن مرحلة التعليم الابتدائي هذه مرحلة « خاصة » لا يقبل عليها إلا طبقات معينة من الشعب ، وهذا هو الطبيعي ، فليس من المعقول أن يقبل كل أبناء الشعب وبناته في المدارس الابتدائية ليسلكوا سبيلهم بعد ذلك إلى المرحلتين التاليتين ليحصلوا على الدرجات الجامعية ، فهو إذاً تعليم خاص ، لأنه — في وضعه الحاضر — لا يؤدي إلى غاية غير الالتحاق بالمرحلة التالية ثم التي تليها ؛ وإذاً فإن له من خصوصيته ما يحمل على إعادة النظر في شروط القبول به وأهلية المقبلين عليه ؛ وليس فيما وضعناه من الضوابط لمنح المجانية المقررة ما يتنافى مع هذه القاعدة بوجه ما .

أما المجانية في المرحلة الثانوية فإننا لم نمسها بشيء من التعديل ، ولم نتخذ في شأنها قراراً يغاير ما كان معمولاً به في السنوات الماضية إلا فيما يتعلق بالشروط الواجب تحققها في طالب المجانية ، وهي شروط روعي فيها الحالة الاجتماعية للتلميذ إلى جانب شروط السن والدرجات العلمية ، فقد كان الاقتصار على اشتراط سن معينة والحصول على نسبة معينة من درجات الامتحان سبباً في أن يمنح المجانية كثير من أبناء القادرين ، على حين قد حرم منها كثير من الفقراء ومن لا يقدرون على دفع المصروفات المقررة ؛ وهو وضع اقتضى أن نجعل الشرط الأول للمجانية في التعليم الثانوي هو الحالة الاجتماعية لولي أمر التلميذ ، من غير أن نغفل سن التلميذ واستعداده العلمي ؛ وأظن هذا هو الوضع الطبيعي حتى لا يحرم الفقراء من المجانية ويتمتع بها أبناء الأغنياء والموسرين .

فمن ذلك يظهر أيضاً أننا لم نبخس قدر العمل الطيب الذي بدأه وزراء المعارف السابقون ، ولكننا بنينا على الأساس الذي وضعوه ووضعنا لبنة فوق البناء الذي أقاموه وعملنا في حدود القانون القائم مع كثير من المرونة في التطبيق .

• • •

وقد عرض الكاتب الفاضل في ثنايا مقاله للسياسة العامة للتعليم ، وأشار إلى أن حضرة صاحب المعالي زميلي وصديقي وزير المعارف السابق « فكر في وضع سياسة ثابتة للتعليم » فبحث ودرس وعقد اللجان وبلغ في سبيل تحقيق ذلك الغرض مبلغاً . ولعلي قد فهمت من حديث الكاتب بعض ما يخشاه من النكول أو الانحراف عن الغرض الطيب الذي قصد إليه معالي سلفي ، ورأى من حقه علي ومن حق المشتغلين بشئون التعليم عامة أن أطمئنهم وأزيل مخاوفهم من هذه الناحية ، فإني كما قلت في أول هذا الحديث لا أميل إلى الهدم والتدمير حيث يمكن الإصلاح والتعمير ، وقد وجهت عنايتي إلى كل ما خلف معالي سلفي من مشروعات ، ولم أستأثر بالرأي في شيء مما يجمل عرضه على ذوي الاختصاص والرأي ، فعرضت كل

إلى من يهمهم في وزارة الشئون الاجتماعية :

هذه الأفلام المصرية

ظريف جداً من الرجل الذي يدخن أن يمتنع من التدخين إذا جلس مع صديق لا يحب التدخين . فهذا نوع من التضحية باللذة الشخصية في سبيل المحافظة على شعور الصديق . وظريف جداً من الرجل الذي يترنم بتربية الكلاب الأرمنتي الشرسة أن يقيد كلابه أو يربطها في سلاسل متينة حتى لا تروع الجيران ولا تعقر أطفالهم . وظريف جداً من الرجل الذي ابتلاه الله بالإدمان على نوع من (المكيفات) ألا يعلن (كيفه) لأولاده حرصاً على مصلحتهم حتى لا تسري عدواه إليهم . فهذا كله نوع من المروءة التي تستحق الشكر ؛ فالشخص الذي يحس من نفسه نوعاً من النقص مشكور إذا هو جنب الناس عواقب ذلك النقص ومنع تعدي الأذى إليهم .

ولقد كانت الحكومة المصرية مشكورة كل الشكر على شيء مثل هذا . وتفصيل ذلك أني قرأت في صحيفة من الصحف اليومية نبأ قصيراً لا يزيد على بضعة أسطر ، ولكنه كان خبراً جليلا يجدر بكل من قرأه أن يقف عنده طويلا ليشكر الحكومة على مروءتها : ذلك الخبر هو أن وزارة الشئون الاجتماعية (وهي وزارة حكومية كما هو معروف) قررت ألا تبيح إصدار الأفلام المصرية إلى الأقطار العربية . فعمل وزارة الشئون الاجتماعية إذا صح الخبر تصرف يجب علينا جميعاً أن نشكر الحكومة المصرية عليه . ولقد وقفت عنده ساعة طويلة أتأمل مغزاه وأتبين معناه ، وأقدر مبعثه ومنتهاه ، وكنت طوال تلك الساعة أسبّح بحمد حكومتنا المصرية وأسأل الله لها دوام التوفيق . فالأفلام المصرية كما يظهر لا تناسب تقاليد الشرق — ولست أدري إذا كانت توافق آداب الغرب . وقد شهدها أقوام من إخواننا الناطقين بالضاد في الأقطار العربية ، ولا شك أن فيهم من أحبها وفيهم من كرهها ، وفيهم من أغراه فيها اللهو وفيهم من توجس منها خوفاً من الفتنة والغي . فرأت حكومات الأقطار الشقيقة أن تلفت نظر الحكومة المصرية إلى أن تلك الأفلام ليست على (كيفها) وأنها قد تفسد عليها أخلاق شبابها ، فاستجابت الحكومة المصرية إلى ذلك ، وكان ما كان من تقرير وزارة الشئون الاجتماعية أن تمنع تصدير تلك الأفلام إلى الجيران حتى لا يتعدى ضررها حدود هذا الوادي الكريم . أليست الحكومة المصرية جديرة بالشكر على هذه اللفتة التي تنم عن تقديرها لمصالح الشباب في بلاد العروبة ، وحرصها على تجنيب شعوب الأقطار الشقيقة شرور الفاتن وتضليل الغواية ؟

ولكن بقي سؤال وجهته لنفسي عند ما قرأت هذا الخبر الصغير : أليس لشعب هذا الوادي حق على وزارة الشئون الاجتماعية المصرية فتنظر في حمايته من أضرار

ذلك على المجلس الأعلى للتعليم ، وقد انتهى المجلس من السياسة العامة للتعليم في مرحلته الأولى وانتهى في ذلك إلى الرأي وأخذنا في أسباب التنفيذ ، وسنمضي في درس ما يلي من مراحل التعليم حتى تنتهي آخر الأمر إلى إقرار السياسة العامة الثابتة التي تقتضيها مصلحة البلاد وتلائم حاجاتها وأهدافها وامكاناتها . وإني لحريص على أن يتم ذلك على خير أوجهه ، مستعيناً برأي كل ذي رأي ، جاعلا عملي إتماماً لما بدأه السابقون من زملائي ، وتدعيما له ، ومتجها معه إلى الهدف الذي يحقق النفع العام .

وتفضلوا بقبول عظيم احترامي وأصدق تمنياتي لمجلة الثقافة باطراد التوفيق . .

المخلص

محمد العشماوي

وزير المعارف

الأفلام كما نظرت فى حماية الشعوب الأخرى ؟ هناك بغير شك حجج كثيرة يمكن أن تورد دفاعاً عن سياسة عدم التدخل فى حرية إنتاج الأفلام . فإن فى العالم طائفة من كبار المفكرين الذين يرون أنه من الخطر التدخل فى الحريات بأية صورة من الصور ؛ فهناك أمثال الأستاذ لاسكى الكاتب الاجتماعى الكبير ، وهو ينادى بأنه من الخطر تدخل الحكومات فى أى شأن من شئون الأفراد وإن ذهبوا إلى أبعد مدى فى إساءة استعمال حريتهم ؛ فهو مثلا يقول فى كتابه « الحرية فى الدولة الحديثة » : إن لكل فرد الحق الكامل فى أن يكون داعراً أو ماجناً أو فاسد الأخلاق أو مدمناً المخدرات .

ومن رأى هذا الأستاذ وأمثاله أنه لاينبغى للفساد أن يحارب إلا بطريقة واحدة وهو شعور الشعوب نفسها ، فهى الكفيلة بأن تحافظ على نفسها وعلى سلامتها بما عندها من قوة الحكم وما تنطوى عليه نفوسها من تقدير أصالتها . فالحرية عند (لاسكى) وعند أمثاله أقدس من أن يعبث بها أحد مهما كانت رغبته فى تحقيق المصلحة العامة .

وهذا رأى له قيمته بغير شك لأن التدخل فى الحرية محفوف بالأخطار الجسيمة ، وقد يؤدى إلى عواقب أوخم من عواقب الفساد نفسه .

فإذا نحن نظرنا إلى سياسة الحكومة المصرية نحو الأفلام التى تنتجها الشركات المصرية أمكن أن نجد لها حججاً تبررها وتعززها .

فالحكومة البدر أنها لم تسمح لنفسها أن تحجر على حرية المنتجين تاركة لجمهور النظارة محاسبة أصحاب الأفلام عما عندهم من حكمة وذوق وثقافة . فالجمهور المصرى يستطيع إذا شاء أن يرغم المنتجين على أن يخرجوا له أفلاماً غير هذه السلاسل المصورة السخيفة ويستطيع أن يحملهم على التحرى فى اختيار ما يعرضونه عليه . ولكن ذلك يستلزم أن يكون الجمهور ذا ذوق فنى راق ، وثقافة عالية ، وحكمة متزنة . فإذا تحقق ذلك الشرط لم يبق محل لتدخل الحكومة ، لأن أصحاب شركات الأفلام لايلبثون أن ينتجوا للجمهور ما يطلب من الموضوعات ، وما يرضى ذوقه من الناظر ، وما عس قلبه من المناظر . ولكن ذلك الشرط يحتاج إلى زمن طويل حتى يتحقق . وأصحاب شركات الأفلام من أذكى التجار وأحذقهم وأبصرهم بمنافذ الضعف البشرى . وهم يعرفون كيف يدخلون السخافة إلى قلوب ذلك الجمهور قسراً بغير أن يشعروه بالقسر . فهم يعمدون إلى الحيلة المعروفة فى الطب وهى (البرشام) كالطبيب الذى يحتال على أن يجعل المريض يبتلع الدواء الكريه الطعم بأن يضعه فى برشامة . فهم يعرفون مثلا أن المصريين يحبون الصوت الجميل ، فما كان أسرعهم إلى دس السخافة فى فم له بطل من كبار المغنين . وهم يعرفون أن المصريين يحبون فن الرقص ولا سيما ما كان منه مستمداً من قصص ألف ليلة . فما كان أسرعهم إلى دس السخافات فى أفلام تحتوى على مناظر الرقص المستمد من ألف ليلة . وبهذا استطاعوا أن يتدسسوا إلى منافذ الفتنة ويطمئنوا إلى إقبال الجمهور المصرى لأن النظارة يفتنون بالصوت وفن الرقص إذا فاتهم الفن الصحيح والمعنى .

فما الحيلة فى حماية الجمهور مع كل هذا الذكاء الذى يمتاز به منتجو الأفلام ؟ نحن بين أمرين أحلاهما مر : فإما أن نطلب تدخل الحكومة فى إنتاج الأفلام وفرض رقابة دقيقة عليها ، وإما أن ندع الأمر حرا وننتظر حتى يبلغ الجمهور حداً من الوعى يمكنه من إيقاع العقوبة على السخفاء بالانصراف عن إنتاجهم .

والحل الأول يعرضنا لخطر سوء تصرف السلطة وفرض إرادة الموظفين على الإنتاج الفنى ، وفى هذا ما فيه من عنف قد يكون عنفاً خطيراً .

والحل الثانى يعرضنا لخطر التغرير بالشباب وذوى الثقافة الضئيلة والحكمة القليلة .

وعندى حل واحد أقترحه لعل فيه خروجاً من هذا المأزق . فإن الحكومة تشجع بعض المؤسسات التى تسمى

نهاية الغرب (*)

لا شك أن الوفاق من أهم عوامل الهناء والبقاء، وأن الشقاق معول هدام: هدام بين الأفراد، هدام بين الجماعات، هدام بين الأمم، هدام في النهاية للحضارات. ومن ثم تعالت الصيحة منذ الحرب العالمية الأولى بوجوب العمل على استتباب السلام، فأجريت في هذا السبيل تجارب باءت كلها بالفشل، لأنه لم يعمل على اجتثاث جذور الشقاق بقدر ما عمل على تنمية بذوره وتغطيتها بطبقة من الأرض الصالحة لهذا النماء.

والشقاق كان منذ كان العالم فلم يمنع أن تتكاثر ذرية آدم، وأن تملأ الأرض، وأن تضيق بها رحابها. وإذا كانت الأرض قد شهدت حضارة المصريين وحضارة الأشوريين وحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة العرب وحضارة الغرب، فهي خليقة أن تشهد غداً حضارة أخرى تفعل مثل ما فعلت تلك الحضارات وتزيد عليها، وتمر بذات الأدوار التي مرت بها من رفعة وسقوط وهكذا دواليك. والشرق كمميل من عملاء الحضارة الغربية لا يهمه أن يكون في الغد عميلا لحضارة أخرى تقوم على آثار هذه الحضارة إن قدر لها الزوال. ولا خوف علينا من أن يظل العالم فترة من الزمن بلا حضارة فهذا ما لم يقع منذ قامت الحضارات. والحادث أن ينتقل مركز الثقل، فالأمم العائشة في ظل الحضارات ولا تؤلف عنصراً أساسياً فيها تتأثر بها على كل حال، ولا يهمها أن يأتيها التأثر من حضارة بالذات، لأن مظاهر الحضارات واحد، وخيرها وشرها واحد؛ فإذا تبعت يوماً اليونان، فقد تبعت بعدها الرومان، وتبعت بعد الرومان العرب، وتبعت بعد العرب الغرب، وغداً تتبع الحضارة الجديدة. والحضارات تتسلط ولا ينجو من سلطانها قريب أو بعيد. وقد تسلطت أمس بالفتح وعواقبه وتتسلط اليوم بالاستعمار

(*) استعرنا هذا للمقال عنوان كتاب أوزفالد شبنجلر المشهور Untergang des Abendlandes لكننا لم نرجع في كتابة المقال إليه بل استفدنا لمل معارضيه كما سنشير في الفصل التالي:

لتحقيق مصلحة عامة. فهي مثلا تصرف الإعانات بمئات الألوف من الجنيهات سنوياً للمدارس الحرة التي تعلم أبناء الشعب، وهي تصرف الإعانات للمؤسسات الخيرية التي تعمل على مكافحة الأمراض أو تساعد على إيواء البائسين من العجزة.

ومن الممكن أن تنظر الحكومة إلى صناعة إنتاج الأفلام نظرتها إلى الهيئات التي تؤدي خدمة عامة، وذلك بأن تخصص جانباً من الأموال العامة لإعانة بعض مؤسسات الإنتاج السينمائي إذا هي تحققت أنها مؤسسات جادة لا تسعى لاكتساب الذهب وحده بل تقصد خدمة الفن علاوة على الربح.

فإذا تحققت من أن مؤسسة سينمائية تتعالى عن التماس الربح الرخيص من منافذ الضعف الإنساني، بل تعمد إلى الفن العالي في التأليف والإخراج، أقبلت عليها بتشجيعها وإعانتها لأنها تكون بمثابة مدرسة اجتماعية تعمل على ترقية الذوق الفني وتسمو بالعواطف وتذيع بين الجمهور نوعاً من المسرة الراقية التي لا تندس فيها السموم. ويقيننا إن وجدت مؤسسة مثل هذه وعرفت أنها تستطيع الحياة مع تشجيع الحكومة، أنها سوف تغزو تلك الطفيليات التي قد جلبت على مصر عاراً عظيماً في بلاد الأمم الشقيقة، إذ جعلتها تشكو مما تصدره مصر إليها من أفلام تافهة سخيفة حتى أدى الأمر أخيراً إلى تلك الفتنة التي لا تقل في نظر العقلاء عن صدمة عنيفة لذوق الشعب المصري ومقاييسه الفنية والمعنوية.

محمد فريد أبو حديد

ومواهبه وبوسائل أخرى من صميم الاستعمار . فهل ما يقع الآن في العالم نذير بهلاك حضارة الغرب ؟ في أمس القريب شهدنا صراعاً جباراً بين دولة انتهى إلى سقوط فريق من هذه الدول وتشوب صراع آخر من نوع آخر بين دول الفريق الآخر . وقد تعالت الصيحة هذه المرة أيضاً بوجوب قيام عالم آخر غير هذا العالم يستتب فيه السلام على الدوام . وما يحدث اليوم لا يبشر بأن عالماً آخر غير هذا العالم سيطلع بفجره ، وأن نفوساً ملائكية ستخلف فيه الأنفس البشرية . ولا تزال حمامة السلام مذعورة مقصية تزعجها النفاق الذى يتغنى باسمها ، وتوجس الشر كل الشر من نظرات دعاة السلام إليها . بيد أن هذا الشقاق الحادث مهما بلغ من قوة هدمه لا يهدم حضارة ، فهو نوع من أنواع الصراع في سبيل البقاء . وهو ظاهرة طبيعية لما جبل عليه البشر ، غير أنه عامل من العوامل الهدامة على كل حال ، فقد كلفت الحرب التى لم تنته ويلاتها بعد ولا ينتظر أن تنتهى في القريب — كلفت الإنسانية عدة ملايين من الأنفس ذهبت هدرا ، ولم تخدم مبدأ ولا نظرية ، ولا يمكن أن تكون الدماء التى سالت فيها من قبيل الفصد الذى ينفع الجسم ، لأنها جميعاً دماء زكية زفت وجرف تيارها ما تحلت به تلك الأنفس من كفايات ومواهب ضاعت على الإنسانية . هذه الملايين التى سوى بينها التجنيد العام فلم يميز بين المتازين والعاديين ولا بين الخبراء والجهلاء ، ولا بين النابغين والزعماء ، قد أهدرت بضياعها استعدادات ومواهب وأخلاق كانت حرية أن تنفع الإنسانية ، فهى طوب في صرحها قد زل عنه ، وثغرات قد استحدثت فيه . فإلى أن يسد الفراغ الحادث لا بد من زمن ومن طمأنينة . هـذا إلى خسارة أخرى تلحق ببعض الأمم وتؤثر في مبلغ مساهمتها في الأعمال الحضارية . فالأمم غير الديمقراطية ومنها ألمانيا والروسيا السوفيتية وأسبانيا تفقد في هذه الأزمة الراهنة نفراً من أبنائها لهم خطرهم . ففريق من هؤلاء في المنفى وفيهم زعماء وأصحاب رأى وموهوبون ، وفريق آخر يقف الآن موقف الاتهام وهم نخبة ؟ فإذا ظل أولئك في المنفى ودخل هؤلاء السجون أو طيرتهم الرموس ذهب كثير من القيم الأحيائية سدى وضاع دم جـديد . ومتى أهدرت هـذه القيم وضاع معها ما يمكن من تكاثرها وتوريثها مواهبها ، وهن الكيان الأحيائى في الأمم الصابة وأبطأ نهوضها من كبوتها ، وهذا شىء يعطل سير الحضارة ويشعر بأوخم العواقب .

على أن هذه الخسارة التى منيت بها الإنسانية ، ونكبت بها الحضارة الغربية ، والتى تمنى بها الإنسانية والحضارة الحين بعد الحين فلا تقف سير القافلة ولكن توهنه ، ثم تعود القافلة فيعاودها النشاط وتغذ السير ، ليست من العوامل الحاسمة في هلاك الحضارات . فالحروب لم تنقطع منذ القدم ، وقد كانت أحياناً كثيرة أداة ناجحة في نشر الحضارة وذيوع الأديان والمذاهب الاجتماعية ، وتنشئة نظم الحكم أو تبديلها ، والصعود درجات جديدة في سلم المدنية . وبعض ما سبب سقوط الحضارات القديمة لم يأت من الحروب بقدر ما أتى من النازعات الداخلية في كل عضو من الأعضاء التى تؤلف جسم الحضارة وخاصة من ناحية الدين والسياسة . فقد ذهب ضحية الاضطهاد الدينى والاضطهاد السياسى قدر كبير من الخلق القوى الكريم ، وسيقت جماعات إلى الإعدام كانت على جانب كبير من الوهبة والمهارة والعبقرية ، فكان أن انحطت القيمة الأحيائية في الشعوب على مر الأيام وتعاقب الأجيال ، وأن ضعف عنصر الخاصة والخيرة ، وازداد نفوذ أصحاب الصفات العادية والرديئة ، وتفشت الرذائل القائمة على الأثرة والحرص . وقد نكبت اليونان القديمة بهذه الظاهرة الهدامة ، فتكاثر فيها عديد المنفيين وأفواج الفارين وساء عيشهم سوءاً لم يفسح لهم مجال التكاثر

والتوارث . بل لقد بلغ الأمر باليونان القديمة أن كان أطفال من يعدمون يحرمون حق البقاء . وكان يعقب بعض حالات التولية والانتصار مجازر بالجملة — مجازر بالأمر ، بالنطع والسيف ، وكانت الأسر تنق بالثلث .

وجاءت رومه فلم تكن في هذا خيراً من اليونان ، بيد أن فناء الشعب الرومانى مكنه من تعويض هذه القوى القيمة قروناً ، ثم بهظت الشعب هذه الخسائر فخارت في آخر الأمر قواه ، ذلك أن هذا الدم الغزير الذى نزف من جسمه — دم أولئك الموهوبين والمهرة والعباقرة وذوى الأخلاق الذين كانوا يذهبون ضحية الظلم بصورة متواصلة عظيمة — لم يكن مما يتحمله جسم الشعب بصورة دائمة .

وهذه الحالة التى كانت من أسباب تدهور الحضارات القديمة يقع مثلها فى عصرنا هذا فى بعض البلدان ؛ فما زال ذوو الكفايات يساقون إلى النفى أفواجاً ، وما زال سكان المدن يدفن منهم عشرات الألوف أحياء ، وما زال الأطفال يلحقون آباءهم زرافات ، ويلقون مثل الحتف الذى يلقون . بل لقد وقع فى الحرب العالمية الأخيرة ما هو أفظع من هذا ، فمحت الطائرات مدناً بأسرها بمن فيها وما فيها من رجال ونساء وأطفال وآثار حضارية لا تقوّم بمال . ومحت القنبلة الذرية مدينتين من مدن اليابان وجعلتهما أثراً بعد عين . ولولا أن البلدان المنكوبة بلغت من الحضارة أرفع منسوب لكان من المنتظر أن يكون أثر ذلك فى مستقبلها فادحاً ، وأن تعجز عن تعويض ما فقدت أو إحلال الموجود فيها محل المفقود . أجل كان ما وقع خليقاً أن يكون من نذر السقوط .

لكن الذى يصح أن يكون من نذر سقوط الحضارات هو نقص المواليد بصورة متواصلة ؛ فهذه حالة تطرق على الحضارات فى مراحل تقدمها الأخير — أى مراحل المدنية ، فالمدنية تجلب معها نوعاً من الأنانية والحرص الشديد يؤثر فى رغبة التناسل ، فتضن كثير من سيدات الطبقة الراقية براحتها ، وتحرص على مظهرها من أن تخضعه الفريزة لأغراضها ، ويولع كثير من الموسرين بالأرقام كلما تضخمت ثرواتهم فيؤثرون أن تتكتل هذه الثروات وتتراكم بعد موتهم لولد واحد على أن تتوزع بين عديد الأولاد ، ويجتزئ كثير من الوالدين المتوسطى الحال ببنت واحدة يدخرون لها ما يضمن لها الزوج الذى يسعدها فى نظرهم . فإذا كان مقدراً للأسرة فى الأحوال العادية الطبيعية ستة أولاد فالاكتفاء بواحد يفقد الأمة خمسة ، وإذا كان ضبط النسل من النزعات العامة فى الأمة أو فى طبقتها الراقية أمكن تصور الخسارة الفادحة التى تخسرها الأمة مما يكون فى طبقتها المختارة من المادة الوراثية فى المواهب والاستعدادات .

وإذا سارت الأمور على هذا المنوال لم يلبث أن يختل التوازن وتتغلب الطبقات المنحطة بصفاتها الرديئة التى تتكاثر بتكاثر النسل فيها . وكثرة التناسل بين هذه الطبقات من الأمور الملحوظة التى تسهلها الطبيعة لحكمة لها . فقد لا يمنع سوء الأحوال المعيشية الأسر الفقيرة من الرغبة فى التكاثر أو يحد منها ، وقد يظل البؤس مخيماً على أسرة مؤلفة من والدين وأربعة أولاد فلا يحول ذلك دون أن يبلغوا مع الأيام ومع البؤس اثنى عشر . على حين تقف الطبيعة لكثير من الأسر الموسرة بالمرصاد فلا تيسر لهم حملا ولا ولادة . ثم تجئ المدنية فتزودهم فوق ذلك بفكرة ضبط النسل .

لا مشاحة فى أن الحضارات إنما تقوم على أكتاف الخيرة ، فإذا نقص مواليد هذه الخيرة قل توارث صفاتها الطيبة وتلاشت هذه الصفات على مر الزمن ؛ وقد كان الرومان قوماً شجعاناً ، وكان لهم جيش مقتدر ممتاز يؤلف عشيرة من الأقوياء الأصحاء ، لكن نظام هذا الجيش كان يحرم عليه الزواج خشية أن يتبعه جيش آخر من النساء والأطفال فيحد من استعداده وطواعيته الداعين للقتال ،

لغة القانون فى البلاد العربية

والاختلاف على المصطلحات الحقوقية

[إلى العامل الأول فى عقد مؤتمر المحامين العرب
إلى نقيب المحامين بدمشق الأستاذ مظهر العوتلى]
تحية شكر وتقدير

خضعت البلاد العربية لحكم العثمانيين عصوراً طويلة، كانت اللغة التركية هى لغة الدولة الرسمية، ولغة التشريع والقضاء فيها، فلما زالت السيادة العثمانية من هذه البلاد، شاءت الظروف السياسية أن تتفرق دولا وحكومات ترسم خطاها أيد أجنبية، مما أدى إلى تباين جسيم فى الوضع «القانونى» لكل قطر منها، نشأ عنه اختلاف فى مكانة اللغة العربية وفى المصطلحات الحقوقية فى كل منها، ويمكن تصور هذا الاختلاف فى الأقطار الأربعة التالية بما يلى:

١ — مصر: كانت مصر أسبق البلاد العربية فى اقتباس التشريع الغربى وتعريبه بلغة أقرب إلى الصحة والمتانة من لغة القوانين العثمانية فى الأقطار الأخرى، وإن فقد الدقة فى الصياغة [1]، وأتى على كثير من التعابير الضعيفة التى كانت سائدة فى الفقه العثمانى؛ وقد أدى وضع التشريع المصرى بلغة أجنبية قبل تعريبه إلى أن المحاكم المصرية أخذت تردد الألفاظ الأعجمية كثيراً فى قراراتها مما يؤذى العربية فى مكانتها ويحز فى نفوس الغيورين عليها. أما الفقه المصرى فقد شق طريقه وسط هذا الخضم من الاضطراب القانونى فى اللغة والصياغة ليترعم الفقه فى البلاد العربية بلغة عربية سليمة لا ينقصها إلا تحتين صلتها بتاريخنا الفقهى المجيد.

٢ — العراق: وكان العراق أول الأقطار العربية فى استقرار وضعه الدولى، ولكن رغم انحصار السلطات التشريعية فى هيئاته الوطنية من عهد غير قريب، فإن اللغة

(١) اسمع هـذا النقد من لسان أكثر الفقهاء المصريين وخصوصا شراح القانون المدنى

وكانت مدة الخدمة فيه خمساً وعشرين سنة أو تزيد، فكان أن مثل هذا الجيش الفنى الغنى بصفاته ومؤهلاته لم يعقب خلفاً على غراره، فلما سمح لجنود رومه بعد ذلك بالزواج لم يكن هؤلاء الجنود من الرومان بل من الجرمان، وكان مصير الدولة الرومانية عندئذ قد أشرف على الختام.

فنقص التوالد هو الخطر الأعظم على الأمم وعلى الحضارات، لكن هذا الخطر وإن بدا هنا وهناك ليس عاماً، ومن ثم لا خوف على الحضارة الغربية منه، وطابع هذه الحضارة هو الاستعمار والاستثمار، ومن شأن الاستعمار والاستثمار الاستكثار من الرؤوس والأيدى، والدولة الفقيرة فى كليهما لا تستطيع أن تستعمر أو تستثمر، ولا تستطيع أن تلعب الدور القدير لها فى الحضارة، وقد شجعت ألمانيا النسل وشجعته الروسيا، وتشجعه الكثرة الغالبة فى الأمم المتحضرة؛ فلا خطر على الحضارة الغربية إذاً من هذه الناحية، إنما الخطر عليها كل الخطر هو من ناحية الاضطهاد السياسى والاضطهاد الدينى، والاضطهاد الدينى معدوم فيها. بقى أن الاضطهاد السياسى يجتاح أوربا بأسرها، فهو فى كل مكان أثر من آثار الحرب أو مرض مزمن فيها. والاضطهاد السياسى نار تطلب ما تأكل وتجد ما تأكل، فإذا لم تجد فى النهاية ما تأكله خبت، ولكن بعد أن تترك فى الإنسانية حطاماً هم أصحاب الشهوات والأنفس الدنيئة، وهؤلاء لا تنهض بهم حضارة ولا تقوى أكتافهم على حملها

(للمقال بقية)

محمود الدسوقى

العربية لم تحتل المكانة الواجبة لها في صياغة التشريع (١) وفي قرارات المحاكم . غير أن النهضة الأخيرة التي قامت إثر التعاون الثقافي بين مصر والعراق جعلت الفقه العراقي يغذى المكتبة العربية بثروة غير قليلة من الكتب القانونية القيمة (٢) .

٣ — سورية : أما سورية فقد كانت زعيمة البلاد العربية في مطاردة اللغات الأجنبية ، يوم تحررت من سلطة العثمانيين ، مطاردة عنيفة شملت دوائر الدولة واتصلت بالعامة في أسواقهم وبيوتهم ولكن الظروف السياسية التي ما كست سورية فيما بعد ، وجعلت التشريع في أيد غير وطنية تضعه بلغتها ثم تأمر بتعريبه ، قضت على كثير من أمانيها ؛ غير أن آثار تلك المطاردة ظلت بادية في كثير من التعاريب القانونية وفي لغة الدواوين الرسمية . أما لغة القضاء فلم يستطع كبار رجاله — على ما يظهر — قطع صلاتهم بالماضي الذي عاشوا فيه ، وخصوصاً مع بقاء أكثر التشريع العثماني معمولا به في سورية ؛ لهذا نجد الكثير من قرارات المحاكم ضعيف الصياغة ، غير متين الحبكة ، عليه مسحة واضحة من أثر اللغة العثمانية القديمة ، كما أن الفقه السوري ظل ، على سعته ومكانته ، في ركود حتى السنوات الأخيرة ، وهو في جملته يدل دلالة قوية على اطلاع أكثر المؤلفين السوريين على كتب الفقه الاسلامية ورغبتهم في اقتباس مصطلحاتها وألفاظها الدقيقة (٣) .

٤ — لبنان : وإذا كان ما قيل في حق سورية يقال — تقريباً — في حق لبنان ، فان لبنان امتاز بخطوات واسعة في تجديد القوانين وتقنينها ؛ ولكن للمؤسف أن لا تكون اللغة العربية هي اللغة الأصلية في وضع التشريع الجديد ، وأن تكون لغة أجنبية لغة رسمية إلى عهد قريب في مثل هذا البلد العربي ، يترافع بها أمام المحاكم وتدون بها كثير من القرارات الهامة ؛ هذا ما جعل القوانين اللبنانية تظهر في ثوب عربي غير متين الحبكة (١) ؛ ومع هذا فإن القوانين اللبنانية التي صدرت في السنوات الأخيرة دلت على انتباه المشرع اللبناني إلى ضرورة تحسين لغته العربية وتصفيتها من الألفاظ الأعجمية (٢) . أما الفقه العربي فما زال في خطواته الوئيدة .

* * *

هذه حال اللغة العربية في الأقطار الأربعة الشقيقة . أما ما يتعلق بالمصطلحات الحقوقية ، فقد أصبح لكل بلد مصطلحاته وتعابيره القانونية الخاصة به . وإني مورد هنا تاريخ كلمة قانونية واحدة ، وأنا أعتقد أن فيها دليلا كافياً على أهمية الاختلاف ، وبشاعته بين أبناء أمة واحدة تنطق بلغة واحدة .

تعريب كلمة فرنسية :

أخذ مدلول لفظة (Obligations) الفرنسية (٣) شطراً كبيراً من نصوص القوانين المدنية وأبحاث الفقهاء ورجال القانون في الغرب ؛ فماذا عربت هذه الكلمة في قوانيننا ؟ وهل اتفق مشرعونا أو فقهاؤنا على لفظة عربية تقابلها ؟ وأي الألفاظ العربية يحسن أن تكون تعريبا لها ؟ .

إن العثمانيين الذين أخذوا يقتبسون القوانين الفرنسية ويترجمونها إلى لغتهم في النصف الثاني من القرن التاسع

(١) أنظر مجموعة قوانين الحكومة العراقية
(٢) أنظر مكتبة كلية الحقوق في بغداد
(٣) راجع مؤلفات أساتذة معهد الحقوق بدمشق

(١) أنظر مثلا قانون العقود والموجبات اللبناني الصادر سنة ١٩٣٢
(٢) أنظر قانون التجارة الحديث الصادر سنة ١٩٤٣
(٣) لفظة مأخوذة من اللاتينية ومركبة من مقطعين (ligatio) ويقابله بالفرنسية (lien) أي « رابطة أو علاقة » و (ob) وتفيد كلمة « بقصد en vue de » فيكون معناها الكامل « رابطة لأجل »

عشر أجزائهم مجلة الأحكام العدلية المقتبسة من الشريعة الإسلامية [١] عن نقل القانون المدني الفرنسي ، وليس في المجلة ما يقابل الـ (Obligations) في القانون الفرنسي ؛ ولكن العلماء والفقهاء الأتراك ترجموا هذه اللفظة بكلمة (وجائب) [٢] وهي الكلمة التي وردت في القانون المدني التركي الأخير [٣] .

ولقد اختار معربو القانون المدني المصري ، وهو أول قانون مدني وضع في قطر عربي [٤] لفظة (تعهدات) [٥] مقابل كلمة (Obligations) ولكن هذه الكلمة العربية عاجزة تماماً عن تأدية المقصود من الكلمة الفرنسية ، مما دعا شراح القانون المدني المصري إلى ترديد ألفاظ عربية أخرى بجانب لفظة (التعهدات) مثل (الواجبات) و (الالتزامات) [٦] .

وفي سورية والعراق اللذين لم يعرفا قانونا مدنياً حتى الآن غير المجلة ، اكتفى الفقهاء وأساتذة الحقوق فيهما بلفظة (الوجائب) ترجمة لكلمة (Obligations) [٧] ، ولكن عندما وضع لبنان قانونه المدني اختار مترجموه لفظة (الموجبات) [٨] بدلا عن (الوجائب) .

(١) وقد انجزت سنة ١٨٦٩

(٢) ملحق الجريدة العدلية التركية سنة ١٣٣٩ رومية عدد ١٣

(٣) الجريدة العدلية شباط ١٩٢٦ أنقرة

(٤) سنة ١٨٧٥ — ١٨٨٣

(٥) مادة ٩٠ / ١٤٤ من التقنينين الأهلي والمختلط

(٦) أنظر فتحي زغلول شرح القانون المدني القاهرة ١٩١٣ وعبد السلام ذهني الالتزامات القاهرة ١٩٢٢

(٧) أنظر مثلا فائز الخوري : الحقوق المدنية الأوربية دمشق ١٩٢٧

محسن البرازي : القانون المدني الفرنسي دمشق ١٩٣٢

خالد الشابندر : تعريب القانون المدني التركي بغداد ١٩٣٦

عبده حسن الزيات : القانون الروماني بغداد ١٩٣٢

(٨) قانون العقود والموجبات اللبناني بيروت ١٩٣٢

فلما أخرج فقيه مصري كبير للدنيا العربية أضخم كتاب فقهي في القواعد القانونية المدنية توجه باسم (النظرية العامة للالتزامات [١]) ، فأخذت لفظة (الالتزامات) تتسرب إلى لغة الفقه في جميع الأقطار العربية ، وكادت تطغى على ما سواها من التعاريب . غير أن فقيها عراقيا معروفاً قام أخيراً يدعو الشرعيين والمشتغلين بالقانون إلى الالتفات قليلا نحو لغة الفقه الشرعي ، وأخذ لفظة (التكاليف) التي هي — كما يراها — أدق في التعبير لغة من كلمة (الالتزامات) وأشمل لمضامينها القانونية ومصادرها المختلفة [٢] .

أنا لا أود في هذا العرض التاريخي ترجيح لفظة على أخرى ، ولكني أريد أن أعلن بأن الأقطار العربية تجمعها كلها لغة الضاد الواحدة ، فيجب أن تكون لغة التشريع والفقه فيها بعد اليوم لغة عربية واحدة . وإذا كان التشريع في كل من مصر والعراق وسورية يتمخض عن قوانين مدنية جديدة ، يأمل المشتغلون بالقانون أن تكون مستمدة من تاريخنا الفقهي الباهر ، مصوغة بأحدث أسلوب عرفه التفكير القانوني المعاصر ؛ فيجب أن لا يتكرر الاختلاف في الألفاظ على الأقل ، إذا لم يتمكن المشرعون من جعل النصوص التشريعية الجديدة واحدة في الأقطار الشقيقة التي اشتركت في التاريخ والآلام ووحدت بينها اليوم الأماني والآمال .

وليس لهذا الأمر سوى مثل هـذا المؤتمر — مؤتمر المحامين العرب — الذي يعقد اليوم جلساته في دمشق ، وما يقرره ويعمله لتوحيد اللغة التشريعية والفقهية في البلاد العربية بأسرها .

عدنان الخطيب
المحامي

(١) عبد الرزاق السنهوري : نظرية العقد . القاهرة ١٩٣٤ والموجز في الالتزامات . القاهرة ١٩٣٨

(٢) عباس الزاوي : راجع مجلة القضاء العراقية عدد ١ سنة ١٩٣٧ . وانظر مجلة القضاء عدد ٢ سنة ١٩٤٤

الفيضان ! !

الكنز السنوى المفقود

فيضان النيل فى هذا العام فيضان لا عهد للأحياء من المصريين بمثله ، فوزارة الأشغال تقول لنا إنه أعلى فيضان منذ سبعين سنة بعد أن قالت من قبل إنه أعلى فيضان منذ عشر سنين ثم منذ ثلاثين سنة ثم منذ سبعين ، والفيضان لا يزال يرتفع كل يوم . ولعلنا نسمع عما قريب أنه أعلى فيضان عرفته مصر منذ عرفت الفيضانات أى منذ وجدت مصر ، لأن مصر هبة النيل ووليدة فيضانه .

ولقد قامت وزارة الأشغال بواجبها خير قيام فى تجريد كل قوة استطاعت تجريدها لحصر ماء النيل فى مجراه حتى يصل إلى البحر الأبيض بسلام .

والناس يشكرون لوزارة الأشغال همتها فى السهر على تقوية شاطئى النيل ودعم جسوره حتى تحصر مياه الفيضان الطامية بين ذينك الشاطئين ، وتبلغ الناس كل يوم أن مياه النيل تندفع إلى البحر الأبيض المتوسط وتحمد الله إلى الناس كل يوم لأنها نجحت فى حصر المياه بين شاطئى النيل حتى تذهب إلى البحر .

أما أنا فأعتقد أن النيل قد ساءه نوم المصريين وتجاهلهم لما يأتى به كل عام من ثروة تذهب إلى البحر ، فلم يجد وسيلة يوقظ بها أفراد هذا الشعب الذى يتبناه النيل من فجر الخليقة إلا أن يشتد عليهم بفيضانه ويرتفع فى مجراه ارتفاعاً يهدد بأن يذهب بجسوره فيندفع الماء الأحمر إلى كل قرية يطرق الأبواب ، كأنما هو يقول : أيها النائمون أنا هنا !!

ثم هذا الفيضان العالى الذى أرق الجفون يقول لوزارة الأشغال والمهندسين : أنا هنا ! أنا هنا بحمولتى من الطمى التى يقدرها المهندسون بآلاف الملايين من الأمتار المكعبة تذهب كل عام كلها إلى قاع البحر مع الماء الذى يضيع فى البحر ! أنا هنا بحمولتى التى تحيل الصحراء جنات تجرى من تحتها الأنهار . الأنهار الجوفية كما يسميها رجال الرى !

لم يأت فيضان هذا العام طاغياً عاتياً مرعباً حتى جرد له المصريون رجال ثلاث وزارات وجردوا له فرقاً من الجيش ، ولجأوا إلى السخرة التى ألغاها القانون فى ظل الدستور — والفيضان فوق الدستور لأن الدستور إن كان حامى المصريين فالفيضان أصل وجودهم — لم يأت الفيضان هذا العام بهذا الشكل عبثاً !

إنما هو منذر وبشير فهل من مدكر ؟!

إذا كان المصريون القدماء اكتفوا بزرع أرض مصر مرة واحدة كل عام عقب الفيضان فقد كان ذلك يغتفر لهم لأن العلم لم يكن قد وصل إلى إقامة الخزانات فى مجرى النهر ، وإذا كان مهندسو مصلح مصر الأعظم محمد على الكبير قد حولوا الرى فى مصر عما ورثوه عن قدماء المصريين وأنشأوا القناطر الخيرية ليزرع محمد على أرض مصر طوال العام ولينبت على أرضها محصولاته الجديدة التى أتى بها من أركان العالم الأربعة ، ثم اكتفوا بذلك فلهم عذرهم لأن العلم لم يكن قد وضع تحت تصرف الإنسان ما نعرف اليوم من آلات وأساليب . اكتفوا بالسدود يقيمونها فى مجرى النهر يحجزون أمامها أواخر الفيضان لينتفعوا بها فى الرى الصيفى . أما ماء الفيضان كله فلم تكن لهم فى الانتفاع به حيلة .

ومنذ عهد محمد على إلى الآن ومهندسونا ووزارة أشغالنا تقتفى أثره وأثر مهندسيه ، يقيمون الخزان تلو الخزان ويعلون الخزان بعد الخزان ، وهم بهذا يظنون أنهم أدوا الأمانة حق أدائها .

ميزانية الرى فى وزارة الأشغال تبلغ نحو ستة ملايين من الجنيهات تنفق كلها على الانتفاع بالماء الذى تحجزه الخزانات ، وهو الماء الذى يأتى فى آخر الفيضان . أما ماء الفيضان كله وهو أضعاف أضعاف ما يحجز أمام الخزانات

فليس في هذه الميزانية الضخمة قرش واحد يصرف على إجراء أبحاث للانتفاع به .

أستغفر الله فإن في الميزانية رقمين متواضعين أحدهما ١١ ألف جنيه للوقاية من الفيضان في الوجه البحري و ١٠ آلاف جنيه للوقاية من الفيضان في الوجه القبلي ، كأنما الفيضان غول يرصد المال للوقاية منه أو هو جراد يفتك بالزرع . . .

ولقد فتح في ميزانية هذا العام اعتماد كبير للوقاية من الفيضان الخطر ، اعتماد يبلغ ربع مليون من الجنيهات كدفعة أولى لأعمال الوقاية اذا دعت الضرورة أعقبتها دفع أخرى

وتقول بلاغات وزارة الأشغال إنها تحجز الماء أمام خزان أسوان لتكسر من حدة الفيضان ، ولكن خزان أسوان كله لا يتسع لتصرف النهر يوماً كاملا ، أى أن فتحات هذا الخزان لو أغلقت كلها لامتلأ الخزان في يوم واحد ، وإذاً فرفع المنسوب أمام الخزان لا يقدم ولا يؤخر .

لو أن وزارة الأشغال فكرت في تحويل ماء الفيضان إلى الصحراء بين أسوان وحلفا ، وقامت ببحث الأرض التي تكتنف مجرى النهر ، وبحثت أنسب الوسائل لتحويل الماء إلى الصحراء الغربية — ماء الفيضان العالي — إذاً لأصابت طائرين بحجر واحد : أولهما اتقاء خطر الفيضان العالي وثانيهما تخصيب الصحراء .

الدول تنفق ملايين الجنيهات على الأبحاث العلمية وتعمل على تحويل المواد التافهة إلى مواد مفيدة حتى صنعت الكاوتش والفحم واللبن ، وحتى خلقت مواد متعددة من العدم . ونحن هنا لا نفكر في إنفاق شيء على تحويل ماء الفيضان إلى الصحراء الغربية بين أسوان وحلفا ، ولا تنفق شيئاً على جعل دلتا النيل تبدأ بين أسوان وحلفا بدل أن تبدأ بعد القاهرة كما كانت منذ عهد الفراعنة .

لو كلفنا تحويل ماء الفيضان بين أسوان وحلفا إلى الصحراء عشرين مليوناً من الجنيهات لوجب القيام بذلك المشروع لأن ماء الفيضان لو أطلق في الصحراء لنشأ فيها واد أكبر من الوادي الحالي المكتظ بالسكان وزال الفقر والمرض والجهل في سنوات قلائل .

هل أرسلت وزارة الأشغال بعثة من مهندسيها يبحثون عن مكان تحول فيه مياه الفيضان إلى الصحراء بين أسوان وحلفا ؟ إنها لم تفعل شيئاً من ذلك .

إنها تفكر في وادى الريان لأنه يتسع لثلاثة أمثال ما يتسع له خزان أسوان من الماء .

ولكن ماء الفيضان في ثلاثة أيام يملأ كلا الخزانين فإذا الباقي الفيضان وهو يستمر أربعة أشهر .

ثم إن وادى الريان تبدأ الترعة التي تملأه عند بني سويف ، وماء وادى الريان لا يستعمل إلى بعد الفيضان ، ومن المهندسين من يقول إن ملء وادى الريان بالماء سيقضي على أرض مديرية الفيوم .

ولكن ماء الفيضان إذا حول إلى الصحراء الغربية بين أسوان وحلفا سيحول أرض الصحراء الغربية إلى مزارع ، وقد قيل إن الواحات الخمس التي في هذه الصحراء هي بقايا وادي النيل القديم .

لعل في فيضان هذا العام عبرة لوزارة الأشغال ، ولعل صياح حراس الجسور ليل نهار يوقظ وزارة الأشغال ، ولعل هذا السيل الدافق من الماء المحمل بالطمي الذي لفت إليه أنظار المصريين جميعاً ، لعل هذا كله يحفز وزارة الأشغال إلى تأليف بعثة من المهندسين والمساحين ترسلهم إلى شاطئ النيل الغربي بين أسوان وحلفا يمسحون الأرض هناك ويقيسون ارتفاعها ليجدوا أنسب مكان يحفر فيه قنال يصرف فيه ماء الفيضان ليذهب إلى الصحراء فيرسب عليها الطمي بدل ضياعه في البحر ، فإذا رسب الطمي على وجهها أصبحت أحسن أرض زراعية في العالم .

فإذا كانت الأرض مرتفعة فتلجأ الوزارة إلى الآلات

متزيـــنى

— ٥ —

جهوده الأدبية في الغربة — عودته إلى السياسة — حادثة فتح الرسائل

في السنوات الأولى التي قضاها متزيني بلندن لم يكن له نصير سوى قلمه وملكاته الأدبية ، ولم يكن يستطيع في بادىء الأمر الكتابة باللغة الإنجليزية ، وكانت نفقات الترجمة تستغرق جزءاً كبيراً مما يدره عليه قلمه ، وقد وجد صعوبة في جعل أسلوبه ملائماً لذوق الجمهور الإنجليزي ، وقد رفضت إحدى المجلات مقاله القيم عن بيرون « لأنه شاعر متمرد على الآداب » ، وقد بذل متزيني جهده ليلائم بين ذوقه وذوق القراء الإنجليز ، وكان يضطره إلى ذلك ما يكابد من ضنك ولأواء وضغط الحاجة الملحة وتصميمه على أن لا يطلب من أسرته شيئاً ، وكان في بعض الأحيان يكتب في موضوعات لا تروقه وبأسلوب لم يألفه ؛ ويظهر أن ذلك قد أفاده بوجه عام ، فإن مقالاته الإنجليزية تمتاز بدقة التفكير والوضوح ، وكان إنتاجه الأدبي غزيراً متنوعاً ، فقد تناول الأدب الفرنسي والأدب الإيطالي وكتب في موضوعات إنجليزية ، منها نقده البارع لكتب كارلايل ، وكتب عن السكارتزم ، وكان يرمى من وراء كتاباته إلى شيء أجل شأناً من الشهرة الأدبية ، وهو لفت الأنظار إلى قضية بلاده .

وفكر في كتابة ترجمة لحياة فوسكولو الشاعر الذي كان يعجب به ويؤثره ، واقتضاه ذلك البحث عن الكثير من المخطوطات وجمع المواد اللازمة ، ولكن اشتغاله بالسياسة لم يتح له فرصة الانقطاع إلى إتمام هذه الترجمة ، وقد ساعد في إنجاز طبع كتب فوسكولو وصرف في ذلك جهداً .

وأخذ يعود إلى ميدان السياسة شيئاً فشيئاً ، وكان عليه قبل أن يعاود النزول إلى الميدان ويقتحم حومته أن يقاوم ما استولى على نفسه من الملل والانقباض والضيق ، وقد كان يشعر بأنه لا يملك من قوة العزم ما يكفي لم شعثه وتحصين إيمانه وأخذ عتاده ، ويظهر أنه قبل مبارحة سويسرة هم بالتنازل عن رياسته لجمعية إيطاليا الفتاة ، وكانت تعتريه من الحين إلى الحين نوبات من التحمس السياسي فيمتلىء عقله بالمشروعات الوطنية الخطيرة والخطط الجبارة ، ولم يكن هناك أحد ليحمل عنه العبء ويسد مسده ، وكان هو روح الجمعية المحرك وعقلها المدبر ، وقد ظلت الجمعية في حكم العدم حتى عاد إلى أخذ زمام الأمور في يديه القويتين ، وقد سرى بين أكثر أعضاء الجمعية شعور بالهزيمة وضيعة الأمل ، وفي إيطاليا نفسها عقد الكثيرون صلحاً مع الحكومة ، وكفوا عن المقاومة والجهاد ، واستسلموا للأمر الواقع ؛ ولم تكن المؤامرة على النظم القائمة قد ماتت وخمدت نيرانها ، وإنما كانت الجمعيات السرية القليلة الباقية قد عادت إلى تقاليد جمعية الكاربوناري أو أخذت بمبادىء لا تروق متزيني ، ولم تكن حالة المنفيين

الرافعة ترفع بها ماء الفيضان وتلقيه على الصحراء .

لتفعل وزارة الأشغال شيئاً ، فإن استحال على العلم تحويل ماء الفيضان إلى الصحراء لا بقنال ولا بالآلات ، فلتقل لنا وزارة الأشغال إنها مسحت الأراضي هناك ودرست المشروع من كل وجه وإن تكاليف المشروع تجعل من المستحيل تنفيذه .

عند ذلك نسلم أمرنا للنيل ولله ونجلس على شاطىء النهر نرقب هذا السيل الذهبي يمر بنا ليختنق في البحر ، فقد بحثنا وحاولنا ؛ ولكن عجز العلم عن تحويل الماء الطامي إلى الصحراء — لا عجزنا نحن ، ونومنا نحن — هو السبب في ضياع هذا الكنز كل عام في أعماق البحر .

عريان يوسف سعد

أحسن من ذلك ، فكثيرون منهم اغتنموا فرصة إعلان العفو العام الذى أذاعته حكومة اللومباردى وحكومة بيدمونت وعادوا إلى بلادهم ، وكان الباقون مختلفى الرأى لا تجمعهم فكرة ولا تضمهم عقيدة ، وكان جيوبرتى يهاجم الجمعية ويستسقط آراء متزينى ومراميه ، وكان أقرب الناس إلى متزينى لا يؤمنون بأساليب الجمعية ولا أمل لهم فيها ، وكان متزينى لا يساوم فى مبادئه ليضمهم إلى صفوفه ويتكثر بهم ، ولم يكن يستطيع أن يلين كنفه لهؤلاء الرجال الذين أقسموا يمين الولاء المجاهدة من أجل تحقيق فكرة ثم حنثوا فى يمينهم وتقهقروا عند أول هزيمة ، وإذا كان أبناء بلاده لا يستجيبون له ولا يناصرونه فمن ذلك تجديد المحاولة واستئناف الجهود ، وكان يلم به فى بعض الأحيان الشعور الأليم بالعجز وقلة الحيلة ونفاد الوارد ، ويحس مثل غيظ الأسير على القد ، ولكنه كان أصح فطرة وأصفى نفساً وأكبر قلباً من أن ينقاد لليأس ويركن إلى التقاعد والجمود ، وكان أشد ما يخشاه أن يدركه الموت قبل أن يصنع شيئاً ، وكانت ذكرى صديقه جاكوبو رافينى لا تبرح مخيلته ، وقد آلى على نفسه أمام الله وإيطاليا وضميره أن يضطلع بهذا العمل فكيف ينكل من أدائه ؟ .

إنى إذاً لأخو الدناءة والذى   غطت على إحسانه جهلاته

هذا ما كان يناجى به متزينى نفسه ، وكان إحجامه عن القيام بمهمته فى رأيه كفراً ونفاقاً ، وحقيقة أنه كان يشعر بأن عزيمته قد فترت وأن يقينه فى إيطاليا قد تزعزع ، ولكن بقى شىء يدفعه إلى العمل دفعاً وهو « الواجب » ، وهو بعد كل شىء يستطيع أن يثق بالله وعدالة قضيته ، ومن أقواله فى تلك الفترة « أعلم أن جاكوبو ليس ميتاً وأنه وإياى من الرواد لا لسياسة جديدة بل ليقين جديد وعالا يتاح لنا أن نراه ، ولكن ليس فى وسع قوة بشرية أن تمنع قدومه » .

ومهما يكن من الأمر فانه لم يحترم المودة إلى السياسة العملية إلا فى أواخر صيف سنة ١٨٣٩ ، وأخذ يتعرف عواطفيه الإيطاليين فى انجلترا وبخاصة الطبقة العاملة منهم ، وكانت وسائل اتصاله ببلاده قليلة لا تروى غلته ، فهو يستطيع أن يستعيض من ذلك بالعمل بين طبقة العمال ، ولم يكن الدافع الذى وجهه هذه الوجهة سياسياً محضاً ، وإنما كان دافعاً إنسانياً ، ومن مزايا متزينى أن الدوافع الإنسانية الخالصة كانت على الدوام تلعب دوراً بارزاً فى حياته ، وقد كان متزينى أسعد ما يكون حينما يغيث ملهوفاً ويفرج كربة محتاج ويقيل عثرة عاثر ، ففى هذه الآونة العصيبة من حياته والفقر ينوشه من شتى النواحى ويكاد يأخذ بخناقه ، رأى وهو خارج من منزله فى صباح أحد أيام الشتاء ، فتاة على عتبة الدار تنتفض من البرد وقد نال منها السغب ، فما كان منه إلا أن دعاها إلى المنزل وعهد بها إلى خادمته ، ولما تزوجت الفتاة بعد ذلك وهجرها زوجها تكفل متزينى بتربية أولادها وظل سنوات عدة يمنحها جزءاً كبيراً من دخله القليل المحدود ، وقد شمل كذلك بعطفه الشاردين من أبناء وطنه ، وتحدث إلى الصبية الذين كانوا يجوبون الشوارع حاملين الصندوق العازف ووقف منهم على تفصيلات مؤلمة عن تجارة الرقيق الأبيض ، وعرف كيف أن عدداً قليلاً من الإيطاليين المقيمين فى لندن يستحضرون أولاد المزارعين الفقراء إلى انجلترا بعد أن يخدعوهم بوعود خلابة كاذبة ، ويعطوهم عقوداً يتعهدون فيها بأن يدفعوا لهم مبالغ كافية ويعاملوهم من المعيشة الراقية ، ولم يكن لهذه العقود قيمة فى انجلترا ، ومتى حضرت الصبية أخافوهم وعنفوا بهم وأجاعوهم ، وقد قدم المجرمون منهم إلى المحاكمة وأخاف متزينى السادة الآخرين وأرغمهم على أن يحسنوا معاملتهم ويصونوا حقوقهم ، ولم يكتف بذلك بل عمل على رفع مستوى هؤلاء الأولاد واستنقاذهم من حضيض الفقر والمهانة والجهل ؛ ففى سنة

١٨٤١ أنشأ لهم مدرسة كانوا يحضرون إليها في المساء ليتلقوا مبادىء القراءة والكتابة والحساب وأوليات العلم والتاريخ والرسم ، وكان هؤلاء الأولاد يعبدونه عبادة ، ولما عاد أحدهم إلى إيطاليا سافر إلى جنوا خاصة ليبلغ والدة مترينى ما أسداه إليه نجلها من حسن الصنيع ، وكان بعض أصدقاء مترينى من الإيطاليين والإنجليز يتبرعون بالتدريس فى هذه المدرسة .

وكان قبل إنشاء هذه المدرسة قد ألف جمعية سياسية للعمال الإيطاليين فى لندن وبدأ بنشر مجلة « إبوستولاتو بوبولارى » فى أوقات غير منتظمة حتى سنة ١٨٤٣ ، وقوى اعتقاده فى طبقة العمال ، وصار يرى أن الحركات الثورية يجب أن يكون جل اعتمادها عليهم ، وأن يكون غرضها تحرى الخير لهم ، وقد جعلته حياته فى انجلترا على اتصال بالتفكير الاجتماعى المعاصر ، وقد شعر بأن الحركات السياسية الخالصة تتضاءل إلى جانب أحوال الجماعات ومشكلاتها ، وأخذ يقول عن إيطاليا التى يسعى لإيجادها بأنها ستكون « إيطاليا الشعب » لأن الشعب هو الذى يعانى أقسى ألوان الشقاء من جراء تفرق الكلمة وانتثار الوحدة ، وسوء الحكم ، وطغيان السلطان ، وعمل على أن يفتح عيونهم على المسائل السياسية وأهاب بهم ليكونوا عدة الوطن ، وليعتزوا بماضى بلادهم ، ويفخروا بها ، ويجاهدوا لتحريرها ، وأفهمهم أن الله سيحكم عليهم لا بمقدار ما يتقاضون من الأجور وإنما بمقدار ما قدموا لزملائهم ووطنهم ؛ ومع فرط اهتمامه بتقوية الجانب الديمقراطى من الثورة وتنظيم طبقة العمال وطلب الإصلاح الاجتماعى فقد كان شديد الحرص على أن يصون إيطاليا الفتاة من أن تتحول إلى حركة طبقية ، وقد بدأ فى ذلك الوقت حملته على الاشتراكية التى استمر يتابعها إلى آخر حياته .

وفى سنة ١٨٤٤ وقعت حادثة كانت نعمة فى طى نقمة وقد أحدثت ضجة عاجلة فى مجلس النواب البريطانى وفى جريدة التايمز ، ولفتت الأنظار إلى مترينى وأثارت عطف الكثيرين على القضية الإيطالية ، فقد فكر شابان إيطاليان فى القيام بحملة مسلحة لإسقاط طاغية نابولى ، واعتقدا أن نجاحهما يؤدى إلى قيام حركة موفقة لتحرير إيطاليا ، وأرسلا إلى مترينى يستشيرانه ويسألانه النصيحة ، ولكن مترينى كان يرى الظروف غير مواتية ، وأن الاستعدادات ليست كافية ، ونصح لهما بإرجاء تنفيذ الفكرة ، وكان هذان الشابان الشقيقان هما أتيليو بانديرا وأميليو باندييرا وكان أبوهما البارون باندييرا يعمل فى خدمة الحكومة النمساوية قائداً للأسطول النمساوى ، وقد تردد الشابان بين الإقدام على التضحية وبين إيثار حياة الرفاهة والدعة فى ظلال عطف أبيهما ومكانتهما الدنيوية المرموقة ، ولكنهما فى النهاية اعتزما المخاطرة ، وآثرا الطريق المفروش بالأشواك المحفوف بالخاطر ، وقال أحدهما فى تسويغ مسلكه وتبرير إقدامه : « إن إيطاليا لن تعيش إلا إذا عرف الإيطاليون كيف يموتون » وكانا يؤملان « أن مساعدة إيطاليا معناها مساعدة الإنسانية » .

وأفسدت الخيانة عليهما الأمر ، وبلغ خبر اعتزامهما الثورة إلى الحكومة ، وكان مترينى قد حذرهما وأخبرهما بما طرأ من تغيير على الأحوال الإيطالية وبخاصة فى الناحية التى كانا يريدان أن يقوما بالثورة فيها ، وخدعهما جواسيس الحكومة النمساوية واستدرجاهما فسعيا إلى الشبكة المنصوبة لهما فى كلابريا ، وأعدما بإطلاق الرصاص بعد اعتقال قصير المدى ومحاكمة سريعة ؛ وبكى الجنود الذين أنيط بهم إطلاق الرصاص على الشابين وزملائهما ، وأساءوا إصابة الهدف ، فقال لهم الأخوان : « تشجعوا وقوموا بالواجب فنحن جنود مثلكم » وظلا يهتفان إلى آخر لحظة من حياتهما : « ليحيى الوطن » و « لتحيى الحرية » .

وأثار مصرعهما موجة من السخط فى أنحاء إيطاليا

جميعها ، وقد كان أتيليو واثقاً من سلامة البريد فى انجلترا ، ولذا أرسل لمتزينى رسالة أوضح فيها الخطة التى رسمها لإشعال الثورة ، واشتبه متزينى فى أن الرسائل التى تصل إليه يعبث بها وتفتح . ولما كانت أكثر الرسائل التى تأتيه من أصدقائه تتضمن أموراً خطيرة وخططاً سرية وأسراراً هامة تضر إذاعتها بمرسليها أبلغ الضرر وقد تودى بحياتهم ، لذلك اهتم بالموضوع وقام بتجارب واختبارات بارعة ليجمع الأدلة والشواهد التى تدعم دعواه ، وتؤيد حجته ، ووضع المستندات الدالة على ذلك فى يد السير توماس دنكومب نائب مقاطعة فنزبرى فى مجلس النواب البريطانى ، وأسفر البحث فى المجلسين عن أن رسائل متزينى كانت تفتح بانتظام وتباعاً منذ أكثر من أربعة أشهر ، وكذلك كانت تفتح الرسائل الواردة لفريق غيره من المنفيين الإيطاليين ؛ وأثارت هذه الخيانة عاصفة من السخط والغضب فى انجلترا ، وبخاصة حينما عرف أن محتويات تلك الرسائل كان ينقلها اللورد أبردين إلى وزير النمسا المفوض ، وقد أنكر ذلك فى بادىء الأمر هو والسير جيمس جراهام وزير الداخلية ، ولكنهما اضطرا بعد ذلك إلى الاعتراف بالحقيقة ، ولما أعدم الأخوان إميليو وأتيليو وأصحابهما اشتد غضب البريطانيين وصاروا يقذفون السير جيمس جراهام بأنه « قاتل الوطنيين الإيطاليين » . ولكن الأمر لم يكن كذلك ، فقد كان المسئول الأول عن فتح الرسائل هو اللورد أبردين ، وهو الذى قام بدور إبلاغ الحكومة النمساوية محتوياتها . وتقول السيدة إيدث هنكلى فى صفحة ٧٦ من كتابها القيم عن حياة متزينى : « مما يسر الإنجليزى فى كل مكان أن يعلم أنه ولو أن قيام حكومتنا بإفشاء سر الأخوين للحكومة النمسوية للأسف حقيقة لا يتسرب إليها الشك ، فإن البحث فيما بعد فى محفوظات الحكومة فى ميلان ولو أنه كشف عن ذلك قد أظهر كذلك أن النمسا كانت قد علمت من قبل بأساليب أخرى عما ينتوى الأخوان تنفيذه من الخطط » .

وقد تبع هذه الحادثة موقف السير جيمس جراهام السخيف فى مجلس النواب البريطانى ، فإنه لم ير سبيلا يدفع به عن نفسه ما أصابه من الخزى والعار سوى أن يحمل على متزينى حملة ظالمة تدل على الجهل المطبق والخلط الشنيع ، ونعته بأنه « قاتل وأجير للقتلة » مردداً تلك السخافات التى سبق أن اتهمته بها الحكومة الفرنسية التى كانت تريد الكيد له وطرده من بلادها . وقد انتقد أعضاء المجلس موقف السير جيمس نقداً شديداً وكبر عليهم أن توجه إلى الرجل مثل هذه الاتهامات وهو غائب لا يستطيع الدفاع عن نفسه . وتوالت الشهادات التى تؤيد نبل أخلاقه ، ونزاهة مقاصده ، وتشيد بماضيه الناصع ، ومواقفه الشريفة ، حتى اضطر السير جيمس إلى سحب كلامه فى المجلس . وقد أرسل كارلايل فى هذه المناسبة كلمته المعروفة إلى جريدة التايمز وقد أشرت إليها فى المقال السابق ، وكان لها أجل وقع فى نفس متزينى ، وكان كارلايل حينذاك من الكتاب المسموعى الكلمة المحترمى الرأى المشهود لهم بصدق الطوية وسلامة القصد . وقد ذكر كارلايل فى ختام رسالته أن فتح رسائل الناس يشبه دس الأيدى فى جيوبهم وما إلى ذلك من الأعمال غير اللائقة ، وأنه إجراء لا يصح أن تلجأ إليه الحكومة إلا فى حالة الضرورة القصوى ، ولا يليق أن تقوم به الحكومة البريطانية من أجل خاطر الحكومة النمساوية لأن ذلك يخالف تقاليدها والمأثور عنها .

وقد جعلت هذه الحادثة الكثير من الأسر الانجليزية تعطف على متزينى وتفتح له قلوبها وتشمله برعايتها ، وفى طليعة هذه الأسر التى خصته بعطفها أسرة أشرست ، قال عنها متزينى : « أسرة عزيزة طيبة مقدسة أحاطتنى بعناية عاطفية جعلتنى أنسى فى بعض الأوقات أنى منفى » . وكان المستر أشرست رب الأسرة محامياً ومن أصدقاء المصلح

جون بول وجزيرته

— ٢ —

وجاء تحت عنوان « جون بول والغنى » :

الغنى في انجلترا يكسو صاحبه المهابة والجلال ويضفى عليه هالة من جميل السجايا .

فإذا كنت في انجلترا غنيا أصبحت حاميا للفنون ورئيسا لمجلس إدارة المدارس العامة ونائبا عن جامعة اكسفورد في مجلس العموم . وقد تصبح عضواً في مجلس اللوردات .

وقد قال الشاعر الإنجليزى بوب : إن الغنى يجعل صاحبه رجلا له وزنه وقيمته .

* * *

وجاء تحت عنوان « لندن » :

قال الشاعر الإنجليزى شيلى : إن لندن قطعة من الأرض تشبه الجحيم من نواح كثيرة .

* * *

الاشتراكى النبيل روبرت أوين ، وشغلت السز أشرست مكانة مدام راقيبى من نفس مترينى ، وقد أصبحت إحدى بناتها مدام فنتورى وكانت من صديقات مترينى المعززات ، وقد كتبت عنه مذكرات تعد من خير ما كتب عنه فى اللغة الإنجليزية وأوثقه ؛ وقد قدمت له هذه الأسرة مساعدات قيمة ، وتعرف كذلك بعد حادثة الرسائل بجوزيف توينبى — والد المؤرخ المعروف أرنولد توينبى — وجوزيف كوين وجورج هوليوك واستيوارت مل وغيرهم من أعلام الرجال ، واتصل بجاربيل روزتى الشاعر الفنان الإيطالى المعروف ، وحاول أن يشركه معه فى الأعمال السياسية فلم يوفق فى ذلك ، وقد فرقت ما بينهما السياسة فيما بعد .

علي أدهم

وجاء تحت عنوان « أسماء الشوارع في انجلترا » :

إن انجلترا التى تستطيع أن تفخر بأنها صاحبة أجل أدب بين آداب العالم لا تطلق أسماء أدبائها وشعرائها العظام على شوارعها ، فلن تسمع بشارع شكسبير أو سبنسر أو جيبون أو سترن أو جونسن أو بيرن أو تنى كيراى أو ديكنز أو غيرهم ممن هم مجد تلك البلاد الخالد .

ولكنك تجد الشوارع مسماة بأسماء أغنياء القوم وبأسماء المدن الكبيرة . وبأسماء الملاك لأول بناية بنيت فى تلك الشوارع . فتسمع بميدان بلفورد وشارع رسل . وميدان جروزفنر وطريق ليفربول الخ .

وقد تجد شارع ملتون وشارع أديسون ولكن لا تنس أن ملتن كان كاتم السر لكرومويل ، وكذلك أديسون فقد كان موظفاً حكومياً .

* * *

وجاء تحت عنوان « بيوت الطبقة الوسطى من الإنجليز » :

ليس أبعث للسرور فى النفس من ذوق الإنجليز من الطبقة الوسطى فى تجميل بيوتهم . فإنك لتجد البيت الذى بلغ الغاية فى البساطة وقطعة الأرض التى كانت من قبل جرداء قاحلة وقد أصبحا — بين يدى الإنجليزى صاحب الذوق الجميل — متعة للناظرين .

والريف الإنجليزى يوحى إليك — فيما يوحى — بالهدوء والاعتدال . وهاتان الفضيلتان هما — فيما يبدو — الأثر الحتمى للإقامة الطويلة والمعيشة المنظمة المعتدلة .

* * *

وجاء تحت عنوان « المتحف البريطانى » :

إن بهو المطالعة والدرس فى المتحف البريطانى هو — بلا شك — أجمل الأبهاء فى العالم . وهو بهو مستدير الشكل وله قبة من الزجاج .

ويقوم بخدمة الدارسين والقارئين كتبيون أذكياء

يؤدون عملهم فى صمت وفى بشاشة ويقوم على جنبات البهو موائد ضخمة وكراسى مريحة وكل ما يحتاجه القارئ والكاتب من الأدوات اللازمة للكتابة والتفكير ومنها الهدوء ... وإنك لتجد حولك ٦٠٠٫٠٠٠ مجلد بفهارسها الكاملة المبوبة.

ولكى تجد كتاباً فى مكتبة باريس يجب عليك أن تعرف اسم المؤلف وأن تعرف تاريخ أولى طبعات الكتاب.

وقد كتب إلى واحد من أصدقائى فى باريس يطلب قائمة بأسماء كل المؤلفات الفرنسية التى عنيت بدراسة شكسبير. فلم ألبث فى المتحف البريطانى إلا ساعة من نهار حتى جاءتنى القائمة مستوفاة كاملة.

وإنك لتجد فى المتحف البريطانى أبهاء خصصت للصور ولقطع الآثار المصرية والأشورية والأفريقية والرومانية. ومن بينها قبر موسولس أحد عجائب الدنيا السبع، ومن بينها مومياء كليوبطره ورخام البارتينون وأعمدة هيكل ديانا. ومن بينها نقوش من نينوى وبابل.

وإنه لشئ عسير أن يحاول المرء تعداد تلك النفائس التى لا تقدر بمال.

وهناك مجموعات من مجموعات التاريخ الطبيعى تحوى — فيما تحوى — قسما من الهيكل العظمى للإنسان المتحجر. وهناك مجموعات من الرسائل المخطوطة وقطع النقود. وهناك المتحف النباتى والمتحف الجيولوجى.

والمتحف البريطانى يفتح أبوابه للجمهور كل يوم ما عدا يوم الأحد بالطبع. وذلك حتى لايلقى محب الدرس والقراءة عاملا من العمال أو واحداً من أفراد الطبقة الدنيا.

أما فى اللوفر فإن المرء ليجد العدد الأكبر من زائريه من بين أفراد الطبقة الدنيا.

* * *

وجاء تحت عنوان « جون بول والعدالة »:

إذا اتهم فى فرنسا متهم بسرقة ساعة فإن قاضى التحقيق يقول له فى صيغة تكاد لا تتغير:

أولى لك ثم أولى أن تعترف. فإنك متهم بسرقة ساعة، فبرهن على أن ذلك لم يحدث.

أما فى انجلترا فإنهم يقولون للمتهم: ليفرخ روعك، فإن علينا أن نقيم الدليل على صحة التهمة.

وفى انجلترا ممنوع أن يحاط الحلفون علماً بسوابق المتهم، وذلك خوفاً من أن يؤثر ذلك على حكمهم. فإذا ثبتت إدانة المتهم تولى أحد رجال البوليس شرح سوابقه. وعندئذ يطبق القاضى مواد القانون التى تتفق وسوابق المتهم.

أما الشهود فإن عرضهم مباح لكل نقد، وذلك بغية الوصول إلى تجريح شهادتهم. وقد توجه إليهم أسئلة معيبة، والويل لمن كان فى كتابه صحيفة يريد أن يطويها عن الناس.

وهاك مثالا من الأسئلة التى توجه للشاهدات من النساء: أأنت زوجة للرجل الذى تعيشين معه؟ وهل أنت وفية له؟ وأليس صحيحاً أنك مدمنة على شرب الخمر؟.

والشاهدة محتم عليها أن تجيب. وقد تغضب الشاهدة وقد تضج قاعة الجلسة بالضحكات.

وهاك مثالا على حماية القضاء الإنجليزى للمتهم مهما يكن من كره:

اتهم أمام محكمة جنايات « إكستر » أحد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وكان يقضى مدة العقوبة فى سجن دارتمور — بأنه حاول قتل أحد حراسه. وجيء بمأمور السجن لكى يؤدى شهادته فقال:

لما أحضر المتهم أمامى اعترف لى بالجريمة التى نسبت إليه. وقال إنه يأمل أن يكفر عنها بحياته. وهنا قاطعه المتهم بقوله: إنى لا أذكر أنى قلت هذا. فقال مأمور السجن: هذا يبرهن على أنك أكبر كذاب. وهنا تدخل القاضى وخاطب مأمور السجن بقوله: أيها الشاهد! إنك هنا لتدلى بشهادتك لا لتشتم المتهم الذى أرى واجباً على أن أحميه.

صور على جماجم

للكاتب الإيطالى ماسيمو بونتمبللى

هولستاد مدينة يعرفها القليل جيداً ، وصلت إليها فى سفينة آتياً من ذلك المكان المزين للملوء بالغابات الذى يدعى ابرتوان . وقطعت المسافة فى خمس وعشرين دقيقة ، وكان يصحب السفينة مجموعة من الفراش الأبيض أخذ يتخلل الضباب الذى كان يرتفع من سطح البحيرة .

وهولستاد مدينة صغيرة لا يزيد سكانها من ثمانمائة نسمة . وذلك لأن البحيرة أمامها والجبل خلفها ، وهو جبل شديد الانحدار يحميها ويخنقها كما يفعل الحماة عادة .

ويوجد شريط من الأرض المستوية بين شاطئ البحيرة وسفح الجبل . وكذلك توجد أشرطة أخرى أضيق من هذا الشريط وأعلى منه بين الصخور . ثم يصعد الجبل كالحائط بعد ذلك . وتتصل هذه الأشرطة بعضها ببعض بممرات ودرج ضيق . ويوجد فيها الساكن كما يوجد فيها حمام عام وكنيسة ومتحف ومقبرة . والمقبرة هى مثار اهتمامنا .

وهذه المقبرة صغيرة . وقد لفتت الحارسة نظرى إلى صغر مساحتها فى فخر . وظننت أن هذا يرجع إلى أن عدد الموتى قليل . ولكن هذا لم يكن سبب الفخر . وقالت الحارسة تشرح ذلك :

— لا يوجد متسع لجميع الموتى . فالأرض غير كافية .

فقلت :

— ولكن ماذا تفعلون ؟ .

— نفرغ المقبرة عند ما تمتلئ ، ومن السهل أن تمتلئ فترفع الجثث القديمة ، ونضع الجثث الجديدة .

قالت ذلك وأشارت بيدها إلى حديقة من الصلبان والزهور كنا نجتازها . فقلت :

— ولكن ماذا تفعلون بالجثث القديمة ؟

فأشارت إلى باب مغلق فى الحائط بين الصخور وقالت :

— هناك . أتريد أن تدخل ؟ .

وفتحت الباب ، وعلانى الدهش حال دخولى ، فقد رأيت مكاناً غريباً مملوءاً بالثقوب البيضاء . ثم تبينت أنه مملوء بالجماجم . كلها بيضاء ، وضعت فى نظام على الرفوف كأنها زجاجات النبيذ فى قبو الخمر ، فقالت الحارسة :

— نحفظ الجماجم هنا . فننظفها بسائل خاص ، ونضعها فوق الرفوف ، فلا يأخذ الرأس إلا حيزاً صغيراً والرأس كاف .

وتبادر إلى ذهنى مجموعة من الأسئلة ، يجرى أهمها فقلت :

— والنقوش ؟

— تبقى الأسماء ، والباقى لا يهم .

— أجل

مأمور السجن : سيدى الرئيس — إن المتهم هو أكبر قاسى شرير رأيته فى السجن .

الرئيس : إنى أمنعك من التفوه بمثل هذا الكلام . إننا هنا نحكم بالعدل مستندين إلى الحقائق لا معتمدين على سوابق المتهم .

وإن شهادتك قد تؤثر على ضمائر المحلفين . وإنى أعلن أن سلوكك هذا يخالف سلوك الرجل ذى الخلق المتين . وهو سلوك شائن معيب لموظف من موظفى الدولة .

وإنى لآمل أن ملاحظاتك السخيفة التى صدرت عن نية خبيثة لن يكون لها أى تأثير على المحلفين ولن تمنعهم عن مواجهة الوقائع بروح الإنصاف وبما يقضى به العدل وهو ما أنتظره منهم .

ومع ذلك فقد ثبتت التهمة على المتهم وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاما .

(عن الفرنسية) مبارك ابراهيم

— الأسماء عليها . .

فاقتربت من الجماجم ، فوجدت منقوشاً على الجبهة في حروف ظاهرة الاسم وتاريخين . ورأيت مرسوماً حول بعضها حلقة من ورق الشجر الأخضر ، وعلى البعض الآخر حلقة من الزهور الحمراء . فقالت الحارسة :

— الأوراق الخضراء دليل على أنها جماجم الرجال ، كما أن الزهور الحمراء دليل على أنها جماجم النساء .

فقلت : كان يجب أن أفهم .

ورأيت وسط هذا كتاباً كبيراً مطويا فوقه خمس جماجم أوست عليها ورق أخضر ، وواحدة عليها زهر أحمر فقالت الحارسة :

— هذا هو الكتاب المقدس ، وهذه هي رءوس الرهبان ، والمرأة كانت راهبة .

ثم لفتت نظري إلى جمجمة منقوش عليها صورة ثعبان بدلا من ورق الشجر أو الزهر ، وقالت :

— أترى هذه الجمجمة ؟ لقد مات الرجل بعضة ثعبان

فقلت : هذا مفهوم .

وجلت جولة ثم خرجت . وبينما كنت أبتعد من هذا المكان الغريب خطر لي أني إذا مت هنا فجأة ، فإنهم يرفعون الجلد من جمجمتي ويجعلونها بيضاء بذلك السائل الخاص ، وينقشون عليها حلقة من ورق الشجر الأخضر .

ثم نظرت إلى ساعتي في قلق ، فوجدت أن في الوقت متسعاً ، وأن أمامي بضع ساعات أقضيها حتى الغروب حين ترجع السفينة .

واقترح علي الشيطان فكرة . فرجعت إلى الحارسة ، وسألتها إن كان الرجل الذي ينقش ورق الشجر والزهور الحمراء ... والثعابين في هولستاد . فأشارت المرأة إلى مكان أحمر وأخضر عند نهاية شريط المدينة . وقالت :

— هناك حديقة الخضراوات . ثم منزل البستاني ، إنه هو النقاش .

فصعدت درجاً وشارعاً وحجارة ، ووصلت إلى حديقة الخضراوات . ووجدت النقاش هناك يعد بعض الخضراوات ، ولا يختلف في شكله كثيراً من القسس في روما : عادي الشكل ، رتيب الحركات ، هادئ النظرة . ولم أعجب من وجوده في هولستاد ، فقد عرفت من زمن بعيد أن أعجب الأشياء لها منظر عادي . ولم يدهش من مقابلتي له .

وجلسنا على مقعد من الخشب . وأخذ يجيب دون اهتمام كبير على أسئلتي عن الخضراوات أولا ثم من الجماجم ، وبعد عشر دقائق كدت أفقد صوابي من العجب ، فلم أعد أجد في المدينة ما يثير الاهتمام ، ولم تصبح عادات الدفن عجيبة . وبدت لي مهنة هذا الرجل عادية أجد مثلها في المدن الأخرى . ثم وقفت للذهاب ، وخيل إلي أن الشيطان كان يقف بجانبي وهو يشير إلى جبهة الرجل العالية . وأظن أنه هو الذي اقترح علي أن أقول :

— ألا تظن أن . . . ؟ ثم توقفت .

فقال : ماذا تظن ؟

فلم أستطع أن أسترد سؤالي . وخجلت ، وانتظر الرجل مني أن أستمر . فقلت :

— بعد مائة سنة أو نحو ذلك . أنت . . رأسك . . أعني . . ! ثم توقفت .

فسقط بيننا حائل من الصمت المروع ، ولم أستطع أن أحول بصري من عينيه . ورأيت شكل عينيه يتغير وكذلك لونهما . ووجدتهما تتسعان ويشع منهما ضوء بارد انتشر على وجهه ، فأضحى شكله غريباً يختلف عما كان عليه من قبل . وارتعشت شفتاه . وبدأ يتكلم ، فتحرك الصمت الذي وقف بيننا ، واخترقه بيده ، فأمسك يدي ، وكانت يده ساخنة ، فأحسست بالألم

وأخيراً وصل صوته ، فشعرت بالهدوء . وما زال وجهه مضيئاً بذلك الضوء البارد ، ويداه ترتعشان . ولكن صوته ظل عادياً . وقال :

لقد أعددت هذا . وضغط على يدي ثم تركها . فاستعدت ثقتي بنفسي واستمر يقول :

— لقد أعددت هذا . أراحل أنت ؟ .

— أجل .

— ألا تخبر أحداً ؟ .

— لا . . وأقسم .

— تعال معي إذاً .

وقادني إلى منزله . ولم يكن إلا مطبخاً وضع فيه فراشه ومنضدة صغيرة . وأخرج مفتاحاً ، ونظر حوله نظرة فيها شك وشر . ثم فتح صواناً . ومد ذراعه . ورفع قطعة من القماش الداكن ، فكشف عن جمجمة بيضاء عليها حلقة من ورق الشجر ، وعليها الاسم . وقال :

— هذا اسمي . لقد أعددت جمجمتي .

فأحسست بالغثيان ، ونجحت بفضل إرادتي أن أتجمد قليلا . وحاولت أن ألحظ بعيني إذا كان الباب مفتوحا . وشعرت أنه ينظر إليّ . فنظرت إليه ، وانتظر مني أن أتكلم ، فنظرت إلى الجمجمة ، وابتسمت بمجهود جبار . وأخيراً نجحت في أن أقول :

— يوجد تاريخ واحد .

— إنه تاريخ مولدي . عليهم أن يكتبوا التاريخ الآخر .

وشعرت أنه يجب أن أسأل سؤالا آخر . فقلت :

— وهل وجدت هذا سهلا ؟ فصاح :

— سهل ؟ إنها اكتشاف عجيب وصلت إليه بعد دراسة طويلة مضنية .

— لا تؤاخذني . أقصد هل أخذت منك العملية وقتاً طويلا ؟ فهدأ وقال :

— إنها تأخذ ثلاث ساعات بالطريقة التي اكتشفتها ، وهي أن أخلع الجمجمة ، ثم أضع جمجمة أخرى . إنها عملية قليلة الألم ، تحتاج إلى بعض الجروح غير العميقة ، أجريها بشرط خاص . وقد اخترعت هذا الشرط أيضاً . وعندما أجريت لنفسي هذه العملية . وقفت أمام المرآة . واحتاج هذا إلى مجهود وألم مضاعف . . . تصور أني بعد إجراء العملية الناجحة سقطت على الأرض مغشياً علي . ووجدوني بعد بضع ساعات ، وأرسلوني للعلاج ، ولست أدري أين . . وكنت خائفاً عندما خرجت ألا أجد الجمجمة ، ولكني وجدتها لحسن الحظ في مكانها . فنقشت عليها ما ترى . ثم أكملت دراستي . وأنا الآن أستطيع القيام بهذه العملية لأي إنسان آخر بقليل من الألم .

فسألته : وهل أجريت العملية لإنسان آخر ؟ .

فاندفع يقول : مجموعة من الحمير . . . إنها بلاد الأغبياء والجبناء والماديين . لقد اقترحت إجراء العملية على العمدة من ثمان سنوات قبل إجرائها لأي إنسان آخر احتراماً له وتقديرا . وتطوعت بالقيام بهذا العمل دون أجر ؛ فصرخ في وجهي وأشاع أني مجنون . ثم اقترحت هذا على القسيس فحرمني من الكنيسة . وثارت على المدينة بفضل هذين الرجلين . واضطررت أن أقول إني كنت أمزح ، واحتفظت لنفسي بسر اختراعي ، ولكني انتقمت .

فقلت : وكيف ذلك ؟

فقال في صوت منخفض : أراحل أنت من هنا ؟ .

— أرجو ذلك .

— ولن تخبر أحداً ؟ .

— أقسم لك .

قال : لقد مات الاثنان ، أحدهما بعد ستة أشهر من الآخر . فنقشت زهراً أحمر على رأسيهما بدلا من الورق الأخضر .

ثم ضحك ضحكة جوفاء وقال :

— نساء في عالم الخلد .

وساد صمت طويل . وحالت فيه ضربات قلبي دون تفكيري في الرحيل . وقطع الرجل الصمت فجأة ، وأمسك بذراعي وقال :

— أجبني . أأنا في حاجة إلى رجل غريب . أنت . أنت الرجل الذكي . سوف أجري لك العملية . أجل . . سوف أقوم بها دون أجر . وسوف أنقش جمجمتك الآن .

غادة الشرفة

[وعند ما تنام كل عين إلا عينيها الساهرة
وعند ما تهدأ كل روح إلا روحها الشاردة
وعند ما ينشد الرعاة أناشيد العودة إلى أكواخهم
وعند ما يأوى المكدودون بأجسامهم من عناء اليوم
وعند ما يمسك الشاعر قيثارته يداعب أوتارها
بأناشيد الحب والأمل ، والحياة
تقف هي في شرفتها السامقة بثوبها الأزرق الشفوف
حالمة كالزهرة الوسنى فوق غصنها الأملد]

إذا ما نامت الدنيـــا
ونام الطيـــر في وكره
وجاء الليـــل في صمت
يلف الكون في ستره

ورفّت في الدجى للسحـ
ـر أشبـاح على إثره
وغنّى العاشـق الولهــا
ن لحن الحبّ في فجره
وأفضى كل معشـــوق
بما يخفيه في صــدره
وظل الزورق النشـــوا
ن يستوحى هوى نهره
وصــفق قلبـــه الطرا
ب يطوى الموج في سيره
إذا ما الليل قد جَنّ
وأنت سهرت في خدره
وجئت الشرفة العليــــا
بثوب رق من ســـحره

وستتحدث عنها بعد ذلك . ستقول إنها حقيقة واقعة وإنها اختراع عظيم .

— حسناً .. أقول ..

— سوف لا تتركني أنت أيضاً وتثير أمامي الصعوبات

وهزني بقوة فقلت : طبعاً لا . ولكن أخبرني . أتفضل إجراء العملية والمعدة فارغة أم بعد الأكل ؟

فدهش الرجل من هذا السؤال وترك ذراعي وقال :

— المعدة فارغة .

— يا للأسف . — لماذا ؟

فقلت : لأني أكلت كثيراً قبل حضوري إلى هنا ، ولولا ذلك لأجريت العملية . ولهذا يجب أن نؤجلها إلى صباح الغد . يا للأسف !

فوضع يده على كتفي في عطف وقال :

— لا بأس . كن صبوراً . انتظرت طويلا وتستطيع أن تنتظر إلى صباح الغد . ارجع عند شروق الشمس ، وسوف أقوم بها .

— حسناً يا أستاذ .

قلت هذا وأنا في منتصف الحجرة .

— سوف أذهب للنوم وغداً صباحاً أحضر نشيطاً بعد الراحة .

وكنت قد وصلت إلى الباب فقلت :

— أشكرك . إلى اللقاء غداً .

وعبرت الحديقة الصغيرة . وأسرعت دون أن أهتم بالدرج والممرات ، وجعلت أقفز فوق الحفر والصخور ، بينما كانت ظلال الجبال تمتد وتغلف الوادي بالظلام . وتداعى ناقوس السفينة بصوت خيل إلى أنه أعذب من أنشودة جميلة . ثم وصلت إلى مرسى السفينة وقفزت إلى داخلها .

وسارت السفينة وساد الظلام وانتظمت دقات قلبي ، ولم أكن أرى الفراش الأبيض الذي يصحب السفينة في هذا الظلام الحالك .

حسن لطفي المنفلوطي

الثقافة

AL-THAQAFA

مجلة أسبوعية : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٣٩٠ / ٥٦٢٢٩

العدد ٤٠٥ — الثلاثاء ٦ من ذى القعدة سنة ١٣٦٥ — ١ من أكتوبر سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

قلق اجتماعى واقتصادى

أخذت آثار القلق الاجتماعى والاقتصادى التى تخلفت من ظروف الحرب تبدو واضحة فى الحياة المصرية ؛ وهى تتخذ مظاهر كثيرة ، فازدياد التفاوت فى المستوى الاجتماعى بين الطبقات ، وتبرم بعض الطوائف التى تعتقد أنها مغبونة مهضومة الحق ، وتفشى البطالة بين العمال والشباب المثقف على السواء ، وظهور الدعوة إلى المبادىء الاجتماعية المتطرفة فى بعض البيئات والكتابات ، وازدياد نسبة الجرائم : هذه وغيرها من أمارات القلق الاجتماعى والاقتصادى أخذت تغزو الآن مجتمعنا المصرى بصورة لا تدع مجالا إلى الشك فى أننا مقبلون على فترة صعبة قد تفوق فى أزماتها ومتاعبها ما قاسيناه خلال الحرب ذاتها من صنوف المتاعب والأزمات .

وقد يقال إن مصر شأنها فى ذلك شأن سائر البلاد الأخرى التى تعانى من آثار الحرب العالمية الثانية أشد مما تعانيه مصر بكثير ، وتغمرها ضروب من الفوضى الاجتماعية والاقتصادية التى جنبت مصر ويلاتها ؛ ولكن الواقع أن لمصر شأنها الخاص وظروفها الخاصة ؛ فهى لم تشترك فى الحرب بصورة فعلية مباشرة ، ولم يصبها من التخريب ما أصاب البلاد الأخرى ، وكان حريا بها ، وقد كانت خلال الحرب وما زالت أعظم البلاد المنتجة للمواد الغذائية فى الشرق الأوسط ، أن تجوز بعد الحرب فترة رخاء واستقرار اقتصادى واجتماعى طويل الأمد .

ولكن مصر فرضت عليها خلال الحرب من هذه الناحية تضحيات هائلة لمصلحة حليفتها انجلترا ومصلحة الجبهة الديمقراطية بصفة عامة ، فلم تجن خلال الحرب ما كان حريا أن تجنيه من المغانم المادية ، وكانت مصر تعتقد أنها ببذل هذه التضحيات الجمة تخدم قضيتها الوطنية ، حتى إذا أقبل النصر كان من حقها أن تقتضى شيئا من العرفان

وشكر الصنيعة من أولئك الذين وقفت إلى جانبهم وقت المحنة واحتملت في سبيلهم ما احتملت من آلام وتضحيات

وأقبل النصر وانتهت الحرب ، فإذا حلفاء الأمس يشيحون بوجههم من مصر ، وإذا النزعة الاستعمارية تعود فتضطرم كما كانت ، وإذا مصر تشعر بخيبة أمل مرة ودعنا من الكفاح السياسي الذي اضطرت مصر إلى استئنافه في سبيل قضيتها من جديد ، فإن مصر لم تستطع أن تسترد حتى حريتها الاقتصادية ، ولم تستطع حتى الآن أن تتحرر من مختلف القروض والقيود التي وضعتها الحليفة أو الحلفاء لتحد من نشاطها الاقتصادي سواء في الداخل أو الخارج ، وذلك لأسباب ومعاذير مختلفة .

والآن تجد مصر نفسها بعد أن مضى على انتهاء الحرب أكثر من عام في مأزق اقتصادي شديد الحرج يتصل أشد الاتصال بما تعانيه من القلق الاجتماعي ؛ فمحصولها الرئيسي وهو القطن مقضي عليه بالكساد لأسباب كثير منها غير طبيعي ؛ وهي ليست متمتعة بتمام الحرية في شأن محاصيلها الغذائية ، إذ يؤخذ جزء منها لتموين بعض الجهات الأخرى ؛ وهي لا تحصل مع ذلك من انجلترا على ما تحتاج إليه من مختلف المواد والسلع التي اعتادت أن تحصل عليها ؛ ثم هي ما زالت تعاني الكثير من ضغط القوات الأجنبية الباقية في أرضها دون مبرر على مرافقها ومواردها التموينية ، ويزيد في آثار هذا الضغط وجود عدد كبير من الجنود واللاجئين اليونانيين واليوجوسلافيين والبولونيين ومن أسرى الحرب الألمان والإيطاليين ؛ فمتى ترحل هذه الألوف المؤلفة من البلاد ؟

هذا وأما عن سير الأحوال الاقتصادية الداخلية فإن ظروفها ليست مما يبعث إلى الطمأنينة ، بل بالعكس مما يبعث إلى الجزع ؛ فقد عادت الأموال الأجنبية إلى نشاطها السابق تسير قدما في سبيل السيطرة على الاقتصاد المصري ، ويحاول بعضها الاستتار وراء بعض الشركات المصرية الصورية التي كثر تأسيسها في الفترة الأخيرة . وقد أخذ كثير من المشاريع والصناعات المصرية التي نشأت وازدهرت خلال الحرب ينهار أو يتعثر الآن من جراء زوال الظروف الاستثنائية التي عاونت على نجاحها، وافتقارها إلى الحماية من المنافسة الأجنبية القوية ؛ وقد ترتب على ذلك تفشي البطالة في بعض البيئات الصناعية المصرية ، وشرد كثير من العمال المصريين الذين كانت تقوم على سواعدهم هذه المشاريع والصناعات ؛ أضف إلى ذلك ما حدث من تسريح عشرات ألوف من الفنيين والكتبة والعمال المصريين الذين كانت تستخدمهم السلطات العسكرية البريطانية والأمريكية خلال الحرب لانتهاء كثير من الأعمال التي كانوا يضطلعون بها بانتهاء الحرب ، وتعذر إيجاد أعمال جديدة على الكثير منهم ، ووقوع الآلاف منهم بين براثن التعطل والحاجة ، وعجزهم عن إعالة أسرهم ، وتعرضهم بذلك لسموم التحريض والدعايات الاجتماعية الخطرة على النظام والأمن ، وما ترتب على ذلك كله من نشوء مشكلة عمالية اجتماعية لم تواجه مصر من قبل مثلها دقة وخطورة .

* * *

وهنالك مشكلة الشبان المتعلمين ، وهي ليست أقل خطورة من مشكلة العمال المتعطلين ؛ ولا نريد أن نعرض هنا لمشكلة الطوائف المتبرمة من موظفي الحكومة كالمهندسين والمعلمين وغيرهم ممن تحركوا في المدة الأخيرة وهددوا بالإضراب أو أضربوا بالفعل وطالبوا برفع ما لحقهم من غبن ، وتحسين أحوالهم بما يتفق مع مقتضيات العدل والإنصاف ؛ فليست مشكلة هؤلاء مما يتعذر حله على أولي الأمر ، وليست أكثر من مسألة اعتمادات مالية ؛ ولكنا نريد أن نشير إلى ألوف الشبان المتعلمين الذين لم تسعهم دور الحكومة ولم يسعدهم الحظ بالحصول على أعمال في الميدان الحر ، في البنوك أو الشركات وغيرها من المنشآت

الحرة ؛ فهؤلاء مشكلة تستفحل باستمرار ، لأنهم لم يظفروا حتى اليوم بالتشريعات التي تكفل حمايتهم من المنافسة غير المشروعة التي يلقونها من العناصر الأجنبية في سائر نواحي العمل الحر ، ولأن الشركات الأجنبية لم تفكر حتى في احترام اللوائح القائمة التي تتطلب منها استخدام نسبة معينة من المصريين في أعمالها الفنية .

وتتخذ هذه المنافسة صوراً مختلفة ، ولا يقتصر الأمر فيها على العناصر التي كانت موجودة في مصر من قبل ؛ بل يزيد الأمر خطورة أن البلاد أصبحت بسبب ظروف الحرب ومنذ انتهائها عرضة لتسرب كثير من العناصر الأجنبية التي جاءت في أعقاب الجيوش من اللاجئين وغيرهم من المسرحين الذين اندسوا إلى المجتمع المدني ، وممن يتسللون خلسة إلى البلاد من أبناء بعض البلاد القريبة من مصر بطرق غير مشروعة ، ومن يحاولون بعد دخول البلاد أن يبقوا فيها بمختلف الوسائل ؛ وقد أسفرت حملات البوليس التفتيشية أخيراً عن القبض على عدد كبير ممن تسللوا إلى البلاد أو بقوا فيها بطرق غير مشروعة ؛ ومن المحقق أن الذين قبض عليهم ليسوا إلا جزءاً يسيراً من هذه العناصر الدخيلة التي تريد أن تفرض نفسها على البلاد كرها ، وهي عناصر لا يقف خطرها عند منافسة المصري في مختلف الأعمال والتضييق عليه في وسائل العيش ، ولكن فيها عناصر تحمل بذور الدعوات الاجتماعية الخطرة ؛ وعناصر يغلب عليها الإجرام كما دلت الحوادث غير مرة ؛ وفي ذلك من الخطر على الأمن والنظام ما فيه .

* * *

ونستطيع أن نشير بهذه المناسبة أيضاً إلى ما هو واقع من إغضاء حكومتنا إزاء جاليات الأعداء السابقين ولاسيما الجالية الإيطالية الكبيرة العدد ، وقد بدأ أبناؤها من جديد يتزلون إلى منافسة المصريين منافسة شديدة في كثير من الأعمال والمهن ؛ وقد كانت الفرصة سانحة لمصر عندما سويت مسألة التعويضات الإيطالية ، أن تعمل على تصفية مركز رعايا الدولة التي اعتدت على مصر وحاولت أن تقضي على استقلالها ؛ ولكن مصر لحكمة لم ندركها لم تفعل شيئاً في هذا السبيل ؛ هذا في حين أن الحبشة قد سبقتها إلى اتخاذ هذا الإجراء الناجع ، فأخرجت جميع الرعايا الإيطاليين من أرضها ؛ وهنالك أيضاً من رعايا الأعداء السابقين الجاليات المجرية والرومانية والبلغارية ، وهذه الجاليات جميعاً يجب النظر في أمرها على ضوء المصلحة الوطنية ، ويجب أن يتخذ بشأنها من الإجراءات ما يكفل حقوق الرعايا المصريين ويكفل حمايتهم من المنافسة غير المشروعة ، ويجب أن يبعد منها على الأقل جميع العناصر غير المرغوب فيها ، وذلك دون التقيد في ذلك بنصوص معاهدة مونترو .

هذه المشاكل كلها ، وهذه العوامل والأسباب المتنافرة تمت جميعاً بأوثق صلة إلى ما تعانيه البلاد في الآونة الحاضرة من أسباب القلق الاجتماعي والاقتصادي ؛ وهو قلق يتخذ اليوم صوراً مزعجة لا يطمئن لها الحريصون على سلامة المجتمع المصري ، وسلامة دعائمه ونظمه ؛ فإذا كانت مصر تحرص على أن تتمتع بأسباب الطمأنينة والأمن والرخاء ، فعليها أن تتدارك الداء في بدايته ، وأن تبادر إلى معالجة هذه الظواهر والعوامل التي يتصل الكثير منها بتركة الحرب المثقلة ، والتي مازالت تبعث إلى الحياة المصرية ضيقاً يتزايد على كر الأيام : عليها أن تعمل للتحرر من كل سياسة اقتصادية داخلية أو خارجية لا تتفق مع مصلحة البلاد ، وأن تكفل بالتشريعات الحكيمة الواقية حقوق المصريين ومصالحهم في ميادين النشاط الاقتصادي ، وأن تعمل بالأخص لحماية الاقتصاد المصري من كل سياسة ترمي إلى استعباده والسيطرة عليه ، ومن كل نشاط دخيل غير مشروع .

محمد عبد الله عنان

حول تكريم المليك للتفوق العلمي :

خواطر

اعتاد المليك أعزه الله سنة هي أن يأمر كل عام بدعوة جمهور المتفوقين والمتفوقات في جميع الامتحانات الدراسية ومعهم رؤساء ورئيسات المعاهد التي تخرجوا فيها ، بدعوتهم جميعاً ومعهم لفيف كبير من رجال الصحافة إلى حفلة شاي أنيقة بسرای رأس التين العامرة بالاسكندرية يشرفها جلالة الملك بشخصه الكريم يحف به رجال القصر ، فيتجلى فيها عطفه على أبنائه النوابغ وتقديره للعلم وأثره في رقي الأمة ورغبته السامية في النهوض بشعبه العظيم حتى يتبوأ المكان اللائق بماضيه المجيد وما تتطلع إليه نفسه من مستقبل زاهر مشرق .

ما أجمل هذا الحفل وأروعه ، وما أجمل المعاني التي يرمز لها والخواطر التي تجيش في نفس كل من حضره واشترك فيه !

وأول هذه الخواطر ما يتصل بالبعثات العلمية إلى أوربا تلك البعثات التي رأى منشىء مصر الحديثة وجد مليكنا العظيم محمد على الكبير أنها من أهم الوسائل للنهوض بالبلاد ، فهي تخلق جيلا متعلما خير تعليم ومدربا خير تدريب حصل من العلم على آخر ما وصل إليه في البلاد الراقية ، ومن المهارة الفنية على آخر ما انتهى إليه الفن التكنولوجي ، فهؤلاء وهؤلاء عماد الحضارة والرقي الفكري والمادي ، وعلى أكتافهم وما تنشئه سواعدهم وما تنتجه قرائحهم يقام صرح العلم الموجه ، والفن الملهم ، والاقتصاد المنمي للثروة ، والثقافة التي تنتشل السكان من وهدة الجهالة والمرض .

والذي يستمع في هذا الحفل الرائع إلى مختلف نواحي التخصص والنشاط العلمي والعملي التي حددت لأعضاء البعثات العلمية يتبين أوجه النقص التي أريد أن تسدها هذه البعثات وما يهدف إليه برنامجها من الإحاطة بنواحي الرقي والعمران مما يملأ النفس أملا في المستقبل ويثلج صدور دعاة الإصلاح وقادة النهضة .

والخاطر الثاني الذي يطوف بالنفس في هذا الحفل الجميل يتصل بالمظهر الديمقراطي العظيم الذي يتجلى فيه ؛ ولعل العلم وما يتصل به أقرب إلى روح الديمقراطية من كل ما عداه ، فالعلم يحترم الرأي مهما كان مصدره . والمليك المحبوب يكرم التفوق العلمي في شخص المتفوق بغض النظر عن أصله وحسبه ونشأته وبيئته وعقيدته وديانته وآرائه ومبادئه السياسية . وها أنت ترى هذا الجمع الحاشد من الفتيان والفتيات والرجال والسيدات من مختلف الطبقات والهيئات يأكلون ويشربون ويمرحون ، ويحترون بمشاركة المليك المحبوب لهم واندماجه في وسطهم اندماجاً يتجلى فيه العطف والحنو والحدب ، بعيداً كل البعد عن أي مظهر من مظاهر الكلفة والتعاظم ، والحواجز التي كان يظن الناس أنه لا مفر من وجودها ، فإذا بهم يرونها متلاشية منعدمة قد حل محلها ذلك الجو العائلي الظريف الملهم .

ويسوقنا هذا في الحال إلى الخاطر الثالث الذي يجول بالنفس في هذا الحفل الجميل . ألا وهو الأثر العظيم الذي يحدثه في نفوس الشباب المكرمين ، فهو يشعرهم أولاً بأن القيام بالواجب على خير وجه والجد في العمل والتحصيل والحرص على الإتقان والإجادة محل تقدير من أعظم شخصية وأسمى مقام في البلاد ؛ ولا شك في أن هذا سيكون له أعمق الأثر في حفز هذا الشباب على مضاعفة المجهود ومواصلة العمل بالليل والنهار للاحتفاظ بهذه المكانة الرفيعة التي وصلوا إليها وهذا العطف السامي الذي استحقوه . ولعل هذا الحفل يكون نقطة انقلاب في تاريخ كثير من هؤلاء الشبان النابهين ، تفتح لهم فيها آفاق جديدة وآمال واسعة ، ولا يقتصر هذا الأثر المحمود على الشباب الذين يسعدون

بشرف الدعوة إلى هذا الحفل ؛ وإنما يمتد إلى أولئك الذين لم يحصلوا بعد على هذا الشرف وتتوق نفوسهم إليه ، فيتفسح أمامهم الأمل وتلهب نفوسهم الرغبة فى الفوز بمثل هذا الشرف العظيم وهذا العطف السامى .

* * *

على أنى لا أكتم القارئ، أن الخواطر التى مرت بى فى هذا الحفل لم تكن كلها من هذا النوع البهيج ، فقد مرت بى معها بعض خواطر مقلقة قد يكون من الأمانة والإنصاف أن أشير إليها ، لعل فى ذلك فائدة للشباب بصفة خاصة وللأمة كلها بصفة عامة .

وأول هذه الخواطر المقلقة أن نسبة كبيرة من هؤلاء الفتيان والفتيات ليسوا على القدر الواجب من الصحة والعافية التى يجب أن تكون فى الشباب فى هذه السن المبكرة من الحياة . وأخشى أن يكون فريق من هؤلاء الشبان والشابات قد أجهد نفسه فى العمل فوق ما ينبغى ولم يعن بالرياضة البدنية واتباع القواعد الصحية العناية الواجبة الكافية ؛ وإلى مثل هؤلاء أسوق هذه الملاحظة على سبيل التذكير ، وليعلموا أن لبدن الإنسان عليه حقاً ، وأن العقل السليم فى الجسم السليم ، وأن العبقرية والنبوغ الفكرى تحمل جسم الإنسان أعباء لا يتسنى له الاضطلاع بها ما لم يعن الإنسان بقواعد الصحة ويوف هذا الجسم حقه من النشاط والرياضة المنعشة .

والخاطر الثانى من هذا النوع ترددت مراراً فى أن أذكره ولكنى استخرت الله وعزمت على ألا أكتم أمراً كهذا فى نفسى ، ألا وهو أن بعض هؤلاء المتفوقين بحاجة إلى شىء من الصقل الاجتماعى ؛ أقول هذا وأنا أعلم أن المجتمع المصرى لا يعنى بأمر الصقل والتهذيب كما ينبغى ، ولكننا الآن بصدد فئة من الشباب نرجو أن تكون لهم الصدارة فى المستقبل ، ولذا فإن طالب الإصلاح جد حريص على أن يتوافر لهؤلاء الكمال فى كل شىء بقدر الإمكان ؛ ومثل هذا الصقل والتهذيب من ألزم الأمور لهم وأعودها عليهم وعلى سمعة البلاد بالخير .

بقى أن نسطر خاطراً أخيراً فى صورة نصيحة نسديها ونخص بها أولئك الذين سيبعثون من الديار إلى البلاد الأجنبية من أعضاء البعثات ؛ ألا وهى أن الطالب حين يرسل لأوربا أو أمريكا لا يقصد من إرساله إليها مجرد تحصيل العلم والفوز بشهادات أو درجات فحسب ، وإنما يهدف مختاروه للبعثة إلى أغراض أخرى غير هذه الأغراض العلمية البحتة ، ومن هذه الأغراض اندماج المبعوث بالمجتمع الذى يعيش فيه هناك اندماجاً يمكنه من الوقوف على حسنات هذا المجتمع وسيئاته وعلى طريقة تفكير الأمة التى يعيش فيها وأسلوب أهلها فى الحياة والمعاملة ، كل ذلك بقصد اقتباس خير ما يقع عليه مما يكمل الإنسان فى عقليته وفى سلوكه فى المجتمع وفى توسيع ثقافته . وإنا لنرجو أن يعير المبعوثون هذه الناحية ما تستحقه من العناية ، ونبادر بتحذيرهم من الوقوع فيما وقع فيه كثيرون ممن سبقوهم ممن ظنوا أن كل ما فى المدنية الغربية خير ، فانغمسوا فيه دون أن يميزوا الصالح من الطالح ، وخيل إليهم أن كل ما فى المدنية الغربية يفوق ما فى المدنية الشرقية ؛ وهو خطأ نرجو أن يعصم الله منه هؤلاء المبعوثين الجدد . وليعلموا أن من تقاليدنا الشرقية ما هو من السمو والعظمة بحيث يجب التمسك به والحرص عليه والاعتزاز بالانتساب إليه .

وليعلم هؤلاء أخيراً أنهم عنوان أممهم أو السفراء الحقيقيون لها ، ومن ثم كان عليهم واجب هو مراعاة كرامة أممهم والحذر من أن ينالوا منها بسوء تصرفهم ، والحرص على أن يرتفعوا بقدر أممهم فى كل مناسبة وفى جميع الظروف ؛ وليس هذا الأمر الهين ، فهو يستدعى يقظة والتفاتاً فوق العادة ، ودقة فى الكلام ، ووزناً للأمور ، ولباقة فى التصرف . وكل هذا يتطلب إرادة قوية .

وإنا نرجو لهم جميعاً التوفيق والهداية .

أحمد عبد السميع الكردانى

فى سوق البغال

قد كنت أعلم حقاً وصدقاً ويقيناً أن الليالى من الزمان حبالى يلدن كل عجيبة ، لكننى لم أكن أعلم أن عجائب الزمان قد تهزأ بالخيال ، ما شطح منه وما جمح ، حتى تصنع أن بغلا يحتج ويحاج كما يفعل عباد الله من بنى الإنسان .

فقد حدثنى صديق انجليزى ، كان ضابطاً فى البحرية إبان الحرب ، عن زميل له طوحت به خطوب البحر إلى جزيرة نائية فى عرض المحيط الهادى ، لم يرد سكانها فيما رأى عن بضع مئات ، اختلفت طبائعهم عن طبائعه ، وألسنتهم عن لسانه ، لكنه كان فى خبرته بالحياة فسيح الأفق بحيث لم يدهش لاختلاف الشعوب فى طرائق العيش وأساليب التفكير والتعبير ، فالناس فى رأيه ناس إن ابيضت جلودهم أو اقتتمت ، والناس ناس إن دارت ألسنتهم فى الأشداق من اليسار إلى اليمين أو دارت من اليمين إلى اليسار ؛ لكن الذى أدهشه حقا من أهل الجزيرة سذاجة بلغت بهم فى سرعة التصديق حداً لم يألفه فيما شهد من شعوب الأرض طرا ، فهم يتناقلون رواية خلفا عن سلف يؤمنون بصدقها لإيمانهم بصدق رواتها ، مع أنها تنافى أوضاع الطبيعة كلها ، أو قل إنها تنافى ما ألف ذلك الزميل من هذه الأوضاع .

فقد روى له هنالك راو أنه منذ مائة عام عرضت فى ساحة السوق من الجزيرة جماعة من البغال للبيع والشراء جىء بها من أرض فى شمال افريقيا لعلها بقعة من صحرائها لم يعرف أهل الجزيرة كيف يسمونها ؛ فأخذ الأمر يجرى مجراه المألوف عند القوم هناك كلما تم بينهم بيع أو شراء ؛ عرضت البغال وجاء الشارون ؛ فلم يكن بد من أن تنزع من ظهورها السروج ومن أفواهها اللجم ، لتبدو عارية من كل زينة ؛ وأخذ الخبراء يجسون عضلاتها هنا ، ويختبرون مفاصلها هناك ، ويفتحون أفواهها لينظروا إلى أعمارها فى أسنانها ؛ ثم يركبونها ويدورون بها فى ساحة السوق دورة أو دورتين ، ليروا أهى فى جريها من العاديات أم الزاحفات ، خفاف الحركة هى أم ثقالها ، ويختبرون قدرتها على الحمل والجر بشتى الوسائل ، ليثق الشارون أنهم لن ينفقوا مالهم عبثاً إن أنفقوه ثمناً لهذه البغال .

لكن البغال فيما يظهر لم تعجبها هذه الطريقة فى التقويم والتسويم ، لأنها تختلف عما ألفته فى بلادها ، وهنا كانت المعجزة التى أدهشت صديق وأدهشتنى وستدهش كل قارىء وسامع ؛ وهى أن ثارت البغال على سيدها وشقت عصا الطاعة على نحو يشبه جدا ما يصنعه البشر إذا غضبت منهم طائفة لأمر أو أعلنت عصيانها ، فلم تكن ثورة البغال جوحا أو شموسا ، كلا ولا رفسا وركلا ، بل كانت احتجاجا يقوم على علل وأسباب ، أشبهوا فيه الآدميين لولا خلل فى النطق قل أن يزل فيه الآدميون ؛ أقول لولا هذا الخلل فى طريقة التفكير لظلنها فى ثورتها جماعة من البشر سحرها ساحر ممن جاءتنا أنباؤهم فى كتب الأقدمين ، فاستحالت بغالا وما هى بالبغال ، أو تقمصت أرواحها أجساد البغال فبقى لها من صفاتها الأولى شىء وزال عنها شىء .

أوشكت عملية الجس والفحص أن تنتهى بتاجر البغال أن يضع فى أسفل سلم التقدير بغلا هزيلا ضئيلا رخو العود لين عضلاته لكل غامز ، فإن جرى تعثر وإن حمل على ظهره هوى ؛ لكن سرعان ما أثار هذا البغل الهزيل إلى سائر البغال فانتبذت ركنا من ساحة السوق ، تتبادل الرأى والشورى ، فإن لم تدهش لبغال تجادل وتقاول ، فادهش لأن تكون الزعامة لبغل لم يكن أضخمها حجما ولا أروعها شكلا أو أسرعها حركة ؛ وأغلب الظن أن قد كانت له صفات رأتها البغال ولم تدركها أعين البشر .

قال البغل الزعيم لزملائه : ليس الرأى عندى أن نترك القوم يتحكمون فى أقدارنا كما شاءت لهم أهواؤهم ، وإنهم

لعلى ضلال ، فقد أراد الله لنا أن نكون بغالا ولله حكمته فيما أراد ، ثم شاء لنا أن نكون مركبا للإنسان وأداة لحمل أثقاله ، ولسنا على هذا القضاء المحتوم بثائرين ، فالدنيا تبادل وتعاون ، نحن نحمله وأثقاله ، وهو يمدّ لنا المأوى ويقيت الغذاء ، لكن الذى لا ينبغى أن نلين له هو هذا الظلم والحيف والإجحاف ؛ فما هكذا يكون تقويم البغال ، ولو تركناهم فى ذلك وشأنهم اضطربت أوضاعنا ، فعلا أسفلنا وسفل أعلانا ؛ وقد خلقنا الله درجات بعضها فوق بعض ، ومن الجحود بل من الكفر بنعمة الله أن نسوى بين هذه المنازل المختلفات ، أو نغير فيها ونبدل ؟ فهل أوفد عنكم لدى صاحب الأمر فأحتج لكم ، فإما أقام العدل ميزانه ، وإما ثورة منا وعصيان ؟ .

فاجتمع رأى البغال على أن يبايعوا فى ذلك البغل الزعيم

تقدم كبير البغال وفى أثره الزملاء ، والناس إزاء ذلك كله مفغورة أفواههم من عجب ، مفتوحة أعينهم من رعب وخوف ؛ فهم يؤمنون بالمعجزات الخوارق التى لا تجرى على سنن الطبيعة ، على شريطة أن تكون تلك المعجزات رواية تروى ، لا حدثاً يقع منهم على مرأى ومسمع

قال البغل الزعيم لصاحب الأمر : لك أن تصنع بنا ما شئت فى حدود العدل ، وليس عدلا أن يكون هذا أساس التقويم . لقد نزعتم عنا اللجم والسروج ، فماذا أبقيتم لنا مما تتم به المفاضلة بين الجيد والردىء ؟ فما بغل بغير سرجه ولجامه ؟ وفيم هذا الجس فى عضلاتنا ، وهذا الإرهاق كله فى فحص أجسادنا ؟ إن ذلك بدع لم نعتده فى بلادنا .

ارتعش صاحب الأمر من فرق ، وأجاب وقلبه فى حلقه فزعاً : لست أرى فى ذلك بدعاً ، فتلك سبيلنا فى التقدير ، الشىء عندنا قيمته فيما يصنعه ، فالطبيب طبيب بمقدار ما يطب المرضى ، لا بسماعته التى يلفها حول عنقه ، والحذاء حذاء بما يجيد من صناعة الأحذية لا بالغطاء الجلدى على ركبتيه ، والكلب السلوقى ممتاز لما يصنع فى حلبة الصيد لا بطوقه البراق ، والسيف بتار بحده لا بغمده ، فأى عجب فى أن يكون البغل بغلا بقوته وسرعته لا بسرجه ولجامه ؟ .

فأجاب كبير البغال : إنكم فى هذا البلد تنخدعون بحقائق الأشياء ، وإنكم فى هذا لعلى ضلال مبين ، الشمس فى حقيقتها كتلة ضخمة مهلهلة من غاز مشتعل ، لكنها عند من يعقل قرص صغير مستدير ، لأنها تبدو لعينه قرصاً صغيراً مستديراً ، والقمر فى حقيقته جسم معتم ، لكنه عند من يفهم سراج منير ، لأنه يبدو لعينه سراجاً منيراً . الطبيعة كلها بإنسانها وحيوانها ظواهر ومظاهر ، فماذا تشذ عندكم البغال فى تسويمها .

فسأل التاجر : كيف إذاً يسوم البغال فى بلادكم ؟

فقال البغل الزعيم : فى بلادنا لا الزبد يذهب جفاءً ولا ما ينفع الناس يمكث فى الأرض ، فليست تخدعنا الحقائق عن إدراك الظواهر ، ولا تزيغ الألباب أبصارنا من رؤية القشور ، فلنا فى تسويم البغال وسائل شتى ، أكثرها شيوعاً أن تتناسب قيمة البغل مع قيمة راكبه صعوداً وهبوطاً ، فليس البغل يمتطيه الغنى فى حريره ونضاره كالبغل يركبه الفقير فى هلاهله وأسماله ، وليس البغل يختال على صهوته صاحب الحول والطول ، كالبغل يعلوه من ليست له سطوة وسلطان ؛ وقد تعلو قيمة البغل لأن أباه كان مشدوداً إلى عربة أمير أو وزير ، فتكتسب العربة هيبة من هيبة الراكب ، ويستمد البغل الوالد قيمة من قيمة العربة ، ثم يأتى البغل الولد فيزداد قدراً لازدياد قدر أبيه .

ليس هذا المعيار فى المفاضلة والتقويم بهين ولا ميسور ، ففيه من الدقة ما يخفى على غير الخبير ؛ إذ قد تغمض الفوارق بين الراكبين أحياناً ، حتى ليتعذر على مثلك ومثلى أن يعلم فى يقين أى الراكبين أرجح مثقالا ، ليكون بغله أعلى منزلة ومقداراً . وكم من بغل أخطأ فى ذلك الحساب

فهوى نجمه وكان يحسبه إلى صعود ؛ لهذا نشأت بين طائفة من الخبراء ، مهمتها أن توازن بين أقدار الراكبين ليعتدل بذلك ميزان التسعير بين البغال ، وإنك لتدهش أن ترى حساب الخبراء قد يدق ويدق حتى يصبح معادلة جبرية يحتاج فك رموزها إلى مران طويل ، خذ لذلك مثالا :

أى الراكبين أعز سلطانا ، راكب سطوته فى قومه وسط بين الضعف والقوة لكنها سطوة تدوم وتتصل ، أم راكب جبار مكتسح غير أن قوته تظهر آنا وتختفى آنا ؟ فلقد رأيت فى ذلك بغلين اقتتلا أيهما أقوى سنداً وأعز ظهيرا ، أحدهما يقع راكبه فى الناس بين بين ولكن قوته موصولة الحلقات لا تزول ، والثانى راكبه يسطع ضوؤه ويخبو كمصباح المنار فى الليلة الظلماء ، فإن سطع خطف بريقه الأبصار ، ولم يكن هذا الراكب فى مجده حين اعترك البغلان ؛ قال البغل الأول لزميله : أنا أطول منك راكباً وأقوى مؤيدا ، لأن نفوذا وسطا خير من لا نفوذ . فأجاب البغل الثانى قائلا : إن الفردوس المفقود يرجى له يوما أن يعود ، ولا يخدعنك الركود القائم ، فكم من نهوض يأتى بعد ركود ، وللجبروت الفعال لما يريد — يظهر ويختفى — خير ألف مرة من نفوذ يدوم هينا لينا . ومضى البغلان فى الجدل ، لم يدريا كيف ينحسم الخلاف بينهما بغير خبير ، وقصدا إلى الخبير فأفتاهما بأن الحكم فى مثل ذلك الأمر وسيلته العد والحساب ، فعلينا أن نعد من زادت قيمته فى الأسواق من بغال الصنف الأول ، ومن زادت قيمته من بغال الصنف الثانى ، والرجحان لما تكون فى جانبه الكثرة العددية ؛ فإن دلت الأرقام على أن البغال التى ارتفع سعرها بسند من الظهراء الأوساط الدائمين أكثر عدداً من التى ارتفع سعرها بسند من الظهراء الأقوياء المتقطعين ، كان الحكم الأول ، وإن كان العكس فالحكم للثانى ؛ وإن لم تخن الذاكرة كان الرجحان فى هذه المشكلة للبغل الثانى ؛ إذ أثبت الإحصاء أن التيار القوى المتقطع يدفع الطاقى دفعات أقوى وأبعد من التيار اللين وإن اتصل ، ودع عنك بغلا ليس لظهره راكب ، فذلك بين القوم سخرية الساخرين .

ووسيلة أخرى لتسعير البغال عندنا : أن ينظر إلى نوع المذاود ومكانها ، بغض النظر عما تحويه تلك المذاود من غذاء ، أحنطة هو أم شعير ، فبغل غلا سعراً وعلا قدراً لأنه أكل من مذود فى بلد بعيد ، فالمذود فى هذه الحالة يكتسب قيمة من قيمة المكان الذى وضع فيه ، ثم يكتسب البغل قيمة من قيمة مذوده الذى ربط إليه حيناً . وإنى لأذكر فى ذلك أيضا أن بغلين اختلفا ذات يوم فى قدريهما أيهما أقوم ؟ أما أحدهما فاغتذى من مذود فى بلاده ؛ وأما الثانى فأرسلوه إلى بلد بعيد ليعلفوه ؛ ولو عاد ملء الجوف لما كان بينهما خلاف ، لكنه فيما روى عنه وما ثبت بالفحص الدقيق ، لم يأكل هنالك شيئاً إما لخلاء مذوده وإما لمرض فى جوفه ، وارتد إلينا خالى الأمعاء خاوى الأحشاء . ومهما يكن من أمر فقد اختلف البغلان واستفسرا خبيراً ، لكن الأمر هذه المرة لم يحتج إلى عد وتقدير ، فواضح لكل ذى بصر أنه بالمذود ، لا بالغذاء يكون التسويم والتسعير ، فإن أردت أن تسوم بغلا ، فلا تسل ماذا أكل بل قل أين أكل ، فإذا علمت أنه أكل من مذود فى واق الواق بينك وبينه المحيطات والبحار والفيافى والقفار ، فذاك بغل متين مكين . أما إن علمت أنه أكل فى حقل أبيه ، لم يشرق ولم يغرب من أرضه وذويه فأهون به بغلا عند بائعه وشاريه ، ثمنه بخس دراهم معدودة

وطريقة ثالثة فى تقويم البغال : قدرتها على الرفس ، فأقواها رفساً أرقاها مقاما لأنه أصلحها فى تنازع البقاء ، وأحسبك لو سئلت فى هذا لأجبت بهرائك الذى فهت به منذ حين ، زاعما أن البغال لم تستخدم للرفس إنما استخدمت لتحمل الأثقال ، فأعرضها ظهراً وأقواها عضلا هو أجدرها بالصعود فى أسواق الشراء ؛ لكن ذلك تفكير

نهاية الغرب

— ٢ —

تناولنا في الفصل السابق ما يحيق بالحضارة الغربية من عوامل الانحدار، وما نتبينه فيها من نذر أفضى مثلها إلى هلاك الحضارات القديمة. وعرضنا لفعل هذه النذر في حضارة اليونان وحضارة الرومان وما يمكن أن يكون لها من أثر في حضارة الغرب. وأبنا أن نقص المواليد هو الخطر الأعظم على الأمم وعلى الحضارات، وأن الحضارة الغربية عنجى من هذا الخطر، لأن نزعته فيها ليست عامة، ولأن معظم الدول المتحضرة تشجع النسل ولا تحد منه. ثم نبهنا إلى الاضطهاد السياسي بوصفه مصدراً لخطر من أعظم الأخطار على الحضارة الغربية، وأنه يجتاح اليوم أوربا بأسرها، وأنه حرىّ إذا استمر أن يخلف في البلاد المنكوبة به حطاماً من أصحاب الشهوات والأنفس الذليلة. وهؤلاء لا تنهض بهم حضارة ولا تقوى أكتافهم على حملها.

والكلام عن الحضارة الغربية لا يتم دون إشارة إلى أوزفالد شبنجلر الكاتب الألماني الشهير، فقد ألف قبيل الحرب العالمية الأخيرة كتاباً تجاوز صيته ألمانيا وأحدث في نواحي العالم وفي الدوائر العلمية ضجة كبيرة. ويرى شبنجلر أن الحضارات تجرى مجرى مقدراً، فهي ترتفع وتقع بقدر محتوم لا دخل للسببية في قيامها وسقوطها، ولا وزن حتى للأسباب الطبيعية في إحداث هذا القيام والسقوط، وأن الحضارة الغربية بسبيل الهلاك كما هلك غيرها من قبل، وأن عمرها لن يتجاوز سنة ٢٢٠٠ ميلادية.

وما يقوله شبنجلر يعارضه بعض العلماء الألمان من أمثال جروندل، ويرون أنه لا ينهض من الوجهة العلمية. ويقول شبنجلر عدا ما ذكرنا إن مصير الحضارات كمصير الكيانات العضوية وإن الحضارات نفسها كيانات عضوية، والحضارة أو الشعب من الشعوب كما يبدي معارضو شبنجلر لا يخضع كلاهما في تطوره لنفس القوانين التي يخضع لها الأفراد المحدودو الأعمار. والشعب المتحضر والإنسان الفرد ليسا في معرض التشبيه كالنبتة وخليتها، ولكن كالغابة وشجرتها. فلكل شجرة بمفردها عمر محدود لا تتعداه في الأحوال الاستثنائية كثيراً. ولكن الغابة في مجموعها مزودة من الطبيعة بعناصر البقاء، والأشجار تموت فرادى لتفسح للناشئ من الأشجار الطريق، لكن الغابة تبقى عشرات آلاف السنين لا يدركها الفناء.

والشعوب تماثل الأفراد في أنها تجتاز مراحل العمر المعروفة من شباب ورجولة وشيخوخة، لكنها لا تخضع كالأفراد لقانون طبيعي مقدور. فليس الشعب الحضاري كياناً عضوياً فرداً يخضع لدورة فردية محتومة، ولكنه وحدة مترشة تجمع عدداً كبيراً جداً من الكيانات العضوية المرتبطة بالتقاليد والأجيال من الناحيتين الذهنية والأحيائية؛ فالشعب الحضاري في هذه الحالة بمثابة أسرة

ملتو لا نسيغه في بلادنا، فقد خلق الله البغال بالظهور والحوافر، وليس سوى التجربة وحدها أن يقول هل يكون البغل بغلا بظهره أو بحوافره، فإن كانت الحوافر أنجع وسيلة وأقصر طريقاً، كانت ميزانا عادلا للمفاضلة بين البغال.

على أننا نستخدم كذلك وسيلتكم في جس العضلات واختبار المفاصل، لكننا نقصرها على الطبقة الدنيا من البغال، فالمدقّ منا لا السىّ هو الذي يمتحن امتحانا قاسيا قبل أن يدفع من ثمنه قرش واحد؛ فالفرق بيننا وبينكم هو أننا نفرق بين البغال في طريقة التسعير وأنتم لا تفرقون.

قال الرجل: إن كان هذا تسوعكم للبغال، فكيف تفرقكم للرجال؟

فقال البغل: ليس في بلادنا كبير فرق بين الرجال والبغال.

زكي نجيب محمود

كبيرة من الناس، كما أن الغابة أسرة كبيرة من الأشجار. والحضارة من ناحية المبدأ يمكن أن تدمر كما تدمر الأسرة والغابة. والزعم بأن هلاك الحضارة بعد زمن معين «قدر محتوم» هو فرض يقوم على مجرد المقارنة، إذ الحضارة باعتبارها أثراً للأحداث والوقائع الطبيعية تحمل في أساسها طابع البقاء. والأسباب الطبيعية التي تغلب عليها الصفة الأحيائية يمكن أن تمحو عن الحضارة صفة البقاء، وتؤدى بالتطور الحضارى إلى نهاية من عمل الطبيعة.

وثم وقائع تؤثر في الحضارات وتغير وجهها، وتكسب التطور الأحيائي في الشعب الحضارى مظهراً جديداً، مثل الدين والتقاليد والبيئة ونسج الموهوبين والشعوب على منوال السلف العظيم؛ لكن النتيجة التي تترتب على الخطوط الأساسية الرئيسية المرسومة لهذا التطور الأحيائي تظل كما هي ولا تتحول. ذلك أن العامل الأكبر فيما يصحب الحضارات من مظاهر سامية إنما يرجع إلى كثرة الموجود من العباقرة والموهوبين. وعلى قدر هؤلاء الموهوبين والعباقرة يكون المظهر سامياً أو عادياً أو منحطاً.

والحضارات تتعاقب عليها نزعتان أساسيتان تتكرران فيها، وهما زخرة كتلة السكان بالموهوبين ثم اندثارهم منها لاختفاء المتاع الوراثي القيم الذى لا تقوم الحضارات بدونه. فحين تكون كتلة السكان غنية بالموهوبين تزخر الحضارة بجلائل الأعمال، وبعكس ذلك تنزع إلى الهبوط. وترى بوادر هذه الحالة حين تتسلط المدنية على أسلوب المعيشة، فتصحب المدنية عندئذ أعمال تجتث الجذور الأحيائية وتأخذ الحضارة في الانهيار. وبلوغ المدنية الذروة قد كان إلى الآن آية بدء الحضارات في الانحطاط؛ فهنا نجد الدوافع الطبيعية السليمة عدوا لها في المخ الذى تم له الغلبة حين يتحلل من الدم، فيخلق «الذكاء». وقد خلق الذكاء الفتنة الذرية وكافة المهلكات فهدد الإنسان باستئصال عتاده الأحيائي القيم. وحين تبلغ المدنية الذروة تأخذ الميول النفعية في الرجحان وتصبح لها اليد العليا، ويأخذ المتمدنون يفقدون ذلك الشعور العميق بالدم والجيل والذرية، وهو ما تحسه العناصر الحضارية الفتية، فيعملون على تحديد النسل ويتخلون عن النوع شيئاً فشيئاً، بدل أن يحرصوا عليه ويعملوا على حفظه، أو يدعون للطبقات الدنيا القيام عنهم بهذه المهمة، فيكون أن تنحط القيم وتتدهور الحضارة. وإذا غلب الأفراد الاعتبارات المادية وهانت عليهم أمور الدم والجيل والذرية فدانوا هذه المقدسات بالتفكير في النفعة الذاتية دل ذلك على مرض شعبي متأصل وجذور واهنة مزعزعة. ومثل هذه الشعوب يذل فيها الدم، ويطغى المخ. وفي غمرة المدنية التي يهون فيها الدم يقضى على الحضارات.

على أنه من الخطأ الزعم بأن المدنية تكون حتما مظهراً من مظاهر الانهيار أو نذيراً به لا سبيل إلى دفعه إذا هي بلغت الذروة والأوج. فإنه إن صح هذا على الحضارات البائدة فلأن شعباً من شعوبها لم يفطن إلى الأسباب ليعمل على تلافيها، فكان أن تعجلهم القدر إلى مصيرهم فانساقوا في طريق الهلاك. لكن الشعوب الحضارية اليوم ليست بهذا العمى، فقد نورها العلم وهداها البحث إلى القوانين الأحيائية التي تسيطر على تطور الحضارة في الشعوب، فتبينت ما للخيرة الولادة من أهمية بالغة في مصير كل حضارة، وأن السببية لا الحتم هي التي تفصل في مراحل ازدهار الحضارات وذبولها.

فهذه الأمم الحضارية الكبرى التي تعقد المؤتمرات اليوم، وتصطنع الحلم وضبط النفس، وتتردد في استخدام أدوات الهلاك مع خصومها وهي كثيرة في أيديها — هذه الأمم لا بد أنها تدرك كل الإدراك ما يهدد الحضارة من أخطار إذا هي انساقت في خصومتها المهلكة، وجعلت للمخ الحرب المسيطرة على كل شيء.

وإذا كانت المناورات السياسية والتحايل على إخراج الوطن من العقبات التى تعرقل السعى إلى إقرار السلام، فإنه من الأمور الملحوظة أن السلام الذى يسعى إلى إقراره ليس هو السلام الدائم . فالجد القوى ما زال رائد الدول العظمى وحافزها إلى التوسع ، فإذا أغفلنا الأمم المستضعفة التى يجرى التوسع على حسابها وفى أراضيها ومرافقها أو مايسمونه مناطق النفوذ ، فلا نستطيع أن نغض الطرف عن التصادم الذى يقع بين الدول العظمى على هذه المناطق ، فإن الصراع اليوم على أشده بين فريق الدول المنتصرة من جرائها . وأحد هذين الفريقين يستطيع أن يتصرف بلا رقيب ولا حسيب من شعوبه ، فلا اعتراض على تصرفه بين تلك الشعوب ولا لومة لائم . والفريق الآخر يملك من الطاقة المهلكة ما يستطيع أن يقضى به على كل معارضة أو مناهضة ، لكنه يخشى شعوبه ولا يملك فى هذه الآونة حملها على إرادته . وقد خرجت جميع الشعوب المتحاربة من الحرب منهوكة دامية كدابة الضحية ، لكن منها ما زال يفرض إرادته ومنها ما هو سليب الإرادة . وهذا هو حال الشعوب الأنجلوسكسونية الديمقراطية وغيرها مما لا يملك فى تسيير دفة أموره دفعاً ولا جذباً . وتريد الشعوب الأنجلوسكسونية أن تحتفظ بما فى أيديها وتطلب لها دونها المزيد ، لكنها تريد أن تصل إلى هذا بالسياسة وبأقل التكاليف . وقد سعت هذه الشعوب إلى إيجاد هيئة عالمية تملك الفصل فى شئون العالم فأوجدتها بعد سعى حثيث مخلص ؛ ذلك أنها لا تخشى من وجود مثل هذه الهيئة شيئاً ، لأن جلها يؤازرها . لكن عمل هذه الهيئة قد شل بحق الفيتو أو النقض . ولا قيمة لقرار تتخذه إذا استطاعت دولة عظمى أن تنقضه . والروح الذى أملى هذا النص ليس روح الإذعان للحق ولكن روح التمسك بأن القوة فوق الحق . ويستند هذا الروح شىء لعب إلى الآن فى معاملات الدول دوراً عظيماً ، وكانت نتيجته وبالاً على المستضعفين ونعنى بذلك الشىء « الهيبة » .

فالهيبة عذر الدولة القوية من عدم الرجوع عن الخطأ ، وسلاح تشهره على الضعيف لحمله على الإذعان . وقد يصطدم هذا السلاح بصلابة الحق بعد صراع عنيف فتفله ؛ ويحمل شاهره نفسه على الإذعان ، ولكن بعد أن يجرب وسائله وهى كثيرة ، وبعد أن يمتحن الضعيف امتحاناً قاسياً فى الاستمساك بالحق . وقد ساد هذا الروح إلى الآن ولم تنجح الهيئة العالمية الجديدة فى مغالبة التيارات الخفية التى تعرقل مساعيها ؛ فما زال الدفع والجذب من هذه الناحية أو تلك يطوح بالأمم المستضعفة ذات اليمين وذات الشمال دون أن تعينها هذه الهيئة على التخلص منه . وما زال هذا الفريق من الدول العظمى أو ذاك يقيم نفسه تارة مدافعاً من حق بعينه وتارة يعتدى على نفس هذا الحق ، فلا يكون لصاحب الحق فى الحالين أمل ما فى استرداده أو تحيى فيه الآمال على غير طائل ؛ إذ يتنازعه الفريقان ويتجاذبانه . والأمر هنا كما ألمنا أمر النفوذ ومناطقه لا أمر الحق فى ذاته .

فإذا كانت هذه حال الدول العظمى بين بعضها وبعض ومع الأمم المستضعفة فالسلام الذى يمكن أن يتمخض عنها سلام مريب لا تطير فوقه حمامة ، ولكن ينعق غراب . ولا بد من أن يتغير وجه الدنيا الجهم قبل أن تتحول وجهة النظر إلى السلام ويرجى له الدوام . ولعل الدوام هذه كلة نابية فى قاموس الواقع والطبيعة . ولا دائم إلا الله .

محمود الدسوقى

هل الأنثى

دائماً مصدر المصائب

سأل قارىء غير طبيب : هل يجوز فى بحث علمى التعرض إلى قضية اجتماعية من دور الأنثى فى الحياة ؟ كما سأل عن الدور الذى تلعبه أنثى القمل فى نقل عدوى التيفوس وغيرها ومن جواز إقحام حكم خاص فى بحث علمى عام ؟ وقد أجاب زميل بيولوجى عن النواحى العلمية إجابة مستوفاة ومقنعة وأما ما ذكره مؤلف كتاب العدوى من أن الأنثى فى جميع المخلوقات من الإنسان إلى أدنى الحيوانات تسبب أضراراً كثيرة وقلما تحل مصيبة ليس للأنثى فيها نصيب الأسد ، فلا يقره على هذه القولة علوم النفس والأخلاق والاجتماع . وكرجل متوفر على علم النفس فسأبين لحضرة القارىء صاحب السؤال زيغ هذا الرأى :

لعل حضرة المؤلف فاته القولة القديمة بأن الرجل يحكمه رأسه والمرأة يحكمها قلبها ، ويقصد بذلك أن الرجل يقع تحت تأثير التعقل والمرأة تحت تأثير انفعالاتها ، لأن العقل اصطلحوا على تقسيمه إلى جزء يحتوى على الرغبات وجزء ثان يحتوى على الانفعالات وثالث على المعقولات ، فالأول يشترك فيه معنا الحيوان كالرغبة فى الطعام ، والانفعال بعضه يشترك فيه معنا الحيوان كانفعال الغضب وبعضه يختص به الإنسان كانفعال مشاطرة الغير فى الشعور والعطف والإحسان والتضحية لمصلحة الغير ، وكل هذه الانفعالات تثار بفهم حادث حصل بفعل عامل خارجى ، ولذلك يشملها الجزء الثالث من العقل أيضاً أى أنها ليست بدائية .

ويتوقف جانب كبير من أخلاق الإنسان على تفوق انفعال دون الآخر فنصف إنساناً بأنه شرس أو سمح ثائر أو ساكن مثلا ، ويعمل فى هذه الانفعالات هرمونات الغدد ذات الفرزات الداخلية ؛ ولعل هذا يفسر القول بأن المرأة يحكمها قلبها ، أى جزء من الجسم غير الأجزاء التى ينشأ منها الرغبات والمعقولات .

وهذه الانفعالات تتغير من يوم لآخر ، وفى نفس اليوم يتفوق انفعال على الآخر وفقاً للأحوال والظروف ، فقد تنفعل غاضبين من شىء فى يوم ما بينما نرتاح له فى يوم آخر ، وقد يكون ذلك بفعل الرغبات .

وأما جزء المعقولات من العقل فهى أرق الأجزاء جميعا وآخرها نشوءا ، وتشمل كل النفس ، وهى ذاتية وموضوعية ، ولا يشترك الحيوان فى هذا الجزء إلا فيما يدرك بالحواس الخمس ، ويكفى رقياً لهذا الجزء أنه موضع التفكير بكافة أنواعه ، من تفكير بسيط كعد أصابع اليد الواحدة إلى تفكير معقد كحل نظرية هندسية ، وفى هذا الجزء الذاكرة والتخيل والإرادة والحس الأدبى (الضمير) والتعقل ويشمل الأخير الحكم والاستنباط والاستنتاج والتجربة والتخصيص والتعميم وغيرها كالتقدير والتوجيه لهدف معين . فإذا رجعنا إلى تاريخ العلاقة بين الذكر والأنثى منذ القدم لوجدنا أن المرأة كانت ملكا للرجل ولم يكن لها أى حق شخصى ، وكان الرجل صاحب السلطة المطلقة ، ولم يكن يسمح لها أن تلعب أى دور فى المجتمع ، فهى لم تكن فى حاجة إلى الجزء الثالث من العقل كحاجة الرجل إليه فى داره وعمله ، ولم تكن تشجع على تنميته إلا فى إدارة منزلها والعناية برب المنزل وأطفالها ، بينما كانت تشجع على تنمية الجزء الانفعالى من العقل ، فكانت تقلق لتغيب زوجها أو أبنائها ، وتفرح أو تحزن لفرحهم أو حزنهم ، وتخشى الرجل وتخجل من التقصير فى أداء واجبها نحوه .

ولكن هذه العلاقة بين الرجل والمرأة تطورت فى العصور الأخيرة ، وتعمل الأنثى جاهدة لاستغلال جزء المعقول من عقلها كما يفعل الرجل ، وتطلب المساواة به فى الدار وفى غير الدار . غير أن الانفعال المتأصل فى نفسيتها

متزيني

– ٦ –

ظهور حزب المعتدلين – تأليف عصبة الأمم –

ثورات سنة ١٨٤٨

كان متزيني وهو مقيم في بريطانيا لا ينى يستخبر أخبار إيطاليا ويستطلع أحوالها ، ولم يكن راضيا عن النزعات التي استجدت بها ، وهو مع ذلك ماض في جهاده دائب على تدبير الخطط وإعداد البرامج ، وكانت العاصفة في إيطاليا قد أخذت تتكون لتهب مزمجرة عاتية ، وأخذ السيل يتجمع ويستفيض ليندفع ثائراً جارفاً .

ولا يمكن تحديد مدى تأثير متزيني في استحداث اليقظة القومية الجديدة ، ولكن حينما نعلم مبلغ تأثير جمعية إيطاليا الفتاة وأن كثيرا من الرجال الذين اشتركوا بعد ذلك في الحركة القومية الإيطالية كانوا من أعضائها ، فمن السهل أن نقدر تأثيره في تلك الحركة ، وقد كان طلبة الجامعات يقرأون أعداد مجلة « إبو ستولاتو بوبولارى » وكان العمال يفكرون في مبادئه ويدينون بتعاليمه ، ولكن تأثيره لم يكن هو العامل الوحيد على قوته وأصالته ، فقد كانت ذكرى الثورات السالفة التي قامت بها جمعية الكاربوناري لا تزال تجلو من النفوس صدأ الفتور وخمود الهمة ، وتضرم جذوة الحماسة ، ولا تزال أخبارها الغر ومواقف فتيانها وشهدائها وأبطالها أحاديث القوم في لياليهم الطويلة الساهرة وأسمارهم الملة المقفرة ، وكانت مشاهد الحرية المسلوبة ، والظلم العادي ، وسوء الحكم ، تكشف من عيوب الحكم النمساوي ، وتفضح مساوئه ، وتنبه الغافل ، وتثير الاحقاد الدفينة . وبرغم اختلاف التيارات بين الوطنيين وتباين النزعات كان هناك إجماع على مسألتين وهما جلاء النمساويين من إيطاليا ، والعمل على أن يكون هناك ضمان لقيام الحكم الصالح .

والذي هي وريثته يتغلب في كثير من الأحوال والظروف ولا سيما الانفعال الموضوعي كانفعال التضحية لمصلحة الغير أو انفعال المشاطرة في شعور الغير ؛ فهي مهما ارتقت لا يمكن أن تتخلى عن انفعالاتها ، ولذلك فهي متقلبة بدهية حتى لو وصلت لأرقى مراتب العرفان والعلم .

فالعالم الذي يبحث في دقائق العلوم ولا يكون ملماً بعقلية المرأة التي عرفت بدراسة تاريخها والمشاهدات والاستقراء ، ليس له أن يطبق نتائج أبحاثه على الحيوانات الدنيا والحشرات على الإنسان ، ويقول إن الأنثى تسبب أضراراً كثيرة كما تسبب هذه الحيوانات والحشرات المظلومة أضراراً بالإنسان ؛ فالرجل والمرأة لانحرافات جسمانية وعقلية قد يكونان مصدر شر أو خير بقدر ما بهما من انحرافات ، سواء كان بسبب الوراثة أو البيئة أو عامل جسمانية ، بل المرأة أقدر على فعل الخير من الرجل لتفوق انفعال الاهتمام بشئون الغير فيها أكثر منه .

فالرجل الذي يعلم ذلك ويكون ملماً به لا ينظر للأنثى كما ينظر للرجل ، لأنه لا ينتظر منها ما ينتظره منه ، كما لا تدهشه أعمالها المتناقضة أو غير المفهومة ، بل ويتسامح معها ويمنحها بعض الامتيازات .

فن هذا يرى القارئ أنه ليس من المقبول أن يطبق العالم مشاهداته على حشرات ينقصها الانفعالات المعقولة وينقصها التعقل ، على الإنسان ، مع تجاوزه عن الفروق بين عقل المرأة وعقل الرجل ، والتجني عليها بأنها مصدر الشر والضرر ، فضلا عن أنه فاته آثار الغدد ذات الفرزات الداخلية كالغدد الجنسية وغيرها من الغدد في الأخلاق .

فهل بحث ذلك كله في النمل والنامز ! !

الدكتور محمد زكي شافعي

ورغم الرقابة الشديدة ويقظة الشرطة فإن روح التمرد وجدت فى الأدب متنفساً لها ومعبراً عنها ، واسترعى الطلبة انتفات الأمة إلى التروى من أدب دانتى باعتباره الشاعر القومى والروائى الوطنى الذى نادى بالوحدة الإيطالية منذ خمسة قرون ، وأخذ الروائيون والمؤرخون وكتاب الدراما يتحدثون عن أمجاد إيطاليا وماضيها الحافل العظيم ، وكثر المصلحون الاجتماعيون فى مختلف نواحى الحياة الأدبية والاقتصادية ، وكانت عنايتهم بالإصلاح أكثر من عنايتهم بالسياسة . وبدأ يقوى فى إيطاليا حزب المعتدلين ، وكان من زعماء هذا الحزب الفيلسوف جيوبرتى ، وهو من البيدمونتيين الذين أبعدوا عن بلادهم لأنهم طالبوا بحريتها ، وكان فى صباه من جمعية إيطاليا الفتاة ، ولكنه نقم من زعيمه ثباته على المبدأ ، واستقامة مذهبه واستمساكه بآرائه ، فانفصل عنه ، وخرج عليه ، ولم ينس أن يشدد على الجمعية النكير ، ويصب عليها النقمة ، ويخص زعيمه السابق بالنصيب الأوفر من الزراية والتحقير ، ولله متزينى ! فكم لقى فى طريقه من مكائد الحساد ، وتخاذل الأعداء ، وغدر الأصدقاء ، وتقلب الأعوان والأتباع ، ولكنه مع ذلك لم ينحرف عن الطريق السوى ، ولم تحمله الحوادث على أثباجها ، وكان جيوبرتى ينادى بضرورة الخلاص من النمساويين ويقول بالفكرة القومية ، ولكنه كان يعمل لإيجاد اتحاد فدرالى بين الولايات الإيطالية المختلفة تحت رياسة البابا ، على أن يتولى الأمراء فى كل ولاية الإصلاح دون أن يكون هناك أدنى انتقاص لسلطانهم ، وهى فكرة غريبة لم يستطع أن يسيغها عقل منطقى منظم وخاطر ملهم مثل خاطر متزينى ، فقد كان حكم هؤلاء الأمراء الطغاة وحكم البابوات هما سبب فساد الأحوال فى إيطاليا وبواعث النكبة والتأخر ، فكيف يؤمل لها الخلاص على هذه الطريقة؟ ولكن هذا النوع من التفكير السطحى التافه هو فى العادة الفلسفة التى يتشدق بها هؤلاء الذين يخرجون على الزعماء ، لأنهم ملوا الجهاد واستقربوا الطريق واستبدلوا بمثلهم الأعلى مثلا أدنى وأيسر تحقيقاً ، فهم لا يكتفون بالخروج على الزعماء والنكوص والإحجام ، بل لابد لهم أن يزخرفوا جبنهم ، ويبرروا ارتدادهم ، وقد وصف المتنبى نفسية أمثال هؤلاء الناس فى قوله :

يرى الجبناء أن العجز عقل
وتلك خديعة الطبع اللئيم

وهذه الحالة لون من ألوان التبرير المعروف عند المفكرين النفسيين .

وكان هناك زعيم آخر من زعماء المعتدلين هو شيزارى بالبو وهو من القائلين بالفدرالية ، وكان يرمى إلى الخلاص من النمسا ، ولكنه كان يرى أن الوحدة الإيطالية حلم لا سبيل إلى تحقيقه ، وكان دليله على ذلك أنه لم يوجد من قبل شىء اسمه « المملكة الإيطالية » .

وكان ماسيمودازليو ثالث الزعماء المعتدلين ، وكان لا يرى انتقاص سلطة البابا ، ويشارك جيوبرتى فى رأيه القائل بأن تجديد إيطاليا والنهوض بها لا يمكن أن يتم بغير موافقة البابا وتأييده ، وكان يتطلع إلى شارل ألبرت ملك بيدمونت لقيادة الحركة الاستقلالية وطرد النمساويين ، وكان له أنصار كثيرون ، ولم يكن يرى أن الوقت ملائم للحرب وأنه لا يمكن عمل شىء ، ما دام الجيش النمساوى واقفاً بالمرصاد ، وأن الصبر والمعارضة السلمية هما الوسيلة الوحيدة الميسورة .

وكان هؤلاء الثلاثة هم زعماء المعتدلين الذين كانوا يناظرون متزينى ؛ وواضح أن مرماهم غير مرماه وأن مبدأهم غير مبدئه ؛ فقد كانت الوحدة الإيطالية عند متزينى مقدمة على كل شىء ، وكان تحرير إيطاليا من أغلال البابوية العقلية والدينية لازماً كذلك ، ومن أجل هذين المطلبين كان يقف متزينى وحيداً مكروهاً من السياسيين المعاصرين له وكانوا ينعتونه بالخيالى الحالم ، وقد استطاع أن يجعل

الإيطاليين يحلمون مثله بالوحدة ويريدونها ، وذلك بثباته وإخلاصه وجرأة رأيه وقوة إرادته .

وكان معظم المعتدلين يقسمون ولاءهم بين البابا وملك بيدمونت شارلز ألبرت ، وكان شارلز ألبرت رجلا مترددا ضعيفاً قد تلوثت يده بدماء الأحرار ، ولم يكن مَتزيني يطيق الانضمام إلى حزب الملك أو حزب البابا ، ولذا كان قذى في عين أنصار الملكية وشجى في حلق دعاة البابوية ، وقد ظل الحزبان يواليان عليه الهجوم ويشنان الغارة ويرميانه بالقوارص ويلصقان به التهم حتى توفاه الله وأراحه منهم وأراحهم منه . ولو كان تقدم أحد الحاكمين – الحاكم الزمنى أو الحاكم الروحى – إلى قيادة الحركة لمجاهدة النمساويين بعزم صادق ونية خالصة لما أحجم مَتزيني من أن يؤيده بكل ما أوتى من قوة ويضع تحت تصرفه خبرته وتجاربه وشجاعته الخارقة وآراءه الناضجة .

وفي سنة ١٨٤٦ خلف بيوس التاسع البابا جريجورى السادس عشر الذى كان من البابوات المكروهين الجائرين ، وكان البابا الجديد رجلا خيراً له ميول حرة ونزعات طيبة ، وكان سخياً في وعوده ، وبدأ عهده بمهادنة خصوم البابوية السياسيين وعبر عن كراهته لحكم النمساويين ، فأثار ذلك الآمال البعيدة في نفوس الإيطاليين وأشعل حماستهم ، ولكن سرعان ما خابت فيه آمال الأحرار ، وكان الرجل يميل إلى إصلاح شؤون رعيته ، على أن تكون هذه الإصلاحات هبات يجود بها ، وصنائع يسديها ، لأنه لم يكن يعترف بأن للرعية حقوقاً ، ولذا لم يكن في نيته الخروج على التقاليد البابوية والأخذ بالنظم النيابية ، وكان المعتدلون متطرفين في تملقهم به وتحمسهم له ، ولكن رغم هذه الحماسة الشديدة والولاء المحض فإن الرجل لم يستطع أن يظل طويلا يلعب دور البطل الوطنى ، وفي سنة ١٨٤٨ أعلن أنه لا يقر محاربة النمسا ، فانقلب حب الناس له كراهة ونفوراً ، وتحول المعتدلون بولائهم إلى طرف القطب الآخر وهو الملك شارلز ألبرت ، فأصبح في نظرهم البطل المرجو والمخلص المنتظر ، ولم يكن له من ماضيه ولا من صفاته الشخصية ما يسوغ هذه العقيدة ، ويبرر تلك الثقة ! وكان الرجل فيما يقال تنتابه في بعض الأوقات نوبات من الوطنية ، وقد استغل المعتدلون للدعاية قوله في إحدى هذه النوبات : «إذا أرسلت لنا العناية حربا لخلاص إيطاليا فإنى سأمتطى صهوة جوادى وأضع نفسى في طليعة الجيش» ولما سمع مَتزيني هذا التصريح قال : «إذا كانت هذه وروده فإنها ستزدهر وتتفتح» .

وفي هذه الفترة أنشأ مَتزيني «الجمعية الوطنية الإيطالية» لتحل محل جمعية إيطاليا الفتاة ، ولم يشر في برنامجها إلى استمساكه بالحكم الجمهورى ، وإنما اكتفى بأن يذكر أن غاية الجمعية هي الحرية والوحدة والقومية ومحاربة النمسا وتقوية الشعور القومى والنهوض بالأمة الإيطالية وتقريب الساعة الحاسمة التى تستطيع فيها الفصل في حاجاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وفي سنة ١٨٤٧ أنشأ عصبة الأمم الدولية بمساعدة جماعة من أصدقائه البارزين من الأحرار ، وإنشاء هذه العصبة يعرب عن فكرته في أن تقدم الإنسانية رهن بحسن التفاهم بين الأمم والتعاون المتبادل ، ولا يتم هذا التفاهم إلا إذا حل التعارف بين الأمم محل التناكر والجهل ، وتوفرت النية الحسنة والعلاقة الطيبة ، وكان يقصد كذلك من وراء إنشاء هذه العصبة إلى تكوين الرأى العام الدولى الذى يعترف بحق الأمم المستعبدة في الحرية والقومية والتقدم . وموجز القول أنه لم يكن مرتاحا إلى الفوضى الدولية السائدة وعدم وجود قانون يكبح جماح الدول المعتدية ويحد من مطامعها ، ويحمى الحريات الأممية ، ويصون حقوق الضعيف ! وكان يؤمل من وراء إنشاء هذه العصبة علاج هذه الحالة التى لا يجىء من جرائها سوى الشر المستطير والخراب العاجل ! ولم يلتفت الساسة إلى أهمية

فكرة متزينى إلا بعد الحرب الكبرى الأولى ، وإن كانت التجربة لم تسفر عن نجاح باهر وتوفيق ملحوظ . ومهما يكن من الأمر فإن اتجاه متزينى إلى إنشاء عصبة الأمم فى سنة ١٨٤٧ دليل على نضج تفكيره السياسى وبعد نظره وإنسانيته الفياضة ، وهى تبين لنا أن وطنية هـذا الرجل لم تكن من طراز الوطنية الضيقة المتعصبة العادية الجارمة من أمثال وطنية هؤلاء الأدعياء الدجالين الذين أخرجتهم ألمانيا وإيطاليا وكانوا بهوسهم الصفيق نكبة على بلادهم وعلى الإنسانية جميعا ، وكان متزينى يمقت الحرب إلا إذا كانت لتأييد مبدأ أو لدفن أكذوبة ، وهى بعد كل شىء وسيلة بغيضة للفصل فى الخلافات الدولية .

ورغم كراهة متزينى للمعتدلين فقد كان لآرائهم مكانها فى السياسة الإيطالية ، فقد كانت عقيدتهم سهلة ميسورة بالقياس إلى عقيدة متزينى التى تتطلب التضحية والارتفاع إلى الآمال السامقة ، وعقيدة المعتدلين صالحة للمتشككين والمترددين وضعاف القلوب والعزائم ؛ وسرعان ما انحاز إلى صفوفهم رجال الدين والأغنياء الميسورون وكل من كان لا يروقه مثالية متزينى وأحلامه المحلقة ، وكان المعتدلون يتفقون مع متزينى فى أمرين وهما طلب جلاء النمساويين والإهابة بالإيطاليين واستجاشة قواهم واستثارة هممهم ، ولما كان عملهم من بعض الوجوه مكملا لعمله ؛ وحقيقة أنهم كانوا لا يدانونه فى نبالة الغرض وسمو القصد ، وصدق الوطنية التى توحى الأعمال العظيمة ، ولكنهم استطاعوا أن يضموا إلى صفوفهم جما ضخما كان لا يمكن أن يحشد مثله فى صفوف جمعية إيطاليا الفتاة القليلة المختارة ، وكانوا من ناحية أخرى يزودون الحركة العامة بصفات كانت تنقص متزينى ، منها حاسة الممكن والميسور ، وكان فى جماعة من أفضل أنصارهم من المرونة والصبر والاعتدال وسعة الحيلة وكثرة الإحاطة ما يمكنهم من الترحيب بجميع من يتقدم إليهم فى تردد وخوف أو فى سرور وارتياح للاضطلاع بالواجب القومى

ومن الأسباب التى مهدت السبيل لظهور حزب المعتدلين ضيق الناس بالثورات الصغيرة المحدودة التى كانت لا تسفر إلا عن إراقة الدماء ، وإزهاق الأرواح ، وزيادة عنف الطغاة وإمعانهم فى الظلم ، وكان من رأى المعتدلين أنه لا فائدة من التمرد على الأمراء الوطنيين ، وأن الجهاد لجلاء النمساويين يجب أن تتولاه جيوش نظامية ، ولكن التقاليد الثورية برغم ذلك لم تنس ولم يزهد فيها وقد أمدها المنفيون فى الخارج بالحياة والأمل ، وكانت إيطاليا الوسطى تموج بالمؤامرات الخفية والتدبيرات السرية ، وكان متزينى نفسه قد بدأ يتسرب إليه شىء من الشك فى قيمة هـذه الثورات الضيقة النطاق ؛ وقد مكنته حادثة فتح الرسائل من أن يلفت نظر الرأى العام البريطانى إلى المسألة الإيطالية ، وقد كان متزينى فى بادىء الأمر شديد الاحتقار للسياسة البريطانية الخارجية ، ومن أقواله عنها : « إنها تقاوم كل شىء يستقدم حقيقة جديدة فى السياسة الأوربية ، وهى أول من يعترف بهـا إذا أظهرت قوتها » وكان يرى أن السياسة التى تليق ببريطانيا هى سياسة تشجيع الحركات القومية لا بالتدخل المسلح وإنما بالتأييد الأدبى ، وربمـا كانت مساعى متزينى فى هذا السبيل من بواعث عطف الوزير الإنجليزى بالمرستن على القضية الإيطالية .

وكان متزينى فى تلك الفترة دائب النشاط جم العمل ، وكان ما يبذل من الجهود المتصـلة لا يمكن الخواطر السود التى تهدم الإيمان وتغرى باليأس من أن تجد ثغرة تقتحم عليه منها ، ولكنه كان مع ذلك ينازل جيشاً من فوارس الفقر ، وكان يتلقى معونة من والدته ولكنه كان لا يزال كعادته متخرقاً فى الكرم ، وآده حمل الديون المتراكمة ، وكان ما تدره عليه الكتابة لا يزال قليلا لا يفرج الكرب ولا يفى بمطالبه وحاجاته ، وكان يخشى أن تدب إليه الشيخوخة قبل أن يؤدى رسالته ، ويقوم بواجبه ، وكان يؤلمه ويحز فى نفسه أن يرى تخلف الناس عن متابعته

وإقبالهم على الزعماء المعتدلين ، وأخذ خصومه وأعداؤه يستمعون به ويتهمونه بأنه يغرى أنصاره بالإقدام على الثورة وشق عصا الطاعة ، وهو متحرز فى مأمنه كأنه كان مخيراً فى التيق ، وكان يرى أن انتصار المعتدلين يعوق الوحدة ، ويعرقل سير الحركة ، ولكنه رأى استحالة مقاومة هذه النزعة الجديدة ، وكان أهم ما يشغل باله فى أواخر سنة ١٨٤٧ هو استثارة النمسا ودفعها إلى التدخل فى الشؤون الإيطالية وقمع الحركة الجديدة ، وكان يرى أن اعتداء النمسا يرغم الإيطاليين على أن يهبوا للجهاد ، وأن موجة الشعور العام ربما أرغمت شارل ألبرت على امتشاق الحسام وقيادة الحركة ، وكان يهجس بخاطره فى بعض الأحيان أن حكومات الولايات الإيطالية قد ترفض تحدى النمسا فتتولى ذلك جمعية إيطاليا الفتاة .

وأقبلت سنة ١٨٤٨ وهى سنة الأحداث الجليلة والثورات الخطيرة فى أوربا ؛ ففى فرنسا خلع لويس فيليب وقامت الحكومة الجمهورية ، وذهب متزينى إلى باريس ليضم الإيطاليين بها إلى الجمعية الإيطالية القومية وليقدم التهنئة للجمهورية الجديدة .

وبدأت نيران الثورة تشتعل فى أنحاء إيطاليا ، ففى أوائل يناير حدثت فى ميلان ثارة التبغ ، وكانت طليعة للثورة التى قامت فى مارس ، وبعد مرور يومين ثار أهل ليجورن ، وتبع ذلك قيام حركة قوية فى صقلية لخلع نير حكم البوربون ، وقبل مضى شهر أرغم أهل صقلية الملك فرديناند على منحهم الدستور ، وفى خلال شهر فبراير ظفرت تسكانى وبيدمونت بالحكم النيابى ، واضطر البابا بيوس التاسع إلى أن يعلن الدستور فى الولايات البابوية ، واستردت الولايات الإيطالية حريتها حاشا الولايات الخاضعة للحكومة النمساوية ، وأصبحت محاربة النمساويين من الأمور المتوقعة المنظورة ، وكانت إيطاليا تنتظر إشارة من ميلان أو من تورين ، وكان شارل ألبرت لا يزال الملك المتردد الظامئ إلى الانتقام من النمسا والذى يحرص على أن يظفر بإعجاب الإيطاليين وتقديرهم ، ولكن الذى يخاف فى الوقت نفسه القوى الديمقراطية التى تدفعه إلى العمل دفعا ويخشى أن تسود فكرة الحكم الجمهورى .

وبينا هو يدبر الأمر ويفكر فى الموقف ويوازن بين المحتملات المختلفة هبت العاصفة وسال السيل واصطفق الموج ، فقد ذاعت فى الأنحاء الشمالية من إيطاليا أخبار ثورة فينا ، فوثب أهل ميلان على الحرس النمساوى ، وبعد معركة حامية استمرت خمسة أيام شداد طردوا النمساويين واضطروهم إلى الفرار من المدينة ، واقتدت بميلان برجامو وكومو وغيرهما من مدن لومباردو واكتسبت حريتها ، وأعلنت تسكانى وبيدمونت الحرب على النمسا ، وتسللت الجموع من نواحى إيطاليا لتتم العمل وتنجز المهمة ، وتدفقت فرق المتطوعين من المدن والقرى ، واكتسحت موجة الوطنية الأمراء والساسة ورجال الدين والأشراف والطلبة وأصحاب الفنون ، وتلهبت الحماسة فى الصدور ، وتحركت العواطف الهاجعة ، ونسى القوم الحرص على الحياة وحطام الدنيا ، وتراءى للعيان أن حلم متزينى أصبح حقيقة واقعة ، وأن صوت الواجب المقدس قد أهاب بالإيطاليين فلبوا نداءه ، ونهضوا نهضة الأسد الهزبر لطرد الطغاة واسترداد الحرية .

وترامت هذه الأنباء السارة إلى متزينى وكان حينذاك فى باريس يؤلف بين قلوب الملكيين والجمهوريين من المنفيين ، فعبر ممر سنت جوتار مستهدفاً لخطر القبض عليه ، وراعه جمال جبال الألب فقال كلمته المعروفة « لا ينبغى لإنسان أن ينكر وجود الله وهو فى جبال الألب » ووصل إلى ميلان فى اليوم السابع من شهر إبريل ، ولم يستطع الذهاب إلى بيدمونت أو جنوا لأن الحكم الصادر عليه فى سنة ١٨٣٣ كان لا يزال قائماً ، وفضلا عن ذلك فإن ميلان كانت محور الحركة فى تلك الآونة .

على أدهم

تقليد غير حميد

هارون الرشيد شخصية من الأعلام في التاريخ ، شهرته واسمه الخلاب لاينحصران في الشرق وأهله ، بل قد لا تجد بين الغربيين من لا يعرف اسمه ويقرن هذا الاسم الساحر في مخيلته بكل ما في الشرق من ألوان وأنغام وعطر وبذخ . وقد يكون السبب الأكبر في ذيوع شهرته عند الغربيين ذلك السفر القصصي العجيب المجهول الهوية (ألف ليلة وليلة) فقد ترجمت هذه الأقاصيص إلى اللغات الأوربية في مقدمة ما ترجم عن العربية ، وذاعت بين الغربيين لما فيها من خيال يستهوي وتصوير بارع مسهب طلق لمتع الحس والنفس ، وأصبحت « ليالي العرب » كما يسمونها محببة إلى نفوسهم كأقاصيصهم الشعبية الخاصة بهم ، وغدت بعض شخصياتها حية عندهم خالدة مشهورة لا تقل في هذا عن شخصيات أقاصيص شكسبير وغيره ، وقد ورد ذكر هارون الرشيد في كثير من تلك القصص ونسبت حوادثها إلى عصر خلافته ، ومن ثم كان ذيوع شهرة هذا الخليفة بين القوم حتى العامة منهم الذين لايكادون يعرفون شيئاً عداه من معالم تاريخ الشرق .

وإذ كانت شهرة الرشيد قائمة بين شعوب الغرب على أقاصيص (ألف ليلة) فان الصورة التي ارتسمت في عقول القوم لذلك الخليفة تقوم من جهة على خيال القاص لألف ليلة ، ومن جهة أخرى على عاطفة من العداوة للشرق وحكامه رسخت في القوم منذ الحروب الصليبية ، نزعة قوامها الرهبة والكراهية والميل إلى التشويه والتلويث ونسبة الشر والغدر والقسوة لحكام الشرق والخلفاء ، وكانت نتيجة هذا المزيج من خيال زاهي اللون مع رهبة وبغضاء أن تجسمت في وهم القوم صورة الرشيد وغيره من الخلفاء على هيئة إنسان غارق في الترف يرفل في الحرير الموشى بالقصب وعلى رأسه عمامة من أسلاك الذهب يبرق في تضاعيفها الماس والجوهر ، يجلس طول حياته في استرخاء غارقاً في وسائد من المخمل المحشو بريش النعام في مقاصير رحيبة ذات عمد ونقش وزخرف ، يعبق جوها بالبخور والطيب ، والعبيد قيام حوله يحركون في هوادة مراوح ضخمة ، والجواري البيض الهيف الناهدات نصف العاريات يتخطرن على الأرض الرخامية الملساء في رقص لين ثمل على أنغام رتيبة ناعسة . ذلك وحي ألف ليلة ورسم ريشتها .

ثم تأتي بعد ذلك عناصر من نفث الكراهية والخوف فتتولى رسم نفسية الخليفة ومادة قلبه ، فإذا هي صورة سوداء مفزعة لإنسان من شهوة غير ذات وازع ، متع الحس هي هدفه الأكبر وفي سبيلها كل شيء يجوز ، همه أن يستكثر من الجواري الحسان بلا عدد ، وعليهن أن يحببنه ولو كان أبغض من تغين ، إن تعززت إحداهن من ثمة فيما تولى السيف نحرها ، ترقبهن ليل نهار أعين الجواسيس وتسمع كل همسة لهن آذان خفية ! فإن خطر لإحداهن أن تخون وهفا قلبها إلى معشوق سواه كان خبر ذلك عنده كأنما يقرأ الغيب ، ثم لا يصارحها به ، فليس من شيمته المصارحة واستقامة القصد والضمير ، وإنما يملي لها قليلا ويرخي لها الحبل بعض الشيء ، ويدخل في وهمها غفلة الجميع عن عشقها المخزون ، ويرقبها بعينه أو بعيونه المأجورة ، وهي تنزلق وجلة وراء نزوتها الوبيلة ، وهو يضحك ضحكة الشيطان ، ثم يفجأها ومعشوقها القاصر الغر ، فتصرخ من هول موقف يجل عن الصراخ ، والخليفة يهتز من نشوة الظفر ونجاح الكيد ، وهي نشوة لا يقل اشتهاؤه لها من اشتهائه النساء .

هذه هي الصورة البشعة التي صورها القوم وهم متوارثون لما غرسه في طينة سوداء من دعاية مبغضة مغرضة في القرون الوسطى ، تمكنت من أعماق الوعي الباطن لتلك الشعوب ، وما تزال تطفو فيلتاث بها أكثر قصصهم عن الشرق لا سيما الرخيص منه ، ومن ثم تلتاث به أشرطتهم السينمائية ، وقد يصدمك بعضه في مجلاتهم أو صحفهم اليومية .

فإذا خطر لكاتب أو قاص من أهل الغرب أن يكتب عن الرشيد أو غيره من الخلفاء بإملاء هذا الخيال الواهم والموجدة الموروثة وأخرج صورة منحرفة لشخصيات حملت الإنسانية أمانة حضارتها قرونا وأدتها إلى الأجيال مضاعفة في غناها المادي نابضة بالروح الديني، فلا عجب في ذلك إذ السبب معروف.

لكن العجب الذي يعوزه السبب هو أن يعمد كاتب عربي إلى تأثر خيال القوم وموجدتهم ومحاكاتهم فيما يطوح إليه بهم ذلك الخيال وتلك الموجدة، لا لشيء، بطبيعة الحال غير مجرد المحاكاة، فإنه ضنين لأسلافه. لقد سمعنا من محطة الإذاعة تمثيلية قصيرة ألفها أحد الأدباء وقام بتمثيلها بعض الهواة، تدور على الخليفة الرشيد وفتاة إفريقية استولى عليها رجال جيشه في غزوهم أراضي الروم، وكانت الفتاة رائعة الجمال بنت أحد سراة القوم وحكامهم، وسيقت الفتاة بين جموع السبايا وعرضت للبيع مع المعروضات، فكانت من نصيب الخليفة، وقد وقعت من نفسه موقعا حسنا، فأفرد لها قصرا في مكان بعيد، وأحاطها بكل ضروب الرفاهة والإعزاز وإلى هنا ليس في الأمر إذ فهكذا كانت الحرب. وجميل على كل حال أن تجد الفتاة الجميلة ابنة عزيز قوم النشأة في الحلية مكانها في قصر الخليفة، إذ قضى عليها القدر بالإسار والعبودية. لكن ما بقي من القصة ليس بجميل، وما هو في الوقت نفسه من حقائق التاريخ، بل هو مع الأسف من نسج خيال المؤلف استضافه ليجعل من مادة التاريخ النقل قصصا مثيرا متبلا بالمآسي الفجع، فاستحدث صورة لم ينزل بها التاريخ سلطانا، ولعل الرشيد لو اطلع عليها لاستل ذلك السيف الذي يحركه أولئك القاصون في يده ويضربون في موضع الكرامة والشهامة وفي غير موضعهما. أضاف المؤلف أن الأسيرة المسكينة ذلك الطائر اللطيف في القفص الذهبي كانت تتململ من كرب الإسار وتتطلع وتحن إلى جواء الحرية، لا ترى في حب الرشيد إلا فريضة تؤديها أداء العبد فروض سيده. ثم اندفع ذهنها كبلبل رهين محبس إلى تفتيق الحيل للانطلاق، وكان يلقاها رجل من بني جنسها يعمل في بلاط الخليفة، وكان طبيعيا أن تلتمس عونه على الفكاك والفرار، وفي الليلة التي أزمعاه فيها رقصت الفتاة أمام الخليفة وفي روعها ومناها أن تكون تلك رقصتها الأخيرة في محبسها الحريري الخانق المقيت. لكن الخليفة كان يعرف ما وراءها وما كان يغيب عنه تململها وانتفاضها! فهل رق قلبه لذلك الإنسان البائس؟ وهل عالج الأمر علاج الشهم الكريم الرحيم، وأبدى للفتاة عطفا لعله كان أكسبه قلبها فإن لم يكسبه إياه فما كان أغناه من جارية عصية كارهة! لا. لم يكن الخليفة كريما رحيما، بل كان صورة مصداقا لما وقر في نفس أهل الغرب المغرضين، وما كان مصور الخليفة هذه المرة واحدا من أهل الغرب، بل من صميم الشرق، وما كان مستندا في تصويره إلى أسانيد تاريخية وحقائق ثابتة، بل كان متبعا خطوات أهل الغرب فحسب.

ماذا فعل الخليفة! استمتع برقص الفتاة كما استمتع به في أي ليلة خلت، ولم يبد على وجهه جديد غريب أو مريب، وفي الختام تقدم عبد إلى الجارية يحمل صينية عليها هدية من أمير المؤمنين إلى جاريته المحبوبة، وتكشف الجارية غطاء الصينية فترى!.. ماذا ترى! شيء تافه في نظر الخليفة لكنه غال عندها.. رأس ابن جنسها الذي أزمع أن ينجيها على الفرار.

لعل الكاتب يظن أن هذه الصورة رائعة تظهر ما كان عليه الرشيد من فطنة وزكانة واقتدار وحزم. كلا! فما كان أحراه بالنظر إلى الجانب الإنساني قبل أن يضيف من عنده ما ليس من الواقع! وكان حريا ألا يظن كل ما يفعله الغربيون جميلا. أفهل نسيء إلى أنفسنا لا لشيء سوى أن الغرب يسيء إلينا ونريد أن نفعل كل ما يفعله الغربيون حتى هذا؟!.

عبد المغني علي حسين

محمد عبده

دراسة آرائه الفلسفية والدينية

ألف هذا الكتاب باللغة الفرنسية الدكتور عثمان أمين وكان موضوع رسالته في الدكتوراه . وينفرد الكتاب بميزات كثيرة : منها أنه الأول من نوعه في موضوعه لأن الذين كتبوا عن الأستاذ الإمام حامل لواء النهضة الاصلاحية قليلون جدا . ومنها أن المؤلف يحاول أن يجعل من محمد عبده فيلسوفاً ، وللشرق أن يفخر بأنه قد أنجب فلاسفة . ومنها أنه باللغة الفرنسية حتى يتسنى لعلماء أوربا أن يطلعوا على الفكر الشرقي في حقيقته ، لأننا لا نضمن مهما يكن علم المستشرقين ورسوخ قدمهم في الإلمام بديانة الشرق وتاريخه ، أن يحسنوا فهم روح الإسلام ، خالصين من شوائب التعصب والهوى . ولقد كان من العجيب حقاً أن يكتب عن فلسفة المسلمين ودينهم وتاريخهم أجانب عنهم . أحسن من كتب عن ابن رشد فيلسوف قرطبة هو رينان ، وأوسع من ألف عن ابن سينا الشيخ الرئيس هو كارادى فو ومن آيات التقدم والنهوض أن نرى مصريين يلحقون بالغربيين فيؤلفون الكتب ويعقدون الدراسات التي تمتاز بالأصالة والعمق والنفاذ .

والطريقة في التأليف بديعة والأسلوب أخاذ .

يرى الدكتور عثمان كما قال في خاتمة الكتاب أنه « لكي نحسن تقدير محمد عبده قد استفدنا من جميع المصادر التي يمكن الرجوع إليها ، سواء ما كان منها خاصاً بشخصه أم بمعاصريه . وإذا كانت مؤلفات محمد عبده تيسر لنا التعرف على محمد عبده الفيلسوف ورجل الدين والمصلح ، فإن رسائله ودروسه وأحاديثه تكشف لنا عن محمد عبده الإنسان . وهذه هي الأهمية الكبرى ، لأن المذهب الصادق ليس مجموعة من المجردات ، بل هو قبل كل شيء « العمل الأخلاقي » وليس له من قيمة في نظرنا إلا بواسطة الرجل ، وما أضافه الرجل إليه » .

بهذا الروح الذي عقد الدكتور عثمان فصول كتابه ، فتكلم عن الرجل وفصل سيرته منذ مولده إلى موته ، وتكلم عن الفيلسوف وذكر آراءه في المنطق والنقد والحرية والخير والاجتماع والسياسة . ثم تكلم عن رجل الدين فشرح وجهة نظره في الإسلام وفلسفة تاريخ الأديان والدفاع عن الإسلام وتفسير القرآن والتصوف . ثم انتقل إلى المصلح وما فعله في الأزهر واللغة العربية . وانتهى إلى الأستاذ ومدرسته في مصر والشرق .

هذه الطريقة تجعل من محمد عبده محور البحث بحيث تدور حول شخصه الآراء ، وهذا هو السر في حياة الكتاب وأكبر الظن أن الدكتور عثمان قد فعل ذلك قصداً ، لأنه يرى أن فلسفة محمد عبده في سيرته أكثر منها في آرائه المجردة . ولعله كان متأثراً بسقراط في ذلك ؛ إذ المعروف أن فيلسوف اليونان لم يكتب في حياته شيئاً ، مع أن فلسفته هي التي أخرجت للعالم أفلاطون ثم أرسطو ، وهما أعظم شخصيتين في تاريخ الفكر الإنساني .

وقد تساءل المؤلف في مستهل الفصل الخاص عن محمد عبده الفيلسوف : أهو فيلسوف حقاً ، وهل نجد عنده مذهباً فلسفياً ؟ ثم أورد أقوالا كثيرة لمعاصرين له مثل مستر بلنت وغيره ينعتونه فيها بأنه فيلسوف وأنه حكيم الإسلام ، إلى أن قال يدافع عن إثبات الفلسفة لمحمد عبده : إنه لم يكن يرمي إلى تشييد فلسفة صورية أو إلى إحياء المدرسية (وهي فلسفة القرون الوسطى) التي تزدرى بالتجربة ، أو إلى بناء ميتافيزيقا تعيش منطوية على نفسها . على العكس من ذلك اصطنع محمد عبده للفلسفة صورة هي أحدث الصور وأقدمها أيضاً ، صورة محبة الحكمة وأداء الفضائل الأخلاقية خلال السلوك في الحياة .

أما أن الفلسفة هي محبة الحكمة ، وكذلك كان القدماء يتصورونها ، فهذا صحيح . ولكن دلالتها في العصر الحديث تختلف اختلافاً كبيراً ، ولم تعد مقصورة على السيرة الفاضلة ، أو على العلم الذي يجب أن يؤدي إلى العمل . بل أصبحت تتطلب العلم الواسع بكثير من المعارف لأنها تنشد البحث فيما وراء الطبيعة ، لمعرفة العلل الأولى التي تقصر عن معرفتها العلوم الطبيعية ، وكشف الغايات البعيدة لأن العلم لا يعني بالغايات .

وإذا كان ما يقوله الدكتور صحيحاً ، فأغلب الناس فلاسفة ، لأنهم يعيشون ولأنهم أحياء ، ولأن لهم نظرة في الحياة ، ولأن لأكثرهم سيرة فاضلة .

ولم يدع محمد عبده نفسه أنه فيلسوف أتى بالجديد ، ولكنه نظر في آراء السلف وحررها من الحواشي التي أثقلتها وجعلتها جامدة ، أو كتبها بشكل جديد يلائم روح العصر . وهو القائل في مقدمة رسالة التوحيد إنه لما دعي إلى تدريس علم التوحيد بالمدرسة السلطانية رأى « أن المختصرات في هذا الفن ربما لا تأتي على الغرض من إفادة التلاميذ ، والمطولات تعلو على أفهامهم ، والمتوسطات ألفت لزمان غير زمانهم » ، ثم نظر فيما كان قد أملاه فإذا هو قريب مما يجب على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد من القول محدود ، قد سلك في العقائد مسلك السلف ، ولم يعب في سيره آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف في المذاهب .

وواضح من كلام محمد عبده نفسه أنه كان يحاول تحرير الفكر الإسلامي من عبء التقليد ، وتصفية الآراء الإسلامية من الفاسد ، واستبقاء الصالح . وليس هذا بالعمل اليسير .

وأصول الإسلام الثمانية التي ذكرها محمد عبده ونقلها عنه المؤلف ليست جديدة . خذ مثلا المبدأ الثامن وهو التوفيق بين الدين والدنيا ، وأن الدنيا سبيل الآخرة ، تجد أنه من المبادئ التي ذكرها كثير من القدماء ؛ منهم الراغب الأصفهاني في كتابه الذريعة إلى مكارم الشريعة . والمتصوفة وحدهم هم الذين حقروا من شأن الدنيا .

ونختلف مع الدكتور عثمان في تفسير «المصلحة»(1) بمذهب البراجماتزم ؛ فقد قال : « إن الدين الإسلامي بما فيه من براجماتزم يضع مبدأ المصلحة موضع العمل ، لا يتجه فقط إلى الدار الآخرة ، بل إلى ما يطابق مصالح الناس في حياتهم الدنيوية ، وإلى ما يحقق سعادتهم الأخروية » .

وعند الفقهاء أن المصلحة هي ما طابقت الشرع . قال الغزالي في المستصفى :(2) « أما المصلحة فهي عبارة عن جلب منفعة أو دفع مضرة . ولسنا نعني به ذلك ، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق ، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم . لكنا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع . . »

العقل والشرع ، وظاهر القرآن وباطنه ، من المسائل الدقيقة التي كانت موضع خلاف كبير بين السلفيين . فمنهم من غلا في التأويل ، ومنهم من أخذ بظاهر الشرع ، ومنهم من وقف موقفاً وسطاً . ومحمد عبده يجعل الكتاب والسنة أصلين يستقى منهما معرفة الدين ، مع تحكيم العقل . وفي ذلك يقول في رسالة التوحيد(3) خاصا بالدين الإسلامي : «وما سندي فيما أقول إلا الكتاب والسنة القويمة» . وشرح الدين الإسلامي بقوله : « إن الدين الإسلامي الذي جاء به محمد (ص) وعقله من وعاه عنه من صحابة ومن عاصرهم ، وجرى العمل عليه حينا من الزمان بينهم ، بلا خلاف ولا اعتساف في التأويل . . » .

وبعد فإن النهضة الحديثة دينية وسياسية واجتماعية إنما ترجع إلى مدرسة الأستاذ الإمام محمد عبده كما هو

(1) ص ١٤٦
(2) المستصفى في أصول الفقه للغزالي ج ١ ص ٢٨٦ ، وانظر أيضا ضحى الإسلام ج ٢
(3) ص ١٧٠

حكايات مختارة

من كتاب حكايات بعد الغداء

– ٢ –

اختلاف فى المنطق

١ – اختلف رجلان : ارلندى وفرنسى على جنسية واحد من أصحابهما .

فقال الفرنسى : أنا أقول إنه فرنسى ، ذلك لأنه ولد فى فرنسا .

فقال الارلندى : إنى أرفض هذا القول . إذ لو أخذنا به لسمينا القطيطات التى ولدتهن أمهن فى فرن من الأفران « بسكويتا » ...

رجل شارد الفكر

٢ – قال المصـــالى مفاخراً : أظنك لا تذكرنى الآن . فقد كنت أنا منـذ عشرين عاماً ولداً فقيراً بائساً وأعطيتنى أنت رسالة لحملتها . . .

فقاطعه المخاطب ، وكان رجلا شارد الفكر بقوله : نعم نعم . وأين الجواب ؟ .

صدق الفراسة

٣ – جلس رجـل بين أصحابه وهم يسمرون يفخر ويباهى بقدرته على أن يحكم من أول نظرة من أى بلد يكون الرجل . وقال لواحـد منهم كان بجواره : أنت من « نيوأورليتس » فـكان صادق الحدس .

ثم قال لآخر : وأنت من شيكاغو . وكان مصيباً فى قوله :

وقال لثالث : وأنت من بوسطن . فقال الرجل صدقت .

ثم قال للرابع : أما أنت فمن فيلادلفيا .

فقال الرجل : كلا ياسيدى . وقد يصح أن أبدو كأنى من فيلادلفيـا . ذلك لأنى فى وجهى شحوباً من أثر مرض طويل .

طلب مزدوج

٤ – دخل ولد صغير دكان صيدلى وهو ثائر غاضب وطلب مرهما وقبضة من أسمنت . فلما سـئل عن الحكمة فى طلب هذين الصنفين فى آن واحد قال : إن بابا قد ضرب ماما بفنجان فجرحت وانكسر الفنجان .

مارك توين وعاملة التلغراف

٥ – قص مارك توين القصة التـالية :

– كنت بمدينة جلاسجو فدخلت مكتب التلغراف لأبعث رسالة إلى صديق من أصدقائى فى لندن . فسألت العامـلة عدة أسئلة كسؤالى عن الوقت اللازم لإرسال الرسالة وعن الوقت اللازم لوصولهـا وتسليمها . فـكانت الفتاة تشمخ بأنفها وتريد أن تصدنى عن المضى فى السؤال ، فأردت أن أغيظها فـكتبت لصديق هذه الرسالة :

وصلت سالماً . والفتيات هنا قبيحات سيئات الخلق . وكان على الفتاة أن ترسل رسالتى كما هى لا تخرم منها حرفا .

مفصل فى الباب الأخير من الـكتاب . سـعد زغلول ، وقاسم أمين ، ورشيد رضا ، هم الأعلام الذين ترتكز عليهم النهضة الحديثة .

ونستطيع أن نضيف إليهم من الأحياء الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى يجرى على منهج محمد عبده فى التحرر من التقليد ، وتصفية الدين الإسلامى من الشـوائب والبدع التى أثقلت كاهله زمناً طويلا .

لهذا نعتقد أن كتاب الدكتور عثمان يعد سـجلا للنهضة الحديثة ، يبصر المعاصرين بحكيم الإسـلام الذى أخذ بيد الشرق فى طريق الخير والتقدم .

أحمد فؤاد الأهوانى

فرط العناية بالمولود الجديد

٦ — كانت سيدة تسير فى أحد الشوارع الفخمة ومعها بنتها الصغيرة ، فلما وصلتا إلى منتصف الشارع ألفتا أرضه مفروشة بالقش طبقة فوق طبقة . حتى يخف ضوضاء العربات والسيارات .

فسألت البنت الصغيرة أمها : ولماذا كل هذا القش يا أماه ؟ .

قالت الأم : ذلك يا فتاتى لأن السيدة التى تقيم فى ذلك النزل قد وضعت بنتاً صغيرة حلوة الشمائل مثلك .

ففكرت البنت قليلا ونظرت إلى كمية القش وقالت : لقد عنى أهل المولودة كل العناية بها وأكثروا من اللفائف حولها ...

حادث لحلاق

٧ — جاء حلاق ليحلق ذقن رجل . وكان وجه الرجل قليل اللحم معروقه . فكان على الحلاق أن يضع أصبعه فى فم الرجل ليسد الفجوات ويرفع من صدغه ما انخفض . وبينما هو كذلك إذا بالموسى تنزلق فتجرح الوجه المعروق وتصيب أصبع الحلاق وهى بداخل فمه . فصاح الحلاق : لعنة الله على أصداغك الفانوسية فقد قطعت أصبعى .

بعد الذبح

٨ — ذبح أحد الارلنديين دجاجة ثم رمى بها إلى الأرض فظلت تقوم وتقعد ، وتعلو وتهبط ، فقال صاحبنا يعلل هذا : إنها قد ماتت ولكنها لا تريد أن تعترف بالموت .

بيير بونت باتريك

٩ — جاء بيير بونت باتريك الارلندى من بلاده إلى أمريكا يبتغى الغنى كسميه بيير بونت مورجان الغنى الأمريكى وقال لنفسه : لم لا أكون مثله وقد صعد هو إلى قمة المجد وكان من قبل فقيرا ؟ .

ولم يكن صاحبنا ممن تملكهم الجشع والشره . فا كتفى بأن جعل الحد الأقصى لثروته المأمولة ألفى ريال .

وكان العمل الذى أسند إليه بعد طول السعى والنكد عمل « طيان » يجبل التراب والرمل بالماء ، ويعطى على هذا العمل أجراً زهيدا .

فقال صاحبنا لقد لقيت العمل . أو بعبارة أخرى لقد لقيت السبيل إلى الغنى أو السبيل إلى الألفى ريال .

وعلىّ الآن أن أختار بين رأيين :

الرأى الأول أن أقتصد من دخلى مائتى ريال فى العام لمدة عشر سنوات .

والرأى الثانى أن أقتصد عشرين ريالا فى السنة لمدة مائة عام .

وكلا الطريقين سهل ميسر . . .

تجرب حظها

١٠ — سألت أم بنتها الصغيرة : هل أديت فروض الصلاة الليلة الماضية ؟ فأجابت الصغيرة : كلا ... لم أصل الليلة الماضية وليس فى نيتى أن أصلى هذه الليلة . وإذا لم يحدث لى حادث فلن أصلى أبدا ...

تغيير مكان جهنم

١١ — نزل ارلنديان الأرض الأمريكية واستقرا فى مدينة نيويورك واتخذا مقرهما فى غرفة من غرف البيوت المفروشة .

ولما انتصف الليل استيقظا على أصوات مزعجة فى الشارع . فأطل أحدهما من النافذة فرأى قاطرتين بخاريتين من قاطرات المطافى ، يتصاعد منهما الدخان واللهب ويتطاير

منهما الشرر . فقال لصاحبه : إنهم ينقلون جهنم من مكانها إلى مكان آخر ، وهذه هي الدفعة الأولى .

العالم الشارد الفكر

١٢ — كان هذا العالم يجوب أنحاء الحي التجاري في المدينة فدخل أثناء تجواله دكان صيدلي ، ثم جاب أقطار المكان بعين شاردة حتى وقع نظره على دليل المدينة . فابتسم ابتسامة الظافر وقال : والآن إذا استطعت أن أتذكر اسمي أمكنني أن أدل على البيت الذي أقيم فيه .

اختلاف موضع الألم

١٣ — قال والد لولده بعد أن أدّبه بالعصا : يا ولدي إن ضربي إياك بالعصا يؤلمني أكثر مما يؤلمك .

فقال الولد وقد انهملت دموعه وانهمرت : إن هذا جائز يا والدي ولكن مع اختلاف موضع الألم .

الساعة التي لن تدخل الجنة

١٤ — كان رجل من رجال الأعمال يستخدم عدداً كبيراً من العبيد ، وكان المتفق عليه فيما بينهم أن عملهم يبدأ مع طلوع النهار وينتهي مع غروب الشمس ولهم في كل يوم ساعة للغداء .

فجاء ذات يوم أحد العبيد يسأل صاحب العمل عن الساعة ، ذلك لأن الشمس كانت قد قاربت المغيب . فنظر الرجل إلى ساعته — وكانت الساعة السادسة والدقيقة الأربعين — وقال له إنها الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين ، فارجع إلى عملك غير مأجور .

فقال الزنجي : من الجائز يا سيدي أنك تدخل الجنة بعد موتك ، ولكن ساعتك الخدّاعة الملعونة لن تدخل الجنة أبداً . .

(عن الانجليزية)

مبارك ابراهيم

إنه في يوم السبت ١٢ أكتوبر سنة ١٩٤٦ الساعة ٨ أفرنكي صباحا بالعقال البحري واليوم التالي إذا لزم الحال سيباع بطريق المزاد العلني الأشياء الموضحة بمحضر الحجز المؤرخ ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤٦ ملك احمد افندي علام سلامه والست توحيده الشهيرة جليله علام سلامه والست بهيجة علام سلامه من العقال البحري مركز البداري .

وفي يوم الإثنين ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٦ الساعة ٨ أفرنكي صباحا بناحية أولاد الياس مركز أبو تيج ويوم ٢٩ منه بسوقها إذا لزم الحال سيباع بطريق المزاد العلني الأشياء الموضحة بمحضر الحجز المؤرخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٤٦ ملك الست فريده علام سلامه من أولاد الياس نفاذاً للحكم ن ١٤٨ سنة ١٩٤٣ كلي أسيوط وفاء لمبلغ ٩٤٠ مليم و ٢٣١ جنيه منها على الأول ٧٧٦ مليم و ٩٢ جنيه وعلى كل واحدة من الثانية والثالثة والرابعة ٢٨٨ مليم و ٤٦ جنيه بخلاف أجرة هذا النشر وما يستجد من المصاريف

وهذا البيع كطلب الشيخ علي مرسي علي عبد العال رئيس مدرسة العقال البحري مركز البداري .

فعلى راغب الشراء الحضور

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

نقد الكتاب:

أسس الصحة النفسية

وحدة الكتاب مثل وحدة الإنسان أى هى وحدة مركبة . وكما أن الإنسان يحقق وحدة وجوده بفكره فإن الكتاب كذلك يحقق وجوده بطريقة عرض فكرته التى يثبت بها أثره والتى تركز شخصيته وتساعده على أن ينتج أثره المطلوب لدى القارئ .

والنقد فن ونواحيه كثيرة وعديدة ، ولكن القاعدة الأولى فى فن النقد هى أن يكون توجه موافقاً لنوع الكتاب وشخصيته الفكرية . فالأسلوب الأدبى غير الأسلوب العلمى ، وكلاهما غير الأسلوب الذى تعرض به الفلسفة مثلا ؛ فالنقد يوجه لا يوجه إلى الكتاب عامة بل إلى أثر المادة فى الأسلوب ، ثم إلى أى حد يحقق هذا الأسلوب وحدة الكتاب الفكرية ، أى أن أحق النواحى التى يجب أن يوجه إليها النقد هى السياسة العقلية للكتاب ، وأحق الكتب للنقد من هذه الناحية هى الكتب السيكولوجية ، لأنها هى الكتب التى تبحث هذه المادة

ولقد حفلت المكتبة السيكولوجية فى مصر بكتب عديدة . ولكن فراغها لم يكن مشعوراً به حتى صدر الكتاب « أسس الصحة النفسية » فهو لها دون شك الكتاب الأم ، وهو يحتضنها جميعاً ويكاد يتميز عنها جميعاً بسياسته العقلية .

« فى الواقع أن السياسة العقلية التى انتهجها المؤلف فى بسط الأفكار والنظريات المختلفة التى تتعلق ببحثه — وهى جد بديعة وشاملة — هى سياسة تجريبية بارعة فيها نوع من الفلسفة الإيجابية ، حيث يبدو أن المؤلف أقام أسس بحثه على قاعدة فلسفية ، وهى الإيمان بغلبة الخير والقوة فى جوهر الإنسان العقلى وفى مظهره السيال أى النفس ، وجعل هذه القاعدة الجو الذى يضبط ترمومتر تياره العقل الباحث حينما ينزل إلى العقل الباطن إلى أن ترتفع درجاته إيجابية تفسر أسباب الشذوذ النفسى اللاحق حينئذ بالعقل »

« ولا شك فى أن هذه السياسة العقلية هى ثمرة المنهج التجريبى الحسى الذى ينتهجه الدكتور القوصى ، وهو منهج يدل عليه نوع السياسة الإيجابية التى يستعملها المحلل نفسه ، فهو كما يخيل لى يؤمن بأن هذه الأمراض النفسية إنما تهاجم العقل وتنشأ من أسباب إذا حللناها وجدنا جذورها خارجة عن المزرعة العقلية الواعية نفسها ، أى أنها ليست فيه بالقوة إنما هى فيه بالفعل ، فهى إذاً ليست فى جوهر العقل نفسه ؛ وعلى ذلك فما دامت الوحدة العقلية موجودة وحالة الوعى العام لا تزال فيها حياة وإن تذبذبت قواها وتأثيراتها ، فكل ما يطرأ حينئذ على الحياة العقلية من حالات الشذوذ فهو قابل للعلاج بل الشفاء . فنظرة الدكتور المحلل إلى الأمراض النفسية مطابقة لنظرته الفلسفية إلى الأوهام . فنحن فى الواقع نطلق كلمة الوهم عندنا على كل ما يطرأ على الذهن من أفكار قد تكون لها آثار إيجابية من نوعها، ولكنا ننكر وجوده بحسب دلالة الكلمة الصوتية وإن كنا نجهل له ماهية . ولكن الدكتور القوصى يقف منه موقفاً فكرياً بديعاً ، فهو ينكر ماهيته ويثبت وجوده على أنه وجود مسبب ترتبط بآثاره ارتباطاً باطنياً متشعب الجذور فى كل ما يحيط بالعقل من آثار البيئة والوراثة ونوع تأثير الجو الخارجى على العقل ونوع العقل نفسه ودرجة تأثيره وامتصاصه الحوادث ، ولكن زوال سببه يزول الوهم أو المرض . فالأمراض النفسية هى إذ ذاك كالأوهام ، فهى وجود ما لا يصح أن يوجد ، لأن وجوده المرضى مرتبط بما يمكن إرجاعه لأسبابه ؛ وليس من شك فى أن هذا المنهج التطبيبى العقلى منهج بارع يدل فيما يدل عليه

على الكبرياء العقلية التي حققتها التجارب الثابتة النتائج والخبرة الطويلة، وقبل كل شيء الوهبة؛ وقد استخلصنا القاعدة الأولى من السياسة الفكرية الجديدة التي عالج بها شرح الأمراض وتحليل الأسباب؛ فهو أولاً يحقق كرامة الكتاب العقلية، وذلك بتجريده من المصطلحات الفقهية الضخمة وبتخليصه من الأسماء المرضية اللاذعة التي يطلقها بعضهم على هذه الأمراض، واستبدال ذلك بشرح النظريات شرحاً علمياً تجريبياً يلمس كل عقل مما يثبت جوهر الفكرة ويترك المرض، وما هي إلا كتلة الأسماء والصفات المرضية غير المرغوب فيها؛ وهذه السياسة هي الروح التي تسيل في ضلوع الكتاب فتجعله ينبوعاً طلقاً، مما يمهد الطريق للكتاب لكي يسيطر على العقل سيطرة تدريجية فعالة، يتقبلها العقل بالفهم المقرون بالرضا. إذ أنه يلاحظ أن في التسمية الفقهية للأمراض النفسية تقريراً وتركيزاً له، وهذه نتيجة غير مطلوبة أبداً بالنسبة للأمراض النفسية؛ إذ أن أول قاعدة يتدرج منها العلاج هو حفظ البقية الباقية من الاتزان العقلي وتقويته بالإيحاء حتى يستطيع أن يزيح السد الذي يصيبه من الأمواج الهادرة التي تمور وتغلي في صدر الإنسان وعقله. وحيث إن العلاج النفسي ما هو إلا عبارة عن المواجهة العقلية الصريحة لهذه الظواهر الطارئة والتفسير لذلك بشرحها وبيان أسبابها — أو اختفاء هذه الأوهام بطول التحليل والإيحاء؛ فإنه إذا وقر في ذهن المريض أنه كان مصاباً بمرض فعلي له اسم لاذع ضخم يسوط الكرامة الإنسانية، خصوصاً وأن الوعي الاجتماعي لا يزال ينظر نحو هذه الأمراض نظرة غير رزينة وغير مبرأة من المزح المقرون بالنفور — فإن في ذلك ما يضاعف مرضه ويفتح له جرحاً آخر. وثمة شيء آخر هو أن تقرر الاسم في هذه الأحوال لا ينسى حتى ولو ذهب المرض، إذ أنه سيصير جزءاً لا يتجزأ من حياة المريض الوجدانية، فبذلك نكون قد كونا له عقدة نفسية أخرى ليست أقل إيلاماً، ولكن ومع الأسف أنه تطالعنا الحين بعد الحين بعض الكتب السيكولوجية التي تضغط على هذه الأسماء ضغطاً كبيراً، مما يجرح الكرامة الإنسانية ويكون له أسوأ الأثر في النفوس المريضة.

« والقاعدة الثانية للسياسة العقلية السائدة في الكتاب هو أن البحث النفسي يجب أن يبدأ في الإنسان، فليس هناك كتلة مجردة للأمراض العقلية، ولكن هناك حالة إنسان مريض، ولذلك نجد أن المحلل غير ميال لتطبيق النظريات على المرض بقدر ما هو ميال إلى تكوين نظريات من نتائج التحليل النفسي، فهو يتبع منهج الاستقراء؛ وعلى ذلك فإذا تشابهت أعراض المرض لدى شخصين فليس معنى ذلك أن تتماثل الشخصيتان أو طرق العلاج؛ فالدكتور يحسب لشخصية المريض نفسه حساباً هاماً، حيث إنها تتدخل في تشكيل المرض نفسه وفي تقدير درجات ارتفاعه وانخفاضه، وهو من ذلك يلمس مسألة هامة من المسائل السيكولوجية، وهي من نفس شخصية المحلل الفنان، فإنه لا يصلح طب أي إنسان لكل إنسان، وكذلك فإن نفس القواعد المعروفة التي تكتظ بها أدمغة أطباء علم النفس صالحة كل الصلاحية لكي تطبق على كل الأحوال، فإن الإنسان المريض بكر دائماً وقاعدة تترتب عليها نتائج وأبحاث جديدة، ويستخلص من ذلك أنه لا القواعد العليا المعروفة ولا هضمها مما يساعد على راحة المريض وشفائه، إنما هو الجانب الإيجابي المكتسب عملياً من فهم القواعد وممارستها؛ فالعلاقة بين الطبيب والمريض ليست علاقة ثقافية تقوم على المعرفة المجردة، ولكنها تقوم على « الفهم » وفرق بينهما. وفي الواقع أنه ليس هناك ميزان عقلي رمزي يتبع القياس الكلي لعقليات الناس جميعاً، لأن الإنسان وبيئته ومؤثراته في حالة تطور مستمر، فطبيعي جداً أن يكون لدى الإنسان حركة جزر ومد، وليس الشذوذ المرضي سوى تمدد عكسي في

مقاييس التأثر الحسي التي تعمل دائبة لتكوين الاتزان النفسي عند الإنسان في كل أحواله؛ وعلى ذلك فالإنسان يمكن النظر إليه أحياناً كالآلة التي يمكن تفكيكها ودراستها ثم تكوينها ثانية، وكل ما يقبل التجزئ يقبل الفحص، وكل ما يقبل الفحص يعالج، وكل ما هو قابل للعلاج فهو في مقدرة الطب أو هو في متناوله الفرقة.

ثم إننا نجد بعد هذا كله أن الكتاب قد وصل إلى درجة الإشباع التام؛ فهو يحتوي على كل ما يهم الإنسان وتشوقه معرفته عن دنياه الباطنة والخارجية وعن العلاقات المتبادلة بينهما وتأثيراتها المختلفة، وهو في شرحه الطويل يلاحظ أنه لم يفقد طرف الخيط على أن الكتاب أولاً تلاه؛ كما يلاحظ أن طرق الشرح والتحليل فيه تحقق أهم قاعدة يطمح إليها المريض لكي تساعده على تقوية روحه المعنوية وتمهد له الشفاء، وهو أنه يجد ما يبرر مرضه ويشرحه ويرجعه إلى أسبابه شرحاً لا يأخذ ولكنه يعطي، ولا يهدم بل يبني ويؤسس، ويضعه بين المؤثرات التي تسببت في مرضه، لا أن يضعه تحت العناوين الضخمة التي لا يد له في تكوينها.

بقي علينا بعد هذا كله أن نقول إن المبدأ الأدبي الذي يحققه هذا الكتاب هو أن للحياة البشرية كرامة يجب أن تحفظ وحقوقاً لا يتطلب احترامها لدينا أكثر من أننا يجب أن نتذكر حينما نشرح جسم إنسان أو عقله أن الرابطة بيننا لم تضع وأن مقدار ما نكتسبه من صفات ومكانة وتجربة إنما هو لهذا الذي أمامنا وأن مرضه وضعفه لم يفقده شيئاً من كرامته ما دام قد وضع نفسه بين يدي طبيبه فيلقي هذا عليه قناعاً ويوحي إليه بما يقويه وينفعه، ويوم أن ينوي أن يدرس مرضه فإنه يكرم النوع المريض كله فيه بأن يكتب كتاباً من أسس الصحة النفسية.

محمد أمين المفتي

تعليق للمؤلف

تدل هذه الكلمة على أن صاحبها قد قرأ الكتاب وهضمه، واستفاد منه. غير أني أخالفه في عدد من النقط. منها أن الصلة بين ما يسمى «بالعقل الشعوري» و «العقل اللاشعوري» صلة معقدة أشد التعقيد، وهي ليست بالصورة التي بينها. كذلك أختلف معه في أنه نسب إلى ضمناً اعتمادي على الإيحاء، مع أني لا أومن بالإيحاء كطريقة للعلاج، وإن كنت أومن به كعامل مساعد. ونقطة ثالثة لا أتفق معه فيها، هي خطورة النظر إلى الإنسان كآلة يمكن تفكيكها ودراستها ثم تكوينها ثانية. هذه نظرة غير سليمة، فالإنسان مجموعة من القوى الحية التي تؤثر في عوامل البيئة، وتتأثر بها، وينتج من هذا التفاعل الحي المشترك المستمر بين الإنسان بقواه واستعداداته الموروثة، وبين بيئته المادية والاجتماعية التي يضطر إلى التعامل معها، ما نسميه بالقوى العقلية الشعورية واللاشعورية. وإني أحمد للكاتب الكريم هذا العرض الصادق.

عبد العزيز القوصي

من الشعر القصصي :

العين الزجاجية

[مترجمة من أوسكار وايلد]

كان في الماضي ملاك فاتن ... مشرق الطلعة كالبدر النير
يأسر القلب بطرف أحور ... أين منه مقلة الظبي الغرير
فإذا صادف صبياً نافراً ... جاءه يرسف في قيد الأسير

* * *

سار في روض بهيج ناضر ... رصعت أرجاءه كف الربيع
خطرت في ظله غانية ... صاغها الحسن من النوع الرفيع
صوب الطرف لها عن كثب ... فأتت في ذلة العبد المطيع

* * *

جلست تمسح عنه عرقاً ... كان مثل الدر يعلو وجنتيه
فهوت إصبعها — عن خطأ ... غير مقصود — بإحدى مقلتيه
تخبا النور بها في سرعة ... هكذا إصبعها تجنى عليه !!

* * *

وأتى المرآة يرنو وجهه ... فإذا منظره لا يسحر
عينه العمياء في شرع الهوى ... سبة شنعاء لا تغتفر
فمضى يصرخ من أعماقه : ... ويح نفسي ! إنسي محتقر

* * *

ورآه صانع ذو خبرة ... يصنع المقلة من لوح الزجاج
قال : عندي مقلة ساحرة ... أنت محتاج لها كل احتياج
هي لو تدري علاج ناجع ... أي غر ليس يرضى بالعلاج؟

* * *

ركب العين فزانت وجهه ... بعد أن كان دميم المنظر
غير أن الشك قد قال له: ... ويك إن القبح لم يستتر
فمضى يسأل من مقلته ... وينادي الناس هل من مخبر؟

* * *

ورأى في سيره ذا فاقة ... معدماً يطلب رفد المحسنين
فأتى يسأله مستفسراً ... بعد أن أعطاه في رفق ولين
أترى فرقاً جلياً واضحاً ... بين عيني يرى للناظرين؟؟

* * *

قال : عن مقلتيك اتخذت ... من زجاج يجتليه من رنا
قال : كيف استطعت أن تعرفها؟
قال : هذا كان عندي هيناً
إنني أبصرت فيها رحمة ... جعلت منك سخياً محسناً

محمد رجب البيومي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة: ٩ شارع السكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم: ٥٢٦٩٦٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٠٦ — الثلاثاء ١٣ من ذي القعدة سنة ١٣٦٥ — ٨ من أكتوبر سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

في جو السياسة المصرية

تلبد الجو السياسي في مصر بالغيوم خلال الأسبوع الماضي، ورفع دولة صدقي باشا استقالة وزارته وكلف حضرة صاحب المقام الرفيع شريف صبري باشا بتأليف الوزارة واتجهت مساعيه إلى أن تكون وزارته قومية تضم ممثلين لمختلف الأحزاب السياسية. وظن أن وفد المفاوضات سيعاد تأليفه من جديد ليشمل كل العناصر السياسية في مصر ولكن اتصالات رفعته برجال الأحزاب المختلفة دلت على اختلاف شديد بين وجهات نظرها لا يستطيع معه التوفيق بينها، ولهذا اضطر للاعتذار من عدم تشكيل الوزارة. وعادت وزارة صدقي باشا ثانية لتولي الحكم بعد أن أبلغها جلالة الملك رفضه قبول استقالتها.

وهذه الأزمة الوزارية الأخيرة متصلة بموضوع المفاوضات المصرية الإنجليزية. فقد رأى المفاوضون المصريون بالإجماع رفض العرض الانجليزي الأخير والتمسك برأيهم السابق، وبدا من بعض أعضاء وفد المفاوضة تبرم عما لابس هذه المفاوضة من بطء ومطاولة، فاقترح بعضهم قطع المفاوضة ورأى البعض إبلاغ الإنجليز قرارهم بصورة لا تدع مجالا للأخذ والرد، واتفق الجميع على صيغة معتدلة حازمة التبليغ، ولكن بعض الصحف نشرت تفاصيل من هذا الاجتماع رأى معه رئيس الوزراء تعقيداً للموقف وإحراجا له وتصعيباً لمهمته في السير بالمفاوضات إلى النجاح الذي ينشده والذي لا يزال كبير الأمل في تحقيقه، ورأى أن اختلاف آراء المفاوضين في صيغة الإبلاغ قد صوّر على أنه استمساك وتشدد في حقوق البلاد من

بعضهم وتساهل وتفريط من البعض الآخر وهو تصور غير صحيح لأن الجميع متفقون في الرأي والهدف وإنما كان الخلاف منصباً على أسلوب الإبلاغ ، ولهذا آثر التنحي عن الحكم .

أما فشل التوفيق بين الأحزاب فيرجع إلى موقف كل منها من نظام الحكم الحاضر ، فقد اشترط الوفد لاشتراكه في الحكم والمفاوضات أن يحل البرلمان الحاضر فوراً ، ثم رجع في ذلك فقبل أن يكون حله بعد موعد انعقاد دورته في منتصف نوفمبر المقبل وأن يتم ذلك سواء وصلت المفاوضات إلى نتيجة قبل هذا الموعد أو لم تصل . والسعديون والدستوريون لم يوافقوا على حل البرلمان القائم إلا في حالة واحدة وهي حالة نجاح المفاوضات فلا مانع لديهم عند ذلك في أن يحل البرلمان لتستفتى الأمة فيما وصل إليه المفاوضون من نتيجة ، أما في غير هذه الحالة فلا مبرر لحل البرلمان .

هذه خلاصة موجزة للموقف السياسي في الأسبوع الماضي والأسباب التي أدت إلى استقالة الوزارة وعودتها ثانية . والذي يخلص به الباحث من دراسة هذه الأزمة وأسبابها والمساعي التي تلتها وإخفاقها هو أن الجو السياسي المصري لا يزال خاضعا لتيارات شديدة متعارضة تحول دون صفائه ، وأن الظروف لم تتهيأ بعد للوصول إلى نوع من الاستقرار يتهادن فيه الزعماء ، وتزول بينهم أسباب الفرقة والجفاء .

ومن عجب أنه لا خلاف بين هؤلاء الزعماء في الأهداف القومية والغايات الوطنية ، فقد أظهرت الأيام شدة إخلاصهم وغيرتهم جميعا على المحافظة على حقوق البلاد وتحقيق آمالها . وإنما يقوم الخلاف على أمر واحد هو « ولاية الحكم » ولسنا نذهب مع المسرفين في القول الذين يظنون أن الحرص على تولي الحكم يرد إلى دوافع ذاتية . فالزعماء جميعا أرفع من أن يتخذوا من الحكم وسيلة لأغراض ذاتية صغيرة ، وليس منهم بحمد الله من لا يجد بجده وجهوده الخاصة وسيلة من وسائل الكسب الشريف ؛ بل إننا نعتقد بحق أن الكثير منهم يضحون بمصالحهم الخاصة ويضيعون كثيرا من فرص الكسب بتولي الحكم .

والذي نعتقده أنهم إنما يحرصون على تولي الحكم ثقة منهم بأنهم أحق الناس بتلك الولاية وأقدرهم على خدمة الشعب ورعاية حقوقه .

ولقد كان النظام الدستوري كفيلا بحل هذه المشاكل لو خضع الجميع لأحكامه واحترموا قواعده . ولكن تاريخ حياتنا النيابية دل على أن الجميع لا يطمئنون الاطمئنان الكافي لإجراءات الانتخابات ونتائجها . وبلغ من سوء ظن الأحزاب أنه كلما تمت الانتخابات على يد حزب قاطعها الحزب المعارض وأعلن بطلانها ! وقد يكون مما يدخل الطمأنينة على نفوس الجميع أن تتولى الانتخابات هيئة محايدة وأن تحاط عملية الانتخابات بكل الضمانات الكفيلة بحريتها وصيانتها من المؤثرات . ولكن أين نجد تلك الهيئة المحايدة التي يرضاها الجميع وما هي تلك الضمانات ؟

إن المشكلة حقيقة بأن تعالج علاجا حاسما إذا أريد وضع حد لتلك الخلافات .

وبعد ، فقد كنا نتمنى لو اجتمعت كلمة الساسة ووحدوا صفوفهم وتناسوا خلافاتهم إلى أن نفرغ من حل قضيتنا مع الإنجليز . ولكن أبى الحظ العاثر إلا أن تتغلب العواطف على الموقف . فالآن وقد عادت الحالة إلى وضعها السابق نرجو ألا تقام المتاعب وتختلق الصعوبات في وجه من بيدهم الأمر الآن . وأن يعدوا بالمعونة ويكفوا أذى الحملات الدعائية ويعطوا فرصة أخرى ليتموا ما بدأوه . والله الموفق لما فيه خير البلاد .

(. . .)

الشعور واللاشعور *

كنت منذ سنوات قاضياً فى بلد بعيد عن القاهرة . وكان لى ولد أوشك أن يتم دراسته الثانوية وكان لابد له بعد ذلك أن يدخل الجامعة . ووجدت من الصعب علىّ أن أوفق بين بقائى فى ذلك البلد البعيد وبين ضرورة وجود ولدى هذا فى مدينة القاهرة ، ولم أدر كيف أحل هذه المشكلة وكيف أستقبل العام الدراسى الجديد وأنا فى ذلك البلد . ولكن بارقة أمل لاحت لى ذات صباح حين طالعت فى الصحف أن وزارة العدل تشتغل بإعداد (حركة قضائية) ، فرجوت أن يكون لى حظ الانتقال إلى القاهرة فى تلك الحركة لا سيما بعد أن قضيت الأعوام الطوال متنقلا من أقصى بلاد القطر الشمالية إلى أقصى بلاده الجنوبية . ووقع فى نفسى أن هذه الأمنية التى أعناها ستتحقق حتماً كأن من المفروض فى السادة أولى الحل والعقد الذين يقيمون فى القاهرة أنهم على علم بظروف كل واحد منا نحن المنتشرين فى طول البلاد وعرضها . ويبدو لى أن نفورى من التقدم بالرجاء لسيد من أولئك السادة لكى يحقق رغبتى فى الانتقال إلى القاهرة هو الذى أوحى إلىّ بأن هذا الانتقال سيغدو من نفسه حقيقة واقعة دون بذل أى مجهود من جانبى . واستنمت فعلا لهذا الخاطر وجعلت أرقب اليوم الذى تعلن فيه أخبار تلك (الحركة) الموعودة المنشودة لأرى نفسى فيها منتقلا إلى القاهرة .

تلك كانت رغبتى وذلك كان (شعورى) نحوها ، وهو شعور كاذب أوحت به إلىّ نفسى لتخلص من ذلك الحرج الذى كان يصيبها فيما لو حملتها على بذل الرجاء والوساطات لتحقيق هذا الأمل المنشود . ولكن الحقيقة بقيت كامنة فى قرارة نفسى ، وهى أن تلك الطمأنينة الوهمية التى أستشعرها لا محل لها ما دمت لم أعمل عملا يلفت النظر إلى حالى بصفة خاصة . وليس من شأن الجهات العليا أن تتقصى أنباء رجالها فى بيوتهم لتعلم حاجاتهم وتقف على رغباتهم . ولم أفطن إلى هذا الذى تكنه نفسى إلا ساعة وقفت ذات يوم لأصلى المغرب ، فرأيتنى أقرأ بعد الفاتحة سورة « الضحى » على الوجه الآتى :

والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلا و (للقاهرة) خير لك من الأولى . . . الخ — والسامعون من القراء يعرفون أن صحة الآية : وللآخرة خير لك من الأولى . . .

هنالك عرفت أنى أخدع نفسى ، وأن هذه (القاهرة) قد ملأت على جوانب (عقلى الباطن) وأن مزاحمتها لكل ما أفكر فيه أو أقوله قد بلغت من الحدة أن تخالط فى كلام الله . . . وهكذا ارتفع فى هذه الناحية صوت (اللاشعور) على صوت (الشعور) . وظهرت طريقة كل قوة من هاتين القوتين فى العمل . فبينما يعمل (الشعور) بتقدير وتدبير ، ويعرف الحرج ، ويحتال على التخلص منه ، نرى (اللاشعور) صريحا ساذجاً ، لا يعرف المحاورة ولا المداورة ، يندفع نحو هدفه اندفاعاً واضحا ، ولا يحسب للاعتبارات التى يراها (الوعى) حسابا . وذلك هو الفارق الرئيسى بين هاتين القوتين . .

* * *

ولئن كنا فى هذا المثال أوضحنا شيئا من عمل (الشعور) و (اللاشعور) فإن المقام يقتضينا أن نقول كلمة عن تعريف هاتين القوتين .

ويقول العلماء النفسيون إن العمليات العقلية تتناول من نفس الإنسان ثلاث مناطق :

منطقة (الشعور) : وهى التى تشتمل على ما يحسه الإنسان فى حالات سروره وألمه ورضاه وغضبه وغير ذلك من الانفعالات الأخرى .

ومنطقة (ما قبل الشعور) : وهى تلك المرتبة التى تشتمل على ذكريات الإنسان القديمة التى يستطيع أن

يستعرضها بعد غيبة ويتذكرها بعد نسيان ! فهي بمثابة حجرة خارجية متصلة بمنطقة الشعور، ومن السهل أن تنتقل الخواطر منها إلى (الشعور) بإعمال الإرادة في استذكارها، أو بإثارة فكرة متصلة بها .

ومنطقة (اللاشعور) — أو ما يسمى أيضاً (بالعقل الباطن) وهو تلك المنطقة السحيقة الواقعة في قرارة كل نفس حيث تتجمع الغرائز الفطرية الأولى التي قد لا يرتضيها المجتمع، والمخاوف الكثيرة التي قد يهرب منها الإنسان، فيتناساها حتى يظن أنه نسيها لأنها تختفي من وعيه اختفاء تاماً فلا تعود تساوره قط في يقظته، ولكنها تظل هناك في أعماق نفسه قابعة متوثبة تتربص، وتتحين الفرص لتثبت وجودها وتعلن عن نفسها . وأكثر ما يكون ذلك عند إغفاء العقل الواعي في ساعات النوم، فتنساب رغبات الإنسان المكظومة، وخواطره المخنوقة، وغرائزه المكبوتة، وتتحرك من مكامنها، وتتمثل في صورة أحلام تملأ نوم الإنسان حياة وصوراً، فتخفف بذلك من وطأة الضغط الشديد الذي تعيش تحته ! ولذلك قيل إن الأحلام هي (صمام الأمان) لمشاعرنا النفسية ! .

* * *

فالشاب الطيب الذي ترهقه غريزته الملحة فلا يجد لها في دنياه الواعية مصرفاً مشروعاً، تتوازن طبيعته بما يراه في أحلامه من مباهج الخيال، وتتنفس غرائزه المكبوتة في المنام أنفاساً تخفف من حدة احتباسها — والرجل الذي يكره جاره لأنه أساء إليه يوماً فلم يقو على رد إساءته بمثلها ويعيش في عذاب بسبب حرمانه من الأخذ لنفسه بثأرها من غريمها، كثيراً ما يأتيه الفرج وهو يغط في نومه حين يتراءى له خصمه في المنام أيضاً وهو ملقى تحت أقدامه يتلقى بالصبر والامتثال ركلاته ولكماته — ولا يزال من أصدق أقوالنا المأثورة قولنا : (إن الجائع يحلم بسوق العيش)

* * *

وكما أن رغباتنا المحبوسة في (اللاشعور) تتنفس عن طريق الأحلام فإنها كذلك تتنفس من طريق زلات اللسان كما بينا في المثال الذي سقناه في صدر هذا المقال . ومن طرائف ما حدث لبعض إخواننا في ذلك أنه لقي زميلا له في الطريق وكان — لأمر ما — لا يرتاح إلى لقائه ولا لمحادثته، فبدلا من أن يلقاه بقوله : أهلا وسهلا ! أو أن يبدأه بالسلام الذي تواضع عليه الناس — رأى لسانه يهتف وهو يصافح ذلك الزميل بقوله : أورفوار ! — ومعنى ذلك أن (الشعور) المهذب الواعي كان لا يرى مفراً عند اللقاء من المصافحة والسلام واصطناع البشاشة في الكلام، في حين أن (اللاشعور) الصريح الأكشف الذي لا يعرف المجاملة ولا المصانعة رمى التحية صريحة مكشوفة لا مجاملة فيها ولا مصانعة فصاح اللسان هاتفاً إلى اللقاء ! يعني لا أريد الآن أن ألقاك ولا أن أحييك !

وحدث لزميل آخر أنه قصد إلى محكمته ذات يوم وهو مشتت الذهن، تشغله مشاغل منزلية كثيرة أرهقت نفسه لأنه لم يكن يجد في وقته متسعا لقضاء حاجاتها . فخرج من منزله ذلك النهار وفي عزمه أن يفرغ من جلسته مبكراً بقدر ما يستطيع ليتسنى له إدراك بعض ما فاته من تلك الشئون الخاصة الملحة . فلما بلغ غرفته وأراد أن ينتقل منها إلى قاعة الجلسة لمباشرة عمله، وتقدمه الحاجب مؤذنا ببدء الجلسة، دخل هو في أثر الحاجب، وقبل أن يستقر في مجلسه قال :

انتهت الجلسة ! وذلك بدلا من قوله : « فتحت الجلسة » . وسبب الغلطة ظاهر لا يحتاج إلى بيان فإن الزميل المرهق كان يستعجل الحوادث وكانت الأمنية التي تجيش في قرارة نفسه هي (انتهاء) الجلسة وليس (افتتاحها) فتغلب (اللاشعور) على (الشعور)، ونفذت الرغبة الحبيسة إلى الهواء الطلق، وكان ذلك الحرج الذي وقع فيه صاحبنا بسبب هذا التنافر الواقع بين ما يعلن وما يخفى ..

* * *

ومع أن الكتابة تستدعى من الأناة والتفكير أكثر مما يستدعيه الكلام فكثيراً ما شوهد أن (اللاشعور) ينفذ من ثنايا الكلمات المكتوبة ليفصح عن مكنوناته كما ينفذ من ثنايا الكلام العادى سواء بسواء. ومن ذلك ما يروى من فتاة أنها أرادت أن تكتب لأختها تهنئها بمنزل جديد وجيه اشتراه لها زوجها. فكتبت ما أبرأت به ذمتها من هذا الواجب. ولكنها عند ماجاء دور العنوان كتبت على الظروف عنوان الدار القديمة التى انتقلت منها أختها. وذلك لأنها كانت تحمل فى نفسها غيرة شديدة من تمتع أختها بهذا المنزل الجديد الفاخر، فسايرت (شعورها) الواعى فى أداء واجب التهنئة، ولكنها قبل أن تفرغ من ذلك كان قد غلبها (اللاشعور) الراصد اليقظان المتربص فأملى عليها العنوان القديم ليدل على مبلغ غيرتها من المنزل الجديد، وأنها لا تريد أن تذكره بلسانها، ولا أن يجرى به قلمها!

• • •

والحركة الخاطئة — قد تكون هى الأخرى سبيل (اللاشعور) فى الإفصاح عن نفسه كما يكون القلم وكما يكون اللسان.

أذكر أننا جلسنا مرة أنا وبعض زملائى فى (نادينا) فتجاذبنا أطراف الحديث وتناقشنا كما قد يفعل الإخوان إذا جمعهم ناديهم فتحادثوا وتناقشوا. ولكن النقاش اشتد بين اثنين منا شدة غير مألوفة، حتى لقد جعلنا همنا نحن الذين لم نشترك فى هذا النقاش الشديد أن ندخل بين الآخرين لنقرب بينهما ولنحول دون هذا الاحتكاك الشديد. وقد أفلحنا فى الظاهر، فإن حدة الحديث خفت، وتهدج الأصوات استحال رويداً رويداً إلى لين وهدوء. ولكن لم يفتنى أن ألاحظ عند انصرافنا أننا وقفنا فريقين أمام باب النادى لأن كل فريق منا كان له طريق خاص لعودته وبينما كنا نلوح نحن بأيدينا لأفراد الفريق الثانى تلويح التحية. رأيت أحد الزميلين يلوح بقبضة يده مضمومة للزميل الآخر وهو يقول له: باى! باى! — (فاللاشعور) العاقل قام عنا بما يحتمه الواجب على العقلاء فاصطنع الهدوء والابتسام، ولكن مرجل (اللاشعور) كان لا يزال يغلى وكان يرى — على طريقته البدائية الساذجة — أن كل خصومة صراع، وأن كل صراع لكم وضرب، فلا أقل من التلويح بقبضة اليد!... ولو فى مقام الوداع والسلام!

حسن جلال

أنين وحنين...

ياعاصف الشوق قد جددت آهاتى
قلبى سقيم وأنت المسرف العاتى
كنا نديما، ففى أنسك حاجتنا
إليك حتى تهيج اليوم أناتى
لهفى على زمن ولى — بضاعتنا
فيه الشباب وكأس من صبابات
لا نعرف الهم. دنيانا تباركنا
بما يروق ونمسى بالغنيمات
حتى أفقنا على شيب يطاردنا
يغرى العذول بترديد الشماتات
وأربعين مضت كالحلم مسرعة
ودعت فيك الهوى يا خير أوقاتى
وكان فى الكأس ما يذكى مشاعرنا
واليوم فيه مناحاتى ولوعاتى
دفنت فيه هموما لو تعاودنى
أبعث كأسى كاسات فكاسات

دكتور ناظم محمد

البعثات العلمية

يسافر إلى أوربا وأمريكا في هذه الأيام أعضاء البعثات الذين وقع عليهم الاختيار ليتموا دراساتهم في مختلف النواحي التي سيرسلون من أجلها ، وليحصلوا على أكبر قسط ممكن من الثقافات النظرية والعملية التي تحتاج إليها مصر في نهضتها الحديثة ، وذلك بعد تشرفهم بمقابلة مليك البلاد نصير العلم وراعي النهضة .

وإلى هؤلاء نسوق الحديث ، لعل فيه تذكرة تنفعهم فيما هم مقبلون عليه من حياة جديدة تتطلب جهداً وعزماً وإقداماً وتضحية مع نظرة فاحصة في كل ما تقع عليه أعينهم أو تسمعه آذانهم ، وروح متيقظ لكل ما يحيط بهم في هذا الخضم الواسع العريض الذي يشق عبر الحياة .

فقد انقضت سنوات الحرب الست دون أن تتمكن الحكومة من إرسال مبعوثين إلى الخارج ، وهي فترة ليست بالقصيرة إلى جانب السرعة التي تسير بها الحياة وتتقدم العلوم والفنون والمخترعات وتتغير النظريات والأوضاع ؛ ولذلك كان لزاماً أن نطلع على كل ذلك ونحاول أن ننقل صادقين مخلصين ما ينفعنا مما جد في هذه السنين ، بل ما سبقتنا به الأمم الأخرى قبل تلك الحرب الضروس .

ولقد كان من حسنات الوزارة السابقة في العام الماضي أنها أرسلت أكبر عدد من أعضاء البعثات في تاريخ مصر الحديث إلى أمريكا ومختلف الممالك الأوربية ، وقد بلغ عددهم زهاء أربعمائة طالب وطالبة كثر فيهم عدد طلبة البعثات العملية .

وقد امتازت هذه البعثة الضخمة بميزات كثيرة تجعلنا نرجو الخير لوطننا العزيز ونأمل على يدي أعضائها تقدماً كبيراً لهذه الأمة العظيمة ذات التاريخ المجيد الحافل في ميدان حياة الأمم لتستعيد عزها وتقوى دعائم نهضتها وتقدمها

وأول هذه الميزات ذلك الشرف السامي وتلك الالتفتة الكريمة التي جعلت صاحب العرش المفدى يدعوهم إلى تناول الشاي في قصر عابدين العامر ويصافحهم بيده واحداً واحداً ، ويزودهم بنصائحه الغالية ويوجه إليهم رسالته الملكية السامية التي أصبحت لهم نبراساً يهتدون به وملأت قلوبهم ثقة ويقيناً ، وأشعلت في نفوسهم الحماسة لخدمة وطنهم ورفع شأنه وراء قائده الأعلى ومرشده الأمين .

وثاني هذه الميزات أن أغلبهم كانوا قد قضوا وقتاً كافياً في ميدان الحياة العملية بعد تخرجهم في معاهدهم المختلفة ، فأفادوا من ذلك خبرة بشئون الحياة تجعلهم يميزون ويقارنون ويدركون كثيراً من حقائق الأمور التي خبروها عملياً في الأعمال المختلفة التي أسندت إليهم ، وذلك يجعلهم أقدر على الإفادة وأكثر استعداداً من الطالب الذي تخرج حديثاً ولم يجرب في الحياة .

وميزة ثالثة أن أغلبهم كذلك قد فات سن الشباب الجامح وفورته الطائشة التي كانت تزين لكثير التمتع بما يبهرهم من زخرف الحياة الأوربية البراقة وتصرفهم عن تأملها على حقيقتها ، ولا تجنبهم المزالق الخطرة التي ينحدر إليها من هم في سنهم ؛ بل إن فيهم عدداً كبيراً أكملت رجولته وأصبح يحمل مسئولية بيت كونه من زوجة وأولاد

وإذا أضفنا إلى كل هذه الميزات حسن الانتقاء وتخير الأكفاء جهد الطاقة أمكننا أن نقتنع ونستبشر خيراً بتحقيق الآمال المعقودة على هؤلاء المبعوثين إن شاء الله .

ولقد كانت ظروف أعضاء هذه البعثة السابقة أشد قسوة مما عليه الحال الآن . فقد كان العالم لما يفق من شدة الحرب الطاحنة وأهوالها القاسية التي دمرت كل شيء ، وأفسدت ما تبقى هناك من نواحي الحياة المادية والأدبية ، فلم تكن وسائل النقل معدة ممهدة كما كانت قبل الحرب ، ولا أماكن الإقامة هناك مهيأة ، ولا سبل العيش سهلة ، ولا مطالب الحياة ومقوماتها الضرورية موجودة ، فضلاً عن الانهيار الخلقي والفساد العام الذي شمل كل شيء ،

أضف إلى ذلك الوقت الطويل الذى ضاع عليهم فى مخابرات بين مصر والجامعات المختلفة لإيجاد أماكن لهم بها مما فوّت عليهم أشهراً بعد ابتداء الدراسة .

ومع ذلك كله جاهدوا وسافروا ، بل سافر كثير منهم بالطائرة مضطراً أن يتخفف من كثير من أحماله الضرورية التى هو فى أشد الحاجة إليها ، ثم وصلوا بحمد الله سالمين عاقدى العزم على تحقيق آمالهم وآمال بلادهم فيهم ، ثم بثهم صحب ولم تقف فى طريقهم العقبات والشدائد الكثيرة

وجاءت بشائر الخير المرجو تحملها كتبهم ورسائلهم ثم تزكيها حالة دراستهم فى جامعاتهم وتؤيدها شهادة أساتذتهم ومن زاروهم هناك .

ولعلى إذ أقدم مقتطفات من كتبهم أقدم إلى القراء عامة وأعضاء بعثة هذا العام خاصة صورة تجعلهم يطمعون فيما أطمع ، ويأملون فيما آمل :

أخى أحمد :

. . . وأشعر أنى أعجز اليوم عن التعبير لك من جانب مما ينبغى أن أبعث به إليك لأن المرء لم يفرغ إلى نفسه بعد حتى يستطيع أن يجمع شتاتها ، وأن يمسك بما يعتمل بين جوانحه عميقا خافيا ؛ ذلك لأن أيامنا الأولى هنا سريعة عاجلة مليئة بأنواع الخبرة والمفاجأة والجدة ، ونحن نسير على وتيرة من الحياة لم نألفها من قبل تؤدى بنا آخر اليوم إلى تهافت يبعث إلى التماس الدفء والنوم .

طلبونى كما قد تعرف صبيحة يوم جئت تسأل عنى ، فأخذونى إلى حيث طرت من القاهرة مساء السبت . وكانت الرحلة خبرة جديدة عجيبة ، هى مزيج من الإشفاق والمتعة والترف ، وقضينا الليل طائرين جلوساً على مقاعدنا .

وقد أنسيت أن أصف لك الفجر فوق السحاب حيث يا خالصة بيضاء نقية طاهرة لا يشرق عليها سوى وجه لله ، وحيث لا ترتفع إليها شبهة من عالم الإنسان إلا أن أن تكون نفوساً معلقة بين يدى رحمته .

والحق أن الشعراء فى حاجة إلى وصف تلك الروعة وذلك الحسن المجرد الخالص الذى تشرق فيه الشمس فى تلك المراتب من العالم .

واصلت الطائرة طيرانها حتى نزلنا فى جنوب انجلترا ، وقابلنا القوم فى حفاوة حازمة وأكرمونا إطعاما ودفئاً ، ثم أخذونا فى حافلة إلى قطار خاص نقلنا إلى لندن حيث قضيت ليلة لا أغبط عليها فى فندق ثم فى آخر ، ثم وجدت غرفة غالية الثمن تكلفنى أربعة جنيهات فى الأسبوع للسكن فقط ، ولهذا ما زلت أبحث وألتمس .

وقد قضينا أياماً نسجل هنا ، ونطلب دفاتر التموين هناك ، ونطلب بطاقات الملابس فى مكان ثالث ، ونذهب إلى الجامعة حتى خبرنا الحياة والطرقات قليلا .

أما الناس هنا فمهذبون ، يسارعون إلى تقديم العون فى أناة وأدب على شدة تحفظهم . وأول ما يسترعى النظر ذلك النظام الدقيق المحكم فى كل صغيرة وكبيرة ، وتلك (الطوابير) التى تنتظم الناس لدخول المطعم أو ركوب الحافلة أو شراء البيضة ، وذلك الصبر الذى أوتوه حتى يقدرهم على الانتظار ساعات إذا استلزم الأمر ذلك .

ذهبت إلى الجامعة صبيحة يوم وصلت ، وقد أحسن الأستاذ وفادتى . وسوف أكتب لك بالتفاصيل بعد .

ومن خطاب ثان :

. . . لو عرفت أنا نشعر بالحنين دافقاً لأى خبر من الوطن ، وأنا جميعاً نسأل عن البريد فى لهفة المتدفق المشغوف لعجبت لهذا . أشرف يا أحمد أن كل ما علمنا القوم فى الصغر من أن مصر العزيزة لى وطن وأنها الحمى . . وما إلى ذلك إنما هو حق بل هو بعض الحق ؟

أذكر أنى أعجبت منذ سنوات بعبارة لصاحبنا « مكدوجال » يذكر فيها أن بعض فصائل النيران فى إفريقيا لا تشعر بالائتناس بل لا تفتقده إلا إذا انفصلت عن قطعانها ، فلا يهدأ الواحد منها ولا يسكن له حوار

إلا إذا عاد إلى القطيع واحتك جلده بجلودها ؟ كثيراً ما يعاودني ذلك المثل كلما استشعرت الحنين إلى مصر جميعها بحلوها ومرها معاً ، وكلما رأيت ذلك الحنين الذي يبدو سافراً غامراً على كل مصري هنا طال به المقام أو قصر .

ولا تعجب لهذا ولا تلتمس له تفسيراً إلا أن توافينا هنا يوماً وترى طبيعة الجو وأهل هـذا البلد . أتعرف أن الدنيا هنا أي الأرض والسماء قاسية شحيحة ؟ أتعرف أنا لم نر الشمس منذ أكثر من شهر سوى مرات لا تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة ، وأنها حين تظهر خافتة مقتضبة ترفع من روحنا المعنوية وتبعث في أرواحنا الدفء وفي نفوسنا الرضا والأمن ؟ أتعرف أن النهار هنا — أو هذا الذي يشبه النهار — ينتهي عند العصر فإذا الدنيا ليل يطول ظلاماً وقراً ووحدة ؟ .

أتعرف أنه لا يعدل مصر بنورها وخضرتها والإنسانية البادية الواضحة في أهلها يتقابلون ويتشاجرون ، ويفرحون ويحزنون ، ويعملون ويهزلون كما ينبغي أن يكون الناس ، إنه لا يعدلها عندي بلد ولا ناس .. رغم أني موفق شاكر للبلد الذي أعيش فيه ولكافة الناس الذين اتصلت بهم على القرب أو على البعد ؟ .

ذلك أن الطبيعة هنا على شدة قسوتها قد زاد أثرها ذلك العهد الصناعي الذي تغلغل في حياة الناس منذ أجيال ، فأدى — على ما يبدو لي — إلى ما نراه في حياة الناس هنا من بعد عن الحياة الرحبة الرخية التي ألفناها نحن .

لو أنك أقبلت على لندن لأحسست أول وهلة نظاماً دقيقاً مفصلاً مسرفاً في الدقة والضبط لكافة وجوه الحياة ، ولاستطعت — لو لم تأخذك سرعة النقلة وكثرة التفاصيل — أن تسير فلا تخطئ ، وأن تقطع طريقك الطويل لا تحدث أحداً ولا يحدثك أحد إلا إذا بادرته الحديث ، ولرأيت حشوداً من الناس آلاف الآلاف ، ولندر أن ترى أحداً يحدث أحداً أو يشاجره أو يضاحكه كما ألفنا أن يتشاجر الناس ويتضاحكون ويتنادرون ! !

وإنه ليخيل إليك أن الآليـة قد تغلغلت في نفوس الناس فلم يعد لديهم أوقات يخلون فيها إلى أنفسهم ، فهم إما يقطعون تذكرة من آلة ، أو ينزلون على سلم متحرك ، أو يهرعون إلى حافلة ، أو يقفون في صف طويل وقد أوتوا جميعاً صبر أيوب حتى يقضي الله أمراً ، وإنك لتفتقد انفعالا أو تأففاً فلا تقع عليه ! .

لكن هؤلاء الناس جديرون بالإعجاب حقاً . لو أن المرء فكر في قسوة الطبيعة عليهم وفيما استطاعوا أن يحققوه وما وصلوا إليه لخيل إليه — لأول وهلة — أنهم عوضوا عن هذه القسوة بما دفعهم إلى التفوق على الشعوب الأخرى . غير أنه يخيل إلي أن هناك سراً غير هـذا وأعمق من هذا فيهم كشعب بل لعله أيضاً فيهم كأفراد . ولست أستطيع أن ألتمس اليوم هذا السر ولم ينقض على مكثي بينهم أسابيع .

على أني لا أود أن أكتب إليك عنهم ، بل أود أن أكتب إليك عن مصر وعن جمال مصر . أشهد أني كنت أتوق إلى اليوم الذي أستطيع فيه أن أبعد عنها ولو قليلا . غير أني أشهد من اليوم أنه لا يعدلها عندي بلد من بلاد الله الواسعة : مصر بشمسها وهوائها ، وخضرها وريفها ، ونهرها وحقلها ، وصغارها وكبارها ، مصر بما وسعت ممن يستحقون الحياة فيها ومن لا يستحقون ، لكن فليغفر الله لهم لأنهم لا يعرفون ماذا يعملون . إن في هـذا البلد العزيز من ثروة العقول والأبدان ، ومن ثروة الدفء والنور والأرض والماء والهواء ما يمكن أن يكون جنة من الرضا والخير والدعة .

إن الناس هنا ليأخذهم القر وليأكلون « الهفأ » ولتعوزهم كافة أسباب الحياة فلا يملأون الدنيا شكاة الصغيرة والكبيرة ، ولا ترتفع عقائرهم بالسخط إلا قليلا ، ولا يعصفون — كما يبدو لي — بعضهم ببعض كما نعصف .

أعالهم مشغولون بالدنيا أكثر من شغلهم بالآدميين من أمثالهم ؟ لست أدرى ، إلا أنه يخيل إلى أن لكل منهم هنا حقه ، فإذا تأخر كان موقنا أنه سوف يصل إليه إن أحسن الجهاد وراءه .

أكل الكتابة بعد «فمّين» من النسيل . لأن طلب العلم الذى هنا يتطلب أن تجهد ذهنك فى حيك أطراف المال حتى يتجمع لك من بنسانه ما قد يكفيك جانباً من البطاطس أو الخضر تسكت به بطنك ؛ فإن وفقت إلى شريحة أرق من غرام المراهق فى صدر أيام توطه كان لابد أن تكون من ذوى البلهنية واليسار أيضاً . ألا حل الله مشكلة العمال وإضرابهم — فإن الحمال أو البناء يطلب أن تزيد أجره فى الساعة حتى يصل إلى خمسة وعشرين شلنا فى اليوم ، وهذا هو أدنى ما يطالب به عمال المواني — وإلا دفعنا نحن الثمن تقتيراً فى شبهات الطعام ... لكنه طلب العلم ، وطلاب العلم لابد أن يكونوا من الزهاد القانعين ولعل أصحاب بيت المال عندكم يفكرون فى إنصاف «خيرة شباب مصر» الذين بعثوا بهم كى يفرغوا إلى التزود بألوان المعرفة ، لا إلى قصر أذهانهم فى التماس نومة ورتق جورب واستصلاح نعل ، أما الكتب فيتعذر علينا الحصول عليها حتى لكأنها المهربات . وإن المرء ليسعد بالكتاب إذا وجده حتى لينسى أن الدولة تصرف له عشرة جنيهات استرلينية عداً ونقداً لكتب العام كله ، وقد حصلت بعد أن أبليت النعل على بعض الكتب التى كلفتنى أربعة عشر جنيها . وعلى فكرة نستطيع أن نقول — وهو عين الحق — إن بمعهد التربية بالقاهرة مكتبة ومعملا وبناء بل معلمين وأساتذة يمكن أن تعتز بهم أية جامعة هنا .

بلغ القبانى بك تحياتى خالصة مشوقة وفية وقل له إن إياه ليس تقديراً علياً ، وإنى أصرف — راغباً فى عمل هنا النهار كله ، وإنى أرجو أن أوفق إلى الإفادة من كافة أوجه النشاط ، وإلى تشريف البلد الذى أنتسب إليه والذى يعرف القوم أننا منه فيعجبون إلى ما وصلنا إليه حتى فى لغتهم ، فلا أجد فرصة خيراً من هذه لتتحدث عما تعمله فى مصر .

أكل لك الكتابة بعد يومين وقد بلغت درجة الحرارة أو نزلت على الأصح إلى ١٤ تحت درجة التجمد ، وبدأ الضباب يلف لندن ويزيدها قتامة وإظلاماً . لكن القوم يسيرون ويذهبون ويجيئون ويعملون ويعيشون . ولعل هذا سر من أسرار قوتهم .

مرّ بذهنى أنهم قاسوا مثل هذا الجو سنوات تحت وابل من ضروب المنية تنهال عليهم ، وتقض مضاجعهم ، وتعبث بهم لا يلوون على وجوههم فى القر والظلام والزمهرير ، فلم يفقدوا إيمانهم ، ولم يفقدوا كل آدميتهم . ولعلك لو تأملت هذا قليلا لعرفت فى هذا أيضا جانباً من الشقة التى تفصل بيننا وبينهم .

والمرء هنا فى هذا القر الشامل كثيراً ما يشعر بخواء بطنه ، وما أقسى الجوع والبرد إذا اجتمعا ، لكنى أستطيع أن أعد لك الفقراء الذين رأيتهم حتى الآن ، لأن الجماعة تضمن — على ما يخيل إلىّ — لكل فرد منها حداً أدنى من الحياة الإنسانية لا يمكن تصوره إلا إذا رآه المرء حياً مجسماً .

* * *

وبعد فهذا مثال من كتب المبعوثين اللبقة بوصف أحوال الدراسة وطرقها ونظمها ، وأحوال الناس ونظام المجتمع هناك ، وإظهار الفروق المختلفة بيننا وبينهم ، والعمل على الدعاية لمصر بشتى الوسائل ، وتشريف وطنهم بعلمهم وجدهم مما فاضت به أخبار الصحف والمجلات .

وإنا نرجو مخلصين أن يوجه أولو الأمر عنايتهم بهؤلاء المغتربين ، ويعملوا على تهيئة أسباب راحتهم وإزالة شكواهم حتى يفرغوا لطلب العلم ، ويظهروا بالمظهر اللائق بكرامة أمتهم ووطنهم . كما نرجو ألا يقف (الروتين)

من يوميات محام

القاهرة فى ١٩ /٩/١٩٤٦ .

لص بالليل وقاض بالنهار .

ها هى ذى الشخصية المزدوجة تطالعنا من جديد فى حادث مثير بعد أن طالعتنا فى رواية ستيفنسون الشهيرة التى أسماها « دكتور جيكل ومستر هايد » .

ولسنا هنا أمام رواية ولكننا أمام قضية تروى تفصيلاتها صحيفة البروجريه فى عدداليوم والمهندة على الراوية .

إن وليم هيرنز فتى أمريكى فى السابعة عشرة من عمره يطلب العلم فى جامعة شيكاغو ، وهو فى النهار مثال الطالب كما ينبغى أن يكون : جاد فى تحصيل دروسه هادئ ، وديع لا يستقبل النوم قبل أن يؤدى صلواته فى حرقة وتهجد ، ومع ذلك فإن هذا الطالب المثالى قد حل فى بدنه منذ أدرك الثالثة عشرة — كما يقول — شخص يدعى « جورج مورمان » ، فكان المظهر الأول لهذا الحلول أن ضبط وليم على باب منزل يحمل فى يده مسدساً واعترف بأن هذا الشخص الذى حل فى بدنه قد اقترف أحد عشرة سرقة وأردف اعترافه بقوله : « إنه جورج مورمان . إن مورمان نوع قذر وإنى أدفع دائماً ثمن جرائمه » ، فلما أدخل معاهد الإصلاح اعترف بارتكاب ذلك الشخص خمس جرائم أخرى . وبدا للمعهد بعد حين أن ضيفه قد استصلح فأطلقه لكن ليعود إليه مرة ثانية ثم ليسرحه المعهد بعد لأى ، فيلتحق بالجامعة فتشهده بياض النهار الجامعي المثالى الذى وصفنا حتى إذا تخطفه الليل انقلب مجرماً فتاكاً يعيث فى الشوارع سرقة وتقتيلا وربما بزغ نور الصبح فيعود سيرته الأولى طالب الجامعة الجاد الوديع الودود !

وحدث أن قتلت طفلة فى السادسة تدعى « سوزان دجنان » وحارت الشرطة فى الاهتداء إلى قاتلها ، إلى أن ضبط هنرى ذات ليلة محاولاً السرقة وبدا لرجال المباحث بعد أن اعتقلوه أن يضاهوا بصمات أصابعه على بصمات وجدت على ورقة قريبة من الطفلة ، فتطابقت هذه وتلك ، ولكن المتهم أنكر وأقام على الإنكار فحقنوه بمحلول « الصوديوم بنتونال » الذى اشتهر باسم « العقار الحامل على الاعتراف » ، وفقد نصف وعيه . فسألوه :

— أأنت قتلت سوزان دجنان ؟

— كلا ، إنه جورج .

— أى جورج ؟

— لقد خرج جورج للسرقة ورأى سلماً مستنداً إلى حائط فهبط عليه ودخل إلى الرحبة .

— أية رحبة ؟

— الرحبة التى قتلت الطفلة فيها ؛ لقد كانت ما تزال نائمة وقد خنقها جورج .

— ثم ماذا ؟

— ثم مزقها إرباً وجعل كل إربة فى مكان

• • •

ووجه هنرى فيما بعد بهذا الاعتراف فاستضحك

الحكومى والأوامر القديمة حائلا دون راحتهم ، بل دون وصول حقهم إليهم ؛ فهذا طالب أسرعت الحكومة فى خصم أجر ما زاد من الوزن المقرر له بالطائرة خصماً أعجزه ، وأجهده فى الوقت الذى له فيه عند الحكومة علاوة لم تصرف له إلا بعد سنة من استحقاقها رغم السعى والرجاء ! وهؤلاء طلبة البعثة بأمريكا جأروا بالشكوى من تأخر إنصافهم ، وكتب فى ذلك كثير من الذين ذهبوا للمؤتمرات هناك .

إنهم إما أن يبعثوا كراما وإما أنه لا داعى لإجهادهم والضن عليهم فيما هم فى أشد الحاجة إليه وليس هو بالشىء الكثير .

أحمد على

وقال : لابد أنه جورج الذى كان يتكلم ، أما أنا فلا علم لى بهذه القتلات » .

وتحقق النائب أن لقتل الطفلة سوزان صلة بقتل أرمل فى شيكاغو تسمى « جوزفين روس » وفتاة تسمى فرانسز براون رأوا على حائط منزلها هذه العبارة مكتوبة بقلم من أقلام أحمر الشفاه : « بحق السماء اعتقلونى قبل أن أرتكب قتلاً جديداً فإنى لا أستطيع أن أقاوم رغبة القتل » .

ولكن النائب « وليام تومى » قدر أن مثل هذا الاعتراف وهو ثمرة الحقن بمخدر لن يقنع القضاة ولا المحلفين فاتجه إلى الحصول على اعتراف طبيعى . وواصل استدعاء المتهم واستجوابه طيلة شهرين دون أن يظفر ببغيته حتى أوجس أن يُظَنّ به تعذيب المتهم فكان يأمر بتجريده من ثيابه عقب كل استجواب ليثبت خلو بدنه من أى أثر لأى تعذيب .

ولم يجد النائب إلا أن يستدعى محامى المتهم ويقسم له بشرفه إن النيابة لن تطلب رأسه إن هو اعترف . فتدخل الأبوان التعسان وألحا على ولدهما حتى أخذ فى اعتراف طويل استغرق أربع عشرة ساعة روى فيها كيف قتل سوزان وكيف ارتكب وحيداً جريمتى قتل أخريين ومائة سرقة ، فضلاً من جرائم أخرى شرع فى ارتكابها وخاب فعله لسبب خارج عن إرادته . ولما انتهى من اعترافاته نقل إلى غرفته بالسجن فأدى صلواته كدأبه واستسلم لنوم هادئ .

وكانت المحاكمة فتمسك الدفاع بأن المتهم هنرى غير مسئول عن جرائم الشخصية الأخرى التى اقتحمت عليه كيانه .

ك الدفاع بحالة ازدواج الشخصية سبباً للإباحة أو مانعاً موانع العقاب ، وأبى القاضى كما أبى المحلفون إقرار هذا الدفاع ، ولكنهم باكتفائهم بعقوبة السجن المؤبد قد كفلوا الاحترام للاتفاق الذى تمّ بين المحاماة والاتهام .

• • •

نقرأ هذه التفاصيل فلا تثير فى أنفسنا قضية الشخصية المزدوجة ومدى المسئولية الجنائية بشأنها فقط ، ولكنها تثير أموراً أخرى فلا نستطيع أن نتجنب هذه الأسئلة :

كيف أمكن أن يلتحق هنرى الصغير بجامعة شيكاغو بعد أن ثبت ارتكابه لجرائم السرقة وأدخل بالفعل معهد الإصلاح مرتين وأدلى فيه باعترافات عن جرائمه الماضية ؟

وهل يقر فن التحقيق القضائى السليم حقن المتهم بمخدر الاعتراف ليعترف ؟ .

وإذا اعترف أيكون هذا الاعتراف دليلا قضائياً كافيا ؟

وهل يؤدى المحامون واجبهم خير أداء حين يدخلون مع النيابة فى مثل هذه المساومة ويعقدون معها هذا الاتفاق ثم ينفذونه من جانبهم بالتأثير على ذوى المتهم ليحملوه على الاعتراف ؟ . .

ثم أ كنا ننتقد القضاة والمحلفين لو هم أهملوا هذه المعاهدة ورأوا أن حالة المتهم تستدعى عقوبة الاستئصال فقضوا عليه بالموت ؟

أما المسألة الأولى فلا نتردد فى جوابها ، وليس الجواب إلا إنكاراً لما كان ودهشة من وقوعه ! ولو تمّ مثله فى مصر لصرخنا بل لصرخ الأمريكيون قائلين إنها فضيحة إدارية وقضائية وتهذيبية لا تقع إلا من متوحشين أفريقيين سود كالمصريين غير بيض كالأمريكيين !

وأما الحقن بالمخدر الحامل على الاعتراف فمسألة قد يتعارض فيها رأى الأمن العام مع رأى القانون ؛ إن الأول يصبح طالباً الاهتداء إلى المجرم الخطر بأى ثمن ، وإنه ليستطيع الاعتذار بأن هذا المخدر لن يكون إلا خادماً للحقيقة فإنه لا يحمل المتهم على الاعتراف الكاذب بل يحمله على قول الحق وهو طلبة الجميع وفى خدمته يجتهد القانون ورجال القانون ، وشتان ما بين الوصول إلى الاعتراف بالضغط أو الإكراه البدنى والأدبى ، والوصول إليه بحقنة كأية حقنة يتناولها أى مريض . وأما رجال القانون فإنهم

سيترددون طويلا ليتهموا ، فى أكبر الظن ، بعد التردد إلى الرفض . لقد صاح بعض المتهمين فى قضية مقتل المرحوم أمين عثمان باشا ، صاحوا أمام قاضى الإحالة يتظلمون من التحقيق ويعزون إلى المحققين أنهم هددوهم بحقنهم بهذا المخدر . . . مجرد تهديد إذاً لم ينفذ ، ومجرد قول بمجرد تهديد ؟ وإنى لأذكر ، والشىء بالشىء يذكر ، أن محكمة جنايات القاهرة قضت بأنه ليس من المحرم على رجال الضبطية القضائية استراق السمع فى المحادثات الخصوصية التى تحصل بين أشخاص مشتبه فى أنهم ارتكبوا جريمة ، ولكن هل يستوى الأمران ؟ لا أظن ؛ وقد أمكن المدافع من حكم محكمة الجنايات بأن القانون أجاز ضبط المخاطبات بإذن من القاضى فلا مانع من قياس المخاطبات الشفوية على المخاطبات الكتابية . فهل فى القانون نص نستطيع أن نولده تبريراً للحقن بمخدر الاعتراف ؟ .

ونعود إلى هنرى . . . لقد قدر النائب أن القضاة والمحلفين لا بد مهدرون اعترافاً تولد من حقنة الحلول . . ولكن الدليل الجنائى هو دليل إقناعى وجدانى ، فكيف يملك منع القاضى وهو يكون عقيدته من التأثر بهذا الاعتراف دون أن ينص عليه فى حكمه ، بل كيف يملك القاضى نفسه أن يتحاشى هذا التأثر شاعراً أو غير شاعر ؟

• • •

وأخيراً نقف أمام هذا المحور الذى لعبه المحامون . لقد تحيّروا بداهة فلابد من أن نتحيّر فى الحكم على موقفهم ؛ لقد كانوا أمام صفقة أو أمام مضاربة ولعلهم قدروا أن القضاء قد يقتنع باعتراف المخدر ويكمله ببقية القرائن والأدلة ومنها جرائم المتهم الأولى ومنها بصمات الأصابع ، لعلهم قدروا هذا فرأوا الدخول فى هذه المساومة واكتساب هذا الوعد من النيابة محتفظين بحقهم فى الإدلاء بدفاعهم الأساسى على قاعدة انتفاء المسئولية أصلاً لأن ازدواج الشخصية عارض كالجنون المطبق تنتفى به المسئولية عن العقل .

بقى سؤالنا الأخير . . . إن وعد النيابة شىء والتزام القضاء بتنفيذه شىء آخر . . فهل فى قانون شيكاغو ما يقيد القضاء بطلبات النيابة ؟ لنفرض أن هذا التقييد غير موجود أكنا نلوم القضاة لو أهملوا الوعد ونطقوا بالإعدام ؟ إن أصحاب القانون لا يستطيعون أن يوجهوا مثل هذا اللوم بل إنهم ليتقلبون به على النيابة التى باعت ما لا تملك ، ولكن الذين يراعون السياسة الجنائية وجانب الأمن قد يرون رأياً آخر ، قد يقولون إن حسن السياسة يقضى بتشجيع مثل هذا الاعتراف . . .

• • •

مازلت أحس أن فى التلخيص الذى قرأته للوقائع بعض ثغرات . . وقد كنت أود أن أعرف هل فحص الأطباء وعلماء النفس هذا المتهم فانتهوا إلى التثبت من إصابته بازدواج الشخصية ، أو اكتفى فى تقريرها بالسلوك المزدوج وبأقوال المتهم لا سيما التى أدلى بها تحت تأثير المخدر ونسب فيها القتل إلى جورج وتبرأ منه ؟ وكنت أود أن أعرف هل تناولت المحكمة فى أسبابها مشكلة الشخصية المزدوجة وحكم القانون فيها ؟

ولكنا مهما نعرف فلن نعرف . . .

إنها النفس البشرية . . إنها المنطقة المجهولة . . إنها الأقطار النائية التى ما نزال فى انتظار « كولمب » بعد « كولمب » . .

ما نزال فى انتظاره ! بل ما نزال فى التوجس منه وتضليله ! .

عبده حسن الزيات

مدينة طنجة

مقدمة :

[طنجة منطقة عربية ذات موقع ممتاز جعلها مطمح الدول الأوربية المتنافسة من أجل الاستغلال والسيطرة ، وقد عقد الأستاذ جراهام هـ . ستيوارت أستاذ علم السياسة في جامعة ستانفورد فصلا في مجلة «الشؤون الخارجية» التي تصدر في الولايات المتحدة أرخ فيه فترة الأربع والسبعين سنة الأخيرة من حياة هذه المدينة التي ابتدأت أهميتها في الظهور منذ أن طلب سلطان مراكش الحماية الأمريكية عام ١٨٦٨ ولهذا البحث أهمية خاصة لأن كاتبه حجة في الموضوع الذي يطرقه ، وقد وضع عنه كتابا سماه «مدينة طنجة الدولية» ، فهو والحالة هذه من المتخصصين الذين توزن كلماتهم بميزان دقيق وليس من الهواة الذين يلقون الرأي جزافا . ولقد رغبنا في أن ننقل هذا البحث إلى العربية ليطلع عليه القارئ العربي فيحصل ولو على بعض العلم عن حالة هذا البلد العربي البعيد]

تشهد أقبية القنصلية الأمريكية في طنجة بأن سلطان مراكش ، وقد أذعرته الأساليب الملتوية التي انتهجتها الدول الاستعمارية الأوربية لبسط سيطرتها على طنجة ومراكش ، أعلن عن رغبته في وضع أمبراطوريته تحت حماية الولايات المتحدة ، ولكن هذا المشروع رفض بأدب لأننا لم نكن في حالة تساعدنا على قبول مسؤوليات عبر الأطلنطيك . ومرت الأيام . واحتل الجنود الأمريكيون في سنة ١٩٤٢ مراكش الفرنسية والجزائر بعد أن فشلت فرنسا في المحافظة على أمبراطوريتها في شمال أفريقيا .

واليوم أيضا ، بعد مرور ثلاثة أرباع القرن على طلب السلطان الأول ، من المحتمل أن يعرض على الولايات المتحدة أن تكون لها أمبراطورية تحت حمايتها . فما هي مصالح أمريكا في مراكش وخاصة في هذه المنطقة المسماة « منطقة طنجة الدولية » التي تبلغ مساحتها ١٤٠ ميلا ، ويبلغ تعداد نفوسها حوالي ١٠٠,٠٠٠ نسمة ؟ وما هي كذلك المصالح البريطانية والفرنسية والأسبانية ؟

من الغريب أن الولايات المتحدة وإن لم تعترف بمنطقة طنجة كوحدة خاصة ، إلا أنها قامت بدور مهم في جعلها منطقة دولية ، ويرجع ذلك إلى محاولة قناصلنا السيطرة على مرافق الصحة العامة حوالي سنة ١٧٩٧ . وقصة ذلك أن الولايات المتحدة تولت بعد سنة ١٩٢٩ السيطرة على « مجلس الصحة » الذي ألفته الهيئة السياسية في طنجة وظل يزاول أعماله من سنة ١٨٤٠ إلى أن جرى العمل بالنظام الدولي عام ١٩٢٥ الذي شجعت عليه . وقد اشتركت الولايات المتحدة بنفس الطريقة سنة ١٨٦٥ مع تسع دول في إدارة « رأس سبارتل » بواسطة لجنة دولية ، لأن هذا الفنار الذي يبعد ثمانية أميال من طنجة وعلى مسافة ثلاثين ميلا من جبل طارق قد أدير دوليا لمدة ثلاثة أرباع القرن . وفي كل عام كانت تؤخذ موافقة الكونغرس لرصد المبالغ اللازمة للصرف عليه .

وقد أدى إلى جعل مدينة طنجة منطقة دولية عاملان : تنافس الدول الأوربية أولا وعلى الأخص فرنسا وأسبانية وبريطانيا ، وثانيا مركز المدينة الممتاز الذي أبرزه الاتفاق المعقود بين الهيئات السياسية . فقد كان لأسبانية لعوامل جغرافية وتاريخية مصالح خطيرة في مراكش ؛ كما أن فرنسا كانت تسيطر على الجزائر وتونس وتملك أحسن المواقع السوقية هناك ؛ أما بريطانيا فقد حدث أن سيطرت على طنجة من سنة ١٦٦١ إلى سنة ١٦٨٤ بعد قتال باهظ التكاليف مع المغاربة ومولاي إسماعيل ، ولكنها انسحبت منها بعد ذلك وتركتها باختيارها للبربر ، وقد كان انسحابها سريعا جداً من هذه الجهة من المضايق . إلا أنها عندما حصلت على جبل طارق سنة ١٧١٣ حددت سياسة ثابتة تمنع بموجبها أية دولة تريد الاستيلاء على طنجة من الإقدام على ذلك .

وفي مطلع القرن العشرين اشتدت المنافسة بين الدول الأوربية لاحتلال مراكش ، ومثلت كل من إيطاليا وألمانيا — على الخصوص — أدواراً مهمة في هذه المنافسة . وقد

كان فى استطاعة فرنسا أن تحصل على مواقع خاصة من طريق إتفاقات سرية مع إيطاليا وبريطانيا وأسبانيا لو لم تكن ألمانيا على اطلاع تام على المناورات الدبلوماسية وواقفة بالمرصاد لكل محاولة تبدو فى خطة استعمارية للحصول على امتيازات أو مواقع فى هذه المنطقة من شمال أفريقيا.

وقد حدث بعد ذلك أنه بينما كان القيصر فى سياحة بحرية يتجول فى البحر الأبيض المتوسط إذ به ينزل فجأة ومن غير سابق إنذار فى طنجة سنة ١٩٠٥ ، وصدر عقيب ذلك تصريح ألمانى يعلن عن رغبة الحكومة الألمانية فى ضمان استقلال مراكش . ولكن هذه الحركة سببت أزمة خطيرة دعت رئيس الولايات المتحدة تيودور روزفلت إلى التدخل ودعوة الأمم للاجتماع وبحث الأمر . وكان من نتيجة مؤتمر « الجزيرة » الذى عقدته الأمم التى حدث بينها التوتر أن تعهدت الدول الكبرى ومن ضمنها الولايات المتحدة بضمان استقلال مراكش ، واستقلال السلطان ، وعدم تجزئة هذا القطر ، وإطلاق الحرية التجارية بالنسبة لجميع الدول .

ولكن هذا الاتفاق لم يثبط أطماع الاستعماريين الفرنسيين فراحوا يستغلون الاضطرابات الناشئة عن النازعات الداخلية فى مراكش لتشجيع التوسع الفرنسى ، ولكنهم لم ينالوا شيئاً من مآربهم ؛ إذ جابهت أوروبا التهديد بالحرب ثانية عندما أرسل القيصر سنة ١٩١١ بعض الزوارق الحربية إلى أغادير ، فاضطرت فرنسا إلى بيع نصف الكونغو إلى ألمانيا ، كما فرضت عليها الحوادث التوقيع على معاهدة جديدة مع أسبانيا تقاضت بموجبها منطقة نفوذها . وكانت آخر اتفاقية عقدت قبل الحرب العالمية الأولى هى الاتفاقية الفرنسية — المراكشية التى وقعت فى ٣٠ آذار عام ١٩١٢ والتى أقرت الحماية على معظم أمبراطورية السلطان .

وفى أثناء هذه المناورات الدبلوماسية كانت بريطانيا تراقب وضع طنجة مصممة على عدم السماح لأية دولة قوية أن تمتلك هذه المنطقة السوقية مقابل جبل طارق ، وقد أوضح كل من اللورد تيلسون وجوزيف لتشمبرلن بصراحة مقدار الأهمية التى تعلقها بريطانيا على مركز طنجة ، ولذلك جرت الأمور فى الاتفاق السرى الذى عقد بين فرنسا وأسبانيا على أن تحتفظ طنجة بشكل إدارى خاص ، تتسلم فيه سلطات المدينة السيادة على الهيئات الدبلوماسية والبلدية وعلى المنشئات الصحية . وعملا بالسياسة التى تبنتها بريطانيا بالنسبة لطنجة ، فقد بلغت الحكومة البريطانية الحكومة الفرنسية بأن طنجة يجب أن تدار دولياً واقترحت أن تكون شانتهاى نموذجاً لهذا الحل الدولى ، وقد جرى هذا التبليغ بعد أن حصلت فرنسا على موافقة ألمانيا فى إطلاق يدها فى مراكش . وعلى هذا الأساس تشكلت لجنة ثلاثية فنية تمثل بريطانيا العظمى وفرنسا وأسبانيا اجتمعت فى حزيران من عام ١٩١٢ ، وبعد أن عدلت ووضعت عددا من المقررات ، انتهت إلى وضع اتفاق نهائى فى اليوم الخامس من تشرين الثانى عام ١٩١٤ وهذا الاتفاق وقانون الشريف هما اللذان أسسا المنطقة الدولية فى طنجة ، إلا أن هذا الشكل الدولى للمدينة لم يجر العمل به بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى .[1] وفى الحقيقة إن بريطانيا وفرنسا رغبتا فى أن يعمل بالمقررات حالا ، ولكن أسبانيا رفضت ذلك أملا فى انتصار ألمانيا فتضم طنجة إلى منطقة نفوذها .

ونتيجة لانتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ألحت فرنسا إلحاحا شديداً فى ضم طنجة إلى منطقة نفوذها ، ولكن أسبانيا عارضت ذلك ، ومما قاله سفيرها فى لندن « إن طنجة تدخل فى منطقة النفوذ الأسبانى لأسباب

(١) من المعتقد أن هذه المقررات لم تنشر رسميا ، ولكن يمكن الحصول على النسخة الفرنسية فى مؤلف كاتب هذا المقال « مدينة طنجة الدولية » وهو طبعة ستانفورد لسنة ١٩٣١ — ملحق ٢٢ ... (المترجم)

جغرافية وتاريخية ونفسية » ، وذلك في كلام له في ٣٠ شباط سنة ١٩٢٠ . وفي مؤتمر آخر عقد سنة ١٩٢٢ وضعت بريطانيا قرارها النهائي ، فأبلغ اللورد كرزن المستر بريان بأن حكومته تعترف بالحماية الفرنسية على مراكش إذا تأكد لها نهائيا بأن طنجة ستدار دوليا وهو في انتظار أن يبدأ العمل حالا لإتمام هذا الهدف . وفي حزيران عام ١٩٢٣ عقد مؤتمر لندن لتقرير شكل الوضع السياسي والإدارى لطنجة ، ولكن ما إن ابتدأت أعماله حتى أصرت كل من فرنسا وأسبانيا على الاحتفاظ بمركزيهما الممتازين ، إلا أن أسبانيا في النهاية مالت إلى جانب بريطانيا وقبلت الوضع الدولى وتركت فرنسا وحدها ، وأخيراً وضع اتفاق وافقت عليه الدول الكبرى الثلاث في ١٨ كانون الأول من عام ١٩٢٣ ، وحدث أثناء انعقاد المؤتمر أن تقدمت إيطاليا طالبة أن يعترف بها كقوة مهمة في البحر الأبيض المتوسط ، ولكنها أعلمت أن الخطة التي يعتبر المؤتمر ثمرة من ثمراتها ما هي إلا مجرد استمرار المفاوضات التي ابتدأت في سنة ١٩١٢ ، تلك المفاوضات التي لم تشترك إيطاليا فيها . كما أن الولايات المتحدة بصفتها إحدى الدول الموقعة على مقررات اتفاقية الجزيرة ، أعلمت الدول الثلاث في فرصتين مختلفتين أثناء انعقاد المؤتمر بأنها ترغب بصورة أكيدة في الاحتفاظ بسياسة الباب المفتوح ، وألا يتخذ المؤتمر أي قرار من من شأنه الإخلال بهذا المبدأ ، وقد قدمت لها الحكومة الفرنسية التأكيدات بأن الباب سيبقى مفتوحاً ، وأن كل المصالح الأجنبية في طنجة ستحاط بالحماية اللازمة .

وأصبح الاتفاق المتعلق بتنظيم مركز طنجة نافذ المفعول قانوناً من يوم ١٤ أيار سنة ١٩٢٤ ، وقد شهدت تصديقه فرنسا وأسبانيا وبريطانيا[1] كما ترك الباب مفتوحا للدول الموقعة على مقررات « الجزيرة » للدخول فيه ، وقد قبلته جميع الدول بالفعل إلا الولايات المتحدة لأن وزير خارجيتها حينئذ المستر هيوز شعر بأن ما منح لأمريكا كان قليلا جدا لا يزيد عن امتيازات سلبية وليس لها تأثير إيجابي حقيقي في الإدارة السياسية العملية ، وعليه لم يكن في إمكانها أن تتحمل المسئولية من أجل غيرها . وأما إيطاليا فلم تكتف بعدم الدخول في هذا الاتفاق ، بل إنها رفضت الاعتراف بالنظام الجديد ، وقد دفع موقف إيطاليا المتصلب مقترنا بمطالب الدكتاتور بريمو دي ريفيرا الأسبانى لتعديل الاتفاق وإعطاء أسبانيا مركزاً ملائماً ، دفع في النهاية إلى عقد مؤتمر جديد . وقد أدخل الاتفاق الجديد المعدل الذي وقع عليه في باريس في ٢٤ تموز عام ١٩٢٤ إيطاليا في هيئة الإدارة الدولية على قدم المساواة تقريبا مع بريطانيا ، كما أعطى لأسبانيا مركزا ممتازا أفضل من ذي قبل .

وقد ظلت طنجة تدار وفق دستور ١٩٢٨ المعدل حتى استولت أسبانيا على حكومتها بالقوة العسكرية في حزيران ١٩٤٠ مع تأكيدها باحترام صفة الحياد التي للمنطقة ، ولكن ما أوشكت أن تنتهي السنة حتى امتدت قوانين المنطقة الأسبانية فشملت طنجة وكل الجهاز الإدارى الدولى ما عدا المحكمة المختلطة فقد أبقيت . وعلى الرغم من انتهاك حياد المركز الدولى لطنجة ، فإن فرنسا لم تستطع أن تعمل شيئاً لأنها لم تكن في وضع يساعدها على الاحتجاج فعليا ، أما بريطانيا فقد عرفت أن الاعتراف باحتلالها أمر واقع طوال مدة الحرب ، ولم تعترف الولايات المتحدة بالاحتلال الأسباني للمنطقة ، وكذلك لم تعترف به أية دولة من الدول .

إن المجال لا يتسع لوصف الاضطراب الذي عاناه الجهاز الإدارى للمنطقة ، لذلك سنعرض لوصف هذا الجهاز مع بيان بعض الانتقادات التي أخذت عليه . لقد وضع دستور المنطقة لمدة ١٢ سنة تبتدئ في سنة ١٩١٤ ، ويتجدد من

(١) ويعزى تأخر تطبيقه إلى بعض الصعوبات الفنية ، ولم ينفذ الدستور فعلا إلا في أول حزيران عام ١٩٢٥ (المترجم)

تلقاء نفسه لمدة ١٢ سنة إضافية لغاية عام ١٩٤٨ ، وقد اعترف أيضاً بسلطة السلطان وكان يمثلها مندوب يعين رضا فرنسا . أما السلطات التشريعية فقد عهد بها إلى جمعية تشريعية دولية تتألف من سبعة وعشرين عضوا : أربعة يمثلون فرنسا ، وأربعة أسبان ، وثلاثة أنكليز ، وثلاثة إيطاليين ، وواحد بلجيكي ، وواحد أميركي ، وواحد برتغالي ، وجميع الأعضاء يرشحون من قبل قناصلهم . وحيث إن الولايات المتحدة لم تعترف بهذا الدستور فلم تعين العضو الذى يمثلها . كما أن الجمعية تضم ، بالإضافة إلى من سبق ذكرهم من الأعضاء ، ستة أعضاء مسلمين وثلاثة يهود من رعايا السلطان يرشحهم مندوبه .

ومع أن هذه الجمعية الدولية قد منحت سلطة التشريع فى المنطقة ، فإن السلطة الحقيقية كانت لمجلس الإدارة الذى يتألف من قناصل بلجيكا وفرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا وهولنده والبرتغال وأسبانيا ، فقد كان له حق الاعتراض على أعمال الجمعية ، وحلها أيضاً ، ويتمكن كذلك من ضمان المساواة الاقتصادية بين الدول الموقعة ، وتنفيذ القوانين والأنظمة .

وقد كانت الإدارة الحقيقية بيد مدير يساعده ثلاثة مساعدين فى إدارة الخدمات الصحية والمالية والقضائية ، والمدير الأول كان فرنسيا ، أما مساعدوه الثلاثة فكانوا يمثلون أسبانيا وبريطانيا وإيطاليا ، وتبع ذلك اختيار مدير أسبانى بينما عهدت الشؤون الصحية إلى المساعد الفرنسى . أما المحكمة المختلطة التى كانت تتألف من خمسة قضاة يمثلون فرنسا وأسبانيا وبريطانيا وبلجيكا وإيطاليا ، فقد حكمت وفق نظام قانونى متقن ، وقد اتبعت الولايات المتحدة هذا النظام ولو أنها لم تنضم إلى الاتفاقية المعقودة بين الدول .

إن الانتقاد الرئيسى الموجه إلى الدستور ، هو أن مجلس طنجة التمثيلى قد تخطى الحدود ؛ فالعبء المالى المفروض كان كبيرا جدا ، كما أن مصالح المنطقة الاقتصادية لم يكن يهتم بها . ولكن من الجهة الثانية ، يقتضينا الواقع أن نعترف بأن الإدارة قد أدت عملها كاملا ، كما أن العدل قد طبق جيداً .

وقد كان من المعروف أن الدول الكبرى التى لها مصالح فى طنجة سوف لا تسمح لأسبانيا فى احتلال المنطقة عسكريا والتصرف فى مقدراتها لوحدها ، وبالفعل ما إن استلمت أسبانيا حتى طالبت الدول الثلاث : إنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة ، طالبت أسبانيا بعقد مؤتمر لبحث قضية طنجة . وقد أجابت حكومة الجنرال فرانكو الطلب ، فاتخذت الدول الأربع العدة لتأليف لجنة ممثلة تضع للمنطقة تنظيما جديداً . وقبل أن تجتمع اللجنة تقدمت روسيا تطلب الاشتراك فى أبحاث اللجنة ، وقد أجيب طلبها إلا من أسبانيا التى عارضته بشدة ، ولكن بغير جدوى . وقد عقدت اللجنة أولى جلساتها فى ٦ آب فى مدينة باريس ، وانتهت من أبحاثها فى ٣١ من الشهر نفسه بعد أن أبلغت حكومة الجنرال فرانكو رغبة الدول الكبرى فى جلاء القوات الأسبانية من المنطقة . وقد قررت اللجنة وضع نظام دائم تدار بموجبه طنجة يعترف فيه بسلطة سلطان مراكش ، ويناط أمر إدارة الشرطة بفرنسا .

وبعد ذلك اجتمعت لجنة تضم خبراء الدول الخمس ووضعت قرارين منفصلين : أحدهما ينظم تفاصيل إعادة الإدارة الدولية للمنطقة ، أما الثانى فيختص بإنكلترا والولايات المتحدة وفرنسا ، ويتعلق بشؤون طنجة وبالخطوات اللازمة لجلاء القوات الأسبانية .

وإذا ما عالج التنظيم الجديد النقص الذى كان التنظيم السابق مصابا به ، فإن الولايات المتحدة التى حكت دورا رئيسيا فى اللجان الدولية السابقة قد تعود إلى سياستها السابقة وتساعد على جعل إدارة المنطقة إدارة دولية تمثيلية حقيقية .

بغداد فؤاد طرزى

الحظوظ

ضمنا مجلس للسمر وكنا ثلة من الأدباء — النابهين والخاملين والأدعياء — وكنا مولعين بإبداء بعض الآراء أو الملاحظات عن الكتب التي تظهر حديثاً أو الشعر الذي ينشر في المجلات أو في الدواوين .

وقد ظهر في الأيام الأخيرة ديوان (تغريدات الصباح) للشاعر المبدع الأستاذ « محمد الأسمر » . وكان في غضون الكلام عنه ، وتوضيح مواطن الإجادة والإبداع والقوة والمتانة أن تعرض أحد جلاسنا الأدباء لأبيات من الديوان تحت عنوان « حظي » وقال فجأة : « ولا تنسوا أن الأسمر أيضا من الشعراء غير المحظوظين ، فيجب إضافته إلى القائمة الخاصة بهم » . وكان يقصد الأبيات :

سألت عن حظي فقالوا : مضى
مغترباً . يرحمه الله
عاش ولم أعرف له موضعاً
ومات لا أدرى بمثواه
أذكر حاليه وما فيهما
لشد ما تؤلم ذكراه
فقدته في العيش بالبقى
في الموت أو في البعث ألقاه

ثم أخذ في تعليل وجهة نظره من الشعراء ، وكيف يلازمهم سوء الطالع ، وخفة الجيوب ، ونكد العيش دون ريث ولا إكتراث . وقد شن حملة شعواء على الشعراء والأدباء ، ونوه بأن محارب الشعر ومحاق الأدب ، لأنه ما من شخص امتهن هذه المهنة أو احترف هذه الحرفة إلا وكان الهوان والفقر نصيبه وقسمته .

ثم اسكته بعض المناوئين لهذه الفكرة الواهمة المغلوطة ولكن دون ما جدوى ، لأن مفهومه واعتقاده بأن الأدب والإملاق هما كقطعة المغناطيس والحديد أيهما وجد يقرب الثاني انجذب إليه . وعلى سبيل التفهيم أريد أن أكتب هذا المقال .

إن في هذا العالم الملىء بشتى المحترفين والعلماء والعباقرة والنوابغ ، والعمال والزراع إلى أحط الطبقات أو المهن في هذا العالم ، يوجد قسمان : قسم غني لحد ما ، أو فقير معدم لا يجد القوت إلا بشق النفس . فكثيراً ما نسمع أو نقرأ أن فلاناً العبقرى النابغة يعيش في حضيض من العيش وعيشة البؤس والشقاء ، وأن فلاناً العالم مات وهو طاو لثلاثة أو أربعة أيام لأنه لم يجد القوت الكافي لسد رمقه ، أو أن فلاناً الباشا أو فلاناً الخطير توفي وترك عائلة ضخمة العدد والتبعات . وهي الآن ترزح تحت أعباء الديون ، وأن الحكومة تبرعت لعائلته بكذا من الدنانير أو الجنيهات وسددت جميع ديونه من خزينة الدولة الخاصة . وهكذا مئات ومئات الأمثلة الواقعية المحسوسة .

وتقع مثل هذه الحالات لأشخاص من أي الأصناف أو الطبقات ، ولكن من كل صنف أشخاص يعدون على الأصابع . فهذا إذا نظرنا إلى طبقة الشعراء والمفكرين أو الساسة والعلماء فليس معنى ذلك أن كل الشعراء مفلسون ، ولا كل العلماء معدمون ، ولا كل العظماء عوزون وهم مدينون ، فهناك من ثرواتهم تتجاوز المئات إلى الألوف وتتعداها .

وتطالعنا الصحف في كل مناسبة أن فلاناً الجاهل يدر عليه المال مدراراً ، ويفترش أرض داره ذهباً ، لأن الذهب والحصى عنده بمنزلة سواء ، فلا قيمة للمال عنده ولا وزناً من الأوزان ، مع العلم أنه لا يجيد القراءة والكتابة ، ولذلك فقد اتخذ له كاتباً يكتب وارده وصادره ، وأن كاتبه يقدم له استمارة ليمضيها فيخرج الختم من كيسه فيختم به الاستمارة لأنه لا يجيد الإمضاء .

وتمر بنا الآية الكريمة (وفضلنا بعضكم على بعض في

الرزق) . ولكن لا ندري ما هي الحكمة في هذا التفضيل؟!
فهناك عالم نابغة فنان يبيت طاوياً يتضور من الجوع ويتقلب من الألم ، وهذا جاهل حيوان لا ينفع يبيت مقتولا من التخمة والبطر . إذاً ما هي الحكمة من تعب العالم لإسعاد البشر والرزق محلا لديه ، وكسل الجاهل عن فائدة أي إنسان غيره والرزق مدراراً عليه .

فالقضية هنا ليست قضية عالم وجاهل ، أو مثقف وأمي ، وإنما هي قضية (حظوظ) . وهذه الحظوظ تكاد تلازم الشخص من يوم ولادته إلى مماته ، أو ما يتخللها من مما كانت سلبية كانت أو إيجابية في غضون المدة التي يقضيها بين مهده ولحده . وشاهد كلامنا أن الأرزاق هي ليست مقاييس ذكائنا ومواهبنا وقابلياتنا — والأرزاق يدخل في ضمنها الأكل والشرب والملبس والمركب والمفرش — وإنما هي مقاييس المحاولات التي تنمو في الأشخاص وتكون غريزة فيهم . وهذه المحاولات هي كيفية اصطياد الرزق وبأي واسطة وكيف . وإني أسلم جدلا بأن الكثير من الرزق يأتي في معظم الأحيان إلى أكثر الأشخاص من طريق المصادفة ، وهذه المصادفة هي ما يمكننا أن نسميها بحظ الشخص . على أن لهذه المصادفة مقدمات من جهود ومتاعب إن أخطأت في واحدة منها فلن تخطئ في الكثير . ونرى كثيراً من الناس أيضاً يبدى من المحاولات غير الموجهة بالنسبة لحكم ونطاق عمله فلا تأتي صحيحة ، بل تكون مصحوبة بالإخفاق الشامل العام ، وهذه هي صدمات في الحياة . وكل صدمة تجابه الإنسان في حياته يجب أن يكتسب منها خبرة أكثر فيتلقاها بصدر رحب ، ومن ثم يستأنف السير في عمله والمثابرة في محاولاته ، وعلى كل ما قلناه يمكننا أن نستشهد بما قاله المتنبي :

فلو كانت الأرزاق تجري على الحجى
هلكن إذاً من جهلهن البهائم

وهذا هو الصحيح المضبوط . فلو كان الأمر كذلك أي أن الرزق يعطى على حسب الدرجات بالنسبة للعلم والعقل والذكاء ، لمات إذاً من هم في الدركات .

فالدواب هي الحيوانات المجاورات والتي لا تملك من العقل قليلا ، ولكن بالرغم من ذلك نرى كل الدواب تعيش وتتكاثر ، بل نشاهد من الحيوانات ما هو أنعم وأسعد بكثير من بني الإنسان .

فما الكلاب المدللة ، والقطط الحبية ، والقردة المقربة ، أو الدببة المدللة ، إلا شواهد ناطقة على أن بعض الحيوانات أهنأ وأسعد من أكثر الناس .

ولقد أسمعتنا بعض المجلات : أن ولي عهد إمارة كان له حمار صغير مدلل لا يفارقه ساعة واحدة طيلة نهاره وأراد جلالة والده أن يرسله إلى بعض مدن أوربا . فما كان من الأمير الصغير إلا أن اصطحب جحشه المدلل معه في الطائرة .

وإلى هذا التاريخ كثير من الناس لم يشاهد الطائرة وإن شاهدها لم يركبها . أو كما يروي لنا الأستاذ مصطفى أمين بك في كتابه (أمريكا الضاحكة) عن « الورد بوبي الكلب المليونير » وكيف تنفق له ألوف الدنانير ، وتحضر له المركبات الفخمة ، ووصفة واحدة يشير طبيبه الخاص بها تكلفه خمسة آلاف دولار وتستحضر له من ألمانيا بالطائرة . وملايين من الناس يتقطعون حسرة على الدينار الواحد . فإذا كانت حكاية أمريكا الضاحكة هذه في حيز الحقيقة فهذا هو ما نريده ، وإن كانت من نسج الخيال فلم نأت بها إلا للاستشهاد . فإذا أخذنا قول أديبنا الأستاذ بنظر الاعتبار وهو أن جميع الشعراء أو الأدباء مفلسون لأن بعضهم رثى حظه وتكلم من سوء طالعه ونحسه ، صح لنا أن نقول إن الحمير أو الكلاب أحسن من بني الإنسان حالا ، لأن حماراً ما أركب في طائرة ، وأن كلباً من الكلاب ملك الملايين من الدولارات . وإذا وافقنا الأستاذ الأديب على رأيه وجب علينا أن نقرر أن كلامنا لا يعتمد على منطق

وما هو إلا هذيان. وكل ما بالأمر أن الشعراء أكثر حساسية من غيرهم وأرق شعوراً، ولهم من الأخيلة ما يجعلك أن تتصور الشيء، وكأنك تراه. ولهذا فهم يظهرون ويكشفون عن دخائلهم؛ فإذا صادف أن شاعراً وثانياً وثالثاً من تلك الجماعة التي تعد بالمئات أو الألوف أكثروا من رثاء حظهم وتأبين طالعهم فتحدث ضجة تحسبها صدرت من ألوف. فمثل هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص من مئات الشعراء والأدباء يعد شاذاً. ولا قياس على الشاذ.

أما بقية الطبقات ففيها من المفلسين والمعوزين ما يربو عددهم على عدد الشعراء والأدباء الذين على شاكلتهم، ولكن لا يمكنهم التعبير عما يجول بخاطرهم من مثل هذه الأحاسيس نحو الفقر والعدم، ولذلك تبقى مكبوتة في نفوسهم إلى أن تقتلهم ولا يحس بهم الغير.

وختاماً لمقالنا أود أن أنقل إلى القارئ العزيز بعض ما أحفظه من رثاء حظوظ بعض الشعراء، ووصف حالاتهم النفسانية والمادية.

فإني قرأت لشاعر كلمة طويلة عن حياته البائسة التي يختمها بأبيات من نظمه يصف بها حظه:

إن حظي كدقيق بين شوك بعثروه
ثم قالوا لحفاة يوم ريح اجمعوه
صعب الأمر عليهم قلت: يا قوم اتركوه
إن من أشقاه ربي كيف أنتم تسعدوه؟

فهذه الأبيات هي من أدق الأوصاف، وأروع ما جادت به عبقرية شاعر في وصف حظه بهذه الخطورة والدقة.

وكان أبو الشمقمق الشاعر من أكثر خلق الله تبرماً بالناس، واستخفافاً بهم، وقد لزم بيته في أطمار بالية مهلهلة حتى لا يقابل أحداً. وأقبل عليه أحد إخوانه الظرفاء فلما رأى سوء حاله قال: أبشر أبا الشمقمق فإنا روينا في بعض الحديث أن العارين في الدنيا هم الكاسون في الآخرة. فقال إن صح والله هذا الحديث كنت أنا في ذلك اليوم بزازاً ثم أنشأ يقول:

أنا في حال تعالى الله ربي أي حال
ليس لي شيء إذا قيل لمن ذا قلت: ذا لي
ولقد أفلست حتى محت الشمس خيالي
ولقد أفلست حتى حل أكلي لعيالي

وكان يحاول كل المحاولات في أول أمره حتى مل وسئم وبرم بالحياة ورأى ذم الدنيا. ووصف حظه خير ملهاته ومسلاته، ويسمعنا آخر قوله: في وصف منزله وفقره:

منزل أوطنه الفقر فلو يدخل السارق فيه سرقا

وهكذا.. الخ..

(العراق) محمد ياسين رشيد

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع السكردامى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

رادار الوطواط
ورادار الإنسان

قام Spallanzani بالتجربة الأولى لطيران الوطواط سنة ١٧٩٤ . ومنذ ذلك التاريخ حاول الباحثون تفسير قدرة الوطواط على الطيران فى الظلام الحالك دون أى حادث . وقد اكتشف رادار الوطواط العالمان Dr. Robert Galambos & Donald Griffin بعد تجارب أجرياها فى جامعة هارفارد بأمريكا أدت إلى أن الوطواط لا يعتمد على بصره لتجنب الاصطدام بالأشياء التى تقابله أثناء طيرانه . فالوطواط إذا حجبت عيناه بغطاء يطير كما لو كان



مبصراً ، ولو سدت آذان الوطواط أو كم فمه اصطدم بالعقبات التى تقابله والأشياء التى تصادفه أثناء طيرانه كالأشجار العالية مثلا ؛ وعلى ذلك فلابد أنه لكى يستدل الوطواط على ما سيقابله فى طريقه أن يسمع شيئاً فما هو ؟ .

وبما أن الوطواط يحاول فتح فمه أثناء طيرانه إذا كممناه فمن الواضح أنه يسمع صوتاً يخرج منه نفسه . أطلق جريفين وزميله الوطاويط فى المعمل واستعملا جهاز Sound detection apparctus . . هـذا الجهاز يحول الموجات الصوتية غير المسموعة(١) إلى موجات مسموعة .

(١) لا تستطيع أذن الانسان تمييز الأصوات التى تكون ذبذبة موجاتها أقل من ٢٠ أو أكثر من ٢٠,٠٠٠ ذبذبة فى الثانية .

فأصدر الجهاز أصواتا عالية سريعة ، واستمرت هذه الأصوات طالما بقى آخر وطواط طائرا فى المعمل ، وانقطعت عند ما انقطع آخر وطواط من الطيران . وقد استنتج العالمان من ذلك أن الوطواط يصدر أصواتاً أثناء طيرانه لا تستطيع أذن الإنسان أن تسمعها لشدتها أو لحدتها .

وقد توصل العالمان المذكوران إلى تفسير الطيران الأعمى Blind flying للوطواط .

يرسل الوطواط إشارات عند ما يتأهب للطيران . . وما هذه الإشارات إلا صرخات متتابعة عالية أو فوق حادة(١) .

تخرج الصرخات الأولى بسرعة بطيئة أقل من ١٠ صرخات فى الثانية ، وتزيد سرعة صرخاته كلما انساب فى الجو إلى أن تثبت على سرعة ٣٠ صرخة فى الثانية ، وعندما يسمع الوطواط صدى ضعيفاً لصرخاته يعود إليه تزيد توا من عدد صرخاته فيطلق بمعدل ٥٠ صرخة فى الثانية .

ولا شك أن زيادة الصوت المنطلق تزيد من قوة الصدى الراجع . ويهديه هذا الصدى إلى موقع الأشياء التى أمامه فيغير اتجاهه حتى يضعف الصدى الذى يسمعه ثم يتلاشى تماماً .

وبعد أن يتخطى الشجرة التى أمامه أو أسلاك البرق أو التلال أو أبراج المبانى المرتفعة تقل صرخاته إلى ٣٠ صرخة فى الثانية وهو العدد المعتاد لإطلاقه أثناء الطيران .

فإذا كان الوطواط صرخات عالية مستمرة يطلقها باستمرار أثناء طيرانه فلماذا لا نسمعها عند ما يقترب من رؤوسنا أو يقتحم علينا النوافذ فى الحجرات ؟ . . وهنا

(١) الاختلاف فى الصوت يرجع إلى سعة ذبذبة موجاته شدة وضعفا ، وإلى اختلاف تردد موجاته حدة وخشونة ، فصوت المرأة أحد من صوت الرجل لأنها تصدر موجات أكثر عددا من التى يصدرها الرجل فى الثانية
وعدد الذبذبات التى يحدثها الجسم المولد للصوت فى الثانية تسمى التردد Frequency

يرجع إلى تذبذب موجات الصرخة الصوتية أو بالأحرى إلى التردد Frequency[1] .. فموجات إشارات الوطواط الصوتية تقع ذبذبتها في نطاق ٠٠٠ر٥٠ ذبذبة في الثانية ويسمع الإنسان الصوت الذي ذبذبته تقع في نطاق ٢٠ — ٠٠٠ر٢٠ ذبذبة في الثانيـة ، والكلب والقط في حوالي ٠٠٠ر٣٥ ذبذبة ، والفأر ٠٠٠ر٤٠ ذبذبة ، والوطواط في ٠٠٠ر٩٨ ذبذبة وربما أكثر وهو في ذلك يفوق جميع الثدييات ..

وليست الوطاويط معدة لسمع إشاراتها الخاصة فقط وإنما لها حنجرة غير عادية لإصدار هـذه الأصوات ذات الذبذبات العالية ، وقد اندهش علماء التشريح للنمو العظيم الذي يحدث في حنجرة الوطواط إذ تملأ الحنجرة في أحد الأنواع الإفريقية ثلث تجويف جسم الوطواط .. وفي جميع الوطاويط تكون الأحبال الصوتية قصيرة وسميكة ، ويتصل بالحنجرة عضلات قوية ونظام يوقع شداً عظيما على الأحبال الصوتية .

ولا تنحصر أهمية الرادار للوطواط في أن تصون حياته الفردية من الهلاك نتيجة التخبط في الظلام إذ أن الوطواط لا يبحث عن غذائه إلا ليلا ، ويتغذى على الحشرات التي يصطادها على جناحه ثم يلتف ويدور حولها في حركات معقدة يؤديها على الرغم من صعوبتها بمهارة فائقة . وتقوم بعض الوطاويط التي تعيش في الغابات باصطياد فريستها بين الأشجار الكثيفة وفي كل هذه الظروف يظهر الرادار أهميته للوطواط .

وتتجلى أهميته مرة ثانيـة عند ما تحمل الأم أولادها الصغار في أيام حياتهم الأولى ، وتمسك الصغار في فراء أمها بالأسنان وبالمخالب وترافقها في طيرانها الليلي عندما تبحث من غذائها .. ففي هذه الفترة .. أي بعد الولادة لا تنحصر أهمية الرادار في سلامة الوطواط فقط وإنما تتعداها إلى سلامة الصغار .

وعند ما تثقل الصغار ويعجزها كبر حجمها من التعلق بثبات بأمها تترك الأم صغارها في كهفها الذي تعيش فيه بعد أن تعلقها على حائط الكهف كما يعلق الوطواط الكبير نفسه بمخالب أرجله وتذهب الأم وحدها للصيد ..

ويستعمل الوطواط الذي يعيش في أحجار في الأرض الرادار كثيراً لدخول بيته والخروج منه ، إذ عليه قبل أن يصل إليه أن يجتاز دهاليز كثيرة ملتوية وطويلة وشديدة الإظلام . . .

هـذا هو رادار الوطواط وأهميته للوطواط كبيرة ، أما الرادار الذي اخترعه الإنسان فيدل على الطائرات أو الأشياء الأخرى التي استجدتها الحرب وهي طائرة في السماء مقتربة من المدن المأهولة لتنزل بها الخراب .

يستدل الرادار على هذه الأشـياء بإرسال موجات لاسلكية[1] متتابعة عالية التردد (شديدة التذبذب) تصطدم بأي شيء يقابلها في السماء فيرتد صداها راجعا . كذلك الوطواط يرسل صرخات عالية بدلا من الموجات اللاسلكية وهذه الصرخات لا يميزها الإنسان لشدة ذبذبة موجاتها وربما لا تميزها الكائنات الأخرى ما عدا الوطواط نفسه . وعند ما تصطدم موجات هـذه الصرخات بأي شيء في

(١) ينشأ الصوت من اهتزاز الأجسام ، وفي حالة الوطواط وغيره من الكائنات ينشأ الصوت من اهتزاز أحدة الهواء داخل الحناجر

(١) موجات اللاسلكي أو موجات الراديو Radio waves موجات كهربائية مغناطيسية ، فالراديو بجزئيه من جهاز لإرسال واستقبال يعمل على تحويل الموجات الصـوتية إلى تيارات كهربائية ثم تحويل هذه التيارات إلى موجات كهربائية مغناطيسية تنتشر بسرعة أكبر من سرعة الصوت في الأثير ثم يحول جهاز الاستقبال هذه التيارات إلى موجات صوتية

وموجات اللاسلكي مثل موجات الماء وموجات الضوء موجات مستعرضة أي أن جزيئات الوسط تتحرك في اتجاه عمودي على اتجاه حركات الموجات نفسها

في جبال لبنان:

محيط جبران خليل جبران

أسعدني الحظ بزورة لجبال لبنان في هذا الصيف فزرت القسم الشمالي منه وصعدت إلى أعلى مرتفعات جبال الأرز فشاهدت الأرز الخالد على عاديات الأيام وتقلبات الدهر

والأرز يعلو من سطح البحر بمقدار ١٩٧٠ متراً ويبعد من بيروت ١٢٨ كيلو متراً ، تصعد إليه السيارات فيما مهده الإنسان لها من دروب وأكواع وملفات ودورات كثيرة ولا يتعب الصاعد بالتصعيد فيها وإن كان أهل شمال لبنان يشكون من أن الحكومات اللبنانية المتتابعة لا تعنى بشمالهم عنايتها بالجنوب ، حيث يقيم معظم رجال الدولة ورجال النيابة وأصحاب النفوذ والسلطان في كل الحكومات المتتابعة

اتخذت بلدة « حصرون » محطاً لرحالي فأقمت فيها ثمانية أيام ، وهي تعلو عن سطح البحر نحو ١٣٤٠ متراً وهي بلدة جبلية مشرفة على وادي قاديشا ، هواؤها عليل وجوها بارد لدرجة أن الفتيات كن يلبسن ثياب الصوف فيها في شهري يوليو وأغسطس ، وكنا نفضل الجلوس في الشمس أو السير في الشمس على اللجوء إلى الظل من شدة البرد ، وكنا إذا جلسنا في « روضة السمعاني » جملوا حولنا سياجاً من الخيام احتراساً من برودة الهواء الذي يهب علينا من وادي قاديشا ويبلغ عمقه نحو ٤٠٠ متر .

وفي تلك الروضة كنا نسمع الأغاني من المطرب الشاب جوزيف اسبر وهو بارع في الغناء العربي ، ويغني أغنيات سورية ومصرية وعراقية ويجيد علاوة على ذلك الغناء بالفرنسية والإنجليزية والإسبانية ، ويساعده في الغناء فنانون متخصصون ألفوا جوقة خاصة بهم .

دخلت « حصرون » صباحاً فاستقبلني اسمها على لوحة زرقاء كتب بالعربية والإفرنجية ، وهي بلدة جاثمة في حضن جبل شاعت فيه الخضرة ، وبيوتها على الطراز الحديث ومسقفة بالقرميد تتخللها عيون الماء البارد النمير سيروها

طريقها سواء كان شبحاً كالتل أو رفيعاً كأسلاك البرق تنعكس وتعود إلى أذن الوطواط الحادة ، ويحذره الصدى فيتمهد قبل أن يصطدم ويغير طريقه .. نخرج من ذلك إلى أن الرادارين .. رادار الإنسان ورادار الوطواط فكرتهما واحدة ، ولكن الطريف أن الوطواط عرف راداره قبل أن يعرف الإنسان راداره بمدة ٦٠ مليون سنة على الأقل.

وإليك البيان : تدل الحفريات التي نعثر عليها في طبقات الأرض على تطور الحيوانات المختلفة والأطوار التي مرت بها حتى وصلت إلى شكلها الحالي ، ولكنها تقصر عن رسم صورة لتطور الوطاويط ! إذ تطابق أقدم حفرية وجدت للآن الوطاويط الموجودة الآن ولا تساعدنا مطلقاً في التعرف على الوطاويط القديمة أو الأشكال التي كانت عليها أسلاف الوطاويط الحالية . فقد عاش أول وطواط في العصر Eocene وهي الفترة القريبة التي مضى عليها ٦٠ مليون سنة عندما كانت النباتات الاستوائية تنمو في ألاسكا .

ويقول العلماء إن أسلاف الوطاويط كانت تشبه الثدييات آكلة الحشرات Shrew like وكانت تتسلق الأشجار ولا تستطيع الطيران ، وأخذت هذه الوطاويط القديمة تتعلم أولا القفز من شجرة لشجرة ثم التزحلق من قمة الشجرة إلى الأرض ثم الانسياب في الفراغات الهوائية التي توجد بين أفرع الأشجار .. ولابد أن تكون قد اكتسبت أثناء نمو أجنحتها الجلدية وتطورها القدرة الطبيعية الخاصة لجعل الطيران الليلي مأموناً ، ولابد أنه كان هناك إخفاق أدى إلى الموت أثناء المحاولات الأولى . والمهم الآن أن الوطاويط القديمة التي نجحت لأول مرة استعملت الرادار قبل الإنسان بملايين السنين .

عن مجلة Ora أحمد الشاذلي

قصة مراكشية :

اللحظات الأخيرة

رفع القائد عينيه المطفأتين وجال بهما في الغرفة الساكنة كأنه يحاول أن يتشبث بالحياة ، ولكنه في الحقيقة لم يكن يشعر بالأشياء التي حوله ، فقد كان يستعرض ماضيه في تلك اللحظة الدقيقة الحاسمة . ما أقسى عبر الحياة ! لقد قذفت به أمواجها المتلاطمة إلى هذه القرية البعيدة من مقاطعة الأورن ، بعيداً عن ميادين المجد والسؤدد ، ليموت هناك منعزلا وحيداً كما لو كان لم يحدث شيء من ذلك التاريخ الحافل الطويل .

ويتذكر كيف ظل يطرق أبواب المجد منذ صباه دون جدوى ، ثم كيف انتقل إلى أدغال الشرق الأقصى ، ثم إلى جزيرة مدغشقر إلى أن رسا به المطاف على حدود الجزائر الغربية ؛ وهناك طرق أبواب المجد مرة أخرى فإذا بها تفتح على مصراعيها . مراكش ! في هذه البلاد تمكن من أن يشد يديه على مقاليد الدهر وأزمة التاريخ ! لقد كان هذا الاسم بمثابة العصا السحرية ، ما كادت تمس حياته حتى انقلبت إلى لمعان وبريق . ويتذكر كيف أحب هذه البلاد من أعماق نفسه لأنه وجد فيها ما لم يجده في أي مكان آخر عاش فيه من قبل .

وما زال القائد الشيخ ينتقل من حادث إلى حادث منذ بدأ الزحف إلى أن اصطدم بمعركة بني سناسن ، تلك المعركة التي كانت تقض مضجعه كلما تذكرها . إنه يعرف

مواسير تنحدر من أفواهها أسود تارة ومن المواسير الرفيعة تارة أخرى ، ولكثرة مياهها شاع فيها النماء والخصب فأنت ترى الشجر في خضرة شديدة تميل إلى السواد وكذلك مزروعاتها .

وفي حصرون أشجار البندق والجوز واللوز والسرو والتفاح والمشمش والتوت والحور والسنديان والصفصاف والعنب والكمثرى ، وتزرع فيها أنواع الخضر والحبوب والمقاثي وما إلى ذلك ، وكلها يخرج خصبا خصوبة تجعله أحوى (أي أن خضرته تميل إلى السواد من شدة الخصب) .

وأمام حصرون عمارة « الديمان » وهي المقر الصيفي للبطريرك عريضة . وأهل حصرون ينسبون لكل عين من عيونها نفعا وشفاء لبعض الأمراض .

وتكتنف حصرون جبال عالية من جميع جهاتها ، ولعل ذلك هو السبب في تسميتها حصرون لانحصارها وسط جبال من كل جهاتها . وهي قرية ومع ذلك تشبه المدن استعدادها بالفنادق وفي مآكلها وأنديتها ومقاهيها ، والنظافة فيها مشتركة بين أهلها ودروبها وأشجارها وأرضها . وينساب من وسط حصرون وادي قاديشا . وقد كنا نشاهد السحاب يتصاعد إلينا من ذلك الوادي على شكل كتلة دخان ثم ينتشر في الأفق فيغطي الجو ويجثم على البلدة فيجعل الرؤية فيها متعذرة .

في هذا الجو وفي وسط تلك المناظر الخلابة نشأ أدباء لبنان الذين أقاموا فيه أمثال الأخطل الصغير (بشارة الخوري) وخليل مطران وعبد الحميد الرافعي وشبلي ملاط وأمثالهم ؛ والذين هاجروا إلى أمريكا أمثال جبران خليل جبران ونسيب عريضة وميخائيل نعيمة وإلياس فرحات وإيليا أبو ماضي ورشيد سليم خوري ورشيد أيوب وأمثالهم .

وقد نشأ جبران في بلدة بشراي على مقربة من حصرون وانتقل إلى أمريكا فقضى نحبه هناك بعد ما خلف للأدب والفن ثروة عظيمة . ثم نقلوا رفاته ورسومه إلى مسقط رأسه

وبشراي ترتفع من سطح البحر بمقدار ١٣٧٥ مترا تعلوها مغارة قاديشا وتتوجها غابة الأرز الخالدة ، وقد مسحت عليها يد المدنية فأكسبتها نوراً وبهاء ، وزادتها سمعة جبران خليل جبران شهرة ؛ بل نقلت معنى اسمها من الفتوة والشر إلى الرحمة والخير والصوفية . ومع ذلك لم تحسن بشراي إلى ذكرى فقيدها جبران بقدر ما أحسن هو إليها في العالم .

وسنفصل ذلك في كلمة قادمة بإذن الله

محيي الدين رضا

أنه ارتكب أخطاء كثيرة وكبيرة فى حياته ، أما حادث معركة بنى ستاش فإنه يفوق ذلك كله .

ولم يكن الحضور يعرفون مايدور بخلد القائد المحتضر ، ولكنهم شاهدوا وجهه يربد ورأسه يتحرك كمن ضاقت به الأنفاس ، ورأوه يجول بعينين حائرتين متوسلتين فى أنحاء الغرفة كأنه يحاول أن يتخلص من عذاب أليم يمزق جسمه الواهى الضعيف ، فأسرع إليه أحدهم بالدواء المسكن ، ولكن ذلك لم يجد فتيلا ، وبدأت أنات خافتة تصدر عن ذلك الهيكل المتهدم الملقى على فراش الموت .

ولم يكن أحد يعرف أن روح القائد هى التى كانت تئن ؛ فقد تذكر الحادث الذى وقع بعد تلك المعركة ، الحادث الذى مازال شبحه يقتفى أثره منذ ذلك الحين ، وها هو ذا الشبح ، شبح الحادث الفظيع يلوح أمام عينيه بذلك الوجه الكالح المفقود .

ذلك الوجه الكالح المفقود الذى برز له منذ زالت عنه السلطة ورجع إلى عزلته بمقاطعة اللورين ، ولقد ظل الشبح يعيش معه فى منفاه ليضاعف ألم المأساة التى انتهت إليها حياته بعد المجد والسلطة والبريق .

حدث ذلك بعد المعركة التى دارت بينه وبين قبيلة بنى ستاش فى الشرق ، تلك المعركة التى عصفت فيها المدافع بسيوف هذه القبيلة الباسلة ، وجلس بعدها القائد الظافر فى خباء القيادة ، فخوراً بالنصر مزهواً بالمجد الذى بدأ يبسم له ، يستشف مستقبله المجيد البراق خلف دخان المدافع وعجاج المعارك .

إنه يذكر كيف دخل عليه فى تلك اللحظة أحد رجاله لينبئه بوصول رسالة من والدة الضابط جاك روز الذى لقى حتفه فى المعركة . فأطرق القائد ساهماً وقد تأثر لمصرع ذلك الضابط الباسل الذى كان مزهواً بفرنسيته ، متشبعاً بروح القاهرة والاعتداد بالنفس ، لقد كان جاك خير مثال لما يجب أن يتصف به الضباط فى جيش فرنسا الإفريقى .

ثم رفع رأسه إلى الرجل وسأله : وماذا تريد الأم المسكينة ؟

— إنها تريد سيف ابنها .

— أين الرسالة ؟

إنه يذكر جيداً من تلك الرسالة هذه العبارات : كان لى فى ابنى أيها القائد العظيم أمل كبير . عاش مصمما على أن يقدم لفرنسا عملا جليلا ، ولكنه مات دون ذلك ، سقى بدمه أرض الإمبراطورية لتحفل بالثمار ، وإنى لفخورة بذلك وراضية ، ولكن لى رجاء ، هو أن ترسل إلىّ بسيفه لتجد فيه أمه الثكلى عزاء وسلوة ، وما أحسبك إلا فاعلا .

ووجد نفسه يقول للرجل : ابحثوا عن السيف وأتونى به .

طال البحث والتنقيب ولكنهم لم يعثروا من سيف الضابط إلا على المقبض وجزء من النصل صغير . وكان القائد عنيداً ولا بد من تنفيذ أوامره بالحرف ، لقد طلب السيف ، وهذا يعنى السيف كله ، وهو لا يستطيع أن يظهر أمام الأم بمظهر العاجز عن الاستجابة لرجائها ، ولذلك أصرّ على أن يؤتى ببقيته . ومرت الأيام دون أن يعثر على النصل فأمر القائد بالبحث عنه فى قبيلة بنى ستاش حيث لقى الضابط حتفه ، بيد أن بقية السيف لم توجد أيضاً ؛ عندئذ استشاط غضباً ، وأمر بإحضار رجال القبيلة الذين حضروا الوقعة التى قتل فيها الضابط روز ، فأحضروا .

إنه يرى نفسه يستعرض رجال القبيلة وهو يصيح فيهم متوعداً . قال لهم : تعرفون الضابط جاك روز الذى سفكتم دمه ، إنى أريد بقية سيفه فأين هو ؟

ولم يجبه أحد ، فصاح وقد شعر بأن هذا يمس كبرياءه : أجيبوا لا بد من الحصول على بقية السيف ولو أدى ذلك إلى أن أحصدكم حصداً .

ولم يرد عليه أحد فاستأنف : طالما قلت لكم إن أوامرى يجب أن تطاع ، إنى أعرفكم وأعرف أنكم تخفون عنى ما أريد ، إنه بقية السيف .

وكان من بين القوم رجل ضعيف هو الذى كان يعرف مكان بقية النصل ، لم يستطع أن يتحمل كل هذا الوعيد ، وخاف أن تتكرر مأساة المدافع ، وحسب أن القوم لا يعرفون ، وأنه إذا دلّ القائد على مكان النصل أنقذ ذويه من هذا الجبروت . وظل سدى ينتظر أن يتكلم غيره ، ولذلك استجمع قواه وقال : « أنا أعرف أين توجد بقية السيف » ؛ فالتفت إليه الناس مذهولين

وتقدم إليه القائد أثناء الصمت الذى أعقب ذلك وفى عينيه بريق الانتصار ليقول :

— وأين هو ؟ .

— فى صدر أحد رجالنا .

— احذر أن تكون عابثاً ، أين النصل ؟ .

— أغمد الضابط روز سيفه فى صدر أحد رجالنا أثناء المركة وقد قتله فانكسر السيف فى صدره ودفناه به .

وأراد أن يتأكد فسأله : وكيف كان ذلك .

قال الرجل : واجهتنا فصيلة من رجالكم ولم يكن هناك مجال لاستعمال البنادق فاشتبكنا فى المركة بسيوفنا ، وبينما كان أحد رجالنا يعدو عثر فى صخرة وأصيب فى رأسه بعد أن تدحرج ثم فقد الوعى وظل ملقى على الأرض ، فأبصر به جاك .

— قل الضابط جاك .

— فأبصر به الضابط جاك فاستل سيفه ثم أغمده صدره ، وما زال يعالج تحطيم النصل فى الصدر إلى أن سكن من ذلك .

— ولماذا فعل هذا ؟ .

— ليثبت شجاعته .

— إخرس أيها المفترى . والآن أين السيف ؟ إنى أريد بقية هذا السيف .

— بقيته فى صدر القتيل .

— أريد بقية هذا السيف .

— والقتيل مدفون .

— أريد بقية هذا السيف .

— لا أستطيع .

— أريد بقية هذا السيف ، والأمر موجه إليكم جميعاً ، لا بد أن تأتونى بها ، وسوف أمهلكم إلى الغد فى مثل هذا الوقت .

كانت مسحة التحدى واضحة فى لهجة القائد ، وكان القوم حديثى عهد بالحديد والنار ، ولذلك لم يكن لهم بد من أن يذعنوا ، وكان على الرجل الذى تكلم أن يتحمل مسؤولية هذا العمل الشنيع ، حفر القبر واستلال بقية النصل ثم حمله إلى القائد . هكذا اتفق القوم بعد أن خلوا إلى نفوسهم .

وجلس القائد فى الوقت المحدد إلى المنضدة الصغيرة ينتظر قدوم الرجل بالنصل ، ولم يخب ظنه فقد أدخل إليه بعد برهة ، ولكنه كان يرتعش وفى عينيه رعب صارخ . دخل الخباء ، وكأنه لا يعقل شيئاً . ثم تقدم إلى المنضدة ووضع عليها بقية النصل وهو يقول مرعوباً كأنه يخاطب نفسه : « سمعت أنيناً منبعثاً من القبر أول ما بدأت أحفر ، وكان يزداد ويزداد إلى أن وصلت إلى الجثة ، وكان أول ما بادرنى منها الوجه ، وكانت عيناه جاحظتين ، وأسنانه بارزة وعضلات وجهه متقلصة ، يا لها من نظرات صاعقة ! كانت عيناه تحدقان فى مثبتتين لا تطرفان ، وكانت نظرتهما الميتة تطفح بازدراء مخيف . مددت يدى إلى النصل وبينما أنا أجتذبه زوى ما بين حاجبيه متألما . آه يارب لقد أتيت عملا شنيعاً » . قال ذلك ثم انسحب ليهيم على وجهه فى الخلاء .

* * *

وهنا انطلقت من الجسم الواهي الهرم ، جسم الجندي القديم ، أنة مؤلمة ! فتحدث الناس من إحضار الطبيب علّه يخفف آلامه ، ولكن الشيخ لم يكن يسمع من كلامهم شيئاً ، بل كان يقضي اللحظات الأخيرة من حياته مع أشباح وخيالات تبعث الرعب في النفوس .

ورأى فجأة نصلا رهيباً يلمع في فضاء الغرفة ، وأبصره يقترب من صدره ويقترب ، فأرعبه ذلك ، ولكنه لم يكن يملك بقية من قوة تساعده على الصراخ . كان النصل معلقا في الهواء ، كأن شخصاً خفيا يحمله ، وكان يقترب ويقترب في بطء يخطف اللب ، وقد قيدت أيدي الموت القاسية جسم القائد الصريع ، فانطلقت منه أنات موجعة ، ولكن النصـل ظل يقترب ويقترب إلى أن استقر على الصدر ، وهنا فتح الشيخ عينيه ليرى وجها مفزعا يشرف عليه من عل ، « كانت عيناه جاحظتين ، وأسنانه بارزة وعضلات وجهه متقلصة ، يا لها من نظرات صاعقة ! كانت عيناه تحدقان في مثبتتين لا تطرفان ونظرتهما تطفح بازدراء مخيف » ! إنه الوجه الذي حدثه عنه رجل بني سناش . وفي اللحظة عينها أحس بالنصل يخترق صدره ، فإذا به يرتعش ويحاول أن يصرخ دون جدوى ، وبدأ يقول بصوت متقطع خافت : « آه أبعدوا عني هذا الوجه ، لقد أنبعث من القبر .. إنه ينتقم مني .. إن سيفه .. في .. صدري ، هذا .. هذا فظيع .. آه » . ثم استمرت شفتاه الذابلتان تتحركان دون أن يسمع له صوت من شدة الضعف والوهن .

كان يسمع صوت النصل وهو يدخل ويخرج في صدره إذ كان احتكاكه بالعظام يحدث صوتا مقيتا يبعث على التقزز والاشمئزاز . وكانت العينان الشمتان تزدادان اتساعا وعضلات الوجه تزداد حدة ، وأدركته رائحة الموت الكريهة والوجه يقترب منه ، وكاد لبه يطير عندما أبصره ينحني عليه ويضع شفتيه الزرقاوين على أذنه ليهمس همسا شنيعا :

« كنت يارجل الحرب القديم تفتك بالضعاف وترتكب ما تشاء في سبيل إرضاء كبريائك ، لقد أرسلتني السماء لآخذك إلى مصيرك بعد الحياة ، إن أبشع جرائم الإنسان هي التي تحضر لتأخذ صاحبها إلى عالم الجزاء عندما يشرف على الهلاك ، ألم تقتل بقبري وجئت لكي تسلي بذلك أمة فقدت ابنها غدراً ... تعال معي إلى عالم لا يوجد فيه سيد ولا مسود .. ألست تسمع .. إصغ ... هذه أفاعي الحقد والكراهية تستقبلك بموسيقى من الفحيح الرهيب .

وهمس الشيخ وهو يتضور : الرحمة ! آه الرحمة !

فابتسم ذلك الوجه البشع ابتسامة كريهة وهو يقول : هذا ما كان يطلبه منك اللاجئون فلم تجب لهم صوتا ، أليس العطش إلى الرحمة أليما ؟ . تعال قم معي .. وهنا امتدت يد معروقة ، باردة ، طويلة الأصابع إلى تلابيب رجـل الحرب القديم ....

●●●

رأى الحضور القائد يلفظ أنفاسه ، وكانوا متأثرين لما لاقاه من عذاب وهو يعالج سكرات الموت ، فأحنوا رءوسهم إجلالا لوفاة الرجل العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق وسارت بذكر عظمته الركبان .

عبد المجيد بن جلون

غفلة

لا تهيجي لواعج الأشواق
في فؤاد المتيم المشتاق
وتثيري لظى الكآبة في الصد
ر وتذيبي الدموع في الآماق
إنّ نكأ الجراح أسقم للنفـ
س وأقسى من طعنة الأعناق
حسب هذا المشتاق حرقة وجد
ما تناهت تشب ملء التراق
ما أشد الشوق المبرح في الصد
وأشق حقيقة العشاق

* * *

أي داء نفثت في الأكباد
وجراح نكأت في الأعماق
وبح جنب المتيم المشتاق
من سعير النوى ونار الفراق
تركته الأشواق نضو شجون
يتلوى كالصل من إرهاق
فهو حي الأشجان مختلج الصد
ر سخي بالمدمع المهراق
ينفث الزفرة الكئيبة نارا
تتلظى من غلة واحتراق
وتكاد الأضلاع يصهرها الوجـ
د التياعا من حرقة الأشواق
زات كأنها حرق النـا
ر ووجد يحز في الأعناق
يتلوى من الأسى كذبيح
أقصدته رماية الحذاق
ويشد الأضلاع شد غريق
لحطام السفين من إشفاق

* * *

يا لبؤس القلوب من غصص الشو
ق ووجد كالنار غير مطاق
يكتم الصب ما يجشمه الوجـ
د ويخفي حرارة الإخفاق
والفؤاد الذبيح يخفق شجواً
في حنايا الأضلاع كالأوراق
مَثَلُ القلب كالفراشة لما
أبصرت في الدجى وميض ائتلاق
فترامت وما درت أي حتف
إذ ترامت على اللظى متلاق !!

(دمشق) عدنان مردم

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٠٧ | الثلاثاء ٢٠ من ذي القعدة سنة ١٣٦٥ — ١٥ من أكتوبر سنة ١٩٤٦ | السنة الثامنة

فهرس العـــــــدد

حمـــــاية الشباب

كان من أثر الأعاصير السياسية التي توالت على مصر منذ نحو ربع قرن أن تصدعت أركان الأسرة والمدرسة تصدعا خطيرا ، وأخذت مصر تواجه شيئاً فشيئاً جيلا من النشء والشباب تصعب قيادته ويصعب توجيهه إلى أفضل ما يمكن أن يوجه إليه الشباب العامل لخير نفسه وخير أمته . ولسنا ننكر أن الشباب قد أدى خلال هذه الأعوام العصيبة الحافلة بصنوف الكفاح في سبيل القضية الوطنية في هذا الميدان الصعب خدمات جليلة ، واضطلع من هذا الكفاح بأعظم قسط ، وكتب لنفسه بأعماله وتضحياته المؤثرة صفحة خالدة في تاريخنا الوطني . ولكن من الحق علينا أن نقول إن الخلاف الذي سرى إلى صفوف الأمة ، والخصومات السياسية التي اضطرمت بين مختلف الزعامات والهيئات ، وانحراف القادة من العمل المنتج في سبيل الغاية القومية العليا ، وتغلب النزعات الحزبية والأهواء الخاصة ، كل ذلك كان له أسوأ الأثر في توجيه الشباب ، وفي صدع وحدته ، وتغذية عقليته بالدعايات المسمومة المضللة ، وإثارة الريب والشكوك في نفوسه البريئة المتوثبة ، والعبث بذلك في جهوده الرزينة المنتجة ، وتحويلها من طريقها الوطني الصحيح ، وصبغها بالصبغة الحزبية المقوتة .

ونحن نشهد منذ أعوام طويلة والأسى يحز في نفوسنا ما أصاب النشء ، والشباب من جراء هذه الأعاصير السياسية من الأمراض والآثار المؤلمة ، وما تفشى بين صفوف الطلبة في مختلف المعاهد الصغرى والكبرى من ضروب الفوضى ، والإضراب المتكرر دون باعث ، والخروج على النظام لأتفه الأسباب ، وتضييع الوقت والجهود فيما لا طائل تحته ، والإعراض في معظم الأحيان عن كل نصح أو توجيه سديد .

ولقد عملت الهيئات السياسية الحزبية منذ الساعة

الأولى هي التقرب من الشباب واصطناعه واكتساب مودته وحشده في صفوفها وتغذيته بدعاويها والتأثير عليه باسم القضية الوطنية والجهاد القومي ؛ ولم تتورع مع ذلك من استغلال الشباب كلما سنحت الفرصة في سبيل مآربها الحزبية ودفع هذه النفوس الفتية الطاهرة باسم الوطنية والدعايات المسوقة إلى القيام بمظاهرات وأعمال لا تتفق دائماً مع مقتضيات الحكمة والنظام . وقد أضحى لكل حزب أو هيئة سياسية في الواقع ما يسمونه بلجان الشباب ولجان الطلبة ، في القاهرة والأقاليم ، ولا تنفك الصحف الحزبية من الإشارة إلى نشاط هذه اللجان وقراراتها وإلى الدعوة إلى اجتماعاتها وهي ترمي بذلك إلى ملقها وبث روح الحماسة فيها ، وإذكاء نشاطها لكي تستطيع فيما بعد أن توجهها إلى ما يتفق مع غاياتها .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من الاستغلال السياسي لنشاط الشباب في سبيل المآرب الحزبية ، ولكن الخطب كان أخطر وأفدح . فقد كان من أثر التحريضات المسمومة والدعايات المضللة أن اضطرمت بعض الأذهان الفتية بطائفة من الأفكار الخطرة وانزلقت إلى معترك الجريمة ؛ فكان ما شهدناه في العامين الأخيرين من الحوادث الأثيمة التي يقدم الآن فريق من الشباب النض منها أفدح الحساب .

* * *

ولسنا نتردد في أن نصف هذه الحالة التي انتهى إليها النشء والشباب في مصر من جراء الأعاصير والمؤثرات السياسية بأنها محنة قومية خطيرة يجب أن نبادر إلى التفكير في درسها والعمل على تلافي آثارها السيئة ، فالأمر يتعلق بسلامة الجيل الذي ستلقى إليه مصاير البلاد في المستقبل القريب ؛ والشباب عدة الوطن وذخره الحقيق ، ومن واجب المسئولين عن تنشئته وإعداده أن يسهروا على حسن توجيهه وأن يتخذوا لحمايته من المؤثرات الضارة كل أساليب الوقاية الممكنة ؛ ونحن لا ننكر على الشباب الناضج حقه بل واجبه في الاهتمام بمصير بلاده ، وفي الإعراب عن آرائه وأمانيه ، وفي المشاطرة في أعمال الجهاد القومي المنتجة ؛ ولكنا نطمع في أن نرى هذا الشباب الناضج ، أو الشباب الجامعي ومن في حكمه ، يتزل في أعماله وتصرفاته على مقتضيات التعقل والرزانة وفي حدود القانون والنظام ، وأن يكون مستقل الرأي بعيداً من المؤثرات المضللة . أما النشء الفتي الذي ما زال في دور التكوين والإعداد ، فأولى به أن ينصرف إلى استكمال الدرس والتحصيل ؛ ومع أن هذا النشء الفتي أولى بالحماية والتوجيه ، فإنه لا معدى لنا من النظر في حماية الشباب بصفة عامة من الوقوع تحت تأثير الدعايات السياسية أو الاجتماعية الضارة ، ومن أن يكون بالأخص موضع الاستغلال والتوجيه السيء من جانب الهيئات السياسية والحزبية المختلفة .

ولا سبيل لتحقيق هذه الحماية سوى التشريع الذي لجأ إليه كثير من الأمم ؛ فالأحزاب والهيئات السياسية على وجه العموم يجب أن يكون قيامها وتأليفها خاضعاً لقانون خاص تجري عليه في تشكيلاتها وبيان أغراضها ؛ ولكن مثل هذا التشريع لم يصدر بمصر إلى الآن ، في حين أنه قائم في معظم الأمم الأوروبية ؛ وتتضمن هذه التشريعات من النصوص ما يكفل تنظيم الهيئات السياسية والاجتماعية بصورة تتفق مع القانون والنظام ، كما أن فيها ما يسمح بحلها إذا خرجت على حدود القانون والنظام . وكذلك يجب أن يتضمن مثل هذا التشريع النص على حماية الشباب بمنع الأحزاب والهيئات السياسية من أن تضم إلى صفوفها أو تشرك في أعمالها ودعاياتها فتياناً لم يبلغوا سن الرشد ، كما يجب أن يحظر على أمثال أولئك الفتيان أن ينضموا إلى أية هيئة حزبية أو سياسية ؛ وبذا يحمى الشباب الذي ما زال في دور التكوين من الوقوع تحت تأثير الدعايات الحزبية والسياسية الضارة بعقولهم ومستقبلهم .

والواقع أنه من أشد بواعث الأسف أن نرى الآن بيار الدعوات الحزبية والسياسية المختلفة يغمر ، فضلا عن طلاب الجامعات والمعاهد العليا ، طلاب المدارس الثانوية ومنهم كثيرون لم يبلغوا سن المراهقة ، وأن نراهم ينتظمون فيما يسمونه بلجان الطلبة أو الجمعيات الرياضية الملحقة بهذه الهيئات ، يضيعون أوقاتهم النفيسة في حضور الاجتماعات والحفلات التي تقيمها الهيئات المختلفة ، ويقعون تحت تأثير المبادئ والدعايات المغرية قبل أن يستكمل نضجهم العقلي ؛ وفي ذلك من الخطر ما فيه على مستقبل أولئك الطلاب ، وعلى تكوينهم الفكري والخلقي .

هذا ويجب ألا ننسى أنه توجد إلى جانب هذه التيارات السياسية الجارفة التي تتجاذب الشباب وتوقعه في حبائلها تيارات أخرى ليست أقل خطرا ، وهي التيارات الاجتماعية المضللة التي نراها ماثلة في بعض نواحي الأدب والصحافة ؛ فهذه النواحي الفكرية الرخيصة التي لا تلتزم حدوداً لائقة من الرزانة والحشمة ، هي أيضا خطر اجتماعي يتعرض الشباب لشره ، ومن واجبنا أن نعمل على تلافيه وحماية الشباب من التلوث بأدرانه بكل الوسائل الممكنة تشريعية وغيرها . وناهيك بعد ذلك بما ظهر في الفترة الأخيرة من تسرب بعض المبادئ الاجتماعية الهدامة المنافرة لنظمنا الأساسية ومبادئ ديننا الأصيلة إلى أذهان بعض الشبان ، وما قد يترتب على ذيوع هذه المبادئ الخطيرة بين الطبقات الجاهلة من ضروب الاضطراب والفوضى .

لقد دفع بالطلاب والشباب بصفة عامة إلى طريق وعرة مليئة بالأشواك والاحتمالات المزعجة ؛ وإنها لجناية في حق الوطن أن تترك هذه الفوضى السياسية الاجتماعية التي طال مداها دون علاج حاسم . ولا ريب في أن شباب أمة متى عرضت عقوله ومشاعره لمثل هذا الإفساد الذي نراه ، وعرضت أرواحه وجسومه لأن تصفد بأغلال الدعايات والمؤثرات المسمومة ، فإنه يغدو من المشكوك فيه أن يستطيع الاضطلاع بالأعباء القومية الخطيرة التي تلقى على كواهله ؛ ومصر تجوز فترة من أدق فترات تاريخها ، فإذا كان من حقها أن تضع آمالها في شبابها مضاعفة ، فإنه يجب عليها في الوقت نفسه أن تبذل كل جهد لحماية هذا الشباب والسهر على تفكيره وتوجيهه وإعداده ، كما يجب عليها أن تذكر دائما أن إخفاقها في تحقيق هذه المهمة الخطيرة على أكمل وجه يغدو محنة قومية تصغر دونها كل محنة .

هذه صرخة قد تكون خافتة ، وقد لا يعقبها صدى قوي ، ولكننا لا نشك في أنها تتردد اليوم في صدور كل أولئك الذين يشفقون على مصاير وطنهم ، ويحرصون على أن يكون الشباب عماده وذخره المستقبل ، جديرا بأمته ، جديرا بقيادتها في عهدها الجديد الحافل بالشدائد والآمال .

محمد عبد الله عنان

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

حيرة ورجاء

إن الإنسان ليعجب كيف يغلب على الناس وهم يتناقشون هنا في مصر أن يحتدم الجدال وتعلو الأصوات وتهتاج الأعصاب ، ويخرج المتناقشون عن حدود اللياقة ويقذف كل منهم خصمه بأشنع التهم ويوجه إليه أقسى الألفاظ ، ولا يتحرج آخر الأمر من أن يعرض بأمانته ونزاهته .

وأعجب من هذا وأغرب أنه قد لا يمضي زمن طويل حتى تسمع من بعض هؤلاء المتناقشين أنفسهم دفاعاً عن الرأي الذي كان يتجهم له ، وتحمساً لجانب المناقشة الذي كان بالأمس يهاجمه ، وانحيازاً لفكرة هي عكس الفكرة التي كانت تبدو في أحاديثه قبل مرور ذلك الزمن القليل .

لاحظت هذا مراراً في حالات مختلفة وظروف متباينة . وها أنا أورد هنا بعض الاحتمالات التي عنت لي في أثناء محاولة وزن تلك الظروف وتحليل تلك النفسيات التي صدرت عنها تلك الآراء المتباينة وبدت منها هذه النزعات المختلفة ، فقد يكون في ذلك تعليلٌ لهذه الظاهرة التي تبدو غريبة محيرة .

فأول ما لاحظته أن الإنسان في كثير من الأحوال يتأثر بعاطفته نحو مناقشه وشعوره الشخصي بإزائه أكثر مما يتأثر بالآراء التي تبدو من هذا المناقش وعما تنطوي عليه من حكمة واتزان وما يكون فيها من وجاهة ورجاحة واتفاق مع المنطق .

فإذا كان المناقش من حزب سياسيّ معارض أو كان من أسرة بينها وبين أسرة الطرف الثاني منافسة أو خصومة أو عداء مستحكم أو كان من المتمتعين لدى الكبراء وذوي النفوذ بحظوة يحسده عليها مناقشه ويتمناها لنفسه ، أو كان من السعداء الذين واتاهم الحظ في هذه الدنيا ففازوا بالجاه والمال والنفوذ والشهرة ، بينما كان الخصم ممن تنكر لهم الزمن فرماهم بالحرمان والخيبة والانزواء ، على الرغم مما قد يكون لديه من مواهب واستعدادات تفوق ما لدى مناقشه . كل هذه عوامل نفسية قد تطغى على وجه الحق في المناقشة وتجعل الهم يغلي في نفوس البعض فتؤدي بهم إلى تلك الحال التي وصفناها ونحاول تحليلها .

والظاهرة الثانية التي لاحظت أنها تؤدي إلى تغيّر ملحوظ في اتجاهات الفرد أثناء المناقشة هي اختلاف الظروف من حيث نوع الجلساء الذين يحضرونها ؛ فالشخص حين يجد نفسه وسط أنداد وزملاء متحمسين لفكرة ما قد تتم عن شيء من الشجاعة أو العزة أو الوطنية أو ما شابه كل ذلك ، تراه يندفع في متابعتها بقوة ويدافع عنها بحرارة ويتحمس لها إلى درجة تخرج به أحياناً عن الحدود الواجبة ، وتجري على لسانه ألفاظاً قد تبدو نابية .

لكن هذا الشخص نفسه إذا وجد نفسه في جلسة من نوع آخر تضم والياً شديداً أو رئيساً قاسياً أو شخصاً يرجو منه محدثنا نفعاً أو يخشى منه ضرراً ، تجده قد اتخذ اتجاهاً غير ذلك الاتجاه وقد فترت حماسته وتحسنت ألفاظه ولانت عباراته وبدا التحرز في أسلوبه ، وقد ينسى نفسه فيجدها بعد قليل تؤمن على آراء هؤلاء الأشخاص ذوي النفوذ الذين يحضرون الجلسة ، ولو كانت هذه الآراء على عكس ما كان يدافع عنه في الجلسة الماضية التي سادها التحمس الذي أشرنا إليه منذ لحظة .

والظاهرة الثالثة هي أن الإنسان كثيراً ما يتأثر في آرائه بحالته الصحية ؛ فما يصدر منه وهو معافى في بدنه ، منشرح الصدر في قرارة نفسه ، هادئ الأعصاب غير متعب ولا مجهد (سواءٌ أكان التعب والإجهاد جسمانياً أو عقلياً) — ما يصدر عنه وهو في هذه الحالة قد يختلف اختلافاً كبيراً ، بل يكون على نقيض ما يصدر عنه وهو عليل متبرم ضيق الصدر مهتاج الأعصاب .

وأخيراً أشير إلى ظاهرة متفشية ملحوظة ؛ وهي أن الكثيرين منا لا يتعمقون في التفكير العميق الكافي ، ولا

يزنون الظروف بميزان منطق دقيق ، ولا يدرسون جوانب الرأى بحيدة ونزاهة غير متحيزة ولا مغرضة ، تبتغى وجه الحق وحده بقطع النظر عن أى اعتبار آخر .

ونتيجة هـذا العيب فى التفكير والتقدير أن الرأى الذى يبديه الشخص ويتحمس له لا يكون مرتكزاً على أسس قوية راسخة من التفكير العميق والمنطق السليم والاقتناع البعيد عن الهوى ؛ ولذلك سرعان ما يتغير وجه الرأى البادى ويتحول البندول نتيجة لسماع رجل قوى الحجة مؤثر ، أو لدافع من دوافع الهوى أو النفع الشخصى ، أو غير ذلك من الظروف العرضية ؛ وإذا بالشخص ينتقل من الرأى إلى نقيضه ويتحمس له بنفس القوة ، ويخاصم ويعادى كما كان يفعل من قبل حين كان يدافع عن الرأى المضاد .

* * *

هذا بعض ما يعن للإنسان فى تحليل هـذه الظاهرة النفسية المؤلمة التى تحمل البادى ، والأسس الفكرية والخلقية عديمة الأثر فى تصرفاتنا ، وتؤدى إلى اضطراب فى حياتنا العامة السياسية والاجتماعية — يبدو متجلياً فى الخصومات السياسية وفى انقسام العرى العائلية وفى فساد العلاقات الشخصية ، وأخيراً فى بعد تصرفات الأفراد فى كثير من الحالات عن مقتضيات مراعاة المصالح القومية والواجبات الوطنية والالتزامات الاجتماعية والنزاهة الخلقية .

فهل من سبيل إلى إصلاح هذه الحال؟ أظن أن طريق الإصلاح يتطلب معـالجة أمور نجملها فيما يلى ، ونضيف إليها صفة لا غنى لنا من غرسها فى النفوس إن أردنا صلاحا أساسيا من هذه الناحية ، ألا وهى التسامح :

فأول ما يجب علاجه عندنا هو الاندفاع وراء الهوى السعى المصلحة الخاصة فلا بد للانسان إن أراد أن ن مرناً منطقياً معقولا غير متناقض مع نفسه أن يسعى بإخلاص وراء تبين وجه الحق المطلق ، الذى لا تشوبه شائبة من غرض أو تلمس مصلحة شخصية ، بل يكون رائده فى ذلك الوصول إلى الحقيقة وحدها وتبين وجه المصلحة العامة دون سواها .

ويتطلب الأمر بعد هـذا تعمقا فى الدرس والتفكير وتقليب أوجه الرأى كلها ، واحترام فكرة الغير وتقديرها ، وحسن الاستماع لهـا بغض النظر عن مصدرها مهما كانت مخالفة بل ومضادة للفكرة التى قد تكون قد قارنت بشىء من الارتياح لدينا ، فكل إنسان عرضة للخطأ كما قد يكون مصدر إلهام للفكرة الصائبة التى قـد تغيب عن بال الكثيرين بل والأغلبية العظمى .

وإذا اتجه الإنسان هـذا الاتجاه فعليه أن يقدر تلك العوامل التى أشرنا من قبل إلى أثرها فى تغيير آراء المرء ، وأن يحسب لها حسابا ويقدر مناقشه إن وقع تحت تأثير بعضها دون أن يشعر ، ويحاول أن يرده من وجه الخطأ برفق وهوادة وأدب وعطف وتقدير .

لو توافر لنا ذلك وما يستلزمه من تسامح مصدره احترام رأى الغير والحرص على الوصول إلى الحق زال عنا ذلك المظهر البغيض مصدر التعصب للرأى بشدة غير محمودة وبعنف يجر إلى أسوأ العواقب وإلى تحطيم صفو العلاقات والصداقات وعدم تبادل الاحترام ، وحل محله هدوء دائم وإقبال مستمر هما من مستلزمات الإقناع وكسب الخصم إلى ناحية الرأى الذى يبدو لنا صوابا .

وعند ذلك تختفى من الميدان أيضا تلك الظاهرة القبيحة والعادة السخيفة التى تحمل كل صاحب رأى يرمى مخالفه بالخيانة والتفريط وبيع الضمير ، الأمر الذى يكهرب الجو ويزيل كل أمل فى التفاهم ويفقد الحجج قيمتها وأثرها فى النفس ، ويخلف المرارة ويذكى العداوة ، وأخيرا يؤدى إلى تضحية المصلحة العامة واختلال موازين القيم الحقيقية للأشياء والآراء ، وإلى تلك الفوضى الفكرية والخلقية المؤلمة التى تسود جونا الاجتماعى ، وقد تجر إلى أسوأ العواقب إن لم نتكاتف على معالجتها فى أقرب وقت بكل قوتنا .

والله الموفق الهادى .

أحمد عبد المعبود السكرانى

إلى دولة رئيس الوزراء :

سؤال صغير

على هامش قانون إيجار المساكن

حفظك الله يا دولة رئيس الوزراء ، وأمدك بالقوة على ما أنت فيه من مفاوضة ومحادثة ، وزادك من نعمائه ، وجنبك كل ما يحسه الناس فى هذه الأيام من ضيق فى الرزق وما يقاسونه من عناء فى الحياة من غلاء الأسعار وقلة السلع وخفة أوزان الدنانير والدراهم . وبعد فإنى أشهد لك بالعلم فى كل شيء ، والبراعة فى كل مناحى الفكر ، وأعرف عنك الذكاء والكياسة وكل ما ينبغى أن يكون فى السياسى الإدارى الألمعى .

ولكن شيئا واحدا أجرؤ على أن أجرحك فيه ، ولا أشهدلك بالمقدرة عليه ، وهو إدراك حقيقة مايقاسيه الرجل صاحب الأسرة الذى يسكن فى بيت مستأجر يملكه رجل من أصحاب الأموال الذين لايترددون فى سلوك كل الطرق التى تؤدى إلى حسن استغلال ما يملكون .

والسبب الذى يدفعنى إلى أن أجحد عليك هذه الناحية من المعرفة هو أنى أعتقد أنك نشأت بحمد الله فى بيت تملكه الأسرة ثم تنقلت إلى بيوت أخرى ورثتها أو ملكتها ، وأسأل الله أن يزيدك من فضله ويتم عليك نعمته ، وليس هذا النقص الذى أزعمه فيك مما ينقص من قدرك ، لأن قدر الإنسان لا ينقص بالطبع إذا هو ملك البيوت أو ورثها عن الآباء ، وقد ينقص المرء فى تجربة بعض شئون الحياة ومع ذلك يكون كاملا ممتازا ، بل قد يكون نقص بعض التجربة عاملا على زيادة الكمال والعافية .

وخلاصة القول أنى أستطيع أن أخبرك عن شيء لا تعرفه ؛ فأنا — بحمد الله أيضا — أعرف كل المعرفة ماذا يحس الانسان الذى يسكن فى البيت المستأجر .

وسأقص عليك بعض أنباء ما عرفته فى أثناء هذه السنوات السوداء التى مرت على العالم منذ حين ، ولا تزال تجثم فوقه بكلكلها الثقيل .

كنت منذ سنوات أسكن فى بيت ظريف كان يعجبنى ويعجب أبنائى ، وكانت أجرته كذلك ظريفة لا أحس ثقل وطأتها ، وقد اتفقت مع المالك على تلك الأجرة عن تراض وتسامح ، وكنت أؤديها له كل شهر فى يسر ، وكان يقبضها منى فى سرور ، والمجاملة بيننا سجال ، والمعروف بيننا ضارب أطنابه .

ثم قامت الحرب على ساق ومر عليها عام بعد عام وعزت المساكن ، وجاء الأمريكان من وراء البحار يبذلون الدنانير الكثيرة فى أجر الحجرات القليلة ، وسرت العدوى إلى المالكين فأخذوا يحتالون على المستأجرين للاستزادة من الأجور ، إلى أن سن القانون الذى يبيح إخراج الساكن من مسكنه إذا أراد المالك أن يقيم فيه بأسرته .

فإذا بى أجد فى يوم من الأيام أن المالك قد أرسل إلى إنذاراً أنه قد استكشف أنه فى أشد الحاجة إلى منزله ، وأنه إذا لم يخرجنى منه بالرضا أخرجنى منه بحكم القضاء .

ولست أستطيع أن أصور لك يا دولة الرئيس ما أحسست به عند ذلك ، ولو كنت مثلى رجلا ذا أسرة تسكن فى بيت مستأجر وجاءك مثل هذا الإنذار لعرفت ما أحسست به عند ذلك بغير أن أصوره . فقد شعرت كأنى أحمل أثاث بيتى على ظهرى وأسير فى الطريق وأبنائى يسيرون من ورائى نبحث عن مكان آ نتوارى فيه .

ولا أحب أن أطول عليك ، فقد استطعت أن أبحث

وأن أجد بيتا وأن أرضى مالكه وأبذل له ما شاء من الأجر حتى رضى ، ثم انتقلت إلى الدار الجديدة وقلت إن الله قد كفى المؤمنين القتال .

ولكني ما كدت أستقر بضعة أشهر حتى استكشف المالك الجديد أنه قد احتاج إلى منزله الذي كان قد رضى بتأجيره إلى بما شاء من أجرة . فجاء إلى باسما وطلب إلى أن أتكرم عليه بإخلاء منزله . ولولا أنني ممن يحرصون على التمسك بأهداب السلام ويخضعون لأحكام القوانين ، ولولا أنني لست من المصارعين أو الملاكمين لقمت إليه وأظهرت له غضبة وحشية . ولكني والحمد لله ممن تعودوا المسالمة والتمسك بالقوانين ، فتبسمت له وأخذت أتوسل إلى عطفه حتى تمكنت من أن أصرفه عنى راضيا بعد أن بذلت له ما شاء من زيادة في الأجرة .

ولسوء حظى باع هذا المالك بيته إلى رجل آخر فما كاد المالك الجديد يتسلم عقد الإيجار حتى استكشف أنه في حاجة إلى منزله لكي يقيم فيه ، وجاء إلى باسما فأعاد سيرة المالك السابق ، وأعدت له سيرتي في المرة الأولى ، وهكذا استمرت الحال بيني وبين كل مالك جديد وما أكثر البيع والشراء بين أصحاب الدنانير من تجار الحديد والمسامير وباعة السمك والسنانير وصناع العدد و (البوابير) وأصحاب مخازن المقاقير ، من كل بتكبير وتكبير . وما كدت أستقر على حال بعد كل هذا حتى طلع على القانون الجديد الذي سنته الحكومة في عهدك يادولة الرئيس ، فإذا به يبيح المالك أن يطلب منزله لنفسه إذا شاء أو لأبنائه أو أبناء أبنائه أو آبائه أو آباء آبائه أو إخوته أو ما يمكن أن يلبس ثوب أحد من أولئك جميعاً ، فما عليه إلا أن يزعم زعمه ثم يمضى أمره ، فإذا بالساكن المسكين يضطر اضطرارا بحكم القضاء أن يجمع أثاثه فوق ظهره ويدعو أبناءه للسير وراءه لكي يدور بين الطرقات باحثا من ملجأ يلقى فيه أثاثه ويتستر بين جدرانه ؛ هذا هو الإحساس الذي يحسه أمثالي من المستأجرين ويعرفونه حق المعرفة ويشعرون به شعورا مرا يقض المضاجع ويطعن القلوب . هذا هو الإحساس الذي لا تعرفه أنت يادولة الرئيس والذي أعرفه أنا وأستطيع أن أصفه لك وأنا أسأل الله الستر والسلام .

ولو كان القانون يجعل لكل فرد من الأفراد عددا مقدورا من المرات يباح للملاك أن يقذفوه فيها من منازلهم فإذا وفاها أبيح له الاستقرار في مسكنه لكان الأمر محتملا ، لأنه يستطيع أن يستسلم لقضاء الله فيما حكم به من مرات التشريد ثم يأمل بعد ذلك أن يستقر في كسر بيته حتى تنفرج الأزمة الطاحنة . ولكن القانون لم يفعل هذا ، بل ترك الأمر مفتوحا على مصراعيه ، فالمستأجر مهدد بأن يخرج من دار بعد دار وهو في كل مرة لا يكاد يستقر في داره حتى يطرد منها متى بدا المالك أن يطرده . ومن سوء الحظ أن الملاك قوم لهم أبناء وآباء ولهم إخوة وأقرباء ، وقد يتزوج البنات والبنون ، وقد يحلو الانتقال للآباء والأمهات ، والمستأجر في كل ذلك مهدد بالتشريد والبحث عن مسكن جديد . ولو كانت المساكن سلعا في الأسواق لكان من اليسير البحث عنها ، ولكنها غير موجودة وإذا وجدت كانت مبنية (بطوب) من ذهب وفضة . فما الذي يفعله أمثالي يا دولة الرئيس في مثل هذه المضايق وكيف يخرجون من تلك المآزق ؟

أما أنا فإني لم أجد حيلة في هذا الخطر الذي يزعجني إلا أن أكون مالكا وأمرى لله حتى أخرج من بين زمرة المستأجرين المساكين . وليست أمامي إلا صعوبة واحدة وهو ثمن البيت يادولة الرئيس . وليست هذه الصعوبة بالمسألة التي تستعصى على ذكائك ، فهل تجد لي وسيلة لتذليل هذه الصعوبة الصغيرة ؟ أليس هذا سؤالا صغيرا ؟

محمد فريد أبو حديد

العقـــدة

تحدثنا في كلمة الأسبوع الماضي عن (الشعور) و(اللاشعور) أو عن (العقل الواعي) و(العقل الباطن) — وبينا أهمية كل منطقة من هاتين المنطقتين في عملية التفكير الإنساني. وذكرنا ما مؤداه أن (الشعور) ليس إلا المنطقة السطحية في عملية التفكير. أما معظم دوافع التفكير البشري، وأهم الأسس التي تتحكم في سلوك المرء وتصرفاته، فمرده إلى (اللاشعور) — تلك الخزانة الهائلة التي يحتفظ الإنسان فيها على غير وعي منه بكل غرائزه وذكرياته وتجاربه، مما دعا (فرويد) — واضع علم النفس الحديث — إلى القول بأن (العقل الباطن) هو أصل كل نزوع نفسي. أي أنه هو الذي يوجه الإنسان في تصرفاته وأن بواعثه هي التي تتحكم في سلوكه.

وضربنا الأمثال لإيضاح هذا الرأي فقلنا إن شواغل النفس التي لا يقوى الإنسان على مواجهتها جهاراً ينحيها من طريقه جانباً. فيتشاغل عنها، ويتناساها، هرباً منها. ويتخيل أنه بذلك قد تخلص من هذه الشواغل. غير أنها تظل قائمة ساكنة في قرارة (عقله الباطن) تتحين الفرص للإعراب عن نفسها. وذلك بالهتاف هتافاً خفياً متواصلاً في أذن صاحبها بأن يأتي من الأعمال ما فيه راحتها وإشباعها. وأن يكف عن الأعمال التي لا توائمها ولا تجد راحة فيها. وعلى ضوء هذه الحقيقة العلمية أمكننا تفسير كثير من تصرفاتنا التي تصدر في الظاهر عن غير وعي منا، أو بغير إرادتنا. فإن هذه التصرفات ليست في الواقع إلا صدى واضحاً لتلك الأصوات الحبيسة التي نكتمها في أعماق نفوسنا. نحاول دفنها هناك والتخلص من سماع نباحها المزعج!

* * *

أنظر مثلا إلى ذلك الرجل المهذب الذي جلس إلى مائدة الطعام في وليمة جامعة. فجلس تجاهه زميل له، كان هو لا يطيق في قرارة نفسه أن يراه أو يجالسه لأنه يكرهه بسبب إهانة بالغة لحقته منه. ولكن للمجتمع آدابه وتقاليده وللحياة أوضاعها وضروراتها. فهو لذلك يرى في زميله هذا صورة العدو الذي قال عنه الشاعر إنه ما من صداقته بد. فيجالسه ويطاعمه ويحادثه ويسائله ويستجيب له. وهو في كل ذلك يتبع نداء (العقل الواعي) الذي يدعوه إلى نسيان إساءات زميله إليه، والتغاضي عنها، وصرف النظر عن الثأر لنفسه منه. إما لأنه لا يقوى على ذلك أو لأنه يخشى مغبة مثل هذا التصرف على نفسه. كل ذلك نتيجة تدبير (العقل الواعي) وتفكيره. أما (العقل الباطن) فإنه لا يفهم هذا المنطق. ولا يعرف عن العداوة إلا أنها شعور يبتغي الافصاح منه فوراً، بالعمل على تحطيم العدو وإزالته جملة واحدة من الطريق. ويلاحظ الإنسان أن هذا هو أسلوب التفكير البدائي الهمجي الذي لم تصقله الحياة الاجتماعية الراقية، باصطناع الملاينة والمجاملة والمداراة، حتى تستقيم بين الناس طرائق المعيشة، وحتى يدوم بينهم ذلك التعاون اللازم للحياة المستقرة. ولكن انظر بعد ذلك إلى هذا الزميل وهو يطلب إلى صاحبنا في أدب وابتسام أن يتفضل بمناولته ملعقة مثلا مما يتوفر أمامه. والعجب من أن صاحبنا يسرع في أدب جم وابتسامة عريضة إلى أقرب سكين فيتناولها ويقدمها على غير وعي منه إلى زميله. وهو لا يحس بأن (عقله الباطن) قد غلبه. وكشف عن مكنونات نفسه حين دفعه دفعاً إلى تقديم هذه السكين بدلا من الملعقة المطلوبة. والتفسير واضح ظاهر: فإنه مهما يكن من يقظة العقل الواعي. ومهما تكن قوة تماسكه. ومهما يكن مبلغ تأثره بآداب المجتمع وأوضاعه، فإن من ورائه تلك القوة الطاغية الأخرى، قوة (اللاشعور) أو العقل الباطن، تلك القوة الجبارة المتربصة الحبيسة التي لا تفتأ تدور في مجاهل النفس حول نفسها تتحسس منفذا تنفذ منه إلى

طاس الحياة ، حتى إذا سنحت سانحة لم تتردد فى إثبات وجودها ، والتنفيس عن مكنوناتها . . . وصاحبنا الذى نظر إليه فى هذا المثال يسر العداوة لزميله الذى جمعت بينه وبينه هذه المأدبة . ويود فيما بينه وبين نفسه لو استطاع أن يتخلص منه ويقضى عليه . ولكن هذه الخاطرة ليست مما يسيغه المجتمع المتحضر ، ولا هى من أساليب الحياة الراقية ، تمقتها التقاليد ، ويعاقب عليها القانون ، ويخجل منها المواطن الصالح . ولكل ذلك هو ينفر من هذا الخاطر ، ويشيح بوجهه عنه ، ويذوده من عقله الواعى بيديه . ولكن نظراً لأن الإنسان لا يتخلص من رغباته وميوله وغرائزه بمثل هذه السهولة ، فإن هذا الخاطر يرسب فى قرارة (اللاشعور) ويقبع فى ذلك الجب الذى يعج بكل مخوف مرعوب من نوازع النفس وميولها ، أو بكل ممقوت مرذول من خوالجها . فإذا حان الحين وأتيحت الفرصة ، برز من مكمنه ، ووثب من كهفه المظلم على غير وعى من صاحبه ، فوضع السكين فى يده بدلا من الملعقة ، كأنما يريد أن يقول له : إن هذه السكين هى ما يجب أن تقدمه لهذا الزميل المكروه المرذول ! فأجهز بها عليه بدلا من أن تضع نفسك فى خدمته فتقدم له ما يريد .

* * *

ذلك أثر من آثار (اللاشعور) فى عمل (الشعور) . وقد رأينا فى هذا المثال أن التعبير الذى اصطفاه (اللاشعور) كان تعبيرا ماديا واضحا . اعتاد الناس أن يسموه — تأدبا منهم أو جهلا بحقيقته — (سهوا) أو (خطأ غير مقصود) فى حين أنه فى الواقع هو عين المقصود وجوهره . على أن النكبة الحقيقية تأتى عندما تنزوى إحدى الرغبات المكظومة فى غياهب النفس تحت ضغط شديد من وعى صاحبها . لأن التنفيس عن مثل تلك الرغبات يلطف حدتها . ويذهب بخشونتها . أما كبتها والتشدد فى إخفائها فإنه يكسبها عنفا وضراوة لا قبل للإنسان باحتمالها . فتبقى تلك الرغبات الحبيسة فى باطن النفس ، لترسل حممها من حين إلى حين عن طريق سلوك الإنسان وتصرفاته الظاهرة ، أو لتتخذ للتعبير عن وجودها صيغة رمزية قد تتشكل فى شكل علة من العلل ، تستطيع تلك الرغبات بواسطتها أن تحقق شيئا من أغراضها . وعندما تنعقد حالة الإنسان على هذه الصورة يقال عنه إنه قد انعقدت فى نفسه (عقدة) وإنه أصبح لابد لحل هذه (العقدة) من الوصول إلى منطقة (اللاشعور) والتنقيب فى مكنوناتها وبين محتوياتها عن تلك الرغبة الحبيسة التى تطورت إلى (عقدة) . ثم الخروج بها إلى منطقة الشعور لكشفها أمام (العقل الواعى) كيما ينفضح سرها ، ويبطل سحرها . وتسمى هذه العملية فى علم النفس الحديث بعملية (التحليل النفسى) .

* * *

زعموا أن أديبا كبيرا من كبار أدبائنا وشعرائنا كان إذا حل عليه المساء ، وغاب نور الشمس ، أدركه انقباض شديد تضيق له نفسه ولا تهدأ حتى يقوم فيسير فى الطرقات هائما على وجهه ساعة أو بعض ساعة ، ثم يعود إليه هدوؤه رويدا رويدا حتى تستقر حاله ، ويملك زمام نفسه من جديد . فيجالس أصحابه ويحادثهم ويسمر معهم . ويداعب ويتفكه كما لو لم يكن به شىء منذ ساعة من الزمان . وكان لا يعرف هو لذلك تعليلا . ولا يستطيع أن يفهم له سببا معقولا . وبقى على حاله هذه حتى أدركته الشيخوخة . ثم حدث أن جلس يوما فتذاكر مع بعض إخوان الطفولة أنه كان وهو صبى صغير قد خرج معهم فى عصر أحد الأيام يلعب ويرتع . وأنهم ذهبوا به بعيدا عن منزله . ثم لما فرغوا من لهوهم ، انصرف كل واحد منهم إلى أهله . وتركوه وحده ليعود كذلك إلى منزله . ولكنه لم يستطع أن يعود وحده لعدم معرفته الطريق . ولبعد المكان الذى كانوا فيه عن المنزل الذى كان يسكنه — وأنه أدركه الغروب وهو فى حيرته تلك . وشمل المدينة الظلام وهو

لا يزال يضرب فى طرقاتها على غير هدى . فجزعت نفسه وداخله الوهم . وأحس بأن شياطين الإنس والجن تريد أن تتخطفه . واعتقد أنه ضائع لا محالة . وأنه لا سبيل له إلى لقاء أهله فى ذلك اليوم أو إلى الأبد . واقترنت هذه المخاوف كلها فى نفسه بساعة الغروب وغياب الشمس . وعلى الرغم من أن الله أدركه برحمته بعد ذلك بقليل فألقى فى طريقه من يعرفه ويعود به سالما إلى داره ، إلا أنه ظل بقية عمره لا تنزل به هذه الساعة من النهار حتى يصيبه مس من ذلك الضيق الذى ملأ نفسه فى ذلك المساء الأغبر الملعون !

وكان تفسير هذه الظاهرة عند من عرفوها أن عاطفتين اشتركتا فى نفس هذا الأديب : العاطفة الأولى هى عاطفة الخوف الذى اعتراه فى ذلك المساء بسبب بقائه وحيداً فى الطريق وعدم قدرته على العودة وحده إلى داره . والعاطفة الثانية هى إحساسه بأن هذا الخوف لم يكن له ما يبرره . وأن المجتمع ينظر إلى صاحبه نظرة زراية واستخفاف . وقد رأى صاحبنا بعقله الواعى أن يتجاهل ذلك الخوف ويتناساه حتى لا يعرض نفسه لزراية الناس واستخفافهم . وانقطعت الصلة بعد ذلك بين عقله الواعى وبين ذلك الحادث . وحسب أنه تخلص إلى الأبد من ذكراه . فى حين أن (اللاشعور) الذى لا تفلت من قبضته صغيرة ولا كبيرة مما يلقاه الإنسان فى هذه الحياة ، ظل متشبثا بتلك الذكرى يطلقها عليه فى حينها عندما يأتى المساء كل يوم ، كما تنطلق الأشعة السينية الخفية من قطعة من الراديوم !

* * *

وفى مرة أخرى أصيب موظف صغير حديث السن بشلل فى ذراعه أعيا الأطباء أن يقفوا له على سبب أو أن يوفقوا إلى طريقة لعلاجه . وظل هذا الموظف التعس على حاله تلك إلى أن تهيأت له الأسباب للاتصال بمن كان على علم صحيح بأصول (التحليل النفسى) . فعرف من مناقشته والتحدث معه أنه فى اليوم الذى نزلت به تلك الكارثة كان قد اختلف مع رئيسه فى العمل خلافا شديدا . وأن هذا الرئيس كان قد استغل مكانته فى ذلك الحادث ، فأطلق لسانه بالكلام القارص الجارح الذى لم يملك الموظف أن يرد عليه بمثله . وأنه فى سورة غضبه حدثته نفسه بأن يرفع يده ليلطم بها وجه رئيسه . ولكن منعه من ذلك ما كان يخشاه على نفسه وعلى مستقبله من أعقاب تلك اللطمة . فعاد إلى منزله مهموما كئيبا ونام ليلته حزينا تعسا . ثم استيقظ فى اليوم التالى وذراعه مفلوجة بهذا الشلل الذى أصابه . وكان التفسير النفسى لهذا الحادث أنه حين وقع الصراع فى نفس هذا الموظف بين الرغبة فى الانتقام لكرامته من رئيسه الذى ألحق به تلك الإهانات البالغة وبين إحساسه بالخطر الشديد الذى يتهدد مستقبله إذا هو رد تلك الإهانات بمثلها ، لم ير بدا من تغليب سلامة مستقبله على رغبته فى الانتقام . ولكن هذا التقدير إن كان يريح (العقل الواعى) فهو لا يتفق مع مذهب (العقل الباطن) الذى يأبى إلا أن يأخذ الأمور بنواصيها . وإلا أن يأتيها من وجهها لا يداورها ولا يحاورها . فلما آثر صاحبه السلامة على الانتقام ، انزوت عاطفة الانتقام فى حناياه . وتكونت منها تلك (العقدة) التى رمز لها (اللاشعور) بذلك الشلل ليدل به على أن صاحبه أراد أمراً لم يقو على تنفيذه . ومن عجائب (التحليل النفسى) أن ذلك الموظف لم يكد يقف على هذا التفسير حتى انفرجت أزمته . وأخذت حاله تتحسن إلى أن ذهبت عنه نهائيا آثار ذلك الفالج المبكر !

* * *

والخلاصة أن جوارح الإنسان الظاهرة لا تعمل شيئاً إذا قيست بقواه الخفية . وأن من ضمن تلك القوى الخفية (العقل الباطن أو اللاشعور) وهو ذلك المستودع الهائل الذى تتجمع فيه الرغبات المكظومة ، والغرائز الحيوانية الضارة التى لا يرتضيها المجتمع ، والمخاوف الكثيرة التى

يحاول أن يهرب منهـا الإنسان بتناسيها ، فتأبى إلا أن تفلت إلى عقله الواعي . وتنساب إلى ظاهر حياته في صورة ذلك (السهو) أو (الخطأ غير المقصود) ، أو في صورة تلك (الأحلام) التي تملأ نومه بالصور الرمزية أو القصص الملفقة التي من شأنها أن تخفف من تلك العواطف المكظومة بعض ما تعانيه في مكمنها من الضغط . فإذا ما اشتد كظمها واستفحل الصراع النفسي بينها وبين منطق العقل الواعي ، انفصلت من الشعور ، واستقرت في اللاشعور لتتحول إلى (عقدة) تنغص على صاحبها حياته من حيث يدري ولا يدري .

ويحسن بنا أن نختم هذا الحديث بحالة كانت من الحالات الأولى التي عرضت على (فرويد) لعلاجها على أنها حالة جسمانية مستعصية وربما كان في طريقة (التحليل النفسي) مخلص منها . . .

كانت الحالة حالة فتاة ألمانية مصابة بالهستريا ، وبهـا شلل خفيف في بعض أطراف جسمها ، ولكن أغرب ما كانت تشكوه كان خوفها من المـاء خوفاً بلغ بها إلى حد أنها كادت تفقد القدرة على الشرب مما هدد حياتها بالخطر . فلما يئس منها رجال الطب المادي عرض أمرها على فرويد . فشرع في بحث حالتها على طريقته الخاصة . وهي التنقيب في اللاشعور عما قد يكون مصدراً لمثل هذه المتاعب . وبعد عدة جلسات تمكن فيها من محاورة الفتاة ، والوقوف منها على بعض شئونها وذكرياتها القديمة ، استطاعت الفتاة أن تتذكر أنها كانت لها مربية انجليزية صارمة ، وأنها كانت معها ذات يوم في حديقة منزلها ، فلمـا فرغت من لعبها ولهوها جلست لتستريح ، وكان بها عطش شديد ، فأعطتها مربيتها كوبا من الماء . جزعت الفتاة عند تناوله . وأدركها منه تقزز شديد ، لأنها كانت قد شاهدت قبل ذلك بلحظة كلبا قذرا يولج فمه فيـه ويلغ من مائه . غير أنها خافت أن تذكر ذلك لمربيتها لأنهـا كانت معها من الصرامة والقسوة بحيث لم تكن تجرؤ على مخالفة أمرها في أي شأن من شئونها جل أم قل ، وتناولت منها الكوب متأففة متألمة ، ثم تجرعته على مضض ، ومنذ ذلك الحين طرأت عليها بعض تلك التطورات التي انتهت بالحالة التي جاءت لتلتمس علاجها . والتي لم يكن ليفطن أحد إلى الصلة التي بينها وبين ذلك الحادث المشئوم القديم .

ولم تكد تفرغ الفتاة من قصتها ، وتستعيد في خلال ذلك انفعالاتها السابقة من كره ، وتقزز ، وخوف ، وما إلى ذلك من باقي الملابسات التي صحبت تلك الحادثة حتى انشرحت نفسها ، وطلبت كوبا من المـاء ، وأقبلت عليه تشربه بشراهة شديدة ، ذلك لأن العقدة انحلت بمجرد أن نجح فرويد في جذبهـا من قرارة (اللاشعور) إلى منطقة (الشعور) . وكانت هـذه العقدة — كالعادة — نتيجة صراع نفسي بين عاطفتين متنافرتين ، هما خوف الفتاة من مربيتها . . . وتقززها في نفس الوقت من الكوب الذي ولغ الكلب فيه . فلما غلبت طاعة المربية عندها على نفورها من الماء . وانتهت المعركة في الظاهر بشرب الكوب ، بقي الاحساس بالتقزز كامنا في (اللاشعور) وانعقدت له تلك (العقدة) التي كان من مظاهرها عـدم القدرة على شرب الماء إطلاقاً .

* * *

أما بعد ، فأي طائر هذا الذي ألزمه الله لنا في أعناقنا ؟! وأي رقيب عتيد هـذا اللاشعور الذي لا يترك لنا كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ؟! وإذا كانت لمحة واحدة من لمحات العلم كشفت لنا عن كل هذه الخبايا ، فما أسهل أن يفهم الإنسان بعد ذلك قوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » .

ورحم الله من يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

عيسى متولي

متزيـــنى

– ٧ –

اخفاق ثورة ميلان — الجمهورية الرومانية

سرت متزينى أنباء ثورة ميلان ، وأججت حماسته ، فأسرع فى العودة إلى إيطاليا دون تردد مستهدفاً لخطر القبض عليه ومحاكمته ، وكان الموظفون الرسميون معنيين بالبحث عنه ومراقبته ومراقبة قدومه ، وكان مع ذلك يجاذبهم الحديث وهو يشعل السيجارة بغير اكتراث ، تخدعهم ثبات جنانه وحضور خاطره وبراعة حديثه عن حقيقته ، وكانوا فى بعض الأحيان يعتذرون إليه ، ويعزون تدقيقهم فى البحث والتحرى إلى خوفهم من الناس الرهيب متزينى ، وكان هذا الهدوء والاتزان وعدم المبالاة بالأخطار ينفعه أكثر مما ينفعه التنكر والتخفى ، ولذا كان قليلا ما يلجأ إليهما .

وقد وصل ميلان بعد منتصف الليل واستقبل استقبالا حماسيا عند أبواب المدينة ، وأوصله موكب من حملة المشاعل إلى الفندق الذى نزل به ، وكان أهل ميلان قد طردوا النمساويين ، واضطروا القائد رادتزكى إلى الانسحاب والتقهقر ، وكان مصير إيطاليا معلقا بيد القدر ، فلو جاء قائد قوى شجاع بعيد النظر واسع الفكر خصب القريحة لتولى القيادة وأدار الأمور وأفاد من الموقف ؛ ولكن الضعف والتردد والانقسام والتخاذل وقصور النظر وضيق الأفق كان طابع المجلس الاستشارى الذى كان يصرف الأمور فى ميلان ، وكان أكثر رجال حكومتها المؤقتة من حزب المعتدلين وكانوا فى حاجة ماسة إلى رجل قوى الإيمان ماضى العزم مجتمع الرأى .

وأحسن متزينى السياسة ، وأجاد فهم الموقف ، ونادى بوجوب الهدنة بين الأحزاب والمبادئ المتنافرة ما دامت الحرب قائمة ، وأن الحزب الملكى والحزب الجمهورى يجب أن يكفا عن الصراع لتكون البلاد جبهة واحدة ، وعلى الأحزاب أن تنتظر بعد ذلك حكم الأمة الموحدة المحررة ، ويجب أن تحشد قوى الأمة جميعها لقتال العدو . وكانت أعمال متزينى مصدقة لكلامه مطابقة لبرنامجه ، فقد عاون الحكومة المؤقتة ، ولم يشجع الجمهوريين ، وبذل جهده فى تشجيع التطوع والترحيب بالمتطوعين ، ونصح بإرسال المتطوعين إلى حماية خط مواصلات العدو فى فينيتيا ، وكانت خطته أصح وأدل على بعد النظر من الخطة التى جعلت الجيش النظامى والسياسيين المعتدلين يقللان من قيمة المتطوعين ، لأنهما كانا يخشيان النزعة الجمهورية ؛ ومن سخافة المعتدلين فى هذه الحرب التى لم يكن فيها بين رجال الجيش قائد بارز موهوب أنهم رفضوا خدمات رجل محارب مجرب مثل غاريبالدى .

وكان شارل ألبرت قد تحرك على رأس جيشه ، ويقال إن حب الحرية لم يكن فى طليعة بواعثه على مساعدة ميلان ، وإنما كان باعثه المحافظة على كيان النظام الملكى فى إيطاليا ، فقد خشى إن تقاعد عن مناصرة ميلان أن يتولى الشعب الإيطالى تحرير نفسه ، وهذا ما حداه إلى شهر الحرب على النمسا ، وقد نصحه المعتدلون بتولى زمام الحركة

واستدعى شارل ألبرت المتطوعين الذين أرسلوا إلى ممرات جبال الألب لحمايتها ، وكان لذلك أثره السيئ ونتيجته القاضية ، فقد استطاع رادتزكى أن يعيد بعد ذلك خطوط مواصلاته وحصل على الأمداد اللازمة ، وكانت سياسة المعتدلين قائمة على الخوف من انتقال السلطة إلى الشعب ، يحذرونه أكثر مما يخافون النمساويين ، وكانت عقيدتهم الراسخة أن الخلاص متوقف على الملك شارل ألبرت وجيش بيدمونت دون معاونة الشعب ، وأضاع شارل ألبرت الفرص التى سنحت له بتردده وتوجسه وارتيابه بالحركة الشعبية ، وهكذا فإن ميوله رأى الملك وعجز القواد

وانقسام الرأى وفساد النيات هدم ما بناه أهل ميلان وأضاع فرصة الاستقلال والوحدة ، وكان العجز والحمق وسوء التدبير هو طابع الحملة من أول أمرها .

وظهرت فكرة ضم لومباردى إلى بيدمونت ، وأرسل الملك إلى متزينى يعده الوعود ويمنيه الأمانى إذا أقر الفكرة وأيدها بنفوذه ، فأرسل إليه متزينى يخبره أن الوحدة الإيطالية هى غاية حياته وأنه من أجل تحقيق هذه الغاية يتنازل عن كل الأمور الصغيرة . ولما كانت محاربة النمسا هى المسألة الهامة ، ولما كان كذلك يعرف أن توسيع حدود بيدمونت يعطى الأمراء الآخرين حجة المنافسة والغيرة وترك الفكرة القومية ؛ فلهذه الأسباب جميعها يرى أن الطريقة الوحيدة المجدية هى جعل الحرب بين بيدمونت والنمسا حربا عامة لتحرير إيطاليا جميعها ؛ ولم يرق هذا الرأى بطبيعة الحال للملك شارل ألبرت فرفضه ، وكان مطلب متزينى مطلبا كبيرا ، والطلب الكبير يستدعى وجود الرجل الكبير لينهض به ، ولم يكن شارل ألبرت من كبار الرجال وقادة الأمم ، وإنما كان رجلا حمله التيار وفرضت عليه الحوادث الظهور والقيادة ، وأخذ المتملقون يضغطون على الشعب ليوافق على انضمام لومباردى إلى بيدمونت ، وقيل للشعب إنه لو تم امتزاج لومبارديا وبيدمونت فإن موارد بيدمونت من المال والرجال ستكون جميعها رهنا بحماية ميلان وتحررها . وكان النمساويون حينذاك قد بدأوا ينتصرون فى كل مكان وتراجع أمامهم الجيش الملكى ، واستماتت المتملقون وقد دب إليهم اليأس عن إنقاذ الموقف ، فأعد العدة للدفاع عن المدينة ، ولكن رسل الملك جاءوا وأذاعوا أن الملك قادم لحماية المدينة ، ومن الإهانة لجيوشه محاولة الأهالى الدفاع عن مدينتهم . وأدرك متزينى الموقف باعث على اليأس فترك المدينة وانضم إلى فرقة غريبالدى فى برجامو ، وأبدى جلدا وشجاعة وصبرا فى احتمال المشاق والصعاب والأخطار التى تعرضت لها هذه الفرقة .

وفى اليوم التالى دخل الملك ميلان وأعلن أنه جاء للدفاع عنها ، وذلك فى الوقت الذى كان قد اعتمد وثيقة التسليم لرادتزكى ، وكان تسليم ميلان تمهيدا لتمكين الجيش البيدمونتى من الانسحاب من المدينة ، وعاد النمساويون إلى ميلان ظافرين وصبوا على أهلها العذاب وأذاقوهم الويل .

ولما تجاوزت فرقة المتطوعين الحدود تفرق شملها ، وانسحب الجيش إلى بيدمونت وأمضى الملك الهدنة ، ولم يقبل متزينى الاعتراف بالهزيمة ، وكان يرى أن الحرب التى تولى قيادتها الأمراء قد أخفقت لينهض الشعب بالعبء ، ورأى بعد التدبر والتفكير أن ميدان عمله هو إيطاليا الوسطى ، لأنه يستطيع أن يستعمل نفوذه فى فلورنس وروما لمباشرة الاستعدادات الحربية ، وكانت الديمقراطية منتصرة فى روما وتسكانى ، فقد فر البابا من مستقره ، ومكنه الملك فرديناند — ملك نابولى — من الاختفاء بحصن جيتا ، وكان الرومانيون متجهين إلى النظام الجمهورى . وأسرع متزينى إلى مرسليا وأبحر منها إلى ليجورن ، وكان دوق فلورنس قد هرب ، واستغل متزينى نفوذه ليكبح من جماح غضب الشعب وهجومه على أملاك الدوق ، وترك متزينى تسكانى بعد محاولات عقيمة لضمها إلى الولايات البابوية وجعلها تتأهب للحرب ، وتوجه إلى روما .

وكان متزينى يغرى أهل روما بالأخذ بالنظام الجمهورى منذ تركهم البابا ، وقد أوضح لهم أن البابا فى الواقع قد تنازل عن سلطانه ومهد لهم بذلك سبيل الجمهورية ، وأن هذه الجمهورية التى تقوم فى روما قد تمد سلطانها ويعظم نفوذها حتى تشمل إيطاليا جميعها . وقد أعلنت الجمهورية فى روما ، وكان لنصائح متزينى أثرها فى ذلك وإن لم تكن هى بطبيعة الحال السبب الوحيد ، فقد كان ضغط الظروف هو العنصر الفعال فى الموقف ، وقد دعت الجمهورية الرومانية متزينى فى اليوم الرابع من تأسيسها فوصلها فى مساء اليوم الخامس من مارس ، ودخل المدينة خلسة دون أن يلاحظه

أحد ، وكانت الفكرة المالئة لنفسه هي التأهب للحرب الوشكية الوقوع ، وقد كانت بيدمونت غير قائمة بالهزيمة ، وقد سامتها القسوة التي عامل بها النمساويون سكان اللومباردى وكانت تهم بنقض الهدنة ، وكان هناك استعداد للثورة في مدن لومبارديا ، ومن واجب روما الجمهورية في مثل هذا الموقف أن لا تتخلف عن الصفوف ، وقد جملها متزيني تقدم عشرة آلاف رجل ، وبينما كانوا على أهبة السير إلى الشمال جاءت الأنباء بهزيمة جيش بيدمونت في معركة نوفارا ، وبذلك قضى على الأمل في تحرير لومبارديا .

وكان الموقف حينذاك يستدعى العمل على إنقاذ إيطاليا الوسطى ، وقد اتجهت أنظار الرومانيين إلى الرجل الذي ظفر باحترامهم وتقديرهم والذي استطاع بقوة شخصيته الساحرة أن يرتفع بهم إلى مستواه الأخلاقي ، وقد وقع عليه الاختيار ليكون أحد الثلاثة الذين يصرفون أعنة الحكم . والواقع أنه أصبح صاحب الكلمة العليا والرأى الفاصل ، على أن متزيني كان ضعيف الأمل في إنقاذ الجمهورية ، وقد أفضى بمخاوفه إلى بعض أصدقائه من الأجانب ، ولم تكن الحالة تبعث على اليأس بعد ، ولم يكن متزيني يحفل أهل نابولى ، ولم يكن يتوقع أن تقدم فرنسا على العمل الخسيس الذي قامت به بعد ذلك ، وكان الخطر الوحيد الذي يخشاه هو الجيش النمساوى ، وكان في نية متزيني أن يضاعف الجيش الرومانى وينقض به على خطوط مواصلات النمساويين الطويلة وهم يتقدمون على امتداد الساحل الشرقي .

ولم يصرفه ما بذله من الجهد في الاستعداد للحرب عن جعل حكومة الجمهورية حكومة أعوذجية ، فقد حاول أن يوحد غرض الحكومة والشعب بحيث لا يكون هناك مجال لظهور الروح الحزبية أو سوء الظن ، فلم يكن في حكومته جبروت ولا عنف ولا تعصب ولا محاباة ، وكان شعاره التشدد في المبادىء والاعتدال مع الأفراد ، ولم ينحرف عن ذلك حتى في إبان تعقد الأزمات واشتداد الكرب ، وقد ترك للصحافة حريتها ، وكان يغضى عن المتآمرين على حكومته ويكتفي بتحذيرهم تحذيراً ليناً ، وكان لذلك أثره في عجز الحكومة عن القضاء على عناصر الفوضى ، ولكن الأمن بوجه عام كان مستتباً شاملا للصديق والعدو ، وكانت سلطة متزيني الهينة المعتدلة تختلف كل الاختلاف عن طريقة الإرهاب البابوى الذي طالما أنزل الويل بتلك البلاد ، وأحسن متزيني معاملة رجال الدين وترفق بهم وحاول أن يجتذبهم إلى صفه ، وأن يتفق مع البابا على أن يكتفي البابا بالسلطة الروحية ، وكانت حياة متزيني في تلك الفترة حياة دمقراطية بسيطة ، فكان يقيم في حجرة واحدة ولا يتخذ له حرساً في بلاد اشتهرت بكثرة الجرائم السياسية والاغتيال السياسى ، ويتناول غداءه في مطعم متواضع وكانت ملهاته الوحيدة العزف على قيثارته والغناء إذا ما خلا بنفسه في الليل ، وكان يصرف له مرتب شهرى قيمته اثنان وثلاثون جنيها ، وكان ينفق أكثرها على الغير . أما إدارته فكانت من اللين والرقة بحيث ينقصها الشدة والحسم ، ولكن كان يعوض هذا النقص سرعة خاطره وخصوبة فكره التي ساعدت في إعداد الدفاع وكتابة المذكرات السياسية ، ولم يعصف بهدوء نفسه وسماحتها كثرة هموم الحكم وثقل أعباء الدولة .

وقد جاءت الضربة التي أصابت الجمهورية في الصميم من ناحية لم يكن متزيني ينتظر منها الشر ، وهي فرنسا التي يفرض عليها نظام الحكم فيها أن لا تستعمل قوتها في استلاب حرية الغير ، وقد دفعت فرنسا في سيدان ثمن هذه الجريمة الشنعاء التي اقترفتها بالاعتداء على الجمهورية الرومانية بدون مسوغ وفي شيء كثير من الضعة والغدر والخسة والارتداد إلى أدب الأدغال وشرائع الوحوش الضارية والحيوانات المفترسة ، وقد هاجمت الجمهورية الرومانية جيوش أوديتو ودافعت الجمهورية عن نفسها دفاعا مجيداً ، وردت جيوش أوديتو مهزومة مدحورة ، وأرسل

فردیناند دی لسیبس لیفاوض الرومانیین ، وكان الغرض من المفاوضة كسب الوقت لحين مجیء المدد ، وظن متزینی فی بادیء الأمر أن الجمهوریة قد نجت من الخطر الفرنسی فأرسل غاریبالدی لرد غارة أهل نابولی ، ولكن فی الوقت الذی تم فیه الاتفاق بین دی لسیبس ومتزینی خلعت الحكومة الفرنسیة رداء التنكر وقام أودینو بهجوم غادر على الجمهوریة الرومانیة ، واستمر حصار المدینة مدة شهر أحسنت فیه المدینة الدفاع عن نفسها ، وكان على رأس المدافعین متزینی وغاریبالدی وغیرهما من أبطال القومیة الإیطالیة ، واشترك النساء فی الدفاع وأظهرن جلداً وقوة احتمال ، وقتل كثیرون من أصحاب متزینی ، واستهدف متزینی لنقد غاریبالدی الغاضب الشاكی ونقد المتآمرین الذین اتخذوه آلة لمآربهم ، وكان متزینی یرى أن الجمهوریة علیها أن تجاهد حتى النهایة ، ولما تداعت استحكامات المدینة أراد أن تدافع المدینة عن نفسها شارعاً شارعاً ، أو أن تنسحب الحكومة إلى جبال الابینین ، وتظل رافعة علم الجمهوریة الرومانیة ، وأقره الجیش على ذلك ، ولكن هیئة الحكم لم تكن مستعدة للاقدام على مثل هذه التضحیة ، واضطر متزینی إلى الاستقالة بعد أن عنفهم تعنیفاً شدیداً ، وسلمت المدینة للغزاة ، وأبى غاریبالدی التسلیم ، فانسحب ومعه ثلاثة آلاف من رجاله . والظاهر أن الخلاف الشدید الذی وقع بین متزینی وغاریبالدی جعل متزینی لا یفكر فی الانسحاب معهم ، وظل أیاما فی روما ، وكان متعباً منهوك القوى ، فإنه لم ینم على الفراش منذ بدء الحصار ، ولم یكن یتناول ما یكفی من الطعام . وفی مدى شهرین أسرعت إلیه الشیخوخة وابیضت لحیته ونحل وجهه ، وكان یطوف بشوارع المدینة علّه یستطیع أن یهیب بالناس إلى المقاومة والدفاع ، وكانت نفسه ثائرة متمردة لا ترید الاعتراف بانتصار القوة الوحشیة . والغریب أن الفرنسیین لم یجترئوا على إلقاء القبض علیه وأسره ! وأخیراً نصحه جماعة من أصحابه بالانسحاب ، ولم یكن یحمل جواز سفر ، ولكنه لم یعدم وسیلة للابحار إلى مرسیلیا ، وهناك نجح فی التخلص من الشرطة الفرنسیین ، وسافر إلى جنیف حیث قضى أسابیع قلائل فی فندق هادیء ، ثم انتقل منها إلى لوزان حیث أقام مع صدیقه وزمیله فی الحكومة الثلاثیة صفی وبعض المنفیین الإیطالیین ، وشرع هو وأصحابه فی أعمال النشر والصحافة كأن معركة روما كانت عطلة مؤقتة ، وفكر متزینی فی عمل دائرة معارف دمقراطیة ، وكان ینتابه فی بعض الأوقات نوبات من التشاؤم وانكسار العزم ، ویئس أنه انتصار القوة المادیة الغاشمة فی إیطالیا ، ولكن سرعان ما كانت تتقشع السحب من سماء نفسه ویعاوده الصفاء والإشراق والإیمان بالمستقبل ، وتكرر الاضطهاد الذی لقیه فی سویسرة سنة ١٨٣٤ ، وضغطت الحكومات الأوربیة على حكومة سویسرة لطرد المنفیین الإیطالیین ، واضطر متزینی إلى الفرار إلى انجلترا وظل مقیما فی انجلترا بلا انقطاع حتى السنوات الأخیرة من حیاته .

علی أدهم

تربية الروح العلمية وتنميتها

في العصور الحديثة الماضية كانت الحكومات تلجأ بين حين وحين إلى العلم تسأله العون والمساعدة . أما اليوم فقد بدأت الحكومات في اللجوء إلى العلم تسأله التوجيه والإرشاد .

فما الذي يجب عمله ليبلغ هذا الاتجاه الجديد غايته من النجاح المرجو ؟ هناك سبيل واضح المحجة هو : تربية الروح العلمية وتنميتها في الحكومة والشعب . فالنيات الحسنة ليست تغني وحدها . ورجال الحكم ليسوا بقادرين على تسيير أداة من الأدوات لا يعرفون كيف تدار ولم يروضوا أنفسهم على استعمالها . ولن يستطيع وزير من الوزراء أن يحكم قيادة إحدى قاذفات القنابل ، وأن يطير بها طيرانا يبلغ الهدف ويصيب المرمى ، الا إذا كان له مران سابق .

والحكم في هذه المسألة ينسحب على مسائل الاستفادة من سائر نظريات العلم وحقائقه .

فإذا رأينا كثيراً من المسائل العلمية يقوم بها رجال ذوو ثقافة علمية وهم جلوس على مكاتبهم ، فليس معنى هذا أن تلك المسائل يمكن أن يحل ألغازها أى صنف من الرجال ما داموا يجلسون على تلك المكاتب .

وهناك صعوبة تشبه تلك الصعوبة التي أسلفنا بيانها ، وهي إشباع رغبة الجمهور في الاستفادة من العلم . ذلك لأن غالبية أفراد هذا الجمهور ليس عندهم من القابلية ما يسمح لهم بالاستفادة والاسترشاد مهما حسنت نيتهم من ناحية العلم

وحيث إن الإدراك العلمي قد أصبح متزايد الضرورة في الحياة العصرية ، فلا حياة لأمة من الأمم أو جماعة من الجماعات تجاهلت قيمة هذا الإدراك العلمي .

ولا حياة للديموقراطية ولا بقاء لها إلا إذا سارت وراء العلم تستهديه وتسترشده .

وعلى الديموقراطية أن تعرف كيف تستفيد من العلم وذلك على طريقتها الخاصة . وهي أن يكون العلم لجميع أفراد الأمة بل لجميع أفراد الأمم .

فالمجمع العلمي البريطاني لم ينشأ في انجلترا إلا لتقريب العلم إلى أذهان الشعب ، وذلك بتشجيع البحث العلمي أولاً ، ثم بتبسيط ما يسفر عنه البحث العلمي وتوليه بالشرح والتفسير ، في لغة مبسطة وكانت قليلة . وقد طلب إلى الأعضاء من العلماء والباحثين من « داروين » إلى « رذرفورد » أن يبسطوا أبحاثهم وأن يفسر — كل في دائرته — ما وصل إليه بحثه . فنشأ من ذلك كله أدب علمي شعبي هو آية في البراعة .

وانتشار المعرفة العلمية بين أفراد الشعب عامل من عوامل بقاء المدنية التي جعلت الديموقراطية دعامتها . فما الذي يجب عمله للتوسع في هذه المعرفة ؟

هناك طرق متعددة ، منها : تأليف موسوعة عالمية تقدم للراغبين في العلم مختارات مبسطة لأحدث ما وصل إليه العلم . وهي الطريقة التي كان ينادي بها الكاتب جورج هربرت ولز . على أن تكون هذه الموسوعة بمثابة معهد متزايد النمو . وأن يجعل منها نواة لطريقة في التعليم تعم العالم أجمع . على أن يستعين القائمون بأمر تلك الموسوعة بأحدث المخترعات كالتصوير بالطريقة الميكروسكوبية .

ويقول « ولز » إن التحرير الفعلي للعقل الإنساني لا يبدأ بالأقوال الحكيمة التي قالها « بوذا » و« كونفوشيوس » ومن تبعهم في مجال الحرية ومجال الحق ومجال الأخوة الإنسانية . ولكن التحرير الفعلي للعقل الإنساني يبدأ باختراع الطباعة . فالاختراع والاستكشاف هما المحرران الحقيقيان للعقل الإنساني .

ثم تجيء بعد ذلك مسألة اللغة العامة . وهناك من يقول بجعل اللغة الإنجليزية تلك اللغة العامة . على أن لا تكون وقفاً على الثقافة الإنجليزية وحدها . فإن من العلماء من يقول بضرورة الإحاطة بعلوم الصين ومعارفها

ويعلق على معرفة هذه العلوم أهمية كبرى . وهو يقول فى ذلك : — لقد قيل إن الرجل العالم فى العصر الحديث إذا صعد إلى قمة أى جبل من جبال المعرفة والعلم ، فإنه لابد واجد أن اليونان القدامى قد أطلقوا سهامهم فى تلك القمة منذ ألفين من السنين ولكن معرفتنا بعلوم الصين وآدابها سوف تريدنا أن هناك سهاماً صينية قد سبقت تلك السهام اليونانية بزمن مديد .

وقد أجاب كونفوشيوس أتباعه عند ما سألوه : كيف يوجهون أنفسهم ناحية الآلهة والشياطين ؟ فقال : وقروهم من بعيد . ولا تقربوهم ما استطعتم الابتعاد عنهم . ثم ادرسوا كيف يمكنكم العيش مع بنى جنسكم فى طمأنينة وسلام ، متبعين سبيل المحبة والعدل . ثم إذا بلغتم تلك المرحلة فتعالوا إلىّ واسألونى مرة أخرى عن الآلهة والشياطين . ولما عيروه بتعلقه وشغفه بأمور الدنيا قال لهم : إنه لايستطيع العيش مع العجماوات . وإذا لم أعش مع بنى جنسى فمع من أعيش .

ولما سئل : ما هو أول الواجبات التى يجب أن تؤدى للناس ؟ قال : أطعموهم وارفعوا مستوى معيشتهم ثم علموهم .

ولما سئل أحد الكتاب المعاصرين من رأيه فى تعميم المعارف والعلوم قال : إن التعليم الآن فى المدارس الابتدائية هو خبيصة صب عليها مزيج من لبن الضأن والمعز ، ثم أضيف إليها لبن الناقة والنمر . وكأن ما يدرس فيها قد سبق ولادة العلوم . وكثير مما يدخل فى مواد التدريس لا تقره قواعد التربية الحديثة .

ويجب أن تكون المادة التى تقدم للبالغين لها صلة وثيقة بحاجاتهم الخاصة وبما يتفق واحتياجات الجماعات الصناعية فى القرن العشرين .

ويجب فى المدارس الابتدائية أن يعنى بدراسة العلوم الطبيعية ، وبالدراسات الاجتماعية أكثر من العناية باللغات وآدابها . وليس المقصود بالعناية بدراسة العلوم الطبيعية أن يزاد الوقت المخصص لها ، بل أن يعنى بتنويع مضامين تلك العلوم . وأن تختار مادتها من ميدان واسع المدى ، وأن تعالج بالطرق الحديثة .

أما المهارة العلمية لدى الدرس فيجب أن يتسع مداها وأن تعدد أفقها . وطريقة التعليم التى قوامها الحوار وكتب الموضوعات ، واللوح الأسود والطباشير يجب أن يضم إليها المصنع والمعمل . وأن تضاف إليها زيارة دور الصناعة والمتاحف . ثم يجب الاستفادة استفادة كاملة بالراديو والسينما والفانوس السحرى . ويجب أن يتعلم التلاميذ كيف يجيبون على مثل الأسئلة الآتية :

كيف تمد المدن بالماء النقى ؟

كيف تزاد غلة الأرض ؟

كيف تعلم الناس تحضير المعادن وإعدادها وطرق الاستفادة منها ؟

ومحاولة الإجابة على مثل هذه الأسئلة تهيئهم إلى المشاركة فى النشاط العلمى وإلى تشبع أنفسهم بالميول العلمية

والعلم الذى يعلم بهذه الطريقة يكسب صفة المرونة والألفة ، ويفقد صفة الجفاف والجفوة ، وهو مؤد إلى التطور الاجتماعى السليم فى غير رجة وفى غير ضجة .

والصحف والراديو والسينما والكتب والمناقشات العلمية هى خير مدرسة لمن أراد أن يتم الثقافة . ويجب أن تعنى الصحف بنشر كل أبحاث التقدم العلمى . والإذاعات العلمية فى الراديو هى خير معلم . وكذلك السينما ، فعلى لوحاتها يمكن أن يشاهد روادها مسائل العلم مبسطة مشروحة .

ويقول أحد العلماء : إن العلم فى مجموعه هو مخاطرة من أكبر مخاطرات الجنس البشرى . وهو يثير الانفعال ويحرك الخيال كما تثيره حكايات الآلهة والأبطال ، وقصص الحرب وأنباء القتال .

(مترجمة) مبارك إبراهيم

في جبال لبنان :

محيط جبران خليل جبران

زرت مغارة قاديشا فشاهدت عجائب ما خلقته المصور فيها من تكوين الرواسب التي تشبه الرخام ، وذلك في أثناء تساقط الماء منها ، فتألفت منها أشكال هندسية شتى تتسم بالجمال الفني لغرابة أشكالها وأحجامها مما هو ليس من اختصاص القلم نقل صورته للقارىء ، وإنما هو من اختصاص العدسات والمصورين ، على أن آلة التصوير تعجز عن العمل في داخل المغارة إذا لم تزود بالنور القوي الساطع ، وبغيره من الاستعدادات الفنية . فقد تجمعت في المغارة خزانات الماء الغزير بكثرة هائلة جعلتها تحدث صوتاً مدوياً في انحدارها من علوها الشاهق ، وترى الماء في انحداره على شكل أبيض من شدة تقلبه وتحدره فهو يشبه الزبد لولا كثرته وغزارته ؛ ومما يزيد في شدته بعد المسافة التي يهبطها ، وذلك مما يجعل صوته مدوياً . وله رنين شديد في سقوطه في وادي قاديشا .

ويظل الماء ينساب في ذلك الوادي المستطيل إلى أن يصل إلى مدينة طرابلس ، فتتألف منه شلالات في طريقه يتولد منها الكهرباء ، وهو يستخدم في إنارة ماتي بلدة في محيطه ، ويستخدم الكهرباء في تحريك المعامل والمعاصر وإحياء الصناعة وتكثيرها .

ويتألف من مخلفات الماء في سقف مغارة قاديشا أشكال هندسية تشبه عناقيد العنب ، ويشبه بعضها أصابع اليد ، وبعضها يشبه الفواكه كاللوز والتفاح والكمثرى ، ويشبه بعضها بعض أنواع الحيوان والنبات . وكلها متخلف من الأملاح والكربون وسائر المواد التي يشتمل عليها الماء مما يتألف منه أشد أنواع الحصيات ذات الأشكال الغريبة في مجاري الأنهار وأمثال المغارات والكهوف ، مما هو مشاهد نظيره في الحصيات التي تتكون في جسم الإنسان ! !

ومغارة قاديشا مستطيلة وملتوية ومتسعة كثيراً ، وقد أنيرت بالكهرباء المتولد من مائها ، ولكنهم لم يتموا تنويرها لأنهم لم يستكملوا اكتشافها بعد على ما يظهر . ومع ذلك فإننا نقول إن المغارة أعجوبة من أعاجيب لبنان ، إذ كيف تسنى أن يتجمع ماء غزير بالكثرة الهائلة في مكان مرتفع من البحر بمقدار ١٣٤٠ متراً حتى تألف من مائها ما يشبه سدود القناطر الخيرية بمصر ، وقد وضعوا لها سدوداً رفعوا بها مناسيب المياه مما جعلها عالية النسبة ، فصار يتألف منها أحواض هائلة وخزانات مرتفعة ماؤها في غاية الصفاء والنظافة ، ترى الحصيات في أسفل الأحواض تلمع لمعاناً رائقاً . وماء المغارة بارد ولذيذ ومفيد جداً وخفيف على المعدة . ولقد أحسسنا برطوبة ثيابنا ونحن في داخل المغارة . وأما النظارات فقد غشيتها طبقة من أبخرة الماء جعلت الرؤية معها متعذرة .

والمحقق أن المغارة لم تكتشف كلها لا في طريقها المستطيل ولا في جنباتها الملتوية . ولسنا ندري هل وقفوا عند حد ما تم كشفه من سنوات ، مع أن صاحب الفضل في كشفها الأول جناب الخوري أنطونيوس جعجع لا يزال يوليها بعنايته ويتعهدها بملاحظاته ، ويسر بمشاهدة الزوار يقدمون لمشاهدتها من لبنان ومصر وسائر أقطار الأرض ، وهو رجل لطيف وأنيس ، وتبدو عليه أمارات طيبة النفس ، ويعجب به كل من شاهده وتكلم معه . لسنا ندري هل وقف الكشف فيها اغتباطاً بما وصلوا إليه مع أن متابعة الكشف قد تأتي بشيء عجيب ومفيد .

ولقد أكسب ماء مغارة قاديشا محيطها الخصب والنماء ، فجمل النبات شديد الخضرة وجمل الثمر كبير الحجم شهي الطعم . وأدار المدن والقرى والعساكر بنور كهربائي وهاج ، وقوى معاصر الزيت ومعامل الأسمنت والمنازل وما إليها من المعامل والمصانع ، فجعلها تنتج عشرات أضعاف ما كانت تنتجه بالطرق القديمة المندثرة .

وإننا نود من المشرفين على تلك المغارة أن يعملوا على توسيع الطريق الموصل إليها وعمل حاجز يحول دون وقوع أحد فى ذلك المنحدر المخيف . فبعض الناس ولاسيما من السيدات تهولهم رؤية ذلك العلو المخيف ، فليعملوا مشكورين على تسوير الطريق محافظة على الأرواح .

* * *

وبعد ما زرنا مغارة قاديشا زرنا أرز لبنان المشهور والقديم والذى ينسب لبنان له فيقال بلاد الأرز . ويقدرون عدد الأرز فى تلك الجهة المسماة باسمه بنحو أربعمائة أرزة ، عاشت مئات السنين إن لم نقل ألوفها ، وبعضها يتألف منه منظر عجيب ولطيف معا ، فقد تداخلت فروعه بعضها ببعض فصار التشابك بين كثير من شجر الأرز تشابكا عجيباً ، فشكل شجرة باسقة من الأرض وقد تداخلت الجذوع الضخمة بعضها ببعض فصارت على أشكال لطيفة . وسيقان شجر الأرز ضخمة جداً حتى إن بعض القسس اتخذ له ممتزلا فى جوف بعضها فى بعض السنين ، ولا تزال تلك التجويفات ماثلة للعيان حتى اليوم . وبعض أشجار الأرز حفرت فيها حفر من جوانبها يتر منها الماء ، مما يدل على شديد خصب الأرض وتزود الشجر بالماء مع أن جبال الأرز تعتبر من أعلى جبال لبنان إن لم تكن أعلاها ؛ وعروقها مستطيلة تصل إلى طبقات عميقة فى تلك الجبال وتشق الصخور الصماء ! ! لقد شهد أرز لبنان أحقابا طويلة ، ومنعت الحكومة تقطيع شيء من الشجرات أو فروعها أو أغصانها مبالغة فى المحافظة عليها . ولكننا مع ذلك شاهدنا حطب الأرز يباع فى الأسواق ! !

* * *

ولد جبران خليل جبران فى ذلك المحيط فى وسط تلك الجبال العالية التى يتألف النجم فى أحضانها ، وكثيراً ما يكون تحت مواطىء قدمى الجالس فى ذلك المحيط العجيب ، وشاهد جبران تلك المناظر الخلابة منذ حداثته وذلك السمو العظيم فى أول نشأته ؛ جبال يناطحها السحاب وتناطحه ، وأشجار باسقة وماء يهدر هديراً شديداً ، وأرض خصبة وغناء منقطع النظير ، ودروب ملتوية ؛ وشاهد رعاة الغنم والمعز والبقر ، يترنمون بشباباتهم ومزاميرهم ، ويقفزون هنا وهناك وراء مواشيهم ؛ ومع أنه أقام فى ذلك المحيط حقبة صغيرة إلا أنها كانت زمن التكوين فانطبعت فى نفسه إذ أقام فيها ١٢ عاماً ؛ ثم رحل إلى أميركا بصحبة أمه فشاهد عالم الحركة والنشاط والدأب والحرية مدة مراهقته ، فقبس من لبنان العلو والشموخ واستفاد من أمريكا الحركة والنشاط والدأب ، فنال الرتبتين الفضليين ، وقبل أن ينتهى القرن التاسع عشر عاد إلى لبنان فانتظم فى مدرسة الحكمة الوطنية فى بيروت أربع سنوات قال عنها :

« أربع سنوات على مقاعد مدرسة الحكمة ! ماذا نفعتك ؟ أشكر ربك فقد نجوت من الصلوات فى الصباح والمساء ، وقد صليت فى أربع سنوات ما يكفيك حتى آخر حياتك ، فأنت لن تدخل الكنيسة منذ الآن » .

وتتابعت عليه الكروب ، فماتت أخته سلطانة بالسل سنة ١٩٠٢ ، وبعد أشهر قليلة أصيبت والدته وشقيقه بطرس بذلك الداء وماتا بعد عام من موت شقيقته ، فولد له ذلك حالة خاصة هزته هزاً عنيفاً ورفعته رفعة عاجلة ، فجعلت منه كاتباً مبدعا وشاعراً رقيقا ومصورا ممتازاً .

ليس التعلم بكثرة السنين التى تقضى فى المدارس ولا بكثرة حضور الدروس فى داخل أسوار المدرسة ، فالعالم كله مدرسة ، ومصائب الدهر وحاجاته أكبر معلم ، وكل ذلك تتابع على جبران ، فكان له منه خير معلم وأكبر أستاذ ومرشد ، فكتب ما أعجب الناس فصفقوا له استحساناً وقالوا : فتى يغادر بلاد العروبة قليل الذخيرة ضعيف العلم ثم هو يتحف الأدب العربى بأساليب جديدة

فى حدائق الشعر العربى :

قصائد شرقية

أستار الكعبة

للأميرة زين النساء

وجهك المحجوبُ عنى فى دجى
حالك من شعرك الساجى المعطِر
كعبـــة فى سترها محجوبة
لا يرى منها سوى الستر النظر
طالما اشتقت إلى رؤيته
شوق من حج إلى كعبته

* * *

الحجى يُسرع فى وادى الهوى
سرعة النـــاشط موفور القوى
ما بنا نحن إليـــه حاجة
رؤيا بالشوك فيـــه والحصى
لذة العاشق فى علته
علة العاشق فى لذته

* * *

ليلـــةٌ تمضى وأخرى بعدها
وأنا فى الحزن بالنجوى متمسك
حسرةٌ أبكى فيا قيـــدَ الهوى
من لكفرٍ حاولت أن تصدمك
كسر الأظفار من لهفته
دائم السخط على عقدته

* * *

هل ترى أفضل من عزف وراح
عند ما أدعو إلى حفـــل مباح
أفضـــلُ الراح دموعٌ جاريات
أفضلُ العـــزف أنينٌ ونواح
ألمُ الوجع من غصته
عازفٌ يشدو على نغمته

* * *

وسعيد الحب فى الدنيـــا سعيد
مجدُ جمشيد له مجدٌ زهيـــد
صرحُ العنقـــاء فى مسبحها
زهوُها فى مسرح الكون البعيد
جمعَ العاشقُ فى نشوته
بهجة الحب إلى قوته

* * *

رضى المصـــلوبُ فى حبكمو
بلقاء الموت من صـــدر رحيب

ممتازة بتفكيرها وأساليبها وقوة سلطانها على النفس . إن ذلك لشيء عجيب !

لقد أبدع جبران وأجاد ونال إعجاب العالم العربى وهو فى محيط غربى ، وقبس ثقافة الغرب فأضافها إلى ثقافة العرب ، فجاء بالشيء المعجب والمطرب والمؤثر ، وهز العواطف وتمرد على رجال الدين ، فصار علماً من أعلام النهضة الحديثة فى أدبه وتفكيره وتصوره . وحسبه فخراً هو وإخوانه أنهم أوجدوا صحفاً عربية يومية وأسبوعية وشهرية فى أمريكا ، وجعلوا كثيراً من أنحاء أمريكا تسمى بأسماء عربية وتكتب فيها لافتات عربية . ثم كان جبران بعد ذلك محركاً للأدب المصرى فى محيطنا منذ نحو ثلاثين عاماً عند ما نقلنا قبساً من أدبه وأدب إخوانه .

ذلك هو جبران وذلك محيطه فى لبنان وفى أمريكا . وأما متحفه فى لبنان فله حديث قريب .

محيى الدين رضا

وهو لم يلق الذى لاقيتـــه
لا ابتهاجاً لا ولا فوق الصليب
وطوى قلبيَ من متعته
سرَّهُ المحجوبَ عن رفقته

* * *

خدُّكَ الوردىُّ من فيض الدموع
شفَّ عن قلبٍ به يغلى النجيع
وبدا للعين من أحلامـــه
دمويٌّ نمَّ عن حزن وجيع
وشقى المفتون من فتنته
كأسه والسحر فى خمرته

* * *

أنا مـــن جرَّاكَ أزهى بقيودى
وهمـــومى وغرامى فى مزيد
طاب لى الصبرُ كما طاب الأسى
وعرفت الزهو فى حزنى الشـــديد
أبدلَ العصفورُ من روضته
قفصاً هدَّأ من حدته

* * *

أيهـــا الحقُّ والنهج طويل
فتزود فيــه بالصبر الجميـــل
ســـترى حظك فى غايتـــه
وكثير الجهـــد فى الحب قليل
سترى المعبودَ فى رَوعته
لك ما أملت من رؤيته

مغفـــرة

ما طريق الذى تحـــيرتُ بالسـ
ـل ولكن طريق نار ومحنـــه
بهجة النفس قد جفوتُ وأوليـ
ـتُ بأطراب ذى فتون وجنه

* * *

سأؤدى يوم الحســـاب ديونى :
بدم القلب أخضب الصحـــراءَ
ستغـــار السماء فالحب لكون
قرمزىٌّ الســنا أغارَ السماءَ

* * *

لو سمحت يومذاك عينى بدمعى
لأقال الإلهُ كلَّ ذنوبى
رحمـــة الخالق الكريم محت أخـ
ـطاء عبـــد يوم الحساب منيب

* * *

إن سجلاً حوى ذنوبى ستغـــدو
يوم بعثى صحيفة بيضـــاءَ
الحســنات والخطايا جميعـــا
صادفت رحمة فصارت هبـــاء

* * *

شهوة النفس دوحة فى الثرى الظـ
ـلم منها الجـــذور مختفيات
وجناها الآثام والشر والفســاد
ويغشَّت يا شهوة الثمـــرات

* * *

حظٌّ من عاش قانعاً وهو فـــرد
حظ ألف من الملـــوك الصِّيد
أنا يا قلب لو بعثت زفيـــرى
لاستثار الزفيرُ رمل البيد

* * *

كونه جل شأنه سوف يعفو   ليس عذراً يا مخفق للمسلم
فامض فى مسلك السداد رشيداً
وارج ما شئت من إله رحيم

عبد اللطيف النشار

كتب ومؤلفون من سورية :

عرض وتعريف

١ – القضاء المستعجل

تأليف أحمد فؤاد القضماني

عرفت سورية القضاء المستعجل بتشريع حديث ، لذلك لم تعرف مكتبة القانون فيها فقهاً حول هذا القضاء ، مما جعل رسالة الأستاذ احمد فؤاد القضماني نقيب المحامين السابق ، وهي أحدث ما كتبه في القانون ، عظيمة القيمة ، تتلقفها أيدي رجال القانون بالشكر والتقدير .

٢ – تاريخ حمص

تأليف الخوري عيسى أسعد

الخوري عيسى أسعد من رجالات حمص المعدودين الذين تجب زيارتهم على من يزور حمص لفضلهم ورياستهم ، إنه قس يعظ المؤمنين في الكنيسة ، فتخشع قلوبهم ، ويترقرق الدمع في مآقيهم من كلام السيد المسيح يلقيه أحد أتباعه المخلصين ، وهو خطيب مصقع يخطب الناس بلغة القرآن ، فيسحرهم ببيانه الرائع ومنطقه الآسر الخلاب .

لقد عكف هذا الأب الجليل ، من سنين عديدة ، في جملة ما عكف عليه ، على تدوين تاريخ مدينة حمص ، وحمص مدينة قديمة ثبت وجودها في قرون سبقت القرن العشرين قبل الميلاد ، وإن اختلفت الروايات في تحديد زمن تأسيسها والأسماء التي كانت تطلق عليها .

لقد كان الخوري في تدوينه تاريخ مدينة حمص مؤرخاً ، كتب بنفسه واجباته فقال : « يحظر على المؤرخ الاستسلام إلى التخيلات ، فلا يسوغ له أن يضم ما يتخيله إلى ما رواه من سبقه من المؤرخين عن حوادث الكون ، بل يجب عليه أن يعمد إلى المجلات والأسفار يقلب صفحاتها ، وأن يحتضن المجلات والطوامير ينقب في ثناياها ، ليعثر على المادة التي يكون منها هيكل مؤلفه . ليس هذا فحسب ، بل يجب عليه أيضاً بعد التقاطه نثار ضالته ، أن يمحصها ويغربلها ويعرضها على النظر الدقيق لتمييز صحيحها من فاسدها ... » هذا إلى شروط أخرى عددها في مقدمة كتابه .

لقد انتهى القسم الأول من هذا المؤلف ، وهو الخاص بتاريخ الأزمنة السابقة على الفتح الإسلامي ، ودفعه صاحبه إلى المطبعة سنة ١٩٣٩ ، ولكن ظروف الحرب القاسية أخرت خروجه للناس كثيراً ، وحتى اليوم ما زالت نسخ بعض المشتركين في الكتاب من سكان المهجر ، وكثير ممن أحبوا اقتناءه من المشارقة ، في طريقها إليهم .

إن القسم الأول من تاريخ حمص ، وهو بين أيدينا الآن ، كتاب جليل القدر ، يدل على غزارة علم مؤلفه ، وسعة اطلاعه ، وشدة صبره على التمحيص والتدقيق ، ويثبت أن مؤلفه لم يخرج على الحدود التي رسمها لكل مؤرخ ثم قيد بها نفسه كل التقييد ونقلنا بعضها آنفاً .

إن المكتبة العربية لتشكر جهود الخوري عيسى أسعد وتأمل أن يتحفها قريباً بالقسم الثاني من تاريخه القيم لمدينة عزيزة على العرب والإسلام ، مدينة سيف الله خالد ابن الوليد .

٣ – الوقف

جمع داوود التكريتي

للأوقاف أحكام ، ولإدارتها نصوص ، يكاد من يهمه معرفتها في سورية لا يعثر عليها لتفرقها وتباين ظروف تشريعها ، فإذا بالأستاذ داوود التكريتي عضو مجلس نقابة المحامين في دمشق ينتدب نفسه لجمعها وإخراجها للمشتغلين بالقانون وبقضايا الأوقاف كتاباً ، طبعه بإتقان مكتب النشر العربي بدمشق .

عدنان الخطيب

ملاحظة : سقطت أثناء الطبع جملة أسطر متفرقة من نقدنا لكتاب « دمشق القديمة » أخلت بعض الإخلال بالمعنى ، فعذرة إلى القراء .

المحارب الصغير

(قصة ألبانية)

تمحو الحروب من صفحات الوجود سطور الاطمئنان ، وتشيع القلق في النفوس ، والهلع في القلوب ، وتشتت الأفراد والجماعات ، وقد تضطر المرء أن يبتعد من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، طلبا لحريته ، وإبقاء على مبادئه . وإن البلاد التي يرفرف فيها علم الأمن ، وتخفق فوق ربوعها رايات السلام ، تكتظ بالكثير من المهاجرين السياسيين . فهذه مصر تعج بعدد كبير من الذين حولت الحرب مجرى حياتهم ، فغادروا بلادهم . واستوطنوا الأرض الكنانة ، يتحينون الفرص ، ويترقبون الفرج ، وللألبانيين من هؤلاء عدد ليس بالكثير .

وإني لفي يوم من أيام فبراير الماضي . عاكف على مكتبي أتصفح كتابا — وكان الوقت مبكرا — وإذا بزائر يستفتح ، فأسرعت إلى غلق الباب وأعملت فيه المفتاح ، فرأيت صديقا ألبانيا من المهاجرين الذين طوحت بهم ظروف الحرب إلى القاهرة . وبعد أن استقر بنا المجلس قال : بالأمس كنت في جمع من أهل الوطن ، وعلمت منهم أنك معني بكتابة القصص الألبانية ، وقد كنت من الذين حملوا عبء الجهاد لاسترداد بلادنا من الجور المنتصب ، وشاهدت من فنون الشجاعة ، وضروب التضحية ، ما لازلت أذكره بالإعجاب والإكبار . وجئت اليوم لأقص عليك بعض مشاهداتي في إحدى قرى مديرية « كورتيشا » وهي واحدة من اثنتين يطالب بهما اليونانيون الآن ، ويطلقون عليهما « أبيروس الشمالية » . ولي رغبة قوية ألا تتوانى من نشرها باللغة العربية ، وإني لن أحاول أن أضفي عليها ثوبا من الجمال اللفظي ، اكتفاء بجمالها الحقيقي ، وأنا موقن أنها ستنتزع من كل من يطلع عليها تقديره وإعجابه .

* * *

كان الوقت شتاء ، ومع ما يأتي به الشتاء من أمطار وثلوج فقد كان الجو صحوا ، والسماء صافية ، والشمس مشرقة يلذ للإنسان أن يتعرض لأشعتها ، ويتمتع بحرارتها . وكانت جمعية المقاومة قد عهدت إلي بمرقبة مواصلات العدو في مديرية « كورتيشا » ، وكانت تلك المهمة تستدعيني العمل ليلا ، بعيدا من عيون الحراس اليواقظ ، وكنت أقضي الوقت نهارا — إذا كان الجو مطيرا مثلجا — في كهف من كهوف الجبال ، وحول النيران التي كنت أشعلها في الأخشاب التي أجمعها في الأيام الصحية من الغابة ، وكانت منشورات الجمعية تصل تباعا إلى تلك الكهوف حاملة أنباء الفرق الأخرى ، ومعددة نتائج الأعمال التي قمنا بها ، ومدى تأثيرها في العدو ، ثم من ناحية أخرى ، فيها تشجيع لنا ، وحث على مواصلة العمل ، — وإن كان لنا من وطنيتنا أقوى دافع ، وأكبر مشجع على أن نطهر البلاد من هذا الوباء المحوري ، ونبذل دماءنا وأرواحنا رخيصة لاستكمال حريتنا ، واسترجاع حقوقنا كاملة غير منقوصة . أما الأيام التي صفت سماؤها وانتشرت شمسها وشاعت الحرارة في جوها ، فكنت أقضي نهارها بين رعاة الغنم الصبيان ، أستمتع بحديثهم ، ويستمتعون بالإصغاء لما كنت أسرده عليهم من تاريخ ألبانيا المشرف ، وأخبار المعارك التي خاضها أجدادهم الأمجاد ، والحروب التي كسبوها ، والانتصارات التي أحرزوها ، مبينا لهم الأسباب التي توجت كل أعمالهم بالنجاح ، من الاتحاد المطلق ، والإيمان الكامل بأنهم يجب أن يعيشوا أحرارا كما خلقهم الله ، وأن يموتوا أحرارا كذلك ، وإعلامهم أن الموت مع الحرية ، خير من حياة يسودها الاستعباد ، ويشيع فيها الذل . . . وفي يوم من أيامنا تلك ، جرني ما بدا على الرعاة من زهو وسرور بأبطالهم الشجعان ، إلى الحديث عن اسكندر بك الذي دوخ الأتراك وهم في قمة المجد ، وأوج العظمة ، وانتصر عليهم في خمس وعشرين معركة من المعارك

النامية ، التي يشيب من هولها الولدان ، في مدى ثلاث وعشرين سنة ، لم تقم للأتراك فيها قائمة ، ولم يستطيعوا أن يستردوا نفوذهم في ألبانيا إلا بعد موت ذلك البطل المغوار حيث تفرقت الكلمة ، وتشتت الجمع ، وضعفت روح التضحية ، وانفصمت عرى الوحدة .

وقد دفعني ما لحظته في وجوههم من نجابة ، وما لمسته فيهم من ذكاء ، إلى أن أعلمهم مبادئ القراءة والكتابة ، إذ لم يتيسر لهم ذلك لبعدهم عن المدن ، وحاجة أهلهم إليهم في رعي الغنم ، وجمع الحطب . ولم أجد عناءً كبيراً فيما أخذت به نفسي من تعليمهم ، لإقبالهم عليه في نهم ورغبة ، واستعدادهم الفطري . فكانوا يتقدمون في دروسهم بخطى فسيحة سريعة ، لعنايتهم بحفظها وضبطها ، ولما سرى بينهم من تنافس وتسابق .

وكان الصبي رمضان ، أشدهم إقبالا ، وأقواهم رغبة وميلا ، وأكثرهم ذكاءً ، وأحدهم ذهناً ، وأسرعهم حفظا وفهما ، مع أنه أصغرهم سناً ؛ فقد كان في الرابعة عشرة من عمره أحمر اللون ، واسع العينين ، حاد النظر ، قوي الساعدين مفتول العضلات ، نحيل الجسم ، يلبس قميصا أصفر مرتوقا وسروالا ممزقا مرقعا ، وعلى رأسه طربوش وطني من صوف أبيض ، ولو تحدثت إليه خيل لك أنك تستمع إلى كهل عرك الحياة ، وجرب الأمور ؛ فقد كان سليم المنطق ، دامغ الحجة ، موفور العقل ، صائب الرأي ، سديد التفكير ، قوي التأثير ، ولذلك كان محبوبا من الجميع ، ينظرون إليه نظر المرءوسين إلى رئيسهم ، والجنود إلى قائدهم ، وقد احتل من قلبي أرفع مكانة ، ونزل من نفسي أسمى منزلة ؛ ومما أمالني إليه ، وعطفني عليه ، علو نفسه ، وكبر قلبه ، مع ما اتصف به من الصفات الآنفة ، وبمر الأيام توثقت بيننا عرى المحبة والمودة .

وفي ليلة من ليالي الشتاء التي اعتكر ظلامها ، واشتد بردها ، وتوالى هطول أمطارها ، صدرت الأوامر إليّ وإلى ثلاثة ممن كانوا يعملون معي في المنطقة ، بالانتقال إلى ناحية أخرى — عسكر فيها العدو ، ومهد طرق مواصلاته — لنعرقل أعماله ونقلق راحته ، ونحد من نشاطه . ولما كنا لا نستطيع السير في هذه الأنحاء في مثل هذا الليل البهيم — لجهلنا مسالكها ودروبها — إلا مسترشدين بأحد السكان ، رأيت أن الظرف يحتم أن نزور رمضان في منزله ، ليدلنا على من يساعدنا على بلوغ غايتنا ، وكان المنزل ريفيا ، غاية في البساطة والنظافة ، يتكون من حجرات ثلاث ، تدل في مجموعها على توافر الذوق والنظام لدى أربابه : فالأولى معدة للأضياف ، وقد فرشت أرضها بحصير قديم نظيف ، ووضعت فيها أريكة طويلة ، شغلت ما بين الجدارين المتقابلين من فراغ ، وعلى الأريكة حشية ومفرش نظيف ، ووسائد كثيرة ، وفي الناحية الأخرى المدفأة ، تتأجج نارها ، ويتطاول لهبها . أما الحجرتان الأخريان ، فإحداهما للنوم ، والثانية للأمتعة وإعداد الطعام ، وفي حجرة الأضياف استقبلنا رب المنزل ، وابنه الكبير مرحبين ، أما رمضان فقد كاد يطير فرحا وسرورا ، وفيها قدم لنا العشاء ، وكان لذيذا شهيا . ومن ثنايا الحديث علمت أن الأسرة تتألف من أفراد خمسة . هؤلاء الثلاثة وأم وبنت ، وأن الابن الكبير يعاون أباه في فلاحة الأرض ، والبنت تساعد أمها في أعمال المنزل ، ورمضان يرعى لهم الغنم ، ويقطع الأخشاب من الغابة ويحملها إلى البيت لينتفعوا بها في التدفئة ، وطهي الطعام ، ويصنع — فوق ذلك — سلالا يبيعها في سوق القرية .

قضينا مع هذه الأسرة الكريمة ليلة من أسعد الليالي تناولنا خلالها في حديثنا شتى الشئون ومختلف الأمور ، وما قامت به العصابات من أعمال ، وما أنزلت بالعدو من خسائر في الأموال والأرواح ، مما أقض مضجعه ، وسلبه الهدوء والراحة . وكان رمضان — طيلة الوقت — يتتبع حديثنا في اهتمام شديد ؛ ولحرصه ألا يفوته شيء منه كان

يملأ الموقد بالخشب في سرعة ملحوظة ، إذا خبت نارها ، أو فتر لهيبه . وكان الرجل شديد الذكاء . فقد عرف فينا حاجة ملحة للنوم ، فهيأ لنا فراشا حيث كنا جلوسا . وبقي بجانبنا ساهراً ليوقظنا في منتصف الليل . ولما لم يكن من أفراد الأسرة غير رمضان نستطيع أن نسترشد به ، لأنه وحده يعلم المسالك التي تصل بنا للغاية التي ننشدها بعيدين عن عين العدو الساهرة ، فقد تطوع لمرافقتنا ، ليكون لنا رائداً ودليلا ، فأشفقنا عليه من قارس البرد ، وهوج الرياح ووعثاء السفر ، وألححنا عليه أن يبقى هو . فلن نعدم من نستهدي به ، فأبى إلا أن يزاملنا ، وأصر في شهامة ، أن يساهم في تحرير الوطن بنصيب ، فودعنا أهل المنزل ، وخرجنا ، والظلام حالك ، والليل موحش ، والمطر يهمي ، والريح تصفر ، والطريق مقفر ، وكل شيء حولنا يبعث الخوف ويثير الرعب . ومررنا نتلمس المسالك ، ونتحسس المفازات ، نبتغي الوصول قبل أن يتنفس الصبح . وما منا إلا من تلوثت ثيابه ، وتلطخت بالطين والوحل ؛ فقد كنا نتردى من آن لآخر في حفر امتلأت من مياه الأمطار ، ومكثنا في حالتنا تلك ، نرقى الربوات ، ونهبط إلى المنخفضات ، وندور في المنحنيات ، حتى كدنا نيأس من هول ما لقينا ، وكادت الفرصة تضيع منا ، ولكن رمضان بث فينا روح الشجاعة ، وقوى فينا معنى العزيمة ، فقد كان على حداثة سنه يسير أمامنا في ثبات وجرأة ، كأنه لم يحس مما حوله شيئا ، ولم نسمعه شاكيا ، ولا متذمرا ، وظلت تلك حاله إلى أن بلغنا حيث نريد بعد خمس ساعات ، قضيناها في عذاب مستمر ، وألم لا ينقطع ، ثم افترقنا بعد عناق طويل ، وفي القلب لوعة وفي النفس حسرة .

• • •

بعد أسبوعين من تلك الليلة ، انضوى تحت لواء فرقتنا أحد جيران رمضان وأصدقائه ، وحدثنا عنه ، بما زادنا إعجابا به ، وتقديرا له . فقال : قابله في طريقه أثناء عودته بعد فراقكم ، خمسة من جنود المحور ، واشتبهوا في أمره ، ورجح لديهم أنه جاسوس لفرق المقاومة ، فهجموا عليه كالوحوش الكواسر ، فأسرع في الجري ، فانطلق وراءه أربعة منهم ، وكاد يسبقهم ، لولا أن حاجزا من الحواجز الكثيرة التي أقامها العدو ، استعصى عليه أن يجتازه ، ووقع أمامه ، فلحقوا به وقبضوا عليه واقتادوه إلى الشرطة فسألته وشددت عليه الأسئلة ، عن الجهة التي منها خرج ، والتي إليها يقصد ، فأجابهم بأنه خرج من بيت خالته التي تسكن بعيدا عن مكانهم ، وهو في طريقه إلى أهله ، فأوسعوه ضربا ولكما ، ليتحول عن هذا الجواب ، فلم يظفروا بطائل ، لكنهم لم يميلوا إلى تصديقه ، ووقر في نفوسهم أن ما قاله لا يمت إلى حقيقة أمره بصلة ، فزجوا به في السجن ، وأوصوا بتعذيبه ، علّه يضطر إلى إخبارهم بما قد يفيدهم ، وكان السجن عبارة عن مستودع للسيارات مهجور ، تنبعث منه رائحة كريهة من الزيوت التي كانت تستخدم في الوقود ، وعمت أرض المستودع ، وتناثرت على الجدران . فلما انفرد الصبي بنفسه ، تواردت على ذهنه شتى الخواطر منذ خرج من منزله ، إلى أن قبض عليه هؤلاء الطغام . وأوردوه هذا المورد ، وقد عز عليه أنه لم يستطع الإفلات منهم . وتملكه اليأس ، واشتدت به الحال ، وبلغ منه الضيق ، فأخذ يضرب رأسه بيديه ، والأرض بقدميه ، ثم ضرب الجدار بجمع يده ضربة قوية ، فاهتز هزة عنيفة ، فعلم أنه من الخشب . وعليه طبقة رقيقة من الطين . طليت بالطلاء الأبيض . ولما سكن روعه ، وهدأت ثائرته ، سيطرت عليه فكرة الهرب ، وشرع في التنفيذ ، وأخذ يتحسس الجدار ، ليعرف فيه مواطن الضعف ، ثم استجمع قوته ، وضربه برجله ضربة أحدثت فيه ثغرة صغيرة ، وأخذ يوسعها شيئا فشيئا . حتى أصبحت تتسع لخروجه بسهولة . فأطل منها برأسه ، ليرى إن كان هناك من يراقبه ! لكنه لم يجد أحدا ، ولعلهم استهانوا به ، واستبعدوا

أن يفكر في الفرار ، فلم يكلوا إلى أحد حراسته ؛ فلما رأى أن الطريق خال ، وأن القوم عنه في شغل ، تسلل من الفتحة ، وكان الليل قد أرخى على الكون سدوله . وأخذ القمر يرسل إلى الأرض ضوءا ضعيفا باهتا ، وكانت السماء تتلألأ فيها النجوم في المواضع التي لا يكسوها السحاب ، وكادت الكلاب تفسد عليه خطته ؛ فقد هجمت عليه ، ونبحته كثيرا ، ومزقت أطراف ثيابه ، ولكن الله تعالى كتب له السلامة من الأعداء ، والنجاة من الكلاب ، ومنحه من القوة ما جعله لا يقف أمام عقبة من العقبات ، ولا يعوقه حاجز من الحواجز . . وأخيرا ، وبعد أن بذل جهدا جبارا استطاع أن يصل إلى بيته ، شاحب الوجه ، منهوك القوى ، محطم الأعصاب ، لا تقوى رجلاه على حمل جسده ، ويتصبب العرق من جبينه ، فارتمى على فراشه ، واستغرق في نوم عميق طويل ، لم يستفق منه إلا بعد خمس عشرة ساعة لم تتخللها لحظة من اليقظة

ثم عقب المهاجر السياسي بقوله : وشاء المصادفات أن توفدني الجمعية — ثانية — لمهمة في المنطقة التي تعرف رمضان فيها ، وحيث قريتهم ، بعد ذلك بشهرين . فكان أول همي أن عرجت على المنزل الذي أكرم وفادتنا وبالغ في تهيئة الراحة لنا ، لأستطلع أخبار رمضان ، وأخبار أهله ، ولأشكر لرمضان همته ومروءته ، ولأهنئه بسلامته ، فاستقبلني والده بشاشة مرحبا ، يشيع الرضا في وجهه ، فابتدرته بعد التحية ، بالسؤال عن نجله الراعي ، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة وقال : إن رمضان منذ عهدنا بكم قد أعلن الحرب على العدو . وشغل عنا ، فهو لا يزورنا إلا ليتزود بما يحتاجه . وقد أنزل بالعدو من الخسائر ، وأحل به من الأضرار ؛ ما جعل اسمه يتلألأ في قائمة الأبطال الذين عقدت البلاد عليهم آمالها في تخليصها من أيدي المتعصبين ، وقد أجج في قلبه نار الحقد عليهم ، وألهب روح التضحية في نفسه ، ما ذاقه منهم من سجن وتعذيب أثناء وجوده ليلة أن خرج معكم . ثم سرد لي ما وقع له بما لا يخرج عما رواه زميلنا . وواصل حديثه قائلا : لكنه قد انتقم لنفسه ؛ فمسح من رقعة الوجود ذلك المستودع الذي اعتقل فيه . وما جاوره من مستودعات الذخيرة ، وثكنات الجند ، فقد حصل على كمية كبيرة من سائل مفرقع استطاع أن ينسف به جسرا كانت أهميته للعدو أكبر من أن تقدر ؛ إذ ترتب على نسفه أن تبدل الموقف تماما ؛ فسيطرت فرق المقاومة على المنطقة سيطرة تامة ، بما استولت عليه من سيارات وأسلحة وذخائر ، وهي الآن تهجم عليه من وقت لآخر ، في المناطق الأخرى ، حتى أقلقت راحته ، وأقضت مضجعه ، وحرمته الاطمئنان والهدوء .

وختم الرجل حديثه بقوله : وإني به لفخور ، وأسأل الله تعالى أن يمهد للجمعية سبل النصر ، ويكتب لها التوفيق ، وأن يمد في حياة محاربنا الصغير ، ويتوج سائر أعماله بالنجاح ، ويجعل الفوز حليفه ، إنه مجيب الدعوات .

فودعت الرجل ، وأنا شديد الغبطة ، ووصلت إلى مقري ، يطغى علي الفرح ، ويملأني الإعجاب ، فتصفحت ما جد من منشورات الجمعية ، فإذا هي تفيض عما قام به رمضان من أعمال جليلة الخطر ، كبيرة الضرر بالعدو ، كانت سببا في أن الأمل قد قوي ، وأن الرجاء قد تحقق ، وأن النهاية قد قربت للتخلص من العدو العنيد . . .
وانتهى المهاجر السياسي من حديثه بقوله :

وأستطيع الآن أن أؤكد أن رمضان قام بالنصيب الوافر في استقلال منطقته ، وتطهيرها من آثار الجور البغيضة . ورسم للشباب طريق الجد والبطولة . وكتب لنفسه في سجل الخلود ، صفحة ناصعة البياض يشع منها ضياء الوطنية ، وتطالع فيها الأجيال المقبلة آيات الشجاعة والإقدام .

رمزي إسماعيل حقي

في ضيافة الأدب العربي :

في مقبرة ريفية

[للشاعر الإنجليزي توماس جراي بتصرف]

— ١ —

الظلامُ الرهيب يطغى على الكو
ن كجيش يسدُّ عرض الفضاء
خام فوق القبور يحمي سُدولاً
حجبتها فما تلوح لراء
حيث أصحابها يتيهون في النو
م سكارى كشاربي الصهباء
سئموا ظلمة القبور فخلْتُ
ظلمة الليل فوقها كالبلاء
لا رونق الصباح يبدو مع الشمـ
ـس وضيئاً كظلمة الحسناء
لا ولا البدرُ حين يسطع في الأ
فق مع الليل نائباً عن ذُكاء
يوقظُ الديكُ كلٌّ غاف على الأر
ض وهم مثل الصخرة الصماء
لا حنينُ الناعورة العذب يُشجيهم
وإنْ هزَّ مسمعَ الجوزاء
كلُّ هذا قد شاهدوه عياناً
حين كانوا في عالم الأحياء

— ٢ —

هذه الأرض منذ عهد قريب
لم تكن غير بُقْعة جرداء
فأتى القومُ بالمحاريث والفأ
س يشقونها بكل اعتناء
يبذرون النبات فيها جنيناً
ثم يعطونها شهيَّ الغذاء
فإذا الأرض بعد وقت يسير
تتراءى كجنة فيحاء !
ويحها لم تصُن جميلاً فألقتْ
قومها في قرارة الظلماء
ثم خانتْ فبددتهم جميعاً
لم يكن عندها أقلُّ الوفاء

— ٣ —

رُبَّ شيخ قضى الحياة مع الريف (٢)
إلى أنْ مضى على الحدباء
كان جمَّ الذكاء لكنْ أبى الحقلُ (٢)
على ما في عقله من ذكاء
دفنوهُ هنا ولو أنصفوه
أودعوه مقابر العظماء (١)
آه لو كان قد تعلَّم حتى
يرفع العلم قدره في السماء
علّه مثل شكسبير نبوغاً
أو كملتون سيد الشعراء
فهو كالدرة الثمينة ضاعت
في القرار السحيق تحت الماء
أو كزهر نما بعيداً عن النا
س فولَّى عبيره في الهواء
قُتل الحظ كيف حارب ذا العقـ
ـل وأرضى الفنان الأغبياء !

— ٤ —

ها هو المضجعُ الوثيرُ معدٌّ
للذي يستريح بعد العناء

(١) كان العظماء في انجلترا حين أنشأ توماس هذه القصيدة سنة ١٧٥٠ م بمدافن خاصة وكذلك أرباب النياشين كما سيلقين بعد .

هو كالواحة الخصيبة يسعى نحوها من يضيق بالصحراء
حلّ فيه جماعة ما استفادوا من لذيذ الحياة غير الشقاء
لا الوسامُ الجميل يسطع في الصد ر جميلا كبسمة العذراء
لا النياشين ضاحكات عليهم كأزاهير روضة غنّاء
رُبّ ذي رُتبة أحالته وحشاً مجرماً لا يملُّ سفك الدماء
كان من قبلها ملاكاً وديعاً فغدا مثل جيفة رقطاء !

— ٥ —

خبّروني ماذا يلوح لعيني فوق تلك المقابر الخرساء
كلُّ قبر عليه لوحٌ عريض مُثقلٌ بالنعوت والأسماء
ينظر الزائر المحب إليه ثم يبكي على الحبيب النائي
كم تكول سمت زورضريحا قد نوى فيه أوحد الأبناء
وصديق يصيح أين صديق كيف أرنو لوجهه الوضاء ؟
يقرأ اللوح ما على اللوح إلا جرات تشب في الأحشاء

— ٦ —

ليت شعري ماذا سيكتب عني حين أغفو في باطن الغبراء
سيقولون عاشق ضيّع العمر وراء الطبيعة الحسناء
يجتلي حسنها الأنيق طروبا حيث تبدو في بهجة ورُواء
في ابتسام الصباح إذ يتجلى في احمرار الأصيل عند المساء
في شطوط البحار والماء ساج في المروج الفسيحة الخضراء
تخذ الكون مسرحاً يتسلى فيه عما به من الأدواء
لا ينال القوت الضروري إلا بشقاء ما بعده من شقاء
قطع العمر في الحياة فقيراً مثل باقي أفرادها الفقراء
يبذل الدمع للحيارى ولكن حتى لم تجد في عينيه قطرة ماء
لم يجد في الحياة غير صديق لاح في ليلها كبدر السماء
كان ريحانة الفؤاد ولكن لهفتا ! قد مضى لدار البقاء

محمد رجب البيومي

(الفكر الجديد)

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٠٨ | الثلاثاء ٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٦٥ — ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٤٦ | السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

خواطـــــــر وآراء

[سفر] صدقى باشا إلى لندن :

كان سفر صدقى باشا إلى لندن مثار تعليقات شتى [م]ن الهيئات السياسية المصرية .

فالسياسيون الذين لا يؤمنون بإمكان الوصول إلى [ت]حقيق مطالب البلاد من طريق المفاوضات الخاصة مع [إ]نجلترا استنكروا هذه الخطوة وعدوها محاولة عقيمة [لل]تفاهم مع خصم عنيد برزت نياته الاستعمارية فى كل [ال]ظروف منذ احتل بلادنا . وهم يصرون على أن الطريق [ال]سليم هو الاحتكام إلى مجلس الأمن واتهام انجلترا [ب]الاعتداء على استقلالنا .

والمعارضون الذين لم يشتركوا فى المفاوضات والذين [غل]ب عليهم سوء الظن بما لابس جوها من مطل وتسويف [ر]أوا هذه الخطوة مظهراً من مظاهر الضعف والاستجداء [م]ن جانب المفاوض المصرى . وهم يرون أن سير المفاوضات [إ]لى اليوم دل على عدم استعداد انجلترا للتزحزح عن موقفها .

ولهذا يرون أن لنا العذر فى طرق أبواب مجلس الأمن لاستعدائه عليها .

ومن المشتركين فى المفاوضات من لا يطمئن تمام الاطمئنان لتشدد صدقى باشا فى إبراز وجهة النظر المصرية ، وهؤلاء يتخوفون من هذه الخطوة ويخشون أن تكون نتيجتها توريط البلاد فى أمور لا ترضاها .

أما سائر من عدا هؤلاء من السياسيين فلا يرون بأساً بهذه المحاولة ، ويرون فيها دليلا على حرص مصر على التفاهم قبل الالتجاء إلى الخصومة والاحتكام إلى مجلس الأمن . وهم يثقون بوطنية صدقى باشا وحصافته السياسية ، ويعتقدون أن اتصاله المباشر بمن بيدهم الأمر فى انجلترا قد يؤدى إلى تقريب مسافة الخلف بين الفريقين والوصول إلى نتيجة عملية ترضى الطرفين .

وليس لنا إلا أن نتمنى للمفاوضين المصريين النجاح والتوفيق فى مهمتهم ، ونعتقد اعتقاداً جازماً أن فى الإمكان إيجاد نقطة يتلاقى عندها الطرفان . ولسنا كبرى الثقة

بنتائج الاتجاه إلى مجلس الأمن ، فقد دلتنا تجربتنا له في كثير من المشاكل السياسية على أنه لا يزال أداة خاضعة للتيارات السياسية التي تسيرها الدول القوية ، وأنه ليس بالهيئة التي تغلب اعتبارات العدالة على رعاية مصالح الأقوياء .

تنفيذ حكم الإعدام في الزعماء النازيين :

وأخيراً تم حكم الإعدام في مجرمي الحرب من زعماء الحزب النازي ، وشنقوا جميعاً ماعدا جورنج الذي تمكن من الانتحار .

وقد أظهرت محاكمة هؤلاء الزعماء أنهم كانوا شديدي القسوة في معاملة خصومهم من أبناء بلادهم وأبناء الشعوب المقهورة وأسرى الحرب ، وأنهم استعملوا في تعذيب هؤلاء جميعاً وسائل وحشية بربرية تتنافى مع أبسط قواعد الإنسانية .

ولابد أن الكثيرين من أبناء الشعوب التي ذاقت ويلات الحروب وتجرعت غصصها قد اغتبطوا لهذا المصير الذي يرون فيه قصاصاً عادلا لمجرمين أقلقوا راحة العالم وسببوا الشقاء للملايين .

ومن المحقق أن المحكمة قد اقتنعت بأن هؤلاء الرؤساء كانوا مسئولين مباشرة عن كثير مما وقع من الاجرام ، وأنهم لم يكونوا مجرد منفذين لأوامر صادرة إليهم ، بل هم كانوا شركاء للدكتاتور الذاهب موجهين للسياسة العليا التي انتهجها الحزب النازي .

ولا يعنينا من أمر هؤلاء سوى النتائج التي ستترتب على هذا الحكم . فهل سيكون رادعاً مانعاً لمن تحدثه نفسه من الطغاة في أية دولة بخرق حرمات الشرائع والقوانين الإنسانية ؟ وماذا سيكون أثره في الشعب الألماني بالذات ؟ هل سيقنعه بألا يمكن أمثال هؤلاء من التحكم فيه والسيطرة على مصايره ؟ هذا ما يترك للأيام المقبلة ، وإن تكن الدراسات النفسية لطبائع الشعوب تدل على كثير من التناقض في منطقها .

إن الواجب على الحلفاء ، بعد هذه الخطوة القصاصية أن تتبعها بخطوات خيرية تعمل على تحسين أحوال الشعب الألماني ومعاونته على السير في الطريق الديمقراطي الصحيح

الصهيونية وزعانفها الخطرة :

ليس كل ما يشكوه العرب من أمر هؤلاء الدخلاء الذين فرضوا عليهم في فلسطين هو أن بلادهم الصغيرة لا تحتمل هذه الجموع الكثيرة وأنهم يزحمونهم في ديارهم ويضيقون عليهم أسباب الحياة الهادئة المطمئنة ، وينزعون منهم المركز الأصيل الذي هو حقهم في تلك البلاد منذ أكثر من ألف سنة . ليس هذا وحده هو مايقلقهم ويقض مضاجعهم ، وهو وحده كاف لذلك ، ولكن أشد ما يقلقهم أن هذه الفئة تدخل هذه البلاد في صورة عصابة دولية منظمة لها تشكيلاتها السرية وأساليبها الغريبة الخطرة .

فهذه الجماعة بعد أن أقامت العالم على الألمان لاضطهادهم إياهم ، وبعد أن كسبوا عطف العالم باعتبارهم أقلية ضعيفة مظلومة ، لم يستنكفوا من أن يقتبسوا من الألمان طرقهم وأساليبهم العنيفة وروحهم العدائية الخبيثة فهم يتذمرون الآن ويتسترون وراء ضعفهم لحشد قواهم وتزويدها بوسائل التخريب والتدمير والإرهاب التي حذقوها على أساتذتهم الذين أذلوهم وأذاقوهم الهوان ليستعملوها في تلك البلاد الوديعة التي كانت أرض الحب والوئام وبقعة سلام للأديان الثلاثة مدى الأجيال .

وإذا مكن لهم في تلك الأرض فسيكونون خطراً على السلام العالمي ومبعثاً للقلق والقلاقل . وقصار النظر من السياسيين الذين يشايعونهم سيفيقون يوما ويرون هذا الخطر الجاثم في أحرج المواقع الستراتيجية ، وسيعلمون عندئذ أن الصهيونية ليست عدو العرب وحدهم ، بل هي عدو الإنسانية جمعاء .

الشخصية الناضجة

لجارنا طفل صغير غريب الأطوار . كلما زرت أباه سعى هو إلى لقائي . وجلس إلى يحادثني ويؤنسني حتى يحضر أبوه . كان ذلك منذ خمس سنوات حين كان هذا الطفل في الرابعة من عمره . أما اليوم فهو في التاسعة . ولكن أسلوبه في الحديث ما زال هو هو . وما زالت خواطره وأفكاره مما يسترعي نظر من يحادثه . فكنت في أول أمري معه أتحدث إليه في أمر لعبه . وأطالبه بأن يطلعني على ما استجد منها . وأن يصف لي آخر ما اشتراه له أبوه . وحدث يوماً أن تدرج بنا الحديث إلى العمل الذي يتطلع إليه حين يكبر ، فقلت له :

هذا أبوك (موظف) في الحكومة كبير ! فماذا تريد أنت أن تكون إذا كبرت ؟ .

فقال : أريد أن أكون (سائق مترو) ! .

فأدهشني هذا الجواب . وضحكت له . وجاء أبوه فقصصت عليه قصة فتاه وما كان من سؤالي وجوابه فتضاحك ، ولكني لمحت أنه لم يسترح إلى هذا الأفق الضيق الذي حلقت فيه نفس ولده الصغير .

ومرت الأيام . وكرت الأعوام . والزيارات تتكرر . والصبي ينمو ويكبر . والأحاديث تجرى بيني وبينه . ورأيتني ذات يوم أقول له :

— والآن وقد ترعرعت وازداد فهمك للأمور . هل مازلت تريد أن تكون (سائقاً) للترام . أم أنك اهتديت بنفسك إلى مهنة غيرها ؟ .

قال الفتى : كلا . لا أريد أن أكون (سائقاً) . ولكني أفضل أن أكون (كونستابل) ! وكانت دهشة جديدة لهذه الإجابة الغريبة . ولم أكن أحمل قول هذا الغلام إلا على أنه هذر أطفال . ما كتفيت من هذه النادرة الجديدة بأن جعلت أتضاحك منها أياماً أنا وأبوه .

ومرض الطفل في العام الماضي مرضاً خطيراً ، نقل من أجله إلى المستشفى حيث أقام عدة أسابيع وهو يتنقل

في الإصلاح الاجتماعي !

كثر الكلام عن مكافحة الفقر والجهل والمرض ، ولم يحس الجمهور بعد أثراً فعلياً لهذه المكافحة ، ولعلها الآن في دور الإعداد للخطوات التنفيذية . ثم وضعت تقارير مختلفة عن مشروعات المكافحة وأرصدت لها الملايين . ودعنا من أن مكافحة الفقر لم تتناول المكافحة الأساسية لهذا الداء ، وهي زيادة موارد البلاد وخلق مصادر جديدة للثروة ، واكتفت بتدبيرات علاجية محدودة ودعنا من هذا كله ، ولنقنع معي بما رسم من سياسة ، فهل نطمئن إلى أن هذه المجهودات ستعود على البلاد بفائدة حقيقية ؟

لست مع المتشائمين الذين يرون أن حظ هذه الملايين التي ستنفق في هذا السبيل سيكون حظ غيرها من الملايين التي تنفق على التعليم الإلزامي دون أن يكون لها أثر محسوس . ولكني أشفق من أن لا تجد الحكومة لهذه المشروعات الواسعة كل الأيدي القوية الكافية لتسييرها في الطريق المنتج الصحيح . وأشفق من أن لا تجد الوسيلة لرقابة سيرها مع اتساع نطاقها وتفرق مراكزها . فهل أعدت العدة لذلك ؟

لقد كنت أوثر أن تكون خطوتنا الأولى ضيقة النطاق نركز فيها أقوى عناصر الكفاية لنا ، ونوفر لها كل أسباب الرقابة الكفيلة بسيرها على النهج المرسوم ، فنضع بذلك تقاليد متينة صالحة لهذه العملية تقوم عليها الخطوات التالية . ولكننا مع الأسف لا نملك لهفتنا على الوصول إلى نتائج واسعة سريعة ، وهذه اللهفة مصدر ضعف كثير من حركاتنا الإصلاحية . وفقنا الله لما فيه الخير .

(. . .)

من سيء إلى أسوأ ، حتى كاد ييأس منه أطباؤه . وأخيراً أدركته رحمة الله — لم ينتقل هو إليها . ولكن هي التي جاءته فبدلت عسره يسرا . وآتته من بعد ضعف قوة — فتماثل وخرج من مستشفاه ، وعاد إلى بيتـه . وقضى دور النقاهة . وذهبت هذه المرة لأزوره هو ، لا لأزور والده . فوجدته وقد جمع من في منزله من صغار الخدم . وأضاف إليهم بعض أقرانه الذين يلعب وإياهم في أوقات الفراغ . وصف الجميع أمامه صفاً واحداً ، ثم أخذ يحقن كل واحد منهم في ذراعه بحقنة (زائفة) في يده — كما يفعل الأطبـاء — فسألته ، فقال إنه قد استقر رأيه نهائياً على أن يكون طبيباً . وإنه يمارس منذ اليوم عمله حتى لا يتأخر تدريبه يوماً واحداً عما ينبغي أن يكون !

وكانت هذه الإجابة الجديدة من طراز إجاباته السابقة ، وكنت خليقاً أن أضيف مهنة الطبيب إلى المهنتين الأوليين اللتين وقع عليهما اختيار هذا الصبي ، لولا أني وجدت في هذه الإجابة شيئاً ربطها بحياة الطفل الأخيرة . فإنه كان حديث عهد بالمستشفى وبأطبـائه وبحقنه . وأنه لا بد أن يكون قد رسم لشخصية الطبيب في ذهنه صورة غلبت على كل ما فيه من صور . فرأى في الطبيب ذلك (المثال العالي) الذي يهدف إليه كل طامح ناشيء . ألم يكن هذا الطبيب هو الذي يأمر فيطاع ؟ ألم يكن هو الذي يصف الدواء المر فيتجرعه هو طوعاً أو كرها ؟ ألـم يكن يتحكم في طعـامه فيمنع ويمنح كما يشاء . وكل من في المستشفى من أهل وممرضـين يأتمر بأمره ؟ ثم ألم يكن هـذا الطبيب أخيراً هو الذي أنقذ حياته . ورد إليه روحه بعد أن أوشكت أن تفارقه ؟ .

إني لأعلم أن الأطفال ينظرون إلى أقوى شخص في البيئة المحيطة بهم ويتخذونه نموذجاً أو هـدفاً لهم . وقد يكون هذا الشخص أباهم . وقد يكون أمهم . كما قد يكون أيضـاً أي إنسان آخر يتصلون به في حياتهم . ويرون في صفاته ما يبهرهم . ويشعرهم بقوته وبسطة نفوذه . ولـما كانت (غريزة السـيطرة) من أولى الغرائز التي تتحكم في سلوك الإنسان فإن الطفل يتجه مدفوعاً بقوة هذه الغريزة الفطرية إلى البحث عن (مثاله) في الوسـط الذي يعيش فيه . ثم يعمل على تقليده واصطناع شخصيته .

ولم يكن من الصعب علي في ضوء هذا الخاطر السانح أن أجد تفسيراً لنزعات هذا الصبي الظريف تلك النزعات الأولى التي لم نكن نفهمها في حينها يوم كان يتطلع إلى (سائق الترام) ثم إلى (الكونستابل) على أن كل واحد فيهما يعتبر (مثالا) يحتذى ، و(هدفاً) تهفو النفس إلى إدراك درجته العالية .

فالطفل الذي يركب الترام الأصم الأبكم . ثم يرى سائقه وهو يتحكم فيه ، يسيره متى أراد ، ويوقفـه كيف يشاء ، كل ذلك في غير جهد ولا عنف ، بل باستعمال مفاتيح صغيرة يديرها بأطراف أنامله ، مثل هذا الطفل جدير بأن ينظر إلى هذا السـائق نظرة الإكبار التي تسوغ له أن يتخذ من شخصيته (مثاله) الذي يطمع فيه ويتوق إلى تحقيقه . فإذا ما اتسع بعد ذلك أفق الطفل ، ولاحظ (الكونستابل) الذي يقف وسط الميدان الواسع الذي يعج بالعربات والسـيارات ، وبكل راجل وراكب . حتى إذا رفع يده في وجه هذا الطوفان العريض وقف كل شيء وجمد في مكانه لتسيل أودية المرور في جهات أخرى ، كان الطفل خليقاً بعد ذلك أن يرى في هذا (الكونـستابل) هدفه المنشود ، ومثاله القوى الأعلى . أليس سائق الترام نفسه ممن يأتمرون بأمره ويقفون لمجرد إشارته ؟ .

فالأمر في إجابات هذا الطفـل الأول لم يكن هـذراً ولغواً كما اعتاد الناس أن يفهموا . ولـكنه كان جداً جديراً بالملاحظة والتدبر . لأن واجب الآباء الأول وواجب المربين أن لا تفوتهم هذه الاتجاهات المبكرة التي يستطيعون عن طريقها أن يراقبوا نمو الطفل وملاحظة نفسيته . وقد روى بعض أساطين علم النفس أن صبياً سئل مرة عما يريد أن يكون في مستقبل حياته فأجاب :

— إني أريد أن أكون جلاداً !

فاعتبر هذا الجواب دليلا على أن الطفل لا يهتم بالمجتمع بقدر ما يهتم بأمر نفسه وتحقيق نزعاته في الوصول إلى السلطة المطلقة التي يجعله المتصرف في حياة الناس وموتهم ؛ ومن أجل ذلك كان من الواجب تدارك هذا الطفل بالتوجيه الحسن لتحويله من هذا الاتجاه الضار إلى اتجاه آخر يكون فيه نفع الجماعة . وفي تلك الحالة بالذات أمكن تحويل الصبي عن طريق لفت نظره إلى مهمة الطبيب . فإنه هو الآخر قد يتصرف في حياة الناس وموتهم . ولكن رائده في عمله يكون تحقيق النفع لهم ، والعمل على ما فيه خيرهم.

• • •

أذكر أن زميلا لي حدثني منذ أسابيع عن كلام وقع بينه وبين طفله الصغير ترك في نفسه أسوأ الأثر . وجعله يوجس من هذا الطفل شراً كبيرا إذا هو شب وكبر . فإن الصبي فاجأه وأمه بالسؤال الآتي بغير مناسبة ظاهرة :

— أإذا مت يا أبي أنت وأمي ، أفلا أرثكما وأحصل على كل ما عندكما من مال ؟ قال الوالد : فوجمت أنا وزوجتي ، ونظر كل واحد منا إلى صاحبه ، ولم ندر كيف نرد على هذا الفتى الفاجر الذي يريد أن نقضي نحبنا ليثرى هو على حسابنا في هذه السن المبكرة ! وحرنا كيف تسربت هذه الفكرة الشريرة إلى نفسه ، واختلط شعورنا نحوه بشيء من الفتور والنفور .

ولكني أنا — على ضوء ما كنت قرأت في هذا الموضوع — لم أر موجبا لكل هذا الذعر ، وشرحت للوالد كيف أن الصبي لم يكن يفكر قط في الخلاص من والديه وهو يسأل سؤاله هذا . إنما الذي كان يشغل تفكيره هو كيفية الحصول على المال لتحقيق غرض خفي يداعب آماله ، وكان من الواجب على الوالدين أن يتبيناه ثم يوضحا للطفل أن الميراث ليس هو الطريق الوحيد للحصول على المال ، وأن الطامع في المال عليه أن يتعلم ويتثقف ليصبح صانعا أو تاجرا أو زارعا ، فيجمع المال عن طريق مهنته الشريفة المشروعة ، ثم يشتري بهذا المال ما يشاء .

وما كان أشد سروري حين علمت — في مقابلة لاحقة — أن هذا الوالد اهتم بأمر صبيه . فما زال به حتى عرف أنه كان قد ألح على والدته لتشتري له سيارة مما يركبه الأطفال ، ويتلهون بإدارته بأنفسهم . فكانت أمه لا تكتفي برفض طلبه أو بتحويله عنه ، بل كانت تزيد على ذلك أن هذه السيارات غالية الثمن سريعة العطب . وأنه من الخطل بذل المال في شراء واحدة منها . ومن الواضح أن الطفل ليس عنده الاستعداد الواجب لفهم تلك الاعتبارات المالية التي تملأ عقل أمه . لأن كل ما يفهمه الطفل في سنواته الأولى هو أنه السيد المطاع الذي عليه أن يسأل فيجاب ، وأن يأمر فيطاع .

• • •

والخلاصة التي نود تقريرها في هذه الكلمة هي أن الشخصية السليمة الناضجة لن تأتي إلا في أعقاب طفولة سليمة صالحة ، تكوّن فيها (هدف الحياة) تكونا صحيحا سليما . وقد ثبت لعلماء النفس الحديثين أن هذا (الهدف) يبدأ في حياة الإنسان المبكرة وفي عهد طفولته . وأن من أوجب الواجبات على الآباء والمربين أن يدركوا ويتعلموا طريقة تكوين هذا (الهدف) وأن يراقبوا (أهداف) أبنائهم وهي في دور تكوينها . وأهم ما يجب معرفته في هذا الميدان هو العمل على تنشئة الطفل تنشئة اجتماعية ليكبر وهو في حالة انسجام مع بيئته . فليس أضر بالنفس من أن يشب صاحبها نفورا ميالا إلى العزلة . معتلا يعتمد على ذراع أمه أو أبيه . هلوعا يفرق من أول صعوبة تعترض طريقه . ومن المقطوع به اليوم أن من أعوزه شيء من صفات الانسجام مع الجماعة التي يعيش فيها لا معدى له عن أن يشب وهو أحد رجلين . فإما رجل أعجزه نقصه عن السير مع القافلة فهو يقضي حياته بين الجماعة منبوذاً محسوراً . وإما رجل يصطنع الشجاعة اصطناعاً ليغطي بها نواحي النقص في تكوين نفسه ، فينشأ مجرماً يهاجم الجماعة في أموالها وفي أعراضها ليتفادى الظهور فيها بمظهر العاجز الضعيف .

ع . ج

إلى الأصقاع المجهولة

— ١ —

جاكوب فاسرمان كاتب موهوب ، وروائى بارع قدير فى طليعة الروائيين الألمان الذين ذاعت شهرتهم فى الثلث الأول من هذا القرن ، وكتابته لا تتسم كما يبدو لى بالإشراق والصفاء والاتزان ، وإنما تمتاز بالجدية والصرامة والقوة ، فلا يطالعك من صفحاته الروض الناضر أو الصباح البسام ، وإنما تشرف منها على الليل المدلهم والعاصفة العازفة ، وهو لا يكشف لك عن حرية الإنسان وقوته ، ومجده وعظمته ، وإنما يريك مصارعة الإنسان لأحزانه العميقة وهمومه الشديدة ، ومطاردته لأهوائه العنيفة ، وشهواته الملاحة ، وربما كانت قوة شعوره أعظم من قوة فنه ، وهو أقرب إلى طراز يعرون منه إلى طراز جيتى .

وفاسرمان مثل هيني ألمانى من أصل يهودى ، وقد ولد فى فورث ببافاريا فى سنة ١٨٧٣ ، وكانت أسرته تشتغل بالتجارة ، ولكنه نشأ ميالا إلى الأدب وكانت أمنيته أن يصبح كاتبا ، ولم يعجب أسرته هذا الاتجاه الشاذ ، فتخلت عنه ، وتركته يحتمل تبعة اختياره ، ويشق طريقه ويبنى مستقبله . ونشبت معركة شاقة طويلة بينه وبين الفقر ، أعانته زوجته الوفية الصابرة العاطفة على احتمال مرارتها والتمرس بآلامها ، حتى فاز وانتصر فى النهاية ، وأرغم الألمان على العناية بأدبه والاستماع إلى صوته .

ويشعر قارىء قصصه بنفسه القانعة الحادة المعذبة ، وهو عاشق للحياة مفتون بها ، ولكنه فى نفس الوقت كاره لها ناقم عليها ، وهو يعجب بالدافع الأخلاقى الكامن فى الإنسانية ، ولكنه يندد بالفرد وراء أخيذ أهوائه ونزواته ، وهو يؤمن بالفضيلة ولكنه ينشدها فى الحياة فلا يجدها ، ويؤمن بالسعادة ويسعى إليها ولكنه لا يظفر بها . وكتبه تحمل طابع نفسه الثائرة الهتاجة الساخطة المتبرمة ، ولكن هذه النفس رغم ذلك زاخرة بالعطف لمن يستحقه ولمن لا يستحقه . وقد كان فاسرمان بطبيعته من الميالين إلى العزلة والانفراد ، وهذه القصة التى أقدمها لحضرات القراء لون من أدبه يكشف عن مزاجه ويبين اتجاهه . وقد توفى فاسرمان فى سنة ١٩٣٤ :

فى ذلك العصر الثائر يوم كان انقشاع غيابات المجهول عن عوالم جديدة يثير خواطر الناس فى أوربا القديمة كان يعيش فى اسبانيا رجل من الأشراف قد أملق ، اسمه جيرونيمو دى أجويلار ، وكان محباً للتجواب ، مستهاماً بالرحلات والأسفار ، ومنذ أصبحت أعمال كريستوف كولمبس وغيره من الأبطال حديث الأقوام لم يكن له سوى غرض واحد يهدف إليه ولا يتزحزح عن طلبه ، وهو أن يفعل كما فعلوا .

وهو مطلب من السهل التحدث عنه ولكن من الصعب العسير تحقيقه وإدراكه ، وكانت كبرياء جيرونيمو تأبى له أن يلتحق بإحدى السفن نوتياً أو جنديا أو حتى كضابط مساعد . ولأجل أن يكون قائداً حتى لأصغر حملة ، كان لابد أن يكون عنده مال أو أن يكون له أنصار أقوياء ؛ ولما لم يكن فى وسع جيرونيمو سوى أن يعكف على نفسه صابراً بالرغم من أنه كان يقول لنفسه إن كل يوم يمر به يسلبه فرصة لا تعوض ، وكان يقضى لياليه ساهراً مكباً على الكتب القديمة والخرائط الحديثة ، وقد كاد يذهب بعقله الطموح اليائس والتلهف على العمل ، وكان من الصباح إلى المساء ما ينفك يضجر أصدقاءه وعارفيه ، ويجلس فى قاعات استقبال الأعيان والعظماء ، ويقدم الالتماسات والشروح الضافية ، وكلما خاب له أمل اشتد إصراره الجنونى ، وكلما بذل له وعد لا قيمة له ازدادت الرغبة استيلاءً على نفسه وتمكناً منه .

وكان يقسم بأن ما فعله كولمبس الحدث الشهرة ليس بشىء ، ويقول : « إذا أتيح لى أن أصنع ما أشاء فإنى سأعيد كشف الأتلنتيس التى عرفها القدماء ، وأفتح الأقطار التى

بها من الذهب ما هو أكثر مما فى بلادنا من الأحجار التى يرصف بها الطرق ، وأرد إليكم سفنكم موسقة بالكنوز التى تمكنكم من أن تمنطوا أطفالكم الجواهر ليلعبوا بها كما رأيتم فى دار الخزانة الملكية ، ولكن لا تتريثوا أكثر من ذلك فإن ليالى الزمان حبالى يلدن العجائب ! »

وكان يكثر من إرسال مثل هذه الكلمات الملتهبة ، وكانت عيناه السوداوان وهو يتحدث تشتعلان كأنما كانت النيران الجامحة مضطرمة فى نواحى نفسه ، وكان الكثيرون بطبيعة الحال يعتقدون أنه دعى مذاع ، والبعض كانوا يعتقدون أن به مسامن الجن ، ولكن كان هناك فريق من الناس يرون أن الذى يخاطر بإرساله عبر البحار قد يجتنى ثمرة ذلك ، وأن الذى يشعر بأن فى طوقه القيام بالأعمال العظيمة ليس فى حاجة إلى أن يتحدث عنها فى تواضع معلم المدرسة .

وفى ذات يوم دعا الكونت كالنجوس جيرونيمو إلى منزله ، وكان هذا الكونت من الحجاب السابقين المبعدين من البلاط ، وكان غنياً غريب الأطوار ، فلما جاءه جيرونيمو أشار إلى منضدة مليئة بالنقود الذهبية قائلا : « هنا ما يعادل عشرة آلاف بيستا ، ولقد سمعت يا سنيور دى أجويلار من خططك ومقاصدك ، وأنا مستعد لإعطائك هذه النقود لتستعين بها على بلوغ غرضك ، فجهز بها سفينتى النساء هيلينا الراسية فى ميناء قادس ، وأنا أمهلك ثلاثة أعوام ، فإذا لم أسمع عنك شيئاً فسأعتبر أنى قد فقدت السفينة والمال والملاحين ، ولكن إذا عدت خائباً فلن أكتفى باعتبارك ثرثاراً مذاقاً ، بل سأجد الوسائل التى أعاقبك بها على اجترائك وادعائك . »

ومثل هذا الحديث فى أى مناسبة أخرى كان يجعل دم جيرونيمو يغلى ويفور ، ولكنه فى تلك الآونة أشاع فى نفسه السرور العظيم ، وبدون أن ينبس بكلمة أخذ يد الكونت وانحنى وقبلها .

ولم يلبث جيرونيمو الكثير الكلام والذى ينقصه التحفظ وضبط النفس أن أصبح صامتاً رزيناً رابط الجأش . ولما أخذ يشحن السفينة بالرجال والعتاد عرف كيف يفيد مما تعلمه من نجاح وإخفاق الذين سبقوه ، وأظهر فى ذلك من القدرة وحسن الإدراك وأصالة الرأى ما جعل الجميع يثنون عليه . وفى مطالع الخريف كان قد أتم استعداده . وفى صباح وضاح الجبين من أحد أيام شهر أكتوبر أقلعت السفينة مشيعة بهتافات الجم الغفير من الناس ، وقد وقف جيرونيمو على منصة السفينة ثم وثب إلى أعلاها كاللهب ، على حين كانت بلاده ترسل إليه هذه التحية الأخيرة ، ولم يترك وراءه قلباً ينبض بحبه ، ولا شيئاً من حطام الدنيا ولا أصدقاء حتى ولا كلباً ! كان وحيداً مستغرداً ، وكان يعرف ذلك ولا يأسف عليه ، وقد نسج حول نفسه غشاء رؤيا لامعة ساحرة للأبصار ، ولم يكن فى حياته مكان للحب أو العطف .

وانطلقت السفينة تشق طريقها غير مبالية بالرياح ، وكان كل من عليها قد شخصت أبصارهم نحو الغرب الغامض الخفى ، وشعر الجميع حتى الملاحون الغلاظ بأنهم قد سرت فى أجسامهم تلك الرجفة الخرافية حينما أخذت النجوم التى ألفوها منذ نعومة أظفارهم تغور وتختفى ، وقد حذرهم من الأخطار المدخرة لهم منظر السماء الجديدة ، ومظهرها المجهول ، وسحبها المتألقة . . . وكان جيرونيمو وحده لا يفكر فى غير الشهرة التى تنتظره ، وكأنما كان يرصد أحلامه الملك ميداس ويحول رغباته وآماله إلى ذهب وهاج ، لأنه كان يعلم أن الثروة الضخمة التى سيجمعها فى سرور ولهفة هى الوسيلة الوحيدة لنيل الشهرة والضمان الأكيد لكسبها . .

وكان بالسفينة راهب قد قام برحلة عبر المحيط قبل ذلك وحل بجزيرة هسبنيولا ، وكان قد أرسل إلى هناك من قبل الطائفة التى يتبعها للتبشير بالديانة المسيحية وإدخال

أهل الجزيرة فيها ، وطالما تحدث وقد بدت على وجهه أمارات الحزن عن قسوة الاسبانيين وفظاعتهم فى تلك الجزائر الجميلة ، وكيف كانوا يخدعون الأهالى السذج ، ويخونون ثقتهم ، ويغدرون بهم ، وكيف كانوا يحيلون تلك الأقاليم النضرة المزدهرة خرابا بلقعاً بسبب جشعهم الذى لا تشبع نهمته ولا ترتوى ظمؤه ، فكيف تجد كلمة المسيح المخلص طريقها إلى قلوبهم ، وقد جعلت الخيانة والقتل والنهب والسلب ديدن هؤلاء المبشرين المتحمسين لا تبدو إلا فى صورة الرياء والنفاق ؟

وكان جيرونيمو يستمع فى غير اكتراث إلى كلمات الراهب ، ولكن إذا ذكر اسم كولمبس أو أى بحار جرىء آخر من الملاحين الذين خلفوه كان يضغط قبضة يده ويعلو وجهه المستطيل ما يشبه اصفرار الموت .

وفى الأسبوع السادس للرحلة ثارت زوبعة عاتية استمرت أياماً ودفعت بالسفينة بعيداً عن مجراها إلى الناحية الشمالية الغربية ، وقطعت الصوارى وكسرت الدفة ، وكانت السفينة تترنح وتضطرب عاجزة قليلة الحيلة فى مياه بحار لا يعرف مداها . ولما أرسل أحد الملاحين الصيحة المنتظرة فى ذات صباح قائلا إنه قد شاهد الأرض ، اعتقد من فى السفينة أنهم قد نجوا ، ولكنهم نظروا إلى الشاطىء فى خوف ووجل ، لأنهم كانوا يجهلون أين هم ، ولا يعرفون المصير الذى ينتظرهم ، ولما دانوا الشاطىء لحظوا فى رعب الأمواج المزبدة الهادرة المتلاطمة ، وقبل أن يفكروا فيما يعملونه لتلافى هذا الخطر اللاحق ارتطمت السفينة فى صخرة شاهقة ، وسرعان ما امتلأت بالماء ، وكان الموج الجارف قد حمل الملاحين فى بدء الغاشية واختطفهم ، وفقد الآخرون حياتهم وهم يحاولون الحصول على زورق ينجيهم من الغرق ، وفى وقت قصير ابتلع البحر السفينة وملاحيها .

وربما كانت رغبة جيرونيمو القوية الجبارة فى أن يعيش ويعمل هى التى أنقذت حياته ، فإن العناصر نفسها لا قبل لها بمقاومة إرادة أمثاله على حين يهلك حوله الرجال الأضعف منه منة وإرادة ، فقد حملته موجة ضخمة هائلة إلى مسيل من الماء بين شعب من الصخور الصياخيد وقذفت به إلى الأرض ، ولما ثاب إليه وعيه بعد أن ظل حيناً من الزمن فاقد الرشد وجد نفسه محاطاً برجال فى ملابس عجيبة ، وقدم له أحدهم شيئاً ليشربه فى وعاء من النحاس ، وأعانه آخر على القيام ، وساروا به إلى قرية كبيرة ، واستفسروه بالإشارة عن الجهة التى جاء منها ، فأشار إلى ناحية الشرق ، ودنا منه بخطى رزينة متئدة بعض الأشخاص الذين لا يمكن إلا أن يكونوا من رجال الدين ، واقترب منه كذلك قوم قد ازدانوا بالأزهار والثياب الجميلة رجح أنهم من العلية والسراة ، وكانوا يخاطبونه بلغة عذبة رخيمة الحواشى ، وكان يحاورهم بلغة بلاده ويشير إشارات معبرة ، تارة إلى السماء وطوراً إلى البحر وأخرى إلى ثيابه الممزقة . .

وفى اليوم التالى استقدموه إلى مدينة أثارت دهشته شوارعها الجميلة وأسواقها وحدائقها وقصورها وأبراجها وحصونها ، واقتادوه للمثول أمام عرش أمير شاب كان يلبس قباء أبيض اللون تشوب بياضه زرقة مرصعاً بالزمرد ويتنعل خفاً محلى بالذهب ، وحيا جيرونيمو تحية ودية ، ونظر إليه نظرة سارة تشى بحب الاستطلاع الساذج ، وما أدركه جيرونيمو من حياة القوم وسلوكهم أوجد فى نفسه الشعور بالثروة والجمال ، وأفهم أنه لن يعامل معاملة الأسير ، وإنما يعامل معاملة الضيف ، وقادوه إلى منزل قرب قصر الأمير أعد لإقامته .

ولم يعرف جيرونيمو بطبيعة الحال أنه فى بلاد الأزتك الواسعة الرقعة ، المترامية الأطراف ، والتى كانت كل مقاطعة منها تكون مملكة قائمة بذاتها ، ومنها المقاطعة الواقعة على الشاطىء ، حيث استهدف للغرق ، ولم تكن أقدام الأوربيين قد وطئت بعد تلك الأرض ، ولم يعرف كذلك

أي سماء تظله ، وفي بعض الأحيان كان يخال أنه قد نقل إلى كوكب آخر ، وكان كل شيء يبدو له عجيباً سواء في ذلك الهواء الذي يتنفسه أو الملابس التي أعطيت له ، وكل شجرة وكل حيوان وكل من تنظر إليه وكل صوت تسلسل في مسمعه .

وفضلا عن الوحدة التي قضى عليه بها لإقامته بين المتوحشين كما كان يظن ، فقد كانت تستوقد آله فكرة أنه قد حالت بينه وبين بلاده بحار لا يمكن اجتيازها وخوض عبابها ، وكان يلحظ مظاهر الثروة الباذخة حوله بناظر الطامع السلاب ، ويدور في نواحي تلك البلاد العجيبة بعين الغريب وارتياح الغازي المنتصر ، وكانت عنده بمثابة حلم حالم أو صورة ساحرة ، ولقد بلغ غايته ، ولكنه لا يستطيع أن يجني ثمرة مجهوده ، والعالم الذي كشفه سيظل سراً حتى يستطيع أن يوافي بأخباره مليكه وبلاده ، وكان يعتبر نفسه المالك الحقيقي لكل ما يراه حوله وينظر إلى القوم وأميرهم كأنهم خدمه وحشمه ، ولقد أصبح في حوزته كنز لا ينفد ، ولكن القدر الساخر الذي أرغمه على أن يقضي وقته في تقاعد وجمود كان يدفعه إلى اليأس المرير ويجعله يقضي الليالي متضوراً من الألم يرسل إلى السماء التوسلات التي تحوي من ألفاظ الجحود والتجديف أكثر مما تحوي من ألفاظ التقوى والتضرع .

وسرعان ما لحظ أنهم يتجادلون في أمره ، ورغم ما أظهروه له من الود والعطف فقد شعر بأنهم يراقبونه مراقبة متصلة وأن كل خطوة من خطواته تلقى بعناية وانتباه ، وكان بطبيعته قوي الملاحظة وقد زاده البؤس قوة في الملاحظة ، وقد تعلم أن يفهم جانباً كبيراً من لغة القوم ، واثنان من الشبان كانا قد عهد إليهما في حراسته أوقفاه على جلية الأمور ، وفي ذات يوم أدرك أن حوادث عجيبة في طريق الوقوع وأن نهاية خاصة تنتظره .

وكان هناك نبوءة شائعة بين الأزتك مضمونها أن ابن الشمس — وهو إله أو نصف إله — سيجيء من الشرق ليحكمهم ، وبعد مجيء جيرونيمو أخذ الكثيرون يعتقدون أنه هو الذي كان وجوده منظوراً منذ زمن ومن ثم ذلك الخوف والتواضع الذي لحظه في سلوك من كانوا حوله ، ولولا أنه كان دائم التفكير في بلواه وكارثته لشغل ذلك باله واسترعى انتباهه . وكان هناك فريق آخر يخالفون إخوانهم ولا يرون رأيهم في هذا الرجل الغريب ، وكانت حجتهم التي يصولون بها هي أن ابن الشمس لابد أن يظهر في صورة ملؤها البهاء والروعة ، ولا يجيء كهذا الطريد العاجز الذي رمت به الأمواج .

وكان الفريق الأول يردون عليهم قائلين إن مجيئه على هذه الصورة قد يكون حيلة ومكراً من الآلهة ، أما رجال الدين فقد تشبثوا برأيهم في أن جيرونيمو أحد أفراد سلالة مجهولة وأنه بالرغم من ثقافته العالية ووسامته فإنه يجب الحذر من خيانته ، وأن الخطر من ناحية قوم هذا الغريب يهددهم ، وأنه يجب أن يضحى به ويحرق قلبه فوق كتلة من الخشب تكريما لآلهة الحرب .

ورأى الأمير وحاشيته من الأشراف أن واجبات الضيافة لا تتفق مع نصائح الكهنة ، واستمر الخلاف وطال الجدال حتى استدعى الأمير جماعة ممن كان عملهم الفصل في أمثال هذه الأمور وخاطبهم قائلا : « يجب أن نتحرى العدل في الحكم على هذا الغريب ، فإذا كان من أصل مقدس فإنه يجب أن يكون في مستطاعه أن يقدم البينة التي تثبت ذلك ، فما هو الدليل على القداسة عندكم ؟ إني أرى أن دليل القداسة هو القدرة على كبح ذلك الميل الذي يغزو قلوب الرجال ويهيمن عليها وهو حب المرأة فلنمتحنه ونبلوه فإذا فشل في الامتحان كان الحق في جانب الكهنة وإذا صابر واحتمل عاش معنا في أمن وسلام »

ووافق الجميع على رأي الأمير السديد ، وكانوا واثقين من أنه سينفذ خطته في أحكم أسلوب ، ولم يدرك

جيرو نيمو ما كان يدور حول مصيره ، ولكنه أحس الخطر وتوقع الشر ، وهداه مكره إلى أن يتقدم إلى الأمير بطلب ليتبين من حديثه حقيقة الموقف ، ولما ارتمى على قدمي الأمير وسأله بالكلمات القليلة التي تعلمها أن يسمح له ببناء سفينة ، وكان يعلم أن هذا غير ممكن لأن المكسيكيين لم يكن عندهم فكرة عن بناء السفن ولو أن الأدوات الناقصة التي كانوا يستعملونها كانت تمكنهم من الإتيان بالخوارق في البراعة والاتقان ، وكان قلق جيرونيمو وقلة اضطرابه وآلامه الموجعة تجعله يفكر في عمل زورق قد يستطيع على صغره وقلة إتقان صنعه أن يمكنه من الوصول إلى إحدى الجزائر الإسبانية .

فأجابه الأمير في ألفة وسرور : « لأي شيء تريد السفينة يامالينش (وكان هذا هو الاسم الذي أطلقه الأزتك على الغريب الحزين)

فأجاب جيرونيمو : « لكي أعود إلى بلادي » .

فقال الأمير الشاب: « لا تستطيع عمل سفينة تحملك إلى بلادك » .

فأجابه جيرونيمو وقد ثارت رواقده : « مر نجاريك أن يعملوا ما أشير عليهم به وبذلك تبنى السفينة . »

فأجاب الأمير في لبس وغموض دون أن تفارقه رقة حاشيته المعهودة : « لن يكون ذلك اليوم ، ولكن ربما يكون حينما يهل الهلال الجديد » .

وعرف جيرونيمو من فحوى كلام الأمير مدى المهلة التي منحت له لأن الهلال حينذاك كان جديداً ، وشرع من تلك اللحظة يرصد انتباهه ويأخذ حذره ، ولكن من يعلم ماذا كان سيصيبه لولا أنه في ذات يوم وهو يمشي في حدائق الأمير ومعه الخادمان الوكلان بحراسته أنقذ غلاما من مخالب فهد ، وكان هذا الحيوان المفترس قد انطلق من محبسه وهاجم الغلام وأصابه بجروح دامية فهرع إليه جيرو نيمو واستحث الخادمين على استعمال سلاحيهما وأزعج الفهد بصيحاته ، وفي اليوم التالي حضر إلى منزله والد الغلام ، وكان شيخا وقوراً مرتديا ثيابا فخمة ، وشكره شكرا حاراً مؤثراً وأخذ يطيل النظر إليه ثم انحنى فجأة على أذنه وهمس فيها قائلا: « إذا لمست امرأة أيها الغريب هلكت »

وبعد أن حذر هذا الشيخ الأبيض اللحية جيرو نيمو وغادر منزله قتل نفسه لأن ضميره لم يستطع أن يحتمل خيانته لثقة الأمير . وبعد ذلك بأيام قلائل جاء إلى جيرونيمو رسول من قبل الأمير وأبلغه من لسانه هل يرغب في الزواج من إحدى فتيات البلاد ؟ فحنا جيرونيمو رأسه إلى الأرض واكتفى في الرد على هذا العرض بأن هز رأسه في جد ووقار ، وبعد ذلك بساعات جاءه رسول آخر وأعلنه بأن فتاة بارعة الجمال جمة الثراء عريقة الأصل على جانب كبير من الأخلاق الحسنة أرادت أن تكون زوجة له ، وأنه مما يسوء الأمير أن يرفض هذا الشرف وأكد هذا الإصرار والالحاح عند جيرونيمو ما يرمي إليه الأمير فلزم الرفض والتمنع .

ولما استفاق من نومه في خلال الليلة التالية اشتد تعجبه إذ وجد نفسه في غرفة غير الغرفة التي تعود أن ينام بها ، كان الضوء ينفذ إلى هذه الغرفة من أعلاها وكان النقش الذي يملأ الغرفة يضرب إلى الزرقة ، وكانت أرض الغرفة مغطاة بالطنافس وحيطانها مزدانة بالأزهار الناضرة التي كان لعطرها الفواح تأثير خاص في جيرو نيمو ، فقد أنامت عقله وأيقظت حواسه ، وكان للأزتك فن في مزج العطور يكاد يكون لونا من السحر وكانوا يحدثون بذلك تأثيراً كالتأثير الذي تحدثه العقاقير والشروبات المخدرة ، وكانوا يكلفون بالأزهار ويؤثرونها على كل شيء ، وكانوا يقيمون لها حفلات تتزين فيها الناس بالأزهار سواء في ذلك الرجال والنساء والأطفال ويجوبون الطرقات في مواكب حافلة .

(للقصة بقية) علي أدهم

الحديث فى إبادة الحشرات

المعادية للإنسان

يعلم الإنسان قبل التاريخ وبعده الشىء الكثير من عداوة بعض الحشرات للإنسان ، كما يعلم أن بعضها نافع له كالنحل الذى يمده بغذاء قيم . ويحاول الإنسان بشتى الوسائل شن الغارات للقضاء على الحشرات المعادية له ويجهد الكثيرون من البحاث أنفسهم فى الكشف عن مبيد لهذه الحشرات ، ولكنهم لم يتمكنوا فى أى عصر من العصور من الانتصار عليها انتصاراً حاسماً ، لأنها كثيرة التوالد متعددة الحالات ، وبعضها طويل الأجل حتى بغير غذاء ، فضلا من أن العلم لم يكشف عن مبيد لبويضاتها وإن كان من الميسور إبادة الحشرات كملقة وعذراء وحشرة كاملة . هذا بخلاف ضرورة توافر وسائل صحية أخرى للإنسان كالنظافة والمسكن المنيع ضد الحشرات والتجر والطعم وغيرها من المآوى التى يأوى إليها الإنسان المتوافرة فيها كل الشروط الصحية .

والحشرات التى تؤذى الإنسان فى القطر المصرى أهمها الذباب المنزلى والقمل والبراغيث والبعوض وذباب الرمل والبق والصراصير والنمل والقراد والخنافس وذباب الخيل ، وأهم ما تنقله هذه الحشرات من الأمراض هى ما يأتى :

ينقل الذباب المنزلى الحميات التيفودية والباراتيفودية والدوسنتاريا والكوليرا والإسهال والرمد الصديدى وبويضات بعض الديدان المعوية وعدوى الجروح . والحمرة الخبيثة والجدرى وبعض أنواعه تنقل شلل الأطفال .

وينقل القمل : التيفوس والحمى الراجعة وحمى الخنادق

وتنقل براغيث الفيران : الطاعون الدملى والتسمم والتيفوس المتوطن بالجرذان .

وينقل البعوض الأنوفيل والجامبيا : الملاريا وداء الفيل (الفلاريا) ينقله بعوض الكوليكس وينقل بعوض الإيدس الحمى الصفراء وحمى الدنج .

وينقل ذباب الرمل قرحة حلب وحمى الثلاثة أيام .

وينقل القراد الحمى الراجعة ، وينقل القراد نوعاً من التيفوس وهذا فى بعض الممالك كممالك شمال إفريقية والسودان

وأما الصراصير فقد تنقل العدوى للإنسان بأن تحملها على جسمها وأرجلها إلى الطعام الملوث فضلا عن أنها تبرز على الطعام فتعطيه منظراً كريها وتكسبه طعما غير مستساغ ، وهى حشرات شرهة تأكل الميت منها إذا لم تجد ما تأكل ، بل وتأكل أوراق الكتب والجلد والثياب .

ويكفى الخنافس قبح منظرها والنمل والبق من الحشرات المقلقة لراحة الإنسان ورفاهيته ؛ فالأول بانتشاره فى الطعام يضايق الإنسان من حيث التمتع بلذته الكاملة ، والثانى يتغذى على دمه ولدغه لجسمه يحرمه من لذة النوم والتمتع بالراحة .

فهذه هى أسلحة الحشرات التى تشهرها على الإنسان ، وقد جرب عدة أسلحة كلهب النار والشعلة ، واستعمل العرب عود القرح من ألف سنة ولم يستعمل فى العصور الحديثة إلا من سبعين أو ثمانين سنة فى مسحوق كيتنج وغيره من المساحيق فى مكافحة البعوض والبق ويشكل سائل الرش رشاشة كالفنيك والفلت كما استعمل النيكوتين ومركبات البنزين والرصاص والزرنيخ ، وقد ذكر داوود الانطاكى وصفة لمنع توالد البق مركبة من زرنيخ ونوشادر وشحم ، أن يبخر بها المكان عدة أيام والكيروسين للقمل ولم تعمل أيضا حمض السيندريك ومركباته وكذلك الفنيك والكبريت للصراصير ، وكل هذه سامة للإنسان والحيوان ما عدا بعضها كعود القرح .

وأخيراً وفق البحاث فى مصنع جيجى الكيميائى

بسويسرا إلى تركيب مبيد الحشرات قوى فى سنة ١٩٣٩ ، أفشى سر تركيبه للحلفاء فى سنة ١٩٤٢ فى الحرب العالمية الثانية ، حيث كانت الحاجة ماسة إليه وهو د . د . ت . واسمه العلمى ثنائى كلور ثنائى فنيل ثلاث كلور الأثن وكانت أوربا وقتئذ مهددة بالحميات التى ينقلها القمل ولا سيما حمى الخنادق والحمى التيفوسية .

وكان لدى الحلفاء مبيدات عديدة أهمها عود القرح والدرس (Derris) وهما حاصلان نباتيان . ويستخلص المبيد الأول من رؤوس أزهار النبات والثانى من جذور شجيراته ، ويزرع عود القرح فى كينيا واليابان وزرع مؤخراً فى القطر المصرى ، كما يزرع الدرس فى الملايا ، ولكن فى سنة ١٩٤٣ كانت معظم الجهات التى تزرعها فى أيدى أعداء الحلفاء ، ولذلك كان اختراع مبيد الحشرات جديد من أكبر النعم على الحلفاء وبالتالى على العالم لوقاية سكانه من الحميات التى تنتقل بالحشرات ولمكافحتها .

ويمتاز المركب الجديد من المركبات المستخرجة من النبات أو غيره بأنه يمكن تحضيره فى المعامل . والبحث عن مبيد صناعى ليس بحديث بل علماء الكيمياء كانوا يجدون فى اكتشاف مبيدات صناعية تكون ذات درجة سمية عالية للحشرات وغير مضرة بالإنسان والحيوان وأن تكون رخيصة الثمن وخالية من الرائحة الكريهة وسريعة القتل وثابتة أى لا تتلف بسرعة ؛ وقد وفقوا لتحضير مركبات الروتينين ، غير أنها أقل فعلا فى بعض النواحى من المركبات الطبيعية ، والمركب الجديد درجة ذوبانه فى الماء واحد فى عشرة ملايين ويذوب فى المذيبات العضوية كالكيروسين ، ولكن أخيرا وفقوا لتحضير المركب الجديد كما قلنا والذى يعتبر كالجمكسين لها مثله تقريباً ويمتازان من عود القرح بالثبات وأنهما غير طيارين لأنه يلزم أن يستعمل طازجاً وإلا أتلفه الضوء والهواء بينما د . د . ت . والجمكسين ثابتان ويستمران مسممين للحشرات التى تلامسهما لمدة طويلة ، وموضوع هذا المقال الاستعمال المنزلى لمركب د . د . ت .

خواص د . د . ت : د . د . ت . سام للحيوانات ذات الدم الحار ، ولكن بدرجة أقل من مركبات الزرنيخ والنكوتين . ومتوسط الجرعة السامة منه لكل كيلو جرام من الوزن للقط من ١٠٠ إلى ٣٠٠ مليجرام ، وللكلاب من ١٥٠ إلى ٣٠٠ وأكثر من ١٣٠٠ للدجاج و ٢٠٠ للقرد وأكثر من ٣٠٠ للبقر أو الجاموس وأكثر من ٣٠٠ للحصان و ١٠٠٠ للمعز والغنم ومن ٣٠٠ إلى ٥٠٠ للأرانب بينما ثلاث أكسيد الزرنيخ الجرعة السامة منه للأرنب من ١٥ إلى ٣٠ مليجرام وفلورور الصوديوم ٢٠٠ الذى يستعمل لإبادة الصراصير والنمل ؛ فمن هذا نرى أن الجرعة التى تؤدى إلى التسمم والتى تؤخذ بالفم متوسطها للانسان والحيوان من ٣٠٠ إلى ١٠٠٠ مليجرام لكل كيلو جرام من وزن الجسم .

ومن صفاته أنه إذا استعمل بشكل مسحوق على الجلد فلا ضرر منه تقريباً . ولكن إذا استعمل محلولا فى زيت كزيت الكيروسين فهو سام ، ويختزن فى الجسم مع الدهن خصوصاً ويخرج مع اللبن ، وهو مسم للجهاز العصبى . ولذلك كانت من أعراض التسمم به الرعشة كما أن الشفاء من التسمم به سريع . وإذا استعمل بالمقادير الموصوفة لقتل الحشرات فهو غير مضر لصحة إنسان غير أنه إذا استنشقه بكميات كبيرة فهو مسم .

ومن الواجب أن لا يعرض الطعام له وأن يبعد عن طريق الأطفال ، فقد ذكر أن رضيعاً توفى بأمريكا لشربه فنجانى قهوة من محلول المبيد فى الكيروسين (البترول) كما توفى بانجلترا عامل لشربه محلولا مركزا منه .

قتل د . د . ت . فى الحشرات والكائنات الحية :

إن فعل هذا المبيد فى الحشرات قد يتراخى فى سرعته ، ولما لم يجد مستعملوه أن له هذه الخاصية بدأوا يقلقون من أهمية

هذا العقار ، والحقيقة أنه يسبب موت الحشرة بملامسته جلدها ، ويصل إلى مجموعها العصبي ، فضلا عن أنه لا يؤثر من بعد وحينئذ لا يفيد استعماله بالتدخين لطرد الحشرات ، ولذلك يخيب أمل من ينفخون نفختين أو ثلاثا من عفارة بها مخلوط المبيد على سطح حشية في قتل البق الذي بها ؛ ثم إن فعله بطيء بل أبطأ من عود القرح ، فالأول يأخذ من نصف ساعة إلى ساعات لقتل الحشرة ، بينما الثاني يدخل جسمها بسرعة ويلقيها صريعة لتشنجات عنيفة . هذا والمبيد د . د . ت . تتوقف سرعة فعله على نوع الحشرة ويتوقف فعله على طريقة تحضيره ؛ فالذائب أسرع فعلا من المحضر في مسحوق كما أنه أسرع فعلا في الذباب والبعوض عنه في البق والصراصير .

وقد يقتل الحشرة بتعاطيها إياه أيضاً .

وقد يضر بثمار النبات والخضر كاليقطين (القرع) والخيار والفول الأخضر والأذرة الخضراء . وإذا استعمل بكميات كبيرة يقتل الطيور والسمك والأسماك الصدفية وغيرها من الكائنات النافعة ، وقد يؤذي حشرات نافعة كنحل العسل أو الحشرات التي تأكل طفيليات النبات .

وليس من شك في أنه يقتل البعوض والذباب والبق والبراغيث وذباب الرمل التي تنقل المرض للانسان كما رأيت

كيفية استعماله : يستعمل كمسحوق بنسبة من واحد إلى عشرة في المائة مع طلق أو طباشير ، ويعفر بعفارة يختلف شكلها بحسب الغرض من استعمال المسحوق ، فالقمل يستعمل بأن يعفر الرأس والعانة بمسحوق نسبة المبيد فيه عشرة في المائة ، ويدعك الشعر به جيداً ، وتكرر العملية بعد من ثمانية إلى أربعة عشر يوما ، وتعفر الثياب الداخلية لاسيما الثنيات به وقد يكفي لقتل القمل مسحوق نصف في المائة مبيد ؛ ولكن من المستحسن استعمال النسبة العالية لكي تقتل القمل الذي يكون خارجاً من البويضة وقت التعفير ويمكث تأثيره لثلاثة أسابيع .

ويستعمل المسحوق لقتل القراد الذي ينقل أمراضا كالحمى التيفوسية في بعض الجهات وأمراض بعض الحيوانات ولاسيما قراد الكلاب ؛ ففي البيوت تعفر مآوى القراد كالشقوق والفجوات التي في الأراضي الخشبية وغيرها ووزرات الشبابيك والأبواب وأسفل الأثاث ، فيدلك جسم الكلب بربع أو نصف ملعقة شاي منه لمدة ١٥ أو ٢٠ دقيقة ثم يغسل ، ويستعمل المسحوق لقراد الماشية والخيل بأن يعفر الجسم والآذان بعفارة قوية ، ويستعمل المسحوق أيضاً الموجود به المبيد بنسبة خمسة في المائة في الأمكنة التي يعيش فيها النمل كأسفل عتبات الشبابيك والبراويز والبالوعات وأرجل المناضد والكراسي وسطوح الأرفف وكل الشقوق والفجوات . وقد يستعمل محلوله لهذا الغرض أيضاً .

محلول المبيد : ويستعمل كمحلول في الكيروسين (زيت الوقود) بنسبة خمسة أو عشرة في المائة أو كمستحلب مع مذوب عضوي كالزيلين وماء ليسهل انتشاره ويرش من رشاشة ذات ضغط خفيف أو ضغط عال أو من منفاخ ، ويمكن استعمال الأخير المسحوق وخير رشاشة التي تترك بقية من المبيد في المكان الذي تزحف عليه الحشرة أو تأوي إليه المسترع فيتبخر المذيب وتبقى بللورات المبيد ، وفي هذه الحالة يمكن أن يستمر فعالا لمدة من ثلاثة أشهر إلى اثني عشر شهراً . ويمكن استعمال السائل من طائرات أو من قنابل أو بنادق ، وفي الحالتين الأخيرتين يحدث ضباب ، ونصلاحات ضد الذباب والبعوض والحشرات الطيارة في الأمكنة المغلقة غير أنهما لا يمكنان المبيد من اختراق الشقوق والفجوات .

والسوائل بصفة عامة تستعمل لقتل البعوض والذباب بكافة أنواعه ؛ ففي حالة البعوض يكفي محلول أو مستحلب بنسبة خمسة في المائة ، بأن ترش الجدران والسقف والأركان والأمكنة المظلمة والستائر وأسفل الأثاث والأسرة

والأجهزة وألواح الخشب والأبواب وخلف الأمتعة والأمكنة المظلمة والأكواخ والخيام والاصطبلات والقشلاقات والأجران والمراحيض والزرائب والكبارى وأكوام الخشب ، وتنطس الكلات (الناموسيات) فى المحلول وكذلك الثياب فى حالة القمل ، وهذه العملية كافية للوقاية من البعوض لثلاثة أشهر أو أربعة .

ويستعمل المبيد بنسبة خمسة فى المائة لقتل يرقات البعوض فى البرك والمستنقعات ، إما من رشاشات أو بالطائرات ، وكذلك فى المزارع .

وأما الذباب الذى ينقل لنا أمراضاً عديدة كالديزنتاريا والحمى التيفودية والحمرة الخبيثة فإن المبيد يقتله فى مدة من دقيقتين إلى ثمان ، غير أن الذباب المنزلى قد لا يقع فى أقل من ربع ساعة وقد لا يموت فى مدة أقل من ثلاث ساعات أو أربع . وترش الجدران والسقوف وعتبات الشبابيك والمشاجب وكل مكان يأوى إليه الذباب ومحلات صنع منتجات اللبن والزرائب والمجازر والاصطبلات وأسواق السمك ، وفى المنازل حيال المصابيح وغرفة الطعام والمطبخ والمراحيض والستائر وأمكنة بقايا المطبخ وصفائح الزبالة وثلاجها .

وزيادة فعل المبيد يمكن إضافة عود الفرح إليه لكى يلقى الذباب صريعاً فى الحال بنسبة عشرة فى المائة لأن د . د . ت . ينشطه أولا قبل أن يعمل فعله فيتسرب من المكان وكذلك البعوض .

وأما البراغيث : فهو مبيد سريع لها ، سواء كانت براغيث الإنسان أو الحيوان كما يبيد يرقاتها ، فترش الغرف الملوثة بها وأرضها والبسط والحصر ، ويستعمل للأثاث المحشو كالحشيات والمخدات وأكوام السماد المسحوق بنسبة خمسة أو عشرة فى المائة ، وأما يرقات البراغيث فيستعمل لها ١٥ فى المائة وتعفر بالمسحوق ثياب الإنسان وجلود الحيوانات ما عدا القطط لأنها تلعقه .

وأما براغيث الفيران فيرش للقضاء عليها فى المطاعم والمخازن والمصانع والأفران وجحور الفيران وكل مكان تمر منه بمحلول بنسبة عشرة فى المائة ويترك كمية كبيرة منه أمام الجحور ويفضل المسحوق فى هذه الأحوال ، ولا ينصح باستعمال السوائل لجلود الحيوان لأنها قد تلعقه كالقطط .

وأما البق فليس من شك أن هذا المبيد يفوق فى فعله كل المبيدات المعروفة باستعماله بنسبة ٥ فى المائة مع الكيروسين عديم الرائحة ، لأنه أقل ثمناً من حمض السندريك الذى كان يستعمل لهذا الغرض وهو مادة مسممة وخطرة جدا ، ويرش على كل سطح بالمنزل وفى الشقوق والفجوات والأسرة والحشيات والمخدات والبطاطين والبسط والأثاث والجدران وخلف البراويز ووزرات الأبواب والشبابيك والمقاعد فى الملاهى والسكك الحديدية ويبقى فعله ثلاثة أشهر أو أربعة .

أما الصراصير فيستعمل لها المستحلب أو المسحوق بنسبة عشرة فى المائة فى كل مكان تمر به ، وفى الشقوق وحول المواسير وأرجل المناضد والأصونة ، ويترك بشكل خطوط حصار ، ويموت الصرصار فى مدة من يومين إلى ثلاثة ، ويستعمل لكل هذه المسحوق ، وأما أسفل الأصونة ومنضدة الأكل والثلاجات والأرفف فيستعمل لها سائل بنسبة خمسة فى المائة .

وأما الجامكسين فيستعمل أيضا كمسحوق أو مستحلب أو محلول ، وكلاهما مستعملان أيضا كطلاء ، ولكن الاستعمال الأخير محدود الفائدة ، لأنه يجب أن يستعمل مع الطلاء زيت أو غراء ، وهذا قد يحد من سميته ، ويستعمل الجامكسين ضد الجراد والصراصير والبق والقمل والعثة وحشرات الخضر والفاكهة والقراد والنمل وسوس القمح والبراغيث وحشرات الجلود ، ويدخل جسم الحشرة عن طريق الجلد والمعدة والتنفس ، وتهيج الحشرة لدقائق ثم

الرأسمالية شيء
والاستغلال شيء آخر

الرأسمالية والعمل هما الساقان اللتان تتقدم بهما الإنسانية نحو الكمال لا غنى للواحدة عن الأخرى فهما توأمان .

فإذا وقع بينهما خلاف فهو الخلاف الذي يقع بين الأخوين إذا اعتقد أحدهما أن أخاه يأخذ من ثمرة سعيهما المشترك أكثر مما يستحق .

وإذا صور الخلاف بينهما على غير هذه الصورة كان المصور له مغرضا متحجرا غير عادل ولا مصلح .

ولكن هناك شيئاً آخر غير الرأسمالية وغير العمل هو الذي يستحق المحاربة ، ذلك الشيء هو الاستغلال وروحه .

إذا حاولت الرأسمالية أن تستغل ظرفاً تجتازه الإنسانية كظرف الحرب أو المجاعة فعمدت إلى رفع أسعار السلع التي تنتجها بغير مبرر إلا حب الكسب الحرام لم تعد تلك القوة البريئة التي تستند إليها الإنسانية . ولذلك رأينا الحكومات تبادر إلى تحديد الربح ووضع التسعيرة الإجبارية حفظا للشعب من شيطان الطامع ، وتلجأ حتى إلى حبس أصحاب المال وجلدهم .

وإذا جنح العمال إلى الاستبداد بأصحاب المال وحاولوا أن ينالوا من ثمرة العمل أكثر مما يحتمل رأينا الحكومات تبادر إلى التدخل وإعلان التجنيد على العمال حتى تحول بين أطماعهم وبين إفساد النظام الاقتصادي .

قدمت هذه الكلمة حتى لا يحاول أحد أن يقول إني متحامل على الرأسمالية وإنها نزعة يسارية تلك التي تملي هذه الكلمة .

إنها نزعة الإنصاف ، إنصاف الشعب من إحدى القوتين اللتين تسير بهما الإنسانية إلى الأمام .

في مصر غلاء شديد يضايق الأغنياء ، ويرهق المتوسطين ويمتص دم الفقراء .

وقد تدرج هذا الغلاء خلال سني الحرب ، بدأ في ثوب مقابلة زيادة مصاريف الإنتاج وغلاء الوقود وقطع الغيار . ويبدو أن ذلك الثوب كان فضفاضا فاتسع لنمو الغلاء ورفع الأسعار حتى أصبح الغلاء عملاقا جبارا ، ومع ذلك لا يزال يلبس ثوب مقابلة زيادة مصاريف الإنتاج .

ولو أن ذلك الغلاء ، كان في الواقع غلاء قضت به ظروف الحرب لمقابلة مصاريف الإنتاج لما كان هناك محل للشكوى منه ، بل لكانت الشكوى منه ضعفا في الوطنية ومرضا في النفوس .

أما وقد ثبت من ميزانيات الشركات أن أرباحها تضاعفت أضعافا لا ضعفا واحدا حتى إن بعضها ترنح في العام ربحا يربو على رأس المال ، فالقول بأن رفع الأسعار إنما كان الغرض منه مقابلة زيادة مصاريف الإنتاج أصبح قولا هراء ، بل سخرية من عقول الناس .

ليست الرأسمالية هي التي نشكو منها ؛ فالرأسمالية القائمة

تموت ، وتختلف المدة التي تموت فيها بحسب درجة تركيز المبيد ، فالصراصير تهيج دقائق ثم تتشنج في مدة من ثلث إلى ثلثي ساعة وتموت في بضع ساعات .

تحذير : عند استعمال مبيدات الحشرات بكثرة يجب وقاية الأعين بمنظار والوجه بقناع لاسيما في الغرف المغلقة ، وبعد خلع الثياب تغسل بماء وصابون ، والجسم إذا وصله رشاش من السائل . ولا يرش بالسائل فراش الطفل أو لعبه أو الطعام أو الصحاف أو غرف المرضى وهم فيها ، وتغطى جميع أواني الطهي ، وتنقل من الغرفة التي يراد تعفيرها أو رشها ، ولا يخزن المبيد بجوار طعام ، ولا يحفظ في أوان من الصلب لأنه يؤثر فيها ، بل في أوان من الزجاج أو معدن مجلفن .

الدكتور محمد زكي شافعي

بالربح الحلال هى أخت العمل لا يجوز أن يشكو منها أحد ، ولكنه الاستغلال الذى عمدت إليه الرأسمالية هو الذى نشكو منه .

وقد انتهت الحرب وزالت معظم الصعوبات التى كانت تكتنف استيراد السلع زوالا يدعو إلى ورود البضائع ، ولكننا بدأنا نسمع نغمة جديدة هى حماية الإنتاج القومى حتى لا تغلق المصانع ويشرد العمال فتزيد مشكلة العمال العاطلين تعقيدا .

أما حماية الإنتاج القومى فما لا يجادل فى ضرورتها عاقل ، ولكن الحماية لا يجوز أن تفرض إلا لحماية الضعيف المشرف على الفناء ، وأرباح الشركات اليوم تجعل بينها وبين خطر الإفلاس مسافة طويلة ؛ فالشركة التى تربح كل عام ما يوازى رأس المال ليست هى الشركة التى تحتاج إلى الحماية ؛ إنما هى تستطيع أن تخفض أثمان منتجاتها تخفيضا يجعلها قادرة على منافسة ما يرد من الخارج ؛ فإذا هبط الثمن إلى الدرجة التى لا تكفل للشركة ربحا معقولا فى نظر الاقتصاد السليم وجبت المبادرة إلى حمايتها بفرض رسوم على ما يرد من الخارج أو منعه .

أما والحالة كما هى الآن وأرباح الشركات فوق كل ما يقره الاقتصاد السليم فكل ما يقال عن منع الواردات أو فرض رسوم عليها ليس من المصلحة العامة فى شىء .

يجب أن تعود الأمور إلى الحالة الطبيعية أولا ، فإذا عادت إليها فعند ذلك فقط يصح التفكير فى حماية المنتجات المصرية ، وعند ذلك يتحمل المستهلك ما يفرض عليه من أعباء وهو راض لأنه يشعر بأنه يتحمل ما يفرض عليه من أعباء لغاية وطنية سامية هى حماية صناعات الوطن وتشجيع العاملين من أبنائه فى الصناعة .

أما إذا فرض من هذا القبيل شىء ، والحالة كما هى من زيادة أرباح الشركات عن كل ما تطمع فيه المصانع من ربح حلال فى صناعته ، فإن المستهلك يشعر بأنه فريسة لأطماع غير مشروعة ولا غاية الفرض منها أن يثرى أفراد قلائل على حساب شعب يشكو ويشكو المفكرون فيه من تفشى الفقر .

وننتقل من هذه الحماية الجمركية التى لا داعى لها إلى ما هو أثقل على النفس ، أعنى هذه الزيادة الأخيرة التى وضعت على كاهل الشعب برفع أثمان الأقمشة الشعبية بحجة ارتفاع ثمن القطن .

هل هذه الزيادة فرضت لأن شركات النسيج خسرت شيئا من جراء ارتفاع أثمان القطن ؟ نحن نعلم أن أرباح الشركات لا تزال فوق الحد الذى يحلم به الصناع كما قلنا من قبل . فلماذا فرضت هذه الزيادة ؟

الجواب أن الذين يجنون الربح ويجمعون الثروة من وراء هذه الزيادة يستغلون قلة الأقمشة فى العالم واضطرار المستهلك لشراء بضائعهم مهما ارتفع ثمنها ، ثم هم يستغلون نفوذهم الذى مهد لهم السبيل إلى هذه الزيادة فى الأقمشة الشعبية ، فهم بذلك قد أخرجوا أنفسهم من زمرة الرأسماليين الذين نعترف بفضلهم ، وزجوا بأنفسهم فى زمرة المستغلين الذين يحاربهم القانون لولا أن نفوذهم يحميهم من بطش القانون .

ثم إن هناك بجانب هذه الزيادة ظاهرة غريبة يبرأ منها الاقتصاد السليم ، وهى الفرق الذى يبلغ أكثر من الضعف بين سعر القماش الذى يصرف بالبطاقة ومثيله الذى يباع فى السوق الحرة .

فمثلا ثوب الدمور الشعبى يباع بمبلغ ١٣٨ قرشا ، بينما مثيله يباع لمن يستطيع الحصول عليه بالسعر الرسمى بمبلغ ٣٣٠ قرشا .

فإذا فرضنا أن الكمية الشعبية تباع بأصل تكاليفها فكيف يجوز أن تربح الشركة فى الكمية غير الشعبية هذا الربح الفاحش الذى يقرب من جنيهين اثنين فى شىء ثمنه ١٣٨ قرشا .

وإذا فرضنا أن الكمية الشعبية فيها خسارة فإ مبلغها أعني ٢٠٪ من الثمن ؟ هذا على أكثر تقدير ، وإذا فرضنا هذا جدلا فمعناه أن ثوب الدمور الشعبي يتكلف ١٦٥ قرشا ، وأن الشركات تخسر في كل ثوب ٢٧ قرشا تحصل من إعانة الحكومة ومن الكمية الحرة . فلترتفع أثمان الكمية الحرة ٢٠٪ أو ٤٠٪ أعني أن ثوب الدمور في الكمية الحرة يباع بجنيهين على أقصى تقدير فكيف تبيعه الشركات بثلاثة جنيهات وثلاثين قرشا ؟

هذا كله استغلال يجب أن تحاربه الحكومة .

رأينا العمال ينالون في تقرير حقوقهم فأسرعت الحكومة إلى حماية أصحاب العمل منهم .

وها نحن نرى أصحاب الشركات يغالون في تقرير حقوقهم فيجب أن تهب الحكومة لحماية الشعب منهم .

لعلنا لا نطلب ما فيه إرهاق لأحد إذا طالبنا بأن تقف الحكومة من الرأسمالية موقفها من العمال ، موقف الشدة والحزم ، لكي تسير الأمور سيرا حسنا ، ولعل هذه الكلمة تكون منبها لأصحاب الشركات فيعودوا إلى رشدهم .

وإني لأحس أن الأيام التي تعود فيها السلع إلى الوفرة في السوق قريبة ، فليكن لدى أصحاب الشركات من بعد النظر ما يحمل جمهور المستهلكين يعطف عليهم وعلى مصانعهم ليكونوا في صفها يوم يجد المستهلكون في السوق بضائع أجنبية أرخص من البضائع المصرية ، ويكون المرجع في تفضيل البضائع الوطنية رغم غلاء أسعارها على البضائع الأجنبية الرخيصة ضمير المستهلكين ووطنيتهم وتذكرهم أن أصحاب الشركات المصرية كانوا رحماء بهم وقت بؤسهم ومواطنيهم ، فيشترى المستهلكون البضائع المصرية .

أما السعي وراء الربح الفاحش واستغلال حاجة المواطنين فهو سياسة اقتصادية قصيرة النظر ، وإني وقد كنت لا أشترى قبل الحرب إلا ما هو مصرى مهما سادت حالته قد تبدلت اليوم عقليتي وأصبحت بعد هذا الاستغلال الذى جعل أصحاب الشركات في نظرى شرا من الأجانب أصبحت أمقت البضاعة المصرية لأني أرى في شرائها تشجيعا لهؤلاء المستغلين . ولكنى أكتب الآن أناشد هؤلاء المستغلين أن يتدبروا أمرهم فلا يفقدوا السوق المصرية حين تكثر فيها السلع وحين لا يستطيع واحد منهم أن يكتب في إعلاناته الكلمة القديمة المحبوبة (شجعوا الصناعة المصرية) إذ يرد كل مواطن على هذه الكلمة بذكر ما نعانى جميعا من إرهاق أصحاب الشركات لنا .

عريان يوسف سعد

يوم فى حياة تولستوى

الخيوط الأولى من الفجر تلوح من خلال النافذة ، والرجل الشيخ يستيقظ من نومه فى بطء ، ويتلفت حوله فى دهشة ، فيشعر أول ما يشعر بفرحة اليوم الجديد فيصيح : «ها أنذا ما زلت حياً !» . لقد جلس بالأمس إلى مذكراته وعلى ضوء المصباح الخافق كتب تاريخ اليوم التالى ثم أضاف ثلاثة أحرف هى بدء الكلمات الروسية التى معناها «إذا قدر لى أن أعيش» . ثم قام إلى فراشه فاستلقى عليه وقد استسلم لحكم القضاء إذا قدر له أن يغفو بلا صحوة . واليوم ها هى الحياة تدب فى أوصاله من جديد فيا للدهشة ! وها هو يفرض ببديه المتجاعيتين فى هذا الضوء الذى يتزايد من حوله ، ويستنشق فى قوة هذا النسيم الذى يهب تحية وسلاما من عند ربه ، فما أجمل أن يكون المرء حيا يرزق .. ! ويقوم الرجل الهرم من فراشه وهو يشكر الله على نعمه فيرتدى ملابسه ويفتح النافذة ثم يكنس الحجرة ويلقى بقليل من الحطب فى النار التى كادت أن تنطفئ ، فهو الذى يقوم على خدمة نفسه .

ويذهب بعد ذلك إلى حجرة الطعام لتناول طعام الإفطار ، فإذا امرأته وبناته وفريق من الأصحاب قد اتخذوا أماكنهم من المائدة ، وإذا السكرتير يحضر إليه مجموعة مختلفة من الخطابات والكتب والجرائد حملها إليه البريد من كل ركن من أركان الدنيا ، وينظر تولستوى إليها فى وجوم وهو يحدث نفسه : «ضجر وإزعاج ولكنها تسلية على أية حال ! لكم أود أن أكون أكثر خلوة مع نفسى ومع الله ، وأن أنحى جانبا كل هذه الأشياء التى تقلقنى وتربكنى وتحاول أن تجعل منى رجلا مغرورا متبجحا منافقا يسعى وراء الشهرة والصيت . إن خير ما أفعله هو أن ألقى بهذه الأوراق إلى النار ، وهكذا أتجنب إضاعة الوقت وأتخلص من الإطراء الذى يملأنى غرورا» . بيد أن حب الاستطلاع لا يلبث أن يتسرب إلى نفسه فيلقى نظرة سريعة على هذا الخليط من الطلبات والشكايات والاقتراحات ؛ فهذا أحد البراهمة يكتب إليه من الهند يخبره بأنه قد أخطأ فى فهم إحدى العقائد المقدسة ، وهذا سجين يكتب إليه من سجن الإصلاح يقص عليه تاريخ حياته ويسأله النصح والإرشاد ، وهذا طالب يضع أمامه مشكلاته ، وهذا سائل يسأله المساعدة والإحسان ، وكلهم يعلنون فى صوت واحد أن تولستوى هو الشخص الوحيد الذى يستطيعون أن يتطلعوا إليه للغوث والمعونة . وهنا تزداد التجعدات التى على جبهته عمقا ثم يتمتم : «كيف أستطيع أن أمد لهم يد المساعدة وأنا الذى لا يستطيع أن يمدها لنفسه ؟ فها أنذا أضل السبيل يوما بعد يوم وأحاول فى كل مرة أن أخلق سببا جديدا أبرر به احتمالى لهذه الحياة التى لا أعرف لها كنها ، بينما أستخدم كلمات ضخمة من الصدق والصواب أحاول أن أخدع بها نفسى ! ما أغرب هذه الصيحة التى أسمعها من كل جانب : أرشدنا يا أبو تولستوى كيف نعيش ! إن كل ما أعمله كذب وبهتان وإفك وتظاهر ، ولكن ماذا أفعل ؟ إنى لا أستطيع أن أخيب ظن أولئك الذين كلفوا أنفسهم مشقة الكتابة إلى ، فلابد من الرد عليهم» .

ويبدأ فى قراءة الخطابات فإذا به يطيل النظر فى أحدها ويعيد قراءته مثنى وثلاث ، فهذا طالب يقرر فى صراحة قاسية أن تولستوى ينهى عن عمل ويأتى مثله . لقد آن له أن يهجر بيته ويتنازل عن أملاكه للفلاحين ثم يأخذ طريقه إلى الحج فى أرض الله الواسعة . ويتمتم تولستوى : «إن الرجل على حق . إنه يحدثنى بما يحدثنى به ضميرى ، ولكن كيف أفسر له ما لا أستطيع أن أفسره لنفسى ! كيف أستطيع أن أدافع عن نفسى وهو يهاجمنى بسلاحى ؟» ويأخذ تولستوى هذا الخطاب معه ويتوجه إلى مكتبه لأنه يريد أن يرد عليه فى التو واللحظة ، ولكن السكرتير يسرع إليه ليذكره بأن مراسل «التيمز» سيحضر إلى

الغداء وهو يطلب موعدا للمقابلة . وهنا يظلم وجه تولستوى ويصيح : « ماذا يريد منى هؤلاء المراسلون الذين لا يملون من الإلحاح على لقاءاتهم ؟ إنهم ولا شك لا يريدون إلا الخوض فى حياتى الخاصة ، فليس من المعقول أنهم يحضرون ليتلقوا منى آرائى ونظرياتى فهى موضحة أمامهم فى كتاباتى حيث يستطيع كل من له إلمام بالقراءة أن يدرسها إذا شاء » ومع ذلك فهو يستسلم فى لحظة ضعف : « حسنا . حسنا . سأقابله ولكن لنصف ساعة فقط » . غير أنه لم يكد يتخطى عتبة الباب حتى أحس بوخز الضمير : « مالى خضعت مرة ثانية ؟ لقد صرت رجلا أشيب الشعر قريباً من الموت ومع ذلك لم أتعلم بعد كيف أستطيع أن أتخلص من هذا الغرور الذى يفسد على حياتى . فها أنذا أسلم نفسى إلى أولئك الثرثارين . إنى أشعر دائما بالضعف عند ما يحاولون أن يفرضوا أنفسهم على بالقوة . ألن أستطيع أن أمسك لسانى وأخبأ نفسى ؟ اللهم عونك ! »

وأخيرا ها هو وحده بين كتبه وأوراقه ، وها هو يواصل الكتابة فى المقال الفلسفى الذى بدأ فى كتابته منذ أمس ، ولكن القلم يتوقف فى يده بين لحظة وأخرى ويشرد لبه وهو يحدث نفسه قائلا : « كيف أستطيع أن أتحدث عن الله وأنا لم أكون بعد فكرة واضحة عنه ، ولم أجد لنفسى دعامة قوية أرتكز عليها ، ومازالت أفكارى تتبدل من يوم لآخر ؟ . . كيف أستطيع أن أكتب عن الله وعن الحياة كلاما واضحا بسيطا يفهمه الناس جميعا وأنا أتحدث عن أشياء لا يدركها العقل ؟ . إن هذا فوق طاقتى . لقد كنت واثقا من نفسى عند ما كنت أكتب قصصا وروايات عن الحياة كما خلقها الله لا كما يريد أن يصورها رجل هرم مثلى مشوش العقل يجرى وراء الحقيقة . إنى لست بقديس فيجب أن لا أحاول إرشاد الآخرين ، فما أنا إلا رجل وهبه الله حواس شديدة حتى يستطيع بها أن يرى هذه الدنيا أكثر وضوحا . من يدرى ! لعل عندما وهبت نفسى لخدمة الفن كنت أكثر صلاحا وأشد إخلاصاً منى الآن وأنا أحاربه ! » .

ويتلفت تولستوى حوله فى حذر وخوف خشية أن يراه أحد وهو يمد يده إلى الدرج الذى يضع فيه بعض القصص التى يكتبها الآن سرا (فهو قد أعلن أمام الملأ أن الفن إثم وشر) . وتلمع عيناه وهو يقلب صفحاتها ويقرأ شيئا من هنا وشيئا من هناك ثم يحدث نفسه قائلا : « إن الله قد أرسلنى إلى هذا العالم حتى أستطيع أن أصفه ، ولكنه لم يطلب منى معرفة أفكاره . آه ! ما أجمل الفن وما ألذ الخلق ! لقد كنت سعيدا فى الأيام السالفة ، ولو أن الدموع كانت تنهمل من عينى وأنا أصف صبيحة يوم من أيام الربيع فى قصتى (سعادة عائلية) . لقد كانت زوجتى صوفيا تحضر إلى حجرتى بالليل لتعانقنى وقد التمعت عيناها بالحب ثم تجلس لتنسخ القصة وبين الحين والحين تتوقف عن النسخ لتشكرنى . وهكذا كنا نقضى الليل ، بل كنا نقضى العمر كله ونحن فى غبطة وسعادة . ولكنى لا أستطيع أن أتراجع الآن والناس جميعا ينتظرون منى العون والمساعدة فيجب أن لا أخيب ظنهم بل أتابع السير فى طريقى لا أهمل لحظة فأيامى قد أصبحت معدودة . » ويطرق تولستوى قليلا ثم يمد يده فى إحجام إلى القصص فيعيدها إلى مخبئها فى حسرة وأسف ، ويعود إلى مقاله ليواصل الكتابة فى همة لا تعرف الكلل وقد قطب حاجبيه وأطرق برأسه حتى كادت شعرات ذقنه أن تمس الأوراق التى يكتب عليها .

وأخيرا ها هو الظهر قد أقبل فكفى اليوم كتابة . . . ويضع الرجل الهرم القلم ويسرع بالنزول إلى حيث ينتظره الفرس المحبوب فيمتطيه فى خفة ، وإذا هذا الظهر الذى كان منحنيا على المائدة قد استقام وبدا صاحبه أكثر حيوية ونشاطا ، وهو يتبختر بفرسه فى رشاقة القوزاق ، وقد أخذ يتأمل فى جمال الطبيعة الفاتنة من حوله ، هذه الطبيعة التى تبدو فى هدوئها وسكونها أكثر فطنة من هذه الأفكار

والخواطر البشرية فى تلبلها واضطرابها . ويظل تولستوى يعدو فى خفة ومرح إلى أن يشعر بالفرس قد كل من تحته وتعب ، فيعود أدراجه خبباً ، وقد أشرق وجهه وأحس فى قلبه بالسعادة التى كان يحس بها فى صباه وهو يقطع نفس هذا الطريق .

ولكن وجهه يتغير ثانياً عند ما يقترب من القرية ، فقد لاحظ بعين الخبير الماهر أن ها هنا فى وسط المزرعة قطعة مهملة لا يعنى بها ، فالأرض غير محروثة والسور مهدم قد أخذت أخشابه ولا شك لاستعمالها كوقود . ويسرع تولستوى إلى الكوخ ليسأل صاحبه إيضاحاً وتفسيراً ، ولكن امرأة قذرة رثة الثياب عارية القدمين مشعثة الشعر هى التى تفتح له الباب فى ذلة وخنوع وقد تعلق بأسمالها البالية ثلاثة من الأطفال الجياع ، ليس عليهم إلا ما يستر العورة . ويعبس تولستوى فى وجه المرأة وهو يسألها عن هـذا الإهمال الشنيع . فتجيب المرأة فى كلمات متقطعة يتخللها بكاء وعويل : لقد مضى على زوجها ستة أسابيع وهو فى السجن لسرقة الأخشاب ، فكيف لها أن تعنى بشىء فى غيابه . إن رجلها قوى مجتهد فى عمله ، ولكن الجوع هو الذى دفعه إلى السرقة . . . وإنك يا مولاى لعليم بسوء حالنا والصعوبة التى نجدها فى دفع الإيجار نظراً لرداءة المحصول وارتفاع الضرائب . . . ويرى الأطفال أن أمهم تبكى وتستعطف فيمزجون صياحهم بنحيبها . . . ويسرع تولستوى إلى نقوده فيضع شيئاً منها فى يد المرأة ليضع حداً لهذا المشهد الأليم ثم يلوذ بالفرار وقد امحى السرور من وجهه وبدا ساهماً يفكر فى وجوم : « أهذا إذاً هو ما يحدث فى أرضى ؟ لا بل فى الأرض التى تنازلت عنها لامرأتى وأولادى . مالى أستتر دائماً خلف امرأتى وأطفالها ؟ إن تنازلى من أملاكى لها لمهزلة تمثل على مسرح الحياة لخداع العالم ، فها أنذا بعد أن كبرت وتعرفت على ما يبذل الفلاحون من جهد أرى أسرتى الآن مازالت تمتص ما يجمع هؤلاء التعساء من ثروة وغنى ! إنى أعلم تمام العلم أن كل طوبة من هـذا القصر المنيف الذى أسكنه هى من عرق هؤلاء العبيد بل هى لحمهم وعظامهم تحول إلى أحجار . أى حق لى فى التنازل لامرأتى وأولادى عن شىء لا أملكه ؟ يالعار ياليو تولستوى ! أتدعو الناس إلى الخير يوما بعد يوم باسم الله وهذه التعاسة والشقاوة التى من حولك تطل عليك بعيون محلقة كل يوم من الشباك ؟ » ويربد محياه حزناً وحنقاً وهو يجتاز الممر إلى قصره وقد وقف بالبـاب خادمان واحد يمسك له الفرس والآخر ليساعده فى النزول . وينظر تولستوى إليهما مقطب الوجه ويتمتم فى ذهول : « عبيدى . . ! » .

ويبلغ رب البيت باب القصر فإذا المائدة مهيأة للغداء وإذا الضيف والأهل قد اتخـذوا أماكنهم منها فيهز تولستوى لهم رأسه فى بشاشة وكرم، ثم يأخذ مكانه من المائدة فى سكون . ويأتى له الخادم بأطباق الخضراوات والبقول، فهو نباتى لا يأكل اللحم ، ولكن أفكاره تعود به على الرغم منه إلى المرأة الملهوفة التى ألقى إليها بقطعة أو قطعتين من النقود عزاء وسلوى ، فينظر إلى من حوله ويحدث نفسه : « لكم أود أن أبين لهم أنى لا أستطيع أن أحيا هكذا محوطاً بالخدم والحشم أتناول أربع وجبات فى اليوم فى أطباق من الفضة بينما الناس من حولى لا يجدون ما يمسك الرمق . إنهم يعلمون حق العلم أنى لا أطلب منهم إلا تضحية واحدة هى أن يتخلوا عن هذا الترف الذى يتنافى مع المساواة التى يريد الله منا أن نراعيها بين الناس . ولكن امرأتى التى يجب عليها أن تشاركنى أفكارى كما تشاركنى فراشى وحياتى لا أرى منها إلا صدوداً وعداوة . إنها حجر عثرة فى سبيل وعبء يثقل ضميرى ويدفعنى إلى حياة كلها غش وخداع . لقـد كان لزاما على أن أقطع الخيط الذى يربطنى بهم منذ أمد طويل ، فماذا بينى وبينهم ؟ إنهم يفسدون على حياتى وأفسد عليهم حياتهم ، فأنا امرؤ غير مرغوب فيه

عبء على نفسي وعليهم جميعاً » .

وينظر تولستوى إلى امرأته صوفيا أندريفنا فيرى شعرها الأشيب وجبينها المجعد ويرى الهم مرتسما على شفتيها الذابلتين فيرق قلبه لمنظرها الحزين ويتمتم : « ما أشقاها وما أفظع صورتها ! أهذه هى التى ضممتها إلى عروساً ضاحكة ريّنة طاهرة منذ أكثر من خمسة وأربعين عاماً ؟ لقد كانت وقتئذ فتاة فى ريعان الشباب بينما كنت أنا رجلا أثقلته الهموم ، فجاءت إلى وأنجبت لى ثلاثة عشر طفلا أرضعتهم جميعاً ، وحبتنى بحبها وساعدتنى كثيراً فى تأليف الكتب ، فماذا صنعت بها ؟ إنها يائسة بائسة سريعة التهيج على حافة الجنون ، وبناتى ماذا صنعت بهن ؟ لقد سلبتهن مرح الشباب وملذاته ، وأولادى الذين أعلم أنهم يكنون لى البغض والكراهية ! إن هذه المائدة وهذا البيت وهذه الحياة جرعة فى حق الله ، ولكنى أجلس هنا فى هذا الجحيم مستمتعاً مستريحاً بدلا من المضى فى طريقى الذى رسمته لنفسى ، لقد كان من الأوفق لها لو أنى مت ، فها أنذا قد ضللت السبيل وأصبحت لا أعيش طبقاً للمبادئ التى أنشرها على الناس » .

ويمر الخادم بالحلوى والرطبات ، ولكن تولستوى يزيح عنه الطبق الفضى فى حركة غاضبة ، فتسأله امرأته فى توسل ممزوج بالسخرية : « ماذا بها ؟ أليست على ما يرام . أم أنها غالية عليك ؟! » ويجيب تولستوى فى حزم وصرامة : « نعم هذه هى المشكلة . إنها غالية على ، بل غالية جداً » . فيتهم أولاده وتتألم امرأته ، ويفتح المراسل أذنيه وعينيه ليقيد ما سمع وما شاهد .

وأخيراً ينتهى الطعام وترفع المائدة ، فيقترح تولستوى أن يخرجوا للترويض قليلا ، ولكن ما هذا الجم الغفير من الناس أمام القصر ؟ إنهم أصحاب حاجات جاءوا يلتمسون قضاءها من تولستوى ؛ فهذا فلاح يسأل : أحقا أن الأرض ستوزع على الفلاحين ومتى ؟ وهذا حارس الغابة يسأل عن الكون وعن الله فيأمر تولستوى بإعطائه نسخة من كتابه « ماذا نعمل إذاً » وهذا سائل يمد يده إليه فيعطيه قطعة من النقود ، وهكذا . . . ويلتفت تولستوى خلفه ليرى أن الصحفى قد التقط له صورة فى هذا الوضع ، فيظلم محياه ويصيح : « أأخذت إذاً صورة لى ، أنا تولستوى الصالح الذى لا يفتأ يمد يده بالمساعدة ويوزع الصدقات على الفقراء ! إن من يستطيع أن ينفذ إلى أعماق قلبى ليعلم أنى لم أكن فى يوم من الأيام صالحاً ، ولو أنى حاولت مراراً أن أتعلم كيف أكون صالحاً . إنى فى الحقيقة لم أحبب أبداً شيء ، آخر غير نفسى ، وإن كل ما وزعته على الفقراء من مال لا يعادل نصف ما كنت أضيعه على مائدة القمار وأنا شاب فى ليلة واحدة . لقد كنت أعلم أن دستيوفسكى يعانى آلام الجوع والحرمان ومع ذلك لم يخطر لى على بال أن أبعث إليه ببضع مئات من الروبلات تساعده على العيش شهراً آخر . ومع هذا فها أنذا أدع الناس يعظمونى ويبجلونى كرجل تبدو عليه دلائل النبل الحقة ، ولو أنى أعلم طول الوقت أنى لم أضع قدمى بعد على الطريق القويم » .

ويعود تولستوى من رياضته خفيفا نشطاً فيذهب إلى مكتبه يقرأ ويكتب ويراجع إلى أن يحين وقت العشاء فيلحق بالأسرة فى قاعة الطعام حيث يتناولون عشاءهم ، ثم يستمعون إلى قطع موسيقية تهدئ أعصابهم المكدودة وتريح نفوسهم المتعبة .

ويعود تولستوى إلى مكتبه مرة ثانية قبل النوم فقد اعتاد فى كل ليلة أن يجعل من نفسه رقيبا على نفسه يزن الأعمال التى أتاها فى كل ساعة من ساعات اليوم المنصرم ثم يقدرها حق قدرها . ويفتح تولستوى دفتر المذكرات فإذا بعين الضمير تطل عليه من هذه الصفحات البيض التى سيكتب عليها . وهنا يتذكر الفلاحين ويتذكر هذا الفقر الذى جعل من نفسه المسئول الأول عنه ، ويتذكر

يوم الأب

يحتفل الأمريكيون فى ولاياتهم المتحدة ، بيومين عظيمين فى السنة وهما : « يوم الأب » و « يوم الأم » . وليوم الأب قصة طريفة أثبتها على النحو الآتى :

فى ليلة قارسة ، من ليالى شهر مارس ، وفى حجرة صغيرة من حجرات بيت ريفى ، ذاهب فى أحضان التلال ، المحدقة بضيعة سبوكن ، المجاورة لوشنجتن عاصمة الولايات الأمريكية المتحدة ، جلس أب جازع ملتاع ، ومن حوله خمسة صبيان وبنت واحدة . وكان مرآهم يدعو إلى الشفقة والرحمة ، لأن القلق الذى ارتسم على وجوههم الكاسفة ، والترقب الذى أطل من نظراتهم المرسلة تباعاً إلى الباب ، كانا يدلان على أنهم يجهلون أن أمهم التى خرج الناس بها ، محمولة على الأعناق منذ ساعة ، قد ذهبت فى رحلة لا عودة لها منها ، إلى قيام الساعة ، وأخيراً هب أحد الصبيان ، وقد رهقه من التطلع ما ضاق به ذرعه ، وانطلق يعدو إلى الباب ؛ هائماً على وجهه بين الأشجار الملتفة ، والثلوج المتراكمة . فتنبه الأب إلى خروجه ، وتبعه فوجده مستقتلا لا يتزحزح ، فرفعه بين ذراعيه ، وعاد به إلى البيت الموحش القاتم ، وأرقده فى سريره ، وصار منذ تلك الليلة الرهيبة أباً وأما . . لصغاره الستة . . وتتابعت السنون ، وبلغت الابنة كمال البنية والعقل ، وغدت قرينة « جون دود » . وفى سنة ١٩١٠ لحق أبوها رفيقته التى قبرت . وفيما كانت مسز دود تشهد اجتماعاً دينياً ، وكان ذلك فى « يوم الأم » سمعت القسيس يذيع فى تهيب واحترام ، مناقب الأمهات ، وصنائعهن الحسان فى العالم . والحال ذكرت أباها الذى وجدت فى رعايته ، خير عوض عن الأم ، التى حرمها الموت عطفها ، وسلبها نعمة حنانها ، فى طراوة العمر ،

جربه هنا وهناك دون أن يقدم مساعدة لأحد ، اللهم إلا هذه الحفنة الضئيلة من النقود . لقد كان قليل الصبر مع الفلاحين ، عديم الشفقة فى شعوره نحو امرأته ، فليقيد كل هذه السيئات والذنوب فى مذكراته ، ثم يلخص ما كتب فى هذه الكلمات « كسول مرة أخرى . عديم الروح ، لم أقم بعمل طيب كما يجب . حتى الآن لا أستطيع أن أتعلم كيف أحب أولئك الذين يحيطون بى بدلا من حب الإنسانية جمعاء . فاللهم هبنى من لدنك عضداً ! » ثم يكتب تاريخ اليوم التالى والحروف الأولى من الجملة الروسية « إذا قدر لى أن أعيش » وهكذا يكون قد عاش يوماً آخر بأكمله .

ويذهب الرجل الهرم محنى الظهر إلى حجرة النوم ، فيخلع ملابسه وثيابه الثقيلة ثم يتمدد على الفراش وقد أخذ يفكر فى الموت كعادته فى كل ليلة إلى أن تأخذه سنة من النوم . ولكنه يصحو فجأة على وقع أقدام وجلة خائفة فى الحجرة المجاورة فيغادر فراشه فى هدوء ويتطلع من ثقب الباب فى سكون ، فإذا النور مضاء وإذا امرأته تنقب فى أدراجه وتقلب فى أوراقه ومذكراته . إنها تريد أن تطلع على أسرار روحه ولا تريد أن تتركه وحيداً حتى مع نفسه ومع ربه . إنه معرض فى كل مكان لسهام الطمع وحب الاستطلاع حتى فى بيته وفى حياته الخاصة . ويرتجف تولستوى غضباً ويكاد أن يهم بفتح الباب ليعنف امرأته الخائنة التى جعلت من نفسها جاسوساً عليه ، ولكن صوتاً يهمس فى أذنه : « من يدرى لعل هذا امتحان من عند ربك ؟! » . وهنا يسكن غضبه ويعود إلى فراشه فى سكون فيستلقى عليه ، ولكن النوم لا يغلبه لبضع ساعات ، فيظل هكذا راقداً فى الفراش فريسة للشعور وعذاب الشك وآلام الوحدة . هذا الرجل العبقرى العظيم ليو نيقولايفتش تولستوى أنبغ أهل عصره وزمانه .

(من ستيفان زفايج) محمد جمال الدين حسين

فهجست فى نفسها قائلة : « لماذا يحتفل بيوم الأم فقط ، ولا يقام مثل هذا اليوم للأب ؟؟ » واصطلحت أول الأسبوع الثالث من شهر يونيه ، لذكرى ذلك الراعى الأبر ، الذى أحبها حبا ضربته الأبوة مثلا أعلى .. وكذلك أشرقت لأول مرة شمس اليوم الذى أرصد لتكريم « الأب » ، وكذلك كان وليام جاكسون سمارت — ذلك القروى الصالح ، صاحب الشخصية الحلوة المحبوبة ، التى هى قطعة من السذاجة الطاهرة المطلقة ، والإيمان والتقوى ، أكبر حافز على إحياء يوم الأب !! وقد وصفته ابنته بقولها : « إنه كان سمحاً جواداً ، مضيافاً لرجال الدين ، ولم يقترض من أحد شيئاً ما . وقد علمنا أن نتجنب القرض والدين .. وكان يحتج إذا ظهر شىء من حواشى ملابسى الداخلية ، ويألم إذا لم تكن دهاليز البيت وأرضه صقيلة نظيفة ، حرصاً منه على النظام والترتيب » .

وانتشر نبأ يوم الأب فى الأنحاء ، فتداولته خاصة الناس وعامتهم ، وتلقت مسز دود رسائل التحبيذ والإطراء من البلاد القصية ، مثل جواتيمالا ، وسيام ، وكوريا ، معبرة عما أحدثته فى القلوب ، دلالة ذلك اليوم . ومع هذا فإنه لم ينل — لسوء الحظ — حقه من الكرامة والاعتبار فى وطنه ، ولم يلق ما لقيه يوم الأم ، من الحفاوة والإقبال . ولولا باعة السلع الصغيرة ، التى يعلنون عنها بأساليب أخاذة ، ويترقبون لها الرواج بمناسبة ذلك اليوم ؛ لمر دون أن ينتبه إليه أحد فى أمريكا .. وقد ذهب كثيرون من قادة الرأى هناك مذاهب شتى فى تعليل الأسباب التى دعت إلى عدم الاعتداد به ، فقال « بروفسر جالوى » فى كتابه — « الحب والزواج » إن : « محبة الأم — لأسباب طبيعية بولوجية لا يمكن أن توازى محبة الأب .. لأن محبة الأم أقدم بكثير من محبة الأب .. ثم إنها ليست غريزية فيه بل اكتسابية ، ولا تصير قوية عنده إلا حين يفتح لابنه عند مولده ، بابها الذى كان مغلقاً فى نفس الأبوة .. » ويعزو النقاد مثل هذا اليوم ، إلى أسباب وإن لم تكن علمية بحتة ، إلا أنها .. مقبولة .. فيقولون .. إن الآباء هم الذين يتكفلون عادة بمطالب الأسرة والإنفاق عليها ، ولذلك لا يتأخر الواحد منهم من مصارحة ابنه بقوله له فى صوت جهير : « لا يا سيدى الابن .. إننى مستغن من تخصيص يوم لإكرامى ، لأنى لا أستطيع أن أرى الحكمة فى الحصول على ربطة عنق من أجلك ، أو على جورب منك ، حين أجد فى آخر الشهر ، أن ثمنهما الفادح ، قد أضيف إلى حساب .. الخاصة الأبوية ، فى القائمة التى يطالبنى بها ، صاحب المتجر .. » .

تلك لازمة المبادىء الاقتصادية ، التى يركز عليها الأب ميزانيته المالية ، ولا ينى عن ترديدها فى كل مناسبة على أسماع أفراد أسرته ، كما يقول أولئك النقاد متنادرين . أما فى مصرنا ، بل فى الشرق عامة ، فقد استقر الرأى على أن الأم مهضومة الحقوق ، دون الأب ؛ ولذلك ليس ثمة ما يوجب تخصيص يوم لإكرامه وإيفائه ما يستحق من المكافأة ، سيما أنه هو المكلف فى الكل !! فإذا صح هذا ، وكان فيه ما يدل على استغناء الأب عن الجزاء الذى يعجز ذرع الأولاد ، إلا أنهم فى حالة عجزهم عن هذا الجزاء بالفعل — فيجب ألا تعجز عنه نياتهم بالشكر .. ولا شىء أجلب للنعمة ، ولا أشد تثبيتاً لها ، من الاعتراف بالجميل ، وترديد آيات الوفاء ، والهج بالشكر وحسن الذكر .. وحسبنا ما وعد الله به الشاكرين مع استغنائه من الحمد والثناء .. بل حسبنا أن الله تعالى قد أوصى قائلا : « أكرم أباك وأمك » وهى أول وصية بوعد كريم ، ألا وهو ما يكون للأبناء البررة ، من خير وطول عمر على الأرض . ويروى أن الله تعالى شأنه قال لموسى : « يا موسى .. إن من بر والديه وعقنى كتبته باراً .. ومن برنى وعق والديه كتبته عاقاً .. » .

حقاً ليس من ينكر أن منزلة الأم ، متأصلة فى قلب الطفولة ، ولا يستطيع أحد ، بل لا يريد أحد أن ينتزع من قلبه أسمى ضروب المحبة والاكرام والطاعة الواجبة لتلك التى تسلم وديعة الحياة ، للذرارى المقبلة ، وتسهر على طفولتهم وتثبت خطواتهم الأولى . . والله أكرم مسئول أن تبرهن الأمهات فى العالم أجمع ، على صدق استحقاقهن الثقة الغالية المودعة فيهن . . ولكن الأم إلى جانب دورها الخطير المقدس الذى تقوم به ، لا تستطيع إلا أن تشغل حيزاً محدوداً فى دائرة الأب ، ويجد من العسير عليها تأدية ما يؤديه فى تهذيب الأولاد ، وتدريبهم وتنشئتهم على الوجه الأكمل ، وبخاصة فى طور المراهقة ومقتبل الشباب ، وذلك لأن الرجولة تمتاز بسجايا وصفات ، ليس فى مقدور الأم عامة أن تزود بها الأولاد كى تمدهم الإعداد الصالح للحياة ، وتوجههم إلى القيام بأعبائها . . . وها نحن نرى ما يبدو على شبابنا المصرى من الاضطراب والحيرة ، والتخبط والقلق وعدم الاستقرار ، بسبب ذلك التقصير الوالدى العام الناجم عن التفرد والعزلة فى القيام بمهمة التربية . .

وماذا ننتظر من الجيل المثقف بمثل هذه الثقافة التى لا تتفق مراميها وألوانها ونزعاتها ورغباتها ، عند عقلية متحدة وحقيقة واحدة يتكامل فى غرسها الأب والأم معاً ! ؟

ولكى نرضى الحق والضمير ، يجب أن نستعلن مكانة الأب ، فهو السبب فى وجودنا فى هذه الدنيا ، ولذلك لا يسعنا إلا أن نخلص فى محبة ذاك الذى أسبغ علينا تلك العناية السخية الدالة على عظم إدراكه أهمية واجبه .

ونحن فى أثناء مطافنا فى تيه الحياة الترابى نعود إليه بين حين وآخر ، فنجده على الدوام كنبع من الماء العذب الزلال ، فى هجير الصحراء المحرقة . . والرجل الذى يمضى ركائب الكفاح فى معترك الشاق ، ويحمل الأعباء الساحقة فى سبيل توفير سلامتنا روحاً وبدناً ، ويخرج من طوره ويرتفع فوق نفسه ، فيجد كل حرمان فى سبيل راحتنا ، مسرة له وسعادة . . الرجل الذى يلقننا سنن الحياة الحقة ، ويدربنا فى حنو وحزم ، على سلوك سبيل الحق والاستقامة ، تدريباً مرناً لا يغل المشكلات ، ولا يقيد التصرف الحر ، ولا يغشى البصر الصائب بمسائل الحياة المختلفة أو يعجز من حل المشكلات ، والأخذ بمقتضيات الأحوال فى شرف ونزاهة وثبات على المبدأ . . هو « الأب » الذى يقوى فينا الشجاعة المعنوية ، وحكومة النفس فى عزة وإباء وتعقل . . والرجل الذى يتعاضد مع الأم ، على صوغ النفس الغضة ، صيغة حسنة وتصورها على شبه الخالق ومثاله . . هو الرجل الذى يستطيع أن يعطف بسعة صدر على نزوات ابنه وجموحاتها فى عنفوان تلك الشبيبة التى تخشى زلاتها ، وتخاف سقطاتها ، ثم ينظر إليها بعين الخبير المجرب المترفق ، ويبينها له فى صدق وجلاء . والأب الذى يمحض ابنه النصح بروح الاهتمام ، هو الرجل الذى يصير من « سيادته الأبوية » صداقة توحى الثقة ، وتستوجب الإذعان والاحترام ، ويجعل منه رفيقاً أميناً لحداثة ابنه وظهراً قوياً لرجولته ، ومعبوداً كريماً يهون كل بذل فى سبيل المحافظة على سلامته وشرفه ! وحسبه أن يسمع فى ضجيج تلك المعركة الهائلة معركة الحياة التى يتخافت دونها صليل السيوف ، وجلجلة الدروع ، ما سمعه فى معركة بواتييه ، ذلك الملك الفرنسى ، وهو يدافع عن ابنه ، فى حين كان الابن يصد عنه هجمات المغيرين ، ويقول له فى صوت صاف رقيق : « احترس يا سيدى والتفت إلى يمينك ، واحذر ما يأتيك عن يسارك يا أبى » !! هذان صديقان يمثلان حقيقة الأبوة والبنوة ، فى أروع صورها . . وإنى أدعو لكل ابن أن يكون له مثل ذلك الأب ، يهبه من عطفه وعنايته القوة والعزم والقدرة ، كما أدعو لكل أب أن يكون له مثل هذا الابن اليقظ الفادى . . فإنهما الرفيقان المخلصان ، اللذان يتلازمان فى ميدان الصراع الحيوى الخطير ، مستبسلين فى الكفاح غير خوارين تحت عبء الخطر الساحق ،

الأستاذ رمزى !

قطع على حبل أفكارى ذات يوم وأنا طالب فى الثانوية صخب أحدثه نفر من زملائى الطلاب . ولقد رأيتهم يومها يترا كضون ويتصايحون ويقفون فى أمكنة معينة وينتظمون فى شبه حلقة ثم يتفرقون بعدها ليعيدوا تكوين حلقتهم فى مكان آخر . فلما أردت أن أشبع فضولى وأقف على جلية الأمر ، رحت أتتبع حركاتهم وألاحقهم بنظراتى حتى إذا اصطدمت بقامة زميلنا الأستاذ رمزى بين الحشد ، تهالكت على مقعدى وأحسست بوخزات الاستغفار والاستفهام تترا كض وتهرب موغلة فى الابتعاد عنى .

— ما هذه الهرور يا أستاذ رمزى !

— من أين جئت لنا بكل هذا فى هذا الصباح ؟

— أى وحى اصطفاك فى ليلتك السابقة !

كلمات معهودة وأصوات مألوفة اعتدت أن أسمعها فى كل حلقة يتوسطها الأستاذ رمزى وفى يده ورقته المعهودة . وقد كان الأستاذ رمزى هذا — كما اعتاد أن يناديه بعض الخبثاء — زميلنا فى المدرسة ؛ وقد أصفه لك فأقول : إنه شاب غريب الأطوار ، تقف على ذلك أول وهلة من هيئته الزرية وعظام وجنتيه البارزة وعينيه الغائرتين وشعره الأشعث الذى استحكمت بينه وبين المشط عداوة قديمة تمتد أصولها إلى سنين .

دخل إلى الغرفة وسحبنى من يدى فجمعت كتبى وسرت خلفه . ولقد شاءت المصادفات أن يسكن الأستاذ رمزى غرفة مجاورة لغرفتى ، فتأصلت بيننا من جراء ذلك صداقة زعم لكل من صادفه أنها متينة إلى أبعد حد وأنه لا يحسب أن هناك صداقة أخرى فى العالم تستطيع أن تجارى صداقتنا فى الصلابة وقوة الوشائج .

كان لصاحبنا ولع كبير بالكتابة ، ولكن الحظ أو أى شىء آخر لم يكن ليسعفه فى محاولاته ، فكان جل

ولا نا كصين على أعقاب الخذلان المروع . . هذا وقد تقدم مرة رجل إلى سيدنا محمد وقال له : يا رسول الله . . من أبر ؟ فقال : بر والديك . فقال : ليس لى والدان . فقال : بر ولدك . . كما أن لوالديك عليك حقا ، كذلك لولدك عليك حق . وقال أيضاً : «رحم الله والداً أعان ولده على بره ، أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله . . » . ويروى أن الأحنف دخل على معاوية ويزيد ابنه بين يديه وهو ينظر إليه إعجاباً ، فقال : «يا أبا بحر ، ما تقول فى الولد ؟» فعلم ما أراد ، فقال : «يا أمير المؤمنين ، هم عماد ظهورنا ، وثمرة قلوبنا وقرة أعيننا ، بهم نصول على أعدائنا . هم الخلف منا بعدنا ، فكن لهم أرضاً ذليلة . وسماء ظليلة ، إن سألوك فأعطهم ، وإن استعتبوك فأعتبهم ، لا تمنعهم رفدك ، فيملوا قربك ، ويستثقلوا حياتك ، ويتمنوا وفاتك » فقال : «لله درك يا أبا بحر » .

على رسلى . فقد أرسلت النفس على سجيتها فى حديثها عن محامد الأبوة وعن مكان الأب ، ولكنه الحديث الحبيب إلى كل نفس ، الحرى بأن يحضنا على تخصيص يوم فى الشرق لإكرام الأب . كما نرى فرضاً لزاماً علينا أن نقدس فى العام يوماً للأم . ذاكرين على الدوام أن الأم هى قلب الأسرة المحب الخفاق ، كما أن الأب هو رأسها العطوف الحكيم الحازم . وإنى لأرجو أن أفوز بموافقة الرأى العام على أن يكون اليوم الذى سيخصص فى بلادنا لتكريم الأم هو عين اليوم الذى يخصص لتكريم الأب ، ليكون اليوم عيداً للوالدين معاً لأنهما شريكان لا فارق بينهما فى تلك الوحدة الاجتماعية السامية ، التى يريد الله أن يحقق بها أهم غرض من أغراض تدبيره الإلهى ، فى الكون الذى خلقه لهما ! !

« الزهرة »

نتاجه ضعيفاً تهشه الركاكة وقد تحسبه فى أكثر الأحايين مداداً مرسوماً خطته أنامل طفل ، ولـكنه لم يكن ليشعر بذلك ، بل كان على العكس يحس بأنه لا يكتب إلا الجيد الذى يناجز الفهاهة ويشاكس الضعف وعاشى الحبكة .
وكنت أقف على شعوره هـذا من حركاته ونبرات صوته وملامحه عند ما كان يلقى علىّ ما يكتب ، ولم يقصر الأستاذ رمزى صداقته علىّ ، بل خصها أيضاً بيواب المنزل الذى كنت أسكن إحدى غرفه ويقطن الأستاذ رمزى الغرفة المجاورة لها ؛ ولكم أكثر صاحبنا من مجالسة الحاج رسول بواب المنزل ، ولكم بعثر أمامه من أحاديثه وقرأ له من كتاباته وحدثه عن عبقريته التى جشمت النـاس مشقة فهمها ، حتى استطاع أخيراً ، وبعد جهد جهيد أن ينتزع لقب « أستاذ » من فم الحاج رسول بدوره .

مرت الأيام وكأن القدر أراد أن يصنع لهذه الصورة الطريفة إطاراً ينقصها ، فكرس مشيئته لذلك ، فكان أن نزلت بالمنزل « فنانة » تعمل فى أحـد المراقص ، مع وزوجها الذى يساعدها فى عملها .

ولم يشأ الأستاذ رمزى أن يترك هذا الصيد السمين يفلت من يديه ، وبعد محاولات وشتها الذلة وكساها الخنوع من كل صوب استطاع صاحبنا أن يزور الفنـانة وزوجها فى غرفتهما ويعيد عليهما حديثه المعتاد عن فنه ، قصصه ، مقالاته ، أشعاره ، ومسرحياته ، وكان أن ردت له الفنانة الزيارة ، فزاد ذلك من هول المصيبة وجن جنون صاحبنـا وتضاعفت ثقته بنفسه وبإنتاجه السمين .

وكرت الأيام وصاحبنا على عهده يوسع المجال لضيوفه الجدد للتعرف على شخصيته « معرفة صادقة » ويسقط البراقع المتبقية التى كانت تحجب الفنانة وزوجها بعض الشك فى أمر هذا المخلوق الفريد . أجل ! تعرف الضيفان إلى صاحبنا وعقليته « معرفة صادقة » فعادت معاملتهما له وكلامهما معـه لا يختلفان عن معاملة زملائه الطلاب ، إطراء فى غير محله . . كلمات معسولة ملفقة . . تشجيع لغير أهله ، ومن وراء كل ذلك ابتسامات فى الخفاء بين الفنانة وزوجها .

وفى أحد الأيام جاءنى الأستاذ رمزى بقصاصات من الورق قد حشاها هذيانه المعتاد وأسماها « مسرحية أرواح حبيسة » وأخبرنى فى حينه بأنه سيعرضها على زوج الفنانة لتقوم فرقته بتمثيلها على مسرح الرقص الفلانى ، وكان وهو يكلمنى شـديد الحذر بادى الحيطة يتطلع يمنة ويسرة كأنه يطلع قريباً له على سر خطير . ولم أقل له يومها شيئاً فما كان لقول مقام . وجاءنى فى اليوم التالى وأخبرنى بأنه قد نفذ عزمه السابق وعرض مسرحيته على زوج الفنانة فلقى منه تشجيعاً ورحب بفكرته ووعده خيراً . وما انتهى صاحبنا من كلامه حتى لمحته ينهض من مقعده ويذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ولمحت على ملامحه أمارات الحيرة ، وأخذ وجهه يبدو فى كل لحظة بلون ، فأحسست بأنه يعانى اضطراباً داخلياً وصراعاً نفسيـاً مؤلماً ، وسرعان ما تكلم وكشف لى عن دخيلته وباح لى بسره . قال : إنه بدأ يشك فى أمانة زوج الفنـانة وإنه أخذ يغار منذ الساعة على جوهرته التى سلمها إياه بلا تحفظ ولا احتياط ، وذكر أن شكوكه تقوى وتتعاظم كلـما تذكر تلك النظرات المريبة التى كان يتبادلها الزوجان عندما قدم لهما مسرحيته ، ثم تلك الضحكة الخبيثة التى شيعه بها زوج الفنانة لا شك أنها ضحكة الانتصار .

وأخذت الهواجس تشيع فى نفس صاحبنا وتورثه ألماً كبيراً ، وحاولت فى وقته أن أرده عن اعتقاده ، وأبعده من مثل هذه الظنون ، ولـكنه لم يأبه بأقوالى وظل ساهما فترة من الوقت ثم تركنى وانصرف .

وعندما أرخى الليل سدوله أحسب أن طائفاً ألم بصاحبنا فلم يقو على إبعاده ، فنهض من فراشه وخرج من غرفته متوجهاً صوب غرفة الفنانة ، وهو يسير على أطراف أصابعه ، وقد عقد النية على انتزاع مسرحيته من ذلك الناصب بأية

صورة كانت ، وفتح الباب ودلف إلى الداخل بحذر ، وتحسس المكان بيده حتى انتهى إلى المنضدة التي وضعت فوقها مسرحيته التالية فتحسسها حتى اصطدمت أنامله بأوراقها فسحبها برفق وقفل راجعاً ، وقبل أن يبلغ الباب اصطدمت قدمه اليمنى بإناء خزفي فسقط على الأرض ، وانكسر فأحدث ذلك صوتاً أيقظ زوج الفتاة من نومه مذعوراً ، فلما وقع بصره على شبح في الغرفة أخذ يصيح : حرامى ... حرامى .

ولم يقو صاحبنا على احتباس رعدة الخوف في جوارحه ، فانطلق هارباً وهو يصيح كالمخبول . إنها لي .. إنها ملكي لا .. لن أسلمها إليه ، لن أتركه يدعيها لنفسه .. إنها لي .

وانتبهت في تلك اللحظة من نومي وقمت مسرعاً وفتحت باب الغرفة وأردت أن أستوقفه ، ولكنه كان قد جاوز غرفتي إلى غرفته أيضاً . ورأيته يتابع خطواته إلى الشرفة القابلة ولم يكن ليدور في خلد المسكين أن صاحب المنزل قد تركها من غير حاجز ، فهوى على أكداس من الطوب قد جلبها العمال قبل يوم لإصلاح جانب من جدار المنزل ، وتداخلت عظام صدره في بعضها فأحس المسكين بألم هائل ، وأراد أن يتحرك فتدحرج وسقط من مكانه على الأرض وأخذ الدم يسيل من وسطه بغزارة . وكان صوت سقوطه قد جلب انتباه سكان الحي فاجتمعوا عليه والوجوم يطغى على وجوههم ، وفي تلك الأثناء شق سكون الجمع صوت متهدج يصيح : الأستاذ رمزى . الأستاذ رمزى ..
ولم يكن صاحب ذلك الصوت غير الحاج رسول بواب المنزل .

وعلى ضوء المصباح الكهربائي الخافت ، لمح الناس أصابع الفتى وقد تصلبت حول بضع قصاصات من الورق يجمعها غلاف باهت اللون كتب عليه « مسرحية أرواح حبيسة »

نزار الوندارى

الثقافة

AL-THAQAFA

إدارتها : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٠ / ٥٦٣٦٩

العدد ٤١٠ — الثلاثاء ١١ من ذي الحجة سنة ١٣٦٥ — ٥ من نوفمبر سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

محادثات لندن

عاد رئيس الوزراء ووزير الخارجية من لندن في الأسبوع الماضي بعد أن قضيا فيها فترة قصيرة من الزمن اتصلا فيها بالمستر بيفن وزير الخارجية البريطانية وتحدثا إليه في المسائل التي كانت موضع خلاف بين وفد المفاوضات المصري والوفد البريطاني ، وأتاح هذا الاتصال للطرفين أن يطلع كل منهما الآخر على وجهة نظر بلاده في تلك المسائل . وأن يحاولا الوصول إلى حل يقرب بينهما ، والمفهوم أنهما قد انتهيا إلى نتيجة تحقق الرغبات المصرية ولا تتعارض مع وجهة النظر البريطانية ؛ وهذه النتيجة سيعرضها صدقي باشا على وفد المفاوضات المصري ، فإن ارتضاها اتخذت الإجراءات الرسمية لإتمام المعاهدة .

وقد اكتنفت هذه المحادثات مصاعب كثيرة من بداية التفكير فيها إلى آخر مراحلها . فقد أحيطت الفكرة من أول أمرها بجو من التثبيط والتشكيك في جدواها . ولما استقر الرأي عليها تبين أن وزير الخارجية البريطانية مرتبط بموعد قريب للسفر إلى أمريكا ؛ وبهذا سيكون الوقت المخصص لها ضيقاً قد لا يتسع لتبادل الآراء والأخذ والرد فيها . ولم يكد صدقي باشا يطأ أرض انجلترا حتى بدت عليه أعراض المرض مما تعرض له خلال هذه الرحلة الشاقة السريعة من المتاعب ، وتحركت بعض علله القديمة ، فاضطر للاعتكاف وملازمة غرفته للراحة والعلاج ، وخشي أن يكون هذا عائقاً دون مواصلة المحادثات وبذل ما تقتضيه من جهود . وأخيراً لوحق الوزيران بنشاط مضاد تولى كبره فريق من السودانيين أرسلوا الرسائل البرقية والوفود لمحاربة الاتجاه المصري في حل مشكلة السودان ، وهي أعقد المشاكل التي اصطدمت بها سفينة المفاوضات .

وكان يخشى أن تكون هذه العوامل مؤثرة في سير المحادثات تحول دون مواصلتها . ولكن صدقي باشا واجهها جميعاً بثبات وشجاعة ، فأقدم على السفر على الرغم من المثبطات وعلى الرغم من شيخوخته وضعف صحته ، وغالب

المرض ، فلم تمنعه ملازمة غرفته من بذل أقصى ما يستطيعه من نشاط فى تسيير دفة المحادثات ، وعاونه وزير الخارجية وسفير مصر فى لندن فبذلا معه جهودا مضاعفة فى الفترة القصيرة التى كانت محددة لها واستطاع الجميع بذلك أن يقوموا بمهمتهم فى تلك الفترة القصيرة وفى الظروف الشديدة التى أحاطت بهم ، وساعدهم على ذلك ما بدا من الستر بيفن من رغبة صادقة فى الوصول إلى حل لتلك المشكلة .

وأيًّا كانت النتائج التى وصل إليها صدقى باشا فى محادثاته فلا يسع كل منصف إلا أن يحمد له شجاعته ويقدر ما بذله من جهود وما ضحى به من راحة وما عرض له حياته من خطر فى سبيل أداء واجب وطنى اقتنع بأن فيه فائدة لبلاده دون أن يقيدها فى ذلك بقيد أو يربطها بشىء ؛ فقد ترك أمر البت فى قبوله أو رفضه للهيئة المصرية للمفاوضات

أما ما انتهى إليه الاتفاق فلم نعرف بعد تفاصيله ، وإلى كتابة هذه السطور لم تكن هيئة المفاوضات المصرية قد اجتمعت ، فكل ما يعلم عنه هو ما رددته الصحف المصرية والإنجليزية . وأقوال الصحف يجب أن تقابل بشىء من الحيطة والحذر ، فقد يكون بعض ما تنشره لا يصور الموقف إلا تصويرا جزئيا ناقصا ، وقد يكون ما ينشر ملونا باللون الحزبى الذى تعتنقه الصحيفة . لهذا نؤثر التريث وعدم الانسياق وراء المتشائمين أو المتفائلين حتى تنجلى الحقيقة وتعلن التفاصيل الرسمية للاتفاق .

على أننا نستطيع أن نستخلص مما أجمع عليه رواة الأخبار أن الاتفاق قد تم على ما يأتى :

أولا — تحديد مدة جلاء الجيوش الإنجليزية عن مصر بثلاث سنوات .

ثانيا — استبعاد حالة « خطر الحرب » من الحالات التى يجوز فيها لانجلترا القيام باستعدادات حربية فى مصر

ثالثا — جعل مهمة اللجنة المشتركة للدفاع استشارية وتدعى بناءً على رغبة الطرفين .

رابعا — الاعتراف بوحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى مع بقاء النظام الإدارى القائم ومع اتخاذ الوسا[ئل] لرفاهية السودان وترقيته .

وإن صح هذا ولم تكن الصيغ أو التفاصيل مبـ[ـهمة] تحتمل اللبس والتأويل ويضعف جزء منها ما تنطوى عـ[ـليه] الفكرة العامة من معنى ، فإنا نرى فى هذا العرض ما يقر[ب] من الرغبات التى أبداها المفاوضون المصريون . أما [إن] كانت مجرد صيغ كلامية جديدة يحتال فيها على إبراز و[جهة] النظر الإنجليزية القديمة بصورة خلابة — والسياسـ[ـيون] الإنجليز بارعون فى مثل تلك الصيغ — فأكبر الظن [أن] هيئة المفاوضات المصرية لن ترضاها ، وسيعود الموقف [إلى] ما كان عليه .

إن مصر راغبة رغبة صادقة فى حل هذه المشـ[ـكلة] بالتفاهم مع انجلترا ، وهى تقدر ظروفها الخاصة والظرو[ف] الدولية الدقيقة التى تسود العالم فى هذه الأوقات . ولـكـ[ـنها] شبت عن الطوق ، فهى تريد أن يحقق هذا التفاهم استقلا[لها] الكامل وحريتها فى بلادها وضمان مصالحها الخاصة أو[لا] وهى لا تأبى بعد ذلك أن تصان مصالح غيرها من الد[ول] ما دامت لا تتعارض مع استقلالها ومصالحها .

والموقف بيننا وبين انجلترا واضح لا لبس فيه ولا خفـ[ـاء] فهى تحتل بلادنا احتلالا غير شرعى لا مبرر له ، فتؤ[ذى] بذلك شعورنا وتهدد استقلالنا وحرية تصرفنا فى شـ[ـئوننا] الداخلية ؛ ويجب وضع حل عاجل سريع لتلك الحالة البغيـ[ـضة] ومن الخير ما دامت صادقة العزم على الجلاء أن تشرع [فيه] فورا بلا تلكؤ . إنها تعتذر عما يتطلبه نقل القوات وإ[عداد] مواقع جديدة لها من وقت ؛ ولكن الشعب المصرى لا يطـ[ـمئن] لمثل هذه الأعذار ، وقد رأى بعينيه خلال الحرب كيف كا[نت] الجيوش الكبيرة تنقل لمختلف الأقطار فى وقت سريع ، و[قد] يكون تلكؤها فى تسريح تلك القوات أو نقلها ابلا[غ] ناشئا عن الموقف الدولى . ولكننا نعتقد أن جو الحذر و[سوء] الظن الذى يسود العلاقات الدولية جو مصطنع يساعد [على] تلبده بالغيوم بقاء مثل تلك القوات فى مثل تلك المواقـ[ـع]

أقدمت انجلترا على خطوة نقل تلك الجيوش لأرضها
تسريحها لساعد ذلك على تبديد الغيوم التي تخيم على الجو
ولى . وفضلا عن ذلك فإن الحرب الماضية قد دلت على
بقاء قوات متناثرة في مواقع متباعدة لا يغنى أمام
ساليب الحربية السريعة ، وأن الضمان الحقيق هو وجود
ة مركزية كافية وتوفر وسائل نقلها بحيث يمكن نقلها
ان العمل بسرعة .

أما ما نراه من عجزنا عن الدفاع عن بلادنا أمام مغير
ى وحاجتنا لسند قوى يساعدنا على الوقوف أمامه فنحن
أننا لا نزال بحاجة إلى تكوين قوة دفاعية قادرة على
ات أمام أى مغير حتى تردنا النجدة من مجلس الأمن
من الدولة التي تتفق مصلحتها مع صيانة استقلالنا .
ن صادقو العزم على تكوين هذه القوة في أسرع وقت ،
نرى خطرا عاجلا يخشى علينا منه في فترة الاستعداد ،
هذا فإلى أن ينظم مجلس الأمن وسائل الدفاع عن أمم
ض ، لا نرى بأسا بأن نكون على اتصال بإنجلترا في
هذا الدفاع عن بلادنا ما دامت مصلحتنا تتفق مع حماية
سلامتها . ولكننا لا نريد أن يكون ثمن هذا الاشتراك
استقلالنا وحريتنا وإلا كنا نفر من خطر وهمى إلى
اء فعلى على استقلالنا .

إننا نرحب بالتفاهم مع انجلترا على اشتراك وسائلنا
الخاصة في الاحتياط والدفاع ، ونرحب بتنسيق جهودنا في
ذلك مع جهودها ، ولكن على أن يكون ذلك بمحض حريتنا
واختيارنا لا أن تفرضه علينا بقوتها ومكانتها الدولية العظيمة .

ونحن نرحب بمعاونتها لنا في حالة الحرب ، ولكنا
لا نقبل أن تورطنا معها في حروبها التي لا تتصل بنا ، ولا
نسمح لها بأن تتخذ من رغبتنا في المعاونة وسيلة لنزول
بأرضنا كلما لاح لها خطر وهمى أو حقيق ، فبقاء مثل هذا
الحق تهديد دائم لاستقلالنا ووضع لمصايرنا بيد غيرنا .

أما السودان فيجب أن يكون مفهوما أننا لا نبغى
فيه تسلطا وحكما ، وإنما ننشد استقلاله وتمتعه بما يتمتع به
سائر وادى النيل من حرية ، والسيادة الشرعية التي نؤكدها
هي سيادة السودان نفسه الذي يتألف منه ومن مصر
وحدة حقيقية في المصالح واللغة والدين . وعوامل التفرقة التي
يبثها دعاة الاستعمار الإنجليزى والخوارج الذين يحركون
بدعوى الرغبة في الانفصال ، إنما هم أذناب مأجورون
لا يريدون استقلالا حقيقيا ، وإنما يريدون انفراد بريطانيا
بالحكم في بلادهم ليحققوا بذلك مآرب صغيرة . ونحن
مطمئنون لروح سواد الشعب السودانى واثقون من حرصه
الشديد على الوحدة ، وستظهر الأيام صدق ظننا .

(. . .)

اقتراح صغير خطير :

ثلاث سنوات لا خمس !

نظرة واحدة إلى السنوات الماضية تكشف لنا عن حقيقة فذة لا أظن أن لها مثيلا في بلاد كثيرة . فقد توالى على البلاد فيما بين عام ١٩٣٨ وعام ١٩٤٦ عدد من الحكومات يبلغ مثل عدد السنوات تقريباً . ولكل من يشك في هذه الحقيقة أن يعد على أصابعه أسماء الوزارات واحدة بعد واحدة منذ وزارة المغفور له محمد محمود باشا عام ١٩٣٨ إلى وزارة صدقي باشا الأخيرة عام ١٩٤٦ . وإذا رجعنا إلى ما قبل ذلك وجدنا هذه الظاهرة نفسها تقريباً فيما بين عام ١٩٣٠ وعام ١٩٣٧ .

فالحقيقة التي يدل عليها هذا الاستقراء هي أن الوزارات كانت ولا تزال تتوالى على الحكم سريعاً بحيث لا يبلغ متوسط حكم الوزارة الواحدة أكثر من عام واحد تقريباً . وهناك ظاهرة أخرى تدل عليها تجارب السنوات الماضية أيضاً ، وهي أننا لم نر يوماً أن وزارة من الوزارات سقطت من الحكم على أثر موقف البرلمان منها . بل إن الذي كان يحدث دائماً هو أن الوزارات هي التي كانت تسقط البرلمانات دائماً . ومن السهل جداً على كل من أراد التحقق من هذا الأمر أن يستعيد في ذاكرته كل الوزارات التي تعاقبت على الحكم ، وير هل سقطت واحدة منها لأنها تقدمت إلى أحد مجالس النواب فعرضت عليه اقتراحاً بالثقة فلما رأت أنه يخذلها جمعت حقائبها وخرجت من الحكم واضعة ذيلها بين أرجلها كما ينبغي . فما لا شك فيه أن كل الوزارات كانت تموت بالسكتة وهي متمتعة بثقة برلمانها ، ثم تأتي بعدها وزارة أخرى تسقط البرلمان القائم وتأتي بغيره على أثر انتخاب جديد .

والظاهر من كل هذا أن طبيعة بلادنا أو طبيعة الظروف التي تجتازها البلاد في هذه السنوات تجعل استمرار الحكم لمدة طويلة متعذراً كل التعذر إن لم يكن مستحيلا . ولسنا بصدد دراسة هذه الأسباب التي أدت إلى قصر مدة الحكم وإلى سقوط البرلمانات بدل سقوط الوزارات ؛ فإن دراسة هذه الأسباب يحيط بها كثير من التعقيد والإبهام وفيها كثير من مواطن الحرج ، فلا حاجة بنا إلى اقتحام هذه المخاطر ، وحسبنا أن ننظر في النتائج أنفسها لعل فيها دلالة تؤدي إلى فائدة . وإنا نعتقد أن هذه الحقائق التي يكشف الاستقراء عنها لها في ذاتها خطورة ينبغي لنا ألا نتجاهلها . هذا هو الشعب المصري ، وهذه هي حكوماته ، وهذه هي الحقائق الثابتة التي لا محل للمكابرة فيها . فماذا تدل عليه هذه الحقائق ؟

إذا كانت البلاد لا تطيق الصبر على وزارة واحدة لمدة تزيد على سنة ، وإذا كانت البرلمانات دائماً تسقط قبل أوانها ولم تستطع يوماً أن تسقط وزارة واحدة ، فمن العبث أن نقلد البلاد الأخرى في دساتيرها ، لأن البلاد الأخرى أطول منا نفساً وأكثر منا استقراراً على دساتيرها ؛ فالأمة الإنجليزية مثلا تستطيع أن تصبر على الحكومة الواحدة لمدة سنوات طويلة قد تزيد على خمس أو ست . ومجلس النواب في انجلترا لا يحل إلا إذا وافاه الأجل المقدر ، ولم تجرؤ وزارة في هذه العصور الحديثة على حل برلمان قائم قبل أوانه . فالدستور الإنجليزي الذي يجعل مدة البرلمان خمس سنوات دستور معقول ، لأنه قائم على هذه الطبيعة الإنجليزية التي تستطيع أن تتحمل الحكم في صبر لمدة طويلة ، والأمة الإنجليزية تستطيع أن تصبر على البرلمان حتى يحين وقت الانتخاب الجديد ، ثم تقلبه إذا شاءت وتختار غيره من نواب يخالفون نواب البرلمان السابق كل المخالفة . فقد استطاعت مثلا أن تصبر على برلمان المحافظين منذ سنوات طويلة حتى انتهت هذه الحرب ، فإذا بها تقلب المحافظين في الانتخابات الجديدة وتأتي بمجلس جديد أكثره من

العمال الذين هم فى الطرف الآخر من المبادئ، المناقضة لمبادئ المحافظين .

فللأمة الإنجليزية العذر إذا كانت تجعل فترة الانتخاب خمس سنوات ، لأن الاستقراء يدل على أنها تستطيع الصبر ؛ ولكنا معشر المصريين لسنا من الإنجليز ولسنا أيضاً من الأمريكيين ، فما السبب الذى يرغمنا على أن نجعل فترة الانتخاب خمس سنوات ؟ هذا هو السؤال الذى حاولت فى كل هذه المقدمات أن أصل إليه . فما دامت ظروفنا العامة وطبيعة أحوالنا وحالة نفوسنا فى الوقت الحاضر تجعل من العسير علينا أن نتحمل حكم الوزارة الواحدة لمدة طويلة ، وتجعل من المتعذر بقاء البرلمان الواحد المدة المعينة له فى الدستور . فلماذا لا نتجرأ ونقلل هذه المدة فيكون ذلك تمشياً مع الحقائق التى حتمت علينا سلوكنا فى هذه السنوات العشرين ؟ فإذا استطعنا أن نجعل فترة الانتخابات ثلاث سنوات مثلا فأنا نعتقد أن حالتنا النفسية تصبر أكثر هدوءاً ؛ لأننا إذا وجدنا أن الانتخابات أسفرت عن وجود غالبية من حزب معين وقامت على أثر ذلك حكومة من ذلك الحزب ، فإن قصر فترة الانتخابات يجعل الأحزاب الأخرى أكثر قبولا للموقف ، لأنها تعرف أن الحزب الحاكم إذا أساء التصرف أمكن التخلص منه بعد مدة قصيرة نسبياً فى الانتخابات الجديدة التى يكون فيها الرأى العام قد وقف على كل أخطاء الحكومة القائمة . فيكون من السهل استفتاء الأمة فى الانتخابات ، وعند ذلك تسنح الفرصة لكل حزب أن يحاسب غيره وأن يتقدم إلى الأمة بحسابه ليستنصر بها على منافسيه . وقصر فترة الانتخاب له فائدة أخرى ، وهى أن الحكومة القائمة تكون دائماً حريصة على تبرير عودتها إلى الحكم فتلتزم جانب الحذر فى تصرفها ، وتتجنب الشطط بكل ما أمكنها .

وهناك فائدة ثالثة ، وذلك أن قصر فترة الانتخاب يحمل المتقدمين للانتخاب على أن يقتصدوا فى تضحياتهم المالية فى سبيل الظفر ، لأن المدة القصيرة لا تستحق كل التضحيات التى تسخو بها نفوسهم من أجل المدة الطويلة .

لكل هذا نقترح على البلاد أن تجد مخرجاً من الأزمات التى تتعرض لها بتعديل فترة الانتخاب وجعلها ثلاث سنوات بدلا من خمس . ولعلها إذا عمدت إلى ذلك التعديل تجنبت تكرار العنف فى حل مجالس النواب ، فإن حلها لا يكون عند ذلك نتيجة شك فى تكوينها ، بل نتيجة الانتهاء الجديد الذى يقصد به الرجوع إلى الأمة فى مدد متقاربة .

وإذا كان بعض الأحزاب التى قد تكون مجالس النواب تخشى أن تضيع منها بعض المقاعد فى الانتخابات القريبة فلعلها تخفف من وقع هذا على أنفسها بأنها سوف تجد فرصة جديدة للرجوع إلى الأمة بعد مدة قصيرة تكون الأمة قد رأت فى أثنائها من أعمال الحكومة الجديدة ما يهديها فى انتخابها المقبل بعد زمن يسير .

أليس هـذا اقتراحاً ممكناً ؟ ألا يمكن أن ينظر قادة الرأى فى البلاد فى تعديل الدستور تعديلا مثل هـذا ، خروجاً من الحرج الحاضر والتماساً لتجربة جديدة قد تكون لهـا فائدة محسوسة فى أحوالنا وربما تهدأ النفوس وتستقر الأمور فنعيد النظر مرة أخرى عندما نرجو أن تكون فترة السنوات الخمس هينة الحمل على النفوس ؟

محمد فريد أبو حديد

الاحتـــلام

– ٢ –

يقف المحتلم حائراً بين مدرستين . تقول له الأولى : حذار فليس الاحتلام سوى تجربة قاسية تستنزف من جسمك البعض إكسير الحياة . وتقول له الثانية : نم على أذنيك ولا تبال . إنها الطبيعة تنساب من بين أخاديد جسمك إلى وادي الأحلام فيخرج الفائض منبوذاً غير مأسوف عليه . والحقيقة أن مشكلة الاحتلام ليست بالقسوة التي تصورها المدرسة الأولى ، ولا بالبساطة التي تتخيلها المدرسة الثانية . ونكون أكثر عدلا إذا أخذنا مكاناً وسطاً بين المدرستين ، واعتبرنا الاحتلام على نوعين ، أحدهما طبيعي والآخر مرضي . وقصة الطبيعي تتلخص في أن بطلها يرى أثناء نومه حلماً شهوانيا يصحبه انتصاب ثم قذف منوي . ويصحو الشخص من نومه عادة أثناء عملية القذف ، ولو أنه يحدث أحياناً أن يظل مستغرقاً في النوم ولا يشعر أنه قد بلل سرواله إلا عند ما يستيقظ في الصباح . ولكي يعتبر الاحتلام طبيعياً يجب أن يحدث بمتوسط مرة في كل عشرة أيام ، وأن يصحبه انتصاب وألا يعقبه أي شعور بالخمود أو هبوط القوى الجسمية ، بل بالعكس قد يبعث حدوثه انتعاشاً في الجسم وشعوراً بالسرور والرضا عما حصل .

أما الاحتلام المرضي فإنه يحدث بمعدل مرتين أو ثلاث في الأسبوع ، وفي معظم الحالات لا يصحبه انتصاب ويعقبه خمول وشعور بالضعف . وإذا أهمل علاجه يزيد عدد المرات ثم لا يلبث أن يقل تدريجياً حتى ينعدم الاحتلام تماما ؛ وذلك — كما فسرنا في المقال السابق — نتيجة إرهاق المراكز الحية والشبكة العصبية المسؤولة من عمليتي الجماع والاحتلام . وقد يظن المريض أنه قد وصل أخيراً إلى بر الشفاء عند ما ينقطع الطارق الليلي الذي طالما أقض مضجعه ، ولكنه يجد نفسه عاجزاً عن ممارسة الجماع الطبيعي ، لأن إضراب الأعصاب كان عاماً شاملا .

وليس من لغو القول — بل هو من طريفه وبديعه وصميمه — أن نذكر شيئاً من نوع الأحلام التي تصحب هذا الزائر الليلي أثناء زيارته القصيرة الفاجئة . ففي الأشخاص الذين سبق لهم ممارسة الجماع يكون الحلم صورة مطابقة لما يحدث في الحياة المادية ، فيحلم الشخص أنه يداعب امرأة ويلاعبها ، ثم يرتد الطرفان كل إلى ركن من السكان استعداداً للنزال ، فإذا ما تخلصا من الأسمال المقوتة هاج منه الغصن وسقطت منها ورقة التوت ، والتفت الساق بالساق وتمت العملية بكل تفاصيلها . . وتطول مدة الحلم عادة في الحالات الطبيعية . أما في الحالات المرضية فإن الأعصاب الثائرة لا تحتمل حلماً طويلا ، وتحدث النهاية الفجمة عند مجرد محاولة الإيلاج ، وكلما تفاقمت الحالة قصر الحلم تبعاً لذلك ، فينتهي أخيراً عند بدء المداعبة بمجرد ملامسة الطيف المحبوب وهو في كامل ملبسه . أما عن شخصية المحبوبة ، فهي غالباً ذات سابق معرفة بالضحية ، كأن تكون حبيبة أو قريبة أو امرأة ملكت عليه حواسه عن بعد دون أن يكون له حظ المعرفة أو الوصال . وقد لا يرى الشخص في المنام امرأة ، بل يرى نفسه يمارس العادة السرية ، بل قد يحتلم دون أن يتذكر أنه رأى شيئاً مادياً يهيج شعوره الجنسي . ويمكننا القول أن من يرى في المنام أنه يجامع سيدة فهو لا بد قد ارتكب هذه الفعلة في حياته المادية مهما أنكر ذلك عند استجوابه في سبيل العلاج ، إلا إذا كان قد استرق السمع والنظر إلى شخصين متلبسين في مكان مكشوف كما يحدث في بعض الحدائق العامة في الخارج ، أو شاهد العملية بحذافيرها في شريط سينمائي كالذي يعرض في أماكن خاصة بباريس وغيرها .

• • •

ولننتقل الآن من احتلام الليـل إلى احتلام النهار ، وهو حدث غير طبيعي ، وينظر إليه الإخصائيون كرض يجب علاجه بعناية . وفي هذه الحالة يتلوث السروال الداخل لمجرد رؤية امرأة أو الاحتكاك بها في مكان مزدحم ، ولا يصحب هذا النوع من الاحتلام في الغالب أى انتصاب ، بل يحدث في الحالات الشـديدة أن يرى المريض قطرات من المنى تنساب من فتحة مجرى البول كلما حاول النظر إليها . ويدخل في نطاق الاحتلام المرضى ذلك النوع الذى يحدث عند التـبرز ، ففي بدء الأمر يكون خروج المنى في حالات الإمساك الشديد الذى يتطلب من الشخص حزقاً لطرد البراز المتجمد ، ثم لا يلبث أن يتكرر حدوثه مع كل تبرز مهما كانت طبيعة البراز ، حتى لو كان ليناً سائلا نتيجة تعاطى مسهل أو ملين ، فيخرج دون بذل أى مجهود ! وهذه الحـالات بالذات هى التى تؤدى إلى عنة مستعصية قد تفشل فيها كل وسائل العلاج . وما قيل عن احتـلام التبرز يسرى على احتلام التبول وهو الذى يعتبر أشد الأنواع وأوخمها عاقبة ، وفي الغالب يحدث الاثنان سويا في الشخص الواحد ، وكأن الصواميل الأمامية والخلفية قد تفككت ، والله المستعان على إرجاعها لطبيعتها .

ويشكو المريض بالاحتلام المرضى من أعراض ، أهمها شعور بالإعياء والكلال عقب خروج المنى ، ويصحو من نومه وقد فقد حماسه نحو النهار المنتظر ، ويشعر وكأنه قد قام بأعمال شاقة طوال الليل أثناء نومه ، فيود لو بقى في فراشه يتقلب يميناً ويساراً حتى يغلب عليه النوم ثانية . وقد يصاب بصداع شديد وألم في العينين ، وثقل في الحصبتين وتنتابه نوبات خفقان في القلب وآلام في الظهر ويتصبب منه العرق وترتعش منه اليدان ، وقد يشكو من ضعف الذاكرة وعدم القدرة على التركيز الذهنى ، وقد يصحب هذه الحالات ألم عند التبول وشعور بالرغبة في الاستمرار في التبول رغم أن المثانة قد أفرغت تفريغا تاما .

***

ولنذكر الآن شيئا عن المستقبل الذى ينتظر هـذه الحالات جميعا . فالاحتلام الليلي الطبيعي حميد في نهايته ، بل هو في الواقع لا عاقبة له . أما احتلام النهار فإنه أسوأ عاقبة ولو أنه يستسلم في نهاية الأمر إلى العلاج الدقيق . ثم يليه في الشدة احتلام التبرز . أما احتلام التبول فهو أسوؤها جميعاً ، إلا أن الحالات التى يخرج فيها المنى مع كل تبرز حتى لو كان سائلا ، كثيرا ما يعقبها ارتخاء مستعص في العضو التناسلي . ومهما قيل عن عواقب المرض أو بولغ فيها فلا خطر منه على الحياة ، وهو لا يؤدى مطلقا إلى الجنون . فصبراً أيها المتناعون البؤساء ، وعزاء يا صديق الطالب البائس الذى كان خطابه المؤثر أكبر دافع لى على طرق هذا الباب .

أما العلاج فمنه الوقائى ويتلخص في إنذار الشاب الذى يدنو من البلوغ ألا يرتاع للتجربة التى قد يمر خلالها ، وألا يعتقد أن خروج هذا السائل الدافق دليل على نضج تناسلى يحتم عليه تطبيقه في جماع طبيعي ليمد نفسه للرسالة التى خلق من أجلها وهى حفظ النسل والرحم . ويحسن تشجيعه في هذا الدور على ما يشغل ذهنه عن الأفكار الجنسية ، كأن يمارس بعض الألعاب ويتغمس في القراءات المحتشمة المفيدة . ويجب أن يتبول قبل الذهاب إلى فراشه لأن المثانة الممتلئة قد تبدأ احتلاما ليليا . وإذا صحا من نومه في الصباح وجب عليه أن يترك فراشه بسرعة ، لأن البقاء فيه مدة طويلة يهيج فيه الأفكار الجنسية ، كما يجب عليه أن يمتنع عن تعاطى المشروبات الروحية والإقلال من القهوة والشاى .

وأهم عناصر العلاج الطبي هو إعطاء المريض برومور البوتاسيوم بكميات وافية ، أى بمقدار جرام واحد ثلاث مرات في اليوم . وهذا الدواء سريع التأثير ، إذ يقل عدد المرات بسرعة غريبة ، وتتحسن تبعا لذلك حالة المريض النفسية والجسمية . وفي الحالات الشديدة يلجأ إلى تدليك

البروستاتا وحقن محلول قابض كنترات الفضة فى الجزء الخلفى من قناة مجرى البول ، لاحتمال وجود حالة احتقان مزمن كالذى أشاهد فى ضحايا العادة السرية ، وهذا الاحتقان قد يكون محطة الإرسال التى تنبعث منها الإشارات إلى المراكز المخية والنخاعية فتنبهها لتبدأ أسطورتها التى سارت منذ القدم فى موكب الزمان .

دكتور مصطفى الديوانى

ماذا أريد من الصديق

من رسالتين لجان جاك روسو

وصديقته مدام ديناى

كان جان جاك روسو ألد أعداء الارستقراطية والملكية المطلقة . ولكنه كان فى بعض الأوقات يجد فيهما نفعا كثيراً ، وقلما كان يعدم من الأثرياء من يأخذ بيده ؛ على أنه لم يكن يحتفظ بأنصاره منهم زمنا طويلا . وإذا كانت الحياة الهمجية هى خير أنواع الحياة كما يقول ، وإذا كان المجتمع يفقد الإنسان كل ما وهبته الطبيعة من صفات طيبة ، فقد كان روسو نفسه خير شاهد على صدق قوله . ولكن العبقرية تغتفر لها أخطاؤها ، وبخاصة إذا باعدت بيننا وبينها الأيام . ولقد كان روسو عبقريا ما فى ذلك شك ، كشف عن عبقريته فيما كتبه من المسرحيات الغنائية القليلة ، وفيما وضعه من مبادئ للثورة الفرنسية فى « إميل » وفى « العقد الاجتماعى » ، وفيما كان له من الأثر فى أسلوب الكتاب الفرنسيين وغير الفرنسيين ومنهم جوته وشتو بريان وجميع الكتاب الروائيين الذين جاءوا بعده .

أما مدام ديناى فكانت هى الأخرى من أذكى نساء عصرها . كانت دمثة الأخلاق ، حاضرة البديهة ، عظيمة المواهب ، تحافظ فى المجتمعات على الآداب الرعية ، وإن كانت هى نفسها لا خلاق لها .

ونشأت بين روسو ومدام ديناى صداقة لم تدم طويلا تبادلا فيها الرسائل ، ومنها رسالتان تحدثا فيهما عما يبغيان من الصديق .

قال جان جاك روسو فى رسالته إلى مدام ديناى وقد كتبها فى عام ١٧٥٦ .

. . . وما دمت قد طرقت هذا الموضوع (موضوع الصداقة) فإنى أحب أن أحدثك عما أطلبه من الصديق وما أرضى أن أعطيه إياه . ولا تظنى أن فى وسعك أن تجدى أخطاء فيما سوف أضعه من قواعد الصداقة ، أو تعتقدى أن من السهل عليك أن تحولينى عنها ، لأن هذه القواعد وليدة مزاجى وأخلاق ، وهما اللذان لا أستطيع قط أن أحول عنهما .

أول ما أريده من الأصدقاء أن يكونوا لى أصدقاء لا أسياداً ، وأن يشيروا على ولا يحكمونى ، وأن يكون لهم ما يريدون من الحقوق على قلبى ، وألا يكون لهم شئ من الحقوق على حريتى . وأشد ما أمجب له من الناس تذرعهم بالصداقة للتدخل فى شئونى من غير أن يطلعونى على شئونهم .

وأحب أن يصارحنى أصدقائى بآرائهم فى ، وألا يخفوا منها شيئاً عنى ، وأن يقولوا لى كل ما يشاءون . وأنا أجيز لهم كل شئ إلا أن يحتقرونى ، ذلك أنى لا أبالى بالاحتقار يأتينى من شخص لا أعبأ به ، أما إذا وجه إلى من صديق فمن حق عليه أن يتحقق أولا أنى خليق به . وإذا كان من سوء حظه أن يحتقرنى فليمتنع على الأقل عن أن يجهر لى باحتقاره ، بل عليه أن يقطع حبل صداقتى ، فذلك حق لنفسه عليه . وفيما عدا الاحتقار وحده أرى أن من حق صديق على أن يعاتبنى ، وأن يستخدم فى عتابى

أية لهجة يشاء ، ومن حق أنا بعد أن أستمع لكل ما يريد أن يقوله أن أقبل عتابه أو أرفضه ؛ على أنى لا أحب أن ألام لوما دائما على شيء مضى وانقضى .

ومما يضايقنى من الأصدقاء حرصهم الشديد على أن يصنعوا معى المعروف آلاف المرات . ذلك أن فى صنع المعروف شيئاً من مظاهر الولاية علىّ لا أطيقه ، وأن فى وسع غير الأصدقاء أن يصنعوا معى هذا المعروف نفسه ؛ وحسبى من الأصدقاء أن أحبهم ويحبونى ، والحب هو كل ما يراد من الصديق .

وأشد ما أغضب له من الأصدقاء أن يستطيع كل زميل جديد أن يحل فى قلبهم محلى ، مع أنهم هم وحدهم الذين أطيق صحبتهم فى العالم كله . وما من شيء يحملنى أطيق معروف الأصدقاء إلا حبهم لى ، فإذا ما أرغمت نفسى على قبول معروفهم فإنى أحب منهم أن يكون صنيعهم ملائماً لذوقى أنا لا لأذواقهم ، لأن أفكارنا لا تتفق فى كل شيء ، وكثيرا ما يكون ما هو حسن فى رأيهم قبيحا فى رأيى .

وإذا حدث بين الصديقين ما يخشى منه على صداقتهما وجب على المخطئ أن يسعى هو إلى مصالحة صديقه . على أنى أعترف أن هذا القول لا معنى له ، إذ ليس فى الناس من لا يعتقد أنه على حق ، ولهذا يجب على من بدأ النزاع أن يبدأ هو بحسمه ، محقا كان أو غير محق . وإذا ثرتُ بغير حق أو غضبت لغير سبب معقول ، فليس له أن يحذو حذوى ويجارينى فى عملى . فإن فعل كان ذلك منه دليلا على أنه لا يحبنى . إنى أريد منه غير هذا ، أريد منه أن يشعرنى بحبه ، وأن يعانقنى ، وأن يظهر فى عناقه هذا عطفه وحنوه . هذا ما أريده ياسيدتى ؛ وجملة القول أنى أحب أن يبدأ هو بإطفاء نار غضبى ، ولست أشك فى أن هذا لن يحتاج منه إلى وقت طويل ، فلم تكن فى قلبى قط نار لا تطفئها دمعة . وإذا ما هدأت أعصابى ، وخجلتُ من نفسى ، وأسفت على فعلى ، وتحيرت فى أمرى ، فليعاتبنى أشد العتاب ، وليصارحنى بما أخطأت فيه ، ولا يداخلن شك فى أنه سيجد منى ما يرضيه . وإذا كان منشأ الغضب أمراً تافها لا يستحق البحث والجدل ، فلنطو صفحته ، وليكن المعتدى أول من يمسك لسانه عن الجدل ، وعليه ألا يتشبث بأن يكون هو آخر المتكلمين ، ظنًّا منه أن هذا مما يقتضيه الشرف . ذلك ما أحب أن يفعله صديق معى ، وما لا أتردد فى أن أفعله معه فى مثل هذه الحال .

ولا تعجبى إذا قلت إنى أطلب إلى الصديق أكثر مما ذكرته فى هذه الرسالة ، بل أكثر مما يطلبه هو إلى لو أنه كان فى مكانى وكنت أنا فى مكانه . ذلك أنى أعيش فى عزلة ، وهذا يجعلنى مرهف الحس أكثر من سائر الناس ، فإذا تنازعتُ مع إنسان يعيش بين الناس ويختلط بهم ، فإن ذلك لا يكلفه أكثر من أن يفكر فى الأمر ساعة ، ثم تصادفه مئات من الأمور التى تشغل باله فينسى من فوره نزاعه .

أما أنا فأظل طول ليلى أرقاً أفكر فيه ، ولا يذهب من عقلى وأنا أسير بمفردى من شروق الشمس إلى غروبها ، لا يستريح منه قلبى لحظة واحدة . ولذلك كان ما أعانيه من قسوة الصديق فى يوم واحد يعدل ما يعانيه غيرى فى عدة سنين . وأنا كما تعلمين رجل مريض ، ومن حق المريض على بنى الإنسان أن يتغاضوا عما فى خلقه وطبعه من هنات ؛ وأى صديق — بل وأى إنسان مهذب — تطاوعه نفسه على أن يؤلم مخلوقاً تعساً مصاباً بداء عضال أنهكه وهد قواه ؟ إنى رجل فقير ، وإن فقرى (أو ما يبدو لى أنه فقر) ليجعلنى خليقاً بشيء من الرعاية . ولقد أجبتنى أنت إلى كل ما أريده من الإغضاء عن عيوبى الصغيرة دون أن أطلب ذلك إليك ، لأن الصديق الوفى لا ينتظر حتى يطلب إليه صديقه ما يريده منه . ولكنى أسألك أيتها الصديقة العزيزة — وأسألك بصراحة — هل تعرفين أن لى أصدقاء ؟ أقسم لك أن من حسن حظى أنى قد عرفت كيف

أستغنى عنهم ، وإنى لأعرف الكثيرين ممن لا يأسفون إذا استطاعوا أن تكون لهم على يد ، بل إنى لأعرف الكثيرين ممن لهم على يد . أما القلوب الخليقة بأن تستجيب إلى نداء قلبي ، فحسبي أنى لم أعرف منها غير قلب واحد فقط .

فلا تعجبي إذاً إن رأيتأن كرهي باريس يزداد يوماً بعد يوم ، وما من شيء يأتيني منها — غير رسائلك — إلا وهو يزيد في غضبي . ومن أجل هذا لن أدخلها أبداً . وإذا رأيت أن تفصحي من رأيك في هذا الموضوع وأن تفصحي عنه بأعظم ما تشائين من القوة والصراحة ، فإن ذلك من حقك ؛ وثق بأنى سأتقبله بقبول حسن ، وأنه سيكون عديم النفع ، وما من شك في أنك بعدئذ لن تحاولى مرة أخرى . . .

روسو

. . .

وقد ردت مدام دبيناى على هذه الرسالة برسالة من نوعها جاء فيها :

أظن ياصديق أن من أصعب الأمور أن يضع الإنسان قواعد ثابتة للصداقة . ذلك أن من الطبيعي أن يضع كل إنسان من القواعد ما يلائم تفكيره الخاص . فأنت مثلا تذكر لى ماتطلبه إلى أصدقائك ، ثم يأتيني من فورى صديق غيرك ويطلب إلى ما لا يتفق قط مع ما تطلبه أنت ؛ ونتيجة ذلك أن أجد مزاجى يخالف مزاجه فأقضى يومى أحاول فعل ما ينفر مني هذا الصديق أو ذاك ، وأعنى لهم كل سوء بطبيعة الحال ؛ غير أن هناك قاعدتين أساسيتين لا غنى عنهما في الصداقة ، ويجب أن يستمسك بهما كل إنسان ، وهما التسامح والحرية . وكل صداقة لا تشتمل على هاتين الخلتين لا تلبث عراها أن تنفصم . وإليك بالاختصار الأساس الذى أقيم عليه صرح صداقتى . إنى لا أطلب إلى الصديق أن يحبني حباً دافقاً عارماً سريع التأثر ، أو حباً أقدم عليه بعد تفكير وتدبير ، بل إنى لأرتضى منه أن يحبني على قدر ما يستطيعه من الحب وما يسمح له به مزاجه ؛ وذلك لأن رغباتي مهما تكن قوية لا تستطيع أن تبدل مزاجه ، سواء كان متحفظاً في حبه أو متقلباً فيه أو رزيناً أو مرحاً ، وما إلى ذلك . وإذا ما طلب المرء في الصديق صفة تنقصه ، وظل يذكر هذا ويلح فيه ، أدى ذلك إلى كره صديقه ونفوره منه . والواجب علينا أن نحب أصدقاءنا كما يحب الفنانون الصور ، فهؤلاء تقع عيونهم على ما فيها من جمال ولا يبصرون ما عدا ذلك .

وتقول : إذا ما شجر النزاع ، وإذا ما أساء صديق معاملتى ، وما إلى ذلك . إنى لا أفهم قولك أساء صديق معاملتى ، ولا أعرف أن في الصداقة معاملة سيئة إلا معاملة واحدة هي عدم الثقة . أما إذا قلت : رأيت صديق يوما من الأيام يحنق على أشياء ، وفي يوم آخر يغفل هذا الشيء وذلك من ضيق والاهتمام بأمرى ، أو أنه كان يجب عليه أن يتخلى من ذلك الشيء لى ، فإن ذلك كله يؤدى حتما إلى السخط . دع إذاً هذه الشكايات الصغيرة إلى ذوى القلوب الخاوية والرؤوس الفارغة . إنها خليقة بصغار المحبين السخفاء الأدنياء ، فهؤلاء ديدنهم المنازعات الدنيئة الحقيرة التي تجعلهم ضيق العقول مثار كبين نكدين خبثاء أو أراذل . وكان خليقا بهم أن يسكنوا إلى أصدقائهم ويطمئنوا إليهم ، وأن تطفح وجوههم بالبشر ، وتفيض قلوبهم بالمحبة ، وأن يزدادوا كل يوم حبا لأصدقائهم لما يتصفون به من استقامة في الأخلاق وطيبة في القلوب ، وما أوتوا من نظرة فلسفية إلى الأمور . وهل يليق بالفيلسوف محب الحكمة أن يفعل ما يفعله المزمتون ضعاف القلوب ضيقو العقول الذين يعمدون إلى الخرافات الباطلة الحقيرة يستبدلونها بحب الله ؟ ثق ياصديق أن الذى يفهم الطبيعة البشرية على حقيقتها لن يصعب عليه أن يصفح عن هنات الناس وأن يحبهم لما يفعلون من خير ، لأنه يعرف أن فعل الخير من أشق الأمور .

محتملات التاريخ

كثيراً ما يروق الباحثين أن يفكروا في المحتملات التي كانت تحدث لو تغير سير التاريخ ، ويعرضوا لبعض الحوادث الفاصلة والوقعات الحاسمة والمواقف الهامة ويتناولوها كما لو حدثت بصورة مخالفة لما وقع ، ويتعقبوا النتائج التي كان يستتبعها ذلك ، وفي بعض الأحيان تقوم هذه المحاولات على شطوط الخيال ووثبات الوهم أكثر مما تقوم على التفسيرات المعقولة والتعليلات المقبولة .

ولقد قال أحد الكتاب : « لا شيء أقل جدوى من التفكير فيما كان يمكن أن يكون » وقد عبر هذا الكاتب من وجهة نظر الرجال العمليين ، لأن شأن رجل العمل أن يهتبل الفرصة ، ويستغل الظروف ، ويفيد من الأحوال الراهنة ، فما له والتفكير فيما كان يمكن أن يكون ! لاريب أن التفكير في ذلك من وجهة نظره عبث لا طائل تحته ، ولا فائدة ترجى منه ، فهو لا يوفر الركاب فضة وذهباً ، ولا يعين على توطيد السكانة والتقدم وإعلاء الشأن ، ولكن المفكرين ينظرون إلى الأمر من زاوية أخرى لا علاقة لها بالفائدة المرجوة والغنم المنتظر ؛ فشأن المفكر المطبوع أن يرسل رائد النظر في الماضي والحاضر والمستقبل ، ويعنى بالخالد الدائم والعارض الزائل ، ويهمه معرفة النفس الإنسانية في خصائصها الباقية الثابتة وحالاتها الطارئة المتقلبة ، وهو من ثم يجد متعة إذا فكر في محتملات التاريخ وماذا كان يحدث لو تغير سيره ، وتبدلت حوادثه ، وهو لا يرى في ذلك مضيعة للوقت وتبديداً للجهود ، بل يرى فيه رياضة فكرية تنقله إلى عوالم شاسعة من التأمل والتفكير .

والصور التي كان يمكن أن تتخذها محتملات التاريخ كثيرة ومختلفة ؛ فكل ما حدث في خلال الحركة التاريخية يمكن أن نتصوره في صورة مخالفة ، وكون هذا التصور أو ذلك التخيل كان ممكنا ميسوراً أو كان ممتنعاً غير جائز الوقوع مسألة أخرى . وقد يدفعنا التفكير في ذلك إلى النظر في مسألة الجبرية التاريخية ، ومشكلة حرية الإرادة ، وهي من المشكلات العسيرة الحل التي تدور حولها منذ القدم معارك فكرية حامية . ولكن إذا تركنا جانباً مسألة حرية الإرادة ومشكلة القدر المحتوم فإننا نستطيع أن نتصور التاريخ مختلفاً عما كان وعما سجلته المدونات وأثبتته الأخبار المتواترة ، وفي مشاهداتنا اليومية وتجارب حياتنا الواقعية ما يسوغ الاعتقاد بأن المصادفة والحوادث العارضة والنزوات والبدوات وصغائر الأمور وسفاسف الأهواء

أما أنا يا صديقي فإني حين قلت لك في بدء رسالتي إن الحرية والتسامح هما أساس الصداقة الحقة ، لم أكن أظن أني سأسمح لنفسي بمثل ما سمحت لها به من الحرية أو أطلب لها ما طلبت من التسامح . وأرجو أن تصفح عما في هذه الرسالة من سوء أدب يغفره لي وفائي وإخلاصي . أي إلهي ! ما أكثر الحقائق التي أستطيع أن أضمنها هذه الرسالة ، ولكني لا أستطيع تسطيرها فيها ، لأني أضطر إلى قطع سلسلة أفكاري مرة كل دقيقتين . إني لا أجد من الوقت ما يسمح لي بأن أسر إليك أني أعداك أن تغضب مني بالرغم من أني تعمدت في هذه الرسالة أن أستثير غضبك ؛ ذلك أني مهما كثرت أخطائي أحبك من كل قلبي .

. . .

ومع ذلك لم ينقض إلا القليل من الزمن حتى كتب روسو إلى مدام دبيناي يقول : « إن الصداقة التي كانت بيننا قد انقضت عراها » . وكان سبب ذلك أن الدسائس حيكت شباكها من حولها حتى لم يستطيعا الإفلات منها . وكانت هذه الدسائس من الغموض والتعقيد بحيث لا نستطيع أن نعرفها على حقيقتها .

محمد بدران

والانحرافات والالتواءات والشهوات الجامحة تلعب جميعاً دورها في التاريخ كما تلعب دورها وتؤثر تأثيرها في الحوادث التي تقع بين بصرنا وسمعنا . ونحن في حياتنا اليومية وملابساتنا الشخصية نواجه من الحين إلى الحين مواقف تضطرنا إلى حشد قوانا العقلية والإكثار من التحرى والتطلس لنفصل فيها بمحض اختيارنا وكامل حريتنا ؛ فإذا صحبنا التوفيق في الاختيار سارت الأمور سيراً حسناً ، وإذا أسأنا الاختيار وجانبنا التوفيق اضطربت أمورنا واعتلت أحوالنا ، ونحن أنفسنا مستهدفون للحوادث العارضة والطوارىء التي ليست في الحسبان ، وبعض هذه الحوادث قد ينحرف بنا عن المجرى الذي سارت فيه حياتنا وتوجهنا وجهة أخرى .

ويرى بعض المفكرين أنه من الوجهة العلمية الفلسفية لا معنى للتفكير في مثل هذه المحتملات ، وأن قالب الحوادث التاريخية يحوى مجموعة من الوقائع المتشابكة المتداخلة ذوات العلاقات الصميمة المحتومة ؛ فإذا وقعت حادثتان وكانت إحداهما سبباً للأخرى فمعنى ذلك أن بينهما علاقة داخلية ضرورية ؛ ومن ثم فإن أي تغير يطرأ على إحداهما يستتبع التغير في الأخرى ، وعلاقة الضرورة تهيمن على أي حادثتين إذا كان من غير الممكن أن تحدث إحداهما دون حدوث الأخرى ، أو كان من غير الممكن أن لا تحدث الأولى إذا حدثت الأخرى . وموجز القول أن الحادثتين من الناحية المنطقية تستلزم إحداهما الأخرى ، وإذا سلمنا بأن الحوادث تقع على هذه الصورة وأن بينها مثل هذه العلاقة الضرورية المحتومة وفرضنا أن أي حادثة حدثت بصورة مخالفة لما وقعت به ، فإن كل ما تلاها من الحوادث لابد أن يتغير وقوعه ويتخذ صوراً أخرى ، وفي هذه الحالة لا فائدة من التفكير في محتملات التاريخ ولا معنى للتساؤل عما كان يمكن أن يحدث لو اتجهت الحوادث وجهة مختلفة ، لأن كل شيء في هذه الحالة كان قابلا للحدوث . ويقرر هذا الرأي أن كل الحوادث والمواقف والوقفات والكوائن متصلة مترابطة وأنها أجزاء لموقف كلي شامل أو حادثة جامعة ؛ فأي فرض مخالف للحقيقة الواقعة لا يمكن تقريره بدون أن نقع في التناقض وهذا هو ما يذهب إليه هيجل في فلسفته التي تعتبر الطبيعة كلا مفرداً مكونا من مجموعات من المظاهر لا تنفك في بناء وهدم وتجمع وتفرق ؛ فلا شيء في الوجود منعزل منبت العلاقة بالأشياء الأخرى ، ولا شيء كذلك باق على حاله ، والمعرفة متوقفة على إلحاق كل مظهر بمجموعة المظاهر المجانسة له ، ثم ربط هذه المجموعة بالمجاميع الأخرى وهكذا ، حتى يتبدى الكون سلسلة من العلاقات التي لا نهاية لها .

والذي يظهر بطلان هذه الفلسفة إنكارها لمحتملات التاريخ ، واعتقادها بأن المستقبل موجود ، وإن كانت الحوادث لم تتمخض عنه بعد ، والمحاولات البشرية في رأي مثل هذه الفلسفة لا تقدم ولا تؤخر ، وليس في التاريخ محتملات ممكنة ، لأن ما كان كان حتما مقضيا لا سبيل إلى دفعه ولا حيلة لنا في منعه .

والذي يتأمل تجارب الحياة ويفكر في حوادث التاريخ يرى عاملين بارزين بروزاً واضحاً في هذا العالم الذي نعيش به ونسعى في مناكبه ونقضي حياتنا المحدودة ؛ وهذان العاملان هما المصادفة والاختيار . وكما نستطيع أن نتبين أثر المصادفة والاختيار في حياتنا الخاصة وتجاربنا المحدودة كذلك نستطيع أن نتبينهما في تاريخ الإنسانية وتكوين الماضي ونسج لحمته وسداه ؛ وهذا وجه من وجوه الاستفادة من دراسة التاريخ ؛ فالطبيعة الإنسانية إلى حد كبير واحدة في مختلف العصور ، وملابسات الأحوال قد تتقارب وتتشابه ؛ ومن ثم نستطيع إذا شئنا أن نستفيد من عبر التاريخ وتجارب الإنسانية ، ونتقدم إلى المستقبل في طريق مأمون لا يضل سالكه ولا يستهدف المزالق والعثرات والأخطار . .

وتبدو فائدة الدراسة التاريخية في صورة واضحة حينما نرى أن العامل الرئيسي في وقوع بعض الحوادث كان خافيا غير متوقع ، وأنه جاء بغتة وعلى غير انتظار وترقب . ودراسة التاريخ تعلمنا أن بعض الأشياء التافهة التي ليس لها كبير قيمة قد يكون لها أهمية عظيمة في توجيه الحوادث وسير التاريخ ؛ من أمثلة ذلك القول المشهور إن أنف كيلوبطرة لو كان أكبر قليلا أو أصغر قليلا مما كان لتغير سير التاريخ ! وقد يستنكر هذا القول القائلون بالجبرية الاقتصادية مثل جماعة الماركسيين ، ويرون أن مسألة مصير الأمم واتجاه الحضارة أجل شأنا وأعظم خطرا من أن يفصل فيها حجم أنف امرأة ؛ ولكن برغم هذا الاستنكار والاحتجاج نستطيع أن نقدر أن أنف كيلوبطرة لو كان أكبر أو أصغر مما كان لأثر ذلك في جمالها وفتنتها ولقلل من الأثر البالغ الذي تركه جمالها في نفس يوليوس قيصر ومارك أنطونى ، ولتغير تاريخ الرومان وتاريخ العالم تبعاً لذلك ، ولما وقعت وقعة أكتيوم ، ولما قامت امبراطورية أغسطس قيصر إلى آخر الحوادث التي استتبعها تدله أنطونى بكيلوبطرة .

والذين يضعون التاريخ في صف العلوم الآلية تواجههم من الحين إلى الحين مظاهر لم يكن في وسع الذكاء الإنساني أن يدركها أو يتكهن بوقوعها ، ولا تفسرها فلسفة من الفلسفات المادية التي تفسر التاريخ بعوامل الإنتاج ودوافع الاقتصاد .

ومحتملات التاريخ لا تنشأ في كثير من الأوقات من التفكير فيما قد تحدثه الأشياء التي تبدو تافهة قليلة القيمة ، ومعظم المشكلات الكبيرة والأزمات الحازبة والانقلابات البعيدة المدى كان يتوقف علاجها وتوجيهها على إرادة حفنة من الأفراد الممتازين وصفاتهم الأخلاقية ؛ وهو أمر لا نستطيع أن نتيقن من وقوعه ونجزم به ؛ فلو لم يولد قيصر أو نابليون أو لوثر أو رجل مثل معاوية أو عبد الرحمن الداخل أو الناصر أو صلاح الدين الأيوبي أو السلطان محمد الفاتح وغيرهم من صناع التاريخ وموجهي الحوادث ، لاختلف سير التاريخ وتغيرت صوره مما نشهده ونقرؤه في مدوناته وسجلاته ؛ ولو عاش أمثال هؤلاء الأبطال عمراً أطول من عمرهم أو لو ماتوا قبل الوقت الذي ماتوا فيه لأثر ذلك في تاريخ العالم وتسلسل حوادثه ؛ وخير مثل في توضيح ذلك حياة الإسكندر المقدوني ، فقد أتى بالعظائم في حياته القصيرة الحافلة المليئة والتي لم تتجاوز ثلاثة وثلاثين ربيعاً ؛ فما الذي كان يعجز عن عمله هذا الرجل العظيم والبطل الكرار لو كان مد في أجله وبسط في عمره ولم يخترم في ريعان الشباب ومقتبل العمر وقد دوخ الجيوش ودانت له الأقطار ؟

ولولم يمت الإسكندر في سنة ٣٢٣ قبل الميلاد وتمكن من توطيد ملكه ، وتوسيع رقعة نفوذه ، وإتمام برنامجه وإكمال سياسته ، لتغير تاريخ العالم تغيرا جوهريا . وقد كان الإسكندر حين موته يهم بغزو بلاد العرب وإرسال أسطوله لإخضاع قرطاجنة ، وكان ينوى بعد ذلك الاستيلاء على روما ؛ ولو أتيحت له الفرصة ليفعل ذلك لتغير تاريخ العالم . وواضح أن هذا التغيير كان متوقفاً على إرادة شخص واحد قد تحركه الأفكار الراجحة والنظرات الصائبة ، وقد تدفعه الأهواء والنزوات والمطامع الهوجاء .

على أن بعض الاحتمالات التاريخية من ناحية أخرى ترينا قوة تيار الحوادث وتتابع الأسباب والمسببات ؛ من أمثلة ذلك مسألة هرب الملك لويس السادس عشر وإرجاعه من فارن ، فلولا القروى الدعو دروبه الذي كان يسوق عربته على مقربة من جسر فارن لما عرف الملك وأخفق في محاولته ؛ وقد كان من المحتمل إلى حد كبير أن يوفق الملك في محاولته الفرار ؛ ولكن هل فرار الملك كان يغير اتجاه الثورة وما تلاها من الحوادث ؟ لست أرجح ذلك ، فقد كانت الثورة الفرنسية نتيجة تكاد تكون محتومة

محمد على الكبير
وفاروق الكبير

ما قرأت إحصاء لأعظم عظماء العالم إلا ورأيت اسم محمد على الكبير يحتل بينهم مكاناً كريماً بين أرفع ملوك العالم وعظمائه قدرا ، مع أن مصر حين تربع ذلك الملك العظيم على عرشها كانت بلداً فقيرا مختل النظام ، لا تزيد قدراً عن أقدار غيرها من أجزاء السلطنة العثمانية ، كان سكانها نحو مليونين من السكان يعيشون فى خطر دائم داهم من الفوضى التى كانت تشيع فى أرجاء البلاد ، يشيعها المماليك والولاة العثمانيون وقادة الجيش العثمانى الذى كان يقيم فى البلاد ليحفظ عليها سيادة بلاده ، وكانت ميزانية مصر — إن صح أن تسمى الأموال التى كانت تجبيها الحكومة فى غير نظام ولا استقرار وتصرفها بغير قانون ثابت ميزانية — كانت تلك الميزانية لا تبلغ مليونين من الجنيهات .

بلد هذا حاله لا يؤهل الملك الذى يتربع على عرشه لأن يدرج فى سجل أعظم عظماء التاريخ ، لولا أن ذلك الملك جعل مدة ملكه مدة انقلاب خطير فى شؤون هذا البلد حتى خلق منها دولة قوية تهابها الدول العظمى ، ولولا أنه نهض بأهلها وأرضها نهضة لفتت إليه أنظار المؤرخين .

ولست أريد أن أتحدث عن تفاصيل المعجزة التى تمت على يدى محمد على الكبير فى مصر ، فإن تلك التفاصيل قد استغرق بسطها مجلدات ضخمة . ولكننى أريد أن أتحدث عن شعاع واحد من أشعة ذلك العقل الجبار التى أضاءت كل ناحية من نواحى حياة مصر التى كان يكتنفها الظلام ، ذلك الشعاع هو تفكير محمد على فى خزن ماء النهر فى مجراه حتى يستعمله فى الرى طول السنة .

لم يسبق محمد على إلى هذا العمل الجليل أحد من ملوك مصر من أول فرعون إلى آخر وال من ولاة اسطنبول ، فبقيت أرض مصر تزرع مرة واحدة عقب الفيضان

لأسباب كثيرة متنوعة سياسية واقتصادية واجتماعية ؛ وهرب الملك لم يكن من عظم الشأن وجلالة الخطر بحيث يحول من تيار الثورة أو يغير سيرها تغييراً جوهريا . ويستطيع القارئ أن يضاعف أمثلة الاحتمالات التاريخية ، وسيجد أن بعض تلك الاحتمالات كان يمكن أن يحدث تأثيرا بعيد المدى ، وبعضها كان يمكن أن يحدث تأثيراً محدودا ضيق النطاق ؛ فما الذى نستطيع أن نستخلصه من ذلك ؟ فى رأيى أن الذى نستطيع أن نتبينه من خلال ذلك أن حياة الإنسان وتاريخ الإنسانية مزيج من الجبر والحرية والضرورة والاختيار والفوضى والنظام ، وللتاريخ قوانين وأحكام تسيطر على حركاته ، ولكن هذه القوانين على قوتها وأصالتها لا تجرد الإنسان من حريته كل التجريد ، ولا تمنع من تدخل الإرادة البشرية والأهواء الإنسانية . وتفسير كارل ماركس للتاريخ فيه الكثير من الحق ، ولكنه ليس الحق كله والصواب جميعه ؛ فلو قامت الدوافع الاقتصادية على ساق ونحن قعود لما أتت بشىء ، ويخطىء على الدوام الذين يفسرون التاريخ بعنصر واحد من عناصره العديدة ودافع فرد من دوافعه الكثيرة .

على أدهم

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

آلاف السنين : لم يفكر بناة الأهرام فى إقامة سدود على النهر يخزن الماء أمامها لينتفعوا به فى رى الأرض وزرعها طوال السنة ، ولم يفكر بناة المعابد والكنائس والمساجد من الملوك فى ذلك ، فبقيت أرض مصر كما هى خلال تلك القرون الطوال تزرع مرة واحدة كل عام .

ذلك لأن أولئك الملوك لم يكن مقدراً لهم من الخلود ما قدر لمحمد على الكبير ، وذلك لأن عقولهم لم تهتد إلى ما هداه إليه عقله حين فكر فى خزن الماء فى مجرى النهر .

اختار محمد على مفرق الفرعين ليقيم عنده السد الذى سماه القناطر الخيرية ، هذا الاسم الذى يدل على ما كان محمد على يبنى على خزانه من آمال كبار ، إذ يستطيع أن يزرع أرض الدلتا طوال السنة ، حتى يتسنى له زرع المحاصيل الصيفية والشتوية على السواء . وإذا كان فن البناء لم يسم إلى مستوى تفكيره وقصر من تحقيق غايته ، فلم تحقق القناطر الخيرية غايته السامية لضعفها من أن تتحمل ضغط الماء ، وإذا كان محمد على الكبير انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل أن يرى بعينه ثمرة تفكيره الجبار ، فإن العلم بفن البناء تقدم من بعده حتى استطاع أن يقوى تلك القناطر ، فحجز الماء أمامها وتحولت أرض الدلتا إلى مزارع لا ينقطع عن وجهها الزرع طوال العام . وهكذا تحققت فكرته وجنينا نحن ثمارها .

وضع محمد على فكرة خزن الماء فى مجرى النهر ، وأصبحت الفكرة التى استحال تنفيذها فى عهده عملا عاديا ، فأقيمت الخزانات واحداً بعد الآخر ، وحولت أراضى الصعيد ما عدا جزءاً بسيطاً من أرض حياض إلى أرض كأرض الدلتا تزرع طوال العام . وما هو إلا أن يبنى خزان جديد بين خزانى إسنا وأسوان حتى يتحول ذلك الجزء الباقى من أرض حياض تزرع مرة واحدة إلى مثل سائر أرض مصر ، أرضاً تزرع طوال السنة ، وبذلك تتم المعجزة التى تبنت فكرتها فى ذلك العقل المتوهج الجبار ، وتسير مصر سيرة عادية بأرضها من غير تغيير ، اللهم إلا أن تضاف قطع من أطراف الصحراء الملاصقة للأرض الزراعية إلى هذه الأرض ؛ ذلك لأن الخزانات مهما تمددت قدرة محدودة على خزن الماء لا تتعداها ، فلكل خزان سعته من الماء إذا ملىء لا يمكن أن يضاف إليه شىء .

ولكن سعة الخزانات إذا قيست بما يأتى به النهر كل عام أيام الفيضان من ماء لا تبلغ شيئاً يذكر ، فخزان أسوان وهو أعظمها وأكثرها اتساعاً يتسع لخمسة آلاف مليون من الأمتار المكعبة .

وقد قرأنا أن التصرف اليومى للنهر أثناء الفيضان فى بلاغات وزارة الأشغال التى تذيعها كل يوم — قرأنا أن ذلك التصرف يبلغ ألف مليون من الأمتار المكعبة كل يوم ؛ وإذاً فالخزان العظيم يكفى لملئه ما يأتى به النهر فى خمسة أيام أو ستة على أكثر تقدير . فإذا قدرنا لباقى الخزانات ضعف هذا المقدار أو ثلاثة أمثاله — لأن سعة هذه الخزانات ليست أمامى الآن — كان ما نخزنه من الماء كله لا يزيد عما يأتى به الفيضان فى خمسة عشر يوماً . وأما باقى الماء ، ومدة الفيضان نحو أربعة أشهر ، فلا ننتفع منه بشىء .

لقد فكر محمد على فى خزن ماء النهر فى مجراه . وها نحن أولاء نقترب من نهاية تحقيق فكرته ، وما يزال لدينا من الماء الضيع ما يحتاج إلى التفكير من جديد .

وثمة شىء آخر يجب ألا يغيب عن البال ، وهو أن خزن الماء يبدأ عادة فى أواخر الفيضان . أما ماء الفيضان فتفتح له أبواب الخزانات ليمر منها مسرعاً نحو مصيره الذى ألفه من آلاف السنين — نحو البحر الأبيض .

فكرة تخزين مياه النهر سيطرت على العقول من يوم أن أوجدها عقل ذلك الملك العظيم حتى اليوم ؛ فلا يدور بحث إلا حولها ، ولا نسمع إلا أحاديث عن خزن الماء فى وادى الريان أو إقامة خزان عند بحيرة تانا أو على هذا

الجزء من النهر أو ذاك ، أما شيء آخر عن ماء النهر فلا أسمع .

لقد تقدمت الميكانيكا والكهرباء وأصبح رفع الماء أمراً سهلا ، وتقدمت أساليب قطع الصخور حتى أصبح الصخر لا يحسب له حساب عند التفكير في شق طريق أو حفر قنال ؛ وبجانب مجرى النهر جبل يقرب ويبعد ويعلو ويرتفع ، ويلي ذلك الجبل أودية الصحراء الغربية ومنبسطها الذي لا حد لاتساعه ، فلماذا لا يرتقي تفكيرنا من خزن الماء إلى تحويله جارياً كما هو إلى الصحراء ؟ ! سيعترض المشروع تلك التلال ، ولكن ما فائدة العلم إن لم يذلل هذه العقبة ؟ .

لقد زادت أرض مصر المزروعة بواسطة خزن الماء في مجرى النهر من مليونين من الأفدنة تزرع مرة واحدة إلى نحو ستة ملايين تزرع طوال العام ، كل ذلك تم بواسطة السدود التي أقيمت في مجرى النهر ، وهي كما قلنا لا تتسع إلا لما يأتي به النهر من ماء في خمسة عشر يوماً ، فماذا تكسب مصر من ماء باقي أيام الفيضان إذا حولت ذلك الماء أو جزءا منه إلى الصحراء ؟ ! إن الأرض التي تكسبها مصر من تحويل ماء الفيضان إلى الصحراء سوف تجعل الوادي الذي نعيش فيه كالحديقة الصغيرة بجانب المزرعة الواسعة .

لقد وضع محمد علي الكبير أساس خزن الماء في النهر وتحويل أرض مصر من أرض حياض إلى أرض تزرع طوال السنة ، وقد قاربت فكرته أن تتم في عهد الفاروق .

ونحن نأمل أن يضع الفاروق في عهده أساس فكرة تحويل ماء الفيضان إلى الصحراء يتدفق فيها أني شاء ، فتتحول الصحراء بما رسب على وجهها من الطمي وما يستقر في جوفها من الماء إلى أرض تنبت العجب العجاب ، حتى يصبح لمصر بدل الوجهين البحري والقبلي وجه غربي واسع الأرجاء يبدو الوجهان بجانبه كالخال على الخد .

نريد خطوة واحدة نحو تحقيق هذا المشروع . نريد لجنة فنية تذهب إلى أسوان وتبحث مجرى النهر حتى حلفا وتبحث عن أصلح الأمكنة لشق ترعة بين مجرى النهر ومنبسط الصحراء خلف الجبل ، ونريد أن تمدد تلك اللجنة ما واجهها من صعاب وعقبات حتى تتسابق العقول في تذليل تلك الصعاب والعقبات ، فإذا بالفكرة تصبح مشروعاً وإذا الفيضان ينساب إلى الصحراء بدل أن يغرق في البحر الأبيض .

قد يقال إن هذا حلم ؛ ولكن أمس أحلام الإنسان في الخيال والاستحالة قد تحقق ؛ فبساط الريح إن صح وجوده أيام سليمان يخشى أن يحلق اليوم في الجو حتى لا تمزق أجنحته الطائرات الحديدية ؛ وقس عليه غيره من أحلام البشرية التي حققها العلم .

استحق محمد علي لقب (الكبير) بما أضفى على بلاده وشعبها من خيرات وبما تم في عهده من جليل المشروعات . ولعل أبقاها على الزمن هو تفكيره في ري أرض مصر طوال العام بواسطة خزن الماء في مجرى النهر

ولقد حفل عهد الفاروق بجلائل وعظائم ولكن تحويل ماء الفيضان إلى الصحراء ورفع مساحة أرض مصر من ستة ملايين من الأفدنة إلى عشرات الملايين حين ينطلق ماء الفيضان في تلك الصحاري ؛ هذا العمل الضخم الذي يحيل مصر إلى نيوزيلاند أخرى لا يعرف أهلها الفقر ، حين تملك كل أسرة من الفلاحين عشرات الأفدنة أو مئاتها ، هذا العمل هو الذي سيجعل اسم الفاروق خليقاً بأن يضيف إليه التاريخ لقب الكبير كجده .

إن الخارقات الضخمة لا يقوم بها أفراد الشعب ، ولكن يقوم بعبئها الملوك . فقد حقق كولمبس فكرته بمساعدة ملك ، وزرعت أرض مصر طوال السنة بفكرة ملك . وسيتحول ماء الفيضان إلى الصحراء بنفحة الملك العظيم بإذن الله .

عريان يوسف سعد

الطاقة الذرية والتناسل

يمكن بحق أن نسمى العصر الحاضر بعصر الذرة وأصبح الآن من اليسور استغلال الطاقة الذرية للخير والشر على السواء ، فقد استغلت فى الحرب العالمية الثانية للتدمير والتخريب ، ولا تزال التجارب قائمة للإمعان فى الوصول إلى نتائج أشد تخريباً وتدميراً مما حصل حتى الآن ، كما يجتهد الآن أيضاً فى الانتفاع بالطاقة الذرية فى الصناعة .

غير أن الأبحاث التى عملت على نتائج الطاقة الذرية فى هيروشيما باليابان التى ألقيت عليها القنابل الذرية المذكورة ، أوحت إلى البحاث الأمريكيين بأن الطاقة الذرية سيكون لها أثر عميق فى مستقبل حياة الإنسان ، فإن أحد حاصلات القنبلة الذرية الثانوية إشعاع خاص أثبت أخيراً البحاث أنه لا يؤثر فى التناسل لدى الحيوانات فحسب بل والإنسان أيضاً .

فقد ورد فى تقارير الجيش الأمريكى الحديثة أن ضحايا هذه الأشعة الذين لا ينتابهم الموت على الفور أصبحوا عقيمين والنساء الحبالى منهم أجهضن ، وبعضهن فقدن شعرهن ، وبعض الذين تعرضوا للأشعة أصيبوا بأمراض فى الفم أو البلعوم أو القناة المعوية ، أو أصيبوا بنزف فى اللثة والأنف والجلد .

وأما التناسل فلم يصل البحاث بشأنه إلى نتيجة حاسمة ، وإن كان اتضح لهم أن هذه الأشعة تؤثر فعلا على التناسل ، فقد وجدوا أن عدد الحيوانات المنوية إما أنه نقص من مفرزات ضحايا هذه الأشعة أو انعدمت منها الحيوانات المنوية ، واستمر ذلك لثلاثة أشهر بعد التعرض للأشعة للذين وجدوا فى دائرة مركزها مكان انفجار القنبلة ونصف قطرها كيلو متر ونصف كيلو ، والذين ماتوا وجد بالمجهر تغيرات فى الأنسجة المولدة للحيوانات المنوية بالخصية .

وقد حدث الإجهاض للحوامل حتى فى دائرة نصف قطرها حوالى كيلو متر ونصف كما قلنا ، وقد حصلت حالات إجهاض على بعد كيلو مترين . وأما على بعد ما بين كيلو مترين وثلاثة كيلومترات فقد وضع ثلث الحوامل اللاتى تعرضن عليهن أطفالا تظهر عليهم مخايل الصحة .

ووجد بعد شهرين من شن الغارة على مدينة هيروشيما أن عدد حالات الإجهاض بين الحوامل والولادة قبل الأوان بلغ سبعاً وعشرين فى المائة من حالات الوضع بالمدينة جميعها بعد أن كان عادة ستاً فى المائة ، ولكن لابد من مرور سنوات حتى يمكن الجزم بأن للأشعة المذكورة نصيباً فى إحداث أى تأثير فى التناسل . ويدعى أن هذا سيظهر للعيان بعد دراسة الطاقة الذرية وفهمها فهما جيداً

وربما فى المستقبل يمكن التحكم فى جنس المولود بحقن مواد مشحونة بهذه الطاقة . والمعروف حتى الآن أن جنس المولود إن ذكراً أو أنثى يتوقف على الحيوانات المنوية التى تحمل عاملين ص وص ، الأول للتأنيث والثانى للتذكير ، بينما البويضة تحمل عاملين ص وص فقط ، فإذا اتحد ص مع ص فى أثناء عملية التلقيح كان المولود ذكراً ، وإذا اتحد ص مع ص كان المولود أنثى . وقد ذكر فى إحدى المجلات العلمية أن العالمة الروسية فرانشرود تمكنت من فصل عامل التذكير والتأنيث فى الحيوان بتيار كهربائى ضعيف ؛ فمن الجائز حينئذ بتقدم البحث أنه باستعمال الطاقة الذرية فى الإنسان بأى وسيلة أن ينجب الإنسان ما يشاء من ذكور أو إناث .

وقد نتمكن بهذه الوسائل أو بوسائل لم نعلم بها أن نعالج العقم والعنة والانحرافات الجنسية أو التحكم فى انتقال العدوى بالأمراض الزهرية . وسترى الأجيال المقبلة العجب من نتائج تقدم العلم ، التى هى دليل قاطع على قدرة الخالق جل وعلا ، وعلى أننا لم نؤت من العلم إلا قليلا .

الدكتور محمد زكى شافعى

الدكتور جونسون[1] والنساء

يرى كثير من الناس أن الدكتور جونسون ليس له في ودّ النساء نصيب . وهم يظنون أن تسعة أعشار الذين يقرءون قصة حياته ويعيدون قراءتها هم من صنف الرجال . ومثل هذا القول قد قيل من فولستاف[2] . وإنك لتسمع في أغلب الأوقات قولا يقال بصيغة التوكيد أن ليس هناك امرأة تقدر فولستاف حق قدره .

ولست أعرف نصيب الحقيقة في هذه الأحكام التي تصدر بطريق التعميم على أذواق الجنسين الأدبية .

ويقول الأديب المعاصر ج . ب . بريستلي في دراسته للشخصيات الهزلية الإنجليزية : إن النساء هن بحكم الغريزة معاديات لكل شيء يتأبى عنه ويُنهين عنه . كالحانة وكجامع اللهو والقصف وكسائر الأشياء التي تصد الرجال عن بيوتهم .

فالمرأة — في رأي بريستلي — ترى أن الموئل الطبيعي للرجل هو البيت . ولكن فولستاف والدكتور جونسون يريان على اختلاف في الدرجة أن موئل الرجل ليس البيت ولكنه الحانة أو النادي .

وعلى الرغم من فرط غرام الدكتور جونسون بحياة النوادي فإن له ولعا بالنساء وعناية بأمرهن أكثر من أي واحد آخر من سراة الإنجليز في عصره . وقد كان في حياته المنزلية كما كان في حياته الاجتماعية رجلا يحرص

(١) هو صموئيل جونسون المعروف بالدكتور جونسون ، وكان يدعى كبير أمراء الأدب . ولد عام ١٧٠٩ ومات عام ١٧٨٤ ميلادية . وهو مؤلف القاموس في اللغة الإنجليزية ، وكان محدثا نقادة وتزوج من أرملة اسمها مسز بورتر . وهو مؤسس نادي الأدب . ومن مؤلفاته كتاب « حياة الشعراء » وهو كتاب من عشرة أجزاء ورواية نثرية اسمها « راسيلاس أمير أثيوبيا » .

(٢) فولستاف هو أحد شخصيات شكسبير التي تبعث على السخرية . وكان رجلا ضخم الجثة شهوانيا كذابا أفاكا . مبهجا جبانا .

على ود النساء كما كان يحرص على صحبة الرجال .

وكان يحب أمه حبا مفرطا . وكان مغرما بزوجته التي كان معظم أصحابه يجعلون منها مادة المزاح . وكان مغرما بكثيرات من النساء ، ومنهن « مسز وليمز » العمياء التي وهبها غرفة في بيته لمدة سنين .

وكان يلذ له أن يذهب إلى غرفة الممثلات في مسرح « دروري لين » وأن يتحدث إلى الممثلة « كيتي كليف » التي قال عنها : « إن « كليف » ياسيدي هي شيء جميل يستحب الجلوس إليه . وهي تفهم دائما ما تقوله لها » .

أما فرط حبه لأمه وعظم توقيره لها فلم ينقصا أبدا . وكان يسخو في الإنفاق عليها على الرغم من أن اشتغاله بالأدب كان يحتم عليه البقاء في لندن . وكان من أجل ذلك لا يجد وقتا لزيارتها حيث تقيم . وكان جونسون يلوم نفسه على أنه لم يضع على قبرها نصبا إلا في السنة الأخيرة من حياته . وكان قد مضى على وفاتها خمس وعشرون سنة . ولكن عذره في ذلك أنه كان فقيرا . وقد اضطر لفقره أن يكتب روايته « راسيلاس » في أسبوع ليقوم بنفقة جنازتها وليسدد ما خلفته من ديون صغيرة .

أما زوجه مسز جونسون فقد كان الكتاب دائما يرسمون صورتها رسما هزليا ، ولم تجد من يذكرها بخير إلا إحدى الكاتبات التي قالت عنها : إنها صديق جونسون الأوحد ، وكانت تسميها « تيتي » كما كان يحلو لزوجها أن يسميها .

أما أول من أحب من النساء فكانت « الآنسة هكتور » وقد كتب بعد وفاة زوجه يقول : لو قسم لي أن أزوجها لكنت بزواجها سعيدا .

فقال له صاحبه « بوزويل »[1] : ألا تقر لي ياسيدي على أننا لو جئنا بخمسين امرأة لكانت كل واحدة منهن قادرة على إسعاد أي رجل ؟

(١) جيمس بوزويل ١٧٤٠ — ١٧٩٥ مؤلف كتاب ترجمة حياة « صموئيل جونسون » .

فقال جونسون : إن هذا القياس ينسحب على خمسين ألف امرأة .

بوزويل : إذاً أنت تخالف الذين يقولون إن بعض النساء قد خلقن هوى لبعض الرجال كما خلق هؤلاء الرجال هوى لهن . وأن لن تكون سعادة إلا إذا أكل كل نصف نصفه الآخر .

جونسون : نعم إنى لست على هذا الرأى . وأعتقد أن الزواج بصفة عامة قد يكون سعيدا — وهو فى الغالب كذلك — إذا تم كله على يدى قاضى القضاة بعد الدراسة الكافية لأخلاق الزوج والزوجة والظروف التى تحيط بهما دون أن يكون لهما الرأى فى الاختيار .

والسيدة الأرملة «مسز بورتر» التى تزوجها جونسون كانت تكبره فى العمر ، بل كان عمرها ضعف عمره ، فقد كان هو فى السادسة والعشرين وكانت هى فى الثانية والخمسين ؛ ولكن يبدو أن الدافع لهذا الزواج كان إعجابها به كرجل قد بلغ الغاية فى الذكاء ، بل كان قد أوفى على الغاية .

وكان من دلائل تقوى جونسون أنه قبل أن يتزوج «مسز بورتر» ذهب لأمه يطلب موافقتها على هذا الزواج ، فلما رضيت بزواجهما أردف زوجته على حصانه وذهب إلى حيث عقد عليها .

وقد كان جونسون يختلف مع زوجته فى كثير من الأمور : كاختلافه معها فى لون شعرها ، فقد كانت هى تريد أن تصبغه بالسواد ، وكان هو يريده كما هو . وقد عنفها مرة لضربها قطة ، وذلك خوفا من أن تحذو الخادمة حذوها فتقسو فى معاملة تلك القطة .

وكانت هى مغرمة بنظافة البيت ، وكانت تكثر من التحدث عن نظافة أرض الغرف وجودة صقلها ، حتى برم جونسون بهذا الحديث وقال لها : لقد شبعنا حديثا عن أرض الغرفة ، فلنتحدث قليلا عن سقفها .

ولم يكن كلاهما مخدوعا بصاحبه . ولم يكن هو مشغوفاً بها منقطعاً فى حبها . وإنما هى «مولى استون» التى خلبت لبه وشغف بها فؤاده . تلك التى كان يصفها بقوله «أظرف مخلوق رأيته فى حياتى » . وإن أسعد فترة مرت به فى الحياة هى تلك الفترة التى أمضى منها ليلة كاملة فى صحبتها .

وكان جونسون كثير التشكى من الطعام الذى تمده له امرأته حتى عيل صبرها ، فقالت له يوما — وهو يبتدىء صلاته — : أمسك عليك القول يامستر جونسون ولا تمزج بشكر الله على طعام ستذمه بعد دقائق ... وإنه لأمر واضح أن جونسون ومسز جونسون كانا مخلوقين يفيض كلاهما لصاحبه بمكنون صدره ، ويحب كلاهما صاحبه ، على الرغم مما ارتكباه من أخطاء عديدة . فلم تكن هى المخلوقة العزيزة لديه فحسب ، بل أصدق صديق له . أعانته فى أيام الشدة والفقر ، يوم اضطر إلى بيع كأس صغيرة من الفضة كانت أثرا غاليا من آثار أمه

وقد فقد بموتها رفيقاً لا يجارى . ولم يفقد دمية من الدمى عليها طلاء ودهان .

وفى جوابه المر القاسى الذى كتبه ، ورفض فيه ما عرضه « لورد شسترفيلد » من رعاية لقاموسه ، وذلك بعد ثلاث سنين من وفاتها ، وردت فقرة مؤثرة قال فيها : « إنه الآن لا زوجة له تستطيع أن تشاركه السرور الذى تبعثه التقالات العظام . ثم قال للورد : وهذه العناية بأمرى لو أنها جاءت مبكرة لكانت عناية مشكورة ، ولكنها جاءت متأخرة حتى أصبحت لا أبالى بها ولا أستطيع أن أستمتع بمزاياها . وقد أصبحت وحيداً فلا أجد من يشاركنى إياها . وقد أصبحت معروف المكانة فلست فى حاجة إليها » .

وحتى بعد موت زوجته لم يخل بيت جونسون من حواء أبداً . وظل زمانا فى أواخر حياته يمثل دور الزوج الخاضع للمرأة . وكان يتخذ لنفسه خدينات من النساء ،

السيد عبدالله النديم

بعد خمسين عاماً من وفاته

يجد الباحث في كل ثنية من ثنايا هذه السيرة مجالا فسيحا لبطولة الفذة والعبقرية النادرة والوطنية المتأججة والتضحية في سبيل الفكرة والواجب الوطني . وقد تعمدنا في هذه الكلمة سرد حياة المترجم دون أن نتكلم من البيئة والوسط وحالة الثقافة والأدب ومرتبتهما في عصره .

هو عبدالله بن مصباح بن ابراهيم . وكان أبوه من بلدة الطيبة بمديرية الشرقية — نزح إلى الاسكندرية فاشترك في تأسيس مصنع لإعداد السفن ، ثم ولد له عبدالله في شهر ذي الحجة سنة ١٢٦١ ، وقد تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وأدخل معهد الاسكندرية الديني — جامع الشيخ ابراهيم باشا — فدرس مايدرس فيه من العلوم الدينية واللغوية ، وانصرف للأدب ، وما لبث أن ذاع اسمه . على أن طلب العيش أعجله فتعلم فن الإشارات البرقية والتحق بمكتب البرق بمحطة بنها ، فأعجب الرئيس العام بمهارته ، ثم نقله إلى مكتب القصر العالي في عهد الخديو إسماعيل ، وتعرف بكثيرين من أدباء وشعراء عصره يساجلهم ويطارحهم ، واجتمع له من الزملاء والأصدقاء عدد كبير ، أمثال محمود سامي البارودي باشا ومحمود صفوت الساعاتي والشيخ أحمد وهبي . ثم على أثر خلاف بينه وبين خليل أغا قضي بفصله من وظيفته ، فاشتغل بالتدريس لبعض أبناء الأعيان بمديرية الدقهلية ، ثم أسس حانوتا لبيع المردوات ؛ وافرط سخائه وبسط يده أتلف رأس ماله ، فانتقل إلى مدينة طنطا ، واستدعاه شاهين باشا كنج مفتش الوجه البحري وقويت أواصر الودة بينه وبين الباشا الذي كان بيته ملتقى الأدباء والكتاب ووجوه البلاد ، فاعترفوا له بالفضل ، وعرض عليه التوتونجي بك أن يحمله وكيلا له

واحدة في إثر أخرى ، وكان « بوزويل » يتولاه العجب لصبره وحسن معاملته لضيفاته الغيورات . وكان يضطر أحيانا أن يتكلم في لهجة المستهزئ ، عن تلك المجموعة من النسوة التي كان يسميها جونسون « حريمه » .

وفي محبته وتزوجه من مسز ولمز واختياره إياها من بين صويحباته ما يدل على أنه يفضل كل التفضيل النساء اللائي من فوق المستوى العادي في الذكاء . ونحن نستق هذا الاستدلال من مائة مصدر ومصدر . فقد كتب مرة لصاحبه « بزويل » يقول : — إذا خلوت من عمل ومن التطلع إلى المستقبل فليس أشهى لدى من أن أركب عربة تصحبني فيها امرأة جميلة ، على شرط أن تكون هذه الحسناء الجميلة ممن يفهمني ، وممن يضفي إلى الحديث شيئا من الفائدة والطلاوة .

وكان جونسون دائما الحامي المدافع عن النساء العالمات ضد من يهاجمهن . ويقول بزويل — وهو يخالفه في هذه القضية — إن جونسون أكد لي في حديث من أحاديثه أن المرأة المثقفة المتعلمة ليست أسوأ الزوجات .

وفي مناسبة أخرى يقول — كما يقرر أحد أصحابه — : إن الرجل الذكي المتعلم يجب أن ينعم بصحبة زوجة تناسبه علما وتثقيفا ، وإنه لشيء تعيس أن لا يدور الحديث بين المرء وزوجه ، إلا على لحم الضأن وهل يؤكل مسلوقا أومشويا وأن يقوم العراك بين الزوجين إذا اختلفا في هذا .

وليس ينكر منكر أن جونسون قال بعكس هذا الرأي يوم قال : إن المرأة البحاثة المفكرة التي لا تمل من الجدل تصبح ثقيلة لا تطاق صحبتها . فإذا ظلت امرأة من المتعلمات تبدئ وتعيد في الكلام عن بدعة الآرية والآريين ، إذاً اضاق بها ويحدثها أشد غلاة القائلين بالمساواة بين الرجل والمرأة .

(مترجمة) مبارك ابراهيم

على ضياعه فلم يرق له هذا العمل وعاد إلى الاسكندرية ، وكانت البلاد في اضطراب شديد ؛ وهنا انضم إلى جمعية (مصر الفتاة) واشتغل بالصحافة فلمع نجمه بين الكتاب — واشترك في تأسيس جمعية خيرية إسلامية سنة ١٢٩٤هـ ، وفي آخر سني إسماعيل باشا في الحكم ، وتولى إدارة مدرستها . وبعد عزل إسماعيل باشا وجلوس توفيق باشا أدخل بعض الإصلاحات على الجمعية وطلب إلى الخديو زيارة مدرستها فأجاب دعوته وسر لنظام المدرسة وجعلها تحت رعاية ولي عهده عباس حلمي ، وأضاف له ولزملائه مهمة التدريس بالمدرسة البحرية ، وتقرر لها مبلغ مائتين وخمسين جنيها إعانة سنوية . وظل النديم يجهد نفسه ويعمل في الناحيتين التعليم والصحافة ، وقد وضع روايتين تمثيليتين : أولاهما دعاها (الوطن وطالع التوفيق) والثانية دعاها (العرب) مثلهما بعض طلابه في أحد مسارح الثغر بحضور الخديو وأجازه على براعته وفنه . وقد ذاع صيته بين الخاصة والعامة . ثم غادر الجمعية والتعليم وأصدر صحيفة (التبكيت والتنكيت) وأخرجها شعبية بحتة في لغة قومية ، ظهر العدد الأول منها في رجب عام ١٢٩٥هـ ، واستحدث أوزانا في شعر العامة وفي موشحاته ، واستهل العدد الأول زجل هذا بعض ما جاء فيه :

حكت على عدونا المواجبات   والدين مات   والشكل متهاون غفلان
حب حب حق التعريف   وصل الريف   والحرة العرب مع الكيلان
تلق الصمد قبل الإمساك   شربوا الكنياك   أنظر صيامهم بات سكران
ناموا الصادقين للأروام   بالأوهام   وأصبح الوطن غلبان
من بعد ما كان دواره   قدام داره   صبح يخاف يلق الضيفان
كان المواجه خشخاشه   في أيامه   والآن جرته الخرفان
والبيه صبح باع الأملاك   في حب الكاس   والبيت وساعته والقفطان
أما الأفندي بلامته   قول إنعامته   صبح يتبع م الإخوان
وابن البلد د ماتنساهش   لما تمشي   الغشاء من البيرة عيان
اسأل بقى جورجي ويني   مش تسألني   لم الفلوس وراحت اليونان
نقى الفلوس في إيطاليا   أو ألمانيا   والا فرانسا يا إنسان
الى بشوف صرف أموالنا   في أموالنا   يقول بلادنا مارستان
كانت بلادنا زي الجنة   وشنه ورنه   صبحت لأهليها لومان
الحبس إن كان يعلمكم   راح يعلمكم   وبصير العالم وحلان
الى يشله   أوربى   في دين الغرب ما يقلده في حب الأوطان

وهكذا كانت أزجاله كلها حثا على الأخلاق الفاضلة واتباع أوامر الدين ، حتى أخذ وميض الثورة العرابية يبدو ، فكانت له الخطب الملتهبة والأزجال الحماسية يحض بها أهل الثورة ، فكان خطيبها بلا نزاع . انقادت له الخاصة والعامة معا وهو يلهب النفوس ويدعوها للانضمام إلى صفوف الثوار ، وكان قد أصدر من صحيفته التبكيت والتنكيت ثمانية عشر عددا آخرها تاريخه ٢٣ ذي القعدة سنة ١٢٩٥ فعطلها وانتقل إلى القاهرة فجعلها جذوة نار ، وأصدر صحيفة باسم (الطائف) واسترسل في جهاده حتى أطلق عليه (خطيب المجاهدين) يهرعون لسماع خطبه أينما حل ، ويلتف حوله الجماهير حيثما سلك إلى أن واجه المصريون الإنجليز وقويت نار الحرب بين الفريقين بالاسكندرية في يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ١٢٩٦ ، فسافر المترجم إليها وقضى ليلة مع بعض الضباط ثم لحق بعرابي باشا بعد هزيمته بكفر الدوار ومضيا إلى التل الكبير ، وفي هذه الفترة العصيبة كان يوالي إصدار صحيفته (الطائف) يكتب مواضيعها بالمعسكر إلى أن كانت الهزيمة الكبرى بالتل الكبير ، فاتفق مع عرابي باشا وعلى الروبي باشا على العودة لمصر ليكتبوا رسالة للخديو بالتماس العفو ، وفعلا حمل هو الرسالة وسافر بها في يوم الخميس ٣٠ شوال ، وما كاد يصل إلى كفر الدوار حتى أبلغ نبأ دخول الجيش الإنجليزي مصر والقبض على زعماء الثورة ، فعاد إلى القاهرة وبقي في داره بالعشماوي ، حتى إذا انصدع عمود الصبح خرج مع أبيه وخادمه واستقلوا عربة إلى حي بولاق فودعه أبوه واختفى هو وخادمه .

ظلت الحكومة تقتفي أثره وبثت العيون والأرصاد فلم تظفر بنتيجة ، وجعلت مبلغ ألف جنيه لمن يقف على أثره ، فلما أعجزها العثور عليه حكمت عليه بالنفي المؤبد وبقي مختفيا نحو تسعة أعوام متنقلا في البلاد والقرى . وأخيرا أقام بقرية الجميزة مركز السنطة وكان يتردد على القرية

رجل يدعى حسن القرارجى وهو مفصول من الإدارة السرية ، فأغراه مبلغ المكافأة ، إذ بصر به فى ثياب التنكر ورجح أنه طلبة الحكومة ، فأبلغ الديوان الخديوى كما أبلغ الداخلية ، فنهض معه وكيل الحكمدار فى ثياب التنكر وكان يدعى محمد افندى فريد ومعه بعض الشرطة فى زى المزارعين . وأحيط بالدار ، ثم صعد رئيسهم على ربوة تشرف على أفنية الدور بأسلحتهم النارية ، وبصروا به وهو يحاول أن يهبط على الدار المجاورة ، فأطلقوا بنادقهم فى الهواء فعاد فاقتحموا الباب فلم يجد بدا من استقبالهم فواجههم ، فسأله رئيس الجند : من أنت ؟ قال : سبحان الله ! أيجهلنى وأنت موفد للقبض على ؟ أنا عبد الله النديم . فذهبوا به وكان يوم ٢٩ صفر سنة ١٣٠٦ ، وكانت بين كتبه أوراق لو أخذت معه لأصابه شر عظيم ، ولكنهم لم يفكروا فى غير القبض عليه هو وخادمه ، ومضت أيام قلائل عليه فى السجن ، فأصدر الخديو عفوه عنه ونفى إلى خارج القطر . فأما الجاسوس الذى أبلغ عنه فقد حرم مبلغ المكافأة لمضى الوقت . وسافر المترجم إلى يافا ثم نزل ضيفا على أحد مريديه وهو المطرب المعروف فى عهده السيد على أبى الواهب ، فأكرم وفادته ، ثم رحل إلى نابلس وإلى سبطيه وقليلا وطاف بالبلاد الفلسطينية حتى انتهت أيام الخديو توفيق باشا وجلس على العرش ابنه الخديو عباس فعفا عنه وأباح له العودة إلى مصر ، وهنا أصدر مجلة (الأستاذ) فى شهر صفر سنة ١٣١٠ فكان جنديا مخلصاً للخديو ، أوقف قلمه ومجلته لخدمة العرش ، فلقيت رواجا لم يكن لصحيفة قبلها ، حتى أحفظ الإنجليز عليه ومشى خصومه بالسعاية ، فعطلوا مجلته وأمروه بالعودة إلى يافا بعد أن صرف له أربعمائة جنيه ورتبوا له خمسة وعشرين جنيها فى كل شهر على أن لا يكتب كلمة بشأن مصر . على أنه لم يسلم من السعاية لدى السلطان عبد الحميد . ولكن الغازى أحمد مختار باشا مهد له الهجرة إلى دار الخلافة التركية فوظف بديوان المعارف براتب قدره خمسة وأربعون جنيها مجيديا ، وبقى فى منصبه حتى اشتدت عليه علة السل ، فلقى ربه فى ٤ من جمادى الأولى سنة ١٣١٤ يوافق ١١ أكتوبر ١٨٩٦ . وكان من بين المشيعين له السيد جمال الدين الأفغانى نزيل دار الخلافة . ودفن بمقبرة يحيى أفندى فى بشكطاش .

أما مؤلفاته فقد بددتها الأسفار المتواصلة ، حتى كتابه « سلافة النديم » والأجزاء التى ظهرت من سلسلة كتابه (كان ويكون) وكتابه (المسامير) ومضى إلى رحمة مولاه من خمسين عاماً . مات غريبا عن وطنه ، بعيداً عن أهله . فهل يكون له فى سجل الذكرى صفحة جهاد فى وطن القاهريين الأوفياء ؟

حسين مظلوم رياض

شريط القدر

[للكاتب الانجليزي و . ا . دار لنجون]

« لشد ما أمقت العاشقين المتصابين .. ! »

قالت هـذا ماري نيكولز فجأة ، وبنغمة مرة حاقدة .

وكان زوجها المستر نيكولز مضطجعاً ضجعة مريحة على العشب بجانب كرسيها في حديقة الدار ، ففتح عينيه وسألها :

— لم أكن أعرف من قبل أن لك عشيقاً ما .. !

فتهانفت المسز نيكولز قليلا وأجابت .

— لو فرضنا بالمستقبل ، أن كان لي عشيق ، فهل كنت تستطيع الثبور أو التعرف عليه .. ! إنما أعني أنى لا أطيق وجود خطيب وخطيبة في منزلنا

— أتعنين جورج وكارولين ؟

— إياهما أعني

— أوه لا أدري

قال هذا المستر نيكولز وهو يمر بيده على موضع صدره مفكراً ، ثم أردف يقول : وتعنين بذلك مناقراتهما التي لا تنقطع ، وتناحرهما وحردهما ثم تراضيهما .. فتنجلي النمة دون أن يصيب ناتاً رشاش منهما .. ؟

أجابت ماري نيكولز زوجها :

— أهذا كل ما تعرفه من هذه القصة ؟ ! ألا تدري ياولبم بأني عند كل وجبة طعام ، لا أستطيع الجزم فيما إذا كانا لا يزالان راضيين عن بعضهما ، أم قد فسدت ملا قتهما فازور أحدهما عن الآخر . فإذا كانت الحالة الأولى جلس أحدهما في حضن الآخر ، وإذا كانت الحالة الثانية طوى أحدهما كشحه عن الآخر ، وجلسا إلى المائدة متباعدين صامتين ، وحلق كل منهما في طبقه بعينين زائغتين وجبين مقطب ، دون أن يصيب من الطعام شيئاً ..

أجاب المستر نيكولز :

— على كل حال .. قليل من السكوت لا يضير أحداً .. فكلانا نتكلم أكثر مما ينبغي ..

فقالت المسز نيكولز وهي تلوح بيديها :

— ولكنه السكوت المطبق الممض .. !

وقصف المستر نيكولز شُمْاخَة من العشب النامي وأخـذ يمضغها ، وقد شاعت على وجهه غفلة التفكير ، وامتد بصره إلى ناحية وادي وندال Wandal ، والنهر المنساب فيه ، وقد انعكست على صفحته أشعة الشمس فبدت أمواهه براقة . وأخيراً سأل زوجته :

— وما خطب جورج وكارولين يا ترى ؟ أهـل كنا نتناقر مثلهما أيام كنا خطيبين ؟ أما أنا فلست بذا كر شيئاً من ذلك . وكل ما يحضرني هو أنك أحرجتني نوبة أو نوبتين فكدت أتخيل بأني قاتلك لا محالة .. ومع ذلك ما خرجت من طوري مرة واحدة ..

قالت المسز نيكولز :

— لقد طال العهد على خطبتهما .. ولا أشك في أن هـذا هو السبب . وقد صممت على ألا أدعهما يجتمعان عندي كرة أخرى ، دون أن يكونا قد تزوجا ، أو افترقا على خير .. ماذا ؟ أذاك جورج الذي أراه قادماً نحونا ؟

— أجل هو بعينه .. وكأنما أراه يجر ساقيه جرا ، كحصان عربة الموتى ..

كان جورج كارول (Cardell) فتى كبير الجسم قويه ، مشغوفاً بالألعاب الرياضية صادق الأحدوثة ، وكان موفقاً في عمله بالوظيفة . وله من العمر ستة وعشرون عاماً . وأقبل فسلم ، وقد لحت المسز نيكولز امتقاع لون وجهه وا كفهراره ، فاستطلعته النبأ ، وهل اختصم مع كارولين ، فقال : بلى ، وإن كارولين قد صرمته ، ورمت إليه بخاتم الخطبة . ثم ارتمى على الأرض يائسا منكسر الفؤاد ..

وأثار منظر جورج عطف المسز نيكولز ، فراحت

تخفف من لوعته ، وتهون عليه وقع المصاب ، قائلة : إن كارولين قد نفرت غير مرة ، ثم ما لبثت أن عادت إلى مغناها . . ولكن جورج أكد بأن كارولين كانت جادة في الفراق هذه المرة . بدليل أنها قذفت في وجهه بخاتم الخطبة ، فسألته المسز نيكولز :

— هل لك أن تصدقني سبب هذه القطيعة ؟

أجاب جورج :

— لا شيء . . سوى ما قلته لها عن جيوفري هاريسون

— جيوفري . . ؟ ذلك الغلام الرخو الغر . ؟ ألعلك غرت منه ؟

— طبعاً لا . . إنما لم أطق رؤية كارولين تتملق إليه ، في حين — وأنا خطيبها — لم أحظ منها بنظرة عطف ، أو بإفادة وداد . ولابد أنها تعمدت مكايدتي وتوكيس قدري أمامه . . ولا أكتمك بأن حماقتي هي التي جرت على هذا الوبال .

فقال المستر نيكولز مصححاً : لا بل حماقتكما . . . أنت وهي !

وأقبلت المسز نيكولز على جورج تحاول فض الخلاف ، فصرحت له بأن هذا التنابذ تعود أسبابه — من وجهة نفسية — إلى طول عهد الخطبة ، ونصحته بأن يسرع فيبني على كارولين ، لئلا يفقدها إلى الأبد . ولكن جورج أبدى اعتراضاً ، بأن ما لديه من دراهم ، وحتى بإضافة كارولين مضافة إليها ، لا تفي بمشروع الزواج . وقال إنه وكارولين كانا قد عولا منذ البداية ألا يقدما على زواج إلا متى اطمأنا إلى وفرة مالها ، بحيث يكفل لهما السعادة في حياتهما الزوجية . ومع ذلك اتفقا على أن يقضيا مدة الخطبة في سعة من العيش وألا يجهدا في التقتير والتلاحز [1] ، شأن بعض قرنائهما من الخطيبين ، وأن يظلا عاقلين مهما طال زمن الخطبة . ولكن المستر نيكولز لم يرق في عينيه هذا الرأي . وسخر من زعم جورج بأنهما «سيظلان عاقلين» ثم نهض وانصرف .

واستطاعت المسز نيكولز بعد لأي إقناع جورج بأن دخله الثابت من وظيفته ، مع ما يشاع عن ترقية له عاجلة ، خير ضامن له للشروع في أمر الزواج راشداً . ونصحته بالذهاب إلى كارولين والإفضاء إليها بما عقد العزم عليه ، وسيرى ما يدهشه من رقة قلبها وقبولها بالأمر الواقع .

وامتثل جورج للنصيحة ، ولكنه لم يكد يبتعد من المسز نيكولز قيد خطوات معدودات ، حتى طلعت عليهما كارولين من مخبأ قريب بين أشجار الحديقة ، وقالت بأنها شاهدت جورج ينصرف من لدنهما فزاغت عنه ، إذ قد عزمت على العودة إلى بيت أبيها في مدينة غيلتون ، وبأن المستر نيكولز قد تلطف فرضي بأن يوصلها بسيارته إلى محطة هلستون لتستقل قطار الساعة ٣و٤٥ بعد الظهر .

ولم تكد المسز نيكولز تفتح فاها لتمحض النصح لكارولين كما محضته جورج منذ هنيهة ، حتى كانت هذه قد طارت من عندها وتوارت في الأفنان كأنها جنية ، إذ كانت قد لمحت جورج عائداً إلى المسز نيكولز ، وهو ما زال يبحث عنها في أطراف المنزل .

وجاء جورج فأخبرته المسز نيكولز بما انتوته كارولين وأشارت عليه بأن يسبقها بسيارته ، ويركب القطار في المحطة الواقعة قبل هلستون . وفي هلستون يلتقي بها في القطار ، ويسعى في حملها على قبول الزواج حالا .

* * *

وقف القطار في محطة سازام Satham الصغيرة قبل مروره بهلستون ، وعلى الرصيف شاهد فرد كروبر Fred Cropper حارس القطار ، فتى ممتلىء الجسم أشعث الشعر تبدو عليه مخايل الاضطراب ، يقفز إلى القطار . . وفي هلستون رأى الحارس نفسه ، فتاة صبيحة الوجه

(١) التلاحز : الشح والبخل

ممشوقة القد ، كأنما تصلح لتكون ممثلة سينمائية ، تنزل متهادية من سيارة المستر نيكولز ، الذي يعرفه كروبر حق المعرفة ، ثم تتجه إلى القطار وتدخل عربة السيدات . . وقد لفت انتباهه أن ذلك الفتى الأشمث ، كان يراقب الفتاة لمعرفة أي من الحجرات ستستقر فيها . .

وجاز القطار محطة صغيرة ، هي أقرب ما تكون بالموقف الوقتي ، دون أن يزيد وقوفه فيها من لحظات ، فرأى فرد كروبر الفتى ينزل من عربته ويسترق الخطى كاللص نحو عربة الفتاة ، ثم يلجها !! فداخله الشك في الأمر ، وتراءت له أفكار شريرة .. وتصور وقوع جريمة في القطار ، إذ كان قد قرأ في الكتب أن رجلا قطع أوصال امرأة في ظروف أشبه بما يشاهده الآن ، ولكنه نبذ هذا الوهم من مخيلته ، وانصرف إلى عمله الرسمي ، كحارس لضمان سير القطار .

وكانت كارولين قابعة في ركن من أركان الحجرة ، موزعة الأفكار ؛ فهي بين راض من هجرها حبيبها وبين آسف على ما جر منها من طيش وغرور ، وقد بدت بالقطار فأطلت من النافذة تسرى من نفسها بمشاهدة المناظر التي تمر أمامها ، فإذا بباب الحجرة ينفرج لا لتدخل عجوز وورهاء كي تصدع رأس كارولين بثرثرتها كما تبادر ذلك إلى ذهن كارولين ، بل ليدخل جورج كاردل خطيبها منذ ساعات ، فانتفضت قائمة وبادرته بقولها :

— جورج ! ماذا جاء بك إلى هنا ، وكيف ؟

— تالله ماذا تعنين بهذا العبث والتجني ؟

واقترب منها وهو يحدجها بنظرات قاسية نفاذة ، ثم شرع يشرح لها القضية متمطقاً ، وقد لان الآن طبعه وانفرجت أساريره ، وكاشفها بما عقد عليه العزم من شروع في الزواج ، وهي ساكنة مصغية ، وقد شعرت برعدة تسري في أطرافها ، لم تستطع لها تعليلا ، أمن الخوف ورهبة الموقف كانت أم من السرور ، أم من هذه الأشياء مجتمعة؟ ثم قالت بلهجة المتحدي :

— هذا شأني لا شأنك . .

أجاب جورج :

— أصحيح ما تقولين .. شأنك وحدك ؟

واقترب منها وقد تجهم وجهه واكفهر . فارتاعت كارولين ، وغاظها هذا التصرف الفظ من جورج والتفتت حواليها في طلب النجدة ، فوقعت عيناها على إعلان ملصق في أعلى جدار الحجرة يقول : « لكي توقف القطار اجذب الشريط المجاور . . . جزاء سوء الاستعمال خمسة جنيهات » فسرعان ما امتدت يدها إلى الشريط قائلة لجورج وهي تصر بأسنانها :

— إذا اقتربت مني قيد فتر ، شددت الشريط !

فتضاحك جورج وقال : إياك أن تفعلي أيتها الرعناء . وحسب أن كارولين تدرك مغبة جذب الشريط ، إذ لا يلجأ إليه إلا في حالات النذر الهامة كوقوع جريمة ، أو دهم مرض مفاجئ . وخطا خطوة إلى الأمام ، ولكن كارولين أخلفت ظنه ، وجذبت الشريط بشدة . . فإذا هو مرتخي بيدها ، بعد أن كان مشدوداً محصداً .

وشهق جورج : يا إلهي . . لقد فعلتها !

وأحست كارولين بفداحة خطئها ، وشرع القطار يخفف من سرعته تدريجياً ، وهي واقفة كالمشدوهة ، وفي طرفة عين نزلت من علياء كبريائها ، وعادت فتاة غريرة وجلة ، تستمد الغوث من حاميها الطبيعي قائلة :

— والآن يا جورج . . ما العمل ؟. فحار جورج هو الآخر ورجّع الصدى قائلا :

— والله لا أدري ما العمل .. على كل حال ، لقد كنت تقصدين اتهامي بشيء ما .. أليس كذلك !! . فامضي في الاتهام دون حيدة . . إلا إذا أردت أن أقول لهم بأني أنا

الذي جذبت الشريط من قبيل العبث ، وأني مستعد لدفع الغرامة . .

ورجفت كارولين دون أن تصل إلى قرار ما ، وقالت :

— ها إن القطار يكاد يقف يا جورج ، فماذا أنت فاعل ؟ !

وقدح جورج زناد ذهنه ، فلاح له منفذ سرعان ما أوى إليه ، واستلقى على الأرض مخاطباً كارولين :

— لقد أغمى عليّ . . قولي لهم هكذا . . وانتابك الفزع فالتمست الغوث . . أفهمت ؟

— ولكنك ستلطخ ثيابك . .

— كان عليك أن تتطلعي إلى هذا الأمر قبل جذبك الشريط يا مزرقي . .

ثم قال بنبرة الشاب التهكمي : ومهما يكن من شيء فلسنا نهتمين بأمر (قذارتي) الآن . . !

وأسبل جورج جفنيه ببرود ، وانتفض القطار انتفاضته الأخيرة ، ووقف .

كان حارس القطار المستر فرد كروبر ، أكثر الناس ارتياباً وتوجساً للشر ، إذ لم يحدث قط من قبل أن جذب شريط القطار الذي يعمل فيه ، وأحس بأنه لابد مواجه أمراً جللا ، وتراءى له ذاك الفتى الأشعث الأغبر ، الذي استقل القطار من محطة سادام ، ثم تسلل إلى حجرة الفتاة الحسناء التي ركبت في هلستون . وتوقع ، وهو مقدم على العربة التي انجذب منها الشريط ، أن يلحق به توم تيلور Tom Taylor سائق القطار ، ليشد أزره إذا دعا الأمر . ولكن هذا اكتفى بأن أطل برأسه من حجرته ، رائماً باستغراب أسارير جبهته الكدراء . . وكأن سائر الركاب الآخرين كانوا ممن حرموا غريزة حب الاستطلاع ، إذ ظلوا في أماكنهم ، ولم يعن أحد منهم ولو بالاستفسار عن سبب وقوف القطار . .

واقترب كروبر من الحجرة المشئومة ، وهو هياب ، وتسلقها وأجال بصره في داخلها ، فأجفل إذ رأى الفتاة واقفة كالصنم ، والفتى منطرحاً عند قدميها . فقال في نفسه : لله درها من فتاة مسترجلة . . صرعته ولم تبال . ! وولج الحجرة ، وقد زايله بعض الخوف ، فبادرته الفتاة :

— أيها الحارس . . أرجو ألا أكون قد أزعجتك . . لقد أغمى على هذا الرجل ولم أدر ماذا أصنع فجذبت الشريط

فلم يصدق كروبر قول الفتاة . وظن أن فزعها من الجرعة قد ألجأها إلى هذه الحجة ، فتقدم من الفتى وجس موضع القلب ، فوجده ينبض . فطمأن الفتاة بأنه ما زال فيه رمق . . واستفسر عن نوع الأداة التي صرعت بها الفتى ، فأجابت كارولين وهي لا تخفي اندهاشها ، بأنها لم تمسه بسوء ، بل إن إغماءة فجاءته ، فقال لها كروبر :

— لا حاجة لك يا آنسة إلى مثل هذا القول . . فكل ما فعلته ، إنما كان دفاعاً عن الشرف . قبحاً له من (زبون) قذر . . !

فعارضته كارولين قائلة :

— ولكنني لم أفعل به شيئاً ، إنه . . إنه . . صديق لي

ولمح المستر كروبر تلعثمها ، فزاده هذا تصديقاً ، وظن بأن الفتاة تريد أن تتجنب الفضيحة ، بعد أن أيقنت من بقاء الرجل حياً . . غير أن واجبه يقضي بألا يدع هذا (الوغد) يفلت من طائلة القانون . .

وأخيراً جاء توم تيلور سائق القطار مستطلعاً الخبر فقال له كروبر :

— لقد داس هذا الرجل حرمة الحجرة التي تجلس فيها هذه الفتاة ، فلقي منها عدل الجزاء . . وهي الآن تحاول أن تجعل منه صديقاً لها .

فانبرت كارولين تقول :

— أجل إنه صديق . . وقد سافرنا نحن الاثنين معاً

فاندفع كروبر اندفاعة المستنطق البارع يقول :

— الآن قد برح الخفاء . . وبان تلفيق الآنسة . .

إنهما لم يسافرا معا . لقد رأيته يرقبها من نافذة حجرته ، وهي تركب القطار من هلستون ، ثم ينسلّ إلى حجرتها في المحطة التالية .

فقال توم تيلور ، مع أنه لم يكن يتبين من جورج سوى طرف حذائه :

— لا غرو في ذلك .. فدلائل «الخطبة» بادية عليه .

فالتفتت إليه كارولين مغضبة قائلة :

— إنك يا سيدى مخطئ فيما ذهبت إليه .. ثم إن الرجل خطيبى ..

فهزّ فرد كروبر رأسه ، كمن لم يصدق حرفاً واحداً مما تقوله كارولين ثم خاطبها يقول :

— ولكنك قلت منذ هنيهة بأنه صديقك .. إنى شديد الأسف يا آنسة ، إذ علينا واجب ينبغى أن نؤديه .. هيا يا توم .. دعنا ننقل الرجل من العربة .

وتهالكت كارولين على المقعد حيرى ساخطة . وماذا تراها فاعلة وقد أصبحت شخصاً غير مقبول الشهادة . أما جورج ... فقد يكون لديه رأى صائب ، ولكنه لابد مدرك أن من الأفضل أن يظل في غيبوبته ، ربما تستطيع هي أن تدبر الأمر ، وتلطف من جو عدائهما نحوه .

وحملا جورج ووضعاه على العشب بمحاذاة الخط الحديدى . وسمعت كارولين السائق توم تيلور يخاطب رفيقه قائلا :

— لنوقظه أولاً يا فرد ... ثم نستوضحه جلية الأمر — قف فوق رأسه ريثما أعود ، والدم [1] به الأرض ، إذا ما حاول النهوض وإتيان أمر إد .

ثم يمم شطر القاطرة يبغى تنفيذ فكرة رسخت في نفسه .

ولما طال وقوف القطار ، أخذ ركابه من سكان وادى وندال Wandal يترلون آحاداً وزمراً ، ويتجمهرون حول الصريع ، ليستمعوا إلى فرد كروبر وهو يتلو عليهم القصة

(١) الدم به : اضرب به

كرة بعد أخرى . فضاقت كارولين ذرعاً ، ورأت الخرق فى اتساع ، وأنه قد آن لها أن تقوم بعمل حاسم . فدلفت من العربة ، وجاءت فوقفت فوق رأس الصريع ، ثم التفتت إلى الجمهور كما فعل مارك أنطونيوس ، وهو واقف فوق رأس قيصر .. وشرعت تخطب فيه فقالت :

— اسمعونى يا قوم وعوا ما سأقول .. إنكم قد ارتكبتم فاحش الخطأ .. ولقد غركم من نبأ كم .. فهذا الرجل إن هو إلا خطيبى ، وقد تلاحيت وإياه صباح اليوم وفسخت خطبتى به ، فلحق بى إلى القطار ، وما كاد يلج علىّ باب حجرتى حتى خر مغشياً عليه من فرط الوجد والإعياء ، كما ترون .. هذه هي السيرة من ألفها إلى يائها .

ونفذت كلمات كارولين إلى قلوب جمهور النظارة من سكان وادى وندال ، وقلّبوا صور الرواية ، كما صورتها كارولين ، فوجدوها سليمة المنطق . ولم يعد هذا الأتى فى نظرهم وغداً لئيما ، ووافلا زنيما ، بل إن منهم من جهر بالعطف عليه والرثاء له . ورأت كارولين أن دورها المسرحى الذى عرفت كيف تتقن أداءه لم ينته بعد . فقابلت ما بين يديها على صدرها ، ونكست رأسها ، فبدا منظرها الجزل حزيناً يستدر الرحمة من القلوب الصلدة ، وتابعت خطابها بصوت متهدج قائلة :

— ولا أخفى عليكم أيها السادة والسيدات .. بأنى أحب الرجل حباً جمّا ..!

ولاحت على محيا جورج ابتسامة مرتعشة رقيقة ، ولكنها مبتسرة [1] ، لم يستطع لها إخفاءً . فوكزته كارولين بقدمها بشدة ، خوف افتضاح الأمر ، فغاضت الابتسامة لتوها .

وقد أحدث خطاب كارولين أثره المطلوب فى نفوس الركاب ، حتى إن المستر فرد كروبر قد رق قلبه ، وتلاشى

(١) مبتسرة : فى غير أوانها

ما كان يشعر به من غل نحو جورج ، وود لو أنه ينهض ليعانق حبيبته الوالهة .

بيد أن جورج قد أجاد هو الآخر تمثيل دوره ، بأن ظل ساكناً سكون الحجر . ورأت كارولين الجو صالحاً المضي في الرواية حتى الفصل الأخير . فوكزت جورج وكزة لها مغزاها ، فما كان منه إلا أن انتفض من إغماءته وزفر زفرة مديدة ، تحسبها أنة خارجة من أعماق قلبه ، ثم اختلجت عيناه عدة مرات ، قبل أن تنفتحا ، ونطق بالعبارة المألوفة في مثل هذه الحالات :

— أين أنا . . أين أنا . . ؟!

واعتمد على مرفقه ، وتطلع فوقعت عيناه على كارولين فصاح :

— كارو . . حبيبتي !

ثم ارتمى على الأرض مغمضاً عينيه مرة أخرى .

ووقف الركاب ينعمون بهذه الرواية الشائقة ، وقد كادت تختتم على خير وجه ، لولا أن فاجأهم توم تيلور سائق القطار الذي كان قد غاب عنهم قليلا ، يحمل دلواً أترعه من غدير مجاور ، قد أسن ماؤه ، وتوالدت فيه الدعاميص ، وطفت فوق سطحه الطحالب ، وعلق على جوانب الدلو غبار الفحم الحجري وسناجه ؛ ثم تقدم من جورج دون أن يفطن إليه أحد ، ودلق معظم الماء في وجهه ، يريد أن يوقظه من غشيته .

لقد كانت هذه (الغمسة) كفيلة بأن توقظ المغمى عليه حقاً ، فكيف بالمتصنع .. وهب جورج واقفاً وهو يشهق شرقاً بالماء ، وقد تعلق الحشيش بخصل شعره ، وسالت خيوط من الطين على عارضيه وذقنه ، وربما كمنت الدعاميص مذعورة على عنقه وصدره . . فكان منظراً مزرياً يدعو إلى الضحك والألم معاً .

وقد اغتم الحاضرون من فعلة توم تيلور ، إذ أصبحوا الآن في صف جورج . وارتاعت كارولين فانحنت عليه مولولة شاكية ، وضمته إلى صدرها ، فأصابها من البلل بقدر ما أصابه .

وعجب المستر تيلور كيف أظهر الركاب سخطهم عليه ، وعهده بهم حاقدين على جورج ناقمين منه ، فأراد أن يورطهم ، وأنذرهم أن يغيثوا (١) إلى القطار في لحظات معدودات ، وإلا برح المحطة بدونهم . فهبوا إلى حجراتهم خفافاً ، متدافعين بالمناكب ، مخلفين جورج وكارولين ، واقفين وحدهما وقفة نابية ، ولكنها مباركة . وما لبثا أن شرعا يتداولان خطط مستقبلهما . غافلين عمن حولهما ، ودون أن يفطنا إلى القطار الذي أخذ يتململ المسير بعد أن دوت صفارته عالياً في الفضاء .

وجاءهما المستر كروبر عند اللحظة الأخيرة ، ونبههما فانتبها ، وركضا إلى القطار جذلين ، متأبطين ، تشيعهما نظراته الشفيقة الراضية .

(القدس) تلخيص وترجمة

بسام عائده

(١) يغيثوا : يعودوا

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٢٦٩

العدد ٤١١ — الثلاثاء ١٨ من ذي الحجة سنة ١٣٦٥ — ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العـــــدد

مصير ألمانيا المغلوبة

انتهى مؤتمر باريس الذي عقد خلال شهور الصيف من النظر في معاهدات الصلح الخاصة بإيطاليا ورومانيا والمجر وبلغاريا وفنلنده، وهي الدول التي انحازت إلى جانب ألمانيا خلال الحرب. أما معاهدة الصلح الخاصة بألمانيا ذاتها فلم تطرح حتى اليوم على بساط البحث، ولكنها ستبحث عما قريب في مؤتمر وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى، أعني بريطانيا العظمى وأمريكا وروسيا وفرنسا، وهم يجتمعون الآن في نيويورك لمناسبة انعقاد الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة.

وقد انتهت الحرب العالمية الثانية في الثامن من مايو سنة ١٩٤٥ بتسليم ألمانيا المتداعية لأعدائها الظافرين بلا قيد ولا شرط، واحتلتها الدول الكبرى من ذلك الحين، تختص كل منها بمنطقة معينة، وفرضت عليها شروط التسليم الأساسية، وهي تتلخص في وجوب تجريد ألمانيا من السلاح بصورة مطلقة شاملة، والقضاء على الصناعات الحربية الألمانية، ومعاقبة مجرمي الحرب على ما ارتكبوه من جرائم منافية لقوانين الأمم والإنسانية، والتعويض عن كل ما ارتكبته ألمانيا من صنوف التخريب، والقضاء على النازية قضاءً تاماً. وقد عمل الحلفاء منذ أكثر من عام على تحقيق هذه الأغراض، وكانت أحكام نورنبرج التي انتهت بإعدام عدد من أقطاب النازية السياسيين والعسكريين وسجن الآخرين مدى الحياة، وما أعلنته سلطات الحلفاء من أن محاكمة الفوج الثاني من مجرمي الحرب الألمان، وهم يبلغون المئات ستبدأ عما قريب، نذيراً بأن الحلفاء يعملون بلا هوادة على استئصال شأفة النازية وآثارها، وهو من أهم الأغراض التي يرمون إلى تحقيقها. على أنه قد لوحظ منذ الساعة الأولى أن الحلفاء لا تجمعهم في معاملة ألمانيا المهزومة أو تحقيق هذه الأغراض الرئيسية

أية خطة مشتركة . والأمر بالعكس ، فقد أضحى واضحاً أن الخلاف مستحكم بين حلفاء الأمس حول هذه المسألة ، وأن لكل منهم رأيه في معاملة ألمانيا ومحاسبتها .

* * *

والآن يبدو مصير ألمانيا المهزومة مشكلة أوربية ، بل مشكلة دولية خطيرة ؛ فمنذ عام ونصف ، وألمانيا تخضع لحكم الدول المحتلة ، ولكل دولة منطقة احتلال خاصة تحكمها وفق مشيئتها وأساليبها الخاصة ؛ فروسيا تسيطر على المنطقة الشرقية حتى نهر الأودر ، وبريطانيا تسيطر على المنطقة الشمالية الغربية حتى حوض الرور ، وأمريكا تسيطر على المنطقة الوسطى والجنوبية الغربية ، وفرنسا تسيطر على منطقة صغيرة جنوبي المنطقة البريطانية ؛ ولا تجمع بين هذه المناطق الأربع أية روابط اقتصادية أو إدارية مشتركة ؛ ولم يوفق مجلس الحلفاء الأعلى إلى تنظيم مثل هذه الروابط ؛ وقد فشلت سائر الجهود التي بذلت لإعادة وحدة ألمانيا الاقتصادية والإدارية ، كما فشلت كل محاولة لإقامة حكومة ألمانية محلية في ظل الاحتلال ؛ ويعزو الإنجليز والأمريكان — وهم من أنصار تحقيق مثل هذه الوحدة — هذا الفشل إلى معارضة الروس والفرنسيين ؛ والمضي في تمزيق ألمانيا على هذا النحو يشل إنتاجها الزراعي والصناعي ، ويعرضها إلى خطر المجاعة والفوضى ، ويثير في وجه الدول المحتلة صعاباً لا نهاية لها ، ويؤخر تحقيق الأهداف التي يعمل الحلفاء لها ، وأهمها أن تقوم في ألمانيا حكومة قومية جديدة ، تأخذ على عاتقها تنفيذ شروط الصلح ، وأن يخلق من بقايا ألمانيا النازية أمة ألمانية مسالمة تدين بالمبادىء الديمقراطية وحب السلم ومجانبة التفكير في أخذ الثأر ؛ كما أن هذا التمزيق يعجز ألمانيا عن أداء التعويضات المطلوبة منها ، وبذا تضار حقوق الحلفاء أنفسهم .

ولهذه الأسباب كلها تحاول السياسة البريطانية والأمريكية أن تعاون ألمانيا على تحقيق وحدتها الإدارية والاقتصادية ؛ وقد اتفقت بريطانيا وأمريكا بالفعل على تنظيم الوحدة الاقتصادية بين المنطقتين الإنجليزية والأمريكية ، وهما بلا ريب أغنى مناطق ألمانيا الصناعية . وقد كان مفهوماً أن روسيا تعارض في مثل هذا التوحيد ، ولكن التصريحات التي أبداها المارشال ستالين لمراسل اليونيتدبرس أخيراً تنفي هذه المعارضة ، فقد صرح بأن تحقيق الاندماج ، بين مناطق الاحتلال الأربع أمر ممكن ، وأنه يجب العمل على إعادة وحدة ألمانيا الاقتصادية بل والسياسية أيضاً . فإذا كان المارشال ستالين يعبر عن السياسة التي ترغب موسكو حقاً في اتباعها إزاء ألمانيا ، فإن فرنسا تبقى هي الدولة الوحيدة التي تعارض في وحدة ألمانيا .

والواقع أن فرنسا لا تقف عند المعارضة في تحقيق الوحدة الألمانية وفي إقامة حكومة ألمانية قومية ، بل تذهب إلى وجوب اقتطاع منطقة الرين ولا سيما منطقة الرور من ألمانيا وجعلها وحدة سياسية مستقلة بذاتها . وتفكير فرنسا على هذا النحو تمليه فكرة سلامتها وقصد الحول دون قيام دولة ألمانية قوية تهدد سلامتها مرة أخرى . أما السياسة الانجليزية الأمريكية فتحرص بالعكس على أن تقوم الأمة الألمانية على قدميها مرة أخرى ، وأن تعود ألمانيا فتغدو عاملا ذا شأن في مجرى السياسة الأوربية ، ولكن دون أن تغدو قوة عسكرية تهدد السلم ؛ وترمي السياسة البريطانية من وراء ذلك إلى تحقيق هدفها المأثور ، وهو ألا تترك فرنسا وحدها تتقوى ثم تطغى كفتها في شئون غربي أوربا ؛ ومن جهة أخرى فإن للسياسة البريطانية الأمريكية المشتركة من وراء ذلك هدفاً أهم وأبعد أثراً ، هو أن تنقذ ألمانيا من شبح الفوضى وتنهض لكي تغدو كما كانت حاجزاً في وجه البلشفية يحمي أوربا الغربية من أنوائها الخطر ؛ ولا تجهل روسيا بالطبع هذا الاتجاه ،

ولهذا يشك كثيراً في أن موسكو قد ترغب حقاً في توحيد ألمانيا وإنهاضها ، خصوصاً وأنها تجرى في منطقة احتلالها على تطبيق النظم الاشتراكية ، هذا فضلا عن أن روسيا لا يمكن أن توافق بأية صورة على أن تعود ألمانيا فتتمتع بشيء من سابق قوتها أو نفوذها خشية أن تعود فتضطرم بمشاريعها العسكرية القديمة .

وهكذا تصطدم الآراء والسياسات المختلفة وتتجاذب حول مصير ألمانيا النازية ، ولهذا يواجه مؤتمر وزراء الخارجية حين يحاول وضع معاهدة الصلح مع ألمانيا أشق مهمة عرضت له . والمعروف فيما يتعلق بالناحية الإقليمية أن ألمانيا قد فقدت نهائياً مناطقها الشرقية التي استولت روسيا على بعضها ، وضم البعض الآخر إلى بولونيا ، وهذا ما صرح به المارشال ستالين في حديثه المشار إليه ؛ وعلى ذلك فسوف يبقى نهر الأودر هو حد ألمانيا الشرقي ، وتفقد ألمانيا بروسيا الشرقية وبوميرانيا ، وسيليزيا ، وهي مناطق ألمانية عريقة لبثت قروناً داخل الوطن الألماني ؛ ومن المسلم به أن تمنح منطقة السار لفرنسا ، ولكن الحلفاء لا يوافقون فرنسا على اقتطاع منطقة الرين من ألمانيا .

وأما فيما يتعلق بالتعويضات فإن روسيا تطالب ألمانيا بأرقام ضخمة جداً ؛ وترى انجلترا وأمريكا أن يكون تقدير التعويض مناسباً لطاقة الإنتاج الألماني ، وأن يترك لألمانيا من صناعاتها المدنية الخفيفة ما يمكنها من الوفاء ومن عول نفسها .

وتقوم الآن كل دولة من الدول المحتلة بنقل المصانع والأدوات الألمانية من منطقتها على ذمة التعويضات المطلوبة ؛ وأما تجريد ألمانيا من السلاح ، واستئصال شأفة النازية ، وهي أهم الأغراض التي نص عليها في وثيقة النصر ، فإنه لم يوضع بشأنهما أي خطة مشتركة ، والرأي مختلف في طريقة علاجهما ؛ وقد ظهر من الحوادث الأخيرة أن جذور النازية ما زالت متأصلة في بعض نواحي ألمانيا ، وأن مقادير عظيمة من السلاح ما زالت تخفى ، ويعثر بها من آن إلى آخر .

والخلاصة أن مجلس وزراء الخارجية سوف يضطلع إزاء المشكلة الألمانية بمهمة فادحة ، ومن المحقق أنه سيمضي وقت طويل قبل أن يوفق في شأنها إلى حلول مشتركة ، وستغدو هذه المشكلة بالأخص محكا لمعرفة موقف الدول المتحالفة ومعرفة الاتجاه النهائي الذي تزمع كل منها أن تسير فيه إزاءها ؛ وستعرف بالأخص خلال هذه المفاوضات الشاقة ماذا يمكن أن يسفر عنه ذلك الصراع المرير بين السياسة الروسية والسياسة الإنجليزية الأمريكية حول الأسس الجديدة التي يجب أن تقوم عليها حياة القارة الأوربية .

محمد عبد الله عنان

حول تنمية الثروة القومية :

استغلال العلم

أطال الباحثون في الكلام عن ثروتنا القومية وبينوا بالبراهين التي لا تدع مجالا للشك أنها على ما هي عليه في الوقت الحاضر لا تكفي لتهيئة الوسائل لعيشة إنسانية مرضية لسكان البلاد في الوقت الحاضر ، بله السكان بعد أن يزداد عددهم طبقا لما توحي به الأرقام الإحصائية عن عدد السكان ونموه سنويا . وقام كل واحد من الباحثين يقترح اقتراحا يعين على إنماء الثروة ، حتى نستطيع أن نوفر العيش الرضي ، ولا نقول العيش الرغيد ، للأغلبية الساحقة من أفراد الشعب الذين يعيشون في الوقت الحاضر عيشة لا تختلف عن عيشة البهائم ، بل قد تنقص عنها من بعض النواحي ، إذ يحرص كل مالك لماشية أن يقدم لها القدر اللازم من الطعام ويسعى قدر طاقته لحمايتها من الأمراض .

فمنهم من قال بضرورة زيادة عدد الأراضي المزروعة وتوزيع الجزء الأكبر من هذه الأراضي على صغار المزارعين ، وهو قول سهل مطمئن . وها نحن نرى في الوقت الحاضر حركة قائمة على قدم وساق لهذا الغرض ، يتزعمها معالي وزير المالية الحالي ، ورئيس حزب العمال الجديد في آن واحد . ولكننا نهمس في آذان قادة الحركة أن مجرد توزيع الأراضي لا يكفي ؛ فمياه الري لا تكاد تسد حاجة الأراضي المزروعة في الوقت الحاضر . نقول هذا القول على مسؤوليتنا بعد أن كابدنا الأمر عمليا ، على الرغم مما قد يورده رجال الري من أقوال نظرية ، بل وأرقام غير فعلية تنقض هذا القول الذي نقوله . وليس هذا إلا مجرد مثل واحد للصعوبات التي يلقاها هذا المشروع والعقبات التي تقف في سبيله ، مما يجب بذل الجهد الجبار لمقاومته والتغلب عليه .

ويقول آخرون بضرورة الاهتمام بالصناعات الزراعية وإقامتها إلى جانب الزراعة العادية ، حتى يستطيع الفلاح أن يكسب منها قدراً مناسبا يضيفه إلى مكاسبه العادية ، فيعينه هذا وذاك على الحصول على مستوى العيش الذي لا نرضى له بما هو دونه ؛ وهذا قول سهل مطمئن كذلك من الناحية النظرية ، إلا أن دونه عقبات يجب أن تبذل جهود جبارة في سبيل التغلب عليها . أقول هذا أيضا عن خبرة عملية ؛ فقد عاونت بالصدفة في مشروع يقتضي إنشاء صناعات أولية كهذه ، وكان المشرفون على العمل رجالاً مخلصين نشيطين أصحاب نفوذ ، ومع ذلك لاقوا صعوبات في تدبير المال اللازم لشراء الضروري من الآلات والأجهزة والخامات ؛ وهذا أيضا مثل واحد نسوقه ليعرف الجميع أن هذا الاقتراح أيضا ليس من السهولة والبساطة كما يتصوره بعض الناس ، بل يحتاج أيضا لجهود متواصلة شاقة في سبيل تذليل العقبات والتغلب على الصعوبات .

وقال آخرون بغير هذا وذاك ، وتقدموا باقتراحات عدة . ونحن نريد في هذه العجالة أن نلفت النظر إلى ناحية نراها جديرة بالالتفات والاهتمام ، ألا وهي ناحية استغلال العلم في خدمة هذا الغرض الشريف الذي يسعى إليه الجميع ، وهو مضاعفة الثروة القومية بالقدر الذي يؤدي إلى رفع مستوى المعيشة بوجه عام . ومن العجيب أن المؤمنين بمقدرة العلم على المساهمة في هذه الناحية قليلون ، بل إن هذا القليل المؤمن ضعيف الإيمان ، مع أن العلم قد أثبت في هذه الحرب مقدرته وكفايته بما يزيل الشك عن كل مرتاب .

واستغلال العلم الذي نعنيه هنا هو المتصل بإنماء الثروة عن طريق تحسين النوع في كل شيء . فقد تنبه الناس حتى في البلاد غير الزراعية إلى أن كل محصول من المحاصيل في الاستطاعة إدخال تحسينات عليه تزيد صفاته الموجودة حسنا ، أو تضيف إليه صفات جيدة جديدة مما يرفع من

قيمته ويكثر من الطلب عليه فيزيد بالتالى فى سعره . ولا شك فى أن تعميم تحسينات كهذه إذا رفعت سعر أى محصول من المحاصيل الرئيسية بدرجة قليلة أدى ذلك إلى زيادة كبيرة فى ثمن هذا المحصول ، وبالتالى فى الثروة القومية بوجه عام . وما يقال عن المحصولات الزراعية يقال أيضاً عن الماشية وغيرها مما تتألف منه الثروة الحيوانية فى البلاد . فإن أى تحسين فى صفات أى نوع منها يؤدى بنفس السلسلة إلى زيادة محسوسة فى الثروة القومية . ومن حسن الحظ أن سبيل هذه التحسينات قد أصبح مستطاعاً ميسوراً بعد التقدم العظيم الحديث فى علم الوراثة . وقد قرأنا أخيراً بحثاً عن بعض ما تم من أمثال تلك التحسينات فى أوربا وأمريكا ، نورده لتوضيح الغرض الذى نرى إليه ثم نتبعه بمقترحات عما يصح أن يجرى فى مصر من بحوث مماثلة .

فهناك أنواع من الفاكهة كالشليك والكمثرى والبرقوق استطاع العلماء والباحثون عن طريق انتخاب البذور والتهجين ومضاعفة عدد الكروموسومات ، استطاعوا أن يزيدوا فى حجومها وفى جمال أشكالها وألوانها زيادة تسترعى وتبهر .

وتلك أنواع مختلفة متعددة من البطاطس قد توافر على دراستها علماء من الروس والإنجليز فتوصلوا إلى توليد أنواع جديدة منها تمتاز عن سابقاتها ، وذلك بأساليب أخرى غير ما سبقت الإشارة إليه ، ومثالها استئصال عيون الدرن حتى توصلوا إلى اهتياج الأنسجة الداخلية تحت تلك العيون المستأصلة ، فتكونت من هذه الأنسجة الداخلية براعم جديدة بعد أن كانت البراعم لا تتكون إلا من الطبقات الخارجية من الأنسجة .

ومن الوسائل الجديدة التى استعين بها على إحداث أمثال تلك التغيرات الأساسية كمضاعفة عدد الكروموسومات ما اكتشف فى أمريكا من نحو ثمانى سنوات من عقار اسمه الكلكسين Colchicine إذا عولجت به بعض النباتات علاجاً مناسباً تضاعف عدد كروموسوماتها . وأهمية مثل هذا الاكتشاف أنه بعد أن كانت التحسينات متوقفة على ما ينتج بالصدفة فى خلال تجارب الانتخاب والتهجين ، أصبح فى استطاعة العلماء أن يحدثوا ما يشاءون من تغييرات حسب إرادتهم لاستخدام أمثال الكيماويات التى من هذا النوع الذى أشرنا إليه .

ونبات الذرة قد فاز من عناية أمريكا بقسط عظيم جداً ، وسرعان ما استنبتت أنواع جديدة منه أفضل من سابقاتها عمت زراعتها فى عشرات الملايين من الأفدنة . وأشجار الغابات أجريت عليها تجارب واسعة النطاق فى أمريكا والسويد ، وجاءت تلك التجارب بأحسن النتائج وأدقها ، وانتقل مثل هذا النشاط عقب الحرب إلى بريطانيا العظمى . كذلك نالت نباتات الحديقة مثل هذه العناية التى أثمرت خير ثمر وأفادت أعظم الفوائد .

هذا عن أوربا وأمريكا ، فهلا تكون مصر أولى بمثل هذا النشاط وأحق به وهى البلاد التى تعتمد على الزراعة فى ثروتها القومية والتى لا غنى لها عن التحسن المطرد فى محصولاتها إن أرادت لثروتها القومية نماء وتقدما مطرداً ؟ ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا عن طريق البحث العلمى الجدى الذى يرسم له برنامج واسع النطاق يرمى إلى إحداث ابتكارات وتحسينات من الأنواع التى أشرنا إليها ، وبحيث يعم استعمالها فيستفيد منها أكبر عدد مستطاع من الزارعين ، وتظهر آثارها فى نسبة كبيرة من الأراضى المزروعة .

إننا نعرف أن وزارة الزراعة فى مصر تقوم ببعض التجارب العلمية فى أقسامها الفنية ؛ ولكننا نعرف كذلك أن هذه التجارب ضيقة النطاق من جهة وبعيدة الصلة من جهة أخرى عن جمهور الزارعين . فهل لنا أن نطمع فى البرنامج الواسع النطاق الذى أشرنا إلى حاجتنا إليه ؟

فها هو القطن لم تستقر على سياسة علمية ثابتة بشأنه ، فالنوع الذى يشار علينا بزراعته هذا العام يشار علينا

ماذا نشـــكو

من أمور التعليم

لا نجد ناحية من نواحي النشاط العام تشغل أذهان الملايين وتثير اهتمامهم كما تثيره شئون التعليم . فهو لدى الآباء مسألة المسائل ، يعلقون عليه أكبر الآمال منذ كان وسيلة إعداد أبنائهم للحياة المستقبلة ، حظهم فيها مرهون إلى حد كبير بحظهم منه . وهو لدى المصلحين الاجتماعيين أنجع الوسائل لإصلاح أدوائنا الاجتماعية وأقصر الطرق لخلق جيل جديد تسوده الروح العامة ويدرك قيمة التعاون وتنسيق الجهود الفردية لما فيه الخير العام . وهو لدى المصلحين الاقتصاديين الكفيل بتوفير الكفايات الفنية التي تستطيع النهوض بالمشروعات العظيمة التي يرجى قيامها لزيادة ثروة البلاد ورفع مستوى المعيشة فيها . وهو لدى رجال السياسة أقوى السبل لغرس الوطنية وبث روح الديمقراطية الصحيحة وتربية النشء على حب بلاده والاعتزاز بها والاستعداد لبذل كل مرتخص وغال في سبيل الذود عن حياضها وإعزاز مكانتها . وهو لدى رجال التربية مرحلة أساسية في حياة كل فرد تدرس فيها طبيعته ويكشف عن مكنوناتها وتتعهد بما يهذبها ويقويها ويتفتق فيها ذهنه ، وتهيأ الفرصة لقواه العقلية والخلقية للنمو والترعرع ، وتروض فيها طبيعته على ممارسة الأساليب الصالحة لحياته الفردية والاجتماعية .

ومن الطبيعي وهذا شأن التعليم ومبلغ ما يعقده به الأفراد والجماعات من الآمال ، أن يكون كل تقصير فيه أو بعد به عن تحقيق الأهداف العامة مبعث شكوى . وترديد هذه الشكايات جدير بأن يقابل بالعناية من أولى الأمر ، خليق بأن يحملهم على درسها وتبين مبلغ ما فيها من صحة وإزالة أسبابه بقدر ما تسمح به ظروفهم . وإنا نحاول إبراز ما يشكوه الناس من أمور التعليم ، مبينين ما تم من جهود وزارة المعارف في تخفيف أسباب الشكوى في كل حالة .

فأما الآباء فيشكون ما يلاقونه من عناء ومشقة في إلحاق أبنائهم بالمدارس على اختلاف أنواعها لقلة عدد هذه المدارس وعجزها من أن تتسع لهم جميعا ، وهذا العناء

يتجنب زراعته في العام القادم ، ونوع آخر يشار علينا بزراعته فإذا بنا لا نجد له سوقا حين نضم محصوله . والقمح الذي زرعنا منه مقادير عظيمة في الأعوام الأخيرة لايزال ماينتجه الفدان منه عندنا دون ماينتج من نظيره في أمريكا .

والقطن والقمح وغيرهما من المحصولات تصاب كل عام بآفات شنيعة لا تبق ولا تذر أحيانا ؛ ومع ذلك فلا نعلم أن هناك سياسة علمية ترسم للتغلب على هذه الآفات الفتاكة مع أن البلاد تقاسي الأمرين من أضرارها . فهل يتصور في القرن العشرين ، عصر العلم الزاهر ، أن تقف أمة من الأمم مكتوفة اليدين بإزاء هذا الوباء ، دون أن تسخر العلماء لمحاربته بكل قوة ، ولو اقتضى الأمر الاستعانة بخبراء وعلماء من الخارج ؟

والثروة الحيوانية تصاب كل عام بخسائر فادحة من جراء عدم الاستعانة بالعلم عن طريق سياسة علمية مرسومة لمحاربة هذه المصائب العظمى . فهل آن الأوان لأن تنتبه الحكومة والشعب إلى هذه الناحية الهامة من نواحي الاقتصاد القومي التي قوامها العلم وتسخيره لخدمة هذه المصالح الاقتصادية التي عليها يتوقف نماء الثروة القومية ؟ نرجو ألا يطول انتظارنا حتى توفر على البلاد تلك الخسائر ، وتهيئ لها وسائل ذلك التحسين الذي يعود عليها بالخير العميم . والله الموفق .

أحمد عبد السلام الكرداني

يصدمهم من أول مراحل التعليم ويلاحقهم فى كل أدواره ، حتى لقد أصبح الظفر بمكان فى رياض الأطفال أو المدارس الابتدائية أو الثانوية أو العالية أو بكلية من كليات الجامعة مطلباً عزيزاً لا يناله إلا السعداء المحظوظون . بل إن المدارس الإلزامية فى المدن قد غلبت عليها نفس الظاهرة وأصبحت ترفض كثيراً مما يقدم لها من طلبات .

ويشكو الآباء — ولا سيما الفقراء منهم ومتوسطو الإيراد — أن الوزارة قد قيدت التعليم الابتدائى المجانى هذا العام بنفقات يرهقهم سدادها ، فحملت التلاميذ دفع أجور الكتب والأدوات المدرسية وهى جزء أساسى من مستلزمات التعليم ، وكان الواجب أن ينسحب عليه حق المجانية المقرر لتلك المدارس ، وحملتهم نفقات الغذاء ، والغذاء الصحى أمر رأت الوزارة ضرورته لكل تلميذ فقير ، فكان من الخير ألا تتقاضى عليه أجراً . ولن تتحمل الخزينة كثيراً إذا أعفت تلاميذ هذه المدارس من تلك النفقات جميعاً وعادت لسنتها السابقة . وليس الأغنياء القادرون على دفع تلك النفقات إلا قلة فى تلك المدارس . وقد فتحت لهم مدارس خاصة بهم تستطيع أن تنقل إليها منهم من ترى أنه لا يصح تمتعه بحق الإعفاء منها .

ويشكو الآباء جميعاً أن الوزارة والجامعتين قد تهاونت فيما مضى من الأعوام فى تحصيل الأقساط المدرسية من طلبة المدارس الثانوية وطلبة كليات الجامعتين ، وأن سياسة بعض الوزارات السابقة كانت تتعمد الإغضاء عن المطالبة بها ، فتراكم على التلاميذ مبالغ كثيرة أعفوا منها ، ثم رأت الوزارة والجامعتان التشدد فى المطالبة وتعليق إظهار النتائج ودخول الطلبة بالمدارس والكليات إلا إذا سددوا المطلوب منهم فى العام الماضى . ويرى الآباء أن من الإرهاق لهم دفع المتراكم عن العام الماضى وتسديد المطلوب هذا العام ، ويرجون أن يعفوا من الماضى وأن يقتصر التشدد على دفع مصاريف العام الحاضر ، فليس كل الآباء من أثرياء الحرب ، وأوساط الناس لم تدع حالة الغلاء الحاضرة لديهم مدخرا ، ولا تسمح مواردهم بتدبير مال لسداد القديم والجديد .

ويشكو الآباء شدة الامتحانات وصرامة أنظمتها . بحيث أصبحت كل خطوة فى التعليم بعد مرحلة التعليم الابتدائى عقبة كأداء يتعثر عندها كثرة التلاميذ ، وبحيث أصبحت نسبة النجاح فى الانتقال من فرقة لأخرى فى التعليم الثانوى ونسبة النجاح فى الامتحانات العامة ونسب النجاح فى امتحانات النقل والامتحانات العامة فى كليات الجامعة نسباً ضعيفة . وهم يرون أن كثرة فشل أبنائهم تكشف عن خلل ما فى التعليم وأساليبه أو فى كفاية هيئة التدريس أو فى أسئلة الامتحانات وتصحيحها أو فيها جميعا . ويرون أن هذه السنوات الضائعة من أعمار أبنائهم وما يصحب ذلك من انهيار فى حالتهم المعنوية وما يستتبعه ذلك من اتجاهات ضارة فى سلوكهم وأخلاقهم — كل ذلك خليق بأن يدرس دراسة عاجلة دقيقة ويبحث عن حقيقة العلة فيه ويعالج العلاج الحاسم .

ويشكو المصلحون الاجتماعيون انصراف اهتمام المدارس والكليات إلى ناحية التحصيل العلمى وإهمال الجانب الاجتماعى فى حياة الطلبة ، ويرون ضرورة العناية الكبرى بتنظيم أوقات الفراغ للشباب واستغلالها فيما يفيدهم ويوسع آفاقهم ، وجعل المجتمع المدرسى مجتمعاً حيا تمارس فيه ضروب النشاط الاجتماعى ، ويدرب فيه الطلبة على احتمال المسئوليات وممارسة الحقوق الاجتماعية ، ويعودون فيه التعاون والتسامح والاحترام المتبادل ! وهم يودون أن تكون الحياة المدرسية متصلة بالحياة العامة تنبض بآمال المجتمع وآلامه وتسعى فى محيطها للاستعداد للعمل له والإسهام فى خدمته .

ويشكو رجال الإصلاح الاقتصادى عزلة المدرسة وبعدها عن التجاوب مع مطالب الحياة الحديثة وحاجاتها ، ويرون تنمية الروح العملى فى الشباب وربط التعليم ربطاً

وثيقاً بالحياة العملية والإفادة من المؤسسات القائمة في فهم ما يتعلمونه في صورته التي يظهر بها في الحياة ، ويطالبون بترقية التعليم الفني وتوسعته وزيادة العناية بالجانب التطبيق وتعويد الطلبة على الظروف التي سيعملون بها في المستقبل ، وتحبيبهم في العمل الحر حتى لا تنصرف همهم إلى طلب الوظائف الحكومية والقنوع بمجالها الضيق المحدود .

ورجال الإصلاح السياسي يشكون حرص المدارس على إبعاد تلاميذهم عن الاشتغال بالمشاكل التي تواجه بلادهم وتحرجها من الخوض في الموضوعات السياسية ، مما جعل طلبتها يتلقفون معلوماتهم فيها من طرق خاطئة ويتجهون في تفكيرهم السياسي ناحية حزبية متعصبة . وهم يودون أن تكون المدرسة دار حرية وسلام تناقش فيها المسائل العامة مناقشة موضوعية هادئة ، توسع معلومات التلاميذ وتوجههم توجيهاً قوميا ، وبربى فيها الطلبة تربية وطنية ديمقراطية . وتنظم لهم جماعات يمارسون فيها الانتخابات ويضطلعون فيها بالمسئوليات ويدربون فيها على تبادل الآراء واحترام الحريات ، ويعودفيها الفرد تقبل رأى الجماعة ولو خالف رأيه ؛ وبذلك تكون الحياة المدرسية تمهيداً صحيحا لحياة ديمقراطية سليمة تؤدى فيها الواجبات وتمارس فيها الحقوق وتحترم فيها الحريات على أكمل صورة .

ورجال التعليم يشكون اضطراب الإدارة التعليمية وسرعة التغيير والتبديل في أنظمتها ، بحيث أصبح كل عهد جديد نذيراً بتشكيل جديد تتغير فيه أقسام الوزارة وتعدل الاختصاصات ويتبدل فيه الأشخاص . وهم لا ينفرون من التجديد ، ولكنهم يرجون ألا يلجأ إليه إلا لضرورة واضحة ، ويتمنون أن تستقر الأمور في وزارة المعارف على وضع واحد فترة كافية من الزمن تمكن القائمين على الأعمال من مواصلة سياستهم فيها بلا تقلقل . ويشكون انسياق الحكومات وراء الرغبة العامة في التوسع قبل أن تعد له العدة اللازمة من المدرسين والأماكن والأثاث والأدوات .

ويرون أن الجرى على هذه الخطة قد أضعف التعليم وصعب على القائمين عليه أداء مهمتهم . ويرون أن الأمر قد أصبح يتطلب وضع سياسة بعيدة المدى للتوسع تنفذ بدقة بحيث يسبق إنشاء المدارس إنشاء مدارس لتخريج المعلمين اللازمين لها وبناء الأماكن التي ستشغلها وإعداد الأثاث والأدوات اللازمة لها ، ويشكون الإقدام على مشروعات تعليمية واسعة قبل أن تدرس الدراسة الفنية الوافية وتوضع موضع التجربة على نطاق ضيق قبل تعميمها ، ويطالبون بإنشاء مراكز تجريبية متعددة يعهد في الإشراف عليها لرجال واسعى الخبرة والإدراك ، وتترك لهم الحرية الكاملة في القيام بتجاربهم ، وتدرس مراحل التجربة ونتائجها بعناية ويستفاد منها بتعميم ما ثبت نجاحه .

هذه مواضع الشكوى نستطيع إجمالها في نقط محدودة ، هي : قلة عدد المدارس وعجزها عن الاتساع لقبول طلاب التعليم . سوء نتائج الامتحانات . ضعف الناحية الاجتماعية في المدارس . غلبة الاتجاه النظرى وضعف الروح العملى في التعليم . إهمال التربية الوطنية والتوجيه القومى في المدارس . اضطراب الإدارة التعليمية وسرعة التغيير في أنظمتها . الجرى على سياسة التوسع قبل توفير مقتضياته التعليمية . والبدء بمشروعات تعليمية واسعة قبل وضعها موضع التجربة .

ومن الإنصاف لوزارة المعارف أن توضح موقفها من كل مسألة من هذه المسائل .

فأما قلة عدد المدارس فالحق أنها مشكلة معقدة نشأت من إهمال وضع سياسة ناجحة للتوسع في السنوات الماضية ، وزاد في تعقيدها أن الرغبة العامة في التعلم قد استيقظت في السنوات الأخيرة ، وهي سنو الحرب ، بصورة واضحة ، ومن المعلوم أن سنى الحرب كانت فترة وقف فيها البناء والتعمير وتعطل فيها إرسال المبعوثين للخارج ، وهم الذين يتولون التعليم في الجامعتين وفي معاهد التعليم ، فقل بذلك تخريج المعلمين .

على أن وزارة المعارف فى عهودها المختلفة بذلت كل ما يستطاع لمواجهة هـذه المشكلة ؛ فهى قد استخدمت أماكن مدارسها لأقصى ما تستطيع احتماله ، على الرغم مما أحدثته من مخالفة ذلك التربية الصحيحة ، ولكنها الضرورة ألجأتها لاحتمال هذا الإجراء توسعة على التلاميذ وتمكينا لهم من التعلم . واستولت على مبان خاصة لاستعمالها فى أغراض التعليم ، وتوسعت فى ذلك فى السنتين الأخيرتين توسعا كبيراً على الرغم من عدم ملاءمة تلك الأماكن لحاجات التعليم ، ولكنها أقدمت على ذلك مؤقتا سداً لحاجة ملحة . واستطاعت بذلك ، وبما بذلته للتعليم الحر من إعانات سخية ليتوسع فى قبول التلاميذ بمعاهده ، أن تحقق رغبات الكثيرين وألا تقف عجلة التقدم والتوسع فى التعليم بسبب نقص أماكنه ومعداته . والمفهوم أنها بسبيل الشروع فى بناء أماكن كثيرة لتكون مدارس بمختلف جهات القطر ، وكل ما نرجوه أن تضع لذلك خطة تنفذ كل عام بدقة وأن تعهد فى عملية البناء للهيئات المحلية وأن تحرر هذه الحركة من قيود « الروتين » الحكومى البطىء المعقد .

لقد نجحت مجالس المديريات فى إنشاء كثير من المدارس بالأقاليم ، وهذه المدارس التى تديرها الوزارة الآن قد تكون أفضل مبانى معاهدها وأوفاها بأغراض التعليم . والمعروف أنها بنيت بنفقات أقل مما تبنى به الحكومة مؤسساتها وفى زمن أسرع مما تم فيه الحكومة أمثالها ، فلم لا يعهد لتلك المجالس وإلى المجالس البلدية والمحلية بتلك المهمة لتستخدم فيها وسائلها المحلية الرخيصة السريعة ؟ وقد توفق لإنجاز بعض أعمالها من طريق التبرع .

أما توفير المعلمين فقد خطت الوزارة خطوات موفقة فى سبيله ، فأنشأت معاهد كثيرة لمعلمى التعليم الابتدائى ، وزادت مدارس المعلمين الأولية ومدارس المعلمات ، وأنشأت هذا العام مدرسة المعلمين العليا ، ولكننا كما تصورنا الملايين الباقية من أبنائنا بغير تعلم أحسسنا أن هذه الخطوات القائمة غير كافية لسد حاجاتنا الكثيرة ، ولهذا نرجو التوسع فى إنشاء معاهد المعلمين والمعلمات ولاسيما المدارس التى تكفل تخريج نوع محتمل الأجر فى أقصر وقت .

أما سوء نتائج الامتحانات فقد يكون لاكتظاظ المدارس والفصول بالتلاميذ وما تبع التوسع فى التعليم من هبوط فى مستوى كفايات المعلمين الذين اقتضت الضرورة تعيينهم ، من أهم العوامل فيه . ولكن الأمر مع هذا من الخطر بحيث ألفت الوزارة هيئة ناطت بها دراسة الامتحانات وأسباب سوء النتائج ، ونرجو أن تسفر أبحاثها من توصيات مفيدة فى ذلك . ونعتقد أن المشكلة لا تتأثر بعامل واحد ، بل هى نتيجة لتفاعل كثير من الاعتبارات تتناول التلميذ والمعلم والمنهج والنظام المدرسى ، ونظام الامتحانات وأسئلتها وطريقة تصحيحها .

أما ضعف الروح الاجتماعى والتربية الوطنية فإن الوزارة تحاول علاجه من طريق التأمين الاجتماعى وتنظيم أوقات فراغ الشباب وتكميل الجهود المدرسية بجهود تثقيفية خارجية من طريق السينما والإذاعة والرحلات ، وهى جادة فى العناية بهذا الجانب من حياة الطلبة ، ونرجو أن تكون لجهودها ثمرة ظاهرة قريبة .

وتحاول الوزارة تحقيق العناية بالجانب العملى من طريق التعديلات التى أدخلتها فى مراحل التعليم ، بمزج التعليم المهنى بالتعليم النظرى وبترقية المدارس الفنية وتوسيعها ؛ ومشروعاتها فى صبغ التعليم فى كل أدواره بالصبغة العملية قد تكون أظهر مميزات اتجاهها الجديد فى السياسة التعليمية .

أما اضطراب الإدارة التعليمية وسرعة التغير والتبدل فى الأنظمة فيعزى إلى أن المرحلة الحاضرة فى التعليم مرحلة انتقال لم تتبلور فيها السياسة التعليمية الجديدة التى وضع المجلس الأعلى للتعليم أسسها . ومن الطبيعى فى مثل هذا الدور الذى تواجه فيه الوزارة تبعات واسعة جديدة أن تتغير وتتبدل فى ترتيبها بما يتلاءم مع هذه المسئوليات . على أنها لا بد منتهية إلى وضع تستقر عنده . (...)

هكذا الدنيا !

حدثني صاحبي قال :

كنت عائداً من الإسكندرية فى ظهر يوم من أيام هذا الخريف . وكنا فى أعقاب تعديل وزارى جرى بسبب استقالة الوزارة وإعادة تشكيلها ، وخروج اثنين من هيئتها لاعتبارات خاصة بكل واحد منهما . جعلته يؤثر ألا يشترك فى الحكم وأن يتحرر من قيوده . وكان أحد الوزيرين شيخاً فيلسوفاً ينظر إلى الحياة وما فيها ومن فيها نظرة رزينة هادئة . وله فى تقدير الأمور معايير فلسفية جعلته ينصرف عن الحكم ويزهد فيه . ليأخذ بسبيل ما كان يشغله قبل أن يشترك فى الوزارة . وليستقر فى صومعته الهادئة بعد أن طال قلقه فوق كرسى الحكم . أما صاحبه الآخر فكان شاباً متوهجاً له فى ميادين الأعمال الحرة جولات موفقة . ضحى بمصالحه الشخصية حين لبى نداء الواجب وقبل الاشتراك فى الحكم . وكان رأيه حين قبل ذلك أن الحكم ضريبة يفرضها على القادر ضميره ليقوم بقسطه فى خدمة بلاده . فترك الدنيا الحرة ومتاعها العريض ، ووضع القيد بيديه فى معصميه وباع النوم الهادىء ، يشترى السهد ونصب الليل والنهار ، أملا منه فى تحقيق شىء من الخير لوطنه ، وفى المساهمة بجهوده ومعارفه لخدمة مواطنيه . فلما رأى الرياح تجرى بما لا يشتهى لم يعد يجد فى الحكم تلك الأداة الصالحة لأداء الواجب الذى فرضه على نفسه ، فاعتزم القفول ، وأمضى ما اعتزم عليه فى جد وصرامة يتفقان مع طبيعته الشابة . حتى إنه حين انصرف لم يدر أحد وجهته . ولم يستطع أحد أن يقتفى أثره . وكان ذلك حرصاً منه على أن يجعل انصرافه إلى غير عودة ، وأن يتم خروجه بغير رجعة ولا عدول .

قال صاحبى :

وكان هذا الوزير الشاب زميل صباى . كنا معاً فى المدرسة . وكانت تجمعنا فرقة واحدة . وكانت خصال الجد والمثابرة والأدب الجم — تلك الخصال التى تبلورت فيه وميزته وهو كبير — ما تزال فى مستهلها فى تلك الأيام الأولى . وكنت أكبره من أجلها وأحترمه . وأتوسم فى خلالها تلك نواة قوية لشخصية عبقرية سوف تتكشف عنها الأيام — وكنا زميلين تربطنا روابط المودة والانسجام . ولكن الدهر ضرب بيننا . فسلك كل منا طريقاً فى حياته غير التى سلكها صاحبه : بيد أن القلب بقى عامراً بذكرى تلك الزمالة الأولى . وكان له إلى زميله وإلى عهده الماضى حنين دائم لا يريم .

فى ظهر ذلك اليوم الذى أتحدث عنه بكرت إلى القطار العائد إلى القاهرة لأتخذ لنفسى فيه مكاناً مريحاً . فلما استقررت فى مكانى ، واطمأننت إلى حقائبى ، جلست أقلب بصرى فى الغادين والرائحين . فإذا خادم القطار يدخل على وهو يحمل فى يده حقيبة أحد المسافرين — فعرفت أن سيكون لى رفيق فى رحلتى . فسألت الله أن يكون رفيقاً هيناً ظريفاً ، يقصر معه طول الطريق ، وتخف وعثاؤه . ولم أكد أفرغ من دعائى حتى رأيت أن رفيقى هو ذلك الوزير الشاب ، رفيق الصبا وزميل الشباب . تخففت إليه ، وأودعت فى استقبالى له حرارة كل تلك السنين التى فرقت بيننا ، وبدأنى أقول له فى صدق وصراحة :

— « ألف مبروك » على عودتك إلينا من جديد !

فقال : — هذه أول تحية من نوعها أتلقاها مذ تخليت من الحكم . ولكنى أصارحك أنى أعتبرها أصدق تحية . فلقد اعتدنا إذا ولينا الحكم أن تنهال علينا « التهانى » . وإذا خرجنا منه أن يزور عنا الناس .

وكانت فى يدى فى تلك الساعة جريدة فرنسية كنت قد طالعت فيها نبذة فكهة رقيقة بعنوان « الناس كما هم » روى فيها كاتبها قصة طريفة مما وقع لمالى وزير المالية فيما بين استقالة الوزارة وإعادة تشكيلها . وقد جعل قصته

في قالب رواية ذات ثلاثة فصول . فقال :

كان وزير المالية متوعكا في ليلة استقالة الوزارة . لم تكن حالته ذات خطورة خاصة . نزلة شعبية خفيفة جلبت عند معاليه شيئا من السعال . ولكن اثني عشر طبيبا كانوا يحيطون بفراشه . اثنا عشر طبيباً لم يدع أحد واحدا منهم . ولكنهم أقبلوا جميعا بوازع من أنفسهم ليكون لهم شرف تطبيب الوزير ، لجس نبضه وقياس حرارته . . . وربط شسوع نعليه !

الفصل الأول :

وكان أحد هؤلاء الأطباء مرابطا في غرفة تجاور مخدع الوزير ، وإلى جنبه (منبه) ذو جرس ليوقظه كل ثلاث ساعات حتى يعطي معالي الوزير جرعته من البنسلين . فإذا سأل سائل : هل سعل معالي الوزير ؟ تقلصت الوجوه فزعا ، أو سأل : هل عطس معاليه ؟ اغرورقت العيون أسفاً وجزعا . لقد كان كل واحد من أولئك القوم يتمنى أن يفتدي معاليه بنفسه . ويسعده بل ويشرفه ويلبسه ثوب الفخار أن يخلع عليه الوزير سرابيل وعكته ، وأن تلهب الحمى جسده لتخفف حرارة معاليه ، وأن تنهك الأسقام بدنه لا يرجو لقاء ذلك إلا أن يشفى معالي الوزير وأن يحس أنه مدين له بهذا الشفاء ! .

الفصل الثاني :

وقرعت أجراس التليفون ...

وذاعت الأنباء بأن الوزارة قدمت استقالتها . . .

وإذا بجموع الأصدقاء — بقدرة الله وعظمته — يتبخرون كما لو كان أدركهم سحر ساحر ! والأطباء لم يبق منهم إلا ذلك الراقد بجانب ساعته الرنانة حتى إذا استيقظ وعلم بما كان ، وضع ساعته في جيبه وأطلق ساقيه للريح ! والتلفون ، ذلك التلفون الذي لم يكن ينقطع رنينه بين كل ثانية وأخرى للاستفسار عن صحة معالي الوزير . . أدركته أخيراً رحمة الله . فسكن بعد طول الضجيج والعجيج سكون أهل القبور .

إن هذا المريض لم يعد وزيراً . فلا بأس عليه لو شاء أن يموت !

وبعد فترة ساد فيها هذا الصمت الرهيب عاد التلفون يدق . . . وكان المتحدث في هذه المرة خادم الوزير الذي كان لا يزال باقيا في الاسكندرية . لقد بلغه هو الآخر نبأ سقوط الوزارة :

— هل من الضروري أن أعود الآن إلى القاهرة ؟ وهل لا يمكن أن أمد إجازتي قليلا ؟ إن حر القاهرة لايزال شديداً !

فيالسخرية الأقدار ! ويالها من رفسة حمار ! حتى الخادم ! لقد كانت تجربة قاسية كشفت لوزير المالية من نفوس الناس عما لم يكن يعلم . وأضافت إلى معارفه السابقة معرفة جديدة بحقيقة الناس وما جبلوا عليه من تنكر ونكران !

الفصل الثالث :

وأخيرا جاء البشير . . . وعادت أجراس التلفون إلى رنينها ! لقد رفض جلالة الملك استقالة الوزارة ، وأمر أن تظل في مقاعد الحكم ، وأن يبقى وزير المالية في مكانه . فعادت المياه تجري في مجاريها وأقبلت الوفود تترى واحداً بعد واحد . ولم يأت المساء حتى كانت بقيات التهاني تغطي موائد الدار !

وهكذا الدنيا . . . !

* * *

قال صاحبي :

— كنت قد قرأت هذه النبذة . وكانت الصحيفة لاتزال في يدي فناولتها لزميل الوزير السابق ، وقلت له :

— خذ فضلك بهذه القصة الطريفة فلعل شيئاً مثلها قد وقع لك أنت الآخر !

فأخذ الصحيفة ، ورأيته يبتسم ويزداد عرض ابتسامته كلما أوغل في قراءة تفصيلاتها ، حتى إذا انتهى منها قال :

— لقد أذيعت أنباء تشكيل هذه الوزارة في الجرائد قبل أن يصلني تبليغ رسمي بأني أحد أعضائها . وفي الساعة السابعة صباحاً كانت غرف ضيافتي تموج بالزائرين والهنئين .. بالموظفين الذين يريدون أن يكون لهم السبق على غيرهم في عرض مطالبهم ، وبأصحاب الحاجات اليقظين الذين يريدون قضاءها قبل أن تشغلني عنهم زحمة الحكم . . وجاءت سيارة حكومية في تلك الساعة المبكرة فاستوطنت بابي .. وراعتني كل هذه الظاهرة . فلم أملك نفسي أن أنزل إلى السيارة وأصرف صاحبها لأني لم أعد بعد وزيراً يملك ركوب السيارة الحكومية ، ثم انثنيت إلى ضيوفي — غير الكرام — فأفهمتهم أن زيارتهم جاءت سابقة لأوانها . وأن عليهم أن يتريثوا قليلاً قبل إبداء ما يسرون وما يعلنون . . . . وعدت إلى غرفتي الخاصة فاعتكفت فيها حتى طلبتني رياسة مجلس الوزراء لأحضر الاجتماع الأول الذي حدده لنا دولة الرئيس .

وما من وزير إلا وقع له شيء مما يشبه تلك القصة التي كتبها ذلك الكاتب من وزير الثانية . . .

فلقد ذهبت أمس لزيارة زميل الذي كان قد استقال معي منذ أيام . فوجدت عنده رجلاً يزوره — رجلاً واحداً — فلما أراد زميلي أن يقدمه إلي قال :

— أقدم لك (فلاناً) الموظف بوزارة — وهو « الباقي على وفائه » ! وقد ضحكت لهذا التعبير كثيراً . فإني فهمت منه نفس المعنى الذي يريده زميلي السابق ، إذ لم يشأ أن يقول مثلاً « أحد رجالنا الأوفياء » بل اختار أن يقول : « الباقي على وفائه » ليدل على أن تلك الدنيا العريضة التي كانت تحيط به وهو في الوزارة لم يبق منها إلا هذا الواحد « الباقي على الوفاء » .

وسبحان من له الدوام !

* * *

قال صاحبي :

— ثم مضى زميلي السابق يحدثني عن بعض ما يرى الوزير من أخلاق الناس عندما تكون رجله في الركاب . وعما يطرأ عليهم من تحول عندما تنزل رجله فوق التراب ، وكان من أرق ما روى لي أن واصف غالي باشا عندما تقلد وزارة الخارجية ، قصد إلى دار وزارته . ولم يكد يستقر به مجلسه فيها حتى دخل عليه رجل مهندم في ثوب مبهرج يحمل على كفه صفحة من فضة فيها قدح من القهوة ، فرفض واصف باشا أن يشربه — لسبب بسيط وهو أنه لا يشرب القهوة . فامتعض الساقي وبدت ملامح الخيبة على وجهه ، ووقف لحظة في حالة تشبه الذهول . وأدرك واصف باشا ما أصاب الرجل من خيبة الأمل . فدعا سكرتيره في الحال وأمره بأن يعطي هذا الساقي عشرة جنيهات في أول كل شهر . فكادت تنقلب الصفحة من يد الساقي ، وهو يرفع يده الأخرى بالدعاء للوزير والثناء على أريحيته والتوسل إلى الله أن يطيل له في عمره — ولعل ما يريد أن يقوله هو عمر وزارته !

وعاد السكرتير يسأل وزيره : لماذا يدفع كل هذا المبلغ للساقي إذا كان هو لا يشرب قهوته ؟

فكان جواب الوزير :

— لعلنا بهذه الوسيلة نعلمهم كيف يحسنون وداعنا ونحن خارجون كما أحسنوا اليوم لقاءنا ونحن مقبلون !

* * *

ومرة أخرى :

— هكذا الدنيا !

عيسى عبود

أبطال الفكر والعلم والفن

وتأثيرهم فى التاريخ

الدور الذى يلعبه الرجل العظيم فى التاريخ من المسائل التى طالما استهوت العقول ، وشغلت الأفكار ، وألهبت الأخيلة ، وقد عنى بهذه المسألة بوجه خاص المؤرخون والباحثون الاجتماعيون والفلاسفة . وسواء ذهبنا مذهب القائلين بأن الرجال العظماء من خلق الظروف والمناسبات والملابسات التى تمهد لهم ، وتزيل العقبات من طريقهم ، أو جارينا القائلين بأن العظيم هو الذى يخلق الفرصة المناسبة ويسيطر على الظروف بمضاء عزيمته ورجاحة تفكيره وحسن تأتيه فى فهم حاجة عصره ، فإننا فى كلتا الحالتين لانستطيع نكران تأثير العظماء البعيد فى عصورهم وما يتلوها من الحوادث والتغيرات والانقلابات . وقد نستطيع القول بأن الحرب الكبرى الأولى وتصدع النظام السياسى فى روسيا مكن لظهور لينين وأتاح له الفرصة المواتية ؛ ولكنى أرجح أنه لو لم يوجد رجل مثل لينين لاتجهت الحوادث فى روسيا اتجاها آخر غير اتجاهها المعروف ، ولولم يظهر رجلان مثل هتلر وموسولينى ويحاولا غزو أوربا وبسط سيادتهما على العالم لما حدثت الحرب الكبرى الثانية أو لتأخر وقوعها على أقل تقدير ، فتأثير هؤلاء الرجال ذوى الشخصية البارزة والإرادة المصممة من المسائل المقطوع بصحتها ، فهل لرجال الفن وأبطال العلم والفكر مثل هذا التأثير البعيد المدى ؟

إن الذين يؤمنون بأهمية الأفراد البارزين ذوى الأخطار فى التاريخ لا يكتفون بإثبات حقيقة وجود هؤلاء الأفراد البارزين ، بل يقدمون لنا الدليل على أن لهؤلاء الأفراد تأثيرا حاسما فى ميادين النشاط العملى التى اقتحموا حومتها وجاهدوا بها ؛ فعلى الذين يدعون أن العلماء والفنانين والفلاسفة مثل هذا التأثير أن يستعدوا لمواجهة الاعتراض القائل بأنهم إذا كانوا لم يوجدوا ولم يعملوا فإن غيرهم كان سيقوم بعملهم ، ويتم ما أنجزوا ، ويصنع ما صنعوا .

ولأول وهلة يبدو لنا فى عالم الفن والعلم أن الأدلة متوافرة من كل النواحى على أن النماذج الأصيلة فى الأدب والفن التى تحتذيها قد أوجدها عدد قليل من العباقرة الممتازين ، وسار الباقون من ذوى المواهب المحدودة فى آثارهم ، وتقيلوا طريقتهم . ومما يسترعى الملاحظة أن هؤلاء العبقريين قد يجيئون جماعات ، لأن بعض العصور أقوى استعدادا لتلقى العبقرية واستثارتها ، وهى تمكنها من أن تزدهر وتتفتح ، ولكنها لا تخلق العبقرية كما أن الثرى الخصب لا يخلق الأزهار الزاهية اليانعة .

والمعروف فى تاريخ الموسيقى أن خطوات التقدم لم تتم إلا بدافع من كبار الموسيقيين من أمثال بيتهوفن وموزار ووجنر وستراوس ، وقد يكون لذوق الجمهور أو ذوق بعض حماة الموسيقى وأنصارها أثر فى اختيار الموضوعات التى يتناولها الموسيقار ، ولكن الموسيقار الكبير فى الأغلب الأعم يختار الموضوعات التى تروقه قبل كل شىء ، ولا تظهر أصالته وطرافته إلا فى الموضوعات التى يتناولها بمحض إختياره وبدافع من نفسه وذوقه الخاص .

وفن التصوير من الفنون التى يتجلى فيها استقلال الفنان ، وحتى فى الصور الكبيرة التى كان يحتاج فيها المصورون إلى الاستعانة بغيرهم من الصناع كانوا هم المسئولين عن عمل التصميم ورسم الخطة ، وليس معنى ذلك أن تاريخ التصوير لم يتأثر بالبيئة المحيطة وملابسات الأحوال ؛ وإنما المدار فى ذلك على كيفية تناول الفنان تلك الملابسات والأحوال . وقد تختلف المواد التى يعمل بها وطرائق العمل باختلاف العصور ، ولكن الذى يميز أعمال الفنان العظيم هو طابعه الشخصى ، وحساسيته الفردية ، ونفاذ نظره ، وقدرته على أن يرينا الأشياء فى ضوء جديد .

وكثيرا ما يقال إن الفنان العظيم — سواء في التصوير أو الموسيقى أو الأدب — يلبي مطالب عصره حتى حينا يكون متمرداً على ذلك العصر ، ويعبر عنه ، وإذا كان ذلك حقا فإن الفنان العظيم يدل على عظمته وتمكنه ويثبت كفايته وأصالته في الطريقة التي يتلقى بها حاجة العصر ، وكيف يتناولها ويصرفها ويستجيب لمطالبها ؛ فهو لا يكون من خلقها وإيجادها ، ولا يقف منها موقف الخادم المطيع من سيده الآمر الجبار ؛ وإنما يروضها ويخضعها لمشيئته وقدرته ؛ على أن هذا ليس مطردا في كل الأحوال ، ففي الأغلب الأعم نرى الفنان العظيم يخرج على مشاعر عصره وطرائق فهمه ، وهو في النهاية يعتمد على نفسه ، ويستمد من نبعه لكي يخلق الحساسية والذوق الجديرين بتقدير ما يرمي إليه ويعمل لتحقيقه ، وإدراك ما في فنه من براعة وامتياز . وتاريخ الفنون حافل بثورات النقاد وتنديدهم بالفنانين الخارجين على القواعد والأصول ، وهو يرينا أثر العبقريين في تغيير الأذواق ، وتعديل مقاييس النقد وأساليب الفهم .

وفي تاريخ الفلسفة يتجلى أثر الأحوال السياسية والنزعات الدينية السائدة والاتجاهات العلمية ، ولكنه لا يصبح مفهوما واضحا إلا إذا كان محوره أفكار الفلاسفة الكبار مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو وأفلوطين وتوما الأكويني وديكارت واسبنوزا وأضرابهم من فلاسفة العصر الحديث . وكثيرا ما أهمل النظر إلى الفلسفة من الناحية الاجتماعية ، ولكن النظر إلى الفلسفة من الناحية الاجتماعية لا يفسر لنا سوى الأسباب التي دعت إلى ذيوع بعض الأفكار الفلسفية وحسن تقبلها في بعض الأوساط الخاصة ، ولكنها لا تفسر لنا لماذا خلقت تلك الأفكار ووجدت . والفلسفات التي نجحت وعم تأثيرها قليلة العدد بالقياس إلى المذاهب الفلسفية الكثيرة التي أنتجها الفلاسفة . وفي بعض الأحيان لا يصادف المذهب الفلسفي قبولا في عصر نشأته وتكوينه ، ويرتفع شأنه ويعظم تأثيره في العصور التالية ؛ وقد لا تتاح الفرصة لبعض المذاهب الفلسفية فتظل حبيسة في المؤلفات والمراجع الفلسفية يعنى بها المفكرون وحدهم .

والفلسفات التي تروج في عصرها وتقبل لا يمكن أن يقال عنها إنها كانت ضرورة من ضرورات العصر ومستلزمات المجتمع أو الطبقة السائدة به . على أن الفلسفة التي تنتصر وتعم هي في الغالب الفلسفة الواسعة الإحاطة المحكمة البناء المرنة العملية .

أما في ميدان العلم فإن وحدة أسلوب البحث وكون المشكلات التي تركها العلماء السابقون هي نفسها التي تواجه العلماء الذين يجيئون في أعقابهم والعلاقة الصميمة بين العلم والصناعة ، كل ذلك مما لا يجعلنا نقبل الفرض القائل بأن التقدم العلمي مدين بمعظم ما أنجزه وما بلغه لجهود كبار العلماء ؛ يضاف إلى ذلك أن الكثير من الكشوف العلمية كانت ثمرة مجهود عالمين كل منهما كان يعمل في عزلة من الآخر . والمعروف أن دارون وولاس وصلا إلى فكرة النشوء والارتقاء في وقت جد متقارب ؛ ولكن هذه الاعتبارات تنتهي إلى تقرير أن العظمة في العلم قائمة على تلك المشكلات النظرية والعملية لا على خلقها ، والعلم يتلقى حافز التقدم من حاجات العصر ومطالب الحياة الاجتماعية الضاغطة الحافزة ، ولكن هذا لا يلغي الحقيقة الواضحة ، وهي أنه ليس في وسع كل إنسان أو في طاقة كل عالم من العلماء أن يقوم بما قام به أمثال دارون أو نيوتن أو أينشتاين وغيرهم من فحول العلماء ونوادرهم . وإذا لم يوجد أمثال هؤلاء الفطاحل فمن الصعب أن نتصور أن غيرهم ممن هم دونهم في العبقرية والكفاية كانوا يستطيعون أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه ويبلغوا مبلغهم . ولا شك في أن العلوم الحديثة مدينة إلى حد كبير لأمثال كوبرنيكوس وجاليليو ولابلاس وفرادى وكلارك ماكسويل وبلانك وأمثالهم ،

أكثر مما هي مدينة للتقدم الصناعي ، والتقدم الصناعي نفسه مدين للعلماء وكشوفهم ، ومن الصعب أن نتبين أثر التقدم الصناعي في كشف نظرية مثل نظرية النسبية .

ولكن برغم ذلك فإن التقاليد الفكرية والحاجات الاجتماعية وتنظيم الجمعيات العلمية أثر في كشوف العلماء أكثر مما لها في خلق الفنان والأديب ؛ فالإنتاج الفنى الممتاز يحمل طابع الشخصية الممتازة ويعبر عنها ، وبرغم اعتماد الفنان على ثقافة عصره التي يستمد من نبعها فإنه من السخف والتسليم بالمحال أن نعتقد أنه لو لم يوجد لقام غيره بعمله وأنتج مثل إنتاجه ؛ فمن الممتنع أن نتصور قصيدة من قصائد المتنبي ينظمها غير المتنبي ، أو لحنا من ألحان بتهوفن ينظمه غير بتهوفن ، أو صورة من صور رفائيل يرسمها غير رفائيل . أما في العلم فإنه من المحتمل أن معظم ما تم على يدي عالم من العلماء كان يمكن أن يتم على يد غيره من كبار العلماء الذين يعملون في نفس ميدانه ، وبعض المشكلات العلمية كان يوجه إليها الهجوم من نواح مختلفة ، بحيث كان الأمل في علاجها وتذليل عصيها قويا محققا . على أن الكشوف العلمية الخالقة في بعض ميادين العلم كانت ثمرة وحي العبقرية الخالصة ، ولم يكن لضغط الحاجة ولا لتوجيه العصر أثر في كشفها .

والذي نريد أن نواجهه الآن هو هل الشخصيات البارزة النابغة في الأدب والفن والفلسفة والعلم أثر حاسم في سير التاريخ كما لكبار الغزاة والفاتحين وبناة الدول وأعيان السياسة ؟ وهل كان أمثال كانت ونيوتن وبلوتارك وشكسبير من القوى التاريخية التي أثرت في تقدم المجتمع وحياته السياسية والاقتصادية ؟

من الواضح أن ادعاء مثل هذا التأثير للعلماء والمفكرين ورجال الفنون لا يخلو من مبالغة وإسراف . ولا خلاف في أن عالم الصناعة قد تأثر بكشوف العلماء المبقريين ، ولكن هل التغيرات السياسية والاجتماعية الكبيرة الشاملة قائمة على التقدم الصناعي ؟ إننا لا نستطيع أن ننكر تأثير كشف البخار واستغلال قوى الطبيعة في حياتنا ونظمنا الاجتماعية ، ولكن الآلات الجديدة لم تنشئ السياسة الاجتماعية ولا تمليها وتحتمها ؛ فاستعمال الطائرة والدبابة مثلا قد أحدث شيئاً من التغير في أساليب الحرب ، ولكنه لم يكن سببا في نشوء النظام النازي أو في نشوب الحرب الكبرى الثانية .

وقد أسفر التقدم الصناعي الحديث من أزمة التعطل ، ولكن السبب الأصيل لتلك الأزمة هو طريقة الإنتاج الاجتماعي التي تجعل عمل هؤلاء العمال غير عائد بالنفع على الذين يستخدمونهم . والاختراعات الحديثة لا تثير حربا ولا تفرض علينا سلما ، وإنما هي تعيننا على تنفيذ ما اعتزمناه وانتوينا عمله .

ولا نستطيع في عالم الأدب والفن القول بأن الحوادث التي غيرت وجه التاريخ وأسفرت عن نتائج بعيدة المدى يمكن أن نعزوها إلى بعض الآثار الأدبية أو الفنية . وأي عالم وأي فنان وأي فيلسوف أثر في تاريخ العالم تأثير الإسكندر وقيصر ونابليون أو بطرس الأكبر وهتلر وموسوليني ؟ فتأثير الفاتحين وأعلام السياسة وزعمائها في حياتنا العملية والاقتصادية والسياسية أظهر وأوضح من تأثير الفلاسفة والعلماء ورجال الفنون ، ولعل تأثير هؤلاء أقوى وأبقى ولكنه أدق وأخفى .

علي أدهم

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرماني
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

الجلاء الصغير

أو الجلاء من غير الناحية السياسية

شغل الناس بحديث الجلاء منذ وقفت رحى الحرب ، وتطلعت الشعوب ذات الحقوق المهضومة إلى استخلاص تلك الحقوق ، تمشيا مع الوعود الخلابة التي ترددت أثناء الحرب ، وتحقيقا لميثاق الأطلنطي . وزاد شغل الناس بالجلاء أثناء المفاوضات ، فلم يكن حديث يسترعي الانتباه مثل حديثه .

ولكنني أريد أن أريح القارئ من حديث الجلاء المعروف لأحدثه عن جلاء صغير لم يفكر أحد في المطالبة به ، أعني أحدا من المسؤولين ، فلم تفتح بشأنه مفاوضة ، ولم تشكل للمفاوضة في شأنه هيئة .

قضت ضرورة الحرب وأهمية الشرق الأدنى كميدان من ميادين القتال وكقاعدة حربية جوية بحرية لغيره من الميادين ، بأن يكون للسلطات العسكرية في القاهرة مكاتب ، وقضى التجاء حكومات كثيرة وقيادات كثيرة إلى مصر بأن يكون لتلك الحكومات وتلك القيادات في القاهرة مكاتب ، فاستأجرت تلك السلطات كل ما كان خاليا من مساكن وكل ما استطاعوا إغراء سكانه بإخلائه طمعا فيما كانت تلك السلطات تدفع من مال (خلو رجل) . ولكن المساكن الخالية والتي أخلاها أولئك الطامعون في (خلو الرجل) لم تكن لتكفي لسد حاجة تلك القيادات المتعددة من بريطانية إلى بولندية إلى يوغسلافية إلى يونانية إلى فرنسية حرة إلى أميركية ، إلى غير ذلك مما يضيق المجال عن حصره ، ولم تر تلك القيادات أن تضرب الخيام في الصحراء لتكون مراكز لتلك القيادات ومكاتبها ، فلجأت إلى الحاكم العسكري المصري وطلبت إليه أن يصدر الأوامر بإخلاء ما تريد تلك القيادات من عمارات كاملة ، فلم يرفض لها الحكام العسكريون طلبا ، وصدرت الأوامر بالإخلاء ، فأخلى المساكن سا كنوها ليتكدسوا مع أقاربهم في مساكنهم أو ليستأجروا القليل النادر الذي بقي أيام الحرب بأجور باهظة — لأن المساكن التي بنيت أثناء الحرب لا يسري عليها قانون إيجار المساكن ولأصحابها الحرية في فرض ما يريدون من أجور .

هكذا بدأت أزمة المساكن وهكذا استفحلت ، حتى انتهت الحرب ورحلت الجيوش المختلفة ، ورحلت كذلك الحكومات المؤقتة ولم يبق إلا القوات البريطانية .

وإلى أن تسوى مسألة الجلاء بالطرق الدبلوماسية — وهذا ليس موضوع هذا الحديث — سنستمر نشعر بأزمة المساكن بسبب احتفاظ السلطات البريطانية بالأماكن التي قضت ضرورة الحرب بالاستيلاء عليها ؛ فلما انتهت الحرب وزالت الضرورة لم تجل عنها بل احتفظت بها .

ولم تحتفظ تلك السلطات بمكاتبها الخاصة ، بل كثيراً ما عمدت إلى الدور التي كانت تستأجرها بعض القيادات التي عادت إلى أوطانها فاحتلتها .

ولو أن السلطات العسكرية عند انتهاء الحرب وزوال الضرورة سارعت إلى إخلاء هذه المساكن كما سارعت إلى طرد أصحابها منها بحكم الضرورة لانفرجت أزمة المساكن ولو إلى حد ما ، ولشكرنا لهذه السلطات مراعاتها لحاجة الأهالي إلى المساكن .

ولكن المساكن لا تزال محتلة — عمارات بأسرها ، ومنها عمارات مقفلة لا يشغلها أحد لأن الإدارات التي كانت فيها انتهى عملها وسرح أفرادها ، ويتبع ذلك أن الناس لا يزالون يئنون تحت ثقل الحاجة إلى المساكن ، ويئنون تحت تحكم أصحاب المباني الجديدة وثقل الأجور التي فرضوها على السكان ، ولا خيار لهم ، وليس أمامهم إلا قبول دفع تلك الأجور الباهظة يقتطعون الفرق الكبير

من ثمن القوت والملبس ، حتى لقد بلغ إيجار الشقة المؤلفة من ثلاث حجرات ضيقة في ضاحية كمصر الجديدة عشرة جنيهات ، مع أن إيجار مثلها من قبل الحرب لا يزيد على جنيهين ونصف لو وجد لها ساكن يرضى بها .

لقد عملت الحكومة على تيسير استيراد الخشب والحديد تشجيعا لمن يستطيع البناء على البناء ، وذلك عملا على تخفيف حدة أزمة المساكن ، ولكن لو أن السلطات العسكرية تركت ما بيدها من عمارات لكان ذلك علاجا أسرع لهذه الأزمة .

بل لقد قال واحد ممن اضطروا لاستئجار مسكن بأربعة أضعاف إيجار مثله بأسعار قبل الحرب ، قال وهو يمزح : لم لم يصدر الحاكم العسكري أمره حين وقفت الحرب بإخلاء المساكن التي استأجرتها السلطات العسكرية كما أصدر أمره من قبل بإخلائها من سكانها الأصليين ؟

والحق أنني أجد مزاحه جدا عابسا لا هزل فيه !

فضرورة إيجاد المساكن لإدارات الجيوش أوحت بإخلاء الدور لتلك الإدارات ولو شرد سكانها . ونحن الآن نواجه ضرورة توفير المساكن للناس ، والمساكن خالية ولكن السلطة العسكرية تحتفظ بها . فلماذا لم يبادر الحاكم العسكري بالاستيلاء عليها بمجرد انتهاء الحرب ؟!

وبعد فإن آلاف المساكن التي لا تزال تحتفظ بها السلطات منذ الحرب خليقة بالاهتمام والتفكير بل والمطالبة بها ، فإذا كان تسليم القلعة قد أرضى كبرياءنا وأشبع ناحية من نواحي الوطنية فينا ، فإن تسليم هذه المساكن المدنيين يسد حاجة ملحة إلى المساكن ، وهو في نفس الوقت لا يضر السلطات العسكرية في شيء ، فإذا كانت تخشى حربا فإننا نقسم بأن الحرب غير واقعة ، فإن وقعت أخليناها من جديد إذا قدر الله ألا يتم الجلاء الكبير قبل نشوب الحرب القادمة ، وبذلك لا تخسر السلطات شيئا .

ويجرنا الحديث عن هذه المساكن الخالية المشغولة إلى نقطة بعيدة من أزمة المساكن تقربنا من رصيد الاسترليني .

هذه المساكن ، وقد سمعت أن عددها خمس وعشرون ألف شقة !! مؤجرة بإيجارات مرتفعة إذا قدرنا للشقة في المتوسط عشرة جنيهات بلغ إيجارها ربع مليون من الجنيهات شهريا تدفعها الحكومة البريطانية لأصحاب هذه المساكن بغير مبرر ولا ضرورة . ونحن نعلم أن الحكومة البريطانية تعني بالقصد في مصروفاتها حتى تسدد ديون الحرب ؛ فلم إذاً هذا الإسراف ودفع مبلغ كبير كل شهر بغير حاجة ؟!

والرد على هذا العجب هو أن هذا المبلغ يدفع على طريقة الأرصدة الاسترلينية ، فهو ليس مالا يهم انجلترا أن تقتصد فيه ، لأنه نقد سيضاف إلى دين أعلنت بريطانيا أنها لن تدفعه كاملا .

هذا هو السر في الاحتفاظ بهذه المساكن فإنها محتفظة بها بغير أجر .

لعل هذه الكلمة تكون سببا في إجراء مفاوضات خاصة بهذه المساكن . فما كان منها خاليا أخذ من السلطة ليكون عاملا في تفريج أزمة المساكن وخفض إيجاراتها . وعسى أن تنجح هذه المفاوضات وأن تنتهي برضاء بريطانيا بهذا الجلاء الصغير .

عريان يوسف سعد

الكاتب هـ . ج . ولز

قال ولز في إحدى المناسبات : إن أسعد ما حدث لي في حياتي هو « أني ولدت » وهذه الكلمة هي مفتاح شخصيته .

وقد قالت إحدى ذكيات النساء : إن رجال الأدب صنفان : فنهم شقي وسعيد . وولز هو واحد من أولئك السعداء .

ومن رجال الأدب من ينظرون إلى هذه الحياة الدنيا نظرتهم إلى رحلة من الألم بعيدة الشقة . ذلك لأن الأطراف القصوى لأعصابهم هي شديدة التأثر بلمسات الحياة القاسية . وذلك لأن نفوسهم تشقى بكل شيء يحدث . وقد يشقون وهم على بساط من الورد . ذلك لأن بضع وردات قد نال منها التثني والتغضن .

ولطالما أقضت مضاجع النابغين آلام الحياة . فقد لعن « سويفت » اليوم الذي ولد فيه .

ولما أجبر « جونسون » على أن يعترف بأن المرء قد يسعد في الساعة التي هو فيها قال : إن هذا لا يكون إلا إذا كان المرء سكران فاقد الوعي أو كان يغالط في الحقائق نفسه .

وقال « جوته » وهو ممن يحسبون في عداد أصحاب العيش الرغيد : لم أسعد في حياتي الطويلة بشهر من السعادة الحقة .

وقال واحد من أعلام الأدب : ما مر يوم في حياتي لم أتمن فيه الموت يوم ولادتي .

وقال الشاعر « سير والتر وطسون » ما معناه :

في هذه الدنيا التي تعلوها قبة تزينها النجوم والتي ترقش أرضها بحار وبحيرات كأنها اللؤلؤ والمرجان لم أكن يوماً ما مستريحاً قرير العين .

والواقع أن رجال الأعمال لا رجال التأملات هم الذين تفيض بالمرح حياتهم .

« فولز » و « برناردشو » و « شيسترتون » يعنون بالأدب أقل من عنايتهم بالحياة . وهم لا يتخذون الكلمات أدوات فن بل أدوات حرب . وهم لا يحبون الكلمات لما فيها من شذى العطر ، بل لما فيها من رائحة النقع الثائر فوق رماحهم وسيوفهم .

ولكل منهم عدو . وأعداؤهم كلهم من طراز واحد ! فمستر شيسترتون يجمع الدنيا كلها في أحضانه ثم يحاول أن يعود بها إلى مكانها في القرون الوسطى . ومستر شو ومستر ولز يتراشقان بالنكات المرحة ثم يهجمان على دنيانا السكينة محاولين أن يدفعا بها إلى العصور التي لم تولد بعد .

وهم كلهم يلهثون من التعب ، ولكنهم بهذا التعب جد سعداء . وقد يكون مستر شيسترتون أكثرهم مرحاً ، ولكن الشيء المحقق أن ضحكاته تنطلق ضحكات مراحيه ، وبذلك تعلو موجاته الضاحكة فيطفو ويتموسون ، ولكن سرور مستر شيسترتون لا يكون إلا في ظلال الراحة والسكون ، فإن له كرسياً مريحاً وعدواً له قيمته وخطره . فإذا أظله هذا الكرسي المريح وأمكنته من عدوه ظل يهز دعائم هذا الكرسي من الغسق إلى طلوع الفجر .

ولا كذلك « ولز » فإن سروره ليس في الراحة الجسمانية ، ولكنه في التنقل والحركة . ومثله كمثل رجل يجري لكي يماشي أفكاره في خطوها ويسايرها في نقلتها .

وإن نشاط عقله ليشاهد منعكساً في نشاط جسمه . وكأنه أوتي حياة لا تنفد قوتها ، وهو لذلك لا يعرف السبيل إلى الراحة .

وهذه الحركة القوية تخطر ببالنا حتى الحياة التي كانت

من خصائص ديكنز وقد كان يشابه ولز فى كثير من الشمائل والملامح .

وإذا قضيت يوماً مع ولز فكأنما قضيته فى سوق من أسواق القرى فى إبان الرواج حيث تتزاحم الناس فى البيع والشراء .

وهو ينفلت من عمله وجسمه يفيض حرارة . والنصر ملء إهابه . ثم يقضى نصف ساعة يداعب « الكتكيه » ويمارس ألعاباً قال إنه أعدها لأطفاله وهو ، إنما أعدها لنفسه يتسلى بها ويلهو .

وكان « ولز » يلبس لكل حالة لبوسها ، وكان فى هذا لايجارى ولا يبارى ، وكان حديثه يفيض بأخيلة كأنها أخيلة الجن لا الإنس .

وإذا سمعته يتكلم خيل إليك أنك تسمع حفيف عقله . وهو يمسك بالفكرة ويلعب بها كما يلعب واحد من « الحواة » بالأرانب وهو يخرجها من قبعته .

وفى ذلك العقل الخصب — عقل ولز — تنبت اللمحة الخاطفة ثم تنمو ثم تملأ الأرض نباتاً .

فإذا مرت بخاطره لمحة من الملاعق التى يأكل بها الصينيون . إذاً لأوحت إليه تلك اللمحة بقصة من قصص الخاطرة فى أحد المطاعم الصينية فى الحى الذى يقطنه أولئك القوم فى لندن . وإذاً لامتدت فروع تلك القصة أمام عينيك ، ورأيت فيها الطرق التى تحت الأرض ورأيت الدهاليز المظلمة ، ورأيت أيضاً المجتمعات السرية للقوم .

ومع كل هذا المحصول الوافر من الفكر والابتداع فإن « ولز » لاينبغى أن يشون — فى طريقه — من هذا المحصول ما يشاء .

وقد لا يتعدى الأمر خدعة من خدع النظر أو نغمة واحدة من النغم ، ولكن تلك الذاكرة المتقدة الأفق لا تلبث أن تسجل تلك النظرة وأن تقيد تلك النغمة .

ذلك لأنه وقد ترك مسائل الاختراع — كما قال أحد أصحابه — فقد عاش على التصوير الفوتوغرافى .

وهو قادر على أن يقول لك — فى دقة بالغة — أين كان مكان ذلك الحديث .

ومنذ أن مات ديكنز لم يظهر كاتب غير « ولز » يجيد تصوير صور الأشخاص فى أمانة المصور البارع .

وإن الصور البديعة التى صورها لأشخاصه فى الفصول الأولى من قصة « تونوبنجاى » التى كتبها فى شبابه ، لتريك أن ولز الفتى هو ولز الكهل فى براعة التصوير ودقة الرسم . ذلك لأن « ولز » كان « طلعة » يستطلع الأمور ويبحث من حقائق الأشياء ، ولو سار الناس سيرته لبلغوا ما بلغه . ولكنهم لايبالون بشىء . وهم لذلك حظهم من البلادة غير قليل .

ومن أقوال إمرسون : « لو أن النجوم كانت تبدو لنا مرة واحدة فقط فى كل مائة عام ، إذاً لانتظر الناس كلهم منظر النجوم بشوق ولهف بالغين ، وإذاً لعرفنا خريطة السماء كما نعرف خريطة لندن .

أما والنجوم تبدو لنا كل ليلة فإننا نكتفى بالنظر إليها نظرة خاطفة من يوم مولدنا إلى يوم مماتنا .

وكان ولز إذا ظفر بحقيقة من الحقائق نسج حولها نسيجاً من صنع عقله الذى لا يكل ولا يمل . ولم يتركها « نصباً » من الأعصاب لا حس فيه ولا حياة .

وربما كان من الخير له أن حظه من التعليم الرسمى كان قليلا . ومن يدرى ! فلعله لو صب فى القوالب التعليمية المعهودة لما زاد حظه على أن يكون أستاذاً متقفاً من أساتذة التعليم ، ولما أحس الناس به إلا قليلا ، ولما ذكروه إلا مرتين : المرة الأولى يوم كشف من نظريته فى حشائش البحر الحمراء ، باسم الجمعية البريطانية . والمرة الثانية يوم يموت .

ولكن وازْ قد تعلم فى مدرسة الفقر . تلك المدرسة القاسية العاتية . ثم تخرج فى دكان تاجر أصواف ، وقد هرب من هناك كما هرب ديكنز من معمل الأصباغ . ثم كسب وازْ حريته بالدرجة العلمية — التى شق وكد فى سبيل الحصول عليها — من جامعة لندن .

وكان ينظر إلى الأشياء نظرة جديدة فيها شوق الطفل وتلهفه ، وفيها عقل الرجل وفيها قلق السيدة العجوز التى تود أن ترى كل شىء وقد أجيد تنظيمه وأحسن ترتيبه ، ولكنها لا ترى شيئاً إلا الاضطراب والتشويش وإلا اختلال النظام .

ولذلك فهو يمسك بمكنسته ليزيل نسيج العناكب . وليعمل على هندمة أمور الدنيا وترتيبها . وما كان ذلك لأنه كان محباً لبنى الإنسان ، أو لأنه كان من أتباع ماركس ، أو كان أحد أعضاء الجمعية « الفابية » ، فقد جرب كل المذاهب الاشتراكية ووجدها كلها مذاهب باطلة .

والاشتراكية — كما يراها وازْ — ليست هى فى الأصل حرباً ضد الفقر وما يستتبعه من ويلات . ذلك لأن الفقر ليس إلا أثراً من آثار شر أكثر تأصلا وأبعد غورا ، وهو مرض لا يزول من تلقاء نفسه .

والاشتراكية فى نظر « وازْ » إنما هى حرب ضد الغباوة الإنسانية . وضد الفوضى وحب الذات . وهى حرب ميدانها النفس الإنسانية منذ عصور الأدغال والغابات .

ومجمل القول عنده أن الخلاف الأساسى لا يقوم بين نظريات بل بين عواطف . فهو يقوم بين الكره — وهو المظهر الناطق للعداوة ، وهو المظهر المعبر عن اعتزال فرد من الأفراد لسائر الأفراد الآخرين — وبين الحب وهو القوة المؤلفة فى المسائل الإنسانية ، وهو المعبر عن العناصر المؤتلفة والمنافع المشتركة .

وتاريخ الإنسانية هو تاريخ هذا النزاع . وهذا النزاع تتغير صفته دائماً ويتسع أفقه ويمتد مداه فى كل حين .

والرجل المتوحش يحب واحداً أو اثنين ممن حوله ، وهو يخاف ويكره سائر الناس .

أما حب الرجل المتحضر فيسع عائلته ثم يمتد فيسع مدينته ، ثم بلاده ، ثم الإنسانية جمعاء .

وهو كلما امتد أفق حبه تغيرت صفة هذا الحب ، واتسعت رقعته ، وأصبح أقل فردية ، ثم أصبح يعبر عن وعى إجماعى يتصل بالإنسانية . وتنبعث منه وحدات أدق وألطف تدوم وتبقى إلى ماشاء الله ، ثم تستحيل تلك الوحدات إلى مجموعات دائمة تجاهد فى سبيل الإتيان بأعمال مجيدة لخير بنى جنسه .

ووازْ صريح إلى أقصى حدود الصراحة ، وهو يقول : إذا تنكب المرء سبيل الصراحة فى إبداء آرائه فهو يفعل ذلك إما عن جبن أو عن كبرياء .

وكان إذا رأى كلمة « ممنوع الدخول » على باب من الأبواب اقتحم الباب وأشهد العالم أجمع على ما فى داخل الباب من رجس ودنس .

وهو لا يسلم بصحة شىء من الأشياء تسليما مطلقا . وباب الاجتهاد عنده غير مغلق .

وكان هذا دأبه حتى فى صدر شبابه . فقد أطال البحث وأدمن التفكير فيما بينه وبين نفسه فى مسألة الانتحار يوم كان فى الخامسة عشرة من عمره . وكان يسائل نفسه : هل من الواجب عليه أن يعيش ؟ وهل له من ميوله ما يجعله من أبناء السعادة أم من أبناء الشقاء ؟ ولو كان الحكم قد صدر منه ضد نفسه إذاً لبقيت أشياء كثيرة فى حيز الخفاء . ولكنه حكم على نفسه بأن يعيش وأصبح يقض مضاجع الآراء ويقلقها فى زمن من أزمان الانتقال والقلق ، وكان هو أكثر الناس تنقلا وأمعنهم فى التنقل .

وكان وازْ فى دفاعه عن آرائه مصارعاً من كبار المصارعين . وكان يصطنع الأعداء فى سهولة ويسر .

(مترجمة) مبارك إبراهيم

الهمس فى الأدب والفن

يقصدون بالأدب الهامس كل حديث عاطق له قدر من جمال التصوير ، يخاطب النفس فى أناة ولين ، ويطبع فيها صوراً وانية شاحبة لا تخلو من حياة وقوة . وهو أشبه إذاً بوحى الحديث تستقبله الأذن فى ونى وخفوت ، كما تستقبل النفس هذا النوع من الأدب هامساً وانياً ، يحمل فى خلاله معانى من اللوعة والانكسار .

ويبدو أن الهمس كما يكون فى الأدب ، كذلك يكون فى الفن . ولو بحثنا قليلا لرأينا أن الطبيعة نفسها تهمس تارة وتجهر أخرى ، فهى تقدم لنا صورا شاحبة هامسة منكسرة ، وأخرى قوية جهيرة ؛ فالأدب والفن والطبيعة تتنقل ثلاثتها بين معنى حالم منكسر حزين ، وآخر قوى يمتاز بالجهارة واليقظة والنشاط .

ومن الواجب أولا أن نعرف حقيقة الأدب والفن ؛ فإن الناس — حتى المثقفين منهم — يكادون يجمعون بينهما ، ولا يفرقون فى صورة صريحة بينهما فى الدراسة الأدبية . وفى الحديث عن الأدب والفن يجب أن تستوحى المعانى من أعماق النفس وهواتف الفطرة ، لأنهما — حتى ولو خضعا للصنعة والرياضة أحيانا — خير ما نعتمد عليه فى هذا الباب ، لعصمتهما من أخطاء الفكر .

يلتقى الأدب والفن فى التصوير الجمالى ، حتى ولو كانت العاطفة المصوَّرة غير جميلة ؛ فالهجاء بإنه عاطفة لا توصف بالجمال إذا كان عمادها الحقد أو الانتقام ؛ ولكنه مع ذلك قد يكون جميلا يرضى القارىء من الناحية الفنية ، فمدار الجمال على التصوير لا على العاطفة الباعثة .

هذا العنصر الجمالى فى التصوير هو الذى يؤلف بين الأدب والفن ، فإذا اتخذ طريق الجارحة فقط فهو الفن وحده : فالمثال والموسيقار والرسام فنانون وليسوا بأدباء ، لأن الناحية الجمالية فيما يقدمون لنا يعتمدون فى تصويرها على الجارحة التى توجهها الملكات الفنية فى نفوسهم .

وإذا اتخذ التصوير طريق اللغة واقترن بالخيال والتهويل فى الصورة واعتمد على العاطفة ، فهو الشعر — ولو منثورا ، وهو أدب وفن معاً . وإن تجرد جوهره الأصلى للحقيقة ولم يتحل بالحلية والوشى لماماً ، فهى الكتابة وهى أدب فقط حتى ولو كانت فنية .

ومع هذا فمن اليسور أن نسمى المثال والموسيقار والرسام أدبياً ، إذا اعتبرنا أن هذه الأنامل التى يعتمدون عليها فى إظهار فنونهم هى جوارح مثقفة (مؤدبة) ، هذبتها ملكاتهم الفنية ، وأخذتها بالرياضة والتهذيب حتى استجابت لما توحى به العاطفة .

وقد تستطيع أن تريح نفسك من هذا التقسيم المتعب — الذى لا يتفق وسماحة الآداب والفنون — لتعرف أن الفن ليس شعوراً فقط ، ولكنه شعور وتصوير ممتاز يقترن حتما بالعنصر الجمالى ، ويستحق لهذا أن نحتفى له ، وأن نقدم إليه قدراً من الإعجاب .

الفن بلاغة موجزة ، يقترن فيها الإعجاز بالإيجاز ، وتتعقد العبقرية بالتلويح لا التصريح ، وحسب الفن أن يومىء ويشير ، وعلى الروح أن تسبح فى هذا الضوء اليسير لتدرك الهدف .

ليس الإسهاب أو التصريح من أدوات الفنون ، وإنما الإيجاز والإشارة . وهذا الإيماء — وإن شئت فسمه الإيضاح الناقص — هو الحد الفاصل بين الفن والعلم ، ليترك هذا النقص مجالا للنفس فى إتمامه . ومن هنا تختلف وجهات النظر فى مناقشة الفنون . ولكنها تلتقى حتماً عند غاياتها وأهدافها ، وليس كذلك العلوم ، فقضاياها كاملة غير ناقصة ، وواضحة لا غموض فيها ، وإجماعية تقريبا لا يختلف فيها تناول العقول .

قلت إن الفن والطبيعة يقدمان إلينا صورا هامسة وانية ، وأخرى جهيرة نشيطة : فصورة الغروب والألحان

الساخرة الحزينة ، ومواقف الضراعة فى التمثيل ، هى ألوان من الفن المهموس . وصور الحفلات الراقصة ، والمعارك الحربية ، وتماثيل الزعماء فى المواقف الحماسية ، والألحان الوطنية والعسكرية ، هى أنواع من الفن الجهير . والشروق فى صفائه وجماله ، والغروب فى شحوبه ، والخريف فى حزنه وانكساره ، والليل فى سكونه وجلاله ، هى ألوان من الطبيعة الهامسة .

والأعاصير والبرق وجريان السيول إلى الأنهار ، واصطخاب الأمواج ، وغوارب الجبال ومنا كبها — جميع هذه حديث الطبيعة الجهير . حتى الربيع — هذا الذى يصفونه بالدعة والدماثة — ليس من الطبيعة الهامسة ، لأن مرح الطيور ، وإراق الشجر ، وتفتح الأكمام — هى صور الطبيعة الجهيرة النشطة .

ويظهر أن الهمس والجهارة عملان أساسيان من أعمال الطبيعة : فهى هادئة أو ثائرة ، فاترة أو نشيطة . وعلى هذا الأسلوب يجرى الفن فى أمرها ، لأن الفن فى الحقيقة طبيعة مصنوعة — أو طبيعة غير ذات حياة كاملة — ولكنه يضفى على هذه الحياة من عبقريته وإلهامه حياة أخرى تعوضها ما فاتها من الحس والحركة .

فإذا كانت الطبيعة قد اختصت بالنبض أو النمو ، أو غيرهما من مظاهر الحياة العميقة ؛ فإن الفن يتدارك هذا النقص عنده عن طريق التجريد الجسدى ، أو المبالغة والتهويل فى الألوان والظلال ، ليشغل الناظر عما فقده من حياة حقيقية .

وإذا شاهدت تماثيل الإغريق أدركت أن الفن قد سبق الطبيعة — ولا أقول بفضلها — فقد حشد الفنانون لهذه التماثيل فنونا من التجويد تضن عنه الطبيعة ، ونشدوا لها الكمال فى الجسد والإيحاء ، كل هذا ليعوضوا ما فاتها من الحياة النابضة .

وليس من الصواب كما يقول بعض الباحثين أن مثالى الإغريق بهذا التجويد والإغراق فيه كأنهم يقولون للطبيعة : « أنظرى ! كان يجب أن تكونى هكذا » ليس هذا صوابا فإن الفن مهما أسرف فى الغرور ، يعرف قدر نفسه إلى جانب الطبيعة ، وهو أربأ بذاته أن يسخر منها على هذا النحو — وهو يعرف أنها الطبيعة الحية ، وهو الطبيعة الخرساء — ولكنه أدرك أنه حين يطلب لنفسه الحياة بمعناها الكامل إنما يحاول عبثاً ، فحاول أن يسد هذا النقص أو يكمله بالتجويد فى الجسد ، واستدعاء أقصى خواطر الإيحاء .

ولا يعيب الطبيعة أن يسبقها الفن فى التجويد الجسدى ، لأنه فى الحقيقة ليس تجويدا على إطلاقه ، ولكنه تجويد مكذوب ؛ فإن زعم الفن أنه صادق فيه وله ظل من الواقع فليرنا مثاله الذى احتذاه فى الطبيعة ، وسار على نهجه ، لأن الطبيعة أستاذه الأول . وما أظنه يعثر على هذا المثال .

هو تجويد غير ذى حقيقة ، والطبيعة مهما أسرفت فى الفتنة ، واصطنعت لنفسها فنونا من الجمال والزخرف — لا تنسى هى أبداً أنها حقيقة ، وأن هذه الحقيقة يجب ألا تبالغ فى استخدام الزينة ، ويجب أن تضيف إلى نفسها قدراً معقولا من التجميل والتجويد ، وألا تغرق فيهما فتصير خيالا .

قدم رسام إنجليزى صورة الغروب إلى صديق له ليقول رأيه فيها ، فقال الصديق : ولكنها ليست صورة الغروب ، ألا ترى أنك أسرفت فى الألوان والوشى ؟ فأجاب الرسام : ولكن ألا تحب أن يتاح لك غروب كذلك ؟ وهذا يثبت أن العين تطلب أكثر من الطبيعة ، ولكنه نهم يجب ألا ندعها تسترسل فيه ، فإن الحرمان من هذا القدر هو سر شغفها بما ترى ، وتعلقها بهذا القدر هو رصيد الشوق الذى تعتمد عليه مظاهر الجمال فى النفوس .

* قلت إن الأدب المهموس يمتاز بالرق والخفوت ، ويسرى منه إلى النفس أضواء هامسة حزينة . وقد عرف

بهذا اللون أدباء المهجر في أمريكا من أبناء القطر الشقيق . ومما تجب الإشارة إليه — منذ الآن — أن هذا اللون من الأدب يبدو متماسكا قويا ، حتى ولو لم يفارقه الحنان والهمس ، ويبدو عربيا له جرس ، ولكنه خافت يسري إلى الأذن والنفس مشياً وئيداً .

– إذا أردنا أن نعرف أسباب الهمس في هذا النوع من الأدب ، وكيف شاع فيه هذا الوني والحنان — وجب أن ندرس نفس الأديب قبل الهجرة وبعدها ، وأن نؤلف بين الشتيت من حياته في الشرق والغرب . فقد نظفر بأسباب لها أثرها في تكوين أدبه ، ووسمه بهذا الطابع .

والأديب رجل مرهف الشعور ، مفطور على رياضة الجمال ، وتصويره بلغته . فهل في بيئة لبنان — التي تأثر بها الأديب في صدر حياته — ما يذكي هذه العاطفة ؟ لقد أجاب على هذا جبران خليل جبران : « الربيع جميل في كل مكان ، ولكنه أكثر من جميل في سورية ولبنان »

وانتقل الشاعر من وطنه إلى المهجر ، وهو يحمل هذه النفس الشاعرة التي أرهفها جمال البيئة . وإلى هنا يجب أن يكون أدبه رقيقا جميلا ، ويجب أن يكون موسوما بالبشر ، مشرقا بالأمل . فما الذي جد في حياته حتى شاع في أدبه همس وخفوت ، يكشف من قريب أو بعيد عن هذه اللوعة الشاكية !

إنها إذاً لوعة الاغتراب ، وحنين من فارق الأهل والوطن ، قد مس شغاف قلبه ، وأنضج على ناره نفسه الشاعرة ، فأرسل أدبا ملتاعا كنفسه موسوما بالرفق والحنان الهامس المتكسر . وما الهامس لأن يرفع صوته بالغناء في هذه الوحدة المتقطعة ، وليس معه من رفيق يسمع له ؟ فليرسلها نغمات هادئة وانية هامسة فيها أثر من لوعة المغترب .

وما ظنك بأديب فارق وطنه في فجر العمر أو ضحاه ، هذه الفترة التي تزدحم فيها الأحلام والآمال والذكريات والطموح ؟ لا أظن أنه يحمل في صدره جميع قلبه ، فإن ذلك غير خليق بالشباب والاغتراب . ومن اليقين أنه ترك بعضه في وطنه ، وأن هذا الطائر الذي يخفق في جوانحه على شاطئ المحيط هو طائر ذو جناح واحد ، أما الجناح الآخر فمضطرب يخفق في ربوة لبنان أو شاطئ بحر الروم .

وهل تعرف أن هذا الأديب حين فارق وطنه لم يكن من ذوي اليسار والنعمة ، وأنه لم يذهب إلى المهجر لاهيا متفرجا ، وإنما سافر ليضرب في الأرض ، وليطلب أسباب الرزق ! إنه الكد إذاً ، والسعي في كل سبيل ، وعدته في ذلك عقل يلتمس الحيلة ، وجسم مظلوم يأتمر بأمره ، فهو أبداً ساع مضطرب في الأرض يسهد ويجوع ، ويحتمل لذلك أسبابا تورثه الضنى والشحوب ، وكل ذلك يرهف حسه ويثير كوامن الألم في نفسه ، وهو حين يكتب لا يستمد هذا الوني والهمس من نفسه فقط ، ولكنه الجسد الجاهد المطلوب بثأر الطموح والأمل يمد هذه النفس بألوان أخرى من الوجد والحنين والألم . فإذا خلت نفسه من نصب الحياة حينا فإنما هو الغناء الهامس المتكسر الحزين .

ولعل الأديب في وطنه وبين أهله لا يستطيع أن يرى بوضوح منزلة أمته السياسية بين الأمم ، ولا يتهيأ له أن يعرف جيداً حظها من السيادة والاستقلال ! ذلك لأن له من الأنس بأهله وخلصائه ما يشغله كثيرا أو قليلا من هذه الفتنة ، وما يجعله يشعر بأن الحرية في وطنه مكفولة ، وما يفوت الوطن من مظاهر الحرية والاستقلال ما دام بنوه يمرحون ويلهون ، دون أن يدفعوا من هذا المرح واللهو ، ودون أن يصادفهم في الحياة ما يعكر صفوها ؟ والناظر إلى الصورة لا يراها جيدا إذا لم تكن هناك مسافة بينهما تكفل لعينه الاستيضاح والتريث وكشف الدقيق من أجزائها ، وكلما بعد من وطنه زادت هذه الأجزاء وضوحا . وأخذ يقارن بين صورة هذا الوطن من حيث الوضع السياسي وبين البلاد التي نزح إليها ، ولعله واجد بينهما فرقاً بعيدا يترك في نفسه ألوانا من الإحساس

العميق ، أقلها الإشفاق والوجد والطموح المضطرب بين الأمل واليأس ، ثم الوحـدة الدفينة على هؤلاء الذين يملكون — لغير سبب شرعى — مصاير الشعوب ، فيهبونها الحرية التى ولدتهـا الطبيعة معها كما يأخذ الطائر الماء حسوا لا يبلغ الرىّ ، ولا يطفىء غلة الظمأ .

وسيجد هذا المغترب فى هذا الشعور حملا آخر يضيفه إلى أحمال نفسه المرهقة ، وتتشعب هـذه النفس بين ذاته ووطنه وفى كل منهما ما يكفى لإنتاج أدب يشيع فيه الحزن والهمس والانكسار جميعا .

ماذا ننتظر بعد هذا ؟ نفس شاعرة بطبيعتها قد أرهقتها البيئة منذ حياتها الأولى ، وحنين مضطرم الشوق نزاع إلى وطنه ، وفؤاد عمره الحب وأذكى ناره الاغتراب ، وسعى دائم موصول منهك فى سبيل الحياة ، ونفس يعذبها الشك ويضنيها القلق حين لا تستطيع أن تجلو غياهب هـذه الرحلة أو تكشف مصيرها ، وهل سيكتب لها التوفيق أو الإخفاق ؟ ورجاء يملأ صدره ، ولا يخلو من حزن فى نهوض وطنه وأخذه مكانته كأمة يقدر أبناؤها معنى الوطن .

شاعرية واغتراب وحب وسعى وخوف وطموح . ألوان مختلفة من الشعور انشعب فيها صدر الغريب بين ذاته ووطنه ، وكلها ألوان من الوقود صالحة للاشتعال ، أفلا يكون أدبه بعد هذا ساهما هامسا حزينا ملتاعا ؟

ومع أن الأسباب التى أحدثت هذا النوع من الأدب كلها هكذا عاطفة ملتاعة ، وشىء أشبه بالحزن وليس به — فإنها لم تخرج من نطاق الأدب العربى — لا من حيث الجهارة والرنين ، ولكن من حيث التماسك الذى يحول بينه وبين الضعف ، وغاية ما يقال فى هذا الأدب أنه رقيق واجد ملتاع ، ولا يمكن بحال أن يكون ضعيفاً .

ومع أن منطقة الرقة فى الأدب قريبة جدا من منطقة الضعف ، فإن الناقد البصير يرى أن الأدب المهموس لا يمكن أن يكون ضعيفا ، لأن الرقة التى يخشى معها الضعف هى التى أحدثها الترف ولين الحياة . لا التى أحدثها مثل هذه العواطف العالية التى تحمل فى ذاتها أسباب القوة ، وتطوى فى كيانها روح النهوض .

ومن أين له الترف ؟ إن المغترب الذى يعذبه الحنين إلى وطنه لا يكون بحال مترفا — حتى ولو حشدت له أسباب الثراء والنعمة ؛ ولهذا السبب رأينا أن الشعر الأندلسى الرقيق قد أصابه الوهن والانحلال حين أسرف فى الرقة ، لا لأن الترف وحده هو الذى أحدث هـذا ، ولكن لأنه صادف ظرفا صالحا لنموّه ، والإغراق فيه ، هو فراغ الأديب وتوفره على هذا الترف . وشىء آخر أهم من هذا وهو شعوره بالهدوء النفسى والقرار والدعة لأنه فى وطنه ، وهو شعور لا يثير العاطفة فى مكامنهـا الإنسانية الرفيعة ولا يهز الوجدان إلا لنواحى الحياة المترفة اللينة الوديعة ، وسيسرى هـذا اللين والترف حتما إلى أداة التصوير عند الأديب ؛ فإذا أسرف فيهما فهما الضعف والانحلال أخيرا .

أما العوامل التى تأثر بها أدب المهجر فهى وإن كانت تنزع بطبيعتها إلى الألم الدفين والحزن العميق الذى يؤثر الصمت والعزلة ويدفع إلى نوع من الزهادة والانطواء على النفس — لقد كانت مثاراً لكل معنى إنسانى رفيع ، ولم يتأثر بهـا الأسلوب إلا فى هدوء الجرس وضآلة الإشراق والبريق . والجرس وإشراق الديباجة — مهما قيل فيهما — لا يتصلان بالنفس ، ولا يعبران عن عاطفة ، ولكنهما نوع من اللهو واللعب ، ولن يضير هذا الأدب انطفاء ديباجته وخفوت جرسه أو انعدامه ما دام يحمل أسمى ألوان العاطفة من الحب ، والحنين إلى الوطن ، والبكاء له إذا نزلت به الأحداث ، وما دام يدعو المعنى الإنسانى ، ويصف نفس الأديب أصدق وصف ، ويصور حياة هذا العربى فى بلد نآه ، وما يصادف من مصاعب تدفعه إلى الجهاد تارة والبكاء أخرى ، وقد يلح عليه هذا الألم النفسى فيحمله إلى مرتبة أسمى من البكاء ، وهى إيثار الوحدة

بلد العميان

للكاتب الكبير هـ . ج . ولز

المتوفى فى أغسطس سنة ١٩٤٦

[نشرنا فى الثقافة فى أوائل سبتمبر الماضى ملخص سيرة الكاتب القصصى والروائى الشهير هـ . ج . ولز مع نبذة قصيرة من مواهبه ومميزاته الأدبية . واليوم ننشر ملخصا لإحدى قصصه المشهورة]

على بعد ثلثمائة ميل أو أكثر من شمبرازو ، وعلى بعد مائة ميل من ثلوج جبل كوتوباكسى فى مجاهل جبال الأنديز با كوادور ، يقع ذلك الوادى المجهول العجيب المنعزل عن سائر بقاع العالم والمعروف ببلد العميان . ولم يكن ذلك الوادى فى الزمن الماضى البعيد منقطعا عن العالم كما هو اليوم ، ولم يكن أهله عميا ، وكان فى استطاعة من شاء من الناس أن يذهب إلى مراعيه النضرة مخترقا إليها مسالك وعرة تعترضها الأخاديد والقلل الشاهقة المكللة بالثلوج . وقد جاءت إليه فعلا وسكنت فيه أسر مولدة من بلاد بيرو خرجت من بلادها فرارا من استبداد أحد الطغاة الأسبانيين وسوء سيرتهم . ثم حدث بعدئذ أن ثار بركان مندوباما وقذف بالحمم والرماد البركانى الذى حجب الضوء ، وبدل النهار ليلا سبعة عشر يوما كاملة لا يُرى فيها شمس ولا قمر ، وغلت مياه البحر بجواره ، وتصدعت صخور الجبال القريبة من الشاطئ . وذابت الثلوج وجرفت سيولها ما صادفها من أشجار ومنازل ، وماتت أسماك المحيط الهادى على بعد عدة أميال من شاطئه ، وانهارت إحدى القلل وهوت بصوت كالرعد ، وفصلت وادى العميان عن سائر بلاد العالم إلى أبد الدهر .

ولم تكن السماء تمطر فى ذلك الوادى ولا تتساقط منها الثلوج ، ولكن عيونه الكثيرة كانت تفيض مياهها على أرضه فتخصبها وتنبت فيها الكلأ والحب اللذين يعيش عليهما الناس والحيوان فى سعادة دامت كثيرا من السنين . لكن هذه السعادة لم تلبث أن عكر صفاءها مرض عجيب ، كان من أثره أن أصبح كل من يولدون فى هذا الوادى من الأطفال عميا لا يبصرون . بل إن كثيرا من الشباب والكهول أصيبوا هم أيضا بهذا المرض ، فأخذوا يفقدون بصرهم تدريجيا ، فذهب بصر الشيوخ كله أولا ،

والخلود إلى النفس اللائمة ينقل عنها فى أدب هامس حزين .

ولن يعيب الأدب أن يحمل فضلا من وجد الصدور وأحزانها ، وأن يصور طرفا من آلامها ، مادام مبعث الألم معنى إنسانيا يشترك فى الشعور به كل قلب كبير . ليس هذا عيبا وإنما أول مايحمل القارئ على احترام هذا الشعور . وإذا أردت أن تدرك موضع النبل فى أدب المهجر فتصور رجلا لم يصرفه الجهاد فى سبيل العيش ، وما يحتمل من ألم وجوع فى الغربة ، عن أن يتألم لوطنه المجاهد المغلوب على حريته واستقلاله ، فيرسل من وراء البحار غناء حزينا لا تنقصه قوة التأثير وإن فاته الجرس والرنين .

لقد تكون لى رأى آخر فى الشعر بعد أن قرأت لأدباء المهجر ، فأصبحت أسخر من الديباجة والرنين والإشراق ، ولا أحفل إلا لصورة النفس المطبوعة فى هذا الأدب . ومع هذا فأنا لا أدعو دائما إلى تصوير الآلام ، ولكن من المروءة أن تصغى إلى حزين .

بين يدى أمثلة غزيرة هى نفثات لأمين مشرق ، وميخائيل نعيمه ، وإلياس فرحات ، وأمين الريحانى ، وإيليا أبو ماضى . وأخيرا جبران خليل جبران فيلسوف لبنان وشاعره الناسك . وأراك فى شوق إلى سماعها — وقد طال الحديث — فانتظر .

(للحديث بقية)

على شرف الدين

وضعف بصر الشبان ضعفا شديدا ، وولد الأطفال عميا ؛ ولكن الحياة ظلت سهلة ميسرة في ذلك الوادي الخالي من الأشواك والحشرات والحيوانات البرية إلا قطعان اللاما . وكان الشبان الذين لم يفقدوا بصرهم كله يقودون العمي من الشيوخ والأطفال حتى عرف هؤلاء مسالك الوادي ومنحنياته وكل ما فيه أدق معرفة . فلما أصبح كل من فيه عميا كانت معرفتهم به كاملة ، وعاشوا وكأنهم لم تكن لهم أبصار فقدوها . ومن أعجب الأشياء أنهم كان في وسعهم أن يوقدوا النار في أفران ومواقد أنشؤوها لهذا الغرض ويسيطروا عليها سيطرة كاملة . وكانوا في بداية أمرهم يعرفون القليل من مقومات الحضارة الأسبانية ، ولكنهم كانوا يعرفون الشيء الكثير من مبادئ فنون الأمريكيين الأولين وفلسفتهم . وتوالت عليهم الأجيال ونسوا كثيرا مما يعرفون ، وابتكروا من عندهم أشياء أخرى جديدة ، وتضاءل علمهم بالعالم الواسع العظيم الذي قدموا منه ، ولكنهم كانوا فيما عدا فقد أبصارهم شعبا قويا قديرا . وتوالت عليهم وهم على هذه الحال خمسة عشر جيلا ، قدم عليهم بعدها رجل من أهل الجبال المحيطة بمدينة كيتو عاصمة جمهورية إكوادور . وكان هذا الرجل قد شاهد البحر ورأى العالم وقرأ الكتب ، كما كان رجلا ذكيا مغامرا يعرف مسالك الجبال والوديان . وقد أخذته جماعة من الرحالة الإنجليز ليكون دليلا لهم في رحلة إلى تلك الأصقاع . وتسلقت الجماعة أعلى قلل الجبال ، ثم أدركها الليل فأقامت لها مأوى بين الثلوج ، ولكنها في أثناء الليل افتقدت دليلها « نونز » فلم تجده ، وقضت ليلتها ساهرة . فلما طلع النهار عرفت من آثار أقدامه على الجليد أنه قام لبعض شأنه فضل الطريق وانحدر نحو السفوح الشرقية المجهولة ، ثم هوى إلى منبسط فسيح محمولا على كتلة من الثلج المنهار . وأثرت هذه الفاجعة في أعصاب الجماعة فقطعوا رحلتهم وعادوا من حيث أتوا .

أما الصديق فقد أنجاه من الموت ما سقط عليه وما سقط معه من الثلج . ومع أن سقوطه قد أفقده وعيه زمنا ما ، فإنه لما عاد إليه شعوره وجد عظامه كلها سليمة لم يصب منها عظم واحد بسوء . . . ثم وقف على قدميه ، وخرج من بين أكوام الثلج الذي سقط معه ، وانحدر على سفح الجبل حتى وصل إلى بقعة كلئة فيه ، وهنا سقط من فرط الإعياء إلى جانب صخرة عظيمة ، وشرب قدرا من الماء الذي كان يحتفظ به في وعاء في أحد جيوبه ، ونام من فوره نوما عميقا لم يستيقظ منه إلا في الصباح على تغريد الطيور فوق الأشجار .

ووجد الرجل نفسه في إحدى شعاب الوادي ومضايقه وأعضاد الجبل عن يمينه ويساره ، فسار بينها في مسلك سهل تارة ووعر تارة أخرى ، حتى أبصر من بعيد سهلا فسيحا ذا أشجار وبيوت أخذ يسير نحوها حتى خرج وقت الظهيرة من الوادي الضيق إلى السهل الفسيح . ثم جلس إلى جوار مجرى من الماء شرب منه حتى ارتوى وطعم من نبات الوادي ، ثم تابع السير نحو بيوت السهل . وأقبل عليها فرآها بيوتا عجيبة لا شبيه لها فيما رآه من الدور في القرى الجبلية . فقد كانت كلها في صفين بينهما طريق واسع نظيف ، ذات أبواب صغيرة ، عديمة النوافذ ، مطلية جدرانها بطلاء غير متناسب الألوان . فلما رآها قال في نفسه : « إن الذي طلاها كان بلا شك أعمى لا يبصر » .

وشاهد غير بعيد رجالا ونساء متكئين على أكوام من الكلأ ، وأبصر بجوار البيوت عددا من الأطفال ، ورأى بالقرب منه ثلاثة رجال يحمل كل منهم دلوين معلقتين إلى جانبيه . وفكر نونز قليلا ، وذهبت عنه مخاوفه ، وأراد أن يعرّف أهل القرية بنفسه ، فوقف حيث يظن أن في وسعهم أن يروه ، وصرخ صرخة عالية تردد صداها في شعاب الوادي .

ووقف الرجال الثلاثة ، وحركوا رؤوسهم كأنهم ينظرون

حولهم ، وأداروا وجوههم يمنة ويسرة ، وأخذ نونز يلوح بيديه ويصرخ بأعلى صوته ، ولكن الرجال بدا عليهم أنهم لم يروه . وبعد قليل من الوقت اتجهوا جهة اليمين ، واتخذوا طريقهم نحو الجبل البعيد ، وصرخوا صرخات عالية ظن نونز أنهم يجيبون بها عن ندائه ، وكرر هو صراخه بعد أن رأى أن حركاته بيديه لم تلفت إليه أنظار الرجال ، وقال في نفسه : « كأن هؤلاء البلهاء عمى لا يبصرون » .

فلما أن عبر مجرى الماء على قنطرة صغيرة ، ونفذ من باب في الجدار ، ورأى هؤلاء الناس عن كثب ، أيقن من فوره أنهم عمى ، وأنه في بلاد العميان التي تتحدث عنها الأساطير ، ورأى الرجال الثلاثة واقفين متجاورين لا ينظرون إليه ، بل يديرون آذانهم نحوه ، يتعرفونه بخطاه غير المألوفة وكان يبدو عليهم شيء من الخوف والاضطراب ، وكانت جفونهم مقفلة وعيونهم غائرة في وجوههم .

وقال واحد منهم : « إنه رجل — رجل أو روح — خرج من جوف الصخور » .

ولكن نونز تقدم نحوهم بخطا ثابتة ، وصر بذا كرته في أثناء تقدمه كل ما سمعه من الأساطير عن بلاد العمى العجيبة ، ومنها المثل السائر المأثور : « الأعور في بلاد العمى سلطان » . ثم حياهم في أدب ، وتحدث إليهم ؛ وسأل أحدهم زميله : « ترى من أين جاء يا بدرو ؟ » فأجابه صاحبه : « من جوف الصخور بلا شك » . وقال نونز : « بل جئت من بلاد بعيدة ، وراء الجبال الشاهقة حيث الناس يبصرون . جئت من جوار بجوتا العظيمة حيث يعيش مائة ألف من الناس أو يزيدون » .

وقال بدرو متدهشا : « يبصرون ! يبصرون ! » وأجابه صاحبه : « لقد خرج من جوف الصخور » . ودهش حين تقدم ثلاثتهم نحوه ، ومد كل منهم إليه يده فتنحى عن طريقهم ، ولكن أحد العميان الثلاثة أقبل عليه وأمسك به وهو يقول له : « لا تحاول الهرب » وقبض عليه ثلاثتهم وأخذوا يلمسون بأيديهم كل جزء من جسمه ، ولم ينبس هو في أثناء ذلك ببنت شفة ، حتى وضع أحدهم أصابعه في عينيه وقال : « إنه مخلوق عجيب » . وقال الثاني حين لمس لحيته وبدء البلة : « إنه خشن كالصخور التي أخرجته ، ولكن لعله يصبح أرق ملمسا فيما بعد » وقال ثالثهم : « حاذروا ، أبعدوا من عيني » . ودهش الثلاثة لهذا القول وقال أحدهم : « إنه يتكلم ، إنه إنسان » ثم سأله : « ومن أين جئت إلى هذا العالم ؟ » فأجابهم : « جئت من بلد بعيد وراء الجبال الشاهقة المتوجة بالثلوج . جئت من ذلك البلد العظيم الذي يبعد عن واديكم مسيرة اثنى عشر يوما » .

وبدا له أنهم لم يفهموا من قوله هذا شيئاً ، وقال أحدهم : « لقد حدثنا آباؤنا أن الناس قد يخلقون من الصخور بفعل الحرارة والرطوبة والتعفن . ولكن هيا بنا نأخذه إلى كبرائنا فهم أدرى منا بهذه الشئون ، ولنصرخ أولا حتى لا يرتاع منه أطفالنا » .

وصرخ أحدهم صرخة قوية ، وأخذه بيده ليقوده إلى البيوت ، ولكن نونز سحب منه يده وقال له :

— إني أبصر .

— تبصر !

فأجابه : « نعم أبصر » ، ثم عثر بدلو على الأرض حتى كاد يسقط .

وقال ثالث العمى : « إن حواسه لم تدق بعد ، ولعلها تدق في المستقبل . إنه يتعثر في مشيه ، وينطق بألفاظ لا معنى لها ، أمسكوا بيده » .

واستسلم نونز لهم ، وهو يقول في نفسه : إنهم لا يعرفون شيئاً عن الإبصار ، وإنه سيعلمهم الشيء الكثير فيما بعد . وسمع الناس يصرخون ، ورأى أشباحا كثيرة تتجمع في وسط شارع القرية ، رجالا ونساء وأطفالا ؛ فلما صار بينهم أخذوا يلمسون جسمه بأيديهم . وبقي الرجال الثلاثة الذين

جاءوا به بالقرب منه ، وكانوا يقولون من حين إلى حين : « رجل غريب خرج من جوف الصخور » .

وكان هو يرد عليهم بقوله : « من بجوتا . بجوتا ، وراء الجبال » .

وقال أحد العمى : « بجوتا . أسمعتم هذا ؟ إنه يقول بجوتا . إن عقله لم يكمل بعد وإنه لا يكاد يعرف مبادئ الكلام » .

واقترب منه ولد صغير وقال ساخرا : « بجوتا » فأجابه : « نعم ، وهى مدينة عظيمة تعدل أضعاف قريتكم هذه . لقد جئت من العالم العظيم حيث للناس عيون وحيث يبصرون » .

وقال العمى : « إن اسمه بجوتا » .

وقال أحد الثلاثة الذين قبضوا عليه : « لقد عثرت قدمه مرتين فى الطريق ، فلنأخذه إلى كبرائنا » .

وأدخلوا نوز لجأة إلى حجرة حالكة الظلام ومن ورائه الجمع الحاشد حتى حجب عنه كل ما يتسرب من بابها من ضوء قليل ؛ وقبل أن تتعود عيناه الظلام عثر بأحد من فيها من الكبار ، فسقط على وجهه عند قدميه ، ولطم بيده وجه رجل آخر ، وامتدت إليه أيد كثيرة أقالته من عثرته ، وقال لهم : « لقد سقطت لأنى لا أستطيع أن أبصر فى هذا الظلام الحالك » .

وساد السكون كأن الناس الذين يحيطون به يحاولون أن يفهموا ما يقول . ثم علا صوت أحد الثلاثة الذين قبضوا عليه وقال : « إنه حديث الخلق ، يتعثر كلما مشى ، ويخلط كلامه بألفاظ لا معنى لها » وقال غيره عبارات أخرى مثلها لم يحسن سمعها أو إدراك معناها . وأخذوا بعد ذلك يتشاورون ، ثم شرع كبيرهم يسأله ، ووجد نوز نفسه يحاول أن يصف لهؤلاء الأقوام الذين يجلسون فى الظلام فى بلد العميان ذلك العالم العظيم الذى هوى منه إليهم ، وما فيه من سماء وجبال ومناظر جميلة . ولكنهم لم يصدقوا ولم يفهموا شيئاً مما كان يقوله لهم على عكس ما كان ينتظره منهم . بل إنهم لم يكونوا يدركون معنى الكثير من ألفاظه ، فقد امحى من عقولهم لطول عهدهم بالعمى والظلام كل ما يتصل بالضوء والإبصار ، واستحالت قصة العالم الخارجى إلى خرافة أشبه بخرافات الأطفال ، وأصبحوا لا يعنون بشىء خارج من التحدرات الصخرية القائمة وراء سورهم العظيم . وقام بينهم فى أوقات متفرقة عمى عباقرة ، بحثوا فيما بقى فى عقول أولئك الأقوام من معلومات ضئيلة وتقاليد بالية من أيام الإبصار الخالية ، فأخرجوا من عقول القوم هذه المعتقدات وبدلوا مكانها معلومات جديدة أصح منها وأقرب إلى المعقول . وانضمر خيال هؤلاء القوم بانضمار عيونهم ، وبدلوا مكانه خيالا جديدا معتمدا على قوة آذانهم وأطراف أناملهم . وأدرك نوز شيئاً فشيئاً أن ما كان يتوقعه من عجب بأصله ومواهبه وإجلال لهما لم يتحقق منه شىء . ولما أيقن أن ما كان يحاوله من تفسير عالم المرئيات قد ذهب كله سدى وأنه لا يزيد فى اعتقادهم على مبتدئ مخلوق لم يكمل عقله أو تدق حواسه ، أسلم أمره إليهم وأخذ يستمع لتعاليمهم . وشرع كبير العميان يشرح له الحياة والفلسفة والدين ، ويقص عليه قصة خلق العالم (أى خلق واديهم) فقال : إنه كان فى البداية فجوة فى الصخور خالية من كل شىء امتلأت أولاً بالجماد العديم الحس ، وبحيوان اللاما ، وجاءت بعد ذلك كائنات حية صغيرة ذات قدرة على الحس قليلة ، ثم خلق الناس ثم الملائكة الذين يسمع تغريدهم ، والذين لا يستطيع أحد لمسهم . وقد حير هذا الوصف نوز أول الأمر ولم تذهب حيرته إلا بعد أن فكر فى الطيور .

يتبع

محمد بدران

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليما

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ٥٦٧٦٩

العدد ٤١٣ — الثلاثاء ٢ من المحرم سنة ١٣٦٦ — ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

الانسانية فى الاسلام

كان من أكبر النكبات التى منى بها العالم نزعة « القومية » أو « الوطنية » ، بمعنى أن كل أمة تعمل لخيرها دون النظر إلى سائر الأمم ، فغايتها المنشودة أن تتبوأ السيادة فى العالم ، وأن تسعى أن تملك من الأرض أكثر ما تستطيع ، وتخطف من الأمم الضعيفة ما تقدر ، وأن تكون تجارتها أكثر رواجا ، وشعبها أغنى شعب ، وقوتها الحربية أعظم قوة ، فأمنيتها العظمى إعلاء شأن قومها ، من غير أى اعتبار آخر ؛ وعلى هذا الأساس تبنى سياستها ، وإليه يقصد قادتها ، فأعظم سياسى من كسب لها من الأمم الأخرى أكبر مكسب ، وأعظم قائد حربى من نكل بالأمم الأخرى وضم إلى مستعمراتها مستعمرة ، واعتدى على أمة آمنة مطمئنة فأذلها وضمها إلى أملاك قومه ، وعلى هذا الأساس أيضاً وضعت برامج التعليم ، من تربية وطنيـة ودروس تاريخية تمجد الوطن وتعنى بإظهار تاريخ الأمة بمظهر العظمة ولو داس الحقيقة ؛ ونشأ عن هـذه النظرة الضيقة للوطنية أن الأمم الأوربية تسابقت فى هذا المعنى ، فكل أمة تريد أن تسمو ، وكل أمة تريد أن تلتهم الضعيف ، وكل أمة تريد السيادة والغلبة ، وهى لذلك لا بد أن تتسلح وتسبق غيرها فى التسلح ، كما تتسابق فى التربية الوطنية ومسخ التاريخ ، وإشاعة أن جنسها خير جنس ، ودمها خير دم ، وإلـهها خير إله ، وأنه معها ينصرها فى الحرب ويساعدها فى السلم . فكانت نتيجة هـذه الوطنية بهذا المعنى سلسلة الحروب التى كانت والتى ستكون ، والخراب الذى حدث والذى سيحدث . ومن حين لآخر يأتى قوم من بعيدى النظر يدركون خطر الوطنية ، وينادون بالإنسانيـة ، كما فعل

تولستوى وولسن وغيرهما ، ولكن سرعان ما تخمد دعوتهم ، وتنقلب الوطنية من جديد ، وإذا ا كتووا بنار الحرب راحوا يبشرون بمبادىء العدل والمساواة كما فعلوا بميثاق الأطلانطى ، ثم لا يلبثون بعد الحروب أن يعودوا سيرتهم الأولى ؛ فروسيا لا تنظر إلا إلى القوميـة ، وانجلترا وأمريكا وفرنسا وغيرها كلها تنظر إلى القيم الوطنى ، ويكفى أن تتمسك أمة بوطنيتها لتتسابق كل الأمم فى الوطنية ، وتتحرك الشهوات القدعة ، ويعود العالم إلى معسكرات .

ولا علاج من هذه الأمراض كلها إلا غلبة النزعة الإنسانية ، واختفاء النزعة الوطنية ، أو قصرها على حدود لا تتنافى مع الإنسانية — ومعنى الإنسانية أن ينظر إلى العالم كوحدة وكأسرة ، تخضع كلها لنظام عام شامل ، وتؤمن كلها بقوانين العدل والحق ، وتتقيد كل أمة بالصالح العام ، ويعمل القوى لخير الضعيف ويأخذ بيده حتى يقوى ، ومن سبق فى محمدة اجتهد فى تعميمها ، ومن أخطأ قوّم خطؤه ، ومن نكب بجهل أو فقر انتشل من نكبته ، ونحو ذلك مما يفعله كل فرد فى الأسرة الواحدة نحو أسرته ، كبير رشد صغيراً ، ومتعلم يعلم جاهلا ، وصغير يوقر كبيراً وأب وأم يعملان لخير الجميع ، إذ يشعر كل أنه لنفسه ولأسرته .

• • •

لعل أكبر محمدة فى الإسلام ، وأعظم دعوة سبق بها غيره منذ قرون ، دعوته إلى الإنسانية والأخوة العـامة ، فهو قد سمى الإسلام ، والإسلام والسلام من مادة واحدة . وأسلم الرجل استسلم لله وأخلص له ، أى كان فى سلام مع الله ، ومن كان فى سلام مع الله أحب أن يكون فى سلام مع خلقه ، ولذلك قال رسول الله : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وسمى معتنق هذا الدين مسلما ، وجعلت تحية المسلمين فيما بينهم « السلام عليكم » .

ثم أهم تعاليم الإسلام وحدة الخلق ووحدة الخالق ، فوحدة الخلق تظهر فى تقريره أن النـاس كلهم من آدم وحواء ، فهم سواء ، وإنما النظم المصطنعة السيئة هى التى سببت الفروق من سيد وعبد ، وذى جاه وعديم الجاه ، وغنى وفقير ، والله لا يعبأ بذلك كله ، والإسلام ينكر ذلك كله ، ولا يجعل هناك فرقاً بين إنسان وإنسان إلا العمل الصالح . لقد جاء فى كلام رسول الله فى خطبة حجة الوداع وفيها خلاصة تعاليم الإسلام : « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب . ثم تلا قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وجاء فى حديث آخر : « كلكم بنو آدم طف الصاع لم تملؤوه[1] . إن الله لا يسألكم عن أحسابكم وأنسابكم يوم القيامة . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وأكد فى هذه الخطبة أيضاً حرمة الأنفس والأموال والأعراض فقال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم لحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا »

ويقرر الإسلام وحدة الناس ، فقد كانوا أمة واحدة ثم فرق بينهم الباطل وفى إمكانهم أن يعودوا أمة واحدة إذا اتبعوا الحق : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » .

ثم اعترف بالأديان السابقة وبالأنبياء السابقين لا فرق بينهم ، فكل من آمن بالله وعمل صالحاً فله جزاؤه « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمـل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(١) يقال « هذا طف المكيال » إذا قرب أن يمتلىء ولما يملأ . قال ابن الأثير : المعنى كلكم فى الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة فى النقص والتقاصر عن غاية التمام ، شبههم فى نقصانهم بالمكيل الذى لم يبلغ أن يملأ المكيال .

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ، فإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم أتوا لهداية الناس ودعوتهم إلى الحق « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ، فنظام العالم نظام عام شامل ، والناس أمة واحدة والله يرسل رسله لهدايتهم ، فإن اختلفوا وتفرقوا فبسوء صنيعهم لا بما يطلب الله منهم ، والله جعلهم شعوباً ليتعارفوا ، فتناكروا وتحاربوا .

وليست الإنسانية وحدها — في نظر الإسلام — وحدة بل العالم كله وحدة ؛ فالذرة في الأرض تتكون على نمط تكون الشمس في السماء . وإذا كان هناك فم يرضع فثمة ثدي يُرضع ، وإذا كانت معدة تهضم فثمة ما يُهضم ، والعالم كله تسلم أقصه إلى بابه ، وكله يخضع لقوانين واحدة ونظم واحدة وإلا ما أمكن أن يكون العلم وقوانينه ، والقرآن يقول : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وتسبيح العالم خضوعه لقوانين الله ، ودلالته على قدرته ، والسير على مشيئته .

هذه هي وحدة الخلق ، وهذا الخلق الواحد له خالق واحد ، « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » ، « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً » ، « وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق » ، « خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم » .

« وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » الخ . الخ .

على هذا الأساس — من وحدة الإنسانية بل وحدة الخلق عامة ، ووحدة الخالق — بني الإسلام ، وجعل شعاره لا إله إلا الله ، وكانت أول آياته « الحمد لله رب العالمين » .

وعلى هذا الأساس أيضاً وجهت الدعوة ، فالناس كلهم يجب أن يُدعَوا إلى وحدة الخالق ووحدة الخلق ، ومحمد رسول الله أرسل إلى الناس كافة لتبليغ هذه الدعوة ؛ ذلك لأن الإنسانية ستعذب إذا أشركت فتعددت الآلهة ، أو تعددت اختصاص الآلهة في الخلق ، ولأن نشر العدل بين الناس كافة واعتناق الحق لا يتحقق تمام التحقق إلا بالاعتقاد بهذه الوحدة — وحدة العالم ووحدة الله — التي يدل عليها لا إله إلا الله رب العالمين ، فإذا فشت عقيدة أن لكل شعب إلهاً كانت الحرب والخصام والفساد ، وإذا فشت عقيدة أن هناك شعوباً ممتازة وشعوباً غير ممتازة ، وتميزاً في الدم أو الجنس أو نحو ذلك فالحرب والخصام ، وإذا عبدت الملوك والحكام من دون الله كان الظلم ، وإذا قدس شيء دون الله تعددت الآلهة فانتشر الفساد .

لذلك جاء الإسلام يحارب استبداد الملوك والحكومات بالشعوب ، كما ترى في الكتب التي أرسلها الرسول إلى ملوك فارس والروم في آخر حياته ، ويحارب عصبية القبائل وعصبية التعاظم بالأنساب ، ويجعل أساس التقويم والتفاضل العمل الصالح ؛ ويقرب الرسول بلالا الحبشي ، وصهيبًا الرومي ، وسلمان الفارسي ، على صناديد قريش ، ولا يعتد باللون والدم في قليل ولا كثير .

ومهمة الرسول ليست إلا أن يبلغ هذه الدعوة وأن يوصلها إلى كل أذن ما استطاع « ما على الرسول إلا البلاغ » ، وبعد ذلك « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ، ومحمد بشر كسائر الناس ، ليس له ميزة إلا أنه أوحى إليه بهذه المبادىء يبلغها « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » . « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا » . وهو إنما يدعو هذه الدعوة بالحسنى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .

إن على الرسول أن يبين آيات الله فى خلقه ، ويفتح عيون الناس على آثاره فى الكون ، ويبين لهم كيف يسعد الناس بحسن العقيدة ، وتحرى الحق والعدل ، وكيف يشقون بسوء العقيدة والظلم ، وهم أحرار بعد ذلك أن يقبلوا أو أن يرفضوا . ولكن يجب أن يسمعوا ، ويجب أن يمكّن من أن يسمع الناس ما يدعو إليه ، وأن يترك الملوكُ والحكام الناس أحرارا يسمعون دعوته ، ولهم الخيار بعد أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا .

ولو سمعوا لهذا المبدأ ما حمل رسول الله ولا صحبه سيفا ولا أقاموا حربا ولا أراقوا دما ، ولانتشر الإسلام بالدعوة وحدها يزينها الحق ويبعث على اعتناقها العقل ، وحب الحرية والبساطة ، والاعتراف بحقوق الناس كافة ، ونصرة المظلوم وتقوية الضعيف ، وإنقاذ الفقير وتحرير الرقيق .

ولكن حمله على تقلد السيف أمران لا ثالث لهما : أن يهاجم ، فيرد الحرب بالحرب والقوة بالقوة ليحمى دعوته ، أو أن يمنعه الملوك والحكام والرؤساء من نشر دعوته حفظا على سلطانهم وعزهم وجاههم ؛ وهو — لابد — مبلغ رسالته إنقاذا للناس من الظلم وسوء العقيدة ، ورغبة فى توحيد الناس على العقيدة الصالحة والسياسة الحسنة .

على هذا الأساس وحده كان الغزو وكان الجهاد ، ولم يدر بخلد الإسلام أن يجر مغنما ، فقد مات رسوله فقيرا لم يملك من الدنيا شيئا ، ولم يفتح ما فتح حبا فى الفتح والاستعمار ، فقد أتى ليرد للناس حريتهم لا ليفقدهم حريتهم ، ولذلك كان أسرع الناس لقبول الإسلام الأرقاء والمستضعفون والمظلومون .

ولو حقق الإسلام غايته كلها لكان الناس كلهم أمة واحدة تعتقد بإله واحد وتؤمن بالحق والعدالة وتتعاون على البر والتقوى ، ولا تتعاون على الإثم والعدوان ، فإن اختلفوا شعوبا وألوانا وأجناسا كما هى طبيعة الدنيا فللتعارف وللتعاون وللانتفاع بمزايا كل ، لا للتناكر والتحارب والاستعلاء .

هذا هو الإسلام فى جوهره وصميمه .

فإن كان فيه عيب فعيبه أنه بعد عصره الأول لم يجد له حملة ، والدين الصالح يفسد بحملته ، والدين الفاسد يصلح بحملته .

أحمد أمين

المكسب والخسارة

في هذا اليوم المبارك ، يوم ذكرى الهجرة النبوية الشريفة ، التي كانت الحد الفاصل بين الدعوة الهادئة المتكتمة وبين الدعوة القوية العلنية ، بين ضعف المسلمين وعنتهم وتحملهم ، وبين قوتهم وشوكتهم وظهورهم على عدوهم ، وبالجملة بين دعوة خافتة لم يحسب حسابها ، ولم يقدر لها الأعداء نجاحا ، وبين دعوة هزت أرجاء الأرض وخيف بأسها وعلا نجمها ، وأدت إلى انتصار الإسلام ورفعته ، وإلى عزة المسلمين وسعادتهم . في هذا اليوم المبارك لعل من الخير أن نقف لحظة نتدبر كشف الحساب الذي يقدمه التاريخ لنا معشر المسلمين لنعرف مكسبنا وخسارتنا ونتبين ما إذا كان رجحان كفة الميزان لنا أو علينا .

ولننظر أولا في عناوين بنود هـذا الحساب ، وهي مقومات سعادة الفرد . وأهم هذه المقومات باختصار هو : التمتع بصحة جيدة ، وتوافر الحاجيات الضرورية للحياة ، والاطمئنان النفسي الذي أساسه الأمن والحرية والإيمان والقناعة . وسعادة الأفراد تؤدي إلى سعادة المجتمع بوجه عام إذا توافرت في أفراده صفات أهمها : الصراحة والأمانة والوفاء والإيثار والرحمة .

جاءت تعاليم الإسـلام تحوي العناصر المؤدية لهذه السعادة المزدوجة ، سعادة الأفراد وسعادة المجتمع ، المجتمع كله ، أي المسلمين من أفراده وغير المسلمين .

فقد حوت تلك التعاليم من قواعد النظافة والغسل ما يؤدي إلى جودة الصحة ، ومن الدعوة القوية إلى دوام التأمل والتفكير ، ومن الحث على الإقبال على طلب العلم باستمرار ما يكفل نماء الثروة وتقدم الصناعة وإتقان العمل . وهـذا هو الذي يؤدي إلى توفر الحاجيـات الضرورية للحياة ، بل إلى نشوء الكماليات التي تزيد في متعة الأفراد ، كما حوى الاسلام من أسس الحرية والمساواة بين جميع الأفراد بغير أدنى تفريق ، ومن أسس الإيمان بالله عز جلاله ، والتسليم له والاعتماد عليه وحده ، والرضا بالرزق الذي يبعثه ما هو حرى بأن يؤدي إلى أعظم قسط من الاطمئنان النفسي عند كل إنسان .

ثم التفت الإسلام إلى ناحية المعاملة وقواعدها وآدابها ونظمها خير تنظيم ، وخدمها أجل خدمة ، فبيّن للفرد ما يجب أن يتحلى به من الأخلاق المتينة التي عليها يبنى صرح الدولة وعليها تؤسس خير العلاقات بين أفرادها ، بل خير الروابط التي تخلق من كل واحد من هؤلاء الأفراد أخاً وفياً لغيره ، حريصاً على خيره وسعادته ، يحب له ما يحب لنفسه . وغرس في نفوس المسلمين تلك الصفات التي تأبى على الواحد منهم أن يخون الآخر في ماله أو عرضه

وقد أقبل المسلمون في صدر الاسلام على هذه الدعوة المحمدية إقبالا عظيما وآمنوا بمحمد وما أنزل عليه إيماناً قويا ، وتحمسوا لتعاليم الاسلام ، وأخلصوا لمبادئه وتفذوها تنفيذاً دقيقا بوازع نفساني أي بغير حاجة إلى رقابة خارجيـة ، فكانوا مضرب الأمثال في الصراحة والشجاعة والأمانة والوفاء والرحمة والإيثار والتآخي والتفاني في العقيدة . فكانت غاية الغايات عند كل منهم ، أن يحيى في سبيل الله وأن يموت مستشهدا في سبيل الله ، ومن ثم لم يحرصوا على الحياة ، ولم يهابوا الموت .

ولما توافرت لهم تلك الصفات سعدوا وعزّوا وأقاموا دولة يسودها العدل . وتتوافر فيها الحرية ، دولة هي خير مثال يحتذى .

* * *

دار الزمان دورته وعدت على الإسلام العوادي ، ثم جاءت المدنية الغربيـة المادية التي تقوم على أسس أهمها أولا استغلال العلم المادي والصناعة التي تقدمت تقدماً مدهشاً يبهر العقول ، استغلال ذلك لراحة الإنسان ومتعته الجسدية . لكن هذه المدنية الغربية للأسف لم تعبأ بالناحية النفسية ولا بالقواعد الخلقية ولا بالروابط الإنسانيـة ،

ولذلك كان أساسها الثاني استغلال فريق من الآدميين في سبيل راحة ومتعة فريق آخر من الآدميين . وكنا نحن المسلمين مع شديد الأسى والأسف من ذلك الفريق المسكين المسخر للفريق المحظوظ الذي رسم الخطط المحكمة لاستعباد إخوانه في الإنسانية واستنزاف دمهم في سبيل شهوته المادية الجامحة .

ولما نشط المسلمون أخيرا واستيقظ فيهم الوعي الاجتماعي ، وأدركوا أن حالهم تستدعي شيئا من النشاط والجد في سبيل نهوضهم من جديد وتبوئهم المكانة اللائقة بمجدهم القديم ، بهرتهم هذه المدنية الغربية الحديثة وأقبلوا عليها وافتتنوا بها وأخذ عقلاؤهم ومفكروهم يدعون قومهم للأخذ بأسبابها ومجاراة الأمم الغربية فيها . وبدا لهم أنها المثل الأعلى للحياة الراقية الصحيحة على الرغم مما فيها من شرور أهمها ما أشرنا إليه من أنها قائمة على اعتبارات مادية صرفة لا يقوم فيها وزن كبير للاعتبارات الإنسانية أو العاطفية ولا للاعتبارات الأخلاقية المحضة .

وقد أدى هذا التفكير بالعالم الشرقي ، والمسلمون جزء منه ، إلى حالة من الانحلال الخلق لا يمكن أن تقوم معه قائمة لدولة ، ولا يتوافر لمجتمع يسوده هذا الانحلال عزة أو سعادة . ولنستعرض بعض النواحي التي ذكرنا في مقدمة هذا المقال أنها من مقومات سعادة الفرد والمجتمع ، لنرى نصيب أغلبية المسلمين منها في الوقت الحاضر .

أما من جهة الصحة فالمدنية الحديثة لا شك قد وضعت أسساً للعناية الطبية واكتشفت علاجات لكثير من الأمراض لم يكن يعرفها الناس في صدر الإسلام ؛ لكن هذه المدنية نفسها قد جلبت معها أدواء جديدة لم تكن تعرف من قبل ، ولذلك لا نشك في أن الذين كانوا يعيشون في الأزمنة الماضية عيشة بسيطة نظيفة في الهواء الطلق وتحت أشعة الشمس كانوا أصح أبداناً من خلفائهم الذين يعيشون الآن في كنف التقدم الطبي والعناية الصحية في تلك الأحياء المكتظة بالسكان .

كذلك ربما كان الأقدمون يعيشون عيشة فيها بساطة وشيء من التقشف ؛ ومن ثم كانت مطالب الحياة عندهم قليلة ، وسهلة التحقيق نظراً لقناعة الناس وتسامحهم وتعاونهم ، أما الآن فقد أصبحت الحياة المدنية لا تطيب للناس إلا إذا توافر فيها كثير من الكماليات (وبعضها يضرهم من الناحية الصحية) وهذه الكماليات يصعب على الأغلبية العظمى من الناس الحصول عليها .

فها أنت ترى أنه حتى من الناحية المادية الصرفة كانت حياة الناس في الصدر الأول من الإسلام أصح وأيسر وأجلب للسعادة من حياتهم في عصر المدنية الغربية المادية الحديثة .

• • •

أما من الناحية الخلقية والروحية التي هي أساس الاطمئنان النفسي للفرد وسعادته وكذلك سعادة المجتمع بأكمله ، فإن الأمر يدعو في الوقت الحاضر إلى الإشفاق والأسف ، إن لم يكن إلى اليأس والحزن .

فأما الإيمان بالله فقد أقفرت منه النفوس ، وأصبح الناس حيارى قلقين جزعين ، تنتابهم الأمراض العصبية وتقض مضاجعهم الحوادث اليومية ، مما يجعل السعادة الفردية أبعد ما يكون عن متناولهم .

ثم أين نجد الوفاء في وقتنا الحاضر ؟ فالصديق يلقى صديقه في بشر مزيف وترحيب مصطنع ، فإذا سنحت له الفرصة طعنه من الخلف ولم يتورع عن إيذائه في سمعته وفي مورد رزقه بل وفي عرضه .

ثم أين الرحمة والبر اللذان يحملان المرء على أن يشغل باله بشؤون أخيه في الإنسانية فيعمل جاهدا على أنه يخفف مايصيبه من ويلات بسبب الفقر أوالمرض أو الجهالة ، وأين الذين يهبون أنفسهم وجهودهم لتعليم الجاهل أولمعالجة المريض أويبذلون طائعين مختارين من أموالهم لتخفيف مصاعب الحياة عن المعوزين والمحتاجين راضية نفوسهم مطمئنة قلوبهم منشرحة صدورهم إلى ما يعملونه من بر صادر عما يستشعرونه من رحمة نحو إخوانهم .

وأخيراً أين الصراحة والشجاعة التي تجعل المرء يقاوم الشر ويدفع المنكر غير مبال بما قد يصيبه في سبيل ذلك من عنت أو ما قد يستهدف له في سبيل ذلك من سخط الكبار أو ذوي النفوذ، فيمحض النصح خالصاً لوجه الله بغير أدنى تهيب كما كانوا يفعلون من قبل؟

اقرأ ما رواه سعادة عزام باشا في كتابه القيم «الرسالة الخالدة» الذي ظهر حديثاً من أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي قدم المدينة للزيارة، وبعث إلى أبي حازم، فلما دخل عليه قال: تكلم يا أبا حازم. قال: نعم أتكلم يا أمير المؤمنين: لا تأخذ الأشياء إلا من حلها، ولا تضعها إلا في أهلها. قال: ومن يقوى على ذلك؟ قال: من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك. قال: عظني يا أبا حازم. قال: اعلم أن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك. قال: مالك لا تجيء إلينا؟ قال: وما أصنع بالمجيء إليك يا أمير المؤمنين؟ إن أدنيتني فتنتني وإن أقصيتني أخزيتني، وليس عندك ما أرجوك له، ولا عندي ما أخافك عليه. قال: فارفع إلينا حاجتك. قال: قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها، فما أعطاني قبلت، وما منعني رضيت.

أرأيت ما تم عنه تلك الرواية من خصال ارتفع بها العرب في صدر الإسلام؟ شجاعة وصراحة وقناعة وإيمان بالله وحده وتسليم له ورضاء بقضائه وقدره.

ثم أين تلك الأمانة في المعاملة وفي التجارة، والخوف من الله، والإخلاص في النصح للمسلمين؟ إن الناس الآن لا يتورعون عن الغش بل السرقة. اقرأ رواية أخرى رواها سعادة عزام باشا في نفس كتابه الجديد المشار إليه آنفاً: كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان، ضرب قيمة كل حلة منها أربعمائة، وضرب كل حلة منها قيمتها مائتان، فمشى إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة، فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها واشتراها، فمشى بها، وهي على يديه، فاستقبله يونس فعرف حلته. فقال للأعرابي: بكم اشتريت؟ فقال: بأربعمائة. فقال: لا تساوي أكثر من مائتين، فارجع حتى تردها. فقال: هذه تساوي في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها. فقال يونس: انصرف فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها، ثم رده إلى الدكان، ورد عليه مائتي درهم، وخاصم ابن أخيه في ذلك، وقال له: أما استحييت! أما اتقيت الله؟! تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين؟ فقال والله ما أخذها إلا وهو راض بها. قال: فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك؟

فأين لنا مثل هذه الأمانة في المعاملة الآن؟

وبعد فهل إذا وضعنا ما ربحناه من تلك المدنية المادية الغربية الحديثة في كفة ووضعنا ما خسرناه بسببها (أو بأسباب أخرى ترجع إلينا نحن) في كفة أخرى هل ترجح كفة المكسب أو كفة الخسارة؟ ذلك ما أدعه لعقل القارئ، وحسه وضميره. وليعلم المسلمون أن الله لن يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

أحمد عبد السلام الكرداني

إعلان – وزارة المعارف العمومية

الإدارة العامة للصحة العمومية – قسم المستخدمين

تعلن الإدارة العامة للصحة المدرسية عن حاجتها إلى ثلاث طبيبات حاصلات على بكالوريوس الطب والجراحة من جامعة فؤاد الأول أو ما يعادلها من الخارج للعمل بالقاهرة. وسيعين على الدرجة السادسة بميزانيتها. وتقدم الطلبات في موعد لا يتجاوز يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٦ باسم حضرة صاحب العزة مدير عام الصحة المدرسية ١ شارع عبد العزيز بالقاهرة. والموظفات يتقدمن بطلباتهن عن طريق مصالحهن. ولن يلتفت للطلبات السابقة.

٦٣٤٥

على هامش تاريخنا :

لا نخدع أنفسنا !

ما الذي يجعلنا نعبأ بقراءة تاريخنا ؟ ولعلي أجرؤ فأسأل : هل نعبأ حقاً بقراءة تاريخنا ؟ .

لئن كان ذلك التاريخ لا يزيد على ذكر سلسلة من الحوادث ووصف طائفة من الناس عاشوا على هذه الأرض حيناً من الدهر قبلنا لما كان في دراسته سوى تقليد نسير عليه بحكم العادة ، لأننا تعودنا أن نجد من قبلنا من المثقفين يحرصون على قراءته والتندر بحوادثه واتخاذها مداراً لأحاديثهم في مجالس الأسمار .

ولكن التاريخ سيرة الإنسان . سيرة الإنسان الذي عاش قبلنا ، وجرب الحياة كما نجربها ، ولكنه جربها في ظروف تختلف كثيراً أو قليلا من الظروف التي تحيط بنا في عصرنا .

فنحن إذا قرأنا سيرة الأجيال الماضية إنما نطلع على صفحات من الحياة الإنسانية ، وفيها كنوز لا حصر لها من المعارف البشرية ، وفيها صور لا نهاية لتعددها وتنوعها نستطيع أن نرى أنفسنا في ملامحها . فكل شخص من أشخاص التاريخ كان حياً ، يتنفس ويحس ويحب ويكره ، ويندفع في الحياة مع طبائعه . وكل منهم جرب ملاهي الحياة ومآسيها ، وأتم اللذة المقدورة له في هذه الدنيا وعرف أخيراً حقيقة معنى الوجود والفناء ، وأدرك قيم الأشياء ، التي لا تزال مغيبة عنا في عماية اضطراب الحياة الصاخب العنيف .

فإذا نحن لم نقرأ التاريخ ولم نعبأ به كنا مثل الأطفال الذين يدرجون اليوم من المهد ، وقد حيل بينهم وبين العالم الذي يحيط بهم بسياج منيع ، وكان لا بد لهم أن يجربوا بأنفسهم كل تجارب الإنسانية من جديد .

ولكن الفائدة التي يمكن أن نخرج بها من قراءة التاريخ تكون تافهة لا تستحق شيئاً من الجهد الذي يبذل في سبيل تحصيلها إذا كنا نقرؤه كما نجده ، ونتفكه بسيره كما كتبها الأوائل بغير أن نصل إلى جوهره وروحه وبغير أن نصل إلى حقائق النفوس البشرية التي لعبت فيه أدوارها ، أو بقول آخر — إذا لم نستطع أن نرى ملامح أنفسنا في صور هؤلاء الأشخاص .

ولهذا كانت سير التاريخ جديرة بأن يقرأها كل جيل بنفسه ، ويدركها بفهمه ، وينظر إلى حوادثها وأشخاصها بنظرته الخاصة به . فإذا اقتصر جيل من الناس على إعادة تلك السير كما قرأها جيل سابق كان ذلك إسرافاً لا غاية فيه ، وكان أقرب إلى التعالم والتظاهر السخيف .

ولعلنا نكون أكثر وضوحاً إذا ضربنا لذلك مثلا . فقد اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عن الخلافة الإسلامية الأولى حديثاً يقرب إلى التقديس ، حتى كادوا يجمعون على تسمية الخلفاء الأربعة الأوائل بالخلفاء الراشدين . ولسنا نقصد أن نقول إن هؤلاء المؤرخين كانوا مخطئين في هذا التقديس أو في هذه التسمية ، فإننا نرى أن الفضائل التي كان أشخاص الخلفاء الأوائل يتحلون بها جديرة بأن تخلع عليهم كل إجلال الأجيال المتعاقبة . ولكن هذه النظرة أدت إلى أن كل الأجيال اللاحقة تكتفي بأن تنقل ما قاله الأولون بغير أن يحاولوا التغلغل إلى الحقائق التي تنطوي تحت الحوادث والسير ، وصار تاريخ تلك الفترة خالياً من كل دلالة في حياتنا الحاضرة إلا على سبيل التبرك .

ولكن هذه الفترة من التاريخ كانت هي النواة الحية لكل تاريخ الدول الإسلامية ، ففيها بذور كل ما في الدول الإسلامية من قوة ومن ضعف ، وإذا لم يصل المؤرخ الحديث إلى الكشف من روحها وجلاء الحقائق الكامنة تحت مظاهر حياتها كانت فترة لا أثر لها في حياتنا الحاضرة ،

وما جـدوى قراءة تاريخ مصر لا يبعث فينا معنى ولا يلقى ضوءاً على حقائق عصرنا ؟ .

بدأ الخليفـة الأول أبو بكر الصديق — أو لقد بدأ عمر بن الخطاب وضع سنة الانتخاب للخلافة . ولـكن ذلك الانتخاب لم يكن مثـل انتخاب مدن اليونان ، ولا مثل انتخاب دولة الروم ، ولا يشبه فى شىء ما عرفه العصر الحديث من انتخاب الرؤساء . فقد كان أشبه شىء بالانقلاب الخاطف الذى تعمد إليه بعض البلاد عند تعرضها للأخطار . فما هى إلا مناقشة سريعة كان أكثر الكلام فيها لجانب واحد من الحاضرين الذين شهدوا يوم السقيفة ، ثم بسط عمر يده إلى أبى بكر فبايعه وتبعه الحاضرون فبايعوا وكثير منهم يضمر فى نفسه شعوراً شديداً بالخيبة .

كان الأنصار بغير شك غير راضين كل الرضا ، وكان بعض المهاجرين كذلك غير راضين كل الرضا ، ولـكن حَـرج موقف الإسلام عند ذلك ، وشعور كل الأنصار والمهاجرين بتفاهة الخلاف على الرياسة إذا قيست بالواجب الأعظم الذى يواجههم وهو حماية الإسلام الناشىء من الزعزعة ، كان ذلك هو السبب الذى حمل الجميع على قبول ذلك الانتخاب مع ما فيه من نقص ، ليفرغوا أولاً للنظر فى مصيرهم بعد مصابهم العظيم فى موت النبى عليه الصلاة والسلام .

فاحترام أجيال المسلمين لشخص أبى بكر وأشخاص سائر صحابة النبى عليه الصلاة والسلام جعلهم كلهم يرددون عبارات التقديس لذلك العصر ، إلى حد أنهم يعدونه المثل الأعلى للحكومة الجمهورية القائمة على الاختيار الحر الصريح . ولـكن الحوادث نفسها تدل على أن انتخـاب أبى بكر لم يكن يمثل رأى العرب ، بل إنه لم يكن ممثلا لرأى كل الأنصار والمهاجرين أنفسهم . بل إن أبا بكر نفسه كان يحس فى قرارة نفسه بأن الدولة تتعرض لزعزعة الخطرة إذا أبيح للعرب أن يتنازعوا على انتخاب الخليفة كما اعتادت الأحزاب فى

الأمم أن تتنازع عند انتخاب رؤسائها . ولهذا عهد قبل موته بالخلافة إلى عمر بن الخطاب بغير أخذ رأى أحد من المهاجرين أو الأنصار ، وبغير اتخاذ أى مظهر من مظاهر إشراك الأمة العربية فى مسئولية الاختيار .

وقد كان عمر بن الخطاب من خيرة الصحابة بغير جدال ، ولسنا نتعرض لشخصه أو جدارته بالخلافة . ولـكننا لا نملك إلا أن نقرر الحقيقة ، وهى أن اختياره جرى على الطريقة التى كان بعض أباطرة الروم يعمدون إليها بأن يولوا عهدهم من يثقون هم فيـه ، وقد كانت تلك الطريقة دائماً معرضة للأخطار ، وكثيراً ما أدت إلى أسوأ الآثار ، لأنها لا تتعدى أن تكون فرض إرادة الخليفة القائم على الأمة كلها .

ولم يكن الخليفة عمر بن الخطاب بأحب الرجال إلى الأنصار والمهاجرين ، وكذلك لم يكن بلا شـك أحب الناس إلى القبائل الأخرى البعيـدة فى وديان الجزيرة وصحاريهـا . بل لقد كان عمر بن الخطاب نفسه يعرف أنه غير قريب إلى قلوب النـاس ، لأنه بعد أن تولى الخلافة اتجه مخلصاً إلى الله وأخـذ يدعوه فى حرارة أن يحببه إلى الناس ويحبب الناس إليه . فتولية عمر بن الخطاب كانت تعييناً وفرضاً لا اختيار فيه . ولا شك أن مجال القول فسيح فى الدفاع عن هذا المسلك الذى سلكه الخليفة أبو بكر ، فالظروف كلها كانت تجعل هذا الاختيار ضرورياً موفقاً . ولـكن الأمر الذى نريد توجيه النظر إليه هو أن خلافة عمر كانت أبعد الأشياء من أن تكون نتيجة اختيار أو انتخاب .

فالخلافة الإسلاميـة فى مدة أبى بكر وعمر لم تـكن وليدة شورى صحيحة أو انتخاب حر ، بل كانت فرضاً أو ما يشبه الفرض والتعيين .

ومن السهل أن نتتبع سيرة اختيار الخليفتين الثالث والرابع ، لنرى أن تقاليد الخلافة الأولى كانت من أول الأمر قائمة على الخضوع للظروف ، ولم تـكن نتيجة السير

أصل كلمتي مسلم وحنيف

١ – أطلق اسم « الإسلام » على دين خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أطلق على أتباعه اسم « المسلمين » ، وجاءت نصوص القرآن الكريم في ذلك صريحة في مثل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا » وقوله : « فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . ووصف الله تعالى الإسلام في غير موضع بأنه الدين « الحنيف » ، كما وصف المسلمين بالحنفاء ، بل استعمل « الحنفاء » مرادفة لكلمة المسلمين في مثل قوله : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » ، وقرن الدين الحنيف بملة ابراهيم عليه السلام في أكثر المواضع ، ووصف إبراهيم بأنه مسلم وحنيف معا .

والأصل في معنى الإسلام الاستسلام ، فأصبح معناها الديني الانقياد لله في الأمر والنهي وحصول السلام والأمن والطمأنينة في القلب باعتناق التوحيد . أما « الحنيف » فمن كلمات الأضداد : أصل معناها الاستقامة والاعوجاج في الرِّجْل ، ثم استعملت اصطلاحا للدلالة على الرَّجُل الصحيح الميل إلى الإسلام ، أو على من حج ، أو كان على دين إبراهيم . أو اعتزل عبادة الأوثان ، كما يقول صاحب القاموس . فان كان بين كلمتي مسلم وحنيف جامع ، فهو « التوحيد » الذي هو لب العقيدة الإسلامية وجوهر دين إبراهيم .

ولم يستعمل القرآن كلمة « مسلم » وحدها ، بل استعمل صيغ الفعل الماضي والمضارع والأمر منها . فإن قلنا باشتقاقها كان أصلها الفعل « أسلم » ، أو ثلاثيه « سلم » . أما كلمة « حنيف » فلم يرد في القرآن فعل لها ، ولا كلمة أخرى

على مبدأ معترف به من حق الأمة في اختيار خليفتها .

ومن ثم يظهر أن اتجاه الأمم الإسلامية في حكوماتها المتعاقبة نحو الخضوع للظروف العملية ، وانعدام مبدأ وجود مبدأ سلطان الأمة وحقها في اختيار حكامها إنما هو مبدأ قديم تمتد أصوله إلى أول أيام الخلافة الإسلامية .

فإذا نحن أردنا اليوم في حياتنا الحاضرة أن ننظر إلى شئون الحكم ونطمع في أن نقيم لأنفسنا نظاماً جديداً يكفل تحقيق سيادة الأمة – إذا أردنا أن نجاري الأمم الحديثة في نظمها الديمقراطية وأن نضع الأسس المتينة التي نستطيع في المستقبل أن نبني عليها حرياتنا ، فعلينا ألا نغالط أنفسنا فنزعم أننا إنما نريد إحياء ماضينا البعيد في الخلافة الإسلامية الأولى .

بل إنه يتعين علينا أن نعترف بأن أجيال ذلك الماضي قد اتجهت كلها نحو الخضوع للظروف العملية ولم تشجع يوماً مبدأ سلطان الأمة وحقها في اختيار حكوماتها . فمن الضروري أن نعمد إلى مقاومة آثار الماضي لا تقويتها ، والبدء من جديد في وضع أسس الديمقراطية ، وإشباع النفوس بها حتى تستمد الأمة في المستقبل إلى التمسك بحقها في فرض سلطانها . وآثار الماضي تملأ حياتنا ، بل إن حياتنا كلها ما هي إلا تطور من ذلك الماضي ، سواء كان بعيداً أو قريبا ؛ فإذا أردنا أن ندرك حقائق حياتنا الحاضرة كان علينا أن ندرك حقائق الحياة الماضية التي أثرت فينا ولا تزال حية في كل نظامنا وآرائنا ونظراتنا وتقاليدنا . ولا يجدينا أن نغرر بأنفسنا ، فنؤول ذلك الماضي تأويلاً يرضي كبرياءنا ، فإن ذلك يجعل نظرتنا إلى الحاضر غامضة أو مضللة .

والآراء تتغير من جيل إلى جيل ، فلا مفر لكل عصر من أن ينظر إلى الماضي بعقليته حتى يفهم حاضره بتلك العقلية نفسها .

ومن أوجب الواجبات لنا أن نعيد النظر من جديد إلى تاريخنا فنحلله ونمحص صوره ، ونرى مناحي اتجاهاته ، فذلك وحده هو الذي يهدينا إلى فهم حاضرنا على حقيقته .

محمد فريد أبو حديد

مشتقة من أصلها ، ولكن ورد ذلك في كلام العرب في قول عامر بن الحارث النميري .

وأدركن أعجازاً من الليل بعد ما
أقام الصلاة العابد المتحنف

فالكلمتان مسلم وحنيف — على ما يبدو لنا — مشتقتان لا جامدتان ، وشاهدنا اللغة والقرآن . ثم هما فوق ذلك تشيران إلى معنى مستقر ثابت في طبيعة الإسلام وما عاثله من الأديان التي تقول بالتوحيد كدين إبراهيم .

٢ — لم يقتنع الأستاذ مارغوليوث المستشرق الإنجليزي المعروف بذلك ، بل تصدى للبحث في أصل هاتين الكلمتين من الناحية التاريخية في مقال نشره منذ أربعين سنة بمجلة الجمعية الأسيوية الملكية ، فأخطأه التوفيق كما أخطأه في كثير مما كتبه من الإسلام والمسلمين ، وأثار مقاله هذا حفيظة العلماء ، حتى انبرى للرد عليه مستشرق آخر من بني جلدته هو العلامة «تشارلز لايل» فهدم نظريته من أساسها في مقال نشره في نفس المجلة .

وسأذكر هنا خلاصة لفكرة مارغوليوث وللاحظاتي وملاحظات « لايل » عليها إحقاقاً للحق وإنصافاً للإسلام والتاريخ .

يرى مارغوليوث أن كلمتي « مسلم وحنيف » وجدتا قبل الإسلام ، واستعملتا استعمالا دينيا بمعنى «موحِّد» لأن نوعا من التوحيد الديني ظهر قبل البعثة المحمدية بنحو عشرين سنة ، ودعا إليه مسيلمة (المعروف بالكذاب) . فسمي أتباع مسيلمة هذا بالمسلمين نسبة إلى اسمه ، كما عرفوا بالحنفاء نسبة إلى قبيلته حنيفة . فلما بعث محمد عليه السلام استعمل الكلمتين ، ولم يكن على علم — على الأقل في أول الأمر — بأصلهما ، ثم بدا له بعد ذلك أن يشير إلى أنهما استعملتا منذ عهد إبراهيم . هذه هي الدعوى التي ادعاها مارغوليوث وبذل في تأييدها كل ما أوتي من صبر وحيلة في البحث ، وكل ما أوتي من عبقرية أيضا . ولكنها دعوى فاشلة كما سنرى .

٣ — تقتضي هذه النظرية على حد قول « لايل » أن تعاليم « مسيلمة » قد ظهرت وانتشرت قبل البعثة المحمدية انتشارا ذائعا ، فتجاوزت موطنها الأصلي وهو « اليمامة » إلى الحجاز وتهامة ، وتركت في هذه البلاد لفظتي مسلم وحنيف مع أنها لم تترك عن أصلهما أي أثر يعلق بذاكرة أهل هذه البلاد .

ثم ظهر قبيل الإسلام في بلاد العرب طائفة من الناس يعرفون بالحنفاء ، تركوا عبادة الأوثان ودانوا بعقيدة التوحيد ، وترهبن بعضهم واصطنع الزهد ومجاهدة النفس ولبس الصوف ، وعفّ عن بعض الطعام كالدم والميتة ، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل القرشي ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث القرشي ، وزيد بن عمرو بن نفيل القرشي . وبعض هؤلاء يمت بصلة النسب إلى الرسول . يذكر هؤلاء الأربعة ابن اسحاق ، ويذكر ابن قتيبة في كتاب «المعارف» آخرين غيرهم مثل أمية بن أبي الصلت ، وقس بن ساعدة ، وخالد بن سنان العبسي .

وربما كان الفضل في ظهور هؤلاء الحنفاء ، وإيقاظ نزعة التوحيد في قلوبهم والعزوف عن عبادة الأوثان راجعاً إلى انتشار الرهبنة المسيحية بالجزيرة العربية ، حيث كان الرهبان موضع إجلال عرب الجاهلية واحترامهم كما يسجل ذلك شعراؤهم . والمعروف أن بعض هؤلاء الحنفاء اعتنق النصرانية قبل موته مثل ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث ، وأن آخرين ثبتوا على دين الحنفية ولم يرضوا به بديلا مثل أمية بن أبي الصلت الذي أثر عنه قوله :

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور

فهؤلاء الحنفاء الذين كان بعضهم بالحجاز وبعضهم بالطائف وغرب الجزيرة لم تثبت لهم أية صلة تاريخية بمسيلمة أو ببني حنيفة قبيلته ، ولا بدين مسيلمة . بل إن المؤرخين لم يذكروا مسيلمة على أنه واحد منهم . وقد كانوا — كما قلنا — بعيدين عن اليمامة حيث ظهرت الكلمتان ، كما يقول مارغوليوث . ومن المعروف أن كلمة « حنيف » لم تستعمل

فى غير الحجاز وما جاوره قبل الإسلام إلا فى حالة واحدة وردت فى قصة موت بسطام بن قيس أحد رؤساء شيبان (الكامل للمبرد طبعة رايت ص ١٣٠ — ٣١) . فقد كان بسطام هذا نصرانياً أغار هو وأخوه على بنى ضبَّة . وبينا كان يسوق الإبل التى غنمها ، تبعه عاصم بن خليفة الضبى وطعنه برمحه فوقع من فوق فرسه . فلما أقبل أخوه لنجدته صاح به بسطام قائلا : «أنا حنيف إن رجعت» ، يهدده بأنه يرتد إلى الوثنية لو أنه رجع لنجدته . فإذا فسرنا الكلمة بهذا المعنى كانت مرادفة لكلمة «حنفا» الآرامية . وروى القصة أيضاً فى نقائض جرير والفرزدق ، وفى العقد الفريد . وسواء أكان المراد بكلمة حنيف فى القصة «وثنيا» كما يقول «نولدكه» ، أو «مسلماً» كما هو الظاهر من عبارة المبرد ، فإن من غير المحتمل أن بكرياً كبسطام وجاراً لبنى حنيفة يستعمل الكلمة بمعنى مسيلمى — أى تابع لمسيلمة فى عقيدته .

٤ — ويرى «لايل» أنه لا مبرر لإنكار وجود الحنفاء وجوداً تاريخياً ، ولا للقول بأننا لا نعلم عقيدتهم على حقيقتها ؛ فقد بقى لنا من شعر أمية بن أبى الصلت ومن تاريخه ما لا يدع مجالا للشك فى أمره . وليس من المعقول أن يخترع المسلمون أقوالاً تتفق مع روح الإسلام وتعاليمه ، ثم ينسبوها إلى رجل كان يطمع فى النبوة وينافس نبيهم . أضف إلى ذلك أنه لم يرد فى شعر الأعشى ذكر لمسيلمة ، مع أن الأعشى من قيس بن ثعلبة ، وهى من بكر ، وبلده «المنفوحة» باليمامة ، وليست بعيدة من موطن مسيلمة . والأعشى كما نعلم من أكبر أذكياء زمانه وممن لهم عناية خاصة بمسائل الأديان ، يدل على ذلك القصيدة التى كتبها فى النبى (صلى الله عليه وسلم) بعد غزوة الحديبية ، وذكر فيها استعداده لاعتناق الإسلام . كما أنه من الصعب الاعتقاد بأن مسيلمة كان الكاشف عن دين إبراهيم عليه السلام ، أو الناشر لحركة دينية جديدة ظهرت بصورة دين الحنفاء ، لأن المسيحية كانت ببلاد العرب قبل مسيلمة بنحو قرنين من الزمان .

فنى كل ما تقدم دليل كاف فى هدم النظرية القائلة بأن مسيلمة قبل ادعائه النبوة — وكان ذلك فى السنة الأخيرة من حياة الرسول — كانت رسخت تعاليمه وذاعت فى بلاد اليمامة وخارجها ، وأنه من هذا الطريق انتشرت كلمتا «مسلم» و «حنيف» ، وأصبحتا علمين على أتباع هذا الرجل ، ثم على أتباع نبى الإسلام فيما بعد .

وكل ما يحدثنا به التاريخ الصحيح من مسيلمة هو أنه كان أحد نفر ادعوا النبوة قبل وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) بسنة وبعد وفاته ، منهم الأسود العنسى باليمن ، ومسيلمة باليمامة ، وطليحة وسجاح ؛ وأن الأسود ومسيلمة كانا من المشعوذين الذين كتبوا السجع على طريقة الكهان .

٥ — والنتيجة التى وصل إليها «لايل» فى كلمة «حنيف» أن أصلها غير معروف شأن كثير من الألفاظ الواردة فى القرآن وفى الشعر القديم . نعم يعرف معناها الدينى على وجه التقريب ، ولكنا لا نعرف أصلها على وجه اليقين . وهو أميل إلى الأخذ برأى «شبرنجر» الذى يرى أنها تتصل بكلمة «حانيف» العبرية — ومعناها الزنديق . فهى إحدى الحالات الكثيرة التى يتفق فيها لفظان عربى وعبرى فى الأصل ويختلفان تمام الاختلاف فى المعنى .

أما كلمة «مسلم» فلها شأن آخر كما ذكرنا ، لأن أصلها موجود ، ويحتفظ بمعناه ، ولا تجيز قواعد اللغة إطلاقاً اشتقاقها من اسم علم كمسيلمة . نعم قد تستعمل «أسلم» بمعنى أطلق كما فى قول زهير :

فشج بها الأماعز فهى تهوى
هوىّ الدلو أسلمها الرشاء

أو بمعنى إسلام فلان فلاناً كما فى قول زهير أيضاً :

كرامٌ فلا ذو الوتر يدرك وتره
لديهم ولا الجانى عليهم بمسلمِ

ابتهالات للرسول

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وعمل لا يُرفع ، ودعاء لا يسمع .

اللهم إني أسألك من الخير كله ما علمتُ منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر ما علمت منه وما لم أعلم .

اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك .

اللهم فأعطنا منها ما يرضيك عنا .

اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساءوا استغفروا .

اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق عليه . ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به .

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوّل عافيتك وفجاءة نقمتك .

أما أسلم ومشتقاتها الواردة في القرآن فمحتفظة بمعناها الديني ، بدليل اقترانها دائماً بكلمة : لله أو إلى الله ، وهو معنى جديد أعطاه الإسلام للكلمة ، لأنه لم يكن لها هذا المعنى قبله : أعني الخضوع لله والانقياد لأوامره والسلام مع المسلمين . وقد كان لهذه الفكرة الجديدة أثر بالغ ليس في تطور الإسلام بعد موت النبي فحسب ، بل وفي أثناء دعوته أيضاً ، فإن في هذا المعنى سر نجاح الإسلام وانتصاره .

يقول « لايل » في ختام رده على مارغوليوث : « إن نسبة هذا المعنى التالي (لكلمة مسلم) الذي يمكن معرفته بالرجوع إلى المصادر الدينية العادية ، إلى خطأ في تسمية مذهب أسسته شخصية غامضة كشخصية مسيلمة في الجانب الآخر من الجزيرة العربية ، لمثال شاذ من أمثلة التخمين العلمي البالغ فيه » .

أبو العلا عفيفي

اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء .

اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري وتلم بها شعثي وتزكي بها عملي وتلهمني بها رشدي وترد بها ألفتي وتعصمني بها من كل سوء .

اللهم أعطني إيماناً ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة .

اللهم اجعلني شكوراً واجعلني صبوراً .

اللهم أصلح ذات بيننا وألف بين قلوبنا واهدنا سبل السلام ونجنا من الظلمات إلى النور — اللهم بارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار .

اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك وخليت وجهي إليك . لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك .

اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما يهوّن مصيبات الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا ما أحييتنا .

اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك .

اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة ، وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم .

اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها ، إن أحييتها فاحفظها ، وإن أمتّها فاغفر لها .

أمين

شاعر الزهد العربى

فى القرن الثانى للهجرة

رحم الله «أبا العتاهية» لقد كان أمة وحده ، فى عصر لم يعرف الفن الشعرى إلا مادحاً لسلطان ، أو طالباً لدنيا ، أو متغزلا فى محبوب ، أو داعياً إلى لذة ، أو صادراً عن وحى شراب . فأما أبو العتاهية فقد شرب من كأس عصره جرعات ؛ ثم ما لبث أن صحا من سكرته ، وأقصر باطله ، وهجر عالم الفتنة والغرور إلى عالم العظة والاعتبار ، ووهب الشطر الأكبر من حياته وفنه للتذكير بالموت ، والتنفير من مُتع الحياة وملذاتها ، والدعوة إلى التقى والزهد .

وفى حياة هذا الشاعر الفلسفى وفنه نواح تدعو لطرافتها إلى ألوان من البحث والمناقشة : فقد طالما اهتزت لشعره فى الزهد قلوب وذرفت دموع ، ولكن كثيراً من أهل عصره كانوا يرون البون شاسعاً بين قوله وفعله ، فاتهموه بالزندقة والرياء ، وبكنز الذهب والفضة ، وعدم الإنفاق فى سبيل الله . وهذا الشاعر الذى نشأ — والأدب العربى الكلاسيكى فى أوجه — قد آثر كما آثر الشاعر الإنجليزى « وردزورث » بعده بقرون أن يصطنع لشعره لغة الحياة اليومية ، مؤثراً المعانى القريبة الواضحة ، والألفاظ المألوفة السهلة والأوزان الخفيفة التى ربما اخترعها اختراعاً ؛ ثم استطاع بهذه السهولة الشعبية أن يجد له مكاناً بين فحول الكلام الرصين من أمثال بشار ومسلم بن الوليد وأبى نواس . بل استطاع أن يزحم أحياناً وأن ينتزع منهم ألوية السبق فى ميادين البيان .

ولعل مما ينفرد به أبو العتاهية بين رجال الفن الشعرى فى مختلف العصور والآداب أنه حُبس وضرب وعذب — لا من أجل شعر قاله — ولكن من أجل إبائه أن يقول شعراً غزلا أو مرحاً . وكانت هذه الظاهرة مثار غيرة وحسد من كثير من معاصريه . وقد وصل «أبو العتاهية» — رغم ضعة نشأته — إلى مكان فى دار الخلافة العباسية تنقطع دونه أعناق الكثيرين من فحول الشعر : فقرّبه الخلفاء والأمراء ، وأعلوا محله ، وحرصوا على صحبته ، وخلعوا عليه من عطاياهم خلعاً وافرة ، ووظفوا له وظائف راتبة ، وطربوا القليل من مدائحه إلى جوار الكثير من زهدياته التى كان يقصر بها آجال همومهم وملذاتهم . وكانت لأبى العتاهية مثل هذه المكانة عند الجمهور . فكثيراً ما اجتمعوا عليه فى المواسم وعلى أبواب الخلفاء ، أو تحلقوا حوله فى مسجد المدينة ببغداد ليستمعوا لعظاته الشعرية ، يرسلها ودموعه تسيل على خديه ، وسامعوه ينشجون ويذرفون دموع التوبة والندم .

وبعد . فأصل شاعرنا — كما تحدثنا تراجمه — من بلدة « عين التمر » قرب الأنبار غربى الكوفة . وكان هو وأهله يعملون الجرار ، وهى إحدى الحرف الدنيا فى المجتمع ، وقد تضافرت على اشتغاله بها الروايات التاريخية والأدبية . فإذا ما ضممنا إلى ذلك ما يروون من أن أباه كان حجاماً يدين بالولاء لقبيلة عنزة ، وأن أمه كانت مولاة لبنى زهرة يقال لها أم زيد ، استطعنا أن ندرك ما لابد أن يكون قد وقر فى قرارة ذلك الشاعر السوادى الناشىء من إحساس دفين بالضعة والنقص ، وأن نفهم بعض الأسباب النفسية التى ربما كانت قد حملته فى كبره على أن ينادى بأن التقوى هى العز والكرم ، وحب الدنيا هو الفقر والعدم ، وأنه ليس على عبد تقى نقيصة إذا صحح التقوى ، وإن حاك أو حجم ! ودفعته إلى أن يحاج من يستطيلون عليه بأعلامهم فيقول :

دعنى من ذكر أب وجد ... ونسب يعليك سور المجد
ما الفخر إلا فى التقى والزهد ... وطاعة تعطى جنان الخلد

ولا نعلم على وجه التحديد متى ولد شاعرنا ، وإن كنا نستطيع أن نضع تاريخ ميلاده فى أواخر حكم بنى أمية

وأوائل بنى العباس ، استنتاجا مما يذكره المؤرخون من أنه توفى بين سنة ٢١٠ وسنة ٢١٣ هـ . ومما يذكره هو من أنه عاش تسعين حجة أسلفته لمضجعه . والظاهر أن ابن خلكان وصل بطريق مثل هذا إلى اعتبار سنة ١٣٠هـ تاريخا لميلاد الشاعر ، وتابعه فى ذلك محررو دائرة المعارف الإسلامية . ولسنا نعلم الكثير من شبابه ولاما كان له فيه من شؤون ، ولكنا نعلم بوجه عام أنه قضى شطراً من حياته الأولى يبيع جرار يصنعها وقواف يصوغها ، وكان وهو جرار يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيها ، وأغمض مايصادفنا من شئون شبابه تلك الصلة المزعومة بينه وبين جماعة من المخنثين ، فقد ظل خصومه طوال حياته يقذفونه بهذا الوصف كلما أرادوا التشنيع عليه أو الانتقام منه : غضب « سلم الخاسر » مرة من قول أبى العتاهية فيه :

تعــالى الله ياسلم بن عمرو
أذل الحرص أعناق الرجال

فقال : ويلى على المخنث الجرّار الزنديق !

ونقل صاحب الأغانى عن بعضهم أنه رأى أبا العتاهية يحمل زاملة المخنثين . فقال له : أمثلك يضع نفسه هذا الموضع مع سنك وشعرك وقدرك ؟ فقال له : أريد أن أتعلم كيادهم وأتحفظ كلامهم !

وكان أبو العتاهية فى مظهره — كما تحدثنا الرواية — قضيفا (أى دقيق العظم قليل اللحم) ، أبيض اللون أسود الشعر ، له وفرة جعدة وهيئة حسنة ولباقة وحصافة . على أن المسعودى يذكر فى مروج الذهب أن أبا العتاهية كان قبيح الوجه مليح الحركات ، حلو الإنشاد شديد الطرب . وتصفه مرة محبوبته الناضبة « عتبة » بأنه رجل قبيح المنظر . ويروى أبو الفرج من حديث شبيب بن منصور ، وصفا لهيئته وبعض أحواله يقول فيه : « كنت واقفاً على باب الرشيد فإذا رجل بشع الهيئة على بغل قد جاء فوقف ، وجعل الناس يسلمون عليه ويسائلونه ويضاحكونه ؛ ثم وقف فى الموقف فأقبل الناس يشكون أحوالهم : فواحد يقول كنت منقطعا إلى فلان فلم يصنع بى خيراً ، ويقول آخر أمّلت فلانا فخاب أملى وفعل بى ، ويشكو آخر من حاله ، فقال الرجل :

فتشت ذى الدنيا فليس بها
أحـــد أراه لآخر حامد
حتى كأن النــاس كلهمو
قـــد أفرغوا فى قالب واحد

فسألت عنه فقيل هو أبو العتاهية » .

وربما كانت هذه الأوصاف المتباينة تصوره فى مراحل مختلفة من حياته . ومهما يكن من أمر مظهره وهيئته فقد وصلت أنباء شعره إلى الخليفة المهدى فاستدعاه إليه،واستمع لمدائحه فيه وفى أخواله اليمانية ، وحظى أبو العتاهية فى تلك الفترة بمزيد الرعاية من يزيد بن منصور خال الخليفة . وجمعه مجلس المهدى بكثير من الشعراء منهم بشار وأشجع السلمى . وقادته تلك الصلة بالقصر إلى التعلق بعتبة جارية المهدى التى كانت فى أول أمرها خادمة لريطة بنت أبى العباس السفاح ، ثم أصبحت بعدها للخيزران زوجة المهدى . والظاهر أن إعجاب أبى العتاهية بها قديم . «فالمبرد» يروى أن أبا العتاهية احتال حتى قبل يدها فى أيام ريطة ؛ ذلك أنه جاء فى زى متنسك يحضر مجلس شراء رقيق للعتق — فيه عتبة — فقال : جعلنى الله فداك ! شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة ، فإن رأيت أعزك الله بشراى وعتقى فعلت مأجورة . فأقبلتْ على عبد الله بن مالك الخزاعى (وكان معها) فقالت : إنى لأرى هيئة جميلة وضعفا ظاهراً ولسانا فصيحا ورجلا بليغا ، فاشتره وأعتقه ؛ فقال : نعم . فقال أبو العتاهية : أتأذنين لى أصلحك الله فى تقبيل يدك ؟ فأذنت له ، فقبل يدها وانصرف . ثم عرفتْ بعد أن ذلك كان أبا العتاهية .

وقد ظل طوال مدة المهدى يشبب بها حتى فى قصائده فى مدح الخليفة ، وهى لا تبادله حباً بحب ، حتى لجَّ أبو العتاهية ، وشكت عتبة إلى مولاتها مالحقها من الشناعة ، ودخل المهدى مرة وهى تبكى بين يدى الخيزران فسألها عن خبرها فأخبرته ، فأمر بإحضار أبى العتاهية ، فلما وقف بين يديه قال أنت القائل :

الله بينى وبين مولاتى
أبدتْ لِىَ الصدّ والملامات

ومتى وصلتك حتى تشكو صدها عنك !

قال : يا أمير المؤمنين فأنا الذى أقول :

يا ناق حثى بنا ولا تَعِدى
نفسك فيما تَرَيْن راحات
حتى تجيئى بنا إلى ملك
تَوَّجه الله بالمهابات
يقول للريح كلما عصفت
هل لك يا ريح فى مباراتى
عليه تاجان حول مفرقه
تاج جمال وتاج إخبات

ويروى المسعودى فى آخر هذا الخبر أن الخليفة أمر بجلد أبى العتاهية ، وأن عتبة لما رأته مجلوداً بكت ، فأمر له الخليفة بخمسين ألف درهم ، فلما خرج بها فرقها على من بالباب ، وقال : ما كنت لآكل ثمن من أحببت ! فوجه إليه بخمسين أخرى ، وحلف عليه ألا يفرقها فأخذها وانصرف .

وقد صهر هذا الحب مشاعر أبى العتاهية ، فقال فى عتبة أشعاراً جيدة خلبت بعضها أنغامُ الغناء فى ذلك العصر . يقول فيها :

بالله يا حلوة العينين زوريني
قبل الممات وإلا فاستزيرينى
هذان أمران فاختارى أحبهما
إليك أو لا فداعى الموت يدعونى
ان شئت موتاً فأنت الدهر مالكة
روحى ، وإن شئت أن أحيا فأحيينى
يا عتب ما أنت إلا بدعة خلقت
من غير طين ، وخلق الناس من طين[1]

ويقول (وهو مما غنى فيه) :

قال لى أحمد — ولم يدر ما بى —
أتحب الغداة عتبة حقـاً ؟
فتنفستُ ثم قلت نعم —
حُباً جرى فى العروق عرقاً فعرقا
ليتنى مت فاسترحت فإنى
أبداً ما حييتُ منهـا ملقّى
لا أراك أبقى ومن يلق ما لا
قيت من لوعة الجوى ليس يبقى
فاحتسب صحبتى وقل : رحمة الله
ه على صاحب لنا مات عشقا

وكان المهدى قد حاول — فيما تذهب الرواية — أن يهبها له ، فجزعت وقالت : يا أمير المؤمنين حرمتى وخدمتى . تدفعنى إلى رجل قبيح المنظر بائع جرار ، ومكتسب بالشعر ؟ ظل أبو العتاهية على غرامه بعد وفاة المهدى ؛ ثم حاول الرشيد — فيما يحدث المسعودى — أن يستميلها إلى أبى العتاهية ، فقالت له : أنا أمتك ، وأمرك نافذ فى ، ما خلا أمر أبى العتاهية ، فإنى حلفت لأبيك — رضى الله عنه — بكل يمين يحلف بها بر وفاجر ، وبالمشى إلى بيت الله الحرام حافية كلما انقضت عنى حجة وجبت على أخرى ، لا أقتصر على الكفارة ، وكلما أفدت شيئاً تصدقت به ، إلا ما أصلى فيه ، وبكت بين يديه ؛ فرق لها ورحمها وانصرف عنها . فلما

(١) يذكرنى هذا بيت المرحوم إسماعيل صبرى باشا :
أنت روحانية لا تدعى أن هذا الحسن من طين وماء

خطابة الرسول

اشتهر العرب قديماً بأنهم كانوا أهل فصاحة ولسَن، وخطابة وجدل، وقد صور القرآن الكريم فيهم هذا الجانب تصويراً طريفاً، فقال عز وجل: «وإن يقولوا تسمع لقولهم»، وقال سبحانه وتعالى: «ومن الناس من يعجبك قوله»، وقال جل شأنه: «فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد». وقال تعالى. «وتنذر به قوماً لُدًّا» وقال: «أآلهتنا خير أم هو، ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خَصِمون». وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه استمع إلى بعض خطبائهم فقال: «إن من البيان لسحراً».

وإلى هؤلاء الخطباء الأبيناء، والجدليين الفصحاء، أرسل النبي محمد عليه السلام، وفي عِناء آيات الذكر الحكيم التي نُزّلت في أروع صورة عرفها العرب للبلاغة، وإنها لصورة معجزة تقطعت آمال الناس في العصور المختلفة دون محاكاتها، والإتيان بشيء على مثالها. أما يسراه فقد جاءت وراء عِناء تحمل خطبه وأحاديثه التي كانت تعبر أجمل تعبير عن هذا النور السماوي الذي انبثق في فؤاده، وتألقت أضواؤه في طوايا روحه، وعلى صفحات وجدانه.

وطبيعي أن تصيب خطابة النبي وخطبه حظوظاً واسعة من البلاغة وروعة الفصاحة، فقد أعطى جوامع الكلم، وإنها الجوامع تنبع من ميراث حكمة، وإنها لتحفها العصمة، وقد أعجب بها إعجاباً منقطع القرين من كانوا في عصره، ومن جاءوا بعد عصره، وقد أشاد بها الجاحظ في بيانه طويلاً. واستمع إليه يصف النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: «إنه لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلام القصير،

غدا أبو العتاهية على الرشيد قال له الرشيد: والله ما قصرت في أمرك . . . وشرح له الخبر، قال أبو العتاهية: فلما أخبرني بذلك مكثت ملياً لا أدري أين أنا قائم أو قاعد، وقلت الآن يئست منها إذ ردتك، وعلمت أنها لا تجيب أحداً بعدك. فلبس أبو العتاهية الصوف.

هذه إذاً نهاية حب لم يؤت ثمرته، وهذا إذاً حرمان جديد يضم إلى ما لاحظناه في نشأة أبي العتاهية من حرمان الوجاهة في النسب والحسب والمال، ويساعد على تعليل ما لجأ إليه الشاعر بعد من زهادة ونسك.

ويبدو أن أبا العتاهية كانت له في شبابه شئون أخرى من الغرام، وكانت له مع نظرائه خصومات ومساجلات وأهاج مقذعة، وكان كل ذلك جزءاً من الجو الذي قضى فيه الشاعر شطراً من حياته الأولى يخوض في بعض ما يخوض فيه أهل اللهو ورجال الحاشية في قصور الخلافة، وينعم بما ينعمون به من أعطية الخلفاء! واستمر ذلك زمناً ما، حتى جاء التحول الذي أخرج أبا العتاهية من زمرة المجان واللاهين إلى عصبة الوعاظ والزاهدين. وقد حدثنا التاريخ في الشرق والغرب عن أمثلة كثيرة من هذا التحول[1] جاءت أصحابها في كثير من الأحيان فجاءة، دون مقدمات أو أسباب ظاهرة. ولكنها في الحقيقة ترجع إلى أسباب عميقة تظل تعمل عملها فيما دون الوعي والشعور، حتى إذا ما اصطدم صاحبها بحادثة أو تجربة خاصة، حدث التحول، وسارت الحياة في مجرى يخالف مجراها السابق تمام المخالفة! فمن كفر إلى إيمان، ومن عصيان إلى طاعة، ومن علم إلى تصوف، ومن ركون للدنيا إلى عمل للآخرة.

---

(١) تجد بعض هذه في كتاب «وليم جيمس»: Varieties of Religious Experience.

(الحديث بقية) محمد خلف الله

ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفَـلْج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ، ولا يلمز ، ولا يبطئ ، ولا يعجل ، ولا يسهب ، ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم » .

وواضح أن الجاحظ تنبه إلى عنوان رسالة النبي وغايته من دعوته ، إذ قال إنه كان يطلب الصدق والحق ، وما يطوى فيهما من خير ، وقد تنبه أيضاً إلى أنه لم يكن يستخدم الخلابة والمواربة ، ولا الهمز واللمز ، لأن ذلك لا يتلاءم مع المثل الكامل الذى رسمه الرسول لنفسه فى حياته وتقيد به فى جميع أقواله وأفعاله ، ثم يلاحظ الجاحظ أنه لم يكن يبطئ ، ولم يكن يعجل ، وكأن ذلك كان ضروريا لتقريره وتعليمه وبث مبادئه ودعوته ، وينتقل الجاحظ من ذلك إلى الإشادة ببيانه وتبيينه ، وسهولة مخارجه ، وحسن موقع كلامه ، واعتدال أوزانه ، ولا عجب فهو سيد الفصحاء والبلغاء فى عصره وبعد عصره غير مدافَع ولا منازَع .

وإذا كان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم عامة تسمه هذه المياسم الشريفة فى رأى الجاحظ ، فلا شك أنه كان لخطابته القدح المعلى بين فنون هذا الكلام ، إذ كانت أداته إلى فلّ حصاة خصومه ، كما كانت لسانه فى نشر الدين الجديد . وإن من يرجع إلى تاريخ السيرة النبوية يجد الخطابة متجلية فى سطورها الأولى ، فإن الرواة يزعمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين رأى أن يبلّغ قريشا رسالته إليهم ، دعاهم ، ثم وقف بينهم ، فحمد الله وأثنى عليه قائلا :

« إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتُنّ كما تنامون ولتبعثُنّ كما تستيقظون ، ولتحاسَبُنّ بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءاً ، وإنها الجنة أبدا أو النار أبدا » .

أرأيت إلى هذه الخطبة القصيرة التى قلت حروفها وكلماتها ، وكثرت معانيها ومدلولاتها ؟ ! وإنه ليتلطف فى استهلالها ، إذ يذكر صلته بقومه وأنها صلة الرائد بأهله وأنه لو كذب الناس جميعا أو غرهم جميعا ما كذبهم ولا غرهم ، وهو يريد أن ينفذ من ذلك إلى أن يثنى إليه أعناقهم ويستميل قلوبهم ، حتى إذا تم له ذلك فجأهم ببعثته إليهم وقد وضع تحت أعينهم الموت والنشور ، والحساب والعقاب والثواب ، وإنها الجنة أبدا أو النار أبداً . وعلى هذا النسق الواضح البين الذى لا يعرف كلفة ولا مشقة فى التعبير كان يخطب الناس واعظا وداعيا إلى دينه الحنيف . واستمع إليه يقول فى خطبة أخرى : « أيها الناس ! إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل به ، وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبرة ، ومن الحياة قبل الممات ، فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار » .

وأنت ترى هذه الخطبة كسابقتها تمتاز بالإيجاز والضبط والإحكام الشديد للألفاظ والعبارات . وإن الإنسان ليشعر شعورا واضحا بأن صاحب هاتين الخطبتين على قصرهما كانت لديه قوة يصرف بها اللغة على النمط الذى يريده ، فليست هناك لفظة تستعصى عليه ولا عبارة لا تستجيب إليه . ولا يظن القارئ أن الرسول عليه السلام كان يوجز فى خطبه دائما ، فقد روى الباقلانى أنه خطب

يوما بعد العصر فما زال يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف، وأيضا لا يظن القارئ، أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يخطب كثيرا، فإن ما بين أيدينا من نصوص يدل على أنه لم يترك مشهدا عظيما أو جمعا حافلا إلا وبادر إلى الخطبة فيه. على أننا نعرف ما كان من تشريع الخطبة في صلاة الجمعة، ومعنى ذلك أنه كان يخطب كل أسبوع، ومعناه أيضا أنه خطب مئات الخطب، ولكن للأسف سقط من يد الزمن هذا التراث الضخم، ولم يبق منه إلا قطع نقرؤها في كتب الأدب والتاريخ، ولعل القارئ يدهش حين يعرف أن خطبه يوم الجمعة لم يحتفظ لنا الرواة منها إلا بخطبة واحدة رواها الطبري، وهي خطبته في أول جمعة جمعها بالمدينة، ونحن نسوقها برمتها، لما لها من أهمية تاريخية، وقد استهلها على هذا النحو: «الحمد لله، أحمده، وأستعينه، وأستغفره، وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترة من الرسل وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، ومن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط، وضل ضلالا بعيدا.

وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره، وذخرا فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد، والذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك فإنه يقول عز وجل: «ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد» فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيآته ويعظم له أجرا، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما، وإن تقوى الله يوقي مقته، ويوقي عقوبته، ويوقي سخطه، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضي الرب ويرفع الدرجة. خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله. قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيي من حيّ عن بينة، ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه. الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وما من ريب في أن صورة هذه الخطبة — إذا صحت — هي الصورة التي تمكنت في خطب الجمع النبوية كما تمكنت في خطب من جاءوا بعده من حيث طريقة افتتاحها بالحمد لله والصلاة على النبي عليه السلام، ثم من حيث توشيحها بآي القرآن الكريم، ثم من حيث ما تعالجه من الدعوة إلى تقوى الله وخشيته، وطاعته وطاعة رسوله وما جاء به من أوامر ونواه.

وقد امتازت الخطبة بالتكرار في ألفاظها ومعانيها. ونحن نعرف أن التكرار من أهم رسوم الأسلوب الخطابي وسماته. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يميل إلى هذا التكرار كما يبدو من خطبه الكبيرة الأخرى التي احتفظ لنا الرواة بكثير منها، ونقصد خطبة حجة الوداع، فقد كرر فيها عبارتين مرارا، وهما: أيها الناس، ثم ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. ولعل مما يتصل بهذا التكرار

ما روى عن أنس بن مالك من أنه كان يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه . ولسنا ندرى هل كان يصنع ذلك ببعض عبارات خطبه أو لم يكن يصنع ، ولكن على كل حال ظاهرة التكرار مثبتة فيها ، وهى ظاهرة تعم الأساليب الخطابية .

ويظهر أنه صلى الله عليه وسلم كان يعنى بمنطقه عناية شديدة ؛ فقد روى عن عائشة أنها قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه » . ومعنى ذلك أنه كان يراخى بين عباراته حين يتكلم ، فلا يسرع بها ولا يتعجل فيها ، بل يفصل بعضها من بعض متئدا متأنيا وكما كان يعنى بصورة منطقه كان يعنى بمنطقه نفسه ، أى بألفاظه وعباراته ، ولكنها عناية محدودة ، فلم يكن يفزع إلى السجع فى خطابته ، إذ لم يكن يحب أن يعتمد على خلابة فى خطبه ، ومع ذلك فإن من يتابعه فيها يجده يعنى بسهولة مخارجه وجمال ألفاظه ، بحيث تكون فصيحة عذبة . وقد كان يكره الإغراب فى اللفظ ، وقد أثر عنه فى هذا الباب أنه قال : من بدا جفا . وكما كان يكره الإغراب كان يكره التزيد والتشادق والثرثرة ، فقد روى الجاحظ أنه كان يقول : إياى والتشادق ، وقال : أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون ، وكما كان يكره ذلك كان يكره المبالغة فى جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق وهدل الشفاه .

وينبغى أن يفصل القارئ بين كراهته لكل هذه الضروب التى تدل على التكلف والتصنع وبين عنايته بألفاظه وأساليبه ، فليس من شك أنه كان يعنى إلى حدما باختيار ألفاظه وانتخابها بحيث تكون سلسة عذبة . ويظهر أنه كان له ذوق طريف فى هـذا الجانب ، ولعل مما يشهد لذلك ما رواه الجاحظ فى حيوانه من أنه قال ذات يوم لأصحابه : لا يقولن أحدكم خبثت نفسى ، ولكن ليقل لقست نفسى . ومعنى ذلك أنه كره أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد .

والحق أن ما بقى من خطابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ينطق بفصاحة لهجته ، وبلاغة عبارته . وكم كنا نتمنى أن يحفظ لنا معاصروه ما ألقى من خطب ، ولكنهم لم يصنعوا ، ولعل عنايتهم بالقرآن هى التى صرفتهم عن العناية بخطابة الرسول . ولعل من الطريف أن نذكر هنا أنه كان لا يشذ عن عادة العرب أثناء خطبه من الاعتماد على المخصرة والقضيب أحيانا ؛ ففى الحديث أنه جاء البقيع ومعه مخصرة ، ويقول الجاحظ : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخطب بالقضيب ، وكفى بذلك دليلا على عظم غنائها ، وشرف حالها ، وعلى ذلك الخلفاء وكبراء العرب من الخطباء » . ويبدو من النصوص أنه لم يكن يعتمد على المخصرة والقضيب دائما ، ففى الشمائل للترمذى أنه كان يشير إذا أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها ، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى .

وبعد فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيب العرب قاطبة فى عصره ، وما زال خطبه — أو بعبارة أدق بقايا خطبه — ماثلة تحت أعيننا نستشف منها ما كان يتصف به من سهولة اللفظ وإقامة الوزن وطلاوة العبارة وحلاوتها كما نستشف منها ما كان يدعو إليه من محبة الصدق والحق والخير والجمال .

شوقى ضيف

حكومة الجماعة

لما انهارت دعائم الخلافة الأندلسية فى فاتحة القرن الخامس الهجرى (فاتحة القرن الحادى عشر الميلادى) وانتثرت الدولة الإسلامية الكبرى بالأندلس إلى دويلات عديدة هى دول الطوائف، كانت هذه الدول الصغيرة المتنافسة تقدم إلينا بالرغم من تفرقها وضعفها، صورا خلابة شائقة: فى إشبيلية بلاط بنى عباد يسطع بهاء وفخامة، وفى قرطبة حكومة أرستقراطية من طراز مبتكر، وفى المرية يقوم ابن صمادح على رأس دولة من الشعر والشعراء، وفى بطليوس يقيم ابن الأفطس الأمير العالم دولة للعلم والأدب، وينافس بنو ذو النون فى طليطلة دولة بنى عباد فى البهاء والفخامة. وهكذا نستطيع أن نلمح فى جنبات اسبانيا المسلمة فى هذه الفترة العصيبة من تاريخها كثيرا من تلك المناظر الفخمة التى اجتمعت من قبل حول بلاط قرطبة، فى عصور القوة والمجد.

ولقد كان مثل قرطبة عاصمة الخلافة القديمة فريداً بين دول الطوائف. ذلك أنه لم تقم بها دولة، ولم يقم بلاط على نحو ما وقع فى سائر قواعد الأندلس الكبرى؛ ولكن قامت بها حكومة أو بعبارة أخرى هيئة إدارية من نوع جديد، سميت بحكومة «الجماعة»؛ وكان على رأس هذه الحكومة الشورية المبتكرة رجل من أبرع رجالات الأندلس فى الإدارة والسياسة هو أبو الحزم جهور بن محمد ابن جهور؛ وكان قيامه فى حكم قرطبة خاتمة سلسلة طويلة من الثورات والانقلابات المتوالية التى استمرت منذ انهيار دولة بنى عامر وعود الأمر إلى بنى أمية (٣٩٩ هـ) زهاء عشرين عاما.

كان أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور سليل بيت من بيوت الرياسة فى الأندلس تعاقب أجداده فى مناصب الدولة الكبرى من الحجابة والوزارة وغيرها؛ وكان جده جهور ابن عبيد الله بن أبى عبده من وزراء عبد الرحمن الناصر وقادته، وكان من أكابر الشعراء. وتقلب أبو الحزم فى مناصب الدولة وولى الوزارة أكثر من مرة فى ظل من تقلب فى خلافة قرطبة من أمراء بنى أمية، وأمراء بنى حمود فى تلك الأزمنة المضطربة من حياة العاصمة الأندلسية. وكان الأمر فى الحكم سجالا بين البربر وبين بنى أمية؛ وكانت رياسة بنى أمية أحب إلى نفوس القرطبيين والشعب الأندلسي عامة لما كان يغلب على زعماء البربر من العنف والخشونة والجنوح إلى الاستبداد والبطش. ولما ظفر على بن حمود سليل الادارسة وزعيم البربر بانتزاع قرطبة من يد الخليفة سليمان المستعين وتلقب بالمتوكل (٤٠٧ هـ) بسط على قرطبة حكم ارهاب مروع وأذل الزعماء العرب، وقبض على كثير منهم ومنهم أبو الحزم جهور بن محمد، وقد كان يومئذ من أولياء الدولة الأموية، ووزرائها البارزين. واستمر حكم بنى حمود والبربر لقرطبة بضعة أعوام حتى سنة ٤١٧ هـ؛ وبنو أمية يحاولون تباعا بالحرب والثورة انتزاع تراثهم الذاهب، والشعب القرطبي فيما بين ذلك يسوده الاضطراب والفوضى. وأخيرا استقر رأى القرطبيين على رد الأمر إلى بنى أمية، وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم جهور. واتفقوا على مبايعة الأمير هشام بن محمد بن هشام؛ فاستدعاه أبو الحزم ودخل قرطبة سنة ٤٢٠ هـ وتلقب بالمعتضد بالله، وتولى أبو الحزم وزارته ولكن حكمه لم يطل سوى عامين، ثم ثار عليه الجند ففر من قرطبة والتجأ إلى بنى هود فى سرقسطة (سنة ٤٢٢ هـ) ثم توفى بعد بضعة أعوام دون عقب، وانقطعت بوفاته الدعوة لبنى أمية، وعفا ذكرهم، وانتهت دولتهم.

• • •

ولما انهار حكم بنى أمية فى قرطبة لآخر مرة كان الشعب القرطبي قد سئم تعاقب الحكومات والدول على

هذا النحو المضطرب ، ولم يحدث من جهة أخرى في قرطبة ما حدث في قواعد الأندلس الأخرى من قيام زعيم محلي يقيم لنفسه دولة جديدة ، على غرار ما حدث في إشبيلية وطليطلة وغرناطة والمرية وغيرها ؛ وكان أبو الحزم جهور كبير زعماء قرطبة ، يوليه الشعب كل عطفه وثقته ، وكانت لديه كل فرصة ليقيم لنفسه مثل هذه الدولة ؛ ولكنه لم يجنح إلى مثل هذه الغاية ، وآثر أن يشق لنفسه طريقاً فذاً ؛ فلما اختاره الزعماء والكبراء للرياسة أبى أن ينفرد بها دونهم ؛ وآثر أن يدعو صفوة الرؤساء إلى مشاركته في الحكم وتوجيه الشئون ، وأن يجتمع الرؤساء جميعاً في شبه مجلس للدولة أو حكومة للجماعة تتولى الحكم بإشرافه وتوجيهه ؛ وكان أبو الحزم يرمى بذلك إلى اكتساب تأييد الزعماء الأقوياء ، واتقاء ما قد تثيره الأطماع المتضاربة من الخصومات والمعارك ، وتأييد الأمن والنظام بجمع الكلمة ، وتوحيد الرأي ، وتوزيع التبعات ؛ وهكذا أنشأ أبو الحزم جهور بقرطبة نوعاً من حكم الشورى في صورة حكومة للجماعة ؛ وهو نوع من نظم الحكم ، قلما نراه في الدول الإسلامية ، وإن كنا نراه في كثير من حكومات العصر القديم ولا سيما المدن اليونانية ؛ وهو في الواقع حكم الأرستقراطية متى وجه إلى خير الشعب المحكوم ، أو حكم الأقلية الممتازة إذا اتجهت سياستهم إلى تدعيم سلطانهم ، وإنماء ثرواتهم ، وتلك هي « الأوليجاركية » ، وهي أقل صلاحاً من الحكومة الأرستقراطية .

وقد كانت حكومة الجماعة التي قامت بقرطبة فيما يبدو مزيجاً من الأرستقراطية والأوليجاركية . وإليك كيف يصفها لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس ، وهو يذكر اجتماع الملأ من أهل قرطبة على تقديم أبي الحزم : « أعطوا منه قوس السياسة باريها ، وولوا من الجماعة داهيتها ، فاخترع لهم لأول وقته نوعاً من التدبير حاطهم عليه ، فاقترن صلاحهم به ، وأجاد السياسة فانسدل به الستر على أهل قرطبة مدته ، وحصل كل ما يرتفع من البلد بعد إعطاء مقاتلته ، وصير ذلك بأيدي ثقات من الخدمة ، ومتى سئل قال ليس لي عطاء ولا منع ، هو للجماعة وأنا أمينهم ؛ وإذا رابه أمر عظيم أو عزم على تدبير أحضرهم وشاورهم ، وإذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء ؛ فأعطى السلطان حقه من النظر ؛ ولم يخل مع ذلك من ربحه لمبيشته حتى تضاعف ثراؤه ، وصار لا تقع عينه على أغنى منه »[1] .

والحقيقة أن جهورا لم يتخذ سمة الرؤساء المستبدين ، فلم يغادر بيته ، ولم ينزل دار الخلافة اقتصاداً في النفقة ، وترفعاً من البذخ . وقد استطاع بحكمته وبراعته أن يحقق خلال عهده طائفة كبيرة من الإصلاحات الهامة ؛ فوطد النظام والأمن ، وأنشأ شرطة عاملة حازمة ، وعمل على تخفيض الضرائب والمكوس التي أثقلت كاهل الشعب في عهد الخلافة ، وعلى إلغاء الرسوم والمظاهر الباذخة ، والاقتصاد في النفقات العامة ، وعلى تخفيض الأسعار وتوفير المؤن ؛ وعني في الوقت نفسه بتنظيم الجيش المدافع عن المدينة وتقويته وتوفير الأعطية للجند ، وتسليح الشعب ، وإنعاش قواه المعنوية بكل الوسائل حتى يغدو في كل وقت قادراً على الذود عن حاضرته في وقت كانت الحرب الأهلية تعصف فيه بسائر الحواضر الأندلسية ، وتضطرم الأطماع حول العاصمة القديمة ولا سيما من ناحية بني عباد أمراء إشبيلية الأقوياء . وقد حاول أبو القاسم محمد بن عباد أمير إشبيلية بالفعل أن يثير القلاقل في قرطبة بإذاعته أن الخليفة هشاماً المؤيد حي ولم يقتل ، وأعلن وجوب طاعته ؛ وثارت من جراء ذلك بعض قلاقل في قرطبة شغل أبو الحزم حينا بقمعها . وكذلك عمل أبو الحزم على إخضاع بعض الأماكن والحصون القريبة من قرطبة

(١) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ١٠٩ .

لحكم الجماعة ؛ وكان يطمح فيما يبدو إلى أن يبسط سلطانه على أنحاء ولاية قرطبة القديمة كلها ؛ وكان ينافسه فى ذلك بنو عباد ؛ بل يقال إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ؛ فأرسل يدعو أمراء الطوائف جميعا إلى طاعة الحكومة المركزية حسبما كان الأمر أيام الخلافة توحيداً للكلمة وإحياء للدولة الإسلامية القوية ؛ وكانت بالطبع دعوة أفلاطونية لم تلق صدى .

وعلى أى حال فقد استطاع جهور أن يحقق لقرطبة فى عهده نوعا من الاستقرار والسلام والأمن ، وأن يعيد إليها لمحة من رخائها الذاهب . ويشيد ابن حيان بخلال جهور ونجاحه فى مهمته فيقول :

« وكان مع براعته ورفعة قدره ، وتشييد بحديثه ، من أشد الناس تواضعاً وعفة وأشبههم ظاهراً بباطن ، وأولا بآخر ، لم تختلف به حال من الفتاء إلى الكهولة . واستمر فى تدبيره قرطبة ، فأنجح سعيه بصلاحها ، ولم شعثها فى المدة القريبة ، وأثمر الثمرة الزكية ، ودب دبيب الشفاء فى السقام فنعش منها الرفات ، وألحفها رداء الأمن ، ومانع عنها من كان يطلبها من أمراء البرابرة المتوزعين أسلافها ، بخفض الجناح ، ومعاملة الرفق ، حتى حصل على سلمهم واستدرار مرافق بلادهم ، ودار القاسطين من ملوك الفتنة حتى حفظوا حضرته وأوجبوا لها حرمة » . ويقول الحميدى :

« وكان يشهد الجنائز ويعود المرضى جاريا على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الأمر بتدبير السلاطين المتغلبين ، وكان آمنا وادعا ، وقرطبة فى أيامه حرماً يأمن فيه كل خائف من غيره » .

واستطال حكم الوزير أبو الحزم وحكومته الشورية الارستقراطية زهاء أربعة عشر عاماً ، نجت فيها قرطبة من أهوال الحرب الأهلية المخربة ، ومن عدوان الطامعين فى امتلاكها من الأمراء الأقوياء ، وتمتعت بفترة من الأمن والرخاء لم تعرفها منذ انهيار الدولة العامرية وبداية الفتنة ؛ ثم توفى الوزير النابه فى أوائل سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) ، تاركا حكومة الجماعة تحت إشراف ولده أبى الوليد محمد بن جهور ؛ وكان بالرغم من عقله ورفقه ، ضعيفاً لا يستطيع النهوض بأعباء الرياسة ؛ فلم تمض أعوام قلائل حتى انحدرت قرطبة إلى معترك الحرب الأهلية التى عمت دول الطوائف ، وسارت دولة بنى جهور التى آزرها عون الجماعة واتفاق الكلمة مدى حين إلى مصيرها المحتوم .

وكانت « حكومة الجماعة » التى قامت بقرطبة بروحها النيابية الإصلاحية ، مثلا فريداً فى الدولة الإسلامية ؛ وكانت بالرغم من مشابهتها للحكومات الارستقراطية أو الأوليجاركية القديمة ، ابتكاراً جديداً فى النظم الإسلامية . وكان حرياً أن تغدو وقت الفتنة ملاذاً لاتفاق الرأى وإجماع الكلمة بين دول الطوائف ؛ ولكن الأطماع والأهواء الجامحة كانت أقوى من أن تروضها دعوة الاتحاد والتفاهم ؛ وكان المصير المحزن الذى لقيته دول الطوائف غير بعيد أبلغ جزاء للتخاذل والتفرق .

محمد عبد الله عنان

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

تطور واجب في فهم الدين

الدين لهذه الحياة

من الخطأ في هذا العصر أن نجعل محور الحديث الديني هو المحور التقليدي السابق الذي يدور العقل به حول الصورة القديمة للكون في عقول القدماء، تاركين النظر إلى الوضع الجديد لهذا الكائن الإنساني الذي ابتدأت قدرته وعلمه يحلان محل آلهة الخرافة عند القدماء.

فلقد كان منطق العجز والألم والجهل هو الذي يسيطر على عقول أكثر الإنسانية إلى ما قبيل هذا القرن، بل إلى ما قبل الربع الثاني منه، وكان هذا المنطق يوحي بالتشاؤم والنظرة السوداء إلى الحياة والسخط على ما فيها من حدود وقيود؛ وكان الدين حينذاك بلسماً يبرد الجراح وعزاء يخفف وقع الآلام وطوق نجاة تتعلق به الأرواح الغريقة لتصل إلى شط الطمأنينة والسكينة لحظات لا تلبث أن تأخذها بعدها الحوادث اليومية إلى اللجة فتضرب فيها بأكفها الصغيرة الهزيلة.

أما الآن فيجب أن يكون منطق القدرة والعلم والراحة التي جلبها العلم هو الذي يسيطر على عقول الإنسانية ويوجهها إلى الله وإلى الخير، ويوجهها إلى التأمل العميق في هذه القدرة والعلم اللذين صارت تتصرف بهما في حياتها، وإلى التأمل أيضاً في هذا الوضع الحر الذي تتمتع به بين الكائنات المقيدة، والصورات الأبدية المكررة.

وإني أكرر — ولا بأس أن أكرر ما دمت في صدد بسط دعوة — أن الإنسان صار له من القيمة والاعتبار ما يوجب عليه أن يفكر في نفسه ووضعه بعد أن صار عاملا عظيما من عوامل التكوين والتخريب في الكون المادي.

وإذا كنا لم نعرف الله رب الكون ونؤمن به إلا عن طريق ما نراه من مخلوقاته وما فيها من إبداع وتنويع وتفريع، وإذا كان القرآن الكريم، وهو أعظم بيان ديني عن الله، لم يأت بأي صفة له تعالى إلا وهي منتزعة من فعله سبحانه في هذا الكون، فإننا حينئذ لا بد لنا من الاستئناس بهذا في الاستدلال على ما للإنسان من قيمة خطيرة في الأرض وفي الكون المادي كله بعد أن صار عاملا عظيما من عوامل التكوين والتخريب والتنويع والتفريع في عالم المادة والحركة والسرعة والاتصال رغم الأبعاد والمسافات.

وفي رأيي أن أعمال الإنسان الآن إنما هي تفسير لما سمعناه وآمنا به من صفات الله وأعماله. فقد كانت عقول أكثريتنا القاصرة لا تفهم أن أمور الخلق والتكوين والتخريب والعلم والاتصال بمخلوقاته إنما هي قوله للشيء: «كن» فيكون.. وقد كانت عقول قدمائنا حتى عقول بعض الأنبياء لا تدرك عمل الله سبحانه في التكوين والإحياء وتتوهمه سبحانه خاضعاً في عمله للوسائط والأدوات والكيفيات المادية، فكان بعضهم يسأله: «رب أرني كيف تحيي الموتى»، «أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً»، «أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر». وهكذا كانت جميع عقول البشرية لا تدرك أن الله الذي خلق هذا العجب الذي نراه من لا شيء، لا يجوز أن يكون مقيداً وسجيناً بقوانينه التي هو واضعها، وأنه لا شك يستطيع أن يخلق عجباً غيرها إذا أراد تغيير سننه في نشأة أخرى، وأنه إن خرقها في حادثة جزئية فذلك استثناء يشير إلى القاعدة وينبه الأذهان إليها من تخدير الألفة والاعتياد والذهول.

فلما وصلنا إلى درجة من العلم والقدرة تبيح لنا أن نقول لكثير من الأشياء «كوني» فتكون بسرعة البرق واللاسلكي والكهرباء، بعد أن نهيء لها قوانينها ونتخذ لأبوابها مفاتيحها، فلا يجوز حينئذ أن يخفى علينا

تفسير قول الله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » ، إذ أننا على عجزنا وضآلتنا ومحدوديتنا استطعنا أن يضيء الطفل منا مدينة بضغط أصبعه على مفتاح كهرباء فيطلع فيها شمساً ، وأن يجرى أنهاراً من الماء في بيته بفتح صنبور ماء ، وأن يتصل عن بعد وبعد بعيد فيراه ويسمعه ويسمع أنفاسه ويرى حركاته من أقصى الأرض بالتلفزيون والتليفون والراديو والرادار ، وينسف مدينة عظيمة بقنبلة ذرية كالبيضة أو كالقولة ، وأن يحارب أعداءه بالطائرات والدبابات التي تسير باللاسلكي فيجعلها تكر وتفر وتقبل وتدبر في ميادين الحرب ، وهو منها بعيد عشرات الأميال ، فما بالنا بالخالق البادئ ، والمبدع المنشئ مخلوقاته من لا شيء ؟ ! .

* * *

وفي أكثر العقول الدينية استغراق واستدراج خاطئ في فهم الدين وفقه القيام بأعماله .

إنهم حين يعيشون ساعة الوجدان الديني ينسحبون من الحياة ومنطقها وينسلخون أو يودون أن ينسلخوا من بشريتهم العملية ، ويحسبون حينئذ أن أعمالهم الدينية ليست للحياة الدنيا وإنما لأمور أخرى خارجة عن نطاق الدنيا .

فهم يشهدون بالله الواحد ، لا كمفكرين ارتضوا الإلهية والتوحيد مذهباً فكرياً قبل ارتضائه قضية سماعية موروثة مأخوذة بجملتها من يد الأم والأب ، بل كالأطفال يحكون أقوال الأمهات والآباء ، حكاية الببغاوات ، مع أن هذه الشهادة أعظم وقفة في حياتهم ، لأنها إبرة التوجيه ومفتاح التحويل وبدء الطريق الفكرية والحيوية .

وحين يصلون مثلا لا يشعرون وهم مقبلون على الصلاة أنهم يؤدون عملا في صميم الحياة ، إذ يقفون في (طابور) الصباح والظهر والمساء كما لو كانوا معروضين قادمين على شكر رئيس في الحياة يحبونه ، لأنه يسدى إليهم هبة الحياة ونعمها ، إنما يصلون وهم يشعرون أنهم منفصلون عن الحياة في تكليف خارج عنها ، ولا يتصل بمنطقها .

وهم لا يزكون وهم يشعرون أنهم يؤدون واجباً مدنياً لإصلاح حياتهم الخاصة والعامة ، إذ يمنعون عنها جرائم التفاوت الظالم والتقاطع القاسي بين الطبقات ، وإنما يفعلون ذلك لاحتياز قصر في الجنة والبعد عن حفرة في النار وحسب .

وقل مثل ذلك في باقي الأفكار والأعمال والرسوم الدينية ، فهي تفعل وتزاول كأنها أعمال خارجة عن نطاق خدمة الحياة الدنيا .. ولذلك انفصل الدين عن الدنيا في عقول هؤلاء ، وقيل دين وقيل دنيا .. ولا عجب أن ينفصل ، لأن الدين يلقن قبل دور التمييز والحكم العقلي ، ثم يهمل التفكير فيه إذا جاء الدور اللائق به . فما لم يكن للشخص احترام لعقله يحمله على التفكير في كل شيء موروث ، تلحقه هذه الجناية .

ألا إن الدين هو أداة صلاح الحياة الدنيا التي نحياها هنا أولا ، ولن تصلح الآخرة إلا بصلاح الدنيا ، ولم تكن جنة ونار إلا نتيجة لأعمال الإصلاح اللائق بتأهيل الناس لسكنى الجنة ، وأعمال الإفساد اللائق بسكنى الثانية . فليستيقظ المسلمون المغمضو العيون الآخذون أقوال دينهم كأنها أقوال كهانة وطلاسم سحرة ، تلفظ وتجرى على الألسنة في غير وعي ، لا تنتج شيئاً هنا وإنما تنتج هناك فقط !

إن الإسلام دين الطبيعة ، ولو لم يكن ديناً موحى به لكان المذهب العقلي الفلسفي الوحيد الذي يجب اتباعه وحمل العقل عليه لاحترام النفس ، والاحتفاء بالحياة العاجلة والاطمئنان إلى المصير السعيد . وقد مضى زمن الطفولة الذي لم تكن أسرار الدين تعلم فيه على أنها أسرار للدنيا .

والطفل يقال له قبل التمييز : « هذا قبيح » ومعه

العصا ، و« هذا حسن » ومعه الحلوى ؛ لأخذه إلى طريق الجماعة كما يؤخذ الحمل الصغير إلى طريق القطيع بأعواد الكلأ الأخضر أو بالعصا ، لأنه فى الواقع حمل صغير لا يمكن أن يعلو عقله إلى منطق التعليل وفقه الواجبات والحقوق . وكذلك كان يقال للإنسانية هكذا ، ويفعل معها هكذا قبل دور الرشد .

أما الآن فرشدها العقل المجرد يقول لها ما كان يقوله لها آباؤها الأنبياء المدركون السابقون قبل آلاف السنين

ومهمة الجماعة فى التربية والتعليم أن تقول لناشئها ما كشفته من قوانين حفظ حياتها سليمة كما علمتها التجارب السابقة .

فالدين فى جملته ليس أكثر من سياج المعروف من أخلاق المجتمع التى ارتضاها لحفظ حياته ، وطريق عقل يصل الإنسانية بخالقها ومكرمها الذى ارتضى لنوعها هذا الطريق العلى الكريم الذى فتح عليها بركات من السماء والأرض . وليس الله تعالى كذلك التركى الذى جمع جراراً وتأمر على الناس فى الشرب منها ، وجلس يقول للظامئين من السابلة الواردين عليه ومعه عصا يشير بها : اشرب من هذه . . وأنت اشرب من تلك . . لغير سبب إلا حب الأمر والنهى . . .

إن هذا أسلوب الجائعين للشهرة والسلطة . . وما كان لمالك السموات والأرض وما بينهما أن يقصد ذلك وله المثل الأعلى ! .

وإنما هو يقول : « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها » .

• • •

وأوجب الواجبات فى تطور فهم الدين أن نقصى من فكرنا اعتقاد أن الحياة دار عذاب بطبيعتها لا بجناياتنا نحن واعتدائنا عليها ، فليس شىء أشد ضرراً بالدين والحياة من هذا الاعتقاد ! .

فإن كان الفرد يريد الحياة السعيدة فليعمل هو لذلك وليضع أسسها . . ليترك أكل أخيه كما ترك أكل ابنه . ليتكفل بأبناء وطنه المحتاجين كما يتكفل بأبناء أخيه . . ليشعر بالقرابة بينه وبين أبناء وطنه كما يشعر بأواصر القرابة فى الرحم والعصب والنسب . . وليعدل أساس توزيع الثروة بين أبناء وطنه كما يعدله بين أبنائه . . ليشعر بالإنسانية الواحدة ويغضب لصالحها كما يشعر ويغضب للقومية . وهكذا فليتطور تطوراً آخر فى فهم علاقاته الاجتماعية ، ليضمن لنفسه أن يسعد بسعادة الناس كما يسعد بنفسه وذوى قرباه .

• • •

وأبداً تكون الحياة من يد الله صحيحة سليمة ، وإنما تفسدها يد الإنسان . وكل الشر والسخف ناشىء من سوء فهم قصد الحياة ومن سوء توزيع الثروة . وما عدا ذلك من شرور المرض والآفات الطبيعية فهو ضرورة صار فى يد العلم التغلب على كثير منها ، ولابد من حدوثها فى فترات .

والمسألة الاقتصادية هى أم الشر إذا حلت ذهب تسعة أعشاره .

والإنسان الذى استطاع ترويض الآساد والنمور والفيلة بالتجويع والسياط والحيلة حتى صارت تلعب فى (السيرك) وأمامها اللحم الشهى من الأطفال الضعاف ، يستطيع أن يروض أو يقمع أخلاق المفترسين من بنى البشر . . فبالتربية لمن يفهم والسوط لمن لا يفهم يستطيع المصلحون أن يعملوا شيئاً عظيماً .

وأم المثال الاسكندنافية فى الغرب مثل مضروبة لمن يريد أن يغمل الإنسانية فعلا يسعدها ويجعلها تطمئن لهذه الحياة بالقدر الذى تسمح به دار مؤقتة . !

عبد المنعم شميس

الزائر الليلى

[إلى روح أخى الضابط الشاب المرحوم جابر إسماعيل حقى الذى أراد لأبنائه استقلالا خالصا فكان جزاؤه أن أعدم رميا بالرصاص على أيدى الفاشست الطغاة] .

كان الجو غاية فى الاعتدال ؛ فقد كان الفصل خريفاً ، وكانت الليلة فى أخريات الشهر العربى . يشتد ظلامها ، وتتلألأ نجومها كلما تقدم بها الوقت ، ولما ارتفع صوت المؤذن فوق منارة الحرم النبوى هرع الناس من كل صوب وحدب ، تلبية للنداء ، وإجابة للداعى ، وانتظموا فى صفوف مستقيمة كاد المسجد يضيق بها على عظم سعته ، وعقب الفراغ من الصلاة توجهوا إلى الله تعالى بقلوب انطوت على الخير ، يضرعون إليه أن يحفظ للاسلام مجده ، ويبقى رايته خفاقة بالرحمة والعدل ، ثم انصرف منهم من تلجئه الضرورة إلى الانصراف ، وجلس من بقى يستمع إلى آى الذكر الحكيم كما جرت بذلك عادتهم . ولما فرغ القارىء التف الناس حول رجل يشع فى وجهه نور العلم ، وتتلألأ منه أضواء الهداية ، فأخذ يحدثهم فى أمور الدين ، ويبصرهم بما يصلحهم فى الدنيا والآخرة ، ويبين لهم نهج الرسول الكريم — صلوات الله وسلامه عليه — فى كل الأمور . ولما انتهى الدرس تصافح الناس وتفرقوا إلى بيوتهم . فأخذوا مضاجعهم ينشدون الراحة ، ويتأهبون لتلبية الدعوة لصلاة الفجر ، ولم يمض كبير وقت حتى أطبق السكون ، وشمل جميع سكان المدينة ، وغط القوم فى نوم عميق ، ولم يكن هناك يقظان غير واحد أخذ يتنقل فى الشوارع والأزقة ، والحارات والدروب ، ذلك هو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، خرج — كعادته فى كل ليلة — ليتفقد أحوال الرعية ، وليستطلع أخبار هؤلاء الذين وقع عليه اختيارهم ليكون راعيا لهم . ولما كان بظاهر المدينة ، والسماء صافية الأديم ، تتلألأ فيها النجوم ليهتدى بها الضال ، ويسترشد بها التائه ، سبح به الخيال إلى عظيم قدرة الله ، ووافر نعمه التى لا يدركها عقل ولا يبلغ مداها فكر ، فأبعد عن العمران قليلا ، فتراءى له فى الصحراء نار مشتعلة ، فأخذ طريقه إليها رجاء أن يكون أصحابها فى حاجة إلى عونه ، فوصل بعد وقت ليس باليسير ؛ فإذا بخيمة قد نصبت فى الصحراء ، جلس أمامها رجل من أهل البادية يستبين فيه الرائى ما تنطوى عليه نفسه من ألم ، وما يختلج فى قلبه من هم ، فألقى عليه عمر السلام مرة ومرة وثالثة ، ولكن الرجل لم يكن يحس بشىء مما حوله ، فلما رفع عمر بالتحية صوته فى المرة الرابعة فك الرجل حبوته ، والتفت إلى مصدر الصوت ، والشرر يتطاير من عينيه ، وقال فى صوت يكاد يختنق من شدة الغضب ، مشيراً بإحدى يديه : إليك عنى أيها الرجل ! فليس عندى ما أتصدق به عليك !! .

لم يغضب عمر لهذه الإهانة ، والتمس للرجل المعاذير فى ظنه إياه سائلا أو عابر سبيل ، وقال له فى رقة ولطف : أى شىء يا أخى جعل للهم طريقه إلى قلبك ؟ فإنى أطالع فى وجهك سطور الألم وآيات التعذيب . فصاح الرجل بقوة : لا تزعجنى ، ولا تثر غضبى ، واغرب من وجهى وإلا كان لى معك شأن آخر . ولكن عمر لم يبرح مكانه لأنه يرى أن واجبه يقضى عليه أن يتعرف الأسباب التى وصلت بهذا الأعرابى إلى هذه النتيجة المحزنة ، والحال المؤلمة . فأعاد عليه نفس السؤال . فما كان من الأعرابى إلا أن هب واقفا ودلف إلى الخيمة ، وعاد بيده سيف مصلت ، وقال وهو يهزه هزاً عنيفا : إنى أنذرك أيها الرجل للمرة الأخيرة إن لم تبرح هذا المكان فى الحال . إنى سأطيح برأسك وأريح الناس منك ومن أمثالك من قطاع الطرق الذين يقلقون الراحة ويذهبون بالأمن ... فقال عمر بصوت كله رقة وعطف : لا ! إنى يا سيدى لست من قطاع الطريق ، ولا أنا سائل ولا ابن سبيل ، إنى من سكان المدينة ، وقد كنت بظاهرها

فرأيت هـذه النار فبدا لى أن أجئ إلى هنا لأسألكم إن كنتم فى حاجة إلى شىء . . . . فقال الأعرابى فى هدوء متشكك : أحقاً أنت من سكان المدينة ؟ ماذا تمتهن إذاً ؟

— إنى أكسب عيشى من عملى للآخرين . .

— ومملوك من أنت الآن ؟

— إنى مملوك المسلمين جميعاً ، أعمـل لسعادتهم . وتهيئة أسباب الراحة لهم .

— ولماذا جئت إلى هنا فى هذا الوقت من هذا الليل ؟ وماذا تريد منى الآن ؟

— جئت إلى هنا لأنى أعرف أن مثلك فى مثل هذا القفر شديد الحاجة إلى من يساعده . . . وأريد أن تخبرنى ماذا أستطيع أن أقدمه لك ليخفف عنك ما تعانيه من هم ، وما تحسه من ألم . . . .

وقبل أن يتم عمر قوله انبعث من جوف الخيمة صياح وأنين موجع ، فعلم عمر أن فى الأمر شيئاً . فقال لصاحبه :

— من مصدر هذا الصوت ؟ وماذا يشكو ؟

— مصدره زوجى ؛ إنها تمخض وليس معها أحد ، ولست أملك ما أستقدم به قابلة من المدينة تعاونها فى حالها تلك ، وإنى أرجو أن تضم صوتك إلى صوتى لنسأل الله تعالى أن يخفف عنها ألم الوضع فى هـذه البرية الموحشة ، وأن يكتب لها السلامة .

— هوّن عليك يا أخى ، ولا تنزعج ، فإنى عائد إلى المدينة ، وعما قليل ستكون بجانب زوجك قابلة ماهرة ، طيبة النفس ، رحيمة القلب . .

ثم التفت صوب المدينة وهم بالسير ، لكن الأعرابى استوقفه وقال له :

— انتظر ! انتظر ! لسنا نريد قابلة ، لأنه ليس لدينا ما نعطيه لها .

— لا تشغل بذلك بالك يا أخى ، فإن القابلة التى أستقدمها تقوم بعملها دون مقابل . . .

كان الوقت قبيـل منتصف الليل حين رجع عمر إلى بيته ووجد زوجه يقظى تنتظر أوبته ، فلما رأته بادى الهم ابتدرته بالسـؤال عما وراءه ، فقص عليها ما رأى وقال لها : هل لك فى مساعدة هـذين المحتاجين ؟ فقالت له : ليس أحب إلى من ذلك ، إنى على أتم استعداد فهيا بنا . فقال لها : عليك إذاً أن تحملى كل ما تحتاج إليه المرأة فى مثل هـذه الحال ، وأن تأخذى شيئا من الطعام معك . . . وسأعد الراحلة لتحملنا وتحمل ما معنا من متاع .

فقالت له : إن كل ما لدينا هو طعام العشاء ، وهو يتألف من قليـل من الدقيق وبعض الزيت وشىء من لبن الماعز ، وإن نحن حملناه معنا بتنا على الطوى . .

— هـلا يوجد عندك غيره ؟ فقد لا يفى هـذا بحاجتهما .

— ليس والله فى البيت شىء يؤكل بعد ذلك . فهلا تتناول منه ما تتبلغ به ، فإنك لم تأكل شيئا ؟

— ولن آكل ؛ فأعدى جميع ما عندنا ، فإنى أعتقد أنهما لم يتناولا شيئا منذ رحلا فى صباح يومهما الباكر . .

— إذاً فاشرب اللبن .

— لا ! فقد تحتاج إليه المرأة المسكينة . أسرعى فى تجهيز المتاع ، وخذى معك قنديلا صغيرا ، وقدرا من الماء . .

* * *

تحرك الركب صوب الخيمة مسرعا ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى بلغ غايته ، فحيا عمر صاحبه واستأذنه أن يسمح لزوجه بدخول بيته لتساعد ربته . فقال له البدوى : أتستسمحنى فى ذلك ، ويبق تشرف بزيارتها ، وزوجى فى مسيس الحاجة إلى معاونتها ؟ إن عملك هذا يا صاح جدير بالتقدير ، خليق بالشـكر ، وإنى عاجز عن مكافأتك .

— الأمر يا أخى أقل من أن يشكر عليه .

ثم وضع أمامه شيئا من الزاد وطلب إليه أن يتناول عشاءه .

وكانت حاجة الرجل إلى الطعام شديدة ، فدعا عمر إلى مشاركته فلما اعتذر التهمه في نهم وشهية شديدين .

أما زائر الليل فقد هيأ موقداً ، وأشعل النار ووضع القدر فوقها ، وصب فيها بعض الماء وشيئاً من الزيت ، ووضع عليهما الدقيق . وأخذ يحركها ، ولما فرغ الرجل من طعامه دنا من مجلسه أمام النار وأخذا يتسامران ، وقد بدأ البدوي الحديث قائلا :

— أمن مواليد المدينة أنت ؟

— لا . إن مكة المكرمة مسقط رأسي .

— ومتى تركت مكة ؟ ولماذا ؟

— تركتها منذ زمن بعيد ، وجئت إلى المدينة مع سيدي .

— وما زلت في حوزة سيدك ؟ أم تركك حراً ؟

— إنه عهد إلى خدمة جميع المسلمين ، وتركني حراً

— وهل شهدت الرسول الكريم ؟

— نعم . كان لي هذا الشرف ، وإني أحمد الله تعالى على ذلك .

— أوقد صحبته ؟

— نعم صحبته زمنا ليس باليسير .

— يا لها من صحبة سعيدة . إنك تستطيع إذاً أن تحدثني كيف كان يعيش النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وبماذا كان يوصى .

— كان صلى الله عليه وسلم يحيا حياة الدعة والبساطة، يلبس مما يلبس عامة الناس ، ويأكل مما يأكلون ، مع شدة عنايته بالنظافة ، وأكثر ما كان يباشر عمله بيده ، فكان يقم البيت ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة والماعز، ويسقي الناضح . وكان يعلمنا أن خير الناس وأشرفهم من يأكل من كسب يده ، ويوصينا أن نساعد المحتاج والضعيف ، وأن نعطف على الفقراء والمعوزين .. كان دائم الرضا طلق المحيا . لم يعرف التشاؤم سبيله إلى قلبه ، ولا العبوس طريقه إلى وجهه .. كان يقول الناس أمام الله سواء ، « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ... لم نلمس فيه — على طول عهدنا به — أبهة الحاكم ، ولا شموخ الرئيس . كان بيننا كأحدنا ، لم يستأثر برأى ، ولم ينفرد بأمر ، يشاورنا في الصغير والكبير ، والجليل والحقير ، وقد يأخذ برأى أدنانا . كان صلى الله عليه وسلم مثلا حياً للتواضع . ولما دنا أجله ، وحانت وفاته أعلن في الناس : أن من كان له عليه دين ، أوله عنده قصاص فإنه على استعداد لقضاء الدين ، وتحمل القصاص . . . وأنت ترى الآن أن حياته كانت خالية من التكلف ، وأن أعماله كانت تشريعاً ينهج الناس نهجها .

— لكنك لم تحدثني عما كان يقوم به من عبادة ، وما يؤديه من فروض .

— إنه كان يقول : « قرة عيني في الصلاة » ، وكان يعلمنا أن العبادة كلها ، تطهير للنفس ، وتنقية للروح ، وتصفية للقلب ، لا خير فيها إذا لم يخرج منها الإنسان رقيق القلب ، عطوفاً على اليتامى ، رحيما بالضعفاء ، محباً للخير ، نافراً من الشر . كما كان يعلمنا أن الدين معناه : حب الله ، وخدمة الناس . .

وفي تلك اللحظة اشتد الصياح والأنين داخل الخيمة — وكان قد لفها السكون ، وتملها المدود ، منذ قدوم القافلة ، فانتصب البدوي قائماً ، وأخذ يقطع المسافة — أمام الخيمة — ذهوبا وجيئة ، ثم خفت الصوت بعد قليل وعاد الرجل إلى مجلسه بجانب الطارق الغريب أمام النار ، واستأنف الحديث قائلا :

— إنك لا بد تعرف عمر أيضاً . إنهم يقولون إنه فظ غليظ القلب .

— نعم إني أعرفه . وتلك صفات معيبة .

— إني في حيرة من الأمر ! لا أستطيع أن أفسر

القلب عند الغزالى

تأمل در آئينه دل كنى صفائى بتدريج حاصل كنى
مگر بوئى از عشق مستت كند طلبكار عهد ألستت كند
(سعدى)

(تأمل فى مرآة القلب تحصـــل على الكمال بالتدريج لعل رائحة من العشق تسكرك وتجعلك من طالبى عهد ألست)

يرتكز التصوف الإسلامى على أن فى الإنسان شيئاً سوى البدن المادى ، له ماهيته وملكاته الخاصة ووسائله المعرفة بدون توسط ، وعلى القول بوجود إله هو موضوع الإيمان العقلى ومنتهى شوق الروح ومحبة القلب وبوجود عوالم أخرى غير العالم الشاهد . وإذا كان القول بوجود الروح والإيمان بوجود الله مما تقضى به ضرورة العقل العلمى الفلسفى ، وإن كان هذا العقل قاصرا عن إدراك الماهيات ، فإن أداة المعرفة المباشرة سواء أكانت معرفة الإنسان لنفسه أم معرفته لله وللأمور الإلهية والعوالم الأخرى ، هى عند الصوفية ليست الحس ولا هى العقل العلمى الفلسفى ، بل هى الروح إذا صفت من كدر المادة ، فتحررت بذلك من وسائل المعرفة الحسية العادية ووصلت إلى حالة الإدراك الذاتى . هذه الروح هى عند الغزالى النفس وهى العقل وهى القلب ، وهذه كلها أسماء تشبه أن تكون عنده اصطلاحات مساعدة تشير إلى مسمى واحد هو المبدأ الروحى الأصلى فى الإنسان أو هى بمثابة رمز جبرى لشىء غير معلوم ؛ إلا أن الغزالى يؤثر استعمال اللفظ الأخير ، لفظ القلب ، فيعبر به عن هذا العضو الميتافيزيقى فى الإنسان ، وهو الذى يعتبره ماهية الإنسان على الحقيقة ويرى أن به شرفه الذى يرفعه فوق كثير من أصناف الكائنات .

أراد الغزالى أن يجعل الإيمان والمعرفة شيئا داخليا فى النفس وأن يقيم بناءهما فى القلب ، وهو فى ذلك يخالف

اجماع المسلمين على اختياره لهم أميراً ، وهم يعرفون فيه تلك الأخلاق .

— قد يكون ذلك لأنهم لم يجدوا خيراً منه خادما لهم .

— كيف تقول إنه خادم لهم ؟ وماذا تريد بهذا ؟ إن فى يد الأمير حياة الجميع . أليست فى يديه خزائن أموال المسلمين .

فى هذا الوقت نادت القابلة — ولم تكن سوى زوج عمر — يا أمير المؤمنين ! بشر صاحبك بغلام .

ارتاع الرجل عندما سمع كلمة يا أمير المؤمنين ، واستولت عليه الدهشة وتولته الحيرة عندما علم أنه بين يدى عمر اللفظ الغليظ القلب الذى كان يستنكر آنفا تأمره على الناس . فقال له والخوف يكاد يعقل لسانه : اعذرنى يا أمير المؤمنين فإنى لم أتأدب فى معاملتكم ، وأسأت لقاءكم .

— لا عليك يا صديقى ، أقر الله بالمولود عينيك . إنما نحن سواسية . ليس أمام الله حاكم ولا محكوم ، ولا أمير ولا حقير . وإن الله يحب من يحب خلائقه . على أنى لم آتم إلا ببعض ما يجب لمن اختاروني لهم أميراً ، ونصبوني عليهم خليفة . وإن الإسلام لا يعرف إلا أن يكون الأمير خادما للأمة ، راعيا لشئونها . . .

ثم حمل القدر بين يديه — وكان الطعام قد تم نضجه — ووضعه أمام الخيمة ونادى زوجه إليه وقال لها :

— أطعميها قبل أن يرد نفعى فى حاجة إلى الطعام الآن .

ثم رجع إلى مكانه بجوار الرجل يسامره حتى أطعمت زوجه المرأة وهيأت لها أسباب الراحة . . .

ثم إن عمر ودع الرجل وودعت زوجه بدورها المرأة ، وقفلا راجعين إلى المدينة فبلغاها والمؤذن ينادى لصلاة الفجر .

رمزى إسماعيل مفتى

من يجعل الإيمان مسألة قانون شرعي أو إيمانا بنصوص أو مسألة مجموعة عقائد يصل إليها الإنسان بالاستدلال العقلي ؛ فهو لا يريد أن يتلقى الإيمان من الخارج فقط في صورة نص عقيدة أو أصول مذهب ، بل يريد أن يكتشفه في داخل نفسه ويجعله موضوع تجربة داخلية وشيئا يصل إليه الإنسان بمجهوده الخاص إلى حد ما . فالغزالي ليس موضوعي النزعة في الدين ، بل هو ذاتيها . ومقياس العقيدة الحقة عنده ليس محصورا فيما يتلقاه الإنسان من نظريات دينية ولا في اتباعه لدين قومي يؤخذ عن الآباء أو المعلمين أو مؤسسي المذاهب الاعتقادية أخذاً عماده الثقة بهم ، لأن مثل هذا الإيمان مهما كان قويا فهو لا يزال سطحيا مزعزعا ؛ لأنه لا ينفذ في الروح ، بل ترجع صلابته إلى عدم اتساع قلب صاحبه لغير ذلك . وهذا هو شأن إيمان الجماهير ، وهو أيضا شأن إيمان علماء التوحيد أو غيرهم من أهل النظر والاستدلال ؛ فإن إيمان هؤلاء ، وإن كان أقوى استناداً إلى العقل فهو قريب من درجة إيمان العامة ، ولا يخلو من مغالطة وتشويش وفساد ، بسبب أن بعض مقدمات الاستدلال فيه غير مبرهن عليها ؛ وهو على كل حال «موضوعي» آت من الخارج ، ولا يغني كثيراً عند الغزالي الذي لا يعتبر الإيمان الحقيقي ، أعني إيمان العارفين ، خضوعا ولا اتباعا للغير ، بل تجربة روحية ، وذوقا من الباطن ومشاهدة بنور اليقين ، أعني معرفة مباشرة لا يمكن معها الغلط أبداً .

هذه النزعة عند حجة الإسلام دعته إلى تأسيس علم جديد ، هو علم الباطن أو علم القلب وأسراره ، باعتباره مصدراً للمعرفة الدينية وغير الدينية . ويستند الغزالي في مذهبه إلى حديث أن كل مولود يولد على دين الفطرة وأنه بعد ذلك يتخذ دين أبويه ، وإلى القول بأن للإنسان صبغة إلهية . وهو يرى اختلاف الديانات «الموضوعية» وغفلة الإنسان عن طبيعته الحقيقية ، وعن الدين «الذاتي» الذي له بفطرته ، فيحاول أن يعرف دين الفطرة من جهة ، وأن يشعر الإنسان بصبغته الربانية من جهة أخرى ؛ وعلى هذا لا تكون مهمة علوم الدين وضع الديانات القومية في صيغ اعتقادية أو في صورة مذاهب ثابتة ، بل يجب أن يكون همها كشف عضو التدين والإيمان الأصيل وتعهده والعناية به .

ويجري الغزالي على ما في القرآن والحديث من ذكر القلب على أنه أداة للفهم والنظر ، فيرى أن القلب ليس هو المضغة المودعة في الصدر ، بل الشخص الداخلي الذي يفكر ويعلم ويفقه ويتسع لمعرفة اللانهائي ، كما في حديث من سأل النبي عليه السلام : أين الله ، أهو في السماء أو في الأرض؟ فأجاب إنه في قلوب عباده المؤمنين ؛ فالقلب عند الغزالي هو تلك «اللطيفة الربانية الروحانية» التي تتعلق بالبدن تعلقا يحير الألباب ، والتي لا يمكن تعريفها ولا إدراك حقيقتها بالعقل العقلي ، لأنها من عالم آخر . هذا القلب هو مقرّ الإيمان والتدين ؛ وهو الوسيلة لإدراك الأمور الإلهية ولمعرفة الدين الحق ؛ وهو الذي يعرف الله ويسعى إليه ؛ وهو المطيع العابد على الحقيقة ، وإنما يتجلى على الجوارح بعض أنواره فقط ؛ هو الذي يتقرب من الله أو يبتعد عنه ؛ هو مظهر فيض الرحمة الإلهية المبذولة بحكم الجود والكرم ، والتي ليست مضنونا بها ، لكنها إنما تظهر في القلوب الصافية المتعرضة لنفحات رحمة الله . هذا هو شأن القلب في المعرفة ، ومن طلب معرفة أمور الربوبية بالعقل النظري الجدلي فهو كمن يريد أن يرى بالأذن أو يسمع بالعين .

فالوظيفة الأساسية للقلب هي المعرفة ، معرفة الله وكل الحقائق في كافة العلوم ؛ وكل قلب فهو بحكم جوهره قادر على أداء وظيفته الطبيعية هذه ، دون حاجة إلى توسط الحس ، لأنه حامل أمانة المعرفة والتوحيد ، وهو بالنسبة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالنسبة إلى صور الأشياء المتلونة ، فإن لم يقم بوظيفته كان المانع له من ذلك شيئاً من جنس ما يحول

دون ظهور الأشياء فى المرآة . وذلك قد يكون عدم النضج ، فقلب الصبى مثلا لم يتهيأ بعد للمعرفة ؛ وقد يكون كدراً فى مرآته بما تراكم عليها من الخبائث والشهوات ، أو عدولاً منه عن جهة الحقائق المطلوبة ، كحال من يشتغل بتفاصيل الطاعات ولا يصرف فكره إلى تأمل الحقائق الإلهية الخفية ؛ وقد يكون اعتقاداً سابقا تقليديا احتل القلب فحال بينه وبين إدراك ما عداه ، على نحو ما يكون عند المتعصبين للآراء الجامدين عليها ؛ وقد يكون أخيراً ناشئاً عن الجهل بالطريق الموصل إلى المطلوب. ولما كان لا يخلو قلب من أحد هذه العيوب التى تحجب عنه أسرار الملكوت فإن مهمة علوم الدين تتلخص فى إرشاد الإنسان إلى طبيعة قلبه وصفاته ، وإلى أنه أمر ربانى شأنه الكمال العلمى والخلق وميله الطبيعى إلى الأمور العليا ، وأنه لا يميل إلى غير ذلك أو يقصر عن تحقيق ما وجد له إلا لمرض أو مانع لابد من إزالته ، كما تتلخص فى تبصيره بما نشأ للقلب من اتصاله بالمادة من قيود وشوائب وبكيفية تهذيب قوى النفس حتى تخضع كلها لسياسة المبدأ الروحانى الأعلى .

وإذا كان فى الإنسان صفات كالسبعية الناشئة من كونه تحت سلطان الغضب ، أو البهيمية التى مصدرها كونه تحت سلطان الشهوة ، أو الشيطانية التى تتلخص فى أنه يستعمل العقل فى استنباط الحيل لقضاء الشهوات الدنيا ، فإن هذه الصفات كلها عارضة ، وهى بمثابة شوائب تخالط صفته الحقيقية وهى الصفة الربانية . تتجلى هذه الصفة فى مجموعة خصال عليا هى للإنسان دون ماتحته من الكائنات ، وهى تؤدى به إلى السعى وراء رغبات جليلة هو وحده الذى يعرفها ويسعى إليها ولا يمكن أن تكون مشتقة من طبيعته المادية ؛ فالإنسان يريد الإحاطة بكل ما يصل إليه العلم وأن يستولى على كل شىء بقوة هذا العلم ، كما أنه يعجب بكل صور الكمال والجمال ، ويطمح إلى ما لا يدركه الحس ولا الخيال ؛ وهو يحب الاستعلاء والتخصص والحرية ، ويقدر على التضحية والحب والرحمة والإحسان والعفو ، وقد ينفق كل قواه طول حياته فى طلب ما لا يعود على كيانه المادى بنفع ؛ وهذه صفات ربانية ، وهو مكلف بتحقيقها ، فلابد أن تكون بينه وبين الذات الإلهية مناسبة ما ، وإلا لما كان تحقيق هذا التكليف ممكنا . ولما كان كل كائن ينحصر مصيره وغايته فى تنمية استعداداته الخاصة ، وجب أن تكون غاية الإنسان هى التشبه بالله والاقتراب منه اقترابا حقيقيا من الناحية المعنوية ، ولا يتأتى هذا له اذا بقى مقيدا بالبدن وشهواته ، فلا بد من كسرها جميعا وإخضاعها حتى تستقر فى القلب الصفات الربانية من العلم والاستيلاء على الأشياء بقوة البصيرة ونحو ذلك ، وتنتشر عليه من ضبط الشهوات ، وردّها الى الاعتدال صفات شريفة كالعفة والهدوء والصبر والحلم . فلابد للانسان من تعهد قلبه ، هذا القلب الذى خلق ليتبوأ عرش الخلود ، والذى يندفع بشوق لا يهدأ نحو شىء عظيم خالد لا نهاية له ؛ لكن القلب لما كان مقيداً بأغلال البدن وكان البدن مستقراً فى المادة متمسكا بالغانيات التى بها يتغذى وينمو ، فإن الإنسان يقف بين البدن والقلب أمام قرار خطير وكفاح عظيم : هو يطمح إلى كل كمال ، ويشرئب إلى الحرية ، ولكن المادة تجذبه وتريد إيقاعه فى العبودية . ولما كان أكثر الخلق ليسوا أبطالا فى ميدان الجهاد فان مصيرهم العبودية للشهوات على أنواعها ؛ ولذلك يطالبنا الغزالى باتخاذ القرار الحاسم الخطير ، وهو الزهد فى الدنيا لتحرير القلب وإبلاغه إلى الملك الخالد الذى يصبو إليه .

إن قلب الإنسان سجين فى بدنه ، ولا تزال تنصب عليه سهام من كل جانب ؛ فهو هدف لما تأتى به الحواس الظاهرة والباطنة ، ولما تثيره جنود الشهوات . هذا إلى أنه تدور حوله معركة بين قوى الخير وقوى الشر ، بين الملائكة والشياطين ، وهو وسط هذه المعركة لا يهدأ ، بل

لا تزال منها أشد تقلباً من القِدر في غليانها ، فلا تزال ترتفع إلى أعلى عليين ، ثم تنحط إلى أسفل سافلين ؛ ولا سبيل إلى نجاته إلا بسد كل أبواب الشهوات ، وكل ثلمة تدخل منها جنود الشرور . وعند ذلك يتحرر القلب وتنجلى مرآته ، فيستطيع القيام بوظيفته التى هى المعرفة والتقوى . وهو إن تعهده الانسان على طريق أهل الاستدلال والتفكير العلمى والفلسفى كان هو العقل النظرى عند الفلاسفة وأهل النظر من المتكلمين ؛ وهو يصل إلى المعارف بالتعلم والاستدلال ؛ أما إن تعهده على طريقة أهل التصوف ، أعنى بالزهد والرياضة والذكر والتفكر فهو القلب كما يتصوره الصوفية ، وهو فى هذه الحال يتصل بالعالم الإلهى اتصالا مباشرا ، ويحاذى بمرآته الصافية حقائق الموجودات فى صورتها الأصلية ، فتنعكس فيه على ما هى عليه . ولكن طريق الصوفية طويل شاق وغير مضمون النتيجة ، فقد لا يتحمل الانسان مشاق المجاهدة ، وربما فسد مزاجه واختلط ، أو تشبث القلب بخيال فاسد يقف عنده ، خصوصا عند من لم يقدّم للتصوف بتهذيب النفس ورياضتها بحقائق العلوم ؛ ونظراً لهذه الصعوبات اختار الأكثرون طريق التعلم ، لأنه أوثق وأسهل .

ويعبر الغزالى عن ذلك بقوله : إن للقلب بابين أحدهما مفتوح نحو عالم الحس والشاهدة ، والثانى مفتوح نحو عالم الملكوت ؛ فأما العلماء فهم يحصلون معارفهم من الطريق الأول ، أى من طريق الحواس الظاهرة والباطنة ؛ وأما الصوفية فهم يكتسبون معارفهم من الطريق الثانى ؛ فالقلب كما يتصوره الغزالى يشبه حوض ماء تجلب إليه المياه من مجار كثيرة فوق سطح الأرض ، ولكن لو حفرنا أسفل الحوض وتعمقنا وصلنا إلى معين الماء الصافى ، وهو يكون أنقى وأغزر من الماء المجتلب من الخارج . وهذا هو حال القلب والعلم . ويشبه الغزالى العلماء والصوفية بحال أهل الروم وأهل الصين الذين تنافسوا فى النقش ، فأما أهل الروم فإنهم جاءوا بأصباغهم وآلاتهم وأفرغوا كل مقدرتهم الفنية فى عمل لوحة ، وأما أهل الصين فإنهم أقبلوا يصقلون جانبهم حتى جعلوه كالمرآة الصافية ، فلما رفع الحجاب تلألأت عجائب الفن الرومى فى مرآة أهل الصين مع زيادة إشراق وبريق . وهكذا شأن القلب بالنسبة للمعارف ، فإن درجة المعرفة تتوقف على درجة صفاء القلب .

ولكن هل من المؤكد أن يبلغ الإنسان هذه الدرجة من النقاء ، ومن العلم إذا سلك طريق التصوف ؟ ليس هنا أى ضمان ، فإن كثيرا من القلوب لا تزال رغم الاجتهاد المخلص بعيدة من السكينة مملوءة بالتعلق بالدنيا محبوسة فى خيالات فاسدة ؛ فأمواج القلب وخيوطه فى يد أخرى ، والمرجع الأخير إلى فضل الله وتوفيقه .

هذا ما يتصوره الغزالى فى أمر القلب ؛ فهو يريد أن يستنبط العلم من القلب ، ولكن أى العلوم يريد ؟ هو لا يريد علوم الدنيا لأن هذه العلوم وسائلها معروفة ، بل يريد تحصيل علوم الربوبية وأسرار العالم الذى وراء الحس ، وهو يلجأ إلى وسيلة من جنس مطلوبه ليدخل إلى المطلوب من بابه تاركا وراءه من لا يريد إدراك الحقائق إلا بالحس الغليظ أو ما يشبه الحس الغليظ .

لقد كانت الهجرة النبوية نقطة تحول فى تاريخ الإسلام وتاريخ الدنيا . وفى مجرى حياة كل بطل نقطة تحول يندفع عندها نحو غايته ؛ وأى قضية أعظم عند الإنسان من قضية روحه وقلبه ؟ لقد حول الغزالى مجرى العلم الدينى من اتجاهه نحو الخارج ، ووجهه نحو الداخل ، نحو القلب وأسراره ، وفتح للقلب باب العالم الإلهى الذى لا نهاية له ؛ فكان له عند أصحاب القلوب مجده الخالد .

محمد عبد الهادى أبو ريده

على هامش الصحراء

لقد أسعدنى الحظ فسافرت فى الصحارى وسلكت طرقها ومسالكها غير مرة .

تجولت فى صحراء مصر الغربية وتنقلت بين واحاتها المتيقة المتقادمة . وضربت فى صحراء مصر الشرقية مرتاداً شعابها وأوديتها وشم جبالها . وسلكت من جزيرة العرب ما بين جدة ومكة ، وما بين مكة والمدينة ، كما جزت بادية الشام وعبرت البرية المترامية الواقعة بين الشام والعراق .

وأشهد لقد علمتنى هذه الأسفار من أمر الصحراء ما لم أكن أعلم ، ووقفتنى من أسرارها ومكنون أمرها على ما لم أكن لأبلغه بالدرس والقراءة ، مهما جهدت .

* * *

لقد كنا عند اعتزام السفر فى الصحراء نأخذ أهبتنا للأمر أشد الأخذ ، ونستعد له أتم الاستعداد ، تفاديا مما عسى أن يفجأنا فى سفرنا من نفاد الزاد أو الماء أو العتاد . وكنا فى ذلك إنما نعول على أنفسنا موقنين بأن التفريط والتهاون قد يكون وخيم العاقبة ، وقد يفضى إلى الهلاك نفسه . وليس من شك فى أن التعويل على النفس والاحتياط للمستقبل أول سمات الرجولة الصحيحة وملاك أمرها ؛ وهذا أول درس تلقيه الصحراء على من يغامر بنفسه فى مجاهلها

* * *

ولكننا على الرغم من استعدادنا ومبالغتنا فى التوقى والاعتماد على النفس كنا لا نبرح يخالجنا شعور قوى حتى بأننا على شفا أمر مهول ، وغيب مجهول ، وأننا ضاربون فى عماية لا نأمن بغتاتها وفجآتها ، فمن يدرى ! فلعلنا لنقص فى تقديرنا وأمر لم يدخل فى حسابنا ، عسى وقد انطوت علينا الصحراء انطواء اليم الخضم على من أغرقت به سفينته ، فأبلى أجسادنا جزر سباعها وعقبانها ، ومدب حشراتها وهوامها .

من أجل ذلك كنا لا ندع التوكل على الله والاعتماد عليه بعد الاعتماد على أنفسنا ، مستمدين إليه سبحانه حولنا وقوتنا . ولاشك أن الإيمان بالله على هذا النحو هو الإيمان الصحيح ، وأن التوكل على الله على هذه الحالة هو التوكل المحمود ، وهذا درس آخر بليغ يستفيده المسافر فى الصحراء .

* * *

ثم إن للصحراء روعة أى روعة ، وجمالا أى جمال . وحذار أن تخدعك عن روعتها وجمالها رمالها الوعثاء ، وجبالها الجرداء ، وحرها اللافح ، وبردها القارس ، فما تلك لعمرك إلا بمنزلة أطمار على أقمار ، وأسمال على حسناء معطال .

ورويدك حتى يقبل الربيع ، ويرق الهواء ، وتضع الأرض حملها ، فترى عجبا من العجب ، فى الزهر المفوّف ، والعشب المخضر ، والطيور الصادحة ، والظباء السارحة ، والإبل الراغية ، والشاء الثاغية ، والقوم يتصايحون جذلا وحبورا .

ورويدك حتى يقبل المساء ويطلع القمر وتتلألأ النجوم والكواكب ويخيم على الصحراء سكون يكاد لرهبته يحبس عنك الرهف ، فترى ضآلة غير متناهية إزاء عظمة غير متناهية . فإذا غاب القمر ومد الظلام على البيداء رواقه ، وطرق سمعك عصف الرياح وهى تنسلك بين الجبال أو تهوى فى المهاوى السحيقة ، وترامت لعينيك أشباح غريبة وصور عجيبة ، وخيل إليك أنك تسمع عزيف الجن وصراخ السعالى ، وأنك تراها وتحسها ، وأنها تراوغك تارة من يمينك وأخرى من شمالك ، فلا ترع ، فجن الصحراء وسعاليها ليس الخبث والغدر من طبعها ، وقد عرفها قدماء العرب وعرفتهم ، وكان لهم معها ولها معهم شئون وشئون ، فتارة كانوا يصارعونها فيصرعونها أو تصرعهم ، وتارة كانوا يحبونها وتحبهم ، ويصهرون إليها فتلد لهم البنين والبنات ، وطورا كانوا يصادقونها ويحالفونها فتنى لهم ويفون لها . وطورا كان يستلهمها شعراؤهم فتلهمهم عيون الشعر

في مطلع العام الهجري الجديد . . .

محطم الأصنام

أو عودة المهاجر

طر يا خيالُ على ربى الإلهام   واكتب بحر دمى نشيد غرامى !
واملأ من الوحى المصفى كاسى   وامزج من القدس الطهور جامى
واقطف بلا حرج أمانى الهوى   ورد الهوى متفتح الأكمام
هذا شباب الروح مل‍ء جوانحى   ليس الشباب طراوة الأجسام
هل فارق بين الكهولة والصبى   إلا وقوع حوادث الأيام ؟
ومن التجارب سابق ، ومؤجل   وبها يكون تفاضل الأعلام
إنى أنس لا أنسى الشباب وعهده   فى نورتى ، وتطلعى ، وهيامى
وصلاة روحى فى محاريب الهدى   ومن الرذيلة والضلال صيامى
من آية الصفح الغفور ضراوتى   ومن التسامح غضبتى وصدامى !
وإذا نظرت إلى الحياة وجدتها   أهلاً لينكرها أولو الأفهام
أيامها تنسى ، وعطر ورودها   بين الرياض يفر كالأحلام . .
يغدو لها طرباً ، ويقفل نادماً   ركب تملق بالسراب الدامى !
أرأيت مرقص فتنة وأشعة   ضرب السماء عليه روق ظلام
نهب الجمال عيونه ، ونهبنه   كسهام حرب قوبلت بسهام
يجلو الحدق فيه غامض سحره   ميل الخصور ، وموطىء الأقدام
والقلب منتفض الوجيب لطارىء   من خوف مجهول ، وبعد مرام

وروائع القوافى . هل تدرى ماذا توحى الصحراء بكل ذلك ؟ إنها توحى معنى الفن الرفيع والعبقرية والجمال .

* * *

الصحراء تبعث فى نفوس أهلها وعشاقها الرجولة الكاملة ، والإيمان الصادق والعبقرية التامة . فإن شئت على ذلك دليلا فعليك بأبطال الجاهلية والإسلام . فإن أبيت إلا الطريق السهل والقول الفصل ، والحجة البالغة ، والمعجزة الدامغة ، فعليك بسيرة نبى الهجرة عليه السلام .

عبد الحميد العبادى

يا ويحه ! أمسى يطل نفسه   بين الغيوب بكأسة ومدام
ويهدهد المحجوب بالنجوى ، فلا   يصغى له ، من ضجة الآثام !

* * *

يا زورق الآمال ، لذ بجزيرة   أو شاطىء . . . بحر الحوادث طامى
ما يفعل الجداف فى تحطيمه   صرف الزمجيد ، والخوف أمامى ؟
بحر كأن عبابه ، وظلامه   شم الجبال مشت على أقدام . .
تمسى على عجل لتحطم زورق   صخرية ، ثلجية الأعلام . .
كتاهب العصر الجديد تعددت   ألوانها فى لوحة الرسام
هبلت عقول الناشئين بساحر   يبدو بوجه من وراء لثام
يلقى عليهم زيفه ، فيرونه   ذهباً . . فتقوتل بائع الأوهام !

* * *

إنى لأهتف والتقدم فى دمى   يا حبذا رجعية الإسلام !
وأدين بالتجديد حراً راشداً   فيا أدين به ملكت زمامى . .
وأحارب التقليد إن لم يقترن   بالفكر . . للفصحاء والأعجام !
ولقد عرفت المصلحين فلم أجد   مثل « الرسول » محطم الأصنام !
ما كان رجعياً ، ولا متأخراً   لكن مؤسس دولة ونظام

* * *

حىّ المهاجر يوم عودته إلى   أرض الحمى ، فى الجند والأعلام
تغشى الجلال وشيدة فى ركبه   والخيل ، كل مطهم بلجام !
آت من الغزوات منصوراً لوا   يغزو ورحته أولى الأرحام . .
أرأيت منتشياً بخمر النصر لم   يسم العدو بميسم الإجرام ؟
يا ويح « نورمبرج » لو قرنت إلى   أحكام « مكة » أبطش الأحكام !
صفح النبى عن الجناة . . فيا له   من غصن زيتون مكان حسام !
لقيته مكة بعد طول خصامها   كالصلح ، جاء بفرحة وسلام
لا تراني الضوء واعتدل الضحى   لقيت زحام قبائل وخيام
عجباً لها ! قد أخرجته مشرداً   فاستقبلته اليوم خير إمام
وأباحت الحرم الشريف لصلت   منه أذل أوجه الأصنام . .

* * *

يأيها العام الجديد ، تحية   لو كنت منصفنا من الأعوام !
طال الطريق ، وأبعدت آمالنا   بين ائتلاف مرة ، وخصام

والكون مزدهر، ونحن بمعزل … عن روضه، والزهر، والأنسام

وتصادمت فيه العقول بعيدة … عن سمتها، كتصادم الأجرام..

إنا عمالقة الحضارة لم نزل … نلق صراع النار.. بالأقلام!

نحن الهشيم إذا العقول تضرمت … أرى هشيما عاش بين ضرام

ياليت ملتمس الزعامة لم يحد … من نور ذاك الشرق البسام

هو أسوة الأجيال في أخلاقه … وكماله، وهداية الأقوام

اللهم العربي .. إلا أنه … هادى الخليقة للوجود السامي

شق الطريق إلى التحرر بادئا … والبدء محتاج إلى الإتمام!

حامد محمد بحيرى

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤١٨ — الثلاثاء ٧ من صفر سنة ١٣٦٦ — ٣١ من ديسمبر سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

حكومة العالم

إن المتفائلين من المصلحين يطمحون أن يكون للعالم حكومة عليا واحدة، والأمم المختلفة — من روسيا وأمريكا وإنجلترا وفرنسا وغيرها — تكون فيها ولايات كالولايات المتحدة تحت حكومتها؛ وأن يكون لهذه الحكومة العليا جيش واحد، وقانون دولي واحد؛ وأن تكون حدودها هي حدود الأرض كلها، وهم يرون أن هذا وحده هو سبيل السلام الدائم.

وهذا تفكير جميل، ومنطق صحيح، ولكنه سرعان ما يصطدم بالواقع عند التنفيذ. فالدنيا لا تحكم بالمنطق الصحيح وحده، ولا بالتفكير الجميل وحده. بل تحكم أيضاً بالغرائز الموروثة، والشهوات المألوفة.

لقد اصطدمت هذه النظرة الجميلة — أول أمرها — بالسؤال الآتي: هل حكومة العالم هذه تتكون من أقوى الدول وحدها؟ وحينئذ ما الذي يمنع من استبداد الأمم القوية بالأمم الضعيفة، واتفاق الأمم القوية على اتخاذ الأمم الضعيفة أسلابا وغنائم؟ وإذ ذاك يتحرك عامل الجشع بين الأمم القوية فتتنافس في التهام الغنائم، وتعود الحالة إلى ما كانت عليه.

أو أن تتكون هذه الحكومة العالمية من أكبر عدد ممكن من الدول كبيرها وصغيرها، كما حدث في عصبة الأمم، وحينئذ يدركها الفشل كالذي يدرك البرلمان الكثير العدد، وتتنافس الدول القوية في الاستحواذ على ممثلي الأمم الضعيفة.

ويأتي — بعد ذلك — سؤال آخر: كيف يتعاون أعضاء هذه الحكومة العليا؟ وكيف تدار شؤون العالم؟ هل تكون الأصوات بعدد الرءوس، لا فارق بين أمة قوية وأمة ضعيفة، فيكون لفلسطين صوت كصوت الولايات المتحدة؟ أو تكون الأصوات بنسبة عدد شعوب كل دولة، فيكون للصين ثلاثة أمثال ما للولايات المتحدة؟

وحتى لو تساوت الأصوات بقطع النظر عن كل الاعتبارات الأخرى — ككثرة عدد الأمة وقلتها، وسعة مساحتها وضيقها — فسيكون لممثلي الدول القوية

كل القوة من حيث الرأى والثقافة والشعور بالقوة ، وسيكون ممثلو الأمم الضعيفة ضعفاء ، كما تؤلف فى حظيرة واحدة أسوداً وذئاباً وشياهاً .

ثم إذا نحن اصطنعنا قوة للتوفيق بين هذه القوى المختلفة ، فما الذى يضمن بقاء التعاون واستمراره ؟ لقد دلت الأحداث على أن هذه الهيئة العالمية كالبحر يهدأ حيناً ويهيج حيناً ، وأن الهدوء لا يلبث حتى يظهر فى الأفق مطمع لدولة من الدول القوية فتنقض عليه غير عابئة بالقانون الدولى ولا بنظام الهيئة العالمية ، ولا بأى قانون أخلاق ، فما الذى يضمن بقاء الانسجام ؟

لقد علمتنا التجارب أن الأمم المتحالفة فى الحرب لا تلبث بعد الحرب أن يتمزق تحالفها ، وكثيراً ما ينقلب هذا التحالف إلى خصومة . وقد حدثت هذه التجربة آخراً كما حدثت أولا ؛ فهذه أمريكا وانجلترا وروسيا المتحالفة بدأت تتخاصم وتكوّن معسكرات ، وتتنازع كثيراً فى الخفاء والظهور . فشيوعية تحارب ديمقراطية ، وديمقراطية تحارب شيوعية ، وتسابق من الجميع على اكتساب الأسواق الاقتصادية ، والسيطرة السياسية ، فما حدث فى العالم أولا حدث أخيراً ، فكيف يتم الانسجام ؟ وكيف يضمن بقاؤه ؟

إن الذى وحدّ بين الأمم المتحالفة أثناء الحرب هو وحدة العداء لمعسكر الآخر ، فإذا انتهت الحرب انتهى العداء وانتهى الخوف من العدو ، فينتهى سبب التحالف ، وتعمل العوامل الجديدة فى حب الغلبة والاستئثار ، فيكون الخصام من جديد ، فلا بد من التفكير فى إيجاد أساس نفسى يربط المتحالفين فى السلم كما ربطهم العداوة فى الحرب ، فما هو ؟

إن أول خطوة يجب أن نخطى فى هذا الباب تقليم أظفار النوازع الشريرة حتى لا تجد ما تعتمد عليه إذا ثارت ، وذلك لا يكون إلا بتجريد الأمم كلها من سلاحها البرى والبحرى والجوى ، وألا يكون شىء من ذلك إلا للحكومة العالمية — شأنها فى ذلك شأن الولايات المتحدة ، فليس لأى ولاية قوة حربية منفصلة ، وإنما القوة الحربية للحكومة العامة التى تحكمها ، وبذلك ضمنت ألا تحارب ولاية منها ولاية أخرى ؛ فكذلك الحكومة العالمية يجب أن تكون هى وحدها المسلحة ، وما عداها يجب أن يكون أعزل إلا بالقدر الذى يحفظ أمنها الداخلى ، فما لم يصنع هذا فالدعوة إلى السلام العام والحكومة العالمية دعوة مقضى عليها بالفشل . ولم يفت الداعين للسلم هذا الحل ، فقد دعوا إلى نزع السلاح منذ عشرات السنين ، ولكن وقفت فى سبيل دعوتهم الأنانية القومية . فهل فى الإمكان أن تتخلى روسيا وأمريكا وانجلترا عن قواتها الحربية وتسلمها للحكومة العالمية ؟ لا يكون ذلك إلا بانقلاب خطير فى الرأى العام العالمى . لقد اقترح البدء بإنشاء « قوة بوليس عالمية » ولكن هذه لا تكفى متى كان عند بعض الأمم قوة تفوق هذه القوة البوليسية ، وستكون هذه القوة البوليسية أداة سيئة للضغط على الأمم العزلاء أو الضعيفة السلاح ، والإمعان فى ظلم القوى للضعيف .

إن الأمم القوية ليست مؤمنة إيماناً قوياً بالعدل المطلق ، ولا بأن الشعوب المستعمرة لها الحق فى حكم نفسها ، ولا برقى الإنسانية من نزعات الحقد والعداء ؛ ولذلك كله تأبى أن تتجرد من سلاحها وتسلمه إلى الحكومة العالمية .

لقد جربت الوسائل المادية كلها فلم تنجح فى نشر السلام وإيجاد حكومة عالمية بمعناها الصحيح ، فيجب أن نجرب الوسائل النفسية والخلقية والدينية لعلها تنجح .

إن العالم كله يتغذى بالوسائل المعنوية من أدب وفن وفلسفة وتاريخ ، سواء فى التعليم فى المدارس أو قراءة الكتب والمجلات والصحف خارج المدارس ، أو الإذاعة أو نحو ذلك ؛ وكلها — إلى الآن — تخدم النزعة الحربية

صورة وترجمتها

من الأساطير الشرقية المأثورة أسطورة بارعة ترسم لنا صورة خلابة فى مظهرها عميقة فى مغزاها . وهى جديرة بأن يرجع إليها الإنسان من حين إلى حين ليستمتع بحسن سبكها ، وليتدبر عمق معناها . فإن كاتبها قد وفق فيها إلى التعبير عن معنى من أقوى معانى الحياة ... ولست أحب أن أتعجل الكلام على المغزى قبل أن أعرض القصة ذاتها . فلأبدأ بسردها ثم أعود إليها لأفك مع القارىء رموزها أو (لأترجمها) كما ذكرت فى عنوان هذه الكلمة .

* * *

زعموا أن مسافرا كان يقطع بيداء مقفرة . فبرز له من خلفه وحش كاسر . جعل المسافر يندفع فى طريقه قدماً لايدرى إلى أية غاية يسير . لأن فكره لم يكن مشغولا إلا بالتماس الوسيلة للفرار من هذا الوحش . فظل يضرب فى البيداء إلى أن وقع فى جب كان فى الطريق . فجثم الوحش من فوقه على حافة الجب . وبذلك سد عليه طريق الخلاص من هذه الناحية . وعرف الرجل أنه لن يستطيع بعد وقوعه فى الجب أن يعود من حيث أتى . وأن هذا الوحش الضارى قد وقف حائلا بينه وبين التطلع إلى الوراء فتطلع إلى جوف الجب ليرى أين يكون موضع قدميه فى خطواته التالية ، فرأى أفعى هائلة قد فتحت من تحته فكيها تأهب لابتلاعه . فظل معلقا وسط الجب بين الوحش الذى من فوقه والأفعى التى من تحته — وبين شقى هذه المحنة الفاجعة . وفى هذا الوضع الغريب الذى رمته فيه المقادير لمح الرجل غصنا نبت بين بعض النباتات القائمة فى جدار الجب فتعلق به . واستروح لحظة ظن فيها أنه نجا من الهلاك الذى حاق به . ولكن يديه ما لبثتا أن تراختا . وأدرك أنه مستسلم حتما بعد قليل أو كثير إلى ذينك الفكين القويين اللذين ما يزالان ينتظرانه فى قاع

والقومية والنعرة الوطنية من قريب أو بعيد ، فإذا تغيرت هذه المناهج كلها لخدمة الإنسانية أمكن تكوين رأى عام إنسانى مكان الرأى العام القومى ، فوجهوا الحكومات إلى نزعة الإيثار بدل الأثرة أو على الأقل الشعور بالعدالة الإنسانية محل النعرة الوطنية .

ولعل هذا ما دعا هيئة الأمم المتحدة إلى إنشاء شعبة ثقافية تعنى — فيما تعنى — بتوجيه التربية وإصلاح برامج التعليم ووسائل تنفيذها ، وتنوير الأذهان ونشر الثقافة فى جماهير الناس ، وتكوين رأى عام يمقت الخصومة ويميل إلى التعاون ويحب أن يعيش فى ظل السلام الدائم للعالم .

ولكن أخشى ما نخشى على هذه الهيئة الروحية أن تكون ذيلا للنزعات السياسية تتأثر بها وتجرى وراءها ، مع أن أزمة العالم ليست أزمة حربية ولا سياسية ولا اقتصادية ، وإنما هى أزمة نفسية خلقية ، فالوضع الصحيح أن يكون الحل بيد هذه الهيئة الروحية الخلقية ، وأن توجه هى السياسة لا أن توجهها السياسة .

ولكن هل فى الامكان أن تكون هذه الهيئة الثقافية التابعة لهيئة الأمم إنسانية بحتة فى سعيها وعملها وصراميها . فلا ينظر الفرنسيون — مثلا — إلى أممهم فى موقفهم إزاء التعليم فى تونس والجزائر ومراكش ، ولكن ينظرون إلى الإنسانية المدنية ؟ ولا ينظر ممثلو انجلترا فى موقفهم فى الهند وغير الهند إلى أممهم وسيطرتها ، ولكن إلى الإنسانية وحدها ؟ ولا ينظر ممثلو روسيا إلى المبادىء البلشفية وحدها ، ولكن إلى الإنسانية التى هى فوق المذاهب السياسية جميعها ؟

إن المتفائلين يرون أنهم — وإن تعثروا فى أول أمرهم وغلبت عليهم المواضعات المألوفة ولم يستطيعوا التجرد منها دفعة واحدة — سيسيرون فى الطريق الصحيح ويتغلبون تدريجيا على ما فيه من عقبات .

أحمد أمين

الجب . فازداد تشبثه بالغصن واحتضانه له . وبينا هو على هذه الحال التي صار إليها إذا به يرى فأرين دائبين حول الغصن لا ينفكان يقرضانه من جذوره . وكان أحد الفأرين أبيض اللون والثاني أسود ، فعجب من أمرهما . وعرف أنه لم يعد يبقى منه تعلقه بهذا الغصن شيئاً . وأنه أصبح محكوماً عليه بالفناء السريع المحقق . وأنه لا مفر له من الوقوع وشيكاً في قرارة الجب لتلتهمه تلك الأفعى الكريهة التي وقعت عليها عينه منذ زلت قدمه وهو يحاول الفرار من ذلك الوحش الذي كان يطارده . وفيما هو يتخبط في ورطته تلك ، إذ استرعت انتباهه قطرات من العسل تتلألأ على بعض أوراق الغصن . فمد إليها لسانه ليلعقها به . ولكن الفأرين اللذين لم يفتآ في القيام بعملهما حول أصل الغصن كانا قد وصلا به إلى نهايته المحتومة فانكسر . وهوى الرجل إلى ذلك الفم المفتوح الذي كان لا بد له أن يصير إليه .

* * *

تلك هي الأسطورة القديمة كما يرويها الرواة .

أما المعنى الذي أريد بها أن تدل عليه فهو تصوير حال الإنسان منذ دخوله إلى هذه الدنيا لحين خروجه منها . فالوحش الكاسر رمز الأزل . . ذلك الأول المجهول الذي لا يعرف الإنسان متى بدأ ولا كيف بدأ . والذي لا يزال يتمخض عن أولئك المسافرين التائهين في بيداء الحياة . الضاربين في فيافيها . الذين لا يعرفون من أين جاءوا ولا يدركون إلى أي مصير هم صائرون . الذين يكدحون في الأرض وهم يحسبون أنهم فيها مخلدون ، فإذا الهاوية تحت أقدامهم . وإذا هم فيها مترددون .

والجب . . . رمز لتلك الحقبة الصغيرة التي يمر فيها الإنسان من الأزل إلى الأبد . من الأول المجهول إلى الآخر المجهول كذلك . وقد تفنن الناس في وضع الرموز لتلك الفترة . فقال بعضهم إنها حلم بين نومتين عميقتين . وقال بعضهم إنها جسر بين بداية لا يعرف لها أول ، ونهاية لا يعرف لها آخر . وإنها برزخ بين عالمين خفيت أسرارهما على كل بصيرة ، وعلى كل عين .

والغصن . . . رمز الحياة التي يتعلق الحي بأسبابها وهو معلق بين الفم الذي لفظه والفم الذي يتهيأ لالتقامه : بين الرحم الذي يدفعه والقبر الذي يبلعه . والناس على جهلهم بأولهم وبآخرهم تراهم لا يطمئنون إلى نشأة ولا إلى مصير ، ويقولون : « رب شر في الجوالق » ولا يقولون : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ولا يثقون إلا بالواقع الذي هم فيه . فتراهم عليه حريصين وبه متشبثين .

والفأران . . . اللذان يدوران حول الغصن يقرضانه هما الليل والنهار ، وهما الآيتان اللتان تنقضان بدوام كرهما عزل الزمان . واللتان تمحوان رويداً رويداً كل ما هو كائن وكل ما قد كان . واللتان لا يرجى مع تداولهما بقاء لأي شيء .

أما قطرات العسل . . . فهي رمز لما قد يصادف الإنسان في دنياه من متاع عارض ونعيم زائل — والقصة وإن كانت لم ترد على أن تذكر أن المسافر مد لسانه ليصيب به من تلك القطرات دون أن تبين إن كان قد أساغها أو لم يسغها — إلا أن الناس في نظر بعض الفلاسفة ينقسمون في موقفهم من هذا المتاع إلى أربعة أقسام . . .

القسم الأول : هم فريق الجهال الذين لا يفكرون في أولهم ولا في آخرهم . والذين يأخذون الحياة كما هي . فإذا ما تعلقوا بغصنها لم يلتفتوا إلى ما في أصل الغصن من عوامل الفناء . ولم ينظروا إلى ما جثم من فوقهم ، ولا إلى ما ربض من تحتهم . وعاشوا في لهو عن حقيقة موقفهم . يشغلون أنفسهم عما هم فيه من ضيق ، وهم معلقون بين السماء والأرض . فإن أصابوا شيئاً من قطرات العسل فرحوا به وظلوا يترقبون المزيد منه ، حتى يفجأهم الموت فيضع حداً لغفلتهم وعدم انتباههم .

والقسم الثاني : هم فريق (الأبيقوريين) الذين يعلمون أن لا رجاء في هذه الحياة الدنيا وأنها فرصة سانحة وسحابة عابرة . وأن الساعة آتية لا ريب فيها . ولكنهم مع ذلك يرون من الحماقة أن يشغلوا أنفسهم بهذه الخاتمة المحتومة . ولذلك فإنهم يقبلون على متع الدنيا ولذائذها فينعمون بها

ويتقلبون فى أعطافها . ويعتصرون كل ما فيها ويتشاغلون من مستقبلهم بحاضرهم . ويشيحون بوجوههم كلما لاح لهم شبح من أشباح الفناء التى تطل عليهم من فوقهم وترنو إليهم من تحتهم . لينغمسوا فيما هم فيه وليتفننوا فى استنباط المزيد من هذه المتع حتى تأتى النهاية التى لا يعرف لأحد عنها ، فيذهبون إلى حيث ذهب الأوائل وإلى حيث يذهب الأواخر !

والقسم الثالث : هم فريق المتشائمين الذين لا يرون فى الحياة إلا أنها شر محض . وعبث محض . وأن الموت خير منها . وأن من هوان النفس أن يتشاغل الإنسان بقطرات من العسل من ذلك الأول البهم ومن هذا الآخر المظلم . من الوحش الرابض فوق الجب . ومن الأفعى المقعية فى قاعه — من الغصن الضعيف الذى يتعلقون به ومن الفأرين الدائبين فى قرض منبته . فيدركون سخف النكتة التى يسخر القدر بها منهم ، ويعملون بأنفسهم على الخلاص من هذا المأزق بالوثوب عمداً فى فم الأفعى ، والارتماء بين فكيها !

والقسم الرابع : هم الذين يرون حقيقة الموقف ، لا يأخذهم جهل الفريق الأول عما يحيط بهم من عوامل الفناء . ويرون قطرات العسل . ولكنهم لا يستسيغون طعمها ، كما يفعل أهل الفريق الثانى ، ما داموا يرون ما يتربص بهم من فوقهم ومن أسفل منهم . وهم يتشبثون بغصن الحياة ، على عكس ما يفعل أهل الفريق الثالث مع علمهم بأن أمرهم صائر حتما إلى زوال قريب وإلى فناء محقق !

* * *

ومن حق القارئ بعد هذا البيان أن ينظر إلى هذه الأقسام ليعرف أين هو منها . فإن كان لا يجد لنفسه مكانا فى واحد بعينه من هذه الألوان ، فليبحث فى أيها يستطيع أن يتعرف على بعض نفسه . ثم لينظر فى هذه الطوائف من الناس . وليحكم على أسلوب كل واحد منهم فى الحياة ، ليعرف أيهم الشقى وأيهم السعيد — ثم ليعدل فى موقفه إن كان فى حاجة إلى تعديل ، ليكون قد أفاد من خبرة الأولين حكمة . ومن دراسة نفسه علما . ومن معرفة الناس سعادة .

حسن جمزل

العقيدة والسلوك

من أبيات الشعر التي حفظناها في الصغر قول أبي الأسود الدؤلي في إحدى قصائده :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وهو بيت من الشعر التعليمي لا يخلو من الجفاف الذي يلازم أكثر هذا النوع من الشعر ، ولكنه مع ذلك ينطوي على فكرة تستحق العناية ، ويشير إلى ذلك التناقض الملحوظ في سلوك الناس وسيرهم بين القول والعمل والعقيدة والسلوك . وكنت وأترابي في المدرسة نكثر من التمثل بهذا البيت ونرديده في شيء من الكبرياء والتعالي والثقة بالنفس كلما رأينا من أحد إخواننا مخالفة لما كنا نعتقد أنه اللائق . أو خروجاً على المألوف ، وكأننا كنا نهدده ونحذره عاقبة هذا العار العظيم الذي سيلحقه ويدمغه من جراء هذه المخالفة . ولست أشك في أن أكثرنا لما تقدمت به السن وكثرت تجاربه والسعت معرفته عرف أن هذا التناقض من الأشياء العامة الشائعة ، وأنه أعظم بكثير مما كان يظن ، وأنه لو كان حقاً يجلل الناس بالعار لكانت المرات التي تصيب الناس لا تعد ولا تحصى .

ولا نزاع في أن الكثيرين يبذلون جهدهم للمطابقة بين أعمالهم ومعتقداتهم ، ولكن الظروف في أكثر الأحايين أقوى منا ، ولا قبل لنا بمقاومة تيارها الجارف ، أو نقض حكمها الصارم ، وأكثر من تأخذ عليهم هذه المخالفة من ضحايا الظروف القاسية والأحوال السيئة .

وكثيراً ما يطيب لنا الحديث من أخلاق الناس وطباعهم ، والكشف عن عيوبهم ومخازيهم ، وأكثر ما يدور هذا الحديث على ما نعرفه من التناقض بين ما يتظاهرون به ويدعونه وما يصدر عنهم من الأعمال والتصرفات ؛ فهذا رجل يدعي البسطة في علم الاجتماع ولا يطيق أحد الاجتماع به لتحذلقه وثقالته . وذاك يدعي التقوى والتفقه في الدين ولا نستطيع أن نأتمنه على شيء . ويطول بنا القول لو أخذنا في تعديد الأمثلة . والواقع أننا نكثر من الخوض في أمثال هذه الأحاديث لندل على أننا أسمى من أشباه هؤلاء الناس ، وأحسن مخبراً ، وأن أعمالنا تطابق أقوالنا ، فهيهات أن يرقى إلينا العار أو تعلق بنا الشبهة .

ولكننا لو أطلنا التفكير في أحوال الناس ، وأبعدنا النظر ، وجدنا ما يستوجب العذر ، ويستدعي مجافاة الغلو في التنقص والذم ، وأوفر الناس خليقة وأقلهم تسامحاً يستطيع في ساعات صفائه وهدوء ثورة أحقاده أن يدرك عمق الحكمة القائلة إن أعلم الناس أعذرهم للناس ، لأنه كلما اتسعت معرفة الإنسان واستفاضت تجاربه أدرك عجز الناس تلقاء عنف الظروف التي تحيط بهم ، وخير ناصح للانسان في أمثال هذه الأحوال هو تجاربه الخاصة وأحاسيسه الفردية . ولو فكر كل إنسان منا في نفسه لوجد أنه يسكن في بيت من زجاج ، ولكنه مع ذلك يقذف الناس بالأحجار ، لأنهم ناقضوا أنفسهم ، ولم يستطيعوا الوفاء بعهودهم والثبات على مبادئهم . ولعل أقسى ما تعلمنا التجارب هو أننا لا نستطيع أن نكون في جميع الأوقات مخلصين لأنفسنا مثبتي الحوزة شديدي الشكيمة ، وفي بعض الأوقات ترغمنا الظروف على أن نعترف لأنفسنا بأن تحقيق مثلنا العليا واتباع مبادئنا السامية وهم لا سبيل إلى تحقيقه ، مثل طلب السعادة وما إليه من المستحيلات الممتنعة ، وحياة أجلنا وأفضلنا وأسدنا رأياً وأعقلنا لا تخرج من كونها سلسلة متتابعة من المساومات ، ومصانعة الظروف ، ومصابرة الأحوال ، ومداورة الأيام ، وهي فكرة تغضب ضمائرنا ، وتؤلم نفوسنا ، وتنال من كبريائنا ، ولكنها تروي قصة الواقع بلا مواربة ولا ترصيع .

ولا فائدة من لوم الأقدار ، والعتب على الأيام ، لأن الأقدار صماء صلخاء ، والأيام بكماء عمياء ، وهما كالموت في قول المتنبي :

وكن كالموت لا يرثي لباك بكى منه ويروى وهو صاد

ومن غير المرجو بطبيعة الحال أن تعم هذه النظرة ، ويسود هذا الرأي ! ويسرني أن يكون المخالفون فيه كثيرين على شريطة أن يصدقوا في إقناع أنفسهم ، وإذا تيسر لهم ذلك فسأتولى عنهم إقناع نفسي برأيهم ! ولا نزاع في أن الشباب المتحمس يرفض في شيء من الاستعلاء مثل هذه النظرة ، ولا يقر أمثال هذه المساومات ، ويأبى إلا المطابقة التامة بين الأقوال والأعمال ، والمبادىء والاتجاهات ، والعقائد والسلوك ، وهي غيرة محمودة ، وحماسة مشرفة ، وثقة بالنفس مشتعلة متوثبة ، وهم غير مستعدين لإخضاع العقيدة لحكم الضرورة ، بل على الضرورة أن تذهب لشأنها وتختفي أمام قوة العقيدة وسلطانها ، وهم يتمردون على الحقائق القاسية التي لا تلين ، ويحاولون زحزحتها أو النيل من صلادتها ، وليس عجيباً في هذه الحالة أن يسخروا بالمتقدمين في السن ويضيقوا بهم ذرعا .

وهذا الخلاف بين وجهة نظر الشباب والمتقدمين في السن مصدره أن المساومة والمهادنة والنزول على حكم الواقع تجيء مع تقدم السن ، وتصحب انطفاء جذوة الحماسة ، وهذا ما تدلنا عليه التجربة العامة ، والإنسان كلما علت سنه قل ميله إلى تحدي التقاليد ، وهدأت ثورته ، وأصبح يروي ويتمكث قبل أن يثب ، ويقدر الخطو ويقيسه قبل أن يخطو ، ويزن الكلام قبل أن ينطق ، والشباب يرون في ذلك فقدان النخوة ، ووهن العقيدة ، وهبوط المثل الأعلى ، وضعف الحماسة الأخلاقية ، ويعللونه بأن الرغبة في الراحة والمتعة أو الحرص على الحياة الوادعة الآمنة المطمئنة قد تغلب على التحمس للحق ، ورفع علم المثالي ، والاستمساك بالعقيدة ، والمتقدمون في السن لا يقفون جامدين تلقاء هذا الاتهام ، بل يردون عليه ، ويفندونه ، ويقولون إن المسألة ليست مسألة الشجاعة المتوثبة إزاء الإحجام المتقاعد ، وإنما هي مسألة المعرفة الناضجة تلقاء الجهل الغرير ، والحكم القائم على الخبرة الواسعة أمام التقدير السريع الناقص ، وقد يخطو الشاب المتهور حيث يمتنع الرجل الخبير الحكيم ، وليس معنى ذلك أنه خير من الحكيم وأصلح للدنيا ، وإنما معناه أنه لا يقدر العواقب ولا يحسن وزن الأمور .

وهذا هو الخلاف بين نظرة الشباب ونظرة الشيوخ ، وليس هناك ما يدعو إلى اشتداد الخصومة ، وإثارة الإحنة وإراقة الدماء ، فالاندفاع الجرئ شيمة الشباب ، وعلامة الحيوية المتدفقة ، ولولا همة الشباب وجرأته وتقحمه لأعوز الدنيا عامل هام من عوامل المخاطرة ، وعنصر له شأنه من عناصر الحماسة واليقين . والشيوخ الحكماء حتى في أوقات تألمهم من قسوة الشبان عليهم وزرايتهم بهم هم أول من يسلمون بذلك ، ويقدرون هذا الطرف المخفف ، على أنه يجمل بالشبان في الوقت نفسه أن لا يكثروا من الإعجاب بالشباب الذي يختالون في برده ، فهو ليس دائم الجدة ، ولا مخلد الريعان ، وسرعان ما يطوى برده ، ويتولى عهده . والأطفال الذين يرضعون الآن في المهد قد يعيشون ليحكموا عليهم بالخرف والعته بعد أن تبيض شعورهم وتتقوس ظهورهم ، ويحسن بالشيوخ كذلك أن لا يسرفوا في الكلام عن حكمة الشيخوخة ، وتجربة السنين الطويلة ، فقد يعيش الإنسان سنوات طويلة ومع ذلك لا يفيد من التجارب ، ولا يظفر بالحكمة . وأبو تمام يقول من الأيام :

حلمتني زعمتم وأراني قبل هذا التحلم كنت حليما

والمتنبي يتبع أثره ويقول :

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

وقد يتورط الشيوخ فى أخطاء لم يستهدفوا لها فى إبان شبابهم ومستهل حياتهم .

على أن مسألة الملاءمة بين سلوك الإنسان ومثله العليا ليست مقصورة على تقريب وجهات النظر المختلفة بين الشبان والشيوخ ، وإنما هى مشكلة عامة تواجه كل إنسان له عقيدة يحترمها ، ويعمل على اتباعها ، ولا نزاع فى أن هناك قوماً لا تشغل بالهم كثيرا هذه المشكلة ، وهم يعيشون فى جنة الغباء واللهو ، وليس لنا أن نغبطهم كثيراً على ذلك ، وما أفقر حياة الذى لا يعيش لأجل فكرة أو مبدأ وأفقرها !

وعناية الناس بمسألة السلوك والموازنة بين الأعمال والمعتقدات تدل على تأصل النوازع الأخلاقية فى الإنسان ، وعلى أن فى نفس كل إنسان معياراً خاصاً للاستقامة الشخصية ، وهزيمة الإنسان فى معركة الملاءمة بين العقائد والسلوك من الهزائم المشرفة من وجوه كثيرة ، وخير للإنسان أن يحارب ويجاهد ويهزم من أن يحجم عن الحرب ، ومع ذلك فإن كل إنسان أقدر من غيره على الحكم فى مسائل التناقض بين الفكر وأسلوب الحياة ، لأنه أعرف بقوة الدوافع المختلفة التى تتضارب فى نفسه وتحاول الاستئثار به .

وهناك طبقة خاصة من الناس يتهمون على الدوام بالتناقض بين الأقوال والأعمال ، ومعظم هؤلاء الناس من السياسيين وأمثالهم ممن تكون أعمالهم معروضة دائماً على الرأى العام . وكثيراً ما نلقى قوماً يزعمون ويتفخرون لأنهم أقوياء المبادئ ، لا يعرفون التقلب ولا انتهاز الفرص ، ويدعون أنهم يسيرون على المبدأ ، ولا ينحرفون عنه . ويلاحظ فى أوقات كثيرة أن الذين يكثرون من هذه المفاخرة ، ويشتدون فى نقد غيرهم ، ولا يترفقون به ، لا يظهرون شجاعة فوق المألوف إذا اختبرتهم الظروف .

فهل هناك أساس للتفريق بين سلوك السياسيين وسلوك سائر الناس ؟ وهل السياسيون وحدهم هم الذين لا تطابق أعمالهم أقوالهم ، وتنكر تصرفاتهم عقائدهم ومبادئهم ؟ أليس من المحتمل أن يكون سبب هذا الفرق هو أن أعمال السياسيين مكشوفة لنظر الجمهور معروضة على الرأى العام فى حين أن أعمال أكثر الناس لا يطلع عليها الجمهور ولا يعرفها الرأى العام ؟ لا نزاع فى أن المسألة جديرة بالنظر ، ومهما يكن من الأمر فإن أكثر السياسيين قد استهدفوا لتهمة الانحراف عن مبادئهم ، وخيانة مثلهم العليا ، وتنكرهم لعقائدهم ولزمتهم السمعة البغيضة .

ولكن يا ترى ماذا يحدث لو وضعت أمور الناس جميعاً موضع الاختبار ، وعرضت تحت الجهر والنظار ؟ ولنفرض أن الحياة الخاصة لأكثر الناس سلط عليها ضوء كاشف ، وأن أعمال رجال الأعمال والعلماء وسائر طبقات الناس بحثت وحللت فماذا يكون ؟ أليس من المحتمل أن تذاع وتملأ الأسماع أشياء كثيرة تخدش السمعة ، وتمس الثقة ، وتلاشى الإعجاب ، وتوهن الاعتقاد ؟ أرجح أننا سنجد أن هؤلاء السياسيين الذين نحمل عليهم ، ونفرى فريهم ، ليسوا أسوأ حالا من غيرهم ، ولا أجرأ على التناقض من سواهم من الذين يلعبون دورهم فى الخفاء بعيداً من الأنظار .

والحقيقة أن الإنسان لا يقع فى التناقض بين ما يعتقد وما يفعل إلا بعد أن تقوم فى نفسه معركة رهيبة عنيفة بين مختلف النوازع والبواعث . والإسراع فى الحكم على أمثال هذه التناقضات لا يخلو من شدة وقسوة ، لأننا قد نجهل تمام الجهل العوامل التى رجحت باعثاً من البواعث وجعلته ينتصر على سائرها ، والذين يشتطون فى لوم الناس ويرمونهم بالضعف لا يقدرون خطورة هذه المعركة .

وكثيراً ما يثور الخلاف على الوسائل بين أصحاب المبدأ

تطورات المستقبل

وفضل النساء فيها

قرأت نبوءة المستقبل فى كتاب العلامة فلاماريون ، قد يكون تحقق بعضها فى فترة وجيزة ما بين الحربين العالميتين، إذ يقول فى نبوءته إن عدد سكان الأرض فى سنة ٣٠٠٠ سيبلغ ألفاً وأربعمائة وخمسين مليوناً ، وستتحور اللغات ، ويدخل عليها مصطلحات وألفاظ جديدة دعت إليها ظروف التقدم فى العلوم والصناعات . وإن اللغة الإنجليزية قد انتشرت فى كل بقاع الأرض بحيث أصبحت اللغات مزيجاً منها واللغات الأخرى، وقال: كثيراً ما حاول الناس إيجاد لغة عامة للبشر ففشلت محاولاتهم .

وقال : قبيل انبلاج صبح القرن الخامس والعشرين اختفت الحرب من النطق البشرى ، فلم يعودوا يفهمون كيف أن جنساً عاقلا يقبل طائعاً مختاراً أن يضع على عاتقه نير الهمجية والوحشية ، وأن ينزل إلى أسفل دركاتهما ، بل التأمل من أهل هذه العصور الراقية فيما صورته ريشة الفن من ألواح تمثل الهمجية ، لا يكاد يصدق أن هذا الجهل وهذا الضلال استوليا زمناً طويلا على الجنس البشرى المسكين الذى انتهى أخيراً إلى سن الرشد . ومن هذه الألواح ما يمثل صورة رمسيس الثالث فى مصر تلقى أمامه أوصال المغلوبين مقطعة لإحصائها بالمئات والألوف ، أو ملك آشور يبتر ألسنة البابليين أو يخوزق السوسيين ، أو قيصر روما يقطع أيدى أسرى الغال بالفؤوس ، أو نيرون يمثل بالنصارى ثم يحرقهم أحياء ، أو تحريق فيليب الثانى للهراطقة بإسبانيا ، أو ضحايا محاكم التفتيش أو دفن الصينيين المحكوم عليهم فى التراب للأعناق ثم تطلى رؤوسهم بالعسل ، ويتركون للذباب ، أو جان دارك تموت حرقاً ، أو مارى استوارت ورأسها على الوضم ، أو الذين ماتوا على مشنقة الثورة ، أو جنود نابليون مطروحين موتى بالعراء على جليد روسيا ، أو المدن المضروبة بالقنابل ، أو الوقائع البحرية ، أو الجنود الذين يحصدون حصداً بفعل المفرقعات .

وأخذ الناس يفهمون أن تنازع البقاء ليس معناه أن يذبح الإنسان أخاه الإنسان ، وأن معناه هو فتح كنوز الطبيعة ، ورأوا أن تراث الإنسان يضيع فى هاوية لا قرار لها

الواحد ، ومصدر هذا الخلاف الذى لا يمس الجوهر هو تباين وجهات النظر الفكرية الخالصة ، ولكن هذا الخلاف مع ذلك قد يهيج عاصفة من السب والقذف ، وقد يصل الخلاف إلى الاعتداء والقتل ، وكراهة حرية الرأى المخالف من السمات الأخلاقية الواضحة ، وحرية الفكر الحقيقية لم يألفها العالم بعد .

وليس من حق الناس أن ينتقدوا سيرة المخالفين لعقائدهم ويتهموهم بالتناقض إلا إذا كانت حياتهم متجاوبة مع عقيدتهم ؛ وكم عدد أمثال هؤلاء بين الناس ؟ عددهم جد قليل فى كل عصر ، والإنسانية تقدر التضحية التى يقوم بها أمثالهم فتحلهم من نفوسها أسمى محل ، وتضن بذكراهم على النسيان ، ولكن الرجل العادى يجد الملاءمة بين العقيدة والسلوك من وراء قدرته ، ومع ذلك يحاول الناس أن يحشموه ما لا يطيق ويقيسوه بمقاييس الأبطال والشهداء .

ولست أقصد بذلك أن أسوغ الوصولية والانتهازية والتقلب والذبذبة ، ولكنى أمقت الرياء والنفاق والادعاء . وما أرمى إليه هو الاعتدال فى الحكم على الناس . ولعل أقل الناس براعة هو أبرعهم فى الاتهام ، وتشويه السمعة ، والقذف بالأحجار .

على أدهم

من الجيوش المستعدة المرابطة ، وأن التجنيد الإلزامي إنما هو قتل للحرية ، وإعادة لعهد الاسترقاق .

وقال : لما سئمت الأمم من حكامهم البالين بالحرب خرجوا عليهم واقتتلوهم حتى ماتوا وحنطوا جثثهم كأثر تاريخي في أكس لاشابل حول قبر شارلمان للذكرى .

واعترف الجميع أن العسكرية داء عضال بعد أن تحولت الدول إلى اتحادات ، وشبهوا العسكرية في زمن السلم بالحشرات الطفيلية التي تنخر في جسم غيرها ؛ هذا إلى أنها تنهك الأمم ، وتزيد في النقم ، وأما في زمن الحرب فإنها تمثل اللصوصية والقتل المشروع (في نظر العسكريين) والحق الهمجي أعني حق القوة . وإنها نظام مبني على الجهل ومنطوٍ على الطاعة العمياء لأوامر نفر من السياسيين كل همهم المتاجرة بالبلاهة البشرية ، واستغلال تقدم العلوم الكيمائية والميكانيكية والملاحة الجوية في تقوية آلات الدمار .

ويشجع البعض بأن الحرب ناموس الترقي ، مع أن الإحصاء العلمي يقول إن الحرب تقط رقاب أربعين مليوناً من البشر في القرن ، أي بمعدل ألف ومائة من الآدمي في اليوم الواحد ، باستمرار مطرد وبلا رحمة ، وأن عدد أشلاء القتلى في ثلاثة آلاف سنة بلغ ألفاً ومائتي مليون من الجثث البشرية، بخلاف ما تكلفته الحروب من أموال طائلة. ويدعي البعض أن الحرب كالحجامة في الجسم لا بد منها للمجتمع لإهراق الدم منعاً لتكاثر عدد السكان ، ونسوا أن هذه الأرض تستطيع أن تغذي عشرة أمثال من فتكت بهم الحروب .

وكانوا يعززون فكرة الحرب بأباطيل تغلبت عليهم باسم الوطنية الكاذبة . ويرجع الفضل في نجاة الجنس البشري للعاطفة النسوية ، حيث قامت امرأة ذات قلب وأوحت إلى بنات جنسها بفكرة التحرر والشعوب من هذا التيار الجارف، فتعاهد النساء على تربية أولادهن ، ولا سيما البنات ، على استبشاع الهمجية العسكرية ، ونشرن الفكرة في الحادثات والسمر والمحفوظات والمطالعات ، فكن يظهرن في كل مناسبة عناد الرجال وبطلان الحجج التي تدفع بالأمم إلى محاربة بعضها ، وخدع الساسة الذين يستغلون كل شيء لإيقاد جذوة الوطنية وتضليل العقول ، وأن ما أسموه التوازن الدولي لم يتحقق أبداً ، فهو دائماً مضطرب ، وأن الحرب لا تثمر غير خراب الشعوب ، وأن الحرب ما أسفرت إلا عن تأيم النساء، وتيتم الأطفال وانتشار الشقاء .

فأثمرت هذه التربية الصحيحة في جيل واحد ، وتحرر الإنسان من رق تلك الحيوانية الأكالة للحوم البشرية ، وأنشأت الجيل الجديد على البغضاء والكراهية لكل شيء يذكر بالهمجية القديمة . وكان نساء العالم قد حصلن على حق الانتخاب فصرن ناخبات ومنتخبات وصرن يصوتن ضد ميزانية الحرب . ولكن بعض الرجال نسوا وعودهم أو تناسوها طواعية لرؤساء الكتل البرلمانية ، بحجة ضرورة حفظ كيان الدولة ، فاستمر التصويت لميزانية الحرب في كل سنة ، فرأى النساء أن العسكريين في كل الأحزاب سواء في حب التلبس العسكري ، فأقسم العذارى فيما بينهن ألا يتزوجن برجل ممن يحمل السلاح حالا أو استقبالا ، وأضربن عن الزواج وبررن بأيمانهن .

وكان هذا التحالف صعبا على قلوب العذارى . ولولا خشية الازدراء لحنثت القلوب ولأجابت داعي الهوى ، وقد حصلت بعض الفلتات ، ولكن الزوجين رأيا نفسيهما منبوذين نبذ الكلاب الضالة أو نبذ المرتد عن دينه ، فقلت الحوادث من هذا القبيل وأصبح من المستحيل مقاومة التيار .

وصار السائر في الشوارع يرى على الجدران عبارات تدعو إلى السلام العام كعبارة (المتحاربون سفكة ولصوص) ومضت خمس سنين لم يحصل فيها عقد زواج ، ومضى النساء في عزمهن ، وكان جوابهن لكل رجل يبث هيامه أو يشكو غرامه جواباً مجمعاً عليه : « لا . لم نعد بحاجة إلى الحل » .

وكان خطيبات البرلمانات يطلبن في كل دور من أدوار الانعقاد (نزع السلاح) ، وفي السنة الخامسة لما رأى الرجال مناعة الحصن النسوى ، هب نواب برلمانات العالم ونحوا النساء في طلب نزع السلاح ، وتقرر في أسبوع واحد نزع السلاح في كل دول أوربا تقريباً ، وظفرت أوربا بالقضاء على المبادىء الفاسدة القديمة .

ولم تحدث أى ثورة ، وتتابع الرواج فيما عدا الروسيا وانجلترا ، فظلتا بمعزل عن الحركة ، لأن رأى نسائهما لم يكن إجماعياً ، ولكن أخيراً انضمت الدول لبعضها ، ولحقت بها الدولتان المذكورتان وانضمتا إلى فكرة نزع السلاح التدريجي في عشر سنوات وألغيت وزارات الحرب .

وكان هذا في منتصف القرن الرابع والعشرين ومن ثم تلاشت فكرة الوطنية ، الفكرة الضيقة الخاطئة ، وأخذت مكانها فكرة أخرى أوسع وأسمى ، فكرة الإنسانية ، وحل الاتحاد الدولي الراقي محل التوحش الدولي المنحط .

ولم يبق من النظم العسكرية إلا الموسيقى ، وقد احتفظت كل أمة بعيشها المحافظة على هذا النظام السار المتألق .

وأعقب ذلك الخلاص تفشى الحرية في الجنس البشرى وبدأ يتذوق لذة الحياة ، وآل ذلك في النهاية إلى اطراد التقدم الاجتماعي والعلمي والفني والصناعي .

ولما كانت الضرائب التي استحدثت من القرن العشرين حتى على الهواء الذى يتنفسه الإنسان كادت تقرب من كسب الإنسان ولا يبقى منها شيء بعد القوت اليومى ، وبسببها وقف دولاب العمل مرة واحدة لأن المعيشة أصبحت مستحيلة ، فكان هذا سبباً في الثورات ، ولكنها لم تكن بلسما شافياً ، بل الفضل كل الفضل للحركة النسوية وبفضلها حلت المزارع في كل مكان ، ونزل سعر فائدة القروض إلى نصف في المائة ، واحتفى كبار حملة السندات المالية ، ولم يبق شيء اسمه حدود بين البلدان المختلفة ، وألغيت الجمارك ، وأصبح لا ديون عمومية ولا جيوش ولا أساطيل ولا مكوس ، وأصبحت البيئة نظيفة وبات المجتمع بسيط التركيب .

وفي القرن الخمسين ظهرت مخترعات عجيبة ، وأصبح كل شيء يدار بالكهرباء ، واستخرجت كل المواد الغذائية من الهواء ، وصارت الأزهار دائمة التفتح ، وابتدأ في القرن الستين نماء المجموع العصبي ودقة حساسيته بدرجة لم تكن منتظرة ، وازدادت مادة المخ ، وقل نمو سائر الجسم ، واختفى المبالغة فنمت القوة الفكرية .

وفي القرن المتمم المائة صارت الأجناس كلها جنساً واحداً رقيقاً أبيض البشرة ، وتقلص ظل الهمجية من على ظهر الأرض .

وأعتقد أنا أن هذه هي الجنة ، والله أعلم العالمين .

الدكتور محمد زكي شافعي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٦٢٧٦٩
القاهرة

زهد أبي العتاهية

اتجاهاته ومصادره

يَسُوم أبو العتاهية نفسه ورعاً تصدقه، فينهاها النقص عن ذاك الورع؛ ويقصد إلى خصال الخير فلا يزال يجد له من نفسه ضداً معانداً يثبطه عنها إذا ما نواها؛ ويكره لقاء الحِمام، ولكنه يدرك أن لا بد لحي من لقاء الحمام، ويعجب للدنيا فيما خلقها الله عليه، فمادحها صادق وعائبها، والمرء ما دام فيها لا ينفك من حاجة يطالبها، وكلما يكثر الذمة لها وكل بحبها مفتون، فما منا إلا معنيٌّ مبتلى بمطالبها وسلبها، وبعدها وقربها، وبغضها وحبها، فإن لم يمن المرء فيها بقناعة ضاقت عليه برحبها.

وإذاً فالقناعة بالكفاف هي الغنى، والفقر عين الفقر في جمع المال، ومن لم يكن بالكفاف مقتنعاً، لم تكفه الأرض كلها ذهب، فالحرص لوم ومثله الطمع، وما اجتمع الحرص قط والورع، وليس الحريص بزائد في رزقه، فالله يقسمه له ويسببه، وما طاب عيش حريص قط، ولا فارقه تعس ولا نصب، وإذا المرء لم يقنع بعيش تقنع بالذلة والصغار، وفي الصبر والقنوع غنى الدهر، وحرص الحريص فقر مقيم؛ وأنت أغنى العباد ما كان لك كن وما كان لك معاش يسير، فأي شيء تبقى إذا كان لك ظل وقوت حل وثوب ستير!

كل هذا يقرره أبو العتاهية في قوة وبساطة وإقناع، ولكنه يقرر معه أن الرق والحرص والهوى فمن لم ينج منها عجم ولا عرب، والناس ليسوا إلا للكثير المال، ولسلط ما دام في سلطانه.

يعظمون أخا الدنيا فإن وثبت
عليه يوماً بما لا يشتهي وثبوا
لا يحلبون لحيّ درّ لقحته
حتى يكون لهم صفو الذي حلبوا

وإذا قل مال المرء قل صديقه، وضاقت به عما يريد طريقه، وقصر طرف العين عنه كلالة، وأسرع فيما لا يحب شقيقه، وذم إليه خدنه طعم عوده، وقد كان يستحليه حين يذوقه.

المال — إذاً — ليس شيئاً يشنأ ويبغض لذاته، وهو إذا جاء من حله كان قواماً للعرض والوجه واللسان، والفقر ذل عليه باب مفتاحه العجز والتواني. وليس سؤال الناس مكروهاً لذاته، ولكن لما فيه من الذلة والصغار، وبذل الوجوه إلى الرجال؛ فإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً فابذله للمتكرم المفضال، فإن الشريف إذا حباك بوعده أعطاكه سلساً بغير مطال. وأبو العتاهية لم يستنكف أن يسأل أمثال هؤلاء أيام كان الرجال كراماً في النائبات، تعطي أكفهم الجزيل، ولا يضيع لديهم الذمام؛ ولكن الحياة تأخرت به إلى زمن هلك الأرامل فيه والأيتام، وتحامى سراته المكرمات حتى كأن المكرمات حرام؛ وقنع العاقل فيه برغيف خبز يابس يأكله في زاوية، وكوز ماء بارد يشربه من صافية، وغرفة ضيقة تخلو فيها نفسه، أو مسجد بمعزل عن الورى يدرس فيه دفتراً، مستنداً بسارية، معتبراً بمن مضى من القرون الخالية. ومن الجائز أن يكون ذلك هو الزمن الذي غلت فيه الأسعار وشحت الحاجيات أيام الرشيد، حتى اضطر أبو العتاهية أن يوجه إلى الخليفة فيه نصيحته المشهورة:

من مبلغ عني الإما　　م نصائحاً متواليه
إني أرى الأسعار أسـ　　ـعار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزرة　　وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غموم الدهر را　　ئحة تمر وغاديه
وأرى المراضع فيه عن　　أولادها متجافيه

وأرى اليتامى والأرا مل فى البيوت الخاليه
من بين راج لم يزل يسمو إليك وراجيه
يا ابن الخلائف لا فقدت ولا عدمت الباقيه
إن الأصول الطيبا ت لها فروع زاكيه
ألقيت أخباراً إليك من الرعية شافيه

نشاعرنا — كما ترى مما سبق — يبدو على سجيته فى موقفه من المال والجاه، وفى وساطته بين الرعية والراعى، وقد كان الناس يعرفون هذا فيه، فيشكون إليه أحوالهم وخيبة آمالهم. وتلك ظواهر يجب أن نفطن لها حين نبحث زهد أبى العتاهية؛ فهو زهد ليس فيه شطحات، ولكنه زهد قريب من واقع الحياة اليومية، لا يمنع صاحبه أن يعيش وأن يجمع المال، وأن يضن به أحياناً، وأن يحرص على المشاركة فيه متى أمكنت؛ وربما سار «أبو العتاهية» فى مسلكه العملى مع هذا الحرص شوطاً بعيداً: روى صاحب الأغانى أن عامل الرشيد وافاه بمال عظيم من بقايا الخراج من ناحية الموصل، فأمر الرشيد بصرف المال أجمع إلى بعض جواريه، فاستعظم الناس ذلك وتحدثوا به، قال راوى الخبر فرأيت أبا العتاهية وقد أخذه شبه الجنون، فقلت له: مالك ويحك! فقال: سبحان الله! أيدفع هذا المال الجليل إلى امرأة ولا يعلق كفى بشىء منه! ثم دخل إلى الرشيد بعد أيام فأنشده:

الله هون عندك الـ دنيا وبغضها إليكا
فأبيت إلا أن تصغر كل شىء فى يديكا
ما هانت الدنيا على أحد كما هانت عليكا

فأمر له الرشيد بعشرين ألف درهم، وزاد عليها الفضل بن الربيع من عنده خمسة آلاف. وقد لفت هذا الحرص على المال معاصرى أبى العتاهية، وعجبوا له يزهد الناس ولا يزهد، وزادوا فاتخذوا من هذا الخلف بين القول والعمل مادة للتندر والتشنيع، بل لاتهام الشاعر بالمراءاة والزندقة. ولكن أبا العتاهية لم يجد فى ذلك حرجاً، وقد ظل يطلب العطايا ويقبلها حتى فى أواخر حياته، وكان لا ينفك يتهم الناس بالبخل حتى ليقول:

فاضرب بطرفك حيث شئـ ـت فلن ترى إلا بخيلا

فإذا راجعه فى ذلك مخارق، وقال له: أفرطت يا أبا إسحاق! كان رده عليه: فديتك فأ كذبنى بجواد واحد!

هذا القرب من واقع الحياة، والصدق فى تصوير النفس، وحالها بين الرغبة والزهد، أو ثنائية موقفها — إذا صح هذا التعبير — ظاهرة لها جمالها وأهميتها فى تفكير أبى العتاهية، وهى تكاد تكون مطردة فى بقية عناصر زهدياته وتعاليمه: فهو يذم فساد الزمان وغدر الإخوان، ولكنه ينكر عليك أن تطلب صاحباً لا عيب فيه، فأى الناس ليس له عيوب! والناس إلا القليل منهم قد أصبحوا ذئاباً، ولكنه ينصح لك أن تسامحهم وتفشى معروفك فيهم، وتعاملهم برأى رفيق، وتلقاهم بوجه طليق؟ وهو مع زهده فى الحياة يحب من الإخوان كل مؤات، وفىّ يغض الطرف عن عثرات صاحبه، ويرافقه فى كل خير يريده، ويحفظه حياً وبعد مماته.

وقد يكون من طبائع الأشياء أن يرحب الزاهد بالشيب ويتناسى ما كان له أيام الشباب من كبوات وصبوات. ولكن أبا العتاهية يبكى على الشباب بدمع عينيه، ويأسف عليه، إذ نعاه الشيب والرأس الخضيب، ويتمنى أن لو عاد الشباب يوماً ليخبره بما فعل الشيب، ويذكر — فى حسرة والتياع — تلك الأيام الأولى التى كان فيها غض الإهاب ناضر الشباب.

كبرنا أيها الأتراب حتى كأنا لم نكن حيناً شبابا
وكنا كالغصون إذا تثنت من الريحان مونعة رطابا
فزعت إلى خضاب الشيب منى وإن نصوله فضح الخضابا
مضى منى الشباب بغير ودى فعند الله أحتسب الشبابا
وما من غاية إلا المنايا لمن خلقت شبيبته وشابا

إصلاح الأداة الحكومية

كثرت الشكوى من الأداة الحكومية وكثر الحديث من إصلاحها وتحدث الكتاب من حاجة الموظفين — وهم أجزاء هذه الأداة — إلى الأخلاق ونسبوا كل عيوب الأداة إلى ضعف الأخلاق .

ولست أنكر أن الأخلاق هي أساس كل نجاح وتوفيق ، ولكني أنكر أن الموظفين في حاجة إلى درس أو دروس في الأخلاق لكي تصلح الأداة الحكومية .

نحن الموظفين ثمرة جهود وزارة المعارف في خمسين سنة ، وثمرة جهود غير وزارة المعارف من هيئات التعليم في مصر والخارج ؛ فليس منا إلا من قد قطع مراحل من التعليم سواء أكانت كاملة ، أعني أنها تشمل مرحلة التعليم الجامعي ، أم غير كاملة فوقفت قبل أن تبلغها .

ولقد كان حظ الأخلاق من العناية حظاً وافراً ، فقد علم كل منا من الواجب والقيام به والأمانة والمحافظة عليها وحسن المعاملة ولين الجانب والصبر والجلد والأناة والحلم والحزم والصدق والدأب وغيرها من كريم الصفات ، ما يكفي لأن يخلق منه موظفا من الطراز المثالي ؛ وما منا إلا من كتب موضوعات إنشائية من كل خصلة من هذه الخلال ومن غيرها مما لم أذكره ؛ وما منا إلا من إذا حدثك من الأخلاق ملأ أذنيك من الحديث عنها ، ولكن قل منا من يؤدي عمله طبقاً لدستور هذا العلم الذي تعلمناه .

لسنا في حاجة إلى العلم بالأخلاق الفاضلة الكريمة ، فإذا قال قائل بضرورة غرس هذه الأخلاق في أنفس النشء، قلنا لقد سهر المعلمون في نصف القرن الماضي وأفنوا أعمارهم في هذا الغرس فأحسنوا غرسه ، ولكنه لم يأت أكله ، فكل محاولة إذاً للغرس من جديد هي

وهكذا يبدو لنا أبو العتاهية إنساناً بما تستلزمه الإنسانية من مظاهر النقص والكمال ، ويروقنا منه صدقه مع نفسه ومع إنسانيته ، ويعجبنا منزعه الشعبي الذي اختاره في تهذيب الناس وتذكيرهم ، والسمو بآدابهم وأخلاقهم العملية . وهو في هذا الأدب التعليمي أخلاقي مسلم خالص يستمد منهجه وإلهامه من مصادر الإسلام وشعائره وسيرة صالحيه : فيسبح بحمد من على العرش استوى ، الحق الظاهر ، المقدر المدبر ، علام الغيوب ، جاعل الليل سكنا ، خير معبود وخير مسئول ، باسط الرزق لمن يشاء من عباده ، من لا يكدي سائله ولا يخيب راجيه . وشاعرنا الواعظ يحض على إقامة الصلاة لوقتها بطهورها ، ويقرر أن الزكاة قرينة الصلوات ويدعو إلى رعاية الجوار وخفض الجناح والرغبة بالنفس عن ردىء اللذات ، وإلى التزام الخير ، ومجانبة الشر ، ورحمة الخلق ، وعدم فرح المرء بما يظفر به ، وصبره إذا نكب وتعاهده لإخوانه ، وأخذه من اليقين مايجلو به الظنون ، وتمسكه بأهداب الفضل والحق ، ورضاه للناس ما يرضاه لنفسه ، وطلبه العز في التقوى واعتصامه بخالقه من فتن الهوى ؛ وأن يكون ممن يتقي الفواحش بمحمه كأن به من كل فاحشة وقرا ، وأن يكون سليم دواعي النفس لا باسطاً يدا ، ولا مانعاً خيرا ولا قائلا هجرا ؛ وأن يجاهد هواه ويروض نفسه على التقى والزهد حتى يصح أن يقال فيه :

لنعم فتى التقوى فتى ضامر الحشى
خميص من الدنيا نقي المسالك

فتى ملك اللذات لا يستعبدنه
وما كل ذي لب لهن بمالك

محمد خلف الله

محاولة نصيبها نصيب سابقتها .

إن مثلنا نحن الموظفين فى أداء عملنا على غير الطريقة التى نعلم أنها الطريقة المثلى كما علمنا معلمونا وكما أدبنا مؤدبونا ، فإنهم من غير شك قد أحسنوا القيام بواجبهم فى تعليمنا وتأديبنا — أقول إن مثلنا كمثل أهل الكوفة إذ جمعهم الحجاج لخطابهم وأظهر لهم عينين حمراوين يقدح منهما الشرر ، وإذ أمر غلامه أن يقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ : —

«من أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة . السلام عليكم» .

فلم يرد أحد التحية .

فقال الحجاج : أصمت يا غلام . ثم أقبل على الناس فقال لهم : أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلم يرد أحد منكم عليه السلام ؟ ! هذا أدب ابن نهية (وابن نهية هو الحاكم الذى خلفه الحجاج) أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب ! ! ثم التفت الحجاج إلى غلامه فقال له : اقرأ كتاب أمير المؤمنين .

فلما قرأ الغلام : «من أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، السلام عليكم» لم يبق فى المسجد (وقد كان الاجتماع فى المسجد) إلا من قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

لم يكن أهل الكوفة يجهلون أدب القرآن ، إذ يأمر برد التحية بأحسن منها أو بمثلها ، ولكنهم ما كانوا يسيرون حتى تلك اللحظة طبقاً لدستور هذا الأدب رغم علمهم به ، فلما وجدوا من يرغمهم على احترام هذا الدستور الذى يعلمونه احترموه وساروا عليه .

كذلك نحن الموظفين ليس فينا من لا يعلم الواجب عليه كموظف ، ولكن فشت فينا روح الاستهتار بما علمنا وما أنفقنا العمر فى تعلمه . . فشت تلك الروح لأن المهمل لا ينال عقوبة إهماله ، ولأن المجد لا ينال ثمرة جده ، ولأن ترقية الموظف ليست رهناً بأمانته فى أداء واجبه ، إنما هى رهن بمن يأخذ بيده من ذوى النفوذ والسلطان من ذوى قرباه أو من صهره ، حتى لقد أصبح الموظف الدؤوب الذى يحافظ على مواعيد العمل ويتفرغ لعمله سخرية زملائه ، يتهمونه بالخوف ويرمونه بالجبن ويحملون قيامه بالواجب على محمل الاستكانة والضعف ، بل إن هذا الدؤوب يصيبه اليأس ويحركه داء التراخى حين يتلفت حوله فإذا كل لاعب ماجن من زملائه قد تخطاه ، وإذا به لم يجن من دأبه إلا بياض الشعر وانحناء الظهر وسوء الحال . وليت ما حل به من خيبة أمل يقف أثرها عنده ، ولكن نابهيه ومن يأتون من بعده يتخذونه عبرة لهم ، فلا يجدون جده حتى لا يصيبهم ما أصابه ، فهم يجنحون إلى التراخى والتهاون ، فإن أسعدهم الحظ فتقدموا كان تقدمهم سهلاً لينا لا إرهاق فيه ولا جهد ، وإن تأخروا مثله لم يأسفوا على ما بذلوا من جهد وما حرموا أنفسهم من فرص .

ليس الموظفون فى حاجة إلى العلم بالأخلاق . إذاً فمن العبث أن نشير عند وصف العلاج للأداة الحكومية بضرورة بث الأخلاق الفاضلة ، فإنها كما قلت مبثوثة معروفة ولكن مع (إيقاف التنفيذ) .

نحن فى حاجة إلى حجاج يخاطبنا كما خاطب الحجاج أهل الكوفة ، فيقول لنا : إنه لا يغمز جانبه كتغماز التين ، ويقول لنا إنه ليرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها وإنه لصاحبها ، ويقسم لنا إنه ليرى الدماء بين العمائم واللحى ، ويطالبنا بأن نسير على الأدب الذى تأدبنا به .

عندئذ ينتصب كل منا واقفاً ويستجمع كل منا قواه ويعمل كل منا بالأدب الذى تعلمناه ، فنؤدى العمل طبقاً للأخلاق التى كتبنا عنها مواضيع الإنشاء والتى إذا تحدث أحدنا عنها أجاد الحديث ، فإذا رأيته يؤدى عمله لم تجد

في ضيافة الشعر العربي :

قصائد شرقية

بندنامه للشيخ مصلح الدين سعدى شيرازى

للشاعر شيخ مصلح الدين سعدى شيرازى ثلاثة دواوين هي « البستان » و « الكلستان » و « بندنامه » .

وهذا الديوان الأخير هو أصغرها حجما وأقصرها عدد أبيات في كل مقطوعة ، ثم إنه أقلها اشتمالا على المعانى الشعرية ، ولكنه أروعها موسيقية وأروجها بين العامة ، ذلك لأنه على ما يبدو قد كتب في عهد من العمر بلغ فيه الشاعر المتصوف من التقشف ما كان له هذا الأثر في فنه . وقد ترجمناه شعراً عربيا عن الأصل الفارسي والترجمة الإنجليزية ، ونحسب أننا في غير حاجة إلى الاعتذار عن اختيار ديوان ليس في المرتبة الأولى للشاعر نفسه وعن اختيار شاعر ليس في المرتبة الأولى من شعراء أمته ، ذلك لأن غرضنا هو استضافة الشعر الشرقي في الأمم التي تشاركنا في كثير من وجداننا والتي يهتم بها الغربيون اهتماماً ينبغي ألا يكون اهتمامنا دونه .

أصدق في وصفه من المثل العامي « تحلف لى أصدقك أشوف أمورك أستعجب » .

لو أن الوطنيين يجهلون كيف يجب أن تكون أخلاق الوطني لقلنا مع القائلين إننا في حاجة إلى الأخلاق ، أما ونحن على حالنا من العلم بكل خلق كريم فلم يبق إلا أن نساق إلى أداء الواجب طبقاً لما عليه دستور الأخلاق

ولنا عودة إلى الطريق الذي يصل بنا إلى هذا الغرض

عريانه يوسف سعد

في صفة التواضع (در صفت تواضع)

إذا اخترت التواضع يا فؤادى
فكل الناس عندك أصدقاء

تزيد سنا بحبهم وجاها كنور البدر تمنحه ذكاء
يشاد على التواضع كل حب ويهدم مايشاد الكبرياء
به تسمو الرجولة في ذويها وتردان السراة الأقوياء
أبى ترك التواضع آدمى يدل على مروءته الحياء
إذا ما الغصن أثقله جناه تواضع رأسه فيه انحناء
ومن لزم التواضع زاد قدراً وكان إليه بالجاه استواء
وفتحت السماء له ذراها وكان له المهابة والرواء
وفوق مباهج الدنيا جميعاً تواضع من يحق له الولاء
من اعتاد التواضع زينته جلالته ولازمه العلاء
وصار محبباً للخلق طراً وأينع في القلوب له الولاء
ومن منع التواضع عن أخيه فق خفض الجبين له جزاء
جميل من تواضع في علاه وعند البؤس يفرضه القضاء

في مذمة التكبر (در مذمت تكبر)

احـذر بنى عواقب الجنف فالحظ يفلت من يد الصلف
بأن الحكيم اقبحها صفة تفضى نهايتها إلى الأسف
دأب الجهول ولن تراه على رجل يحسن الرأى منتصف
إبليس أسقطه تكبره وهوى به من ذروة الشرف
إن المتكبر بطبعه صلف ملأ التكبر رأس معتسف
الكبر ينبوع الشقاء ودأ ب ملازم للشر منحرف
فلم التكبر بعد معرفة
فاصرف غرورك أى منصرف

في فضيلة العلم (در فضيلت علم)

بنى آدم بالعلم يستكمل الحجى
فما الجاه ما الأموال ما المنصب العالى ؟

أداةٌ إلى مرضاتك الله إن تَذُبْ
لها ذوبان الشمع لم يك بالغالي

• • •

وإنَّ طلاب العلم(١) من دأب ذى الحجى
فليس طلاب العلم(٢) بالمطلب الكاسدْ
وإن سعيد الجد ما اختار غيره
فإن طلاب العلم(٣) مأرب الخالد

• • •

لئن طفتُ هذى الأرض لم ألْقَ مسرفاً
لأمر شيئاً كنتُ أجهله قبلُ
فدع كل شىء غيره وانْجُه له
تنل ذروة فى المجد ليس لها مثل
ولا تتخذ فيما عدا العلم مطلباً
جفا عقله من كان للعلم جافيا
كفاك فى دنياك والدين أن ترى
عليا بما تاقت له النفس واعيا

فى الامتناع عن صحبة الجاهلين

(در امتناع از صحبت جاهلان)

أيها القلب إن تكن ذا ذكاء
فتباعد من صحبة الجهال
حين يحملو الحليب(٤) إن ذوب الـ
ـسكر فيه لجعله غير حال(٥)

• • •

فتجنبهم كما مرق السهـ ... م لخيرٌ منهم وحوش الغاب
وذكّ الأعداء أشبه بالصا ... حب من جاهل من الأصحاب

• • •

(١) و (٢) و (٣) هذا التكرار موجود فى الأصل.
(٤) اللبن (٥) الأصل بنص هذه الألفاظ:
(تبا ميخله جون شكر شير باش)

ليس فى الكون كالجهول حقيرٌ
إنما الجهل خسة فى الطباع
وصحيب الجهول أفعال سوء
يتأذى منه رفيق السماع

• • •

قل للجاهلين غاية خير ... ولهم فى الجحيم دار قرار
وحقيقٌ بالجاهلين سطة قدر ... وجديرٌ بهم لحاق العار
إن ترك الجهول بالمرء أحرى
فهو أهل للعار دنيا وأخرى

محمد زكى العشماوى
وعبد اللطيف النشار

القصـــة

عند توماس هاردى

مهداة الى الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

ولد توماس هاردى عام ١٨٤٠ وتوفى عام ١٩٢٨ أى أنه عاش نيفا وثمانين عاما . وهو عمر طويل لم يكن متوقعا أن يكتب لمن فى مثل صحته المعتلة وبنيته الضعيفة . وقد تسنم ذروة الأدب الإنجليزى فى الثلاثين عاما الأخيرة من حياته ، فظل فى هـذه الفترة الطويلة العميد الذى لا ينازع للقصاصين والشعراء ، وتلك منزلة رفيعة لم يحظ بها إلا الأقلون .

وقد منح نوط الجدارة تكريما له على حسن بلائه فى الأدب ، وحج إليه الأدباء من كافة أنحاء العالم . وزاره ولى عهد انجلترا وقتذاك ليحييه نيابة عن أبيه . ولـكن هاردى كان فى هدوئه وعزوفه زاهدا فى الجد ، زاهدا فى الشهرة ، زاهدا فى الملق والزلفى ، لا عن كراهة للناس أو حقد عليهم ، بل عن هدوء أصيل فى النفس ، ودعة فى الطبع ، ورهف فى الحس .

وظل طول حيـاته تقريبا فى منطقته الريفية — دوشستر أو وسكس كما أسماها فى كتبه — إلى أن وافاه الأجل . فـكرم بدفن رماد جثته فى وستمنستر . ولـكن قلبه لا يزال مدفونا فى إحدى كنائس وسكس .

ومع هـذا الانزواء ، كان من أفهم الأدباء لطبائع النفوس ، وما يحركها من عواطف ومطامع ، وما يخبرها من أمل ويأس ، وما يتحكم فيها آخر الأمر من صدفة لا تبصر ، وقدر لا يرحم .

وقد اختلف النقاد فى أمر شعره وقصصه ؛ فمنهم من يرون شعره أجل من قصصه ، ومنهم من يرون عكس هذا الرأى . وكان هاردى نفسه من الأولين ، حتى لقد هجر كتابة القصص فى أواخر حياته ليختمها بالشعر كما بدأها به.

ويرى أنصار الرأى الثانى أنه أخلد فى القصة منه فى الشعر ، فهو من أكبر قصاصى العالم فى جميع العصور . ولـكنه فى الشعر لا يسمو إلى هـذه المنزلة ولا يعدو أن يكون من شعراء الصف الأول فى عصره . ومعلوم أن شهادة هاردى نفسه ليست فصل الخطاب فى هذا الموضوع ، ولا يصح أن يكون لها أثر خاص فى الميزان ، لأن الإنسان آخر من يفهم نفسه . وكثيرا ما ينخدع عما فى نفسه من نواحى القوة والضعف . . وطالما أدى الإحساس بالنقص إلى استشعار الـكمال .

ومهما يكن من حجج أنصار الرأيين . . فخصومتهما فى رأينا « غير ذات موضوع » لأن قصص هاردى يمكن أن تعد من أروع الشعر ، إذا جاز للشعر أن يتحرر من قوالبه التقليدية ، كما أن شعر هاردى لا يخلو من نكهة قصصية . وأروع ما نظم من شعر ملحمة المواهل ، وهى قصة شعرية أدار حوادثها على نابليون وحروبه . وهكذا نرى هاردى قاصا فى شعره ، شاعرا فى قصصه ؛ فلا جدوى لـكد الأذهان فى الموازنة والمفاضلة بين ناحيتى عبقريته .

ومن جيد شعره — عدا ملحمة المواهل — قصائد الماضى والحاضر وقصائد وسكس . ومن أروع قصصه تس سليلة دربرفيل(١) ، وفى معزل عن الجمهور الصاخب ، وعودة المواطن ، ونافخ البوق ، ومجموعة من السيدات الفضليات . ومن أقاصيصه البارعة مفارقات الحياة الصغيرة(٢) .

وتتسم قصصه وأقاصيصه بطابع عام يميزها عما عداها ، ويتمثل فيها مزاجه وطبيعته أصدق تمثيل . فسرحها كلها

(١) عربها المرحوم الأستاذ فخرى أبو السعود ونشرتها لجنة التأليف .

(٢) عربتها لوزارة المعارف وستصدر قريبا .

منطقة دوسشتر ، التي خلدها في قصصه باسم وسكس ، تلك المملكة القديمة التي كانت في جنوب انجلترا الشرقي وأشخاصه يعيشون في الريف كما يعيش هو ، بعيداً عن ضوضاء الحياة وصخبها ، تسير فيه نفوسهم على سجيتها ، في براءة لم تدنسها المدنية . . ولم ترهقها زحمة الحياة . . وتحس في قلوبهم حبا وعطفا يستثيران ما في نفس القارئ من حب وعطف .

وتكاد تخلو قصصه جميعا من شخص شرير ، وإذا لزم أن يكون أحد أشخاصه على جانب من الشر . . انتحل له العذر من ظروفه أو بيئته أو تربيته . . وألقى مسئولية ما يصيب أشخاصه من سوء على الصدفة السيئة أو حقيقة غامضة في الطبيعة البشرية أو ما إلى ذلك ، ولكنه لا يلقيها على إنسان شرير بالمعنى الدقيق . ويأخذ عليه بعض النقاد خلو قصصه من وغد . ونرى أن هذا إذا كان يعيب قصصه من بعض الوجوه ، فإنه من جهة أخرى يسبغ عليها رواء شعريا ، ويظهرنا على النفوس ونوازعها والقلوب ودوافعها والعواطف وتفاعلها . . وهذا هو الشعر في أسمى معانيه — وإن كتب بالنثر — وهو وحي الروح الشاعر المرهف الحساس الذي يفهم الحياة ، ويحب الأحياء . . بل تتسع عاطفته لغير الأحياء أيضا . فقد كان يبكي أسى إذا نزع غصن من شجرة ، وكأنه رضيع نزع من أمه .

وثمة ميزة أخرى تتسم بها قصصه ؛ فهي تجمع بين مزايا القصص في مذهبيه ، المحكم والمفكك . ذلك أن علماء القصص يقسمونه إلى قصص محكم الخطة وقصص مفكك الخطة . ويعنون بالأول ما تمد حوادثه وتنسق خطته في تدبير وإحكام يؤديان إلى نتيجة رسمها الكاتب لقصته . ويعنون بالثاني ما لم يرسم له تصميم ، بل تترك حوادثه وأشخاصه تنساب في سهولة ويسر لتصل إلى نتيجتها الطبيعية . وربما خلا ذهن كاتبه وهو يشرع في الكتابة من فكرة واضحة عما يكون سير القصة ونهايتها .

وليس من همنا الكلام عن المذهبين . وإنما أشرنا إليهما لنلقي ضوءا على ناحية من نواحي عبقرية هاردي القصصية . فأعداء القصص المحكم يأخذون عليه عدم استقامة شخصياته ، لأن الكاتب كثيرا ما يضحي بها في سبيل إحكام خطته والوصول إلى نتيجته . وبذا يعجز هذا النوع من القصص عن أن يخلق شخصيات خالدة تظل حية في خاطر السنين والأحقاب .

ويشذ هاردي عن هذه القاعدة ، فهو مهندس معماري هجر مهنته . ولكنها لاحقته في الأدب حتى غدا التصميم الهندسي من أبرز سمات قصصه . ومع ذلك فقد استطاع أن يخلق شخصيات خالدة ، فقارئ قصصه وأقاصيصه لا ينسى « تس » و « آنا » و « هلبرو » و « إلا » .

وهو قصاص واقعي ، تتسم قصصه بالصدق ، ولا نعني بذلك طبعا أنها وقعت بالفعل . وإنما نعني أنها صادقة شعريا ، ممكنة الحدوث متسقة مع الحياة والطبيعة البشرية .

وهو كاتب ساخر ، ينقد ما تواضع عليه الناس من آراء ونظريات . لا بإحلال غيرها محلها ، بل بوضع حقائق الحياة إلى جانبها ، تعلق عليها تعليقاً صامتا . فالحقائق عنده لا تسخر لخدمة النظريات ، ولا ترضى أن تصمت عن الكلام حتى يؤذن لها به ، بل هي تقتحم طريقها وترفع صوتها متهكمة على آراء الإنسان ومعتقداته .

وهذا التهكم العملي ، والفهم لسخرية الحياة ، ميزة اختص الله بها القليل من العباقرة . وقراءة هاردي تظهرنا على توفر هذه الميزة فيه ، وعلى أنه من أعمق المتأملين ومفسري الحياة ، لا يقل في ذلك عن سيرفانت وشكسبير .

عثمان نويه

القوم يقرأون...

١ — كتاب « سوريا » تأليف Robin Fedden

إن مؤلف هذا الكتاب كان عند تأليفه كتابه هذا كالعالم بالآثار القديمة، وقد استبدل الهول بالعقل في الكشف عن المدنيات القديمة في سوريا. وكذلك في إعادة بنائها.

وهو ينظر إلى سوريا نظره إلى الحد الذي يلتقي عنده الشرق والغرب. حيث قامت بينهما المعارك الحربية والمعارك العقلية.

ومن المخلفات والآثار التي مازالت باقية هناك يبني قصته التي قوامها الفينيقيون والاغريق والفارسيون والرومان.

وكذلك يدخل في بناء قصته أثر بزنطه. وأثر الحروب الصليبية في سوريا. تلك البلاد التي تركت طابعها في كل تلك الحضارات والتي هي مع ذلك لم تستطع بل والتي هي لا تزال غير قادرة حتى اليوم أن تهيىء لنفسها حياة قومية كاملة.

والمؤلف يجمع من هذا كله ثروة ضخمة نادرة متنوعة من العادات والخرافات والثقافات والديانات.

وطريقته التي جرى عليها هي أن يعالج بالدرس والتقصي حياة مدن كبيروت ودمشق وحلب، وكذلك حياة الساحل الفينيقي أو حياة نهر الفرات أو السواحل التي نزل بها الصليبيون.

وهو يبحث كل أولئك كما هي الآن. كاشفاً في بحثه عن الآثار القديمة. متخذاً طريقه إلى الوراء حيث التاريخ القديم ليقص عليك قصة الحياة السورية، وتاريخ وحضارة القوم الذين كانوا أصحاب ذلك التاريخ وأهل تلك الحضارة.

وهو في كتابه ذلك الطالب الجد. العاكف على ذكر الحقائق. لا ذلك الكاتب الذي يسعى وراء الشهرة التي لا تكلفه عناء ولا جهداً.

وكل قارىء جذبته الحضارات القديمة. وبخاصة بلاد سوريا الغريبة لا بد واجد في ذلك الكتاب معرفة ودقة ملاحظة. مدروسة دراسة أساسها الرأي السليم. وهو يشكلها كما يشكل الصائغ الماهر من قطعة من المدن حلية يعجب بها العارفون عما في شكلها من حلاوة وفتنة.

وهو يلجأ أحياناً إلى ذكر بعض الحوادث بقصد أن يتلهى القارىء، كذكره قصة ذلك الحج الغريب. حج لادى ستانهوب حفيدة إرل شاتهام إلى تلك البلاد.

٢ — كتاب العرب واليهود. تأليف Nevill Barbour

إن مشكلة التوفيق المعقدة بين العرب واليهود لإقامة وطن قومي لهؤلاء في فلسطين قد درسها دراسة وافية مؤلف هذا الكتاب. وقد عاش هذا المؤلف اثنى عشر عاماً في مراكش ومصر وفلسطين، وقد تعلم العربية والعبرية الحديثة.

وهو يبدأ بحثه بتاريخ الأمتين ويتتبع طريق الحركة الصهيونية منذ نشأتها حتى هذه الساعة كاشفاً عن أهدافها الروحانية والعملية والسياسية في لغة متزنة وأسلوب معتدل. وهو يشق طريقه ماراً بمشكلة المفاوضات التي طال عليها الأمد منذ عهد بلفور الذي صدر في عام ١٩١٧. وهو في الوقت نفسه لا يتجاهل ولا يغض الطرف عن أماني العرب وحقوقهم.

وكتابه كالسياسة البريطانية هو محاولة جدية نزيهة لأن يكون عادلا في حكمه بين الأمتين.

وهو يلخص تلخيصاً قانونياً مجموعة من شهادات الشهود جمعت وبوبت في حلة وافية واضحة.

٣ — « حديقة حيوانات امرأة » أو « أطفالي الحيوانات » لمؤلفته Belle J. Benchley

يكاد كل موضوع تمسكه يد صناع ماهرة ، يصبح موضوعاً نافعاً مفيداً . ومؤلفة هذا الكتاب قديرة في فنها ، حجة في موضوعها . وهي مديرة إحدى حدائق الحيوانات بكاليفورنيا . وهي تعنى كل العناية بدراسة الحيوان ، بل قد أصبحت دراسة الحيوان شغلها الشاغل . ولذلك فقد جاء كتابها فيه ما فيه من السحر والإبداع .

وهي المرأة الوحيدة في العالم التي تدير حديقة للحيوانات . وهي قد كتبت كتاباً لا يقوى على مقاومة سحره المحبون للحيوانات ، وهو كتاب تفوق قيمته كل شيء لدى طلاب التاريخ الطبيعي ، وهو لقارىء العادي متعة شهية .

وحبها البالغ لمن وكل إليها أمر العناية بهن يشمل كل نوع من الحيوانات مهما يكن شأنه حقيراً في أمة الحيوان .

والمرء فوق ذلك يعجب بذكاء الطبيعة كما يعجب ببديع صنع الله في تواصل حبل النسل وفقاً للبيئة ولما يحيط بكل نوع من العادات والأجواء . فالحيوانات الجرابية تولد في أي فصل من فصول السنة . أما معظم الحيوانات الأخرى فإن مواسم التزاوج تقع في ترتيب بديع بحيث تلقى الصغار أول ما تلقى دفء الحر ووفرة الثمر .

وصغار حيوان الكنغر يبلغ طول الواحدة منها بوصتين ليس غير ، وإذا رأيت الواحدة منها حسبتها دودة حمراء . وليس لها أرجل خلفية . وكأنما زيد في طول أرجلها الأمامية لتستطيع القفز بعد مولدها إلى جيب أمها في سهولة ويسر .

وتقول المؤلفة : والشيء الوحيد الذي لا أستطيع له فهماً هو كيف تعرف صغار الحملان وصغيرات النعاج بعد فصالها من أمهاتها وسيرها مع القطعان في موسم جز الصوف أن تهتدي إلى أمهاتها التي لا يمكن تمييز الواحدة منها عن الأخرى .

فلو قلنا إنها تستدل عليها بالرائحة قلنا إن هذا استدلال يحتاج إلى وقت طويل . ولو قلنا بالرؤية لكان هذا واضح الاستحالة لأن النعاج تتشابه . ولو قلنا بالصوت لكان هذا شبيهاً بسابقه في الاستحالة وذلك لتشابه الأصوات .

٤ — صورة الدالاي لاما لمؤلفه سر شارلس بل Sir Charles Bell

لقد كانت لاسا — عاصمة بلاد التبت وموطن « الدالاي لاما » — مثار اهتمام ، وموطن خيال الرحالة والمستكشفين في العالم أجمع على الدوام . ولم يكن ذلك لأنها تكاد تستعصي على من يريد الوصول إليها بسبب مناعة مكانها ووعورته . فهي محوطة بسلاسل من الجبال الشم وهي ترتفع ١٢٠٠٠ قدم من سطح البحر .

ولكنها تكاد تستعصي . ذلك لأن تلك المدينة المحرمة قد ظلت منذ بداية القرن التاسع عشر وإلى مائة عام بعد ذلك التاريخ لا يدخلها الرجل الأبيض أبداً .

وحاول غير واحد أن يخترق السياج وأن يتخطى الحدود . ولكن الذين نجحوا في محاولتهم كانوا أقل من القليل .

فلما جاء عام ١٩٢٠ أبيح لرجل من البيض أن يدخل المدينة بدعوة من الحكومة التبتية ، وكان هذا الرجل هو المستر شارلس بل (الذي صار فيما بعد سر شارلس بل) وقد أقام هناك بوصفه ممثلاً لبريطانيا .

وهكذا بدأ الدور الطويل الممتاز الذي مكن صاحبنا من أن يدرس دراسة مستفيضة « سيرة الدالاي لاما » ذلك الرئيس الروحي والدنيوي لشعب التبت . وقد ظل سر شارلس بل أكثر من عشرين عاماً يقوم بدور المستشار السياسي للدالاي لاما . وقد أتاح له مركزه الفريد أن يدرسه كرجل ، وكحاكم ذي سلطان ، وكزعيم للديانة تتغلغل في حياة عدة ملايين من الناس .

وكتاب سر شارلس كتاب قوي الأثر تفيض جوانبه

بالفوائد والأخبار المفصلة . وقد أبان من صورة واضحة « الملك الكاهن » كما أبان من صور قومه وبلاده . فهناك صورة لمناظر الجبال العظيمة . وهناك صورة لطريقة العيش والعوائد المستغربة لسكان تلك البلاد . وهناك صورة « القصر — القلعة » الذى يقيم فيه الدالاى لاما على جبل بوتالا . وهناك فوق ذلك كله صورة تمثل لك المعتقدات الدينية القديمة . وطقوس تلك الديانة غير المعروفة إلا قليلا .

● — « هذا الجانب من البراءة » تأليف تيلور كولدول Taylor Caldwell

إن أول رواية لتيلور كولدول وكان اسمها « أسرة الموت » قد لاقت رواجاً متواليا . وكذلك روايتها الجديدة التى أسمتها : « هذا الجانب من البراءة » سوف تلقى رواجاً لم يلقه كتاب لها من قبل .

ولقد جعلت أول مشهد فى روايتها يقع عام ١٨٦٨ . وتتم فصول الرواية فى قرابة عشرين عاماً . وهى قصة شخصين أوتيا إرادة قوية ، وقد وجد كلاهما فى صاحبه هواه ومشتهاه .

وكان اسم الرجل « جيروم لندساى » ، وهو فتى وهبه الله الوسامة والقسامة . وكان الولد البكر لأحد رجال المال فى المدينة .

ولما علم « جيروم » — وكان يعيش فى نيويورك عيشة البذخ والترف على ما ورثه من مال وفير — لما علم بقرب زواج أخيه بالتبنى من فتاة جميلة أسرع فى العودة إلى بلده ليحل عقدة ذلك الزواج الذى يهدد ثروة العائلة بالضياع . ولكنه لم يكن يحسب حساب تلك العروس العتيدة « أمالى ماكسويل » وهى فتاة جمعت بين الجمال وبين البراعة .

وكانت « أمالى » بنت واحد من المزارعين الكبير ، وكانت تحترف التدريس فى إحدى المدارس سداً لمطالب القوت . ولم تكن كفواً لأن تتزوج واحداً من آل « لندساى » .

وقد قالت هى فى صراحة إنها تتزوج من أخى « جيروم » الذى يجمع إلى طيبة القلب تبل الطبع . وذلك من أجل ماله وثرائه ليس غير .

ولذلك فإنه عند ما أراد جيروم أن يرشوها لتفسخ الخطبة لم تقبل أن تنزل على رأيه .

وعلى الرغم مما كانا يتبادلانه من بغض فقد كان كل عند صاحبه مكينا وكان بينهما انعطاف وود .

وبعد أن تم زواج الفتاة بأخيه وبعد أن ظنا أنهما أصبحا فى مأمن من كل سوء ، فكر جيروم فى خلق الحيل ليدمر عائله وليظفر بزوجته .

● ● ●

والرواية فوق ذلك ملأى بصور الأشخاص الذين يقومون بمختلف الأدوار العاطفية ، وذلك فى سرد سريع وفى حيوية جياشة دافقة .

(مترجمة) — مبارك ابراهيم

معلومات عامة :

الثعابين تفتتن بالموسيقى

من مشاهدات « شاتو بريان » الكاتب الفرنسي الشهير ، حيث يقول :

كان شهر يوليو من سنة ١٧٩١ ، وقد سافرنا إلى كندا للرتفعة مع بعض القبائل المتوحشة من الشعب «الأونتاجي» وهم أقوام يسكنون شمال الولايات المتحدة . وذات يوم وقد توقفنا عن السير لكي نأخذ بعض الراحة فضربنا خيامنا في صحراء كبيرة عند شاطيء نهر « جينزي » وهو نهر يصب في بحيرة « أونتاريو » بأمريكا . دخلت إلى معسكرنا حية عظيمة من النوع الخطر ، الذي يسمونه (الحيات ذات الأجراس) ، وكان بيننا رجل من أهل كندا يعرف العزف بالفلوت (الصفارة) فأراد أن يقدم لنا نوعا جميلا من التسلية . . واقترب من الحية والفلوت بين يديه . وذلك هو سلاح من نوع جديد

وما إن اقترب الرجل من الحية . . حتى التفت حول نفسها عدة لفات ، ورفعت رأسها وانتفخت أوداجها ، وكشفت عن أسنانها السامة وحلقها الدامي . . واهتز لسانها المزدوج وكأنه لسانان من اللهب ، ولمعت عيناها كما لو كانتا جمرتين وهاجتين . . وانتفخ جسمها من الغيظ وهو يعلو ويهبط بشدة . . واتسع جلدها وبهت لونه وخشنت قشوره . وأخذت تضرب بذيلها المشئوم ضربات سريعة لها صوت رهيب .

فبدأ الكندي ينفخ في صفارته أنغاما جميلة . فأتت الحية بحركة تنم عن عجب من رأسها وقد راحت به إلى الوراء ، وكأنما قد سحرتها تلك الأنغام الموسيقية وذهبت من عينيها شراستهما الخيفة ، وهدأت ضربات ذيلها وتلاشى صوتها شيئا فشيئا . واتسعت حلقات جسم الحية الفتنة وسكنت على الأرض في تراخ وسكون . والتمع جلدها بألوان رائعة جميلة . من الأزرق الفيروزي ، والأخضر الزمردي ، والأبيض الفضي ، والأصفر الذهبي . ثم أدارت رأسها ببطء ، وسكنت لا تتحرك ، وهي تستمع إلى الموسيقى في انتباه وسرور !.

وفي هذه اللحظة مشى الكندي بضع خطوات ، وما زال يلعب بآلته الموسيقية في أنغام شجية متواترة فخفضت الحية رأسها الفون الجميل ، وأخذت تشق به طريقا بين الأعشاب الناعمة ، وجعلت تدب في أثر الموسيقى ، وكلما توقف الرجل توقفت هي . . حتى ابتعد بها خارج معسكرنا . وهناك تقاطر المتفرجون من سكان تلك الجهات يشاهدونها في سرور واستغراب . وبعد ساعة خفتت الموسيقى شيئاً فشيئاً وانصرفت الحية في هدوء لطيف . . دون أن يفكر أحد في أذيتها .

نعمت مسنى

محلات صيدناوى

تقدم إدارة محلات سليم وسمعان صيدناوى وشركاهم لمجتمعـــد إلى حضرات عملائها الكرام أصدق التهاني وأطيب التمنيات بعيد الميلاد المجيد ورأس السنة الجديدة .

وقد تبرعت بهذه المناسبة بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه مصري وزعتها على الجمعيات والهيئات الخـــيرية المتنوعة .

أعاد الله هذه المواسم على الجميع بالصـــحة والرفاهية .

صورة . . .

عرى ممزقة . . . !

— وى . تبكين ؟

— أماه . . !

— ماذا دهاك ؟ عهدتك تحتقرين هذا النوع من الضعف ، فما الذى أنزلك إلى هذا الحد الذى تناسيت فيه مبادئك وآراءك ؟

— لست ثائرة : يا أماه . . . بل على العكس أبكى فى هدوء وصمت .

— أى . . . لا ترهقينى بهذه الدقة فى التعبير . . لقد رأيتك تبكين ، فماذا لو سألتك عن سبب بكائك ؟

— إنما أطلقت النفس على سجيتها يا أماه . . . لقد أرهقها الكبت . . حسبتنى فى خلوة فلم أحاول أن أقاوم تلك الرغبة الجامحة التى دفعتنى إلى البكاء .

— غريب . . . ! أنا لم أرك أبداً باكية . . . إنه لسبب قوى ذلك الذى دفعك اليوم إلى البكاء . . . فهل ترانى أستطيع أن أسألك عنه ؟

— وإذا ما أجبتك أتراك حقا تفهمينه ؟

— ويك . . . تجرئين ؟

— معذرة . . لم أكن أقصد . . ثق بذلك . . تلك كانت هفوة .

— ما أكثر هفواتك ! ! ألا تعلمين أنى أضيق بك أحيانا ؟

— بلى .

— ألا يثيرك هذا ؟

— ولم ! ألم أتعود منك ذلك ؟

— بل يثيرك . . أنت كاذبة . .

— كما تشائين يا أماه . ما دمت تصرين على ذلك .

— ماذا كان إذاً سبب بكائك ؟

— . . . . .

— أجيبى . .

— ليت أنى أنا نفسى أعلمه يا أماه . . كل ما أعرفه أنى شعرت ببعض الضيق فبكيت .

— الضيق ؟ إنك لم تتركى الكتاب ساعة واحدة .

— لم أكن أعلم أن هذا يسوؤك يا أماه . .

— ولم تنقطعى عن الكتابة والتحبير ساعة واحدة .

— هكذا شاء لى الإله يا أماه . . .

— وهل شاء لك الإله أيضا أن نكون لك كلنا خدما وعبيدا ! ! أنت لا تقومين بشىء من المساعدة فى أعمال البيت ، وتقضين النهار كله معتكفة فى غرفتك عاكفة على الورق كمن يجمع فى يده مقاليد العالم أجمع .

— أنا آسفة يا أماه . . أعلم أن هذا نقص ، ولكننى أحس أحيانا بعجزى عن أن أكون امرأة .

— تماما كما أحس أنا بأنك لست ابنتى . . . وأكاد أوقن أحيانا من أنهم أبدلوك فى المهد . .

— لا شك أنهم فعلوا ذلك يا أماه .

— ماذا تعنين ؟

— لم أعن شيئا لا يقبله العقل . . إنما قصدت فقط أن أعفيك من عبء ذلك الحمل الثقيل .

— أى حمل ؟

— بنوتى ! !

— أتمدين بنوتك لى حملا . . ما أقل عقلك ! ثق بأنه لا يثقلنى قط .

— ذلك الرياء يا أماه من العجيب أنى أراه عذبا جميلا ! فبالرغم من أنك تكرهيننى . . . .

— ما هذا الهراء ؟

— الحقيقة ليست عراءً يا أماه . . لم لا تجرئين على النظر إلى ؟

— وما يدفعني إلى ذلك ؟

— البريء لا يرهب الحقائق، بل يواجهها بكلتا عينيه .

— أنا أرهب الحقائق ؟

— أماه . . أنت تراوغين . . أفلم تصرحي منذ لحظة بأنك تضيقين بي ؟

— وماذا في ذلك ؟ . كثيرا ما يضيق المرء بأحب الناس إليه .

— هذا حق .

(لحظة . صمت . وقلق)

— أيتها الفتاة . . إنك تخفين في صدرك شيئاً . . تكلمي أفصحي . . لا ترهقيني بهذا الصمت . .

— وما جدوى الكلام يا أماه . . كلانا يفهم الآخر . أنا لم أعد طفلة . . أنا شابة ناضجة العقل .

— ماذا تقصدين ؟

— إنما أرثي لك يا أماه وإن كنت لا أتعذب من أجلك . أنت تكرهينني وتتعذبين من أجل ذلك . . عبثا تحاولين أن تحملي نفسك على حبي . . فقد نشأنا متباعدتين مختلفتي المشارب . . لم تعترفي في يوم من الأيام بآرائي وأفكاري ، وكذا أنا لم أومن . . أنت تعلمين أن بيننا هوة لا يمكننا اجتيازها ، وحاجزاً يعجزنا من تسوره ، فهل تريدينني الآن أن أتكلم أم لعلك تؤثرين الآن الصمت ؟

— بل اصمتي . . اصمتي .

— طبيعي لا تودين أن تسمعي ، لأنك لا تجرئين على مواجهة الحقائق . . إنها تهدمك بعد أن تألقت فجأة أمام عينيك فكادت أن تعمى بصرك . . إنها تهدمك تماما كما يهدم الجاني براجمه بضحيته . . ألم تسألي نفسك لم يلتظى دوما صدرك ويقصيني عنك قلبك ؟

سليها فإنها ستجيب أو لعلها لن تجرؤ على أن تجيب ، فدعيني أقل ودعيني أقول . أنت يا أماه ثمرة ذلك الزواج الخاطئ المبني على سوء التفاهم والبغض والتنافر واختلاف المشارب والأهواء . . ذلك الزواج المبني على أسس مزلزلة ودعائم مقوضة . ذلك الزواج الذي كان أحرى به أن تقصم عراه قبل أن ينجب الثمار ! ! ؟ ألم تنجبيني من رجل كان بعيداً كل البعد من قلبك بغيضاً كل البغض إلى نفسك ؟ أو لم تقبلي المستحيل لكي تطيقي في أحشائك ، فما أبت الأقدار الساخرة إلا أن أحيا وشاء لي الإله الحكيم أن أوجد وأترعرع وأعيش لم تجدي بداً من تحمل بنوتي كارهة مرغمة .

وهكذا نشأت يا أماه . . ألتمس الطريق إلى قلبك ، فإذا السبل كلها موصدة ، وإذا أبوابه جميعاً مغلقة ، وإذا أنا في كل يوم أسلك إليه سبيلا جديداً ، فلا يسعني وأنا أصطدم بحائطه الصخري إلا أن أعود كاسفة البال حزينة . فلما أحسست أن لا مكان لي فيه قنعت بدنياي بين جدراني الأربعة ، أعتصر شبابي الغض وأتعجل شيخوختي الباكرة ، وتلفت أسأل من أبي فوجدته ويا ليتني ما وجدته . وجدته غارقاً في الدنايا والشهوات ! ! ! وجدت عواطفي فجأة ، فإذا بي أكره أبي من أجلك ، ثم أعود فأكرهك أنت أيضاً من أجل نفسي ، ثم تستبد بي الأنانية فأكره الناس جميعا ، وأوصد أبواب قلبي في وجه البشر إلى الأبد . . وتحدث الناس عني وكرهوني ورموني بأقسى التهم وأشنع الألفاظ ، وأنا في وحدتي القاسية . . لا صديق ولا أنيس ، ولا أليف . . . لا تسأليني لماذا أتيت إلى الحياة يا أماه ! بل سلي الإله فهو قادر على أن يجيب .

قطر الندى

بين المسموع والمقروء

في السينما دار إفتاء

الفرق هائل بين أن تصنع شيئاً وأن تتقنه : وفي مصر نستطيع أن نصنع كثيراً من الأشياء ، وهي تجوز في مصر لأن كثيراً من عامة مشتريها لا يعرفون أكثر من هذه الدرجة من الإحسان .

وصناعة السينما بعض هذه الصناعات ، وهي صناعة لا يكون الإتقان فيها إلا بالتخصص ، ونحن بحمد الله لا نؤمن بالتخصص ، اعتماداً على أن الجمهور لا يكاد يدرك معنى الإحسان . فنجمع ارتكاناً على ذلك بين تأليف القصة وإخراجها وتمثيلها . ولعل من بعض أسباب ذلك إيماننا بأن العباقرة عندنا يستطيعون ما لا يستطيعه عباقرة من أمم أخرى وأجناس أخرى . أليس عباقرتنا عباقرة مصريين !

ولكن ما هكذا إيمان الناس بالكفاية في هوليوود . هناك الناس أعرف بأقدار الأنفس ، فهم لا يكلفونها فوق ما تطيق . من أجل هذا قسموا صناعة السينما أقساماً عدة ، وقسموا هذه الأقسام من بعد ذلك أقساماً صغرى أخرى ، حتى تجد آخر الأمر رجلاً قد اختص ، على علو كعبه في الثقافة وعلى مكانته من العرفان ، بجزء في الإخراج صغير حقير لا يظهر أثره بارزاً على الشاشة أبداً ، ومع هذا فقد يكون لغياب هذا الأثر على خفائه إهدار عنصر من عناصر العرض يكسب الرواية في الجمهور الناقد الإخفاق والكساد .

ومن تلك الأقسام التي تقسمت إليها الاختصاصات في السينما قسم الإفتاء .

وقسم الإفتاء يتألف من قوم باحثين على رأسهم مفت ، مهمتهم أجمعين أن يؤاخوا بين ما يجرى على الشاشة وبين ما يجرى في الحياة بكل تفاصيلها ، حتى لا تنقض هذه تلك ، ولا تلك هذه . ومعنى هذا أن هؤلاء الباحثين لا بد أن يكون لهم علم بكل منحى من مناحي الحياة ، أرقى استطاعتهم أن يتصلوا لساعتهم بمن يعرفون . وفي الروايات التاريخية لا بد أن يوجد بينهم المختصون الذين يعرفون العصور ، لا عصور ملوك وحكام ، ولكن يعرفونها عصور شعوب بما كانوا يشربون ويأكلون وينامون ، ويجرون الحياة على أساليب لا بد أن تتكشف للباحث على تفصيل أي تفصيل . والعلم الحديث لا بد أن يكون لهم فيه نصيب غير قليل .

مثال ذلك أن الفتى لا بد له أن يعلم أن الرصاصة إذا انطلقت من مسدس ذي ماسورة طويلة احتفظت الرصاصة بحرارتها دقيقتين ، وأن ساعة لندن الشهيرة ، إذا دقت تحمل اللاسلكي أصداءها إلى العالم ، كان بين كل دقة ودقة إحدى وثلاثون ثانية .

حدث منذ سنوات أن قام مفتى شركة « ورنر » بالإفتاء في إخراج الرواية الشهيرة من حياة « زولا » . وقام بدور هذا الكاتب الفرنسي الشهير « بول موني » . وكان من الصعب جداً عرض مناظر باريس في الحقبة التي عاش فيها زولا عرضاً مبرأ من الأخطاء . كان لا بد من عرض شوارعها ومخازنها ومسارحها على الحالة التي كانت عليها عند ذاك . وظل مكتب الإفتاء يبحث الأمر قرابة عام بحثاً طويلاً مرهقاً . وجاءوا بآلاف من مجلات ذلك العصر ، وكتبه ، وصوره ، وصحفه ، حتى خرجت الرواية آخر الأمر أرقى ما تكون إخراجاً ، وأصح ما تكون وقائع ومظاهر . واستلقى الباحثون على مقاعدهم يتنفسون الأنفاس هادئة مطمئنة بعد جهد جهيد .

ولكن بغتة يخرج لهم النقاد عما يذهب بطمأنينتهم ويعكر صفوهم ويفسد عليهم جو تلك السعادة التي ركنوا إليها . أما موضوع النقد فنوع من أنواع السمك ظهر في الرواية ، يعرف بجراد البحر ، ويسميه الأمريكان لوبستر ، والفرنسيون هومار . وهو كالجمبري ولكنه أضخم وأعظم .

ثم ، قامت قيامة النقاد لهذا السمك ، لأنهم عرضوا على الشاشة جراداً أمريكياً له خطاطات كالمخالب ، في حين أن الجراد الفرنسي لا مخالب له . نعم لا مخالب له ، وتلك حقيقة يعرفها كل أبله ! !

وقد يأتي النقد من جهة لم تكن محتملة أبدا . يأتي من سوّاق القطارات ، لأن قطارا سار في مقاطعة كندا ، فصفر صفرة لا تعرفها تلك المقاطعة أبدا . وقد اتضح أن صفارات القطارات تختلف في أمريكا باختلاف الشركات ، وفي غير أمريكا تختلف باختلاف الأمم ، فبعضها الرفيع الصارخ ، وبعضها الواطئ الأخشن ، وبعضها يصفر كزمرة وابور البحر . عشرات كثيرة من الأنغام .

وكثيرا ما يأتي النقد من مدرسي المدارس ، وكثيرا ما ينصب على مخالفة لحقائق التاريخ . وقد يتعمّد المخرج لحاجة القصة ، التي لا تقصد إلى الصحة ، أن يجمع بين شخصيتين حيتين في عام واحد ، بل تحت سقف واحد ، قد فصل التاريخ بينهما بحقبة أو حقبتين . وعندئذ تأتيه الكتب تترى بالتجهيل والتسفيه والتجهيل في أي شيء ؟ في شيء يدرسه طلبة المدارس . وعندئذ يرجع المخرج إلى نفسه يسألها : أكان فيما خرج فيه من حقيقة التاريخ مستأهلا كل هذه الضجة . وقد يعتذر فيصر ، وقد تغلب عليه الحكمة فلا يعود .

وللأطباء في النقد نصيب كبير . إن الطبيب في العادة يعمل على الصمت ، ولكنه إذا نطق نطق عاليا . وهو ينطق عاليا أحيانا كلما رأى هؤلاء المخرجين يعرضون على أعين الناس صناعته في أساليب لا تمت إلى الحقائق الطبية في شيء ، وإن متّت إلى الرغبة في الإثارة بحبل متين طويل .

وقد يجمع الاستديو الواحد بين جنباته عشرة أو عشرين بحّاثا ، تعينهم مكتبة تحتوي خمسة عشر ألف مجلد أو تزيد ، ويعينهم فرع للاستعلامات عنده جداول مطولة بكل خبير في كل علم وفن ، في كل ركن من أركان الدنيا . فإذا احتاجوا إلى استكشاف حقيقة ، أو الإجابة على سؤال أرقوا لسائلهم ، ولا يلبث أن يأتيهم الخبر للأجوبة من أي بلد من بلاد الله .

ويعين البحّاثين لغويون يشغلون على الأغلب بسبع لغات .

وفي التحضير لرواية واحدة في شركة واحدة — هي بارامونت إن كان لابد من ذكرها — قرأ رجال قسم الإفتاء ٤٠٠ كتاب ، وجمعوا ٦٨٨٥ صورة فوتوغرافية ، وأجابوا على نحو من ١٠٠٠٠ سؤال . وإن أردت فاستمعْ إلى بعض هذه الأسئلة لتعرف بعض ما يسألون عنه :

١ — كم كان ثمن الجلد الخام في لندن عام ١٨٣٥ ؟

٢ — كم كان عمق الميناء في نيويورك عام ١٨١٠ ؟

٣ — في أي مكان من البرلمان كان يدعو النواب الإنجليز أصدقاءهم إلى الشاي في عام ١٨٩٠ ؟

٤ — هل كان بين بوليس لندن وبوليس باريس مواصلات تليفونية عام ١٩٠٠ ؟

٥ — هل يستطيع الرجل أن يأخذ ترياق السم ، قبل السم ، ثم لا يموت بعد ذلك من السم ؟

وعلى الرغم من كل هذه التحقيقات ، فقد يأتي المخرج أن يجاوزها إذا اتضح أنها مما يفسد الفن أو يضرب في الصميم مما تعارف عليه الناس من ذوق واطمأنوا إليه من عادة

حدث في رواية «آنا ومَلِك سيام» أنه كان على الممثلة الأولى أن تمضغ نوعا من البندق السيامي . والسياميون والسياميات إذا مضغوا هذا البندق اسودّت أسنانهم . ولما تمت الرواية لاحظ رئيس الإفتاء أن الممثلة الأولى لا تسودّ أسنانها بالذي تمضغ من بندق . ونبه المخرج إلى هذا . قال المخرج : إن أسنان الحسان لا تسودّ أبدا من البندق السيامي ولو اسودت منه أسنان العالم أجمع .

أحمد زكي

وردة الخريف

نفس الخريف ضنينة بالطيب
فلأى شىء جئت معه ؟ . . أجيبى

أعلى يد الإرهاب قد أقبلت ، أم
أقبلت معه على يد الترغيب ؟

حُرِمت من دنيا الربيع فما استفد
ت ، ولا أفدت الغير بالتقريب

ورد الربيع أهيم فيه لأن فى
أوراقه ذكرى أريج حبيبى

فعلى أسير العام منح أصيبه
وعلىّ مزج نصيبه بنصيبى

أما التى ورد الخريف بها قليـ
ـل لها نصيب من حلى ترحيبى

مالى وفاقدة الشذا ، معتلة الـ
أوراق ؟ . . يا هذى احضرى أو غيبى

عودى إلى حضن الثرى وإذا سرى
طيب الربيع فأقبلى لتطيبى

القمر

يا ساهرا فى الدجى خوفاً على الشهب
من كل مبتعد عنها ، ومقترب

يكفيك أنا رأينا فى ابتسامتها
تلك ابتسامة أبناء لخير أب

ظللتها بجناح الأنس منتشراً
فى جنح ليل طويل الذيل مكتئب

ولم تقل بعد : يا شهب اسهرى وأنا
أنام ، أو أنا أ كرى الناس فاحتجبى

يا مترفاً تتفانى الشهب فيه هوى
لعطفه ، والهوى يأتى على سبب

بالله ربك نادى المترفين وقل
يا مترفى الريف : من منكم تشبه بى ؟

نم قساة على أبناء قريتكم
وبت فى الأفق مسهاراً على الشهب

كونوا غصوناً يغن الدهر فوقكمو
فالدهر كالطير لا يشدو على الخُشُب

شاعر البرارى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٣٦٩٦ ، ٥٦٢٦٩

العدد ٣٦٨ — الثلاثاء ١١ من صفر سنة ١٣٦٥ — ١٥ من يناير سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

رجال عرفتهم :

أسد الجزيرة

أسد الجزيرة العربية وعاهلها هو مليكها عبد العزيز آل سعود ، وهو رجل عصامي كوّن نفسه ، وبنى ملكه على قواعد من الحزم والعدل والرحمة بعد أن فتح الجزيرة كلها بسيفه وبسط عليها سلطانه .

وقد نشأ في نجد كما ينشأ البدو ، وركب الخيل والجمال ، وينتضي السيف دفاعا عن الحق والأهل والعشيرة ، واشتهر بهيبته وقوته وتقواه ... وقد راقب حال الجزيرة عن كثب وما تفشى فيها من الفوضى والاضطراب أيام حكم الشريف ، فقرر أن يخلصها من هذا الحكم .

والحق أن الفساد في عهد تلك الدولة استشرى ، فالأمن مضطرب ... حتى إن الحاج ما كان يأمن على نفسه أو ماله ، وربما ويل من كان يزمع زيارة المدينة ، فإن السلب والقتل كانا متربصين له في الطريق ... حتى إنه قيل (إن من يخرج رأسه من الهودج فهو لن يعود له) كما انتشرت الرشوة والمحسوبية والجرائم .

عرف عبد العزيز كل هذا ولمسه بنفسه ورآه بعينيه فآلى على نفسه أن يخلص الجزيرة من هذا الرعب والفساد ، وينشر فيها حكم الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) .

وأخذ يجمع قومه ويحدثهم ويحضهم على الجهاد ، ويدربهم على استعمال الأسلحة المختلفة التي مدته بها جهات عديدة . فجيش جيشه وتحرك به من نجد متجها إلى الحجاز ، وفي طريقه إلى مكة أخضع كل القبائل وجندهم حتى وصل إلى مكة فحارب في شعابها ووديانها حربا دامية حتى استولى على أم القرى ... وعندئذ دخل المسجد هو وأصحابه

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرجاني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٤٥ | الثلاثاء ١٩ من شعبان سنة ١٣٦٦ — ٨ من يوليو سنة ١٩٤٧ | السنة التاسعة

تونس تئن تحت القيود

في الأمس القريب ، قررت حكومة باريس نهائيا عدم السماح لسمو الباي التونسي « محمد باشا المنصف » ، المنفي اليوم في جبال « البرنيه » الفرنسية ، بالعودة إلى وطنه ، والاستواء ، من جديد ، على عرشه . وأبلغت ذلك القرار للباي وللشعب التونسي معاً ليقطع كل منهما حبل الأمل الوصول باللقاء . ومنذ أسبوع ورود على مكتب المغرب العربي رسالة مختنقة بالحزن والأسف ، يقول فيها صاحبها إن السلطات الإدارية في فرنسا قد ضيقت الخناق على العاهل السجين ومنعت الناس من الاتصال به ، وهي مزمعة على نقله من محل منفاه الحالي إلى مكان آخر بعيد منقطع ، وهي تحاول إكراهه بكل الوسائل على التنازل من حقه في عرش تونس الخضراء .

وكان لهذه الأنباء وقع سيء في نفوس المهتمين بشئون هذا البلد العزيز ، وهم يعرفون مقدار تعلق أهله بملكهم الشعبي المخلص لقضية بلاده ، ويعلمون بأن خلعه من عرشه كان على غير حق ومخالفاً لنصوص معاهدة « باردو » التونسية الفرنسية ، وعللوا هذه التدابير التي اتخذتها حكومة فرنسا بأنها نتيجة لحادث التجاء الأمير عبد الكريم إلى مصر . وقال بعضهم : بل كان ذلك على أثر أزمة الطوائف المصرية « فوزية » . ونرى الشخصيات التونسية المقيمة في القاهرة أن السبب في ذلك هو نداء كان أرسله الباي « المنصف » إلى شعبه يشكره على ولائه له وتعلقه بشخصه وينصحه بالاعتصام بعروة الوحدة والعمل على طلب الحرية وفك هذه القيود الاستعمارية الآخذة بالسوق والأعناق .

ومهما يكن من الأمر فإن لهذه الحوادث كلها أثرا في اتخاذ هذا التدبير القاسي من قبل الحكومة الفرنسية ضد شخص لم يسيء إليها ، في عرف الحق ، بيدوولا بلسانه . غير أن السبب الرئيسي لكل ذلك أمر آخر هو في الحقيقة تخاوف فرنسا من نشاط الحركة الوطنية التونسية في داخل البلاد وخارجها . وما كان هذا النشاط نتيجة لتمخض المالي وتطور النظريات الاجتماعية والسياسية فحسب ، بل وحلقة من سلسلة جهاد طويل ضد الاستعمار والاضطهاد دام ستة وستين عاما ، هذا ملخصه :

اعتاد المؤرخون الفرنسيون في حديثهم عن الاستعمار التونسي ، الرجوع إلى عام ١٨٣٠ يوم بدأ غزوهم الجزائر وأصبحت تونس مطمح أنظارهم لتثبيت نفوذهم في شمالي أفريقيا . وكان يزاحمهم في ذلك كل من إيطاليا وانكلترة مع الاعتراف بالنفوذ الشكلي للدولة العثمانية التي كانت ترسل جزءا من أسطولها كل عام إلى المياه التونسية بزيارة قصيرة رمزاً لهذه السيطرة الاسمية .

ولم يكد الباي أحمد (١٨٣٧ — ١٨٥٥) يطلب من فرنسا بعثة عسكرية لتنظيم جيشه ، وبعض المهندسين

للأشغال العامة حتى كتب القنصل الفرنسي « لاجو » لحكومته عام ١٨٤٥ يقول : « أؤكد اليوم بأننا قادرون على الاستفادة من الظروف في امتلاك هذه القطعة الأفريقية دون أن تقف في وجهنا عقبة من العقبات » .

وكان الباي أحمد هذا متلافاً مبذراً ساق البلاد إلى أزمة اقتصادية عنيفة كاد من جرائها أن يأخذ من فرنسا قرضاً عظيماً لولا تدخل الدول الأخرى في الأمر خوف نتائج هذا القرض . ولم يقدر خلفه ، الباي « محمد باشا الصادق » (عام ١٨٥٥ — ١٨٨٢) على إيقاف هذه الفوضى الاقتصادية التي ساقت البلاد أخيراً إلى المجاعة والأمراض والأوباء حتى تشكلت لجنة دولية لهذا القرض في ٥ يوليو عام ١٨٩٦ .

ولما تحسنت الحالة على يد محمد الصادق وأجريت بعض الإصلاحات الدستورية والإدارية ، غمرت تونس موجة تأثيرات أجنبية خلقها الصراع الدولي على استعمارها . وبدأت الشركات تتزاحم على أبواب البلاد لأخذ الامتيازات والعمل في داخل البلاد باسم التعمير والرقي . فأخذت بعض الشركات الفرنسية امتيازات لمد الخطوط الحديدية عام ١٨٧٧ ووضعت شركات إيطالية أيديها على مشاريع التلغراف . ولم تحرم بعض الشركات الإنكليزية من نصيبها في ذلك .

وأمام غمرة هذا الصراع الاستعماري على أبواب تونس شغل الباي ووزراؤه بإدارة دفة التوازن والطامع الدولية المحافظة على سلامة البلاد ، وأهملوا تقوية الدفاع الوطني وتسليحه . وكان من سوء الطالع أن احتلت انكلترة جزيرة قبرص فصرح الوزير البريطاني في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ بأنه لا « يعارض في توسع نفوذ فرنسا في تونس » . فزاد هذا التصريح رغبة فرنسا في السيطرة على هذا القسم الأفريقي ، غير أن رئيس حكومتها « جامبيتا » لم يرغب في خلق مشكلة خارجية وهو يعالج أزمة داخلية شديدة . أما السلطات المحتلة للجزائر فكانت تلح بإصرار على هذا الفتح ، وما زالت حتى خلقت جواً مناسباً لذلك ، فحدثت مناوشات على الحدود (الجزائرية — التونسية) التحمت فيها قبائل جبل « خمير » التونسية مع بعض الحاميات الفرنسية الجزائرية ، واستمرت المناوشات بين الطرفين زمناً حتى وجدت الحكومة الفرنسية الفرصة للغزو . فأرسل وزير خارجية فرنسا في ٢٦ يونيو عام ١٨٨١ احتجاجاً إلى الدول الأوروبية على تعديات القبائل التونسية ، وشكا حكومة الباي من عدم التدخل في حفظ الأمن . فلما أمنت فرنسا جانب التدخل الإنكليزي ، وحصلت على رضى ألمانيا بفتح تونس أقر البرلمان الفرنسي في ٤ إبريل عام ١٨٨١ اعتماداً مالياً يصرف لإرسال قوة تحافظ على سلامة الجزائر .

وفي ٦ أبريل عام ١٨٨١ بعث القنصل الفرنسي « روستان » باسم حكومته مذكرة للباي التونسي يقول فيها : « ستدخل الجيوش الفرنسية تونس كحلفاء ومساعدين لسلطة الباي وتتعاون معها في معاقبة القبائل المخلة بالأمن » فثارت ثائرة الباي محمد الصادق وأرسل قوة من ثلاثة آلاف مقاتل ، وزحفت الجيوش الفرنسية داخل الأراضي التونسية بواحد وثلاثين ألف جندي بكامل معداتهم فالتقت بقبائل جبل « خمير » .

ودارت معارك طاحنة في « الكاف » وغيرها ، ولم يجد الباي مساعداً من الدول الأجنبية . واكتفت الدولة العثمانية بإرسال جيش إلى طرابلس . ولم تقدر قوات الباي على المقاومة ، واستمرت الجيوش الفرنسية في الزحف رغم مقاومة القبائل المستمرة لها حتى احتلت بمساعدة أسطولها سواحل تونس كلها ثم تغلغلت في وسط البلاد ، وبقي الجنوب عاصياً متمرداً رغم الإمدادات المتوالية القادمة من فرنسا .

وأخيراً تقدمت القوات الفرنسية نحو مدينة تونس وحاصرتها وأرغمت الباي محمد الصادق على توقيع معاهدة الحماية فوقعها في قرية « باردو » في ١٢ مايو من عام ١٨٨١ .

كان لتوقيع هذه المعاهدة صدى قوى فى الأوساط الخارجية سقطت من جرائه وزارة إيطالية ، وتشكلت أخرى مكانها لم تعترف بهذه الحماية حتى عام ١٨٨٤ . واكتفى الباب العالى بالاحتجاج .

أما فى الداخل فقد أشاع الأحرار الوطنيون بأن الباى قد باع البلاد لفرنسا فتجددت الثورات فى جبل (خمير) وفى (سيدى بن جبل) وفى كل بقعة من بقاع تونس . وكان من أشد هذه الثورات وأقواها مراساً تلك التى نشبت فى جنوب البلاد بزعامة « على بن خليفة » الذى أقلق الفرنسيين بخفة فرسانه وسرعة تنقله حتى عام ١٨٨٥ حيث لقى حتفه مجروحاً فى أراضى طرابلس الغرب . ولم تهدأ عاصفة الثورات المسلحة التونسية ومحاولة تحرير البلاد ، حتى عام ١٩٠١ بعد أن كلفت فرنسا إبقاء جيش من خمسين ألف جندى ونفقات بلغت أربعة وأربعين مليون فرنك من الذهب .

لم تشمل معاهدة الحماية هذه غير عشر مواد غامضة كل الغموض، ثبت أقدام الفرنسيين فى البلاد التونسية إلى الأبد . وأهمها المادة الثانية التى تنص على ما يلى :

« لأجل القيام بالتدابير التى يجب على الدولة الفرنسية اتخاذها للوصول للغرض الذى يقصده الطرفان الساميان المتعاقدان فقد رضى سمو باى تونس بأن تحتل القوات الفرنسية المراكز التى تراها صالحة لتحقيق النظام والأمن على الحدود والسواحل . وينتهى هذا الاحتلال عند ما تتفق السلطتان الحربيتان الفرنسية والتونسية وتعترفان بأن الإدارة المحلية قد أصبحت مقتدرة على المحافظة على دوام الاستقرار والأمن العام » .

ولسنا فى مجال تفسير هذه المادة الواضحة القيود ، وحسبنا أن نشير إلى نقطتين فيها هما : (١) لم يتشكل منذ عقد هذه المعاهدة حتى اليوم سلطة حربية تونسية ليتحقق هذا الشرط الوحيد لإزالة الاحتلال . (٢) لم تعترف فرنسا حتى الآن ولن تعترف ، على ما يظهر ، بأن الإدارة المحلية قد أصبحت قادرة على المحافظة على دوام الاستقرار والأمن العام اللذين لم يضطربا مطلقاً فى هذه البلاد ، وإنما كان اضطرابهما حجة من نسج خيال القوى الظالم على الضعيف الآمن .

وفى ٨ يونيو من عام ١٨٨٣ فرضت السلطات الفرنسية على تونس اتفاقية مالية من خمس مواد تضع زمام اقتصاديات البلاد وماليتها بيد الحكومة الفرنسية ، وأجبرت الباى « على باشا » على توقيعها فى مدينة « المرسى » .

ولما تم لها كل ذلك راحت تحكم البلاد كما تشاء ، وتلعب بمقدرات هذا الشعب كما تهوى .

لقد كان فى الدولة التونسية قبل الاحتلال نظام إدارى رزين مرن تحت إشراف وزراء من الوطنيين فجعلت فرنسا مندوبها « المقيم العام » وزيراً لخارجيتها وعينت المالية والزراعة والتجارة والأشغال والبريد والمعارف رؤساء فرنسيين ولم تسمح للوطنيين إلا بوزارة الداخلية على أن يكون بجانب هذا الوزير (مستشار) فرنسى يكون هو الكل فى الكل ولا أثر لنفوذ الوزير باقتراحاته وتصرفاته ، وسمحت بعد أعوام طويلة بأن يكون وزير العدل وطنياً ولكن تحت نفوذ مستشار فرنسى . وفتحت المحاكم الفرنسية بجانب الشرعية للنظر فى كل ما يتعلق بشئون الفرنسيين . ووضعت إدارة الشرطة والأمن بأيد فرنسية ، واحتفظت بحق تعيين المساعدين لرؤساء البلديات من الفرنسيين ووضعت ميزانية البلاد التونسية تحت إشراف وزارة الخارجية الفرنسية ، وأخيراً قيدت بعض ذلك بمجلس شورى تتشكل أكثرية أعضائه من الفرنسيين ، على أن لا يجوز لهذا المجلس مخالفة ما تقرره الحكومة الفرنسية إذا أرادت تنفيذ شىء من ذلك .

وأخيراً وضعت ممتلكات الدولة تحت إشراف إدارة فرنسية تسمى « إدارة الفلاحة » وقد باعت هذه الإدارة

مملناً للفرنسيين من أخصب الأراضي التونسية وبأثمان بخسة وبدون مناقصة .

أما التعليم فقد جاء في الإحصاء الأخير لعام ١٩٤٥ أن لكل عشرة آلاف تونسي مدرسة ولكل خمسمائة فرنسي مقيم في تونس مدرسة على حساب البلاد .

لقد ذاق الشعب التونسي الأمرين من هذا الاحتلال الثقيل فناء تحت قيوده الاستعمارية ، غير أنه لم يلق سلاح الدفاع من كرامته ولم يستسلم لقوة الاضطهاد ، فجاهد بالسلاح والأنفس وقاوم الطغيان بكل ما أوتي من وسائل نظامية منذ سنة ١٩٠٤ حيث تكونت لجنة « الشبان التونسيين » وتحت لواء (الحزب الدستوري) المتشكل عام ١٩١٩ ، ثم في حظيرة (الحزب الدستوري الجديد) المؤسس عام ١٩٣٤ . وقد لاقى أعضاء كل هذه المؤسسات وغيرها أنواع الاضطهاد من سجون ومناف وآلام في سبيل حرية هذا الوطن العربي الجميل .

كانت هذه الحركات الحزبية كلها شعبية بحتة ، ولم يكن للبلاط التونسي يد فيها ، وكان الشعب التونسي يائساً من معاونة سلطانه طوال هذه المدة ، حتى كان شهر يونيو عام ١٩٤٢ فارتقى العرش الباي « محمد باشا المنصف » فاحتضن الفكرة القومية وضم الشعب تحت جناحيه وراح يشارك أبناء بلاده الآلام والعطف على القضية التونسية ، فلاقى منهم جزاء ذلك حباً وتفانياً للعرش . فلما احتل الألمان تونس خلال الحرب الأخيرة بقي هذا السلطان على الحياد ينتظر نتيجة الحرب . وبعد انهزام الألمان من البلاد وعودة الفرنسيين إليها من جديد بمساعدة الحلفاء لهم لم يرقهم شعور هذا الباي الوطني وخافوا من نفوذه وتكتل الشعب حوله ، فانتزعوه وهو مريض من عرشه في ١٤ مايو عام ١٩٤٣ وقلوب الشعب متعلقة به ، وساقوه إلى المنافي البعيدة في قلب الصحراء ، ثم نقلوه من منفى إلى آخر حتى استقروا به أخيراً في مدينة (بو) الفرنسية على جبال (البرنيه) فمكث فيها رغم مطالبة الشعب التونسي الحارة بإعادته ، حتى كان ما كان من قرار الحكومة الفرنسية الأخير بمنع هذا العاهل المخلص من العودة إلى وكره ، وحرمان أبنائه من عطفه وصادق إخلاصه لهم .

الدكتور عبد المجيد مزمرم

جامعة الدول العربية

الأمانة العامة

معرض الكتب المدرسية

الملحق بالمؤتمر الثقافي العربي بلبنان

يقام في لبنان لمناسبة انعقاد المؤتمر الثقافي العربي في الأسبوع الأول من سبتمبر القادم معرض الكتب المدرسية الموضوعة في مواد اللغة العربية بفروعها المختلفة ، وتيسير الكتابة والنحو والبلاغة والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية لكافة مراحل التعليم الأولى والرياضي والابتدائي والمتوسط والثانوي وقد وجهت الإدارة الثقافية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية الدعوة إلى مؤلفي الكتب المدرسية ودور النشر والمكتبات في العالم العربي طالبة إليهم أن يشتركوا في المعرض بالمؤلفات التي وضعها أصحابها في هذه المواد وكذلك بالأدوات التعليمية ووسائل الإيضاح المتصلة بتدريس هذه المواد من الصورات والأجهزة والمجسمات وخيرت العارضين بين إرسال المعروضات إلى الإدارة الثقافية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية بشارع البستان بالقاهرة أو إلى وزارة التربية الوطنية اللبنانية ببيروت في موعد غايته آخر يوليو (تموز) سنة ١٩٤٧ .

فلاحـــة البحر

بعد فلاحة الأرض

تحدثنا في الأسبوع الماضي عن أثر الإنسان في الأسماك والحيوانات المائية التي في جوف البحر، وانتهينا إلى أنه من المرغوب فيه تنظيم الصيد بحيث يظل التوازن قائماً بين حاجيات الإنسان من جهة، وبين مايقتضيه حفظ الأنواع وضمان نمو الأسماك والحيوانات المائية بالقدر الكافي من جهة أخرى.

وكانت الوسيلة الطبيعية لتحقيق هذا هي عقد اتفاقات دولية تنص على أن تكون الشباك المستخدمة في الصيد واسعة الفتحات إلى الحد المرغوب فيه لمنع صيد السمك الصغير، كما تنص على ضرورة الحد من عدد سفن أسطول الصيد المسموح به ووضع نهاية كبرى لحمولة هذه السفن لكل أمة من الأمم الموقعة على تلك الاتفاقات.

وقد جرت بالفعل هذه الإجراءات، فعقدت بين أمريكا وكندا معاهدات من هذا النوع سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٣٠ وتجددت في سنة ١٩٣٧، وأحدث العمل بها والتزام محتوياتها أحسن الأثر من ناحية الاطمئنان إلى أن المناطق الشهيرة بالأسماك الجيدة النافعة ظلت آمنة من الطغيان وآهلة بالسكان ومرتعاً خصيباً لها تنمو فيه وتكبر ولا تتأثر كثيراً بمقدار الصيد الذي يحدث فيها.

وعقدت بعد ذلك مؤتمرات دولية لبحث هذه المسألة انتهت بإقرار بعض القواعد وبتأليف لجان لبحث النقط التي تحتاج إلى استيفاء، والأمل كبير في أن تنتهي هذه الجهود إلى تحقيق ما يصبو إليه العلماء من إحداث التوازن المشار إليه آنفاً.

وهذه المشكلة تواجهنا في مصر أيضاً، لأن الصيادين هنا كان قد دفعهم الطمع إلى أن يصيدوا مقادير كبيرة من السمك الصغير حتى أصبح بعض الأنواع مهدداً بالانقراض، وعند ذلك تنبهت الحكومة إلى ضرورة منع الصيد بالشباك الصغيرة الفتحات. ومما لا شك فيه ستستفيد من دراسة هذه المسألة بعناية والانتفاع بما يصل إليه الباحثون في هذا الصدد من نتائج.

***

وتأتي بعد هذه المسألة مسألة أخرى أشرنا إليها في نهاية مقالنا في الأسبوع الماضي، وهي المحاولات الحديثة لاستغلال البحر بعد استغلال الأرض. وهذه المحاولات تهدف من جهة إلى زيادة عدد سكان البحار من أسماك وحيوانات، ومن جهة أخرى إلى الزيادة في أحجام الأفراد من مختلف الأجناس. ويتحقق هذا عن طريق الوسائل الآتية:

الأولى: العمل على تحسين الظروف التي يوجد فيها البيض والأسماك الصغيرة لتزداد فرصة بقائها على قيد الحياة

والثانية: نقلها إلى المناطق التي يكثر فيها الغذاء الصالح. والثالثة الزيادة في خصوبة المياه المحبوسة والتي تعيش فيها الأسماك وتنمو.

وأول محاولة لهذه الفلاحة الحديثة للبحار جديرة بالذكر هي التي قام بها كوستيه في المياه الفرنسية على الأصداف. فقد أدرك بعقله العلمي حقيقة أساسية، هي أن هذه الأصداف تلقي في الماء أعداداً هائلة من اليرقات تسبح على سطح الماء في أول الأمر ثم تسقط إلى القاع فلا يجد منها السطح الملائم الذي تتوافر فيه النظافة والصلابة الكافية إلا نسبة ضئيلة جداً من المجموع الكلي. وقد استطاع كوستيه بواسطة التجارب التي أجراها والابتكارات التي أبداها أن يمهد السبيل إلى الطريقة الحديثة التي تتلخص في أنه عند بدء الصيف وحلول موسم استعداد الأصداف لوضع البيض، يوضع في طريقها «مجمعات» مكونة من سطوح نصف أسطوانية عليها طبقة من الجير والرمل، فيجد عندها الملايين من البيض الملقح للأصداف المساحة الكافية

واللاجئة التي تنشدها لاستقرارها ونجاتها من الموت .

كذلك أدرك كوستيه علاوة على هذا ضرورة توفير نوع من الحماية لهذه الناشئات الجديدة ، فعمل على أن تجمع الأصداف الصغيرة من على السطوح نصف الأسطوانية بعد بضعة أشهر ، وتنقل ، على سبيل الإسعاف ، إلى أماكن محاطة بشباك من السلك لكي تحمى هذه اللاجئات من أعدائها العديدة مثل أبو جلمبو (السرطان) ونجمة البحر والقواقع البحرية الخ .

والمرحلة الأخيرة بعد هذا كله هي نقل الأصداف إلى حدائق شاطئية ، وهي مساحات مترامية الأطراف تستأصل منها الأعداء والدخلاء في وقت الجزر . ومثل هذه الحدائق أو المساحات منتشرة في الوقت الحاضر على سواحل فرنسا في عدة مناطق وشاهدة بازدهار هذه الصناعة ورواجها . وقد تضاعف نجاحها على أثر اكتشاف أماكن يكثر فيها الغذاء المناسب للأصداف ، بحيث تزيدها امتلاء وسمنة ، وإن لم يصلح لبيضها وتكاثرها .

وقد استخدمت وسائل شبيهة بهذه في البلاد الأخرى ، وبخاصة في الولايات المتحدة ، تتضمن تهيئة السطح اللازم للاستقرار ، والتخلص من الكائنات الهاجمة المعادية والنقل إلى أماكن أكثر صلاحية للتغذية .

ومن أمثلة هذه الفلاحة الناجحة بالنسبة لذوات المحارتين مزرعة أصداف اللؤلؤ ، في دنجونّاب على شاطئ البحر الأحمر التي أنشأها الدكتور كروسلاند فيما بين عامي ١٩٠٥ ، ١٩٢٣ ، والتي لولا هبوط سعر اللؤلؤ لظلت قائمة إلى اليوم تؤدى وظيفتها على أكمل وجه .

• • •

ونقل الحيوانات المائية إلى مسافات بعيدة محفوف بمشاكل أعظم من التي تكتنف نقل الحيوانات الأرضية . فأسماك المياه الحلوة لما نقلت إلى أنهار وبحيرات نيوزيلاندا سلمت وترعرعت وعاشت . أما أسماك المياه المالحة فيدخل بالنسبة لها عامل إضافي خاص بها ، وهو الهجرة لوضع البيض . فالمعروف والشاهد عادة أن السمك ينمو في الأماكن اللائقة لطعامه . لكنه يهاجر مع التيارات الغالبة إلى مساحات صالحة للبيض ، تتميز بظروف معينة محددة ، بعضها طبيعي وبعضها كيمياوى .

ومن ذلك نرى أنه على الرغم من احتمال استمرار الأسماك حية ومنتعشة ونامية بعد انتقالها إلى مكان جديد فإن تكاثرها قد يكون بعيد الاحتمال ، وذلك نظرا لاحتمال عدم توافر المكان الذى جعلته الطبيعة ملائما لعملية وضع البيض لهذا النوع من السمك بالذات . ولعل الفشل الذى منيت به محاولات إدخال الرنجة إلى نيوزيلاندا يرجع إلى هذا السبب نفسه .

ننتقل الآن إلى نقطة جديدة . ألا وهى أن نطبق على البحر ما نفعله على الأرض من العمل على زيادة الطعام اللازم والمهيأ للنباتات عن طريق استخدام المخصبات أو الأسمدة . وهو موضوع لا يزال بالنسبة إلى الفلاحة البحرية في طور التجربة ، وقد قام بشيء منها بعض العلماء في فرنسا ، كما قام بعض علماء من النرويج والدانيمارك بتجارب أخرى على المياه المحصورة ، وذلك بإضافة أملاح معدنية تحوى الأزوت والفسفور . وقد كشفت هذه التجارب عن زيادة ملحوظة في الحياة النباتية والحيوانية . كما أنه قد أجريت حديثا جدا تجارب بقصد زيادة مقادير السمك في المحصورات الصغيرة الواقعة على الشاطئ الغربى لاسكتلندا .

ومن الأمثلة المعروفة لنا هنا بمصر ما يحدث وقت فيضان النيل ، فإن الطمى الذى يأتى به هذا الفيضان مسمد جيد لماء البحر ، فهو يعين على نمو النباتات والحيوانات الدقيقة التى يتغذى عليها السردين بصفة خاصة ، ومن ثم سرعان ما يكبر ويسمن فنصطاد منه مقادير كبيرة يشاهدها

أ كواما متراكمة رواها بعض الصائدين كبور سعيد . وكذلك يجيء القيصان طرودا تتبع منها عند مصب النهر في جهة دمياط أنواع ممتازة من السمك كالنوع الذي كان يعرف بالخضراوي .

***

وقبل أن نختتم نقول كلمة عن آثار بعض الأعمال الهندسية العظيمة في الحياة البحرية . ولنضرب لذلك مثلا قنال السويس . فقد قدمت إلى مصر عام ١٩٢٤ (أي بعد فتح القنال بخمس وخمسين سنة) بعثة علمية من جامعة كمبردج برياسة الأستاذ منرو فكس لدراسة الأسماك والحيوانات البحرية في القنال ، فوجدت أن أعظم عقبة تعترض هجرة هذه عبر القنال هو درجة الملوحة العالية لبحيرات المرة ، تلك البحيرات التي كانت في الأصل واديا جففا رسبت عليه طبقات من الملح ناشئة من تجفيف المياه التي تسربت نحو الشمال كامتداد لخليج السويس إلى هذا الوادي .

كما أن عبور تلك الحيوانات ، كبيرها وصغيرها ، كان يتأثر بدرجة أقل من سابقتها بضيق القنال نفسه ، وبدوام حركة مياهه الضحلة ، وقد وجد في القنال والبحيرات مجموعة بحرية متميزة من تلك الحيوانات ، معظمها من أجناس تنتمي إلى البحر الأحمر ، وذلك لأن هنالك تيارات قوية تسرى من هذا البحر إلى البحيرات المرة ، بينما لا نجد من هذه البحيرات إلى البحر الأبيض المتوسط إلا تيارا بطيئا في خلال عشرة أشهر فقط من أشهر السنة .

ولا يتمثل البحر الأبيض المتوسط جيدا في القنال إلا بالنسبة لأجناس السمك ، لأن حركته مستقلة من التيارات ، وذلك بعكس حركة الحيوانات البحرية التي تكون عادة تحت رحمة التيارات السائدة في المكان .

وأخيراً تبين أن بعض الحيوانات الممثلة للمحيط الهندي يتسرب بالتدريج إلى البحر الأبيض المتوسط ، ومنها ما قد رسخت أقدامها مثل نوع من أصداف اللؤلؤ ونوع من أبو جلمبو وسمك السجان .

وهكذا تسير الأمور سيراً طبيعيا بالنسبة للماء كما تسير في طريقها الطبيعي بالنسبة لليابس .

أحمد عبد السلام الكرداني

سعد الله الجابري

« دمشق هي التي حفظت الإسلام وصانت العروبة ، يخفق قلبها لكل ما هو عربي ، وتضطرب إذا لحق الأذى أخا عربياً ، أو أسيء إلى قطر من الأقطار العربية ، وفيها وجد الناطقون بالضاد على الدوام ملجأ لهم ، بل إن كل قضية عربية عامة تولد في دمشق ومن الشام تنتشر إلى سائر الأصقاع : ذلك ما يلهمه جوها ويدفع إليه مركزها التاريخي » .

بهذا الإيمان خاطب فقيد العروبة سعد الله بك الجابري (رئيس حكومة الشام وعميد الوفد السوري) زملاءه أركان الحكومات وهم على مائدة « مشاورات الوحدة العربية » في الاسكندرية عام ١٩٤٣ .

ولعلنا لا نبعد كثيرا عن الواقع إذا عددنا هذه المزية من العوامل الفعالة في إخفاق المستعمرين الفرنسيين في القضاء على الروح القوي المضطرم في ديار أمية ، مع ما عرفوا به من عناد وبطش ، ورغما عما بذلوه من مساع وأموال ذهبت كلها عبثا ، وصمدت الشام في كفاحها التحرري ، وعاون وطنييها الظرف الدولي فأقصيت منها فرنسة وجلا منها آخر جندي فرنسي ، ففاز الشعب السوري بأمنيته القومية .

وبديهي أننا إذا ذكرنا المكان قصدنا من فيه ، فالشام تعني أهلها ، وهذه المزية التي نخلعها عليها قد ركزت في طبيعة رجالها وفيهم نخبة أخيار يعدون أعلام العروبة في هذا العصر ، وقدوة صالحة في الجهاد الوطني ، وسعد الله الجابري من هؤلاء الرجال .

لم يشتهر سعد الله بنباهة بيته الذي ولد فيه في حلب ولا ذاع صيته لسراوة أسرته ، ولكنه عرف بين لداته من أول نشأته بالإباء وقوة الشكيمة ، وذاع عنه بين أقرانه في الدراسة بالآستانة عاصمة الملك العثماني تعصبه لعرقه العربي وولعه بشاميته الشماء ! وما أسرع ما لف هذا الشعور القوي الشباب المعتز بنفسه في حلقة عربية كانت اجتماعاتها سرية بادئ الرأي ، لما أوحى إليها القائد عزيز علي باشا المصري بمعالم الحرية العربية ، فضم هذه الفتية النجيبة في (حزب العهد) ثم طفقت تعلن مبادئها وتطالب بحقوق أمتها في الحياة والمجد في (المنتدى الأدبي) هناك .

فلما آب الفتى إلى موطنه سار على هذا النهج ، وطفق يطالب الترك المتحكمين وينشد الاستقلال لبلاده مع إخوانه العاملين في الحقل القومي ، وهذا المذهب السياسي حببه إلى بني قومه ، فحل من أفئدتهم محلا رفيعاً ، فلما نادى السوريون لإيفاد من يمثل البلاد في المؤتمر العام المنعقد في دمشق الذي يتكلم باسم سورية ويضع قواعد المملكة العربية الجديدة ، كان سعد الله أحد الذين اختارتهم حلب لتمثيلها . فدخل البرلمان العربي الأول يتقد حمية ويجتذب الأنظار . إذ هو أصغر الأعضاء سنا في هذه الندوة ، حتى إذا تغلب جبروت الاستعمار المسلح على إرادة الشعب الأعزل وهد بنيان عرشه المستحدث حنق الجابري على الغاصب حنقا شديداً . وحفظ العهد والتزم سبيل الجهاد ، ولم يرض أن يتنحى إزاء العواصف العاتية ، فكان دعامة من دعائم الحركة الوطنية في الشهباء ، اتكأ عليه الزعيم إبراهيم هنانو في جلاده ومكافحته للسياسة الفرنسية ، وعُدّ ساعده الأيمن ، وبايعته الأمة بخلافته في مركز الزعامة ، بعد أن احتسبت عمادها راضيا مرضيا ، بل قد اختارت الكتلة الوطنية الجابري رئيسا لها تقديرا لمنزلته في ساحة النضال . حتى إذا تزحزح الفرنسيون عن موقفهم وسلموا بمطالب البلد واستعدوا للمفاوضة في وضع قاعدة لصلاتهم بالسوريين في معاهدة ، كان سعد الله عضوا في الوفد الذي شخص إلى باريس عام ١٩٣٦ فتم عقد معاهدة ما لبث المستعمرون أن حنثوا بعهدهم فيها وتراجعوا عنها ، فتجدد الكفاح الوطني وعاد المناضلون إلى قواعدهم أشد إيماناً

وأصفى إخلاصاً ، وكما أن السجون والمعتقلات والمنافى لم تلن صلابتهم فلم توهن المناصب تقويمهم ولا أمالتهم إلى الراحة والهدوء .

وأعقبت هذه الأحداث مركبا صعباً ركبه الفرنسيون اضطر معه زعماء الحركة الوطنية إلى أن يلجأوا إلى الأقطار العربية المجاورة يطلعون حكوماتها على حقيقة الحالة فى موطنهم ويستنفرون شعوبها على المناصرة ، وكان الجابرى من هؤلاء ، فقصد إلى المملكة العربية السعودية حيث لقى من العاهل الكبير حسن الوفادة ، وقضى فى الرياض زمناً ثم عرج على بغداد مع صحبه المجاهدين جميل بك مردم ولطفى بك الحفار ، وفى العراق عرف هؤلاء الأقطاب كيف يحمى العرين ويصون السواد الوديعة القومية ، وقد بسطت لهم عاصمة فيصل ذراعيها ، وأكبر العاملون تاريخ كفاحهم وأحلوهم فى موضع الصدارة من البيت القومى . فكانوا أرباب المنازل مختلطين بقادة الرأى وأقطاب السياسة ووزراء الدولة ، يشاركون فى معالجة المسائل ويتداولون فى القضية العربية الكبرى ، ويستأنس بأفكارهم حتى فى شئون العراق الخاصة ، وكانت الصفات المتممة لسعد الله الجابرى عند من لم يخالطه من قبل ، هذه الصراحة فى القول ، والصلابة فى العقيدة ، والذوق السليم فى كل شىء ، سمعته يعلق على حوار بين رئيس الوزارة — الحاكم بأمره — ونائب محامٍ جرىء فيما كتب فى الجريدة عن الرئيس ، وجاء تعليقه على غير هوى رئيس الوزراء ، ولكنها صراحة الجابرى وقوة نفسه فى التمسك بالحق يجب أن تتجلى فى كل موقف .

ويقتضينا التاريخ أن نسجل هنا أن سعد الله لم يساير إخوانه رجال العراق عند ما حدث الانقلاب العسكرى السابع فى ربيع ١٩٤١ ، بل كان يصارحهم بفكرته وما يراه فى الحاضر والمستقبل ، لا يهمه استحسان القابضين على زمام الأمور لآرائه أو إنكارهم لها ، إنما تمسك بمبدأ واحد هو جوهر سجيته عندما يشتبك العربى والأجنبى فى القتال فهو بجانب أخيه العربى مهما كانت الحال .

ثم دار الفلك دورته وتبدل الظرف السياسى فى سورية وتولت الجماعة الوطنية العاملة مقاليد الحكم فبرزت مواهب هذا السياسى الفحل وزيراً أو رئيساً لمجلس النواب أو رئيساً للحكومة . وكما ذاع أمره فى ميدان العمل الشعبى ودفع طغيان المتعدين بالشدة والجرأة والمواقف الصلبة حتى نعت (بأسد الشمال) لم تضعف إرادته ولا ارتجف جنانه لاضطهاد أو سجن أو نفى قاساه إحدى عشرة مرة ، فقد انتشر فى مجتمعه سلوكه المستقيم الصليب فى مركز المسئولية وفى كرسى الرئاسة للبرلمان . فهو رجل دولة فى الاضطلاع بأعباء الحكم ، حريص على تنفيذ القانون ، ساهر على العدل والنظام ، مؤمن بأن الدولة تشيد على العدل والنظام ومعرفة صحيحة بحاجات الشعب ليحيا حياة كريمة ، وهو فى البرلمان منافح شديد المراس قوى الحجة قاطع البرهان ، ويذكر له مجلس الأمة موقفين مشهودين يضفيان على تاريخه جلالا : يوم وأد فتنة أراد إيقاظها بعض من لا خلاق لهم باسم الدين ، وكسبه الثقة عند ما تضافر المعارضون وأقلية المؤيدين فى الحملة على وزارته لموقفها من الاتفاق البريطانى — الفرنسى ، لخرج من المعركة ظافراً مشرق الجبين .

أما مساهمته فى المعركة الفاصلة مع الفرنسيين لتحرير سورية فى أيار (مايو) ١٩٤٥ وهو رئيس البرلمان ، وما أبرزه من قوة الجنان ، وسلاح الطامعين يقصف دار النواب وقنابر المستعمر تقذف (فندق أوريان بالاس) حيث يقيم ، ونجاته بأعجوبة ، فما يتحدث به أهل الشام .

هذا هو المجاهد الذى قضى يوم ٢٠ حزيران ١٩٤٧ فى بلده حلب غير متجاوز ٥٣ عاماً صرف معظمها فى منازلة العدوان الأجنبى والسعى لتحرير أمته واستقلال بلاده ، فما نعاه الناعى إلى بنى أمه وإخوانه فى

البلاد الشقيقة حتى أكبروا الخطب فيه وندبوا شخصية لا يجود الزمان بنظائر لها إلا فى النادر . وما أصدق قول فخامة شكرى بك القوتلى رئيس الجمهورية السورية فى تأبينه :

« لقد ألفتنا الدراسة وجمعتنا السياسة سبعاً وثلاثين سنة ، فلم نلمس يوماً فيك إلا الإخلاص المجرد والتضحية التى لا تطلب جزاء ولا شكرا ... وقد اقترن اسمك الطيب بكل قدر وبكل مأثرة من مآثر هذا العهد الاستقلالى ، من وضع الأسس الأولى لصرح الاستقلال وإقامة أركان الجامعة العربية والمشاركة البارزة فى استكمال سيادة الأمة بتحقيق الجلاء » .

ومما يؤثر من الفقيد أنه عاش زاهدا فى الدنيا فلم يتزوج ، ومات فقيراً مع أنه ابن أسرة لها مكانها فى الوجاهة والثراء ، ولكنه ظل ندى اليد ينفق راتبه فى إغاثة الآخرين ويوزع رزقه على مرءوسيه الصغار ، ويجب أن نقارن ميتة هذا السياسى العربى من غير تركة بالثروات الضخمة التى جمعها بعض الساسة العرب وأكثرهم ممن نشأوا فى بيوت الخصاصة والفقر ، لنكبر هذه النفس العزوف عن الدنيا .

وقد ترك الجابرى (وصية) وإذا تدبرنا أنه لم يقض فجاءة ، بل عانى المرض أشهراً ، علمنا أنه سطر هذه الوصية وهو يفكر فى كل كلمة يخطها فيها ، علمنا ما يعنى وهى نداء « يطلب فيه إلى الشعب السورى المحافظة على استقلال بلاده والتمسك بالنظام الجمهورى ، ورغبته فى أن تدفن رفاته فى المدينة المنورة » .

أما حضه بنى قومه على (التمسك بالنظام الجمهورى) . فيذكرنا بخطابه فى (مشاورات الوحدة العربية) فى قصر أنطونيادس بالاسكندرية وفيه يقول :

« فى دمشق ولدت أول جمهورية عربية وترعرعت ، وتود أن تحافظ على نظامها هذا ، لأنها تعتقد فيه الخير لها وللعرب لأنه عنصر سلام بين البلاد العربية ، وأريد أن أكون أكثر صراحة فأقول : إن دمشق تحرص على الاحتفاظ بمكانتها التى استحقتها بطبيعتها وتاريخها وأنها لا ترضى عن نظامها الجمهورى بديلا » .

(لها بقية) رفائيل بطى

الأمم والسياسة والآداب

الشائع المتعارف أن الأمم تتحرى في سياساتها الدولية وعلاقاتها الأممية مصالحها الخاصة ، ولا تفكر كثيراً ولا قليلاً في الصالح العام الذي يعود على الإنسانية بالنفع ، ويرفع من شأنها ، ويزيل من طريقها العقبات ، ويجنبها العثرات ؛ ومن ثم كان من النقلة المضحكة والسذاجة التي يتنادر بها الساخرون والكلبيون أن ينصح أحد الناس من ذوي النيات الحسنة والحماسة المشبوبة لدهاقين السياسة وأساطينها باتباع أصول الآداب ، والتزام المبادئ الشريفة وكرائم الأخلاق في توجيه السياسة ، ووضع الخطط ، ومواجهة المواقف ، وعلاج الأزمات والمشكلات ؛ والملحوظ بوجه عام أن معظم رجال الأعمال يضيقون ذرعا بمن يذكرهم بدواعي العطف والرفق ، والمروءة واللين ، ومجافاة الأثرة والطمع والجشع ، ويستثقلون ظله ، ويرون نصحه أو وعظه من قبيل الحديث المعاد والقول المملول ، بل لعل بعضهم يرونه من قبيل العجائب والغرائب والمناكير التي لا يروقهم سماعها ، ولا تهش لها نفوسهم ، وإذا كان هذا هو حال رجال الأعمال حتى الذين يعملون منهم في مجال ضيق وناحية محدودة ، فما ظنك بالساسة ذوي الأخطار الذين يضطلعون بالأعباء الجسيمة المرهقة ، ويعملون في الميادين الفسيحة المترامية ؟ ولا نزاع في أن الجهاد في هذه الميادين الرحاب يستلزم المضاء واليقظة وحضور البديهة وخفة الحركة وسرعة البت ؛ ومسألة الاستمساك بالآداب والأخلاق من شأنها أن تخلق التردد والوساوس ومراجعة النفس ومناقشتها الحساب ، وهي أمور تساعد الفرصة السانحة على الإفلات ، وتفسد الخطة ، وتحبط التدبير ؛ فليس عجيباً أن يمقتها الساسة ، ويتنكر للقائلين بها أصحاب الأعمال ،

وإذا كان الأمر كذلك فما علاقة الأخلاق والآداب والفضائل إذاً بالسياسة ؟ ألم يكن المفكر السياسي الكبير مكيافلي معذوراً في فصله السياسة عن الأخلاق وتفريقه بينهما بألفاظ صريحة لا جمجمة فيها ولا تردد ؟

ولكن العجيب حقا أننا رغم ذلك نكثر من نقد مكيافلي ، ونخطئه في قياسه واستنتاجه وتعليله وتخريجه ، ونتهمه بأنه أسرف إسرافاً لا مزيد عليه في فصله الأخلاق عن السياسة ، ونعزو سبب الفوضى الدولية السائدة إلى أن الدول لا تراعي شريعة الأخلاق ؛ والأدخل من ذلك في الغرابة أن الدول الكبرى في الحرب الأخيرة كانت تخوض غمراتها وتستهدف لأهوالها صوناً للأخلاق ودفاعاً عن الحريات وضماناً للعدالة ؛ وكان أشد ما وجه إلى النازيين هو استخفافهم بالقوانين الدولية واستهانتهم بالعدالة ، وكانت تعلن تلك الدول عزمها على تأسيس نظام دولي يقوم على القانون والعدل لا على شريعة الأدغال وأحكام القوة .

وقد ظهر بين رجال الدول الكبرى من كان ينصح بالكف عن الاستعمار والاغتصاب والاستغلال ، ويقول بإيتاء كل ذي حق حقه ومنح الأمم المغلوبة على أمرها حريتها ، فعلى الإنجليز أن يتركوا الهند لأهلها ، ويكفوا عن انتقاص حقوق المصريين ، وأن يرفعوا يدهم عن الأمم التي فرضوا عليها سلطانهم في غفلة الزمن وفي عهود الرجعية والتأخر ، ثم لماذا تطالب الدول بالوفاء بوعودها ورفع الصوت ببطلان الاستعمار ؟

ألا يتضمن هذا نوعاً من الإيمان بالمبادئ الأخلاقية والاعتقاد بأنها تسود العلاقات البشرية والأعمال الأممية رغم شكنا في ذلك وإنكارنا له ؟

وهناك مجموعة من القوانين والمبادئ والمراسيم واللوائح تسمى « القانون الدولي » ، وبعض الأمم تراعي أحكامه وتحترم نصوصه في بعض الأوقات ، ولكن هذا القانون ليس قانوناً بالمعنى المألوف في القوانين السائدة المحترمة في البلاد التي يعيش بها الإنسان ؛ فالدولة لا تنصح لنا باتباع القوانين ، ولا تستشفع بنا في تنفيذها ، وإنما تهددنا

وتنذرنا ، ولا تحجم عن معاقبتنا والاقتصاص منا إذا خرجنا على تلك القوانين أو تجاهلنا وجودها ، ووجود قوة لكبح من تسول له نفسه مخالفة القانون جزء من صميم القانون ، ولكن ليس هناك مثل هذه القوة لفرض أحكام القانون الدولي ، وأحكام القانون الدولي من هذه الناحية ليست قانوناً بالمعنى المألوف بالرغم من أن لها كم تأخذ بها وتبنى عليها . وإنما هي من قبيل النصائح الأخلاقية والوصايا الأدبية ؛ وقد اتفقت الأمم المتحضرة على اتباعها واحترامها ، وبعض الأمم تأخذ بها حينا يروقها ذلك .

والفكرة القائلة بأن الأمم تعمل في المسائل الدولية بدافع من مصلحتها الخاصة تؤكد لنا أن شريعة الأدغال هي السائدة في المسائل الدولية والعلاقات الأممية ؛ ومعنى ذلك أن الأمم لا تستطيع أن تكبح أثرتها وتحد من مطامعها ، وأنها لا تتظاهر بالاستمساك بالأخلاق والتعلق بالعدالة إلا إذا كان في ذلك مصلحة خاصة لها ؛ وقد جاء كشف القنبلة الذرية ، وهو أمر خطير من غير شك ، وأخطر نواحيه أنه لو استمرت المشكلات الدولية تعالج بالأساليب المعهودة لجاء الوقت الذي لا تستطيع فيه الأمم أن تحقق مصلحتها الخاصة ، لأنها تكون قد زالت من وجه الأرض كما تختفي الرغوة قبل أن تظفر بالمصلحة المنشودة !

ولكن هل حقيقة أن الأمم لا تحركها سوى المصلحة الخاصة ؟ وهل الدوافع الأدبية لا تأثير لها في سياسة الأمم وتدبير أمورها ؟

لقد أشار هتلر في كتابه المعروف « كفاحي » إلى أن قوة السلاح لا تنجح إذا لم يدعمها مثل أعلى ، وإلى أن الناس لا يوفقون في خوض غمار الحرب إلا إذا اعتقدوا أنهم يحاربون من أجل فكرة كبيرة ، ومثل أعلى سام ، وهم لا يحاربون من أجل غاية مادية أو مصلحة خاصة ، وقد فطن هتلر إلى أنه لا يستطيع أن يحمل أمة كالأمة الألمانية على الحرب بدافع الأسباب المادية ، ولو أنه وعد الألمان بالثروة الواسعة والرغد الشامل والخفض العميم لما لبوا كلمته وانقادوا لأمره ، ولذا ابتكر لهم عقيدة مناسبة ، وطلع عليهم بمثل أعلى ، وجعلهم يصدقون بأنهم إنما يريقون دماءهم قرباناً لهذا الهدف السامي ، ومن أجل تلك الغاية الكبرى ؛ ففكرة النبل والبطولة والمثل الأعلى هي التي حفزت الألمان واستطارت جنانهم واستهوت ألبابهم ، وهي فكرة أدبية ودافع أخلاقي .

كذلك حال الإنجليز في الحرب الكبرى الأولى ، ففي أوائل تلك الحرب غزا الألمان البلجيك ، وكان ذلك الغزو يسيء إلى مصلحة بريطانيا ، لأن استيلاء دولة قوية على ثغور القنال الإنجليزي والشواطئ القارية المواجهة لإنجلترا يهدد سلامتها ويخل بالتوازن الدولي ، ولكن السير إدوارد جري وزير خارجية إنجلترا في تلك الحقبة آثر أن يعرض الأمر على الشعب البريطاني في صيغة أخلاقية ، وذكر لأمته أن ألمانيا قد نكثت بعهودها الأدبية ، واعتدت على حياد أمة صغيرة قد ضمنت حيادها ، فلماذا وضع السير إدوارد جري الأمر هذا الوضع ؟ لأنه كان يعلم بغريزته السياسية أن الأمم لا تتحرك بدافع المصلحة وحدها ، وإنما تستثار وتستنهض بدافع الغايات الأدبية .

وربما يبدو للساخر المستهزئ بالطبيعة الإنسانية أن يقول إن دافع إنجلترا إلى خوض غمار تلك الحرب كان المصلحة ، وإن السير إدوارد جري كان يعلم ذلك ولكنه خدع الشعب البريطاني وخيل له أن المسألة من المسائل الأدبية الأخلاقية كما خدع هتلر الشعب الألماني ، ولكن الواقع أنها سخرية رخيصة ونقد غير موفق ؛ فأكثر الزعماء من طراز جري وهتلر يعتقدون بصدق ما يذهبون إليه ، فجري كان يعتقد بمصلحة بريطانيا ويؤمن بهدفها الأدبي ، وهو مخلص في رأيه وعقيدته ، وكذلك كان هتلر

يعتقد بسمو ثابة الشعب الألمانى ، بل كان يعتقد بذلك إلى حد التعصب والهوس .

على أننا لو فرضنا أن أمثال هتلر وجرى وفرانكلين روزفلت وويلسون وغيرهم من الدجالين المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ولا يؤمنون بغير المصلحة والأثرة والمطامع ، ولكنهم يخدعون أممهم بالتغنى بأنشودة المبادئ السامية ، لما غير ذلك من الأمر شيئاً ، لأنه يرينا فى صورة واضحة أن أمم الأرض لا تحركها سوى الدوافع الأدبية ، وأن من الخطأ الاعتقاد بأن الأمم لا تتحرك بغير دافع المصلحة .

وعنصر الحق فى الرأى السائد هو أن مستوى الآداب الدولية ليس فى درجة السمو الذى يريده أنصار الإنسانية ويحلم به محبو السلام والخير للبشرية ، وهناك شئ اسمه الآداب الدولية ، ولكن معيار الآداب بين الدول أنزل من معيار الآداب بين الأفراد المهذبين فى الأعمال الفردية .

وهذا هو سبب ذيوع فكرة أن الأفكار الأدبية ليس لها مكان فى عالم السياسة والعلاقات الدولية ، وأن الأمم تعمل بدافع المصلحة وحدها . ولعلنا نبالغ فى تصوير الأمر بهذه الصورة بعض المبالغة ؛ فنحن نرى مستوى الآداب الدولية الهابط فيؤثر ذلك فى نفوسنا تأثيراً شديداً يحملنا على المبالغة والإسراف وإنكار وجود الآداب الدولية جملة وإطلاقاً .

ولكن لماذا وجد هذا الفرق المحسوس بين مقاييس الأفراد الأدبية ومقاييس الأمم والدول ؟

يعلل الكتاب السياسيون والاجتماعيون ذلك بأسباب عدة مختلفة ؛ ولعل أمس تلك الأسباب بموضوعنا هو أن الفرد فى علاقاته بغيره من الأفراد يعمل فى حدود مجتمع له قوانينه المرعية المكفولة ، ولكن ليس هناك حكومة الحكومات أو دولة الدول ، فالدولة تشرف على علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، ولكن ليس هناك أمة الأمم ولا دولة الدول ، ولهذا تظل القوانين الدولية مطرحة مهملة هابطة نازلة ، لأنها تنقصها قوة التنفيذ والأداة التى تفرضها فرضاً وتحقق وجودها .

ويمكن أن نستخلص من ذلك أن انحطاط الآداب الدولية ليس أمراً محتوماً لأنه فى طبيعة الأشياء ، أو لأن الأمة أو الدولة تسمو على الآداب ، أو لأنها بتكوينها خارجة على الآداب ، أو أن الآداب لا تنطبق عليها ، فإن الناس سواء كانوا مجتمعين فى شكل جماعة أو فى صورة أمة هم الناس ولهم نفس المشاعر الأدبية والطبائع الأخلاقية ، كالأفراد الذين تتكون منهم الجماعة وتتكون منهم الأمة ، وغاية ما فى الأمر أن الأمم ينقصها النظم المحترمة والقوانين المرعية فى علاقاتها المتبادلة .

ولا ينتظر بطبيعة الحال أن تكون هناك آداب دولية من مستوى أرفع ومقياس أسمى إلا إذا كانت هناك حكومة عالمية دولية ، ويرى بعض المفكرين أن الحكومة العالمية الدولية التى لا ترتفع الآداب الدولية بغير وجودها واستقرارها لا بد آتية ، لأنها نتيجة محتومة للتطور السياسى العالمى ، فقد ترقى العالم من نظام الأسرة إلى نظام القبيلة ، وانتقل من نظام القبيلة إلى نظام الأمة ، وليس من المحتمل أن يقف تطوره عند هذا الحد ، ولا بد أن يبلغ غايته فى النظام العالمى المرتقب .

ولكن هذا التطور المحتوم يقتضى زمناً ، وربما يستلزم مئات السنين ، والمأمول فى العصر الحاضر أن كشف القنبلة الذرية سيسرع بالإنسان فى سبيل الوحدة العالمية وخلق الحكومة التى تشرف على الحكومات .

والمشكلة الكبرى هى أننا لا نستطيع أن نرتفع بالآداب الدولية إلا إذا كانت هناك حكومة عالمية ، ولا نستطيع فى الوقت نفسه أن نوجد الحكومة العالمية إلا إذا سمونا

قضية المعلمين

الثقافة — ننشر هذه الكلمة الطيبة لحضرة الدكتور جمال الكفافي مفتش البعثة المصرية بواشنجطن لما فيها من آراء طيبة وإن كنا نخالفه في بعض ما ذهب إليه . والباب مفتوح لرجال التعليم أن يناقشوا بعض ما ورد في هذه الكلمة .

للمعلمين جميعاً على اختلاف جنسياتهم قضية عامة ، ولكل طائفة منهم في كل بلد منحضر قضية خاصة . وأعني بالقضية العامة المركز الاجتماعي الذي يحتله المدرس في بيئته بين أهله وعشيرته وأقرانه ؛ فالمدرس في كافة بلاد العالم ، باستثناء تشيكوسلوفاكيا ، يحتل مكاناً ثانوياً في المجتمع . فالحال في انجلترا وأمريكا مثلاً هو نفسه في مصر حيث يتقدم الطبيب والمهندس وغيرهم على المعلم . وعندي أن لذلك أسباباً وإن لم يكن له مبررات . فقد تأثر المركز الأدبي للمعلم بالمرتب الضئيل الذي يمنحه المدرس أجراً على عمله . وأخذ المعلمون في أنحاء العالم يرزحون تحت هذا العبء الثقيل وتألفت اتحادات تدافع عن حقوقهم ، وعمد الأفراد إلى شتى الوسائل للحصول على قسط أكبر من المال يواجهون به مطالب الحياة . فمنهم من سلك سبيلا قويماً فزاد دخله بالقدر الذي يمكنه من الاحتفاظ بالمركز الاجتماعي الذي ترشحه له مهنته ، ومنهم من دفعته الحاجة إلى أن ينحرف ، حتى لقد سمعت في صدد التنديد بضآلة مرتبات المعلمين في الولايات الجنوبية من أمريكا أن مدرساً أعطى أجراً على تنظيف حجرات المدرسة أعلى من أجره على التدريس ، وما زلت أذكر في شيء كثير من الضحك ما قاله لي أحد الآباء في أسيوط أنه قد « كرى » لولده مدرساً . وكانت هذه القضية العامة قد استفحل أمرها في مصر ، فقد قيل إن وكيلا من وكلاء وزارة المعارف ردّ إلى المالية عدداً من الدرجات لأنه لم يجد بين المدرسين من يستحق الترقية إليها ، ولعل صاحبنا هذا كان ممن يرتفعون بالمدرسين إلى منزلة الرسل ، فيأبى عليهم طلب المال ويفترض فيهم الزهد والتقشف .

على أننا نحمد الله أن وزارة المعارف قد أخذت من عهد غير بعيد تدرك أن المدرسين حتى وإن كادوا أن يكونوا رسلا ما زالوا في حاجة إلى مأكل ومسكن وملبس؛ فجاء الهلالي وطه حسين فأصلحا من حال معلمي الإلزام ، وجاء السنهوري والقباني فارتفعا بوزارة المعارف من الدرجة السادسة إلى الخامسة ، وعلمت أنهما في صدد رفعها إلى الرابعة ، فنرجو لهما توفيقاً . هذه ولا شك حركة مباركة نحو العناية بالمعلمين ، فحق علينا إذاً أن نذكر هؤلاء القادة بالحمد والخير والثناء .

بالآداب الدولية ، فكيف الخروج من هذه الورطة ؟

أكبر الظن أننا لا نستطيع الإفلات من هذا المأزق إلا إذا تخلصنا من أساليب تفكيرنا القديم الذي كان ملائماً للظروف العالمية السابقة والذي أصبح لا يلائم العصر الحاضر ؛ فقد كانت الأمم في العهود السالفة تستطيع الاكتفاء بذاتها والاعتماد على نفسها ، وأن تعيش في عزلة عن العالم ، ولكن هذه الحالة غير ميسورة في العصر الحاضر ، فقد توثقت العلاقات بين الأمم وتكاثرت الروابط والصلات ، وليس في مستطاع أمة أن تستغني عن سائر الأمم وتقتصر على مواردها ، ورغم ذلك لا تزال الأمم تفكر بالعقلية القومية في الوقت الذي أصبح فيه الموقف يستدعي التفكير بالعقلية العالمية .

فالموقف الآن يستدعي علاج طرائق التفكير من طريق تعديل أساليب التربية والتعليم والتثقيف ، وفي الوقت متسع لإنقاذ البشرية من أهوال الحرب العالمية الثالثة . وطريق الخلاص واضح وهو نبذ الأفكار الضيقة المحدودة والأخذ بأفكار أبعد مدى وأوسع أفقاً وأكثر مسايرة للأحوال العالمية المتجددة .

علي أدهم

هذا عرض سريع للقضية العامة للمعلم كما نعرفها فى مصر ، وبقى علينا أن نشرح القضية الخاصة وهى لا تقل عن الأولى خطراً . ونعنى بالقضية الخاصة مشكلة إعداد المعلم الإعداد الصالح الذى يمكنه من أداء عمله على وجه مرضى .

وأحب قبل أن أطرق هذا الموضوع أن أذكر أننى أدرك أن هناك من العوامل المحلية فى كل بلد ما يملى على القائمين بأمر التعليم هذا الطريق أو ذاك . فالعالم كله يواجه أزمة شديدة فى المعلمين ، ولمصر من هذه المشكلة نصيب كبير . فعلى القائمين على أمور التعليم أن يعدوا من المدرسين العدد الذى يسد الحاجة بقدر الإمكان ، حتى وإن أدى ذلك إلى شىء من التقصير فى إعداد المعلم . ولكى نواجه هذه المشكلة أخذت انجلترا تتساهل فى شروط قبول من يريد احتراف مهنة التعليم ، حتى إنها تجاوزت عن كل شروط تتعلق بالمؤهلات المدرسية فيمن تقدم من معلمى المرحلة الأولى ، واكتفى من بيدهم الأمر باختبار المتقدمين اختباراً شفوياً للتثبت من معلوماتهم العامة ومن نضجهم نضجاً يمكنهم من تحمل أعباء المهمة التى ستوكل إليهم ، وأعدت برنامجاً مركزاً لا يستغرق أكثر من ستة وأربعين أسبوعاً لإعداد معلم تحت الاختبار . على أنهم أعدوا إلى جانب ذلك دراسات تكميلية يلتحق بها كل من شاء من هؤلاء المعلمين .

وفتح فى مصر نوع جديد من المعاهد يقوم على إعداد معلم المرحلة الأولى من مراحل التعليم روعى فيها أن تخرج معلماً يرتفع مستواه عن معلم الإلزام المعروف ويقل عن معلم المدارس الابتدائية بوضعها القديم ، كما روعى فى المشروع الناحية الاقتصادية بحيث لا تتحمل خزانة الدولة كثيراً فى سبيل إعداده واستخدامه .

ولو أننا تأكدنا أن هذه خطوة مؤقتة يراد بها مواجهة مشكلة معينة لما كان لنا عليها اعتراض كثير ، ولكنى أخشى أن تتخذ هذه الخطوة صفة الاستمرار والدوام ، وتصبح جزءاً من سياستنا التعليمية . فإذا نحن قابلنا الظرف الحالى بعدد مناسب من المعلمين أصبح لزاماً علينا أن نضع خطة ثابتة فيها مرونة تمكنها من التطور تختلف فى جوهرها عن هذه . ولعلنا نبادر إلى وضع هذه الخطة لتتخذ مكانها من سياسة تعليمية مرسومة .

فإذا نحن أدركنا فى وضوح الهدف الذى نرمى إليه فى إعداد المعلم فى مصر هان الأمر وحسم النزاع . فلنجب إذاً على السؤال التالى إجابة نراعى فيها ظروف البلاد ومطالبها ، ونلاحظ فيها القواعد التى تعارف عليها التربويون ، ثم لنحدد الخطة التى نرى وضعها فى ضوء الإجابة : لمَ نُعِدُّ المعلم ؟ وما هى المهمة التى ستوكل إليه ؟

لم تعد مهمة المعلم مقصورة على التلقين ، بل الواجب والمفروض أن يقوم المعلم على تربية جيل جديد وبناء صرح آدمى مصرى جديد ، وتوجيه الجيل الحالى بما يلائم سياسة تعليمية مستقرة بعيدة المدى . فالمعلم إذاً يبنى الجيل القادم من النواحى الخلقية والثقافية والاجتماعية والنفسية ، وهو فى بيئته قائد وابن عشيرته مرشد . فعليه إذن أن يوسع ميدان عمله بحيث يخرج من جدران المدرسة إلى أسوار القرية أو المدينة وما عداها . فإذا سلمنا بذلك ، وعندى أن التسليم به واجب ، أمكننا أن ندرك فى يسر أن المعلم ما هو إلا طبيب خلقى ثقافى اجتماعى نفسى ، ويجب أن نعده فى ضوء ذلك كله . أما أن نقول إنه سيدرس القواعد الأربعة ومبادىء العلوم وأن نرضى له من الثقافة بقسط متواضع يمكنه من ذلك وحده ، فأمر لا نوافق عليه . ويجب ألا تقاس الثقافة اللازمة للمعلم بالقسط من المادة أو المواد التى سيدرسها ، كما يجب ألا تقل ثقافة معلم المرحلة الأولى عن ثقافة معلم المرحلة الثانوية كثيراً — إذا أجزنا فرقاً ما . على أننى لا أنادى بإعداد معلم واحد للمراحل المختلفة من مراحل التعليم ، ولا أدعو إلى إعداد مدرس اللغة ليدرس فى المرحلة الأولى ، ولكنى أقول إن الفروق المطلوبة فى إعداد المعلمين للمراحل المختلفة يجب أن تكفلها الفروق فى مناهج المواد المهنية — كالتربية وعلم النفس — لا الفروق فى المواد

الثقافية بالدرجة التي يجري عليها في أيامنا هذه . فالفارق بين ثقافة طالب أتم السنة الرابعة من سني التعليم الثانوي ، وهو الذي نعده للتدريس في المدارس الابتدائية ، وبين ثقافة خريج الجامعة الذي نختاره ليعلم في المدارس الثانوية فرق شاسع يخلق هوّة سحيقة لا أرى لها وجوداً بين مرحلتي التعليم الابتدائي والثانوي اللتين نعد لهما من نعدّ من معلمين .

ولهذه التفرقة خطر آخر نلمسه جميعاً وهو خلق طوائف وأحزاب بين أفراد مهنة واحدة ؛ فما دمنا نحاول التأليف بين قلوب رجال مهنة التعليم فالواجب أن نمهد لذلك تمهيداً عملياً صحيحاً بتقريب بين عقلياتهم وثقافتهم . وأرى لذلك — في سياستنا التعليمية المستقبلة — طريقين لا ثالث لهما : فنحن إما أن نرتفع بالمستوى الثقافي لمعلم المرحلة الأولى ليصل إلى مستوى معلم المرحلة الثانوية ، أو أن يكون التقريب بين المستويين على حساب معلم الثانوي . وعندي أن الأول خير وأبقى . فلو أن وزارة المعارف راعت ذلك في وضع أهداف سياستنا التعليمية بعد التغلب على أزمة المعلمين الحالية لأدت للوطن خدمة جليلة لا تنسى ، فهي بذلك ستعمل على رفع الجانب الثاني من حياة المعلم بعد أن عملت وتعمل على رفع مستواه الاقتصادي .

وسيقوم الاعتراض حتماً على ذلك . فسيقال : إن ذلك سيتطلب منا مالا كثيراً لاقبل لميزانية الدولة على تحمله ، وسيقتضي وقتاً طويلا لا يستغرقه إعداد المعلم في أي بلد آخر .

أما المال فيجب ألا يقف في سبيل إعداد معلم غال — لا معلم رخيص — ينفث من روحه ومن عزته في الجيل الجديد ما هو في شديد الحاجة إليه لنكافح الأزمة الخلقية التي أورثنا إياها الاحتلال الطويل . فليكن عندنا ما عند غيرنا من ضرائب للتعليم تفرض تصاعدياً على أثرياء الأمة والقادرين من أفرادها . ولنزد من نصيب التعليم في ميزانية الدولة العامة ولنستعن بخبرة رجال المال والاقتصاد في تذليل هذه العقبة .

أما الوقت الذي سنصرفه في إعداد هذا المعلم الجديد فيجب ألا يثبط من همتنا . فإذا كنا نطلب ممن يدرس الطب أن يقضي سبع سنوات ليقوم على علاج البدن بعد تخرجه ، فكيف بنا نكتفي بسنتين أو ثلاث إذا أردنا أن نعد طبيباً يقوم على بناء النفس وعلاجها وتقويم الخلق وتربية المجتمع ؟ أنا أدرك أن هذا الفارق قائم في جلّ بلاد العالم ، ولكني أنادي بأن تكون مصر الأولى في إدراك خطل هذه التفرقة . وليس هناك ما يمنع أن نقود أحياناً ! !

فإذا تطلعنا في المستقبل إلى معلم مثقف كريم غال وأعرضنا من إعداد معلم رخيص يشغل أيامه ولياليه بفكر في علاوة أو درجة ، فإنا لا شك سنضمن للجيل القادم مرشداً طيباً ومعلماً نفخر به .

جمال الكناني

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

فلاسفة بلا محافظ

Philosophers Without Portefeuilles.

كثيراً ما أحسست بالحيرة تتملك الرجل غير المثقف إذا سئل عما يعلمه المعلم الذي يتولى تدريس الفلسفة.

وهذه الحيرة لن تتملك أحداً من الناس إذا قلت له إنك تتولى تدريس الكيمياء، أو التاريخ أو الرياضيات. فإذا سألني سائل: ماذا تعلّم؟ وقلت: إني أعلم الفلسفة، بانت الدهشة على وجه محدثي وبان ذهوله.

ولذلك فقد امتنعت عن التفسير والشرح. ذلك لأن المرء كلما تعمق في البحث في أمر الفلسفة عجز عن الإتيان لها بتعريف جامع مانع.

والعجز في هذا ليس مقصوراً على الرجال غير المشتغلين بتدريس الفلسفة وتعليمها، بل هو كائن عند مدرسي الفلسفة المحترفين.

وليس هذا العجز هو الذي يمنعني من الشرح والتفسير. ولكن الذي يمنعني هو أني كلما ظننت أني قد أوفيت على الغاية في التوضيح والتبيين ظهر أن لمحدثي رأيه الخاص وتعريفاته التي وضعها وأصبح بها متميزاً من ماهية الفلسفة وظهر لي أنه يود أن أفرغ من حديثي ليتولى هو شرح تعريفاته، وحملي على الاقتناع بها، وهو يقول في تواضع العلماء: — إنّ لي فلسفةً خصصتُ بها.

فإذا بحثت من كنه فلسفته تلك ألفيتها نظريات من نظريات «روبرت انجرسول» أو «ماري بار كرادي» وقد مسخت من أثر ما أصابها من الوحل والبلل.

وفي الحق أن من الرجال غير المثقفين من هو — على أية حال — صاحب تفكير سليم بالفطرة. فهو يعرف الفرق البالغ بين أن يكون المرء فيلسوفاً وبين أن يكون مدرساً للفلسفة.

وخير مثال لتبيين هذا الفرق هو اسبينوزا (١). فقد رفض اسبينوزا — وهو الفيلسوف الراسخ القدم في الفلسفة — أن يدرّس الفلسفة في جامعة هيدلبرج.

وهناك ناحية أخرى للبحث، وهو أنه من الجائز أن يدرّس أحد الناس الفلسفة وعقله لم يرزق موهبة التفكير الفلسفي.

وما الفلسفة — كما يقول ماتيو ارنولد عند تحدثه عن سوفوكليس — إلا محاولة النظر إلى الحياة نظرة رزينة هادئة. وما الفيلسوف إلا من نظر للحياة كأنها وحدة شاملة، ومن كانت له القدرة على التوفيق بين وجهة نظره وبين ما تأتي به الطبيعة وما يأتي به القدر.

فهل من الضروري لمن كانت هذه وجهته في الحياة أن يؤجر على شرح وجهة نظره تلك أو شرح وجهة نظر الفلاسفة الآخرين لتلاميذه في الساعة الحادية عشرة صباحا من أيام الاثنين والأربعاء والجمعة من كل أسبوع.

وإذا كتب لفيلسوف أن يحترف التدريس فعليه أن يدرّس أيّ علم وأي فن إلاّ الفلسفة. وأولى له ثم أولى ألاّ يدرّس شيئاً على الإطلاق، وعليه أن يحترف حرفة سهلة كحمل المظلات مثلا في أحد المتاحف.

ذلك لأن الآراء والأفكار إذا ألقيت في غرفة التدريس تحجرت فصارت مبادئ جافة كالهيكل العظمي لا لحم فيه ولا دم.

وإذا استعرضت أنا الفلاسفة الذين عرفتهم منذ أيام الطفولة فإني لواجد الكثير منهم «فلاسفةً بلا محافظ» وأعني بذلك أنهم لم يظفروا بالشهادات الجامعية، بل إن

(١) سبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧) فيلسوف هولندي كرس حياته لدراسة الفلسفة وبخاصة فلسفة ديكارت. وقد رفض أن يقوم بتدريس الفلسفة في جامعة هيدلبرج خوفا من أن قيود الوظيفة تحد من استقلال فكره.

لواجد منهم من لم يقرأ الكتب التي ألفها العلماء ، وإذا قرأوها فإن فلسفتهم لا تكون في الأغلب الأعم صدى لما قرأوه في تلك الكتب .

ومثل أولئك الفلاسفة الذين نسميهم « فلاسفة بالرغم من أنفسهم » يجب أن يفصل بينهم وبين الألوف من أولئك الأشخاص الذين نصبوا نفوسهم « خبراء في الفلسفة غير رسميين » وبين أولئك الذين ليست لهم فلسفة عرفت طريقها إلى دور النشر . وهؤلاء حكمهم حكم أولئك الأفراد المغمورين الذين يمثلون رواياتهم التمثيلية حيث يقيمون في غرف السطوح ، أو الذين يحتفظون بصور رواياتهم في حقائبهم .

وإني لأذكر مدعيا من مدعي الفلسفة كان في صدر حياته واحدا من رجال الأعمال ، وكانت لي به معرفة بطريق غير مباشر ، ثم يطلب إلى هذا الفيلسوف أن أقرأ عليه ما دوّنه من آراء فلسفية . ذلك لأن الكثير من تلك الآراء لم يكن قد دوّن .

جاءني يوما هذا الفيلسوف يسألني إن كنت أعرف أحد الخريجين من شبان الجامعة يكون بارعا في الكتابة وله إلمام بالمسائل الفلسفية لكي يستعين به على إخراج آرائه الفلسفية إلى عالم الوجود ثم إلباسها ثوبا من الكلمات ، على أن يجعل له راتبا سخيا . فوجدت شابا من الأكفاء ، فرح بالراتب والوظيفة . وبعد أيام جاءني الشاب يشكو ، ويقول إنه قد برم بالرجل وبفلسفته على الرغم من الأجر السخي الذي هو في أشد الحاجة إليه . وقال لي : إن فلسفة صاحبنا نصفها نظريات جنونية ونصفها نظريات زقاقية .

وجاءتني مرة امرأة تصف من مدّعيات الفلسفة وسألتني : — ما هي الطريق السلطانية المؤدية إلى المعرفة ؟

فأجبتها : العقل .

فقالت : عرفتَ شيئاً وغابت عنك أشياء .

فقلت : أظنك تقصدين التصوّف .

فقالت : نعم .

ثم استطردت تقول : إنكم معشر الفلاسفة المحترفين تتناسون هذا . والآن فاعلم أن الطريق الوحيد المؤدي إلى الحقيقة يقوم على نظرية التنفس العميق وعلى هدوء الطبع ...

ثم جلجل صوتها ، وبرقت عيناها . فتولاني الرعب . وأسرعت الخطى وأنا أقول لها : أعتذر لك ياسيدتي ، فإن عندي بعد قليل درسا في الفلسفة .

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم

الخواطر

حفار القبور .

لا أدرى لماذا تنقبض نفسى كلما دعيت لزيارة طفل مريض فى حى الإمامين ، تراى أمسك بسماعة التليفون فى تثاقل وأنا أتسلم الرسالة بأذن ملول ، وأحاول التملص لولا إلحاح من الطرف الآخر يرغمني على تحديد الميعاد بالدقيقة والساعة .

وعند ما أقترب بسيارتي من ميدان القلعة ، تتراكم علىّ الذكريات ، فإذا ما انسبت بها فى طرقات مدينة الأموات تخيلتني محاطا بأرواح أحبائي الذين ولوا قبلنا ، وكأنها تحييني تحية الصباح . ويوحى إلىّ الوهم بأصواتهم واحداً بعد الآخر ، كما عرفتها إبان حياتهم . فإذا ما وصلت إلى منزل مريضى صحوت من سباتى الروحى ، وتنهدت بارتياح لأنى أشعر مرة ثانية بعودتى إلى عالم المادة ، وهو عالم لا بأس به على أى حال .

إن قاطنى هذا الحىّ — من الأحياء طبعا — بشر مثلنا ، لهم دموعهم ، ولهم آمالهم وآلامهم . يخشون المرض ، ويرتعدون من ذكر الموت ، مع أنهم محاطون به من كل جانب . قد لا يهتمون برؤية عزيز غريب ، يطوى بين ذرات الأديم أمام أعينهم وهم منصرفون إلى أعمالهم ، وقد لا يمنعهم جوارهم من القبور الصامتة من الاندفاع وراء شهوات الحياة ، ولكن عند ما يمسهم الجرح ، فإن ظاهرة التمسك بالحياة تتجلى فيهم كآدميين مائة فى المائة .

حدث فى إحدى زياراتى الأخيرة لهذا الحى ، وكان ذلك فى الصباح الباكر ، أن قابلت حفار القبور الذى تقع مقبرتنا فى دائرة اختصاصه ، وبعد أن حيانى باشتياق ، تأملت فيه مليا فرأيت عجبا . نحن مثلا إذا خرجنا إلى أعمالنا فى الصباح تعمدنا أن نكون نظيفين أنيقين لنرضى الرئيس ، أو لنبعث الهيبة فى المرءوس . ولكن المعلم ابراهيم كان هو الآخر نظيفا أنيقا . ولما شاهدته عن بعد رأيته ينظر إلى السماء الصافية فى رجاء وأمل ، ويستنشق نسيم الصباح ، وهو مستبشر متفائل . ولابد أنه عند ما استيقظ من نومه تمتم داعيا الله أن يجعله يوما مباركا طيب الثمرات ، وما ثمراته إلا رءوس عالية وأجسام حيوية غالية ، ولابد أن الزوجة — كعادة نساء هذه الطبقة — بدأت فى المشاكسة والمماكسة حال استيقاظها ، فنهرها الزوج الآمل فى فرج الله قائلا : يا فتاح يا عليم ! ألا تعلمى يا امرأة أن الصباح فى الصباح يقطع الرزق . فتسكت صاغرة وهى ترجو أن تدفع الأقدار ثمن سكوتها مهجا وأرواحا ! أليست تطمع هى الأخرى فى اقتناء قرط ثقيل من الذهب تكيد به جارتها ؟ فكيف تصل إلى بغيتها إذا لم يفتح الله على عائلها وييسر له سبل الرزق ؟

ياله من عالم غريب كل من فيه ميسر لما خلق له .

ما ذنب العجل ؟

كنت أجول بسيارتى فى حى الزمالك ذات يوم ، فلفت نظرى حفل صغير لوضع حجر أساسى لإحدى السفارات الأجنبية ، وكان هناك كبار مدعوون وصغار مدعوون ، ووقف بين أعضاء هيئة الاستقبال عجل صغير ، كان دوره فى الحفل أن يذبح ويراق دمه رخيصا ليبارك الحفل ومناسبته ، وخطر لى أن أتمعن فيه جيداً وهو ينتظر نهايته ، فماذا رأيت ؟ كان صاحبنا واقفاً فى اطمئنان وثقة ، يجول بعينيه فى الواقفين حوله ، وينظر مثلهم إلى السيارات التى كانت تصل تباعا لتفرغ حمولتها من كبار المدعوين . ولعله كان يعجب فى نفسه لهذه الحركة غير العادية ، ويمنى نفسه بيده عالم جديد له ولزملائه يقفون فيه على قدم المساواة فى حفل كهذا مع ابن آدم الذى طالما اضطهد أخاه الحيوان . ألا يشعر بين آن وآخر بيد تربت على عنقه الغالى فى عطف وحنان ، غير عالم أنها يد الجلاد تهدىء روعه حتى لا تصدر

أنباء وآراء

فحم انجلترا :

عمدت الحكومة البريطانية إلى تخفيض استهلاك الفحم المحلي بجزرها بنسبة ٢٥ ٪ . وكان لذلك أثره في الإنتاج الصناعي وخاصة صناعة الحديد فيما يتصل بالسفن والسكك الحديدية والمواصلات العادية (أوتوبيس . وتاكسي . وملاكى) .

ويقدر الخبراء أن هذا النوع الأخير سينخفض إنتاجه في سنة ١٩٤٧ بحوالي ١٢٥٠٠٠ عربة كان يخص الجزر منها حوالي ٦٥٫٠٠٠ والباقي هو الذي كان يصدر للخارج وسينخفض دخل الحكومة من الضرائب المحصلة على العربات تبعاً لذلك . فقد كانت تحصل قرابة ١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه من « رخص » قيادة السيارات ، وذلك فضلا من مبلغ ٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ضريبة على الوقود المستخدم لهذه العربات !

والجزر البريطانية من الأراضي التي حبتها الطبيعة بثروة معدنية — أهمها الفحم — تعوضها عما تفقده من الثروة النباتية . غير أن لكل شيء نهاية . وإن الإنجليز ليستهلكون من ذلك الفحم مقادير هائلة كلما طلع عليهم ضوء يوم جديد . سواء أكان ذلك في استهلاكهم المحلي أو في التصدير إلى أمم العالم من موانيها الكثيرة .

من أجل ذلك تضطرب الآراء ثمة عما قد يصير إليه إنتاجهم الاقتصادي الحيوي هذا من كثرة استهلاكه . وإن القوم هناك يقدرون أن في استطاعة مناجم جزرهم أن تحتفظ بمستواها الحالي لمدة ١٥٠ سنة مقبلة إلا إذا

منه حركة عنيفة لا تتناسب مع وقار الحفل ! إن عقله البدائي لا يتصور أن يجمع الله عاطفتين في واحد ! حنان في اليد اليسرى ، وسكين غادر قاطع في اليد اليمنى . فلما أمسكوا به ليلقوه أرضا استسلم في هدوء عجيب ودون ضجة ، ولعله أراد أن يثبت جدارته بالتكريم الذي أولاه إياه ابن آدم . ولما رأى السكين يقترب من عنقه لم يجفل ، ولم يبد عليه أي اضطراب . ولعله الطمئنان الذي تتفرد به الدنيا أول مرة ، فهو لم يُذبَح قبل الآن ، أو لم يشاهد زميلا له يراق دمه في علانية فاضحة كهذه ، دون أن يدافع عنه أو يشفع له واحد من عشرات الواقفين حوله . ولما جز السكين عنقه خرجت منه آهة غليظة فيها احتجاج أخير غير مُجْدٍ على ما في الحياة من ظلم وغدر . ولابد أن روحه شاهدت المدعوين يتسامرون في عدم اكتراث ظاهر ، ويرشفون المثلجات تيمنا بالمناسبة السعيدة التي كان هو فيها كبش الفداء .

رأيت هذا المنظر العادي من نافذة سيارتي ، ولما أسدل الستار انصرفت في بطء وتثاقل ، ولازالت تنطبع في ذهني سمات الغبطة التي بدت في عيني العجل وهو يجول ببصره في زملائه المدعوين ، وترن في أذني آهته الغليظة المكتومة ، وهم يغدرون بصديقهم في وضح النهار . يا له من عالم غريب ! تذبح فيه من شئت من غير بني البشر ، أو تدوسها بسيارتك وأنت آمن من العقاب والمؤاخذة ، بينما تلتقفك المحاكم ، وتدوخك نصوص القوانين إذا خدشت الجلد الأصيل لأي آدمي مهما بلغت تفاهته !

ولكن هي سنة الله ، يرفع بعضنا فوق بعض درجات ، ويسوّي بيننا عند الممات . فيحيلنا إلى رفات ثم ذرات ، ويبقى له دائما ملك الأرض والسموات .

دكتور مصطفى الديواني

تبدل الحال غير الحال وإلا أن تكون النجدة على يد الطاقة القريبة في أمل بأملوته يخفف من عاقبة رهبوتها أو يمحوها !

محطة إذاعة :

في مستشفى سبوكين بولاية واشنجطن . أمريكا ، يعمد أولو الأمر هناك إلى توفير سبل الراحة للمرضى بطرق غريبة . من ذلك أنهم يهيئون للمرضى سماع الإذاعة على صورة غير مقلقة . فصنعوا « مخدات » الأسرة بطريقة صناعية تتصل بأجهزة الإذاعة فتصبح « ميكروفوناً » خاصاً لا يسمعه إلا المريض وحده إذا شاء . وذلك أن يدير المفتاح ليسمع أو يديره فيقفله إذا أراد ألا يسمع !

ويقولون إن هذه الطريقة لا تؤذى الأذن ، بل لعله أن يكون لها أثر علاجي كبير قد لمسوا أثره في تقدم صحة المرضى ، وليس من ينكر فضل الموسيقى الهادئة على النفس . وإذا صلحت النفس كانت خطوة مباركة نحو شفاء المريض !

مكان الزوج من المرأة :

بعد غزوة أحد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يواسى أهل من مات من المسلمين . فأقبلت حمنة بنت جحش فقال لها الرسول : يا حمن احتسبي . قالت : من يا رسول الله ؟ قال : خالك حمزة . قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون . غفر الله له ورحمه . هنيئاً له الشهادة . ثم قال لها : احتسبي . قالت : من يا رسول الله ؟ قال : أخوك . قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ورحمه . هنيئاً له الشهادة . ثم قال لها : احتسبي . قالت : من يا رسول الله ؟ قال : مصعب ابن عمير (زوجها) فقالت : واحزناه ! فقال صلى الله عليه وسلم : إن الزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد .

بالرث صبرى

أنطون روبنشتاين

أشار أستاذنا محمد بدران بك في مقاله البديع « من روائع الأدب الروسى » من غرام الموسيقى « الروسى بيتر تشايكوفسكى والسيدة نادجدا فون ملك إلى الموسيقى الروسى أنطون روبنشتاين ، ونضيف أن روبنشتاين من أعلام الموسيقى الروسية والألمانية خلال القرن التاسع عشر . فقد ولد سنة ١٨٢٩ في بولندا ، وتتلمذ لليست ، وأنشأ معهداً موسيقياً في بطرسبرج سنة ١٨٦٢ ، وتوفى سنة ١٨٩٤ بعد أن خلف ثروة طائلة من القطع الموسيقية الخالدة والأغاني التي تجرى على كل لسان . ومن ألطف أغانيه تلك القطعة التي وضعها هاينريش هاينه التي يقول فيها — على وجه التقريب — إنى رجل من اليمن واسمى عبد الله ، إنى من قوم إذا أحبوا ماتوا . . وهى مشهورة يرددها الناس في كل مكان .

من حكم الصين

— إذا سكن الماء أصبحت صفحته كالمرآة يرتسم فيها كل شيء واضحاً جلياً ، وكذلك العقل لا يصفو ولا ترتسم الأشياء في صفحته واضحة إلا إذا هدأت النفس وسكنت . إن عقل الفيلسوف هو مرآة الكون .

— الالتجاء إلى العنف هو أحط صور الفضيلة ، والمكافآت والعقوبات هي أسوأ وسائل التعليم ، والمظاهر الرسمية الفخمة والقوانين هي أسوأ مظاهر الحكومة ، والموسيقى والملابس أحط صور السعادة ، والبكاء والعويل أحط صور الحزن . ينبغى أن يعى الإنسان ذلك في ذهنه .

— إن قولنا : إن هذا الشيء كبير وذلك الشيء صغير هو حكم نسبى فقط ، فليس في الكون شيء إلا وهو كبير ، وليس فيه شيء إلا وهو صغير .

حسين مؤنس

السعادة الزوجية

السعادة شيء جوهري في حياة المتزوجين، يحلمون بها قبل زواجهم، ويحاولون تحقيقها حين تتصل حياتهم بعد الزواج، فهي المداد الذي يسطرون به صفحات حياتهم العائشة.. والأمل الذي يجري وراءه كل من يحاول أن يربط حياته بحياة أخرى رباطاً أبدياً مقدساً.

ولما كان الزواج أمراً ضرورياً في الحيـاة، بل هو الحياة نفسها لأنه الأداة الرئيسية التي تكوّن النتاج الآدمي على مر العصور، بل ولـما كان أمراً واجباً نزل به الوحي وحبذته سائر الأديان، والنتيجة الطبيعية الشريفة لا تحاد الغرائز الجنسية المسيطرة على حواسنا جميعاً.. فإن السعادة يجب أن تكون مزاجه الدائم وملء حياة كل زوجين، وأهم ما يرغب في الزواج ويدفع الكل إلى طريقه الحافل. لذلك كثر البحث في أسباب السعادة، وكثرت النصائح لكل من الزوجين ليحاول كل من ناحيته في قدر طاقته أن يوفرها لزميله دائماً.

ولكن للأسف الشديد — مع هـذا كله — فقد كثرت حوادث الطلاق أخيراً، وخاصة في أيامنا هذه، وحاول الكثيرون بحث أسباب ذلك، وتساءلوا جميعاً: لماذا تفشل أكثر الزيجات الحديثة؟ ولماذا يحدث الانفصال بعد مضي مدة قصيرة على الزواج؟ ولماذا يقصر أمد تلك السعادة المنزلية التي كان يرجوها الزوجان؟ ولماذا يتمزق ذلك الثوب من الأحلام الذهبيـة الذي نسجاه قبل الزواج؟ ولماذا يندر الآن أن نسمع من زوجين عاشا طيلة حياتهما الزوجيـة كأنهما ما زالا في شهر العسل الذي لا ينتهي أبداً؟

لو استعرضنا الأمر جيداً لوجدنا لذلك عدة أسباب، منها الخداع والزيف قبل الزواج بين الرجل والمرأة وخاصة في فترة الخطبـة، فلو أمكن لـكل منهما أن يظهر على حقيقته الطبيعية ولا يتكلف ولا يتصنع الرقة والأمانة وهدوء الأخلاق إن لم تكن طبيعية فيه، ولا يغالي في عواطفه نحو الآخر مغالاة شديدة، لأصبح كل منهما سعيداً؛ ولـكن يأتي الزواج.. وإذا بكل ما حدث كان مجرد أوهام وسراب.. وعلى ذلك فكل منهما يخدع الآخر ويغشه، ولما رفع ستار الحقيقة إذا بهما مختلفان جوهرياً وأخلاقياً، وإذا بحياتهما تقوم بدايتها على هذا النفاق.. وإذا ما قامت حياة على النفاق فلن تطرق بابهـا السعادة بطبيعة الأحوال.

فالكذب، وهو أحد طباع المرأة على وجه الخصوص، إذا ما لابس الحيـاة الزوجية كان دماراً لها واجتاحها بل واقتلعها من جذورها.. الـكذب بكافة أنواعه.. الكذب المادي.. والـكذب الحسي.. كذب الظاهر.. وكذب العواطف. إنه أداة مهلـكة وشر من الشرور التي تأباها طبيعة الحياة الزوجية القائمة على المعاونة والعواطف الثابتة العميقة، والاجتهاد والتشجيع والعمل على تحسين الأحوال على أشرف الأسس. أما إذا سادها ذلك الخداع والزيف والنفاق والـكذب فلا سبيل للزوجين سوى الانفصال بعد أن أصبح كل منهما يتهم الآخر بأنه قد غدر به وأتى به في ذلك المصير المحتوم.

كما أن التعاون هو أهم ما يقوم عليه عماد الحياة الزوجية المرجو لها السعادة. التعاون بين الزوج والزوجة. التعاون الصحيح القـائم على الحب المتمكن من قلبيهما معاً.. التعاون في سبيل حياة يغمرها الهناء لتزدهر وتنمو وتثمر خير الثمار. فيجب على الزوجة أن تكون اليد التي تدفع زوجها نحو الكمال دائماً.. فكم من الزوجات كن ذوات أثر قوي في حياة أزواجهن. وكم من عباقرة في هـذا الجيل والأجيال الماضية كان لزوجاتهم أكبر الفضل في

نجاحهم . إن المرأة التى تقدم كل ما يمكنها من معونة لزوجها امرأة تشرق السعادة فى سماء حياتها . والرجل إذا أحس بمثل هذه العواطف الشريفة من زوجه أحبها حباً يفوق كل عبادة ، وكانت هى لديه أهم ما يملأ حياته بهجة وسروراً . فعلى المرأة إذاً أن تعاون زوجها بكافة الطرق ، بعواطفها الحارة .. بكلماتها المشجعة .. بإقبالها عليه دائماً ، باهتمامها بكل أموره .. بتوفير سبل راحته دائماً .. بإشعاره أنه كل شىء لها . وما سعادتها مستمدة إلا من سعادته .

هذا ولما كانت السعادة فى الزواج تقوم دائماً على الحب المتبادل بين الزوجين ، فإن أهم ما يجب أن يضعه الزوجان نصب أعينهما هو دوام ذلك الحب ودوام فورته وحرارته ، لأنه إذا ما خمدت هذه الحرارة فإن السعادة المتعلقة بها والتى تسير معها جنباً إلى جنب سيصيبها الوهن هى الأخرى ويشقى كل من الزوجين بحياته .

ولكن كيف يحتفظ الزوجان بهذا الوهج من الحب دائماً ؟

لقد سئل الكاتب الإيطالى المشهور بيراندللو يوما من ذلك فأجاب : يجب علينا أن نعنى عناية فائقة بتلك الحقيقة الكبرى ، ألا وهى (الخيال) . فالزواج يجب أن يكون خيالا لا نهاية له .. والزيجات السعيدة هى التى يمكن أن يعيش فيها الخيال دائماً والتى تتجدد بتجدد الطبيعة نفسها . فإذا حاولنا إيضاح ذلك نجد أن المرأة تحب الرجل كما تعتقد فيه هى وكما تراه بغرائزها وحواسها لا كما يراه غيرها ، فهو فى عينها يبدو حينئذ بطلا من الأبطال أو شخصاً ممتازاً ، بينما هو نفسه يبدو فى أعين الغير رجلا عاديا لا يميزه شىء .. يختلف تمام الاختلاف عن الصورة التى تحتفظ بها هى . ولا نملك حينئذ نحن الذين نراها على تلك الحال إلا أن نضحك ساخرين من ذلك الحب الجنونى الذى تغمره به .

ويمكن تطبيق نفس هذه الفكرة على حب الرجل المرأة . فهو يحبها لا كما تبدو لنا ، ولكن كما يرجو هو أن تكون . فهو إن تكلم من الجمال والظرف والجاذبية وغير ذلك إنما يتكلم من وحى من شعوره الخاص نحو شخص معين هو بطبيعة الحال المرأة التى يراها بعينيه وغرائزه وإحساساته .

فالسعادة مثل الحقيقة ليست بالشىء الثابت ، إنما هى تتغير مثلها ، لأننا نحن أنفسنا نتغير نرى السعادة فى ضروب مختلفة تبعاً لاختلاف فترات حياتنا . فإذا ما حطمنا الخيال وحطمنا الحقيقة فإنما نحطم السعادة الزوجية نتيجة لذلك .

وفى كلمة أخرى فإن الحب يبقى كما عنينا بدوامه .. يبقى ما دمنا نخلقه خلقاً ونحييه دائماً ونجدده كلما تجددت حياتنا . فالحقيقة ليست مجردة .. فإن كانت كذلك ولم تتغير .. كان لها سكون الجثث والتماثيل .. وعلى ذلك فلن تكون هناك حياة بل هو الموت . فكل اثنين يتحابان يرى بعضهما بعين الحقيقة التى تخصهما هما فقط ، وليس بمنظار الحقيقة الذى يراها به الناس . فإذا ما حطمنا الحقيقة .. وحطمنا القوة التى نرى بها أحباءنا كما نرجو فكأننا قد حطمنا الحب نفسه .

هذا وقد ثبت دائماً أن الحب يجب ألا يقوم على الغريزة الجنسية فحسب ، بل يجب أن تدخله بعض العواطف الروحية .. وهو دليل آخر على ما سبق القول به ؛ فهاهو تولستوى الكاتب الروسى الكبير يعلن نظريته التى أصبح يؤمن بها بعد تجربة زواجه التى دامت طويلا ، وهى تقول إن الحياة الزوجية إذا ما قامت على علاقات متبادلة أساسها الرغبة الجنسية فقط فهى حياة فاشلة مسممة .. إذ أن الاستسلام إلى هذه الرغبة نتيجته الدمار دائما .

فالعواطف الزوجية في الزواج واجبة ولكن على شرط ألا تطغى على ما عداها .. بل يجب أن تكون لها أوقاتها اللائقة حتى تشتعل دائماً قوة الحب الكامنة في نفس الزوجين وروحيهما معاً .

ولكن لعل هناك سبباً آخر للزيجات التعسة الحديثة ، فالحب بطبيعته المعقدة نادراً ما يأخذ طريقاً واحداً بالنسبة للرجل والمرأة .. ونادرا ما يسير حب كل منهما موازيا للآخر .. بل نادراً ما نرى شخصين متكافئين في الحب في بدء حياتهما الزوجية ويستمران في حبهما لبعضهما بنفس القوة ، فغالباً ما يحدث أن يضعف حب أحدهما بمرور الزمن .. وفي هذا الوقت يجب على المرأة أن تلعب دورها المهم حتى تحتفظ بسعادتها الزوجية .

ولعل أكثر نساء اليوم قد تناسين أن الزواج ليس مجرد حقوق تؤخذ ، بل هو من ناحية أخرى واجبات تعطى . ولعلهن لا يذكرن أيضاً أن مهمة المرأة الكبرى هي أن تعطى أفضل وأشرف وأحلى ما تملك من عاطفة .

ونحن نتهم أيضاً تلك المدنية الحديثة ، لأنها من أهم أسباب فشل الحياة الزوجية وتقويض دعائمها .. المدنية الحديثة التي يسرت للمرأة أن تجرفها تيارات من الأفكار الجديدة والآراء التي تضرها أكثر مما تنفعها . إذ أن النساء في هذا العصر الحديث يحاولن تقليد الرجل في كل شيء والخروج إلى معترك الحياة مثله .. ولكنهن أخطأن بذلك في حق أنفسهن ، فالمرأة المسترجلة تعادل الرجل المخنث ، والمرأة التي تحاول أن تكون رجلا إنما هي نسخة رديئة من بنات جنسها .

فالمرأة لها دورها الذي خلقت من أجله لتؤديه على مسرح الحياة ، وعليها أن تحتفظ بأنوثتها إذا ما أرادت السعادة في الزواج .. وحظها في هذه السعادة سيلازمها ما دامت لا تحيد عن مهمتها التي وجدت لها .

والمرأة السعيدة هي التي تبقى على حقيقتها في حياتها .

أقصد تلك التي تظل دائماً زوجة وأماً والتي تعتقد دائماً أنه قد ألقيت على عاتقها مهمة كبرى تتقبلها في سرور وشجاعة ، فتحتفظ دائماً بروح الهدوء والسلام في مجرى حياتها ، وهما أساس السعادة العامة . وسعيدة هي المرأة التي تشع من حولها تلك الروح .. وستكون السعادة ملء بيتها تبعاً لذلك ما دامت لها القوة الكافية التي تجعل الرجل يستسلم إليها من طريق الحب والحب فقط .

كل هذه الأسباب إذا تأملها الرجل والمرأة معاً كانت السعادة رائد حياتهما وعليهما تتوقف نتائجها وخاصة المرأة ، فهي كالتربة الخصبة التي تتلقى الماء من السماء فتنبت البذرة وتحمل الثمار التي وجدت من أجلها .. ثمار الحب التي تتعهدها وتنميها وتنعم بها .

فلندعها تسير وفق غريزتها الطبيعية لتلعب الدور الذي خلقت له ، وحينئذ لن يعلق بحياتها أي شقاء .. بل بل ستحوطها السعادة دائماً .

حسن فهمي خليل

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : { ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٣٦٩

العدد ٤٤٦ — الثلاثاء ٢٦ من شعبان سنة ١٣٦٦ — ١٥ من يوليو سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

خـــواطر وآراء

على هامش الحوادث والأنبـاء

فض الدورة البرلمانية :

أعلن رسمياً فض الدورة البرلمانية بعد أن انتهى مجلس الشيوخ من نظر مشروع كهربة خزان أسوان ، ومشروع إنشاء مدينة العمال ، ومشروع تنسيق درجات الموظفين . وقد تناول رئيسا المجلسين ، ورئيس مجلس الوزراء ، في الكلمات التي ألقوها بمناسبة اختتام الدورة الحديث عما تم خلال الدورة من مشروعات كبيرة ، وما ساد المجلسين أثناء بحث المشروعات من روح قومية ، وما بذلته اللجان البرلمانية من جهود في إنجاز أعمالها الكثيرة .

وإنا بهذه المناسبة نغتبط بتوفيق المجلسين في إقرار مشروع كهربة الخزان ، ونحمد الله على تحقيق هذه الأمنية العزيزة التي كانت تجيش في صدر كل مصري محب لبلاده ، ونرجو أن تسارع الحكومة لاتخاذ خطوات التنفيذ ، حتى لا يتأخر الانتفاع بهذا المصدر الجديد للطاقة ، بعد أن حرمت البلاد من استثماره سنوات عديدة بغير اقتضاء ؛ ونعتقد أن هذا الفيض من الطاقة الكهربائية سيهيء للبلاد فرصة النهوض الاقتصادي . وعلى الرغم مما أثاره المعارضون المشروع ، والمتشككون في سلامته الاقتصادية ، نحس أنه كسب كبير للأمة أن يكون لديها مورد عظيم للقوة الكهربائية تستخدمه في صنع السماد الذي تحتاجه الزراعة المصرية ، ونستطيع أن نستغني به عن الخارج ، إذا تحرجت الظروف وتعذر الاستيراد .

حسب المرء أن يذكر أن مشروعات طلعت حرب باشا في إنشاء مصانع النسيج قد استطاعت أن تكفي البلاد خلال الحرب الاعتماد على الخارج في سد حاجة الشعب للكساء ، ليعلم أن كل خطوة تضمن للبلاد الاكتفاء الذاتي ، والاستغناء عن الخارج في المواد الأساسية ، هي خطوة حقيقية في سبيل استقلال البلاد الاقتصادي ، وكفالة سير أمورها من غير تأثر بالظروف الخارجية ، وأمان لها من التعرض للأخطار والمجاعة بسبب اعتمادها في شئونها الأساسية على عناصر خارجية لا تستطيع التحكم فيها .

كذلك نرحب بمشروع إنشاء مدينة العمال ، ونراه خطوة اجتماعية نافعة للطبقات العاملة الفقيرة ، كما نراه بداية تتبعها خطوة طبيعية ، هي إزالة الأحياء القذرة التي تشوه جمال العاصمة ، والتي تعد رمزاً حياً للحالة المزرية التي يعيش فيها كثير من أبناء الشعب الفقراء ، ونرجو أن توفق الحكومة لتيسير إيجار أماكن هذه المدينة الجديدة ، وتيسير وسائل المواصلات معها ، كما نرجو أن تكون الخطوات التالية تحسين قرى الريف ، وتهيئة الوسائل

الصحية بها ، وتوفير مياه الشرب الصحية ، والإضاءة الرخيصة بها . ليعم الإصلاح المدن والريف على السواء .

أما مشروع تنسيق الدرجات فقد كان نتيجة طبيعية للأنظمة المضطربة التي عولجت بها مشاكل الموظفين ، والتي كان أساسها إرضاء فئات خاصة منهم ، دون النظر لما يترتب على ذلك من إخلال بالتوازن بينهم وبين نظرائهم في ميادين أخرى من ميادين العمل الحكومي ، فجاء هذا المشروع ليقارب بين النظراء في المعاملة . وقد تريث مجلس الشيوخ في إقرار ما اقترحه مجلس النواب من الإضافة في الدرجات العليا . وكنا نتمنى ألا يرجأ ذلك ، فالاعتماد الخاص بهؤلاء ليس كثيراً ، وهؤلاء الموظفون الرئيسيون على قلة عددهم يحتملون أعباء جسيمة . وكان من الخير أن تحل مشاكلهم ، فلا تساورهم شكوك قد تؤثر في قيامهم بواجبهم .

على أننا مع هذا كله نشعر بأن ما تم كان خطوة حسنة في إصلاح أحوال الموظفين الذين احتملوا أعباء الغلاء الفاحش بصبر طويل ، وشهدوا ارتفاع مستوى المعيشة أربعة أضعاف في الوقت الذي لم ينالوا فيه تحسيناً يذكر في مرتباتهم وحرموا من العلاوات الدورية ، وقيدت ترقياتهم بقيود شديدة ، وهبط مستوى معيشتهم من كثير من طبقات الأمة التي أفادت من ظروف الحرب .

المؤتمرات والبعثات :

كثرت المؤتمرات الدولية التي تشترك فيها مصر وتنوعت ألوانها ، ورأينا في هذه المؤتمرات أنها اجتماعات نافعة تتيح للمشتركين فيها من أبناء هذه البلاد الوقوف على تيارات التفكير الدولي ، وتجمعهم بقادة العالم في مختلف الشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية . فالوفدون إليها حقيقون أن يفيدوا منها كثيراً إذا تتبعوا جلساتها واشتركوا في مباحثها بجد وعناية . أما إذا اتخذوا منها وسيلة للترويح والاستمتاع بزيارة البلاد التي يعقد فيها المؤتمر واهتموا بذلك فوق اهتمامهم بأعماله فإنها تكون تحميلا للدولة لنفقات الاستمتاع الشخصي للأعضاء . وخير مقياس لمبلغ الإفادة من تلك المؤتمرات أن يكون لها أثر عملي واضح في تحسين أحوال البلاد وتغيير بعض الاتجاهات واستحداث مشروعات نافعة أوحى بها شهود تلك المؤتمرات والاشتراك فيها .

كذلك اشتدت حركة البعثات الخارجية وكثر الأعضاء الوفدون للخارج لإتمام دراساتهم ، وهي حركة مباركة نرجو أن تكفل لنا في وقت قريب طائفة كبيرة من الإخصائيين في مختلف فروع العلم والعمل ، تتولى مهمة النهضة الجديدة وتبعث في البلاد روحاً قوية في كل دوائر العمل فيها . وإنا لنتطلع إلى اليوم الذي تستغنى فيه بهؤلاء عن إيفاد هذه الأفواج الكبيرة من الطلبة للخارج ، فيكون لهم في البلاد معاهد ممتازة يجدون فيها حاجتهم من العلم والعمل ، ويكون الإيفاد للخارج مقصوراً على بعثات من العلماء للتجديد والاتصال بغيرهم من العلماء لتبادل البحوث ومتابعة أحدث الآراء ، أو بعثات لدراسة جوانب خاصة تمتاز بها بعض البلاد . أما إرسال البعثات للدراسات العادية فأمر يجب أن ينتهي بعد زمن قصير بتوفير أسباب ذلك في البلاد .

الانتخابات في الشرق الأوسط :

من الظواهر الملحوظة في بلاد الشرق الأوسط أنه لا يكاد يحل بها موسم انتخابات جديدة حتى تتحرك القلاقل والاضطرابات وتظهر الإحن والخصومات . حتى لقد بدأ بعض المفكرين يوازنون بين ما تربحه تلك الأمم من الحياة النيابية وما تخسره بسبب الانتخابات من قيام الفتن وتولد الضغائن والأحقاد بين الأسر والأفراد .

إن كراسي النيابة جعلت لخدمة الأمة وتحقيق رغباتها

الأدب والفكاهة والهجاء

الأمم التي تفقد حاسة الفكاهة وإدراك الجوانب المضحكة في الناس والأشياء، تفقد جانباً هاماً من حياتها الروحية، وصفاء التفكير، ودقة وزن الأمور، والقدرة على التمييز، وربما كان من أوضح مميزات النظم السياسية الفاسدة غير الطبيعية مثل النظم الفاشية السخيفة وما إليها من النظم التي تحاول خنق الروح البشرية وتكبيل العقول، ضيقها بالفكاهات المستملحة والنكات اللاذعة، وذلك لخلو هذه النظم من السماحة والعطف، وقيامها على الإرهاب والإزعاج والتضليل، وحجرها على حرية الفكر، وحملها الناس على أن لا يروا من الأشياء سوى جانب واحد، وهو الجانب الذي تريدهم الدولة على أن يبصروه وحده ويقتصروا عليه.

وقد ذهب الكاتب الإنجليزي المعروف مورجان في مقدمة روايته التمثيلية « الجدول المتفجر » إلى رأي غريب يناقض ذلك، فهو يقول: « إن حاسة الفكاهة الغالبة على الأدب المعاصر تتجنب العواطف الهائجة وروعة الخيال وجلال الروح كما تتجنب السوسة الشمس، ولقد أبعدت المأساة من مسارحنا والبلاغة من مناظراتنا والبهاء من سنوات السلم والجد من حروبنا، وأضعفت شعلة الحياة والفن والحب والواجب واليقين، حتى أصبح روميو نفسه يتحدث إلى جوليت كأنه نذل أبكم يقدم لها التلج، إنها تهكم النبوغ العبقرية في أية صورة من صورها ».

والظاهر أنه يقصد بحاسة الفكاهة هنا روح التنقص والزراية والاستطالة والتحقير، ولكن إذا اعتقدنا أن حاسة الفكاهة قائمة على الاستخفاف والاستصغار والتهوين فهل يبرر هذا الحملة عليها والإسراف في النيل منها؟ إن روح الفكاهة قد تشتد وتشتط وتنحرف وتموج حتى تصبح بغيضة منفرة، لا عمل لها غير التهجم والتطاول والزراية

وكفالة الحرية والعدالة والمساواة للجميع؛ وأحق الناس بها أقدرهم على الاضطلاع بتلك الأعباء، وأحرصهم على تحقيق تلك المعاني، ولكن كراسي النيابة يصحبها شهرة عامة تبرز النواب، وقد يتبع ذلك الظفر بكراسي الحكم وما يلي ذلك من جاه ونفوذ؛ وأكثر المتقدمين للنيابة هم الحريصون على تلك الشهرة المتطلعون للجاه والنفوذ الذي يلازمها، لا الأكفاء القادرون على السير بالأمة إلى الأمام؛ ومن هنا كان التنافس والتناحر على تلك الكراسي ليس مبعثه التنافس على الخدمة العامة، وإنما هو التنافس على المظاهر والمزايا التي تجيء من النيابة.

على أن كراسي النيابة وكراسي الحكم ليست هي الوسيلة الوحيدة لخدمة البلاد، ولا هي الوسيلة الوحيدة للشهرة وكسب الجاه. ففي الميدان الاقتصادي والاجتماعي متسع لكل عامل، ومجال النجاح فيهما أفسح، وخدمة البلاد عن طريقهما قد تكون أنفع وأدوم أثراً؛ ولو بذل بعض المتقاتلين على كراسي النيابة في هذا السبيل بعض ما يبذلونه من جهد ومال للظفر بكراسي النيابة، لكان نجاحهم محققاً ولسعت إليهم مناصب الجاه والشهرة بعد ذلك بغير عناء.

إن الحكم النيابي وسيلة للحكم الصالح الذي يكفل لأفراد الشعب حريتهم وطمأنينتهم، ويحقق لهم جميعاً العدالة والمساواة؛ ولا يتفق مع هذه الغاية قيام الدس والاضطرابات والاعتداء على الحريات.

إننا معشر الشرقيين حديثو عهد بالحياة النيابية والاستقلال بأمورنا. وخصومنا كثير يتربصون بنا الدوائر ويعدون علينا كل عثرة، وينتهزون الفرص لتحقيق مطامعهم فينا. فمتى تفتح أعيننا على تلك الحقائق ونسمو على الصغائر ونتعاون على الخير ونحزم أمورنا فنوليها خيارنا؟

(...)

والاحتقار ، ولكن الدنيا كما يبدو لى قد أفادت من وجود كتاب ساخرين فكهين يستطيعون بسحر البلاغة وعلو البيان أن يستخفوا بمن هو جدير بالزراية والاستخفاف ، ويضحكونا من أشياء كثيرة لولا براعتهم فى السخرية كان يعجزنا التعبير عن مدى ضيقنا بها ومقدار تبرمنا منها ، وقد يسخرون إلى جانب ذلك بأناس أو أشياء لا نراها تستحق السخرية أو الانتقاص ، ولكننا نعجب مع ذلك بفنهم فى هذه السخرية ، وقدرتهم على عرض الأمور فى القالب المضحك .

ولو جرد الأدب العربى من أهاجى ابن الرومى ونقائض جرير والفرزدق ومضحكات ابن سكرة الهاشمى وغرائب ابن الحجاج لفقد أشياء لها قيمتها فى الحياة والفن وفهم الناس ومعرفة الطبائع .

وليست السخرية فى كل الأوقات تطاول النبوغ أو البراعة على العبقرية والملكات العقلية السامية ، ولقد كان ابن الرومى شاعراً عبقرياً لا شك فى عبقريته ، وكان البحترى كذلك فى طليعة شعراء العربية ، ولا اختلاف فى سبقه وتقدمه ، ومع ذلك فقد تناوله ابن الرومى بهجائه ، واتهمه فى أصالة شعره فقال :

قبحاً لأشياء يأتى البحترى بها
من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حين يصغى السامعون لها
ممن يميز بين النبع والغرب
رقى العقارب أو هذر النساء إذا
أضحوا على شعث الجدران فى صخب
وقد يجىء يخلط فالنحاس له
وللأوائل ما فيه من الذهب
ما إن يزال تراه لابساً حللا
أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب
يجيب شعرى وما زالت بصيرته
عمياء عن كل نور ساطع اللهب

ومع ذلك لم يقلل ذلك عدد المعجبين بالبحترى والقادرين لعبقريته ، وإنما أضحكنا ورفه عن نفوسنا ، وبخاصة حينما علمنا من ابن الرومى نفسه أن الباعث على هذه الحملة الشعواء والضربة النكراء ، هو أن البحترى المسكين وقع فى هذا الشىء القبيح المحظور ، وهو أنه فى بعض مجالسه الخاصة أبدى عدم ارتياحه لمذهب ابن الرومى فى قصائده ! ولو أنه أثنى على شعره فى مجالسه لنال منه تقديراً آخر ، ولقال فيه — على الأقل — مثل ما قاله المتنبى لابن العميد :

قطف الرجال القول وقت نباته
وقطفت أنت القول لما نورا
فهو المتبع بالمسامع إن مضى
وهو المضاعف حسنه إن كررا

وقد صيغ العقل البشرى بحيث يعجب بالعبقرية ويكبرها ويجلها ، ولكنه مع ذلك لا يرى كبير بأس فى أن يضحك على حسابها ، ويستمتع بالسخرية بها ، وليست هذه الرغبة لوناً من ألوان الخبث والدغل وسوء النية ، وإنما هى رغبة إنسانية عامة شائعة ، والإعجاب الخالص لا يخلو من ضرب من ضروب الغباء والبلاهة . وكثيراً ما يطيب لنا أن نسمع الأقاصيص الملفقة أو المصطنعة التى تعرض أصحابنا وأصدقاءنا المتوقرين المتزمتين فى صورة فكاهية ووضع مضحك ، وكأننا نثأر لأنفسنا بذلك من جدهم العابسة وصرامتهم الباسرة ، وإفراطهم فى التوقر والرزانة .

وفى كتاب الصبح المنبى أن أبا الطيب المتنبى لما استقر بدار السلام بعد مناضبته لكافور وانصرافه من مصر ترفع عن مدح الوزير المهلبى ، فشق ذلك على الوزير وأغرى به شعراء العراق حتى نالوا منه وتباروا فى هجائه ، ومن أمثلة ذلك قولهم فيه :

أي فضـل لشاعر يطلب الفضـ
ـل من الناس بكرة وعشـيا
عاش حيناً يبيع بالكوفة المـا
ء وحيناً يبيع ماء المحيـا

وكان يعيش حينذاك في البصرة شاعر خبيث الهجاء طويل اللسان كثير الإقذاع ، وهو الحسن بن لنكك ، وكان حاسداً المتنبي ، طاعناً عليه ، هاجيا له ، فشمت به ووافقه جملة شعراء بغداد عليه ، فنظم في هجاء المتنبي مقطوعات عديدة ختم إحداها بقوله :

لكن بغداد جاد الغيث ساكنها
نعـالهم في قفا السقاء تزدحم

وأبو تمـام على فضله ، وبعد تأثيره في الشعراء الذين جاءوا بعده ، لم يسلم من الهجو الوجع ، وقد أوسعه مُخَلَّد ابن بكار الوصلي — من ناشئة شعراء عصره — هجاء وطعناً في نسبه ، وزراية بأدبه ، ولم يعف عن هجائه بعد موته . ولو أقيم في عالم الأدب رقيب يمحو ما يريد ويثبت ما يشاء ، لما قبلنا أن نمحى الأهاجي التي قيلت في الشعراء الكبار الذين نحبهم ونؤثرهم ونعجب بعبقرياتهم وروائعهم ، فهذه الأهاجي على ما يكون بها من ظلم وإقذاع ومبالغة في تشويه الصورة وإفساد التأثير ، تقربهم من نفوسنا ، وتلطف من حماستنا في الدفاع عنهم ، وتميل بنا إلى الاعتدال في الحكم عليهم ، واصل استيفاء أسباب إعجابنا بالشعراء الممتازين يقتضى أن نلم بما وجه إليهم من نقد ، وما قيل فيهم من هجاء ، وما صب عليهم من سخرية وزراية .

على أن روح التنقص والزراية والاستصغار والاحتقار قد تكون محتملة مقبولة ، وقد تكون مستثقلة مذمومة ؛ فهي مقبولة حينما تشوبها الفكاهة الطلية ، والملاحظة البارعة ، والالتفاتة الذكية ، فلا تجرح الشعور ، ولا تسىء إلى الذوق المهذب المصقول ، وهي في هذه الحالة ترياق للعبادة العمياء ، والإعجاب المطلق ؛ والإعجاب بالعظماء والنوابغ لا يقتضى الإعجاب بعيوبهم والدفاع السخيف عن هناتهم ، والإفراط في المدح مستنكر مملول ، مثل الإفراط في الذم والمبالغة في الهجو والزراية ، وافتتان الناس بأحد الأشخاص إلى حد الهوس والعبادة ، مما ينفر ويضايق ، والحماسة الزائدة عن الحد تبعث الضحك وتغرى بالسخرية ، فحاسة الفكاهة لا تطفئ شرارة الحياة ولا تقضى على الفن والحب والواجب واليقين ، وغاية ما يمكن أن يؤخذ على الفكاهة التي تنحدر إلى الزراية والاحتقار أنها قد تدل على ضعة الروح ، وكلبية المزاج ، وسوء النحيزة ؛ والرجل الذي لا يحسن غير التنقص والاحتقار لاشك في أنه رجل صغير الروح ، حقير النفس ، ولا غناء به ولا خير فيه ، كما أن الرجل الذي يسرف في الإعجاب ، ويبالغ في التقدير قد يفضى به ذلك إلى العبودية الذليلة المفسدة المدمرة ، وإسباغ الصفات الإلهية على الآدميين الفانين .

وكثيراً ما يؤخذ علينا نحن المصريين فرط تعلقنا بالفكاهة حتى في مواطن الجد ومواقف الحزن . ولكن الحقيقة أن روح الفكاهة الكامنة في المزاج المصرى كانت لنا في ظروف كثيرة مِجَنّاً نتقى به طغيان الظالمين ، وعجرفة المتغطرسين المتصلفين ، ومتنفسا نتخفف به من الأرزاء والخطوب التي جرها علينا موقع بلادنا الجغرافي ، واعتدال مناخها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وخصوبة تربتها ، واستهدافها لغزوات الفاتحين ، ومطامع أبطال التاريخ ، والإمبراطوريات الناشئة المتلهفة على بسط نفوذها وتوسيع رقعتها . ولقد رمانا المتنبي — سامحه الله — بأننا أمة ضحكت من جهلها الأمم ، وكل ذلك لأن الداهية كافور الذي كان يلي أمورنا في عصره ، أبى أن ينخدع له ويستجيب لمطامعه الجنونية ، وقد كان في ذلك القول ظالما لنا ، متجنياً علينا . والواقع أن مصر هي التي طالما ضحكت من جهل الرومان والفرس والأشوريين والبابليين والأتراك والإنجليز ، وقد مكنها ذلك من الاحتفاظ بحيويتها ونضارتها ، ورد عليها ثقتها بنفسها في أحلك العصور ، وأخطر المواقف . وقليل من الزعماء في العصر الحديث من

تحققت يوم أمسهم تعلق الأمة المصرية بالزعيم الكبير سعد زغلول ، وكانت تهاجمه في عنفوان زعامته مجلة الكشكول بالصور الكاريكاتورية الساخرة ، وبالفصول العابثة التي كان يدبجها بعض كتابها القديرين ، وكانت مع ذلك أوسع المجلات انتشاراً وأبعدها صوتاً ؛ وإعجابنا الشديد بسعد لم يمنعنا من الاستماع إلى ما يوجه إليه من ملاحظات ساخرة ونقدات لاذعة ؛ ولم تكن قدما ذلك العملاق من الخزف فنخشى عليهما من الكسر ، ولا بيته من زجاج فنخاف أن يتحطم وينهار ؛ وإذا كان رجلا ضرباً مصمتلا معقود البناء ، فلا ينال منه ، ولا يهز مكانته في نفوسنا اشتراكنا لحظات في الضحك منه والسخرية به .

علي أدهم

مصر والعراق

أخوان في الجهاد

يتتبع العراقيون ، باهتمام شديد ، أنباء شقيقتهم مصر . وما يتجدد فيها من أحداث وتيارات سياسية لها علاقة بمستقبلها وصلة بحريتها وكرامتها كدولة في طليعة البلاد العربية مكانة ، ويرون في كفاح الشعب المصرى ونضاله — شعبا وصحافة وحكومة — في سبيل الاستقلال ووحدة وادى النيل ، لونا من ألوان الجهاد العربي يتطلب من جميع العرب إظهار شعور مؤتلف وإحساس مشترك وكلمة موحدة لتأييد مصر في قضيتها الوطنية وأمانيها القومية وجهادها في سبيل الحرية والاستقلال ، ومؤازرتها في حقوقها الواضحة الصريحة في السودان ، التى تحاول السياسة الإنجليزية ، بما طبعت عليه من دهاء وتلون ، إخفاء معالمها الاستعمارية فيه تحت ستار من المفاوضات والاستفتاءات . . .

فالشعب العراقى وصحافته كانوا يتطلعون بلهفة وقلق إلى مراحل المفاوضات المصرية — البريطانية ، ويطالعون صحافة مصر ويتعقبون تصريحات ساستها وزعمائها باستمرار للوقوف على سير هذه المفاوضات ونتائجها ، وتكتب الصحف العراقية وينشر الكتاب المقالات العديدة مؤيدين مصر في حقوقها الوطنية وصراعها الجبار مع بريطانيا التى تريد السيطرة على أعالى الوادى بحجج واهية لا تستند إلى منطق سديد أو حق دولى واضح . . .

ولم يكن مبعث اهتمام العراقيين بحوادث مصر وترقبهم لنتائج المفاوضات وأملهم في نجاح مصر بتحقيق استقلالها التام ووحدتها مع السودان إلا إيمانا منهم بأن ما ستكسبه مصر من حرية ومجد سيكسبه العراق أيضا ، وسينفتح أمامه باب المفاوضات مع بريطانيا لتحقيق استقلاله التام وتطمين حقوقه السياسية وحريته الاقتصادية .

وعند ما أذاعت البرقيات قرار مصر بقطع المفاوضات مع انجلترا وإلغاء المعاهدة التى تربطها وإياها والاحتكام إلى مجلس الأمن أكبر العراقيون جرأة مصر الوطنية واستبسالها في سبيل حريتها ووحدتها وتحقيق أهدافها القومية ، وأخذت صحافة العراق تطالب الحكومة أن تشد أزر مصر في معركة الحرية التى تخوضها وأن تتفق الدول العربية جميعها على منهج واحد في سبيل نصرة مصر في مجلس الأمن وإظهار عدوان انكلترا عليها بمحاولتها خرق جميع المواثيق والبيانات والعهود التى ضمنت حرية الشعوب وكفلت سيادتها ونوع الحكم الذى تريده لنفسها .

إن مشاكل مصر مع بريطانيا كمشاكل العراق معها . . . مصر تطالب الإنكليز بالجلاء عن أراضيها وتعديل المعاهدة وإلغاء جميع الامتيازات السياسية والاقتصادية لهم في مصر والسودان . . . وكذلك العراق يطالب ويريد من بريطانيا أن تجلو جيوشها عن أراضيه ، وتعديل المعاهدة تعديلا يتلاءم مع تقدم العراق ووعيه في السنوات الأخيرة ، وأن تتيح له استعمال حقوقه السياسية وفق مصلحته وطموحه ، والتمتع بخيرات بلاده وكنوزها للإنشاء والتعمير .

مصر فيها السودان وقناة السويس ، والعراق فيه النفط وكونه طريق الهند ، ولذلك نرى بريطانيا تدوس حقوق البلدين وتكبلهما بمعاهدات جائرة ، تتملص بشتى الحيل وأساليب الخداع والتمويه من تعديلها وعدم إفساح مجال القوة والسيادة للبلدين ليتمتع شعباهما بالحرية التى وعدت بها أثناء الحرب ، يوم كانت ألمانيا لا تزال قوة عسكرية مرهوبة الجانب ، فبذلت آنذاك من المواثيق والعهود والبيانات ما بذلت حتى اطمأن الشعب العربي ووثق بعهودها ، فسخر أرضه وسماءه وموارده ومواصلاته ، وبذل الكثير من دماء أبنائه في سبيل نصرتها . . فكانت

نتيجة كل هذا البذل والمقاومة إرهاق مصر والعراق بمعاهدات جائرة وجيوش جرارة وامتيازات مرهقة كأنما أعداء لها لا حلفاء .

قبل أسبوعين حمل زعيم ديني يهودي في إحدى صحف لندن التي تناصر الصهيونية على الإنكليز ووصفهم بالانحطاط الخلقي ، لأنهم خانوا وعودهم للصهيونية ، فما أحق العرب في وصف الإنكليز بهذا الوصف ، لأنها في الحقيقة لم تخن أي وعد وعدت به اليهود ، ولكنها خانت جميع الوعود والعهود التي أعطتها العرب ! وهذا التاريخ يشهد بذلك منذ قيام العرب بثورتهم التحريرية حتى الآن .

عاشت مصر في صراع مستمر ومقارعة لا هوادة فيها ولا لين ، وجهاد متصل الحلقات ، لكي تتمتع بسيادتها الكاملة كأمة ناهضة ، لها حقها في الحرية والاستقلال ، فكان الإنكليز دائما حجر عثرة في هذا السبيل ، توجههم قوتهم العسكرية للحد من طموح الشعب المصري وتأخير تقدمه وعرقلة أمانيه ... وكذلك العراق عاش مع انكلترا في جهاد مستمر وثورات متصلة ؛ فمنذ الاحتلال البريطاني للعراق سنة ١٩١٨ حتى الآن والعراق يناضل نضال الجبابرة في سبيل استقلاله وسيادته . وبذل الكثير من الشهداء في سبيل توطيد حكمه الوطني وتقليص النفوذ البريطاني من جميع دوائره ومؤسساته ، فكان الإنكليز أيضا يقفون أمام كل وثبة عراقية ويسخرون عملاءهم لتشويه وعرقلة الأماني العراقية ، مستغلين ظروف الحرب ومعاهدة سنة (١٩٣٠) للتدخل والسيطرة وتثبيت سلطانهم في العراق وعلى العراقيين .

إن العراقيين أخذوا بعد انسحاب الجيوش الروسية والإنكليزية والأمريكية من إيران وبعد جلاء الجيوش الفرنسية من سورية ولبنان يتحسسون بضرورة جلاء الإنكليز من بلادهم جلاء تاما ، وأن السيادة العراقية ستبقى عرضة للامتهان ما دامت الجيوش الأجنبية باقية في البلاد . وفي جميع مناهج الأحزاب والكتل والجماعات التي تألفت أخيرا في العراق مواد صريحة تطالب بهذا الجلاء ، وتطالب بتعديل المعاهدة تعديلا يتفق والتطورات التي تمت العالم بعد الحرب الأخيرة . وما ارتبط به العراق من معاهدات ومواثيق تستلزم سيادته التامة الناجزة .

***

العراق ومصر أخوان في الجهاد ... ففي العراق كما في مصر ثورة نفسية وسخط على الإنكليز . نحن نريد الجلاء وتعديل المعاهدة وإلغاء الامتيازات ، وكذلك في مصر تدوي صيحات الشعب ضد الإنكليز وسياستهم الرامية إلى اقتطاع السودان من مصر والاحتفاظ بقواتهم فيها ، والعراقيون ينتظرون بفارغ الصبر فوز مصر في نضالها الوطني ، لأن فوزها انتصار لهم وبداية لهزيمة الاستعمار البريطاني من البلاد العربية .

وإذا كان العراق الآن تشغله قضاياه الداخلية ويهمه نتائجها لأنها تقرر مصيره في الحرية والاستقلال ، فإنه وهو في غمرة هذا النضال الوطني يتطلع إلى أخبار مصر ، ويسره أن تتفق كلمة الحكومة والأحزاب والشعب على رأي واحد وهو عدم الرضوخ لإنكلترا والالتجاء إلى مجلس الأمن ، ولهم من نزاهة أعضائه وتأييد الدنيا العربية ما يكفل لقضيتهم النصر ولأمانيهم التحقيق .

لقد كانت أول مادة في منهاج وزارتنا الجديدة « العمل على تعديل المعاهدة العراقية البريطانية على أساس ضمان المصالح المتبادلة بين الند والند وعلى ضوء مبادىء ونصوص ميثاق الأمم المتحدة ... » وهو صدى لما يتجاوب في نفوس العراقيين وما يأملون تحقيقه في المستقبل القريب .

إن العراق يرى في مصر زعيمة الشرق العربي ، وهي وإياه الآن في نضال مع الانكليز ومن ورائهما دول العرب وشعوبهم ، يقفون صفاً واحداً جنوداً في معركة الحرية التي تخوضها مصر اليوم وسيخوضها العراق غداً .

مهدي القزاز

نيزك سيبيريا الجديد

أبرق مراسل جريدة (النيو كرونيكل) اللندنية في موسكو أن العلماء السفييت يدرسون بإمعان حادثة سقوط نيزك كبير في شمال شرق سيبيريا يوم ١٢ فبراير الماضي. فقد شهد سكان مستعمرة صغيرة في سفوح جبال (سيخوتا ألين) كرة كبيرة تفيء بلون أحمر خافت وتتحرك مسرعة عبر السماء في اتجاه غابات (كودار) القريبة منهم. ثم ازداد لمعان الكرة الطائرة وكبرت حتى فاقت الشمس ضخامة وسطوعا، ثم بدأت تتساقط منها أجزاء، وسمع انفجار شديد حطم الكتلة إلى أجزاء كثيرة سقطت رأسيا نحو سطح الأرض، بعد أن زال ما بها من لمعان، تاركة في السماء سحابة كثيفة من غبار أحمر ودخان مظلم، وبقيت تلك السحابة معلقة في السماء حتى المساء.

وقد هرع العلماء من فلاديفوستك إلى مكان الحادث فوصلوا إليه بعد أسبوع، وكشفوا عن وجود فوهات متناثرة في الأرض يبلغ عددها أكثر من ثلاثين، وقطر أكبرها ٢٥ ياردة. وتبين لهم أن قطعاً من النيزك قد اخترقت التربة الهشة واستقرت في الصخور، وأن الغابات قد دمرت في مساحة تمتد مئات الياردات حول مكان السقوط. وقد نقلت بعض القطع إلى موسكو، حيث حللت كيميائيا، وظهر أنها من الحديد الخالص. وقد أبدى العلماء شكا في صحة ما ذكر من حدوث انفجار، لأن كتلة النيزك الكلية لا تقل عن ألف طن وهي كتلة ضخمة لا يمكن أن تصل إلى سطح الأرض بقوة دون أن تحدث أضراراً أكثر مما شوهد فعلا. ولذلك يرجح العلماء أن ما حدث هو أن إحدى النجيات (أو الكواكب الصغيرة) التي تسبح في الفضاء حول الشمس، قد جذبت نحو الأرض ثم دارت حولها حيناً واقتربت منها شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى السطح. والفرق بين الرأيين عظيم الدلالة من الوجهة الفلكية، لأن النيزك العادي يصطدم بالأرض اصطداماً، بينما النجيات تجذب نحوها في مدار معلوم. وقد أعلنت هذه النظرية الجديدة لأول مرة في هذا الحادث الأخير.

وقد سبق أن سقط نيزك كبير في سيبيريا في ٣٠ يونيو سنة ١٩٠٨ على بعد خمسين ميلا إلى الشمال من (فانوفارا) في سيبيريا الوسطى في منطقة غابات كثيفة. فدمر النيزك منطقة تمتد عشرين ميلا حول مكان سقوطه تدميراً كاملاً، واقتلع الأشجار وأطاح سقوف المنازل وانطلقت بسببه موجة تضاغط قوية وصلت إلى بعد ٤٠٠ ميل. وقد أرسلت الأكاديمية السوفيتية بعثة لدراسة المكان عام ١٩٢٧، فوجدت بقايا قطيع من غزال الرنة قضى عليه سقوط النيزك.

وأكبر النيازك المعروفة الآن يوجد حيث سقط في (جروتفنتين) في أفريقيا الجنوبية الغربية، ويقدر وزنه بخمسين طنا من الحديد والنيكل. ويتلوه في الضخامة مجموعة من النيازك اكتشفها الرحالة القطبي بيري بالقرب من رأس يورك في جرينلاند سنة ١٨٩٥، ونقل ثلاثة منها إلى نيويورك، وزنة أكبرها ٣٦ طنا ونصف طن، وهي تتركب أيضاً من الحديد والنيكل؛ ويوجد نيزك وزنه ٢٧ طنا في باكوبيريتو، وآخر وزنه ٢٩ طناً في شوبا دروس، وآخر زنته ١١ طناً في البرنو، وجميعها في المكسيك. وجميع هذه النيازك قديمة لم تشاهد حين سقوطها من السماء، ولكنها وجدت مطمورة في الأرض، وعرف أنها ليست من صخر الأرض لاختلافها تركيبا وشكلا عما حولها. أما أكبر نيزك شوهد فعلا وهو يسقط من السماء فقد حدث في (يوجوسلافا) على بعد ١٤٠ ميلا إلى الشمال من فلاديفوستك سنة ١٩١٦، وجميع النيازك التي ذكرت

من حديد ونيكل وكوبالت وهي فلزات ثقيلة . وثمة نيازك من حجر تسقط أحياناً ولكنها أكثر عرضة للتفتت بتأثير احتكاكها بالهواء الجوي وما يترتب على ذلك من تسخين وانفجارات .

وتوجد في أنحاء متفرقة من سطح الكرة الأرضية فوهات واسعة عميقة ، لا يرى علماء الجيولوجيا احتمال تكونها بفعل تضاريس الأرض العادية ، ويحيط بتلك الفوهات عادة جوانب مرتفعة من صخور متحطمة وبقايا نيازك حديدية أو صخرية ، مما يرجح احتمال حدوثها بفعل نيزك قديم . وأكبر هذه الفوهات تلك التي توجد في شمال ولاية أريزونا بالقرب من خور الشيطان ، وعمقها ٥٧٠ قدما ، وقطرها ٤٢٠٠ قدم ، وتعلو حافتها ١٣٠ قدما عما يجاورها من أرض ، وتتكون الحافة من صخور ضخمة متراكمة يبلغ وزن بعضها سبعة آلاف طن . ويقدر العلماء أن الفوهة نشأت من سقوط نيزك كبير منذ ٥٠٠٠ عام على الأكثر .

وقد ذكر الرحالة سانت جون فيلبي أنه زار منطقة (وبر) في جزيرة العرب سنة ١٩٣٢ ، فسمع من البدو أسطورة مدينتين كانتا عامرتين ، ثم حلّ بهما الدمار ، وسقطت عليهما النار من السماء . وقد رأى فيلبي بالقرب من تلك المنطقة فوهتين متجاورتين يرجح كونهما من فعل النيازك القديمة . ولا توجد تلك الفوهات وأمثالها اليوم إلا في المناطق غير المأهولة ، ومن المحتمل أنها تحدث في جميع أنحاء الأرض على السواء ، ولكن آثارها تمحى بفعل عوامل التعرية ، وكذلك بفعل يد الإنسان في المناطق المعمورة ، ولا تبقى آثارها إلا في الصحارى والبقاع المتطرفة .

هذا عن النيازك الكبيرة . أما النيازك الصغيرة فأكثر من أن تحصى ، وقد تنزل فرادى متفرقة ، وقد تنزل آلافاً متجمعة كأنها الرجم . وقد سقطت نيازك صغيرة في بولتوسك في بولندا عام ١٨٦٨ ، وقدر أن عدد ما سقط منها في مسافة لا تتجاوز خمسة أميال مائة ألف نيزك . وسقطت النيازك بكثرة أيضاً في خايربور في الهند عام ١٨٧٣ في مساحة طولها ١٦ ميلا وعرضها ثلاثة أميال .

ولعل أهم ما نفده من النيازك هو أن مادة الأرض شبيهة بمادة الأجرام السماوية القريبة منها ، فالأرض كرة باطنها معدني ثقيل من حديد ونيكل وكوبالت ، وقشرتها من صخر بازلتي وجرانيت أخف وزناً من الحديد ، وكذلك النيازك نشاهد من نوعين ، نيازك من حديد ، ونيازك من صخر ، فلعلها بعض حطام كوكب سيار شبيه بالأرض ، تحطم قديماً وانتثرت أشلاؤه في الفضاء ، فهي تسقط علينا ما بين آن وآخر .

إبراهيم حلمي عبد الرحمن

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

سـيرتى

كتبها دافيد هيوم بنفسه

من العسير أن يتحدث رجل من نفسه طويلا بدون زهو ؛ لهذا سوف لا أطيل . وقد يلوح فى الذهن خاطر الزهو لأنى أقصد تدوين سيرة حياتى ، غير أن هـذا الحديث لن يزيد كثيرا على تاريخ كتاباتى ؛ إذ الواقع أنى أنفقت معظم حياتى فى مطالب وأعمال أدبية . ولم يكن أول نجاح ظفر به معظم ما كتبت موضعاً للزهو .

ولدتُ فى السادس والعشرين من أبريل عام ١٧١١ بالتقويم القديم(١) فى أدنبرة . ونشأت من أسرة طيبة من جهة الأب والأم معاً : أسرة والدى فرع من إيرل «هوم» أو «هيوم» ؛ وكان أجدادى ملاكا أجيالا كثيرة للضيعة التى يملكها أخى . أما والدتى فهى كريمة السير دافيد فالكونر عميد كلية العدل . وورث أخوها لقب لورد هلكرتون .

ولم تكن مع ذلك أسرتى غنية ؛ ولما كنت أخا صغيراً فقد كان ميراثى تبعاً لعرف دولتى ، ضئيلا جداً بطبيعة الحال . كان أبى معروفاً بالخلق الكريم ، ومات عندما كنت طفلا ، فتركنى وأخى الأكبر وأختى لعناية والدتنا ، وهى امرأة ذات فضل عظيم ، لأنها على الرغم من شبابها وجمالها ، انقطعت لتنشئة أطفالها وتعليمهم . ونجحت فى مرحلة التعليم العادية ، وامتلكتنى منذ الصبا الباكر شهوة الأدب ، تلك الشهوة التى تحكمت فى حياتى وأصبحت أعظم مصدر لملذاتى . ثم إن ميلى إلى الدرس واعتدالى واجتهادى ، كان مما أوحى إلى أسرتى بأن القانون هو أنسب المهن لى . غير أنى وجدت فى نفسى نزوعاً لا يقاوم من أى شىء ، ما عدا طلب الفلسفة والمعرفة العامة ؛ وفى الوقت الذى كان يخيل إليهم أنى مكب على فويت وفينيوس ، كان شيشرون وفرجيل من المؤلفين الذين أغترف من بحارهم سراً .

غير أن ثروتى الضئيلة جداً لأنها لم تكن تلائم هذا اللون من الحياة ، وصحتى التى تحطمت بعض الشىء من شدة الطلب ، جعلتانى أحاول أو أرغم على أن أجرب تجربة بسيطة جداً أزُّل بها إلى مسرح فى الحياة أكثر حركة . فذهبت عام ١٧٣٤ إلى برستول أحمل بعض التوصيات إلى عدد من التجار البارزين ؛ ولكنى وجدت بعد شهور قليلة أن هذا الميدان لا يلائمنى بتاتا . فركبت البحر إلى فرنسا وفى ذهنى أن أتابع دراساتى فى عزلة ريفية ؛ وهناك استقر بى ذلك اللون من الحياة الذى ابتغيته فى مثابرة ونجاح . وعقدت النية على معيشة الكفاف الشديد حتى أعوض النقص فى دخلى ، وعلى أن أحفظ استقلالى مما قد يمسه ، وعلى أن أحقر من شأن كل شىء ، ما عدا تزكية مواهبى فى الأدب .

وألفت رسالتى فى الطبيعة الإنسانية Treatise of Human Nature حين اعتكافى فى فرنسا ، فى رانس أولا ، وفى لافليش على الخصوص ، وفى أنجو . وبعد أن قضيت فى تلك البلاد ثلاث سنوات فى غاية الإمتاع عدت إلى لندن عام ١٧٣٧ ونشرت فى نهاية ١٧٣٨ رسالتى ، ثم ذهبت من فورى إلى والدتى وأخى الذى كان يعيش فى بيته الريفى منصرفاً بحكمة ونجاح إلى تنمية ثروته .

ولم تلق قط أية محاولة أدبية من سوء الحظ مثلما لقيت رسالتى فى الطبيعة الإنسانية ، فقد سقطت من المطبعة مولوداً ميتاً ، ولم تحظ بذلك القدر من الشرف الذى يثير همسات المتحمسين . ولما كنت بالفطرة مرحا ودموى المزاج فقد أفقت من الضربة سريعاً ، وتابعت دراساتى بجد عظيم فى الريف ، وطبعت عام ١٧٤٢ فى أدنبرة الجزء الأول من «مقالاتى» Essays ، ولقى الناس الكتاب لقاء حسناً مما جعلنى سريعاً أنسى تماماً فشل الأول ، وأقمت مع أمى وأخى

(١) التقويم القديم هو التقويم اليوليانى ، وظل متبعاً فى انجلترا حتى ٢ سبتمبر سنة ١٧٥٢ . والتقويم الجديد هو الجريجورى الذى حذف فيه ١١ يوما فأصبح ٣ سبتمبر ١٤ .

فى الريف ، واستعدت فى ذلك الوقت المعرفة باللغة الاغريقية التى كنت قد أهملتها إهمالا شديداً فى صدر شبابى .

وتلقيت عام ١٧٤٥ كتاباً من المركيز أنانديل يدعونى فيه إلى أن أرحل وأعيش معه فى انجلترا ، واستبنت كذلك أن أصدقاء ذلك النبيل وأهله كانوا راغبين أن يضعوه تحت رعايتى وإرشادى ، لأن حالة عقله وصحته يتطلبان ذلك ، وأقمت معه اثنى عشر شهراً ، فزاد دخلى الصغير زيادة كبيرة بما كنت أتناوله من مرتب فى ذلك الحين . ثم تلقيت بعد ذلك دعوة من الجنرال سانت كلير يطلب منى فيها أن أصحبه سكرتيراً فى حملته التى كانت وجهتها أولاً ضد كندا ، ولكنها انتهت إلى غارة على ساحل فرنسا ، ودعانى الجنرال فى العام التالى ١٧٤٧ أن أصحبه فى نفس المنصب ، فى بعثته العسكرية المفوضة إلى بلاطى فينا وتورين . ولبست عند ذلك زى ضابط رسمى ، وقُدمتُ فى هذين البلاطين على أنى مساعد أركان حرب الجنرال ، مع السير هارى إرسكين والكابتن جرانت وهو الآن الجنرال جرانت ، ويكاد هذان العامان أن يكونا فترة الانقطاع الوحيدة فى دراساتى خلال حياتى ؛ لقد أنفقتهما فى متعة وصحبة حسنة ، وحصلت من مرتبى مع الاعتدال فى النفقة على ثروة عددتها كافية فى الاعتماد على النفس ، ولو أن معظم أصدقائى كانوا يميلون إلى الابتسام عندما قلت ذلك : باختصار كنت أملك فى ذلك الوقت حول ألف من الجنيهات .

كانت تساورنى دائماً فكرة أن فشلى فى نشر « رسالة فى الطبيعة الإنسانية » يرجع إلى الشكل أكثر مما يرجع إلى الموضوع ، ولقد كنت مخطئاً فى عدم تبصرى عند ما ذهبت إلى المطبعة فى وقت مبكر جدا ، وعندئذ راجعت الجزء الأول من ذلك الكتاب وجعلته فى كتابى « بحث فى الفهم الإنسانى » الذى نشر عندما كنت فى تورين . ولم يكن ما لقيه هذا الكتاب فى أول أمره من النجاح يزيد شيئاً مذكوراً عن « رسالة فى الطبيعة الإنسانية » ، وزهدت نفسى عند عودتى من إيطاليا ، إذ وجدت انجلترا كلها تتحدث عن كتاب الدكتور مدلتون « بحث حر » على حين أهمل كتابى تماماً ومروا عليه مر الكرام ؛ وطبعت رسائل الخلقية السياسية طبعة جديدة فى لندن ، فلم يكن حظها أفضل من قبله .

كان مزاجى الفطرى من القوة بحيث لم يؤثر هذا الفشل المتكرر فى نفسى إلا قليلا ، أو لم يحدث فى نفسى أثراً . وذهبت عام ١٧٤٩ فأقمت عامين عند أخى فى منزله الريفى ، لأن أمى كانت قد قضت نحبها ، وألفت هناك الجزء الثانى من مقالاتى وسميته « مقالات سياسية Political Discourses » وكذلك « بحث فى مبادئ الأخلاق » Inquiry Concerning the Principles of Morals وهو جزء آخر من رسائلى أعدت كتابته ، وفى ذلك الوقت أخبرنى ا . ميلر الوراق أن كتبى الأولى (ما عدا الرسالة سيئة الحظ) أخذت تصبح موضعاً للحديث وأخذ ما يباع منها يتضاعف تدريجيا ، وطلبت طبعات جديدة منها . وجاءنى ردان أو ثلاثة ردود فى عام واحد من أشخاص محترمين ذوى مكانة . وتبين لى من قذف الدكتور واربرتون أن الكتب أخذت تقدر فى الأوساط الطيبة ؛ ومع ذلك فكنت قد عزمت على شىء لم أتحول عنه ، وهو ألا أرد على أحد ، ولما كنت هادئ المزاج فلم أجد صعوبة فى الابتعاد من جميع النازعات الأدبية ؛ هذه العلامات الدالة على قيام الشهرة مدتنى بالتشجيع ، يضاف إلى ذلك الميل إلى رؤية الجانب الحسن من الأشياء أكثر من الجانب السىء ، وهذا الطابع العقلى يجعل المرء أكثر سعادة من وراثة ضيعة تدر عليه عشرة آلاف جنيه فى العام .

وانتقلت فى عام ١٧٥١ من الريف إلى المدينة وهى المسرح الصادق لرجل الأدب ، وطبعت عام ١٧٥٢ فى أدنبرة حيث كنت أعيش « مقالاتى السياسية PoliticalDiscourses » وهى الأثر الوحيد الذى حاز نجاحاً عند نشره لأول مرة ،

وأحسن الناس استقبالها في انجلترا وفي الخارج . وطبع في لندن في نفس العام « بحث في مبادئ الأخلاق » ، وإنه ليفضل في نظرى (ولا يحق لي أن أحكم في هذا الموضوع) جميع كتاباتي التاريخية والفلسفية والأدبية . ولكنه خرج إلى الدنيا دون أن يلحظه أو يلتفت إليه أحد .

وانتخبتني كلية المحامين عام ١٧٥٢ أميناً لمكتبتها ، وهو منصب لم أنل منه إلا فائدة ضئيلة أو لم أنل منه فائدة ما ، اللهم إلا أن أكون صاحب الأمر في مكتبة كبيرة ؛ ووضعت عندئذ مشروع تدوين تاريخ انجلترا ؛ غير أنى رهبت فكرة تدوين تاريخ يستغرق فترة تبلغ سبعة عشر قرناً ، فابتدأت من أسرة ستيوارت ، وهو عصر ظننت أن أحداثه أخذت تنحرف في التأويل . ولقد كنت كما أعترف بذلك شديد الأمل في نجاح هذا العمل . وخيل إلي أنني المؤرخ الوحيد الذى أغفل شأن السلطة القائمة وما لها من اهتمام ونفوذ ، كما أغفل أهواء الشعب الصارخة . ولما كان الموضوع متصلا بكل سلطة فقد ارتقبت تحبيذاً نسبياً ، غير أن فشلى كان يدعو إلى الرثاء ، وهبت في وجهي صيحة واحدة من العتاب والاستهجان بل الكراهية . فالإنجليز والاسكوتش والإرلنديون ، والهوج والتورى ، ورجال الكنيسة وأصحاب الشيع الأخرى ، وأحرار الفكر والمتدينون والوطنيون ورجال البلاط ، وحد بينهم الغضب على ذلك الرجل الذى أقدم على سكب الدموع لمصير شارل الأول وإرل ستافورد ؛ حتى إذا خفت حدة غضبهم ظهر أن مصير الكتاب آل إلى زوايا النسيان ، ومما زاد في كمدى ؛ ولقد أخبرنى مستر ميلر أنه لم يبع خلال اثنى عشر شهراً إلا خمساً وأربعين نسخة ، وفي الحق قلما سمعت في أنحاء الممالك الثلاث من رجل واحد عظمت منزلته أو ارتفع أدبه استطاع أن يحتمل الكتاب ، ومن واجبي أن أستثنى فقط رئيس أساقفة انجلترا الدكتور هرنج ورئيس أساقفة إرلندا الدكتور ستون ، ويبدو أنهما شذا في غرابتهما ، وقد أرسل إلي هذان الأسقفان الجليلان كل منهما على حدة رسائل تحث على التشجيع .

ومع ذلك فإنى أعترف أن عزيمتي قد ثبطت ؛ ولو أن الحرب في ذلك الوقت لم تكن ناشبة بين فرنسا وانجلترا لاعتكفت بكل تأكيد في إحدى المدن الريفية في فرنسا ، وغيرت اسمى ، وما عدت قط إلى وطنى . غير أن هذه الفكرة لما كانت غير عملية ، وكان المجلد قد أوشك على التمام ، فقد عقدت النية على استعادة الشجاعة والمثابرة .

وطبعت في هذه الأثناء في لندن كتابي « التاريخ الطبيعى للدين » Natural History of Religion مع بعض الفصول الأخرى الصغيرة ، فتلقيه الجمهور بالإعراض ، اللهم إلا تلك النبذة التي كتبها الدكتور هيرد يهاجمه فيها ، وقد حوت جميع أنواع المشاكسة والتعالى والإسفاف المتنوع مما تمتاز به مدرسة واربرتون . وروحت هذه النبذة من نفسى بعض الشيء ، فهى أفضل من لقاء كتابي بغير احتفال .

وفي سنة ١٧٥٦ ، بعد عامين من سقوط المجلد الأول طبع المجلد الثاني من كتابي في التاريخ ، شاملا الفترة الواقعة بين موت شارل الأول والثورة . وحدث أن قل سخط الهوج على هذا الكتاب وتلقيه الناس لقاء أفضل ، إلى حد أنه لم يقف على قدميه فحسب بل ساعد على إنقاذ أخيه من الخطر .

ولكن على الرغم من أنى عرفت عن اليقين أن حزب الهوج كان صاحب الأمر في جميع المناصب سياسية كانت أم أدبية ، فلم أكن أميل إلى التسليم بادعاءاتهم الفارغة حتى إنى بعد زيادة الدراسة والقراءة والتأمل في حكم ملوك ستيوارت الأولين جملت أكثر من مائة حادثة في صالح التورى . ومن السخرية اعتبار الدستور الإنجليزى قبل تلك الفترة أساساً منظماً للحرية .

ونشرت عام ١٧٥٩ تاريخ أسرة تيودور فنال من السخط مثلما نال تاريخ الملكين الأولين من أسرة

ستيوارت . وكان حكم الملكة البراءات محفوفاً بشكل خاص، غير أنى أصبحت الآن لا أحفل بمحافة الجمهور ، وأخذت وقد رضيت نفسي ، في عزلتي بأدنبرة ، أنجز في مجلدين الجزء السابق من تاريخ انجلترا ، وقدمته للجمهور سنة ١٧٦١ ، فحاز نجاحاً يكاد يكون مقبولا .

ولكن على الرغم من الزوابع والأعاصير التى تعرضت لها كتبي ، فإن المباع منها بلغ حداً جعل ما قدمه لى الناشر من مال يفوق كل ما عرف فى انجلترا من قبل ؛ لم أصبح شخصاً أعتمد على نفسي فحسب ، بل أصبحت ثريا ؛ فاعتزلت فى وطنى الأصلى أسكوتلندا عازماً ألا أخرج منها قط ؛ وقد ارتحت إلى هذا العزم مؤثرا له على استجابة طلب أى شخص عظيم ، أو توثيق الصداقة بأى عظيم . ولما كنت قد اجتزت الخمسين من العمر فقد فكرت فى إنفاق بقية حياتى على هذا النحو الفلسفى ؛ وإذا بى أتلقى سنة ١٧٦٣ دعوة من إيرل هرتفورد ، ولم أكن أعرفه ، لأصحبه فى سفارته إلى باريس ، مع الأمل فى تعيينى سكرتيراً للسفارة فى وقت قريب ، على أن أقوم بمهام ذلك المنصب إلى أن يتم التعيين النهائى . ومع أن هذا العرض كان جذابا فقد رفضت أول الأمر لسببين : لأنى كنت زاهداً فى وصل العلاقات مع العظماء ، ولأنى كنت أخشى ألا تروق مباهج باريس ومجتمعاتها المرحة شخصاً فى مثل سنى ومزاجى . ولما ألح اللورد فى الدعوة لم يسعنى إلا قبولها . كان كل شىء من حيث المتعة والفائدة يجعلنى أعد نفسى سعيداً فى علاقاتى بذلك النبيل ، وكذلك فيما بعد مع شقيقه الجنرال كونواى .

إن من لم يشهد التأثير الغريب للطرائف لا يمكنه أن يتصور بحال الاحتفال الذى لقيته فى باريس من الرجال والنساء من جميع الطبقات ومختلف المناصب . وكلما تجنبت أدبهم المفرط ، حملونى مزيداً من ذلك الأدب . ومع ذلك فالحياة فى باريس مصدر لذة حقيقية بسبب كثرة المجتمعات الرقيقة المثقفة المهذبة ، التى تزخر بها هذه المدينة أكثر من أى مكان آخر فى العالم . لقد جال بخاطرى فى بعض الأحيان أن أستقر هناك مدى الحياة .

ثم عينت سكرتيرا للسفارة ؛ وتركنى فى صيف عام ١٧٥٦ لورد هرتفورد عقب تعيينه نائب الملك فى إرلندا . فظللت قائماً بالأعمال حتى وصل دوق رتشموند حول نهاية العام . وتركت باريس فى أوائل ١٧٦٦ ، وذهبت فى الصيف التالى إلى أدنبرة على النية السابقة : أن أقبر نفسى فى عزلة فلسفية . وعدت إلى هذا المكان لا أقول أكثر غنى ، بل أوفر مالا وأعظم دخلا من ذى قبل ، بفضل صحبة لورد هرتفورد . وكنت قد سئمت تجربة نتائج الحياة السطحية بعد أن جربت من قبل حياة الجد . غير أنى تلقيت عام ١٧٦٧ من المستر كونواى دعوة لأكون مساعد سكرتير ، فلم أملك رفضها لخلق الداعى ولعلاقاتى باللورد هرتفورد . وعدت إلى أدنبرة عام ١٧٦٩ فى غاية الثراء (إذ كنت أملك دخلا يبلغ ألف جنيه فى العام) وفى غاية الصحة ولو أنى طعنت فى السن ، وفى نيتى أن أستمتع طويلا بالراحة وأنعم بشهرتى المتزايدة .

وأصابنى فى ربيع ١٧٧٥ اضطراب فى الأمعاء لم يخفنى أول الأمر ، ولكنه أصبح منذ ذلك الوقت ، كما أفهم ، قاضياً ولا يقبل الشفاء . وأملى الآن فى الانحلال السريع . لقد تألمت قليلا من هذا الاضطراب . والأغرب من ذلك أنه على الرغم من الانحلال العظيم فى جسمى لم أشعر قط بضعف قواى العقلية ، حتى إنى لو أردت اختيار فترة من حياتى أوثرها لأعيشها مرة ثانية ، فقد أميل إلى اختيار هذه الفترة الأخيرة . ولم أزل كما كنت دائما شديد الجد مرح الصحبة . إنى أعد صاحب الخامسة والستين حين يموت أنه قد محا بضع سنين كلها أسقام . وعلى الرغم من أنى أرى علامات كثيرة تدل على ذيوع شهرتى التى ازدادت تألقا فإنى أعرف أنى لن أستمتع بها أكثر من

الخواطر

جمال البكاء :

كنت أسير عصر ذات يوم فى شارع الملكة نازلى فصادفنى موكب جناز فهدأت من سرعة سيارتى كى أقرأ الفاتحة على روح المجهول لدى ، والعزاء على من حوله من إخوة وسيدات وعيال ، وكان يمشى خلف النعش مباشرة شخص بدا وكأن المصاب قد هد منه الحيل ، وكان يحاول أن يبدو جامد التقاطيع ، فيرفع يده بين حين وآخر إلى خديه ليضغط عليهما بشدة ليغالب نزول الدمع من مقلتيه ، وكان ينظر أحيانا إلى السماء نظرات فارغة وينفخ بفمه مستعيضاً بالنفخ من الدمع المخنوق ، وبالاختصار كان يرتكب كل آثام الحزن إلا أهونها وهو البكاء !

أيها الحزين الساذج ! إن البكاء أجل مما تظن ، إنه بلسم الجرح العزيز ، إنه النعمة الكبرى التى يسبغها الله على عبده المتألم الحزين ، إنه ليس وقفاً على السيدات كما تحسب ، وليس عاراً كما سولت لك نفسك ، فاسكب الدمع من مقلتيك مدرارا ، وافتح صمام الأمان من روحك الحائرة القلقة ولا تخش نقد الذين من حولك ، فإنهم يتناجون لرؤيتك ، وأنت تبكى لأن هذا يريح أعصابهم أيضاً ، فليس هناك ما يخفف من حدة هـذه المواقف إلا زفرة تطلق فى صراحة أو دمعة ترسل دون خجل أو حياء !

لقاء الأحباب :

حدثنى صديق الطبيب فقال :

كنت أود أن تكون معى لتراه وهو مسجى على فراش موته ، لقد دعيت لإسعافه فى اللحظة الأخيرة ، وبينما أنا فى طريقى إلى منزله أخذت أستعيد بذاكرتى ما كنت تقوله لى عنه . لقد قلت لى عنه دائما إنه شخص محب لنفسه ولماله ، يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، ويهمل آخرته كأنه لن يموت غداً . كانت كل تصرفاته تنم من اعتقاد جازم

بضع سنين . ومن العسير أن يتخلص الإنسان من الحياة أكثر مما أنا عليه فى الوقت الحاضر .

ولأتم هذه السيرة بذكر أخلاق الخاصة : أنا الآن أو على الأصح كنت (وهـذا هو الأسلوب الذى يجب أن أستعيره الآن عندما أتحدث عن نفسى ، أسلوب يزيدنى شجاعة فى الحديث عن عواطفى) رجلا معتدل المزاج صاحب سيطرة ذا طبع اجتماعى مرح ، قادراً على الوداد ، ولكن قليل الميل إلى العداء ، شديد الاعتدال فى جميع أهوائى . بل إن حبى للشهرة الأدبية ، وهى الشهوة ذات السلطات على نفسى ، لم تفسد قط مزاجى على الرغم من فشل المتكرر . ولم تكن صحبتى بغيضة للشباب والهمل ، كما لم تكن بغيضة للمجدين والأدباء . ولما كنت أجد لذة خاصة فى صحبة النساء المفيفات ، فلم يكن ما يدعو إلى عدم ارتياحى من استقبالهن لى . جملة القول أنه ولو أن أغلب الناس ، وعظماؤهم كذلك ، يشكون من النمائم ، فإنها لم تمس أو تمض بنابها المشئوم ، وعلى الرغم من أنى عرضت نفسى لغضب جماعات المدنيين والدينيين على السواء ، فيبدو أنهم كانوا عزلا مجردين من غضبهم المألوف ، ولم يشك أصدقائى قط من أى بادرة فى أخلاق وسلوكى ، اللهم إلا أن بعض المتحمسين ، مع افتراض ذلك ، كان يسرهم أن يخترعوا ويذيعوا أى حكاية تسىء إلى ، ولكنهم لم يجدوا قط أى حكاية تبدو محتملة ؛ لا أستطيع القول إن هذه الخطبة فى تأبين نفسى تخلو من الزهو ، ولكنى أرجو أنها ليست فى غير موضعها ، وهذه حقيقة من السهل توضيحها والتثبت منها .

(١٨ ابريل ١٧٧٦) أحمد فؤاد الأهوانى

أنه سيخلف ورث الأرض مع خالقها ، وكثيراً ما حدثني من تصرفاته مع أعز الناس لديك ، وكيف انتزع منه في شهوره الأخيرة جوهرته الغالية حتى أرغمه أن يموت كمداً وهو في نضر الشباب .

فإذا ما بلغه النعي تحير وتشفى ولم يحاول إرسال كلمة عزاء برغم صلة المصاهرة . لو رأيته وهو في رقدته الأخيرة لمحوت من ذهنك كل هذه الأفكار القاتمة . لقد كان هادئاً كالهدوء بعينه ، ولم تبد على وجهه الصرامة والقسوة اللتان تخيلتهما بعينيك المرضتين . لقد تخلص الجسد من رجس الدنيا وصعدت الروح إلى بارئها تسعى وتستغفر . اقرأ الفاتحة واطلب لها الغفران !

وبعد أن قرأتها قلت : الواقع يا صديق أن سر حزني الجارف على أخي هو شعور بالمرارة وخيبة الأمل في عدالة القدر الذي جعله يقضي قبل غريمه رغم تفاوت السن بينهما ، وبعد أن اقتطف ثمرة جهاده بأيام قلائل . وكنت أعجب كيف سمح القدر — ذلك الحكم العادل — أن يمد الحبل المشيب ليرى الشباب يتردى مضرجاً بدمه . وكنت أقول لنفسي دائماً : ماقيمة الأعوام في عمر الزمان وفي نظر القدر ! سوف نتقابل جميعاً في عالم سعيد لا نسمع فيه لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً . وسوف نعجب كيف سمحنا لأجسادنا المادية أن تتدهور إلى مستوى الهاترات والشاحنات ! ونعيش في عالم كله حب ووفاء ، وإخلاص وصفاء .

ولقد تلاقينا أخيراً بعد عام مضى ونصف عام . مضى الوقت بسرعة البرق كعادته وحدثت الواقعة الكبرى .

قال صديق : عندما نشيعه اليوم إلى مقره سترى بعينيك كيف ينتهي من كان مثل الدنيا : عمل وأمل ، وستلاشى سخطك على القدر الذي قبض أخاك قبل غريمه بشهور في عرفك وبثوان في عرفه . إن السنين تجرى في سرعة غريبة ، وسوف يتساوى الجميع في مصيرهم تحت الثرى حيث تدفن الضغائن والأحقاد بحق ، ولا يبقى إلا صفاء الروح ووجه ربك ذو الجلال والإكرام .

فتأملت ملياً قبل أن أقول لصديق : نعم . ولسوف يتساوى النعشان أيضاً . أما شخصياً لم أر نعش أخي وهو يتهادى خلال الثلاثة متر الأخيرة من رحلته في العالم الأرضي ، لأن عيني تشبثتا بالأرض الطيبة من قصد وعمد ، فقد كان عزيزاً على أن أواجه القلب بالدليل القاطع الدامغ على زوال أخي من عالم المادة . ولكني أعتقد أن نعش غريمه لن يختلف في كثير أو قليل عنه : آلة حدباء تتقدمها مشاة غير عالية ، وقد كسا الجميع شال فاخر يبصبص له حفار القبور ، وهو يقوم بمهمته آملاً أن يستحوذ عليه ويبيعه مقابل مبلغ غير زهيد يسد به بعض حاجياته .

ولسوف يوضع النعش عند نهاية الرحلة على شفا الحفرة المتيبدة ثم يرفع غطاءه بعض غلاظ القلوب ، ويحملون الجسد حملاً وهم يتصايحون وينهرون بعضهم إذا قصر في تفاصيل العملية . ولقد سمعت بأذني أحدهم ذات مرة يسب زميلاً له بأقذع الألفاظ لتقصير بسيط بدا منه ، غير عابئ بجلال الموقف ولا بشعور الباكين حول القبر .

وبينما نحن نفكر في هذه الدنيويات الزائلة ، تكون الروح قد صعدت إلى الدرجات العليا ، وهنالك تتقابل الروحان . عدأخي يده ليأخذ بيد صديقه القديم فيعطيها هنا له وكأن لم يكن شيء . ألا يضمهما الآن عالم طاهر نظيف لا تعرف الأحقاد إليه سبيلاً ! وبينما البلابل تشدو والطيور تزقزق والملائكة تشدو أناشيد السلام النغم ، تمضي الروحان في طريقهما إلى عالم اللانهائية الذي لا يعلم مداه إلا الله ، وهناك ينشد كل منهما الراحة الأبدية وينظر من فوق قمة الجبل العالي إلى ما في الوادي السحيق من ضغائن وإحن وقاذورات ، ويطلب لقاطنيه الرحمة والغفران .

دكتور مصطفى الديواني

قصة الأسبوع

زوجة الناسك البوذى

— إذاً فأنت راحلة إلى الهنـد حقا . ما الذى يجذبك إلى الهند ، وماذا هناك لتفعليه ؟ ! أذاهبة لتبشرى نساء الهندوس بمبادئ المساواة الاجتماعية ودفعهن إلى الثورة ، أم لتتزوجى من أحد النساك البوذيين ، وهناك تبنين لك كوخا على قمة الهملايا ، وتعيشين هنـاك فى مناقشات فلسفية ؟ . أعتقد أنك تحبين هذا النوع من الحياة ، وحقاً لا يدهشنى إن سمعت أنك فعلت هذا ؛ ولـكن ماذا كنت تفعلين بنفسك طوال هـذه المدة ، فلقد اختفيت من الحياة المدنية !

فضحكت ثم تناولت علبـة سجائرها وأشعلت واحدة فى هدوء ، ثم قالت :

— لقد كنت مشغولة .

— ولـكن لأى شىء تذهبين إلى الهند ؟ أتعرفين أحدا هناك ؟ .

— لا ، ولكنك أظنها ستكون رحلة عجيبة ممتعة ، لأن عندى ميلا عجيبا للشرق . إنها حياة معقدة ومثيرة للاهتمام

— أظنك ستقولين إنك ذاهبة لتكتسبى خبرة أكثر ، لم أعرف مطلقا امرأة تقذف بنفسها مثلما تفعلين . امرأة فى مثل عقليتك وجاذبيتك تدع الحياة تفلت من بين يديها ، ولا تستفيد منها ، كان حريا بك أن تكونى أنجح امرأة فى لندن . أجل أعرف ماذا ستقولين « إنك لا تهتمين » . أنت لا تهتمين بذلك ، وإنما تنشدين خبرة أكثر . تنشدين العلم بكل شىء ، وهذا محال . ستكتشفين عندما تعرفين الكفاية ، ولم تقنعى بما عندك مطلقاً ، كان واجبا عليك أن تكتسبى ألفين فى العام ، ولـكنك لا تهتمين . هـذه حالتك بالضبط . تعيشين قاذفة نفسك مع من أكل عليهم الدهر وشرب . فى قدرتك أن تنالى كل شىء ، ولكنك تدعيها تفوتك .

— ولـكن حياتى مليئة . يوجد هنـاك حقيقتان ثابتتان هما « الحب والمعرفة » . أوه ما أجمل الحيـاة ! إنها شهية .

— هذا صحيح ، ولـكن ماذا تفعلين بهـا ، وماذا تستفيدين منها . أما كان يجدر بك أن تستقرى وتتزوجى مثل باقى النساء ، ولا تهيمى على وجهك فى العالم . إلى الهند . إلى الصين . إلى إيطاليا . والله وحده يعلم أين أيضاً . إنك (تهوشين) حياتك بكل بساطة . تحوطين نفسك دائما بطبقة عجيبة من الناس . عند ما أسمع أن رجلا أو امرأة صديقة حميمة لك ، أقول : ما الخبر . ؟ هل فقد ماله ؟ . هل فقـد خُلُقه ؟ . هل وقع فى مرض مزمن لا يشفى ؟ . وإنى أعتقد أن الطريق الوحيد الذى يثير به الشخص اهتمامك أن يكون ذا كرًا مقابًا أو جـدبا : كما أنى أعتقد أيضاً أنك تعبـدين كل قديم مهلهل . إنك إذ تذهبين وتسجنين نفسك فى مكان كهذا بعيـدا من كل شخص وكل شىء ، ترتكبين خطأ . بل قد يكون مظهراً لضعف عقل كما تعلمين .

فقالت وقد مالت إلى النار ، ووضعت كفها على ركبتها :

— إنى سعيدة جدا كما ترى . ما الأهمية فى أن يكون هناك شىء يحتاج إليـك . . ؟ — ليست المسألة مسألة حب — وما الفائدة فى أن تكون قريباً من شىء فى قدرة الآخرين أن يخدموه مثلك . . ؟ فإن كان فى مكنتهم أن يلاحظوه أفضل منك كان ذلك منك أنانية . إنها حاجة الشىء إلى الشىء ، التى تسبب رباط الاتحاد العنصرى . أنت مثلا تعشق الجبـال والخيل ، ولـكن إذا لم يكونا فى حاجة إليك ، فما الفائدة فى التحدث عنهما . إنى أظن أن أشهى شىء فى الحياة هو أن تشعر بأن هنالك شيئاً يحتاج إليك وأن تعطيه ما يحتاجه منك . أما الأشياء التى لا تحتاج إليك فتتعشقها عن بعد .

— أوه . ولكن امرأة مثلك حرى بها أن تتزوج وأن يكون لها أطفال ، ولكنك بدلاً من هذا تبذرين نفسك على كل شحاذ مجرم ، أو امرأة فقدت الأمل ، أو مجرم فار تقابلينه . كل هذا طيب وجميل ، ولكن وجهة نظرك فى هذا خطأ .

ثم لمس بطرف أصبعه رماد سيجارته ودعاه يسقط قائلا :

— لقد عزمت على الزواج .

ثم أراح مرفقه على ركبته ومال برأسه إلى الأمام بشكل لاحت معه تجاعيد شعره البنى وقد وخطها بعض الشيب من جوانبها ، ثم قال :

— إنه لشىء مثير للفضول . فعند ما يصل الإنسان إلى حد معين من العمر يشعر بحاجته إلى الزواج . إنه لا يقع فى حب ، فليس هذا بالشىء الذى يهتم برسم خطة له . ولكن يكون عنده شعور بأن واجباً عليه أن يكون له بيت وزوجة وأطفال . وأظن هذا هو نفس الشعور الذى يدفع الطائر فى وقت معين من العام لأن يبنى عشه . ليس ذلك ما نسميه حبًّا ، ولكنه شىء آخر . عند ما كنت صغيرا ، كنت ألمز من يتزوج من الرجال ، وكنت أعجب لأى شىء فعلوا ذلك ، فهم قد خسروا كل شىء ، ولم يكسبوا شيئا واحدا . ولكن عند ما يكون الرجل فى السادسة والثلاثين يتغير شعوره . ليس ما يطلبه هو الحب والعشق ، ولكنه المنزل . زوجة وأطفال . وقد يكون له منزل وخدم . ولكنه ليس بمثل ذلك الشىء . لقد كنت أعتقد أن المرأة تشعر بمثل ذلك الشعور .

فصمتت نحواً من دقيقة وهى ممسكة بسيجارتها بين إصبعيها . ثم قالت ببطء :

— أجل . فى بعض الأوقات يكون عند المرأة شوق عجيب لأن يكون لها طفل ، خصوصاً عند ما تقترب من الثلاثين أو أكثر . إنه شىء يختلف تماماً عن الميل لشخص معين ، ولكنه شىء على المرأة أن تتركه . فالزواج أكثر أهمية للمرأة من الرجل ، فقد يمر بها العمر دون أن تقابل الشخص الذى يمكنها أن تحبه ، وإن حدث وقابلته فقد لا تكون مصيبة أو قد لا يكون فى الإمكان . لقد أصبح الزواج معقداً جداً منذ أن تدخل فيه العقل بشكل عجيب .

وقدمت إليه علبتها قائلة :

— يمكنك أن تشعلها من سيجارتى .

ثم مالت إليه ليشعلها ، ثم قالت :

— إنك رجل حرى بك أن تتزوج ، فليس لك أعمال تتطلب منك جهدا عقليا قد تتدخل فيها المرأة ، بل إنها ستكون مكملة لك .

— هذا حق . ولكن الحياة مشغولة كبرى ، حتى إنى لا أجد وقتا للبحث عن واحدة ، كما أنى لا أميل للجمال « الأحمر والأبيض » الشائع الآن ، والذى يعشقه بعض الرجال . أنا فى حاجة إلى شىء آخر ، فإن لم يكن بد من الزوجة ، فسأذهب إلى أمريكا للبحث عن واحدة .

— حقاً إن الأمريكية تلائمك .

— أجل ! فلست أريد امرأة ألاحظ شئونها ، بل يجب أن تعتمد على نفسها ، وألا تكون متعبة . لاشك أنك تعلمين ما أعنى ، فالحياة مليئة بالمسئوليات ، فلا تضيفى إليها طفلا عاجزا .

فقالت وقد وقفت واستندت بذراعها على حافة المدفأة :

— هذا حق . فالمرأة التى تنشدها يجب أن تكون صغيرة وقوية ، وليس من المهم أن تكون شديدة الجمال ، ولكن يجب أن تكون جذابة ، وأن تكون لها قدرة ، ولكن ليس بدرجة تجعلها فريسة الطمع ، كما يجب أن تكون طبيعية ، فلا تكون فى حاجة لأن تبذل لك من نفسها ، أو تضحى لك بما ليس فى قدرتها ، ولكن عليها أن تشد أزرك نسبياً ، وأن تكون لها الأهداف والأذواق التى لك . فليس للمرأة حق فى الزواج من رجل قد تكون مضطرة لتغيير طباعها لأجله . قد يكون لها الرغبة فى ذلك ، ولكنه من المحال بكل ما تبذل له من عشق أن تكون له مثل امرأة أخرى غير مضطرة لهذا التغيير ؛ فالطبع يسود كل شىء ،

وفي آخر الأمر يبرز واضحاً جلياً عند ما تتزوج . لا تتزوج من امرأة تتملقك كثيراً أو تتربك ، لأن التملق والإطراء علامة التصنع . إذا أحبتك امرأة حقاً فستنتقدك وتفهمك كما تفهم نفسها ، فعلى الشخصين اللذين يعيشان في الحياة معاً أن يكون كل منهما قادراً على أن ينظر في عين الآخر ويتكلم الحقيقة ، فهذا يساعد الإنسان في معترك الحياة . ستجد مثل هؤلاء النساء في أمريكا . نساء يدفعنك إلى النجاح ولا يجررنك إلى أسفل .

— حقاً هذه هي فكرتي ، ولكن أنى لي بالمرأة المثالية ؟ .

— اذهب وابحث عنها . اذهب إلى أمريكا هذا العام بدلا من اسكتلندا ، فهذا عين الصواب . الرجل الحق في أن يبحث عن مطالبه ، ولكن المرأة بخلاف ذلك ، وهذا هو أحد الفوارق الكبرى بين الرجل والمرأة . إنه قانون طبيعتها وناموس الصلة الجنسية ، فلا يوجد شيء قد أجمعوا عليه مثل أن عليها أن تحمل طفلها ، بينما الرجل لا يفعل ذلك . قد نكون متباينين من الوجهة العقلية ، فلو أعطى خمسون رجلا وخمسون امرأة مسألة حسابية لحلوها جميعاً بطريقة متشابهة ، فكلما حكمنا العقل كنا متقاربين وكلما اقتربنا من الناحية الشخصية والجنسية كنا مختلفين ! إن كان علي أن أظهر طبيعة الرجل والمرأة في « دياجرام » لأخذت دائرتين من الورق ولونت الجانب الأيمن لكلتيهما باللون الأحمر ، ثم أظلل إحداهما تدريجياً باللون الأزرق إلى أن تنتهي في نقطة زرقاء من جهة الشمال ، والأخرى باللون الأخضر إلى أن تنتهي في نقطة خضراء . هاتان النقطتان تميزان من الجنسية ، فكلما اقتربت منهما اختلفنا في الدائرتين ، أما إذا عكستهما بحيث يتلامس اللون الأحمر من الجانبين فإنهما تلوحان متماثلتين وإذا ما عكستهما بحيث يلمس الجانب الأزرق الجانب الأخضر لاحتا متناقضتين . هذا يفسر لماذا نلاحظ أن الرجال الهمجيين على اختلاف نزعاتهم يعتقدون أن المرأة مختلفة عن الرجل ، بل نوع آخر من المخلوقات ، بينما المتمدنون والمفكرون يعتقدون بعض الأحيان أننا متماثلين . فأنت ترى أن الحب الجنسي في مادته متشابه في كلينا ، ولكنه يختلف في شكل التعبير عنه . وليس هذا بخطأ الإنسان ! إنما هو خطأ الطبيعة . إذا أحب رجل امرأة فعليه أن يجتهد في أن يجعلها تحبه ، لأن في قدرته أن يفاتحها بذلك بصراحة وبدون وساطة ، فهو ليس في حاجة إلى التملق أو الإغراء . أما المرأة فتختلف من ذلك ، فلا يمكنها أن تقبل حباً لم يطرح صريعاً عند قدميها ، فالطبيعة قد علمتها أن لا تفصح عن مشاعرها . فلو حدث أن امرأة أخبرت رجلا أنها تحبه فقد أقامت بينه وبينها سداً لا يمكن تخطيه إلى الأبد . وإذا ما أمكنها أن تجتذبه بالإغراء إلى ناحيتها مستعملة أسلوبها الخاص مثل الصمت أو التبذل أو إسقاط منديلها ، أو تفاجئه بالزيارة أو قولها إنها لم تكن تتوقع رؤيته ، بينما قطعت مسافة طويلة لمقابلته ، ثم تعترف له بعد ذلك ، فقد يمكنها أن تحتفظ بحبه ولكن بطريق الغواية ، وقد لا يكون لذلك قيمته ، وعلى ذلك عليها أن تسير دائماً وهي مكتوفة الذراعين جنسياً . أما الحب الذي يطرح نفسه على قدميها ويرجوها أن تقبله فهو الحب الذي يمكنها أن تأخذه بحق . هذا هو الفارق الحقيقي بين الرجل والمرأة ، فقد يمكنك أن تبحث عن الحب لأن في قدرتك الإفصاح عنه ، أما المرأة فلا يمكنها ذلك ، لأن عليها أن تبحث عنه بالحيلة . أما الصداقة فتختلف طبعاً عن ذلك ، حينئذ نكون متساويين ، فيمكننا أن ندعوه لزيارتنا كما دعوناك ! وهذا هو السر في الجمال العقلي وجمال الحياة الفكرية للمرأة ، كما أنه السبب في أنها تفك أغلالها قليلا وتتنازل عن بعض مميزاتها الجنسية ، وربما يمكنها ذلك في حالة الموت أو ما يشبه الموت فإن الموت يمحو أشياء كثيرة للمرأة دون الرجل . عندما تعرف أنك تموت تأخذ في التأمل في الدنيا وتشعر بأن الرباط الجنسي الذي قطعك إرباً وأضناك طوال حياتك قد انفرط عقده ولم يخلف شيئاً سوى الشعور بالإنسانية يحل مكانه ، فلا نساء بعد ذلك . والآن لا يوجد أي سبب يمنعك من الذهاب إلى أمريكا لتبحث عن الزوجة المثلى . لا تتكلم إليها كذباً ، ولكن ابحث إلى أن تجد

المرأة التي تحبها والتي لا يوجد أدنى شك عندك من حبها ، وعند ذلك اسألها أن تتزوجك ، فحرى بك أن يكون لك أطفال ، فما أصعب حياة شيخ لا أطفال له .

— صحيح . أتمنى أن يكون لى أطفال ، وغالبا ما أشعر بهذه الأفكار الآن . لم كل ذلك التعب وهذا الصراع ، ولا يوجد من أتركه له من بعدى . حياة فارغة . ولو فرض أن نجحت !

— لو فرض أنك أخفقت تماما !

— أجل . فما قيمة كل ذلك إن لم يكن لى أحد أتركه له . هذا هو شعورى . إنه لشيء عجيب حقا ، أن أجدنى جالسا ومتكلما هكذا إليك . ولكنك امرأة تختلف من كل النساء ، فلو أتهون كن على مثالك لنجحت جميع نظرياتك من المساواة بين الرجل والمرأة . إنك المرأة الوحيدة التي لم أتحقق مطلقا من أنها امرأة .

— أحقا .. ! !

— كم ستمكثين في الهند ؟

— لن أرجع . . .

— لن ترجعين . هذا محال ، ستحطمين قلوب نصف الناس هنا . لم أعرف إطلاقا امرأة لها مثل هذه القدرة في تصيد قلوب الرجال بغض النظر من فلسفتك .

ثم ابتسم قائلا :

— لست أدرى لماذا لم أقع في شراكك بنفسى منذ ثلاث سنوات مضت ؟ وغالبا ما فكرت في تعشقك لولا أنك ما فتئت تهاجمينى بتشبث في كل نقطة وعند كل ملاحظة . الرجل لا يحب الآلام ، وتوالى الهجوم يثبط همته ، ولكن يلوح أن ذلك ليس له تأثير على بعض الناس . فلقد كان في الضاحية حيث كنت هناك في العام الماضى شخص يثير الضحك . لا شك أنك تعرفينه .

ثم وضع أصبعه على جبهته مجتهداً أن يتذكر ثم قال :

— إنه كبير الجسم بشارب أصفر ، وهو ضابط في الجيش ، والآن في الشاطئ الشرقى في أفريقيا ، لقد أشاعت السيدات أنه كان يحمل دائما رسمك في جيبه ، وقد اعتاد أن يأخذ قطعا صغيرة مما ترسمين ويريها الجمهور بشكل غامض مثير ، وقد تبارز مرة مع رجل آخر بعد التغداء لأنه ذكرك ، وقد كان يلوح أنه يظن أن هناك عدم تناسق بين اسمك وبين . . . . . .

— لا أحب أن تتكلم من أى شخص قد أحبنى ، فهما كان بسيط الشأن أو فقيرا في طبيعته فقد وهبنى أفضل ما عنده . لا يوجد ما يضحك في الحب ، بل أعتقد أنه يجب على المرأة أن تشعر بأن الحب الذى يقدمه إليها الرجل ولا يمكنها أن تبادلهم إياه ما هو إلا تاج قد كللت به هامتها ، ودائما تجتهد في تكبيره لتلبسه . لا يمكننى أن أتصور أن كل حب قدم إلى قد ضاع على شيء لا يستحقه ، فلقد كان تصرف الرجال معى جميلا ، وكانوا عظيمى الاحترام لى . وأنا مدينة لهم بذلك . إذا قال لك شخص إنه يحبك وفتح لك صدره لتسكن إليه إن أردت ، فأقل شيء تفعله هو أن تضع عليه يدك وتقفله من أعين الناس . لو أنى كنت طبيبا وجرح أحد الغزلان وهو يلاحقنى وحتى لو لم أجنيه رفيقا لى لوقفت ونثرت الرمال بقدمى لمكان الجرح وأخفى الدماء حتى لا يعلم باقى القطيع أن غزالا قد جرح بسببى .

قالت هذا ثم صمتت قليلا ، وما لبثت أن جلست على الكرسى وقالت وقد رفعت يديها :

— على أنك تعرف أن الشعور العادى للحب ليس عندى وأظن أن العاشق يمنح الفائدة على من يحب . إنه لشيء جميل وعظيم أن يعشق الإنسان ، وأظن الرجل يجب أن يكون مدينا للمرأة أو المرأة للرجل الذين كان في إمكانهما أن يتحابا مهما كان تعاشقهما قديما أو فرقت بينهما الأحداث أو لم تفرق .

ثم أنزلت يدها على ركبتها بلطف فقال :

— حسن . . والله يجب أن أرحل الآن . إنه لمن الممتع الجلوس هنا والتحدث إليك ، وقد كان في مكنتى أن أبقى طول الليل ، ولكن عندى ميعادان .

ثم وقف ووقفت أمامه تنظر إليه برهة قصيرة ثم قالت :

بابُ الكُتُب

نقد الكتب العربية :

قصة النزاع بين الدين والفلسفة

للدكتور توفيق الطويل

كثيرون من الناس – وأنا من هؤلاء – يعتقدون أنه يمكن أن يكون للإنسان شخصيتان متمايزتان : شخصية مؤمنة ، وأخرى مفكرة . فأما الشخصية المؤمنة فمن آثارها الواضحة فيك احترامك للدين ، وأخذك بتعاليمه وشعورك بالرضا من نفسك بمقدار حظك من إرضاء معتقدك . وأما الشخصية المفكرة فإليها يرجع الفضل فيما ينعم به عقلك من حرية ، وعليها تعتمد أبداً في تكوين آرائك العلمية أو الأدبية أو السياسية والاجتماعية . وربما كان أساتذة الجامعات أشد الناس شعوراً بهذه الظاهرة التي أشرت إليها ؛ لا أكاد أستثنى من ذلك غير فترات قليلة تمر بحياة الأستاذ الجامعي يشعر فيهـا بشيء من الفتوة العقلية ، أو الخصوبة الذهنية ، أو اليقظة المستمرة ، أو التوقد الحاد ؛ ويستطيع في أثنـاء تلك الفترات أن يتمخض عن أثر علمي هام ، أو فكرة علمية كبيرة ، أو اختراع عظيم يضيف به إلى العلم ما لم يكن به . وفي

– كم تلوح في صحة جيدة . أظنك قد اكتشفت سر دوام الشباب ، فإنك لا تظهر يوما واحداً أكبر مما رأيتك لأول مرة . يلوح عليك دائما أنك قد احترقت بنار العشق ، ولكنك لم تحترق ، إنك تعلم ذلك . . ! ؟

فنظر إليها بإعجاب ثم قال :

– متى أراك ثانية .

– سوف لا تراني بعد ذلك .

– لا أراك . ! ! يجب أن ترجعي إلينا

فقالت له بسذاجة الطفولة وعلى خلاف ما كانت تجزم به في الحديث عن نفسها :

– أرجو ألا تؤاخذني في دعوتي إليك لأودعك ، فلقد أردت أن أودع الجميع لكي أشعر بالراحة .

– ليس هذا هو الوداع الأخير . يجب أن ترجعي خلال هذه العشر سنوات ، وحينئذ نقارن بين مذكراتنا ، أنت من الناسك البوذي وأنا من الأمريكية الثالية .

ثم أخذ يلبس معطفه وهو يتأهب للخروج فوقفت تنظر إليه ، وعندما قدم إليها يده مودعا قالت له :

– أريد أن أسألك شيئا .

– ماهو ؟

– هل تتفضل بتقبيل . ؟ ؟

لم يكن خلال الأعوام القبلة ليدرى ما حدث ، وإنما كان يظن أنها كانت واضعة يدها باسترخاء على هامته ، وعندما أفاق نظر فيما حوله وكانت قد ذهبت . . . . . .

كان هذا منذ ثمانية أعوام مضت .

كم كانت الحياة جميلة لهـا . وإلا فما كانت تلوح صغيرة الآن .

أسدل عليها الغطاء ودع ضياء الشمس يدخل . هذه المرأة التي أحبها كثير من الرجال والنساء ، ومنحوها كثيرا من عطفهم ، ولم يطلبوا منه بديلا ، كان يكفيها من الحياة التفكير والارتحال ، وكانت تهيم وهي تنوء تحت ما يثقل كاهلها . هذه المرأة التي عاشت وحيدة ، حسبي بها أنهـا تريد أن تكون وحيدة الآن .

أسدل عليها الغطاء ، فيا عجبا لبقائها ممددة إلى الآن .

فريد محمد العيسوي

تلك الفترات التي تمر بالأستاذ أو العالم أو صاحب الاختراع يبدو لنفسه أو لغيره من الناس كأنه منصرف عن الدين ، أو مشغول عنه بهذا البحث الذي استغرق فيه بكل حواسه ومشاعره وقوة إرادته .

لو عرف رجال الكهنوت ذلك في العصرين القديم والوسيط لأراحوا أنفسهم من هذا العناء الذي كابدوه ، وشفوا صدورهم من تلك الأضغان التي توارثوها ، وبرئت أيديهم من تلك الدماء التي أراقوها باسم الدين وفي سبيل المحافظة عليه بزعمهم من المارقين الخارجين عليه .

بل كان على رجال الكهنوت أن يعرفوا كذلك الفرق بين طبيعة العقل وطبيعة الدين . فأما العقل فهو كالجواد الطموح إذا نزع إلى التفكير مضى طويلا جدا في هذا النزوع ، حتى إذا وجد أمامه عقبة تخطاها ، وإذا سمع إنذاراً باضطهاد أو محنة سخر منه ، وإذا جمع له الخصوم ناراً ليلقوه فيها رحب بذلك . وليس كل الناس على هذا الوجه ، وإنما الكثرة الغالبة فيهم تميل إلى الكسل العقلي ، وتستجيب لداعي الهدوء والدعة والاستقرار .

وإنما هذا النزر القليل من الناس هم الذين تنطبق عليهم تلك الأوصاف .

وحذار حذار من هذه الطبقة القليلة إن صادفت ما يحول دون تقدمها ، أو يستخف بما تبذله للإنسانية من جهد ..!

وأما الدين فطريقه الوحيد إلى الناس هو (الإيحاء) والعقل لا يبذل من نفسه أي جهد في تلقي الإيحاء ، فلا يلبث هذا العقل أن يصبح مملوءاً بمعتقدات كثيرة ، كانت قد تسللت إليه من الأجيال القديمة ، وكان لا بد له من أن يحتفظ بها صحيحة كانت هذه المعتقدات نفسها أم زائفة .

فالدين — كما نعلم ذلك من سياسة مكيافلي — ضروري لقيام الجماعة والحكومة ؛ بل إن من الواجب أن ينتصر الحاكم للدين الذي يؤمن ببطلانه .

أجل — لو عرف رجال الكهنوت شيئاً من هذا لبرئت ساحتهم من كثير من الآثام التي لطخوا بها صفحتهم ، وأساءوا بها إلى ديانتهم . فالديانة نفسها بريئة من عملهم ، لأنها سلكت إلى الناس طريقا سهلا — هو الإيحاء — حتى آمنوا بها ، ودخلت عليهم من باب رفيق بهم — هو القلب — حتى رضوا عنها ؛ ثم وقفت الديانة نفسها عند هذا الحد ؛ وتركت الناس أحراراً فيما وراءه . ولكن أليست معرفة رجال الكهنوت لذلك تعتبر نوعا من النضج العقلي أو السمو الفكري ؟ نعم — هو ذلك . فكان لا يمكن أن يتيسر لهم ذلك النضج العقلي حتى يمروا بطائفة من التجارب القاسية ، ويلاقوا أحرار الفكر في معارك دامية ؛ يكون النصر المؤقت فيها لرجال الدين ، ويكون النصر الخالد فيها للأحرار الصابرين من المفكرين ؛ ذلك أن الأحرار يموتون ويقتلون ، ولكن لا تموت أفكارهم ولا تنسى أعمالهم . والغريب أن رجال الدين يفرحون بما يشربون من دماء أولئك الساكين ثم يستيقظ فيهم الضمير الإنساني أو الديني فيعودون على أنفسهم أحيانا باللائمة ، وينظرون فإذا الدين الذي يرتكبون باسمه كل هذه الجرائم يقول لهم : ليس الذنب ذنبي في كل ذلك أيها القوم ، لأني إنما أمرتكم ألا تستعبدوا الناس ؛ بل تتركوهم أحرارا ، وتبلغوهم رسالاتي ، فمن شاء منهم فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

أجل كان على رجال الكهنوت أن يفهموا مهمتهم على هذا النحو ، لولا هذه الظاهرة التي لاحظها رجال الفكر ؛ وهي أن عدم التسامح الديني يتمشى طرداً مع قوة العقيدة ؛ ومتى عظمت شوكة طبقة من طبقات الشعب استبدت دائما

بالأخرى . ومن هنا حدث هذا النزاع الطويل بين الدين والفلسفة ؛ وذلك على النحو الذى شرحه صديق الأستاذ الدكتور توفيق الطويل فى الكتاب الذى أقدمه الآن إلى القراء .

ولعل هذا الكتاب الأخير هو السابع فى ترتيب الكتب التى أخرجها لنا الدكتور توفيق الطويل ، وأنا أخشى أن يوحى هذا الرقم إلى أذن القارئ أن الأستاذ المؤلف سريع الكتابة سريع التأليف ، لأنه لا يكلف نفسه عناء البحث العلمى المستقيم ، ولا يترك للبحث فى يديه فرصة كافية حتى ينضج أو يقارب النضج ؛ وإلا فكيف تتسنى مثل هذه الغزارة العلمية لكاتب واحد فى سنوات قليلة جداً ؟

نعم — أخشى أن يوحى هذا الرقم إلى القارئ شيئاً من ذلك ؛ إذ الواقع أن الدكتور توفيق الطويل هو الباحث المدقق الصبور فى كل كتاب أخرجه إلى يومنا هذا ، لم يكد يتغير فيه — عندى — غير شيئين ، هما عقله وقلمه . أما عقله فقد اكتسب على مر الأيام خصوبة ونفاذاً فى حل المشكلات العقلية ، قد لا يتيسران لمثله فى مثل السن التى هو عليها . وأما قلمه فقد أصبح أكثر طواعية له من قبل . وآية ذلك أنه يعالج أصعب الموضوعات الفلسفية وأدقها وأعمقها وأكثرها خفاء وغموضا على الناس ، فإذا هذه الموضوعات توشك أن تكون فى سهولتها أشبه شىء بمقالات الصحف السيارة : وضوح أسلوب ، وسلاسة عبارة .

فلك إذاً أيها القارئ الكريم أن تستمتع بما يكتب الدكتور توفيق الطويل ، وأن تثق أنه لا يزال فى ميدان البحث العلمى مجلياً لم يكب له جواد ، ولا التماع به طريق ، ولا نال منه كد ، ولا وقفت له حركة ، ولا أشبع شهوة البحث العلمى التى غلبت فى نفسه على كل شىء .

والكتاب بعد عبارة عن ثمانية فصول ، عرض فيها المؤلف لقصة النزاع بين الدين والفلسفة منذ التفكير الفلسفى عند اليونان فى العصور القديمة ، ثم منذ ظهور الدين المسيحى وقيامه وجها لوجه أمام الفلسفة اليونانية فى العصور الوسطى ؛ يسالمها حينا ، ويخاصمها أحيانا ، ويعرض الفلاسفة والمفكرين فى أثناء هذه الخصومة لأنواع من المحن تقشعر منها الجلود ، وتستذرف الدمع إشفاقاً على أولئك الساكين من دعاة الحرية الفكرية ، وهم الذين أوذوا فى سبيلها ألوانا مختلفة من الإيذاء ؛ فمن نفى ، إلى تعذيب ، إلى مصادرة ، إلى قطع أرزاق ، حتى يتعرض العالم من العلماء إلى التسول ، إلى اتهام بالسحر أو الجنون ، أو الشعوذة ، إلى سجن ، إلى إعدام للأنفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، إلى غير ذلك من الأشياء التى أثارت الناس ضد الكنيسة ، حتى كان هيجو على حق حين صاح فيما بعد قائلا :

« نحن مع الدين على رجاله » !

ثم أتى عصر النهضة الأوربية ، واستطاعت أن تحرر العقول من قيود الدين ، وظهرت الدعوة إلى إحياء الأدب اليونانى القديم ، وظهر الاهتمام بالطبيعة والكشف عن أسرارها ، واتصل الأوربيون بالفلسفة الإسلامية ، وكانت هذه الفلسفة قد احتفظت بآراء أرسطو وغيره من المفكرين حتى سلمتها يومئذ إلى الأوربيين ، فبنوا عليها وعلى الأشياء التى أشرنا إليها نهضتهم ، ومرت الكنيسة بدور من أدوار الضيق الشديد ، وتعرضت للسخرية والاستخفاف من شتى الطبقات ، وعلا صوت العقل على صوت الوحى ، وقابلت الكنيسة التل بالتل ، فما عاند العقل وكابر وطلت الكنيسة عزمها على اضطهاده ، بل افتراسه ، « فكانت محاكم التفتيش التى نشأت قبل ذلك عنوان هذه الوحشية الآثمة ، فطاردت أحرار الفكر فى العالم الكاثوليكى طولا وعرضا ، وأشاعت

الفزع فى رءوسهم يميناً ويساراً ، وتولتهم بعذاب أهونه السجن وآخره العذاب صنوفاً وألواناً » .

وكان من الطرق التى سلكتها الكنيسة يومئذ إذاعتها قوائم للكتب المحرمة .

ثم لم تكد تشرق على العالم شمس العصر الحديث حتى وفق الناس إلى حل بسيط ، لعله قريب الشبه بذلك الحل الذى بدأنا به المقال ، وهو إمكان الجمع بين التدين والتفلسف . وربما كان ديكارت أول رائد من رواد هذا العصر ، فقد استبعد كل سلطة غير سلطة العقل ، ولكنه فى الوقت نفسه جعل العقيدة الدينية فوق متناول العقل .

وكان ذلك مبشرا بحدوث الهدنة بين الدين والفلسفة ، فساد الصفاء جو العلاقات بينهما إلى القرن الماضى ، لم يكد يشذ عن ذلك غير فولتير ومن إليه من طلائع الثورة الفرنسية ممن سخروا برجال الدين ، ولكن هؤلاء كانوا قد فقدوا قوتهم وعجزوا حتى عن الانتقام لأنفسهم ودياناتهم من رجال الثورة .

أما فى العالم الإسلامى فقد تعرض المفكرون الأحرار لشىء من هذه المحن التى تعرض لها أمثالهم فى العالم المسيحى . ولكن من الحق أن يقال إن المتحرجين من المسلمين لم يصلوا فى تعذيبهم أحرار الفكر إلى الدرجة التى وصلت إليها الكنيسة ، إلا فى مرات قليلة لا تذكر إلى جانب الاضطهاد المسيحى . يقول المؤلف : « إذا كانت ساحة الإسلام قد برئت من آثام غلاة المتعصبين من رجاله ، فإن المسيحية — فيما يلوح لنا — غير مسئولة عن تاريخها الملطخ بالدم » .

فكأنه بذلك يوقع عبء الاضطهاد وتبعته على رؤوس رجال الدين ، ويبرىء منها الدين نفسه ، وحسنا فعل ، فإنه لم يعد الحقيقة فيما ذهب إليه .

عبد اللطيف حمزة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٤٧ | الثلاثاء ٤ من رمضان سنة ١٣٦٦ — ٢٢ من يوليو سنة ١٩٤٧ | السنة التاسعة

السياسة العليا للميزان الأوربى

من الشائع المعروف ، قبل اليوم ، أن السياسة العليا البريطانية كانت تستند على التوازن الدولى ، أو ما يسمونه « سياسة التحكيم ، فى القارة الأوربية » .

ومعنى ذلك أنها كانت تعمل على خلق قوتين متضادتين لا ثالث لهما ، فى هذه القارة النشيطة ، لكى تضع هى إصبعها على نقطة ارتكاز الميزان ، فيكون لها بذلك سيادة التحكيم . فإذا نمت شوكة أحد الجانبين ، إلى حد يهدد مصالحها ، ضربته بالجانب الآخر ، وساعدت الضعيف منهما على الصمود أمام القوى حتى يضعفا معاً ، وعندها تضع يدها فى الأمر لإعادة كفتى الميزان إلى التعادل من جديد .

بهذه السياسة بقيت انكلترة ، عصوراً طوالا ، وهى محتفظة بمكانها الأول بين الدول القوية ، ومتمتعة بكامل حريتها فى التصرف بشئون مستعمراتها الواسعة ، التى بلغت خمس مساحة اليابسة الأرضية .

ويعزو السياسيون سر نجاح هذه الخطة إلى دقة نظام الدوائر الإنكليزية فى تحرى الحقائق ، وتمام الاشتباه لمراقبة الميزان الدولى ، وإتقان اللعب على نقطة ارتكازه .

وما كان فى غير أوربا دولة قوية تخشاها انكلترة على مستعمراتها غير اثنتين : هما اليابان وأمريكا . أما الأولى فكانت منذ ابتداء القرن العشرين ، كثيرة التشاغل فى الشرق الأقصى ، ولم تحاول ، مباشرة ، إضعاف النفوذ البريطانى فى مستعمراته . كما أن أمريكا بقيت ، حتى الحرب الأخيرة ، فى معزل عن غمرة الصراع الدولى ، تمسكا منها بمبدأ « مترو » ، الذى يحظر على الأمريكيين التدخل فى شئون أوربا ، كما يرفض تدخل الأوربيين فى شئون القارتين الأمريكيتين .

والغريب فى أمر « سياسة التحكيم » هذه هو أن انكلترة كانت تحرص دائما على أن تكون فرنسا إحدى كفتى الميزان . وقد يكون السبب فى ذلك موقعها الجغرافى الأستراتيجى وقربها من الجزر البريطانية ، وإمكان تقويتها بسهولة إذا ضعفت . وقد يكون هنالك سبب آخر ، وهو أن الشعب الفرنسى حاد الطبع ، يخلط العاطفة بالسياسة ، مما سهل على الإنكليز فهم نفسيته ومعالجته وترويضه بفضل طباعهم الباردة المتزنة . من أجل هذا نرى فى تاريخ فرنسا كثرة الحروب مع الدول الأوربية الأخرى . وطالما غلبت فرنسا وانهزمت ، فسعت انكلترة لمساعدتها وإعادة نشاطها إلى حد ما ، كما تفعل مع دول الكفة الأخرى .

ولم نجد بعد نابليون الأول حكومة فرنسية أرادت الخروج من نطاق النفوذ الإنكليزى غير حكومة (لافال) فى

عهد الماريشال (بيتان) ، فكان مصيرها ما يعرفه الناس .

نسوق هذه المقدمة لنتحدث باختصار تام عن حقيقة هذا الصراع الذي نشاهده اليوم في الجو السياسي العالمي بين معسكرين خطيرين ، أولهما يريد التوسع ومد نفوذه على الدنيا باسم الإنسانية والشيوعية ، والرحمة بالفقير العامل ، وثانيهما يريد الاحتفاظ بسيادته على مستعمراته ، والتلاعب بمقدرات الشعوب الصغيرة تحت ستار الديمقراطية والحرية الفردية . والله يعلم ، والشعوب كلها تدري ، بأن العالم غير محتاج إلى هذا ولا إلى ذاك ، وإنما هو محتاج إلى شيء من الراحة والاستقرار والتنظيم على أساس الإنسانية والعدل .. وهذا ملخص الحديث :

انتهت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، وخرجت أوربا منها ضعيفة كثيرة المتاعب . وعادت كفتا الميزان إلى التعادل نسبياً ، مع الاحتفاظ بحصة الأسد للمنتصرين . ولم تمض فترة قصيرة حتى حدث في روسيا وإيطاليا وألمانيا انقلابات خطيرة أعقبها جوع ووثوب اختل من جرائها الميزان الأوربي . ولم يأت عام ١٩٣٩ حتى استفحلت شوكات هذه الدول إلى حد أصبح كل منها يهدد مصالح الأخرى . ثم اشتدت الأزمة ، ووقف الخطر على الأبواب ، فتكتلت بعض المصالح تحت اسم المحور ، واجتمع الأصدقاء الأقدمون تحت اسم الحلفاء . وبقيت روسيا بعيدة عن التكتل . وانزوت أمريكا في عزلتها تنظر إلى الميدان الملتهب . ثم كان ما كان من أمر الحرب ضد ألمانيا ، فانهزمت فرنسا أمامها في أوائل أيام الحرب ، وبقيت انكلترة وحدها تستغيث بصديقتها القديمة أمريكا ، وتحرض روسيا على النزول إلى حومة الصراع . وكان من حسن حظ انكلترة أن أخطأ (هتلر) بالهجوم على البلاد الروسية حيث أوقع نفسه في ورطة لا مخرج له منها . ثم دخلت أمريكا بجانب صديقتها فانهزم المحور وألقى السلاح ، وسلم مقادير أموره بيد الفائزين دون قيد ولا شرط . وجلس أعضاء الجبهة المنتصرة في القتال ، لتصفية الحساب . وهنا بدأ صراع جديد .

لانكلترة مطامع استعمارية معروفة . فهي تريد إبقاء الحال على ما كان قبل هذه الحرب لتحتفظ بمستعمراتها . ولأمريكا رغبة في استعمار اقتصادي عام يلف أرجاء الأرض بسحر إنتاجها وأغذيتها و (دولاراتها) . ولروسيا كذلك طموح السيطرة على الشعوب المجاورة ومد سلطانها عليها .

وليس هذا الصراع السياسي الجديد ثوباً غير الذي كانت تحرص عليه انكلترة من قبل . وذلك أن الميزان الأوربي أصبح بفضل دخول أمريكا ميدان النزاع ثانوياً ، ونصب مكانه ميزان عالمي جديد . وسحبت إصبع انكلترة من السيطرة على نقطة الارتكاز ، لأنها أصبحت ضعيفة بالنسبة لصديقتها أمريكا الغنية القوية التي أخذت بيدها الميزان الدولي الرئيسي .

ومن سير الحوادث السياسية الأخيرة للدول الكبرى والاطلاع على « مشروع مارشال » لإنقاذ أوربا ، وعلى مناقشة مؤتمر باريس الثلاثي الفاشل الذي انعقد بين انكلترة وروسيا وفرنسا لتحقيق هذا المشروع ، نرى أسلوباً جديداً في النزاع العالمي المقبل بدأ يظهر للعين جلياً شيئاً فشيئاً . وهو أن انكلترة أصبحت إحدى كفتي الميزان العالمي تجاه روسيا ، وبقيت نقطة الارتكاز تحت أصبع أمريكا التي سيكون لها القول الفصل في الحرب العالمية المقبلة .

غير أن انكلترة ، وهي أمام الأمر الواقع ، تحاول إنقاذ نفسها ، جهد الإمكان ، من هذا المأزق الحرج لكي تقدم ، كعادتها ، أقل ما يمكن من ثمن وضحايا للكارثة القادمة . فراحت تستعمل ميزانها الأوربي القديم ، وتجمع أصحابها وحلفاءها في أوربا باسم « مشروع مارشال » الاقتصادي ، وتسعى لتقوية الجزء الألماني الواقع تحت

مُش تمام!

كان الرأى الشائع فى مصر منـذ بضع عشرات من لسنين أن الرؤساء ينبغى أن يختاروا دائما من الأجانب ، كانت الحجة التى يستند إليها أصحاب ذلك الرأى هى أن لمصرى لا يحسن الرياسة . فكان الأجانب يحتشدون من لاد مختلفة ، ويرسلون إلى مصر ليكونوا رؤساء لمصالحها .

وكان بعض هؤلاء الرؤساء لا يحمل من مؤهلات لرياسة إلا شهادة ميلاده الأجنبية . فكانوا إذا أحـتلوا مقاعدهم ، واستووا على كراسيهم الضخمة فى غرفهم لفخمة ، أحسوا فيما بينهم وبين أنفسهم شيئاً من الحيرة نيا هم فاعلون . وقد كان بعضهم يُقحم فى وظيفة تحتاج لى براعة فنية ، أو خبرة عملية ، فكان موقف الجهلاء بن هؤلاء الرؤساء يشعرهم حرجا شديداً ، لأنهم مطالبون بحكم رياستهم بأن يوجهوا الشئون الفنية ، ويبيدوا النظر كزين على أعمال مرءوسيهم ، ليتيقنوا من أنهم قد أحسنوا القيام بها . ولكنهم مع ذلك قد اهتدوا إلى طريقة سحرية عجيبة ، مكنتهم من القيام بأعباء الرياسة بغير أن يتكلفوا مشقة ، ولا يعانوا حرجا ، وبغير أن يكون عندهم علم بفن أو خبرة بعمل .

وهذه الطريقة السحرية العجيبة تتلخص فى كلمتين ، وهما « مش تمام » ، فكان الرئيس الجاهل من هؤلاء يسير منتفش الريش ، منتفخ الأوداج ، ويضع أحياناً بين شفتيه بيبة بديعة ، أو سيجاراً طويلا . ثم يلقى على أعمال مرءوسيه نظرة عابرة ممتلئة بالثقة والكبرياء ، فيرفع المرءوسون أعينهم إليـه فى إجلال لا يخلو من الخوف ، وتخفق قلوبهم من شدة الهيبة ، وتضطرب أيديهم خوف أن يظهر فى عملهم عيب تحت نظرات الرئيس الفاحصة . ثم يتجه الرئيس الجاهل الأجوف بنظرة يحيل إلى أحدهم ، ويشير بأصبعه إلى موضع من المواضع قائلا : « مش تمام! » فيضطرب فؤاد المرءوس المسكين ، حتى يكاد ينخلع ، ثم يقلب نظره فيما حوله ليرى ذلك الذى قد كشف الرئيس

فوذها ونفوذ أمريكا ، وتمد يدها إلى فرنسا المحطمة . وتلوح بالدولار) الأمريكى إغراء للدول الأخرى الصغيرة . وغايتها ن كل ذلك جمع هذه القوى وتنظيمها أمام الخطر الروسى دلا من أن تجابهه بنفسها وحدها .

ومهما يكن من الأمر ، فإن مشاكل السياسة العالمية م تحل بانتهاء الحرب الأخيرة . ومهما تظاهرت انكلترة أمريكا بالود المتبادل ، والاشتراك فى الكثير من المصالح ، إن على رقعة الشطرنج الدولية اليوم ثلاثة خصوم ألداء ، حدهم يتستر متكتم لا يعرف أحد مدى قوته وشدة بطشه ، ثانيهم قوى أضعفته الحرب الماضية ، فراح يفتش عن يد صديقة تساعده وتشد أزره ، لأنه سيصطدم لا محالة مع لأول بحكم اختلافهما فى المذاهب الاقتصادية وتجاورهما لبعضهما . وأما الخصم الثالث ، وهو أمريكا ، فهى مسالم ، أخذ الميزان بيده ، وهو يريد تمثيل دور ذلك القط الذى جاء يحكم بين فأرتين عثرتا على قطعة جبن من بيت مقبر ، فأكل القطعة كلها .

يقول الناس بأن حرباً جديدة ستنشب فى العالم ؛ وإذا صح ذلك ، لا سمح الله ، فإنها سوف لا تكون حرباً واحدة ، بل قد تكون حربين متعاقبتين ليكون للعالم سيد واحد ، لأن حجم الأرض قد صغر أمام هـذه المخترعات الجديدة السريعة ، والدنيا متجهة نحو نظام (الوحدة فى الحكم) ، وسوف لا يدير دفة السفينة العالمية غير ربان واحد . فمن سيكون ؟؟

دكتور عبد الحميد جوده

العظيم عن خلفه، وأشار إليه قائلا « مش تمام » فما يزال يعيد بصره إلى عمله كرة بعد كرة، حتى يعثر على عيب تافه في عمله كان قد أغفله، ولم يبال إصلاحه لتفاهته. فيعلو الدم حتى يصبغ وجهه خجلا، ويلوم نفسه على إهمالها لوما شديدا، ثم يقبل على إصلاح العيب، وقد امتلأ قلبه إعجابا بمقدرة الرئيس العظيم الذي تلمح عينه الخلل بمثل هذه الدقة في لحظة قصيرة ونظرة عابرة، ويتهامس المرءوسون. فيقول بعضهم لبعض: حاذروا من عين ذلك الرئيس الداهية، فهو أعلم العلماء، وأبرع الخبراء، وأنبغ النبغاء.

وهكذا كان الرئيس القديم إذا أحيل على المعاش وحل محله رئيس آخر من بني جلدته، فسأله عن سر عمله وعن دقائق فنه، وعن عصارة خبرته، لم يزد على أن ينصحه بحفظ كلمتين اثنتين، ويعلمه طريقة إلقائهما في كبرياء: « مش تمام! ».

ولكن ذلك الزمن مضى وانقضى، وانتقلت بلادنا بحمد الله إلى حال غير حالها الأول، فصار منها الرؤساء والمرءوسون، وصار منها من يضعون البيبة بين الشفاه، أو السيجار الذي يبلغ طوله الأشبار، ويسيرون في كبرياء ينفشون وهم منتفشو الريش، منتفخو الأوداج، لكي يطلعوا على أعمال سواهم من بني جلدتهم، إذ يؤدون واجباتهم تحت رياستهم.

ولكن الحال مع ذلك لم يتغير. فإن عُدة هؤلاء الرؤساء ما زالت هي العدة القديمة التي كان يقتصر بها سالفهم من الأجانب، فما هي سوى كلمتين اثنتين لا تزالان قاطعتين للدلالة على النبوغ والذكاء، والرياسة والاستعلاء، وهما « مش تمام ».

والذي يتبادر إلى الذهن أن الرئيس إذا لم يعجبه الحال عمد إلى الإرشاد والتعليم ولم يكتف بالإشارة والانتقاد. فالرئيس المهندس مثلا إذا قال لمرءوسه « مش تمام » كان عليه أن يخلع طربوشه ويشمر عن ساعده ويظهر بالعمل كيف يكون التمام.

وهكذا ينبغي أن يكون حال الرؤساء جميعا مهما اختلفت الفنون وتنوعت الأعمال. ونصبح لكل من يفهم عمله ويؤديه على وجهه إذا سمع نقد رئيسه الذي يقول له « مش تمام » أن يطالبه بأن يرشده ويعلمه وأن يطلعه على ما عنده من علم وفن وخبرة بمباشرة العمل نفسه وإظهار مواضع الزلل وطرائق إصلاح الخلل.

ولكن وراء « مش تمام » قد يؤدي أحيانا إلى نتائج محزنة؛ فقد يكون الرئيس الجاهل قليل الحكمة خفيف العقل حتى إنه يصدق نفسه ويزعم أنه رئيس حقا. فلا يكتفي بأن يقول الكلمتين، بل يخلع طربوشه فعلا ويشمر عن ساعديه ويأخذ في إصلاح ما يظنه خللا، وهناك تكون الطامة الكبرى.

أذكر يوما رئيسا من هذا الصنف مر بجماعة من العمال الذين هم تحت رياسته، فلم يعجبه عملهم، وشمر عن ساعده وأخذ في يده قطعة من الخشب ومدها إلى تروس الآلة فاندست بينها وهي دائرة، فإذا بالآلة تطقطق ثم تتكسر في لحظة. ولما سئل ذلك الرئيس عن فساد الآلة ألقى كل المسئولية على عاتق العامل المسكين الذي اضطره إلى أن يضع عود الخشب بين التروس!

وهذا الصنف من الرؤساء كثير العدد في هذه الأيام، وهو موجود بين صغار الرؤساء كما أنه موجود بين كبارهم. ولست أبالغ إذا قلت إن الكثير من كبار الموظفين بل من الوزراء من هذا الصنف. وهؤلاء لهم نفوذ عظيم وجاه كبير، ويستطيعون أن يدسوا قطعا طويلة من الخشب بين كثير من التروس. بل إني لست أبالغ إذا أنا قلت إن هؤلاء هم المسئولون عن تكسر كثير من تروس الآلة الإدارية المصرية المسكينة.

وهناك صنف ثالث من الرؤساء الذين لا يزيد رأس مالهم على هاتين الكلمتين « مش تمام! » وهم الذين يحترفون السياسة عادة. فهؤلاء إذا كانوا في المعارضة أي خارج

الحكم أكثروا من استعمال هاتين الكلمتين ، حتى ليكادون يتخذونهما شعارا . فهم كلما عرض عليهم مشروع تقدمت به الحكومة قالوا : مش تمام . وإذا سمعوا عن خطة رسمها وزير قائم في الحكم قالوا : مش تمام . فما زالون يرددون هذين اللفظين حتى يصدقوا أنفسهم ويبلغوا حد الاعتقاد بأن الحكم القائم كله مش تمام . والمصيبة الكبرى أن اعتقاد هؤلاء الساسة يعدى غيرهم ؛ فهم إذا قالوا مش تمام صاح من ورائهم عدد عظيم من الأتباع والأشياع قائلين مش تمام ، بغير أن يعرفوا ما هذا الذي يصفونه بذلك الوصف .

والأدهى من ذلك أن هؤلاء الساسة إذا اتفق لهم يوما أن يقبضوا على زمام الحكم بدأوا عملهم بإزالة كل ما بدأه سلفهم لكي يبرهنوا على أنهم كانوا صادقين في صيحتهم الأولى عندما كانوا خارج الحكم .

ولهذا كانت كل جهودنا عبارة عن هدم متصل ، فما تكاد حكومة تبنى مترين فوق الأرض حتى تأتي حكومة بعدها فتهدم ما بنته ، ثم تبدأ هي الأخرى فتبنى مترين فوق الأرض ثم يدركها الأجل فتأتي بعدها حكومة جديدة تهدم ما بنته ، وهكذا .

فنحن بحق نجاهد في هدم متصل ، والمسئول عن هذا كله هو حبنا لهذين اللفظين الخفيفين اللذين ورثناهما عن الجهلاء من الرؤساء الأجانب : « مش تمام ! » .

أذكر مثلا أنه في عام ١٩٣٦ عقدت معاهدة بيننا وبين الإنجليز ، فقال أصحاب الحكم عند ذلك إنها تمام ، وقال من هم خارج الحكم إنها مش تمام .

ثم قبلها الجميع تحت ضغط الحوادث ، فصارت معاهدة عظيمة قضينا نحو سبع سنوات ، ونحن نسمع الكثيرين يشيدون بحمدها ، ويفزعون الفزع منها ، ويبنون الصروح العالية على قواعدها . ثم تبينت الأمة أخيراً حقيقتها ، وأجمعت على أنها كانت في الحقيقة مش تمام ! سواء في ذلك من في الحكم ومن في المعارضة . ثم تقدمت الحكومة القائمة إلى مجلس الأمن ، تقول إن المعاهدة المصرية الإنجليزية أصبحت لا ترضى مصر ، وإن الحاضر يدعو إلى أن تكون مصر دولة مستقلة تضم كل أرجاء الوادي ، وأعدت العدة للذهاب إلى مجلس الأمن لتعلن للأمم العالم قضيتها ، وتدلى بحججها ، بغية تحرير وادي النيل من أقصاه إلى أقصاه . فماذا حدث ؟ حدث أننا نسمع فجأة صيحة عالية ممن هم خارج الحكم تنادي : لا ، لا . مش تمام ! مش تمام ! . فما ذلك الشيء الذي يقصده ذلك النداء ؟

أهو أننا لا نحب أن تتحرر مصر من معاهدة ١٩٣٦ ؟

أليس هذا مما يدعو إلى العجب والارتياب ؟

ألسنا نجاهد دائما في سبيل الهدم بفضل هذا الاتجاه الذي لازمنا أطول مما ينبغي له أن يلازمنا ؟

أما آن لنا أن نقلع عن « موضة » مش تمام ؟

محمد فريد أبو حديد

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٢٧٦٩
القاهرة

١ – الحملة الفرنسية
والنهضة المصرية

[الأستاذ ساطع الحصري باحث ممتاز عرف بالدقة في البحث والإخلاص للحق ، وقد كتب « للثقافة » بحثاً قيماً في الحملة الفرنسية والنهضة المصرية ، خالف فيه النظرية المشهورة في أن حملة نابليون على مصر كانت مبدأ نهضة مصر ، ورأى في ذلك رأياً جديداً نعرضه للقراء والباحثين في سلسلة قيمة من المقالات ، يسر المجلة أن تنشرها تباعاً في أعداد أربعة].

لقد أجمعت كلمة المؤرخين والكتاب في مختلف البلاد العربية على اعتبار « حملة نابليون العسكرية » نقطة تحول ومبدأ نهضة في تاريخ القطر المصري بوجه خاص ، وتاريخ الشرق العربي بوجه عام .

وقد انتشرت هذه النظرية بين المفكرين والمثقفين منذ مدة طويلة ؛ وأصبحت الآن من « الآراء الشائعة » التي لا يشك فيها أحد ، ولا يختلف فيها اثنان .

لأنها من الآراء التي يرددها على الدوام مئات من المؤلفين في عدد كبير من الكتب المطبوعة في مختلف العواصم العربية ؛ ويكررها مئات من المدرسين على مسامع الآلاف من الطلاب في مختلف المدارس والمعاهد كل عام . حتى إن كتاب الأدب أنفسهم صاروا يقولون بهذه النظرية ويعتبرون مجيء نابليون إلى مصر فاتحة عهد جديد ، ومبعث تطور هام في تاريخ الأدب العربي الحديث .

وقد غالى بعض المؤلفين في تقدير وتبجيل هذه الحملة العسكرية إلى حد القول بأن :

« الفتح الفرنسي لمصر كان كفتح الاسكندر للشرق سواء بسواء ، كان خطوة بالحضارة إلى الأمام » .

ما هو نصيب هذه الآراء والأقوال من الحقيقة ؟ وما هو مبلغ مطابقتها مع منطق الحوادث وشهادة الوقائع ؟ يجب علينا أن نفكر في ذلك ، دون أن نتأثر بشدة شيوع هذه الآراء ، ودون أن نبالي بكثرة القائلين بها .

فلنتساءل إذاً : « هل أثرت الحملة الفرنسية – حقاً – في حياة مصر وأحوال الشرق تأثيراً عميقاً ، أدى إلى انقلاب حقيقي ونهضة فعلية ؟

إن الإجابة على هذا السؤال جواباً صحيحاً يتطلب القيام ببحث انتقادي واسع ودقيق .

ويجدر بنا أن نبدأ هذا البحث بإلقاء نظرة إجمالية على تاريخ الحملة الفرنسية لنتبين أهدافها الأساسية مع تثبيت أهم صفحاتها وأبرز مظاهرها .

* * *

غاية الحملة وزبدة وقائعها :

لقد جردت فرنسا حملتها العسكرية على مصر – تحت قيادة نابليون بونابرت – بغية استعمار ذلك القطر العربي واستغلال خيراته .

وقد كتب « تاليران » في التقرير الذي قدمه لتأييد هذه الحملة : « إن مصر كانت فيما مضى ولاية تابعة إلى الجمهورية الرومانية ؛ فيجب أن تصبح الآن ولاية تابعة إلى الجمهورية الفرنسية(١) » .

وكتب الجنرال « منو » في أحد التقارير التي قدمها إلى نابوليون : « يجب على مصر أن تعوض لنا ما خسرناه في جزر الأنتيل(٢) » .

حتى إن نابليون نفسه كتب في أحد التقارير التي أرسلها إلى الدركتوار : « إن الأعمال التي تمت في مصر قد ضمنت للجمهورية امتلاك هذا القطر الجميل من العالم إلى الأبد »(٣) .

كما أنه قال في أحد المناشير التي أذاعها باللغة العربية : « اعلموا أن الفرنساوية لا يتركون الديار المصرية ،

(١) Français Charles — Roux, Bonaparte gouverneur d' Egypte — page 2

(٢) idem — p. 195.

(٣) idem p. 301.

ولا يخرجون منها أبدا . لأنها صارت بلادهم وداخلة في حكمهم[1] » .

وقد كرر نابليون هذه الفكرة في بلاغ آخر نشره على المصريين ، بأسلوب أحسم من ذلك أيضا :

« واعلموا أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية . فيجب عليكم أن تعتقدوا ذلك ، وتركزوه في أذهانكم ، كما تعتقدون وحدانية الله تعالى[2] » .

وهناك دلائل وروايات كثيرة تدل دلالة قاطعة على أن نابليون كان يرى — من وراء هذه الحملة — إلى غاية أوسع نطاقا وأبعد مدى . إنه كان يعتبر فتح البلاد المصرية — والاستقرار فيها — بمثابة « خطوة أولى » في سبيل تحقيق « آمال وخطط واسعة » أخرى . إنه كان يريد أن يتخذ مصر « قاعدة » لحركات وأعمال خطيرة ، تضمن لفرنسا « التوسع في الشرق » و « التغلب على أوربا المتألبة عليها » .

ولكن أمور الحملة العسكرية المذكورة لم تسر كما كان يشتهيها نابليون — وكما كانت تشتهيها فرنسا من وراء نابليون — لأن « الحكم الفرنسي » في مصر ، لم يستمر مدة طويلة ؛ بل إنه انتهى بفشل تام وانسحاب نهائي ، بعد مدة لا تزيد على ثلاث سنوات إلا شهرين . كما أن هذه المدة القصيرة مضت بين سلسلة متوالية من الحروب والثورات والمظالم والاعتسافات .

كان نابليون يأمل أن ينال من « الباب العالي » تأييداً رسمياً لحملته على مصر ، غير أن الوقائع خيبت أمله هذا بسرعة ، واضطرته إلى محاربة العثمانيين والإنكليز والمماليك والأهالي ، في الشمال وفي الجنوب ، في الشرق وفي الغرب ، حرباً لا هوادة فيها .

وقد استطاع الانكليز أن يفاجئوا الأسطول الفرنسي في أبي قير ويدمروه تدميرا ، قبل أن يمضي شهر على نزول الحملة إلى البر ، وانقطع بذلك ارتباط الجيش الفرنسي ببلاده الأصلية ؛ فصارت الحملة بعد ذلك تعيش عالة على مصر والمصريين ، بكل معنى الكلمة .

ولهذا السبب أخذت قيادة الحملة تفرض على الأهالي — على الدوام — أنواعاً شتى من الضرائب والفروض والغرامات ؛ وصارت تكثر من مصادرة الأموال والذخائر ومن تسخير الدواب والجمال ، ومن إرهاق كواهل الناس بسلسلة طويلة من التكاليف .

وكان قواد الحملة يقدمون — من وقت إلى آخر — على هدم عدد كبير من المباني — بين دور وحوانيت ومساجد وجوامع ومدارس وقصور ، لغايات عسكرية بحتة . لأنهم كانوا يجدون ذلك ضروريا ، تارة لتسهيل الرقابة على الأهالي مع منعهم من التترس والتحصن في الأزقة ، وطوراً لحفر الخنادق ، وتشييد القلاع ، وتعبئة المدافع .

كما أنهم كانوا لا ينقطعون من قطع الأشجار وتخريب البساتين ، لتسهيل أعمال الضبط والمراقبة من جهة ، والحصول على الأحطاب الضرورية للوقود والأخشاب اللازمة لصنع المراكب وتشييد الحصون وتقوية الخنادق من جهة أخرى .

ويجد الباحث في اليوميات التي كتبها الجبرتي عن تلك الحقبة من الزمن ، كثيراً من الصحائف التي تصف هذه التخريبات ، وتذكر أسماء أهم القصور والجوامع والمدارس والحارات التي ذهبت ضحية لأمثال هذه الأعمال والتدابير العسكرية[1] .

غير أن تخريبات الجيش الفرنسي في مصر لم تقتصر على الأموال والأشجار والمباني وحدها ؛ بل تعدت كل ذلك إلى النفوس أيضاً : فإن قواد الحملة عندما لاحظوا عدم انخداع الناس بالدعايات الساذجة التي كانوا قاموا بها

(١) الجبرتي — عجائب الآثار في التراجم والأخبار . ج ٣ ص ١٦٦
(٢) الجبرتي — ج ٣ ص ١٨٩ .

(١) الجبرتي — ص ٢١ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ١٠١ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ٢١٤ الخ .

تحت ستار الدين ، أخذوا يسلكون مسالك القسوة والاعتساف ؛ وصاروا يكثرون من أخذ الرهائن واعتقال الناس ؛ وأقدموا على إعدام الكثيرين منهم لأتفه الأسباب عقاباً لهم أو تخويفاً لأمثالهم ؛ وقاموا غير مرة بأعمال تدميرية وإرهابية فظيعة لا تختلف كثيراً عن همجية القرون الأولى .

وقد قابل الفرنسيون الثورات التي قامت في البلاد على حكمهم الجائر ، بمنتهى الصرامة والوحشية ؛ إنهم صوبوا نيران مدافعهم على مختلف أحياء المدينة ، وأزهقوا أرواح الآلاف من الأشخاص ، وسببوا حرائق كثيرة ، واسترسلوا في التعذيب والتخريب والسلب والنهب ، بشتى الصور والأساليب .

يقول الجبرتي عن أحوال البلد عند بدء الاحتلال الفرنسي : « إنها كانت في غاية الشناعة ، جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر ، ولا سمعنا ما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين »[1] .

كما أنه يصف الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون — من قتل ونهب وسلب — عند ثورة القاهرة الثانية بقوله : « فعلوا بالأهالي ما يشيب من هوله النواصي ؛ وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة ، واحترقت الأبنية والدور والقصور » . ثم إنهم « استولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع ، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال ... وما لا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور » . ويصرح الجبرتي بأنهم لم يستثنوا من هذه الفظائع حتى العجزة والسائلين قائلاً : « والذي وجدوه منعطفاً في داره أو طبقته ولم يحارب ، ولم يجدوا عنده سلاحاً ، نهبوا متاعه وعروه من ثيابه » ، وأصبح من بقي هناك على قيد الحياة « فقراء لا يملكون ما يسترون عوراتهم »[2] .

(١) الجبرتي — ج ٣ ص ١٠ .
(٢) الجبرتي — ج ٣ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

ويعترف المؤرخون الفرنسيون أنفسهم أن نابليون كان يصدر أوامر يومية كثيرة « توصي القواد بالإكثار من إعدام الأشخاص على أن تقطع رؤوسهم بعد ذلك ، ويطاف بها في الشوارع إرهاباً للناس » ؛ لأنه كان يرى أن هذه هي الطريقة الوحيدة لفرض الطاعة على هؤلاء »[1] وكان يضرب لهم مثلاً بما يفعله هو في القاهرة ، ليقتدوا به في مناطق حكمهم .

وقد قال نابليون في أحد أوامره اليومية « نحن نقطع كل ليلة ثلاثين رأساً »[2] ، وكتب مرة إلى أحد القواد يبلغه بوجوب قطع رؤوس ما لا يقل عن تسعة أو عشرة أشخاص[3] .

إن أمثال هذه الأوامر كثرت بوجه خاص بعد عودة نابليون من بر الشام ، خائباً مقهوراً ، حتى إن قائد حامية العاصمة رأى أن يقترح عليه تغيير « طريقة الإعدام » بنية « الاقتصاد في الرصاص[4] » .

ويعترف المؤرخون الفرنسيون أنفسهم بأن نابليون أمر بقتل الجنود الذين كانوا استسلموا خلال حملته على بر الشام — خلافاً لأبسط قواعد الحقوق الدولية — وكان عدد هؤلاء الأسرى يزيد على ثلاثة آلاف .

كما أنهم لا ينكرون أن الجنود كانوا يسترسلون في السلب والنهب والتدمير ، دون أن يبالوا بنصائح ضباطهم وأوامر قوادهم في هذا المضمار[5] .

(١) F. Charles — Roux. page 53.
(٢) Idem — p. 210
(٣) Idem — p. 55
(٤) Idem — p. 303.
(٥) Un officier de la 22em demi-brigade, Bonaparte en Syrie — Page 303. Alors ce fut : بعض العبارات الواردة فيه
un carnage horrible ; il n'y eut ni grâce, ni pitié... Au massacre succéda le pillage et tous les excès qui l'accompagnent. Les généraux et officiers n'étaient plus maîtres des soldats qui ne respiraient que la fureur. Pendant deux jours Yaffa fut en proie à toutes les horreurs de la guerre.

ومن المفيد لنا أن نرجع إلى نتائج محاكمة سليمان الحلبي — الذى قتل القائد العام كليبر — المستدل منها على « العقلية » التى كانت سائدة بين ضباط الحملة وقوادها .

وقد طلب النائب العام الحكم بـ « تحريق يده اليمنى ، وتخزيقه (خوزقته) حتى يموت فوق خازوقه ، وجيفته باقية فيه لمأكولات الطيور » .

ولبت المحكمة هذا الطلب واتخذت القرار التالى :

« تحرق يده اليمنى ؛ وبعده يتخوزق ، ويبقى على الخازوق حتى تأكل رمته الطيور »[1] .

وقد نفذ هذا الحكم — بحذافيره — على يد جنود الثورة الفرنسية الكبرى ، فى مطلع القرن العشرين .

* * *

هذه هى الخطوط الأساسية من وقائع الحملة الفرنسية على مصر .

حملة عسكرية استعمارية ، مقرونة بحكم عسكرى عنيف ، انتهت بفشل تام ، بعد أن استمرت نحو ثلاث سنوات ، مضت كلها بين الحروب والثورات والاعتقالات والمظالم والاعتسافات .

فهل يمكن أن يكون لمثل هذه الحملة الاستعمارية ، تأثير إنشائى ، يبرر اعتبارها فاتحة عهد جديد ، وباعثة نهضة قومية .

هذا ما يجب أن نشك فيه شكا قويا ، وما يجب أن نبحث فيه بحثاً جدياً ، لنتوصل إلى استكناه الحقيقة بنظرات مجردة من الآراء « التقليدية » التى كثيراً ما تستولى على الأذهان ، دون أن تترك لها مجالا للتفكير فى الأمور تفكيراً علمياً صحيحاً .

* * *

البراهين المزعومة :

فلنبحث إذاً ما هى الدلائل التى يستند إليها القائلون بهذه الفكرة — والمسلمون بهذه النظرية — للبرهنة على هذا التأثير الخطير ؟

لقد راجعت فى هذه الأيام كثيراً من الكتب العربية التى تتطرق إلى هذا الموضوع ؛ وكان بينها مؤلفات مطبوعة فى القاهرة ، وأخرى مطبوعة فى بيروت ودمشق وبغداد . وقد لاحظت أن الدلائل المسرودة فيها للبرهنة على تأثير الحملة الفرنسية فى النهضة المصرية — بوجه خاص — والنهضة العربية — بوجه عام — ، كثيرة ومتنوعة ، أستطيع أن ألخصها بما يلى :

(ا) كانت الحملة الفرنسية مبدأ الاحتكاك بين الشرق والغرب ، فى العصور الحديثة ؛ إنها كانت بمثابة اللقاء الأول بين هذين العالمين .

(ب) كان جيش نابليون ، جيشين فى واقع الأمر : أحدهما جيش المحاربين ، والآخر جيش العلماء . وهذا الجيش الأخير هو الذى خدم النهضة المصرية خدمة مباشرة وغير مباشرة .

(حـ) لقد أدخلت الحملة إلى مصر أول مطبعة عربية . وقد ترتب على ذلك نتائج ثقافية خطيرة .

(د) اكتشف رجال الحملة حجر الرشيد الذى أدى إلى حل رموز الكتابة الهيروغليفية ، وكشف النقاب عن تاريخ مصر القديم .

(هـ) أحدثت الحملة الفرنسية كثيراً من المؤسسات التنظيمية وهيأت كثيراً من المشاريع العمرانية ؛ وهذه المؤسسات والمشاريع لعبت دوراً هاماً فى النهضة المصرية .

(و) أظهرت الحملة المذكورة ضعف الدولة العثمانية وشجعت بذلك على الحركات الاستقلالية .

(ز) رفعت الحملة مكانة علماء الدين ، وزادت نفوذهم على الأهلين . وذلك خدم نهضة مصر — فيما بعد — خدمة كبرى .

(ح) كسرت الحملة شوكة أمراء المماليك ؛ وساعدت بذلك على تخلص مصر من شرورهم ، بعد مدة قصيرة .

(ط) أن الحملة الفرنسية ، هى التى فسحت أمام

(١) الجبرتى — ج ٤ ص ١٣٨ ، ١٨٤

سعد الله الجابري

٢ — تتمة

بعد أن اضطر سعد الله الجابري إلى مغادرة وطنه سوريا ناجياً بنفسه مع بعض أقطاب الحركة الوطنية من كيد السلطة الأجنبية، بقي في العراق زمناً، ثم قصد إلى الرياض قاعدة نجد، حيث اجتمع بجلالة الملك عبد العزيز آل سعود، وعالج معه قضايا قومية على غاية الخطورة، تتصل بمستقبل الشام وبعض الأقطار العربية الأخرى، وقد صحبه في جانب من هذه الرحلة الأستاذ كاظم الصلح رئيس حزب (النداء القومي) في لبنان والذي قد أقام هو الآخر ردحاً من الزمن في بغداد.

ثم آب الجابري إلى مدينة السلام، ومكث وقتاً غير قصير، كان في خلاله يطالع ويلاحظ، وقد اختلط برجال الحكم والسياسة، ووقف على الاتجاهات والمطامح الوطنية، واستمع إلى جلسات في البرلمان. وصدف أن كان هذا الظرف في شتاء ١٩٤١ عصيباً في بلاد الرافدين، والصراع على أشده بين نزعتين متعارضتين في سياسة البلد: فريق يرى الوقوف بجانب الحليفة بلا قيد ولا شرط، وتقديم جميع المساعدات التي تريدها لكسب النصر، وعدم إثارة أية قضية في وجهها وهي في غمرة الحرب من المطالب الوطنية العراقية أو الأماني العربية العامة، وفي مقدمتها قضية فلسطين، ووجوب حلها بما يريد العرب، وهو من حقهم المشروع، وفريق يجتهد في تجنيب العراق ويلات الحرب، ويصر على مطالبة الحليفة بريطانيا بحقوق العراق والعرب، وانتهاز الفرصة للحصول على ضمانات منها للظفر بالأماني القومية بعد الحرب مباشرة وعلى وجه طبيعي، وأن كل خطوة يخطوها العراق في صف المعسكر البريطاني — ولم تكن روسية السوفيتية ولا أمريكا قد دخلت الحرب — يجب أن يقبض ثمنها معجلا أو مؤجلا، وكانت الجماعة المسيطرة على الجيش العراقي تؤثر في الحركات السياسية المحلية، بعد أن استعان بها أقطاب السياسة في منافساتهم وتنازعهم البقاء بعضهم مع بعض في عدة انقلابات عسكرية (Coup d'Etat) مع الفريق الثاني.

في هذا الجو المكهرب وجد سعد الله في العراق، وكان بحكم اتصاله الشخصي بالسياسيين والوزراء يقف على كل شيء، ولا تخفى عليه بادرة من بوادر سياسة البيوت «كما سماها نائب في المجلس». وأذكر أني قضيت معه ساعة وزيد في مقره في «أوتيل سميراميس» كنا نتبادل الكلام الصريح في التيارين المتعارضين الملمع إليهما آنفاً، وكنا جالسين على عدوة دجلة من مستشرف الأوتيل، والنهر يهدر في طغيانه، فقال في ابتسام: «ليست أمواه نهركم أشد اصطخاباً من فورات سياستكم».

وانتقل بنا الحديث أو ذهبت بنا شجونه إلى العامل في هذا المضطرب، وإلى الحاجة الملحة الصارخة في وجوه القوم، تتطلب اليد التي تعلو على الأيدي، أو الزعيم الذي تعنو له الشخصيات، والتفتنا إلى أمس القريب، والملك المؤسس فيصل الأول، والأقطاب الذاهبين — وبخاصة الزعيم ياسين باشا الهاشمي، فقال بتنهد: ما استطعت بعد أن أقضي أياماً في بلادكم وانكشفت لي بعض الخفايا السياسية أن أقيس أيهما الأعظم؟ خسارتكم بالملك فيصل الأول، أم خسارة القضية العربية عامة! لعمر الحق لو كان فيصل حياً لما انتهينا إلى هذه النتيجة. فأجبته: نتيجة هي بداية النهاية.

محمد علي بجمال العمل، وأنارت له سبل الإصلاح. بل هي التي كونته، وأنارت همته الشماء.

فلنتمم النظر في هذه الدلائل المختلفة، لنرى أولاً: مبلغ مطابقتها للحقائق الراهنة؟ وثانياً: مبلغ تأييدها للنظرية القائلة بتأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية.

سالم المصري

ثم صار يحلل جوانب العظمة فى شخصية فيصل الزعيم فضلا عن تاج الملك ، والتفت فى كلامه إلى ياسين الهاشمى وكيف استطاع أن يضطلع بزعامة الحركة الوطنية ويدير دفة المعارضة ، واتفق معى على أن زعامة ياسين ما كتب لها النجاح فى مراحلها — قبل الأخيرة — لولا ذهن الملك فيصل الكبير ، وإدراكه العميق المؤثرات فى بنيان الملك بحيث سجل على نفسه وعلى البلاد فى خطبته التاريخية الشهيرة بعد الظفر بالاستقلال الرسمى ، ودخول العراق عصبة الأمم « أن عمل المعارضة لم يكن أقل من عمل الحكومة ، بل إن فضل المعارضة فى النضال السياسى أشد تفوقا فى تاريخ الوطن » . وختم الجابرى كلامه بأن مستقبلنا مظلم مع هذه الأنانيات الجامحة ، فى مهمه فقدان الزعامة العظوية .

ولدى النظر فى الفراغ الواسع الذى أحدثه الرزء بالملك فيصل الأول تطرقنا إلى مشروع توحيد عرشى سورية والعراق الذى أخذ دوراً مهما فى سياسة الشرق الأوسط قبيل وفاة الملك فيصل ، فأبان بكثير من الحسرة أن ذلك مشروع دُفن مع فيصل وأكد أن الوطنيين السوريين يجهدون لتحقيق الفكرة اعتماداً على الملك الراحل ، فنقلت له ما سمعته من السكرتير الشرقى لوزارة الخارجية الفرنسية فى مأدبة المعرض العام فى خريف سنة ١٩٣٧ ونحن نبحث فى هذا الموضوع من أن الفرنسيين كانوا يؤيدون المشروع اعتماداً على فيصل .

ومن الأحاديث المأثورة المقيد عند اجتماعى به المرة الأخيرة فى « أوتيل شبرد » بالقاهرة وكنت ألحف عليه فى السؤال من قضية اليوم « سورية الكبرى » ، فاحتد وقال بكثير من الألم :

« هل هناك ما يسمى خلافاً فى موضوع سورية الكبرى بل المملكة العربية العظمى المتحدة ؟ ولكن الظرف الحالى — والعرب فى هذا الحرج — غير مناسب لفتح الباب . فمصر تكافح لإجلاء القوات البريطانية من أراضيها ، وفلسطين معذبة بمحنة الاستعمار والصهيونية ، والعراق مقيد بالمكايد الاستعمارية والخطر يحوطه من كل جانب .

« نحن السوريين لا يطاولنا مطاول فيما يخص التضامن العربى ، فقد سبقنا فى أثناء المشاورات فى الأسكندرية لتأسيس الجامعة العربية فاقترحنا أن يقدم المشروع على أساس (الوحدة العربية الكبرى) وأكدنا استعدادنا للتضحية بشخصية سورية الحالية والتنازل عن استقلالنا كوحدة إقليمية فى سبيل الوحدة العربية ، فهب فى وجهنا العراق يعارض اقتراح الوحدة كما عارضه شرق الأردن ورفضه لبنان .

« إن العروش والأسر المالكة قد تقوم حائلا دون تحقيق التفاهم التام أو الاتحاد أو الذوبان فى كيان سياسى واحد . أما النظام الجمهورى فهو النظام المهيأ فى كل ساعة للتفاهم والسلام والاتحاد مع الغير فى سبيل مصلحة الشعب » .

هذا ما صرح به الرجل فى حوار خاص . ويدعمه ويدل على صدق لهجته أنه وهو رئيس حكومة قد سجل فى الجلسة الخامسة من اجتماع الجامعة العربية المعقود يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٤٦ أقوالا تعد فصل الخطاب فى هذا الصدد ، يقتضى التاريخ أن أنشرها من طى الكتمان . فما قاله :

« لا تقل سورية عن غيرها فى التضحية والتفانى والاستعداد لبذل كل ما يمكن بذله فى سبيل تضامن البلاد العربية ونجاح قضيتها ، فلو أوجب الأمر أن تتنازل سورية عن استقلالها فهى على استعداد لذلك خدمة للقضية العربية الكبرى .

« لقد أعربنا عن خطتنا السياسية لما كانت بلادنا محتلة من الدول الأجنبية وجيوشها ، فقلنا بأننا لا نتعاقد مع أية دولة كانت إلا مع العرب والبلاد العربية ، فسياستنا إذاً كانت واضحة لا لبس فيها ، إن المقصود من هذه المسألة

ليس أمتار أرض ولا دونمات ولا فدادين ، إن الهدف هو أن نكون من هذه البلاد العربية — التي أصبحت الآن حقيقة راهنة في اجتماعاتها بعد أن كانت خيالا — كتلة متراصة موحدة تعمل على حل المشاكل التي يكون لها أثر في المجموع من كيانها لمجموعها ومن أفرادها أيضاً أمام الدول الأخرى التي يحتمل أن تكون سيداً في بلاد هذه البلاد . بهذا التضامن أثبتت وجودها الآن في عدة مؤتمرات دولية .

« نحن حددنا سياستنا قبل كل شيء ، فقد كنا أيام الاحتلال نطالب بأجزاء كثيرة في لبنان كطرابلس وغيرها ، ولكنا كنا نرجو من وراء ذلك نتيجة واحدة هي الاتحاد والوقوف في وجه الأجنبي منعاً لاستغلال هذه البلاد . أما وقد استقل لبنان ولم يبق فيه أجنبي واحد فقد أصبحنا لا نسأل عن الأراضي ولا وسعها أو ضيقها ، بل على العكس تنازلنا عن كل هذا ، وذهبنا أنا وزميلي جميل بك مردم سنة ١٩٤٣ واعترفنا للبنان رسميا بحدوده الحاضرة واستقلاله استقلالا تاماً ، وزال الاختلاف بيننا تماماً ، وأصبحت اليوم مصالحنا وثيقة لدرجة أن ليست بيننا حدود ولا جوازات ولا تأشيرات ، وهناك كثير من الموظفين السوريين يعملون في لبنان والعكس بالعكس ، فأتمنى أن يكون مثل هذا أول ما ينظره مجلس الجامعة ، وسورية مستعدة لأن تلغى كل هذه الحواجز من الآن أمام الدول العربية ، وأن تفتح لها الأبواب .

في سنة ١٩٢٠ كانت شرق الأردن جزءاً من سورية محافظة من محافظاتها . ثم جاء الأجانب وفصلوها من الشام فصلا نهائياً كما فصلت فلسطين ولبنان . وأرى قبل التحدث في هذا الموضوع وإثارته أن هناك مشاكل تحتاج لحلها ، وحلولها معلقة بأيدي الأجانب أكثر مما هي في أيدينا ، فإذا استطعنا أن نمكن هذه البلاد بتعاوننا وتضامننا من إقصاء كل أثر للأجانب فيها أمكننا أن نصل من ذلك إلى روابط وثيقة لا يكون للأجنبي دخل فيها ، وبهذا نكون قد قدمنا خدمة جليلة لهذا الشعب العربي في كل قطر » .

عرف سعد الله الجابرى بالصراحة والجرأة في إعلان رأيه ، وحدث أن صديقا حبيبا له من عهد الطفولة هو الأستاذ عمر بهاء الأميرى كتب إليه في ٢٨ نيسان ١٩٤٦ يصارحه بأن واجبه بعد الجلاء أن يتخلى عن المسئولية ومناصب الحكم ليفرغ من نقد الناس بالحق والباطل لإدارة الأمة وإتمام المهمة الشعبية إلى أن يقيض الله للبلاد في الجيل الجديد من ينهض بأعباء هذه المهمة المقدسة الشاقة ، وأنه بعد اطلاعه على تأليفه الوزارة وأسماء أعضائها أخذته خيبة أمل وعاطفة إشفاق على البلاد وعليه ، لذلك كتب إليه يرجو منه أن يستقيل ويقدم إلى حلب بلده ويقوم بتشكيلات شعبية لتربية الأمة ورفع مستوى الشعب ، فأجابه بكتاب بخط يده جاء فيه : إن الاتفاق سائد بيننا (بأن البقاء في كرسي الحكم ضرر وخسارة) ولكن نختلف في ناحية أخرى : هل المجازفة في سبيل الواجب بكل ما يملكه الإنسان حق مترتب علينا ؟ أم البعد والاحتفاظ بالسمعة العاطرة والثناء العابق والتخلي من واجب ولو لأمد مؤقت أو طويل ؟ إني بصدق جبلت على أمرين : الاستسلام لما هو مقدر بعد تأدية كل ما لدى ، والإقدام إذا اضطررت ، فأنا في هذا الموقف لم أستطع له دفعاً . وليس لهواى أي دخل في تأليف الوزارة ، فلننتظر العمل إذا نلنا الثقة وعندئذ نحكم » .

بهذا الإيمان كان المجاهد العربي يعمل سواء في الميدان الشعبي أم في كرسي الحكم ؛ وها قد أتم شوطه وودع الحياة المادية في موطنه حلب يوم ٢٠ يونيو (حزيران) ١٩٤٧ عن ٥٣ عاماً ذهب معظمها في الكفاح والسجون والبعد عن البلاد . أما حياته الحقة في سمو نفسه وصفاء أخلاقه وجهاده الوطني فحية لا تموت ما بقيت سورية ، بل ما عاشت الأمة العربية واعية تعرف مكانها بين الأمم وتسجل لرجالها الأعمال المذكورة على الدهر .

روفائيل بطي

انتشار الإسلام فى الأتراك

ألف الدكتور أحمد زكى وليدى طوغان من علماء أتراك روسيا وأستاذ تاريخ الترك فى جامعتى بون وگوتنكن بألمانيا وجامعة استانبول سابقا ، كتاباً ضخما فى تاريخ الترك العام . ظهر منه المجلد الأول ، وهو القسم الأول من مدخله المكون من مجلدين ، مشتملا على معلومات عامة من أقدم العصور حتى القرن السادس عشر . والأستاذ وليدى معروف بالاعتدال وسعة الاطلاع وغزارة العلم بالمراجع ، وخاصة المراجع الشرقية . وقد قضى ٣٥ عاما باحثاً حول موضوع تاريخ الترك والإسلام بصبر وجلد خليقين بعالم رغم الظروف ، وألف نحو ثلاثين كتابا بمختلف اللغات ؛ فلذا رأيت نقل بعض آرائه فى كتابه الأخير راجياً اطلاع قراء مجلة الثقافة على آراء عالم تركى معاصر فى تأثير الدين الإسلامى فى تطور تاريخ الأتراك . قال الأستاذ وليدى فى باب « مهد رقى الترك فى العصر الإسلامى » :

إن انتشار الإسلام فى الأتراك وخطورته من الوجهة التاريخية مسألة خليقة بالبحث والتمحيص . لم يقترب الأتراك والصغد من الإسلام فى بادىء الأمر ، بل كانوا بالعكس معتقدين زوال الحكم العربى وانقراض المسلمين فى سنة ١٠٠ هـ (٧١٨ م) . ولقد وصل إلى أيدينا الكتاب الذى أرسله « گورك » حاكم سمرقند التركى إلى ملك الصين بهذا الشأن . ولكنهم قد عرفوا بعد قليل استناد هذه الأمنية على أصل خرافى ، وقيام الحكم العربى على أسس متينة ، وازدياد قوة العلاقات التجارية والمدنية باتحاد آسيا الوسطى والشرق الأوسط فى إدارة الدولة العربية ، فشرعوا فى الاهتمام بهذه الدولة والدين الإسلامى ، فأسلم بنو تركش وأفشين ، وأخشيد ، وبايجور ، وأمراء سول ، وغيرهم من الأتراك ؛ وكذلك أسلم أمراء بلخ ، وختل والصغد ، وأسروشنة ، وفرغانة ، وجرجان ؛ الذين يعدهم مؤرخو زماننا إيرانيين ، وهم فى أصلهم من الطبقة الأرستقراطية التركية ؛ والتحقوا بمناصب الدولة العربية والجيش العربى . وفى منتصف القرن الثالث ابتدأت عند أتراك الشرق حركة العودة نحو الغرب ، وفى هذه الحركة الرجعية اقتربت القبائل التركية قليلا قليلا من البلاد التى يديرها أمراء العرب والسامانيون والطاهريون فى التركستان الغربية ، وخاصة حوض نهرى سيحون وزرفشان ، فاستوطنوها واعتنقوا الإسلام . وكان هؤلاء الأتراك من قبيلتى القرلق والغز ، وربما كان بعضهم من قبيلة تُخسى أيضاً.

وفى عام ٣٠٨ هـ أسلم الخاقانيون (القراخانيون) من أتراك تيانشان الأوسط ، وبُلغار إتل (فولجا) ، ثم أسلم بعد ذلك بقليل أتراك الغز المقيمون بين بحر خوارزم (بحيرة آرال) وبحر الخزر تابعين للدولة الخزرية . وبين سنتى ٣٢٩ و ٣٤٩ هـ أسلمت جلّة القبائل الضاربة بالبلاد الممتدة بين بلاساقون الواقعة على نهر « چو » شرقا ، وبين بُلغار « غرباً » ، أى فى جمهوريتى باشقرتستان وقازاقستان الحاليتين . وبهذا استقر الإسلام فى التركستانين الشرقية والغربية استقراراً نهائيا . وهذا الحادث نقطة تحول خطير فى تاريخ الإسلام وفى التاريخ العام . إذ قد حُلّت بهذا مسألة كون الإسلام دينا عالميا حلا حاسما . وهذه المسألة محتاجة إلى قليل من الإيضاح ، وذلك :

أنه فشا الخروج على الأوامر الدينية فى أيام المكتفى بالله (٢٩٠ — ٢٩٦) والمقتدر بالله (٢٩٦ — ٣٢٠) فى كل أنحاء بلاد الخلافة ؛ وقد انضم إليها القوميون من الإيرانيين المرتدين باسم غلاة الشيعة ، ورجال المال من أثرياء إيران (كابن الفرات وغيره) وأتباع زردشت . وكان الزردشتيون يعتقدون بانتقال السلطة العليا إليهم فى إيران عام ٣١٧ هـ كما أخبرهم زردشت ، ويتخذون أهبة لذلك . وقد احتل العلويون أهم مدن خراسان عام ٣٠٨ هـ . وكانت هناك حركات أخرى لجماعة الخالقين مسايرة لهذه الحركات ، كحركة

الحلاج بن منصور المستورة بخرقة التصوف ، وتنبؤات القرامطة بظهور صاحب الزمان ، كما يتنبأ أتباع زردشت .

لم تكن حركة القرامطة مشكلة الخلافة الداخلية فحسب ، بل كانت خطة للتأثير فى سياستها الخارجية أيضاً ، لقد رُوى شعر أنشده قبيل عام ٣٠٨ هـ أبو طاهر سليمان القرمطى الجنابى زعيم جماعة القرامطة فيما بين النهرين ضمنه برامج سياستهم الواسعة .

كانت للقرامطة علاقات بالدول الأجنبية على كل حال . فإنا نرى فى أيام المقتدر بالله قيام الدولة الخزرية اليهودية من ناحية ، وخاقان التغزغز المانوى من ناحية أخرى ، بمناوأة الخلافة والسامانيين . ذلك أن ملك الخزر هدم سنة ٣١٠ مئذنة الجامع الكبير الذى كان بعاصمته «إتل» وقتل المؤذنين ثأراً لما فعل المسلمون بالأندلس من هدم كنائس النصارى — ولعلها كانت معابد اليهود . وفى الوقت نفسه أنذر خاقان التغزغز السامانيين بأنه سيأمر بقتل المسلمين المقيمين ببلاده قتلا عاما إذا اضطهد السامانيون المانويين فيما وراء النهر . وكان الموقف دقيقا على حدود الخلافة الشرقية أيضاً . فى التركستان لم يعترف أتراك أزكش المسلمون بالخلافة العباسية ؛ ويثور العلويون بالتركستان الشرقية والمانويون فى جهات طشقند ويهود الخزر فى بلاد البلغار بالدعايات المعادية ، ولا تزال التقاليد الأموية متحكمة فى مسلمى خوارزم المتعصبين ، بسب على رضى الله عنه عقب كل صلاة .

كانت حكومة بغداد تعلم أنه لابد من أن تقابل بالحزم هذه القوات العلوية المختلفة التى ثارت مسلحة فى خراسان ، وتعلم خطورة موقفها إذا لم تفعل كذلك ، وقد انهزمت قوات السامانيين التى أرسلت لقمعها انهزاما تاما . وثمة أدلة على إدراك حكومة الخليفة إدراكا تاما وجوب استمالة الأتراك الذين لم يعتنقوا الإسلام بعدُ واستخدامهم فى التنكيل بالخارجين بدل أن يستخدمهم هؤلاء على الخلافة .

كان العلويون قد احتلوا بقوات كبيرة مدينة نيسابور قصبة خراسان سنة ٣٠٩ هـ وعجزت القوات السامانية عن الدفاع ؛ فجاء بُغراخان الخاقانى بجيشه وهزم العلويين وأسر قائدهم ليلى بن النعمان وقتله ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، أرسلت حكومة بغداد سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) سفارة مهمة لاستمالة الغز الذين فى شمال بحر خوارزم (بحيرة آرال) والبلغار المقيمين بحوض نهر «إتل» وأنشأت هنالك حصوناً لحماية استقلال البلغار الحديثى العهد بالإسلام من الخزر ، وإحاطة الخزر أنفسهم من الشمال . وقد علمنا أن حكومة بغداد أرسلت مع هذه البعثة هدايا لزعماء الغز ، وكتابا لقائد جيشهم (سوباشى) ، فأخذت الدعوة الإسلامية تشيع فيهم . تلقى قائد الغز كتاب حكومة بغداد مبتهجاً مسروراً ، واستقبل البعثة بإجلال . وليس لدينا علم عما رد به هذا القائد على ذلك الكتاب ، إلا أننا نعلم أن أبا سلجوق ، وهو من أخلافه ، اعتنق الإسلام ، وحارب متبوعه خاقان الخزر وهزمه ؛ ثم انسحب مع عشيرته إلى حوض سيحون ؛ والتحق مع أبنائه بخدمة الدولة السامانية ، وليس فى مراجعنا أيضا أنباء صريحة عن بغراخان الذى أخمد ثورة العلويين فى خراسان سنة ٣٠٩ هـ هل أسلم أو لم يسلم بعدُ ؛ ولكن المعروف أن ساتوق بغراخان أول من أسلم من الخاقانيين .

ومهما يكن من شىء فإن اجتهاد المقتدر بالله لاستمالة الأتراك إلى الإسلام فى عامى ٣٠٨ و٣٠٩ هـ ونجاح مجهوده يعد حادثاً خطيراً ، فقد أبان خطورته كل من البيرونى ، وعبد القادر البغدادى ، من علماء ذلك العصر . وذكر كلا العالمين مغتبطا مسرورا أن محاولة الزردشتيين والمانوية على الحدود الإيرانية إحياء عظمة إيران وشوكتها وحضارتها ، وحركات القرامطة والعلويين المسايرة لحركات أتباع زردشت باءت كلها بالفشل ، وأن الإسلام انتشر فى التركستان وبُلغار وكاشغر والسند دون أن يصادف عقبة أمامه .

(يتبع) حمزة طاهر

على هامش الفن الكاريكاتورى :

تحية للفنان رخا

الفن الكاريكاتورى هو فن التعبير الساخر . والسخرية ظاهرة ذهنية عرفت فى الإنسان منذ بدأ يفكر ، ولكن التعبير الساخر لم يصبح « فناً » إلا منذ عهد غير بعيد . صحيح أنه توجد نقوش على أوراق من البردى محفوظة بمتاحف تورينو ولندن ، ترجع إلى عهد الفراعنة ، وتمثل أشكالا عجيبة قوامها حيوانات فى أوضاع غريبة ، كحمار يعزف على قيثارة ، كما تمثل شخصيات بشرية كالأمراء والوزراء على هيئة حيوانات كأسد وحمار يلعبان الشطرنج (الأسد يمثل فرعون والحمار يمثل وزيره) ولكن هذه كلها نقوش بدائية لا أظن أننا نستطيع أن ننسبها إلى الفن الكاريكاتورى إلا بتجاوز كبير .

وفى الوقت نفسه لا نستطيع كذلك أن نقول إن الفن الكاريكاتورى فى العصر الحديث قد استكمل كل مقوماته وعناصره . فإنه إلى الآن لا يوجد معهد فنى واحد فى العالم كله ، يدرس أصول هذا الفن ويقوم على رعايته . ولعل هذه الأصول لم يصطلح على قواعدها بعد ؛ وكل الصور الكاريكاتورية التى نراها فى المعارض أو المجلات « اجتهادية » ترتكز على الفطنة والحذق والتدرب ؛ وهذه عناصر لازمة للفن طبعاً ، ولكنه لا يستقيم بها وحدها ، ما لم تتوفر معرفة أصول وقواعد يصطلح عليها .

غير أن الشيء الذى يبشر بالخير ، هو أن هذا الفن آخذ الآن فى سبيل النضج والنماء ، وأصوله وقواعده آخذة فى سبيل التكوين والوضوح . ويكفى للدلالة على ذلك أن كثيراً من الرسامين والناس أيضاً بدأوا يفهمون أن الكاريكاتور شيء غير مجرد الهزل والإضحاك . لقد كان الشائع إلى عهد قريب جداً ، أن رسالته هى مجرد تهيئة جو من البهجة ، وأن طريقته هى مجرد تضخيم أو تصغير بعض ملامح الأجسام ، وأن هدفه هو مجرد « التنكيت والتبكيت » وما إلى ذلك . فأصبح فى حكم المعروف تقريبا أنه فن يحتاج إلى موهبة بقدر ما يحتاج إلى دراية ، ويعتمد على الإجهاد الذهنى بقدر ما يعتمد على المهارة اليدوية ، وأن تضخيم أو تصغير الملامح أمر مرتبط ، بل مقيد بالغايات والدواعى ، وأن « النكتة » التى يهدف إليها الرسام ، ينبغى أن يكون لها مدلول تنبيه تماما . ومن ثم أصبح أحرى الرسامين بالتقدير أكثرهم اهتداء ، إلى ما فى الخطوط والظلال من قوى تعبيرية ، وأصبحت أحرى الصور بالالتفات تلك التى تحقق خصائص الخطوط والظلال ، تحقيقا يبلغ غايتها القصوى ، ويخرج منها قدرتها على التعبير . وهذه كلها بشائر بقرب تطور هذا الفن نحو الكمال .

بقى بعد هذا أن نقول : إنه بالرغم من هذا « الوعى الفنى » فإن الصور الكاريكاتورية لا تحظى عندنا ببعض المكانة التى تحظى بها نظائرها فى الأمم الراقية الأخرى ؛ فبالرغم من إقبالنا ، بل تهافتنا عليها فى المجلات مثلا ، فإن أحسنها منا — فيما أرجح — لا يعبأ باقتناء إحداها كتحفة فى صالونه . ولعلنا كذلك نذكر أن رساماً من أنبغ الرسامين عندنا قد أخرج فى العام الماضى مجموعة من روائعه ، ومع هذا لم تلق الإقبال الذى كان يرجوه لها عشاق الفنون . ولعلنا نذكر أيضاً أن أكثر من خمسة معارض فنية ، أقيمت فى الموسم الماضى بالقاهرة والإسكندرية ، دون أن يخصص فى أحدها مكان ، ولو متواضع للفن الكاريكاتورى . فيما عدا تمثال كاريكاتورى واحد (الفرسان الثلاثة من وضع وتنفيذ محمد بك حسن) عرض فى المعرض الدولى الذى أقيم فى فبراير الماضى ، لا أذكر أثراً للفن الكاريكاتورى فى مختلف المعارض .

موضع الداء أننا لا نزال نتجه بهذا الفن اتجاها غير مناسب لقيمته وحقيقته . ولا نزال نقصد به إلى أغراض

تولستوى

قليل هم الخالدون الذين نشعر بهم دائماً وكأنهم مازالوا يعيشون بيننا بالرغم من مضى تلك السنين الطويلة على مغادرتهم دنيانا ، وقلما نجد كاتباً مجيداً أمكنه أن يؤثر على العالم بأجمعه بكتاباته كما فعل تولستوى ، فهو ذو ملكة فنية جبارة وشخصية ممتازة .

ولد ليونيكولوفتش تولستوى عام ألف وثمانمائة وثمانية وعشرين والملعقة الذهبية فى فمه ، وتقلب فى أعطاف النعيم ، وعاش عيشة الرفاهية وتمتع بمسرات الحياة جميعها ، وقضى شباباً ثائراً ، انتهب فيه اللذات ، من خمر ونساء ، حتى الميسر كان له فترات حية فى صدر شبابه . والتحق بالجامعة مرتين ثم زهد فيها ، وحاول أن يكون موظفاً ولكنه فشل . . ولما مل حياته العابثة انضم إلى فرقة القوزاق وحارب معهم . . ثم عاد إلى حياته المدنية وروى ظمأه حتى الثمالة من اللذات الدنيوية وتمتع بمسراتها ما شاء له التمتع . . وإذا به وقد تقدمت به السن يبدأ فى ذلك التحول الذى ملك عليه لبه وتفكيره . . ونشأ له فلسفته التى اعتنقها أن يبدل من حاله ، فيتنازل من أملاكه جميعها ويعيش معيشة التقشف ويعمل فى الأرض بيديه ويلبس لباساً خشناً كأحقر الفلاحين ويشعر بلذة كبرى وسعادة دافقة لكل ذلك .

ولو وقفنا قليلا نتدبر أسباب ذلك التحول الغريب ، وهو الرجل الذى قضى سنين طويلة من حياته غارقاً فى اللهو والعبث واللذات . . نجد أن تولستوى كان ذا نفسية قلقة متبرمة دائماً ؛ ولعل من أسباب هذا القلق النفسانى ذلك التنازع بين شخصيتين ، شخصية الرجل الملحد العابث اللاهى ، الباحث عن لذائذ الحياة دائماً ، وشخصية الرجل الدينى الأخلاقى الذى يضع نصب عينيه أن يتأمل ويبحث فى معانى الحياة قبل أن يلامسها . ويبدو أن الدافع إلى زهده هو خوفه من الموت بينما كان هذا الخوف ذاته سبباً مباشراً فى إقباله على ملذات الحياة واندفاعه فى التشكك والإلحاد .

والحقيقة أن تحوله هذا لم يكن مفاجأة ، فإن مبادئ الدين كانت موجودة فى زوايا نفسه ، غير أن كل ما فى الأمر أن نقطة الارتكاز بين شخصيتيه قد انتقلت من ناحية إلى أخرى ، وكان ذلك التحول الذى لا بد منه نتيجة لظروف حياته وعمله السابقين .

ويقول الكاتب النمسوى الشهير « ستيفان زفايج » من هذه الناحية : « إنه من العبث تسمية ذلك القلق الداخلى فى نفسية تولستوى الذى جعل منه متأملا ومفكراً ومعلماً للحياة ، والأرجح أنها حالة لابست حياته عند درجة محدودة منها ، كالخوف من تقدم سنه والموت ، حالة من الكآبة النفسية التى أرهقت أعصابه وتحولت إلى اضطراب روحى ثائر » .

ولم يرض الكثيرون عن هذا التحول ، حتى إن الكاتب الروسى تورجنيف ، وكان يعتبر تولستوى أعظم كتاب عصره ، كان يراقبه فى قلق لمدة سنوات وهو يتحول من الأدب ليفقد نفسه فى فلسفة رمزية صوفية ، وكان يحزنه ألا يصبح على المائدة الأدبية لذلك الرجل الذى

لا تمت إلى الفن البحت مع الأسف ، بينما فى أوربا وأمريكا مثلا يقيمون له المعارض الخاصة به ، فضلا عن أنهم ينشر كونه فى كل معرض ، وفى كل مهرجان ، ويقومونه كفن قبل كل شىء .

ونحن لا نجزم بأن رسامينا قد بلغوا شأو رساميهم ، بل لعل رسامينا لا يستحقون أن يسمح لهم بعرض رسومهم على الناس !! ولكنا نقول إن لدينا بوادر نبوغ يجب أن يلتفت إليها ولو لمحض التشجيع .

عبد الفتاح البارودى

نز غيره في تصوير الطبيعة والإنسان ، سوى تلك الأبحاث في اللاهوت ونسخة من الكتاب المقدس . . وكان تورجنيف يخاف على تولستوى أن يفقد أسمى حياته ونبوغه الفنى — كما فعل جوجول من قبل — فى الاهتمام بالنظريات الدينية التى لا يهتم بها العالم ، ولذلك قام إلى قلمه فى السابع والعشرين من شهر يوليو عام ألف وثمانمائة وثلاثة وثمانين وهو فى أشد حالات المرض ، وكتب ذلك الاستعطاف المؤثر إلى نابغة عصره . . رفع إليه آخر ضراعة يتوسل بها رجل على حافة القبر . . فقال : « عد إلى الأدب ياصديق . . إن موهبتك الحقيقية إنما هى كامنة فيه يا كاتب روسيا العظيم . . ورجائى الحار هو أن تحقق أملى . . . »

ولم يتمكن تورجنيف أن يتم خطابه ، إذ لم تساعده يده وصحته على ذلك فأرسله كما هو إلى تولستوى الذى لم يرد عليه وقت وصوله إليه . ولكن لما خطر له يوما أن يكتب الرد ، كان الوقت متأخراً ، فقد مات تورجنيف قبل أن يستيقن مما إذا كان صديقه قد حقق أمنيته أو لم يحققها . ولعل تولستوى كان يجد صعوبة فى الرد على صديقه ، لأنه كان حينئذ مندفعا إلى البحث عن الله فى قوة تقف دونها إرادته .

لقد كان شعوره نحو الطبيعة شعورا بدائيا ، فهو يحس دائما أنه جزء لا يتجزأ منها ، ولعل ذلك هو أحد أسباب هيامه بطبقة الفلاحين ، لمبشتهم الطبيعية الساذجة ، مما دعاه لأن يحمل على المدنية الحديثة الفاسدة ؟ فهذه النظرة مصحوبة بعاطفته التى تسوقه نحوها تكونان ناحية من نواحى عقلية تولستوى . أما الناحية الأخرى فهى خوفه الدائم وتشككه وتحليله كل ما يعترضه مما دعاه للانفراد الذاتى الذى هو طبيعة كل من ينطوى على نفسه ، وإذا هو بعد أن يشبع غريزته فى التأمل يجد أن السعادة هى فى المعاونة والحب والخير بين البشر وبعضهم ، ويجد أن المدنية الزائفة تحول دون ذلك ، فيدعو إلى الأخذ بالحياة الأولى . . الحياة الطبيعية الهادئة التى تقوم دعائمها على تلك الخصال الحميدة ، ولقد أوضح نظريته هذه بإسهاب فى كتابه « اعترافات » عام ألف وثمانمائة وتسع وسبعين .

أما أعماله الأدبية فهى معروفة لكل من يتذوق الأدب . وأهم ما يلفت النظر فى كتاباته فى الجزء الأول من حياته تلك الحرارة المتدفقة منها يضفيها على كل ما يحسه فيها ، كما نشعر بذلك فى كتابه الأول « الطفولة » الذى أخرجه عام ١٨٥٢ وفى قصة « القوزاق » التى أتمها عام ١٨٦٢ حيث يمزج حبه بحياة القوزاق البسيطة بكراهيته للمدنية . ثم تزداد شعورنا بذلك فى روايتيه الخالدتين « الحرب والسلم » التى أتمها ما بين عامى ١٨٦٢ ، ١٨٦٩ و « أنا كارنينا » التى كتبها بين عامى ١٨٧٥ ، ١٨٧٧ ، وهما المعتبرتان أشهر روايات القرن التاسع عشر .

فالأولى وهى « الحرب والسلم » تعتبر الحلقة المفقودة بين الحقيقة والخيال ، وبين الأدب والتاريخ ، فهى مزيج رائع من الأولين ، وصورة فاتنة من الآخرين . وهى تتناول موضوعاً تاريخياً خطيراً هو كفاح روسيا المرير ونضالها المجيد ضد نابليون وجيوشه الغاشمة . ويقول جالزورثى عنها « إنها أحسن ما كتب من القصص » .

أما الثانية وهى « أنا كارنينا » فهى مأساة إنسانية ترسم البواعث والأحوال النفسية المختلفة لامرأة أخطأت . . وهى قصة من الحياة أكثر منها قطعة فنية دقيقة الصنع ، الحياة التى رآها المؤلف بعين داخلية وأحس بها فى زوايا نفسه وعاش فيها ثم كتبها بإحساس وشعور قويين . وهى آخر رواياته التى كتبها قبل أن يتحول مجرى حياته؛ ولعلنا نلاحظ فيها ظلا لذلك الانقلاب . ثم هى تشترك مع قصة « الحرب والسلم » فى أنهما تغلب عليها الواقعية ، فشخصياتهما ومواقفهما طبيعية ، حتى إن القارئ يتوقف أحيانا عن القراءة بين كل فترة وأخرى ويقول لنفسه :

« حقيقة . . هذه حقيقة . . وهكذا تسير الأمور » .

وتتألف المناظر والحوادث فى « أنا كارنينا » لتعطى صورة لمجتمع المدنية الحديثة التى بدأ تولستوى يحتقرها ، وجعل ذلك الاحتقار لها يزداد ويثبت فى نفسه على مر الأيام . . حياة الطبقة الروسية العالية . . الطبقة السادرة الهاربة من المسئوليات والتى لا يمكن مقارنتها بطبقة الفلاحين الروس وحياتهم ، الحياة الخشنة النافعة بمسراتها وأفراحها الساذجة وقناعتها بأعمال الأرض وإيمانها بالقوة الإلهية السامية . ويقول دستويفسكى عن هذه القصة : « لقد سمت نحو الكمال الذى لا يضارعها فيه أى عمل أدبى آخر » .

والملاحظ أنه كثيرا ما يصور تولستوى نفسه وبعضا من جوانب شخصيته وأجزاء من حياته فى رواياته ، كما فعل فى كل من شخصية البرنس أندرو ، وبيير فى « الحرب والسلم » وشخصية ليفين فى « أنا كارنينا » .

وبطبيعة الحال كان لتحوله أثر فى كتاباته ، فها هو قد ركز جهوده كلها فى الكتابات العقلية والدينية مثل « عقيدتى » ، « ماذا نفعل حينئذ » ، « فى الحياة » ، « مملكة الله فى باطنك » ، « ما هو الفن » ، « ما هو الدين » وغيرها . . وكلها توضح انحرافه الأساسى وتبسيطه لمشكلات صعبة وميله إلى أن يجعل من نظرياته قوانين ثابتة تتبعها الإنسانية من بعده . ولحسن الحظ فإن هذا التحول قد بسط أسلوبه وأكد الغرض من كتاباته أكثر من قبل . . وأهم أعماله الفنية فى تلك الفترة هى « موت إيفان إليتش » ، « السيد والرجل » ، « أنشودة كروتزر » تلك الدراما الريفية القاتمة ، « سلطة الظلام » وروايته المتصوفة « البعث » . ومن قصصه الخالدة « الأب سرجيوس » ، « الشيطان » ، « بعد الحفلة الراقصة » ، « حاج مراد » ، « البطاقة المزيفة » ومأساته « الجثة الحية » .

وكما نرى فإن الناحية الفنية قد تغلبت فى نفس تولستوى على ناحية الفلسفة فى الجزء الأول من حياته ، بينما أصبح فى الجزء الأخير منها فيلسوفا أكثر منه فنانا . وإنه ليسرنا كل السرور أن نرى فنانا كبيرا مثله يجعل من نفسه مثلا أخلاقيا عاليا كرجل ؛ فبدلا من أن يتحكم فى الجماهير من طريق شهرته إذا هو يخدم الإنسانية ويرضخ كفاحه ، فى سبيل حقيقة مثلى ، إلى أهم السلطات على الأرض ، ألا وهى ضميره الحى الذى لا يتطرق إليه الفساد أبدا .

ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره آثر الهرب من بيته وزوجه ليقضى بقية أيامه فى عزلة ، ولكن لحقته المنية بعد أيام من هربه فى السابع من نوفمبر عام ألف وتسعمائة وعشرة .

وهكذا بدأ حياته مترفا واختتمها متقشفا ، وقضى فترة منها صوفيا متشككا وأخرى متصوفا . . . ومات تولستوى ذلك الارستقراطى المغرور فى بداية حياته ، والفلاح المتواضع فى نهايتها ، كما يموت غيره . . ولكننا نحس دائما أنه يعيش خالدا بيننا بكتاباته التى لا تبلى جدتها أبدا .

حسن فخرى خليل

القوم يقرءون

١ — « أوجيني جرانديه » قصة لأونوريه دي بلزاك (١٧٩٩ — ١٨٥٠) نشرت عام ١٨٣٣ ، وهي واحدة من مجموعة قصصه التي سماها « مناظر من الريف والقرى » .

وفي هذه القصة يصف سيد الكتاب الواقعيين الفرنسيين بما اعتاده من دقة ، يصف ذلك الكاتب الكبير حياة فتاة ريفية هي الطفلة الوحيدة لرجل غني بخيل .

وقد عاشت الفتاة وأمها في بيت لا يذكرك بأي أثر من النعمة ، فلم تذوقا طعم الهناء إلا قليلا .

وفي الحق أن الأب « جرانديه » كان يحب زوجته وابنته . وفي الحق أيضاً أنه كان يحب المال الحب كله . ومن فرط حبه لذلك المال كان ضنيناً به ، إلا أقله ، الذي كان يجود به لكسوتهما وطعامهما ، كسوة تخرج بهما من حد العري ، وطعاما يتجاوز بهما حد المخمصة .

وكان إذا أهدى امرأته هدية استردها . وكان يرجو فتاته أن تدخر كل حلية ذهبية تهدى إليها في عيد ميلادها ، وأن تضم كل حلية إلى أختها فتجعل منها جميعاً كنزا لا تنظر العيون إليه .

وكان للفتاة ابن عم حسن الصورة ، ظريف الهيئة ، جاءهم ذات يوم زائرا فتحدت الفتاة أباها ، وكلفته النفقة . جاءته بقطعة واحدة من السكر يضعها في فنجان القهوة ، ليخفف من مرارة البن ، كما جاءته بشمعة ليست من الصنف الردىء .

وقد ترك ابن العم هذا — وكان اسمه « شارل » — في مهاد العز ، ولكن والده قد خسر ماله كله ثم انتحر .

فرثت الفتاة لحال ابن عمها وأشفقت عليه . ثم استحال هذا الرثاء والإشفاق حبا ، كان ابن عمها — فيما يبدو — يبادلها إياه .

ثم خطبها لنفسه ، ثم سافر إلى جزائر الهند الغربية مستعينا بمالها المدخر .

ومرت عليها السنون ثقيلة المطى ، كأنما كل واحدة منها قد شدت إلى جبل ، ولم تسمع عنه شيئا . وماتت أمها فكانت الوارثة لها . ولكن أباها أقنعها أن تنزل له عما ورثت .

ثم مات الوالد أيضا ، وأصبحت أوجيني من صاحبات الغنى المفرط .

ثم جاءها بعد ذلك الانتظار الطويل خطاب من « شارل » يسألها الفكاك من الخطبة ، وينبئها — وقد كان يجهل أنها أصبحت غنية — أنه يريد أن يتزوج إحدى الوارثات ، لكي يستعين بمالها على بلوغ ما يصبو إليه .

فأجابته تلك الفتاة الرزينة العاقلة إلى ما طلب ، وهي قريرة العين ، هادئة البال .

ثم علمت بأن والده ذلك الذي قد أورثه دينا . فأرسلت لصديق شيخ قديم ، يحتل مكانا كريما بين رجال القضاء في باريس ، ليدفع من ذلك المدين دينه ، وذلك لكي تجعل اسمه نقي الصحيفة ، لا تشوبه شائبة .

ولكي تجزى ذلك الصديق القديم على ما قام به فقد تزوجته زواج واجب ، لا زواج حب . ثم مات عنها هذا الزوج بعد قليل . وعاشت حياتها بعد ذلك ، وقد نذرت نفسها لعمل الخير الإنساني . وقد أكملت بعملها هذا الدور الذي بدأته وهو دور التضحية وإنكار الذات .

٢ — « أساطير أيسوب » لكاتب الأسطورة الفرنسي « جان دى لا فونتين » (١٦٢١ — ١٦٩٥) :—

وهي مجموعة من قصار القصص جاء بها ولخصها على ألسنة الحيوانات بعد أن أسبغ على تلك الحيوانات ملكة التفكير وحاسة النطق . وكل أسطورة من تلك الأساطير تصور حقيقة من الحقائق العملية . وهذه القصص منسوبة إلى « أيسوب » الذي قيل إنه كان عبدا رقيقا من الإغريق عاش في القرن السابع قبل الميلاد ، وكان فظيع المنظر ، مسيخا ، مشوه الخلق .

وقيل إنه نال حريته لبراعته كواضع أساطير . وقد كان صاحب حظوة لدى « كريسوس » آخر ملوك ليديا الذي مات عام ٥٤٦ قبل الميلاد . كما قيل إنه قد مات مذبوحا في مدينة « دلفي أثناء هياج وشغب .

ومهما يكن من شيء ، فان أساطيره لم تجمع قبل عام ٣٢٠ قبل الميلاد . وسواء أكان « أيسوب » قد وجد على ظهر هذه الدنيا أولم يوجد ، فإن مانسب إليه من الأساطير لم يكن من وحي خياله ، وإنما هي أساطير شرقية اللامح والقسمات .

وهي كفصل من فصول الأدب الإنساني ، تمثل مرحلة من مراحل الثقافة الأولى يوم كان الناس يحسون أن بينهم وبين الحيوانات رحما وقسبا .

وأولى تلك الأساطير بالعناية والدرس هي ما اقتبسه لافونتين وجمعه في ثلاثة مجلدات نشرها عام ١٦٦٨ وعام ١٦٧٩ وعام ١٦٩٣ على التوالي .

وقد أعان « لافونتين » في فهمه لرأى « إيسوب » ولعه بالمروج والغابات .

وقد استطاع بما أوتى من رجاحة عقل أن يجعل تلك الحيوانات تمثل مختلف طبقات الشعب الفرنسي في عصره من العامة والخاصة .

وقد أضفى « لافونتين » على قصصه ثوبا زاهي اللون من التندر والفكاهة ولطف التعبير ، فسما بقصصه التي صاغها شعراً إلى أسمى طبقات الشعر في اللغة الفرنسية .

(٣) الإضمامة (الموسيه) رقم ١١٣ — قصة للكاتب البوليسي الفرنسي « إميل جابوريو » (١٨٣٥ — ١٨٧٣) وهو الذي أنشأ وصور ، بوحي من خياله ، صورة رجل المباحث البوليسية « المسيو ليكوك » و« الأب تابارية » كما فعل « سير آرثر كونان دويل » في تصويره لشخصيتي « شرلوك هولمز » « والدكتور وطسن » .

وقد نشرت قصة « الموسيه رقم ١١٣ » عام ١٨٦٧ وفيها يقدم لنا المؤلف جاسوسه الذي سماه المسيو « ليكوك » .

وتبدأ القصة بالتفصيلات التي كان الجمهور في باريس يعرفها عن حادث السرقة الذي تم من جرأة اللصوص . والذي ارتكب في مصرف « المسيو فوفيل » ، وقد أطلت الشبهات برأسها تشير إلى رئيس الصيارفة « المسيو بروسبر برتوى » .

وتولى كشف غوامض أسرار تلك القضية جاسوس بارع اسمه « فانفرلو » تحت إشراف « ليكوك » الذي يفوقه ذكاء ، ويسبقه في ارتفاع المنزلة .

وهو يحذو حذو « شرلوك هولمز » فيبدو كأنه هو ، ولو أن طريقته تختلف في أصولها عن طريقته .

والمؤلف الفرنسي يصور صاحبه جاسوساً ذكيا ، بعيد النظر ذا عزم متقد ، كما يصوره بارعا البراعة كلها في التخفي حين يتابع أبحاثه .

والمؤلف يرينا في ختام قصته التي يفضي بأسرارها تدريجاً ، أن رئيس الصيارفة كان بريئا وأنه كان ضحية مؤامرة .

وأن « مدام فوفيل » زوجة صاحب المصرف كان لها — قبل زواجها به — ابن غير شرعي . أولدها إياه « الركيز دى كلاميران » ذلك المحتال الخبيث ، الذي يتخذ لنفسه صورة المحسن المتفضل على آل « فوفيل » .

وقد جعل « دى كلاميران » رجلا اسمه « راؤول دى لاجور » يتقمص شخصية ابنه غير الشرعي (الذي كان قد مات) .

ودخل « راؤول » هذا بيت « فوفيل » في صورة ابن أخ الزوجة . ولو أنها كانت تظنه ابنها . وبعد أن ألقى في قلبها الرعب بوعيده بكشف المستور من أمرها عرف منها أسرار خزانة المصرف ثم اقترف جريمة السرقة . وكتمت هي الأمر حتى لا يعرف زوجها أسرار ماضيها . ثم استعان « دى كلاميران » بهذا الخوف من

الفضيحة فأرغم « مدام فوفيل » على إغراء بنت أخيها بأن تتزوجه .

وقبلت بنت الأخ هذه ، واسمها « مادلين » لتنقذ عمتها ، على الرغم من أنها كانت تحب « بروسبر » رئيس الصيارفة ، ثم تتكشف الحوادث آخر الأمر . فيهرب « راؤول » ويجن « دى كلامبران » وتغتفر خطيئة « مدام فوفيل » ويتزوج « بروسبر » رئيس الصيارفة « مادلين » .

(٤) « الإخاء الإنسانى » — قصة لجون جولز ورذى (١٨٦٧ — ١٩٣٣) نشرت عام ١٩٠٩ .

ومحور القصة هو الأستاذ « سيلفانوس ستون » وهو رجل عارف بالعلوم الطبيعية تقدمت به السن . وله عادات تخالف المألوف والعرف . وكانت له أمانى غامضة — إلى حد ما — فى الغيرية وفى محبة الخير للناس . فلما بدأ عقله يضمحل ترك التعليم . وجاء ليعيش مع بنته « بيانكا » وهى فتاة تزوجت رجلا اسمه « هيلارى داليسون » .

ثم عكف — وهو فى بيتها — على كتابة كتاب بديع ، حسن التنسيق ، ولكنه يخالف العقل ، سماه « كتاب الإخاء » .

وتدور فصول الكتاب كلها حول تلك الحقيقة الكبرى التى تقول إن الناس كلهم إخوة ، أبوهم آدم والأم حواء . وإن الأغنياء والأذكياء والأحياء فى هذه الدنيا هم — فى مكان ما — ظلال من أنفسهم قد أضر بهم الفقر والجهل والمرض .

ولبنته « بيانكا » فتاة كانت تجلس إليها لتتخذ منها أوضاعا لما تريده من رسوم ، فأوكل الأستاذ إليها استنساخ ما يقوم بكتابته يوميا من أجزاء الكتاب ، فكانت تلك الفتاة الصغيرة تؤدى هذا العمل ، لا عن عناية بأمر الأستاذ ، ولا لأنها كانت تفقه شيئا مما جاء فى الكتاب . ولكن لأنها كانت مع « هيلارى » زوج « بيانكا » كالكلب فى حفاظها للود .

وكان « هيلارى » أول أمره لا يكن للفتاة إلا عاطفة من الرحمة ، ثم استحال الأمر بينهما فصار ودًّا .

وكان لا مفرّ من أن تصبح « بيانكا » غيرى من تلك الفتاة . وزاد فى شكوكها أنها علمت أن زوجها — ذلك الشاعر الطائش — قد اشترى للفتاة ثيابا .

ثم عرفت « بيانكا » بطريق الرواية عن أختها « سيسيليا » أن تلك الفتاة واسمها « إيفا بارتون » قد أوقعت فى حبائلها رجلا اسمه « هيوز » وهو زوج مثالىّ لواحدة من حائكات الملابس الكادحات .

ثم تتولى سيسيليا إقناع « هيلارى » بأن يتخذ للفتاة « إيفا » سكناً بعيداً عن المدلَّه المفتون « هيوز » ، وأن يطلب إليها أن تنقطع عن عملها فى انتساخ الكتاب .

ثم تصدع الفتاة « إيفا » بما يأمرها به « هيلارى » . وتبقى بمنأى عن البيت .

ولم يحتمل « الأستاذ » أن يتوقف نسخ الكتاب فنزل بساحته المرض . فلما استيقنت « بيانكا » أن وجود تلك الفتاة ضرورى لأبيها ذهبت إليها تزورها حيث تقيم . فقبلت المودة ممتنة ، لا لشيء سوى استشفافها مهجة « هيلارى » ذلك الرجل الذى كأنه قُدّ من حجر . وقد نجحت آخر الأمر فى إذكاء جذوة الحب فى فؤاده . ثم صدّت عنه آنفةً منها أن تخرج به عن مستوى طبقته ، وأن تهوى به إلى حضيض الفضيحة ، فضيحة الهروب بها .

(وبعد) فإن كل الناس الذين وردت أسماؤهم فى الكتاب من تلك الفتاة « النموذج » إلى حفيدته ، كانوا يرون فى مثله الأعلى ، وهو الإخاء ، لوناً من الجنون الهادىء ، الذى لا يلحق الناس منه أذى ، والطابع العام للكتاب هو نوع من التهكم الذى يجاوزه الدهاء ، ذلك التهكم الذى يستعان به على السخرية بأى إخاء فى الحياة الواقعية ، بين أقوام يخالف بعضهم بعضا فى التربية والثقافة والذوق والعمل والبيئة الاجتماعية

مبارك ابراهيم

أنباء وآراء

الخبز!

اليوم . وقد نرى فى السوق الخبز الأبيض ، بالسعر العادى ، بأن الصورة التى لازمته أيام خلطه لا تزال ماثلة فى أذهاننا منذ عبثت بنعمة الله هذه أيدى العابثين . الله لنا منهم . ولكن لو قيست مصر بأغلبية أمم العالم فى غذائها الأول لكانت مأساتها أخف وأهون ، فقد بلغت أزمة الخبز حتى المخلوط منه فى انجلترا سنة ١٨٠٠ حدا كان الرغيف يباع فيه بمبلغ ١ شلن و١٠ بنس وكان له رواجه فى السوق السوداء ! ولقد اشتدت الحالة هناك سنة ١٨٢٢ حتى اضطرت الحكومة إلى التدخل لتحديد السعر الإجبارى لثمن الرغيف !

وفى حين من الدهر على السويد كان الخبز يصنع فيه من الشعير بأحجام صغيرة يدخرونه بعد صنعه لستة أشهر خشية المفاجآت !

وفى أيسلاند خلطوا مع الخبز نوعا من النبات الطفيلى الذى ينمو على الشجر !

ولعله من الغريب أنه توجد قبيلة فى وسط أفريقية تصنع الخبز من قلف الأشجار !

والحديث بالحديث يذكر ، فإن أقدم أنواع الخبز هو خبز قدماء المصريين الذى كان منذ ٣٥٠٠ سنة ولا تزال « عينة » منه حافظة لكيانها فى متحف المتروبوليتان للفنون فى نيويورك !

آلة كاتبة!

اخترع أحد العلماء الألمان واسمه الدكتور فيرلنج Dr. Vierling أثناء الحرب آلة كاتبة من نوع جديد هى أحدث وأسرع ، بل هى أغرب آلة كاتبة حتى اليوم ! ذلك لأنها تكتب بالسماع ! يدير الكاتب عليها مفاتيحها ثم يلقى إليها ما يشاء أن يلقيه من إملائه ، فتكتبه الآلة كما ألقى عليها على الورق الأبيض .

وهى تتركب من جزءين يتصل بعضهما ببعض . جزء يستقبل الصوت ويتأثر به ثم يؤثر بدوره فى الجزء الآخر المهيأ للكتابة .

وقد استعملت القوات الأمريكية المحاربة بهذا العالم وبآلته . وجعل الأمريكيون كشأنهم يعدلون فيها ويحسنونها حتى بلغت حالتها هذه ، ولم تكن كذلك أول ما فكر فيها صاحبها ، وإن كانوا لا يزالون يأملون فى تعديلها إلى ما هو أحسن ، حتى يمتد نفعها بين الناس

فتلك من آثار الحرب النافعة لو كان للحرب آثار نافعة !

حسب الدنيا والآخرة !

خطب رجل من الموالى إلى رجل من قريش أخته . وأعطاها مالا جزيلا . فأبى القرشى تزويجها . فقال له عمر رضى الله عنه : ما منعك أن تزوجه ، فإن له صلاحا وقد أحسن عطية أختك ؟ فقال القرشى : يا أمير المؤمنين ، إن لنا حسبا وإنه ليس لها بكفء . فقال عمر : لقد جاء بحسب الدنيا والآخرة . أما حسب الدنيا فالمال وأما حسب الآخرة فالتقوى . زوج الرجل إن كانت المرأة راضية . فراجعها أخوها فرضيت . فزوجها منه .

ياقوت صدقى

صفحة من التاريخ :

قصة راع فلكى

كان أحد العلماء يمشى فى الطريق . . وإذا به يسمع هذا السؤال :

— سيدى . ألست من علماء الفلك ؟

والتفت العالم إلى من يلقى عليه السؤال . فوجد أمامه شاباً فى العشرين من عمره ، يلبس ثياب الفلاحين . فأجابه قائلا :

— وماذا تريد منى ؟

— إنى ياسيدى أشتغل برعاية الغنم ، فوق الجبل . وأحب دائماً أن أشاهد السماء والكواكب ، وأنا أرعى غنمى . وأريد أن أعرف ، ما الذى يجهلونه من الكواكب .

ولم يدهش العالم لقول الشاب . بل قال فى هدوء :

— وما اسمك ؟

— اسمى بيير آينج .

— وهل تعلمت شيئاً ؟

— أعرف القراءة ، ويمكننى أن أكتب .

— أهذا كل ما تعلمه ؟

هذا بالفعل ، كل ما كان يعلمه ذلك الشاب . على أنه كان يعرف شيئاً ، لا يقدر له ثمن : كان يعرف معنى أنه يريد . وكانت إرادته الثابتة لا تتقهقر أمام أى مانع أو إشكال .

وفهم العالم ، وهو يستجوب الشاب ، أنه على جانب عظيم من النباهة والذكاء . فقال له :

— لا يمكننى أن أعلمك الفلك فى الحال . فالقوانين التى ندرس بها حركات الكواكب ، لا يمكن لك فهمها الآن ، وعلى كل حال ، تعال إلى . فسأعلمك أولاً المبادئ الأولى ، فى الحساب والهندسة والميكانيكا — إلى اللقاء وتشجع .

وعاد بيير آينج ، إلى الجبل فرحاً سعيداً ، يتطلع إلى السماء فى ابتسام ، وفى عينيه كلام .

وكانت تمر الأيام ، ثم يحل يوم الأحد ، فيهبط بيير من الجبل ، ويتوجه إلى عالم الفلك ، حيث يلقنه الدروس العلمية . واستمر الراعى هكذا ، ينفق الساعات التى خصصت لراحته الأسبوعية ، فى تلقى العلم الذى أحبه .

ولم يمض وقت طويل ، إلا وقد أمكن الشاب أن يفهم الفلك . ولكن لم يكن لديه الآلات التى يرصد بها الكواكب . وليس لديه المال الذى يخول له امتلاكها . فما العمل ؟ . صنع بنفسه تلك الآلات ، التى عرف منها الشيء الكثير ، فإذا أقبل المساء ، وقف الراعى ، فوق الجبل ، وهو فى هذه الحالة ، بمثابة مرصد شيدته له الطبيعة ، ونظر إلى السماء والكواكب ، بهذه العيون الجديدة التى صنعها لنفسه بنفسه .

ومرت الأيام . . . واكتشف بيير آينج جملة نجوم جديدة . . ولو لم يعاجله الموت مبكراً ، لأصبح من علماء الفلك المشهورين فى زمانه .

وشيدت له مقبرة عظيمة . كما صنع له تمثال نصفى من الرخام الأبيض ، زينت به دار الآثار فى البلدة التى ولد فيها .

نعمت صدقى

أوبة أمير الريف

أيها الآتي من المنفى القريب !   مثل ذكرى من عزيز أو حبيب
أين عهد الريف أيام الوغى   إذ دم الأعداء دفاق صبيب
حين دوخت العدا في مدة   ثم فازوا كثرةً بعد الغلوب
تلك أيام حسان قد خلت   كم سبتنا ! كم أقضت من جنوب !
ثم سارت بعض أخبار الورى   ضمن تاريخ تولاها حسيب
صفحة « عبد الكريم » خطها   لافتخار الشرق في سفر الحروب
نخوة الأجداد فينا دائما   لا ينادى المجد إلا نستجيب

* * *

ثم آت أنت من منفى نأى   ذا شجون وهموم وشحوب
بعد أعوام طوال في أسى   واغتراب آن للنائي يئوب
عشر حجات وعشر مثلها   قد تولت في غيابات الجنوب !
في حساب الخلد شيء تافه !   لا على الأبطال من شر يصيب
استطاعوا أسركم دهراً ، ولم   يستطيعوا أسر ذكر لا يغيب

* * *

نعمة للشعب « تملك » يقتني   كل مجد سائغ قبل الذهوب
قد نزلت اليوم أسمى منزل   في ثرى « الفاروق » بالوادي الخصيب
منزل الأقيال في مُلك الحمى   موئل الأبطال في الوقت العصيب
لحماكم من « فرنسا » عزمةٌ   والتجاؤكم للحمى العالي الرحيب
موقف « الحكام » يعلي قدرهم   كلهم شهم وعنوان أريب
ها هو الضرغام والأشبال في   قومهم في مصر ما منهم غريب
خطوة للريف تأتي بعدها   عودة المغرب العاني الكئيب
آذن استعمارنا أن ينتهي   ذا قضاء الله علام الغيوب

* * *

أنت شمس أشرقت بعد الدجى   هكذا الإشراق من بعد الغروب

عبد المجيد مصطفى مقبل

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : { ٤٢٩٩٢ ٥٦٧٦٩

العدد ٤٤٨ — الثلاثاء ١١ من رمضان سنة ١٣٦٦ — ٢٩ من يوليو سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

الهند ونظام الدومنيون

فى الأنباء الأخيرة أن قانون استقلال الهند قد تم صدوره ، وأصبح قانونا نافذا من قوانين الإمبراطورية البريطانية . وهذا القانون هو الذى يتوج الوضع الدستورى الجديد للهند ، وتقسيمها إلى « دولتين جديدتين » هما : دولة الهندوستان ، ودولة الباكستان . وكل منهما تتخذ صفة « الدومنيون » داخل جماعة الأمم البريطانية (الكومنولث) على نسق كندا ، واستراليا ، وجنوبى أفريقية ، وغيرها من وحدات الدومنيون .

وهذا الوضع الدستورى الجديد للهند ، وتحولها من ملك أو مستعمرة للتاج البريطانى إلى نظام « الدومنيون » أو الأملاك المستقلة هو النتيجة العملية لتصريح البريطانى الذى ألقاه مستر اتلى فى مجلس العموم فى فبراير الماضى ، وذكر فيه : « أن الحكومة البريطانية قد اعتزمت بصورة نهائية أن تتخذ الإجراءات الضرورية لتسليم السلطة فى الهند إلى أيد هندية مسئولة ، وذلك فى موعد لا يتجاوز شهر يونيو سنة ١٩٤٧ » . وكان المفروض أن يتم هذا التغيير على أسس التسوية الدستورية الجديدة التى قدمتها اللجنة الوزارية إلى الهند فى العام الماضى ، والتى تقوم على إنشاء دولة هندية اتحادية ، تضم الهند البريطانية والإمارات المستقلة مع اختصاص مشترك فى شئون الدفاع والمواصلات والشئون الخارجية .

وقد بدىء بالعمل بتنفيذ الدستور الجديد ، وأقيمت حكومة هندية مؤقتة ، كما أقيمت جمعية تأسيسية لتضع دستور الهند الجديد على الأساس المتقدم . ولكن هذه المحاولة لقيت معارضة شديدة من الرابطة الإسلامية التى تنطق باسم الكتلة الإسلامية ، لأن المشروع الجديد يستبعد إنشاء الدولة الإسلامية المستقلة (الباكستان) التى تطالب بها أغلبية الكتلة الإسلامية ، ومن ثم فقد انهار المشروع منذ البداية ، واضطرت الحكومة البريطانية إلى أن تبحث من حل جديد لهذا الموقف المعقد ، فبعثت إلى الهند بالورد مونتباتن ، وبعد مباحثات ومحاولات جديدة نجح اللورد فى التفاهم مع زعماء حزب المؤتمر ، ممثل الأغلبية الهندوسية ، وزعماء الرابطة الإسلامية ، ممثلة الكتلة الإسلامية ، وانتهى الأمر بالاتفاق على تقسيم الهند إلى وحدتين سياسيتين كبيرتين ، هما : « الهندوستان » أى دولة الهندوس و « الباكستان » أو الدولة الإسلامية المستقلة .

وقد ظن الكثيرون حينما صدر تصريح الحكومة البريطانية باعتزامها نقل السلطة إلى الهنود ، بأن الهند

سوف تنال استقلالها التام ، وسوف يجلو عن أرضها آخر جندى بريطانى ، وتترك لمصيرها بصورة مطلقة ؛ ولكن هذا التفسير كان مبالغا فيه ، وقد قرنت الحكومة البريطانية يومئذ تصريحها بأن تحقيق هـذا الوعد منوط باتفاق الهنود أنفسهم ، وأن الهند سوف تكون حرة فى البقاء داخل الإمبراطورية أو الخروج منهـا ، ولكن المرجح أنها ستفضل البقاء داخل الإمبراطورية . وقد كانت هذه التحفظات عنوان المرونة المأثورة التى عرفت بهـا السياسة البريطانية ، وكانت فى مجملها تدل على أن بريطانيا لم تفكر فى التخلى نهائيا من ألمع جوهرة فى التاج البريطانى .

وقانون الهند الجديد يعترف بقيام دولتين جديدتين فى الهند هما : الهندوستان والباكستان ، وينص على تقسيم مقاطعتى البنغال والبنجاب الحاليتين ، وضم القسم الشرقى للبنغال ، والقسم الغربى من البنجاب إلى دولة الباكستان ، وعلى أن يكون لكل من الدولتين الجديدتين حاكم مستقل ، إلا إذا اتفق المجلسان التشريعيان للدولتين على أن يشغل هذا المنصب شخص واحد . وقد عين حاكما الدولتين الجديدتين بالفعل ، فعين لورد مونتباتن آخر نائب للملك الإمبراطور فى الهند ، حاكما لدولة الهندوستان ، وعين السيد محمد على جناح زعيم الرابطة الإسلامية حاكما لدولة الباكستان ؛ وسيكون تنفيذ القانون الجديد ، ومباشرة كل من الحاكمين لمهامه كحاكم مستقل للدومنيون ، منذ يوم ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ .

وسيطبق على دولتى الدومنيون الهنديتين قانون وستمنستر الصادر فى سنة ١٩٣١ بتنظيم علائق وحدات الإمبراطورية البريطانية أو الكومنولث مع التاج البريطانى؛ ومؤداه أنه يحق لبرلمان الدومنيون أن يلغى أو يعدل أى قانون انجليزى يسرى على الدومنيون ، وأنه ليس لبرلمان الانجليزى أن يسن قانونا ويطبق على أى بلد من بلاد الدومنيون ، ما لم ينص فيه على رغبة هذا البلد فى تطبيق القانون . ويعتبر ملك انجلترا وفقا لنظام الدومنيون ، هو السلطة العليا فى كل « دومنيون » ، كما يعتبر الحاكم العام الذى يعينه الملك ممثلا له ، ويكون مركزه الدستورى فى الدومنيون كمركز الملك فى انجلترا ، فلا يعمل إلا بواسطة وزرائه المسئولين أمام الهيئة التشريعية ؛ ومع ذلك فإن الدومنيون يتمتع بحريات واسعة من حيث التمثيل السياسى ، وعقد المعاهدات التجارية ووضع الأنظمة الجمركية وغيرها .

وأما الإمارات الهندية فموقفها لا يزال غامضا ، وهى تعتبر من حيث الوضع الدستورى متمتعة باستقلالها الداخلى بعيداً عن حكومة الهند ، ومرتبطة بالتاج البريطانى بمعاهدات خاصة . وقد خيرت فى النظام الجديد أن تقرر الانضمام وفق مشيئتها لأى الدولتين الهنديتين الجديدتين : الهندوستان أو الباكستان . ولكنها حتى اليوم لم تقرر مثل هذا الانضمام ، والأمر بالعكس ، فقد أعلن بعضها الاستقلال مثل ولاية كشمير ، وكان المفهوم أن ولاية حيدر آباد أكبر وأغنى الولايات الهندية المستقلة ستقرر انضمامها إلى دولة الباكستان الجديدة ، ولكنها لم تفعل مؤثرة التريث والانتظار . بيد أنه يلوح لنا أن الولايات الهندية ستؤثر آخر الأمر أن تبقى على وضعها الدستورى الحاضر ، وعلى صلاتها الوثيقة بالتاج البريطانى .

* * *

وهكذا تغدو الهند على نسق كندا وأستراليا وجنوب أفريقية وحدة من الأملاك المستقلة أو الدومنيون . وهذا الحل الجديد لمشكلة الهند هو نتيجة لوعود السياسة البريطانية المتكررة للهند بمنحها الاستقلال الذاتى . وقد صدر آخر هـذه الوعود أثناء الحرب العالمية الثانية ، إذ تعهدت الحكومة البريطانية بأن تمنح الهند بعد الحرب نظام « الدومنيون » ، والهند تغدو اليوم فى عداد وحدات الدومنيون تحقيقاً لهذا الوعد . ومن الواضح أن الهند وإن لم تحصل بهذا الوضع على استقلالها التام تكتسب حقوقاً

٢ - الحملة الفرنسية والنهضة المصرية

قصة الأبحاث العلمية:

يبدو للباحث – في الوهلة الأولى – أن أقوى الدلائل التي تذكر للبرهنة على تأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية، هو ما يتعلق بالأبحاث العلمية التي قام بها العلماء الذين رافقوا الحملة المذكورة.

في الواقع أن نابليون كان استصحب معه إلى مصر، جماعة من رجال العلم والاختصاص. وكان على رأسهم الكيميائي الشهير «برتوله» والرياضي العظيم «مونج» وكان بينهم الطبيعي اللامع «جوفروا سانت هلير» والمعدني المشهور «دولومييو».

وقد قام هؤلاء العلماء – بجانب الخدمات التي قدموها إلى الجيش – بأبحاث علمية هامة، تناولت جميع أحوال القطر المصري. كما أنهم دونوا نتائج أبحاثهم هذه في مؤلف ضخم، عنونوه بعنوان «وصف مصر».

وقد تألف هذا الكتاب – الذي يعد من أوابد العلم والتأليف – من متون تقع في تسعة مجلدات ضخمة، وصور وخرائط وألواح تقع في أربعة عشر مجلداً.

وكان العلماء المشار إليهم استصحبوا معهم ما يحتاجون إليه من الآلات والمخابر؛ ودرسوا وصوروا وجمعوا كثيراً من الحيوانات والنباتات والمعادن، التي شاهدوها في مصر؛ كما أنهم رسموا خرائط مفصلة ودقيقة عن مختلف أقسام البلاد التي زاروها؛ وجمعوا معلومات كثيرة عن الباقي والآثار القديمة التي لاحظوها.

وفضلاً عن ذلك فإنهم ألفوا لجاناً علمية عديدة وأسسوا مجمعاً علمياً – على غرار المجمع العلمي الفرنسي في باريس – أسموه باسم معهد القاهرة.

فيحق للفرنسيين أن يباهوا بهذه الأعمال والأبحاث العلمية كل المباهاة. يحق لهم أن يقولوا: إن الحملة التي قادها نابليون إلى مصر، لم تنجح النجاح المأمول منها، بل انتهت بفشل تام من الناحية السياسية، ولكنها أثمرت ثمرات يانعة من الوجهة العلمية؛ لأنها ضمنت لفرنسا موقعاً ممتازاً في جميع العلوم المتعلقة بمصر وبأحوال مصر.

يحق للفرنسيين أن يقولوا ذلك، وأن يفتخروا بذلك، لأن الأبحاث العلمية التي قام بها العلماء الفرنسيون في مصر خلال الحملة النابليونية، كانت متنوعة ومهمة وثمينة جداً.

* * *

وحريات جديدة واسعة، وتتحول من مستعمرة للتاج إلى وحدة سياسية ذات استقلال ذاتي، ولكنها مع ذلك تعتبر جزءاً لا يتجزأ من مجموعة الأمم البريطانية «الكومنولث» وتعتبر من حيث الوضع الدستوري خاضعة لسلطة التاج البريطاني؛ ومصيرها سواء في الحرب أو السلم، مازال مرتبطاً بمصير انجلترا والامبراطورية أو الكومنولث البريطانية

وقد ترتب على هذا الوضع الدستوري الجديد للهند أن تقرر إلغاء «الإمبراطورية» الهندية التي أنشئت منذ سنة ١٨٧٧ أيام الملكة فكتوريا، وأصبح ملك انجلترا بمقتضاها يلقب بالامبراطور، ويلقب حاكم الهند «بنائب الملك»، وألغى هذا اللقب من بين ألقاب ملك انجلترا، ولكن الهند مع ذلك كله تبقى وحدة من وحدات «الكومنولث» البريطانية؛ ويبقى ملك انجلترا هو صاحب السلطة العليا عليها، وفي ذلك تبدو براعة السياسة البريطانية ومرونتها العجيبة، واعتدادها المأثور بالحقائق العملية، ولو اقتضى ذلك تضحية الصيغ والمظاهر النظرية.

محمد عبد الله عنان

غير أن تقرير هذه الحقيقة شيء ، واتخاذها دليلا على تأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية شيء آخر .

لأن — من الواضح الجلي — أن الأبحاث العلمية التي يقوم بها رجال الاختصاص في أي بلد من بلاد العالم ، لا تدل في حد ذاتها على حدوث تأثير فعال في نفوس أهل تلك البلاد وعقولهم ، من جراء تلك الأبحاث . فلا يجوز للباحث أن يحكم بحدوث مثل هذا التأثير ، إلا إذا تبين ذلك من درس التاريخ والتفاصيل درساً مباشراً .

صحيح ، أن العلماء قاموا بأبحاث علمية هامة خلال وجود الجيوش الفرنسية في القطر المصري ؛ ولكن هذه الأبحاث ، هل كانت ذات اتصال مع المصريين ؟ وهل أثرت فيهم تأثيراً فعليا ؟ وهل أوجدت في مصر حركة فكرية مماثلة لها ، أو ملهمة منها ؟ .

فنحن ، مهما تعمقنا في درس أحوال مصر — خلال احتلال الجيش الفرنسي وبعد جلائه — ومهما توسعنا في استعراض ما كتبه المعاصرون عن تلك الحقبة من التاريخ المصري ، لا نستطيع أن نعثر على أي دليل يخولنا الإجابة على هذه الأسئلة بالإيجاب ، ويحملنا على التسليم بوجود علاقة فعلية بين هذه الأبحاث العلمية والنهضة المصرية .

ومما تجدر ملاحظته في هذا الصدد ، أن الكتاب الضخم الذي دون نتائج أبحاث هؤلاء العلماء — كتاب « وصف مصر » المشهور — لم يطبع وينشر إلا بعد مرور سنوات عديدة على انتهاء الحملة بالفشل المعلوم ؛ فإن الطبع لم يبدأ إلا بعد مرور ثمان سنين ، ولم يتم إلا بعد مرور نحو ربع قرن ، لأن المجلد الأول من الكتاب المذكور طبع سنة ١٨٠٩ ، وأما المجلد الأخير منه ، فلم يطبع إلا سنة ١٨٢٥ .

وفضلا عن ذلك ، فإنه مما لا مجال للشك فيه ، أن هذا الكتاب الضخم ، لم يستفد منه أحد من المصريين إلا بعد مرور عدة عقود من السنين .

فالقول — مع كل ذلك — بأن هذه الأبحاث والأعمال العلمية ، كان لها التأثير الفعال في النهضة المصرية مما لا يؤيده أي دليل كان .

ومما يجب الإشارة إليه : أن المؤرخين الفرنسيين أنفسهم يعترفون بأن المصريين لم يقدروا أهمية هذه الأبحاث العلمية إلا بعد أن مات جميع العلماء الذين كانوا قاموا بأعبائها[1] .

في الواقع نحن نعلم أن العلماء الذين رافقوا الحملة كانوا يدعون أحياناً بعض المصريين — ولا سيما الموظفين منهم — إلى زيارة مقر أعمالهم ؛ وكانوا يطلعونهم خلال هذه الزيارات على الآلات التي أتوا بها والصور التي رسموها ، والحيوانات التي حنطوها . كما أنهم كانوا يقومون أمامهم ببعض التجارب العلمية أيضاً .

فيجدر بنا أن نتساءل : ما هي الانطباعات التي كانت تتركها أمثال هذه الزيارات في نفوس هؤلاء الشاهدين ؟

إننا نجد جوابا بليغاً لهذا السؤال ، فيما كتبه في هذا المضمار ، الشيخ الجبرتي الذي كان من موظفي الديوان . ومن المعلوم أن المومأ إليه كان كتب يومياته بعنوان « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ؛ وهذه اليوميات تشهد بأنه كان ذكيا ، دقيق الملاحظة وواسع الاطلاع .

فلنقرأ بإمعان ما كتبه الجبرتي عن التجارب التي شاهدها هناك :

« ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان ، أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً في كأس ، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى . فعلا الماء ، وصعد منه دخان ملون ، حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر . فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه .

(١) F. Charles-Roux : Bonaparte gouverneur d'Egypte-page 187

« ثم فعل كذلك بمياه أخرى ، فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتيا .

« وأخذ مرة شيئاً قليلا جداً من غبار أبيض ووضعه على السندال وضرب بالمطرقة بلطف . فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة ، انزعجنا منه فضحكوا منا .

« وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ، ضيقة الفم . فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص . وأدخل معها أخرى على غير هيأتها . وأنزلها في الماء وأصعدها بحركة انحبس بها الهواء في إحداهما . وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة إليها في الحال ، فخرج مافيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضاً .

وغير ذلك من أمور كثيرة وبراهين حكمية ، تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع .

ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر بملاقاة أدنى شيء كثيف . ويظهر له صوت وطقطقة . وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفا متصلا بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة . ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه ، أو شيئا متصلا به ، حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفاً أو أكثر .

« ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ، ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا[1] » .

يظهر من إنعام النظر في هذا الوصف الدقيق ، أن التجارب الأولى المذكورة فيه تجارب كيميائية تتعلق بتكون الأملاح وتفاعلها . ومن المعلوم أن « برتولة » اشتهر بدرس هذه التفاعلات واكتشاف قوانينها . ولا تزال القوانين المذكورة تعرف باسمه . وتسمى « قوانين برتولة » .

(١) — الجبرتي — عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ٣ ص ٣٧ .

وأما التجارب الأخيرة فهي تجارب كهربائية تقتضي توليد الكهربائية الساكنة من طريق الحك بالدوران ، ثم تفريغ تلك الكهربائية بصور شتى ، وفي الأخير إظهار تأثير هذا التفريغ في جسم الإنسان .

وأما التجربة التي تتقدم هذه التجارب الكهربائية ، فمن الواضح الجلي أنها تتعلق باشتعال الهيدروجين .

يلاحظ من هذا الوصف ، أن الجبرتي قد شاهد هذه التجارب بعيون « الرجل الدقيق » الذي ينتبه إلى جميع التفاصيل ، ولكنه لا يعرف شيئاً من مبادئ العلوم الضرورية لتفسير ما شاهده بالبيان . إنه شاهد هذه التجارب مشاهدة « المتفرج المتحير » الذي يشاهد لأول مرة الأعمال الخارقة للعادة التي يقوم بها بعض المشعوذين في بعض الصالات أو على بعض المراسح ، لأنه أنهى وصفه لهذه المشاهدات بقوله : « لا يسعه عقول أمثالنا » .

إني أعتقد أن هذه الكلمة التي صدرت من قلم رجل مثقف ومفكر مثل الجبرتي — بعد هذه الأوصاف الدقيقة — لا تترك لزوماً لأي تعليق أو تفسير .

وأرى أن الذين يزعمون وجود علاقة بين الأبحاث العلمية التي قام بها علماء الحملة الفرنسية وبين النهضة المصرية لا يستندون إلى أي دليل معقول .

* * *

قضية المطبعة العربية :

كثيراً ما يشير المؤلفون والمدرسون — في صدد البرهنة على تأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية — إلى أن الحملة المذكورة أدخلت إلى مصر أول مطبعة عربية ؛ ويزعمون بأنه قد ترتب على ذلك نتائج ثقافية خطيرة .

وبينهم من يبرز هذا البرهان بقوله : « إن هذه المطبعة صارت أساساً لمطبعة بولاق الشهيرة » ويرجع بذلك فضل تأسيس المطبعة الأميرية المصرية أيضا إلى الحملة الفرنسية .

غير أن هذه القضية تحتاج إلى البحث والتأمل بصورة جدية .

أولا : يجب أن يلاحظ أن المطبعة المذكورة كانت فى حقيقة الحال آلة من آلات السيطرة والاستعمار ؛ نقلت إلى مصر بغية طبع المناشير والأوامر والتنبيهات التى توجه إلى الناس ، ولم يطبع رجال الحملة بهذه المطبعة شيئاً يفيد العلم والثقافة فى البلاد .

ثانياً : أن الذين زعموا « أن المطبعة العربية التى أتت إلى مصر مع الحملة الفرنسية بقيت فى مصر بعد جلاء جيوش الحملة » وأنها « صارت بعدئذ أساساً لمطبعة بولاق الشهيرة فى عهد محمد على الكبير » لم يستندوا — فى زعمهم هذا — إلى أى أساس صحيح .

فكل الوثائق تدل بصراحة على أن المطبعة المذكورة لم تبق فى مصر ، بل إنها أعيدت إلى فرنسا — مع الجيش ومعداته — عند الجلاء [1] .

وأما مطبعة بولاق ، فمن المؤكد أنها جلبت فى عهد محمد على من إيطاليا ، على يد شاب عربى مقدام ، وهو « نيقولا مسابكى » من أهل بيروت [2] .

ولهذه الأسباب والملاحظات ، أنا لا أرى أى مبرر كان ، لذكر « مطبعة الحملة العسكرية » بين العوامل الفعالة فى النهضة المصرية .

* * *

وفضلا من ذلك ، هناك حقائق ثابتة أخرى ، لا يجوز أن تغرب عن البال ، فى هذا المضمار :

إن المطبعة المذكورة لم تكن أول مطبعة تطبع بالحروف العربية ؛ ولا كانت أول مطبعة تطبع باللغة العربية . فإن الطباعة العربية كانت قد خرجت إلى حيز الوجود — فى أوربا — منذ عدة قرون . حتى إن نابليون نفسه كان نقل المطبعة المذكورة من روما ؛ كما أن القائم على المطبعة كان من أبناء العرب المقيمين فى روما . إنه كان من أهالى ديار بكر ؛ وأما اسمه فكان فتح الله . .

(١) ابراهيم عبده — تاريخ الوقائع المصرية — ص ١٤

(٢) — إبراهيم عبده — ص ٢٠

ومن المؤكد أن المطبعة العربية التى تأسست فى روما بدأت تطبع كتباً عربية منذ سنة ١٥١٤ على أقل تقدير .

وقد طبعت المطبعة المذكورة ، خلال القرن السادس عشر ، عدة كتب علمية ، علاوة على الكتب الكثيرة المتعلقة بالديانة المسيحية . وكان من جملة هذه الكتب : الكافية لابن الحاجب ، والقانون فى الطب لابن سينا ، وتحرير أصول الاوقليدس فى الهندسة لنصير الدين الطوسى . .

ولا مجال للشك فى أن هذه الكتب المطبوعة كانت ترسل إلى الأسواق الشرقية ، وتباع فيها . .

ومما يؤيد ذلك ، أن التواريخ العثمانية تذكر فرماناً صادراً من السلطان مراد الثالث — بتاريخ سنة ست وتسعين وتسعمائة هجرية ، أى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بعد الألف ميلادية — بأمر الولاة والقضاة والحكام والأمراء — فى جميع أنحاء السلطنة — بإباحة توريد وبيع « الكتب المتبرة المطبوعة بالعربية أو الفارسية » [1] .

وكان هذا الفرمان قد صدر بناء على عريضة قدمها التاجران المسميان « برانتون » و « أوراسيووالدبانديني » .

ومما يجدر بالذكر أن نص هذا الفرمان مطبوع فى ذيل « كتاب الهندسة » الآنف الذكر . ويستفاد من غلاف الكتاب [2] أنه طبع فى روما سنة ١٥٩٤ ميلادية ، أى قبل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر ، بمدة تزيد على قرنين كاملين !

وأما فى القرن السابع عشر ، فقد زاد عدد المطابع العربية فى مختلف البلدان الأوربية ؛ ومن المؤكد أنه كان يوجد عندئذ أمثال هذه المطابع فى البندقية ، وليدن ، وفينا أيضاً .

* * *

هذا ، ومما تجب الإشارة إليه — علاوة على كل

(١) Selim Nuzhet gerçek : Türk matbaacılığı page 23.

(٢) صورة فوطوغرافية idem 8 in ci vesika

ما سبق — أن الطباعة بالحروف العربية كانت دخلت عاصمة الدولة العثمانية أيضاً ، قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ، بمدة تقرب من ثلاثة أرباع القرن .

وكان بين الكتب التي طبعتها أولا « دار الطباعة » المؤسسة في « البلدة الطيبة قسطنطينية ، صانها الله من الآفات والبلية » المعجم المعروف باسم « صحاح الجوهري » وقد تم طبع الكتاب المذكور — مع ترجمته إلى التركية — سنة ١١٤١ هجرية أي ١٧٢٩ ميلادية .

وكان بين الكتب التي طبعت في السنة التالية « تاريخ » عنوانه « درة اليتيمة في أوصاف مصر القديمة » وضمه « التسهيل » من كتاب « ديوان مصر القاهرة »(١) وقد طبع هذا الكتاب — مع رسالة مذيلة له بقلم المؤلف نفسه عن « تاريخ مصر الجديدة » سنة ١١٤٢ هجرية المقارنة لسنة ١٧٣٠ ميلادية .

ومن المؤكد أن السفارة الفرنسية نفسها كانت أسست في القسطنطينية مطبعة تطبع بالحروف العربية ، قبل الحملة الفرنسية على مصر ، بمدة غير قصيرة . وقد طبعت المطبعة المذكورة — سنة ١٧٨٦ — كتاباً بالعنوان التالي :

« أصول المعارف — في ترتيب الأوردو — وتحصينه موقتاً — من تأليف مهندس دي لافيت قلاده المرسل — من طرف فرنسا لدولة العلية — العثمانية والمعلم في الهندسخانة — الكائن بدار السلطنة السنية » .

ويلاحظ على غلاف الكتاب عبارة تصرح بأنه طبع « بدار الطباعة الكائنة في بيت ايلچي دولة الفرنساوية — في قسطنطينية — سنة ١٢٠١ »(٢) .

* * *

وفي الأخير ، يجب أن يلاحظ أن الطباعة كانت دخلت البلاد العربية نفسها ، قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ، بمدة طويلة .

فكان يوجد مطبعة عربية واحدة في حلب ، وأخرى في الشوير .

وبعض المكتبات العامة تحتفظ بإنجيل عربي مطبوع في « مدينة حلب المحمية . سنة ألف وسبع مائة وستة مسيحية » .

ويظهر من ذلك أن المطبعة التي أتت بها الحملة الفرنسية إلى مصر ، لم تكن أولى المطابع العربية ، حتى في البلاد العربية نفسها .

ومما يجدر بالذكر في هذا الصدد ، أن « فرانسوا شارلرو » الذي ألف كتاباً عن حكم نابليون في مصر ، يعترف بذلك صراحة ، إذ أنه يقول — عندما يذكر زيارة بعض المصريين المطبعة التي أتت بها الحملة — :

« إن الشيخ محمد العامي الذي كان شاهد مطبعة القسطنطينية والسوريين الذين كانوا يعرفون المطبعة الموجودة في دير ماروني بلبنان .. صفوا بأن مطبعة القاهرة كانت أرقى منهما .. »(١) .

* * *

بعد سرد وتعداد هذه الحقائق الثابتة ، أعتقد أنه يحق لي أن أسأل : « ما ذا يبقى من قيمة المطبعة التي أتت بها الحملة الفرنسية إلى مصر ، من وجهة تاريخ الثقافة العربية ؟ » كما أنه يحق لي أن أقول بلا تردد :

إن ذكر المطبعة العربية التي أتى بها نابليون إلى مصر — لتنفيذ غاياته العسكرية والاستعمارية — بين العوامل الفعالة للنهضة المصرية والنهضة العربية ، مما لا يقره العقل والمنطق ، ولا تسوغه الحقائق والوقائع .. بوجه من الوجوه .

ساطع الحصري

(١) idem-page 70, 71

(٢) صورة فوتوغرافية idem-37 in ci vesika

(١) F. Charles-Roux: page 158

نحن بنى العباس

نجلس ع الكراسى !

فى مثل هذا الحر الشديد يعترى الجسم كثير من الخمول والضجر ، فلا يكاد الإنسان ينشط لحركة ، ولا يكاد يرتاح لفكر ، فلا عتب علىّ إذا كنت أنظر إلى الأمور نظرة مضطربة ، ولا أكاد أستقر فى فكرى على جادة . فالأفكار تتوارد كما تشاء ، لا كما أريد ، ولا أملك لها قياداً فى هذه السعير الموقدة .

ولقد ذهب الناس إلى شواطئ البحار ، وإلى ما وراء البحار ، ليروحوا عن أنفسهم . فياحبذا نسمة من نسائم الأصيل على جانب الكورنيش ، ويا حبذا غطسة فى مياه سيدى بشر ، ولكن هيهات ! إنما يذهب إلى تلك الربوع من يستطيع ، لا من يتمنى . والذى يمنع الكثيرين من أمثالى إنما هو أننا نجلس هنا فى القاهرة على الكراسى فى مكاتب المصالح العامة ، لكى نستقبل سيولا من أصحاب المصالح ، وسيولا أخرى من الزائرين المترددين على دواوين الحكومة يلتمسون «الوسائل» و«الوسائط» لإنجاز الأعمال ، ونسأل الله إصلاح الأحوال . وعلى ذكر الكراسى تخطر ببالى قصة يرويها أصحاب الأخبار عن الأمين بن الرشيد ، وقد كان الأمين فى صباه فتى حسنا جميلا وسيما ، وأغلب ظنى أنه كان ذكياً أريباً ، وقد ظلمه التاريخ وسود الأبيض من صحائفه ، لأنه عندما صار خليفة حارب أخاه ، فجانبه الحظ ، ورجع من الميدان بالهزيمة ، ثم ضعف أمره حتى حصر ثم قتل ، فإذا الناس كلهم ينقلبون عليه ، كما ينقلب الناس هنا على حكومات العهود الماضية . وتضافر أصحاب الأخبار على تلويث سمعته ، وتشويه أخباره ، وقلب محاسنه إلى مساوئ ، وكثيراً ما كانوا يخترعون الأكاذيب عنه ، حتى لقد صدق فيهم المثل القديم الذى يقول «ويل للمغلوب» .

أما القصة التى أقصدها فقد وردت فى كتب الأدب ، ولا شك أن كل القراء يعرفونها ، فلا حاجة بى إلى الإفاضة فى سردها . قيل إن أباه هرون الرشيد أحب أن يمتحن ذكاءه فى صباه ، فبعث إليه أستاذاً يطارحه فى الأدب ، وكان الأستاذ غير موفق فى امتحانه ، كهؤلاء السادة الذين يضعون أسئلة الامتحانات العامة فى مصر . فاكتفى بأن ألقى له مصراع بيت من الشعر السخيف ، وطلب إليه أن يبنى فوقه قصيدة بليغة . والمصراع هو : « نحن بنى العباس » .

ولا شك عندى فى أن الفتى « الأمين » نظر إلى الشيخ نظرة ازدراء عند ما سمع سؤاله ، ولو كنت أنا فى موضع الأمين لفعلت هذا ، وأحسست الغيظ يملأ قلبى ، فما بال ذلك الشيخ وأمثاله من الممتحنين يجبهون الناس بمثل هذا الأسلوب السخيف لإحراجهم من الجواب ؟ ولست ألوم الأمين على أنه أجاب على سؤال شيخه إجابة سخيفة ساخرة ، فقال له يتم البيت :

نحن بنى العباس   نجلس ع الكراسى !

ولو كان كل فتياننا أذكياء كالأمين ، ويحسون مثله لأنفسهم كرامة ، وكانوا ممن وهب الله لهم جاهاً مثل جاهه لا تخشى معه العقوبة ، وكانوا ممن وهب الله لهم نعمة النظر إلى الأمور بعين فكهة ، تنظر إلى الأمور نظرة فاحصة ، فيستطيعون إدراك ما فى أقوال الناس وأفعالهم من سخف ، ثم يردون عليها بما توحيه إليهم نفوسهم الكريمة من فكاهة ساخرة — أقول لو وهب الله لفتياننا مثل هذا لكانوا يجيبون على كثير من أسئلة الامتحانات العامة بمثل جواب الفتى العباسى الفكه .

لقد أتم الأمين البيت ، فصار من الأمثال السائرة ، فكل أديب يعرفه ويرويه : نحن بنى العباس . نجلس ع الكراسى .

ولست أدرى هل يحتوى الأدب العربى على كثير من مثل هذا البيت الذى ينطوى على سخرية مرتبة عميقة ، ثم من مثل هذا الذكاء العالى ، ومثل هذه النفس الكريمة الجديرة بسليل بيت الخلافة العظمى ؟

لقد كان الأستاذ الممتحن أولى بالسخرية وأحق بلوم أجيال الأدباء ، من ذلك الأمير الصغير الذى أجاب على السؤال السخيف ، بما يتفق وسخفه ، وما يظهر الاستخفاف به . ولكن ما علينا من ذلك ، فقد طالما ظلم التاريخ سير الناس ، ولم يكن الأمين العباسى بأول من ظلمهم ولا بآخرهم .

ومهما يكن من الأمر فقد كان هذا البيت يتمثل لى كلما رأيت قوماً من أدعياء العظمة . فكنت أكرره وأعيده لنفسى ، فأجد فى تكراره راحة ، إذ يتنفس به صدرى من غيظه . فهناك طائفة من الناس قد وهبت لهم الأقدار حظوظاً لا فضل لهم فيها . فمنهم من يولد فى لفائف الذهب ، وهو لا يسوى أن يلف إلا فى خرق من الصوف ، ومنهم من يوفقه الله إلى من يسندونه فى الحياة ، فيعلو قدره بين الناس ، وهو فى حقيقته لا يستحق إلا أن يكون تابعاً حقيراً ، ومنهم من تسخو عليه الأقدار بعنوان يكتب فوق صدره ، كما يطبع الاكليشيه على الورقة الخسيسة فتصبح ورقة مالية من فئة الجنيهات التامة ، مع أنه لو تجرد من هذا العنوان المطبوع لكان من أقل الخلق شأناً .

وهؤلاء جميعاً تتيح لهم الحياة أوسع ما فيها من الفرص ، وتقسم لهم أماكن الصدارة فى كل أنديتها ، فقد يكون منهم المصرف لشئون الناس ، وقد يكون منهم الأعيان والأقوياء ، وقد يكون منهم أصحاب الرأى والشورى ، أو أهل الحل والعقد كما يقولون .

على أن هؤلاء جميعاً مع كل ما وهبت لهم الأقدار ، وكل ما حبتهم به الحياة لا يستطيعون أن يفتوا فى الحياة شيئاً . فهم لا يحسنون إلا أن يجلسوا على الكراسى .

وليس هذا الصنف من الناس مقصوراً على بلد دون بلد ، ولا قطر دون قطر . فكل البلاد بحمد الله فى ذلك البلاء سواء . وإنما تختلف البلاد بعضها من بعض فى مقدار ما فى كل منها من هؤلاء ، فبعض البلاد يمتاز بكثرة منهم يتربعون فوق الكراسى ، وبعض البلاد يمتاز منهم بقلة صغيرة . ولست أدرى مقدار ما يلقته بلادنا العزيزة مصر فى هذا المضمار . ولكنها بغير شك لا تخلو من وجود عدد من هؤلاء الذين لا يحسنون إلا مجرد الجلوس على الكراسى . والبلاد التى تصاب بكثرة هؤلاء تكون جديرة بالرثاء . فإنهم مثل الأعضاء المصابة بالتعفن لا يقتصر ضررها على نفسها ، بل تهدد الأعضاء الأخرى بالخطر الجسيم .

فالناس جميعاً يودون لو استطاعوا أن يجلسوا فوق الكراسى الوثيرة ، لأن ذلك أسهل من العمل المضنى ، وهو بلا شك أحب من تعب القلب ووجع الدماغ . فوجود واحد من هؤلاء الذين يجلسون على الكراسى فى ديوان من الدواوين كفيل بأن يحرض الكثيرين على طلب الجلوس على تلك الكراسى ، ووجود واحد منهم فى صدر مجلس من المجالس العامة كفيل بأن يطمع الناس فى صدارة المجالس العامة . وأى شىء أحب إلى نفوس الناس من جاه بغير التعب ، ولا يكلف المشقة ؟ وأى شىء أكثر إغراء من مظهر رائع لا يبذل فى سبيله جهد قاطع ؟ إن بيت الأمير العباسى « الأمين » وثيقة تاريخية لها دلالة كبرى فى أيامنا هذه . فنحن لم نتقدم خطوة واحدة عما كان عليه حال الناس فى أيام هرون الرشيد . فإن الأمين قد خلد فى الأدب العربى سخريته اللاذعة من الذين يجلسون على الكراسى ، ولا يتكلفون فى الحياة مشقة . وها نحن أولاء فى القرن العشرين ما نزال نرى بين ظهرانينا من يتربعون فوق كراسيهم ، ولا يكلفهم ذلك الجلوس سوى الظهور بالعظمة الجوفاء .

من سمر رمضان :

محسنون

قال صاحبي :

أتيح لي في العام الماضي أن أقضي رمضان في الريف. وكان في البلدة التي أقيم فيها بيتان من البيوتات القديمة ، يتنافسان في عمل البر . كل على طريقته الخاصة . فكان أحدهما إذا آذنت الشمس بالمغيب يجمع أمام أبوابه خلق كثير من ذوي العاهات والمرضى والشيوخ والصبية العاجزين ، ينتظرون غروب الشمس ليطلع عليهم رسول رب البيت ، فيوزع عليهم ما فرضه هذا السيد على نفسه كل يوم من المال ، برّاً منه بأهل بلدته وإحساناً . أما الآخر فكانت له طريقة أخرى لم يجر بها العرف في تلك الجهات . وقد رأيت أن أقص عليك قصتها لأرى رأيك فيها . ذلك بأن رب البيت كان ينزل إلى بابه بعد العصر من كل يوم ، فيستقبل القاصدين من مساكين البلدة ومعوزيها . فأما من كان عاجزاً عن القيام بأي عمل كالأعمى والمقعد ونحوهما ، فإنه كان يأمر بدخوله إلى غرفة خاصة في الدار أعدت فيها موائد الطعام ، حتى إذا اكتمل جمعهم ، وحلت ساعة الفطور ، طعموا ثم انتشروا . وأما من كان قادراً على العمل ، فإنه كان يدخله إلى حديقة الدار الفسيحة ، حيث يكلف بعضهم بجمع الأوراق الجافة التي على الأرض ، ويكلف بعضاً بإدارة الماء لري رقعة من أرض الحديقة ، ويكلف آخرين بأمثال هذه الأعمال التافهة ، حتى إذا فرغوا منها قدم عليها أجوراً عالية لا تتفق مع نوع العمل الهين الذي قاموا به ، ولا مع الزمن القصير الذي اشتغلوه .

* * *

قلت لصاحبي :

ليس لي أن أفاضل بين عمل هذين السيدين . فإنما الأعمال عند الله بالنيات . ولكني أذكر أني فيما مضى من الزمان كنت اطلعت على أسطورة فارسية قديمة ، ما زلت أعتبرها دستوراً يصح الاحتكام إليه في شئون الإحسان .

فقد زعموا أن أميراً من أمراء طهران كان يعيش في بلدته عيشاً رغداً ، في قصره الباذخ المصنوع من الرخام النادر . وكانت تحيط بالقصر حديقة حافلة بالزهور الشذية التي تمتع العين والأنف . وكان الأمير واسع العلم ، راجح العقل ، عريض الثراء . وكان قصره يعج بالجواري الحسان الفاتنات . ولم يكن ينقصه شيء مما تتطلع إليه عادة أبصار الناس الذين يدبون على ظهر هذا الكوكب الذي نعيش فيه .

ففي صبيحة يوم من أيام الربيع خرج هذا الأمير العظيم من قصره البديع ، وأخذ يجول في طرقات المدينة ، يسرح طرفه فيما ملأ أسواقها من صنوف الفواكه المختلفة . وفيما انتثر في أنحائها من الثياب المزركشة التي كانت تتبختر فيها فتيات السوق . وفيما كان يطل عليه من أسوار الحدائق التي كان يجتازها في طريقه من الزهور العبقة . وكان يسمع

أما يحق لنا أن نجزع من أننا لم نتقدم في مدة هذه القرون الطويلة ؟ أما يجب علينا أن ننتقل في هذا العصر الديمقراطي إلى الأمام خطوة ؟

إن لكل شيء ثمناً ، وكراسي العظمة تميل لو وجدت في الحياة سوقها . فهل لنا أن نجعل للعظمة عندنا سوقاً ؟ أما من سبيل إلى تحديد تسعيرة دقيقة لأثمان الكراسي وواجباتها حتى لا يطمع فيها إلا من يستطيع أن يؤدي ثمنها ، ومن يقدر أن يملأها ، ويقوم بحقوقها ، ويؤدي واجباتها ؟

يقولون في المثل الفرنسي : « إن النبل له أعباء » Noblesse oblige ، وما أحرانا أن نترجم هذا المثل قائلين : إن الكراسي حقوقها على من يستوي عليها .

محمد فريد أبو حديد

لقطرات الماء الصافية التي كانت تتساقط في أحواض النافورات حوله ، موسيقى كلها عذوبة وطرب .

وبلغ من انتشاء الأمير بكل هذه المباهج أنه وقف في وسط السوق ، وملأ رئتيه بنفس عميق من هوائه الطيب ، وأوشك أن يصيح هاتفا : يا لجمال هذه الدنيا ! ويا لفتنة هذه الحياة !

ولفتت نظره في الطريق صبية صغيرة ، ذهبية الشعر ، باسمة الثغر ، تلبس رداء من الحرير الأبيض ، ترفل فيه كأنها ملاك صغير نزل إلى الأرض . فشاق الأمير منظرها البريء ، وجمالها النوراني . فانحنى عليها وقبلها في خديها الورديين . ثم أخرج من جيبه الواسع قطعتين من الذهب الخالص ، وأودع قطعة في كل يد من يديها الصغيرتين . وانصرف مزهواً مسروراً يقلب نظره في مباهج الطريق .

وبعد أن سار الأمير خطوات قليلة ، صادفه غلام مسكين يتعثر في ثياب مهلهلة . وقد ذهبت أقذار وجهه بنور محياه الصغير ، وانطفأ بريق عينيه من أثر الجهد والفقر . فلما رأى الغلام أنه في حضرة هذا السيد العظيم ، نازعته نفسه في حركة آلية إلى أن يتقدم منه ، ويمد يده إليه بالسؤال . ولكن الأمير صدمته هذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها في تلك الساعة . وارتد إلى الوراء كما لو كان قد أحدق به شيء من الخطر . ولكن الغلام قال له في صوت هين وديع : إنه يتيم مات عنه أبوه ، وإن أمه طريحة الفراش . وإن له إخوة سبعة صغاراً لم يذوقوا الطعام منذ حين . فعبثت أصابع الأمير بالدنانير الكثيرة التي كانت تملأ جيبه الواسع ، وأخرجت منها واحدا ألقته في راحة الغلام التي ظلت ممدودة وهو يروي للأمير قصته القصيرة الموجعة ، وانصرف كل منهما إلى سبيله .

وبعد خطوات أخرى سارها الأمير وهو شارد الفكر ، تنبه إلى شيخ محطم أقعدته الشيخوخة عند منعطف الطريق . وكانت لحيته الداكنة تحيط بوجهه المتجعد كأنها الرقعة القذرة . أما عيناه فكانتا منتفختين ، وقد خلت أجفانهما من الرموش ، فبدتا كما لو كانتا تينتين زاد عليهما النضج . فما إن لمح الشيخ هذا الأمير الخطير في أثوابه الزاهية الزركشة حتى مد يده إليه يسأله الإحسان . فجفل الأمير لسوء منظره المنكر الكريه . ولكنه عاد فأخرج من جيوب عباءته الفضفاضة قطعة من الفضة ، ورمى إليه بها ، فسقطت بعيدا عن متناول يد الشيخ المسكين ، حتى إنه اضطر إلى الزحف قليلا ليدرك مكانها الذي سقطت فيه .

وانطلق الأمير في طريقه ، وهو يسير منكس الرأس . ولكنه ما كاد يسير خطوات أخرى حتى رأى نفسه تجاه والدة تعسة ، تحمل على كتفها وليدها الأشوه ، وقد سارت به كسيرة ذليلة كالهرة الجائعة الخائفة . فما إن وقع بصرها على الأمير حتى تعلقت آمالها به . فأخذت تتوسل إليه أن يتصدق عليها . ولكن الأمير أسرع في طريقه ، وقد قذيت عينه بمنظر القروح التي كانت تغطي وجه الطفل . على أن الأم ظلت تلاحقه وتلحف عليه في السؤال ، فدفع يده في جيوبه الداخلية حتى اهتدى إلى بعض القطع النحاسية ، فقذف بها نحوها وانصرف عنها على عجل .

ضاق صدر الأمير لكثرة ما لاقى في طريقه من ضروب التعاسة . وسار موجع القلب حزينا . ولكنه ما لبث أن رأى في الجانب الآخر من الطريق جذع رجل مستنداً إلى جدار قذر ، وقد خلا هذا الجذع من الأطراف . فقد كان هذا الشقي مبتور اليدين والرجلين . ومع ذلك فإنه كان ينشد بعض الأناشيد بصوت منكر أجش . فتوقف الأمير لحظة من فرط الدهشة . ولكنه لما لاحظ أن الرجل كان منه في شغل ، وأنه لم ينتبه لمروره ، تظاهر هو الآخر بأنه لا يراه ، واستمر في طريقه عائداً إلى قصره ، ولكنه كان قد بلغ الضيق به منتهاه ، حتى لقد أوشك أن يصيح : يالهذه الشمس المحرقة ! إن السير في الطريق أصبح لا يطاق .

* * *

فى ذلك اليوم ما كاد الأمير يأوى إلى قصره ، ويستجم وسط تحارفه المصفوفة وزرابيه المبثوثة ، ويسترد شيئاً من هدوء نفسه حتى أمر بخادمه ، فلما مثل بين يديه قال له :

— عد إلى الطريق الذى رجعت منه إلى القصر ، فسيقابلك فيه متسول هرم ، فأعطه هذه القطعة الذهبية . وسترى امرأة فقيرة ترضع ولدها فأعطها هاتين القطعتين . وفى الجانب الآخر من الطريق ستصادف رجلا مبتور اليدين والرجلين ، فأعطه هذه القطع الثلاث .

ومنذ ذلك اليوم كان الأمير كلما أراد الخروج بعث بغلامه إلى الطريق الذى سوف يسلكه ليوزع على جميع من فيه من المتسولين والمساكين شيئاً مما يحمله من النقود ثم يأمرهم أن يتواروا حتى لا يراهم سيده .

* * *

وارتاح الأمير لهذه الطريقة ، وتوسع فيها . ولم يكن يجهده ما يدفعه من المال فى سبيل مواساة المرضى ، ومساعدة المعوزين . بل إنه ضاعف إحسانه حتى شمل كل محتاج ، وحتى أوشكت (طهران) أن تقفر من ذوى الحاجات ؛ فكان يوزع المال والطعام على الفقراء ، وأنشأ فى طبقات قصره السفلى مستوصفاً لرعاية الأطفال ، وآخر لرعاية الأمهات ، وثالثاً للشيوخ والمسنين . واستنفدت به هذه النوبة من الإحسان ، حتى لقد أنفق طائعاً راضياً أكثر من تسعة أعشار ثروته . وقد جاءه رجاله يوماً بامرأة قالوا إنها تظاهرت بالمرض لتنال من إحسانه بهذه الوسيلة غير المشروعة ، فنهرهم قائلا :

— دعونى لأعيش فى هدوء وسلام . إنى ليس لى من الناس إلا ظاهرهم . ولا شأن لى بالبحث عن حقائقهم . والله سبحانه وتعالى يتولانا جميعاً بعطفه !

وعاش الأمير بعد ذلك فى حالة هدوء نسبى . إذ لم يكن يعكر صفوه فى الطريق منظر المرضى والتعساء . ولم يكن هو من جانبه يزور مستوصفاتهم التى أنشأها لهم خصيصاً فى قاعات قصره . وانصرف من حدائقه وجواريه إلى تدبير أمور أولئك المساكين الذين أصبح يعج بهم قصره الجميل ، وسرح كثيراً من خدمه ورجال حاشيته ليقتصد المال اللازم لرضاه . كما طرد الأدباء والشعراء الذين كانوا يزينون بلاطه ولا يزالون يتزعمون بمدائحه كل صباح حتى يوفر لمساكينه حاجاتهم .

ولما خرج ذات يوم إلى الطريق — وقليلا ما كان يفعل ذلك فى أخريات أيامه — أحاطت به جموع رعيته يهتفون بحياته ويجثون على قدميه ويقبلون أطراف ردائه ليعبروا له من شكرهم على ما أسداه إليهم من خير جزيل ، وقالوا إنهم لم يسمعوا قط من عهد آبائهم وأجدادهم بأن الله وهب طهران أميراً فى مثل بر أميرهم الحالى وإحسانه .

ولكن الأمير لم يرتح لهذه المظاهرة . وعاد إلى قصره مسرعاً ، وكأنما أغضبه أن يستمع للناس وهم يعترفون بجميله .

ولزم الأمير قصره وعاش فيه وحيداً فريداً بعد أن تخلص من بقية حشمه وخدمه . واعتكف فى فراشه ، لم يحتفظ من كل نعيمه السابق المريض ، بغير جارية واحدة — واحدة فقط — لم يكن يتجاوز عمرها ستة عشر عاماً ، وكان يكتفى من خدمتها إياه بأن تنظر إليه بعينيها الداعتين الفاتنتين !

وعندما انتهت أيام الأمير على ظهر هذه الدنيا ، وقبضت الملائكة روحه سار فى تشييع جثمانه جميع أهل طهران وهم يبكونه ويترحمون على عهده .

* * *

أما فى السماء حيث صعدت روحه فقد جرت الأمور على نحو آخر . فقد جلس الإله « أرمز » على عرشه . وحينما مثلت بين يديه روح الأمير لتؤدى حسابها عما صنعته فى

الدنيا وجه إليها سؤاله التقليدي الخالد الذي يستقبل به كل روح :

— من أنت ؟ وما كانت أعمالك على الأرض ؟

فأجاب الأمير في لهجة دبلوماسية متواضعة :

— أنا عبدك يا مولاى — أمير طهران — لقد كنت رجلا شغفا يستهوينى الجمال فى كل صوره . ولكنى لم أغفل عن عبادك التعساء . فحاولت أن أسعدهم ما استطعت وأنفقت فى سبيل ذلك تسعة أعشار مالى واحتفظت لنفسى بعشر مالى فقط !

فقال الإله أرمز :

— حقا لم تكن رجلا شريرا ! فكثيراً ما أخذتك الشفقة على عبادى الضعفاء . ولكنى لن أدخل روحك نعيمى هذه المرة . وسأردها إلى الأرض فى جسم شخص آخر لتعيش من جديد ، لعلها تكفر عن ذنوبها وتعلم كيف يكون الإحسان !

فدهش الأمير لما سمع وقال :

— أى ذنب يا إلهى ذلك الذى تريدنى أن أكفر منه ؟ ألم تعلم أنى تخليت للفقراء عن مالى وأنى آويت المرضى فى قصرى وأنى ضحيت بعاشيقى وشمرانى لأمد مشروعات إحسانى بالمال ؟

فقال الإله :

إنك تخادع نفسك أيها الأمير المتعجرف . لقد كان صدرك يضيق بمنظر البؤساء ، وكانت عيناك تتأذى رؤية المرضى . فاحتلت على الخلاص من هذا الضيق بالإحسان . إنك كنت تفكر فى نفسك طول الوقت ولم تكن تفكر فى الآخرين . وكان إحسانك هو الفدية التى افتديت بها هدوء نفسك وراحتها . لقد بلغ اشمئزازك من الفقراء حدا جعلك لا تقوى على مواجهتهم حتى حين يمرون بك من اعترافهم بجميلك . إنك كنت تكره رؤيتهم ، فاشتريت بمالك وسائل إبعادهم من طريقك . ومن أجل أن تتعلم كيف يكون البر قررت أن أردك إلى الأرض لتكون لك فيها كرة أخرى .

ولكن يا مولاى . .

وقبل أن يكمل الأمير كلامه اختفى الإله فى سماواته واختفى روح الأمير .

* * *

فى زاوية مظلمة من زوايا « طهران » ولد بعد ذلك طفل صعلوك من أبوين معدمين . وقضى سنوات طفولته فى عيش خشن لم يكن يلقى فيه إلا الكفاف . وكثيرا ما كان يضربه أبواه ومعلمه الذى كان يتعلم عنده حرفة المستقبل التى كان يرجو من طريقها أن يكسب قوته . ولما شب شب فقيرا ، ولكن كانت تحليه بعض صفات الفقر فإنه كان أميناً صاحب إيثار ويحسن الخضوع لرؤسائه .

وإذ رأى نفسه وحيداً تزوج ، ولكنه لم يقو على سد نفقات أسرته بسبب تعطله المستمر من العمل . فمات زوجته ثم مات طفلاه من فرط الجوع والبؤس . واضطر إلى أن يشتغل يوما فوق (سقالة) عالية فسقط من فوقها . وتحطمت ساقاه . وأصيبت بالشلل إحدى ذراعيه . فأصبح عاجزا حتى عن كسب قوته بطريق العمل المشروع ، ولم يجد بداً من مد يده للسؤال حتى يحول دون أن يموت جوعا .

* * *

وكان إلى جانب الركن الذى اعتصم فيه صاحبنا ليتلقى الإحسان من المارة كوخ صغير متهدم تسكنه فتاة فقيرة ، كثيراً ما كانت تعطف عليه . فتقصد إليه كل صباح لتغسل له وجهه ، وتصلح من ثيابه ، وتقدم له ما تستطيع تقديمه من الطعام ، ثم تذهب للسعى وراء عيشها .

وفى ذات يوم جلس كعادته يتبع المارة ببصره ، ويلحف عليهم فى السؤال قدر ما يطيق ، ليكفل لنفسه رزقاً يتابع به العيش ، فمر به رجل غنى ، وألقى نحوه قطعة ذهبية ، وهو يحاذر من بعيد أن تلمس أثوابه الحريرية أسمال هذا التعس أو أن تتسرب روائحه الكريهة

إلى أنفه العطر . وكان اشمئزاز هذا الغنى وهو يقدم صدقته ، بحيث أثار فى نفس صاحبنا ذكريات قديمة . وفى هذه اللحظة سمع الإله أرمز لهذا البائس أن يعلم أن روح الأمير قد حلت فيه ، وأن هذه هى الدورة الجديدة التى أراد له الإله أن يمر بها ليشعر بفظاعة هذا النوع من الإحسان . وليرى وليتذوق بنفسه أن الحسنة المؤذية التى تجرح شعور الفقير من حق صاحبها أن يحاسب عليها فى الآخرة حسابا عسيراً بدل أن يؤجر عليها ، أو تدركه رحمة الله بسببها .

وفى صباح اليوم التالى حين أقبلت عليه جارته لتغسل جراحه وتصلح شأنه ، تأملها فإذا هى تقوم بعملها هذا بإخلاص ومحبة ، وعطف لا يشوبه تدمر ولا احتقار ، وأحس أنها لم تكن تتأفف حتى من منظره الكريه الذى كان لا مطمع فيه ، ولاسيما لمن كان فى مثل شبابها . فعرف كيف يكون الإحسان المنزه عن الأغراض ، والبر المبرأ من الشوائب . وانتظر حتى فرغت من تضميد جروحه ، ثم أقبل على يدها يقبلها ويبكى ، وهى تضمه إلى نفسها فى عطف ورفق .

وفى ذلك المساء عندما أسدل الليل على الخلائق سدوله عطف «أرمز» على هذا التعس ، فبعث إليه من قبض روحه .

* * *

— من أنت ؟ وما كانت أعمالك على الأرض ؟

— أنا يا مولاى عبدك الذى علمتنى كيف يجب أن نعين الفقراء على فقرهم ، وكيف يجب أن لا تدرجهم الظروف لو أنها أحاطت بنا لتعرضنا لمثل ما له يتعرضون . وكيف يجب على الغنى أن يحب الفقير على الأقل لطاعته ، ولخضوعه وقناعته . وكيف أن العطف والمودة أجدى فى إسعاد البائس من أكداس الذهب وقناطير الفضة . وأن الجود كل الجود ، فى عليائك شىء هين : وجه بشوش وكلام لين ! !

فتبسم الإله ضاحكا من عبده . وقال :
لا بأس بهذا ! أدخل أيها العبد نعيمى !

محمود جبرول

١ – صمت جاك فارجيون

كان الكاتب الروائى الفرنسى پول بورجيه علما من أعلام الأدب الفرنسى فى الربع الأول من هذا القرن ، وقد اشتهر بالرواية النفسية التى تقوم على وصف العواطف وتحليل المشاعر ، وتعارض الرواية الواقعية أو الطبيعية التى تعتمد على الوصف الخارجى .

ويغلب على بورجيه التعمق فى التحليل ، ونفاذ النظر ، واستنباط النظريات الفلسفية ، والآراء الاجتماعية ، وقد يعجب الإنسان بما يظهره بعض الروائيين من المهارة فى تناول الحبكة الروائية والسرد القصصى ، ولكنه يحس وراء ذلك تفاهة الموضوع ، وسطحية الآراء . أما پول بورجيه فهو أبعد ما يكون عن التفاهة والإسفاف ، فهو على الدوام عميق الملاحظة ، فلسفى الرأى ، طب بالنفس الإنسانية والقلب البشرى ، قوى القبضة على موضوعه ، بارع اللمسات ، ثابت الخطوات ، غزير المادة ، واسع الآفاق .

والأقصوصة الآتية تبين جانباً من خصائصه ولون أدبه ، وهو يثير فيها مسألة هل يذيع الرجل سر امرأة أو يحتفظ به ويبقيه على الكتمان ؟ ولكلا الجانبين مدافعون ومحبذون ، ولو أن جاك فارجيون صارح صديقه الحميم لوشيان بما كان يعلمه من خطيئة زوجته لأغرق سعادة صديقه وسلبه الطمأنينة والمثالية التى كان ينعم بها ، ويسترخى فى ظلها ، ولكنه آثر الاعتصام بالصمت ، ورضى أن يفقد صديقه فهل كان على حق ؟

وقد كان لوشيان كلبرياك يعيش فى جنة النفلة ، وكان يمكن أن يتبدد وهمه فى لحظة من اللحظات ، وينتقل من عالمه الخيالى إلى العالم الواقعى . والآن أترك بورجيه يروى الأقصوصة من لسان أحد أصدقاء الصديقين الحميمين :—

أراد القدر أن أكون بكليرمون فيران — تلك المدينة القديمة فى مقاطعة أوفرن التى تصرمت بها طفولتى — فى عقب موت لوشيان كلبرياك أقدم أصدقائى ، وبالرغم من اختلاف سبلنا فى السنوات الأخيرة فقد دفعتنى ذكريات صداقة خمسة عشر عاما القوية النضرة إلى تشييع جنازته .

ولقد كان أحد الفكهين الذين يميلون إلى الدعابة الحزينة يعلل غيابه من مثل هذه الحفلات المهيبة بقوله : « فى نيتى أن لا أحضر سوى جنازات معارف الذين يحضرون جنازتى » . ومما يثير الأسف أننا حينما نصل إلى سن معينة نوارى فى الثرى جزءاً صغيراً من نفسنا عندما نقف إلى جانب قبر صديق من أصدقاء الطفولة .

وقد زادت هذه الفكرة الحزينة الشعور بالعزلة الذى أثاره فى نفسى الجمع الحاشد من الغرباء ، وقد عاش لوشيان كلبرياك فى ريوم بعد أن اشتغل بالمحاماة ، وبالرغم من أنى كنت مثابراً على زيارته حينما كنت فى أوفرن ، فقد كان أصدقاؤنا المشتركون قليلين .

ولذا شعرت بالارتياح حينما لمحت بين الوجوه الغريبة صديقاً آخر من أصدقاء الدراسة ، وكان قد التحق بالجيش واعتزل الخدمة برتبة كولونيل ، وأقام فى باريز ، وكنت من الحين إلى الحين أصادفه فى النادى أو فى بعض الاجتماعات والحفلات ، وكان اسمه جاك فارجيون ، وتذكرت أنه كان هو وكلبرياك صديقين متحابين متلازمين ، وكنت أرى أنه من المناسب أن يكون بالكنيسة لو لم أكن قد علمت من كلبرياك نفسه أنهما قد تشاجرا وفسد ما بينهما فساداً لا يرجى زواله .

وحينما ذكرت اسمه لوشيان فى عرض الحديث قال لى : أرجو منك ألا تذكر لى اسمه مرة ثانية ، لقد أساء إلى إساءة لا تغتفر ، وقد أصبح غير موجود فى مجال اهتمامى .

وقد علمتنى الحياة من زمن طويل ألا أسأل الناس عن أحوالهم الخاصة والتماس الثقة التى لم تمنح باختيار وبغير تكلف ، فضلا من كونه عملا خاليا من التبصر قد يتكلف

جرحاً لم يكد يندمل ، ومن المحتمل أن يكونا قد اصطلحا أخيراً ، ولما كانت مدينة إسوار موطن فارجيون فلا شك في أنه كان له بها أقارب ، وفي أثناء إقامته عندهم سمع بموت كليرباك وجاء وفاء بحقوق ذكرى تلك الصداقة ، وبعد انتهاء الصلاة حينما اصطف الحاضرون لتقديم العزاء لأرملة المتوفى لاحظت أن فارجيون بدلا من أن ينضم إليهم قد اتجه نحو باب الكنيسة ، فقصدت إليه ورأيت عينيه مغرورقتين بالدموع ، ولم أدهش لرؤيته ، وهو كذلك تلقى حضوري بهدوء .

وسألته : أجئت لتتحدث إلى مدام كليرباك ؟ .

فقال في اقتضاب : لا .

— أتريد اللحاق بالقطار التالي الذاهب إلى إسوار ؟ .

— لا ، إني ذاهب إلى المقبرة .

— سأذهب معك . أتنتظرني ؟ .

فقال : نعم أنتظر .

وأدهشني العنف المكظوم الذي تحدث به ، كما أدهشني رفضه تقديم كلمات العزاء العادية لأرملة المتوفى .

ولا بد أن مدام كليرباك كانت امرأة غيداء قسيمة ، وقد عرفت جاك فارجيون وهو ضابط ثانٍ في مدينة ريوم ، فهل حدث بين هذين الاثنين شيء يستوجب العداء الأصم والخصومة الفداء ؟ وهل أثارت الجنازة ذكرى مرة أليمة في نفس صديق كليرباك ؟ وبينما كنا سائرين إلى المقبرة ازددت يقيناً من أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث ، وأحسست وجود سر خفي في الموضوع .

ووقف فارجيون عند أبواب المقبرة كما وقف عند باب الكنيسة بضع دقائق قليلة وقال : سأنتظر ذهابك ، وستجدني هنا حينما تعود .

فسألته : أتتناول الغداء معي ؟ سنتحدث عن لوشيان .

— أشكرك .

ولا تزال ذكرى تناولي الغداء مع فارجيون باقية الأثر في نفسي ، فقد كانت من تلك المناسبات الخاصة التي تنفذ فيها ببصرك إلى صميم قلب إنسان ؛ ولما كان صاحبي يتحدث تراءى لي وجه امرأة ، وتكشفت لي ملامحها لمحة لمحة وسمة بعد سمة ؛ وكان يزيد وجه هذه المرأة غرابة وغموضاً أني رأيت أرملة المتوفى واقفة إلى جانب القبر تسكب الدموع التي لم يشك أحد في صدقها ، وكانت همسات الحزن ما تزال تطن في أذني .

— لقد كانت مشغوفة به .

— لقد أخلص كل منهما للآخر .

— إنها ستقفو أثره بعد قليل .

فهل كانت هذه هي المرأة التي تحدث عنها فارجيون ونحن جالسان معاً ؟ وانثالت عليه الذكريات ودفعته إلى الثقة بي ، وأخبرني وقد بلغ منه التأثر كل مبلغ بالاتهام القاسي الذي وجه إليه ، ذلك الاتهام الذي لم يرد أو لم يستطع أن يفنده ، وبذلك انحسر الاتهام من كلمات كليرباك التي قالها لي .

وسألني : ألم تتحدث قط أنت ولوشيان عني في السنوات الثلاث الأخيرة ؟ فقلت : لم نتحدث عنك قط ، فقد أفهمني أن ما بينكما قد أصبح خراباً ، ولما كنت أعرفكما كليكما فقد اعتقدت أن شيئاً من سوء التفاهم قد وقع بينكما .

فقال فارجيون : نعم ، لقد كان هناك سوء تفاهم وهذه المرأة السافلة التي رفضت أن أتحدث إليها اليوم كانت سببه ، إني لن أسامحها ما عشت ، وحبي العميق للوشيان يحملني لأن أفكر في الصفح والسماح .

فقلت مرضاً : إني إخالها كانت تغير منك ، فقد لاحظت أن النساء شديدات الغيرة من أصدقاء أزواجهن ، وهو أمر مخالف المعقول ، ولكنه من بعض الوجوه طبيعي .

فقال جاك : إن للغيرة أثراً في ذلك كما يخيل لي

الظن ، ولكن المسألة فى مجموعها كانت أكثر تعقيداً من ذلك .

وكانت فترة صمت ، ثم استأنف الحديث بعد هنيهة قائلا : لم يكن هناك أخوان بينهما من القرب والود أكثر مما بينى وبين لوشيان ، وقد بدأت صداقتنا منذ عهد الدراسة لما توجه إلى باريز لدراسة القانون وذهبت لدراسة الحربية فى سنت كير ، أتذكر كيف بدأت تلك المرفة ؟ لقد ذهبنا نتجول على ضفاف نهر أليير ، وكنت أنت واثنان آخران معنا ، واقترح أحدنا فى شىء من التسرع والاندفاع أن نستحم فى النهر ، ولم أكن أحسن السباحة ، فسرعان ما وقعت فى الضيق والحرج ، وكنت أبذل جهدى لأتفادى الغرق حينما خاطر لوشيان بحياته لينقذنى ، ولم يكن أعرف منى بالسباحة ، وأصبحنا بعد ذلك صديقين متلازمين ، ونشأت بيننا علاقة لا ينشأ مثلها إلا فى أيام البراءة ، حيث يكون كل شىء غضاً لامساً طبيعياً صادقاً ، وأنت تعرف لوشيان وتعرف هدوءه واحتجازه ، وكيف كان يبدو ما كفاً على نفسه ، ووراء هذا المظهر كان يستتر لوشيان الحقيق ، فقد كان مرهف الحس إلى أقصى حد ، وكان ينفر من مجرد طروء فكرة أى شىء قط غليظ أو مبتذل شائه ، ومثل هذه الطبيعة كان لا بد أن يشقى حينما تتقدم به السن ويبلغ مبلغ الرجولة ويخالط النساء .

ولم يكن الإقبال الرقيق على الحب من خصائص التربية الحربية ، وفى أثناء وجودى بسنت كير كانت تختلف آراؤنا فى الجنس اللطيف ، وتزايد إعجابى بأسلوبه فى التفكير حينما رأيت تأبيه على إغراءات الحى اللاتينى وأكبرت رقة شعوره ، ولذا تستطيع أن تتخيل فرط سرورى حينما بلغنى أنه قد تزوج ، واتفق أنى كنت حينذاك فى وهران ، وحاولت أن أتبين فى رسائله اليومية أثر انقشاع الوهم واليقظة من الحلم ، ولكنى لم ألمح شيئاً من ذلك ؛ كانت السعادة تنبثق من كل كلمة ، وحينما وطئت قدمى أرض فرنسا ثانية أسرعت إلى ريوم حيث قدمت إلى أنجيليك — أنسب الأسماء لها كما كان يقول — وسترى مقدار صدق تفكير هذا الفتى المخدوع .

وقد قال ذلك فى مرارة صارخة حتى اعترضت حديثه بكلمة هى منتدى أقوى فكرة ساقها أخلاقى عظيم .

« لا تحزن من أجله ، وتذكر قول جوبير : « الرجل الذى يخشى أن يخدع عليه أن يتنازل من مثله العليا » .

فهز فرجيون كتفيه وقال ساخراً : « فرق كبير بين أن تترك نفسك تخدع لأنك متعلق بالمثل الأعلى ، وبين أن تترك نفسك فريسة لأنك لا تستطيع أن تبصر . . . فهل عرفت مدام كليرباك وهى شابة » ؟

— لا ، لقد رأيتها اليوم لأول مرة .

— إن المرأة التى تحدثت إليها منذ قليل لا تعطيك فكرة عن الفتاة فى الخامسة والعشرين من عمرها التى وجدتها تزين منزل لوشيان الذى كان يغلب عليه الزهادة والصرامة حينما عدت من إفريقية ، فتقاطيع وجهها الدقيقة وقوامها الأهيف وعيناها الزرقاوان الصافيتان ، كل ذلك كان يشعرك بفرط رهافتها وشدة رقتها ، ويجعل الإنسان راغباً فى أن يحميها ويكون لها وقاء ، وهذه الرشاقة هى التى اجتذبت قلب لوشيان ؛ أما فيما يخصنى فقد كنت أكثر تجربة من أن أثق بالظاهر ، واسترعى نظرى فى الحال عرضاً تناقض خاص ، فقد لاحظت أن لها أسلوبين فى التعبير عن نفسها : الأسلوب الأول برىء وخال من التكلف والتعمل ، وكانت تحتفظ بهذا الأسلوب لزوجها ، والأسلوب الثانى يتجلى فيه الفتور والبرود وكثرة الحساب والتقدير ، وكانت فى بعض الأحيان تواجهنى به ، وكذلك كان لها صوتان ، صوت ناعم رقيق هادىء ، وصوت حاد أجش ، وكان يمكن أن لا يدل ذلك على أكثر من اختلال

الأعصاب واضطراب المزاج — ولو أن صديق لوشيان لحظ شيئاً من ذلك لفسره هذا التفسير ، ولكنى وجدت نفسى مضطراً إلى الاعتقاد بأن أنجيليك تحمل نفسها حملا على أن تبدو فى براءة الحمامة ، على حين تعمل فى جهد على إخفاء الجانب الآخر من طبيعتها ؛ ولقد تحدثت فى اللو والاحطلة عن غيرة الزوجة من صديق زوجها ، ولا شك فى أن موقفها منى كان نتيجة هذه الكراهة الغريزية ، وقد تيقنت هذا ، وعلمت أنها كانت تسيطر على مشاعرها ، ولقد تمت لها الغلبة على مشاعرها إلى حد أنه حينما ظهر اسمى فى الجريدة الرسمية ضابطاً وبناء على طلبى عينت فى ربوم أظهرت سروراً كسرور لوشيان ، وقال لوشيان حينما عبرت عن سرورها : « إنها تعزّ حبى لك » ولقد أجادت القيام بذلك إلى حد أنها خدعتنى ، ورغم عدم الطمئنان الداخلى لها أخذت أعجب وأتساءل : هل كانت التأثرات التى قامت بنفسى من ناحيتها مصدرها شعور غامض بسعادتهما وحسد خفى لها ؟ ولكن حادثة غير منتظرة بددت كل شك .

وأوعزت إليه حينما توقف عن الكلام قائلا : ربما تكون قد أحببتها من غير وعى ! .

فقال مسترسلا فى الحديث : سترى وتحكم . ولقد ظللت فى ربوم عامين ، ولم يحدث شيء يثبت سوء ظنى ، وقد كانت أنجيليك تبالغ فى إكرامى والتحفى لى ، ولكنها كانت غاية فى اللباقة والكياسة ، فلم تحم حولها الأحاديث السيئة ولم تقر أذيعها الألسنة الطويلة ، وأنت تعرف حال المدن الصغيرة ، فأى لفظة أو إشارة خارجة عن المألوف تكبر وتتضخم وتشوه وتمسخ حتى تصبح صالحة لأحاديث النميمة والإفك ؛ ولقد كانت من الحين إلى الحين تسافر وتتغيب ، ولكن كان معروفاً أنها تذهب لزيارة والديها ، وقد كان والدها محامياً فى ربوم ، ولكنه اعتزل العمل وأقام فى باريز ، وكانت فترات غيابها قصيرة ، فقد كانت تقول إن شدة تفقدها لزوجها لا تمكنها من أن تتركه طويلا ، وكان نجاحه فى المحاماة يمنعه من الذهاب معها ، وفى أحد أيام فبراير حينما يكون الشتاء على أشده فى أوفرن أصيبت بنزلة وافدة حادة ، ولم تستطع الخلاص منها والتغلب عليها ، وكانت قد هدها المرض وأسقمها إلى حد أن لوشيان صمم على ذهابها إلى هييرز لتقضى عدة أسابيع فى ضوء الشمس عملا بنصيحة الأطباء ؛ وشاءت المصادفة أن يستحثنى على السفر إلى طولون واجب عاجل .

وقال لوشيان حينما أخبرته بذلك : إنها مصادفة حسنة ، فسوف تستطيع أن ترى أنجيليك وتعرف كيف حالها .

فقلت معترضاً : ليس عندى سوى إجازة ثلاثة أيام .

فقال لوشيان : ولكنى أعلم أن المسافة بين طولون وهييرز لا تتجاوز بضعة أميال ، وقد عدت لألحق القطار السريع بعد أن سرت مع أنجيليك إلى الفندق .

وفى ليلة وصولى وبعد أن حلت عنزل عمى بقليل ذهبت إلى هييرز لأجيب طلب لوشيان وأكتب إليه عن تقدم صحة أنجيليك . بحيث يتلقى رسالتى قبل عودتى بيوم وأخبرنى كاتب الاستقبال أنها خرجت فى اللو والاحطلة ، وأنى أستطيع لقاءها فى غابات كوستبل الواقعة على مسافة ياردات قليلة .

علی أدهم



الخواطر

أساحر جديد ؟ أو قصة مقال

منذ خمسة أشهر أو تزيد طلبت مني إحدى المجلات الكبرى التي تناطح عمارتها الجديدة واطىء السحاب ، أن أكتب موضوعاً علمياً يفيد منه الجمهور ، واشترطت عليّ كتابته بلغة سهلة مبسطة يفهمها رجل الشارع ، وموجزة بحيث لا تشغل أكثر من صفحتين . قال لي مندوبها هذا الكلام ، وقد فات منه أن الإيجاز أصعب من الإسهاب ، ولعله لم يسمع بقصة أحد رؤساء الجمهورية الفرنسية الذي كان في شبابه سكرتيراً لأحد كبار الموظفين ، فطلب هذا منه ذات مساء أن يعد له مذكرة عن موضوع ما ، بحيث تكون جاهزة في صباح اليوم التالي . فأجهد الشاب نفسه طول الليل ، وقدمها إلى رئيسه في الميعاد المحدد ، وكانت المذكرة مطولة مسهبة ، ورغبة منه في تغطية موقفه أرفق بها إشارة اعتذار بسيطة ، قال فيها : معذرة من الإسهاب ، فلم يكن لديّ وقت للإيجاز !

أخذت أقدح زناد فكري لكي أصل إلى حل لهذه المعضلة . وقد عودني قارىء الثقافة أن يتقبل مني المستوى العالي في الموضوعات العلمية بصدر رحب ، وعين واعية : صدر العالم وعين الباحث وراء تثقيف النفس بأي أسلوب يقدم له ، فيحاول أن يشب على قدميه ولو قليلا إذا ارتقى نوع الكتابة ، أو ينزل إلى مستوى الكاتب في رفق ، ودون أن ترتسم على شفتيه ابتسامة إشفاق أو سخرية .

وكان الدافع لي على إجهاد الفكر والكتابة لهذه المجلة أن أحد أفراد أسرة الثقافة قد جذب إليها جذباً ليفرغ فيها عصارة الفكر والتجارب التي عرف بها ، فقلت لنفسي (يا محب الشوم) ! ! أترفض المساهمة بمجهود متواضع وزُملاؤك هنالك يتوقع من بقية أفراد الأسرة اليموتة أن يلحقوا بدوم ، وقررت الزحف إلى جزيرة الكنز مع من زحفوا قائلا لنفسي : هيا إلى حيث البريق واللمعان . ارتفع بهامتك في الآفاق العالية من بلاد الهجرة ، واترك آثار أقدامك في موطنك الأصلي كمجرد دليل على وجودك ، فالثقافة أم حنون ستغفر لك ، وستنتظرك في اشتياق عند باب دارها المتواضعة بعد أن تزهد عيشة القصور ، وتعاف نفسك الثانية التي استهوتك ! وسوف ترتمي من جديد بين ذراعيها اللتين لا تملان أبدا ، وعند ما تشعر بالحنان والدفء القديمين لن تعدم الثقافة بعدها من يهتف في آذان بقية أبنائها قائلا : عودوا إلى قواعدكم ، فهي هناك تنتظركم عند عتبة الدار .

* * *

أخذت أرسم عنوان المقال رسما ، قلت لنفسي : ترى ما الذي يرضى هؤلاء القوم . لقد أخذ الهمس يدور حول ساحر جديد اسمه الستربتوميسين ، وقيل إذ ذاك إنه بزّ البنسلين في بعض النواحي . فرأيت أن أجعل منه موضوعا لمقالي ، وبدأت في رسم العنوان كما أسلفت ، فجعلته في بادىء الأمر : ساحر جديد . ولكني خشيت أن تؤوله سذاجة القارىء التي يتخيلونها في أذهانهم فقط إلى أن موضوع المقال يتعلق بالساحر هوديني ، أو الدكتور محب النوم المغناطيسي ، فأضفت إلى العنوان ألفاً في بدايته ، فأصبح : أساحر جديد . ثم أردفته بعلامة استفهام كبيرة ، فصار : أساحر جديد ؟ ثم أعقبته بتفسير يشير إلى صميم الموضوع ، إذ كتبت تحت العنوان : الستربتوميسين بعد البنسلين .

واستهللت المقال ببراعة مشيرا إلى مرض صدقي باشا رئيس الوزارة المصرية إذ ذاك ، وكيف عجز الساحر القديم أي السلفاناميد وزميله الحديث ، أي البنسلين ، عن الإتيان بمعجزة الشفاء . وأبنت كيف أن ذلك كان بسبب إصابة الرئيس بجرثومة لا يؤثر فيها البنسلين ، وهي باسلس

القولون ، واهتزت الأسلاك كما قلت ، وصمم الأهل والأصدقاء والأنصار على الاحتفاظ بهذه العبقرية النادرة ، وشاءت الخليفة أن تجامل ، فبعثت بطائرة خاصة إلى منطقة الاحتلال بألمانيا ، وأحضرت بضع زجاجات ثمينة تحوى من الساحر الرضيع الذى جدا يجب على الأرض فى طريقه إلى أضواء المسرح ، ما كان كافيا لشفاء الرئيس ، وعرف الناس منذ ذلك الحين اسم الستربتوميسين ، وانتابهم كالعادة حمى التعلق بكل جديد ، فبدأوا يتساءلون عنه ، ولم يمنعهم من هلهلته سوى غلاء ثمنه ، وإلا لكانوا حقنوا أنفسهم به ، بمناسبة وبغير مناسبة ، كما فعلوا مع البنسلين .

وأذكر أنى استدرجت القارىء بعد هذا إلى سرد الأمراض التى ينفرد الستربتوميسين بعلاجها دون غيره من الأدوية ، فهو يكاد يكون الدواء الوحيد الفعال ضد جرثومة الانفلونزا والسل الرئوى وباسلس القولون ، وشفيت بواسطته بعض حالات التيفود الميئوس منها . ولكنه بخلاف البنسلين — دواء وسم فى نفس الوقت . فالبنسلين — الله يحفظه لنا على مدى الأعوام — يفيد ولا يضر . أما الستربتوميسين فقد ثبت بصفة قاطعة أن له تأثيرا سيئا على الكليتين . فهو يسبب أحياناً احتباساً بولياً مضنياً ، وقد يحدث التهابا فى عصب السمع وعصب البصر ، فيصاب المريض بالصمم والعمى المؤقتين ! وتنتهى الأعراض غالبا بعد بضعة أسابيع ، بعد أن تسبب المريض وأهله عذاباً وقلقا هائلين .

وكنت قد ذكرت فى صدر المقال العتيد الحائر ، أن العفن الذى اشتق منه الستربتوميسين عثر عليه مصادفة فى حلق كتكوت ، وبينما كان صديقى — وهو أحد كبار محررى الدار — يستعرض المقال معى ، خطرت له فكرة فذة . إذ قال لى : أنا أرى أن نضع فى صدر المقال صورة كتكوت ينقر بمنقاره فى الأرض ، لكى نقرب المقال زيادة وزيادة إلى ذهن القارىء ، فوافقته على فكرته الموفقة

وقلت : يا لها من ساخرة ! واتفقنا على تفاصيل الموضوع . وطريقة عرضه على القارىء ، وبدا كأن المقال قد حاز القبول التام ، وخاصة بعد أن وافقت على صورة الكتكوت .

وأخذت أنتظر صدور العدد التالى لأحظى برؤية الكتكوت فوق المقال واسم صاحبه ، فلم أعثر له على أثر ، ولكن تبين لى أن أحد محررى الدار — وهو بعيد كل البعد طبعا عن الطب وأهله — اقتبس سطرين أو ثلاثة من مجلة أجنبية عن عفن الستربتوميسين ، فاستغنى بها عن مقال دون كلمة اعتذار أو رده إلى مع الشكر الرسمى المزيف .

أنا لست موتوراً ولا متضايقاً ، بدليل أنى نشرت بعض آرائى فى تلك المجلة أو أخواتها بعد حادثة الكتكوت . ولكنى أردت يا قارئى العزيز أن أتفكه معك ولو قليلا ، بينما أحدثك عن موضوع جاف قد لا يروق لك بغير هذه الطريقة .

ألم يعطنى هؤلاء الأصدقاء درساً فى التبسيط لن أنساه مدى الحياة ؟

دكتور مصطفى الديواني

محمد صلى الله عليه وسلم

فى مرآة الفكر الغربى

كما يراه

بوسورث سميث	المؤرخ الإنجليزى
لامارتين	الشاعر الفرنسى
واشنجطون أرفنج	الكاتب الأمريكى
السير « وليام ميمور »	الكاتب الإنجليزى

كتب المفكر الإنجليزى بوسورث سميث كتاباً من تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم بعنوان « محمد والدين المحمدى » تناول فيه هذا النبى المرسل ومظاهر عظمته . ومما تناوله هذا الكاتب فى كتابه مركز النبى السياسى والدينى فقال فى بعض نواحيه : — كان محمد قيصراً وبابا . كان قيصراً من غير جيوش قيصر ، وكان بابا من غير مزاعم البابا . كان محمد فى وقت واحد مؤسساً لأمة ، ومقيماً لأمبراطورية وبانياً لدين . لقد أتى بكتاب يحوى أدباً وتشريعاً وأخلاقاً ، وهو كتب مقدسة فى كتاب واحد . إنه كتاب يقدسه سدس مجموع الجنس البشرى .

وذكر « بوسورث سميث » فى موضع آخر من كتابه :

« إن أعجب الأمور فى حياة محمد أنه لم يدع قط القدرة على إتيان المعجزات ، فأيما شىء قال إنه يستطيع أن يفعله رآه أتباعه وهو يفعله . ولم ينسب أحد منهم إليه معجزة من المعجزات ، بل إن محمداً نفسه حرص دائماً على أن ينكر قدرته على إتيانها . أى دليل إذاً أقوى من ذلك على الإخلاص يمكن أن يسوقه إنسان ! لقد ظل محمد طيلة حياته وليس له لقب يفخر به إلا أنه نبى مرسل من عند الله . وإذا كان لأى فرد أن يدعى الحق فى تلقى الوحى من الله فهو محمد . لقد كانت له كل السلطات دون أن يكون لديه أداتها ووسيلتها . وإنه لحدث فريد فى التاريخ أن يؤسس محمد شعباً وامبراطورية وديناً » .

* * *

وتناول « لامرتين » الشاعر الفرنسى المشهور صدق عقيدة محمد صلى الله عليه وسلم فقال : « أترون محمداً كان أخا خداع وكذب ؟ كلا ، فلم يكن خادعاً ولا كاذباً بعد ما عرفنا تاريخه ودرسنا حياته . فالكذب والخداع والتدليس صفات تتولد من نفاق العقيدة وليس للنفاق قوة العقيدة وليس للكذب قوة الصدق » .

وتناول حياته بالتحليل فقال :

« إن حياة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ، ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته ، وشهامته وجرأته وبأسه ، وثباته ثلاثة عشر عاماً يدعو دعوته فى وسط أعدائه ، وتقبله سخرية الساخرين وهزأه بهزء الهازئين وحميته فى نشر رسالته ، وتوافره على السعى فى إظهار دعوته ، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالفوز ورباطة جأشه فى الهزائم ، وتطلعه إلى إعلان كلمة الله وتأسيس العقيدة الإسلامية ، ونجاح دينه بعد موته . كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعاً أو يعيش على باطل . وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قاطعة ومبدأ مزدوجاً ، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة . الأولى تدل على من هو الله ، والثانية تنفى ما ألصق الوثنيون به . الأولى حطمت آلهة كاذبة ، والأخرى فتحت طريقاً إلى الفكر والتأمل » .

وفى موضع آخر يقول :

« لقد كان محمد فيلسوفاً وخطيباً ومشرعاً وقائداً وفاتح فكر وناشر عقائد تتفق مع الذهن ، ومنشئ عشرين دولة فى الأرض ، وفاتح دولة فى السماء من الناحية الروحية . أى رجل قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه ؟ وأى إنسان صعد هذه الدرجات

كلها فكان عظيما في جميعها غير هذا الرجل ؟

* * *

وتناول الكاتب الأمريكي « واشنجطون أرفنج » أخلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعض مظاهر الإيمان عنده فقال :

« لقد احتفظ محمد وهو في أوج سلطانه ببساطة الخلق التي عرفت عنه في كل أدوار حياته . وكان يكره إذا دخل مكاناً ، أن تؤدى له تحية غير عادية ، وكان لا ملجأ له في أوقات شدته غير الصلاة والثقة بالله . وعندما وقف على سرير ابنه إبراهيم ساعة احتضاره كان التسليم لإرادة الله واضحاً في سلوكه ، بينما كان يعاني أقسى ألوان الحزن . وكان عزاؤه أنه سيلتقي به ثانية يوماً من الأيام في جنة الخلد . وعندما حانت ساعة وفاة محمد كان يردد صلاته ويتحدث من دعوته . وكانت كلماته التي جاءت على شفتيه تعنيه أن يدخل ملكوت الله مع من سبقه من الأنبياء » .

* * *

وقد تناول « السير وليام ميمور » الكاتب الإنجليزي علاقة النبي بالصحابة في كتاب كتبه بعنوان حياة محمد فقال :

« كان محمد صديقا وفياً ، أحب أبا بكر محبة الشقيق الودود ، وعلياً محبة الأب الرءوف . ومما يذكر أن زيداً الذي كان عبد خديجة كان متعلقاً بالنبي تعلقاً شديداً لعطفه عليه ، حتى إنه آثر البقاء بمكة على أن يعود لبلده مع أبيه ، وتعلق بأهداب النبي قائلا : لست تاركك ، فقد كنت لي أباً باراً عطوفاً . وقد بقيت صداقة محمد هذه إلى ما بعد موت زيد حيث عامل أسامة ابنه معاملة فيها إكرام لأبيه . كذلك كانت علاقته بعثمان وعمر مشبعة بروح المودة والولاء . وكان محمد عليه الصلاة والسلام عادلا مقتصداً ، فلم يكن يعوزه الرفق بأعدائه إذا ما دانوا له بالطاعة . وقد كان دفاع مكة العنيد الطويل الذي ضد دعوته يحمل على البطش بهم بعد فتحها ، ولكنه أصدر عفوا عاماً ملقياً بذكريات الماضي بما فيها من سخرية وإهانة واضطهاد في زوايا النسيان . وعامل ألد الأعداء له بالإكرام والسخاء . ولم تكن المسامحة التي أبداها لعبد الله بن أبي وأهل مكة الخارجين عليه بأقل من ذلك ظهوراً ، وهم الذين ناصبوه العداء سنين طوالاً وامتنعوا من الدخول في طاعته .

ومما ذكره السير وليام ميمور من دماثة أخلاقه في كتابه هذا : أن محمداً كان يكره أن يقول « لا » فإذا لم يكن في الإمكان أن يجيب الطالب لسؤله فضل السكوت عن الجواب ، وذكر أيضا ما قالته عنه عائشة أنه كان أشد حياء من العذراء في خدرها .

وتطرق في هذا الكتاب إلى حبه للأطفال ومعاملته لهم فقال :

« كان سهلا لين العريكة مع الأطفال لا يأنف إذا مر بطائفة منهم يلعبون أن يقرئهم تحية الإسلام » .

محمد

كما يصوره الفيلسوف والمفكر الإنجليزي توماس كارليل

تناول كارليل في كتابه الأبطال وعبادة البطولة نبي الإسلام محمداً صلى الله عليه وسلم ، بالبحث والتحليل المنطقي الرائع ، فوصف رسالته بأنها سراج منير أضاء اثنى عشر قرناً حياة ملايين من الناس .

ويرى أنه ليس من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هؤلاء الملايين من المسلمين خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمان شعوذة تعسة أو أكذوبة كاذب أو خديعة خادع .

ويزيد رأيه تفسيراً فيقول :

« هل رأيتم أن رجلا كاذبا يستطيع أن يخلق ديناً وينشره بالنشر بهذه الصورة ؟

« إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً من الطوب لجهله بخصائص مواد البناء ، وإذا بناه فما ذلك

الذي يجنيه إلا نزل من أخلاط هذه المواد . فما بالك إذاً بالذي يبني بيتاً تبقى دعائمه اثنى عشر قرناً وتسكنه ملايين الأنفس !

وفي موضع آخر يدافع عنه ويقول :

« يزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يبغي من دعوته سوى الشهرة الشخصية ومباهج الحياة وقوة السلطان ، كلا وايم الله ، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير « ابن القفار » أفكار سامية ، وكانت له أهداف بعيدة عن السلطان والجشع الدنيوي . قد نرى آخرين يرضون بالزخارف الكاذبة ويسيرون طبقاً لاعتبارات باطلة ؛ ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرض أن يساير الزخارف والأكاذيب المألوفة . لقد كان سر الوجود يسطع أمام عينيه ، وكأن لسان حال هذا السر الهائل يناجيه قائلا : « هأنذا » ، إن مثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى مقدس » .

* * *

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً؛ وفي هذا الصدد قال توماس كارليل :

« ما أشد ما نرتكبه من خطأ إذا حسبناه رجلا محباً للشهوة ؛ فما أبعده من الملذات . لقد كان متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره . كان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار . لقد كان ساهر الليل دائباً في نشر دين الله ، غير طامح إلى رتبة أو سلطان وغير متطلع إلى صيت أو شهرة .

« وأي دليل أقوى على براءة الإسلام ونبيه من الميل إلى الملذات من حكمة صوم رمضان حيث تلجم فيه الشهوات وتقلع النفوس من نالإلها الدنيوية ، فهل يتفق هذا مع اتهامه بالميل إلى الشهوات ! » .

وقد برأ توماس كارليل سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم من الرياء والتصنع فقال :

« إني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . لقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأي ، لا يعتمد إلا على نفسه ، ولا يدعي ما ليس فيه . لم يكن متكبراً ولا ذليلا ، فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله ، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة » .

* * *

محمد النبي الأمي

لم يتلق محمد صلى الله عليه وسلم شيئاً مما نسميه دراسة مدرسية ، فعاش من غير كتب يقرؤها ، ولم يكن له علم سوى ما شاهده وما سمعه عن طريق بصره وسمعه . وهذا هو الذي حدا بهذا الفيلسوف الإنجليزي أن يكتب أن نهجاً ألف رسالته نتيجة الثقافة تثقف بها أو علم تعلمه . والحق أن هذه النقطة أدهشت معاصري هذا الرسول ، إذ كانوا يعرفون عنه أنه لا يستطيع بنفسه أن يأتيهم بما جاءهم به الوحي . ويلخص كارليل الدعوة الإسلامية التي أتى بها هذا النبي المرسل في « الله أكبر » وفي التسليم لأمر الله والإذعان له والتوكل عليه والرضا بما قسمه الله في الدنيا والآخرة ، ويقتبس كارليل في معالجة هذه الناحية قول جوته Goethe : إذا كان هذا هو الإسلام أفلسنا نعيش جميعاً بعقيدة الإسلام » .

ويعقب كارليل على ذلك بقوله :

« إن المرء يعد على حق ومن الفائزين إذا كان قد خضع لذلك القانون العام ، لتلك الإرادة العليا بدلا من أن يخضع لقوانين وأوضاع مؤقتة ظاهرية » .

ودافع كارليل عن نبي الإسلام فيما يقال فيه من أنه نشر دينه بحد السيف فيقول :

« أرى أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال ، ألا ترى أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً ، وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون .

وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية وسيلة أخرى . فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار ، لندعها تجاهد بيديها وأرجلها وأظافرها ، فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم .

***

ومما جاء على لسان كارليل في مزايا الدين الإسلامي :

« إن في الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها . وهي المساواة بين الناس أمام الدين .

« والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنة محبوبة ، بل يجعلها فرضاً على كل مسلم وقاعدة من قواعد الإسلام ، ويقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل فتكون جزءاً من أربعين من الثروة تعطى إلى الفقراء والمنكوبين والمساكين .

« وما هذا إلا صوت الإنسانية ، صوت الرحمة والإخاء يصدر من فؤاد ذلك الرجل ابن الصحراء » .

وتناول كارليل أثر هذا الدين في حياة العرب فقال :

« لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، فقد كانت فئة من جوالة الأعراب تجوب الفلاة منذ بدء العالم ، لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة ، فأرسل الله هذا النبي برسالة منه ؛ فإذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعف قوة ، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبحت لدولة العرب قدم في الهند وقدم في الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام قروناً طويلة على نصف المعمورة » .

عز الدين فراج

روسيا والأمهات

لعل الروسيا من أوليات الأمم عناية بالأمهات ويتغالون حتى لا تكاد تجاريها أمة من أمم العالم في مثل هذا المضمار ، وذلك للإكثار من النسل وتحسينه معا . وهاك شيئاً من ذلك :

فإن الأم ذات الطفلين عند ما تأتي بطفل ثالث تمنح مكافأة قدرها ٤٠٠ من « الروبلات » (عملة روسية) .

والأم ذات الثلاثة أطفال إذا أتت برابع لهم تمنح مكافأة قدرها ١٣٠٠ من « الروبلات » مع إعانة شهرية قدرها ٨٠ « روبل » .

والأم ذات الأربعة أطفال عند ما تأتي بالطفل الخامس تمنح مكافأة قدرها ١٧٠٠ من « الروبلات » مع إعانة شهرية قدرها ١٢٠ « روبل » .

وهكذا تطرد المكافأة كلما اطرد عدد الأطفال في الزيادة حتى إذا ولدت الوالدة وليدها العاشر تكون مكافأة أمومتها قد بلغت ٣٥٠٠ من « الروبلات » مع إعانة شهرية قدرها ٢٥٠ « روبل » .

على أن هذه المنح والإعانات ليس للوالد حق فيها ، وإنما هي وقف على الأم فوق مقررات حاجاتها الشخصية المعتادة . فكأنما ذلك للترفيه لها عما أنجبته من الأبناء وعمرت به الأرض !

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٠٦٢٦٩
القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٣٩٠ ، ٥٦٧٦٩

العدد ٤٤٩ الثلاثاء ١٨ من رمضان سنة ١٣٦٦ — ٥ من أغسطس سنة ١٩٤٧ السنة التاسعة

نظارتان تاريخيتان

هما نظارتان ، على جانب من البساطة والتواضع ، أراد التاريخ أن يكون لهما في صحائف مجده قصتان رائعتان ، يتشابه نسجاهما ويختلف بينهما المصير .

والأشياء كالناس والأحياء ، منها الشقي ومنها السعيد وفيها الذي يبلى فلا يؤسف عليه ، وفيها ما يعز ويخلد ويصان في الأحقاق أو في المتاحف .

وأول هاتين النظارتين كانت للمجاهد الشهيد « عمر المختار » ، شيخ « برقة » وقائد شباب طرابلس إلى ميادين الشرف والثورة في وجه الظلم الإيطالي . وثانيتهما نظارة الأمير المراكشي « عبد الكريم » ، فارس الريف ، وحامل راية الحق على إجلاء المستعمرين لبلاده .

عانقت الأولى أنف عمر المختار ، وظلت بين عينيه زهاء تسعة أعوام شداد تحدثه فتبين له مواقع العدو في الأفق البعيد ، وتكشف عما وراءها من كر الفرسان وفرهم وإدبارهم وإقبالهم ، واضطرابهم تحت المجاجة وبين النيران سواء على ساحل البحر في « بنغازي » و « بنينة » ، أم في جوف الصحراء اليابسة العطشى بين « جغبوب » والواحات ، أم على شماء الجبل الأخضر ، وفي وديانه وعلى وهداته .

وكان عمر كثير الاعتناء بنظارته ، شديد الحرص عليها ، فإذا صلى كانت أمامه في مصلاه ، وإذا نام استقرت بجانبه . فهي نظارته ، ولكنها عينه ودليله وحارسه ، وبدونها يقصر مدى بصره ، وتختفي أمامه معالم الطريق ، وتغيب عنه صور الأشياء .

وفي أوائل سبتمبر من عام ١٩٣٢ ، التقى الثوار العرب الطرابلسيون بالقوى الإيطالية المسلحة ، فدارت ، على سفح الجبل الأشم ، رحى حرب ضروس يطير لهـا قلب الجريء . وبينا الموت ماثل يعبث بالأرواح ، وعمر المختار ، على ضامره ، يقود الخيل من نصر إلى نصر ، إذ جرح جواده ، فكبا في حومة ميدانه ، وطارت النظارة عن أنف صاحبها ، فترجل وهو يكاد لا يبصر ، والتف عليه فرسان العدو من كل جانب ، فجرحوه وأسروه وأوثقوه .

أما النظارة ، فكان نصيبها ، وقد سلمت نصيب صاحبها تخطفها الطليان وتقربوا بها إلى قائدهم الجنرال « جرازياني » حاكم برقة وقائد الحملة ضد المجاهدين .

حدثني طرابلسي كريم ، قال : في مساء ١٥ سبتمبر من عام ١٩٣٢ ، جيء بعمر المختار إلى مكتب « جرازياني » فدخل عليه وهو يرسف بالقيود ، وعلى جسمه الناحل رداء أبيض ، وقد توج الشيب رأسه وكسته الشيخوخة روعتها وجلالها ، فدار بينهما الحوار التالي :

— أتعرف هذه النظارة ؟

— أعرفها . هي نظارتي . وقد صحبتني ، وأنا أقاتلك في مائتين وثمانين معركة . فلما سقطت مني في الميدان غشيت عيناي ، واضطربت أمامي رؤى الأشياء ، فرابني بصري وأنا شيخ كبير ، وصرت إلى ما ترى . . والأمور لها مصاير .

قال « جراسياني » التجبر ، وهو ينظر إلى ناحية الشفقة التي نصبها الطليان قبل محاكمة الأمير : سوف لا تحتاج إليها بعد اليوم .

— قال عمر : لكم أن تفعلوا ما تشاءون . والله على كل شيء شهيد .

ثم كانت فترة ، أعرب فيها الصمت عن أروع ما يمكن أن يأتي به بيان خطيب . ثم اختفت النظارة في جيب الطاغية الإيطالي ، وعاد عمر إلى حيث ينتظر القضاء . وبعد ليلة موحشة غرقت نجومها في لجة من الحزن ، وتأخر صبحها على سكان برقة العربية ، صعدت روح أبي الأبطال إلى بارئها . وطوى الكتاب .

* * *

وشاء القدر أن يجعل لنظارة الأمير عبد الكريم مصيراً غير هذا المصير ، ونهاية يسر لها العرب قاطبة بقدر ما حزنوا على أختها الطرابلسية . فكان تاريخ حياتها أقرب إلى نسج الخيال منها إلى الحقيقة ، لولا قرب العهد ، ووجود الأثر .

شهدت هذه النظارة ، مع الأمير ، موقعة « أنوال » في غسق ليل اليوم الحادي والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٢١ ، فرأت كيف انتصر مائة وخمسة وعشرون جنديا عربيا على جيش من عشرين ألف أسباني ، بين بنادق « المريفن » و « امزورو » على سفوح الريف . وحضرت معارك « واولو » ، وملاحم « شون » ، واندحار كتائب القائد « دي فاليرا » ، خصم الأمير الألد ، وانتحار « سلفستري » الجبار بعد هزائم قواته المتكررة .

وكاد الظفر يتم من إنقاذ بلاد الريف كلها من مخالب الأسبان لولا تدخل فرنسا لمساعدة أختها « اللاتينية » ، فقوى الظلم البين على الحق الصراح ، وفتحت جبهة ثانية على العرب ، وأصبحوا بين نارين ، صليها المجاهدون خمسة أعوام طوال ، بين النصر والصبر ، حتى نفد زادهم وعتادهم وألقوا السلاح ، على أن يحتفظ الخصم لهم بحريتهم وبشروط اشترطوها عليه .

غير أن قائد الجيوش الفرنسية ، « المرشال بيتان » كذب ما عاهد عليه ، ولم يف بوعده للأمير ، وخانت حكومة باريس شروط التسليم ، فألقت أسيرها وراء البحار في جزيرة « ريفيون » النائية .

وكتب لهذه النظارة أن تعيش مع صاحبها في منفاه البعيد ، عشرين عاماً تحت أعين الحرس وفي قيود الأسر .

ولما طال ليل النفي على السجين ، واختنقت فرنسا في لجة السياسة الاستعمارية ، قام الفرنسيون بمحاولة للاستفادة من أسيرهم ، وعزموا على نقله إلى بلادهم ، علهم يخدعون الشعب المراكشي فيرضى عنهم كلما لوحوا له بهذا الزعيم ، وعسى أن يرضى عبد الكريم فيكون لهم سلاحاً يهددون به من يوجسون منه خيفة على نفوذهم في المغرب الأقصى .

فلما كان شهر مايو من عام ١٩٤٧ ، حدا بالأمير أمل جديد إلى حياة أرق هواء من النفي ، وأجل ثوبا من الأسر ، وأبقى على المجد ، وأحفظ للذكر .

وهناك على إفريز « كاتومبا » الماخرة في عباب البحر الأحمر وعند مبتدأ قنال السويس ، رقصت النظارة على أنف الأمير ، وتشوقت إلى أرض مصر العربية ، وتشوقت إلى الاعتصام بهذا المعقل المنيع ، عند عرب من أبناء عمها ، كرام النجار ، حماة الضيف . ولم تزل تخفق بين اليأس

والرجاء حتى كان ما كان من أمر صاحبها فى « بورسعيد » والتجائه إلى حمى الفاروق .

فألقت عصاها واستقرت بها النوى
كما قر عيناً بالإياب المسافر

وفى صباح يوم جميل من شهر يوليو المنصرم ، وقف عبد الكريم المتعب المستجم فى مستشفى الإسكندرية ، يطل من نافذته على زرقة البحر الخالد ، والموج بين كر وفر على مسرح الشاطئ الرملى يمثل دور الفرسان على سفوح الريف وجبال الأطلس . وفى تلك الساعة الحالمة والذكريات رائحة غادية ، فاجأ جلالة ملك مصر الشاب ضيفه العزيز بزورة على غير ميعاد ، فكان لقاء تجلى فيه لطف العربى الكريم .

ومن خلال الجمل القصيرة ، والابتسامات الخفيفة ، امتد نظر العاهل إلى نظارة الأمير العتيقة ، وقد أزرى بها الدهر ، فدار بينهما حديث روى عبد الكريم بعضه بلسانه كما يلى :

— أهذه نظارتك ؟

— نعم يا صاحب الجلالة .

— وهى الوحيدة عندك ؟

— أجل ، وأطال الله عمر سيدنا .

— أراها قديمة ، وربما أصبحت غير صالحة لخدمتك ، وسأوصى من يصنع نظاراتى الخاصة أن يصنع لك غيرها ويعتنى بذلك .

فكان لهذه الالتفاتة السامية أثر جميل تغلغل فى نفس عبد الكريم حتى أدمع عينيه ، وأثر حاسم فى تاريخ النظارة نفسها . فما قريب تنطوى صحيفتها الرائعة ، ويسكن الدهر بعد اضطراب . ومن يدرى ! فقد يكون لها غداً مكان مرموق فى بيت كريم عتيق ، أو فى متحف عالى جليل ، حيث يزورها الناس ليقرأوا عنها سطراً من المجد ، فيذكروا أختها التى اغتصبها الجور وغيبها الظلم ، ويترحموا على الشيخ الشهيد عمر المختار ، ويتلفتوا إلى البلد العربى الجريح « طرابلس الغرب » .

هما نظارتان ، لكل منهما قصة رائعة . وأروع من قصتيهما ذلك العدل السماوى الذى عجل بتنفيذ الحكم على الظالمين . فلقد عاش « جراسيانى » حتى اليوم ، ورأى بعينيه انهيار دولته ، ومصرع سيده « موسولينى » ، وشرب كأس الألم حتى الثمالة ، ففقد صوابه واختل عقله . وعاش « المارشال بيتان » حتى اليوم فشهد بعينيه مصرع دولته وبؤس شعبه ، وشرب كأس الألم حتى الثمالة أيضاً ، وحكم عليه قومه بالإعدام ، وهو اليوم ينتظر أجله بين جدران سجن ضيق ، فى جزيرة نائية ، وإن لم تكن جزيرة « ريليون » .

آمنت بالله . كم للظلم من مرتع وخيم ! وكم فى التاريخ من عظات ! وكم تحت السماء من أفراح وآلام !

الدكتور عبد الحميد سعيد

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكردانى
تليفون — ٥٢٧٦٩
القاهرة

من وحي الصيف :

خطرات

عدنا إلى الريف كعادتنا في صيف كل عام . وتجددت بعودتنا هذه ذكريات الأعوام السابقة ، وطافت برؤوسنا شتى الفكر التي تتصل بالحياة في ريفنا المصري العزيز . وهي ذكريات منها الحلو ، ومنها المر : أما الحلو فيتصل بطبيعة الحال بتجديد النشاط ، والاستمتاع بالهواء النقي ، والهدوء إلى النفس بعد الحياة الصاخبة في المدن وما يتبعها من إجهاد ومنغصات .

وأما المر فيتصل بالفلاحين وحياتهم البئيسة وظروفهم التعسة ، وأول ما يصدم الإنسان في الريف هو أن الجهود العظيمة التي تبذل لإصلاحه ، ونقرأ عنها كل يوم في الجرائد ، لا تكاد تحدث أثرا ملموسا تطمئن له النفس ، وينشرح له الصدر ، وتتفتح آفاق الأمل في تحسن سريع فعال .

فالجهل والفقر والمرض لا تزال كلها حية نشيطة ، تعمل عملها بشدة وعنف . ويخيل إليّ في هذا الصدد أن الجهود المبعثرة التي تبذلها كل جماعة أو هيئة في أية ناحية من النواحي المختلفة لميدان الإصلاح مستقلة عن غيرها من الجهود التي تبذلها نظائرها من الجماعات والهيئات ؛ هذه كلها لا يمكن أن تؤدي إلى نتيجة إيجابية ظاهرة الأثر ومضمونة النجاح . وسيظل الحال على هذا المنوال ما دامت الجهود شتى ، والمجهودات كما قدمنا مبعثرة ، وذلك لسبب واحد بسيط ، هو أن هذه العلل التي تئن منها البلاد ، وتلك الأعداء الثلاثة التي تحارب المجتمع المصري متصلة ومترابطة بحيث يتفاعل كل منها مع الآخرين ، فتزداد بهذا الترابط والتضامن والتفاعل ، قوة الفتك لكل واحد من العوامل المؤذية .

ولعل من الخير أن نجرب فكرة تجهيز حملة مركزة ، تضم القائمين بمختلف نواحي الإصلاح ، حتى يتسنى لهم أن يعملوا هم أيضا كأعدائهم متكاتفين متساندين متعاونين على مقاومة جميع العلل ، والتغلب على جميع العوامل الهدامة في آن واحد ، بحيث لا نترك فرصة لأحد هذه العوامل ليقضي على جهود العاملين في المقاومة في النواحي الأخرى كما هو الحادث في الوقت الحاضر .

إذ ماذا تنفع تعاليم الدرس التي ترسم طرق الحياة النظيفة السعيدة لمن لا يجد تحت يده المال اللازم لتنفيذ تلك التعاليم ، ولمن لا يجد الوسيلة الفعالة التي تعينه على اتقاء الأمراض ، ومعالجة نفسه وأسرته مما يحاربها من العلل ؟

وماذا تجدي جهود الطبيب الماهر لدى إنسان لا يفقه قولا ، ولا يقدر نصيحة ، ومن ثم لا ينفذ تعليمات الطبيب على وجهها الصحيح بإخلاص وأمانة ، أو لدى من لا يجد الوسيلة المادية اللازمة لتنفيذ تلك التعليمات على صورة مجدية ؟

وقديما عرفنا أنه أتى على الفلاح المصري حين من الدهر ، عقب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) كانت حالته المالية ميسرة ، ومع ذلك لم يرتفع مستوى حياته بالقدر الواجب ، وذلك بسبب جهله ، وما يؤدي إليه الجهل من سوء التصرف ، وبسبب تمكن العلل والأمراض على الرغم من تيسر الحصول على الطبيب الناجح لدى هؤلاء الميسورين الذين نشير إليهم .

* * *

ولست أنتظر بطبيعة الحال أن ترتب تلك الحملات الإصلاحية التي أشرت إليها في جميع أنحاء القطر في الحال . فالمال اللازم لها على هذا النطاق الواسع غير ميسور ، كما أن الأيدي العاملة المدربة اللازمة من المعلمين والأطباء لا تزال قليلة ، وإنما الذي يصح أن نؤمل فيه والذي يجب أن نأخذ في أسبابه ، هو تجربة هذا النوع من العلاج الحاسم

المشكلة على نطاق ضيق فى منطقة محدودة . فهذا ممكن فى كل وقت ، سواء من ناحية تدبير المال أو تجنيد الرجال ، وهو فى الوقت نفسه طريق لاكتساب الخبرة التى تؤدى إلى تخير أحسن الأساليب للقيام بالحملة الكبرى فى وقتها المناسب .

وهذه الطريقة كما يعرف الكثيرون قد جربت بالفعل فى كثير من البلاد الأخرى إبان نهضتها ، وكانت هى الأساس الأول الذى بنيت عليه حركة الإصلاح فى روسيا السوفيتية ، ولا تزال هى الطريقة المتبعة هناك لإنجاح أى عمل من هذا النوع إنجاحا سريعا أكيدا : حملة قوية مجهزة بأمهر الرجال ، وأوفر العتاد ، وخير المرغبات ، تنزل بالناحية المقصودة ، فتنقض على من فيها فتبهتهم ، وما هى إلا أيام معدودة حتى يسير الكل مع التيار ، ويتغلغل الإصلاح فى جميع النواحى فى آن واحد ، فإذا بالأمانى تتحقق بأيسر السبل فى أقرب وقت . وإذا بأهل هذه الناحية المنشودة ينتقلون فى أشهر معدودات من الظلمات إلى النور ، ومن الهمجية إلى المدنية ، ومن البؤس إلى السعادة .

* * *

والأمر الثانى الذى يصدم زائر الريف بعد طول البعد عنه ، هو أنه يجده كما تركه ، يجده هو هو كما كان دائما ، لا يهتز بالأعاصير ، بل يصمد للمتاعب والملمات . والذين يتحدثون عن قيام الوعى القومى ونهوضه ، وعن خطر انخراط الفلاحين فى سلك الحركات الشيوعية وأمثالها ، هؤلاء مغالون فى تصوراتهم ، ومخطئون على ما أعتقد فى فهمهم لأهل الريف عندنا .

فالفلاح إلى الآن لا رأى له بوجه عام فى السياسة . وأهل الريف إنما يجارون ويقلدون ويجاملون ، فهم لا يعبأون فى قرارة أنفسهم بالسياسة وبالانتخابات وبقيام الحكومات . فالفلاح لا يهمه من يجلس فى الحكم ، ولا من يفاوض فى قضية البلاد ، ولا من يذهب إلى مجلس الأمن ليستعديه على الإنجليز ؛ وإنما الذى يهم الفلاح إلى أقصى حد ، وله الحق فى ذلك ، هو كيف يحصل على حاجياته بسهولة ، وكيف يصل إلى تخفيض أسعار هذه الحاجيات من غير أن يؤدى ذلك إلى نقص إيراده أو المساس بأجره اليومى العادى .

وليس هذا بدعا من الأمر . فالسياسة ميدان صعب يحتاج لعقل راجح ، وفكر ثاقب ، ونضج اجتماعى كبير . والأمم التى سبقتنا بمراحل ، لم يفقه العامة فيها أساليب السياسة على وجهها الصحيح إلا قليلا جداً وحديثاً جداً . وذلك حين أخذت هذه الأساليب السياسية ترتبط برغيف العيش ، وتجذب العمال ومن فى طبقتهم بمعسول الكلام ، الذى يمنيهم بالسعة والهناءة والمساواة بين جميع الطبقات ، وغير ذلك من حلو الأمانى التى يلوح بها للعامة هناك ، لترضى عن هذه الحركة أو تلك .

فإذا كان هذا هو الحال فى الأمم التى سبقتنا فى التربية والتعليم ، وفى التغلب على المرض والفقر إلى حد كبير ، فكيف بنا هنا بمصر ، ونحن لا نزال نئن تحت عبء ثقيل ، ونتحسس خطانا إلى محاربة تلك الأعداء العاتية ، ولما نتبين بعد طريق الانتصار عليها فى تلك الحرب الضروس التى نريد أن نشنها عليها .

أظن أن القارىء العزيز يوافقنى على أنه أحرى بهؤلاء الذين يضيعون الكثير من وقتهم الثمين ووقت الفلاح فى محاولة حشره فى السياسة أن ينشطوا إلى الميدان الاجتماعى لعلهم يجدون فائدة ترجى من الاتصال به فيه .

ولعل الجهود العظيمة التى تبذل فى السياسة إذا بذل جزء يسير منها فى تجهيز الحملات الإصلاحية التى أشرنا إليها من قبل تكون أكثر ثمرة وأعم فائدة .

هذا بعض ما يصدم الإنسان فى الريف ، ويتصل بالذكريات المؤلمة ، نقتصر عليه فى هذه المرة . ولعل لنا عودة إلى هذا الموضوع فى فرصة أخرى قريبة إن شاء الله .

أحمد عبد السلام الكرداني

إلى من يلزم من المسئولين في شئون انتصارنا القومي :

ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

قيل إن امرأ القيس بن حجر الكندي شاعر العرب لجأ إلى قبيلة من قبائل اليمن عندما اشتدت عليه كربة قتال أعدائه الذين قتلوا أباه الملك حجراً .

وكانت عند امرىء القيس بقية من إبل ، فأرسلها ترعى مع إبل القبيلة ، وكانت عنده رواحل قليلة من إبل عجاف ، كان يستخدمها حيناً في حمل الماء من البئر إلى الخيام ، ويستخدمها حيناً آخر في الانتقال من مكان إلى مكان .

ولكن أعداء امرئ القيس لم يدعوا له فرصة للراحة أو الاستقرار ، فاتبعوه حيثما رحل ، وأغاروا على إبله التي كانت ترعى آمنة في جوار شيخ القبيلة اليمنية .

وغضب الشيخ اليمني غضبة شديدة عندما استباح أعداء امرىء القيس جواره ، وأبى إلا أن يخرج وراءهم يطلب استرجاع إبل ضيفه الذي استجار به مهما كلفه ذلك الأمر من مشقة . ولكنه عندما خرج إلى وجهه لم يركب خيله ولا إبله ولا هجائنه ، بل أخذ رواحل امرئ القيس وأركب عليها بعض أتباعه ، وأسرعوا وراء الأعداء المغيرين قبل أن يعلم امرؤ القيس بخبر الخسارة التي لحقت به .

وعلم امرؤ القيس بالأمر بعد حين ، فجلس مهموما ينتظر عودة شيخ القبيلة . ولا شك أن الانتظار كان ثقيلا على نفسه ، ولا سيما وهو من الشعراء الذين وهب الله لهم خيالا واسعاً يصور المخاوف مجسمة ، ويجيء الهموم مهولة مضخمة .

وعاد شيخ القبيلة بعد عدة أيام يمشي على رجليه ، والحياء يجلل وجهه خجلا ، وكان أتباعه جميعا يمشون من ورائه على أقدامهم مطرقين في حزن وانكسار .

فنظر إليهم امرؤ القيس ، وأدرك بفطنته ما وراءهم من الهزيمة والخيبة . ثم صور له خياله الخصب ما في تلك الحال من بواعث الضحك المحزن ، فقد خرج الشيخ على رواحل امرىء القيس يطلب استرجاع إبل امرىء القيس التي سلبها الأعداء ، فلم يصنع سوى أن أضاف إلى الأعداء غنيمة أخرى ، إذ سلبوا منه رواحل ضيفه المسكين . فرآه امرؤ القيس منظراً يبعث على الضحك حقاً ، مع أنه كان في الوقت عينه منظراً محزناً . فلم يضيع الشاعر تلك الفرصة ، فقال أبياتاً تقطر ضحكا ودمعا . وقال في آخرها يسأل الشيخ اليمني في سخرية :

دع عنك نهباً صيح في حجراته
ولكن حديثاً ما حديث الرواحل ؟

ومعنى هذا السؤال بلغتنا الحالية ما يأتي : أيها الشيخ اليمني ! لست حزيناً على إبلي التي أغار عليها أعدائي فسلبوها ، فإني أعرف أن هذه سنة العرب في حروبهم ، ولهذا فإني لا أسألك عن تلك الإبل المسروقة ، فإني لا أرى عجباً في أمرها . ولكن خبرني بحق أبيك ، كيف أضعت رواحلي التي خرجت تركب عليها ؟ حدثني كيف سلبوا الرواحل من تحتك ومن تحت أصحابك هؤلاء ؟ خبرني بذلك . فهذا هو الحديث الشائق الذي يهمني أن أسمعه .

ولقد كان امرؤ القيس رجلا مرهف الحس ، يدرك في لمح البصر ما في الأمور من مضحكات ، ولو كان يعيش في زماننا هذا لامتلأ قلبه ضحكا وسخرية وعجبا من أمور كثيرة ، ولكان يجد في ذلك الضحك عوضا من فقد ملكه ، ومن هزائمه الكثيرة .

وإحدى هذه المضحكات المزلزلات أنه خرج منذ حين من مصر قوم يطلبون استرجاع السرح الذي استاقته بريطانيا من مصر . ولكن بريطانيا لم تأخذ من مصر إبلا ولا خيلا ولا غنما ، بل أخذت أشياء أخرى كثيرة ، تبلغ قيمتها مئات الملايين من الجنيهات . وقد قاسينا من هذه الإغارة العنيفة أمر الأمرين ، من غلاء فاحش ،

وجوع وعرى ومرض ، وغير ذلك مما لا ينبغي أن نذكره . وليس من الضروري أن نطيل الحديث في ذلك السرج الذي استاقته بريطانيا ، فإنه كما قال امرؤ القيس لصاحبه الشيخ البجلي خطب يسير ، فإن القوى هو القوى منذ القدم ، والضعيف هو الضعيف . ولكن الخطب الكبير أن قوما قد خرجوا ليسترجعوا ذلك السرج من يد بريطانيا ، أو كما يقولون في لغة هذه الأيام ، خرج وفد مصرى من إخصائيين ماليين للمفاوضة في الأرصدة الاسترلينية .

الخطب الكبير أن هؤلاء الإخصائيين رجعوا بغير أن يسترجعوا شيئا من السرج المنهوب . ولا عيب في ذلك فقد كان النهب والسلب من عادات أجدادنا العرب ، لا يرون فيهما عيباً ، ولا ينبغي أن نجد نحن معاشر أبنائهم عيبا في أن يغير قوم على قوم ، ويستاقوا أموالهم غنيمة حلالا لهم ، على مقتضى القانون الخالد ، قانون القوة والعزة — قانون من عزّ بزّ ، ومن غلب استلب — قانون الغابة المقدس . لا عجب في أن يعود وفد الإخصائيين الماليين بالخيبة ، فلم يسترجعوا سرج مصر ، ولا عيب على الإنجليز في أنهم استاقوا السرج ، ومضوا به غنيمة حلالا .

ولكن الشيء المضحك حقاً هو أن هؤلاء السادة عادوا يمشون على أقدامهم ، بعد أن سلبت منهم الرواحل التي ذهبوا يركبون فوق ظهورها . لقد عادوا قائلين لنا : إن الجنيه المصري قد فصل عن الجنيه الاسترليني !

فنحن نستقبلهم بالترحاب ضاحكين من مرارة الحزن ونسألهم قائلين : دعوا كل ما قيل من الديون والأرصدة . دعوا كل ما يتعلق بالنهب الذي لا عيب فيه في سنن القوة والغلبة والقهر . ولكن خبرونا أيها السادة عن هذا الحديث الجديد .

لم نسمعكم من قبل تتحدثون عن فصل الجنيه المصري من الاسترليني في هذا الظرف الحالي من السنين . لم نسمعكم تتحدثون عن هذا من قبل ، فخبرونا عنه لأننا لا نفهم معناه .

أذهبتم لاسترجاع الأرصدة ، أم قد ذهبتم أيها السادة لتعودوا مشاة على الأقدام بعد فصل الجنيه المصري عن صاحبه الذي كان يركبه طوال تلك السنين ؟

لقد قرنا الجنيه المصري بالاسترليني في وقت كان عندنا فيه الأرز والقطن والقمح والبطيخ والبرتقال والعسل . وكان كل هذا يؤخذ منا بالاسترليني الورق السخيف . ولو فصلنا بينهما عند ذلك لكان لنا المكسب وعلى غيرنا الخسارة . فأي حكمة في أن نفصل الجنيه المصري عن الاسترليني اليوم ، وعندنا كثير من هذه الأوراق السخيفة التي تسميها الجنيه ، ونحن في حاجة إلى ما في العالم من خيرات ترد لنا ديوننا عينا بعين وسنًّا بسن ؟ أية حكمة في هذا الفصل في الظروف الحاضرة أيها السادة ، فإننا نحب أن نفهم ؟ إننا لم نسمع ذكراً لهذا الفصل من قبل . فهل من كلمة نفهم بها ما قصدتم في ذلك الشأن ؟

إنها لفكاهة نجد فيها من العوض عن خسارتنا مثل ما وجد امرؤ القيس في فكاهته التي عوضته عن خسارة سرجه في جوار الشيخ البجلي السمين .

محمد فريد أبو حديد

٣ – الحملة الفرنسية
والنهضة المصرية

قضية انتشار الثقافة الفرنسية :

يحاول بعض المؤلفين البرهنة على شدة تأثير الحملة الفرنسية فى النهضة المصرية ، بقولهم : « إن مصر لا تزال متأثرة بالثقافة الفرنسية . وذلك يدل دلالة قاطعة على عمق تأثير الحملة النابوليونية » .

وقد قال أحد المؤلفين فى هذا الصدد ، ما نصه بالحرف :

« كان للجهود التى بذلها العلماء الفرنسيون أبعد الأثر فى مستقبل مصر الثقافى والفكرى . إذ أصبحت مصر شديدة الاتصال بفرنسا والتأثر بها فى هذين الميدانين .

أصبحت مصر ميداناً خصباً للثقافة الفرنسية والعلم الفرنسى . وأصبح الأدب الفرنسى أحب ألوان الآداب إلى المصريين وأقربها إلى نفوسهم . وأصبح الفلاسفة الفرنسيون أئمة الفلسفة والفكر عند زعماء النهضة والثقافة فى مصر . وقد بلغ من عمق هذا الأثر أن الإنكليز لم يفلحوا فى محاربته والقضاء عليه ، على الرغم مما بذلوا من جهود ، منذ احتلالهم لمصر .

وهـذا – فى حسابنا – أعمق آثار الحملة الفرنسية وأزكى ثمراتها » .

إن هـذه الملاحظات والمحاكمات تبدو – فى الوهلة الأولى – قوية وحاسمة . غير أن قليلا من التأمل فى حقائق الأمور – يكفى لإزالتها ، وشيئاً من التوسع فى بحث الوقائع يكفى لهدمها من أساسها :

أنا لا أنكر أن الثقافة الفرنسية أثرت فى مصر تأثيراً كبيراً ، وأسلم بأنها فاقت سائر الثقافات من وجهة هذا التأثير .

غير أنى أرى من الضرورى أن أتساءل – فى الوقت نفسه : « فهل كان ذلك من جراء الحملة النابوليونية المعروفة ؟ » .

إذا وسعنا آفاق أنظارنا ، وحملناها إلى سائر أقسام الشرق الأدنى ، وجدنا بسهولة الجواب الحاسم لهـذا السؤال :

إن الثقافة الفرنسية انتشرت فى سائر أقسام الدولة العثمانية ، وأثرت فيها أيضاً تأثيراً كبيراً . ونستطيع أن نؤكد أن سيادة هـذه الثقافة على مصر ، لم تكن فى يوم من الأيام أشد وأقوى من سيادتها على استانبول وأزمير وسلانيك مثلا .

هذا ، ولم تنحصر سيادة الثقافة الفرنسية على الممالك العثمانية وحدها . بل تعدت ذلك إلى الممالك المجاورة لها أيضاً . ومما لاشك فيه أن هذه الثقافة سائدة الآن حتى على إيران .

ولا حاجة لبيان أن البلاد التى ذكرتها آنفاً لم تتعرض قط إلى حملة عسكرية فرنسية ، كالتى كانت ذهبت إلى مصر ؛ وذلك يدل دلالة صريحة ، على أن انتشار الثقافة الفرنسية فى الشرق الأدنى ، حدث بتأثير عوامل عامة وعميقة ، لا تمت بصلة إلى الحملة النابوليونية التى انحصرت بمصر وحدها ، والتى لم تمكث فيها أيضاً غير مدة قصيرة جداً .

فأعتقد أننى لا أكون من المغالين إذا قلت : « إن مصر أصبحت ميداناً خصباً للثقافة الفرنسية والعلم الفرنسى ، ليس من جراء مجىء الحملة الفرنسية إليهـا ، بل من جراء جلاء الحملة المذكورة عنها . »

ولا أكون من المخطئين ، إذا ادعيت : أن الأدب الفرنسى أصبح أحب ألوان الآداب إلى المصريين وأقربها إلى نفوسهم ، لو لم تفشل الحملة الفرنسية فتضطر إلى الجلاء من مصر ، قبل أن تمضى مدة طويلة على احتلالها .

• • •

قصة حجر الرشيد :

وكثيراً ما يحاول المؤلفون أن يدعموا النظرية التي نحن بصددها ، بقضية اكتشاف الحجر الأثري المعروف باسم « حجر الرشيد » ، وذلك خلال اشتغال الجنود الفرنسية بحفر الخنادق حول مدينة « الرشيد » .

إنهم يقولون : إن الحجر المذكور قد كشف النقاب من أسرار الكتابة الهيروغليفية ؛ وهذا الكشف أدى إلى قراءة كتابات المصريين القدماء ، وضمن الاطلاع على تفاصيل تاريخهم المجيد وحضارتهم الراقية ، وأصبح بذلك عنصراً فعالا جداً في النهضة المصرية .

وقد قال أحد المؤلفين — في هذا الصدد مايلي :

« كان هذا الكشف — في حسابنا نحن المصريين — أجل نتائج الحملة الفرنسية وأبعدها أثراً . إذ أنار للعالم ناحية أطبق عليها الظلام وسادها السكون . وأخرج إلى النور فقرة مفقودة كان لا بد من العثور عليها حتى تستقيم سيرة الحضارة متصلة الحلقات موصولة الفقرات ، وآثار لمصر سبيلها فعرفت نفسها ومقامها بين أمم التاريخ » .

غير أني أرى من الضروري أن ألفت أنظار الذين يرون هذا الرأي إلى الحقائق التالية :

أن حجر الرشيد لم يكشف النقاب عن أسرار الكتابة الهيروغليفية كشفاً مباشراً . بل إن حل الرموز المحفورة على الحجر المذكور ، لم يتيسر إلا بعد مرور مدة تزيد على عشرين عاما .

والباحث الشهير « شامبوليون » الذي حل رموز الكتابة الهيروغليفية — لأول مرة — لم يتوصل إلى ذلك لمجرد ملاحظة الحجر المذكور ؛ بل توصل إلى ذلك بعد دراسات ومقارنات دقيقة وطويلة ، تناولت ملاحظة خصائص اللغة القبطية ، مع مقارنة عدد كبير من الإشارات الهيروغليفية المنحوتة على مختلف الآثار القديمة المنقولة وغير المنقولة .

ومما يجب ملاحظته في هذا الصدد : أن شامبوليون ولد سنة ١٧٩٠ ؛ فكان في الثامنة من عمره في تاريخ نزول الحملة الفرنسية إلى القطر المصري . وزد على ذلك فإنه لم يزر مصر إلا سنة ١٨٢٨ ، أي بعد مرور أكثر من ربع قرن على تاريخ جلاء الجيوش الفرنسية من القطر المذكور .

أفلا يكون من الغريب — والحالة هذه — أن يقال إن حل رموز الكتابات الهيروغليفية كان من أجل نتائج الحملة الفرنسية ؟ .

هذا ويجب أن لا يغرب عن البال : أن العلماء كانوا تمكنوا من حل رموز الكتابة الفارسية القديمة ، قبل أن يتمكنوا من قراءة الكتابات الهيروغليفية . كما أنهم توصلوا إلى حل رموز الكتابات المسمارية واللغات السومرية والآشورية والبابلية ، بعد مدة من الزمن . وقد تمت جميع هذه الاكتشافات الهامة ، دون أن تذهب إلى هضبة إيران ولا إلى بلاد مابين النهرين ، حملات عسكرية ، مثل الحملة النابوليونية التي ذهبت إلى وادي النيل .

ولهذه الملاحظات كلها ، نستطيع أن نقول : إن العلاقة المزعومة بين أعمال الحملة الفرنسية وبين قضية قراءة الخطوط الهيروغليفية ، لهي من نوع العلاقات المرضية ، التي لا يجوز أن يعبأ بها في الأبحاث العلمية .

* * *

أسطورة اللقاء الأول :

يقول بعض المؤلفين — في جملة ما يقولونه للبرهنة على علاقة النهضة المصرية بالحملة الفرنسية — إن الحملة المذكورة كانت بمثابة اللقاء الأول بين الشرق والغرب ؛ فكانت لذلك عميقة الأثر في أحوال الشرق . وهي شديدة الشبه — من هذه الوجهة — بفتوحات الإسكندر المعلومة في القرون الأولى .

غير أني أرى من الضروري أن يلاحظ في هذا الباب الحقائق التالية :

أن مصر لم تكن قبل الحملة الفرنسية منعزلة عن العالم ، كما كانت اليابان مثلا . بل إنها كانت — بطبيعة مركزها الجغرافي — على اتصال دائم مع العالم الغربي من جهة والعالم الشرقي من جهة أخرى . ونستطيع أن نقول إنها كانت حلقة الوصل بين بعض البلاد الغربية وبين بعض البلاد الشرقية .

وكان في مصر قناصل عديدون وأجانب كثيرون . حتى إن الجبرتي يصف في يومياته هذا الصنف من السكان بقوله « الافرنج البلديين » ، ويذكرهم عدة مرات في مختلف المناسبات . ومن المؤكد أن نابوليون نفسه استفاد كثيراً من الفرنسيين الذين كانوا مقيمين في مصر ؛ حتى إنه قد عهد إلى ثلاثة منهم بمهمة المراقبة الرسمية على أعمال « الديوان » المؤلف من بعض الوجوه والعلماء .

ثم إن مصر كانت — عندئذ — جزءاً من أجزاء الدولة العثمانية ، تشترك في حياتها السياسية والاقتصادية والعسكرية اشتراكا فعلياً ، مثل اشتراك سائر الولايات العثمانية . ويخبرنا الجبرتي — عند ما يذكر الوقائع التي حدثت خلال سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف — مثلا ، أنه ورد « أمر بطلب ثلاثة آلاف من العسكر المصري » للاشتراك في محاربة الروس [1] . كما أنه يخبرنا — عندما يذكر الوقائع التي حدثت خلال سنة أربع وعشرين ومائة وألف — أن العساكر عادوا من هذا السفر [2] . ثم يعود ويذكر ورود أمر جديد « بطلب العسكر » مرة ثانية بسبب « نقض الهادنة » [3] .

ويذكر الجبرتي أيضاً — بين وقائع السنة الثامنة والأربعين والمائة بعد الألف — وورود آغا وبيده مرسوم بطلب سفر ستة آلاف عسكري لمحافظة بغداد . كما أنه يذكر — بين وقائع السنة الحادية والتسعين والمائة بعد الألف — ورود أمر بطلب عسكر لسفر العجم [1] .

ومن المعلوم أن الدولة العثمانية كانت شديدة الاحتكاك ومتواصلة اللقاء بالغرب ، منذ قرون عديدة .

وكانت أسست مدرسة للهندسة العسكرية وأخرى للشئون البحرية ، قبل الحملة النابوليونية بمدة غير قصيرة ، وكانت عهدت بتنظيم شئون هاتين المؤسستين الهامتين إلى ضباط أوربيين ؛ وكان بينهم الفرنسي والإنجليزي والسويدي .

وكان قد ترجم وطبع بعض الرجال ، بعض المؤلفات المتعلقة بفنون الحرب ؛ وكان من جملتها كتاب في فن الحرب ، وآخر في فن اللغم ، وآخر في فن الحصار . وكان هناك كتاب « في ترتيب الأوردو وتحصينه موقتاً » ، وكتاب آخر « في وجه تصفيف سفائن الدونما وفن تدبير حركاتها » .

فكيف يجوز أن يقال — والحالة هذه — إن الحملة النابوليونية على مصر كانت بمثابة اللقاء الأول بين الشرق والغرب ؟

هذا ، ويجب أن لايغرب عن البال ، أن نابوليون نفسه كان فكر في الذهاب إلى القسطنطينية ، للدخول في خدمة الدولة العثمانية ، تلبية للطلبات التي كانت أذيعت بواسطة السفارات . وإذا كانت الظروف قد حملته على العدول عن هذه الفكرة ، فإنها لم تحل دون ذهاب غيره من الضباط الفرنسيين ، للانخراط في سلك الجيش العثماني . ومن المعلوم أنه كان بينهم عدد من الذين كانوا رجحوا الخروج من فرنسا على البقاء فيها تحت رحمة الثورة الكبرى .

(١) الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار . ج ١ ص ٣٨ .

(٢) الجبرتي : ج ١ ص ٥٢

(٣) الجبرتي : ج ١ ص ٥٣

(١) الجبرتي : ج ٢ ص ٨

ومن الأمور المؤكدة أن نابوليون عندما حاصر مدينة عكا — بعد احتلال العريش والغزة ويافا — ، علم أن رئيس الضباط الذين كانوا يشتغلون بتحصين المدينة ، ويضعون الخطط الكافلة للدفاع عنها ، كان ضابطاً إفرنسياً ، من رفاق صفه فى المدرسة الحربية ! وكان من غرائب الصدف ، أن الظروف ساقت كل واحد من هذين الرفيقين إلى الشرق من طريق خاص ولغاية خاصة ؛ فقد ذهب الأول إلى القسطنطينية ضابطاً يخدم الدولة العثمانية بإصلاح مدفعيتها . وذهب الثانى إلى مصر ، قائداً عاماً لحملة تسعى إلى استعمارها ، وقد قربت حروب الشام السالفة الى كانت تفصل بين هذين الضابطين ؟ إلى أن أصبحا فى طرفى أسوار عكا ، أحدهما يأمر على رأس المحاصرين ، والثانى يعمل فى عداد المدافعين !

وهذه الحالة لم تكن فريدة فى بابها . بل إن المؤلفات التى تصف الحركات العسكرية التى جرت فى الشام ، تذكر أسماء غير واحد من الضباط الفرنسيين الذين حاربوا الحملة الفرنسية ، فى صفوف الجيوش العثمانية : أنهم كانوا ممن التحقوا بخدمة الدولة المذكورة ، ووصلوا الشام عن طريق القسطنطينية ، وذلك لعدم تحيزهم للثورة الكبرى وخروجهم عليها .

وأنا لا أشك فى أن كل من يأخذ بنظر الاعتبار هذه الحقائق ، يدرك بسهولة أن القول بأن الحملة الفرنسية على مصر ، كانت اللقاء الأول بين الشرق والغرب ، مما لا يتفق مع أظهر وأثبت وقائع التاريخ ، بوجه من الوجوه .

وأما تشبيه حملة نابوليون على مصر بحملة الإسكندر على الشرق ، فهو أيضاً لا يستند إلى أى أساس صحيح . لأن حملة الإسكندرية على الشرق ، كانت تكللت بالنجاح ؛ والحكم الذى نشأ عنها استمر مدة قرون ، فترك لذلك آثاراً عميقة فى أحوال الشرق . فى حين أن حملة نابوليون على مصر لم تتكلل بالنجاح إلا لمدة قصيرة جداً ، والحكم الذى استند إلى هذه الحملة لم يستمر إلا ثلاث سنوات . فما كان يمكن أن تترك آثاراً قابلة للقياس مع الآثار التى تركتها حملة الإسكندر بطبيعة الحال .

* * *

قضايا التنظيم والعمران :

وكثيراً ما يذكر المؤلفون والمؤرخون « بعض الأعمال العمرانية والتنظيمية » فى عداد الدلائل التى تبرهن على تأثير الحملة الفرنسية فى النهضة المصرية .

إنى أعتقد أن كل ما قيل فى هذا الصدد أيضاً يحتاج إلى درس وتمحيص :

يجب علينا أن نفكر ملياً : ما هى حقيقة هذه الأعمال العمرانية والتنظيمية ؟ ماذا كان القصد الأصلى منها ؟ وماذا نتج عنها ؟ وماذا كان تأثيرها الفعلى فى البلاد ؟ ماذا تم منهـا فعلا خلال وجود الحملة فى مصر ؟ وماذا بقى منها بعد الجلاء ؟ .

ومن البديهى أنه لا يسوغ لنا أن نجزم بتأثير هذه الأعمال التنظيمية والعمرانية فى النهضة المصرية ، إلا إذا تأكدنا من أنها استمرت بعد الجلاء ، واتصلت بحركات النهضة بصورة فعلية .

وعندما نبحث فى الأمور على ضوء هـذه المبادىء نضطر إلى التسليم بأن هذه المزاعم لا تستند إلى أساس متين مثلا يذكر بعض المؤلفين « التنظيمات الإدارية » التى قام بها الفرنسيون فى مصر ، ويشيرون بوجه خاص إلى الدواوين التى ألفوها من الأهلين ، فى القاهرة وفى الملحقات ، ويقولون إن ذلك كان بمثابة « إشراك الأهلين فى إدارة شئون البلاد » ، بل « تعويدهم على مبادىء الحياة النيابية » .

غير أنى أرى من الضرورى أن أتساءل — تجاه هذه الأقوال :

— ماذا كانت السلطة المخولة لهذه الدواوين؟ وكيف كان يعين أعضاؤها؟ وهل خدمت الدواوين المذكورة البلاد خدمة حقيقية؟ وهل استمرت وواصلت أعمالها، بعد جلاء الفرنسيين عنها؟

إن أجوبة هذه الأسئلة تغير منظر القضية تغييراً أساسياً:

إن مهمة هذه الدواوين كانت — من حيث الأساس — تنفيذ أوامر الفرنسيين، تحت مراقبة مندوبيهم، وفقاً للتعليمات الموضوعة من قبلهم. وأما أعضاء هذه الدواوين فكانوا يعينون تعييناً، بعد انتخابهم من قبل الحكام العسكريين. فكانت التعليمات الصادرة إلى هؤلاء الحكام تأمر بانتخابهم من بين الوجوه والعلماء «الذين يتمتعون بنفوذ قوى على الأهلين» مع ملاحظة «كيفية قبولهم للفرنسيين» مما يدل دلالة صريحة على أن الغرض الأصلى من هذه التشكيلات والتنظيمات كان «الاستفادة من نفوذ هؤلاء على الشعب لتنفيذ مآرب الفرنسيين بعد التأكد من خضوعهم وموالاتهم للادارة الفرنسية».

فكيف يجوز لنا — والحالة هذه — أن نرى فى «تأليف هذه الدواوين» ما يمكن أن يعتبر من نوع «تعويد الناس على الحياة النيابية»، وما يمكن أن يذكر بين «عوامل النهضة المصرية».

* * *

ويذكر أحد المؤلفين — بين مآثر الحملة الفرنسية — الأعمال التنظيمية التى باشروها فى جزيرة الروضة، ويشير بوجه خاص إلى الشارع المستقيم الذى أوجدوه لوصل الجزيرة بالمدينة، وإلى أشجار السيسبان التى غرسوها فى طرفى الشارع المذكور.

غير أنى أرى من الضرورى أن ألفت الأنظار:

أولا: إلى كثرة الأشجار والبساتين والمبانى التى خربها ودمرها الفرنسيون فى مختلف أنحاء القاهرة — مقابل ما أنشأوه وغرسوه فى جزيرة الروضة وشارعها.

وثانياً: إلى الغرض الأصلى الذى كان يهدف إليه الفرنسيون من مشروع جزيرة الروضة وشارعها.

لقد لاحظ نابليون — بعد ثورة القاهرة — أن تفرق الفرنسيين فى الحارات المختلفة من المدينة يولد مشاكل كبيرة، فقرر أن ينشىء مدينة جديدة منفصلة عن القاهرة تخصص لإسكان الجالية الفرنسية، تجعلها فى مأمن من تعرضات الأهلين خلال الثورات التى قد تحدث فى المستقبل، وتسهل مهمة الجيش خلال تلك الثورات. ورأى أن جزيرة الروضة هى أوفق الأماكن لتشييد هذه المدينة الفرنسية[1]..

فإذا جاز للفرنسيين أن يباهوا بالمشروع الذى وضعوه لتنظيم تلك الجزيرة والأشجار التى غرسوها هناك، دون أن يذكروا شيئاً مما خربوه ودمروه فى سائر الجهات ودون أن يوازنوا بين ما أنشأوه وبين ما دمروه بوجه عام — فهل يجوز المصريين — والعرب أجمعين — أن يقتدوا بهم فى هذا المضمار وأن ينظروا إلى القضية بهذا «المنظار الفرنسى» الذى يخفى المعايب من الأنظار، ويغالى فى تعظيم المحاسن إلى أقصى حدود المغالاة؟

قد يسألنى سائل: أفكانت «تخريبات الفرنسيين» التى ذكرتها الآن عديمة الفائدة تماماً؟ ألم تساعد تلك التخريبات على تنظيم مدينة القاهرة مؤخراً؟

وأما أنا، فأقول بلا تردد — جواباً على هذا السؤال — إنى أعرف أن الحرائق التى تنشب والزلازل التى تحدث فى بعض المدن أيضاً، قد تساعد على توسيع الشوارع وتنظيم الحارات، «بسهولة كبيرة ونفقات قليلة» فهل يترتب علينا — بالنظر إلى ذلك — أن نعتبر الزلازل من أفضال، ونعد الحرائق من حسنات؟..

ساطع الحصرى

(١) F. Charles-Roux : Bonaparte gouverneur d'Egypt p. 201

٢ - صمت جاك فارجيون

وكانت خاتمة يوم الشتاء فى الجنوب ، جميلاً رقيقة الغلائل ، حتى شعرت بالاستعداد للمشى والترويض . وبينما كنت أجوس خلال أشجار الصنوبر ، كان الهواء طرياً عطراً شافياً ، حتى أنساق ما جئت من أجله ، وجلت فى الطرقات غير المألوفة ، وبينما كنت أدور حول منعطف ، سمعت صوتين ، كان أحدهما صوت أنجيليك ، ولكن لمن كانت تهمس هذا الهمس الرقيق الملىء بالعاطفة ؟ وتوقفت قليلا ، وفى الظل الذى ألقته دوحة رأيتها تضم إليها رجلا فى عناق متقد ، وعرفت الرجل كذلك ، فقد كان من ناشئة القضاة ، وقد أقام حيناً فى ريوم ، وكان من الذين يترددون على منزل كليرياك . وأخذتنى دهشة عظيمة ، ثم تخطر ببالى فكرة الانسحاب ، وبعد دقائق قليلة مر بى الاثنان ، وهو لم يرنى ، ولكنها ... ! وفى الضوء الواهى رأيت عينيها تتقلصان ، وعرفت أنهـا أبصرتنى ، وقد قدمت لى فى هذه المرة دليلا آخر قاطعاً على مقدار امتلاكها لعواطفها ، فإنها لم تنبس بكلمة ، ولم تأت بأيسر حركة .

ومشت فى طريقها ... ولست فى حاجة إلى القول بأنى فى مدى ثلث ساعة ، كنت عائداً فى طريقى إلى ماولون ، ولم أعاود المرور عليها .

فقلت : أى موقف حرج لك ؟ فقـد كنت أحسن أصدقاء لوشيان ، فإذا لم تقل شيئاً فقد جعلت نفسك شريكا لسر زوجته الجارم ، ومن ناحية أخرى إذا تحدثت ...

فقال فارجيون فى صوت تخنقه العاطفة : كيف أتحدث إليه وأصارحه ، وأنا أعلم مدى حساسيته ، وكيف كان يعبدها ؟ إن ذلك كان يجرحه جرحا لا يبرأ منه ، لا . لم أكن أقوى على ذلك ، ولا أذكر أنى شعرت يوما بأنى ممزق النفس ، موزع العواطف أكثر مما كنت يوم عدت إلى منزله فى ريوم ، ولم أكن قد عقدت العزم على أن أكون شريكا — فليس هناك كلمة أخرى تصدق ، وقد حيانى لوشيان بلهفة ، وكان حبه لأنجيليك باديا على وجهه .

وسأل بلهفة واهتمام : « كيف حالها ؟ » فوجف قلبى وخذلنى ، ولم أستطع أن أبدد وهمه ، أقول لك إنى عجزت عن ذلك .

ولجلجت وتعثرت وقلت كلاماً ، وكان يكفى اضطرابى نفسه لإثارة شبهته ، ولكنه كان يثق بى فى تلك الأيام ثقة لا يرقى إليها الشك .

وقلت : إنى لم أر أنجيليك ، وقد ذهبت إلى هييرز ، ولكنها كانت قد خرجت ، وكان عندى بعض أشغال عاجلة ، فلم أستطع أن أعود لزيارتها .

والتزمت الصمت — لقد كنت شريكا .

وكانت هنـاك محنة أخرى مدخرة لى ، محنة كنت أخشاها ، فإن أنجيليك كانت عائدة ، فكيف يكون سلوكها فى حضورى ؟ وهى بلا نزاع قد عرفتنى فى النسق بين أشجار الصنوبر ، ومن غير شك قد أدركت أنى عرفتها .

ولابد أنهـا قد عانت آلاماً شداداً ، لأنى كشفت سرها ، ولابد أن حب الاستطلاع قد أضناها حينما كانت رسائل لوشيان اليومية إليها توضح لها أنى لم أتكلم بعد ، ولقد عادت لتجد مفتاح هذا اللغز ، وقد أخبرنى لوشيان وهو فرح جذلان بعودتها السريعة بعد أن عانته .

قال لى : « لقد كتبت إلىّ تقول إنها قد شفيت شفاء تاماً ، وإنها ستبرح هييرز فوراً ، ألا ترى أن تصرفها غير حكيم ؟ إنها تذكر أنها تفتقدنى ، وأنت تعرف حالتى بدونها . لقد جعلنى الحب شديد الأثرة ولا أستطيع أن أحمل نفسى على أن أقول لها لا تحضرى »

فهتفت قائلاً : لقد كان من الصعب عليك يا جاك التمس أن تمسك عن الكلام .

— كان صعباً إلى حد مؤلم قاس ، والألفاظ التي وجهتها إليّ أنجيليك في حضرة لوشيان جعلته أمر وأقسى ، فقد بدأت بقولها : « لقد سمعت أنك كنت في طولون أثناء وجودي في هييرز ، وقد أخبرني لوشيان أنك مررت بي وأنا غائبة ، وكنت تستطيع ترك بطاقتك ، أو أن تكتب مذكرة أو تمر ثانية » . وقد واجهت الأمر بصفاقة كما ترى ، ولم تغير موقفها في الأيام التي تلت ذلك ، وكاد يغلب عليّ الاعتقاد بأني أخطأت في ظني أنها قد عرفتني في كوستبل لو لم أظل أراقبها مراقبة شديدة ، ولو لم أتبين في اختلاج أهداب جفونها وضحكها وصوتها ومصافحتها وفوق كل شيء في عينيها أثر التوقع والاستطلاع ؟ ولقد كانت ترقب وتنتظر — ولكن ما الذي كانت تنتظره ؟ وأسعفني الحظ هذه المرة ، فقد استأثرت واجباتي الحربية بمعظم وقتي ، ومنعتني من التردد الكثير على المنزل ، وتحاشيت بذلك الانفراد بها حتى جاء يوم ونجم الموقف الذي كنت أخشاه — ومع ذلك يا بعد ما بينه وبين الموقف الذي كنت أتوقعه .

ففي عصر يوم من أيام الربيع الباكرة حينما يملأ النفس سروراً ضوء الشمس الساطع الصافي والنسيم الطلق العليل ذهبت لأصحب لوشيان في جولة نقوم بها ، ولكنه كان قد دعي إلى المحكمة على غير انتظار ، ولم يكن بالمنزل سوى أنجيليك .

فدعتني قائلة : « تعال ياجاك لنتحدث في الحديقة ، وسأريك أزهاري فقد بدأت تنمو وتظهر »

فتبعتها وأنا عالم بأن ساعة التوضيح والتفسير قد حانت ، وأنها مسرورة لذلك ، وفي بادىء الأمر ظللنا صامتين ، ولكنها فجأة انبعثت قائلة :

— لقد تصرفت تصرفاً نبيلا ياجاك ، وأنا أريد أن أشكرك ، وكنت تستطيع أن تقضي عليّ وتخرب عشي بالكلام ، ولكنك خليت سبيلي ، وقد انتهى كل شيء الآن ، والفضل لك ، ولقد تحققت كرمك في الوقت الذي كنت أشعر فيه بتهديد وهمي ، فقد استبان لي أن الرجل الذي كنت أعتقد أنه يحبني كان يتسلى بي . .

فقلت : إذا كان صمتي قد ساعدك حقيقة على إنهاء الأمر فإني لن آسف عليه أسفاً شديداً ، وأظنك تعلمين كم كلفني هذا الصمت .

— إني أعرف ذلك ، وقد ساعدني على الفهم ، فأنت صديق لوشيان — ولست أبالي أن أعترف الآن بأني كنت أخير منك ، وقد تحققت أن عاطفة عنيفة هي التي منعتك من الكلام ، ولقد أثر ذلك في نفسي تأثيراً عميقاً .

وتناولت يدي فجأة وبغير ترو ووضعتها في يديها ، وشعرت بنبضها المتدارك الخطر ، وكان هذا النبض العنيف أدل على ما في نفسها من الكلمات .

وراحت تقول : لقد كنت خائفاً من أجلي ، وأنا أعرف مقدار حبك للوشيان ، ولكنك مع ذلك احترتني ، وأنا كذلك . . لقد تغير شعوري نحوك تغيراً تاماً .

وأضافت في تؤدة وهدوء : إني أحبك ياجاك ، وأنت تحبني .

ودنت مني حتى كادت شفتاها تمسان شفتي ، وتبدت كأنما قد أضاءتها شعلة واستحالت رشاقتها العادية المألوفة جمالا ، وفارقتها براءة الحمامة لتظهر المرأة الحقيقية ، وقد دفعها الحزم الغالب على الطبقة المتوسطة إلى الزواج من الرجل الذي يعبدها ، ولكن تحبيبه الحي إليها لم يشبع الجانب العاطفي في طبيعتها ، ولقد كانت أنجيليك كإبريك شريرة ومنافقة ، وكانت كذلك من الباحثات عن الأحاسيس ، وقد أحست الخوف في أثناء تلاقينا بالغابة ، وأحست بعد ذلك حب الاستطلاع لاستجلاء حقيقة صمتي ، وكانت من أمره في لبس ، فلماذا عزته إلى حبي لها ؟ وهل كشفي لسرها الجارم أيقظ في نفسي دون أن أعلم رغبة منحرفة كانت لا تزال منشبثة في أعماق عقلي الباطن ؟ أليس ممكناً أن يحدث مثل هذا حينما تكون المرأة شابة وجذابة كما

كانت أنجيليك وحينما تسمح الظروف بالمقابلات اليومية ؟ وليس بي من حاجة إلى أن أقول لك إن فكرة استغلال سرها لتهديدها بالفضيحة حتى تصبح رفيقة لي لم تلوث عقلي قط، ولكن، كما أوحيت أنت الآن، لا بد أنني كنت من بادىء الأمر أشبهها اشتباهاً غامضاً خفياً، وقد أحست هي بذلك، وكان هذا هو تفسيرها لصمتي، وعلاوة على ذلك فإنها كانت تعلم أنني لن أعترف بمشاعري حتى لنفسي، لأن لوشيان كان صديقي، وقد اعترفت لي بتقاعس وهمها، وكانت في حاجة إلى عشيق جديد، وكان الإغراء قوياً فتلبها على أمرها وأدى بها إلى هذا الإعلان الفاجيء، وقد اعترضتها بإظهار النفور والتقزز، وسحبت يدي من يدها وابتعدت.

وقلت: أنت مخطئة يامدام كابرياك. وأفزعها اتخاذي اللهجة الرسمية في الحديث. فنظرت إلى بعينين ندبتين، فهل كان ذلك خجلا من حماقتها وطيشها أو غضباً أو تألماً صادقاً من رفضي لمثل هذا المرض ؟

وتابعت الحديث قائلا: نعم لقد أخطأت، فأنا لم ألذ بالصمت من أجلك، وإنما من أجل لوشيان، لا أني لم أحترك، ولو لم أعرف من بواكر أيام دراستنا مقدار حساسيته وكيف يسهل جرحه لكنت شفيت نفسي بعمل الواجب وأعلنت خيانتك وفضحتها، لأن خديعة رجل مثل لوشيان ليست أكثر ولا أقل من خيانة، والآن قد انحدرت إلى هاوية أعمق باجترائك على مفاتحتي بالحب، وأنا أخو لوشيان ونفسه الأخرى كما تعلمين، ولكن دعيني أضع حداً لهذه المناقشة، فأنا سأحتفظ بالصمت مرة أخرى وللدافع نفسه — لكي أجنب لوشيان الألم، وسيزداد الأمر صعوبة في هذه المرة، ولحسن الحظ أن عملي يقتضي التنقل، وسأتخذ الإجراءات اللازمة لأنتقل من ريوم، وأرجو منك أن تمكنيني من السيطرة على نفسي حتى يتم أمر النقل، وقد كنت أنوى أن أنتظر لوشيان ولكن الأحسن أن تخبريه بأنى ذاهب إلى كابرمون، وسأحضر لزيارته غداً، وأعدك وعداً شريفاً بأني في أثناء ذلك لن أقول شيئاً، وسأنصرف لكن هذه المقابلة لم تحدث، ولكن لتفهمي لآخر مرة والمرات جميعها أنه يلزم أن لا يكون هناك حديث من هذا القبيل.

ولقد تحدثت بانفعال وعنا يقارب العنف، فهل كان شيء أكثر من الغضب الصادق هو الذي بعثني على ذلك ؟ ألم أكن أحارب رغبة غامضة قد زادها قوة عرضها لنفسها التي لم أتبينة من كلامها وسدها، بل من اقتراب جسدها وتلاحق أنفاسها واشتعال حرارة يديها ؟ وانفلت مسرعاً دون أن أنظر إلى الوراء، وكان انصرافي أشبه بالفرار.

وبعد ثلث ساعة ذهبت إلى رئيسي وطلبت الترخيص لي بإجازة مدعياً أن عندي شواغل عائلية كالتي اضطرتني إلى الذهاب لطولون، وكان في مأمولي أن أقابل في أثناء تغيبي أحد أقاربي ممن لهم مركز سام في الجيش، وأن أسأله أن يستعمل نفوذه لأرسل إلى إفريقية، وهذا يبرر ترك مدينة ريوم في نظر لوشيان، ومن أين لي أن أحكم بأنه هو نفسه كان سيصر على ذلك ؟ وكيف كان يخطر ببالي أن أنجيليك وقد حز في نفسها ونال منها عدم اكتراثي تنتقم مني بوساطته ؟

وتوقف فرجيون من الحديث وقد آده حمل الذكريات، وتذكرت كلمات كابرياك فسألته: من المؤكد أنها لم تكن من القحة بحيث تخبره أنك قد حاولت مغازلتها ؟ إنها لم تكن تجترىء على ذلك.

— لقد كانت عندها هذه القحة، وهي لم تخاطر بشيء، فصمتي الأول سلبني القدرة على الدفاع، وكان الاتهام قد تأخر وقته، وفضلا من ذلك فإني إذا دافعت من نفسي واتهمتها ونجحت في إقناع لوشيان بجرمها سببت له ألما كنت أريد أن أجنبه إياه بأي ثمن، ومع ذلك كانت نمله، ولقد أخليت سبيلها للمرة الثالثة، وأطلقتها من أجل

الصديق الذي كان مقدراً لي أن أفقده ، وقد حدث ذلك بسرعة البرق ؟ ففي صباح اليوم التالي مررت بعد وكري المادي لأرى لوشيان ، فوجدته في غرفة الطالعة يذرع الأرض جيئة وذهوبا ، وقد تلونت ملامحه وتشبرت سحنته ، ولما دخلت عليه ضغط على قبضتي يديه واتجه إلى ثائراً مهتاجا وانفجر قائلا :

أنت تفعل بي ذلك ... أنت ... أنت ... لقد حاولت مغازلة زوجتي وإغراءها ، ولقد اضطرت إلى طردك من المنزل ، ولقد توسلت إليها أن لا تنكل أمرك إلى ، ولما كانت تعرف مقدار حبي لك وكيف أن خيانتك تجرحني فقد حاولت أن تحميك وتتستر عليك ، ولكن الأمر قد هالها وهز نفسها وكربها حتى حملها على أن تخبرني عما أصابها ... آه بإجاك أنت ! كيف أقدمت على فعل ذلك معي ؟ لقد عشت نهباً لإلهامات قلبي ، وكنت جد سعيد ، لقد كان لي زوجة وكان لي صديق ... والآن ليس لي سوى زوجة .

وكان يحبني حباً جماً ، وكان في مستطاعي أن أطمئنه بسكين مطرور في نحره الداري ، ولكني أحجمت عن ذلك ، لم أكن أملك القوة التي تمكنني من أن أريه طبيعة المرأة الحقيقية التي يعبدها ، وحتى لو فعلت ذلك لما صدقني ، ولما اقتصر ذلك الكشف والإفشاء ، وكانت صداقتنا قد تحطمت ، ولو تحدثت في تلك الأونة لشابت المرارة البقية الباقية من آثار ذلك الحب في نفسه ، وكان الأجمل أن أتركه في عمياء من أمره ، وقد مرت هذه الأفكار بخاطري مراً سريعاً بينما كان صوته متموجاً مسترسلا .

وعاود الحديث قائلا : تكلم ، قل شيئاً ، حدثني كيف حدث ذلك ، خبرني أنك آسف عليه .

ولكني تماسكت وتجلدت ولم أقل شيئاً .

فسمعته يتمتم بهذه الألفاظ : في المستقبل سيكون كل منا في حكم العدم بالقياس للآخر .

وتركته وهذه الكلمات تصل في أذني .

فسألته : ولكن هل كنت على حق في ترك نفسك زوج تحت أعباء هذا الاتهام ؟ ألم يكن من الواجب أن تتكلم من أجل صديقك ومن أجل نفسك ؟ لقد كان لا بد لها أنها أن تستمر في خداعه ، وهذا استنتاج مفروغ منه .

— إذا كانت قد ظلت تخدعه ، ومن الواضح أنها لم تكف فإنه لم يشعر بذلك ، لأنها كانت ممثلة بارعة ، وقد تسمعت أخبارها وراقبت سيرتها فلم تترام إلى سمعي شائعة سوء . لقد كانت مطبوعة على الرياء والنفاق لما كانت من طالبات الأحاسيس ، وقد عرفت كيف تجعل لوشيان سعيداً ، ومن أجل ذلك كان يمكن أن أسامحها لولا حادثة صغيرة ، ولكنها مع ذلك بالغة التأثير جعلتني أقدر الصداقة التي سلبتني إياها .

وقد حدث ذلك منذ عشر سنوات وكنت عدت إلى إسوار بعد غياب طويل ، وخطر ببالي أن أزور أحد هذه الأماكن التي كنت أعنى بها مع لوشيان في أيام الدراسة ، وكان هناك ناحية كنا نؤثرها بوجه خاص ، وهي غابة الشربين والبتولا الصغيرة الواقعة عند سفح بادي دي لاقاش والواجهة القصر رادمان ، فقد كنا نستمتع بالتروض تحت ظلال تلك الأشجار وبين كسور الصخور المنثورة التي قذف بها فيما مضى البركان ، وكنا نقضي الساعات الطويلة في تأمل أعماق فوهته المتوهجة التي كانت تثير الأسى والحزن في ذلك المنظر الساجي الوديع حيث كان التعارض ظاهرا بين الأزهار المتفتحة والأشجار الخضر والشجيرات وبين الحمم المزمجرة ، وحضرت من إسوار في عربة وسرت من القرية إلى الغابة ، وبينما كنت أجول بين الممرات المعهودة رأيت خيال إنسان جالساً على صخرة مستكناً في البقعة نفسها التي كنا نؤمها ونقيم فيها ولاسيما في أيام الدراسة ؟ وكان ينظر إلى الفوهة وقد بدا على وجهه قسوة

من سمر رمضان :

اجال

لا يزال من أمتع السمر عند الناس ذلك الذي يدور فيه الحديث حول « الآجال » وحدودها . وكيف أنه إذا جاء أجل قوم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون .

ولست أذكر مرة فتحت فيه أبواب هذا الحديث فى مجلس حضرته إلا سمعت فيه العجب .

ولا يمكن لأى كان أن ينظر بعين الاعتبار إلى ما يجرى حوله من الحوادث أو إلى ما يستمع من أحاديث الناس فى هذا الموضوع دون أن يمتلىء يقينا بأنه — حقيقة — لكل أجل كتاب .

* * *

ولعله ما من أحد إلا سمع بحديث ذلك الرجل الذى قدر عليه أن يموت تحت عجلات الترام ، فلما جاء أجله وهو يسير آمنا على إفريز الطريق وسط عشرات الناس الذين يسيرون حوله ، خرج له الترام من (شريطه) وصعد إلى الافريز . ودهمه هناك فى مأمنه — دون غيره — فقضى عليه .

أو ذلك الذى جلس بين يدى حلاقه ينعم بذرووره ويعطوره داخل (صالون) تغلق عليه أبواب وستائر . فلم يمنعه شىء من ذلك ولا نفعه كل ذلك حين حق عليه أن يموت فى تلك الساعة نفسها تحت إحدى السيارات . فان « السيارة الموعودة » اقتحمت عليه « صالونه » فهشمت أبوابه ثم أجهزت عليه وهو فوق كرسيه يدير لحلاقه خده الأيسر بعد أن فرغ من خده الأيمن !

وكذلك سمعنا العجب — من الجانب الآخر — حين يفر المرء من الهلاك المحقق . وحين ينجو بعمره ويخرج سالما من بين أنياب عزرائيل .

ولعل من أغرب ما يتناقله الناس فى هذا الصدد حديث ذلك الخادم الذى وقف فى شرفة عالية ومعه حشية ثقيلة ينفضها بعصاه فوق سور الشرفة . وبينما هو يقلبها بين يديه لينفض منها جانبا غير الذى نفضه إذا به يختل توازنه وتوازن الحشية ، فتسقط من فوق الشرفة العالية ويجذبه معها إلى أعماق الطريق . ويشاء القدر المحتوم أن تسقط الحشية فوق رجل آمن كان يسير فى تلك اللحظة مطمئنا تحت الشرفة فتكتم أنفاسه . أما الخادم المحظوظ فإنه يقع من هذا العالى راكبا حشيته الوثيرة . فينزل إلى الأرض سالما . ويترجل من مطيته كأنما ينزل عن « بساط الريح » ! .

* * *

ولقد سمعتنا منذ ليال ندوة جرى فيها ذكر هذه الأحاديث ، فقص علينا بعض الحاضرين حديثا عجبا مؤداه أن له صهرا تاجرا يتجر فى الحناء . وأنه نظرا لرواج هذه البضاعة فى أسواق الريف فإن عملاءه متفرقون فى مديريات القطر بحريها وقبليها . وأنه من أجل ذلك اتخذ لنفسه

الاستغراق كأنه كان يدعو موكبا من الأشباح ، كان هذا الرجل لوشيان ، فما الذى جاء به إلى تلك البقعة سوى ذكرى صداقتنا الضائعة المفقودة ، وأى وجه غير وجهى كان يلتمسه بين تلك الأشباح ! نعم لقد كان يدعو للمثول أمامه صورة الرجل الذى كان يعتقد أنه قد خانه ، ومع ذلك ظل يضمر له الحب ، لقد زار هذا المكان لأنه يحبنى — إنه دليل لا ينقض ، وتقدمت منه وخطوت نحوه ثم كبحت نفسى ووقفت جامداً ونظرت إليه وفكرت !

يجب ألا أتكلم ، ولا بد لى من الاحتفاظ بالسر ، إنى إذا تكلمت فسأقول الحق — يجب ألا أتكلم .

وشغط جاك فارجيون بيديه على عينيه وقال لم أره بعد ذلك قط ، ولعلك قد أدركت لماذا لم أخاطبها وماذا كان يعنينى من أمر جنازة لوشيان .

علي أدهم

محصلا نشيطا كان ينحصر عمله فى ذرع هذه الدوريات من أقصاها إلى أقصاها للمطالبة والتحصيل .

وحدث ذات يوم أن قصد هذا المحصل إلى مديرية الفيوم ، وكان يركب سيارة صغيرة مع أربعة من الركاب الآخرين . ثم بدا له وهو فى السيارة أن لا يضيع وقته فى تقليب عينيه ذات اليمين وذات الشمال . ورأى أن يستغل الساعتين اللتين سيقطع فيهما طريقه فى مراجعة بعض حساباته وفواتيره . فوضع حقيبته فوق ركبتيه وأخرج منها بعض دفاتره وشرع يفحص بعض (كشوفه) . ولكنه لم يمض فى ذلك إلا قليلا . فان هبة قوية من الريح عبثت بأوراقه المنثورة أمامه فجعلتها تتطاير من النافذة التى كان يجلس بجوارها كما لو كانت سربا من الحمام الزاجل فتحت أمامه أبواب أقفاصه . وكان لابد للمسكين من النزول . وكان لا بد للسيارة المضى بركابها المتعجلين . وأخيرا تم الاتفاق على أن ينزل هو لجمع أوراقه التى شتتها الهواء العاصف فى كل جانب من جوانب الصحراء التى كانت تجتازها السيارة ، وعلى أن يتابع بقية الركب طريقه ، لاسيما وأنه لم يبق على مكان وصوله هو إلا كيلومتران أو ثلاثة .

ونزل الرجل وجعل يتعقب أوراقه واحدة واحدة حتى إذا ظفر بإحداها اتجه نحو الأخرى يطاردها وتروغ منه حتى وفق آخر الأمر إلى جمعها كلها . فعاد إلى الطريق يلتمس سيارة أخرى تذهب إلى حيث كان يريد . ولم يطل انتظاره فان سيارة من سيارات ذلك (الخط) ما لبثت أن أطلت عليه فركبها وهو يسخط فى نفسه على ذلك الحظ العاثر الذى صادفه فى وجه يومه ذاك . وكيف أنه أراد أن يدخر لحظة من وقته أو لحظتين فأضاع ساعة أو ساعتين . وبينما هو جالس فى مكانه يهذى فى أمثال هذه الخواطر ويعيد ، إذ رأى سيارته تخفف من سرعتها ورأى أنظار الركاب تتطلع فى قلق إلى حادث وقع على جانب الطريق . فنظر هو الآخر حيث ينظرون ، فإذا سيارته الأولى مقلوبة فى منحدر وعر . وقد اجتمعت من حولها سيارات أخرى . وتبادل بعض الركاب مع شهود الحادث كلمات يستفسرون فيها عما وقع . وانجلى الحديث من أن سائق تلك السيارة كان يقودها بسرعة جنونية . وأنه لما بلغ ذلك المنحدر لم يستطع ضبط عجلته فتردى هو ومن معه ولم يبق منهم أحد على قيد الحياة !

* * *

تلك كانت قصة زميلنا الأول . ولعلها أثارت فى نفس زميل آخر ذكرى قصة شبيهة بها . والحديث فى أمثال هذه الشئون شجون . فقال الثانى :

— لقد وقعت فوق « جسر طلخا » واقعة لعلها أبلغ فى دلالتها من قصة « طريق الفيوم » .

فاشرأبت أعناقنا نحوه نستطلع منه ذلك الذى جرى فوق جسر طلخا . ومن المعروف عن هذا الجسر أنه قنطرة تربط طلخا بمدينة المنصورة . وأن وسطها معد لقطارات السكة الحديدية ، أما جوانبها الضيقة فإنها خصصت لمرور الناس والسيارات والدواب وما إلى ذلك .

قال صاحبنا : كان يركب القطار إلى المنصورة فى ذلك اليوم سيد كبير وكان معه تابع يركب فى نفس القطار ولكن فى الدرجة الثالثة . فلما أصبح القطار فوق الجسر ولم يبق بينه وبين دخول محطة المنصورة إلا لحظات هب التابع من مكانه يريد أن يكون إلى جوار سيده فى مركبات الدرجة الأولى إذا وقف القطار فى محطة وصولها ، ولكنه ما كاد يخرج من عربته لينتقل منها إلى العربة التى قبلها حتى زلت قدمه فهوى بين العربتين ، والقضبان التى يجرى عليها القطار فوق الجسر لا تحملها إلا (فلنكات) من الخشب متباعدة بعضها من بعضها ، وماء النهر يجرى من تحتها دافقا عاليا ، إذ لم تكن للجسر فى هذا الوضع المخصص للقطارات (أرضية) تفصله من النهر كما فى المكان الآخر

المعد لمرور الناس والعربات . فلما سقط الرجل بين العربتين صادف سقوطه تلك الثغرة المفتوحة بين كل (فلنكتين) فهوى من بينهما إلى النهر وكأنما كان مقدرا عليه أن يموت غرقاً فى ماء النهر . فنجا من السقوط تحت القطار ونجا من الوقوع تحت عجلاته ليلقى منيته فى قاع النهر ! على أن كتاب أجله لم يكن قد حان بعد ، فإنه عند وقوعه إلى النهر التقطه زورق كان يمر تحت الجسر فى نفس الوضع الذى كان سقوطه فيه فتلقفه كما لو كان على موعد قديم . « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ! »

وهكذا أمكن للتابع أن يدرك سيده قبل أن يستشيط غضبا لإهماله شئونه . ولتركه ينزل وحده فى المحطة دون أن يكون فى شرف استقباله !

* * *

وهنا رأيت زميلا ثالثا يتحرك تهيؤاً لحديث آخر . فقلت :

— بعض هذه المبالغات أيها الإخوان ! فإن الإنسان ليوشك من تكرارها أن يصدقها .

فرد أحد الحاضرين بأنه شخصياً كان من رواد مجالس الإمام الكبير الشيخ محمد عبده وأنه كثيرا ما سمعه بنفسه يردد حديثا قريبا جدا من حديث (جسر طلخا) هذا فى مجالسه كلما أراد أن يستشهد على أن الإنسان لن يصيبه إلا ما قسم الله له !

فاتجهنا بأبصارنا إلى زميلنا الثالث نستمع إلى حديثه فقـال :

— أذكر أنى قرأت فى بعض الصحف حديثا عجيبا لعله أعجب ما يمكن أن يروى فى أمثال هذا المقام .

كان ذلك على ما أذكر حوالى سنة ١٩٣٠ . وقرأت فى الصحيفة عنوانا غريبا يقول : « اليوم يموت آخر رجل من ثلاثين ألفاً » . فمضيت أقرأ المقال ، فإذا هو يروى قصة مدهشة من ذلك الرجل ومن الألوف الثلاثين الأخرى الذين سبقوه . وإذا القصة قصة بركان « كراكاتوا » الشهيرة .

« وكراكاتوا » هذه جزيرة صغيرة تقع فى بوغاز « سندا » بين جزيرتى جاوة وسوماطرة من جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندا . وهى فى طولها تبلغ خمسة أميال وفى عرضها أكثر من ثلاثة بقليل . وكان على شاطىء الجزيرة الجنوبى جبل منيف يخرج برأسه العالى كأنه مارد هائل يريد أن يتطلع السماء . وكان الناس يعرفون عن هذا الجبل أنه رأس بركان قديم وكانوا يعدون البركان فى قائمة البراكين الخامدة . ولكنه كان فى علم الله وحده من البراكين الحية وإن كان فى سبات عميق .

وفى السادس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٨٣ هب الراقد مذعورا من نومته الطويلة العميقة كأنما ألهبته سياط الجن . وشهد العالم من عربدة هذا المستيقظ المذعور أضخم ثورة بركانية تعيها بطون التاريخ ، فإن الجبل انشق انشقاقا من مفرق رأسه إلى طرف قدمه وطار فى الفضاء من وجه الجزيرة نحو ثلثيها . ولم يلبث الثلث الباقى أن طفح عليه البركان فأغرقه تحت قذائفه وحممه ، وبلغت كثافة هذا الطفح فى بعض المواضع مائة قدم أو يزيد ، واستحال سطح الجزيرة إلى فلاة بشعة بعد أن كان بستانا زاهرا يعج بصنوف الحياة النباتية والحيوانات المختلفة .

قال زميلنا :

— وقرأت فى تلك الصحيفة أن عدد سكان تلك الجزيرة فى ذلك الحين كان يقدر بحوالى ثلاثين ألفا عرف منهم أنهم هلكوا جميعا لأن الثوران كان من الحدة بحيث لم يدع أى أمل فى بقاء أى نوع من أنواع الحياة على البقية الباقية التى لم تنسف منها ، ولذلك أحجمت البلاد المجاورة عن أن تفكر فى تقديم أية معونة للجزيرة أو من فيها ، إذ لم يكن يتصور العقل أن يعيش فى هذه الجحيم حى زبانيتها !

وبعد أيام خفت الأصوات وهدأت حدة الصواعق ،

وأخذ ينجاب عن السماء ما غشاها . وعاد البارود رويداً رويداً إلى رقدته الأولى . فانسد حلقه المسجور وذهبت سورته . واطمأنت مداكه . وتعطلت أنفاسه . وبرز العلماء من أنحاء الأرض يقصدون ساحته لينقبوا في أرجائها لعلهم يعرفون جديداً ، أو يكتشفون سراً لم يعرفوه من قبل .

وبينما كانت إحدى البعثات تنقب في جانب من جوانب الجبل ، إذا بأفرادها يخيل إليهم أنهم يسمعون طرقاً من مكان بعيد . فأنصتوا فإذا الطرق حقيقة ماثلة . فأسرعوا نحو مصدره يحاولون الوقوف على سره . وبعد تنقيب قليل وصلوا إلى سرداب طويل ، رأوا في طرفه رجلاً آدمياً لا يزال على قيد الحياة . فعنوا به ، ونقلوه إلى مكان أمين ، وعالجوه بالطعام والشراب حتى استرد قواه . وبسؤاله بعد ذلك عن أمره حدثهم بحديثه . فإذا هو رجل كان قد حوكم ، وصدر الحكم عليه بالإعدام قبيل ثورة البركان بقليل . وكان قد تحدد لإعدامه صباح يوم الثوران ، فلما وقعت الواقعة ، ذهب القضاة ، واندكت محاكمهم ، وقضى الجلادون ، وتحطمت أسلحتهم . وبقى هذا المذنب وحده ليشهد مصرع القوم ، ويروى للخلف قصتهم ، وقد حكى الرجل أنه عند وقوع الكارثة كانت لا تزال أمامه بقية من طعام وشراب ، وأدرك من هول النكبة التي أحسها أنه سوف يطول مقامه في حفرته التي سجنوه فيها . فدفعه تعلقه بالحياة إلى أن يقتصد في هذه البقية الباقية من طعامه وشرابه ؛ فكان يكتفي في إطفاء ظمئه بأن يلعق الماء الباقي عنده بلسانه لعقاً — وقد تحقق أمله في رؤية الضوء من جديد ، وانتشلته تلك البعثة باعتباره الحي الباقي الوحيد بعد تلك النكبة الشاملة التي سبقت عصر القنبلة الذرية بأكثر من نصف قرن من الزمان .

ولم يكن عثور تلك البعثة على ذلك اللقيط العجيب آخر ما في تاريخ هذا الرجل من عجائب . فإن بعض العلماء أشار بضرورة « التحفظ » عليه لحكومة الدولة الهولندية في شأنه لعلها ترى في أمره رأياً يهمها .

ولكن الأقدار التي لطفت به وقدرت له النجاة من البركان وثورته ، أبت إلا أن تصدر الدولة عفوها عنه ، ليبقى تذكاراً حياً لذلك الحادث المروع . وظل الرجل بعد ذلك حياً حتى وافاه أجله في تلك السنة التي نشرت عنه الصحف فيها ما نشرت لتعلن للعالم وفاة ذلك الحي الذي عاش بعد نكبة تخطفت من حوله ثلاثين ألفاً من الناس !

حسن جمول

قصة الأسبوع
الجفاف
قصة مصرية

لما مات والده اغترط فى بكاء طويل واندفع نحو صدر أمه يدفن فيه أحزانه .

ولما ماتت أمه لم يبك . . بل ظل ساكناً لا يصدق ، وقف مبهوتاً كأن صاعقة قد مسته ، وكان ينظر إلى جسدها المسجى على الفراش نظرة زائغة ، وأدار بصره بين إخوته المشفقين عليه . . ثم سحت الدموع فجأة من عينيه غزيرة وتطلع إلى الصدر الذى يمكنه أن يندفع نحوه . . ولكنه لم يجده . . فشعر بنفسه يتخاذل ووقع مغشياً عليه !

كان حبه لوالدته حباً هائلا يملأ شغاف قلبه الصغير ، وكان ما زال طالباً بالمدارس الثانوية ، وكان هو آخر ذرية والديه ، فأولياه من حبهما الكثير ، ونشأ رقيق العاطفة ، دقيق الإحساس ، غزير الشعور . وأحب أمه منذ النظرة الأولى التى فتح فيها عينيه على وجهها الأبيض الهادى ، بملامحه الطيبة ، وكان دائماً يجد على صدرها هناءته ، وفى ضماتها سعادته ، وفى قبلاتها حلاوة الحياة التى بدأ يسير فى موكبها . ونما وترعرع وقد سرى حبه لأمه فى شرايينه مع دمه واختلطا ، وبات يعتقد تماماً أنها كل شيء له فى الحياة ، والسراج الذى يضيء طريقه فيها ، وأن سعادتها الدائمة هى الأمل الذى يرجوه ويجاهد من أجله . . وكان تبعاً لذلك يضنيه أن يراها حزينة لحظة ما ، فسرعان ما يبكى لبكائها دون أن يعرف السبب فتمسح دموعه بقبلاتها . وكان لا يحتمل ابتعادها عنه وكانت هى تلاحظ دائماً لهفته عليها فى غيابها واندفاعه نحوها فى وجودها

وبفقدها فقد كل شيء . وبقى صامتاً أياماً طويلة لا يتكلم إلا لتأدية طلباته سواء فى المنزل أو فى المدرسة . وعجب أصدقاؤه لذلك . . كان معروفاً بينهم بضحكاته العالية المرحة ، وروحه اللطيفة ، وأحاديثه المتوالية . . كانوا كلهم يحبونه لبشاشته . . ولكن حدث ذلك الانقلاب فى حياته فغير من طبيعته . . وأصبح صامتاً . . هادئاً . . لا يتكلم إلا بحساب . ولم تعد للحياة قيمة فى ناظريه ما دامت قد عصفت بحبه وأمله وسعادته وهناءته .

ولكنهم أنشأوه مؤمناً . وكان يعرف الله جيداً . . فحاول الاستسلام للأمور . . وعاد يسير فى ركاب الحياة .

كان إخوته من حوله ، ولكن الحب الذى يتبادلونه جميعاً يختلف عن حب والدته بطبيعة الحال ، وكان كل منهم مشغولاً بشئونه الخاصة . . وإذا بفراغ قلبه لا يملأه شيء ، وإذا به يشعر بالجفاف والسغب والجوع الماحق ، تؤثر على ذلك القلب فتكاد تهلكه !

ولما آن له أن يعمل فى الحياة خرج إليها وحيداً وبدأ عمله بعيداً عن الإسكندرية مسقط رأسه ومسرح نشأته وراعية تلك العاطفة القوية الجبارة التى تزخر بالحنان والعطف . . عاطفة حبه لأمه وحب أمه له .

ولم يجد بأساً فى أن يكون بعيداً عن إخوته ما دامت المقادير قد أرادت أن تأخذ أمه منه . . وما الذى يضيره أن يعيش فى أى مكان ، فلقد أصبحت البلاد والمدن لديه سواء ما دام لا يجد ذلك الصدر الحنون يرتاح إليه .

وعاش وحيداً . . وتقدم يواجه الحياة فى تلك السن الشابة غير مكترث ولا وجل . . ولكنه كان دائماً يشعر بأن قلبه يكاد يتشقق من فرط الجفاف الذى يعانيه .

ولما قيل له إنه يمكن لهذا القلب أن يستعيد نشاطه ، وأن يعود إلى نفسه ولو بعض انشراحها ، حاول تصديق هذه الأقوال ، ودفعته الحياة لأن يبحث ليعوض سعادته الضائعة .

وصرت به التجارب الكثيرة المتعددة النواحي .

كان يسكن عند امرأة نمساوية عجوز . . امرأة طيبة ، تسبغ عليه من حنانها الكثير ، وأحبها هو ، ولكن مع ذلك كان يشعر في قرارة نفسه أن حنانها هذا إنما هو في مقابل ما يدفعه لها من نقود ، فلم يكن إذاً حباً خالصاً . . وما كان هو ليبحث إلا من الحب الخالص الخالي من الشوائب والأغراض .

ودفعه الشباب مرات عديدة فأنشأ علاقات مع فتيات ، وحاول أن يرفعهن إليه ليتساوى شعورهن بشعوره ، وأحاسيسهن بأحاسيسه . . ولكنه فشل .

لم يجد معهن الحب الطاهر الذي يبحث عنه ويعوضه خير عوض من حب أمه المفقود . . . بل وجد الغرض الآثم مرة والخداع أخرى والنفاق ثالثة والغش رابعة ، والحب إذا داخله شيء من ذلك لم يكن حباً . وتنقل من واحدة إلى أخرى فما خفق قلبه لإحداهن الخفقات التي رغبها . . وعاد مخفقا .

وكان له أقارب يحيطونه بعطفهم ، ولكنه كان يشعر تمام الشعور أن عاطفتهم نحوه ليست هي الحب . . الحب الذي فقده وجعل يفتقده فلا يجده . . بل كانت عاطفتهم هي الشفقة به ، وهذا أكبر ما يجرح شعوره ، فقد نشأ على الكرامة والرجولة وعلو النفس .

وهو يذكر أن إحداهن — وهو يحترمها ويجلها ويحبها — قالت له يوماً :

— إني أمتي بشنونك لأنك مسكين وحيد !

لم يقل شيئاً . . فهو يؤكد أنها لا تقصد ولا تعرف أن هذه الكلمات تجرحه في الصميم . . وحاول الضحك . وشكرها ! .

ولكنه كان يبكي في نفسه . . فهو لا يبحث من الشفقة . . بل يبحث من الحب الخالص . . ولكن أين حبهم له ، وكل معنى بأموره . . وهو وحيد !

أما أصدقاؤه فكانوا ككل الأصدقاء ، يربطهم رباط طيب ، ولكنه لا يغني عما يبحث عنه قلبه .

وظل هكذا يبحث حتى مل البحث . . ويرجو حتى مل الرجاء . . ويأمل حتى هزمه اليأس . . وكان ما زال على صمته وانطوائه على نفسه . . يتأمل في كل شيء ، ويشعر بكل شيء ، ويتأثر لكل شيء . ويرجع إلى كتابه يخفي فيه همومه .

إن أعصابه الثائرة ورقة شعوره ، ودقة إحساسه ، قد نغصت دائماً عليه حياته . كان يقول لنفسه دائماً : « لو خلقني الله متبلد الإحساس ، عديم الشعور . . لكنت سعيداً » ولكنه ما خلق كذلك بل خلق وبين حناياه قلب يخفق بحب أمه حتى بعد أن مرت على وفاتها تلك الأعوام . . ونفس أبية لا تقبل الضيم ، وكرامة يحرص على ألا تمس . . وشعور فياض يجتهد في ألا يجرح ، وإحساس دقيق يتأثر لأي شيء . وحاول أن يعيش بهذا كله ، وكافح وقاوم ، فكان ينجح أحياناً ويخيب أخرى .

سألته يوماً إحدى قريباته ، ولعلها ضاقت ذرعاً بصمته وفتوره وآيات الأسى المرتسمة على وجهه دائماً : ما الذي يشقيك يا بني وأنت لا تحمل من أعباء الحياة المادية شيئاً . . ما الذي ينقصك وما الذي تريده ؟

فقال وهو يتألم : ينقصني أم . . لو كانت لي أم لا ستبشرت في الحياة . . أو ينقصني حب يعوضني خيراً من حبها . .

فقالت : أهكذا يفعل كل من فقد أمه ؟ !

قال : نعم يفعل هذا كل ذي شعور وإحساس دافقين . .

كانت تلك هي فلسفته في حياته الفاترة التافهة بعد أن فقد أعز ما يملك فيها .

وأطلعها على ما كتبه في يومياته في أحد أيام عيد ميلاده ، كان يقول :

« إنى أذكر ذلك اليوم من كل عام .. أذكر تلك القبلة التى كانت توضع على جبينى ، وتلك الربتة الرقيقة على خدى وظهرى ، وتلك الخفقات التى كنت أتسمعها من فؤاد أحنه .. من أمٍّ كانت تجمع مع كل ذلك لطف المعشر وحسن الصداقة . حين كنت صغيراً لم تكن لى أما فحسب ، بل كانت صديقة كبيرة ومرشدة حكيمة ومناطا أعقد عليه كل آمالى ونوراً يضىء جنبات حياتى .. حتى إنى كنت سعيداً إلى أقصى ما أتصوره من السعادة .. كنت أستدفىء بصدرها ، وأستظل بعودها ، وأسترخى على ذراعيها ، وأرتفع معها إلى ذروات عالية من الحب الخالص .. حب أموى عظيم هائل قوى جارف ، لم أر ولم أشعر أن سيدة تبادل به ولدها فى هذا الوجود ..

إنى أعود بذاكرتى إلى أيام كنت فيها إذا لم ألثم يدها صباحا لا أعرف لذلك اليوم لذة ولا أشعر له بأى معنى . حتى آخذ تلك اليد البيضاء العزيزة الطاهرة بين يدى أدفئهما بها ثم أرفعها إلى فمى لأضع عليها قبلة أشعر بعدها بأنى حقاً أعيش وبأنى حقاً إنسان وبأنى حقاً أمتلك شيئاً فى حياتى هو نعيمى .. وهو جاهى .. وهو نهاية أملى . »

وأخيراً يئس من كل شىء . إن الأمور مهما تحولت فلن يجد حباً يضاهى الحب الذى فقده . واعتقد دائماً أن حب الأم حب لا يعوض . وأن هذه العواطف التى يحيطه بها كل من يعرفه إنما هى لفائدة أو غرض أو مجاملة ، وإن لم تكن كذلك فمجرد شفقة أو عطف .. وهما أدنى مراتب الحب .

وكره كل شىء ، وأحس بنفسه دائماً يستعين بخياله ليعيش مع أمه .. كان يتخيلها طيلة نهاره وطيلة لياليه المسهدة القلقة ، وكان سعيداً بهذا الخيال الذى أغناه بعض الشىء .

وليلة .. زارته ، وجعلها تهمس باسمه ، وتأخذ بيده وهى تبتسم وتضمه إلى صدرها ، وتقبله فى حنان ، وتربت بيدها على ظهره وتمسح بها رأسه .. وقام يسير معها ..

قالت : أتتبعنى يا بنى ؟ .

قال : كيف لا أتبعك يا أماه .. وقد وجدتك أخيراً !

وفى الصباح كان يرقد فى سبات أبدى عميق وقد ارتسمت على ثغره ابتسامة مشرقة فيها الكثير من الهدوء والسعادة .

حسن فتحى خليل

الصيف

يا صيفُ أنتَ كنارِ شوْ ... قٍ مستبدٍّ مُحرِقُ
وكأنك الحبُّ الذى ... يكوى الفؤادَ فيخفقُ
وكأنَّ شمسكَ مُجمِرٌ ... تتنى التى لا تَرفُقُ
يا صيفُ إن لفَحتَ ريا ... حكَ من أحبُّ وأعشقُ
فتصَبَّبَتْ عرقاً كأنَّ ... المسك منه يعبقُ
ورأيتَ وَرْدَ خدودها ... تحتَ اللظى يتفتقُ
فاشرح لها كم أكتوى ... فيها ، وكم أتحرَّقُ
قلبًا تحنو علىَّ ... وعلَيها تترفق

•••

يا صيفُ إنَّ الناس قبـ ... ـلكَ بالبرودة أرهقوا
عبدوا المدافئ، واستحبُّوا ... ظِلَّهـا وتعلَّقوا
حتى أتيتَ فأطلقوا ... من قيدهم وتفرَّقوا
وإلى «المراء» تدفقوا ... وعلى «الشواطئ» أشرقوا

(ترمة ابن هانئ) كمال بسيونى

الشعر

ما كل ما حسبوه شعـراً فى حقيقته بشعر
كالمستدير من الحصا اللماع فى ميزان درّ
فالشعر زوجة الشعو ... ر وأساها فى نفس حر
الشعر سر تذوق الحسن الرهيب وأى سر!!
الشعر مرآة تريـك من المشاهد كل غر
الشعر فيض القلب من ... خير وعاطفة وبر
الشعر ما سحر العقو ... ل بغير تدجيل وسحر
الشعر إلهامٌ وإلها ... مٌ ومنتوجات فكر
الشعر أغنية الخلو ... د ترددت فى كلِّ عصر
الشعر يطربنى ويخطر فى دمى طرباً ويجرى
الشعر ما يسمو بقا ... ئله إلى أعلى مقر
الشعر ليس الشِّعر فى ... تنميق قافية وبحر
الشعر لا ترضى عقا ... ئله القران بغير مهر
كلا ولا هو لعبة ... قبضت عليها كف غر
والشاعر المطبوع من ... أمثال أحمد والمعرى
حى وإن ضمت عتيـق رفاته أحضان قبر

محمد عثمان عبد الرحيم

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٥٠ | الثلاثاء ٢٥ من رمضان سنة ١٣٦٦ — ١٢ من أغسطس سنة ١٩٤٧ | السنة التاسعة

القضية المصرية أمام مجلس الأمن

كان يوم الثلاثاء ٥ أغسطس موعد البدء فى نظر القضية المصرية أمام مجلس الأمن . وقد تولى دولة النقراشى باشا رئيس الوزارة المصرية بسط وجهة نظر مصر فى جلسة الصباح ، ورد عليه المستر كادوجان المندوب الدائم للمملكة المتحدة البريطانية لدى مجلس الأمن .

والمفهوم أن الوفد المصرى سيعقب على رد بريطانيا ، ويتلو ذلك تعليق من ممثلى بريطانيا ، وبعدها يناقش المجلس المشكلة . وقد نشرت الصحف اليومية النص الكامل لكل من بيان النقراشى باشا ورد المستر كادوجان ؛ فلهذا نكتفى بإجمال النقط الأساسية التى استند إليها كل منهما ، ثم نتناول الموقف بشىء من الدرس والتعليق .

بيان النقراشى باشا :

استهل النقراشى باشا بيانه بالإشارة إلى ثقة مصر بالمجلس وميثاق الأمم المتحدة ، وإلى أن المشكلة إذا كانت تمس بريطانيا فى بعض مصالحها الثانوية ، فهى تمس مصر فى صميم كيانها وحريتها ومقومات وجودها .

ثم أشار البيان إلى أن بقاء النزاع بين مصر وبريطانيا يخلق فى الشرق الأوسط حالة من الاضطراب والقلق تهدد السلام .

وأشار إلى أن مصر لم تدخر وسعاً فى التفاهم مع بريطانيا قبل الالتجاء لمجلس الأمن ، وتفاوضت معها فى أمر تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ مفاوضة طويلة ، زاد فى طولها إصرار الجانب البريطانى على التمسك بشروط ثقيلة مهيظة غبناً لحقها الطبيعى فى الجلاء . وبعد تعثر المفاوضات وانتهائها لغير نتيجة ، حاولت مصر محاولة أخيرة ، فسافر رئيس الوزارة المصرية ووزير الخارجية إلى لندن ، واتصلا مباشرة بالمستر بيفن وزير الخارجية ، وانتهيا معه إلى اتفاق كان يصح أن ترضاه مصر ، فقد اعترف فيه وزير الخارجية البريطانية بوحدة مصر والسودان تحت تاج مصر المشترك ، ولكن هذا الاتفاق لم يكد يوقع حتى أعقبه تفسير من رئيس الوزارة البريطانية يفسد معناه . وقامت فى نفس الوقت حركات من الموظفين البريطانيين بالسودان تناقض روح الصداقة والمودة التى كان يراد تحقيقها بإبرام المعاهدة . لهذا كان من العبث مواصلة السير فى طريق المفاوضة بعد أن وضح عقمه ، وتجلى إصرار بريطانيا على نياتها التى لا تبعث على الثقة والاطمئنان ، واضطرت مصر كارهة إلى الالتجاء لمجلس الأمن لتستعين به على حل مشكلة خطيرة ، أعياها أن تصل إلى حل لها بطريق المفاوضة المباشرة مع بريطانيا .

وتكلم النقراشى باشا عن تاريخ الاحتلال البريطانى لمصر والظروف التى اكتنفته من البداية ، وهى ظروف تنم عن روح استعمارية سيئة ترمى إلى بسط نفوذ بريطانيا

على هذه المنطقة . وأشار إلى التصريحات المختلفة التي صدرت من رجال بريطانيا المسئولين ، مشيرة إلى أن الاحتـلال مؤقت ، وإلى أنه بقى على الرغم من تلك التصريحات خمسة وستين عاما سيطرت فيها بريطانيا على مصر وسياستها الداخلية والخارجية . ثم أشار إلى إعلان الحماية على مصر خلال الحرب العالمية الأولى ، وبقاء هذا الوضع السكرية بعد انتهاء الحرب ، من غير أن تحرك بريطانيا ساكناً لتغييره ، مما أدى إلى انفجار مصر وثورتها وما انتهى إليه ذلك من إعلان بريطانيا تصريحا من جانبها تعترف فيه باستقلال مصر في سـنة ١٩٢٢ مع تحفظات أربعة احتفظت بها خاصة بسلامة المواصلات الامبراطورية في مصر ، والدفاع عن مصر ضد أى اعتـداء أجنبي ، أو تدخل مباشر أو غير مباشر ، وحماية مصالح الأجانب والأقليات في مصر والسودان ، فقد استبقتها لمفاوضات تحددها . وجرت سياسة بريطانيا بعـد ذلك على أساس جعل هذا الاستقلال صوريا ، واستبقاء الكلمة العليا في كل الشئون الخارجية والداخلية لبريطانيا وممثلها في مصر .

ثم أشار إلى محاولات مصر في استكمال شرائط استقلالها عن طريق المفاوضة مع بريطانيا ، وجمود السياسة البريطانية وإصرارها على موقفها ، وفشل كل تلك المحاولات من ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٣٦ .

وتكلم بعد ذلك عن معاهدة سنة ١٩٣٦ ، والظروف التي اكتنفتها ، وكيف قبلتها مصر متأثرة بالخوف من النازية والفاشية التي كانت قواها تهددها من الغرب والجنوب .

وفى مناقشة معاهدة سنة ١٩٣٦ بيّن النقراشي باشا أن القيود التي قبلتها مصر كانت قيوداً خاصة اقتضاها الموقف الدولى إذ ذاك ، وليس هناك ما يبرر بقاءها وامتداد أثرها بعد انتهاء الحرب وزوال تلك الظروف .

ثم أشار إلى أنه لايتعرض لقانونية المعاهدة ، وإنما يود أن ينبه إلى أن مصر بعد أن انضمت إلى ميثاق الأمم المتحدة وارتضته مع بقية الدول دستوراً للعلاقات الدولية أصبحت تعول عليه كل التعويل . وأنه يتنافى مع المساواة التي ينص الميثاق على ضرورة قيامها بين الدول المشتركة أن يحتل جنود دولة أراضى دولة أخرى زميلة لها في الهيئة متمتعة بالسيادة والاستقلال . وأشار إلى أن بقاء القيود التي تقيد بها المعاهدة مصر يتعارض مع التزاماتها التي تفرضها عليها عضوية هيئة الأمم المتحدة .

وأشار البيان إلى السوابق التي انتهجها مجلس الأمن في شأن احتلال جنود دولة لأراضى دولة أخرى ، وهذه السوابق هي قراراته في قضايا إيران واليونان وسوريا ولبنان ، وأتبع ذلك بقرار الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة الذى أبرز فيه مخالفة احتلال دولة لأراضى دولة أخرى من أعضاء الهيئة لروح الميثاق وأهدافه ولمبدأ الدفاع الإجماعى ، وأوصت الهيئة فيه بسحب القوات العسكرية الأجنبية من البلاد التي تحتلها .

وتكلم النقراشي باشا بعد ذلك مبيناً ما لابس معاهدة سنة ١٩٣٦ من الإكراه ، وأنها في الواقع لم تكن طرفاً حراً فيها . وختم كلامه عن معاهدة سنة ١٣٩٦ بالإشارة إلى إحدى مواد الميثاق وهى تنص على أنه إذا تعارضت أحكام معاهدة سابقة مع مبادىء الميثـاق فالعبرة بالالتزامات المترتبة على هذا الميثاق .

ثم تكلم النقراشي باشا بعد ذلك عن السودان وعلى أنه يكوّن مع مصر وحدة جغرافية وتاريخية واقتصادية ، وتناول تاريخ السودان الحديث من عهـد محمد على وكيف سارت الأمور في وادى النيل سـيراً طبيعياً مزجت بين جزأى وادى النيل في وحدة حقيقية إلى وقت احتلال مصر . ثم أشار إلى قيام الثورة المهدية وتدخل الإنجليز تحقيقاً لسياستهم الاستعمارية ، وضغطهم على مصر لسحب قواتها ، وكان في استطاعتها قمع الثورة ، ثم مانبع ذلك من إرسال حملة مشـتركة من المصريين والإنجليز تحت قيادة كتشنر لإعادة فتح السودان .

وأشار إلى اتفاقية سنة ١٨٩٩ التي جعلت إدارة السودان مشتركة، ومقاومة مصر لها وفرضها بالإكراه عليها، ولم يفته أن يوضح أن بريطانيا ظلت معترفة على الرغم من هذا بمركز مصر الشرعي في السودان، وأشار إلى المناسبات الكثيرة التي أكدت فيها الاعتراف بهذا المركز.

ومضى البيان يشرح ما جرت عليه السياسة البريطانية من الانفراد بالحكم في السودان وإبعاد المصريين عنه، والعمل على توهين العلاقات بين السودان ومصر، وتحويل الطريق التجاري في السودان عن مسلكه الطبيعي نحو الشمال وتوجيهه إلى الشرق.

وبيّن في جلاء ما في الدعاية البريطانية الحديثة التي تتكلم عن حق السودان في تقرير مصيره من تمويه، وأنها إنما ترمي بذلك إلى فصله عن مصر والانفراد به لنفسها، وأشار إلى الإجراءات التعسفية التي تقوم بها حكومة السودان لمقاومة الروح الوطنية وتشجيع الحركة الانفصالية عن مصر.

ونوه بالسياسة البريطانية التي تعمل على فصل جنوب السودان عن شماله تمهيداً لإلحاقه بأفريقيا الشرقية البريطانية.

ونفى بقوة ما تتحدث عنه بريطانيا من وجود فكرة استعمارية مصرية للسودان.

وختم بيانه بإبراز مطالب مصر الخاصة بجلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان، وإنهاء الحكم الإدارى في السودان، وأشار إلى ما أجمع عليه رأي الكثيرين من أن الدولة التي تتحكم في أعالي النيل تتسلط على مصر بحكم وضعها الجغرافي ذاته، ومثل هذه الدولة تكون مصر في قبضة يدها.

رد المستر كادوجان :

أشار المستر كادوجان إلى أن ممثل مصر عرض الموقف البريطاني في مصر عرضاً تاريخياً طويلا في صورة قاتمة وهو لا يقر هذه الصورة. ثم ناقش شكوى مصر لمجلس الأمن ومطالبها وهي تتلخص في الجلاء الناجز التام للقوات البريطانية في مصر والسودان، وإلغاء النظام الإدارى القائم في السودان. وأشار إلى أن الطلبين يتعارضان مع نصوص معاهدة سنة ١٩٣٦، وأن الطريق الطبيعي لتعديل المعاهدة هو إجراء مفاوضات مباشرة بين الطرفين، ولا يتم التعديل إلا إذا توافقت إرادة الطرفين.

ثم تكلم عن المفاوضات الأخيرة وما انتهت إليه تلك المفاوضات من مشروع لمعاهدة جديدة للمعونة المتبادلة ألحق بها بروتوكولان وقع عليهما بالحروف الأولى صدقي باشا والمستر بيفن، أحدهما خاص بجلاء القوات البريطانية عن مصر بحيث يتم في يوليه سنة ١٩٤٩، وقد رفضت الحكومة المصرية النص الذي وقع عليه في لندن، ولهذا استبعدت الأحكام الخاصة بالجلاء. أما بروتوكول السودان فقد تضمن بعض نقط تتفق تماماً مع استمرار نظام الإدارة الحالي المشترك، ونص فيه على أن السياسة التي يتعهد الطرفان باتباعها ستكون أهدافها الأساسية تحقيق رفاهية السودانيين وإعدادهم إعداداً فعلياً للحكم الذاتي، ويجب أن يعطى السودانيون حرية الاختيار، وهذه النقطة هي التي وقع عليها الاصطدام بين مصر وبريطانيا، وكانت وحدها سبب انقطاع المفاوضات.

ثم تكلم عن تصميم بريطانيا على سياستها في هذه المسألة جريا على خطتها، وهي السياسة التي تتفق مع العدالة ومع روح ميثاق الأمم المتحدة.

وأشار إلى أن بريطانيا عرضت أن تتفق مع مصر بشأن الجلاء وحده، وتؤجل مسألة السودان لوقت آخر فرفضت مصر، ولولا رفضها لتحقق الجلاء.

وناقش قانونية معاهدة سنة ١٩٣٦ وأشار إلى ضرورة التزام مصر بها حتى سنة ١٩٥٦ ما لم يجر تعديلها بمفاوضات بين الطرفين يتفقان عليها. ورد على ما أشار إليه النقراشي باشا من أن المعاهدة قد عقدت تحت ضغط ظروف

(البقية على صفحة ٢٤)

الجنيه المصرى

فى عهده الجديد

[يهم الرأى العام فى هـذه الأيام مسألة الأرصدة الأسترلينية ، وما اتفق عليه فى شأنها مع الحكومة البريطانية . و « الثقافة » تفسح من صفحاتها للآراء المختلفة فى هذا الموضوع حتى يتبين وجه الحق فيها . وقد نشرنا فى العدد الماضى مقالا نهيب فيه برجال الاقتصاد أن يدلوا بآرائهم فى الموضوع ، وننشر اليوم مقالا لأحد المختصين فى الشئون الاقتصادية يبدى وجهة نظره ، ونرجو أن يتقدم غيره من المتخصصين فى الموضوع لإبداء وجهات نظرهم خدمة للجمهور .]

ترتب على توقيع اتفـاق الأرصدة إخراج مصر من زمرة البلاد المشتركة فى الكتلة الأسترلينية ، وهى البلاد التى اتخذت الجنيه الاسترلينى قاعدة لعملتها ، وجعلت عمليات المبادلة النقدية بينها وبينه (أى الجنيه الاسترلينى) حرة على أساس سعر رسمى محدد .

وكان انضمام مصر إلى بلاد الكتلة الاسترلينية خلال الحرب العالمية الأولى من الإجراءات التى لجأت اليها السلطات المحلية لكى تمكن الحكومة البريطانية من الحصول على جميع ما تحتاج إليه من نقود مصرية للانفاق منها فى مختلف الأغراض ، وذلك بأن تقدم للبنك الأهلى المصرى سندات على الخزانة البريطانية تساوى قيمتها تلك النقود .

ففى ٢٧ سبتمبر ١٩١٦ قررت السلطات المحلية اتخاذ العملة الاسترلينية قاعدة للنقد المصرى بدلا من الذهب . وأجازت للبنك الأهلى المصرى أن يستعيض عن الذهب فى غطاء النقود المتداولة (البنكنوت) بسندات الخزانة البريطانية ، وبذلك صارت المبادلة بين الجنيه المصرى والجنيه الإنجليزى إجراء آليا على أساس السعر الرسمى المحدد ، وهو ٩٧ قرشا ونصف القرش .

فكان على البنك الأهلى المصرى إذا أراد زيادة النقود المتداولة فى مصر أن يودع فى غطاء الإصدار ما يعادل هذه الزيادة من سندات الخزانة البريطانية ، ويسحب منها — فى حالة خفض النقود المتداولة — مايوازى قيمة الخفض .

ترتب على سهولة عمليات المبادلة بين الجنيه الاسترلينى والجنيه المصرى خلال الحرب الأخيرة أن استطاعت السلطات البريطانية أن تجد فى مصر موردا لا ينضب لشراء ما يلزمها من السلع والخدمات عن طريق إصدار سندات على الخزانة البريطانية لاستعمالها فى غطاء البنكنوت المصرى دون الحاجة إلى عقد قرض مع مصر ، أو الدفع بالذهب وبعملات أخرى تحتاج إليها مصر ، أو تقديم سلع وخدمات لها .

وهكذا نشأت الأرصدة الاسترلينية وما هى فى الواقع إلا ديون — لم يؤخذ رأى الدائن فى شأنها — تجمعت لمصر تساوى الفرق بين قيمة مشتريات انجلترا فى السوق المصرية وقيمة مبيعاتها لها .

غير أن تجمع هـذه الأرصدة قد لازمته ظاهرة مالية خطيرة ، هى ارتفاع مستوى الأسعار المصرية بسبب الزيادة المطردة فى النقود المتداولة مع بقاء الإنتاج المحلى فى مستوى لم يتغير كثيرا ، وتسمى هـذه الظاهرة فى لغة الفنيين بالتضخم المالى ، أو الهبوط فى قوة النقد الشرائية .

ولما كانت نسبة الهبوط فى القوة الشرائيـة للعملة تقاس بنسبة الارتفاع فى مستوى الأسعار ، فإن القوة الشرائيـة للجنيه المصرى قد هبطت إلى نحو ٣٢ ٪ مما كانت عليه فى سنة ١٩٣٩ ، إذ أن مستوى أسعار الجملة ارتفع فى غضون السنوات السبع الماضية من ١٠٠ إلى ٣٣١

وإخراج مصر من الكتلة الاسترلينية إجراء قصد به منعها (أى مصر) من استخدام الجانب الأكبر من الأرصدة التى تجمعت لها فى لندن ، وتقدر هذه الأرصدة الآن بنحو ٣٧٥ مليون جنيه .

فى مقابل الافراج عن مبلغ ثمـانية ملايين جنيه من تلك الأرصدة (وبعض المبـالغ الأخرى التى حددت أغراض استعمالها) قبلت السلطات المصرية مبدأ التجميد ، وتجنبت الحكومة البريطانية ما كان يصيب سمعتها المالية من ضرر إذا لجأت إلى إعلان توقفها عن دفع ديونها دون موافقة الدائنين .

والأمر الذى يؤسف له حقاً أن مثل هـذا الإجراء يتم فى الظروف الحاضرة والاقتصاد المصرى لا تزال تنقصه عناصر الاستقرار والنقد المصرى تحف به المخاطر .

ولو أن مصر خيرت بين خفض جزء من أرصدتهـا (فى حدود ٥٠ مليونا مثلا) وبين تجميد الأرصدة الذى جاء به الاتفاق الأخير لما كان هناك وجه للتردد فى قبول الخفض ، إذ أن الاقتصاد المصرى الآن فى أشد الحاجة إلى دعمه وتوطيد أركان نهضته ، وأن الزيادة فى القدرة الإنتاجية التى كنا نتوقعها من استخدام الأرصدة فى استيراد السلع الإنشائيـة كانت ستعوضنا عن الخسارة الناتجة من الخفض .

ولـكن إخراج مصر من الـكتلة الاسترلينية وتجميد الأرصدة قد حبس عنا الانتفاع بها ، ولم يجنبنا بعد خطر خفضها أو إلغائها .

وقد تضمن تجميد الأرصـدة الاسترلينية تجميد السندات البريطانية المودعة فى غطاء البنكنوت المصرى عما فى ذلك الجزء الذى يعادل ما كان مودعا فى الغطاء فى سنة ١٩٣٩ .

واذا كانت قيمة الغطاء من الناحية العملية مرهونة بسهولة تحويله إلى عملات أجنبية فان قيمة ما جمد من غطاء البنكنوت المصرى قد انعدمت وأصبح الجنيه المصرى — من الناحية الفنية — عملة مكشوفة تحدد قيمتها فى عمليات المبادلة النقدية الحرة على أساس الموازنة بين مستوى الأسعار المحلية ومستوى الأسعار فى الخارج . ولو ترك الجنيه المصرى حراً لهبطت قيمته بالنسبة لبعض العملات ، وذلك على قدر الفرق بين مستوى أسعار السلع فى السوق المصرية ومستوى الأسعار فى السوق الأجنبية .

والتجاء الحكومة المصرية إلى بعض التدابير المتعلقة بالمحافظة على قيمة الجنيه المصرى فى الخارج — من فرض الرقابة على عمليات المبادلة والاستيراد ، ومن الاستيلاء على الأرصدة المصرية فى الخارج — اعتراف من جانبها بأن السعر الطبيعى لتحويل الجنيه المصرى إلى بعض العملات الأجنبية أقل من سعر الصرف الرسمى .

ووجود هذا الفرق بين السعر الطبيعى والسعر الرسمى للصرف من شأنه أن يزيد التهافت على استيراد السلع الأجنبية ويضاعف صعوبات تصريف المنتجات المصرية فى الأسواق الخارجية ، وبذلك تتعذر الموازنة بين كفتى الميزان الحسابى . أى الموازنة بين الصادرات (منظورة وغير منظورة) وهى التى تمثل الجانب الدائن من جهة وبين الواردات (منظورة وغير منظورة) وهى التى تمثل الجانب المدين من جهة أخرى .

وستواجه السلطات المصرية فى تنفيذ تدابير المحافظة على قيمة النقد المصرى صعوبات إدارية ومشكلات لا يمكن التغلب عليها إذا ظل السعر الطبيعى للجنيه المصرى أقل من السعر الرسمى .

وفى تجارب معظم دول العالم فى السنوات الثلاثين الماضية عظات بالغات وعبر لا تنكر ؛ فما من دولة تمكنت بتنفيذ مثل هذه التدابير دون غيرها أن تحقق موازنة حقيقية بين كفتى الميزان الحسابى . بل على العكس ، فان هذه التدابير كانت سببا فى استفحال الخطر وتطور الموقف من سىء إلى أسوأ .

وإذا فرضنا أن السلطات المصرية ستوفق فى تنفيذ تدابير المحافظة على قيمة النقد المصرى إلى إيجاد موازنة مؤقتة بين كفتى الميزان الحسابى ، فإن من المؤكد أن مثل

هذه الموازنة لن تدوم طويلا ، إذا استمر التضخم المالى بدون معالجة شافية .

إن واجب الحكومة المصرية يحتم عليها أن تتخذ الإجراءات السريعة الحازمة لدعم الجنيه المصرى وتصحيح مركزه . إما عن طريق امتصاص الفائض من العملة المتداولة أو عن طريق إعادة النظر فى سعر الصرف الرسمى .

ففيما يختص بامتصاص الفائض من العملة المتداولة فإن هناك من الأساليب التى لجأت إليها دول كانت فى مثل ظروفنا ما يحقق الغرض المنشود ؛ وأهم هذه الأساليب :

أولا — أن تعقد الحكومة قرضا محليا تجمد حصيلته

ثانيا — أن تجمد الحكومة جانبا من أرصدة الأفراد والهيئات فى المصارف وتدفع عن هذا الجانب المجمد فائدة مخفضة لأصحاب الأرصدة .

ثالثا — أن تزيد فى الضرائب على الأرباح التجارية .

رابعاً — أن تفرض أتاوة على ما يشتريه الأفراد من البضائع الكمالية على نمط النظام المعمول به فى انجلترا .

هذه أساليب سياسة الانكماش المالى ، ولا تلجأ إليها الحكومات إلا مضطرة بسبب ما يترتب على اتباعها من خفض فى إيرادات الدولة وتذمر من بعض طبقات الشعب .

وقد يتعذر على الحكومة المصرية أن تأخذ بهذه الأساليب فى الظروف الحاضرة نظرا لما تراه من ضرورة الإسراع فى تنفيذ المشروعات الاجتماعية التى ظلت معطلة خلال سنوات الحرب .

ففى هذه الحالة يجب أن توطد العزم على إعادة النظر فى سعر الصرف الرسمى وتقويمه على أساس السعر الطبيعى للمبادلة بين الجنيه المصرى وبين إحدى العملات الحرة (المثبتة على قاعدة الذهب) كالدولار الأمريكى .

ولن تضر المصالح المصرية بهذا الإجراء ، إذ أن الأسعار المحلية لن ترتفع إلى مستوى أعلى من المستوى الذى ستصله بعد بدء تنفيذ اتفاق الأرصدة ، ولكن بشرط أن تحتفظ الحكومة بموازنة ميزانية الدولة ، وليست مصر دولة مدينة فتخشى الإرهاق من زيادة قيمة دينها الخارجية

ثم إن الحكومة المصرية إذا هى لجأت إلى إعادة تقويم سعر الصرف الرسمى فإنها لن تضطر إلى تنفيذ قيود المبادلة والحد من الاستيراد .

ومهما يكن من أمر فإن الاتجاهات الاقتصادية لا تتأثر بقيود مؤقتة ، خصوصاً إذا كانت هذه القيود لا تؤدى إلى معالجة الداء الأساسى الذى دعا إلى فرضها .

محمد على رفعت

٤ – الحملة الفرنسية
والنهضة المصرية

التأثيرات « الغير مباشرة »

يهتم بعض المؤلفين بالبحث عن التأثيرات التي تجرى عن طرق « غير مباشرة » ، ويزعمون أن الحملة الفرنسية كانت شديدة التأثير جداً من هذه الوجهة؛ لأنها أظهرت للملأ ضعف الدولة العثمانية ، وكسرت شوكة أمراء المماليك وقوت مكانة علماء الدين ؛ وكل ذلك ساعد على نشوء الفكرة الاستقلالية في البلاد ، ومهد السبل أمام حركات النهوض والانقلاب

غير أن جميع هذه الملاحظات تفقد قوتها فتنهار من نفسها عند ما ندرس الأمور دراسة جدية ، بنظرات علمية ، متحررة عن سيطرة المزاعم الفرنسية .

فأولا : إن ضعف الدولة العثمانية ، لم يكن من الأمور الخافية على النـاس قبل الحملة الفرنسية ، فالانكسـارات العظيمة التي كانت منيت بها الجيوش العثمانية في حروبها الأخيرة مع الجيوش الروسية كانت تعلن ذلك للملأ بأوضح شكل وأجلى بيان .

ومن المعلوم أن آثار هذا الضعف كانت قد تجلت في الميادين المصرية نفسها ، عند ما قام على بك الكبير على الدولة العثمانية سنة ١٧٧١ ، وقد أعلن المومأ إليه استقلاله عن الدولة ، وطرد الوالي العثماني من مصر ، ثم أرسل جيشاً لفتح اليمن والحجاز ، واستولى عليهما بسهولة ، وصار يلقب بلقب « سلطان مصر وخاقان البحرين » ، ثم أرسل قوة عسكرية أخرى لفتح بلاد الشام ، كما أوفد مندوبين للمفاوضة مع البندقية وروسيا ، بغية عقد محالفات تضمن مصالح الطرفين وقد حدث كل ذلك ، قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر بمدة تزيد على ربع القرن .

ويجب ألا يغرب عن البال في هذا الصدد ، أن أمثال هذه الحركات الانفصالية والاستقلالية ، كانت تحدث في مختلف أقسام البلاد العثمانية ، من حين إلى آخر . فقد قام ولاة عديدون — بعضهم في القسم الأوربي من أراضي الدولة ، وبعضهم في القسم الآسيوي منها — يعلنون انفصالهم عن الدولة العثمانية ، ويستقلون في إدارة شئون ولاياتهم استقلالا تاما ، ثم يسعون إلى توسيع دوائر أحكامهم هذه ، بالاستيلاء على الولايات المجاورة لولاياتهم الأصلية . والتواريخ العثمانيـة تذكر بإسهاب تفاصيل الثورات التي قام بها أحد الولاة في أقصى الغرب من ولايات البلقان ، وحاكم تان على ضفاف الدانوب ، وثالث في بلاد ما بين النهرين .

ولا حاجة إلى القول بأن حدوث ثورة على بك الكبير في مصر قبل الحملة الفرنسية ، وحدوث ثورات عديدة في مختلف أقسام البـلاد العثمانية — بعد الحملة الفرنسية على مصر ، وقبل قيام محمد على باشا في مصر — ... مما يدل دلالة قاطعة على أن عوامل قيام هذه الثورات وهذه الحركات الانفصالية ، تعود إلى أحوال الدولة العثمانية ، ولا تمت بصلة ما إلى الحملة الفرنسية .

* * *

وأما القول بأن الحملة الفرنسية قوت نفوذ علماء الدين وساعدت بذلك على استقلال مصر ، فذلك أيضاً من الأقوال التي لا تستند إلى أي أساس صحيح .

فإن التواريخ العثمانية تشهد على الدوام بأن علمـاء الدين كانوا يتمتعون بنفوذ قوى جـدا . حتى في عاصمة الدولة نفسها . والتواريخ المصرية أيضا تعطى أمثلة كثيرة على نفوذ العلماء ، وتأثيرهم في شئون الحكومة والشعب ، قبل الحملة الفرنسية بمدة طويلة .

فإننا نجد أدلة قطعية على ذلك ، فى يوميات الجبرتى أيضا .

يصف الجبرتى — بين وقائع سنة إحدى وتسعين ومائة ألف — تفاصيل النزاع الذى قام بين مشايخ الأزهر وبين أمراء المماليك ، ويبين كيف أن هذا النزاع انتهى بانتصار العلماء على الأمراء .

ومن المفيد أن ننقل هنا بعض الأسطر مما كتبه الجبرتى فى هذا الصدد :

« ... وصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع . فاجتمعوا فى صبحها ، وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات ، وقفلوا أبواب الجامع . وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء ، وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت . وبلغ الأمراء ذلك . فأرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين .

« ... ذهب إلى إبراهيم أغا طائفة من مجاورى المغاربة وتبعهم بعض العوام ، وبأيديهم العصى والمساوق ، وضربوا أتباع الأغا ورموهم بالأحجار[(١)] » .

ويصف الجبرتى — بين وقائع سنة تسع ومائتين وألف — ما حدث بين الشيخ الشرقاوى وبين محمد بك الألفى بتفصيل تام .

فيجدر بنا أن نقرأ بإمعان بعض الأسطر مما كتبه الجبرتى حول هذه القضية :

« إن الشيخ الشرقاوى له حصة فى قرية بشرقية بلبيس حضر إليه أهلها ، وشكوا من محمد بك الألفى ، وذكروا أن أتباعه حضروا إليهم وظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ؛ واستغاثوا بالشيخ . فاغتاظ الشيخ الشرقاوى من ذلك . وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ ، وقفلوا أبواب الجامع . وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت . ثم ركبوا فى ثانى يوم ، واجتمع عليهم خلق كثير من العامة ، وتبعوهم إلى بيت الشيخ السادات ، وازدحم الناس على بيت الشيخ ...

فقالوا : نريد العدل ، ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع ، وإبطال الحوادث التى أبدعتموها وأحدثتموها[(١)] » .

ويظهر من التفاصيل التى يذكرها الجبرتى فى يومياته بعد هذه الأسطر — والتى يؤيدها المؤرخ الرسمى العثمانى جودت باشا فى تاريخه المشهور : أن الأزمة التى بدأت بهذه الصورة ، فداستمرت ثلاثة أيام ، جرت خلالها مفاوضات ومناقشات كثيرة . وفى الأخير توسط الوالى بين الطرفين ، وحملهما على إنهاء الخلاف ، بعد أن تعهد الأمراء « أن يسيروا فى الناس سيرة حسنة » ، وبعد أن وقعوا على وثيقة مكتوبة فى هذا الشأن .

ويصف الجبرتى انتهاء الأزمة بهذه العبارات والتفاصيل التى تستوقف الأنظار :

« رجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جموع عظيمة من العامة ، وهم ينادون : حسب ما رسم سادتنا العلماء ، بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة فى مملكة الديار المصرية »[(٢)] .

حدثت هذه الحوادث الهامة قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر . وقبل احتكاكها بالعلماء أو الأمراء .

أفليس من الغريب أن يعزو البعض — مع كل ذلك — إلى الحملة الفرنسية تأثيرا قويا فى « تقوية سلطة علماء الدين ، وكسر شوكة أمراء المماليك ، وأن يتخذوا ذلك برهانا على خدمة الحملة الفرنسية للنهضة المصرية ؟

* * *

الحملة الفرنسية ومحمد على باشا :

من أغرب الأدلة التى ابتكرها بعض المؤلفين لتأييد النظرية التى نبحث فيها ، قولهم :

(١) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٢ ص ٩ .

(١) و (٢) الجبرتى ج ٢ ص ٢٧٥ .

« إن الإصلاحات التى قام بها محمد على باشا فى مصر ، كانت ملهمة من أعمال الحملة الفرنسية وأغراضها . . . »

وقد قرأت فى أحـد المؤلفات العربية المشهورة عن « تاريخ مصر الحديث » العبارات التالية ، بحروفها :

« نشأ محمد على باشا فى كنف الحملة الفرنسية . وقد فطن إلى أغراضها ، فعوّل على تحقيقها وتكوين دولة كبرى مستقلة فى آسيا وأفريقيا ، تكون مصر قاعدتها ... »

يلاحظ أن الأحكام والمزاعم التى تتضمنها هـذه العبارات مهمة وخطيرة جداً :

(ا) أن محمـد على باشا الذى أسس الدولة المصرية الحديثة ، وبعث روح النهضة فيها ، إنمـا نشأ فى كنف الحملة الفرنسية .

(ب) ولهذا السبب ، فطن إلى أغراض هذه الحملة فعوّل على تحقيق هذه الأغراض .

(حـ) أما أغراض هذه الحملة الفرنسية وأهدافها ، فكانت سامية جداً ؛ لأن إنهاض مصر ، وجعلها قاعدة لدولة كبرى مستقلة ، تبسط جناحيها على قارتى آسيا وأفريقيا كان من جملة هذه الأغراض السامية .

أنا لا أستطيع أن أتصور مثالاً أوضح وأفصح من هذا المثال ، لتبيان عمق « مهواة الغلط » التى تنزلق إليـه أقلام المؤلفين والمؤرخين عنـدما يعتمدون على ما يكتبه « أصحاب الأغراض من الأجانب » ، دون أن يشعروا بما فى ذلك من خروج على الحقائق الثابتة ، وتخليط بين الوقائع الراهنة .

وهل من حاجة إلى التذكير بأن محمد على باشا إنما ذهب إلى مصر مع القوى العسكرية التى أرسلت إليها بغية طرد الفرنسيين منها ؟

وهل من حاجة إلى التأكيد بأن ذلك كان فى السنة الأخيرة من السنين التى قضتها الحـملة الفرنسية فى الديار المصرية ؟

ولا شك فى أن كل من يلاحظ هذه الحقائق الثابتة يفهم بداهة : أن محمد على باشا لم يتصل بالحملة المذكورة — ورجالها — إلا فى ساحات المحاربات الأخيرة ، وفى مواقف المخاصمات العنيفة .

فكيف يجوز أن يقال — مع ذلك — إن محمد على باشا نشأ فى كنف الحملة الفرنسية ؟

وكيف يجوز أن يبنى على مثل هذه الأسس الواهية نظرية تتعلق بمنابع وعوامل النهضة المصرية بوجه خاص والنهضة العربية بوجه عام ؟ !

* * *

خلاصة القول وخاتمة البحث :

وخلاصة القول : أننى لم أصادف بين جميع الدلائل والبراهين التى قرأتهـا فى الـكتب المختلفـة أى برهان معقول ، يؤيد — بصورة منطقية — الرأى القائل بأن الحملة الفرنسية كانت من العوامل الفعالة فى النهضة المصرية .

يظهر أن هذا الرأى استولى على الأذهان ، من جراء اعتياد المؤلفين المؤرخين على ما كتبه بعض الفرنسيين فى هذا المضمار .

ولا حاجة إلى القول بأن هؤلاء الفرنسيين كانوا كتبوا ما كتبوه فى هذا الشأن ، مدفوعين بنزعة التبجح والمباهاة . إنهم كانوا يعملون بذلك على إشباع غرورهم القومى ، دون أن يلتفتوا إلى الحقائق والوقائع التى تناقض مزاعمهم هذه مناقضة تامة .

وقد تبنّى بعض المؤلفين المصريين هذه الآراء والمزاعم — المنشورة فى الـكتب والمجلات الفرنسية — قبل درسها درساً انتقادياً وتمحيصهـا تمحيصاً علمياً . ثم أخـذوا يبحثون عن أدلة جديدة ، تدعم هذه الآراء وتؤيد هـذه المزاعم ، التى كانت قد تسربت إلى أذهانهم قبلاً .

وبعد ذلك ، اقتدى بهم عدد كبير من المؤلفين فى

مختلف الأقطار العربية ؛ وشاعت هذه الفكرة — بهذه الصورة — شيوعاً غريباً . .

وأما أنا ، فأستطيع أن أؤكد الآن — بعد الأبحاث الانتقادية التي سردتها آنفاً — أن علاقة النهضة المصرية بالحملة الفرنسية . لاتتعدى قط حدود العلاقات الزمنية . ومن المعلوم أن أمثال هذه العلاقات ، لاتدل على الأسباب والمسببات .

إن كل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد — بصيغة التأكيد — ينحصر فيما يلي : « أن النهضة المصرية ، حدثت بعد الحملة الفرنسية » .

لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك أبداً . ولكن . هل يستطيع أحد أن يدعي — مع ذلك — أن المدة المقصودة من لفظة « بعد » كانت قصيرة إلى درجة تسترعي البحث والاهتمام ؟ حتى ولو كانت هذه المدة قصيرة ، بل ضئيلة ، هل يستطيع أحد أن يستنتج من ذلك — بطريقة منطقية — أن الحملة الفرنسية كانت من عوامل النهضة المصرية ؟

من المعلوم أن حدوث حادثتين من الحوادث في وقت واحد — أو في أوقات متقاربة متتالية — لايكون مبرراً للحكم بأن إحدى الحادثتين كانت من العوامل والمسببات التي أوجدت الأخرى . إذ من الممكن أن تحدث كل واحدة من الحادثتين من جراء أسباب خاصة بها ، مستقلة عن الأسباب الموجبة للأخرى ؛ كما أنه من الممكن أن تحدث الحادثتان من جراء عامل مشترك بينهما ، يستوجب حدوث الحادثتين في وقت واحد أو في وقتين متقاربين .

كلنا نعلم — مثلاً — أن عودة الخطاطيف والقلاق إلى البلاد المعتدلة ، وتورّق الأشجار وتزهرها في تلك البلاد ، من الأمور التي تحدث عادة في وقت واحد ، فهل يخطر على بال أحد منا أن يدعي — بناء على ذلك : أن تورق الأشجار حدث من جراء عودة الخطاطيف ، أو بالعكس أن عودة الخطاطيف كانت نتيجة من نتائج تفتح الأشجار ؟

وكلنا نعلم — كذلك — أن الديك يصيح — عادة — قبل طلوع الشمس . فهل يخطر على بال أحد منا أن يستنتج من ذلك : أن صياح الديك هو السبب الموجب لشروق الشمس ؟

***

إن السؤال الأخير ، يذكرني بالأسطورة التي خلدها « أدمون روستان » في تمثيليته المشهورة :

يتوهم الديك بأن الشمس تشرق بناء على صياحه هو ، فينتفخ زهواً وغروراً على سائر الحيوانات ، عندما يُشهدهم على أن الشمس قد أشرقت فعلا ، تلبية لندائه !

أنا لا أستغرب أبداً ، أن يتوهم بعض الكتاب — من أبناء فرنسا — « أن الحملة الفرنسية خدمت النهضة المصرية » . ولا أستغرب كذلك أن يتباهى هؤلاء بهذه الخدمة الموهومة ، مباهاة الديك الآنف الذكر ، الذي يرمز إلى أجدادهم الغاليين .

غير أني أستغرب استغراباً شديداً ، كيف يظهر بين كتاب العرب من يشارك ذلك الديك أوهامه ومزاعمه ، فينبري للتسبيح بذكر نعمه وأفضاله .

لأني أعتقد كل الاعتقاد — بناء على الدلائل التي استعرضتها آنفاً — : أن العلاقة التي تربط النهضة المصرية بالحملة الفرنسية ، هي من نوع العلاقات التي تربط طلوع الشمس بصياح الديك ! ...

ساطع الحصري

على هامش السياسة الدولية :

حديث خرافة !

كانت الخرافات منذ القدم معلمة للإنسان . وأقصد بالخرافات تلك القصص التى تحكى حوادث لا يمكن أن تقع فى عالم الحقيقة ، بل يخترعها الإنسان اختراعا ويلفقها تلفيقا محكما يجعلها تنم عن تجربة إنسانية عامة .

وهاك إحدى هذه الخرافات :

كان هناك أسد هائل ضخم الجسم قوى العضلات حاد الأنياب والأظفار ، وكان يسير فى الليل بين السهوب يزأر قائلا : ها أنذا أيتها الفرائس أطلب منك طعاما فأسرعى إلى طوعا أو كرها . فترتعد فرائص الغزلان فى كناسها ، وتندفع هاربة تطلب النجاة من ذلك الصوت المروع الذى تتردد أصداؤه فى أركان الأفق . فإذا بها تجد نفسها بعد حين صريعة تحت مخلب ضخم يحطم عظامها بضربة واحدة ، فتستسلم لقضائها وتذهب حيث ذهب ألوف وألوف من قبلها .

وأما الثيران البرية فكانت إذا سمعت زئير ذلك الأسد تجمعت فى حلقة متراصة ووقفت الفحول فى خارج الحلقة وطأطأت رؤوسها وقدحت أعينها شررا تنتظر الهجوم فى معركة دامية تبيع فيها أنفسها بالثمن الغالى .

وقضى ذلك الأسد أعواما طويلة يفترس من الظباء حينا ومن الثيران البرية حينا ، وكان فى أثناء تلك الأعوام — والحق يقال — يستحق الإعجاب من كل حيوان السهوب . كان أحيانا يتعفف عن القتل وهو قادر عليه ، وأحيانا ينصر الضعفاء من الزراف على النمور الشرسة التى تريد أن تفتك بها فى غير ضرورة من جوع يلجئها إلى الفتك ، وكان أحيانا يخوض المعارك المنيفة مع جموع كثيفة من الثيران فيخرج منها بالجراح والرضوض بغير أن يجزع أو يظهر ألما . كان بالإجمال أسدا صريحا عادلا لا يرضى بالخروج على قوانين الأسود ولا يخالف تقاليدها الأصيلة .

ثم كبر ذلك الأسد وشاخ كما تشيخ الأسود جميعا ، وتساقطت أنيابه وكلت أظفاره وأخذت آثار الجراح القديمة تظهر عليه ، فكان إذا أراد الوثوب خانته قواه ، وإذا أراد الجرى عاقه العرج ، وإذا اتفق له أن ظفر بصيد لم يطاوعه ظفره المثلوم وفمه الأدرم . فضعف جسمه شيئا فشيئا وهزل حتى كان إذا سار سمع الوحش طقطقة عظامه بعضها فى بعض ، وكان فى ضعفه يسمع صيحات السخرية من الوحوش التى تمر غير عابئة به ، ويرى الذئاب وهى تكشر له عن أنيابها فى بسمة كالحة ملؤها الازدراء والتحدى . ولكنه كان لا يستطيع أن يعاقب أحدا على جرأة أو وقاحة ، فكان يزمجر بصوت خانق مكتوم ويطوى الأيام والليالى على الجوع ، ويكظم كل ما فى نفسه من الآلام صابرا فى انتظار الأجل المحتوم .

ثم مرت به غزالة مسكينة فى ليلة من الليالى فى ذهابها إلى مورد الماء ، فجفلت عندما وقعت عينها عليه ، وشرعت تعدو فى ذعر ، ثم عاد إليها الاطمئنان عندما رأته ساكنا لا يتحرك ، فوقفت من بعيد تتأمله ، وعند ذلك بدا لها هزاله وخموده وبؤس منظره ، ورأته يرنو إليها بعينيه الخامدتين فى ضعف واستكانة ، فتحركت الرحمة فى قلبها حتى كادت الدموع تسيل من عينيها ، وثار الشعر فى قلبها فجعلت تتغنى حزينة وتردد فى أغانيها ما تفعله الأيام بالأسود العاتية وما يجره عليها الضعف والهزال وفناء الشيخوخة من الهوان ، ورأت الغزالة أنه من اللؤم وسوء الأدب أن تشارك الذئاب والنمور وسائر الوحوش فى سخريتها من الأسد الصريع المسكين ، وعزمت على أن تسلك معه مسلكا شريفا يليق بغزالة مهذبة مثلها ، فذهبت نحوه وقد وطنت نفسها على أن تمد إليه يدها مصافحة وتقف إلى جانبه فى محنته لترد عنه كيد العداة وتدفع سخريتهم وتشد أزره وتدخل العزاء إلى قلبه .

ولما صارت الغزالة إلى جانب الأسد مدت يدها إلى رأسه آمنة وجعلت تمسحه فى عطف وعرضت عليه كل ماق قلبها من مودة وكل ما يدور فى نفسها من عواطف وعزائم، وكان الأسد لا يقدر على الحركة فسكن حينا ينظر إليها متعجبا، ولكنه مع ذلك أحس شيئا يتحرك فى أحماقه فتحامل على نفسه حتى قام واستطاع أن يحرك يده فرفعها والغزالة واقفة تنظر إليه لا تدرى ماذا هو صانع، ثم أهوى الأسد بيده الضخمة على رأسها فخبطها خبطة جعلتها تصيح من الألم البرح، وانطلقت تعدو فى ذعر شديد وهى تصيح: « إنه لا يزال أسداً مفترساً! إنه لا يزال أسدا مفترسا! ».

هذه هى الخرافة كما وردت فى الأثر القديم، ولست أدرى ماذا كان يقصد مؤلفها منها، ولكننى عند ما قرأتها لأول مرة ثارت فى نفسى صور شتى من صور البشر أفراداً وجماعات.

ومن عجائب الاتفاق أن هذه الأيام الحاضرة ملأى بالعبر التى تذكرنى بهذه الخرافة، فهناك أسد شيخ اسمه (هولندا)، وقد كان هولندا هذا فى الزمان القديم صاحب مخالب وأنياب وأظفار حداد، ثم أتى عليه الدهر، فلم يترك له إلا بقية من أنيابه وأظفاره، فقنع بأن يعيش عيشة وادعة فى كنف أبناء عمه من سباع الغابة الذين يساعدونه على الافتراس.

وهناك غزالة مسكينة اسمها (أندونسيا) كانت من قبل فريسة له ثم تملصت منه بعد أن تخلى عنه أبناء عمه، وأرادت أن تعقد معه اتفاقا شريفا. فكان حظها منه أن رفع يده يريد أن يفتك بها.

وهناك أسود أخرى كثيرة غير هولندا ولها أسماء أخرى كثيرة لا يحضرنى منها إلا عدد قليل. وهناك غزلان أخرى غير أندونسيا وإن كنت لا أذكر من أسمائها إلا عددا محدودا؛ هناك مثلا أسد شيخ اسمه فرنسا وله قصة مع غزلان متعددة أذكر من بينها واحدة اسمها تونس وأخرى اسمها مراكش وثالثة اسمها الجزائر. وبعض هذه الفرائس قد خر صريعا والبعض الآخر لا يزال يناضل فى استبسال اليائس. وقد كانت لهذا الأسد الفانى غزالة أخرى استطاعت أن تفر منه بعد أن جرحت منه ما جرحت وبعد أن أصابها من أظفاره الملتوية جراح دامية.

وهناك غير الأسود الهرمة ذئاب وبنات آوى تشبه الأسود فى قلوبها وضمائرها، وإن كانت لا تستحق إلا أن تكون أسماؤها ذئابا وبنات آوى. ولكل من هذه غزلان فريرة مسكينة تحاول أن تقترب منها ثم تراها ترفع مخالبها إليها تريد أن تبطش بها.

وإن أنس لا أنسى أن أذكر أن هناك غزالة أخرى عزيزة على قلبى واسمها مصر، مسكينة هى، لأن أسدها لا يزال محتفظا بقوته ورونق شبابه، وقد غرها هذا الأسد بمظهره السالم فى يوم من الأيام — أيام كان أبناء عمومته من الأسود الفاتكة يحاولون قطع ذيله وجدع أنفه وبقر بطنه، فتحركت الرحمة فى قلبها ووهبت له كل شىء، وعزمت على أن تخلص له كل الإخلاص وتذهب معه إلى أبعد مدى، ولقد كلفها ذلك ما لا تطيق من جهد وأوقع بها ما لا حصر له من الجراح، مع أنها كانت لا تطمع فى شىء من وراء ذلك النضال، ثم ماذا؟ هذا هو الأسد — وأظن أن اسمه هو بريطانيا — يرفع يده إليها يريد أن يحطم عظامها. إنه يكشر لها من أنيابه فى غل عجيب لا يتفق مع ما كانت الغزالة مصر تتغنى به من أنغام الصداقة والعطف. مسكينة تلك الغزالة! إنها تكاد تدمى قلبى!

إنها حقاً لخرافة قديمة، ولكنها تعيد إلى الذاكرة صوراً شتى من صور الآدميين أفراداً وجماعات — وصوراً أخرى من الأمم والدول.

محمد فريد أبو حديد

من سمر رمضان :

صوفية «عم سالم»

قال صاحبي :

— أذكر أنى فى حداثة سنى كنت أقضى بعض شهور الصيف فى بلدتنا بالريف . وكان لنا هناك منزل ريفي يقوم على خدمتنا فيه بعض الريفيين . وكان من بين هؤلاء رجل عجيب اسمه « عم سالم » — وكان عم سالم هـذا (فلاحا) كباقى الفلاحين . أى أنه يعرف الشهور القبطية ، والدورة الزراعية ، فضلا عن أنه يحسن العمل فى الأرض بيديه : يحرثها ويخططها ويسقيها ويسمدها — كل ذلك فى مواعيد محدودة ومواسم معينة ، لا يعرفها إلا الخبير بها .

ولكن إذا كان الفلاح العادي تنتهى رسالته عند هذا الحد ، فإن « عم سالم » كان رجلا واسع الأفق . لم يكن يعرف لرسالته فى هذه الدنيا حدودا . أذكر مرة أنه انقض فى منزلنا ذاك الذى فى الريف جدار . فكان الذى تصدى له وأقامه هو « عم سالم » : أعد له الطوب ، وخلط له (المونة) ، وبناه ، ثم بيضه أيضاً .

وكنا فى المواسم التى تذبح فيهـا الكباش والعجول لا نحتاج إلى استدعاء أحد القصابين . فإن « عم سالم » هناك دائما . وكان هو الذى يتولى الذبح ، والسلخ ، بل « وتفصيل » اللحم — كما كانوا يقولون .

وكان « لعم سالم » ولع خاص بالنخيل ، فهو يعرف تاريخ كل نخلة فى البلدة : كم عمرها ، ومن أين جاءت فسيلتها ، وما لونها ، وكيف طعمها ، ولذلك كان يكل إليه معظم أهل البلدة عملية تقليم هـذا النخل و « تطريحه » وكان بخبرته يعرف كيف يزاوج بين النخيل ، فيختار لكل أنثى أصلح الذكور لها ، فيأخذ من طلعه ويلقحها به . ولذلك كان بعض أهل القرية يتفكهون معه ، إذ يدعونه « مأذون النخل » ، لأنه هو الذى كان يخطب لعرائس النخل بعولتها ، ويتولى عقدها بنفسه .

قال صاحبي :

— وماذا أقول أيضاً فى « عم سالم » لأصفه أتم وصف ، ولأعطى عنه أكمل صورة ؟ ذلك الفلاح ، القصاب ، الطراح ، الذى لم يكن يتهيب أى عمل ، ولا يعرف فى الحياة تلك الحدود الضيقة التى وضعهـا أصحاب المهن المختلفة لأنفسهم . أجل إنى لأذكر عنه أيضاً أننا فى آخر أيامنا اضطررنا لشراء عربة يجرها جواد لتنقلنا من المحطة للمنزل ، وكانت المسافة بينهما طويلة ، فكانت تخض بطوننا ظهورُ الحمير فى أسفارنا ، وكانت تقض عظامنا . فلما جاء الجواد وتهيأت العربة ، وثب « عم سالم » إلى مكان القيادة منها ، فكان حوذيها ، وكان هو الذى يستقبلنا ذاهبين إلى البلدة ، ويعود بنا منها فى العربة راجعين !

واستطرد صاحبي فى حديثه فقال :

— ولم يكن « عم سالم » فى أول أمره يعرف الكتابة والقراءة ، وكان يشعر بأن هذا نقص لابد من تداركه . فبدأ معى ذات يوم من أيام الصيف ، وقال إنه لن ينسى لى هذا الفضل إذا أنا ساعدته فى تعلم (الخط) ، وسرنى أنا أن أقدم له هذه المساعدة ، فإنى كنت آنس إليه ، وأقضى معـه معظم وقتى ، وأصطحبه فى غدوى ورواحى ، لأنى كنت أجد عنده لكل سؤال جوابا ، ولكل عقبة حلا .

وبدأنا بالأبجدية فحفظها ، وقرأها ، ثم كتبهـا . فانتقلنا إلى الكلمات . ولكن إجازتى فى ذلك العام لم تمتد بى معه إلى أبعد من ذلك ، فتركته لعناية (سيدنا الشيخ عبد الرحمن) ليتم معه طريقة تركيب الكلمات ، وتكوين الجمل — وكان الشيخ عبد الرحمن فقيه القرية ،

الذى يخطب الناس فى المسجد يوم الجمعة ، ولكنه كان إلى جانب ذلك يرتل القرآن كل مساء فى دارنا ، فهو يعرف « عم سالم » ، ولا يستطيع أن يرد له طلبا ، ومع ذلك فإنى وعدت (سيدنا) بمكافأة حسنة إذا أنا جئت فى العام التالى فوجدت « عم سالم » متقدما فى القراءة والكتابة .

هذه كانت « دنيا » عم سالم . أما « دينه » فإنه كان شيئا آخر غير دين الناس ، ولا غرو فإن دنياه أيضا كانت تخالف دنياهم ! وكما أنه فى دنياه لم يكن يقنع بما يقنع به الناس . فكذلك كان فى دينه .

لم يكن يكفيه فى دينه أن يصلى ويصوم . فإن هـذا كان ما يفعله عامة الناس فى الريف بغير استثناء . ولكنه رأى بعض الشيوخ يطيلون الجلوس على السجاجيد وفى يدهم المسابح يتمتمون عليها كلاماً كثيراً . فتعلم منهم هذا الكلام وتمتم به مثلهم ، ورأى بعضهم يقوم الليل فى ثلثه الأخير ، ويظل يقرأ الأوراد ويتلو الأدعية حتى يصلى الفجر . فاشترى كتب الأوراد والأدعية واستكثر منها . وأصبح يقوم الليل مع القائمين يناجى كما يناجون ، ويسجد ويقترب كما يسجدون ويقتربون .

وكانت له فى « الأذكار » صولات وجولات ، كان رخيم الصوت إلى حد ما ، فكان يقف بعض الوقت ينشد للذاكرين ، ولكنه كان أكثر الوقت يقف فى صفوف الذاكرين أنفسهم يخلع وسطه وهو يطوح جـذعه ذات اليمين مرة وذات الشمال أخرى ، ويطلق من أعماق صدره فى كل مرة ذلك النداء الخالد الذى لايزال يردده الذاكرون : هو . هو . الله !

• • •

وكنت أنا داعيا من وراء « عم سالم » هـذا ، أراقبه وأتعجب له بقدر ما أعجب به — وأدهش لنشاط هـذا الرجل ، المحيط بكل شىء ، الموغل فى كل شىء !

وكنت أحسب أن قصاراه فى دينه تلك الصلوات والأوراد والأذكار ، ولم يكن يخطر ببالى أن يكون للدين آفاق أوسع من هذه الآفاق حتى يطمع فيها طامع أو ترنو إليها عين ، ولكن « عم سالم » كانت له عينه الحالمة البعيدة المرمى وشخصه الخاصة التى لاتعرف الحدود والنهايات . إنه كان يريد أن يرى الله !

وكان يعرف مبلغ ثقتى فيه وتعلقى به . فأولانى ثقته هو الآخر . . وكان يقول لى مالا يقوله لغيرى . ويطلعنى من دخيلة نفسه على ما يحجبه عن جميع الناس .

فجاءنى ذات يوم ويده على جيبه كأن فيه عصفوراً يخاف عليه أن يطير . وأخذنى من يدى إلى غرفة داخلية من غرف الضيوف التى بحديقة الدار . وقال : — لى عندك اليوم خدمة لا قبلها ولا بعدها !

قلت فى شىء من الوجوم : خيراً إن شاء الله ؟

قال : لقد حصلت عليها أخيراً !

قلت : ماهى ؟

قال : الجلجلوتية !

قلت : وما الجلجلوتية ؟

قال : قصيدة الأسرار !

قلت : أى أسرار ؟

قال : ألا تعرف الصوفية ؟

قلت : كلا ! من هم ؟

قال : القوم الذين يرون الله !

قلت : أين ؟

قال : فى كل مكان يحلون فيه !

قلت : كيف ؟

قال : لا تطل ! ثم قال انقل لى هذه القصيدة بخطك الجميل فى ورقة من عندك وسأفسر لك كل شىء فيما بعد . إن من يثابر على تلاوة هذه القصيدة فى خلوة طاهرة تتكشف

له أنوار لا قبل لأحد بمواجهتها . ومن خلصت نيته وأحبه الله لا يلبث أن يرى وجه الحق سبحانه كما يرى الرجل أخاه !

قلت : ولكن كيف حصلت على القصيدة ؟

قال : سرقتها من جيب قفطانه حين خلع ملابسه وذهب للوضوء .

وعرفت أنا أنه يتحدث عن (الشيخ راضى) ذلك الشيخ الجليل الذى نزل ضيفاً علينا منذ أيام على عادته معنا فى كل عام . فإن بلدتنا والبلاد المجاورة جميعها كانت تحتفل فى مثل هذا الموسم من كل سنة بمولد ولى مشهور من أولياء الله — فيحضرون إليه نساء ورجالا ، كباراً وصغاراً ، يملأون الدنيا حول ضريحه ، وينشئون مدينة عامرة بكامل أسواقها ومرافقها ، ولكنها كانت مدينة موقتة ، لا تكاد تأخذ زخرفها وتزين ويحسب الإنسان أنها لن تبيد أبداً حتى يفتح عينيه على مكانها بعد انقضاء أسبوع المولد فلا يجد لحياتها أثراً من الآثار ، ولا يرى من أهلها دياراً ولا نافخ نار .

***

قال صاحبى :

— أذكر أنى فى ذلك اليوم عكفت على تلك القصيدة فنسختها بخط جميل فى ورقة كبيرة . ولكنى لاحظت أن بعض أبياتها توجد أمامه إشارة تدل على فائدته التى تميز بها . وسره الخاص الذى انطوى عليه . فقرأت أمام بعض الأبيات مثلا « لسلامة السفر » — وأمام بعضها « لشفاء المريض » — وأمام بعضها الآخر « لنجاح المسعى » وهكذا . . .

فعز علىّ أن يستأثر بهذا الكنز الثمين وحده « عم سالم » . ورأيت أن أخطف لنفسى منه خطفة أو خطفتين قبل أن يسترد منى القصيدة وصورتها . وتمكنت من تدوين بعض الأبيات التى أعجبتنى « أسرارها » لاستعمالى الخاص ، فقد كانت لا تزال أمامى امتحانات عديدة فى المدارس علىّ أن أؤديها . وخيل إلىّ أن « نجاح المسعى » من العنوانات التى يصح أن يندرج فيها أمر الامتحانات واجتيازها بسلام فنقلت لنفسى البيت الخاص « بنجاح المسعى » . ونقلت البيت الآخر الخاص « بشفاء المرضى » . وأذكر أيضاً أنى نقلت فيما نقلت أبياتاً أخرى خاصة « بالمحبة » . . . و « القبول عند الرؤساء » . . . وغير ذلك .

***

قلت لصاحبى :

— وهل جربت شيئاً من هذه الرقى السحرية ؟

قال : بكل تأكيد ! فقد كان لى صديق عزيز وكانت له أخت مريضة كبيرة حار فى علاجها جميع أطباء القاهرة . فطلبت إليه أن لا يناقشنى فى أمر الدواء الذى سأصفه لها . وألححت عليه فى أن يستعمله كما سأرشده عنه . وأن يثابر على ذلك أسبوعا واحداً ليرى آية من آيات الله لا يعلم سرها إلا الأقلون !

وكتبت له فى ورقة صغيرة ذلك البيت الجلجلوتى الخاص بشفاء المرضى . وأشرت عليه أن يكتبه بالحبر فى صحن من الصحون ثم يضع عليه قليلا من الماء ثم يسقيه لأخته على الريق لمدة سبعة أيام — فهكذا كان الدواء كما هو مسطور فى كراسة (الشيخ راضى) التى نقلت عنها — ومن بواعث الحزن أنى خسرت صديق ذاك منذ ذلك اليوم !

قلت : لعل الدواء لم يُجْدِ مع أخته ؟

قال : ليت الأمر وقف عند هذا الحد . فإنه استعمل فى الكتابة على الصحن نوعا من الحبر القوى لم تطقه معدة أخته المريضة . فظلت تتقايأ عقب الجرعة الأولى حتى كادت تزهق روحها . وضبطه أبوه فى ذلك الصباح

ما هو الزواج فى نظر الرجل ؟

لكاتبة أمريكية

« يجب على الزوج أن يعنى بزوجته بقدر ما يعنى بعمله »

سألتنى إحدى الكاتبات القصصيات يوما ما : على من يقع وزر الطلاق فى أمريكا ، على الزوج أم على الزوجة ؟ فأجبتها : إن الوزر فى الأعم الأغلب واقع على الأزواج . وهـذا الحكم أساسه مشاهداتى فى الاثنتى عشرة سنة الماضية . ثم استطردت أقول : لو أن رجلا يفكر فى استقصاء أمور معاشه لقلت حوادث الطلاق قلة ملحوظة ، فبان التفكير على وجه صاحبتى وقالت : إن ذلك لم يخطر ببالى . ويبدو أنك على حق .

وسواء أكنت على هدى أو فى ضلال فإنه يتبين من الرسائل التى ترد إلى من الأزواج والزوجات الناقمين والناقمات على الزواج ، إن الرجل عنـد ما يبنى بزوجته سرعان ما يتوهم أن زواجهما مكفول له الدوام والبقاء .

وقلما يخطر بباله أن يجس نبض هذا الزواج ، أو أن يغمز قناته ، أو أن يراقب سير نموه . حتى إذا أحس ببادرة المرض ، بادر إلى علاج ما اعتل من بنيته ، فعاد موفور الصحة موفور الهناء .

وانظر إلى هذا الزوج الذى قصصنا عليك قصته وهو فى متجره ودكانه تجده إذا قل البيع بادر إلى التحدث مع شريكه ، ثم تعاون وإياه على تعرف السبب ، فإذا كان هذا من فعل المزاحمة والمزاحمين ، حاول هو وشريكه تحسين البضاعة وإتقان عرضهـا . فإذا غم الأمر عليهما استعانا بالخبراء والناصحين ، وعملا بما يشيرون وينصحون .

ولـكن الواقع إنه إذا جف ماء الزواج ، وصوح نبته ، وعلمت الزوجة أنها لم تصبح إلا خادمة أو قهرمانة . وإذا ضاق الزوج ذرعاً بالحياة الزوجية ، صح فى وهمه أن هذا هو المصير المحتوم لـكل زواج .

«متلبساً» بصحته الذى سبق أخته منه . فـكان صباحٌ له ما بعده على أصداغ ذلك الصديق : المزز الذى راح ضحية تسرُّعى وجهلى بطريقة الانتفاع من « أسرار » تلك القصيدة . فإنى عرفت بعد ذلك من « عم سالم » أن هذه الأسرار لا تتجلى إلا على أيدى (الواصلين) . ولما سألته من يكون «الواصلون» هؤلاء . قال : إنهم أولئك الذين ثابروا على التلاوة حتى تكشفت لهم (الأنوار) ووصلوا إلى الدرجة الرفيعة التى تجاب فيها كل المطالب وتتحقق عندها كل الغايات .

قلت : لقد بت مشغوفا بمعرفة ما جرى لعم سالم بعد حصوله على قصيدة الأسرار . فهل (وصل) بها ، أم تقطعت به الأسباب ؟

قال : كلا ! إنه اليوم فى البلدة كعبة القصاد . فقد تمكنت منه فكرة (الوصول) تمكنا كاد يذهب بعقله . . . كثرت خلواته بنفسه . وطال اعتكافه فى الأماكن المهجورة ؛ وأخيرا أوى إلى غرفة خاصة به كان يغلقها على نفسه ويظل يطلق البخور فيها وهو لا ينفك يدمدم ويتمتم حتى خرج أخيراً على الناس وهو يزعم أنه رأى (النور) . وقد ذاعت فى الناس سيرته . وتناقلت الألسنة حديثه . وروى الرواة عنه ما كان وما لم يكن ، ونسبوا إليه الـكرامات ، وتدفقت عليه الخيرات من حيث يدرى ولا يدرى .

قلت : آمنت بالله ! إذا كان الدين نفسه قد صار فى يد بعض رجاله إلى ما نراه عليه اليوم — فلا غرو أن تنقلب الصوفية مع « عم سالم » إلى شىء أوله سرقة وآخره دجل وشعوذة !

عيسى عبود

ولكن لماذا أيها الزوج قد صارت زوجتك خادمة وقهرمانة ؟ ولماذا أصبحت ولا حديث لها إلا عن الأطفال والبيت ، والمؤونة من السمن والزيت ، وإلا عن حديث الجارة وما قالت وما فعلت ؟

وأين راحت تلك الفتاة الجميلة الحلوة ؟ وأين راح ذلك البريق واللمعان ؟ أيها الزوج : إنك لواجد تلك الفتاة مرة أخرى لو حاولت . فنادها غداً ، وأنت في مكتبك ، وقل لها أن تدع الأطفال في البيت في رعاية واحدة من الأهل أو الخدم . وأن تجيء لملاقاتك لكي تتغديا في المدينة ، وكن أنت الضيف ، ولتكن هي الضيف ، واذهبا إلى مطعم أنيق . وصر لها بالصنف الذي تحبه وتشتهيه . ثم اذهبا بعد ذلك إلى دار من دور السينما ، أو إلى مسرح من مسارح التمثيل . ثم ذكرها بأيامها الخوالي ، يوم كانت فتاة حلوة ، ويوم كانت أكثر أخواتها مراحاً ومزاحاً ، ويوم كانت أرقصهن على وتر وصنج .

أيها الزوج : إن كل ماتطلبه منك « زوجتك » هو الاطمئنان إلى أنك ما زلت بها مولعاً مفتوناً ، وأنها لم تفقد فيك ذلك الفتى الهائم بها غراماً وحباً ، وعندئذ ترى في خدها حمرة الورد ، وتسمع منها تلك الضحكة التي كنت تحن إلى سماعها وتطرب .

أما أنت أيتها الزوجة فاعلمي أنك إذا أهملت التزين فقد أغريت زوجك بالنظر مرتين إلى أقرب وجه جميل . وقد يكون لا يعني شيئاً وراء النظرة البريئة . ولكنه يعني أنه قد ضاق ذرعاً ، وأنه قد مل الثواء .

وإني لأرى من خلال رسائل أن أمهات الأزواج هن السبب الثالث من أسباب الخلاف بين الرجل وزوجته ، وهو خلاف قد يؤدي إلى الطلاق .

وأشهى ما تشتهيه الأم هو أن ترى ابنها قد بلغ مبلغ الرجال . وأشهى أمانيها هو أن تصبح الفتاة التي سيتزوجها واحدة من بناتها ، تستطيع أن تظفر بحبها ، وأن تكون قريبة إلى قلبها .

ولكنه عند ما يجيء ذلك اليوم وترى الأم وقد فارقها وليدها ، وشاركتها في حب ذلك الوليد امرأة أخرى فقد حل بساحتها الحزن المقيم المقعد .

والرأي عندي أنه إذا دب الخلاف بين الزوجة والأم فعلى الزوج العاقل أن يتركهما تسويان الخلاف فيما بينهما وعلى طريقتهما .

وإذا رأى بحكم البنوة أن أمه لا تخطيء أبداً ، فعليه أن يحاول الوقوف إلى جانب امرأته ، وأن يعينها على احتمال الأذى بالتجمل والصبر .

أما إذا ركب رأسه وقال لامرأته : ألا تستطيعين أن تعرفي حق الرعاية الواجب لأمي ؟ فقد تعقدت الأمور تعقيداً يستعصي على الحل .

وكثير من الزوجات يتولين بأنفسهن فض المشكلات رعاية لأزواجهن إذا استيقن من حب أزواجهن لهن .

وإذا أعطى رجل زوجته مالا وقال لها في لهجة التحذير والإنذار : « إياك وصرف المال كله » ، فكيف يرجو منها أن تحسن القيام على الصرف ؟

والزوجة المدبرة نعمة كبرى من نعم الله . فإذا عاملها زوجها كأنها كفؤه وندة ، فإنها تصبح جد فخور ، وهي لا بد عاملة على حسن تدبير المال أكثر مما لو عاملها كما يعامل طفلة في العاشرة من عمرها ، وقد أوكل إليها القيام بأمر دخله وخرجه .

وقد دلتني مشاهداتي على أن الأزواج في الأغلب الأعم يسرهم السرور كله أن ينأوا بأنفسهم عن معاناة شراء حاجات البيت .

والزوجات هن — بلا شك — مخلوقات من لحم ودم ، يسرهن السرور كله أن يكن موضع الثقة ،

بل إن الثقة هي كل ما يطلبن من أزواجهن .

وأسعد البيوت هي تلك التي ترى الوالد فيها وقد شغل بأمر أطفاله وعني بهم عناية أمهم .

وليس يكفي أن تقول : إني جد مشغول وإن هـذا واجب الأم لا واجبي .

إن الأطفال أيها الوالد هم أبناؤك وبناتك . فاعمل على أن يكونوا موضع فخرك ، يوم يبلغون مبلغ الرجال والنساء ؛ والطريق إلى هذا أن تجعلهم يشعرون منذ الطفولة أن أباهم هو نديمهم وخدنهم ، وأنه دائماً شديد العناية بالاستماع إلى شكاتهم ، وإلى سماع ما يقصونه عليه من حوادث الدرس والمدرسة .

والأطفال هم دائماً في حاجة إلى والد يستطيع أن يقدر مشكلاتهم الصغيرة حق قدرها ؛ وأن يتعاون وإياهم على حلها .

وكل طفل هو في حاجة إلى أمه وأبيه ، هو في حاجة إلى أبيه لكي لا يصبح (ابن أمه) ، وهو في حاجة إلى أبيه لينعم بصحبة أخ له من بني جنسه ، فيأخذ عنه فضائل الرجولة . وهو في حاجة إلى أبيه لكي يلهو كما يلهو ، ويلعب كما يلعب . والوالد الذي يضن على ولده بمثل تلك السويعات لجدير به أن لا يلوم ابنه إذا أخفى عنه أنباء تلك المشكلات الكبرى التي يلاقيها يوم يبلغ سن المراهقة .

وكل والد هو في حاجة إلى الظهور بمظهر البطل أمام ولده . وأكثر الآباء يمكنهم أن يكونوا كذلك لو عقدوا العزم على الوصول إلى تلك الغاية .

ولن يكتسي الوالد ثوب البطولة بأن يذيق ولده ألوان الأذى والعقاب ، ولا بالتحدث إليه من عليا سمائه عن دراساته العليا ، ومن علومه التي بذت علوم الأولين .

وإنما يكتسي الوالد ذلك الثوب بطول صحبته لولده مصاحبة الند للند .

والولد في حاجة إلى الطمأنينة من الوجهتين النفسية والاقتصادية ، فإذا نشأ في بيت ساده التسامح والصبر وملأت رحابه عدالة يمازجها التوافق والحب ، فقد بدأ الولد حياته بداية تبشر بحياة هانئة سعيدة .

وليس من العدل في شيء أن يتزوج الرجل فتاة ، وأن يجيء بها إلى بيته ، وأن يولدها ولداً أو ولدين ، لكي تصبح بهما في شغل عن الدنيا وما فيها ، ثم يظن أنه بذلك قد أدى واجبه ، وأبرأ ذمته .

(مترجمة) مبارك ابراهيم

١ - حق الممثل على الأديب

منذ سنوات وأنا أختلف إلى معارض الصور المتحركة وقد شاهدت في هذه الفترة ما لا يقل عن ثلاثين عرضاً عربياً ، وكنت أود أن أظل صامتاً لا أبدي رأياً في شهود هذه الأفلام . لأني لم أقصد إلى مناقشة أو نقد ، ولأن صناعة ناشئة يجب أن لا تؤخذ بمناهج النقد وهي لا تزال في دور نشأتها ، وأن يؤجل لها في الحساب حتى تخط لها طريقاً واضحاً . وقد يكون في ذلك ما لا يتفق ومنهج النقد الصحيح، ضرورة أن التوجيه إنما يكون جليل القيمة واضح الأثر إذا صادف زمانه ، ولأن الملاحظات إذا أبديت فرادى متفرقة تهيأت لها نفس النقود ، وتقبلتها قبولا حسناً يظهر أثره في كل خطوة تخطوها هذه الصناعة .

ولكن شيئاً واحداً يحمل الناقد على التريث في إبداء رأيه حتى تتكون عنده فكرة من الفلم العربي — ليست واضحة فقط — ولكنها راسخة أيدتها التجربة القائمة على التكرار ؛ ذلك لأن النقد الموجه إلى الشريط العربي متهم بالتحامل والإسراف واستفاضة حديثه باليأس من نهوض هذه الصناعة ، ولهذا رأيت أن لا أتعجل الحكم على شيء مما رأيت ، وأن أرجئه حتى نهاية الرحلة ، فإذا رأيت رأياً بعد طول الأناة ، واصطناع التريث كنت قوي التشبث بهذا الرأي ، عظيم الإيمان به والدفاع عنه .

يجب أن نسأل أنفسنا : أمن الواجب أن تهدف قصة الصور المتحركة إلى غرض إنساني أو اجتماعي ، وأن تكون أداة تثقيف وإصلاح ؟ أم أنها لون من ألوان اللهو تستجم به النفس نشاطها حين ترهقها الحياة ؟

أظن أن خير جواب على هذا السؤال هو ما يقف في منتصف الطريق ، فيصيب طرفاً من هذا وطرفاً من ذاك ، فلو أن عرض الصور قد اقتصر على المعاني المجردة ، معاني التثقيف والإصلاح ، لكان معلماً لا يأمن الملل من محاضرة وواعظاً لا يكفل الإصغاء الدائم من سامعيه .

أما الموضوعات ذوات الأهداف الحية ، والحوادث المتسلسلة ، والحوار الطبيعي البعيد عن الصنعة والتكلف — فإن العرض المصري يحقق إخفاقاً بعيداً في هذه النواحي إذا استثنيت خمسة أفلام من هذه المجموعة الكبيرة التي شهدتها في هذه الفترة ، ولا أقول إنها تنال كل الرضا من الناقد البصير ، ولكنها تبعث على الثقة ، وترى أن لها شيئاً من التوفيق في الموضوع والحوار والهدف والإخراج في صورة من النجاح غير الباهر ، ولكنها على كل حال تستحق كلمة الثناء .

وما ينبغي أن تصيب نجاحاً مادياً — وإن كنت أعتقد أنها أحرزته — فما يصح بحال أن يكون النجاح المادي دليلا على النجاح الفني ، ولا يصح أن يكون في إقبال الجمهور ما يشير إلى شيء من ذلك من قريب أو بعيد ، فإن الجمهور — مع احترامي لشعوره — لم يصل بعد إلى درجة يستقيم معها أن تعقد الصلة بين إقباله وبين الجودة فيما أقبل عليه .

في (قضية اليوم ، والجيل الجديد ، ويد الله ، ودنيا ، وهذا جناه أبي) صور حية مستمدة من الحياة الاجتماعية ، تعد مثالا حسناً للفلم العربي ، لأنها تهدف إلى أغراض خاصة قصد إليها منذ الخطوة الأولى في الإخراج ، فاستقام التمثيل لوضوح الطريق وتحديد الهدف ، ولا يؤخذ على هذه الأفلام غير اليسير من الملاحظات .

(قضية اليوم) هي حقيقة قضية اليوم : فتاة أتمت دراسة الحقوق — وحاولت أن تجمع بين الإدارة على المنزل وبين الخطابة في المحاكم فلم تفلح، واستبدت الثقافة والطموح بهذا المنزل .

وتعرضت حياته لألوان من الفوضى والاضطراب ، ثم تعود الفتاة بعد أن أقنعتها التجربة إلى حياة الأسرة راضية ؛ ولا عيب في هذا الشريط غير أنه يجرد فتاة الجامعة من

عاطفة الأمومة حين أحست ثمرة حبيبة إلى قلوب الأمهات وأرادت التخلص منها .

و (الجيل الجديد) صورة لكفاح الشباب وطموحه حين يحطم قيد الوظيفة ، ويلقى بنفسه فى معترك الحياة فيصيب قسطاً من النجاح ما زال يؤيده بالثقة والتجربة حتى يبنى لنفسه المستقبل المرموق . ولكن الواقعية تفوت حوادث القصة ، فقد كان المؤلف يحاول أن يخلق شيئاً من لا شيء : كان يحاول أن يخلق الثراء العريض من جنيهات معدودة ، ثم يختفى هذا الثراء من هبوط يسير فى أسعار السوق . فالخطوات سريعة مرتجلة لا يؤيدها منطق الحوادث .

و (يد الله) صورة الفتى الظالم تمتد عينه إلى زوج أخيه ، ثم يصحو ضميره ، وهناك العذاب يقضى عليهما جميعاً . ويؤخذ على الفتى الأول أنه أضاف الإغراء كله إلى غيره ، وحشد لنفسه كل مظاهر العفة والترفع ، وأظن أن من العدل الفنى أن تقسم مواطن الابتذال بين بطلى القصة — متى كان الموقف يسمح بذلك — وأن يحمل كل منهما نصيبه فى المواقف الرهيبة المؤذية كما يحمله فى المواقف التى تنال تقدير الجمهور وإعجابه . والممثل القدير لا يضيره أن يحمل فوق نصيبه فى المواقف التى تبعث سخط النظارة أو سخريتهم منه ، لأن واجبه الأول أن يجيد تصوير الموقف كممثل ، وبخاصة فى تمثيله هو الذى يبرأ عنه السخط أو السخرية ، أو على الأقل يخفف من غلوائهما .

و (دنيا) وكان أولى أن يحمل هذا الفلم واحداً من هذه الأسماء (احذرى الوعود — لا تبيعى الحاضر بالغائب — نهاية فتاة) لأن حوادثه تدور كلها حول هذا المعنى ، والقصة واقعية وفيها درس رادع .

ويؤدى هذا المعنى أو قريباً منه فلم (هذا جناه أبى) ولكن الدرس هنا للفتى الذى يقف الهاجم القاسى لابنته المجهولة ، أو بعبارة أوضح : ابنة شبابه الطائش .

ومع أن فلم (غرام وانتقام) قد أصاب نجاحاً ماديا لعله الأول من نوعه فى تاريخ الشريط العربى ، فإن ناقداً لا يستطيع أن يقول إن له موضوعاً حياً ، أو هدفاً واضحاً ، وقد يكون الحوار حسناً ، ولكن ما قيمة الحوار إذا لم يقم على أساس من قوة الموضوع ، ولم يقصد فى النهاية إلى هدف واضح ؟ .

ماعدا ذلك مما شاهدت فى معارض الصور المتحركة — فشىء لا يستحق حتى أن يوصف بأنه تافه أو سخيف ؛ فليس هناك موضوع أو هدف أو حوار ، ولكنه خليط عجيب متنافر لا تسمح أطرافه بالتقاء . ويقينى أنهم لم يفكروا فى بناء هيكل القصة ، ولكنهم عالجوا حوادثها منفردة . وكل مشهد فكروا فيه لوقته فحسب ، كأن ليست هناك صلة تربطه بالسابق أو اللاحق . ولقد كانت بعض هذه الأفلام تحمل أسماء لا أعرف لها سبباً بعد طول التفكير فى التماس سبب قريب أو بعيد ، من ذلك فلم (ليلة الجمعة) و (ليلة الحظ) .

والقائمون على إنتاج الفلم العربى بمصر يدعون العبقرية لأنفسهم على طراز غير مألوف ، ويذهبون فى سلوكهم إلى إنكار التخصص وتنوع المواهب . فهم يضمون أنوفهم فيما عرفوا وما لم يعرفوا ، ويأبون إلا أن يسيطروا على شتى النواحى الفنيـة ، حتى يخرج الشريط للعرض على الجمهور .

وقد ترى أحدهم وهو يشرف وحده على الإخراج وتأليف القصة ووضع الحوار والأغانى فى كثير من الادعاء المسرف فى الغرور . وهى ظاهرة يشكو منها كبار النقد السينمائى فى هوليود نفسها ، بعد أن غصت بالوافدين إليها فى الأعوام الأخيرة ، وقامت المنافسة على أشدها بين رؤوس الأموال ؛ فأصبحت النواحى الفنية — التى تنادى كل ناحية منهـا بموهبة خاصة — حقلا من حقول التجارب يستثبت رأس المـال فيه اختصاص العلم والفن والاقتصاد فى وقت واحد .

ومن الغريب أن اغتصاب هذه الحقوق يقول به الممثل الأول فى القديم سواء أكان له عهد سابق بالمسرح ، أم كان تمثيله مقصوراً على معارض الصور المتحركة . وإذا صح أن يدعى ذلك لنفسه من له ماض فى المسرح — وهى دعوى لا تخلو من خطل وغرور — فكيف يدعيه الممثل السينمائى وليست له ثقافة عامة ، أو خبرة فنية تؤهله لذلك ؟ .

وإذا كان للممثل الأول فضل من التوفيق فى التمثيل أو كان حسن الصوت ، أو كان يحمل وجها وسيما — حتى ولو كان الرأس فارغاً — فإنه يجد فى هذه الأدوات نوعاً من الدالة يبيح له أن يغتصب لنفسه حقوق المواهب المتعددة . فإذا تقدم كاتب بقصة تناولها الفتى الأول والمغنى والملحن والمحاور — ولا تنس أن جميع هذه الصفات لواحد — بالحذف والزيادة والتعديل . وما زال هذا الرأس الفارغ يطمس من مظاهرها الروحية حتى تستحيل القصة إلى « حكاية » . ومن المؤكد أن الكاتب لا يحتج كثيراً على امتهان فنه ، لأنه يعرف أن الفتى الأول صاحب مواهب متعددة ، تستقل إحداها بتأليف القصة إذا حاول الكاتب اعتراضاً ، أو أشار إلى صواب .

حين ألف برناردشو مسرحية « جان دارك » أمطره الناقدون وابلا من آلاف الرسائل . يأخذون عليه بعض المواطن فى مسرحيته ، وكان أكثر النقد موجها إلى أنه لم يحرق جان دارك على خشبة المسرح أمام الجمهور كما صنع غيره من كتاب المسرح الذين كتبوا عنها ، وإلى أن المسرحية كثيرة الفصول يستغرق تمثيلها ما يقرب من خمس ساعات ، ولم يشأ الكاتب أن يدافع عن رأيه فى الرسائل الأولى لأنه يرى لنفسه عبقرية فى التأليف المسرحى لا يصح معها أن يوجه نقد إلى فنه . ولأن له ثقة بنفسه تضعه قبل شكسبير فى هذا الفن ، تلك الثقة التى لا تخلو من العناد والسخرية بالناس . فلما أغرقته الرسائل عبر المحيط من أوربا وأمريكا دافع عن رأيه فى حرارة وإيمان فى مقدمة طويلة لا تخلو منها مسرحية من مسرحياته .

والأسباب التى يعزى إليها ضعف الفلم العربى تتركز فى فقدان التسلسل المألوف للحوادث ، ثم فى اللغة وما يتصل بها من الأغانى والحوار ، وأساليب الأداء التى تؤاخى الموقف الذى يشغله الممثل . وما عدا ذلك من النواحى الفنية الأخرى ، فقد تقدم المخرجون فيها ، وأصبحت الإضاءة وتسجيل الصوت فى الشريط العربى بحيث لا يمكن أن تنسب الضعف إلى واحد منهما .

أما التسلسل فى مشاهد الفلم فمفقود تقريباً وكأن كل منظر يكون حلقة لا تربطها صلة بالسابق أو اللاحق . ويبدو لى أن انقطاع هذه الصلة يرجع إلى التكلف الذى لا يساوق طبائع الأشياء ، ثم استقلال الممثل الأول بالإشراف على ما لم يدخل فى دائرة مواهبه .

أما التكلف فظاهرة واضحة يغرم بها غالباً كل ناشئ فى الفنون ، ولو أن القائم على الإخراج كفانا هذه النزعة ولاذ بالصمت ، ثم أسلم عمله إلى منطق الحوادث تتحدث هى كما تريد — لكان فى ذلك الخير له وللجمهور .

(للحديث بقية) فى شرف الدين

جامعة الدول العربية

المؤتمر الثقافى العربى

تعلن الإدارة الثقافية بالأمانة العامة أنها قد أجلت موعد قبول طلبات الاشتراك فى المؤتمر الثقافى العربى إلى يوم ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ وذلك رغبة منها فى إفساح المجال لحضرات الراغبين من رجال التربية والتعليم فى الاشتراك فيه .

من عيون الأدب الغربي :

اعرف نفسك

عن الدكتور صمويل جونسون

لا شك أن من بين المبادئ والحكم التي أجمع على صحتها كل الناس ، والتي تتردد دائما على ألسنتهم ، والتي ورثناها عن كبار الفلاسفة القدماء ، هي تلك الحكمة الخالدة الموجزة :

« اعرف نفسك » .

ويعتقد البعض أن هذه الحكمة قد فاه بها أحد الخطباء الأقدمين ، ويؤمن البعض الآخر أن قائلها هو تشيلو Chilo الفيلسوف اليوناني ، وحقا أنها درس جامع مانع يشمل كل التأملات الضرورية لأي باحث أخلاقي . وهل هناك أكثر أهمية لتنظيم الحياة من معرفة ماهيتنا ، وغايتنا ، وواجباتنا وعلاقاتنا بالغير ؟

ومع هذا فمن اليسير أن ندرك أن قائل هذه العبارة لم يكن يظن أنها ستئول فيما بعد إلى هذه المعاني الواسعة المعقدة ، لأن مثل هذه البحوث الواسعة قد أجمع الكل على أنها لم تكن موضع عناية أو بحث في العالم الوثني القديم ، إذ أن بعضها يتطلب قدرة كبيرة كما يحتاج البعض الآخر إلى نوع من الإلهام العلوي .

وقد نطمئن إلى أصل هذه الحكمة الخالدة لو أن التاريخ أخبرنا ما إذا كان المقصود منها تلك التعاليم العامة أو هي تحذير خص به مستشير طلب المشورة أو التثبيت في مناسبة خاصة أو هي وضعت لتكون سُنّة عامة .

ومن الجائز أن تحدث بعض المناسبات يمكن تطبيق هذه الحكمة عليها ، لأن أية هفوة يرتكبها المرء يمكننا أن نعزوها إلى جهله بنفسه جهلا وقتيا أو دائما ، أو قد يكون سببها جهله بما هو مناسب وملائم له ، وقد يكون مردها أيضا إلى شرود ذهنه وقت قيامه بالعمل .

وقد يحدث أن يكرس أحدهم حياته للبحث في أمور بعيدة الاتصال بكيانه ، أو يضيع حياته سدى في معالجة مسائل عويصة لا طائل تحتها ولا حلول لها ، ولا تسعد البشرية أو تزيد في رفاهيتها ، أو يقضي وقته باحثا عن وزن الأرض بما فيها من ماء ويابسة ، أو أن يفني عمره في البحث وراء الكواكب التي لا يدرك التلسكوب مداها ، فلو عرف تلك الحكمة وأمعن البحث فيها لرجع إلى نفسه وأدرك أن هناك كائنا قريباً منه يستوجب عليه أن يعرفه ويدرك كنهه ، وما أقصاه عنه سوى غروره وحبه للاستطلاع .

وكان من مفاخر سقراط حقاً أن تعاليمه ومُثُله جذبت أفكار اليونان من البحث وراء فلسفة الكون إلى دراسة الأخلاق ، كما حولت أفكارهم من دراسة النجوم والأنواء والبحث في المادة والحركة إلى إدراك الفضائل الخلقية في صورها المختلفة وإلى علاقة الفرد بغيره في المجتمع . ومما يجدر ذكره أن كل محاضرة ألقاها سقراط كانت تعليقا على هذه الحكمة الخالدة التي أوصى بها « تشيلو » وهي حث الإنسان على معرفة نفسه ، تلك المعرفة التي تتباين عن بقية البحوث الأخرى التي هي في الواقع أقل ملاءمة لحالة الفرد .

ومن الخطأ الشائع بين العلماء خروجهم على هذا القانون رغبة منهم في الاهتمام ببحث أي شيء عدا أنفسهم ، ولهذا السبب عينه لم يحفل بهم كثير من الناس . ويرجع إنقاص بعض الناس من قدر هؤلاء العلماء إلى فكرة سائدة بينهم ، هي أن هؤلاء العلماء قوم لا يرجى منهم نفع المجتمع ، فهم من العجز بحيث لا يستطيعون القيام بأبسط الأعمال ، أو أن يساعدوا على تقوية روابط المجتمع وصيانة العواطف المتبادلة بين أفراده .

فقد كان جليدس Gelidus رجلا نافذ البصيرة عميق البحث ، وقد كانت له عقلية عبث لأ كثر البحوث العلمية

تعقيداً ، فكان في استطاعته إدراك العلاقات الدقيقة بين الأشياء المتباينة في سهولة ويسر ، وكان له كذلك طبع بارد لم يدع عواطفه أن تؤثر في استنباط أكثر النتائج تعقيداً والتواء ، وكان من عادته أن يمضي وقته في حجرة بأعلى منزله ولا يسمح لأحد من أسرته بالدخول فيها ، فإذا هبط لتناول الغذاء أو ليصيب قسطا من الراحة كان يتمشى كما لو أنه شخص غريب لا يبادل أهل البيت أى عواطف أو اعتبار ؛ فقد جرد نفسه من كل المشاعر الإنسانية ، فلم تكن له عين تقدر الجمال أو قلب يستجيب للشكوى ، وكان من طبعه أن لا يشارك أحداً لا في السراء ولا في الضراء .

وحدث ذات مرة أن بعث إليه أخوه برسالة فدفعها إلى خادمه ليقرأها له ، فأخبره بأن أخاه قد غرقت به السفينة ونجا إلى البر عائما بعد أن فقد كل شيء حتى ملابسه ، وطلب المساعدة من أخيه لأنه في بلد غريب ، فاكتفى هذا العالم بأن ردد قول أخيه « عاريا ومعوزاً » ثم فتح مجلداً في علم الفلك وأخذ يتصفحه ثم اقتبس بعض عبارات عن الرياح والطقس ودونها في مذكرة خاصة به .

ويحكى أن هرعت إليه أسرته لتنبئه بالتهام النيران لمدينة قريبة منهم ، ثم دخل خادمه بعد ذلك ليخبره بأن النار قد اندلعت في كثير من المنازل القائمة على جانبي الطريق وأن سكانها التمسوا ، فضلوا النجاة بأرواحهم على إنقاذ متاعهم ؛ فأجاب « جليدس » في اطمئنان : « إن ما قلته حق ، إذ أن النار تسرى على شكل دائرى » .

وهكذا كان يعيش هذا الفيلسوف الكبير غير عابىء عما يلحق الناس من بؤس ، كما أنه لم يلب أى نداء المجتمع لأنه قد حرم من إدراك أن الناس قد خلقوا للتعاون فيما بينهم إذا أصابهم خير أو مسهم شر ، ولم يستطع هذا الفيلسوف أن يفرق بين ما هو مهم وما هو أهم ؛ وكان الأجدر به أن يوجه جل اهتمامه إلى الفضيلة العملية قبل أن ينغمس في أعماق أبحاثه العلمية التى أخرجته من نطاق البشرية ، إذ أنه لم يكتف بمجانبة الناس وامتناعه عن مشاركتهم في أفراحهم وأتراحهم ، كذلك لم يهتم بتدليل زوجته ومداعبة أطفاله ، بل فضل أن يحصى قطرات المطر ، وأن يدون تغيرات الرياح ، ويسجل خسوف مجموعة كواكب الشترى .

أتيت على طرف يسير من قصة هذا الفيلسوف الكبير الذى لم يعبأ بأخيه وقت محنته ولا بذويه حين كادت تلتهمهم النيران ، وهو قابع في برجه العاجى لا تزعزعه كل تلك الأحداث ، فإذا ما بعد كل فرد عن الآخر مؤثراً العزلة والوحدة كما كان يفعل فيلسوفنا فكيف السبيل إذاً إلى انتظام حال الجماعة ؟ ولم أشاد المفكرون والعقلاء بفضل الاتحاد والإخاء وحب الغير ؟

وإنى لا أجد هناك حكمة أعلى ولا أغنى من معرفة الإنسان لنفسه وفهمه لكيانه وحقيقة وجوده .

عز الدين عبد العزيز مصطفى

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى

تليفون — ٥٦٧٦٩

القاهرة

أنباء وآراء

الأشجار الماصة :

يعمد الأوربيون فى إنشاءات ما بعد الحرب إلى خير السبل فى تطبيق ما بلغوه من العلم فى حياتهم العملية فى أى وجه من أوجه الحياة حتى أبسطها . من ذلك أنهم يعمدون إلى أكثر الطرق فى مدنهم حركة فيغرسون على جوانبها أكبر عدد ممكن من الأشجار المعينة يقولون عنها إنها تمتص الأصوات والجلبة التى تحدثها العربات . وليس ذلك مجرد قول يقال ، وإنما قد ثبت ذلك عملياً فى مدينة لننجراد وكثير من المدن الروسية التى غرس على جانبى طرقها التى تكثر بها الحركة أنواع خاصة من الأشجار ، فكان لذلك أفعل الأثر فى إحلال الهدوء محل الجلبة .

وعلى هذا فإن الجلبة فى قابل الأيام لا تكون إلا من الطائرات فى الجو وليست على ظهر الأرض ، وإن الجلبة التى تحدثها الطائرة العادية تقدر بنحو ٨٧ مرة مما تحدثها العربة العادية .

النائحة :

سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بكاء فى بيت ، فدخل وبيده الدرة ، فإذا النائحة هناك ، فقال عليهن ضرباً حتى بلغها ، فضربها حتى سقط خمارها ثم قال لغلامه : اضرب النائحة ويلك اضربها فإنها نائحة لا حرمة لها ، لأنها لا تبكى بشجوكم ، إنها تهريق دموعها على أخذ دراهمكم ، إنها تؤذى أمواتكم فى قبورهم وأحياءكم فى دورهم ، إنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به ، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه .

يا قوت صبرى

القضية المصرية أمام مجلس الأمن

(بقية المنشور على صفحة ٣)

مؤقتة ، وقد عجب لذلك ورأى أنه مما يتناقض مع مبادىء العدل والقانون الدولى أن تتخلص دولة من التزاماتها الدولية .

وأوضح أنه إذا كانت المعاهدة كما تقول مصر قد أصبحت غير صالحة للاستمرار ، فإن هذه تكون مسألة قانونية تقتضى المجلس أن يفصل فى صحتها . وتكلم عن المعاهدة وكيف خدمت مصر وبريطانيا وسلام العالم بأجمعه ، وناقش ما أثارته مصر من أن المعاهدة لم يبق لها مبرر ، وأنها تخالف ميثاق السلام ، وأشار إلى ما تناولته المعاهدة من بعض أحكام عامة لصالح مصر نفذتها بريطانيا كاملة ، وما تناولته بشأن نظام الحكم فى السودان ، وقبول مصر بوصفها دولة مستقلة استمرار نظام الإدارة المشترك طبقاً لاتفاقية سنة ١٨٩٩ .

فمصر بذلك تكون قد قبلت باختيارها الحر بقاء النظام القائم فى السودان ، وهو النظام الذى تم الاتفاق عليه سنة ١٨٩٩ . واستمر يتكلم عما جنته مصر من الاحتلال البريطانى ، وعن امتداد الإصلاح إلى السودان .

ونفى بقوة أن الحكومة البريطانية اتخذت سياسة من شأنها العمل على فصل السودان عن مصر .

وانتهى من ذلك إلى أن المعاهدة ليست كما يقول المصريون غير ذات موضوع الآن ، وبيّن ما أفاده العالم من المعاهدة ، وأنها لا تتعارض مع مواد ميثاق الأمم المتحدة ولا مع القرار الخاص بجلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد المحتلة ، لأنها إنما بقيت برضى مصر طبقاً لهذه المعاهدة .

ثم نفى ما قيل من أن المعاهدة قد أبرمت تحت ضغط وإكراه ، واستشهد على ذلك بتصريحات النحاس باشا أمام مجلس النواب ، وتصريحات وزير الخارجية ومقرر مجلس النواب ، ومحمد محمود باشا وإسماعيل صدقى باشا .

وقد رأينا أن المجال لا يتسع بعد للتعليق على الموقف ، فإلى العدد القادم ، وستكون قد استمعنا فيه إلى رد مصر وتعليق بريطانيا . (. . .)

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٥١ | الثلاثاء ٣ من شوال سنة ١٣٦٦ — ١٩ من أغسطس سنة ١٩٤٧ | السنة التاسعة

القضية المصرية أمام مجلس الأمن

مناقشة أقوال الطرفين

أجملنا فى العدد السابق من هذه المجلة كيف عرض دولة النقراشى باشا شكوى مصر من المملكة البريطانية المتحدة أمام مجلس الأمن ، وما تلاه من رد المستر كادوجان ممثل بريطانيا لدى المجلس ، وكان رده منصباً على عريضة الدعوى . ثم تلا ذلك فى جلسة أخرى بيان ثان للنقراشى باشا عقب به على أقوال مستر كادوجان ، وتعليق المستر كادوجان على بيان النقراشى باشا الأول . وفى جلسة ثالثة تكلم مستر كادوجان رداً على البيان الثانى للنقراشى باشا وتكلم النقراشى باشا تعليقا على أقوال المستر كادوجان فى الجلسة الثانية ، وتبين أن كلا من الطرفين التزم فى دفاعه الخطوط الرئيسية التى رسمها لنفسه فى أول جلسة ، وأن ما جاء به كل منهما من جديد لم يعد أن يكون توضيحا وتفصيلا ومناقشة لما أثير من الموضوعات .

والخطة التى انتهجتها مصر فى عرض قضيتها كانت خطة بسيطة غير معقدة . فقد صورت احتلال بريطانيا لأراضيها على أنه إجراء غير شرعى يتنافى مع كونها دولة ذات سيادة مشتركة فى هيئة الأمم المتحدة ، ويتنافى مع ميثاق هذه الهيئة ومع قراراتها السابقة التى تحرم احتلال جيوش أجنبية لأراضى دولة أخرى مشتركة فى الهيئة بغير رضاها . وأن من شأن بقاء قوات بريطانيا فى مصر تهديد السلام فى الشرق الأوسط وتعكير العلاقات بين الدولتين . وتهديد حرية مصر الداخلية ، وإخضاعها لنفوذ بريطانيا . وقد اقتضاها بيان ذلك أن تشرح الظروف التى نشأ فيها الاحتلال البريطانى لمصر منذ خمسة وستين عاما ، والأدوار التى مر بها هذا الاحتلال حتى نهاية الحرب العظمى الأولى ، وكيف قامت بسبب وجوده ثورة داخلية فى مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٢ انتهت باعتراف بريطانيا باستقلال مصر مع تحفظات تحد من هذا الاستقلال . وكيف دارت المفاوضات بين مصر وبريطانيا بشأن تلك التحفظات ، ولم تصل إلى نتيجة حتى سنة ١٩٣٦ حيث عقدت معاهدة بين الطرفين فى ملابسات دولية خطرة قبلتها مصر مرغمة .

وصورت مصر الحالة فى السودان تصويرا يوضح كيف تنفرد بريطانيا بحكم هذا الجزء من وادى النيل حكما

إداريا شاذا يحول دون تقدم السودان ، وكيف جرت السياسة البريطانية على توهين الصلات بين مصر والسودان مع حيوية هذا الإقليم لمصر .

أما خطة بريطانيا فقد كانت التمسك الحرفى بنصوص معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وهى معاهدة تجيز لبريطانيا إبقاء قواتها بمصر إلى حين ، وبقاء النظام الإدارى القائم فى السودان إلى أن يتفق الطرفان على تغييره . وتمسكت بأن معاهدة سنة ١٩٣٦ معاهدة شرعية تبقى نافذة المفعول إلى سنة ١٩٥٦ ، مع جواز تغييرها بعد عشر سنوات من إبرامها إذا رضى الطرفان ذلك بمفاوضات تقوم بينهما وتتوافق فيها إرادة الطرفين . وأن مصر عرضت المفاوضة فى الوقت المحدد فقبلتها بريطانيا ، ودارت مفاوضات قطعتها مصر بسبب عدم قبولها أن يكون للسودانيين حرية الاختيار بين الاستقلال والاتحاد مع مصر . ولهذا لا يكون هناك محل لعرض الشكوى على المجلس ، وزادت أن المشكلة لا تهدد السلام إلا إذا كانت مصر تنتوى ذلك .

وظاهر أن القضية قد أصبحت موازنة بين مطالب مصر التى تراها حقاً طبيعياً لها وهى إجلاء جيوش بريطانيا عن وادى النيل وانتهاء نظام إدارى شاذ يحكم به السودان ، وبين تمسك شكلى من جانب بريطانيا بنصوص معاهدة سنة ١٩٣٦ وهى معاهدة برهن الجانب المصرى على أنها معاهدة استنفدت مهمتها ولم يعد ما يبرر بقاءها ، وهى تتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة ومع قراراتها ، وهى معاهدة أبرمت تحت ضغط ظروف دولية لم يبق لها وجود .

وقد بدت محاولات من الجانب البريطانى لنقل النزاع من دائرة البحث السياسى إلى الدائرة القانونية ؛ ولكن الجانب المصرى فوت عليه ذلك ، بما أوضحه من أن الخلاف فى جوهره خلاف سياسى يترتب على تركه بغير حل عادل نتائج يخشى منها على السلام العالمى .

ويبدو عجيبا أن تتمسك بريطانيا بمعاهدة سنة ١٩٣٦ مع أنها سلمت بعدم صلاحيتها وضرورة تغييرها . وقد سلمت أثناء المفاوضات بسحب قواتها من مصر لأن بقاءها ليست له ضرورة ستراتيجية . فاستمساكها ببقاء تلك القوات بعد ذلك لمجرد أن مصر لم تتفق معها فى المفاوضات ليس له مبرر ظاهر إلا تهديد مصر وجعل خروج هذه القوات موضع مساومة مع مصر فى أمور أخرى .

أما السودان فأمره أعجب ، فهى تبدى غيرة مصطنعة على حق السودانيين فى الاختيار بين الانضمام لمصر أو الانفصال منها . وتنقل النزاع من أن يكون نزاعا على بقائها بالسودان منفردة بحكمه إلى نزاع وهمى بين مصر والسودان ، فتقرر أولا أنها ستجلو عن السودان ومصر ، ثم لتنتظر ماسيكون بين مصر والسودان بعد ذلك ؛ فإن نشب بينهما خلاف عند ذلك جاز لهيئة الأمم أن تتدخل . أما أن تخلق حالة خلاف لم تقم ، وتتبرع بالغيرة على حرية الشعوب من غير أن يكون لها شأن ، فهو ليس إلا تهربا من الحقيقة الواقعة ، وهى أنها معتدية على السودان ومصر معا ، وأنها بعد أن كادت تفقد سيطرتها على قسم تتذرع بأوهى الأسباب للسيطرة على القسم الآخر .

إن بريطانيا لا تزال تنزع إلى الروح الاستعمارية التى تغلغلت فى طباعها ، وهى لا تستطيع أن تواجه التطورات التى تقتضيها روح العصر ، فهى تراوغ وتداور كسباً للوقت . ولكن الزمن سيضطرها رضيت أو كرهت إلى أن تدع الشعوب وشأنها حرة فى تصريف أمورها . لقد كشفت بيانات النقراشى باشا بصورة قوية حقيقة الدور الذى لعبته بريطانيا فى مصر والسودان . وكيف أخرت تقدمهما زمنا طويلا . ولن يجدى فى دفع هذه البيانات ما ذكره ممثل

تسبيحة الحسن

خيالٌ سرى مع ركبِ الليال
يبثُّ النجومَ بلحنِ الجمال
ويبعثُ في البيد موتى الظلال
وقد تمّ الركبَ منه السُّرى
وزار عيونَ النجوم الكرى
وضاع النشيدُ ، ونام الورى
فهل أنتِ مُنعِمةٌ بالوصال
يُسائلُ منكِ النسيمُ العليلْ
إذا هبّ في سَحَرٍ أو أصيلْ
ويبكي الشكوُّ ... وما من سبيل
وصوتُكِ أنغامُ نايِ القدرْ
أصاخ لها قلبُه ، فانفطرْ
وجفّ الخميلُ ، ومات الزهرْ
وحُبُّ الرغائبِ قبحٌ جميلْ
ويا كم يُنادي رمالَ الكثيبْ
متى عهدُها بالغزال الربيب !
فتُشرق في صمتها ... لا تجيب
له الله من حائرٍ في الدجى
قريحِ الجفون ، سليبِ الحِجا
يُروّعه الليلُ إمّا سجا
كما روّع الشاةَ في القفر ذيب
يقصّ عليه النخيلُ رؤاه
ويُدرك بالشعر سرّ الحياه
ويبكي لديه الحمامُ هواه
أتدرين ماذا يقول النخيلُ ؟
أتدرين سرّ الحياة الجليلْ
وكيف تحبّ بناتُ الهديلْ ؟
وتشجو المنى إذا قال آه
وقفتُ أمامي ضفافَ الغدير
وأبكي الشباب بدمعٍ غزير
وأذكر ليلَ الوصال القصير
وأنتِ الثريا وقلبي السماء
نريقُ على الكون كأسَ الضياء
ونسمع همسَ الصخور الصمّاء
وتسبيحةَ الحسن فوق الأثير
متى يا فتاتي يكون اللقاء ؟
وتمحو السعادةُ رسمَ الشقاء
ويبسمُ للحبّ ثغرُ القضاء ؟
ونسخرُ من عبثات الزمن ؟
هزارين قد صدحا في فنن
فسحرُ الغناء يبيدُ الشجن
ويُحيي الأمانيَّ بعد الفناء

محمد علي منصور

بريطانيا من بيانات غير صحيحة تخالف بها حقائق التاريخ المعروفة .

بقي أن نعرف ما سيكون لهذه المناقشات من أثر في مجلس الأمن . ومع توقعنا أن تكون العوامل السياسية والمصالح الخاصة لكل دولة هي الحد لا اتجاه أعضاء المجلس ، فإننا نعتقد أننا قد كسبنا إشهاد العالم على حقيقة قضيتنا . وأوضحنا الأساليب الاستعمارية البريطانية في صورتها الحقيقية . ونحن واثقون من الظفر بمطالبنا ، اليوم أو غداً .

(...)

الموقف بين مصر وبريطانيا

كلمة مختصرة جاءت في بيان دولة النقراشي باشا في خطابه في مجلس الأمن أودع فيها كل ما في قلوب المصريين من آلام وحسرة، وعبر بها تعبيراً صحيحاً قوياً عن احتجاج هذا الشعب المتطلع للحياة، وذلك إذ قال في خطابه: إن المسألة المصرية الإنجليزية بالنسبة لبريطانيا لا تزيد على أن تكون حادثاً من الحوادث، ومشكلة من المشكلات، ولكنها بالنسبة إلى مصر لا تقل عن مسألة الحياة أو الموت.

لقد عبر دولة الرئيس المصري في كلمته المختصرة عن شعور المصريين تجاه أكبر ظلم يمكن أن يقع في الحياة، لأمة متمدنة يحاول خصمها حرمانها من التصرف في مصاير نفسها.

إن الخلاف بين مصر وانجلترة إذا كان يثير بعض القلق في قلوب ساسة الإمبراطورية البريطانية، فإنه لا يزيد على أن يكون عثابة ووخزة عابرة من شوكة أصابت جنب أسد أثناء جولاته في الغابة يطلب الصيد، ولكنه بالنسبة لمصر لا يقل عن مأساة كانت تشغل قلوب سكان هذا الوادي منذ نيف وستين عاماً، بل منذ قرن، بل منذ قرنين، منذ عاد الوعي إلى هذا الشعب المسالم صاحب المدنية الأصيلة القديمة، ومنذ أخذ يحس بوجوده، وما له من حقوق في الحياة. ولن تزال هذه المأساة إلى اليوم وغداً تحتل المكان الأول من قلوب أهل مصر، حتى تجد الحل العادل السليم الذي يقر القلوب في الصدور.

إنه لمن أقسى تجارب الحياة أن يقف القوي موقف التحكم حيال ضحية تحس طغيانه وظلمه، ولا تقوى على الانتصاف منه بقوة تعادل قوته، وبطش يساوي بطشه. وإنه لمن أقسى تجارب الحياة أن يقف الطاغية المدل بقوته وبطشه، فيجادل في الحق، ويماري فيه متفكهاً متهكماً، يحاول أن يغطي ضعف حجته بالاستخفاف، ويستعدى الأوضاع الظالمة على الحق الخالد.

إنه لمن أقسى تجارب الحياة أن يقف القوي المدل بقوته أمام صاحب الحق الذي يطالب بحقه هادئاً باسماً، يستعين عليه بقوانين الغابة لكي يرده إلى قيوده وأغلاله التي استطاع أن يكبله بها، متحدياً كل قوانين العدالة الإنسانية السامية.

إن القوي إذ يقف مثل هذا الموقف باسماً متفكهاً متهكماً، لا يدري أن كل كلمة من كلماته تنفذ إلى صميم قلب ضحيته المسكينة فتطعنه وتدميه، وتمزقه تمزيقاً، لا يدري أن تلك الكلمات إذا كانت تخرج من لسانه هينة سهلة يكاد يحسبها طريفة مرحة، فإنها تنطلق كالسهام المسمومة إلى صدر المسكين الذي يرسف في القيود ينتظر بعد كل كلمة ما يحكم به عليه القضاء.

هكذا قد يقف البربري الجافي من أسيره الذي أوقعه سوء الطالع في أسره، وهكذا يقف المرابي الجشع من مدينه الذي حطم الربا آماله وحيله وأعجزه. هكذا وقف شيلوك يفرك يديه باسماً يطالب مدينه أنطونيو المسكين برطل اللحم، متمسكاً بالصك الذي أخذه عليه، لا يبالي شيئاً من عواطف الرحمة، ولا توسلات المحبة، ولا دموع العدالة الإنسانية. وليست الدول بعيدة عن الوقوف في مواقف تشبه هذه المواقف التي يقفها الأفراد بعضهم من بعض. فهناك جانب قوي باطش مدل بالقوة، يصدع بالحجج التي تعارفت عليها الوحوش المفترسة في مواجهة فرائسها، وهناك جانب آخر يدلي بالحجج، التي توحي بها العدالة والرحمة والإنسانية. تلك الحجج التي قد داستها الدول، وبات جزاءها الطبيعي في هذه الحروب الدموية التي تمزق الأرض بين حين وحين.

نعم. لقد فطن قادة الفكر الحديث إلى الهاوية التي ينحدر إليها العالم من جراء نسيانه وحي العدالة، واستهتاره بالنعمة والسلطة والسطوة والقوة والسيادة والأثرة،

وإهداره للمثل الإنسانية العليا ، والغايات المعنوية التى حضت عليها الفلسفة الصحيحة والأديان السماوية منذ أقدم العصور .

أدرك قادة الفكر أن العالم ينحدر إلى الهاوية من جراء هذا الاتجاه الخاطئ ، ولكن ساسة الدول ما يزالون يغمضون أعينهم عن الحقيقة الخالدة ، وما يزالون يحاولون التمسك بحجج وحوش الغابة فى مجادلة فرائسها .

فياويح الشقى الذى يجادله القوى وهو ضعيف ، وياويح الأمة المسالمة إذا وقفت تطلب العدالة الإنسانية بحجة اللسان وخصمها يحجها بحجة الغلبة والعدوان . إن الأمة التى تقف مثل هذا الموقف لتشعر أقسى شعور بما فى موقفها من مرارة . إنها تجادل من حياتها فى حين أن خصمها يجادل عن لقمة من اللقم التى تزيده سمناً ، وشتان بين الجانبين المتجادلين . إن أحدهما يقدم حجته بقلب واجف دام وبأنفاس متلاحقة مضطربة ، لأنه يحس أن حياته كلها متوقفة على العاقبة التى ينتهى إليها الجدال ، على حين أن الجانب الآخر يقدم حجته خلياً مرحاً مدلا بقوته ، لا يحس خوفاً ولا اضطراباً . فإن أقصى ماقد يقع له هو خسارة لقمة واحدة ، ثم هو فى الوقت نفسه يخالس النظرات إلى قوة عضلاته ومضاء أنيابه وأظفاره ليطمئن نفسه على أنه يستطيع أن يخرج من كل ورطة بفضل قوته إذا دعا الأمر إلى استعمال القوة .

فشتان بين موقف الخلى وموقف الشجى ! وشتان بين موقف القوى المعتدى وموقف الضعيف المنتصف !

وقد قنع مندوب بريطانيا فى مجلس الأمن أن يتمسك بمعاهدة سنة ١٩٣٦ لكى يدفع كل الحجج التى تقدمت بها مصر . لم يعبأ بما لمصر من حق فى الحياة ، ولم يعبأ بما لمصر من فضل قديم على الإنسانية ، وفضل حديث على دولته والعالم أجمع فى أثناء الحرب الضروس الماضية . وإنه لمن أعجب الأمور أن يعترف مندوب بريطانيا بأن دولته والعالم كله قد استفادوا من صداقة مصر أعظم الفوائد فى وقت كانت المدنية فيه مهددة أعظم تهديد فى حياتها . ومع ذلك فهو لم يعبأ بالنظر فى حقائق الموقف السياسى فى العالم وما طرأ عليه من تغير يجعل مصر الحرة القوية فى المستقبل دعامة من دعائم السلام فيه ، ويجعل بقاء الجيوش البريطانية فى وادى النيل عبئاً ثقيلا على بريطانيا وعاملا قويا على تكدير الصفاء فى بلاد لاتضمر لبريطانيا عداء . لم يعبأ مندوب بريطانيا بشىء من هذا كله وقنع بأن تمسك بمعاهدة سنة ١٩٣٦ ، فكان موقفه أشبه المواقف بالصورة الرائعة التى صورها شكسبير العظيم لشيلوك المرابى القاسى .

على أن التوفيق قد خان المندوب البريطانى فى تمسكه بهذه الحجة المهلهلة . فإن معاهدة سنة ١٩٣٦ لا وجود لها منذ اعترفت بريطانيا بعدم صلاحها للظروف الحالية ، ومنذ قبلت مبدأ التحلل منها والدخول فى المفاوضات للنظر فى إقامة العلاقة الدولية بين مصر وبريطانيا على أساس آخر يناسب الظروف الجديدة فى العالم ويرضى العدالة ويؤدى إلى غايات الصداقة الحقيقية القائمة على المبادىء الجديدة التى تمخضت هذه الحرب الأخيرة عنها .

لقد أقرت بريطانيا إقراراً صريحاً بأن معاهدة سنة ١٩٣٦ أصبحت لا تصلح كأساس للعلاقة الدولية بينها وبين مصر ، فما قيمة حجة مندوب بريطانيا إذا كانت تقوم على التمسك بمعاهدة قد اعترفت بريطانيا بعدم صلاحها ؟ على أن حجة المعاهدة تبطل بطلانا كليا إذا نحن تذكرنا أن مصر قد قبلت المفاوضة من قبل وأرادت إرادة صريحة أن تقيم علاقاتها الدولية على أساس معاهدة جديدة قائمة على الاعتراف بحقوقها كاملة ، واستمرت المفاوضة حيناً طويلا من الزمن كانت مصر فيها شاعرة أقوى شعور بأنها جادة فى موقفها ، لأنها تعرف أن الأمر متصل بحياتها فى حاضرها ومستقبلها . ولكن ممثلى بريطانيا أو ممثل بريطانيا

فى المفاوضات كان يتبع السنة البريطانية فى مفاوضاتها — سنة الحلق الذى يعرف أنه لا يناضل من حياته ، بل يحاول الحرص على كل ما فى يده وإن كان فى ذلك متعديا حدود العدل والإنصاف . فكان من الطبيعى لمثل تلك المفاوضات أن تنتهى إلى ما انتهت إليه من فشل ، ولم يبق أمام مصر إلا أن تستصرخ ضمير العالم المتمدن للحصول على حقها فى الحياة . فآخر ما كان ينبغى للمفاوض البريطانى هو التمسك بالمعاهدة التى اعترفت دولته بعدم صلاحها والتى أظهرت بريطانيا فى موقفها فى المفاوضات أنها لا تضمر نية صحيحة فى تصحيح موقفها منها .

كنا نفهم لو أن ممثل بريطانيا قام فى مجلس الأمن ليبرهن على أن دولته لا تنوى الاعتداء على استقلال مصر ، وأنها قد وعدت فعلا وعداً رسمياً بالجلاء فى عام ١٩٤٩ ، وكنا نفهم لو أنه قام ليبرهن على أن دولته لا تنوى الاستمرار على سياستها التى ترمى إلى نزع السودان من شقه الشقيق ، وأنها تريد تصحيح الأوضاع القديمة الظالمة التى صارت لا تناسب الحياة فى هذا الوقت من القرن العشرين . وكنا نفهم لو أنه قام ليظهر الاحتمالات التى تضر بمصالح بريطانيا ، ويمد يده إلى مصر طالبا أن تقيم دولته معها معاهدة شريفة حقاً قائمة على تبادل المصالح بين بلدين لكل منهما الحق الكامل فى الوجود والحياة السليمة . كنا نفهم هذا ، أو سواه من الحجج الموضوعية التى تتناول الحقائق المسببة للنزاع بين الدولتين . ولو فعل هذا لكان على الأقل مخلصا فى موقفه ، إذ يتحدث عن أمور تمس حياة أمته كما تتحدث مصر عما يمس صميم حياتها . ولكنه قصر كل قوله على التمسك بصك شيلوك ، فوا أسفاه ! إن الذين يضمرون فى نفوسهم إعجاباً بمدنية بريطانيا وخلق الأمة البريطانية ، ويتمنون أن تقوم العلاقة الدولية بين مصر وإنجلترة على أساس شريف يزيل مرارات الماضى ومظالمه ، قد أصابهم أكبر صدمة من خيبة الأمل مرتين متتاليتين : الأولى فى المفاوضة ، والأخرى فى الدفاع بمجلس الأمن . وإن أكبر ما نحسه من الأسف هو أن هؤلاء الذين يميلون إلى صداقة بريطانيا يوشكون أن يتحولوا إلى طريق أخرى يرون أنها أجدى عليهم من التعلق بالخيال . وذلك أن يعملوا جاهدين على انتهاج خطة أخرى والبحث عن طريق عملية أجدى عليهم وعلى مصر من تمنى صداقة شريفة يظهر أنه لا أمل فيها مع بريطانيا .

محمد فريد أبو حديد

قضية ليبيا فى مهب الريح

جاء فى الأنباء الأخيرة أن مدير الشئون الدنية للقيادة البريطانية فى الشرق الأوسط « الجنرال كنج » زار مدينة بنغازى ، وأعلن فيها قرب وصول لجنة التحقيق الدولية ، المكلفة بدراسة مشكلة ليبيا ، وتقديم تقرير واف عنها إلى مندوبى الدول الأربع « انكلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا » الذين سيجتمعون قريبا فى لندن للبت فى مصير المستعمرات الإيطالية .

وعلى أثر هذا الخبر ، أصدرت الإدارة العسكرية المحتلة فى بنغازى أوامر صارمة إلى الصحف ، تحظر عليها نشر أى نقد أو حديث من شأنه إثارة الرأى العام ضد الإدارة القائمة ، أو ضد موظفيها ، وغايتها فى ذلك خنق صوت الشعب قبل وصوله إلى آذان اللجنة القادمة .

وراحت الصحف المأجورة تذيع وترجف أن أهل (برقة) يرجون وصاية انكلترا عليهم . فكان من جراء ذلك أن توترت أزمة شديدة بين الهيئات الوطنية وبين هذه الإدارة العسكرية المؤقتة .

وعلمنا من أنباء أخرى أن وزارة الخارجية الإيطالية قد حلت عقالها من جديد ، على أثر الحوادث السياسية الحالية ، والتوتر فى العلاقات الدولية بين معسكرى السوفييت والأنجلوامريكان . وراحت تتقرب إلى انكلترا شيئاً فشيئاً ، وتبذل الجهود الجبارة فى شن دعاية واسعة لها للمطالبة بإعادة مستعمراتها إليها ، وخاصة ليبيا .

ومن نكد الطالع أن اقترن وقت النظر والتحقيق فى مشكلة هذا البلد العربى بوقت شغلت فيه دول الجامعة العربية بعرض قضية فلسطين على هيئة الأمم المتحدة ، وبشكوى مصر من انكلترا فى مجلس الأمن ؛ وإلا لكان نصيبه من اهتمام هذه الدول به ، والدفاع عنه أكثر من هذا النصيب الذى نراه .

وليست مشكلة ليبيا من المشاكل الدولية البسيطة ؛ إن لم تكن من أكثرها تعقيداً وأشواكا . فما إيطاليا وحدها التى تريد سلب الشعب الليبى حريته واستقلاله ، لإعادة استعمارها الوحشى الشنيع عليه ، بل هنالك عدة دول كبرى تتطلع إلى هذه الأرض ، الممتازة بموقعها الجغرافى بعين الطمع ، ورغبة الحصول على قواعد عسكرية أو مراكز اقتصادية فيها .

ولهذه المشكلة حكاية تتصل بتاريخ استعمار إيطاليا لبلاد ليبيا نلخصها فيما يلى :

فى عام ١٨٨١ احتلت فرنسا بلاد تونس ، فانتفضت إيطاليا ، رغم ضعفها وكثرة مشاكلها الداخلية ، من هذا الفتح الباغت ، المضر بمصالحها . ونشأت من جراء ذلك أزمة سقطت على أثرها الوزارة ، وجاءت أخرى قطعت علاقتها مع فرنسا .

ولما انتهت مشاكل إيطاليا الداخلية واستقرت وحدتها التى تبلورت عام ١٨٧٠ ، شعرت بحاجة إلى مواد أولية تغذى نهضتها الصناعية ، فاندفعت إلى الاستعمار ، وجعلت نصب عينيها الاستيلاء على ليبيا وانتزاعها من يد الدولة العثمانية الضعيفة ، غير أنها فوجئت برغبة فرنسا فى احتلال هذه البلاد المجاورة لتونس ، فكتب رئيس الحكومة الإيطالية « السنيور جراسبى » إلى اللورد « سالسبرى » رئيس الوزارة البريطانية ، يقول : « لقد اتضح لى أن الجمهورية الفرنسية تعمل لاحتلال طرابلس الغرب ، كما ثبت لى ذلك من اعتداءاتها المتكررة على الحدود الطرابلسية . . . ولكن إذا حصلنا على طرابلس فإن (بنزرت) لا تهدد بعد ذلك إيطاليا ولا بريطانيا . . . »

وأجاب رئيس وزراء إنكلترة على هذا الخطاب بالموافقة على تحقيق رغبة حكومة « جراسبى » قائلا : « ليس هناك شك فى أن الحكومة الإيطالية ستستولى على طرابلس . ولكن على العائد الماهر الذى يريد إصابة

فريسته أن يتريث حتى تصبح فى متناول طاقته كى لا تهرب إذا ما جرحت ... »

ومن ذلك اليوم أعدت إيطاليا عدتها لتحقيق هذه الأمنية الاستعمارية ، فتقربت من الدولة العثمانية وتوددت لها ، ومدت أصابعها فى البلاد عن طريق التجارة والعلم وفتح المدارس وغيرها . وكان الباب العالى يجهل مطامع إيطاليا ، ولا يعتقد بإمكان تحقيق فكرة مثل هذه ، لوجود التوازن الدولى ، وعدم رضى الدول بمثل هذا العمل .

وفى الوقت ذاته كانت الحكومة الإيطالية تهيىء الرأى العام الإيطالى لهذا الفتح . فكتبت الصحف الداخلية تنتقد حالة سكان ليبيا ، وتطعن فى إدارة الدولة العثمانية لهذه البلاد ، واضطهادها للأقلية الإيطالية النازحة هناك ، وتحرض الشعب على الاستيلاء على هذه الأراضى الغنية بثروتها وخيراتها ، حتى تهيأت الأفكار للاقدام على تحقيق الخطة المبيتة ، ورغبت العائلة المالكة فى ذلك .

ثم اتجهت إيطاليا إلى الميدان الدولى لتذلل العقبات التى قد تعترضها أثناء الفتح ، بعد أن أقنعت انكلترة وأرضتها . وفى عام ١٨٩٦ اعترفت لفرنسا بحمايتها على تونس . واتفقت معها على تنظيم الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط . وعقدت معها اتفاقا آخر عام ١٩٠٠ رضيت فيه باستيلاء فرنسا على مراكش ، مقابل استيلائها على ليبيا ، وجددت العهد نفسه بعد سنتين . فلما كان مؤتمر الجزيرة عام ١٩٠٦ احتفظت إيطاليا بجهادها كى لا تغضب حلفاءها المتساومين معها فى الخفاء .

وفى ٢٩ سبتمبر من عام ١٩١١ فوجىء العالم بإعلان إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية بحجة عدم استتباب الأمن فى ليبيا ، وتهديد المصالح الإيطالية هناك .

كان الأسطول التركى ضعيفا ، فاختفى أمام القوى البحرية الإيطالية ، وانقطعت الصلات بين ليبيا والآستانة من طريق البحر . وفضلا من ذلك فقد كان الجيش التركى مشغولا بحوادث البلقان ، ولم يكن فى طرابلس الغرب إلا حامية بسيطة ، انضمت إليها القوى الشعبية فى البلد وبعض المتطوعين العرب من البلاد الأخرى .

وكانت خطة الإيطاليين العسكرية ترمى إلى احتلال الساحل ، ومنع ما يمكن لتركيا إرساله من مدد للقوة الوطنية المقاومة . فلما تم لها ذلك وجدت احتلال الداخل أصعب مما كانت تتوقع ، ولاقت من الصعوبات ما اضطرها إلى طلب إرضاء تركيا مقابل مال تدفعه ثمن التنازل عن هذه الولاية ، فأبت تركيا ، وعبثا حاول بعض الدول إقامة الصلح بين الطرفين .

فلما فشلت المساعى للصلح هاجمت إيطاليا الدردنيل وبيروت ، بعد موافقة الدول الأخرى ، وأنزلت جنودا فى جزر بحر إيجا . وأقامت الثورات فى ألبانيا ومقدونيا ضد النفوذ التركى ، فوافقت الدولة العثمانية على مصالحة إيطاليا ، وعقدت معها معاهدة « أوشى » فى ١٨ أكتوبر من عام ١٩١٢ ، على أن يمنح أهل ليبيا استقلالا داخليا تحت نفوذ الحكومة الإيطالية ، مع احتفاظ الحكومة العثمانية بإرسال من يمثلها فى ليبيا ، وتعيين القضاة ، وغير ذلك فيما يخص الشئون الإدارية .

غير أن الحكومة الإيطالية خانت المعاهدة ، ولم تعمل بها ، وقررت الاستيلاء على البلاد كلها دون قيد أو شرط . فأصر العرب فى ليبيا على المقاومة ، وألفوا حكومة وطنية للدفاع ، وهاجموا القوى الإيطالية فى الداخل فهزموها .

غير أن سوء الحظ لازم ليبيا ، فانقسمت القوى الوطنية على نفسها بين بعض زعماء البلاد ، فوهنت شوكتها ، واستفاد الطليان من ذلك وقوى مراسهم حتى انتهت الحرب العالمية الأولى . ولم يلق أهل ليبيا السلاح من أيديهم رغم ما جاءت به الأحداث من انشقاق ونزاع داخلى .

وفى عام ١٩٢٢ تجددت الثورة فى البلاد تحت راية

(عمر المختار) وأخذت طورا جديدا ، واستمرت تسعة أعوام ، حتى أسر (عمر) فى يد الجيش الإيطالى ، وشنق فى شهر سبتمبر من عام ١٩٣١ ، فانطفأت نار المقاومة ، وخضعت ليبيا لإيطاليا .

وزار السنيور « موسولينى » طرابلس عام ١٩٣٧ ، ووعد الليبيين خيرا . فلم تمض بضعة أشهر من هذه الزيارة المسرحية ، وهذا الوعد الكاذب ، حتى فوجىء الناس بقانون ، وافق عليه المجلس الفاشستى الأعلى فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨ ، وبموجبه تجبر الحكومة الإيطالية أهل ليبيا على التجنس بالجنسية الإيطالية . وقامت السلطات الفاشستية بتحقيق هذا القانون ، فارتكبت من الفظائع والظلم مايقشعر منه ضمير الانسانية ، من نفى فى الصحراء اليابسة وسجن وتقتيل لمن يعارض هذا المشروع . ودام الظلم وخيم على ليبيا ، وضاقت الصدور ، وماتت الحرية فى مكامنها ، حتى أعلنت الحرب العالمية الأخيرة .

وفى ٩ أغسطس من عام ١٩٤٠ اتفق فيف من زعماء ليبيا مع القوات العسكرية البريطانية فى القاهرة على مساعدة الحلفاء ، ومقاومة الطليان والمحور ، مقابل إعادة الحرية والاستقلال للبلاد الليبية . فتطوع الطرابلسيون فى القتال وخدموا القضية الديمقراطية بالأموال والأنفس خدمات اعترفت بها الحكومة البريطانية نفسها .

ولما تحررت ليبيا بسقوط مدينة طرابلس فى يناير عام ١٩٤٣ ، وبعد أن كنستها الموجات العسكرية المتكررة بين جيوش المحور والحلفاء ، أقامت البلاد على حكم عسكرى بريطانى مؤقت ريثما يتم النظر فى قضية المستعمرات الإيطالية .

ولم تتغير الحالة فى إدارة البلاد . فقد بقى الموظفون الإيطاليون فى مراكزهم الإدارية كما كانوا قبل الحرب . واستمر سوء الحالة على ما كان عليه من حيث الوضع الاجتماعى . وانقسمت البلاد إلى منطقتين (برقة — وطرابلس) ولكل من هاتين المنطقتين قوانين إدارية خاصة تختلف عن الأخرى .

وزاد على ذلك أن اقتطعت الحكومة الفرنسية إقليم « فزان » ، الواقع فى الجنوب الغربى من طرابلس على حدود تونس . وصار له أيضا نظام إدارى خاص تحت نفوذ الفرنسيين ، ويتعامل بالنقود الفرنسية .

وكثرت المصائب والأحداث على هذه البلاد ، من فيضان مدمر ، وقحط أباد الحرث والنسل ، وألجأ الناس ورماهم فى مهاوى البؤس ، وهى تنتظر مصيرها السياسى .

تنازلت إيطاليا عن مستعمراتها ، ومنها ليبيا ، فى ١٠ فبراير من عام ١٩٤٧ ، وفشل مؤتمر وزراء الخارجية للدول الأربع المنعقد فى لندن من الشهر نفسه . فأرجأ حل هذه المشكلة إلى فبراير القادم من عام ١٩٤٨ ، على أن يرسل لجنة للتحقيق والدراسة لهذه المستعمرات ، تمهيداً لاتخاذ قرار فى مصيرها .

ويعزو السياسيون أسباب هذا الفشل إلى وجود المطامع والأهواء لكل من هذه الدول الأربع فى أراضى ليبيا كما فى المستعمرات الأخرى .

فروسيا ترغب فى الوصاية على ليبيا كى يكون لها نفوذ فى البحر الأبيض المتوسط .

وتريد أمريكا أن يكون لها قاعدة على ساحل ليبيا للقيام بمهامها فى الشرق الأدنى ، وخدمة مصالحها الاقتصادية ، وتنفيذ تعهداتها لتركيا واليونان تجاه التوسع الروسى .

وتظهر فرنسا رغبتها فى كل مناسبة لإعادة طرابلس إلى إيطاليا كى تكون سداً بين الشرق العربى وشمال إفريقيا المشمولة بالاستعمار الفرنسى .

أما انكلترا ، فكان المنتظر منها أن تعمل على تحرير البلاد الليبية وإعادة حريتها واستقلالها ، تنفيذاً لوعودها التى أعطتها لزعماء ليبيا أثناء الحرب ، ومقابل تلك الخدمات التى قام بها الليبيون واعترف بها ساسة الانكليز ، ومنهم وزير خارجيتها السابق (انطونى ايدن) فى أكتوبر

عام ١٩٤٤ ، غير أن الصالح تمحو الوعود والعهود عند التربيين . وها نحن ننتظر ما سيكون من أمر هذه الوعود الإنكليزية .

إن تاريخ ليبيا الحديث غني بالبطولات والجهاد . وإن أيامها الأخيرة كانت مملوءة بالمصائب والأحداث . ولا نبعد إذا قلنا إنه لا يوجد على وجه الأرض شعب أصيب باستعمار فاجر ، وكدسته الحروب فأبادت معظمه ، طغياناً وظلماً ، مثل الشعب الليبي .

وإن قضية ليبيا في نظر القوميين العرب ، من أهم القضايا الخطيرة ، لا لأنها بلد عربي شقيق فحسب ، بل هو الجسر الوحيد الذي يربط شق دنيا العرب الغربي والشرقي ، وفي ذلك كفاية وإيضاح .

الدكتور عبد الجبار جومرد

كانتـــا رتقاً

كان الإنسان ينظر فيما مضى إلى السماء ، ويدهش لما فيها من نجوم بعضها ثابت وبعضها يتهاوى في الفضاء كأنه رجوم للشياطين . وقد حاول الإنسان منذ عهده الأول أن يقوم بإحصاء هذه النجوم كما لو كان قد نفض يديه بعد أن فرغ من إحصاء ما على الأرض التي يعيش فوقها من أشياء . وبلغ من جهله وقصر نظره أنه قدر عدد النجوم في أول أمره ببضعة آلاف . ولكن العلماء بعد ذلك توصلوا إلى المجهر الكبير الذي يرينا الأشياء مكبرة آلاف المرات ، فاستطاع الفلكيون أن يحصوا بهذه المجاهر الكبيرة حوالي ١٥٠٠ مليون (ألف وخمسمائة مليون) نجم . أي أن ما أمكن رؤيته من نجوم السماء حتى اليوم يبلغ عدده مثل عدد البشر الذين يعيشون على سطح الكرة الأرضية . والله وحده هو الذي يعلم حقيقة ما وراء هذا العدد العديد من النجوم . فإنه بديع السموات الذي يعلم السر وأخفى !

***

ولكي نقرب إلى أذهاننا عظمة هذا الكون الذي كشفت عنه مجاهرنا ، يجب أن نبدأ بتعريف القارئ بأن هذه المجموعة النجمية الهائلة تشتمل فيما تشتمل عليه على نجم عادي اسمه (الشمس) . لا هو في كبير النجوم ولا صغيرها ، وأن هذه الشمس — على الرغم من تفاهتها وسط ما يحيط بها من نجوم أخرى — يمكنها أن تحتوي في جوفها على أكثر من مليون كرة ، كل واحدة منها في حجم الكرة الأرضية !

هذا من جهة ضخامة النجوم . . .

أما من حيث رحابة الفضاء الذي تسبح فيه ، فيجب أن يعرف القارئ ، أولاً أن الفلكيين لا يستعملون الميل ولا الكيلومتر في قياس أبعاد النجوم . لأن هذه المقاييس الصغيرة المدنية إنما تصلح على سطح الأرض الضيق المحدود . فيقول الناس مثلا إن المسافة بين القاهرة والاسكندرية حوالي مائتي كيلومتر تقريباً . فإذا انتقلوا من ذلك إلى تقرير المسافة التي بين الشمس والأرض وقالوا إنها حوالي مائة مليون ميل لم يفهم عنهم السامع ما يقولون ، لأن الرقم ضخم لا يعيه صدر الإنسان ولا يفهمه عقله . ولذلك أرادوا أن يقربوا معنى هذه الأرقام إلى الذهن ليفهم الإنسان العادي معنى هذه الأبعاد التي يريدون أن يحدثوه عنها . فوجدوا أن الضوء ينتقل من مكان إلى مكان بسرعة هائلة قدروها بأنها ١٨٠٠٠٠ و ١٨٠ ميل في الثانية الواحدة . ومعنى ذلك أنه إذا أضاء شعاع في مكان ما رآه الناس الذين في مكانه وقت إضاءته ، أما من كان على بعد ١٨٠٠٠٠ و ١٨٠ ميل من ذلك المكان ، فإنه لا يستطيع أن يراه إلا بعد انقضاء ثانية واحدة على وقت إضاءته . وهذه الثانية الواحدة هي كل الوقت الذي تحتاج إليه موجة الضوء لتقطع فيه كل تلك المسافة :

فإذا تكلم الفلكيون اليوم عن المسافة بين الشمس والأرض ، فإنهم لا يتحدثون عن ملايين الأميال التي تقع

بين جرميهما . ولكنهم يقولون إن هـذه المسافة يقطعها الضوء في ثمانى دقائق ! ومعنى ذلك أن الشمس إذا طلعت على مكان ما في الأرض ظلت ثمانى دقائق لا يراها الناظر على سطح الأرض في ذلك المكان حتى يصل إليه شعاعها الأول . وكذلك إذا غربت . يظل أهل الأرض يرونها ماثلة أمام أعينهم في الأفق الغربي لمدة ثمانى دقائق ، وهى في واقع الأمر ليست هناك البتة . لأن الذى يرونه منها إنما هو آخر شحنة من الأشعة التى انبعثت من سطحها في الثمانى دقائق الأخيرة من مدارها النهارى !

والنجوم المنتشرة في الفضاء حول الشمس بعضها قريب منها . وبعضها بعيد عنها . ولكى ندرك معنى هـذا القرب الفلكى نقول إن أقرب نجم لنا هنا في الأرض من بعد الشمس لا يصلنا ضوؤه إلا بعد أكثر من أربع سنين ويبقى على القارىء بعد ذلك أن يحسب كم في هذه السنين من ثوان ثم يضرب الناتج في ١٨٠٫٠٠٠ ليعلم كم بيننا وبين هذا النجم الأقرب من أميال !

ومعنى ذلك مرة أخرى أن ما نراه بالمجهر إذا نظرنا إلى هذا النجم هو حالة النجم قبل أربع سنين وليست حالته الآن . كذلك لو فرضنا أن هناك من يعيش على كوكب يتبع هـذا النجم ونظر بمجهر إلى الأرض فإنه يراها كما كانت قبل أربع سنوات ! أى أنه يراها وهى لا تزال تحمل على ظهرها السيدين السندين : هتلر وموسوليني ! !

فإذا كنا لم ننس بعد ما قلناه من أن « المدينة النجمية » التى نتبع لها نحن وشمسنا تشتمل على ملايين النجوم . وأضفنا إلى ذلك ما قدره الفلكيون من أن هناك نجوما بعيدة عنا بعدا هائلا ، بحيث يقطع الضوء المسافة التى بيننا وبينها في مائتى ألف سنة . كان معنى ذلك أن الشاهد بها إذا ما نظر إلى سطح الأرض اليوم رآها — لا كما تبدو لنا نحن سكانها — ولكن على تلك الصورة الغابرة قبل أن يتمدن الإنسان أيام كان يسكن في الفلوات ، ويعيش على الصيد !

ومع الاستطراد في هذا الشرح الجميل نستطيع أن نفترض وجود نجوم أخرى تكون أقرب إلينا من ذلك النجم البعيد . وأن من بين هـذه النجوم القريبة من إذا تطلع إلى بلادنا رآها في عصر الفراعنة . فإذا كان أقرب من ذلك قليلا رأى عمرو بن العاص وهو يسير بجيشه نحو مصر . ذلك لأن صور ما يقع على ظهر الأرض من أحداث تنطلق في الفضاء فتتلقفها صحف هـذه النجوم واحدة بعد واحدة ، وكل حدث يحدث على سطح الأرض أو في أية بقعة أخرى من بقاع هذا الكون الواسع تنتقل صورته بسرعة الضوء إلى باقى أنحاء الكون لتخبرها بما حدث هناك — في الجانب الآخر من تلك الدار الفسيحة التى يصح فيها — بطبيعة الحال — ما اعتدنا أن نقوله نحن فيما بيننا من أن (رب الدار أعلم بما فيها) . . . .

وما أجمل أن يستشهد الإنسان في هذا المقام بمعنى هذه الآية الكريمة : « قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » . فالآن ، وفي ضوء هـذا العلم الحديث يستطيع أن يصور الإنسان لنفسه إلى حد ما معنى « اللوح المحفوظ » ومعنى أن الله بكل شيء محيط . وأنه وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم .

* * *

تلك هى مدينة النجوم التى نتبع لها شمسنا ، والتى يعرفها الفلكيون باسم (مدينة غاليليو) . نود قبل أن نبرحها انتظار إلى غيرها أن نعمل على تجسيمها في صورة رمزية تمكننا من أن نحتفظ عنهـا في نفوسنا صورة تكون أكثر دقة وأشد وضوحا .

ولنبدأ بالمجموعة الشمسية . وهى الشمس وكواكبها التسعة التى تحيط بها وتدور حولها . فإذا نحن صغرنا هذه

المجموعة ملايين الملايين من المرات . فأصبحت الشمس في حجم كرة القدم . وأصبحت الكواكب في حجم الرمال والحصى . وتصورنا أن الشمس كانت ككرة قدم في وسط ميدان ابراهيم باشا لكانت الأرض كحبة رمل عند درجات فندق (الكونتننتال) . والقمر كحبة أصغر من ذلك تقع على أرض الطريق بجوار الافريز . أما أبعد كواكب هذه المجموعة فيكون كحصاة أخرى تقع عند تمثال نهضة مصر بميدان باب الحديد !

فإذا استعملنا هذا القياس لنعرف أين يقع أقرب نجم لنا بعد الشمس وجدنا أنه يقع في مكان ما عند الإسكندرية . ذلك هو النجم الذي قلنا عن ضوئه إنه يصلنا في نحو أربع سنوات . ولك بعد ذلك أن تتصور أين يقع ذلك النجم الآخر الذي قلنا إن ضوءه لا يصلنا إلا بعد مائتي ألف سنة ! وأن تقدر لنفسك مدى اتساع هذا الكون !

* * *

ولكن الكون ليس هو (مدينة غاليليو) وحدها بنجومها المعروفة لنا والتي استطعنا أن نحصيها إلى حد ما . فقد تمكن الفلكيون بمجاهرهم الحديثة الرائعة أن يفطنوا إلى وجود أكثر من مليوني مدينة نجمية مبعثرة في أجواز الفضاء ، ويصلنا الضوء من أقربها إلينا في ٨٥٠،٠٠٠ (ثمانمائة وخمسين ألف سنة) مما نعدّ . أما البعيدة فقد حسب الفلكيون ما بيننا وبينها من بُعد وقدروه بأربعين مليون سنة ضوئية !

ومعنى ذلك من جديد أننا إذا افترضنا وجود من يستطيع أن يقف هناك لينظر من موضعه ذلك إلى سطح الأرض لرآها اليوم على تلك الصورة البدائية التي لم تكن الحياة قد نشأت فيها بعد . لأن صورة الأرض كما نعرفها نحن اليوم تحتاج إلى أربعين مليون سنة ضوئية حتى تصل إليه !

* * *

وإذا أردنا أن نظل نستعمل طريقة التقريب التي ابتدأناها في هذا المقال . وحاولنا أن نعطي فكرة من المسافات الواسعة التي تقع بين (السدم) أو (المدن النجمية) لوجب علينا أن نبدأ (بمدينة غاليليو) فنتخيل أنها قد تضاءلت في الحجم مليارات المليارات من المرات . فتلاشت الشمس وباقي النجوم وأصبحت المجموعات النجمية في حجم ذرات الدخان . وأصبحت السديمة بحكم هذا التكوين الفرضي الجديد في حجم غمامة بيضاء صغيرة تعلو سطح مدينة القاهرة . حينئذ تكون أقرب سديمة لنا (من المليوني سديمة التي استطاع أن يحصيها الفلكيون حتى اليوم) كغمامة لطيفة أخرى تسبح في جو مدينة (الواسطى) . ولكن لا يفوتنا أن نعلم أن من هذه السدم ما يمعن في البعد عنا حتى ليكون موضعه في هذا المثل الذي اخترناه فوق مدن أوستراليا أو أمريكا الجنوبية !

* * *

بقي علي ختام هذه الكلمة أن نتساءل سؤالا أخيرا :

— ما الذي يمسك هذه (السدم) في الفضاء بنجومها ، وكواكبها ، وتوابعها ؟

وهل هي ثابتة في أماكنها أم متحركة ؟ وإن كانت تتحرك فإلى أين ؟

والجواب الذي حققه الفلكيون رداً على هذا التساؤل : هو أن النجوم يجذب بعضها بعضا كأنها تسبح في شبكة واحدة . وأنها تسبح في الفراغ معرّضة تحت تأثير ملايين من قوى التجاذب المختلفة . وأنها في اندفاعها ذلك تسير بسرعات هائلة تمكن الفلكيون من قياسها . فقالوا عن الشمس مثلا : إنها تسير بسرعة مائتي ميل في الثانية الواحدة . ومعنى ذلك أننا لو فرضنا أن القطار السريع الذي نعرفه نحن هنا على سطح الأرض ضاعف من سرعته عشرة آلاف ضعف وسار في طريقه مندفعا بهذه السرعة الهائلة . وافترضنا بعد ذلك أن الشمس كانت مصباحا في عربة من

عربات ذلك القطار . فإن المجموعة الشمسية تكون كتسع فراشات منها الصغير ومنها الكبير . وفيها القريب من المصباح وفيها البعيد . ولكنها كلها دائبة الدوران من حوله وهو فى سقف تلك العربة التى يندفع بها القطار قدما فى فضاء الله الذى لا حد له !

وكما أن التابع — (كالقمر) مثلا — يدور حول كوكبه . وكما أن الكوكب يدور حول نجمه — كما تفعل الأرض حول الشمس — وكما أن الشمس تدور حول محورها فضلا عن اندفاعها فى الفضاء بتلك القوة التى وصفناها . فكذلك لاحظ الفلكيون أن السدم فضلا عن أنها تدور حول محاورها فإنها تعدو سابحة فى الفراغ بسرعات هائلة . وهى فى اندفاعها هذا يتباعد بعضها من بعض منتشرة فى هذا الفضاء الواسع الذى لا يدرك الذهن البشرى حدوده . فكأنما الكون الذى بدأ محدوداً فى أول أمره على صورة ما من صور التحديد لا يفتأ يزداد نموا واتساعا يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة . فإن مقياس سرعة السديمة فى الساعة الواحدة بلغ فى تقدير بعض الفلكيين ستة وعشرين مليونا من الأميال .

وهكذا يتجلى أيضاً فى ضوء العلم الحديث ذلك المعنى الرائع الذى تنطوى عليه تلك الآية الكريمة : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل شىء حى . أفلا يؤمنون ؟ »

* * *

وبعد : فهذه باقة زاهرة اقتطفتها من ذلك الروض الحافل بكل شائق مطرب من أمثال هذه الحقائق الكونية البديعة التى قدمها الأستاذ صلاح الدين خشبة للقراء باسم « العلم والإيمان » فى كتيب صغير لا يتجاوز حجمه حجم راحة الكف . ولكنه فى مادته المركزة القيمة يحيط بما لا يحيط به المائة ولا الألف !

حسن جبول

عبد الكريم لم ينهزم

كنا فى ذلك الوقت أطفالا لا نستطيع أن ندرك أن هناك ثورة فى شمال مراكش يقودها الزعيم عبد الكريم ضد قوات الشر الاستعمارية ، ولم نكن نعرف معنى سكب الدموع على الوطن المثخن بالجراح بعد هزيمة عبد الكريم . ولست أدرى هل كان ذلك من حسن حظنا أو من سوئه .

بيد أنه إذا كانت ثورة زعيم الريف المراكشى قد انتهت إلى الهزيمة التى عرفها الناس ، بعد خمس من السنين الطوال ، دوخ فيها أعداءه وعلمهم الجزاء الذى يلقاه من ينتهك الحرمات ، إذا كانت ثورته قد انتهت إلى هذه النتيجة ، بعد أن تألبت عليه قوات الشر من كل مكان ، فإن صدى حرب الريف المراكشية ظلت تتردد بعد ذلك سنين طويلة ؟ ولم يكد الزمن يتقدم بنا حتى بدأنا نتبين ما حدث ، وهكذا أسبل الجيل المراكشى الجديد دموعه على هزيمة فرسان مراكش وأبطالها بعد أن انهزموا .

وكنا نعتقد أنها الهزيمة التى تحمل أدق معانى النهاية ، لأن عقولنا الصغيرة لم تكن قد تجاوزت مستوى عقول المستعمرين . ولذلك لم نكن نتصور أن هناك ما يسمى بالقوة المعنوية وأن فى استطاعة هذه القوة أن تتغلب على قوة الحديد والنار .

ولكن ما بال ذكرى الأمير عبد الكريم تلاحقنا فى كل مكان ؟ ما بال أصداء المدافع وأناشيد الأبطال تتردد فى آذاننا بعد أن سكتت المدافع وأسر الأبطال ؟ بل ما بال وجه الأمير عبد الكريم يطالعنا حيثما فتحنا عيوننا وأغمضناها ؟ لقد تغلغل فى ضمير الحياة المراكشية وعلمت ذكراه النشء الجديد فى هذه البلاد أن هناك عزاً قد أهين .

قيل إن لكل شخص بطلا يستوحيه فى الحياة .

أما فى مراكش فقد كان للجيل الجديد جيمه بطل واحد يستوحيه . وهذا البطل هو الأمير عبد الكريم ، وكان الأمير البعيد عنا فارساً من فرسان الأحلام . لم يكن بالنسبة لنا أسيراً فى يد الفرنسيين ، وإنما كان من هؤلاء الفرسان الذين ينزلون من السماء وقد امتطوا البراق ليقودوا الحروب ضد الأشرار والظالمين ، ثم انتهت الحرب وارتفع الفارس مرة أخرى إلى السماء على ظهر البراق . أما وقائع الحرب وأحداثها فكانت أقاصيص تروى فى كل مكان عن الفارس الذى نزل من السماء .

ثم تقدم الزمن بالجيل الجديد ، فبدأت ذكرى عبد الكريم تدفعه إلى العمل بعد أن دفعته إلى التخيل والتفكير . وبدأت الحركة مرة أخرى ، وبدأ الناس يزيحون عن كواهلهم أعباء الذل والمهانة . فغضب الفرنسيون والأسبان ، لأنهم يريدون المراكشيين مهانين أذلاء ، وظهر فى الميدان من صاح فى وجوه الفرنسيين والأسبان (لا) بملء حناجرهم ، وبدأ القمع من جديد ، وسالت الدماء من جديد ، ومن وراء ذلك كله ذكرى الأمير عبد الكريم تشد العزائم وتلهب المشاعر وتستهين بالطغيان .

وغضب الفرنسيون والأسبان فسلطوا سوط عذاب على من أبى ضيمهم ، وأطلقوا النيران ، وضربوا نطاقهم الحديدى ، وأمعنوا فى الإهانة والإذلال ، ولكن المغاربة جميعاً زحزحوا ضيمهم ، واستهزأوا بنيرانهم ومزقوا نطاقهم ولم يذعنوا للإهانة والإذلال . ومن وراء ذلك كله ذكرى الأمير عبد الكريم ، الفارس المراكشى الذى علم المراكشيين أن الحديد يفل الحديد .

كان شياطين الشر يؤمنون بأنهم هزموا عبد الكريم ، ولكنهم غفلوا عن أن القضية التى شهر السيف فى سبيلها غير قابلة لأن تنهزم فى هضاب الريف ، أو تنتهى بمعركة ، أو ترهن بجيش ؛ وإذا كانوا قد أسروا الأبطال فإنهم لم يأسروا القلوب التى فى الصدور والمشاعر التى فى القلوب والنار التى فى الشعور .

* * *

بتنا نؤمن بأن الأمير عبد الكريم لم ينهزم ، ولكن إيماننا كان ذا جانب معنوى ، ولم نكن نتصور أن الأقدار سوف تعمى الأشرار حينما طمعوا فى أن يلعبوا به دوراً ويهددوا به ملكاً ، فينقلونه من منفاه القصى ويمرون به فى قناة السويس ويقفون به فى بور سعيد .

الأمير عبد الكريم فى ميناء الفاروق ! وفى ظلال مصر ! فارس مراكش الصنديد الذى شغل مداركنا وألهب شعورنا وعلمنا أن نرفع رؤوسنا فى ظل الحراب ؛ لقد عاد إلى الأرض الفارس الذى ارتفع إلى السماء ، وإذاً فالأمير عبد الكريم ليس فكرة فحسب ، وإنما إنسان يتحرك ويسعى

وهرعت إلى بور سعيد لأرى مبادئ مجسمة فى رجل ، وصعدت مع إخوانى إلى ظهر الباخرة (كاتومبا) لكى أشبع عينى برؤيته بعد أن أشبع روحى بذكراه ، فما بال المحسوسات قد انهارت حولى كأنى فى أحلام مجردة ؟ إنى أمام عبد الكريم بطل الريف ، فارس الجيل ، وبطلى الأسير . وقد اكتفيت بالوقوف بعيداً لأنظر إليه وهو يجيب على أسئلة الصحفيين فى حزم . وكنت صحفياً ، وحضرت لأداء مهمة صحفية ، ولكننى ظللت حيث أنا أسمع صوته وكأنى فى حلم .

كنت أتأمل وجهه ، ذلك الوجه الذى عجز الزمن والنفى والمرض عن التأثير فيه على مسحة البطولة والفضيلة والشرف .

كانت مسحة الخيال ما تزال عالقة به لأنى كنت أعتقد أنى قابلت الأمير وهو أسير ، ولكننى رأيته بعد ذلك بعينى رأسى ينزل من الباخرة إلى الأرض ، إلى أرض مصر ، موئل الأحرار ، ومعقل العروبة ، فلم أكد أصدق أن صورة من أحلامى تتخطى عالم الأحلام إلى عالم الواقع ،

فلقد كانت تلك المسافة التي قطعها القائد الكبير بين الباخرة والميناء بمثابة قنطرة تربط بين ماض انتهى ومستقبل ابتدأ .

وأمعنت الأحلام إغراقاً في الحقائق ، فإذا بي أرى فارس مراكش يركب السيارة من بور سعيد إلى القاهرة ، ثم زادت إغراقاً حينما رأيت عشرات من شبان المغرب يستقبلونه عند باب مكتب المغرب العربي وهم ينشدون نشيد الحرب القديم ، وكأنهم ينشدون صوت الحقيقة الجـــديدة .

طالما استعبدوا وأذلوا الرقاب
أيهـــا الأمير جاء يوم الحساب

وازدحم أبناء المغرب العربي في مكتب المغرب العربي حول فارس مراكش العظيم ، وهم ينشدون ويخطبون ، ولا يكادون يصدقون أن بطل الجبل قد أصبح حراً في رحاب مصر وحمى جلالة الفاروق .

* * *

ولكنني بالرغم من كل هـذا لم أستطع أن ألمس حقائق الأحلام في تلك الفترة العابرة الخطيرة من تاريخ مراكش في مصر ، لأن بطل الريف انتقل إلى قصر أنشاص ضيفاً على جلالة ملك مصر العظيم ، ولم أتمكن من ذلك إلا في مدينة الإسكندرية حينما انتقـل الأمير إليها للاستشفاء .

من هو الأمير عبد الكريم ؟ إن الأيام لتساعد الخيال على أن يزيد في عظمة الرجال العظماء ، كلما بعدوا عنا زماناً أو مكاناً ، ولقد قضيت ساعات طوالا أستمع فيهـا إلى أحاديث الأمير ، فكانت كل لحظة من تلك الساعات تزيدني إيماناً بأنني كنت عاجزاً عن أن أتصوره على حقيقته ، بالرغم من المساعدة التي قدمها إلى خيالي . لم أكن في حاجة إلى أن أنتسب إلى مراكش أو إلى البلاد العربية لكي أقدره ، فإن مجرد انتسابي إلى الإنسانية كاف لأن يدفعني إلى ذلك ، بعد أن سمعته يروي حوادث الحرب والسياسة ، وموقف بلاد المغرب العربي وموقف مراكش ، وكأنه أشد أبناء هذه البلاد اتصالا بها خلال ربع القرن الأخير .

ويكفي أن نقول إن الظروف الحاضرة ما تزال قاصرة من أن تدرك عمق النظريات التي يعتنقها ، لسبب بسيط هو أن وضعية العالم الآن قد جمعت أفكار الناس وجعلتهم يفكرون على أسس لا يقرها المنطق المجرد الذي يأبى الأمير إلا أن يتشبث به ؛ وإن هذه الظروف لأضيق من أن تسمح بإذاعة تلك الأفكار الآن .

لقد كان بطل الريف الذي كنت أتصوره يتحلى بما يتحلى به فرسان الأساطير من صفات ؛ أما بطل الريف الذي رأيته وتحدثت إليه فهو فوق ذلك . كان يتتبع تمام التتبع الظروف التي تغيرت خلال المدة التي قضاها في المنفى وهو مؤمن بقضية بلاده وبقضية العروبة أكثر من أي وقت مضى ، ولم تستطع قسوة المنفى أن تؤثر عليه في ذلك ، كما لو كان قد استمر يكسب المعارك منذ عشرين سنة إلى الآن ، وهو على استعداد لأن يبذل في سبيل قضية العروبة وقضية بلاده فوق كل ما بذله إلى الآن .

* * *

وهكذا سكب الجيل السالف دموعه لانهزام عبد الكريم ، بعد أن تضافر عليه الأسبان والفرنسيون . وإنه لمن حسن الحظ أن الجيل الجديد في مراكش لم يتمكن من أن يسكب الدموع أو ما كان يسمى بالهزيمة يومئذ ، ولم تكن هناك هزيمة مطلقاً . لم ينهزم عبد الكريم لأن الفكرة التي أطلق النار في سبيل الدفاع عنها غير قابلة لأن تنهزم ، ولم يبارحه هو نفسه الأمل بالرغم من قسوة المنفى أبداً .

إن المعركة التي بدأت في مراكش سنة ١٩١٢ عند فرض الحماية عليها ما تزال مستمرة إلى الآن ، ولن تنتهي إلا إذا رفعت عنها هذه الحماية الباغية ، ولقد حسر الأمير

٢ - حق الممثل على الأديب

التمثيل في المسرح أو أمام (الكاميرا) قطعة من التاريخ لا أكثر ولا أقل، وكل ما في الأمر أنها حدثت في وقت واحد متصل الفترات. وإذا كانت حوادث التاريخ تسير على تسلسل يؤيده الواقع، فتخرج في شكل حلقات رتبها المنطق المألوف، فإن مشاهد المسرحية أو السينمائية يجب أن تكون صورة من التاريخ.

إن الفطرة يستحيل عليها الخطأ، ولكن الصنعة — وهي ترادف التكلف — هي التي تخطئ، فمن الخير أن يلبي المخرج دعوة كل منظر، ويخضع لرغبته. لأنها رغبة الطبيعة، ولا أنكر أن طرفاً كبيراً من هذا التكلف يعود إلى فقر في الرؤوس المبتكرة، والوجوه الجديدة التي تنادي بها القصة، ثم إلى تملق الجمهور واغتصاب إعجابه من طريق عرض الأجسام الصريحة.

أما فقر الرؤوس فيظهر في هذا الضروب المشترك الذي يشغل كل فلم عربي، وهو حفلة «عيد ميلاده» — والضمير هنا للممثل الأول — وحفلة عيد ميلاده هي في الحقيقة فترة تشغل الجمهور حتى يستجم هذا الرأس الفارغ ليفكر في سخف جديد يضيفه إلى سابقه.

وفي هذا الضروب المشترك — وهو حفلة عيد ميلاده — تنفك الأزمة: أزمة العيون العطشى، وهل يمكن أن تستقيم حفلة كهذه دون راقصة؟ والرقص والنحت فنان جميلان، ولكن النحت فن صامت، والرقص فن ناطق، فلتتحدث الأجسام في الرقص كما شاءت، وكما يطلب الجمهور الذي يعرف منه المخرج ذلك.

ومسألة عرض الأجسام أصبحت ملح الطعام في كل فلم عربي. ومع هذا فإني أطلع قوى بعد أن سبقت هوليود في هذا المضمار، ولا سيما في الموسم الماضي، فقد أطعمت العيون في فلمين لم تشأ أن تضع فيهما هذا الملح بمقدار، ولكنها قدمت الملح نفسه في كل أطباق المائدة. وقد احتالوا لذلك بموضوع العرض نفسه فهو «السباحات» و«هكذا الحب».

والفتى الأول في كل تمثيلية عربية لا يؤمن بأن الأرض تدور حول الشمس، وأن سنه تتقدم كلما أتمت الأرض هذه الدورة، فهو دائما في الخامسة والعشرين من عمره لا يتزحزح عنها. وهو دائما نضر الشباب مورق العود. وصحيح أن الجسم الرياضي يستطيع أحياناً أن يخدع العين،

عبد الكريم سنة ١٩٢٦ إحدى المعارك التي نشبت في سبيل الدفاع من هذه القضية، ولم يخسر هذه المعركة تماما لأن قلبه الكبير ظل حيا في المنفى؛ وفهم أعداؤه أنه انهزم لأنهم كانوا أقصر نظراً من أن يدركوا حقيقة روح المقاومة في هذه البلاد. تلك الروح المستمدة من الروح العربية التي لا تدرك الحياة معنى دون حرية ولا كرامة.

لم ينهزم زعيم الريف المراكشي حينما كان فارساً من فرسان الخيال، لأنه ظل ذكرى تهمس في ضمير الشعب المراكشي؛ ثم لم ينهزم عبد الكريم القائد الذي يجسم الواقع، لأن جلالة الملك فاروق استطاع أن ينقذ المراكشيين من الهزيمة الحربية حينما أجار الأمير عبد الكريم. لقد كانت المدة التي قضاها الأمير في المنفى فترة بين معركتين، وكانت الهزيمة السادية أن تحيق بالمراكشيين، وظلوا مهددين بها أكثر من عشرين عاما، فإذا بالملك فاروق ينقذ الجيش المراكشي المنهزم، ويمكن أبطال الماضي من أن يعودوا إلى الميدان.

ولسوف تنتصر مراكش، وتنصرف إلى بناء كيانها، ولكنها لن تنسى أبداً فضل مصر وفضل الفاروق.

عبد الحميد بن عبدون

ولكن الصنعة مهما بلغت من التجويد لا يمكن أن تخدعها في رقم يزيد على عشر سنوات ، فقد نرى ابن الأربعين فنحسبه ابن الثلاثين إذا كان له نصيب من الوراثة ، أو النهاج الصحي له أثر في تكوين الجسم وبعث الحياة الفتية فيه .

أما الذي ترفضه العقول — حتى عقول البلهاء — فهو ابن الثانية والخمسين حين يصر إصراراً غريباً يبعث على الضحك بأنه أتم دراسته الجامعية منذ عهد قريب ، وأنه يعتزم السفر إلى أوربا لمواصلة هذه الدراسة ؛ ثم يعود من هذه الرحلة فإذا استقرت به الحياة ، أخذ والده يحثه على الزواج ، ولكنه يؤجل هـذه الرغبة عند والده لأن سنه مازالت صغيرة ، وما زال الفتى في صبح شبابه ، فهو إذا تزوج في هذه السن فإنما يتعجل الأشياء قبل أوانها .

صاحبنا إذاً رابض في هـذه الروضة : روضة العشرين والخمس ، وهو لهذا يدفع كل شاب يحمل في يده ورقة ميلاده من أن يأخذ الدور الأول في التمثيلية . ومن هنا تأتي مشكلة الوجوه الجديدة ، لأن كل دور له سنه التي تناسبه . ومن هنا ينشأ اضطراب القصة ، لأن كاتب السوق في كثير من الأحيان تفرض عليه شخوصها أولاً ، وظروف القصة ومواقفها وأحداثها خاضعة لأسماء هـذه الشخوص لا لصفاتها ، والموت مضمون لأمثال هذه القصة ، وعبثاً يحاول الكاتب أن يلقي بالحوار بين ذواتها ليبعث فيها الحياة ، ولكنها تموت في يديه .

ولا يعنينا من هذه النواحي الفنية التي يضطلع بهـا القائمون على التمثيل السينمائي غير فكرة القصة ، ووضع حوارها وأغانيها ، بعد أن أصبحت معارض الصور المتحركة أشبه ما تكون بمعاهد التعليم ، ودور الثقافة ، بل إنها أبعد أثراً في توجيه المجتمع ورياضته من الناحيـة الاجتماعية .

وإذا كان للحكومة حق الإشراف على توجيه الثقافة ، والقيامة على كل مؤسسة تتصدى لتربية الشعب — فإني لشديد العجب حين تترك الدولة هـذه المدارس الشعبية تضرب وحدها على غير هدى . وفي استطاعتها بيسير من التوجيه والإرشاد أن تستغلها لصالح الأمة دون تعسف أو إرهاق للقائمين على التمثيل .

إن هدف القصة ، وتأليف الحوار ، ووضع الأغاني فرص ثمينة يستطيع الرجل المثقف فيها أن يقول للناس كل ما يريد ، وأن يبث لهم في تضاعيفها ألواناً من أوضاع المجتمع ، وفنوناً من الأدب والتاريخ والوطنية والثقافة العامة ؛ ويستطيع في نفس الوقت أن يهيء الفرصة لاستجمام النفس بما يسوق من النوادر والمحاورات التي تهيء للناس نعمة الابتسام أو الضحك . وأنا شديد الإيمان بأن عقل الجمهور يقبل كل معنى — مهما كان دقيقاً — من المعاني التي تمس المجتمع والدين والتربية الشعبية ما دام الحوار قد حشدت له الأدوات التي تعين على الفهم ويسر الإفادة .

والواقع أن ظهور الفلم العربي في صورته اليوم يزيدنا يقيناً بأن زمام الثقافة في مصر والشرق العربي ، يوشك أن يفلت من أيدي رجال الفكر بعد أن أصبحت قيادة السواد في الأقطار العربية موكولة إلى هذه الطائفة التي تقوم على شئون التمثيل السينمائي . وهي ليست من النضج الفكري أو الخبرة بأحوال المجتمع وحسن الفهم للحياة — بالقدر الذي يؤهلها لهذه القيادة الخطيرة ، وستكون جهود المشرفين على الثقافة ضئيلة الأثر ، محدودة النفع ، ما لم يضموا أيديهم على القصة السينمائية في كل ما يمس اللغة والاجتماع من قريب أو بعيد .

ومع أن شركات الإخراج السينمائي مطبوعة على الأثرة والميل إلى الاستبداد في هذه الصناعة — فإني أعتقد أنها ترحب بكل إشراف مثمر من جانب الحكومة . ومن واجب الهيئات الثقافية الرسمية أن تحشد للنهضة بهـذه الصناعة نفراً من أعيان الكتاب والمتمرسين في دراسة المجتمع ، وأن تمد لتأليف القصة وما يتصل بها من الحوار والأغاني ما تؤدي به رسالتها المرجوة .

وللدولة في أشباه هـذا الميدان وسائل من التشجيع بالمكافآت المادية والأدبية .

والقصة السينمائية أولى مدارس التثقيف بهذا التشجيع لأنها مدرسة الشعب ، وتكاد تستوعب جميع طبقاته على اختلاف حظوظها في الثقافة . وحاجة الأمة إلى رفع مستوى السواد فيها أعظم منها إلى الإسراف في تثقيف الخاصة ، وتدليلها بألوان من الترف العقلي والوجداني يأتي عادة في الرتبة الثانية في حياة الشعوب الفكرية .

تدعيم القصة في معارض الصور المتحركة لا يرفع فقط مستوى الحياة عند الأمة ، ولكنه يربي في أبنائها ملكة النقد التي تبينهم على التقصي والدرس ، وتنبذ الثقافة التي لا يلائم عبقرية الخلق الفني . وإذا أصبح سواد الشعب ناقداً بصيراً بأوضاع الحياة الاجتماعية يعرف الجيد منها والردئ ، كان أكبر قوة ترهب كل عمل فني ضعيف ، وتقتل كل محاولة أدبية يراد بها التدليس على الجمهور .

أغانينا في معارض الصور المتحركة — ليست ضعيفة في موضوعها فحسب — ولكنها ضعيفة أيضاً في كل مقوماتها الفنية : فالمعاني تافهة زائفة رخيصة ، وصورتها البلاغية ميتة لا حياة فيها ، حتى اللحن نفسه لتشيع فيه نبرة الألم الخافت المكذوب ، والصنعة واضحة في التنغيم والإيقاع ، والصلة مقطوعة بين اللحن والقلب ؛ وإذا كانت الأغنية — قبل التلحين — هي هبة القلب الصامت فإنها بعده هبة القلب المتحدث الذي يضع كل ما يحمل من المعاني الشعورية في تضاعيف اللحن وبين ثنايا التنغيم .

من شيوخ الملحنين نخبة قوية الإحساس المرهف والشعور اللماح ، استطاعت أن تصور عاطفة الشرق في طائفة من الأغاني ، ولكنها قلة يزحمها في السوق أدعياء على التلحين ؛ وقد يخفق اللحن الجيد بعد الغناء لأنه صادف حنجرة ذات صوت جميل يحملها تمثال من الشمع ليست له ثقافة روحية تساعده على الاندماج في خواطر اللحن ، والاتصال بخلجات النفوس . وغير صحيح أن الأغنية تأليف ولحن وغناء ، ولكنها مواقف مشتركة في هذه المراتب يجب أن يتحد فيها التصوير ، وتلتقي فيها وحدة التعبير . والفنى ذو العاطفة الأمية يصبح حرباً على التأليف والتلحين مهما بلغا من الجمال الفني لأن عامية الوجدان عنده لا تهيء له الاندماج في الوحدة الشعورية التي تعتبر أساساً لكل أغنية .

لو قدر لك أن تشاهد شريطاً عربياً في معارض الصور المتحركة ، لرأيتك من غير قصد توجه إلى نفسك هذه الأسئلة :

إلى أي شيء ترمي هذه المشاهد التي لا تجمعها وحدة أو يؤلف بينها هدف ؟

أيمكن أن يصل الإنتاج إلى هذا الحد فيعجز عن ملاحظة الانسجام وتسلسل الحوادث في صورة تفطن لها (جدتنا) حين كانت تلقي لنا الحكايات والأقاصيص ؟

ماذا أدى الرقيب من مساعدة إذا كان لم يظهر له أثر من إرشاد أو توجيه .

أما الرقيب فعمله إداري ، وهو لا يجري غير الحذف أو التعديل في المواطن التي تغضب السياسة ، أو تهدد الأمن أو تستطيل على التقاليد .

والحق أن إعداد القصة السينمائية إعداداً فنيا ليس من واجب الرقيب ، ولكنه حق المثل على الأديب .

علي شرف الدين

قصة الأسبوع

حياة الأم باركر

قصة للكاتبة الانجليزية كاترين مانسفيلد

[تعد كاترين مانسفيلد الروائية الإنجليزية من كبار كتاب القصة القصيرة . ولها أسلوبها الخاص وطريقتها البديعة في كتابة القصة ، فإنها تربط الماضي بالحاضر حتى ليشعر القارئ أنه يعيش مع أبطال قصتها أزمنة مختلفة في وقت واحد . وقصة « حياة الأم باركر » مثال لذلك الأسلوب الرفيع الفذ] . المترجم

عند ما فتح السيد الأديب باب منزله في ذلك اليوم للأم باركر — وكانت تنظف له المنزل يوم الثلاثاء من كل أسبوع — سألها عن حال حفيدها . ووقفت الأم باركر على العتبة داخل البهو الصغير المظلم ، ومدت يدها تساعد السيد في إقفال الباب ، قبل أن تجيب في صوت هادئ :

— لقد دفناه البارحة ياسيدى .

فقال السيد في صوت الشـدوه : أوه .. إنى لآسف لسماعى ذلك الخبر .

كان لا يزال يتناول طعام إفطاره ، وقد ارتدى رداءً رثاً ، وحمل في يده صحيفة إخبارية مهلهلة ، ووقف واجماً ، وشعر بأنه لا يمكنه أن يعود ثانية إلى غرفة الجلوس الدافئة دون أن يقول شيئاً — شيئاً يضيفه إلى ما قاله .

فقال في صوت الشفق :

— أرجو أن تكون الجنازة قد انتهت على ما يرام .

وقالت الأم باركر بصوت أجش : أرجو المعذرة ياسيدى .

يا للعجوز المسكينة ! إن منظرها يدل على أنها قد صدمت صدمة قوية . فقال :

— أرجو أن تكون الجنازة قد تمت .. بنجاح .

ولم تفه الأم باركر بأى جواب . وأحنت رأسها ، ثم خرجت نحو المطبخ ، وقد أمسكت بحقيبتها التى تحوى أدوات التنظيف وفوطة الصدر وزوج الأحذية الخفيفة . ورفع السيد حاجبيه ، ثم عاد ثانية إلى إفطاره .

* * *

وجذبت الأم باركر الدبوسين الأسودين من قبعتها ! وتناولتها ورداءها وعلقتهما خلف الباب ، ثم ربطت الفوطة على صدرها ، وأخيراً جلست تنزع حذاءها .

كم كانت تشعر بالألم عنـد خلعها ذلك الحذاء .. الألم الذى لازمها طوال السنين . وفي الحق لقد اعتادت ذلك حتى إن وجهها كان ينقلص توقعاً للألم قبل أن تحل رباط الحذاء . وعند ما انتهت تنهدت وجعلت تدلك ساقيها .

* * *

— جدتى ! .. جدتى !

كان حفيدها الصغير يقف على حجرها بحذائه المربوطين ، لقد قدم من الخارج بعد أن انتهى من اللعب .

— انظر ما الذى عملته في رداء جدتك .. أيها الطفل الشقى

ولكنه كان يلف ذراعيه حول عنقها ، ويدلك خدها في خده متملقا وهو يقول :

— جدتى .. أعطنا بنساً .

— اذهب .. جدتك لا تملك فلساً .

— بل تملك .

— لا .. لا يوجد معى .

وكان يقول لها : « نعم ، معك .. أعطنا واحداً » وهى تعبث في كيس نقودها الجلدى .

— حسناً ، وما الذى تعطيه لجدتك في مقابل ذلك ؟

وانفلتت منه ضحكة خجل ثم ضمها إليـه . وشعرت بجفونه ترتعش على وجنتها ، وهو يتمتم قائلا :

— لا يوجد عندى ما أعطيه لك .

* * *

وهبت العجوز واقفة ، وأمسكت بالإبريق الحديدي القائم على الموقد الناري ، ثم ألقت به في الحوض ، وخيل إليها أن خرير الماء المتساقط قد خفف من شعور الألم الذي انتابها ، وملأت الدلو بوعاء التنظيف .

إنه ليستغرق منها كتاباً بأكمله إذا ما أرادت وصف حال ذلك المطبخ . لقد كان السيد يعمل أثناء الأسبوع كل شيء بنفسه . وكان في كل مرة يفرغ بقايا الشاي في علبة من علب المربى الفارغة ، وكان إذا تهرب من تنظيف الشوك لا يتورع من مسح واحدة أو اثنتين منها في المنشفة . إن « طريقته » — كما شرحها لأصدقائه — كانت غاية في البساطة . ولا يدري لماذا يولي الناس كل هذا الاهتمام النظافة المنزلية . وكان يقول : « إن أبسط ما يمكن عمله هو أن تستعمل كل ما يمكنك استعماله ثم تتركه وسخاً ، ثم تستحضر عجوزاً تنظف كل ذلك مرة في الأسبوع . وهكذا يتم التنظيف » .

وكنت ترى نتيجة لذلك أكواماً هائلة من النفايات ملقاة هنا وهناك . وحتى الأرض لم تسلم من فضلات الخبز والأوراق المهملة وأعقاب اللفافات . ولكن الأم باركر كانت لا تحمل له أية ضغينة ، فلقد كانت تشفق على السيد الشاب لعدم وجود من يعتني به .

* * *

وجعلت الأم باركر تمسح الأرض وقد تركت الماء على النار حتى يسخن . وانتابتها الأفكار وهي تدفع بالمكنسة أمامها : « نعم ، لقد أخذت نصيبي من كل شيء ، لقد كانت حياة شاقة » . . حتى جيرانها ، كانوا يتحدثون عن ذلك ، وكثيراً ما كانت تسمعهم يقولون : « إن الأم باركر تحيا حياة شاقة » . . وكان ذلك حقيقة لا يمكنها أن تفخر بها . . كانت حقاً حياة شاقة .

* * *

لقد رحلت من ستارتفورد في سن السادسة عشرة قاصدة لندن لتعمل كخادمة في مطبخ . نعم لقد ولدت في ستارتفورد . ولم يبق في ذاكرتها من بلدتها إلا النزر اليسير . إنها تذكر جلوسها « بجانب ذلك الموقد كل مساء حيث تمكن رؤية النجوم من خلال المدخنة » وتذكر كيف كانت أمها تحتفظ دائماً بقطعة من اللحم المجفف مدلاة من السقف ، وتذكر تلك الغابة أمام الدار وكانت تفوح منها الروائح الذكية . إنها ذكرى مبهمة لم تخطر لها إلا مرة أو اثنتين أثناء عملها بالمستشفى ، وكان أول مكان عملت فيه عند قدومها إلى المدينة . لقد كان مكاناً مروعاً . ولم يكن يسمح لها بالخروج ولا بالصعود إلى الطابق العلوي إلا عند الصلاة في الصباح والمساء . كان مقرها حجرة الخزين ، وكانت الطاهية امرأة قاسية . لقد اعتادت أن تختطف منها رسائلها الواردة من أهلها وتلقي بها في النار لأن تلك الخطابات كانت تجعلها كالحالمة .

وعندما تركت تلك الطاهية ، ذهبت لتساعد في خدمة طبيب وتزوجت بعد سنتين وهي تعمل هناك ليل نهار وكان زوجها خبازاً .

إنها لتذكر كيف كان السيد الأديب يحدثها عن زوجها . وكيف كان يضع المجلات جانباً ، يصغي إلى حديثها ثم يقول : أظنك سعيدة بزوجك من هذا الخباز ؟

ولم يظهر على مسز باركر أنها واثقة من ذلك .

ثم يقول : إنها تجارة نظيفة .

وكانت إذا سمعت ذلك لا يظهر عليها أنها مقتنعة بما يقول :

فيسألها : ألا يعجبك أن تمسكي بالخبز الطازج لتسلميه إلى الزبائن ؟

فتقول : إني لم أكن أغشى الحانوت كثيراً ياسيدي ، لقد كان عندنا ثلاثة عشر طفلاً ، دفنا منهم سبعة . ولقد كنت تراني في العيادة إن لم تجدني في المستشفى .

فيجيب السيد وقد عرته رجفة ، ممسكاً بالقلم ليعاود الكتابة :

— إنك على حق يامسز باركر .

نعم ، صبية رحلوا ، وظل الستة الآخرون في عنايتها ، ثم انتاب زوجها مرض السل والأطفال لما يزالوا صغاراً . وكان سبب ذلك هو الدقيق الذي استنشقه في رئتيه . لقد أخبرها الطبيب بذلك وهو يفحص زوجها ، وكان جالساً في الفراش وقد رفع قميصه إلى أعلى رأسه . ورسم الطبيب دائرة على ظهره وقال « إننا إذا قطعنا قطعاً في هـذه البقعة وفتحنا عما تحتها وجدنا رئتيه وقد تراكم عليهما مقدار كبير من المسحوق الأبيض ، تنفس أيها الرفيق » . . ولا تدري مسز باركر أكان ما شاهدته حقيقة أم مجرد خيال ! لقد رأت ذرات كثيرة من الغبار الأبيض تخرج من بين شفتي زوجها المريض .

لقد جاهدت وناضلت في سبيل تربية هؤلاء الأطفال الستة . وما كان أشق ذلك عليها . ثم أصبحوا كباراً قادرين على الذهاب إلى المدارس لتلقي العلم ، فقدمت أخت زوجها لتقيم معهم وتساعدهم ، ولم يمض عليها أكثر من شهرين حتى سقطت من السلم وأصيب عمودها الفقري . ثم ضلت الصغيرة مود طريق الرشاد فهربت وأخذت معها أختها إيثيل . وهكذا ابتدأ الأولاد يرحلون ، فجيم ذهب إلى الهند مع الجيش ، وإيثل تزوجت خادماً لا يصلح لشيء ، خلف الدنيا من مرض ألم به في السنة التي ولدت فيها لبي . والآن . . لبي الصغير . . حفيدي .

وكانت قد غسلت أكوام الأقداح القذرة والأطباق المتسخة ونشفتها . ثم مسحت المائدة ونظفت الحوض من القاذورات التي كانت تغطيه .

لم يكن طفلاً قوياً منذ ولادته . لقد كان من أولئك الأطفال الجميلين ، فكان كل من رآه يحسب أنه فتاة ، لها جدائل فضية جميلة ، وعينان زرقاوان . وكان همها هي وإيثل أن يقوما على تربية هذا الطفل . وكانت إيثل تقرأ لها

بصوت مرتفع في صباح كل أحد ، فتستمع إليها وهي تقوم بالغسل :

« سيدي العزيز : إن صغيرتي مرتل كانت على وشك الموت منذ ولادتها . ولكن بعد استعمالها أربع قوارير من . . زاد وزنها أربعة أرطال في تسعة أسابيع . . وهي الآن لا تزال مواظبة على استعماله . . »

* * *

وعندئذ تخرج المحبرة ، وتكتب الرسالة ، وتشتري الأم باركر إذن البريد وهي في طريقها إلى عملها صباح اليوم التالي . ولكن ، كان كل هذا بلا فائدة . ولم ينفع الصغير شيء . لقد حملته إلى المقبرة . ولم يفده دواء ، ولم يجده التمريض .

ولكنه كان طفلها منذ ولادته .

وكانت تقول له — ابن من أنت ؟

ورفعت قدميها من فوق الموقد ثم ذهبت إلى النافذة . وخيل إليها أنها تسمع ذلك الصوت الصغير يهتف بها ، صوتاً حاراً واضحاً يكاد يخنقها وكأنه صادر من قلبها في صدرها . صوتاً ضاحكاً يقول — أنا ابن جدتي .

وسمعت في تلك اللحظة وقع أقدام ، ثم ظهر السيد الأديب وقد تهيأ للخروج .

— مسز باركر . . إني خارج

— حسناً ياسيدي .

— وستجدين قطعة النقود بجانب المحبرة .

— شكراً ياسيدي .

وقال السيد الأديب بسرعة : على فكرة . . ألم تلق بعض الكاكاو في آخر مرة كنت فيها هنا ؟

— لا ياسيدي

فقال بصوت جهوري : غريب جداً . أكاد أقسم بأني تركت ملء ملعقة شاي من الكاكاو في العلبة .

يجب أن تحترمي دائماً عندما تتقين بمثل هذه الأشياء . أليس كذلك يامستر باركر ؟

ثم ذهب مسروراً من نفسه وقد اقتنع بأنه أبدى إليها أنه يحق تحت عدم مبالاته الظاهرة بقطة كفطنة المرأة .

وسمعت صوت الباب وهو يصفق . ثم أخذت أدواتها إلى غرفة النوم . ولكنها عندما ابتدأت ترتب الفراش وتنظمه ، وجدت أن أفكارها تعود بها إلى ليلى . وشعرت بأنها أصبحت لا تحتمل مثل هذا التفكير . لماذا كتب عليها أن تتعذب كل هذا العذاب ! ولماذا كتب على طفل صغير كذلك أن يطلب التنفس ويجاهد في سبيله ؟ إنها لا تجد معنى في تألم الطفل كل هذا الألم .

وكان يخرج من صدر ليلى الصغير صوت كصوت مرجل يغلى ، صوت حشرجة في صدره لا يمكنه التخلص منها . وعندما كان يسعل ، كان العرق يتساقط من جبينه وعيناه تجحظان ، ويداه تنقبضان ، والحشرجة تتلاعب في صدره تلاعب قطعة البطاطس في الوعاء فوق النار .

وكان مايحز في نفسها أكثر من غيره هو عندما تراه وقد تركته نوبة السعال . كان يجلس وقد اضطجع على الوسادة لا يتكلم أو يتظاهر بالاستماع . ثم ينظر إليها كأنها هي التي هزهزت جسمه .

فكانت تقول له : إن هذا ليس من فعل جدتك يا حبيبي .

ثم ترفع له شعره الندى من فوق أذنيه . ولكنه كان يحرك رأسه ويبعدها عنه ، كأنها هي سبب مرضه . ثم ينظر إليها من كل جانب كأنه لا يصدق أنها جدته وأخيراً . . .

وقذفت الأم باركر بما تحمله على الفراش . لا . . إنه لا يمكنها أن تفكر في كل ذلك بمثل هذه البساطة . إن هذا لكثير عليها . . لقد كان عليها أن تحتمل كل ما صادفها في الحياة . ولكنها الآن قد نامت بذلك الحزن

لقد كانت دائماً تحتفظ بشجاعتها ، ولم تقع عليها عين أحد وهي باكية . لم يرها أي مخلوق وهي تبكي . حتى أولادها لم يشاهدوها في يوم ما وقد ظهر عليها الوهن والتخاذل . لقد كانت تحتفظ دائماً بوجه كله كبرياء وتجلد . ولكنها وقد رحل ليلى . ما الذي بقي لها ؟ لم يبق لها شيء . لقد كان هو كل ما تبقى لها من الحياة . . وهاهو ذا قد اختطف منها . لماذا يحدث لها كل ذلك ؟ وسألت نفسها : ما الذي عملته في دنياها . . ما الذي عملته ؟

وعندما تفوهت بهذه الكلمات شعرت بنفسها تلقي فجأة بما في يدها ، ثم إذا بها في المطبخ . لقد كانت في حالة يرثى لها ، حين ثبتت قبعتها على رأسها ، وارتدت رداءها ، وخرجت من المنزل كشخص سائر وهو يحلم . ولم تدر ما الذي تفعله . إنها كانت كمن يترنح من فظاعة ماحدث له ، فهو يسير مبتعداً . . إلى أي مكان ، يسير محاولا أن يهرب من . . .

* * *

وكان الجو في الشارع بارداً ، والريح تهب كالثلج ، والناس غادون رائحون دون أن يلقوا بالا إليها . ولماذا يهتمون بها حتى لو تحادثت ؟

وشعرت بالرغبة في البكاء . ثم خيل إليها أنها ترى صغيرها ليلى وقد قفز بين ذراعيها . . . فزاهي جدته . إن هذا ماتود جدتك أن تفعله ياصغيري . إن جدتك تريد أن تبكي . آه لو أمكنها البكاء ، الآن ، البكاء مدة طويلة على كل شيء ، على كل ما مر بها منذ أن تركت الطاهية القاسية ، ثم منذ دخلت منزل ذلك الطبيب ، ثم أولادها السبعة الصغار ، وموت زوجها ، وهجر الأولاد لها ، وكل سنى البؤس التي أوصلتها إلى ليلى . إنها إن أرادت أن تبكي على كل ذلك لاستغرق منها زمناً طويلا . على كل حال ، لقد حان وقت البكاء ، ويجب عليها أن تبكي . إنها لا يمكنها أن تكبت ما في صدرها مدة أكثر من ذلك ، ولا تقدر على الانتظار . . أين يمكنها أن تذهب ؟

« لقد كانت حياة الأم بار كر حياة شاقة » . . نعم ، كانت شاقة حقاً .

وابتدأ ذقنها يرتعش . إنه ليس لديها وقت تضيعه . ولكن . . أين ؟ أين ؟

إنه لا يمكنها أن تذهب إلى المنزل فإن إل هناك وقد يخيفهاذلك . ولا يمكنها أن تجلس على مقعد في أي مكان ، فقد يسألها الناس عن سبب بكائها . وليس لها حق البكاء في بيوت الغرباء .

ألا يوجد مكان يمكنها فيه أن تنزوي وتنطوي على نفسها ، ثم تبكي ما شاء لها البكاء دون أن يزعجها أحد ؟ ألا يوجد مكان في هذا العالم يمكنها فيه أن تترك لدموعها العنان ؟

ووقفت الأم باركر تنظر هنا وهناك . وفجأة ، اشتدت الريح وتلاعبت بثيابها . ثم ابتدأ المطر يهطل .

وفي لحظة كان المكان مقفراً .

فتحى عبد الوهاب

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى

تليفون — ٤٢٦٦٩

القاهرة

أنباء وآراء

شيء من نفسك !

قدم أعرابي إلى عتبة بن أبي سفيان بظلامة له ، وكان رث الهيئة ، وكأنه هان في عين عتبة فقال له : إني أراك أعرابياً جافياً ، والله ما أحسبك تدري كم تصلي في كل يوم وليلة ! فقال له الأعرابي : أرأيت إن أنبأتك ذلك أتجعل لي عليك مسألة ؟ قال : نعم . قال الأعرابي :

إن الصلاة أربع وأربع ثم ثلاث بعدهن أربع
ثم صلاة الفجر لا تضيع

فقال عتبة : صدقت ، فاسأل ! فقال : كم فقار ظهرك ؟ فقال : لا أدري ! فقال : أفتحكم بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك !

وأنت — أرشدك الله — لو كنت مكان عتبة فهل يسعك أن تجيب إلا بمثل ما أجاب به بالنفي ، إلا إن كنت ذا علم بالطب وتجربة . وأما أنا فوالله لأخبرنك بشيء من نفسك وقفت عليه فيه عجب وطرافة .

فلو كنت رجلا عاديا قد بلغت الرابعة والخمسين من عمرك كنت قد أنفقت ثمانية عشر عاماً وسبعة أشهر نوماً ! وخمسة عشر عاماً وخمسة أشهر عملا وكدا ! وثمانية أعوام بين لهو وعبادة ! وخمسة أعوام قد قضيتها في أكلك وشربك ! وخمسة أعوام أخرى تضرب فيها في الأرض سعياً على قدميك ! وعامين في لبسك ثوبك وفي خلعه !

فهذا على الجملة .

وأما أنت في اليوم الواحد فيضرب قلبك ١٠٣٫٣٨٩ ضربة ! ويجري دمك في مسالكه ١٦٨ مليون ميل ! وأنت تتنفس ٢٣٫٠٤٠ مرة ! ومقدار حجم الهواء جميعاً الذي يملأ فراغ صدرك فيها ٤٣٨ قدماً مكعبة ! وتأكل في المتوسط ثلاثة أرطال وربع رطل من الطعام ! وتشرب رطلين وتسعة أعشار رطل من السائل . وتكون قد تكلمت ٤٫٨٠٠ كلمة ! وحركت ليومك ٧٥٠ عضلة رئيسية ! ونما ظفرك بمقدار ٠٫٠٠٠٠٤٦ من البوصة ! وكذلك شعرك بمقدار ٠٫٠١٧١٤ من البوصة ! ولقد أكددت من عقلك ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ خلية !

وأنت بعد ذلك الجرم الصغير من العالم الكبير .

الفقر !

أتى رجل إلى علي بن سليمان فقال له : بالذي أسبغ عليك هذه النعم — من غير شفيع كان لك إليه إلا تفضلا منه عليك — إلا أنصفتني من خصمي وأخذت الحق منه ، فإنه ظلوم غشوم لا يستحي من كبير ولا يلتفت إلى صغير ! فقال له علي : أعلمني من هو ؟ فإن ينصفك وإلا أخذت الذي فيه عيناه ! من هو ؟ فقال : الفقر !

فأطرق علي إلى الأرض مليا ينكت الأرض بأصبعه ثم رفع رأسه فأمر له بعشرة آلاف دينار . فأخذها ومضى . فلما سار خارجا قال : ردوه ! فلما مثل بين يديه قال : يا أيها الرجل . سألتك بالله متى أتاك خصمك متعسفاً إلا أتيت إلينا متظلماً !

بالمرث صبري

إنه في يوم الاثنين ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤٧ الساعة ٨ أفرنكي صباحا والأيام التالية إذا لزم الحال بأولاد طوق شرق وزمامها مركز البلينا . سيباع بالمزاد العلني الأشياء المبينة بمحضر الحجز المستخلص الموقع بتاريخ ٥/٣/١٩٤٧ ملك محمد مصطفى عبد الرحيم الشهير عتول وأحمد محمد عبدالله من الناحية ، تنفيذا للحكم رقم ١٨٢٣ سنة ١٩٤٧ مدني جرجا وفاء لمبلغ ٢٤٢ جنيها و ٨٧٠ مليما بخلاف المصاريف وما يستجد بناء على طلب الأستاذ الطويل المصري المحامي بجرجا . فعلى راغب الشراء الحضور .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ـ ٥٦٧٦٩

العدد ٤٥٢ — الثلاثاء ١٠ من شوال سنة ١٣٦٦ — ٢٦ من أغسطس سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

أمام مجلس الأمن

الموقف ينجلي ونيات الدول تظهر

كانت جلسة مجلس الأمن يوم الأربعاء ٢٠ سبتمبر بداية جلاء الموقف فى القضية المصرية ، فقد تكلم فريق من مندوبى الدول المشتركة فى المجلس ، وبدا من كلامهم وما اقترحوه من مقترحات لحل القضية أين تتجه الريح فى هذه الهيئة ، وأصبح فى الاستطاعة أن نحدس ما سيكون عليه القرار المرتقب .

ولقد تولى مندوب البرازيل الدور الأساسى فى الإفصاح عن نيات جانب كبير من الدول تجاه هذه المشكلة . وظاهر من تأييد أعضاء هذا الفريق لآراء مندوب البرازيل ومقترحاته ، أو تناولها بقليل من التعديل ، أن الأمر كله مناورة مبيتة اتفق عليها من قبل . وكل من كانت له صلة سابقة بهذه الهيئات الدولية ، وكيف تسير الأمور فيها ، يعلم أن الخطط تبيت ويتفق عليها فى الأروقة الخلفية ، وأن ما يقوله العضو الذى مهد إليه بالاقتراح ، وما يعلقه على أقواله الآخرون فى الجلسة الرسمية لا يعدو أن يكون تمثيلا وإجراء صوريا .

ويبدو أن جل هم مندوب البرازيل ومن أيده لم يكن الوصول إلى حل المشكلة ، يضع الأمور فى نصابها ، ويقر الحقوق لأربابها ، وإنما كان همهم أن يصلوا إلى حل يخرج المجلس من المأزق الذى وضعته القضية فيه . فالقضية نزاع بين طرفين ؛ أحدهما دولة قوية ، يحرص جانب كبير من الدول على إرضائها ، أو على الأقل مداراتها ، والطرف الثانى دولة تطالب بحق واضح لا يستطيع المجلس جحوده إلا إذا أنكر رسالته ، وحكم على نفسه بالفشل كهيئة قامت لإقرار السلام ، وتحقيق العدالة والمساواة بين الشعوب .

لهذا كانت المناورة التى تمت ، أن يظهر المتكلمون العطف على الأمانى المصرية ، ولكنهم يشيرون فى الوقت نفسه إلى أن الخلاف القائم ليس من الخطورة بحيث يلجأ إلى مجلس الأمن لحله ، والوسائل العادية لتسويته من مفاوضات وطرق دبلوماسية لم تستنفد بعد ، ولهذا يقترح العودة لها مع حفظ القضية بالمجلس ، وإحاطته علما بما يتم من خطوات فى المفاوضة .

ويتلق مندوب بريطانيا الأمر كأنه مفاجأة ويتريث فى قبول المقترح وإن كان يعلن مبدئيا رضاه عنه مع تحفظ واحد هو أن تقرر شرعية معاهدة سنة ١٩٣٦ أو على الأقل يقرر الرجوع إلى محكمة العدل الدولية لتقرر ذلك عند الاقتضاء ، وتهب بلجيكا مؤيدة الاقتراح البرازيلى مع إدخال التعديل الذى طلبه مندوب بريطانيا .

وتؤيد فرنسا المقترح تأييداً حاراً .

ويتحفظ مندوب الصين في تأييده ، ويشير إلى ضرورة النص في القرار على أن المجلس أحاط علماً بخطوات الجلاء التي تمت من جانب بريطانيا ، ويؤيد وحدة مصر والسودان إذا رغب السودان في ذلك ، ويتكلم مندوب الولايات المتحدة مؤيداً ومظاهراً بقوة ضرورة قيام العلاقات بين مصر وبريطانيا على أساس الصداقة ، ويدعوهما للتفاهم ، ويقرر العطف الأكيد على الأماني المصرية ؛ ولكنه يشير إلى ضرورة محافظة الدول على التزاماتها الدولية ولو كرهت .

أما مندوب روسيا فقد ذهب مذهب مندوب بولاندا ، من تأييد طلب مصر في الجلاء العاجل الناجز عن مصر والسودان ، وإن كان أشار إلى إرجاء البت في نظام الحكم في السودان حتى تعرف رغبة أهله .

وهكذا تجلى الموقف ، فهناك فريق ظاهر التأييد لمصر ، وهو الآن يشمل بولاندا وروسيا ، وبالضرورة يضم لهذا الفريق سوريا ، وهؤلاء يقترحون إصدار قرار بإجلاء الجيوش البريطانية عن مصر والسودان . وفريق آخر يرى العودة للمفاوضات ، ومنه الولايات المتحدة والبرازيل وفرنسا والبلجيك والصين (وإن كان تعليقها وتحديدها أقرب لمصلحة مصر) ويبقى بعد ذلك استراليا وكولومبيا ، والراجح أنهما ستنضمان للقائلين بالرجوع للمفاوضة ؛ فلنا أن نوطد أنفسنا على توقع ترجيح الرأي القائل بالعودة للمفاوضات ، وإن كنا نأمل أن تدخل على القرار بعض تعديلات أو تضاف إليه بعض توصيات يقصد منها إلى إرضاء مصر بعض الإرضاء الصوري .

وكنا نتوقع هذه النتيجة وأشرنا في كثير من المرات في هذه المجلة إلى شكنا في جدوى الالتجاء لهذه الهيئات الدولية ، وليس فيها ما يفت في عضدنا أو يزعزع ثقتنا بأنفسنا وعدالة قضيتنا ؛ فقصارى ما يقال في التعليق على هذه النتيجة أن المجلس حكم على نفسه بالعجز والعقم قبل أن يحكم على مصر ، وقد أضاف فشلا جديداً يضم إلى قائمة فشله الطويل في حل المشاكل الدولية .

وإذا كان في هذه النتيجة ما يؤلم ، فإن فيها درساً يفتح أعيننا وأعين غيرنا من الأمم الصغيرة والأمم المظلومة على حقيقة هذه الهيئات الدولية التي تسيطر عليها الدول القوية وتسيرها في الطريق الذي تمليه مصالحها وأهواؤها ؛ فخير ما تفعله تلك الأمم أن تولي هذه الهيئات ظهرها ، وأن تهيئ نفسها للكفاح بتقوية نفسها ، واتخاذ العدة للأحداث التي قد تهدد منها .

ولقد كسبنا إسماع صوتنا للعالم ، وشرح قضيتنا ، فإذا كان القضاة قد تأثروا بغير عوامل الإنصاف والعدل ، فليس هذا ذنبنا ، ولن يثنينا ذلك عن الجهاد .

إننا لم نسع لمجلس الأمن حباً في الخصومة ، أو رغبة في التشهير بخصمنا ، ولكننا سرنا إليه كارهين ، بعد أن أعيتنا الحيل ، وبعد أن أضعنا السنين في مفاوضات عقيمة ينقض فيها الخصم اليوم ما أبرمه بالأمس ؛ وماذا يضيره أن تطول المفاوضات ، وألا تصل إلى نتيجة ، وهو باق محتفظ بقوته ونفوذه ؟ إنما نشقى بهذا الطول من يعاني ذل الاحتلال ، وشقاء تسلط الأجنبي . أما بريطانيا ، فلها أن تفرح بهذا الظفر المهين ، ولكنها سترى أنه نجاح لا يقربها مما تنشده من مودة وصداقة مع الشعب المصري والشعوب العربية ؛ وستجد أن رتق هذا الفتق ، وسد هذا الثغر الذي فتحه مندوبوها ، سيحتاج لوقت طويل وجهد كبير ، حتى تعود المياه إلى مجاريها .

أما مندوبو مصر فقد أدوا رسالتهم خير أداء ، وأظهروا قضية مصر والسودان بوضوح وجلاء ، ولم يدخروا وسعاً في تقديم الحجج المؤيدة لحقوقنا ؛ ومجهودهم هذا جدير من البلاد بكل تقدير أيًّا كانت النتيجة .

وإذا كان طريق مجلس الأمن لم يؤد بنا إلى الغاية المنشودة ، فأمامنا طرق أخرى يجب أن نشقها حتى نصل إلى تحقيق آمالنا كاملة . (...)

على هامش موقف انجلترا من مصر :

لازم تحبيني !

نظرية طريفة تلك النظرية التي يتمسك بها المستر كادوجان مندوب بريطانيا أمام مجلس الأمن . إنه يقول باختصار : إن الواجب على مصر أن تخضع ، وأن تطيع . بل إن عليها أن تحب انجلترة حباً أبدياً . هكذا يقول المستر كادوجان ، وإن كان في أغلب الظن لايدري أنه يقول هذا .

ملخص حجته أن هناك معاهدة معقودة بين مصر وانجلترة . وأن هذه المعاهدة يجب أن تبقى قائمة ما لم تحل محلها معاهدة أخرى . فإذا قامت محلها معاهدة جديدة كان بها ونعمت . وإلا فالمعاهدة الأولى قائمة كما هي ، وكفى الله انجلترة القتال والنضال . حجة بسيطة لم تكلفه مشقة وليس في ظاهرها ما يدعو إلى العجب ، لا سيما وهي حجة يقدمها مندوب بريطانيا أمام مجلس الأمن الذي فيه فرنسا وأمريكا وبلجيكا ، وكل الأمم المحترمة التي تعتقد في المعاهدات إذا كانت في مصلحتها .

والمعاهدات حديث قديم نظن أنه يكون حديثاً معاداً إذا تحدثنا عنه هنا . فالتاريخ يدلنا على أن المعاهدات لم تخلق إلا لكي تنقض في وقت من الأوقات .

ولو حاولنا أن نتعب أنفسنا قليلاً لكي نبحث في تاريخ المعاهدات لخرجنا من بحثنا على حقيقة ثابتة ، وهي أن الدول تعقد المعاهدات من أجل ظروف معينة ، وهي في العادة تقسم أغلظ الأيمان على احترامها ، وجعلها قائمة نافذة إلى الأبد ، ولكن هذه الدول إذا رأت أن الظروف قد تغيرت ، فإنها تدرك فوراً بسلامة ذوقها ، أنه لابد من نقض تلك المعاهدات . فإذا ما بدأ جانب من الجانبين المتعاقدين بالخروج عليها (صهين) الطرف الآخر وأصبحت المعاهدة كأن لم تكن .

هذا هو الحال بين الدول الأوربية . ولكن سلامة الذوق تفارق تلك الدول ، إذا هي عاملت إحدى الدول الشرقية ، فإنها عند ذلك تتمسك بحرف المعاهدات تمسكاً عجيباً يدل على أن تلك المعاهدات إنما هي ذريعة للسيطرة ، وليست معاهدات بالمعنى الصحيح . فلو فرضنا مثلاً أن انجلترة كانت قد عقدت معاهدة مع فرنسا في سنة ١٩٣٧ لمقابلة الظروف الدولية في عام ١٩٣٧ ، فإنه بغير شك يكون من السخف أن تتمسك إحدى الدولتين بتلك المعاهدة في عام ١٩٤٧ . ولو حاولت إحداهما أن تتمسك بها لضحكت منها كل الدول الأخرى ، لقد تغير كل شيء في العالم حتى ورق المعاهدة نفسه ، فإنه بغير شك قد تغير وأكلته العثة في أثناء سنوات الحرب ، لأن الدول لم تكن فارغة البال لوضع بعض النفتالين على ذلك الورق لاشتغال الجميع بشئون الحرب الطاحنة الماضية . لا شك أن مثل تلك المعاهدة لو عقدت بين فرنسا وانجلترة قبل الحرب ، لما وجد أحد الطرفين جرأة على مطالبة الآخر بالتمسك بها بعد الانتهاء من الحرب ولو من باب الخجل . ولكن شتان بين أن تعقد انجلترة معاهدة مع فرنسا ، وبين أن تعقد معاهدة مع مصر ! فكل شيء نسبي في العالم ، وما يصح أن ينطبق على فرنسا لا يصح أن ينطبق على مصر بالطبع . والأمثلة كثيرة على أن العلاقات الدولية نسبية وتختلف النظرة إليها باختلاف البلاد المتعاقدة . ومن تلك الأمثلة أن مصر كانت في القرن الماضي عقدت بعض قروض من بعض البلاد الأوربية ، وحاولت أن تقوم بتعهداتها بكل ما أمكنها . ولكن الدول الأوربية تشددت في معاملة مصر إذ ذاك تشدداً أدى إلى أن ترسل إليها أساطيلها وجيوشها لحماية حقوق الدائنين في حين أن الديون التي لبعض الدول الأوربية والأمريكية على بعض تلغى بجرة قلم . بل إن الديون التي لمصر على انجلترة لم تسبب شيئاً من القلق لانجلترة ، لأنها تعرف أن (الوصفة) الأوربية هي (التناحة) في مواجهة الديون .

لقد بعد بنا الكلام عن المعاهدة المصرية الإنجليزية فلنعد إليها : عقدت تلك المعاهدة في سنة ١٩٣٦ ، وكان العالم في ذلك الوقت لا يعرف ما يخبئه له الغد . وكنا نحن في مصر ننظر إلى الغرب فنجد إيطاليا منتفخة الأوداج

تهدد وتبرطم، وننظر إلى الشمال فنرى ألمانيا مشمرة عن الذراعين، تزمجر وتجرجم، ولم يكن أحد في العالم يدري إلى متى تستمر البرطمة والزمجرة؛ ولهذا كان من الطبيعي أن تستعد لقاء الواقعة إذا وقعت، سواء أكان ذلك بعد عامين أم بعد عشرين عاما. هذا ما اقتضته ظروف سنة ١٩٣٦، وهذا ما فعلته مصر في معاهدتها مع انجلترة، فإنها قد تعاهدت معها على أن تحبها وتوسع لها صدرها، وتهب لها كل ما عندها في وقت الأزمة المتوقعة، وجعلت مدة التعاقد عشرين عاما قابلة للتجديد واشترطت أنه يجوز تعديل تلك المعاهدة بعد عشر سنوات إذا رضي الطرفان. والذي دعاها إلى كل هـذا هو تقدير الظروف ثم تمهدها بالمحبة والمودة. ونحن معاشر الشرقيين نضحي في سبيل الحب بالشيء الكثير، ونتكل على أن الأحباب بينهم تعاقد آخر ضمني، وهو أن كلا من طرفي الحب يسابق الآخر إلى فعل الجميل. هذا ما كنا نقدره وما كنا نتوقعه، وكان عذرنا في كل هذا أن الغيب كان محجوبا عنا، فلم نعرف على وجه الدقة متى تقع الواقعة المنتظرة. على أنه يجب ألا ينسى أحد أننا قد غامرنا في سبيل حب بريطانيا الجميلة مغامرة كبرى. غامرنا بوجودنا مع أننا في الواقع لم نكن نتوقع أن تعود علينا الحرب بنفع ما. غامرنا وضحينا من أجل الحب، ولكن ويل لنا من ذلك الحب! لقد ذقنا منه الأمرين كما هي عادة المحبين.

ومع ذلك فقد انتهت الحرب والحمد لله بعد أن أذاقتنا ما أذاقتنا، وكنا ننتظر أن يرد لنا الحبيب الجميل. كنا ننتظر من انجلترة العزيزة أن تتقدم نحونا في تواضع وعرفان، قائلة: كفى ما قدمت لي يا عزيزتي مصر من صادق الودة. وقد ذهب العذول بحمد الله عنا، فلتجعل رباطنا هو الحب وحده بعد أن جرب كل منا الآخر، فليثق كل منا بالآخر، ونسأل الله أن يلطف بكل منا.

ولكن انجلترة لم تفعل ذلك، بل تقدمت إلى مصر مهددة تقول لها: «لازم تحبيني». ومعنى هذا أن انجلترة العزيزة تريد منا أن نستمر في علاقتنا بها على مقتضى حرف معاهدة لم يكن لها من سبب سوى توقع الحرب، كأنها تريد منا أن نضحي لها دائما وأن نتذلل لها دائما. كأنها قد استعذبت ذل الغرام الذي قدمناه لها؛ فهي لا تريد منا أبدا أن نفيق منه يوما من الأيام. فأي غرام هذا؟

أي غرام هذا الذي يقوم على قاعدة «لازم تحبيني»؟ وإنه لمن العجيب أن تقول انجلترة على لسان ممثلها في مجلس الأمن إننا مادمنا لم نعقد معها معاهدة جديدة فإن معاهدة سنة ١٩٣٦ لا تزال باقية.

فما معنى هذا؟

معنى هذا أننا ملزمون بأن نرضى بأية شروط تجود بها علينا بريطانيا، خوفا من هذا السلاح المشهور فوق رقابنا، وهو المعاهدة القديمة التي أملتها المخاوف من توقع الحرب الماضية.

معنى هذا أننا لا بد أن نقنع بما يرضي انجلترة، لا بما يحقق آمالنا. معنى هذا أننا مخيرون بين قيد قديم وقيد جديد. ولكننا لا نقبل قيودا بأيها الحبيبة بريطانيا!

لقد برهنا على أننا نستطيع أن نكون أصدقاء أوفياء، ولو وثقت بريطانيا بنا وتركتنا أحرارا وأتاحت لنا الفرصة لتقوية أنفسنا لكان في إمكاننا أن نبرهن مرة أخرى على أننا نستطيع أن نكون أصدقاء أوفياء وأقوياء عند اللزوم.

ولو أرادت بريطانيا أن تعقد معنا معاهدة حقا لكانت قد أحرقت السفن وراءها ابتداء، وخرجت من مصر ووضعت أوراقها مكشوفة على المائدة، وقنعت بأن تتفق معنا على ما يرضينا حقا بغير ضغط ولا تهديد بقيود قديمة.

ولو فعلت ذلك لكان من اليسير الوصول إلى اتفاق، لأن التعادل والعدالة والثقة أول شروط المعاهدات الصحيحة. ولكن انجلترة لا تزال سائرة على طريقتها القديمة في خطبة المودة. فهي تشبه القرصان الذي يتقدم إلى الحسناء التي أسرها قائلا: «لازم تحبيني»!

يا ساتر يا رب!

محمد فريد أبو حديد

يحكى أن ...

قال صاحبي :

— لماذا تؤثر أن يكون كلامك الذى تنشره فى صورة حوار بينك وبين صاحبك حينا وبينك وبين أبنائك حينا آخر ، ولماذا لا تتجه رأسا إلى ما عندك من الكلام فتقوله بغير حاجة إلى الحكاية والرواية ؟

قلت :

— هذا مذهبي فى المقال — ولكل امرىء فيما يحاول مذهب ! وأذكر أنى تلقيت هذا المذهب ، واعتنقته مذ كنت صبيا صغيراً . فقد كنت فى أول العقد فى مدرسة جامدة الأساليب . وكان معظم زملائى الصغار على شاكلتى يحبون درس المطالعة لنا فى كتب المطالعة من كلام ابن نوما . ويكرهون دروس الحساب لأنهم لم يكونوا يسمعون فيها إلا قول المعلم : اجمع . اطرح . اضرب . وهكذا . وحين تدرجنا قليلا فى هذا العلم كانوا يقذفون فى وجوهنا بمسائل جافة لا تمت إلى عقولنا بصلة . فبدلا من أن يحدثونا فى هذه المسائل من الصبي الذى كان معه كذا من (البلور) فلعب وربح فى الشوط الأول كذا واحدة وخسر فى الشوط الثانى كذا ، ثم يسألونا بعد ذلك عن مقدار ربحه أو خسارته ، كانوا يختارون لمسائلهم موضوعات غريبة ، فتارة يحدثوننا عن الحنفيات والبالوعات ، وتارة عن الصيارف والتجار . ويخرجوننا بذلك من ميداننا إلى أمثال هذه المجاهل التى كنا نعيش فيها ساعة أو نحو ساعة ونحن عنها غرباء ، لنعود منها فى آخر الدرس غرباء أيضا . وظل حالنا على ذلك إلى أن من الله علىّ بالانتقال من هذه المدرسة إلى مدرسة غيرها . وهناك وجدت مدرس الحساب رجلا قد بلغ منتهى اللباقة فى طريقته ، حتى لقد جعل مادته تلك التى اشتهرت بالجفاف والصرامة من أحب المواد إلى نفوسنا ، ولم يكن قد زاد شيئا على مايفعله زملاؤه ، إلا أنه كان يختار الموضوعات القريبة إلى عقولنا فيجعلها موضوعا لمسائله ثم يبدأ كل مسألة من مسائله بقوله : يحكى أن ....

فبدلا من قوله : اشترى تاجر كذا إردبا من الغلال .... الخ

كان يقول : يحكى أن رجلا اشترى لابنه كذا كرة .... الخ ، فكانت تنزل عبارة (يحكى أن) على أسماعنا نزول السحر ، وكنا نقبل سعداء على مسائله تلك ندرسها ونحلها كما لو كنا نلعب لعبة الأحاجى ، لا كما يجلس التلاميذ بلهاء على مقاعدهم أثناء دروس الحساب .

وقد تملكت هذا الدرس النافع منذ ذلك التاريخ العتيق فأصبحت لا أحب أن أسوق الحديث إلا على هذه الصورة التى أطمع فى أن أظفر من طريقها بأذن السامع .

* * *

قال صاحبي :

فأى حديث عندك اليوم تريد أن تقصه علينا ؟

قلت : — أشد مايؤذى نفسى أن أرى رجلين يتشاقان ويتجاوران لاختلاف فى الرأى . وأنكى من ذلك عندى أن يكون شقاقهما لاختلاف فى الدين ، فإن الانسان الذى لا يفهم أن لكل موضوع فى هذه الدنيا عشرات الزوايا ، وأن الآراء فيه تتعدد حتما وطبعا بتعدد هذه الزوايا يكون وجوده نكبة على نفسه ونكبة على الوسط الذى يعيش فيه . وعنوان الرجل المثقف عندى تسامحه فى تلقى الرأى المخالف لرأيه والعقيدة المخالفة لعقيدته ، حتى يشاء الله أن يجمع بينه وبين مناظره فى زاوية واحدة فيزول الخلاف وتتوحد العقيدة . ومثلى ممن تقوم صناعته على أساس تبادل الرأى والمشاورة و (المداولة) يحس أكثر من غيره بحاجة الناس إلى فهم مسألة « الزوايا » التى حدثتك عنها . وأن اختلاف الآراء بين المتناظرين يكاد يكون طبيعيا أكثر من اتفاقهم . وأن الطريقة الوحيدة للتفاهم هى أن يتنحى الانسان قليلا عن الوضع الذى وقف فيه عند ظهور الخلاف حتى يمكن له أن

يشترك أولا مع زميله فى الزاوية التى ينظر منها للموضوع ثم يبين له من هناك موضع الخطأ إن كان الخطأ فى ذلك الجانب ، وإلا وجب عليه أن يعود إلى وضعه هو ليبحث من الخطأ فى ناحيته .

ولست أود اليوم أن أحدثك عن الاختلاف فى الرأى ، ولكنى سأحدثك عن الخلاف فى الدين . وأبين لك أن المتعصب لدينه كالأعمى سواء بسواء . وما دمنا من أنصار « يحكى أن ... » فأنصت !

* * *

يحكى أنه كان فى بلاد فارس عالم روحانى جليل ، قرأ كتب اللاهوت المختلفة وتعمق فى دراستها . وانصرف عن التفكير فى كل شىء إلى التفكير فى ذات الله وكيفية وجوده . وانتهى به الأمر لكثرة ما فكر وقدر أن اختلط عقله وأصبح لا يؤمن حتى بوجود إله لهذا الكون !

فلما علم الشاه بأمره نفاه من بلاده . فخرج الرجل من وطنه لا يرافقه إلا عبده الذى كان يقوم على خدمته . وصار يضرب فى أرض الله الواسعة ، حتى ألقى عصا التسيار أخيرا فى إحدى مدن الهند ، ثم آوى إلى أحد المقاهى ليستريح . بينا جلس عبده على باب المقهى فى بلادة واسترخاء تحت أشعة الشمس الحامية يطرد عن أنفه الذباب !

وطلب العالم كوبا من شراب الأفيون . فلما تجرعه وسرت فى دمه نشوة القدح عاد يهرف بما اختلط فيه عقله . وقال مخاطبا عبده الرابض على الباب :

— قل لى أيها العبد النكد . هل تعتقد بوجود الله ؟

فقال العبد : طبعا ! ثم بسط راحته إلى صدره وجعل يتحسس كأنما يبحث عن شىء يخفيه بين طيات ثيابه ، وأخيرا أخرج من تحت حزامه تمثالا صغيرا من الخشب وقال : ها هوذا ! ذلك هو الإله الذى حمانى وحرسنى منذ ولدت . وكلنا نعبد تلك الشجرة المقدسة القائمة فى بلادنا التى تصنع منها مثل هذا الإله !

وكان فى المقهى لفيف من الناس من جميع الأجناس والملل ، وكانوا ينصتون إلى حوار العالم مع عبده . فأدهشهم كلام العبد ، وتصدى للرد عليه رجل من أتباع « برهمة » إله الهنود فقال :

— أيها الأبله الغبى ! كيف يجوز فى عقلك أن رجلا يحمل الله تحت حزامه ؟ إنه لا إله إلا برهمة الذى خلق هذا الكون . ومن أجل عبادته أقيمت هذه الهيا كل المشيدة التى ترصع ضفاف نهر الكانج . لقد مضى على ظهور « برهمة » العظيم عشرون ألف سنة . ومع ذلك ظل كهنته يقومون على عبادته ونشر دينه ، وما ذلك إلا لأنه رعاهم وحماهم طوال هذه السنين !

وما كاد البرهمى يفرغ من عبارته وهو يعتقد أنه أفحم العبد وأقنع جميع الحاضرين بصحة دعواه . حتى انبرى له صيرفى يهودى قائلا :

— ما هذا الهراء الذى تزعمه أيها البرهمى ؟ إن الإله الحقيق لم يتخذ الهند قط مقراً لملكه . وإنما الإله هو إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . وهو لا يرعى ولا يحمى إلا شعبه المختار . . . شعب بنى إسرائيل . إن تشريدنا فى أنحاء الأرض لم يكن إلا محنة أراد أن يمتحننا بها الله . ولكن أرض الميعاد فى انتظارنا . وفيها سوف يجتمع شملنا مرة أخرى . ومنها سوف نحكم العالم من جديد !

وغلب التأثر على اليهودى ولاحت له أشباح المجد الغابر والمجد المنتظر فأجهش بالبكاء . إلا أن مبشراً إيطاليا كان حاضرا فلم يمهله حتى يستفرغ محبوس عبراته وقطع عليه نشوته قائلا :

— إنك يا أخانا لفى ضلالك القديم ! إذ كيف يسوغ فى عقل عاقل أن الله يؤثر شعبا واحدا على سائر الشعوب . إنك بدعواك هذه إنما تنسب الظلم إلى الله سبحانه وتعالى . وهو جات قدرته لا يُفضل أحدا على أحد ، ولكنه يدعو الذين يبتغون لأنفسهم النجاة والخلاص أن يرعوا فى

أحضان كنيسة روما الكاثوليكية . فإنه لا خلاص لمن يكون خارج حظيرتها !

فالتفت إليه قسيس بروتستانتي كان يحضر ذلك المجلس وخاطبه بوجه ممتقع قائلا : — ما أحمق ما تزعم أيها المغرور! إن الخلاص نصيب كل من يخدم الله مخلصاً ، فبهذا نزل الإنجيل ، وبهذا قال المسيح !

وكان في الحاضرين تركي من موظفي الجمرك في ذلك البلد الذي اجتمع في مقهاه هذا الخليط ، ونظر في ترفع إلى هذين القسيسين ، وقال لهما في ثقة واستعلاء :

إن اعتقادكم في الديانة المسيحية وتمسككم بآدابها أصبح أمرا باطلا بعد أن حلت محلها الديانة الإسلامية ونسختها . ألم تعلموا أن الدين عند الله الإسلام ؟ ليس أمام الباحث إلا أن يدير بصره في أركان هذه المعمورة ليعرف مدى انتشار هذه الديانة التي جاء بها خاتم النبيين . إن علمها أصبح يرفرف على ربوع أوربا وأفريقيا . وحتى في بلاد الصين المستنيرة ارتفعت راية الإسلام وانتشرت تعاليمه . إن هـذا الانتشار وحده دليل صحته . ولا شفيع تقبل شفاعته عند الله غير نبيه محمد عليه السلام . ولن ينال الخلاص من أمم الأرض إلا أمة محمد !

ولم يطق الحاضرون صبرا على هذه الدعوى العريضة . فقام اليهود والمسيحيون والمجوس والاسماعيليون وهاجوا واشتبكوا جميعاً في جدل حامي الوطيس . كل واحد منهم ينصر دينه ويخذل دعوى الآخرين . ولم يبق بمعزل عن هذا المعترك إلا رجل واحد كان صينيا من أتباع (كونفوشيوس) . وكان قابعا في زاوية من زوايا المقهى يرشف قدحا ممتدأ من الشاي الصيني الجميل ، وهو يستمع إلى المتكلمين دون أن يشترك في جدلهم العقيم . فما إن وقعت عليه عين التركي في مأزقه ذاك الذي رمى بنفسه فيه حتى استنجد به قائلا :

— تكلم أيها الأخ الجليل ! قل لهم ما ترى فيما أزعم وما يزعمون . إنكم معشر الصينيين على كثرة ما عندكم من المذاهب والأديان لا تزالون ترون أن الديانة الإسلامية أفضل الأديان . فإنها أخذت من كل دين زبدته حتى جاءت موافقة لأهل الأرض جميعا في كل زمان وفي كل مكان . أسمعنا كلمتك في الله الحقيق وفي نبيه الكريم !

فهتف الحاضرون جميعا :

— أجل ! أجل ! أسمعنا رأيك أيها الصيني الرزين في هذا الذي اختلفنا فيه . لازالت بلادك موطن الحكمة وفصل الخطاب !

فأرخى الصيني عينيه كأنما أخجله هذا الإطراء العريض ، ولكنه كان في الواقع يريد أن يفكر تفكيرا عميقا قبل أن يدلي برأيه الحاسم في هذا النزاع . فلما اجتمع له الرأي الناضج وتبلور في ذهنه القول الفصل عاد ففتح عينيه في بطء ، وأخرج يديه من كمي قميصه الواسعين ، وطواهما في تؤدة فوق صدره ، ثم طفق يقول بصوت هادىء عميق :

— يبدو لي أيهـا الإخوان أن ما يحول دون اتفاق الناس في قضايا الدين إنما يرجع إلى ذلك الغرور الأصم الذي يملأ صدر كل طائفة من الطوائف الدينية المختلفة . وإلى اعتقاد أهلها خطأ بأن الله إنمـا اصطفاهم وحدهم واختصهم برضاه دون غيرهم من العالمين . مع أن الله سبحانه هو رب الأديان جميعها ، وقد أنزلها كلها وجعل محورها : الاعتقاد بوجوده والقيام على عبادته ، وبث روح المحبة والتعاون بين عباده . فأيما عبد من عباد الله آمن به ، وعمل صالحاً ، كان عند ربه مقبولا وكان سعيه مشكوراً .

لقد تركت الصين ، وجئت إلى الهند على ظهر باخرة بريطانية طافت حول العالم . إذ قامت من بلاد الانجليز واتجهت غربا حتى وصلت إلينا في أقصى الشرق . ولما وصلنا إلى جزيرة سومطرا نفدت ذخيرتنا من الماء ، فعرجنا إلى شاطىء الجزيرة نتزود لمركبنا بمـا يلزمها من الماء . وكنا خليطا من الأجناس المختلفة كما نحن في هذا المقهى خليط ،

وكان الوقت ظهرا . فنزلنا إلى البر وجلسنا فى ظل شجرة من أشجار جوز الهند . وبينما نحن كذلك إذ أقبل علينا رجل أعمى يقوده غلام . فلما استوى جالساً إلى جوارنا جعل يحدث نفسه بمثل هذا الكلام :

— أى شىء يمكن أن يكون نور الشمس هذا الذى يتحدثون عنه ؟ إنه لا يمكن أن يكون سائلا ، وإلا لأمكن صبه من إناء إلى إناء آخر ! وهو لا يمكن أن يكون نارا ، إذ لو كان كذلك لأطفأه الماء ! ثم هو لا يمكن أن يكون روحا ، لأنه ليس خفيا . ولا يمكن أن يكون مادة لأن المادة يستطيع الإنسان أن ينقلها من مكان إلى مكان ! وما دام نور الشمس ليس سائلا ولا نارا ولا روحا ولا مادة ، فالنتيجة المنطقية المعقولة أنه : لا شىء !

وقد عرفنا بعدئذ من الغلام أن هـذا الرجل إنما فقد بصره من كثرة ما حدق فى الشمس وهو يحاول أن يدرك كنهها ويقف على حقيقة سرها ويعرف كيف ينبعث الضوء منها . فلما أعياه هـذا البحث كان وهج الشمس قد خطف بصره . وتركه أعمى يتخبط فى ظلام أبدى ويهرف بمثل هـذا الكلام الذى يدل على ذهاب عقله مع ذهاب بصره[1] .

وبينما كان الرجل يناجى نفسه بتلك الخواطر . كان الغلام قد التقط جوزة من على الأرض ، وأخذ يصنع منها سراجا . فبدأ بتقشير الجوزة . ثم أخـذ قطعة من ليفها ففتل منهـا فتيلا . ثم اعتصر من الجوزة دهنا وضعه فى القشرة . فأدلى الفتيلة فى الدهن . فـكان له من كل ذلك سراج يضىء له فى الظلام .

وعاد الأعمى إلى مناجاته فقال وكأنه يخاطب غلامه :

— ألم أكن على حق حينما قلت إنه لا وجود للشمس ؟ ألست ترى هذا الظلام الدامس الذى يكتنفنا ؟ ومع وضوح هذه الحقيقة كل هذا الوضوح لا يزال يقول بعض الواهمين إن الشمس موجودة ؟ فهب أنهم صدقوا فيما يزعمون ، فليدلونا ما هى هذه الشمس ؟

فتنهد الغلام قائلا :

— أما أنا فلا أعرف ما هى الشمس . ولا ما سرها . ولا يعنينى أن أبحث فى شىء من ذلك ، فليست لى فيه مصلحة . ولكنى أعرف ما هو النور . وها أنا قد صنعت لنفسى نوراً سأستطيع به أن أقضى حاجاتى إذا ما حل الظلام . وتناول الغلام القشرة فى يده ورفعها قائلا : هذه شمسى !

قال الصينى : وكان يجلس معنا فى ظل الشجرة رجل أعرج يعبث بعكازه ، وهو يتابع باهتمام ظاهر ذلك الحوار الذى كان يدور بين الرجل وغلامه . فما إن سمع كلمات الغلام الأخيرة حتى هب من مكانه منفعلا وهو يقول :

— يبدو لى أنك ولدت أعمى أنت الآخر . أتقول من سراجك الخابى هـذا إنه هو الشمس ؟ إن الشمس الحقيقية هى تلك الكرة النارية التى تخرج من البحر كل صباح . ثم ترتفع فى السماء حتى تتوسط كبدها . ثم تعود فتهبط حتى تتوارى بين جبال جزيرتنا هذه . وكل الناس هنا يعرفون ذلك ويؤمنون به لأنهم رأوه بأعينهم وهم لا يزالون يرونه كل يوم !

وما كاد ينتهى صاحبنا من حديثه حتى انبرى له سماك ممن يقضون نهارهم فى زوارق الصيد فى البحر . فقال له :

— يظهر لى أنك لم تمد بصرك قط إلى ما وراء جزيرتك . ولو أنك طفت البحار فى زورق الصيد كما أفعل أنا كل يوم لعرفت أن الشمس كما تشرق من البحر كل صباح فإنها كذلك تغرب فى البحر كل مساء . هذا هو الحق لأنى أعلم من الشمس أكثر مما تعلم !

(١) لا يفوت القارىء أن يلاحظ أن نور الشمس فى هـذه الأقصوصة كناية عن ذات الله العلية . والمقصود هو أن التفكير فى ذات الله مهلك للعقل كما أن التحديق فى نور الشمس مهلك للعين .

وكان فى الجماعة هندى من عبدة الشمس فقال :

— ما أعجب أن يسمع الإنسان مثل هـذا الهراء ! كيف يمكن لكرة من النار أن تخرج من الماء أو أن تغيب فيها مع أن المعروف عند الناس جميعاً أن الماء يطفئ النار . إن الشمس ليست كرة من النار . إنما هى إله نعرفه نحن فى بلادنا واسمه (ريفا) وهو ما ينفك يركب عجلته ويدور بها حول جبل (ميدو) الذهبى فتهجم عليه الحيتان المشئومتان (راكو وكيتو) وتبتلعانه . وعنـد ذلك يعم الأرض الظلام . ولكن كهنتنا لا ينفكون يدورهم يصلون ويضرعون حتى يخرج (ريفا) إلى الأفق من جديد . إنه لايظن أن الشمس تضىء جزيرته وحدها إلا من كان غبيا مثلك ولم يبرح جزيرته قط . . .

وأراد أن يسترسل الهندى فى ثرثرته هـذه لولا أن قاطعه ربان سفينة مصرية بقوله :

— إنك مخطئ أيضاً أيها الجار العزيز . فإن الشمس ليست إلاهاً . ولا هى تدور حول الهند وحدها أو حول جبلها الذهبى . فقد طوفت أنا فى البحار وفى مختلف الديار . ودخلت البحر الأسود ، ومررت بسواحل جزيرة العرب ووصلت إلى مدغشقر وإلى جزائر الفيليبين . وكنت فى كل مكان من هـذه الأماكن المتنائية أرى الشمس تشرق وتغرب . إن الحقيقة لا تتجلى إلا لمثل ممن جابوا الأمصار وركبوا البحار !

قال الصينى : وهنا تدخل بحار انجليزى من بحارة سفينتنا فقال :

— أيها السادة . إنما العلم فى هذه الشئون عند الانجليز . فالشمس لا مشرق لها ولا مغرب . لأنها تدور دائماً حول الأرض . ولقد طفنا بسفينتنا هذه حول الأرض فلم نصطدم بالشمس فى مكان ما ، ولكننا وجدناها حيثما نزلنا تشرق فى الصباح وتغرب فى المساء !

ولما رأى صاحبنا أن الناس من حوله فتحوا أفواههم من الدهشة لهذا الذى يقول ، أخذ عصا وراح يرسم على الرمل دوائر وأشكالا يحاول بها توضيح حركات الشمس . ولكن فهم ذلك استعصى عليه ، فتخلص من مأزقه بلباقة وقال مشيرا إلى ربان السفينة :

— إنى أترك شرح هذه المسائل إلى هذا السيد . فهو أعلم بها منى !

وكان ربان السفينة رجلاً أوربيا حصيفا . وكان يستمع إلى كلام القوم وهو ينظر إليهم فى ابتسامة ساخرة دون أن ينبس ببنت شفة ، وغليونه فى فمه ينفث منه الدخان نفثة من بعد نفثة فى هدوء واطمئنان . فلما طلب إليه الكلام اتجهت إليه أنظار القوم فبدأ يقول :

— يؤسفنى أن أقول إن الحقيقة فاتت منكم جميعا . فإن الشمس لا تدور حول الأرض . وأمثال هذه الحقائق العليا لا يصح أن يعتمد فيها الإنسان على نظره . فكم للنظر من خداع ! إنما الحقيقة عكس ما نرى ، فإن الأرض هى التى تدور حول الشمس مرة فى كل سنة . وتدور حول نفسها مرة فى كل يوم . فهى تتقلب تحت ضوء الشمس الذى يتعاقب تباعا على بلدانها واحداً بعد واحد . ومن ذلك ترون أن الشمس لا ترسل ضوءها على جبل واحد ولا على جزيرة واحدة ولا على بحر واحد . بل ولا على كوكب واحد . وإنما يستضىء بنورها جميع الكواكب على السواء . فلو أنكم نظرتم إلى السماء لا تسع أفق تفكيركم وبصركم ، ولأدركتم كل هذه الحقائق . ولما زعمتم بعد ذلك أن الشمس تضىء لكم وحدكم أو لديانتكم دون غيرها !

* * *

قال الصينى الكونفشيوسى :

— فهذا الذى قيل فى الشمس يا إخوانى يصح أن نقوله أيضا فى الدين . إن خلافات الناس فى أمور الدين مردها أن كل واحد يريد إلهاً خاصا لنفسه أو على الأقل

الخواطر

سبحان العادل :

سبحان العادل بين الجميع ، سبحان الذى هو لكل من فى الوجود مجيب سميع ، ينصف العقرب والثعبان ، ويستوى عنده الإنسان والحيوان ، سيان عنده الأفعى فى ثورتها وفحيحها ، والغادة الهيفاء فى تثنيها وصدها وتيهها ، لا يمنعه عن إصدار حكمه جمال أو دلال ، ولا فرق عنده بين مدقع وذى مال ، أو مزهو فى دمقس وغارق فى بالى الأسمال . ألم ينثر بذور الحب فى أرضه الواسعة ، فوكّل الأفعى على تسلينها ، وأبقى العقرب على ذكرها ، وبنت حواء على رجلها . سبحانه يعدل بين الجميل والقبيح ، وبين الأبكم والفصيح ، وبين الغانية اللعوب والأفعى ذات الفحيح ، فهو خالق الأشياء كلها ، وهو على كل شىء قدير .

لا أدرى لماذا أقدم لنفسى هذا الخاطر كلما وقع نظرى على شخص سخيف سمج ، ترهبك منه النظرة الأولى ، وتزعج خاطرك بمجرد اقترابه منك ، ثم لا تلبث بعد تكرار الاحتكاك أن تكتشف فيه بعض المزايا التى تجتذبك إليه بعد أن كنت نفوراً ، وتعجب بينك وبين نفسك : لماذا يجيب فى معظم الحالات حكم النظرة الأولى ، ولماذا تعجب وأنت لم تؤت من الحكمة إلا قليلا ، وسبحانه المنزه عن الغرض . هو أعدل الحاكمين ، خلق الإنسان من نطفة ثم سواه ، فهو يعلم ما خفى وما بطن من تلك العجينة البشرية المليئة بجميع المتناقضات .

أنت ترى سائق السيارة السمج ، الذى إذا حاذاك نهرك ، لأنك فى اعتقاده وقانونه الخاص خالفت تعاليم المرور ، مع أنك — يعلم الله — على صواب وهو المخطىء ، لعل هذا الذى لعنته فى سرك تنتظره فى آخر مرحلة النهار زوجة تدلله وتناديه بأعذب الألفاظ . والموظف الصغير

إلهاً خاصاً لأمته . وكل أمة تريد أن تحصر فى معابدها ذلك الإله ليكون لها الفضل على سائر الأمم !

إن الله للجميع ... وهو لم يفضل أحداً على أحد إلا بالتقوى وعمل الخير ، وما قيمة هذه المعابد التى يتخذها الناس فى أقطار الأرض المختلفة بالقياس إلى العالم — ذلك المعبد الضخم — الذى خلقه الله ليجعل الناس فيه أمة واحدة ، ولتكون لهم فيه ديانة واحدة هى الديانة الإنسانية ؟ أى معبد من معابد الناس له حوض كحوض الأقيانوس ، أو قبو كقبو السموات . وأين تلك المصابيح الباهتة التى تضىء المعابد الإنسانية من زينة الكواكب والشمس والقمر ؟ وأين تلك الأصنام الجامدة التى تزين المعابد الإنسانية من هؤلاء البشر الأحياء الذين ينتشرون على ظهر الأرض تنمر قلوبهم المحبة والتعاون ! ؟

إن الإنسان كلما سما فى فهم الله ازداد به علماً . وكلما ازداد به علماً ازداد منه قرباً . وإنما يكون التقرب إلى الله بالإحسان والعطف والحب ؟

فليكفّ إذاً ذلك الذى يرى نور الشمس يغمر العالم ، من احتقار ذلك الحامل الذى أبهظه ذلك النور فاتخذ لنفسه مشكاة وقال : هذه شمسى ! وليكف حتى عن ازدراء الكافر ، لأنه أعمى وليس فى وسعه أن يرى نور الشمس[1] .

* * *

هكذا كان حديث تابع كونفوشيوس . فصمت كل من كان فى المقهى بعد سماع حديثه . ولم يعد واحد منهم يدعى أن ديانته أفضل من ديانة غيره .

وكذلك يؤتى الله الحكمة من يشاء من عباده . والله واسع حكيم .

عيسى جمول

(١) القصة منقولة بتصرف من إحدى أقاصيص تولستوى .

الذى يتمادى فى سوء معاملتك وإهمال شأنك ، وأنت أعزل من سلاحه الذى يعتز به وهو سوء الأدب ، مع أنه سلاح رخيص لا يكلف شيئاً ، وبعد أن تكون على وشك صفعه على خده الأيسر ثم الأيمن ، يدخل عليكما فجأة صديق للطرفين ، فيقدمك إليه ويوصيه خيراً ، فسرعان ما تنفرج أساريره ، ويبالغ فى إكرامك ، وتنصرف راضيا مغتبطا ، وتنسى الإساءة الأولى التى أملتها عليه مركبة النقص .

وتسمع عن شرير خطر ، أو مجرم كبير ترتعد الفرائص لذكر اسمه ، ثم تعجب أو لا تعجب عند ما تعلم أن له عشيقة أو زوجة يأوى إليها وتأوى إليه بعد أن يغسل يديه من شرور النهار . وترى مثلاً شخصا يدب على الأرض متأبطا ذراع حسناء رشيقة تبدو عليها كل أمارات السعادة والغبطة ، وكأنها راضية عما قسمه الله لها ، فتقول لنفسك سبحان من وفق الحية على شبابها !

غريب فى بلاده :

ومثل آخر يدل على ما فى هذا العالم من عجائب ، ويبين لك كيف قسم الله الأخلاق والأمزجة بالقسطاس ، فمن هداه ورضى عنه منحه الرقة والدعة ، ومن لم يرض عنه أسبغ عليه من لدنه سماجة وسخافة تنفران منه طوب الأرض .

اجتذبنى ذات يوم محل أنيق لبيع (الساندوتش) ، أو الشاطر والمشطور كما اقترح بعض إخواننا من اللغويين ، والمحل ملحق صغير على شكل مقهى اعتاد الأستاذ توفيق الحكيم أن يجلس على ناصيته يداعب عصاه ويهز رأسه بين حين وآخر كعلامة الموافقة على مايقوله صديق مجاور ، أقسم أن الأستاذ لا يستمع إلى حرف واحد مما يقول ، فهو يحاول طول الوقت أن يقتنص من بيداء الخيال فكرة جديدة يضيفها إلى سبائكه القديمة ، فعند ما يهز رأسه قائلا كعادته : « مضبوط مضبوط » يظن المتحدث المسكين أن صفة الضبط موجهة إليه ، فيتمادى أكثر وأكثر ، وعندما يقول أديبنا (مضبوط) الأخيرة ، ويهز رأسه إلى الأمام الهزة الكبرى يكون معنى هذا تبلور الفكرة المختمرة فى ذهنه الخصيب ، ويتأبطن المتحدث المسكين أن هذه الهزة موجهة إليه ، فيزداد حماساً ، ويستمر فى قصته مستعينا بحركات يديه الدنيفة على طريقتنا الشرقية .

أقول دخلت هذا المحل لأتخير بعض أنواع الساندوتش ولبثت برهة — لا تزيد على الدقيقة — أتأمل فى معرض اللحوم والمحفوظات ، وكان واقفين عامل مصرى عهد إليه مهمة تحضير ما يطلبه الرتادون على هذا النوع من المأكولات العملية السريعة ، فال على زميله وقال له بصوت مسموع : لقد مضت عليه دقيقة وهو يتأمل فى معرض المأكولات ، إذا تبته إلى اليمين حاورنى واتجه إلى اليسار . لقد دوخنى هذا الرجل ، ولا أدرى متى يسمح بإصدار أوامره . قالها بلهجة ملؤها السخرية والتحدى .

فسألته فى أدب : « ماذا تقول ؟ هل صدر منى ما أزعجك أو آذى شعورك » . فأعاد على مسمعى بكل وضوح وجلاء ما سبق أن قاله لزميله ، وكانت السخرية والتحدى يرقصان فى عينيه ، فسكت ، لأنى ضعيف دائما أمام أخلاق عامتنا وسوقتنا التى لا يدانيها فى حطتها شىء فى الوجود .

وعلك المحل أجنبى من بلاد اليونان ، فلجأت إلى أدبه معاتبا المصرى فى شخصه ، فطيب خاطرى وعنف مواطنى ، وبينما هو منهمك فى تقريعه وليت وجهى نحو الباب ، وأقسمت ألا أرتاد هذا المحل مرة ثانية ، لا لأن الذى يملكه أجنبى مؤدب ، بل لأن الذى يعمل فيه بالأجر مصرى وقح .

حقيقة أن المصرى غريب فى بلاده !

دكتور مصطفى الديواني

الصناعة الحديثة

فى إندونيسيا

[يهتم العالم كله فى هذه الأيام بالمشكلة الثائرة بين إندونيسيا وهولندة . و « الثقافة » ترحب بكل ما يعرف قراء العربية بأحوال إخوانهم الذين يجاهدون فى سبيل الحرية] .

منذ احتلت اليابان إندونيسيا فى ٩ مارس سنة ١٩٤٢ وضعت يدها على المصانع الأوربية ، وحولتها إلى مصانع لإنتاج الذخائر للقوات اليابانية المحاربة فى منطقة الشرق الأقصى . وكان للحكومة الهولندية مصانع ومعامل لصناعة الطائرات والسفن الحربية ، والأسلحة وذخائرها ، فى مدينة سورابايا وجاكرتا وسمارانج وباندونج وسوكابومى ومالانج . وكانت الأيدى العاملة فيها ، هى الأيدى الإندونيسية . ولما استسلمت الإمبراطورية اليابانية للقوات المتحالفة فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٥ وضعت الدولة الإندونيسية الجديدة يدها عليها . فقد عادت إندونيسيا إلى شعبها ، وما كان ملكا للدولة الهولندية أصبح ملكا للدولة الأندونيسية الحرة .

وقد شك العالم فى صحة الأنباء التى ينقلها الأثير — يوميا — من الأعمال السياسية والحربية والصناعية والاقتصادية والثقافية التى تحدث فى الجمهورية الإندونيسية . لأنها أعمال عظيمة تستدعى الاهتمام الكبير ، لصدورها من دولة حديثة . ولما اعترفت الحكومة الهولندية فى ٢٥ مارس سنة ١٩٤٧ بالجمهورية الإندونيسية واستقلالها ، ثم اعترفت الحكومة البريطانية والأمريكية أيضاً ، زال الشك عن العالم ، وعلم أنه لولا أن الدولة الإندونيسية مدعمة البنيان ، ثابتة الأساس ، لما اعترفت هذه الدولة بها ، بعد أن حاربتها عاما ونصف عام بما تملك من عتاد وأسلحة .

وإذا سرنا مع الحقائق الثابتة التى تدل على أن الأيدى العاملة فى إدارة حكومة الهند الهولندية سابقا هى أيد إندونيسية ، لما أسأنا تقدير قيمة الدولة الإندونيسية التى أعلن شعبها أنها دولة حرة مستقلة ، ولأسرعت الدول بالاعتراف بها . وسوء تقدير العالم لمركز الدولة الإندونيسية السياسية وشعبها ناتج من ضعف علمه بحقائق الحياة الإندونيسية الحديثة ، وهى حياة كان الاستعمار الهولندى يحجبها عنه . ولما برزت الجمهورية الإندونيسية فى المحيط السياسى الدولى أثار الاستعمار الهولندى ضدها دعايات سيئة ، لعله يستطيع القضاء عليها . وهذه الدعاية تثبت أن الجمهورية الإندونيسية قد استطاعت السير فى العواصف الهوجاء التى أثارتها الحكومة الهولندية والبريطانية .

والدولة الحرة هى التى استكملت آلات استقلالها . وإندونيسيا الحرة قد استكملت وسائل استقلالها بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها . تشهد على ذلك الحركات السياسية والثقافية والاقتصادية والتجارية التى قامت بها خلال الحربين العالميتين .

ومنذ أعلنت إندونيسيا استقلالها ، وجهت كل قواها إلى إعادة الحياة الصناعية فى المصانع والمعامل ، فى أنحاء الجمهورية ، لإنتاج مستلزمات الحياة الإندونيسية الحديثة .

ومن أهم الصناعات التى قامت بها وهى فى فجر عهدها الاستقلالى ، صناعة السفن والطائرات والآلات الكهربائية والنسيج والورق ؛ فأنشأت فى مدينة فلمبانج بجزيرة سومطرا مصنعا للسفن الحربية والتجارية ، وكانت باكورة أعمالها السفينة الحربية (مرديكا) ، وكذلك أنشأت فى جزيرة مادورا مصنعا آخر للسفن ، وبذلت الحكومة الإندونيسية جهدها فى إصلاح مصانع السفن الهولندية بمدينة سورابايا وجزيرة مادورا ، وقذفت فيها العلماء والمهندسين والعمال الفنيين .

وفى مدن إندونيسيا الداخلية بجزيرة جاوا ، أنشأت الحكومة الإندونيسية مصانع الطائرات ، وهى صناعة

حديثة على الحياة الصناعية فى إندونيسيا ، فلم يكن فى العهد الهولندى مصنع لإنتاج الطائرات ، لأن الحكومة الهولندية كانت تبتاع الطائرات من المصانع الانكليزية والفرنسية والأمريكية ؛ وأما الآن فإن الدولة الإندونيسية الجديدة تبنى حياتها الحديثة على الصناعة المصرية .

وقد استغنى المهندسون الإندونيسيون عن المواد المعدنية فى تركيب أجسام الطائرات ، بالأخشاب الصلبة التى تنتجها الغابات الإندونيسية . وعرضت فى معرض ماديون الميكانيكى فى يناير الماضى ثلاثة نماذج للطائرات الإندونيسية الحديثة .

ومن الصناعات الجديدة التى أدخلتها الحكومة الإندونيسية فى المحيط الصناعى الوطنى ، صناعة الآلات الكهربائية لتموين المصانع والمعامل الإندونيسية بأحدث الآلات الدقيقة ، ويشرف على هذه الصناعة جماعة من كبار العلماء والمهندسين الإندونيسيين المنضمين إلى (جمعية العلوم) الإندونيسية .

وأول ثمار هذه الصناعة وزهرتها (الراديو) ، وقد أوفدت الحكومة الإندونيسية ثلاثة من المهندسين إلى جزيرة سومطرا لدراسة تربتها وما تحويها من المعادن ، تنفيذاً لبرامج الإصلاح الصناعى الحديث .

وأنشأت الشركات الإندونيسية معامل للنسيج ومونتها بالقطن الوطنى ، وتبرعت (جمعية المرأة الإندونيسية) للحكومة الإندونيسية بمبلغ (مليون روبية) لإنشاء معمل للنسيج وإصلاح المعامل التى خربتها السلطة اليابانية حين انهزامها ؛ وقد بلغت منتوجات أحد المعامل خلال شهر واحد (١٧٠٠٠) قطعة جاهزة من الملابس القطنية ، و (٢٥٠٫٠٠٠) متر من القماش . ولوحظ نقص الأقمشة خلال الحكم اليابانى وفى بدء العهد الاستقلال ، لتحويل السلطة اليابانية معامل النسيج إلى معامل حربية . وقد أمدت الهند إندونيسيا بأقمشة متنوعة قدرها (خمسة ملايين) ياردة — فكان هذا العمل الإنسانى الرائع دليلا على ما يكنه الشرقيون من حب وعطف للشعب الإندونيسى الحر ، الذى يحارب لطى الصفحة الأخيرة من صفحات الاستعمار الغربى من الشرق .

وأما صناعة الورق فقد تعهدت بها الشركات الوطنية . وتقوم اليوم فى إندونيسيا معامل للورق تستعمل قشور الأرز لإنتاج أوراق الصحف ، وتتموّن بها المصالح الرسمية الإندونيسية وتفتخر بها ، لأنها منتوجات وطنية .

وقد اكتتب أربعة بنوك إندونيسية برأس مال قدره (١٦٫٠٠٠٫٠٠٠) روبية لإنشاء صناعات جديدة تتطور بها الحياة الصناعية الإندونيسية تطوراً كبيراً ، فأوفدت الحكومة الإندونيسية إلى أمريكا فى يناير سنة ١٩٤٧ الدكتور رشاد للاتفاق مع المصانع الأمريكية لتصدير الآلات الصناعية الحديثة إلى إندونيسيا ، وأرصدت ثلاثة ملايين روبية لها .

والصناعة الإندونيسية الحديثة تحتاج إلى الفن الحديث . وقد قررت الحكومة الإندونيسية الاستعانة بكبار العلماء والمهندسين الغربيين ، لإرشاد المهندسين الإندونيسيين فى أصول الصناعة الحديثة . وستتحول جزيرة جاوا إلى منطقة صناعية حيث يكون (٥٠٪) من مساحتها منطقة صناعية .

ومن الأوضاع التى ستؤثر على مستقبل الصناعة الإندونيسية ، الوضع الحالى للشركات الأوربيـــة وأملاكها ، من مصانع ومعامل ومزارع ودور . وقد جرى البحث فيه بين ممثل الحكومة الإندونيسية ، وممثل الحكومة الهولندية ، ولم يتوصل الطرفان إلى نتيجة حاسمة . ويقرر الجانب الإندونيسى حلا لهذه المشكلة ما يلى :

١ — الأملاك الأجنبية التى تؤثر على حياة الدولة

تستول عليها الحكومة الإندونيسية وتقدم لأصحابها أثمانها.

٢ – أملاك حكومة الهند الهولندية تستولى عليها الحكومة الإندونيسية.

٣ – الأملاك الأجنبية التي استولت عليها الحكومة اليابانية، ثم استولت عليها الحكومة الإندونيسية تصبح ملكا لها، وليس لأصحابها الدعوى في مطالبة الحكومة الإندونيسية بها.

وإذا نجح الإندونيسيون في تنفيذ هذا القرار، فقد نالت إندونيسيا مغنما كبيراً. ويدل الوضع السياسى الإندونيسى الحاضر على صعوبة الحصول على نتيجة مرضية، لأن الأجانب متشبثون بأملاكهم، ولكن الحكومة الإندونيسية سوف تنفذ قرارها، اعتمادا على المادة الأولى والرابعة عشرة من (اتفاقية لنجرجاتى) الموقعة بين الحكومتين الإندونيسية والهولندية فى ٢٥ مارس سنة ١٩٤٧.

فهل تغدو إندونيسيا دولة صناعية فى الشرق الأقصى بما تملكه من المواد الأولية الزراعية والمعدنية؟ إن القرائن الحالية تؤيد هذا السؤال. وفى بحث آخر سنتكلم عن التجارة الخارجية الإندونيسية الحديثة.

محمد جنيدى

اليزابث باريت

الشاعرة

كانت الدار تتيه على ما جاورها من الدور في الفخامة الظاهرة والصنعة الفاخرة، في ذلك الحي المصري في لندن؛ ولكنها مع ذلك ومع ما أوتيت من بسطة في الحجم كانت كئيبة الخاطر كأن بها مساً من حزن أو طائفاً من كدر. وفي قلب الدار كانت ترقد على أريكة من الأرائك اليبنوية فتاة في ميعة الصبا وعنفوان الجمال لولا صفرة تشيع في أديمها تحدث الناظر أنها أليفة الضنا منذ أعوام.

وهذه الفتاة السامقة ذات القامة الهيفاء، والنظرة الساجية التي فرض عليها السرير فرضاً، ما تزال لعوباً في نظراتها الساحرة وابتساماتها الساخرة وسحنتها التي تفضي بوضوح إلى ما يستقر فيها من التشوف والاستطالة إلى تعرف ما تزخر به الدنيا من وراء ذلك الحبس الأليم والعذاب المقيم؛ وهي إذ تجسم تمثل ذلك خوالج بين حسرة الحاضر وأنس الماضي، أيام كان لها أن تميس بين الأغصان الخضراء والخمائل الباسمة. فأصبحت لا تملك من الأمر شيئاً. ولكن إذ سلبت كل هذا، فليس للسالبين من المرض وغير المرض على بسماتها الجميلة من سبيل؛ فهي تبسم متى شاءت بثغرها الفاتن بلا رقيب. وأما مقلتاها الواسعتان اللتان تناديان دائماً بالتحرر من عبودية الفراش، فهما عنوان حسنها العبقري، وهما كذلك الأفكوهة الحية تطفو على مأساة الوجه الكئيبة لكي تفتر الشفتان عما يزيل الستر من معاني الأشجان.

هذه اليزابث بارت، الآنسة الكاعب الحسناء، ما تزال رهينة المحبسين، الفراش والبيت، زمناً طويلاً، وقد وكلت بها حراس أبيها الكثيرة، تمسكها عن الحركة ومن التناهض ومن أن تجوس خلال الدار مخافة أن ينقصم منها ركن أو تطيش منها جارحة لأن فتاته على حد ما كان يقول: «قابلة للتكسر والتبعثر».

ذلك وبعد (المستر بارت) ينهض من مكانه وينصرف إلى بعض أمره، ويريم من مائدة الطعام، ويجلس إلى بعض الأضياف؛ ولكن روحه في كل هذا ترفرف على هيكل فتاته الحبيب، يخاف عليها أن تقوم من فراشها، ويحذر أنها إن فعلت جاءه بالويل العظيم عما قد تتحركه مما يؤخر عنها الشفاء دهراً آخر.

وهو إذ يأبى عليها ويعصيها هذا العصيان فيما تريده من الحركة والخروج، ينصاع إليها الانصياع كله، ويطيعها الطاعة أجمعها، ويخلصها العبادة، ويكرس نفسه أشد التكريس في كل ما عداه، فما اشتهت أمراً ولا عن لها خاطر إلا وكان إلى ذلك أسرع من لمحة الطرف ورجْع الضمير ...

وقد ارتضت (اليزابث) هذا من أجل ذلك، وتشاغلت عن آلامها من خارج المنزل بلذائذ من الكتب الجميلة، وعالجت في فراش السقم قرض الشعر، فجاءت بالأسوق نوعاً، والأخف ظلا، وبأحب ما يأسر القلوب وزناً وقافية ولحناً، فحمل الأب بعض هذا إلى بيوت الطبع فجلته هذه للقارئين عملا مصقولا، فعرف الناس (اليزابث بارت) وأحبوها جهدهم، وتطلعوا إلى ما تخرج به الصحف عليهم من قلمها العبقري وريشتها اللمياء.

وما كان لاليزابث أن تكتب فقط، فقد أرادت أن يحمل إليها كل ما تلد به الكاتبات من جديد، ففعل أبوها ذلك وحمل إليها في جملة ما حمله ذات يوم كتاباً صاغه أحد الشعراء من المعاصرين، فنزل من اليزابث منزلا محموداً وراق لها وأيقظ فيها الشاعرة وأشاع فيها العافية لحظات، تخرجت من ذلك كله بقصيدة تقرظ فيها ذلك الكتاب. وانحدرت كلمات اليزابث في قصيدتها العظيمة تلك تهز كل قارئ، وتعجب كل أديب وتملك كل شاعر، ولكنها

زلزلت المؤتلف ودكت قواعده ... وهكذا كتب إليها (روبرت براوننج) يشكرها أحر شكر، ثم عقب على ذلك أن سعى إليها ليصافحها، ولكنه وجدها في فراش السقم فأحنى رأسه لمرقد العبقرية وقرأها من حيث يقف أطيب السلام!..

هناك في تلك الغرفة.. قامت أكبر معجزة في تاريخ الحب بين شاعرين، فقد أحبها وأحبته، حباً عاتياً عابثاً بالمرض وغير المرض، مستهيناً بما تقيمه أمثال هذه الأمور من الحواجز، فما كان للمرض إلا أن يتصاغر ويدبر، وما كان للفراش إلا أن يستقيل مما أريد منه ... ولكن أنى لها بالأب وهو يعلم أن فتاته القابلة للانكسار يجب أن لا تبرح الفراش مادامت صفراء أو ما دام فيه عرق ينبض. وهذا الوجه الأخير أولى الوجهين عنده وأصحهما في عقيدته، إذ أنه ألفها ألفة كبرى حتى استحال عليه أن يفهم الحياة بدونها، بل استحال عليه أن يفهم الحياة من غير أن تتمدد هي في ذلك الركن من بيته كما فعلت منذ أعوام. وعلى هـذا فقد كان بديهياً أن يجزم في إرغامهما التزوج بالسلب، وأن يحمل رفضه ذلك رفضاً مؤكداً بكل وسائل التأكيد، وغير قابل لشيء من إعادة النظر أو التمييز.

ولقد علمت اليزابث أن أباها العنيد الذي يتحاماه الناس لعناده سيكون أبلغ أثراً في هـذه الصفقة من أي وقت مضى، ولكن الحب الغرير الذي يصفه الواصفون طفلاً يحتقب سهامه وقوسه، ويصفه الواصفون بأنه كالفراشة الجميلة، أشد عناداً من (المستر بارت) فليتنازع هـذان العنيدان فؤاد هاتيك الفتاة، وليقم براوننج غير بعيد من النتيجة المحتومة، وإن كان يدري أن والد فتاته يضمر له بجانب حبه الفتاة بغضاء صامتة تنم على التأويل والتفسير كثيراً.

وأتى الحب من بعد همسته الرقيقة في قلب العاشقين فتلاقيا على ميعاد وأقاما يصممان ساعتهما القبلة ويضمان لها من الخطط والألوان والثنايا والحواشي ما لم يكن ليخطر ببال المستر بارت، حتى كان لهما أن يرتبطا في صباح يوم من أيام أيلول بالرباط المقدس الذي تحيكه أنامل الحب الرقيقة الناعمة المنعمة حياكة لا تعرف قطعها أدوات القطع من بنات المادة ولا من عباد المتعنتات أو المال. وما كان للأب أن يعلم هذا أو بعض هـذا حتى رأى السرير الذي تضطجع عليه فتاته شاغراً منها وفاغراً فاه. يتثاءب ويتمطى بعد أن قام الكابوس من صدره المسكين بعد طول جثوم. ولو درى أبو اليزابث أو سرير اليزابث أن أباً وأسرة وبيتاً من صنع الله لا من صنع العناد على كثب منهم هي التي نطقت بالكلمة الفصل في مسألة اليزابث وأنها على مقربة من حيث يقيمون، لكان للموضوع من حيث كونه نازلة مهيضة لون آخر من ألوان الكآبة وطعم آخر من مرارة الخيبة التي يذوقها أساطين ذوو العناد. وإذ كان الأب يشق طريقه في دنيا الكآبة شقاً كان الزوجان يشقان طريقهما كالسيح رويداً إلى باريس دار الفتنة الخالدة والجمال السائغ الريان.

إلى باريس!.. بعد الفراش، وإلى باريس بعد العناد واليأس والقنوط. أمس يعني كثيراً قولهم: إلى جنان الخلد تجري من تحتها الأنهار. ومن بعد باريس إلى إيطاليا حيث يشتق العش الذي يعز على الدنيا ويطول، وحيث يزدهر الغرام ويلتاع ويتألق، وحيث يصفو النشيد ويترقرق، وحيث تسمو جواءه جميعاً فلا ينطق إلا بها، ولا يغني إلا بجمالها، ولا يعبد إلا الوفاء الذي علمته هي كيف يكون. وفي طريق باريس الفتان، وفي طريق إيطاليا البديع، أطلع قلب العاشق بالأنغام ألحاناً من القريض، وأرسلها تيجاناً من الندى على الأزهار والرياحين والجداول أروع ما تكون التيجان لؤلؤاً ولألاء.

لم يكن الفتى ناياً أخرس من قبل فأنارته الناسمة العارضة، ولم يكن عقيماً جاءه الفتح. فقد كتب منذ نعومة

أطفاره مقطوعاته الأولى التي تبهر الشاعر ، وكتب روايته الشعرية الجميلة التي ما زالت تحدث الناس أحاديث الصبا والجمال .

ولكنه في إيطاليا وفي ربيع حياته بين سمع الحبيبة وبصرها جاء بالمعجزات من القصائد كأنهما استلهما من دارهما الجميلة في (فلورنسة) وفي شمس إيطاليا البديعة الساطعة كل ما وجده لشعره العبقري من ألوان تزيد حتى من ألوان قوس قزح .

لقد كانا يجنحان في الأكثر الأغلب من أوقاتهما إلى رحلات خلوية ونزهات في المدن الصغيرة والأرياف ، وإذ يعودان منها يفرغ هذا ما رأيا وما سمعا على قراطيسه فيفتن بها السامع والقارىء فتونا ، فإذا زهد في الكلام لجأ إلى النحت ولجأت إلى التصوير فأتيا به لبانتهما من الفن السحري البارع .

وهكذا خرج براونتج من انكليزيته المحافظة إلى ضروب أخرى في شعره ، وخرج من مألوف التشابيه والاستعارات وغيرهما من فنون البلاغة عندهم إلى أغيارها ، كما أنه خرج عما كان يجب أن يؤثر في مشاعره الخاصة من مناظر الرقعة التي درج فيها إلى سواها .

أما اليزابث الفتاة القابلة للتكسر والتبعثر ، والتي كان أبوها يظن في صحتها الظنون ويذهب في العناية بأمراضها الموهومة المذاهب ، فقد تحسنت بهذه الأجواء والنقلة تحسنا لا مطمع فيه لمستزيد . ومكثت هي الأخرى تضع أحسن ما جادت به قرائح النساء من شعر أريب ، حتى كانت في الصف الأول من شواعر انكلترة العظيمات .

احتفل الحب بعامه الخامس عشر ، ولكن ما هي إلا لجاجة من مفاجآت الأيام ، حتى اختطفت المنون اليزابث خطفا ، ولم تستأذن هذه المنون الجائرة نفس براونتج الحائرة ولا قلبه الذي مازال عامراً بالشباب . وأدار براونتج مقلتيه المستكينتين فيما حوله فرأى وادي الأطياف عامراً بأطيافه ورأى حوله خاتم الزيجة وكتاب الحبيبة . وهنا كتب قصيدته الكبرى والأخيرة التي سماها (الخاتم والكتاب) لعلها هي التي استنفدت القسم الأكبر من العامين اللذين قضاهما من بعدها في لندن موغلا في الشاغل متشبثا بأذيال النسيان .

لقد كانت اليزابث السر الخالد في شعر براونتج ، فلما أفلت عاش شعره كآبة تدل على فقدها . وأصبحت نظريته التي حمل لواءها طوال حياة اليزابث القائلة بأن التشاؤم إثم ثورة في نفسه يسمع الإنسان صداها في شعره الذي أضفى على أبياته برداً من التعقيد اللفظي والمعنوي ، يخرجه من الشعر المتفائل المرقص إلى غيره من ذي اللحن الرزين والوزن الحزين . ولكنه أمام يقول : إن الحياة يجب أن تحيا لطرد الرذيلة وتوطين النفس على طردها . ولقد كتب في الصحيفة الأخيرة من كتابه الأخير المسمى (أزولاندو Asolando) والذي نشر للناس يوم وفاته بطريقته المألوفة الواضحة الجميلة الأبيات التالية :

إن الذين يسيرون في الحياة قدما
ولا تطيب لهم نظرة الوراء أو التلكؤ
والذين لا يؤمنون بتفوق الرذيلة
والذين يعلمون أن للباطل جولة ثم يضمحل
هم الذين يحمدون الجهاد
وهم الذين يرقدون ليستيقظوا

* * *

هذا براونتج أتت عليه اليزابث ثم ألهمته ثم سبقته إلى حيث لحق بها ، فما كانت في كل ما فعلت غير مثال يحتذى ، وغير نفس تحترم . وهذا براونتج في حياتها امرؤ عرف السعادة ، وفي موتها سعد بالمرفقة ، وهذا هو العالم يقوم من بعدهما إلى ما بقي على مائدتهما الكبرى ليجمع ما بقي عليها ، فإذا هو يعود بما يكفي دهراً طويلا .

منيرة الكيمونى

عن روجو باساني :

يوميات مجنون

توفى ذلك القاضى العادل ، ورئيس إحدى المحاكم العليا بعد اثنين وثمانين عاماً قضاها فى الحكم بين الناس بالعدل . أجل كان ذلك القاضى مثال النزاهة والأسوة الحسنة فى جميع دور القضاء فى فرنسا ، فلا غرو إن بكاه جميع الناس حين موته وساروا فى جنازته مترحمين عليه ، وشيعته إلى المقبرة ثلة من الجنود ، ودفن بين بكاء الناس وحزنهم العميق .

وفى اليوميات التى كان يحتفظ بها ذلك القاضى فى أحد أدراج منصته عن الجرائم العظيمة كتب ما يلى وكان عنوانها « لماذا ؟ »

٢٠ يوليو سنة ١٨٥١ : غادرت المحكمة منذ برهة ، بعد أن حكمت على بوندل بالموت ... ولست أدرى لماذا قتل هذا الرجل أولاده الخمسة ؟ قد يقول بعض الناس إن فى القتل لذة وسروراً .. أجل إن فى القتل لذة لا تقدر ! أليس القتل كالخلق ! إن البناء والهدم كلمتان تشملان تاريخ الكون منذ أقدم العصور .

٢٦ يوليو : لماذا كان القتل جريمة ؟ أجل لماذا ؟ بل على عكس ذلك إن القتل قانون الطبيعة ؛ فالرسالة التى يحملها كل مخلوق فى هذه الحياة هى أن يقتل ! فهو يقتل ليعيش ويعيش ليقتل . ولكن ضرورة الحياة فى المجتمع جعلت القتل جريمة ! ولما كنا لا نستطيع أن نعيش بغير إشباع غريزة القتل المتأصلة فينا فإننا نريح أنفسنا بين وقت وآخر بالحروب، فتتحارب الأمم .. أليست الحرب ولجة دماء فاخرة ! وعيداً من الأعياد التى تتباهى بها الأمم بجنودها وتتسمم فيها أفكار النساء والأطفال بقصة هذه الذبحة البشرية الخالدة !

انظر إلى قواد الجيش وهم يزينون صدور الجنود بالنياشين المختلفة البراقة ويتوجون رؤوسهم بأكاليل الغار ، وتقدم إليهم الصلبان الحديدية والجوائز والألقاب والرتب ، فترى الجنود مزهوين بأنفسهم ، إذ يرون الجماهير تحترمهم والنساء تحييهم وتصفق لهم . أتدرى لماذا ؟ لأن لهم رسالة ، وهذه الرسالة هى إراقة الدماء !! أنظر إليهم وهم يجرون فى الشوارع آلات الموت والدمار ترمقهم عيون الناس بالغبطة ! لأن القتل هو قانون الحياة ، ولا شىء أجل ولا أدعى للشرف والفخار من القتل !!

٣٠ يوليو : القتل هو القانون لأن الطبيعة تحب الشباب الأبدى ، وتصيح بأعلى صوتها اللاشعورى : السرعة ، السرعة أيها الناس .. حاربوا واقتلوا ، فبقدر ما تسرعون فى الخراب والدمار يكون البناء !

٣ يوليو : ما أجمل القتل وما ألذه ! حاول أن تقتل شخصاً ، ألا تتمتع بمشاهدة ذلك السائل الأحمر الذى هو الدم بل هو الحياة ! وتمتع بمنظر تلك الكومة من اللحم الآدمى البارد .. أليس هذا المنظر جميلا !

٥ أغسطس : أنا ، ذلك القاضى الذى قضى حياته بالحكم بين الناس والحكم عليهم ببعض كلمات أتفوه بها ... ماذا أكون !!

١٠ أغسطس : من يعلم ومن يشك فى نزاهتى وخصوصا إذا اخترت أحد الناس وتلذذت فى قتله !

٢٢ أغسطس : لا أستطيع الصبر طويلاً ! لقد قتلت أحد المخلوقات كتجربة ؛ فقد كان لخادمى جان عصفور ، وضعه فى قفص وعلقه على نافذة المكتب ، أمسكت العصفور بيدى وضغطت على جسمه النحيل بشدة حتى كدت أخنقه .. إلا أنى لم أقو على رؤية الدماء .. فتناولت مقصاً صغيراً مسمرا وقطعت به حلق العصفور بلطف .. لقد حاول المسكين الهرب منى ، إلا أنى ضغطت عليه بشدة حتى

رأيت دمه يسيل ، وبعدها فعلت كما يفعل السفاحون ، فغسلت القفص كما غسلت يدي ، ونظفت السكين بالماء ، ثم أخذت العصفور إلى الحديقة وواريته التراب تحت إحدى الشجيرات . اعتقد خادمي بأن عصفوره قد تمكن من الإفلات من قفصه .. ولكن آه لو علم مصير عصفوره !!

٢٥ أغسطس : يجب أن أقتل رجلاً .... أجل يجب أن أفعل ذلك !!

٣٠ أغسطس : لقد قتلت .. إذ بينما كنت أسير في غابة فرنيس أبصرت طفلا في الطريق يأكل قطعة من الخبز والزبدة ، استوقفني ذلك الطفل قائلا : صباح الخير أيها الرئيس . فأجبته : هل تسير وحدك في الغابة ياولدي ؟ فأجاب الطفل : نعم ياسيدي . ولم أجد نفسي إلا وقد تملكتني رغبة في قتله ، فاقتربت منه وأمسكته وضغطت على حلقه بشدة ، وبعدئذ لم يستطع المقاومة .. أجل قتلته وألقيت به في إحدى الحفر ، ووضعت بعض الحشائش البرية عليه ، وقفلت راجعاً إلى البيت ... ألا ما أسهل هذه العملية .. وفي المساء كنت مسروراً جداً وكأن لم أفعل شيئاً !

٣١ أغسطس : لقد اكتشفت الجثة فقد عثر عليها بعض الصيادين . فما العمل ؟

١ سبتمبر : ألقي القبض على متهمين ولكن الأدلة مفقودة .

٢ سبتمبر : آه لقد رآني والدا الطفل .. إنهما يبكيان وهما يقصان قصتهما !

١٠ أكتوبر : لا تزال غريزة القتل متأصلة بي .. إذ بينما كنت أسير على شاطئ النهر بعد طعام الإفطار أبصرت تحت شجرة متدلية الأغصان صياد سمك نائماً وبجانبه فأس وكأنها وضعت لي ... تناولتها برفق ورفعتها كالهراوة الغليظة وبضربة واحدة شججت رأسه فسالت دماء غزيرة وردية اللون .. انسابت هذه الدماء إلى ماء النهر بهدوء ، فرجعت إلى البيت وكأن لم أرتكب أمراً . لا شك أنها مجزرة بشرية جميلة !!

٢٥ أكتوبر : لقد كان لحادث صياد السمك صدى عظيم في البلدة — إن ابن أخيه الذي كان يصطاد معه متهم بقتله !

٢٦ أكتوبر : إن قاضي الوفيات يصر على أن ابن الأخ هو القاتل ، وكل امرئ في المدينة يعتقد ذلك ...

٢٧ أكتوبر : لقد دافع ابن أخي القتيل عن نفسه دفاعاً مجيداً ، فقال بأنه ذهب إلى القرية قبل وقوع الحادث ليشترى خبزاً وجبنا وأقسم بأن عمه قتل في أثناء غيابه ... ولكن من يصدقه !

٢٨ أكتوبر : لم يجد ابن أخي القتيل بداً من الاعتراف على الرغم من إرادته فكانت المقصلة جزاءه .. آه إنه العدل .

١٥ نوفمبر : توجد أدلة قوية ضد ابن أخي القتيل الذي كان وريث عمه !

٢٥ يناير سنة ١٨٥٢ : الموت .. الموت .. لقد حكمت عليه بالموت .. أجل لقد حكمت على النائب العام بالموت .. يجب أن أمتع عيني بشنقه .

١٠ مارس : لقد تم ذلك ... لقد تم شنقه هذا الصباح ، ومات ميتة طيبة جعلتني مسروراً جداً ... ما أجمل هذا المنظر !!

والآن يجب أن أنتظر قليلا لأستريح .

● ● ●

حوت هذه المسودة صفحات كثيرة ، ولكنها لم تنبئ من جرائم جديدة ، واعترف ضابطو هذه اليوميات بأن في العالم مجانين كثيرين مجهولين يلذ لهم سفك الدماء كذلك القاضي المجنون ... آه لو علموا ما حوته هذه اليوميات قبل موته .

(القدس) جمال الدين الحجازى

العلم والدين توءمان

«القليل من العلم يبعدنا عن الله والكثير منه يقربنا منه»
باكون — إمام الفلسفة الحديثة .

ليس هناك خلاف بين العلم والدين ، إنما الخلاف بين بعض رجال الدين وبعض رجال العلم الذين ضلوا السبيل فلا هؤلاء أدركوا كنه الدين ، ولا أولئك وصلوا إلى حقيقة العلم الخالصة ، وفاتهم أن حقائق الكون ثابتة لا تناقض فيها ولا تنازع ، إنما التناقض والتنازع بين عقول الناس ليس إلا . لهذا نجد أن العلم الصحيح عدو الأوهام المتداولة بين الناس باسم الدين ، وليس بعدو الدين الحق الذي كثيراً ما تحاول الأوهام ستره عن الأبصار .

وما أصدق ما كتبل حينما قال : العلم والدين توءمان متلاصقان فصلهما يؤدي إلى موتهما ، فالعلم ينمو متى كان دينياً والدين يثبت متى كان علمياً .

الإسلام والوقاية الصحية

دعا الإسلام إلى الوضوء ، وطهارة البدن والثوب ، وحث على النظافة في مختلف نواحيها ، وجعلها مظهراً من مظاهر الإيمان . ثم جاءت بعد ذلك الأبحاث العلمية في الناحية البكتريولوجية والباثولوجية فاستغرقت السنوات الطوال واستغرقت الميزانيات الضخمة لتقول لنا في قالب تطبيق ما قاله الإسلام من قبل . جاءت هذه الأبحاث لتدعو إلى النظافة كوسيلة لمنع انتقال الميكروبات المرضية من التسرب إلى أعضاء الجسم ما ظهر منها وما بطن .

ولكن أليس في الوضوء المتكرر في فترات منتظمة طيلة النهار ، ما يضمن هذه النظافة في أروع مظاهرها وأفضل حالاتها ؟

ثم جاءت الأبحاث الوقائية بعد ذلك تدعو إلى مطاردة القمل والبراغيث والذباب كوسيلة لمنع انتشار الأمراض وتفشي الحميات .

أليس في دعوة الإسلام إلى طهارة البدن ونظافة الثوب والوضوء المتكرر ما يحقق هذا الغرض ؟ .

ألم ينصح طب الأسنان بوجوب استمرار تنظيفها من بقايا الأغذية حتى لا تكون مباءة لملايين الميكروبات التي تنتقل إلى المعدة فينشأ عنها حالات مرضية لا يستهان بنتائجها .

أليس من أجل هذا شدد النبي صلى الله عليه وسلم باستعمال السواك في تنظيف الأسنان ؟ .

ولو بحثنا في جميع بلدان العالم من أساليب الوقاية الصحية من الأمراض المعدية وما يتبعها من حجر صحي لما خرجت عن نطاق الأحاديث النبوية .

ألم يقل نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم : « اتقوا المجذوم كما يتقى الأسد » ألم يقل « وكلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين » .

أليس هو القائل : « لا يورد ممرض على مصح ، وإن الجرب الرطب قد يكون بالبعير فإذا خالط الإبل أو حككها أو آوى إلى مباركها وصل إليها بالماء الذي يسيل منه »

أليس هو القائل :

« إذا سمعتم الطاعون في أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » .

أليس هذا هو أقوى ما وصل إليه البحث العلمي والحجر الصحي ؟

أليس هذا هو أجدى وسيلة للحد من انتشار مثل هذه الأوبئة ؟

أليس هذا هو المتبع بالفعل في أرقى الدول وأكثرها اهتماماً بالبحث العلمي ؟

ولقد عمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهذا الحديث النبوي عند ما خرج إلى الشام مع قوم من المهاجرين والأنصار ، فلما اقترب منها أخبره أحد أعوانه بأن الوباء بأرض الشام فنادى عمر في جمعه قائلا :

إلى مصبح على ظهر فأصبحوا عليه .

فقال له أبو عبيدة بن الجراح :

أفراراً من قدر الله ؟

فقال له عمر رضى الله عنه :

نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله .

أرأيت لو كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله .

الحيض بين العلم والإسلام

قال الله تعالى : « ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

نزلت هذه الآية الكريمة للبشرية رحمة ووقاية وصحة وهداية . نزلت تشخص داء وتصف دواء . نزلت تحرم على الإنسان وطء المرأة الحائض لما فى ذلك من أذى وضرر على الزوج والزوجة على السواء .

ثم جاء علماء البكتريولوجى والفسيولوجى بعلمهم وبحثهم وأدواتهم ، وراح كل واحد منهم فى معمله يرغى ويزبد ، ويرعد ويبرق دون أن يأتى بجديد ، وكل ما جاء به هو بعض الأرقام والصور والتعليلات والتفسيرات العلمية التى أحاطت هذه الآية الكريمة بهالة من نور الحقيقة وصدق اليقين .

فمن الناحية البكتريولوجية والباثولوجية راحوا يصفون الجهاز التناسلى فى المرأة أثناء الحيض وما به من ميكروبات وكيف أن هذه الميكروبات تصل إلى الرجل فتعرضه لخطر داهم هو فى غنى عنه لو عفت نفسه وأطاع قول الإسلام .

وراحوا أيضاً يؤكدون أن هذه الميكروبات عندما تصل إلى القناة البولية فى الرجل تعرضه لالتهابات شديدة يتعذر معها البول ، كما تسبب متاعب لا تطاق ، وقد تكون هذه الالتهابات مصحوبة بإفرازات صديدية . وقد تصل هذه الميكروبات إلى غدة البروستاتا فتلتهب ، الأمر الذى يعرضها إلى عملية جراحية ليست من السهولة على الإطلاق . وقد تمتد الإصابة إلى البربخ فيصاب بورم ، وقد ينسد الحبل المنوى بحالة دائمة .

ودورة الحيض وإن كانت طبيعية فى المرأة ، إلا أنها حالة لا تقل عن المرض خطورة ، إذ أنها تسبب للنساء آلاماً وانحرافاً فى مزاجهن وضعفاً فى بنيتهن ، وقد تعانى المرأة منها آلاماً قاسية ومغصاً شديداً قد يكون مصحوباً بأعراض هستيرية . إن الإسلام قدر هذا الوضع فأمر النساء أثناء الحيض بترك الصيام وحرم عليهن الصلاة بدوافع منها مراعاة صحتهن والرحمة بضعفهن .

أليس الأجدر بالزوج إذاً أن يعتزل زوجته فى فترة حيضها ، لما تعانيه من آلام قد تكتمها عن الزوج حياء وخجلا أو طاعة ورغبة فى عدم إزعاجه .

وإذا طالبت علماء الفسيولوجى والباثولوجى والبكتريولوجى بعدما أبدوه من وصف وتحليل وبحث وتنقيب ، بإيجاد وقاية لما وصفوه وعرفوه ، لما أشاروا بأكثر مما جاءت به هذه الآية الكريمة ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

عز الدين فراج

عندما تسلمت صورة والدتي

وليم كوبر

[وليم كوبر شاعر انجليزي فقد أمه وهو طفل لم يجاوز السادسة من عمره ، وعندما شارف الستين أهدت إليه ابنة عمه ، آخر وداعها ، صورة الأم الراحلة ، وتأملها ، فأنشد تلك الأغنية الحزينة ، التي تعتبر من روائع الشعر الإنجليزي].

آه لهاتين الشفتين لو نطقتا ! شدّ ما مضت بي الحياة قاسية منذ سمعتهما المرة الأخيرة . ها أنذا أرى ابتسامتهما الحلوة ، هي بنفسها التي طالما هدأت من روعي صغيراً ، لا ينقصهما إلا النطق ، فكأني بهما تهمسان في وضوح لا تحزن يا صغيري ، وهيا انف عنك كل مخاوفك بعيداً ! وهاهي أيضا تطالعني مشرقة ، تلك التعبيرات الوادعة لهاتين العينين العزيزتين ، ألا بارك الله في هذا الفن الذي استطاع أن يتغلب على عنت الزمان ، فخلد هذه التعبيرات ساخراً منه.

أيها التذكار الأمين لشخص جد عزيز ، ألا مرحباً بك من ضيف أقبل على غير انتظار . ألا يا من تهيب بي أن أحيي ذكرى أم طال افتقادها ، بأنشودة صادقة ، سأستجيب لندائك من طيب خاطر ، بل وبكل سرور ، كما لو كان ذلك أمراً ما هي ذاتها . وفي نفس الوقت الذي ستجدد فيه رؤية ذلك الوجه أحزاني البنوية ، سيفسح خيالي لعزائي مسرات ، فأستغرق في حلم عابر من أحلام الفردوس ، يبعث الحياة في هذا الوجه .

ألا خبريني يا أماه ، هل شعرت بما ذرفت عليك من دمع هاطل عندما علمت بموتك ؟ ترى ، هل حلقت روحك حول ابنك الحزين ، الذي عرف معنى البؤس ولما يترعرع بعد ؟ علك قبلتني قبلة ، وإن لم يشهدها أحد ، أو عساك ذرفت علي دمعة ، لو جاز للأرواح في النعيم أن تبكي ! لكأني بابتسامتك هذه يا أماه تجيبني بأن نعم . ويوم مواراتك في التراب ، عندما سمعت الأجراس تدق ناعية إياك ، وشاهدت من نافذة غرفتي عربة الموتى وهي تسير بك الهوينا بعيداً عني ، لقد زفرت زفرة ما كان أطولها ، ثم بكيت مودعا إياك الوداع الأخير ! ولكن أحقاً كان الأمر كذلك ؟ أي نعم . أما حيث ذهبت ، فإن أصوات الوداع لا تسمع ، ولو قدر لي أن ألقاك على ذلك الشاطئ ، شاطئ السلام ، فلن تتلفظ شفتاي بكلمة الوداع مرة أخرى ! شد ما حزنت لأجل فراقك ، وكم طلبت بسرعة عودتك . طالما تعلقت بتلك الأمنية ، ولكني كنت دائما مخدوعاً ، فإنها لم تكن تتحقق ، وبذلك صرت أضحوكة « غداً » ، حتى في ذلك المهد ، مهد الطفولة . وكم من غد حل ثم ولى ، إلى أن انتهت كل ذخيرتي من أحزان الطفولة عندما تملكت في النهاية الخضوع للأقدار ، وبذلك هدأت نيران حزني ، ولكنك مع ذلك لم تبرحي خيالي قط .

إن اسمنا لم يعد يذكر بعد حيث كنا نقطن يوماً ، وإن أطفالا غرباء يمرحون على أرض غرفتي ، وعلى الطريق العام حيث كان البستاني « روبين » يدفع عربتي الصغيرة كل يوم إلى مدرستي ، وأنا مغتبط بها ، ملتف بأثوابي ، المعطف القرمزي الدافئ ، والقلنسوة المخملية ، شد ما تقادم العهد على ما كنا ندعوه يوماً « منزلنا الريفي » ! لقد امتلكناه لمدة قصيرة ، ولكن سجل الذاكرة الأمين ، لا يزال محتفظاً بكل ذكريات عطفك علي هناك (صامداً في وجه كثير من الزوابع التي عصفت بآلاف من الذكريات الأخرى العابرة) : من زياراتك الليلية لحجرتي كي تطمئني علي ، وتستيقني أن الغطاء لم ينحسر عني ، إلى منحك لي قبل مبارحتي المنزل صباحا : الكعك ، وصرتي البرقوق ، وكذلك روائحك العطرية التي كنت تنضحينها بيديك على وجنتي بإغداق ، حتى تتألقا وتنميا نضارة ؛ وأجمل من ذلك كله فيض حبك الدائم المتدفق ، الذي لم يكن هدفاً لتقلبات الأهواء . إني لأستطيع الآن قراءة ذلك كله

على صفحات ذا كرتى ، وسيبقى ما حييت ، وإن ذلك لما يشعرنى بالسرور لقيامى بواجبى لتكريمك ، ما استطاعت شاعريتى ، بتذكار قد يكون متواضعاً ، ولكنه صادر من القلب ، وإن لذلك قيمته فى السموات ، ولو لم يلق إليه بال على الأرض .

لو أمكن الزمان أن يستدير ، فيسترجع تلك الساعات حينما كنت ألهو بنقش أزهار البنفسج والقرنفل والياسمين المنسوجة بأثوابك ، وذلك بنقشها على ورقة ، (بينما تكونين أنت أسعد منى بذلك ، فتناجينى باسمة بهدوء ، مداعبة رأسى برفق) أقول لو أمكن لهذه الساعات القليلة الهنيئة أن تعاود الظهور بإرادة الإنسان ، فهل ترانى أفعل ذلك الآن ؟ شد ما أخشى أن أفزع إلى قلبى فى الإجابة من ذلك ، فإنه ليبدو أشد ما يكون اشتياقاً إلى تحقيق تلك الأمنية الحبيبة إليه . ولكن لا ، فإن محبتى لك أعظم من ذلك كله ، لأن حياتنا الأرضيـة ليست مستحبة بالدرجة التى أقابل محبتك لى بإرغامى روحك الطليقـة على العودة إلى قيود الجسد ثانية .

لكأنى بك يا أماه سفينة رائعة ، رحلت من شواطىء البيون (إنجلترا) مندفعة إلى مرفأ جزيرة آمنة ، بعد أن اجتازت المحيط متغلبـة على أنوائه ، وهناك ، حيث تهفو رائحة التوابل وتبسم أجواء أكثر إشراقاً ، جثمت هادئة على المياه الساكنة ، التى تعكس صورتها الجميلة ، بينما تتلاعب حولها النسمات المحملة برائحة البخور ، فتخفق أعلامها مرحة ! وهكذا وصلت بأشرعة سراع إلى الشاطىء ، « حيث لا زوابع تهب ، ولا أمواج تزأر » . ولقـد رسا بجوارك منذ ذلك الحين البعيد رفيقك المحبوب ، مجتازاً بحر المياه الخضم ؛ أما أنا فحرام على دخول المرفأ ، بل إن أملى ضعيف فى إدراك تلك الراحـة ، لذلك أرانى دائم الحزن ، تميل بسفينتى الرياح العادية ، وتلطمها الأمواج ، وهى ممزقة الشراع ، واسعة الفجوات ، ضلت وجهتها ، فهامت تتقاذفها التيارات يوماً بعد يوم ، وتميل بها عن الشاطىء المنشود ! ولكن ليحدث لى ما يحدث ، فحسبى سروراً علمى بأنك وأبى آمنان . ليس فخرى بعلمى أنى من سلالة من اعتلوا العروش ، ومن حكموا البسيطة ، ولكنه يتجاوز ذلك كثيراً ، ذلك أنى ابن من اجتاز الحيـاة إلى النعيم . والآن وداعاً ، فهاهو الزمان قد سار فى طريقه المعتاد ، دون أن يرجع القهقرى ، ومع ذلك فقـد تم لى فى نفس الوقت ما قد تمنيته من استرجاع الماضى . وهكذا بمعونة خيال ، الذى لم ألمسه عبثاً ، يبدو لى أنى قد عشت عهد طفولتى ثانية ، مجدداً تلك المسرات التى كانت يوماً ما ملكاً لى ، دون أن أرتكب الإثم بحرمانك من مسراتك العلوية . وطالما بقيت أجنحة خيال طليقة ، وما دمت مستطيعاً أن أشاهد صورتك هـذه ، فإن الزمان لم يفلح فى سرقته سوى نصف الفلاح : فقد بقيت مقدرتك على تهدئتى ، رغم انتزاعه إياك منى .

ربيع رشدى كمال

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى

تليفون — ٥٦٧٦٩

القاهرة

أنباء وآراء

تمثال تشرتشل :

لما اقترح إقامة تمثال المستر ونستون تشرتشل على صخور دوفر اعترافا بخدماته فى الحرب التى أداها لبلاده ، ناهض البعض الفكرة ، لأن الاقتراح يتضمن تخليد سيجاره التقليدية ، وأن تظل موقدة فى فمه أبدا .. وعلى أن سيجار تشرتشل إنما هى لازمة من لوازمه قد لا يستقيم بغيرها التمثال إذا وجب أن يشابه صاحبه ، وإن لذلك سوابق ، فإنه فى وستمنستر قد أقيم تمثال السير سدنى وارلو فى وضع له طبيعى وبيده النظارة التى كانت لا تفارقه وكانت إحدى لوازمه ! وكذلك المؤرخ الإنجليزى الكبير جون ستو الذى دفن فى كنيسة سنت أندرو ، وأقاموا تمثالا له ، فى يده الرخامية ريشة يجددون غطاءها كل عام . وكذلك التمثال الذى أقيم للسير ويلفرد لوسن المحامى الانجليزى الكبير ، بمثله فى وضعه الطبيعى ، وقد دس إحدى يديه فى جيبه ، وكانت هذه لازمة تعرف له !

وما على المعارضين لو أقروا إلحاق السيجار بالتمثال ، فلا يزال يعرفه الناس ينفث الدخان من فيه حياً وميتاً !

جلد !

يكاد يجمع من جالس زعيم الروسيا « ستالين » على أنه كتوم صبار ، تعجز أن تنفذ إلى ما تنطوى عليه جانحته . قد عرف ذلك له فى أشد أيام الروسيا حلكة عند الغزو الألمانى . وليس ذلك فى الرجل اصطناعا ، إنما هى طبيعة عرفت له منذ فجر أيامه ؛ يُروى أنه لما ألقى به فى السجن لأول عهد الثورة البلشفية أبت نفسه إلا الثورة أيضاً على نظم السجن وغشم رجاله ، فكان جزاءه العقاب ، وذلك أن يمشى بين صفين من جند القيصرية الغلاظ الشداد فى أيديهم عصى كأنها الصواعق ، يضرب بها الجندى كلا من بين الصفين . فكان المذنب من المذنبين إذا وقع عليه مثل هذا العقاب يمرق بينهما يتقى الأذى بالعدو السريع . وأما ستالين فهو يعرف نفسه ، وإذا هو يسير على رسله بين الصفين وفى يده كتاب مفتوح يقرأه ، ولا يرفع عنه عينه . فأحفظ الجند بذلك وأغاظهم ، فأوجعوه ضربا كلا من واحد منهم ، وإنه لمستمر فلا تطرف له عين ، ولا يسرع ولا يرفع رأسه عن الكتاب . وظل بعد ذلك أسابيع لا يعرف النوم طعماً من شدة ما ناله فى وجهه ورأسه وسائر بدنه !

ثم وحق للرجل من الرجال سودده ما جمع إلى ذكاء القلب الصبر على المكروه !

أبو العيال :

كان عمر أبا العيال . وكان يمشى إلى المغيبات اللواتى غاب أزواجهن ، فيقف على أبوابهن ويقول : « ألكن حاجة ؟ وأيتكن تريد أن تشترى شيئاً ؟ فإنى أكره أن تخدعن فى البيع والشراء » ، فيرسلن معه بجواريهن ، فيدخل السوق ووراءه من جوارى النساء وغلمانهن ما لا يحصى ، فيشترى لهن حوائجهن ، ومن ليس عندها شىء اشترى لها من عنده ، وإذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعهن بنفسه فى منازلهن بكتب أزواجهن ويقول : « أزواجكن فى سبيل الله ، وأنتن فى بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن كان عندكن من يقرأ ، وإلا فاقربن من الأبواب حتى أقرأ لكن » ، ثم يقول : « الرسول يخرج يوم كذا وكذا ، فاكتبن حتى نبعث بكتبكن » ، ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول : « هذه دواة وقرطاس فاقربن من الأبواب حتى أكتب لكن » . ويمر إلى المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها إلى أزواجهن !

فهذا عمر بن الخطاب ... رضى الله عنه !

ياقوت صبرى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة
AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٢٦٩

العدد ٤٥٣ | الثلاثاء ١٧ من شوال سنة ١٣٦٦ — ٢ من سبتمبر سنة ١٩٤٧ | السنة التاسعة

قضية وادى النيل

فى مرحلتها الأخيرة أمام مجلس الأمن

كانت نتيجة الاقتراع فى مجلس الأمن على ما اقترحته البرازيل لحل النزاع المصرى البريطانى مفاجأة لم تكن متوقعة . فقد امتنعت كولومبيا عن التصويت فى جانب المقترح ، وبذلك لم يظفر بالأغلبية الضرورية لإقراره . أما التعديلات التى كانت قد اقترحتها بلجيكا وأستراليا ، فقد رفضت قبل النظر فى المقترح .

وقد قدمت كولومبيا مقترحا جديدا ليحل محل مقترح البرازيل ، وهو موضع نظر المجلس . وإلى وقت كتابة هذه السطور لم يكن المجلس قد قطع فيه برأى . ويتفق مقترح كولومبيا مع مقترح البرازيل فى أنه يدعو الطرفين المفاوضة ، ولكنه يختلف معه فى أنه يوضح بعض أمور غامضة فى مشروع البرازيل ، ويفصل الأهداف التى يجب أن تتوخى المفاوضات الوصول إليها ، ويشير بالرجوع المجلس إذا تعذر الاتفاق ، وكان من الطبيعى أن يكون موقف ممثل مصر ضد الاقتراح الجديد ، كموقفهم من الاقتراح البرازيلى ؛ فهما متفقان فى الجوهر ، وهما متعارضان مع ما تراه مصر من عدم جدوى المفاوضات .

والنتيجة المتوقعة للاقتراح لا تخرج من أمرين : أن يظفر الاقتراح بالأغلبية الضرورية ، فيصبح قراراً واجب التنفيذ ، أو لا يظفر فتصبح المسألة معلقة لم يبت فيها . وفى كلتا الحالتين لابد للطرفين من إعادة النظر فى موقفهما واتخاذ خطة جديدة فى تحديد العلاقات بينهما .

فأما بريطانيا فلا بد أن تكون قد أدركت مبلغ ما جره عليها عنادها ، وجمود سياستها فى القضية المصرية ، فقد تعرضت لحملات شديدة كشفت من تنكرها لمبادئ الميثاق الذى اشتركت فى وضعه وبشرت به ، وبعد أن كانت فى كل مجلس تظهر بمظهر الناصر لمبادئ الحرية والعدل المقاوم لأعمال العدوان والعنف ، وتتولى قيادة الحملات على غيرها من الدول الكبرى التى تمس حقوق دول صغيرة ، أو تبسط عليها نفوذا مقنعا ، أصبحت هى موضع الشكوى والاتهام ، وأصبحت عاجزة من تبرير مسلكها إلا بالتترس خلف نصوص معاهدة فرضتها على مصر ، قد استنفدت أغراضها وأصبحت غير صالحة للتنفيذ ، لمخالفتها الصريحة لميثاق هيئة الأمم المتحدة ، وقد كان لبريطانيا مندوحة عن هذا الموقف البغيض الذى مس مكانتها الدولية لو أنها تحرت الإنصاف مع مصر ، ولم تصر على سياستها

الاستعمارية التي تأبى التخلي عن ميزة اغتصبتها إلا إذا أرغمت عليها إرغاما .

وقد كان مندوب بريطانيا في غنى عن تبرير السياسة الاستعمارية والتمسك بشرعية معاهدة ظالمة ، لو أن الحكومة البريطانية كانت حقيقة جادة في تحقيق المثل العليا التي يهدف لها ميثاق هيئة الأمم المتحدة ؛ فقد كان بحسبه أن يقول إن نظرة بريطانيا قد تغيرت وإن عقليتها قد تطورت وإنها لم تعد تبغي نفوذا أو سلطانا ، بل تنشد السلام بين الدول ، وإنها لهذا لن تتمسك بمعاهدة سنة ١٩٣٦ ، لأنها معاهدة فيها كثير من الغبن والحيف بالطرف الآخر ، وأنها لا تأبى إعادة النظر في الأمر كله بما يحقق العدل والانصاف ، وأنها تود أن تعطي فرصة أخرى للمفاوضة تبرهن فيها لمصر على حسن نيتها وعلى تشربها روح العصر الجديد ، روح هيئة الأمم المتحدة وميثاقها . لو أن مندوب بريطانيا سلك هذا المسلك لقطع على مصر الطريق ، ولما كان باستطاعتها أن ترفض الرجوع للمفاوضة ، وأن تجد كثيراً من أعضاء المجلس يؤيدونها في الرفض ، لأن الرجوع للمفاوضات إضاعة وقت فيما لا طائل تحته ، ولكن الكبرياء الدولية والروح الاستعمارية الكامنة أبت إلا الإصرار على الموقف وتبرير الخطأ ، وهو موقف أضعف مركز بريطانيا وأبان للناس أن تأييد من يؤيدها إنما هو من باب المجاملة وستر الموقف لدولة كبيرة تعد ركنا هاما من أركان النظام الدولي الحاضر .

ولا ندري كيف يكون مسلكها بعد ذلك . ولكن نظن أنها تحسن كثيراً لو أنها بادرت منذ الساعة بإعلان جلاء جنودها عن مصر في موعد قريب ونفذت ذلك سريعا .

بهذا تصلح كثيراً من سمعتها الدولية التي تعرضت لكثير من الأذى في مناقشات مجلس الأمن ، وبهذا تقيم الدليل على حسن نيتها ، وبهذا وبه وحده تمهد السبيل لمفاوضات جديدة بينها وبين مصر ، وهي مسألة جديرة بأن تجعلها موضع اعتبارها ، إذا أرادت بحق أن تقوم علاقات الدولتين على أسس سليمة .

لقد أعلنت الأمة بجميع هيئاتها وأحزابها أنه لا يجوز لأي فرد أن يفاوض انجلترا باسم مصر بعد أن ثبت للجميع أن المفاوضات قد أصبحت عقيمة لا تؤدي إلى نتيجة بسبب عناد بريطانيا وعدم تزحزحها عن موقفها ، ولا سيما في أمر السودان . وعاد الجميع إلى رأي الحزب الوطني بأنه لا مفاوضة إلا بعد الجلاء ، وقد ثبت للجميع أن بقاء القوات المحتلة وسيلة للتهديد والمساومة ، فلا يمكن إجراء مفاوضة يرضى عنها الشعب المصري إلا إذا سبقتها خطوة أساسية تبين حسن نية بريطانية وهي خروج قواتها من مصر . إنها إن قامت بهذه الخطوة ذللت كثيرا من الصعاب التي تعترض اتفاق الطرفين .

أما موقف مصر فما لا شك فيه أن مجلس الأمن ومناقشاته قد أتاحت لنا فرصة ذهبية لعرض قضيتنا وبسط حججنا في الدفاع عنها ، ومكنتنا من إسماع العالم صوتنا وإطلاعه على الحقائق التي كان الاستعمار الأجنبي يطمسها ويشوهها ؛ وبالإجمال كانت مناقشات مجلس الأمن دعاية قوية لمصر وقضيتها ، لو بذلت الملايين لإحداث ما أحدثته من أثر لكان قليلا . وقد برهن وفد مصر في المجلس على كفايته ويقظته وثبات جنانه واستمساكه بالحق مما رفع قدر مصر وأعلى مكانتها الدولية .

ولقد ظفرنا بعطف صريح على قضيتنا من جانب كل مندوبي الدول وإن كانت الاعتبارات السياسية لم تجعل لهذا العطف نتيجته الطبيعية ، وهي التأييد الكامل لمطالبنا ؛ هذا المكسب خليق أن يقدر تقديراً طيبا ،

وألا يكون في بعد القرار عما كنا نأمله مثبط لهممنا أو مخيب لآمالنا .

فإذا جاء القرار داعياً المفاوضة فيجب أن ننتظر الخطوة التي أشرنا إليها من جانب انجلترا ، وإلا كان إقدامنا عليها عبثاً أو على أقل تقدير مغامرة

وعلى كل حال لا يصح أن يفلت زمام الأمور من أيدي القادة ، وتتحرك الخلافات الحزبية بصورة تلهينا عن الموقف ، كما لا يجوز أن يلجأ الشعب للتعبير من سخطه بتلك المظاهرات الصاخبة التي لا فائدة منها ، وقد يكون من نتائجها خسارة في الأرواح والأملاك . إن التظاهر الآن لن يمس الإنجليز لأنهم بعدوا من القاهرة والإسكندرية ، وإنما يعطل مصالح الشعب ويمس أفراده وممتلكاتهم ؛ والموقف بحاجة إلى ما هو أكثر من التظاهر ، إذا كنا لا نريد المفاوضات ولم يتقدم خصمنا بما عهد لها . الوقف بحاجة إلى خطة عملية تشعر بريطانيا بأننا نستطيع أن نضرها إذا أردنا ، ونفهمها بشراء صداقتنا بكل ثمن ؛ وهذه الخطة لا ترتجل ، وإنما يضعها مفكرون يزنون الأمور بميزان العقل ، ويقدرون لكل خطوة نتائجها .

إننا بانتظار ما تتمخض عنه الأيام المقبلة ، وليس أشهى إلى نفوسنا من أن ترجع بريطانيا إلى الحق ، وتعدل عن سياستها الاستعمارية . عند ذلك لن تجد منا إلا الصداقة الأكيدة والمودة الخالصة والتعاون في السراء والضراء . والله ولي التوفيق . (. . .)

من وحي رشيد

دع الشعر يستهوي الجمال ويستوحي
ويسمو عن التشبيب والهجو والمدح
وعلا عينيه بسحر مناظر
يكاد يذوب الحسن فيها على السفح
تغني جموع الطير أنشودة الربى
وينشد ماء النيل أغنية الدوح
ويرقص أبكار النخيل وتنثني
على الرمل تسليه بحلو من المزح
كأن رقيق اللحن من كل جانب
زفّ عروس الشمس في الروض للصبح

بدوي أحمد

على هامش معاهدة سنة ١٩٣٦ :

قصاصة ورق!

لسنا بالتأكيد ممن يمكن أن يتهموا بأنهم يدلون بقوتهم المادية . ولسنا بالتأكيد ممن يمكن أن يحمل قولهم على ما يحمل عليه قول الطغاة الجبابرة الذين يشقون طريقهم في الحياة على متن القهر والقسر الوحشي ؛ فعندما قال غليوم الثاني امبراطور ألمانيا : إن المعاهدات لا تزيد على أن تكون قصاصات من الورق كان الباعث له على قوله ذلك أنه لا يعبأ بأن يقيد نفسه بالمعاهدات لأنه في غنى عنها بما عنده من جيوش وأساطيل ومدافع وقنابل تذل له كبرياء الأمم الأخرى وتجعلها تخضع له وتنطوي تحت سلطانه ؛ فهو على ذلك لا يعبأ بأن يقيد نفسه بالعهود والمواثيق إذا بدا له أن يتحلل منها طاعة لأطماعه ونزوات السلطان في نفسه ونفس أمته .

هذا ما كان ينطوي تحت كلمة الإمبراطور غليوم الثاني عندما أعلن في أول الحرب الماضية أن المعاهدات لا تزيد على أن تكون قصاصات من الورق .

ولكننا نقول اليوم إن معاهدة سنة ١٩٣٦ لا تزيد على أن تكون قصاصة من الورق ، ولا يدفعنا إلى هذا القول إدلال ولا بطر ، ولا ينطوي تحته أي شك في ظلم أو اعتداء . فإن مصر اليوم أمة لا تملك من وسائل السيطرة الوحشية شيئاً ، وعدتها الأولى في نضالها هو العدل والحق ، وإعلانها بأن العدل والحق لا بد أن ينتصرا آخر الأمر .

إننا نقول إن معاهدة ١٩٣٦ لا تزيد على قصاصة ورق من ناحية أخرى غير الناحية التي قصد إليها غليوم الثاني وأمثال غليوم الثاني ، فإن الأقوياء الطغاة منطقها لا يعبأ إلا بشيء واحد وهو المطامع ونزوات السلطان والقهر والسيطرة . فالطغاة أمثال غليوم الثاني يتنكرون للمعاهدات أحيانا ويسمونها قصاصات من الورق إذا كانت تعترض نزوات مطامعهم وسيطرتهم ، وهم يتمسكون بالمعاهدات أحيانا ويعدونها أساس التعامل الدولي ، ويحرصون على إظهارها في مظهر القداسة إذا كانت تحقق لهم مطامعهم أو تساعدهم على إشباع نزوات سيطرتهم . هكذا الأقوياء يخفون في أنفسهم ما الله مبديه ، ويظهرون على ألسنتهم ما يبرز حجتهم رياء الناس ، لا يبتغون حقيقة ولا عدلاً . فمندوب بريطانيا عندما تمسك بمعاهدة سنة ١٩٣٦ وتغنى بقدسيتها وناشد أمم العالم المتمدن أن يحافظوا على احترام الدول لمعاهداتها ، إنما يصدر عن نفس النزوة التي دفعت غليوم الثاني إلى قوله إن المعاهدات ليس سوى قصاصات من الورق . لأن مندوب بريطانيا وكل ممثل آخر لدولة قوية إنما يتعلق بالحجة التي تعزز منطق القوة والسيطرة .

أما نحن فإنا ننظر إلى المعاهدة التي بيننا وبين انجلترة بمنطق آخر — منطق الأمة العزلاء التي لا تتوسل في نضالها إلا بوسيلة العدل الإنساني والحق الطبيعي ، ولا تستطيع أن تلجأ إلى شيء سوى المنطق الإنساني والتفكير الساذج الطبيعي .

لقد جاءت جيوش بريطانيا إلى مصر متذرعة بحجة واهية مظاهرها يبرق رياء ، وحقيقتها لا تزيد على رغبة دولة في السيطرة على مصاير أمة ضعيفة تتطلع إلى الحياة .

وبقيت الجيوش البريطانية في مصر مستندة إلى شيء واحد وهو القوة التي نسمح لأنفسنا أن نسميها اسما سافرا صريحا ، نسميها القوة الوحشية .

وظل شعب مصر نضال العارف بالحق يحاول أن ينال العدل على يد الإنسانية إذا تحرك ضميرها لنصر العدل ، فما ترك فرصة لم يظهر فيها سخطه على بقاء الجيوش البريطانية في مصر . ووعدت بريطانيا وعداً بعد وعد حتى أتمت نيفا وستين وعدا بالجلاء عن مصر ، ولكنها كانت في كل مرة تتحلل من واجبها في تحقيق وعدها .

فليس من الممكن عقلا ولا منطقا أن يزعم ممثل بريطانيا فى مجلس الأمن أن بقاء الجيوش البريطانية فى مصر ناشىء من المعاهدة التى قبلناها طائعين مختارين . هذه مغالطة لا يستطيعها إلا الأقوياء أمثال بريطانيا .

وأما معاهدة سنة ١٩٣٦ ، فقد كان لها شأن معروف ، لا يخفى على أحد فى بلاد العالم ، إذا أراد أن يعرف حقيقتها . لقد أبرمت معاهدة ١٩٣٦ فى وقت كانت فيه بريطانيا تنتظر هبوب العاصفة الهوجاء ، وكانت مصر كذلك تريد أن تصل إلى اتفاق يكفل لها تحقيق أمانيها . ولكن منطق القوة أبى إلا أن يعطى ما يشاء ، ويمنع ما يشاء — لا من حق القوى ، بل من حق الضعيف نفسه — فوهبت بريطانيا بعض الشىء من حق مصر الطبيعى ، ورأت مصر أن تبرم المعاهدة حتى لا تضطر إلى المناصرة الكبرى مع دولة قوية مثلها .

ولكننا دخلنا فى سنوات الحرب ، وقمنا بما لا يستطيع أحد أن ينكره من خدمات كان لها الفضل العظيم فى إحراز النصر للحلفاء . وقد برهنا فى أثناء تلك السنوات القاسية على أننا نستطيع أن نكون أصدقاء أوفياء فى أشد أوقات المحنة .

ومرت السنوات حتى صرنا اليوم فى عام ١٩٤٧ بعد أن تغيرت كل الأحوال وتبدلت كل الظروف التى من أجلها قبلت مصر ما قبلت فى معاهدة ١٩٣٦ ، والتى من أجلها حرصت بريطانيا على ما حرصت عليه فى معاهدة سنة ١٩٣٦ . فليس فى شىء من العدل ولا من الحق أن تتمسك بريطانيا بمعاهدة قد تغير كل ما حولها وكل ما يتصل بها . فإذا كانت بريطانيا تريد أن تتمسك بتلك المعاهدة فليس معنى هذا سوى أنها تريد أن تتمسك بالظاهر دون الحقيقة ، وأنها تضمر غرضاً واحداً ، هو التوسل بحرف المعاهدة للوصول إلى السيطرة . إن القيمة التى كانت لمعاهدة سنة ١٩٣٦ ، فى أعوام الحرب الماضية ، إنما هى قيمة اعتقاد مصر فيها وإخلاصها لها . ولقد استفادت انجلترة ، بل لقد استفاد العالم من معاهدة سنة ١٩٣٦ لسبب واحد ، وهو أن مصر آمنت بأن واجبها يحتم عليها القيام بتعهداتها فيها . لن ننسى اليوم الذى وقفت فيه جيوش ألمانيا على حدود مصر الشمالية الغربية ، وكل المظاهر تدل على قرب انتصارها ، لن ننسى كيف ذعر الانجليز عند ذلك ، حتى سافر كبارهم إلى السودان أو جنوب إفريقيا ، وحتى استعدت الهيئة السياسية الانجليزية نفسها للرحيل من القاهرة . لن ننسى كيف كان الانجليز أنفسهم لا يؤمنون بأنهم يستطيعون الثبات فى مصر ولا فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن كبار ساستهم أخذوا يتحدثون عن الرابطة لمدومم فى جهة أخرى . لن ننسى ذلك كله ، كما أننا لن ننسى وقفة مصر وحدها . لقد كتبنا عند ذلك فى مجلة الثقافة بالقلم الذى نكتب به الآن ، نعلن رأى المصريين الذين نعرف عواطفهم وحقيقة آرائهم ، فقلنا إن مصر بلاد مستقلة ، قد تعاهدت مع صديقتها بريطانيا وقد عزمت على البر بتعهداتها مهما كلفها ذلك ، ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تقهر عقيدتها فى استقلالها ، أو زحزحتها عن واجبها الذى يمليه عليها ضميرها فى الوقوف إلى جانب حليفتها . قلنا إنه لن تستطيع قوة فى الأرض أن تنزع من مصر ما تمليه عليها ثقافتها الأصيلة ومدنيتها القديمة العريقة ومثلها العليا ، وهو الوفاء فى الشدة لحليفة ربطت نفسها بمعاهدة معها .

كتبنا ذلك فى سنة ١٩٤٢ واعتقدناه عندما كنا نؤمن أن معاهدة سنة ١٩٣٦ لها علينا أن نؤمن بها ولها علينا أن نفى بشروطها .

وأما اليوم فإن معاهدة سنة ١٩٣٦ قد سقطت عندنا ، وأصبحت لا تزيد على أنها قصاصة من الورق . وليس ذلك لأننا نُدل بقوة مادية ، ولا لأننا نتحدى قوة بريطانيا العظمى ، بل لأننا نؤمن بأنها أصبحت لا أساس لها .

الكبش الجريح

وثب الذئب على الكبش فمزق منه وانتهش ؛ وفرح الذئب لأن في طبيعته أن ينهش ويمزق ؛ كذلك فرح الكبش ، ولم أكن أعلم أن في طبيعته ما يستطيب النهش والتمزيق .

فرح الذئب حين مزق وانتهش ، لأن له في ذلك طعاما وشرابا فغذاء وغناء ؛ إن من يلوم الذئب لافتراسه الكبش كان كمن يلوم النار لأنها تلتهم الهشيم ، والسيل لأنه يتدفق هدارا من قمة الجبل .

لقد قيل إن الدليل على وجود الله أقوى الدليل هو ما نراه في الكون من تنسيق جميل ؛ قلت : وهذا التنسيق ما معناه ؟ قيل : معناه الذي ليس له معنى سواه هو ما بين الأشياء من توافق كأنها فيه على اتفاق ؛ فضوء الشمس له طبيعة خاصة ، وشبكية العين لها طبيعة خاصة ، أعدت بحيث تلائم ذلك الضوء ؛ ولو تغير ضوء الشمس قيد أنملة أو تغيرت شبكية العين قيد شعرة ، لكان ضوء الشمس لنا عبثا في عبث ، ولكانت أعين الانسان والحيوان ضربا من الاسراف والتبذير ؛ وكذلك قل في الذئب والكبش ؛ فلولا طراوة الكبش لكانت أنياب الذئب ومخالبه زوائد لا تقتضيها الحكمة ولا يرتضيها حسن التدبير ؛ فمن كمال الله وجلاله أن للذئب أنيابا تنهش الكبش ومخالب تمزقه وتفريه .

قال الانسان : إني موجود لأني أفكر ؛ فكان بقوله هذا فيلسوفا . وقال الذئب : إني موجود لأني آكل وأفترس . فأثبت أن الفلسفة ليست وقفا على الانسان .

قلت للذئب : هلا سموت بنفسك فأشفقت على هذا المسكين ؟ فقال الذئب ساخرا : هكذا يسمو الناس ، لكن ما هكذا تسمو الذئاب . ومن الذئاب ما يسكن البيوت مع الناس ، ومنها ما يسكن الغاب .

ليس على الذئب في ذلك كله لوم ولا تثريب .

إنما يقع اللوم والتثريب على صاحبنا «الخروف» الذي

لمعاهدة سنة ١٩٣٦ ، لا تستند اليوم إلى شيء في ضمائرنا ولا في عقائدنا ولا في مثلنا العليا . فنحن لا نريد في قلوبنا على قصاصة من الورق كما قدمنا .

فما يكون موقفنا مع انجلترة إذا هي قنعت بأن تكون علاقتها بنا قائمة على قصاصة من الورق ؟ لن يكون بيننا وبينها إعلان كذلك الذي حدا بنا في سنة ١٩٤٢ ، إلى إعلان الإخلاص لها . لن يكون بيننا وبينها إلا الشعور بأننا أمة جديرة بالحياة الحرة ، وأنها تريد أن ترغمنا على الرق والاستعباد ، لن يكون بيننا وبينها إلا السخرية ، من أنها وهي دولة مجربة في السياسة تقنع في علاقاتها بالظواهر الجوفاء ، والحروف الجامدة وبنود الصكوك . فإذا كان للضعيف أن يتحدى القوى ، فإننا نسمح لأنفسنا هنا بأن نتحدى ، ولسنا نتحدى بريطانيا في خفة ولا في نية سيئة ولا في كراهة لشعب بريطانيا ، بل نتحدى لأننا نستند إلى الحق والطبيعة ذاتها . إن الأمم لا تربط ببنود المعاهدات وحروفها ، بل بحقائقها وروحها ، ولا تقهر بالقوة الماثلة في الجيوش ، بل إن قوة تلك الجيوش لن تزيدها إلا إيمانا بحقها وسعيا إلى الخلاص بكل وسائل الخلاص .

إننا نتحدى بريطانيا تحديا ناشئا من إيمان قائم على تعقل واعتدال وحسن نية . نتحداها بأنها لن تستطيع أن تقيم علاقتها مع مصر على القهر بالقوة ، ولا على حروف جوفاء لمعاهدة لا وجود لها في نفوسهم .

فلينظر ساسة بريطانيا إلى مصلحتهم لا إلى مصلحتنا ، فإننا لن نضع عزيمة الجهاد حتى تتحقق لنا كل فرصة في حياة حرة عزيزة .

محمد فريد أبو حديد

استمرأ ضرب المخالب واستلذ وقع الأنياب ؟ دماؤه تسيل وعلى شفتيه ابتسامة ، ويلغ الذئب فيه ويلعق وفى عينيه نظرة استسلام ورضى .

حينا ينبرى بقلمه كاتب ليدفع الأذى عن هذا الخروف ، وحينا يرتقى المنبر فى سبيله خطيب ، لأن عدوان الذئب يصادف فى نفسه القبول ! فليعدل الخروف من طبيعته أولاً ، وبعد ذلك فليكتب الكتاب ليدفعوا عنه العدوان وليخطب الخطباء .

يضحكنى آناً ويحزننى آناً أن أرى أنصار الكرامة الانسانية يتصدون للذئب قائلين : أهكذا ياذئب يكون الإخاء وتكون المساواة بين عباد الله ؟ ولو أنصفوا لاتجهوا نحو الخروف وحقنوه بما يشيع فى عضله الصلابة وفى لحمه المرارة ، ليخاطب الذئب فى ثقة وإيمان كلما خطر للذئب خاطر العدوان : اخنس ياذئب فيدى إن لحمى كان مرا .

قلت للخروف : هلا أخذتك النخوة يوما فغضبت غضبة الكرام التى لا تقف عند حد اللغو والكلام ؟ هلا أخذتك النخوة يوما فأبيت على الذئب هذا العدوان ؟

قال : كيف عرفتنى خروفا وقد تخفيت فى ثياب الرجال ؟

قلت : عرفتك فى مائة موضع وموضع ، أسوق لك منها مثلين .

عرفتك حين أردت أن تخاطب سيدك الذئب يوما ، فضغطت على القرطاس بحافر وأمسكت القلم بحافر ، وهززت قرنيك تفكر كيف توجه إلى الذئب الخطاب ، بحيث تباعد بينك وبينه ، كأنه السليم وكأنك الأجرب ، وكأنك تخشى عليه المرض إن دنوت منه ؟ أردت فى الخطاب أن تجعل بينكما من الكلمات حدودا يضمن له الرفعة ولا يفسد عليك الضعة التى استمرأت مذاقها ؟ إنك تعلم أن قوانين الغابة تجعل منكما زميلين من ذوات الأربع ، فلو خاطبته بقولك « إلى الذئب » لما كان عليك لوم ولا عتاب ؛ لكنك استكبرته واستصغرت نفسك ، أعززته وأذللت نفسك ، عظمته وحقرت نفسك ، لأن الصغار والذلة والحقارة أصبحت جزءا من طبعك ، ولا تطمئن إلا بها ولا تجد نفسك إلا بينها ؛ عرفتك خروفا حين رأيتك يوم أخذت تحرر الخطاب لسيدك الذئب ، وتهز قرنيك مفكرا كيف توجه إليه الخطاب ، بحيث ترضى كبرياءه وتشبع فى نفسك ذل العبيد ؛ فكتبت أول ما كتبت « إلى حضرة الذئب » ، لكنك رأيت المسافة بينكما تكون بمثل هذا الخطاب أقصر مما ينبغى ، فلا يكفى أن تتجه بالخطاب إلى « الحضرة » مباشرة — و « الحضرة » معناها فيما أظن مكان الذئب لو خلا من الذئب — فلم تحتمل أن تواجه بخيالك مكان الذئب ، حتى وإن خلا منه ، مواجهة مباشرة لا تحميك دونها الموانع والحواجز ؛ فمحوت وكتبت : « سيدى حضرة الذئب » ؛ لكنك وجدت مرة ثانية أن الشقة بينكما لم تزل أقصر مما ينبغى ، فهززت قرنيك ومحوت ثم كتبت : « سيدى ومولاى حضرة الذئب » ؛ لكنك وجدت مرة ثالثة أن المسافة لم تزل بعد قصيرة ، وأنها ينبغى أن تطول بقدر المستطاع ، فمحوت وكتبت : « سيدى ومولاى حضرة صاحب الجد الذئب » ؛ لكنك المرة الرابعة لم ترض عما كتبت وطاف برأسك خاطر أزعجك وخوفك ، إذ قلت لنفسك : إن الذئاب فى الغاب كثيرة ، فكيف أسوى بين سيدى هذا وبين زملائه ؟ لا بد لى من علامة تعلو بذئبى فوق الذئاب ، لتزداد ضخامة فأزداد ضآلة ، فمحوت وكتبت « سيدى ومولاى حضرة صاحب الجد ذئب الذئاب وملك الغاب » ؛ وهنا افترت شفتاك عن ابتسامة رأيت فيها الغبطة والرضا .

وعرفتك خروفا حين رأيتك ذات يوم وقد ارتديت

بدلة من الحرير الأبيض الناصع ، وأخذ يرفرف على صدرك العريض رباط ملون بالأحمر والأبيض يخطف البصر بجمال ألوانه ؛ فتلت شاربيك ، وغطيت بالطربوش قرنيك ، وضربت الأرض بحافريك ؛ ثم إلى المقهى الفاخر أويت ، وعلى مائدة في صدر الصفوف استويت ، وصفقت تصفيقا ارتجت له الجدران .

— واحد قهوة يا متولى .

ليس من طبيعة لغتك أن تقول « واحد قهوة » ؛ ولو تُركت لنفسك لقلت « قهوة يا متولى » ، فإن أردت تحديدا عدديا قلت « قهوة واحدة يا متولى » ؛ إنك لا تقول لخادمك في البيت — وأنا الآن أفترض فيك ما افترضته في نفسك وهو أنك رجل لا خروف ، رجل له بيت وخادم — لا تقول لخادمك في البيت « واحد طبق يا حسن » بل تقول « طبق يا حسن » وإن أردت تحديدا عدديا قلت « طبق واحد يا حسن » .

لكن « متولى » جاءك سيدا غازيا ، وظن بك أول الأمر خيرا ، فحاول أن يخاطبك بلسانك ، ولكنه أخطأ في تركيب الكلام وترتيب الكلمات ، فانفتحت أمامك بخطئه طرق ثلاثة ، وكان لك أن تختار منها لنفسك طريقا :

الأول أن تعلو بنفسك وتسفل به ، وذلك بأن تصححه حين يخطئ . فتضع نفسك في موضع الذين يعلمون ، وتضعه في موضع الذين لا يعلمون ، وبالطبع هؤلاء وأولئك لا يستوون .

والثاني أن تعلو بنفسك دون أن تسفل به ، وذلك بأن تنطق بلغتك سليمة ، وله أن ينطق بها كيف شاء .

والثالث أن تسفل بنفسك وتعلو به ، وذلك بألا تبين له أنه أخطأ حرصا على شعوره وإبقاء على عزة نفسه ، لأن الخطأ — على أي نحو جاء — نقص وعيب ، فتخطئ أنت في كلامك ليبرأ هو من العيب والنقص .

ولأمر ما يا خروف اخترت لنفسك هذا الطريق الثالث .

قل في ذلك ما شئت يا خروف ؛ قل إنها وداعة الحملان ؛ أو قل إنه التواضع ، وإن في التواضع عند الله رفعة الشأن ؛ أو قل إنه كرم النفس ، ولبس الكرم بغريب على بني القطمان .

قل في ذلك ما شئت يا خروف ، لكنه عندي علامة لا تخطئ ، على ما في نفسك من ذل العبيد ، الذي يستمرئ ضرب الخالب ، ويستلذ وقع الأنياب .

زكي نجيب محمود

الرأسمالية الغربية
فى أندونيسيا
خلال عصر الاستعمار الهولندى

— ١ —

فى يونيه ١٩٤٧ ، عقدت معاهدة تجارية مؤقتة بين مصر والجمهورية الإندونيسية بالقاهرة ، رغبة منهما فى تبادل المصالح العامة ، التى تتطلبها حياتهما الحديثة ، وسوف تقتفى أثر مصر كافة البلدان العربية ، فتعقد بينها وبين إندونيسيا معاهدات تجارية . لتنتفع بالإنتاج الإندونيسى — الزراعى والمعدنى — بعد أن تحررت الثروة الاقتصادية الإندونيسية من سيطرة الرأسمالية الغربية التى احتكرتها واستغلتها ثلاثمائة وخمسين عاما !

ونعرض فى هذا البحث الثروة الاقتصادية الإندونيسية ومدى استغلال الرأسمالية لها ، ليلم القارىء العربى بما تنتجه التربة الإندونيسية من المواد الزراعية والمعدنية . ولتبنى الحكومات العربية أسس علاقاتها الاقتصادية مع الجمهورية الإندونيسية فى العصر الحديث .

تنتج التربة الإندونيسية مواد زراعية ومعدنية ثمينة ، وتفيض عن مطالب الشعب الإندونيسى . وأكثر الإنتاج الزراعى الهام : الأرز ، قصب السكر ، الطماطم ، الدخان ، الفلفل ، التوابل ، النارجيل ، الكينا ، الجزر ، القطن ، البردى ، الشاى ، الكاكاو ، الخيزران ، الأخشاب . وأكثر الإنتاج المعدنى : البترول ، الزيوت المعدنية ، الفحم الحجرى ، القصدير ، الألومنيوم ، الحديد ، الذهب ، الفضة ، الألماس .

وقد جذبت هذه الثروة الطائلة الأوربيين فى القرن السابع عشر . فأنشأوا شركات تجارية فى جزيرة « جاوا » أخصب الجزائر الإندونيسية ، وأفتنها جمالا ، وأكثرها سكانا . ويمكن ملاحظة ذلك فى الأرقام الآتية التى توضح بجلاء مدى ازدياد سكان جزيرة جاوا من عام ١٨٦٠ — ١٩٤٣

السنة	السكان	السنة	السكان
١٨٦٠	١٢٥١٤٠٠٠	١٩٢٠	٣٤٤٢٩٠٠٠ نسمة
١٨٧٠	١٦٢٣٣٠٠٠	١٩٣٠	٤٠٨٩١٠٠٠ »
١٨٨٠	١٩٥٤١٠٠٠	١٩٤٠	٤٧٤٥٦٠٠٠ »
١٨٩٠	٢٣٦٩٠٠٠٠	١٩٤٣	٥٠٠٠٠٠٠٠ »
١٩٠٠	٢٨٣٨٦٠٠٠		

وقد استغلت الشركات البرتغالية والأسبانية والإنكليزية والهولندية هذه الثروات الطائلة . كما استغلت جهود الشعب الإندونيسى ، فنقلت الثروة الاقتصادية الإندونيسية إلى أوربا من طريقين . الأول : الهند فالبصرة فآسيا الصغرى فأوربا . والثانى : مضيق ملاكا فسيلان فالبحر الأحمر ، فالإسكندرية ، فأوربا (فى جنوا والبندقية بإيطاليا) إذ كانتا أكبر المراكز التجارية العالمية فى ذلك العصر .

وفى ٢٠ مارس ١٦٠٢ اتحدت الشركات الهولندية بجزيرة جاوا ، لتقوية مركزها المالى ، وبسط سيادتها الاقتصادية على الشعب الإندونيسى ، والصمود أمام منافسات الشركات الأوربية : البرتغالية والأسبانية والإنكليزية ، وكونت شركة متحدة باسم « شركة الهند الشرقية » رأس مال قدره ٦٤١٩٠٠٠ روبية . وقد استطاعت أن تزيل من الميدان التجارى الشركات البرتغالية فى عام ١٦٤١ .

سارت شركة الهند الشرقية فى تنفيذ برامجها الأساسية التى وضعتها الحكومة الهولندية بهولندا . وهى برامج تتعلق بناحيتين من نواحى حياة الشركة ، وهما : حقوق وواجبات .

فالحقوق : إنشاء الاستحكامات ، سك النقود ، تعيين الحكام والموظفين . والواجبات : الدفاع عن نفوذ الحكومة الهولندية ، تحمل المشتريات ، عرض السجلات والمستندات لموظفى الدولة الهولندية بهولندا . وفى سبيل

تنفيذ هذه الحقوق والواجبات عينت الشركة مديراً عاماً لها يحمل لقب « الحاكم العام » ، وذلك فى عام ١٦١٠ ، وقام بدور هام فى تمهيد الطريق للسيادة الهولندية . فبعد أن زالت الشركات البرتغالية من الميدان التجارى ، لعب هذا الحاكم دورا آخر ، كان أشد فتكا بالوحدة الإندونيسية . إذ سار على سياسة « فرق تسد » ، فأثار الخلافات الداخلية بين أمراء الولايات الإندونيسية المستقلة ، فأحدث حربا عواناً بين كل دولة وأخرى . وقد أنتجت هذه الحرب ضعفاً فى الدفاع الإندونيسى ، استطاع به الحاكم العام لشركة الهندية الشرقية أن يبسط نفوذ الشركة — المالى والسياسى — على الولايات الغربية الإندونيسية الواقعة بجزيرة جاوا . ومن أجلى مظاهر سيادتها المالية والسياسية فرض الضرائب الفادحة على سكان المدن الواقعة تحت سيطرتها ، وحظرها بيع منتجاتهم إلى أية شركة خلافها ، حسب الثمن الذى ترغبه ! ... وقد أحدثت هذه الضرائب مجاعة عظيمة فى إندونيسيا ، ذهب ضحيتها ثلث الشعب الإندونيسى ! ...

وفى عام ١٧١٣ قامت حرب بين هولندا وفرنسا . ثم فى عام ١٧٨٠ — ١٧٨٤ حدثت حرب ثانية ، بين هولندا وانكلترا ، أضرتا كثيراً بمصالح شركة الهند الشرقية . إذ فقدت كثيراً من سفنها . واضطرت إزاء هذه الخسائر المتلاحقة بمرافقها العامة إلى الاقتراض من الحكومة الهولندية فأقرضتها (١٤) مليون روبية بفائدة معينة . وفى عام ١٧٩٩ سلمت شركة الهند الشرقية زمام الأمور للحكومة الهولندية . وتنازلت هذه عن دينها للشركة البالغ قدره (١٣٤) مليون روبية . لأنها ستستعيده من الضرائب ومن الثروة الاقتصادية الإندونيسية .

نظام الزراعة الإجبارى :

دافع الإندونيسيون عن وطنهم دفاعاً مجيداً ، ضد العدو المغير ! ففى عام ١٨٢١ — ١٨٣٧ ، أشعلوا نار حرب مقدسة ضد الحكم الهولندى ، بقيادة الإمام بونجول ، بجزيرة سومترا . وفى جزيرة جاوا اشتعلت نار حرب أخرى بقيادة الأمير ديبونيغورو ، للقضاء على الحكم الهولندى ، وذلك فى عام ١٨٢٥ — ١٨٣٠ ، ولم يشأ الله أن يقدر لها النجاح ؛ وقد استنفدت هاتان الحربان مالية الحكومة الهولندية ، وأفنتا كثيرا من جنودها . ولكى تخضع الشعب الإندونيسى لسيادتها ، وتستعيد ما فقدته من الأموال ، أصدر الحاكم العام للحكومة الهندية الهولندية « جراف جوهانس فان دن بوش » نظاماً زراعياً إجبارياً للشعب الإندونيسى فى عام ١٨٣٠ . ودعى هذا النظام « النظام الزراعى الإجبارى » بمقتضاه يزرع الشعب الإندونيسى نباتات معينة كالبن وقصب السكر والنيلة ، لأنها مواد زراعية صالحة للأسواق العالمية . وقد استمر هذا النظام سارياً مدة أربعين عاماً ، ربحت خلالها الحكومة الهولندية ما يربو على (٩٠٠) مليون روبية .

وأما النتائج المترتبة عليه فهى : ١ — فناء ثلث الشعب الإندونيسى . ٢ — انتشار المجاعة العامة . ٣ — انحطاط الشعب عقلياً وجسمياً . ٤ — جدب التربة الإندونيسية .

ونوضح فى البيان الآتى النباتات التى فرضت الحكومة الهولندية زراعتها على الشعب الإندونيسى ، وعدد العائلات الإندونيسية التى قامت بزراعتها .

نوع الزراعة	العائلة المعينة لها
قصب السكر	١٥٤٧٨٦ عائلة
الفلفل الأسود	١٣٤٠٦ «
البن	٤٠٩٧٧٣ «
النيلة	١٦٨٧٢٠ «
الدخان	٢٩٤٩٣ «
الحرير	١٣١٠ «
القرفة	٨٣٠١ «
زراعات أخرى	١٠٠٣٠ «
الجملة	٧٩٥٨١٩ عائلة

فهل كانت هذه العائلات تنال أجراً مقابل شقائها ؟

إن الحكومة الهولندية أعطت كل عائلة اندونيسية أجراً تافهاً هو أجلى مظهر للاستغلال الهولندى . وفى البيان الآتى مقدار أجرة العائلة الواحدة فى حقول النباتات التى زرعتها فى سنة واحدة :

الأجرة	المحصول	الأجرة	المحصول
١٨٫١٦ روبية	قصب السكر	١٥٫١٣ روبية	البن
١٢٫٨٢ »	النيلة	١١٫٦٩ »	الدخان
٤٫٣٢ »	الفلفل		

فيا لقلة من أجر ! . . . لا يروى ظمأ ! ولا يشبع جوعاً ! . . . وإذا قدرنا أن كل عائلة مكونة من خمسة أفراد (أب وأم وثلاثة أبناء) فان عدد الذين سخروا للزراعة (٣٩٧٩٠٩٥) نسمة ! ...

وفى عام ١٨٤٧ و ١٩١٥ ، ألغت الحكومة الهولندية زراعة قصب السكر والبن ، من برامج الزراعة الإجبارية . وفتحت أبواب هذه الأعمال لرؤوس الأموال الهولندية ، تستغلها كيف تشاء ! . . .

لقد جاء دور استغلال الرأسمالية الهولندية . فلننظر كيف فسح لها المجال .

فى ٩ ابريل عام ١٨٧٠ ، أصدر وزير المستعمرات الهولندية « اى . دى . وال » قانونا ينزع الملكية من الأيدى الإندونيسية ، وسماه « Agrarische Wet » أى « قانون الأرض » يخول الهولنديين حق انتزاع الأراضى الزراعية من الشعب الإندونيسى ! ويستغلونها خمسة وسبعين عاماً ! ويجوز تجديد الاستغلال « صوريا » لخمسة وسبعين عاماً أخرى . وبتطبيق هذا القانون فى أنحاء أندونيسيا ، انتزع من الشعب الإندونيسى أكثر أراضيه وأخصبها ! . . . ففى نهاية عام ١٩٣٦ بلغت مساحة الأراضى المنتزعة من الأملاك الإندونيسية فى جزيرة جاوا ومادورا (٨٠٠٣٢٠) هكتاراً ! وفى جزيرة سومطرا والجزر الصغيرة الواقعة فى شمالها وشرقها (٩٢٤٢٦١) هكتاراً ! وأرصد لاستغلالها مبلغ (٤١٠٠) مليون روبية ! . . .

وفى عام ١٨٨٠ ، أصدرت الحكومة الهولندية نظاماً للعمال « Koliordonnantie » أى « نظام العمال » بمقتضاه يتعهد العامل الإندونيسى بالاشتغال فى الشركات الهولندية بأجور معينة ، ومدة محدودة . ولكن لما تعهد بذلك وانتقل إلى مقر عمله ، لم ينل الأجر المتفق عليه . ولكنه أصبح ملزماً بالعمل رغم أنفه ! . . . وفى عام ١٩٢٧ ، بلغ عدد العمال الإندونيسيين المتعاقدين مع الشركات الهولندية بموجب « نظام العمال » فى استغلال الأراضى الإندونيسية المنتزعة من أصحابها الإندونيسيين (٢٤٠٠٠٠) عامل . وبلغ ربح الشركات الهولندية التى استغلت الأراضى الأندونيسية (٥٠٠) مليون روبية فى السنة الواحدة ! . . .

(له بقية) محمد عنبرى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
التليفون — ٠٦٢٦٩
القاهرة

الخواطر

العيون اللواتى رمين شباكهن

منذ أيام قلائل كنت أعود طفلا فى العاشرة من عمره أصيب فجأة بفقد قوة الإبصار فى إحدى عينيه ، بينما كان يلهو ويلعب على شاطىء البحر ، غير عابىء بالمستقبل القريب أو البعيد ، شأن غيره من الأطفال ، ينظر إلى الأفق من بعيد فيخاله فى قبضة يده . ويعيش للساعة التى هو فيها ، غير مفرق بين أمسه وغده . كان صاحبنا الصغير يشكو فى السنوات الأخيرة من قصر فى النظر ، اضطر بسببه أن يلبس نظارة طبية ، عملت طبق إشارة وإرشاد طبيب إخصائى . وكان يستعملها أثناء النهار ، وفى استذكار دروسه بالمنزل أو المدرسة ، وهذا الطفل من طبيعته التنادر وحب الفكاهة . فكان يتساءل دائما : ألا يمكننى أن ألبسها أثناء النوم أيضا حتى أتبين بوضوح وجلاء الوجوه التى أراها فى منامى وأحلامى ؟

عاد الطفل إلى منزله ذات يوم بعد أن ارتوى وشبع لهواً ولعبا على الشاطىء ، وإذا به يقول لوالده فجأة : إنى لا أرى بالعين اليمنى ، فإذا أغمضت اليسرى بدا العالم ظلاما حالكا على غير ما اعتدته . ثم عاد إلى لعبه وكأن لم يحدث شىء ، أو كأنه لم يقل شيئاً ذا بال ، ولم يلاحظ شهقة الجزع التى صدرت من والدته الثقفة العليمة عما ينطوى عليه كلامه ، ولا اضطراب والده الرهف الحس الذى أسرع باستشارة الإخصائى تلو الآخر ، والريض الصغير يعجب من اهتمامهم ، ويقول لهم فى تفكه وبساطة : وماذا لو فقدت بصر إحدى العينين ، وبقيت لى الأخرى سليمة ألمس بها طريقى ، وأستذكر بها دروسى ! وغالبت الأم البكاء ، وحبس الوالد دمعة أسى ، ونظر الاثنان إلى تلك العجينة الآدمية المحشوة بالسذاجة والبراءة والسخافة ، وعدم القدرة على تقدير عواقب الأمور ، وسبحان الذى يخلقها أول مرة ، ثم يسوّيها ويجعل منها مخلوقاً كامل التكوين والتفكير ، بديع التصوير .

استقر رأى الأطباء على حدوث انفصال فى شبكة العين ، وهو مرض يكثر حدوثه بين المصابين بقصر النظر الذين يضطرون بسببه إلى الالتجاء إلى النظارات الطبية ، يستعينون بها على المضى فى عملهم اليومى فى سبيل الحياة وكسب القوت . ويقلل استعمال النظار المناسب من حدوث هذا العارض الفاجىء المضايق . ولذا يجب على من يشك فى ضعف نظره أن يلجأ إلى طبيبه ليصلح له ما أفسده عامل الوراثة — إذ المعروف أن قصر النظر قد يورث من الوالدين — وإجهاد العين فى سبيل القراءة وكسب العيش . وكلما كان قصر النظر شديدا تعرض الشخص أكثر وأكثر للانفصال الشبكى ، وهو فى ذاته قابل للشفاء فى حالات كثيرة ، ولكن العملية التى تجرى لأجله شاقة مرهقة المريض والطبيب معاً . فعلى المريض مثلا أن ينام على ظهره أو أحد جانبيه مدة طويلة ، قد تتجاوز الشهر دون حراك . وإذا تمسك الشخص البالغ بأهداب الصبر شاكراً الله على بلواه ، فأين من هذا الطفل القاصر الذى لا يصبر على البقاء فى سريره أياما ، بل ساعات ، يصر بعدها فى إلحاح مضايق ممل ، على برنامج نزهته اليومى ، ولا يثنيه عن تصميمه إلا الإقناع اللبق ، تارة باللين ، وأخرى بالشدة ، من والدين أرهقهما القلق المميت على مستقبل طفلهما .

أعود إلى بطل قصتى ، فأقول إنه ظل مرحا كعادته طوال مدة إقامته بالمستشفى ينتظر إجراء العملية ، وكان يطمئن نفسه طول الوقت بأنه — حتى فى حالة عدم نجاحها — قانع بعين واحدة ، يرى بها النور وجمال الحياة ،

خدمة المنازل

[كثرت الشكوى فى هذه الأيام من قلة الخدم وقلة صلاحيتهم للأعمال ، وللأستاذ كاتب هذا المقال مقترحات سديدة فى هذا الشأن إذا أمكن تحقيقها كان فى ذلك إصلاح تحس أثره كل أسرة فى مصر] .

كانت خدمة المنازل تافهة يسيرة حينما كانت الحياة المنزلية فى أول نشأتها قليلة المظاهر يسيرة التكاليف ، فلما أخذت هذه الحياة تتقدم وتتعقد بتقدم الحضارة وتعقدها ، صارت خدمة المنازل فى طريق الدقة والمشقة ، حتى بلغت الحياة المنزلية والحضارة مابلغتا الآن من الرقى والتعسر ، فبلغت خدمة المنازل أدق مراحلها وأشقها ، بكثرة الأمكنة وضيقها ، وكثرة الأثاث والأوانى والأدوات والملابس ، وتنوعها ، وألوان الأطعمة ، وما ألفه الناس ودرجوا عليه ، من الافتنان فى إعداد الأطعمة ، وفى وسائل الحياة ، وتربية الأطفال . ومما يزيد هذه الخدمة دقة ومشقة أمر له فى حياة الأسرة وفى ميزانيتها المالية أكبر الأثر ، وهو انتقاء المشتريات اليومية التى يتكون منها غذاؤها كالخضر واللحم والفاكهة من الأصناف الجيدة ، وبالأثمان المعتدلة واشتراؤها من الأسواق .

لقد أصبحت هذه الخدمة فنوناً شتى ، لها قواعد وأصول وأساليب كثيرة متنوعة ، ليس فى الإمكان أن يحيط بها إنسان واحد علماً وخبرة ، ولا أن يقوم بها كلها وحده ؛ فربة البيت وإن أحاطت بهذه الفنون علماً وخبرة وأوتيت أعظم قوة نسوية جسدية ، أعجز من أن تقوم وحدها بهذه الخدمة ، إنها وإن اتسع لها علمها وجهدها لا يتسع لها وقتها .

إن اشتراء هذه المشتريات اليومية وإعدادها للغداء يستنفد نصف النهار الأول ، وإلى أن تنتهى الأسرة من الغداء على الطريقة الحديثة يضيع من نصف النهار الثانى أكثر من ساعتين ، ويضيع مع هذا وذاك الجهد كله ويضطر الجسم إلى الراحة ، فماذا يبقى بعد ذلك من الجهد والوقت لمطالب المنزل الأخرى ، كتنظيف حجره وترتيبها وغسل أرضه وتنظيف نوافذه ومصاريعها ، وتهوية الفراش وتنظيف الأوانى والأدوات والملابس وكيها ورفوها وقضاء مطالب أعضاء الأسرة العاجلة وهى كثيرة متتابعة ؛ فإذا كانت ربة البيت مع ذلك مطفلا أو حاملا أو مطفلا وحاملا معاً ازدادت الخدمة دقة ومشقة على قدر عدد الأطفال .

إذاً لا بد لربة الدار من معين أو أكثر من الخدم الذكور أو الإناث أو منهما معاً ، على قدر مطالب الأسرة ومقدرتها المالية ، ولا بد لهؤلاء الخدم من التغلغل فى أحشاء السكن وهى لضيقها وازدحامها بالأثاث والمخدومين موجبة لهذا التغلغل .

فن هو هذا المعين الذى نصطفيه ليقتحم السكن كله ويطلع على خفاياه ويختلط بمن فيه كلهم ذكوراً وإناثاً كباراً

وأما التى ألقت شبكتها محاولة صيد ما أمامها ، فلتذهب إلى غير عودة ، فهى قد ثارت على حالة الركود السائدة فى محيطها ، والبتها ما فعلت ، لأنها أثارت الهدوء الجميل . وأى ثورة ، ولو كامنة ، عرضة لأن تعصف بمظاهر الحيوية فى هذا الجزء الحساس من الجسم البشرى .

وأخيراً أجريت العملية ، وهدى الله المريض لطبيبه ، فنام على ظهره شهراً كاملا يرقب تباشير الشفاء ، ولما رأى النور لأول مرة تمتم قائلا : هذا هائل ، هذا عظيم .

وأدرك المرة الأولى أن العين التى ترمى شبكتها — حتى دون أن تهدف إلى صيد جديد — قد تفكر ثانية فى الاستقرار والعودة إلى قواعدها بعد أن تهدأ العاصفة ويقوم الطبيب والمريض بواجبهما كما يجب .

دكتور مصطفى الديوانى

وصغاراً، في يقظتهم ونومهم وسرهم وجهرهم وتبذلهم وتجملهم وتآلفهم وتنافرهم وحلوهم ومرهم، ويطلع على ظواهرهم وبواطنهم، ويؤتمن على الأعراض والأنفس والأموال وكلها مبتذلة ليس منها شيء مستور.

كان هـذا المعين المطلوب ميسوراً في الزمن الماضي القريب حين كانت الحياة هادئة رخية خصبة خالية من مفاسد هذا الزمان، وكانت البيوت فسيحة عامرة بأهلها دائماً ليلا ونهاراً، فهي بيوتهم وأنديتهم وملتقى الأهل والإخوان والجيران، فكان ذلك والحجاب والعفاف والصلاح تكسو المنازل وآلها هيبة وجلالا ووقاراً وصيانة، وكان المخدومون يطعمون الخدم مما يأكلون، ويخلعون عليهم ما يلبسون، ويزوجون ذكورهم من إناثهم فيسدون بذلك كله جميع حاجاتهم، وكان هؤلاء الخدم مع ذلك ملك أيمانهم، يشترونهم بأموالهم بيضا وسوداً إناثا وذكوراً كباراً وصغاراً، ويسمونهم عبيدا وجواري وغلمانا ومماليك، ولم يكن لهؤلاء الخدم من الناس إلا سادتهم ولا من البيوت إلا بيوت السادة، وكانوا لما هم فيه من نعمة سابغة وغربة ورق قنوعين أمناء مخلصين؛ ولكن هذا كله قد انقضى أجله إلى غير رجعة

أما الآن وقد أصبحت الحياة جدبة قاسية مرة، وتقلصت المساكن وضاقت وغصت بالأثاث وبالناس، وهجرها أهلها إلى الملاهي، واستأثر المخدومون بأطيب الأطعمة، وكفوا أيديهم عن كسوة الخدم، فقد تغير ما كان من قبل معهودا. فامتدت أيدي الخدم إلى كل ما تصل إليه من مال المخدومين فتسرقه، وليس شيء من هذا المال لا تصل إليه أيديهم. ومن كان منهم حسن النية سليم الفطرة أفسده زملاؤه وأصدقاؤه.

وإن من اللصوص من يتذرع بالخدمة في المنازل للسرقة؛ فقد استخدمت أسرة مرة شابا بهرها بجودة طبخه ورخص مشترياته ووفرة نشاطه وحسن أدبه وجميل طاعته؛ غير أنه ما لبث أن سرق منها مصوغات وملابس قدرت بخمسمائة جنيه من حجرة كان ينظفها، وكانت ربة البيت معه فيها تراقبه، بحيلة بارعة يسيرة وفي أقل من دقيقتين؛ ثم ظهر أنه لص خطير ذو سوابق، وأنه يأخذ رخص الخدم ويضع عليها صورته بمهارة ويتسمى بأسمائهم، وجد رجال الأمن في البحث عنه ونشروا خبره وصورته في أمهات الصحف اليومية، ولم يظفروا به للآن، وقد مضى على هذا الحادث نحو ثلاث سنوات؛ وما من أسرة لم تكتو بنار الخدم.

لقد تفاقم شر الخدم وأصبحت سيادة الخادمات مضرب الأمثال ومادة خصبة للفكاهات في الصحف الأسبوعية؛ وما تلك العبودية إلا ثمرة الاستعباد المر الذي عاش فيه المخدومون قبلا دهرا طويلا؛ فقد طبعهم استعبادهم الخدم بطابع الاتكال عليهم في كل الشئون والكسل والكبرياء والاستحياء مما لا يستحي منه وحب التظاهر، فسلطت هذه الخلال الخدم عليهم. وليس أشأم على الآحاد والأسر والجماعات من هذه الخلال. إنما المؤثر أن تبيت على الطوى تتلوى من الجوع وتتعطل بذلك من الحركة الجسدية والعقلية وتشعر بالذل والعجز على أن يخرج واحد من الأسرة يشتري لها ما تأكله.

* * *

وبعد فما الوسائل الناجعة لحل هـذه المشكلة المعقدة؟

لحل هـذه المشكلة المعقدة ثلاث وسائل: الأولى من قبل المخدومين، والثانية من قبل الحكومة، والثالثة من قبل الخدم.

فأما التي من قبل المخدومين فيجب أن يرتبوا حياتهم ويوطنوا أنفسهم على الاستغناء عن الخدم، وأن يسارعوا إلى الاستعداد لذلك، فإذا عجزوا عن الاستغناء التام عنهم فلا أقل من أن تقل الحاجة إليهم، فلا يتولاهم الفزع الأكبر

والارتباك الهائل حين يكون فى المسكن خادم واحد ويتركهم هذا الخادم فجأة .

إن خدم المنازل فى سبيل الانقراض، فقد روت الصحف أن عظماء فى أوربا باعوا قصورهم وسكنوا الشقق لأسباب منها قلة الخدم ، وعما قريب حين يرفع مستوى المعيشة فى مصر وتزدهر الصناعة لن نجد الخادم الذى ينقطع لخدمة منزل واحد ، وقد نجد خدما يطوفون بالبيوت ويؤدى كل منهم خدمة واحدة فى عدة منازل

ولا سبيل إلى الاستغناء عن الخدم أو تقليل الحاجة إليهم إلا أن يطرح المخدومون الاتكال والكسل والكبرياء والاستحياء مما لا يستحى منه ، وأن يعتمد كل عضو فى الأسرة على نفسه ، فيطوى ملابسه إذا خلعها طية متقاربة ، ويرتب فراشه إذا نهض من نومه ، وإذا احتاج إلى شىء قضاه بنفسه ، وإذا استعمل شيئاً من أدوات المنزل رده إلى مكانه ، ولا ينتظر من يناوله ملابسه ولا من يسقيه وهو على المائدة ، ولا يغادر المائدة وفى يده مثلا بلح أو برتقال ويتنقل به فى أنحاء المسكن طارحا القشر والنوى والبزور فى كل مكان ، فيخلق بذلك الحاجة إلى الخادمة بدون حاجة ويشق ربة الدار ، بل عليه إذا فرغ من الأكل أن يغسل ما استعمله فيه من أوان وأدوات ؛ فقد روت الصحف أن الضيوف فى أوربا إذا فرغوا من الأكل غسلوا ما استعملوه من أوان وأدوات ، وأن الجنرال ايزنهاور قال للصحفيين إن زوجته عودته أن يغسل الأطباق مرة كل أسبوع ، وايزنهاور غنى عن التعريف ؛ فإذا كان فى البيت خدم كانت خدمة كل عضو من الأسرة فيه نفسه من باب : إذا عجز الخدم فأعينوهم ، وإذا لم يكن فيه خدم استراحت الأسرة من الفوضى والارتباك والأقذار .

ويجب أن يخرج رب البيت أو ربته لاشتراء مطالب المنزل اليومية والشهرية ، ولقد بدأ بعض السيدات الحديثات المثقفات اللاتى كن يتركن الخدم يخرجن إلى الأسواق كل صباح ، ويشترين ما يحتجن إليه من أصناف جيدة بأسعار عادلة ، غير مباليات بنقد المتطفلات من جاراتهن وصواحبهن .

ويجب ألا نحكم أذواقنا وأذواق صناعنا — ونحن أمة مرهفة الذوق — فى طرق معيشتنا ، بل يجب أن نحكم العلم والمصلحة ، فنفهم أن الطعام للتغذية لا للذة ، وأن خير الأطعمة ما أكل نيئا كالخس والجرجير ، ودونها ما أكل من الخضر واللحم مسلوقا بدون توابل وبقليل من السمن أو الزبد أو الزيت أو بدونها . وهذا الطعام الصحى إذا ألفناه صار لذيذا شهيا ، وهو لا يكلف من يعده أكثر من نصف ساعة قبل الغداء ونصف آخر قبل العشاء ، ونفهم أن الغرض من الأثاث كفالة حاجات الأسرة وراحتها ، وأن كفالتهما لا تتم إلا بأن يكون الأثاث متينا جدا وعلى قدر الحاجة ، فيكون من السهل تنظيفه وترتيبه ونقله من مكان لآخر لتنظيف ما تحته . أما تجميل المنزل وهو أمر واجب فيكون بحسن اختيار الأثاث وألوانه وبمراعاة تنسيقه وبإضافة أشياء قليلة ليست قابلة للتلف السريع كالمفارش والستائر ، ويجب أن يراعى فى صنع قطع الأثاث التى تحفظ فيها الملابس والأوانى وغيرها متانة المصاريع والأقفال ، فإن تسعين فى المائة منا ليس لملابسهم ومصوغاتهم أقفال ، وهى معروضة للسرقة عرضا ، والمال المعروض هذا العرض يعلم السرقة ويغرى بها . ونفهم أن المساكن خلقت لوقاية السكان من طوارىء الجو واعتداء الحيوان والإنسان ، فيجب أن تكون جميع أبوابها بأقفال ومفاتيح متينة ، وأن نحافظ عليها وعلى استعمالها ، غير أننا اعتدنا أن نسلم مفاتيح المسكن الجديد لنضيعها جميعا وندفع ثمنها للمالك إذا أخلينا المسكن

وأما الذى من قبل الحكومة فهو أن تنظر إلى الباعة الجائلين نظر من يرى أنهم طائفة عاملة شريفة ، توفر على

الجمهور كثيرا من الجهود والأوقات والأموال ومتاعب الخدم وتسكعهم في الطرقات ، فتشجع هؤلاء الباعة بدل أن تخذلهم ، وتسيهم بالمال بدل أن تغرمهم الغرامات بالمخالفات ، وتعدهم بالإرشاد التجارى والصحى حتى تصير مركباتهم متاجر متنقلة تحمل كل مطالب المنازل ، على أن يختص كل فريق منهم بنوع من أنواع هذه المطالب ، وعلى أن يكون مع كل بائع زميل أو صبي يعرض البيانات على السكان في مساكنهم وأن تلزم أصحاب الصروح المردة إنشاء مصاعد للباعة والخدم ؛ فإن في ذلك عدلا ومساواة وأكبر عون للسكان لو كانوا يعلمون . وأن تفرض الحكومة رقابة شديدة على تجار الأشياء القديمة من جميع الأنواع . يقال إن في حىّ من أحياء القاهرة مصبغة تحمل إليها الملابس المسروقة لصبغها وتغيير معالمها ، فإن كان المسئولون يجهلونها كان ذلك قبيحا ، وإن كانوا يعرفونها ، ويغضون عنها كان ذلك أقبح ، وقد تكون البطاقات الشخصية وإلزام كل مشتر أن يتحقق من شخص البائع وأن يأخذ البيانات التي في بطاقته من الوسائل الجيدة لدقة الرقابة

وأما الذى من قبل الخدم فيجب أن تتولاه مصلحة أميرية ، أو نقابة رسمية يديرها ممتازون من رجال الوطن ويعاونهم ممتازون من الخدم ، وأن تسن قانونا وتضع لائحة داخلية لتنظيم علاقة الخدم بالنقابة وبمكاتب التخديم وبالمخدومين ، وتنشىء لهم معاهد للعناية بتربية أجسامهم وعقولهم وتقويمهم وصيانتها ، على أن يكون في مقدمة ذلك تعليمهم القراءة والكتابة والثقافة الشعبية العامة ومبادئ التنظيف والتعقيم وآداب المعاشرة ، ويكون حضورها إجباريا ، وأن يكون في عيادات الحكومة ومستشفياتها متسع لا يضيق بواحد منهم في ليل أو نهار ، وألا يقبل عضوا في النقابة من الذكور والإناث ويرخص له بالخدمة من قلت سنه عن سن معينة ، وأن يكون صحيح الجسم سليم الأعضاء ، وأن تقدر ساعات العمل والراحة وما يجب أن يكون لكل خادم في بيت المخدوم من مكان وفراش وغطاء وأجر .

ولا بد أن يكون لكل منهم إضبارة (دوسيه) في النقابة وصحيفة من سجل في مكتب التخديم ، وألا يقدم خادم لأسرة إلا ببيان (استمارة) من مكتب التخديم هي صورة من صفحته في السجل ، فيها كل ما يتعلق به من سن صحيحة ومكان ميلاد وأقارب وصفات جسدية وخلقية وعقلية وآراء مخدوميه فيه . ولغير ذلك من وجوه التنظيم والضبط .

عبد الله أمين



قصة الأسبوع

الأمومة

لكاتب يونانى معاصر

يريد كاتب هذه القصة أن يبرهن بقصته على قوة عاطفة الأمومة عند نساء الصين . وعلى أن أمم الشرق قد أوتيت بفطرتها الخُلق الكريم .

قال الكاتب :

بدأت حوادث هذه القصة بعد انقضاء أكثر من شهر على نزول اللاجئين من الأرمن فى مدينة مارسيليا . وإقامة معسكرهم فى أرباض المدينة ، حتى بدا ذلك المعسكر وكأنه إحدى القرى .

وقد استقر بهم المقام ، ولا أقول على خير حال ، بل على خير ما يستطاع .

وكان الأغنياء وذوو الثراء منهم يقيمون فى مخيمات ، أما الفقراء ، وذوو الحاجة ، فكانوا يسكنون الزرائب التى أدركها البلى ، ونال منها الخراب .

وظلت جماعات من المهاجرين تتخذ مأواها تحت بُسُط مدّت على قوائم أربع من العصىّ . وكانوا يحسبون أنفسهم جد سعداء لو ظفر واحدهم بعلامة يشدُّها على جوانب الأوتاد لتجعل أهله فى مأمن من خائنة الأعين .

ثم رضى القوم كلهم بما أصبحوا عليه من حال . وخيل إليهم أنهم استبدلوا أرضاً بأرض ، وأوطاناً بأوطان .

وطفق الرجال يعملون . كلٌّ فيما أُعِدَّ له من عمل . أو فيما لق من عمل . وذلك حتى لا يعضهم الجوع بنابه ، وحتى يجد أطفالهم ما يسدُّ الرمق .

وشذَّ من هؤلاء القوم واحد منهم ، كان لا يستطيع أن يعمل عملا ، وكان يقتات من فضلات ما يجود به عليه جيرانه ، وكان هذا العيش يؤوده ويثقله . ذلك لأنه كان فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان قوى البنية ، مفتول العضل .

ولكن كيف يفكر فى البحث من عمل ، وهو يحمل فوق ظهره ، طفلا حديث عهد بالولادة ، وهذا الطفل الذى ولدته أمه ثم ماتت ، لا يفى عن الصراخ من الغداة إلى المشى من ألم الجوع .

ومن ذا الذى يرضى بأن يتخذ « ميكالى » خادما . وقد لجَّ قومه فى طرده من جمعهم ، وصراخ الطفل وصياحه ، بل كدت أقول عواؤه ونباحه ، قد أقض مضاجع القوم ، وعلَّمهم ما طعم السهر .

وقد كانت الأرض الفضاء تدور « بميكالى » وهو يطوف بالأحياء متعبا مكدوداً . وقد كاد يورثه الصمم ذلك الطفل الذى ولد ليكون مصدراً لشقائه ، وكأنه قد اختار أنحس الساعات ميعاداً لولادته .

وثار ثائر القوم المهاجرين ! فقد أضاف هذا الطفل شقاء جديداً إلى شقائهم المقيم المقعد ، ولطالما تمنوا لو أن الموت أدركه ، ولكنهم لم يبلغوا هذه الأمنية ! ذلك لأن الطفل كان مصراً على أن يعيش ويبقى ، وكان مظهر إصراره ذلك البكاء الطويل !

وكان النساء يضعن أصابعهن فى آذانهن إذا سمعن صياحه ، وكان « ميكالى » يروح جيئة وذهاباً ، وكأنما هو قد أفرط فى الشراب ، فأضرَّ به السكر .

وكان لا يملك درهماً يشترى به لبناً ، ولم تكن امرأة فى قرية المهاجرين تستطيع أن ترضعه ! وفى هذا ، بل فى أقل من هذا ، ما يذهب العقل ويورث الجنون .

ولما ضاق « ميكالى » بهذا الأمر ذرعاً توجه بالطفل إلى الجانب الآخر من قرية المهاجرين ، حيث يقيم قوم من اللاجئين ، من سكان الأناضول . وقد سمع « ميكالى » أن

بين القوم امرأة مرضعاً ، وقد تأخذها على الطفل شفقة ، وسار بحدوه الأمل المريض .

وكان البؤس الفخم هنـاك صورة من البؤس الفخم فى محلة قومه . فكانت العجائز من النساء يرقدن فوق حصر بسطت على الأرض ، وكان الأطفال يلعبون فى برك من الأوحال وهم حفاة .

فلما جاء « ميكالى » قام النساء يسألنه : ماذا يريد ؟ ولـكنه لم يلو على شىء ، بل سار قدُماً . ثم وقف أمام باب خيمة علقت فوقه صورة للسيدة العذراء . وبلغ مسامع « ميكالى » صوت طفل يبكى فى داخل الخيمة .

وقال موجهاً الكلام باللغة اليونانية إلى صاحبة الخيمة : إنى أسألك باسم السيدة العذراء الـكلية القداسة التى تعلقين صورتها أن تشفقى على هذا الطفل اليتيم المسكين ، وأن تجعليه يتذوق طعم لبن الأم مرة . وأنا يا سيدتى رجل أرمنى ، قد نال منه الفقر .

وجاءت على صوت ندائه امرأة جبلة سمراء ، تحمل على ذراعيها طفلا يرضع ثديهـا فى سعادة لا تعادلها سعادة ، وكانت عيناه نصف مقفلتين .

وقالت المرأة : أرنى الطفل ، أذكر هو أم أنثى ؟

فكاد صاحبنا يطير من الفرح ، وجاء الجيران لحملوا هـذه اللفائف التى يرقد فى ثناياها الولد . فلما رأوه ولوا مدبرين ، وصاحت النسوة صيحات الرعب والفزع ، إذ لم يبق بين الولد وبين صفة الآدمية صلة أو نسب ، وقد استحال هـذا الولد هُولة من الهوْل . فقد كبر رأسه وامتدت أطرافه ، أما الجسم فقد استحال هيكلا عظميا تكسوه طبقة رقيقة من جلد ، كثرت فيـه الغضون والتجاعيد ... ذلك لأنه — منذ ولد — كان يرضع إبهامه حتى تورمت تلك الإصبع ، فعجز فمه أن يحتويها ، وكان هذا منظرا بشعا ، وكان « ميكالى » أول من دخل فى قلوبهم الرعب ، فرجع إلى الوراء من هول ما رأى .

وقالت إحدى العجائز : أيتها العذراء يا أم المسيح ، إن الذى نرى ليس طفلا آدميا ، إنما هو أحد الوطاويط ، ولو كنت مرضعا لما طاوعتنى نفسى أن أرضعه ...

وقالت عجوز أخرى ، وقد رسمت علامة الصليب على صدرها : رباه ! إنه ليس من الإنس !

وقالت عجوز عقيم : إنه الشيطان ! أو كأنه هو ! ثم صرخت فى وجه ميكالى قائلة : اخرج من هنـا أيها المنحوس . ولا تطأ بقدمك هذا المـكان مرة أخرى . فإنك نذير شؤم !

وقام النسوة كلهن يطاردنه ، ويصحن فى وجهه . فشرق بدمعه ، ومضى يحمل فوق ظهره الطفل الذى طال أنينه وبكاؤه . وكأنما قد كتب عليه الموت جوعا .

وحزَّ فى نفس « ميكالى » وأمضَّه ، وزاد فى غمه أنه أصبح يحمل فوق ظهره طفلا هو بالغول أشبه ، وسمع دقات الساعة تعلن أن الوقت ظهر ، فأذكرته دقات الساعة أنه لم يأكل شيئا منذ يومين ، وأن عليه أن يدلف إلى الأبواب الخلفية المقاهى المنتشرة فى عرض الطريق يفتش فى زواياها عن لقمة تركت فى إحدى الصحاف ، أو من نفاية عاف أن يأكلها أحد الـكلاب .

وعلى حين بغتة بدت له الدنيا ملأى بالمخاوف والشرور فغطى وجهه بكفيه . وبدأ يبكى فى يأس مروع .

ولما رفع رأسه ألفى رجلا ينظر إليه ، وعرف ميكالى فى الرجل ذلك الصبى الذى طالما جاء إلى معسكر اللاجئين وهو يبيع اللعب المصنوعة من الورق الملون ، والتى لم يكن يفكر فى شرائها أحد .

وطالما سخر القوم منه بسبب لونه وبسبب حول عينيه .

وطالما صاح الأطفال ولجوا فى مطاردته ، وهم ينشدُون فى سخرية لاذعة قائلين : « لِى إنْشْ . ذى سَتَنْسكنْ شَنْكْ » ! ويمكن ترجمتهـا (أيها الصبى الذى اسمه لِى انشْ إنك لتشبه الجرح ذا الرائحة الـكريهة) .

ورأى « ميكالى » فى صفحة وجهه نظرة عطف . وكأنه يقول له :

لا عليك يا بنى . ولا تبك . ثم كأنه يقول له فى استحياء : تعال معى ! . . .

وكان جواب « ميكالى » أن هز رأسه علامة الرفض . وود لو استطاع الفرار من وجهه ؛ ذلك لأنه طالما سمع من فظائع أهل الشرق وقسوتهم ؟

وطالما بالغ اللاجئون فى وصف تلك الفظائع فقالوا : إن من عادات أهل الشرق أن يسرقوا الأطفال المسيحيين ليقتلوهم ويمتصوا دماءهم ! !

ومع ذلك فقد ظل الصبى واقفاً فى مكانه . ثم تبعه « ميكالى » وهو يسائل نفسه : أيمكن أن يحدث له حادث أسوأ مما هو فيه ؟

وإذ هما يسيران جنباً إلى جنب ، عثرت رجل « ميكالى » فوقع هو والطفل على الأرض . فجاءه الصبى وحمل بين ذراعيه الطفل فى رفق ، وضمه إلى صدره .

ثم قطعا طريقاً طويلة كثرت فيها المنعطفات ، حتى جاءا أخيراً إلى كوخ من الخشب أحاطت به حديقة صغيرة . فوقف الصبى وصفق بيديه مرتين ، فجاءت تفتح الباب امرأة نحيفة . وما إن رأت وجه الغريب حتى توردت وجنتاها . ثم أضاءت وجهها ابتسامة تقرأ فيها معنى من معانى السعادة والغبطة برؤية ضيف . ثم حيت تحية موجزة .

ووقف « ميكالى » متردداً ، لا يتجاوز عتبة الباب .

فناداه الصبى قائلا : ادخل ولا تخف ، إنها زوجتى .

فلما اجتاز الباب ألفى حجرة يفصل نصفيها حاجز من ورق ملون . وكانت الحجرة أو الحجرتان آية فى النظافة على ما بهما من دلائل الفقر وأمارات البؤس .

ورأى فى إحدى الزوايا مهداً صنع من أغصان الصفصاف .

وقالت المرأة تخاطب « ميكالى » وهى تبتسم له وترفع رأسها فى ظرف : إن طفلى صغير جدا . وجميل جداً . تعال وانظر إليه !

فذهب « ميكالى » إلى جوار الطفل وأبدى إعجابه به فى صمت . وقد رأى طفلا مكتمل الوجه ، يجمع بين السمنة والقصر ، على حداثة مولده . وهو يبتسم فى أمن ودعة وكأنه ملك صغير . وقد لفته أمه فى نسيج مطرز بخيوط القصب .

ثم نادى الزوج زوجته وأمرها أن تجلس على حصير من القش . فأطاعت أمره . ثم أمسكت بالطفل .

وبدا لهما الطفل المسكين فى بشاعة هيكله المظلم . فصرخت صرخة مبعثها الشفقة والحنان . ثم ضمته إلى صدرها ، وجعلته قريباً إلى قلبها . ثم فى تحريكة ملؤها التواضع ردت على ثديها فضل ردائها ، وتركت الطفل اليتيم الجائع يرضع ما شاء أن يرضع . . .

مبارك ابراهيم

أنباء وآراء

ظاهرة صوتية غريبة !

ظهرت أعراض غريبة على رجل انجليزى معاصر فى انجلترا . ذلك أن أذنه قد غدت إلى حالة ليس يعرف الرجل معها الراحة ، فإنها تحدث أصواتاً غريبة كأنها من أثر موجات كهربائية ، وإنها لواضحة حتى ليسمعها الناس إذا اقتربوا منه ، وحتى حار الطباء فى أمرها ، وقد وضحت هذه الظاهرة عنده بعد مضى أربع وعشرين ساعة من ضربة كرة قدم له فى وجهه ، ونشر الاخصائيون الذين لاحظوا هذه الظاهرة فى الـ British Medical Journal ، وقالوا عنها : « إنها أشبه الفرقعة الخفيفة للشرارة الكهربائية ، تتكرر فى فترات متقطعة بمعدل ٢٤ إلى ٣٢ مرة فى الدقيقة » .

على أن مجمل تاريخ هذه الظاهرة مما أدلى به الرجل أنه منذ كان صبياً فى السادسة من عمره قد أصيب بتقلصات فى عضلات وجهه وفى عينيه وأنفه على وجه الخصوص ، وجعلت عينه تختلج من يومئذ بين الحين والحين ، حتى إذا انضم للجيش فى هذه الحرب الأخيرة زاد اضطراب عينه واختلاجها ، فلما أن خلف الجيش وصدمته الكرة فى وجهه ، إذا أذنه تندو وبها هذه الظاهرة الصوتية الكهربائية ، مما لم يصدر بعد تفسير على وضحها !

طبقات الرجال :

الرجال أربعة :

رجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فسلوه .

ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك الناسى فذكروه .

ورجل لا يدرى ويدرى أنه لايدرى ، فذلك الجاهل فعلموه .

ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ، فذلك الأحمق فارفضوه .

اخوان : غنى وفقير !

كان أحدهما يعمل فى حاشية السلطان ويتمتع بالجاه والنفوذ ، ويعيش بغير كدّ ولا عناء . وكان الآخر فقيراً يعمل بذراعيه طول يومه ليحصل على قوته . قال الغنى لأخيه الفقير : لم لا تدخل فى خدمة السلطان لتستريح من الكدّ والعناء ؟ فقال الفقير لأخيه الغنى : ولم لا تكد أنت وتخلص نفسك من ذلة الخدمة ؟ !

همة !

سئل حاتم الطائى : أرأيت أو سمعت أن رجلا أعلى همة منك ؟ فقال : نعم . نحرت يوماً أربعين جملا . ثم خرجت مع جماعة من أمراء العرب إلى الصحراء . فرأيت حطابا يجمع الحطب ثم يحمله فوق ظهره ، فسألته : لماذا لم تذهب إلى بيت حاتم فقد اجتمع القوم حول سماطه ؟ فقال الحطاب : إن من يكسب خبزه من عمله لا يتحمل منة حاتم الطائى !

قال حاتم : فأدركت أن هذا الحطاب أعلى همة منى !

مستوى الانجليز الصحى !

يؤخذ من سجلات أغلب الدكاترة والصيادلة فى الجزر البريطانية أن المستوى الصحى عند الانجليز فى هبوط منذ

انتهاء الحرب العالمية ، هذه الأخيرة ، مما كان عليه مستواهم الصحي من قبل ، حتى إنهم ليقدرون أن الأموال التي صرفت عام ١٩٤٦ على الأمراض قد بلغت رقما خياليا ، سواء تلك التي اختصت بها مستشفياتهم ، أو هذه التي أنفقت في علاجهم داخل البيوت .

على أن للأمراض – طبعا – متعدد ألوانا ؛ فمنها ما هو شائع بينهم ومنها ما هو أقل شيوعا . فالذي هو أقل يدخل في باب السل والسرطان وضعف القلب مثلا . وأما الشائع فالإصابة بالبرد تكون منه في المحل الأول ، فإنه لا يكاد ينجو منها إنجليزي واحد . ثم الأنفلونزا والروماتزم وأمراض المعدة وأجهزة الهضم .

وللأسبيرين فيما يتناولونه مكان الصدارة ، وإنهم يستهلكون منه ١٥ر٠٠٠ر٠٠٠ قرص في كل عام ، تظفر الأنفلونزا من هذا الرقم بحوالي نصفه في علاجها ! ويقتنص الروماتزم من جيوب فرائسه ما لا يقل عن ٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه في كل عام ! وأما أمراض المعدة وملحقاتها فقد تظفر بقدر يبلغ ١٨ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه من جيوب ضحاياها كل عام ! .. وهذا غير ما يتعرض له العمال وغيرهم في المناجم والمصانع والمعامل والمكاتب من نجامات تكويهم بها الأيام !

احصائية !

المشروبات الروحية في الوسط الغربي شيوعها ، حتى إن أغلبية من القوم هناك يبغونها شرابا كما نشرب نحن الماء معشر الشرقيين نتقي به العطش ونقيم به الحياة . وما كنت أحسب أن شدة كلفهم بالشراب تبلغ ما يقع في حسباني من ذلك حتى قرأت إحصائية أتت بها صحيفة (The People) قالت فيها إنه في بريطانيا في عام ١٩٢١ قد بلغت قيمة مشتريات الانجليز من الخمور مبلغا قدره ٤٠٣ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه ! وكبر هذا الرقم في سنة ١٩٤١ حتى بلغ ٤٦٤ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه ! ثم إذا هو يتضخم فيقفز في سنة ١٩٤٤ حتى بلغ ٦٦٦ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه ! وأما هو في سنة ١٩٤٥ فقد بلغ ٦٨٤ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه !

فتلك إحصائية ، فاعجب لعقل كيف يفرق معها بين الخطأ والصواب ، عندما تقسو الأيام على قوم يكون مصيرهم إلى حكم صاحبه !

لا تعمل لي على عمل أبدا

استعمل عمر بن الخطاب النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان فبلغه عنه الشعر الذي قاله وهو :

من مبلغ الحسناء أن حليلها
عبسان يسقى من زجاج وحنتم

إذا شئت غنتني دهاقين قرية
وصناجة تحدو على كل منسم

فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني
ولا تسقني بالأصغر المتثلم

لعل أمير المؤمنين يسوؤه
تنادمنا بالجوسق المتهدم

فكتب إليه : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) . « أما بعد ، فقد بلغني قولك : لعل أمير المؤمنين يسوؤه ... البيت . وايم الله إنه ليسوؤني ، فأقدم فقد عزلتك » ، فلما قدم عليه قال : يا أمير المؤمنين والله ما شربتها قط ، وإنما هو شعر طفح على لساني ، وإني لشاعر . فقال عمر : أظن ذاك ، ولكن لا تعمل لي على عمل أبداً .

باقوت صبري

باب الكتب

مطالعات علمية:

من أسرار الفطرة

تأليف أندريد، تعريب الأستاذ محمد أحمد الغمراوى والدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

تتابع لجنة التأليف والترجمة والنشر سلسلتها من الفكر الحديث، وآخر ما ظهر من هذه السلسلة الكتاب الذى نحن بصدده وعنوانه بالإنجليزية The Mechanism of Nature أى (كيف تعمل الطبيعة). وقد آثر المعربان أن يتخذا له عنوانا آخر (من أسرار الفطرة) إشارة إلى موضوعه وإثارة لشغف القارئ للتطلع إلى بعض ما كشفه العلم من أسرار وكنوز.

وفصول الكتاب سبعة. يعرف أولها علم الطبيعة ويعين حدود المعرفة العلمية وأساليبها. ويتناول الثانى فى الحرارة خاصة والطاقة عامة، ويختم بلمحة فى تكون الطاقة داخل النجوم ثم انبعاثها من جوفها وانسيابها فى الفضاء حتى تصلنا، نحن سكان الأرض المعتمة الباردة، دفئاً ونوراً. ثم يرجع المؤلف فى الفصل الثالث إلى المشاهدات المألوفة فيتحدث عن الصوت والذبذبات ويبين أنواع الذبذبات المسموعة وغير المسموعة وما تحمل من طاقة. ثم ينتقل فى الفصل الرابع إلى الضوء والإشعاع، فيعالجها على أنها ضرب من الأمواج، لها خواص هامة فى الانتشار والانعكاس والانكسار والحيود والتداخل والامتصاص والتفرق والتشتت، ويلم بأصلها الكهربائى المناطيسى. ويجد المؤلف أن القارئ بعد الفصل الرابع فى أشد الحاجة إلى استرجاع معلوماته من الكهرباء وشقيقتها المغنطيسية، فيخصص لهذا الغرض الفصل الخامس من الكتاب. ثم ينتقل فى الفصل السادس إلى نظرية الطاقة والإشعاع وكيفية تبادل الطاقة بين جسيمات المادة وأجواز الفضاء. ويختم الكتاب بفصل عن (الذرة) وهو أطول فصول الكتاب وأكثرها إسهاباً. والذرة كما نعلم اليوم أخطر ما فى الطبيعة شأناً وإن كانت أضأل ما فيها جرماً. وقد كتبت هذه الفصول منذ أكثر من سبعة عشر عاماً، ولكنك تعجب إذ تقرأها اليوم فلا تجد فيها ما يتناقض وأحدث الكشوف العلمية. وذلك لأن المؤلف يعالج أصول الموضوعات دون فروعها، ولا يثقل على القارئ بتفصيل ممل أو أرقام جامدة، بل يحرص دائما على تقريب المعانى العلمية إلى ذهن القارئ بلطف وهوادة، متخذا من الاستشهاد بالمألوف والمعروف مركبا، ومن التجارب والاختبارات عونا، ومن المنطق ساعداً. فحقق الكتاب ما ابتغاه مؤلفه منه: أن ييسر فهم المعانى العلمية الحديثة المتصلة بالمادة والإشعاع، وأن يمد القارئ عما يكفى لتمكينه مما يكتب للجمهور فى فروع العلم ولفهمه المغزى العام لبعض التقدمات الحديثة التى تعلنها الصحف من آن لآن. وليس ثمة دليل أقوى على نجاح الكتاب فى هذا الشأن من أن نذكر أنه ترجم إلى اللغات الفرنسية والإيطالية والبولندية والهولندية والدانماركية والسويدية، هذا فضلا عن الطبعات الإنجليزية المتتالية. وقد أحسن المترجمان أيما إحسان فى اختيار هذا الكتاب وإضافته إلى المكتبة العلمية العربية. ومؤلف الكتاب هو إدوارد نيفيل دا كوستا أندريد أستاذ الطبيعة فى كلية الجامعة بلندن. ولد أندريد فى لندن عام ١٨٨٧ من أصل إسبانى، وتخرج فى جامعتها عام ١٩٠٧ حاصلا على درجة الشرف الأولى فى الطبيعة، وقضى الأعوام الثلاثة التالية طالبا للأبحاث، وأظهر من المقدرة والذكاء ما مكنه من الحصول على إحدى مكافآت معرض ١٨٥١ التذكارية، وهى مكافأة سخية تسمح لحاملها بالارتحال فى سبيل العلم إذا شاء. سافر أندريد إلى هيدلبرج أحد معاقل العلم الألمانى

الكبرى وحصل على درجة الدكتوراه من جامعتها القديمة . ثم قفل راجعا إلى وطنه ، فقصد إلى معمل كافندش فى كمبردج ، ثم إلى مانشستر ، وبذلك أخذ العلم من ثقاته وعلى رأسهم رذرفورد ، نبى الذرة فى عصرنا الحديث ! وهكذا هيىء لأندريد أن يقتطف من ثمار العلم أطيبها — أن يتذوقها فى أصقاع متباعدة ، فاستبان نكهتها وحذق صنعته ، وبرع فى بحوثه ، وذاع صيته وهو فى منتصف العقد الثالث من عمره .

ثم أعلنت الحرب العالمية الأولى فانخرط أندريد فى سلك المحاربين وقضى فيه ستة أعوام أو تزيد ، ارتقى فى خلالها فى مختلف مناصب الجيش حتى صار من الخبراء العلميين للقوات المحاربة . ولما عاد إلى حياة السلم ، عين أستاذاً للطبيعة فى كلية المدفعية الملكية فى وولوتش ، فشغل هذا المنصب ثمانية أعوام ، ثم اختير أستاذا فى كليته الأولى ، فرجع من حيث بدأ ، وبقى فى جامعة لندن حتى اليوم فيما عدا فترات قصار ، التحق فيها بالهيئات الفنية العليا فى وزارة الحرب والتموين . وأندريد عضو بالجمعية الملكية ورئيس سابق للجمعية الطبيعية وعالم بحاثة فى فروع كثيرة من علم الطبيعة ، ومحرر لجميع المواد الطبيعية فى دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الرابعة عشرة) . وهوايته لعبة الجولف وقرض الشعر ، وجمع المخطوطات العلمية العتيقة ، والتنقيب عن المعرفة (التى لا فائدة ترجى منها) . فهو عالم وشاعر وفنان ، وهو كاتب ناجح ومحاضر بارع . وقد ألقى محاضرات عيد الميلاد عام ١٩٢٧ فى المعهد الملكى ، وهذا شرف كبير قلما يحظى به العلماء . ومحاضرات عيد الميلاد لا يستمع إليها إلاّ من هم دون السادسة عشرة من طلبة المدارس ؛ وعلى المحاضر أن ينزل إلى مستوى أفهامهم فيحدثهم عن آخر ما وصل إليه العلم فى موضوعه ، ويجرى لهم التجارب فى المحاضرة ذاتها ويريهم أجزاء أدواته وأجهزته ويجيب على جميع أسئلتهم ، حتى يستثير كامن حماستهم لمعرفة المجهول وتطلعهم إلى الكشف عن أسرار الطبيعة . وقد أخرجت محاضرات عيد الميلاد عدداً كبيرا من الكتب العلمية المبسطة فى اللغة الإنجليزية فى السنوات الأخيرة ، وإليها وإلى أمثالها يرجع الفضل فى إشاعة المعرفة العلمية فى أوساط المجتمع ، تلك المعرفة التى أصبحت ألزم لرقى الأمم والشعوب من ماء الأرض ونور السماء .

والمترجمان غنيان عن التعريف . وقد أخرجا الكتاب فى أسلوب رصين شامخ ، وقدما له بمقدمة ، عرضا فيها لسياسة ترجمة المصطلحات العلمية ، وذيلا الكتاب بدليل وقائمتين للمصطلحات العربية والإنجليزية . ومن المهم فى هذا المقام أن نشير إلى سياسة الترجمة وطريقة اختيار الألفاظ العربية المقابلة للمصطلحات الأجنبية . فمن الكتاب من ينقل اللفظ الأجنبى نقلا حرفيا وينطقه نطقا أجنبيا أو يحوره بعض الشىء حتى يستقيم اللسان فيحذف منه الأصوات التى لا توجد فى العربية مثل V و P مثلا ، وبذلك نحصل على ألفاظ مثل تليفون وميكروسكوب وكروموسوم وغيرها . وطريقة أخرى : أن نرجع إلى لغتنا العربية ذاتها فنستخرج من أحشائها (الدر) الكامن فيها من ألفاظ دارسة واصطلاحات عفى عليها الدهر فيما عفى ، فنقول قالت العرب كذا وكذا ، فلم لا نقول مثل الذى قالوا . وثمة طريق ثالث : أن نشتق الألفاظ من أصولها أو من الأعلام ، وسبيل رابع أن ننحت لفظا من لفظين أو عبارة كاملة فنقول حوقل وبسمل . وقد تضاربت الأقوال وكثر النقاش فى هذه الموضوعات وتفرقت الآراء ، وكان لكل دلوه وسط الدلاء ، ولما يستقر الأمر بعد ، ولما يتفق القوم على رأى . ولا إخال هذا سيحدث يوماً قط ، ما دمنا متأخرين فى قافلة العلم التى تسير إلى الأمام قدماً .

ذلك أن المقصود من (اللغة) أصلا هو التفاهم بالأصوات لتبادل الأفكار ونقل المعانى ، وليس المقصود

مطلقاً أن تتبع قواعد وتتابع استعمال ألفاظ ، صارت غريبة فصارت غير ذات معنى لسامعها ، فأولى بها أن تكون غير ذات موضوع لكاتبها . وقد أدخل العرب قديماً في لغتهم عدة ألفاظ أعجمية غريبة الدلالة على معان وأشياء لم يكن لهم بها علم ، وقد تسربت بعض هذه الألفاظ إلى المأثور من النثر والشعر وهضمتها معدة الناطقين بالضاد . وهكذا فعلت لغات أخرى ولا زالت تفعل ، لأن اللغة حية متجددة ، إن جمدت تدرس وتذهب آثارها . وفي العصر العباسي الأول وما بعده نشطت حركة ترجمة المراجع العلمية من اليونانية والهندية ، فدخلت عبارات كثيرة في اللغة ، بقي بعضها حتى اليوم ، واختفى البعض الآخر . وقد استشهد المترجمان بالألفاظ التي درست مثل مانياطيقا وأسطرونوميا . بينما توجد ألفاظ حتى اليوم مثل زيج وغيره .

ولكن الفارق الحقيقي بين حالنا اليوم وحال مترجمي دار الحكمة في العصر العباسي ، هو أنهم كانوا أهل العلم المقدمين في العلم قروناً طويلة ، فكان أمامهم فسحة من الوقت لتستقر ألفاظهم وتثبت . أما نحن اليوم ، فلا نكاد نفرغ من نقل اصطلاح ، حتى يخرج علينا علماء الغرب بآلاف غيره ، فنعجز عن متابعتهم في النقل فيما يخترعون ويبدعون .

ونحن إذا نظرنا إلى طالب العلم الانجليزي مثلاً ، نجده يتلقى الاصطلاحات المستعملة ويألفها شيئاً فشيئاً بكثرة الاستعمال والتكرار ، ومعظم هذه الاصطلاحات مشتق بالإضافة من أصول يونانية أو لاتينية ، وهذا لا يهم كثيراً اليوم ، لعدم تمكن طلبة المدارس من هاتين اللغتين القديمتين ، وكثيراً ما يستعمل علماء الإنجليز اصطلاحات فرنسية أو ألمانية مثل Raies Ultimes في علم الطيف أو Eigen values في الرياضيات ، وكثيراً ما يجمعون أوائل كلمات عبارة ليتخذوا اسماً جديداً مثل رادار أو نايلون . فإذا ذكرت رادار لانجليزي لم يسمع به من قبل ، لم يفهم ماذا تريد ، شأنه في ذلك شأن أي عربي أو أعجمي .

وقد عمد المترجمان إلى الاستكثار من نحت الألفاظ والغوص في أمهات الكتب ، فأخرجا مجموعة من الاصطلاحات العلمية الغريبة بالنسبة لكاتب هذا المقال على الأقل ، والتي أرى أنها غريبة على كل قارئ ، مثل غرابة الألفاظ المنقولة رأساً من الإنجليزية ، إن لم تكن أكثر . ومثل ذلك والف وكهيرب وأوبل وأيتب وعويطب ومبيتب وأويلب وسويليب وأرضيهية ودرطيس وبجميهة وحر كزارات وقشجي رقتصق وحدقطيس وغيرها ومهما قيل من أن هذه ألفاظ عربية أصيلة أو منحوتة نحتاً أصولياً جميلاً ، فإنها دون شك أما يصعب تفهمها ويحتاج الأمر في معرفتها إلى ترجمان .

وسنبقى في هذا الشأن بين شد وجذب ودفع ورد ، حتى نرفع رأسنا وسط الأمم ، فيكون لنا علم كالذي لديهم ، وعندئذ نفرض عليهم اتباع ما نضع من اصطلاحات ، كما فرضنا عليهم من قبل اصطلاحات : الجبر واللوغاريتم والسمت والنظير والصفر وأسماء النجوم . أما تطرفنا في التعصب اليوم لألفاظنا فقد يلهينا عن الأخذ بعلمهم وهو الأهم . وقد حاول هتلر أن (يطهر) اللغة الألمانية من جميع ما تطرق إليها من ألفاظ أجنبية لاتينية اكتفاء بالألفاظ الجرمانية القديمة ، فأخرج في مهدمطبات لكتب علمية ، في آخرها قوائم مصطلحات لتعين القارئ على الربط بين القديم المألوف والجديد المفروض . وكنت أرى علماء الألمان يقرأون كتبهم باللغات الأجنبية ولا يطالعونها بلغتهم الألمانية (الهتلرية) القومية .

وقد أسهبت في مناقشة سياسة المصطلحات مثل إسهاب المترجمين فيها ، لأنها موضوع له أهميته ، وقد أظهر هذا الكتاب جانباً من جوانب هذا الموضوع بوضوح لم يعرف من قبل .

ابرهيم حلمي عبد الرحمن

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة
AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٧٦٩

العدد ٤٥٤ | الثلاثاء ٢٤ من شوال سنة ١٣٦٦ — ٩ من سبتمبر سنة ١٩٤٧ | السنة التاسعة

عـــبرة الاحتكام

حينما اعتزمت مصر أن تتقدم بقضيتها الوطنيـة إلى هيئة الأمم المتحدة ، كان يخالجنا شعور من التريث والتحفظ إزاء ما يمكن أن تجنيه مصر من وراء هذا الاحتكام الدولى الخطير . وبالرغم مما تمتاز به قضيتنا من الوضوح ، وبالرغم مما يطبعها من قوة المنطق والحق والعدالة ، فقد كنا نرى منذ البداية أن من الإسراف فى التفاؤل أن يعتقد معتقد أن مجلس الأمن يستطيع أن يصدر قراراً صريحاً قاطعاً بإجابة المطالب المصرية ، أو أن الدول التى يتألف منهـا المجلس ستواجه الحقائق الصريحة الواضحة بشجاعة وولاء .

ذلك أن هيئـة الأمم المتحدة ، بالرغم مما أسند إليها فى دستورها من المهـام السامية ، كالسهر على صون الأمن الدولى ، والقضاء على أعمال العدوان ، وتسوية النازعات الدولية التى يمكن أن تؤدى إلى تعكير السلم ، والعمل على تقوية أواصر المودة بين الأمم ، وتوطيد السلام العـالمى : نقول إن هيئة الأمم المتحدة قد أبدت فى حياتها القصيرة ، سواء على يد جمعيتها العمومية ، أو مجلس الأمن الذى هو أداتها التنفيذية ، أنهـا تفهم هذه المهام السامية التى أسندت إليها بطريقة خاصة لا تتفق دائماً مع منطق العدالة الصريحة ، ولا تتفق بالأخص مع الحقوق الطبيعية والأمانى المشروعة للدول الصغرى ؛ وإنمـا تخضع غالباً المؤثرات الدولية ، أو الأهواء والمصالح المختلفة .

وقد كان عرض المسألة المصرية على مجلس الأمن أعنف تجربة من نوعها لاختبار وسائل هذه الهيئة الدولية الخطيرة ، واختبار مبلغ حرص الدول الكبرى على تأييد مبادىء الحق والعدالة الدولية . ولكن حدث فى نفس الوقت الذى كانت تعرض فيه القضية المصرية على المجلس بأوفى بيان وتفصيل ، أن عملت المحاولات السياسية عملها فيما وراء الأروقة ، وكان من نتائجها أن تقدمت البرازيل ، وهى إحدى الدول الست الصغرى المشتركة فى عضوية المجلس باقتراحها الذى يرمى إلى استئناف المفاوضات المباشرة بين مصر وبريطانيا ، وتوصية الدولتين باستعمال أية وسائل ودية أخرى لتسوية النزاع .

فلما فشلت هذه المحاولة الأولى ، تقدمت كولومبيا وهى كالبرازيل إحدى الدول الست الصغرى باقتراحها الذى يوصى أيضاً باستئناف المفاوضات للوصول إلى تحقيق الجلاء مع عقد معاهدة دفاعية مشتركة للدفاع عن القناة ، وإنهاء الإدارة الثنائية فى السودان مع تقرير حقه فى الحكم الذاتى ؛ ولكن هذه المحاولة الثانية التى رتبت كسابقتها فيما وراء الأروقة فشلت أيضاً ولم يكتب لها النجاح .

ونحن نستطيع أن نقرأ فى هذه المحاولات وأمثالها

حقيقة الروح والأساليب التي تسير مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة .

ولم يبق الآن ريب في أن هذه الهيئة التي قامت لتوطيد السلام العالمي وقمع العدوان وتحقيق العدالة الدولية تؤثر أن تعالج قضايا الأمم الصغرى أو الضعيفة بطريقة خاصة ؛ وأمامنا الآن غير المسألة المصرية مسألة فلسطين التي لجأت هيئة الأمم في معالجتها إلى طريق المطاولة الملتوية ، وهي طريق تأليف اللجان ووضع التقارير والمقترحات ؛ ومسألة أندونسيا التي أوصى مجلس الأمن بشأنها أن يكف الطرفان المتنازعان عن القتال ، وأن تؤلف لجنة لبحث النزاع ، وبينما قبلت أندونسيا توصية المجلس وارتضت وقف القتال ، إذا بالقوات الهولندية المعتدية تمضي في مهاجمة القوات الأندونسية ، وإذا بهولندة تحشد ما استطاعت من قوى جديدة ترسلها تباعا إلى ميدان القتال ، وذلك دون أن يتخذ مجلس الأمن أي إجراء فعال لوقف هذا الاعتداء والتحدي لقراراته .

ولا ريب في أن هذه الأساليب الملتوية وهذه المساومات السياسية التي تعقد خلف الأروقة لا يمكن أن تؤدي إلى تحقيق العلاج الناجع لهذه المشكلات القومية الخطيرة ، أو إلى تحقيق الأماني المشروعة التي تجيش بها الأمم المهضومة ؛ وإنه لمن المحزن حقاً أن نرى هيئة الأمم المتحدة تجري على نفس الأساليب العتيقة التي كانت تجري عليها عصبة الأمم القديمة ، والتي كانت سبباً في أن فقدت عصبة الأمم غير بعيد ثقة الأمم بمقدرتها ونزاهتها .

وقد مضى إلى اليوم أقل من عامين منذ بدأ مجلس الأمن الدولي يضطلع بمهمته الخطيرة ، ولا نذكر أنه كان موفقا كل التوفيق في أية مشكلة من المشاكل التي عرضت عليه ، ولا نذكر أنه استطاع أن يتخذ قرارا حاسما صريحا في أية مسألة من المسائل ؛ وأنه في الحالات القليلة التي اتخذ فيها مثل هذا القرار ، استعملت الدول التي يعنيها الأمر حق المعارضة (الفيتو) ؛ وبالعكس فقد بدا المجلس في أغلب الأحيان مسرحا لنضال الدول الكبرى ، ومن وراء كل دولة فريق من الدول الصغرى ؛ وقد لمسنا أثناء عرض المسألة المصرية آثار هذا النضال واضحة جلية ؛ ومن أشد بواعث الأسف أن يكون مصير حقوق الأمم وأمانيها الحيوية رهنا بنتائج مثل هذا النضال .

والواقع أن مجلس الأمن قد خيب كثيرا من الآمال التي عقدت عليه ، وقد بدأت بعض الدوائر السياسية تتحدث بالفعل عن فشله في مهمته الأساسية ؛ ومما قالته في هذا الصدد جريدة « نيويورك تيمس » وهي من أعظم الصحف الأمريكية في إحدى مقالاتها الأخيرة : « إن مجلس الأمن قد منى بالفشل في تأدية مهمته التي أنشئ من أجلها ، وهي المحافظة على السلم وحسم المنازعات بين الشعوب بالرغم من السلطات الواسعة التي خولت له والفرص الحسنة التي عرضت له . وقد أدت الأزمة التي يعانيها مجلس الأمن في الآونة الأخيرة إلى قيام حركة بين عدد من أعضاء هيئة الأمم المتحدة بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية تهدف إلى تقوية نفوذ الجمعية العمومية والحد من سلطة المجلس بإلغاء حق الفيتو . وتعتقد « نيويورك تيمس » أن السبب الحقيقي لفشل مجلس الأمن في معالجة المشاكل التي عرضت عليه هو أن المجلس لم ينظر إلى هذه المشاكل على علاتها بعيدا عن المؤثرات السياسية الدولية وملابساتها ؛ بل كان يتأثر دائما في مداولاته وقراراته بسياسة القوة التي تبدو في أجلى مظاهرها في الصراع الدولي القائم بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي » .

ولا شك في أن هذه الصورة التي ترسمها الجريدة الأمريكية الكبرى لمجلس الأمن يؤيدها كثير من

الحقائق التي تجلت عند عرض المسألة المصرية ؛ على أنه مهما كانت النتائج الأخيرة التي تنتهي إليها القضية المصرية أمام مجلس الأمن ، وسواء أكانت هذه النتائج محققة لآمال مصر أم مخيبة لها ، فإن مصر قد جنت من هذا الاحتكام الدولي أعظم الفوائد ، فقد أتيح لها أن تعرض وجهة نظرها القومية وأن تعرف العالم بقضيتها من أعظم منبر دولي ، وقد كانت هذه القضية منسية مجهولة في كثير من الدوائر والأمم ؛ وقد أتيح لها في الوقت نفسه أن تفضح نيات الاستعمار البريطاني وأساليب السياسة الاستعمارية البريطانية التي لم تتغير عبر الحرب العالمية الثانية شيئاً منها ، وأن تضع الدول الاستعمارية والمعتدية في المأزق الذي يقتضيه عدوانها ؛ وقد أتيح لها بالأخص أن تتعرف مناصريها الذين يعطفون على أمانيها ، ومعارضيها الذين يخشون بزوغ الحرية ونهوض الأمم ؛ وبذا تستطيع في المستقبل أن ترسم لها سياسة خارجية مستنيرة قائمة على الحقائق الواقعة والصداقات المتبادلة . وهذه كلها فوائد جلية أتاحها لنا الاحتكام الدولي .

فلننتظر إذاً نتيجة هذا الاحتكام هادئين واثقين بعدالة قضيتنا وقدس حقوقنا .

محمد عبد الله عنان

حول حكومة السودان

لن أتكلم عن السودان بالطريقة التي يتكلم كل الناس بها . فلست في هذه الكلمة قاصدا إلى أي معنى سياسي فيما يتصل بعلاقة السودان بمصر ، أو عما ينبغي أن تكون عليه تلك العلاقة .

كل ما أقصد أن أشير إليه في هذه الكلمة هو الحكم القائم في السودان ، ومقدار صلاحيته لهذا العصر الحديث .

قد تصورت نفسي سودانيا أعيش في الخرطوم مثلا أو في جوبا ، ثم كددت خيالي في تصور حالي مع هذه الحكومة القائمة اليوم في السودان ، ثم سألت نفسي : ماذا كنت أفعل لو كنت حقاً كما تصورت ؟ والجواب الذي أجبت به على هذا السؤال هو أني كنت بغير شك أبادر بالهروب من هناك لكي أقيم في أي قطر آخر . كنت أهرب مثلا إلى الحبشة ، أو إلى اليمن ، أو أذهب لأؤدي فريضة الحج ، ثم أجاور هناك ، ولا أعود إلى بلادي ، أو كنت أذهب إلى مصر لكي أضم صوتي إلى صوت الذين ينادون بوحدة وادي النيل .

والسبب في كل هذه (الشحططة) أن الحكم في السودان لا يطاق . تصور بلدا يحكمه حاكم عام يستطيع أن يأمر وينهى بغير معقب ولا مراجع . تصور حاكما له أن يصدر القوانين بجرة قلم . تصور بلدا يعيش تحت هذا الحاكم في ظل حكم عرفي مستمر مضى عليه إلى الآن نحو نصف قرن . تصور حاكما يأتي من أقصى أطراف الأرض لا يعرف البلاد ، ولا لغتها ، ولا عاداتها ، ولا عرفها ، ولا يشعر نحوها بأي ارتباط سوى ارتباط السيادة ، ثم تكون له السلطة التي لا تعدلها في العالم اليوم أية سلطة في أي بلد من بلاد الله .

لقد زالت سلطة القياصرة والجبابرة ، ولم يبق على الأرض طالوت ولا طاغوت . وأصبح الناس يخجلون من ذكر اسم الاستبداد في الأحكام ، ومع ذلك فالسودان يحكمه حاكم واحد يجمع في يده من السلطة ما لم يجتمع يوماً ما عند قيصر الروسيا ، ولا سلطان تركيا ، ولا الملك الفرعوني ، ولا الإمبراطور الصيني .

فلو شاء حاكم السودان أن يجعل الشرق غربا ، أو أن يجعل الغرب شرقا ، ولو شاء أن يحيل الأبيض أسود ، أو يرد الأسود أبيض ، ولو شاء أن يفتح المغاليق ، أو يغلق المفاتيح ، أو أن يجمع الأشتات ، أو يشتت الجماعات ، لما كلفه ذلك مشقة أكبر من أن يأخذ القلم في يمينه ، ثم يخط به على قرطاس يطلع به على الناس أمراً واجب الطاعة تحت أسنة الحراب الخاضعة لحكم العرف .

أهذا حكم ينبغي أن يقوم في القرن العشرين ؟

حكم عرفي مستمر في يد رجل واحد له أن ينقض أو أن يبرم . وله أن يحلل ، وله أن يحرم . إن ذلك الحاكم والله لو كان أحكم الحكماء ، وأنبغ النبغاء ، لما أمن أن يكون حكمه معرة القرن العشرين ! هذه خصلة أولى .

والخصلة الثانية لحكم السودان الحالي أنه قد عزل تلك البلاد عزلا تاما من العالم — لا من مصر وحدها — فهو يحكم السياسة التي اتبعت فيه من أول الأمر قد بقي قطعة من وسط أفريقيا ، قد عزل من العالم كله كما عزل من مصر ، حتى لقد صار السفر إليه يحتاج إلى تصريح هو أصعب منالا من الباسبور الذي يستخرج للسفر إلى بلاد النرويج أو كندا في أبعد أطراف الأرض . وقد تمت هذه العزلة بقطع الصلة بين مصر وبين السودان عند أسوان . فالمسافر إلى السودان يقضي ثلاثة أيام بين سفر بالباخرة وسفر بالسكة الحديدية ، ثم لابد له من أن يضمن وجود المكان في الباخرة ، وفي قطار السكة الحديدية .

وقد أدى ذلك إلى أن حرم السودان من كل تعاون مع أبناء الشعوب الأخرى ، فلا يستفيد بالمشروعات العمرانية ، ولا برؤوس الأموال ، ولا بالجهود التي كان

يمكن أن يبذلها الأجانب أو المصريون فيه . وللحكومة السودانية في ذلك حجة مضحكة ، وهي أنهم يريدون حفظ السودان من الاستغلال الأجنبي ! ولكن الحكومة السودانية لا تعد الإنجليز ولا الشركات الإنجليزية من الأجانب ، فهي تحفظ لهم السودان ليقعدوا فيه كما يقعد الكلب في المذود ، لا هو يأكل التبن ولا يسمح للثور أن يأكل منه .

ومن العجيب أن أهل السودان أنفسهم يدخلون في دائرة الممنوعين من الاستغلال !

هذه العزلة العجيبة جعلت السودان اليوم من حيث العمران والإنتاج باقياً على ما كان عليه في أيام المهدية تقريباً . اللهم إلا بفرق واحد ، وهو النجاح لبعض الشركات الإنجليزية باحتكار الزراعة والتجارة احتكاراً يكاد يكون تاماً . ولم يستفد السودان بشيء من جهود تلك الشركات الاحتكارية ، تشهد بذلك ميزانيته التي لا تزال إلى اليوم دون عشرة ملايين .

ولو شئنا أن نطيل الحديث في هذه الخصلة الثانية لكان مجال القول متسعاً ، وحسبنا أن نشير إلى أن سياسة العزلة التي اتبعتها حكومة السودان تنافي كل فكرة اقتصادية وكل فكرة عمرانية في الوقت الحاضر .

والخصلة الثالثة هي قيام حكومة السودان برقابة عجيبة تتضاءل إلى جانبها رقابة حكومة هتلر أو حكومة السوفيات مع وجود فارق كبير بين رقابة هتلر والسوفيات وبين رقابة حكومة السودان ، فإن الرقابة الأولى تراعي مصلحة الشعب الذي تحت سلطانها ؛ في حين أن الرقابة التي تفرضها حكومة السودان لا يقصد بها خير الشعب السوداني .

ولتفسير ذلك نضرب مثلاً صغيراً : شاب سوداني يحب أن يكون دكتوراً . فلا تسمح له الحكومة أن يكون دكتوراً ، بل تحتم عليه أن يكون موظفاً كتابياً بحجة أنها في غير حاجة إلى دكاترة ؟

وشاب آخر يريد أن يكون محامياً ، فتقول له الحكومة إن لديها من المحامين عدداً كافياً فلا محل لزيادته . وشاب ثالث تعلم الطب في مصر مثلاً ، أو في انجلترة ، ويريد أن يفتتح عيادة في أم درمان . فترى حكومة السودان أن أم درمان ليست في حاجة إليه ، فإذا شاء أن يذهب إلى واد مدني كان بها ، وإلا فليذهب إلى قطر آخر .

هذا هو مثل من نوع الرقابة التي تفرضها حكومة السودان على أهل ذلك القطر ، كأن الله قد وهب لتلك الحكومة كل حكمته وفوضها في تقدير مصاير خلقه ، فهي تصرف شئون كل فرد كما تصرف شئون السياسة السودانية كيف تشاء .

وهذا نوع من القسر والتنظيم يمقته العالم اليوم ، وتمقته انجلترة نفسها بنوع خاص ، حتى مع توافر حسن النية ، فما بالنا بحكومة السودان ، وسياستها تقوم على أساس أنها وصية على شعب يجب أن يسخر تحت وصايتها لا لمصلحته هو ، ولكن لمصلحة الإمبراطورية البريطانية ؟

إن هذا النوع من الحكم ينطوي على أنانية متطرفة ، واستغلال فادح ، وسوء ظن بالغ ، وقد أصبح اليوم غير مناسب بأية حال للحياة في منتصف القرن العشرين .

هذه الخصال الثلاث في حد ذاتها تجعل الحكم القائم في السودان حكماً فاسداً واجب الزوال ، بقطع النظر عن حق مصر والسودان في الاستقلال والاتحاد ، وبقطع النظر عن كل هذه المناقشات الدائرة حول مستقبل السودان .

وإنا إذ نتناول هذا الحكم بالنقد لا نقصد مطلقاً أن نصل بين النظام القائم وبين المسألة العامة للعلاقة الطبيعية بين مصر والسودان ؛ فسواء كان السودان جزءاً من مصر ، أو كان إقليماً له حكومة خاصة به ، فإن هذا الحكم القائم في ذاته محكوم عليه بالفشل ، وهو في كل الأحوال وصمة في جبين نظم الحكم في الوقت الحاضر .

محمد فريد أبو حديد

قصة كوكب

— كان من الطبيعي للإنسان الأول ، وهو ينظر إلى سطح الأرض فيراه ممتدًا منبسطًا أمامه أن يعتقد أن هذه الأرض بسيط تنتشر فوقه التلال وتوشيه الأشجار وتجري خلاله الأنهار .

— فلما دار ببصره فيما حوله ورأى الأفق يطبق حول هذا السطح في المكان الذي تلامس فيه قبة السماء أطرافه كان من الطبيعي عنده أيضا أن يعتقد أن هذا البسيط الأرضي قرص مستدير .

— وكان من الطبيعي في نظره أيضا وهو يرى الشمس تبدو كل يوم من الشرق ثم تتخذ سبيلها مصعدة في أجواز السماء حتى تنتهي آخر النهار إلى الغرب فتغيب فيه — كان من الطبيعي أن يعتقد أن الأرض ثابتة وأن الشمس تدور حولها كل يوم مرة .

— وكذلك كان من الطبيعي عنده أن يعتقد أن الأرض مركز الكون ، لأن النجوم التي كانت تبدو له كل ليلة مبعثرة في قبة السماء ، كانت تشرق وتغرب هي الأخرى لتدور حوله كما تفعل الشمس .

— والإنسان منذ نشأته الأولى ممتاز بعقله المفكر الذي لا يني لحظة واحدة عن التفكر والتدبر ، فلما لم يسعفه عقله بكشف ما خفي عليه من أسرار الأرض ، ومعرفة العوامل التي تمسكها مكانا في مركزها الوسط الذي يرى أنها تشغله في هذا الكون ، استعدى الخيال لحل هذه المشكلة ، فتخيل الأولون أساطير ممتعة عن الطريقة التي تمسك الأرض في مركزها هذا ، وكانت الأسطورة الإغريقية من أمتع هذه الأساطير .

فقد كانت طريقة هؤلاء الاغريق في فهم الكون أن يتخذوا لكل ظاهرة من ظواهره الكبرى إلها يهيمن عليها ويدبر شئونها ويكون المرجع إليه في كل ما يتعلق بها ؛ فللبحر عندهم إله ، وللقوة إله ، وللجمال إله ، وللحب ربة وللغيرة أخرى ؛ فلما شغلتهم فكرة الأرض كيف بسطت ، وكيف علقت في مكانها ، تخيلوا أن هناك عملاقا جبارا يحمل هذه الأرض على كتفيه ، ورفعوا هذا العملاق إلى مصاف آلهتهم الأخرى وسموه « أطلس » . ونحن لا نزال إلى اليوم متأثرين بهذه الأسطورة الاغريقية القديمة ، وآية ذلك أننا نطلق اسم هذا « الرب » القديم على مجموعة الخرائط الجغرافية التي تصور بها بعض صفحات هذه الأرض .

• • •

ولكن هذا الخيال الخصب لم يعرقل في الإنسان تلك العملية الأخرى التي لا تزال منذ القدم تدور في رأسه وتدور ، سواء أراد هو أم لم يرد ؛ فإن الفكر الإنساني يعمل ليلا ونهارا — في اليقظة والمنام — وهو في نشاطه هذا يعمل كما تعمل الرئة التي تتنفس دون أن يوجهها صاحبها ، والقلب الذي ينبض دون أن يحركه عامله .

فكان من الطبيعي أيضا أن يهتدي العلماء بتفكيرهم المتواصل إلى تصحيح ما رسمه الخيال . وجاء رجال الرحلات فأيدوا ما وصل إليه رجال العلم . وأثبتوا أن الأرض كروية وليست قرصا مستديرا ؛ ولكن الناس — وهم في كل زمان ومكان أعداء لما جهلوا — قاوموا هؤلاء العلماء ، فاتهموهم في أول الأمر ، فصدوا عن مقالتهم وأعرضوا عن دعواهم ، وكذبوا أولئك الرحالة فاتهموهم بالتلفيق والتزوير ؛ ووقفوا من الطائفتين عند هذا الحد في بداية المعركة . غير أنه يبدو أن لرجال الفكر ورجال العمل شيطانا مريدا يلازمهم ولا يزال يحضهم على دعوة الناس ليقيموهم ويتخلوا عن معتقداتهم القديمة التي ثبت لهم هم بطلانها . فلما رأى الناس إصرار هؤلاء (الأدعياء) على دعواهم التي لا تتفق مع ما يرونه بعيونهم وما أخذوه من العلم من آبائهم وأجدادهم

وقعت الواقعة بين الفريقين ، وتمكنت الكثرة في القلة ، واستبد الجهل بالعلم ورجاله وأنصاره . وقام رجال الكنيسة في القرون الوسطى ينتصرون لتعاليم الساذجة الأولى التي تورطوا في نشرها باسم الدين . فتسلح الجهل بأمضى أسلحته . وحسبك في محاربة الرأي أن تنادى بأنه يخالف الدين لتقوم الدهماء بالباقي . وماذا بعد (التكفير) إلا النفي والصلب والتحريق والتمثيل ؟ !

* * *

ولكن قام من بعد الرحلة الأولى رحلة ثان وثالث . وأجمع الجميع على أنهم طافوا حول الأرض ، فعادوا إلى حيث بدءوا ، بعد أن أتموا دورتهم حولها .

وكذلك ظهر الحق في أمر كروية الأرض وزهق الباطل . وبدأ الناس ينظرون شزرا إلى تعاليم الكنيسة . وأخذوا يترحمون على ضحاياها الذين لم يكن لهم في الواقع من ذنب إلا أنهم رفعوا المشاعل عالية لتضيء السبيل أمام من لم يؤت مثل حظهم من نور المعرفة ويقين الحق .

ولم يمانع الناس كثيرا بعد ذلك في تصديق النظريات العلمية الأخرى التي جاءتهم تترى من العلماء ورجال الفكر ، فلم يقاوموا طويلا في (ابتلاع) فكرة أن الأرض غير ثابتة في مكانها وأنها تدور حول نفسها (وازدردوا) بنفس السهولة فكرة أنها هي التي تدور حول الشمس . وفهموا لماذا يطول النهار أو يقصر . وعرفوا السبب في تعاقب الفصول .

ووفق العلماء إلى اكتشاف المرصدات الكبيرة ، وأمكنهم أن يرصدوا الشمس وباقي النجوم ، وأن يميزوا بينها وبين الكواكب السيارة . واهتدى (إسحق نيوتن) إلى أصول علم الميكانيكا ، فوضع قوانينها ؛ واستطاع أن يفهم حركات بعض النجوم ومسالكها ، وأمكنه أن يقيس أبعادها ، ويقدر أوزانها . وتكشفت للإنسان بفضل هذه العلوم الحديثة حقيقة مكانه في الكون . فعرف أن كوكبه هذا الذي يعيش عليه هو أبعد الأشياء من أن يكون مركز الكون ، وأنه ليس إلا واحدا من كواكب تسعة تتبع نجم الشمس ، وتدور حوله في مدارات أمكن قياسها وضبطها ، حتى لقد بات من الميسور أن يقال إن الشمس ستكسف يوم كذا في ساعة كذا ، أو أن القمر سيخسف في ليلة كذا وفي دقيقة كذا . فيقع الكسوف والخسوف كما رسم العلماء . لا يستقدم أحدهما شيئاً من موعده ولا يستأخر ! !

* * *

كادت هذه الرتبة العلمية الرفيعة التي بلغها الإنسان والتي جعلته يتنبأ بهذه الظواهر الفلكية المعقدة ، هذا التنبؤ الدقيق . كاد ذلك يوهمه أنه يمرح بسرعة في مدارج الكمال ، وأنه لابد بالغ غايته من ذلك ، وأنه لو أعطى الوقت الكافي لدراسة أية مسألة فهو لا محالة كاشف من سرها ، وواصل إلى حقيقتها . وبدأ العلماء يغلقون دواوينهم في ثبت ، وهم ينظرون إلى أسرار الكون واحداً واحداً ، نظرة الصياد الذي يرقب فريسته من كثب ، وهو مؤمن بأنها عن قريب ستكون في قبضته يقلبها ذات اليمين وذات الشمال ! وبلغ غرور العلم أوجه حين وقعت النادرة الآتية :

كان العلماء يعرفون أن توابع الشمس ثمانية ، هي : عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل وأورانيوس ، ونبتون . وكانوا قد برعوا في حساب مداراتها وأبعادها ، وامتلأوا إيماناً بأنهم بلغوا من ذلك غاية الكمال . والواقع أنهم كانوا قد وصلوا إلى أن يحسبوا بمنتهى الدقة مدار (الجسمين المتجاذبين) إذا كان كل واحد منهما يتحرك تحت تأثير جاذبية الجسم الثاني ، ولا يتأثر بشيء غير ذلك . ولكن لما كانت الكواكب الشمسية لا يتأثر أحدها في مكانه بجاذبية الشمس وحدها ،

بل يتأثر كل كوكب أيضاً بجاذبية الكواكب الأخرى كلها بعيدها وقريبها ، كل بحسب كتلته وبحسب بعده ، فقد حاول الرياضيون أن يهتدوا إلى حل رياضي لعلاقة الأجسام الثلاثة المتجاذبة ، ليتدرجوا من هذه العملية إلى ما بعدها ، وقد وصلوا في ذلك إلى نتائج طيبة فعلا ، ولكنهم يعلمون رغم ذلك تمام العلم أن حسابهم في مسألة (الأجسام الثلاثة) وما بعدها ، لا يزال ضبطه فوق متناول الإنسان ، وأن هناك خطأ يسيرا لا يزالون يستعينون عليه (بعمليات التقريب) .

وبدا لبعض علماء الفلك في مستهل القرن الحالي أن الخطأ في حساب مدار الأرض تحت تأثير الشمس وباقي الكواكب الثمانية التي عرفوها لا يزال أكبر مما كانوا يتوقعون نتيجة لتقريبهم . ووجدوا أن هذا الخطأ يمكن تلافيه إذا افترضوا وجود كوكب تاسع للشمس . فساروا مع افتراضهم ، وزعموا أن هذا الكوكب موجود فعلا ، وحسبوا حساب مداره وقدروا مبلغ وزنه ومقدار سرعته ، وتخيلوا له موقعاً في جهة معينة من السماء . وكانت قد دخلت على المنظار المكبر في ذلك الوقت تحسينات عظيمة رفعت من قيمته ، فاستخدمه العلماء في البحث عن هذا الكوكب الغريب الذي افترضوا وجوده افتراضا ، فإذا هم وجها لوجه أمام هذا الكوكب في دسته السماوي . وإذا هو حيث وضعوه في خيالهم ؟ ثم إذا كتلته كما وزنوها ، وإذا سرعته كما قدروها ، وإذا العالم يتلقى من أيديهم مولد كوكب الشمس التاسع — السيار بلوتو — الذي كان مولده في سنة ١٩٢٩ ! !

عند ذلك ألقى في روع العلم والعلماء أن العالم دان لهم أعلاه كما دانت لهم أسافله . وتخيل الناس أنه لن يبقى في العالم سر يستعصي على العقل حله ، أو يستغلق على المنطق الرياضي أصله وفصله . وما دام الإنسان أصبح قادراً على فهم قوى الطبيعة وعلى تسخيرها لأغراضه ، وما دام أنه أصبح قادراً أيضاً على رؤية ما لا تراه العين ، وعلى وزن ما لا تصل إليه اليد ، فأي شيء يمكن أن يعترض طريقه ، وهو يتغلغل في التحري عن هذه الأسرار ، وفي وضع يده على مفاتيحها .

غير أن هذه الأحلام لم تذهب بعيداً . . .

ولم يلبث العلم أن اصطدم بالصخرة الهائلة التي تحطمت عليها آماله . فأفاق على أثر الصدمة كئيباً محزوناً . ورأى (قصوره الإسبانية) تتقلقل تحت قدميه وهو يهوي من فوقها كسير القلب ، مهيض الجناح ... خاسئ البصر !

أتدري أي شيء كانت هذه الصخرة الهائلة ؟

إنها أصغر وحدة في هذا الوجود !

إنها الذرة !

ولعلنا نبين ذلك في مقال تال إن شاء الله (١) .

محسن محمود

---

(١) المرجع فيما ورد بهذا المقال من معلومات فلكية هو كتاب (العلم والإيمان) للأستاذ صلاح الدين خشبة ، المدرس بكلية الهندسة بجامعة فؤاد الأول .

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي

تليفون — ٥٦٧٦٩

القاهرة

الخواطر

سمـــــر

كنا جلوسا حول مائدة فى مكان عام ذات ليلة مقمرة من هذا الشهر . وكان العقد يتكون من أربعة أطباء ، ضرب كل منهم إلى حد ما بسهم فى ميدان الشهرة المحلية . ولا أدرى — أولعلى أدرى — لماذا طرقنا مواضيع مختلفة فى شتى الفنون إلا الطب ! فالمريض والدواء يتعقباننا فى كل دقيقة من حياتنا اليومية ، فلا أقل من أن نريح أنفسنا حتى من ذكر اسميهما فى ساعات الفراغ والاسترخاء .

تحدثنا عن نجوم السينما فى الماضى والحاضر ، وأخذنا نقارن بينهم ، ودهش أحدنا : كيف كنا نطيق السينما الصامتة نرقب شفاها تتحرك ولا نسمع أصواتا نطمئن بوجودها فى ظلام صالة العرض ! فقلت له : هكذا الإنسان قُلَّبٌ لا يرضيه شىء ! عندما اخترع التليفون كبَّر له وهلل وقال: سبحان الله ! كيف أستمع إلى صديق بعيد عنى وأنا جالس فى عقر دارى ؟ ثم بدأ يعتاد جمال الموقف فبرزت روحه الناقدة مرة أخرى وأصبح يتأفف لأى عطل ولو كان طفيفا ؛ وكان آباؤنا يصيحون فى أذن العاملة المسكينة قائلين : « هذا عيب والله يا مدموازيل . الصوت غير واضح . لقد مضت على ساعة وأنا أستعطفك لتفتحى لى السكة كما يجب ولا حياة لمن تنادى . الله يلعن التليفون ومخترعه » ، ثم جاء عهد التليفون الأوتوماتيكى فدهشنا له أول مرة ، ثم بدأنا نضجر لمجرد وجود أى خلل ولو كان بسيطا ، ولم تكن هناك عاملة نصيح فى وجهها — أو بالأصح فى أذنها ، فنكتفى برمى السماعة فى غيظ وحنق ونلعن اليوم الذى اخترع فيه التليفون . هـذا مجرد مثل بسيط يسرى على أمثلة أخرى كالقطار الذى قرب المسافات ، فنتأفف إذا تأخر كسور الساعة فى قطع مسافة كان يقطعها أجدادنا الأولون فى أيام وأسابيع ، والراديو الذى يسمعك برامج القارات البعيدة وأنت جالس فى عقر دارك ، نلعنه فى حنق وانفعال إذا حمل إليك صوت مطرب لا يعجبك ، فتنسى الفضائل العديدة وتتمسك فى أنانية ممقوتة برذيلة غير مقصودة ، إذ يقول المثل السائر : إن إرضاء الجميع من المحال . حقيقة أن الإنسان كفور ولا يملأ عينيه إلا التراب .

وهنا هب أحدنا قائلا — وكأنه لم يستمع إلى كلمة مما قلت : — على ذكر السينما هل تذكرون رودلف فالنتينو معبود النساء القديم ؟ وهل تذكرون حزن النساء عليه عندما مات ؟ يا ترى كم من سنين الزمان القادر مضت منذ خبا هذا النجم ؟ .

فأجبت قائلا : أذكر أن هذا كان فى يوم ٢٣ أغسطس ١٩٢٦ ، والذى ساعدنى على تذكر هذا أنه سبق وفاة سعد زغلول باشا بسنة تماما ، وإذا لم تخنى الذاكرة يمكننى أن أذكر أيضا سبب موته ، فقد أصيب بالتهاب فى الزائدة الدودية (المصران الأعور) لم يمهله أكثر من يومين . ولم يكن فى الأيام الخوالى سلفاناميد ولا بنسلين ، ولا أدرى كيف كنا نعالج مرضانا قبل اكتشاف هذين الساحرين ! هذه الالتهابات الداخلية كانت تفتك بالمرضى فتكا ذريعا . كان إذا أصيب مثلا بتفيح فى جرح بسيط بأصبعه نتيجة تلوثه أثناء إجراء عملية ، سلم أمره للقدر ، فقد كان عليه أن يموت بعد يومين أو ثلاثة نتيجة التسمم الدموى . لعلكم يا إخوانى تذكرون كيف مات المرحوم الدكتور على بك إبراهيم رامز مثلا . هذا الجراح العظيم الذى قل أن شهدت مصر مثله مهارة وعطفا على المرضى . ولعلى كنت آخر تلاميذه ، فقد حضر إلى غرفة العمليات ذات يوم خميس من صيف عام ١٩٢٨ ، وكنت واقفا أقرأ قائمة عمليات اليوم ، فوجدت الأستاذ العظيم يقف فجأة إلى جانبى ، وبعد أن حيانى تحية الصباح استعرض القائمة

مني ودخل في تواضع إلى غرفة العمليات ليؤدي عمله .
وقيل لي بعد ذلك إنه أصيب بجرح في أصبعه قبل ذلك بيوم بينما كان يجري عملية في مستشفاه الخاص، وشعر يوم الخميس بارتفاع بسيط في الحرارة، ولكنه تحامل على نفسه وحضر إلى مستشفى قصر العيني دون أن يظهر لمن حوله أن في الجو غيما يكاد يتحول إلى رعود وصواعق . ثم استمرت الحرارة في الارتفاع مساء الخميس ، وعندها استسلم للفراش ، فقد كان عليه أن يموت كالعادة ، وأخذ يروح تدريجياً في الغيبوبة المحتومة التي تنتهي إلى ميتة الأبطال الشهداء .

ولا زلت أذكر يا إخواني كيف شيعناه إلى مقره الأخير في حزن عميق . ولقد سرنا على أقدامنا حتى نهاية الرحلة دون أن نشعر بأي تعب ، ولما وصلنا إلى المقبرة ارتطم النعش نتيجة خطأ حامليه بحافة الباب ، وكاد طربوشه أن يقع على الأرض ، ولكن النعش صمم على الاحتفاظ بوقاره حتى اللحظة الأخيرة ، إذ سرعان ما استرد توازنه ، وتابع تهاديه في جلال ، حتى وضعوه عند حافة القبر . ولما رفعوا غطاءه كان خادم الفقيد يضرب صدره بيديه ، ويقول لحفار القبور : جاء لك على يدك أخيراً . ترفق به وأنت تودعه بين ذرات التراب كنزاً غالياً . وكان الحفار بارداً هادئاً كالثلج ، عندما نظر إلى مساعديه ، دون مبالاة بتوسلات التابع المخلص . وقال لهم في لهجة آلية : هيا يا رفاق أسرعوا ، ولا تضيعوا الوقت .

أذكر يا إخواني أنني حزنت كثيراً على هذا الرجل ، ولقد نسيت مقدار حزني عليه ، فلقد انتابتني بعده سلسلة من الأحزان البعيدة والقريبة . والإنسان منا يلمق الجرح القديم بالحزن الجديد ، وقضية النسيان تطغى على الجرح النازف حتى يصبح كأن لم يكن ، ولله في خلقه شئون .

وعندها قال أحدنا : ولماذا نذهب بعيداً ، ألم تكن وفاة سعد زغلول باشا نتيجة إصابته بالحمرة مع مضاعفات رئوية حادة ، لو وجد قرص السلفاناميد في ذلك الوقت ، لأطال الطب في عمره سنوات ، أفاد الوطن منها ، لأن البلاد كانت مقدمة على مفاوضات هامة مع الإنجليز ، وكانت مؤتلفة ومتحدة في روعة أرغمت المحتل أن يخطب ودها .
ألستم موافقين على أن بضعة أقراص من السلفاناميد ، أو بضع حقن من البنسلين كان في إمكانها أن تغير تاريخ المشكلة المصرية وتطوراتها في العشرين سنة التي مضت ، منذ وفاة سعد باشا ! لقد كان وجوده في ذلك الوقت لازما لجمع الشمل وإخافة العدو ؛ فقد كان رحمه الله (يميع) الإنجليز . ولكن مصر سيئة الحظ لأن الوحي الإلهي لم ينزل على مكتشف مركبات السلفاناميد إلا في عام ١٩٣٥ ، أي بعد وفاة سعد باشا بثماني سنوات !

فقال آخر : إن حظ الأفراد والأمم من الحياة قسمة ونصيب . فلماذا لا تعودون من رحلتكم في بيداء الروحية وتتأملوا هذه الفتاة التي ترقص رفيقها ، ألا ترون أنها تتلوى كالثعبان بين ذراعي رجل يتحرك في جمود وآلية ، وكأنه تمثال مسيَّر ، لابد أنه زوجها !

دكتور مصطفى الديواني

الرأسمالية الغربية

فى أندونيسيا

خلال عصر الاستعمار الهولندى

— ٢ —

سياسة الباب المفتوح :

لقد شعرت الحكومة الهولندية باليقظة الأسيوية فى الشعوب المستوطنة فى الشرق الأقصى بعد انتصار اليابان على الروسيا فى عام ١٩٠٥ . وخشيت أن تمتد يد الإيقاظ الأسيوية إلى أندونيسيا وتحررها من الحكم الهولندى . ففتحت أبواب إندونيسيا لرؤوس الأموال الأمريكية والانكليزية وغيرهما ، فتدفقت إليها ، واستغلت فى شراء الأراضى ، واستخراج المعادن ، وإنشاء المصانع والمعامل . فغدت إندونيسيا سوقاً عالمياً ! بل مستعمرة دولية ! . . .

وقد بلغ عدد العمال الفنيين الأندونيسيين فى المصانع والمعامل الأوربية والأمريكية فى عام ١٩٣٩ (١,٥٠٠,٠٠٠) عامل ، منهم (١٢٠,٠٠٠) عامل ، كانوا يشتغلون فى أكبر المصانع الأوربية .

إن الرأسمالية الغربية العالمية استغلت الثروة الزراعية والمعدنية الإندونيسية . وضيقت المجال الاقتصادى على الشعب الإندونيسى . وقد بلغ رأس مالها (ستة مليارات روبية) ! ! ! وكان التعدين ، والملاحة ، والكهرباء ، والسكك الحديدية ، والمطاط ، والسكر ، والتبغ ، أكثر الأعمال التى استغلتها الرأسمالية الغربية منذ عام ١٩٠٥ — ١٩٤٢ ، وتضع فى البيان الآتى ، رؤوس الأموال الغربية التى استغلت فى زراعة المطاط وصناعته حسب إحصائيات عام ١٩٢٩ .

البلد التابع له	مقدار الرأسمال
هولندا	٢٩٢,٠٠٠,٠٠٠ روبية
انكلترا	١٩٣,٠٠٠,٠٠٠ »
أمريكا	٥٣,٠٠٠,٠٠٠ »
بلجيكا	٢٨,٠٠٠,٠٠٠ »
فرنسا	٢٥,٠٠٠,٠٠٠ »
سويسرا	١٢,٠٠٠,٠٠٠ »
الجملة	٦٠٣,٠٠٠,٠٠٠ روبية

مبلغ ضخم ، استغل لنوع واحد من المواد الإندونيسية فما معناه ؟ ! . . .

انتزاع الثروة الاقتصادية الإندونيسية من الأندونيسيين ، لرفاهية الرأسماليين الغربيين ، واستغلال جهود الإندونيسيين لنماء الثروة الغربية !

وفى عام ١٩٢٧ بلغت قيمة الإنتاج الإندونيسى المصدر إلى خارج إندونيسيا ١٧٠٠ مليون روبية ، والوارد إليها ٩٠٠ مليون روبية . أى أن الصادر ضعف الوارد ! ومعنى هذا فى منطق الاقتصاد الحديث ، الاستغلال الفاحش الذى يؤدى إلى ضعف الإنتاج .

وفى عام ١٩٣٠ صدرت إلى خارج إندونيسيا مواد زراعية ومعدنية وبعض جلود الحيوانات ، نوضحها فيما يلى :

النوع	القيمة	
جلود	٣٥,١٦٢,٠٠٠	روبية
مطاط	١٧٢,٧٩٥,٠٠٠	»
توابل	٦٦,١٩٨,٠٠٠	»
بن	٣٥,٦٦٥,٠٠٠	»
زيوت نباتية	١٠٠,٩٦٦,٠٠٠	»
تبغ	٥٨,٦٤٨,٠٠٠	»
سكر	٢٤٥,٢٧٦,٠٠٠	»
فلفل	١٣,٨٨١,٠٠٠	»
شاى	٦٩,٥٣٠,٠٠٠	»

النوع	القيمة	
خيوط أناناس	٣٩ر٣٥٠ر٠٠٠	روبية
حاصلات زراعية	٥٩ر٤٧٤ر٠٠٠	«
بترول	١٩٠ر٠٥٦ر٠٠٠	«
حاصلات مناجم	٦٢ر٦٣١ر٠٠٠	«
حاصلات أخرى	٨ر١١٥ر٠٠٠	«
الجملة	١ر١٤٧ر٧٤٧ر٠٠٠	روبية

وليست هذه الصادرات وحدها ، هي الصادرات الإندونيسية التي تصدرها الشركات الغربية ، بل هناك صادرات أخرى ، بلغت قيمتها أضعاف هذه الصادرات ، لا نستطيع ذكرها في هذا البحث الموجز . لأننا توخينا في هذا الموضوع عرض الثروة الاقتصادية الإندونيسية ، واستغلال الرأسمالية العالمية لها ولم نتعرض لنقدها ، ويكفي القارئ، أن ينقدها ويظهر محاسنها ومساوئها ، ومدى أثرها في حياة الشعب الإندونيسي ، السياسية والاقتصادية والصحية والثقافية .

والصادرات الاندونيسية تصدر إلى كافة القارات بنسب معينة ، كانت تضعها الحكومة الهولندية ، فتعمل بموجبها الشركات الأوربية والأمريكية . وفيما يلي بيان مفصل عن حصة كل قارة من الصادرات الإندونيسية ، مستقى من أوثق المصادر الإندونيسية :

نسبة توزيع الصادرات الإندونيسية إلى العالم في عام ١٩٣٥ و ١٩٣٦ و ١٩٣٧ .

	السنة ١٩٣٥	السنة ١٩٣٦	السنة ١٩٣٧
حصة أوربا	٤٠ر٣٧ ٪	٣٨ر٦٨ ٪	٣٦ر٣٦ ٪
« أمريكا	١٤ر٩٧ ٪	١٩ر٠٢ ٪	١٩ر٥٧ ٪
« آسيا	٣٢ر١٨ ٪	٢٧ر٤٩ ٪	٣١ر٢٨ ٪
« أفريقيا	٣ر١٣ ٪	٣ر٧١ ٪	٤ر١٢ ٪
« أستراليا	٤ر٨٧ ٪	٤ر٧٧ ٪	٣ر٩٦ ٪
« بلاد أخرى	٤ر٤٨ ٪	٦ر٣٣ ٪	٤ر٧١ ٪
الجملة	— ١٠٠	— ١٠٠	— ١٠٠

وتصدر هذه القارات منتوجاتها إلى إندونيسيا بنسب معينة أيضاً ، تحت إشراف الحكومة الهولندية . وفيما يلي بيان نسبة الواردات العالمية إلى إندونيسيا :

نسبة الواردات العالمية إلى إندونيسيا في عام ١٩٣٥ و ١٩٣٦ و ١٩٣٧ :

	السنة ١٩٣٥	السنة ١٩٣٦	السنة ١٩٣٧
الواردة من أوربا	٣٦ر١٩ ٪	٤٠ر٧٠ ٪	٤٤ر٨٦ ٪
« أمريكا	٧ر٦٦ ٪	٨ر٦٠ ٪	١٠ر٩٦ ٪
« آسيا	٥١ر٦٦ ٪	٤٦ر٤٨ ٪	٤٠ر٦٢ ٪
« أستراليا	٣ر٣٢ ٪	٢ر٩٦ ٪	٢ر٤٨ ٪
« أفريقيا	٠ر٣٢ ٪	٠ر٩١ ٪	٠٠ر٧٢ ٪
« بلاد أخرى	٠ر٤٥ ٪	٠ر٣٥ ٪	٠٠ر٣٦ ٪
الجملة	— ١٠٠	— ١٠٠	— ١٠٠

ويظهر من موازنة البيانين مع بعضهما ، أن الصادرات الإندونيسية أكثر من الواردات ، أي أن إندونيسيا نهر لا ينضب ، يجب عليها أن تقدم للعالم الرأسمالي ثروتها الفياضة .

وقد خصصت هولندا لنفسها نسبة عالية من الصادرات الإندونيسية الخاصة بأوربا ، لأنها كانت صاحبة النفوذ والسلطان في إندونيسيا ! وفيما يلي بيان نسبتها المئوية التي اختصت بها من حصة أوربا :

السنة	النسبة
١٩٣٥	٣٠ر٤٨ ٪
١٩٣٦	٢٣ر٦٢ ٪
١٩٣٧	٢٠ر٠٩ ٪

أي أن نصف الصادرات الإندونيسية الخاصة بأوربا اختصت به هولندا . واختصت لنفسها أيضاً من الواردات الأوربية بنسبة عالية ، وهي كما يلي :

السنة	النسبة
١٩٣٥	١٣ر٣٧ ٪
١٩٣٦	١٦ر٧٢ ٪
١٩٣٧	١٥ر١٤ ٪

أى أن تلك الواردات الأوربية اختصت به هولندا ، فتبعث إلى إندونيسيا منتوجاتها بأثمان عالية ، ولا رقيب عليها ! …

وإذا كانت إندونيسيا غنية بمواردها الزراعية والمعدنية فإن العالم الرأسمالى قد نزح هذه الثروة إلى أوربا وأمريكا منذ عام ١٦٠٠ ، ولم يبق للشعب الإندونيسى الحر إلا النزر منها . وتنتج التربة الإندونيسية مواد زراعية ومعدنية تضارع الإنتاج العالمى ونضع هنا بياناً بذلك :

بيان مستوى الإنتاج الإندونيسى إلى الإنتاج العالمى :

النوع	النسبة المئوية	النوع	النسبة المئوية
الكينا	٩٢	النارجيل	٢٨
الفلفل الأسود	٨٣	الشاى	١٧
البردى	٧٨	السكر	٥
القصدير	٥٩	البترول	٥
المطاط	٧٥	كورا	٦١

وتحتل إندونيسيا الدرجة الخامسة بين البلدان المنتجة للبترول ، والدرجة الأولى للسكر فى العالم . وفى عام ١٩٢٧ بلغ عدد مصانع السكر فى جزيرة جاوا وحدها مائتى مصنع تابعة للشركات الغربية .

ومنذ عام ١٩٢٨ بدأت التجارة الخارجية الإندونيسية فى النقص والهبوط ، ويلاحظ ذلك من الأرقام الآتية :

بيان قيمة الصادرات الإندونيسية فى عام ١٩٢٨ و ١٩٤٠

السنة	القيمة
١٩٢٨	١ر٠٨٠ر٤٨٨ر٠٠٠ روبية
١٩٤٠	٨٨١ر٩١٣ر٠٠٠ «

بيان قيمة الواردات المالية إلى إندونيسية فى عام ١٩٢٨ و ١٩٤٠ :

السنة	القيمة
١٩٢٨	١ر٠٠٣ر٤٩٢ر٠٠٠ روبية
١٩٤٠	٤٣٧ر٦٧٨ر٠٠٠ «

وهكذا فقدت إندونيسيا ثروتها حتى مجىء اليابانيين إليها فى عام ١٩٤٢ . واليوم تستعيد حياتها الاقتصادية الأولى ، بعد أن تحررت من السيطرة الاستعمارية الهولندية التى جعلتها بلاد تصدير ، وقد شرعت الحكومة الإندونيسية فى بناء حياتها الاقتصادية الجديدة على أسس ثابتة مدعمة بالعلم والفن الحديث . وستجعل إندونيسيا بلداً صناعياً وزراعياً ، بما تملكه من المواد الخام اللازمة للحياة الصناعية الحديثة . كما ذكرناها فى معرض هذا البحث .

محمد جنبدى

في ميدان الخدمة الاجتماعية :

السل في مصر

مشكلة اجتماعية بالغة الخطورة

يكاد السل ينفرد بمجموعة من الخصائص تجعله — فوق كونه مرضاً قاسياً يخترم الأعمار — مشكلة اجتماعية بالغة الخطورة ، وبخاصة في مصر التي لم تقطع بعد كل أشواط التقدم الاجتماعي .

ومع أن الإحصاءات في مصر تقدمت ، فإن مرضى السل لم يعرف عددهم على وجهه ، ومرجع ذلك تكتم المرضى وأهلهم ، واعتبارهم في أحيان كثيرة هذا المرض عاراً ، ثم مسايرة الأطباء أحياناً لهم في مسلكهم .

على أن من الواضح أن هذا الداء يحصد من المصريين عشرين ألفاً في كل عام ، وأن الإصابات به تتجاوز مائتي ألف نسمة ، وأن انتشاره — مع شديد الأسف — في تزايد مطرد في مدائن مصر وقراها .

ومرض السل وإن كان يصيب الأفراد من مختلف الأعمار ، إلا أن فتكه بالشباب أشد ؛ ومعنى هذا أنه يترصد رجال الغد ، ويحرم البلاد منهم ، وإنه لحرمان ينطوي على أفدح الخسائر .

والسل يغزو عمال المصانع وخاصة عمال المحالج والمنازل ومصانع النسيج والطواحين والمحاجر وغيرهم ، وهؤلاء جميعاً وأمثالهم من العمال هم بعض عدة الوطن ، فما يؤذيه في كيانه الصناعي أن يفقدهم .

وداء السل داء خبيث ؛ فهو غالباً لا يكتشف في مبدأ أمره ، بل يظل يعمل عمله وحامله مخدوع ، يحسب ما يحس من أعراض الداء أعراضاً لبعض الأمراض المألوفة السهلة التي تكتنف الإنسان في حالات كثيرة

ولقد يشك المريض الذي على حظ من الثقافة الصحية في أن داء السل قد تسرب إليه ، ولكن الفقر يمسكه من زيارة الطبيب في الوقت المناسب ، فلا يلبث أن يعشش الداء في بدنه .

* * *

وليس مرض السل من الأمراض التي يبرئها العلاج بعد أسابيع أو أشهر قليلة ؛ وإنما يتطلب علاجه أمداً يطول . فريض السل لا مناص له من أن يترك عمله ستة أشهر على الأقل ، بل لقد يتراخى وقت العلاج أكثر من هذا ، وقد يلزم المريض بعد شفائه أن يريح بدنه من كل عمل يهلكه ، وعقله من كل تفكير يرهقه ، وذلك لفترة غير قصيرة . وقد لا يتمكن المريض من مزاولة عمله العادي قبل سنتين .

وهذا الأمر بالذات يحمل في ثناياه أسوأ النتائج ، ذلك أن بعد المريض من عمله حيناً طويلاً قد يفقده إياه إن كان موظفاً ، وقد يؤدي إلى فشل متجره أو مصنعه إن كان تاجراً ، وإلى نقص كفايته وضياع مركزه إن كان عاملاً ، وإلى ضياع سنوات دراسية من عمره إن كان طالباً .

وظاهر أن أسر المرضى تتأثر في صميم حياتها بسبب انقطاع عائليها من أعمالهم ، وانقطاع أجورهم تبعاً لهذا ، وتتعرض لمتاعب كثيرة تصيب أفرادها جميعاً ، ولمشكلات اجتماعية هائلة تتفجر عليهم وتفسد عيشتهم ، وقد توجد الإجرام بينهم ، وتبيح الكوارث في بيوتهم مقارص عميقة ، لا داعي الآن إلى الاسترسال في التحدث عنها .

ومن الحقائق الطبية أن العناء النفسي يزيد على العليل علته ويبعده من الشفاء مسافات ، ولا ريب أن مريض السل إذ يرى أسرته : زوجه وبناته وبنيه ، أو والديه أو إخوته جائعين معذبين ضائعين ، تتمزق نفسه وتسوء حاله . والمشاهد أن بعض المرضى — حرصاً على أهلهم من ذل الحاجة — يؤثرون حمل الداء على دخول المستشفى ويظلون

يكدون والمرض يجرهم إلى القبور حتى يغيبهم فيها . . . .

ولقد يبرأ المريض في مصر من السل ، ولا يكون عليه كي يعاود الحياة العادية إلا أن يخلد حينا إلى الراحة الواجبة طبيا ، ولكنه لا يجد السبيل إلى هذه الراحة ، لأن مصر خالية من المنشآت التي تتيح للناقه عملا سهلا يتقاضى عنه أجره كاملا ، وكل ما فيها مستعمرة المرج التي لا تتسع إلا لعدد قليل ، والتي لم تتمكن بعد من النهوض برسالتها كاملة ؛ ومن ثم فإن الناقه من السل يضطر في سبيل عيشه وعيش أهله أن يكدح كدحه المادي ، ولا يتمكن من تنظيم فترة العودة إلى الحياة العادية ، فينتكس ويعود مرضه ومحنته أسوأ ما كانا .

والطب يستحسن أن يقضي الناقه من السل فترة الراحة في أعقاب مرضه في مصحة أو مستشفى ، ولكن مصر أيضاً ليس فيها لهذا الغرض مصحات ولا مستشفيات. والمصحتان الصدريتان اللتان فيها لا تكادان تتسعان المرضى فضلا عن الناقهين .

* * *

والغذاء الجيد الشامل للفيتامينات والأوسوتينات الضرورية للجسم من أول وسائل العلاج التي يجب إتاحتها لمريض السل ، ولكن التغذية في مصر سيئة ، ولها مشكلة لم تحل بعد ؛ إذ الفقر يحرم الكثيرين لا من الغذاء الجيد فحسب ، ولكن من الغذاء العادي أيضا ؛ هذا فضلا عن الجهل بالثقافة الغذائية التي كان يمكن أن تعوض بعض النقص الذي يسببه الفقر .

والذين يملكون المال ، وهم قلة ، قد لا يملكون ، بسبب ذلك الجهل ولعيوب طرائق الطهي في مصر ، الحصول على غذاء شهي نافع يتغلب على ضعف الشهية الذي يصاب به مريض السل عادة .

والراحة والهواء والغذاء على أهميتها الجوهرية لا تغني غالباً عن العلاج الوضعي الذي يختصر في الغالب أيام المرض ؛ فمريض السل تلزمه عملية « الاسترواح الصدري » أو تعصيب الحجاب الحاجز ، أو العمليات الجراحية الأخرى التي ليس هنا مجال الحديث عنها . وكل هذه لا تنهض بها المستشفيات المجانية في مصر إلا في حدود أدنى مما ينبغي ، لأن عدد المستوصفات الصدرية عندنا ٢١ ، مع أن البلد يحتاج إلى ٦٠ مستوصفا ، باعتبار مستوصف واحد لكل ثلاثمائة ألف فرد ، وعدد الأسرّة لمرضى السل الآن ١٧٠٠ ، مع أنه يجب أن يكون ٢٥٠٠٠ سرير ، وهو ما يعادل عُشر عدد المصابين تقريبا .

وكثيراً ما ينشد المصاب مكاناً في المستشفيات فلا يجده ، فيعود إلى داره ومقر عمله ينفث المرض فيمن يحيطون به .

والتمريض اللازم لمريض السل والأدوية التي تلزم لتقويته ، ومصاريف إبر الهواء التي يتعين عليه أن يداوم عليها ، ونفقات إقامته في جهة بعيدة عن موطنه إذا كان جو هذا الموطن غير مناسب ، كأن يكون شاطئيا مثلا ، ومصاريف استعمال الأشعة فوق البنفسجية ، أو أشعة اكس ، ومصاريف فحص البصاق بين فترة وأخرى تأكداً من نجاح العلاج . . . هذه وغيرها لا بد لها جميعا من المال ، والمال في مصر ليس في أيدي كل طبقة ، والمستشفيات أضيق وأعجز من أن نعلق عليها كل آمالنا .

والفقر لا يمكّن أغلب مرضى السل من استيفاء الملابس والأغطية الكافية لتدفئة أجسامهم ، سيما وأن هذا المرض بالذات يستلزم فتح نوافذ مساكنهم دواما مما يجعل التدفئة ضرورة واجبة .

والجمعيات الخيرية للإحسان التي تعنى بمساعدة المرضى المصريين وقت مرضهم ووقت نقاهتهم ، سواء بالمال أو بالغذاء أو بالكساء ، والتي تنفق على أسر المرضى الفقراء ، وتقيهم ويلات الحرمان ، وربما يُشق عالهم ، هذه الجمعيات قليلة جدا ، ومجهودها محدود ، بل إن الريف المصري فيما أظن محروم منها تماماً .

وإلى الآن ما زالت العناية بالمشروعات الصحية محدودة في أكثر المدن ، ومنعدمة في أغلب القرى . ومن الآثار السيئة لتأخر هذه العناية أن الشوارع — إذا استثنينا شوارع الأحياء الحديثة في المدن الكبيرة ، وهي مسكونة بالسراة الذين يكوّنون فئة محدودة من الأمة — يتطاير فيها الغبار ناقلا العدوى من الأرض الملوثة ببصاق المسلولين .

• • •

والحياة في مصر شاقة نتيجة زيادة السكان ، ونتيجة سوء توزيع الملكية ، فالطبقات الفقيرة تبذل في سبيل العيش جهودا تُنهك قواها . وهذا مع سوء التغذية يمهّد للسل سبيله إلى الأبدان .

وهذه الطبقات التي تتعرض أحيانا للبطالة ، والتي تبذل جهدها في وقت العمل لقاء أجور لا تكفي لضرورات العيش من طعام وملبس ، تبذل أيضا جهدها رخيصة في وقت الفراغ ، فأساليب اللهو مجهدة والمكيفات منتشرة ، والسهر شائع ، وتلك كلها تجعل الجسم أكثر استعدادا لتلقي ذلك الداء .

ومن الثابت طبيا أن المصدر الأول لعدوى الأطفال بمرض السل هو لبن الحيوانات المسلولة أو منتجاته . ومعلوم أن الحظائر الصحية للمواشي نادرة في مصر ، وأساليب الحلب وصنع المنتجات اللبنية ما تزال غير صحية وبدائية جدا في أغلب الريف المصري ، والمراقبة الصحية على الألبان ليست إلا في المدن الكبرى .

ونظراً لنقص الثقافة الصحية في طبقات الشعب ، فإن أساليب الوقاية من عدوى هذا المرض لا تتبع بالدقة الواجبة . وبعض البسطاء يظلون مخالطين لمرضى السل طويلا ، وقد لا يعزل المريض إلا متأخراً بعد أن يكون قد قذف بالعدوى إلى بعض المحيطين به .

بل لقد يستعمل الأصحاء أدوات المريض من فرش وفوط ومناديل وفناجين وملاعق وأطباق ، وربما كان الفقر من أسباب عدم تخصيص أدوات المريض .

ذلك والعادات السيئة لم يقض عليها الآن ، فما زال الكثيرون يبصقون في كل مكان مسيئين إلى الصحة العامة فضلا عن إساءتهم إلى الذوق .

ومع أن الإصابة في أولاد المسلولات مرجحة ، ومع أن زواج المسلولات من مرضهن نادر في أعقاب الوضع ، فإن الأزواج لا يمنعون على منعهن من الحمل ، وبذلك تزداد مآسي هذا المرض القاسي .

ومما يؤسف له أن المخالطين لا يكشف عليهم طبيا بطريقة منظمة إلزامية ، للاطمئنان إلى سلامتهم من العدوى . ولهذا قد يدب الداء إليهم ويظل مستخفياً حتى يستفحل ويصعب درؤه .

والذي يضاعف ويلات هذا المرض أن نظام التأمين الاجتماعي الذي سبقت إليه إيطاليا ، والذي عمَّ في أغلب دول الغرب لم يُعمَل به في بلادنا .

وبعد ، فما تقدم يبدو جليا أن مرض السل من أخطر المشكلات الاجتماعية في مصر ، وأنه تعوزه جهود الاجتماعيين بقدر ما تعوزه جهود الأطباء . وقد بذل هؤلاء في مكافحته جهودا طيبة ، وبقي على أولئك أن يساهموا هم الآخرون في اكتساح هذا الداء الدمي بحصة وافية من الجهاد في ميدانهم

لبيب السعيد

إلى الفتاة التي تريد أن تتبوأ

مكانا عليـــا

يافتاتي :

إذا بلغت يوما ما من الكبر عتيا ، فإني لأرجو ألا تجدي في ماضيك الطويل ما تقضين منه حياء .

وإني لأرجو أنك سوف تذكرين بجزيل الحمد وموفور الثناء ، تلك السنين الحبيبة ، سنين البنوة ، يوم كانت الشمس دائمة الإشراق ، ويوم كانت السعادة ترفرف عليك بجناحيها ، ويوم كان الأمل المريض يلفك بردائه الفضفاض .

وسوف تذكرين في شيخوختك — وزمانها منك جد بعيد — ما صنعت من حسنات ، وما حاولت أن تصنعي من حسنات ، وسوف تسعدين بأنك قد أديت واجبك .

ولكن الشيء الباقي على الزمن ، الذي سوف يكسبك الحمد والثناء ، والذي سوف يرقى بك إلى مقاعد الشرفاء ، والذي يسمو على كل ما خلف الناس من تماثيل قد أوفت على الغاية من جمال الفن ، هو البيت الذي تضعين دعامته . فالأمهات في كل بلد وقطر هن الأمينات على مستقبل البلاد .

ويؤثر عن جون رسكن (١٨١٩ — ١٩٠٠) قوله : « إن بناء مخلوق جميل ، أولى وأفضل من بناء قبة من قباب الكنائس . وبينا الرجال يبنون القباب ، إذا بالنساء يبنين أطفالا صغارا ، ويحملنهم بمختلف المؤثرات فيصعدن بهم إلى أفق الحكمة والمجد ، أو يهبطن بهم إلى درك المهانة والجهل » .

وإذا الرجال تولاهم الغرور بما فلسفوا من فلسفات وقننوا من قوانين ، واخترعوا من اختراعات ، فإن كل هذا قد يزول ويفنى .

ولكن الفتاة سوف تصبح أما ، وتلك الأم سوف تبني مستقبل أمتها . وهي لن تقنن القوانين ، فذلك من واجب البرلمانات . وهي لن تخلق طرائق التفكير ، فذلك من واجب رجال الفكر .

وقد يصنع الرجل سفينة ويقول لها : سيري في البحر . ولكن المرأة تصنع تلك السفينة ربانا يجري السفينة بأمره . والرجل قد يصنع أشياء يقول لها : طيري في الجو ، أو سيري على الأرض ، أو غوصي في الماء .

ولكن الأم تقول لوليدها :

« اعمل على أن تكون في هذه الدنيا شمسا تضيء هذا العالم المظلم . واعمل على أن تكون منقذاً للناس من ضلالاتهم ، واعمل على أن تكون شاعرا ينطق بالحكمة أو هاديا يهدي الناس إلى سواء السبيل » .

واعلمي يا فتاتي أنك سوف تحمدين أمسك ويومك إذا أتيحت لك الفرصة ، فبنيت بيتا تستطيعين في السنين المقبلة أن تجعليه مباءة تزدهر فيها الحياة في أسمى مجاليها .

وكما أن أيدينا وأفواهنا إنما هي الطعام والشراب الذي نأكله ونشربه ، فتتمثله أجسامنا . كذلك عقولنا تنمو وتكبر من أثر المناظر والكتب ، والأصدقاء والأفكار ، التي تتجمع حولنا .

وكذلك أيضا قلوبنا تهتز وتمتلئ بالانفعالات العميقة الأثر ، وبالأمور التي تدرك بالحس ، ولا تدرك باللمس ولا بالنظر ، وهو ما اصطلحنا على تسميته بيوتا ومحيطا .

وعليك يا فتاتي أن تفكري منذ اليوم في مستقبل بلادك ، واعملي على أن لا يضل قومك الطريق ، فلا أطفال بعد اليوم يموتون جوعا وبردا ، ولا أمهات يمتن من أثر الكد والكدح في سبيل القوت ، ولا سل بعد اليوم ينتقص من أجسام صرعاه عصارة الحياة .

وليكن حلمك يا فتاتي في نومك ويقظتك أن تكون بلادك تحقيقاً لسكل حلم جميل .

ولتكن أشهى الأماني عندك أن ترى بلادك وقد اختفى من جميع أنحائها ظل الجهل ، وغاض معين السكره والأنانية المقوتة ، بل غاض معين كل شيء ذميم . ثم حل بساحات بلادك العلم والإحسان والأخلاق الفاضلة وحب الوطن فوق حب الناس أنفسهم .

وفي أيدينا نحن كما في أيديكن أنتن معشر الفتيات بلوغ تلك الغاية في زمان قريب أو بعيد . ولكن النصيب الأكبر هو نصيبكن . ذلك لأنكن تبنين البيوت وكذلك تبنين الرجال . وفي قدرتكن أن تجعلن الرجال أبطالا وشجعانا ، وأن تجعلن كل بطل من أولئك الأبطال يخاطب بنات جنسكن بقول الشاعر العربي :

يقتن جيادنا ويقلن لستم
بعولتنا إذا لم تمنعونا

وهناك في تاريخ الأدب الإنجليزي اسم من الأسماء اللامعة ، لو قدر لصاحبه أن تكون له أم غير تلك الأم لكان أشد بريقاً وتلألؤاً . ذلك هو لورد بيرون . فقد كانت أمه تضربه بقطع الحديد المحمى ، وكانت تعيره بالعرج ، فقال فيها ما معناه :

« لم أذق في صباي طعم الحنان . وكانت ينابيع حياتي مسمومة » .

وهناك أمهات يشبهن تلك الأم . كما أن هناك أمهات يشبهن الأم التي أقص قصتها فيما يلي :—

كانت في إحدى المصحات بنت صغيرة اشتدت عليها علة السل . وكان الأمل في شفائها أملا ضعيفاً .

ورأى الأطباء في إحدى محاولاتهم أن يدخلوا في أقصى حلقها أنبوباً من الفضة ليخرجوا السائل الصديدي من رئتها . فجاءت أمها لتراها فقالت لها الممرضة : يمكنك أن تبقى عندها دقيقتين لا أكثر . ومهما يكن من أمر فلا تقربي الأنبوب الموضوع في فيها . ذلك لأن حياتها متوقفة على بقائه في مكانه . ثم غابت الممرضة ، فلما عادت ألفت الأم قد غادرت المكان ، وقد سرقت الأنبوب . سرقته لتبيعه وتشتري بثمنه خمرا . فجادت بالخمر لنفسها وجادت بالموت لبنتها .

ومن القسوة أن يقرأ المرء كلاما شنيعا كهذا الكلام وإني لأطلب يا فتاتي أني لم أكن ملزما بأن أقص عليك تلك القصة التي تبعث الرعب .

ولكني أردت بذلك أن أزيد في حضك على أن تكوني أكثر إشفاقا ورحمة . وأن تبيتي — إذا دعا الواجب — حياة سخاء بالمال وجود بالنفس على كل من تعتنين بأمرهم ، وعلى كل من يعنون بأمرك .

ثم اعملي يا فتاتي على بقاء الاسم الذي تحملين نقيا ، لا تشوبه شائبة . وأورثيه لذريتك نقيا ، لا تشوبه شائبة . واعملي ما وسعك الجهد على أن تجعل بيتك مركزاً للحياة في أسمى معانيها .

واعملي يا فتاتي على أن يكون عقلك جزءا من هذا العالم الهائم المركة وأن تتجمع في ذلك العقل الأمواج الجديدة من أمواج العلم والمعرفة .

واجعلي دعائم بيتك — إذا بلغت مبلغ النساء — الإيمان والأمل والإحسان . إنك إن فعلت فلن تجدي من الوقت ما يتيح لك العناية بالأمور الحقيرة التافهة . ولن تجدي من نفسك الميل إلى ما يورد النفس المهالك .

وإذا طاف بك طائف من الحزن ، فانظري إلى بديع صنع الباري سبحانه :

في الليل إذا عسعس ، وفي الصبح إذا تنفس ، وفي الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، وفي تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض .

(مترجمة) مبارك إبراهيم

الثقافة العربية

مما لا جدال فيه أن الثقافة عامل قوى فى تكوين الأمم ، وبناء مجدها ، وهى مقياس رقى الشعوب وسموها ، فالأمم التى تدفن آخر أدى فيها تعد فى الطليعة ، وتغدو مضرباً للأمثال ، والواقع أن الثقافة هى أم المخترع وغذاء الزعيم والقائد والوزير ؛ وما العظماء إلا أبناء العلم ، وربائب الثقافة ، وعلى هذا يجدر بالأمة العربية إذا ما أرادت أن تتبوأ مكانتها بين الأمم وتزاحم بمنكبيها فى ملحمة الحياة ، أن تلتفت إلى الناحية الثقافية ، وتميرها ما تستحق من العناية ، ولعل قائلا يقول : إن الثقافة العربية قد بدأت تنمو نموها المطلوب ، وتتجه نحو النضج ، حتى بدأنا نقتطف ثمار كتابنا وشعرائنا الذين ملأوا دنيا العرب بثمرات أقلامهم ونتاج قرائحهم .

بيد أن هـذا الاعتقاد يمكن أن يكون خاطئاً ، لأن الثقافة العربيـة تتجه اتجاهاً مريضاً ، يجعلها قائمة على أسس ، ربمـا لا تقوى أن تكون ركنا ركينا تخلق أمة بالمعنى الصحيح ، ويظهر أن الجامعة العربية تود أن تبنى صرح توحيدها للثقافة على هذه الأسس المتداعية للسقوط ، وإذا حاولنا أن نتبين خصائص ثقافتنا ، علينا أن نبحث فى المعلم أولاً ، والمعلم كاد أن يكون رسولا ، فهو مرآة صافية تنعكس فيها صورة التلميذ ، ويقتبس منـه أخلاقه ومبادئه ، والمعلمون عندنا تختلف مشاربهم ، وتتنافر مشاعرهم ؛ فمنهم من تثقف بالثقافة اللاتينية ، ويراها هى التى تصلح أن تكون نبراسا لنا ، وهدى يهتدى به العرب فى بناء مستقبلهم ، ومنهم من يتعشق الثقافة السكسونية ، ولا يرى ثقافة دونها ، ومن الأساتذة من يدين فى سياسته بالشيوعية مثـلا ، ومنهم الاشـتراكى ، ومنهم الغالى فى قوميته ، والمعتدل ، ومنهم المتبتل فى دينه ، والجاحد للأديان ، ومنهم المفرط ، والمفرّط ، وكلهم يمرون على التلميذ ساعة من نهار ، ويبشرون بعقائدهم ، فيخرج التلميذ مشتت الفكر مقلقل الرأى ، تسيطر عليه مبادىء مختلفة ، لا يعرف ما يناسب بيئته وقوميته ، وكثيرا ما يعتنق التلميذ مبدأ منها ، لا لأنه معجب به ، موافق لشعوره وإحساسه ، وإنما لأنه رأى لأستاذ يحبه ويميل إليه ، فيخرج النشء العربى لا يمت لبعضه بصلة ، مشتت الآراء مختلف المبادىء ، ينظر الواحد منهم إلى الحياة نظرة تخالف نظرة غيره ، ويبذل جهده فى تأييد عقيدته ، وهذا ما يؤدى إلى انقسام الصفوف وتعدد الأحزاب والمبادىء فى الأمة الواحدة .

والخطأ الثانى لا يقل خطرا عن الأول ، وهذا الخطأ هو أننا نقيس المثقفين عندنا ، قلة وكثرة بسكان الأمصار والمدن ، ولا نحسب لسكان الأرياف حسابا كأنهم ليسوا من الأمة العربية ، مع أنهم أشد حاجة إلى ثقافة تتمشى وحياتهم الريفية فالفلاح أحوج ما يكون إلى ثقافة فلاحية ، وراعى الماشية يجب أن يكون مثقفا بعلم الدواجن ، والريفى بعيد بطبعه عن مدرسة الحياة وهو فى حاجة ماسة إلى علم عائلى يرشده إلى السعادة البيتية ويعلمه حقوق الزوجية وحقوق الأولاد وعلم الصحة واكتساب المال وطرق صرفه ، وهذا كله مفقود عند الأمة العربية ، ولا زالت الحكومات عندنا بعيدة عن العناية بالفلاح وتثقيفه .

ولعلنا لو أحصينا المثقفين من الأمة العربية بين حواضرها وبواديها لما وجدنا خمسة فى المائة بالنسبة للمجموع ، وليست الثقافة فى قرض الشعر وكتابة الروايات فحسب ، وإنمـا الثقافة أن يكون كل فرد من الأمة مثقفا فى دائرة اختصاصه ؛ فالتاجر له ثقافة خاصة به ، وكذلك النجار والحداد وهلم جرّا .

ثم إن الجامعة العربية أخذت تعمل لتوحيد الثقافة بين الأمم المشتركة فيها ؛ وإذا كانت الدبلوماسيات تجبرها أن تقصر عملها السياسى على دول الشرق ، فالعمل الثقافى هو

قدر مشترك بين الأمة العربية المستقلة والمغلوبة على أمرها ، لأن الثقافة تراث تركه الأجداد لإخوة أشقاء ، يستحق كل منهم ما يستحق الآخر ؛ وهذا التراث وقف غير قابل للقسمة ؛ وإنما يجب أن يستثمر ريعه الإخوة على حد سواء ، والمنطق لا يجيز للقوى أن يفوز بالنصيب الأوفر لأنه قوى ، ويمنع الضعيف من حقه لأنه ضعيف ، فالمواريث توزع على الورثة بالسوية لا فرق بين قويهم وضعيفهم ؛ وإذا سرنا على هذا المبدأ جاز لنا أن نلفت نظر الجامعة ولو قليلا إلى أخ أقعده جور المستعمر عن المشاركة في سياسة العرب ، فلا أقل من أن ننهض به ثقافيا وأن نعينه لمجد يده إلى تراث آبائه وأجداده ، وليس للمستعمر حق أن يمنعنا من توزيع ميراثنا الثقافي على أبناء اللغة العربية ، فهو يبتغى من وراء استعماره أن يفوز بمنافعه الاقتصادية والعسكرية ؛ وكان من الواجب على الأخ أن يغتصب منه ذلك ؛ أما وقد تنازل عن حق أخيه وربما يجد له عذرا في ذلك ، فليس له عذر أن يغفل عن رعاية أخيه في الثقافة المشتركة ويترك أبناء العائلة الواحدة ، منهم من يدال قسطه من لغته وثقافته لحد الإشباع ، ومنهم من يعيش ظامئا إلى ثقافته يخشى أن تنقطع الصلة بينه وبين إخوته من جهة ، وبينه وبين أسلافه وماضيه من جهة أخرى . إننا نود من الجامعة أن تشرك المغرب العربي في لجانها الثقافية ، فتعين فيها أعضاء من تونس والجزائر ومراكش ، ثم تملى هذه اللجان مقرراتها ، وللعرب في تلك الأقطار أن يسعوا في تطبيقها والعمل بها جهد المستطاع .

على أن المغرب العربي قد سبق غيره في السعي لتوحيد الثقافة العربية ولم يدخر وسعا في ذلك . هؤلاء شبابه قد تحملوا مشاق السفر وفروا من حصار المستعمر الشديد عن طريق طرابلس ، ثم عبروا الصحراء وقاسوا ما قاسوا من التعب والجوع وأكلت الرمال من أرجلهم حتى غدوا يمشون على الأرض كأنهم يمشون على أعينهم ، وهم في ذلك يحدوهم الأمل وتدفعهم الثقة في إخوانهم ويعتبرون أنفسهم قادمين إلى بيوتهم سيجدون فيها من يأخذ بيدهم ويقودهم إلى منابع الثقافة فينهلون من معينها ما يؤهلهم أن يكونوا رسل ثقافة موحدة بين عرب الشرق وعرب المغرب ؛ هذه عوامل دفعت هؤلاء الشباب لينفروا إلى إخوانهم ليتفقهوا في ثقافتهم ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ، وزاد في إرهاقهم تذليل العقبات التي نصبها الأجنبي في الحدود المصطنعة بين الأقطار العربية ، فأكلت الرشوة ما بيدهم من المال واضطروا إلى أن يتواروا في الرمال والجبال عندما تحيط بهم زبانية الحدود ؛ كل ذلك سعيا وراء تراثهم الثقافي ؛ وكم تكون لهم خيبة أمل حينما يجدون أبواب العلم مغلقة في وجوههم موصدة أمامهم بقيود واعتبارات وضعها الأجنبي قديما فأخذناها عنه كأحكام منزلة لا يجوز نقضها ؛ وكم يستولى القنوط على هؤلاء الشباب لما يشعرون بأنهم أجانب بين إخوانهم بعد ما كانوا أجانب في بلادهم ! وها هم يتسكعون في بلاد الشرق تدفعهم جامعة إلى أخرى ؛ فهذه لا تعتبر شهاداتهم لأنها غير منصوص عليها في قوانين البلاد ؛ وتلك تمنعهم من دخولها السادة ، والمادة احتكرها المستعمر في المغرب العربي ؛ وأخيرا زهد هؤلاء الشباب في العلم واضطروا إلى أن يبحثوا عن عمل يرتزقون من ورائه بعد أن أصبح رجوعهم إلى أوطانهم محاطا بالخطر ، والسجون تنتظرهم ، فخسروا الصفقتين ، وحرموا من ثقافتهم الضئيلة في بلادهم وأوطانهم وأهليهم ، كما حرموا مما كانوا يرغبونه من ثقافة شرقية موحدة ليرجعوا بها إلى إخوانهم ويوفوهم حقهم من تراث أسلافهم ولغة قرآنهم :

فهل بعد ذلك نفاخر بثقافتنا ونبني عليها آمالا ، ونسعى لتوحيدها وهي مهزلة ؟ أما كان لنا أن نوحد شعورنا قبل توحيدها وأن نجعلها درعا سابغة لكل من نطق بالضاد ، وقدرا مشتركا بين العرب في مشرق الشمس ومغربها ، ازداد أنصارها وتتمدد جنودها ! ولعل فيمن

الجنرال ايزنهاور

نشأ فى أسرة متوسطة وشق طريقه فى الحياة كادا بيديه معتمدا على نفسه دون أن يلجأ لغنى أو كبير. أخلص لعائلته كما أخلص للبلد الذى نشأ فيه ولأصدقائه فى الصغر، ولم يترك فرصة دون أن يبين فيها هذا الولاء. لم يدع النبوغ ولم يحاول أن يظاهر على غيره من طريق الرهبة أو استعمال النفوذ.

لم يقبل أن يندمج فى الطبقة الارستقراطية عند ما توجه إلى انكلترا خلال الحرب الأخيرة، بل ظل على بساطته لا يفرق بين الناس، وكان يعتذر من قبول دعوات العظماء لحضور حفلاتهم الاجتماعية إلا ما كان له صلة بعمله الرسمى.

وضع تحت أمره قطار خاص أعد لتنقلاته وأسفاره فرفض متنازلا عنه لأحد مساعديه ممن يحتاج عملهم إلى كثرة التنقلات والأسفار، وكان يستعيره منه أحيانا فى رحلاته التفتيشية على الجنود، توفيرا للوقت وإعفاء لمرءوسيه من ضرورة إيجاد مكان لمبيته.

خصص له جناح فى فندق كلاردج أفخم فنادق لندن، ولكنه عندما رأى حيطانه الذهبية وما فيه من ترف زائد امتعض ولم يقبل الإقامة فيه قائلا: « إنى أشعر كأنى أعيش فى الخطيئة » وانتقل إلى فندق دورشستر.

ومن طريف ما يحكى عنه أنه دعى ذات مرة لتمضية ليلة بمنزل رئيس الوزراء فى الريف وقد نسى سكرتيره الخاص أن يحضر له ملابس نومه الخاصة، فاضطر الجنرال إلى أن يلبس ملابس مضيفه وكانت أكبر من حجمه بكثير، واكتفى بأن لفت نظر السكرتير إلى خطئه.

ومما يدل على تواضعه أيضا أنه كان يكره أن يفتح له سكرتيره الخاص باب مكتبه ويظل ممسكا به حتى يدخل أو أن يستأذن فى الدخول عليه.

يحب الإيضاح والبساطة فى التعبير عن آرائه فى منطق سليم سواء فى تقاريره أو فى خطبه، ويوصى مرءوسيه باتباع ذلك دون تعنيفهم إذا أخطأوا.

هو بعكس القواد صريح لا يحوطه الغموض. يحب رجال الصحافة ويسهل لهم مأمورياتهم ويعرف كيف يتخلص من أسئلتهم المحرجة.

عمل ما أمكن على تثبيت التعاون بين الحلفاء خصوصا بين الإنكليز والأمريكان لكسب الحرب وقد اختلف ضابطان أحدهما أمريكى والآخر انكليزى بسبب العمل فاحتد الأول ووجه إهانة للأنكليز فى شخص الثانى، فاستدعاه القائد العام وعنفه قائلا: « إنك على حق وكنت قد أعفو عن إهانتك زميلك فى حدة النقاش لولا أنك أهنت الإنكليز فى شخصه. لذلك فأنا لعدم تعاونك مع هذا قررت إعادتك إلى أمريكا فى الحال أسوة بما يتبع مع أمثالك »

ولكن الجنرال بالرغم من ذلك كله يحافظ على أمريكيته ويخشى على التعابير الأمريكية أن تشوبها « شائبة » فى انكلترا؛ وكان يلزم كل جندى أمريكى يستعمل لفظا إنكليزيا قحا بدفع بنس فى صندوق خاص أعد بمكتبه لهذه الغرامات.

لم يخف كرهه الشخصى لبعض العادات الإنكليزية كعدم السماح بالتدخين فى غرف المائدة بالأندية عقب تناول الطعام كما هى العادة فى أمريكا، وكان لذلك يعتذر من قبول الدعوات بكل لطف.

« مترجمة »

محمد محمد نحت

أمثالهم القوم نوابغ لو أسعفهم الحظ لرفعوا لواء الثقافة العربية، وخلدوا لها ذكرا وقدموا إلى أبناء لغتهم ما فاخروا به أمم الدنيا، ولكنهم ماتوا فى زوايا الإهمال وعفى عليهم النسيان، ودفنوا مع مواهبهم، والناس فى غفلة عنهم، فلا عرفتهم ثقافتهم ولا هم عرفوا أنفسهم.

محمد الأمين التونسى

أنباء وآراء

من كل نبع قطرة :

• إن العلماء توصلوا إلى تقدير المسافة بين الشمس والأرض بما يقرب من ٠٠٠ر٠٠٥ر٩٣ ميل على احتمال وقوع خطأ في هذا التقدير بما يقرب من ٩٠٠٠ ميل !

• وإن أهالي إقليم ويلز (إنجلترا) يبلغ عددهم ٠٠٠ر٥٠٠ر٢ نسمة منهم ٠٠٠ر٨١١ يتكلمون اللغة الإنجليزية والولشية ، وأما الباقي فأكثر من ٠٠٠ر٥٠٠ر١ لا يستطيع أن يتكلم إلا اللغة الإنجليزية و ٠٠٠ر٩٨ لا يستطيع أن يتكلم إلا اللغة الولشية فقط .

• وإن الضباب في لندن قد يبلغ في كثافته حداً يجعل الناس في دور السينما لا يستطيعون رؤية الشاشة !

• وإن شجرة التين يكون أول محصولها بعد مضي أربع سنوات من نموها .

• وإن أطول حاجز طبيعي في العالم هو الحدود الغربية في كوينزلند (استراليا) وهو يمتد في طوله إلى ٩٠٠ ميل .

• وإن قطب الكرة المتجمد الجنوبي يكون في شهر ديسمبر أقرب موضع على الأرض إلى الشمس . ولا يمنعه هذا من أن يكون من أشد جهات العالم برودة .

• وإن الرجل إذا غرق في الماء فإنه يطفو بعد وصدره ووجهه إلى أعلى . أما المرأة فإنها تطفو ووجهها إلى أسفل .

• وإن عدد الكلمات التي سجلت في تحقيقات محاكمة نورمبرج التاريخية لمجرمي الحرب العالمية الأخيرة كانت ٤٠٠٠٠٠٠٠ كلمة .

• وإن ثعبان الماء (انكليس) من أغنى الأطعمة في الغذاء لاحتوائه على كمية كبيرة من الفيتامينات .

• وإن حمام الزاجل الذي يستعمله سلاح الطيران للملكي البريطاني يستطيع أن يطير ٢٠٠ ميل إذا كان الجو مواتيا . وأن يظل طائرا ١٥ ساعة متوالية .

• يقولون إن الأطفال الذين تحمل بهم أمهاتهم في زمن الشتاء يكونون على الجملة أذكى ممن يحمل بهم في زمن الصيف . وذلك بإجراء اختبار على نحو ٣٣٦١ تلميذا من تلاميذ المدارس ، وإن أبناء الشتاء يكون إخوتهم أو أخواتهم أقل من أبناء الصيف !

أيهما أكذب ؟

تكاذب أعرابيان ، فقال أحدهما : خرجت مرة على فرس لي ، فإذا بظلمة شديدة فيممتها حتى وصلت إليها . فإذا قطعة من الليل لم تنتبه . فما زلت أحمل بفرسي عليها حتى أنبهتها فانجابت !

فقال الآخر : لقد رميت ظبيا مرة بسهم ، فعدل الظبي يمنة ، فعدل السهم خلفه ، فتياسر الظبي ، فتياسر السهم خلفه ، ثم علا فعلا السهم خلفه ، فانحدر فانحدر خلفه حتى أخذه .

السكارى في روسيا !

ليس البطش هو العقوبة الرادعة للمذنب إذا هو أذنب ، فلعل في نفسه منطقة خير ، إذا عرف كيف يتخلص إليها ، فعولجت ، كانت أوكد أثرا في زجر الآثم ألا يعود إلى إثمه . ذلك ما تتبعه الدول التي أصابت حظا من التقدم العقلي فأفادت به في أوجه حياتها . من ذلك مثلا الروسيا وكيف تعامل السكير الذي فقد وعيه من الشراب ، يضرب في الطرقات في هذيانه ، فلا يعرف أين تطأ قدماه ، فيقبض عليه الشرطي ، فيقوده إلى مركز الشرطة ، فيدخله الحمام فيستحم ، ثم يؤخذ من شعره وينظفونه ، ولعل ثوبه يكون قد تمزق ، فإنهم يصلحونه له بالحياكة أو بالرفو ، ثم يذهب به بعد ذلك إلى الفراش لينام . وفي صبيحة يومه التالي يقدمون له كشف حساب يدفعه أجراً من هذا الذي صنعوه له . وإنه لأجر زهيد لو أنه قام بما قاموا به معه وحده في

من الشعر القصصي :

جنون الحب

نهلت من رضابها خمرة الكأ
س وفاحت في وجنتيها الورود
الصبا الغض والجمال سلاحا
ن أذلا لحكمها من تريد
وإذا الحسن شاء أمراً فلا تعجب
إذا أذعن الملوك الصيد
غادة تُسلق العيون بها وجداً
وما تدري كيف منها تحيد
يعجز الشعر أن يصورها للنا
س وصفاً فما يقول القصيد
خفقة تأسر الجرىء من الأسد
فكيف الصبابة الرعديد !
خطرت في الضحى كأحسن ما يخطر
ملاك عليه تاج فريد
كربيع يضفي الحياة على الكو
ن فيا من رأى الحياة تعود !
فرآها من الملوك عظيم
تخفق الراى فوقه والبنود
نظم الشاسع الرحيب من الآ
فاق في ملكه فما يستزيد
منظر رائع وصيت مدوٍ
وجلال فذ وملك وطيد
أبصر الحسن ساطعاً يتجلى
فتولى وعقله مفقود

الحمام، وعند الحلاق، وفي إصلاح ثوبه. فإذا هو عجز عن الدفع تقاضوا أجر ذلك من مصلحة الصحة جريا على ماينبغي لمصلحة الصحة من الواجب له. ويضرب رجال الشرطة بذلك المثل على أنهم إنما هم خدام الشعب، يأخذون بيده إذا هو حاد عن جادة الطريق. ويقال إن هذه الطريقة أوكد أثراً في زجر الخاطئ، من العقوبة أن تنزل به.

لماذا نتعلم التاريخ :

مما يهدف إليه الإنسان العاقل أن يعرف نفسه، وتلك غاية رفيعة إذا هو بلغها. وأنت إذا شئت أن تعرف نفسك، لا يقتصر ذلك منك على أن تعرف مميزاتك التي تتميز بها من الغير، وإنما ينبغي إلى جانب ذلك أن تعرف طبيعتك كإنسان. من أجل ذلك ينبغي أول شيء أن تعرف مقومات الإنسان، ثم تعرف أي طبقات الإنسان أنت بالنسبة إلى ذلك الإنسان. والثالثة أن تتأكد مما أنت عليه. بذلك تعمل العمل الذي أنت مؤهل له، وتقدر عليه على وجهه الأصح. وبما أن الإنسان لا يعرف ما هو قادر عليه حتى يجربه، فأدنى المعرفة منالا لما يستطيعه الإنسان هو معرفة ما استطاع أن يعمله الإنسان.

لذلك كان للتاريخ فضل إنبائنا ما صنعه الإنسان فنعرف منه من هو الإنسان!

عظة :

حج هرون الرشيد، فبلغه بن عابد بمكة مجاب الدعوة معتزل من الناس في جبال تهامة. فأتاه الرشيد، فسأله عن حاله، ثم قال له: أوصني ومرني بما شئت، فوالله لا عصيتك. فسكت عنه، ولم يرد له جوابا. فخرج عنه الرشيد. فقال له أصحابه: ما منعك إذ سألك أن تأمره بما شئت، وقد حلف أن لا يعصيك، أن تأمره بتقوى الله والإحسان إلى رعيته؟ فخط لهم في الرمل: إني أعظمت الله أن يكون يأمره فيعصيه وآمره أنا فيطيعني!

[illegible]

ودنا يأمل الزواج ولكن
في غرام له الفؤاد وقود
فرمته بخنجر حين قالت :
يمن لغيرى فذاك منك بعيد
ترك الملك ثم هام مع الوحش
حزيناً تقاذفته البيد
صادفته الحياة في الهمة الخا
وي فذاق الحمام وهو طريد
أسد خر في هواه صريعاً هكذا هكذا تموت الأسود

●●●

ومشى الليل في الفضاء كما زحـ
ـف فوق التلال موج شديد
فنضت ثوبها الجميل وخفت
لسرير يطيب فيه الهجود
فإذا مزهر يغرد من قر
ب وفى الليل يعذب التغريد
نغم يأسر القلوب فمن هذا الذى قد شدا بكفيه عود
ما أرق الغناء يحمل معنى رائعاً صاغه محب عميد
تركت قصرها الأنيق وطارت
نحوه في تلهف تستعيد
فرأت خيمة بها شبح كاد
من الضعف والهزال يبيد
يرجف الناى في يديه كما تهـ
ـتز في الريح بانة أملود
حمته فهز بين حنايا ها حنيناً هو الغرام الجديد
صبوة عاصفة أضرمتها في جحيم يذوب فيه الحديد
طرحت نفسها عليه وجاشت
بدموع هي الجمان النضيد
ثم قالت له : تملكت قلبي
من يقين فافعل به ما تريد
أترك الكوخ للقطيع فعندى
لك طوع اليدين قصر مشيد
سوف تغدو إذا قبلت ملاكاً
فهنيئاً وافاك حظ سعيد
عندك الجدب والجفاف وعندى
أمل مورق وعيش رغيد
فأجاب الفتى بكل هدوء :
ليس لى فيك مأرب مقصود
إن بين الخيام لى ابنة عم
ليس عن حبها الطهور محيد
إن قلبي لها يذوب من الوجد
وقلبي لغيرها جلمود
سمعت رده فهامت على الأر
ض كما هام هائم عربيد
تتبع الوحش في الفلاة وللحب
جنون يشيب منه الوليد
فرأت جثة المليك عظاماً
باليات يسيل منها الصديد
في مهب الرمال تشدو عليها
سافيات لها الحفيف نشيد
مات في حبها شهيداً فخرت
فوقه فاحتواهما أخدود
كان أفق الحياة سمحاً منيعاً
فتولت لدى الممات السدود

●●●

عجباً رقص المليك ويلوى
بحجاها الأريب راع شريد
هكذا الحب لا الحصيف لديه
بحصيف ولا الرشيد رشيد

محمد رجب البيومى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردابى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٥٥ | الثلاثاء ١ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦ — ١٦ من سبتمبر سنة ١٩٤٧ | السنة التاسعة

الجمعية العمومية للأمم المتحدة

تعقد الجمعية العمومية العادية لهيئة الأمم المتحدة المرة الثالثة فى السادس عشر من سبتمبر الحالى ؛ وقد عقدت « الأمم المتحدة » جمعيتها العمومية الأولى فى يناير سنة ١٩٤٦ فى لندن ، وعقدت جمعيتها العمومية الثانية فى نيويورك فى أواخر هذا العام ، كما عقدت جمعية عمومية استثنائية فى شهر أبريل الماضى ، بناء على طلب الحكومة البريطانية للنظر فى مشكلة فلسطين . وتدل المقدمات والظواهر على أن هذه الدورة الثالثة للجمعية العمومية ستكون ذات أهمية خاصة ، وستضطرم بالجدل الخطير ، والمناورات السياسية المختلفة ؛ فجدول أعمالها يضم نحو أربعين مسألة ، منها طائفة من المشكلات الخطيرة ، كمشكلة فلسطين ، ومسألة حق الفيتو ، والمشكلة البلقانية ، والمسألة الأسبانية ، وغيرها ؛ وكل مشكلة من هذه المشاكل تثير كثيرا من ضروب النضال والجدل ، والتجاذب الدولى داخل « الأمم المتحدة » وخارجها . ويكفى أن نذكر أن تقرير اللجنة الدولية التى نيط بها دراسة المسألة الفلسطينية ، والذى تقترح فيه تقسيم فلسطين إلى دولتين ، إحداهما عربية ، والأخرى يهودية ، مع التصريح بهجرة مائة وخمسين ألف يهودى إلى فلسطين خلال عامين ، سيكون موضع الدرس فى هذه الجمعية العمومية ، وأن هذه المشكلة التى غدت بدقتها وتعقيداتها المتناهية مشكلة عالمية ، ستشغل من وقت الجمعية العمومية ومناقشاتها أوفر نصيب وأعنفه .

على أن ما يحتويه جدول أعمال الجمعية العمومية ليس كل شىء فيما يعلقونه على هذه الجمعية من الأهمية والخطورة . ذلك أن هيئة الأمم المتحدة أضحت بالرغم من حياتها القصيرة ، التى لم تبلغ العامين بعد ، مثار الكثير من ضروب النقد والتعليق ؛ فهذه الهيئة الدولية العتيدة ، التى أقيمت لتسهر على توطيد السلام الدولى ، وقمع العدوان ، وتحقيق العدالة الدولية ، لم تستطع بعد بالرغم مما عرض لها من الفرص العملية أن تقيم الدليل المقنع على أنها قديرة على الاضطلاع بهذه المهمة العالية الخطيرة ؛ وأكثر ما يوجه النقد والتجريح فى ذلك لمجلس الأمن ، وهو الأداة العملية التنفيذية للأمم المتحدة ؛ ومن المعروف أن دستور الأمم المتحدة يحد كثيرا من اختصاص الجمعية العمومية ومقدرتها التنفيذية بخلاف ما كانت عليه الجمعية العمومية لعصبة الأمم القديمة حيث كانت تتمتع فى إصدار القرارات التنفيذية بأوسع اختصاص ؛ ولكن الجمعية العمومية لعصبة الأمم كانت تضيع معظم الوقت فى الجدل والمناقشات البيزنطية ، والخطب الرنانة ، ولهذا رؤى تفاديا لهذا العيب أن يحد من اختصاص الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ،

وأن تركز القدرة التنفيذية فى مجلس الأمن بحيث يغدو أداة سريعة حازمة .

وأما عن مجلس الأمن وهو الأداة التنفيذية المباشرة لهيئة الأمم المتحدة فقد دلل بمواقفه فى جميع المسائل الحيوية التى طرحت عليه أنه ليس هيئة عدالة دولية مطلقة ، وأنه بالعكس قد غدا مسرحا لتجاذب الدول الكبرى ووحيها ومحاولتها السافرة لتغليب كل ما يتعلق بالهيبة الدولية والسيادة الاستعمارية . وليس أدل على هذه الحقيقة الناصعة مما شهدناه أثناء عرض القضية المصرية من محاولات منظمة لتجاهل المطالب المصرية الحقة ، ثم عجز المجلس فى النهاية عن أن يتخذ أى قرار حاسم فى مشكلة كانت بوضوحها وقوة منطقها امتحانا حقيقيا لقدرته ونزاهته .

ويقول النقدة الدوليون الآن إن مجلس الأمن قد أبدى قصورا فى الاضطلاع بمهمته ، فهو فضلا عن تأثره المستمر بالاتجاهات والأهواء الدولية الخاصة ، فى نظر المشكلات الدولية التى تعرض عليه ، لم يوفق حتى اليوم إلى إنجاز شىء من المهام الخطيرة التى وكلت إليه ، فاللجنة التى شكلت لوضع نظام القوة العسكرية الدولية التى يعتمد عليها المجلس فى تنفيذ قراراته لم تفته بعد من مهمتها ، ولجنة الطاقة الذرية لم تتقدم خطوة فى مهمتها ؛ هذا إلى أن المجلس يعانى كثيراً من حق الاعتراض « الفيتو » الذى شرع للدول الكبرى ، والتجاء الدول الكبرى إلى استعمال هذا الحق يشل كثيراً من مقدرته التنفيذية ، وقد ترتب على استعماله بالفعل غير مرة أن قضى على الجهود التى بذلت لمعالجة بعض المشكلات الدولية الخطيرة ؛ ومن ثم فقد أضحى من الضرورى أن يلغى هذا الحق ، أو يحد من استعماله بقيود معقولة . فهذا القصور الذى أبداه مجلس الأمن فى تأدية مهمته ، وهذه الأزمة الواضحة التى يعانيها قد حملت بعض الدوائر التى يعنيها مصير هيئة الأمم المتحدة والمحافظة على هيبتها الدولية على التفكير فى معالجة هذه الأزمة قبل تفاقمها . وربما كانت الولايات المتحدة أشد الدول الكبرى عناية بهذا الأمر ، وقد تردد صدى هذه العناية أخيرا فى كبرى الصحف الأمريكية ، حيث نوهت بوجوب إصلاح هيئة الأمم المتحدة ، وذلك بالعمل على تقوية الجمعية العمومية ، وتوسعة اختصاصاتها ، وإقالة مجلس الأمن من عثراته بالعمل على إلغاء حق الفيتو ، وهذه المسألة مدرجة بالفعل فى جدول أعمال الجمعية العمومية منذ أثارتها الأرجنتين وأستراليا فى الدورة الماضية .

وأمريكا يناصرها فى هذا الاتجاه بعض الدول الكبرى ولاسيما بريطانيا ، وعدد كبير من الدول الصغرى ؛ وكل شىء ينذر بأن هذه الدورة الثالثة للجمعية العمومية ، فضلا عما ستعنى به من مختلف المسائل ، ستغدو مسرحا لتجاذب الدولى والتكتل السياسى الخطير . ومن الواضح أن هيئة الأمم المتحدة قد تواجه فى تلك الآونة بداية طور جديد من حياتها ، فإذا نجحت جهود السياسة الأمريكية والدول التى تناصرها ، فقد يطرأ تعديل أساسى على دستور الأمم المتحدة ؛ على أنه من المعروف أن روسيا من الناحية الأخرى ستدافع عن حق « الفيتو » دفاعا شديدا ، ومن ورائها فى ذلك الكتلة السلافية ، ودول أخرى ؛ وكما أن مجلس الأمن ما زال منذ قيامه مسرحا للمعركة الخفية أحياناً ، والسافرة غالباً ، بين روسيا والدول الغربية ، فكذلك يتردد صدى هذه المعركة فى الجمعية العمومية ، ومما يقوى مركز روسيا فى هذه المعركة ، أنه لابد من أغلبية الثلثين لتعديل أحكام حق الاعتراض ، وهى أغلبية صعبة المنال .

وإلى جانب هذه المهام الخطيرة ستعنى الجمعية العمومية بالنظر فى قبول الأعضاء الجدد ، وهى أيضاً من المسائل التى يضطرم بشأنها الجدل والنزاع بين الكتلتين الروسية والغربية ؛ فالكتلة الروسية تحاول العمل على قبول رومانيا والمجر وألبانيا وبلغاريا ، وتحاول الكتلة الغربية العمل على

قبول إرلندا والبرتغال والنمسا وإيطاليا وشرق الأردن ؛ وقد كان استعمال حق الفيتو فى الدورة الماضية من الجانبين سبباً فى منع قبول الدول المشار إليها من الالتحاق بعضوية الأمم المتحدة . وقد فازت بهذه العضوية فى الدورة الماضية ثلاث دول هى : السويد وأيسلندا وأفغانستان . وسنرى ماذا يكون من أمر الترشيحات الجديدة فى هذه الدورة ، وماذا تسفر عنه معركة التكتل والتجاذب .

والخلاصة أن هيئة الأمم المتحدة قد تجوز فى جمعيتها العمومية الثالثة نوعا من الامتحان الدقيق ؛ فهى تواجه طائفة من المشاكل الخطيرة التى يتوقف على حلها صون السلم أو اضطرابه فى بعض المناطق الحساسة مثل مشكلة فلسطين ، ومشكلة البلقان . وإذا لم تقدم « الأمم المتحدة » الدليل على حزمها وقوتها فى هذه المرة ، وإذا جنحت إلى الالتجاء إلى المطاولة والتسويف تفاديا للبت فيما يعرض لها من المشاكل ، فإنها بذلك تقدم دليلا جديدا على عجزها عن الاضطلاع بمهمتها الخطيرة فى العمل على توطيد السلم والأمن الدولى ، وتقوى بذلك حجة القائلين بأنها قد أبدت بالفعل أنها أداة قاصرة عاجزة ، وأنها لا تتميز فى شىء من وسائلها وأساليبها عن عصبة الأمم القديمة ، وبذلك تصاب هيبتها بضربة جديدة قد لا تستطيع النهوض منها .

إن أنصار السلم فى مختلف البلاد ما زالوا يعلقون آمالا كبيرة على جهود الأمم المتحدة ، ويرجون أن توفق إلى تأدية مهمتها بنجاح ؛ ولكن « الأمم المتحدة » لن يتاح لها مثل هذا التوفيق ما دامت مسرحا لتجاذب الدول وتنافسها وتكتلها على هذا النحو الذى نراه ، وما دام حق الفيتو يقف حجر عثرة فى سبيل تنفيذ كل قرار يمكن أن يتخذه مجلس الأمن لتسوية مشكلة من المشاكل . وقد بلغ من تبرم بعض الدول بهذه الحالة وهذا الأسلوب الذى يشل جهود الأمم المتحدة وجهود مجلسها التنفيذى ، أن لوّح بعضها بالانسحاب من عضوية الهيئة إذا لم تتدارك الأمم المتحدة هذه الحالة ، وإذا لم تستقم الأوضاع والأساليب بصورة يمكنها من أداء مهمتها بكفاية ونزاهة . وهكذا تجتمع كل الظروف لتسبغ على الجمعية الحالية لهيئة الأمم المتحدة خطورة خاصة ، ولتضعها أمام نوع من التجربة الحاسمة التى تتعلق بهيبتها وربما بمصيرها .

محمد عبد الله عنان

الى من يلزمهم فى مصر وغيرها :

أرصدة حساب

فيه ناس كثيرون (أى فى هذا الوجود ناس كثيرون) لا يحبون أن يقال عنهم إنهم فقراء . بل لعلهم يحبون أن يوصفوا بالغنى ، ما دام ذلك لا يكلفهم شيئاً . أما إذا كان الغنى يكلفهم بذلا أو تكرما أو تبرعا أو غير ذلك ، فإنهم لا يترددون فى إنكار تهمة الغنى عن أنفسهم . ولقد عرفت الكثيرين ممن يتعمدون إخفاء ثروتهم خوف أن تعرفها مصلحة الضرائب ، وقد يرتكب البعض جريمة التزوير فى سبيل الهروب من دفع الحقوق إلى أصحابها .

ولست أقول هذا لألقى لوما على الناس ، فقد خلقهم الله هكذا لحكمة أرادها ، وأعوذ بالله أن أقف من الناس موقف المحاسبة ، فإنى إنسان ضعيف لا أدعى التسامى إلى ذلك القدر غرورا .

ومهما يكن من الأمر فإنى أقصد من وراء هذا الحديث أن أقول إننى لست ممن يخشون أن يقال عنهم إنهم فقراء ، لأنى أحب الحق حبا يغلب على الكبرياء ، فلست أجد غضاضة على نفسى من أن أقول إننى فقير ورزقى على الله .

ولقد جشمتنا هذه الحرب الماضية نحن معاشر الفقراء ما لا قبل لنا به من المتاعب ، وأنزلت بنا ما لا نطيقه من الكوارث ، وكانت خسارة المال إحدى المتاعب الكبرى التى حاقت بنا فى تلك الأيام السوداء .

وقد حسبت مقدار ما حاق بى من الخسارة فى الأموال فى مدة الحرب ، فوجدت أن ذلك يبلغ خمسة آلاف جنيه مصرى ، وهى الفرق بين الثمن الذى دفعته فعلا فى الأسواق لشراء ما يلزم لى ولأهلى فى مدة الحرب وبين القيمة المعتادة لتلك الأشياء التى اشتريتها . وهذه الآلاف الخمسة دين لى فى عنق المسئولين من الغلاء الفاحش الذى فشا فى تلك السنوات . ولست أدرى أيمكننى أن أطالب بها وأستردها ممن سلبوها منى ، أم أن ذلك غير يسير على ، لأن مثل هذه المطالبة لا تدخل تحت اختصاص محاكم هذه الدنيا ؟ فالأمر لله من قبل ومن بعد ، ولا حيلة لى إلا أن أشكو إلى الله وحده ، إذ لا جدوى من شكواى إلى الحاكم .

وخلاصة القول أنى صرت اليوم فى موقف عجيب . فأنا رجل فقير كما قدمت ، ومع هذا فلى خمسة آلاف جنيه فى عنق بعض أهل هذا الزمان ، ولا أجد سبيلا إلى الحصول عليها ؛ على حين أن هناك مئات وألوفا من الناس قد جمعوا منى ومن أمثالى مئات من ألوف الجنيهات ، لأنهم كانوا فى أثناء هذه الحرب يخطفون خطفا ، وينهبون نهبا ، ويسلبون سلبا . ومع ذلك فهم إلى الآن يتمتعون بما أخذوا وخطفوا ، ولا يجد أحد سبيلا إلى أن يأخذ منهم شيئا .

فالدنيا لا تزال كما قال عنها القدماء عجيبة العجائب وغريبة الغرائب ، ولا حيلة لنا فيها إلا أن نسلم ونخضع ونأخذ أمورها كما تحب هى لا كما نحب نحن .

ولكن شيئا واحدا لا أفهمه ولم أستطع أن أفهمه ، مع أنى حاولت جهدى أن أفعل .

فمع أنى فقير كما قدمت ، ومع أنى دائن دينا عاما مبهما لأهل هذا الزمان ، ومع أنى أقضى حياتى فى كد وعمل متصل ، لأؤدى ما على من الحقوق ، لا أزال أجد فى هذا الزمان من يطالبنى . ومن أعجب الذين يطالبوننى بأن أدفع لهم من مالى جماعة من خيار الناس ، قد فطر الله قلوبهم على حب الخير وخدمة الإنسانية . فهم يرسلون إلى بالبريد أحيانا تذاكر حفلات ساهرة وأحيانا يرسلون مع رسلهم تذاكر أخرى لحفلات راقصة ، قد كتب عليها (يحجز العشاء مقدما) .

وأحيانا ترد إلى من حيث أدرى ولا أدرى تذاكر

حفلات تمثيلية ، وأخرى طوابع قرش (الأثاث) ، وأخرى تذاكر يانصيب . حتى لقد بلغ مجموع ما جاءني في شهر واحد ما يزيد على نصف مرتبي الذي لا يكفي كما قدمت لأداء ما في عنقي من حقوق . ولا يحسبن القارئ العزيز أنني كنت رجلا غبيا تخجلت من أن أظهر عجزي ، واضطررت إلى قبول تلك التذاكر ودفعت ثمنها . أبداً ! فقد رددتها جميعاً ، وأرسلت معها بعض كلمات ضاحكة .

فقد بعثت يوما خطابا إلى أحد هؤلاء العظماء الخيرين فقلت له : إنه إذا أراد العدل كان عليه ألا يطالبني إلا بمليمين اثنين إذا كان يطالب أمثال عبود باشا بألف جنيه ، وبينت له بالأرقام أن هذا هو العدل الذي لا شك فيه ، ولست أشك في أن ذلك الرجل العظيم قد تحقق من عدالة احتجاجي ، لأنه لم يرسل إلي بعد ذلك شيئاً من تذاكر حفلات الأوبرج ذات الخمسة الجنيهات .

وهكذا كنت كلما جاء إلي شيء من هذه التذاكر رددتها إلى أصحابها الفضلاء ، وخرجت من المكروه بتضحية ثمن طوابع البريد . وعزائي في ذلك أن ثمن طوابع البريد يدخل إلى خزانة الدولة ، وقد يصرف في وجه من وجوه المصلحة العامة .

وكانت نظريتي في رفض كل التذاكر نظرية ساذجة لا تعقيد فيها ولا التواء ؛ فأنا رجل كما قدمت فقير ، ولا يليق بي أن أتبرع إلا لمن هم أفقر مني . ومن المعلوم أن نصف دخل هذه الحفلات يذهب إلى أصحاب الملاهي الأغنياء ، والنصف الآخر يذهب إلى الذين يحيون الحفلات الساهرة أو الراقصة من الفنانين والفنانات ، وهم جميعا بغير شك من أصحاب الثراء العريض . فلا يبقى بعد ذلك ما يمكن أن يوجه إلى أعمال الخير إلا شيء لا يذكر ، ولا يجدر بي أن أرتكب حماقة مثل هذا التبرع . وقد قدمت في أول هذه الكلمة أنني رجل دائن ، وقد أخذ مني في أيام الحرب ألوف من الجنيهات ، ذهبت كلها إلى الجيوب المنتفخة من أثرياء الحرب ؛ فإذا كان ولابد لي من تشجيع أعمال الخير فأنا مستعد لأن أحيل أصحاب القلوب العامرة بحب الإنسانية على هؤلاء الأثرياء ، ضخام الجيوب ، ليأخذوا بعض ما لي عندهم ، لعلهم يصفون معهم الحساب نيابة عني ، فإذا قبلوا فإني أبعث إليهم شيكا على بياض يقبض من أحد هؤلاء أثرياء الحرب . هذه هي نظريتي البسيطة ، أعلنها هنا لعلها تصل إلى آذان من يهمهم الأمر ، لعل فيها اعتذارا مقبولا من رفضي التذاكر التي ترسل إلي للمساعدة على أعمال البر .

وقد نسيت أن أقول في أول هذه الكلمة إنني رجل موظف ، وقد كانت نفقات الحياة في مدة الحرب تزيد على أربعة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب ، ولكن مرتبي لم يزد على ما كان عليه قبل الحرب إلى بنسبة لا تزيد على العشر . نعم العشر بضم العين ، وهو الذي يعبر عنه في لغة الحساب بقولهم عشرة في المائة .

ولم أوفق في أثناء الحرب إلى أن أكون في وظيفة أستطيع فيها أن أسرق شيئاً من أحد ، أو أن أختلس شيئاً من أموال الدولة أو أموال الرعية ، ولهذا خرجت من الحرب (بكل أسف) في أزمة أشد من أزمة إنجلترة ، لطف الله بي وبها .

فالدولة نفسها مدينة لي بمبالغ طائلة ، وأظنها لا تستطيع أن تتنكر ديني كما فعلت انجلترة مع مصر .

هذه كلمة قصيرة أتجه بها إلى من يلزم من الفضلاء أصحاب القلوب الكبيرة ، فإذا هم كفوا عن مطالبتي منذ اليوم بأثمان تذاكر الحفلات الساهرة والراقصة وما إليها كنت شاكرا ؛ وإلا فإني عازم على أن أطبع دفترا خاصا لشيكات من نوع جديد ، أحولهم بها على الدولة المصرية وعلى أصحاب الجيوب الكبيرة من أغنياء الحرب بما لي عندهم من الديون .

محمد فريد أبو حديد

العـــلم والذرة

من الفكاهات الساذجة التي أضحكتني كثيراً عندما سمعتها لأول مرة ، والتي لا تزال تضحكني حتى اليوم كلما ذكرتها ، أن رجلا ماجنا استوقف حوذيا وقال له :

— يا أسطى توديني لحد فين بكام ؟!

وسر هذه الفكاهة أن السؤال فيها مبني كله على المجهول .

ومثال هذه الفكاهة في عالم الرياضة أن تقول : إذا قام قطار سرعته غير معروفة من جهة غير معلومة وسار قاصدا إلى القاهرة ، فما عدد الساعات التي يقطع فيها هذه المسافة ؟ فإن هذه المسألة لا يمكن حلها . وليس ذلك بسبب صعوبتها وأنها معضلة رياضية ، ولكن لأن المسائل الرياضية أسساً وحدوداً مرسومة ، فإذا نقص واحد من هذه الأسس استعصت المسألة على الحل . ومن القواعد المقررة أنه لكي نحكم على مستقبل جسم متحرك مثلا يجب أن نعلم مقدارا كافيا من ظواهره ، كأن نحدد مكانه ونقدر سرعته ؛ فإذا عرفنا ذلك أمكننا أن نحكم على مواعيده المستقبلة .

وعلى هذا القياس إذا أراد الإنسان أن يدرس (الذرة) دراسة تمكنه من الحكم على احتمالاتها المستقبلة فإن عليه أن يقف أولا على تلك الأسس والحدود التي تعتبر عند الرياضيين بمثابة القاعدة التي يبنون عليها حلولهم .

وفي حالة (الألكترون) — وهو وحدة الكهرباء السالبة التي تدور حول نواة الذرة يرى العلم نفسه أمام حالة كحالة القطار الذي تحدثنا عنه الآن ؛ فإن البيانات اللازمة لرجل العلم كيما يدرس هذا (الألكترون) هي أن يعرف مقدار وزنه وشحنته ، وأن يحيط علما بمركزه وسرعته .

ولكن هذا . . .

فها نحن قد تهجمنا على البحث الذي ما قصدنا بهذه الكلمة إلا أن نبسّطه ما أمكن التبسيط لكي نتفهمه معاً ، نحن وأمثالنا ممن لم تسبق لهم دراسات مفصلة في علوم الطبيعة .

فلنبدأ إذن من البداية . ولنرجع خطوة إلى الوراء .

* * *

ماهية الذرة وتكوينها :

وأول الكلام في هذا الموضوع الذي نعالجه ينبغي أن يكون تعريفا بالذرة ، ما هي ؟ ثم ما هو تكوينها ؟

والذرة شيء لم يكن يعرفه الأولون . وللكشف عن حقيقتها قصة طويلة بدأت عندما حاول علماء الإغريق في العصور الأولى أن يصنفوا الأشياء التي تحيط بهم ، فأرجعوها إلى أربعة عناصر أساسية ، وهي الماء والهواء والتراب والنار ثم قالوا إن كل ما على الأرض من مواد أخرى بعد ذلك لا يخرج عن أن يكون مركبا من مركبات هذه العناصر الأولية .

وجاء علماء العرب بعد علماء الإغريق فساروا على نهجهم زمانا . ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا ما فيه من تلفيق وخلط ، وأخذوا يضعون نظريتهم التي هداهم إليها تفكيرهم في تصنيف المواد ؛ فقالوا إن جميع الأشياء مكونة من وحدة أساسية سموها (الجوهر الفرد) . وزعموا أن المواد إنما تختلف فيما بينها باختلاف عدد الوحدات التي تكوّن كل واحدة منها — فإذا كانت مادة النحاس مثلا تتكون من تجمع أربع وحدات من هذا (الجوهر الفرد)، وكان الذهب يتكون من خمسة ، فإن الإنسان يستطيع أن يحول النحاس إلى ذهب إذا هو أفلح في إضافة وحدة خامسة إلى وحدات النحاس الأربعة . وعلى هذه النظرية راح علماء (الكيمياء) في تلك العصور يضيعون أعمارهم وأموالهم في محاولة تحويل بعض العناصر الخسيسة إلى عناصر

أخرى نفيسة من طريق التسخين والتبريد، والصهر والإذابة، والنخل والغربلة، وما إلى ذلك.

* * *

أما الآن فقد وصل العلم إلى معرفة نيف وتسعين عنصراً يختلف كل واحد منها عن الآخر اختلافاً تاماً، سواء من حيث تركيبه أو من حيث خواصه. وهذه العناصر قد يتداخل بعضها في بعض وتنشأ عن ذلك صور جديدة للمادة لا نهاية لها.

ونحن إذا عمدنا إلى هذه العناصر فحللناها واحداً واحداً نجدها في النهاية تتكون من (جزيئات) صغيرة.. صغيرة جداً! بل إن الواحد من هذه الجزيئات أصغر من أن تراه العيون ولو من وراء المجاهر. وهذا (الجزيء) الذي يقع في أساس تكوين كل مادة — هو الذرة.

وكان الرأي السائد حتى أواخر القرن التاسع عشر أن لكل عنصر نوعاً من الذرات لا يشترك مع نوع الذرات الذي يكوّن عنصراً آخر! كما كان من الفروض عند علماء ذلك الأوان أن الذرة غير قابلة للتكسير أو التحطيم لأنها هي النهاية القصوى التي تنتهي إليها المادة.

أما الآن فجمع ما انتهى إليه علماء اليوم من أمر هذه الذرة وتكوينها:

أنهم يقولون إن الذرة مادة تتكون من نواة ثقيلة تحيط بها أجسام كهربائية خفيفة جداً بالنسبة لوزن النواة، وإن هذه الأجسام الكهربائية — الألكترونات أو الكهيربات كما يسمونها — تدور حول النواة في نظام شبيه بدوران الكواكب حول الشمس.

ولكن ليس معنى ذلك أن الذرة — كالخلية — جسم محدود يقع داخل جدران تحمل له حيزاً معلوماً. كلا! إنها كما يصفها بعض العلماء فضاء خلاء تتوسطه نواة لو كبرت مليون مليون مرة لكانت في حجم الحمصة. وليست النواة ذاتها جسماً محدوداً كالحمصة الصغيرة، ولكنها هي مركز القوة الكهربائية التي يمتد سلطانها على الفراغ المحيط بها في هيكل الذرة. والذي نقصده حين نتكلم من حجم نواة الذرة أننا إذا اقتربنا إليها من الخارج وبلغنا الحد الذي يقوم مقام الجدار فإن قوة المركز الكهربائي تعظم فجأة، فنعلم عند ذلك أننا دخلنا حرم النواة. وحول هذه النواة يتجمع حشد من الكهيربات يتحرك في أفلاك بعضها قريب من النواة وبعضها بعيد. ويتوقف عدد الكهيربات وترتيبها على نوع الذرة. ويصل عدد الكهيربات في أثقل الذرات إلى حوالى تسعين. وتحتل الكهيربات حول النواة فراغاً لو كبر هو الآخر مليون مليون مرة لكان قطره نحو مائة ياردة. وتطوف الكهيربات حول النواة كأنها جماعة من الحراس تتوسطهم خزانة ثمينة. وإذا التقت ذرتان في تصادم عادي ترتد كل واحدة منهما بمجرد تلامس منطقتي الحراسة فيهما. أما إذا اقتحم حرم الذرة كهيرب سريع شارد فإنه يشق طريقه وسط الحراس، وقد يصيب النواة أو لا يصيبها.

والخلاصة أن الذرة رقعة من الفضاء، تتخللها مراكز كهربائية، من بينها مركز قوي جداً في الوسط هو النواة، ثم تحيط بالنواة مراكز أخرى ضعيفة نسبياً وهي ذات شحنات كهربائية سالبة، وهذه هي الألكترونات أو الكهيربات.

وقد أراد بعضهم أن يمثل لتكوين الذرة فقال: إذا تصورنا قطعة ثقيلة من الرخام موضوعة على الأرض يحيط بها طوق من بعده طوق أوسع منه، ومن بعد هذا الطوق الثاني طوق ثالث أوسع من الاثنين كنا أمام صورة تشبه صورة الذرة، باعتبار أن قطعة الرخام تمثل النواة وأن الأطواق تمثل مدارات الكهيربات. وأراد آخر أن يقرب حجم الذرة إلى الذهن فقال: لو نظرنا إلى حبة من العدس لكان حجم الذرة بالقياس إليها كحجم هذه الحبة نفسها بالقياس إلى الكرة الأرضية كلها!

* * *

النواة والألكترونات :

وإذا كنا قد فرغنا الآن من تكوين فكرة عن ماهية الذرة وعن حجمها فلنرجع إلى جزيئاتها : (النواة) و (الكهيربات أو الألكترونات) لنقدمها هي الأخرى إلى من يقرأ هذه الكلمات لنعرفه بها ونقص عليه قصتها .

يقول الأستاذ أندريد — من أشهر علماء الطبيعة الحديثين — إنه من الممكن تشبيه نواة الذرة بنواة البرقوقة . ولكن التشبيه في هذه الحالة لا يكون من الدقة بمكان ، لأن نواة البرقوقة يبلغ قطرها نصف قطر البرقوقة أو ثلثه أو ربعه ، في حين أن نواة الذرة لا يزيد قطرها عن نحو جزء من عشرة آلاف جزء من قطر الذرة . ولك أن تتصور أنت أي حجم هذا الذي تشغله نواة الذرة إذا كانت الذرة نفسها — صاحبة العشرة آلاف جزء — لا يمكن للعين أن تراها إلا إذا تكدست منها البلايين ! ولكن لا تنس قط أن هذه النواة هي التي تحطمت فوق رأس (هيروشيما) فأحرقتها ، وأن نواة أخرى انكسرت في سماء (ناجازاكي) فنسفتها وجعلت رقعتها غير صالحة للحياة لمدة ثلاث أرباع قرن كما يقولون !

على أننا نشرد دائما في بحثنا هذا ، ونستبق الكلام بحركة بلساننا لنعجل به ، فلنعد مرة أخرى إلى ما كنا فيه . . .

عرفنا بالتقريب حجم الذرة وحجم نواتها . فلنتكلم الآن عن مادة هذه النواة : ما هي وما صفاتها ؟

يقولون إن النواة مركز لقوة كهربائية موجبة يتوقف وزنها وشحنتها على نوع العنصر الذي تكونه . فهي خفيفة في الغازات وثقيلة في المعادن ، وشحنتها تزيد تبعا لوزنها . فالنواة الثقيلة شحنتها الكهربائية عظيمة جدا ، والنواة الخفيفة شحنتها أقل من ذلك .

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى حقيقة لعلها ليست آخر الغرائب في تكوين الذرة . فإن هذه النواة التي وصفنا حجمها فيما سبق ليست هي النهاية الأخيرة في تركيب المادة ، وليست هي (الجوهر الفرد) الذي جاء ذكره على لسان العرب ، لأنها هي الأخرى مكونة من جزيئات أقل منها حجما بطبيعة الحال . وهذه الجزيئات نوعان : أحدهما يسمونه (بروتونات) ، والثاني كهيربات .

والنواة في أثقل الذرات — كذرات الراديوم مثلا — لها بنية معقدة جدا ، فإنها تحتوى على مقدار كبير جدا من هذه البروتونات والكهيربات . . . اسمع لهم وهم يحدثوننا عن ذلك . إنهم يقولون إنهم أحصوا ما في نواة ذرة الراديوم من بروتونات فكان عددها ٢٢٦ (ولاحظ أنهم لم يقولون من باب التسامح والتقريب مثلا إنها ٢٢٥) وأنهم عدوا ما فيها من كهيربات فكان عددها ١٣٨ (لا ١٤٠ مثلا) . ومثل هذا الحشد العظيم في نواة واحدة من شأنه ألا يترك النواة في حالة استقرار . ولذلك يحدث كثيرا أن ينفلت جزيء من هذه الجزيئات فينتثر من النواة انتثارا . وتتكرر هذه العملية وتتتابع طيران هذه الجزيئات ، وعند ذلك يقول الناس عن المادة التي هذا شأنها إنها مادة ذات (نشاط إشعاعي) . فأشعة الراديوم التي تنبعث من مادته بطريقة تلقائية تجد تفسيرها الدقيق في هذه الكلمات . وهذه هي غاية العلم في هذا الميدان . أما أن يتدخل العلم بعد ذلك فيحاول مع المادة المشعة أن يجعلها غير مشعة أو يتدخل مع غير ذات الإشعاع ليكسبها خاصية الإشعاع فهذا ما لا قبل للعلم البشري بيلوغه . يقول الأستاذ أندريد[1] :

« لا بد لنا من انتظار الذرات حتى تتهدم من تلقاء نفسها ، فلا شيء مما نستطيع تسليطه على عنصر شعاع يمكن أن يوقفه عن شعاعيته ، ولا شيء يمكن أن يجعل شعاعاً ما ليس بشعاع . إننا نشهد الظاهرة ، ولا نستطيع لها إيجاداً أو تعديلا ! » .

(١) أستاذ علم الطبيعة في جامعة لندن وصاحب كتاب « أسرار الذرة » الذي ترجمه الأستاذان الفراوي والكرداكيك

ونعيد الآن ما عرفناه من نواة الذرة لنقول كلمة أو كلمتين من باقي أجزائها ، وهي الألكترونات .

وأول ما نود أن نلفت إليه النظر في موضوع الألكترونات أنها تختلف عددا من ذرة إلى أخرى . فمن الذرات ما تتكون ذراته من نواة حولها ألكترون واحد كالأيدروجين — وهذه هي أخف الذرات جميعا لأن نواتها تحمل أصغر الشحن الكهربائية ؛ ومنها ما تتكون ذراته من نواة حولها ألكترونان كالهليوم ؛ ومنها ما يكون له حول نواته ثلاثة ألكترونات ، وهكذا . وكنا قد ذكرنا أن هذه الألكترونات تدور حول النواة في نظام يشبه دوران الكواكب حول الشمس ، وقد آن الأوان لأن نصحح ما في هذه العبارة من خطأ لنجعلها أكثر انطباقا على الواقع ، فإن السيارات تدور حول الشمس في مدارات تقع كلها في مستوى واحد على وجه التقريب ، في حين أن الألكترونات تدور حول النواة في مستويات مختلفة متعددة الاتجاهات .

ولعلنا لم ننس بعد أن النواة في كل ذرة تحمل شحنة كهربائية موجبة ، وأن قوة هذه الشحنات تختلف من نواة ذرة إلى نواة ذرة أخرى . أما الألكترونات فإنها تحمل شحنات كهربائية سالبة ، ثم إنها متساوية الأوزان ؛ ولا خلاف بين الألكترون في ذرة معينة والألكترون في ذرة أخرى إلا من حيث العدد كما بينا .

ولما كان نوع الذرة يتوقف على تكوين نواتها وعدد ما فيها من بروتونات وكهيربات ، فقد حاول العلماء أخيرا أن يغيروا من تكوين الذرة . وذلك بضرب نواتها بوابل من جسيمات مكهربة ، فكانت النتيجة أن تطايرت بعض بروتوناتها ، وتحولت الذرة بذلك من نوع إلى نوع آخر . وتحقق آخر الزمان ذلك الحلم الأول القديم — حلم تناسخ العناصر أو تحويل بعضها إلى بعض . كما ثبت من هذه التجارب أن الذرات لا تستعصي على الكسر ، وأنها ليست كائنات متميزة تبقى على حالها أبد الدهر . ولا شك أن الطبيعة قد تصرفت كثيرا في بناء الذرات التي نعرفها الآن في صورها الحديثة ، وأنها لا تزال تتصرف في كثير منها — لا على سطح الأرض ، ولكن في أجرام النجوم حيث لا تزال عمليات التناسخ والهدم والبناء جارية على قدم وساق تحت تأثير الضغوط الهائلة والحرارة الشديدة التي تتأجج نارها في جوف تلك النجوم .

* * *

والآن وقد ألممنا هذه الإلمامة السطحية بمعنى الذرة ، وبطريقة تكوينها ، وبما تشتمل عليه من قوى كهربائية بعضها موجب ، وبعضها سالب ، وبما قد يطرأ على هذه القوى من تحلل وتناثر ، وبما قد يترتب على هذه العمليات من تفتت أو تناسخ ، نود أن نلفت النظر إلى حقيقة أخرى قررتها نظرية النسبية : وهي أن المادة والطاقة اسمين لشيء واحد . وأن وزن الذرة وهو ناشيء من وزن النواة ذات الكتلة التي يمكن أن ينسب لها أي وزن ، إنما ينشأ من تجمع شحنة كهربائية عظيمة في حيز ضيق جدا ، وأنه إذا تفككت هذه الشحنة ، وتحللت من الطاقة الكامنة فيها فإن وزنها يتلاشى . ومعنى ذلك أن النواة وهي (مادة) الذرة قد تتحول إلى (طاقة) إذا انطلقت شحنتها فلا يبقى منها شيء مادي .

والخلاصة من كل ما سبق أن كل الأجسام وكل الطاقات إنما هي مسميات مختلفة لشيء واحد يظهر أمام أعيننا في مظاهر مختلفة . وينحصر علم البشر كله في دراسة هذه المسميات وظواهرها ، ثم يقف مكتوفا دون فهم حقيقة كنهها أو إدراك علل خواصها .

فالذرة ظاهرة من ظواهر قوة عجيبة هي قوة الكهرباء . وها نحن كشفنا مادة الذرة ووزناها ، وقسناها ، وحللناها ،

وعرفنا موجبها وسالبها ، وعالجنا كهاربها الخارجية ، ففصلناها عن أمها ونثرناها ؛ ثم اتجهنا إلى النواة نفسها فكسرناها وحطمناها . ولكنا وقفنا بعد ذلك أمام قوة الكهرباء نفسها - تلك القوة التي هي روح هذا الوجود - وقفنا أمامها نتأملها بأفواه مفتوحة ، وعيون شاردة ، لا نستطيع أن نعرف ما سرها وما كنهها . . .

ويا ليت العلم البشري وقف بنا عند هذه الأسرار وحدها ، ونجح في فهم ظواهرها كلها ، فإنه أثبت عجزه حتى عن فهم تلك الظواهر .

* * *

ولقد قلنا الآن ما فيه الكفاية من الذرة وتكوينها فلنعد إلى ما كنا بدأنا به هذه الكلمة ، حين لاحظنا أن العلم لا يمكن أن يخضع (الألكترون) ويدعي أنه درسه فأكمل دراسته إلا إذا عرف وزنه وشحنته ومركزه وسرعته . وقد نجحت التجارب التي أجريت للوصول إلى معرفة وزنه وشحنته فقدرها العلماء تقديرا جاء غاية في الإحكام ، وبقي بعد ذلك البحث في أمر مركزه وسرعته . وهنا وجد علماء الطبيعة أن آلاتهم لا تمكنهم من قياسهما معا في نفس الوقت ، وذلك لأنهم كلما أتقنوا قياس أحدهما ضل منهم الآخر ! مثلهم في ذلك مثل من ينظر في منظار مكبر له عدستان ولولب لضبط الشاهد وتوضيحها ، فإنه كلما جعل إحدى عينيه أكثر تمكنا قل وضوح الجسم أمام العين الأخرى .

ولقد ظن علماء الطبيعة في أول الأمر أن العجز في ملكاتهم وفي أجهزتهم فمضوا يحسنونها وينقحونها وكادوا يستنفدون أموالهم وأعمارهم في السعي وراء هذا السراب ، ولا أن كان أحد علماء الرياضة يدرس هذه الظواهر أخيرا بمعادلاته فوجد أن حاصل ضرب مقدار الخطأ الناشئ عن قياس الأبعاد في مقدار الخطأ الناشئ عن قياس السرعة أكبر من عدد ثابت دائما . وهذا معناه عندهم أنه كلما قل الخطأ في إحدى العمليتين زاد في الأخرى .

وكانت النتيجة العملية لهذا الكشف أن أوقف علماء الطبيعة محاولاتهم في شحذ حواسهم وتحسين آلاتهم لتلافي الخطأ في مشاهدة هذه الظواهر الأساسية للألكترون، وأدركوا أنهم ارتطموا بالصخرة التي لا حيلة لهم في التغلب عليها ، وأن منطقهم الرياضي بلغ الغاية التي لا يستطيع أن يتجاوزها إلى ما بعدها .

فإذا كان العلم قد ارتطم بما أوقفه عند حده ، وهو ما يزال يبحث في سر الألكترون ، فمعنى ذلك أنه ارتطم بأول سر من أسرار الخليقة . فنحن الآن نعرف الألكترون ، ونعرف مكانته من الذرة ، ونستطيع أن نعرف قصة الرحلة التي وقف العلم عاجزا على بابها .

وسبحان عالم الغيب ، الذي لا يظهر على غيبه أحدا .

حسين مبروك

مشكلة الشقاء

مشكلة الشقاء ليست من المشكلات التي لها مكان في كل فلسفة من الفلسفات ، وإنما تعنى بها وتحاول تفسيرها وجلاءها الفلسفات التي تفسر الكون تفسيراً دينياً ، وذلك لأن هذه الفلسفات تحاول جهدها التوفيق بين رحمة الله ورضوانه ووجود الشقاء المتمادي في الكون .

وليست مشكلة الشقاء بالمشكلة اليسيرة ، بل لعلها من المشكلات الصعبة المستعصية ، ولكن التفسير الديني للكون مضطر إلى مواجهتها ، وطبيعة محاولته تقتضي حلها على وجه من الوجوه ، فأهميتها في نظره تعادل صعوبتها .

والواقع أننا لا ننتظر من الله إغداق النعم تباعاً وإرسال الخيرات بلا حساب ، وبعض ضروب الشقاء لا تحير الفكر ، ولا تثير النقمة والتمرد ؛ فالشقاء الذي يستحقه صاحبه لا اعتراض عليه ولا شكوى منه ، لأنه عدالة والعدالة فضيلة ، وإنما الذي يهيج ألمنا ويثير شكوكنا هو الشقاء غير المستحق ، إذ كيف تتفق مع عدالة الله وبره ورحمته هذه الكوارث المتلاحقة والآلام التي يتفطر لها القلب حينما تحل بالصالحين الأبرياء وأهل الحفاظ والنجدة والمروءة ؟ ! وبعض الناس يرون في الإغضاء عن هذا السؤال نوعاً من التقوى والروحانية ، ولو أنصفوا لقالوا في أكثر الحالات لون من الأثرة والجمود وقلة العطف ، فما هي الأجوبة التي أثارها مثل هذا التساؤل من الحريصين على تأييد وجهة النظر الدينية ؟

لقد لاحظت أن الإجابة عن هذا السؤال في أكثر الأحايين تأخذ شكلين مختلفين : فإما أن الشقاء الذي يؤلم نفوسنا ليس حقيقة شراً ونقمة ، وإنما يبدوا لنا كذلك ؛ وإما أن الله ليس كاملاً الكمال كله ولا قادراً على كل شيء كما نتوهم .

وتتبين من ذلك صعوبة الجمع بين حقيقة الشقاء وكمال الله ؛ فالحل إذاً لا يخرج عن إحدى طريقتين : فإما أن ننكر وجود الشقاء ، وإما أن نساوم في مسألة كمال الله .

والطريق الثاني يبدو أيسر وأسهل ، وإن كان مكروهاً غير مرغوب فيه . وأكثر ما تنظر الناس إلى كمال الله من ناحية القدرة لا من ناحية الرحمة ، فإذا كنا مستعدين لنعتبر الله صانعاً يتناول مادة تقدم له من الخارج فهي خليقة بأن تقيم له عقبات في سبيل الصنع قد لا تمكنه من تسويتها على المثال الأسمى الذي يريده ، فمن الواضح إذاً أننا لا نرى تناقضاً في وجود الشقاء الجم مع العدالة الشاملة والحب الفياض . وبموجب هذا الرأي يكون الشقاء موجوداً لا سبيل إلى نكرانه ، لأن الله لا يستطيع له دفعاً . ولنضع المسألة بصراحة ووضوح ، فهي لا تخرج عن أن الله جل شأنه يبذل قصارى جهده ويعمل غاية ما في وسعه وليس في طوقه أكثر من ذلك !

ولكن هذا الحل لا يقنع ولا يرضي ، فانتقاص جلال الله وعزته وجبروته وعظمته بالتسليم بوجود قوة معادية له تستطيع أن تعترض تحقيق مشيئته وإرادته الصمدية معناه الاستمساك بوجهة نظر بغيضة إلى العقلية الدينية . وعند المتدينين أنه بذكر الله تترطب الألسنة وتطمئن القلوب ، ولكن كيف تطمئن القلوب وتستقر الجنوب في حين أن الله الذي نعلق عليه الأمل ونربط به الرجاء تعوقه العوائق عن تنفيذ خططه وإصلاح كونه ؟

وتقوى الله والثقة به والاطمئنان إليه مصدرها الاعتقاد الراسخ العميق بأن الأشياء كلها في رعايته وحفظه وكلاءته ؛ فإذا غاب هذا الاعتقاد أو اعتوره شيء من الشك فمن المتعذر بقاء هذا الاطمئنان وثبات دعائم الإيمان . والاعتقاد بأنه محدود القدرة ليس مما تسكن إليه النفس ويرضى العاطفة الدينية .

فلننظر في الحل الآخر ، وقد رأينا أن الشقاء الذي

لا يستحقه صاحبه هو الذى يثير البحث فى العدالة الإلهية ، فماذا يكون لو كان البشر يستحقون ما يصيبهم من الشقاء ؟ ولكن فى الاستمساك بهذه الفكرة إساءة للإنسانية . ومهما يكن من الأمر فإنها فكرة جديرة بالنظر ، والكتب الدينية تؤيدها لأنها تصف الإنسان بأنه مجرم أثيم ، ومن واجبه أن يشكر الله إذا خصه بمقدار يسير من السعادة أو إذا قلل نصيبه المقدور من الشقاء . وإذا قبلنا هذا الموقف وآمنا بأننا نستحق أسوأ الجزاء لما نشكثره من الخطايا وما تنطوى عليه من الشرور والأرجاس، استحالت شكوانا حمداً وشكراً لكل ما يصيبنا من رسيس السعادة وعُلالة الخير . والرجل القوى العقيدة الصادق التدين يشعر بأنه لا شىء أمام الله ، ولكن هل فرط تواضع الإنسان أمام الله مصدره شعور الإنسان بهوان قدره وقلة حوله أمام كمال الله ؟ لا نزاع فى أن الشعور بكمال الله يغرى الإنسان بقبول ما يصيبه من الأذى والمكروه بدون تذمر ولا تمرد ، ولكن ليس معنى ذلك أن شعورنا بكمال الله يجعلنا نرى أن أخطاءنا وعيوبنا ومساوئنا من النقص والانحطاط والفساد بحيث تجعلنا مستحقين لكل ما يصيبنا ، لأن مثل هذا الاعتقاد يهدم كرامتنا الأدبية ويبطل كل تقدير للأفراد . وإذا كان كل إنسان لا يستحق سوى الأسوأ من العقاب فليس إذاً هناك صالح ولا طالح ولا محسن ولا مسىء ولا فاضل ولا مفضول .

وهناك أنواع من الشقاء لا نستطيع أن نتبين فيها وجه التبعة والاستحقاق ، من قبيل ذلك الآلام المبرحة التى قد تصيب الأطفال الصغار ، ولا نستطيع أن ندعى أن هؤلاء الأطفال الأبرياء مجرمون أو خاطئون ، ونستطيع فى حالات كثيرة أن نقول مثل هذا القول فيما يصيب بعض الكبار البالغين . وكلنا نعرف حالات كثيرة أصاب فيها الشقاء قوما من أطهر الناس قلباً وأخلصهم نية وأنزههم قصداً .

وهناك حجة أخرى ، وهى أن الشقاء الذى نشعر به خارج نفوسنا وبعيدا عنا هو الذى يضخمه خيالنا ويكبر من شأنه تفكيرنا حتى يتراءى لنا أنه يمس العدالة الإلهية وينقص من كمال الله . وحقيقة أن شقاء الغير هو الذى يغرينا بالتفكير فى مشكلة الشقاء ، ولكن الحجة هنا قائمة على أن خيالنا قد يبالغ فى تعظيم مصائب الغير وتهويلها ويجعلنا نرى فيها قسوة ونكرا ، وقد يكون سبب ذلك أننا نجهل كيف كان وقعها فى النفس الوالهة الثائرة ومقدار ما عندها من الإيمان الذى يهون وقعها ويزيل شدتها ؛ وحقيقة أن اليقين يقلل من حدة الألم ويلطف من وقع الشقاء ، ولكن هناك اعتراضات توجه إلى ذلك .

فليس كل من تنزل بهم الآلام المبرحة من ذوى اليقين القوى الذى يفرغ على القلب العزاء . وليس مما يهون الأمر أن نقول إن هذا مما يؤخذ على المتألم لأنه كان من الواجب عليه أن يكون راسخ الإيمان متين العقيدة وأن نقص ذلك دليل اعتلال الأخلاق وانهيار الروح ؛ ولكن ماذا نقول فى حالة الأطفال الصغار ؟ إن هؤلاء الأطفال قد يشقون ويصابون بآلام غير محتملة ، وليس من شك فى أننا هنا نؤمن بكمال الله إيماناً يسمو على قدرة العقل المفكر ، ونقر بأن كمال الله من فوق عقولنا .

على أن الموضوع جانباً آخر ، فمن الممكن أن نذهب إلى أن الشقاء لازم لتقوية الإرادة البشرية وتكوين الشخصية الإنسانية ، وأن الإنسان لا يكشف عن مواهبه المكنونة وقواه المدخرة إلا إذا صقلته الآلام وهذبته الأحزان . ولكن الذى يشككنا فى هذا الرأى أن هناك من الآلام المبرحة والخطوب الفاجعة ما يطير الصواب ويثير الدهش وتضيق به ساحة الصبر فتنهزم الروح ويختل ميزان الأخلاق ويزول التجلد والتجمل والتماسك والتصابر وتذهب النفس شعاعاً وتتوزع فرقاً وجزعاً . وحقيقة أن الرأى القائل إن الشقاء وسيلة من وسائل بناء النفس وصياغة الروح

قيمته وشأنه . ولكن قد نستطيع أن نسأل هنا ألا يجوز أن يكون هذا الشقاء من القوة بحيث يستذل النفس ويفسدها بدلا من أن ينهض بها ويصلحها ؟ والله قادر على كل شيء وليس مجرد صانع يقبل ما تفرضه عليه مادة صناعته ، فلماذا لا تكون هناك وسيلة أخرى للصقل والتهذيب سوى الآلام والكوارث والأحداث ؟ وقد يرد على ذلك بأن طبيعة الأشياء تقتضي ذلك ، وإذا كان تكوين الدنيا يعبر عن طبيعة الله ويدل عليه فمن العبث أن نوجه إليه اللوم لأنه يسمح بوقوع مثل هذه الفظائع . ولكن الشكل هنا هو كيف أوفق بين فكرة إله أكبره وأعبده وأعده كاملا الكمال كله في حين أن تعبيره من طبيعته لا يجد له مجالا إلا في هذا النظام الذي يبدو لي بعيدا من الكمال ؟

وهناك حجة أخرى كثيرا ما تردد ، وهي أن معظم ما يصيبنا سببه فساد الجنس البشري والتواؤه ، فمن قبيل ذلك أهوال الحروب وسببها سوء العلاقة بين الإنسان والإنسان ، وهي لا تزول إلا إذا حلت روح الإخاء والتعاون محل روح الفردية ، فعلاج مشكلة الحرب بأيدينا ، وإذا قصرنا في ذلك فالذنب ذنبنا ، فلماذا نلقي تبعة ذلك كله على الله جل شأنه ؟

وهذا لون من الدفاع ظاهر الوجاهة ، ولكن ليس معنى هذا الدفاع أن كل إنسان مسئول عن أهوال الحرب وشدائدها ، لأن الواقع أن التبعة هنا لا تقع إلا على بعض الناس ، وقد يذهب ضحية الحرب من لم يكن من جناتها وليس له أثر في توجيه الحوادث التي أدت إليها . وواضح أن التفكير الديني يحاول أن يبعد التبعة عن المقام الأعلى ، لأن الإنسان حر ، ولكن حرية الإنسان هبة من الله ، والله هو خالق الخلق كلهم ، ولذا يبدو أن إبعاد التبعة عنه أمر غير ميسور . وإذا قلنا إن الله خلق الناس أحرارا وحدّ من قوته حتى لا يتدخل في شئون الدنيا وسير الحوادث فكيف نبرئه من تبعة الحوادث المحزنة لأنه حد قوته ؟ إنها حكمة لا نستطيع جميعا أن نتبين غايتها وأهدافها !

على أن هذا الفرض ، فرض أن الله قد تخلى عن الكون وترك حبله على غاربه ، فرض نظري فلسفي ، والرجل المتدين لا يميل إليه ولا يستصوبه ، لأنه لا يقبل أن يقف الله من كونه ومخلوقاته موقف الشاهد المحايد ، وهو رأي لا بأس به . ولكن إذا كان الله لا يقف موقف الشاهد المحايد فلماذا يسمح بطغيان الشقاء في هذا الكون ؟ وبذلك تعود المشكلة كما كانت .

وهناك مسألة متصلة بهذا الموضوع وتنطوي على حجة قديمة تشير إلى الحياة الأخروية الملائمة بين شقاء الإنسان ورحمة الله ، وهي تذهب إلى أن وضع الإنسان في الدنيا سيصحح في الآخرة ، ويجازى عما تحمله خير الجزاء ؛ ولكن هذا لا يحل المشكل ولا يفسر الغامض ، لأننا لا نرى مسوغا لما نعاني من الألم ، ولا يبدو لنا أنه لازم لغاية كبيرة وهدف سام ، ولذا نجد مسوغا من العقل وإن كنا قد نجد مسوغا من الإيمان .

وبعد ، فقد قدمت للقارئ صورة ليست مشرقة ولا لامعة ، بل لعلها مظلمة كابية ، وأخشى أن تكون هي صورة الواقع . وقد يرد على ذلك بأن عالمنا هذا هو عالم الأبطال الشجعان الذين لا يحسون الألم ولا يبالون الأحداث ، ولكني أخشى أن يكون عالمنا هذا عالم كل كثيف الشعور مظلم النفس مسلوب الضمير وصولي حقير . فلنحتفظ باليقين لأن الله أسمى من أفهامنا المحدودة وأكبر من عقولنا الضعيفة ، فكل حكم لنا عليه أو على أعماله قصور وعجز ، وليس معنى ذلك إهدار العقل وإهمال شأنه ، وإنما معناه التسليم بعجز العقل أمام جلال الله وعظمته . وعندي أن التسليم بالعجز والقصور خير من الغي في المغالطة والسفسطة والتدجيل والتضليل في مجال يحسن فيه تحري الصدق وقول الحق والنزاهة والصراحة .

علي أدهم

الخواطر

حديث كله شجون

كانت الليلة هذه المرة مقمرة وممتعة معاً ، إذ كنا جلوساً في النادي البحري الملكي بالإسكندرية بدعوة من صهري ، وكان المقعد هادئاً صرفاً ، فأطل عليه القمر من عل دون عتاب أو ملامة . وعلام العتاب ، والجلسة بريئة لا تشوبها أية محاولة لاستغلال شعاع القمر الفضي . ولعل القمر تعمد أن يحلق فوق رؤوسنا مداعبا ، وحافزاً لنا على قطع حبل السكوت المخيم ، والوجوم الذي لابد منه عند ما يستقر غرباء في مكان عام ، فنظر أحدنا إلى القمر ، وقال في تأمل : ياله من كون عجيب ، إنه هادئ ساكن كالموت ، براق مضيء كالحياة ، مضت عليه آلاف السنين ، وهو يرسل الضياء على الأرض التائهة دون تبرم أو ملل ! هو مثل من نكران النفس يعطي ولا يأخذ ، وسبحان الذي سخره ليهدينا في الظلمات ، دون أن ينتظر منا جزاء أو شكوراً ، وسبحان الذي خلق هذه الشعلة الدائمة التي لا تنفد مواردها ، ولا يخبو نشاطها ! تأملوا معي كيف يتناوب القمر العمل مع أخته الشمس في نظام لا يبارى ، وجل من وجههم في هذا الطريق منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا ، دون أن يختل ميزان العمل لحظة واحدة .

وهنا انبرت آنسة وقالت في صوت رقيق : لعل أجمل تعبير لهذه الظاهرة المعقدة هو قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون » .

ومن عادة هذه الآنسة أن تضغط على مخارج الألفاظ وخاصة منها الدال والتاء ، فنطقت بالآية في وضوح وجلاء جعلني أغتبط بنضج الثقافة الدينية في فتاة من عائلتي رغم انتسابها إلى المدارس الأجنبية في مراحل تعليمها .

وكأننا اكتفينا من القمر بهذا الحد ، فرجعنا من العلياء إلى سفح الوادي ، وحولنا الدفة على طبيب من « الشلة » ينوي تأدية فروض الحج هذا العام ، وسألناه كيف يضحي بعيادته الناجحة مدة شهرين في سبيل أداء الفريضة ، رغم أنه سبق له أن أداها مرتين . فلمعت عيناه من وراء نظارته وبدأ يحدثنا في حماس هادئ عن الرياضة الروحية والبدنية التي يتمتع بها زائر ما حول الكعبة وقبر الرسول . وبينما هو منهمك في سرد التفاصيل مالت علي زوجته الصغيرة ، وكانت قد رافقته في إحدى رحلاته إلى الحجاز ، وقالت لي في صوت أكثر هدوءاً وخفوتاً من زوجها : « إن التجربة بلا شك قاسية ولكنها تهون في سبيل تأدية الفرض المقدس .

أنا لن أنسى مثلا يوم ذهبت لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام . إن الرهبة تعميك عن رؤية ما حولك ، والدموع تنهمر من عينيك ، وأنت لا تدري كيف تحبسها في مقلتيك ؛ أنت تحدق في الأرض صوب العلامة التي تشير إلى المكان الذي دفن فيه الرسول ، ثم تدير رأسك في حركة آلية متأملا المقام الشريف والتربات الفاخرة ، وتشعر أن روح محمد عليه الصلاة والسلام معك طول الوقت تستحثك وتؤنسك ! أنا لن أنسى ذلك اليوم ما حييت . لقد غادرت المكان وأنا أبكي مع الباكين ، وبودي ألا أفارقه ، وخيل إلى أني تركت قلبي هناك » .

وكان « بالشلة » شخص يميل إلى الدعابة ، فحاول مداعبة طبيبنا التقي الورع ، فقال له : أنا لا شك معجب بسلوكك الديني ، فأنت دائما تعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ،

إنك مثلا تحسن إلى الفقير ، وتؤدى الزكاة وفريضة الحج كما استطعت إلى ذلك سبيلا ، وتواظب على تأدية الصلوات الخمس فى سبيل إرضاء الله ، وضمان ركن يسعك ومن تحب فى جنات الخلد التى وعد بها المتقون . لنفرض أن الحياة تنتهى عند فناء الجسم من عالم المادة ، فماذا يكون موقفك من نفسك وقد أضعتها حرماناً من ملذات الدنيا ؟ إن هذا يذكرنى بقصة فقيه زنديق كان يبالغ فى التملق إلى الله ويبشر بشمائله بطريقة متكلفة مفتعلة فاغتاظ منه أحد العقلاء المتزنين ، وحاول أن يكشف عن ريائه أمام جمع من الناس فسأله قائلا : ياشيخ فلان ! لنفرض أنك — بعد هذه المعركة الهائلة بينك وبين نفسك — ثبت لك بعد موتك أن الآخرة ويوم الحساب أبعد مما تظن ، فماذا يكون شعورك ، إذا كان للميت شعور يحس به ؟ فتردد الشيخ قبل أن يقول : يبقى خازوق !

فرأيت عند هذا الحد أن أتدخل قبل أن يندلع الشرر فقلت : إن الإيمان بالله واليوم الآخر أساس جميع الأديان السماوية . ألم يبلغك قوله تعالى : « ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يُتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا » ، وقوله تعالى أيضا : « إن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » .

وهنا انبرت آنستنا المتدينة ، وقالت فى تحدّ : وهل نسيت قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » .

وكان الإلقاء رائعا فى رقته — وما أبدع نطق القرآن من أفواه السيدات والآنسات ! — فلم نتمالك جميعا أن قلنا بإيمان وقوة : صدق الله العظيم .

* * *

وتشعب الحديث بعد ذلك إلى حادث الطريق الصحراوى الذى كاد يذهب ضحيته نائب وصديقاه ، وعلق كل منا بما خطر له إزاء هذا الحادث المؤلم ؛ وأجمع الكل على أن هناك شيئين يسىء الجاهل استعمالها إذا وجدا فى متناول يديه : أولها البندقية ، وثانيهما عجلة القيادة من السيارة . إن المتعلم ينظر إلى البندقية كوسيلة لحمايته من عدوان المجرمين الجهلاء من بنى الإنسان والحيوان ، أما الجاهل فهو يضرب بها ذات اليمين وذات اليسار ، غير مبال لأى روح تزهق ، ولأى أرواح سوف تتيتم أو تثكل من بعدها ، فقد انعدم الضمير الذى يميز بين الروح الغالية والروح الرخيصة . ثم تأمل بعد هذا سائق سيارة الأجرة الذى يزاحم زملاءه السائقين بمبرر وبدون مبرر ، وتتسبب نتيجة طيشه حوادث جمة قد تودى بأرواح غالية ، هذا فضلا عن وقاحة المنازلة التى يتحدى بها طبقة المتقفين من أصحاب السيارات . والأدهى منه سائق سيارة النقل الثقيلة ، إنه يجلس وراء عجلة القيادة مختالا مغروراً لا ينظر يمينا أو يساراً ، فهو ملك وعلى الرعية أن تحسب له ألف حساب ، لأنه إذا لمس سيارتك أو سيارتى لمسة خفيفة كانت القاضية بإذن الله ! إنى كلما شاهدت أمثال هؤلاء الجهلاء يعبثون بالقوانين والنظم والأرواح أمامى قلت : ما ذنب المساكين ! لقد أعطوهم بندقية فى يدهم !

دكتور مصطفى الديواني

قانون بلاكيت

قانون جديد لظاهرة قديمة

أما الظاهرة القديمة فهي المغنطيسية الأرضية . فقد عرف منذ عهد قديم أن الإبرة الممغنطة تتخذ في كل مكان عند سطح الأرض وضعاً ثابتاً في الفضاء ، فتميل عن الأفق زاوية محددة ، ويتجه طرفاها نحو نقطتين ثابتتين في اتجاه الشمال المغناطيسي والجنوب المغناطيسي . وقد عرف أيضاً أن ظاهرة المغنطيسية الأرضية يمكن تفسيرها باعتبار أن الأرض أشبه شيء بقضيب ممغنطس ضخم له قطبان ومحور يصل بينهما ؛ ومحور الأرض المغنطيسي لا ينطبق على محور دوران الأرض بل يميل عليه بزاوية ، يقيسها العلماء ما بين آن وآخر .

وقد استخدمت ظاهرة المغنطيسية الأرضية في رسم الخرائط الملاحية وفي كثير من القياسات الكهربائية ، وأصبح الإخصائيون فيها كثراً يعقدون المؤتمرات الدولية ، ويحددون (المواصف) المغنطيسية ويربطون بينها وبين ظواهر كلف الشمس وانعكاس موجات اللاسلكي والكهرباء الجوية وغيرها .

أما القانون الجديد فلا يفسر المغنطيسية الأرضية ، بل يربط بينها وبين دوران الأرض حول محورها ، فيقضي بأن كل جسم كبير الكتلة دائر حول محور فيه لا بد وأن يكون له مجال مغنطيسي ، وأن شدة هذا المجال تتناسب مع عزم دوران الجسم . ويقول بلاكيت إن هذا القانون يربط بين المغنطيسية وبين الحركة الدورانية بعلاقة عددية يمكن إثباتها .

ويجدر بنا أن نتعرف على صاحب هذا القانون . هو باتريك ماينارد ستيوارت بلاكيت أستاذ الطبيعة في جامعة مانشستر منذ ١٩٣٧ ، وقد ولد منذ ٤٨ عاماً . ويعتبر اليوم من أعظم علماء العالم تخصصاً في الأشعة الكونية ، وهي الأشعة القوية التي تنهمر بها على سطح الأرض وكأنها تنقض علينا من الفضاء البعيد ، ولما يصل العلماء بعد إلى تفسيرها تفسيراً مرضياً . وقد تعددت البحوث الكثيرة والرحلات البعيدة في مختلف أنحاء الأرض لقياس شدة الأشعة الكونية ، فقيست فوق قمم الجبال ومن الطائرات والبالونات ، وارتفع الأستاذ بيكار البلجيكي عدة مرات مخاطراً بنفسه ليقيسها ، ونزل العلماء إلى أعماق البحار والبحيرات سعياً وراءها ، وقاسوا شدتها نهاراً وليلاً وصيفاً وشتاء ، فهم يهتدون إلى منفذ إلى سرها المكنون وأصلها المجهول .

وكان بلاكيت ، ولا يزال ، يشارك العلماء في السعي نحو الكشف عن سر الأشعة الكونية ؛ فخطر له ذات يوم أن ينظر إلى السماء ليرى ما قد يحدث لهذه الأشعة إذا مرت بالقرب من نجم ضخم له مجال مغناطيسي قوي ؛ ففتح صحائف علماء الفلك ، فوجد أنهم قد قاسوا مجال الشمس المغنطيسي بدقة . ولاحظ بلاكيت أن ليس من بين الأجرام السماوية التي تعد بملايين الملايين ما يعرف مجاله المغنطيسي ، سوى الشمس والأرض .

ولكن في هذا العام حدث أن نشر الفلكي الأمريكي بابكوك بحثاً يتضمن قياساً للمجال المغنطيسي لأحد نجوم برج السنبلة (ورقمه ٧٨) وهو نجم ذو كتلة معروفة ، وسرعة دورانه مقيسة بدقة من قبل . عندئذ رجع بلاكيت إلى بحوثه القديمة ، فتبين أن الشمس والأرض ونجم السنبلة جميعاً تحقق علاقة معينة ، بأن عزم الدوران لكل منها يتناسب مع المجال المغنطيسي ، عندئذ أعلن بلاكيت في شهر أبريل الماضي القانون الذي أشرنا إليه في صدر هذا المقال ، وذلك في اجتماع عقد خصيصاً في الجمعية الملكية بلندن .

ومن الطريف أن العالمين سوان ولونجاكر قد حاولا إثبات هذا القانون تجريبياً عام ١٩٢٨ ، فأحضرا كرة من النحاس قطرها عشر سنتيمترات وأدارها حول محورها

قصة الأسبوع

زهور الروح

للكاتبة الأمريكية دوروثي كانفيلد

كان والدها فناناً فاشلاً ، مات تاركاً لها صورة له يبدو فيها وجهه مسالماً حساس القسمات ، وعلبة تحتوى على أدوات الرسام ، وأنابيب للألوان جفت زيوتها ، وتحولت إلى تراب قبل أن تصل ابنته هيلينا إلى سن الإدراك .

وكانت أمها تدير فندقاً فى مدينة صغيرة من مدن مقاطعة أوهايو بالولايات المتحدة ، وتبذل الجهود فى منع السرقات وشراء الطعام رخيصاً ، وتدبير أمر الطلبة الذين لم يدفعوا ما عليهم من نقود .

وكان وجه هيلينا يبدو حساس القسمات كوجه والدها ، ولكنه لم يكن وجهاً مسالماً ، فقد ورثت من أمها حب الكفاح ، وبدأت كفاحها من يوم أن استطاعت السير على قدميها . فكانت تشاحن كل إنسان ، وتكره كل شيء فى هذا العالم ، ولم تخف شعورها هذا على أحد ، بل كانت مصدر تعب لوالدتها ولغيرها من الناس ، كما كانت مصدر شقاء لنفسها أيضاً ! كانت تكره الفندق الخشبي الذى تعيش فيه ، وتكره الكنيسة التى كانت تزورها مرغمة يوم الأحد ، لتستمع إلى عظات القسيس السخيفة ، وتكره الدروس التى تضطر إلى تعلمها .

وكانت تبدو متكبرة متعجرفة ، وهى تجلس ليلة بعد

بسرعة ١٢٠٠٠ دورة فى الدقيقة ، وحاولا الاستدلال على مجال مغناطيسى حول الكرة بسبب دورانها ، فلم يوفقا . ويفسر بلاكيت إخفاقهما فى ذلك ، تفسيراً عددياً ، بأن المجال المتكون كان أقل جداً من أن يقيسه جهاز سوان ولونجا كراً والعلماء جميعاً اليوم يتطلعون إلى إجراء هذه التجربة الهامة لتحقيق قانون بلاكيت .

وقد كان لإعلان بلاكيت قانونه صدى عظيم فى جميع الدوائر العلمية ، فقيل إن آخر حادث مماثل له ، كان منذ أكثر من مائة عام عندما أعلن فاراداى قانون الحث الكهربائى المغنطيسى ، الذى يحدد علاقة ثابتة بين المجالين الكهربائى والمغنطيسى ، ذلك القانون الذى مهد السبيل أمام ماكسويل لاستكمال نظريته المشهورة . وإذا رجعنا لأبعد من ذلك نجد قانون الجاذبية لنيوتن الذى يربط المادة وأوضاعها بقوة الجذب . ثم جاء أينشتين فى أوائل هذا القرن وأخرج نظريته النسبية التى تربط بين الجاذبية وبين هندسة الفضاء . وفى الوقت الذى كان يعلن فيه بلاكيت قانونه فى لندن ، كانت البعثات الفلكية تتجه نحو البرازيل والأرجنتين لتقيس انحراف الضوء عند كسوف الشمس الكلى ، تحقيقاً لقانون أينشتين .

فعلم الفلك يكشف مرة أخرى أمام العلم ظواهر لا تتسع لتبيانها أمام ناظرينا أرجاء الأرض ولا حدود النظام الشمسى . وقد سبق أن كشف الفلكيون الطريق أمام جاذبية نيوتن ونسبية أينشتين وغيرهما من القوانين الطبيعية الأساسية .

ومما يجدر ذكره أن معمل بلاكيت فى مانشستر يضم ثلاثة من الطلبة المصريين من جامعة فاروق الأول ، وهو عظيم العطف عليهم ، ولا غرو فى ذلك ، إذ أن آراءه الاجتماعية ونشاطه خارج دائرة العلم قد جعلاه قبلة أنظار كثيرين ! فهو رئيس اتحاد المشتغلين بالعلم فى بريطانيا ، وهى هيئة نقابية ، تسعى لخدمة العلماء الشبان ، وتشجيع العلم والعاملين فيه .

إبراهيم حلمى عبد الرحمن

ليلة فى المطبخ بعد أن تغسل الأطباق تراجع دروسها فى إهمال وعدم اكتراث . ولم تكن تتصور وجود عالم لاتكرهه ولا يبادلها هذا الكره . وكيف تعرف أخبار مثل هـذا العالم ، وهى ابنة صاحبة الفندق المكروهة فى مدينة صغيرة من مدن أوهايو . ولكن أخبار هذا العالم قد وصلت إليها ... فقد كانت تجلس ذات ليلة وهى فى سن الخامسة عشرة فى مقعدها حين دخل عليها رسول هذا العالم .

كان هذا الرسول رجلا كبير السن صغير الجسم أنيق الثياب ، له شارب مدبب الأطراف ، وكانت هيلينا تعرفه ، فقد قابلته منذ ساعة عند الباب وهو فى طريقه لزيارة أستاذ شاب يسكن فى الفندق . وكان هذا الرجل أستاذا زائرا ، جاء يلقى مجموعة من المحاضرات فى كلية المدينة ، وذاع أمره بين الناس ، لأنه رجل عالى الثقافة جاء من باريس وقطع مرحلة طويلة إليهم ، ولأنه كان يبدو رجلا أجنبيا ممتازاً ، يشبه هؤلاء الأساتذة الذين يصلون إلى الجامعات الكبيرة ، ولأنه أول من جاء إلى كلية محلية تشتكى قلة الهبات وبخل مؤسسيها .

ووقف الأستاذ متردداً عند الباب ، ثم حنى رأسه إلى هيلينا التى كانت تجلس غارقة فى مقعدها ، فرفعت إليه عينيها فى صمت ووقاحة ، فقال فى لغة إنجليزية ركيكة : إنه لاتوجد مدفأة فى غرفة الأستاذ الشاب ، وإنه يحس بالبرد . وسأل هل يمكن أن يقف فترة بجانب النار حتى يدفئ يديه دون أن يزعج الآنسة .

فوافقت هيلينا ، وانصرفت عنه إلى كتاب التربية الوطنية . ويظهر أن الأستاذ الشيخ كان قد اعتاد عدم اهتمام الأمريكيين بالرسميات . فقد دخل ووقف بجانب موقد المطبخ مادا أصابعه الرقيقة نحو النار ، وجعل يجول ببصره فى الحجرة فاحصاً ما حوله . ثم استقرت عيناه على وجه الفتاة المتحجرة فلم يحول بصره عنها .

وقال بعد فترة صمت طويلة ، نسيت خلالها هيلينا وجوده ، وكان يخرج كلماته فى أناقة غريبة من المكان الذى يقف فيه :

« هل تسمح الآنسة أن أشاهد رسمها الذى فى طرف الورقة ؟ » .

وأجفلت الفتاة ، ووضعت يدها فى سرعة على الورقة . وتحولت نحوه ناظرة إليه نظرة الشك والريب . فقال وهو يمد يده نحوها :

« يخيل إلى أنى أرى فناً فى هذا الرسم . أنا أعرف شيئاً عن الرسم ، ويظهر أنك فتاة موهوبة » .

فكان لكلماته هذه دوى يشبه دوى الطبل ، فنظرت إليه هيلينا طويلا يهزها صدى كلماته ، ثم رفعت يدها عن الرسم فى صمت . فاقترب منها وجعل يفحصه ، وقال فى اهتمام :

« وهل يوجد شىء آخر ؟ » .

فارتعشت هيلينا لجمال نبراته . وأخرجت ورقة من بين صفحات كتاب الجبر رسمت عليه أوجها ثلاثة لطلبة لها انتقمت بها لما لاقته من عنت أثناء الدرس .

ضحك الرجل الفرنسى عندما شاهد هذا الرسم . وجعل يفحصه ، فاحمرت وجنتاها . ثم قال وهو ينظر إليها :

« وهل يوجد شىء آخر ؟ » .

فخرجت من المطبخ صامتة ، وصعدت إلى حجرتها الصغيرة وأحضرت لوحة رسمت عليها بالألوان الرخيصة منظر شجرة صنوبر كانت تمر بها وهى فى طريقها إلى المدرسة ، وكانت الشجرة تبدو قديمة كثيرة الفروع شامخة بأنفها نحو السماء ، ذات شكل يوحى بالعزة والجبروت ، وكانت الشىء الوحيد الذى لم تشعر نحوه هيلينا بكره . وأحست أنه يعز عليها أن تكشف له عن المعانى التى رأتها فى هذه الشجرة ، ولذلك تقدمت بعد أن أعطته اللوحة

فأخذتها مرة ثانية ، ولكنها توقفت من ذلك عند نظره إليها ، وكان وجهها حينذاك شاحبا وعيناها تدمعان . وكان هو ينظر إلى الرسم الذى يمثل القوة والكبرياء فى عناية شديدة . ولم تر هيلينا فى حياتها أحدا ينظر إلى شىء ما مثل هذه النظرة . ولكن كان مولدها فى هذا التعبير الذى بدا على وجهه حينذاك ، فوقفت تنظر فى قلق يضايقها الانتظار . ثم وضع الرسم على المنضدة وقال لها ما لم تنسه لحظة واحدة فى حياتها ، وكان يؤكد لها بتعابير وجهه ما يقوله . .

« يا طفلتى ! أنت موهوبة . ولا تنسى ذلك أبدا . لا تفكرى فى شىء غير هذه الهبة . كافحى من أجلها وهبيها نفسك ، ولا تدعى شيئا يقف فى طريقك . لا تفكرى فى نفسك أو فى أى إنسان آخر . كافحى فى إبراز هذه الهبة » ثم لوح بيده وهو يقول : « هناك من سوف يعترفون بك فكافحى من أجل الوصول إليهم » . ثم ألقى نظرة أخرى على اللوحة وقال فى صوت خافت : « قد تكونين عبقرية » .

وأحست هيلينا برعشة شديدة حتى إنها خشيت أن تسقط على الأرض ، فأمسكت باللوحة فى رعب ووجل ، وسارت متعثرة إلى حجرتها الصغيرة .

وجاءها كتاب فى الصباح ، كتاب صغير أنيق الطبع له غلاف من الجلد الأخضر الناضر ، مطبوع عليه عنوانه « زهور الروح » بالذهب . وقال الطالب الذى أحضره وهو فى دهشة : إن الأستاذ الشهير الذى جاء من باريس قد أرسله إلى ابنة صاحبة الفندق مع تحياته وإعجابه .

فاضطربت الفتاة مرة ثانية ، لم تك تحلم بذلك . ومدت يدها مرتعشة تأخذ هذا المخلوق الجميل ، فإنه لها ، يهديها شاعر هى مجموعة أشعاره ، وقد كتب إهداءه فى خط أنيق جميل ، « إلى هيلينا ، اعترافا بعبقريتها . من زميل فنان » .

وأسبلت هيلينا عينيها حتى ترد سيل دموعها . وفكرت فى أن الشاعر لم يهد إليها هذا الكتاب ، وإنما أهداه إلى هبتها ، تلك الهبة الكامنة فيها والتى تنتظر منها أن تنقذها وتبرزها .

وأمسكت بالكتاب بين يديها القويتين كأنه سلاح ، بل كان فى الواقع سلاحا . وكانت موقنة بأنها قادرة على الكفاح ، فقد كافحت طوال حياتها ، ولكنها الآن تعرف أنها وجدت ما تكافح من أجله .

وعند ما وصلت إلى سن السابعة والعشرين كانت تكافح كفاحا مرا ، وقد انطلقت فى طريقها كالسهم لا تلوى على شىء . وقامت بهذا الكفاح وهى صغيرة السن فتمتعت به وذاقت حلوه كما ذاقت مره ، وكان كفاحا مرا فى كثير من الأوقات وخاصة فى الشتاء الأول الذى قضته فى باريس . وقد ينكص أى إنسان على عقبيه ويستسلم للهزيمة ، ولكنها كانت واثقة بتلك القوى التى تتدفق من أعماق نفسها حدة منطلقة فى عزم وقوة . واستطاعت أن تحذق الفن وتسيطر على وسائله وأساليبه ، وأن تبرز شخصيتها فى رسومها .

وأخيرا أثمرت جهودها أطيب الثمار ، وعلقت صورتان لها فى معارض لوكسمبرج ، وتهافت الناس على رؤيتهما وأبدوا إعجابهم الشديد بهما . وتكلم النقاد ورفعوها إلى مصاف كبار رجال الفن ؛ فطفحت منها السعادة وفاضت على من حولها . وكانت تقف بين الفينة والفينة تفكر فى أمس نفسها وتقارن بين حالتها الآن وحالتها بالأمس ، فتذكر تلك الطفلة المتجرفة المكروهة اليائسة ، فتتساءل هل يمكن أن يحدث لها كل هذا التطور ؟ .

وأينعت السعادة من حالها ، فتوردت وجنتاها وصفت نظرتها ورق صوتها . وأحست الآن بعد أن وضعت الحرب أوزارها بعواطف الشفقة والرحمة تسيل منها ، ورغبت فى إسعاد الآخرين . وتذكرت أمها ، وفكرت لأول مرة أن هناك فى شوارع باريس أشياء جميلة تبعث السرور فى نفس أمها ، فاشترت أقمشة وهدايا وأرسلتها

إليها، فقد جنت في صورة واحدة كل ما كانت أمها تأمل أن تربحه في عام. وكانت تبتسم كلما تذكرت الفقر المدقع الذي عاشت فيه من قبل، وهي الآن تلبس خير الثياب وتأكل أطيب الطعام وتحوط نفسها بكل شيء جميل.

وتذكرت كذلك مدير مدرستها وكيف أنه مغرم بالكتب القديمة الطبع، فخرجت لتشتري له مجموعة منها، وآلت على نفسها ألا تشتري له إلا ما طبع من مائتي عام. فجعلت تجول بين المكاتب المكشوفة التي تبيع قديم الكتب على ضفاف نهر السين. وأحست لذة لا تعادلها لذة أثناء تجوالها بجانب النهر في جو أبريل الجميل. وكانت تنصرف بين لحظة وأخرى إلى مشاهدة النهر وأرصفته وقناطره، وتذكر العداوة التي كانت بينها وبين الكتب قديما، وهي تستمع إلى أحاديث باعة الكتب الذين سرهم أن يجدوا سيدة أمريكية تستمع إلى ذكرياتهم الأدبية. ولم تكن كاملة الإصغاء لهم بل كانت تلاحظ الفرق بين صلابة حجر الأرصفة الرمادي ولمعان الماء الرمادي المرتعش، وتقول لنفسها إن هناك تناقضا بين رأس الإنسان الجامدة الصلبة وبين السائل الحي الذي يترقرق في عينيه.

ونسيت فترة ما البائع الواقف إلى جانبها، بل خيل إليها أنها نسيت كل شيء غير هذه الفكرة التي في رأسها. ثم أحست فجأة بألم سريع كأنها أصيبت بطعنة من الخلف.

إنه البؤس القديم الذي تعرفه جيدا، وخيل إليها أنها شفيت منه إلى الأبد. فقد أحست فجأة وهي واقفة في ضوء الشمس حرة ناضجة تحس بالقوة والجد، إنها ما زالت تلك الفتاة المتحجرة البائسة تميتها موهبتها المحبوسة. فجالت ببصرها الزائغ حولها لتبحث عما أثار فيها هذه الأحاسيس فعرفت السبب في التو، ووجدت بين الكتب التي أمامها كتابا له غلاف أخضر فاخر مطبوع عليه بالذهب «زهور الروح»، فوقفت تنظر إليه وقلبها يخفق بين جنبيها. إنه المفتاح الذي أطلقها من سجنها، فأخذته بين راحتيها متعجبة كيف وصل إلى هذا المكان بين الكتب الرخيصة. ووجدت على الصفحة الأولى عند ما فتحته في خط رقيق تعرفه: «إلى إليس ريتود اعترافا بعبقريتها». فقال البائع وقد لاحظ اهتمامها:

«غلاف جميل.» فأرادت أن تنقذ الكتاب فسألته:

«بكم»؟ فقال:

«عشرة صولدات. ثمانية إذا أردت شراء كتابين».

فقالت دهشة وهي تتنقل ببصرها بين البائع والكتاب:

«كتابان؟»

فأراها كومة من الكتب الخضراء وقال لها:

«ثلاثة بستة عشر صولدا»

فجعلت تقلب هذه الكتب، ووجدتها جميعا مهداة إلى فتيات عبقريات نابغات. فتركت الكتب، وقد علاها الدهش، ونظرت إلى الكتبي متسائلة. فهز رأسه وقال وهو يبتسم:

«أرى أن الآنسة تفهم». ولكن الآنسة لم تفهم فأضاف قائلا:

ظننتك تعرفين القصة. إنه عمل رجل عجوز غريب الأطوار، كان أضحوكة باريس منذ أعوام مضت. من هو؟ ليس ذا شأن. مدرس جغرافيا في إحدى المدارس الصغيرة على ما أعتقد، ولكنه ظن أنه شاعر. ويقال إنه رجل طيب لطيف المعشر مهذب مثقف من أسرة طيبة. ولكن شعره؟!

فألقت هيلينا ببصرها على الكتب المجلدة تجليدا فاخرا فقال:

لقد دفع ثمن هذا التجليد من جيبه، فقد كانت له ثروة صغيرة صرف جزءا منها على طبع أشعاره، وهذا شيء سهل. ولكن كيف يوزعها؟ حاول أول الأمر أن يرسلها

إلى الشعراء والمؤلفين ، ولكنهم سخروا منه ، ففكر فى أن يجبر الصغار على ذلك ، فإذا أخبرهم بمقربتهم قرأوا الكتاب .

ثم دفع كومة الكتب بيده فى ازدراء وقال :

« لقد أصبحت فكاهة سخيفة . ضقنا نحن بالى الكتب ذرعاً بهذه المجلات التى كانت ترد إلينا ولم يفتحها إنسان ، فمن يشتريها ؟ ولكنها توقفت الآن ويظهر أن مؤلفها قدمات . تستطيعين يا آنسة أن تشتريها جميعها . الخمسة عشر مجلدا بثلاثة فرنكات . الغلاف يساوى أكثر من ذلك . ينزع بعض الناس الغلاف ويستعملونه غلافا لكراساتهم .

حولت هيلينا وجهها نحو النهر ونظرت إليه شاردة وكانت تبتسم ، وكانت تبكى أيضا . ثم مسحت دموعها ونادت عربة وقالت لسائقها :

« سر على مهل وقف أمام كل بائع كتب » .

واشترت الكتب جميعها ولم تكن كثيرة . فالنار أحن عليها من الحياة .

حسن الطاهر المنفلوطى

بين المسموع والمقروء

كاسب وكاسبة

كتب يسألني في أمر من أمور دنياه . زوجة ترامت له يمنع منها في نظره أن الزوجة المرتقبة تساويه سناً أو هي تكبره بعام أو عامين ؟ ولكن ليس هذا عنده بذي بال . إنما ذو البال عنده أنها تكبره كسباً ، فقد فتح لها الحظ باب الوظائف فارتقت ارتقاء سهلا ، أما هو فأنسدت في وجوهه على العادة المألوفة الأبواب . وذكر أنها لا تبغي أن تترك الوظيفة . ولكنه لا يعترض على هذا اعتراضاً مانعاً ، فالزوجة لها حق العمل إذا رغبت فيه كما للزوج حقه . ولكن الذي يعترضه خشية أن يكون ارتفاع كسبها محدثا إحساساً بالرفعة عليه في نفسها . وعندا هـذا فأين رجولة الزوج الكاسب ، رب البيت وعائله الأوحد ؟ !

ولقد ذكرني هذا الكتاب بقصة زوجة وقع لها مع زوجها شيء أشبه ما يكون بهذا ، وليس يعيب الشبه إلا أن صاحب هذا الكتاب شرقي ، وتلك الأخرى التي عنها أروي غربية . قالت :

لقد عشت مع زوجي اثني عشر عاماً في هناءة تامة ، على الرغم من أني أكسب فوق ما يكسب ، وأحسبني سأظل أكسب فوق ما يكسب ما عشت وعاش . فأنا أعمل في بيت من بيوت التجارة ، وأكسب ٣٦٠٠ دولار في العام . وزوجي باحث كيماوي ، ويكسب ٢٨٠٠ دولار في العام . ولو أننا ركنا إلى العرف القديم القائل بأن الرجل هو وحده الكاسب والعائل ، لما كان لنا اجتماع ولا كان بيت أو هناءة .

التقيت بزوجي ولم يكن فرغ من دراسته الجامعية ، وكنت أنا فرغت من دراستي الثانوية . وكانت لي وظيفة في هذا البيت التجاري ، أقف فيه وأبيع للناس . وأفضى لي زوجي بحبه ، ثم عقّب على ذلك في حزن ، قال : ولكن أين العمل وأين الكسب ، فدون ذلك السنوات ؟ ! فبادرته بقولي : ولكن أنا لي عمل ولي كسب . فضحك جاك وقلب الأمر مزاحاً .

وفي الوقت الذي ارتقيت فيه إلى وظيفة شارية مساعدة تعين في شراء البضائع لهذا البيت التجاري ، نال زوجي المرتقب درجة بكالوريوس . ووقع هذا في الأزمة المالية الماضية ، أزمة عام ١٩٣٣ ، وفي هذه الأزمة كان الناس يفقدون مناصبهم لا يكسبونها . فلما تعذر العمل قال لي جاك : ما رأيك في أن أستمر في الدراسة لنيل الماجستير ، وأن نؤخر زواجنا إلى ما بعد ذلك . فقلت على الفور : أوافق على النصف الأول من اقتراحك ، وأرفض النصف الثاني . وزدت فقلت : ثم ما رأيك في أن يكون المشروع من الشهر القادم تاريخ عرسنا ؟ فقام يحتج كما يحتج كل الذكران . ولكني أقنعته بأن وقتا يقضيه في زيادة الدرس اليوم يزيد في قدرتنا على الكسب غداً .

وعلم أبوانا بما انتوينا ، فقام الفزع من كل جانب ولم نستمع لأحد . وتزوجنا ، وكد جاك وجد حتى نال الماجستير . وظل العمل متعذرا . فمضى يعمل للدكتوراه فنالها . وكسب وظيفة ذات مرتب صغير كالذي يدفعونه في العادة لأهل العلم . ووافق ذلك ترقيتي إلى وظيفة شارية كاملة لبيت التجارة الذي أعمل فيه .

وفي عام ١٩٣٧ جاءنا ولدنا الأول . وفي عام ١٩٣٩ جاء ولدنا الثاني ، واضطرني الحمل إلى ترك عملي حيناً لأعود إليه بعد ذلك . فترك جاك كيمياءه ، وراح يبيع بوالص للتأمين ليعوض ما أصاب إيرادنا المشترك من نقص . ونجح في هذا العمل نجاحاً كبيراً .

وذات ليلة خالجني أنه مأخوذ البال بأمر يفكر فيه . فابتسمت وقلت له : أفرغ ما في الجعبة . قال : أفكر في البقاء في عمل التأمين هذا ، فهو أكسب كثيراً من الكيمياء .

وعلى كل حال فواجبي الأول لزوجي وأولادي هو أن أكسب أكثر ما أستطيع ليتمتعوا بالحياة أكثر ما يستطيعون، فماذا ترين؟ قلت: إني لأدري، ولكني أسأل، أي الأمرين أحب إلى نفسك، الكيمياء أم التأمين؟ قال: هذا سؤال أنت تعلمين جوابه، ولكن ليست المسألة مسألة ما أحب وأكره، ولكن ما هو أنفع للأسرة وأروح للحياة. قلت: استمع لي يا عزيزي، إن الحياة تفقد طعمها إذا اضطر المرء فيها إلى القيام بعمل يمقته. إني تزوجت كيماوياً بارعاً، وأود أن أبقى متزوجة هذا الكيماوي البارع. في الأسبوع القادم سأعود إلى عملي وتعود أنت إلى معملك.

وعندها نظر لي جاك نظرة حب وفهم لا يعدلها عندي مال أو متاع. وكانت هذه آخر مرة يحدثني فيها عن مرتبي ومرتبه، أيهما الأصغر وأيهما الأكبر.

وها قد مضت السنوات ولم نأسف يوماً لهذا القرار الذي قررناه، أن يعود إلى معمله على قلة أجره. ويزيدني اغتباطاً بهذا القرار ما أراه أحياناً بأزواج صواحبي — زوج هو كاسب البيت الواحد، في عمل يبغضه ولا يستطيع أن يتزحزح عنه خشية نضوب المورد الواحد، وهو دائماً في قلق، أحرص ما يكون على دفع قسط التأمين خشية أن يحدث له حادث الزمان فيذهب من أسرته كاسبها. مناظر مؤسفة، ولكن لي منها متعة المرأة المدلة بنفسها، أن حلت من زوجها بعض أثقاله وبعض أثقالها، وحل هو سائرها.

ولي الغبطة بنفسي أنا أيضاً أني نلت من عمل الحياة ما أملت. إن عمل البيت شيء لم تخلق له كل النساء، وأنا على التحقيق لم أخلق له. إني أفضل الحركة والتغير والتجدد الذي أجده في عملي على رتابة المطبخ، ولي من كسبي وكسب زوجي ما يكفيني من انتداب من تقوم بأكثر هذا العمل عني أو من يقوم.

وواجبات المنزل الأخرى قائمة بيننا على المؤازرة. فالأولاد يهيئهم للنوم أفرغنا في المساء، والأصحن نغسلها إذا غابت الخادم سوياً. وأرسم الطعام أحياناً ويرسم هو أحياناً. ويقوم زوجي بشراء الطعام لقربه من معمله وهم يرسلونه، وأقوم أنا بشراء سائر حاجات المنزل لقربي من أسواقها.

والخلاصة أن المنزل خَلْقٌ من خلقنا نحن الاثنين، لا خَلْق واحد. فكل ما فيه «متاعنا» لا «متاعي». والأولاد كذلك خَلْق مشترك، لا بالمعنى البيولوجي، فهذا واضح، ولكن بمعنى المساهمة في تربيتهم وتنشئتهم. في البيت التقليدي المعروف تقوم الأم على الحراسة من مطلع الشمس إلى مغربها، لا يكاد وجهها يفارق وجوههم، أما وجه الأب فهم لا يرونه إلا عندما تقف عجلة عمله الدائرة ليل نهار. ولكن الحال غير هذا بيني وبين زوجي، فنحن نتناوب رعاية الأطفال عند المرض، ونتناوب الحديث إلى مدرسيهم، والذهاب بهم إلى الطبيب، وكل شيء من هذه الأشياء الصغيرة التي تتضمن معاني جليلة، فيزيد الأولاد بذلك تعرفاً بأبيهم، واستفادة منه، وتقديراً له على نحو لا تعرفه العائلة التقليدية.

وفوق هذا، فعملنا للكسب معاً رفع عنا ذلك الضيق المالي الذي يؤدي بالزوجين إلى التشاجر والتنافر والخصومات التي تؤدي أخيراً إلى الطلاق. إن الطلاق والفراق من أسبابهما الكبرى ضيق ذات اليد، فأقل ما يقال في هذا الضيق إنه يضيق الصدر، ومن ضاق صدره كان كعود الكبريت ينتظر الحكة الواحدة ليشتعل فيأكل نفسه.

ومكاسبنا نضعها في البنك في حساب واحد، فلا هو على ولا أنا أملي. فالخير لنا إن أتى لجميعنا، والشر لنا إن أتى لجميعنا، والثقة بيننا متبادلة.

* * *

أما بعد، فهذا رأي صاحبتنا الزوجة الكاسبة وزوجها الكاسب، قد لا يرضاه كل الرجال، وقد لا ترضاه كل النساء. ولكنه على كل حال أسلوب من العيش وافق زوجاً وزوجة.

أحمد زكي

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٧٦٩

العدد ٤٥٦ — الثلاثاء ٨ من ذي القعدة سنة ١٣٦٦ — ٢٣ من سبتمبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

سر غاندي

ذكرت الصحف في شهر مايو من هذا العام أن المهاتما غاندي أعلن أنه سيصوم حتى الموت إذا وقع نزاع طائفي بين المسلمين والهندوس ؛ وأنه ابتهل في أول صلاة له عقب عودته من نيودلهي أن يتم السلام الطائفي الذي وقع ميثاقه مع السيد علي جناح ؛ وأنه إذا لم يلق ابتهاله استجابة فإنه يرى نفسه مضطراً لأن يبدأ (صيامه) .

وتضرع الناس جميعاً إلى الله أن يخيم السلام الطائفي على ربوع تلك الديار — من أجل الهند ، ومن أجل غاندي ! — ولكن هاد البرق في أوائل الشهر الحالي يحمل إلينا أنباء المصادمات العنيفة التي وقعت بين الطائفتين ، ويعلن للعالم أن غاندي بدأ الصيام الذي هدد به ، وأنه سيظل صائماً حتى تعود الحالة إلى مجراها الطبيعي في البلاد .

ولهذا (الصيام) الذي يعلنه غاندي من حين إلى حين قصة يجب أن يعرفها كل إنسان لعله يستفيد من عبرتها . ونحن نرجو أن نوفق لتلخيص هذه القصة في السطور التالية .

* * *

دأب الناس منذ هابيل وقابيل على أن يختلفوا ويتنازعوا ، وعلى أن يفضوا منازعاتهم بالقوة والعنف ، وأن يفتك قويهم بضعيفهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وتصدعت منهم رؤوس الفلاسفة وهم ينصحونهم بالهدوء ، ودع صوت الرسل وهم يدعونهم إلى السلام . ولكنهم في سكرة الحياة ينسون أنهم فوق معبر قصير لا يحتمل كل هذا الضجيج والعجيج ، ويظلون في عراك وشقاق حتى يتخطفهم الموت ، فيورثون أبناءهم أحقادهم . وهكذا تدور المركة على الأرض جيلا بعد جيل ..

* * *

هذه المشكلة صدمت « غاندي » منذ صباه . ولكنه منذ صباه أيضاً تهيأت نفسه للاقتناع بأن « العنف » لن يكون وسيلة لنشر السلام فوق الأرض ، وأنه ليس من وسيلة لنيل هذه الغاية إلا « الحب » . ولقد كان من بين المنظومات التي يحفظها إذ ذاك أنشودة جميلة كانت هي إنجيل سلوكه قبل أن يتفقه في شؤون دينه ، وقبل أن يقرأ « الإنجيل » .

كانت تلك الأنشودة تقول ما معناه :

« إذا كنت تجازي على جرعة الماء بجرعة ماء مثلها ، فإنك تكون قد قصرت في الجزاء » .

« الجميل الحق أن تقدم الخير لمن يقدم لك الشر ! » .

« من أكرمك بقدح من الماء ، فأكرمه بوليمة عامرة ! » .

« ومن حياك بإيماءة عابرة ، فانحن له في احترام ! » .

« إذا اقترضت الفضة فسدد دينك بالذهب ! » .

« ومن أنقذ حياتك ، فلا تبخل عليه بالحياة ! » .

* * *

وتعمق غاندى بعد ذلك فى دراسة دينه ، وعرف أن « أهمسا » — الحب والتسامح — هو شعار هذا الدين . وإذا كان الإسلام يقول : « الدين المعاملة » ، فإن الهندوكية تقول : « الحب هو الدين الأسمى » ، وتقول السيخية : « ليس العنف هبة الله »[1] .

وقد شغف غاندى بقراءة الكتب السماوية . وراقته من الإنجيل « موعظة الجبل » ، إذ يقول السيد المسيح لتلاميذه ، قبل أن ينتشروا فى الأرض ليؤدوا رسالته :

« أحبوا أعداءكم ، وصلوا للذين يعذبونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ! » .

* * *

ولقد اعتاد غاندى أن يصوم كلما أقبل على خوض معركة سياسية أو اجتماعية . وهو يقول فى ذلك إنه يقلد سيدنا محمدا (ص) إذ كان يصوم عادة قبل كل غزوة من غزواته . ويرى غاندى أن القوة لا تنبعث من العضل المفتول ، والمناكب العريضة ، ولكنها تنبعث من النفس التى صهرها العذاب ، فعرفت كيف يكون الصبر ، ومجالدة الألم ؛ ولذلك فإنه يقول :

« يجب أن نربى أنفسنا لنتحمل العذاب ونستسيغه ونهش له فى سبيل الفكرة . على أن العذاب هو سمة القبيلة البشرية ... إن الأم لتتمزق كى تضع وليدها ؛ والحياة تنبعث من الموت ؛ والقمح النامى دليل على أن البذرة التى أودعت فى الأرض قد انشقت وتحللت . ونحن إنما نحظى من النجاح بقسط يتكافأ مع ما عانينا فى سبيله من العذاب ، وكلما كان العذاب مُطَهِّراً كان النجاح عظيما . إن سياسة « عدم العنف » ليس لها معنى إلا القدرة على احتمال العذاب » .

ويتبادر إلى ذهن من يقرأ هذا الكلام أن غاندى حين أحس بالعجز عن مقابلة القوة بمثلها رأى أن الخير فى احتمال الذل ، والإقامة على الضيم ، والتغنى بقول من قال : « ما غلب الأيام إلا من رضى » . ولكن غاندى يبادر فيقول :

إن « عدم العنف » أسمى من « العنف » ، والعفو أشد دلالة على الرجولة من العقاب ، فإن « العنف » مظهر من مظاهر شجاعة البدن ، أما « عدم العنف » فهو مظهر من مظاهر شجاعة النفس .

وليست سياسة « عدم العنف » عنده أن تقف قوى الشر فى وجه الإنسان فيخنع لها ، ثم يخلى لها الميدان بعد أن يضع ذيله بين ساقيه ، ولكن « عدم العنف » أن يضع الإنسان كل نفسه ضد إرادة الظالم : يتشبث بحقه ، ويتمسك برأيه ، ثم يدع القوة الغاشمة تفعل به ما تشاء . أما من ينزل به الضيم فيحتمله ذليلا راضيا صاغراً فهذا هو الجبان . وهنا يقول غاندى :

« إذا كان لا بد أن أختار بين « الجبن » أو « العنف » ، فإنى لا أتردد فى اختيار العنف . إنى لأفضل العنف ألف مرة على أن يتخنث الهنود ! » .

ويتضح مما تقدم أن « عدم العنف » ليس خلقاً سلبياً معناه الاستسلام والهدوء ، ولكنه خلق إيجابى يحتاج إلى رياضة نفسية عالية دونها رياضة الأبدان . والمجاهد فى معركة « عدم العنف » لا يصل إلى هذه المرتبة عن جدارة إلا بعد أن يروض نفسه على احتمال الآلام ، ويصهرها فى بوتقة الحرمان حتى تبرأ من شهواتها ، وتفنى فى سبيل الفكرة التى تعتنقها ، فلا يبقى على ظهر هذه الدنيا ما يغريها بنعيم الراحة ومتعة اللذات . ومتى وصل الإنسان بنفسه إلى هذه المنزلة ، فلن تنال منه القوة الغاشمة فلامة ظفر ،

(١) مادة هذا المقال من كتاب الأديب الفاضل الأستاذ فتحى رضوان المحامى عن غاندى .

ولن تستطيع أن تثبت في وجه إرادته كل قوى الشر ولو كان بعضها لبعض ظهيرا .

لقد درس غاندي علومه الابتدائية في الهند، ثم سافر إلى إنجلترا لإتمام تعليمه العالي . وهناك عاش ثلاث سنوات درس فيها القانون، وأصبح محاميا . ثم عاد إلى الهند، فالتمس فيها عملا ولكنه لم يوفق . وبينما هو في حيرته إذ ورد لأخيه خطاب من صاحب متجر كبير من متاجر الهنود المسلمين في جنوب إفريقيا يقول له فيه :

« لدينا عمل في جنوب إفريقيا، ومتجرنا فيها متجر كبير . ولنا قضية هامة أمام المحاكم، فنحن نطالب بأربعين ألفا من الجنيهات، والدعوى مطروحة أمام القضاء منذ زمن طويل . ولقد أقمنا فيها خيرة المحامين والوكلاء . فإذا أرسلت أخاك غاندي إلينا فإنه سيفيدنا ويستفيد منا، وسيكون قادرا على نقل معلوماتنا إلى وكلائنا خيرا منا . وستتاح له فرصة الوقوف على جزء من الدنيا جديد، وإنشاء علاقات به جديدة . »

وفي الحق لقد فتحت هذه الرسالة عالما جديدا أمام غاندي، ولذلك فإنه بادر إلى تلبية الدعوة على الرغم من بساطة مرتبه، وعلى الرغم من علمه بأنه إذ يقبل هذا العمل سيعيش غريبا بعيدا عن زوجته وعن ابنه الوحيد . ومنذ وطئت أقدام غاندي أرض هذه المستعمرة الهولندية القديمة بدأت تلك المعركة التي استغرقت من هذا الزعيم باقي أيام حياته . . . .

كانت مراكز الدولة كلها في يد الأوربيين في جنوب إفريقيا، وكان الهنود على اختلاف طبقاتهم يعيشون في هذه المستعمرة كما يعيش المنبوذون في الهند نفسها، فقد كانت سمرة اللون جريمة لا تغتفر في نظر أولئك الأوربيين . ويكفي في تصور الدرك الذي كان الهنود يتخبطون في أوحاله أن نعلم أنه كان يحظر عليهم السير على الأفاريز في تلك البلاد، وأنهم كانوا يلزمون بالسير في عرض الطريق، لأن هذا هو المكان المخصص للعجماوات . أما الأفاريز فإنها كانت للآدميين . وقد حدث مرة أن مر غاندي أمام قصر الحاكم وهو يسير فوق الأفريز، فلم يتلطف معه الجندي المكلف بالحراسة أمام باب القصر فيلفته إلى مخالفته للنظام، بل قصد إليه رأسا وأمسك بجسمه الناحل وألقاه في عرض الطريق . وذلك لأن غاندي كان أسمر اللون، ولأن التفاهم بالقول مع مثله عار !

ولكن هذا تعجل منا للحوادث . . . . .

فلنبدأ من الساعة التي دخل فيها غاندي على المحكمة وعلى رأسه عمامته الهندية الضخمة وبصحبته موكله الذي استقدمه من الهند ليترافع له في دعواه . فإن القاضي لم يكد يقع بصره على تلك العمامة الشيدة حتى أمر غاندي بخلعها . فلم يفهم عنه غاندي ما يقصد، إذ لم يكن يدور بخلده — وهو الذي أقام ثلاث سنوات في إنجلترا لم يتدخل في خلالها أحد في شأن من شؤونه الخاصة — لم يدر بخلده أن يرى عمامته موضع اعتراض من رجل يجلس مجلس القضاء، وهو بحكم منصبه أولى الناس بالإنصاف وسلامة التقدير !! ولكن القاضي أصر على وجوب أن يخلع غاندي تلك العمامة ذات البروج . فما كان من الرجل إلا أن ترك القاضي بمحكمته وانصرف — وقد لمح في خلال هذا الحادث البسيط ما ينتظره من صراع شاق طويل . . . .

* * *

عرض لغاندي بعد ذلك ما يدعوه إلى السفر من « دربان » إلى « بريتوريا » . فركب في عربة من عربات الدرجة الأولى، وسافر به القطار فعلا مرحلة قصيرة . ثم ما لبث أن دخل عليه في إحدى المحطات مسافر من الأوربيين، فأبدى دهشته لوجود غاندي في تلك المركبة، واستعان ببعض العمال على إقناعه بالذهاب إلى عربات الدرجة الثالثة . فتمسك غاندي بأنه مادام قد اشترى تذكرة من تذاكر الدرجة الأولى فقد أصبح له حق السفر

فى عربة من عربات هذه الدرجة . ولكن أحدا لم يستمع لمطالبه ، وأفهموه بأن مثله لا يجوز له أن يسافر إلا فى الدرجة الثالثة ، وهددوه بالطرد إذا هو لم يفهم ما يقال له . وعند ذلك أصر غاندى على البقاء قائلا :

« لكم أن تفعلوا ما تشاءون ، أما أنا فأبى أتمسك بحق ، ولا أبرح هذا المكان أبدا من تلقاء نفسى »

فتقدم منه أحد رجال البوليس ودفع به إلى خارج العربة دفعا ، ثم ألقى إليه بحقائبه على الأفريز . ومضى القطار فى طريقه . . . وبقى غاندى وحده بين أمتعته . ولم يدر الرجل ماذا يصنع . فقصد إلى غرفة الانتظار . وأقبل عمال المحطة فوجدوا معطفه ومتاعه ملقى على الأفريز . فأودعوه « غرفة الأمانات » . . . وحل الظلام ، واشتد البرد ؛ وجعل غاندى ينتفض بجسمه الضئيل النحيل من شدة البرد وهو لا يجرؤ على المطالبة بمعطفه خشية أن يصيبه من الهوان مثل ما أصابه وهو فى القطار . ونترك الكلام لغاندى نفسه كيا يصف مشاعره فى تلك اللحظة الدقيقة ، قال :

— « بدأت أفكر فى واجبى . أيجب أن أحارب فى سبيل حقوق ، أم أعود إلى الهند ، أم أستمر فى طريق إلى بريتوريا دون أن أحفل بهذه الإهانات ، حتى إذا فرغت من عملى الذى جئت له أقفل راجعا إلى بلادى ؟ إنى أكون جبانا إذا عدت إلى الهند قبل أن أفى بالتزامى ، مع أن الصعاب التى ألقاها ليست إلا صعابا سطحية ، وما هى إلا أعراض مرض متأصل فى نفوس القوم هنا — هو مرض كراهية الشعوب الملونة (السمراء) . إنى أحس بأنه من الواجب على أن أعمل على نزع هذا الداء من صدورهم ، وأن أعانى من الصعاب ما يصادفنى فى سبيل تحقيق هذه الغاية » .

* * *

وهكذا رسم غاندى خطته . فنذر نفسه لإنقاذ أمته والدفاع عنها على طريقته الخاصة التى اعتنقها إذ ذاك . وبدأ يطبق عقائده فى ميدان الحياة للمرة الأولى ، إذ حاول أن يعالج « الحقد » بـ « الحب » ، وأن يضع كل نفسه وما أودعها الله من قوة فى وجه الظلم الذى يعترض طريقه . . .

واستأنف غاندى رحلته إلى بريتوريا . وكان عليه أن يقطع مرحلة من مراحل الطريق فى عربة من عربات السفر التى كانت تستعمل فى ذلك الزمان . وكان نظام هذه العربات أن يجلس الركاب فى داخلها . ولكن غاندى — الأسمر — لم يكن كبقية الركاب ، فكان عليه أن يبقى خارجها ، وأن يجلس مثلا إلى جانب السائق فى المكان الذى يجلس فيه « الكمسارى » عادة بعد أن يفرغ من عمله فى داخل العربة . وكان شديدا على نفس غاندى أن يقبل هذه النزلة ، ولكنه رأى أن الإصرار على الركوب فى داخل العربة قد ينتهى به إلى ضياع يوم آخر يقضيه مشردا فى الطريق . ولم يستحسن أنه يجعل مسلكه جدبا متواصلا على طول الخط . فتسلق إلى حيث يجلس بجوار السائق ، وهو يمنى نفسه بأن هذه الحالة سوف لا تدوم . . . وقد صحت فراسته . . . . ولم تدم هذه الحالة فعلا ! إذ لم تنقض عليه فى جلسته هذه إلا لحظات حتى أحس (الكمسارى) أنه فى حاجة إلى مكانه المعتاد . فهيأ لغاندى مكانا على سلم العربة ، ثم دعاه فى خشونة إلى النزول ليجلس فيه . ولم تطق نفس غاندى هضم هذه الإهانة الجديدة ، فقال للرجل : إنك أنت الذى أجلستنى هنا ، وإن كان من حق أن أجلس داخل العربة . ولقد احتملت الإهانة الأولى على مضض ، والآن تريدنى أن أجلس تحت قدميك لأنك تريد أن تدخن ! ؟ إنى أرفض إجابة طلبك إلا أن تهيىء لى مكانا بداخل العربة أسوة ببقية الركاب ! » .

وكان (الكمسارى) رجلا فارع القوام ، آتاه الله بسطة فى جسمه ، يبدو غاندى تجاهها أضأل مما هو عليه .

المتنبي وحساده

كان أبو الطيب المتنبي رجلا فريد الطابع ، بارز الشخصية ، يكاد يتفجر العلم من جوانبه ، وترف على جبينه لمحات العبقرية ، وإني أرجح أنه كان أحق من الأمير بدر بن عمار ممدوحه بقوله فيه :

تُعرَفُ في عينه حقائقُهُ   كأنه بالذكاء مُكتَحِلُ

وما أحسب القائلين بالفراسة كانوا في حاجة إلى بذل مجهود لتعرف مواهبه ، واستطلاع نبوغه وتفوقه . وقد شق طريقه على ما كان به من عقبات وأشواك ، وفرض نفسه على عصره فرضاً ، واستأثر بالنصيب الأوفى من عناية معاصريه وشغلهم بنفسه ، وكاد يصرفهم صرفاً تاماً عن غيره من الشعراء والكتاب .

روى أحد أصحاب الوزير الأديب ابن العميد أنه دخل عليه يوماً — قبل أن يزوره المتنبي — فوجده واجماً ، وكان قد ماتت أخته من قريب ، فظنه واجماً لأجلها فقال له : « لا يحزن الله الوزير فما الخبر ؟ » .

فأجابه ابن العميد : « إنه ليغيظني أمر هذا المتنبي ، واجتهادي في أن أخمد ذكره ، وقد ورد عليّ نيف وستون كتاباً في التعزية ما منها إلا وقد صدر بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر   فزعت فيه بآمالي إلى الكذب

حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا   شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل إلى إخماد ذكره ؟

فأجابه صاحبه : « إن القدر لا يغالب ، والرجل ذو حظ من إشاعة الذكر ، واشتهار الاسم ، فالأولى ألا تشغل فكرك بهذا الأمر » .

وإذا صحت هذه الرواية — وهي محتملة إلى حد كبير — فإنها تدل على أن ابن العميد ، على جاهه العظيم

فعجب لتاندى كيف سولت له نفسه أن يثور عليه كل هذه الثورة ، وما هو إلا هندى أسمر اللون لا ينبغى أن يكون له إلا أن يؤمر فيطيع . ولذلك أقبل عليه ، وتناول إحدى أذنيه المريضتين فجذبه منها بعنف ، ثم قبض على ذراعه وجعل يسحبه من مكانه سحبا . ولكن تاندى تشبث بقضبان العربة ، واستمات فى مكانه والتصق بمقعده لا يريد أن يجلو عنه ولو تمزقت أوصاله . وشهد الركاب هذا الصراع فى مرح ظاهر أول الأمر . ولكنهم مالبثوا أن أدركتهم لتاندى رقة إذ رأوه فريسة سهلة فى قبضة هذا (الكسارى) الجبار الذى أوسعه عركا وضربا ، وأوسعه شتما وسبا . وتحرك ضمير واحد منهم فتدخل لحمايته ودفع أذى (الكسارى) عنه .

وبذلك انتهت هذه المركة . وكان من أعجب ظواهرها أن النصر عقد فيها لمن تلقى كل ضرباتها !

ورضيت نفس تاندى لهذه النتيجة كل الرضا . فإنه لم يكن يبغى إلا أن يجرب حظه فى موقعة يجند فيها كل قوة روحه ليواجه بها من اتخذ لنفسه جنودا من شحمه ولحمه ! وكان على نجاح هذه التجربة يتوقف مستقبل تاندى كزعيم لأمة أودعها كل سره !

***

وسنرى فى الكلمة التالية كيف تطورت جهود تاندى فى صقل هذا السلاح الجديد — سلاح المقاومة السلبية وعدم العنف — وكيف كان مدى نجاحه فى مقاومة العنف بالصبر والاحتمال ، ومقابلة البطش بالصفح والتسامح ، ومغالبة الشر ببذل الود والمحبة .

عيسى جمول

ومكانته العالية ، كان ينفس على المتنبي ذيوع شعره ، وبعد أثره .

وكان أبو الطيب بحكم صناعته ، وظروف بيئته ، وملابسات عصره ، مضطرا إلى غشيان أبواب الملوك والرؤساء ، وأعيان العصر ، وأقطاب الدولة ، وأصحاب النفوذ والجاه والثروة ، حيث يشتد التنافس ويقوى التزاحم بالمناكب ، والطير يسقط حيث يلتقط الحب ، والورد العذب كثير الزحام . وفي أمثال هذه الأوساط تروج الدسائس والنمائم ، ويكثر التحاسد والتباغض ، وكل فرد يقع في الآخر ، ويلتمس أن يصيب منه غرة ليبطش به ويزيله من الطريق . وفي مثل هذه الجواء قضى المتنبي جانباً كبيرا من حياته ، وهو رجل صريح لا يداجي ، ولا يتكلف إخفاء عواطفه وكتمان آرائه ، وفضلا عن ذلك فإنه كان شديد الكبرياء ، كثير التفاخر ، دائم الاعتداد بنفسه والمغالاة بقيمته ، لا يلين للناس ولا يتواضع ، فليس عجيبا بعد ذلك أن يكثر حساده وأعداؤه ، وأن يقضي حياته في هم دائم ، وشكوى متصلة من دسائسهم ومكائدهم .

وكان تيه المتنبي وتعاليه وتفاخره يزيد حسد الحاسدين تلهباً واشتعالا ، وكراهة الكارهين حدة واتقادا . وينصح شوبنهاور بأن خير سبيل يسلكه الإنسان إذا كان معرضا للحسد هو الابتعاد عن الحساد ومجانبتهم ، وإذا لم يتيسر ذلك فخير سبيل هو تلقي هجماتهم بهدوء وقلة اكتراث ، لأن ذلك جدير بأن يجرد تلك الهجمات من عنفها وقوتها . ولم يكن في وسع المتنبي الابتعاد عن حاسديه ، لأنه لم يكن له معدى من منازلتهم في ميادينهم ، ومسابقتهم في حلباتهم ، وكان يزحمهم ويسبقهم ويغلبهم على أمرهم ، ولا يترفق بهم بعد ذلك ؛ بل لعله كان قاسياً في تحريه على الدوام عرض قوته الحاشدة ، والإدلال بمكانته العالية ، والاستخفاف بمنافسيه ، والاستهانة بأعدائه ومناظريه . انظر إلى قوله مخاطباً سيف الدولة :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم
فأنت الذي صيرتهم لي حسدا

فهو لا يود أن تشفى نفوسهم من الحسد ، ولا أن يستصفي مودتهم ، وإنما يود لهم أن يموتوا بغيظهم .

وفي بعض الأحيان كانت تدركه الشفقة عليهم والرثاء لحالهم ، فيتنازل من عليائه ليمدحهم ويقول :

وللحساد عذر أن يشحوا
على نظري إليه[1] وأن يذوبوا
فإني قد وصلت إلى مكان
عليه تحسد الحدق القلوب

وكان في طليعة طلباته من كافور الإخشيدي « إماتة حاسديه » كما في قوله :

أبا المسك أرجو منك نصراً على العدا
وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالة
أقيم الشقا فيها مكان النعم

ويقول في مدحه لكافور من قصيدة أخرى :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً
لمن بات في نعمائه يتقلب

وهو بيت يستوقف النظر ، فالحسد على شناعته ودمامته عاطفة من العواطف الإنسانية المألوفة ، ولا يكاد يخلو منه إنسان . ومن الطبيعي أن يحسد القزم العملاق ، والفقير الغني ، والمريض الوصب السليم المعافى ؛ والأثرة غالبة على الطبائع ، فكل مخلوق يود أن يستأثر بطيبات الدنيا ومتعها ولذاتها ، وأن يستولي على كل شيء ، وأن يجاب له كل طلب ، وتحقق كل أمنية ، وأن يكون

(١) الضمير في إليه يعود إلى سيف الدولة .

قطب الوجود ونابتـه وهدفه . وأول ما يثير الحسد أن يكون للغير ما يملكه ويعتز به . ومجرد تفكيرنا فى أن الغير يملك شيئاً يثير حسدنا ، ويثيره جشعنا . وقد روى العلامة النفسى ستيكل عن نفسه أنه أعطى مرة أحد زملائه الفقراء بذلة قديمة أصبحت غير صالحة لأن يرتديها ، فلما لبسها زميله وأبصرها عليه راقته ، وعجب من أمر نفسه ، وكيف طاوعته على التفريط فيها ومنحها زميله ! وواضح هنا ، أن مجرد خروج الحلة من حوزته هو الذى أثار حسده مع كثرة وجود غيرها من الملابس اللائقة المناسبة . ولا يستمتع الإنسان بحيازة شىء إلا إذا كان يحسد عليه ، وتتجلى فى ذلك قسوة الإنسان ورغبته فى إيلام الغير وتعذيبهم ، وتعاميه عن النظر إلى قوة الحسد وما قد تحدثه من الآثار السيئة ؛ فالمرأة التى تتخايل بجمالها وزينتها وحليها تتعمد إثارة الحسد ولا تفكر فى عواقب ذلك . ولقد وجه إلى المتنبى فى حياته نقد كثير وكان بعضه شديد الوطأة جارحاً هداماً ، ولم يكن رائد نقاده فى كثير من الأحيان حب الحق أو توخى العدل ، وإنما كان باعثه الحسد الشديد والحقد الدفين . والواقع أن الحسد من الخطايا السبع الكبيرة المنكرة التى حاولت الأديان والمذاهب الأخلاقية مقاومتها والتغلب عليها . وقد يكون الحسد لوناً من ألوان طلب المساواة بين الناس ؛ والشاهد أن أى إخلال بهذا القانون يثير المعارضة ويهيج البغضاء ، فهو قانون من قوانين المجتمع . وفى اعتقادى أن النظام الديمقراطى هو خير أنظمة الحكم وأقربها إلى الطبيعة الإنسانية وأعودها بالخير عليها ، ولكن النظريات الثابتة لا تستطيع أن تحدث من تلقاء نفسها التغيرات العظيمة والانقلابات الشاملة ، وإنما النظريات والمثل العليا والأفكار تكون فى أغلب الأوقات ستاراً للأهواء والعواطف . وأقوى العواطف التى ساعدت على ظهور الديمقراطية ويسرت لها السبيل هى عاطفة الحسد ، فالحسد إذاً على ما له من مساوئ وعيوب لا يخلو من نفع ؛ والرجل الذى يحسد من بات فى نعمائه يتقلب قد لا يكون من أظلم أهل الظلم كما يرى أبو الطيب ، وقد يكون بائساً فقيراً مشرداً مضطهداً يعانى من حياته الويل والعذاب ويلقى من دهره الهوان والإهمال ، فلله عذره إن حسد من بات فى نعمائه يتقلب . وضيق أبى الطيب بحساده هو الذى جعله يذهب هذا المذهب ويلقى بهذا البيت .

وقد حدثنا فى قصيدة أخرى من مدائحه فى سيف الدولة عن يأسه من علاج حسد الحاسدين والظفر بمودتهم فقال :

سوى وجع الحساد داوِ فإنه
إذا حل فى قلب فليس يحول
ولا تطمعنْ من حاسد فى مودة
وإن كنت تبديها له وتنيل

ولكن أى مودة كان يستطيع أبو الطيب أن ينيلها حاسديه وهو يتعالى عليهم ويشعرهم بعدم المساواة بينه وبينهم ؟ السياسة الوحيدة التى كان يستطيع أبو الطيب أن يهدئ بها ثورة الحسد فى نفوس منافسيه وخصومه هى التزام التواضع ، وتحرى الاعتدال ، وترك التفاخر وتعمد إظهار القدرة الفائقة والامتياز الغالب ، ولم يكن ذلك فى طبع المتنبى ولا فى مستطاعه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وكان أبو الطيب كلما تنكر له الناس وعكست حظه الأيام ازداد إكباراً على نفسه وتعالياً بها واستمسك بقوله :

وفىّ ما قارع الخطوب وما
آنسنى بالمصائب السود

وقد علل مرة حسد حاسديه بأنه ناشئ من أنه هو نفسه عقوبة لهم فقال :

أنى وإن لمت حاسدىّ فما
أنكر أنى عقوبة لهم

وكيف لا يحسد امرؤ عَلَمٌ
له على كل هامة قَدَمُ
يهابه أبسأ الرجال به
وتتقى حد سيفه البُهَمُ

ولحسن الحظ أن في البشرية عاطفة أخرى قوية تعادل عاطفة الحسد وتوازنها وتستدفع شرها ، وتنقذ الناس من مخالبها ، وهي عاطفة الإعجاب . ولو كان الإنسان مطبوعاً على الحسد وحده لهلك الكثيرون ولفسدت الحياة فساداً لا صلاح معه ولا علاج له ، ولسد الطريق في وجه النوابغ الأفذاذ والأبطال المبرزين ، فهم إن كانوا يثيرون الحسد ويستهدفون لكيد الحساد فإنهم كذلك يظفرون بالإعجاب الذي يمهد لهم السبيل ويسمح لمواهبهم بالتفتح والازدهار .

وقد روى صاحب سرح العيون أن السرى الرفاء الشاعر دخل على سيف الدولة يوماً فقال : « يامولانا كم تفضل علينا هذا الكندى — يعني المتنبي — ولو أمرتني أن أنظم على وزن أي قصيدة شئت من قصائده لنظمت ما هو أجود منها » ! فقال له سيف الدولة : « انظم على وزن قصيدته التي أولها « لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى » . فخرج السرى من عنده على ذلك ، وفكر في القصيدة فلم يجدها من طنانات المتنبي فعلم أن سيف الدولة أراد أمراً له بتخصيصه هذه القصيدة في الاقتراح ، فنظر في أبياتها فإذا هو يقول فيها مادحاً لسيف الدولة ومفتخراً بنفسه .

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق
أراه غبارى ثم قال له الحق

فعلم السرى الرفاء أن سيف الدولة أراده بهذا المعنى فكف عن النظم . وإذا صحت هذه الرواية فهي ترينا كيف كان إعجاب سيف الدولة بالمتنبي وتقديره له يحميه في مواطن كثيرة من حسد الحاسدين ويرد عنه كيد الكائدين .

وعاطفة الإعجاب تلعب في الحياة دوراً لا يقل أهمية وتأثيراً من عاطفة الحسد .

ولكن هل كان المتنبي الذى لا يفتأ يشكو كثرة حاسديه بريئاً من الحسد ؟ المعروف أن المتكبرين المعجبين بأنفسهم الواثقين بها أقل تعرضاً للحسد من المتواضعين المعتدلين ، لأن المتكبر المعتد بنفسه قد يعتقد أنه لا ينقصه شيء مما عند الناس ، وأن الناس ليس عندهم ما يستحقون أن يحسدوا عليه . ولكن المتنبي من ناحية أخرى كان طموحاً شديد التطلع إلى ما في يد الناس ، وقد ذاق البؤس وعرف الحرمان في طفولته الحزينة ونشأته القاسية ، وخالط الملوك والرؤساء ولم يجد لهم مزية يمتازون بها عليه ، وهو مع ذلك محروم من الاستمتاع بالنفوذ والسلطان ؛ ومن المحتمل جداً أنه كان يحسدهم على ذلك . وقد سعى سعيه عند كافور ليمنحه ضيعة أو ولاية فلم يوفق في ذلك ، وقد أثار ذلك حفيظته وجعله يهجو كافوراً هجاء مراً وقحاً . ومن ذلك يتبين أن المتنبي كان طوال حياته حاسداً محسوداً ، ومن ثم كثرة ترديده للحسد واشتغاله به في شعره .

علي أدهم

إلى بلاد الرافدين :

٢ - فى طريق الموصل ...

محطة بغداد :

حذار أن تخالنى أيها القارئ أسوق إليك حديثاً من بغداد ! فما كنت لأفعل ذلك وأنا ما أزال فى حلب . ولكنها محطة سكة الحديد هنا يسمونها كذلك !

ها نحن قد بكرنا إليها مع الفجر ، نجتاز شوارع المدينة التى هجعت فى أخريات الليل ، مسترسلة فى إغفاءة مطمئنة على أنغام متقطعة من الرذاذ حيناً ، ومن الوابل المتتون أحايين . وهى من وراء ذلك متلفعة بحجاب كثيف من الضباب الذى ما برح يحوطها بنطاقه منذ أقبل الليل فى المساء العابر . ووقفت بنا السيارة أمام بناء غير مفرط فى ضخامته ، ووقف السائق أمام بابها يفتحه وهو يمد صوته قائلاً : « دى أوصلنا : كو محطة بغداد !! ... » .

أجل . لقد كانت تلك محطة القطار فى حلب . وها هم الناس يتدافعون بالمناكب أمام الباب الكبير ، الذى فتح إيذاناً بدنو ميقات السفر . وودعت هذين الصديقين اللذين تكرما فبكرا بتشييعى إلى القطار ، مبرباً من أين أسلك وماذا يجب أن أصنع فى كل مرحلة من مراحل هذا السفر الطويل .

فى تركيا :

وسار بنا القطار يحمل مزيجاً من البشر ، مختلفاً فى الهيئة والرطانة واللباس ، مختلفاً فى كل مظهر تقع عليه عينك من مظاهره ؛ فيه التركى والكردى والأرمنى والتركمانى ، وفيه العربى من مختلف الأقطار من سورى وعراقى ولبنانى ومصرى . وأخذت نسمة الصباح تنقشع حتى انجلت ونحن نستقبل (مسلمية) . وهنالك مفترق الطريق : شمالاً إلى اسطنبول وشرقاً إلى الموصل فبغداد . وتجاوزنا مسلمية إلى (اخترين) ، وهى الحد الفاصل بين سوريا وتركيا . وما كاد القطار يستأنف سيره حتى رأيناه يغص بالترك من عسكريين ومدنيين . فما تفرغ من موظف حتى يتسلمك آخر سواه . فهذا يحصى عليك ما تحمل من نقود ، وهذا يعدد ما تحمل من متاع ، وهذا يسجل هويتك وإلى أى بلد تنتسب ، وآخر يبحث من سمة الدخول (الفيزا) ليقتطع أحد شقيها وعليه صورتك ، ويعيد إليك الشق الآخر ، فما يزال دولة بين الراقبين فى سائر المحطات حتى تجتاز الحدود ، وحينئذ يجمعون بين الشقين ليطمئنوا إلى مبارحتك .

ووقفنا فى (شوبان بى) فرأينا أغلاطاً من الجند يرتدون أخلاقاً بالية ، ويمرون بضابط منهم لا يختلف عنهم كثيراً ، فيؤدون إليه التحية بأكف من نحفة ممروقة وهو لا يريم ولا يحرك ساكناً من أطرافه ، كأنما هو قطعة من الصلد !! محتفظاً بهذه الجهومة العابسة ، وهذه النظرة الشزراء التى كان يرمى بها كل من يمر به من أولئك الجنود .

تركيا والعربية :

يزعمون أن تركيا جردت لغتها من العربية ، وليتك تعرف مبلغ هذا من الصواب ، فها هو ذا مراقب الجوازات قد تقدم يسألنى عن السمة بقوله : « فيزا حاضر أفندم ؟ » وها أنذا أقرأ على جدران قاعة الطعام فى القطار إعلانات وتعليمات متعددة ، منها : « اسطنبول مستحضراتى ! » أى مستحضرات اسطنبول . و « إلجاه نادية (اجن ير) مقبوض طلب (أولنى) رجاء (أولونور) ! » ومعناه : إذا أديت جلة فالرجاء طلب مقبوض (أى وصل) . وهذه

صحيفة إحصاء ما أخذه من الأوراق المالية تركها بين يدي موظف الجمارك ، فأقرأ في ذيلها : «جمرك مأمورو إمضاء رسمي مهور . . . » ومعناه كما هو واضح : توقيع مأمور الجمرك الرسمي . ولو ذهبت أقرأ لك جميع ما يقع عليه نظري من لوحات ورقاع لأسمعتك العجب العاجب ، ولكنني أكتفي من ذلك كله بما ذكرت . ومنه نجد أن العربية ما تزال شائعة في لغة القوم .

في مختلف المحطات :

ها نحن نجتاز (جولن) و (كركيش) و (أرشد بوكار) و (عرب بنار) و (تل أبيض) وكثيراً غيرها ، ونقف في معظم هذه المحطات لنبتاع (الكباب) ملفعاً بالرقاق التركي ، ونبتاع فواكه تلك المنطقة الجبلية من جوز ولوز وفستق وتين يابس . وهناك يسترعي انتباهك ألوان عجيبة من الحلوى ، هي آنا حبال كالأفاعي ، وآنا فصوص شفافة بداخلها الفستق ، وكل طائفة في سمط تختلف في أشكالها عما سواها . وهي آنا ألواح متفاوتة في متقبها (بين غليظ ودقيق) ، وجميعها ضروب من خبيص العنب ، الذي يسميه أهل الشام (الدبس) ، ويسمونه بلسانهم (صوجو !!) .

وقد أعادت إلى تلك المشاهد هناك ، ذكريات حبيبة لعهد الطفولة في بليدة (السلط) من « مشارف الشام » التي شاء الله أن يجعلها مملكة ، تؤلفها قبضة من قرى وبليدات أربع ، تبلغ القلة بعدد بعضها ألا يصل (خمسة آلاف) إلا بجهد جاهد ! وقد كانت بليدة السلط إلى أواخر العهد التركي مدينة عامرة بحماماتها وأسواقها وخاناتها وطرقها المرصوفة ، وكرومها الواسعة الممتدة إلى بعيد الأرجاء . وكان عدد سكانها يرتقي إلى خمسة وثلاثين ألفاً أو يزيدون ، وكانت كرومها (التي حول معظمها العرف الزراعي إلى أراض عامرة) تنتج من أصناف العنب ما يخطئه العد ، فيشرق في أكناف الأرض ويغرب ، لا تعوقه مكوس ولا تقف في وجهه حدود ، حتى أصبح مضرب الأمثال . فأنت إذا قلت على غرار القدامى « مرعى ولا كالسعدان ، ورجل ولا كمالك . . » جاز لك أن تقول منشداً وأنت صادق : « عنب ولا كالسلطى !! . . . » ، وكذلك عرفه الناس في ذلك الإبان ؛ إذ السلط مدينة في بلاد الشام ... وكانت أسواقها يومذاك طافحة بالكثير مما رأيت من خيرات هذه القرى التي نمر بها في بلاد الترك .

وها هي السهول الواسعة تمتد من يمين وشمال ، حتى تغيب في الأفق القصي دون أن تبدو لها نهاية . وما يزال هذا الفلاح يبدو بين فترة وأخرى يدفع محراثه (كما ورثه من أبي البشر) خلف حمارين ، أو حمار وثور . وهو بذلك يشابه فلاحنا البائس في جبال البلقاء ومؤاب ، فكان لي من ذلك عزاء مما نحن فيه . وقلت في نفسي : لعل تركيا أغفلت هؤلاء البؤساء حين شغلتها ظروفها في إنشاء السفارات وإيفاد الرسل واستقبال الوفود ، و« ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . . . » !!

وإنه ليدهشك أن ترى قرية تركية من عشرين بيتاً تقابلها قرية عربية في الحدود السورية تتجاوز أضعاف أضعافها عدداً واتساعاً ! وأغرب من ذلك : أن كلاب هذه القرى (وهي كلاب ضخمة ودبمة) ما تكاد تبصر القطار حتى تهرع إليه ، تستجدي جماعة المسافرين ملحة ملحفة ، وقد تزاحمهم على المقاعد وفي الممرات دون أن يتعرض لها أحد بأذى . . .

على مائدة العشاء :

وخيم الليل — والقطار دائب في سيره — ، وحان موعد العشاء ، فذهبت أحتجز مكاناً بين جماعة من الترك . ثم ما لبثت أن رأيتني استرق السمع على عربيين يتحدثان من ورائي ، وكان أحدهما عراقياً ، فإذا هو يحدث جاره عن

أماني العراق القومية وما يصبو إليه من آمال ، ثم سمعته يتفاءل إلى حد أداني إلى اتهامه بالإفراط فيه ، بعد أن رأيت في شمال العراق ما رأيت .

وجلس قبالتي (مصادفة) ونحن نتناول الشاي في العاشرة ليلا ، رجل من سراة بغداد كان قادماً من تركيا ، فجعل يحدثني عن العاطفة الإسلامية المشبوبة لدى الترك في أيامهم الأخيرة ، وأنهم مزمعون على أن يرجعوا تدريس الدين في مدارسهم ، والعود إلى الأذان بالعربية ، وأنهم يكتبون من جديد آيات القرآن بحروف عربية ، وأنهم وأنهم .. وسمعت ذلك كله وجعلت أعجب ! ثم قلت في نفسي : لعلها بداية الغزو (بعد الإسكندرونة) لاستعمارنا من جديد من هذا الطريق ؟!

عبور العراق :

ووصلنا إلى (نصيبين) فانتهينا من حدود تركيا ودخلنا في حدود الجزيرة ، فعدنا كرة أخرى إلى سوريا ، وطالعنا من جديد علمها العربي الحبيب يرفرف خفاقاً مكرماً ، فيثير في النفس أشتاتاً من الأماني ، ويحملها على جناح من ذكريات الماضي المجيد . وما لهذا القلب لا يغتبط حين تطالعه سوريا الحرة المستقلة ؟! أليست البلد الذي يأمن الإنسان فيه على نفسه وكرامته ؟! أليست معقلا حصيناً لمن أخرج من دياره يجد فيها وطنا وفي أبنائها أهلا ؟ إنها لكذلك . ومن حق هذا القلب أن يغتبط بمرآها .

ثم وصلنا إلى (القامشلي) وهي حاضرة الجزيرة ، فنزل معظم ركاب القطار ، ولم يبق فيه إلا نفر قليل . وأخيراً وصلنا إلى (تل كوجك) وهي بداية حدود العراق . وهناك ترى العجب حين تنظر إلى ساعة المحطة ، فهي ذات وجهين أحدهما يسير حسب توقيتنا ، وهو المتجه نحو المحطة السورية ، والثاني يزيد ساعة كاملة وهو المتجه نحو المحطة العراقية .

واختلاف الزمن بين سوريا والعراق ليس بتأثير صيف أو شتاء (وهي البدعة التي خلقتها الحرب وزالت بزوالها) . وإنما هو توقيت دائم بسببه الاختلاف الإقليمي .

وأخيرا لاحت تباشير الصباح ونحن نستقبل أرباض الموصل . ثم وصلناها في التاسعة صباحا (من توقيت العراق) . وكان أول ما ظهر منها منارتها (الحدباء) ثم منارة النبي (شيث) ، ثم منارة (نينوى) القائمة على ضريح النبي (يونس) هناك ، ثم بناء المحطة الضخم وما يحوطه من دارات (فيلات) ، هي غاية في جمال الهندسة وإبداع البناء .

وسألقاك في حديثي المقبل لأقدم إليك وصفاً من الموصل (ذات الربيعين) ، وإن فيها ما يرضيك ويستهويك

(له بقيات) محمد سليم الرشدان

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي

تليفون — ٥٦٣٦٩

القاهرة

التوجيه الصحيح للأفراد

فى القرن التاسع عشر كان بعض علماء الاجتماع وعلى رأسهم (وليم جيمس) يقسمون الإنسان – كفرد فى المجتمع سيكولوجيا إلى نوعين : جامد العقل Tough minded ومرن العقل Tender minded . وآخرون يقسمونه إلى متشائم Pessimist أو متفائل Optimist . وغيرهم يقسمونه إلى خيالى Romantic أو واقعى Realistic وهكذا . وكانت مهمة الأطباء الاجتماعيين هى معالجة جامد العقل مثلا ليصير أكثر مرونة ، والمتشائم ليصير أكثر تفاؤلا ، والخيالى ليصير واقعيا ، فهذا عندهم أجدى للمجتمع .

أما فى القرن الحالى فقد ظهرت مدارس أخرى ، وأهمها مدرسة حديثة جدا على رأسها العالم الاجتماعى السويسرى C. G. Jung تقسم الإنسان إلى Introvert أى انفرادى أو Extrovert أى اجتماعى (وهذه الترجمة غير دقيقة) وتحدد مهمة الأطباء الاجتماعيين فى معالجة الانفرادى والاجتماعى على السواء بالاتجاه بهما اتجاها وسطا متعادلا Ambivert .

هذا جميعه معروف وشائع فى أوروبا وأمريكا وسائر البلاد الراقية .

ونحن فى الشرق يهمنا معرفة هذه الأقسام وكيفية المعالجة لنمكن تطبيق ذلك أو ما يماثله على مجتمعاتنا أيضا على ضوء تجارب هؤلاء العلماء . ولا بأس من مراعاة ظروفنا وبيئاتنا إذا اقتضى الحال .

فأما الانفرادى فيبدو منطويا على ذاته فى مظهره وأفكاره وأهدافه . فمن حيث المظهر تراه وحيدا بعيدا عن المجتمعات متواريا عن الناس بغير سبب واضح ؛ ومن حيث الأفكار يهتم بكل صغيرة ويقدر كل صعوبة ويترقب الفشل دائما ؛ ومن حيث الأهداف يدور حول نفسه ليرضيها أو يسترضيها بأى شكل : فتارة يتأمل جمال الكون ، وتارة ينحرف إلى لذة شاذة ، وأحيانا يهرب من الواقع ويلجأ إلى معبد أو دير ، وقد يخرج إلى التخلص من الحياة كلها فينتحر .

وأما الاجتماعى فبالعكس ، يرتاح للناس بمحادثتهم ومناقشتهم بشغف ويتودد إليهم ويغتفر أخطاءهم بسرعة ، ويبدو سعيدا عند ما يوكل إليه عمل صاخب ؛ يكره الهدوء والراحة ويحب أن يشغل نفسه بالانهماك فى شىء ما ؛ لا يطيق البحث الدقيق ولا يعبأ بالتفاصيل ولا يرتاح إلى القيود السياسية والدينية ، ويغرم باقتحام المصاعب ولو خاطر بحياته .

ولكل من النوعين مساوىء ومزايا .

فالانفرادية قد تخلف الحسرة والشعور بالمرارة وسوء الظن والفشل ، ولكن قد تكون متميزة بالتعمق والصبر وحدة الذهن والخبرة ؛ لذلك نجد من الانفراديين خائبين فى الحياة ويائسين منها ، كما نجد فلاسفة ومخترعين ومحققين .

والاجتماعية قد يصحبها التهور والعجلة ، كما أنها قد تبث فى النفس حب الحياة والولوع بالبطولة ؛ لذلك نجد من الاجتماعيين كبار المجرمين وزعماء حركات التمرد وعصابات اللصوص والسفاحين ، كما نجد قادة الجيوش وأبطال الألعاب الرياضية ونوابغ المسرح والموسيقى وزعماء الاجتماع والسياسة

من أجل هذا وذاك جنح المعالجون الاجتماعيون إلى الاتجاه الوسط الذى يجمع أكبر ما يمكن من مزايا النوعين ، ويتحاشى أكبر ما يمكن من مساوئهما ، أى باختصار يتحاشى أضرار تطرفهما ، وبالطبع ربما يفقد فى سبيل ذلك المزايا الخاصة الموقوفة على كل منهما على حدة .

فالمقدر أن الفرد الوسط Ambivert منسجم ومعقول ، يحسن الكلام والإصغاء ، ويحسن العمل والتفكير ، ويحسن الترتيب والتنفيذ ، وطبعا كل ذلك بدرجة عامة ، أى لا تصعد إلى قمة النبوغ ولا تنزل إلى درك الانحطاط . ولعل هذا هو أنسب شىء « للجماهير » .

وقد اختلف الأطباء فى الوسائل ، فبعضهم يرى أن

زواج شاب من نوع بفتاة من النوع المضاد له ينجب نسلا من النوع الوسط . غير أن التجارب أثبتت استحالة أو تعذر الحصول على هذه النتيجة ، لأنه من الصعب جدا أن يتم ويستمر زواج كهذا أصلا ، فلا بد من التجارب بينهما فى خفاء أو وضوح ، ولا بد من التناقض ثم الافتراق .

والبعض الآخر يرى تنوير أذهان الجماهير فى مثل هذه المشكلات بالمنطق المادى ، والدعاية المنظمة للسلوك الذى يرونه أقوم وأفضل وأنفع للفرد والمجتمع . وفيما يلى على سبيل المثال إحدى نصائح الدكتور الأمريكى Henry Knight Miller التى بلغت أهميتها عنده إلى حد أنه طبعها على كل تذكرة طبية فى عيادته :

(١) حدد الهدف الذى تطمح إليه وحاول تحقيقه .

(٢) ارسم صورة فى مخيلتك للشخص الذى تريد أن تصيره ، وصمم على أن تصبح هذه الصورة ذات يوم حقيقة .

(٣) أوح إلى نفسك أنك قوى إذا كنت ضعيفا ، وذكى إذا كنت غبيا ، وشجاع إذا كنت جبانا .. إلخ .. وسوف لا يتحقق لك ما تنشده سريعا ولكنه سيتحقق حتما بإرادتك .

(٤) واظب على تدريب « نفسك » فكما أن عضلاتك تقوى بالتدريب فكذلك نفسك .

* * *

فأى الوسائل والنصائح تناسبنا نحن الشرقيين ؟

لعلها على هذا النحو . وأيا ما كانت فيجدر بنا — فى مرض الشذوذ والتطرف — أن نضع نصب أعيننا أن مصير كل إنسان بين يديه هو ؛ فإن كان أحدنا غير سعيد أو غير ناجح أو غير مرتاح فلا تثريب إلا على نفسه . عليه أن يقوم نفسه ثم يقرر ما ينقصه ؛ عليه أن يحمل ما يطلبه واضحا فى مخيلته حتى لا يتيه عليه ، وأن يبدأ منذ الآن فى تحقيقه بصبر وبطء وأناة وحذر ، وليكن ما يطلبه أو ينشده معقولا .

عبد الفتاح البارودى

سلاح الدعاية

(١)

الدعاية سلاح له قيمته فى الحرب كما هو شأنها فى السلم . وقد استغله المحاربون كأى سلاح آخر للتأثير على أفكار أعدائهم ، وإضعاف روحهم المعنوية ، والانتصار عليهم ؛ من ذلك أنه بمجرد ما شرع الألمان فى الهجوم على الحلفاء فى الحرب الأخيرة كان همهم الأول محاولة إرباكهم بإفهامهم عن طريق المذياع والنشرات التى كانوا يلقونها من الطائرات أنهم على وشك الهزيمة وحالتهم ميئوس منها ، قاصدين بهذا أيضاً منع أصدقاء أعدائهم من إرسال المعونة إليهم ، أو ترددهم فى ذلك ، خوفاً من وقوعها فى أيدى محاربيهم . وقد وفقوا لغرضهم وقت الساعدة .

وكم من مرة حاولوا إثارة الشك فى نفوس الحلفاء ، أو إيقاع الخلاف بينهم ، أو جعلهم يعتقدون أن هناك من يفاوض منهم لإتمام صلح منفرد . بدأوا ذلك « الهجوم السلمى » كما كانوا يسمونه قبل هجومهم العظيم على روسيا بغية إشعارها أن حلفاءها أوشكوا أن يسلموا ، أو أنهم لا يفكرون إلا فى مصلحتهم هم ، وقد يتخلون عنها .

ومن ضمن الوسائل التى استخدمها الألمان فى فترات الهدوء التى كانت تتخلل كثيراً من حملاتهم العسكرية ، عند ما كانوا يستعدون بكل ما لديهم من قوة لهجوم جديد ، نشرهم أخباراً تدل على أن الحالة فى ألمانيا سيئة ، وأن نظامهم فيها قد ينهار وبذلك ضمنوا كف المحاربين عن إرسال الإمدادات لحلفائهم لاعتقادهم أنها لم تعد لازمة لهم .

وقد استغل الروس غارات الطائرات البريطانية الشديدة على مدينتى كولونيا وإسن بألمانيا لتقوية عزيمة رجالهم ، وفى نفس الوقت لإضعاف الروح المعنوية لدى الجنود الألمان عما كانوا يذيعونه عليهم فى مراكز مختلفة من جبهة القتال بمكبرات الصوت .

وقد تنعكس الآية أحياناً ، فيستعمل السلاح الحربى كوسيلة لنشر أخبار يقصد بها تحقيق أغراض عسكرية كما حدث عند ما ألقت الطائرات اليابانية قنابلها من صانتا بربارا بولاية كاليفورنيا . لم يكن الغرض من إلقاء هذه القنابل حربياً ، بل قصد بها الإقلال من أهمية الخطبة التى ألقاها رئيس الجمهورية فى نفس الوقت الذى حدثت فيه الغارة ، كما قصد بها — وهو الأهم — إبقاء السفن الحربية الأمريكية بالبلاد لحماية شواطئها ، لتخلو البحار لغواصات الأعداء وسفنهم ما أمكن .

وكان رجال النازى — وقد أنشأوا لمراسلى الصحف الأجنبية أندية خاصة استخدموا فيها فتيات من صالات اللهو وممثلات السينما الألمانيات للحفاوة بهم ، ووضعوا تحت تصرفهم إلى أية ساعة من الليل سيارات رسمية تصحبهم فيها من يشاءون منهن عند انصرافهم — يلقنون أخبارهم التى كانوا يذيعونها يومياً عليهم إلى ما كانوا يسمونه « المصادر ذات الشأن » أو « المصادر المليمة » أو « المصادر التى يعول عليها » أو « متحدث مسئول » ، لكى يبدو أن محررى الصحف المستقلة هم الذين جمعوها أو أنها نقلت إليهم بطريقة ما ، فى حين أن هذه الأخبار ما هى إلا أخبار النازى وقد نشروها لأغراضهم هم .

ولما كانت المحطات اللاسلكية بالولايات المتحدة لا تسمع غير إذاعات الموجة القصيرة ، فالإذاعات الداخلية فى ألمانيا واليابان وإيطاليا كانت لا تصلها ، لأنهم كانوا يستخدمون لها الموجة المتوسطة ، وهى أضعف من أن تعبر المحيط ، بعكس محطات بريطانيا وسويسرا فكانت قادرة على التقاط الإذاعات الداخلية فى ألمانيا وإيطاليا ، تسمعها مع إذاعاتها على الموجة القصيرة ، فتقارن بين إذاعات البلدين المختلفة .

وما دمنا بصدد الإذاعات اللاسلكية فيجب أن ننوه إلى « التشويش » المقصود الذى كان يتخلل الإذاعات

أحياناً ، كما حدث فى عام ١٩٣٨ عندما كانت روما تهاجم بريطانيا فى إذاعتها العربية ، وكما فعل النازى فى الإذاعات البريطانية باللغة الفرنسية .

وقد وقع بين الروس والألمان أكثر من هذا ، إذ بينما كان الألمان يلقى بياناً يأخذ الروسى فى مقاطعته مستهزئاً « باللغة الألمانية طبعاً » . وكان النازى يستعملون « صوت الروح » — كما كانت تسمى هذه الطريقة — لمقاطعة الروس

ومن الحيل التى لجأ إليها الألمان لإيهام الإنجليز بأن لديهم جواسيساً بإنكلترا ينقلون إليهم أخبارها سراً ، أنهم أذاعوا كذباً فى الساعة السابعة من مساء أحد الأيام أن ساعة مدينة رمنجهام توقفت منذ عشرين دقيقة أى فى الساعة السابعة إلا ثلثا . وقد تناقل البريطانيون هذا الخبر الذى لم يكن فى الإمكان التحقق من صدقه إلا لسكان رمنجهام نفسها الذين يهتمون بالخروج لمعاينة الساعة .

ومن الطرق التى أغروا الناس بها إلى الاستماع لإذاعاتهم اللاسلكية « حيلة أسرى الحرب » ؛ وقد لجأوا إليها بعد أن نشب القتال فى أوربا بشهور قليلة . وكان النازى والطليان يقرأون عقب إذاعاتهم بعض أسماء الأسرى البريطانيين الذين وقعوا فى أيديهم كما فعل البريطانيون بعد ذلك بالنسبة للأسرى الألمان والإيطاليين .

وقد لجأ اليابانيون إلى هذه الحيلة ، فجعلوا أسرى الأمريكان يذيعون إذاعات قصيرة خلال أو فى نهاية إذاعاتهم التى كانوا يحضون فيها الأمريكيين على القيام بأعمال ترمت فى صالحهم ، أو يبثون لهم اسطوانات يذيعونها حينما يشاءون . وقد نجحت حيلهم أيما نجاح .

وكان النازى يبدأون إذاعاتهم الإنكليزية أحياناً بكلمة « تحية من بحارة أمريكيين » قائلين إن الطائرات النازية أنقذتهم فى مياه القطب الشمالى عقب الإغارة على إحدى القوافل البحرية .

وقد أعلن الألمان أنهم عثروا خلال حملاتهم الحربية فى النرويج على مستندات وخطط مع ضباط بريطانيين يستدل منها أنهم كانوا ينوون غزو النرويج فى بادئ الأمر ، إلا أن الألمان سبقوهم إلى احتلالها ، ولكن حيلهم هذه لم تجز على الكثيرين .

وقد حدث فى كثير من الأحيان أن حصل الألمان على معلومات صحيحة فأذاعوها لقيادتهم العليا ، كما أذاعوها على أعدائهم لغرض خاص . وقد سمعنا فى أوائل الحرب عما كان يفعله الألمان فى الجبهة الغربية من إعلان الفرنسيين بمكبرات الصوت بقدوم فرق فرنسية معينة لخط ماجينو ورحبوا بها ؛ ولاقتناع الفرنسيين بوجود « عين نازية ساهرة » بينهم انحطت روحهم المعنوية .

وفى أثناء الحملة على بولندا أخذ الراديو النازى يخاطب الضباط البولنديين الفارين معلناً أنه يعرف مكانهم ، وبذلك تمكن الألمان من إيقاع الرعب فى نفوس البولنديين .

وقد يحدث أن يرغب أحد المتحاربين معرفة ما يجرى عند عدوه ، فيشيع الإشاعات ليرد عليها خصمه ، فيدرك نواياه . وقد يخلق أحدهم جواً مضللاً يخفى الحقيقة فيه عن الآخر فيربكه .

أبو محمد عمت

من روحانية الشرق :

هيـــا أفيقى

لا أبالى لو طوى الليـــل شروق !
طالما اليقظة تسرى فى عروق
فسأمضى رغم أهـــوال الحريق
ساحقاً بالروح أشـــواك الطريق
هاتفاً فى موجتى : هيـــا أفيق
واعبرى العالم للخـــلق الطليق !

حسين محمود البشبيشى

قصة الأسبوع

الرغبة الأخيرة

للكاتب الفرنسي : جرميه بومون

... خر « مسيو دلبو » صريعاً في ميدان القتال برصاص الأعداء . وبعد عشرة أيام من مقتله تسلمت أخته مخلفاته التي عثر عليها في خيمته ، وكانت تتألف من بعض الملابس ، وقليل من النقود ، وحزمة صغيرة من الكتب والأوراق ، ورسالة للأخت وجدت في طيات ثيابه كان قد سطرها قبيل الهجوم الأخير . وفي تلك الرسالة يقول لأخته :

« إليك — وحدك — يا أختي العزيزة أوجه هذه الرسالة ، وأنا قوى الإيمان أنها ستكون آخر رسائلي ، فإن الهجوم على العدو اليوم سيكون عنيفاً حاداً ، وقد صحت عزائمنا على أن نبذل فيه المهج والأرواح في غير شح ثمناً للنصر . ولعل رسالتي هذه لا تصلك إلا وأنا في عداد الذين استشهدوا في الذود عن حياض الوطن العزيز . سنبدأ الهجوم الأخير بعد ظهر هذا اليوم ، وإن الموت لن يروعني ولن تتزعزع منه نفسي ، فستفارقني به آلامي وأحزاني ، وستنجلي عني هذه الغمرة من العذاب التي امتلكت قلبي واستولت على جميع حواسي ، ولم تضعف من حدتها قصف المدافع ولا رعد البنادق ولا استمرار القتال .

بحكم عملي كضابط للفرقة سأكون في مقدمة جنودي ، وسأقدم لهم مثلاً عالياً في التضحية ! فهذه هي الفرصة الوحيدة الجليلة لمهمل مثلي لا أثر له في الحياة ولا قيمة . وعلى أن أنتهزها فأسجل اسمي في قائمة الذين نالهم شرف الاستشهاد في الدفاع عن وطنهم

قد يدهشك هذا مني الآن عندما تذكرين ما كنت عليه دائماً من المرح ، وأني لم أنظر قط إلى الحياة بمثل هذا المنظار القاتم . إن حالتي قد تبدلت بين عشية وضحاها ، فساورتني الهموم ، وسيطرت على قلبي الآلام والأحزان ، وأصبحت أحس كأني مغلوب على أمري منذ سنوات عديدة ، ويزداد شعوري كل يوم أن حياتي أضحت عبئاً ثقيلاً لا يقوى ضعيف مثلي على احتماله ! !

لو تصورت أيتها الأخت الكريمة ، أني بت أعجز من حمل قلبي الذي يخيل إلى أنه كرة ثقيلة من الرصاص ، لوافقتني على ما أرى من أن الموت خير لي من مثل هذه الحياة كما سأحمل اليوم .

إن رغبتي الأخيرة — قبل أن أودع هذه الحياة المليئة بالمآسي أن أكشف لك من نفسي ومن قلبي ، لتقرئي في صفحتيهما سراً كتمته عن الناس جميعاً .

سأكتب لك هذه الأسطر القليلة ، ولك فقط سأكتب وأنا على أبواب الآخرة . ومنها ستفهمين لماذا صرت أنتظر بصبر نافد تلك اللحظة ترابلي فيها الحياة .

لم تمض سوى أيام ثلاثة منذ أمرني القائد العام أن أخف بفرقتي لمساعدة فريق من الجيش حصره العدو وسد عليه جميع المسالك . وإليك تفصيل ما حدث هناك :

ما إن وصلنا إلى مكان المعركة حتى هالنا عدد القتلى وقد تناثرت جثثهم هنا وهناك حتى اكتظ بها الميدان . وقد بذلنا جهوداً جبارة في زحزحة العدو عن مراكزه وتخليص جنودنا من بين مخالبه . وبعد فترة ترك العدو ميدان القتال ، وجعل الجنود يميزون الجرحى من القتلى ، ويحملون الجرحى إلى مستشفى الميدان . وأخذت أنا بمعاونة بعض جنودي في التعرف على أشخاص القتلى وكتابة أسمائهم وعناوينهم تمهيداً لدفنهم في احتفال عسكري مهيب .

كان بين القتلى جندي شاب ، لم تكن عيني قد وقعت عليه من قبل ، فما إن وقفت إلى جواره لأجمع المعلومات اللازمة عنه في مثل هذه الحال ، حتى تقدم أحد الجنود وسلم

إلى حافظته التي عثر عليها في ثنايا ملابسه، ففتحتها لأعرف ما بها، ولأقف منها على اسمه وعنوانه حتى يتيسر لنا أن نكتب إلى أهله بما آلت إليه حاله. كان اسمه «أميليو دوراندى»، ولم أكن قد سمعت هذا الاسم من قبل. وبينا أنا في شغل بتدوين اسمه وعنوانه إذا برسالة تسقط من الحافظة عرفت فيها خط صاحبتها التي بعثت إليه بها، فاندفعت اقرأها بشوق ولهفة، وعجبت كثيرا كيف لم ينقطع قلبي من الحركة آنذاك!!

إنك تعرفين خط «ماري»، ولو أنك رأيت الرسالة التي كانت في أمتعة «أميليو» لعلمت أنها هي التي كتبتها وبعثت بها إليه.

ليس الموت بفظاعته، وليست الحياة بمآسيها، وليست الحرب بأهوالها، بأشياء تذكر أمام من يقرأ رسالة تفيض حبا، وكتابا يسيل لوعة وغراما من زوجته إلى رجل سواه. لقد شعرت حين قرأت رسالتها إليه أني قد طعنت ألف طعنة في ألف مكان من جسدي.

لم أسمع طوال حياتي الزوجية من «ماري» كلمة من كلمات الحب لها مثل حرارة الكلمات التي بعثت بها إلى «دوراندى» في هذه الرسالة التي بين يدي.

متى وأين تعرفت إلى «دوراندى»؟ في أي مكان قابلته؟ في الطريق؟ في إحدى الحدائق؟ في دار من دور اللهو؟ لست أدري! وأكبر الظن أني لن أدري أبدا. وماذا يهمني معرفة ذلك الآن، والذي بين يدي من الأدلة أكثر من الكفاية لإدانة مثلها.

عند ما كانت هذه الخواطر تعصف برأسي، وحرارتها تضطرم في قلبي، كنت مسندا ظهري إلى جذع شجرة أطيل النظر إلى ذلك الجندي الذي لوث شرفي، وكدر صفو هنائي، وحطم فؤادي.

كنت أتخيل وأنا أنظر إليه، أن وجهه قد ارتسمت على صفحته علامات الاستهزاء بي والسخرية مني، إنه من غير شك منافس محظوظ.

كان الجنود يقومون بواجبهم في دفن القتلى بعد أن قام القسس بالمراسم الدينية في مثل هذه الحال، فخطر لي فجأة أن هذا الإنسان قبل أن يكون منافسا قويا لي كان جنديا من جنود الوطن البواسل، وقد نال شرف الموت في الدفاع عن وطنه. فتقدمت إليه من غير وعي ولا شعور وحملت جثته الهامدة بين ذراعي، وعوامل الحقد عليه والاحترام له تصطرع في نفسي. ولكن عندما ذكرت حب ماري له، ولوعتها عليه، وبالغ أسفها وعظيم حزنها متى بلغها نبأ موته، تأملته بانتباه مرة أخرى، فأيقنت أن هذا الرجل قد أحبها هو الآخر حبا يفوق العبادة، وهنا تراخت أعضائي، وفترت همتي، ولم أدر ماذا يجب أن أفعل.

لم أعرف جيدا ماذا حدث بعد ذلك، وكل ما أذكره الآن أني ارتميت على جثته وقبلته قبلة حارة لا تكون إلا من الأخ لأخيه، ثم نزلنا به إلى قبره وهلنا التراب عليه

أصارحك يا أختي العزيزة أني كنت أحس في أيامي الأخيرة من أعماق قلبي أن حب ماري لي قد خفت حرارته ووهت قوته، ولم تكن له تلك الروعة التي كنا نحسها في أيامنا الأولى. ولكن الذي لم يدر في خلدي، ولم يمر بخاطري حينذاك أنها مشغولة بغيري. كم كنت مخطئا آنذ!!

ماذا تريدين أن أقول لك أكثر من هذا؟ «ماري» تلك التي وهبتها قلبي، وآثرتها على نفسي، وأحللتها أرفع محلة في فؤادي تخونني وتدوس على شرفي، وتلوث سمعتي! هل تطيب لي الحياة بعد ذلك؟.

يلوح لي أنك قد الآن أدركت السبب في أني أستعجل

أنباء وآراء

الكنز المسروق أو أندونيسيا

• يطلق اسم أندونيسيا على جزر الهند الشرقية الواقعة فى الجنوب الشرقى من آسيا . وهى تشمل جزءاً من شبه جزيرة الملايو ثم جزر سومطره وجاوه وبورنيو وسليبز وبالى ولبوك ، والعدد العديد من الجزر المنتشرة بينها .

• يبلغ تعدادها حوالى ٧٠ مليون نسمة ، ٩٥ ٪ من مجموعها مسلمون ، والباقون يدينون بديانات مختلفة من البوذيين وأقلية قليلة من المسيحيين واللادينيين . وأما نسبة المثقفين فتبلغ حوالى ١٠ ٪ من مجموع السكان .

• يستمسك الأندونيسيون بالإسلام وتعاليمه أشد استمساك ، ويكاد يكون عهدهم على قوته التى عرفناها له فى الماضى البعيد ، حتى إن أحدهم لا يحجم من شىء فى سبيل دينه الإسلامى ؛ وذلك رغم ما يرهقه بهم الهولنديون المستعمرون من دس وتشجيع الإرساليات التبشيرية الغربية بكل وسيلة وعلى أى وجه ، حتى إن الموظف غير المسلم يعطى أجرا (ماهية) هو ضعف الضعف مما يعطاه الموظف الأندونيسى الوطنى !

• أما التعليم فيتحتم ألا يتعدى برامج خاصة يحددها الهولنديون بحدود جامدة قاسية ، منها أنهم يحرمون دراسة تاريخ وحركات البلاد الوطنية ! ومن خطتهم أنهم يستغلون الشعب منذ النشأة ، حتى إذا شب المواطن كان الرعب قد ملك عليه نفسه من الهولندى المستعمر . فمن بعض تعاليمهم المفروضة أنه إذا صار الهولندى — أياً كانت مرتبته — فى الطريق وجب على من يمر به من الوطنيين أن يقف له وأن يحييه !

• والحكومة الهولندية لا تعترف هناك بغير الشهادات الهولندية فى تولى الوظائف الحكومية ، وأما الإجازات العلمية من الأقطار العربية الشقيقة فلا تدخل فى حسابها أبدا !

• ومن لؤم الاستعمار الهولندى هناك أنهم يحتمون

أجل لأفارق هذه الدنيا التى امتلأت بالعار والشنار .

أختى العزيزة :

سجا الليل وارتفعت فوهات المدافع ، واحتجبت السماء خلف ستر غير كثيف من الغيوم ، وأرسل القمر أضواء شاحبة ، تبعث الانقباض إلى النفس والاضطراب إلى القلب ، وتتراءى فيها ظلال الجنود فى أماكنهم ينتظرون الأمر ببدء الهجوم .

إنى قوى الاعتقاد بأن قلبى سيحمد لى استعدادى لاستقبال هذا اليوم الأغر الذى تطمئن فيه النفوس ، وتستقر فيه الخواطر ، وتتلاشى فيه آلام الحياة وهمومها ! !

لا يستطيع أحد فى هذا العالم أن يحول بينى وبين تنفيذ رغبتى فى الرحيل من هذه الدنيا ؛ فقد صحت عزيمتى وقر قرارى .

إنى أتقدم إلى مصيرى المحتوم بخطوات ثابتة ، وثقتى كبيرة فى أن الحياة ستكون بالنسبة « لمارى » عادية وفوق العادية ، كأنى لم أعترض طريقها فى هذا الوجود فى يوم من أيام الحياة .

أختى الكريمة :

لقد ابتدأت المعركة ، فدوت المدافع ، وتناثرت القذائف وتصاعد الدخان إلى أطباق الجو ، ويحتم على أن آخذ مكانى فى مقدمة الجند ، وإنى أدع القلم الآن وأقطع الكتابة مضطرا . . فالوداع ، الوداع إلى الأبد يا أختى الحبيبة ! ! . »

وهبى إسماعيل حقى

احتفاظ كل أقليم بلغته ولهجته التي تبلغ حوالي ٧٣ لغة ، لكي يصعب التفاهم بين الأندونيسيين . وقد باءت هذه السياسة الخبيثة بالفشل ، إذ قامت جمعيات وطنية توحد اللغة بين الجميع !

● أما الثروة المعدنية فمنها البترول وهو مورد غزير فياض ؛ ولعل أندونيسيا هي رابعة مناطق البترول في العالم إن لم تكن ثالثته . ومع إن الهولنديين عند فرارهم من وجه اليابانيين قد خربوا آبار البترول ومصانع تكريره ، فقد بقي بعد هذا من المخزون ما قدرت قيمته بحوالي ١٢ مليوناً من الجنيهات !

● ثم الحديد والفحم والقصدير ، ثم الذهب الذي تظهر عروقه أحياناً في مجاري الأنهار ! وكذلك يوجد الماس واللؤلؤ . بل إن أهم المواد التي يحتاجون إليها في نهضتهم وعمرانهم توجد خاماتها عندهم !

● أما الثروة النباتية فإن الطبيعة الأندونيسية كريمة سخية :

فهي تنتج من المطاط أكثر من ٥٥٠ ألف طن في كل عام ، أي ما يعادل ٩٥٪ من المطاط العالمي . وحسبك لكي تعرف غزارة محصوله أن المستعمرين حددوا نسبة معينة على مستخرجيه لا يمكن تعديها . ومن الظلم أنه لا توجد مصانع له في أندونيسيا وإنما يصدر للخارج ثم يعاد مصنوعها على هيئة إطارات مثلا ، فيباع في (مواطنه) بثمن غال ! فما أقرب وجه الشبه بين مظالمهم مع هولندا بقطننا مع الإنجليز ! وهم يزرعون الذرة ولكنها ليست في مرتبة الأرز الذي هو عندهم غذاء أساسي للسكان . وعندهم القطن ثم التوابل والبهارات والبن والشاي والسكر والطباق والكاكاو والكينا واللوز وجوز الهند وزيوته ، وكذلك خوص الطرابيش والخيزران . وكذلك يوجد نوع من « الفول » الأخضر يستخدم طبيا في علاج (البري بري) ويستخرجون أيضاً مادة قيمة نافعة تستخدم في تثبيت كافة الألوان واسمها باللغة الأندونيسية (جامبير) يرفع المستعمر من ثمنها كما يرفع ثمن نوع معين من أنواع الصمغ يقال له (دامار) تتخذ منه قوالب صلبة لصياغة الذهب ! وتوجد أنواع نادرة من الأزهار تستخلص منها روائح عطرية ، وإنما يستخلص هذا العطر في هولندا إذ لا توجد معامل له في (موطنه) أيضاً !

● وأما الثروة الغابية فعظيمة . فمنها شجر الأبنوس وشجر الكاليبتس ، وكذلك نوع من الشجر يعرف عندهم بشجر الحديد لشدته وصلابته ويستخدم في مجالات المربات .

● والثروة الحيوانية لا بأس بها . فيوجد العاج في جنوب سومطره حيث يوجد الفيل . وكذلك هي غنية بأسماكها وبطيورها ؛ ثم البقر والجاموس ، ولكن المنتجات الحيوانية من هذين محرمة إلا على المستعمر في ضياعه الواسعة دون الوطنيين من أصحاب البلاد !

● وأما السموم فلها عندهم مورد دائم .

● ويتمثل في الأندونيسيين الكرم الشرقي ، فإنهم — رغم غشم المستعمر الهولندي — يرحبون بالنازح الشرقي الشقيق ويمهدون له أسباب رزقه . فهؤلاء الحضارمة قد لا يمضي على أحدهم منذ يفد إليهم غير قليل من الزمان حتى يظهر أثر كرمهم له ملموساً ناطقاً عليه .

● وأما الحياة الاقتصادية فاحتكارية ، وأزمتها على الجملة في أيدي الغربيين ، وبالطبع للهولنديين النصيب الأوفر . ولا يتورع الهولنديون عن مناهضة أي مشروع وطني اقتصادي بأية وسيلة تخطر ببالهم . من ذلك أنهم يحتكرون حتى الملح الذي يستخرج من ماء البحر ، فيرصدون مراقبين على الشواطئ خشية أن يأخذ الأهالي ماء البحر فيستخرجون منه الملح الذي أصبح استخراجه وقفاً على المستعمر !

● والضرائب هناك متعددة ومركبة ، يخنق بها الهولنديون أنفاس الناس من الوطنيين . وهل أتاك حديث

ضريبة الطيور! إليك نبؤها: إذا عشش نوع خاص من الطيور وجب على الأهلين القريبين من العش أن يبلغوا السلطة عنه، ثم يعملون على حفظه ورعايته، ثم عليهم أن يدفعوا ضريبة له فوق ذلك!

• ولقد بلغ من نواء الهولنديين من استعمارهم لأندونيسيا أن أصبح في مقدورهم أن يبنوا سورهم الذي يحمى وطنهم الأصلي هولندا من طغيان بحر الشمال من الفضة.

• ولا يألو الهولنديون جهداً في إفساد الشعب بما يعود على المستعمر بالنفع، فإنهم يفشون داء «المقامرة» وقرض الديون، فإذا عجز المدين من سداد دينه للدائن — والدائن هولندي — وجب عليه أن يشتغل عنده وفاء للسداد. وعند ذلك لا يعدم الدائن حيلة يعجز بها المدين عن السداد فيبقى رهينة عنده أبد الدهر بدينه. وقد يؤدى الحال بالمواطن أن يعمل كأجير في الأرض التي كانت ملكاً له من قبل! لا فرق في ذلك عما كان متبعاً في القرون الوسطى وإن كنا في القرن العشرين!

• ويحرم الهولنديون تسليح الأهلين تحريماً مطلقاً حتى إنهم ليأخذون الرجل بجريرة حمله السكين أو الخنجر!

كما أنهم يحرمون حرية الخطابة بين الأندونيسيين وحرية الاجتماع. ولقد جاء يوم — قبل اندحارهم أمام اليابانيين — كانوا يحرمون فيه أن يسير ثلاثة أشخاص معاً!

• ويقيم الحاكم الهولندى العام في جاوه في عاصمة بتافيا، وإرادته النافذة هي من إرادة الملكة وخليفتها ملكة هولندا!

• ويبلغ من ضآلة عدد الهولنديين هناك بالنسبة للأندونيسيين أنه في كل بلد أو إقليم لا يشغلون فيه إلا المناصب الرئيسية!

• ويستعين الهولنديون في أعمال البوليس والمحافظة على الأمن بعناصر غير وطنية؛ فإن الوطنيين يكرمون أنفسهم من هذا العمل لشدته على مواطنيهم، أما إذا عمل بعضهم فهو مكره عليه!

• على أن هولنـدا لم تكن لتقوى أن تظل في استعمارها لأندونيسيا يوماً واحداً لولا مؤازرة الإنجليز والفرنسيين والأمريكان لها. وللإنجليز هناك نفوذ هائل ومنتشر. ومن طريف ما سمعته من صديق لي من الأندونيسيين أنه قال: لولا هؤلاء المساعدون من إنجليز وفرنسيين وأمريكيين فإنه يكون في مقدورنا «أن نغزو هولندا في عقر دارها»!

. . . وبعد

فما عسى أن يذهب إليه ظنك بعدد الهولنديين المستعمرين الذين يعملون على فرض استعبادهم لهذا القطر الشرقى الإسلامى الكبير بملايينه السبعين؟ أنا مسجل لك الجواب: لقد كان تعدادهم في بلادهم هولندا قبل الحرب حوالى ٦ مليون نسمة! فاعجب لذلك الاستعمار!

يالوت صبرى

باب الكتب

٣ كتب مختارة من سورية ولبنان :

١ — قصة الاستقلال فى سورية ولبنان

هذا كتاب تجدر بكل عربى مطالعته ، لما فيه من الخفايا التى تميط اللثام عن السياسة الإنجليزية التى كانت متبعة فى سورية ولبنان ، والتى تفضح أسرار بعض الأسر الأرستوقراطية فى هذين البلدين .

ومؤلفة الكتاب هى اللادى سبيرز عقيلة الوزير البريطانى المفوّض فى سورية ولبنان — اللورد سبيرز الذى كان له شأن كبير فى توجيه السياسة السورية اللبنانية فى وقت ما — فأتاح لها كونها زوج الوزير أن تطلع على ما لا يمكن أن يطلع عليه غيرها ، فكتبت هذه الذكرات ووصفت ما شاهدت ، ونقلت ما سمعت .

وقد أتيح للكاتبة ، بحكم مركزها الاجتماعى ، أن تتصل بكثير من الأسر الكبرى فى سورية ولبنان ، فوصفت هذه الأسر ، وتكلمت على ما بلغته بعض فتياتها من التبذل الأخلاق والاستهتار والتساخف ، التى كن يبدينها للتخلص كما زعمن من الرجعيّة ، وحباً فى التقدّم والحرية .

وأنت تلمس وجهة النظر الإنجليزية جيداً فى كل ما تقرأ ؛ تلمس فيه الحقد على الفرنسيين ، وعلى الذين كان لهم صلة بالفرنسيين ، وتلمس الثناء على كل ما هو بريطانى أمريكى ، وتجد آراء جيّدة عن رجالات سورية ولبنان كالرئيس القوتلى ، ومردم ، والجابرى ، والخورى ، ونقاش ، وتلمس أيضاً الجهود التى بذلها الجنرال سبيرز لمساعدة سورية ولبنان والسعى لاستقلالهما .

وقد نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ منير البعلبكى ، فأحسن وأجاد وأفاد . ونشرته دار العلم للملايين وأعتقد أن كل سورى وكل لبنانى يجب أن يقرأ هذا الكتاب ، ففيه أشياء كثيرة لا أستطيع أن أنوّه بها هنا . وينبغى ألا تخفى على أحد .

٢ — أوروبة والإسلام

كتاب ألّفه آغا خان . وزكى على ؛ ونقلته دار المكشوف إلى اللغة العربية ، وهو الجزء السابع من سلسلة الثقافة السياسية .

بين آغا خان فى الفصل الأول من الكتاب مسألة الجامعة الإسلامية وأوضح أهداف هذه الجامعة إذا تحققت ، واستبعد الشبه بينها وبين حركات التوسع التى رأيناها فى ألمانيا وروسيا ، وخلص إلى أن هذه الجامعة الإسلامية لها هدف واحد هو قيام تضامن روحى بين المسلمين كافة ، يكون عاملاً من عوامل الطمأنينة والسلام فى العالم .

وفى الفصل الثانى توضيح جيد لتأثير الإسلام فى أوروبة ، وقد سرد المؤلّف جميع النقاط التى برع فيها العرب فى العصور الوسطى واقتبسها الغرب منهم .

والكتاب موجز ، والفصل الأول جدير بالتأمل ، وهو بالجملة لا يخلو من فائدة .

٣ — الأحاديث النبوية فى الأخلاق والاجتماع والمدنية

كتاب لطيف يجمع تسعة وثمانين حديثاً من الأحاديث النبوية اختارها الأستاذ حمدى عبيد من صحيحى البخارى ومسلم .

وعنوان الكتاب يدل على ما فيه . فقد انتقى الأستاذ من الأحاديث ما له صلة بالأخلاق والاجتماع والمدنية ، وشرحه وعلّق عليه وقدّمه لأناس هذا الزمن الذى ضاعت فيه الأخلاق ، وسادت الفوضى فى المجتمع ، وحسب الناس أن المدنيّة هى ما عرفه الغرب فقط .

وقد وفق الأستاذ فى الانتقاء ، ووفق فى التعليق .

(دمشق) صموع العربة المنجد

بين المسموع والمقروء

بيت من طين

هذا حدیث امرأة أمريكية ، من اللائی تعودن البيوت تبنى من الحديد ومن الحجر مصنوعا ومطبوعا ، تسمو فى الجو الثلاثين والخمسين والمائة طابق فما فوقها ، وتسمى بناطحات السحاب ، تذهب إلى الهند ، فتبنى لنفسها بيتا من طين ، ثم هى من بعد ذلك تسكنه . ثم هى من بعد تجربة تمتدحه وتؤثره من البيوت على كل عال سامق من بيوت بنات العم سام وأبنائه .

وتسألها لماذا هى هكذا تؤثره .

فتقول : لأن فى مراقبة بنائه تفرّج ومتعة ، ولأنه خير ما يحفظ من حرّ وبرد ، ومن مطر وريح ، ثم هو فى تلك البقاع النائية لا يأكله النمل الأبيض الذى يأتى على بيوت الخشب . وهو بيت قليل الثمن . وإذا أنت سئمته وأردت بيتا غيره ، على تقسيم غير تقسيمه ، وعلى اتجاهات غير اتجاهاته ، فما عليك إلا أن ترفع عنه سقفه ، ثم تتربص عاصفة المطر أن تجىء ، فإذا هى جاءت أذابته سريعا ، فجعلته مجددا من طين كما كان أولا ؛ وعندئذ تعيد بناءه وتقيم أركانه ، كما كنت فعلت أولا ، وعلى هواك الجديد .

نزلت هذه السيدة وزوجها بالهند أول مرة ، نزلا عند أصحاب لهما ، فلما طال بهما المقام ، قال لها زوجها ذات مساء ، وهو يتأهب لسفرة غير قصيرة : لقد مكثنا هنا طويلا ، والضيف مهما خف ثقيل ، فانظرى فى بناء بيت لنا ، وانظرى ما أنت صانعة فى هذه السبيل . أربع حجر فيها الكفاية ، وهى إذا أصاب تصميمها خطأ كان تصحيحه أمرا هينا ، أو كانت الخسارة غير بالغة .

ورحل الزوج ، وبقيت الزوجة تفكر . إنهما يسكنان جبلا ، ويسكنانه حيث يعلو من الأرض ٨٠٠٠ قدم ، وهم قرب خط الاستواء ، فالبيت المطلوب لابد أن يحتمل حرارة تتقلب ما بين ستين درجة مئوية ودرجة صفر ، أى درجة تجمد الماء ، فما دونها . وقد تتقلب سريعا فتصعد العشرين والثلاثين من الدرجات ، أو تهبطها ، فى أربع وعشرين ساعة . وعلى البيت أن يصمد للرياح الموسمية وهى شديدة عاصفة . ثم هناك النمل يأكل المائدة وهى من خشب فى ليلة واحدة .

واستنصحت الناس ، فقالوا لها لا يحُلّ المشكل إلا بيتٌ من طين ، ذو حائط عرضه قدمان ، وله سقف من الخزف المطبوخ . وذكروا لها أن فى القرية مقاولا يقوم ببناء هذا البيت ، ولكن لابد قبل مفاتحته فى أمر البناء من زيارة أو زيارتين للود . فهكذا كانت عادة القوم .

وأرسلت السيدة إلى المقاول تستزيره ، فما لبثت أن رأت عند بابها رجلا هنديا طويل القامة ، حسن الطلعة ، ملفوفا فى ملاءات بيضاء ، فكان أشبه بالأمير منه بالمقاول . وانحنى فى أدب ثم جلس على الأرض وتربع ، وسألها عن نفسها ، كم عمرها ، وكم لها من الولد ، وسأل عن صحتها . وكل هذا على سبيل التعارف . أما البيت فلم يذكر من أمره شيئا إلا وهو يغادر . قال لها : إن بناءه يعتبرها فرصة من فرص حياته النادرة .

ومضت بضعة أيام ، فإذا به يزورها زيارة للود ثانية . وفى نهايتها ذكر البيت . قال : إنه يترك لها تقدير تكاليفه . فلما قالت له إنها غير قمينة بذلك ، سألها عن شكل البيت ، كيف تريده . فخطَّطته فى ورقة ، فأخذ الورقة ثم انصرف .

وبعد أيام أرسل رسولا يحمل إليها ثمن البيت : إن بيتا ذا أربع حجرات واسعة ، وله فرندات عريضة ، وسقف من الخزف المطبوخ ، يتكلف بالعملة الأمريكية خمسمائة ريال .

فقبلت السيدة هذا الثمن .

ومضى أسبوع ولم يحدث شيء . وفي اليوم الثامن أقبل على قطعة الأرض المختارة رجل عجوز بيده كوز به رمل أبيض ، وظل يروح على الأرض ويغدو ، والرمل يتساقط من كوزه ، حتى تم رسم البيت واستبانت حدوده . وفي نفس اليوم حضرت مواد البناء : أعواد طويلة من شجر الكافور ، وشيء من الجير والرمل ، ولا شيء غير هذا . وفي الصباح التالي حضر العمال .

ونظرت السيدة إلى القادمين فلم تفهم أول الأمر أن هؤلاء هم العمال ، ذلك لكثرتهم ولاختلافهم ، فهم ما بين نساء ورجال ، وبين صبية وصبايا . ثم اتضح لها أن المقاول جاء بأهل القرية كلها ، وأن لكل من أهلها في بناء البيت عمل ، إلا من هم دون الخامسة من الأطفال .

أما المقاول فقامت على رتبة الولاية ؛ وأما الرجال فحفروا في الأرض حفرة كبيرة ؛ وأما النساء فحملن إلى الحفرة الماء ، ثم حملن بعد ذلك قصعات الطَّفْل قصعة قصعة . أما الأولاد فانتزعوا ملابسهم ونزلوا إلى الحفرة بما فيها من طفل وماء ، وأخذوا يعجنون هذا بذاك عجنا طيبا ؛ وأما البنات فقعدن على مرقب يرقبن السحب لينذرن بالمطر إذا أقبل . وكان للسيدة حقل من شاي ، فهذا قعد حوله بعض الأشياخ يدفعون الأغنام أن تعيث فيه .

ولما بلغ عجن الطين رفواته المطلوب ، راحت النساء تشكلن منه الآجر ، وتسطينه من بعد تشكيله لبنات ، وتثبته في الشمس الحارة ليجف . وذهب الأولاد ، بكسوم الطين ، إلى الأرض التي سيقام عليها البيت يهدمونها لتفرش بالأسمنت فتكون منه أرض الدار . وخلط الرجال الأسمنت بالماء ، وبسطوه على الأرض . وفي هذه الأثناء جاءت عربة يجرها ثور ، وعليها حمولة من الخزف المطبوخ .

وبهذا انتهى عمل اليوم الأول ، وانفض العاملون والعاملات . انفضت القرية كلها .

وتبع هذا فترة من الزمن تهيئ الفرصة للآجر أن يجف ولأهل القرية أن يسمروا ويرأطوا . وخرجت أنغام الرباب والزمار من القرية تصعد الجبل إلى السيدة ليل نهار .

وجف الآجر حتى صار كالحجر . وعندها استؤنف العمل .

كان البناء عمل المجتمع القروى كله . تفرش النساء الملاط ، وتحمل الأطفال الآجر يضعونه في مكانه السوى من الحائط . وارتفعت الحوائط في سرعة هائلة . ولكنها ما كادت تبلغ العلو المطلوب حتى صاحت صائحة على المرقب العالي تنذر بسحب في السماء قادمة .

ووقعت هذه الصيحة موقع الهلع من قلب السيدة صاحبة المنزل . كان معناها عندها أن بيتها لا بد ذائب تحت المطر كما يذوب الثلج في الماء . ولكن لا . . . لقد فاتها أن في أهل هذه القرية البدائية عبقرية ومهارة كما في المدن والمدنية تماما .

لم تكد صيحة الطفلة المنذرة تبلغ الأسماع حتى هرع الأولاد إلى الرجال فركبوا أكتافهم ليبلغوا من الحوائط أعلاها . وإلى هذه الأعالي تسلقوا ، وعليها رقدوا ، وإياها احتضنوا يحمونها من المطر بأجسامهم والذي عليها من لباس . ومس الولد برأسه قدمي صاحبه فكانوا كالسلسلة انتظمت وتشعبت . أما سائر القوم فاحتموا من المطر حيث أمكنت الحماية . وانفتحت أبواب السماء بالماء ، ثم أقلعت . وبقي البيت قائما كما كان .

وأقاموا على البيت سقفه ، فكانت قوائمه من خشب يعلوها طبقة من خزف . ولم يكن في البيت شيء آخر من خشب ، وهو طعام النمل الأبيض ، غير النوافذ ؛ وهذه النوافذ صنعها نجار محترف ماهر . وكسوا الحوائط من بعد ذلك بالجص الأبيض . ولما فرغوا كان البيت لطيفا جميلا .

وانفضت القرية تطلب منازلها بعد الفراغ .

ولما لم يأت أحد يطلب لهذا البيت ثمنا قلقت السيدة

بعض القلق ، ولكن أصحابها هدأوا من قلقها لأنهم عرفوا بالتجربة ما لم تكن تعرف .

ومضى أسبوع ، ثم إذا بها تسمع نغماً موسيقياً مقبلا نحو الدار ، فخرجت تستطلع الخبر ، فإذا به موكب يقترب .

كان على رأس هذا الموكب ولد بزمر . وتبعه الفاول يحمل عودا عليه بخور . وتبع الفاول ولد يحمل كعكة كبيرة عليها زواق ، وأخيرا جاء عامل يحمل صينية من النحاس عليها ظرف . أما عود البخور فللبركة . وأما الظرف فكان فيه ورقة بتكاليف البيت .

واعتذر الفاول للسيدة كثيرا أن جاءت التكاليف فوق ما قدَّر . لقد زادت عما قدر زيادة حسبها فكانت ربالين وسبعة وخمسين ملّيما .

وعاشت السيدة في المنزل سنين ، خالت في أثنائها أن المنزل يزداد جدة .

وسألت أهل الناحية كم يبقى مثل هذا البيت . قالوا : إذا وُلِد فيه الطفل استطاع أن يستظل بسقفه حتى يرى أبناءه وأحفاده وأحفاد أحفاده .

بارك الله لها فيه ، وبارك الله لكل مصرى يستطيع أن يجعل من بيوت مصر ، وهي من طين ، بيوتاً من الجودة بحيث تستطيع أن تسكنها ، على استمتاع ، سيدة تأتى من حيث المنازل تطلع السحاب .

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٧٦٩

العدد ٤٥٧ — الثلاثاء ١٥ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦ — ٣٠ من سبتمبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

حيرة العـــالم

العالم الآن كله قلق مضطرب حائر ، وسبب قلقه واضطرابه وحيرته أنه فى حربه الأخيرة هدم كل معتقداته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولم يستطع أن يبنى جديدا غيرها .

ثم إن المبادئ العتيقة — مبادئ القرن التاسع عشر وما قبله — لا تزال متأصلة فى نفوس القادة والزعماء ومن بيدهم زمام الأمور الدولية ؛ وليس فى إمكانهم إعادة هذه المبادئ العتيقة فى القرن العشرين ، لأن الشعوب تنورت ، ولا فى إمكانهم أن يعتنقوا مبادئ القرن العشرين ، لأن عقولهم تحجرت .

اعتاد رجال السياسة أن يعلنوا على الملأ أن الحروب التى تقع إنما يبعث عليها أغراض نبيلة ، مثل حماية الديمقراطية — وما يتبعها من حرية الشعوب — من الانهيار ، ومثل حماية الأمم الصغيرة من عدوان الأمم الكبيرة ، ومثل المحافظة على حرمة المعاهدات ، ومثل دفع الخطر الذى يهدد أممهم ونحو ذلك ؛ وكانت هذه الأقوال تجوز على الشعوب فيصدقونها — وكان رجال السياسة يعلمون نفسية الشعوب وأنها لا تستجيب إلا للمثل الأخلاقية مهما ضعفت أخلاقها ، وانحلت فى سلوكها ، فكان هؤلاء الساسة يستغلون هذا الشعور النبيل فى الإنسان ، فيهيجونه لمصلحة الحرب ، وكانت الشعوب عمياء ، تستجيب عن غفلة لهذه الدعوات ، وتلبى الدعوة متحمسة للمبادئ الأخلاقية التى يبثها الزعماء ويعلنونها بشتى وسائل الدعاية ، ويجهرون فى نشرها .

وإلى ذلك أفسد هؤلاء الساسة الأمة ، فاستعملوا الألفاظ فى غير معانيها ، كالديمقراطية والحرية وحقوق الأقلية ونحو ذلك ، فهذه الألفاظ لها معان فى موضع ، ومعان أخرى فى موضع آخر حسب المصلحة ؛ فجلاء الجيوش الروسية عن إيران عدل وداع إلى السلام ، وجلاء الجيوش البريطانية عن مصر ليس عدلا وليس داعياً إلى السلام ؛ وحق إرلنده فى الانفصال عن بريطانيا معقول ومقبول ، وحق الباكستان فى الانفصال عن الهندوس ليس معقولا ولا مقبولا ؛ وحق اليونان والأسبان ومصر فى تقرير مصيرها يقاس بمقاييس مختلفة ، ومطالبة السوريين واللبنانيين بالاستقلال وخروج الفرنسيين من هذه البلاد مطلب عادل ، ومطالبة المغاربة بجلاء الفرنسيين عن بلادهم وتمتع أهل البلاد باستقلالهم مطلب غير عادل . ولكل هذه الحالات المماثلة ألفاظ غير متماثلة ، فهذه الأشياء المتماثلة تسمى بحق تقرير المصير إذا دعت الحال ، وحق الانتداب أو الوصاية إذا دعت الحال ، وبالحرية إذا

اقتضى الأمر، وبالأخذ بيد الأمة حتى تتدرج إذا اقتضى الأمر، وهكذا من العبث بالألفاظ والمنطق عبثاً يستدعي العجب.

هذه كانت عقلية الساسة والقادة في القرن التاسع عشر وما قبله، ولكنها عقلية عتيقة قد أثبتت وظهر عقمها، وتنبهت الشعوب، سواء منها الشرقية والغربية، وفهموا أن ما يقولونه من البواعث على الحرب، والطنطنة بالمبادئ الأخلاقية من حرية وديمقراطية ومحافظة على المعاهدات، ليست إلا ستارا مموها يخفى وراءه البواعث الحقيقية على الحرب، وأهمها الخوف وحب السيادة، الخوف على ضياع المركز الممتاز الذي تتمتع به بعض الدول الكبيرة، وحب السيادة وما يستتبعه من نعرة قومية وعصبية وطنية، ثم بعد ذلك بواعث أخرى، كالسيطرة الاقتصادية والحصول على المواد الخامة في البلدان المختلفة، وتصريف السلع، ونحو ذلك مما يرمي إلى غنى الأمة وعظم ثروتها.

هذه هي البواعث الحقيقية للحروب لا المبادئ الأخلاقية، وإنما اتخذت المبادئ الأخلاقية ستارا استغلالا لنفوس الشعوب الطيبة بطبعها.

وهذا الستار المزيف قد أتقنت صنعه المدنية الحديثة فأبدعت نقشه وتصويره بما أجادت فيه من فن وتصوير وتهويل، واستخدموا لذلك اللغة والأدب وفن الدعاية وفن التمويه، وفن الكذب، وفن الصحافة والإذاعة الخ، حتى خُدع الناس فصدقوه. وقد كان الناس قبل هذه الحضارة المموهة صادقين، إذا حاربوا قالوا إنا نحارب للغلبة والاستيلاء والإخضاع والغنيمة، ولما تقدم الناس في العقلية ولم يتقدم رجال السياسة معهم جاروهم من ناحية التزييف والتلفيق والكذب.

ولكن عمر الكذب مهما طال قصير؛ فقد نظر الناس إلى الساسة فرأوهم يقولون ما لا يفعلون، ورأوا وعودا تبذل في الحرب لا تتحقق في السلم، وأماني تتلى في إسراف حتى إذا جاء موعد القبض غلت الأيدي إلى الأعناق، والحريات الأربع لا تتحقق منها حرية واحدة، وميثاق الأطلنطي ليس ميثاقا وإنما هو بهلوان!!

وغضبت الشعوب غضب الرجل من آخر قد ظهرت خدعته وتكشفت سريرته، ووجدت هوة عميقة واسعة بين الحاكمين والمحكومين، والمستعمِرين والمستعمَرين، والمنتصرين في الحرب والمنهزمين، وبعض المنتصرين مع بعض المنتصرين؛ وضعفت ثقة العالم بالمؤسسات المنشأة للتعاون والنظام كمجلس الأمن، وهيئة الأمم، وزاد معسكر المتشائمين وتضاءل معسكر المتفائلين. وأدرك العقلاء أن سر هذا يرجع إلى أن من بيدهم أمر العالم فئة قد تربت في أحضان الماضي، وغُذّيت على البرامج العتيقة التي تشيد بمجد الوطن وحب الاستعمار والتمدح بالغلبة، ولابد لعلاج الحال من تعميم مناهج للتعليم تنشئ العقلية الجديدة على حب الإنسانية والإخاء العام، لا فرق بين شرقي وغربي، وروسي وأمريكي، وأسود وأبيض. وسيظل العالم في حيرته واضطرابه وقلقه حتى يتم تنشئة الجيل الجديد ويتسلم هو زمام الحكم.

إذ ذاك يفهم العالم أن أسخف الطرق إذا حصل نزاع بين أمتين أو معسكرين أن تعمد كل منهما إلى السلاح فتقتل العدد العديد من الأخرى، ولا تزال التقتيل على أشده حتى تستسلم الأمة الأخرى أو المعسكر الآخر، فإن معنى هذا بالبداهة أن ليس الحق هو الذي انتصر وإنما القوة هي التي انتصرت، وكثيرا ما تكون القوة بجانب الباطل، ومعنى هذا أيضا بالبداهة سكوت المنهزم على مضض حتى يقوى فيحارب. وهكذا تتسلسل الحروب.

* * *

ومما زاد الأمر سوءا في الحيرة والقلق والاضطراب، أن الحرب — وخاصة الحرب العالمية الأخيرة — قد عبثت بالأخلاق عبثا كبيرا، وويل للأمم إذا زلزلت أخلاقها، فالحرب فتحت الأبواب على مصارعها لأحط الأصناف من

غاندى وصيامه

لما أدرك غاندى — بحكم عجزه عن المقاومة العنيفة — أن المقاومة السلبية هى سلاحه الوحيد الذى يستطيع به أن يحارب فى سبيل تحقيق أمانى قومه ، أنشأ فى جنوب إفريقيا مؤسستين لتربية أتباعه وأنصاره ، وإعدادهم ليكونوا جنودا عاملين فى جيش هذه المقاومة السلبية . وكانت وسيلته فى تربية جنوده هى تقوية نفوسهم وتعويدهم على الصبر والحرمان واحتمال الألم ، لأن كل مهمتهم فيما بعد ستنحصر فى تحمل العذاب الذى قد تنزله بهم القوة الغاشمة فى سبيل إخضاعهم ، وحملهم على ما تريد . ومن أجل ذلك بدأ غاندى بنفسه ، فاعتزل المحاماة — مهنته التى كان منها يرتزق — ونذر نفسه للفقر والعرى والعذاب ، واتخذ من الصيام عدة له ومنهاجا ؛ فجعل يصوم كلما شعر بأنه أخطأ فى حق نفسه ، أو فى حق غيره ، ليكفر عن خطيئته ؛ ثم جعل يصوم كلما أخطأ غيره من أنصاره وأعوانه ليكفر عن خطيئتهم بصيامه ؛ ثم جعل يصوم أخيرا ليحتج على ما تفعله به وبرجاله قوى الشر . وهو يقول فى خطاب منه إلى نائب الملك فى الهند :

« فى رأيى المتواضع أن طريقة الاحتجاج العادية — طريقة العرائض والوفود وما شابهها — ليست علاجا لتحريك ضمير حكومة مستهترة بواجبها إلى أبعد حد ، كحكومة الهند . ولو أن مجموعة من الأخطاء كأخطائكم فى حركة الخلافة والبنجاب قد حدثت فى أوربا لأنتجت ثورة شعبية دامية ، حيث يقاوم الناس بأى ثمن اعتداء كاعتدائكم على رجولة الأمة . ولكن نصف الهند أضعف من أن يقاومكم بالعنف ، ونصفها الثانى لا يريد أن يقاومكم به . ولذلك اقترحت علاج « عدم التعاون » لتحمل هذه الحكومة على أن تراجع خطواتها وتصلح أخطاءها »[1]

(١) حركة الخلافة : التى تشير إليها هذه الكلمة تتلخص فى أن تركيا فى الحرب العظمى الأولى كانت تقف ضد بريطانيا ، فكان الهنود المسلمون فى حرج عظيم ، إذ لم يستطيعوا التوفيق بين واجبهم كهنود يعملون فى الجيش البريطانى ، وواجبهم كمسلمين يحاربون تركيا ، وسلطانها خليفة المسلمين . وقد رأت بريطانيا من حسن السياسة أن تعد الهنود بأنها بعد الحرب سوف لا تمس الخلافة بسوء ، وأن الخليفة سوف تبقى له سيادته على الأماكن المقدسة . ولكن الحرب ما كادت تنتهى بنصر بريطانيا حتى تنكرت معها هذه الوعود — أما حوادث البنجاب التى يشير إليها غاندى فخلاصتها أن حكومة الهند كانت على خلاف شديد مع زعماء الحركة الوطنية فى الهند ، فمنعت الاجتماعات منعا باتا . وكان من عادة الهندوكيين فى أبريل من كل سنة أن يحتفلوا بعيد من أعيادهم =

الشعوب وأسوئهم أخلاقا ليستغلوا ظروف الأمة فى الحرب أسوأ استغلال ، بالاتجار بالأعراض والاتجار فى السوق السوداء ، وباستخدام وسائل الرشوة واستغلال السلطات الممنوحة لهم بحكم الظروف استغلالا شنيعا وضيعا . وترتب على ذلك انقلاب الأوضاع الاجتماعية فى الأمم ، فملأ فيها أغنياء الحروب فقراء الأخلاق ، وهبط فيها من تمسكوا بالفضيلة وحرصوا عليها مهما جر ذلك عليهم من فقر ؛ وضعف شأن العفة فى الأمم المحاربة ، وتعلل بعض النساء بأنهن يبذلن عفتهن أداء لواجب الترفيه عن الجنود ، وترتب على ذلك أضرار اجتماعية لا حد لها ، إلى كثير من أمثال ذلك مما زلزل القواعد الأخلاقية التى تبنى عليها الأمة حياتها .

وكما عبثت الحرب بالأخلاق عبثت بالحقائق ، فالدعايات فى الصحف والمجلات والإذاعات لا تستند على حق ، وكل معسكر من المتحاربين جرّح المعسكر الآخر بقليل من الحق وكثير من الباطل ، ثم توصف أعمال الغدر والخيانة والتقتيل بأنها أعمال بطولة ، وتوصف أعمال البطولة بأنها أعمال غدر وخيانة ، إلى كثير من أمثال ذلك .

هذه البلبلة فى السياسة وفى الأخلاق وفى الحقائق هى التى جعلت العالم الآن فى حيرة ، لأنه فقد قديمه ولم يجد بعدُ جديده .

أحمد أمين

ولسنا نريد الآن أن نتوسع في شرح حركة « عدم التعاون » وبيان برنامجها الذى تقوم عليه ، فإن في ذلك استباقا للحوادث . ولنجعل كلامنا أولا عن المؤسستين اللتين أنشأهما غاندى في جنوب إفريقيا . فقد كانت إحداهما على مقربة من مدينة فونيكس ، ولذلك سميت « مزرعة فونيكس » أو « صومعة فونيكس » وقد أنشأ فيها غاندى مدرسة وداراً للعلاج والاستشفاء . والأخرى كانت على مقربة من جوهانسبرج ، وقد سماها غاندى « مزرعة تولستوى » اعترافا منه بفضل هذا الفيلسوف عليه وعلى تكوين عقليته . وكانت فيها هى الأخرى مدرسة كان يقوم غاندى نفسه بتعليم تلاميذها بالاشتراك مع صديقه الألمانى « كالنباخ » . وكان يسير غاندى في تربية تلاميذه على طريقة هى نسيج وحدها بين مدارس العالم ؛ فإنه لم يكن يعنى بالعلوم وتلقينها ، وإنما كانت عنايته بالروح وطريقة تهذيبها والسمو بها ؛ وفي هذا يقول غاندى :

« كلما ازددت اقترابا من التلاميذ عرفت أن الكتب ليست السبيل لتقديم التربية الروحية . فكما أن التربية البدنية تتم بالتمرين البدنى ، والتربية العقلية بالتمرين العقلى ، كذلك التربية الروحية ، ليست ممكنة إلا عن طريق التدريب الروحى ، وهو يتوقف على حياة المدرس وأخلاقه الشخصية . وإنه لإضاعة للوقت أن يحاول المعلم تعليم الأولاد قول الصدق حين لا يكون الصدق من شيمته ؛ والمدرس الجبان لا يمكنه أن يخرج التلاميذ الشجعان ؛ والمدرس الذى لا يعرف ضبط النفس لا يستطيع أن ينجح في تعليم تلاميذه قيمة ضبط النفس ، لذلك رأيت أن أكون الصبية القيمين معى موضوعا دائما للدرس ، فأصبحوا هم أساتذتى ، وتعلمت منهم كيف أكون صالحا ، وكيف أعيش مستقيما على الأقل من أجلهم » .

* * *

ولم يكن طريق غاندى مع تلاميذه طريقا معبدا ، ولا كانت حياته معهم حياة هادئة موفقة هانئة ، ولكنه صادف فيها من الصعاب كل ما يصادف غيره ممن يتصدى لتربية النشء والعمل على تهذيبه .

حدث يوماً أن قام صبى من صبيان هذه المدرسة بإحداث شغب عظيم ، واعتدى على زميل من زملائه ، وتسبب بمسلكه في إزعاج خواطر المحيطين به . ولم تكن هذه أولى حوادثه ، ولكنه كان دائم الصخب ، كثير الاحتكاك بإخوانه ، كذوبا ، همازا ، مشاء بنميم . وقد ضاقت معه حيلة كل من معه ، وعجز غاندى نفسه بكل ما يملك من ذخائر الصبر والمحبة والتسامح أن يؤثر في خلق هذا الشاكس الصغير . ولكنه كان عقب كل حادث يمنى نفسه بأنه سوف يكون الأخير في بابه ، فيؤثر اللاينة ، ويعتصم بالصبر ويدعو الله له بالهداية . غير أن الفتى أغراه هذا السلوك بالتمادى في غيه ، فتكررت حوادثه ، وتفاقم خطره ، وتهاول معه صبر غاندى رويدا رويدا حتى تهتك . وكانت تلك الحادثة التى أشرنا إليها بمثابة القشة الأخيرة التى يكسر ظهر الجمل — كما يقول الإنجليز — وأحس غاندى كأنه يختنق من الغيظ المكظوم ؛ ومع ذلك فإنه بدأ كعادته بالعتاب ، ومخاطبة الصبى بالحسنى ، فجمح الغلام بين يديه ، وأصر على خطئه واستكبر استكبارا . فتزعزعت لجموحه نفس غاندى ، وأفلت زمام هدوئها من يده ، ورأى على مقربة منه (مسطرة) فتناولها وأهوى بها على ذراع الفتى وهو يرتعد من الحنق والانفعال الشديد . ولم يكن غاندى يعرف الضرب قبل هذا الحادث ، ولم يكن يؤمن بالعنف في معاملة الناس بله العقاب والانتقام ، فكان ضربه لهذا الفتى صدمة قوية صدمت عقول الجميع .

= القصة في ساحة فسيحة من ساحات مدينة أمرتسار ، فلما كانت ثلاثة هناك حوعهم ، وتحتشد في ذلك الميدان نساؤهم وأطفالهم وشيوخهم حتى انفتحت عليهم نيران المدافع فحصدتهم حصدا . وقد ترك هذان الحادثان أثرا مراً في نفس غاندى يحس القارئ طعمه في تلك الكلمات القاسية التى خاطب بها نائب الملك .

ولم يخف الصبي نفسه ما كان عليه غاندي من التأثر والانفعال وهو يضربه ، لأنه كان يعلم مبلغ كراهية أستاذه للضرب ونفوره منه ، وأدرك أن مسلكه هو الذي خرج بغاندي من وقاره ومن طبيعته ، فتخاذلت نفسه ، وتملكه الندم ، ولم يلبث أن أجهش بالبكاء ، وتوسل إلى غاندي أن يسامحه على ما كان منه . وكانت هذه نقطة انقلاب حاسمة في خلق الفتى ، إذ لم يعد بعدها قط إلى ارتكاب شيء مما اعتاد أن يعكر به صفو المدرسة ، ويثير به حنق الأساتذة .

وفي مرة أخرى حدث أن نشأت بين إحدى تلميذات المدرسة وأحد تلاميذها علاقة محرمة ؛ ووصل ذلك إلى علم غاندي ، فانتابته نوبة فزع قاسية ، وأدرك مبلغ مسئوليته عن هذا الحادث ، لأن زوجته كانت قد حذرته قبل وقوعه أنها توجس شرا من علاقة هذين الشابين ، وطلبت إليه أن يتدخل للحيلولة بينهما قبل أن تتطور علاقتهما إلى مثل ما انتهت إليه . ولكن سذاجة نفسه وحسن ظنه بالناس لم يساعداه على تصديق مخاوف زوجته وترك الأمور تجري في أعنتها ، حتى بلغت هذه الغاية المستنكرة ؛ ولم يجد عقوبة تكون أبلغ وقعا في نفس هذين الخاطئين من أن يقوم بمعاقبة نفسه على ما فرط في أمرهما . ولكي يحملهما على إدراك مبلغ ألمه وشدة تأثره لما اقترفا من إثم ، قرر أن يصوم صياماً كاملا لمدة سبعة أيام ، ثم يصوم أربعة أشهر لا يتناول في كل يوم منها إلا وجبة واحدة . وقد حاول كل من حوله أن يثنيه عن عزمه ، ولكن الأمر انتهى بأن زاملته في صيامه فريق منهم ، فضاعف ذلك من أثر العقوبة في نفس المزرعة كلها وبخاصة في نفس الشابين الخاطئين . ويقول غاندي في ذلك :

« لقد رفع قراري هذا عن نفسي عبئا ثقيلا ، وأحسست بعده أني استرحت وتنفست به الصعداء . لقد آلم صيامي كل إنسان ولكنه رد الجو صافياً من كل كدر ألم به ، وأدرك كل فرد مبلغ حرمة العمل الذي أوجب

هذا القصاص ، وأصبحت علاقتي بالمذنبين بعد هذا الصيام أشد قوة » .

وعلى هذه الوتيرة سار غاندي في سياسته ، فقد جعل شعاره في جهاده حمل آلام وطنه ، والتكفير عن أخطاء مواطنيه ، وكانت التضحية دستوره في جميع وجوه نشاطه .

* * *

ومن المعروف من صيام غاندي ، أنه ظاهرة من ظواهر سياسته السلمية التي كان اختطها لنفسه ليجري عليها في سبيل تحقيق غاياته ، وأنه حينما أدرك أن السلاح الذي في يد خصومه هو العنف والقوة والبطش والعذاب والسجون في حين أنه هو لا يملك أن يقاوم هذا السلاح بمثله ، عول على أن يشل نشاط خصمه بتجريده من قوة سلاحه . وما دام السيف في يد الخصم يقابله في يد خصمه الدرع والترس ، فليجعل هو درعه في حربه التي اعتزمها أن يصبر على مكاره خصمه ، وأن يقابل كيده بالاحتمال ، وأن يدخل في سجونه بالرضا ، كل ذلك مع الحب والحلم ، ومقابلة العنف بالعفو ، ومواجهة التعصب بالتسامح .

ونحن نريد هنا أن نؤكد هذا المعنى بأمثلة جديدة تعيننا على فهمه أحسن الفهم عسى أن يكون منا من يؤمن بنجاح هذا الأسلوب في حياته الخاصة والعامة ، فيبلغ من خصمه ما يريد دون أن يصطدم به ، أو يدخل معه في عراك .

حدث حينما كان غاندي في جنوب إفريقيا يعاني هو ومواطنوه من اضطهاد حكومتها فنوناً وألواناً أن انتشر طاعون مخيف ؛ فجمع غاندي تلاميذه وأتباعه وأنصاره ، وجعلوا من أنفسهم فرقاً لحصر المرضى ، والعمل على إسعافهم ، ومعاونة الحكومة في الخلاص من ورطتها إزاء هذا الخطر الماحق الذي كان يهدد الدولة بأن تسودها الفوضى ويعمها الخراب . وثارت بعد ذلك قبائل الزولو ، وتحرج أيام ثورتهم موقف الحكومة ، فتقدم غاندي وجماعته مرة أخرى ، ونظموا فرقاً للإسعاف كانت لها اليد

الطولى فى تلطيف ويلات القتال ، وتخفيف آلام المقاتلين .
ولقد كانت مواقف غاندى فى هذه الشدائد من النبل والترفع بحيث لم يستطع فهمها جمهرة الهنود ، بل لقد عجز عن إدراك كنهها بعض المقربين منه ، والمنتمين إليه ، وتألفت بين الهنود جماعات صارت ترميه بالرياء الاجتماعى ، وتواجهه بأنه ليس إلا صنيعة من صنائع خصومهم ، اتخذ فيهم هذه السياسة ليلقى فى روعهم أنه ضحية وشهيد ، وما هو فى الحقيقة إلا قائد خائن يريد أن يقود صفوفهم إلى الهزيمة والاستسلام والخنوع .

ذكرت مسز بولاك فى كتابها « غاندى الرجل » أنها حضرت ذات ليلة حفلا هنديا عظيما كان غاندى خطيبه الأول ، فلما انتهى الحفل ، وهمّ غاندى بالانصراف ، خرجت معه مسز بولاك . وبينما هما يجتازان باب القاعة التى كان فيها الاجتماع لمحت شبحاً مختفياً فى ظل الباب . وتقول مسز بولاك ، وهى تسرد هذه القصة فى كتابها :

« ويبدو لى أن مستر غاندى لمحه أيضاً ، فإنى رأيته ينطلق نحوه بسرعة ، ويضع يده فى ذراعه ، ثم يسير الرجلان قليلا جنباً إلى جنب ، وهما يتحادثان بصوت منخفض لم أتبين منه ما يقولان ، ولكنى ما لبثت أن رأيت الرجل الآخر يسلم غاندى شيئا فى يده ثم ينصرف . وما كاد غاندى يعود إلىّ حتى ابتدرته بالسؤال عما كان يريد منه ذلك السيد ، فرامنى أن أسمع جوابه ، وهو يفضى به إلىّ فى هدوء وثبات عجيبين ، إذ يقول :

— إنه كان يريد أن يقتلنى !

فصحت فيه : يقتلك ؟ ! أهو مجنون !

قال : كلا ! ولكنه يحسب أنى أخون وطنى ، وأتآمر مع الحكومة ضد بلادى ، ثم أتظاهر بأنى أعمل لخدمتها .

قلت : ولكن مثل هذا الشخص لا يصح أن يؤمن ، ويجب تبليغ البوليس ليلقى عليه القبض فوراً ! فهو مجنون ولا شك .

قال : لا . إنه ليس بمجنون ، ولكنه مخطئ فقط ، وقد أقنعته بخطئه فما لبث أن سلمنى بيده المدية التى كان يريد أن يغمدها فى صدرى . ولو أنى ألقيت القبض عليه دون أن أتفاهم معه لجمات منه عدوا لى فى حين أنه الآن صديق .

* * *

ولم تطل إقامة غاندى فى جنوب إفريقيا ، فإنه عاد إلى وطنه ، ووضع برنامجاً شاملا للإصلاح الاجتماعى الذى أخذ على نفسه قيادة حركته . وكانت أهم الأدواء الاجتماعية التى تكربه انتشار الخمر بين الهنود ، وتفشى الزنا ، وزواج الأطفال ، والفقر ، والشقاق الدينى ، ونظام المنبوذين .

ولم يكن يكتفى غاندى فى محاربة هذه الرذائل بالمقالات والخطب والأحاديث ، لأنه كان لا يؤمن فى التعليم إلا بالقدوة وبالمران . ففى معالجة الفقر مثلا دعا إلى المغزل ، وطالب أتباعه بأن يجعلوا شعارهم فى الحياة : « المغزل ! المغزل ! » واتخذ هو لنفسه مغزلا لم يكن يفارق يده .

وفى محاربة الخمر كان من وسائله أن يدعو أنصاره إلى الحانات فيملأون أرجاءها ويستقرون فى مقاعدها لا يريمون ، حتى إذا أقبل الشاربون لا يجدون مكانا يجلسون فيه فينصرفون .

أما تفشى الزنا فكان من أهم أسبابه نظام زواج الأطفال ، إذ يزف الفتى وهو دون العاشرة إلى الصبية لم تبلغ مثل سنه ! فإذا حدث أن مات عنها بعد عام أو عامين رملت ، وقُضِىَ عليها أن تعيش بقية حياتها وهى أرملة ؛ فإن التقاليد فى الهند تقضى بأن الزوجة التى يموت عنها زوجها لا يجوز لها أن تتخذ من بعده بعلا غيره ، وهكذا يمتلئ المجتمع بالملايين من هؤلاء الأرامل اللاتى لا يعرفن الطريق إلى الرجل إلا من طريق الزنا . ولذلك جعل غاندى دعوته إلى أنصاره من الشبان ألا يتزوجوا إلا من هؤلاء الفتيات الأرامل .

أما المنبوذون فهم سبعون مليونا من الأنفس البشرية

تعيش فى الهند على طريقة لا يرضاها أحط الناس أو كادوا لأحط الحيوانات مكانة . فقد كان من المحرم على المنبوذ أن يرفع بصره إلى وجه غير المنبوذ ، وكان من المحرم على الهندوكى أن يلمس المنبوذ لأنه من الأنجاس ، وكان الهندوكى لا يتطهر بعد لمس المنبوذ إلا بأن يلمس مسلماً — ولم أفهم إن كان ذلك لطهارة المسلم ، أم لأن النجاسة لا تزول فى نظر الهندوكيين إلا بما هو أنجس منها !! .

ولم يلق غاندى من الصعاب فى حملة الإصلاح التى قام بها مثل ما لقى من الهندوكيين عندما دعاهم إلى مؤاخاة المنبوذين — كما أنه لم يألم لشىء مثل ألمه حينما وقعت الواقعة بين المسلمين والهندوكيين ، إذ كان المسلمون يذبحون الأبقار فى الأضاحى فيثور الهنود ، ويمر الهندوكيون بأنصابهم وموسيقاهم أمام المساجد فيثور المسلمون . واندس بين الفريقين ممن حلا له الصيد فى الماء العكر فاشتعلت نيران الفتن فى كل مكان . ووقعت المصادمات الدامية التى زادت فى حزازات النفوس وعز علاجها على كل عناص . وكانت محنة غاندى فى هاتين الناحيتين محنة قاسية لم يعرف كيف يواجه الموقف فيها إلا بالصيام . فصام صومته الكبرى الأولى عقب اصطدام المسلمين بالهندوكيين « كتكفير وصلاة » وقال فى ذلك : « إنى لم أحتمل وقوع الحوادث الأخيرة ، وعجزى عن وضع حد لها غير محتمل أيضا . وقد علمنى دينى أن أصوم وأصلى كلما وقعت فى محنة لا أجد سبيلا إلى الخلاص من أحزانها . وقد فعلت كما أمرنى دينى ! » .

أما نكبة المنبوذين فى دنياهم وفى دينهم فكانت سببا فى صومته الكبيرة الأخرى التى كاد يموت فيها . ولم يكن يطلب بصيامه هذا إلا أن يفتح الهندوكيون أبواب المعابد للمنبوذين . وقد بلغ من حدبه على هذه الطائفة والعمل على رفع مستواها أن اتخذ لباس أهلها لجسده ، واصطنع تقشفهم لنفسه . وقال فى نداء له بهذه المناسبة : « إننا نحن الهنود إن كنا فى هذه الدنيا نعامل كالمصابين بالبرص فذلك راجع إلى أننا نعامل نحن الهنود بمثل هذه المعاملة . لقد لفظنا المنبوذين من بيننا ولذلك فقد أصبحنا نحن أنفسنا منبوذى الامبراطورية البريطانية . . . . . دعوا المنبوذين يشربون الماء من آباركم ، خذوا أطفالهم فى بيوتكم ، لا تلقوا لهم نفاية موائدكم ، لا تذلوهم وعاملوهم معاملة الأحرار فإنكم لن تنالوا البر حتى تبروهم .

ومما يلفت النظر فى تاريخ صيام غاندى أن أزمته كانت دائما تشتد فى اليوم الحادى عشر من أيام صومه — ويذكر القراء أن النشرة الطبية التى صدرت فى اليوم الحادى عشر من صيامه الكبير الأخير — فبراير سنة ١٩٤٣ — كان نصها : إنه « إذا لم يوقف صيام مستر غاندى فورا فإن الفرصة فى إنقاذ حياته تكون قد أفلتت » . وهذا نفس ما حدث له فى مرات صومه السابقة . ففى صومته الأولى يئس منه أطباؤه فى اليوم الحادى عشر ، وقرروا أن حياته مهددة بخطر قريب ، وحاولوا أن يحملوه على تناول شىء من الطعام ، وتدخل أصدقاؤه المقربون وألحفوا عليه فى طلب العدول عن الصيام إبقاء على نفسه وعلى الغايات الجسيمة التى يجب أن يعيش من أجلها ، فكان كل جوابه أن تناول رقعة وكتب لهم فيها : « كونوا مؤمنين بالله » ؛ فلما لم تكفهم هذه الكلمة وأصروا على مراجعته فى مداومة صومه تناول القلم مرة أخرى وكتب تحت كلمته الأولى : « لقد نسيتم قوة الصلاة ! » . ثم لم يزد فى مجادلته لهم على هاتين الكلمتين .

* * *

وكانت قوة صلاة هذا الزعيم الكبير سببا مباشراً فى تغلبه على متاعب صيامه ، واجتيازه مراحل الخطر التى كانت تعترض هذا الصيام بسلام .

فاللهم ثبت قلوبنا على الإيمان بك ؛

واجعل صلاتنا لك قوة نتغلب بها على هذه الحياة ! .

حسن مبارك

٢ - سلاح الدعاية

سبق تكلمنا فى المقال الماضى عن الدعاية وقيمتها فى الحرب وفى السلم وعن استغلال المحاربين لها . والآن نتكلم عن الأسلحة السرية والجبهة الثانية وصلة الدعاية بها .

الأسلحة السرية :

كان غرض الألمان الرئيسى من نشر أخبارها التأثير على جنود الأعداء وزعزعة الثقة فى نفوسهم .

ولنضرب مثلا على ذلك أنه حدث فى إحدى المرات أن فصيلة من الجنود الألمان تقدمت فى حركاتها كثيرا فبعدت عن مراكزها وأصبحت فى عزلة ، فلجأ قائدها بعد أن نفدت ذخيرته إلى آخر محاولة لإنقاذ موقفه ، فأمر جنوده بإطلاق نوع من الصواريخ متعددة الألوان ، فظنه الأعداء سلاحا سريا جديدا من الأسلحة الفتاكة وولوا هاربين تاركين الميدان للألمان ، فنظموا صفوفهم من جديد .

وقد ورد فى رسالة لمراسل أمريكى فى برلين أن أحد المتكلمين بلسان وزارة الطيران الألمانية أكد أن الطيارين الألمان أخذوا يستخدمون فى غاراتهم على لندن جهازا سريا للرؤيا خلال السحب والضباب والأمطار كما لو كان الجو صحوا ، ولذا فقد كانوا يسمونه « أشعة رونتجين للرؤية خلال السحب » . وقد ذكر ذلك المتكلم أن هذا الجهاز الذى يشبه جهاز التليفزيون الصغير وضع فى قاذفات قنابل « تكسير السحب » .

ثم أعقب هذا المراسل هذه الرسالة برسالة أخرى أوضح فيها أن متكلما ثانيا بلسان وزارة الطيران الألمانية ذكر فى بيان له أن سوء الأحوال الجوية كان سببا فى فشل الغارات الألمانية على بريطانيا . وقد أشارت صحف نيويورك متهكمة إلى هذا البيان .

وكان الإيطاليون يذيعون باستمرار أن من ضمن الأسلحة السرية التى كانت لدى دول المحور ، غاز لا رائحة له ولا يرى بالعين ، من خواصه شل الأعصاب ؛ أو أن هنالك آلة اخترعت لكتابة الرسائل على شكل رموز خفية ؛ أو غواصات لحمل آلاف الجنود ؛ أو أن لديهم أشعة خفية ؛ أو وحدات حربية سرية أو جنودا من الشبان غير المتزوجين تقل سنهم عن الثالثة والعشرين على أهبة الاستعداد لغزو بريطانيا بحرا بواسطة زحافات صنعت خصيصا من الفلين للسير بها على سطح الماء بسرعة خمسة أميال ونصف فى الساعة .

وقد ردت الدعاية البريطانية على ذلك بأن البريطانيين كانوا يجربون طريقة جديدة لإسقاط الطائرات الألمانية ، وهى ليست أشعة ولا مدفعا مضادا للطائرات ولا بالونا . كما أذاعوا حينذاك أنهم قد يكون لديهم دبابة سرية أو سلاح سرى للدبابات .

وذكر أحد الكتاب البريطانيين أن النازيين استفادوا من هذه الدعاية ومن تهديدهم بغزو بريطانيا أكثر من فائدتهم من طائراتهم المنقضة أو فرقهم المصفحة ، لأنهم جعلوا البريطانيين لا يهدأ لهم بال وفى شغل شاغل بهذا الأمر متوقعين حدوثه بين لحظة وأخرى .

وقد نشرت الصحف الأمريكية بعض فقرات من الإذاعات الإيطالية والسويدية والسويسرية التى تلقتها محطات بريطانيا عن الغزو ، وقد ورد فيها ذكر تحليق جورنج بالطائرة فوق الناحية الإنكليزية ، وقول الفيلد مرشال كيسلرنج عن استعداد النازى لهجومهم العظيم بأسلحة سرية وطرق مستحدثة ، وأنه كان يؤلمه تخريب لندن ويفضل أن لو سلم الإنكليز دون تخريبها .

وكان من دعايات اليابان محاولتها فى بدء الحرب فصل أستراليا عن الحلفاء ، كما حاولت إضعاف الروح المعنوية لدى

الأمريكيين بشبيهم الفرنسيين، وادعائها أن « خط ماجينو » الذى أنشأه الأمريكيون فى المحيط الهادى حطم . وقد حاولت إظهار أمريكا بأنها غلبت بالرغم من أنها لم تكن قد بدأت الحرب بعد .

الجبهة الثانية

أذاع المحور حوالى أواخر شهر أبريل سنة ١٩٤٢ أن بريطانيا والولايات المتحدة لم تستطيعا غزو القارة الأوربية لأن أساطيلها « أعجزت » أساطيل الحلفاء وسفنهم التجارية ، وأن أية محاولة من جانب هذه الدول سيكون مصيرها الفشل الذريع بالنسبة لاستعداد المحور .

وكم من مرة دعا الألمان الحلفاء للهجوم وعنوا ذلك لثقة القيادة الألمانية من أنهم كانوا سيلاقون نصيبهم المحتوم .

وكان الألمان يستعرضون فرقاً من خيرة جنودهم فى شوارع باريس على أنها قادمة من الجبهة الروسية للدلالة على استعدادهم ، وعلى أنه كان لديهم من الجنود كثير ، كما ألقت طائراتهم على جنود الروس نشرات كتب عليها : « أين الجبهة الثانية ؟ » لإضعاف روحهم المعنوية .

وما فتئت الدعاية الروسية أن ردت على ذلك وهى تضحك ملء شدقيها معلنة أسماء وعدد الوحدات الألمانية التى نقلت من الغرب إلى الشرق ، وأنه لم يكن لدى الألمان من يدافع عن الجبهة الغربية .

ثم أخذ الراديو الروسى يذيع باللغة الألمانية محذراً الشعب الألمانى من خطر الجبهة الثانية ومن هجوم عظيم عليهم فى الغرب . كان غرضهم من ذلك إبقاء الفرق النازية هنالك ، ولو لم يتحقق فتح جبهة ثانية ليخف ضغط الألمان على الروس فى حربهم ...

كلمة ختامية

كان لعدم ارتباط مكاتب الدعاية أو « مكاتب الاستعلامات أو الأنباء » — كما كانت تسمى فى الولايات المتحدة وبريطانيا وباقى بلاد الأمم المتحدة — بعضها ببعض ، أن شوهت الحقائق بعض التشويه لا عن قصد ولكن لعدم توافر الدقة .

وقد تبين لمراسل المانشستر جارديان المختص بالشؤون البحرية من البلاغات التى كانت تذيعها الأمم المتحدة أن المدمرات اليابانية التى قالت إن أساطيلها فتكت بها أكثر مما كان موجوداً فعلاً لدى اليابان عند بدء الحرب . كما تبين له من البلاغات البريطانية التى كانت تصدر من الحرب فى الصحراء الغربية وهجوم روميل ، أن خسائر المحور التى ورد ذكرها بها أكثر مما كان لدى روميل ، وقد أثر هذا تأثيراً سيئاً عند تقدم ذلك القائد فى بادئ الأمر .

إن الأمم المتحدة اتفقت على المسائل الرئيسية الخطيرة المتعلقة بالدعاية ، ولكنها تركت غيرها من المسائل ، كما شاهدنا فيما تقدم ، بعكس دول المحور فكانت لا توزع أخباراً واحدة على مختلف أنحاء العالم ، فما أعد منها للإذاعة الخارجية لا يذاع غالباً فى داخل البلاد ؛ وهى طريقة لا بأس بها إلى حد ما إذا روعى أن للأمة حق الاطلاع ما أمكن على مجريات الأحوال دون تسرب شىء إلى الأعداء قد يفيدهم بدل أن يضللهم .

محمد محمد نعمت

لزوميات مخيمر

كلما ذكرت اللزوميات قبل اليوم ذكر إلى جانبها أبو العلاء المعرى وحده غير مدافع ، وكلما ذكرت اللزوميات بعد اليوم اقترنت بالمعرى وأحمد مخيمر الشاعر المعروف ، الذى هاله أن يخلو الأدب العربى خلواً تاماً من لزوميات جديدة بعد المعرى ، فتصدى لهذا العمل الشاق ووفق فيه إلى حد كبير .

يقول مخيمر فى مقدمة لزومياته صفحة ٧ : « وعلى الرغم من أنى لا أملك قدرة المعرى اللغوية ولا تؤثر فى نفسى ظروف كظروفه — فقد رأيت أن أعارضه فيما ذهب إليه بهذا الضرب من الكلام الذى اختاره هو لنفسه وقيدها به وساقها إليه ؛ وقد دفعنى إلى ذلك أنى أردت أن أسلك فى التعبير سبيله التى سلكها ، وأن أحمل لشعرى نفس التأثير الموسيقى الذى أراد أن يحمله لشعره ، وأنى كنت أشعر شعوراً قوياً بأن من العجز أن تبقى لزوميات المعرى هكذا تنتقل من جيل إلى جيل لا يلتفت إليه أحد بالمعارضة أو التأييد ، كأن القرائح عقمن بعد أبى العلاء » .

لهذا السبب عكف مخيمر على نظم لزومياته القيمة وجعلها كما قال فى صفحة ١٢ « قسمين : قسما خاصاً بالحياة والوجود ، وأهديته إلى روح أبى العلاء اعترافا منى بفضله علىّ وتقديراً لشعره الرفيع ؛ وقسما خاصاً بالسياسة والاجتماع وأهديته إلى الشهداء فى العالم العربى كله ، وهم الذين ضحوا بحياتهم فى سبيل تحرير أوطانهم ، وكانوا الدليل الدالّ على همجية الأوربيين وانحدار نفوسهم إلى درك مشين من المادية البائسة » .

وفى القسم الأول يعرض الشاعر الحياة عرضاً واسعاً عميقاً يتناول كل ناحية من نواحيها ، ويشير إلى كل خبيئة من خباياها ، ويقف أمام الوجود يكشفه للناس ويجلو ما خفى عليهم منه ، وينفذ إلى أدق أسراره وأعمق أغواره يتملاها ويتقصاها ويتأمل شتى نواحيها ومعانيها ، ويخرج من كل ذلك ظافراً بفكرة « الخلود » ليقنع هؤلاء المتشائمين الظانين بالله ظن السوء ، الذين يرون أن الحياة إلى فناء بارد رهيب ، فلم يؤمنوا بالخلود لأنهم لم يعرفوه كما عرفه مخيمر ، وقال فيه :

لئن صح ما زعم الزاعمون
فويل لأيامنا الفانيهْ !
فما أجتنى نعمة لا تدوم
وما أشتهى لذة فانيهْ
وكيف وهذا الحيا الجميل
وقد رف مبعث إغانيهْ
أرى فى سناه الوجود الرحيب
وأكشف أعماق وجدانيهْ
وأوقن أن رحاب السماء
إذا ما دنا أصبحت دانيهْ
ويبعث لى فرحة بالبقاء
تبدد شكى وأشجانيهْ

وهو يعلل الخلود تعليلا منطقياً طريفاً حين يقول :

كل طفل يأتى إلى هذه الدنـ
ـيا دليل على خلود الحياة
ولعمر الأرواح بالخلد أنقتْ
بذرها آية من الآيات

ويصور الخلود تصويراً فلسفياً فيه عمق ورسوخ فيقول :

إن خلود الحياة عاطفة
يكنها فى ضميره الأبدْ
لذاك هامت به غرائزنا
ولم يزعها الشقاء والكبدْ
وهل فناء الأفراد يكربها
وإنما الزبد فوقها زبدْ

ثم يرد على المتشائمين الذين يرون الحياة إلى فناء، ويسكتهم بالحجة الدامغة والقول الفصل:

إذا صح أني لست في الكون خالداً
فما لي صبًّا بالحياة وبالخطر؟!
وإن امرأ يحيا ويعلم أنه
سيفنى لذو قلب على عطفه حجر
دعوني أستمتع بعيشي خالداً
فما أنا يا للناس — بالحجر الصلد

ويحس خميس بعقله الباطن كأنما ندت منه كلمة «الحجر الصلد» وهو القائل:

في كل شيء على قدر الحياة به
حس من العالم الساعي بقربه

فيقول في قطعة «الجماد الحي»:

عز الذي أحيا الجماد فكم ترى
حجراً تجيش به الحياة فيورق
لو كان لم يألم لضربة معول
ما طار منه لهيبه المتفرق
والحس ينتظم الوجود كأنه
شمس تبث النور ساطعة تشرق
فينا وفي الأحياء طراً نبضه
رغم اختلاف صفاته مترقرق!

وهو بهذه الأبيات المترقرقة من ينبوعه الزرار يرد على المعري قوله:

عز الذي أعمى الجماد فما ترى
حجراً يحس بما كل أو يسرق!!
لا حس يؤلمه فيظهر جزعاً
إن راح يضرب ماطس أو مطرق

وفي القرآن الكريم: «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون» آية ٧٤ سورة البقرة.

ويعود خميس لتوكيد معناه في حياة الجماد أو في إحساسه بالحياة على أقل تقدير فيقول في «التراب»:

لا تحسب الترب يوماً إن تعدله
عصاك لا يتأذى حين تضربه
امل قرية في الغصن هاتفة
ظلت بما هتفت في الغصن تطربه
كأن نائله من أرضه قدر
عن أنس أترابه أمسى يغربه
في كل شيء على قدر الحياة به
حس من العالم الساعي بقربه

ويتقدم خميس — في هذا المضمار — خطوة إلى الأمام فيقول:

الكون أجمع لو علمت تشابهت
في كنهها أحياؤه وجماده!
سر الحياة بذاك أو في هذه
يعلو ويهبط والشعور عماده

والشعور عماده، هاتان الكلمتان بدواوين مما يصدر في هذه الأيام، أيام الحرب والغلاء ووزارة التموين!

وتظل فكرة الخلود أعلى نغمة في قيثارة الشاعر الموهوب المتفتح للحياة، حتى وهو يخاطب صديقه الشاعر المبدع عبد العزيز السعدني في بيتين اثنين قائلا:

عبد العزيز السعدني أنلتقي
في الود والرأيان مختلفان
لجماع رأيي كل شيء خالد
وجماع رأيك كل شيء فان

وتصحبه هذه الفكرة ذاتها وهو يمدح معالي إبراهيم دسوقي أباظه باشا «أبا الشعراء» بقوله:

لنبعك مد راحته رجائي
لينقع ظمأه من بعد خمس!

سجاياك الحسان وفيض صوتى
فكيف يطول فى مدحيك همسى
تدفق دمعــة وغرار سيف
وزأرة ضيغم وضـيـاء شمس
وتبتكر المعــالى كل يوم
فتصبح فى محاسنهـا وتمسى
ولو أنى قضيت وجئت تدعو
سمعت صداى من ظلمات رمسى

ويطول بنا الاقتباس من شعر مخيمر — شاعر الخلود — بعد ما مر بك من شعره فى الخلود ، وقد أورده واضحاً جلياً فى مقدمة ديوانه ثم فى شعره كله . وشعره كله على هذا النسق الجميل الذى رأيت ، وإن كان فى أُروميانه أجود من ذلك بكثير .

وفى القسم الثانى يبدو أحمد مخيمر الشاعر الشاب على صورته النفسية الصحيحة صريحاً كل الصراحة ، يهجم على سعد زغلول لأنه فى رأيه أكذوبة « الأجيال » ! وسواء أخالفته أم لم تخالفه فأنت تقره على قول الحق فى ضريح سعد ، وفى كل ضريح :

شادوه من جهـد الفقير وبؤسه
ودموع شـعـب صارخ يتألم
لو كنت أملك معولا لهدمتـه
فالبغى فيــه راقد متنعم

فلسنا فى حاجة إلى الأضرحة والتماثيل والنصب التذكارى ونحن نسمع «أسطوانة الفقر والجهل والمرض» تتكرر كل يوم ! وهو يفضل القطن على الأهرام لنفس هذا السبب . ولنفس هذا السبب أيضاً يقول فى كاتبة مصرية معروفة :

عجبت لمن تبكى على البؤس فى القرى
كأن قلبها الباكى على الرحمة انطوى
ولو أنها باعت مساحيق وجههـا
لأغنت بها بيتين ناما على الطوى

وأفضل أن يقول : كأن طرفها الباكى ، لأن القلب لا يبكى إلا وهو منطو على العطف والرحمة بحق . ثم يندد بالحزب النسائى فى مصر لأن النساء :

تزاحمن الرجال وذاك جهـل ،
وقمن به الفـــداة وما نهضنه
لقد أركبن خيـلا جامحات
وأخشى أن يملن إذا ركضنه

من قصيدة طويلة تعد من غرر شعر الديوان . ولا ينسى الشاعر أن يهزأ بسياسة انجلترا وفرنسا وأمريكا ، ويتحدث عن نظام الإقطاع القائم بمصر الآن ويسخر من نوابنا « المحترمين » لأنهم :

صرعى الضمائر لا يعنيهم خلق
ولا يحركهم نبـل ولا شرف
يظـل أعلى رجاء يحلمون به
أن ينقش الثوب أو تزّين الغرف
وأن تناط على الأضلاع أوسمة
وأن يمـد رواق الراحة الترف
إذا رأوا مصر تبكى أظهروا جزعا
وأبطنوا السخر منها حين تنحرف

ويمتد به صراحته فيتحدث فى آخر أُروميانه عن قضية قتل مشهورة ، ويضم صوته إلى القاتل ويتجنى على القتيل ويسوغ رأيه بحجج شعرية جيدة لا بأدلة منطقية معقولة ، ومهما خالفته هنا فستعجب بشعره ، والفن للفن كما يقال .

وأحسبنى لست فى حاجة إلى الإشادة بأسلوب مخيمر فى الشعر ، وقد أوردت منه نماذج تدل على قوته وتمكنه وصلته الواضحة بالأدب القديم فى اللفظ الجزل واللغة الفصحى ، وصلته بالأدب الحديث فى المعنى الطريف والتفكير السديد وظهور مسحة من الفلسفة عليه ، يكسو ذلك كله روح مخيمر وشخصية مخيمر فى كل قصيدة وفى كل بيت .

وبالرغم من أنه يعارض المعرى فى أُروميانه فلم تظهر

شخصية المرى مع قوته وضخامته وجهارة صوته ، وإنما ظهرت من بعيد وفى خفاء وغموض شخصية ابن الرومى بإيثاره الدقة واستقصائه المعانى وتتبعه شواردها ، وهى صفات عامة فى بعض مدارس الشعر الحديث عمادها الأول ابن الرومى لا غيره من الشعراء .

وتمتاز لزوميات المرى بأنها تفتح باب الزهد فى الحياة وتجلو صورها على حقيقتها وتشكك فى كثير من المتقدات ، وبأنها معجم لغوى ضمن الحياة لكثير من مفردات اللغة ، وبأنها تاريخ لأفكار وآراء شاعت فى عصر أبى العلاء .

وتمتاز لزوميات خيمر بتفاؤل حلو وإقبال على الحياة بلذة وشغف ، وبوضوح صورة العصر الحاضر فى السياسة والاجتماع أشد من وضوح صورة عصر أبى العلاء فى لزومياته ، وبما فيها من فكاهة خفيفة لا تكاد توجد فى شعر المرى كقول خيمر :

فا الجسم بعد الروح إلا خلاصة
من الطين والديدان تحسبها حلوى

وكقوله فى « حديقة الأطياف » :

لا يلبث الدهر أن تترى عجائبه
حتى تعد إلى المريخ أسبابها
حديقة الدر صرت سوف تتبعها
حديقة تجمل المحسوس أطيابها
إذا صعدنا إلى المريخ بعد غد
وهزنا الشوق زرنا الأرض أضيافا

وقوله « أن تترى » خطأ لأن تترى اسم مقصور لا فعل كما هو مشهور !

وتمتاز لزوميات خيمر أيضا بحرارة وحماسة وجرأة صريحة على إبداء آرائه فى صور حادة قد يكون فى بعضها إسراف أو غلو نتيجة لفورة الشباب وهو فى سن الثلاثين ؛ بينما نرى فى لزوميات المرى هدوء الكهولة حينا وبرود الشيخوخة حينا آخر ، وغموضا مصطنعا وعجزا عن مجابهة عصره بآرائه حتى لا يتهم بالمروق والإلحاد ، وقد نظم لزومياته فى وهن العمر بعد الأربعين .

ولا بد لى أخيرا من وقفة قصيرة عند بعض التعبيرات كقول خيمر ص ٢١ :

فما ابتغى نعمـــة لا تدوم
وما أشتهى لذة غايبـــه !

قالوا : الأصوب : فما ابتغى نعمة و « لا » اشتهى لذة .

وكقوله فى ص ٤١ :

أزهارها الفيح كأحلاميـــه
وظلها النضر كأوهاميـــه

الفيح معناها الواسعة ، لا كما يريدها وصفا للرائحة .

وفى ص ٥٤ :

غدا الحُـلْمُ الرجو بعدُ حقيقةً
من العالم الأعلى تبين وتُعرب

والصواب : غدا الحلم المرجو (قبل) كما يدل سياق الأبيات فى « العالم الأعلى » . وفى ص ٦٦ :

وقطفنـــا أزهاره البيض أحيا
نا وحينـــا أزهاره الحمراء !

والصواب أزهاره الحمر فى آخر البيت . وفى ص ٨٤ عجبت لمن تبكى على البؤس فى القرى ، وهو يريد : تبكى من البؤس لا عليه . وفى ص ٩٨ : بحجة أن القرآن يقول : انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، والصواب بحجة أن « الحديث » يقول . وفى ص ١١٢ :

كانوا لصوصاً ثم صمنا وقد عرفنا وكنتَ لصاً

وهو يريد أن يقول : كانوا لصوصا وكنت لصا لا غير .

وكل هذه الهنات اليسيرة لو — صحت — لا يمكن أن تنقص من جمال هذا العمل الفنى الضخم الذى اضطلع به شاعر « شاب » ، تمكن فى الوقت الذى عمت فيه التفاهة وكادت تصبح هى اللون الغالب على الشعر الجديد مع الأسف الشديد .

أحمد أحمد العجمى

عبور الأطلس في طيارة

بدون قائد

أعلنت قيادة سلاح الطيران الأمريكي في واشنجطون في يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤٧ أن طائرة أمريكية ضخمة من طراز سكايماستر (C54) قد نجحت لأول مرة في عبور المحيط الأطلسي من الغرب إلى الشرق بدون قائد. وبذلك سجل فتح جديد في عالم الطيران، له ما بعده من نتائج بعيدة المدى. فقد قامت الطائرة المذكورة في الساعة الخامسة من مساء الأحد ٢١ سبتمبر بتوقيت نيويورك من مطار ستيفنسفيل في نيوفوندلاند، وهبطت في مطار برز نورتون بالقرب من لندن بعد ذلك بعشر ساعات وربع تماماً، بعد أن قطعت ٢٤٠٠ ميل، دون أن تمس آلاتها الكثيرة يد بشرية. ووصل ركاب الطائرة الأربعة عشر سالمين، وكان من بينهم تسعة من الطائرين المهرة، ليتولوا القيادة إذا حدث طارئ يستدعي ذلك، أما الخمسة الآخرون فكانوا مراقبين من السلاحين الجويين الأمريكي والبريطاني، ومندوب لشركة سبري الأمريكية التي تصنع الجيروسكوبات؛ والجيروسكوب آلة لا غنى عنها لحفظ توازن الطائرة واستقامتها في سيرها.

وقد بدأت الرحلة بأن أمدت الطائرة بالوقود اللازم، ثم سحبتها قاطرة فوق أرض المطار لتكسبها السرعة اللازمة لامتطاء متن الهواء، ثم أرسلت إشارة لاسلكية أدارت محركات الطائرة، فارتفعت الطائرة بقدر معلوم، ثم حولت قيادتها الأوتوماتيكية بحيث تتلقى الإشارات اللاسلكية من سفينة في عرض المحيط الأطلسي، بالقرب من نيوفوندلاند. واستمرت هذه السفينة تقود الطائرة لاسلكياً، وتتبع حركاتها واتجاهاتها، وتشرف على كل صغيرة وكبيرة في داخلها بفضل أجهزة التوجيه اللاسلكي المعقدة الموضوعة داخل الطائرة، وهي الأجهزة التي تتولى تحريك المفاتيح وضبط عجلات القيادة، وحساب اتجاهات الريح وشدته، وتسجيل الارتفاع عن سطح البحر ومدى الرؤية، وغير ذلك مما يفعله ملاحو الطائرات العادية طيلة تحليقهم في الهواء.

وبعد أن عبرت الطائرة منتصف المحيط تخلت عنها السفينة الأولى، وتولت إرشادها سفينة أخرى بواسطة موجات لاسلكية مخالفة في الطول الموجات اللاسلكية الأولى. واستمر الاتصال مع هذه السفينة حتى اقتربت الطائرة من المطار بالقرب من لندن؛ وعندئذ أعد رجال المطار جهازاً لاسلكياً خاصاً ليرشد الطائرة عند الهبوط، ووضع هذا الجهاز في سيارة خاصة اتخذت موقفها في طرف المطار، واستقبلت الطائرة حين قدومها، وتولت إعدادها للنزول بأن أبطلت المحركات وأسقطت عجلات النزول، وضبطت نقطة لمس الطائرة الأرض وسيرها عليها حتى استقرت بأمان.

وقد تقدم فن اللاسلكي والرادار تقدماً كبيراً خلال السنوات العشر الأخيرة، وخاصة في سني الحرب. وسبق أن أرسل الألمان في إيطاليا على الحلفاء دبابات صغيرة محشوة بالمواد المتفجرة وموجهة لاسلكياً إلى خطوط الدفاع. كما أنشئت مصانع كاملة في أمريكا بها أفران وآلات ومقابض ومفاتيح لا تمسها يد، بل يتم الإشراف عليها عن بعد بواسطة التوصيلات اللاسلكية والكهربائية؛ وأبلغ مثل على ذلك مصانع القنابل الذرية ومصانع المواد المتفجرة التي لا يؤمن خطر الاقتراب منها.

إبراهيم حلمي عبد الرحمن

قصة الأسبوع

أناتول فرانس

يروي قصة حبه الأول

كنت صبياً مفرط الذكاء ، ولكنى ما بلغت سن السابعة عشرة حتى تبدلت فصرت غبيا . وقد بلغ من حيائى وقتئذ أنى لم أجالس الناس أو أحييهم حتى يبلل العرق جبينى ، وكانت طلعة المرأة توقعنى فى شبه ذهول .

عرفت بين صديقات أبى سيدة تاقت نفسى إلى إطالة السكت معها والتحدث إليها . كانت هذه السيدة أرملة موسيقار يدعى « أدولف جانس » مات فى ميعة شبابه مشهوراً . وكان اسمها « أليس » . ولم أتبين قط لون شعرها أو عينيها أو أسنانها ، وكيف يستطيع الإنسان تبين ما يموج ويلمع ويتلألأ ويبهر ؟ ! ولكنى كنت أجدها أجمل من الأحلام ، ويخطف طرف منها لألاء ليس له فى الطبيعة نظير . واعتادت أمى أن تقول عنها إن الذى يتفرس فى قسمات وجهها لا يصادف حسنا غير عادى . واعتاد أبى عند سماع مثل هذا القول منها أن يهز رأسه هزة غير الصدق ؛ ذلك لأن هذا الوالد الفضال كان يحذو حذوى ، ولا يتفرس فى قسمات وجه هذه السيدة . ومهما يكن من أمر تفاصيل ملامحها فإنها كانت فى مجموعها جذابة باهرة ، وكل ما أرجو ألا تصدقوا أمى ، فقد كانت « أليس » جميلة حقا . كان حسنها يجذبنى إليه ، والحسن شىء وديع ، وكان كذلك يفزعنى ، والحسن شىء رهيب .

بينما كان أبى يستقبل فى إحدى الليالى بعض أصدقائه دخلت علينا « أليس » غرفة الاستقبال ، وكان يرتسم على وجهها من أمارات طيبة النفس ما رد إلى بعض شجاعتى . وكثيرا ما كانت تظهر بين الرجال بمظهر الملكة ذات السلطان وهى تلقى الفتيت للعصافير . ولكنها كانت تتبدل فجأة فتبدى تعاليا وزهوا ، ويتصلب وجهها اللطيف ، ويتحرك منديلها المعطر كأنها تهدد به أسباب الاشمئزاز المحيطة بها . ولم أستطع تفسير كل هذا فى حينه ، ولكنى أستطيع تفسيره الآن . فقد كانت « أليس » غانية ذات دلال .

قلت لكم إنها دخلت قاعة الاستقبال فى تلك الليلة هاشة راضية ، وأنها ألقت على كل فرد من الحضور ، حتى على أ كثرهم استكانة وهو أنا ، فضلة من ابتسامها . وقد علق بها نظرى فلم يتحول عنها . وخيل إلى أنى لمحت فى عينيها أثر حزن دفين فاضطرب كيانى ، ذلك لأنى كنت كما ترون فتى طيب القلب . وطلب إليها الحاضرون أن تعزف على البيان ، فوقعت عليه مقطوعة موسيقية « لشوبان » ، ولم تسمع أذناى نغما أرخم مما سمعت حينذاك .

وحسبت أنى أحس أصابعها المستطيلة البيض كأنها تداعب أذنى وتمسها مسا علويا .

وما انتهت من العزف حتى توجهت إليها من غير وعى أو تفكير ، وصحبتها إلى مقعدها وجلست إلى جوارها ، وملأ العطر المنبعث من صدرها رئتىّ فأغمضت عينى . وسألتنى عن مبلغ حبى للموسيقى ، فسرت رخامة صوتها فى كيانى مسير الكهرباء ، وفتحت عينىّ ثانية فرأيتها تنظر إلى ، وكانت هذه النظرة كافية للقضاء علىّ قضاء مبرما ، وأجبتها وأنا أتهدج من فرط الانفعال :

— نعم ياسيدتى .

ولم تنشق الأرض فى تلك اللحظة وتبتلعنى لأن الطبيعة لا تستجيب دعوات الناس مهما كان مبلغ صدقها وحرارتها . وقضيت ليلتى وأنا أنعت نفسى بالغباء والفظاظة والبلاهة على وجه الإجمال . وجعلت أقلب الأمر على وجوهه المختلفة حتى طلع الصباح ، ولكنى لم أهادن نفسى ، وطفقت أقول لها : « عندما تودين أن تقول لحسناء إنها جميلة بل أجمل من الجمال ، وإنها استطاعت أن تحمل البيان على أن

يتنهد وينشج ويسكب الدمع الغزير ، تعجزني إلا عن ترديد هاتين الكلمتين : نعم يا سيدي . . أنت أحب الحباب ، وعليك أن تتوارى عن العيون .

ولكني لم أستطع مع الأسف أن أتوارى عن العيون ، إذ كان لزاما علي أن أظهر بين التلاميذ في الفصل ، ولدى تناول الطعام ، ولدى خروجي في صحبة والدي إلى النزهة . وكنت أتوارى عن الناس ساعدني ساق ورفيق ما استطعت ، ولكن الأعين كانت تراني مع ذلك فأشعر بأني شقي تعس .

كانت عبارة : « نعم يا سيدي » تطن في أذني على الدوام ، ولم تكف ذكراها عن ملاحقتي ، بل كانت يقظة ضميري لها ظاهرة رهيبة . ولم يكن ما أعانيه ندما على ما بدر مني ، لأن الندم يهون إذا ما قيس إلى الهول الذي أضناني . ومرت بي ستة أسابيع وأنا على هذه الحال المحزنة ، حتى شاركني أهلي في حكمي على نفسي ، واعتقدوا معي أني فتى مأفون .

نجحت في الامتحان الدراسي بعد مرور ستة أشهر على ذلك الحدث الفاجع الذي ألم بي ، ورأى أبي أن يجزيني على اجتهادي ، فأطلق سراحي ، وأرسلني في العطلة الدراسية إلى فسحة الدنيا عند زميل له يمارس الطب في « سان باريس » .

و « سان باريس » التي رحلت إليها بلد صغير ، يقع على شاطيء نورموندي ، وينحدر من غابة كثيفة إلى رمال البحر . وكان الشاطيء هناك مهجورا موحشا ، وقد وقفت مبهورا أمام البحر الذي شاهدته لأول مرة في حياتي ، وأمام الغابة الغارقة في صمت وديع ، وشعرت بأن أمواج نفسي تجاري أمواج العباب وأمواج الشجر . واعتدت أن أجوب تلك الأنحاء على ظهر جواد ، أو أن أستلقي على الرمال ، وأتوق إلى تحقيق رغبة ملحة مجهولة يدل عليها كل معلم من معالم تلك البقاع ، ولكني أبحث عنها فلا أجدها .

وقضيت أيامي في تلك العزلة أسكب الدمع السخين .

وكم من مرة شعرت على غرة بأن قلبي ينتفخ ويثقل ، حتى خيل إلي أني سأسلم الروح . ولعل هذه النقلة من سبب اضطرابي وسر رغبتي الغامضة كانت تطول ، لولا أن أحد الشعراء كشف لي ذلك المجهول .

كنت أتذوق منذ عهد الدراسة نفحات الشعراء ، ومن حسن حظي أن هذا الذوق لم يتبدل حتى اليوم . وقد عمت في ذلك العهد شغفا بالشاعر فرجيل ، وكنت أفهم شعره دون ما حاجة إلى شرح أساتذتي . وفي العطلة احتفظت بنسخة من ديوانه في جيبي ، وقد فتحتها في أحد الأيام ، وجلست وأنا أقلب صفحاتها وأستاف عبير الغابة ، ووقعت عيني على ما يأتي :

« التجأ أولئك الذين قضى عليهم الحب القاسي ، وهم يعانون لفحات الحنين الأليم إلى جوف الغابة ، وتواروا في مسالكها الخفية ، ولفتهم غياض الآس على ظلالها » .

آه ! ! أنا أعرف غياض الآس هذه ، فهي مل‍ء قلبي وخاطري ، ولكني كنت أجهل اسمها حتى هداني فرجيل إليه . لقد عرفت أني محب متيم ، والفضل في ذلك يرجع إليه ، ولكني لم أفطن إلى المرأة التي وقعت في حبها . لم أعرف من هي حتى حل الشتاء ، وقابلت أرملة « جانس » ولعلك أيها القارئ كنت أكثر مني فطنة ، لحزرت من بادئ الأمر أن « أليس » بعينها هي التي تيمت فؤادي .

كان شقائي بالغ القسوة ، ذلك أني كنت أرى أليس وأستمع إلى حديثها العذب وأقول لنفسي : « هي المرأة التي أحبها دون سائر نساء الأرض ، ولكنها مع ذلك تجدني دون سائر الرجال أسخف أهل الأرض وأبغضهم إليها » . وكنت إذا جلست أنصت إلى عزفها ، وأقلب لها صفحات القطع الموسيقية ، وأرى خصل شعرها تداعب جبينها الناصع البياض ، أحبس لساني حتى لا أقول لها : « نعم يا سيدي » . وقد آليت على نفسي ألا أنبس بكلمة في حضرتها . ثم جرى الزمن ، وتبدلت الحال ، ولم أعد

أرى « أليس » ، على أنى حافظت على ما عاهدت نفسى عليه حتى انقطعت صلتها بنا .

***

والتقيت هذا العام بالسيدة « أليس » فى نزل يشرف على نبع معدنى . وقد وجدت حسنها ينوء تحت عبء نيف ونصف قرن . هذا الحسن الذى أثار فى نفسى أول اضطراب ، وألذ اضطراب ، ولكنه ظل رغم نصوحه يحتفظ بعذوبته !! وقد وقفت على قدمىّ حين رأيتها ، وحييتها بقولى :

— عمى صباحا ياسيدتى .

وكان الشيب قد جلل رأسى . ومما يؤسف أن صوتى لم يضطرب ، وأن عينى لم تختلج ، فقدوات أيام الصبا . ورغم هذا التبدل فإن السيدة عرفتنى دون أى جهد . وسرعان ما ألفت بيننا الذكريات . وساعد كل منا رفيقه بحديثه الطلى على قتل الوقت فى ذلك النزل الممل . ثم جدت بيننا روابط زادت ألفتنا توثقا ، ولم تك تلك الروابط المتينة إلا اشترا كنا فى الوهن والعذاب ، فكنا نجلس تحت أشعة الشمس كل صباح ونتحدث عن أمراضنا وعن عدادنا ، والحديث يطول فى مثل تلك الشجون . وكثيرا ما كنا نرفه عن نفسنا بالمزج ما بين ماضينا وحاضرنا . وقد قلت لها فى يوم من الأيام :

— « كم كنت جميلة ياسيدتى ! وكم كنت محبوبة ! »

فأجابت مفترة الثغر .

— « هذا حق ، وأراني أستطيع الاعتراف به الآن بعد أن أدركنى الشيب . كنت موضع الرعاية والإعجاب ، وهذا يعزينى فى شيخوختى ، وكثيرا ما امتزج الإطراء الذى كان يكال لى بالملق . ولكنك ستدهش إذا ما ذكرت لك لونا من الإطراء سمعته فكان له فى نفسى أبلغ الأثر » .

— أود أن أسمع ذلك .

— « سأقص عليك الأمر إذن . ففى ذات ليلة من عهد طويل الأمد ، اضطرب تلميذ صغير السن وهو ينظر إلى اضطرابا لم يملك معه إلا أن يجيب على سؤال وجهته إليه بقوله : « نعم ياسيدى » . ولم يقم شاهد على إعجاب الناس فى استئثار زهوى واغتباطى مثل هذا الرد : « نعم ياسيدى » وارتباك صاحبه وهو ينوء به . ولست أدرى ما الذى منعنى إذ ذاك من تقبيل وجنتى ذلك الصعلوك الصغير » .

محمد مفيد الشوباشى

أنباء وآراء

ديون ألمانيا :

لم يعلن بعد مقدار الدين الذي هو مقدر على ألمانيا أن تدفعه للحلفاء من أثر حربها العالمية الأخيرة التي أثارتها . وكأن الحلفاء لا يزالون يتدبرون أمرهم أشد حذرا مما كانوا معها بعد الحرب العالمية الأولى (١٤ — ١٩١٨) ، وذلك أن دينها يومئذ قد فرغوا من تقديره سنة ١٩٢٠ فبلغ ٦٬٦٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه تدفعه على ثلاثين عاما بمعدل ٢٢٠٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه كل عام . ولكن ألمانيا تعللت بأنها لا تستطيع دفع هذا المبلغ فخفضوه سنة ١٩٢٤ إلى ١٢٥٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه كل عام ، فتعللت بضخامة المبلغ أيضا فخفضوه سنة ١٩٢٩ إلى ١٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه كل عام . ورجعت ألمانيا تشكو عجزها وفقد مواردها عن الوفاء حتى لم تتجاوز دفعة ٣١ — ١٩٣٢ عن ٦٢٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه ، وظلت مع ذلك تشكو في عين الوقت الذي كانت تتأهب فيه بأضعاف دينها لأرهب حرب شهدها التاريخ ، هذه الحرب العالمية الأخيرة .

فما عسى أن يبلغ من حذر الحلفاء بعد إذ كان ما كان ؟ .

مفارقات !

من طريف ما عرض لي — وأنا أقرأ — بيان جاءت به إيطاليا كأنها توجو وقد هزمت ألمانيا ألا يفرط الحلفاء في معاملتها بحسبان أنها إنما كانت مكرهة على أمرها مع الألمان . وإليك شيئا مما زعمته حيث تقول :

• إنها فقدت ١٦٬٠٠٠ ضابط إيطالي صرعهم الألمان في كفالونيا وكورفو .

• وفقدت ٥٤٠٬٠٠٠ جندي إيطالي غرر بهم ضباطهم — ممن كانوا يميلون إلى النازية — ولما أن تبين الجند موقفهم عصوا أوامرهم فألقى بهم إلى المعسكرات الألمانية الرهيبة حيث مات منهم فيها ٣٣٬٠٠٠ من الجوع وسوء المعاملة ! .

• ومنذ سبتمبر سنة ١٩٤٣ بلغ عدد الضحايا الإيطاليين من فتك الألمانيين ٤٠٬٤٣٢ قتيلا و ١٩٬١٧١ مفقودا و ١١٬٦٢٨ جريحا ! .

• وأن الأسطول الإيطالي ساعد الأسطول الإنجليزي في اكتساح الألغام الألمانية لأبعاد في البحر تبلغ في طولها ٤٠٠٬٠٠٠ ميل ! .

• وكذلك الأسطول الجوي الإيطالي ألقى على الألمانيين قنابل تبلغ في مجموعها ٧٬٠٠٠ قنبلة ! .

• وأن الضحايا من الإيطاليين المعارضين للحكم الدكتاتوري قد بلغ عددهم ١٧٬٢٤٣ فيهم النساء والأطفال ممن قد « شحنوا » إلى المجهول في المعسكرات الألمانية ! .

• وأن الإيطاليين أحسنوا إلى أكثر من ٥٠٬٠٠٠ أسير من أسرى الحلفاء ، وهم إنما كانوا يجابهون بعملهم هذا الموت إذا وشى بهم واش إلى أولي الأمر من الفاشيين والنازيين ! .

النازية منذ ألفي عام !

لم تكن النازية نظاما مستحدثا وليد هذا القرن الذي نحن فيه ، وإنما هي فرع من أصل تطورت عنه منذ القرون الغابرة أيام إسبرطة في التاريخ الإغريقي القديم منذ مئات السنين قبل مولد المسيح .

وكان منشئ هذا النظام ليكورغوس واضع دستور إسبرطة ، والذي تلف شخصيته هالة من الأساطير القديمة الغامضة .

وكان الإسبرطى يخضع لهذا النظام الفريد منذ النسمة الأولى التي يستنشقها من نسمات الحياة . وإنه كان قد غلبت عليهم عقيدة نقاء الجنس ، واستمسكوا بها حتى لم يحجم أحدهم عما يراه يحفظ عليه نقاوة جنسه وأن يكون قويا قادرا صالحا للبقاء . من أجل ذلك عمدوا إلى لجنة فكونوها تفحص الأطفال بعد أسابيع من ولادتهم . وكانت هذه اللجنة شديدة فى أخذها بأسباب صلاحية الطفل للحياة . من ذلك أنهم يأخذون الطفل فيطرحونه الليل طوله فوق قمة جبل عال ، ثم ينظرونه من الغد ، فإن وجدوه حيا وقرروا صلاحيته رد إلى أمه وظل فى حجرها حتى السابعة من عمره ؛ وإن كانت الأخرى فقد كفوا مؤنته واستبعدوا من وسطهم عضوا عاجزا .

وعندما يبلغ الطفل سنيه السبع يؤخذ من أمه ، ولعلها لا تراه بعد ذلك أبدا ؛ فتفقده من دنياها من يومئذ .

وينمو الطفل إسبرطيا بكل ما تحمله هذه الكلمة من اعتزاز عندهم . فيتعود الصبر على الجوع والعطش ، ويفرطون فى أخذه بالضرب ويقسون عليه ، وإنما أرادوا أن يصوغوا منه رجلا للغد ثبتا جلدا لا ينال منه الأذى إذا وقع به . وكان عليه أن يجابه الأخطار ، وأن يثبت للعقوبة التى تقع عليه غير متخاذل . وإياه وأن يجزع لشيء أو فالعقاب يضاعف له .

وأما عيشه فأخشن عيش ، وقد يحرم منه ليلتمسه بالطريقة التى يراها ، بالسرقة أو بالاغتصاب ، أو فهو ينزل من مرتبته التى لا يطمح إليها مميزا بها إلا الأنفى على الهول والألم .

ثم هو فى كل طور من أطوار حياته مراقب من غيره مثل ما فرض عليه أن يراقب غيره . فإذا هو بلغ العشرين ألحق بالجيش ، وتلك غاية عظمى ينشدها الإسبرطى .

وأما مكانة المرأة منه فكانت لا تعدو أن تكون قد خلقت لمتعته ؛ فإنها وقد تثبتت من طبيعتها كامرأة عرفت موضعها الحق فلم تكن ثمة شكوى ! .

وأما شئون الحياة الدنية فقد ترفع عنها إلى طبقة أقل من طبقته يقال لها : الهلوت .

وأما هو فى الحرب فتال ، لا يعرف التسليم مهما غلا الثمن ، فلا يلقى بسلاحه حتى يلفظ نفسه الأخير . وهذا ممر ترموبيل يشهد فى وقفتهم أمام الغزو الفارسى لهم ، أن الرجل منهم كان يؤثر الموت على ألا يتراجع خطوة واحدة .

وقد تمكن هذا النظام منهم واعتزوا به ، حتى إنه من كانت تحدثه نفسه فيهم بمناهضته كان الموت جزاءه عبرة يتنصح بها غيره !

فذلك الذى كان منذ قرابة الألفى عام ، فإن قلنا إنه أصل للنازية تطورت عنه لم نبعد .

بالفرث صدمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

باب الكتب

ألوان من أدب الغرب

للأستاذ على أدهم

كنت أتحدث فى الأدب مع صديق ، فأخذت أمدح له كتابا وأذم كتابا ، وكان يتفق معى فى الرأى مرة ويختلف مرات ، حتى ضاق ذرعا بما يفصلنا من خلاف وقال فيما يشبه الغضب :

— بأى معيار تقيس الكتاب الأدبى لتخصه بما أردت من ذم أو ثناء ؟

— إنى أقيس الكتاب بمعيار بسيط جدا ، لعله أدق فى بساطته إلى السذاجة ، وهو أنى أسائل نفسى : هل صعد بك الكتاب مرة إذ أنت تقرؤه إلى أفق أعلى مما أنت فيه ؟ وهل أعانك الكتاب مرة إذ أنت تقرؤه على ما كنت تعجز بنفسك عن أدائه ؟ فإن كان الجواب بالإيجاب فالكتاب عندى جيد وجميل ، وإلا فيالضيعة الزمن الذى أنفقته فيه . إنى لا أحب أن أقرأ كتابا يتركنى حيث كنت فكرا وشعورا ! ودع عنك كتابا يسفل بى إلى وهد بعد أن كنت من فكرى فى نجاد ! .

وبهذا المعيار البسيط الساذج قرأت كتابا جديدا أخرجه الأديب الفاضل الأستاذ على أدهم ، فوجدته يجذبنى إلى أعلى مرة بعد مرة ؛ وجدت فيه أشياء تحفزنى إلى التأمل فأوافق أو أخالف . وعندى أن ليس أخصب للنفس غذاء من هذا الذى يحفزها إلى التأمل لتوافق أو تخالف . فإذا ما قرأت — مثلا — عن تولستوى مذهبه « بأن الله هو الحياة ، وأن نحيا هو أن نعرف الله » (ص ٢٥) وقفت وقفة طويلة أفكر ؛ وليتنى أحدثك فى تفصيل كل ما دار فى نفسى من خواطر حين سألت نفسى : ترى أية حياة يريد تولستوى إذ يقول إن الله هو الحياة ؟ أهى الحياة التى أراها فى ألوف الناس من حولى والتى لا تجاوز أنفاسا تتردد فى صدور خاوية ؟ أهى الحياة التى تقاس أيامها بوريقات التقويم تنزع واحدة فى إثر واحدة ؟ أم هى الحياة التى فى كل خفقة منها خلق وإبداع ؟ اللهم إن كانت الأخيرة فيا لجلال الحياة فى كل ضروبها إن نمت عن إبداع وخلق ، وليكن الحى بعوضة أو مادونها ! ثم يالهوان الحياة إن فرغت من هذا الخلق وذاك الإبداع حتى وإن تمثلت فى إنسان يشمخ بأنفه كبرياء وعزة ! . . . وأمضى فى قراءة الكتاب حتى أبلغ فصلا من ترجنيف ، وأطالع له قطعة عنوانها « الطبيعة » صور فيها الطبيعة امرأة رآها فى الحلم مطرقة مفكرة . « ودنوت من هذه الصورة الرائعة والخشية إكبارا ، وخاطبتها قائلا : « يا أمنا جميعا فيم تفكرين ؟ هل تفكرين فى مصائر الإنسانية ؟ أو تفكرين كيف يظفر الإنسان بما فى الإمكان من الكمال والسعادة ؟ فأدارت إلى المرأة عينيها الرهيبتين فى بطء وأناة ، وتحركت شفتاها وقرع سمعى صوت رنان له صليل الحديد يقول : « إنى أفكر كيف أمنح ساق البرغوث قوة أوفر ليكون أقدر على الفرار من أعدائه ، والتوازن عنده بين الدفاع والهجوم مختل ويجب أن يراعى ويحفظ » . فتمثرت فى الجواب وقلت : « ماذا ! وما هذا الذى تفكرين فيه ؟ أو لسنا نحن بنو الإنسان أولادك المقربين ؟ » فزوت وجهها قليلا وقالت : « جميع المخلوقات أبنائى ، وعنايتى بالجميع واحدة . . . » (ص ٤٤) .

وإذا أراد القارئ أن يستمتع بما استمتعت به ، فليحاول مرة أن يستمع إلى حوار بين صاحب حق مسلوب وسالبه — وهم بحمد الله كثيرون — ثم ليسرع بعدئذ إلى الكتاب ليقرأ ما نقله لنا من ساتيكوف الأديب الروسى فى أسطورة « الغراب الضارع » فيرى ما أجاب به الصقر على ضراعة الغراب المغبون « . . . وأنت تزعم أنى أنا الصقر أنهب منك ، وبدلا من أن أحمى مصالحك أسلبك

ماذا فعلت ، ألا تدرى يا صاح أنك تريد أن تعيش ، وأنى مثلك أريد أن أعيش ؟ ولو كنت أنت القوى لتغديت بى قبل أن أتعشى بك ، ولكنى أنا القوى الآن فأنا أتغدى بك قبل أن تتعشى بى ، أليس هذا حقا ؟ لقد ذكرت لى ما تعتقده حقا ، وها أنا أصارحك بما أراه حقا ، وقد يكون حقك مثبتا فى السماوات وفيما وراء السحب ، ولكن حقى هو المتبع هنا فى الأرض ، فانصرف إلى مشك ودعنى من ثرثرتك لأنى أريد أن أستريح » (ص ١١) .

وفى الكتاب فصلان من كريلوف الذى قال عنه المؤلف بحق إنه لا فونتين الأدب الروسى ، وقدم لنا من خرافاته أمثلة أحسن اختيارها ، منها « حكاية الفلاحين والنهر » — الفلاحين الذين جارت على مزارعهم القنوات الصغيرة فذهبوا يرفعون شكاتهم إلى النهر العظيم ، فإذا النهر العظيم قد طاف على سطحه نصيب الأسد من المحصول المسروق ! ومنها « حكاية الفلاح والشاة والذئب » — الفلاح الذى أكلت له دجاجتان ، فلم يجرؤ أن يتهم الثعلب الآكل ، واتهم بالجرم شاة مسكينة ، اتهمها إلى من ؟ إلى الثعلب الذى قضى على الشاة أن تذبح وأن يكون لحمها نصيب القاضى ! ومنها حكاية « القطة والبلبل » — القطة التى ضغطت مخالبها على حنجرة البلبل ثم طلبت إليه أن يغنى ! اقرأ هذه القصة جيدا واذكرها كلما طالعتك الصحف من بلد من بلاد الله أن الحكومة فيها تفرض الرقابة على أقلام الأدباء ، وتطلب إلى الأدباء أن يكتبوا . ومنها حكاية « اقتراء » التى تروى لك من براهمى من بلاد الشرق أراد أن يفلت حلسة من شعائر دينه ، فتسلل فى الظلام وأخذ ينضج بيضة على قنديل ضئيل أشعله ، فلما أن رآه كبيره ، قال البراهمى معتذرا إنه الشيطان هو الذى زين له أكل البيض ، « وهنا انبعث صوت الشيطان من أحد أركان الحجرة وهو يقول : ألا تخجل أيها الرجل ، إنكم معشر البشر تلقون علينا تبعة ذنوبكم وجرائمكم ، على حين أننا نحن الشياطين نتعلم منكم فى كل يوم أشياء جديدة ، وأنا لم أكن أعلم حتى اليوم أن البيضة يمكن إنضاجها على الشمعة » (ص ٧٢) . اقرأ هذه القصة جيدا واذكرها كلما حاسبت مقصرا على تقصيره فقال لك إنه فلان أو فلان قد زين لى هذا ، أو إنها الحكومة ، أو إنه احتلال الإنجليز الذى لولاه لأصلحتُ وصدقت وسوَّيت ! .

وإن كنت مثلى تسير فى أرجاء بلادنا وترسل البصر فإذا البصر يرتد إليك منبئا أن العاملين المنتجين مغمورون ، وأن الأبطال الذين ترن أسماؤهم فى جنبات الصحف ومجالس لا يعملون ولا ينتجون ، فاقرأ على سبيل العزاء فصلا عنوانه : « البطل المعلوم والبطل المجهول » حيث يقول : « الرجل المجهول جد قديم ، وقد ظهر فى أول قبيلة إنسانية ، وفى سالف العصور اشتغل بالكيمياء واستخراج المعادن ، وقد اخترع عربة النقل واكتشف الحديد ، ومن بعد ذلك بالملابس ، وابتكر النقود ، وبدأ الزراعة ؛ ولكن سرعان ما نسيه الشعوب ، وأسأمته هذه المسائل المادية ، فانقلب شاعرا وأخذ يذرع الأرض طولا وعرضا ، وخلق أساطير الأديان ، ونظم « الفيدا » وتغنى الأناشيد « الأورفية » ، ونسج خياله خرافات أهل الشمال ، وارتجل الحكم وتمثل الأمثال ؛ وفى العصور الوسطى نحت التماثيل المبدعة ، وشيد المعابد وزين حيطانها بالصور والرسوم ، دون أن يذيلها باسمه ، ثم قص الأقاصيص وألف الروايات التى لا تحمل اسمه وشارته » (ص ١٢٤ من الكتاب الإيطالى بابينى) .

هكذا يقدم لك مؤلف الكتاب مائدة جمع عناصرها من الآداب الأوروبية : الروسية والفرنسية والأسبانية والإيطالية والإنجليزية وغيرها ، ويستحيل أن تجلس إلى هذه المائدة ثم تغادرها بغير غذاء دسم مفيد .

لكن المؤلف الفاضل يبعض الأحكام العامة التى لم أستطع قبولها ، فهو يحدثنا فى مقدمة الكتاب « ألا مندوحة عن اشتراك ثقافتين مختلفتين لإيجاد البدائع الخالدة وخلق الآيات الفنية الرائعة ، فالأدب اليونانى

من وحي الطبيعة :

نجوى شجرة

اذهبي في الفضاء ، في طلب النـــور فإن الحياة فيض النور
ثم غوصي في الأرض في ظلمات الـ
غيب بحثا عن كنزها المقبور
ليت شعري ما إن من عهدوا الصخـ
ـر تخطوك في دراجي العصور
أنت رمز الإحسان والعمل الصا لح ما لوثتك دنيا الشرور
تغمرين السارى بظل حنون إذ تصب السماء لفح الهجير
ثم تقرنيه بأشهى ثمار أثرت لذة جرت في العصير
وإذا حن للغناء أرقصت أغصا
نك حتى يشدو طروب الطيور
وغمرت التراب بالورق الأخـــضر زهو له كمهد وثير **
رب رعاك ما رأيت كظل السمر ، بعداً لداره من كفور
فترقيه أيهــــا الباسقات الـ
ـنفس عنه سدى الشوك تورى
هو ذا الإنسان قد ألف الغد
ر قـــدماً فكان عب ء الدهور
فإذا البرد عضه نسى المرو
ءة يسطو بعضلك المكسور
كاسراً من غصونك التي ظللته
وحبتــــه سرادقاً من حرير
فاطمأنّ أيتها كراماً تعاطيـــه ثماراً أرجتها في السعير
مرفأ جسمك الكريم وكم صلـــيت لله في المسا والبكور
وإذا ما هرمت أطعمـــك الفأ
س وأنت الخرساء هل من نصير ؟
فإذا شجـــك احتملت أذاه
جل يارب قلبهـــا من صبور
وإذا ما أكرمتـــه بثمار
قبلُ حيته باقة من زهور
هب رميك بالحجارة بغيـــا
مستزيداً ببغيـــه والنكير

ضياء الدخيلي

القديم لم ينهض إلا بعد احتكاكه بثقافة قدماء المصريين . . الخ » . ولست على يقين من أن الأدب لا ينهض إلا نتيجة لاحتكاك ثقافتين ، إذ قد يكون وليد العبقرية التي تستوحي الطبيعة وحدها . ولست على يقين كذلك من أن أدب اليونان جاء نتيجة لاحتكاكه بثقافة المصريين القدماء ، وإلا لتعذر عليّ تطبيق ذلك على هومر وأدباء المسرح .

ومن الأحكام العامة التي لم أستطع قبولها كذلك تمييزه بين الأرستقراطية والديمقراطية (ص ٢٠) بحيث يجعل الطموح من صفات الأرستقراطية وخفض الجناح والقناعة من سمات الديمقراطية ؛ فلست أرى أن الإنجليز وقد ضربوا في الديمقراطية الصميمة بأوفر سهم ، قانعين خافضي الجناح ! ألا يرى صديقي أن قد حان الوقت الذي يجب على حملة الأقلام في مصر ألا يدخروا وسعا في تعليم الناس بأن عزة النفس شيء ، ونبذ الطغيان والاستعباد شيء آخر ؟ فالديمقراطية ترفض أن يسود بين أبناء الشعب شيء من الطغيان أو أن يستبد فريق بفريق ، ولكنها في الوقت نفسه تصدر في ذلك من كرامة وعزة وطموح ، لا من جناح خافض وقناعة .

وبعد ، فللكاتب الفاضل مني كل شكر وتقدير ، لساعات جميلة قضيتها في قراءة الكتاب .

زكي نجيب محمود

بين المسموع والمقروء

لُعَبٌ وأطفال

سأتحدث في هذا المقال في موضوع غير ذي خطر كبير . سأتحدث في : لُعَب الأطفال .

ويَزيد قلة خطر هذا العنوان عند الرجال ، لأنه يشقّيه عندهم قليل الخطر . أما الأُسَر فمن الشَّرب ، وهم يطلبون الحياة أكثر ما يطلبونها جداً . وأما الأطفال فليست من همّهم ، وإنما هي من همّ الأمهات .

لهذا أنا إلى الأمهات أسوق الحديث .

إن أكبر همّ طفلك ياسيدتي عند ما يستطيع أن يتبين الأشياء ، أن ينالها بيده ، وأن ينالها بحسّه وبفمه . وهو ينالها بفمه لا ليأكلها ، ولكن ليتحسّسها ، ففمه عندذاك يكون من أحس مواضع جسمه . ثم هو يَشِبُّ فيود من الأشياء ما كان أقرب في شكله للأحياء . فيطلب الصور ، من عروس ، أو دبٍّ ، أو حصان ، خَشَبيةً كانت أو خشبا . ثم هو لا يلبث أن يسأم صمتها ، فهي لا تتكلم ، ويسأم سكونها ، فهي لا تتحرك ، ويسأم برودة جسمها ، فهو لا يشع بالحياة .

وما يكاد يقع بصره على أصول هذه الصورة ، على الصورة وهي حيّة ، حتى يمدّ إليها يده وهو ثائر يريد حيازتها . وهو عندئذ لا يكون في النوْر ولا في النضوج الذي يؤهله لصحبة حيوان . إنه عندئذ يتخذ من الحيوان الحي لعبة على نحو ما اتخذ من صُوَر القطن والخشب . وهو كان يضرب هذه الصور وهي من جماد ، ويفرسها ويلوي أعناقها فلا تصرخ ولا تتململ ، لأنها لا تتألم . ولكنه يحاول أن يفعل ذلك في الصور ، وهي من لحم وعظم ، فيباغته ما لم يكن في الحسبان ، عضةُ كلب ، أو نَهشة مِخلب ، يردّ عليها بالصراخ والبكاء .

ولكن الطفل ينمو ويبقى في قلبه حب الحيّ . يبقى في قلبه حب الكلب ، وحب القطة ، وحب الشاة ، وحب القرد ، وحب العصفور ، وهو يودّ أن يتخذ أصدقاء لنفسه مما يجد من ذلك ، والأمّ تأبى عليه ذلك لأنها تكون قد نسيت طفولتها ، أو هي تدرك ، حتى لو ذكرت الطفولة ، أن صحبة الحيوانات بهجةٌ في الطريق مستساغة ، أما أن يأتي بها الصبي إلى المنزل ، فشيء غير مقبول ولا معقول . وهو عندها هذا يزيد في الأسرة واحدا ، ويزيد في واجباتها واجبا .

وقد يكون هذا . ولكن إلى جانبه يجب أن تعتبر الأمّ ما يكون من صحبة الحيوان على الصبي من أثر . إن الصبي لا يطلب هذه الصحبة بهذه القوّة عبثا . ولو أخطأ صبي في هذا النزوع فما كل الصبية تخطئ ، وهي كلها إلى هذا تنزع . إن الحيوان الصديق قد يلعب في حياة الصبي دورا لا يمكن استصغاره أبدا .

حكت أم من ولدها قالت :

جئنا بهذا الولد الواحد ، وقد كاد الشباب أن يذهب مني ومن أبيه ، ونشأ فكان حبيبا خوّافا ، وكان كسولاً لا يُسَوّي حتى لُعَبَه بعد أن ينتهي منها ، ولا يجمع ملابسه بعد أن يخلص منها . وكان قليل الصحبة ، لأنه لم يكن يدري كيف يكتسب الأصحاب . وأعطيته كل ما طلب . وجاءه أبوه بكل ثمين من الكتب ، وكل مرغوب من الحلوى . وكان أحب إلى نفسه من كل هذا كلبٌ يقتنيه ، ورأيت عليه الكلب مرارا وتكرارا .

وذات يوم عاد من المدرسة ومعه كلب قذر نحيف ، فطاردته وطاردته حتى اختفى . وبكى الولد بكاء مرّا . وكان

ابن ثمانية . وفي اليوم الثاني عاد ومعه الكلب مرة أخرى أجوعَ ما يكون ، وأشقى ما يكون . ودخل ابني البيت على غير علم مني ، وجمع كل لُعَبه ، وجمع مجلته وعربته وكراته ومضاربها ، وجمع كل هدية من الكتب ثمينة . جمعها كلها وكوّمها ، وناداني وقال : « خذي كل هذا . فرِّقيه بين أولاد الناحية . وأعطيني هذا الكلب بدلا من كل هذا » .

عندئذ لم أستطع إلا أن أقول له : « أبقِ على الكلب إذا شئت ، ولكن عليك أن إطعامه وخدمته » . فرأيت كأشد ما رأيته يزأط قط .

وراح فأطعم الكلب . وصنع في البدروم له صندوقا ينام فيه . ودعا الخادمة فأعانته على غسله وإحمامه . وسماه باسم إنسان . ولم يمض غير أيام حتى أخذ جسم الكلب على الطعام يمتلئ ، وتظهر عليه آثار النعمة ، ولمع شعره وارتفعت رأسه ، وذهب إلى المدرسة مع ولدي . فإذا بالأطفال الذين لم يكونوا يُعيرونه التفاتا يجيئون إليه ويسألونه عن الكلب ويداعبونه . وبدأت صحبة بين الأولاد وبينه .

وتغيرت نفسية الولد عما كانت . ذهب عنه الإلحاح في طلب كل جديد وهو لم يُقدِّم جديده ، وأطاع فصارت الطاعة ديدنه . ورأيت ما طرأ عليه من تغيّر فقلت لنفسي لقد آن لي أنا أن أتغير أيضا . وأذنتُ للكلب أن يدخل البيت وأن يلعب فيه . وزاد ولدي سرورا وزاد به تعلقا . وطلب إلى أبيه أن يعطيه عملا في الحديقة يؤجر عليه ، ليشتري بأجره طوقا للكلب جديدا .

وأغراني ولدي ، وأغرى أباه ، بالخروج به والكلب كل أحد للنزهة ، ومعه صاحبان له . وخرجنا واستمتعنا بصحبة ولدنا وبهنائه . لقد كنا نحسب أن صحبتنا لا تنسيه ولكن شد ما أخطأنا .

وولدي الآن في السادسة عشرة من عمره . والكلب صار اليوم شيخاً عتيقا ؛ شيخا هو هامة اليوم أو غد ، ولكنه يقيم بيننا على الهرم معززاً مكرماً مذكورا بالخير الكثير .

وأم أخرى حكت عن ابنتها قالت :

كانت ابنتي في الثانية عشرة من عمرها ، وطلبت مني قطيطة ، فأبيت . وأعادت الطلب كلما جاء عيد ميلاد لها ، فأبيت . وفي يوم عيد طلبتْ مني هدية ، مالا . وكانت قرأت عن قطيطة فارسية من ذوات الشعر الكثيف تُعرَض للبيع ، فلم يُمسِ المساء حتى رأيتها تدخل البيت ومعها القطيطة . وعندئذ لم يقو قلبي على ردها .

وما أسرع ما وجدت التغيير يأتي ابنتي . فعملها في المدرسة تحسن ، وأتت من المدرسة إلى البيت بدون تسكع ، وأعانت في شغل البيت فأحسنت إعانة . وفي ختام العام أخذت جائزة الرسم بالمدرسة ، فكانت عن صورة رسمتها لقطتها .

وأقبل على البيت إلى ابنتي صواحب تود أن ترى القطيطة الجميلة ، فكسبتْ بذلك صديقات من بعد صديقات كنّ لها من بعد ذلك في الحياة ذخرا .

إن الأمثال التي تضرب في هذا كثيرة . والحاصل أن بين الإنسان والحيوان تجاوب أبدا ، وبين الإنسان وكثير من أنس الحيوان تعاطف . والحيوانات الأليفة ضيوف الله على الإنسانية ، علينا طعامها ، وعلينا مأواها . وفي مصاحبة الحيوان ، وهو أعجم أبكم ، قليل الحيلة — إلا أن تشحذها القسوة ، ويشحذها البخل — في مصاحبته الطفلَ مِرانٌ للطفل على الشفقة وعلى الرقة وعلى النجدة ، وهي خصال تحضّره المجتمع الإنساني من بعد ذلك أحسن تحضير .

أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٢٦٩

العدد ٤٥٨ — الثلاثاء ٢٢ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦ — ٧ من أكتوبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

المؤتمر الثقافى العربى الأول بلبنان

فى أوائل شهر سبتمبر عقد ببيت مرى بلبنان أول مؤتمر ثقافى عربى أعدته اللجنة الثقافية ودعت إليه حكومة لبنان ، وتولى رياسته وزير التربية بها ، كما شمله رئيس الجمهورية اللبنانية برعايته السامية .

ولقد كان المؤتمر موفقا كل التوفيق فى فكرته ، موفقا فى الخطة التى اختطها لتنظيم أعماله ، موفقا فيما انتهى إليه من قرارات

اختار المؤتمر موضوعاً لأعماله : النظر فى الوسائل التعليمية الكفيلة بترقية تدريس اللغة العربية والمواد الاجتماعية فى البلاد العربية ، والعمل على تحديد القدر الذى يجب أن يشترك فيه كل بلد من هذه البلاد فى تلك المواد .

ومكث المكتب الدائم على تحضير أعمال المؤتمر زهاء عام استطلع خلاله آراء المختصين من مختلف الأقطار العربية فى نقاط البحث ، وأعد تقارير وافية تلخص تلك الآراء ، وطبعها ووزعها على المشتركين فى المؤتمر من ممثلى الحكومات والأفراد .

واشترك فى المؤتمر نحو ثمانين عضو ، منهم ثلاثون يمثلون حكومات البلاد العربية جميعا ويمثلون جامعاتها وهيئاتها الرسمية المهتمة بتلك الموضوعات .

حفلة الافتتاح :

عقدت حفلة افتتاح المؤتمر فى فندق بيت مرى الكبير ، وهو الفندق الذى اختارته الحكومة اللبنانية مقرا لأعمال المؤتمر ، وهو فندق ممتاز متسع الأرجاء متعدد الأبهاء ، ملائم كل الملاءمة لعقد اجتماعات اللجان ، وقد نزل به أعضاء الوفود الرسمية وكثير من المشتركين .

وقد اختير الفناء الخارجى ليكون مقر حفلة الافتتاح وزينت جوانبه بأعلام الدول العربية وهيئت للخطباء منصة ركبت عليها مكبرات الصوت ، ورتبت الإذاعة اللبنانية وسائل إذاعة الحفلة وما ألقى فيها من كلمات .

وشرف الحفلة فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية ، ورئيس الوزارة ووزير التربية ، وغيره من الوزراء ، كما حضر الوزراء المفوضون فى الأقطار العربية وطائفة مختارة من رجالات لبنان وكرائم السيدات .

وقد افتتح فخامة رئيس الجمهورية الحفلة بكلمة سامية رحب فيها بالوفود ونوه فيها بقيمة المؤتمر ، وما يعلق على أبحاثه من نتائج ، وتمنى له فيها التوفيق والنجاح ، وأعقبه كلمات قوية جامعة من معالى وزير التربية اللبنانية رئيس المؤتمر ، ومن سعادة مدير الإدارة الثقافية بالجامعة العربية

ومن حضرات رؤساء الوفود الرسمية في مختلف البلاد العربية، وكان ختام حفلة الافتتاح قصيدة رائعة للشاعر المصرى الكبير على بك الجارم، أذكت الحماسة بما امتلأت به من إحياء للشعور العربى، وتنويه بالآلام التى تعانيها فلسطين ومصر، ودعوة صادقة للتكاتف والاتحاد بين الأمم العربية.

وفى اليوم التالى عقد المؤتمر جلسة للتنظيم انتهى فيها إلى تأليف لجنتين عامتين إحداهما للغة العربية وثانيتهما للمواد الاجتماعية، وقد تفرع عن اللجنة العامة للغة العربية لجنتان إحداهما للأدب وثانيتهما للقواعد، كما تفرع عن اللجنة العامة للمواد الاجتماعية ثلاث لجان أولاها للتاريخ وثانيتها للجغرافية، وثالثتها للتربية الوطنية.

وقد عكفت اللجان الفرعية على أعمالها وعقدت كل منها عدة جلسات طويلة وفرغت من إعداد قرارات فى موادها بعد مناقشات كثيرة وبعد مراجعة ما أعد من تقارير.

ثم عقدت اللجنتان العامتان جلسات ناقشت فيهما ما انتهت إليه لجانها الفرعية وأقرت ما أقرته، وعدلت ما رأت تعديله ورفعت قراراتها النهائية للمؤتمر.

وتولت لجنة خاصة إعادة النظر فى قرارات اللجان وصاغتها فى صيغة نهائية نسقت فيها الأسلوب وقربت الاتجاهات.

وعقد المؤتمر بعد ذلك جلسة عامة ناقش فيها تلك القرارات وأقرها فى صورتها النهائية.

الجلسة الختامية:

وفى الجلسة الختامية التى عقدت فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧ تكلم مدير الإدارة الثقافية فنوه بما أحرزه المؤتمر من نجاح وتوفيق، وشكر الحكومة اللبنانية على ما أحاطت به المؤتمر من رعاية شاملة سهلت مهمته، وما شملت به أعضاء المؤتمر من كرم الوفادة، كما تكلم رؤساء الوفود شاكرين لكل من اشترك فى أعمال المؤتمر وأسهم بنصيب فى نجاحه، خاصين بالذكر حكومة لبنان وعلى رأسها فخامة رئيسها ودولة رئيس وزارتها، كما شكروا لرجال الجامعة العربية ما بذلوه من جهد مشكور فى الإعداد للمؤتمر وتنظيم إدارته، وحسن ترتيب أعماله. وتوجت الحفلة بلفتة كريمة من دولة رئيس وزراء لبنان الذى تكلم فأبدى عظيم اغتباطه بنجاح المؤتمر وأبان عن روح عربى قوى هز مشاعر الحاضرين، ثم ختم كلمته بأن الحكومة اللبنانية تقديرا لجهود المشتركين فى هذا المؤتمر قد رأت إهداء أوسمة ونياشين لرؤساء الوفود وكبار رجال اللجنة الثقافية وقد قوبلت كلمة دولة الرئيس ولفتته الكريمة بعظيم التقدير والشكر.

الحفلات الاجتماعية:

لم تقتصر فترة الاجتماعات على عقد جلسات اللجان والمؤتمر للدرس والبحث، بل شاء كرم الحكومة اللبنانية أن تهيىء للمجتمعين فرصاً يجتلون فيها محاسن لبنان ويستمتعون فيها بزيارة أهم مغانيه.

فهيأت فرصة لزيارة زحلة، تلك المدينة الشعرية الساحرة جارة الوادى التى خلدها شاعر العرب شوقى بك بقصيدته المعروفة؛ وقد قامت بلدية زحلة على ضيق الوقت بين حضور الوفود وبين علمها، بإعداد حفلة أنيقة على حافتى البردونى، حييت فيها الوفود وغمرتهم بكرمها وحسن ضيافتها، ثم انتقل الأعضاء بعد ذلك إلى موائد أنيقة أعدها فندق قادروى، فكان يوماً مشهوداً، حار الناس فيه فى المفاضلة بين جمال الطبيعة الفاتنة فى زحلة وجمال أخلاق أهلها وكريم شعورهم العربى وأناقة استعداد الفندق وفيض الكرم الذى أحاط به لبنان المؤتمر وأعضاءه.

وزار الأعضاء بعلبك وشاهدوا آثارها الخالدة ، ثم أقيمت لهم فى فندق صوفر حفلة مسائية جمعت بين الكرم الفياض وسمو الذوق واستمتعوا فيها بسمر شعبى لبنانى ساحر .

وأقيمت حفلة بضهور الشوير أشرف فيها أعضاء الوفود على مناظر الوادى الخلابة التى تطل عليه تلك الضاحية واستمتعوا فيها بمحاسن هذه البقعة . ولعل الإطالة فى أمر الكرم وحسن الوفادة قد أصبح حديثاً معاداً ، فحسبنا أن نشير إلى أن كل حفلة كانت تزيد على سابقتها معنى وكلها جامع للحسن .

وفى هاتين الحفلتين استمتع الحاضرون بالمونولوجست اللبنانى « عمر الزعنى » وعمالقت الأنظار روح النقد القوية فى تلك الأزجال وتوجيه غاية واضحة فى كل ما يقوله ، هى الإصلاح لا مجرد تسلية الجمهور وإطرابه بالفكاهة والنكات ، فهو زجال ذو موضوع يسعى لقيادة الجماهير لا لتملق غرائزهم والتقرب إليهم بما يحبون .

وأتيح لأعضاء الوفود شهود حفلة الأزهار فى بكفيا ، وقد كانت حفلة رائعة جمعت بين جمال الذوق والتفنن وإبراز ما حبت الطبيعة به هذا الجبل الأشم من أزهار وأثمار خصته بها .

ورتب للأعضاء زيارة الأرز الخالد ، ثم أقام لهم آل فرنجية أسرة السيد حميد فرنجية وزير المعارف ، حفلة شعبية فى بلدتهم أهدن ، وهى أقرب القرى للأرز . وقد كانت هذه الحفلة الشعبية آية فى إبراز الروح اللبنانى الكريم المرح . شهد فيها الوفود رقصات شعبية يمتاز بها أهل هذا الإقليم ، وشهدوا القرية بأسرها تزفهم وتحيط بهم وتلاحقهم بالزغاريد والموسيقى والأناشيد حيث ساروا . ثم شهدوا كرم آل فرنجية وجميل ترحيبهم فى تلك المأدبة الشعبية التى أقيمت فى أعلى القرية قرب عين الماء فيها ، وسمعوا فيها الأغانى الشعبية كما سمعوا قسيس القرية يشيد بالمروءة ويشيد بمصر ، ويذكر أن هذه القرية كانت مقراً لوالى مصر المغفور له إبراهيم باشا ، لبث فيها شهراً كاملا كان الشعب يحيطه فيها بآيات المحبة والولاء .

ثم عاد الأعضاء فى المساء إلى طرابلس حيث أقامت لهم البلدية برياسة والى طرابلس الأمير خالد شهاب حفلة أنيقة بهرت الأنظار بجمال تنسيقها وأناقة ترتيبها ، ألقيت فيها كلمات طيبة ملئت بالروح العربى الصادق والحماسة الوطنية القوية .

وهنا إلى كثير من الحفلات رتبت فى « بيت مرى » نفسها حيث أقام المؤتمرون .

هذه كانت أردنا منها وصف المؤتمر ونظامه . أما أبحاثه ومقرراته فلنا إليها عودة .

على أننا لا نود أن نختم حديثنا دون الإشارة إلى ما كان للعنصر النسائى وخاصة سيدات لبنان وسوريا من نصيب كبير فى نشاط المؤتمر ونجاح لجانه وحفلاته .

( )

من روحانية الشرق :

صورة وظلال !

خذ من حياتك ما ترى ... ودع المذاهب للورى !
سر فى طريقك وانـ ... ـتجع آفاق الذرى

إن الحقائق بعض نفسك كيف تفرق بين ظن
الكون هذا الكون صو ... رة فكرة وظلال ظن

فبعمق نفسك موجة المستور من سر الوجود
وعلى جبينك مسحة الماضى من العهد البعيد

وحياة يومك بنت فكرك بنت روحك والشعور
قدع الخوارق والطلق ... فالعمر ومض السير

حسين محمود البشبيشى

ساكن الجرة

(مقتبسة من الكاتب الإيطالي لويجي براندللو)

كان محصول الزيتون في تلك السنة وافراً غزيراً ، وكانت الأشجار قد رفت وازدهرت ، وبالرغم من أن السماء أضنت حيناً من الزمن ، فقد أجنت الفاكهة ، وكان لولالو زرافا ضيعة قد طاب زرعها ، وعظم محصولها ، وعرف لولالو أن الجرار الخمس القديمة المصنوعة من الخزف اللامع والمحفوظة في قبو النبيذ ، لا تكفي الزيت المستخرج من هذا المحصول ، واحتاط للأمر ، فأوصى بعمل جرة أكبر حجماً لتكون بمثابة الأم للجرار الخمس الأخرى .

ولا حاجة إلى الإفاضة في ذكر المناقشة التي دارت بين دون لولالو زرافا وبين الخزاف ، فمن الصعب أن نجد إنساناً لم يشتبك معه في معركة ، ولأتفه سبب كانت ترتفع عقيرته ، ويصيح بخدمه ويأمرهم بإسراج بغلته ، ويسرع إلى المدينة ليقيم الدعوى ، وقد كاد يفنى تلاده وما جمع من النشب كثرة ما أنفق في المحاكم وما دفع للمحامين ، وكانت تنتهي قضاياه بقيامه بدفع نفقات الطرفين ، وكثر تحدث الناس بأن مستشاره القضائي الذي كان يراه في كل أسبوع مرتين على أقل تقدير مل رؤيته ، فأهدى إليه كتيباً يحوي خلاصة القوانين ، لكي يرى بنفسه ما له وما عليه قبل أن يقدم على إقامة الدعوى .

وكانوا يقولون له قبل ذلك إذا اختلف مع أحد الناس لكي يثيروا غضبه : « أسرج البغل » ، ولكنهم الآن أصبحوا يقولون له : « راجع قانون الجيب » ، وكان يرد عليهم قائلا : « سأفعل ذلك وأريكم » .

وتسلم الجرة التي دفع لها ثمنا أربع فلورينات ، ووضعها في السقيفة التي كان يعصر بها العنب ، حتى يستطيع أن يجد لها مكانا في القبو بعد بضعة أيام ، ولم تكن هناك جرة أجمل منها صنعا ، وكان مما ينقبض له الصدر أن يراها الإنسان موضوعة في ذلك المكان القذر الذي كانت تنبعث منه روائح عصير العنب الفاسد ، والعفونة التي تنشأ في الأماكن المحرومة من الضوء والهواء .

وكان قد مضى يومان على ابتداء جني محصول أشجار الزيتون ، وكاد يجن جنون دون لولالو ، فقد تولى الإشراف على الرجال الذين كانوا يجمعون الفاكهة من الأشجار ، وراقب كذلك الرجال الذين جاءوا بالبغال المحملة بالسماد الزمع وضعه على جانب التل لزراعة حقل من حقوله فولا ، وشعر بأن ذلك مما لا يستطيع إدارته رجل واحد ، وحار في أمره ، وظل يسب ويلعن ، ويرغي ويزبد ، وينذر كل من يغضبه بالويل والثبور ، وقد وضع على رأسه قلنسوة بيضاء صغيرة ، وشمر أردانه ، وفك أزرار قميصه من أعلاه ، وأخذ يعدو هنا وهناك ، وقد تصبب عرقاً ، واحمر وجهه ، وأرسلت عينه نظرات كنظرات الذئب .

وفي ختام اليوم الثالث قصد ثلاثة من الفلاحين الغلاظ الأجلاف ذوي الثياب القذرة والسحن المنكرة إلى السقيفة ، فوقفوا مشدوهين حيال منظر الجرة الجديدة ، وقد شطرت شطرين ، وبدت كأن أحد الناس قد أمسك بها من جبهتها البارزة وشقها بسكين حاد .

— آه . يا لله ! أنظروا ! أنظروا !

— كيف حدث ذلك ؟ .

— ماذا سيكون حينما يعلم دون لولالو بذلك ؟ الجرة الجديدة ! أي شيء يدعو للرثاء والإشفاق !

وكان أول الثلاثة أشد خوفاً من رفيقيه ، فاقترح عليهما أن يقفل الباب كما كان ، وأن ينسلوا في هدوء ، ولكن ثالثهم عنفهم بشدة قائلا :

— هذه فكرة سخيفة ، ومثل هذا لا ينفع مع دون لولالو ، وسيغلب عليه الاعتقاد بأننا نحن الذين كسرنا الجرة ، لا ، إننا سنظل هنا جميعاً .

وخرج من السقيفة وصاح بأعلى صوته : دون لولالو !

دون لولو ! . ولما جاء المزارع ورأى ما حل به من الضرر ثارت ثائرته ، وغلت مراجله ، وأمسك بعنق أحد الثلاثة ، ودفع به إلى الحائط ، وزعق قائلا : « وحق دم العذراء لتدفعن ثمن هذا !! » .

فوثب الاثنان الآخران مهتاجين ، وهجما على دون لولو وجذباه بعيدا ، فحول غضبه إلى نفسه وأخذ يدق الأرض بقدميه ، وألقى بقلنسوته على الأرض ، والطم خديه ، وبكى لخسارته بكاء من فجع في قريب له :

« الجرة الجديدة ! الجرة التي دفعت أربع فلورينات ثمنا لها ! أيمكن أن تتكسر من نفسها ؟ لابد أن أحد الناس قد أكل قلبه الحقد والحسد فكسرها » .

ولما رأى الفلاحون أن ثورة غضب سيدهم قد هدأت بعض الشيء ، أخذوا يعزونه ويهونون عليه الأمر ، ويقولون إن الجرة يمكن إصلاحها ، وإن الكسر الذي أصابها ليس كسرا خبيثا ، وإن الجبهة المشقوقة ما تزال قطعة واحدة ، وإن اللحّام البارع يستطيع أن يصلحها ويعيدها جرة جديدة كما كانت ، وإن زى دِعا اليكاسى هو الرجل الذي يصلح للقيام بذلك ، فقد اخترع نوعا من اللاط عجيب التركيب سحرى الأثر ، فإذا استعمل في إلصاق الجزءين المنفصلين عادا متماسكين تماسكا متينا ، بحيث لا يمكن أن ينفصلا حتى لو استعملت المطرقة ، واقترحوا عليه استدعاءه .

وظل دون لولو طويلا معرضا عن الاستماع إلى نصيحتهم ، فقد كان يرى أنه ليس هناك فائدة ، وأن كسر الجرة لا يشعب ، ولكنه في النهاية قبل اقتراحهم ، ووصل زى دِعا إلى بريموسولى في صباح اليوم التالى ، وقد حمل على ظهره سلة بها الأدوات اللازمة لصناعته . وإذا به رجل شخت ، ملتوى المفاصل متغضنها ، كأنه جذع زيتونة عتيقة شرقية ، وكان يلوح أنه لابد من استعمال الكلاليب في فمه لانتزاع الكلام منه ، وكان السخط والاكتئاب ينبعثان من طلعته المشنوءة الزرية ، وربما كان السبب في ذلك تألمه ، لأن الناس لم يقدروا مواهبه مخترعا ، ولم يكن قد سجل اختراعه بعد ، ولما كان يريد أن يتخذ من نجاحه سببا لإذاعة شهرته . وفي خلال ذلك كان يشعر بضرورة الاحتياط حتى لا يقف أحد على سر الاختراع .

وبادره دون لولو قائلا بلهجة المتشكك المرتاب : « أرنى اللاط الذي تستعمله » ، وذلك بعد أن ظل يحدجه ببصره من فرعه لقدمه مدة دقائق .

فرفض زى دِعا ذلك بأن هز رأسه هزة وقورة متعالية :

— سترى نتيجة استعماله .

— ولكن هل يكفى لتماسك الجرة ؟ .

فوضع زى دِعا سلته على الأرض وأخرج منها حزمة حمراء مكونة من منديل قطنى كبير قد بلى من كثرة الاستعمال ، وتلفف حول شيء ، وأخذ ينشر مطويه بعناية تامة ، والجميع حوله يرقبون حركاته بانتباه ، وأخيرا برزت من ثنايا المنديل نظارة قد تكسر جانباها وربطا بخيط ، فأثار ذلك عاصفة من الضحك ، ولم يلتفت زى دِعا إلى ذلك ومسح أنامله قبل أن يتناول النظارة ويضعها في تؤدة ووقار على عينيه ويبدأ فحصه للجرة ، وبعد إجراء الفحص قال : « يمكن إصلاحها » .

فقال دون لولو : « ولكنى لا أثق باللاط وحده ، ويلزم تقوية الالتحام بإثبات المسامير » فهب زى دِعا واقفا ووضع سلته على ظهره وقال : « إنى ذاهب لشأنى » .

فأمسك دون لولو بذراعه وقال : « أنت ذاهب ؟ ذاهب إلى أين ؟ لست أحسن أخلاقا من الخنازير ، أنظروا إلى هذا الصعلوك الذي يحاول التشبه بالملوك الصيد ! ألا تعلم أيها الأحمق أنى أريد أن أضع زيتا في هذه الجرة وأن الزيت ينضح ؟ وكيف نكتفى باللاط وحده ؟ لا بد من اللاط والمسامير ، وأنا الذي أفصل في هذا الموضوع » .

فأغمض زى دِعا عينيه وزم شفتيه وهز رأسه ، وهكذا

كان جميع الناس لا يقيمون له فرصة تجربة اختراعه وإثبات قوة الملاط وحده .

وقال : « إذا لم تعد الجرة خيرا مما كانت » .

فانطلق دون لوللو قائلا : « لا أريد أن أسمع كلمة واحدة ، سأدفع لك من الملاط والمسامير ، فكم تريد ثمنا لذلك ؟ »

— إذا استعملت الملاط فقط .

— ما أشد لجاجتك وأكثر عنادك ، لقد قلت لك إنى أريد المسامير ، وسأتفق معك على الشروط بعد الانتهاء من العمل فليس عندى وقت لأضيعه .

ومضى إلى عمله وملاحظة رجاله .

وشرع زى دعا فى عمله وقد استشاط غضبا ، وكان كلما أحدث ثقبا يتزايد غضبه ويشتد تبرمه وسخطه ، ولما أتم هذه العملية ألقى عتقابه غاضبا إلى داخل السلة ، ثم أخذ زرديته واستدعى أحد الرجال لمساعدته .

ولما رآه الرجل مكتئبا حزينا قال له : « هون عليك يا زى دعا وهش وبش ! » وفتح زى دعا العلبة الموضوع بها الملاط ورفعها نحو السماء كأنه يقدم قربانا لله لأن الناس يرفضون الاعتراف بقيمة ملاطه ، ثم أخذ يلصقه بأصبعه حول الجزء المنفصل من الجرة ، ثم أخذ الزردية والمسامير الحديدية وزحف إلى داخل جوف الجرة وأمر الزارع أن يمسك بالجزء المنفصل وأن يدنيه من سائر الجرة ، وقبل أن يثبت المسامير صاح من داخل الجرة قائلا : « شد ! شد ! شد بكل قوتك ! وها هى تلتحم وتتماسك كما ترى ، فلعن الله الذين لا يصدقوننى ! ألا ترى أنها قد عادت كما كانت وأنا فى داخلها ! اذهب وقل ذلك لسيدك ! فقال الزارع متنهدا : « على السادة يازى دعا أن يصدروا الأوامر وعلينا نحن الطاعة ، فضع المسامير ، ضع المسامير » .

وأخذ زى دعا فى تثبيت المسامير فى الثقوب مستعينا بالزردية ، واستغرق ذلك ساعة من الزمن ، وتصبب عرقه وهو فى داخل الجرة ، وكان فى أثناء العمل يندب سوء حظه وما يلقاه من الغبن وقلة التقدير ، وظل الزارع إلى جانبه يواسيه ويجامله .

ولما أتم زى دعا عمله قال له : « ساعدنى الآن على الخروج » .

ولكن الجرة بالرغم من اتساع جوفها كانت ضيقة العنق ، وهو أمر لم يلتفت إليه زى دعا ولم يلحظه لأنه كان متكدر الخاطر ثائر النفس ، وحاول جهده الخروج فلم يوفق فى ذلك ، ولما رآه الزارع فى هذه الحالة وقف مغربا فى الضحك إلى جانب الجرة دون أن يفعل شيئا ! وهكذا أصبح زى دعا حبيسا فى الجرة التى أصلحها ، ولم يكن هناك سبيل إلى إخفاء تلك الحقيقة ، وهى أنه لا سبيل إلى إخراجه إلا بكسر الجرة ! .

وسمع دون لوللو الضحك والجلبة فأقبل مسرعا ، وكان زى دعا ينفث فى داخل الجرة كالسنور الغاضب .

وصاح زى دعا من داخل الجرة : « أخرجنى إكراما لوجه الله ! إنى أريد الخروج ؟ أسرع إلى نجدتى ! » .

وكان دون لوللو قد أخذته الدهشة وحار فى أمره ، ولم يستطع أن يصدق أذنيه . ماذا ! أنت فى داخل الجرة ! لقد أثبت فيها المسامير وأنت داخلها ؟ .

ثم دنا من الجرة وصاح بزى دعا : « أى مساعدة أستطيع أن أقدمها لك الآن ؟ وما الذى تقصده بذلك أيها الأحمق الأفون ؟ حاول الخروج ! مد ذراعك وحرك رأسك ، ثم فى رفق وتؤدة وأعد المحاولة ! وكيف ساغ لك أن تعمل ذلك بنفسك ؟ وماذا يكون من أمر جرتى » .

ثم التفت إلى الحاضرين قائلا : « احتفظوا بهدوئكم ، لقد أدير رأسى ، حافظوا على هدوئكم ، هذه مسألة ليست لها سوابق ، أسرجوا البغل » .

ونقر على الجرة بأصبعه وقال : « لقد عادت الجرة كما كانت فانتظر قليلا » وأمر خادمه بإعداد البغلة ، وحك جبهته بأصابعه حكا قويا ، واسترسل يقول : « أمر عجيب !

ولست أدرى ما هو خير سبيل ، إنها ليست جرة وإنما هي رجس من عمل الشيطان ، وجرى إلى الجرة لتثبيتها قائلا : « لا تتحرك ، لا تتحرك » وكان زى دعا فى داخلها قد تملكه غضب شديد وأخذ يجاهد كالحيوان المتوحش فى المصيدة .

— إنها قضية طريفة تلك القضية التى سيفصل فيها محامى ، ولا أستطيع أن أفصل فيها بنفسى ، فأين البغلة ؟ أسرعوا بإعدادها ! فسأذهب إلى المحامى مباشرة وأعود أدراجى ، وعليك أن تنتظر فى هدوء وثبات ، فمن اللازم أن أراعى حقوقى ، وسأقوم بما علىّ من واجبات والتزامات ، وخذ أنت هذه الليرات الخمس لقاء عملك ألا يكفى هذا ؟ .

فصاح زى دعا : « إنى لا أريد شيئا ، أريد الخروج وحده » .

— ستخرج ولكن على أن أدفع لك أجر عملك ، خذ هذه الليرات الخمس .

وأخرج النقود من جيب صداره وألقى بها فى الجرة ثم استفسر فى صوت يبدو فيه الاهتمام الشديد : « هل تناولت طعاما ؟ أتريد خبزا وشيئا آخر لنا كله ؟ ماذا ؟ أنت لا تريد شيئا ؟ سأقوم بواجبى إذا قدمت لك ذلك » .

وأمر بإحضار الطعام وركب بغلته وذهب إلى المدينة والذين لاحظوا حركته وهو يركض البغلة ظنوه ذاهباً إلى مستشفى المجاذيب ليقيم به .

ولحسن الحظ لم يقض زمنا طويلا فى حجرة انتظار المحامى ، ولكن كان عليه أن ينتظر مليا بعد أن أخبر المحامى بالمسألة ، فقد أغرق الرجل فى الضحك حتى تضايق دون لولو الذى كان لا يجد فى المسألة ما يدعو إلى هذا الضحك ، فقال للمحامى غاضباً :

— اسمح لى أن أقول لك إنى لا أرى ما يثير الضحك ، والأمر بالقياس إليك ليس فيه ما يضر ، ولكن الجرة من ممتلكاتى .

— ولكن المحامى استمر فى الضحك وطلب منه أن يعيد على مسامعه القصة كما وقعت حتى يستطيع معاودة الضحك .

— لقد وضع المسامير بالجرة وهو داخلها ، وماذا تريد يادون لولو ؟ أتريد أن يظل الرجل فى داخل الجرة حتى لا تخسر شيئا ؟ .

فصاح دون لولو وقد ضم قبضتيه : « ولم أخسر الجرة ؟ ولماذا أفقد نقودى وأصير أضحوكة للناس ؟ » .

فقال له المحامى أخيراً : « ولكن ألا تعرف ما يسمى ذلك ؟ إنه يسمى الحبس الجائر » .

— الحبس ؟ ولكن من الذى حبسه ؟ لقد حبس نفسه فما ذنبى ؟ .

فأفهمه المحامى أن المسألة تثير قضيتين : الأولى أن على دون لولو أن يطلق سراح سجينه فى الحال إذا كان لا يريد أن يحاكم من أجل تهمة الحبس الجائر ، والقضية الثانية أن هذا المحام عليه تبعة الخسارة التى سببها سخافته وقلة براعته .

فقال دون لولو فرحا مسروراً : « إذاً عليه أن يدفع لى ثمن الجرة ! » .

فأجابه المحامى : « تمهل قليلا ، وتذكر أنه لا يدفع الثمن باعتبارها جرة جديدة ! » .

— ولم لا ؟ .

— لأن الجرة كانت مكسورة كسراً سيئا .

— مكسورة ! لا سيدى ، إنها الآن خير مما كانت ، وهو نفسه يشهد بذلك ، وإذا كسرت ثانية فليس من الميسور إصلاحها ، وسأخسر الجرة ياسيدى .

فأكد له المحامى أن هذه المسألة ستراعى ، وأن على المحام أن يدفع ما تساويه الجرة فى حالتها الراهنة ، وأشار عليه أن يحضر الرجل نفسه ليقدم تقديراً لقيمتها فى بادئ الأمر ، وخرج دون لولو من عنده مسرورا وأسرع فى العودة إلى ضيعته .

ولما رجع فى المساء وجد العمال يقيمون حفلة حول الجرة المكسورة ، وكان زى دعا لم يهدأ ثائره فحسب ، بل أخذ يستمتع بهذه الخاطرة ويرضى عن إقامته فى داخل الجرة ، واستطاع أن يقابل ذلك بالابتسام والفكاهة التى يعرفها البائسون .

وأمر دون لولو الحاضرين بالابتعاد وانحنى على الجرة وقال: « هيلو ! ألست مبسوطا ؟ » فأجاب الرجل: « عيشة ممتعة فى الهواء الطلق ! إنها خير من منزلى » .

— يسرنى أن أسمع ذلك ، وأريد الآن أن تعلم أن هذه الجرة كلفتنى أربع فلورينات وهى جديدة ، فكم تساوى قيمتها الآن ؟ .

فسأله زى دعا قائلا : قيمتها وأنا بداخلها ؟ .

فضحك الفلاحون الأجلاف .

فصاح بهم دون لولو : « اسكتوا . إما أن يكون ملاطك نافعاً ، وإما أن يكون غير ذلك ، وليس هناك احتمال ثالث ، فإذا كان غير نافع فأنت غاش دعى ، وإذا كان نافعاً فلابد أن يكون للجرة فى حالتها الراهنة قيمة ، فما هى هذه القيمة ؟ إنى أريد تقديرك لها » .

فأجاب زى دعا بعد أن فكر قليلا : « إليك ردى ، لو كنت تركتنى أصلحها بالملاط وحده — كما أردتُ — لما كنت حبست فيها ، ولعادت لها قيمتها الأولى بلاشك ، ولكن هذه المسامير قد أتلفتها ، وأفقدتها قيمتها ، فهى لا تساوى الآن سوى ثلث قيمتها الأصلية » .

— أى أنها تساوى فلورينة واحدة وثلاثة وثلاثين سنتيما .

— ربما أقل من ذلك ولا يمكن أن يكون أكثر .

فقال دون لولو : « حسن ، عدنى بأن تدفع لى هذا المبلغ » .

فأجاب زى دعا كأنه لم يفهم المقصود : « ماذا ؟ » .

فقال دون لولو : « سأكسر الجرة لأطلق سراحك ، وقد أخبرنى المحامى أن عليك أن تدفع قيمة الجرة حسب تقديرك ، أى فلورينة وثلاثة وثلاثين سنتيما » .

فاستضحك زى دعا وقال : « أنا أدفع ! أحب إلىّ أن أبقى فى داخلها حتى أهلك » .

وبصعوبة أخرج من جيبه غليونا قصيراً قذراً وأشعله وأخذ يدفع بالدخان من عنق الجرة .

ووقف دون لولو عابس الوجه ، فإن فكرة امتناع زى دعا عن طلب الخروج من الجرة لم تخطر على باله ، ولا على بال محاميه ، فماذا يصنع ؟ وقد هم بطلب إسراج البغلة ، ولكن الليل أقبل ، فقال : « أو هو ، أنت تريد أن تتخذ جرتى دار إقامة ؟ إنى أشهد الناس على أنك تسكنها ، وترفض الخروج منها لكى تفلت من دفع الإيجار ، إنى مستعد لتكسير الجرة ، ولكنك تصر على البقاء بها ، ولذا سأتخذ الإجراءات القانونية ضدك فى الغد ، لأنك تحتل جرتى احتلالا غير شرعى ، وتمنعنى من حق التمتع باستعمالها » .

فأرسل زى دعا نفسا آخر من أنفاس غليونه وقال فى هدوء : « لا يا سيدى ، إنى لا أريد منعك بحال من الأحوال ، أتظنني هنا لأنى أريد ذلك ؟ دعنى أخرج ، وأنا أذهب إلى سبيلى مسروراً ، أما الدفع فهذا ما لا يكون يا سيدى » .

فغضب دون لولو وهمَّ بركل الجرة ، ولكنه كظم غيظه فى الوقت المناسب ، ثم قال : « ولكن من الذى أخطأ ، أنا أم أنت ؟ أتنتظر منى أن أدفع ثمن خطئك ؟ تستطيع أن تهلك جوعاً فى داخلها ، وسنرى أينا الرابح » .

وانصرف ناسياً الليرات الخمس التى قذف بها فى الصباح إلى داخل الجرة ، وكان أول ما فكر فيه زى دعا هو إنفاق هذه النقود فى إقامة حفلة ساهرة مع الفلاحين الذين صمموا على قضاء الليلة فى المزرعة بالهواء الطلق ، وذهب أحدهم إلى الحانة المجاورة ليستحضر اللازم منها ، وكان القمر عالو

الـكوليرا

كنت أتصفح عدداً من مجلة « الشفاء » التي كان يصدرها المرحوم الدكتور شبلي شميل منـذ ستين عاما ، فلفت نظري مقال من الكوليرا بعنوان : «وباء الهواء الأصفر في سنة ١٨٨٦ » ، جاء فيـه ما يلي : « لا يخفى أن الهواء الأصفر قد نزل منذ مدة على أوربا ضيفاً غير محتشم (كذا) ، وطاب له المقام فيها بعد أن فارقنا غير مأسوف عليه . وإذا راجعنا تاريخ الوباء الحاضر نجد أنه ابتـدأ أولاً في فينسيا من أعمال إيطاليا ، وذلك في شهر ديسمبر سنة ١٨٨٥ ، حيث ألمّ بألف نسمة ، وأمات منها ٦٣٠ ، ثم انتقل إلى برنديزي في أواخر أبريل ومنها امتد إلى الضواحي المجاورة . وفي شهر سبتمبر سار في طريق آخر وعرج على ضواحي نابولي ، وفي أكتوبر حل في رومية ، ولا زال حتى اليوم في مقاطعة كالبارى . على أن الحـكومة الإيطالية تزعم أنه قد زال من بلادها ، وتدعى أن عدد الذين أصيبوا به في عام ١٨٨٦ خمسة عشر ألفا فقط ، والحال (كذا) أن المسجلين منهم ٢١٠٠٠ ، والمتوفين ٨٦٥٠ .

« وقد نزل الوباء على بلاد النمسا والمجر ، ولـكنه لم تشتد وطأته هناك جداً ، وقد زال من فينا ومن بودابست ومن تريستا أيضاً » .

وبينا أقلب الصفحات ، عثرت على مقـال آخر تحت (أخبار طبية) بعنوان « الهواء الأصفر » جاء فيه : « جاء في تلغراف من شركة روتر في ٣ أغسطس ١٨٨٧ ، مفاده أنه قد توفي في مالطة اثنان في الكوليرا (كذا) وجاء في التاريخ نفسه أنه أصيب خمسة وتوفي واحد فقط . وجاء في ٤ شهره (كذا) تلغراف من شركة هافاس ، مفاده حصول ٣ إصابات في سواحل نابولي . وجاء في التـاريخ المذكور تلغراف من حاكم مالطة إلى قنصل إنكلترا بالإسكندرية ، مفاده أنه لم يصب أحد في مساء اليوم ، وأنه لم تقع وفيات جديدة ، وأن الذين أصيبوا هم ٣ فقط ، وهم تحت المعالجة ، وجاء للقنصل أيضاً في ٤ الجاري من حكومة مالطة إفادة مفادها أن الـكوليرا قد ظهرت في الجزيرة ، وأنه نقل في الحال الأشخاص الذين أصيبوا بها إلى المستشفى المخصوص وهو على بعد ٢٠٠ ذراع من آخر منازل المدينة ، وأحرقت الفرش التي توسدها المصابون ، وطهر البيت وأمتعته ، كل ذلك بقصد حصرها وعدم امتدادها ، إلا أن كل هذه التحوطات لم تنجح في حصر هذا الداء ، بل هو لا يزال في ازدياد في الجزيرة وإصاباته ووفياته تكثر يوما عن يوم » .

وهكذا انتشر ذلك الوباء الذي بدأ في مصر عام ١٨٨٣ والذي اكتشف أثناءه العلامة كوخ جرثومة الـكوليرا ، التي عصفت بأرواح الملايين ، وهي من فرط حقارتها لا تراها العين المجردة ! وهي أكثر ما تنتعش في الأشهر الحارة ، وخاصة في أوائل الخريف . وهي لا تحترم السن ، لأنها تصيب الأطفال والشبان والشيوخ سواء بسواء . ولا تولد الإصابة بها مناعة ضد الجرثومة ، لأن الشخص الواحد

العائمة ، بأهي الضياء ، ولما كانت الليلة مضيئة مناسبة للقصف واللهو .

وبعد ساعات استيقظ دون لولو من نومه على ضجة تصم الآذان ، ولما نظر من الشرفة رأى في ضوء القمر رجاله وهم يسكرون ويعربدون ويرقصون حول الجرة ، وزي دعا في داخلها يشتمهم بأعلى صوته .

ولم يستطع دون لولو في هـذه المرة أن يكبح جماح نفسه ، وانطلق كالثور الهائج ، وقبل أن يستطيعوا منعه ركل الجرة ركلة شديدة ، فبدأت تهوى في منحدر ، واستمرت في طريقها . وقد كادت جماعة الفلاحين تجن من السرور والطرب ، حتى اصطدمت بشجرة زيتون ، وتناثرت أجزاؤها ، وخرج منها زي دعا منتصراً ظافراً .

على أدهم

عرضة لأن يصاب بها مئتي وثلاث ورباع . ولم يكن هذا المرض معروفاً قبل أوائل القرن التاسع عشر ، حتى إذا جاء عام ١٨١٧ شمل الوباء الأول آسيا ، ولم يمتد إلى غيرها ، ثم خبا في عام ١٨٢٣ دون أن يمتد إلى مصر . أما الوباء الثاني فقد استمر بين عامي ١٨٢٦ ، ١٨٣٧ وشمل مصر . وحدث الوباء الثالث بين عامي ١٨٤٦ ، ١٨٦١ . والرابع في عام ١٨٦٣ . والخامس بين عامي ١٨٨٣ ، ١٨٩٠ . وقد شملت كلها مصر ، وفي الوباء الأخير اكتشف العلامة روبرت كوخ ميكروب الكوليرا في مصر في غرفة ملحقة بالمستشفى الأميري بالإسكندرية ، وهي لا تزال قائمة حتى الآن . أما الطوفان الوبائي السادس فكان من سنة ١٨٩٠ إلى ١٨٩٥ ، ولم تنج مصر منه . وآخر وباء تذكره مصر هو الذي أصابها في عام ١٩٠٢ ، عند ما بدأ في قرية موشا من أعمال أسيوط ، ثم اتسع نطاقه حتى قضى على ما يقرب من ٣٠ ألف شخص في أيام قلائل . ولم تعرف بلادنا هذا المرض بعد ذلك إلا في حالات فردية لم تتجاوز الخمس ، تسربت إليها من فلسطين من وحدات العمال في سنة ١٩١٨ .

ولا بد أن نخمن مصدر الوباء الحالي (عام ١٩٤٧) فلو كان وافداً من الهند ، فلا يمكن أن يكون تسربه إلى بلادنا من طريق مريض مصاب به ، لأن مدة الحضانة في هذا المرض تتراوح بين ٣ و ٤ وأيام ، وقد تصل إلى سبعة ، والمعلوم أن السفر من الهند إلى مصر يستغرق حوالي الأسبوع وهي مدة تتجاوز مدة الحجر الصحي المقررة ، أي أن أعراض المرض لابد أن تظهر بجلاء ووضوح قبل أن ترسو الباخرة على أرض الوطن العزيز الذي شاء موقعه الجغرافي أن يجعل منه ملتقى مدنيات العالم جميعا .

فالمعقول أن المرض تسلل إلى بلادنا من طريق حامل الجرثومة ، وهو الشخص الذي يأخذها في جوفه دون أن تظهر عليه علامات المرض ، وهو يحملها مدة قد تتجاوز الشهرين ، يتسنى له خلالها أن ينثر المرض حيث شاء دون أن يشاء !

وينتشر المرض عن طريق الماء الذي لوثه براز المرضى أو حامل الجرثومة ، ويكون ذلك إما بشرب الماء الملوث ، أو الخضراوات والفاكهة التي غسلت به ، وأشد حاملي الجرثومة خطرا هو الطاهي الذي يأتي لك بالعدوى إلى عقر دارك وأنت آمن ، فيوردك ومن حولك موارد الهلاك . وقد ينقل الذباب العدوى إلى الطعام الذي تأكله . فحاربه وأبده تأمن شره حتى يأذن الله بالخلاص .

وتتلخص أعراض المرض في ثلاثة أدوار : الأول دور التفريغ ، والثاني دور الهبوط ، والثالث دور رد الفعل . أما دور التفريغ فهو اسم على مسمى لأن المريض يفرغ ما في جسمه من سوائل حيوية عن طريق الفم والشرج ، فينتابه إسهال شديد وقيء أشد هولا ، ويشعر بعطش ملح ويأخذ في الهبوط ، وتضعف نبضات قلبه ، وتنخفض درجة حرارته عن مستواها الطبيعي . وقد يقف المرض عند هذا الحد ، ويتحول سير المرض إلى طريق الشفاء ، أو قد يستمر في شدته إلى دور الهبوط ، وقد تنهار قوى المريض ، وتغور عيناه ، وينكمش جلده ، وتزرق شفتاه وأظفاره ، ويغمره العرق ، ويقل إفراز بوله أو ينعدم تماما ، ويسرع نبضه ، وقد لا يحس به مطلقا ، وقد لا تستغرق هذه الرحلة غير الممتعة إلى وادي الموت أكثر من ساعات معدودات . أما الحالات البسيطة فإنها تدخل في دور رد الفعل وفيه تبدو علامات التحسن السريع على المريض ، فتعود إليه قواه ودفؤه الطبيعيان ، ويقل عدد مرات التبرز ، وقد ترتفع درجة حرارته قليلا ، ثم يسير حثيثا في طريق الشفاء .

* * *

وتتلخص وسائل الوقاية في عزل المرضى عزلا تاما واكتشاف حامل الجرثومة وعزلهم أيضا ، أما السليمون

فيجب عليهم أن يتجنبوا أكل الخضراوات النيئة والفاكهة الطازجة المعرضة لحط الذباب دون غسلها جيداً وغمسها في ماء مغلي مضافاً إليه أحد المطهرات كبرمنجنات البوتاسيوم مثلاً ، ويجب أن يرفعوا مستواهم الصحي ، ولا يتأتى ذلك ما لم يتمتعوا بالغذاء الجيد والهواء الطلق ويجنبوا أجسامهم مضار المشروبات الكحولية . أما اللقاح الواقي فإنه أكيد في مفعوله ويعطي مناعة تستمر لمدة خمسة شهور فقط ، ولا تتولد هذه المناعة قبل مضي عشرة أيام من الحقن باللقاح . ولذا يجب ألا نتراخى في اتباع وسائل الوقاية اعتماداً على الأمل الكاذب أثناء هذه الفترة اللائمة ، ويعطي من اللقاح حقنتين بينهما أسبوع ، ويختلف المقدار بحسب السن ، فهو في الشخص الكبير $\frac{1}{2}$ سم ثم سم ، وفي الأطفال فوق الثانية من عمرهم $\frac{1}{4}$ ثم $\frac{1}{2}$ سم ، أما دون ذلك فيأخذون $\frac{1}{8}$ ثم $\frac{1}{4}$ ويمكن إعطاء الأطفال الرضع $\frac{1}{10}$ ثم $\frac{1}{5}$ سم .

وقد كانت الكوليرا فيما مضى من الزمان تفتك ببني البشر فتكاً ذريعاً ، حتى إن نسبة الوفيات كانت أحياناً تتجاوز السبعين في المائة من عدد الإصابات . أما الآن فقد دق الطب الحديث أسافين عدة في الجزيرة القاحلة اللائمة ، حتى كادت تستسلم للذهن البشري الجبار . ففي الوباء الأخير بمدينة كلكتا جربت مستحضرات السلفا جوانيدين فكانت نسبة الوفيات ١٫١٪ في حين أنها كانت ٣٨٫٣٪ في الحالات التي لم تعالج بالسلفا . أما التي حقنت بالبلازما Plasma علاوة على تعاطيها مركبات السلفا فقد انعدمت الوفيات بينها تماماً . ويقصد بالبلازما السائل الدموي الذي يتخلف من الدم بعد أن تفصل منه الكريات الحمراء ، وقد توصلوا إلى تحضيره والاحتفاظ به على هيئة مسحوق يذاب عند اللزوم ، ثم يحقن في الوريد في الحالات التي يفقد الجسم فيها كميات كبيرة من السوائل ، كما يحدث في مرض الكوليرا وإسهال الصيف الحاد ، والحروق الشديدة ، والصدمات الجراحية ، والنزيف الداخلي والخارجي ، وقد أدى استعمالها في الكوليرا كما أسلفنا إلى نتائج باهرة . فما أجل العصر الذي نعيش فيه ! لقد تقدمت فيه وسائل الوقاية والعلاج من معظم الأمراض التي فتكت بأجدادنا دون حساب أو ضمير ، وأصبحنا في أمان نسبي من بطشها ، وعندما نفكر فيما وصلنا إليه وننظر إلى السماء في خشوع حامدين ، يجب ألا ننسى طبيب المعمل الذي يقبع في ركنه يصل الليل بالنهار باحثاً منقباً وراء أعداء الإنسان ، ليقهرها الواحد بعد الآخر ، فتعيش أنت ومن حولك في طمأنينة تشكر عليها الله الذي ألهم هؤلاء الرسل اكتشاف ما توصلوا إليه ! فطوبى لهؤلاء المجهولين ، إن جزاءهم عند الله !

***

ولنعد إلى صوت الماضي مرة ثانية ، ونقلب صفحات مجلة الشفاء ، فنقرأ في صفحة ٤٣٦ من المجلد الثاني لعام ١٨٨٧ ما يأتي بعنوان « باشلس الهواء الأصفر » قالت البريتش مديكال (يقصد المجلة الطبية البريطانية) : لقد صار لاكتشاف باشلس الهواء الأصفر أهمية عظيمة بين الناس ، إذ صار يمكن به أن يتأكد ما إذا كانت حوادث الهيضة المفردة حوادث كوليرا أسيوية حقيقية أم لا ، كما يظهر من الحادثة التالية التي حدثت في مدينة نيويورك . فقد أقبلت على هذه المدينة من مدة قريبة سفينة إيطالية بين ركابها ولد به هيضة ، ولم تكن علاماتها تدل على أنها كوليرا حقيقية ، ولتحقق ذلك أبقوا السفينة أولاً تحت الحجر ، وأخذوا شيئاً من براز الولد وزرعوه ، وبعد أربعة أيام وجدوا فيه باشلس كوخ بكل خواصه المميزة له ، فثبت لهم أن الحالة كوليرا أسيوية حقيقية ، وزادهم يقيناً ما حدث في هذا الوقت من ظهور حوادث أخرى في السفينة مما دل على أن المرض انتشر فيها .

انتهى كلام المجلة المزيزة القديمة . الله يرحمها ويرحم مؤسسها ومحرريها .

دكتور مصطفى الديواني

الأصلي والفرعي
والحقيقي والمجازي
في ألفاظ اللغة العربيـــة

لا يمكن أنْ نفهم معاني ألفاظ اللغة العربيـة فهماً واضحاً دقيقاً يستسيغه العقل ويستعذبه الذوق وتطمئن إليه النفس إذا لم يُبين الأصليّ والفرعيّ والحقيقيّ والمجازيّ منها .

ومعاجم اللغة جميعها قديمها وحديثها، من أكبرها وهو المحكم لابن سيده إلى أصغرها وهو مختار الصحاح للرازي، ما رتب منها على وفق الحروف كاللسان لابن منظور وما رتب منها على وفق المعاني كالمخصص لابن سيده ، وضعها آحاد ولم يُعنوا فيهـا بالتزام بيان الأصل والفرع والحقيقة والمجاز ، إلا إمام العربية الأكبر الزمخشري في كتابه أساس البلاغة ، فقد التزم فيه بيان الحقيقة والمجاز ، وإلا الإمام أبا القاسم الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات في غريب القرآن ، فإنه التزم فيه بيان أصول الكلمات ، ولم تخلُ المعاجم الأخرى من ذكر الأصل والفرع والحقيقة والمجاز ، ولكن على قلة قد تبلغ حد الندْرة .

والمراد بأصل الكلمة اللفظ الذي اشتقت منه جميع ألفاظ المادة من أفعال ومصادر ومشتقات قياسيّة وغير قياسيّة ، واشتملت على أحرف الأصل ومعناه بصور مختلفة، وأصول الكلمات بهذا المعنى يعرفها علماء اللغات جميعا الآن ، وقد عرفها علماء العربية منذ ألف سنة كما سيأتي .

وهذه الأصول قسمان : القسم الأوّل أسماء الأصوات مثل طَقْ وهو حكاية صوت لوقع حجر على حجر ، فإن ضوعف وقعه حُكِي بلفظ طَقْ مضاعفا ، فقيل طَقْ طَقْ ، فقد اشتقوا منه فعلا فقالوا طَقطق ؛ وإذْ كان الصوت الذي يحكي بلفظ طقْ حادثا من وقع حجر على حجر أو ضرب حجرٍ حجراً فقد اشتقوا من هذا اللفظ لفظا آخر بزيادة راء في الوسط للدلالة على الضرب بالحصى ، فقالوا طرق إذا ضرب بالحصى للتكهن ، وقالوا طرق الحدادُ الحديدَ والنجاد الحشايا ، وسموا آلات الطرق المطارق ، وسموا الذي يأتي ليلا طارقا لحاجته إلى طرق البـاب ، أي ضربه أو دقه ، وعلى هذا النسق اشتقوا من طق نطق وانطلق وغيرها .

قال إمام العربية البارع أبو الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ في كتابه الخصائص : وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وسجيع الحمام ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغـات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل .

والقسم الثاني من أصول المشتقات أسماء الأعيان مثال ذلك الضرْع وهو من ذوات الخف والظلف كالناقة والشاة مَدَرّ لبنها كالثدي من المرأة ، فقد اشتقوا منه أضرعت الناقةُ والشاة إذا نبت ضرْعُها أو عظم أو نزل لبنها من ضرْعها، وإذْ كان الفصيل أو الحمل حين يرضع يتصاغر ويتحنى ، فقد اشتقوا منه الضراعة بمعنى الخضوع والتذلل ، فقالوا ضرع إليه يضرع ضرعا وضراعة إذا خضع وذل وكذلك تضرّع ؛ وإذْ كانت ضروع كل دابة متشابهة حجماً وشكلا اشتقوا منه المضارعة بمعنى المشابهة ، فقالوا هذا يضارع هذا أي يشابهه .

هذان الأصلان وهما أسماء الأصوات وأسماء الأعيان ، هما دون غيرهما أصول الكلمات ؛ فأما أسماء الأصوات فكانت أصول الكلمات في الطور الأول لنشوء اللغة وتكوّنها ، فلما ارتقت وتجاوزت هذا الطور وأخذ الناس يضعون أسماء الأعيان لمسمياتها أصبحت هذه الأسماء أصول الكلمات . ألا ترى العرب عربوا اللجام واشتقوا منه فقالوا

ألم الفرس ، وعربوا الطيلسان وهو ضرب من الأكسية ، واشتقوا منه تطيلست بالطيلسان أى لبسته ، وعربوا السراويل واشتقوا منه ، فقالوا سرولة ألبسه السراويل فتسرول فلبسها .

أما قول البصريين : إن المصدر أصل المشتقات وقول الكوفيين إن الفعل أصل المشتقات فإنما خلافهم هذا على الأصل الذى تتصرف منه الأفعال وتشتق منه الأسماء المشتقة القياسية المشهورة ، كاسمى الفاعل والمفعول وغيرهما ، وإن كانت القواعد التى وضعت لهذا التصريف وهذا الاشتقاق ردتها كلها إلى الأفعال لا إلى المصادر . وليس هذا هو المراد من هذا البحث ، إنما المراد هو الأصل الأول الذى اشتقت منه الأفعال والمصادر والمشتقات القياسية المذكورة وغير القياسية ، وهما أسماء الأصوات وأسماء الأعيان .

وأما ما التزمه ابن فارس فى كتابه المقاييس ، وهو أن يذكر فى صدر كل مادة منه بعض الألفاظ أو العبارات التى تدل على المعنى الجامع أو المعانى الجامعة فى المادة ، فليست هذه الألفاظ ولا هذه العبارات أصول الكلمات الواردة فى المادة ، إذ ليست هذه الألفاظ إلا فى النادر من بنية ألفاظ المواد ، مثال ذلك أنه ذكر فى صدر مادة فصح ما يأتى : خلوص فى شىء ونقاء من الشوب : فليس شىء من هذا من بنية فصح . وذكر فى صدر مادة فشا : ظهور الشىء ، وفى صدر مادة فشق : المباغتة ، والمباغتة ليست من بنية فشق وهكذا .

ولم يذكر ابن فارس هذه الألفاظ والعبارات وأمثالها فى صدور مواد معجمه على أنها أصول تشتق منها ألفاظ المواد من أفعال ومصادر ومشتقات قياسية وغير قياسية ، وإنما ذكرها على أنها تدل على المعانى الجامعة فى المادة ، فمن الخطأ الواضح والعيب الفاضح أن نعدها أصولا للكلمات .

إن أصول الكلمات هى أسماء الأصوات فى أول نشأة اللغات وأسماء الأعيان بعد تقدم اللغة وارتقائها .

أما الفروع فهى ما ذكرته غير مرة ، الأفعال والمصادر والأسماء المشتقة باطراد وبدون اطراد . أما الأسماء المشتقة باطراد فهى أسماء الفاعلين والمفعولين والصفات المشبهة وأفعل التفضيل واسما المرة والهيئة والمصدر الميمى وصيغ المبالغة كأكال ومنحار وغفور وسميع وحذر وهمزة ، وكصيغ التصغير والنسب والجموع وغيرها ، وغير المطردة مثل كُبَّار وفاروق وغيرها .

وأما الحقيقى والمجازى لجميع أصول الكلمات ، وهى أسماء الأعيان حقيقية والفروع منها الحقيقى والمجازى ، وأوضح ذلك بالأمثلة الآتية :

المثال الأول : مادة ف ك ه : أصل هذه المادة الذى اشتق منه جميع أفعالها ومصادرها وأسمائها هو الفاكهة . والفاكهة الثمار الحلوة كالتفاح واللوز والتين وغيرها ، وقد اشتقوا منه فقالوا : رجل فَكِهٌ إذا كان يأكل الفاكهة ، وأعتقد أن لفظ فكه مأخوذ من فَكِيَة الرجل يفكه فكها إذا أكل الفاكهة ، وقالوا فكه القومَ بالفاكهة يفكههم تفكيها إذا أتاهم بها فهو مفكه وهم مفكهون ، فالفاكهة الأصل وهؤلاء الأفعال والمصادر والأسماء فروع من هذا الأصل .

وقد استعملت هذه المادة فى معنى فرعى مجازى ، فقالوا فكه الرجل يفكه فكها : إذا طابت نفسه ومزح ، فهو فكه أى طيب النفس ضحوك ، وقالوا فكه القوم بملح الكلام ، أضحكهم وبسطهم بها ، وفاكههم كذلك ، وتفاكه القوم تمازحوا ، وتفكهوا بعرض فلان تلذذوا باغتيابه والأفكوهة الملحة .

المثال الثانى : مادة أ ب ض : أصل هذه المادة الذى اشتق منه جميع أفعالها ومصادرها وأسمائها هو الإباض وهو الحبل الذى يقيد به البعير ، والإباض النسا وهو عصب طويل غليظ فى الفخذ والساق ، وأرجح أن الإباض وضع للنسا أولا ثم للحبل ثانيا ، وعلى كل حال الإباض أصل

المادة اشتقوا منه أبض البعير يأبضه أبضاً إذا شد بالإباض رسغه إلى عضده وهو قائم لترتفع قائمته من الأرض فلا يستطيع السير، والمأبض موضع الإباض؛ وقالوا أبض إباضه أي قساه وأبض وتأبض إذا تقبض وشد رجليه. فالإباض بمعنيه الأصل، وهؤلاء الأفعال وما يتصرف منها من أفعال أخرى ومصادر وما يشتق من أسماء فروع لهذا الأصل، ومن المجاز في هذه المادة قولهم للغراب: متأبض النسا. أي الإباض، لأنه يحجل كأنه مأبوض.

المثال الثالث: مادة ن ف ق: أصل هذه المادة الذي اشتق منه جميع أفعالها ومصادرها وأسمائها هو النافقاء، والنافقاء والقاصعاء من أسماء جحر اليربوع، وأصل القاصعاء مدخل الجحر يسده بالتراب والنافقاء مخرج سرى وهو جزء من الجحر يرققه، فإذا هوجم من ناحية القاصعاء ضرب النافقاء برأسه وخرج وذهب، وقد اشتقوا من النافقاء، فقالوا نفق اليربوع ونافق وانتفق ونفّق خرج من نافقائه ونفقه غيره وانتفقه استخرجه منه، ونفّق اليربوع تنفيقاً ونافق نفاقاً دخل نافقاءه؛ فالأصل النافقاء، وكل هؤلاء الأفعال وما يتصرف منها من أفعال ومصادر وما يشتق من أسماء فروع لهذا الأصل.

وقد استعملت هذه المادة في معنى فرعي مجازي في اللسان: نفق اليربوع ونافق دخل نافقاءه ومنه اشتق المنافق في الدين، والنفاق في الدين هو الدخول في الإسلام من وجه والخروج من آخر، مشتق من نافقاء اليربوع، وفي المفردات: نافقاء اليربوع: وقد نافق اليربوع ونفق ومنه النفاق وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب، وعلى ذلك نبه بقوله: «إن المنافقين هم الفاسقون» أي الخارجون من الشرع. وفي المخصص: وذكروا أن المنافق أخذ من النافقاء، كأنه يخرج الإيمان من قلبه فيذهب م ٨ ص ٩٣ س ٩.

المثال الرابع: مادة ع ص ا: أصل هذه المادة الذي اشتق منه جميع أفعالها ومصادرها وأسمائها هو العصا، وهي العود، اشتقوا منه فقالوا: عصاه بالعصا يعصوه عصواً ضربه بها وعصى بها أخذها وعيصى يعصى إذا لعب بالعصا، واعتصى الشجرة قطع منها عصاً، واعتصى على عصا توكأ عليها واعتصى العصا كذلك وعصّاه عصاً أعطاه إياها.

وشبهوا السيف بالعصا وقالوا عصى بسيفه وعصا به يعصو عصواً أخذه أخذ العصا أو ضرب به ضربه بها، وفلان يعتصي بالسيف أي يجعله عصاً.

وكنوا بالعصا من الضرب والعنف فقالوا فلان صُلب العصا وصليب العصا: إذا كان عنيفاً يضرب الإبل بالعصا، وهذا مذموم، ثم قيل إنه لصلب العصا أي أنه صلب في نفسه وليس ثم عصا، وقالوا في ضد ذلك: رجل لين العصا رفيق حسن السياسة قليل الضرب بالعصا وذلك ممدوح.

ومن الحقيقة عصى الرجل في القوم بعصاه يستعصي أخذ يضرب فيهم بلا مبالاة، ولا يفعل ذلك إلا رجل خارج على العرف والطاعة، فهو عاص غير مطيع، ومن هنا اشتق العصيان فهو مشتق من العصا أو هو كما قال الإمام الراغب الأصفهاني في معجمه مفردات القرآن: عصى يعصي عصياناً إذا خرج من الطاعة، وأصله أن يمتنع بعصاه. فعلى كلتا الحالين العصيان مشتق من العصا وليس لمادة ع ص ا أصل غير العصا وهي العود.

* * *

وأما ما يظن من أن الأصل يستعمل بمعنيين المعنى السائد في المادة ومأخذ الكلمة، فإني أعتقد أن المعنى السائد في المادة ليس أصلاً، وإنما هو معنى المأخذ نفسه، والمأخذ لا يمكن أن يكون أصلاً للمادة إذا لم يكن معناه دائراً فيها، فأصل المادة شيء واحد لا اثنان، وهذا الشيء هو المأخذ، فالشد في مادة أبض ليس أصلاً لها، وإنما هو

الماجنيتوفون

إحدى بدائع العلم الألمانى

جند الحلفاء حشداً كبيراً من رجال العلم والصناعة فى بلادهم ، وأنزلوهم فى ألمانيا فى إثر قواتهم الغازية ، ليبحثوا من بدائع الفكر الألمانى فى ميادين العلم والصناعة وينقلوها إلى بلادهم . وكان من أهم ما وجده هؤلاء البحاث جهاز (الماجنيتوفون) وهو جهاز لا يختلف فى شكله الخارجى كثيرا من جهاز الجراموفون العادى ولكنه يقوم بتسجيل الأصوات تسجيلا صادقا ، ثم يذيعها فى التو والساعة إذاعة متقنة . وهو بذلك يفضل جميع أجهزة تسجيل الصوت المعروفة فى أمريكا وبريطانيا .

وقد استعمل الحلفاء الجهاز الجديد لأول مرة علناً فى تسجيل محاكمات نورمبرج التاريخية الكبرى . وكانوا قد نقلوا عدة نماذج منه إلى الولايات المتحدة ، حيث عكف عليه العلماء أياماً طوالا لاستكناه أصله ومعرفة تركيبه ، ثم أشرف الأمريكيون على البحوث التى يجريها رجال هيئة الإذاعة الألمانية فى برلين ، لتحسين صناعة الماجنيتوفون . وقيل إن تحسينات كثيرة قد أدخلت على الجهاز بفضل البحوث التى تمت بعد الحرب ، وبذلك ينتظر أن يصنع تجاريا ويستعمل فى تسجيل الصوت على مقياس واسع ، ولا سيما تسجيل الحادثات التليفونية بعيدة المدى ، التى لا يحسن عادة الاستماع إليها بالأذن مباشرة .

وثمة طرائق ثلاث يعرفها العلماء لتسجيل الصوت ، وهى الطريقة الميكانيكية والطريقة الضوئية والطريقة المغنطيسية . والصوت ذاته كما هو معلوم ينشأ من ذبذبة الأغشية أو الأوتار ، ذبذبة منتظمة تنتقل إلى الهواء فيتضاغط ويتخلخل تباعاً ، فتسمع الذبذبات من بعد بمثل تتابعها فى مصدرها ، حتى تصل من طريق الأذن إلى عصب السمع ، فيحس بها ويسجلها المخ صوتاً . وأقرب مثل من أمثلة الصوت المسجل جهاز الجراموفون (الحاكى) العادى . وفيه يتذبذب الغشاء (السماعة) ذبذبات منقولة من حركة الإبرة فوق الاسطوانة عند دورانها . وهذه هى الطريقة الميكانيكية . وفيها يسجل الصوت بأن يتذبذب الغشاء ، وتنتقل هزاته إلى إبرة تحفر فى أسطوانة رخوة شقوقاً يتناسب عمقها مع شدة الصوت ونوعه ، ثم تطبع آلاف النسخ مماثلة لتلك الإسطوانة الأصلية ، وتباع لنا ، فتنقل لنا الغناء مسجلا على تضاريس اسطوانة سوداء منبسطة .

أما الطريقة الضوئية ، فتستعمل بكثرة فى أشرطة السينما الناطقة المألوفة الآن لدينا كل يوم . ويسجل الصوت فيها بأن يتذبذب غشاء رقيق ذبذبات ناجمة عن الصوت الأصل ، وتؤدى هذه الهزات إلى إحداث تغيرات مقابلة فى ضوء يسقط على طرف الشريط السينمائى المصور . فإذا تم تحميض الشريط وتثبيته بالطرق الفوتوغرافية ، ظهر الصوت عليه مسجلا على جانبيه بشكل حزم متفاوتة

مأخوذ من أصل هذه المادة وهو الإباض أى الحبل أو اللسا كما تقدم ، والعصيان وهو المصدر ليس أصلا للمادة ، وإنما هو مأخوذ من أصل المادة وهو العصا كما تقدم .

* * *

هذه هى أصول الكلمات وفروعها وحقائقها ومجازاتها . وإن من أوجب الواجبات إذا أردنا أن ندرس اللغة دراسة مجدية نبلغ بها ما نريد من فهم معانى ألفاظها فهماً واضحاً دقيقاً يستسيغه العقل ويستعذبه الذوق وتطمئن له النفس أو نؤلف فيها تآليف على هذا النحو ، أن ننشد هذه الأصول والحقائق والمجازات ، وإلا كان عملنا نافها لا يستحق جهداً ولا وقتاً ولا مالا ولا تقديرا .

عبد الله أمين

الإضاءة . ثم إذا أديرت آلة العرض ، مرت هذه الحزم أمام شعاع من ضوء فتنقص منه بقدر دكانتها ، وكلما أنقصت شيئاً منه ، تأثر بذلك غشاء مهتز معد لذلك ، فيصدر عنه الصوت الذى نسمعه فى دور العرض مصاحباً لمناظر الرواية .

أما الماجنيتوفون فيعمل وفقاً لنظرية أخرى . بيانها أن الحديد يتمغطس أى يكتسب المغناطيسية إذا لف حوله سلك يمر به تيار كهربائى ، وأن المغناطيس الناشىء بهذه الطريقة يمكنه أن يؤثر فى قطعة من الحديد قريبة فيصيرها ممغطسة بالتأثير . فإذا جعلت الغشاء الصوتى المتذبذب يؤثر فى التيار الكهربائى ، بحيث يزيد ذلك التيار أو ينقص تبعاً لارتفاع نغمات الصوت أو انخفاضها ، ثم جعلت هذا التيار المتغير يمغطس قطعاً من الحديد ، إذاً لوجدت لديك قطع من الحديد تختلف فى شدتها المغنطيسية تبعاً لاختلاف الصوت ، وبذلك يسجل الصوت .

وقد صنع الألمان شريطاً من البلاستيك أو اللدائن عرضه ½ بوصة وسمكه ١/٢ من المليمتر ، وجعلوا دقائق من الحديد الطبيعى تدفن فى طياته وتتوزع داخله ، وصنعوا من هذا الشريط لفائف كبيرة طولها ألف متر أو أكثر ، ويدار الشريط أمام مغنطيس كهربائى ، يتأثر فى عمله بذبذبات الغشاء المسجل للصوت . فإذا تم إمرار الشريط خلال الاستماع إلى الصوت ، انقلبت دقائق الحديد المدفونة فيه إلى مغنطيسات عديدة تختلف شدتها وفقاً لنوع الصوت وشدته . ثم إذا أريد الاستماع إلى التسجيل يدار الشريط أمام مغنطيس كهربائى آخر ، فتؤثر دقائقه فى التيار المار فى المغنطيس الكهربائى ، ويؤثر التيار فى غشاء ، يتذبذب فيحدث صوتاً مطابقاً للصوت الأصلى .

ومزية هذا الجهاز الجديد أنه قادر على تسجيل جميع الأصوات من الهمسات الناعمة الخافتة إلى الضربات الخشنة المدوية . ويمكن الاستماع إلى الشريط مباشرة بعد تسجيله ، فلا تطبع منه اسطوانات كما فى الجراموفون ، ولا يحمض كما فى الأشرطة السينمائية . ولا يحتوى الجهاز على إبرة تبلى من كثرة الاحتكاك ، ولا يتضمن شقوقاً تخفى معالمها من كثرة الاستعمال ، بل يمكن استعادته مراراً وتكراراً دون تحريف أو تحوير .

ويكفى الشريط الذى طوله ألف متر لتسجيل الصوت لمدة ٢٢ دقيقة ، ويمر فى آلة التسجيل بسرعة ٣٠ بوصة فى الثانية الواحدة ، ويقدر الإخصائيون أنه يتكلف أقل من نصف دولار . ولذلك ينتظر أن ينجح تجارياً فى جميع الدوائر المعنية بالاستماع إلى الأصوات المسجلة .

إبراهيم علي عبد الرحمن

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٩٧٦٩
القاهرة

القوم يقرأون . . .

(١) الأربعة ملايين :

ألف هذا الكتاب عام ١٩٠٦ الكاتب الأمريكي « وليم سدني بورتر » المعروف بين أرباب القلم باسم « و . هنري » .

وصاحبنا هذا هو الفارس المجلي في الموضوعات التي تحدثك عن الخادمات ومن البنات البائسات في الدكاكين .

والعنوان الذي اتخذه لكتابه هذا هو احتجاج يعلنه في وجه « المحتسب » الاجتماعي ، الذي لا يسجل في قوائم حسابه إلا الطبقة الممتازة التي سماها هو « الأربعمائة » ، والذي يسقط من سجلاته تلك الطبقة التي تثير الاهتمام ، والتي من أفرادها كل أفاق ، وكل من ضاقت به السبل فحرم وسيلة العيش الحلال .

ففي قصته التي عنوانها (هبة الساحر) يضحي كل من الزوج والزوجة بأثمن ما يملك ليشتري لصاحبه هدية في عيد الميلاد .

فالزوج يرهن ساعته الذهبية ليشتري لزوجته مجموعة من الأمشاط المصنوعة من الصدف الغالي تمشط بهذه الأمشاط شعرها الجميل ، وهو غير عالم أن زوجته قد قصت في ذلك اليوم شعرها لتشتري بثمنه سلسلة ذهبية لساعته .

وفي قصة أخرى يحدثنا الكاتب عن واحد من الأفاقين ، وقد قال عنه :

— عند ما أقبل الشتاء وجد بطل القصة واسمه سوبي Soapy أن نومه على أحد مقاعد الحديقة العامة لم يعد ممكنا على الرغم من اتخاذه ثلاث جرائد من جرائد يوم الأحد غطاء له ودثارا . فبذل جهد اليائس المستميت ليظفر بدخوله السجن لكي يضمن لنفسه النوم في غرفة ذات سقف ، وكأنه في ذلك أحد الأثرياء من بني قومه ، وهو يسعى ليتمتع بالإقامة في أحد المشاتي التي يستمتع فيها روادها بكل متعة من متع الشتاء .

فسرق مظلة كوسيلة تيسر له السبيل إلى دخول السجن ثم سكر فعربد ، ولكنه لم يظفر بأمنيته . ذلك لأن رجال البوليس قد أبوا أن يودعوه السجن .

ثم ذهب ذات يوم إلى جوار إحدى الكنائس متسكعا وهو ينصت إلى ترانيل المصلين وأناشيدهم ، وقد عاهد نفسه أن يحيا حياة هي خير من حياته التي يحياها ، وإذا بأحد رجال البوليس يقبض عليه متلبسا بجريمة التسكع . . .

وفي قصته التي سماها « قصة غير تامة » محاكمة عابسة صارمة لصاحب عمل يبخس البنات العاملات في دكانه أجورهن .

وقد بلغ « و . هنري » القمة وأوفى على الغاية في رسمه لهذه الصور المختلفة الألوان ، والتي أضفى عليها ثوبا من فلسفته وفكاهته ، وهوى نفسه وأمانيها ، والتي جعل لكل منها خاتمة تثير لدى قارئها كامن الدهش .

(٢) الفنان العبقري :

قصة ألفها عام ١٩١٥ الكاتب الأمريكي « تيودور درايزر » يقص فيها حوادث غرام فنان اسمه « أوجين وتلا » مبتدئا بصاحبته ستلا ومنتهيا بسوزان .

وكان هذا الفنان ابنا لوكيل من وكلاء أحد مصانع أجهزة الخياطة في إحدى المدن الصغيرة .

وقد درس الفن في « شيكاغو » وطار صيته في نيويورك كمصور . وسجلت عليه حوادث حبه وغرامه ، ووقائع غدره وخياناته لصاحباته ، في سجل لم يدع حادثة إلا وعاها ، ولا قضية إلا قيدها وأحصاها .

ثم تزوج صاحبنا إحدى صويحباته واسمها « أنجيلا » ذلك لأنها أوعدته بقتل نفسها إن لم يف بوعده إياها بالزواج بعد أن ظلت سنين تنتظر وفاء هذا الوعد المطول ، وهربا من أن تصبح أما من الأمهات ، وهى لم تكن من قبل زوجة من الزوجات .

ثم انتابته نوبة تهافت عصبى بسبب ما كان يحاك حوله من الدسائس ، وبسبب عمله المرهق الشاق .

ثم برئ من علته على أثر إراحته لأعصابه ، واتخاذه حرفة يدوية بديلا من حرفته التى تشق عليه وترهقه .

ثم ماتت زوجته وخلفت له بنتا . ثم عاد صاحبنا إلى فنه الأول فن التصوير ، ثم يختم الكاتب القصة بأن يجعل بطلها يتخذ لنفسه دليلا هاديا له فى حياته ، هو الاستغراق فى التصوف ، وفى الفلسفة الكونية ، وفى دراسته لهربرت سبنسر ، وفى القيام بواجباته كوالد لطفلة يتيمة . . .

(٣) نوادر حاجى بابا الاصفهانى :

قصة ألفها « جيمس موريو » (١٧٨٠ — ١٨٤٩) ونشرت عام ١٨٢٤ ، وقد عنى صاحبها بأن يذكر فيها نوادر اللصوص وأخبار قطاع الطريق . ثم أتبعها فى عام ١٨٢٨ بقصة أخرى عنوانها : « حاجى بابا فى بلاد الإنجليز » .

وقد قضى المؤلف بضع سنين موظفا فى السفارة البريطانية فى البلاد الفارسية . وقد برع فى قصتيه هاتين براعة لا حد لها فى وصف الأحوال الاجتماعية فى بلاد فارس .

وكان مثله فى ذلك مثل الكاتب الفرنسى « ليساج Le Sage » (١٦٦٨ — ١٧٤٧) الذى وصف فى قصته « جيل بلاس Gil Blas » عادات الأسبانيين وأخلاقهم .

وقد جعل « جيمس موريو » بطل قصته الأولى أول أمره حلاقا ، ثم لصا ، ثم خادما ، ثم معاونا لأحد الأطباء . ثم معاونا لأحد الجلادين العاملين فى قطع الرقاب ، ثم رجلا من رجال الدين المزمتين ، ثم تاجرا من تجار الدخان .

ثم صوره آخر أمره زوجا لأرملة ذات ثراء ، ثم واحدا من كبار الموظفين . وقد أظهر المؤلف مماشاة عجيبة فى اتخاذه لنفسه صورة شرقية واضحة الملامح من حيث التفكير ، كما أبدى قدرة عجيبة على دراسة المعارف والعلوم الشرقية دراسة العالم المستفيد .

(٤) هاندى أندى Handy Andy :

قصة للكاتب الأرلندى صمويل لفر Samuel Lover (١٧٩٧ — ١٨٦٧) ظهرت فى عامى ١٨٤٢ — ١٨٤٣ وقد استهلها المؤلف بقوله :

« كان أندى رونى (Andy Rooney) رجلا اختص بالبراعة وتفرد بالذكاء اللذين أوفيا على الغاية ، فى قدرته على أن يأتى كل عمل يعمله وهو ملازم جانب الخطأ ، حائد عن طريق الصواب . »

وهى قصة عنيت العناية كلها بالجانب الفكاهى من حياة الأرلنديين ، خاصتهم وعامتهم ، الذين عاشوا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ومؤلف القصة كاتب مستكمل العدة فى كل النواحى . وهو ليس كاتبا يجيد الوصف فقط ، بل هو فوق ذلك يؤلف الأغانى التى يدعو إليها سياق القصة ، ثم يؤلف موسيقى تلك الأغانى ، ويضع لها الألحان والنغم .

وبطل القصة يلقبه الساخر ، وبرعونته المستعصية ، يبعث فى نفس رائيه وسامعه لونين متعاقبين من السخط والرضا .

فمرة تراه يخوض غمار الحرب في صف هذا الشريف . ومرة يخوض غمارها في صف عدو هذا الشريف ومنافسه .

وتارة تراه يثير ثائرة إحدى الصبايا الحسان ، بأن يبدلها من صورتها — المهداة إليها من أحد المعجبين — علبة من مواسي الحلاقة .

وآونة تراه يقتحم المعركة الانتخابية فيركب عربة تحمل أحد أنصار أحد المرشحين ، ثم يقوده إلى بيت خصمه ومزاحمه .

ويوما تراه زوجا لامرأتين في آن واحد ، وهو في الوقت ذاته مفتون مدله في حب إحدى الغانيات .

ولست تراه إلا أليف خطوب وحليف نكبات .

ثم يختم المؤلف قصته بأن يريك البطل وقد أوشك على الغرق هو وجماعة من أصحابه في إحدى البحيرات ، ثم ينجيه من الغرق ، كما ينجيه من أسر زواجه . ثم يزوجه من بنت عمه « أوبا » ...

(٥) طيف دانتي :

هو اسم رسالة من تأليف « ماريا فرانسيسكا روسي » (١٨٢٧ — ١٨٧٦) نشرت لأول مرة عام ١٨٧٤ . وهي رسالة جمعت بين الدراسة النقدية ، وبين مختارات من شعر « دانتي » ، روعي في اختيارها أن تجعل القارئ قادراً على أن يعرف الشاعر من شعره . وأن يقرأ ترجمة حياته مكتوبة بقلمه ومبثوثة في ثنايا قصيده ، وأن يرى رأي العين صورته الخلقية والخلقية ، وأن يخوض معه غمار حياته الروحانية ...

مبارك ابراهيم

باب الكتب

السياسة لأرسطو (١)

ترجمة أحمد لطفى السيد باشا

وضع أستاذنا لطفى باشا خطة إخراج كتب أرسطو يبذل فيها الجهد السنين الطويلة متفهما مدققا مترجما ، علما منه بأن هذه الكتب من الأمهات التى لا غنى عنها لأية أمة ؛ ففلسفة اليونان أهم ما أنتجه العقل البشرى ، وفلسفة أرسطو منها كواسطة العقد ، ولا تزال الفلسفات التى أتت بعدها تعتمد عليها أو تشرحها أو تعدّلها ، ولكنها مهما فعلت فلم تغير أسسها ولم تلغ أكثر نظرياتها ، ولم تبن بناء جديداً بعيداً عنها .

وقد أدرك العرب خطورة هذه الفلسفة فأخذوا فى ترجمتها ، ولكن كانت وسائلهم محدودة ، والكتب الأصلية مهوشة . قد ينسب الكتاب إلى غير مؤلفه ، وقد يخلط كتاب بكتاب ، وقد يعزى كتاب ليس من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة اليونانية ، وكثيرا ما محض هذا على فلاسفة العرب ، فأتوا بالأعاجيب فى التوفيق بين الآراء المتناقضة المنسوبة لفيلسوف واحد ، ولو عرفوا تعدد القائلين ما بذلوا هذا العناء فى التوفيق . وعلى كل حال فقد مضى عهد فلاسفة العرب ، وليس عندهم مجموعة كاملة يوثق بها من كتب الفلسفة اليونانية .

وقد عنى الغربيون بالنتاج اليونانى أيضا لما اتخذوه دعامة من دعائم علومهم وأدبهم وفلسفتهم ، وكان الزمن قد تقدم وأصبح من الممكن جمع الكتب اليونانية وتصفيتها والتحقق من مؤلفيها والتفرقة بين ما هو صحيح منها وما هو مزيف ، وترجمتها كل أمة حية إلى لغتها .

فقام أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد بهذا العمل الشاق وتخصص فى أرسطو ، وبدأ بكتاب الأخلاق ، ثم أتبعه بكتاب الكون والفساد ، وكتاب ما بعد الطبيعة ، وهذا هو الكتاب الرابع كتاب السياسة ، وكان كل كتاب يستغرق منه السنين فى تعريبه ، لأنه يقدر المسئولية حق قدرها ، فلا يترجم إلا بعد أن يفهم ويتعمق ، ويجيل الجملة فى ذهنه على مهل حتى يخرجها فى القالب الذى يناسبها مع التقيد التام بالأمانة فى النقل .

* * *

لقد ترجمه من اليونانية إلى الفرنسية الأستاذ سانتهلير أستاذ الفلسفة اليونانية فى الكوليج دى فرانس ، ووضع له مقدمة قيمة فى نحو تسعين صفحة عرض فيها لفائدة علم السياسة ومناهجه ، ووازن بين السياسة فى نظر أفلاطون والسياسة فى نظر أرسطو ، وأبان أن منهج أفلاطون نظرى وواقعى معا ، ومنهج أرسطو واقعى فقط ، يعتمد على التاريخ وحده . ثم فى ضوء أرسطو عرض السياسة فى نظر أكبر المؤلفين فيها أمثال منتوسكيو وشيشيرون وميكافيل وسبينوزا وجان جاك روسو الخ .

وجاء أحمد لطفى السيد باشا فعرب ذلك كله — المقدمة والأصل — فى أسلوب يرضى الخاصة بأمانته ودقته وعمقه ، وإن لم يرض الجمهور ، لأن الأمانة والدقة والعمق كثيرا ما لا تتفق والسلاسة والبساطة .

وكتاب أرسطو فى السياسة عميق مفيد لمن يصبر على تفهمه ، قد أسبغ على السياسة الصبغة العلمية كما أسبغها على المنطق والشعر والفن والطبيعة وما وراء الطبيعة ، وهذا شأنه فى كل ما حاول .

ويعرض لكل نظرية فيحللها تحليلا دقيقا ، ويستعرض

(١) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

الدول التاريخية في ثورتها ، ويستخدم التطبيق عليها أحسن استخدام ، وهو يتكلم في ذلك من علم تام ، لأن حياته العملية والعلمية أمكنته من الإحاطة بالشئون السياسية في عصره ، وقبل عصره ، فما سلط عليها عقله الجبار أتى بالعجب العجاب ؛ نقد أرسطو النظريات التي سبقته ، كنظرية أفلاطون في جمهوريته ، والدساتير التي وضعت ، وحللها ، وأبان ما فيها من مزايا وعيوب ، كما عرض للتربية السياسية الفاضلة ، وكيف تكون ، وما مناهجها ، وما فائدة كل مادة من مواد هذا المنهاج .

وعرض للديمقراطية والسلطات الثلاث ، التشريعية والتنفيذية والقضائية ، ويشعر القارئ ، لما كأنه يدرس نظام العصر الحاضر .

ثم بحث في الثورة وأنواعها وأسبابها ، والبواعث النفسية والاجتماعية عليها ، وأبان أنها تكون أحيانا ثورة على الأشياء ، وأحياناً على الأشخاص ، وأن عللها تختلف باختلاف أنواع الحكومة من أرستقراطية أو ديمقراطية ، أو أوليجركية — ووسائل الحفظ من الثورات الخ . الخ .

فترى من هذا كيف كان الكتاب ينبض بالحياة إلى اليوم ، حافظا لجدته إلى اليوم ، يعد أهم أصل من أصول السياسة إلى اليوم .

والذي يلقي نظرة عامة على ما قام به الأستاذ لطفي باشا من ترجمة لهذه الكتب الأربعة يوقن بضخامة هذا العمل بجانب أعماله الضخمة الأخرى في تربية الجيل الجديد ، عما كان يحرر في «الجريدة» ، وما كان يحاضر ويتولى من أعمال ، وفي تأسيس الجامعة المصرية وتكوينها ، ووضع تقاليدها ، إلى غير ذلك من أعمال ضخام .

لقد أكمل — بترجمة هذه الكتب بمفرده — ما بدأ به العرب في العصر العباسي من ترجمة في الفلسفة .

وإن كان هناك فرق ، فإن الخاصة في تلك الأيام هجموا على ما ترجم ، وارتووا منه ارتواء الظمآن ، وأما نحن فنرتشف القليل منها ارتشاف السكران ؛ والسبب في هذا أن الخاصة في العصر العباسي كانوا فيه أعدوا للفلسفة ببحثهم الطويل العميق في علم الكلام ، وتعطشوا لأن يكملوا ثقافتهم هذه بالفلسفة اليونانية وغيرها من الفلسفات ؛ أما نحن فقد كنا انصرفنا من الفلسفة ، كما انصرفنا من سائر العلوم ، وكانت الفلسفة — مع الأسف — أول ما حوربت فاختفت ، وآخر ما انبعث فاستيقظت ، ولا نزال إلى اليوم نمسح عيوننا عقب النوم الطويل ، فبدأنا نعلم مبادئ الفلسفة ، ونؤلف في مبادئ الفلسفة ، و «قصة الفلسفة» فطلع علينا لطفي باشا بأصول الفلسفة ، فإن لم يجاوبه تمام المجاوبة الجيل الحاضر ، فأملنا — بفضل نشاط الدراسة الجامعية ونموها — أن يجاوبه الجيل القادم ؛ وحينئذ يقدر لطفي باشا في الفلسفة التقدير الذي هو به جدير .

أمد الله في عمره ، ونفع بعمله .

أحمد أمين

بين المسموع والمقروء

لبان يقف الناس ألوفاً على بابه

شيكاجو بلد الشدة والعنف ، وبلد الرجال ذوى القوة والفتوة ، وأكثر البلاد تمديا لشرطتها وعبثا بالأمن والطمأنينة . بهذا اشتهرت ، وبهذا سار حديث الركبان عنها .

وزرتها فى العام الماضى فلم أجد أهدأ منها ولا أكثر سلاما . وسألت ، فقيل فى تفسير ذلك إن الشر كالناس ، إذا استيقظ حينا ، نام حينا . وإن تلك الفترة كانت فترة نوم . وإن شر الزمان الذى جاء شيكاجو كانت تلك الحقبة التى أعقبت الحرب ، لا هذه الماضية ، بل التى سبقتها ، فى العقد الثالث من هذا القرن ، لما رأت الولايات أن تحرم الخمر عامة ، فاختفت الخمر من ظهر الأرض لتجرى تحتها ، وامتنعت عن سير النهار لتمشى تحت ستر الليل ، يقودها إلى حيث تريد جماعات من الناس غلاظ الأكباد ، قساة القلوب ، رخصت عندهم الأرواح ، فلو أن رجلا منهم سفك دماء عشرة من الرجال لما أقلقه ذلك إلا بمقدار ما يقلقه ذبح عشر دجاجات فى صباح واحد .

واستيقظت يوما فوجدت صحف المدينة تنعى رجلا عظيما . وتصفه فتقول : إنه أشد أبناء المدينة وطأة على « كابون » ورجاله . والذى يذكر تلك الحقبة ، فى العقد الثالث من هذا القرن ، حقبة التحريم — ويعنون به دائما فى أمريكا تحريم الخمر — يذكر بها لا شك « كابون » ، أشد رجال العصابات قسوة ، وأوسعهم حيلة ، وأشدهم ظهراً وظهيرا .

وازدحم أهل المدينة ألوفاً على بيت الرجل الراحل ، يعزون ويترحمون . وزاد الراغبون إليه والقادرون كثرة ، فتدخل البوليس لينظم المرور .

وسألت عن صنعة الرجل ، فقال أحد الناس فى شيء من السخر الحق — السخر بى — : لبان . وسألت عن عمر الرجل ، فقيل ستة وتسعون . والعهد بطول السنين أنها تنسى . فشاقنى ذلك إلى أن أستزيد علما . ثم تيسر لى أن أقرأ عن الرجل وحياته ، فاطلعت منها على حياة غريبة ليست كالتى يحياها الناس .

فأول شيء كان الرجل لبانا حقا . كان يسير فى طرقات شيكاجو بالمركبة ، وعليها زجاجات اللبن ، يوزعها على الأبواب . وكان يعمل كل أيام الأسبوع ، وأكثر ساعات النهار ، ويؤجر أجراً خسيساً لا يأذن باقتصاد . وجاء عام ١٩٠١ ، فجلس ينظر فى أمر نفسه ، ماذا يكون حاله — وهو قد بلغ الحادية والخمسين — لو أن شركة اللبن استغنت عنه لكبره وعجزه . فتراءى له الظن قادحا ، فصمم على أن ينشر ما يجد فى نفسه من ذلك بين زملائه ، ويحثهم على تأسيس نقابة لهم ، تدفع عن حقوقهم ، وتزيد فى أجورهم ، وتقلل من ساعات عملهم ، وتحمى شيخوختهم . ونصحه زملاؤه أن يكف ، وإلا أقالته الشركة ، فكان جوابه أنه على كل حال مُقال ، بعد سنوات قليلة ، فإن هم أقالوه الآن فكل الذى يحدث هو تعجيل الشر الذى لا بد آت .

وقضى ينشر برسالته الجديدة عاما أضاع كل ما كان فى كيسه الصغير من وفر . ولما ذهب إلى مصلحة العمل يطلب من الحكومة إنشاء نقابة لعمال اللبن ، كان على طلبه هذا سبعون إمضاء . ولم يمنع هذا مصلحة العمل أن تستجيب إلى طلبه فأنشئت النقابة وكان هو سكرتيرها .

وضحك منه سائر العمال . وقالوا إنه لن يستطيع أن

يحرك ساكنا هو وأتباعه السبعون ؛ فلو أنه أتعب الشركات وعمالها ألوف، لقطعوا « جذره » هو ورجاله . ولاستعاضوا عنهم كثيرين . فالعاطلون غير قليلين ، وتوزيع الألبان لا يحتاج إلى مهارة خارقة .

ومضى على النقابة بضعة أسابيع . فمر استيف ، فهذا اسم صاحبنا ، مر على صالون ، وهو شيء يجمع بين القهوة والخمارة ، فوجد عند بابه عربة لبن ، وقف بها حصان نحيل ذليل . ودخل استيف الصالون ، وطلب كوب لبن . وأخذ ينظر في الحاضرين فوجد صاحب العربة . وجاءه فوجده سكران . فقال له : يا صاحبي . إن رجالا وأطفالا ينتظرون لبنك هذا الصباح ، وأنت عنهم مشغول . بل أنت لا تصلح في حالك هذا أن تسوق العربة . فأخذ الرجل المخمور يسب ؛ فما كان من استيف ، وهو الفارع العود ، العريض المنكبين ، القوى على الرغم من وخط المشيب ، ما كان منه إلا أن رفع الرجل بذراع واحدة ، وجره إلى العربة وأخذ منه دفتر التوزيع ، ثم قذف به إلى جانب الطريق ، وركب هو العربة ودار على البيوت وعاد بالعربة إلى الشركة صاحبة العربة . وقص عليهم ما حدث . ثم قال : إني سكرتير النقابة الجديدة . والذي تصنعون بسائقكم لا يهمني ، ولكن يكفيني أن أقول لكم إن هذا عمل لا يرضى . فإذا جاء اليوم الذي يتقدم فيه هذا الرجل إلى النقابة فلن يكون لمثله مكان فيها ، إلا أن يغير خلقه .

ورفع رجال الشركة حواجبهم استغرابا مما يقول . وشاع بين الناس وبين الشركات ما حدث . وكان اهتمام الشركات عظيما ، إذ كان حال العمال لا يسر . وقيل إذا كان أستيف سيصنع من هؤلاء الرجال رجالا أصلح ، فلا مانع من زيادة الأجر ، فالربح سيكون لا شك أكبر . وشاع أيضاً أن أستيف لا يشرب إلا اللبن ، ومضت بضعة شهور فزاد أعضاء النقابة فكانوا ٧٠٠ .

وحدث ذات يوم أن دخل أستيف ورجاله خمارة أمام باب إحدى شركات اللبن . ودخلوا وقد تسلحوا بالقدم والمطارق ، فوجدوا سواق العربات على عادتهم يشربون خمر الصباح قبل أن يبدأوا العمل . وهنا صاح بهم أستيف : أيها الرجال ، إن الخمر واللبن لا يمتزجان . وأخذ هو وأعوانه يحطمون الخمارة تحطيما . وتركوها وليس فيها شيء قائم . والسواقون طاردوهم إلى عرباتهم .

كانت قاعدة النقابة أن لا شراب أثناء العمل . وكان أستيف نصيراً لحسن السلوك أثناء العمل . وطالب العمال بالجد وبالخدمة الطيبة وبالأدب وبالسرعة في استجابة الأوامر . ومن أجل هذا ناصرته شركات اللبن وناصرت النقابة ، فلم يمض عليها بضع سنوات حتى كان كل العمال أعضاء فيها .

ولما جاء عصر العصابات كان من بعض أعمال « كابون » وأعوانه أن يأتوا إلى كل هيئة ثرية ، كائنة ما كانت ، ويجعلوا عليها ضريبة سنوية ، يبذلون لها من بعد دفعها الحماية والأمان ، وكان بنقابة اللبانين هذه عام ١٩٣٨ نحو من سبعة آلاف عضو . وكان في خزانتها مليون دولار ، وكان دخلها السنوي ٩٠٠ ألف دولار ، فإلى هذه النقابة اتجهت أنظار العصبة ، عصبة « كابون » الشهيرة .

وجعلوا على النقابة إتاوة ، خمسين ألفا من الدولارات . وكان جواب أستيف لهم : لا . قالها ثم لا مراء فيه . وفي اليوم التالي مر على مركز النقابة جماعة أطلقوا أفواه النيران على نوافذ الدار ، وفروا . ولم يصب أحد . وعادوا يطلبون الدفع . فقال لهم أستيف : لا . بفم أملأ . فلما وجدوا أنه بندقة عسيرة الكسر ، انصرفوا عنه ، ولكن إلى حين .

وبلغ أستيف الثمانين ، وانتهزت العصابة هذه الفرصة ، وظنت أن الرجل قد بلغ به العجز حداً لا يستطيع عنده

مقاومة . ودمر الدار منهم عشرة ، بسلاحهم ، ليس فيهم من ليس له سابقات قتل لا يسهل عدها ، ولم يكن أستيف في الدار . فتركوا له رسالة عند من وجدوا من رجاله ، قالوا إنهم سيعودون ، وإنهم لآخذون ما يطلبون . وعادوا وكان الرجل الشيخ ينتظرهم قائماً . وعرضوا عليه العروض من كل صنف . وعرضوا أن يدخلوا رجالهم في النقابة ، وعرضوا أن يدخلوا أموالهم في الشركات ، وعرضوا أن يدفعوا إليه مبلغاً ضخماً ليخلى لهم مكانه . وعرضوا أن ينضم إليهم ضد الشركات ليكون له مما يأخذون ، بغير كثير عنف ، نصيب غير قليل . قالوا : إن بعض عصى من الديناميت تلين الصعب . وأخذ أستيف رفض لهم عرضاً من بعد عرض . فلما ضاقوا به قالوا : إذاً ستري .

كان هذا إعلان حرب لا شك فيه . ومن يومها قام أستيف على مركز النقابة يحصنها بألواح الفولاذ . وصنع ببيته مثل ما صنع ببيت النقابة . واشترى سيارة مصفحة كان يسير فيها وحوله رجاله مسلحين . وجرت المعارك فهزت المدينة والرجل لا يتقلقل . ولم يجد البوليس لسبب : أنه كان دائماً يعتمد على رجاله ، وأنه كان يعلم عجز البوليس ، فكان يرحمه .

ولم يخرج أستيف من سيارته المصفحة إلا عندما بدأت هذه الحرب العالمية الأخيرة . وخرج منها فأهداها للأمة لتصهر ما فيها من حديد لتصنع السلاح .

وكان أستيف جواداً ، لا يسأل حتى يعطى ، وكان أكبر السؤال أثراً في نفسه سؤال تضمن إسعاداً لأطفال أشقياء . ومات غنياً فقيراً . ذلك أن ثروته كلها كانت صكوكاً لديون كلها مما لا يرجى دفعه . كان كثير الإحسان ، ولكنه كان كثيراً ما يخفى الحسنة في زى قرض حتى لا يجرح حس الرجال . وأخذت أرملته تفحص هذه الصكوك العديدة ، فسألها الصحفيون : متى تجمع ديونها ؟ فقالت : لن أجمع شيئاً لم يرد زوجي قط أن يجمعه .

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٥٩ | الثلاثاء ٢٩ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦ — ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٤٧ | السنة التاسعة

عودة الكومنترن

أصبح من الجلى الواضح أن شقة الخلاف بين روسيا السوفيتية والجبهة الأمريكية البريطانية تتفاقم يوما بعد يوم ، وتبدو مظاهر هذا الخلاف فى كل موطن تلتقى فيه السياستان ؛ فى المشكلة الألمانية ، وفى سائر المشكلات الأخرى التى خلفتها الحرب ، وفى هيئة الأمم المتحدة ، تصطدم وجهات النظر السوفيتية بوجهات النظر الأمريكية البريطانية . ولم يبق خافيا أيضا أن هذا الجفاء بين السياستين قد انتقل من مرحلة الجدل إلى مرحلة العمل ، وأن الاعتمادات المالية الضخمة التى أرصدتها واشنطون لمعاونة اليونان وتركيا عسكريا واقتصاديا ، والمشروع الشامل ، الذى وضعه الجنرال مارشال وزير الخارجية الأمريكية لمعاونة الدول الأوربية على مغالبة الصعاب التى خلفتها الحرب ، وتنظيم شئونها المالية والاجتماعية . كل هذه الخطوات العملية تتخذ جهاراً لمقاومة نفوذ روسيا السوفيتية فى أوربا ، ووقف الزحف الشيوعى الذى يحاول الاندفاع نحو الغرب من دول أوربا الوسطى والجنوبية التى تسيطر عليها روسيا السوفيتية .

وقد وقع أخيرا حادث فى السياسة الأوربية كان له أعظم وقع فى أوربا وأمريكا . وذلك أن الأحزاب الشيوعية فى تسع دول أوربية ، هى : روسيا ويوجوسلافيا وبلغاريا ورومانيا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وإيطاليا وفرنسا ، قد اتحدت فيما بينها على إنشاء مكتب شيوعى مشترك فى مدينة بلغراد ، يقوم بتوثيق الصلات فيما بينها ، وتبادل الأخبار ، وتنسيق الجهود المشتركة ، ويمثل كل حزب فيه عضوان تنتخبهما اللجان المركزية للأحزاب ذات الشأن ، ويقوم المكتب بإصدار مجلة نصف شهرية ، باللغتين الفرنسية والروسية . وقد صدر القرار بإنشاء هذه الهيئة الشيوعية المتحدة فى مؤتمر شيوعى عقد أخيرا فى وارسو من مندوبى الدول التسع المشار إليها . وجاء فى البيان الذى أذاعه المؤتمر تبريرا لهذا القرار أنه اتخذ لتدعيم جهود الأحزاب الشيوعية لمواجهة مشاكل ما بعد الحرب ، والعمل على حشد القوى الديمقراطية فى أوربا كلها ، وأن العالم ينقسم الآن إلى معسكرين : معسكر الاستعماريين ، ومعسكر خصوم الاستعمار ، وأن الصراع يضطرم بين الفريقين فى جو يسممه احتشاد الرأسمالية ، ولابد من العمل على تدعيم القوى الديمقراطية الاشتراكية ، وهزيمة القوى الرأسمالية .

وليس من ريب فى أن قيام هذه الهيئة الشيوعية المتحدة هو من وحى موسكو وتدبيرها . والحزب الشيوعى الروسى فى مقدمة الأحزاب المشتركة فيها ؛ والحزب الشيوعى هو مصدر السلطات العليا فى روسيا ، وهو

الرأس المحرك لسياستها وتصرفاتها . وقيام هذه الهيئة الشيوعية في هذا الظرف الذي تضطرم فيه الخصومة بين روسيا السوفيتية وبين الجبهة الرأسمالية ، أو بعبارة أخرى الجبهة الأمريكية البريطانية ، في معظم الشئون الأوروبية والعالمية ، يحمل مغزى مزعجا ، هو أن العالم يشهد من جديد قيام الدولية الشيوعية ، أو (الكومنترن) . بعد أن ظن العالم حينما أعلن إلغاء الدولية الشيوعية في يوليه سنة ١٩٤٣ ، أنها قد ذهبت بلا عودة ، وأن العالم سوف يستريح من مساعيها الهدامة ، ودسائسها الثورية الخطيرة .

ومن ثم ، فقد كان لهذه الخطوة التي اتخذتها روسيا في الوقت الذي تدوى فيه أصوات الخطباء في الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة منادية بتوثيق أواصر التعاون الدولي ، وتدعيم أركان السلم ، التي تهتز أمام الصراع العالمي ، الذي يضطرم بين روسيا وخصومها ، في المثل والنظم والأهداف الدولية ، أعمق وقع في جنبات هذه الهيئة التي تعتبر آخر وسيلة لجمع كلمة الدول الكبرى والصغرى لإنقاذ السلم ؛ ولم تخف دوائر لندن وواشنطون ما تعلقه من نتائج خطيرة على هذه الخطوة التي يصفها متحدث باسم وزارة الخارجية البريطانية بأنها ضربة قاضية للتعاون الذي ساد بين الدول العظمى خلال الحرب .

ومن الواضح أن هذا التعاون بين روسيا وحليفتيها أمريكا وبريطانيا قد وهنت أركانه ، منذ وضعت الحرب أوزارها ، وهو اليوم ينقلب إلى خصومة واضحة الدلائل ؛ ولم يكن من المتوقع بعد أن كشفت أمريكا عن سياستها في مناوأة الاتحاد السوفيتي ومقاومة خططه وأهدافه في شرق أوربا وجنوبي البلقان ، بما اتخذته من أهبة لمعاونة اليونان وتركيا التي تعتبرها روسيا واقعة في منطقة نفوذها ، وبما تضمه من خطط شاملة لمعاونة الدول الأوروبية الغربية على النهوض من كبوتها ، وتنظيم قواها لتقيم جبهة متحدة ضد الزحف السوفيتي ؛ لم يكن من المتوقع بعد ذلك كله أن تقف روسيا جامدة إزاء هذه الجهود السافرة التي تنظم لمقاومتها ؛ وقد بادرت روسيا بالعمل وفق طريقتها المأثورة ، فحشدت الأحزاب الشيوعية في تسع دول أوربية ؛ وإذا استثنينا فرنسا وإيطاليا ، فإن الدول التي حشدت روسيا أحزابها الشيوعية للعمل المشترك واقعة كلها في دائرة النفوذ السوفيتي ؛ وناهيك بهذا الحشد لأحزاب يوحد في تنظيم الخطط الثورية ، وتحريك الطبقات العاملة وبث القلق الاجتماعي ، واستعمال أساليب التحريض والتخريب المدمرة ، خصوصا متى اتفقت خططها واتحدت جهودها على نحو ما قرره مؤتمر وارسو .

وإنا لنقرأ بوضوح في برنامج الهيئة الشيوعية المتحدة وأهدافها نفس الوسائل والغايات التي اشتهرت بها الدولية الشيوعية أو « الكومنترن » ، التي لبثت تزعج الدول الغربية بدعايتها ونشاطها الثوري من طريق الأحزاب الشيوعية المحلية زهاء ربع قرن منذ قامت في سنة ١٩١٩ حتى ألغيت خلال الحرب . ولهذا فإن الدوائر السياسية المختلفة لم تتردد في القول بأن إنشاء المكتب الشيوعي الجديد في بلغراد إنما هو بعث لا مرية فيه « للكومنترن » ، بل لقد ذهب البعض إلى أن الدولية الشيوعية لم تحل في سنة ١٩٤٣ حسبما أكد المارشال ستالين يومئذ ، وقد ذكر في بيانه أن الدولية ألغيت لوضع حد للدعاية الكاذبة التي تزعم أن روسيا تسعى بواسطة الدولية إلى التدخل في شئون الشعوب الأخرى ، وإن الأحزاب الشيوعية في هذه البلاد تعمل وفقا لتحريض الدولية الشيوعية وتوجيهها ؛ ويرى هؤلاء أن الإجراء الذي اتخذته موسكو يومئذ لم يكن إلا خدمة لدحض الدعاية الألمانية التي كانت تتذرع لغزو روسيا بالقضاء على الخطر البلشفي ، ولتسكين مخاوف الأمم المتحدة . أما اليوم فإن الدولية الشيوعية تستأنف حياتها في صورة أخرى وباسم آخر ، وإن بدت في صورتها الجديدة هيئة أكثر تواضعا . وهي تقوم اليوم في بلغراد حصن الشيوعية في أوربا الوسطى والجنوبية الذي

تشرف منه موسكو على بلاد البلقان وإيطاليا . وسنرى ماذا يعقب قيام « الكومنترن » فى صورتها الجديدة فى المستقبل القريب . بيد أن الذى لا ريب فيه هو أنه سيترتب على قيامها نتائج دولية خطيرة وسوف تزداد شقة الخلاف بين روسيا وأمريكا وبريطانيا ؛ ويرى البعض فوق ذلك أن روسيا قد تترك هيئة الأمم المتحدة ؛ فإذا صحت هذه النبوءة ، فإن الأمم المتحدة تصاب بضربة قد تكون القاضية ، وهى تترنح اليوم بالفعل من جراء سخط كثير من الدول الصغرى عليها وعلى اتجاهاتها ؛ وعندئذ تنهار الآمال الأخيرة التى يعقدها عالمنا المضطرب على جهود هذه الهيئة الدولية المتيدة فى صون السلام العالمى ، ويعود العالم سراعا ليشهد بوادر المأساة التى انتهت بقيام الحرب العالمية الثانية

محمد عبد الله عنان

طاعون عمواس

كان ذلك فى السنة السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من الهجرة فى خلافة عمر بن الخطاب ، أى من نحو ١٣٥٠ عاما ، وسمى طاعون عمواس لأن عمواس (وهى بلدة صغيرة بين القدس والرملة) كانت أول بلدة ظهر فيها الطاعون ، كما لو سمينا طاعون اليوم بطاعون « القرين » .

ولا يبعد أن يكون قد وفد على البلاد من الهند كذلك ، لأنها مصدر الطاعون من قديم ، وكانت التجارة بين بلاد العرب والهند متصلة من عهد بعيد .

وكان هذا الطاعون جارفا ، حصد بلاد الشام حصدا ، وفزع الناس منه فزعا شديدا ، ولم يكن عرف سبب المرض ، حتى ولا عرف اسم « الميكروب » ، وبالضرورة لم تعرف طرق الوقاية منه ، فكان المرض يرمى الناس ولا عمل لهم إلا انتظار ما يأتى به القدر ، ومكث أشهرا لا يدرى الناس ماذا يصنعون ، وكان فى كثير من الحالات خطيرا ، لا يلبث الرجل أن يشعر به حتى يخر صريعا ، وعبروا إذ ذاك تعبيرا أدبيا قويا فقالوا : « قد اشتعل الوجع » ، وهو تعبير يدل على أنهم تصوروه كالنار ترمى الهشيم ، ومات به خمسة وعشرون ألفا أو ثلاثون ، ولم يفرق بين الخاصة والعامة ، فمات به أبو عبيدة ابن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، ويزيد بن أبى سفيان ، والحارث بن هشام . وكلهم من سادة الناس .

وتسرب الطاعون إلى العراق ، فأفنى فى البصرة ما لا يحصى .

وحار الناس فى أمره ، وزاد فى حيرتهم أنهم لا يعرفون سببه معرفتنا اليوم به ، ولا يعرفون دواءه كما نعلم اليوم ، وشغل الأمر عقول المسئولين . ما العلاج ؟ فاهتدى عمر ابن الخطاب أن يعالجه بإخراج الناس حيث الهواء الطلق والجو الفسيح . ولا شك أن هذا بعض العلاج الصحيح ، فتزاحم الناس فى جو فاسد أسرع إلى الفتك ، وأكثر تمكينا للذباب من نقل العدوى ؛ فكتب عمر إلى أبى عبيدة : « إنك أنزلت الناس فى أرض عميقة ، فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة » ، وقريب من هذا ما فكر فيه عمرو بن العاص لما تولى إمارة الجيش بعد أن أصيب بالطاعون أبو عبيدة ومعاذ ، فقد خطب الناس فقال : « أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه فى الجبال » .

• • •

وبقيت مشكلة لا تزال فى الناس إلى اليوم : إن كل شىء بقضاء وقدر كما يقول الدين ، فمن مات مات بأجله ، ومن عاش عاش بأجله ، فما موقف الإنسان المتدين إزاء الطاعون ونحوه من سائر الأمراض ؟

فأما الخاصة ومن فهموا فقه الدين ، فقد رأوا أن الإيمان بالقضاء والقدر لا يمنع من الإيمان أيضا بالسبب والمسبب ، فمن يزرع لا بد أن يبذر ولا بد أن يسقى ، وإلا

ما كان زرع ، وكذلك من جاع أكل ، ومن عطش شرب ، ومن أراد الحرب فلا بد أن يعد عدتها « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وقد اعترف الرسول صلى الله عليه وسلم بالعدوى ، وأوجب التوقي منها .

فني صحيح مسلم أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم : « ارجع فقد بايعناك » اتقاء لوضع يده في يده ، وفي الصحيحين أن رسول الله قال : كلّم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين . إلى كثير من أمثال ذلك ، وكلها صريحة في الاعتراف بالعدوى ووجوب التحرز منها ، ولا أفهمَ الإسلامَ من مبلغه .

ولكن في كل أمة وفي كل عصر نماذج من الناس أمزجتهم لا تركن إلا إلى الشذوذ في الدين والتشدد فيه ، فيتشددون في القناعة حتى يبلغوا مبلغ الزهد القاسي ، ويتشددون في الهروب من متع الحياة حتى يحرموا على أنفسهم ما أحل الله ، فهؤلاء قد ساقهم مزاجهم هذا إلى أن يتنطعوا في القضاء والقدر ، فلا يؤمنوا بعدوى ولا يعترفوا بعلاج ، وقد استندوا في هذا على حديث شاع وهو (لا عدوى ولا طيرة) ولكن الفقيه في الدين يأبى أن يصدق هـذا الحديث على ظاهره ، لأنه يتنافى وروح الدين الصحيح كما يتنافى والنصوص الأخرى ، خصوصاً وقد روى الثقات أن راوي هـذا الحديث هو أبو هريرة ، وأنه كان يرويه أولاً ثم شك فيه فتركه ، ولما راجعوه فيه أبى أن يحدّث به بعد ذلك ، وقد كان يحكي أنه لا يتفق وروح الإسلام ليرفض – وحدث ما يؤيد هذا ، فقد رووا أن عمر بن الخطاب قدم إلى الشام حتى إذا وصل إلى بلدة اسمها « سَرْغ » لقيه بعض أمراء الجيش ، فأخبروه بالطاعون وشدته ، وكان معه بعض المهاجرين والأنصار ، فاستشارهم أيدخل الشام أو يرجع ، فاختلفوا عليه ، فمنهم من أشار عليه بالدخول قائلا : إنك خرجت لوجه الله فلا يصدنك عنه هـذا . ومنهم من أشار عليه بالعودة قائلا : إنه وباء وفناء ، فلا نرى أن تقدم عليه . فصرفهم لما رأى خلافهم ، وأحضر مهاجرة الفتح من قريش إلى المدينة ، فاستشارهم فلم يختلفوا عليه وأشاروا بالعودة فعاد . وهؤلاء المهاجرون من غير شك أفقه ديناً وأصدق نظرة .

* * *

وحدث في هذا الطاعون حوادث نبيلة : من ذلك أن عمر بن الخطاب وهو بالمدينة ، وقد بلغه أمر الطاعون وفتكه بالناس ، فكر في أبي عبيدة وبقائه بالشام ، وهو أعرف الناس بمنزلته ، وأنه رجل بآلاف ، فأحب عمر أن يستدعيه إلى المدينة ، ليكون بعيدا من موطن الخطر . فكتب إليه : (سلام عليكم . أما بعد : فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إليّ) . فعرف أبو عبيدة أن عمر إنما أراد أن يستخرجه من الوباء ، فكتب إليه : (يا أمير المؤمنين إني قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند من المسلمين ، لا أجد بنفسي رغبةً عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه ، فخلني من عزمتك يا أمير المؤمنين ، ودعني في جندي .) فلما قرأ عمر الكتاب بكى ، فقال الناس : (أمات أبو عبيدة يا أمير المؤمنين ؟) قال : لا وكأن قد .

هذا ولا شك موقف رائع من عمر وأبي عبيدة ، فعمر أشفق على أبي عبيدة أن يموت ، وموته خسارة لا تعوض ، ولعله كان يدخره ليكون خليفة المسلمين بعده ، كما صرح بذلك في مواقف أخرى .

وأبو عبيدة يرى وهو أمير الجيش أنه لا يصح أن يمتاز عن أي جندي بأية ميزة ، فليس له أن يهرب بنفسه إلى دار الأمان وجنده في خطر الموت .

فرحم الله عمر فقد كان شفيقا رحيما ، ورحم الله أبا عبيدة فقد كان سريًّا نبيلا .

أحمد أمين

لماذا لا نخلق

لست أعرف للحياة معنى إلا أنها قدرة الكائن الحي على الخلق والإبداع ؛ هذه الشجرة كائن حي لأنها تخلق من التراب غصونا وأوراقا وزهورا وثمارا ؛ وهذا الطائر كائن حي لأنه يخلق مما يشبه العدم بيضا تخرج منه الأفراخ ؛ والإنسان حي بقدر ما هو مبدع خلاق ، والأمة تسرى فيها الحياة بمقدار ما هي قادرة على الخلق والإبداع .

قال صاحبي : هذا كلام مكرور معاد . ماذا يجدي أن يقول القول فلا تأتينا في القول بجديد ؟

قلت : معذرة ياصاحبي ، فلكم لقيت من الناس من يضطرك اضطرارا أن تقسم له أغلظ الأيمان أن الحشائش خضر وأن السماء زرقاء ! لكم لقيت من الناس في هذا البلد الأمين من يحزنه أن يقال عن الإنسان إنه خالق مبتكر قوي غلاب ، بقدر ما يفرحه أن يقال له عنه إنه ضعيف عاجز مسكين ! إن من الناس من أصابهم الله في أنفسهم بالعقم والجمود ، ونظروا إلى الدنيا من حولهم بمناظير نفوسهم ، فلم يروا فيها إلا ضعفا وعجزا وعقما وجمودا ؛ قل لهم : إن الإنسان مستطيع ذات يوم أن يغزو الكون بعلمه ، وأن يستخرج أسرار الطبيعة من بطونها ليسخرها تسخيرا ، يعبسوا لك ويقطبوا الجبين ؛ وقل لهم : إن هذا الإنسان مخلوق ضعيف متهافت هزيل ضئيل ، يصفقوا لك إعجابا وتطربا ! إنهم يرحبون بما يحد من قدرة الإنسان ، وتتهلل بالبشر أساريرهم إن قيل إن سلطان القدر ، فوق كل سلطان ؛ إن سادت طبقة من الناس على طبقة فهذا حكم القدر ، وإن هبطت أثمان السلع في السوق فهذا حكم القدر ، أو ارتفعت الأثمان فهذا حكم القدر ، وإن تفشى البؤس والمرض والفقر والجوع فهذا أيضا حكم القدر ؛ وسأنسى كثيرا جدا مما قرأت ، ولكن مهما أنسيت فلن أنسى أبد الدهر مقالا قرأته منذ بضعة شهور لأديب فاضل جليل فنزل على نفسي نزول الصواعق ، وكان قد زاد من حسرتي أنه مقال جميل ! قرأت منذ بضعة شهور — في هذه المجلة نفسها — مقالا ينهى فيه الأديب الجليل الفاضل ابنه أن يحزن لمنظر بائس جائع يجمع الفتات من ثنايا القمامة والروث والطين ، قائلا لابنه : يابني لا يجمل بك أن تحزن فهذا حكم القدر ، وإن في حكم القدر لحكمة تخفى عن الأبصار ! ولم يمض إلا قليل جدا من الأسابيع منذ قرأت للأديب الفاضل نفسه مقالا يعرض فيه على قرائه بعض ما وصل إليه العلماء في الغرب ، فأشاع في كلامه تهكما عن العلماء وبجهودهم ، لأنهم في رأيه يخبطون رءوسهم في جدر صماء ؛ إننا لا ننقد العلماء لأننا نعرف أين يخطئون وكيف يصلحون ، لكننا ننقدهم لأنهم يخلقون ونحن لا نحب الخالقين ! ننقدهم لأنهم قادرون ونحن لا نحب القادرين ، ننقدهم لأنهم لم يستسلموا للعجز ونحن إنما نحب العاجزين !

نحن لا نخلق جديدا ، ولا نريد أن نخلق جديدا ، بل يسيء إلينا أن نسمع من إنسان أو عن أمة أنها تحاول أن تخلق جديدا ؛ لكن الحياة معناها القدرة على خلق الجديد ، والإنسان حي بمقدار ما هو مبدع خلاق ، والأمة تسرى فيها الحياة بمقدار ما هي قادرة على الخلق والإبداع ؛ ألا يأخذك ياصاحبي الهم والغم والحزن أن تتلفت فلا ترى إلا جدبا ونضوبا وعقما وجمودا ؟ إننا لا نكاد نخلق شيئا واحدا جديدا في العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن نتقدم به بين يدي الله يوم الحساب ، فنقيم الدليل على أن الحياة التي هيئت لنا أسبابها لم تذهب أباديد .

لا نكاد نخلق شيئا واحدا جديدا في العلم ، وأعيذك ياصاحبي أن تخدع فتمزج بين العلماء وطلبة العلم ؛ فالفرق بعيد بعد ما بين الأرض والسماء ، بين عالم ينتج الرأي الجديد

وبين رجل يحفظ ويفهم ما أنتجه العالم من رأى جديد ؛ علماؤنا تلاميذ كبار ، والفرق بينهم وبين التلاميذ الصغار هو أن هؤلاء الصغار لا يزالون يحفظون ما درسوه ، وأما أولئك الكبار فقد أنستهم مشاغل الزمن ما حفظوه ؛ الفرق بعيد بعد ما بين السماء والأرض بين الرياضى وطالب الرياضة ، وقد يكون طالب الرياضة طفلا قصير السراويل ، وقد يكون رجلا له لحية وشارب ، الفرق بعيد بين فيثاغورس حين أقام البرهان على نظريته فى الهندسة وبين التلميذ — صغيرا كان أو كبيرا — يحفظ هذا البرهان ؛ هذا التلميذ وفيثاغورس قد يتساويان فى العلم بهذه النظرية وبرهانها ، ومع ذلك ففيثاغورس رياضى لأنه خلق البرهان خلقا من العدم أو ما يشبه العدم ، والتلميذ تلميذ لا أكثر ولا أقل لأنه لم يزد على أن حفظ وفهم ؛ فإن زعم لك زاعم بعد اليوم أن بيننا العلماء والرياضيين ، فاسأل : ماذا خلقوا من جديد فى العلم أو الرياضة ، ولا تسأل ماذا حفظوا ، وإن كان للحفاظ عند الله أجر وثواب ! ونحن لا نكاد نخلق شيئا جديدا فى الأدب ، وإنى أعيذك مرة أخرى أن يخدعك الترقيم الأسود على الصفحات البيض ، أعيذك أن تخدع عما يقوله أدباؤنا عن أنفسهم وما يتقارضونه فيما بينهم من حمد وثناء ؛ واجعل مقياسك شيئا واحدا إن أردت الهداية والسداد ، وهو الخلق والإبداع ؛ سل أدباءنا : كم « شخصية » خلقها الأدب المصرى كله من أول الزمان إلى يومنا هذا ، بحيث أضاف بخلقها إلى مخلوقات الله إنسانا جديدا يشيع ذكره بين الناس أضعاف ما يشيع ذكر سائر الناس ؛ ولست أريد أن أزيد من يأسك أيها القارئ الكريم ، وإلا لذكرت لك حقيقة مروعة ستهولك وتشيع الحسرة فى نفسك ، وهى أن من أدباء الغرب من خلق وحده ستين « شخصية » أو سبعين ! ! أديبنا — مثل العالم عندنا والرياضى — تلميذ كبير ، مقالته تختلف عن موضوع الإنشاء يكتبه التلميذ الصغير فى الكم لا فى الكيف ، تختلف فى الدرجة لا فى النوع ، فللأديب محصوله من الأفكار أعظم من محصول التلميذ الصغير ، وثروته من الألفاظ أغزر ، فإذا قيل للتلميذ الصغير — مثلا — أكتب موضوعا فى « وجوب العناية بالأطفال » ، ثم قيل للأديب الكبير اكتب مقالا فى هذا الموضوع ، جاءنا الأول فى موضوعه الإنشائى بفكرة واحدة وجاءنا الثانى فى مقالته بعشرة أفكار أو عشرين ، وربما أخطأ التلميذ الصغير فى النحو واستعمال الكلمات عشر مرات ، وأخطأ الأديب الكبير مرة واحدة ؛ فالفرق — كما ترى — بين التلميذ والأديب فرق عددى لا فرق فى نوع المكتوب ؛ أما أن يكتب أديبنا شيئا من نوع آخر فليس ذلك فى مقدوره ، لسبب بسيط ، وهو أنه عاجز عن الخلق ، وليس فى استطاعته أن يبدع وأن يبتكر ؛ ستقول : وماذا نريد من الأديب أن يصنع سوى أن يكتب أفكارا كثيرة فى لغة جيدة لكى يجىء ما كتبه مقالة أدبية ممتازة ؟ وليس لى جواب عن سؤالك إلا أن أشير عليك بقراءة المقالة الأدبية عند أبطالها « مونتينى » و « أرسن » و « لام » وغيرهم لتعلم فى يقين أن الأدب المصرى كله لا يكاد يحتوى على مقالة أدبية واحدة من الطراز الممتاز ؛ ولست أريد أن أزيد من يأسك ، وإلا لذكرت لك حقيقة مروعة ستهولك وتشيع الحسرة فى نفسك ، وهى أن الأديب المصرى لا يكاد يعرف إلا المقالة وسيلة للتعبير ، على حين أن المقالة فى الآداب الغربية لا تكاد وحدها أن تنشئ أديبا .

لقد حدث مرة أنى كنت أمثل بلادنا فى مؤتمر ثقافى جمع عشرات من ممثلى الدول الأخرى ، وأريد منا أن يكتب كل قائمة تحتوى على عشرة كتب أدبية من إنتاج بلده مما يصح أن يترجم إلى سائر اللغات فيكون أدبا عالميا ، لأنهم رأوا فى ذلك وسيلة لتوثيق العرى بين الأمم ،

فاتبثت في السماء، ركنا أفكر وأفكر ثم أفكر، لعلى مهتد إلى عشرة كتب أقدمها للعالم نموذجاً لأدبنا، مما يصح أن يكون أدباً عالياً، فلم أجد، وإنى أتحدى قارئاً يزعم مني الخطأ والضلال أن يذكرني بما قد نسيت من روائعنا الأدبية التي يجوز لنا أن نتقدم بها إلى العالم فخورين! ولست أريد أن أزيد من يأسك أيها القارئ الكريم، وإلا لذكرت لك حقيقة مروعة ستهولك وتشيع الحسرة في نفسك، وهي أن الرجل من انجلترا أو فرنسا — مثلا — لو سئل هذا السؤال لأغمض عينيه، ووضع يده على كاتب واحد من أدباء بلده، في جيل واحد من الزمان، وانتقى للناس عشرة كتب لهذا الكاتب الواحد في هذا الجيل الواحد!!

إننا لا نكاد نخلق من الأدب شيئاً جديداً، هذا ما أزعمه وما أعتقد أن قارئى سيجادل فيه أشد الجدل، لأنه سيجد حوله كتباً تطبع وخطباً تسمع، وسيجد في الصحف أنهاراً بعد أنهار من النثر والنظم؛ ما هذا كله إن لم يكن أدباً؟ والحق أني أقدر كل التقدير شيئاً كثيراً جداً من هذا كله، وإن تمنيت على الله شيئاً فهو أن يكثر لنا من أمثاله ليزيل من أبصارنا غشاوة وعن بصائرنا حجاباً؛ لكنى مع هذا التقدير كله والإعجاب كله لا زلت أزعم — وفي القلب حسرة — أننا لا نكاد نخلق في الأدب شيئاً جديداً؛ قد يكتب لك الأديب المصرى، فإذا الذي يكتبه رأى في علم الاجتماع يبسطه، أو في علم النفس يشرحه، أو قطعة من التاريخ يرويها، أو مذهب في السياسة يريد له الذيوع والشيوع؛ قد يكتب لك الأديب المصرى عن المتنبي ليقول لك إنه شاعر عظيم، أو يترجم لك عن شكسبير ليقول إنه شاعر أعظم؛ وهذا كله نافع جداً ومفيد جداً، ونتمنى على الله أن يزيد لنا منه، لكنه رغم نفعه وفائدته شيء والخلق الأدبي شيء آخر.

كلا، ولم نخلق شيئاً واحداً جديداً في الفلسفة، وإني أعيذك مرة ثالثة أن تخدع بما يزعمه لك «تلاميذ» الفلسفة عن أنفسهم، فأقسم لك بالله غير حانث أني ضحكت وقهقهت حتى استلقيت في مقعدي حين قرأت ذات يوم لأستاذ جليل تمسّ الفلسفة ويلمها، يقول في مجرى كلامه: «نحن الفلاسفة ...»! وقل مثل هذا في الفن وما شئت من نواحي الفكر.

أعود فأقول إن الإنسان حي بمقدار ما هو مبدع خلاق — والأمة تسرى فيها الحياة بمقدار ما هي قادرة على الخلق والإبداع؛ ثم أعود فأزعم أننا لا نكاد نخلق شيئاً واحداً جديداً في الأدب أو العلم أو الفلسفة أو الفن.

لماذا لا نخلق ولا نبتكر؟ هذا هو السؤال.

والجواب عندى هو أننا لا نخلق ولا نبتكر لأن لنا أخلاق العبيد، والخلق لا يكون إلا بعد سيادة وعزة وطموح؛ ولعلى شارح لك هذا في مقال آخر.

زكي نجيب محمود

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي

تليفون — ٥٦٧٦٩

القاهرة

مع أدباء القصة من الشباب

(١) تمهيد

بعث طلائع النهضة فى أفق الأدب العربى كنتيجة لازمة لأعمال نابليون ، ولحركات محمد على الإصلاحية فى الديار المصرية ، وللإرساليات التبشيرية فى سوريا ولبنان . تلك الحركات التى مهدت الطريق ، وهيأت الجهود ، وصرفت النظر إلى العمل المنتج المثمر ، وإلى الاطلاع الواسع العريض ، وإلى النهج نهجاً جديداً فى طريقة الأداء والتفكير والنظر إلى الحياة . فتلك الحركات نبهت الأذهان إلى شىء من الأدب جديد ، وإلى لون من الثقافة ممتع ، وإلى أساليب ومذاهب فى التفكير لم يكن للأدباء عهد بممارستها .

فالبعوث إلى البلاد الأوربية رجعت مزودة بالثقافة الواسعة ، والاطلاع العميق ، متأثرة بمظاهر الحياة الأوربية ، وبمذاهب التفكير ، وبالأدب الأوربى الغزير المادة ، العميق بالفكرة ، المشرق بالأسلوب . وقارنت بين حال بلادها القابعة السادرة فى ليل الجهل وبين حال البلاد الأوربية المشرقة بنور العلم والمعرفة ، ورأت الأدب العربى يجتر اجتراراً ، ويصفد بأصفاد الجناس والتورية والطباق وسائر الصناعة اللفظية ، ويحمل أوزار التكلف والسرقة وإعادة الجمل المقطعة . ورأت واجباً عليها أن توجه الأذهان إلى مقاييس الأدب الصحيحة ، وتعرض للجمهور الزيف من التصرف ، وتظهر الأدب الغربى الجديد إلى الأمة مترجما بلغة عربية سليمة ، وتشرك القراء بالاستمتاع بما قرأت من روائع الفكر والبيان .

وواكبت هـذه الحركة — حركة الاتجاه نحو الأدب الغربى — حركة بعث الأدب العربى القديم ، ونشر ما اندثر منه ، وضاع من نفيسه بين الأغلاط والتحريف ، وتقديمه تقديما جميلا فى طبعة أنيقة صحيحة إلى الشباب الظمآن إلى الدراسة والتحصيل . ومهدت المطابع الحديثة هذه المهمة ، فأخذت أسفار الأدب العربى القديم تنشر مع الكتب المترجمة من اللغات الغربية .

كان القرن الماضى تاريخاً مشهوداً لبلوغ القصة الغربية أشدها ، ولاكتمال أساليبها الفنية ، ولتعدد طرائقها ومذاهبها ، ولشيوعها بين الأوساط الشعبية ، فكان طبيعيا أن يبصر المتطلعون إلى الغرب — فى أول وهلة — هذا اللون الممتع من الأدب الذى يحفله الغربيون ويستمتعون به ، وينصرفون إليه بلذة وشوق ، فيحاولون إدخاله فى أدبهم العربى ، فظهرت محاولات كثيرة فى مصر والبلاد العربية .

ففى مصر أخرجت المطابع أول مجموعة قصصية (لمحمد عثمان جلال) و (الشيخ نجيب الحداد) ، ومن ثم ظهرت محاولات آل البستانى فى القصة التاريخيـة التى جعلوها وسيلة من وسائل التثقيف[1] ، ومحاولات جرجى زيدان فى قصصه التاريخية المستوحاة من التـاريخ الإسلامى ، السائرة له منذ بدايته حتى أواخر الفتح العثمانى ، تختلف سبعة عشر جزءا ؛ وتابعه بعد ذلك عبد الحميد الزهراوى فى قصته « خديجة أم المؤمنين » . وإزاء الروايات التاريخية والتهذيبية ظهر ميل إلى أسلوب المقامات كنتيجة لشيوع أسفار الأدب القديم ، وبعث روائعه ، اتخذه بعض الأدباء المتأثرين بروائع الأدب العربى القديم ، الواقفين على أساليب بلغائه ، المعجبين بالأسلوب الجزل ، والتراكيب المتينة ، والصناعة اللفظية ، كأحمد فارس الشدياق ، والشيخ ناصيف اليازجى ، وتبعهما محمد المويلحى فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » وحافظ إبراهيم فى كتابه « ليالى سطيح » والمطالع لحديث عيسى بن هشام يرى المويلحى « يهتم بالجانب الاستعراضى ، فأخذ يستعرض المناظر ، وينقد

(١) توفيق الحكيم لاسماعيل أدهم ص ٢١ .

الأخلاق في فكاهة مستحبة ، وأسلوب جزل ، يفسده بعض الفساد قليل من السجع(١) .

وقد ساعد انتشار المطابع ، وقيام المجلات ، والصحف الأدبية في رواج القصة ، وحفز كثيراً من الأدباء على كتابتها استمالة للقراء ، وتشويقاً لقراءة نتاجهم . وقد خصصت كل مجلة بعضاً منها للقصة ، وفتحت الباب للأدباء القصصيين من الشباب لتقدم قصصهم للقراء ، إظهاراً لمواهبهم ، وتشجيعاً لهم . وكان الدكتور يعقوب صروف يواصل كتابة قصته المتسلسلة «فتاة الفيوم» في المقتطف ، وكان سليم البستاني يواصل كتابة قصصه الطوال في مجلة « الجنان » مجلة والده (بطرس البستاني) ، فأخرج عدداً من القصص ، منها : « الهيام في جنان الشام » و « زنوبيا » و « بنت العصر » ، وكانت مجلة الضياء تحمل بين دفتيها قصص نسيب مشعلاني ، ولبيبة هاشم ، وميشيل صرشاق .

وكما أثرت المجلات في رواج القصة ، كذلك أثرت في قيمتها الفنية والأدبية ، فكانت قصص ذلك الطور لا تخلو من خطأ في النحو أو في التراكيب اللغوية ، ولا تسمو على أوهام القصصيين ، وحوادثهم الكثيرة الخارقة التي حشروها في قصصهم تشويقاً للقراء ، وحشروا فيها وعظهم وإرشاداتهم ، وحكمهم المملة التي ناءت قصصهم بحملها ، وكانت أشبه شيء بالحكاية الحكمية .

وهنا نقف إجلالا لحركة جليلة الأثر ، عظيمة الأهمية ، تلك الحركة المهجرية ذات التأثير العميق في تكوين الأدب العربي ، وتوجيهه إلى جهة جديدة . فقد هاجر كثير من إخواننا السوريين واللبنانيين إلى أمريكا ، تحت ضغط حكومة الآستانة ، وسوء إدارتها ، وتعسف حكامها ، وضيق سبل العيش في وطنهم . وهناك في أمريكا فتحوا عيونهم على بلاد جديدة فحققوا في مهابها الطلقة بظلال الحرية أحلامهم الذهبية ، وعلى أدب جديد ممتع ، وعلى قيم جديدة للعدالة والحرية ، ما كانوا يسمعون بها في بلادهم ؛ فامتلأت نفوسهم محبة لها ، ولأدبها الجديد ، وشغفاً بالحرية التي ظللتهم ، وأسبغت عليهم برد الأمان . ولكن استقرارهم هنا لم يكن يصرفهم عن وطنهم العزيز الذي اضطروا إلى هجره كرهاً . فظلوا يحنون به ، ويتلهفون لرؤيته ، ويباركونه ، فاصطبغ أدبهم بالصبغة الصوفية الروحية المتلهفة إلى المثل العليا : العدالة والحرية والحق والمساواة ، في نبرة حزينة هامسة ، وأسلوب رشيق شفاف ، ولغة سامية ممتعة ، ونزعة رومانتيكية تخيلية ؛ وظهر أدبهم على صفحات (السائح) لسان حال (رابطتهم القلمية) في نيويورك ، وعلى صفحات بعض مجلات الشرق العربي . فلفت أنظار الشرق العربي ، وسرعان ما تألق نجم جبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمة ، وأمين الريحاني ، وانتبه الشباب إلى هذا اللون الطالع الرقيق ، فتأثروا به . وكان جبران قد أخرج (الأجنحة المتكسرة) و (العواصف) و (عرائس المروج) و (الأرواح المتمردة) ، وأخرج نعيمة مسرحيته (الآباء والبنون) ، ثم مجموعة قصصه (كان ما كان) ، وأخرج أمين الريحاني قصتيه (زنبقة الغور) و (خارج الحريم) . وذاعت هذه القصص بأسلوبها الرشيق ، ومذهبها الرومانتيكي بين شباب العالم العربي ، والشباب بطبيعته ميال إلى الأسلوب الرومانتيكي العاطفي العاصف ؛ وكسبت المدرسة المهجرية مكانا رفيعا في قلوب القراء ، وحاول بعض الشباب تقليدهم في طريقتهم ونزعتهم ، فخانهم التوفيق كثيرا ، لتباين النفسيات ، وافتقادهم الروحية الحارة المتعطشة التي سيّرت الأدب المهجري ، وطبعته بطابعها الخاص . ولعل (مي) في كتابها (الخيال على الصخرة) أقرب المحتذين شبها بأسلوب جبران ،

(١) تاريخ تطور القصة لمحمود تيمور ص ٤٧ .

وقربا من روحه الرومنتيكية العذبة ؛ وذلك لروح (مى) الشاعرة ، ولتأثرها بالأدب الفرنسى ، ولحياتها الخاصة .

وطلع المنفلوطى بأقاصيصه الرومانتيكية ، وأسلوبه اللين ، محملا أكثر مما تستطيع حمله من الآهات والزفرات وسكب الدموع ، وطول التفجّع ، وجعلها منبراً للوعظ والإرشاد ، واستطاع أن يستحوذ بها على نفوس الشباب المحبة لهذه النزعة الوجدانية ، وللأقاصيص العشق والعاطفة المتأججة . ولكن الجمهور المثقف ملّ أقاصيص المنفلوطى الكئيبة القاتمة ، وشنت المدرسة الواقعية التحليلية حملاتها النقدية عليها ، فأعرض المنفلوطى عن كتابة الأقاصيص ، وانصرفت المدرسة التحليلية الواقعية ، وعلى رأسها أحمد لطفى السيد إلى إخراج القصص الواقعية التحليلية ، فأخرج الدكتور محمد حسين هيكل قصته (زينب) مصوّراً بها حياة الفلاح المصرى ، وأخرج الدكتور طه حسين (الأيام) ، ومن ثم (أديب) و (دعاء الكروان) .

وجاء محمد تيمور على رأس مدرسة تحفل الموازين الفنية الحديثة فى القصة ، وتعمل على رفع مستواها ، واكتمال أسبابها الفنية ، فأخرج محمد تيمور (ما تراه العيون) وأحمد خيرى سعيد قصته (الدسائس والدماء) وخرج محمود تيمور بقصصه (الشيخ جمعة) و (الحاج شلبى) و (الشيخ عفا الله) و (أبو على عامل أرتست) . ويعد محمود تيمور رائد القصة المصرية الفنية والعامل على تبلورها الفنى . وتيمور يملك ملكة تصويرية يسيرها فى قصصه الهادئة ، بروح رقيق صاف لا يشوبه صخب المدنية ، وعواصف الحضارة المادية .

وظهر المازنى الطروب بقصصه الواقعية التصويرية ، وبروحه التهكمى السمح الأريحى ، وأسلوبه التحليلى الرقيق ، يعرض قصصه الحافلة بتجاربه اليومية وذكرياته ، فأخرج (صندوق الدنيا) و (خيوط العنكبوت) ونشر عام ١٩٢٩ قصته الخالدة (إبراهيم الكاتب) وظل فى جو هذه القصة يدرس النفسيات ، ويعرض أفكاره ، ويسترسل فى هواجسه وخواطره . وجاء محمود كامل المحامى بمجموعته القصصية (أنا وأنت) و (الجنون) . والدكتور إبراهيم ناجى بمجموعته القصصية (مدينة الأحلام) . وأنظم إلى هذه الفئة العقاد بقصته القيمة (سارة) ، وإبراهيم المصرى بأقاصيصه الشعبية الواقعية ، وكرم ملحم كرم بقصته التحليلية (الصدور) ، وتوفيق الحكيم عام ١٩٣٣ بقصته الواقعية (عودة الروح) .

ونشطت حركة القصة فى السنين العشر الأخيرة ، وأخذت مدارس القصة الحديثة تتوضح ، وتتسم بسمتها الخاصة ، وأصبحت الكتب الحديثة فى الأدب الغربى تنشر بعد مدة قليلة من صدورها ، وحركة ترجمة القصة الغربية أقوى حركات الترجمة ، وأوسعها انتشاراً ، وأكثرها إقبالا من الجمهور . وقام الرعيل الناهض من الشباب النشطين يرمون محاولاتهم الموفقة إلى الجمهور ، والجمهور يتقبلها بالنقد والقبول الحسن ، والتشجيع المثمر ؛ وبقدر اتساع الطرائق الفنية ، والمذاهب الفكرية ، وتباين النظر فى أمور الحياة أخذت مذاهب القصة تتسع ، وتتسع دائرتها ، وتتشعب إلى مدارس ، ويمضى القاص وفق ما يرسم له فكره ، وعاطفته وميوله ؛ ونزعته الشخصية .

ونشأت دور النشر يملك زمامها أدباء الشباب ، فنشطت نشاطاً عظيما ، وشجعت الأدباء الناهضين على النشر لإظهار مواهبهم ، وراح كل واحد ينسج نسجه الخاص .

والجدير بالذكر من هذه الدور التى تهتم بالقصة دار النشر للجامعيين ، وعلى رأسها القصاص المصرى الناهض عبد الحميد جودة السحار ، ودار الكاتب المصرى التى تهتم بترجمة القصص الغربية ، ودار المكشوف يديرها نخبة

من الشباب اللبناني المتحرر كتوفيق يوسف عواد، وخليل تقي الدين ورئيف الخوري.

وهناك عدد كبير من القصاصين الشباب ينتجون نتاجا مثمرا طيباً، ويخطون خطوات واسعة نحو الكمال الفني، كل له شخصيته ومذهبه. من هؤلاء نجيب محفوظ وعادل كامل وصلاح الدين ذهني، ووداد السكاكيني، ومحمود البدوي، وبنت الشاطئ، في قصصهم الواقعية، وبشر فارس وعادل كامل في قصته (ضباب ورماد) والسيد الدالي في قصصهم الرمزي، وإبراهيم المصري، وأمين يوسف غراب، وإبراهيم الورداني في قصصهم الجنسية التي روجتها القصص السيارة.

هذه لمحة موجزة عن تاريخ القصة سنتبعها بدراسة عن القصاص المصري الأستاذ نجيب محفوظ.

(بغداد) غائب طعمة فرمان

النفق المهجور

تكررت أخيرا محاولة عبور المانش سباحة، وقد كتب لبعض هذه المحاولات النجاح، وباء البعض الآخر بالفشل؛ وتذكرنا هذه المحاولات بمحاولة كبرى كان نصيبها الفشل دائماً عاماً بعد عام طيلة السنوات الست والستين الماضية، تلك هي محاولة إنشاء نفق بري تحت مياه المانش المتدفقة.

وقد كان ذلك المشروع الهندسي ملء الأسماع منذ ثمانين عاما أو تزيد، وتألفت بالعمل لتحقيقه شركة إنجليزية مساهمة رأس مالها ٢٣ ألفا من الجنيهات. ولا زالت الشركة قائمة حتى اليوم. وتنعقد الجمعية العامة لمساهميها مرة كل عام كأي شركة محترمة. ورئيس مجلس الإدارة الآن هو السير هربرت ولكر. وقد عقد آخر اجتماع في منتصف شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧، وحضره سبعة من المديرين، وأعلن فيه الرئيس أن أرباح الشركة قد بلغت ٨٤١ جنيها في العام السابق، واتفق رأي الحاضرين على أن الوقت لم يحن بعد (؟) للبدء في تنفيذ المشروع، ولو أن الرئيس أبدى تفاؤلا عظيما في إمكان تنفيذه قريبا، وخاصة بعد أن حلت الحكومة البريطانية محل شركة سكك حديد الجنوب في تملك شطر كبير من أسهم الشركة. واستغرق الاجتماع كله ثلاث دقائق فقط، واستغرقت الشركة بعدها في نومها الهادئ العميق.

وتملك الشركة قطعة أرض واسعة بالقرب من كاليه، اختيرت لتكون مدخل النفق من الشاطئ الفرنسي، وتملك أيضا نفقا قصيرا طوله ألفا ياردة بالقرب من دوفر، أنشئ بصفة تجريبية، ثم أوقف العمل فيه. ويقوم على حراسة هذا النفق المهجور شارلس جايهاوس، وهو شيخ في السادسة والثمانين من عمره. ولعله الوحيد من بين الذين اشتركوا في حفر النفق المهجور، فقد بدئ العمل في ذلك النفق عام ١٨٨١، وتم الجزء القائم الآن في خلال عام، ثم أوقف الحفر مؤقتا، وتألفت لجنة ملكية بريطانيا لبحث الأمر، فأصدرت أمرها بإيقاف المشروع نهائيا عام ١٨٨٣. وبقي شارلس جيهاوس في خدمة الشركة منذ ذلك الحين، وهو يقضي أيامه الأخيرة قابعا فوق تلال دوفر البيضاء، وكله ثقة ويقين بأن نفق المانش سيتم قريبا.

وقد كاد البرلمان الإنجليزي أن يوافق على حفر النفق عام ١٩٣٠، ولكن المشروع خذل بسبعة أصوات فقط من بين جميع الأعضاء، وعددهم ٣٥٠. وأكثر المعارضة تأتي من جانب الهيئات العسكرية التي ترى الاحتفاظ بإنجلترا جزيرة حقيقية في حماية أسطول قوي. وتقدر تكاليف المشروع كله بأكثر من ٣٠ مليون جنيه. وتوجد لجنة برلمانية من أنصار المشروع، تجتمع مراراً وتوالي بحث التقدم الهندسي والحربي، وتعمل على إنشاء النفق واستغلاله تجاريا.

إبراهيم حلمي عبد الرحمن

الخواطر

١ - ١٠ - ١٩٢٩
١ - ١٠ - ١٩٤٧

أحقاً انقضت تلك الحقبة الطويلة من حياتى وأنا غافل ؟ كلا ! ما كنت بغافل أبدا . لقد مضت تلهث وأنا ألهث معها . لقد كانت رحلة طويلة مرهقة منهكة ، غاصت قدماى فى رمالها المحرقة أكثر من مرة ، فإذا حاولت السماء أن تمطر لتلطف من حدة الحرارة أرق البرق تخطف منى البصر ، وأرعد الرعد فأصم منى الأذن ، فأمشى — أنا التائه الضليل الذى هالته تقلبات الجو المحيط به — نحو الأفق الذى يبدو قريبا ، وهو فى الواقع بالنسبة لى أبعد من الشمس أو القمر ، وتستمر الرحلة بين سهولة وعسر ، وانقباض ويسر ، والنهاية لا تأتى أبداً ، ولا يعزى عن تأخرها سوى الأمل !

نعم ! لا زلت أذكر يوم أول أكتوبر عام ١٩٢٩ عندما ألبسونى رداء أبيض وأعطونى سماعة فى يدى وقالوا : انطلق أيها الشاب الممتلىء غروراً واذرع عزه خطاك طرقات مستشفى قصر العينى ، لأنك الآن طبيب امتياز ، بعد أن كنت منذ شهرين فقط طالبا عاديا ينظر إلى لابسى الرداء الأبيض من أطباء الامتياز والنواب فى إعجاب وأمل .

وكان من حظى وقسمتى ونصيبى أن تسلمنى الدكتور إبراهيم بك شوقى عميد كلية الطب الحالى . كان إذ ذاك رئيسا لقسم الأطفال . وهناك بدأت دورتى كطبيب امتياز ، وهى تستغرق فى العادة سنة بالتمام ، تقسم على أربعة أقسام ، كالجراحة وأمراض الأطفال والأمراض الباطنية وأمراض النساء مثلا . فشاءت الظروف أن تبدأ دورتى فى قسم الأطفال فكأنى دخلت بمحض الاختيار الذى يؤدى بالتقلب بين أركانه إلى الصقل والنضج . كنت إذ ذاك عجينة غير مجربة فصورها كما شاء هواه . علمنى فأحسن تعليمى وضرب لى كل يوم بل كل ساعة بل كل دقيقة ، فى عظمة الرجولة مثلا . بقيت بجانبه منذ ذلك الوقت ، فقد وقع اختياره علىّ نائبا ثم مدرسا ثم أستاذا مساعدا له ، وها هو قد مهد لى السبيل أخيرا إلى حبل الأستاذية الأشم فشكراً لله وله .

علمنى هذا الرجل فلسفة الرئيس الذى ينسى ! فهو يكون عن مرؤوسه فكرة ويصدر عليه حكمه ، فإذا اقتنع بصلاحيته شفع له هذا فيما يجد فى المستقبل من ظروف . فهو يدعوه مثلا إلى مكتبه ويأخذ فى تقريعه فى عصبيته المعروفة على ما يعتقده تقصيرا ، فإذا كثر الجذب والشد بين المتناقشين تكهرب الجو ، وبدا الأستاذ وكأنه على وشك الوصول إلى قرار خطير ! ولكنه يوقف المناقشة بعد أن يكون قد أوسع مرؤوسه لوما ، ويطلب منه فى هدوء أن يذهب إلى عمله — وبينا هو على هذه الحال من الثورة المكبوتة يدخل عليه الكاتب ليعرض عليه بريد اليوم ، فإذا بين الأوراق واحدة تخص صاحبنا بطل القصة ، يطلب فيها من رئيسه الشفاعة له فى بعثة دراسية أو درجة مالية ، فيتحمس فى التعليق على طلبه معدداً فضائله وحسناته ومتناسيا سيئاته التى أعابته إحداها منذ دقائق قلائل ! هذا هو النسيان العادل الذى يجب أن يتحلى بفضيلته كل رئيس .

ولذا كرئيس ميزة فريدة ، فهى تطرد الصغائر فى أنفة عجيبة ، فهو لا يحمل لمرؤوس ضغنا ما دام ما يبدر منه لا يتعارض مع مصلحة العمل . فأنت تدخل عليه لتعتذر له عن سخف بدر منك منذ أيام قلائل ، فتجده قد نسيه تماما وينظر إليك متسائلا : متى حدث هذا ؟ أما ما يتعلق

بالعمل فهذا لا ينساه أبداً ، والويل لمن يتراخى فى هذا السبيل ، فإنه يصدر عليه حكما لا يغيره أبدا مهما شفع له مرور الأيام ، وهو كبير الأخلاق جبار الذهن . يغدق العطف على مرؤوسيه دون أن ينتظر منهم كلمة ثناء . فهو يرد على أحدهم فيقول مثلا : لقد أرسلتك فى بعثة لأن مصلحة العمل بالقسم تقتضى ذلك ، ولقد اتفق وجودك فى نفس الآونة التى تقررت فيها هذه البعثة ، فالمسألة لا تعدو مجرد المصادفة .

أما قدرته على رؤية البعيد المنظور وغير المنظور فقد جعلتنى أومن أنه يرى المستقبل قبل الشخص العادى بخمس سنوات على الأقل . لذا كنت أرقب دائما الثورات التى تقوم ضد بعض ما يصدر من قرارات فأقول لنفسى : سوف يفهمون صواب ما فعل بعد خمس سنوات .

حقا لقد كان لوجودى بجانب هذه الشخصية الجبارة أكبر أثر فى حياتى . إنها دراسة قلما تتاح إلا لمن سعد بمراقبة تفاصيلها عن كثب .

* * *

ومرت الأيام فى بطء والقدر يرقب ويبتسم . فهو يرخى العنان حينا ويقبض عليه حينا آخر . كل صفحة جديدة تنسيك ألم سابقتها ، وأنت تحتمل آملا أن تكون هذه أو تلك آخرة الصفحات . وكلما لاح من بعيد بريق الأمل تغشيه فجأة تباشير ظلام مفاجئ ، فتتمتم لنفسك قائلا : رباه أين المستقر ! ثم تحاول أن تنشد الراحة والاستقرار ، ولكن هيهات ! إن أطماع ابن آدم لا تقف عند حد ، والأمل حلم جميل ! كل يوم بأمله ، بل كل دقيقة بأملها ، والأمواج تعلو حينا فتغمرك ، وتنخفض حينا فيبدو منها رأسك بعينيه المتوسلتين المستغيثتين ، ولا من مغيث ، ويمضى الموج فى همسه لرمال الشاطئ قصته ونجواه التى لن تنتهيا إلا إذا انتهى الزمان ، وأنت تحاول الإنصات فلا تسمع شيئا إلا هدير الأمواج ودبيب قدميك على الشاطئ المجهول !

نعم ! كانت لكل يوم آماله وآلامه . فعندما انتهت مدة الامتياز تعلقت بأمل النيابة ، فلما نلته تطلعت إلى السفر إلى الخارج فى بعثة حكومية لأستكمل ثقافتى الطبية ، ولما تم لى ما أردت ووصلت إلى بلاد الإنجليز ذاب منى الشحم واللحم فى سبيل الحصول على درجة العضوية لكلية الأطباء الملكية بلندن ، ولما أعلن الحاجب الإنجليزى القارع العود اسمى بين الناجحين خيل إلى إذ ذاك أنى قد جلست على قمة الجبل العالى وظننت أن مصر كلها سوف ترقص عند ما يبلغها خبر نجاحى . ولما استيقظت فى الصباح واطلعت على جرائد اليوم شعرت أن خبراً هاما ينقص العمود الأول من صفحتها الأولى ، وهو بالطبع خبر نجاحى .

ولما عدت إلى القاهرة لم أجد على رصيف المحطة سوى إخوتى وبعض أقاربى ، وكان الجو قاتما وكأن القاهرة تعمدت أن تذل من كبريائى فوصلت إلى منزلى بعد أن دارت السيارة فى شوارع العاصمة التى بدت أنوارها ضئيلة بالنسبة لمدائن النور التى ارتدتها إبان زيارتى لعواصم أوربا أثناء عودتى إلى الوطن . ولما ذهبت إلى مقر عملى فى صباح اليوم التالى بدت أمام عينى الحقيقة التى لا مفر منها : لقد عدت إلى حيث يجب أن تفيد مما درست وحصلت ، فشمر عن ساعد الجد أيها البطل !

وشمرت عن ساعد الجد فعلا ، لولا أن الحكومة كانت قد أعدت لى مفاجأة استنفدت كل مجهوداتى الجسمية والذهنية فى سبيل إحباطها . فقد حددت لى مرتبا يقل بضعة جنيهات عما يتناوله زملائى ، فقضيت أشهراً أذرع طرقات وزارة المالية متردداً على مكاتب بعض إخواننا الموظفين أرجو منهم الشفاعة وأتوسل إليهم فى سبيل إيجاد مخرج من هذا الظلم المقصود أو غير المقصود . وتبخرت آمالى عندما وجدت نفسى أتضاءل أمام أحمد أفندى وحسن أفندى وعلى أفندى من موظفى الدرجة التاسعة ، فصممت

على فتح عيادة تغنيني عن هذا التوسل فى سبيل الحصول على جنيهات قليلة ، وترغم الحكومة عندما يعلو صيتي أن تغدق على ما أريد دون أن أطلب منها ذلك . وكان المرحوم الدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل يقول لنا دائما : ارفع صيتك بين الناس ترتفع قدرك عند أولى الحل والربط وأنت لا تدرى .

وقد حصل فعلا ! وها أنذا بعد ثمانية عشر عاما من ارتدائى المعطف الأبيض أجد نفسى على رأس قسم الأطفال بكلية الطب الجديدة بالعباسية وفى جيبي الأيمن أعلى الدرجات المالية ، وفى جيبي الأيسر براءة الأستاذية .

اسمحوا لى أن أركع لأتمم صلاة شكر لله ، فإنه والله شكر واجب .

دكتور مصطفى الديواني

منطقة التعليم بقنا

إعادة إعلان مناقصة الأغذية

لبعض المدارس

حددت المنطقة الساعة العاشرة صباحا من يوم السبت الموافق ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٧ لفتح مظاريف عطاءات توريد الأغذية للمدارس الآتية :

جميع مدارس جنوب الشلال الأولية والإلزامية وجميع مدارس البحر الأحمر ومراكز التموين بقاو غرب وعزبة الأقى ونجع عزوز ودشنا والوقف والرئيسية والبراهمة والنوبة ومحطة أرمنت والأقصر والشعب والدير بإسنا والمدارس النموذجية بأولاد دهش والعوامية والقرية بإسنا والمدارس الابتدائية بفرشوط ونجع حمادى ودشنا وإسنا وقناطر إسنا والتربية النسوية بإسنا وروضة الأطفال بقنا الابتدائية والفصول الثانوية بمدارس الأقصر وقوص وقنا وإسنا الابتدائية

وذلك حسب الشروط الموضحة بنسخة العطاء بالمنطقة

فعلى راغبي الدخول فى تلك المناقصة اتباع ما يأتى :

١ — تقديم طلب على ورقة تمغة من فئة الثلاثين مليما لشراء نسخة العطاء

٢ — إرفاق إذن بريد بمبلغ ٣٩٠ مليما لكل نسخة مطلوبة منها ٣٠٠ مليم ثمنا للنسخة و٩٠ مليماً رسم إرسالها للمتعهد بالبريد

٣ — فى حالة إعادة النسخة إلى المنطقة بعد وضع السعر فيها يجب أن ترسل داخل مظروف مختوم بالشمع الأحمر ومختم بختام المتعهد وترسل بالبريد المسجل إلى المنطقة ويكتب على الظروف من الخارج كلمة عطاء توريد أغذية

٤ — يجب أن يرفق بنسخة العطاء شيك أو حوالة بريدية أو قسيمة توريد بقيمة التأمين المطلوب حسب البيان المبين بنسخة شروط العطاء

والمنطقة لا تقبل نقودا ولا أوراق بنكنوت مع العطاء

٨١٢٠

من هنا وهناك :

الخرافات

بين التفاؤل والتشاؤم

منشؤها وتعليلها

يرجع كثير من تصرفاتنا في حياتنا اليومية إلى خرافات قديمة تتوارثها عن أجدادنا بدون أن نشعر بذلك ، فإن رش الملح مثلا دليل على سوء الحظ ، ويتجنبه الإنسان بأن يلقي حفنة منه من فوق الكتف اليسرى ، ويرجع السبب في ذلك إلى عدم وفرة الملح في العالم وتوزيعه توزيعاً عادلا ، وإذا كان متوافرا في بعض الجهات ، إلا أنه نادر في كثير غيرها ، بل إنه من المتعذر جدا الحصول عليه في بعضها ، وكانت جماعات كثيرة من الناس تلاقي متاعب كثيرة في سبيل الحصول على الملح بسبب صعوبة المواصلات في الأزمنة القديمة ؛ وكان الملح من ضروريات الحياة ، ولا بد من ضمان الحصول عليه ، ولذلك فإن تناثر الملح كان في حد ذاته دليلا على سوء الحظ ، وبذلك نشأت هذه الخرافة وانتشرت في بعض الجهات

والخرافات المتصلة بالقطة السوداء منتشرة ، ويتشاءم كثير من الناس عندما تعترض قطة طريقه ، ويحاول أن يغير طريقه ، وهذه الخرافات من بقايا عهد السحرة ، فقد كانت الساحرات يملن للقطط ، وكان المعتقد أن أرواح الساحرات تختفي في القطط في أوربا الغربية ، وكان الاعتقاد في أرواح القطة المدببة وفي مقدرتها على الرؤية ليلا والخوف منها باعتبارها مصدراً للزوابع راجعا إلى مكانة القطط في عالم السحر .

وقد صدر في العصور الوسطى كتاب اسمه « احذر القطة ! » سنة ١٥٨٤ وكان يعتبر القطط السوداء ساحرات متنكرات ، وأن قتل القطة ليس معناه قتل الساحرة ، لأنه يمكن أن تتقمص الساحرة جسد القطة تسع مرات .

ومما يدل على انتقال الخرافات من جيل إلى جيل وبقائها حتى العصر الحالي ما يتصل بالعطس ، ويرجع ذلك إلى الفكرة القديمة عن الروح وانتقال الأرواح ، وكانت الفكرة القديمة أن العطس يطرد الروح مؤقتا من الجسم . وكان اليونانيون والرومانيون في الأزمنة القديمة يعتقدون أن العطس دليل الشؤم ، إلا إذا قيلت عبارة تطرد الشؤم كقولهم : « فليحفظك جوبيتر » . وما زال الإنسان في العصر الحاضر يقول : « رحمكم الله » ، أو « فليبارك كم الله » . ويقول الأوربيون عبارة ألمانية متداولة في اللغات الغربية وهي Gesund heit! ومعناها « صحة جيدة ! »

وترجع الخرافات المتصلة بالمرآة إلى تلك الأزمنة القديمة عندما كان الاعتقاد السائد أن انعكاس صورة الإنسان في الماء أو في أي سطح لامع — وأخيرا في المرآة — ليس إلا روحه ، وحتى أهالي جزائر البحار الجنوبية الذين على الفطرة في الوقت الحالي يعتقدون عندما ينظرون إلى أنفسهم في المرآة أنها الروح ، وقد لا يدرك الإنسان المتحضر في العصر الحالي أن تشاؤمه من انكسار المرآة معناه الخوف من أن تكون الروح منعكسة في اللحظة التي كسرت فيها المرآة ، وبذلك لا يمكن الاستعاضة عنها بعد فقدها .

ومن الخرافات الشائعة تجنب السير تحت سلم مرتكز على بناء ، ولعل هذا احتياط من خطر الأشياء الساقطة .

ولا بد أن نذكر أن كل الخرافات الحالية متوارثة ، فإن السلم المرتكز على جدار يمثل شكل زاوية وهي من أقدم الأشياء التي ترمز للحياة . وعلى ذلك فإن السير تحت السلم معناه انكسار رمز الحياة ، مما كان يعتبر مقدسا في نظر الإنسان القديم ، وربما كان الأمر كذلك في العقل الباطن للإنسان المتحضر .

وما زال لحدوة الحصان أهمية عظيمة في عالم الخرافات ،

ولا يعرف تاريخ الاستدلال بها على حسن الحظ ، ولكن من الشاهد أن شكلها يشبه رمز التفاؤل عند القدماء V

ولورقة البرسيم ذات الأجزاء الأربعة مكانتها فى عالم التفاؤل ، وكثيرا ما يقضى الناس ساعات عديدة فى البحث عنها ، وقد ضاعت معالم هذه الخرافة ، ولكن تروى الأساطير أن حواء أخذت معها عند خروجها من الجنة ورقة برسيم ذات أجزاء أربعة ، ولما كانت تذكارا للجنة فإن حيازة هذه الورقة يعتبر فألا حسنا . أما العادة الكريهة فى البصق على شىء ، وخصوصا النقود ، لتجلب الحظ فما زالت منتشرة ، وكان القدماء يعتقدون أن البصق طلسم ضد الشر ، وما زالت قبائل البانتو فى أفريقيا تعتبر اللعاب أهم مصل ضد المتاعب الناتجة من العين الشريرة .

ولقد تأثرت كل شعوب العالم بفكرة العين الشريرة ، سواء فى ذلك الشعوب المتمدنة أو المتأخرة ، وما زالت كل الشعوب تستعمل فى ألفاظها المتداولة عبارات تدل على العين الشريرة .

وكان يوم الجمعة يعتبر فى أوائل المسيحية يوما مشئوما ، لأن المسيح مات فى ذلك اليوم ، وقد حدث كثير من المآسى فى الأزمنة القديمة كالطوفان واضطراب اللهجات فى بابل وتناول آدم وحواء من الفاكهة المحرمة فى ذلك اليوم ، ولذلك يعتبر كثيرون منذ العصور الوسطى أن يوم الجمعة يوما مشئوما .

ومع ذلك كان يوم الجمعة يوما سعيدا بالنسبة لمصير أمريكا ، فقد أبحر كولمبس من ميناء بالوس فى أسبانيا فى يوم الجمعة ٣ أغسطس سنة ١٤٩٢ م ، وشوهدت أرض العالم الجديد لأول مرة فى يوم الجمعة ١٢ أكتوبر من السنة ذاتها ، ووصلت السفينة ماى فلاور إلى ميناء بروفنس فى يوم الجمعة ١٠ نوفمبر سنة ١٧٢٠ م ، وولد جورج واشنجتون فى يوم الجمعة ٢٢ فبراير سنة ١٧٣٢ م .

ولا شك فى أن الذكريات السعيدة التى ترتبط بأمريكا فى أيام الجمع تزيل التشاؤم فى هذا اليوم .

ويعتبر رقم ١٣ دليلا على سوء الحظ ، ولعل ذلك يرجع إلى جلوس المسيح وتلاميذه الاثنى عشر لتناول الطعام قبيل صلب المسيح .

ومن النادر أن نجد ثلاثة عشر شخصا يجلسون حول مائدة ، وتتجنب الفنادق ترقيم إحدى حجراتها برقم ١٣ فتقفز الأرقام مباشرة من ١٢ إلى ١٤ إرضاء لنزلائها ومع ذلك ، فإن بعض الناس يحاولون الازدراء بفكرة التشاؤم من هذا الرقم ، فيجتمع ثلاثة عشر منهم فى كل مناسبة ممكنة وبذلك يتفاءلون من هذا الرقم ، ولقد كان ودرو ويلسون الرئيس السابق للولايات المتحدة يزدرى بفكرة التشاؤم من رقم ١٣ ، فكان يصدر القرارات الهامة فى الثالث عشر من الشهر ، وبلغ به تمسكه بهذا الرقم أن ترك الجزء الأول من اسمه وهو (توماس) حتى يكون باقى اسمه ودرو ويلسون باللغة الإنجليزية مكونا من ثلاثة عشر حرفا .

ومن العادات المألوفة عدم ذكر أسماء الموتى عند الشعوب المتأخرة ، ولا تذكر القبائل الاسترالية المتأخرة أسماء الموتى . ولعل السبب الرئيسى لذلك الخوف من إثارة روح الميت ، وإذا وجدوا ما يستدعى الإشارة إلى اسم الميت ، فإنهم يقولون بصوت خافت « المرحوم » .

أما عادة شرب نخب شخص ، فإنها عادة قديمة ترجع إلى التقاليد الدينية التى كان الناس يشربون فيها الموتى والآلهة ، ولقد كتب اللورد تشسترفيلد إلى ابنه فى حديثه المعروف عن آداب اللياقة يقول : « أما بشأن العادة المبتذلة ولكنها عالية ، ألا يوجد شىء يرتبط بصحة الإنسان أكثر من شرب كأس من الخمر ، فإنها لا تتفق مع الذوق السليم ، ومع ذلك فإن الذوق السليم يقتضى التمسك بها » .

إدوار عياض

عودة الفيلسوف

[نتصور هـذا المقال لما فيه من متعة أدبية على هامش التنسيق ، وإن كانت المجلة لا تحمل أية مسئولية عما فيه ، فإن تنفيذ التنسيق في وزارة المعارف كان كما يبدو من أكثر ما يستطيعه الإنسان الضعيف] .

قرأت فيما قرأت مقالا للأستاذ توفيق الحكيم نشرته جريدة أخبار اليوم الغراء ، اتصل فيه أستاذنا الفاضل بعالم الأرواح ، وتحدث إلى « نابليون » وغيره ، وما إن انتهيت من قراءة المقال حتى غلبني النوم ، فاستغرقت لسبات عميق ، لست أرجعه إلى ملل من قراءة المقال — حاش لله — ولكني أرده إلى شعور بلذة عقلية ، ومتعة فكرية ، وراحة نفسية ، أعقبت القراءة .

رأيت فيما يرى النائم أن سقراط الفيلسوف حيٌّ يرزق ، ورأيته يسعى إلى رزقه في ساحة « لاظ أوغلي » بعيدا عن الأكروبول ، شأنه في ذلك شأننا ، ورأيته وقد جرفه تيار جرف المدنيين والموظفين جميعاً — وسقراط أبداً معلم وفيٌّ المهنة — أقول جرفه تيار التنسيق ، فاتخذ مكانه بين الجموع الحاشدة التي تملأ ردهات الوزارات في هذه الأيام ، يحاول كما يحاول الغير أن يقتنص خيرا من درجة أو علاوة أو تعديل في أقدمية .

وفي ساعة لم تبارك فيها يد الخالق أعلنت أسماء الرابحين ! ولم يكن اسم سقراط من بينها ، وحار عقل سقراط على رجاحته في أن يجد لذلك علة ، أو يعرف له سبباً .

أليس هو المعلم المجد المجتهد ؟ ألم يقض في الخدمة عدداً من السنين يزيد على ما تقضي به قواعد التنسيق ؟ ألم يفن نفسه والشطر الأكبر من عمره في أداء ما وُكل إليه من عمل ؟ . إذاً فلا بد هناك من سبب ! .

وأخذ المسكين يقدح زناد فكره ، ويجهد قريحته على الوحي ينزل عليه بتعليل أو تفسير ، ولكن عجز الرجل على سعة تفكيره من أن يهتدي إلى حل معقول مقبول ؛ فلم يجد بُداً من أن يسأل أهل الذكر ، لعل عندهم نبأ ما خفي عليه وتفسير ما تعسر فهمه وتعقد تعليله .

واتخذ سقراط مكانا في طابور طويل من أمثاله المحرومين وقفوا على باب كبير ، قيل إن عنده الخبر اليقين ، ومضت ساعات النهار ، ولم يوفق هو ولا غيره إلى مقابلة سعادة جهينة ، فانصرفوا على أن يعقدوا اجتماعا عند كشك معروف في حديقة الأزبكية . واجتمعوا هناك في أصيل يوم لافح حرُّه ، وقرر المجتمعون بعد نقاش طويل أن يعيدوا الكرّة مرّة تلو مرة ، وأن يلزموا باب الكبير حتى يسمح لهم بالدخول .

وجاء الفرج في اليوم الثالث من أيام سود قضاها سقراط بباب جهينة ، وسُمح له باللقاء ، فدخل وحيّا ، وسلم متأدبا ، وسأل عن علة ما أصابه من حرمان ، وكان جهينة هذا طويل البال هادئ التفكير ، يعرف الأساليب الحكومية خيرا مما يعرفها سقراط ، فقد قضى في خدمة « الميرى » طويلا . وكان يجلس مع جهينة هذا — وهو صاحب سعادة بحكم أقدميته ووظيفته . كان يجلس معه رجل لا تخلو من أمثاله مجالس أصحاب السعادة ، كل همه أن يقول آمين ، وأن يحوقل ويبسمل لكل ما يقولون . ودار بين هؤلاء وبين سقراط حديث طويل . نلخصه فيما يلي :

— ما هي شكايتك يا سقراط ؟ أفصح عنها فلن تجد منا إلا أذناً صاغية ، نحن هنا نسمع لشكايات المدنيين ، ونعمل على إنصافهم أسوة بوزرائنا .

— لِمَ لَمْ أعط درجة كما أعطي من هم دوني علما وخبرة وكفاءة ؟

— لا بد وأنهم قدامى !! أين تلقيت علمك يا سقراط ؟

— في أثينا يا سيدي .

— إذاً فأنت لم تخرج إلى عالم النور ، وأنت إذاً لا تحمل من المؤهلات ما يحمل غيرك من التابعين ، أمني الوظفين !؟

— لقد زرت « بوتوديا » و « دليوم » و « أمفيبوليس » يا سيدي ، فهل يشفع لي ذلك ؟

— عجبا يا صاحب السعادة لهـذا الرجل ! لا يسافر إلا فراسخ معدودات ، ويطلب المساواة !

— لا تحاورني يا سقراط حوار السفسطائيين ، فأنت كا نعلم واحد منهم ، أو هكذا يقال عنك .

— لست منهم سيدى ، فأى دليل تقيم على ما تقول ؟

— ألم تقرأ ما كتبه عنك « أرستوفانيس » ؟ ألست الذى يسمم عقول الشباب بتعاليمه الحرقاء ، ويشككهم فيا نعتقد ؟ ألست الذى يحاول أن يضع لنا قوانين جديدة للأخلاق ، وأسسا جديدة للحكم ؟ ألست الذى يعارض نظام الانتخاب وينادى بأن يتولى الأذكياء وحدهم مقاليد الحكم ؟ يا سقراط أنت تفكر ، أنت تفكر ، أنت تفكر كثيرا .

(هنا توقف جهينة . وعندى أنه لم يستطع قراءة كلة أو كلمات فى المذكرة التى أعدت له من سقراط) .

— قد تتشابه آرائى وآراء السفسطائيين يا سيدى ، ولكن عليك بالجوهر ودع الظهر ، هل قرأت ما قال عنى « زينوفون » ؟ أو هل قرأت عنى فى خير محاورات أفلاطون : حوار « المائدة » .

— وهل يتسع وقتى لقراءة كل ذلك ، وأمامى أكداس من الجرائد اليومية لم تُفض ؟ أتعلم أننى لم أقرأ بعد آخر عددين من أعداد روايات الجيب ؟

— ما لآداب اللياقة قد تخلت عنك ياسقراط ؟ ألا ترى أن سيدنا لم يشرب قهوة الصباح إلى هذه الساعة ؟ كان الله فى عونه ، ومد فى أجله .

(هنا لا بد وأننى تقلبت فى سريرى ، ولا بد أن المنظر كان قد تغير . سمعت جرس التليفون يدق على مكتب صاحب السعادة ، وسمعت حديثاً طويلا ، بين صاحبنا وبين غيره من أمثاله ، لا أذكر منه إلا أنهما اتفقا على أكلة من نوع معين فى مكان معروف ، وظننت ، وبعض الظن إثم ، أن خياشيم صاحبنا أخذت تتسع ، ولابد وأن صور له خياله رائحة شواء ينتظره ، وخيل إلىّ أيضاً أنه بدأ يتململ فى جلسته ، ثم قال فى ضيق :

— ولكن أين زينوفون وأفلاطون من قضاتك ميلوتوس وأنيتوس وليسون ؟ أتريدنى أن أغفل آراء هؤلاء السادة من رجال الحكم ، وآخذ بكلام العامة ممن تذكر .

— هلا عنّ لك سيدى أن هؤلاء القضاة — حفظهم الله — بشر مثلى ومثلك يجوز عليهم ما يجوز عليكم وعلىّ ؟ هلا دار بخلدك أنهم يخطئون حينا ويكذبون أحيانا ؟

— حاش لله أن يخطىء أمثال هؤلاء السادة ، أو أن يتخذوا من الكذب مطية !! حياك الله ياصاحب السعادة ! فما أطول بالك وأرحب صدرك ! والله لوكان سقراط فى حضرة كبير الكتاب لا فى حضرتكم وقال ما قاله ، لصفع وجهه ، وطرده شر طردة .

— ما علينا من كل هذا ، العفو عند القدرة هو دينى وديدنى ، حدثنى ياسقراط على أى أساس تريد رفعة ورقيا .

— على أساس هو مزيج من الأقدمية غير المطلقة ، ورجاحة تفكيرى ، وسعة عقلى ، ونفاذ شخصيتى وكفاءتى وامتيازى فى أداء عملى .

— معايير هذه كلها ذاتية ، لايستقيم الحكم إذا اتخذناها أساسا .

— ألم تتخذ أساسا من قبل ؟ ألم تكن أساسا فى عدد كبير من الحالات هذه المرة .

— سبحان الله ياسقراط ! ! مالك تنحرف عن المنطق السليم فى حوارك ؟ ! حقا لقد خلقت سفسطائيا بفطرتك ! ؟ أنسيت أنك تكلم صاحب سعادة ! عد إلى رشدك وحدثنى : هل قرأت ما كتب فيلسوف غرّ مثلك فى مجلة الثقافة عن سوق مزعوم للبغال ؟

— لم أقرأ سيدى ما كتب ، فهل لك أن توافينى بجملة ما قال ؟ !

— لست هنا معلما ولا قصصيا ، عليك بدار النشر والتأليف والترجمة ، أطرق بابها واسأل أصحابها عن مقال كتبه رجل أفنى عمره هباء ، يقرأ ويفكر كما تفعل ، ثم رد

الله إليه عقله على كبر فسافر إلى بلاد النرو وشرب ماء نهر مبارك طوله شبر وعرضه نصف شبر ، وسوف يفتح الله عليه . فإذا أنت وعيت ما كتب ، ولا إخالك فاعلاً ، فعد إلىّ ومعك « الراكب » .

— ولكنى سيدى رجل فقير ربه شريف ، لا أقيم الولائم ولا أستطيع حضور الحفلات ، ولم أوت من سما كة الجلد وصفاقة الوجه « وطول البال » مايقربنى إلى قلب راكب ، أما سيدى «راجل» لا أعرف الا «الراجلين» .

— إذاً فليطل الله من عمرك ، حتى يسمعك قانون يعرفه المنسيون .

وما إن هم سقراط بالخروج حتى دخل معلم آخر يطلب ترقية على أساس أقدمية مطلقة ، فنهره جهينة ، وقال : نريد أكفاء ممتازين ! !

فعجب سقراط للحرباء فى ثوب إنسان ، ولطم وجهه كمداً ، وخرج كما يخرج غيره من أمثاله حاسر الرأس ، كسير النفس ، ولكن لم يدم ذلك أكثر من لحظات معدودات ذكر بعدها من هو ومن محدثه ، فعاد إلى رأسه رفعته ، وعادت إلى نفسه طمأنينتها ، واستغرق فى تفكيره ، وذابت همومه فى بحر فلسفته ، وفجأة أشرق وجهه إشراقاً ملحوظاً . لقد وصل سقراط إلى نتيجة لم يكن قد وصل إليها فى حياته الأولى .

وعاد سقراط إلى العالم الآخر أنضج تفكيراً ، عاد إلى أين ؟ لا أدرى ، إلى الجنة أم إلى النار ، ولكنى أذكر أنه تمتم قبل أن أفتح عينى المرة الأخيرة وقال : « نار الآخرة خير من جنة الوظيفة » .

جمال الكنانى

وزارة المعارف العمومية

تبحث وزارة المعارف فى افتتاح قسم بمدرسة المعلمين العليا لإعداد مدرسين للغة الفرنسية بالمدارس الأميرية ويمنح المتخرجون فيه الدرجة السادسة الفنية . وسيكون التعليم بهذا القسم بالمجان ويمنح المتفوقون مكافأة قدرها ٣ جنيهات شهريا طوال مدة الدراسة .

ويقبل فيه :

أولا — الناجحون بالقسم الفرنسى فى امتحان شهادة إتمام الدراسة الثانوية القسم الخاص من جميع الشعب

ثانياً — الناجحون بالقسم الإنجليزى فى امتحان شهادة إتمام الدراسة الثانوية القسم الخاص من جميع الشعب بشرط أن يكونوا حاصلين على ٦٠ ٪ على الأقل من النهاية العظمى فى اللغة الفرنسية وبشرط أن يؤدوا امتحاناً للدخول فى اللغة الفرنسية فى موعد سيعلن عنه فيما بعد

فعلى راغبى الالتحاق تقديم الأوراق الآتية للمدرسة بمقرها بسراى موصيرى بالأورمان فى موعد غايته ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٤٧ :

١ — استمارة رقم ٣٤

٢ — الاستمارة البيضاء الدالة على النجاح فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية القسم الخاص

٣ — شهادة الميلاد

٤ — تعهد بالعمل فى مدارس الحكومة مدة لا تقل عن ٥ سنوات

وسيوقع على الطلبة الكشف الطبى ويؤدون اختبارا شخصيا فى مواعيد سيعلن عنها فيما بعد ٨١٤٦

باب الكتب

تاريخنا القومي :

في أعقاب الثورة المصرية

أخرجت مطبعة لجنة التأليف والترجمة فيما أخرجت من مطبوعاتها الأنيقة ، كتاب (في أعقاب الثورة المصرية) وهو الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الملحمة التاريخية التي يصدرها تباعاً حضرة صاحب العزة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك ، ليؤرخ فيها كفاحنا القومي وجهادنا الوطني في العصر الحديث — والرافعي بك بإجماع العلماء وزعماء الفكر وأقطاب السياسة ، من أصدق الناس قولا وأفصحهم لسانا وأكثرهم اطلاعاً وأعمقهم بحثا وأقواهم حجة ، وأخلصهم جهادا . وهذه الصفات قد مهدت له طريقا مستقيما في حياته السياسية لا ينحرف عنه ، ولا يلين فيه ولا عن السير عليه .

أراد هذا المؤرخ الكبير منذ عشرين سنة أن يقدم آية من الوفاء لزعيم الوطني الكبير مصطفى كامل باشا بأن يكتب له تاريخا على مثال كتاب (بول وشانل — عن — جامبتا) ولكنه بعد أن روى في الأمر وجد أن تاريخ هذا الزعيم « يستتبع الكلام في مبدأ ظهور الحركة القومية بمصر ، والتطورات التي تعاقبت عليها » ذلك بأن هذا الزعيم إنما كان « يمثل دوراً من أدوار الحركة القومية سبقته أدوار وتلته أخرى » . من أجل ذلك تغيرت وجهة نظره في العمل ، وأخذ في دراسة الحركة القومية من مبدأ ظهورها ، ولما رجع إلى الأدوار التي تقدمت عصر مصطفى كامل ليقف عند حد يصح اعتباره مبدأ للحركة القومية « وجد أن الحركة العرابية ترجع أسبابها ومقدماتها إلى حركة الاستبداد من نظام الحكم القديم ، وإلى الحركة الفكرية والسياسية التي ظهرت على عهد اسماعيل ، وهذه الحركة الأخيرة لم تظهر فجأة ولم تكن الأولى في تاريخ مصر القومي ، بل هي تطور جديد للروح القومية التي بدأت تظهر في أواخر القرن الثامن عشر ، فإلى هذا العهد يجب أن يرجع مبدأ الحركة القومية المصرية — وأول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، فإن هذه المقاومة كانت أول شرارة أشعلت جذوة الروح القومية في نفوس المصريين — وهي أول صفحة من صفحات الجهاد الأهلي في تاريخ مصر الحديث .

ثم قال : « وثمة بحث آخر استتبعه تاريخ الحركة القومية ، وهو دراسة نظم الحكم التي تخللت أدوارها ، وذلك أن سياسة الحكم وأساليبه كانت في مختلف العصور والبلدان من الأسباب الرئيسة لظهور الانقلاب والحركات القومية ، كما أن لهذه الحركات أثرا فعالا في تطور نظام الحكم . لذلك جعلت دراسة نظم الحكم في مصر وتطورها قسما من أقسام الكتاب » .

هذه هي أغراض مؤلفنا الجليل التي عرض لها ووقف درسه عليها ، وقد مهد لعمله هذا « بدراسة الحركات القومية في أوربا وأمريكا للوقوف على ما بها من حقائق وعظات وما بينها وبين حركتنا القومية من ملابسات ومشابهات » . ثم أنشأ يعمل بطريقته الفريدة في الاستيعاب والتحقيق والتحليل وإيراد الحجج الدامغة ؛ فأفرد الجزء الأول لدراسة الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث ومبدأ ظهورها ، وبسط الكلام في بيان هذه الحقيقة وشرحها . وتناول في الجزء الثاني الكلام عن إعادة الديوان في عهد نابليون ونظامه وحوادث المقاومة الشعبية ، وما ترادف بعد ذلك

من حوادث إلى جلاء الفرنسيين عن البلاد ؛ وترجم فى هذا الجزء لزعماء الشعب فى هذا العصر مبتدئا بالسيد عمر مكرم الذى كان أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية ، وتحدث عن ظهور محمد على وثورة الشعب على حكم المماليك وعلى الوالى التركى . ثم أفرد الجزء الثالث لتاريخ مصر فى عهد محمد على ، وفصّل القول عن هذا العهد الزاخر بالأحداث تفصيلا .

وعقد الجزءين الرابع والخامس لتأريخ عصر اسماعيل وما جرى فيه من أحداث كبار لا تزال آثار بعضها باقية إلى يومنا ، وجعل السادس للثورة العرابية ، وأرخ فى السابع الفترة التى أصيبت فيها الحركة القومية بالجمود والخذلان ، إلى أن بعثها الزعيم الشاب مصطفى كامل ؛ وبعد أن انتهى من ذلك كله أخذ يؤرخ لزعيميه مصطفى كامل ومحمد فريد ، فأنشأ لكل زعيم كتابا ضخما ؛ ثم اتجه إلى تاريخ (ثورة سنة ١٩١٩) التى تجلى فيها أكبر جهاد نهضت به البلاد فى العصر الحديث ؛ وخرج من هذا التاريخ إلى وصف ما جاء (فى أعقاب) هذه الثورة وهو ما طوى عليه الجزء الثانى عشر الذى نتكلم عنه اليوم .

لم نستطع أن نتوسع فى بيان ما اشتملت عليه الأجزاء الضخمة التى صدرت من هذه الملحمة التاريخية الكبرى ، لضيق المقام ، واكتفينا بالإشارة إليها ، ولهذا نرانا مضطرين إلى إيجاز القول عن هذا الجزء الذى نحن بصدده .

كسر مؤلفنا الجليل هذا الكتاب الكبير على فصول عدة ، تناول فيها حضرة المؤلف الكلام عن الانقسام الداخلى الذى تصدعت به وحدة البلاد فى سنة ١٩٢١ ، والموقف السياسى بعد قطع مفاوضات عدلى ، وتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ووزارات ثروت الأولى والثانية ونسيم وسعد وزيور والوزارات الائتلافية ؛ ثم عمل مصر فى مؤتمر لوزان ، والدستور والبرلمان الأول والانقلاب الأول ، واجتماع البرلمان من تلقاء نفسه ، وعودة الحياة الدستورية ؛ ثم ختم الكتاب بفصلين عظيمين عن شخصية سعد والدستور والحكم المطلق ثم الوثائق التاريخية ؛ ولا نستطيع فى هذه الكلمة أن نبين فضل هذه الملحمة التاريخية التى أصبحت بين الهيئات العلمية المصدر الوثيق لتاريخ جهادنا القومى وكفاحنا الوطنى ، وكيف كان نظام الحكم فى العصر الحديث .

ولا جرم أن ذلك كله مما يجب على كل وطنى دراسته لكى يعرف مبلغ جهاد أمته ومقدار ما بذلت فى سبيل استقلالها وحريتها .

ويحسن أن أقول إنه لا يقدر هذه الملحمة قدرها إلا من يقف عليها ويدرسها . ولا يعرف فضل مؤلفها إلا من أدرك كيف عانى فى سبيل وضعها ، وكم من مئات الأسفار والمصادر قد اطلع عليها قبل تأليفها . وكم بذل من مال وغير ليخرجها إلى الناس فى هذا الثوب الرشيق والطبع الأنيق .

جزى الله مؤلفنا الجليل على ما قدم — وما سيقدم — للعلم والتاريخ والوطن خير الجزاء .

محمود أبو رية

بين المسموع والمقروء

الحرية وراء القضبان

الحرية أثمن شيء في الحياة ، وهذه حقيقة لا أظن أن أحداً يجادل فيها . فإن جادل فما عليَّ إلا أن أحيله إلى ما يصنع الناس بالناس ، إذا آذى بعضهم بعضا . إنه عندما يبلغ الأذى أشده ، تبلغ العقوبة أشدها ، فيُحكَم على صاحب الأذى بالموت . فإذا لم يبلغ أذاه النهاية ، نزلوا بالعقوبة درجة ، فحكموا عليه بالسجن إلى الأبد . والعقوبة الأولى سلب الحياة ، والعقوبة الثانية سلب الحرية . فالحرية تأتي من حيث الأشياء القيمة التي يمكن انتزاعها من الإنسان في المقام الثاني بعد الحياة .

على أن كثيراً من الناس ذوي المزاج الرقيق ، إذا حُكم عليهم بالسجن المؤبد ، آثروا عليه بطن الأرض المؤبد ... آثروا الموت ، لأنهم في الموت يكونون على حال لا يفتقدون معها الحرية ، ولا يطلبون نسائمها وهي تتأبى عليهم من وراء الحوائط العالية ، ومن بين القضبان وهي من حديد .

ولقدم هذه العقوبة ، عقوبة السجن ، لا أكاد أدفع الإغراء بأن أقول : إن الإنسان لا بد فطن لقيمة هذه الحرية من قديم الزمان أيضا . لهذا سبق إلى سلبها ، أثمنَ ما يسلب أخاه الإنسان من شيء .

ولقد حاول الأحدثون أن يخففوا من وطأة السجن عما يدخلون على أصحابه من رفه ! فالحزانة الفسيحة ، والسرير الوثير ، والطعام الشهي . ومن الأمم من أدخل حتى الموسيقى تأتي السجناء على أجنحة الهواء ، بالراديو ، فلا يمنعها حائط أو قضيب .

ولكن السجن سجن ولو كان في قصر .

ولقد فطنت إلى ذلك أمة من الأمم ، رأت أن إزالة أسواء السَّجون ليس بتطرية الطعام ، ولا إساغة الشراب ، ولا توثير الفراش ، ولكن بإعطاء السجناء قدرا كبيرا من الحرية ، كالذي يكون للناس في إصباحهم وإمسائهم ، وعند مباشرتهم شئون الحياة . حتى الخروج من السجن مؤقتا يكون عند ما تتطلبه الحاجة .

مثال ذلك : رجل سجين تريد أسرته أن يخرج بها للنزهة يوما . فما عليه إلا أن يستأذن أرباب السلطان في السجن ، فما أسرع ما تأتي الموافقة . فيخرج مع الأسرة الكريمة حيث شاء ، فيأكلون ، ويشربون ، ويتأملون ، وتدق في المساء الساعة الخامسة ، فتسمعها ابنته بين السامعين والسامعات ، فتصيح بأمها : إن الساعة تقول إن زيارتنا لأبينا قد فرغت لهذا الأسبوع ، فهيا بنا نتمشى معه إلى باب السجن . وإلى باب السجن يبلغون ، فيودع بعضهم بعضا . ولكنه وداع من سيلتقون بعد حين .

وللسجين أن يدعو الضيوف أن تحلَّ عليه في السجن ، وأن تبيت ، وأولو الأمر يجيبون دائما ، ما كانت الضيفة الزوجة ، وهم ينظرون في أمر غيرها من الأضياف .

وتبيح إدارة السُّجون لنزلائها — وأظن أن نزلاء لفظة أرق تليق بهذا الجو الذي نصف — تبيح الإدارة لنزلاء أن يمارسوا الصناعة التي كانوا يمارسونها وهم طلقاء ، فالنجّار يمارس نجارته ، والحدّاد حدادته ، وهلم جرًّا . والقانون القائم يحميهم أن يُستغَلّوا ، فيضمن لهؤلاء الأجر الأدنى الذي يضمنه لكل عامل ، أين كان ، وأي هواء تنفس .

وتسأل : فماذا يصنع النزيل إذا كان عمله في الحياة تجارة أو عطارة أو نحوها ؟

فأقول : الأمر هين جداً . فهو يستطيع أن يمارس هذه الصناعات أيضا . ومن هؤلاء رجل فتح دكان بقّال ... نعم في السجن . فني السجون شارع أُبِيدَ خصيصاً لهذا

كشوارع المدينة . وأهل المدينة يأتون للشراء منه . وأول هؤلاء الأهل والأقارب والأعزاء . إنهـا فرصة اللقاء الطيبة . ويأتى غيرهم من غير الأقارب والأعزة ، يغريهم انخفاض الأثمان ، وأن أصحاب هذه الدكاكين أقل جشعا وأتق ضمائر وأقل سرقة من أصحاب دكاكين لا تحيطها الحوائط والأسوار .

ويباهى التجار بما يصنعون ، وترى هذه المباهاة فيما يكتبون على دكاكينهم من دعايات . كتب أحدهم على باب دكانه : « إذا أنت لم ترض ، فمالك مردود » . وكتب آخر « عشر سنوات لم يَشْتَكِ فيها منا أحد » .

وفى هذا الشارع تجد دكان القبعات ، إلى جانب دكان الحلاق ، إلى جانب الحذاء ، وقد كتب على بابه « نصنع الأحذية ونرقعها » . ورغم أنه فى السجن ، فصناعته للأحذية أكثر من رقعها ، والأمر فى المدينة عكس ذلك .

وقد يوجد فى أحد هذه السجون محام — وأنا أقدم اعتذارا طويلا عريضا لقرائى عن هذا الفرض الذى إن أمكن فهو غير محتمل أصلا — أقول إن كان فى هـذه السجون محام ، فهو لا يعدم الوسيلة إلى الترويح عن نفسه بالعمل . وقد خان أحد هؤلاء الحظ ، فما حلّ هذه الساحة الكريمة حتى قام يكتب للأميين من الساجنين ما يريدون أن يرسلوه من خطابات إلى أهلهم . وهو يكتب كذلك كل ما يريدون أن يرسلوه من شكاوى إلى السلطات وإلى المحاكم . كتب أحد هؤلاء المحامين على باب مكتبه : « الوقت من ذهب ، فلا تضيع وقتى » . وكان هذا المحامى النابغة لا يعرف الاستعارة فى اللغات .

ومما يُضفى على هذه السجون جوَّ الأسرة منظر البنين والبنات يروحون فيه إلى المدارس ويغدون ، فى صحبة أمهاتهم ... السجينات . فإنه إذا حكم على أم بالسجن لم تحرم من أولادها ، فهى تأخذهم معها ، وإدارة السجن تهيئ لهم حياة كحياة كانت لهم من قبل . فالتعليم يُؤدَّى ، والغذاء والملبس ، واللعب لا بد منه أيضا .

والعمال فى هذه السجون أن يؤلفوا النقابات ، وللنقابة حق المفاوضة مع أهل السلطان كما لكل نقابة لإنهاء أى خصومة . وهم يعملون لتحسين أحوال السجن ؛ ولآرائهم عند من يزنون الآراء وزن كبير .

ويقضى قانون السجون بتلك الأمة أن الذى يكسبه نزيل السجن من ممارسة صناعة أو تجارة ، يذهب أربعون فى المائة منه إلى من أساء إليهم هذا النزيل فحكم عليه بالسجن من أجل هـذه الإساءة . أما الستون الباقية ، فثلاثون منها تذهب إلى أهله ، والثلاثون الباقية تُدَّخَر له . وإذا حُكم على النزيل بالسجن المؤبد بسبب قتل ، ظل يدفع إلى أهل القتيل معاشا هو نصف ما يكسبه طول الحياة .

ويخرج النزيل بعد وفاء مدته وهو أكثر تثقفا ، لحضور المدرسة من فروض السجن . والذين لا يعرفون الكتابة يتعلمونها فيه والمثقفون يعلَّمون ، وعلى تعليمهم يؤجرون .

بقى سؤال لا بد هو حائر يريد مخرجا : فى أى بقعة من الأرض تكون هذه الأمة ؟

إنها المكسيك .

قال أحد زوارها من الأمريكان : لقـد تقدمنا نحن الأمريكان فى حسن تصميم السجون وتنسيقها ، أما من حيث القيم الإنسانية فبق لدينا الكثير الذى نقتبسه من وراء حدودنا . يعنى المكسيك .

وبالطبع لا يفيد علم مكان هـذه السجون السجناء ، فى مصر أو فى غير مصر ، إلا أن تصبح السجون دولية . ويصبح بينها جوازات سفر . ودون هذا الوقت الطويل . على أنه لا حياة إلا مع الأمل .

أحمد زكى

وحدة وادى النيل

سحر الشرقَ صدى ألحانها
وكوى الغربَ لظى نيرانها

وحدة النيل تعالى صوتها
كالجبال الشم فى وجدانها

وحّد الله حماها مثلما
وحد النيل ذرى شطآنها

مصر والسودان شعب واحد
ويدٌ لا شك فى سلطانها

تقهر الجبار مهما غره
قوة حمقاء فى عدوانها

ليس للسودان إلا مصره
ولمصر الحق فى سودانها

يادعاةً لانفصال جائر
كيف فصل العين عن إنسانها

نحن من بيض وسمر كالظبا
وجياد السبق فى ميدانها

جمعتنا روضة واحدة
فاح طيب النصر من ريحانها

وحدتنا من قديم لغة
كوضوح الشمس فى تبيانها

ولنا دين يؤاخى أمة
بالهدى والطهر فى إيمانها

وصلات أنشأ التاريخ فى
ظلها ننهل من شريانها

استوى الغابر والحاضر وال
قابل المشهود من أعوانها

ولنا النيل حبانا جنة
يترق «التاميز» فى خلجانها !!

ولنا الفاروق يعلو تاجه
أمم العالم فى تيجانها

هو كالنسر جناحاه حمى
مصر والخفاق من سودانها !

كيف لا اصرع أعداء الحمى
وسنجنى النصر من خذلانها ؟

ولنا القوة والحق معا
وأمانى مصر فى ريعانها !

صوتها فى «مجلس الأمن» له
قوة ترنو إلى أقرانها

وحدة تعبر لجًّا حالكا
سدد الله خطى ربانها !

أحمد أحمد العجمى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٦٠ | الثلاثاء ٧ من ذى الحجة سنة ١٣٦٦ — ٢١ من أكتوبر سنة ١٩٤٧ | السنة التاسعة

قضية فلسطين فى مرحلتها الحاسمة

ما أجدرنا اليوم أن نوجه كل جهودنا وتفكيرنا إلى قضية فلسطين ، وألا يشغلنا عن ذلك أمر من الأمور ، مهما جل وعظم . فإن أقل تقصير أو تراخ فى شأن هذه القضية اليوم ، جدير أن يجر على العالم مشاكل وكوارث تعانيها الأجيال دهراً طويلا ، فإن برنامج الصهيونيين كبرنامج هتلر ليس سراً مكتوما ، بل امتلأت به كتاباتهم وأقوالهم . وهو برنامج استعمارى صريح ، يشمل العالم العربى من الفرات إلى النيل . وليس الاستيلاء على جزء من فلسطين سوى الخطوة الأولى التى تمكنهم من الوثوب مراراً لتحقيق سائر الخطوات . وهذا الأمر يدركه الصهيونيون مع الأسف أكثر مما يدركه أبناء البلاد العربية ، ولذلك تراهم يبذلون الجهود الجبارة اليوم لتحقيق تلك الخطوة الأولى ، ولا يدخرون فى سبيل ذلك مالا أو جهدا أو تضحية مهما جلت .

دخلت قضية فلسطين مرحلتها الحاسمة ، يوم أن تقدم الإنجليز إلى هيئة الأمم المتحدة يلتمسون منها حلا يخرجهم من الورطة التى أوقعوا أنفسهم فيها . واختارت تلك الهيئة لجنة تحقيق ، لم تلبث أن تعرضت لضغط الصهيونيين وتهويشهم ، وأكاذيبهم وتضليلهم . وأصدرت تلك اللجنة تقريراً لا يمكن أن يصدر إلا من جماعة قد اضطربت عقولها ، واختل تفكيرها ، أو فسدت ذممها ، وماتت ضمائرها . ونحن لا ندرى أى هذين الاحتمالين أدنى إلى الحقيقة ، ولكن ليس من شك فى أن هذه التوصيات لا يمكن أن يمليها العقل أو الضمير السليم .

فقد أوصت تلك اللجنة بتمزيق أوصال فلسطين ، وتقسيمها بين العرب والصهيونيين ، وغلت حتى فى هذه الفكرة الطائشة الجنونية غلوا يحقق أبعد ما يحلم به الصهيونيون من الآمال . فقد أوصت بأن يمنحوا ٦٢ ٪ من أرض فلسطين ، وأن يكون هذا الوطن الصهيونى مشتملا على أغنى بقاع فلسطين ، وعلى الأقاليم الساحلية كلها ؛ عدا جزءاً ضيقاً فى الجنوب تركوه للعرب ، وبينما الوطن الصهيونى المقترح كتلة متلاصقة من الأراضى الغنية ، نرى الوطن العربى الضئيل مقسما إلى ثلاثة أقسام أكثرها فى الأقاليم الجبلية الداخلية ، ذات التربة الفقيرة ، وهذه الأقسام الثلاثة ، تتصل بدهاليز ضيقة تخترق القطر الصهيونى ، ورأت تلك اللجنة العجيبة أن من المناسب أن تترك فى هذا القطر الصهيونى نصف مليون من العرب ، لكى يكونوا رعايا الدولة الصهيونية ، ولم تتورع تلك اللجنة من أن تضم إلى ذلك القطر الصهيونى مدينة يافا ، وهى

أعظم المدن العربية ومركز من أهم مراكز الحركة الوطنية الفلسطينية .

هذه خلاصة التوصيات التي سولت لأغلبية اللجنة نفوسهم أن يتقدموا بها إلى المقام الأسمى لهيئة الأمم المتحدة ، التي تعقد اجتماعاتها اليوم في ولاية نيويورك ، مركز القيادة العليا للصهيونيين ، ومبعث نفوذهم ونفوذهم ، وأخذت كل دولة تدلي برأيها في تلك التوصيات بما يلائم ميولها ونزعاتها ، وما قد تجنيه من غنم أو تكتسبه من نفوذ .

فأما السياسة البريطانية فلاشك أنها ارتاعت لتوصيات لجنة التحقيق . فإن في خلق دولة صهيونية تمكينا للنفوذ السياسي الأمريكي من التوغل في الشرق الأوسط ، بعد أن كان هذا النفوذ مقصورا على المسائل الاقتصادية ، مثل التكالب على البترول . ولذلك بادر مندوبها بأن أنذر بأن بريطانيا لن تقبل البقاء في فلسطين إذا لم توفق الأمم المتحدة إلى حل يقبله اليهود والعرب ، فإذا عجزت عن ابتكار حل كهذا ، فإن بريطانيا ستسحب قواتها العسكرية كلها من فلسطين .

كانت بريطانيا ترجو بعد أن أدلت بتصريح خطير كهذا أن تعيره حكومة الولايات المتحدة بعض الاهتمام ، وأن تبدي عطفها على ما قاسته بريطانيا في فلسطين من المحن والآلام . فلا تبدي موافقتها على سياسة التقسيم ، لأن معنى هذا أن أمريكا لا ترى بأسا في أن تنسحب بريطانيا ، وأن تخرج من فلسطين بجيوشها وطائراتها وسفنها وأن تذهب إلى غير رجعة .

لم تعبأ الولايات المتحدة بشعور صديقتها وحليفتها ، ووقف المندوب الأمريكي ، في غير حياء ولا خجل ، ينادي بأن دولته تؤيد مشروع التقسيم ، وترى أنه حل عادل لقضية فلسطين ، وأن من الواجب أن يظل البريطانيون هناك يحافظون على الأمن حتى يتسنى لهيئة الأمم المتحدة أن تؤلف قوة دولية من المتطوعين لكي تتسلم الأمن والنظام من البريطانيين .

كان الخطاب الأمريكي تأييدا خالصا للمشروع الصهيوني ، ولم يحاول المتكلم أن يلطف من حدة تقرير اللجنة إلا فيما يختص بمدينة يافا العربية التي لم يستطع حتى الضمير الأمريكي أن يهضم ضمها إلى القطر الصهيوني . ولكن السياسة الأمريكية أدلت ببدعة جديدة لا شك أن الذكاء الأمريكي يهنئ نفسه على ابتكارها . ألا وهي تلك القوة الدولية التي تتسلم السلطة في فلسطين ، وهي قوة تؤلف على مبدأ التطوع . فأي تطوع هذا الذي يريده الأمريكيون ؟ هل يسمح فيه بتطوع اليهود الصهيونيين ؟ وماذا يكون موقف أمريكا إذا « تطوع » مليون من الروس في هذه القوة الدولية ؟ وماذا يكون الجواب إذا تطوع مليون آخر من أبناء مصر والعراق وسائر الأقطار العربية ؟ وعلى فرض أن العرب واليهود سيحرمون هذا التطوع ، وأنه سيسمح بالتطوع فقط بنسبة عدد سكان كل دولة من الأمم المتحدة ، فهل استطاع الذكاء الأمريكي أن يدرك أن روسيا وأنصارها في شرق أوربا سيكون متطوعوها أكثر عددا من كل دول أمريكا مجتمعة ؟ .

الراجح أن الذكاء الأمريكي لم يدرك شيئا من هذا . ولكن روسيا لم تلبث أن أدركت أن فرصتها قد سنحت وأن الأمر الوحيد الذي يضمن لها التدخل المباشر في الشرق الأوسط – وفي أشد الأقطار العربية خطرا ، وهو فلسطين – أن تقف من فكرة التقسيم موقف المؤيد الناصر . لأن هذا يضمن لها ولجيوشها الاشتراك المباشر في كل حل لقضية فلسطين يتطلب استخدام القوة ، وسيكون لروسيا وأنصارها في هذه القوة نصيب الأسد . والروس أذكى عقلا وأدق إدراكا من أن يتوهموا أن لهذه القوة وظيفة مؤقتة تنتهي بعد عدد قليل من السنين . فإن حالة الأمن والنظام بعد التقسيم ستتطلب حتما بقاء هؤلاء

« المتطوعين » ردحا من الزمن أطول بكثير مما يتوهمه ساسة أمريكا ، الذين لا يزالون فى حالة من الغفلة وقلة النضج تستدعى الرثاء .

وقد اغتبط الأمريكيون بتأييد الروس لفكرة التقسيم ، ولكن المندوب الروسى لم يذهب فى تأييده إلا إلى مدى محدود . فقد انتقد التوصيات فى تفاصيلها . وحفظ لروسيا حقها فى إبداء رأيها فى الوقت المناسب فى معظم المسائل التى اشتمل عليها تقرير اللجنة .

لا شك أن موقف كل من أمريكا وروسيا قد أملته الشهوات الاستعمارية ، والرغبة فى إخراج الإنجليز من فلسطين . وامتداد النفوذ إلى قلب الشرق الأوسط وإلى ركن خطير من أركان البحر المتوسط ، حيث تلتقى طرق الملاحة والخطوط الجوية ، وحيث المخارج الرئيسية لأعظم موارد البترول فى العالم . ولئن أتيح لروس أن يرسلوا « متطوعيهم » إلى هذه البقعة ذات الخطر الجسيم ، فإن من السذاجة المشرفة على البلاهة أن يتوهم إنسان أن فى العالم قوة سوى الحرب الشعواء تستطيع إخراجهم منها .

فى هذا الجو الذى سادته الشهوات الجامحة ، وقف مندوبو الدول العربية يدلون بحججهم ، ويفندون أقوال الطغاة ، التى أملاها الجشع والغباء . ولا شك أن أقوالهم قد ظفرت بنصيب وافر من الإعجاب ، ولكنها لم تظفر بما تستحقه من التأييد . ومن أهم البيانات التى أدلت بها الوفود العربية ، إعلانها أن هيئة الأمم المتحدة ليس لها الحق فى أن تصدر حكما بتقسيم قطر من الأقطار . وأن الميثاق نفسه لا يخولها مثل هذا الحق .

وهنالك حجج أخرى كان يرجى لها أن تنال التأييد الكامل من أكثر الوفود ، لو أن هذه الوفود كانت تتوخى العدل ، وتصدر فى أعمالها عن رأى منزه عن الغرض . ولكن وفود الأمم المتحدة مع الأسف الشديد ، يجرى بعضها فى ركاب بعض . ويمشى بعضها وراء بعض حذوك

النعل بالنعل . ولذلك لم يكن هنالك بد من أن تتخذ الدول العربية إجراء حاسماً بصون حقوقها ، وتثبت للعالم أنها ليست عابثة عندما تنادى بأنها لن تقبل تمزيق الوطن العربى ، وإقامة دولة صهيونية فى أرض فلسطين . .

إن مشروع التقسيم لا يمكن أن يفرض إلا بالقوة ، ولا يمكن أن يتم إلا بعد سفك دماء الآلاف المؤلفة من عرب فلسطين . وليس من العقل أن ينتظر العرب حتى تسفك دماؤهم ، أو حتى ينزل المحظور ، ويتعذر درء الخطار . وما دامت التضحية بالنفس والمال خطة لا مفر منها ، فما أجدر الدول العربية أن تبادر منذ الآن باتخاذ الأهبة لها . . . لذلك لم يكن مستغرباً أن يعقد مجلس جامعة الدول العربية اجتماعه الخطير فى لبنان ، وأن يتخذ فى يوم الخميس ٩ أكتوبر هذه القرارات الثلاثة الخطيرة :

أولا : أن قرارات مؤتمر بلودان السرية لا تزال قائمة ، واجبة التنفيذ فى حالة تطبيق أى حل من شأنه أن يضر بحق فلسطين فى أن تكون دولة عربية مستقلة .

ثانيا : بالنسبة لما قررته الحكومة البريطانية من عزمها الانسحاب من فلسطين ، ونظراً لوجود القوات الصهيونية ومنظماتها الإرهابية التى تهدد سلامة العرب فى فلسطين ، يرى المجلس أن يوصى حكومات الدول العربية بأن تبادر باتخاذ احتياطات عسكرية على حدود فلسطين .

ثالثا : يوصى المجلس ، تنفيذاً للقرارات السابقة ، بأداء المعاونة الفعلية لعرب فلسطين ، حكومات دول الجامعة بالمبادرة إلى أداء المساعدات المادية والمعنوية للعرب فى فلسطين وتقويتهم وتعضيدهم للدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم ، وأن ترصد فوراً دول الجامعة الأموال اللازمة لذلك .

هذه القرارات التى اتخذها مجلس الجامعة ليست سوى توصيات ، ومن المهم أن تبادر حكومات الدول العربية إلى إعلان موافقتها التامة عليها ، وأن تتخذ الخطوات اللازمة لتنفيذها .

وهنالك احتمالات عديدة لا بد للدول العربية أن تحسب لها حسابها . فمن الجائز ألا تكون بريطانيا جادة فى قرارها الانسحاب من فلسطين . ومن الجائز أن تخضع لرغبات أمريكا فتظل مرابطة فى فلسطين إلى أن تجىء تلك الجيوش « المتطوعة » التى اقترحها المندوب الأمريكى . وليس من العقل ولا من الحزم أن تنتظر البلاد العربية حتى تجىء هذه الجيوش الدولية . وهى فى الغالب ستكون أوفر عدة وأكثر عدداً من الجيش البريطانى الذى يرابط فى فلسطين اليوم . وليس من الضرورى ، بل لعله من الخطأ ، أن تعلن الدول العربية الحرب على دولة من الدول ، أو على تلك الجيوش الدولية بغرض تكوينها . ومن الممكن لشباب العرب أن يجاهد من أجل فلسطين دون إعلان حرب رسمية . فقد استطاعت كل من إيطاليا وألمانيا أن تحارب بقواتها فى أسبانيا دون أن تكون مشتركة فى أية حرب بصفة رسمية .

من أجل هذا كان القرار الثالث الذى أصدره مجلس الجامعة ، ببذل « المساعدات المادية والمعنوية لعرب فلسطين وتقويتهم وتعضيدهم للدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم » من أهم القرارات ، وأجدرها بأن يحتل المكان الأول من عناية الدول العربية .

إن كلا من القوات الصهيونية والعربية له نواح من القوة والضعف ، فللصهيونيين جيش منظم قوامه نحو ثمانين ألفا من الجنود المنظمة . وكثير منها قد مارس الحرب فى بعض الميادين . ولكن أكبر نقطة ضعف فى الصهيونية منشآتها ومستعمراتها المبعثرة فى جميع أنحاء فلسطين ، فإن الدفاع عنها ستطلب مجهوداً كبيراً يستنفد الشطر الأعظم من القوات الصهيونية .

أما القوات العربية فينقصها التنظيم والتسليح والتدريب . وواجب الدول العربية الأول أن تبادر فتسد هذا النقص . وليست العبرة فى الحروب الحديثة بكثرة العدد ووفرة المحاربين ، بل العبرة فى الأسلحة والعتاد والقدرة على استخدامه . وفى الأقطار العربية المجاورة لفلسطين ميادين يستطيع الشباب الفلسطينى أن يتدرب فيها بعيدا عن رقابة الصهيونية ودولة الانتداب .

ولئن رضيت بريطانيا أن ترجىء انسحابها من فلسطين فإن هذا لن يجديها نفعا ، لأنه إذا اصطدمت القوات العربية والصهيونية ، فإن السلطات البريطانية ستقع فى ارتباك شديد . وقد أثبتت عجزها مرارا عن كبح جماح القوات الإرهابية . وسيزداد عجزها ظهورا إذا اشتبك الفريق العربى والصهيونى فى قتال مستمر . وقد يترتب على هذا الارتباك نتائج لا تجد الدول العربية معها مناصا من أن تتخذ إجراءً تساهم به فى المحافظة على الأرواح العربية .

إن قرارات مجلس الجامعة على أكبر جانب من الخطر ؛ وجدير بحكومات الجامعة أن تبادر فتتخذ عدتها لما تفرضه عليها هذه القرارات من خطط سريعة حازمة ، حرصاً على كيانها ، ودرءا لما ينطوى عليه الخطر الصهيونى من الويلات للعالم العربى بأسره .

محمد عوض محمد

إلى الله أشكو

إلى الله أشكو « الكوليرا » ، فقد روعت مصر وما حولها ، واستنفدت من مالها ومجهودها ما لو أنفق فى وجوه الإصلاح لأتى بالخير الكثير ، وأزهقت أرواحا عزيزة ، وطحنت نفوسا كريمة ، وأصابت التجارة فكسدت ، والأسواق فشلت ، وزادت الفقير فقرا ، والبائس بؤسا ، فكم من صانع بارت صناعته ، ومحترف ركدت حرفته .

عدو ثقيل بغيض لئيم ، يحارب فى الخفاء ، ولا يجرؤ على الظهور ، ويتنقل الناس فيفترسهم ، ويتنقل كالهواء فيفتك بهم ، ويعمل فى صمت ما لا تعمل القنابل الدوية والطيارات المدمرة ، ويتوالد بالملايين ، ويتكاثر ما لا تتكاثر جيوش الأمم القوية ، والهالات المشيدة ، ويتسلح بالكتمان ، ويصيب فى الصميم .

فاسد الذوق ، يتخير أسوأ الأوقات فيفزع الناس بزيارته ، فالناس فى مصر لم يرتاحوا مما غشيهم من حرب ، وهم فى شغل شاغل بما أفسدته الحرب ، وهم فى قلق واضطراب مما خلفته الحرب — قد لجأوا إلى ما يسمونه مجلس الأمن ، فإذا هو خلو من كل أمن ، وإلى ما يصفونه بأنه واضع مبادىء العالم الجديد ، فإذا هو مدعم لنظام العالم القديم ، فلما بدأ الناس يفكرون فيما صنع الظالمون ، وكيف يدفعون العدوان ، زارهم هذا الزائر الكريه فشغلهم ، فكان هو ومجلس الأمن وبالا عليهم .

فإلى الله أشكو .

* * *

وإلى الله أشكو « الإنجليز » ، فقد أقلقوا راحتنا ، وأفسدوا حياتنا ، ووقفونا خمسة وستين عاما موقف الجهاد لا نستطيع أن نفرغ لإصلاح حالنا ، وترقية شئوننا — وطلعوا على العالم العربى بما سموه « وعد بلفور » أرادوا أن يهبوا به بلدا ليس ملكهم ، ويستغلوا به قوة على حساب غيرهم ، فخلقوا به مشكلة زعموا بعد أنهم عاجزون عن حلها ، وعاشوا مع الذئب ، وبكوا مع الراعى ، وتفننوا مع أهله كل فن ، فإذا ثار العرب أيدوهم ، وإذا ثار اليهود صانعوهم ، ونادوا بالعطف على العرب ، ونادوا بالعطف على اليهود ، وقالوا بالتقسيم ، وقالوا بعدم التقسيم ، وشجعوا هجرة اليهود ، ومنعوا هجرة اليهود ، ورشوا الماء على النار من فوق ، وأشعلوها من تحت ، حتى إذا صارت بركانا قالوا إنا برآء من كل ذلك ، وهيا بنا إلى الجلاء .

فإلى الله أشكو .

* * *

وإلى الله أشكو الأمريكيين ، فقد بشروا العالم بمبادىء الإنسانية والعدالة والنبل على لسان ولسن وروزفلت ، وبشروا الناس بالخير العميم فى العالم الجديد ، وقالوا إنهم لم يدخلوا الحروب لجر مغنم ، أو دفع مغرم ، وإنما دخلوها لنصرة العدل وتحقيق الحق ، وإنهم لما ملكوا القنبلة الذرية فسيخيفون بها الظالم ، ويؤيدون بها العادل .

فلما جد الجد ، لم نر عدلا يتحقق ، ولا ظلما يرفع ، ولكن بهلوانا يلعب ، ورأينا هيئة الأمم كعصبة الأمم ، تحترم الأمم القوية ، ولا ترحم الأمم الضعيفة ، وتمد القوى الظالم ، ولا تنصف الضعيف العادل ، ورأيناها شر أنواع المحاكم ، تشيع فيها الفوضى ، ويطول فيها الجدل ، وتسلك سبيل المحاباة ، وتكثر بين قضاتها الرشوة ، لا رشوة المال ولكن رشوة المصالح القومية — وكل سواء — وتحكم الأحكام المتناقضة فى المسائل المتشابهة ، فروسيا تخرج من إيران ، ولكن الإنجليز لا يخرجون من مصر ، ولكل أمة الحق فى تقرير مصيرها ، ولكن مصر لا حق لها فى تقرير

مصيرها ، ويهود العالم لا يوزعون على أستراليا الواسعة ، ولا أمريكا الطويلة العريضة ، ولكن يصدون إلى أمة صغيرة المساحة ، قليلة العدد ، في قلب جماعة منسجمة متلائمة ، متشابهة في الأوضاع والتقاليد ، فيحكمون بهجرة يهود العالم إليها ، وتقسيمها على الرغم من أهلها ، وتأييد الناصبين في غصبها — وبعد ذلك لا يخجلون من أن يتشدقوا بأنهم دعاة الديمقراطية ، وأنصار الديمقراطية ، كأن للديمقراطية معاني تختلف من بلد إلى بلد ، فتفسر حيناً بالحرية ، وحيناً بالاستبداد ، ومرة بالعدل ، ومرة بالعسف ، كالذي نسميه في لغتنا بأسماء الأضداد يطلق على الشيء ونقيضه .

فإلى الله أشكو .

•••

وإلى الله أشكو الفرنسيين في بلاد المغرب ، فقد اتخذوا أنفسهم آلهة ، واتخذوا أهل البلاد عبيداً ، فإن تواضعوا فهم الأناسي وغيرهم البهائم ، أطايب المائدة لهم وفتاتها لغيرهم ، قد وضعوا سكان البلاد في سجن ، ووقفوا بسيوفهم حرساً عليه ، وفي الوقت الذي تحرر فيه السجون تضيق الحرية على هذا السجن ، فلا نور يضيئه ، ولا علم يصل إليه ، وليس يسمح أن يتصل داخل بخارج ، ولا خارج بداخل ، وويل لمن شعر فيه بأنه إنسان ، وأشد الويل لمن قال إنه إنسان . ولئن كان حراس السجون يتمنون الجرعة أن تقصد الفضيلة ، فهؤلاء يتمنون الفضيلة أن تتعاون مع الفضيلة — قد تواطئوا مع أمثالهم من دعاة الديمقراطية والحرية والعدالة ؛ فإذا أعلن هؤلاء حقوق الإنسان تحفظوا فقالوا إن الشرقي ليس إنساناً له حقوق ، وإذا وضع هؤلاء ميثاق الأطلنطي ونادوا بحرية الأمم وتقرير المصير استثنوا العالم العربي ، وعدوه خارجاً من أن يناله التطبيق ، ثم تآمروا جميعاً على أن قتيل المغرب من فرنسا لا يذكر على لسان في إنجلترا وأمريكا ، كما أن قتيل مصر لا يذكر على لسان في فرنسا ، فإن ذكر هؤلاء وهؤلاء من القتلى قيل أنهم قتلة لا قتلى ، كما تواطئوا على إفساد المنطق ، فالحكم الذي يصدر على سوريا ولبنان يصدر عكسه على مصر والمغرب وإن اتفقت الدعويان ، فإلى الله أشكو .

وكم أشكو وكم أشكو ، ولله سنة في إضياع الشكوى من المظلوم متى سار على سنن قول الشاعر :

متى تجمع القلب الذكي وصارما
وأنفا حميا تجتنبك المظالم

ولله سنة في الانتقام من الظالم على مبدأ : « إن الله ليمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

أحمد أمين

إلى من يلزمهم من مصريين وانجليز:

مخاصم!

هل يستطيع أحد أن يؤكد لي أن هناك فرقاً بين الأطفال والكبار في الطبائع؟ هذا سؤال لا أنتظر عليه جوابا، لأن الجواب عندي مؤكد، لا حاجة لي معه إلى استشارة. فالكثير من الرجال ليسوا سوى أطفال كبار. هذه حكمة تعلمتها من تأمل الناس مدة تزيد على نصف قرن، ولا أظن أن مثل هذا التأمل قد أتيح لكثير من علماء النفس.

كثير من الرجال أطفال كبار في كل ما يتصل بجوهر الحياة الإنسانية، فهم يحبون الحلوى، وتأخذ بأبصارهم اللعب البراقة، ويتقلبون مع الأهواء، الخ الخ. على أن بعض الرجال يزيدون على الأطفال بصفة خاصة، وهي قلة البراءة. فليس هناك إلا فرق واحد بين الأطفال والكبار، وذلك أن الطفل الصغير غر، لا يعرف من أمور الحياة إلا القليل، فهو يقنع من الحلوى بقطعة من الشكولاتة، في حين أن الكبار الذين جربوا صنوف الحلوى المختلفة اختلافاً كبيراً، يستطيعون التمييز بينها، واختيار أحسنها وأحلاها. والطفل الصغير يقنع من اللعب بما يرضي خياله المحدود، كساعة يد رخيصة في سوار مطلي بالذهب مثلا، في حين أن الرجل الكبير يعرف قيمة الذهب الوهاج، ويسعى إلى كل ما يدر عليه ذلك الذهب الوهاج، بطريق مباشر أو غير مباشر — أقصد بطريق مستقيم أو غير مستقيم. وهكذا أستطيع أن أعدد كثيراً من وجوه الشبه بين الطفل الناشئ، والشيخ الفاني في الطبائع المشتركة، ولو شئت أن أجمل مقالي هذا كله في ضرب الأمثال لتوكيد هذه النظرية لفعلت. ولكني ألح على وجه القارئ الكريم أنه قد صدقني، واقتنع بوجهة نظري، فلا حاجة بي إلى الإطالة في غير طائل.

فأخرج من هذه المقدمة إلى معنى آخر. وهو أني أذكر أننا عندما كنا صغارا، كان من المتعارف بيننا أن يخاصم بعضنا بعضا. وكان لنا في ذلك أصول وقوانين وحدود، لها قدرها المحترم بيننا. فكان أحدنا إذا غضب على صاحبه قال له: «مخاصم»، ثم مد له طرف خنصره، فيمد له الآخر طرف خنصره كذلك إشارة إلى قبول تحديه، وينتهي الأمر بين الاثنين إلى الجفاء والتقاطع في كل شيء. وكان أحد الاثنين إذا نسي مرة فأراد أن يمزح مع صاحبه قال له الآخر مبادراً في تجهم «أنا مخاصم»، فيرتد عنه صامتا في كثير من الخجل. وكان من أصول الخصام أن يتقاطع الصاحبان القديمان تقاطعاً تاما، حتى إن أحدهما إذا رأى الآخر في طريق عرج إلى طريق آخر من أول مطلقة يصادفها، وقد يرتد على أعقابه، فيعود أدراجه إلى أول الطريق من حيث أتى حتى لا يقع وجهه في وجه (خصيمه).

وأظن أن هذا يكفي لتذكير كل منا بحوادث الصبا، فلا حاجة بي إلى الإفاضة في ذكر تفاصيل ما كان يقع في الخصام من مناوشات ومناورات، إلى أن يمن الله على الخصمين بمن يصلح بينهما، فيشترط كل منهما على الوسيط أن يأتي الآخر ليسير نحو صاحبه نصف الطريق، وإلا لم يكن ثمة محل للمصالحة. فإذا استطاع الوسيط أن يقنع كلا من الخصمين بمحاسن الصلح والسلام، وسار كل منهما نصف المسافة إلى صاحبه، مد كل منهما إصبعيه السبابة والوسطى حتى تتلامس الأصابع، ويقول كل منهما: «مصالح»، وينتهي الأمر، وتعود الصداقة بينهما إلى أتم ما كانت عليه، بل قد تزيد قوة وحماسة، بعد أن عرف كل منهما مقدار ألم القطيعة، ووحشة الهجر.

هذه ذكريات صغيرة ولكنها تنم عن طبيعة لا تقتصر على الأطفال، بل يشارك الكبار فيها مشاركة كاملة. وقد

أستطيع أن أقيم البرهان على ذلك بأقوال كثيرة ، ولكن لا حاجة بي إلى ذلك ، فإنما أريد أن أقدم بهذا كله إلى معنى آخر ، معنى خطير ، معنى نراه اليوم أمامنا في كل خطوة من خطواتنا .

أفهم جيداً أن يحتفظ الرجال بطبائع الأطفال فيما بينهم إذا شاءوا ، فهم أحرار في تصرفهم ، ولا يمكن لأحد أن يحجر عليهم ، لأنهم قد شبوا عن الطوق ، وعلت بهم السن إلى ما بعد سن الحجر . ولكن الشيء الذي يهمني ويؤرقني ويزعجني ، هو أن هؤلاء الرجال قد يتصرفون في الأمور الخطيرة التي تمس مصالح الأمم . فإذا كانوا ممن قد احتفظوا بطبائع الطفولة ، كانت مصالح الناس في خطر من عبثهم — وهنا يكون العبث خطيرا لأنه من أطفال لهم لحى — أقول لهم لحى وإن كانت حليقة .

أذكر مثلا أن بعض رجالنا ذهبوا إلى إنجلترا لكي يمثلوا الدولة المصرية في أمر له علاقة وثيقة بحياتنا الاقتصادية . وكان بعضهم هذا ممن لا يزالون يحتفظون بطبع الطفولة الذي أشرنا إليه . ولما كان هذا البعض من أكثر الناس وطنية وحماسة ، رأوا أن واجبهم هو مخاصمة الإنجليز . نعم ، أليس الإنجليز خصومنا في هذه الأيام ؟ وما هو إلا أن تبيّن لهم هذا الواجب ، حتى مدوا خناصرهم للمفاوضين الإنجليز قائلين : « مخاصم » ، وانتهى الأمر ، وعادوا من حيث ذهبوا ، بعد أن اطمأن ضميرهم على أنهم قد أدوا واجبهم الوطني . ألم يخاصموا الإنجليز ؟

ولكنهم لم يخاصموا الإنجليز كما خيل إليهم ، بل خاصموا الاقتصاد الإنجليزي ، ولم يخاصموه وحدهم ، بل جعلونا جميعا نخاصمه . ونحن جماعة كبيرة تضم التجار والزراع وأصحاب الأعمال ، وهؤلاء لا مصلحة لهم في مخاصمة عالم الاقتصاد الإنجليزي ، بل إن مصلحتهم في مصالحته . ولو ترك أصحاب الأعمال أحراراً ، لما رضوا بتلك المخاصمة التي تبرع لهم بها هذا البعض الذي ذهب إلى إنجلترا للمفاوضات الاقتصادية بالنيابة عنهم .

ولم يكن العيب مقصوراً على المصريين وحدهم ، فإن المفاوضين الإنجليز كذلك كانوا من البشر ، وفيهم من الأطفال الكبار عدد وفير ، فقبلوا الخصومة عن طيب خاطر ، وأشاروا على دولتهم أن تخاصم الاقتصاد المصري .

ولا حاجة بي إلى الإكثار من ذكر حوادث المناوشات التي أعقبت هذا الخصام ، فهناك مثل واحد يكفي لقطع كل مكابرة . فقد طالعت في بعض الصحف منذ أيام أن الإنجليز أخذوا يطالبون مصر بأن تسدد لهم ثمن بعض سلعها بالدولارات . ياخبر ! دولارات ؟ ومن أين نأتي بها ؟ هكذا أراد حضرة الإنجليزي المحترم الذي أصدر أمره ، ولا أشك لحظة في أنه طفل كبير قد سار في مسلكه على سنة الخصومة . فإنجلترا — بفضل أطفالها الكبار — تطالب مصر الآن بدفع الدولارات ثمناً للسلع الإنجليزية ، وهي هي مصر التي قضت سبع سنوات في أثناء الحرب تبيع قولها وعدسها وبصلها وقطنها وسكرها ، بل ما هو أغلى من ذلك كله من مواصلاتها وكرم وفادتها وأرواح بنيها — أقول كانت مصر تبيع ذلك كله بأوراق مطبوعة اسمها الجنيه المصري ، ولم تطالب إنجلترة بدولارات ولا استرلينيات . فلا شك عندي أن الأمر ينطوي على أحد فرضين لا ثالث لهما ، أو أن الأمر ينطوي على الفرضين معاً :

الأول أن المصريين كانوا في أيام الحرب أطفالا صغارا — أقصد كبارا ، والثاني أن الإنجليز والمصريين معاً قد صاروا بعد الحرب أطفالاً كبارا .

ولكن ما هكذا تكون المعاملات أيها السادة . حقاً إن بين مصر وإنجلترة حساباً طويلا متنوع الأصناف . ولكن كل حساب له طريقته في التصفية . فلنقتصر اليوم على حديث الاقتصاد . إن إنجلترة مسئولة عن كثير من ورطتنا المالية التي نحسها الآن . فإذا كان المفاوض المصري الذي

لماذا لا نخلق

– ٢ –

زعمت لك فى مقال سابق أننا لا نكاد نخلق شيئاً واحداً جديداً فى العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن ، وأحسبها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، حين أعذتك بالله من خديعة الشيطان التى قد توهمك بشبه بين العالم وطالب العلم ، بين الأديب وشارح الأفكار ، بين الفيلسوف وقارئ الفلسفة ، أو بين الفنان ، ومن يتحدث فى الفن وينقده ؛ وزعمت لك أن الفرق بعيد بعد ما بين السماء والأرض بين الرجل يخلق ما يقوله خلقاً من العدم أو ما يشبه العدم ، وبينه يفهم ما خلقه سواه ويعيه ، بل يطبقه ويستخدمه أحسن استخدام وتطبيق ؛ فربما رأيت طلابنا فى المدارس يتعلمون الطبيعة والكيمياء ، والرياضة والأدب ، ورأيت الناس فى شوارعنا وبيوتنا يستخدمون السيارة والمسرة والبرق والمذياع ، وربما رأيت ذلك كله فصحت لنفسك فى إعجاب : أما والله إن منا لعلماء ومعلمين ومتعلمين ، أين الفرق — إذاً — بيننا وبين بلاد الغرب التى صارت بذكرها الركبان ؟ فما أعظم سرعة الوقوع فى مثل هذا الخطأ ؛

مثال ذلك أنى كنت أتحدث إلى طبيب مصرى قدير تابع على شاطئ البحر من مدينة « برايتن » فى انجلترا .

قال الطبيب الصديق : جئت إلى هذه البلاد (انجلترا) يحدونى الأمل أنى لا شك واجد عند أساطين الطب ما يستثير منى العجب والإعجاب ، فإذا بالأساطين لا يكادون يسمعونى فى الطب جديداً ؛ أفنحن بعد ذلك مصدقون لما يذيعه المعجبون بهذه البلاد وأصحابها ؟ .

فقلت له : لا تخلط يا صديق بين الإبداع والتقليد ، وحذار أن تمزج بين الابتكار والتكرار ؛ فهؤلاء الناس هم الذين خلقوا لك الطب خلقاً بعد بحث ودراسة وتمحيص ، ثم دونوا علومهم فى كتاب ثم أرسلوا إليك الكتاب وأنت فى القاهرة المعزية ناعم البال ، فنشطت كما ينشط « الشطار » وحفظت الكتاب من ظهر قلب من الغلاف إلى الغلاف ، فإذا ما جئت اليوم هاهنا وسمعت صاحب الكتاب ومبدع مافيه يتحدث إليك عاد رن فى أذنيك رنين المعهود والمألوف ، فلا يخدعنك ذلك عن الحقيقة الساطعة ، وهى أن من بحث ودرس ومحص ثم دون نتائج بحثه ودرسه وتمحيصه هو الطبيب العالم ؛ أما أنت فتلميذ « شاطر » حفظ ووعى وطبق .

فلو فرضنا أن جماعة من الجن تآمرت على تمار المدنية كلها فمحتها محواً بين عشية وضحاها ، واستيقظ الناس

ذهب إليها قد قال لها : « تخاصم » فقد كان جديراً بالمفاوض الإنجليزى أن يذكر مصر فى مسئولية بلاده نحو مصر . كما أنه قد كان جديراً بأن ينظر إلى حقيقة مصلحة بلاده فى الاتفاق مع مصر . ولسنا نظن أن انجلترا عاقلا يرى أن مصلحة انجلترة تتحقق بارتباك الاقتصاد المصرى . فما هو السر فى كل هذا الضغط الذى نراه يتجدد كل يوم ؟ إنه لا يزيد فى نظرنا على مناوشات المتخاصمين من الأطفال وإن كان يتخذ شكلا خطيراً لأنه صادر من كبار .

فأين هؤلاء الإنجليز الذين كانوا يدعون صداقة مصر ؟ وأين هؤلاء المصريون الذين كانوا يدعون صداقة الإنجليز ؟ أليس منهم أحد يستطيع أن يقوم بدور الوسيط ، ليقول للجانبين : « عيب ! » ؟

لئن كانت الخصومة فى السياسة تتصل بالحرية والكرامة والحقوق الإنسانية ، فإن الخصومة فى المسائل الاقتصادية لا ينبغى أن تتعدى حدود المصالح المتبادلة .

محمد فريد أبو حديد

ذات يوم ليروا أن بلادهم قد خلت من سياراتها وطياراتها وعلومها وآدابها وتصاويرها وتماثيلها ، بل لو فرضنا أن جماعة الجن المتآمرة قد أحكمت تدبير المؤامرة فعمدت إلى محو كل أثر لهذه الأشياء من أذهان عارفيها ، لو فرضنا ذلك لتوقعنا لانجلترا أو فرنسا — مثلا — أن تنتج السيارة والطيارة من جديد ، وأن تخلق علومها وتنشئ آدابها من جديد ، وأن ترسم تصاويرها وتنحت تماثيلها من جديد ، لأن هذه الأشياء كلها كانت من خلقها وإبداعها ، وليس أيسر على الخالق من أن يعيد خلقه سيرته الأولى ؛ أما نحن الذين لم نخلق من هذا كله شيئا ، فسيكتب علينا بعد مؤامرة الجن أن ننتظر في خلاء حتى يفرغ أولئك الخالقون من خلقهم وإنتاجهم ، فننقل بعض ما خلقوا وما أنتجوا ؛ ثم سرعان ما يأخذنا الغرور فنصيح لأنفسنا هاتفين : الآن قد استوى الماء والخشبة ! لقد زال ما بيننا وبين الغرب من فروق ! ! لكن الفرق بعيد بعد ما بين السماء والأرض ، بين الابتكار والتكرار ؛ هم في الغرب يخلقون ، وقصارى جهدنا أن ننقل عنهم بعض ما خلقوا ؛ فلماذا لا نخلق ولا نبتكر ؟ هذا هو السؤال الذي ألقيته في ختام المقال السابق ووعدت عليه في إيجاز بما أراه جوابا صوابا ، وهو أننا لا نخلق ولا نبتكر لأن لنا أخلاق العبيد ، والخلق إنما يحتاج إلى سيادة وعزة وطموح ، وقد وعدتك أن أفصل القول في هذا الرأي بعض التفصيل .

والرأي عندي هو أننا عبيد في فلسفتنا الأخلاقية ، وعبيد في فلسفتنا الاجتماعية ، وعبيد في بطانتنا الثقافية .

فنحن عبيد في فلسفتنا الأخلاقية لأن مقياس الفضيلة والرذيلة عندنا هو طاعة سلطة خارجة عن أنفسنا أو عصيانها ؛ فأنت فاضل إن أطعت ، فاسق إن عصيت ، فلست أنت الذي يشرع لنفسه ما يأخذ وما يدع وما يعمل وما لا يعمل ، ويستحيل أن تكون إنسانا حرا إلا إذا كان لك من نفسك مشرع يهديك سواء السبيل ، بغض النظر عما تمليه السلطة الخارجة من نفسك ، وبغض النظر عن كل ما يترتب على عملك من ثواب أو عقاب ؛ إذا أنت أحسنت إلى الفقير لأنك مأمور أن تحسن إلى الفقير ، فأنت في إحسانك عبد يأتمر بأمر سيده ، وقد يكون هذا السيد رأس القبيلة أو رئيس الحكومة أو قانون الدولة أو أبواك أو كائنا من كان ، لكن جوهر الأمر واحد في جميع الحالات ؛ أما إذا أحسنت إلى الفقير صادرا في ذلك عما تمليه عليك نفسك من واجب يحتمه العقل الخالص ومنطقه ، كنت في ذلك سيدا حرا يسترشد نفسه سواء السبيل .

قد يعمل زيد من الناس عملا فاضلا حين ينفذ بعمله هذا أمرا صدر له من سلطة خارجة عن نفسه ، وعدته ثوابا إن عمله ، وتوعدته عقابا إن تركه ؛ وقد يعمل عمرو نفس العمل الفاضل الذي عمله زيد ، لا لأنه مأمور بعمله ، بل لأن منطق عقله يهديه من تلقاء نفسه إلى فعله ؛ أقول قد يتشابه زيد وعمرو كل التشابه فيما يعملان في موقف معين ، لكنهما يختلفان في الدافع إلى العمل ، فيكون الدافع عند زيد هو تنفيذ الأمر الذي صدر إليه ، بينما يكون الدافع عند عمرو هو الاهتداء بهدي نفسه ، فيكون زيد في عمله عبداً ، ويكون عمرو في عمله حرا ، على الرغم من تشابه ما يعملان .

وأنا زعيم لك أننا نحمل في صدورنا أنفس العبيد ، لأن فلسفتنا الأخلاقية كلها قائمة على تنفيذ ما نؤمر به .

ونحن كذلك عبيد في فلسفتنا الاجتماعية ، سواء في ذلك الأسرة بصفة خاصة والمجتمع كله بصفة عامة ، فالأسرة عندنا قائمة — من الوجهة النظرية على الأقل — على الاستبداد من صاحب الأمر والطاعة العمياء ممن يعتمدون في حياتهم عليه ؛ فالزوج صاحب الكلمة النافذة على زوجته ، والوالدين كليهما سلطة التحكم في الأبناء ؛ وكثيرا ما قلت ذلك لأصدقائي فأجابوني بإشارات التهكم من وجوههم وأيديهم : تعال فانظر ، تر الزوجة مستبدة

طاغية ، ومن الأبناء ذوى إرادة نافذة ودلال ؛ لكن تهكم الأصدقاء لا يقنع ، لأنى لا أزال أنظر إلى الناس من حولى فألاحظ أن الأسرة المثالية التى يفخر بها سيدها ويتمدح بها الناس ، هى التى يكون للزوج فيها على زوجته كلمة لا ترد ، ويكون للوالدين فيها حق الأمر الذى يجب على الأبناء أن يصدعوا به ؛ ولا أزال أنظر إلى الناس من حولى فألاحظ أنه بمقدار ما يكون للزوجة من مساواة زوجها ، وللأبناء حق مناقشة الوالدين فيما يرغبون وما لا يرغبون ، تكون الأسرة بعيدة عن الكمال فى أعين الناس .

مثل هذه الأسرة شبيه بالدولة الاستبدادية على نطاق ضيق ، فيها حاكم بأمره طاغية ، وشعب يطيع ولا يناقش ، فيها راع ورعيته بالمعنى الحرفى لهاتين الكلمتين ، أعنى أن فيها راعيا وقطيعا من الخراف ؛ لو كان سيد الأسرة ممن يحبون الصمت فى الدار وجب على العيال أن يصمتوا فى حضرته ، وفى ذلك تضحية واضحة لمصلحة العيال فى سبيل مزاج العائل ، ولو كانت الأسرة دولة حرة ، لفكر الكبير فى سبيل مصلحة الصغير بمقدار ما يتوقع من الصغير أن يفكر له فى صالحه ، الكبير من طبيعته الصمت والصغير من طبيعته الزياط ؛ فبأى حق يحكم أصحاب الجيل الحاضر أبناء الجيل المقبل ؟ لكنها فلسفة اجتماعية ورثناها فى نظام الأسرة وتمسكنا بها ، وهى تنطوى — كما قدمت — على بث أخلاق العبيد فى نفوس الناشئين .

ونحن عبيد فى فلسفتنا الاجتماعية أيضا بالنسبة للمجتمع كله على وجه العموم ؛ فالمجتمع عندنا قائم على أساس أن الناس درجات ؛ وليس من اليسير على عقولنا أن تفهم ولا أن تسيغ أن الناس قد تختلف أعمالهم مع تساويهم فى القيمة الإنسانية ؛ فمن يحتل درجة أعلى له الحق — من الوجهة النظرية على الأقل — أن يستبد بمن هو فى درجة أدنى ؛ والعكس صحيح ، أى أن من يحتل فى المجتمع درجة أدنى عليه واجب أن يذل لمن هو أعلى منه ؛ وإنه ليكفيك أن تلقى نظرة خاطفة على تتابع الدرجات بين موظفى الحكومة ، وشدة اهتمام هؤلاء الموظفين بها اهتماما يكاد لا يبقى لهم من الوقت لحظة واحدة يأكلون فيها هنيئا ويشربون مريئا — ولا أقول لحظة واحدة يعملون فيها ما يؤجرون على عمله — يكفيك هذا لترى أساس المجتمع واضحا منعكسا فى نظام الحكومة ، والنظر إلى الناس على أنهم درجات منطو على عبودية وطغيان ، عبودية لمن يقع فوقك ، وطغيان بمن هو دونك فى سلم البشر .

ونحن كذلك عبيد فى بطانتنا الثقافية ، نكره التشكك ونمقته ، ونحب اليقين الصدق ونقدره ؛ يسودنا ميل شديد إلى الإيمان بصدق ما قاله الأولون ، كأنما هؤلاء الأولون ملائكة مقربون ، وكأنما أبناء مننا كيد ، ولو حللت هذا الموقف تحليلا صحيحا ، ألفيته موقف العبد نحو سيده ، فأنت تقرأ الكتاب — والكتاب القديم بوجه خاص — فلا ينشط فيك عقل الناقد الذى ينظر إلى الكتاب نظرة الند لنده يناقشه الحساب فيما يقول ، بل تقف مما تقرؤه موقف المستمع الذى حرم الله عليه أن يتشكك فى صدق ما يقال ؛ ومن هذا القبيل ميل الناس بصفة عامة إلى تصديق المطبوع ، وميل التلاميذ إلى الإيمان بصدق ما يقوله المعلم ؛ هذه وأمثالها عبودية فكرية ، ويستحيل أن تكون إنسانا حرا بغير شىء من الفكر المستقل الناقد الحر .

فإن زعمت لك أننا لا نكاد نخلق شيئا جديدا فى العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن ، ثم زعمت لك أن علة ذلك العجز هو ما نحمله فى صدورنا من أنفس العبيد ، لأن الخلق لا يكون بغير عزة وطموح ، فإنما أردت شيئا كهذا الذى سقته إليك مثلا يوضح ما أريد .

زكى نجيب محمود

الرجل المهذب[1]

يمكن من البداية أن تعرّف الرجل المهذب بأنه هو الذي لا يسبب آلاماً لأحد ؛ فمن أي وجه قلبت هذا التعريف وبحثته فإنك لابد أن تجد الدقة في طياته ، فإن أول ما يهتم به هو إزالة العقبات التي تعترض من يعيش حوله أو يتصل به ، لكي تسير طليقة في طريقها العادي .

وإذا أردنا أن نصور الرجل المهذب في صورة مادية كالصور التي اعتدناها في حياتنا البشرية يمكن أن نشبهه بمقعد مريح أو بنار تدفئ ، وكأننا في حضرته قد تبدد التعب وحل الدفء ، وإن كان في مقدور الطبيعة أن تمدنا بالدفء والراحة بوسائلها الخاصة الأخرى .

فالرجل المهذب على هذا النحو هو الذي يتحاشى في دقة كل ما يسبب صدمة أو استياء لهؤلاء الذين يعيشون معه ، متجنبا كل تصادم في الآراء والمشاعر ، متحاشيا كل ألوان الضغط والتشكك والحقد ، جاعلا كل اهتمامه أن يجعل كل من حوله مغتبطا مسروراً ، غير هياب ولا متكلف .

تراه يشعر زملاءه بحسن رعايته ، مانحاً إياهم جل اهتمامه .

تراه رفيقا مع الخجولين وديعا مع البعيدين المنزلة ، رحيما بالحمقى ، متجنباً المساوئ والمواضيع المثيرة .

وفي محادثاته قلما يرتفع صوته ، أو يشعرك بسأم أو ملل . تراه مصغيا لما تقول ، متقبلا إياه عن رضا . وتراه لا يتحدث عن نفسه إلا في ضرورة ملحة ، ولا يحمي نفسه ضد من يهاجمه بردود مؤلمة قاسية .

تراه لا يعير سمعه إلى وشاية واش أو قول قائل ، وتراه مدققا في معرفة الأسباب الدافعة لأعمال من يرتبطون به مفسراً إياها على وجهها الحسن لا على وجهها السيء .

وتراه في منازعاته لا يبدي خسة أو فظاظة ، وتراه لا يخطئ في حق الآخرين أثناء مناقشاته بإشارات مشينة أو بأقوال نابية . أما الإيماء بالشر فهو أبعد ما يكون عنه .

وتراه بحكمته وبعد نظره يعمل طبقا لحكمة الحكماء القدامى ، تلك الحكمة التي تدعو إلى أن نكون تصرفاتنا مع أعدائنا وكأنهم سيصبحون في المستقبل أصدقاء مخلصين .

تراه صبوراً يحتمل ويقاسي ، متمسكاً بمبادئ فلسفية ، تعينه على أن يخضع للآلام الواقع كشيء لا بد منه ، ويستسلم لكل ما فقده كأمر فات لا يمكن تغييره أو تعديله ، ويؤمن بأن الموت شيء مقسوم مكتوب .

وتراه إذا اشتغل بمجادلة أو منازعة أيا كان نوعها ، وجد من عقله المثقف المهذب ما يحفظه من التخبط في عدة أخطاء ، في حين أن العقول الأقل تثقيفا وتهذيباً ، وهي الشبيهة بسلاح غير حاد يشوه ويمزق دون أن يقطع في سرعة وإتقان ، تخطيء أهدافها أثناء الحوار وتفقد قوتها لاهتمامها بالتافه من الأمور ، كما تجدها قد عجزت عن فهم وإدراك حقيقة معارضيها تاركة الأمور أكثر تعقيداً مما بدأتها .

وقد يخطيء في رأيه ويصيب ، ولكنه أوتي من صفاء الفكر قدراً يبعده من التحيز والظلم . وبقدر ما تجده بسيطاً متواضعاً ، تجده فعالاً مؤثراً ، وبقدر ما تجد أقواله وأعماله تميل إلى الإيجاز تجدها فاصلة قاطعة . وهو الذي تشعر معه أنك لن تجد في مكان بعيد عنه طهارة قلب وحسن تقدير ووداعة وتسامح أكثر مما تجده بين يديه .

وتراه إذا كان غير مؤمن بعقيدة غيره وجد من عقله المتسع الآفاق العميق التفكير ما يبعده عن السخرية بهذه العقائد والعمل على مناهضتها .

ونجده محترما للنظم والقواعد الموضوعة كأمور تستحق التمجيد ، وكأشياء جميلة نافعة ، حتى ولو لم يكن في دخيلة

(١) مترجمة عن الكاتب الإنجليزي John Henry Newman

تأثير الإسلام في الأتراك

إن اعتناق الأتراك الإسلام فجأة وجملة واحدة موضوع خليق بالبحث والتفصيل . ذلك لأن الدين الإسلامي الذي نشأ في الأمة العربية ، وهي تحيا حياة البداوة والقبلية ، كان أنسب الأديان لروح الأتراك ، لكونه ديناً واقعياً حربياً . أما نظرية أنهم اعتنقوا الإسلام للاشتراك في الجيش العربي ، وفتوحه المغرية بالمغانم ، فلا تصلح لأن تكون موضوع بحث إلا في ساحة النظريات ، لأنهم عاشوا نحو مائتي عام أحراراً في التركستان الخارجة عن نطاق الحكم العربي في جهات بحر خوارزم وبحر الخزر والسهوب الشمالية ، متأثرين إلى حد ما بالبوذية والمانوية واليهودية والنصرانية ، فأوتوا فرصاً عظيمة لدرس مزايا الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية ، بحرية مطلقة باتصالهم بالمسلمين زمناً طويلا . وقد حدث أن كثيراً منهم أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا . ومع ذلك فمما لاشك فيه أن الإسلام انتشر بين الأتراك عن طريق الشيعية والعلوية والتصوف ، وكلها مذاهب تتفق قليلا أو كثيراً مع سائر الديانات ، كالبوذية والمانوية والوثنية الشامانية ، وقد انتقلوا في بعض الولايات من أحد مذاهب الإسلام إلى مذهب آخر . فغيروا مذهبهم بين الشافعي والحنفي ، على حسب ما يتفق مع مزاجهم الخاص وحاجاتهم . كان أهل طشقند وما حولها شافعية وانتقلوا إلى مذهب أبي حنيفة ، كما انتقل أفراد كالسلطان محمود الغزنوي والسلطان أولجايتو ، من مذهب الإمام أبي حنيفة إلى مذهب الإمام الشافعي .

كان معنى اعتناق الأتراك الإسلام انتقالهم من حضارة الشرق وآسيا الشرقية إلى حضارة الشرق الأدنى والأوسط . وكان تغيير الاتجاه عملا مباركا للأمة التركية ، إذ أن الإسلام لم يبق بهذا ديناً معتمداً على حضارات الشرق الأوسط فحسب ، بل صار ديناً عالمياً معتمداً على حضارة الغرب كلها أيضاً . عدّ البيروني عالِمُ التركستان العظيم ، الحضارة الإسلامية امتداداً للحضارة الإغريقية ، ثم أحصى نتائجها المباركة على الإنسانية بعد انتصارها الحاسم في آسيا الوسطى . وذكر في كتابه « تحديد نهايات الأماكن » ، وهو كتاب غير مطبوع ، توجد منه بمكتبة الفاتح نسخة مكتوبة بخطه ، حين تحدث عن السماع علم الجغرافيا ، بفضل انتشار الإسلام (ص ٢٤٥ — ٢٤٧) فقال[1] :

« إني كنت قد تمكنت من تحديد العرض الجغرافي لمدينة غزنة ، وتمكنت اليوم بعون الله وبفضل ولي النعم (السلطان محمود الغزنوي) من تحديد طولها أيضاً ، حدد طول الأماكن البعيدة (من بلاد اليونان) وعرضها في جغرافية بطليموس بناء على روايات مسموعة ، لأنها كانت في ذلك الزمان بلاداً تحكمها أمم يعادي بعضها بعضاً ، فلم يمكن الرحلة إليها بحرية ، وكان بعض الشعوب كاليهود مثلا يدلون أبناء السبيل الغرباء على طرق مهلكة تقرباً إلى الله ؛ وبعضهم كالروم يأسرون الرحالين ويستخدمونهم عبيداً أرقاء ، ويتهمون فيهم أحياناً فيقتلونهم . وأما الآن فقد تغيرت الدنيا ، وانتشر الإسلام في البلاد الممتدة من

(١) كلام البيروني مترجم من التركية ، لأن النص العربي ليس بأيدينا .

نفسه موافقاً عليها أو معتقداً بصحتها .

وتجده محترما لأئمة الأديان غير معلن لأخطائهم أو منتقد بهفواتهم .

وهو كصديق يقدر ويحترم عقائد الأصدقاء ، لا لأن فلسفته قد علمته أن ينظر للعقائد بعين لا تعصب فيها ولا محاباة فحسب ، بل لأنه ينظر إليها أيضاً من مرآة الوداعة ورقة الشعور التي هي ثمرة الحضارة ونتيجة من نتائجها .

عز الدين فراج

من هنا وهناك :

ملابس النساء

هل الغرض منها إثارة إعجاب الرجال أو النساء ؟

(خلاصة أبحاث شائقة للعلامة الدكتور لويس بيش)

إذا سألنا كثيرات من النساء عن السبب فى اهتمامهن بملابسهن . أو بعبارة أصح : عما إذا كن يرتدين ليثرن إعجاب الرجال أو غيرهن من النساء ، لتنوعت الردود ؛ فإن النساء يقضين ساعات فى التفكير فى اختيار الملابس وفى شرائها وفى فحص ملابس غيرهن ، بصرف النظر عما فى هذا من التكاليف الباهظة ، ولكنك إذا سألت النساء عن الغرض من هذه التصرفات لما وجدت إجابة مقنعة ؛ فلقد أرسلت والدة ابنتها إلى طبيب ليفحصها وخاطبته بقولها : « أرجو أن تحادث الفتاة عن النقود التى تنفقها فى شراء الملابس ، فإنها تقتر على نفسها فى الطعام لتشترى بما يتوفر لها من نقود ملابس فاخرة ، وهذا على ما أعتقد السبب فى هزالها » .

وقال وكيل إحدى الشركات التجارية : « إن النقود التى تنفقها زوجتى على ملابسها سبب إفلاسى ، فإن مشترياتها تزداد كلما ازداد مرتبى ، فهل هذا لمجرد إرهاقى أو لإرضاء غرورها » ؟ .

وقالت فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها : « إنى أكره التقليد لأن لى شخصيتى ، ولا بد أن أقاوم هذا الشعور دائماً ، ولكنه يتيح لى الفرصة لأن أرتدى ملابس جميلة وأن أزهو فيها ولو لفترة قصيرة » .

وتصرفات النساء فى ارتداء ملابسهن عجيبة ؛ فانظر إلى تدفقهن على المحال التجارية عقب اطلاعهن فى الجرائد على إعلان عن فرصة استثنائية للبيع ، وما أكثر ازدحامهن على محال عرض الملابس والأزياء ! ويخبرنا رجال المرور عن كثرة انتقال النساء من جانب من الطريق إلى آخر لمجرد مشاهدة معروضات المحال التجارية .

الصين شرقها الأقصى إلى حدود أسبانيا غربها الأقصى ؛ ومن بلاد الحبش والزنج والهند جنوبا إلى بلاد الترك والصقالبة شمالا ، وألف بين قلوب هذه الأمم المختلفة المنتشرة فى تلك الأصقاع ، المعادية بعضها بعضا فى الأزمان الماضية ؛ فما بقى مانع من الرحلة بحرية إلى تلك البلاد سوى بعض الأوباش وبعض قطاع الطرق . حتى إن الشعوب غير الإسلامية مضطرة الآن إلى مجاملة المسلمين . فالحصول على معلومات صحيحة من البلاد والأماكن الجغرافية أسهل فى أيامنا مما كان فى أيام اليونان القدماء ، والطرق أسلم ، وبات ممكناً أن يحدد مكان بأنه غربى نقطة كذا ، وقد قيل فى جغرافية بطلميوس إنه شرقيها ، أو إثبات موقع فى الغرب ذكر فى تلك الجغرافية أنه فى الشرق » .

يتفق رأى البيرونى هذا اتفاقا تاما مع آراء بشل Peschel العالم الألمانى الذى ألف فى أيامنا هذه كتاباً فى تاريخ الجغرافيا . فهو أيضاً يتحدث عن الفوائد التى جنتها الحضارة العالمية والجغرافيا فى تطورهما ، من اتحاد الشعوب المختلفة بفضل الإسلام فى صورة لم يعهد لها مثيل فى تاريخ الإنسانية .

ظل الأتراك فى قلق معنوى دائم قبل دخولهم فى الإسلام لوقوعهم تحت تأثير حضارات مختلفة . وقد حال أمراء الإقطاع التابعون لسائر الأديان ، كالبوذية والمانوية واليهودية والنصرانية ، دون تكوينهم دولة قوية قائمة على ثقافة سليمة . فى العهد الإسلامى بدأت قدرة الأتراك على تأسيس دول قوية دامت قرونا ، وهم أمة واحدة متجانسة متدينة بدين واحد .

حمزة طاهر

فما هو السبب فى هذه الظاهرة ؟

لعل السبب الأساسى شعور النساء بقصورهن الذاتى ، فإننا لا نجد سوى القليل من النساء اللاتى يعتمدن على أنفسهن ويفكرن تفكيرا مستقلا ويثقن بأنفسهن ، فإنهن يتأثرن كثيرا بما يقوله ويفعله غيرهن من الناس وخصوصا النساء ، وحتى المفكرات منهن لايجدن متسعا من الوقت ليفكرن تفكيراً سليما .

ولقد قالت إحدى الكاتبات وهى أدرى بطبائع النساء : « إن النساء لا يكتفين بالإسراف فى الحديث مع غيرهن من النساء ، ولكنهن يتأثرن به إلى حد بعيد ، فإن الرجال يقلبون الأمور على وجوهها المختلفة حتى يصلوا إلى نتيجة حاسمة ، ولكنا لا نجد لكثير من النساء آراء محدودة عن الحياة أو أهدافاً خاصة » .

ولم تحلل الكاتبة طبعا طبيعة المرأة تحليلا عميقا ، ولكن انتقادها لبنات جنسها من المسائل المفروغ منها ، وإلا لما خضعت للرجل حفظا لغريزة البقاء ، فهذه قوانين الطبيعة .

ولو كانت آراء المرأة صلبة كآراء الرجل ، فكيف يمكن أن يتعاون الجنسان ، وإننا نعرف ما يحدث عندما تمتز امرأة بشخصيتها كثيرا سواء قبل الزواج أو بعده ، فإن شخصية الرجل لا تحتمل تسلط إرادة المرأة عليه ، وعندئذ تحدث المنازعات التى كثيرا ما نسمع عنها .

وإن رغبة المرأة أن تثير الاهتمام وأن تحتفظ بما يثير اهتمامها ، وهى ترغب فى أن تكون مرغوبة فيها ، وتذهب إلى مدى بعيد فى تحقيق هذا الغرض ، والملابس من عوامل الإغراء فى المرأة .

ولقد استشارتنى مرة سيدة أشرفت على الثلاثين عن السبب فى عدم زواجها قائلة : « أرجو أن لا تعتبرنى مغرورة ، ولكنى لا أظن أننى لست جذابة وهى شهادتان من الجامعة » وبالرغم من ذكائها فقد كان منظرها على العموم بسيطا ، فهى من طراز المرأة التى يشاهدها الإنسان كل يوم بالعشرات ، ولم يكن هناك ما يميز مظهرها الشخصى .

ولكنها واصلت حديثها بقولها : « ولكن من الحقق بإذ كثور أن الرجال لا يتزوجون النساء لأنهن ساحرات ، وهل لا بد من التناقض فى هذا المجال حتى تكون الفتاة زوجة وأما ؟ » .

فوافقتها على ذلك قائلا : إن إسراف النساء فى الزين يدعو الرجال إلى الانصراف عنهن ، ولكنى أصارحك القول أن رداءك وقبعتك لا يوجد فيهما ما يثير الاهتمام ، وتصفيف شعرك لا يتناسب مع ملامح وجهك ، ثم إن وزنك أثقل مما يجب .

فقالت بسخرية : ما كنت أظن أن الرجال يحللون المرأة هكذا .

فقلت : إنهم لا يفعلون ، وإنما ينظرون إلى شكل المرأة فى مجموعها ، وإنى أنصحك أن تقللى من وزنك بممارسة الألعاب الرياضية فى الهواء الطلق حتى تستعيد وجناتك لونها الطبيعى وتلمع عيناك ، أما فيما يختص بتصفيف شعرك ، فإذا تعذر تحقيق الرغبات المطلوبة بنفسك ، فاستشيرى خبيرة فى الموضوع ، وستكون لك خلال ثلاثة شهور شخصية جديدة ، بل ستختلف تصرفاتك وحركاتك تبعا للتغيير ، ثم انظرى ماذا يحدث عندما تثيرين اهتمام الرجال .

وليست الثياب وحدها كافية لإظهار شخصية المرأة ولكن يتناسى كثير من النساء ذلك ، وإلا لما اشترين كثيرا من الملابس والقبعات وغيرها من الكماليات ولما أنفقن كثيراً من مالهن ووقتهن .

ولكل امرأة شخصية تمتاز بها ، وهذه لابد أن تكتشفها وتدرسها ، ولكل امرأة الملابس التى تظهر شخصيتها بدون أن تكلفها مبالغ طائلة ، وإذا كان هناك تناسق فى اختيار الملابس وتصفيف الشعر ولون الوجه ، فإنه لا يبقى أمامها سوى تغييرات بسيطة لتكون جذابة ولتكون لها ثقة بنفسها .

وتحاول النساء تغطية عيوبهن الجسمية وما يعتبرنه

نقصا في مظاهر السحر بالملابس ؛ فالملابس هي الصلة التي تربط المرأة بالعالم الخارجي بما فيه من رجال ونساء .

وممـا يلفت النظر أنه إذا زارت امرأة صديقة لها بعيدا عن مجالس الرجال ، فإنهن لا يتأنقن كثيرا ، ولكن إذا دق الجرس ودخل رجل ، فإن كل امرأة تتحرك في الحال ، فالنساء لا يرغبن في أن يشاهدهن الرجال على حقيقتهن ، ومن هنا يمكننا أن نستنتج على الأقل أن النساء يتزين لاجتذاب الرجال .

ونجد من جهة أخرى أن المرأة تجتهد في أن تعرف مضيفتها أن عندها ملابس جديدة لترغبها إذا شاءت ، وقد تحتوى حقيبتها على بعض أدوات الزينة وتقضي وقت الزيارة في عرضها على مضيفتها ، وفي وصفها وفي المبالغة في أثمانها .

ولا شك في أن المرأة تميل إلى المبالغة والزهو بملابسها مما قد يستدل منه على أن النساء يبالغن في الإسراف في أثمان ملابسهن ليفاخرن بها أندادهن .

وقصور المرأة الذاتي يدفعها لأن يكون لها أشياء كثيرة ، أكثر مما تحتاج إليه ، لتفاخر بها صديقاتها ومعارفها مما يجعل لها شخصية قائمة بذاتها ، وهذا هو السبب في أن النساء يرتدين ملابس فاخرة ، وهذا هو السبب في إظهار اسم أحد المخازن التجارية الكبرى على ملابسهن في حفل عام . وفكرة « انظر لما عندى » الغرض منها التفاخر بين النساء أكثر من إثارة اهتمام الرجال ، فالنساء لا يدخلن في منافسة مع الرجال بوجه عام ، ولكنهن ينافسن غيرهن من النساء دائما ؛ وتحاول المرأة أن تنافس غيرها من النساء في اجتذاب أنظار الرجال حتى يصرف النظر عن فكرة الزواج ، ويمكننا أن نفسر شعور المرأة بأنها تقول لغيرها من النساء « انظرن لما عندى » ، ولكنها تقول للرجل : « انظر كيف يمكنني أن أكون فاتنة » .

وهذا هو السبب في توحيد الزي في مدارس البنات حتى لا يكون تنافس الفتيات في اختيار الملابس سيما في انصرافهن من دروسهن .

ولا تتشابه فتاتان في الشخصية ، فإن الاختلافات الفردية بارزة جدا . فإن وجوه الشبه بين الرجال أكثر من وجوه الاختلاف بعكس النساء ، فإن وجوه الاختلاف عديدة . وتؤثر عواطف المرأة في آرائها ، فقد ترتدى ملابس أنيقة يوما ما لتثير إعجاب الرجل ، وترتدى في يوم آخر ملابس لتنافس بها غيرها من النساء ، بل قد ترتدى ملابس لترضى ذوقها .

ولذلك لا ندرى سبب الضجيج حول الملابس وما تخفي وراءها من مظاهر نفسية ! والواقع أن النساء أنفسهن لا يدرين ، أو على الأقل تختلف الأسباب باختلاف الظروف ، فكيف يمكنني إيضاح هذا الأمر وكشف الستار عن أسرارهن ؟

* * *

مشكلات الحياة الزوجية

حاجتنا إلى المرونة

(خلاصة كتاب للكاتبة الاجتماعية كارين نورس)

يعتبر الركود أعظم مشكلة في معظم الزيجات ، ونقصد بذلك أن الزوجين يعتادان على نظام خاص ولا يهتم أحدهما بأن يغير شيئا من نظام حياته مهما كان طفيفا .

ومن الطبيعي بعد أن تعود الزوجان على التملق خلال شهر العسل أن يعتقد كل منهما أنه وصل إلى درجة الكمال وأن لا يقبل أي انتقاد مهما كان طفيفا ، فإذا أشار الزوج إلى أن تصفيف شعر زوجته يحتاج إلى تغيير قابلت رأيه المتواضع بامتعاض شديد .

— ألا تحب الطريقة التي أصفف بها شعرى ؟

— إنها طريقة مدهشة بدون شك يا عزيزتي ، وكل ما في الأمر أن هذه الطريقة جربة أيضا .

— إنك لم تقل خلال الأيام السعيدة التي قضيناها على شاطئ البحر . إنك تكره الطريقة التي أصفف بها شعرى .

— إنى لم أكره هذه الطريقة أبداً يا عزيزتى ، وكل ما فى الأمر أنى اعتقدت . . .

ولعله أحد الأزواج سيئى الحظ الذين لا يجب عليهم أن يفكروا على الأقل فيما يختص بأى تغيير .

وأى زواج لا بد أن يكون على حافة الهاوية إذا سمعت الزوج أو الزوجة يتفوه بعبارة كهذه :

— لا بد أن يبقى البيانو هنا ، لأن هذا المكان ملائم له .

— لا يمكن ، لأننا لا نذهب إلى حفلات الرواج .

— لقد كنت لا تتضايق من بقائك فى المنزل فى المساء عند بدء زواجنا .

— إن رائحة النيلون لا تطاق !

— إنى أكره أن أسمع النساء يتحدثن عن الملابس .

فلا يرغب أحد منهما الآن فى أن يغير شيئاً من آرائه أو فى أن يقدر رأى الآخر ، أما عبارة : « هذه هى طباعى ولا بد من التعود عليها » فإن هذا الرأى يسبب المتاعب للطرفين ، فإن كثيراً من النساء يغيرن قبعاتهن وتصفيف شعورهن ولون طلاء أظفارهن من سنة إلى أخرى ، ولكنهن لا يفكرن فى تغيير شئ من طباعهن .

تتضايق السيدة كثيراً عند ما تشاهد أى عيب فى قبعتها أو ردائها مهما كان هذا العيب طفيفاً ، ولكنها لا تساير الزمن فى آرائها وتخيلاتها وفى عاداتها .

ولكن الحياة الإنسانية تغيير وحركة ، ولا تقل الحياة الزوجية عنها تغيراً وحركة ، ولا بد أن يفشل الزواج إلا إذا فحص كل من الزوجين واجباته الزوجية وفكر فى الوسائل التى بها قد يغير فى عقله وروحه وجسمه . وأكثر إعجاب من حوله .

وكثيراً ما تتحسر الزوجة عند ما تكبر على ما سببته لنفسها من متاعب أثناء صغرها ومن الأشياء غير الضرورية التى كانت تريدها والقوانين السخيفة التى وضعتها لنفسها ، ومن الأشياء التى اعتقدت بطريقة سالبة فى عجزها عن تنفيذها ، ولا تعرف إلا فى وقت متأخر أنه كان ينقصها أشياء قليلة لتتمتع بالسعادة ، وأن أنظمتها كانت عديمة الفائدة .

ولا شك فى أن الزوجة الشابة فى حاجة إلى دراسة وتفكير لتحفظ زواجها من الاضطراب .

إدوار رياض

قصة الأسبوع

قال المدرس

للكاتب الإنجليزي الكبير جون جالزورذي

« ولد في عام ١٨٦٧ من أسرة ذات ثراء . ولكنه لم يباشر المحاماة ، بل قام برحلات جاب فيها أنحاء العالم . ولم يكن له هدف في الحياة حتى قارب الثلاثين ، فأوحت إليه من أحبها أن يكتب ، فجعل يباشر الكتابة في إصرار وعناد ثمانية أعوام ، حتى استطاع أن ينشر أول قصصه بعد أن كتبها ثلاث مرات ، وذاع أمره خاصة عندما كتب مسرحية انتقد فيها نظام السجون . كانت سببا في إصدار قانون إصلاح في هذه الناحية . وامتاز بالتحمس الفني والاقتصاد اللفظي ، واتجه بأدبه اتجاهاً إنسانياً ، انتقد فيه الطبقات الغنية التي ينتمي إليها ، وما يسودها من روح الاستغلال والاستعمار . وصور فيه صراع الإنسان مع القدر ، وعبث الجهود البشرية في هذا الصراع ، وتعتبر « أسطورة فورسايت » أهم ما كتب . وهي مجموعة من القصص سجل فيها ما حدث للمجتمع الإنجليزي من تطور في العصر الحديث تسجيلا يبعث على الإعجاب . ونال جائزة نوبل للآداب ، ومات في عام ١٩٣٣ » .

(المترجم)

ما زلنا نذكر على ما أعتقد روعة الصيف الذي أعلنت فيه الحرب . وكنت آنئذ في قرية تقع على نهر التيمس . وقد تجاوزت تلك السن التي أصلح فيها للطعان والنزال ، وكان الجو بديعاً رائعاً ، يثير الخيال ، ويلهب الأحاسيس ، وكان القمح على وشك الحصاد ، والتفاح يطل ناضجاً من بين الأشجار ، والليالي هادئة ساكنة ترتعش بين ضوء القمر وظلاله . وكيف يتسنى للانسان أن يقارن بين كل هذا الجمال والسلام ، وبين تلك النار الكبرى التي تشتعل وتمتد لهيبها إلى جميع أنحاء أوربا ، فتحصد أرواح آلاف من الشباب المزدهر ! بل من السخرية أن تقارن بين جمال هذا الصيف وبين الجريمة تسير عارية يصفق لها الناس ، ويمجدون من أمرها .

وتركت بيتي في إحدى هاته الأمسيات في أواخر شهر أغسطس ، وكانت أخبار معارك « المورن » تترى ، وسرت نحو المروج والحقول ، ولم أكن قد رأيت في حياتي جمالا يعادل ذلك الجمال الذي رأيته في تلك الليلة . فقد كان كل شيء هادئاً ساكناً يبدو في لون الأعناب السوداء . وقد جعل لمعان النجوم يذوي في ضوء القمر الذي كان يصعد من أفق السماء في جلال ووقار ، ويمحو ظلال أعواد القمح .

وكانت الساعة تقترب من التاسعة والنصف عند ما مررت على فتى وفتاة من تلاميذي ، وقد وقفا في صمت وسكون بجانب السور الذي يفصل بين الطريق المنعطف وهاوية غير سحيقة ، فحياني كلاهما ، ودرت مع الطريق النازل ، فتكشفت أمامي الحقول ، وبدا القمر نحاسي اللون يبعث على الدفء والحرارة ، وقد كسا الحقول والغابات ، والمروج والمزارع ، ثم النهر عند الأفق بضوء فضي شفاف . وتآمر كل هذا الجمال على إخراجي من عالم الحقيقة إلى عالم الخيال . ولم أكن أحب هذا ، فجعلت أفكر في أمر الفتى والفتاة اللذين رأيتهما منذ لحظة ، وفي أنهما أصغر من أن يكونا حبيبين ، فلم يصلا بعد إلى سن السادسة عشرة ، ولم يتركا المدرسة إلا في العام الماضي ، وكانت « بتي رون » أولى الفتيات في المدرسة ؛ وهي طفلة لطيفة المعشر ، ذكية الفؤاد ، شديدة الاعتداد بنفسها ، ذات وجه حلو القسمات ، وعينين سوداوين ، وكانت أمها تغسل ملابس القرية ، وتساعدها ابنتها في ذلك ، وأما « جو بيكت » فكان فتى طيب القلب ، شديد الحساسية ،

ولكنه عنيد ، له شعر أحمر ، وعينان زرقاوان ، وجسم تام كبير ، وله نظرة صريحة ، وأنف صغير ، وكان يعمل فى مزرعة قريبة .

وكنت ما أزال واقفا فى مكانى حين جاء وهو فى طريقه إلى مزرعته . وما فتئت أحس بالأسى والأسف على مابدر منى فى ذلك الوقت ، فقد قال لى :

— وداعا يا سيدى فقد لا أراك بعد الآن .

فقلت :

— إلى أين أنت ذاهب يا جو ؟ .

— سوف أتطوع فى الجيش .

— ولكن أمامك سنتان على الأقل يا بنى .

— وصلت إلى السادسة عشرة ، وأبدو فى الثامنة عشرة ، ويقال إنهم لا يقيمون لذلك وزنا .

وكان حقا يبدو فى الثامنة عشرة . وكنت شديد الحماسة آنئذ ، أنتظر أخبار المارك فى لهفة وقلق . فقلت :

— ليس هذا واجباً عليك يابنى ، ولكنى معجب بوطنيتك .

فوقف لحظة صامتا ثم قال :

— وداعا يا سيدى . سأسافر فى الغد .

ثم أسرع فى طريقه دون أن ينظر إلى الخلف . وتركنى والليل مرة أخرى . أى جريمة هى الحرب ! ينطلق الأطفال فى هذا الهدوء الشامل للمساء بنور القمر ، ويلقون بأنفسهم فى أتون المارك ، كأن الدنيا ليس فيها من أسباب الموت ما يكفى . ونحن لا نستطيع إلا أن نعجب بهم . وما زلت ألمس ذلك الشعور الذى منعنى من أن أبلغ السلطات عن سن هذا الفتى .

وقفلت راجعا ، فوجدت الفتاة بتى واقفة مكانها أمام الهاوية ، فقلت لها :

— هل أخبرك جو ؟

فقالت :

— أجل يا سيدى ، سوف ينضم إلى الجيش .

— هذا تهور يا بتى .

فقالت :

هو عنيد يا سيدى ، ويتركنى !

فلم أستطع أن أمنع نفسى من الابتسام ، فلاحظت ذلك وقالت :

— أجل أنا صغيرة . وهو أيضا ، ولكنه فتاى .

ثم أحست بالخجل من إبداء عواطفها ، فجرت واختفت بين الأشجار كأنها الغزال ، فتوجهت إلى منزلى ونسيت بالقراءة ما حدث .

وبعد مضى سنة كنت واقفا فى الفصل مساء يوم من أيام سبتمبر عام ١٩١٥ ، أملق مصور الإمبراطورية ، وأفكر كالعادة فى الحرب ، وقد تخللت الشمس نوافذ الحجرة ، فرأيت من النافذة جنديا يجلس بين الأشجار مع فتاة . ثم عبر هذا الجندى الطريق إلى المدرسة ، وطرق بابى ، فإذا به جو ، يبدو رجلا فى ملابسه العسكرية . وقال إنه جاء يحيينى لأنه مسافر فى اليوم التالى إلى فرنسا . فقلت له :

— أهذى بتى ياجو ؟

فقال :

— أجل ياسيدى . أريد أن أفضى إليك بشىء . لقد تزوجنا فى الأسبوع الماضى فى ... وبقينا هناك أسبوعاً . ثم جئت بها إلى منزلها .

فقلت :

— وهل هو زواج رسمى ؟ .

فذهب إلى الباب ، وصفر بفمه ، فجاءت بتى فى رداء أزرق اللون أنيق الشكل ، ودخلت الفصل فى ثقة واعتداد ، ولم يبد من اضطراب نفسها إلا حمرة خفيفة بدت على وجهها ، فزادتها جمالا .

فقال جو :

— أريه الوثيقة والخاتم يا بتى .

فمدت الفتاة يدها بالوثيقة ، فقرأتها ، ولاحظت أن السن المسجلة فيها غير حقيقية . ثم خلعت قفازها ، ومدت أصابعها بالخاتم . فتيقنت أنهما قد ارتكبا الحماقة الكبرى فقلت :

— لطيف منك أن تخبرني بذلك . وهل أنا أول من يعرف ؟ .

— أجل يا سيدى . أردت أن أخبرك حتى تشهد بصحة زواجنا . فقد لا ترضى أمها . ها هي يا سيدى حتى أرجع ثانية .

قال هذا واضطربت ملامحه وبدا كأنه يكاد يبكى . ووقف كلاهما ينظر إلى الآخر لحظة ، ظنا فيها أنهما وحدهما ، ثم التفت إلى الفتى وقال :

— كم هى الساعة يا سيدى ؟ .

— الخامسة .

— لقد تأخرت . زملائى فى المحطة . هل أتركها فى رعايتك يا سيدى ؟ .

فوافقت . وتركتهما وحيدين برهة ، وعندما رجعت وجدتها جالسة وحدها حيث كانت تجلس وهى فى المدرسة ، وقد وضعت رأسها على ذراعيها . ولم أكن أرى غير شعرها الغزير الأسود وحركة اهتزاز كتفيها . فقد ذهب جو .

ومر الشتاء الثانى عاصفا ممطراً كما مر الشتاء الأول وقد نبا بنا أمل انتهاء الحرب . وأرتنى بتى بضعة خطابات جاءتها من جو تكشف عن عاطفة ملتهبة وتنم عن حنين شديد . وقبل زواجهما رسميا فى القرية ، فقد ذاع أمر زواج الأطفال ، وبدا عليها فى شهر إبريل أن هذا الزواج سوف يؤتى ثماره . وقابلت ذات يوم والدتها ، فاشتكت إلى الأمر ، وأخبرتنى بأنها قد أرسلت تخبر جو بالمولود المنتظر تحت إلحاح ابنتها .

وبعد مضى شهر ملاق الدهش عندما دخل على جو وهو فى وعثاء السفر ، وبدا كأنه لم ينم ليالى بأكملها . وذهب ليرى زوجه بعد أن حياني . ووضعت بتى طفلا بعد يومين . وشفيت سريعا . وأما جو فقد بقى فى القرية . ولابد أنه فى إجازة طويلة . وكنت نادراً ما أتحدث معه ، وإن تحادثنا لم يكن يذكر الحرب . ووجدته ذات ليلة واقفا مع بتى عند بوابة قريبة من النهر ، وكانت معركة «السوم» على أشدها . وكانت الجحيم يعلو سعيرها ، وهنا السلام يسود والأضواء تذوى ، والنهر تتدفق مياهه فى سكون وهدوء . ورأيتهما متقاربين ، فحاذرت أن أزعجهما ، وظننت أنها ليلته الأخيرة قبل أن يلقى بنفسه فى الجحيم مرة أخرى .

وجاءت إلى بتى فى اليوم التالى وهى فى أشد حالات الفزع وقالت :

— أسرع يا سيدى فقد ألقوا القبض على جو .

ففزعت وخرجت معها فقالت :

— يظهر يا سيدى أن هناك خطأ فى أمر إجازته ، فقد كانت طويلة ، وخفت أن يصيبه أذى ، فحادثت ضابط القرية ، فأتوا وألقوا القبض عليه بتهمة الهروب من الجيش فاذا فعلت . ماذا فعلت ! .

ووجدت جو واقفا خارج الكوخ بين رجال الشرطة ، فألقت بتى بنفسها بين ذراعيه ، وكانت أمها تناقش رجل الشرطة ، والطفل يبكى ، فسألت جو عن الأمر فقال :

— طلبت إجازة فلم يسمحوا لى بها ، وكان يجب أن أحضر .

فسألته :

— وأين كانت فرقتك ؟

فقال :

— فى الخط الأمامى .

فأخذت رئيس الشرطة بعيدا وقلت له :

— كنت مدرس هذا الفتى ، وقد انضم إلى الجيش وهو في السادسة عشرة ، وله الآن زوج صغيرة وطفل رضيع .

فقال الشرطي :

— يجب أن يرجع إلى فرقته ثانية يا سيدي وإن كان في ذلك قسوة .

— وما معنى هذا ؟

فقال :

— الإعدام . هرب من مواجهة العدو . أيمكن أن تبعد هذه الفتاة يا سيدي ؟

فقام جو بذلك بعد أن قبل شعرها ووجهها . وسار بين رجال الشرطة .

وتركوني وحيداً في ذلك الطريق العبق برائحة الزهور ، ومعي الفتاة الشقية .

وجلست تلك الليلة أكتب ما أعرف من جو ، وأرسلت نسخة مما كتبت إلى رئيس فرقته ، كما أرسلت نسخة أخرى إلى قسيس هذه الفرقة . وكان هذا كل ما أستطيع أن أقوم به .

ومضى أسبوع دون أن تصلني أخبار ، وكانت بتي شاردة اللب معذبة الفؤاد ، تعتقد أنها هي السبب في القبض عليه . وما ردها من الجنون أو الانتحار غير طفلها ، وكانت أمها تقول : « خير للفتاة أن تعرف أسوأ الفروض ، فالقلق يعذبها . » ولم أكن لألمس بشاعة هذه الحرب كما لمستها بسبب هذه الحادثة .

وأخيراً وصلني خطاب من قسيس الفرقة يقول فيه :

« قتل الفتى جو فجر اليوم . وقد بذلت ما أستطيع ، فقدمت الحقائق التي أرسلتها ، إلى المحكمة العسكرية ، فدرستها ، ولكن الإجازات كانت موقوفة ، ورفض طلبه . وكانت فرقته في الخط الأمامي ، والموقف حرج في ذلك القطاع . ورأت تلك أن الحالات الفردية لا قيمة لها أمام هذه الظروف ، فواجبه أن يحارب ، وخاصة في مثل ذلك الوقت . وأحزنني الأمر كما أحزن المحكمة . وكان الصبي ذاهلا أثناء المحاكمة ، ولم يقل بعد الحكم عليه غير « زوجتي ، زوجتي » واحتفظ برباطة جأشه حتى النهاية . »

واحتفظ برباطة جأشه حتى النهاية . . لن يتهم بالجبن وإن هرب . فلا يصدق هذا من رأى تلك العينين الزرقاوين الصريحتين . . لقد عصبوهما ثم أطلقوا عليه رصاصة واحدة من بين ملايين الرصاص . رصاصة لا قيمة لها ، مثلها مثل نقطة من المطر سقطت على شجرة غارقة في النهر ، ثم انحدرت مع مياهه إلى البحر . وهكذا ذوى هذا الصبي كما ذوى آلاف غيره . ولكن أليس من السخرية أن يطلق جيشه عليه الرصاص وهو الذي كان لا بد له أن يصبح هدفاً مشروعاً للموت في مدى شهر ؟ وأليس من السخرية أيضاً أن يترك طفلاً في عالم لا تهدأ ثائرته ولا تخف مظالمه ؟ حقاً أن نغم الحياة والموت لا يعبأ بفرد منا .

حسن الطفي المنفلوطي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

بين المسموع والمقروء

ساعة فى العمر لا تنسى

جلسنا فى البهو حول السيدة ، جلوس من أخلد إلى الراحة بعض حين . وظللنا ننتظر فناجين الشاى المليئة أمامنا حتى تبرد . وجرى الحديث فنوناً شتى ، حتى وقفنا عند الجوهر . فأخذت السيدة الكريمة تنظر إلى ماسة فى خاتم بنصرها ، ثم قالت : هذه آخر جوهرة كانت فى الدبّ . قلنا : فأى جوهر ، وأى دبّ ؟ فأخذت تقلب فنجانها بالذى فيه ، كأنما تستوثق من ذوبان السكر فيه ، وما كانت تقلّب إلا صفحات الماضى البعيد لما طلبت الخروج من روسيا ، فعُنّى لها الخروج ، ولكن بعد أن ذاقت مرارة للموت فيه .

كانت السيدة روسية . وكان لها فى روسيا أهل ذوو خطر ، وذوو مال . وجاء البلاشفة ، فلقى زوجها منهم مثل ما لقى أمثاله . فلما تأيّمت لم تجد فى روسيا غير الوحدة وغير الفقر ، وغير تذكر النكبة تلوها النكبة ، فأرادت من كل هذا فرارا .

وفرغت من تقليب الشاى ، فنظرت إلينا ، وجلّت على مهل تقول :

قتل البلاشفة زوجى ، وبعد مفاوضات طالت بضع سنين ، جاءنى الإذن بمغادرة البلاد ، وخطر لى الخاطر أول ما خطر ، بأن أذهب إلى ألمانيا . ولكن لم يكن لى بها أهل ولا أصحاب ، وكان لابد لى من عمل أرتزق منه ، والعمل فى البلد الغريب لا يأتى سريعا ولا سهلا . إذاً وجب علىّ قبل مغادرة روسيا أن أتزود . وخططت الخطة على الزاد القليل الحجم الكثير القيمة ، ولم يجمع بين الحجم القليل والقيمة الكبيرة غير الجوهر . فلما جاء أوان الرحيل وضعت كل ما كنت قد صنت وخبأت من ذلك فى دبّ محشو كانت تلعب به ابنتى . ولم تدر الابنة الساذجة ما صنعت أمها .

وركبنا القطار إلى الحدود . وفيه لقيت الكنتيسة فلانة ، وكانت تطلب الحدود مثلى ، وبما أنه كانت لنا غاية واحدة ، فقد اتفقنا على أن نتجاور ما استطعنا إلى المجاورة سبيلا . واقتربت الحدود ، فأسرّت الكنتيسة إلىّ أنها خبأت فى طيّات ثوبها عقداً ثميناً من اللؤلؤ . فظهر علىّ الوجل والذعر . قلت لها : ألا تدرين أن عقاب ذلك الموت ؟ قالت : وماذا أصنع وهو الشىء الوحيد الذى بقى لى من متاع الحياة .

وتوسلتْ إلىّ أن أعينها فيما هى فيه . وأخذنا نفكر فى الأمر ، ونطلب المخرج ولا نجد مخرجا . والقطار سائر ينهب الأرض نهبا . وفى كل ساعة تقترب الحدود ، ويقترب الخطر ، ووقع بصر الكنتيسة بغتة على زجاجة اللبن التى كانت لابنتى . وكانت قد شربت من لبنها نصفه فما أسرع ما فتحت الكنتيسة الزجاجة وأسقطت العقد فى اللبن ، وحبّات اللؤلؤ معتمة كإعتام اللبن ، فلم تكد العين تتبيّنها فيه . وأعادت الكنتيسة الزجاجة بلبنها وعقدها حيث كانت .

وبعد أن كانت لى خبيئة واحدة ، صارت لى خبيئتان ، وبعد أن كان عندى مصدر للقلق واحد ، صار عندى مصدران .

وكلما اقتربنا من محطة الحدود ازددنا قلقا ، وازدادت أعصابنا توترا ؛ فتلك الساعات الخمس أو الست التى سنقضيها هناك ، سيُقضَى فيها علينا بالموت أو الحياة .

وبلغنا الحدود وازدحم رصيف المحطة بالغادين والغاديات بأكسيتهم الثقيلة وهى من فراء ، واختلطوا اختلاطاً

كثيرا . وفى وسط الزحام الثقيل عرفنا أن نتسائل إلى حجرة التفتيش . وقام بالتفتيش جند مسلحون . فتحوا كل حقيبة ، وحلوا كل لفافة ، وداروا على الأمتعة صغيرها وكبيرها بعناية لا تفوقها عناية . ثم ساروا بنا إلى صف من حجرات صغيرة تقوم عليها نساء ، ظاهرهن النظافة ، وظاهرهن حسن الهندام زمانا طويلا . فهؤلاء فحصوا أجسامنا . عرَّيْنَنَا من الرأس إلى القدم ، وفعلن مثل ذلك بابنى ، ومن بين كل هذا بُوز من السكايات اللواذع علينا بأقساط متساوية .

ومرقنا من كل ذلك سالمات . ودُبّ ابنى لم يفتشوه . والبن الزجاجة لم تتطلع إليه عينٌ ريبة .

وجئنا بعد ذلك إلى موظف يفحص أوراقنا وجوازات السفر . وكان وجهه متجهما ، وعيناه قاسيتين . وقد علمنا أن له الحق الذى لا يُدفع فى أن يتشكك فى أى ورقة يشاء ، وأى جواز يشاء ، باعتبار أن الشك أسلم عاقبة للدولة . ولكنا جزنا هذا الدور أيضا بسلام .

وعدنا إلى رصيف المحطة ، فلفحتنا ريح باردة تقطع الوجوه ، وأخذنا نرتعد ، وزادنا ارتعاداً ما كنا فيه من قلق وخوف . وامتُقع لوننا وتناجت أطرافنا . ودخلنا قطارنا من جديد نطلب الدفء ، ولكنهم كانوا قطعوا الدفء عنه ، فصار باطن القطار كظاهره ، فلم نَعُد نجد شيئا . ومع هذا ، فما كدنا نجلس فى أماكننا حتى أخذنا نتنفس أنفاساً أطول وأروح .

ولكن الخطر لم يكن ذهب كله ، ففى كل وقت يمكن أن يأمر أرباب السلطة بالتفتيش فيكون . ومن شدة جزعنا ظللنا ننظر من النوافذ ولا يقول بعضنا لبعض شيئا .

وبغتة وقع المحذور .

جاء فى صورة أصوات منتظمة لأقدام ثقيلة تمشى نحونا فى ممر القطار . إنها أقدام الجند يعودون للتفتيش . وسمعنا الأبواب تُفتح فى قوة ، وتعود فتُغلق فى قوة . وبلغوا الصالون المجاور ، فسمعنا فيه حركة عنيفة ، وخرجت منه أصوات .

وأخيرا جاء دورنا . فتح البابَ جنديٌّ فى عنف شديد . ونظرناه فإذا هو رجل غليظ قد دُجج بالسلاح . ولم يتحرك ، بل أخذ ينظرنا تماماً نظرات كأنها الحراب ، فى ثوان كأنها الساعات . وأردنا أن نصرخ لنفرّج من أنفسنا فلم نستطع . وأخذ يدور ببصره بطيئا فى كل شىء ، فىّ ، وفى صاحبتى ، وفى ابنى وقد احتضنتى ، وفى الدبّ ، وفى كل متاع . ووقع نظره أخيرا على زجاجة اللبن وكانت موضوعة على مرأى العين عند النافذة . فابتسم ابتسامة لا تكاد تُحق . ثم تحرك إليها .

كانت ساعة من آلم ساعات الحياة . ودق قلبى كما لم يكن دق أبدا . وفى رأسى قلت أحدثُه فى نفسى : نعم نعم ، إنه اللبن ، وفى طيه ما فيه . افتحْ الزجاجة وصبَّ اللبن وأخرجْ النقد ، وافعل كل ذلك سريعا ، ثم افض بما تشاء ، فالحياة لا تحتمل كل هذا الألم . لقد سلبتمونى أيها القساة كل شىء ، فلم يبق إلا الحياة تخذوها هى أيضا .

وما بلغت السيدة هذا الموضع من حكايتها لنا ، حتى اعتمدت بظهرها على كرسيها ، وسكتت ساعة . لقد توالت عليها الذكريات وثقلت فلم تستطع للقصة مواصلة .

وسكتنا حينا . وبقصد التغيير قام قائم منا يدور علينا بالشاى مرة أخرى . ثم تشجع أحدنا فسأل السيدة وقد عاد إليها بعض اطمئنانها :

— ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ .

قالت فى خفوت :

— لم يحدث شىء . فاللبن بالزجاجة كان من شدة البرد قد تجمد .

أحمد زكى

الثقافة
AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٢٦٩

العدد ٤٦١ — الثلاثاء ١٤ من ذي الحجة سنة ١٣٦٦ — ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

مصير المستعمرات الايطالية

في دور الفصل

يجتمع في لندن منذ الثالث من أكتوبر مؤتمر من مندوبي الدول الأربع : بريطانيا وأمريكا وروسيا وفرنسا ، للبحث في مصير المستعمرات الإيطالية السابقة ، وإعداد الإجراءات والمقترحات التي يمكن أن يسترشد بها مؤتمر وزراء خارجية الدول الأربع في اتخاذ قراره النهائي في أمر هذه المستعمرات . وكان آخر ما قرره مؤتمر وزراء الخارجية في هذا الشأن في صيف العام الماضي ، هو أنه يجب أن يبت في مصير المستعمرات الإيطالية ، خلال عام من تاريخ التصديق على معاهدة الصلح مع إيطاليا ، وذلك وفقاً لقواعد معينة وضعها ، وقد تم هذا التصديق بعد طول الجدل والنقاش بين روسيا وزميلاتها ، في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر الماضي ، وأصبحت المعاهدة نافذة من هذا التاريخ ، وإذاً فلا بد من تقرير مصير المستعمرات الإيطالية السابقة قبل حلول منتصف سبتمبر سنة ١٩٤٨ .

ونحن نعرف أن معاهدة الصلح الإيطالية تتضمن نصاً صريحاً ، يقضي بتنازل إيطاليا عن كل حق في امبراطوريتها الاستعمارية السابقة ، وقد كانت هذه الامبراطورية تتألف عند دخول إيطاليا الحرب من ألبانيا وجزر الدوديكانيز في أوربا ، ومن لوبية والحبشة وأريتريا والصومال في أفريقية . وقد استردت كل من الحبشة وألبانيا حريتها ، وأعطيت جزر الدوديكانيز لليونان ، ولم يبق إلا أن يبت في مصير لوبية وأريتريا والصومال ، وهو ما يجري البحث بشأنه الآن في مؤتمر لندن .

وتتلخص القواعد التي وضعها مؤتمر وزراء الخارجية لتكون أساسا لتقرير مصير المستعمرات الإيطالية ، في أن الدول الأربع العظمى تقوم بتقرير هذا المصير وفقا لأحد المبادىء الآتية : (١) الاستقلال . (٢) الانضمام إلى إحدى الدول المجاورة . (٣) الوصاية ، وتتولاها هيئة الأمم المتحدة أو إيطاليا أو إحدى الدول المنضمة للأمم المتحدة . وذلك على أن يشمل النظام المقرر كل المستعمرات المذكورة أو جزءاً منها ، وذلك حسبما تملي به رغبات السكان ، أو تدلي به الحكومات ذات الشأن . فإذا لم تتفق الدول الأربع خلال العام المحدد على وضع حل معين ، عرضت المسألة على الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة لتقرر في شأنها ما تراه ؛ وتتعهد الدول الأربع أن تقبل توصيات

الجمعية العمومية ، وأن تنفذها ، وذلك مع مراعاة الوعود التى بذلتها الحكومة البريطانية للسنوسيين خلال الحرب .

على ضوء هذه القواعد يجرى البحث فى مؤتمر لندن لتقرير مصير المستعمرات الإيطالية ؛ بيد أن مؤتمر لندن الحالى يعتبر مرحلة تمهيدية فقط للمباحث النهائية التى سوف يضطلع بها مؤتمر وزراء خارجية الدول الأربع ، ومن المقرر المتفق عليه أن تؤلف لجنة رباعية لزيارة المستعمرات الإيطالية ودراسة أحوالها ، وتعرف رغبات سكانها ، ليسترشد مؤتمر وزراء الخارجية بمباحثها وتوصياتها ، وفى خلال ذلك يستمع المؤتمر إلى وجهات نظر الدول التى يهمها الأمر أو لها مطالب إقليمية فى المستعمرات الإيطالية ؛ وقد وافق المؤتمر على أن تستدعى ثلاث وعشرون دولة للإدلاء بوجهات نظرها فى هذه المسألة ، ومن بينها مصر والحبشة وإيطاليا والعراق .

وقد كثر الحدس والتخمين حول موقف الدول الأربع واتجاهاتها نحو هذه المسألة وأطماعها فى تراث إيطاليا الاستعمارى ؛ فأما فيما يتعلق بالجيبة (برقة وطرابلس) ، فقد قيل إن إنجلترا تسعى جاهدة إلى بسط سيادتها على برقة ، وذلك بأن تنشىء فيها دولة سنوسية فى كنفها ، وتحت حمايتها ، وإنها لن تفرط بأى حال فى قاعدة طبرق ، ومن ثم كان التحفظ الذى حلت مؤتمر وزراء الخارجية على وضعه ، وهو التعهد بمراعاة الوعود التى بذلتها الحكومة البريطانية للسنوسيين خلال الحرب . وأما طرابلس فتتطلع لنيل الوصاية عليها روسيا وأمريكا وإيطاليا ذاتها ؛ وتطالب الحبشة بضم أريتريا إليها ، وتميل أمريكا وبريطانيا إلى منح الحبشة بعض أراضى أريتريا الغربية ترضية لها ، حتى لا تشدد فى المطالبة بمنطقة أوجادن التى تقع بين الحبشة وبين الصومال الإيطالى ، والتى تحتلها بريطانيا الآن ؛ وربما اتفقت أمريكا وبريطانيا على أن يكون الانتداب لإحداهما على أريتريا لكى لا يفلت ثغر مصوع من نطاق السيادة البريطانية الأمريكية . وأما الصومال الإيطالى ، فأكبر الظن أن يكون من نصيب بريطانيا التى تحرص على أن تنفرد بالسيادة فى مثلث أفريقية الشرقية بأكمله ، وعلى شاطىء أفريقية الشرقى من عدن حتى شرق أفريقية البرتغالى ؛ وفى قلب هذا المثلث تنشىء بريطانيا ، فيما يقال ، قواعد الدفاع الجديدة عن الإمبراطورية البريطانية .

إلى جانب هذه الاتجاهات والفروض المختلفة يجب أن نذكر مطامع إيطاليا ذاتها فى استرداد مستعمراتها السابقة أو جزء منها على الأقل بطريق الوصاية الدولية ، ويلاحظ أن القواعد التى وضعها مؤتمر وزراء الخارجية تفسح مجالاً لهذا الاحتمال . ومع أن معاهدة الصلح الإيطالية تسجل تنازل إيطاليا صراحة عن كل حق لها فى مستعمراتها السابقة حسبما أسلفنا ، فإن إيطاليا لم تيأس من تحقيق مطامعها فى استرداد بعض تراثها الاستعمارى ؛ وتشجع بعض الدول الكبرى إيطاليا على التعلق بهذا الأمل بما تبديه من عطف على إيطاليا ، وتأييد لها ؛ فأمريكا تحاول فى هيئة الأمم المتحدة أن تحصل على تعديل المعاهدة الإيطالية لصالح إيطاليا ، وهى المعاهدة التى لم يجف مدادها بعد ، ولم تدخل فى دور التنفيذ إلا منذ شهر فقط ، كما تسعى إلى إدخالها فى هيئة الأمم المتحدة ؛ وبريطانيا تؤيد هذا الاتجاه ، كما أنها لا تمانع فى أن تمنح إيطاليا الوصاية على طرابلس ، وفرنسا تؤيد وصاية إيطاليا على طرابلس بقوة وصراحة ، لأنها ترى أن تبقى إيطاليا إلى جانب شمال أفريقية الفرنسى سداً منيعاً يحميه من موجة التحرير المتدفقة من الشرق ؛ وروسيا كذلك لا تضن بعطفها على إيطاليا .

***

ومن الطبيعي أن تهتم مصر أشد الاهتمام بمباحث مؤتمر لندن ومصير المستعمرات الإيطالية السابقة ولاسيما لوبية جارتها من الغرب ، وقد أعربت مصر عن هذا الاهتمام في مؤتمر الصلح في صيف العام الماضي وتقدمت بمطالبها الإقليمية إزاء إيطاليا . والآن تقدم مصر مذكرة جديدة بمطالبها ووجهات نظرها في هذه المسألة إلى ممثلي الدول الأربع في لندن لتكون موضع الدرس في المؤتمر ، ولم تذع محتويات المذكرة المصرية بعد ؛ بيد أنه يمكن قياسا على ما سبق أن أبدته مصر من وجهات نظرها في هـذا الشأن ، أن نقرر أن مصر ، تطالب من الناحية الإقليمية بهضبة السلوم وواحة جغبوب التي سلخت منها قسرا في سنة ١٩٢٥ ؛ كما أنها تطالب بإقليم أرتيريا أو منطقة مصوع باعتبارها من الأراضي المصرية السابقة التي أرغمت مصر على الجلاء عنها بطريقة غير مشروعة ، والتي احتلتها إيطاليا بطريق الاغتصاب المحض ودون مسوغ شرعي ؛ وفي هذا الطلب بالذات تنافس الحبشة مصر ؛ والظاهر أن مطالب الحبشة الإقليمية في هـذه المنطقة تلقى من الدول الكبرى عطفا أكثر مما تلقاه مطالب مصر .

على أن مصير لوبية هو أهم ما يسترعي اهتمام مصر في هذه المسألة كلها ؛ وقد سبق أن نوهنا غير مرة بأهمية لوبية بالنسبة لمصر من الوجهة الدفاعية ، وأهمية تحريرها من سلطان أية دولة استعمارية . ومصر تطالب لجارتها التاريخية ، وشقيقتها في العنصر والدين واللغة بالوحدة التامة والاستقلال الكامل، وتعارض في أية تجزئة لها أو وضعها تحت وصاية أية دولة استعمارية ؛ فإذا رأى مؤتمر وزراء الخارجية بالرغم من جميع الاعتبارات أن توضع لوبية تحت الوصاية الدولية ، فإن مصر تكون أحق من غيرها بالاضطلاع بهذه الوصاية بحكم الجوار والظروف والعلائق المشتركة ، كما أنه يمكن أن تمنح هذه الوصاية للجامعة العربية . وتؤيد الجامعة العربية في القرار الذي أصدره مجلسها أخيرا وحدة لوبية واستقلالها ، وتوصي الحكومات العربية باتخاذ العدة لصون استقلال لوبية ووحدتها ، وبذل كل مسعى دبلوماسي لدى الدول ذات الشأن لتحقيق هذه الغاية . ولا شك أن قرار الجامعة العربية مما يقوي وجهة النظر المصرية بالنسبة لمصير لوبية ويشد أزر قضيتها .

والخلاصة أن مسألة المستعمرات الإيطالية السابقة تدخل الآن في دور الفصل ، ولا بد لمصر أن تتذرع بمنتهى الحزم واليقظة في بسط مطالبها ووجهات نظرها فيما تعتقد أنه يمس سلامتها ومصالحها الحيوية ؛ ولن تكفي في ذلك المذكرات الصامتة ، بل يحسن أن تطرق مصر كل وسيلة دبلوماسية ممكنة لتأييد مطالبها . وأكبر ما نخشاه أن يغدو مؤتمر وزراء الخارجية معتركا للمنافسات الاستعمارية ، وأن تغلب المساومات الاستعمارية على اعتبارات الحق والعدالة ومقتضيات السلام الدولي ، فتوزع أسلاب إيطاليا الاستعمارية بصورة يهدر معها حق المصير ، وتعود إيطاليا المعتدية الآثمة في الحرب العالمية الثانية إلى وضع أقدامها في شمال أفريقية مرة أخرى تحت ستار الوصاية الدولية .

على أنه يجب أن نذكر دائما أن نجاح مؤتمر وزراء الخارجية في تقرير مصير المستعمرات الإيطالية ليس أمرا محققا ، بل يغلب على الظن أن تنتهي المنافسات الاستعمارية ومعارضات روسيا السوفيتية إلى فشل المؤتمر في تحقيق هذه المهمة ؛ وعندئذ يجب أن تحال المسألة على الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة وفقا للقواعد التي وضعها مؤتمر وزراء الخارجية في الصيف الماضي ؛ ويغدو لزاما على هذه الهيئة أن تجد بنفسها الحل المنشود لمشكلة المستعمرات الإيطالية .

محمد عبد الله عنان

إلى من يلزمهم من أهل البصائر :

نداءان !

أما النداء الأول فهو نداء المروءة ، ويلجأ إليه الملهوف إذا اشتدت به الكربة ، ليستنجد بأصحاب الهمة العالية ، والنفوس النبيلة — هؤلاء الذين يعطون ويجدون لذة في العطاء ، ويجودون لأن الجود من طباعهم ، ويحسنون لأنهم يجدون في الإحسان جزاء الإحسان ! ومن أمثلة هذا النداء ما يبعثه الغريق إذا أوشك أن يهوى إلى الأعماق ، فهو يصارع الموج مصارعة المستيئس ، ويصيح من شهقته طالبا المعونة قائلا : « النجدة ! أغيثوني ! » .

ولكن التجربة قد دلت في البلاد المختلفة والعصور المتعاقبة على أن أصحاب المروءة قليلون . فإذا صاح الغريق وهو يصارع الموت طالبا النجدة ، تجمع الناس على شاطىء البحر ينظرون إليه ، ويشيرون بأيديهم ، ويصيحون صيحات الرثاء والفزع ، ولكنهم لا يخلعون ملابسهم ويقذفون بأنفسهم إلى اليم لإنقاذه إلا أن يكون بينهم واحد أو اثنان أو ثلاثة من أولى النجدة ، فيلبون النداء ويخاطرون بأنفسهم في سبيل الواجب الإنساني ، هؤلاء هم الشواذ الذين يستجيبون لنداء المروءة ، وأما الجمهور الأكبر فيبقى ثابتا على الشاطىء مكتفيا بالتصفيق لأصحاب المروءة .

وليس قعود الأكثرين من تلبية نداء المروءة راجعاً إلى العجز في كل الأحوال . فقد يمتنع بعض القادرين عن عمل المروءة لأسباب تافهة ترجع في الغالب إلى الأنانية ، أو الكبرياء . فلنتصور مثلا أن (س) باشا مرّ في عربته الفخمة بجوار الشاطىء ، فرأى أحد الفلاحين يطفو حينا وينغطس حينا وهو ينادى طالبا النجدة ، فماذا تظن الباشا يفعل ؟ أيأمر سائقه بالوقوف ويخلع ملابسه ويقذف بنفسه إلى الماء لينتشل الغريق المسكين ؟ إنى أستطيع أن أقسم قسما مغلظا أنه ولو كان أمهر الناس في السباحة لن يقف لحظة ، بل يمضى في سبيله وهو يهز رأسه أسفا . هذا إذا كان ممن يتألمون لألم الغير ، والسبب في هذا أن أمثال ذلك السيد يشعرون أن كرامتهم الاجتماعية تأبى عليهم أن يخلعوا ملابسهم ، ويقذفوا بأنفسهم في الماء كما يفعل السوقة .

هذا مثل لا أقصد به شيئا سوى أن أقرر الحقيقة التى عرفتها من تجاربى في الحياة ، ولا أقصد أن أوجه لوما إلى أحد .

ويمكن للقارىء الكريم أن يصور لنفسه أنواعا أخرى من نداءات الاستغاثة ، ثم يسائل نفسه عن صدى تلك النداءات : هل يستجيب لها الكثيرون أم هم القلائل الذين يستجيبون ؟ ومن هم هؤلاء القلائل ، أهم من أصحاب الكبرياء ، أم من المتواضعين !

فإذا تصورنا أن صوتاً يعلو في الليل صائحا : « يا خلق هو ! » فلاشك في أن الذين يسمعون ذلك النداء لايهبون من مراقدهم لحظتئذ مسرعين إلى النجدة . اللهم إلا القلائل الذين ألقى الله في قلوبهم حب المروءة والحمية إلى إغاثة الملهوف .

ولكن هناك نداء آخر غير نداء النجدة والمروءة . هناك مثلا نداء التحذير الذى لا يخلو من التهديد ؛ فإذا صاح سائق العربة قائلا : « يمينك ! شمالك » كان الناس أسرع إلى الاستجابة والتنحى عن الطريق ، فإن ذلك أحرى أن يجنبهم دهس العربة — ومن ذلك كان صوت « الكلاكس » العالى رهيبا يفزع السائرون منه ويسارعون لائذين بجانب الطريق .

وقد يكون نداء التحذير منبعثاً من وجود خطر داهم ، كما إذا شب حريق والعياذ بالله فإن الجيران يسارعون إلى إطفائه خوفاً على أنفسهم أن يمتد الحريق إلى منازلهم

والدول كالأفراد فى أحوالها وطبائعها ، لا فرق بينها فى كل ذلك ، لأن الدول ليست إلا مجموعات من الأفراد . فلندخل الآن فى الموضوع :

إما أكثر الصيحات التى علت فى مصر من المخلصين أصحاب البصائر تطلب النجدة ! تطلب النجدة للشعب المصرى الذى يئن ويشكو من كل الآفات التى يمكن أن تصيب الإنسانية . فالفلاح مسكين : جاهل — ضعيف جائع — لا يجد السكن اللائم — ولا يجد الطريق المناسب ، ولا يشرب الماء الصالح ، ولا يلبس الثوب اللائق .

يستأجر الأرض بخمسة وعشرين جنيها الفدان لكى يعمل طول العام فى الصيف والشتاء ، ثم يخرج فى آخر العام بأردب من ذرة بعد أن يسدد ما عليه من نفقات الزراعة ؛ وإذا مرض — فالعياذ بالله . وإذا سرق فالسرقة حرام — نعم هى حرام بلا شك . وإذا وإذا وإذا — أمور تقطع القلب وتدعو أصحاب البصائر إلى طلب النجدة . ولكن ماذا كان نصيب تلك الصيحات ؟ الميزانية تضيق عن الإصلاح الاجتماعى لأن مواردها محدودة ، والضرائب تمس مصالح أصحاب النفوذ والجاه ، فلا ينبغى أن تزيد على الحدود المتواضعة التى تحفظ على أصحاب الثراء (بحبحتهم) ولذلك يجب أن تبقى الميزانية محدودة . وهكذا كان النداء دائما ينتهى إلى دائرة لا يعرف لها طرف . وكانت النتيجة أن الإصلاح ترك يزحف زحف السلحفاة .

ولكن هناك صيحة أخرى ليست من الصيحات الكريمة التى تطلب النجدة وتلجأ إلى المروءة ونبل النفس . هناك صيحة الإنذار التى لا تخلو من التهديد . هناك (الكلاكس) العالى الذى ينذر الناس أن يتنحوا عن الطريق وإلا دهستهم العربة . هناك الحمى الراجعة والملاريا والشوكية والتيفوس — ثم هناك الحريق المدمر الذى ينتشر بسرعة الهواء — هناك الكوليرا أعمى الله البلاد من شرها .

كل هذه نذر مخيفة ونداءات مزعجة تهب البلاد لها كلما سمعتها وتسخو نفسها بكل ما تملك فى سبيل النجاة من الخطر الذى تنذر به . فالدولة لا تبخل بشىء إذا سمعت بهذا النذير وإن كلفها الملايين الملينة — وهى فى ذلك تقوم بواجبها الإنسانى الوطنى كما ينبغى لها . ولكن ألا يمكن أن نستفيد عظة من كل هذه النذر ؟ .

ألا ينبغى لنا أن نقدر الأسباب التى تنشأ عنها هذه الأوبئة الخبيثة ونعمل على تلافيها ؟ لئن خابت صيحات النداء النبيل الذى يطلب النجدة بباعث المروءة ، فإن هذه الصيحات الأخرى التى تنذر بالخطر جديرة بأن تلقى من البلاد كلها آذانا صاغية . إن الطرق الصالحة والقرى المنظمة والمساكن النظيفة ومياه الشرب النقية والإنارة والنظافة — هذا جدير بأن يصرف عليه كل عام عشرات من الملايين . ثم هذا الشعب العامل الذى لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يعرف النظافة ولا يتسع أفقه لمعنى الحياة ، جدير بأن يصرف عليه كل عام عشرات الملايين لكى يعرف الحياة الإنسانية ويتمكن منها .

أما من أين نأتى بهذه الملايين فأمر آخر . علينا أن ندرك أن الحريق إذا شب عدو الناس جميعا ، وأولى بهم أن يدرأوا أسباب الحريق قبل أن يشب . وخير لنا أن نصرف هذه الملايين ، ولو من ديون نتحملها . خير لنا أن نأتى بهذه الملايين من أى طريق ، قريبا كان أو بعيدا . خير لنا ذلك من أن نقعد فى انتظار رهيب نتوقع معه أن يشب الحريق فى كل لحظة ، فنسخو بما عندنا لكى نطفئه . وهذه المصائب التى تحل بالبلاد ، إنما هى نذر شديدة يجدر بنا أن نتنبه لها ، ونستعد لما يكون بعدها . وإلا كنا كالذى يسمع (الكلاكس) العالى ثم يسير مطرقا مغفل الرأس فى وسط الطريق .

محمد فريد أبو حديد

كراهة الناس

معظم الناس يستخلصون من تجاربهم الخاصة أحكامهم على الأفراد والجماعات ، ومقاييسهم للأشياء ، ويعتقدون أن ما يلائمهم ويتجاوب مع نفوسهم يطابق كذلك أهواء الغير ويلبي مطالبهم النفسية . والرجل الذي تدفعه طبيعته إلى تأمل الجانب المشرق من الحياة سيلون حياة الناس بألوان عاطفته ، فيحسن بهم الظن ، ويرى فيهم الخير ، ويعقد بهم الأمل ، ويهون من شأن عيوبهم ، ويلتمس المعاذير لأخطائهم . والرجل الذي يسوقه مزاجه إلى مواجهة جوانب الحياة القاتمة يسوء ظنه بالناس ، ويشك في قابليتهم للخير والصلاح ، وربما يجد نوعا من المتعة والتسلية في إحصاء عيوبهم ، وتقصي سقطاتهم ، والمبالغة في تصوير عجزهم وضعفهم ، وعنده أن ذلك مما يثبت أصالة فلسفته ويؤيد صدق نظرته وعمق حكمته !

وفريق من هؤلاء المتشائمين جبلت نفوسهم على حب الإنسانية ؛ فهم يرثون لحالها ، ويتألمون لوجيعتها ، ولكنهم مع ذلك يائسون من الإصلاح ، منكرون للتقدم ، وهم يشكون في قدرة العقل ، وفي فضيلة الإنسان ؛ ومن أمثال هؤلاء اليائسين الرحماء حجة شعراء العرب أبو العلاء المعري ، فقد كان على تشاؤمه وسوء ظنه بالناس والحياة جم العطف واسع الرحمة ، يود لو استطاع أن ينقذ هؤلاء الغرقى في سيل الحوادث وعباب الدهر ، وحينما يتنقص الناس ويعدد مساوئهم ومخازيهم لا يتعالى عليهم ، ولا يستثني نفسه ، ولا يشمت بهم ، ولا يتشهى هجاءهم ؛ فهو يريد للناس الخير ، ويود لهم السعادة والتوفيق ، ولكنه لا يقبل أن يغالط في الحقائق نفسه ، ويؤثر الصدق في القول ، ويترفع عن التزوير والسفسطة .

ومن المتشائمين من طبعت نفوسهم على كراهة البشر ، والنفور منهم ، والضيق بهم ؛ وأمثال هؤلاء يزيد تشاؤمهم في كراهيتهم للناس ، ويقوى عندهم نزعة الازدراء والتنقص ، ويجعل لهم قدرة عجيبة على استشفاف العيوب ، وتحري أوجه النقص في الأخلاق والعادات والتقاليد وسائر ما تمتاز به الإنسانية .

والتشاؤم القائم على كراهة الناس قد يقترن بالفهم الدقيق ، والفطنة البالغة ، والذكاء الخارق ، والبراعة في الكشف عن نواحي الخسة في الطباع الإنسانية ، والمتشائم الكاره للبشر يستعمل ما أوتيه من البصيرة في إثبات أن السفالة والنذالة والخسة هي الصفات الغالبة على الإنسان ، وأن الغباء الشديد والسطحية والعامية والشناعة والفظاظة والسماجة والرعونة هي السمات الشائعة والقاعدة المطردة ؛ فالعالم في نظره لا يسكنه سوى الثقلاء السمجاء والبلهاء والمخرفين والنوكى والحمقى والداعرين والطرّارين والنصابين والمحتالين .

والمتشائمون من هذا الطراز لا يثورون على الأقدار ، ولا يتسخطون أحكام القضاء ، وإنما يلاحظون معاصريهم ، ويراقبون أعمالهم وتصرفاتهم ، ويمطرون عواطفهم في غير شفقة ، ويشرّحون أفكارهم ، ويحللون بمشاهدة كبرياء الإنسان المغرور الأجوف وتفاهته وعجزه الفكري والأخلاقي

ويختص أصحاب هذا اللون من ألوان التشاؤم التمصيق المتشددين بنصيب وافر من سخريتهم واستهزائهم ، وكراهيتهم ومقتهم ، ومن ثم تحاملهم على التقاليد المتبعة ، والعرف السائد ، والآراء والمعتقدات الاجتماعية الغالبة ، وهم لا يترددون في الاستهانة بقداستها ، وانتهاك حرمتها ، ويسوؤهم ويثير نقمتهم ادعاء القدرة على فهم أسرار الكون وحل ألغاز الأبدية ، ويشحذ فيهم ملكة السخرية ونزعة التنقص والميل إلى الهجاء ؛ فتشاؤمهم ليس تشاؤم الراحم للبشر ، الرائي لآلامهم ، وإنما تشاؤم الشاهد المحتقر الساخر المؤثر للتهكم والتهاتف والشماتة والزراية .

ومن هؤلاء الكارهين للبشر أبو الطيب المتنبي ،

وهو يروى لنا فى إحدى قصائده خلاصة تجربته للناس فيقول :

إذا ما الناس جربهم لبيب
فإنى قـــد أكلتهم وذاقا
فـــلم أر ودهم إلا خداعا
ولم أر دينهم إلا نفـــاقا

وحينا يلمز الناس ، ويحمل على معاصريه ينزع نفسه من صفوفهم وينأى بجانبه منهم ويحتاط لنفسه ، ويحاول أن يعلل اختلاف طبعه عن طبيعتهم كما فى قوله :

ودهر ناسه ناس صغــــار
وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهـــم
ولكن معـــدن الذهب الرغام

والكاتب البريطانى الكبير سويفت فى طليعة كارهى البشر ، ومحتقرى الإنسانية ؛ وكتابه المعروف « رحلات جلفر » أعجوبة مرة قاسية من أقوى الأهاجى التى وجهت إلى البشرية ؛ وقد افتن فى تصوير ملهاة مأساة الإنسان ، ومزج فيها السخرية البالغة بالفكاهة الطلية البارعة ؛ وقد أراد أن ينال من كبريائنا الإنسانية ، فصور المجتمع الكامل الوحيد مجتمع الأحصنة لا جمهورية أفلاطون ولا أوتوبيا السير توماس مور ؛ ويلمح قارئ هذه الرحلات العجيبة أن ازدراء كاتبها البشر يتزايد من فصل لآخر ، حتى ينتهى إلى هذه الإهانة الشديدة للبشرية ؛ وفى أثناء ذلك ينكر على الإنسانية كل فضيلة ، ويجردها من كل مزية ، ويعيب عليها سياستها وأديانها وآدابها وشجاعتها وعلمها وتاريخها وحضارتها ؛ والواقع أن هذا الكتاب الخالد قضية على البشرية تتضاءل إلى جانبها القضايا الشعرية المعروفة أو المجهولة ، وهى قضية شاملة مستوعبة لم ينج من شرها شىء ؛ ففى لابوتا وفى أكاديمية لاجادو سخر سويفت بفلاسفة ما وراء الطبيعة والعلماء والخالين ، وفى جليبدرب سخر بأكاذيب المؤرخين ، وكشف عيوب أسلافنا المتقدمين ؛ وفى وصفه لأهل ليليبت يرينا ضئولتنا وتفاهة تفكيرنا ، ولا يكتفى بذلك بل يعود فيؤكد لنا قامتنا وقلة حولنا ، بأن يضعنا إلى جانب عمالقة بروبد نجناج ، وفى لابوتا وبالنبارى يعكس الجنون الإنسانى فى مرآة محدبة تزيده ضخامة ومسخا وتشويها ، والخلافات السياسية ليست فى رأى سويفت أجل شأنا من الخلاف بين لابسى الكعب العالى ولابسى الكعب الوطىء ، والفرق الدينية تشبه هؤلاء الذين يكسرون البيضة من جانبها والذين يكسرون البيضة من طرفها ، ووزراء الدولة ينالون مناصبهم ببراعتهم فى الرقص على الحبل المشدود ؛ ورأيه فى النساء وجمالهن يشبه رأى المتنبى الذى يقول :

ومن خبر الغوانى فالغوانى
ضياء فى بواطنـــه ظلام

ويزيد سويفت على ذلك أن جمال النساء لا يخلو من القبح والدمامة ؛ وخلاصة رأيه أن كل ما يبدو لنا جليلا رائعا ينكشف لنا ضعفه ، ويتجلى لنا عيبه لو زاد نصيبنا من الحكمة والعظمة . ولقد شق سويفت فى هذا الكتاب قلبه من الإنسانية ، وصب عليها نقمته ، وسخر بها فى كل وضع من أوضاعها ، وفى كل عمل من أعمالها ؛ ولا أعرف حملة على الجبن والضعف والسخف الإنسانى ، أشد من حملته أو أكثر منها وأوفى ، وأشمل وأعم ؛ وكل ذلك فى بلاغة لامعة ساحرة ، وإن كانت قاسية وحشية لا تعرف الرحمة ولا اللين .

على أن الإنسانية قد عرفت كيف تنتقم لنفسها من سويفت وتجازيه صاعاً بصاع ، فجعلت هذا الكتاب الحزين العميق الذى يجمل بالرجال أن يتأملوه طويلا كتاب تسلية للأطفال ؛ ولعل أشد ما يضحك فيه الأطفال هو ما يستدر دموع الخجل من عيون الرجال !

وكراهة البشر لا تقتضي الابتعاد عنهم واعتزالهم ! ففولتير مؤلف «كانديد» على علمه بالسخف الإنساني والضعف البشري كان رجلا اجتماعيا ؛ وسويفت نفسه لم يعتزل المجتمع ، ولم يهجر الناس على مقته وشدة احتقاره لهم ! ولكن بعض كارهي البشر مثل فلوبير — الروائي الفرنسي الكبير — آثاروا باعتزال الناس ومجانبتهم والفرار منهم جهد الطاقة ؛ وقد آثر فلوبير العكوف على نفسه باعتبارها الملجأ الوحيد في عالم السخف والسطحية ؛ وعنده أن هذا هو ما يجمل بالرجل النبيل الأخلاق المهذب النفس ؛ وكان شبح البهيمية الإنسانية يطارد فلوبير في كل مرتأة وكل ثنية ، ويقف له بالرصاد ، ويطالعه في صور مختلفة وأزياء متعددة ، وقد بحث عن مهرب من هذه البهيمية الكامنة في الفن والتأمل .

ويقول إميل فاجيه في دراسته القيمة لفلوبير : « كبرياؤه وحياؤه وفرط حساسيته جعلت منه رجلا خجولا ميالا إلى العزلة كارها للبشر » . وهذا المزيج من الغرور والحياء أحال فلوبير رجلا غريب الأطوار لا يعنيه من أمر دنياه إلا ما يتصل بشئونه الخاصة ، وكان كثيراً ما يقول عن الأشياء الخارجة عن دائرة اهتمامه : « هذا لا يعنيني ، ولذا ليست له قيمة » ، كأن الأشياء لا توجد لها قيمة إلا إذا كانت تعنيه عناية خاصة .

وكان يسوؤه أن يحاول أحد إرشاده أو نصحه ، ويثير غضبه الشديد ؛ وقد كتب إليه مرة صديقه دي كامب ينصحه ويشير عليه بالخير في أمر من الأمور ، فكتب إليه فلوبير من رسالة له : « يبدو لي أن بك لوثة من ناحيتي ، وهذا عيب خطير — وأرى أن هذه اللوثة شيء مضحك ، وهذا كل ما في الأمر ، فأقلل من عنايتك بأعمالي فإننا لا نسير في طريق واحد ولا نقلع في نفس الزورق ، ولست أريد مرفأ سوى البحار العالية ، فإذا غرقت سفينتي فلا تأس ولا تحزن ولا تحمل نفسك العناء » .

وهذا كله لأن صديقه ظنه إنساناً عاديا كسائر الناس الذين يقبلون أن تقدم لهم النصائح والإرشادات ، ويشكرون أصدقاءهم لعنايتهم بهم ، واهتمامهم بأمورهم ؛ ولكن فلوبير كان يرى نفسه من طراز آخر ، فلا يجوز في شرعته أن يتطفل عليه أحد بتقديم النصيحة ، وكان جزاء صديقه هذا التأنيب اللاذع ثم مقاطعته مقاطعة أبدية ، لأن هذه النصيحة تركت في نفسه الحساسة جرحاً لا يندمل !

وكتب بعد ذلك إلى إحدى صديقاته يقول لها عن هذه الحادثة : « إني حسن الأخلاق وطيب إلى حد معلوم ، بحيث لا تمس حدود حريتي ، فإذا حاول أحد أن يتجاوز أطراف عالمي الخاص رددته على عقبيه ونبذته بعيداً ، ولقد أخبرته أن الغير يعملون بلا حاجة إلى أضوائي ، وكل ما أريده أن لا يخنقوا أنفاسي بشموعهم » .

وقد ظهرت في فلوبير بوادر الكراهة للبشر من مطالع شبابه ؛ كتب في الثامنة عشرة من عمره يقول : « لا تظن أني لم أفصل في اختيار مهنة ، ومن المؤكد أني لن أختار أي مهنة ، لأني أحتقر الناس احتقاراً شديداً يجعلني غير راغب في أن أنفعهم أو أضرهم » . ويقول في موضع آخر : « لقد ولدت قليل الإيمان بالسعادة ، ومن يوم ليوم يتزايد احتقاري لإخواني البشر ، وذلك مما يسرني » . ويتساءل في إحدى رسائله : « لماذا يثير سروري اكتشاف الأعمال الحاطئة ! إني أحب أن أرى الإنسانية وقد صُغّر من شأنها وقُلل من احترامها ، وسخر بها ، ولهذا السبب أضمر بعض الاحترام للنساك والزاهدين » .

ومن الغريب في حياة فلوبير أن كراهته الإنسان وضيقه بسخفه وغبائه ، جعلته شديد الكلف باقتفاء آثار السخف الإنساني لكي يشبع نهمه من كراهته وازدرائه ؛ فهو يجب أن يتأمل السخف الإنساني طويلا لكي يزداد له كرها ؛ والتزم فلوبير ذلك حتى أصبح يستشعر المتعة في

الكشف عن العيوب البشرية والأخطاء والنقائص ، وصار يجد لذة شيطانية في وصفها وتصويرها ؛ فالبشر السخفاء في رأى فلوبير يستحقون منه الشكر والتقدير ، لأنهم يتيحون له فرصة الاحتقار والتسلى بمشاهدة غرورهم المنتفخ ، وتحليل أفكارهم المضحكة ؛ وقد جيء بهم إلى هذه الأرض لترفيه عن فلوبير وأمثاله من الفلاسفة الساخرين !

وشوبنهاور يجعل الرحمة أساس الأخلاق ، ولكن الذي يبدو من حياته الخاصة هو أنه كان كارها للبشر ، شديد الاحتقار لأمثالهم ، راغبا في الاستغناء عنهم ؛ ولكن الإنسان مهما احتقر الناس لا يستطيع أن لا يبالى بأفكارهم وآرائهم ، ولما كان شوبنهاور برغم احتقاره للناس وازوراره عنهم يحب الاعتراف به ، والثناء عليه والالتفات إلى فلسفته ؛ ولا نزاع في أنه مما أوقد كراهته للناس إعراضهم في صدر حياته عن آرائه وإغفالهم شأنه ، وعجزهم عن تقدير قيمته ؛ ولما جاءته الشهرة في أواخر حياته كان شديد الحرص على معرفة ما يكتب عنه ، وما يقال في فلسفته ، مما يدل على أنه كان أقل احتقاراً لآراء الناس مما يبدو ؛ ولا نزاع في أنه كان رجلا طريف الشخصية ، معتداً بنفسه ، ميالا إلى الاستقلال ؛ ولكنه برغم ذلك كان يميل إلى التشجيع من الغير ويحب العناية بفلسفته والإقبال عليها ، كما يدل عليه هذا الحرص الشديد على معرفة أثر آرائه في النفوس .

والواقع أن إدمان التفكير ورهافة الإحساس وحب الاستقلال والطرافة والأصالة ، يجعل الإنسان شديد الشعور بفرديته ، وهذه الفردية تثير شعور الإنسان بوجود حرب خفية بينه وبين المجتمع ، لأن المجتمع بطبيعته يحاول أن يزيل الشعور بالفردية ، ويخضع الفرد لأحكامه ومقاييسه وعاداته وتقاليده وأساليبه ومناهجه ؛ ولذا يغلب على أصحاب الفنون وكبار المفكرين الميل إلى العزلة والاعتصام بالنفس ؛ فإذا اقترنت هذه النزعة بالمزاج المتشائم فقد تقوى حدتها وتستفحل شدتها وتستحيل كراهة صماء للناس ، واحتقاراً للبشر لا كفاء له ؛ وقد بلغ ذلك نهايته ، وأوفى على غايته في حياة بعض كبار الكتاب من أمثال سويفت وفلوبير والمتنبي . والميل إلى الرحمة هو الذى نأى بعقل أبي العلاء المعرى وأناتول فرانس عن مثل هذا المصير المحزن والموقف القاسي .

علي أدهم

الجمهورية السورية

رئاسة مجلس الوزراء

الرئيس

حضرة الأديب الكبير والمؤرخ المحقق الأستاذ جمال الدين الشيال المحترم :

تحية وبعد . فإنه ليسرني أن أشكر لكم هديتكم القيمة « مصر والشام » الذى طالعته وأنا مفعم القلب بما رفعتم إلى إحيائه من روابط الود والإخاء بين القطرين العربيين الشقيقين التى من شأنها أن تزيد علائق الشام بمصر توثقاً وعلائق مصر بالشام إحكاما .

وإن مصر والشام كانا في حقب التاريخ على ما أقمتم عليه الدلائل في سفركم النفيس مرتبطين ارتباطا لا انفصام لعراه ، ويسعدنا أن يعود القطران إلى ما كانا عليه في تاريخهما الطويل لنؤديا في هذه الأيام ما أدياه في ماضيهما المجيد من خدمة للعلم والحضارة والإنسانية ، وما سجلاه على الدهر من مواقف مشرفة ومواقف مشرفة ، وما خاضاه من معارك كريمة في الدفاع عن الحق والعلم والمدنية .

فتقبلوا خالص شكرى . حفظكم الولى وأدامكم .

رئيس مجلس الوزراء

جميل مردم

أخلاق العبيد

سأقول وأعيد ، ثم أقول وأعيد ، إننا نتخلق بأخلاق العبيد ، مهما بدا علينا من علائم الحرية وسمات السيادة ؛ سأقول ذلك وأعيده ألف ألف مرة ، لعله يطنُّ في الآذان فيرن صداه في الرءوس ، فتقر آثاره في النفوس ؛ ولو كان جزائي من ذلك كله أن أحول رجلا واحدا ، أستغفر الله ، بل لو كان جزائي من ذلك كله أن أحول نفسي من العبودية إلى الحرية ، ومن الذل إلى العزة والسيادة ، لعددت ذلك جزاء وافيا شافيا ، ولاستقبلت منيتي بعدئذ مطمئنا راضيا .

لقد زعمت لك أيها القارىء الكريم أننا عيال على العالم المنتج ، لا نكاد نخلق شيئا واحدا جديدا في الأدب أو العلم أو الفلسفة أو الفن ، لا أقول اليوم ، ولا أقول أمس ، ولكني أقول إننا لم نكد نخلق جديدا من أول الزمان إلى يومنا هذا ، لقد كنت أتحدث منذ أيام إلى إمام من أئمة الأدب في الشرق العربي ، فقال : إن مصر في كنا ألفا من السنين لم تنجب أديبا عظيما ، فرددت عليه في ابتسامة الخجل : بل إن مصر يا سيدي في كنا ألفا من السنين لم تنجب عظيما ، لا في الأدب ، ولا في غيره من شتى نواحي الفكر والحياة .

زعمت لك ذلك وعللته بما « نتحلى » به من أخلاق العبيد ، لأن الخَلْق عندي لا يكون إلا بعد عزة وسيادة وطموح ؛ فلاحظت لك أننا عبيد في فلسفتنا الأخلاقية ، لأننا نصدر فيما نفعل عن طاعة لأمر سلطان خارج عن نفوسنا ، ولاحظت لك أننا عبيد في فلسفتنا الاجتماعية ، لأننا نقيم نظام الأسرة ونظام المجتمع على أساس من سيد ومسود ، ثم لاحظت لك أننا عبيد في بطانتنا الثقافية ، لأننا ننصاع في يسر يشبه الانزلاق نحو الإيمان والإعجاب بما قاله الأولون .

ولو كنا عبيداً ناقمين ساخطين على ما نحن فيه ، جاهدين ساعين نحو إعزاز النفس وتحريرها ، لهان الخطب وخف البلاء ، لأن أول مدارج الإصلاح نقمة وسخط على الحاضر ، ورغبة في التغيير وسعي نحو تحقيقه ؛ لكن الخطب — فيما أرى — فادح ، والبلاء جسيم ، لأننا نجد من العبودية مرتعا خصيبا نسرح فيه ونمرح ، مغتبطين أشد الغبطة ، راضين أكمل الرضا ؛ وقد عبرت عن ذلك في مقال نشرته بعنوان « الكبش الجريح » ، إذ عجبت لهذا « الخروف » — وقد وثب عليه الذئب فرق منه وانتهش — عجبت له كيف استمرأ ضرب المخالب ، واستلذ وقع الأنياب ؛ دماؤه تسيل وعلى شفتيه ابتسامة ، وبلع الذئب فيه وبلحق وفي عينيه نظرة استسلام ورضى !

لكن لما زعمت أننا عبيد ، عجب فريق مما زعمت ، وأخذ كل يتلفت حوله لعله يرى في جاره مصداق ما أقول ... واعجبا ! كيف نكون عبيدا وليس في أرجلنا أصفاد ولا في أيدينا أغلال ؟ بل كيف نكون عبيدا وقد حفظنا في المدارس أن أمهاتنا قد ولدتنا أحرارا ، ولا يجوز لأحد أن يستعبد أحدا ؟ . . . كلا ! أنت أنت العبد لا تتلفت ، والأغلال والأصفاد في طوية فؤادك ودخيلة نفسك ، ولو كانت في يديك أو قدميك ، لكان الخطب أيسر ، لأن تحطيمها عندئذ يهون ؛ أنت أنت العبد لا تتلفت ، فلست تستطيع لنفسك عيشاً بغير سيد ، إن لم تجده في الأرض التمسته في السماء .

لقد رأيت بعيني رأسي — إذ كنت في لندن — وزيراً في الوزارة الإنجليزية الحاضرة — مستر نويل بيكر — كان يمثل حكومته في جمعية الأمم المتحدة ، رأيته بعيني رأسي ذات يوم ، حين آن أوان الشاي في العصر ، ينزل إلى طابق البناء الأسفل ليقف في صف كان بين أفراده صغار الكتبة والخدم ! وقف هناك ينتظر دوره ليشتري فنجاناً من الشاي وقطعة من الكعك ؛ وما فكر هو ، ولا فكر أحد ممن وقفوا أمامه أن تكون له أسبقية بحكم

منصبه ، فسألت نفسي : هل يمكن أن يحدث ذلك في مصر ؟ وأجبت نفسي : إن حدوث ذلك في بلادنا مستحيل لسببين :

الأول — وهو أخف السببين شراً وأقلهما وبالا ، هو أن الوزير المصري لا يرضى لنفسه أن يكون في جمهرة من الناس تضم بين أفرادها عدداً من صغار الكتبة والخدم ، لأنه — ككثيره من البشر — يريد لنفسه سطوة وسيادة ، وهاتان شرطهما « الترفع » و « التعالي » .

الثاني — وهو المأساة الحقيقية التي تمزق النفوس كمداً ، لو كان لنا نفوس يمزقها الكمد — الثاني هو أنه حتى لو فرضنا حدوث المستحيل ، وفرضنا أن الله قد هيأ لنا الوزير الذي يجد في نفسه « رفعة » لا تحتاج إلى « ترفع » و « علواً » لا يعوزه « التعالي » ، فلم يجد غضاضة في الوقوف في صف الكتبة والخدم ساعة العصر ، ليأخذ في دوره فنجانه من الشاي ، أقول إننا لو فرضنا حدوث هذا المستحيل ، لأبى الناس أنفسهم على الوزير أن يكون مثلهم ، وأن يقف معهم على قدم المساواة في شئون حياته الخاصة التي لا يكون فيها وزيرا ؛ لو تنازل الوزير المصري ووقف في الصف مع الكتبة والخدم ، لأبى عليه ذلك هؤلاء الكتبة والخدم ، وتسابقوا إلى التنحي للوزير الخطير عن مكان الصدارة في الصف ، بل لتسابقوا إلى دفع القرش أو القرشين نيابة عنه ، بل لتسابقوا إلى حمل فنجانه إلى حيث يطيب للوزير الجلوس .

ولو حدث ذلك وقلت لأحد ممن وقفوا في الصف : هذه منك عبودية وذلة ، لدهش من قولك وأخذه العجب ونظر إلى يديه وإلى رجليه ، حتى إذا لم يجد بهما أغلالا وأصفادا ، صاح في وجهك محتجاً غاضباً : واعجبا ! كيف أكون عبدا وليس في قدمي أصفاد ولا في يدي أغلال ؟ وأعود فأستعير شيئاً مما قلته في مقالة « الكبش الجريح » : « قل في ذلك ما شئت يا « خروف » ، قل إنه سماحة ودماثة الخلق ، أو قل إنه التواضع ، وإن المتواضع عند الله رفعة الشأن ، أو قل إنه كرم النفس ، وليس الكرم بغريب على بني القحطان ؛ قل في ذلك ما شئت يا خروف ، لكنه عندي علامة لا تخطئ ، على ما في نفسك من ذل العبيد ، الذي يستمرئ ضرب الحالب ، ويستلذ وقع الأنياب » .

وأحب أن أذكر لك على سبيل الموازنة بالوزير الإنجليزي الذي وقف في صف الكتبة والخدم ، مصريا كبيرا — إذا قيس الكبر بدرجات الوظائف ، كما تقاس حرارة الماء بالترمومتر — أعرفه حق المعرفة ، ويعرفني حق المعرفة كذلك ، لقيته بعد غيبتي أعواما ، وشاءت الظروف أن نلتقي في ديوان حكومي ، فأرادت له أوضاع المجتمع أن يسلم على تسليم الذي لا يعرفني كثيرا أو قليلا ، وأنا لا أتهمه هو ، لأني موقن أنه طيب النفس كريم المنصر ، إنما أتهم المجتمع بأسره الذي هو عضو فيه ، لأن هذا المجتمع — فيما يظهر — هو الذي وسوس له ألا يسلم على الناس أمام الناس في شيء من الترحيب ، خشية أن يظن الناس أنه أمسى وبات مساويا للناس !! وعندئذ ابتسمت لنفسي ، أعني أنني ابتسمت ابتسامة أحسها دون أن يراها الناس — وأنا كثير الابتسام لنفسي هذه الأيام — ابتسمت لنفسي لما أدركت أن المصري الكبير قد فوّت الغرض على نفسه وهو لا يدري ، وإليك البيان :

أراد المصري الكبير أن يكون كبيرا — مع أنه كبير — فاتخذ لغايته سبيلا يعرفها علم النفس ودارسوه ، ألا وهي اصطناع القوة ليمتاز من سائر الناس ، ولا شك أن من دواعي القوة أن يسلم عليك الناس فلا تأبه للناس ! وهذا في ذاته من المصري الكبير جميل جد جميل ، لأن هذا هو ما أراده الله لعباده ، وليس في وسع مصري كبير أو صغير أن يعصي ما أراده الله لعباده ؛ لكن الذي غاب عن المصري الكبير فلم يدركه ، هو أن القوة المنشودة لها سبيلان : إحداهما حقيقية تؤدي إلى القوة بمعناها الصحيح ، وأما الأخرى فسبيل زائفة تخدعه وتخدع أمثاله ممن لا يتعمقون

التعويضات العلمية

يذكر الحلفاء الذين يحتلون ألمانيا عسكريا الآن أساليب جديدة لاستنزاف دم ذلك الشعب المقهور . وهم إذ يفعلون ذلك يتحدثون طويلا عن سوء حالة الاقتصاد الألماني وعن عبء الاحتلال الذي يكاد ينوء بحمله كاهل بريطانيا . وتدأب الصحف البريطانية خاصة في الحديث عن التضحية الواجبة لإطعام ألمانيا الجائعة العارية . وأقل ما يوصف به هذا القول هو أنه يصور جانبا واحداً من الحقيقة . أما الجانب الآخر فهو أن الحلفاء يأخذون من ألمانيا أضعاف ما يعطون ، وإن كانوا يسلكون في ذلك طرائق جديدة مبتكرة .

والتعويضات العلمية هي أحد أساليب التعويض التي تدفع بها ألمانيا ثمن هزيمتها . فقد ألفت خلال مراحل الغزو الأولى جماعات من رجال العلم والصناعة الأمريكيين والبريطانيين ، وكانت مهمة هذه الجماعات مصاحبة الفصائل الأمامية للمحافظة على المرافق العلمية والمصانع والمعاهد والمكاتب ، وكذلك البحث بدقة عن جميع المستندات والبيانات الخاصة بالكشوف والاختراعات الحربية وغير الحربية على السواء . فكانت هذه الجماعات تنقض على الجامعات فتأسر العلماء والإخصائيين وترحلهم إلى انجلترا وأمريكا . وقد نقل بهذه الوسيلة الأستاذ أو توهاهن مكتشف الانفلاق الذرى ومئات غيره من كبار رجال العلم الألمان . وقد برر الحلفاء عملهم هذا ، الذي لا يتفق بداهة مع الروح الديمقراطية السمحة ، بأنهم إنما يبغون التوصل إلى تحسين أسلحة الحرب المستعملة ضد اليابانيين حتى يقصر أجل الحرب وتنقذ آلاف الأرواح من أن تزهق في أتون المحيط الهادى .

الأمور إلى لبابها ؛ وسبيلا القوة هما القدرة والسيطرة ؛ القدرة هي السبيل التي لا زيف فيها ولا خداع ، والسيطرة قناتها هي السبيل للقدرة الخادعة ؛ وهي مضللة خادعة ، لأنها تؤدى وسالكها إلى عكس ما أراد لنفسه ، إذ تؤدى به إلى الضعف والعجز ، وإنما أراد لنفسه قوة وسلطانا .

والعجيب في هاتين السبيلين ، سبيل القدرة والسيطرة أنهما نقيضان لا يجتمعان ، فإن كنت قويا بسبب قدرتك فيستحيل أن تلجأ إلى بسط سيطرتك على الآخرين ، وإن كنت راغباً في بسط سيطرتك ، فيستحيل أن تكون قادراً ماهرا ، وقد يبدو هذا الكلام عجيبا، لكنه فيما أعتقد كلام صواب ؛ فهل تتصور — مثلا — عالما متبحراً في علمه متمالكا نواصيه ، يعمل في معمله بغية الوصول إلى نتائج في العلم جديدة ، هل تتصور مثل هذا العالم راغبا في بسط نفوذه على الناس ؟ لا أظن ذلك ، لأنه ليس بحاجة إلى مثل ذلك ، فهو يتجه بأمله ومجهوده نحو الطبيعة يريد أن يملك زمامها ، لا نحو عباد الله يبتغى إذلال رقابهم ؛ هو لا يريد بغياً ولا طغيانا ، لأنه قادر ماهر ، مكتف بنفسه ، والعكس صحيح ، أى أن الإنسان إذا ما شعر بخواء نفسه وعجزها وهى وحدها ، التمس القوة من طريق الآخرين ، فيطش وتعسف .

الطاغية في صميم طبيعته عبد يذل للقوة حيث يراها ، كما أنه يبطش بالضعف أينما رآه ؛ الضعف عند الإنسان القوى القادر يستثير العطف والإشفاق ، أما الضعف عند الذى صاغه الله طاغية بطبعه ، فيغرى بالاعتداء ، وكلما ازدادت الفريسة ضعفا ، ازداد الطاغية بطشا وعسفا وطغيانا ، والعبودية والطغيان وجهان لشيء واحد .

والرأى عندى هو أننا عبيد لأننا طغاة ، وطغاة لأننا عبيد . وأما الإنسان الحر القادر المكتفى بنفسه في عزة وكبرياء ، فلا هو يبطش بالضعيف ، ولا هو يعنو بوجهه ذلا لطاغية .

زكى نجيب محمود

واسترسل الأمريكيون بصفة خاصة فى اقتناص العلماء ، والحصول على نتائج أبحاثهم الصناعية والعلمية ، ووجدوا أن فائدتهم المالية محققة عن هذا الطريق ، فأنشأوا مكتباً خاصاً فى وزارة التجارة الأمريكية ، تقتصر مهمته على جمع المعلومات الفنية والعينات الصناعية ثم توزيعها على الشركات والمؤسسات الأمريكية التى يمكن أن تفيد منها . ويقوم المكتب بعمل إحصائيات كاملة عن التقدم الصناعى الألمانى فى جميع الفنون ، ويشمل ذلك تصوير المستندات الأصلية تصويرا فوتوغرافيا ، وكثيرا ما يرسل المكتب إخصائيين أمريكيين ليدرس كل منهم فرع تخصصه فى ألمانيا . وقد بلغ عدد هؤلاء المبعوثين ٥٠٠ حتى أوائل هذا العام . وبلغ عدد صفحات المستندات المستولى عليها ٣٥٠٠ مليون صفحة ، بما فيها التصميمات الفنية والتقارير السرية ، وقد اختير من هذه الصفحات العديدة أربعة ملايين صفحة فقط لكى تصور وتوزع فى أمريكا ؛ منها مليون صفحة من إدارة تسجيل الاختراعات فى برلين ونصف مليون صفحة من المتحف الألمانى فى ميونخ ومائتا ألف صفحة من مصانع ليتز الضوئية وحدها . وأهم المصانع الكبرى التى ينقب فيها الأمريكيون مصانع شركة فاربن اندستري الكيميائية وشركة كروب فى إسن وشركة سيمنز فى برلين ، وكذلك الجامعات الكبرى ومعاهد بحوث القيصر ولهلم العديدة . وقد أعدوا ٧٠٠ ألف رطل من العينات والآلات والأدوات لكى تنقل إلى أمريكا لدراسة والمحاكاة ، من بينها النماذج الكيميائية الدقيقة والآلات الصاروخية الجديدة والحركات الميكانيكية الدقيقة .

وقد نتج من هذه التعويضات العلمية العظيمة وفر ضخم للصناعة الأمريكية فى المال والرجال ، ومكن لها فى الأرض بحيث أصبحت قادرة على ملء الفراغ التجارى الناشئ عن انقطاع الصادرات الصناعية والعلمية من أوربا عامة وألمانيا خاصة فى مختلف أسواق العالم الاستهلاكية . ويكفى للدلالة على قيمة هذه التعويضات أن نذكر نقلا عن مجلة تقدم العلم التى تصدرها وزارة التجارة الأمريكية ، أن عدد الطلبات التى تتقدم بها الشركات والمؤسسات الصناعية الأمريكية للحصول مجانا على المعلومات الألمانية يبلغ ١٤٠٠ طلب كل أسبوع ، نذكر منها على سبيل المثال عملية فيشر — تروبش لإنتاج البترول صناعيا وعملية بيك لصناعة الألومنيوم المجردة ، والتفاعلات الكيميائية لمنتجات الأسيتيلين الرخيصة التى تحل محل منتجات البترول ، وغيرها كثير .

ويتعاون الأمريكيون مع البريطانيين تعاونا كاملا فى الحصول على المعلومات والإفادة منها ، ولكنهم لا يدخلون المناطق الفرنسية أو الروسية إلا بعد تصريحات وتأكيدات خاصة . وتعلن المصادر الأمريكية الرسمية أن الفائدة التى ستعود على الصناعة الأمريكية من التعويضات تقدر ببضعة آلاف مليون دولار فى السنوات القليلة القادمة ، إلا أنها ، فى رأيهم ، لا تكلف الألمان شيئا ، لأنهم ليسوا الآن فى حالة تسمح لهم باستغلال ثروتهم العلمية الضخمة . وهذا تعليل باطل من أساسه . ولكنه يمثل المنطق السائد الآن فى الدوائر التجارية العليا التى تسيطر على سياسة أمريكا وبريطانيا .

ويعترف الحلفاء اليوم بأنهم يتجاوزون لهذه الوسيلة بعد أن فاتهم الانتباه إليها بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد اهتموا حينئذ بتقدير التعويضات تقديرا عدديا ماليا ، ثم اضطروا إلى ترك الصناعة الألمانية تنمو وتزدهر ، حتى يمكنهم جمع التعويضات المطلوبة . فكان لازدهار تلك الصناعة أثره البالغ فى إعداد ألمانيا إعداداً فنيا قويا مكنها من شن الحرب . ويلاحظ العلماء أن العلم الألمانى قد بلغ أوج مجده وأعلى مراتب السمو بعد انهزام ألمانيا فى الحرب الماضية ، بينما فرح الفرنسيون بالمال الذى تدفعه ألمانيا لهم ، وخذلوا

الدم في دياره ، فارتد الخذلان إلى صدورهم حراباً تشرعها أيد ألمانية فتية وتدفعها عقول ذكية شحذها الحرمان وملأها السخط والحقد .

ويقول خبير أمريكي : إن الصناعة الأمريكية ، إذا قورنت بالصناعة الألمانية ، تتسم بالإسراف والمبالغة في التظاهر ، بينما تحرص الصناعة الألمانية على الوفر والتدبير الكامل . ولا غرو ، فألمانيا عاشت محرومة من موارد الخام ومن حرية الأسواق المالية ، فأتقنت صناعات رخيصة لتتغلب بها على تلك العقبات السكئود ، بينما نشأت الصناعة الأمريكية مترفة غنية لا ينقصها مال ولا تقوم في سبيلها عقبات .

ويقول الخبير الأمريكي إن أعظم ما سيعود على الصناعة الأمريكية من النفع عن طريق الاتصال بالصناعة الألمانية هو أنها ستتعلم الوفر والتدبير وأساليب المنافسة التجارية . وهي صفات لازمة في هذا العصر .

لقد ورث الحلفاء إرثاً علمياً كبيراً في طياته جاه عريض وسؤدد ومجد . وهو ثروة جمعتها ألمانيا من عصارة أذهان مفكريها وخبيرتهم قطرة قطرة ، حتى جاء النزاة فاغترفوها غرماً ، فروت بها نفوس كانت إلى الدم عطشى ، وتفتحت بها أذهان كانت خامدة . وسبحان القادر الجبار .

إبراهيم حلمي عبد الرحمن

دفاع عن الكسالى

فى هذه الآونة التى يتحتم فيها على كل واحد من الناس أن يقوم ببعض الأعمال النافعة ، وأن يؤدى تلك الأعمال أداء هو أقرب إلى التحمس . وذلك خوفاً من التعرض لحكم يصدراً فى غيبته منهما إياه بالناس ضد الوقار .

فى هذه الآونة تهب صيحة من الجانب المعارض . جانب أولئك القانعين بالكفاف من الرزق ، الذين يرون أن يقف الواحد منهم موقف الذى يرقب مشاهد الدنيا ويستمتع بها فى وقت معاً .

والكسل هو المعروف عند الناس بأنه تلك الصفة التى تقوم على أن لا يعمل المرء أى عمل .

ومن المسلم به أن حضور ناس حلبة السباق الكبير وهم يأبون أن يراهن الواحد منهم ببضعة قروش ، فيه معنى الإهانة للذين راهنوا . وهو كذلك نذير برفع الغشاوة عن أعين أولئك المخاطرين بأموالهم .

فإذا رأيت فتى فيه أناقة ولباقة يجمع أمره فيراهن على حصان من الأحصنة ببضعة قروش ، ثم يجرى وراء تلك القروش ، فتراه يذرع أرض السباق ثم يجوبها وكأنما نزلت به نازلة ، أو حلت بساحته مصيبة .

إذا رأيت ذلك الفتى وهو على حاله تلك ، هان عليك أن تعرف سر كرهه لأولئك المتفرجين الذين استنفشوا ثيابهم ووقفوا يتغامزون على من قامر فكسب ، وعلى من قامر فخسر . وويل للشجى من الخلى .

وكذلك رجال المال يسوءهم أن يروا أولئك الذين لا يفقهون فى أمور المال شيئاً . وكذلك أيضاً رجال الأدب يضمون أصابعهم فى آذانهم إن سمعوا غير أديب يتحدث فى الأدب .

ومما لا شك فيه أن الناس فى شبابهم يستمتعون بقدر كبير من الكسل .

وإنك لواجد هنا وهناك من يشبه « لورد ما كولى » وقد نجا بنفسه من شهادات المدارس ، حاملا ذكاءه بين جنبات نفسه .

وكذلك أنت واجد العديد الأكبر من التلاميذ ، وهم ينفقون أموالهم لنيل جوائز الشرف فى العلوم . ثم يبدأون مرحلة الحياة العملية مفلسين .

وإذا رجعت ببصرك إلى الزمن الذى أنفقته فيما مضى فى الدرس والتحصيل فإنى واثق أنك لن تندم على ساعات ضيعتها فى البطالة والكسل . بل إنى لواثق أنك سوف تسقط من حساب ذلك الزمن تلك الساعات التى يتقصها البريق واللألاء ، والتى مضت بين النوم واليقظة أثناء الدرس .

أما أنا فقد حضرت محاضرات كثيرة أيام دراستى . وإنى ما زلت أذكر أن دوران لعبة النحلة إن هو إلا حالة من حالات استقرار القوى المحركة .

وما زلت أذكر أن استئجار الأرض استئجاراً دائماً ليس مرضاً من الأمراض .

وكذلك ما زلت أذكر أن ليس جريمة من الجرائم أن يولد المرء ميتاً .

وليس هذا أوان التبسط فى الحديث عن ذلك المكان الفسيح الذى كان المدرسة الحربية لدى « ديكنز » و « بلزاك » .

وإنى لأكتفى بالقول إنه إذا لم يقدر لأحد الفتيان أن يحصل على الثقافة والعلم فى الطرق والشوارع ، فذلك دليل على أنه عدم القدرة على التعلم .

ومن الناس من قد يفضل أن يتلقى علومه بطريقة التأمل وإجالة النظر فى الحدائق والزروع . فهو قد يدمن

النظر في باقة من زهر البنفسج وقد يطيل الاستماع إلى صوت خرير الماء فوق الحجارة . وقد ينصت الإنصات كله إلى غناء طير فوق شجرة .

وقد يوحي له كل هذا ، أو بعض هذا ، خاطراً من الخواطر الجميلة . وقد يرى الأشياء من زاوية نظر جديدة .

وإذا لم يكن هذا كله تعليما ، فقل لي بربك أين هو التعليم إذاً ؟!

ومن القولات الفرضية أن كل المعارف إنما هي كائنة في قاع بئر ، أو كامنة في الطرف الأقصى لمنظار الكبير .

وقد قيل إنه لما امتدت السن بالقائد الفرنسي « سانت بيف » أصبح ينظر إلى ألوان الخبرة كلها كأنها كتاب مفرد جامع يقرأ المرء فيه بضع سنين قبل أن يرحل من الدنيا .

وسواء عند « سانت بيف » أقرأ المرء الفصل العشرين الذي يبحث في حساب التفاضل ، أو قرأ الفصل التاسع والثلاثين الذي يسمعك عزف جوقة موسيقية في إحدى الحدائق .

وإنها لحقيقة مقررة أن الشخص الذكي الذي ينظر ويسمع والابتسامة لا تفارق ثغره ، لابد بالغ من التعليم مبلغاً يعجز عن بلوغه كثير من أولئك المزمتين المتوقرين .

وفي الحق أن هناك فوق أكتاف العلم الرسمي معارف قد جف ماؤها وصوح نبتها . ولكن كل شيء في مقدور طالب العلم . لا يكلفه إلا النظر والمطالعة ، وهو بذلك بالغ أمله في الحصول على حقائق الحياة .

وبينما يملأ الآخرون ذاكرتهم بأكوام فوق أكوام من الكلمات التي سوف ينسون نصفها ، قبل أن ينقضي الأسبوع ، فإن الفتى الحر الطليق يمكنه أن يتعلم شيئاً من الفنون النافعة ، كأن يتقن العزف على الربابة ، أو أن يتحدث في ذلاقة ولباقة إلى مختلف الطبقات .

وإن كثيراً من أولئك الذين يعكفون على دراسة الكتب في دأب ومثابرة ، والذين يحاولون إحاطة تامة بفرع أو بآخر من فروع العلوم أو الفنون يخرجون من تلك الدراسة وعليهم سيما البلادة والجدب ، وذلك فوق ما يصيبهم من مرض في المعدة يلازمهم طوال سني حياتهم .

فإذا رأيت واحداً من زملائهم الذين خالفهم الكسل رأيت صورة تخالف تلك الصورة كل المخالفة . فقد كان صاحبنا هذا يعنى بصحته ، ويملأ رئتيه بالهواء النقي ، وهو خير دواء لصلاح الجسم وصحة العقل .

والعمل المرهق سواء أكان في المدرسة أو في الجامعة أو في السوق ، وكذلك الإيغال في رقي في أمور الدين ، إنما هي أدلة على نقص القوة الحيوية .

أما قدرة المرء على الكسل فذلك دليل إحساسه القوي بذاتيته ووجوده . وهناك صنف من الناس يصح أن يسمى أفراده (الأحياء — الأموات) وهم لا يعرفون للحياة تفسيرا إلا أنها احتراف مهنة من المهن .

وإذا أنت صحبت هؤلاء القوم في رحلة إلى الريف ، أو أبحرت وإياهم على ظهر سفينة ، ألفيتهم وقد كاد الشوق يقتلهم حنيناً إلى الأوراق والكتب .

وليس من الخير التحدث إلى مثل هؤلاء . فهم غير قادرين على أن يكونوا كسالى ؛ ذلك لأن أنفسهم ليست سخية سخاء كافيا .

وهم إذا لم تدفعهم حاجة الجسم إلى طعام أو شراب فهم يحسبون هذا العالم الذي يتنفس حولهم فضاء وخواء .

وإذا كتب عليهم أن ينتظروا القطار ساعة من نهار ألفيتهم وقد تولتهم غاشية من الذهول .

وإذا رأيتهم وكأنما قد سمرت أجسامهم حسبت أن الدنيا قد خلت من ساكنيها .

فإذا عدت بهم إلى ما شغلوا به ألفيتهم مثال الجد في

من هنا وهناك :

إعادة الحياة بعد الموت

نشرت الصحافة الأمريكية والروسية خلال السنوات العشر الأخيرة أبحاثاً عديدة عن التجارب الروسية لإعادة الحياة للموتى وغالت فى ذلك مغالاة واضحة .

ومن أمثلة ذلك ما قيل من أن العلماء الروسيين قد نجحوا فى بعث الحياة فى الجسم الإنسانى بعد انقضاء ثلاث ساعات على الموت ، ولقد قالوا إنهم أعادوا الحياة إلى خمسين جثة من القتلى فى ميادين القتال .

ولكن نشر أخيراً الدكتور نيجو فسكى زعيم هذه التجارب بحثاً فى إحدى المجلات الأمريكية قال فيه : إنه من النادر أن يكون الموت توقفاً مفاجئاً للحياة ، ولكنه فى الواقع عملية طويلة تمر بمراحل متعددة فى الحياة حتى ينتقل الإنسان من الحياة إلى الموت . وذكر العالم الروسى ثلاث مراحل للموت : الأولى منها دور النزع فى أخريات الحياة ، الثانية توقف التنفس والدورة الدموية ، والثالثة حالة الموت التى تبدأ فيها خلايا المخ فى التحلل بدون أن يكون هناك أمل فى عودة الحياة .

ويدعى نيجو فسكى أنه يمكن إعادة القوى الحيوية فى المرحلة الثانية ، ويستعين الأطباء الروسيون فى هذا العمل بالتنفس الصناعى ونقل الدم ، فيمكن إدخال الهواء إلى الرئتين المقاصتين بمنفاخ فتتمدد ، وتحقن الأوعية التى تغذى القلب بمزيج من الدم والأدرنالين والجليكوز ، ثم يبدأ نقل الدم عند ما يبدأ القلب فى الحركة .

ويؤكد نيجوفسكى ضرورة القيام بهذه المحاولات خلال الدقائق الخمس أو الست التالية للموت مباشرة ، فيعود القلب أولاً للقيام بعمله ثم تستعيد الأوعية الدموية وظيفتها ، وأخيراً يبدأ التنفس ، وعند ذلك يقوم الجهاز العصبى بعمله .

وجمع نيجو فسكى تاريخ ٢٨٤ حالة حتى سنة ١٩٤٢ ، وقد نجح فى إعادة الحياة إلى ١٥١ حالة منها بنسبة ٥٢٪ وكانت عودة الحياة وقتية فى ٧٢ حالة بنسبة ٢٧٪ وفشلت التجربة فى ٦١ حالة بنسبة ٢١٪ .

واستطاع نيجو فسكى فى معمله خلال ست سنوات بحوالى ٢٥٠ كلبا من مختلف السلالات « قتلت » بامتصاص دمائها ، وعادت الحياة للحيوانات بعد انقضاء فترة تتراوح بين خمس وثمان دقائق على الموت ، ونجحت تجاربه ١٠٠٪ تقريبا ، وعادت الحياة إلى كلب بعد انقضاء ثمانى دقائق على موته . وقال : إنه من الممكن استعادة الحياة بعد انقضاء فترات أطول ، ولكن الحيوانات لا تعيش بعد ذلك مدة طويلة ، لأنه لا يمكن فى هذه الحالات إعادة حيوية الجهاز العصبى تماما .

وقال إنه لا يمكن إعادة الحياة فى الحالات التى يكون فيها الموت نتيجة تلف جسيم فى الأعضاء الحيوية ، وإنه لا يمكن إعادة الحياة إلا فى الحالات التى يكون فيها الموت نتيجة صدمة أو نزيف أو اختناق أو غرق .

وقال أخيراً : إنه لا يمكن إعادة الحياة فى الحالات التى يكون فيها الموت نتيجة ضعف تدريجى فى الأعضاء الحيوية .

العمل — ولكن على طريقتهم — ووجدت أعينهم النائمة الناعسة آية فى اليقظة . فهم لا تفوتهم كلمة واحدة فى صك من الصكوك أهمل فيها النقط والإعجام .

ألا فليعلم أصحابنا هؤلاء أن القبلة لا تتم إلا بين اثنين وأن الزواج لا يبلغ أوجه إلا بين عشرين .

وليعلموا أنهم مهما بالغوا فى الجد وأسرفوا فى الكد فإن الجد الذى يرجون بلوغه قد لا يجىء أبداً ، وإذا جاءهم فقد يلقاهم حتى من الجد غافلين .

(مترجمة) مبارك ابراهيم إدوار رياض

أنباء وآراء

آجال !

كنت قرأت للأستاذ الجليل حسن جلال فى عدد مضى من «الثقافة»(١) كلمة عن الآجال . وكانت طريفة . فإنى لأقلب صفحات من البريد الأجنبي فإذا أنا أجد أمامى كلمة كأنها استطراد لكلمة الأستاذ ، أحببت أن أعرضها على رواد هذه الصفحة من أنباء « الثقافة » ، لعله أن يكون فيها هى أيضا طرافة .

فإنه يجرى فى بلاد الإنجليز مثل يقول : إنه لو كان اسمك هيو وليامز فأنت أسعد حظا منك لو كان اسمك جون سميث أو هنرى جونز مثلا . ولست أدرى مبلغ الصحة فى تطيرهم من هذا الاسم ، أو تفاؤلهم من ذلك . وإنما هذه أحداث يذكرونها يؤيدون بها زعمهم الذى زعموه .

● فإنه فى سنة ١٦٦٤ حطمت العواصف السفينة الإنجليزية مناى ، ولم ينج من ركابها البالغ عددهم ٨١ راكبا إلا راكب واحد ، وكان اسمه هيو وليامز .

● وفى سنة ١٧٨٥ تهشمت سفينة على ساحل جزيرة (ايل أوف مان) وكان بها ستون رجلا قضوا جميعاً إلا واحداً . وكان اسمه هيو وليامز أيضا !

● وفى سنة ١٨٢٠ استقل جماعة من الفتيان زورقاً للنزهة ، وكانوا خمسة وعشرين فتى ، انقلب بهم الزورق . فغرقوا ، إلا صبيًّا فى الخامسة من عمره من ليفربول وكان اسمه هيو وليامز !

(١) الثقافة العدد (٤٤٩) .

● وفى سنة ١٨٨٩ حدثت كارثة فى منجم لفحم الفحم ، ذهب ضحيتها جميع رجال المنجم إلا رجلاً وابن أخيه ، وكان اسم كل منهما هيو وليامز !

من وصية فردريك !

كان فردريك الثانى ملك بروسيا عالما فيلسوفا وقائدا معروفا . غير أنه كان ذا نفس حزينة . وعقل يشك . وقد كان للطيرة والتفاؤل فى حسابه مكان . قيل إنه كان مشغوفاً بكلاب له . فلما ماتت أعدّ لها قبراً فى ساحة قصره المعروف فى بوتسدام ، ثم أوصى أن يدفن بينها بعد وفاته !

طيرة !

لما قدم قتيبة بن مُسْلِم والياً على خراسان ، قام خطيبا ، فسقطت المخصرة من يده فتطير به أهلُ خرسان . فقال : أيها الناس ، ليس الأمر كما ظننتم ، ولكنه كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر

تفاؤل !

لما فرغ المهلب بن أبى صفرة من حرب الأزارقة وجه بالفتح إلى الحجاج رجلا يقال له مالك بن بشير . فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير . قال : ملك وبشارة !

وقديما قال الشاعر :

وإذا تكون كريهة فرّجتها
أدعو بأسلم مرّة ورباح

ياقوت صبرى

قصة الأسبوع

الطبيب الخائف

قصة للكاتب الأمريكى بن هتشت

جلس الدكتور فرانك وب على حافة مقعده فى زنزانته فاقد الحركة ، كأنه قد تجمد فى مكانه ، وكان حلقه يحترق ، وحاول أن يبتلع ريقه ، ولكن ذلك الشيء الذى يسهل عليه عملية الابتلاع كان لا يطاوعه ، ولم تساعده عضلات فمه على هذا بالرغم من محاولاته العديدة ، وهو يلتقط أنفاسه فى جهد .

وتشنجت أصابعه على عنقه ، ولكنه أحس بشيء ينبض ، إنها الحياة تتدفق فى داخليته ، ولما رفع أصابعه كان يشعر أن هناك شيئا ما زال يحيط بعنقه . شيئا يخنقه ولا يحتمله ... إنهم يشنقونه ... فصرخ عاليا .

وأمسك الحارسان بذراعيه ، ولم يقاوم ، لقد أحس راحة عجيبة الآن . إذ تمكن من ابتلاع ريقه .

يا للطافة الليل فى الخارج ، إن رائحة ذلك السجن العجيبة تنفذ حادة إلى أنفه .. آه .. لو تركوه للهواء الطلق ولو دقائق قليلة ، لو تركوه يقف فى الشارع ليستنشق هواء البحيرة النقى . ولاحظ ملاحظة غريبة أثناء تنفسه ، لكأن شيئا يتحرك فى داخليته ، مخيفا غامضا ، وهو يزحف فى شرايينه . وإذا به يدرك فجأة أن ذلك الشيء الذى يشعر به بين معدته وقلبه ومخاخه إنما هو ذات نفسه . إنها نفسه التى يشعره الشعور بها أكثر من أى شيء عداها .

إنه لا يمكنه أن يراها أو حتى يفكر فيها ، كل ما يقوى عليه هو أنه أثناء جلوسه يشعر بذلك الشيء ينبض ويحترق ويشهق ويتحرك فى داخليته ، ويمسك بأنفاسه ، وكأنه يود الخروج من فمه .

ثم إذا بعقله يتفتح ، وقد بدأ يفكر منفردا ، بعد أن طرد ذلك الغموض بعيدا من تفكيره ، وكأنه يقرأ فى كتاب مفتوح .

إن هذا الشيء الذى يتحرك فى داخليته إنما هو الحياة ، لم يكن هو الخائف ، ولكنها الحياة ، إن قلبه ورئتيه وكبده ومعدته وعظامه وشرايينه الصحيحة كلها ستهلك حالا ، وإن يمكنه أن يلاحظ آلامها .

وفى لحظة واحدة كان ينفذ إلى جوهر نفسه ، ثم إذا بأفكاره تتحول . فها هو ميت وجسده يملأ الكفن .

كان يجلس بين حارسيه وهو يرتعش ، ثم اندفع فى البكاء ، وهو يغمض عينيه ويهز رأسه ، فيشعر ببعض الراحة لذلك ، ولكن سرعان ما عاد ذلك الشيء يحترق فى داخليته . ومازال الغموض عالقا بالهواء الذى يستنشقه .

وجعل يتأمل نفسه ، إن الحياة تصرخ فيه ، إنه يدرك ذلك الشعور الآن . إنه الخوف ، وإذا ما أمكنه أن يوقفه عند حده فهو فى خير . كل التأثير الذى سيشعر به أن معدته تحترق فحسب .

وعاد ثانية إلى البكاء ، وهز رأسه فشعر بالراحة وهو يفعل ذلك .

وبدأ يفكر ، فراودت عينيه صور المشنقة والحبل والكفن ، كان يحاول أن يفكر فى شيء آخر . فى ماذا ؟. ماذا ؟ . لم يجد جوابا شافيا ، كان يحاول أن يذكر اسما ، موضوعا ، ولكن عقله لم يطاوعه . لقد تركه إلى حياة أخرى يفكر فيها بمفرده .

سيقف حيا أمام المشنقة ، فترة قصيرة ، ثم بعدها سيموت . بين حياته ومماته ستكون هناك لحظة دقيقة ، وها هو يحاول أن يعيش خلال تلك اللحظة .

ها هى المشنقة ، وها هو الحبل يلتف حول رقبته .. فى ثانية واحدة . الثانية الأخيرة . يا إلهى . لقد سقط بسرعة . إنه يسقط . يسقط . والموت يلاحقه . يلاحقه . إنه يقاوم فى جنون .. فى قوة .. ولكنه كان ما زال يهوى إلى أسفل .

زعما قطع الحبل ؟ فهو إذاً سيسقط على الأرض . ولكن كلا ، ها هو الموت .

وصرخ الدكتور وب .. وهب واقفا على قدميه ، فأمسك به حارساه ، وكان يصرخ : « اشنقونى بالله .. أخرجونى من هنا واشنقونى » ، فأعاده الحارسان إلى مكانه وبدأ يبكى وينتحب ، فيصرفه البكاء من أى شيء آخر ، واستمع إلى صوت بكائه ، إنه هو الذى يبكى ، إذاً فهى نفسه التى تأتى بهذه الأصوات . نفسه التى يمكنه الآن أن يلاحظها ويعرفها .

ولكنه عاد مرة ثانية يشعر بأن شيئا قادم نحوه ، إنه يعرفه .. لقد أغمض عينيه ، وعض بنواجذه ، إنها إرادته تدق شرايينه ، وانتظر لحظة واحدة .. لقد تذكر اسما .. جو .. جو .. هو اسم الرجل الذى قتله ، وإذا بشعوره يتحول إلى تلك اللحظة الخاطفة الفاصلة بين الحياة والموت . وبدأت تغمره صوره وهو يسقط .

ورفعه الحارسان وقد خافا أن يفلت منهما ، وكان يصرخ مقاوما : « يا إلهى .. اشنقونى .. انتهوا منى .. رحمتك يا إلهى » وتوالت صرخاته .

استيقظ المذنبون جميعا ، وتعالت أصواتهم بالصياح ، وكان هو يقاوم الحارسين بكل ما أوتى من قوة . فلويا يديه حتى أدمياها ، ولكنه كان يستعذب الألم ، كان يصرخ مطالبا أن يشنقوه خوفا من أن تعاوده تلك اللحظة الدقيقة ثانية .

فُتح الباب ودخل مأمور السجن وطبيبه ، فحقنه بالبروفين ، ولكنه لم يجد شيئا ، بل تعالت صيحاته عن قبل ، وهزه مأمور السجن فى عنف وهو يقول : « لن تشنق قبل الساعة السابعة صباحا .. صه .. صه .. » ونظر الطبيب إلى ساعته .. كانت الخامسة إلا ربعا .

ولكن الدكتور وب كان يتعلق بهما وهو يصيح : « اشنقونى الآن .. الآن .. أنا لا يمكننى احتمال كل ذلك » فنظر المأمور والطبيب كل منهما إلى الآخر ثم هزا رأسيهما .

وبعد مضى عشرين دقيقة من ذلك كان الدكتور فرانك وب يسير نحو المشنقة . كان ممسكا بالقس الذى يسير بجانبه ، وقد خارت قواه ، وفغر فاه ، ولا يمكنه أن يعيد كلمة واحدة مما يقوله القس .. إن اللحظة الرهيبة آتية ، وسحبوه إلى حجرة الموت .

كان فاقد الحركة ، لا يرى شيئا مما حوله ، ولكنه كان يهمس : « أسرعوا .. أسرعوا .. » وشعور الخوف من الموت يذيب روحه .

وفصل جسد الدكتور فرانك وب بعد أن ظل معلقا لمدة ثمانى عشرة دقيقة .

ولكن بعد مضى عشر دقائق منذ أن أخرجت الجثة من غرفة الموت ، دق التليفون فى غرفة مأمور السجن فأجاب : إنها الرئاسة تتكلم .. لقد عُدّل الحكم على الدكتور فرانك وب من الإعدام إلى السجن المؤبد بعد مناقشة دامت طيلة الليل !

عيسى فتحى خليل

تنبيـــه

يعرف قراء « الثقافة » الأستاذ محمد خلف الله صاحب المقالات الدينية والأدبية ، ومؤلف كتاب « الطفل من المهد إلى الرشد » وكتابى « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » و « دراسات فى الأدب الإسلامى » (وهما يطبعان الآن فى لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

وقد تخرج الأستاذ فى دار العلوم وفى جامعة لندن ، وقام بتدريس الأدب العربى فى كلية الآداب بالقاهرة إلى سنة ١٩٤٢ ، ثم نقل إلى جامعة فاروق الأول ، وهو يشغل بها الآن كرسى الأدب العربى .

أما محمد أحمد خلف الله أفندى المعيد بكلية الآداب بالقاهرة وصاحب « رسالة الفن القصصى فى القرآن » ، والتى يثور حولها الآن نقاش وجدل فهو شخص آخر .

وقد رأت « الثقافة » أن تنبه إلى هذا إزالة لما أوقعه تشابه الاسمين من لبس فى أذهان بعض الناس .

فيلسوفة تشكو

شكت الحيـــاة إلىَّ والأياما
ثم انثنت تشكو لى الآلاما
قالت سئمت العيش حتى خلتنى
لا أرتجى أمـــلاً به ومراما
وعبست للدنيا بوجـــهٍ عابسٍ
فكأنَّها ليـــل يمد ظلاما
الناس من حولى كأشباح الردى
ترنو فتلهبنى جوًى وضراما
والأرض كادت أن تضيق بكاهلى
ويكاد يدمى شوكُها الأقداما
وأنا كطيفٍ تائه فى ظلامهـــا
يمشى على مهـــل يجر عظاما
حيرى يهزّ عنى النسيم إذا سرى كالريح تفزع بالهبوب حطاما
أصبحت والأيام دائرة الرحى أعدو لها يوماً وأفزع عاما
حتى مللت مع الحياة جمالها وسئمتها بُغضاً لها وسقاما

•••

عجبت مما تشتكى وسألتها :
هل تذكرين الحب والأحلاما
والعمر فى فجر الربيـــع ممتعٌ
يوما يفيض سعادة وســـلاما
وهوى الحبيب إذا تسعَّر حبه
أو جُنَّ شوقاً فاشتكى وترامى
وأتاك تنضح بالدموع جفونه
فيسرق من خلال الدموع ملاما
وبعد حولك من شـــبابك فتونه
نجوى ومن حلو الحديث كلاما
فإذا التى فى راحتيك حقيقة
وإذا الذى ترجى إليك زماما
وإذا الحياة بحلوها وبمرها تدنو وتخفض فى رحابك هاما
هل تذكرين هوى على أنفـــاسه
أذبلت عمـــراً ناضراً بساما
ورحت به الأيام حقبـــة حالم
فمضى وكان خرافة ومنـــاما
لم يبـــق من ذكراه إلا أنة
شقيت بمسراها الجنوب سقاما
تركتك قلباً مفعماً بخواطر
وأبت تتيم على الحيـــاة نظاما
ورأيت معنى العيش فكرة مصلح
تمشى فتوقظ أمـــة وأناما
وجعلت روحك مدفعاً لنوازع
شتى تفيض محبـــة ووئاما
أعددت نفسك للكفاح والهوى
وكلاهما هـــدف علا وتسامى
فإذا بكفك غير قلب خافق وسطور شعر أتعبت أقلاما
عزلاء من زرد الكفاح وإنما
تبغـــين للقلب الجريح ضماما

•••

يا فكرة فى خاطرى أعدو لها
شوقاً وأشربهـــا منى وغراما
جهلوك قوم أسرفوا فى جهلهم
وتعسفوا بك قسوة وظـــلاماً
لا تحفلى بهمو فكم من مصلح
شنوا عليه من الحروب خصاما
يكفيك ما قدمت فاطوى صفحة
واستقبلى أخرى أجل مقـــاما
ودعى الملام ورودى من خمـــرة
مزجت حلاوتها أكف ندامى
صرح الحياة على الشباب فرائض
تقضى وكانت واجباً وذماما

محمد الرعى

بين المسموع والمقروء

نزل الستار ، فحجب النور ، ثم ارتفع

الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ، وكذلك العين وسلامتها ، لا يدرك قيمتها إلا من فقدها ، فما بالك عن فقدها ، ثم استردها ، ولكن بعد أن طوى أحقابا ، وكادت أن تطويه الأحقاب .

بدأ الحياة بمولد عجيب . إن الولد يولد ووزنه سبعة أرطال أو نحوها ، أما صاحبنا فقد ولد ووزنه ضعف هذا المقدار ، وتعسر خروجه إلى الدنيا ، وفي تعسره اندفع الدم إلى عينيه ، فأصابهما بأذى غير يسير .

ونشأ وهو يرى رؤية لا بأس بها ، والذى بقى فى عينيه من آثار ذلك الدم المندفع غيَّر فى بصره ألوان الأشياء . فالسماء الزرقاء كان يراها قبة غبراء .

وشيء آخر تركته تلك الفاجعة الأولى ، أنه لم يكن يرى الأشياء فى مواضعها تماما ، وسبب ذلك له الحوادث يتلو بعضها بعضا ، وكسرت عظامه فى هذه الحوادث تسع مرات . وكانت تُكسر فتُجبر . وفى حادثة ذهبت إحدى عينيه لغير رجعة . وفى حادثة أخرى احترقت عينه الأخرى ، فنشأ عليها من هذا الحريق غشاء ، أخذ أول الأمر يتكون بطيئا ، ثم زادت سرعة تكونه ، وزاد من جراء ذلك ضعف بصره ، من جزء من ستة ، إلى جزء من اثنى عشر ، إلى جزء من ثمانية وأربعين ، ثم نزل الستار كثيفا فحجب النور كله .

وإذا عمى الإنسان وحُجب نوره ، استيقظت فيه الأحاسيس الأخرى استيقاظا غير منتظر ، فهو يسمع أكثر مما سمع ، وهو يشم أكثر مما شم . والخشب والمعدن يقتربان منه ، فيدرك اقترابهما بفروق خفية من حرارة وبرودة . والقطن والصوف ، وقد كان مسّهما أطول المسّ ، يمسهما الآن ، فيجد من مسهما شيئا جديدا . والكلب والقط والناس يصبح لهم إلى جانب الشميم هالة ، كأنها هالة من مغناطيسية كهربائية . وهى هالة قد تُحمد ، وهى هالة قد تُذمّ .

والأصوات يصبح لها المقام الأرفع ، وكذلك تلك الأصوات القليلة الخافتة التى لا يأبه لها ذو العين كالسعلة الخفيفة ، أو حتى التنفس الخفيف ، أو حتى صوت الجلسة يجلسها الرفيق . فإن لها صوتا ، وإن للجالس فى أثناء جلوسه أصواتا خافتة تنبئ عن قلقه أو عن اطمئنانه .

ويأتيه الزائر فيستقبله عند الباب ، ليصافحه ، ليجد فى مس يده شيئا من حقيقته . ويجلس إليه فيأخذ مما يشم منه وما يسمع ، يكوّن له صورة ، فيرسم له جسما ، ويرسم قامة ، ويرسم وجها .

وجاء العمى على مهل ، فأخذ منه مُتَع الحياة واحدة بعد أخرى : فالرياضة والألعاب ذهبت . وأول ما ذهب الصيد . الصيد كائنا ما كان . ثم لعب التنس ، ثم الكرة . ثم السيارة ، أخذ سيرها فى يده يتباطأ ، حتى صارت أبطأ من حمار . ثم الكتب عزّت قراءتها ، ثم امتنعت ، وكذلك الصحف لم يعد يقرأ منها إلا عناوينها ، ثم ذهبت هذه .

وبذهاب هذه الرياضات ، وبذهاب هذه الألعاب ، ذهب من كان يشركه فيها من الأصدقاء والأصحاب . وبعض الأصدقاء والأصحاب حفظ الصداقة والصحبة ، ولكن قلت الزيارة وندر اللقاء . وكان لابد له أن يبتدع الشاغل ، ويستجد الملاهى . فذهب إلى المسارح . ولكن المسرح من غير نور ، وبغير ألوان ، لا يشوق كثيرا . فاتخذ وجهته إلى الإذاعة والحاكى ، ولكن هذان ضاقت بهما آذان السامعين . فعمد إلى المائدة ، إلى الطعام والشراب ، فوجد فيها لذة الحاسة ، ووجد ممن صحبه عليها لذة السمع .

وصار الفكر متعته الكبرى . وطلب من يقرأ له ، ويلتذّ مع ذلك القراءة ، ويشركه فيما يقرأ ، فوجد أن رجلا كهذا عزيز المنال . وطلب الذى يقوده ، فلم يجد إلا دافعا غليظا أو ممسكا بذراعه قابضا . وطال الطلب حتى وقع أخيراً على من عرف أن القيادة مس خفيف ، بأطراف الأنامل ، لا بالكف الواسع العريض .

وما أسرع ما تكشفت له على عماه طوايا الناس ! وما أسرع ما كان يحس الشفقة فيميز منها ما يصدر عن إخلاص وما يصدر عن زيف . والرجال عرف منهم من راق ومن تمكّر . والزحام كرهه ، إلا فئة مختارة من اثنين أو ثلاثة ، يجلس بينهم فتنير له الدنيا على الرغم مما لفه فيها من سواد .

وتعلّم كيف يفرغ إلى نفسه ، ويأنس بنفسه ويطيل الإصغاء لحديثها ، وتطول هى الإصغاء لحديثه . وقد كان أحياناً حديثا فارغا عمن يدعو من الإخوان ، وأى طعام يقدم ؟ وأحيانا حديثا مليئا يغوص به فى أغوار السماء وأحشاء الأرض ، ويجرى مع الزمن ، ما مضى منه وما يُستربحى ، ويقضى فى ذلك الساعات على لذة لا ينالها السأم .

وقد يسمع فى أركان نفسه وظلامها أصواتا لا يكاد يحدّد مداها ، ولا يتبيّن معناها ، ولا يعرف مأتاها ، أمن الشيطان كانت ، أم كانت من عند الله .

وجاء اليوم المقدور بغتة . جاء ذلك اليوم الذى يختار فيه ردّ البصر أو بقاء العمى . وتحدثت إليه الأشجار تقول : « نحن لا نرى أبدا ، ولكنا نعيش على الخضرة ، وتتفتح الزهر ألوانا ، ونستمتع بالحياة » .

وتحدث إليه الواجب يقول : « إن الارتكان على الناس يورث الراحة ، ولكنه حق مؤقت للعاجز ما استعصت عليه أسباب القدرة » .

وقُضى الأمر . وجاء الجرّاح يصنع ما قيل مرارا إنه لا أمل فيه لصانع . وما رفع الجراح آخر مشرط حتى أخذ الضوء يدخل العين بعد أن أغلقت دونه زمانا .

وبعد أيام رُفعت الضمادات عن العين الواحدة .

وقيل للرجل : افتح عينك . قال : وهل أرى ؟ قيل سترى .

وفتح عينه . وكان على طرف السرير باقة من زهر ، من أحمر وأزرق وأبيض ، ومن كل لون . فوقعت عليها عينه أول وقوع . ألا ما أبهج !

عاش فى ظلام عشرات السنوات ، ثم هذا هو يعود ، فيولد على شيخوخته فى الدنيا النيّرة من جديد .

وشاقه أكثر ما شاق رؤية الوجوه . كانت خيالا فصارت حقيقة . كانت مبهمة فزال إبهامها . فهذا وجه الطبيب ، وهذا وجه الممرضة . ولكنها أوجه تعلوها الزرقة .

ومن هذا الرجل ؟ إنه صوت ابنه الأكبر . إنه لا يعرفه . موقف غريب ، يسلّمُ ويؤلم !

ويسأل الابن أباه : ألا تعرفنى ؟

فيقول الأب فى نفسه : « الحق أنى لا أعرفك يابنى . ووجهك أزرق كسائر الوجوه . ولكن من تكون ؟ أأنت ابنى ؟ لا يمكن هذا . إن ابنى طفل أو شاب ، أما أنت فكهل » .

ويعود الابن يسأل : ألا تعرفنى يا أبى ؟

فيقول الأب فى نفسه : « نعم إنه صوت الولد . ولكنه ليس الآن بولد . لقد كبر خلسة منى » . ويتمارقان .

ويعود الرجل الشيخ يسأل : ما لون هذا الحائط .

فتقول الممرضة : أبيض .

فيقول الشيخ : نعم ظننت ذلك .

فيقول الطبيب : لا ، إنك لم تظن ذلك . إنك تراه أزرق .

ويسأل الشيخ : وهذا الزجاج لا لون له ؟

فتقول الممرضة : نعم ، لا لون له .

ويسأل الشيخ : وهذه هى السماء ؟ . . . [سنّه فوق الستين ولا يعرف السماء !]

وتعود الضمادات إلى العين ، بأمر الجراح .

ويصبح الصباح ، فتحس العين امتلاء ، وتحس ثقلا . أصاب العينَ سوءٌ لم يكن منتظرا . دخلها سوء من خارج الجسم أو من داخله . ويبحثون عن بؤرة السوء ، هل هي في اللوز أم في الأذن أم في الأمور ؟

وتطول الخصومة بين الأطباء وبين الداء ، وتزيد العين احمرارا ، ويأخذ ينسدل عليها ما كان ارتفع من ستار .

بالله ! أيعود إلى العمى من بعد إبصار . رحماك يا أرحم الراحمين .

وتزيد معركة الطب والأطباء احترارا . إنها معجزة من معجزات الجراحة يجب أن لا تخيب . لا من أجل الرجل فحسب ، ولكن من أجل الطب والأطباء .

ويتبع النصر الهزيمة ، ويأتي من بعد الهزيمة نصر ، وتأخذ السحابة تنقشع ، ويعود الرجل فيرى الأشياء ويزول انبهامها شيئاً فشيئا . وتتحدد تفاصيلها ، وتروق ألوانها .

ويمضي شهر وشهر . ويقبل الشيخ على العمل أفتح ما يكون نفسا . إنه العمل الحبيب الذي حرمه السنوات . وكان أحب عمل إليه ما اتصل بمصنعه ، فراح إلى الغابات يقطع شجرها ، ويقلم فروعها .

وعاد إلى أصدقائه القدماء يتعرف إليهم من جديد في ناديهم .

لقد امتنعت عليه الوجوه ، ولكن دلت عليها الأصوات .

كانت تجربة أليمة ، ومحنة ، ولكنها لم تعدم لذة . وأخذ يمحو من لوحة نفسه ويخط آثارا لن يبقى من الصحاب والأحباب .

ونعود فنقول : إن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى .

فلنحمد الله على نعم لا ندركها إلا عند افتقادها .

أحمد زكي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٧٦٩

العدد ٤٦٢ | الثلاثاء ٢١ من ذى الحجة سنة ١٣٦٦ — ٤ من نوفبر سنة ١٩٤٧ | السنة التاسعة

واجبنا فى ظروف الشدة الحاضرة

لما عرض رئيس الوزراء قضية البلاد على مجلس الأمن قال كل من تابع أقواله : لقد أحسن الدفاع وعرض القضية عرضا قويا .

ولما صدر قرار مجلس الأمن وكان سلبيا لم يؤيدنا ولم يخذلنا بل عجز عن الوصول فى القضية إلى قرار فأبقاها فى جدول الأعمال ، قال فريق : لقد خسرنا القضية ، وحملوا رئيس الوزراء تبعة ذلك ، وإن لم يبينوا موضع تقصيره .

وقال آخرون : لقد ربحنا ، فقد أسمعنا العالم حججنا وظفرنا بعطف الكثير على أمانينا ، وإن تكن الظروف الدولية قد حالت دون وقوف تلك الدول فى وجه انجلترا — وربحنا ربحاً غير مباشر بخذلان انجلترا فيما أرادت أن يصدر من قرار فى صالحها . ثم نحن قد نقلنا القضية إلى الميدان الدولى بعد أن كانت قضية ثنائية بيننا وبين الإنجليز . واقتنع أكثر الناس بأن مجلس الأمن وجمعية الأمم وكل الهيئات الدولية ليست بالهيئات التى يعتمد عليها فى إقرار حق أو إنصاف مظلوم ؛ فهى خاضعة لنفوذ الدول الكبرى متأثرة بالاعتبارات الخاصة لكل دولة مشتركة فيها ، وأننا لم نفد من عرض قضيتنا على المجلس إلا معرفة هذه الحقيقة التى لبثنا زمنا طويلا نخدع أنفسنا عنها ، وهى أن من لا يستطيع صون حقوقه بقوته الذاتية فلن يجد عند غيره وسيلة الدفاع عنه والذب عن حياضه .

وارتقب الناس عودة رئيس الوزراء ليروا ما يخطوه من خطوات جديدة لمواجهة الموقف ، وكثر التساؤل فى الصحف بعد عودته من مؤيديه ومعارضيه عما سيعمله .

ولم يكد رئيس الوزراء يعود حتى امتحنت مصر بمحنة الكوليرا التى وفدت على البلاد ، فاتجهت جهود الحكومة كلها لمكافحتها ، وشغل الناس بها وبأنبائها عن كل شيء ، وإن كانوا لا ينفكون من آن لآخر يعاودون التفكير فى أمر البلاد وكيف يواجهون الموقف الحاضر .

وزادت الشدة خلال ذلك بإلغاء انجلترا لاتفاقها المؤقت معنا بشأن نصيبنا من العملة الصعبة وبخروجنا من الكتلة الاسترلينية ، فقيدت بذلك وارداتنا ، وتأثرت التجارة ، وبدأ بعض المشتغلين بالمسائل المالية يصورون الموقف فى صورة قاتمة .

وتحرج الموقف فى القضية الفلسطينية بما بدا من ميول قوية فى جمعية الأمم للأخذ برأى اليهود فى تقسيمها بين العرب واليهود ، وكان على مصر أن تشارك غيرها من الأمم العربية فى الاحتياط للموقف بعد جلاء الإنجليز من فلسطين .

وسارت حكومة السودان على سياستها الخاصة ، فأخذت تؤسس جمعية تشريعية للسودان ، وعينت قاضيا سودانيا فى المكان الذى خلا بإبعاد القاضى المصرى ، بعد أن كان يظن أنه سيظل غير مشغول حتى تسوى المسألة الخاصة به بين حكومة مصر وانجلترا ؛ ورأت حكومة السودان عدم السماح لمراقب التعليم المصرى فى السودان بالعودة إليه ، لما نسبته له من اشتغاله بالسياسة ، كما قررت أخيرا إبعاد مدرس مصرى لأنه أرسل برقية تهنئة لرئيس الوزراء يساعده فيها بالسير وراءه فى سبيل الجهاد .

فالأمر فيما يبدو قد أصبح غير هين ، فقد تجمعت فيه الشدائد وأحيطت مصر بسيل من المتاعب ؛ فمن توتر سياسى شديد بينها وبين انجلترا ، بما يستتبعه ذلك من تصرفات صريحة غير ودية ، ومن متاعب اقتصادية خطيرة ، ومن متاعب صحية ، ومن متاعب توجبها مسئولية مصر كدولة عربية .

وفى مثل هذا الجو الملبد بالغيوم قد يظن أن من السهل إضعاف مقاومة الأمة ، وصرفها من غاياتها العليا ، وإشاعة اليأس بين الكثيرين من أفرادها ، ودفعها إلى الاستسلام والرضى بما لم ترض به من قبل .

ودعاة الهزيمة هؤلاء قد يجدون من الخلصين الناقمين على الحكومة الحاضرة ترحيبا لاتفاقهم معهم فى غايتهم ، وهى إسقاط الحكومة القائمة .

ولكن الأمر أخطر من سقوط حكومة وقيام أخرى ، أو إبدال عهد بعهد ، فالأمر هو امتحان لمبلغ إيمان الأمة بمطالبها العادلة ، وصلابتها فى الاستمساك بها ، وصبرها على الشدائد التى تلقاها فى سبيلها .

فكل ملل من المقاومة وجزع من احتمال الشدة ، وتذمر بقليل من الضائقة ، معناه أنها لم تكن جادة فيما طلبته وأنها ترضى بما هو دونه .

ولهذا لا أرى الأمر يعالج بهذا الذعر والضجر ، وإنما يعالج بالصبر والجد والثبات مع العمل .

فيجب أن نوطد أنفسنا على أن انجلترا ستبلونا بألوان جديدة من المضايقات نستنفد بها صبرنا وتضعف روحنا ، وأن نستعد لاحتمالها ومقاومتها .

وقد قلت إن الأمر ليس مجرد صبر واحتمال ؛ فهذا الجهد السلبى أضعف الإيمان ، وإنما يجب أن يقرن ذلك بمجهود عملى إيجابى يقاوم كل حملة بدفاع منظم ؛ فإن حبست عنا الواردات نظمنا أمر إنتاجنا المحلى حتى يكفينا الضرورى من حاجتنا ؛ وإن حيل بين صادراتنا وبين مصانع الإنجليز التمسنا لها منافذ أخرى . وإن واجبنا المحقق الآن هو العمل فى الداخل ومحاولة بناء مستقبلنا السياسى والاقتصادى على جهودنا الذاتية ، ومجال العمل فى ذلك واسع وثمرته محققة .

أما أمر الحكم فيجب أن نسويه بيننا على أساس ترك الأمور لأقدر الناس على قيادة حركة الثبات والمقاومة المنظمة ، وأن يكون للأمة برنامج واحد تنفذه كل حكومة أيا كان لونها ، وأن تقوى هذه الأمة روحيا واقتصاديا ، حتى تستطيع أن تصمد لكل ما يحاوله خصومها لتوهين عزمها وإضعاف مقاومتها ؛ وبهذا تتحقق لنا الحرية والاستقلال بمعناها الصحيح . إنا مع خصومنا فى صراع الفوز فيه للصابر الثابت الذى لا يهن ولا يضعف .

(. . .)

إلى من يلزمهم من أهل البصائر :

أليس كذلك ؟

هب أيها القارىء العزيز أنك من أصحاب الضياع الحقيقية كما يقولون . هب ذلك ، أو كن ذلك إذا شئت . وهب أنك تملك قطعة ممتازة من أرض مصر وتريد أن تزرعها كما ينبغي لها أن تزرع . ثم هب أيضا أن بها عدداً عظيما من الماشية التي تستخدمها في الفلاحة : من حرث ، ونحو سواق ، وجر نوارج وغير ذلك . ثم هب أنه قد ظهر لك أن المحول الذي يتولى أمر هذه الماشية لا يقدم لها العلف الكافي كل يوم . هبه رجلا يأخذ لنفسه ما كان يجب عليه أن يقدمه للمواشي من العلف ويستأثر به أو يبيعه لكي يتفسح بثمنه ويعيش هو وأولاده في بحبوحة ، فتصبح الماشية عجفاء ضعيفة تتساقط من الإعياء إذا ما ربطت إلى المحراث . هب ذلك كله ، فماذا كنت فاعلا ؟ إنك بغير شك تغضب غضبا شديداً ، لأن هذه الحيوانات لها عليك حق . أليس كذلك ؟

إنك بغير شك تغضب على ذلك (المحول) اللص الذي يأخذ ما هو من حق هذه البهائم الخرساء ، منتهزا فرصة أنها بهائم لا تستطيع الكلام ولا الشكاية . أليس كذلك ؟ وإنك بغير شك تنتهي إلى طرد ذلك (المحول) من حظيرتك ، وقد تدفع به إلى القضاء لعقابه على خيانته إذا استطعت أن تثبت عليه السرقة . أليس كذلك ؟

ثم إنك بلا شك تمتلىء منه غيظا لأنه لم يقم بما كان يجب عليه نحو البهائم الخرساء ، وتأخذك رحمة شديدة عليها ، فتنتصر لها على ذلك المحول ، مع أنها من جنس الحيوان ، والمحول من الجنس البشري بكل أسف . أليس كذلك ؟

ألمح من بعيد أنك أيها القارىء العزيز تهز رأسك بالموافقة التامة . أليس كذلك ؟

هذه مسألة الحيوان . والإنسان جدير بلا شك بمثل هذه الشفقة . أليس كذلك ؟

هذه مقدمة بسيطة ، فلننتقل الآن إلى موضوع آخر لا علاقة له بالإنسان ولا بالحيوان ولا بالزراعة ولا بالمحول الخائن . لننتقل إلى سؤال من نوع آخر : هب أنك أيها القارىء العزيز رجل من أكابر أهل مصر ، أو كن ذلك الرجل الكبير إذا شئت . وأغلب ظني أنك كذلك . ثم هب أنك دعوت أحد معارفك من (بلاد برة) ، سواء في أوربا أو أمريكا ، لكي يزورك في مصر . فلما جاء ذلك الصاحب الأجنبي إلى مصر ، ذهبت به إلى دارك النظيفة وأكرمته ، وأنزلته على ما ينبغي له من الترحيب والإعزاز . ثم هب أنه أراد أن يتفسح في البلاد وطلب إليك أن يرى الريف المصري . هبه طلب منك أن يزور القرى المصرية ليرى القوم الذين تنتمي إليهم ، ليرى قومك الذين يدعونهم — كما يدعونك — أهل مصر وأبناء مصر .

إني أستطيع أن أراهن يا سيدي العزيز أنك سوف تنتحل كل الأعذار حتى تحول بينه وبين زيارة ذلك الريف ، لأنك بغير شك ممن يشعرون بشيء من الخجل أن يكون قومك على غير ما ترضى لهم من الحال . أليس كذلك ؟

إنك بغير شك لا تحب أن تسمع منه كلمة واحدة في وصف هؤلاء (القوم) بأنهم مساكين — عراة — قذرون — جهلاء الخ . أليس كذلك ؟

ولقد وقفت أنا مرة موقفا قريبا من هذا ، فقد كنت أسير مع أستاذ أجنبي ، فوقعت عيوننا على بعض مناظر مؤلمة في هذا الشعب . فماذا تظن ذلك الرجل الأجنبي قد فعل ؟ لقد رأيته بعد حين يبكي . نعم كان يبكي — ذلك الرجل الطيب القلب . فكان واجبي أن أضع وجهي في

الأرض كما يقولون . أليس كذلك ؟ فوضعت وجهي في الأرض . أراك أيها القارىء العزيز تهز رأسك متأثراً . أليس كذلك ؟

هذا موضوع ثان ، فلنتركه كما تركنا الموضوع الأول ، ولننتقل إلى معنى ثالث لا علاقة له البتة بالموضوعين السابقين .

هب أيها القارىء الكريم أنك زعيم وطني في وقت من أوقات الأزمات الشديدة التي تعترض حياة الأمم . وهب أنك وجدت من واجبك أن تثير كل الهمم لكي يقف المصريون جميعا من ورائك صفاً واحداً للجهاد في تلك الأزمة الشديدة ، فوجهت دعوة حارة إلى جميع أفراد الشعب ليهبوا معك للجهاد في سبيل خلاص البلاد وتقديم التضحية الواجبة . أتظن أن الشعب يهب معك إلا إذا كان كله شعبا من الأحرار ؟ ألا توافقني على أن الشعب إذا كان محروما جاهلا لا كرامة له في حياته — ألا توافقني على أن الشعب إذا كان مهملا مثل العبيد كان جديرا ألا يشعر بالتضامن الواجب في عنقه لبلاده ؟ إنك توافقني بغير شك على أن كل فرد في الشعب الحر لابد أن يكون متمتعا على الأقل بالحد الأدنى من الحياة الإنسانية . أليس كذلك ؟

قد يقول قائل : إننا نستطيع أو إننا قد استطعنا فعلا في تاريخنا الطويل ، أن نحشد كل قوى الأمة للجهاد ، فلم يجرؤ فرد منها أن يتخلف من أداء الواجب . ولكن هل كان يجدى في الجهاد من يساقون إلى الجهاد قسرا ؟ هل كان يثبت في الجهاد إلا الأحرار الذين يندفعون إلى أداء الواجب بدافع من قلوبهم ؟ إني واثق من أن القارىء العزيز يوافقني على أن العبيد الذين لا يعرفون لأنفسهم كرامة لا يستطيعون أن يتضامنوا في الجهاد صفوفا متراصة ثابتة . أليس كذلك ؟

هذه موضوعات متفرقة قد انساق إليها القلم بغير نظام ولا قصد ، فلندعها فإنها كلها (دردشة) عامة ، ولا أستطيع أن أجمل حديثي كله من هذه (الدردشة) العامة . فلننتقل إلى كلام آخر فيه تحديد ، وله غاية مقصودة . وعندي اقتراح أعتقد أن القارىء الكريم يوافقني عليه وإن كان من أصحاب المصالح الحقيقية في مصر . فبلادنا العزيزة في أشد الحاجة إلى أن تهب هبة صادقة لتضع الأساس الأول لنهضتها الصحيحة . وهذا الأساس الأول لا خلاف فيه مهما اختلفت وجهات النظر ، فهو الشعب المصري نفسه ، هو هذا العدد العظيم من الفلاحين الذين يملأون القرى ، وهذه الملايين الكثيرة التي تقوم بالإنتاج والعمل في مرافق الحياة . هو هذا الشعب المحطم الذي يموت في كل عام بالآلاف ويهيم في الحياة هيام الضال . هذا الشعب هو أول أساس لكل نهضة ، ولا يمكن للبلاد أن تكون بلاداً متمدينة حقاً ، إذا لم يكن لها شعب جدير بالحياة في القرن العشرين . ووضع الأساس هو أكبر عمل في البناء كله ، فإذا كان سليما أمكن أن يقوم البناء شامخا عظيما ؛ وأما إذا كان ذلك الأساس واهيا لم يمكن أن يقام فوقه بناء . فإذا فرضنا أن مهندساً أراد أن يبنى عمارة في أرض رخوة كان عليه أن يستوثق أولا من أنه قد وضع أساساً ثابتاً يمكن أن يبنى العمارة فوقه مهما كلفه ذلك من النفقة . وهو يعرف بلا شك أن كل نفقة يصرفها في سبيل الوثوق من متانة الأساس لا تكون نفقة ضائعة ، بل هي نفقة تقتضيها كل القواعد الاقتصادية السليمة . فإذا احتاج الأمر إلى صرف الألوف المؤلفة ليكفل متانة هذا الأساس كان لابد له من صرف تلك الألوف ، وإلا كان مهندساً خائباً لا معرفة له بقواعد الهندسة ولا الاقتصاد .

فنحن إذا أردنا أن تكون لنا بلاد كان علينا أن نهتم أولا بالأساس الذي تقوم عليه بلادنا وهو الشعب — ذلك الفلاح ، وذلك العامل ، وذلك المنتج . وكل عناية

١ - الجامعة العربية

الأستاذ سيسل أ. حوراني
المحاضر في الفلسفة وعلم السياسة بالجامعة الأمريكية ببيروت سابقاً ، وسكرتير المكتب العربي بواشنطن حالياً .
ترجمة : فؤاد طرزي

ليست الجامعة العربية ، إذا ما عدنا بها إلى تاريخ العرب الحديث ، بداية ولا نهاية . فهي ليست فكرة مستحدثة خرجت إلى حيز الوجود خلال الحرب الأخيرة لتشير إلى تحول جوهري في مجرى الشئون العربية ، ولا هي كذلك النهاية القصوى في عملية ممتدة في الزمن لا يرجى بعدها تطور ولا تقدم . إن الجامعة العربية في الواقع مرحلة في سلسلة من التطورات ، لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن تنتهي . وإذا ما نظر إليها على أساس صلتها بأحداث تاريخية معينة ، فإنها تعتبر خطوة أولى مهمة من حركة مزدوجة ترمي إلى تحرير العرب وتوحيدهم ، ابتدأت منذ الثورة العربية عام ١٩١٥ ، وهي إلى مدى ما ، في الحقيقة ، إتمام لما لم ينفذ من أهداف تلك الثورة .

إن القضية العربية ، أو اليقظة العربية كما تسمى في بعض الأحيان ، يمكن تعريفها بأنها مجهود لإعادة بناء وتوحيد المجتمع العربي ، ولإحلال هذا المجتمع في وطن أكبر ، وإصلاح الثقافة التي هي إلى الآن « جامعة » و « عربية » حديثة ، ولها صلة بالماضي . فهي بهذا الوضع حركة مركبة ، تروم من جهة تحرير الأقاليم والممالك العربية من السيطرة الأجنبية الخارجية ، وتهدف من الجهة الأخرى إلى توحيد العرب في كل الشئون ضمن النطاقة

توجيهها البلاد إلى هذا الشعب لا بد أن تعود أخيراً إليها بخير مضاعف . فيجب أن نعني أكبر العناية بحياة الشعب في كل نواحيها مهما كلفنا ذلك من تضحيات . يجب أن نصلح حياته إصلاحاً شاملاً ، يجب أن نخصص كل عام لذلك الإصلاح الشامل عشرات من الملايين في تعمير القرى وإعادة تنظيمها ، وفي إصلاح الطرق ، وتعميم مشروعات مياه الشرب ، وإقامة المباني الحديثة للمساكن في القرى ، وما أشبه ذلك من وسائل التعمير . إن القرى المصرية خربة منذ عهود طويلة ، وعلينا أن نقوم بتعميرها وإنشائها إنشاء جديداً يتلاءم مع حضارة العصر الحاضر . فإذا نحن لم نجد من الأموال ما يكفي لذلك كان علينا أن نلتمس الوسائل لإيجاد ذلك المال . وعلى أصحاب المصالح الحقيقية أن يعرفوا أن في هذا ضماناً لمصالحهم . فإذا فرضنا أنهم لم يفهموا ذلك من تلقاء أنفسهم كان على الدولة أن تجعلهم يفهمونه ولو قسراً — أي بحكم القانون . ينبغي ألا نتردد في هذا الإصلاح الشامل مراعاة لمصلحة البلاد كلها ، وإن كان يلقى مقاومة من مجموعة محدودة ممن نسميهم أصحاب المصالح الحقيقية .

وعلى فكرة — أحب أن أسأل : هل هناك مصلحة حقيقية لبعض أهل مصر ومصلحة غير حقيقية لبعض الآخر ؟ إن مصلحة الجميع واحدة وحقيقية . والمجتمع المصري كله واحد لا يستطيع بعضه أن يستغني عن بعض . وإذا كان للبعض مصالح عينية أو مالية فإن للبعض الآخر مصلحة لا تقل عنها خطورة ، وهي مصلحة الحياة نفسها . علينا أن نتيقن من ذلك المعنى قبل فوات الفرصة ، فإن القرن العشرين أصبح لا يهضم مبادىء القرون الخالية التي كانت تسمح بوجود الطبقات والامتيازات واستغلال البعض للبعض الآخر . قد زال الرق من كل العقائد ، وأولى بنا أن نعترف في صراحة بأن الحياة الكاملة للأمة متوقفة على وجود الحياة الكاملة لكل الأفراد المكونين لها .

أليس كذلك ؟ .

محمد فريد أبو حديد

العربية؛ ولذلك فإن الكفاح في سبيل الوحدة بين العرب لا يمكن فصله عن كفاحهم في سبيل الاستقلال .

ومع أن العرب طوال الأربعمائة سنة التي كانوا فيها جزءاً من الإمبراطورية العثمانية لم تكن لهم سلطة كبيرة داخل أوطانهم ، إلا أنهم ظلوا محافظين على إحساسهم بقوميتهم . فإن لهم ماضياً مشتركا يفتخر به كافة العرب ، ويساهمون جميعا فيه . ولهم دين مشترك ، احتفظ بميزاته طوال أكبر فترة من فترات التاريخ العربي ، تحدد الخصائص الرئيسة للمجتمع العربي والطابع العربي . ولهم لغة مشتركة وأدب ضخم قادر على تغذية العقول وحفظها نشطة منتجة . ولهم تراث اجتماعي وتشريعي مشترك ، وطريقة في الحياة مشتركة . وكل هذه العوامل حافظت على الشخصية العربية ، وأفردتها بخصائص واضحة ، وطعمتها بقوة كافية لمقاومة الضغط الأجنبي ، وهزيمة عوامل الفرقة .

وعند ما انبعثت الحركات القومية في العالم من تلقاء ذاتها في مفتتح القرن التاسع عشر حافظ العرب على « شخصية » و « شعور » كانا كافيين لتوجيه حركتهم نحو الاستقلال القومي . لقد تحدث الناس عن الوجوه المختلفة لحركة التطور العربي ، وكل هذا ضروري للاشارة إلى أن الجامعة العربية ليست إلا حلقة في سلسلة من التطورات ، وأنها مجموعة من الصلات ترتبط بها مجموعة من الأحداث ، منها : ظهور مصر الحديثة بقيادة محمد علي ، وظهور الوهابيين في وسط الجزيرة ، والنشاط الأدبي في سوريا ولبنان ، وحركة التجديد الإسلامية مقترنة باسم محمد عبده ، والمؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٣ ، وثورة العرب عام ١٩١٥ وانهيارها الجزئي عام ١٩٢٠ ، والثورة العراقية عام ١٩٢٠ ، والثورة السورية عام ١٩٢٥ ، والثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ، ومؤتمر الرابطة العربية عام ١٩٣٧ ، والمؤتمر البرلماني الدولي في القاهرة عام ١٩٣٨ ، ومؤتمر فلسطين في لندن عام ١٩٣٩ وهو المؤتمر الذي ساهمت فيه كافة الحكومات العربية .

إن السهولة التي استطاع بها العالم الخارجي أن يقسم الأقطار العربية إلى ممالك متفرقة في نهاية الحرب العالمية الأولى أكبر دليل على ضعف العرب ، وقد زادتهم ضعفا الانقسامات السياسية التي أعقبت تمزيق وحدتهم . وإن الحكم العثماني ، مع كل عيوبه ، حافظ على المظاهر الخارجية للوحدة ، لأن البلاد العربية تحت السيطرة العثمانية وإن لم تحكم نفسها بنفسها فهي مع ذلك قد حكمت من مركز واحد ، وكان التعويض الذي حصلت عليه في مقابل دخولها في امبراطورية واسعة هو اتحاد أجزاء الوطن العربي ، في حين أن الانقسامات السياسية في العالم العربي بعد الحرب لم تقدم مثل هذا التعويض ، بل على العكس قسمت العرب وفصلت بينهم ماديا وإداريا واقتصاديا . وقد أدى وجود أنظمة تعليمية مختلفة إلى خلق أنماط متباينة من أنماط التفكير ، وأخضع الشباب العربي إلى تأثيرات خارجية متفرقة؛ ومن أجل هذا ظهر لبعض الوطنيين العرب أن استقلال عدد من الدول العربية الصغيرة الضعيفة الذي اشترى بثمن فادح عاق على الدوام إمكان توحيد العرب توحيدا نهائيا .

ولكن في الوقت الذي أدت فيه الأحداث التي أعقبت عام ١٩١٧ إلى تجزئة العالم العربي ، كانت كافة قوى التاريخ — الداخلية منها والخارجية — تعمل في اتجاه معاكس . فالثورة التي حدثت في وسائط النقل وطرق المواصلات أثر اكتشاف السيارة والقاطرة والطيارة ، قربت بين كل أجزاء الإقليم العربي . فقويت لحمة روابط النسب والدم والتجارة والمعاش ؛ وأدى انتقال الآراء والأفكار إلى نمو مصالح مشتركة . وفي نفس الوقت قدمت مطابع بيروت والقاهرة مواد للقراءة إلى العالم العربي بأسره فنفذت الأساليب المشتركة في الكتابة والتفكير . ثم كان اختراع الراديو خطوة أخرى أوسع ، إذ كان ذا

تأثير هائل لا على انتقال الأفكار والمعارف . بل حتى على لغة الحياة اليومية . وأحدث نمو صناعة السينما فى مصر نفس التأثير . وأخيرا جعل التليفون والتلغراف والطيارة كل ركن من أركان المنطقة العربية ضمن مدى قريب من مركز إدارى واحد وفلا توجد اليوم مدينة مهمة فى العالم العربى لا يمكن الوصول إليها فى أيام معدودة .

وفى هذا التاريخ كانت شعوب العالم فى الخارج تتجمع فى شكل جماعات قوية جبارة ، وصار مصير الشعوب الصغيرة قلقا . وإن البلاد العربية تكون كتلة قوية لها قيمة إذا اتحدت ، ولكنها مجزأة لا يمكن أن يحسب لها حساب . ولهذا فإن نشوء الجامعة العربية تعبير طبيعى عن الاتجاهات السائدة ، فلا يمكن الادعاء بأنها ليست حدثا منتظرا .

وإن الخطوة الأولى فى سبيل تكوين الجامعة العربية قد بدأها نورى باشا السعيد رئيس الوزارة العراقية آنذاك ؛ وقد تبع هذه الخطوة التوقيع على ميثاق الجامعة فى القاهرة فى آذار من عام ١٩٤٥ . وفى ختام ١٩٤٢ وضع نورى السعيد كتابا عرف بالكتاب الأزرق طبع فى بغداد عام ١٩٤٣ ولكنه لم ينشر . ويحتوى الكتاب الأزرق على رسالة موجهة إلى المستر كيسى ، وزير الدولة البريطانى فى القاهرة بعد ذلك ، تتضمن « ملاحظات حول استقلال العرب وحول الاتحاد مع إشارة خاصة إلى فلسطين » ويحتوى الكتاب كذلك على عدد من المقررات الجريئة .

هناك فكرتان رئيسيتان وراء المقترحات التى وضعها نورى السعيد : الأولى مجملها أن إنشاء « سوريا كبرى » واتحادها مع العراق فى شكل « جامعة » سيساعد على حل قضية فلسطين ، وذلك بالقضاء على المخاوف التى تساور العرب فى فلسطين بأنهم سيصبحون أقلية ، لأن اشتراكهم فى كيان سياسى أكبر سيزيد طاقتهم فى مقاومة الصهيونية . وأما الفكرة الثانية فتقوم على أساس أن « الوحدة العربية » يجب أن تبدأ على شكل « اتحاد » بين الأقطار التى هى أكثر تقاربا فى أهدافها السياسية العامة وفى عاداتها الاجتماعية — كأقطار الهلال الخصيب مثلا . لأن مثل هذا الاتحاد سيكون قويا لأنه سيبتدىء متلاحما ؛ ولأجل إنجازه أكد وجوب « التضحية بالسيادة والصالح المكتسبة » .

وعلى كل فإن الجامعة العربية ، كما أرادها نورى السعيد ، لم تظهر إلى الوجود . فقد ظهر لبعض الوطنيين العرب أن هناك عددا من العيوب والأخطاء فى هذه المقترحات . فإن نورى باشا وإن أكد بأن ضم فلسطين إلى اتحاد أوسع سيقلص من أخطار الصهيونية ، إلا أنه يمكن للباحث أن يتصور أن عكس ذلك قد يكون ممكنا . فالحركة الصهيونية التى تحاول الاندفاع فى كل اتجاه ، من الممكن أن تجد الفرصة أكبر للتوسع فى هذا الاتحاد . يضاف إلى ذلك أنه ليس من الممكن فى سوريا الكبرى التمييز بين العرب والمواطنين اليهود ، ولهذا ستتمكن الجالية اليهودية من مد نفوذها الاقتصادى داخل منطقة أوسع مما كانت لها قبلا . وأكثر من ذلك أن الاقتراح الرامى إلى تقرير وضع اليهود كوضع الموارنة فى جبل لبنان داخل هذا الاتحاد ليس هو بالاقتراح العملى . فعلاوة على الاختلاف الموجود بين المسألتين ، نظرا لأن وضع الموارنة قد تقرر قبل عام ١٩١٤ ، فإن نفس الوضع ، وضع الموارنة ، ليس وضعاً مأمونا ، إذ لا تزال إلى اليوم بعض المخاوف تراود جمهوراً من المسيحيين من أنهم « سيبتلعون فى دولة عربية مسلمة » كما أن فساد النظام هناك أثار شعورا بالانفصال . وأخيرا فإن بعض الوطنيين العرب اعتقدوا بأنه ليس من الحكمة ولا هو بالشىء العملى التمييز بين الأقطار العربية المختلفة بحجة « التشابه » و« التقارب » بين بعض هذه الأقطار ، كما أنه ليس من الحكمة بشكل خاص إنشاء جامعة لا تكون مصر عضواً فيها منذ البداية ، لأنه من الصعب بعد ذلك

إقناع مصر بالانضمام إليها . وفوق ذلك قد ظهر أمام أنظار هؤلاء الوطنيين بأن مصر ستخلع على الجامعة صفة دولية ، وستقويها بشكل لا يمكن للهلال الخصيب أن يؤديه وحده .

وبعد ذلك أنشئت الجامعة ، لا بالشكل الذى أراده نورى السعيد فى البداية ، ولكن على شكل نظام أكثر عموما ، وأقل تماسكا ، تولت مصر فيه مركز القيادة . وهذا يعزى من ناحية إلى وجهات النظر السائدة التى عددناها آنفا ، وإلى حقيقة أن القاهرة غدت خلال الحرب العالمية الثانية أكبر مركز دولى مهم بين البلاد العربية من الناحية الأخرى . وأن هذه الحقيقة الأخيرة نتيجة طبيعية أدى إليها وقوع القاهرة فى وسط طرق المواصلات الحيوية ، والدور الذى لعبته فى العمليات العسكرية التى قامت بها قوات الدول الديمقراطية . وقد سهل تسليم زمام القيادة إلى القاهرة تناقص السيادة العراقية من بعد ثورة رشيد عالى الكيلانى عام ١٩٤١ ، والوضع الاستقلالى غير المحدد لسوريا ولبنان .

وإن أقوى قرار شعبى هو ذلك القرار الذى نص فيه على وجوب استيحاء « الرأى العام العربى » دائما وفى كافة الأمور . ولقد أشرب هذا القرار روح القومية العربية الشعبية .

وقد أعترف بأن الجامعة المقترحة ليست إلا خطوة أولى فى طريق وحدة أقوى ، تستطيع أن تساير اتجاه الأحداث فى العالم . ولذلك يجب أن لا تعتبر الجامعة نهاية التطور ، بل إنها مرحلة تمثل مجرى الأوضاع الداخلية فى العالم العربى ، وتشير إلى تقدم عام نحو الاتحاد ، مسايرة للاتجاه فى العالم الخارجى نحو تكوين كتل إقليمية أكبر .

وهى تمثل « تكتلا شرقيا كبيرا » يتكون من الأقطار العربية ويقف قبالة العالم الخارجى . وقد اتحدت هذه الأقطار لتعمل فى اتجاه واحد ، ولتنبذ كل منها العمل بسياسات خارجية متباينة ، أو تلقى بنفسها فى أحضان دول مختلفة . وإن الهدف الآنى من هذه الفكرة أعاق إمكان عقد كل من سوريا ولبنان معاهدات مع فرنسا تمنحها « وضعا خاصا » مالم تفعل الأقطار العربية مثل ذلك . وإن هذا الجانب من البروتوكول هو الذى أثار شكوك الفرنسيين أكثر من غيره ، وقوى الاعتقاد بينهم بأن الجامعة « لعبة » بريطانية لطردهم من الشرق الأدنى .

وعلاوة على اعتراف الدول العربية باستقلال وسيادة لبنان بحدوده الحالية ، حاول البروتوكول أن يظهر لبعض الفرق الخاصة من اللبنانيين بأن لبنان قد قبل كعضو مساو فى لجنة الدول العربية ، وأن الجامعة لا تعمل بأى شكل كان ضد استقلال لبنان .

وأخيراً جعل البروتوكول من قضية فلسطين قضية تقع مسئوليتها على كاهل العالم العربى بأسره دفعة . وهذا وحد العرب بشكل أكثر قوة مما حدث سابقا فى مؤتمر سان جيمس عام ١٩٣٩ .

(له بقية) فؤاد حمزى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٢٦٩
القاهرة

إشعاع الذرة للبيع

أعلن أخيراً أن الحكومة الأمريكية على استعداد لتوريد أي كمية من العناصر الكيميائية المشعة التي تصنع في المصانع الذرية الكبرى في أوك ريدج بولاية تنيسي . والعناصر المشعة لا تصدر إلا للهيئات العلمية والمستشفيات ومحطات التجارب التي تحتاج إليها لأغراض طبية أو علمية صلمية ، ويجب أن تضمن حكومة الدولة الأجنبية أن العناصر ستستعمل في غير شئون الحرب ، كما يتعهد المشترى بتقديم تقارير علمية مفصلة من البحوث الجارية ونتائجها الطبية والعلمية . وقد ذهبت أول شحنة من هذا النوع إلى ملبورن في أستراليا . وأصبح لمعامل أوك ريدج أكثر من ٦٠٠ عميل داخل الولايات المتحدة وخارجها ، جلهم من المعاهد الطبية والعلمية الراقية .

وقد بدىء في توزيع هذه المواد المشعة في أغسطس سنة ١٩٤٦ داخل الولايات المتحدة ، إذ حصل الدكتور كوردى مدير مستشفى بركارد الطبى لأمراض الجلد والسرطان في سانت لويس ، على وحدة واحدة من عنصر الكربون المشع ، المعروف باسم (ك ١٤) ، ثم توالت الطلبات من مختلف الهيئات حتى بلغ عددها ١٢٠٠ طلب في عام واحد ، أجيبت جميعها . وكان الإقبال شديداً على الفسفور ، ثم الكربون واليود . وكان التوزيع في العام الأول مقصوراً على المؤسسات الأمريكية ، لأن لجنة الطاقة الذرية العليا ، كانت تعارض في التصدير إلى الخارج ، خوفاً من تسرب بعض الأسرار ، أو خشية توجيه البحوث وجهة حربية ، تكون ضارة بسلامة الولايات المتحدة الأمريكية ، وتتألف لجنة الطاقة الذرية من خمسة أعضاء من بينهم عالم واحد هو الدكتور باخر ، ويرأسها دافيد ليلينثال ، الذي أشرف على مشروعات وادي التنيسي العمرانية الواسعة ، والتي تعتبر أروع مثل على ما يمكن أن يحدث من تقدم عمراني حديث في منطقة جرداء مقفرة بواسطة الطرق العلمية والتنظيم المتناسق .

وقد سعى علماء أمريكا سعياً متواصلاً لدى السلطات العليا ، كي تسمح بتصدير المواد المشعة إلى الخارج ، حيث كان الطلب عليها يتزايد يوماً بعد يوم . وأخيراً قبلت اللجنة الإذن بالتصدير بالشروط المشار إليها آنفاً ، وذلك بأغلبية أربعة أصوات ضد صوت واحد ، وصاحبه لويس شتراوس ، رجل المال والأعمال ، والذي كان أميرالاً في الأسطول خلال الحرب . وأعلن قرار اللجنة في الأسبوع الأول من سبتمبر سنة ١٩٤٧ في مدينة سانت لويس ، حيث كان المؤتمر الدولي الرابع للسرطان يعقد جلساته . فاستمع ممثلو ٤٤ دولة إلى هذا الإعلان الهام ، ووزع عليهم بيان واف بالعناصر المتوافرة وأسعارها وطريقة الحصول عليها وشروط التصريح بتصديرها . وتحتوي قائمة العناصر على عشرين عنصراً . وهاك بعض أمثلة منها :

الكربون : ثمنه ٥٠ دولاراً للوحدة ، يفقد نصف قدرته على الإشعاع في ٥١٠٠ عام .

الفسفور : ثمنه ١٫١ دولار للوحدة ، ويفقد نصف قدرته على الإشعاع في ١٤٠ يوماً .

اليود : ثمنه ١٫٧ دولار للوحدة ، ويفقد نصف قدرته على الإشعاع في ثمانية أيام .

مصاريف النقل والشحن ٢٥ دولاراً لكل رسالة ، ويجب دفع تأمين قدره ١٥٥ دولاراً مقابل الوعاء الرصاصي الخاص الذي تنقل فيه المواد .

والوحدة المستعملة في قياس هذه (البضاعة) الذرية الجديدة هي وحدة (الكورى) نسبة إلى مارى كورى البولندية الأصل والفرنسية الجنسية ، التي كان لها الفضل ، في مطلع هذا القرن في الكشف عن عنصر الراديوم المشع الطبيعي . وتعريف (الكورى) هو أنها الكمية التي

الخواطر

« عودة الأسير » أو « بعث من جديد »

أو « طلقة بائنة »

الحمد لله الذي عاد بالأسير إلى سجنه الأول . والحمد لله الذي غرس الوفاء في قلبه فما عن حبه القديم تحوّل . مشدوه بالمستقبل والآمال ، ثم فكوا عنه الأصفاد والأغلال ، وقالوا له : انطلق إلى الأرض الموعودة فهناك مجال أى مجال ! انتفض المسكين ولكنه بكلمة واحدة ما نطق ، وبعد أن نظر إلى الأفق جمح قليلا ثم انطلق . غاصت قدماه في الرمال حتى الركبتين ولكن أغراه السراب ، وأدمى الشوك أصابعه ولكنه تجاهل الذلة والعذاب . فالأمل كذاب غائل خداع ، يكيل لك اليوم بصاعين وفي الغد بنصف صاع . وهمس الأسير لنفسه بعد أن أرهقه الطريق المجهول : ما الذي دهاني حين انقدت لهذا الأمل المعسول ؟ ! لماذا لا أتناسى خجل الشباب ، وأقنع من الغنيمة بالإياب ؟ لقد أحببت سجني وسجاني ، ولن يحوّلني عن حبهما حب ثانى ! ترى على أية حال سأجد سجني الجديد ، وهل ستكون أغلاله وقضبانه من ذهب أم من حديد ؟ . ياويلتاه ويا حسرتى ! ما أتعسنى وما أشد حيرتى ! اللهم الهمني

يخرج منها إشعاع يعادل ما يصدر عن جرام من الراديوم الطبيعى . وهذه كمية ضخمة جداً من الإشعاع ، فلما تسمى جمها في مكان واحد ، ولذلك يفضل العلماء التعامل بجزء من ألف جزء منها ، ويسمونها المليكورى ، كما نقول الملليمتر للجزء من ألف من المتر . وهذه هى الوحدة المستعملة في بيع العناصر المشعة الأمريكية . ويصدر من كل مليكورى ٣٧ مليون قذيفة ذرية في كل ثانية . ويتناقص هذا الإشعاع بمعدل معروف . فمن العناصر المشعة ما يعمر طويلا ، فيستمر نشاطه آلاف السنين ، ومنه ما يخمد نشاطه بعد ساعات أو أيام قليلة .

وتنطلق هذه القذائف الكثيرة ، فيوجهها العلماء إلى ما فيه فائدة للعلم والمعرفة . وخاصة في بعض أنواع السرطان ، مثل سرطان الحنجرة ، حيث يستخدم اليود المشع بنجاح ملموس . وطريقة ذلك أن يتعاطى المريض اليود المشع داخل طعامه ، فيمتصه الجسم ، واليود من شأنه أن يتركز في الغدة الدرقية بالقرب من الحنجرة ، فيذهب ثلاثة أرباعه إلى هذه الغدة ، ويتوزع الربع الباقى في مختلف أعضاء الجسم ، ولا يلبث أن يترك الجسم بعد ساعات معدودات . فإذا تركز اليود المشع تماما هناك في الحنجرة المصابة ، انطلقت منه قذائفه القوية ، فتبيد الأغشية الخبيثة المحيطة بها ولا تضر الخلايا السليمة لبعدها عنها . وتجرى تجارب طبية مماثلة على الفسفور ، الذى يتركز بسرعة في بعض أعضاء الجسم دون الأعضاء الأخرى . وينتظر أن يحدث تقدم عظيم قريبا في علاج بعض الحالات المستعصية بواسطة المواد المشعة .

والكميات المشعة التى تكلف اليوم بضعة جنيهات ، كانت عسيرة المنال منذ سنوات ، ولم يكن في العالم كله سوى بضعة معاهد تفاخر بما تملكه من راديوم . أما اليوم فقد كشف العلم عن التفاعلات الذرية التى تمخضت عن القنبلة الذرية ، فكانت معول الهدم والتدمير ، وكشفت أيضا عن فوائد سلمية كثيرة ، سيكون لها أبلغ الأثر في البناء والتعمير .

وقد حذت كندا أخيراً حذو الولايات المتحدة ، فأنشأت مركزا ذريا في (تشوك ريفر) بولاية أنتاريو ، ينتج ١٤ عنصرا مشعاً ، ويصدر بعضها إلى الخارج .

إبراهيم حلمى عبد الرحمن

وسيلة أتخلص بها من ورطتي ، فقد كنت دائماً في ساعات الشدة موئلي وملاذي وقبلتي ! وأخيراً جاء الخلاص ونزل الوحي والإلهام ، كما سأقصه على قارئي العزيز بالكمال والتمام .

لقد استعرضت معك يا قارئي العزيز في مقال سابق تاريخ حياتي كطبيب منذ تخرجت حتى وجدت نفسي — بعد سلسلة من المتاعب والصعوبات — أشغل منصباً يتمناه أي طبيب طموح . ولقد استأذنت منك في آخر المقال لتتركني وحدي قليلا كي أتمم صلاة شكر لله على ما أنعم به على عبد مؤمن وفيّ يتحدث بنعمته في الصبح والعشية . ولكن قتل الإنسان ما أكفره ! إذ ما وطئت قدماي مقر عملي الجديد حتى غمرتني ذكريات الماضي البعيد والقريب من السنين الطوال التي قضيتها في مستشفى قصر العيني ، وهو المكان الذي نشأت فيه ولم أبرحه لحظة منذ تخرجي . لقد أدبني فأحسن تأديبي ، وعلمني فأحسن تعليمي ، ولقد تغلغلت عظمته العلمية الفنية في كل ذرة من جسمي وفي كل قطرة من دمي . أصبحت هذه المؤسسة العظيمة جزءاً مني ، وصرت أنا كذلك غير منفصل منها . ومهما قيل عنها فهي عنوان الثقة عند الجمهور ، لأنه يهرع إلى عيادات الأطباء المنتسبين إليها في مختلف الفروع وهو مطمئن إلى مستواهم العلمي . وإن قصتنا معها — نحن الأطباء — لعجيبة حقا ! فنحن نفخر في مبدأ الأمر بشرف الانتساب إليها ، ونذكر هذا في كل مناسبة ، كأن نكتبه بالخط العريض تحت أسمائنا في التذاكر الطبية ولافتات العيادات الخاصة ، آملين أن يلمع الاسم في نظر الجمهور . فإذا ما ذاع الصيت وارتفع نتيجة لعوامل شتى أهمها الاجتهاد والمثابرة والأمانة في المعاملة ، بدأت الأم الكبيرة تنظر إلى أبنائها الناجحين في غبطة واعتزاز ، ثم تضمهم إلى صدرها وتقول : هؤلاء لن أتركهم أبداً مهما هفوا وتمردوا وجفوا . ويتمتم الأبناء بدورهم : ونحن لن ننساك أبدا مهما قربت الدار أو شط المزار .

وهكذا تبدأ معاهدة وفاء وولاء ، لا يمكن فصم عراها . ولكني ، كأي ولد عاق ، نبذت أي لقاء نحن بحسن دوام معدودات . استهواني بريق المنصب الجديد فهجرتها وهي تحاول أن تضمني إليها حتى اللحظة الأخيرة . بكت في صمت وأنا أتجاهل نحيبها المكتوم . ودمعت عيناها فتعاميت من حرارة دموعها وهي تلسع خدي المضمّر . وبينما أذرع طريقي إلى الباب لم أحاول النظر خلفي حتى لا تغريني دموعها على الاستسلام إلى العاطفة السهارية التي ألفت بين قلبين دون ثانية أو مصلحة . واندفعت السيارة بي والبيت الجديد ، ولما وصلت إلى هناك وجدت بوابته وقد فغرت فاها كأنها غير متأهب لاستقبالي . دخلت منها فاحتواني فراغ كاد يكتم أنفاسي رغم سعته . حاولت التنفس فشممت هواء غير الهواء ، وعبيراً غير العبير الذي لم أعتد غيره خلال ثمانية عشر عاماً طوال . ولما نزلت من السيارة وطئت قدماي أرضاً غير التي لازمتها طول هذه المدة ، والتي سبرت غورها حتى عرفت كل تفاصيلها الحرجة يستحيل معها أن أتعثر في شرك منصوب أو ألغم مخبأ بين طيات رمالها . همست لنفسي وأنا أدب بقدمي المتهالكتين على طرقات البيت الجديد : « ما الذي دفعك إلى هنا يا مسطول ! أتترك مستشفى قصر العيني بعد كل ما فعله لأجلك مقابل عرض زائل ؟ ما الذي يرغمك على طرق هذا الجو الجديد ، وإضاعة الوقت في دراسة هذه الوجوه الجديدة وأنت في غنى عن كل هذا ؟ لقد عكس مستشفاك القديم عليك كل أنواره فعرفك الجمهور ، ثم أخلصت لرضاك فالتفوا حولك ، وبادلوك حبا بحب وإخلاصا بإخلاص . وها قد كونت لنفسك مملكة صغيرة نعمت فيها في تواضع الحامد الشاكر لله ولعبيد الله . إنها مملكة صغيرة منظمة لا يتطرق الخلل إليها ، فحافظ عليها ، ولا تحاول التوسع خارجها وإلا أفلتت من يديك .

١ - نور الدين محمود

مسلم عظيم

يعرف الناس عن صلاح الدين يوسف بن أيوب شيئا كثيرا ، يعرفون أنه رجل الحروب الصليبية وواحدها ، والفرد العلم بين الأبطال الشرقيين ، وجامع الإسلام إلى لواء الوحدة بعد طول تفرق ، وقائده أمام عدو شديد ، عبر البحر إلى بلاد المسلمين واستقر شجىً في حلقها بضع عشرات من السنين قاربت القرن طولا دون أن يستطيع هؤلاء المسلمون جمع شتاتهم والسير إلى هذا العدو الباغي والاقتصاص منه لجلال الدين وحرمة الأهل وكرامة الأوطان ، ولو قد اجتمع المسلمون عاماً واحدا لقضوا على العدو خلال ذلك العام . ولكن ما الحيلة وقد خلق الله قلوبنا نحن الشارقة على تفرق لا يكاد يلتئم إلا بما يشبه الصادفة والإرغام ؟ لازال هذا دأبنا ولن نزال حتى يرث الله الأرض ومن عليها ! وما بالك بقوم يستقر بينهم عدو يتناولهم واحدا بعد واحد ، ويفرض عليهم الجزى فريقا بعد فريق ، ويتقدم كل يوم خطوة نحو الجنوب يريد السير نحو البيت الحرام حبة قلوب المسلمين ، فلا ينفض أمراء المسلمين إلا بحركات تشبه العبث : سرية هنا وغزوة هناك ، وكتاب من هذا وتهديد من ذاك . فأما أن يتحد القوم ويبرزوا للعدو فأمر لم يكن ليخطر على البال حتى أقبل صلاح الدين ، ولم يكن من طراز معاصريه ولا من أصحاب الدعة والطمأنينة ؛ وتطلع منذ اللحظة الأولى إلى تحقيق الوحدة ، فمن طاوعه منها وانضم إلى العصبة الإسلامية فقد سلم ، وإلا فلينتظر بشر مستطير ، ومن ثم لا غرابة في أن ينعقد إجماع المؤرخين على أن النصر في هذه الحرب عقد بلوائه وتوثق ، بسبب ما كان له من قدرة في الحرب وما تيسر له من صدق الإيمان وجلال الفروسية وهيبة الرجولة وحكمة السياسة التي أيدت الإسلام ونصرت كلمته ورفعت راية الشرق بعد أن أزرى به الأوروبيون إزراء بالغا .

ولكن الناس يعرفون القليل عن «نور الدين محمود»

لا تحاول الطفرة ، بل دع الأمور تجرى في تباطؤ وثبات .

آه لو قسم الله لي بالعودة ثانية إلى مستشفاى القديم ! والله لأتبركن بلمس جداره كل يوم كما يفعل الناس في مساجد الأولياء الصالحين ! » .

إن الإنسان لا يدرك عظمة القصر العيني إلا بعد أن يحرم من الاحياء في حظيرته . إنه وحدة ناضجة ! إنه مثال الاستقلال الجامعي ! إنه سياج لا تتطرق إليه وساطة أو محسوبية ! إنه غني بالرجال الذين تسلم إليهم قيادك ومستقبلك وأنت آمن مطمئن . ليت أصدقائي وزملائي أطباء القصر العيني يحمدون الله على الأرض التي قسم الله لهم أن يعيشوا فيها ما بقى لهم من العمر ! إنها الأرض الطيبة بحق ! إنهم يطلقونها طلقة بائنة كما فعلت ليدركوا النعيم الذى يتمرغون في أحضانه وهم لا يعلمون !

وفاض بي الحنين ، وغلب على الحزن والأسى ، وتشبثت كالطفل الصغير مطالبا بالرجوع إلى أحضان أمي . ولما تم لي ذلك بعد طول السعى دخلت مستشفاى القديم وأنا مرفوع الرأس ، منتعش الفؤاد .

لقد بعثت من جديد !

ونظرت إلى الأرض الطيبة التي مشيت عليها ووجدتني أنحنى نحوها وأقبض بيدى على بعض ذراتها ثم أنتصب منتصبا ، وبعد أن تطلعت إلى السماء الزرقاء فتحت يدى ودققت النظر إلى ما كانت تحويه في سرور ونشوة عظيمين .

لقد كانت حفنة من أرض الوطن !

دكتور مصطفى الديراني

الذي سبق صلاح الدين ومهد له وجعل نصره ميسورا بل هينا ، ويحسبون أن نور الدين كان يمتاز من صلاح الدين بالكثير ، فقد كان صلاح الدين كغيره من منشئي الدولات وقواد الحروب ، شديد الحرص والحزم ، لايكاد يشتم ريح خطر من ناحية إلا تغيرت نفسه وغاضت فيها عيون الحلم والصبر ، وعصف بمن خامره الشك في أمرهم عصف من لا يبقي . وكانت مشاريعه ومطالبه متعددة لا تنتهي ، فكانت حاجته للمال لا تنتهي أيضا ، وكان عماله وجباته من أقسى خلق الله على الناس . ما مر ببلد تاجر إلا قصم الجباة ظهره ، وما بدت على إنسان علامة من علامات اليسار إلا أنذر بعذاب من رجال السلطان . وكان الفلاحون والضعفاء معه في جهد ، ما أينعت في حقولهم ثمرة إلا تلقفها الجباة ، ولا بدت سنبلة قمح إلا استقرت في خزائن السلطان ، حتى أملق الناس في أيامه ، وخلفهم على أبواب محن ومجاعات حصدت الناس حصدا ؛ وتلك كلها صفات ما كان لصلاح الدين غنى عنها حتى يستطيع القيام بما تصدى له من جليل العمل ، وقد كان الظرف يتطلب رجلا حازما شديدا لايكاد يحفل إلا المطلب الأسمى وهو إنقاذ الإسلام والمسلمين من خطر الهلاك على أيدي الصليبيين .

أما نور الدين فكان فارسا منصفا شديد الإيمان بضرورة إنقاذ كرامة الإسلام مما تتعرض له على يد الأعداء ؛ كان ينطوي في كل ذرة من ذراته على إيمان صحيح لا يخالطه إفك من أساليب السياسة ولا رجس من أفاعيل النفس البشرية ، لم يكن كأبيه « عماد الدين زنكي » ينشد ملكا بأي ثمن ، ولا يتردد في مصالحة الصليبيين والمضي معهم إلى حيث يريدون ، ولا يحفل وضع يده في يد مسلم أو نصراني مادام الأمر ينتهي باتساع ملكه أو زيادة موارده ؛ وكان المسلمون قبيل عصر نور الدين قد تحولوا إلى شيء عجيب لا يمكننا تصوره في يسر ؛ أصبحت غايتهم لاتحفل للإسلام ولا زعماء ، وكان أمراؤهم قادتهم في هذا البلاء الذي كانوا ينزلونه بأنفسهم وببلادهم ، فقد نزل الصليبيون بلاد الشام في أواخر القرن العاشر ، واستقروا وأنشأوا الدولات في قلب بلاد المسلمين . فكان هم الأمير منهم حماية أرضه والبقاء على عرشه المتواضع . يدفع الجزية للنصارى ويكاد يستأذنهم في كل عمل يأتيه . ولم يقتصر ذلك على صغار الأمراء بل فعله كبارهم في غير خجل ، فكان خلفاء الفاطميين ووزراؤهم (العظام) أحلافا للفرنج بل تابعين لهم يؤدون الجزية ويحمدون الله على السلامة . وكان أمراء حلب ودمشق والموصل يواصلون الفرنج ، ويهادونهم ويبتغون رضاهم ، ولم تكن الرعية خيرا من الأمراء ؛ كان السلطان إذا زاد في المكس على جماعة أو مس امتيازات جماعة لوحت بالانضمام إلى الفرنج بل انضمت لهم فعلا ، وسارت في ركابهم تقتل المسلمين وتسبي نساءهم ، لا رحمة ولا إيمان ، وكان يخيل للمتأمل في أحداث هذا العصر أن ساعة الإسلام قد دقت وأن زمانه قد ولى ؛ فقد أقبلت عليه جموع النصرانية تهاجمه من غرب البحر الأبيض المتوسط إلى شرقه ، والتقى المسلمون مع الفرنج في حرب هي حياة أو موت في ميدان يمتد من طرف القارة في أقصى الجزيرة الأندلسية إلى أقصى الموصل شمالا ، وأخذت جموع المسلمين تتراجع في اتصال محزن ، حتى ظن أحدهم وهو ريجنالد صاحب الكرك أنه فاتح مكة والمدينة وقاض على الإسلام وأهله ، ولم تروع هذه الدعوى مع ذلك أحدا !

ظل أصحابنا الفاطميون يحشون أنفسهم بما يجتمع في خزائنهم من قطع الذهب ، وظل أمراء دمشق وحماه يتلمسون مواقع رضى ملك بيت المقدس النصراني ، وظل السريان في بوادي الشام يأخذون الأتاوات من الفرنج ثمنا للخيانة ، حتى جاء نور الدين فتغير ذلك

كلا ؛ فقد طالع الناس بسياسة إسلامية صريحة لا تعرف الحيلة أو المداورة وعداء صريح لا يعرف مرونة السياسة مع النصارى ، وتأييد صريح متصل المسلمين لا يعرف نوازع الطمع ولا بوادر الحسد أو نزوات الغضب .

لم يكن نور الدين بالجندى الناص ولا بالسياسى الضليع ، وإنما كان المؤمن الذى يغنيه الإيمان الصادق عن مهارة القيادة وحنكة السياسة ، وتعينه قوة الخلق واستقامة النفس على أساليب الشطار من ثعالب الناس .

كان أبوه « عماد الدين » يهاجم أمراء المسلمين إخوانه فى غير تردد إذا بدا له أن ذلك يعود بالخير عليه وعلى إمارته ، وكان يمد يده للنصارى فى بيت المقدس أو فى طرابلس أو فى الرها ، ويحالفهم على أن يبقى لهم على ما وقع فى أيديهم من بلاد المسلمين ثمناً لسكوتهم عنه ؛ وكان يرجو أن يرث ابنه نور الدين خصاله تلك حتى يستطيع الحفاظ على إمارة الموصل ، من شر يريده بها أحد الجيران ، فى عصر تواترت فيه الشرور ، وكان قد قضى حياته يحاول الاستيلاء على دمشق لأنها كانت أوسط إمارات الشام ، ومن وضع يده عليها هدد حلب وجعل الإمارات الصليبية فى بيت المقدس وطرابلس فى خطر ؛ وكانت دمشق تخشاه وتتطلع إلى حليف يحميها من مطامعه ، ولم يكن عرشها ثابتاً ولا أمرها مأموناً ؛ ولو لم يساعفها الله بثعلب من ثعالب السياسة وهو معين الدين أنر بعد مقتل صاحبها شهاب الدين محمود ، لاستطاع عماد الدين أن يضع يده عليها فى غير كبير مشقة ؛ ولكن معين الدين أنر أسرع ومد يده إلى فلك صاحب بيت المقدس ونزل له عن بانياس ، وارتضى أن يدفع له جزية فى نظير ما عسى أن يقدمه له فلك من المعاونة ، واستطاع بهذا أن يحبط محاولات زنكى ، وأن يرده إلى بلاده فى الموصل وحلب ، آيساً من الأمل فى توسيع رقعة مملكته فى بلاد الشام ، فاتجهت أنظاره إلى إمارة الرها الصليبية إلى غرب بلاده ، وكان صاحبها جوسلين فارساً هماماً ، أجمع المؤرخون على قدرته وفروسيته ؛ وكان من فرط شعوره بالأمان لا يكاد يقيم فى الرها إلا قليلا ، وإنما كان معظم مقامه فى تل باشر ، وكان يقضى الوقت كله متنقلا من حصن إلى حصن فى دعة وأمان وطلب للتسلية يدعو إلى العجب ؛ ولم تكن العلائق بينه وبين جيرانه النصارى أمراء طرابلس وأنطاكية على ما يرام ، ولم يكن يرجى منهم أن يمدوا له يد المساعدة ساعة الخطر . وحدث فى سنة ١١٣٧ أن شغلت هاتان الإمارتان بهجوم مفاجئ قام به يوحنا إمبراطور بيزنطة ، فصرف ريموند أمير أنطاكية معظم وقته فى رد هذه الغارة ؛ وظهر للعيان أن صاحب الرها واجد نفسه وحيداً بلا عون من أحد من إخوانه النصارى إذا دهمه أمر ؛ فلم يكد عماد الدين يشعر بهذا حتى جمع أجناده وهاجم الرها هجمة مفاجئة استطاعت أن تستولى على الحصن المنيع بعد حصار قصير (٢٨ نوفبر سنة ١١٤٤) وبهذا أسقط عماد الدين واحدة من الإمارات الصليبية الأربع فى الشام ، وخلص المسلمين من هذا الشجى الذى كان قد استقر فى حلوقهم ، وهدد حلب والموصل وبدد كل أمل فى سبيل الوحدة ، فلما وقعت فى يد هذا الصقر المسلم انفتح السبيل أمام أهل الموصل واستطاعوا أن يحملوا فى أرض الشام بقدم ثابتة ، وأحست إمارة دمشق الموالية للصليبيين أن ساعتها قد دنت ، ولو لم يمت عماد الدين مقتولا على يد غلمانه فى الرابع عشر من سبتمبر سنة ١١٤٦ لاستولى عليها ، ولكنه مضى مخلفاً العرش لولديه نور الدين محمود وسيف الدين غازى ، فتقاسما دولة أبيهما : لسيف الدين الموصل وما يليها ولنور الدين حلب والرها ؛ فكان على سيف الدين الانصراف إلى حماية أملاكه من جيران المسلمين فى الشرق . وأما نور الدين فقد أراد له الحظ السعيد أن يكون وجهاً لوجه أمام الصليبيين ، أمام العدو المهاجم المحتل ، ولم يكن

أحب إلى نفسه من عمل جليل كهذا ، فانصرف إليه بكل ما ركبه الله فى نفسه من حمية للدين وصفاء فى العقيدة ؛ وما زال يغالب ويجاهد حتى خلف للإسلام دولة موحدة قوية فى يدى زعيم عبقرى هو صلاح الدين .

ولو قد كان نور الدين ذئبا من ذئاب الأمراء كثيره من معاصريه ، أو ثعلبا من ثعالب السياسة كأبيه وجاره معين الدين أنار ، لما وفق فى إدراك مطالبه البعيدة الجليلة هـذا التوفيق السعيد ؛ ذلك أن استقامة خلقه ومعاملته الناس بما تقتضيه الروح الإسلامية الرفيعة ، قد أوقعتا فى القلوب احترامه ، وأحبتا رجاله ، وجعلتاهم لا يكادون يجرءون على غدر أو تقصير ، وإن دارت أفكار ذلك بأذهانهم ، بل كان لشخصه من المهابة فى قلوب خصومه النصارى ما أيأسهم من إدراك مطالبهم منه بالحيلة أو بالخيانة ، واضطروا أن يقفوا منه وجها لوجه ، وقفة الشريف للشريف ، وهو أمر لم يعتادوه ، ولم يستطيعوا عليه صبراً ، وعجزت وسائلهم فى كسب وده بالمال أو بالطاعة المدخولة ، لأن الرجل لم يكن يطلب مالا ولا طاعة ، وإنما يطلب بلاد المسلمين ليردها على المسلمين ، وقد زاحم خصومه أمامه ، وأسلموا إليه حصونهم واحدا بعد واحد ، وهم يزدادون مع الأيام إعجابا به واحتراما له ، حتى لنقرأ مديحه عند أشد خصومه النصارى تعصبا ، فيصفه وليم الصورى بأنه أمير عادل يقظ متدين معين لأبناء جنسه راع لتقاليده .

princeps justus et providus et secundum gentis svae traditiones religiosus

وقد حاول من أول الأمر أن ينزع من قلوب من يعاملونه من المسلمين الخوف والشك اللذين يدفعانهم إلى الخداع والغدر ؛ كان يعرف مثلا أن فلانا هذا من أتباعه يدبر عليه ، ولا يستحى أن يضع يده فى يد أعدائه ، ولو كان أمير غيره لقبض على هذا التابع وبطش به ، ولكن نور الدين كان يعلم أن دافع هذا التابع إلى الخداع والغدر ، إنما هو عدم الأمان الذى يشعر به ، ولو أمن لجادت نفسه بأحسن ما فيها ؛ فكان لا يزال يحاسن القـلق المتردد ويبذل له فى أسباب الطمأنينة حتى ينزع الخوف من نفسه ويجعله يشعر أن نور الدين أحنى عليه من والده ، ومن ثم يسلم قلبه له ولا يعود يفكر فى خيانة أو غدر ؛ ولم يكن نور الدين ييأس من أول محاولة مع الناس ، بل كان يحاسن التابع من أتباعه فيصر التابع على الغدر ، فيمضى نور الدين يزيد فى إحسانه ولا يزال به حتى يسلّ من نفسه كل خوف ، وقد كسب بهذا قلوب تابعيه على نحو لم يوفق إليه أمير مسلم فى عصره ، وأصبح يبعث الواحد من رجاله فى أمر من أموره ، وهو لا يشك فى صدقه وفى استعداده لبذل أقصى ما يستطيعه ؛ بهذا كسب قلب أمير قادر مثل أسد الدين شيركوه ، واحتفظ بود صلاح الدين ، ولو عمل كلاهما مع أمير آخر غير نور الدين لوقعت البغضاء بينهما وبينه من أول الأمر ، ولتفرقت الوحدة المرجوة أيدى سبا ، ولست تجد فى التاريخ كله إلا مثلا نادرة من هذه الفضيلة الغالية التى توقظ الفضيلة النائمة فى قلوب الناس ، وتنظمهم جميعا فى صفوف الخير جندا مخلصين ، ولعل ذلك يأذن لنا فى أن نقول إن الفضيلة إذا تمكنت من النفس كانت أقوى من ذكاء نافذ وتحايل تزول أمامه الحجب . فلو أن صلاح الدين كان فى مكان نور الدين لما استطاع ما استطاع ، لأن صلاح الدين كان رجل سياسة وكياسة ، ولم يكن الوقت يحتاج السياسى الكيس ، وإنما للزعيم المخلص ، للأب الكريم الذى يكسب القلوب ويؤمنها وينظمها فى صف الجهاد عقداً ، وقد استطاع نور الدين ذلك على أجمل صورة وأدعاها إلى الإعجاب ، وخلف قلوب الناس متفتحة للجهاد مشرئبة إليه ، ولم يبق على صـلاح الدين إلا أن يقود ، وقد قاد وانتهى الأمر بنصر الإسلام والمسلمين .

(له بقية) حسين مؤنس

القوم يقرأون...

(١) تاريخ الزواج عند البشر :

كتاب ألفه عام ١٨٩١ الفيلسوف الفنلندى « ادوارد الكسندر وستر مارك » (١٨٦٢ — ١٩٣٩) ، وقد عرّف هذا الفيلسوف الزواج بقوله : « هو اتصال يطول أمده أو يقصر بين ذكر وأنثى . ويدوم إلى ما بعد ميلاد الولد » .

وهو فى مستهل كتابه يرفع راية التحذير والإنذار ، منكراً ما استقر عليه رأى الناس من الاستدلال بغير أدلة مقنعة على أن انتشار عادة من العادات أو قانون من القوانين بين بعض الأقوام البدائيين هو دليل على أن تلك العادة أو ذلك القانون أثر من آثار إحدى مراحل التقدم التى مرّت بها الجماعة الإنسانية كلها .

أما طريقته هو ، فإنه يحاول أولاً أن يستخلص من مختلف عناصر موضوعه أسباب الظواهر الاجتماعية . ثم يستدل من ذيوع تلك الأسباب وانتشارها على ذيوع تلك الظواهر وانتشارها .

وهذا مطلب غاية فى الصعوبة ؛ ذلك لأن تلك الأدلة والشواهد تنقصها عناصر الإقناع . وذلك لورودها على ألسنة المبشرين والرحالة الذين هم بسبب جهلهم بلغات الأقوام وعاداتهم قد يسيئون — فى كثير من الأحيان — وصف عادات الزواج عند أولئك الأقوام البدائيين ، وقد يحرفون الكلام عن مواضعه .

والرأى عند المؤلف الفيلسوف أن ما يشاهد من تشويش وهرجلة فى طقوس الزواج عند أولئك الأقوام إنما مرجعهما فى الأغلب الأعم إلى اتصالهم بأسباب الحضارة .

وهو يقول أيضاً : إنه ليست هناك أية أثارة من دليل يطمئن له العقل يدل على أن الهرجلة كانت مرحلة كتب لها الدوام والبقاء فى تاريخ الاجتماع الانسانى .

هذا . وفى الكتاب فصول عن العزوبة ، وعن الانتخاب الجنسى ، وعن تحريم الزواج بين الأقارب ، وعن زواج السبايا والإماء ، وعن الزواج بمختلف صوره وأنواعه ، وعن مدة بقاء الزواج فى مختلف أشكاله وحالاته .

وهو يبرر معالجته بلا خوف ولا وجل هذا الموضوع الذى ينطوى أحيانا على أبحاث ذات تفصيلات لا تلذ ولا تسر ، بتقريره قاعدة تكاد تكون قد أصبحت مثلا سائرا ، وهى قوله :

« إن إخفاء الحقيقة عند معالجة موضوعات علم من العلوم هو الدليل الوحيد على عدم الاحتشام الذى يسىء إلى ذلك العلم ... »

(٢) الخالدون :

هذا الكتاب هو آخر كتاب يستحق الذكر من كتب الروائى والقصصى والنقادة الفرنسى الكبير الفونس دوديه (١٨٤٠ — ١٨٩٧) .

وهو فى ظاهره وصف لأخلاق وعادات أهل باريس ، ولكنه فى الواقع سخرية من دعاوى الأكاديمية الفرنسية وغلوائها .

أما عنوانه فمأخوذ من ذلك اللقب الذى يطلقه الناس اصطلاحاً على الأربعين عضوا من أعضاء تلك الجماعة التى كادت تنفسها بالتخليد ، والتى جعلت الفضل كله مقصوراً على أعضائها .

وعلى الرغم من أن « الفونس دوديه » مؤلف هذا الكتاب قد منح إحدى جوائز تلك الأكاديمية ، فإنه لم يظفر بانتخابه عضوا من أعضائها .

ولذلك فقد أنشأ هو و « زولا » و « الأخوان » « جونكور » وبعض إخوانهم زمرة من زمر الأدب تنافس تلك الزمرة .

وقد كانت وخزات « دودبه » وطعناته فى كتابه الساخر أليمة الوقع لدى رجال الأكاديمية.

وقد جعل المؤلف بطل قصته رجلا مولعا بمطالعة الكتب، وهو رجل من الأكاديميين، قد ظفر كل كتاب من كتبه بتاج من تيجان الأكاديمية، حتى نفدت تيجانها، ولم يبق لدى الأكاديمية ما يمكنها أن تكافئه به إلا أن تنتخبه عضوا من أعضائها. واتفق له فى الوقت نفسه أن عينته الحكومة موظفا فى قسم المحفوظات بوزارة الخارجية.

ثم اتفق له أن هاجم الحكومة، فكلفه هذا الهجوم ضياع وظيفته، فاستتبع هذا فقدانه وسيلة العيش.

ثم أخذ بعد ذلك فى تنقيح بعض رسائل قديمة مخطوطة وقعت فى يده، وهى رسائل ذات قيمة تفوق كل تقدير وحصر.

وكان غاية آماله ونهاية مطامعه أن يشهد ترحيب العالم كله وغبطته بنشر تلك الذخائر والكنوز.

ثم اتفق له أن حلت بساحته مصائب ثلاث

أولاها: امرأته التى لا حدّ لزهوها ومطامعها.

وثانيتها: ابنه المسرف المتلاف.

وهما يبالغان فى تحقيره والحط من قدره.

أما ثالثة الأثافى، وكبرى المصائب، فهى أن تلك المخطوطات القديمة التى ظنها ذخائر وكنوزاً، لم تكن إلا رسائل مزيفة.

واستتبع هذا أن الأكاديمية — وقد خرج بها الغيظ إلى غير لائق بالسداد، عما جلبه عليها ما نزل بساحته من خزى وفضيحة — قد فكرت فى أمر تجريده وإعادته إلى سجل « غير الخالدين ».

أما وصاحبنا قد أصبح لا يلقى فى بيته إلا التعنيف والزجر. ولا يلقى فى باريس كلها إلا الهزؤ والسخرية، فلم ير — وقد كان الأمين العام للأكاديمية — إلا أن يضع حداً لآلامه بتغريق نفسه فى نهر السين.

(٣) كتاب النبوغ الوراثى:

لمؤلفه «سير فرنسيس جالتون» (١٨٢٢ — ١٩١١)

ظهر هذا المؤلف عام ١٨٦٩، وهو دراسة يحدها طبع ولوع بالبحث والتقصى، ويرفدها ذكاء نادر. حاول فيها أن يخضع قوانين الوراثة إلى تجارب كمية، قوامها الإحصاء والعدد.

وهو يقدم فى ختام بحثه جملة صالحة من الأرقام والحقائق، وطائفة قليلة من الأحكام التى بنيت على الاطلاق والتعميم.

وكان هدفه الذى قصر عليه بحثه هو دراسة مظاهر تلك الصورة العقلية الفطينة، أو تلك الصفة التى يسميها الناس « عبقرية ».

وكان يسائل نفسه وهو يوالى أبحاثه: أيكون من المحتمل أن الذى وهب النبوغ والعبقرية قد ورثهما من أبيه أو من واحد من أسلافه؟ وإذا صحّ هذا، أفليس من المعقول أن يورثها أبناءه وحفدته؟

وبدأ المؤلف أبحاثه بدراسة عن طائفة من القضاة الإنجليز عاشوا بين عامى ١٦٦٠ و ١٨٦٥. وكان عدد هؤلاء القضاة ٢٨٦ قاضيا. وقد أثبت الإحصاء أن ١١٢ قاضياً منهم كان لهم أقرباء امتازوا بالذكاء، وكانوا من النابغين. وهى نتيجة جعلت نسبة انتقال الذكاء بالوراثة كنسبة واحد إلى ثلاثة.

وأغرته هذه النتيجة بتطبيق نظريته على الطوائف الأخرى من رجال السياسة، ومن القواد والأدباء والعلماء، ومن رجال الدين والفنانين والشعراء.

وقد أجرى تجاربه الاحصائية فى ثلثمائة عائلة نبغ منها على اختلاف فى درجات النبوغ ألف رجل.

وكانت نتيجة التقصى أن ٣١ ٪ من أولئك النابغين كان آباؤهم نابغين، وأن نسبة النابغين من أبنائهم كانت ٤٨ ٪

وهو مع ذلك يقرر أنّ من المستحيل — ومعرفتنا بعلوم الإحصاء لا تزال محدودة — أن نقول في هذا الموضوع الكلمة الأخيرة .

والمؤلف يبوب حقائقه بمهارة فائقة . وكأنّ هدفه المباشر هو الوصول إلى قانون إيجاد النسب وليس الوصول إلى قانون ثابت في الوراثة ، بمعنى أنّ طريقته هي طريقة إحصائية في صميمها . وهي لذلك لا يمكن تطبيقها في المسائل المتصلة بالعقل تطبيقاً يستريح له عقل القاضي .

والمؤلف هو القائل : إن الأعداد هي أداة غير مصقولة صقلا يكفل لها الكشف عن دقائق أنسجة الظواهر الخلقية والاجتماعية .

وتلك الأداة هي كذلك سهلة الكسر جداً حتى إنها لا قدرة لها على التغلغل تغلغلاً عميقا في طبائع تلك الظواهر المعقدة ، والمتعددة المظاهر ...

(٤) كتاب ساعات في احدى المكتبات

لمؤلفه سير ليسلي ستيفن (١٨٣٢ — ١٩٠٤) وهو فيلسوف انجليزي كانت امرأته صغرى أخوات الكاتب الانجليزي « تاكيراي » .

وكتابه هذا في ثلاثة مجلدات . وقد استغرق تأليفه خمس سنوات (١٨٧٤ — ١٨٧٩) . وهو مجموعة صحائف أعدت للكلام عن الكتاب والكتب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وقد تناول فيه بالبحث الشاعر « بوب » ككاتب وأديب . كما تناول فيه قصص « ديفو » وريتشاردسون و « بلزاك » و « فيلدنج » و « دزرائيلي » و « هوثورن » و « دي كونسي » و « جورج اليوت » و « شارلوت برونتي » و « الدكتور جونسون » والشاعر الثائر « ولم ساقدج لاندور » . كما تناول فيه بالبحث كتابا كثيرين يبلغون ثلاثة أضعاف من ذكرنا .

ولم يكن لهذا الكاتب نظرية في تقدم الآداب يتبناها ، ويتولاها بالتعهد منها والرعاية لها ، كما كان يفعل النقادة الفرنسي « تين » مثلا .

ولذلك فقد كان يعيش قليل هموم البال . وكان يمشي في الأرض مرحاً ، لا يبالي أين تقع دقة رجله في ميدان الأدب .

وكان رجلاً ذوي الإحساس نير العقل . وكان يعرف لماذا يرضى الناس عن كتاب من الكتب ، ولماذا ينأون عنه وينهون عنه . وهو يبدي أسبابه في لغة سهلة واضحة ، لا عوج فيها ولا التواء . وكأنه كان يصدر أحكامه وهو متكيء في مكتبته على إحدى الأرائك بعد غداء شهي . أو كأنه قاض نزيه ، لا يعرف في الحق هوادة ، يصدر حكمه في منطق سليم ، وفي رقة ولطف بالغين .

وهو كاتب لين الملمس في غير ضعف أو رخاوة . وكان من المعجبين بالشاعر « بوب » وكان يضعه في عداد الشعراء العظام ؛ ذلك لأنه كان يرى فيه أنه تجسيد لروح الأدب بذكائه وبسخريته اللاذعة ، وبتطامنه العقل ، وبقدرته الفائقة على وضع الأشياء في مواضعها .

وقد قال في كلامه عن « دي كوينسي » : إنه أعجب شخصية ظهرت في الوجود .

أما رأيه في « ما كولي » وفي « جورج اليوت » فكان رأيا ينزل بهما إلى مرتبة هي أقرب إلى السخط منها إلى الرضا ...

مبارك ابراهيم

قصة الأسبوع

علاج روحى

وقف فهمى المهندس الحكومى فى غرفة مكتبه بإحدى الوزارات، يقطع الغرفة ذهابا وإيابا فى ثورة نفسية عميقة وهو يقول : —

معايير خاطئة ونظم حكومية فاسدة . إنى كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى ، فلا أنا نلت تقديرا واعترافا بجهودى ونشاطى ، ولا أنا عرفت طعم الراحة أو استمتعت ببهجة الحياة .

وهنا دخل عليه أحد الزملاء وسمع ما فاه به من ألفاظ فقال : ماذا جرى يا عزيزى ؟ فأجابه :

— أتعرف ابن الراوى باشا الذى كان سببا فى انهيار كوبرى الحدود بسبب جهله وإهماله ، والذى سبب خسارة لمالية الدولة تزيد على أربعين ألف جنيه ؟

— أفصل من عمله ..؟

— لا يا عزيزى ، لقد رقى ومنح المركز الذى كنت أطمع فيه نظير ما قدمت من جهود مضنية خلال الأعوام الماضية . هل وصل إلى سمعك أن اكرم ابن وكيل المصلحة الذى لم يمض على تخرجه سنتان قد رقى إلى وظيفة كبير المهندسين

— خفف من غضبك يا عزيزى ، فلم يعد فى مصلحتنا مقاييس عادلة تشجع على الإنتاج والإخلاص فى العمل . ما أغباني ، لقد كنت أقدس شيئا خياليا سموه الواجب . ما أغبانى ، لقد كنت مصابا بمرض وهمى سموه الطموح . . لقد ضيعت فى الخيال والوهم زهرة العمر .

***

خرج فهمى بعد هذا النقاش من مقر عمله ، وشرر الغضب يتطاير من عينيه ، خرج هائما على وجهه فى كل مكان ، حتى استقر به الحال فى « كازينو » يقع على بحيرة صافية الماء ، خيم عليها هدوء شامل . وفى هذا الهدوء راح يقلب الماضى والحاضر ، ويستعرض السنوات الطوال التى قضاها فى ظل النزاهة والكرامة والمثل العليا ، وراح يسأل نفسه : هل فى استطاعته أن يتحرر من هذا الطموح ؟ هل فى استطاعته وأد أحلام شبابه ، فيعيش رجلا آليا يقنع من الحياة بالأكل والشرب ، أم هو غير قادر على ذلك ، فيخضع للواقع بما فيه من مقاييس فاسدة واتجاهات خاطئة ؟ !

وانتهت المعركة بين هذين الاتجاهين المتضادين بعزمه على تحقيق آماله حتى ولو تخلى من الشرف والفضيلة والمثل العليا .

وتحت تأثير الصدمة النفسية التى أصابته آمن إيمانا بأن الطريق الأمثل للوثوب فى المعترك الحكومى هو أن يحتال باسم الحب والزواج ، وأن يندمج فى الطبقة الراقية عسى أن يجد من بينهم من يحتضنه من الشخصيات البارزة ويدفعه إلى الترقى دفعا قبل الأوان .

لقد أفقدته هذه الصدمة النفسية صوابه ، وتملكته نزعات فاسدة ونسى نفسه ، فاذا به يخاطبها فى صوت مسموع قائلا :

— الفضيلة والشرف والمثل العليا كلمات براقة خداعة باسمها يتاجر البشر وباسمها يحتالون .

فاتجهت أنظار الجالسين إليه وهو يحادث نفسه بمثل هذا الصوت المرتفع ، وراحوا يتهامسون ويتضاحكون . عند ذلك أفاق فهمى من ذهوله وأدرك حرج موقفه وشعر بالنظرات المصوبة إليه ، فانسل من بين الجالسين هاربا من نظراتهم الساخرة .

ذهب فهمى عقب ذلك إلى مسكن فى إحدى العمارات اتخذه بعض زملائه ومعارفه وكرا لمقابلة الخليلات ، وكل صيد جديد من بنات الهوى والفساد . لقد اعترت الدهشة زملاءه بسبب هبوطه المفاجئ ، وراحوا يتساءلون ويتهامسون : أجاء ليحدثنا عن التقوى والفضيلة ؟ أم لماذا جاء يا ترى ؟ أدرك فهمى سر همسهم فقال :

— أيها الزملاء . لست ناصحاً ولا واعظاً هذه المرة ، ولكن جئت آخذ على يديكم أول درس من دروس الإباحية ... وواجبنا لو اتخذتموني شريكا في وكركم هذا .

— لا مانع من قبولك ... ومادمت رابعنا فستطلق عليه « الوكر الرباعي » .

ومن هذا اليوم وفهمي لاينشد إلا الازدراء بالمبادىء والمثل ، فقد تدنست روحه ونفسه وانقلبت الأوضاع في مخيلته . لقد أصبح لايطيق البعد عن الحفلات الساهرة ، ليتملق الرجال ويضاحك السيدات ويغازل الفتيات ، دون أن يقيم وزنا لروحانية الصداقة والحب ، فهو لا يراها إلا وسيلة لتحقيق أحلامه التي وأدتها معايير المجتمع الفاسدة .

وتهامست الأندية والمجتمعات بمغامراته ، خصوصا تلك المغامرة الأخيرة ، حيث زلت ابنة أحد كبار الموظفين في غياهب حبه . لقد أحبته حبا صادقا عنيفا ، فبدلا من أن يرحمها ، راح يساومها في وصله وهجره ، وكأنه أمام صفقة تجارية لابد أن يخرج منها غانما رابحا . ولقد كان له ما أراد ، فقد مهدت له الطريق لترقيته قبل الأوان .

أما وعوده لخطيبته « درية » فأخذت تتحلل وتتلاشى أمام هذا التطور الخلقي الذي اعتراه بسبب هذه الصدمة النفسية ، فشعرت بإهماله لها وبرود عاطفته نحوها . لقد عز عليها الأمر ، فراحت تقدح زناد فكرها عسى أن تهتدي إلى حيلة تحفظه بها من أن يقع في حب واحدة غيرها من بنات حواء . لماذا لا تتنكر له في شخصية مجهولة وتنصب شباكها حتى توقعه في حب خيالي فتحتل بذلك فراغ عقله وقلبه فتأمن شر هجوم غرامي نسائي جديد يوجه إليه ! فكرة خيالية طرأت على ذهن خطيبته التي استبدت بها الغيرة ، ولكن حبها القوي الصادق أتى بالمعجزات وأحال الخيال إلى حقيقة واقعة ملموسة . ولتنفذ فكرتها اقترحت على إحدى زميلات الدراسة أن تجعل حفلة عيد ميلادها التي اعتادت أن تقيمها كل عام حفلة تنكرية يأتيها المدعوون والمدعوات في وجوه متنكرة وأزياء كرنفالية طريفة . ولقد نال اقتراحها هذا قبولا واستحسانا وتنفيذا .

جاءت درية إلى حفلة عيد ميلاد زميلتها متنكرة في ثوب بدوية ، بعد أن رأت زي خطيبها الذي تنكر فيه . وبحثت عنه حتى التقت به وراحت تحادثه بلهجة لبنانية لم يتح لخطيبها فرصة استماعها منها من قبل . وكانت تلك اللهجة قد اكتسبتها من زيارتها لبيروت عدة مرات مع والدها . راحت تحادثه حتى شغلته عن كل شيء ، وأحاطته بجو شعري خيالي مشبع بطابع الغموض والإبهام .

ولما جاء دور « درية » في الغناء صاحت صاحبة الدعوة قائلة :

ستطربكم الآنسة إحدى المدعوات بأغنية لبنانية .

عزفت الموسيقى وراحت درية في صوت ساحر بديع تغني قطعتها الشعبية وكان مطلعها ... « وين يا كيوبيد سهامك وين ... وين » . وما إن انتهت من غنائها حتى أمطرها السامعون تصفيقا وإعجابا ، وسارع إليها فهمي مهنئا وقال :

— الآن عرفت من أنت ، إنك إحدى المطربات الشرقيات في محطة الإذاعة .

فانتهزت « درية » هذه الفرصة وزادته إبهاما وغموضا بقولها :

— هذا حقيقي ... يالك من ذكي عبقري !

وهنا اطمأنت درية إلى أن خطيبها لم يكتشف أمرها ، وأنها تستطيع أن تسير في تنكرها حتى نهاية الشوط .

عاد فهمي إلى بيته عقب هذه الحفلة الساهرة ، وقلبه يحمل حبا قويا جارفا . لقد عشقتها أذناه قبل أن تعشقها عيناه . عاد إلى بيته بعد أن وعدته بأنها ستحادثه كل ثلاثاء من كل أسبوع في الساعة السابعة مساء . ظلت تحادثه تليفونيا في هذا الموعد تسأله عن حاله ، ولكن حديثها كان مقتضبا لتزيده شوقا وغموضا . كانت أحاديثها لاتشبع ولا تفي مثل هذا الحب الولهان . فلما ألح عليها

أن تنابله ، وقبلت بشرط أن تأتيه في مكان لا ثالث لهما فيه ، ضعيف الإضاءة ، متنكرة في نفس الثوب الذي قابلته به أول مرة ، فوعدها بتنفيذ ما طلبته .

***

جاءت هذه الحبيبة المجهولة أو الخطيبة المتنكرة إلى هذا « الوكر الرائع » فاستقبلها فهمي على ضوء شمعة صغيرة تحقيقا لما طلبت ، وحياها في رقة وعذوبة لفظ ، وأشار إلى غرفة الاستقبال فأخذت مكانها هناك . وراح فهمي يمطرها بوابل من غزله المعهود ، ثم قال :

— يا حبيبتي كفى تنكرا ... لقد سئمت هذا الغموض ... ارفعي نقابك عن وجهك وتعالي نختال سويا في رياض الحب . ارفعي نقابك لتلتقي شفتانا بين سحر العيون وخمر القبل .

— أهذا هو الحب الذي تدعوني إليه .

— هذه هي توابل الحب يا عزيزتي .

— الحب الصادق هو حب الروح للروح مجرداً من دنس الشهوة والاستغلال . وهذا هو السبب في عدم تورطي معك فيما سميته حبا .

— ألم تعجبك طريقتي في الحب ؟

— أصارحك أنه حب ناقص ، لا يشبع فتاة مثلي تنشد نشوة الروح من خمر حب أفلاطوني ، ولهذا أشعر أن علاقتنا هذه خالية من التوافق الروحي ، ويحسن بي أن أقطع صلتنا وأصارحك المرة الأخيرة .

— لا أستطيع يا عزيزتي أن أفقدك .... لا أستطيع البعد عنك .

— إن كنت حقاً لا تستطيع البعد عني كما تقول فروض نفسك على حب روحي وجرد نفسك من نزعاتك الاستغلالية .

— أي نزعات استغلالية تقصدين ؟ .

— الاحتيال باسم الحب والزواج كما فعلت بكريمة الدامورى بك . قد تكسب من وراء هذا الاحتيال تحقيق آمال وأطماع ، ولكنك ستفقد رجولتك . وعند ذلك تفقدني معها لأني لا أعشق رجولة عرجاء ناقصة . ثم حيته وانصرفت ، ولكنها ظلت تغذيه بعد ذلك في رسائلها بروحانية الحب وشاعريته وتذكره بالرجولة الكاملة وتسمو بنفسه إلى عالم كله تضحية وشرف ونبل ، فكانت له بمثابة طبيب نفساني . لقد تعهدته بكل علاج روحي حتى أعادت إليه إيمانه بالفضيلة والمثل العليا بعد أن حطمتها معايير المجتمع الفاسدة ، وما به من شفاعات ووساطات .

***

لقد استيقظ ضمير فهمي في هذا الجو الروحي ، وراح يتعقبه ليل نهار حتى أقلق مضجعه ، فظل حائراً قلقاً حتى حان الموعد الذي تعودت فيه هذه الحبيبة المجهولة أن تحادثه تليفونيا ، فما إن بدأت تحييه حتى راح يشرح لها ما اعتزمه من أمر الرجوع إلى خطيبته التي أنكر عليها أمرها ، معتذراً من هذا التحول ، طالما أن تكون العلاقة بينهما مجرد صداقة روحية . فما كان منها إلا أن هنأته وقالت : أستطيع بعد قليل أن أكشف الستار عن شخصيتي وستعرف من أنا يوم زفافك .

ولما ذهب فهمي إلى بيت درية يوم زفافهما ليعود بها إلى عش الزوجية وجد بالباب سيدة تهمس في أذنه قائلة :

— في الصالون سيدة متنكرة تود محادثتك على انفراد .

وعند ما دخل عليها وأقفل الباب خلفه ، نزعت هذه الحبيبة المجهولة قناعها فإذا بها خطيبته التي ستزف إليه هذه الليلة ، فاعتراه دهشة وذهول ، وشعر بخجل ، وأدرك أنه أمام زوجة عرفت كل ماضيه الملوث ، فركع تحت قدميها يطلب الصفح ، فركعت درية بجواره وقالت :

إذا لم تكن زوجتك شاطىء السلامة إذا ما عصفت الحياة فماذا تكون ؟

إذا لم تمسح زوجتك دموع التوبة وتصفح وتغفر فماذا

بين المسموع والمقروء

بالحب عمي ، وبالحب غباء

يقولون إن الحب أعمى ، وأقول إنه غبي كذلك .

وليس معنى هذا أني لو كانت تهيأت لي الفرصة في الحب ، لم يكن حبي أعمى ، ولم يكن غبيا ، ولكني أعني أن الحب كثيرا ما يكون غير مسئول عما يأتي ، لأنه لا يدري ما يأتي ، ولا يدرك حالة هو فيها . فهو في عمى ، ولكنه يدعي الإبصار . وهو في غباء ولكنه يدعي الذكاء . أولعله يعرف أنه العمى ، ومع هذا يرى في ظلمة عماه الضياء ، ولعله يعرف أنه الغباء ، ولكنه مع هذا يسألك الغباء ، لأن فيه من وجهته الداخلية اشتفاء .

على كل حال استمع إلى هذه ، ثم قل لي بعد ذلك ، أهذا عمى الحب أم تعاميه . وهذا غباؤه أم تغابيه .

ليس من أحباب الفن من لم يسمع بالفنان الفرنسي هنرى جوتْريير Henri Gautrier .

جاء عام ١٩١٢ فبلغ هذا الفنان النابغة الخمسين من عمره . وإذا وجب احتفالٌ ببلوغه الخمسين . وأي احتفال أجدر بهذه الذكرى من معرض يقام خصيصا به ، يُجمَع فيه أكثر ما خطّه ريشته في سنواته الماضية الطويلة .

من أجل هذا أخذت تتوالى على الصالة الشهيرة ، صالة ديفوار ، بشارع دى لابيه بباريس ، صور من ورائها صور في الأشهر الأربعة الأولى من ذلك العام . وزاد في استجابة الناس ، والجامعين ، والمتاحف ، في كل بلد متمدين ، بإرسال ما كانوا يقتنون من هذه الصور ، أن الفنان نفسه توجه إليهم بهذا الرجاء . وما جاء الأسبوع الأول من مايو حتى كان اجتمع بهذه الصالة على التقريب كل ما كان أنتجه الفنان في سنواته الثلاثين الماضية من صور ، جاءت من أركان الأرض الأربعة ، وبلغت مائة وسبعاً وتسعين صورة . وأحصى الخبراء ما جاز أن يكون تخلف ، فلم يبلغ ما عدّوه من ذلك إلا اثنتي عشرة صورة .

وكان موعد افتتاح المعرض يوم الاثنين الثالث عشر من مايو .

وفي صبيحة الأحد الذي قبله ، وقبل أن تطلع الشمس اشتعلت النار في صالة ديفوار فجاءت على كل هذه الصور فلم يبق من قماشها أو زيتها رقعة واحدة يتمثل فيها مجهود ثلاثين عاما بذله هذا الرجل الذي كان فنان زمانه الأوحد

واهتز العالم لهذه الفاجعة . وما كاد يفيق منها حتى تلتها فاجعة أخرى . انتحر هنري بشقته بشارع كونكورد . وقال الناس انتحاره ، ولكن هالهم أكثر طريقته ، فقد فتح الشريان السباتي بعنقه بشوكة كبيرة يستعان بها على تقطيع اللحم على المائدة .

كان هنري جوتْريير لا شك غريب الأطوار غريب المعيشة ، يسكن وحده شقة صغيرة تكاد تكون عارية من الأثاث ، ولا يهتم بامرأة ، وانتظرت منه باريس كل غريب وكل خارق . ولكن فعلته هذه لم تكن خارقة . إنه الانفعال الطبيعي لرجل فقد بالحريق كل ما كان بناه في الحياة . فإن كان في حياته شيء طبيعي ، فذاك هو انتحاره . أو هكذا ظنت باريس ، وبهذا تحدثت مدة ستة أشهر بعد وفاته . ثم نقضت كلَّ ذلك الحديث الحقيقةُ التي لا شك

تكون وسائلها ؟

يا حبيبي ! لقد لعبت هذا الدور كله لأحققك وأنقذك من التشريحات العابثات في أزمتك النفسية العصبية ، ولأعيد إليك الثقة بالفضيلة والمثل العليا .

سمع فهمي ذلك فقبلها اعترافا بفضلها . وبعد أن تمت مراسم الزفاف راحت السيارة تنهب بهما الأرض نهبا في طريقهما إلى عش الزوجية القبيل .

عز الدين فراج

فيها : أن الذي أشعل الحريق في المرض هو هنري نفسه ، فهو الذي دبره ، ودبر أمر انتحاره من بعده . وهاتان كانتا آخر حلقتين في سلسلة من حوادث حياته العجيبة .

جاء هنري إلى باريس من قريته الصغيرة في لورين ، عام ١٨٨٠ ليدرس الرسم بالزيت في المرسم الشهير ، مرسم « جول دي لا كروا » . وكان عندئذ في الثامنة عشرة من عمره . وكان ولداً لا تظهر عليه النباهة ، ولا يمتاز بلباقة وحركة . وجذوة العبقرية فيه كانت خافتة خابية ، فلم يستبنها أحد ، حتى « دي لا كروا » نفسه ، ذلك الرجل الذي كان يُشعل في نفس تلاميذه أقل شيء فيها يحتمل اشتعالا .

ومضت السنون فاجتذب هنري أصدقاؤه ، وخرجوا به إلى حياة باريس فتخلص من الكثير من حيائه ، وأخذ يتردد على المطاعم الصغيرة في بعض أمسياته ، ويأكل ويلتذ بأحاديث جماعات الطلبة التي كانت تجتمع هناك . وفي هذا الجو اكتشف في نفسه القدرة على نظم الشعر ، وصياغة الأغاني ، فنظم من ذلك وصاغ أغنيات خفيفة سهلة اللفظ دافئة المعاني ، فشاعت في باريس وذاعت . وكانت أكثر هذه الأغنيات شيوعا أغنية نظمها من فتاة اسمها « إيفون » . وكانت أغنية ذات عاطفة ، وبها مسٌّ من حزن .

وكتبها بعد عام من لقائه « إيفون لي بران » . وهي ابنة مدام « لي بران » ، صاحبة مطعم « القطة السوداء » أشهر مطعم يغشاه الطلبة في « حي الطلبة » في باريس . وكانت أصغر منه بثلاثة أعوام عند ما التقيا . وكانت مقيمة في الريف عند عمة لها ، حتى عامها السابع عشر . ثم حضرت إلى باريس لتعين أمها فيما تقوم به في المطعم من أعمال . وكانت فتاة جميلة ، مليئة ، ولكن كان يظهر عليها شيء من الغباء . وفُتن بها هنري ، وتملكه حبها ، فكان من ذلك تلك الأغاني التي نبعت من قلبه ، واشتق منها الناس .

ولم تجد الفتاة فيه ، وفي لقائه ، إلا المرح لها ؛ كان لا بأس عليها منه ، وهو صاح غير مخمور ، لأنه كان حيياً ، وكان صامتا . ولكنه إذا شرب ، ذهب حياؤه ، وذهب صمته ، وتحرك لسانه ، وأخذ يفيض بالمنة والكلام فيضا ، بل تدفقا لا يُدفَع ؛ من تعبير عن حبه ، إلى أغان ، إلى خطب . وتصغي إيفون إلى كل هذا فلا تهتز . وكانت ترى في بعض معانيه القباحة والخروج . والحق أنها لم تكن تبادله الحب . بل شر من ذلك أنها كانت تحب غيره . كانت تحب رئيس نُدُل المطعم ، بل كانت مخطوبة له .

ومن عجب أنْ لم يخبره أحد بذلك . فلا البنت ، ولا أمها ، وكانت أمها تميل إليه . عرف كل أحد بهذه الخطبة إلا هنري . وظل يأتي إلى المطعم ، يأكل وجبته الرخيصة مع النبيذ ، ويُسقيها بكاسات من الروم ، ثم يطلق في الجو صوته بأغانيه ، يعبّر بها عن مكنون حبه لهذه الفتاة التي لم يكن لغيرها من بنات الدنيا في قلبه مكان . وقال لها في بعض ما قال من تدفقاته : سأجعل الدنيا تسعى إلى أعتاب دارك . وقد برّت الحوادث بوعده ، ولكن في غير المعنى الذي أراد .

وجاء رأس السنة ، فحمل في ليلته إلى مطعم « القطة السوداء » هدية إلى فتاة أحلامه ، هي صورة صوّرها لها ، كانت الأولى من وحي هذا الحب . ودخل فلم يجد الفتاة ، قالت أمها إنها في صبيحة ذلك اليوم تزوجت رئيس النُدُل بالمطعم ، وإنهما في تلك الأثناء كانا في القطار يذهب بهما الأرض إلى الجنوب ، حيث الدفء ، ليقضيا هناك شهر العسل .

بُهت هنري ، وكاد يُصعَق . وظلت عيناه مفتوحتين تنظران ، وأخذت شفتاه ترتعشان . وانحل سكوته عن صياح هائل ، وعن كلم غير مفهوم . وبغتة خرج من المطعم ، لا عن طريق بابه ، بل من طريق نافذته وهي من زجاج . قذف بنفسه تجاه هذه النافذة ، وقد تقدمه رأسه ، فاخترق زجاجها وأصيب ، ولكن بجروح برئ منها بعد شهر . وظل أشهراً بعيداً من الناس . ثم ذهب إلى مرسم « دي لا كروا » يستأنف نشاطه وفنه . وعاد إلى الحياة .

ولكنه عاد إليها على غير حاله الأول . لقد تغيرت

حياته تغيرا كبيرا ، ما كان منها فى بيته وما كان فى الناس . أما فى بيته فاتخذ التقشف لبيته أسلوبا ، وعاف اللذات . وأما فى الناس فعاش فى زحمتهم وحيدا . وجاء المطعم ولكن ليأكل ، ولا شىء غير هذا . وذهب عنه غناؤه ، وذهبت أغانيه بذهاب صاحبتها . والجذوة التى اشتعلت فى قلبه تفنى سبيل حبه ، أخذت الآن تشتعل فتفنى له سبيل الفن . والطاقة التى كانت تجشمت ليكون إنفاقها فى المطعم ، صار اليوم إنفاقها فى المرسم . وعاش أمس لإيفون ، والشعر والموسيقى ، فأصبح لا يعنيه فى الحياة إلى الريشة والألوان ، وما تجرى به الريشة بألوانها على القماش من صور . قال صاحب المرسم الشهير : ظلت عبقرية هنرى مخبوءة فى طيات نفسه ، تنتظر فتاة ريفية غبية لتحكها كما يُحَكّ عود الكبريت فيشتعل .

ومات الفنان الكبير هنرى ، ومضت على موته سنة فسنة . وإذا بهذا الخبر يسرى فى تؤدة بين الناس . إن لهنرى جوتريير بضع صور غير التى احترقت فى الحريق ، بل عشرين صورة ، لا ، بل أربعين . لا ، بل مائة . لا بل فوق ذلك عددا . وسرى الخبر فى عالم الفنون فى الدنيا سريان البرق . وينكشف الأمر عن أن هذه الصور جميعها فى بيت امرأة اسمها مدام «لى كوك» ، واسم والدها «لى بران» ، وهى صاحبة خان ، فتحته هى وزوجها من زمن بالقرب من مدينة بردو . ويتضح أن مدام «لى كوك» هى «إيفون» نفسها .

لقد أهدى الفنان إليها ، فى آخر حياته ، كل ما كان صنع من الصور فى سنواته الخمس الأخيرة . وقيل للناس ذلك ، ممن كانوا حوله ، فعرفوا سبب اختفائه أكثر تلك السنوات ، فلم يكن يراه أحد إلا نادراً .

ومثل هذه الأخبار إذا خرجت ، وصلت إلى بعض الناس قبل بعض . وكان من أوائل من وصل إليهم خبر هذه الصور — خبر هذا الكنز الفنى العظيم — تاجر فنون يدعى «كارل هان» . فما لبث أن اتخذ سبيله فى تنكر إلى ذلك الخان ، على مقربة من مدينة بردو . ولقى إيفون . فوجدها امرأة فلاحة بدينة يعوزها الذكاء كثيرا ، ووجد عندها مائة وستا وأربعين صورة لهنرى جوتريير ، وكلها صور صادقة من ريشته حقاً ، ووجدها لا تدرك ما اقتنت ، ووجدها قد وضعتها فى غير عناية بأعلى حجرة فى المنزل ، حيث يخزن الناس متروك المتاع . وأراد أن يدفع لها فى هـذه الصور جميعها ١٥٠ ألف فرنك . وبدأ مساومتها . ولكن يظهر أن لسانه زلّ ، وحرصه بدا ، فاستيقظ فى روح المرأة حرص الفلاحة ، واستيقظت طبيعة المساومة . وانتهى الأمر بأنها لم ترض أن تبيعه غير صورة واحدة ، وباعته إياها بالـ ١٥٠ ألف فرنك ، تلك التى جاء بها .

ومع هذا فقد خرج أدهى تجار الفنون بأوربا من عند هذه المرأة وهو مغتبط ، فقد كانت الصورة التى اشتراها «حلم الساء» ، والثمن الذى دفعه فيها ثمن غاية فى الزهادة .

وبدأ سيل من الناس يسيل إلى هـذا الخان البعيد . فجاءه طالبوه من كل فج ، ومن كل أرض . وتوزعت هذه الصور على بيوتات العالم ، وعلى متاحفه . وخرجت مدام لى كوك وزوجها من كل هـذه الصفقات أغنى اثنين بفرنسا كلها .

وانتقلت هى وصاحبها إلى باريس ، إلى أفخم حى فيها . واشتريا فيه قصراً زيّناه بأفتح الألوان وأصرخها . ودخلت زائرة إلى القصر تزورها ، فوجدت بالصالون صورا من أرخص ما رسمت الريش ، وليس بينها صورة واحدة لهنرى . لقد احتفظت ربة القصر من صوره بصورة ، ولكن جاءها فيها آخر الأمر ثمن باهظ لم تمالك أن تبيعها . ولم يكن هذا من جحود . لا ، أبدا . إن هنرى كان يحبها ، وهو لا شك عالم الآن بالذى هى فيه ، فهو سعيد بالسعادة التى هى فيها .

قالت : إننا مدينون بكل هذا النعيم لهنرى المسكين .

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٦٣ — الثلاثاء ٢٨ من ذي الحجة سنة ١٣٦٦ — ١١ من نوفمبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

دروس وعبر

من المفيد أن يقف الناس من الأحداث التي تنزل بهم بعد أن تنجاب عنهم غمرتها موقف المتدبر الذي يحلل أسبابها ويستعرض تطوراتها ويستفيد تجاربه في مواجهتها ويرى ما أصاب فيه منها، وما أخطأ أو قصر، ومواضع التقصير، فإنه لا شك سيخرج من دراسته بنتائج تنفعه في مستقبله وتزيد قوته في ملاقاة أمثالها، وخبرته في معالجة ما قد يباغته من الحالات المناظرة.

وفي هذا الوباء الذي نزل بالكنانة والذي شاء لطف الله أن تخف حدته، ويوشك إن شاء الله أن يزول أثره قريباً، وتطهر أرض الوادي من جراثيمه الخبيثة نهائيا — في هذا الوباء وما كان من تصرفات في مكافحته وما صحب ظهوره من ظروف وملابسات وما كشف عنه من وجوه نقص كثيرة، موضع للنظر والدرس.

لعل أول ما يسترعي النظر أثر ذيوع أنباء الوباء، هذا الاهتمام البالغ الشامل الذي بلغ حد الذعر عند بعض الأفراد. هذا الاهتمام الذي لم يقف عند الدوائر الصحية المختصة، بل شمل دوائر الحكومة أجمعها، ولم يقف عند المناطق المصابة وما جاورها، بل جاوزها إلى كل جهات القطر، وامتد إلى كل فرد في كل بلاد القطر، بل تجاوز حدود القطر إلى كل الأقطار القريبة والبعيدة. ولا عجب في ذلك، فغريزة المحافظة على الحياة أقوى الغرائز في الناس، ولا يكاد الناس يحسون خطراً قريباً يتهدد الحياة حتى تستيقظ فيهم تلك الغريزة ويهبوا لاتقاء هذا الخطر ودرء أضراره، ويتجهوا لمعاونة السلطات المختصة على مكافحته.

ولا عجب في أن تسارع الحكومة لحشد كل قواها لهذه المكافحة، وأن تستهين بكل ما يبذل في سبيلها، وأن تتخذ من الإجراءات القوية السريعة ما يكفل تنفيذ خطة أهل الاختصاص في حصر المرض والقضاء عليه، وأن يرضى الجميع بما يقتضيه ذلك من قيود تحد حرية تنقلهم، لأن سلامة الجميع مقدمة على كل شيء، وحفظ أرواحهم أثمن وأغلى من كل اعتبار.

وليس مجال أمثالنا الحكم على مبلغ إحكام الخطة التي وضعت للمكافحة، ودقة التدابير التي اتخذت، فهذا من شأن الخبيرين بتلك الأمور؛ ولكن يبدو مما نقل عن خبراء أجانب شهدوا تلك الإجراءات والتدابير عن قرب أن رجال الصحة العامة قد قاموا بواجبهم قياما حسنا، وأن ما فاتهم في بداية ظهور الوباء بسبب ذهول المفاجأة قد تداركه

سريعاً، وأن وسائل العزل والحصر والتفتيش والعلاج قد بلغت في الدور الأخير غاية ما كان يستطاع عمله في مثل تلك الظروف .

على أن موقف الشعب لم يكن في كثير من الأحوال مما يسهل على رجال الصحة القيام بمهمتهم . فقد كان الذعر دافعاً بالكثير إلى التهافت على أن يطعموا بالمصل الواقي مع بعدهم عن المناطق الموبوءة . ولما كانت كميات المصل التي تنتجها المعامل المصرية والتي ترد من الخارج محدودة ، فقد كان تهافت هؤلاء على التطعيم حائلا دون التعجيل بتطعيم مخالطي المرضى والمجاورين لقراهم ، وهم أولى الناس بأن تكون لهم في ذلك الأسبقية . ومع أن توفير المصل لجميع قد تسنى الآن ، فإن كل ما يمكن أن نستفيده في المستقبل أن لهفة الناس وأنانيتهم يجب ألا تكون سبباً في تقديم البعيدين عن الخطر على القريبين منه ، وإلا تداعى النظام كله ، وعجزت السلطات عن حصر الخطر واتقاء امتداده .

وكان موقف الشعب الريفي المسكين بسبب جهله وفقره وضعف إيمانه بقيمة الإجراءات الصحية من أكبر العوامل في استفحال الوباء فيه وكثرة ضحاياه . فهؤلاء الريفيون الجهلاء لم يدركوا قيمة حصر المرض وأخطار انتقال المخالطين ، فلجئوا إلى شتى الحيل والوسائل للفكاك من الحصار والانتقال للجهات القريبة ، فنشروا المرض ، وهم كذلك غلب على كثير منهم الخوف من العزل فستروا مرضاهم ولم يبلغوا عنهم ، وأدى بهم المرض إلى دفن موتاهم وإجراء مراسم العزاء إلى توسيع شقة العدوى وانتشار الوباء الذي ذهب بكثير منهم . وبالغ البعض في مقاومة الإجراءات الصحية فتجمعوا للحيلولة بين السلطات وبين أداء واجبها . وإذا كان لنا ما نفيده من هذا الموقف فهو الشعور بفداحة إهمال هؤلاء المواطنين وحرمانهم

من النور الذي يكفل لهم إدراك أبسط قواعد المحافظة على الحياة .

إن الجهل المتحكم الذي يعالج بها تنور هؤلاء الريفيين أصبحت عاملا من عوامل تأخر هذا الشعب وإفنائه بنفسه للتهلكة . وقد آن الأوان لاتخاذ خطوات عملية سريعة لتعليم هؤلاء الريفيين ما هو ضروري لهم بطريقة ما من الطرق العملية ، ولو لم يكن ذلك عن طريق القراءة والكتابة .

وكشفت المكافحة عن نقص كبير في حياة الريف ، قد يكون من أكبر الأسباب لانتشار الأمراض ، وهو سوء الموارد التي يستقون منها المياه . وقد تكلمنا كثيراً منذ سنوات عن ضرورة تدبير مياه شرب صالحة لكل القرى ، ولكن الحكومة ورجال الأشغال فيها يأبون إلا القيام بمشروعات مثالية ، وهذه المشروعات تتطلب ملايين كثيرة من الجنيهات ، ولهذا ترك التفكير فيها . ولكن الأمر لا يحتمل البقاء أكثر من ذلك ، فإما أن توضع مشروعات أقل نفقة وإما أن تنفذ تلك المشروعات ولو فرضت على الجميع ضرائب استثنائية من أجلها .

وليس بمستغرب أن نروى حكايات عن بعض القائمين بأمر المكافحة أو السلطات التي تتولى الحصار تمس شعورهم بالواجب العام ؛ ففي كل شعب وكل طبقة أناس تغلب عليهم الأنانية ويقل إحساسهم العام ، ولكن هؤلاء بحمد الله قلة . وقد اتخذت عقوبات شديدة لمن تبين تقصيرهم .

بقي أن نلاحظ أن هذه الإجراءات التي اقتضتها حالة طارئة والتي امتازت بالسرعة والدقة والتعاون وتجنيد كل القوى ، توحي إلينا أن نفكر في الإفادة منها في علاج شئوننا الكبرى ، بمثل تلك الطريقة .

إن نشر التعليم وتحسين الأحوال الصحية وترقية

الشئون الاقتصادية وتقوية الجيش ، كلها أمور تدرأ خطرا إن لم يكن عاجلا ظاهرا كوباء الكوليرا فهو خطر دائم تبدو فى كثير من الظروف أشد الحاجة لمقاومته ؟

فلماذا نسير فى مكافحة الخطر الحق سير السلحفاة ؟ ولماذا لا نستفيد من هذه التجربة فى وضع خطط منظمة قوية عاجلة لتحقيق هذه الأمور التى ستدرأ عنا فى كل وقت أخطارا كثيرة ؟

لماذا لا نجند قوى الاختصاصيين لرسم سياسة اقتصادية عامة تزيد فى إنتاجنا وتساعد على استغلال كل موارد الثروة والقوة لدينا ، ويكون هدفها اكتفاؤنا بأنفسنا ، فلا نكون تحت رحمة غيرنا ، ولا نشكو افتقارنا إلى عملات أجنبية لاستيراد ما نستطيع إنتاجه بأنفسنا ، ولماذا لا توضع سياسة اقتصادية شاملة توفر لنا الصناعات الضرورية والتوسع الزراعى الممكن وتكفل لكل يد عاملة فى البلاد أن تجد موردا للعمل ؟

ولماذا لا نسير فى نشر التعليم وتقويته بخطى أسرع ؟ ولماذا لا تنفذ المشروعات العمرانية الواسعة التى تكفل تحسين الريف وتوفير الحياة الصالحة للريفيين ؟

ولماذا لا نبدأ بزيادة جيوشنا وإنشاء ما يعدها بأسلحتها وذخائرها .

كل هذا يبدو أمرا غير يسير متى أخضعناه للطرق الحكومية العادية ، ولكن الأمر يتغير إذا جعلناه شأناً قوميا تحشد كل قوى البلاد ومواردها لتحقيقه .

(. . .)

إلى من يلزم من أهل البصائر :

الطابق الأعلى

سأصور لك أيها القارىء الكريم صورة ساذجة ليس فيها تجميل ولا تنميق . هـذا بيت تقادم عليه الزمن ، ومرت عليه الحوادث عاما بعـد عام ، حتى هدت قوته ، فتساقط ما كان يغطى حجارته من الدهان البديع ، وتآكلت جدرانه قطعة بعد قطعة ، وضربت الزاوية فى أساسه حتى مشت فى بنائه ، فجثت على وجهه بقعا كالحة ، وزاد الزمان عنفا على ذلك البيت المسكين ، فأرسل عليـه من السماء صاعقة بعد صاعقة دكت منه ركنا وتركت ركنا . فجعلته كالإنسان المشلول ، يعلو منه جانب ، ويهبط جانب . وهذا البيت المسكين صاحب يملكه إرثاً من آبائه ، يؤجره لساكن بعـد ساكن ، ويضع الأجرة كلها فى جيبه ، ويبخل عليه بالقرش الواحد ينفقه عليه ليصلح من شأنه .

ثم مات ذلك المالك ، وورث البيت ولده ، وكان يعتز بثرائه ، فرأى أن من العار عليه أن يبقى بيته على صورته الكالحة القبيحة ، فعزم على أن يقوم بتحسينه وتجميله ، ليكون فى نظر النـاس جديرا بمجد صاحبه ، وهو من أعيان الناس وأكارمهم ، وما كان ينبغى لمثله إلا أن يكون بيته عظيما مثله . ولـكنه بدل أن يهدمه ، ويزيل أنقاضه ، ويقيم على أرضه عمارة جديدة ، فكر فى بدعة بارعة . فقد أتى بمهرة الدهانين ، وأمرهم أن يطلوا على داره أبهى الألوان ، وأن يزخرفوه بأحسن الزخارف . ولم يبخل عليهم بما طلبوا من المال ، فما هى إلا أسابيع قليلة حتى كان بيته يبدو كالعروس .

ولـكن العرائس يا سـيدى القارىء العزيز أنواع ، فمنهن الشابة التى لا تحتاج إلى الدهان ، فإذا دهنت بالأصباغ تلألأت كأزهار الجنان . ومنهن العجوز التى تستطيع أن تبهر الأنظار بأدهانها فى ليلة الجلوة ، حتى إذا ما خلت إلى نفسها فى الصباح نأس قلبها فى أعماق صـدرها حذراً مما يخبئه المستقبل لها . هكذا صار البيت مثل هـذه العروس العجوز فى ليلة جلوتها .

ولـكن صاحب البيت نظر إلى بهاء ألوانه ، وامتلأ قلبه كبراً وسروراً . ثم بلغ به الزهو أن حدث نفسه ببناء طابق أعلى ليتخذه لنفسه مسكنا . فجمع أمهر البنائين ، وأمرهم أن يقيموا له فوق الدار طابقا جـديدا فخما . ولم يبخل عليهم بما طلبوا من المال ؛ فما هى إلا أسابيع حتى كان الطابق الجـديد يتمايل من الخيلاء فوق رأس الدار . وذهب السيد الثرى بأهله وخـدمه وحشمه إلى المنزل الجديد ليشرف منه على حياة سعيدة جديدة .

وذات يوم صحا أهل البيت جميعا على صوت فرقعة هائلة ، فهبوا من نومهم مذعورين ، فإذا البيت قد خرّ بأعلاه وأسفله ، وردم جميع من فيه بحطامه .

هذه صورة ساذجة أردت بها أن أبين للقارىء الكريم معنى يثور فى نفسى كلما تأملت أحوال هذه البلاد العزيزة . هذا الوطن الذى ورثناه من آبائنا منذ أجيال ، لا نستطيع أن نحددها . هذا الوطن الذى يرجع تاريخه إلى ألوف وألوف من السنين ، تعرض فى أثنائها لحوادث الدهر التى لم تترفق به . فقد طالما أغار عليه الأعداء ، وأذلوا أهله ، وحطموا عمرانه ، ولم يتورعوا من إيقاع أفدح المظالم به . وكان هؤلاء يقيمون فى ربوعه سادة لا يعبأون إلا بشىء واحـد ، وهو أن يسخروا أهله فى العمل لكى يحصدوا لأنفسهم كل خيراته . كانوا لا يحسون لأهله رحمة ، ولا يخطر فى قلوبهم أن يتركوا لهم من خيرات الأرض ما يصلحون به ما تهدم من بيوتهم ، ولا ما توعر من طرقهم ، ولا ما أحرق من أثاث مساكنهم . كانوا كما قلت لا يعبأون إلا بما يأخذون لكى يتمتعوا تمتع السادة الأغراب الذين جاءوا إلى البلاد فاتحين بحكم السيف .

وورثنا نحن هذا الوطن الذي طالما شهد من أحداث الدهر ما جعله حقلاً من أرض خصبة يهيم عليها شعب محطم يحاول ما استطاع أن يجد لنفسه مأوى من الطين ويحتال ما استطاع أن يختلس قطعة من خيرات الأرض يمسك بها رمقه .

وورثنا نحن هذا الوطن منذ نحو قرن ونصف عندما بدأت مصر تعود إلى الوعي وتعرف نفسها وجوداً بفضل الحركة الوطنية التي أخذت في الظهور في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم تمت وتجسدت منذ عهد الرجل العظيم محمد علي باشا ، حتى آل ملك الوطن إلينا نحن أبناء هذا الجيل .

وورثنا نحن هذا الوطن ولكنا لم نقف طويلاً نفكر في أمر ذلك الميراث ، ولا في خير الوسائل للانتفاع به ، بل فعلنا ما فعله صاحبنا الذي ورث البيت المتهدم عن أبيه ، ورأى أن أباه ترك له مالاً كثيراً فأحب أن يبني لنفسه طابقاً جديداً يليق به . نعم كنا مثل ذلك الوارث الصغير ، فاكتفينا بالدهان الظاهر الذي يخفي ضعف البنيان ، فأنشأنا المدن العامرة وفسحنا ميادين النشاط الاقتصادي لرؤوس الأموال من كل أطراف الأرض ، وكثرنا من المشروعات التجارية فتضخمت أرباحها وزادت ثروة أصحاب المواهب من رجال الأعمال والشركات فجمعوا الملايين وبنوا العمائر ، وازدحمت الشوارع بالسيارات الفخمة وصارت عواصم القطر تباهي عواصم العالم الكبرى في مفاتنها وتبرجها وترفها . ولكن أين أساس كل هذا ؟ أساسه هو هذا البناء القديم المتهدم الذي لم نصنع له شيئاً سوى أن دهنا وجهه بالطلاء اللامع حتى صار بارعاً يشبه العروس العجوز في ليلة جلوتها .

فلو كشفنا هذا الطلاء قليلاً لظهر لنا من تحته الخطر الجاثم فاقرأ فاه يصيح بنا منذراً : لو خرجنا من هذه الشوارع الفخمة التي تموج بما فيها من سيارات ضخمة ومن هذه العواصم التي تباهي أوربا بفيلاتها وعماراتها وحركتها الصاخبة ، لو خرجنا من هذه الأسواق العامرة التي تسمع فيها رطانة كل لغات الأرض ، ومن هذه المصانع الشامخة التي تعود على أصحابها كل عام الملايين من الجنيهات ربحاً (حلالاً) . لو خرجنا من كل هذا إلى الريف المسكين — إلى الدور الأسفل من البناء ، لعرفنا أننا نعيش في الطابق الأعلى فوق جدار يريد أن ينقض .

ولقد آن لنا أن نكف عن خداع أنفسنا بأننا قطعة من أوربا — أو بأننا أكبر أقطار هذا الشرق الأدنى . آن لنا أن نعرف أن هذه العظمة التي تخدعنا تحتاج إلى أن يدعمها أساس يستطيع أن ينهض بها ، فإن هذه الأعراض التي تتوالى علينا قد أظهرت لنا أن الشعب الأكبر في هذه البلاد لا يعيش — نعم إنه لا يعيش — إنه لا يزال كما تركه الأعداء الفاتحون منذ آلاف السنين ، يهيم على هذه الأرض ليعمل ويحاول أن يجد لنفسه مسكناً من طين الأرض ، ويحتال لكي يختلس له لقمة يمسك بها رمقه ورمق عياله . إن هذا الشعب لا زال كما كان يعيش في وقت الذلة ، عندما كان الأعداء تحكمونه ، على حين أننا الآن منه وهو منا . إننا من أرومة هذا الشعب وهو من أرومتنا ! وإذا كان الفاتحون الأعداء قد قنعوا فيما مضى بأن يتمتعوا بخيره ويتنعموا بمحصول كده فإننا جديرون بأن نشعر غير هذا الشعور لأننا منه وهو منا .

أرأيت إذا أكلت أنت أيها القارئ الرزق حتى شبعت وتركت أخاك الشقيق جائعاً يتلوى في أسفل الدار ، أيهنأ لك طعامك ؟ كلا بل أكبر ظني أن تقول لنفسك : « بالسم الهاري إذا لم أشارك أخي طعامي » .

لقد آن لنا أن نأخذ شيئاً ممن عندهم لنعود به على من ليس عندهم . وقد آن لنا أن نعرف أن الحياة المتمدينة الحديثة لا يمكن أن تقوم على أنانية مجموعة قليلة من المتنازين .

الدنيا غنية بأصحاب البصائر . وقد يكون الإنسان التعس نصف نعيمه . وإن سعادة النعيم تزداد إذا أحسوا أن من حولهم لا يتضورون جوعاً . أيهنأ لك الطعام أيها القارئ

صرعى الوهم

من النوادر الصغيرة ذات المغزى الكبير ما يروى من أن اثنين من أهل فرنسا وقع بينهما ما اعتبره كل واحد منهما ماساً بكرامته . فكان لا بد لهما أن يغسلا الإهانة على طريقتهما الخاصة التي كانت سائدة في فرنسا في القرن الماضي وهي طريقة (المبارزة) . ولم يكن لأحد منهما علم سابق بالسلاح ولا باستعماله . ولكنها التقاليد دفعت أحدهما إلى طلب المبارزة ، وقضت على الآخر أن يقبل التحدي . ولما عرض أمر السلاح الذي تجري به المبارزة وقع الاختيار على المسدس . وكان الباعث على اختياره أنه قد لا يحتاج لخبرة خاصة . وأن كل ما يطلب إلى حامله أن يشد على زناده فتنطلق قذيفته ، وليس على الله بعد ذلك بعزيز أن يصيب المقذوف قلب الهدف !

وكان صاحبانا — فضلا عن جهلهما بالسلاح — من الرعاديد الذين يخشون الموت ويكرهون القتال . ولا يطيقون رؤية المتقاتلين . فكانت محنة لهما أية محنة ، أن يقوما بحمل السلاح — وإطلاق النار — والاستهداف للضرب والطعن . . . والموت !

ومرت الأيام تباعا . واقتربت الساعة التي تم الاتفاق على اللقاء فيها . وتجلد الغريمان ، وسار كل واحد منهما إلى الساحة الموعودة وسط شهوده يتظاهر بالعزم والبأس ، ويحمل في جوفه قلبا خفاقا منهالكا يكاد يذوب من الهلع ولو لم تمسه نار !

ووقف كل واحد منهما في طرف من طرفي الساحة يواجه خصمه والمسدس في قبضة يده كأنه جمرة حية لا قطعة من الحديد البارد . ولم يبق لواحد منهما أي أمل في الحياة إلا أن يخطئه غريمه فلا تصيبه قذيفته . ولكن الخوف والوهم ألقى في روع كل واحد أنه هو الهالك لا محالة في هذا الصراع الفظيع !

وتأهب الرجلان لإطلاق النار . ووقفا متخلخلين ينتظران إشارة الحكم . وأخيرا صدرت هذه الإشارة فدوت في الفضاء طلقتان . سقط الخصمان على أثرهما صريعين !

وأسرع إليهما الشهود والطبيب لإسعاف من لا يزال به رمق . ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أشلاء المتقاتلين . ولكن المأساة ويا للأسف وقعت كاملة ، فقد كان البطلان في عداد الأموات ، ولم يعد في الأمر مجال للإسعاف ولا الإنقاذ ! ووقع في روع الحاضرين أن قذيفة كل واحد لا بد قد استقرت في قلب غريمه فصمتته . وأخذ الطبيب في فحص أول البطلين فوجد القلب سليما لم يصبه سوء . فانتقل إلى الدماغ لعل الطلقة نفذت إلى المخ فهتكته ، فإذا هو أمام رأس نظيف غير مثقوب ولا دام . فأخذ في تقليب الجثة ذات اليمين وذات الشمال وهو يلتمس المكان الذي نفذ منه المقذوف ، فلم يجد أثرا ، لا في ملابس القتيل ولا في جثمانه ، يدل على أن المقذوف قد مسه من قريب أو من بعيد . . .

فترك الطبيب تلك الضحية الأولى وانتقل إلى الثانية ، فكان حالها حال أختها حذوك النعل بالنعل . لا جراح ولا نزيف ولا أثر لأية إصابة خارجية . . . . .

وأخيرا انجلى الأمر . ووضح الغامض من أمر هذين

العزيز إذا رأيت فقيراً ينظر إلى طعامك بعين ملؤها الجوع ؟ إنك بلا شك تدفع عينه عنك بلقمة من طعامك . أفلا ينبغي أن يعلم المنعمون في هذه البلاد أن هناك من لا يجد القوت مع كل كده ؟

لقد آن لنا أن نفكر جديا فيما يجب علينا أن نعمله نحو هذا التراث الذي ورثناه من آبائنا قبل أن نهب من نومنا ذات ليلة على صوت فرقعة هائلة ، ونجد أنفسنا قد انطوينا جميعا تحت الأنقاض .

محمد فريد أبو حديد

السيدين . فقد سقط كل منهما ميتاً لمجرد سماع طلقة زميله بعد أن تهيأ هو للموت ووطن نفسه عليه وآمن بوقوعه ، وأخلص فى إيمان بحلول الكارثة إذا ما انطلقت النار ! ولم تكن النار هى التى صرعته ، ولكن الذى صرعه هو الوهم !

* * *

والذى أذكرنى بهذه النادرة ما سمعته منذ أيام من أن عاملا مسكينا شاهد زميلا له وقد أخذه القئ والإسهال فجأة . فأدرك أنها مسة من هذا الوباء الخبيث الذى نشكوه فى هذه الأيام . وأيقن النفس أن الموجة التى جرفت صاحبه فى طريقها لا بد أنها ستقتلعه من قواعده ، ومن يكون هو أمام هذا التيار المنيف المكتسح الذى تعد ضحاياه كل يوم بالألوف والذى لا يمر بوسط إلا أتى على كل من فيه . ولم ترو الصحف عنه أنه هو (الهواء الأصفر) الذى يمر بالرجل فى يومه فيتركه جثة هامدة فى غده ؟ ! وأحس الرجل الغثيان ... ولم يلبث أن ألقى ما فى جوفه . فاستبان صدق ما رأى وحقق واقع الأمر ما جرى به الخيال .... ثم شى بطنه .... فلما نقل إلى المستشفى لم ينتظر نتيجة التحليل استبق الحوادث فقضى نحبه قبل أن يأتيه البشير بأن التحليل أثبت أن (عينانه) سلبية ! وأن المسة التى أصابته تكن لها صلة (بالكوليرا) ولكنها كانت مسة عصبية فعل لها جسمه تحت تأثير الخوف والوهم والإيحاء الخبيث !! ذهب هو الآخر صريعا من صرعى الوهم !

* * *

ومن عجيب أمر هذه الظاهرة أنها تكاد تكون عامة شاملة — وقلّ بين الناس من لا يخضع لسلطانها . غير أنها أفتك ببعض الناس منها ببعض . فإن فى الناس من إذا مسه السوء هلع — ومنهم من إذا حلت به المصيبة ثبت حيويته وقاوم ودفع . وسأظل أذكر ما حييت كيف رأى زميل لى وهو فى شرخ الشباب وميعة الصبا ، لأنه وقع تحت تأثير وهم باطل بأنه مصاب بمرض خبيث فى المرارة ...

لم يقل له ذلك طبيب ولا أثبتته نتيجة تحليل . ولكنه هو استمع لأحاديث الناس وتطوع (للتشخيص) داء لا علم له به ولا خبرة له فيه . وقرأ قليلا ولكنه توسع فى التطبيق . وعبثاً حاول أهله أن يصرفوه عن هذا الخاطر . وعبثاً حاول أطباؤه أن يقنعوه بحقيقة حاله . ولكنهم كانوا جميعا عنده من المنافقين المتسترين الذين يعملون على خداعه عن مرضه القتال .. يقولون له إن شكواه من بطنه لأنه كان يسرف فى طعامه ، وإن شيئاً من الحمية كفيل بأن يشفيه . ولكنه هو يضع إصبعه على طرف كبده ويقول لهم : ها هنا أحس بالداء ، فلا حيلة لى فى إنكار ما تقولون مادمتم أنتم تحدسون وأنا وحدى الذى أعلم ما لا تعلمون !

وقلت له ذات يوم : سايِر أطباءك أياما ، فإن تحسنت فقد كذبك وهمك وكانوا من الصادقين . وإلا فقد كذبوا وكنت أنت من الصادقين . وكأنما هداه الله لأن يأخذ بمشورتى فاستسلم لإرشادات أطبائه ... ولم يلبث أن تحسنت حاله وارتدت إليه ثقته بنفسه وبدا كأنه نصل من مرضه ، وعاود عمله كما كان . وابتسم للحياة من جديد . وكان احتفاؤه بهذه النتيجة السعيدة أن دعانى لأتناول معه الغداء . فلبيت دعوته وجلست تجاهه آكل وأراه وهو يتناول مما يضعه الخادم أمامنا من مختلف الألوان والأصناف . فراعنى إقباله على الطعام ، وكثرة ما أودعه منه فى بطنه . وسرنى أن أراه على هذه الحال ، وأنا أحسب أن جسمه الضخم إنما يسترد على هذه الصورة بعض ما بذله فى أيام الشدة الماضية ، ولم أكن أدرى أن هذا النهم سيودى به بعد قليل . فقد عاوده الألم بعد أسابيع ، ولست أدرى ما الذى ألقى فى روعه أن هذه نكسة سوف يكون لها ما بعدها . وأنه يحس أنه لا قبل له فى هذه المرة بالمقاومة . ورأيته يستسلم لدائه ويستعصى على أطبائه أكثر مما فعل فى المرة الأولى . واعتكف فلم أعد أراه . وسألت عنه فقيل لى : إنه يسير من سيء إلى أسوأ . وبيْنا

أنا وبعض إخوانى نقلب وجوه الرأى لنصل إلى حل نجتذبه به من تلك الهوة التى ألقى نفسه فيها ونستخلصه من تلك العقيدة الوهمية التى تسلطت عليه فوجدنا بنيه منشوراً فى صحف الصباح . فرأينا فيه مثالا لما يستطيع أن يفعله الوهم الباطل بفريسته . إذ هو الذى تولى بنفسه خلق مذهبه ، ورسم لها طريقها ، وحدد لها نتائجها . ثم عمل من حيث لا يشعر على تنفيذ تلك الخطة القاتلة كأنها القدر المقدور الذى لا حيلة له فيه ولا سلطان له على دفعه .

* * *

وقد يخيل لمن يسمع هذا الكلام أن المقصود به هو أن الإنسان حياته فى يده ، إن شاء عاش وإن شاء مات . ومن الطبيعى أن هذا المعنى لا يمكن أن يقول به عاقل . فالحياة الدنيا إلى زوال مهما طال بصاحبها الأجل . ولكنها فى كل أطوارها تسير طبقا لقوانين ثابتة خالدة ، تؤدى مقدماتها إلى نتائجها المحتومة . فإذا كان من هذه المقدمات الاستسلام واليأس وضياع الثقة بالنفس وفقدان الإيمان بقوة الإرادة ، كانت النتيجة اللازمة سرعة الانهيار وخسران المعركة فى جولتها الأولى . وأهل هذا الجيل لا يمكن أن يكونوا قد نسوا أن أمة من أمم هذه الأرض اشتبكت منذ سنوات فى صراع رهيب كان خصمها قد تهيأ له منذ زمان وخلته هى ، وليس لها من العتاد والاستعداد ما يكفى للدفاع فضلا عن الهجوم . ومع ذلك فإنها اعتصمت باليقين واستمات بالصبر ، وآمنت بالنجاح والنصر . فسكنت مدنها وهى تحت نيران عدوها وبثت ألغامها حول خصمها وسياطه تلهب ظهورها ، وأحاطته بأذرعها الأخطبوطية ، وهو مشغول بدقها على رأسها . وانجلى غبار المعركة آخر الأمر عن نصرها هى وعما يشبه أن يكون زوال خصمها من الوجود .

* * *

ومن الناس الذين نعرفهم من اتخذ لنفسه مثل هذه الخطة فى حياته . فهو يؤمن بالبقاء إيمانا شديدا ، ولا يفكر فى الموت ، بل أكاد أقول إنه لا يعرف الموت إلا بالقياس إلى غيره من الناس . أما هو فإنه لا يزال يعتزم البقاء ، ولا يشتغل باله إلا بما سيعمله فى غده وفى الأسبوع القادم وفى الشهر التالى ، وفى العام الجديد . وهو بذلك يشغل نفسه عن الموت فيبقى ، وكأنه يشغل الموت عن نفسه فيعيش !

كان لنا صاحب أصابه (السكر) ومن المبادىء الأولية التى لا تخفى على من يعرف هذا المرض ومن لا يعرفه أن من ابتلى به فقد حرمت عليه الحلوى وما دخل السكر فى صنعه من ألوان الطعام . ولكن صاحبنا لم تكن تخلو وجبة من وجبات طعامه من مقدار كبير من (الحلاوة الطحينية) يأكلها على أنها علاج لحالته . وكانت نظريته فى ذلك أنه ما دامت أجهزته تنقى السكر من طعامه ولا تمثله فليرهقها بجرعات كبيرة من السكر ليذهب أكثره — نعم — بغير تمثيل . ولكن ليبقى ولو أقله فيما يتصه جسمه . وكانت النتيجة أن وقعت السكارثة التى توقعها أطباؤه ، فاعترته كل مضاعفات المرض : فتورمت قدماه ، وتحجرت عضلات ساقيه وسرى الانتفاخ حتى شمل أسفل بطنه — كل ذلك وهو لا يغير شيئاً من نظام حياته . فهو يلعب الورق كل مساء مع أصحابه حتى منتصف الليل ، ويأكل من طيبات ما يقدمه لضيوفه . ولا يزال يستدعى الطبيب أثر الطبيب ويقوم بالتحليل أثر التحليل وتتوالى النشرات ، وتجمع نتائج التحليل على أنه صائر إلى النهاية المحتومة فى شهور أو أسابيع ، كما كان يسر إلينا بذلك أطباؤه ، وهو مع ذلك لا يشغله إلا المستقبل وما سوف يصنع فيه بعد أن تحل حبوته وينهض من فراشه . وإنى أنى لا أنسى ذلك اليوم الذى بلغنى فيه أنه قد ساءت حاله كما لم تكن قد ساءت من قبل . فهرعت إليه ومعى طبيب جديد لم يكن قد عاده قبل ذلك . وكنت قد سمعت عنه أنه الخبير الذى لا يخطىء فى تشخيص هذا الداء وفى علاجه . فلما دخلت عليه وقدمت إليه الطبيب الذى معى

رحب به وقال: إنه كان قد سمع عنه وفكر في استدعائه. ولذلك لقيه مستبشرا. فأكب الطبيب عليه يفحصه ولم يترك جارحة فيه إلا خبرها وعرف مبلغ كفايتها في أداء عملها، ثم نهض عنه واختلى بي ليلومني على أني استدعيته إلى مثل هـذه الحالة التي تعتبر أنها في دورها الأخير.

ولما استفسرته عما وجد قال لي في استنكار:

— ماذا تريدني أن أجد؟ إني أعجب لصاحبك هذا كيف يعيش!

قلت: وهل لم يعد أي أمل في تحسين حالته؟

قال: إن خير ما يتمناه الإنسان لصاحبك أن لا يطول بقاؤه حتى لا يطول عذابه.

إن الكبد معطلة. والكليتين لا تعملان. والمثانة علاها الصديد. والصدر يعوم في لجة من ماء الاستسقاء، والقلب أضعف من أن يدير الدورة الدموية؛ فماذا تريد من الطب أن يعمله لمواجهة مثل هذه الحالة؟

وتركني الطبيب ومضى.

ودخلت على صاحبي وأنا واجم. ولعله لمح آثار وجومي بادية على ملامحي، وقد خذلتني في اصطناع شيء من مظاهر الاطمئنان. فابتدرني بقوله:

— يظهر أن صاحبك كيفية جماعته. فدعنا منه! أحرى علام استقر عزمي؟ قلت: خيرا.

قال: لم يبق على دخول الصيف إلا شهران أو ثلاثة. فإذا كنت ما تزال على عادتك من السفر إلى أوربا كل صيف فإني سأسافر هذا الصيف معك!

فهالني هذا الخيال الواسع الذي يسبح فيه هذا المسكين، وهذه الآمال المريضة التي يشغل نفسه بتشييد قصورها، وهي لا تقوم إلا على أساس من أوهى الرمال...

ولكنه في تشبثه بالحياة لم تتخل عنه الحياة. وفي تجاهله الموت لم يعرف الموت طريقه إليه. وعاش بعد ذلك زمنا طويلا — عاش أولاً تلك الشهور الثلاثة التي اعتزم بعدها أن يسافر إلى أوربا. ولما حل الصيف سافر كما كان يريد أن يسافر. وعاد من أوربا وهو أحسن حالا. كان تحسنه قليلا، ولكنه كان تحسناً على كل حال. وكان من بين مشروعاته التي تشغل تفكيره، وتحجب عنه خواطر العجز والزمانة والموت، أنه كان يريد أن يبتني لنفسه دارا أنيقة في ضاحية من ضواحي القاهرة. فكان لا يفكر إلا في (المقاولين) (والبنائين) وأدوات البناء. ولا يشغل نفسه إلا بمقابلة النجارين والحدادين (وتصميم) الأثاث الذي يدق لـكل حجرة ويتفق مع ذوق كل ركن، وكان في ذلك واسع الخيال إلى أبعد الحدود؛ فهو يريد أن يضع في (الصالون) حوضا يعتزم أن يجمع فيه من أصناف السمك كل غريب في لونه أو في تكوينه، وهو ينتوي أن ينشيء في الحديقة قفصا كبير الحجم لا تحس العصافير التي تعيش فيه أنها في أسر أو أنها فقدت شيئاً من حريتها..

وفي هذه الأجواء الطلقة التي استطاع أن يحلق فيها صاحبنا بخياله. وبفضل هذا التشوف البعيد إلى المستقبل الحافل الذي كان يضفي عليه من تفاؤله وقوة عزيمته، استطاع هذا الصديق أن يراوغ الموت نفسه حقبة طويلة من الزمن، وأن يعيش سعيداً إلى آخر لحظة من حياته.

والعبرة من كل هذا الحديث أن يذكر الإنسان دائما أن الحياة نضال وأنها فن. وأن سعادة الحي فيها أو شقاءه إنما يكون من صنع يده هو إلى حد كبير. فمن اختار أن يحيا حياة سلبية، وألقى بنفسه في خضم الحياة، ثم تركها لتعيش كيفما اتفق يكون مثله كمثل الجثة التي تلقى فوق تيار الماء، فهي خليقة أن ترتطم بكل صخرة في الطريق، وحرية أن تخضع عند أول منعطف تلاقيه.

أما الحي الناجح فإنه صاحب الإرادة الذي يؤمن بنفسه ويستمد من هذا الإيمان قوة يغالب بها ما يعترض طريقه من صعاب. فيتغلب بها... حتى على المرض، ويكافح بها... حتى ملائكة الموت.

عيسى معلوف

٢ - الجامعة العربية

والحركة القومية

ما هو موقف الجامعة العربية من الحركة القومية؟ هناك اتفاق عام بين القوميين العرب بأن الجامعة ضرورية، ولكن ليس هناك إجماع تام فيما إذا كانت الجامعة تمثل خير الوسائل لبلوغ الهدف المنشود.

وإن هناك ثلاثة آراء فيما يتعلق بالشكل الحالي للجامعة العربية: وأصحاب الرأي الأول يصرون على أننا بإقرار السلطة التامة للدول الأعضاء جعلنا الجامعة تميل إلى حماية المصالح الخاصة، وبذلك تتبلور الانقسامات السياسية الحالية في نظام مكين وإثبت أساس اتحاد سيرضي كثيراً من العرب ويقنعهم أنهم قد بلغوا الهدف. وأصحاب هذه المدرسة يفضلون أن يقام في الحال اتحاد من الدول العربية، بل ويندفعون إلى إنشاء حتى دولة عربية.

والجماعة الثانية تعلن أنه يجب إنشاء اتحاد أقوى من هذا الاتحاد الذي حققته الجامعة، وإذا تعذر إنشاء اتحاد كهذا يضم كافة الدول العربية، فيجب إقامة اتحاد يضم تلك الدول التي لها رغبة بالتنازل من سيادتها، ومن المتفق عليه أن الدولتين اللتين لهما هذا الاستعداد هما العراق وسوريا.

والفرقة الثالثة، وربما كانت أكبر الفرق، تعتقد بأن انضمام كل الدول المستقلة إلى الجامعة يكسبها مركزاً دولياً تزيد فوائده على النواقص الأخرى، وهذه الفرقة ترى أنه منذ أن أنشئت الجامعة بوضعها الحالي لم يكن هناك مجال كاف لإحداث تغيير أساسي، بيد أن إمكانياتها الموجودة يجب أن تستغل إلى أقصى حدود الاستغلال.

إلا أن القول الفصل في الموضوع أن الجامعة كما هي الآن تمثل انتصار المعتدلين من الوطنيين العرب الذين يرون أنه لا يمكن في الوقت الحاضر تأسيس دولة عربية واحدة، وأن هذه الدولة يمكن أن يجيء أوانها فقط عند انحلال سيادة الدول الأعضاء تدريجيا ومع الزمن. وهي أيضا تمثل انتصار الفكرة العلمانية الحرة في التفكير العربي.

فالجامعة تتهم أحيانا من قبل مروجي السوء بأنها رجعية متعصبة وذات روح إسلامية. ولكن اختبار أعمال الجامعة وأعمال الشخصيات التي تسيرها يدحض تماما أمثال هذه التخرصات. إن منشئي الجامعة من الرجال الذين عاشوا بين تقاليد القرن التاسع عشر الحرة، لا بين تقاليد الحركة الإسلامية التي فقدت منذ زمن طويل قوتها المؤثرة على السياسيين العرب، إذا ما بقيت لها بعض هذه القوة إلى اليوم فسوف لا تجد مكانا لها بين حركات القرن العشرين الجامعية. إن آراء مازيني من المحتمل أنها تمثل دون غيرها المفاهيم الحقيقية السائدة لروح الوطنية العربية ممثلة في الجامعة.

وبما أن الجامعة العربية ليست مؤسسة رجعية متعصبة متطرفة فهي بالضرورة «رابطة عربية». لقد ميز الأستاذ «جب» بين ما سماه القومية العربية المعتدلة وبين الرابطة العربية التي وصفها بأنها «فكرة تقوم على التعصب والجهل وهي قوة خطرة». ولكن هذا التمييز لا يقوم على أساس ثابت، لأن في كل حركة نجد أفرادا ونجد فرقا يسوقها الجهل والتعصب والاعتداء، إلا أن الطبيعة الأصيلة لكل قومية عربية لا تسمح، ولا تساعدها مقدماتها، على قبول التعريف الذي أورده الأستاذ جب لها. فليس هناك سبب معقول يفسر لماذا يكافح العرب من أجل حرية ووحدة العالم العربي ولا يكافحون من أجل حرية ليبيا. ولقد صار لزاما على الجامعة، سواء بدستورها الخاص أو عن طريق القوى التي تسيرها، أن تمد نفسها لضمان الحرية للعالم

العربي بأسره . إن هناك اختلافاً بين الوطنيين العرب حول بعض المسائل العربية الهمة ، إلا أنه ليس بينهم عدم اتفاق بشأن الأهداف الأساسية التي تخص كل العالم العربي من الأطلنطي إلى الخليج الفارسي والتي تهدف إلى توحيد كل مقومات المجتمع العربية — الاقتصادية والاجتماعية والفكرية — توحيدا لا يقل قوة عن التوحيد السياسي .

ولكن قولنا بأن القومية العربية ، كما تطورت في الجامعة ، عبارة عن « رابطة عربية » يجب أن لا يفهم على أساس أن هناك علاقة أو تشابهاً بين هذه الرابطة وبين بعض الحركات الأخرى ، كالرابطة الجرمانية والرابطة السلافية ، لأن هناك اختلافاً أساسياً بين التطورات العربية السياسية والتطورات الأوربية ؛ فالقومية في أوربا تبنى على مفهومين : تبنى أولا على أساس أن الدولة ورثت تقاليد المجتمع والقانون الرومانيين ، وتبنى ثانيا على تشابه الجماعات التي هي من سلالة واحدة . في حين أن القومية العربية لا تقوم على كلا المفهومين . فالمجتمع العربي ، من جهة ، لا يقوم على التقاليد الرومانية — الإغريقية ؛ فهو بالتالي لا يحمل فكرة عن دولة قوية ذات سيادة ، وهو من الجهة الثانية لا يتألف من جنس واحد ، بل من جماعات متباينة جنسياً ودينياً اجتمعت سوية حول ثقافة عربية مشتركة وفكرة عالية واحدة . ولذلك فن المجازفة أن نعقد المقارنة بين التقاليد السائدة في الأقطار العربية وبين تلك الموجودة في المجتمعات الأوربية .

إن الفشل في استكناه الخصائص العربية المختلفة هو الذي دفع بكثير من الخبراء الغربيين إلى بخس قيمة قوة الاتحاد العربي . حتى إن روبرت مونتاني أمكنه القول بأن « العراق ليس إلا مجموعة تتألف من أقليات دينية وجنسية ولغوية » ، وهناك ميل عام بين أصحاب النظريات من الأوربيين ، إلى النظر إلى المجتمع العربي بهذا المنظار . ولذلك فهم لا يعتقدون في إمكان تحقيق وحدة حقيقية بين العرب . وتبدو الدراسة العميقة والإحاطة بجذور المجتمع العربي ضرورة ملحة ، إذا أردنا أن نتفهم علاقة التكوينات السياسية بالجامعة العربية وبالحركة الفكرية العامة ، وبالتطور الاجتماعي في الأقطار العربية ، وإذا رمنا أن نقدر تقديراً صحيحاً مدى عمق جذور فكرة الجامعة العربية في عقول الشعب العربي .

من مجلة The Middle East

(بغداد) فؤاد قرنفلي

من أدب السودان :

الفجر الصادق

هذا هو اسم الديوان الذى أصدره الشيخ عبد الله عبد الرحمن الأستاذ بكلية غردون بالخرطوم سابقا . وقد ضمن هذا الديوان مجموعة أشعاره التى أنتجها خلال الخمس والعشرين سنة الماضية .

والذى يدرس عامل الوراثة والبيئة فى حياة شاعرنا يستطيع أن يدرك مقدار ما لها من أثر قوى فى إنتاجه الشعرى ، وفى الفنون التى تعرض لها ، والموضوعات التى تناولها ؛ فصاحب الديوان من بيت دين وعلم ؛ وجده هو الشيخ الأمين محمد الضرير ، أحد رجال الدين العاملين فى عهد اسماعيل وتوفيق ، والذى شغل وظيفة « رئيس ومميز علماء السودان » (شيخ العلماء) فى أيام جعفر باشا مظهر حكمدار تلك البلاد .

وكان الشيخ الضرير شاعرا وأديبا ، ساهم بكثير من المقالات والقصائد عند المناسبات الدينية والوطنية الهامة فى حياة البلاد . وأذكر أنى قرأت أعداد الوقائع المصرية جميعها فى عهد إسماعيل وتوفيق ، فلم أجد من السودانيين من نشر له شىء غير هذا الشيخ ، وكان محرر الوقائع يقدم مقالاته وقصائده بقوله إنها من إنتاج الشيخ « البصير » .

ومما تميز به الشيخ الضرير أيضا حبه الوفاء لوطنه وقومه وأصدقائه والحق . وقد ظل على إخلاصه لولى الأمر أثناء الثورة المهدية ، وكتب فتوى نشرها على بنى قومه يبطل بها تلك الدعوة . فلا غرابة أن يرث صاحب الديوان عن جده كثيرا من خصائصه العلمية ، وميوله الأدبية والخلقية ، ولا غرو ، وهو ينتمى إلى بيت علم ودين ووفاء ، أن يُشرب فى قلبه حب هؤلاء الثلاثة .

وهو قد تربى تربية مدرسية دينية ، حفظ القرآن فى صغره ، ودخل قسم معلمى اللغة العربية فى كلية غردون ، فتثقف بالثقافة العربية الدينية . وكان جل أساتذته من المصريين الأوائل الذين ذهبوا إلى السودان مدرسين ؛ كالشيخ الخضرى ، والنمراوى ، وعبد الرؤوف ، والنجار ، كما كان من بينهم الأستاذ فؤاد الخطيب (باشا) رئيس وزراء شرق الأردن الآن .

وقد ساعد ما ورثه الشيخ عبد الله من غرام بالأدب وميل دينى ، على أن يتفقه فى كليهما أيام تلمذته ، واحترف مهنة التدريس ، فأكب على قراءة دواوين الأدب ، واتصل بأنواع النشاط فى نواحى الحياة السودانية ، على ما بها من قلة وضيق ، اتصال الأديب المسلم والوطنى المتحمس ، يهزه الشعور الدينى أو القومى أو العربى ، وتطربه الخلال الكريمة ، فيطلق العنان لشاعريته . ولذلك جاء ديوانه معبرا أصدق تعبير عن عواطف قوية نحو دينه ولغته ووطنه وقومه ، عواطف يتجلى فيها الوفاء لهؤلاء الأربعة . فهو يحب من أجل دينه وفضائله ، ويحب من أجل لغته ، ويحب من أجل وطنه ، ويحب من أجل قومه . وهو إذ يكره ، يكره من أجل هؤلاء ، ولكنه لا يعرف العنف ولا الجدل ، وإنما يكره فى رفق وعتب ، شأنه فى ذلك شأن الصالحين المخلصين .

والمتصفح لديوانه يجد به أبوابا خمسة شاملة لكل ما نظم ؛ فهو قد نظم فى الإسلاميات ، وفى الوطن ، وفى اللغة حاضرها وماضيها ، وفى المناسبات القومية ، أو المجتمعات القومية وفى الوفاء للإخوان أحياء وأمواتا . وقلما تخلو قصيدة من قصائده من الجمع بين هذه العناصر الخمسة .

وأكثر إسلامياته فى مناسبة أول السنة الهجرية ، وهى مناسبة يحتفل بها إخواننا السودانيون فى أنديتهم ، ويتبارى فى التحدث عنها خطباؤهم وشعراؤهم . وفى هذه المناسبة تهيجه ذكرى الماضى — ماضى الدين واللغة والوطن — فينطلق يعدد فضائل هذه الذكرى وصاحبها ،

ويندب حظ أبناء دينه ولغته ووطنه . تحس بذلك حين يقول :

لعمرك ما النبي – فدته نفسي –
بمنطلق اللسان على البذيّ
أتى بالملة السمحاء يدعو
إلى الأخلاق والشرع السويّ

يساس العالمون به ويبقى … جديدا رغم كرات المضي
إذا ابتهجت بمولده البرايا … فذاك لذكرها سنن النبي
ليذّكروا مآثر صالحات … ومجداً كان في الزمن القصي
زمان المسلمون بكل أرض … أساطين الحضارة والرقي
زمان العلم جانبه منيع … وأنصار الجهالة في هوى
وإذ بغداد من أدب وعلم … تموج بكل وضاح سري

وهو حين يتحسر على الماضي ، ويشيد بذكر الإسلام ورجاله ، يستحث إخوانه وبني وطنه على الاعتصام بالإخاء والتمسك بالأخلاق الكريمة ، لأنه يرى في ذلك إعلاء للدين والوطن . ومن ذلك قوله :

ذكر بهجرة خير الخلق من مضر
محمد مظهر الإسلام حاميه
شباب قومي ، وأقدار الندى لكم
مني أخ صادق الإخلاص يطريه
لست المدارى أخاه يوم نائبة
لا بارك الله في خل تداريه
إني إذا صاحب أنكرت خلته
لم ترض همتي ألا أباديه
القطر فرقتكمو شتى مدارسه
وأطلعتكم نجوما في نواحيه
وأرسلتكم سيولا في أباطحه
وأكمنتكم غراسا في روابيه
وأنهلتكم على برح موارده
وفي محياكمو قد رف واديه
تمسكوا بكريم الخلق ، وازدرعوا
بذر الإخاء ، وشدوا من أواخيه
لا تصبحوا شيعا شتى مذاهبكم
فالخلف من مثلكم صعب تلافيه

وشاعرنا يرى في النهوض باللغة رمزاً للقوة ، ورمزاً للصلات المتينة التي يجب أن تربط شعبه بالشعوب العربية الأخرى ، ويرى أن ضعف اللغة نذير بالانحلال القومي ، وبه يمكِّن الأجنبيُّ نفوذَه . وهو يحذر قومه وينذرهم ، ويهيب بهم أن يعملوا على إحياء لغتهم العربية :

ألا ليت شعري ما دهى العرب إنني
أرى الجو في آفاقهم يتجهم
أكلٌ بناء ، غيرهم ، متساند ،
وكل قبيل ، غيرهم ، متقدم ؟
أجل كل قوم فرطوا في لغاتهم
غدوا وصروف الدهر فيهم تحكم !
أرى الغرب يُدنى باللغات رجاله
وتمشي إلى أعلامها تتعلم
بني وطني إن فت للضاد داعيا
فإني أدعو للتي هي أقوم
لقد وثق الله الروابط بيننا
فلا تنقضوا ، بالله ، ما هو مبرم
عزيز علينا أن نراها هزيلة
وجاراتها فينا تزيد وتعظم
وتبّت بالسودان قوما تآمروا
على اللغة الفصحى ، أساءوا وأجرموا
ألا نحن عرب قبل أن تعبث بنا
صروف الليالي والجهول الغشمشم
إذا لم تحموا دارها ، وهو فاتك ،
تهونوا وفي غير المروءة تدهموا
فعضوا عليها بالنواجذ إنها
سلاحكمو ، إن تخلعوه هزمتموا

أما عقيدته الوطنية فتتلخص فى أنه يؤمن بالوحدة الطبيعية بين شطرى الوادى ، مصره وسودانه ، ويؤمن بأن الإسلام هو الوطن الأكبر لجميع الشعوب الإسلامية . تسمع هذه النغمة تتردد فى أشعاره فى مناسبات كثيرة . وهى فى كل مرة قوية مؤثرة تعبر عن إيمانه العميق . فاسمع إليه وهو يقول عندما زار السودان رفعة على ماهر باشا وزملاؤه :

قدمتم فلا والله ما الفجر طالعاً
بأجمل منكم فى العيون مطالعا
على الرحب يا وفد الكنانة نزلوا
نزول كريم الغيث يهبط نافعا
معالى الوزير إننا نحن أمة
علينا لكم فضل البناء يافعا
أليس الذى أشدو به اليوم بينكم
بضائعكم ردّت إليكم بدائعا ؟
إذا قيل أى الناس ترضون إخوة
مددنا إليكم معجبين الأصابعا
وهل مصر والسودان إلا عشيرة
على النيل محياها وشيباها معاً
ولا فرق إلا أنكم فى مصبه
نزلتم وأنا قد نزلنا المنابعا
وفى مصر فاروق العزيز كفى به
لحوزة وادى النيل والدين مانعا

وفى مقام آخر يقول :

فليس سوى الإسلام من وطن لنا
ولا غــير أهليه أعد صحابا
كفى بجميل الله جنسا ومذهبا
وبالله ربًّا والكتاب كتابا

ويقول :

أحب بلادى حب مجنون عامر
وأذكر ميثاقا لها وعهودا
وما يجزى إلا الجحود وأهـــله
بنفسى آباء به وجـــدودا
هو الدار لا دار سواها لقاطن
ولا غير واديهـــا يطيب ورودا
إذا ضاق من سكانه كل موطن
فمن ساكنيها لا تضيق حدودا

والشيخ عبد الله شاعر تهز عاطفته لعمل الخير ، والحث على فعل الخير ، لأنه يرى فى ذلك إرضاء لوطنيته ودينه . وهو فى هذه المواقف مجيد ، لأنه يعبر عن شعور صادق ، فاستمع إليه يقول من قصيدة عن الملجأ الذى أسس سنة ١٩٣٧ بأم درمان لإيواء أبناء السبيل واليتامى :

وطفل كساه الجوع من ظلماته
فأمسى وما يدرى النهار نهارا
رآه الأسى منهما ، فلو قد رأيته
لوليت من مرأى الظلام فرارا
تقاذفه ، وجه النهار ، شوارع
وفى الليـــل يعتاد القمامة دارا
يقول بصوت خافت ، ما أمره
بسمعى ، أغلى فى المطلوب عثارا
فلما بجسور مـــدوت له يدى
وأنشأ من شخصه يتوارى
أشرت إليه : أين تذهب يا فتى ؟
فقال ، وأذرى الدمع : نحن حيارى
ترى ذلك المسكين كيف مبيته
وقد ضاق ذرعاً بالمعاش وجارا
نواهاً على غصن ذوى فى اخضراره
ورواهاً على ماء النضـــارة غارا

وفى الديوان مدائح ومراث ، ولكنها قليلة ، مما يتناسب مع طبع الشاعر . فهو لا يمدح ولا يرثى إلا من يستحق المدح والرثاء ، ومقياس الاستحقاق عنده هو العمل النافع ، قومياً كان أو دينيا . وفى مدحه ورثائه

يتكلم عن شعور معتدل لا يسرف ولا يتملق .

والقارئ للديوان يدرك أن حياة الشاعر كلها جد ، وتندر فيها مواقف المرح واللهو والدعابة . وهو — حتى عند ما يداعب — لا يلبث أن يعود إلى جده . قال ، وهو يودع الأستاذ الأزهرى ، عند سفره للتدرس فى لبنان ، وقد كان زيه شيخا فلبس الزى الأوربى :

يا ليت شعرى إن أتى عاندا | وقد رى القفطان فى زاويه
يظل فى ذاتيه راغلا | أم يستعيد الجبة الزاهية
ارجع لنا قد كنت فيامضى | شيخا له أثوابه الضافيه
فيا أخا بيروت أنت الذى | منه البلاد نفعها راجيه

ومما يتميز به شعر الشيخ عبد الله أنه قريب المعانى ، سهل الوصول إليها ، لا يحتاج من قارئه إلى تعمق فى التفكير ، وغوص لاستخراج هذه المعانى . ولعل هذه الميزة انعكاس لحياة الشاعر البسيطة الصريحة الواضحة ، ولنوع البيئة التى عاش فيها .

والشاعر ينهج نهج القدماء فى بدء قصائده بالغزل والتشبيب ، وبكاء الديار أو الترحم على الماضى ، ثم ينتقل من ذلك إلى موضوع قصيدته . وهو شىء ، وإن أخذ عليه فقد أخذ على غيره من أمراء الشعر فى العصر الحاضر كشوقى وحافظ . وعلماء النفس التحليلى يجدون فى هذا النوع من الغزل والتشبيب معنى يحيط اللثام عن كثير من رغبات الشاعر المكبوتة . فهل هذا ينطبق على شاعرنا ؟ أو هو مجرد تقليد منه ؟ ومن محاسن غزله :

أماطت لنا ما دونه الشمس زينب
ولاح لنا منها بنان مخضب
وشمنا وميضا من ثنايا تخالها
حصى البرد الوهاج يجلوه حبحب
وحيت فأحيتنا ، ومال بعطفنا
كلام من الشادى أحلى وأعذب
فأصبحت مشغوفا وملت إلى الصبا
على أن رأسى يا ابنة القوم أشيب
لعمرك ما هاجت هواى خريدة
ولا قادنى نحو الغواية مطلب
ولكن وجدا بالفضيلة هاجنى
لجاء بأبياتى هوى وتصبب
عشقت التى تدعى الفضيلة إنما
يقال لها فى مذهب الشعر زينب

والشاعر مغرم بالاقتباس من القرآن والشعر والحكم يجيده ويتفنن فيه . من ذلك قوله :

فهز من القريض إليك جذعا
يساقط عمره المعتفينا
ولا تهنوا فإن هناك قوما
إذا مروا بكم يتغامزونا

وقوله :

وشدنا من بيوت الله بيتا
نوحد فيـــه رب العالمينا
على التقوى تأسس فى بلاد
أخو الإسلام كان به ظنينا
وأولينا القروض وكان حقا
على الرحمن نصر المؤمنينا

وكذلك قوله :

غداً ينطق التاريخ حكما مُسمطاً
لنا أو علينا لا تضيع الصنائع
وما الحكم فى التاريخ إلا وديعة
ولابد يوما أن ترد الودائع

وبعد فقد أطلت فى عرض هـذا الديوان ، لأنه بضاعة سودانية من نوع قليل وروده . والديوان جدير بأن يقرأه كل أديب ، وجدير بأن تضمه وزارة المعارف فى مكتبات مدارسنا ، حتى يرى تلاميذنا ثمرة طيبة من ثمرات الأدب السودانى ، ويطالعوا فيـه عواطف صادقة لأخ وفى .

عبد العزيز عبد المجيد

٢ - نور الدين محمود

مسلم عظيم

وكان مركز نور الدين في حلب بين المسلمين إلى شرقه والنصارى إلى غربه دقيقاً يحتاج إلى مهارة كبرى في سياسة الأمور ، وكان قد قرر في نفسه أن يكون صديقاً للمسلمين أبداً حرباً على النصارى أبداً ، ولم يكن ذلك بالهين الميسور ، لأن المسلمين إلى شرقه لم يكونوا خيراً من النصارى أو آمن جانباً ، بل كان أخوه سيف الدين يبدي من مظاهر العداوة ما لا يبقى للحب والمجاملة سبيلا ، ولم يكن نور الدين ليستطيع أن يمضي في سياسة المجاملة مغمض العين لا يكاد يفطن إلى ما يدبره أخوه إلا إذا عول على بعض المسالمة ، فلم يتردد في أن يكون هو الخاسر في نزاع بينه وبين أخيه ، وكان يعوض ذلك بمضاعفة الهمة في حرب النصارى والكسب منهم ، فكانت مكاسبه من الأعداء تعوض عليه خسائره على يد سفهاء قومه .

ومن دلائل فضله وتوفيقه في تحقيق أمانيه بهذا الفضل وحده سياسته مع أتابكية دمشق التي كان يدير أمورها الوزير القاهر معين الدين أنر ، فقد قضى عماد الدين زنكي عمره يحاول كسب دمشق بالحرب والحيلة فلم يوفق ، لأن معين الدين لم يكن في نفسه بالرجل السيء أو الفاسد الإيمان ، وإنما كان مرتابا يخشى أن يقتله عماد الدين أو يخرب بلده إن هو استسلم له ، ولهذا مضى يكاوره ويعارضه ويحالف النصارى عليه خوفاً من أذاه ، وبهذا استحال على عماد الدين زنكي أن يستولي على دمشق ، واستحال عليه لذلك أن يمضي في توحيد المسلمين إلى الغاية المطلوبة ، فلما أقبل نور الدين استشعر من هلع معين الدين ما عطف قلبه عليه ، فمضى يجاملـه ويهدئ من روعه ، بل تزوج ابنته وأصبح الحريص عليه الحاني على مصالحه ، فلم يكد معين الدين يطمئن حتى انقلب على النصارى وأصبح درعاً من دروع المسلمين بعد أن كان شجىً في حلوقهم ، واطمأن أهل دمشق إلى نور الدين وهوت نفوسهم إليه ، وبدأت مخاوف معين الدين تظهر من جديد ، وخاف أن ينقلب عليه أهل بلده ويغدروا به وينضموا إلى نور الدين ، فأخذ يمد يده إلى صاحب بيت المقدس في السر ، ويعد أن يدخره لوقت يتغير عليه فيه قلب نور الدين ، وقد كان هذا مستطيعاً أن يهاجم دمشق ويقضي عليها ويستريح من شرها فأبت عليه نفسه الكريمة أن يفعل هذا . وكره أن يهاجم مسلما ليغتبط صليبي لم يأت إلا للقضاء على قوة المسلمين ، وكان يعرف بما وهبه الله من ذكاء أن الأفرنج منقلبون يوما على دمشق ، وأن صالح معين الدين معهم منته يوما إلى شر ما يكون عليه العواقب ، وكان يشفق من هذا أشد الإشفاق ، ولم تكذب ظنونه ، ولم يطل به الانتظار .

فما هي إلا شهور حتى أقبلت الحملة الصليبية الثانية ، فإذا وجهتها دمشق ، وإذا أحلاف الأمس أعداء اليوم يتعاونون على شر النيات نحو دمشق وأهلها ، وإذا جموعهم تزحف رهيبة وتحصر معين الدين حصراً شديداً ، وإذا هذا يستغيث فلا يجد من ينجده ويقيل عثرته ، ويقف إلى جانبه موقف الأخ الوفي غير نور الدين ! وقد نسي أو تناسى إصراره على الشر والخداع في لحظة كان ينبغي أن لا تنطوي القلوب فيها إلا على الحب والإخاء . خف نور الدين لعون دمشق بالمال والرجال ، فثبت معين الدين ومن معه من أهل دمشق في صفوف الإسلام ثباتاً هزم الصليبيين وردهم على أعقابهم بخسارة ظاهرة ، فكأن نور الدين أدرك بالمجاملة والود من دمشق ما لم يكسبه منها أبوه بالحرب والحيلة ، ولو قد أقبلت هذه الحملة الصليبية الثانية في أيام عماد الدين ، لانضم إليها معين الدين وسار مع رجالها لمهاجمة حلب والرها ، ولتعرضت بلاد المسلمين كلها للخطر الشديد ! فأما وقد أقبلت في أيام نور الدين فقد تغير الأمر كله ونجا الإسلام

بفضل نور الدين وفضيلة نفسه . لقد كان فشل الصليبيين فى الاستيلاء على دمشق سببا فى ارتداد الحملة الصليبية الثانية ، وكان ارتداد هذه الحملة الصليبية بالفشل هو الحد الفاصل بين الدور الأول والدور الثانى من أدوار هذا الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية على أرض الشام ، دور الدفاع والتقهقر والخوف قبل هجمة نور الدين ، ودور الهجوم والتقدم والجرأة والثبات فى عهد نور الدين وبعده . لقد جنى المسلمون على يد نور الدين أول ثمرة من ثمرات التضامن والإخلاص ، وأيقن نور الدين لن يضع يده فى يد أنه آمن مطمئن كاسب من الاتفاق على كل حال ، فسارع الناس إليه يحالفونه ويضعون يدهم فى يده . فأما الصليبيون فقد ووهوا ، وبدأت ريح الفشل تجرى فى صفوفهم . لقد عاشوا إلى الساعة فى بلاد المسلمين معتمدين على ما أصاب المسلمين من تفرق وما كان يخامر قلوبهم من كراهية بعضهم بعضا ، وقد كان النصارى سعداء كل السعادة بأن يجدوا صاحب دمشق خائفا مروعا من صاحب حلب ، وكان ذلك يؤمنهم ويثبت أقدامهم ، ويفسح مجال الأمل أمامهم ؛ فأما اليوم فلا عون ولا أمل فى العون ، وهذا نور الدين باسط كفه يؤمن المسلمين ويهبهم بالمدين ، وهم يلتفون حوله وتهوى إليه قلوبهم ، وهو ماض يوحد قلوبهم وينظم صفوفهم ويعدهم للمعركة الأخيرة الحاسمة لتخليص الوطن الإسلامى الكريم من العدو الهاجم الدخيل . لقد كسب نور الدين بقلبه الكريم للإسلام ما لم يكسبه أبوه بسيفه الرهيب .

ثم اتجهت أنظار نور الدين نحو أنطاكية ، ولم تكن بالإمارة الضعيفة ولا الحصن الميسور ، ولو كان نور الدين يبغى الكسب على أى حال لوجه قواته نحو دمشق ، فقد كانت فى كفة لا تكاد تستطيع مقاومة ؛ ولكن نور الدين انصرف عنها ومضى ينازل عدوا خطرا هو رايموند الطولوشى صاحب أنطاكية ، وملأ الحماس قلوب المسلمين ، فمضوا فى جيش نور الدين تكاد قلوبهم تقفز من صدورهم قفزا ، ولم يكادوا يلتقون مع العدو عند أناب من بلاد أنطاكية فى يونيه سنة ١١٤٨ حتى كروا على العدو كرة حطموا بها قلبه وفرقوا قواه بين أسير وقتيل حتى رايموند نفسه لم يفلت ، وقتله أسد الدين شيركوه بيده ، وكان لذلك رنة فرح كبرى فى قلوب المسلمين ، إذ أيقنوا أن ساعة أنطاكية قد دنت ، وأن راية الإسلام مرفرفة من قريب على ربى هذا الإقليم بعد قرابة القرن قضاه أهله فى ظلال الأسر والهوان .

وكان نور الدين يشفق على قواده إشفاقا شديدا ويبذل الجهد ليمنعهم على أن يصيبوا من مطالب النفس والحياة ما هم يطمعون فيه ، لا يكاد يصرفه من ذلك شعوره بأن هذا التابع أو ذاك يميل إلى شىء من الانفراد بالأمر والسلطان ؛ ومن أمثلة ذلك موقفه حيال قائده أسد الدين شيركوه ، فقد كان أسد الدين قائدا ماهرا واسع المطامع ، وكانت قد بدرت منه أول الأمر بدرات قمينة بأن تبغض نور الدين فيه وتخيفه من مقاصده ؛ وكان أسد الدين كرديا وكان الأكراد كثيرين فى جيش نور الدين ، ولم يكن من المأمون أن يترك فيهم هذا الطامع خشية أن يعتز بهم ويجنح إلى العصيان ، ثم إنه كان لا يكف يتحدث بمطامعه إلى من حوله ، وكان دائم الإلحاح على سيده نور الدين فى ضرورة فتح مصر لتكون له كما كانت لعمرو بن العاص . وكان ظاهرا أنه يسعى فى إتمام هذا الفتح لغاية يطويها فى نفسه .

فقد ظل إلى الساعة يقوم بدور ثانوى إلى جانب نور الدين ؛ كان يقيم معه فى عسكره ، وكان هذا يرى به فى كل مهمة ويرسله فى كل جلية ، وقد حاز شيركوه من النصر شيئا كثيرا ، بل لم يرهب الصليبيين وينزل بهم الهزيمة تلو الهزيمة أحد مثله ؛ فتاقت نفسه إلى أن يتوج أعماله بفتح جليل يعلو به ذكره ويدر عليه غلة كبيرة ، فمضى يقنع

نور الدين بأهمية فتح مصر ويهونها عليه كما فعل عمرو ابن العاص مع عمر بن الخطاب من قبل . ولم يكن نور الدين يسوف فيها خوفا من شيركوه ، بل لأنه كان يرى أن الساعة لم تحن بعد لمثل هذه الخطوة الواسعة ؛ ثم إن أصحاب مصر كانوا مسلمين ، ونور الدين لا يفكر في مهاجمة المسلمين حتى إذا كانت غزوة إمرى صاحب بيت المقدس في سبتمبر سنة ١١٦٣ لم يبق عند نور الدين شك في ضرورة الاستيلاء على مصر لطرد الصليبيين منها ، وللحيلولة دون تسرب الصليبيين إليها مرة أخرى ، فأذن لشيركوه في السير ، ولم يكد هذا الأخير يتلقى الأمر بالسير حتى خف يقطع الراحل إلى مصر في إبريل سنة ١١٦٤ ، وأحب نور الدين أن يهون عليه الأمر فجمع جنده وقام بغزوة في شمال بلاد مملكة بيت المقدس ليشغل بها إمرى من التعجيل بإرسال قواته إلى مصر ، وبذلك استطاع شيركوه أن يتم هذا الفتح بعد جهد كبير وحملات ثلاث اشتد فيها الصراع بين المسلمين والنصارى على هذا البلد الذي كان الحكم الفاطمي قد هبط به وبأهله إلى حال هي أقرب ما تكون إلى العدم ؛ كان الفريقان يتطاحنان على أرضه وهو ذاهل لا يكاد يحرك ساكنا ، ولم يظل نور الدين ساكنا طوال هذه الفترة منتظرا نتيجة هذا الصراع العنيف الذي يدور على ضفاف النيل ، بل مضى يهاجم خصومه الافرنج واحداً بعد آخر لا يكاد يمر شهر حتى تجده على رأس جنده في ناحية .

وكان من عجائب المقدور أن شيركوه لم يكد يتم هذا الفتح الجليل ويقضى على شاور ويستقر في وزارة العاضد حتى أدركه الموت ولما تنقض ثلاثة أشهر على بلوغه أقصى أمانيه ! عشرون سنة قضاها وهو يحارب في صفوف المسلمين يقود الغارات ويفتح البلاد دون أن يحظى من ذلك كله بما عساه يعوض عليه بعض ما يلاقيه من جهد ، فلما وصل آخر الأمر إلى ما يريد وآن أن يستمتع ببعض الراحة ناداه ربه إلى جواره . فغادر هذه الدار الفانية في الثالث والعشرين من مارس سنة ١١٦٩ ، وقد حزن عليه مولاه نور الدين حزناً بالغا ، وجعل ابن أخيه صلاح الدين مكانه تعويضا للأسرة عن مصابها في أميرها الكبير .

وقد توفى أخوه سيف الدين سنة ١١٤٩ وترك مملكته في سنجار خالية ، ولو أراد نور الدين لوضع يده عليها ، ولكنه لم يطمع في هذا الغنم الذي وقع بين يديه . لم يكن كمن عرفنا من الحكام ينقض على ما يخلف إخوته فيختطفه اختطاف النمر الكاسر ، بل ذهب إلى سنجار ورتب أمور الإمارة ثم وهبها لأخيه الأصغر مكان أخيه الراحل ، وترك لقطب الدين مودود هذا عن كل ما اتصل بالفقيد من تراث وعتاد .

* * *

ومن دلائل كرم النفس الذي امتاز به نور الدين موقفه من صلاح الدين ؛ فإن مطامع صلاح الدين لم تكن تخفى على أحد من يوم ولايته الوزارة بدلا من أسد الدين شيركوه . وجعل الناس يتحدثون في مجلسه بالوثوب بنور الدين والاستقلال عنه ، ولو لم يتدخل أبوه نجم الدين أيوب لخرج صلاح الدين على سلطانه وولى أمره ، وكان صلاح الدين يتصرف من أول الأمر تصرف المستقل الذي لا ينوى الطاعة ، وقد شجعه على ذلك ما ظهر له من رقة نور الدين وطول صبره وانصرافه إلى منازلة الفرنج . وكان نور الدين يرجو من صلاح الدين معاونته والخروج لحرب النصارى في كل حين لا الانصراف إلى تأثيل ملك وتقرير سلطان ؛ فكان كلما خرج في غزوة سأل عن صلاح الدين وانتظر معاونته ، ولكن صلاح الدين كان يتقاعد ادخاراً لقوته أو انصرافا منه إلى ما كان يعتبره إذ ذاك أهم وأجدى ؛ فساورت المخاوف قلب نور الدين ، وجعل يلومه ويستحثه ويطالبه بالمال على نحو ما كان عمر بن الخطاب يخاطب عمرو

إن الناس حيناً خاصموه في أمره الريب . وتسامع نور الدين بما كان آل أيوب يدبرون في مصر ، وأنهم بعثوا من يكشف لهم بلاد النوبة حتى يلجأوا إليها إذا وقعت الواقعة بينهم وبين نور الدين ، وعرف أن بلاد النوبة لم تعجبهم ، وأنهم بعثوا مبعوثاً آخر إلى اليمن وبرقة لهذا الغرض ، فأدركه من ذلك خوف مقيم مقعد ، وقد كان مستطيعاً السير إلى مصر ونزع صلاح الدين منها ، ولم يكن صلاح الدين ليستطيع مقاومته لأن أمره كان ناشئاً ، وكان أجناده أجناد نور الدين على أي حال ، وقد أطال نور الدين صبره وأملى لصلاح الدين وآله ، شأنه في ذلك ما جرى عليه مع غيره من المسلمين ، وكان مع ذلك الخوف كله لا يزال يوقر صلاح الدين ويرسل إليه الخلع حتى يؤمنه ويصرف الخوف من نفسه ، كما فعل بمعين الدين أنر ، وزير دمشق ، وظل الأمر بينهما على ذلك حتى مات نور الدين .

كان نور الدين يحلم بالدولة الإسلامية الواحدة ، وكان يرجو أن يحققها الله على يديه ، وكان شديد الشعور بما تتعرض له البلاد الإسلامية من الأخطار إذا ظل الصليبيون مقيمين فيها ، تصاحبهم الأمداد بين الحين والحين ، ويوسعون أملاكهم كل يوم شيئاً ، ولو كانت وجهته توسيع ملكه على أي نحو لترك الصليبيين وشأنهم كثيرون من أمراء المسلمين في عصره ، ولو انصرف إلى صغار أمراء المسلمين وشغل نفسه بالاستيلاء على ما بيدهم من بلاد لكسب من ذلك كثيراً ، إذ أن قوى بعضهم كانت لا تزيد على مائة فارس ، وكانت حصونهم هينة يسيرة تفتح له أبوابها إذا مر بها ، فلا يغدر بأحد من أهلها ولا يطمع فيما بيده ، بل كان يجمع أجناده ويتوجه بقوته نحو الإمارات الصليبية ، ولا يزال يدأب في حربها حتى تستسلم وتعود إلى راية الإسلام ! وقد رأينا مصالحته لمعين الدين أنر صاحب دمشق وصبره على صلاح الدين ، ورأينا كذلك عنفه في حرب أنطاكية وإلحاحه عليها بالحرب ، لا يبغي من وراء ذلك إلا خير المسلمين وجمعهم إلى لواء النصر من جديد ! وقد ورث عن أبيه عماد الدين إمارة حلب صغيرة يتهددها الصليبيون من غرب ومن شمال ، فما زال حتى أمنها من ناحية الشرق ، ثم انصرف يناجز أنطاكية حتى استولى على معظم بلادها وبسط سلطانه على دمشق ، ثم استخلص مصر من الفاطميين ! وبهذا أصبحت أملاكه تمتد من الموصل إلى مصر قطعة واحدة ، ففصل بذلك إمارة بيت المقدس الصليبية عن أنطاكية وطرابلس ، وأصبح مصير الصليبيين في الشام رهناً بضربة توجه إلى بيت المقدس وتقضي على الدولة اللاتينية فيها ، فلا يبقى لهم بعدها إلا شريط ضيق من الأرض على ساحل الشام ! ولم يلجأ نور الدين في تكوين هذه الوحدة إلى غدر أو خديعة ، ولم يهبط بخلقه ودينه إلى ما كان يهبط إليه أنداده ومعاصروه من سلاطين زمانه ! إنما ظل طوال أيامه مسلماً فاضلاً شريفاً ، لا يكاد الإنسان يستدرك عليه شيئاً يمس الخلق أو الإيمان .

وكان صلاح الدين تلميذه ، ورث عنه فكرة الوحدة الإسلامية ، فحافظ عليها ما استطاع ، وأخذ عنه فكرة القضاء على بيت المقدس فأنفذها بعد موت نور الدين بثلاث سنوات فقط ، فنصر الله المسلمين في حطين ، وأعقب ذلك ما نعرفه من عز للإسلام وأهله ، ويرجع الفضل في معظم ذلك إلى هذا الرجل الكريم نور الدين محمود .

توفي نور الدين عن ست وخمسين سنة في دمشق في مايو سنة ١١٧٤ في لحظة اشتدت فيها مخاوفه من ناحية صلاح الدين ، حتى ليزعم المؤرخون أنه كان يستعد لحربه ، توفي قبل أن يرفع سيفاً في وجه تلميذه وتابعه صلاح الدين العظيم ، فكأنما اصطفاه الله إلى جواره في ذروة مجده وفي لحظة تطلع لتسلم الزعامة منه فيها زعيم آخر ذخره الله لإتمام الرسالة الكبرى ، تحرير بلاد المسلمين وجمع المؤمنين إلى لواء واحد عزيز منصور .

حسين مؤنس

قصة الأسبوع

الصورة البيضاوية

للكاتب الأمريكي الكبير إدجار ألن بو

« ولد هذا الكاتب عام ١٨٠٩ فى مدينة بوسطن من والدين احترفا مهنة التمثيل ، ونشأ فى عهد كان الأدباء فيه ينشأون من أسر فنية محترمة ، ويعتبرون فيه الاشتغال بالأدب هواية ولذة عقلية . ومات عنه والده صغيرا ، فورث عنهما نفساً قلقة وإحساساً مرهفا ، وشعوراً بالبؤس والضعة ، كما أخذ عنهما روحاً فنية وخيالاً طليقا . فكفله ثرى له وأتاح له فرصة التعلم ، فدخل الجامعة ، ولكنه أدمن الخمر والميسر ، فاضطر إلى تركها . وانضم جنديا إلى الجيش ، ولكن وصيه عمل على إدخاله الكلية الحربية ، فطرد منها وعاش زمنا فقيرا مشرداً . وكان يباشر الكتابة وقرض الشعر . فنال جائزة فى مباراة أدبية نظمتها إحدى المجلات ، وأصبح المحرر الأدبى لتلك المجلة ، فذاع أمره وأقبل الناس من أجله على قراءة المجلة ، فتزوج واستقرت حياته زمنا . ولكنه كان يقبل على الخمر والمخدرات حين تضطرب نفسه وتثور أعصابه . وكان كثيرا ما يضايقه أن يكسب صاحب المجلة الكثير ولا ينال هو إلا القليل . فاختلف مع صاحب المجلة وترك العمل ، وماتت زوجه فساءت حاله وأصبح حطاما يعيش مخموراً مخدرا . ثم صحا من غفوته ذات يوم ، فآلى على نفسه ألا يقرب الخمر والمخدرات ، ولكنه أخطأ مرة وتناول الخمر مجاملة . فرجع إلى سابق حاله ، فمرض ومات وهو فى الأربعين .

« وكان قصصياً شاعرا ، امتاز بمخيلة مخترعة تجنح للغريب ، فتختار أعنف الأحاسيس والعواطف ، وأحلك الصور والأخيلة ، وأغرم بعالم الأسرار وصور الجنون والموت . ووضع قصصا قصيرة خالدة استوحاها من أحاسيسه وعواطفه وتجاريبه الخاصة ، لا من واقع الحياة ؛ كتبها فى أسلوب يمتاز بقوة التعبير وفصاحة البيان والقدرة على الإفادة فى الرمز والمجاز والاستعارة . وهو موفق فى ألفاظه ومعانيه ، تتدفق تلك الألفاظ مختارة منتقاة تدفق السيل فى سهولة ويسر . ويعتمد فى تأثيره على الآثار الحسية للألوان والأصوات ، والصور الجميلة الشرقية والقوطية . ويبدو فى أحسن حالاته حين يحلل لغزاً عقليا ، وحين يصور خلجات عاطفة معينة أحسها هو . ويعتبر أول من وضع أسس فن القصص البوليسى » .

(المترجم)

كان الجرح الذى أصبت به جرحا بليغا . فخاطر خادمى بالدخول بى إلى قصر صادفه حتى لا أقضى الليلة فى العراء . وكان القصر فاخرا ، يقع عابساً فى جلال بين جبال الأبنين . وبدا عليه أن أصحابه قد تركوه حديثا على أن يرجعوا إليه سريعا . فنزلنا فى أقل الأجنحة فخامة وأصغرها حجما ، وهو يقع فى أحد الأبراج النائيـة . وكان جناحاً زاخرا بزخارفه الرائعة وإن تقادم عليها العهد . وقد علقت على جدرانه طنافس وأسلاب متعددة الألوان والأشكال ، كما علق عليها عدد كبير من الصور الحديثة الرسم ، وضعت فى إطارات شرقية مذهبة ، وصنعت فى دقة ومهارة . ولعل ما استثار اهتمامى العميق بهذه الصور هو ما كنت أستشعره من إرهاق وتعب . فطلبت من خادمى أن يغلق نوافذ الحجرة ، فقد أقبل الليل ، وأن يشعل ألسنة الشمعدان الطويل القائم عند رأس الفراش ، وأن يفتح الستائر المصنوعة من المخمل الأسود التى تحيط بهذا الفراش ، ورغبت فى هذا حتى أستسلم للراحة وإن لم أنم ، فتساعدنى هذه الراحة على تأمل الصور ، وقراءة مجلد صغير وجدته على الوسادة ، يصف هذه الصور وينقدها .

فقرأت وقرأت . وجعلت أتفحص تلك الصور بهما وبكل جوارحى . ومرت الساعات الرائعة سراعا ، وانتصف الليل العميق ، وضايقنى موضع الشمعدان ، فوضعته فى

مكان ينسكب منه نوراً أشد ضياء على الكتاب.

فأنتج هذا العمل ثماراً لم تكن متوقعة، فقد سقط ضوء الشموع على جانب من الجدار كان في ظل عمود من عمد الفراش فرأيت صورة لم أكن قد رأيتها من قبل، وكانت صورة لفتاة صغيرة كادت تنضج، فألقيت عليها نظرة عجلى. ثم أغمضت عيني ولست أدرى لماذا قمت بذلك، وفكرت في السبب وأنا مغمض العينين، فتبينت أنها حركة غير إرادية لأكسب الوقت، فأفكر وأتيقن من أن خيالي لم يخدعني، وأهدئ من ثورته وأخضعه حتى يكون أصدق نظرة وأرجح حكماً. ثم جعلت أتفحص الصور بعد ذلك.

(والآن لا يداخلني شك فيما أرى)، فقد بدد الضوء الأول الذي وقع على الصورة من الذهول الذي جعل يستولى على حواسي، فأيقظني ثانية. وكانت الصورة تمثل فتاة صغيرة يبدو منها رأسها وكتفاها، وكان الإطار بيضاوى الشكل فاخر الصنع، ولم يهزني جمال التقاطيع ولا دقة الرسم. ولا أعتقد أن خيالي المرهق هو الذي جعلني أخطئ فأظن الرسم إنساناً حياً، فأطلقت عنان الفكر باحثاً عن السبب، وجعلت أتفحص الصورة، وأدوم النظر إليها حتى أعرف ما استثار مشاعري، ثم ألقيت برأسي على الوسادة، وأحسست بالراحة عندما اكتشفت أن سحر هذه الصورة يرجع إلى الصدق في التعبير الذي يبدو على وجه الفتاة. ووضعت الشمعدان في مكانه الأول وأنا أستشعر الاحترام والمجد. فحجبت ما سبب اضطراب نفسي. ثم أمسكت بالمجلد الذي يتحدث عن الصور وتاريخها، فقرأت ما يأتي:

« كانت عذراء ذات جمال نادر. تنبعث منها الحياة كأنها النغم الحلو، وبدا الشر في الوقت الذي رأت فيه الفنان وأحبته وتزوجت منه. وكان الفنان رجلاً عاطفياً جاد التفكير، يمثل حياة ونشاطاً، وهب نفسه للفن وتزوج منه. وكانت عذراء ذات جمال رائع، يفيض منها الضياء والابتسام، ويشع منها العطف والحب، مرحة الأعطاف كأنها الغزال، ذات روح منطلقة حية. وما كانت تكره في الحياة غير الفن لأنه ينافسها في حبيبها، ولم تكن تحتمل رؤية لوحة الألوان ولا أدوات الرسم التي كثيراً ما صرفت زوجها عنها. وداخلها الرعب والفزع عندما تحدث إليها زوجها ذات يوم عن رغبته في رسم صورة لها. ولكنها كانت زوجاً طيبة ومطيعة، فجلست على الرغم منها عدة أسابيع في حجرة من حجرات البرج العالية المظلمة.

« ولم يكن بهذه الحجرة غير طاقة صغيرة يسقط منها الضوء على لوحة الرسم. وأما الفنان فقد وجد المجد في عمله، وكان رجلاً عاطفياً متقداً، ضاع في خيالاته وأوهامه، حتى إنه لم يعد يرى أن الضوء الذي كان يسقط باهتاً من الطاقة قد أضعف صحة زوجه وأخذ روحها. ولاحظ الجميع ذلك إلا هو فلم يلحظ شيئاً. وأما هي فقد ظلت تبتسم ولا تشكو مع كل ذلك، لأنها رأت أن الرسام الشهير قد أصابته حمى الحماسة، ووجد لذة وسروراً في عمله. وظل يعمل ليل نهار لا يستريح ولا يهدأ حتى يسجل من أحبته، ومن جعلت تذوى في سبيله وتضمر. وقال من رأى الصورة حينذاك إنها خلق رائع، ودليل على عظمة الفنان ومهارته في استعمال وسائله وأساليبه، كما أنها كانت دليلاً على حبه العميق لزوجه. تلك التي اختارها فأحسن الاختيار.

« وشارفت الصورة على النهاية، وأصبح نادراً ما يحول بصره عنها لينظر حتى إلى ملامح أنموذجه، ولم يكن يدرى أن الطلاء الذي يضعه على اللوحة إنما يأخذه من وجه تلك التي تجلس أمامه. ومضت الأسابيع، ولم يبق من عمله إلا لمسة واحدة من ريشته يضعها على الفم، وأخرى يضعها على العين. فاضطربت روحه كما يضطرب اللهب في المصباح. ثم قام باللمستين. ووقف مأخوذاً أمام لوحته باهت اللون يرتعش ويصيح: إنها الحياة نفسها. ثم التفت إلى زوجه فوجدها قد ماتت ».

حسن الألفى المنفلوطى

بين المسموع والمقروء

عادت فتزوجت

إن الزواج غاية فى الغايات ، يهدف إليها الناس ، بل هى غاية الغايات فى عرف الحياة ومطالب الطبع والطبيعة . والرجل منا ، والمرأة ، تطلب الزواج وترجو له أن يدوم . وهو كثيرا ما يتصل ، ولكنه كثيرا أيضا ما يخونه الدهر فينقطع . وهو ينقطع بالموت حينا ، وبالخلاف فالطلاق أحيانا . وودّ الإنسان لو عرف بالإحصاء ، كم يتصل الزواج فى مصر وكم ينقطع ؛ ولكنّ بلاداً غير مصر ، تُعنَى بالإحصاء وتقدر على كلفته ، تنبئنا بأن المدنية الحاضرة ، والظروف الحاضرة ، لا تعين على ثبات الزواج كثيرا . ففى أمريكا أحصوا أنه من كل ثلاث عُقَد يعقدها الزواج ، يحل الطلاق منها عقدة . وقد أثار هذا الحال فى نفس الناس ، والبحاث ، أسئلة كثيرة ، وتشوفوا إلى معرفة أكثر ما يعرف مما هو وراء الستار فى هذه الأحوال .

ومن أمثلة ذلك ، كم من الفرص تكون للمطلق أو المطلّقة أن يتزوجا من جديد . وفى هذا يقول قلم الإحصاء فى الولايات المتحدة : إن الفرصة تتاح لسبعة من كل ثمانية ، فلا يمر على هذا أو هذه سنة فسنة حتى تجد شريكا فى الحياة جديدا .

وتقل هذه الفرص وتزيد حسب الأحوال . فالمرأة التى مات زوجها لا تكثر فرصها كثرة كبيرة ، ولكنها على كل حال تكون أكثر مما إذا لم تكن تزوجت أصلا . والرجل الذى فقد زوجته بالطلاق أو بالموت تأتيه فرص فى الزواج كثيرة . والفرص عادة تكثر مع السن الصغيرة ، ولكن الرجل الذى قد بلغ حتى الخامسة والأربعين تقبل النساء عليه بالكثرة التى يُقبلن بها على أعزب فى الثلاثين . والمرأة العانس ، إذا بلغت الخامسة والأربعين ، لا تأتيها فرصة الزواج إلا إذا حدثت معجزة ؛ ولكن غير ذلك ، المرأة التى طلقت فى الخامسة والأربعين ، فهذه تدل الأرقام على أن لها من فرص الزواج مثل ما المرأة التى ترمّلت فى الثالثة والثلاثين ، ومثل ما للعانس إذا بلغت الثلاثين . ولا يؤثر فى ذلك نصيب المرأة من جمال أو نصيبها من مال .

والزواج من بعد زواج أقرب إلى الرجال منه إلى النساء فى عمومه ، وكثيرا ما يكون هذا بسبب اختلاف موضع الرجل وموضع المرأة التقليدى فى المجتمع . فالمرأة التى ترملت ولها أولاد ، يعد الرجل أولادها حملا ثقيلا . أما الرجل الذى ترمّل فقد تقبل عليه المرأة ، لأنه رجل قد هدأ واستقر ، واعتاد أن يحتمل فلا ينوء بالحمل ظهره ، وهى بخدمته أطفاله ورعايتهم تكسب منه الحمد والمرفق بالجميل . وخدمة الأطفال الذين ذهبت أمهم هى فى العادة عند المرأة لذة ، لها عليها بحكم الطبع إقبال .

ويقول الثقات إن الذى تعوّد ما يعطيه الزواج من راحة ، وما يسديه من صحبة ، يعزّ عليه أن يفقد هذه الراحة وهذه الصحبة ، وهو يسعى دائما أن يعود وتعود . ومن أجل هذا كان العود إلى الزواج ، حتى ممن طووا على اليأس أن لا تكون عودة .

على أن العود إلى الزواج تكتنفه مصاعب .

ومن تلك المصاعب ذكرى الزواج الأول ، وما كان فيه من خيبة . ومن مصاعبه وجود الأطفال . فقد تقبل الأم الجديدة على أطفال الرجل ، وهى ليس لها أطفال . فإن عقمت بطبعها فهذا يكون خيرها وخير من ترعى . وإذا هى لم تعقم ، فنظرها إلى الأطفال يحثها أن يكون لها مثل هؤلاء ، فإن عاقها عن ذلك عائق أحست بالفشل ، وبالرد عما تصبو ، وحلت فى قلبها الضغينة . وإن هى أتيح لها الولد تعبت فى بلوغها الإنصاف الكامل ، لولدها وولد غيرها ، هذا إذا هى طلبت الإنصاف ، فمن النساء من يغرن حتى من الأموات .

تزوج محام ببلد صغير ، ثم ماتت زوجته عن ابنة صغيرة . وعاد الرجل فتزوج . وجاء يوم علّقت فيه الزوجة الجديدة صورة الزوجة الماضية على الحائط في حجرة الجلوس . وجاءها صواحبها ، فاستغربن للذي صنعت . ولكن الزوجة قالت في بساطة : إن بنيتي هذه لا تذكر أمها الحقة ، فأنا أريد أن أذكرها بأمها الأصيلة ، لتعلم أنه كان لها يوما أم رائعة جميلة .

قالت صواحبها : أفلا تكرهين هذه الصورة عليك مزاحمة ، وهي تنظر إليك هكذا من فوق هذا الحائط صباح مساء ؟

قالت المرأة : لا . أبداً ، تقصدن الغيرة ؟ ولكن كيف يغار الحيّ من الميت ؟

ولكن الواقع أن الحيّ يغار من الميّت ، فهكذا الكثيرات من النساء ، وهذه المرأة كانت في النساء غير كثيرة الأمثال .

إن الضرّة الحية ، كالضرة الميتة التي تعيش في أطفالها ، تنذر سعادة البيت الجديد بأن لا تدوم . واللذان يتزوجان من بعد زواج . لابد لهما من حكمة سليمان ، وصبر أيوب ، ليجتازا الأزمات التي تثيرها الأطفال في بيت ليس الأب فيه أبا كاملا شاملا ، أو ليست الأم فيه أمًّا كاملة شاملة . ولكن كل هذا يسهله الثقة المتبادلة ، والحب المتبادل ؛ الحب يصقل بعضه زميل الزيجة ، ولكن يبقى أكثر قبول هذه الزيجة ممن فقدوا الآباء أو الأمهات .

على أنه حتى مع غير الأطفال ، قد يعكر الزيجة الجديدة أطيافٌ من الماضي لا تريد أن تتزايل ، ويعين على إحيائها نزق في المرأة أو حمق في الرجل .

تزوج رجل لأول مرة بامرأة مطلقة . ولم يكن قلبها قد فرغ كل الفراغ من زوجها السابق . وهل تفرغ القلوب هكذا بغتة بعد عشرة السنين ، فكانت لا تفتأ تذكر ماضيها معه . ونطقت بالذي يدور في خلدها فأسمعت . وشجعها سكوت زوجها على الزيادة حتى صارت الزيادة عادة .

فلما ضاق زوجها بما يسمع من محامد من حل هو مكانه ، ومن قيمه وكفاياته ، ولم يُرِدْ أن يردّ الجميل لصاحبته بمثله مصارحة ، عمد إلى ذكر أمه ، فأخذ يذكرها لزوجته في اليوم عشر مرات ، ويذكر فطائرها اللذيذة ، وطبخها الشهي ، وما كانت تصنع إبرتها من جميل الثياب . وفطنت الزوجة إلى مغزى زوجها ، وفي سرعة البرق سكتت عن زوجها السابق فلم تذكره أبداً . وسكت الرجل عن ذكر أمه ، وطابت العيشة واستقام الحال .

إن افتقاد الزوج ، بالطلاق أو بالموت ، بلية لا شك فيها . والزواج الجديد من دون إنجاحه صعوبات . ولكنها صعوبات تستأهل كل ما يبذل الرجل ، وتبذل المرأة ، في تخطيها ، من جهد . فهذه الدنيا لم تخلق ليسير الرجل منا ولتسير المرأة ، وحده أو وحدها ، إلى آخر الطريق . والذي يفضل أن يسير طريق الدنيا كله وحده ، سيجد فيه آخر الأمر الوحدة ، ويجد الوحشة ، في وقت ، إذا هو طلب فيه الرفيق ، عز الرفيق . أو على الأقل عز الرفيق الموافق . فالموافقة ، حتى بين المختلفين ، تتولد على السنين . والألفة لا تكون بغتة ، ولا بد لها من ماض يذكره الأليف ذكر الشيء الجليل .

أحمد زكي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

صمت ...!

البلبل يذبل بين أحضان الصباح الساحر
والكون يطوى فى ثنايا الفجر حُلم الشاعر
والزهر يقتله الحنين إلى الضياء الزاهر
يرنو إلى الدنيا ووحشتها بطرف حائر

***

والطير فى عش السكينة هادىء ... متمتم
غاف على مرّ الأمان والسعادة يحلم
قد أطبق الشفتين فى صمت فلا يترنم
أتراه تاه مع الخيال كما يتيه الملهم ؟!

***

ومرائى الوادى يخيم فوقها طيف السكون
صمت الهزار بها فرددت الأزاهر والغصون
لحن الكآبة والأسى المكبوت فى نغم حنون
ضاقت من الصمت الرهيب فأرسلت لحن الشجون

***

وهناك عند نهاية الوادى المعرش بالشجر
فى عجمة الروح الكئيبة بين أشتات الفكر
أرسلت نفسى خلف أركام الهواجس والصورْ
ووقفتُ أبعث للطبيعة كل آلام البشر

***

يا طير يا أزهار يا لحن الربيع الناطر
يا وحى أحلامى وفيض عواطفى ومشاعرى
يا رمز أيامى الجميلة فى شبابى الغابر
قُدّست من روح تحوم على خيال الشاعر

***

كم مرة صمت أعاصير الكآبة فى دمى
وتزحمت نفسى بديجور الحياة المظلم
وشعرتُ أن دمى تضجر من وجودى المغم
وظللت أنشد الوجود كآبتى وتألمى

***

لا الشمس آلمها بكاى ... ولا القمرْ
لا الطير ملّ من الغناء ولا الشجرْ
حتى سئمتُ من الوجود وضقت من سوط الكدر
وطفقتُ ألعنُ كلّ أشجانى فيبتسم القدر

***

أروايةٌ حبك القضاء فصولها للعالمينْ
صوتى تلاشى فى محيط الصمت وانقطع الأنينْ
وزهدت من وادى الحياة وضقت من سجن السنين
أروايتى اللاتى يهول الصمت : ماذا تضمرينْ ؟

***

حُلُمى مضى .. وشبابى الفينان قد خارتْ قواه
قلبى تبدده السكون ووارت الدنيا رؤاه
لا الحب أيقظه ولا انفتحت لنور مقلتاه
أتراه يقضى عمره المنكود فى شرك الحياة

غائب طعمة فرمان

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٦٤ — الثلاثاء ٥ من محرم سنة ١٣٦٧ — ١٨ من نوفمبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

معنى الهجرة فى الإسلام

كانت فكرةً عبقرية تلك التى أوحت إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يتخذوا هجرته من « مكة » إلى « المدينة » مبدأ لتاريخ الإسلامى .

ولو أن الصحابة عمدوا إلى ميلاد الرسول ، أو بعثته ، أو انتصاره على المشركين فى أول ملاحمه (بدر) ، أو فتح مكة ، أو الخروج لغزو الروم أول مرة ، لكانت لهم فى أىّ مناسبة من هذه عيد سنوى رائع الذكر جليل الأثر .

ولكنهم رضوان الله عليهم لاحظوا فى الهجرة معنى لا يتحقق بتمامه فى واحدة من المناسبات الأخرى ؛ فكتب التاريخ تروى أن « أبا موسى » كتب إلى الخليفة « عمر بن الخطاب » : أنه يأتينا منك كتب ليس لها تأريخ ! — وكانت العرب تؤرخ بعام الفيل — فجمع « عمر » الناس للمشورة ، فقال بعضهم : أرِّخ بمبعث النبى . وقال بعضهم : بمهاجَره ؛ فقال عمر : « لا ، بل بمهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل » ؛ وكان ذلك فى سنة سبع عشرة أو ثمانى عشرة من الهجرة ، وقيل بل كان ذلك بعد مضى سنتين ونصف من خلافة عمر .

وسواء أكان المشير بهذه الفكرة « عمر » أم « علياً » أم غيرهما من الصحابة ، فإن الاختيار كان لخصوصية فى الهجرة أدركها النفر الذين لازموا رسول الله فى منازل الوحى ، وشهدوا مراحل جهاده ، وخبروا أثر كل مرحلة فى تطور الدعوة ورسوخ أصولها . وقد عبَّر رائدهم من هذه الخصوصية إجمالا ، فذكر أن هجرة رسول الله فرقت بين الحق والباطل ؛ ولو شاء أن يتوسع فى تفسير تلك الخصوصية لقال : إن هجرة « محمد » لم تكن هرباً من دار خوف إلى دار أمان ، ولا نبْذاً لوطن ضاقت مذاهب العيش فيه ، ولا جرياً وراء مغنم من مغانم الدنيا ، ولا حرصاً على توسع فى فتح أو استعمار ؛ ولكنها كانت انتقالا للمرحلة الثانية والأخيرة من تبليغ الرسالة ، وإعلاء كلمة الله فى الأرض ، وإقامة بناء الإصلاح الدينى والاجتماعى الشامل على أساس ثابت الدعائم والأركان ؛ فقد لبث الرسول فى مكة ثلاث عشرة سنة ، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل بالتى هى أحسن ، ويحتمل هو وأتباعه القليلون من صنوف الأذى والعنت ما لا يقوى على مثله إلا أولو العزم ؛ وقد انبعثت من مكة فى تلك المدة أضواء أنارت أنحاء « يثرب » وبعض البقاع المجاورة ، ونفذت إلى قلوب السابقين الأولين من المؤمنين ، وهيأت للدعوة الجديدة أنصارا يفدونها وصاحبها بالنفس والنفيس .

فأذن الله للذين ظلموا أن يخرجوا من القرية الظالم أهلها، وأن يردّوا الأذى عن أنفسهم، وأن يعدّوا العدة لجهاد منظم مستعينين بالأصول الحربية والسياسية والاقتصادية والعمرانية التي يتطلبها إنشاء دولة باقية إلى يوم الدين.

وإذاً فقد شهدت السنوات العشر — التي قضاها «محمد» بالمدينة قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى — أول انتصار في تاريخ الأديان للقلة المؤمنة على الكثرة الضالة، وأول معرض للبطولة التي تستمد إلهامها من حرارة اليقين، وأول سوق تباع فيها الأنفس والأموال، ومشتريها الله.

وقد شهدت تلك السنوات أول رسول (وآخره) يؤمر من السماء أن يقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنه رسول، فإذا قالوها عصموا منه دماءهم وأموالهم؛ وشهدت أول مشرّع (وآخره) يبني على وحي السماء نظاماً للدين والدنيا يحدد علاقة العبد بربه، وعلاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الفرد بالمجتمع، ويقيم حياة الأسرة ونظام الهيئات وبناء الدولة على أسس من التعاون والتعاطف والسلام والحرية والإخاء والمساواة والعمل لخيرى الدنيا والآخرة.

إن كل كارثة تصاب بها الإنسانية — عصراً بعد آخر — في حروبها واستعمارها وتزاع طوائفها وانحلال أخلاقها، برهان جديد على سلامة النظام الذي وضع أساسه «محمد» في مهاجره، وعلى ضرورة الرجوع إلى هذا النظام إذا أريد للإنسانية التقدم والسلام. وإن مقدار النجاح الذي يصيبه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها في حفاظهم بدينهم وحريتهم، وكفاحهم ضد الغاصب، ومحاولتهم أخذ مكانهم بين أمم العالم، إنما يتوقف على مبلغ ما يدركون من أسرار دينهم وسيرة رسولهم، ومبلغ ما يحافظون عليه من عناصر الحياة التي سنها لهم «محمد» في كفاحه وجهاده.

لقد كان «محمد» نموذجاً في البطولة وصدق العزمة والصبر والوفاء والتسامح وقوة الإيمان. وقد وضع بهجرته في سبيل الله ركناً من أركان الحياة الإسلامية الصحيحة التي فهمها السلف، فآمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم. وقد كان المسلمون الصادقون — ولا يزالون — يعتبرون الهجرة في سبيل الحق جزءاً من دينهم، يقرنونه بالتوفيق والعمل الصالح؛ فكان منهم النازحون عن الأوطان إلى ثغور الإسلام النائية يقومون على حراستها، وكان منهم المغتربون عن الأهل والولد في طلب العلم، وتحقيق روايته، وكان منهم الفارّون بدينهم من الفتن، وكان منهم الزعماء المهاجرون من أوطانهم للجهاد في سبيل حريتها واستقلالها، وإصلاح دينها، وكان منهم النابذون للدنيا ومطامعها والهاجرون لشهوات النفوس ورغائبها ولكل ما نهى الله عنه من إثم ومعصية، وكان منهم المتخلون عن أموالهم طلباً لمرضاة الله، ينفقون مما آتاهم الله من فضله على الفقير والمسكين وابن السبيل، وفي سبيل العمران القوى من صحة وتعليم وغيرهما، والمساهمة في تخفيف ضائقة المنكوبين والمشردين وذوى الحاجات.

إن الهجرة كما سنها الرسول وفهمها السلف الصالح من المسلمين ليست مجرد اغتراب عن الوطن، وإنما هي أخذ النفس بحرمانها مما هو عزيز عليها من أعراض الحياة وأوضاعها، بل من الحياة نفسها، في سبيل مثل أعلى، وحياة أعز وأرفع. وأخلق بالمسلمين — وهم يعدون عدتهم للجهاد في سبيل أوطانهم وحريتهم وعقيدتهم ضد الغاصبين وضد المهاجرين من شذاذ الأمم ومجرميها — أن يقفوا في مستهل عامهم الهجرى الجديد وقفة يستوحون فيها العظمة والإيمان والفداء من سيرة رسولهم أكرم من جاهد وهاجر وأصدق من صبر وصابر. وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم.

(الاسكندرية) محمد خلف الله

البرتقـــالة !

هذه الفاكهة الذهبية الظريفة ، لها رائحة تفوق عطر الياسمين ، ولها لون يزرى بلون أزهار الربيع ، ولها طعم يجمع بين الحلاوة اللذيذة والنكهة الطيبة ، وهى مع ذلك مزة تفتق النفس ، وتساعد على هضم الطعام . وقد كانت منذ القدم فاكهة محبوبة يقبل الناس على أكلها بغير أن يعرفوا منها غير ما ظهر من فضائلها ، ولكنهم اليوم أحرص عليها بعد أن عرفوا لها من الفضائل الخفية ما كشف عنه العلم الحديث ! فقد عرف لها العلم مزية جديدة ، وهى أنها تحتوى على طائفة مما يسمونه الفيتامينات — هكذا يقول العلم فى لغته الغامضة — ومعناه أن لتلك الفاكهة سراً فى تقوية الأجسام ، قد أودعه الخالق فيها ، فزادها فضلا خفيا على فضل ظاهر . وخلاصة القول أن البرتقالة نعمة من نعم الله الجليلة التى كنا نتمتع بها فى غابر الأيام بغير أن نقدرها حق قدرها . كان زمان ! ذلك الزمان الذى كنا نستطيع أن نشترى فيه البرتقالات الخمس بقرش واحد ، فنأكل منها ، ونشرب من عصيرها ، ونصنع (المربى) من قشرها . كان زمان ! ولا نظن أن لذلك الزمان عودة .

أذكر أيام كنا صغارا ، وكانت تأتى إلينا فواكه الشرق والغرب ، فكان البرتقال اليافاوى يحمل على العربات الصغيرة فى الشوارع والأزقة ، وينادى عليه الباعة ويفتنون بفضائله ، لكى يجذبوا إليه الناس إذا ترددوا فى الشراء . وكنا نشترى بالقرش الواحد بضع حبات من الكبار نتمتع منها بطيب الرائحة ، ولذة الطعم ، ونعمة الصحة . ولكن كان زمان !

لقد تغير ذلك الزمان ، فها نحن أولاء نرى أول موسم البرتقال يقبل علينا ، فنجد الحبة الفجة منه معروضة على أبواب الفاكهانية . وقد كتب عليها بالخط الكبير : « الواحدة بقرشين » . نعم فإن الحبة الواحدة الخضراء الصغيرة تباع اليوم بقرشين ، وهى إن شاء الله فى الغد تباع بثلاثة قروش ، أو بأربعة ، إذا ما أتم الله سبحانه وتعالى نضجها وآتاها عطرها وحلاوتها .

فلنحسب الآن ما يتكلفه صاحب العيال من النفقة إذا أراد أن يطعم أهله من فاكهة البرتقال . فلو كان له من الأولاد خمسة ، كان هو والأم والأطفال سبعة ، فإذا أضفنا خادما كانوا جميعا ثمانية ، فإذا أرادوا أن يتقاسموا البرتقالة بين كل اثنين كان لابد لهم من أربع برتقالات فى الغداء ، ومثلها فى العشاء ، ومعنى هذا فى الحساب ستة عشر قرشا كل يوم . أظننى لم أخطىء فى الحساب . هذا إذا اكتفى كل واحد بنصف برتقالة ، فإذا أتم الواحد برتقالة كاملة كان لا بد للرجل من أن ينفق اثنين وثلاثين قرشا فى اليوم الواحد ، أى عشرة جنيهات فى الشهر للبرتقال وحده . هذه حسبة بسيطة تدل على أن البرتقال قد أصبح اليوم صعب المنال ، إلا لمن وهب الله لهم قناطير المال . ومعنى هذا أن البرتقال قد أصبح ممنوعا من عامة الناس ، وأنه قد ترقى إلى مرتبة الإمارة ، بعد أن كان يباع على العربات فى الحارة ، وسبحان مصرف الأمور ومبدل الأحوال . هكذا ترقى البرتقال إلى درجات العلى ، وتكبر على أصحابه الذين كان يبرهم بالأمس ، وتركهم يعانون الحرمان من حلاوته ، ولذته ، وما فيه من أسرار عافية البدن . فلاحول ولاقوة إلا بالله !

ولقد سمعنا منذ عام صوت بعض الأطباء ينادى أن الأمراض كانت تفتك بالناس ، لأنهم فقدوا ما كانوا يتمتعون به من حصانة بسبب هذه الكبرياء التى أصابت

فاكهتنا المحبوبة . فمن هو المسئول عن هذا الحرمان ؟ إننا لا نستطيع أن نتهم البرتقال وحده بالكبرياء ، فإنه فاكهة وديعة ، لا يهمها إلا أن تؤكل ، وتؤدى واجبها الذى خلقها الله له ، ولكن الذنب فى هذا الحرمان يرجع إلى سبب واحد ، وهو تدخل الإنسان .

كنا من قبل نعيش على الفطرة وكانت بلاد الله الأخرى تعيش مثلنا على الفطرة ، فكنا نبيع الناس ما يزيد على حاجتنا ، ونشترى من الناس ما نحن فى حاجة إليه . ولم نكن عند ذلك نعرف تدخل الحكومة فى التصدير والاستيراد ، ولا الحواجز الجمركية ، ولا السياسة الوطنية . ثم ارتقينا وأصبحنا لا نعيش كما كنا على الفطرة ، وأخذنا ندس أنوفنا ونمد أيدينا إلى أمور الحياة لكى نعدلها وننظمها ، وهذا رقى بغير شك وفيه دليل على أننا قد صرنا أمة واعية تحاول أن تسيطر على شئون حياتها . ولكن العيب الوحيد هو أننا عند ما بدأنا نسيطر على شئون الحياة وقعنا فى الخطأ الذى يتعرض له الإنسان دائماً إذا فكر بعقله المحدود . فالنظام الطبيعى له حسنة كبرى ، وذلك أنه فى تغير دائم يعدل من نفسه بحسب ما تقتضيه حاجات الحياة . ولكن التدخل الإنسانى يقيم حواجز صناعية جامدة لا تتغير ولا تتبدل بحسب مقتضيات الحياة . فإذا نحن أقمنا نظاما جامدا تعرضنا دائما للضرر إذا لم نكن فى يقظة دائمة لتعرف حاجات الحياة .

وقد وقعنا فى مثل هذا الخطأ عند ما أقمنا الحواجز فى سبيل استيراد الفاكهة من البلاد الأخرى .

كنا نقصد من إقامة تلك الحواجز إلى حماية مصلحة زارعى البرتقال فى مصر . ولكن البرتقال ضرورى لحياتنا وصحتنا ، فعلينا أن توازن بين مصلحة أصحاب كروم البرتقال وبين مصلحة الشعب فى صحته ، فنعدل من خطتنا بحسب ما ينتهى إليه حكمنا .

ومن أعجب الأمور أن خطتنا فى حماية مصلحة منتجى البرتقال لم تكتف بمنع استيراد تلك الفاكهة من البلاد الأخرى ، بل زادت خطوة أخرى فى أنها قد أباحت تصدير برتقالنا .

أليس من العجيب أن نعمل على استيراد الفيتامينات المصنوعة فى البلاد الأخرى لكى نتداوى بها وهى سلعة غالية لا يستطيع الشعب أن يصل إليها ، على حين نمنع من ذلك الشعب مورده الطبيعى الذى كان يغنيه عن تلك الفيتامينات ؟ إن حق الصحة ليس وقفا على الذين يستطيعون بذل النقود فى شراء ما يحتاجون إليه من طعام ودواء . وإنها لسياسة مغمّضة إذ نسير على خططنا الاقتصادية سيراً آلياً بغير مراعاة لمقتضيات الحياة . فالحكومات التى تريد أن تتدخل فى الشئون الاقتصادية ملزمة بأن تعتد بكل نواحى الحياة فى شعبها . فإذا كانت لا تستطيع أن تدبر أمورها مع هذا الاحتياط كان واجبا عليها أن تترك الأمور تجرى فى مجراها . إن التدخل محمود إذا كان فى مصلحة عامة الشعب . فإذا كان ذلك التدخل يؤدى إلى حفظ مصلحة طائفة محدودة من الشعب وكان يؤدى إلى إهدار مصلحة العامة ، كان الأولى أن يترك الأمر للطبيعة ونعود كما كنا نعيش على فطرتنا .

وقد ذكرنا البرتقال وحده على سبيل المثال ، ولكننا نستطيع أن نورد أمثلة كثيرة أخرى ، فإن تدخل الحكومة فى تنظيم الاقتصاد يحتاج أولاً أن نعرف حقيقة مصالح هذا الشعب ، وما يحتاج إليه من الضروريات ، ثم تدبر الأمور على هدى من تحرى مصالحه . وأولى بالبلاد التى لا تستطيع أن تدبر أمورها بالحكمة واليقظة ، أن تترك الأمور لله يسيرها ، فإن السير الطبيعى آمن عاقبة من التدخل الممسوخ .

محمد فريد أبو حديد

نقل رفات هارون الرشيد

إلى بغـــداد

عرفت هارون الرشيد وأنا صغير أقرأ على مجلس صغار العائلة ، في ليالي الشتاء الطويلة ، أقاصيص « ألف ليلة وليلة » مقابل أجر لا يزيد على القرش الواحد لكل جلسة ، تدفعه جدتي المرحومة من جيبها الخاص .

وكانت معرفتي له ، يومئذ ، لا تزيد على ما تصفه القصة ، ملكاً مترفاً مغامراً وكنت أتصوره في مجلسه : شاباً جميلا يرفل في الدمقس وفي الحرير ، وعليه التاج والجوهر ، وحوله الحسان البيض في غلائلهن الملونة على أرائك من فضة في مقاصير من الذهب والبلور ، تطل نوافذها على بغداد الجميلة ذات القصور والجوامع والكنائس .

وأحببت الرشيد حباً جماً حين وصفه لنا أستاذ التاريخ في المدرسة الابتدائية ، قال : « كان شجاعا تقيا يغزو عاماً ويحج عاماً . وكان عزيزاً مستقلا لا يخاف ملكا أو دولة أخرى ، وغيوراً على رعيته فلا يقبل الظلم على أحدها ، ولو كان في أقصى الثغور البعيدة » .

وحدثنا الأستاذ من حكاية الرشيد مع خصمه (نقفور) صاحب القسطنطينية ، فانفجرت حناجر زملائي الصغار بالضحك على أثر سماع نص رسالته التي يقول في مستهلها : « من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم » وطار بنا الزهو والفخر كأننا نشاوى من خمرة النصر في تلك المعركة الموفقة .

ثم مرت الأيام بي ، وانقضى عهد الطفولة ، واسم الرشيد يتردد على سمعي ، في أناشيد المدارس ، ومن أفواه الخطباء على منابر السياسة ، وفي قصائد شعراء العراق أو الذين يفدون عليه في الأفراح والمآتم القومية وفي المناسبات .

وشغفت بالأدب العربي ، أقتني كتبه وأقرأها بإمعان ، وإذا باسم الرشيد يتألق في كل فصل وحيث يتسع الحديث عن فحول الشعراء ، كأبي نواس وأبي العتاهية والعباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد والعتابي ، ومن كبار الرواة وأساتذة اللغة والنحو كأبي عبيدة معمر بن المثنى والكسائي والزبيدي ، ومن نوابغ المغنين والموسيقيين كإبراهيم الموصلي وإسحاق وزلزل وابن جامع ، ومن غير هؤلاء ، وكلهم من معاصري الرشيد وضيوف بلاطه ورواتب نعمته . من ذلك أعجبت بهذا العاهل العباسي الجليل وأكبرت شخصيته ولمست مكانه في ساح المجد العربي ، وإن لم أمعن بعد في قراءة صحيفة تاريخه .

ثم انحرفت بي سبل الحياة إلى دراسة أخرى فنسيت الرشيد وأهملت مجالس علمه وأدبه ولهوه . ولم يخطر ذكره ببالي إلا لماماً ، وحين أمر بآراء أبي يوسف القاضي وأقرانه في مسألة شرعية أو قاعدة حقوقية ، وطال الفراق بيني وبين « أبي المأمون » ، وأبعدني حب إتمام دراستي إلى (باريس) حيث لا يعرف الرشيد إلا من أقاصيص « ألف ليلة وليلة » واندلعت نار الحرب الأخيرة ، وانقطع القريب عن أهله ، وخفت من ضياع الفرصة فاتخذت الأدب دراسة ثانوية لإمضاء الوقت . وعلى غير عمد سجلت (رسالتي) في الجامعة ، عن (الأصمعي) صاحب الرواية واللغة ، وإذا بالموضوع يقودني إلى بلاط الرشيد من جديد ويضطرني إلى البقاء فيه خمسة عشر عاماً بجانب الأصمعي .

وهناك عرفت حاشية الخليفة واحداً واحدا ، فجالست الداهية السياسي يحيي بن خالد البرمكي ، وتتبعت خطوات ابنيه الفضل وجعفر وعرفت مكانتهما عند الرشيد ، وفهمت عقلية حاجبه الفضل بن الربيع ، وعلمت أسباب بغضه للبرامكة . وأعجبت بقواد الدولة وأركانها ، أمثال يزيد بن مزيد الشيباني ، وهرثمة بن أعين ، وعبد الملك بن صالح العباسي . وسمعت الكثير من الخيزران أم الرشيد قبل موتها ، ومن

سبب تأييدها الوزير يحيى بن خالد، ومن انتقال سيادة القصر بعد الخيزران إلى زبيدة زوج الخليفة وحفيدة المنصور. وحدثنى الرواة من كرمها وأنفتها وكرهها لآل برمك، واعتزازها بعروبتها. وأحسست ما كان فى البلاط من صراع خفى بين الشعوبية والعربية مما أقض مضجع صاحب التاج، فخاف على عرشه أن ينقض، فصانه بوثبة حازمة أودت بآل برمك فى ليلة من غير صبح.

وعلمت من كل هذا أن الرشيد شخصية غامضة كتوماً. استغل غموضها بعض المؤرخين المغرضين، فاندفعوا بأهوائهم وميولهم إلى النيل منها حتى توصلوا إلى إظهارها للناس، فى كثير من نواحيها، فى غير حقيقتها. وقادنى الفكر، على أثر ذلك، إلى العمل على إنصاف هذا العاهل الجليل والانتصار للحقيقة من شطط الرواة. فبدأت بالعمل ولكننى ركبت فى ذلك مركبا صعبا، وجشمت نفسى عملا شاقا بعيد المدى استنفد من عمرى خمسة أعوام، ولم أنل من جهودى إلا الرجاء بأن أكون قد اقتربت من الحقيقة وأصبت من الهدف ولو جانبا.

بدأت دراستى لحياة الرشيد عام ١٩٤٢ فى باريس، وكانت الحرب على أشدها، وحكومة (الرايخ) الألمانية المحتلة لفرنسا تسعى لجلب ود الشعب الفرنسى، وتعمل لإزالة العداء التاريخى المستحكم بين الشعبين؛ فكان مما قامت به من وسائل الإغراء أنها نقلت فى شتاء ذلك العام، رفات ابن نابليون الأول «فرخ النسر» من (فينا) عاصمة النمسا إلى باريس ودفنته باحتفال رسمى رائع بجانب قبر أبيه فى قصر (الأنفاليد) وكان أول مرقد لنابليون نفسه فى جزيرة (سنت هيلانة) ثم نقل إلى عاصمة ملكه. فأوحى لى هذا الحادث فكرة نقل رفات الرشيد من مدينة (طوس) الإيرانية إلى عاصمة ملكه «بغداد»، وتطورت الفكرة عندى إلى رغبة ثم إلى واجب قوى عزمت على أدائه عند أول فرصة سانحة. وكتمت الأمر خوف انتشاره قبل انتهائى من كتاب «حياة الرشيد»[١] وبحت به أول مرة فى طريق العودة إلى العراق فى مجلس الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة وبحضور الأستاذ عباس محمود العقاد. وذلك فى شهر نوفمبر عام ١٩٤٥، فوجدت الفكرة عند هؤلاء الأفاضل تشجيعاً وتحبيذاً.

وبعد شهر كنت فى العراق فكانت أول مقابلتى لوزير المعارف يومئذ «إبراهيم بك عاكف الألوسى» فحدثته بالأمر وطلبت منه المساعدة، فوعد بنقل الخبر إلى صاحب السمو الملكى الوصى على عرش العراق «الأمير عبد الإله». ثم كان الجواب ما معناه: إن صاحب السمو يسره أن يرى قبة جليلة تشيد على قبر هارون الرشيد بجانب القبة المشيدة على ضريح مؤسس الدولة العراقية الحديثة جلالة المرحوم (فيصل الأول)، فى المقبرة الملكية ببغداد.

وكان هذا الجواب مفرحاً لى ومشجعاً، فاندفعت أحدث بعض الشخصيات العراقية من القوميين. وكان آخر من اتصلت به فى العام نفسه ١٩٤٥ لفخامة توفيق بك السويدى، رئيس وزراء العراق فى ذلك العهد، فوجدت الفكرة مهيأة عنده، غير أن الفصل كان شتاء بارداً، وكانت الحكومة الإيرانية فى مشكلة داخلية تتعلق بقضية (آذربيجان)، ومن الصعب المفاوضة معها (دبلوماسيا) فى هذا الموضوع. فلننتظر إذاً.

وفى أثناء بحثى عن قبر الرشيد وموقعه وجدت بعض معلومات مغلوطة قد تسربت إلى أسماع بعض من يهمهم الأمر، وهى أن جثمان الإمام «على الرضا» قد دفن فى قبر الرشيد نفسه، فمن الصعب التفريق بين الاثنين. والواقع هو ما يأتى:

توفى الرشيد فى منتصف ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة عام ١٩٣ هجرية فى قرية (سناباذ)

(١) الكتاب تحت الطبع.

حكمة البوم

تتخذ البومة شعاراً للحكمة وبعد النظر ؛ تراها مرسومة على الكتب أحياناً ليدل الناشر على ما تحويه كتبه في بطونها من حكمة خالدة ؛ وتراها مصورة في إعلان تذيعه الحكومة الإنجليزية في بلادها هذه الأيام ، لتحفز شعبها على الادخار ، تمثلا — فيما ينطوي عليه الادخار من حكمة — بالبومة التي شهد لها الناس منذ الأزل بصدق النظر .

وحدث أني كنت أقرأ كتاباً منذ أمد قريب ، وكانت البومة على غلافه شعاراً للناشر ، فسألت نفسي : ليت شعري لماذا اتخذ هذا الطائر المشئوم رمزاً للحكمة ؟ أيكون ذلك لهاتين العينين المفتوحتين اللتين لا ينسدل عليهما الجفنان في ظلمة المساء ، كما تنسدل الأجفان عند عباد الله من إنس وجان ؟ أتكون هاتان العينان المفتوحتان قد أغرتا الرامزين أن يتخذوا من دوام الإبصار دليلا على سداد البصيرة وبعد النظر ؟

أم يكون ذلك لما تعانيه البومة في الليل من سهر ورعاية للنجوم بما فيهما من همّ وتسهيد ، حين يكون الخليّون في مخادعهم نوّماً غافلين عن الطبيعة بكل ما فيها أثناء الليل من جلال وجمال ؟

أم تكون هذه الجلسة الساكنة الهادئة الرزينة الرصينة ، التي لا تكاد تعرف الحركة ، هي التي أغرت الرامزين أن يشيروا بها إلى التأمل العميق والتفكير الدقيق ، فاتخذوا البومة شعاراً لهذا كله ؟

ذلك ما حدثت به نفسي حين نظرت إلى صورة البومة مرسومة على غلاف الكتاب ؛ لكن فكرة جديدة أوحى بها إليّ فأشرقت عليّ بالأمس القريب ، إذ كنت أسير في الطريق مفكراً فيما أنا فيه مما تضطرب له النفس عند أشد الناس ضبطاً لنفسه وإمساكاً بزمام أعصابه ؛ فقد تعذرت عليّ متابعة فكري لكثرة ما في الطريق من أصوات ؛ وعندئذ حلى لي — وقد تعطل الفكر — أن أعدّ هذه

المجاورة لمدينة (طوس) في موضع يدعى النقب في بستان قصر « حميد بن أبي غانم » ، (رواية الطبري الجزء ٣/٧٣٧) .

وفي اليوم الخامس من ذي الحجة عام ٢٠٢ من الهجرة توفي الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم ، وولي عهد المأمون بن الرشيد ، فصلى عليه المأمون ودفنه ملاصق قبر أبيه الرشيد (رواية بن خلكان الجزء ١/٣٢١) . ويؤيد ابن خلكان عدة مؤرخين . وهنالك قصائد لبعض الشعراء تدل على أن القبرين منفصلان عن بعضهما وهما في قبة واحدة ، وقد سميت المدينة (المشهد) .

وكتب لي سكرتير المفوضية العراقية في طهران يقول : « إن القبرين تحت قبة واحدة ، ويقال إنها نفس القبة التي بناها المأمون لم تتغير لمتانة بنائها ، وإن قبر الرشيد يكاد يندرس بجانب الحائط . وقد سمعت من بعض أهل البلد أن بعض العامة من الجهلاء عند زيارتهم لقبر الإمام علي الرضا ، يبصقون على قبر الرشيد ويلعنونه ظانين أنه من خصوم آل البيت أو أنه الشيطان » .

وفي شهر شباط من عام ١٩٤٦ زار بغداد حضرة « ظهير الإسلام » المشرف على أوقاف الإمام علي الرضا فتشرفت بمقابلته وأخذت عنه بعض المعلومات وكان متحفظاً بإعطائها .

وبعد ، فهذه كلمة أزفها إلى أدباء العرب القوميين وشعرائهم وصحافييهم ، أخصهم برجاء حار أن يكتبوا في هذا الموضوع ويعينوا على تحقيق هذه الفكرة لما فيها من واجب قومي مقدس وفائدة أدبية للجميع وخدمة لأكبر عاهل عربي مسلم خدم الدين والحضارة والمجد الذي نفخر به ونعتز .

الدكتور عبد الجبار جومرد

الأصوات ، وآخذ في تبويبها وترتيبها ، فإذا بي أبلغ في عدها الثلاث !

وبغتة قفزت فكرة خفيفة لو رآها الناس لقالوا مسّه الجنون ، وصحت انفسي — كما فعل أرشميدس في زمانه — صحت قائلا : وجدتها وجدتها ! وجدت العلة في اتخاذ البومة شعارا للحكمة ورمزا لبعد النظر ؛ العلة هي الصمت ؛ بل وجدت العلة ، لماذا أقفرت بلادنا وأصابها النقم آلاف السنين ، لا تنجب الصالحين العاملين ؛ العلة هي هذا العجيج والضجيج ، هي هذه الجلبة وهذا الصياح !

أى والله ، لقد صدق من قال إنه إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ؛ وأنا أريد هنا بالكلام والسكوت أوسع ما يفهم من هاتين اللفظتين من معنى ؛ فإذا فهمت من اللفظتين معناهما الواسع ، أدركت ما أريد أن أسوقه إليك حين أنبئك أن الصمت هو السر في حكمة البوم ، وأن الجلبة هي التي أعقمت بلادنا من إنجاب الصالحين العاملين .

فمن باب الصمت أن تختار لجلوسك مكانا مستوراً تخلو فيه إلى نفسك ، أو إلى من تتحدث إليه من الأصدقاء، فيكون لك بهذا التخفي وجود واضح بارز ؛ ومن باب الجلبة والصياح أن تجلس مكشوفا على طوار الشارع في المقهى ، حيث تصبح جزءاً من بضائع الدكاكين وحركة المرور !

ومن الصمت أن تختار لملابسك وأثاث منزلك ألواناً خافتة هادئة يرتاح إليها البصر ، كما أن من الجلبة والصياح أن تختار هذه الأشياء من ذوات الألوان الصارخة الزاعقة التي تلفت الأنظار رغم الأنوف .

ومن الصمت أن تعلن عن عيادتك إن كنت طبيباً ، أو مكتبك إن كنت محامياً ، أو دكانك إن كنت تاجراً ، بلافتة صغيرة متواضعة ، كما أن من الجلبة والصياح أن تعلن عن نفسك بلافتة طويلة عريضة تسد على الناس مسالك الطريق ، واذكر دائما أن ارتفاع الصوت قد يدل على تفاهة الصائت ؛ فالكلب الذي ينبح لا يعض — كما يقول الإنجليز — وكلما ازدادت الشاة صياحا ، قل على ظهرها الصوف — كما يقول الإنجليز كذلك — والصفيحة الخربة الصدئة تملأ الآفاق ضجة ونقيقا .

يستحيل أن تكون من الصاخبين ومن العاملين في وقت واحد ؛ ويستحيل أن تكون من الصائحين ومن المفكرين في وقت واحد ؛ فقد يتعذر أن يجتمع الكلام والعمل ، لأن الفكرة إذا طافت برأسك فصحت بها كلاما ، انتهى بذلك أمرها ، أما إذا حبستها في نفسك ؛ وأغلقت دونها صدرك بمغاليق الصمت ، فقد تنفجر في صورة عمل عاجلا أو آجلا .

كذلك محال أن تضج وتفكر في آن معاً ؛ هلا سألت نفسك يوماً : لماذا اختار اليونان لآلهتهم جبل الأولب ، ولم يسكنوهم داراً في ساحة السوق ؟ وهل جاءك في الأساطير أن « جوبتر » كان يخلق الكائنات بإيماءة خفيفة دون أن ينطق إلا قليلا ، أو يتحرك إلا يسيرا ؟

هل سألت نفسك يوماً : لماذا يصوم غاندى عن الكلام يوماً في كل أسبوع ؟ وهل وقفت دقيقة أو دقيقتين كلما قصوا عليك سيرة النبي ، فتسأل : لماذا اختار الله لنبيه الصحراء الصامتة منبتاً ، ولماذا اختار له مغارة معزولة في سكون الجبل مهبطا لوحيه ؟

أين يسكن الفيلسوف فيما تظن ؟ أيسكن برجا — سواء كان البرج من عاج أو خشب — أم يسكن غرفة تطل بشرفتها ونوافذها على العتبة الخضراء ؟

ألست تؤثر للعالم الباحث أن يعتزل في مكان هادىء بين كتبه وأنابيبه ، ثم ألست تؤثر للشاعر أن « يجوب وحيدا كالسحابة » — كما يقول « وردزووث » شاعر الإنجليز ؟

أيهما أقرب إلى الشعور الديني الصحيح فيما تظن : رجل فتح المذياع على آخره ساعة تلاوة القرآن ، فجعل من القراءة ضجة ترج الهواء رجا ، أم رجل جعل التلاوة همسا في أذنه لا يكاد يسمعه من يجلس إلى جواره ؟ أتحسب أنه من قبيل المصادفة العمياء ، أن تواضع الناس في كل زمان وفي كل مكان وفي جميع الأديان أن تكون بيوت الله — مساجد كانت أو كنائس أو معابد أو ما شئت لها أن تكون — خافتة الضوء ، خافتة الصوت ، إذا أضيئت فبالقنديل الضئيل ، أو ما يشبهه ، وإذا تكلم فيها متكلم فهمسا ، أو مشى على أرضها ماش فعلى أطراف أصابعه ؟ ثم هل يخلو من المعنى أن يوعد المؤمنون جنة لا يسمعون فيها لغوا ؟

أنت أقرب إلى الله في صمتك منك في صخبك وضجتك ، ولهذا اختار المتعبدون صوامع في الجبل ، ولم يختاروا الميادين الفخمة في كبريات المدن !

خذها عني نصيحة ناصح : ضع ثقتك فيمن يتلعثم إذا تكلم ، أضعاف أضعاف ما تضعها فيمن يكثر من الجدل والنقاش ؛ فالأرجح أن ينتج الأول عملا ينفعك وينفعه ، والأرجح ألا ينتج الثاني شيئا ذا غناء ؛ ولعل « فورد » — صاحب الثراء الضخم وصاحب السيارة المعروفة — لعله لم يكن عابثا فقط حين جعل من مبادئه أن يبدأ في مصانعه باستخدام الأبكم ، بل لعله كان في ذلك رجلا من رجال الأعمال الذين خالفهم صواب الرأي ؛ فمع البكم إنتاج وعمل ، ومع الثرثرة مضيعة للوقت والجهود ؛ ورحم الله مالكا حين قال : « لا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل » ؛ ورحم الله ابن حنبل حين قال : « لا يفلح صاحب كلام أبدا » .

هل تدرى ما معنى « تفكير » ؟ معناها الدقيق مناقشة الإنسان لنفسه ، يلقي على نفسه سؤالا ويحاول عنه الجواب ؛ فإذا قلت « إني أفكر » كان معنى ذلك على وجه الدقة إني سألت نفسي سؤالا أو أسئلة أحاول عنها الجواب ؛

ولا يكون ذلك إلا إذا خلوت لنفسك وساد حولك الصمت .

وإنه لمن أعجب العجب أن يشاء الله لأعظم موسيقي أنجبته الدنيا — أعني بيتهوفن — أن يصاب بالصمم ، فلا يسمع حتى موسيقاه ! تُرى هل ساعده العالم الصامت الذي عاش فيه على خلق تغريده وألحانه ؟

دارت في رأسي هذه الخواطر ، ثم أراد الله أن يزيدني بأسا على يأس ، فذكرني بالمكتب والبيت والشارع ...

دخلت مكتبا في ديوان حكومي لأقضي بعض شأني ، فوجدته يموج بالزائرين الصائحين الصاخبين ، فقلت : يستحيل أن ينتج هذا المكان شيئا .

ودخلت داري فوجدتها مفتحة النوافذ ساطعة الضوء كثيرة الصياح ، فقلت : يستحيل أن تكون هذه الدار بيئة صالحة لتكوين رجل صامت عامل .

ومشيت في الشارع فسمعت عجيجا وضجيجا وجلبة وصياحا ، فقلت : يستحيل أن يكون هذا مكانا من بلد يعرف أهله العمل والإنتاج .

اللهم رحماك ! والله لو انفتحت لي ليلة القدر أبواب السماء ، ما تمنيت لأمتي إلا شيئا واحدا : أن يهبها الله شيئا من حكمة البوم .

زكي نجيب محمود

تسام على الولاء

يحدثنا الكاتب البارع « ادوارد بوك » بأسطورة معجبة عن بعض زعماء الهنود الحمر فيقول : إنه كان يختبر حول شباب قبيلته فيكلفهم بارتقاء جبل منيف وعر، وهم يتفرجلون(١) ويلاحظ مدى الارتفاع الذي يطيق أن يبلغه كل منهم ، واتفق أن أربعة شبان أقوياء انطلقوا إلى هذا السباق المنيف في فجر يوم مشهود ، فعاد أولهم بغصن من شجرة التنوب الغضي ، ليدل على درجة الارتفاع التي استطاع إدراكها من الجبل . وحمل الثاني في أوبه فرعاً من شجرة الصنوبر ، وأحضر الثالث طائفة من النبات الجبلية . أما الرابع فقد تلمس طريقه على ضوء القمر الخافت ، في الليل الأليل وعاد يزك(٢) وقد أدمت الصخور قدميه وهدت الزيادة المنفردة قواه .

فسأله زعيمهم قائلا : « وأنت ؟ ماذا أحضرت معك من الجبل ؟ وما درجة الارتفاع التي بلغتها في تصعيده ؟ » فأجاب : « إن المكان الذي ذهبت إليه صليع(٣) أوعر ، لا يحتوي على شجر التنوب والصنوبر الذي يظللني من هجير الشمس ، لا ولم أر فيه نوراً يجلي غمتي بازدهار ألوانه، أوزهراً ينعش روحي بفوح عبيره ، بل إن الطريق الذي سلكته وحدي من أشد ما توعّر وأوحش من مواقع الجبل ، جد شاق حزن ، كثرت حجارته وغلظت كأنها سكاكين ، وتراكبت نتوءه وتشعبت نقبه الجرداء ، قد أخذني منها البهر(٤) ، وأضمرني الكلال ، ونالني الخلج(٥) .

(١) الفرجلة هي أن يتفحج الرجل ويسرع .

(٢) الزك هو أن يقارب الرجل خطوه ضعفاً .

(٣) الصليع الذي لانبت عليه .

(٤) البهر هو تتابع النفس من الإعياء .

(٥) الخلج أن يشتكي الإنسان لحمه وعظامه من طول مشي وتعب أو من عمل من الأعمال .

وها أنذا أعود متأخراً عن سائر رفاق ، ومع ذلك » — وشعّ نور عجيب من عيني الشاب حين أردف قائلا : « ومع ذلك فإني قد رأيت البحر !! » .

وهناك من قمة الجبل السامق ، استطاع أن يشرف على الغابات التي ترامت في السفوح المريضة ، ويجاوز ببصره البادية المحرقة ، فعاين البحر المتألق في البعيد البعيد ، ولكن كان عليه أولاً أن ينقز(٦) علامة حتى تتسنى له مشاهدة البحر !! .

فياليت شعري : هل يعترينا الجزع في أحايين ، فيثبطنا تغير الأهبة ، ويلبثنا تعقب على استعداد ، هل نحس بإزاء الدواهم التي تتدفق علينا ، أننا لانستطيع مواصلة السير ، فنميل إلى التضجع في الطريق ، بل إلى الوقوف ، بل إلى الكف نهائياً عن ممارسة ما يقادمنا ؟ أيزلزل توازننا حين يتجهم لنا وجه الحياة ، فنراها جد بغيضة ، فنجمح من ثم ونجتويها ونسترسل في تيه التسخط عليها ؟ أقول عن يقين جازم مع الكاتب البليغ الأستاذ عباس محمود العقاد : إني مازلت أعتقد ، وأزداد اعتقاداً ، أن بغض الحياة أسهل من حب الحياة ، وأن الأدوات النفسية التي نحس بها آلام الحياة ، أعم وأشيع وأقرب غوراً من أدوات النفس التي نحس بها أفراح الحياة العليا ومحاسنها الكبرى . فالفرح أعمق من الحزن ، وليس الحزن قدرة ، بل هو انهزام أمام قدرة ، أما الفرح فهو القدرة والانتصار » .

حقاً أنه ينبغي ألا ينوء بنا الجزع ويبتلينا بالمزعة، بل ينبغي ألا يعقلنا الضعف الإنساني والخوار المتوى . يجب أن تكون لنا طاقة على التقدم فيما استكفينا ، يجب أن نوغل في تسنم الجبل وأن نواكب عليه ، وأن نمتد إلى ما هو

(٦) النقزان هو الوثوب صعدا .

قدام حتى تبلغ القمة، وترقى إلى الذروة التي لا تطاول ولا تسامى.

يروى أن سهل « شاموني »[1] زان بنصب تذكارى لرشد هلك أثناء اجتهاده في تسلق جبالة الجرداء، وكان ذلك النصب يحلى بعبارة ساذجة هذا نصها: « مات وهو يتسنم الجبل » الجبل الذى يطمس في أديم السماء، ويرقيه ويخوض في بحر الثلج بقدميه. الجبل الذى لا يقوى على تصعده الناس إلا وهم يحملون في أيديهم عصيا في طرفها حديد مدبب يساعدهم في التسلق.

وقد قال أحدهم: ليس معنى الظفر على أحداث الحياة ألا نعثر ونكبو ونحن نصاولها، فإن هذا محال، بل معناه أن ننهض من كبوتنا مستبشرين غير مخذولين ولا هيابين، ثم نقف على أقدامنا راسخين ونتصدع الأطواد الشوامخ، ونواصل تسور شرفاتها وسوامق قننها، ونموت ونحن نتابع تصعدها.

وتقول الشاعرة الموهوبة فرنسس كيمبل: « إن الحياة التي تضطلع بها، نير مقدس وحمل سماوى، فانظر إليهما وارفعهما في وقار وخشوع، ثم انهض واحملهما في ثبات. وإياك إياك أن يقدحك الحزن أو تدهك الخطيئة فيتكاءدك الثقل، ويقوض قواك ويقرض نفسك، ويزعزع عزيمتك، ويرزم همتك، بل الآيل[2] بحملك وامتد إلى ما هو قدام، وارق إلى العلاء، حتى تستقصى الغاية وتستدنى الحجة »

وإذا رأيت الحر يشعب أمره

شعب العصا ويلج في العصيان

فاعمد لما تعلو فإنك بالذى

لا تستطيع من الأمور يدان.

(١) واد مشهور هو غاية الألب الفرنسية في السافوا العليا، ويؤلف جانبه الشرقي مت بلانك وغيره من الجبال اللامعة.

(٢) الآيل معنى الذي يعدو وعليه حمل ينوء به.

هذا وهل فينا من يستطيع أن ينسى تلك الكلمة الخالدة التي كانت آخر ما سجله الذين راموا رحل « افرست »[1] حين خرجوا لاقتحامها سنة ١٩٢١ فقالوا عنهم: « إنهم مضوا أقوياء أشداء لبلوغ تلك الذروة الشمخرة الصعود ».

وهل يمكن أن يمدح فرد مناق أى زمن من الأزمان بما يفوق هذا الإطراء البليغ، سيما حين نلح آخر شوط في مضمار الحياة؟.

« أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، فإن العبد بين مخافتين، أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل به، وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات. فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار ».

الزاهرة

(١) افرست هى أعلى قلل جبال الهملايا، إذ يبلغ ارتفاعها ٢٩٠٠٢ قدم، وقد أطلق عليها اسم افرست نسبة إلى سير جورج افرست زعيم البعثة الهندية والرئيس العام لمساحة الأراضي الهندية سنة ١٧٩٠ إلى سنة ١٨٦٦.

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

الخواطر

بعد عامين

أكتب هذا الخاطر فى اليوم الرابع من عيد الأضحى المبارك ، أى بعد مضى عيدين منذ وفاة أخى . ولازلت أذكر تلك الليلة المشئومة عند ما أيقظنى جرس التليفون من نوم مصطنع نلته بعد أن تجرعت منوما قوىّ المفعول ، وسمعت من الطرف الآخر صوتاً يقول لى : كن شجاعاً ، لقد انتهى كل شىء . فألقيت السماعة فى يأس وقنوط ، وارتميت على مقعد مريح اعتاد أخى أن يجلس عليه كلما أسعدنى بزيارته ، فشعرت وكأن روحه تحتوينى إليها وتصعد بجسدى إلى سماء لا يطار إليها على جناح ، وإنما هى من نصيب الأولياء والصدّيقين . ورحت فى نوم لم أدر إذ ذاك كيف جرؤ على أن يزور جفونى ، ولكنى تمنيت ألا أصحو منه ، حتى لا أواجه الحقيقة المؤلمة ، ولكن هناك فجر لابد من طلوعه ، وهو لا يهمه على أى حال يراه الناس ، وقد طلع على المطلع الذى بقى منى ، وما كادت تباشيره تبدو ، حتى قفزت من فراشى ، لأنى لم أكن إذ ذاك لأتصور أن أفوّت على نفسى فرصة الاكتواء بنار الجوى والفراق ، ولو لبرهة قصيرة . ونظرت فى المرآة ، وياهول ما رأيت ! لقد أخذت روح أخى معها كل منابع الحيوية من جسمى ، فغارت منى العينان ، وبرز الخدان وكستهما صفرة ، جعلتنى والأموات سواء . ولبست ثيابى فى تثاقل المحكوم عليه بالإعدام ، وهو يجر رجليه جراً أثناء مسيره المائة متر الأخيرة ، وهم يسوقونه نحو المقصلة ، مع فارق واحد ، وهو أن آلام المحكوم عليه تنتهى بوصوله إلى الغرفة السوداء ، أما رحلتى الطويلة فتبدأ بوصولى إليها . أخذت أبحث عن رباط رقبة أسود ، فعثرت على واحد كنت اشتريته من لندن سنة ١٩٣٦ ، عند ما بلغنا نبأ وفاة المغفور له الملك فؤاد ، وكنت سائراً إذ ذاك فى أحد شوارع هذه المدينة العظيمة ، فرأيت بائع جرائد يحمل جريدة (الايفننج ستاندارد) ، وقد كتب عليها بالخط العريض : مات الملك فؤاد . وزيّن الرباط رقبتى مدة أسبوع ، أحيل بعدها إلى الاستيداع ، ولم يبعثه إلى الوجود إلا ظرف أخى القاسى . وكنت كلما رأيته فى دولاب ملابسى خلال هذه السنوات الطوال ، ينقبض صدرى ، وأهتف فى تضرع وتوسل : اللهم اكفنى شر هـذا الرباط الممقوت . وأكاد أتقى به ، لولا أنه كانت تربطنى به ذكرى وفاة مليك عظيم ، وأنا عن الوطن ناء ، وفى بلاد الغربة مقيم .

كان أخى يعتقد فى طبى ومقدرتى اعتقاداً كبيراً ، وكثيراً ما كان يتحدث بهـذا إلى أصدقائه ومعارفه ، ولكنى تخليت عنه أثناء مرضه الأخير فى خسة ونذالة غير مقصودتين ، فرغم أنى أحضرت إلى فراش مرضه أو موته فحول الإخصائيين من زملائى ، إلا أنى لم أجرؤ على الدخول عليه منذ بلغنى خبر مرضه حتى أتانى نعيه . وكان لحسن حظى — أو من سوئه — فى غيبوبة بدأت مع مرضه الفجائى ، فلم يكن يشعر بما يجرى حوله ، ولكن لابد أن روحه أحسّت بما احتوته روحى فى ذلك الوقت ، ومنذ ذلك الوقت ، من الحب واللوعة والفداء المتبادل بين روحين امتزجتا فى الحياة وبعد الموت رغم فراق الجسدين ؟ ولابد أنها انتحلت لى الأعذار قبـل أن أنتحلها لنفسى .

حدثونى من تفاصيل غرفة موته ، فقالوا : لقد كانت الغرفة مكللة بالسواد ، وكان الفقيد يشغل ركناً منها وهو مسجّى على فراشه ، وكان جسمه فى كامل بنيانه الفخم ، لأن المرض لم يمهله سوى يومين . وكان وجهه أبيض كالشمع ، بعـد أن كان تورد الوجنتين من أهم مميزاته . ووقفت الأم الثكلى بجانبه تنادى كالعادة ولا من مجيب ، والأرملة الشابة تنظر إلى السماء طالبة الشفاعة من الله عساه أن يرد إليها حبيبها ، ولكن لم يحدث قط أن نقض الديّان حكمه العالى !

وبالاختصار كان كل شيء في الغرفة ينطق بذلك المعنى الرهيب : الموت ! الموت ! الموت !

والأمس – أي بعد مضي عامين – خطر لي أن أزور نفس الغرفة لأرى كيف طمس ذكراها مرور الزمان ، ولأقرأ الفاتحة على الروح التي صعدت فيها ، فوجدت كل شيء بها ينبض بذلك الينبوع الأزلي : الحياة ! الحياة ! الحياة ! فقد وفدت على القاهرة منذ عام ابنة شقيق الأكبر لتتم دراستها في مدرسة معينة . وكان من نصيبها أن شغلت نفس الغرفة التي كان يشغلها أخي ، فأحالتها بذوقها اللطيف إلى جنة صغيرة ، ووضعت في أحد أركانها راديو أنيقاً ينقل لها من حين لآخر ما يطيب لها سماعه من الأغاني والأنغام . وكان جو الغرفة في تلك الدقيقة بالذات مشبعاً بأغنيـة لأم كلثوم طاب لي أن أتتبعها رغم حنين الذكرى . وكانت الشابة اللطيفة تتزين أمام مرآتها في عجلة لأن خطيبها كان ينتظرها بالخارج لترافقه في زيارة لأهله بمناسبة العيد ، ولم يبد على جدران الغرفة الصماء أي انفعال لتطور الطبيعة البشرية ، فهي قد اعتادت تقلبات الزمان والإنسان أكثر مني ومنك ، وما أعظم تجارب الجدران الأربعة في هذا المجال !

ونظرت إلى ساعتي التي أهداها إليّ أخي قبـل وفاته بأيام ، وكان مجرد النظر إليهـا فيما مضى يهيج فيّ عزيز الذكريات ، وكنت كلما أحسست بها حول معصمي تدعني لحبيها ، وكأنما قُدَّت من ذكراه . واعتاد جسمي تدريجياً هذا الصدر الحراري الدائم ، حتى لم يعد يشعر بوجوده إلا من حين لآخر عنـد ما يريد صاحبه معرفة الوقت . وعند ما نظرت إليها اليوم تراكت الذكريات العزيزة مصحوبة بمسحة إشفاق على نفسي التي أصابها النسيان من غير عمد . فالنسيان جرثومة تصيبك وأنت غافل ، وقد تتعمد تحصين نفسك ضده ، ولكنه يراوغك حتى ينال منك ويقهرك ، ولكن حاشا لي أن أتمنى ما انتابني نسياناً . إنني أعتبره مجرد اندماج في خضم الحياة ومسئولياتها الجسام ، يلهيك لا عن الماضي فقط ، بل عن الحاضر من حولك أيضاً .

وهناك عجلة الزمان قبل كل شيء ! أين أبي وأين أجدادي الأولون والآخرون . أين الملوك والفراعنة ، وأين الأنبياء المرسلون .

ما الدنيا إلا فندق كبير ينبذ كل يوم أقواماً ليستقبل آخرين . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء . وهو السميع المجيب المعين .

دكتور مصطفى الديواني

معلومات جديدة

عن ابن قزمان(*)

(١) الوضع الحالي

إذا نظرنا إلى عدد المؤلفات المنشورة في الأعوام العشرة الأخيرة ، نحس بتقدم دراسة ابن قزمان تقدما كبيرا . وإن ظهر لنا خلاف ذلك فإن السبب اتجاه العلماء إلى دراسة اللغات المتفرعة عن اللاتينية وانحرافهم عن اللغة العربية لكثرة العراقيل في طريقهم إليها .

وظن مستشرقان عالمان من نفسهما القدرة على دراسة ابن قزمان بعد دراستهما التمهيدية في العربية ، مستعينين بالمخطوطة الوحيدة التي تم نسخها في الشرق في منتصف القرن الثالث الهجري ، ثم حصل عليها المتحف الأسيوي في لينتجراد في بداية القرن التاسع عشر . ووصف روزن تلك المخطوطة في عام ١٨٨١ ، كما نشر دي جونزبرج صورة فوتوغرافية لها عام ١٨٩٦ . وفي عام ١٩٣٣ نشر نيكل في أسبانيا نتائج دراساته في كتاب كبير يسمى « محاضرة عن ابن قزمان »(١) ضمنه مقدمة وترجمة شعرية لبعض أشعاره وتحقيقا للأصل . ولكن الكتاب لم يصادف نجاحا كبيرا . وبين كولن الذي كان يعد أقدر من يستطيع تناول لغة ابن قزمان ، بمناقشاته القيمة أن مقال الأستاذ التشيكي أخفق تماما على الرغم من الجهد الذي بذله فيه ، وأنه لا يمكن الوثوق بتحقيقه وترجمته ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيظهرنا على غلطتين كبيرتين فيه . ويختم مقاله قائلا : « لا زال ديوان ابن قزمان ينتظر محققا ومترجما » .

أما كتاب توليو فلم يظهر إلا في عام ١٩٤١ ، ولذلك لم يوجد الوقت الذي يسمح بدرسه والكتابة عنه . ويدل عنوانه على أنه نسخة « ناقصة مؤقتة » لسبعة أزجال تظهر فيها خصائص ابن قزمان ، مع ترجمة فرنسية . ويبدو أن هذا الكتاب ليس بأحسن من كتاب نيكل وإن زخر باللغويات الدقيقة . فكلا الدارسين ينقصه بعض الأشياء الضرورية لفهم الديوان الذي يعرقل أبحاثنا فيه وجود نسخة واحدة منه ، وأعني بتلك الأشياء معرفة قواعد الكتابة العربية القديمة ، والتحقق من الأوزان التي يستخدمها الشاعر ، وخاصة الإلمام باختلافات اللغة العربية الأسبانية وأخواتها من لهجات مراكش العربية . كما لاشك أنه تنقصهما المعرفة الوثيقة بالمجتمع الإسلامي في الغرب ، تلك المعرفة التي لا يستطاع الإلمام بها إلا بالمخالطة اليومية لمدني الغرب وفلاحيه . وذلك هو نفس العذر الذي اعتذر به دوزي في عام ١٨٨١ عن عدم نشر ديوان ابن قزمان حين كان يطبع معجمه . فكتب إلى روزن : « يجب على الإنسان أن يطيل الإقامة في الشرق ويتعمق في دراسة اللهجات الحالية ، وخاصة لهجات مراكش ، كي ينجح في مثل هذا العمل » .

وعلى الرغم من عدم جدوى جهود نيكل وتوليو ، فقد بدأ العمل تبعا لفكرة واحدة ، هي شرح المقطوعات الكثيرة في الديوان التي تستخدم اللغة الأسبانية بدلا من العامية الدارجة ، كما اعتاد ذلك بعض طبقات الأندلسيين في ذلك الحين . وأعطيا ، بحق ، هذه المقطوعات قيمة لغوية كبيرة ، وأرادا أن يزيحا عنها كل ظلمة . وليسا أول من حاول شرح هذه العبارات الأسبانية المكتوبة بالخط العربي في المخطوط . فقد بذل سيمونت وريبرا قبل ذلك بوقت طويل مجهودا صادفه بعض النجاح لفك طلاسم هذه المقطوعات التي لا يستطاع تخليصها من النص العربي عادة . وأثار ريبرا عام ١٩١٢ شيئا من الجدال بمقاله الذي رأى فيه للمرة الأولى أن التشابه بين صور المقطوعات

(*) مقال للباحث المستشرق ليفي بروفنسال ترجمه من مجلة الجمعية الأسيوية الملكية بلندن حسين نصار خريج كلية الآداب بالقاهرة

(١) Cancionero de Aben Guzman

وتغيرات القافية في الشعر الأسباني العربي (الموشح والزجل) وبين أغاني التروبادور في اكويتين وبروفنس ليس وليد المصادفة ، فأثار هذا الفرض الجرىء مناقشات حادة ولكنه ثبت لها وصمد أمامها . ثم تعرض للمسألة ثانية الدكتور رامون منندز الذي يعتبر إمام الدراسات اللاتينية الأصل في أسبانيا ، وبحثها بكل دقته العلمية التي لا نظير لها ، فحاول في كتاب صغير يسمى «الشعر العربي والشعر الأوربي»[1] أن يحل مسألة الصور الشعرية التي آثارها ريبيرا ، ومسألة الأصل العام للموضوعات التي عالجها التروبادور والشعراء العرب الأسبانيون في القرون الوسطى . ويعتقد الآن العلماء الباحثون في اللاتينيات بأن أصل « الحب العذري » أو الروح الذي تغنى به المغنون في جانبي جبال البرانس كليهما موجود في الشعر العربي الأسباني .

ولعل ذلك الرأي صحيح ، ولكن لم يوجد الدليل القاطع على صحته . أما الشيء المحقق فهو أن ذلك الأصل لا يوجد في شعر ابن قزمان . ويقول كولن : « لم يوفق الذين يبحثون في أسبانيا العربية عن أصل الحب العذري عند ما اختاروا ابن قزمان » ، فقلما يكبح هذا الشاعر من جماح خشونته وشهواته ليفسح المجال أمام مثله العليا لتظهر في المقطوعات اللاذعة التي تسبق مدائحه . ويصرح ابن قزمان نفسه بأنه يحتقر ما يسميه « حب المُرُوَّة » . ومن الظاهر أنه لم يتأثر بنظريات الحب العذري التي نادى بها مواطنه ابن حزم في « طوق الحمامة » قبل ذلك التاريخ بقرن من الزمان . ولو انغمس ابن قزمان في العلاقات الغرامية المفيفة التي صورها شعراء الشرق الأقدمون أجمل تصوير ، وكان هو نفسه يعرفها معرفة جيدة ، لفقد شخصيته ، ولم يصبح ابن قزمان الذي نعرفه .

ولكن ما الرأي في المشاكل التي يعني بها علماء اللاتينيات ؟ الإجابة عن هذا السؤال غير متيسرة إلا بعد حصولنا على نسخة صحيحة من ديوان ابن قزمان تنطبق عليها شروط دوزي ، وعلى ترجمة يستطيع أن يعتمد عليها علماء اللغة والتاريخ الأدبي . ولعل هذا اليوم قريب .

فمنذ بضعة أعوام ترجم كولن جميع أزجال المخطوط ترجمة شعرية علمية . وأزالت هذه الترجمة معظم العقبات التي تعترض المستعربين في دراسة ابن قزمان لقيامها على البيئة التي تتحلى بها اللغة العربية الأسبانية والعروض القديم (المقاطع الطويلة والقصيرة ومددها) وسار عليها الزجل ، تلك هي البيئة التي اقتضاها استبدال حروف المد . فبين كولن بذلك أن الأشعار سليمة وموزونة ، ووضح كثير من المواطن الغامضة التي ترجع إلى التقسيم السيء للألفاظ من تلقاء نفسها . وانحلت طلاسم ابن قزمان اللغوية وإن بقيت بعض المقطوعات غير واضحة المعنى أو مستعصية على الفهم . فيستطيع القارئ اليوم أن يفهم شعره مادام ملمًّا باللهجة الراكثية وأمامه معجم شياريلي . وأخذ العمل على ترجمة الديوان وشرحه يتقدم تقدما محسوسا . إذ تفضل كولن بطلب معاونتي ، ولولا بعض الأعمال الأخرى وصعوبات الوقت الحاضر لفرغنا من هذه الترجمة . ولكنني لست منتظرا نشر هذه الترجمة ، بل أقدم لكم بعض الحقائق عن الشاعر .

(له بقية) حسين نصار

[1] «Poesia árabe y poesia europea»

قصة الأسبوع

الانتقـــــام

(قصة لجى دى موباسان)

كانت أرملة « باولو سافيريني » تعيش فى عزلة عن الناس مع ولدها فى بيت صغير حقير ، بالقرب من مدينة « بونيفاشيو » ، تلك المدينة التى تقوم فى سفح الجبل ، والتى تطل من بعض جهاتها على البحر ، خلال مضيق تحف بجانبيه الصخور . وهو أوطأ مكان فى جزيرة « سردينيا » .

وهناك فى الجانب الآخر ، وتحت أقدام تلك المدينة ، فجوة فى الجرف تكاد تحيط بها إحاطة تامة وهى فجوة إذا رأيتها حسبتها دهليزاً هائلا . وهى تقوم للمدينة مقام ميناء لها .

وتلك الفجوة تؤدى إلى أول ما بقى السائر من بيوت المدينة . وما تلك البيوت إلا قوارب صيد السمك الملاكها من أهل إيطاليا وسردينيا .

وفوق الآكام البيض تقوم حفنة من البيوت ، هى أشد بياضاً من تلك الآكام . وهى لرائيها كأنها أعشاش الطيور الأوابد ، ألصقت فوق تلك الصخور إلصاقا . وهى تطل على ذلك الممر المائى المخيف الذى قلما تجرؤ السفن على دخوله ، إذ تعصف الريح هناك عصفاً لا هوادة فيه . وهى تعكر هدوء البحر . كما تعكر صفو الساحل العريان ، إذ هى تنفضه من كل جانب فلا تبقى إلا على قليل من النبت الأخضر .

وكان بيت الأرملة « سافيريني » ملاصقاً إلى حافة الجرف ، وكانت شبابيكه الثلاثة تطل على ذلك الأفق المنعزل . وكانت تقيم هناك مع ابنها « أنطوان » وكلبتها « سميات » . وهى كلبة مديدة الجسم نحيفة ذات شعر طويل خشن . وهى من ذلك الصنف الذى اختص بحراسة القطعان .

وكانت تلك الكلبة تقوم على خدمة ذلك الشاب أثناء الصيد .

وفى ذات ليلة قتل أنطوان غيلة بطعنة خنجر تلقاها من يد من يدعى نيكولا رافولاتى ، على أثر عراك دار بينهما ، وقد عاد القاتل إلى « سردينيا » فى تلك الليلة .

ولما استقبلت الشيخة جثة وليدها التى جاء بها إليها بعض المارة لم تبك عيناها . بل ظلت لا حراك بهما زمنا طويلا وهى تنظر إليه . ثم بسطت يدها المعروقة فوق جثته وأقسمت لتنتقمن له .

ثم رغبت الشيخة فى أن لا يبقى إلى جانبها أحد . فأقفلت باب بيتها الذى احتواها هى وكلبتها . والذى ضم جثة وليدها .

وعوت الكلبة . وتتابع نباحها تحت أقدام السرير . ومدت رأسها إلى حيث رقد جثة صاحبها . وأخفت ذيلها بين أرجلها . ثم ظلت ساكنة لا تأتى بحركة كما فعلت أمه ، وقد ارتمت فوق الجثة وعيناها مثبتتان . وهى تبكيه أحر بكاء .

وقد استلقى الوليد القتيل على ظهره . وهو مرتد بذلة رمادية اللون وقد تمزقت . وسال منها الدم على صدره ، وقد بدا وكأنه قد أخذته سنة من النوم .

وكان الناظر إليه يرى الدم فى كل مكان من جسمه وملابسه ؛ فعلى قميصه دم ، وعلى صدرته دم ، وعلى سراويله دم ، وعلى وجهه دم ، وعلى يديه دم .

وكذلك قد تخللت بقع من الدم المتجمد لحيته وشعر رأسه . ثم بدأت الشيخة تكلمه . وكانت الكلبة قد كفت عن النباح ، فقالت الشيخة : تعال يا ولدى تعال ! فأنى سوف أنتقم لك يا صغيرى . يا ولدى . يا طفلى المسكين .

ونم آمناً . فإنى آخذة بثأرك . فهل أنت تسمعنى ؟ إنها أمك التى تقطع على نفسها العهد ! وهى إذا قطعت على نفسها عهداً أوفت بعهدها . وأنت من هذا القول على ثقة ! .

ثم انحنت عليه فى حنان ورفق . وألصقت شفتيها الباردتين بفمه الذى غاضت منه الحياة . وعندئذ بدأت الكلبة تعوى وتنبح مرة أخرى . وكان عواؤها يثير كوامن الحزن والأسى .

ثم ظل الثلاثة — الجثة والشيخة والكلبة — فى مكانهم جاثين حتى الصباح .

وفى اليوم التالى دفن « أنطوان سافرينى » وسرعان ما أمسك القوم فى مدينة « بونيفاشيو » عن التحدث عنه ، فلم يكن له أخ أو قريب . ولم يترك وراءه رجلا يثأر له وينتقم من قاتله . فكانت الأم الشيخة هى التى فكرت وحدها فى أن تأخذ بثأره .

وكانت تتراءى لها فى صباح كل يوم ومسائه على الضفة الأخرى من المضيق بقعة بيضاء فى الأفق . وكانت تلك البقعة هى القرية السردينية الصغيرة « لونجوساردو » ، حيث كان يلتجىء قطاع الطريق من أهل « كورسيكا » كلما جد الشرطة فى طلبهم .

وقد كان قطاع الطريق هؤلاء هم كل سكان تلك القرية الصغيرة التى تقوم قبالة بلادهم الأصلية . وكانوا يظلون بها منتظرين ساعة العودة إلى أوكارهم .

وقد علمت الشيخة أن تلك القرية قد اتخذها قاتل وليدها ملجأ ومثاب أمن .

وفى عينيها الذى ظلت رهينته طول الأيام . كانت ترنو ببصرها فى الغداة والعشى — وهى جالسة قبالة شباكها — إلى تلك القرية وهى تفكر فى الانتقام .

وكانت تقول لنفسها : كيف تستطيع أن تأخذ بثأر وليدها دون مساعد أو معين ، وهى التى أضنتها العلة وتوالت عليها الأوجاع . وقد أشفت على الموت وأشرفت ؟

ولكنها قد قطعت على نفسها عهداً . وقد أقسمت فوق جثة ولدها على أن توفى بعهدها . فهى لن تستطيع أن تنسى . وهى لا ينبغى لها التأجيل والتسويف .

فكيف تفى بما فرضت على نفسها ؟ إنها تظل الليالى ذوات العدد حليفة سهد وأرق ، وهى لا تعرف طعم الراحة ولا طعم الهناء . وقد فكرت وأطالت التفكير فى إصرار وعنف . وكانت الكلبة ترقد تحت قدميها ، وكانت ترفع رأسها أحيانا وهى تنبح الأفق البعيد . وهى تنبح هذا النباح منذ غاب سيدها وكأنها تناديه . وكأن تلك الكلبة قد استحال عليها العزاء والتأسى . وكأن ذكرى من ذكرياته قد علقت بروحها فلا يستطيع الزمان لها محواً ، وكأنها تشكو الوجيعة لما مات راعيها .

وفى ذات ليلة وقد بدأت الكلبة تنبح نباحها الذى وصفت مر بذهن الأم خاطر مفاجىء ، خاطر قوامه التوحش وحب الانتقام والعنف . وظل ذلك الخاطر يراود عقلها حتى الصباح .

فلما قامت من مرقدها أخذت طريقها إلى الكنيسة وأدت فرض الصلاة . وركعت متوجهة إلى الله . مبتهلة إليه أن يكون لها عونا وعضداً . وأن يؤتيها القدرة على الانتقام لولدها الذى قتل .

ثم رجعت أدراجها وأمسكت برميل كان فى فناء بيتها — وكانت تمده لتلقى ماء المطر من ميازيب الماء — وأفرغت ما فيه ثم قلبته . ثم ثبتته فى الأرض بأسناد وأوتاد . ثم ربطت الكلبة إلى ذلك البرميل وقيدتها تقييدا .

ثم دخلت غرفتها وظلت تمشى جيئة وذهاباً . لا تكل ولا تمل ، وعينها لا تنى من النظر إلى ساحل « سردينيا » وهى تقول لنفسها : إن القاتل هناك !

وظلت الكلبة تنبح ليل نهار . وكانت الشيخة تحمل

إليها قليلا من الماء في الصباح . ولكن لا شيء غير الماء . فلا حساء ولا خبز !

ومضى النهار . وبرّح بالكلبة الجوع ، فأسلمها الضعف إلى النوم . وفي اليوم التالي كان لعينيها بريق . وأصبح شعرها خشنا . ثم حاولت محاولة اليائس أن تفك عنها القيد .

وعلى الرغم من ذلك لم تعطها الشيخة شيئاً تأكله . فأصاب الكلبة سعار الجوع ، فطفقت تنبح نباحا يبعث الرعب والخوف . ثم ذهبت الشيخة إلى بيت جار لها . وطلبت إليه أن يعطيها حزمتين من القش . وجاءت بخرق قديمة ، وهي بقية مما كان يلبس زوجها ، وجعلت القش حشواً لها ، وشكلته في صورة مخلوق آدمي ، ثم جاءت بعصا . ودست أحد طرفيها في التراب ، وأسندت إليها ذلك التمثال ثم جعلت لهذا التمثال رأساً من قماش .

فبدا العجب على الكلبة ، ولو أن الجوع كاد يقتلها . ونظرت إلى ما شبه لها أنه مخلوق آدمي

ثم قصدت الشيخة إلى الجزار . واشترت حبلا طويلا من السجق الأسود ، ثم عادت إلى البيت ، وأوقدت في فناء البيت نارا وأنضجت هذا السجق .

فهاجت معاطس الكلبة لرائحة الشواء وسال لعابها ، ولم تعدُ عيناها عن اللحم ، وقد ملأت رائحته أحناء جوفها .

ثم ثنت الشيخة ، بأن جعلت من هذا السجق الذي يطير منه الدخان رباطا لرقبة ذلك التمثال . ثم لفته حول رقبته لفة بحذاقة . فلما أتمت عملها فكت القيد عن الكلبة .

وفي قفزة مروعة استلبت الكلبة الجائعة حلق التمثال وأنشبت مخالبها بين كتفيه ، وطفقت تمزقه كل ممزق .

ثم أقعت وفي فمها قطعة من فريستها . ثم أعادت الانقضاض وظفرت بقطعة أخرى من اللحم . ثم أقعت مرة ثانية وقد بلغ بها السعار مبلغه .

ثم انهالت على وجه التمثال عضاً ونهشا ، ومزقت رقبته تمزيقا .

وظلت الشيخة تنظر وترى وهي صامتة لا تتحرك ، وقد برقت عيناها .

ثم أعادت الكلبة إلى القيد . ثم أجاعتها مرة أخرى يومين متتابعين وأعادت كذلك حكاية التمثال والشواء .

وظل هذا الحال حالها ثلاثة أشهر حتى اعتادت الكلبة هذا اللون من الكفاح وحتى اعتادت ذلك الطعام الذي تظفر به بحد الأسنان وقوة المخلب .

فلما اطمأنت الشيخة إلى بلوغ الكلبة تلك الدرجة من المران فكت القيد عنها . وكانت تومىء إليها بالانقضاض على التمثال فكانت تكفيها الإشارة .

وقد علمتها أن تمزق التمثال وأن توسعه نهشا وقضما بغير أن تعلق في رقبته شيئا يؤكل . وكان جزاء الكلبة بعد الفراغ من ذلك التمزيق والنهش قطعة من السجق كانت تعدها لها من قبل .

وأصبحت الكلبة كلما رأت التمثال تنبح وترنو ببصرها إلى سيدتها التي كانت تصرخ قائلة : عليك أن تنشبي مخالبك ! وكانت تقول هذا القول في صوت هو بالصفير أشبه . وكانت ترفع إصبعها علامة البدء .

ولما أيقنت الشيخة أن قد آن الأوان للانتقام مضت ذات صباح إلى الكنيسة فاعترفت لقسيسها . وأدت طقوس « التناول » في تقى وورع بالغين .

ثم عادت إلى بيتها فلبست ملابس الرجال . وبدت في زي رجل تقدمت به السن ووهن العظم منه .

ثم مشت في صحبة أحد صيادي السمك من أهل « سردينيا » فقضى بها وبكلبتها إلى العدوة الأخرى من المضيق .

وكانت تحمل في حقيبتها قطعة كبيرة من السجق ،

من وحي الرسول :

«على هامش الدعوة»

فى ربيع الشباب والروض ناضر
طف وتاج الخيال فيه وساحر
وابعث الشعر من فؤادك لحنا يتغنى بسحره كل طائر
وابن ملكا من القريض على الحق (م)
وطاول به الزمان وفاخر
تتهادى على القلوب قوافيـــه وألفاظه على كل خاطر
واجعل الدهر من رواتك فى الأ
مر حتى يظل ذكرك ســائر
أنت الحب من معانيه فى قلـــبي سفراً ، وما لحبي آخر
تارة يحضر اللسان فيتلو وطوراً مع الدموع البوادر
إن يكن عاذل لكل محب فأرى الناس كلهم لى عاذر
رحت أشدو هوى بحب رسول
قد توالت على يديه البشـــائر
جاء والظلم فى البلاد مقيم وتولى والعدل فيهن ناصر
أين من عزمه الأسود إذا صا
لت ومن حزمه السيوف البواتر
عرفت روحه السبيل إلى الحق (م)
فراحت تهز منـــه المشاعر
قد تلقى رسالة الله واستعـــذب من أجلها ورود المخاطر
فملا صوته يرج البوادى وتعالى ترددته الحواضر
لا الصناديد من قريش أخافتـــه ولا هزه وعيد القياصر
لم ترعه الخطوب عابســـة الوجه
ولم تثنه الثنـــايا القواتر
وهب العمر للذى وهب العمـــر فظلت ترعاه عين القادر

* * *

إنها دعوة دعاها الحب (م) وساحاتها النفوس الطواهر
صدعت جانب الضـــلال فدكته
فوارت بتربه كل كافر
ومشى فى جنازة الكفر « إبليـ
س » وتيه الخطى غريق الخاجر

وكانت الكلبة صائمة منذ يومين . وكانت الشيخة تقرب بين لحظة وأخرى السجق إلى أنف الكلبة لتهيج مطامعها ويشتد بها القرم .

ثم دخل الركب مدينة « لونجو ساردو » وذهب الصياد إلى إحدى الحانات وذهبت هى إلى دكان خباز . وسألته أين يقيم « نيكولا رافولانى » فقال لها : إنه عاد يعمل نجاراً كما كان من قبل . وهو يعمل منفرداً وراء حائط دكانه . فذهبت المرأة وفتحت البـاب ونادت : ها أنت « يانيكولا » وها أنذى ! فاستدار لكى يستقبلها فما لبثت أن فكت القيد من الكلبة .

وصرخت تحرضها وتقول لها : انهشيه نهشا ! ولا تبقى منه شيئاً .

فانطلقت الكلبة وقد ثار ثائرها . وانقضت على رقبته ، فمد الرجل ذراعيه وأمسك بها فى قوة وظل يتدحرج على أرض الدكان . ثم ظل بضع دقائق يتلوى من فرط الألم وهو يضرب الأرض برجليه . ثم هدأت حركته . وظلت الكلبة تعمل مخالبها فى رقبته حتى مزقتها تمزيقاً .

وقال جاران كانا يجلسان أمام بيتهما : إنهما يذكران كل التذكر أنهما رأيا رجلا هرماً يخرج من الدكان ، وإلى جانبه كلب أسود . كان يأكل وهو فى طريقه شيئاً أسود ، كان يأخذه من كف سيده .

وفى تلك الليلة عادت الشيخة إلى بيتها قريرة العين . ونامت ليلتها أهنأ رقاد وأنعمه .

(مترجمة) مبارك ابراهيم

لو أطاعته شـــاردات القوافى
جاء بالباكيات من كل نادر
ساورته الهموم مذ جىء بالحق (م) ونودى بالله فوق المنابر
من رآه يقول: روعه الشكـــل ودارت على حماه الدوائر
آذن الشرك ليله بمغيب وتوارى بعدلهم الدياجر
وأطلت على ربى الكون شمس
فتّحت إزرها كمام الأزاهر
أى نور يشع منها فيمحو ظلمات الهوى ويجلو البصائر
غمر الأرض نورها وتهادت تنفذ الضوء فى دياجى المقاور
لم يقف فى سبيلها حجب الجهـــ
ـل ولا ردها جمـــود الضمائر
صهرت معدن النفوس وصاغت
من ســـنا رقه نقى السرائر
واستحال الضلال فى أنفس النا
س رمادا تذروه شتى الأعاصر
فإذا البر فى القلوب الضوارى
وإذا البشر فى الوجوه البواسر
وإذا العلم قد تغلغل فى العقـ ـل وأودى بالترهات الجوائر
وإذا الفخر فى السباق إلى الله وإخماد جاهلى المفاخر
وإذا هذه الأباديد شعب مستقل الحمى متين الأواصر
وإذا العرب دولة تحكم الدنـــيا وتعنو لها جباه الأكاسر
نشروا راية العدالة فى الأر ض فلم يلقوا هدوء الخواطر
طوفوا فى عوالم العلم والفن (م) وآبوا بكل أروع زاهر
فـــل الطب والرياضة والكيـ
ـمياء والشعر والفنون السواحر
خلدوا صفحة على الدهر تزهو
بوضىء النهى وحسن المآثر
لو جرى أمرهم على سنن الكو
ن لما جار حاضر أو غابر
طفرة أدهشت عقول الأوالى ثم لما تزل تروع الأواخر
رسم الدين للنفوس طريق الـ
ـخير فاستأمنت شرور الكواسر
ومشت فيه مسرعات إلى الله
ه نقاة الجيوب شم النـــاخر
بين نخل من الوئام نضيد ورياض من السلام نواضر
تتبدى على شفاه الأقاحى بسمات مرنحات طوافر
بلل الطل خدها، كدموع ترتها من السرور النواظر
يمرح الطـــير فى رباها طروبا
ناعم الصوت بارع اللحن ساحر
يتغنى بطاهر الحب وحيا عبقريا يزرى بوحى العباقر
وعلى الجانبـــين قامت صروح
من هدى الحق عاليات المنائر
قد جرى تحتها من الحـــلم نهر
طيب الورد واسع الصدر زاخر
يتدلى عليه غصن من الصبـ
ـر كما تضفر الغوانى الضفائر
والمعالى يزعمن منه الشواطى
وترى فلكهن فيه مواخـــر
وســـق حوله من الأرض حق
أنبتت كل حافظ العهد ذاكر

* * *

إن أقصى منى النفوس حيـــاة
لم يصبها من الشكوك عثاير
كيف تدرى العقول كنه وجود
هن عن دركه كنهن قواصر
إن سر الوجود فى دارة الغيـــب ومفتاحه بقبضة قادر
كم تردت فى الشك من عهد سقرا
ط رؤوس من فيلسوف وشاعر

أجهدوها في ساحة البحث حتى
بلغت منهمو القلوب الحناجر
فاصبروا بالنهى ليبنوا محالا واجتناء المحال خسر الخاسر

* * *

وبح من يصرف الليالى هباء
ويبيع الحياة بيع مقامر
ليست الأرض هوة تتردى النـ
ـفس فيها ولا متاهة حائر
إنها معبد ليذكر فيه اللـ ـه والرسل والملائك ، طاهر
مدها الله للعباد مهادا وسقاها من الغيوث المواطر
وأقام الجبال فيها وأرساها وأجرى بها البحار الزواخر
وبنى فوقهن سبعا شدادا كل فلك بقدرة الله دائر
فقصارى العقول أن تعرف اللـ ـه بآياته العظام البواهر
لم يكن يخلق العباد لتهوى في محيط الزمان والموج هادر
لم يدعنا نسير في الأرض كالبهـ
ـم سواما مشردات غرائر
وله الدين واصبا أفتير اللـ ـه تحنى له الرؤوس صواغر
ما تكين الصدور يعلمه اللـ
ـه محيطا بكل خاف وظاهر
في ربيع الحياة يكتهل المر ء وتخفى عليه سر الأداهر
إنما العيش جحفل مستبد شائع الدرع مستحد الخناجر
ليس يغزوه غير جيش لهام من لدن قاهر مذل الجبابر
هو هذا الكتاب فانده اللـ ـه وآياته الجنود التضافر
يفتحون الحياة بابا فبابا بقنا النهى أو سيوف الزواجر
ويقيمون للنفوس خطوطا راسيات من صادمات الأوامر
فإذا هن قد تحرمن بالحق (؟) وزودن بالتقى والشعائر
لا يهابون بعد ذلك دهرا أو يخافون غائلات الفاقر
وإذا ما الإيمان باشر قلبا لم ترع سرية الليالى الكواثر
تزل الموت بالحياة فداة أو عشيا أو راح ينزل باكر

* * *

فمتى تمسك القلوب هداها ونرى هذه النجوم الزواهر
في ليالى الحياة يشرقن كالصبـ ـح ويهدين سفن كل مسافر
من دستورنا الذى أنزل اللـ ـه لتحيا به النفوس حرائر
كله أعين يحيط بها إنـ ـسان ويرعى بها الحياة سواهر
لا يصد العقول أن تلج الديـ ـن وأن تلتقى به وتناظر
وسواء لديه من أفصح القو ل ومن راح بالكلام يداور
يوسع الصدر للنفوس جميعا ويقى في سبيله كل عاثر
فتشف القلوب فهى رواء وترف العيون فهى قرائر
يشعر المرء أنه في حماه آمن سابغ الكرامة وافر
عدله شامل يعم جميع النـ ـاس لا فرق بين بر وفاجر
ومتى كان حاكم الناس رب النـ
ـاس فالحكم عادل غير جائر
هو فجر لكل ليل بهيم ودواء لكل داء مخامر
وإذا أجدب الفؤاد فغيث ينبت الطهر والفضيلة ، هامر
يملأ النفس حكمة وشعورا فهى تختال كالربيع الباكر
وترى وجهتى « الحقيقة والخيـ
ـر » ووجه « الجمال » فيها سوافر[1]
كل قلب يفيض بالحـب والنو
ر ولا غـرو فهو بالدين عامر
يكفل الرزق للخلائق حتى لم تجد فيهمو بطونا ضوامر
يهزم الفقر والضلالة والجهـ ـل وخبث الهوى وسوء الضمائر
ويشيع السلام والأمن في الأر
ض فلا غادر ولا يد قاهر
وإذا الناس تحتويهم ديار وإذا بعضهم لبعض مؤازر
ومتى يربط القلوب إخاء تخب في ساحة الإخاء النوائر

محمد أحمد

---

(١) الحقيقة والخير والجمال هي القضايا التي تعالجها الفلسفة .

بين المسموع والمقروء

ادوارد جينار

صاحب اللقاح الأول

لست أدرى لماذا يذكر الناس الشر ، ولا يذكرون الخير . يذكرون السيئة ، لاسيما السيئة البالغة ، ولكنهم لا يذكرون الحسنة حتى البالغة . قد يذكر الناس قيصر ، ونابليون ، ومن سبق من زعماء الحرب ، ومن لحق ، ويذكرونهم بالإعجاب . وقد يذكرون من صورهم الشيء الكثير ، ومن مفردات حياتهم التفاصيل ، وهم مشغوفون دائما بأن يعلموا عنهم أكثر ما يعلمون ، كيف نشأوا ، وكيف تعلموا ، وكيف عشقوا ، وكيف عاشروا ، وكيف كانوا يأكلون ويشربون ، ويقومون ويقعدون ، وما أحبوا من الطعام وما كرهوا ، وما أقبلوا عليه من اللهو وما اطرحوا . ولأى سبب كل هـذا الإعجاب ، ولأى سبب كل هذا التشوف ؟ لأنهم قتلوا من النـاس ألوفاً ألوفاً ، وخربوا البيوت ألوفاً ألوفاً ، ورموا أهل البلاد الحادثين الساكنين بصنوف العـذاب ، وصنوف الألم ، وصنوف الفقر ، وصنوف الذلة .

وتقرن هذا النفر بالنفر الآخر الذى حارب العذاب ، وحارب الألم ، وحارب الفقر والذلة ، وانتصر ، وكان من انتصاره توفير الأرواح ، ودفع الخراب عن البيوت ، والنقمة عن ساكنيها ، فتعجب للفرق الهائل بين أنصبة هؤلاء وهؤلاء من إعجاب الناس ، بل من ذكرهم . فكم يعرف الناس عن بستور بالمقارنة إلى نابليون ، وذاك هو واهب الأرواح ، وهذا هو قابضها ؟ لا شيء ، إلا الشيء القليل المبهم .

أما ادوارد جينار Edward Jenner ، فلا يعلم الناس منه شيئا ، لا مبهماً ولا غير مبهم . مع أن حياة الناس تبدأ به ، وتتصل به ، وبالذى كشف فى حياته ، وبالذى أوصى به . فكل طفل لا تمر على ميلاده شهور حتى يدعوه القانون إلى أن يلقح بلقاح الجدرى ، أول لقاح عرفه الناس من ألقحة الأمراض . فهذا اللقاح هو لقاح جينار ، وهذا الخير الذى يُسدى إلى أمم الأرض قاطبة ، تلك التى دخلتها المدنية ، هو الخير الذى أسداه جينار .

ولد جينار ببلدة بركلى بإنجلترا ، عام ١٧٤٩ . وكان أبوه قسيساً . وتعلم ، ثم اتصل من بعد ذلك بجرّاح بجوار مدينة برستول يأخذ منه الطب . ولما بلغ الحادية والعشرين ذهب إلى لندن ، إلى الأستاذ الشهير جون هنتر ، وتلمذ له . وفيها اشتغل إلى جانب عمله الطبي بشئون الحيوان ، فقام يحضر ويرتب ما جمعه الجامعون فى رحلة كوك إلى القطب الجنوبى من عينات ، وعرضوا عليـه وظيفة خبير فى علم الحيوان ، فى الرحلة الثانية لكوك ، ولكنه آثر أن يعود إلى بلده الصغير يمارس الطب فيه .

وكانت طبيعته تأبى أن ينحصر فى شيء ، وأن تحدّه فى عمل يعمل فيه حدود . فتخطى حدود الطب إلى كل هوية تهواها نفسه ، فتطلع إلى السماء ، حيث كان ، فدرس طيرها . وهبط إلى الأرض ، حيث كان ، فدرس طبقاتها . وأغرم بالموسيقى فتعلمها ، وأصاب فيها نجاحا ، وأغرم بالشعر فقرض الشعر ، وأصاب إحسانا . وكان يحب الناس ويحبونه . ولعل هذا الهوى الشامل ، هوى الناس والأشياء ، هو الذى وجّهه إلى هذا الكشف الذى كشف به البلايا عن الناس .

كان داء الجدرىّ من الداءات القديمة فى انجلترا ، يخف أحياناً ، ويشتد أحياناً . وقد يبلغ اشتداده الجامح ، فيحصد الناس حصدا .

وكان إلى جانب هذا الداء الإنسانى ، داء شبيه به يصيب البقر . يصيب منها الضرع والحلَم وتخرج البثور

أشبه شيء ببثور داء الإنسان . وعرف جينار من حالبات البقر أن داء البقر هذا يُعديهن ، فتخرج منه على أيديهن البثور . وتزول هذه البثور فيكتسبن من وراء ذلك الحصانة من جدري الإنسان .

وقضى جينار السنوات يدرس جدري الأبقار وجدري الإنسان ، ويجمع من هنا وهنا كل ما يسمع ويرى . وتبين له أن جدري الأبقار داءان ، صادق وكاذب ، وأن أحدهما وحده هو الواقي ، وأن ما يحدث أحياناً من اختلاط واختباط ، وضياع ثقة فيما تقوله الحالبات ، إنما يكون من هذا اللبس . وشيء آخر تبينه : أن جدري الأبقار لا يعطي الحصانة إلا في خطوة خاصة من خطوات سيره .

وبعد ثمانية عشر عاماً تهيأ جينار لتجربته الكبرى : لقح صبياً في ذراعه بلقاح جاء به من بثور في يد حالبة . وبعد شهرين لقح الصبي بلقاح من بثور الجدري الإنساني ، وتربص بالداء أن يأتيه فما أتى .

وقضى عامين بعد ذلك يتحين فرص داء الأبقار ، ولم يكن كثير الانتشار ، ليعيد تجربته هذه مرة ومرة . حتى إذا أعادها عشرين مرة ، نشر بحثه الشهير وأسماه : بحث في بثور الأبقار ، عللها ونتائجها . كان هذا عام ١٧٩٨ ، وقد كاد القرن أن يبلغ ختامه ، وقد كاد هو أن يبلغ الخمسين .

ولقي جينار من المقاومة مالقي كل رسول ، ولقي جديده من الخصومة ما يلقى كل جديد .

أما الجمهور فلم يحتفل بشيء من هذا ؛ فلا هو آمن ، ولا كفر . ولا هو تهيأ لتصديق أو تكذيب ، حتى كأن الأمر لا يعنيه . أما العلماء ، ولا سيما الأطباء ، فكان منهم العدو الذي جاهر بعدائه ، وكان منهم الصديق الذي جاهر بصداقته ، وكان منهم كذلك صنف ثالث ، ذلك الصديق الجاهل الذي جرى العرف بأنه شر من العدو العاقل .

تمثل الصنف الأول في الدكتور انجنهوس Ingenhausz وكان جراحاً شهيراً . فهذا انتقد الكشف الجديد انتقاداً مراً ، صرف عنه الناس أو كاد ، وكانت شهرته كفيلة بتصديقه . يحدث هذا كل يوم ، وفي كل مكان . فهذا الصنف يقتل ويبرئه الناس .

وتمثل الصنف الثاني في الدكتور هنري كلين Cline ، وكان جراحاً بمستشفى توماس الشهير بلندن . قام هذا الجراح بإعادة تجارب جينار ، ونجحت التجارب ، فحمت من جدري الإنسان حقاً . وإذاً دعا مهنة الطب إلى أن تستمع منه فاستمعت .

وتمثل الصنف الثالث في الدكتور جورج بيرسن Pearson . فهذا تحمس للكشف ، وأخذ يدرسه في لندن . وجمع اللقاح من أبقار ، ولم يكن من قبل رأى إصابة واحدة من إصابات الجدري في بقرة . وكان الذي جمع من لقاح البقر لقاحاً غير نظيف ، فكان يطعم به الناس فيصابون بشيء مخيف أشبه بالجدري ذاته ، فجفل الناس منه . وعطل هذا الدعوة التي دعاها جينار ، وهوش الوزارة التي آزرها جراح مستشفى توماس . فكان على جينار من أجل هذا أن يثبت أن هذا اللقاح ، هذا الذي أساء إلى الناس ، لقاح غير طاهر .

على أن جينار لم يعدم الأحباب والنصراء .

فكان من نصرائه الأسرة الملكية ، فقد استدعى المثول بين يديها ، فأعانت من بعد ذلك في نشر اللقاح بالبلاد ، وتكونت في لندن الجمعية الجينارية الملكية لنشر التطعيم على الوجه الأمثل . تكونت عام ١٨٠٣ . وفي الثمانية الأشهر الأولى طعمت ١٢٠٠٠ ، فهبط من جراء ذلك عدد الوفيات في العام من ٢٠١٨ وفاة إلى ٦٢٢ وفاة .

والبرلمان البريطاني أعطى له أول الأمر ١٠٫٠٠٠ جنيه كان كل عملها أن تسدد ما كان عليه من نفقات . وتابع جينار عمله فظل يطعم في اليوم ٣٠٠ بالمجان . وزاد البرلمان منحته عشرين ألفاً . وا كتتبت له الهند بنحو ثمانية آلاف .

وكان حظ جينار خارج انجلترا خيراً من حظه فيها .

فى أمريكا اجتمعت الأكدمية الأمريكية للفنون والعلوم ، وهى أجل الهيئات العلمية هناك ، واجتمعت برآسة جون آدمس ، رئيس الجمهورية ، وفى هذا الاجتماع أعلن اكتشاف جينار . وفى عام ١٨٠٠ أجرى أول تطعيم على طفل ، أجراه الدكتور واتر هوس Waterhouse على ولده ، وهو ابن خمس سنوات . وفى هذا العام تولى رياسة الجمهورية الرئيس الشهير ، وثالث رؤسائها ، توماس جفرسن Jefferson ، فلم يمض فى منصبه عاما حتى أمر بتطعيم كل أسرته . وانتشر التطعيم فى أمريكا انتشارا . وامتد إلى هنودها الحمر ، وكان منهم ، فى عام ١٨١٢ ، أن صنعوا على عادتهم عقدا من الخرز الأبيض ، وبعثوا به إلى جينار ، وسألوه أن يتقبله منهم رمزا للشكر الذى وجب عن هديته الإنسانية الكبرى ، ودعوا له «الروح الأكبر» أن يحفظه فى هذه الدنيا ، ثم فى دنيا الأرواح من بعد ذلك .

ومن أوربا جاء التشريف يسعى إليه من كل صوب ، فشرّفته الحكومات ، وشرّفته الجامعات .

وكان من أول من أقاد بلقاحه نابليون . فلما جاءه خبر اللقاح حتى أمر بتطعيم جنده جميعا ، إلاَّ من كان قد أصابه الداء . ومن نابليون جاء التشريف من قصة تروى . كان عند نابليون عدد من أسرى الانجليز ، فتقدم إليه طالب بفك أسراه . وهمَّ بالرفض . وهنا تدخلت زوجته الشهيرة جوزفين ، نطقت باسم جينار . فتوقف نابليون ساعة ثم قال : ما أقل هـذا الاسم يرفض الرجال شيئا . وأطلق سراحهم .

ومات ابنه فى عام ١٨١٠ فهدّه موته فوق ما هده العمل . وزار لندن عام ١٨١٤ للمرة الأخيرة ، وفى هذه المرة قدموه إلى ملوك الحلفاء عند ذاك . وماتت زوجته فى العام الذى تلاه ، فاعتزل الحياة العامة ، وانصرف يقضى سنواته الباقية فى الطب وغير الطب . وكان آخر مؤلف له «بحث فى هجرة الطير» . ومات عام ١٨٢٣ وقد بلغ من العمر ٧٤ عاما .

وعاش جينار ليرى كشفه يدخل قوانين الأمم فتزيدها قانونا يحتم على أهلها اللقاح ؛ فمن عدّلوا هكذا قوانينهم فى حياته بافاريا ، وكان ذلك عام ١٨٠٧ ، والدنمرك وكان ذلك فى عام ١٨١٠ ، والسويد عام ١٨١٤ ، ودول ألمانية أخرى عام ١٨١٨ . أما بلده هو ، فلم يعش ليرى التطعيم يدخل إجباراً فيها ، فقد فرضوه على الناس بعد موته ، عام ١٨٥٣ ، وفرضه أكثر الأمم قبل ذلك وبعد ذلك .

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : { ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٦٥ — الثلاثاء ١٢ من محرم سنة ١٣٦٧ — ٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

معركة النفوذ العـــالمى

أصبحت المساعدة الأمريكية لأوربا عنصراً بارزاً فى سياسة أمريكا الخارجية ؛ وقد وقف الرئيس ترومان بالأمس ، فى الجلسة الخاصة التى عقدها الكونجرس (البرلمان الأمريكى) ، يطلب إليه إقرار اعتماد جديد قدره نحو ستمائة مليون دولار لمساعدة فرنسا وإيطاليا والنمسا ، وذلك كخطوة تمهيدية وشرط حيوى ، لتنفيذ برنامج تعمير أوربا الطويل الأجل أو برنامج مارشال . وقبل ذلك بأشهر قلائل وافق الكونجرس على اعتماد خمسمائة مليون خصصت لمساعدة اليونان وتركيا ، وكان الرئيس ترومان صريحا يوم طلب إقرار هذا الاعتماد فى تبيان ما ترمى إليه السياسة الأمريكية من العمل على حماية اليونان وتركيا من سياسة التحرش والعدوان ، ومن طغيان الضغط الشيوعى ، أو بعبارة أخرى من خطط روسيا السوفيتية وعدوانها . ولكن الرئيس ترومان يسبغ على طلب المساعدة الجديدة صفة أعم وأوسع مدى ؛ فأمريكا تقصد بإسدائها إلى إنقاذ أمم أوربا المحطمة من الدمار والفوضى ، وبعبارة أخرى تقصد إلى إنقاذ أوربا والحضارة الأوربية . وقد أهاب الرئيس ترومان بالكونجرس ، بأنه إذا لم يبادر بإقرار المعاونة المطلوبة ، فإن الفرصة لإيجاد عالم مستقر تعيش فيه الشعوب الحرة فى سلم مقيم ، قد تفلت إلى الأبد ؛ وقدم الرئيس ترومان فى الوقت نفسه إلى الكونجرس برنامجا من عدة مواد للعمل على محاربة التضخم ، وضبط مستوى الأسعار والأجور ، صونا للاقتصاد الأمريكى من التدهور ، وحماية للشعب الأمريكى من الدمار الاقتصادى .

ومن الواضح أن سياسة أمريكا الخارجية قد تحررت بصفة نهائية من عزلتها القديمة ، وأصبحت سياسة عالمية بكل معانى الكلمة ؛ فأمريكا ترى اليوم أنها لا تستطيع كما كانت فى الماضى القريب ، أن تعيش بمعزل من بقية العالم ، وأن ما يحدث فى أوربا ، فى الجانب الآخر من المحيط ، يحدث أثره فى القارة الأمريكية ، وأنه إذا تركت أوربا فريسة للدمار والفوضى ، وانهارت النظم الأوربية ، فإن حياة أمريكا ونظمها تغدو بدورها عرضة لهذا الخطر ؛ ولهذا فإن الديمقراطية الأمريكية التى خرجت من الحرب العالمية الثانية مكللة بغار الظفر ، والتى تزخر بعناصر القوة والثروة ترى أن تبادر إلى نجدة الشعوب الأوربية الجائعة ، الحائرة القوى ؛ ولا بد أن تكون النجدة سريعة فعالة ، وهو ما يطلبه الرئيس إلى الكونجرس بالنسبة لفرنسا وإيطاليا والنمسا ؛ وذلك لأن القلاقل الاجتماعية وحوادث الإضراب والمظاهرات الشيوعية ، قد اشتدت فى هذه البلاد الثلاثة ، فى المدة الأخيرة إلى حدود تنذر بالخطر العاجل ؛ ثم تعمد أمريكا بعد ذلك إلى تنفيذ مشروع مارشال لإنقاذ أوربا وتعميرها بصورة عامة ، وهو يتناول جميع دول أوربا

الغربية التي وافقت على العمل بهذا المشروع .

ويقول الرئيس ترومان ، إن البؤس والفوضى اللذين تعانيهما الإنسانية ، هما السبب في النزاع وشهوة الفتح ، كما أن الجوع والفقر يدفعان القوى إلى افتراس الضعيف ؛ وأن أمريكا قد اضطرت مرتين في جيل واحد إلى حمل السلاح لمقاومة الدول التي يسعى قادتها إلى السيطرة على العالم . وفي هذا التصوير لنزعة العدوان والتغلب كثير من الحق . ولكن يحق لنا بعد ذلك أن نتساءل عما إذا كانت أمريكا تهدف باضطلاعها بهذه الأعباء الضخمة لنجدة الشعوب الأوروبية المهيضة إلى غايات مثالية فقط ، وتجيش فقط بنزعة إنسانية محضة بعيدة عن عوامل الأثرة ، والمصالح الخاصة أم أنها ترمي قبل كل شيء إلى تحقيق غايات سياسية بعيدة المدى ؟ والواقع أنه مهما استترت هذه السياسة وراء العبارات والصيغ الخلابة ، فإنها تفصح في الوقت نفسه عن هدفها الحقيقي ، بوضوح لا يعتوره الشك . ونحن نذكر أنه عندما أعلنت واشنطون سياستها في بذل المعاونة المالية والعسكرية لليونان وتركيا ، لم تحجم عن التلميح الواضح بأنها تقصد إلى مقاومة الزحف الشيوعي نحو البحر الأبيض المتوسط ، ومقاومة خطط موسكو في الضغط على اليونان وتركيا ؛ وقد ألفت أخيرا باليونان هيئة أركان حرب أمريكية يونانية ، وفي تركيا بعثة عسكرية أمريكية ، ويتدفق العتاد الأمريكي على تركيا واليونان ولم تحجم روسيا من جانبها عن التنديد بهذه الخطوة ، واعتبارها تحرشا بها وبسياستها في مناطق تعتبر أنها واقعة في دائرة نفوذها ولم تقف أمريكا عند العمل على مقاومة الزحف السوفيتي في شرق البحر الأبيض المتوسط ، بل رأت أن تضع برنامجا شاملا لحماية النظم الأوروبية القائمة ، ومقاومة المحاولات الشيوعية والحد من زحف البلشفية نحو الأمم الغربية بعد أن وصلت إلى أواسط أوربا ؛ فكان المشروع الذي وضعه الجنرال مارشال وزير الخارجية الأمريكية ، ودعا الدول الأوروبية إلى بحثه وقبوله ؛ ولم يلب دعوته سوى دول أوربا الغربية ورفضتها روسيا وجميع الدول الموالية لها ؛ ولم تر فيه روسيا سوى محاولة جديدة واسعة المدى لمقاومة سياستها وخططها في أوربا .

والآن تمضي أمريكا قدما في تنفيذ خطتها التي وضعتها « لإنقاذ أوربا وتعميرها » ، وترى أن تعجل بإنجاد فرنسا وإيطاليا والنمسا ، وتعتبر فرنسا وإيطاليا قاعدتين للديمقراطية الغربية في غربي أوربا وجنوبيها ؛ وتعتبر النمسا قاعدة لمقاومة البلشفية في أواسط أوربا ؛ والنظم الديمقراطية تترنح اليوم في هذه الدول الثلاث ، ويلوح الخطر الشيوعي بين آونة وأخرى متذرا باجتياحها . ولو سقطت فرنسا أو إيطاليا صريعة الغزو الشيوعي لكان ذلك نذيرا بانهيار النظم الديمقراطية في سائر الدول الغربية وظفرا للشيوعية يبسط سيادتها على جميع الشعوب الأوروبية ؛ وهذا ما تعمل أمريكا جاهدة لاتقائه بما تبذله من تضحيات مالية وعسكرية ضخمة لإمداد الدول الغربية ، ومعاونتها على اجتياز الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي تتعرض لها ، وتقوية أعصابها الدفاعية لمقاومة المحاولات التي تبذل لتحطيمها .

ولم تقف روسيا السوفيتية من جانبها جامدة إزاء نشاط السياسة الأمريكية في أوربا ؛ وبالرغم من أنها لم تتخذ خطوات إيجابية لمقاومة هذا النشاط الذي تعتبره موجها إليها قبل كل شيء ، فإنها لجأت إلى طريقتها المأثورة في حشد القوى الشيوعية في مختلف الدول الأوروبية وتنظيمها وتوجيهها ؛ وظهر أثر هذا الحشد في قيام « الكومنترن » أو الدولية الشيوعية الجديدة في بلغراد ممثلة للأحزاب الشيوعية في تسع دول أوربية في مقدمتها روسيا السوفيتية وبينها إيطاليا وفرنسا . وكما أن أمريكا تتخذ العمل لحماية الديمقراطية وإنقاذها من الخطر الشيوعي شعارا لسياستها الأوروبية ، فكذلك تقرر الدولية الشيوعية الجديدة في بيانها بأن شعارها هو العمل على تدعيم القوى الديمقراطية الاشتراكية وهزيمة القوى الرأسمالية ؛ ومعنى ذلك واضح ،

وهو أن المعسكرين اللذين ينقسم إليهما العالم اليوم ، وهما المعسكر الشيوعي وتقوده روسيا السوفيتية ، والمعسكر الديمقراطي أو المعسكر الرأسمالي كما يسميه خصومه، وتقوده أمريكا ، يشتبكان اليوم في حرب مذهبية « إيديولوجية » شعارها المبادئ والنظم الاقتصادية ، ومن وراء كل منهما قوى عسكرية زاخرة تؤيده ، وتدعم خططه ، وكل منهما يتحفز لمقاومة الآخر بوسائله الخاصة .

لقد اجتمعت روسيا البلشفية والديمقراطية الإنجليزية الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية في حلف قوى متين الدعائم لمقاومة الخطر المشترك الذي شهرته عليهما النازية والفاشستية ، وكان التعاون الوثيق بين هاتين الجبهتين خلال الحرب من أعظم عوامل النصر الذي أحرزته الأمم المتحدة على إيطاليا وألمانيا . وكان المنظور أن يستمر هذا التعاون الوثيق بعد انتهاء الحرب حتى تسوى المشكلات العالمية التي ترتبت عليها ، وحتى توضع أسس السلم المستقر ، الذي يطمح إليه العالم الجزع القلق ؛ ولكن بوادر الخلاف أخذت تتسرب إلى هذا الحلف حتى قبل أن تنتهي الحرب . ومنذ مؤتمر بوتسدام (يوليه سنة ١٩٤٥) الذي كان آخر فرصة لاجتماع الأقطاب الثلاثة ، يتسع نطاق الخلاف بين روسيا السوفيتية وحلفائها بالأمس . ولم توفق هيئة الأمم المتحدة التي أنشأتها الدول الثلاث الكبرى لتكون ضمانا عالميا لتوطيد السلم ، إلى جمع كلمة هذه الدول ، بل غدت بالعكس مسرحا لتنافسها وتنابذها ، وانهارت كل الآمال التي عقدت على جهودها في صون السلم وتأمين الشعوب على حقوقها وحرياتها ؛ واليوم تدور هذه المعركة المذهبية سافرة بين روسيا السوفيتية وبين الجبهة الإنجليزية الأمريكية ، أو بالحرى بين البلشفية والجبهة الديمقراطية ، وتأخذ واشنطن بزمام هذه المعركة معتمدة على مواردها وقواها الزاخرة . ولما كانت العوامل الاقتصادية تجثم وراء هذه المعركة وتسيرها ، فإنه من اليسير علينا أن نصفها بأنها معركة النفوذ المالي ، ومعركة التوسع الاقتصادي والمطامع الاستعمارية . وإذا كان كل من الفريقين المتنازعين يسبغ على موقفه وتصرفاته ما شاء من الصيغ والعبارات الخلابة ؛ فإن الحقيقة المؤلمة تبدو سافرة ، وهي أن العالم الجزع القلق يشهد اليوم بوادر صراع مرير كالذي شهده في الأعوام التي سبقت الحرب العالمية الثانية .

محمد عبد الله عنان

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

على هامش خطاب العرش :

العلم غريب فى بلادنا

أكثر العلم الموجود فى مصر الآن غريب ، منقول من الخارج ، وأقله أصيل له جذور فى البيئة المصرية ، فرجال العلم يتخرجون على الأساليب العلمية فى الجامعات والمعاهد الخارجية ، ويطالعون المجلات والمراجع الأجنبية ، ويتكلمون اللغات الأجنبية ، حتى إذا قفلوا إلى بلادهم راجعين ، شكوا من عدم ملاءمة الوسط المصرى لموالاة النشاط العلمى ، وانقلبوا إلى معلمين أو إداريين ، يحتلون المناصب الكبرى فى التعليم العالى أو فى الإدارة ، ولكن لا يساهمون بنصيب وافر فى تقدم العلم ، أو فى زيادة المعرفة والخبرة ، شأن العلماء الأجانب . والقليل منهم الذين يتمكنون من موالاة نشاطهم العلمى فى مصر ، إنما يفعلون ذلك بواسطة الاتصال المباشر المستمر مع الهيئات والمراكز العلمية الأجنبية .

والمصرى لا ينقص فى تعليمه كثيرا عن قرينه الأجنبى ، ولا يقل عنه مقدرة ولا كفاءة ولا ذكاء ؛ وشاهد على ذلك النجاح الذى يلقاه مبعوثونا فى الخارج وسط زملائهم ، مما يجلب لهم أسمى آيات الثناء من أساتذتهم . إنما القصور فى الوسط والبيئة . ومثل ذلك كمن يحضر بذورا صالحة ليثبتها فى أرض غير طيبة . إنها لا تنبت قط . ويخيل إلىّ أن سياسة البعثات فى مصر لا زالت تدرج على الخطة التى وضعها المستعمرون لنا منذ نصف قرن أو أكثر . فنحن نرسل الطلاب لتلقى العلم والحصول على الإجازات الدراسية ، ونكل إليهم وظائف قد لا تتصل من قريب أو بعيد بمادة تخصصهم ، ولا نلتفت إلى ما يطلبونه من أجهزة أو أدوات أو معدات للدرس والكشف ، ونكاد نعتبر دائما أن حياة الطالب الدراسية تنتهى بحصوله على الدكتوراه ، بينما يعتبر أساطين العلم أن الحياة العلمية الحقّة تبدأ بعد ذلك . كل هذه الأسباب تجعل العلماء فى مصر غرباء عن المجتمع الذى يعيشون فيه ، وتجعل العلم غير ذى جذور أو أصول فى تربتنا .

والعلم فى مصر غريب فى داره ، فى الجامعتين وفى المعاهد العليا . إذ أن الرأى السائد من هذه المعاهد والكليات ، أنها تخرج طلابا حاملين إجازات دراسية ، ليشغلوا وظائف حكومية ، أو يحترفوا مهنا معينة مثل الطب أو المحاماة أو التدريس . ومنذ سنوات كان تقدير مخصصات الكليات فى الميزان يسير وفقا لعدد الطلبة المتقدمين إليها ، فتبسط اليد للمدارس التى تحتوى على عدد كبير منهم ، وتقبض من المدارس الأخرى . وقد بدأت حركة علمية فى الجامعتين ، أساسها اشتراط الحصول على الدرجات الجامعية كوسيلة للحصول على وظائف هيئة التدريس . أى أننا ما زلنا فى الطور الذى نتكلم فيه عن الوظائف وطلابها ، وما يجب أن يحملوه من درجات وشهادات . وإذا نظرت إلى وسائل البحث العلمى ومستلزماتها وجدتها غير مستكملة فى معظم الكليات . فليس ثمة مادة للبحوث ، وأساتذة متفرغون للبحوث ، وليس ثمة أدوات للمعامل ، ومواد كيميائية نقية ، وليس ثمة مساعدون علميون ، وأموال للبحوث ، بل وليس ثمة مراجع علمية ومجلات دورية لكى يقف الراغبون فى البحث على ما وصل إليه العلم فى الخارج . ويكفى فى هذا المجال أن نشير إلى حصة المجلات العلمية من ميزانية جامعة فؤاد الأول ، إذ هى لا تزيد على ألف جنيه ، أى أقل من واحد من الألف من الميزانية السنوية ، أى أن الشخص العادى الذى يدفع قرشا واحدا فى صحيفة يومية ، ينفق نسبيا على ثقافته أضعاف ما تنفقه جامعة البلاد المصرية الأولى على ثقافة طلابها ورجال العلم فيها .

والعلم فى مصر غريب عن المصالح الحكومية والوزارات

المختلفة ، مثل مصلحة الطبيعيات ، ومصلحة الكيمياء ، ومعامل وزارة الصحة والزراعة ، ومصلحة المناجم والمحاجر والمساحة والمصنة والموازين والصناعة والتجارة والطب الشرعي ، وأقسام وزارة الدفاع الوطني ، والطيران ، وغيرها . وإذا سألت رجال تلك المصالح الحكومية العلميين عما يعملون ، أجابوك ، إن آنست منهم صراحة ، بأنهم ينصرفون إلى أعمال الروتين ، لا إلى أعمال البحث والدرس . لأن النظام الحكومي والتنظيم الإداري ، لا يطالبان الموظف إلا بعمليات قياس أو إشراف متكررة ، تميت في الباحث التشوق إلى الاستزادة والتجديد . ومن تطرق به الفكر إلى البحث ، رمى بتهمة (الفلسفة) والخبلاء ، فسرعان ما يقنع من الغنيمة بالإياب ، وينضم إلى صفوف الساعين نحو الدرجات والعلاوات . ثم تسأل عن الدواء ، بعد أن لمست الداء ، فلا تجد مجيبا ولا راغبا في الكلام .

والعلم غريب عن الدوائر الصناعية والشركات في مصر . لأنها تنقل العمليات التي تشتغل بها من الخارج . وتسعى جهدها إلى إجادة العمل كله ، ولا تسعى إلى استحداث طرق جديدة ، أو الاستزادة من الوسائل والعمليات الصناعية . وجل اهتمام القائمين على شئون الصناعة موجه نحو مسائل الاقتصاد البحت ، وعمليات الاستيراد والتصدير ، والرسوم الجمركية التي تحمي منتجاتهم ، أو تؤثر في أسعار خاماتهم . وهذه سياسة قصيرة النظر ، من شأنها أن تجعل الصناعة المصرية تابعة دائما للصناعة الأجنبية ، ومقتفية لأثرها ومترسمة خطاها ، فلا تقدم ، ولا تجديد ، ولا ابتكار ، ولا إنشاء .

أما الدول الغربية فتسعى جاهدة لرفع مستوى العلم في بلادها . فتشجع الجامعات والمعاهد العليا فيها على البحث والابتكار ، وتمدهم بالإعانات السخية ، وتنشيء المعامل خاصة لكبار الباحثين ، وتتطلب من مصالحها ومعاملها الحكومية قدراً كبيرا من الدراسة والفحص والتحسين ، وتكافيء النابهين من موظفيها مكافآت تشجعهم على موالاة البحث والانقطاع له ، ولا تضن عليهم بالوقت أو المال ، ولا تثقل كاهلهم بالواجبات الإدارية ولا القياسات اليومية . وتشجع الحكومات الأجنبية رجال الصناعة فيها على التجديد والابتكار ، فتعفيهم من قدر كبير من الضرائب على الأموال المخصصة للعلم والبحث ، وتتبرع لهم بالمال اللازم لعمل تجارات تعاونية البحوث ، وتشجع جمعياتهم العلمية ، وتمنحهم إعانات خاصة ، وممیزات جمركية للصناعات الجديدة . ولذلك نجد الكشوف العلمية والاختراعات تظهر كل سنة عندهم بالمئات ، وتلتفت حولنا هنا فلا نجد إلا مظاهر جوفاء ، ومباني فخمة ضخمة ، وطلبة تموج بهم ساحات المدارس ، وأساتذة يشغلون الكراسي ويحملون أسمى الألقاب ، ولكن دون إنتاج علمي قوي ، ينم عن نشاط حقيقي .

وقد يكون من المفيد في هذا الباب أن نورد مثلا لمجهودات حكومة من الحكومات لتحقيق هذه الغاية ، وهي أستراليا .

اعتمدت الحكومة الأسترالية المركزية مشروعا لإنشاء جامعة في كانبيرا عاصمة اتحاد المقاطعات الاسترالية . وقدرت نفقات إنشاء الجامعة في مرحلتها الأولى بمبلغ ٨٠٠ ألف جنيه ، وقدرت ميزانيتها السنوية بمبلغ ٣٠٠ ألف جنيه .

وأستراليا كما هو معلوم قارة بذاتها ، وتنقسم إلى مقاطعات ، كل منها بمثابة دولة كاملة في جميع شئونها . وتوجد في سيدني جامعة راقية وأخرى في ملبورن ، كما توجد كليات جامعية شبه كاملة في غرب أستراليا وجنوبها . والجامعة المقترحة من نوع جديد ، إذ هي لا تضم طلابا إلا بقدر معلوم . وستكون جامعة أبحاث ودراسات عليا ، وليست جامعة تعليم وتخريج طلاب .

وسبب ذلك أن الحكومة الأسترالية هالها كثرة نزوح النابغين من أبنائها إلى بريطانيا العظمى وكندا واستيطانهم تلك البلاد بعيداً عن وطنهم الأصلي ومسقط رأسهم . وقد جرت العادة في الجامعات البريطانية أن يشجع أبناء دول الدومينيون على زيادة الدرس ؛ وخصصت لهم مكافآت ومنح مالية تساعدهم على ذلك . وبذلك اجتذبت بريطانيا الصفوة المختارة من بين خريجي الجامعات الاسترالية والهندية والنيوزيلاندية والكندية . وهم جميعا متمتعون بالجنسية البريطانية التي تبيح لهم حق التوطن في بريطانيا إذا رغبوا في ذلك . فكان كلما بزغ نجم أحد هؤلاء الوافدين على بريطانيا ، احتفظت به معاملها وجامعاتها ، واطمأن هو لمستقبله العلمي هناك وسط المراكز العلمية الراقية التي لا يتوافر مثلها في موطنه الأصلي .

ولما انتبهت الحكومة الاسترالية لهذا الأمر، ووجدت نفسها عالة على العالم الخارجي في العلم ، ووجدت أن السبب الأول في ذلك هو عدم العناية بالمعاهد العلمية الراقية في داخل بلادها ، رأت أن تعالج الأمر من أساسه ، فاعتمدت مشروع جامعة كانبيرا الجديدة .

وقد استقدمت لهذا الغرض رجلين من أنبغ أبنائها ، هما السير هوارد فلورى الذي كشف عن البنيسلين وصنعه ، والأستاذ أوليفانت الذي ساهم بقسط كبير في البحوث الذرية . وتقرر أن تبدأ الجامعة بإنشاء معهد للبحوث الطبية ومعهد لبحوث الطبيعة الحديثة ، يشرف عليهما العالمان المذكوران ، ويزودان بجميع وسائل البحث العلمي ومعداته، على أن ينضم إلى تلك المعامل الصالحون من خريجي الجامعات الاسترالية ، كلما اتسع نطاق العمل . وقد سئل الأستاذ أوليفانت عما إذا كانت الميزانية المقترحة لمعمله ستكفي لصناعة قنبلة ذرية ، فأجاب قائلا: إن الأموال الطائلة التي أنفقت على القنبلة الذرية، إنما كانت مخصصة لصناعتها . أما الأسس العلمية للقنبلة الذرية ، فأقل شراهة للمال وأبقى أثرا وأنفع للبشرية .

ولم يك عمل استراليا بدعة جديدة في تاريخ الجامعات ، إذ درجت الجامعات الأمريكية الكبرى منذ أوائل هذا القرن على إنشاء أقسام فيها للدراسات العليا والبحوث منفصلة تمام الانفصال بأساتذتها ومعاملها ونظمها عن الأقسام الجامعية الخاصة بتخريج الطلاب . كما عمدت جامعات أجنبية كثيرة إلى رفع عبء التدريس والإدارة كله عن عاتق بعض أساتذتها حتى تنصرف جهودهم كلها إلى البحث وتوسيع حدود المعرفة .

ونلاحظ بهذه المناسبة أن الجامعتين المصريتين ما زالتا في مرحلة استكمال أسباب التدريس للطلبة فيهما ، وأن الاهتمام بالبحوث العلمية والدراسات الراقية في مختلف العلوم ما زال قليلاً .

وأرى أن مشكلة العلم في مصر هي تأصيله وتأميمه وتعميمه . والمراد بالتأصيل هنا هو أن نهيأ الوسائل اللازمة لنمو بذرته في البيئة المصرية ذاتها ، حتى يتوقف استيراد العلم من الخارج والنقل إلا بقدر التبادل اللازم الضروري للنشاط العلمي . والعلم يتأصل في البيئة ، إذا تكونت (مدرسة) من الطلاب والأساتذة الذين يعملون معاً في اتجاه واحد ، وغرض محدّد ، مزودين بجميع الوسائل اللازمة للدرس والبحث . والموضوعات التي يجب أن تكون أساساً لتكوين هذه (المدارس) كثيرة ، منها ما يتصل بأمراضنا المتوطنة ، ومشاكلنا التربوية ، ومشاكلنا الزراعية والصناعية والاقتصادية الخاصة بأوجه النقص في حياتنا ، وبالثالوث الملعون من الآفات البشرية ، ألا وهو الفقر والجهل والمرض . وثمة مواضيع أخرى يجب أن تقوم لها (مدارس) علمية في مصر قبل غيرها ، مثل ذلك التاريخ الإسلامي ، واللغات الشرقية ، والآثار الفرعونية ، والفلك ، وعلوم الصحراء ، والري النيلي ،

والمياه الجوفية ، والقطن ، والصناعات الريفية ، والسياحة وغيرها . فإذا تكونت هذه المدارس وغذيت بالمادة البشرية الصالحة ، أينعت وأثمرت من قرائح أفكار العاملين فيها ، ما يزيد من ثروتنا الفكرية والمادية زيادة تدعم النهضة الكاملة الحقيقية .

والمراد بتأميم العلم ، جعل تمويله شاغل الأمة كلها ، ممثلة في الحكومة والمجالس النيابية بدلا من تركه أسيره لعناية الأفراد والمؤسسات أو الأوقاف القديمة . وهذا الاتجاه ضروري ، لأن نفقات البحوث العلمية في ازدياد مريع ، فلا تقدر عليها إلا الحكومات الغنية ، ونتائج تلك البحوث خطيرة جدا ، وتتصل بشئون الحرب والتموين والاقتصاد ، مما لا يسع أي حكومة محترمة أن تدعه للأفراد يفعلون به ما شاءت لهم أهواؤهم . ولذلك يزداد إشراف الحكومات الغربية شيئاً فشيئاً على المراكز العلمية ، وليس هذا الإشراف للتحكم ، ولكن لتمويلها وتنشيطها وتأمين مستقبل العاملين فيها .

والمراد بتعميم العلم ، هو عدم قصره على فئة من المحتكرين ، سواء أكانوا من أساتذة الجامعات أم من كبار الموظفين ، بل يجب أن تتخذ العدات المؤدية إلى الاستفادة من جميع الآراء الخاصة بالبحث والتحسين . من العمال والزراع والصناع ، والمشتغلين بمختلف المهن على اختلاف درجاتهم ، فكثيرا ما يصدر الاختراع المفيد من العامل القائم على الآلة ، وليس من كبير المهندسين في المصنع . وقد اهتمت الدول المتحضرة أخيرا بنشر التعليم بين طبقات صناعها ، حتى يتمكنوا من إظهار جميع ما قد يعن لهم من آراء عملية ناضجة .

والمراحل الثلاث اللازمة تأتي وفقا لما ذكرنا ، فيجب البدء بتأصيل العلم ، ثم يتلو ذلك مباشرة تأميمه ، ثم يتم تعميمه . وعندئذ تكمل لنا نهضة علمية مباركة ، سنبق بدونها ذيلا في موكب الحضارة ، وعجزة في صراع الحياة .

وكنا نظن أن إنشاء مجلس فؤاد الأول الأهلي للبحوث العلمية والصناعية ، سيؤدي إلى محاولة تأصيل العلم في مصر ، ولكن العقبات التي صادفها هذا المشروع منذ ٩ سنوات حتى اليوم ، تضعف الأمل بإمكان تحقيق تلك الغاية السامية . فياحبذا لو اتجهت الأنظار إلى هذا الموضوع الخطير الذي يرتبط بكياننا القومي أوثق رباط .

وقد استمعنا إلى خطبة العرش الأخيرة ، فوجدناها تخلو من كل إشارة إلى العلم في مصر ، كأنما هو كم مهمل أو نافلة من قول أو نفاية من عمل . فالحكومة التي تسعى إلى استكمال الاستقلال السياسي والاقتصادي والتي ترغب في تقوية الجيش ومحاربة الجهل والفقر والمرض ، والتي تسعى إلى سن التشريعات المتتالية لتنظيم شئون البلاد ومرافقها ؛ هذه الحكومة لا تريد أن تلقي بالا أو تهتم بالأداة التي تحقق لها جميع هذه الأغراض وغيرها . الأداة الأولى في النهضة الحديثة هي العلم ، لا شك في هذا ولا مراء . ولكننا لا نفتأ نتكلم عن الطب دون اعتبار لثقافة الأطباء ، وعن الهندسة دون اعتبار لروح البحث اللامعة في المهندس ، وعن الزراعة دون الإشارة إلى العلوم الأساسية التي تقوم عليها الزراعة الحديثة . وتكتفي الحكومة في هذا كله بالخبراء الأجانب والنقل والمحاكاة ، وإصدار اللوائح والمراسيم التي تبقى سنوات دون أن توضع موضع التنفيذ .

لم يكن هذا حالنا أيام محمد علي ، الذي أنشأ ترسانة للسفن الحربية في الإسكندرية ، وأنشأ مصانع حربية ومدارس طبية ، وأدخل محاصيل زراعية جديدة ، وأقام مشروعات ري واستقدم خبراء ، واشترط عليهم أن يستفيدوا من خامات البلاد ، وأرسل البعوث ، ثم منح المبعوثين بتحمل المسئولية كاملة وشجعهم على العمل . وليس حالنا اليوم ، حال أي دولة ناشئة ناهضة في العصر الحديث أو في العصور الخالية .

لقد أشار خطاب العرش إلى مجهودات معمل الأمصال واللقاح التابع لوزارة الصحة في مكافحة الكوليرا ، وأسبغ

على تلك الجهود آيات الثناء ؛ وأبلغ من الكلام العمل ، فهل يطمع معمل اللقاح فى ٤٠ ألف جنيه ليتوسع فى دراسة الفيروسات بدلا من الهبة التى ذهبت هباء . وهل تحق على حكومتنا السنية الغيرة الحقيقية فى هذا الشأن ، وهى أن للمعامل الفنية من طبية وهندسية وزراعية وتجارية وصناعية وعلمية بحتة ، يمكن أن تؤدى إلى البلاد أجل الخدمات فى أوقات الرخاء وفى الأزمات ؟ وهل نطمع من الهيئات المسئولة أن تقدر لهذا الأمر خطورته فتعمل على مداركته قبل فوات الأوان ؟

إبراهيم حلمى عبد الرحمن

كيف اتفقتا على التقسيم !

نسمع كل يوم عن تصادم السياسة الروسية مع السياسة الأمريكية ، ونقرأ بين آن وآخر كيف تتباعد السياستان ، حتى إن البعض ليقدر عمر هيئة الأمم بالشهور والأيام لا بالسنين . وقد دلت جميع الاتجاهات على أن العالم يسير إلى كتلتين ، شرقية وغربية ، وأنهما عما قريب متحاربتان . ويسير التسلح بينهما فى سباق ، وتحاول كل واحدة معرفة مدى سبق الأخرى فى فنون الحرب والتدمير .

وقد وصلت هيئة الأمم المتحدة والهيئات المتفرعة منها إلى حالة مزرية من العجز ، لأن الدول تقف حيرى أمام المشكلات ، فكل حل يحظى بتأييد إحدى الكتلتين ، فهو لا محالة واصل إلى الركود أو الفشل . وهكذا تركت مشكلات اليونان وأندونيسيا ومصر وغيرها ، تتفاقم مع الزمن ، ولا يدرى أحد إلى أين المصير .

ولكن مفاجأة اليوم هى اتفاق الكتلة الشرقية والأمريكية على تقسيم فلسطين ، وقد يدهش المرء كيف اقترب القطبان على ما بينهما من نفور . ولكن قليلا من التعمق قد يصل بنا إلى كشف سر ذلك الاتفاق .

ذلك أن هدف الصهيونية الأول هو إنشاء دولة بنى إسرائيل فى فلسطين ، وهى الآن تستغل الاتجاهات السياسية لمختلف الدول لتحقيق ذلك الهدف . وقد اتضح أخيرا من التقارير التى ظهرت من الهجرة غير الشرعية لليهود ، أنها جاءت عن طريق معسكرات هيئة الإغاثة والتعمير التابعة لهيئة الأمم المتحدة ، والتى تسمى بالأونرا . فقد وضعت الهيئات الصهيونية الأمريكية أموالاً طائلة تحت تصرف الهيئات المحلية اليهودية فى قارة أوربا ، واستأجرت على الحدود الإيطالية النمساوية عددا كبيرا من المنازل والفيلات تسمى بالمزرعة هاراشوت ، وهى فى ضمنها تسمح باستضافة أربعة آلاف من المهاجرين فى وقت واحد . وتعتمد فى إعاشتهم على مساعدات هيئة الإغاثة والتعمير وعطفها .

فى هذه المعسكرات يقضى المهاجرون فترة من الزمن يدرسون فيها فنون الهندسة أو الزراعة أو الطب أو السياسة الخ . بقصد إعداد المواطن اليهودى الكامل الذى يستطيع أن يعمل عند ما يضع قدمه على الأراضى المقدسة . وينقسم اللاجئون فيها إلى شعب سياسية حسب ميولهم واختيارهم ، فتجد من بينهم حزب سوص ، أو الحزب اليهودى الشيوعى ، وحزب بيتار أو الاشتراكى الوطنى . وهذه المعسكرات تنقص زائريها ، ولكنهم فى تغيير مستمر ، فريق يظهر ، وفريق يختفى . ويتخذ أفراد هذا الفريق الأخير وجهتهم نحو الجنوب ، إلى نابلى أو بارى ، وغيرهما من الموانى الإيطالية ، بل إلى الشواطئ الإيطالية الجنوبية ، حيث يركبون الزوارق إلى السفن التى تنتظرهم فى عرض البحر .

وأكثر هؤلاء المهاجرين قد قدموا من مناطق النفوذ السوفيتية ، ولا يبدو من أحاديثهم أنهم كانوا موضع اضطهاد فى أوطانهم ، وإنما رغبوا فى الهجرة إلى فلسطين بأمل إنشاء دولة يهودية شيوعية فيها . وبعض اليهود البولنديين يرون أنفسهم بعد الحرب وقد انقطعت بهم

صلاتهم بقراهم ومدنهم ، ولم تعد إقامتهم أمرا مرغوبا فيه بعد ذلك .

ويلي حزب سومر اليهودي الشيوعي في الأهمية حزب بيتار Betar ، وأعضاؤه يميلون إلى اعتناق الأفكار الدكتاتورية والتعصب الوطني ، وأكثرهم ينخرطون بعد وصولهم في سلك الهاجاناه أو جيش التحرير . ولهذا فهم يخصصون معظم أوقاتهم للتدريب العسكري على أوسع نطاق . وإننا لا نقول ذلك عبثا ، إذ ثبت من الإحصاءات الأخيرة أن أكثر من ٧٥ ٪ من المهاجرين اليهود الذين تسربوا خلسة إلى فلسطين في بحر الستة أشهر الأولى من عام ١٩٤٧ كانوا من البولنديين الذين لجأوا إلى معسكرات الأونرا ، وتعترف هيئات الأونرا بأن البولنديين قوم صعاب المراس ، يسود تصرفاتهم العناد ، ويبدو عليهم الشذوذ العقلي ، وتعلل ذلك بأنهم قد قضوا حوالى عشر سنين يرزحون في سلاسل الاضطهاد وظلام معسكرات الاعتقال .

والشعور السائد بين هؤلاء المهاجرين هو العداء لبريطانيا ، وقد يفسر لنا ذلك شدة الإرهاب الصهيوني في فلسطين ، واتخاذه مظهر الجهاد الديني ضد الحكومة البريطانية . ويتداولون فيما بينهم نشرات الدعاية المثيرة ضد بريطانيا . وهكذا أصبحت معسكرات الأونرا في أوربا الوسطى وإيطاليا ، المقر الأساسي لحركة الإرهاب الصهيوني ، يستغل فيها المشرفون على الحركة الصهيونية تلك المساعدات القيمة التي تبذلها هيئة الأونرا ، ظنا منها أنها تقوم بواجب إنساني . ويزود اللاجئون بعد ذلك بالأوراق والمستندات اللازمة ، وجوازات المرور . بل قد نجد للشخص الواحد أربعة جوازات مختلفة بأسماء وصفات متنوعة . وقد احتاطوا لكل الظروف ، فأعدوا السيارات الكبيرة ، وكميات الوقود الكافية .

* * *

كل هذا يجري بالرغم من أن اضطهاد العناصر السامية في البلاد السلافية كبولاندا ويوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا محظور قانونا ؛ غير أن الأمر الذي لا يمكن إنكاره أن العيش في هذه البلاد لم يعد يطيب لليهود ، وقد أخذت أسراب الهجرة اليهودية تحاول الخروج منها ، وتجد في محاولتها التشجيع الكافي من حكوماتها . بل أكثر من ذلك ، فإن هذه القوافل اليهودية تخرج مشبعة بفكرة الدولة الشيوعية اليهودية في فلسطين ، والتي ستصبح فيما بعد المركز الأساسي للشيوعية ، والبؤرة التي تنتشر منها الدعوة في أنحاء الشرق الأوسط .

أما أمريكا فهي كما قال دولة فارس الخوري بك تجد نفسها مدفوعة إلى استجابة الدوافع الصهيونية أملا في كسب أصوات اليهود الأمريكيين في معركة الرئاسة القادمة خاصة ، وأن هيئاتهم في أمريكا تسيطر على وسائل الدعاية من صحف إلى إذاعة إلى سينما .

وهي في هذا تضرب عصفورين بحجر واحد ، فهي ترمي بجانب ذلك إلى أن تصبح الدولة اليهودية الجديدة على صغرها رأس جسر يمر منه النفوذ الأمريكي إلى سائر دول الشرق العربي ، ومركزاً استراتيجيًّا تشرف منه على امتيازات شركاتها وخطوط طيرانها .

وقد فطنت انجلترا إلى ذلك الخطر أخيراً ، فلوحت لأمريكا لجأة بالانسحاب من فلسطين وترك اليهود يلاقون مصيرهم مع العرب وجهاً لوجه ، أو أن تسارع أميركا إلى احتمال مسئولية السياسة التي ترغب في إملائها . وهي في كل هذا ترغب في الاحتفاظ بفلسطين كلها لنفسها ، وأن يبقى العرب واليهود في حالة من العداوة والشقاق الطائفي المستمر ، ولا بأس أن تصبح في فلسطين مأساة هندستان وباكستان أخرى ، مادام في ذلك ضمان لبقاء استعمارها .

وإننا نتساءل بعد كل هذا : إلام يستمر الشرق ملعباً لهذه الوحوش ؟

علي رفاعة الأنصاري

أول خدعة حربية:

غرائر يافا

[أتكون هذه القصة هي الأصل الذي أخذ منه مؤلف شاعر الإيطالية قصة الحصان الخشبي الذي استعمل في فتح طروادة] ؟

أمر تحوتمس الثالث ، فرعون مصر العظيم ، في عام ١٤٧٥ قبل الميلاد بغزو يافا والاستيلاء عليها ، وأرسل قائده « تحوتي » لهذا العمل الحربي الشاق .

ولكن القائد الفرعوني بثاقب فكره رأى أن حصاره قد يطول كثيراً ، وقد يكون من غير جدوى ، ولقد عز عليه أيضاً أن يرجع مخذولاً ، وهو يتحرق شوقاً إلى نصر حربي حاسم .

راح يفكر في حيلة وخدعة تمكنه من غايته في أقرب وقت مستطاع ، لقد تردد في بداية الأمر في اتباع الدهاء والخداع في إنجاز مهمته الحربية ، ولكنه سرعان ما تلاشى تردده هذا عندما راح يسائل نفسه :

— أليست الحرب خدعة ؟ فلماذا لا أخدع الأمير فأتفوق على جنوده وجنودي ؟

وفي النهاية راقته هذه الفكرة ، بل تسلطت عليه وتحكمت في تفكيره ، فلم يجد القائد الفرعوني نفسه إلا سائراً في طريق تنفيذها .

***

أرسل تحوتي القائد الفرعوني رسولاً من عنده إلى أمير يافا يخبره برغبة قائده في وقف القتال ، حباً في الصلح والتسليم ؛ وسمح الرسول بالمثول بين يدي الأمير ، وعندئذ قال :

— أيها الأمير

إني رسول القائد الفرعوني ، جئت أحمل لك منه كل تقدير وإعجاب ... جئت أحمل لك الولاء ، والخضوع في ظل الصداقة والمحبة .

إنه يدعوك يا مولاي إلى لقاء خارج أسوار المدينة تستمتعان فيه بحلو الحديث وتتبادلان صادق الودة .

فهز الأمير رأسه وقال :

— ليكن له ما أراد .

***

استقبل القائد الفرعوني أمير يافا خارج أسوارها وراح يبث فيه الطمأنينة والثقة ثم قاده وحاشيته إلى وليمة فاخرة ، فيها من الطعام أحسنه ومن الفاكهة أحلاها وأشهاها ، ومن الخمر أجودها .

في هذه الوليمة اختفت أكواب الماء وحلت محلها أقداح الخمر بأشكالها وألوانها . لقد قدمت الخمر في سخاء حتى يفقد الأمير وجميع حاشيته الوعي والإدراك في أقرب وقت مستطاع .

وعندما لعبت الخمر برأس الأمير سار القائد نحوه سائلاً إياه :

— أتسمح أيها الأمير لخيلك أن تنزل ضيفاً على خيلنا لتجد حظها من الغذاء والراحة .

فأجابه الأمير :

— لا مانع عندي .

وهكذا جرد القائد أمير يافا ورجاله من وسيلة الهرب والعودة إلى داخل أسواره .

***

وتقدم الأمير بعد ذلك مترنحاً نحو القائد الفرعوني وقال :

— لقد سمعت الشيء الكثير من هراوة فرعون ، وعلمت أنك تحملها معك في حروبك ، فهل لي أن أراها ؟

وهنا وجد القائد الفرصة سانحة لأن يذهب بالأمير بعيداً عن حاشيته .

وفي مكان منعزل قيده بسلاسل وأغلال ، فأصبح

أحمد الزين

كلمة رثاء ووفاء

أتيهلتُ أزعُ بنبالة صدرتُ بها فما انتجعتُ حتى انتجعتُ. فأممتُ أمَّ «دار الكتب» ألتمسُ فرجاً في محنة، وأنساً بين زملة. فما وطئتُ أسكفة الباب حتى بدر في الباب ينمى إلى «أحمد» وما أحمد.

هذا حبيبٌ أتمّ الله رحمته فقضى، وخليلٌ أخلّ بخلّه ومضى؛ شكا إلى الطبِّ داءه فما أشكاه، واستأنى الأجلَ أجلٌ صغير رجاه فما آتاه.

يا كُثْرَ ما خشيتَ لوحيدك هذا الصبي فصرفتُك من خشاتك، فارددك صرف، ولا صرف عنك خوف.

أيها الماضي الباقي. أما الجزعُ على مضيك فيل القلوب، وحشوُ الصدور، تبدله كلمات، تذكرك بها مع الأوقات؛ وأما الإشفاق على بنيك، فما أعوزنا معه إلى ذي حول، يعين بقول.

وأنت يا من لم تجرح الدنيا ببصر، ولم تبلُ فيها بأياً بوطر. دخلتها دخولَ الزهاد، وخرجت منها على طيبهم.

إن القريضَ يقول فيـــك وطالما أرويت غُلّه
لم تخلُ منك منصةٌ بين المقاويل الأجلّه

شاعراً كنتَ، والأدب عشتَ، ولك بعدك ما يدلّ عليك.

فهل من كريم يذكر بيتاً بنيت، وماجد يحييك على ما أحييت، وآمر يبقيك فيما أبقيت؟

ألم هذا صغير وأمّ، وذاك ديوانٌ له مسطور. وما عونُ الاثنين ونشر الديوان بكثير.

يا ذوى النَّصفة، أنصفوه ميتاً بعد أن فاتكم أن تنصفوه حيّاً.

ثم إلى متى يجنّى الأدباء ولا يجنُون؟

إبراهيم الإبياري

الأمير مغلوباً على أمره، لا حول له ولا قوة ... وحاشيته عن كل ذلك لاهية عابثة.

وبعد ذلك أمر القائد لإكمال خدعته، بإحضار بعض الغرائر الفارغة وراح يضع في كل واحدة جندياً مزوداً بالأسلحة، وأحضر لكل غرارة رجلين لحملها إلى داخل أسوار المدينة.

ثم أمر القائد بإحضار قائد عربة الأمير وقال له:

هذه الغرائر محملة بهدايانا إلى أمير يافا ... فهل لك أن تقود رجالي إلى قصر الأمير لتقدمها إلى زوجه، عنواناً منا على خضوعنا وتسليمنا؟

فأجابه قائد عربة الأمير:

— لك ما تشاء مادام الأمر كذلك.

وسار الركب بغرائره والدليل يتقدمه فرحاً مستبشراً بهذه المهمة التي سينشرح بها خاطر زوجة الأمير.

وعند أبواب المدينة أعلن الدليل لحراسها مهمته فصدقوه وفتحوا للموا كب أبواب يافا.

ولكن سرعان ما فتحت الغرائر وخرج من فيها من جنود، وراحوا يوزعون الأسلحة عليهم، فإذا بحراس أبواب المدينة يباغتون بهذا الهجوم الفاجيء.

وفي نفس اللحظة التي فيها تمكنت جنود الغرائر من الاستيلاء على أبواب المدينة، كان جيش القائد الفرعوني قد وصل إليهم فدخل المدينة دخولاً ظافراً دون أن يتكبد جيشه ولا جيش يافا خسائر تذكر.

عز الدين فراج

أكمل شعوب الأرض
قاطبــة

في هذا الوقت الذي تدفعنا فيه الحاجة الملحة إلى أن نكدّ ونكدح أكثر بكثير مما كنا نكدّ ونكدح من قبل .

وفي هذا الوقت الذي نعاني فيه ما نعاني من أثر القيود ونقص الأقوات ونظام البطاقات .

وفي هذا الوقت الذي تهزأ فيه القنابل الذرية بكل ما تسميه المدنية المتحضرة .

في هذا الوقت الذي وصفنا ، نستطيع أن نبيح لأنفسنا أن ننظر نظرة عاتبة إلى ذلك الشعب الذي لم تزل بساحته تلك الخطوب والكروب التي ألمت بنا . ذلك الشعب الذي يرى في العمل المضني — كفكرة مجردة — بلية كبرى يسأل من مثلها العافية .

ذلك الشعب الذي يعيش في جو من السعادة المتخيلة وقد مرت عليه في بلاده قرون وقرون لم يعرف غير السعادة مركباً .

هذا الشعب هو شعب « التودا » وهو شعب يجمع بين حرفتي الرعي والزراعة .

وهو شعب يعيش أفراده في حال من السرور يكاد يخرج بهم عن حد العقل . وهم يمرحون ويسرحون بين المناظر الحبيبة فوق آكام « نلجيري » في جنوب الهند .

والناس يسمونهم « أكمل شعوب الأرض قاطبة » . ولكنهم في الواقع من أكثر الشعوب دراية وحكمة ذلك لأنهم قد عرفوا كيف يقضون أيامهم في شغل لا ينقطع وهم لا يعملون شيئاً .

وذلك لأنهم عرفوا كيف يحصلون على قوتهم دون أن يعملوا لكسب هذا القوت . وذلك لأنهم عرفوا كيف يبلغون حد التمام من حيث الحرية الاجتماعية والعقلية .

فهم لا يبذلون أي جهد في زراعة الأرض . وهم على الرغم من ذلك يلقبون « بأرباب الأرض وملاكها » . وليس ذلك بحكم اعتدادهم بأنفسهم ، ولكن بحكم ما اعتادوه من فرض الجزية اليومية على قبيلة « بوديغار » التي ينظر أفرادها إليهم نظرة احترام . يكاد يبلغ حد الاحترام الأسطوري .

وهم يعتمدون كذلك في معاشهم على قطعان الجواميس .

وهم سلالة من البشر لأفرادها جاذبية تفوق الوصف ؛ ففيهم حلاوة وظرف . وفيهم ميل للفكاهة والضحك . وهم لا يعرف الخوف السبيل إلى قلوبهم . وهم أقوياء البنية . وفي خلقهم متانة وصلابة .

وقد عاش شعب « التودا » بالقرب من « أوتاكامند » في آكام « نلجيري » زمانا لا يستطيع أن يحصيه المؤرخون .

ففي القرن الحادي عشر الميلادي كان واحد من كبار القواد الهنود يشق طريقه إلى آكام « نلجيري » وكان شعب « التودا » قد استقر هناك قبل مجيء ذلك القائد بزمن مديد .

وقد ظل ذلك الشعب طوال الأجيال محتفظاً بعاداته ومعتقداته البدائية ، وبسلامة تقاليد قبيلته .

وقد ظل أفراده سعداء . وهم يستمتعون بجو بلادهم البديع ، وقد تقدم الشعر والغناء عندهم .

وهم يتغنون بمدح موتاهم كما يتغنون بمدح آلهتهم . وهم يؤلفون الأغنيات البارعة يهدهدون بها أطفالهم .

وكذلك هم يتغنون بمدح الجمال الماثل في الفجر الطالع وفي الجبال الرواسي .

بل هم يتغنون بذكريات الأشياء التي لا تداني تلك المشاهد العظيمة في جمالها وسموها . فهم يذكرون في أشعارهم وأغانيهم القطار الذي يركبون ، والأمراض التي

أغانيهم ، كما يذكرون الضيف الذى يمر بمحلتهم كواحد من عابرى السبيل .

وهم يمزجون أغانيهم بمدح الحب والثناء على المحبين ، والاشادة بالوقائع الغرامية .

ولشعب « التودا » حرية فى المسائل الجنسية لا يلقاها المرء عند أى شعب آخر من شعوب الأرض .

والزواج عندهم شريعة مؤكدة ؛ فإذا بلغ الصبي عندهم مبلغ الرجال اختار لنفسه زوجة . ولكنه عند ما يدخل بها تصبح زوجته زوجة لسائر إخوته إلى أن يتم زواج أولئك الاخوة .

ولكن إذا ماتت الزوجة كان للزوج أن يطارح الغرام زوجة رجل آخر . وأن يأخذها إلى بيته . وأن يفاوض زوجها وأباها فى أمر شرائها (على أن يدفع الثمن أبقارا) .

وفضلا عن ذلك فان الثابت أن كل رجل متزوجاً كان أو أعزب له خليلته ، كما أن لكل امرأة خليلها .

وليست هناك موانع تقام فى سبيل الحب الصحيح ، أما علاقات الحب العابر فهى دائمة الحدوث . وهى مسائل لا بأس بحدوثها فى نظرهم ، إلا إذا كشف الزوج عن أمر هذه العلاقات ، وعندئذ وجب أن يمنح العوض .

وهكذا تحيا تلك الأمة من الشعراء والمحبين الحالمين ، وهى لا تعرف السكر أو الغيرة طعما أو مذاقا .

وقد يسائل المرء نفسه : أقادر ذلك الشعب على أن يجد من وقته متسعاً لشىء فى هذه الدنيا سوى الحب ؟

والجواب : أنهم قادرون ، فان تقاليد القبيلة عندهم لا تقوم على الحب والشعر ، بل على الجواميس والأبقار ؛ فكل شىء يتصل برعاية هذه الأنعام وصيانتها هو عندهم شىء له قداسته .

ومعمل الألبان هو هيكل « التودا » ومعبدهم .

وقد سما مقام البقرة فى تلك الهضبة الصغيرة حتى إنها فاقت الآدميين فى علو القدر والمنزلة . فأصبحوا لها خدماً . بل أصبحوا لها عابدين .

والصلاة التى يؤديها أفراد ذلك الشعب تقوم على دعاءين هما : « فليتنعم الناس بالإله ! » و« لتنعم الأبقار بالإله ! » .

والكهانة عند أولئك القوم خمس درجات : أولاها درجة « بالال Palal » وهو الكاهن الأكبر الذى يجمع بين رعى الأنعام وإقامة شعائر الدين وله على القوم سلطان أى سلطان . فهم يعتقدون أن روح الإله تحل به ، وأن المشورة التى يبديها لمن جاءه مستشيراً إنما هى من وحى الإله .

ولهذا الكاهن الأكبر لبن القطيع المقدس خالصاً . فإذا بيع هذا اللبن ، كان هذا البيع رجساً من عمل الشيطان .

والكاهن الأكبر فوق ذلك هدايا تقدم إليه استدراراً لعطفه ورضاه . يقدمها أولئك الجيران من قبيلة « بوديغار » الذين ينظرون إليه نظرة الخشوع والخوف . لا لقداسته فحسب . بل لما يظنونه فيه من معرفة بأسرار « السحر الأسود » .

والموت لدى هؤلاء القوم فرصة مواتية للقيام بطقوس عديدة غريبة . فإذا جاء أحدهم الموت ، أو ظن أنه ميت عما قريب ، حلاه أهله بأغلى الحلى ، وألبسوه أبهى الحلل ، وسقاه أصحابه لبنا سائغاً ، كآخر هدية تهدى إليه . ثم لف فى عباءة جديدة ، ووضعت فى جيوبها مقادير من الحبوب والسكر ليتزود بها فى طريقه إلى العالم الآخر . ثم نحر عدد من الجواميس ليتخذ من ألبانها زادا له وهو بالعدوة القصوى .

وهم يظنون أن أرواح الناس وأرواح الجواميس تقفز معا من قمة الهضبة إلى عنان السماء .

وإذا ولد لأحدهم ولد جىء بعجل صغير . ثم جاء والد الطفل بثلاثة مكاييل وملأ أحدها ماء . ثم صبه فى المكيالين

معلومات جديدة

عن ابن قزمان

(٢) رجلان باسم أبي بكر بن قزمان

نشر نيكل النص العربي المجرد لتسع مقطوعات متفاوتة الطول في مقال بعنوان « شذرات من حياة ابن قزمان » (مجلة «الإسلام» ١٩٣٨) ظانا أنها لأبي بكر بن قزمان. وكان دوزن ودوزى وسيبولد يعرفون معظم هذه المقطوعات. فأطولها مأخوذ من « الإحاطة » لابن الخطيب ؛ والثانية من المجلد الثاني من « ذخيرة » ابن بسام ؛ والثالثة من « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان ؛ والرابعة من « تحفة القدوم » لابن الأبار ؛ وبعد قليل نذكر المقطوعة المأخوذة من « خريدة القصر » لعماد الدين الأصفهاني ؛ أما المقطوعات الأخرى فهي إما من الشعر المُعَرَّب ، أو أمثلة من نثر ابن قزمان المسجوع .

ولنأخذ الشذرات الأربع الأولى ، وكلها بالترجمة الإسبانية حسب ترتيبها الزمني . أما المقتبسة من « القلائد » فتدور حول الوزير أبي بكر بن قزمان . وكان المتوكل عمر ابن محمد آخر خلفاء بني الأفطس في بطليوس (٤٧٣/١٠٨١ — ٤٨٧/١٠٩٤) الذي عزله يوسف بن تاشفين ، بعد معركة الزلاقة بثمانية أعوام ، كان استكتب ابن قزمان هذا وشغل مناصب عالية في الدولة قبل أن تسوء به الحال ؛ وفي أواخر حياته اختلف مع ابن حمدين (يحمل هذا الاسم قضاة كثيرون في قرطبة) ، وساءت العلاقات بينهما مدة طويلة .

وذكر ابن بسام في « الذخيرة » أبا بكر بن قزمان كاتب الوزير . ورأى أنه أبرز كتاب القرن الخامس في الأندلس ، وأول من استكتبه المتوكل . ثم أورد له رسالتين طويلتين من النثر المتكلف ، وثلاث مقطوعات من الشعر المعرب ، توجد إحداها في « القلائد » .

ومن الواضح أن هذين المؤلفين يضعان ابن قزمان في مرتبة الشعراء والكتاب المجيدين في اللغة العربية . ولا يشيران أية إشارة إلى أزجاله ، كما لا يذكران تاريخ ميلاده أو وفاته ، وإن كان الفتح يعطينا ما يمكن أن نبني عليه بعض النتائج بربط ابن قزمان بابن حمدين قاضي قرطبة في أواخر حياته .

أما ابن الأبار فيتكلم من أزجال ابن قزمان ، ويحدد تاريخه ونسبه تحديدا دقيقا ، فيسميه أبا بكر محمد بن عيسى ابن عبد الملك بن قزمان القرطبي ، كان بارعاً في فن الزجل ،

الآخرين . وهو ملصق إياها بالجانب الأيمن من رجل العجل الخلفيتين . وكأنه يشير بهذا إلى غذاء الطفل في الأيام المقبلة من لبن ، ورائب ، وزبد ، وحبوب . وهي المواد الأساسية للغذاء عند أولئك « الأقوام » .

ويبلغ عدد شعب « التودا » ستمائة ؛ ومما هو جدير بالملاحظة أنه على مر القرون لم يزد هذا العدد ولم ينقص . ويبدو أنهم عرفوا « السر » في كيف يحافظون على أنفسهم وكيف يحددون النسل وفقا لمواردهم .

ولا شك أنهم — في نظر أنفسهم — قوم جد سعداء ، لا يعرف الهم السبيل إليهم .

وقد يكونون قوماً بلهاء كسالى ، ظلوا في مكانهم طوال الأجيال جامدين لا يعرفون طريق التقدم .

ولكن ماذا نعني بالتقدم ؟ إن كان معناه بلوغ حالة من العيش قوامها القناعة والرضى ، فقد بلغ شعب « التودا » الغاية في مضمار التقدم بل قد جاوز تلك الغاية .

(مترجمة) مبارك ابراهيم

ومات فى قرطبة عام ٥٥٤/١١٥٩ فى أثناء حصار محمد بن سعد ، أمير ابن مردنيش لها ، ثم أتى له بخمس مقطوعات من الشعر المعرب غير تلك التى ذكرها الفتح وابن بسام .

وجاء ابن الخطيب بأخبار مطولة عنه عند ذكره لأبى بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان الزهرى القرطبى وهو يقسم ترجمته إلى فقر كعادته . فيجمل فى الفقرة الأولى الكلام عن شخصيته ، ، مادحاً له مستشهداً بالفتح (فيختصر أقواله) وابن عبد الملك المراكشى المؤرخ المترجم ، مؤلف « كتاب الذيل والتكملة » . ويصف المراكشى ابن قزمان بأنه كان أديباً بارعاً مبرزاً فى نظم الزجل . ويأتى بإحدى عشرة مقطوعة من الشعر ذكرها له الفتح وابن بسام ، والخمس التى أوردها ابن الأبار ، ولكنه لم يأت له بزجل ! أما الفقرة الثانية فتقتصر على الكلام عن الكاتب وتشتمل على رسالتين عن ظهور هلال رمضان وشوال . ثم يتكلم عن مجيئه إلى غرناطة ، ليعزز خبراً ورد عنه فى « الإحاطة » فى وصف عاصمة الدولة النصرية ؛ وكان ابن قزمان يتردد عليها ليمدح ابن أضحى وابن هانى وابن سعيد وغيرهم من أهل غرناطة . ويذكر مقابلة ابن قزمان فى حديقة ابن سعيد فى الزاوية (الزبية) خارج القرية للزهون القلاعية وما أصابه من خير بعد هذه الحادثة ، ويقتطف قصة ثانية من « طالع » ابن سعيد تروى لنا وقوعه فى بركة ونظمه ثلاثة أبيات من الشعر المعرب فى هذه المناسبة . وآخر الأمر يتكلم عن محنته فينقل عبارة « القلائد » بنصها . وفى النهاية يحدد وفاته قائلا إنه توفى فى قرطبة ليلة اليوم الأخير من رمضان عام ٥٥٥ (اليوم الثانى من أكتوبر عام ١١٦٠)[1] أثناء حصار ابن مردنيش المدينة .

(١) لا فى الثلاثين من ديسمبر كما يقول نيكل مكرراً غلطة سيبولد .

ونخلص من هذه التواريخ بما يلى :

كتب ابن قزمان فى بدء حياته المتوكل ملك بطليوس فى وقت غير معروف لعله قبل دخول المرابطين أسبانيا ، وآخر تاريخ ممكن هو عام ١٠٨٦ ، أعنى عام موقعة الزلاقة . ولم يكن ابن قزمان فى ذلك الوقت حدثاً ، وإنما كان فى الثلاثين من عمره تقريباً ، ولذلك أرجح أنه ولد فى عام ١٠٥٦ . وعند وفاته فى عام ١١٦٠ كان قد نيف على المائة ، وليس ذلك بالأمر المستحيل ، فقد عُمّر كثيرون فى العالم الإسلامى . ولكن لم يذكر أحد من مترجميه أنه كان معمراً . أضف إلى ذلك أن مترجميه الأولين لم يذكرا أزجاله التى يدين لها بشهرته ، على حين أشار إليها الآخران إشارة مختصرة ، وإن لم يستشهدا بشئ منها .

وشك نيكل فى هذه الأخبار ، وأخذ يبحث عن أدلته فى الأزجال نفسها . ففى عام ١٠٦٨ الذى حدثت فيه موقعة الزلاقة كان ابن قزمان صبياً فى السادسة أو الثامنة ؛ وإذا افترضنا أن المتوكل استكتبه فى عام ١٠٩٤ ، أى قبل عزله بوقت قصير يكون ذلك فى سن الرابعة عشرة أو السادسة عشرة ؛ ولكن نيكل رفض كل تلك الفروض . إذاً فكيف عرف عُمر الشاعر فى عام ١٠٨٦ ؟ وجد نيكل فى الزجل الثامن والثلاثين ، فى القطعة العاشرة التى تشير إلى موقعة الزلاقة العبارة التالية : « فى خص والدى كنت أنا ، لم نر المركة » . فهل « فى خص والدى » تعنى أنه كان « طفلا » ؟ أظن أن معنى الكلمات العربية واضح ، ولا حاجة لتغيير النص لقراءته « خصى » بدلا من « خص » : فابن قزمان يصرح قائلا : « أثناء موقعة الزلاقة كنت فى منزل أبى ولذلك لم أشاهدها » . أظن بعد كل هذا أن الشاعر لم يولد قبل عام ١٠٨٧ . فمتى صار وزير المتوكل ؟

فنستنبط مما سبق أن مؤلف الأزجال لم يكن كاتباً للمتوكل ، وأن هذا الكاتب كان شخصاً آخر يحمل الاسم

الذى يحمله الزجال . فابن قزمان الأول عاش فى القرن الحادى عشر وكتب رسائله وقصائده باللغة الفصحى ، وابن قزمان الثانى الذى ألف الأزجال توفى عام ١١٦٠ . وتكلم الفتح وابن بسام من الأول ، على حين اشتبه الاسمان على ابن الأبار وابن الخطيب فاختلط عليهما الرجلان ، واعتبراهما رجلا واحداً ، فأثار هذا الاضطراب المصاعب والعراقيل فى طريق المؤرخ .

والعجيب أن روزن عرف وجود رجلين باسم ابن قزمان منذ أول الأمر ، فذكر ذا عند وصفه المخطوط فى إحدى تعليقاته على نسخة جوزبرج قائلا : « لا تخلط بينه وبين أبى بكر بن قزمان وزير أبى ... المتوكل من بنى الأفطس » . ثم يشير روزن لابن خاقان وابن بسام وعماد الدين الأصفهانى لمعرفة ذلك الرجل . وقد أخرت الكلام عن هذه الملاحظة للآن لأنها تحتوى على الدليل القاطع على وجود رجلين بذلك الاسم . وأورد العماد فى « خريدة القصر » بعض مزايا أبى بكر بن قزمان الكاتب الوزير الذى « خدم فى أول عمره الممدوح بالمتوكل فى الغرب » يتبع ذلك فى مخطوط ليدن عبارة كانت إحدى تعليقات الهامش ثم أدخلت فى النص ، وهى « يوجد ابن قزمان آخر كان يكتب الأزجال »[1] .

وبعد أن عرف روزن الحقيقة تراجع أمام شخصية دوزى القوية . فقد قال له فى رسالته التى طبعها جوزبرج : « تظن أنه يوجد رجلان باسم ابن قزمان كما قال عماد الدين . ولكنى أعتقد أن هذا غير صحيح . فالمشارقة لا يعرفون أدب العرب فى الأندلس إلا معرفة قليلة وخاطئة . كما يخالف عماد الدين فى هذا الرأى كثيراً من علماء أسبانيا ، وإنى أظنك عارفاً المثل القائل : « رب الدار أدرى بما فيها » . وأعنى بهذا المثل ابن الخطيب الأندلسى . وقد قلت إن مقال « القلائد » يتناول وزير المتوكل ، ولكن ابن الخطيب يضيف بعد كلامه عن الزجال العبارة : « ثم جرت لابن حمدين محنة بسبب شكاسة خلق كان به شقى بسببها ، وقد ذكر الفتح فى « قلائده » ذلك » . نرى مما مضى أن ابن قزمان رجل واحد ، استوزره المتوكل فى بداية الأمر ، ولم يكن لذلك اللقب أهمية كبيرة حينذاك . ثم ساءت حاله بعزل المتوكل ودخول المرابطين الأندلس ، كما ساءت حال جميع الأدباء . ولما عزل من منصبه أصبح شاعراً مستجدياً ، يعيش على ما تدره عليه مدائحه . نستنبط من ذلك أن لقب الوزير فى مخطوطك صحيح » .

ولا يستطيع أحد أن ينكر انخداع ابن الخطيب على الرغم من المثل الذى تمثل به دوزى ، ويرجع إيمان دوزى بوجوب اتباعه إلى عدة أمور : (١) لم يطلع على المعلومات التى دونها ابن قزمان عن نفسه فى الزجل الثامن والثلاثين ؛ (٢) لم يمتلك مجموعة التراجم الأسبانية العربية التى كان ينشرها كوديرا وريبيرا عندئذ . وتكشف دراسة هذه المجموعات سر ابن قزمان .

(له بقية) حسين مؤنس

(١) هذا فحوى العبارة لا نصها .

مسرحية الناصر

للأستاذ عزيز أباظة باشا

هاهنا نجم جديد طلع يسطع فى عالم الأدب . لا نقول ذلك مجاملة ، ولا محاباة ، فإن حق الأدب أولى عندنا من كل مجاملة ومحاباة . ذلك هو الأستاذ عزيز أباظه باشا .

كان ديوانه الرائع أول ما تقدم به فى هذه السنوات الأخيرة . ثم جاء بعد ذلك بمسرحياته (قيس ولبنى) و (العباسة) ثم (الناصر) . وهذه الأخيرة هى التى تعرضها الفرقة القومية فى هذه الأيام فى دار الأوبرا ، وهى موضوع حديثنا فى هذه الكلمة .

هى قصة تاريخية ، تمثل موقفاً من عصر عبد الرحمن الناصر نابغة ملوك بنى أمية فى الأندلس ، اختارها المؤلف إطاراً لفنه ، ويجب هنا أن نعرض رأياً فى القصص التاريخى ، وجدنا أن الكثيرين من الناس لا يفطنون إليه .

نسمع فى أحاديث الأدب أحياناً أن القصص التاريخى فن قائم بذاته ، يبعد فى أذهان الناس عن الفن عامة . ولسنا ندرى لهذا الرأى وجها ، إلا أن يكون محاولة لإخراج ذلك القصص من دائرة الفن . فالمتحدثون من القصص التاريخى يشيرون إشارة خفية إلى أن الأديب إذا تحدث فى موضوع تاريخى كان له فضل العرض وفضل الجمع ، وأما فضله الفنى فيكون فى المرتبة الثانية . وهذا الرأى فى نظرنا أبعد ما يكون عن الإنصاف ، بل إننا نذهب إلى أكثر من هذا . فنقول إن الأديب لا يمكن أن يتغلغل فى طبائع النفس البشرية إذا هو استمد وحيه من دائرة الحياة المحدودة التى تحيط به فى زمنه . فالنفس البشرية أبعد غوراً من أن يستطيع الفنان أن يسبرها فى تلك الدائرة المحدودة . ولابد للفنان إذا أراد أن يطلع على أسرارها من توسيع نظرته إلى الأجيال المتعاقبة ، ولابد له من تأمل أحوالها على بعد القرون ، لكى يطلع عليها خالية من المؤثرات التى تؤثر فيه وفى أهل زمانه . فنحن فى هذا الزمان الذى نعيش فيه عرضة لتنازع الأهواء ، ولتأثير العادات المتبعة والعقائد المتأصلة فى النفوس . فأحكامنا على النفس البشرية لا تخلو من التحيز والضآلة إذا نحن اقتصرنا على تأمل ما يحيط بنا فى زمننا . ولقد كان أكبر الأدباء هم أولئك الذين استوحوا فى فهم روح الإنسان فى مختلف العصور والمواقف ، وخلصوا أحكامهم من قيود الظروف المحيطة بحياتهم .

هكذا كان شأن شكسبير . وهكذا كان شأن أناتول فرانس وهكذا كان شأن جوته . بل يمكن أن نقول إن هذا كان شأن كل نوابغ الأدب فى كل البلاد .

فالأديب الذى يعرض لحادث تاريخى إنما يريد التعبير عما فى نفسه من المعانى الإنسانية ، وهو يلبسها إطاراً من حادثة معينة وقعت للإنسان فى عصر من العصور ليصورها فى صورة مجسدة قريبة من قلوب البشر .

وعلى هذا فإنى أقول لهؤلاء الذين يتحدثون من القصص التاريخى إن هناك فرقاً عظيما بين الأديب الحقيق الذى يتخذ من التاريخ موضوعاً لتعبيره ، وبين ذلك الأديب المزيف الذى يمتطى حوادث التاريخ ، ولا يتغلغل فى بواطنها ، ولا يعبر من نفسه فيها .

هناك من الأدباء من يسردون حوادث التاريخ ، كأنما هم مسجل الحوادث ، وهؤلاء ليسوا من الأدب فى شىء ، إلا أن يكون زخرفاً زائفاً يصفون به أسلوبهم ، وهناك من الأدباء من يندسون إلى حوادث التاريخ لكى يلبسوا بها ويعبروا من النفس البشرية من خلالها . والأستاذ عزيز أباظة باشا من هؤلاء الذين استطاعوا أن يتخذوا حادثة تاريخية للتعبير من أنفسهم ، لا لكى يزينوا الأدب بزخرف حادثة لا تمت إلى نفوسهم بسبب . هذه أول ميزة نستطيع أن نبحث من أجلها الثناء الخالص إلى

الأديب الكبير فى تمثيليته البديعة التى رأيناها .

لقد أبدع أباظه باشا فى تعبيره إبداعا لا نتردد إذا قلنا إنه فاق تعبير شوقى بك فى كل مسرحياته التى لا نزال نعجب بها .

وتمثيلية الناصر كما يعرف الجميع قصة شعرية . وقد كان الشعر دائما قيداً ثقيلا على الأديب ، يقف بينه وبين التعبير الطبيعى السلس ، ويحجب كثيراً من المعانى فى التمثيل ، لأنه يجعل حركة الأشخاص جامدة متكلفة . ولكن أباظه باشا مع ذلك استطاع أن يسخر الشعر ، ويلينه ، ويجعل منه أداة قوية فى تعبيره ، حتى لقد كاد ينسى النظارة أنه يعبر عن معانيه شعرا . لقد أثقل الشعر قصص راسين وكورنيل وموليير ، ولكنهم مع ذلك لبثوا شعرهم حتى جعلوا من تمثيلياتهم روائع خالدة . وقد أحس شكسبير وكثير من أدباء القصة التمثيلية الإنجليزية ثقل وطأة الشعر ، فاختاروا لقصصهم الشعر المرسل الذى لا تقيده القافية .

وقد استطاع عزيز أباظه باشا أن يأتى بشىء كثير يعدل فن راسين وكورنيل وشكسبير . فإن الشعر لم يمنعه من أن يطلق الحياة قوية فى المواقف الرائعة من قصته ، مثل موقف الفتاة (شفق) وهى تتردد بين حبها وبين وطنيتها . ومثل موقف الفتاة (منى) وهى تظهر ابتسامة المودة ، وتخفى غل الحقد والثورة .

ولكننا نطمع من الباشا الأديب فى خطوة أخرى ، نطمع منه فى أن يسمو فوق قيود القافية ، لعله يحسن أسلوبه وطلاوة ألفاظه وحرارة مشاعره ، لعله يعوض من رنين القافية بغزارة المعانى وانطلاقها . نطمع فى أن يكون لنا فيه شكسبير عربى ، يحمل الذوق العام على تذوق الأسلوب الشعرى ، وإن خلا من رنين القوافى .

ولقد كان الأديب الباشا موفقا كل التوفيق فى تأليفه وفى تعبيره وفى تصويره ، وفى حبك مواقف مسرحيته ، وإنا لنهنىء اللغة العربية إذ نبغ فيها هذا الوجه الجديد الذى نأمل فيه للغة والفكر فنى واسعاً .

ولكننا مع كل إعجابنا بالأديب الكبير وفنه ، مرت بنا أوقات عنـد بعض مواقف فى المسرحية تمنينا لو كان أكثر توفيقاً فى تصويره . فولى العهد المحب عند ما اطلع على أن حبيبته قد خانت وطنه لم يتردد لحظة فى طرحها ، كأن لم يكن لها من قبل فى قلبه مكان . فلم تبد منه كلمة تدل على يأسه ، ولم تسمع منه أنة تنم عن خيبة أمله أو شكه . هذا مثل اضربه وإن كان لا يؤثر فى روعة القصة فى مجموعها .

ولسنا نجد هنا بدءا من التصريح بمعنى كان دائما يجول فى نفوسنا . فها هو ذا المسرح يطلع علينا بين حين وآخر بروائع من الفكر والفن ، لأنه يعترف بالأديب ويتعاون مع الأديب . فأى فرق بين ذلك المسرح وبين صناعة السينما التى لا تزال تخرج علينا بين كل حين وحين بكل سخيف سمج قبيح ! إن صناعة السينما لم تعترف إلى اليوم بالأديب ، ووكلت كل التأليف إلى طائفة ممن لا يمتون إلى الفن ولا إلى الأدب بسبب ؛ فإذا ما لجأت إلى الأدب مسخت آثار الأدباء ، حتى أصارتها إلى ما يقرب من الهراء . وهذا يدعونا إلى أن نتمسك بهذا المسرح الذى قل رواده من منافسة السينما الشديدة ، فلا بأس على المسرح مع قلة القبلين عليه إذا كان يتحفنا بروائع الأدب . لا بأس عليه أن يكون رواده قلائل لأنه يساعد على الخلق والسمو وإحياء الفن الصحيح . ولتبق السينما فى سخريتها لا هم لها إلا كسب دراهم الدهماء ، إلى أن تفطن إلى أنها تنتحر وتعمل على انتحار الفن الصحيح .

ولا يفوتنا فى هذه الكلمة أن نسجل أجل الثناء على الفرقة القومية التى كان لها الفضل الأعظم فى إبراز تعبير المؤلف أحسن إبراز وتأديته أحسن الأداء . لقد أجاد كل أفراد الفرقة فى أدوارهم إجادة تدعو إلى الإعجاب ؛ فالناصر وولى العهد وابنه الثانى والفتيات منى وشفق

قصة الأسبوع

الحلم

للكاتب الانجليزى وليم سومرست موم

وليم سومرست موم كاتب واسع الأفق إنسانى النزعة ذائع الشهرة . ويندر أن يمر عام دون أن يفتح فى الأدب الإنجليزى فتحا مبينا ويضيف إلى المكتبة الإنجليزية كسبا مكينا . وقد تلق النقاد جميع قصصه بالمدح والإطراء، وأثنوا عليها الثناء المستطاب . ولاجرم فقصصه تزداد شأنا على الأيام ، والمطبوع منها حتى الآن يربى على الملايين .

وموم من الكتاب الذين طوفوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وضربوا فى مناكبها فأفادوا خبرة جمة ومعرفة واسعة ، وذلك فضلا عن دراساته العميقة وإلمامه الدقيق بخفايا النفوس وحقيقة المشاعر والأحاسيس .

أما طريقته فى الكتابة القصصية فهى الطريقة الصحيحة التى تواضع عليها أئمة القصة ، ومنهاجه هو المنهاج السليم الذى اصطلح عليه عامة النقاد ، وبخاصة جوستاف فلوبير Gustave Flaubert عميد القصة الفرنسية على الإطلاق .

فالقاص لا يكون مجيدا بارعاً ، إذا اتخذ من القصة منبرا ، ونصب نفسه مرشدا وهاديا ، وأقام من نفسه حجابا حاجزا يحجب أحداث القصة عن عيون القراء ؛ فنى ذلك ضياع ما فى القصة من لذة ومتاع ، ومطامنة من أقدار القراء وإيهامهم بكلال الفهم والغباء . وإنما الواجب أن يتناسى القاص وجوده ، فلا يفصح هو عن مراميه ويفضح أهدافه ، وحسبه من القصة عرض الشخوص وسرد الأحداث دون الوقوف عندها والتعليق عليها ، وذلك كله فى اللمحة الدالة واللفتة المبرة والإشارة الوضاحة .

وعندى أنه لو توفر كتابنا القصصيون على دراسة فن موم واحتذاء منهاجه ، لكفوا عن نشر السخافات والحماقات، وكفوا أنفسهم شر إفساد الأذواق والأخلاق، ولأصبحت القصة المصرية شيئاً مذكورا ونتاجا مرموقا .

* * *

حدث فى أغسطس عام ١٩١٧ أن المهمة التى كنت أضطلع بها فى ذلك الحين أكرهتنى على الرحيل من نيويورك إلى بتروجراد . وكانت التعليمات التى لدى تقضى بأن أسافر بطريق فلاديفستك حتى تتوافر لدى أسباب الأمان . فبلغت المكان فى الصباح، وقضيت يومى بلا عمل، وأصبت قسطا كبيرا من المتعة . وكان من المقرر أن يقوم القطار على ما أذكر فى الساعة التاسعة مساء على وجه التقريب . فتناولت الغداء بمطعم المحطة بمفردى . وكان المطعم غاصاً بالناس ، فتقاسمت مائدة مع رجل كان مظهره باعثا على الترفيه عنى وإدخال المسرة على نفسى . كان روسيا فارع الطول ضخم البنية إلى درجة تدعو إلى الاستغراب ، وكان بطنه المتكرش يتأرجح إلى أعلى وإلى أسفل على شكل نصف قوس فى حركة رتيبة منتظمة . وبلغ من بدانته أنه لم يكن فى مقدوره الجلوس على مقربة من المائدة ، بل كان ينأى عنها قسرا عنه . أما يداه فكانتا صغيرتين بالقياس إلى حجمه ووزنه ، بيد أنهما كانتا مكتنزتين لحما وشحما .

والحاجب والأغا ووفود الفرنجة قد أجادوا جميعاً فى الأداء ، وإن كان لايفوتنا أن نسجل الثناء الأكبر لعلام (ولى العهد) وأمينة رزق (شفق) وفردوس حسن (منى) وحسين رياض (الناصر) فقد كانوا على طول المسرحية حياة دافقة وقوة رائعة وفهما صحيحا لكل خلجة من خلجات المؤلف .

وعلينا كذلك أن نرسل أطيب الثناء على الأستاذ طلبات الذى ما زال يجاهد فى سبيل إحياء الفن الصحيح منذ تولى الإدارة الفنية فى الفرقة القومية

محمد فريد أبو حديد

وأما شعره الفاحم الناصل فقد توفر على العناية به وترجيله حتى يحجب صلعته اللامعة عن الأنظار . وناهيك بوجهه الأبيض الممتقع وذقنه الكبير الحليق – لقد كانا يذكران المرء بالبغايا العراة ويدخلان عليه شعورا بالنفور والازورار ! أما عيناه السوداوان اللامعتان فكانتا صغيرتين ، بيد أن فمه كان أحمر بارزا ينم عن شهوة حسية عارمة . وكان الرجل يبدو في حلته السوداء على شيء من الأناقة . فلم تكن حلته مهلهلة غير أنها كانت رثة متهدلة يبدو أنها لم تعرف المكوى أو النظافة منذ أن اشتراها .

وأما عناية المطعم ورواده فكانت سيئة للغاية . وكان لفت نظر النادل أميا أقرب إلى الجمال . وسرعان ما شرعت أنا وصديقي في الحديث . وكان الروسي يتكلم الإنجليزية جيدا وبطلاقة . أما لهجته الأجنبية فكانت ملحوظة ، ولم تكن على ذلك مدعاة إلى التبرم منها والضيق بها ، وقد ألقى على الروسي عدة أسئلة عن نفسي وعن مشاربي . ونظراً لأن مهمتي عند ذلك كانت تحتم على أن آخذ الحيطة فقد اصطنعت الخداع والمناورة ، وقلت له : إني صحفي . فسألني عما إذا كنت من كتاب القصة . وعندما صارحته بأني أزجي سويعات فراغي في كتابة القصص شرع يتحدث إلى عن الروائيين الروس المحدثين . وكان الذكاء يلتمع من بين ثنايا حديثه . ويلي أنه ظفر بقسط وافر من الثقافة والمعرفة .

وكنا في أثناء ذلك قد ألححنا في حمل النادل على أن يقدم لنا شوربة الكرنب . وأخرج صديقي الجديد زجاجة صغيرة من الفودكا من جيبه ، ودعاني إلى مشاركته إياها ، ولا أدري ما إذا كانت الفودكا أو الرغبة في الحديث – وهي من طبيعة بني قومه – هي التي جعلته ثرثارا يرسل الكلام إرسالا . وسرعان ما أطلعني على جوانب كثيرة من حياته ، دون أن أبادره بالسؤال عنها . وبدا لي أنه ينحدر من أصل نبيل . لقد كان يحترف المحاماة وينتسب إلى جماعة من المفكرين المتحررين الروس . وكان لزاما عليه أن يقضي شطراً طويلا من حياته بالخارج جزاء وفاقا على الزج بنفسه في مشاكل مع السلطات القائمة . ولكنه كان الآن في طريقه إلى أرض الوطن . وقد احتجزته أعماله في فلاديفستك ، غير أنه ينتظر الرحيل إلى موسكو في غضون أسبوع . وقد أعرب لي عن سروره برؤيتي إذا ما ذهبت إلى هناك . وأردف قائلا :

– هل أنت متزوج ؟

ولم أدر ما شأنه وذلك ، بيد أنني قلت له إني متزوج فتنهد قليلا واستطرد قائلا :

– أما أنا فترمل . أما زوجتي فكانت امرأة سويسرية من جنيف على حظ كبير من الثقافة ؛ وكانت تجيد الحديث بالإنجليزية والألمانية والإيطالية إجادة تامة . وكانت الفرنسية بطبيعة الحال لغتها القومية . أما إجادتها للروسية فكانت فوق المتوسط ، غير أنه لا يسعك سوى الإعجاب بلهجتها الروسية السليمة .

ومر النادل ومعه صينية ملأى بالصحاف فناداه . وسأله فيما أرى – وذلك لأني لم أكن أعرف شيئا من الروسية – عن مدى انتظارنا حتى نتناول طعامنا .

وارتسمت على النادل معالم الدهشة ، وتمتم ببعض كلمات في سرعة ، غير أنها أزالت السكينة على قلبينا ، فتنفس صديقي الصعداء ، ومضى النادل في طريقه على عجل .

وقال صديقي :

– منذ وقوع الثورة والانتظار في المطاعم أمر بغيض للغاية .

ثم أشعل لفافته المشرين ، وتطلعت أنا إلى ساعتي ، وتساءلت عما إذا كنت سأتناول وجبة دسمة قبل أن تأزف ساعة الرحيل .

ومضى صديقي فقال :

– لقد كانت زوجتي ذات مواهب جمة ، وكانت تقوم

بتعليم اللغات فى مدرسة من خيرة المدارس بتروبرجراد أنشئت خصيصا لبنات النبلاء . وعشنا السنوات الطوال سويا فى وئام ووفاق . بيد أنها كانت ذات طبع نارى غيور ، ولسوء الحظ كانت تحب إلى درجة الجنون !

وكان عسيرا ألا تتغير القسمات المرتسمة على وجهى ، وألا تكتسى بطابع السخرية والاستهزاء . فلقد كان صاحبى من أقبح خلق الله ، وكان إسرافه فى استعمال الألفاظ أمرا ذميا جدا ... واستطرد صاحبى قائلا :

— وأنا لا أزعم بأنى كنت تقيا على عهدى معها . فلم تكن فى شرخ الصبا عندما اقترنت بها . وكان ذلك منذ تسع سنوات . وكانت هى صغيرة الحجم دقيقة الجرم نحيلة العود . أما وجهها فكان دميا منقبض الأسارير ، ولسانها سليطا طويلا ينطق بقوارص الكلم وأقذع الشتائم . وكان حب التملك والاستحواذ مسيطرا عليها ، ولم يكن فى مقدورها أن تحتمل تعلق بامرأة أخرى سواها ولم تكن تغار من النساء اللواتى أعرفهن فحسب ، بل من أصدقائى أيضا وهم كتبى وقططى وحدث ذات مرة فى أثناء غيبتى أنها تخلصت من إحدى سنوراتى ، لا لشىء ، سوى أنى أوثرها على سنوراتى الأخريات . ولكننى ذو مزاج هادئ تطيب له النفس ، فكانت نفسى مشفقة احتمال طباعها الشرسة ، فتلك الطباع من صنع الله كالطقس الردئ أو الصداع الذى يشج الرأس سواء بسواء .

وكانت تتهمنى بالمروق والخيانة ، وقد قيدت اتهاماتها طالما كان فى مقدورى أن أفعل ذلك ، حتى إذا أعيانى الجهد هززت منكبى وأشحت لغاية .

وكانت المشاجرات التى تختلقها خلقا لم تنل منى . إذ كنت أعيش على طريقتى الخاصة . وفى بعض الأحايين كنت أتساءل متعجبا عما إذا كان ما تحمله لى هو حب عاطفى أم كره متغلغل . وكان يبدو لى أن الحب والكره يسريان فى دمائها جنبا إلى جنب .

وكان من المرجح أن نمضى فى حياتنا على هذا المنوال لو لم يقع حادث غريب للغاية ذات ليلة . لقد استيقظت على صوت صرخة حادة منبعثة من زوجتى ، وكان يبدو عليها الذعر . فسألتها عن جلية الأمر ، فقالت لى إنها كانت تعانى كابوسا مخيفا . لقد حلمت أننى كنت أحاول قتلها . وكنا نعيش فى الدور الأعلى بأحد المنازل الكبيرة . لقد حلمت أننا فى اللحظة التى بلغنا فيهـا إلى الطبقة التى نقطنها ، أمسكت أنا بها وحاولت أن أقذف بها من على حاجز السلم . وكان بيننا وبين الدور الأرضى ستة أدوار ، وهذا يعنى الموت المحتم .

وكان تأثير الحلم بالغا . وكانت هى ترتجف بشدة . فلم أدخر وسعاً لتهدئة خاطرها . غير أنها فى صبيحة اليوم التالى أشارت إلى الموضوع مرة أخرى ، وما فتئت تردد الإشارة إليه لمدة يومين أو ثلاثة . ورغما عن عدم مبالاتى وتفكهى بالموضوع ، كنت أرى أنه قد استقر فى رأسها . ولم أجد مندوحة عن التفكير فيه ، لأنه أبان لى عن فكرة لم تجل ببالى قط . كانت تحسب أننى أمقتها ، وأننى أود التخلص منها . وكانت تدرك بطبيعة الحال أنها غير محتملة وخطرت لى جليا فكرة قتلها . وخواطر الناس لا يمكن إحصاؤها . وفى بعض الأحيان تلج أذهاننا خواطر نخجل من الاعتراف بها . كنت أعنى أن تفر زوجتى مع عشيق لها ، وكنت أعنى أيضا أن تموت على حين غرة حتى أنال حريتى . ولكن لم يخطر لى قط بصفة جدية أن أتخلص منها عامدا متعمدا ، وإن كانت فى الواقع عبئا لا يطاق .

وكان للحلم أعاجيب سحرية . لقد أدخل الخوف على قلب زوجتى فخبت لسانها فى حلقها . وكنت كلما صعدت درجات السلم ، كان محالا ألا أتطلع إلى أسفل . وكم كان سهلا إخراج الحلم إلى حيز الواقع ! . كان حاجز السلم واطئا وبحركة سريعة كان يمكن أن ينتهى كل شىء . وحاولت أن أطرد هـذه الفكرة من ذهنى إلى أن أيقظتنى زوجتى ذات ليلة وكنت متعبا للغاية ، وذلك بعد مضى عدة شهور على حلمها المروع . وكنت ثائرا فائرا . أما هى فكانت

بين المسموع والمقروء

حضرية فى أقصى الريف

فى كل أمة حضر وريف ، وأهل الحضر لا يطيقون الريف ، إلا نزهة مؤقتة للتغيير والترويح . وأهل الريف يطيقون الحضر ، ثم هم يرغبونه ، ثم هم يألفونه ، ثم يتعلقون به ، فلا يودون إلى الريف عودة ، ومن أجل هذا تزداد المدن فى كل أمة اتساعا . وعلى عكس هذا يصير الريف . وهذا داء قديم ازداد سوءا فى المدنية الحاضرة ، لكثرة ما أسدته المدنية إلى الأمصار من راحة ومتعة ، وهى أسباب للنعيم لا تجوز ولا ترخص إلا حيث يتركز الناس فى المدن .

وهذه قصة فتاة نشأت فى كبرى عواصم الدنيا ، ثم لقيت زميل الحياة الذى كان لابد لزراعته من ملازمته إلى حيث كان رزقه من الأرض ، فى ريف بعيد من أرباب الدنيا .

لقيت الفتاة زوجها فى لندن ، ثم انتقل بها بعد العرس إلى أقصى مزارع كندا .

ونامت الفتاة فى مقرها الجديد أول نومة ، واستيقظت صباحا أول يقظة . والآن فاسمع ما تحكى هى عن نفسها ، عن هذا الصباح الأول ، ثم مما تلاه من أصباح :

استيقظتُ فى ذلك اليوم الأول ، فوجدت أشعة الشمس تلعب فوق وجهى ، وقد دخلت من نافذة من نوافذ فى الحجرة صغيرة . والحجرة حجرة عجيبة ، يميل سقفها إلى ناحية النوافذ ، فهكذا بنوها . وفى ركنها الأبعد طست وإبريق ، ذكرانى بتلك الأوانى التى نقرنها بالقرن الماضى ، أو الذى سبقه . كل شىء حولى غريب ، فأين أنا ما أرى ؟ وفجأة تنبهت إلى حقيقة الحال . تنبهت إلى أنى على بعد بضعة آلاف ميل عن بلدى الأصيل ، لندن . إنى فى مزرعة ، فى كندا ، فى غربها النائى .

ترتعش من قمة رأسها إلى أخمص قدميها . لقد تراءى لها المؤسسة أخرى . ثم انفجرت تبكى ، وسألتنى عما إذا كنت أمقتها . فأقسمت بجميع القديسين الروس أننى أحبها حبا جما . وأخيرا آوت إلى فراشها .

وكانت الفكرة أعظم مما أستطيع النهوض به . فاستلقيت على فراشى ، وأمعنت النظر ؟ كان يبدو لى أنها تهوى من أعلى الدرج ، وسمعت صرختها وصوت وقوعها وهى تصطدم بالأرض الحجرية . ولم أتمالك أن ارتجفت ، وارتعدت أوصالى .

وتوقف الروسى عن الحديث . وكانت حبات العرق متجمعة على جبينه . لقد روى قصته على خير وجه ، حتى لقد أصغيت إليه بكل حواسى . وكانت هناك بقية من الفودكا فى الزجاجة فسكبها فى الكأس وازدردها فى جرعة واحدة .

وسألته بعد لحظة ساد فيها السكون :

— وكيف قضت زوجتك نحبها ؟

فتناول منديلا قذرا من جيبه ومسح به جبينه وقال :

— لقد وجدت ميتة فى ساعة متأخرة ذات ليلة بمصادفة عجيبة .

ومن الذى وجدها ؟

— وجدها أحد السكان . لقد جاء بعد وقوع الكارثة بقليل .

— وأين كنت . ؟

وليس فى مقدورى أن أصف تلك النظرة الماكرة الخبيثة التى حدجنى بها .

— كنت أقضى المساء مع أحد أصدقائى . ولم آت إلا بعد وقوع الحادث بساعة وفى تلك اللحظة أحضر لنا النادل الطعام فانهال عليه الروسى والتهمه فى دقائق معدودة .

وأزفت ساعة الرحيل فنهضت واقفا للحاق بالقطار فافترقت مع صاحبى . ولم أره منذ ذلك الحين ، ولم يكن فى إمكانى بعد ذلك أن أحزم رأيى على شىء : هل كان يمزح أم كان جادا صادق الرواية . ؟

فخرى المصرى

وقفت إلى النافذة ، أتعرف فى زهو كثير أبنية المزرعة وما احتوته ساحاتها ، فأعجبنى منظر الديكة فى الحيشان ، ومنظر الأبقار سارحة لاهية متكاسلة فى الغيطان ، ومنظر أعواد القمح تتمايل فى ازدحامها مع الريح فى الحقول البعيدة .

وأخذت طريقى من هذه الغرفة إلى الدور الأرضى ، فهبطت سلما ضيقا معوّجا ممرّجا . وأول ما رأيت من الناس زوجى فى المطبخ ، وهو يضع اللبن فى القزّازة . قال لى وهو يبتسم : إن العمل قد انتهى يا عزيزتى . وقد كانت الساعة السابعة صباحا . فوعدت زوجى أن أهذّب من عاداتى ، ووضعت الغلاية على النار لأحضّر القهوة ، وأخذت فى تجهيز المائدة للإفطار .

وتلت بعد ذلك اليوم أيام تعلمت منها أن الصاحى فى هذا الريف لا بد أن يصحو مع الشمس ، لكثرة ما هنالك من عمل . وتعلمت كثرة ما يحتاجه الفرد من الماء . فقد كان الماء يأتينا من المضخة إلى البيت ، جردلا من بعد جردل ، ومع هذا كنت أتلفّت أطلب الماء فأجد الجرادل فارغة . وحاجتنا الكثيرة إلى الماء ، كان لا يقاربها إلا حاجتنا الكثيرة إلى الخشب . فالموقد كان يأكل كل ما نطعمه إياه من الحطب أكلاً .

وخرجت ذات صباح إلى حديقة الخُضَر ، وحديقة الفاكهة ، فوجدت كثرة بالغة من هذه وهذه . ولم أكن قبل ذلك تعلمت كيف تُحفَظ الخضر وتحفظ الفاكهة . فلجأت إلى جارة لنا ، تبعد عنا ميلا أو نحو ميل ، فعلمتنى ما فاتنى ، فأثلج صدرى من بعد ذلك رؤية الأرفف الكثيرة فى بيتنا وقد ارتصّت فوقها الأوانى ، وقد احتبست فيها خيرات الأرض لحين ، من بسلة حلوة ، إلى جزر صغير ، إلى طماطم غير مهروس ، إلى صنوف أخرى من المخلّلات والفاكهات . كان منظر هذه الأشياء يدخل على نفسى الطمأنينة ، لمدى واسع ، كأنما طمأنينة الحياة تمثلت فيها . والضيف يأتى على غير انتظار ، فلا أرتبك ولا أرتاع .

وفرغنا من العشاء ذات مساء ، فقال لى زوجى ، لقد آن أن تتعلمى حلب الأبقار . وقام لتوه ، وأمسك بيدى ، وذهب بى إلى حيث الأبقار . وتبعته ، ولكن رجلىّ لم تطاوعانى كثيرا . ونظرتُ إلىّ الأبقار بعيونها الواسعة الناعسة السالمة ، فخلتُ أنها تتمنى لى النجاح . وبدأتُ أحلب . وأخذتْ الأبقار تنظر إلى مجهودى المضطرب الضعيف فى صبر وأناة ، ووسّعت لى صدرها فلم تجفل ، ولم تركل . ووددت أنا من تحيتى لو ساق لى القدر شيئا أصغر أتعلم فيه الحلْب ، كعنز مسنة مستكينة ، أو شيء مثلها .

ولم أكن فى حياتى بالمدينة تعرفت من الحيوانات إلى شيء أكبر من قطة ، لهذا أرهقنى من حيوانات المزرعة ما أرهق . حتى الدجاج خلته يفزع منى كلما اقتربت منه ، ولكنى لم ألبث أن أدركت أن من يحمل الطعام تأتيه الحيوانات ، كارهة أو غير كارهة . فحملت للدجاج طعامه فأقبل . وما أقبلتْ نفسى على الدجاج قط ، ولكنى مع هذا حدث ما كنت أجمع من تحته كل يوم من البيض الطازج ، وقد كان يزيد من حاجتنا ، فنأخذ منه كل أسبوع قفصا به اثنتا عشرة دستة إلى أقرب بلدة ، لنبيعه فيها .

وأغرانى زوجى بركوب الخيل . واختار لى حصانا مُسِنًّا ، لو طاع عليه أسد ما جرى ، فركبته ، وطمأننى على ظهره انحناؤه وتقوسه . ودار بى فى الحوش ودرت به ، فلم أدر أيهما أسخف ، وأدعى للسخرية ، هذا الجواد الكريم أم راكبه .

ثم الثور ، وكان مخلوقا من تلك المخلوقات التى لا يعتمد الإنسان دائما على مزاجها . وخيل إلىّ أن بينه وبين النساء كراهة قديمة مقيمة ، فلم أكن أقترب منه حتى يأخذه القلق ، ويقترب منه زوجى والخادم فلا يتحرك لهما . ولهذا قنعت من علاقتى بهذا الثور بأن أنظره من بعيد نظرات كلها احترام ، ولا أقول خوف ، لأنه كان دائما مربوطا فى مربطه .

وذات يوم تأخر خادمنا ، فخرجت إلى الجرن أنظر ماذا يصنع زوجى ، فصحت به : هل من معونة ؟ فقال : نعم ، خذى الثور فاسقيه . فلم أصدق سمعى ، أمزحا أراد أم جدا . وتذكرت المثل الذى يقول : إن الإنجليز إذا غُلبوا لم يدركوا أنهم غُلِبوا . وكنت انجليزية ، فلم أشأ أن

أجرى على غير ما يقضى به العقل . ومن أنا حتى أنقض مثلا قد اشتهر ؟ واقتربت من الثور وأنا أصطنع الثقة بنفسى والتظاهر بالهدوء . فهز الثور رأسه وحدجني بعينيه كأنما ينذرني إذا أنا اقتربت . عندئذ أهملت حيل الحرب وما يقضى به « التكتيك » في الميدان فتقهقرت .

ثم خطر لي خاطر . إني إذا لم أستطع أن أسوق الثور إلى الماء ، فلا شك أنني قادرة أن أسوق الماء إلى الثور . وقمت إلى أقرب جردل وملأته ، ثم حضرت به . فاحتقر الثور هذه الطريقة الرخيصة المبتدعة في سقيه . فكان منه أن ركل الجردل بحافره فقلبه ، ثم تهيأ ليدفعه دفعا . وبلغ صوت ذلك مسمع زوجي في أعلى الجرن ، فهرول نازلا على السلم ليرى ما جرى ، وحسبت أنه قلق على ، فقلت له : إني بخير . ولكنه نظر إلى ما حدث ثم صاح صيحة اليأس ، قال : واخسارتاه ! لقد تحطم أحسن جردل في جرادلنا .

وجاء السبت فركبنا عشرة أميال إلى البلدة الصغيرة المجاورة ، لنبيع البيض ونشترى حوائج الأسبوع ونتسلم خطاباتنا في البريد . وكانت دار البريد دارا صغيرة تزدحم بالناس في اليوم الذي يحمل القطار فيه البريد ، حتى تصبح من الزحام كخلية النحل ، وهي أزحم ما تكون مساء السبت . وذهبنا إلى دار المحافظة ، وفيها ومنها تحكم البلدة ، فوجدناها شيئا مقاما من الخشب . ودخلنا صالتها ، فوجدت المقاعد قد شغل بعضها بعض الصغار ، وجرى سائرهم في الردهة الكبيرة يزأطون ويلعبون . أما الكبار فشغلوا سائر المقاعد ، وأخذوا في مقاعدهم يتزاورون . وعلا الحديث ، وزاد الصراخ ، لا سيما صراخ الأمهات إلى أطفالهن في أقصى الصالة ، وقد اتخذوا من بعدهم عنهن سببا للخروج عن طاعتهن والاستجابة إلى مطالبهن .

وحل موعد السينما فأطفئت الأنوار ، وهدأ المكان هدوءا لا بأس به . وجرى حوار الممثلين على الشاشة .

وأحيانا يتنبهم من حوارهم شيء ، فتجد من كان رأى الفلم قبل ذلك يتطوع فيوضح من الحوار ما قد انبهم . ومضى الزمن فأحسست بالمقعد الخشبي يقسو على . ونظرت إلى جيراني من النساء فحسدتهن على ما كن فيه من راحة ووثارة بسبب ما تحشين به من لحم وشحم ، وذهب عنهن ما دعاني أنا من صلابة الخشب وإعوازه الحشو مقعدا وظهرا . وأخرج المتفرجون الأطعمة والفاكهة فامتلأ الهواء ثقيلا بعبير البرتقال .

وانقطع الفلم ، ثم عاد ، فصفق الجمهور لعودته طويلا ، وقد تعود الجمهور أن يرى الفلم ينقطع مرة واحدة على الأقل في المساء الواحد .

وعلى الرغم من صلابة المقاعد ، وروح البرتقال الذي عبق به المكان ، فقد أشعر أن الناس استمتعوا بما رأوا ، وما صنعوا ، وأنهم كانوا في كل هذا مخلصين غير مرائين . وانتهى العرض فأخذوا يتناقشون فيما رأوا ، فكأنما هو فلم العام قد استعرضوه المرة الأولى .

وتآزرت حول مزرعتنا المزارع ، ولم نجد في أهلها إلا صديقا أمينا ، وود من نية طاهرة لنا النجاح في حياة بدأناها .

وقد كنت أحسب أن حياة في مزرعة كهذه سيجد فيها المرء الوحدة ، ويجد السآمة ، ولكن خاب ظني ، فقد امتلأ زماننا بالعمل فأحسسنا الأيام تجرى سريعة .

وينتهى عمل اليوم ، فإذا بالكلاب تنبح تعلن قدوم ضيف ، وإذا بالضيف مزارع جاء هو وأسرته راكبين يقضون الأمسية عندنا . ونجلس في حجرة الجلوس ، وأحيانا في المطبخ ، نتسامر بالأحداث والأخبار والقصص ، وأحيانا يمسك الرجل منهم بقيثاره ويأخذ يغني ، وهي أغان غريبة تتحدث عن مغامرات رعاة البقر . وهي على الأغلب أغان حزينة يفقد فيها راعي البقر حبيبته ، أو يفقد ركوبته . وهو إذا فقد ركوبته — إذا فقد حصانه ، كان الحزن أبلغ وكانت النغمة أشجى .

وينصرف الضيوف عنا آخر الليل ، ونطفئ مصابيح الزيت من بعدهم ، ونذهب إلى مضاجعنا . وفي أثناء طلب النوم نسمع أصوات الريف في ظلامه خافتة صامتة .

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٦٦ — الثلاثاء ١٩ من محرم سنة ١٣٦٧ — ٢ من ديسمبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

سير الحوادث في قضية فلسطين

نكتب هذه السطور صباح الجمعة ، وقد أرجأت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة البت في القضية لما بعد هذا اليوم ، بعد أن تبين أنصار التقسيم أنهم لن يظفروا بالأغلبية الكافية لإقرار التقسيم . وهم يحاولون في الفرصة الضيقة التي تركت لهم أن يؤثروا في بعض الدول الممتنعة لتكون في صفهم ، ولا ندري ماذا تنتهي إليه الأمور ، وإلى أي حد تستطيع الصهيونية وأنصارها النجاح في كسب أصوات بعض الدول الممتنعة عن التصويت إلى جانبها . ولكننا نحس على الرغم من كل ما سيكون ، أن فكرة التقسيم لا تجد تأييداً صحيحاً من ضمائر ممثلي الأمم ، وأن أنصارها الحقيقيين قلة ذات نفوذ تسعى بشتى الوسائل للوصول إلى أغلبية مصطنعة تفرض هذا الحل الظالم فرضاً على العرب .

لقد أقر مبدأ التقسيم في اللجنة الخاصة بأغلبية ضعيفة وكانت أصوات المعارضين والممتنعين عن التصويت أكبر من أصوات المؤيدين ، وظهر في الجمعية العمومية أن مؤيدي الصهيونية ٢٥ صوتاً ، وأن المعارضين ١٣ والممتنعين ١٨ ، وقد استطاع العرب أن يكسبوا تأييد ثلاثة أصوات من أصوات الممتنعين ، هي أصوات اليونان والفليبين وهايتي . واستطاع الصهيونيون أن يكسبوا أصوات ثلاث دول منها . هي هولاندا والبلجيك ونيوزيلاندا ، فأصبح الوضع إلى اليوم ٢٨ صوتاً في جانب التقسيم ، و١٥ ضده ، و١٢ على الحياد ، وإذا ظل الحال على ما هو عليه فشل المشروع . أما إذا أسفرت مناورات مؤيدي التقسيم عن كسب صوتين أقر المشروع ، وحلت الكارثة التي كان العرب يسعون جهدهم لتفاديها .

ومما يؤسف له أن يلقى هذا المشروع الظالم تأييداً صريحاً من أمريكا التي تربطها بالدول العربية صلات قوية ، والتي كان الشرق يتطلع إليها على أن تكون أداة خير وإصلاح في هذا العالم ، لما وقر في الأذهان من نصرتها للحق والحرية وبعدها عن الأغراض الاستعمارية وتعففها عن التفكير في استغلال الأمم لصالحها الخاصة بما أوتيته من موارد غنية تزيد على حاجتها ، ولكن هذه الدولة العظيمة قد أصبحت خاضعة في سياستها الخارجية لاعتبارات صغيرة . فأحزابها السياسية في سبيل الظفر بنجاح عاجل في انتخاباتها الداخلية وضمان أصوات اليهود الذين يؤلفون قوة حقيقية في بعض ولاياتها — هذه الدولة لهذا الاعتبار وغيره من الاعتبارات الصغيرة تضحي بفلسطين وبصداقة الدول العربية وتبيعهما بهذا الثمن البخس .

وروسيا التي تسعى في التحبب إلى الشرق ودوله وتؤيدهم في مناوأة الاستعمار تغلب عليها شهوة النفوذ إلى الشرق باسم الاشتراك في تنفيذ قرار التقسيم وغزوه بطائفة من يهود بولاندا ورومانيا وغيرهما ممن أشربوا روح الشيوعية ليكونوا عدتها في المستقبل ، فتفرض هذه الجموع الغريبة على تلك البلاد ، وتقتطع أفضل أجزائها لكيانها ، وتحاول أن تفرض على العرب بالقوة هذا الوضع الجائر .

ليست مشكلة اليهود مشكلة تشرد وجوع ، فهذه

الدول الكبيرة التي تؤيدهم بأصواتها تستطيع إيواءهم والأموال الكثيرة التي تنفق على مشروع هجرتهم الطائلة كانت تكفل لهم أرغد عيش في كل مكان؛ ولكن طموحهم ومطامعهم سوّلت لهم أن يكون لهم كيان سياسي خاص، مع أنهم في الواقع يسيطرون على أقوى الدول، ويتحكمون بفضل نفوذهم المالي على مصاير كثير من الأمم. واستغلت الدول العظمى هذه الرغبة فيهم، ومنّتهم بتحقيق حلمهم كسبا لتأييدهم، فوجهوا وجهتهم نحو الشرق الأدنى واختاروا فلسطين باسم الدين، وأيدهم بعض أغرار القساوسة الأمريكيين انسياقا وراء نصوص في التوراة. ولكن الحجة الدينية إنما هي ستار ظاهري لمطامع اقتصادية؛ وفلسطين ليست إلا نقطة ارتكاز يطمعون أن يثبوا منها إلى الأقطار العربية المجاورة؛ وأمريكا تؤيدهم أملا في أن يكونوا أداة توسعها الاقتصادي في الشرق؛ وروسيا تؤيدهم طمعا في أن تتخذ من شيوعييهم منفذا إلى الشرق؛ وبريطانيا تتذبذب في تأييدهم ومعارضتهم وتتأرجح بينهم وبين خصومهم حتى تستبين الموقف وتقرر الجانب الذي تؤيده حسب مقتضيات الظروف والأحوال، وتعتمد على الزمن في انتهاج السياسة التي تراها ملائمة لأغراضها البعيدة.

ولكن الصهيونيين وأنصارهم فيما يبدو لا يحسبون حسابا للعرب ولا يقيمون وزنا لنضالهم، ويحسبونهم سيظلون على حالهم من الضعف والعجز والتقاطع، فتسهل مهمتهم وتتحقق أغراضهم. وأحسبهم في هذا جد واهمين؛ فإن البلاد العربية يقظة، وفيها قوى كامنة لو أحسن تنظيمها واستغلالها لقضت على أمثال هذه المحاولات؛ فإذا طاب لبغاث اليهود أن يستنسروا اليوم بأرضهم، وإذا استخفت أمريكا بأمرهم ولم تقم وزنا لنضالهم، وإذا تجاهلت روسيا اعتراضهم على التقسيم ولامتهم على مقاومة اقتطاع جزء من وطنهم ليكون هدية لليهود — إذا اطمأن الجميع اليوم لظلم العرب اقتناعا بعجزهم عن المقاومة فإن لهذا اليوم ما بعده، وإن من شأن هذا الظلم الصارخ الذي قد يوقع على العرب وهذه المحنة القاسية التي قد ينزلونها بهم، أن تفتح أعينهم على ما يتهدد كيانهم من أخطار ويجمع كلمتهم ويوحد صفوفهم على رد هذا العدوان

إن العرب لن ينسوا هذا الجرح الدامي الذي يصاب به جسم الأمة العربية، ولن يهدأ لهم بال حتى يعدوا العدة لاسترداد حقوقهم، وسيعتصمون بالهدوء وضبط النفس حتى ينظموا مقاومتهم ويحكموا تدبير خططهم ويكملوا عدتهم لدفع العدوان عن بلادهم ما دام الاحتكام إلى العدل العالمي لم ينصفهم.

أيها العرب. إنكم أمام خصوم أقوياء قد كانت عدتهم وحسن تدريبهم وكثرت أموالهم، ومن ورائهم أمم قوية تؤيدهم وتبذل لهم المعونة ولن يجديكم معهم حركات طائشة مرتجلة، ولا غضب متعجل جامح يغركم ولا ينفعكم، فاحزموا أمركم واستعينوا بالصبر والكتمان، ونظموا صفوفكم، وادرسوا موقفكم وموقفهم بهدوء وحكمة، وضعوا خططا دقيقة لتحقيق أهدافكم ووطنوا النفس على جهاد طويل تبلون فيه بألوان من الامتحان الشديد. إن الأمر جد ليس بهزل، والموقف موقف عمل جاد حازم، لا موقف ثرثرة وتظاهر وتشدق بالأقوال؛ فاجمعوا كلمتكم ووحدوا قيادتكم، والله معكم، وهو القادر أن يكفيكم شر هذا العناء برجوع القوم إلى الصواب وخضوعهم للحق وجنوحهم للسلام.

(. . .)

عدد ممتاز

تصدر مجلة الثقافة عــــدداً ممتازاً في يوم الاثنين القادم اشترك فيه نخبة من كبار الكتاب من أسرة الثقافة، وبه بحث مستفيض في موضوع «تعدد الزوجات» لحضرة صاحب المعالي عبد العزيز فهمي باشا

رؤوس أموال خفية

هناك حقا رؤوس أموال مختلفة . هذا مسلم به بغير شك . وأول رؤوس الأموال طبعا هو رأس المال الصحيح الذى يعرفه الجميع . فرجل عنده ألوف وألوف من الجنيهات ، عنده رأس مال عظيم ، وصاحب هذه الألوف لا يحتاج إلى كد ولا كدح . فإنه يستطيع أن يترك ماله يسعى بين يديه ، فيجد كل الأبواب مفتوحة له . فإذا أراد شراء اشترى ، وإذا أراد سفراً سافر ، وإذا احتاج إلى خدمة وجد الكثيرين يخدمونه ، وهكذا . هذا كله مفهوم طبعا ، وقد قيل إن المال يجذب المال ، وكل شيء يسعى إلى ما عائله . فصاحب الألوف يجد الألوف الأخرى تنحدر إليه انحداراً ، كما ينحدر الماء من أعلى الجبل إلى أسفله بغير عناء . هذا سر طبيعى أودعه الله فى الكون ، فلا مرد لما أرادته سنن الطبيعة . ومن السهل أن نتحدث طويلا عن المال وفضائله ، ولكنى أظن أن كل من يقرأ هذه السطور فى غنى عن مثل ذلك الحديث ، لأن تجربته فى الحياة قد دلته بغير شك على هذه الفضائل المعروفة .

ولكن هناك رؤوس أموال أخرى غير المال المعروف للناس . وقد قرأت لصديق مقالا عن بعض رؤوس الأموال التى لا ينظرها الناس بأعينهم ، وأظنه رجلا يحسن الظن بالحياة إلى أبعد الحدود ، لأنه قصر حديثه على قوة الإرادة وعدها رأس مال غير منظور . ولست أحب أن أراجعه ولا أن أجادله ، فأنا أهنئه بحسن ظنه ، وأرجو أن يهب الله له من قوة الإرادة مقداراً عظيما لعله يجد فيها ما يعود عليه بالأموال الكثيرة ، ويصيب من ورائها كل ما يبغى من نجاح فى الحياة . ومع ذلك فإنى أخالفه بعض الخلاف فى رأيه ، وأزعم أن قوة الإرادة أقل رؤوس المال الخفية خطرا فى الحياة . فهناك مواهب أخرى قد دلتنى تجربتى على أنها أجدى على الناس ، وفيها أكبر ضمان للنجاة فى الحياة الدنيا . وهذه المواهب التى أعرفها وأعرف فضلها ليست مما يسترعى أنظار كثير من الناس ، بل أغلب ظنى أن بعض من تقع أعينهم على هذه الكلمات سوف يهزون رؤوسهم ويبسمون كأنهم فى شك مما أقول . إلا أننى واثق من قولى ، ولابد لى من أن أجهر برأيى ، فلعلى أوجه أنظار البعض إلى أن الله قد وهب لهم من موارد الخير ما لم يكونوا على علم به من قبل .

وأول مورد للنجاح فى الناس أن يكون لهم منظر وجيه . فالرجل الذى وهب الله له جسما طويلا عريضا عنده ثروة طائلة إذا هو استطاع أن يستفيد بها . تصور أن قد دخل عليك رجل له بسطة فى القامة ، ووفرة فى الجسم وله وجه أبيض ممتلئ ، وصوت غليظ . ثم تصور أن رجلا آخر قد دخل عليك ، فرأيته قزما ضئيلا له صوت حاد ووجه ممروق . فأى الرجلين يقع من نفسك عند ما تقع عليه عيناك ؟

حكى عن عمر أنه قال : « لأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » أليس ذلك لأن منظر المعيدى لم يعجبه لما فيه من ضآلة ؟ ولو لم يسمع عمر عن المعيدى من قبل لكان قد حكم عليه بالنظرة الأولى حكما آخر .

فأصحاب المنظر يملكون رأس مال عظيم فى حياتهم ، لأنهم يستطيعون أن يقعوا فى عيون الناس موقعاً يساعدهم على قضاء حاجاتهم ، وقد يكون قضاء حاجاتهم سببا فى التأثيل والتجميع ، حتى يستطيعوا آخر الأمر أن يبنوا لأنفسهم مجدا ضخما . هذا إذا لم تكن عقولهم من الضعف بمكان ، أو إذا لم يكن فيهم حمق أو جهل أو غباوة ظاهرة ، فإن الحمق لا يلبثون أن يفضحوا أنفسهم فيضيع أثر وجاهتهم ، وأما إذا كانوا من متوسطى العقول والذكاء والكياسة ، فإنى زعيم بأنهم سوف يفوزون بما لا يفوز به من هم أقل منهم بسطة فى الجسم ، وعظمة فى المنظر . ويمكن للقارىء العزيز أن يتأمل كل من يعرف من الكبراء ، ويحصى

عدد الوجهاء ضخام الأجسام منهم ، وعدد القصار النحفاء منهم ليعرف صدق ما أقول .

وتختلف بعض البلاد فى تقدير النظر ، فمن الشعوب من يعجبه طول القامة ، ومنهم من يعجبه ضخامة الجسم ، وامتلاء الكروش ، ومنهم من يضم إلى كل ذلك وسامة الصورة . ولكنها مع اختلافها تتفق كلها فى النتيجة ، فالنظر المعجب عندها جميعا له أثره العظيم فى الحياة .

وتختلف البلاد كذلك فى مقدار تأثرها بالنظر ؛ فبعض الشعوب فيها شىء من التبصر ، فهى لا تحكم على الأفراد بالنظرة الأولى ، على حين تميل شعوب أخرى إلى أن تجعل حكمها قائما على النظرة الأولى وحدها

ويا بؤس الذين لم يهب الله لهم رأس مال الأجسام فى تلك الشعوب !

هذا رأس المال الخلق الأول . ويليه فى الخطورة رأس مال آخر يمكن أن أسميه الاعتداد بالنفس ، وإن لم يكن اعتداداً بالنفس بالمعنى الصحيح . ولأضرب لذلك مثلا صغيرا : جاء أحدهم عندما كنا فى شبابنا من بلاد (ر.) فذهب ليقابل أحد الكبراء من رؤساء المصالح . وكان ذلك الرئيس رجلا طيبا جدا ، ولكنا كنا نلمح فيه شيئا من الكبرياء . فكنا لا نحب أن نطيل معه الأحاديث . وذهب صديقنا إلى مجلسه ، فأخذ كرسيا وجلس فى هدوء ، ووضع رجلا على رجل ، ثم رفع سيجارة إلى فمه ، وأخذ ينفخ منها أنفاساً فى وجهه ، وجعل يكلمه بلهجة القرين للقرين . وقد نجح هذا الصديق نجاحا باهراً عند ذلك الرئيس الكريم . وما زال بعد ذلك يعلو ويعلو ، بارك الله له وفيه ، وأعتقد أن سر نجاحه إنما هو فى هذا الذى سميته الاعتداد بالنفس . وليتصور القارىء العزيز رجلين ، رآهما ، أما أحدهما فرجل فيه جرأة يقتحم عليه فى الحديث ويذكر من فضائل نفسه ما لا يعلم . ويمهد بين يدى حاجاته دعاية طويلة عريضة . وأما الآخر فرجل يعلوه الحياء ، ويجلله التواضع ، فلا يكاد يذكر عن نفسه شيئا ، ولا يكاد يعترف بأن له فضلا . ثم ليحدث نفسه فى صراحة وهو خال إليها ، ويسألها : أى الرجلين يكون أجدر بالوقوع منه موقع التقدير !

ثم ليسأل القارىء العزيز نفسه : أى الرجلين أحرى بأن يفوز فى هذه الحياة ؟

أما أنا فتجربتى تدلنى على أن أخيب الاثنين هو ذلك الحيي المتواضع ، وإن كان هو أفضل الاثنين وأكثرهما غناء فى الحياة .

وهناك رأس مال خلق ثالث له أكبر الأثر فى هذه الحياة . وليعذرنى القارىء العزيز إذا كنت فى رأيى قاسيا . ولكنها الحياة قد دلتنى على أن هذه هى الحقيقة . فهناك ناس يخرجون إلى هذه الحياة يرسفون فى الأغلال . يحيطون أنفسهم بقيود عدة لا حصر لعددها ولا لأنواعها . فهم يقيدون أنفسهم بالأخلاق والكرامة والعفة والإباء والشهامة والإيثار والوداعة والحياء ، إلى غير ذلك من الحسنات الإنسانية . فإذا عاش هؤلاء مع ناس آخرين ، لا يقيدون أنفسهم بتلك القيود ، أتاحوا لهم فرصة فى أن يكون لهم رأس مال عظيم . فالذين يتجردون من تلك القيود يسبقون إلى الخيرات ، ولا يجدون فى حركاتهم شيئا يعوقها . وقد تأملت أحوال الناس فى هذه الحياة ، فكان يخيل إلىّ أنهم يشبهون مجموعة خرجت تجمع الثمار من تحت أشجار الجوز . فإذا كان بعضهم من الفلاسفة الذين امتلأت قلوبهم بمكارم الأخلاق ، فإنهم يعودون من الزحام وأشداقهم فارغة ، وأما الآخرون الذين يدفعون بأنفسهم فى غير مراعاة لسواهم ، فإنهم يفوزون بأحسن الثمار يحشون بها أشداقهم . وهكذا الناس فى هذه الحياة ، فمن قيد نفسه بالأخلاق العليا ، كان جديرا بأن تفوته الفرص الكثيرة التى ينتهزها من يقتحمون ، ويقتحمون فى غير تقيد بشىء .

ألم يجرب القارىء العزيز يوما أراد فيه ركوب الأوتوبيس . هذا مثل واحد صغير ، ولكنه ذو دلالة كبرى . فإنه إذا وقف متأنيا مؤدبا لا يزاحم ولا يدفع ، وانتظر حتى يسبقه النساء والأطفال إلى الصعود فى العربة كان جديرا بأن يكون آخر الراكبين ، بل كان جديرا بأن يأمره (الكمسارى) آخر الأمر بالنزول لأن العربة قد امتلأت .

وهذا كثير الحدوث فى البلاد التى لا تعرف الوقوف فى صفوف منتظمة، يأخذ فيها كل فرد نصيبه إذا جاء دوره . فإذا كانت البلاد مثل بلادنا لا تعرف الوقوف فى الصفوف المنتظمة كان السبق فيها دائما للذين لا يتقيدون بشىء مما نسميه مكارم الأخلاق ، فيكون التجرد من القيود من أكبر رؤوس الأموال عند الأفراد .

هذه أمثلة قليلة من رؤوس الأموال الخفية التى تعمل فى صمت على نجاح كثير من الأفراد . وليست هى كل ما يمكن أن يملكه الناس فى الحياة ، فإن رؤوس الأموال الخفية أكثر مما يمكن أن يحصيه الحصر ؛ فهناك النسب الكريم ، وهناك كثرة الأهل والأصدقاء ، وهناك اتساع دائرة الاتصال ، وهناك المقدرة على التقرب إلى النفوس بالوسائل الكثيرة التى لا محل لذكرها هنا ، فإن منها ما لا يحتمل التصريح . بل إن هناك ما هو أخطر من ذلك كله ، وهو أن يكون الفرد عضوا فى عصابة يتفق أفرادها على أن يتقارضوا المنافع فى السر تحت أستار الظلام . هذه كلها رؤوس أموال خفية لا أذكرها فى مرارة ولا حنق ، لأنها متحدرة من الطبائع البشرية التى لا يملك الناس منها انفكاكا . على أن بعض الأمم قد فطنت إلى أن رؤوس الأموال الخفية قد أدت إلى كثير من الفساد ، فعملت على مقاومتها بالحكمة ووضع القوانين والقواعد العادلة ، وإلزام الناس حدودا فى التعامل حتى لا تضيع فيها الجواهر بين الزيوف .

ونحن فى مصر من أحوج الناس إلى أن نفطن إلى هذه العوامل القوية التى تعمل فى الخفاء ، وتندس إلينا عن طريق مسارب الطبع فتجعل مسالكنا عرضة للخطأ . علينا أن نفطن إليها لكى نحاول إقامة أحكامنا على الحقائق . وحسبنا ما نعانيه من سيطرة رأس مال واحد يتحكم فى مصايرنا .

محمد فريد أبو حديد

وأساليب التربية عندهم كانت عنيفة محتملة إذا قيست إلى أساليبهم في معاملة الأعداء والخصوم، والعبيد والمجرمين، فكثيرا ما كانوا يذبحون سكان المدن التي يستولون عليها ويقتحمونها كما تذبح الشاة، بعد جلدهم وضربهم ضربا مبرحا، وقد انضمت مدينة كابولا إلى القرطاجنيين أثناء الحرب بينهم وبين روما . ولما أعاد الرومانيون فتح المدينة ألقوا القبض على مستشاريها وقيدوهم وجلدوهم وأطاروا رؤوسهم بعد ذلك، ولم تكن معاملتهم للقواد أقل قسوة من ذلك ؛ فتيتس بعد أن عاث فسادا في أورشليم قبض على قائد اليهود جيورا الشجاع المقدام وجلده وقتله بعد أن شهر به ، وكان كل من يقدم للقتل يجلد علانية قبيل الإعدام .

وكانت القسوة كذلك بادية في حروبهم الداخلية مثل الحرب بين سلا ومارياس ، وربما كان ذنب سلا أعظم لأنه كان يعتبر رجلا مثقفا على خلاف مارياس الذي كان جنديا فظا ؛ فسلا بعد انتصاره أمر بقتل ثمانية آلاف من الأسرى .

ولما كثرت الصارعات والمجامع كان الأسرى لا يقتلون ، وإنما يسلمون للمدن المختلفة لاستخدامهم في الألعاب ؛ ففي عهد الإمبراطور كلوديس قبض على بعض البريطان فأرسلوا إلى الملاعب ، وكذلك في عهد تيطس بعد استيلائه على بيت المقدس ، فإنه أرسل بفريق من أسرى اليهود إلى الملاعب لمنازلة الوحوش .

أما معاملة الرومان للعبيد فكانت من القسوة التي تقشعر لها الأبدان ، كان العبد الذي يعتدي على سيده يقتل ويقتل معه عبيد المنزل جميعهم ، وكانوا لا يترفقون بهم في مرضهم أو شيخوختهم وضعفهم ؛ وكانوا يبيعونهم بيع السلع ويعتبرونهم أشياء مثل الجمادات ، وكانوا إذا ثقل حمل مركب يعمدون إلى إلقاء أحد العبيد المتقدمين في السن باليم من قبيل التخفف من ثقل الحمولة ، وكانوا يعاملونهم في المدن المحصورة معاملة تمتاز بالقسوة ، فيجمعون ما بالمدينة من المؤن والزاد ويحرم العبيد من الطعام ، ويضطرون إلى أن يعيشوا على الحشائش والأعشاب ، ولم تصدر قوانين لمنع التنكيل بالعبيد والإسراف في ذلك إلا في عهد الإمبراطورية بسبب تغير الأحوال الاجتماعية وانتشار الأفكار الإنسانية مثل أفكار سنكا وأمثاله من الفلاسفة الأخلاقيين ؛ فمنذ ابتداء الإمبراطورية صدر قانون يمنع السادة الأشراف من الحكم على عبيدهم بمنازلة الوحوش ؛ ومنذ عهد أنطونيوس بيوس كان العبيد يستطيعون أن يشكوا سادتهم إذا أساءوا معاملتهم وعنفوا بهم .

وألغى الإمبراطور هادريان حق السيد في قتل عبده أو بيعه إلى الملاعب ، وامتاز عهد قسطنطين بأن جعل قتل العبد جريمة كسائر الجرائم .

على أن سبب رواج أمثال هذه الأفكار كان اقتصاديا محضاً ، فبعد أن استقرت الإمبراطورية ووقفت الفتوح وتوجهت الجهود إلى التنظيم وتحسين الإدارة قلت المصادر التي يجتلب منها الرقيق ، ومن المعروف أن عدد الرقيق بلغ أقصاه عند ابتداء عهد الإمبراطورية .

على أن تحسن أحوال العبيد ورقي القوانين التي توصي بالرفق في معاملتهم كان يقابله من ناحية أخرى تزايد صرامة العقوبات وطرق تنفيذها وأساليب الإعدام ؛ ففي عهد قسطنطين حدثت فظائع كثيرة مثل انتزاع اللسان وصب القصدير الثقيل المذاب في أفواه المجرمين .

أما مسارح المصارعة فهي من أسوأ النواحي في حياة الرومان، ونقيصة من أشد نقائصهم حلوكة سواد وخلواً من الرحمة والأريحية ؛ فعقب اكتساح قرطاجنة وسقوطها كان يرى أفريكانوس الأصغر القارين الأجانب إلى الوحوش الضارية ؛ وهذا يبين أن الاستمتاع بمرأى الوحوش وهي تفترس الآدميين لم يكن في عهد الإمبراطورية فحسب ، وإنما

كان سابقاً لذلك ، وهذا مما يؤيد قول ستيكل « فى الروح الإنسانية تكمن القسوة كالوحش الضارى مكبلة بالقيود ، ولكنها متطلعة إلى الوثوب » .

وفى عهد الإمبراطور أغسطس قيصر كان الإعدام بالإلقاء إلى الوحوش عقوبة قانونية .

وأمثال هذه المناظر زادت القسوة فى نفوس الرومان وغذتها وتعهدتها وأيقظتها من رقدتها ، فصار المجرمون والعبيد يرسلون إلى المسرح ليستمتع الجمهور بمنظر مسيل الدماء وتمزق الأشلاء ، ويشنفوا أسماعهم بنغم الأنات المتصاعدة والتأوهات والآلام ، وكان الحاضرون من جميع الطبقات حتى العذارى الطاهرات الناعمات الرقيقات .

وكانت الضحايا ترسل إلى الموت بطرق مختلفة تكاد تتبارى فى القسوة والتنكيل والإيجاع والإيلام ، كان المجرم يربط إلى سارية وهو عريان أعزل لا يملك دفاعاً عن نفسه ، وتتول الوحوش بعد ذلك عرق عظمه ونهش لحمه .

وقد أخرجت روما ثلاثة رجال من المفكرين الأعلياء والكتاب النبلاء ، ولكنهم مع ذلك لم يرفعوا الصوت باستنكار هذه العادة الزرية الحاطمة للأخلاق والهادمة للشعور الكريم والإحساس المهذب ، وهؤلاء الثلاثة هم ميشرون وتاسيداس وسنكا ؛ وليس ذلك غريباً ، فقد كانت النزعة السادية متمكنة من نفوس الرومانيين أصيلة فى أخلاقهم ، وكان الرومانيون يستمدون السرور من هذه العادة السيئة ، لا بحكم التقاليد وحدها ، وإنما بحكم الدوافع السادية التى ترقد فى كل قلب والتى إذا استيقظت تتلاف على دافع أقوى واندفاع أتم ، وكان دافع حب القوة فى نفس الرومان يزيدها حدة وسطوة ، وكان لا بد أن يتبع هذه القسوة والكراهة والظلم ظهور إنجيل الحب والعطف والإنسانية ؛ ومن ثم كان ظهور المسيحية السمحاء ضرورة لازمة ونتيجة محتومة واجبة .

على أدهم

الحساب ومبادئ القراءة تحت إشراف المربيات إشرافاً فردياً . والمشرفة مرشدة فقط ، ولا تكره طفلا على عمل لا يرغب فيه . ولها من علمها وخبرتها ما يجعلها توجه الأطفال التوجيه الصالح .

وإذا جاء وقت الغداء ذهبوا جميعاً إلى المطعم يحمل كل طفل معه كرسيه الخشبي ، فيضعه بجوار المائدة ، ويذهب إلى المطبخ — كل طفل بدوره — ليحضر غداءه بنفسه ؛ فإذا ما انتهوا من الأكل حمل كل منهم أدوات الأكل وعاد بها إلى المطبخ ليتركها هناك ؛ وبعد الظهر يعد كل واحد منهم فراشه المصنوع من الخشب والقماش ، ثم يستلقي عليه نحو ساعة في هدوء أو سنة . فإذا هبوا من نومهم استأنفوا لعبهم وعملهم .

ويقسم الأطفال عدد من المربيات لكل منهن وظيفة خاصة ، ولها حجرة بالمدرسة . وللطفل الحرية في أن يذهب إلى المربية التي يود أن يكون معها . ويسير الأطفال في أعمالهم بحسب ميولهم الفردية تحت إشراف هؤلاء المربيات ، ويتعلمون عرضا أثناء اللعب والعمل الفردي .

ولقد أدهشني ما شاهدته على هؤلاء الأطفال من حرية في التعبير ، وبراعة في القول . دعيت مرة إلى حجرة الموسيقى . فشاهدت فرقة منهم تعزف تحت قيادة رئيس من أنفسهم ، كأنها فرقة من الكبار .

وفي قسم الصغار تتيح المدرسة للتلاميذ الفرصة الصالحة ليتعلموا أي مادة أو فن يريدون من غير تقيد بجدول خاص للدراسة أو منهج مقرر . ففي كل حجرة للدراسة أو معمل أو مكتبة مدرسون ومشرفون . وللتلميذ أن يذهب إلى المكتبة أو الحقل أو مقطع الأخشاب أو معمل النسيج ، أو قاعة الموسيقى . ولكنه في كل حال يعمل شيئا ذا هدف واضح ، ويتعلم عن رغبة وميل . ولكل جماعة من التلاميذ « رائد » يختارونه بأنفسهم ، وهو الذي يوجههم في أعمالهم ونشاطهم ودراستهم . وليس في قسم الصغار منهج دراسي موضوع ، لأن المدرسة تعتقد أنه لا حاجة إلى مثل هذا المنهج في هذه المرحلة . ويكفي توجيه الرواد وإشراف المدرسين ، وإتاحة جميع الفرص التربوية للصغار .

وحين يصلون إلى قسم الكبار يكونون قد حددوا اتجاههم العقلي ، وتهيئوا لفرع من الدراسة يميلون إليه وظهر استعدادهم له . وهنا تهتم المدرسة بتوجيه التلميذ إلى نوع الدراسة الذي يلائمه تمهيدا لدخوله الجامعة . ويشعر التلميذ بدافع من نفسه ، أنه يجب أن يعد لامتحان الالتحاق بالجامعة . فيبحث عن البرامج والمواد التي يحتاج إليها . وتنظم له المدرسة أنواع الدراسة المطلوبة .

ومع أن المدرسة لا تعقد أي امتحان أثناء حياة التلاميذ المدرسية ، فقد تفوق من تقدم منهم لامتحان الدخول بالجامعات .

وللمدرسة مبادئ حرة جديرة بالذكر ؛ منها أنها لا تلزم أي تعليم ديني خاص ، وإنما تترك للطفل أن يفكر بنفسه ويبحث ويختار الدين الذي يريده عند ما يصل إلى مرحلة التفكير والبحث والاختيار . وكل ما تعمله المدرسة هو أن تقدم له من المعارف الموضوعية ما يحتاج إليه ، وهي لذلك لا تفرق بين دين ودين . والمدرسة لا تعترف باختلاف الأجناس ، وكل الأجناس عندها سواء . ولقد كان بها عند ما زرتها تلاميذ من الهند واليابان والقارة الأوربية . وليس للمدرسة زي خاص كما هي الحال في معظم المدارس الإنجليزية ، وإنما تترك للتلاميذ أن يلبسوا ما يشاءون ، وقوانين المدرسة ولوائحها من وضع التلاميذ ، وهم المسئولون عن تنفيذها وعقاب من يخرج عليها ، ولذلك فلهم برلمان وحكومة مسئولة أمام هذا البرلمان .

وتؤمن المدرسة بالاختلاط بين الجنسين ، وترى أنه أمر طبيعي ، وأن كثيرا من الأمراض العصبية ، والعقد النفسية ، نتيجة لمنع هذا الاختلاط .

وبعد فهذه صورة عامة للمدرسة ونظامها . وأرجو أن أعرض في مقال آخر المبادئ الرئيسية التي تطبق في هذه المدرسة ، والدفاع عنها . وهذا ما تضمنه كتاب « التربية السليمة » .

عبد العزيز عبد المجيد

القطة السوداء

يا نصيب !

في هذه الكلمة القصيرة تلخيص موجز — لكنه تلخيص مليء بالقوة والحياة — لقصة كثير جدا من الأحياء والأشياء في هذه الدنيا ، فعدد كبير من الناس جاءت له الحياة على نحو تلخصه كلمة يا نصيب ! هذا إنسان سُحبت ورقة نصيبه فإذا هو مولود لرجل غني يرث ماله المريض ، وذاك آخر ، يولد لمعدم فقير لا يرث عنه إلا الهم والمرض .

وعدد كبير من الحيوان جاءت له الحياة كذلك على نحو تلخصه كلمة يا نصيب ! فكلب ينعم بما تشتهيه الأعين والأنفس من لذائذ العيش ، وكلب يتمرغ في الطين ويأكل العظام ويضرب على ظهره بالهراوة والعصي .

وعدد كبير من الأشياء جاءت ظروفه على نحو تلخصه كلمة يا نصيب ! فنسخة من كتاب قد تباع بالقروش والملاليم وهي لاتزال زاهية بحلتها الجديدة ، وتباع زميلتها بعد أن يتغضن عليها الجلد ويصفرّ لون البشرة — أعني إذا ما تقدمت بها السنون — تباع هذه الزميلة العتيقة بمئات الجنيهات وألوفها ، وربما كان صاحب الكتاب في حياته أشد ما يكون الإنسان حاجة إلى مال .

بل إن عددا كبيرا من الألفاظ أراد له الله هذه القصة نفسها في تقدير المحظوظ ، ومن هذه الألفاظ كلمة منحوسة مسعودة في آن معا ، منكودة مجدودة في وقت واحد ، هي كلمة «فلسفة» ؛ فقد تُسحب ورقة نصيبها حينا فإذا هي دليل على اضطراب الفكر والتواء النظر ، وقد تسحب ورقة نصيبها حينا آخر ، فإذا هي وصف العبقرية والذهن الجبار — فلماذا ؟ .

لأن الناس مذ جعلوا ينعتون بالفلسفة بعض ضروب التفكير اختلفوا ، وهم لا يزالون يختلفون في مدلولها . فيم يبحث هذا الذي اعتزل في برجه العاجي وغلّق دونه الأبواب زاعما لنا أنه فيلسوف ؟ إن الناس ليعرفون على وجه الدقة واليقين متى يكون الرجل رياضيا أو طبيبا أو عالما من علماء الطبيعة أو الكيمياء ، وقل مثل ذلك في شتى ضروب المعرفة . . . إلا الفلسفة !

سل أصحابها : فيم تبحثون ؟ يتعثروا في الجواب وتحمر وجوههم الخجل ، فإن كانوا ممن لا يخجلون ولا يتعثرون في الكلام ، أجابوك بكلام أقل ما يقال فيه أنه كلام غير مفهوم . والحق أني لا أعجب لرجل يصادفني في بعض الطريق فيعلم عني أني درست الفلسفة وتخصصت فيها حتى ظفرت بدرجاتها العلمية أدناها وأعلاها . لا أعجب له إذا ابتسم مشفقا ساخرا كأنما يريد أن يقول : وفيم هذا العناء كله ، لست أعرف عن الفلسفة إلا أنها الكلام إذا لم يكن له معنى مفهوم ! لست أعجب لمثل هذا الرجل ، لأني أتهم كثيرين ممن يشتغلون بالفلسفة بأنهم يقولون ما لا يفهمون ، إذا كانوا لأنفسهم يخلصون .

هم يقولون ما لا يفهمون لأنهم يحاولون — عبثا وباطلا — أن يجدوا لدراستهم موضوعا ، ليكون شأنهم في ذلك شأن سائر عباد الله ؛ وفاتهم أن الحقيقة الحلوة — والحقيقة ليست مُرّة دائما — هي أن الفلسفة دراسة بغير موضوع ، ومن شاء أن يتصيد لها موضوعا تخبط في ديجور بعد ديجور .

الفلسفة طريقة في البحث بغير موضوع ، فليست غايتها أن تبحث « مسائل » لتصل فيها إلى « نتائج » لأنه ليس هنالك « مسائل فلسفية » ولا ينبغي أن يطلب من الفلسفة أن تصل إلى « نتائج » عن حقائق الكون ؛ كل مسألة في الدنيا يراد فيها الوصول إلى نتائج يجب أن تترك للعلم والعلماء ، إذ هي والله أضحوكة الأضاحيك أن يجلس المتفلسف على كرسيه في برجه معزولا عن العالم ؛ حتى إذا ما سئل : ما ذا تصنع هاهنا في عزلتك هذه ؟ أجاب : أريد الوصول إلى حقيقة العالم ! ! ! وسأسوق لك

كقولك عن الرجل إنه وزير بلا وزارة ، فيعمل في العدل مرة وفي الدفاع مرة ! هي البحث عن معاني الألفاظ ، لا كما تشرحها القواميس ، بل هو بحث تحليلي له أوضاع وشروط . . . ماذا أريد أن أقول للقارئ في مقال ؟ إن موعدي معه في ذلك كتاب .

أكاد أوقن أن كثيرين — وكثيرين ممن يشتغلون بالفلسفة دراسة وتدريسا بنوع خاص — سينكرون علىّ ما ذهبت إليه ، وسيقولون : وماذا أنت صانع بهذه « المشكلات » التي أخذ الفلاسفة في حلها منذ نشأت على وجه الأرض فلسفة ؟ وأعود فأؤكد لهؤلاء أن الأمر لا يعدو أحد اثنين : فإما أن تكون تلك « المشكلات » مسائل حقيقية عما في الكون من أشياء ، وعندئذ فهي من شأن العلم وحده يقول فيها قوله ويبحث فيها بطريقته ، وإما أن تكون « مشكلات » زائفة بمعنى أنها أسئلة لا تحتمل الجواب ، لأنها كلام فارغ من المعنى ، وإنما خدع به الناس حين رأوه يتخذ هيئة السؤال كما يقررها علم النحو ، لا كما يقررها منطق العقل ، إذا سألتك مثلا : ما لون الفضيلة ، أهو أحمر أو أصفر ؟ كم تساوى زوايا الإنسان هل تساوى قائمتين أو أكثر ؟ فماذا تجيب ؟ إنك لن تجيب ، وستعلم أني لست جادا في السؤال ، لأن سؤالي لا يحمل معنى يتفق مع طبيعة المنطق ، على الرغم من أنه يتخذ صيغة يرضاها علم النحو ، لكن النكبة الكبرى هي أن بعض الأسئلة يخدع الناس ، فيكون فارغا من المعنى كهذه الأسئلة التي سقتها إليك ، غير أن فراغها من المعنى لا يكون بهذا الوضوح ، فترى الناس ينفقون أعمارا وأعمارا في محاولة الجواب ولا جواب ! خذ هذا السؤال مثلا : ماذا وراء الطبيعة ؟ . . . لن أحدثك عن ضخامة الجهد الذي بذله « الفلاسفة » في سبيل الجواب . والأمر في حقيقته هو ألا سؤال ، وإذاً فلا ينبغي أن يكون جواب ، شرط السؤال أن يكون جوابه مما يمكن عليه التحقيق ، وشرط التحقيق أن تكون مادة الجواب مما يمكن أن يقع في حدود التجربة الإنسانية ، وما عدا ذلك هراء في هراء .

وسيقول المستنكر مرة أخرى : ليست الميتافيزيقا إلا المسألة وأضرابها ، فماذا أنت قائل ؟ قولي هو أن الميتافيزيقا أسطورة من أساطير الأولين — وكثير من الآخرين وهاهنا تأتي قصة القطة السوداء ، فقد قيل عن « الفيلسوف » الذي يحمل همه مثل هذا البحث العقيم ، إنه رجل أعمى يبحث في غرفة مظلمة عن قطة سوداء ليس لها وجود

زكي نجيب محمود

معلومات جديدة

عن ابن قزمان

(٣) نسب بني قزمان في التراجم الأسبانية

تحتوى فهارس « المكتبة العربية الأسبانية » على خمس تراجم تدور حول بني قزمان القرطبيين : اثنتين في « صلة »[1] ابن بشكوال ، واثنتين في « بغية الملتمس » للضبي ، وواحدة في « تكملة الصلة » لابن الأبار . ويسمى ابن خاقان وابن بسام وعماد الدين وزير المتوكل أبا بكر بن قزمان . ويشير المخطوط إلى أن مؤلفه « الشيخ الوزير الأجل أعجوبة الزمان » أبو بكر بن عبد الملك بن قزمان . أما ابن الأبار وابن الخطيب فيذكران اسم « محمد » الذى يتفق مع « أبي بكر » ويدخلان اسم « عيسى » في النسب فيصير الاسم عندهما كما يلي : « أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان » .

وتذكر التراجم الأسبانية محمد بن قزمان واحداً ، ولكنه ليس ذلك الشاعر لأنه توفى عام ٥٠٨ هـ ، وإنما أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان (الصلة نمرة ١١٣٩) ، ذو المواهب العقلية الكثيرة المعروف بالكاتب . وقد توفى في ٦ رجب ٥٠٨ (السادس من ديسمبر ١١١٤) في قرطبة ، ودفن في مقابر أم سلمة[2] . ولاشك في أن هذا الأديب هو كاتب المتوكل ، ولا يذكر ذلك المترجم ، ولكن تشابه الاسم وملاءمة التاريخ يرجحان ذلك .

وتكثر الإشارات إلى أولاد ذلك الرجل . فتوجد قصتان (الصلة نمرة ٥٧٢ ، والبغية نمرة ٩٨٩) تشيران إلى ابنه أبي مروان عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن قزمان المعروف بفقيه قرطبة ، ولد عام ٤٧٩/٦–١٠٨٧ ، وتوفى في أشونة ١١٦٩/٥٦٤ . وخلف عبد الرحمن ابناً يسمى أبا الحسين عبيدالله (التكملة نمرة ١٥١٧) . وقد ولد عبيدالله هذا في قرطبة حوالى عام ٥١٨/١١٢٤ ، وأقام في أشونة إذ كان أبوه قاضيها . وتولى قضاء عدة نواح من منطقة قرطبة ، وكان تلقى العلم بها وعالقة . ومات في أشونة في عام ٥٩٣ أو ٥٩٤ (٦ — ١١٩٨) . وكذلك تذكر القصة نسبه كاملا : « عبيدالله بن عبدالرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن عبيد الله بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان . إذاً يسمَّى جد عبيد الله ، وأظنه كاتب المتوكل ، أبا بكر محمد بن الملك ابن عبيد الله ، وليس محمد بن عيسى ، كما جاء في « تحفة القادم » و« الإحاطة » . يلزم من هذا أن « عيسى » الذى أدخل في النسب ليس إلا أخا الأديب محمد بن عبد الملك ، وأبا الزجال محمد بن عيسى بن عبد الملك ؛ وليس الزجال إلا ابن عم سميه . وإشارة « البغية » (رقم ١٤٩) لذلك الرجل لأنه ليس من المحتمل أن يشير القال إلى جد جد جد الشاعر . والإشارة موجزة جدا ، ولا تحتوى على تواريخ ، وتتحدث عن أبي الأصبغ عيسى بن عبد الملك بن قزمان الكاتب الشاعر .

وتذكر مخطوطة « كتاب الذيل والتكملة » لابن عبدالملك المراكشي ابنه الشاعر ، وهو أحمد بن محمد بن عيسى ابن قزمان الزهرى القرطبي المكنى أبا القاسم المقيم في مالقة ، وهو ابن أبي بكر بن قزمان الذى اشتهر ببراعته في نظم الشعر الخفيف باللغة الأسبانية الدارجة . ثم ردد بعض الأحاديث عن أبي بكر بن صمجون النحوى ، وقد رواها عنه أبو القاسم بن محمد بن الطيلسان . وتوفى بعد عام ٦٠٠/١٢٠٤ بوقت قصير .

إذاً انحدر من عبد الملك بن عبيد الله قزمان من بني قزمان القرطبيين : أحدهما انتقل إلى أشونة ، والآخر إلى مالقة . وهاك شجرة النسب .

(١) « الصلة » (نمرة ١٤٩) عبارة عن ترجمة لأبي بكر أحمد بن ابراهيم بن قزمان الطليطلي (القرن الخامس الهجرى) ، ولا يتصل ببيت قزمان القرطبي .

(٢) ليفي بروفنسال ، أسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ، ١٩٣٢ ، ص ٢٠٩ .

عيسى بن عبد الملك بن قزمان الزهري

عبيد الله

عبد الملك
النصف الأول من القرن الحادي عشر

أبو الأصبغ عيسى
(توفي بعد ٤٧٩ هـ ١٠٦٨ م)

أبو بكر محمد
(ولد بعد ٤٧٩ = ١٠٨٦ وتوفي ٥٥٥ = ١١٦٠)

أبو القاسم أحمد
(توفي بعد ٦٠٠ = ١٢٠٤)

أبو بكر محمد
(توفي ٥٠٨ هـ = ١١١٤ م)

أبو مروان عبد الرحمن
(ولد ٤٧٩ = ٦ — ١٠٨٧ وتوفي ٥٦٤ = ١١٦٨)

أبو الحسين عبيد الله
(ولد ٥١٨ = ١١٢٤ وتوفي ٣ — ٥٩٤ = ٦ــ١١٩٨)

(٤) الرجلان في «مغرب» ابن سعيد

إن لم يكن القراء قد اقتنعوا بالمناقشات السابقة، فهاكم ما سيهزم ترددكم الأخير:

تحتوي دار الكتب المصرية على نسخة من «المغرب» لابن سعيد بخط المؤلف، وقد صورت المجلدات التي تتناول أسبانيا الإسلامية، وآمل أن أنشرها قريبا بمعاونة الأستاذ جارسيا جومز[1]. ويوجد في الجزء الذي يعالج مملكة قرطبة مقالان متجاوران يتكلمان عن الرجلين المسميين باسم ابن قزمان: فيز الأول كاتب المتوكل بالأكبر، والثاني ابن عمه الزجال بالأصغر، فماذا تريد بعد ذلك؟ وهاكم النص:

بيت بني قزمان

أتى على هذا البيت الحجاري في بيوت قرطبة، وأنهم لم يزالوا ما بين وزير، وعالم، ورئيس.

أبو بكر محمد الأكبر بن عبد الملك
ابن عيسى بن قزمان القرطبي

ذكر ابن بسام أن المتوكل صاحب بطليوس أول من اتخذه كاتبا، وأثنى على بيته وذاته، وأثبت له رسالة من غير طائل، وشعراً تركه أولى من إيراده. وأثنى عليه صاحب «القلائد» وذكر أنه تكدر عيشه في آخر عمره، وأساء في حقه القاضي أبو عبد الله بن حمدين، وأن أخلاقه كانت صعبة، فقلت من غربه، وكانت سببا لطول كربه، ولم يورد له إلا قوله[1]:

ركبوا السيول من الخيول وركّبوا
فوق العوالي السمر زرق نطاف
وتجللوا الغدران من ماذيّهم
مرتجة إلا على الأكتاف

أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك
ابن عيسى بن قزمان الأصغر

إمام الزجالين بالأندلس، وسير من مجانبه في «الأهداب»

(١) انظر «الأندلس» المجلد السابع، ص ٢٥١.

(١) ذكرتها الذخيرة والإحاطة والنفح، ج ٢ ص ٤٣٩.

والفتون ، ما عوضت به عما استلبته منهـا من عيش ومال ونصير .

وأخيراً دفعتها الحاجة الملحّة ، بعد أن كظمها الحزن وأمضها الغيظ ، فاهتدى بها تفكيرها إلى عمل حر ، وهو أن تخبز الخبز وتبيعه على البيوت . والزائد منه ترسله إلى السوق . . . وكذلك شأن الأحرار الذين يحملون بين جوانحهم وفي حنايا ضلوعهم قلبا مؤمناً كبيرا ، ونفساً عزيزة عالية ، وطباعا أبيّة شمّاء . لا تثير فيهم الطمع أموال الأغنياء ، ولا بهرجة أولاد الذوات .

وبدأت الفتاة في عملها وباشرته بصدر رحب وروح مسرورة راضية وخاطر طروب . وعينت لها زبائن ممن يجاورها من البيوتات . وراحت تعطى كل بيت ما يطلبه من الخبز يومياً بعد أن تطرق الباب طرقاً محترما حيّيا ، لا يجلب ريبة ولا يثير شكا ، ثم تقف منزوية بوصيد الباب حتى يخرج إليها من يأخذه من يدها فتذهب حيث تعطى البيت الثاني ، فالثالث ، فالرابع ، وهكذا .

وقد كانت البيوت التي تبيع لها كلها بيوت أغنياء ، وذوات ، وموسرين . ينمّ مظهرهم عما هم فيـه من جاه محسود ، وسعادة محضة ، وعيش لذيذ .

واتفق أن طرقت باب أحد زبائنها . فبدل أن تخرج إليها الخادم — لأنها كانت مشغولة — خرج الابن الأكبر لصاحب الدار ، ولأنه كان على مقربة من الباب . فتناول الخبز من يدها ، وكان شابا ساذجاً يركن إلى العزلة والسكون أكثر أوقاته . فلا تراه إلا منزويا عن أهله ، معتزلا عن إخوانه وأصدقائه ، كأنه برىء من العالم ، والعالم منه براء . بل كان يتردد علىّ بين حين وآخر ، وأنا في مكتبي فيجلس طويلا ، ولكن كأنه السجين لا يتحرك بحركة تحس فيها شيئا من النشاط . وكل ما بالأمر أنه كان يقضى أكثر وقته عندى في تقليب صفحات كتاب لا تقع عينه على صفحة إلا طفرت منها إلى الأخرى . فلم

تكن له نزعة معينة أو ميل خاص لشىء مما يقرأ أو يطالع .

وانقطع عني مدة طويلة ، ورأيته بعدها وإذا هو شاب غرانق . تقتله اللحظة وتأسره الإيماءة ، مرهف الحس ، طلق اللسان نشيط الحركة ، من الطراز الأنيق الخفيف ، يعرف الأصول ويجيد (الاتيكيت) .

فأدركت أن في الأمر شيئاً ، وأن هذا التغير الفجائي الذي جعل من هذا الشاب الأشعث المنزوى الأخرس ، شابا نظيفاً ، اجتماعيا ، طلق اللسان . لا بد أن يكون دافعاً نفسانيًّا قويًّا ألح عليه وحمله على تغيير أحواله وأطواره .

وما كدت أسأله عن سبب هذا . حتى كاد ينفجر كأنه بركان ينفث من جوفه رهجاً وشواظاً قبل أن يصيب أحداً ولا يرديه . ثم تنهد وقال بعد آهة وزفرة طويلتين ، ونبرة شجية فاتنة :

أخي : كف عن لومى فإنك لا تدرى
بما فعل الحب المبرح في صدرى

أخى أنت تلحانى وقلبك فارغ
وقلبي مشغول الجوانح بالفكر

دوائى ودائى عنـد من لو نظرتها
تحرك جفنيها لأقصرت عن زجرى

وبعد كلام طويل قال : وما كدت أتناول الخبز من يدها ، حتى رأيت جمالا فارطاً ، وأنوثة كاملة ناضجة ، ودماً شفافاً ينم عن كنز مصون ما رأت العيون مثله إلا نادرا . وما كدت — يا أخي — أختلى بنفسي بعد ذلك حتى تألبت على الفكر وأخذت تنازعنى الهواجس . وأحسست دبيب الحب في قلبي ووسوس الهوى ، ودوافع الغرام . . ومن أين هذا الملاك الذي تزيا في زى خبازة يأتى ليقدم لنا الخبز فتشتغل الخادم فأخرج أنا لأتناوله عن غير قصد ولا تأميل ، فتصيبني ؟ ومن تلك التي فاجأتني في ذلك الصباح الباكر ؟ فليت شعرى أكان فاتحة لخير عميم أم لشر مستطير ؟ .

ثم ماذا تكون هذه الخبازة وأنا فلان بن فلان ؟

وقال : ثم عدت إلى الخبز أقلبه بين يدى ، وأتأمل تلك الحركة الحقيرة التى ناولتنى بها إتاجها بتلك اليد الرخصة الكريمة .

وطفق الفتى يستيقظ مبكراً ، فيغسل وجهه ، ويمشط شعره ويرتدى ملابسه كاملة بعد أن يتعطر . فيطل من الشرفة أو يتخطى فى البهو ، أو عند وصيد الدار ، حتى يتناول من يدها الخبز عندما تطرق الباب . وكثيرا ما كان يود أن لو فاجأها بتحية الصباح . ولكنه لم يفلح فى ذلك ، ثم يتوارى فى البيت — من سوء ماحى به — وهو كظيم .

لكن الأمر تعدى هذا الطور الذى كان فيه ، وأصبح الفتى هلوعاً وإلى لقياها نزوعاً . وكان كثير الذهاب والإياب من أمام بيتها . وربما استوقف أحد المارة عند الدار أو على مقربة منها لسؤال تافه ، أو حديث عقيم .

ويأخذ معه فى الحديث ، ثم يعمد إلى إرسال نظراته وتصويبه إليها بنظرات حادة نافذة ، كأنه يريد أن يخرق بها الجدران ليشاهد من فى الدار من أناس .

حتى أصبح وكأنه مسئول عن مراقبة ذلك الطريق وتلك الدار . على أنه يعترف بأنها ما كلمته كلمة واحدة ولا عطفت عليه بنظرة واحدة .

واتخذ لنفسه دفتراً صغيراً كالمفكرة ، يكتب فيه ملاحظاته اليومية . وقد ملأه بألفاظ آه . . . وواه . وإه . وقد كتب فى أول صفحة من صفحاته اسمها بالخط الثلث ، والرقعة ، والفارسى ، والكوفى ، والديوانى ، وكل أنواع الخطوط . ثم صفحة ثانية وثالثة فيها نماذج من الأشكال الهندسية مكوناً منها اسمها ، فمنها المربع والمثلث والمستطيل ، وخرج حروفها وحسب أرقامها على حساب الرمل والنجم ؟ فالناظر إلى تلك المذكرة المشبهة وما فيها من حسابات وعبارات وأشكال لا يشك فى أن كاتبها إنسان فى عقله مس ، أو هوس ، أو جنون .

وكنت كلما عنفته على هذا الحب السلبى الذى لا فائدة من ورائه ، ازداد فى عناده ولج فى هواه ، وربما كان يتمثل :

رأوها بعين غير عينى فأصبحت
قلوبهـــم فيهـــا مخالفة قلبى

وأخيراً . . . !

وأخيراً أراد مواجهتها فى دارها ومفاتحتها بكل شىء ، وصمم على ذلك . وإلا فما معنى كل هذا !

وتمرضت الخادمة ذات يوم . فرأى أن الفرصة سانحة للذهاب بنفسه إلى بيت الخبازة وجلب الخبز بنفسه للبيت بحجة أن الوقت قد تأخر . وقام لتوه دون أن يهتم بتقاليد أسرته ومكانة والده ، وذهب إليها فى صباح ذلك النهار . واتجه نحو الدار فوجد الباب مفتوحاً ، فرق فى الدار كأنه السهم . وألفى فتاته الفتانة أمام تنورها ، وقد أضرمت حرارة النار وجنتيها فتوردتا . وكان العرق يقطر من جبينها كحبات من اللؤلؤ الفريد انفرطت من سمطها ، فهى مبعثرة هناك وهنا .

تلك القطرات من العرق فوق ذلك الجبين العالى الأبى ، وتلك النفس الحرة العالية مما جمل الموقف جلالته ، والجمال روعته .

تقدم ووقف على بضع خطوات منها وحياها . فالتفتت وكأنها الطفل الخائف ، أو الغزال الشارد النافر ، ثم اقترب منها يحدثها فرأت فيه شاباً غريراً ذا أخلاق دنيئة وآداب سافلة رذيلة وتربية منحطة ذليلة . فتناست فيها ما ذكر والده ، وشرف أهله ، وعظيم مكانتهم فى البلد ، وتحقرت فيها فضيلة العفة الهائمة ، وفضيلة العزة الجريحة ، والحرمة الهيضة ، وتصاغر عندها ذلك الجاه المنفوش ، وتلك العزة الكاذبة الرعناء .

ورأت من الحكمة أن تقذفه بشىء لتطرده بعيداً عنها ، ولكنها لم تجد لديها آنذاك ما ترميه به سوى تفلة تقذفه بها ، كأنها تنهر كلباً ، أو تطرد ذبابة من بعيد .

وأجابته على سؤاله (ما اسمك) ؟ قائلة له بعد البصقة : أنا (أم السعود) . . . !!!

محمد ياسين بشير

بين المسموع والمقروء

بيوت مسكونة

ليس يكفى الرجل منا ، إذا هو اعتمد فى رزقه على الناس ، أن يُحسن عمله الذى منه يرتزق . فهو لا بد له أن يعلم الناس أنه يحسنه . ومن هنا جاء خطر السمعة بين الناس وطيب الأحاديث وحسن الذكر . كل هذه لها علاقات وثيقة بالكسب ، ولها روابط متينة بالجيب ، ولو أن هذا لا يمنع أن يكون لها مثل هذه العلاقات والروابط بجهات خطيرة أخرى ، كالجنة والنار .

والبيوت ، قد تحسب أنها تُقدَّر بالذى فيها من حجر ، والذى يتخلله من ملاط ، وما كساه من جص وكلس ، وكيف كساه . وهذا حق . ولكنها تقدر أيضا كما يُقدَّر الناس ، بالبيئة التى نشأوا فيها . فالبيت الذى فى حارة السماكين غير البيت فى قصر الدوبارة ، ولو بنى كلاهما من حجر واحد ، وجص واحد ، وطراز واحد ، وأكسية واحدة . نشأة هذا ليست كنشأة ذاك ، فسمعة هذا ليست كسمعة ذاك ، فالثمن الذى يُجرّه عليك هذا غير الثمن الذى يجره عليك ذاك .

وقبل الحرب هذه الماضية ، انتقل صديق جامعى من جامعة فؤاد إلى جامعة فاروق ، ووزنه فى الاسكندرية ، فى بيت استأجره ، عظيم سعةً وسموّ بناء ، وحديقة كبيرة فناء . قلت له : من أين المال ، وما علمت أن العلم يغنى ؟ فأسر إلىّ بأجر البيت ، فإذا به نصف أجر مثله . قلت : وما السر ؟ قال : قتيل قتل فيه !

هى السمعة إذاً ، ساءت ، فقلّ القدر ، فقلّ الأجر .

والحق أنى دخلت وصديق من بعد ذلك حجرة الكتب وكانت طويلة عريضة ، بها الكتب منثورة ، والأثاث عتيق ، وبها التحف الغريبة . وفى الحجرة الضياء مهدأ مخفتا ، ورى بظلال الأشياء طويلة مبهمة ، فى الليل الصامت الساكن ، فخلت لساعتى أن القتل لابد حدث فى هذه الحجرة ، فكل ما فيها يغرى بكل فعلة شنيعة ، حتى لتحسب أركانها قد اختبأت صنوف الشر فيها .

وبيت آخر اشتراه صديق آخر فى المعادى ، واشتراه رخص التراب ، وجاءنى الخبر من غير سؤال ، أن البيت كان لطبيب أسنان ، مات فى حمامه ، وبقى ميتاً فيه بضعة أيام لا يدرى به أحد ، فلما درى به الناس ، ساءت سمعة البيت كما تسوء سمعة الرجال . فتحاماه الرجال ، وتحاماه النساء قبل الرجال ، فلم يجد له شاريا ، واشتراه هذا الصديق على علم ، وكتماً على الخبر عند أهل بيته « ماجورا » .

ورجل آخر ، اتخذ من سمعة البيوت تجارة .

كان مدرسا . وكانت كل ثروته من الدنيا زوجة وخمسة أطفال . ووقع له إرث قليل ، ولم يكن له عهد باستثمار المال ، ففكر ثم فكر . واشترى كتبا فى التجارة وكتبا فى الاقتصاد ، وأخذ يقرأ . إنه لا بد أن يختط ، ويرسم الطريق ، ولو أنه ذو مئات ، ولكنها مئات عند مثله كالألوف . وهو اعتاد أن يطلب العلم من الكتب ، لا من الناس ، فعاد يطلب العون فى هذا الأمر من الأوراق .

وقرأ حكمة طيبة فى أحد هذه الكتب : أقبِلْ على الشراء إذا أحجم الناس ، وأحجمْ إذا أقبل الناس .

ومر فى ذهابه إلى المدرسة ، فى البلد الجديد الذى نُقل إليه — والمدرس بالطبع لا بد أن ينقل ، ليتهوّى ، وإلا تعفن ففسد — مرّ على بيت خال لا يسكنه أحد ، فسأل فقيل له إنه « مسكون » . وعرف بالطبع أن البيت إذا وصف بأنه مسكون ، وهو لم يجد فيه أحدا ، فالمراد أن ساكنيه قوم لا تراهم العيون . ومخلوقات الله ذات الأجسام والأجرام لا تحب أن تنافس أبدا فى سكنى البيوت التى تحتلها مخلوقات ليس لهم أجسام ولا أجرام .

ومن أجل هذا ظل البيت خاليا لأنه « مسكون » .

وعندئذ استبانت له الحكمة التي قرأها في كتاب الاقتصاد بوضوح : أقبلْ على الشراء إذا أحجم الناس ، وأحجم ..... فهذا بيت يُحجم عنه الناس ، فوجب عليه أن يُقبل .

وأقبل ، واشترى البيت رخيصا .

أما هو فكان لا يؤمن بالعفاريت ، أو على الأقل لا يرى معنى لقوم ليس لهم أجسام ، يريدون أن يزحموا في منازلهم أقواما ذوى أجسام ، لايكون لهم منهم غير اصطدام . وأما زوجته فكانت بين بين . وأما أولاده الخمسة فأخذوا يسمعون من الجيران عن الحوادث التي جرت في هذا المنزل العتيق ، حوادث رأوها رأى العين ، فهي ليست موضع شبهة قط . وهنأ أطفال الجيران أطفال الساكن الجديد ، ووسموهم بالشجاعة ، فزاد ذلك الأطفالَ رغبة في الصبر على تلك المحنة والصمود لها ، حتى والحرب إن كان لابد من حرب .

وخرج الأب والأم ذات مساء ، وتركوا بالمنزل الأولاد الخمسة ، وكان منهم الذكور والإناث . وسمعوا صوتا غريبا بأعلى الدار . ونظر بعضهم إلى بعض . وإذا بالصوت الغريب يعود . ليس في الأمر شك . ونظروا في الأمر ، وأجمعوا على أنه لابد من تفتيش الدار . وساروا صفا تتقدمه أكبر الأولاد ، وتذيله صغرى الفتيات . ولكن صغرى الفتيات خشيت أن يجيئها الشر من ورائها ، فأخذت مكانها كبراهن . ولما كان لابد من عدة ، ومن سلاح ، فقد حمل الولد المتقدم بلطة ، وحمل الذي يليه قدوما ، وحمل الآخرون شوكا وسكاكين ، وحملت كبرى البنات من المطبخ ساطورا ، وتقدموا نحو السلم وهم يتنادون ، ويدعو بعضهم بعضا بأسمائهم ، حتى يحسوا الأنس شاملا كاملا . وأخذوا يزأطون ، لأن الأنس عدو السكون .

وأخذوا يزعقون ، لأن الزعيق يكسب القلب الجرأة ، ويكسب العدو التخاذل فالهرب .

وفجأة يسمعون صوتا غريبا آخر ، فيحسبون أن الحرب ستكون على جبهتين ، فيتخاذلون . وكاد ينفرط العقد ، لولا أن صاح أوسط الأولاد فيهم : « الثبات » ، فثبتوا .

وأخيرا بلغوا أعلى الدار ، والصوت يسكت ثم يعود . وعرفوا مصدر الصوت . إنه قُفّة فيها بلح ، خشيت الأم عليها من النمل ، فعلقتها في السقف بخطاف من حديد . ومس الحديد حديدة معقوفة في السقف ، فصر كلما مرت الريح الخفيفة . وكان الشباك قد فتحته الريح .

وسكن هذا الدرس ، هو وأهله ، وأطفاله الصغار ، هذه الدار ، أخذت سمعتها تتحسن . ومامضى عام حتى نسى الناس أو تناسوا . وهنا وجد صاحبنا الفرصة سانحة للبيع ، فباع الدار بضعف ثمنها .

ولكنه قبل أن يفكر في بيع البيت ، كان قد فتش في المدينة عن دار « مسكونة » أخرى .

وكان في المدينة امرأة تسكن هي وزوجها دارا ، ثم مات الزوج ، واختلف الورثة في أمر البيت . وأرادت الزوجة أن تشتريه فرفض سائر الورثة . فعمدت إلى الحيلة . أرادت أن تسيء إلى سمعة البيت ، ولم يكن خلا من أثاثه ، فجاءته ليلا ولبست بعض ثياب زوجها ، وحملت فانوسا به شمعة ، وتراءت بهذا الزي والفانوس في حجرة المكتب ، وكانت على الشارع ، لكي يرى شبحها المارة . فلما رأوها اختفت .

وما أصبح الصباح حتى صارت الشائعة في الناس أن البيت « مسكون » . وأرادت أن تزيد السمعة سوءا فتقدمت تعلن في الناس أنها تتحدى العفاريت ، وأنها ستنام هي وصاحبة لها في البيت في ليلة كذا . وجاءت بصاحبتها ، وأقام الاثنتان في البيت إلى ما بعد نصف الليل ، فلم يظهر

شيء ، فاستيقظ فراش مبتسر في حجرة الكتب . وما مضت ساعة حتى سقطت الكتب من الرف الأعلى إلى الأرض . فانتفضت الصاحبة من نومها منزعجة ، وصاحت ، وصرخت . وحضر البوليس فحمل الرأيين إلى غير هذا المنزل . وتناقل الناس الخبر ، فكانوا يمرون على البيت فيأخذون منه الحذر .

وكانت المرأة هي المدبرة لأمر الكتب أن تسقط ، وهي على حرف ، عند مرور قطار يمر وراء البيت في ساعة متأخرة من الليل . وكان القطار يهز البيت هزاً .

كان هذا البيت ثاني البيوت التي اشتراها الدرس التاجر ، واشتراها رخيصة .

وتسأل : فلماذا لم تشتر المرأة الأرملة بيت زوجها ، بعد ما مهدت له عند الناس هذا التمهيد .

السبب أن الناس تحدثوا عن هذا البيت فأكثروا الحديث ، فأخذت المرأة تصدق مايقولون ، وخالت أن بالبيت عفاريت . وهي قد فعلت كما فعل أشعب ، مولى عثمان بن عفان ، وقد اشتهر عند العرب بالطمع فقيل أطمع من أشعب . أرهقه الأطفال في طريق من طرق المدينة ، فأراد أن يصرفهم عن نفسه ، فقال لهم : إن بيت فلان فرحا وطعاما . فجرى الصبية نحو بيت فلان ، فإذا بأشعب يجرى وراءهم ، وقد صدّق ما افترى عليهم .

ويحاول أخينا الدرس ، هو وأهله ، في البيت ، وبينهما الصغار ، والمعروف أنهم أحس بالعفاريت من الكبار ، حسنت سمعة البيت ، وارتفعت عنه قالة السوء . ثم باعه الرجل بضعف ثمنه .

وهكذا ظل هذا الدرس النابغة يتجر بغفلة الناس ، حتى أثرى .

وهو يشكو اليوم وقوف الحال ، ذلك أن أزمة المساكن جعلت الناس يكفرون بالعفاريت . والواقع أن الإيمان بالعفاريت ترف لا يسوغ والضيق قائم .

أحمد زكي

مسابقة الربيع الشعرية

تعلن محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية افتتاحها مسابقة شعرية جديدة تقبل فيها القصائد التي تتوفر فيها الشروط الآتية .

أولا — أن يكون موضوع القصيدة «الربيع»

ثانيا — أن لا يقل عدد أبيات القصيدة من خمسة وعشرين بيتا ولا يزيد على أربعين بيتا .

ثالثا — أن ترسل القصيدة قبل اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس (آذار) سنة ١٩٤٨ إلى محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية ، القدس ، فلسطين . برسم المسابقة الشعرية مطبوعة على أربع نسخ ، وأن لا يذكر اسم الناظم على هذه النسخ بل يرفق اسمه وعنوانه كاملين مكتوبين على ورقة منفصلة

أما جوائز القصائد الفائزة فهي كما يلي :

الجائزة الأولى : أربعون جنيها فلسطينيا

الجائزة الثانية : خمسة وعشرون جنيها فلسطينيا

الجائزة الثالثة : خمسة عشر جنيها فلسطينيا

وترسل هذه الجوائز على أثر إذاعة النتائج في ٣٠ أبريل (نيسان) سنة ١٩٤٨ ويحق للمحطة أن تلحن وتذيع ما تشاء من القصائد الفائزة من دون مقابل كما تبقى القصائد الفائزة ملكا للإذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ إعلان نتائج المسابقة وبعد ذلك يحق لأصحابها التصرف بها .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٦٧ | الثلاثاء ٢٦ من محرم سنة ١٣٦٧ – ٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٧ | السنة التاسعة

نصرة فلسطين

إن قرار جمعية الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين قد هز العالم العربى هزة عنيفة ، على الرغم من أن مثل هذا القرار لم يكن مستبعدا . ولكن كان هنالك أمل ضئيل فى أن ترى بعض الدول المترددة وجه الصواب فى آخر لحظة ، فإذا هى لا ترى إلا الجور والضلال . وإذا القرار يصدر بالتقسيم ، وبإنشاء دولة يهودية تقتطع من جسم العروبة . فاهتز العالم العربى لهذا النبأ ، لأنه رأى فيه لون الظلم والجور فاقرأ شديفه لاتهام أجل الأقطار العربية وأقلالها ، فتملكت البلاد العربية ثورة الغضب ، وارتفعت الأصوات فى كل قطر عربى بالاحتجاج المر . واتخذ هذا الاحتجاج صوراً شتى فى مختلف الأقطار . وقد لا يكون بعض تلك الصور مما لا يجدى فى إنقاذ الموقف ، بل قد يكون بعضها ضاراً بالجهود الصادقة التى يجب أن تبذل فيما بعد . ولكن ليس مما يقبله العقل ، ولا مما يحتمله الطبع البشرى ، أن هذا الزلزال العنيف ، الذى اجتاح العالم العربى كله ، يمر فى هدوء وسكون ، وأن يظل الشباب الثائر كاظماً غيظه ، ملازماً كل تؤدة وسكينة أمام هذا الظرف العصيب .

ولكنا إذا عذرنا الشباب العربى ، لأن وقع هذا النبأ قد دفعه إلى عمل غير لائق بالسداد ، فإننا لا نستطيع أن نعذره ، بعد أن حان الوقت لأن يملك زمام غضبه ، وأن يدرك أن الخطب أجل من أن يعالج بالتظاهر فى الشوارع ، وبتحطيم النوافذ ، وبالصيحات والنداءات الصداتية . إن الشعوب العربية ليست فى حاجة إلى مظاهرات ونداءات لكى تدرك الخطر الجسيم الذى يتهددها اليوم بتقسيم فلسطين ، وإنشاء دولة صهيونية فى قلب العالم العربى . وليس هنالك مسألة قد اتفقت فيها كلمة الشعوب العربية — كمسألة فلسطين — وليس هنالك أدنى شذوذ أو خروج على هذا الاجماع فى أى بلد عربى . فإن جميع أبنائه وحكوماته وهيئاته مجمعة على الذود عن فلسطين ونصرتها بكل ما فى وسع البلاد العربية من قوة وحول . وسيتطلب هذا الأمر جدا وجلداً وصبرا ، وجهودا متصلة لا تنقضى إلا بالقضاء التام على الصهيونية . وهذه الجهود ليست جهود أفراد يتجولون فى الشوارع والطرقات ، ويلقون الخطب والصيحات ، بل جهود تشترك فيها الأمة شعبا وحكومة ، ويدبر أمرها أولو الأمر فى كل قطر عربى ، وتنظمها وتنسقها هيئة الجامعة العربية ، وليس علينا أبناء البلاد العربية إلا أن نضع أنفسنا تحت تصرف أولى الأمر فينا ، وأن نوليهم ثقتنا ، وقد أثبتت جميع الحكومات العربية أنها مدركة تمام الإدراك لتبعات الملقاة على عاتقها بشأن فلسطين ، ولا يمكن أن يؤدى تدخل أفراد الشعب إلا إلى تعطيل جهودها وإحراجها .

فمن الجائز أن طائفة من الشباب ترى من الوطنية

الصادقة أن تهاجم مؤسسة روسية، أو أمريكية، أو دار سفارة من السفارات الأجنبية. مثل هذا العمل الطائش يحدث في كل قطر وفي كل بلد عربي أو غير عربي. ولكنه في البلاد العربية، في هذه الظروف، أمر بالغ الضرر، لأن فيه صرفاً للجهود عما يجب أن توجه إليه، ولأن للمؤسسات لدولها «ثقة أشد النقمة على قرار حكوماتها»؛ وبوجه خاص لأن فيه عدواناً على مؤسسات تحميها الحكومات العربية، وهي مسئولة عن المحافظة عليها، فإذا اعتدي عليها، اضطرت كل حكومة لأن تقف موقف الآسف المعتذر. وليس من الوطنية في شيء أن نعرض حكومة عربية لأن تقف هذا الموقف من دول ليس من شك في أن العالم العربي ينظر إليها اليوم نظرة الاحتقار الشديد. إنما السياسة التي يجب أن تتبع نحو هذه الدول، هي سياسة عليا تقررها الحكومات العربية، وتؤازرها الشعوب العربية.

***

لا شك أن جميع الدول التي أعلنت رضاها عن تقسيم فلسطين تستحق كل احتقار وامتهان، لا من العالم العربي وحده، بل من كل دولة، ومن كل فرد يدرك معنى الشرف والكرامة. ولا شك أيضاً في أن أحقها بأن تحتقر وأن تزدرى هي حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. فقد أثبتت هذه الحكومة في صورة واضحة جلية أنها ليست سوى دابة يركبها الصهيونيون ويسيرونها كما تسير الأنعام. صحيح أن يهود الولايات المتحدة يسيطرون على كثير من الأدوات التي تؤثر في الرأي العام كالصحافة والإذاعة والسينما، ولكن للحكومة آخر الأمر الكلمة العليا، ولو كان لها وعي سياسي سليم لاستطاعت أن ترى وجه الحق والصواب رغم المؤثرات الصهيونية.

ولكن الولايات المتحدة كانت دائماً بلد السياسة الخاطئة، والخطط السياسية المرتجلة. فتحت قبة برلمانها يحتشد أصحاب المصالح والشهوات، ولا عمل لهم إلا أن يؤثروا في النواب والشيوخ، بمختلف الطرق ووسائل الإغراء.

وقد ظهر اضطراب سياستها وضلال ساستها في قضية فلسطين ظهوراً واضحاً. وكانت الآراء التي يدلي بها المندوب الأمريكي في مجالس الأمم المتحدة عبارة عن ترديد للآراء الصهيونية، كأنما المندوب آلة حاكية تردد صوت صاحب الصوت، من غير تدبر أو تفكير.

ولقد يحاول المرء أن يقلب الأمر على جميع وجوهه، لعله يجد للولايات المتحدة، شعباً أو حكومة، مصلحة حقيقية في السياسة التي اتبعتها نحو فلسطين، أو يلتمس لها عذراً في موقفها من المشكلة الصهيونية، فلا يستطيع أن يهتدي إلى رأي فيه ما يدل على أن الساسة الأمريكيين يصدرون في أعمالهم وأقوالهم عن إدراك لمصلحة بلادهم.

ولئن التمسنا لهم عذراً بجهلهم حقيقة الأمر، وأنهم يتوهمون عن عقيدة وإيمان أن ما يطلبه الصهيونيون عدل، فإن هذا العذر لا يلبث بعد تمحيص قليل أن يتبدد ويزول؛ فإن كثيراً من الأمريكيين، وعلى الأخص رجال السياسة في الشرق الأوسط، قد بذلوا مجهوداً جباراً في إفهام رجال الحكومة حقيقة الحال، وبطلان المزاعم الصهيونية. ووزارة الخارجية الأمريكية نفسها مدركة هذه الحقائق تمام الإدراك.

وإذا قيل إن سياسة أمريكا تمليها المصلحة الاقتصادية فليس بمعقول أن تعادي العرب ولها منافع اقتصادية كبيرة في البلاد العربية. ولن تستطيع رعاية هذه المصالح إذا جاهرت بعداء العالم العربي. اللهم إلا إذا كانت تريد بسط سلطانها على الأقطار العربية كلها، وهي سياسة لا يمكن أن تخطر على عقل عاقل.

وإذا أردنا أن نفسر مسلك الساسة الأمريكيين بأنهم في حاجة إلى أصوات الناخبين اليهود في ولاية نيويورك، وأنهم من أجل هذا مستعدون للتضحية بشرفهم وبمصالحهم وبالحق الشريف على الجذون، أن تدفع الإدارة الأمريكية هذا الثمن الباهظ من أجل تولي رجل من الديمقراطيين رئاسة الحكومة؛ ولئن صحت الأحزاب السياسية لنفسها

بأن تكون أداة تسخرها الصهيونية كيف تشاء ، فإن الشعب الأمريكي الذي يبغض اليهود أشد البغض لا يمكن أن يرضى عن هذه الحال . وماذا يكون مصير الأمة الأمريكية كلها إذا كانت أحزابها تتنافس من أجل إرضاء الصهيونيين وإعطائهم الكلمة العليا في إدارة سياسة الدولة الخارجية ؟ وإذا كان لأصوات اليهود كل هذا التأثير ، فليس من شك في أنها لن يقف تأثيرها عند مسألة فلسطين ، بل يتجاوزها إلى توجيه السياسة الأمريكية في كل أمر يراه الصهيونيون .

بل أن من الجائز أن يقال : إن الباعث على السياسة الصهيونية التي تتبعها أمريكا ، أنها تريد أن يكون لها نفوذ في شرق البحر المتوسط ، في هذه النقطة الخطيرة من العالم ، دون أن تحتمل تبعات ، وذلك بأن تقيم دولة تستطيع أمريكا أن تؤثر فيها بواسطة يهود أمريكا ، فإن الدولة الصهيونية لا يمكن أن تقوم لها قائمة من غير تأييد اليهود في الولايات المتحدة ، وبذلك تضمن الحكومة الأمريكية أن يبقى لها نفوذ سياسي في الشرق الأوسط دون أن تكون مسئولة بطريق مباشرة عما تعمله تلك الدولة الصهيونية . وبعبارة أخرى أن الولايات المتحدة أرادت أن يكون لها ذنب في الشرق الأوسط تحركه كما تشاء .

وهذا الرأي يبدو وجيها لأول وهلة ، قبل أن يتناوله المرء بالتفكير والتمحيص . ولعل هذا الرأي هو الطعم الأكبر الذي ألقمه الصهيونيون للحوت الأمريكي فابتلعه ، من غير تفكير أو تدبر . ولئن كان هذا هو الغرض الذي هدفت إليه السياسة الأمريكية ، فمن العجيب أنها سلكت طريقا تبعدها عن هذا الغرض كل البعد . فقد اضطرت من أجل تأييد الصهيونيين ، وإنشاء الدولة الصهيونية في فلسطين أن تسمح لروسيا السوفياتية بأن تكون شريكة لها في المشروع الفلسطيني ، إذ كان هذا المشروع . فلم تلبث السياسة الأمريكية أن أخذت تتخبط على غير هدى ، فاقترحت أول الأمر إنشاء جيش دولي لفلسطين ، لتنفيذ قرار الأمم المتحدة ، فتنبهت إلى أن مثل هذا الجيش الدولي سيكون للروس فيه نصيب الأسد . فعدلت عن الجيش الدولي . ولكنها لكي تحصل على موافقة روسيا للمشروع اضطرت لأن تجاري الروس في جميع خططهم ، وأهمها أن يحال تنفيذ مشروع التقسيم إلى مجلس الأمن حتى يتخذ ما يلزم من إجراء لتنفيذه . وهذا معناه أن التنفيذ لن يتم في مراحله المختلفة إلا بإرضاء حكومة السوفيت ، وسيكون لها حق الاعتراض على كل إجراء لا توافق عليه . فأمر التنفيذ لن يكون رهنا بإرادة الولايات المتحدة بقدر ما هو رهن بإرادة الحكومة السوفياتية .

وإذا سلمنا بأن حكومة الولايات المتحدة أرادت بتأييد الصهيونيين أن يكون لها نفوذ سياسي في الشرق الأوسط ، وهو رأي لا يخلو من الوجاهة فلا شك أن زمام هذه السياسة قد أفلت من يدها . وأنها لم تستطع أن تتجه نحو الهدف الذي تبغيه ، وبدلا من أن تكون الصهيونية ذنبا تحركه الولايات المتحدة ، أصبحت حكومة أمريكا هي الذنب الذي تحركه الصهيونية كيف تشاء . وقد أمعن الصهيونيون في استخدام الحكومة الأمريكية وتسخيرها لأغراضهم . ولم يقبلوا منها مجرد تأييد مشروع التقسيم ، بل أصروا على أن تكون للحكومة الأمريكية سياسة إيجابية ، بحيث تقوم هي بإقناع الدول المترددة من أعضاء هيئة الأمم المتحدة وأن تبذل نفوذها كله من أجل تحريض هذه الدول على تأييد مشروع التقسيم والدولة الصهيونية ، فقد كانت الأصوات المؤيدة في لجنة فلسطين ٢٥ صوتا ، أي أقل من نصف أعضاء هيئة الأمم المتحدة ، فلم تلبث أمريكا والصهيونيون أن استهووا الحكومات والتجار حتى ارتفعت الأصوات إلى ٣٣ صوتا في الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة . وقد اغتبط الأمريكيون فيما ظهر بهذه النتيجة أيما اغتباط ، والمستقبل وحده كفيل بأن يرينا على أي أساس بني هذا الاغتباط . إن هنالك هدفين اثنين نجحت أمريكا في تحقيقهما ، وإن لم تكن تريد ذلك : أولهما أن العالم قد

أدرك أن الأمم المتحدة هيئة ساقطة ومسرح للنفوذ الزائل ، والثاني أنه بات من الواضح أن الولايات المتحدة دولة لا تصدر في أعمالها عن سياسة نبيلة أو إرادة سليمة .

ولا بد للعالم العربي اليوم أن يدرك أنه أمام خطر جدي يتهدده ، وأن المشكلة التي تواجهها اليوم ليست مما يمكن علاجه بالوسائل المرتجلة ، والصيحات المرددة . وأكبر ما نحن في حاجة إليه سياسة مقررة ، وقيادة منظمة ، وشعوب مطيعة لقادتها واضطلاع كل منا بواجبه في هدوء وسكون . وآخر ما نحن في حاجة إليه هذه المظاهرات والخطب الجوفاء ، ومحاولة كل فرد أن يرسم الخطط ويقود الحركة .

إن الصهيونيين لم يفوزوا إلى اليوم إلا بفضل تماسكهم ونظامهم الدقيق ، والتزام السكون والتكتم . بذلك استطاعوا أن يتكلوا بالإنجاز ، وأن يدفعوهم مر العذاب !

وقد بلغ من زعمهم أنهم أتوا من أنفسهم جماعة سموها « منشقة » وهي الهجاناه ، وجعلوها تمثل أدواراً مسرحية تتظاهر فيها بتهدئة المتطرفين من أعضاء العصابات الأخرى ، وكبح جماحهم . ولذلك أمكنها أن تظهر في هذه الأيام ، وتقف مدججة بالسلاح إلى جانب البريطانيين من أجل « تهدئة » الأحوال في فلسطين .

فليس مما يقبله العقل ، بل وليس من الوفاء للمروءة وللأوطان العربية ، أن نقابل هذا النظام الصهيوني الدقيق بالفوضى والهياج المرتجل ، بل لا بد لنا لنصرة فلسطين ونجدتها أن نقف صفاً واحداً وراء قادتنا وأولى الرأي فينا ، فليس بين الشعوب وبين حكوماتها خلاف في الواجب الذي يجب أن يضطلع به كل منا .

محمد عوض محمد

أول رحلة بالطائرة

أذكر أياما مضت كنا فيها نقيم في الريف . وكان من أسباب اللهو عندنا أن نركب صغار الحمير . كانت الحمير تقضي اليوم ذاهبة إلى الجسور تحمل الطين لكي يلقى في مرابط البهائم ، فإذا ألقت حملها عادت فارغة . وكان يسرنا أن نركبها وتجري بنا قافزة تطقطق بحوافرها الأربعة ، وكنا أحيانا نتحرف عنها ، فنقع ، ثم نقوم فننفض الغبار عن ملابسنا ضاحكين سالمين . ومضت تلك الأيام ، فإذا بنا نهبط القاهرة ونرى الترام . وكان عند ذلك لا يزال في أول عهده ، والناس تخشاه ، وتتندر بحوادثه . فكنا نحاذر في ركوبه ، كأننا مقدمون على مخاطرة جريئة . ثم اخترعت السيارات ، وأذكر أول مرة ركبت فيها سيارة عامة من ميدان الأوبرا إلى الأهرام ، ولا أزال أذكر كيف عدنا من الرحلة بقلوب ملؤها الكبرياء . لقد كانت السيارة تسير حرة على الطريق لا تتقيد بشريط حديدي ، ولا تعتمد في سيرها على القوة الغامضة الخفية التي تسري في الأسلاك المعلقة فوق الرؤوس . وهكذا انتقلت بنا الدنية من حال إلى حال ، حتى آل أمرها أخيرا إلى اختراع الطيارات .

كانت الطيارات دعاية عظيمة عند اختراعها ، وتبارت الشعوب في قطع المسافات الطويلة على متنها ، فهذا (فدرين) الفرنسي يعرض طائرته التي نجح في السفر عليها من باريس إلى القاهرة . وهذا فلان ، وهذا فلان ، من أمم مختلفة يباهون بأنهم قطعوا على طائراتهم مئات الأميال . ثم هذا فتحي التركي وزميله يحاولان السفر من استانبول إلى القاهرة ، فيخونهما الحظ ، فتتحطم بهما الطيارة في فلسطين ، ويهتز العالم كله لنكبتهما ، ويرثيهما شاعر النيل بقصيدة عصماء . أحاطت هذه الدعاية بالطائرات حتى استقر في عقول الناس جميعا — وأنا واحد منهم — أن ركوب الطائرات عمل من أعمال البطولة تحيط به المخاطر ، ولا يقدم عليه إلا من امتلأت قلوبهم شجاعة واستهانة بالحياة . ولم يكن هذا عجيبا ، فإن التفكير وحده كفيل بأن يدرك ما في ركوب الطائرة من مخاطر . فإن وقوف المحرك — وهذا شيء قريب الوقوع — أقول إن وقوف المحرك لسبب من الأسباب كفيل بأن يجعل الطائرة تهوي على أم رأسها ، ويكون مصيرها ومصير كل من فيها إلى رحمة الله .

حقا أن السيارات تقف أحيانا ، ولا ندري السبب في وقوفها ، فإن أنبوبة البنزين قد تنسد لسبب من الأسباب ، وقد تقف حركة الكهرباء من البطارية لسبب من الأسباب فلا تحدث الشرارة اللازمة لإحراق البنزين ، وقد وقد وقد ، مما يطول شرحه ، وتكون النتيجة دائما وقوف السيارة عن السير ، وتحتاج إلى من يدفعها إلى جانب الطريق من المارة الكرام . ولكن مثل هذا إذا حدث للسيارة لم ينشأ عنه ضرر لأحد سوى أن الركاب يعتريهم شيء من الخجل أحيانا ، إذا رأوا الناس ينظرون إليهم باسمين في شيء من الشماتة . ولكن الخجل أمر هين ، ولا ينشأ عنه أذى ، ولا تتكسر منه الأضلاع ، ولا تتحطم منه الرؤوس . وأما وقوف الطائرة فشيء آخر يغير ذلك . وقد شهدنا الحرب العالمية الأولى ، وكان يهولنا ما نسمعه من ضحايا الطيران ، ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية ، فكان المصاب فيها أعظم ، حتى خيل إلينا أن مخاطرة الموت قد أصبحت غرام الأمم المتمدينة .

فتصور يا سيدي القارئ حالي وأنا ممتلئ بكل هذه المعاني إذا عرض علي بعض أصحابي أن أركب الطائرة في رحلة قصيرة . نعم قصيرة لمدة لا تزيد على ثلاث ساعات .

ثارت عند ذلك كل الصور التي انطبعت في ذهني على مدى نيف وثلاثين عاما . وعادت إلي كل ذكريات المخاطر التي قرأت أخبارها ، وسمعت وصف هولها . أأركب الطيارة اليوم ، وقد قضيت كل عمري على الأرض الصلبة المطمئن إذ أشعر أنني إن وقفت كان وقوفي على سطحها ؟

ومالى والتماس الموت بهذه الطريقة اذا كان ولا بد من الموت ؟ . إن الموت فى ذاته رهيب ، ولكنه حادث لا مفر منه ، وهو حادث فى يوم من الأيام . ولكن شتان بين الموت الذى يأتى كما اعتاد الناس أن يستقبلوه ، وبين ذلك الموت الذى ينحدر إليه الإنسان من فوق السحاب . وماذا يكون لو سقطت الطيارة على جبل ، فتناثرت قطعا بمن فيها ، حتى لا يقف لهم أحد على أثر ؟ لقد كان أجدادنا قدماء المصريين أحكم الحكماء عندما حنطوا أجساد موتاهم ليحفظوها من البلى ، فإن هذا يذهب بشيء كثير من رهبة الموت . أما هذا الموت (المودرن) ، فإنه بغير شك فظيع ، يجعل الإنسان يرتعد من فكرة الفناء .

هكذا فكرت فى نفسى ، ولم أتردد فى أن أرفض ما عرضه الأصدقاء ، وامتنعت امتناعا باتا من كل إغراء . قالوا : إننا نصل إلى البلد الذى نقصده فى ساعات . فقلت : إن السفر لذيذ فى ذاته ، فلم نحرم أنفسنا من التمتع بمناظر الأرض والبحار ، ونسير فيها هونا خطوة خطوة ، نتملى بجمال النظر ، ونستجم فى مدة السفر من عناء التفكير المقلق ؟ وتغلبت فى النهاية . فسافر أصحابى معى على البر والبحر ، فوق سطح الكرة الأرضية القديمة العزيزة ، وتبين لى من خلال رضائهم بالسفر معى أنهم كانوا فى شك وتردد خفى فى قلوبهم . ولكن حدث بعد ذلك ما لم يكن فى الحسبان . فإن أحد الأصدقاء أبى إلا أن يكون خبيثا .

فلما أردنا العودة إلى مصر ، وكلنا إليه تدبير السفر ، ولكنا لم نحدد له الطريق ، واكتفينا بأننا قد ناقشنا فى الأمر مناقشة طويلة قبل الذهاب ، فلم نجد محلا لإعادة الكرة بمناقشة مثلها عند العودة . وعاد الصديق فى آخر النهار باسما ، فقال لنا : لقد قضى الأمر ، ولا فرصة لنا فى العودة إلا عن طريق الهواء .

فصحت فى شك من قوله : الهواء ! وحسبت أنه يريد أن يمزح . ولكنه أبرز فى يده أوراقا وهزها قائلا : وهذه هى تذاكر السفر الميمون .

وهكذا رأيت نفسى أمام أمر قد تم ولا محل المناقشة فيه . أأعدل عن السفر مع أصحابى وأسافر وحدى ؟ أأظهر نفسى أشد الجميع خوفا على حياتى ؟ لئن كنت حريصا على الحياة فإنهم جميعا مثلى ، ولا يجمل بى أن أقدر نفسى قدرا أجل من أقدارهم . وأحسست فجأة أنى راض من قسمتى وأجبت بعد لحظة صمت قصيرة ! : حسنا فعلت يا صديق .

وجاء اليوم الموعود وذهبنا إلى المطار ، وكانت الطيارة أمامنا كأنها الجرادة الكبيرة . هى جرادة بغير شك وإن كانت ستحملنا فى جوفها الواسع . وركبناها وأقفلت أبوابها وشعرنا بها تصعد إلى الهواء .

ما لقلبى لا يخفق خوفا ؟ ونظرت تحتى فرأيت الأرض تبعد عنى شيئا فشيئا . ورأيت المدينة تبعد رويدا رويدا .

ولكن قلبى كان ثابتا ، لم يختلج فى صدرى ، ولم أشعر بقطرة واحدة من العرق تبلل جبينى . وسألت نفسى : ما يكون لو هبطت هذه الجرادة فجأة من هذا العلو الشاهق ؟ وكانت الأرض تبدو من تحتنا بعيدة ، والأشياء تلوح لنا صغيرة ضئيلة . ونظرت حولى فأحسست أن الجرادة تطير واثقة كل الوثوق بنفسها . ونظرت إلى الجناح وكان إلى يمينى فرأيته يبدو صلبا لا خراعة فيه . فبدأت أنظر إلى الأرض البعيدة وأتملى بمنظرها . وكانت الجبال والرمال تتداخ تحت عينى كأنها خريطة كبيرة ، وكان ظل الطائرة يدرج فوقها كأنه نملة بطيئة . هناك فوق الأرض يعيش الناس وينظرون إلى الطائرة تجرى من فوقهم عالية شامخة تقطع السماء أمام أعينهم وتبعد عنهم فى لحظات . هناك هؤلاء المساكين الذين يسيرون فوق الأرض وتغوص أقدامهم فى الرمال ، ويمضى اليوم عليهم فلا يبلغون من السير إلا بضعة أميال . ذلك الجمّال المسكين الذى يحدو بعيره ليساعده على قطع القفار فيمر عليه اليوم ويأتى إليه الليل فيقضى فى السفر أسابيع طويلة يعانى فيها

الشقة القاطعة فى سفر كان لا ينبغى له أن يستغرق منه إلا ساعات معدودة .

ألا ما أعظم الإنسان ! لقد استطاع أن يسيطر على الأرض فيضغطها ويقص أبعادها ، ويجعل حياته عليها عريضة . إنه استطاع أن يجعل عمره أضعاف أعمار الأجداد ، لأنه مكن لنفسه أن يتم فى ساعة ما كان يتمه الأوائل فى أسابيع . ونسيت الخطر فلم أفكر فيه ، ونسيت العلو الشاهق الذى يفصل بينى وبين الأرض ، ونسيت كل من حولى وانصرفت إلى تلك الرقعة الممتدة تحت نظرى كأنها الخريطة الواسعة ، وظل الطيارة يدرج عليها بطيئاً كالنملة .

هناك فى ذلك الركن من شاطىء البحر يمكن أن تقوم مدينة جميلة . ما أبدع ذلك الوضع إذا أقيم فيه مصيف يطل على البحر الساكن الهادى ، وتمتد فيه الشواطىء الرملية الصفراء إلى غير نهاية . وهناك فى ذلك الوادى يمكن أن يقام سد لحجز مياه السيول للانتفاع بها فى الرى ! وهناك فى تلك البقعة الخضراء مياه قريبة تحت سطح الأرض بغير شك . ألا يكون هناك أمل كبير فى الحياة لو حفرت فى تلك البقعة آبار لاستخراج الماء ؟ إن الذى يركب الطائرة يستطيع بغير شك أن يحسن تخطيط سطح الأرض ، وما أجهل الناس الذين يريدون أن يدبروا أمورهم على الأرض وهم واقفون على سطحها !

ما أجدر الساسة أن يركبوا الطائرات ويفتحوا عيونهم على الأرض من فوق السحاب !

وهلت علينا أرض مصر بعد حين من سيناء بمروجها الواسعة . إنها تلمع فى ضوء الشمس بألوانها المختلفة بين صفراء وسوداء وخضراء ودكناء . وها هى ذى قناة السويس التى تمتد فى خط مستقيم ضئيل يشبه أن يكون جدولا صغيراً . أهذه القناة الضيقة هى التى قضى الإنسان نحو قرن من الزمان يتحدث عنها ويتطاحن على خزائنها ؟ ألا ليت شعرى كيف ينظر الملائكة إلى الإنسان من أطباق السماء ؟ ألا ما أحقر الإنسان ! إن الإنسان عظيم حين اخترع هذه الطائرة التى تعلو به إلى الفضاء لتعلمه أنه صغير حقير !

وسرنا فوق سهول الدلتا البديعة ، والقرى تبدو عليها كأنها بقع داكنة فى بساط من قطيفة خضراء موشاة بالنقوش . أين الإنسان فى هذه السهول الفيحاء ؟ شتان بين بهاء الحقول اليانعة وبين هذه اللطخات الكالحة التى يقيم فيها من يزرعون هذا النبت الأنيق . أين الإنسان هناك ؟ ما أعلى ما يمكن أن يبلغه البشر من السمو ! وما أسفل ما يمكن أن ينحدر إليه من التفاهة والانحطاط ! وخيل إلىّ وأنا أنظر إلى تلك الحقول أننى أرى جموعاً تموج فى السهول الخضراء ، وأننى أرى بين هذه الجموع أفراداً من المماليك يسوقونهم أمامهم بالسياط لكى يزرعوا وهم يكبلون بالأصفاد ، حتى إذا ما انتهى اليوم إلى مغربه ساقوهم بالسياط إلى تلك الحظائر القذرة ليقضوا فيها الليل البهيم . وخيل إلىّ كذلك أن هؤلاء المماليك الذين يسوقون الناس بالسياط يقلبون أعينهم فى جموعهم المزدحمة ، فإذا رأوا فى يد أحدهم ثمرة التقطها من الأرض ورفعها إلى فمه ليزدردها ، انهالوا عليه بالسياط فمزقوا جلده وانتزعوا الثمرة من يده ، ودسوها فى جيوبهم .

ثم لاحت بعد حين لأعيننا أهرام الجيزة الشهباء .. تلك الصروح التى عاشرت الدهر منذ بدأ الإنسان الحياة . لشد ما تغير الإنسان منذ ذلك الوقت الذى كان يقيم فيه تلك الأكداس الهائلة ! ولكن الأهرام باقية قائمة شامخة تشرف على الوادى الذى كان يضج بالبناة . وعدنا بعد تلك اللمحة إلى القاهرة فظللنا حيناً فوقها . هذه هى العاصمة التى نمت على شاطىء النهر العظيم عصراً بعد عصر ، وها هى ذى تقوم فى القرن العشرين كما كانت تقوم فى القرن الأول ، عاصمة أجنبية عن الأرض التى تمتد حولها . كانت من قبل خزائن يوسف يؤتى إليها بأمراء البلاد الجائعة لكى تكدس

صور قضائية :

عندما يشتم المتهم قاضيه !

أراد صاحب لى ذات يوم أن يمر بى فى المحكمة التى كنت أعمل فيها . وكان من حسن ظنه بعمل أنه أقبل علىّ بعد الظهر بقليل ، وهو يتوقع أن يجدنى فى غرفة استراحتى . فلما دخل ألفانى فى مجلسى لا أزال أرفع قضية لأضع مكانها قضية أخرى . وأصرف متهما لأدعو مكانه متهما آخر . وكانت الجلسة جلسة جنائية ، فخيل لصاحبى أن لا يخطرنى بمقدمه . ودخل إلى القاعة من الباب الذى يدخل منه المتقاضون . فلم أفطن إلى وجوده . ومضيت فى عملى كما كنت .

وشاءت المصادفات أن يقع لى فى ذلك اليوم حادث مع أحد المتهمين بلفت النظر — ذلك أنى كنت أنظر قضية رجل ضرير ، تهمته التى قدم ليحاكم من أجلها : أنه تسول فى الطريق العام .

وكان القانون الجديد الذى وضع فى سنة ١٩٣٣ ، حديث عهد فى المحاكم . ولم يرض عنه المتسولون ، لأن بعض أحكامه كانت تنطوى على قيود ثقيلة على نفوسهم . فمن ذلك مثلا أنه قسم المتسولين إلى قسمين : أصحاء ، وغير أصحاء . فأما الأصحاء ، فإنه أوجب على القاضى أن يحكم بحبسهم متى ضبطوا وهم يتسولون فى الأماكن العامة . وأما غير الأصحاء فإن المشرع مهد لتشريعه الجديد بإعداد ملاجئ لهم فى بعض المدن . ثم أوجب على القاضى بعد ذلك أن يحكم بحبس المتسول غير صحيح البنية متى كان التحاقه بهذه الملاجئ ممكنا — كما أوجب عليه أن يقضى بإيداعه الملجأ بعد انقضاء عقوبة الحبس . وكانت هذه العقوبة التبعية — عقوبة الإيداع فى الملجأ — مثار الامتعاض والتذمر فى أوساط المتسولين غير الأصحاء ، لأنها كانت فى نظرهم بمثابة حبس (مؤبد) . وبينما كان الشارع يرجو من وراء إيداعهم فى الملاجئ، أن يكفل لهم رزقا ميسراً ، ومأوى كريماً ، يغنيهم عن التسول — رأى المتسولون فى هذا التشريع تعرضاً لحرياتهم الشخصية ، وحجراً على تصرفاتهم ، وحرمانا لهم مما يتمتع به سائر الكائنات ، من حرية الانتقال ، والسكنى ، والاتصال بالناس ، ومصادرة لهم فى حقهم المشروع فى اختيار . . . مهنتهم !

والمتسولون — ولا سيما ذوى العاهات منهم — دوائر اختصاص ومناطق نفوذ يحتلها كل واحد منهم ، بتفاهم ضمنى بينه وبين زملائه . وليس يجوز فى عرفهم أن يعتدى أحدهم على « حرم » زميل له — أعنى على منطقته التى يتلقى الصدقات من أهلها — كما أن لهم ندوات يسمرون فيها ، وخلوات يستمتعون فيها بما قد يعز على عباد الله المتصدقين ! فكل هذه الحريات ، وكل هذه المتع ، تصبح حراما عليهم إذا هم أكرهوا على العيش فى الملاجئ، حيث الأكل المنظم فى مواعيده ، المحدد فى مقاديره ، الذى يجرى عليهم فى رتابة ونظام مطرد ممقوت ، والذى تسعى به إليهم أيدى خدم الملجأ وهم فى العادة قوم أغلظ قلوبا من ممرضى المستشفيات العامة !

فكان إذا وقع فى يد المحكمة — يوماً — واحدٌ من

فيها ، وهى اليوم فى القرن العشرين تشمخ بالعمارات الشاهقة ، وتزخر بالحركة الدائبة ، وتشع بالأضواء الباهرة ، وحولها أرض يهيم عليها شعب مسكين يأوى فى بيوت من الطين ، ويخيم عليه ظلام دامس من ظلمة اليأس والجهل .

ألا ما أعظم الإنسان ! ألا ما أصغر الإنسان !

لقد عدت من رحلتى وكأنى قد ولدت مرة أخرى . ولئن قدر لى أن أسافر فى يوم من الأيام فلن تكون مطيتى سوى هذه الطائرة التى كنت من قبل أفزع من اسمها .

محمد فريد أبو حديد

هؤلاء المتسولين (غير الأصحاء) ينصرف دفاعه كله ، لا إلى نفي « التهمة » ، ولكن إلى نفي « العاهة » التي تجعله في حكم القانون غير قادر على الكسب . والتي يتعين بسببها أن يدخل الملجأ بعد أن يقضي في السجون عقوبة الحبس . ولم تكن عقوبة الحبس في ذاتها مكروهة عندهم مهما طالت مدته ، لأنها على أية حال صائرة إلى زوال . ولأن الحرية ستأتي من بعدها . وستحمل إليهم على أجنحتها الشفافة ما تشتهي أنفسهم من متع الحياة الصغيرة كالتدخين ، وأكل الحلوى ، والاختلاط بالجنس الآخر . وهذه كلها أمور محرمة في معيشة الملاجيء .

من أجل ذلك كنت أرى المتسول (المقعد) مثلا — إذا قدم المحاكمة — لا يهتم بنفي تهمة التسول عن نفسه بقدر ما يهتم بنفي تهمة القعود . لأن « التسول » عقوبته الحبس إلى أجل قصير . أما « القعود » فقد أصبحت عقوبته « الملجأ المؤبد » ، وما يستتبعه من صنوف الحرمان الشديد !

***

في ذلك اليوم الذي جاء فيه صاحبي . تقدم إليّ هذا المتسول الكفيف . ولم تكن له حيلة في نفي عاهته ، لأنها ظاهرة لا تحتمل المماحكة . ولذلك لجأ في دفاعه إلى نظرية أخرى ، مؤداها أنه وإن كان كفيفاً إلا أنه قادر على كسب عيشه ، فينبغي أن تكون عقوبته قاصرة على الحبس دون هذا الملجأ المهين البغيض . وحاولت أن أخفف منه على تلك الأساليب التي يدعي أنه يقدر من طريقها على كسب عيشه بطريقة مشروعة . فجعل يروغ مني ويزعم المزاعم المختلفة التي لم يقو على إثبات صحتها . وأخيرا زعم أنه يحفظ القرآن . وأنه يتبرك بقراءته . وأن الناس يتصدقون عليه لهذا السبب . فسألته عن بعض قصار السور فلم يحسن تلاوتها . فلم أر بداً من تطبيق القانون عليه كما أراده مشرعه . وبينا كنت أملو عليه منطوق الحكم الذي يقضي بحبسه وإيداعه بعد ذلك في الملجأ كان هو — في فيض من فصاحة المتسولين — يتوسل إليّ بالله وبرسله وبأوليائه أن لا أبعث به إلى الملجأ — ولما رأى أن الحكم انتهى صدوره . وأني أمرت بنداء القضية الثالثة . وأنه أصبح لا مفر له من تنفيذ هذا الحكم . استل من فمه لسان الاستعطاف — ولا أدري بأي شيء حشا فاه بعد ذلك . فإن سيلا من الشتائم البذيئة المقذعة انهالت على فجأة — وانقلب هذا المتسول المتوسل عربيدا سليط اللسان لم يترك لي أرومة إلا تناولها بأشنع الأوصاف . وتصدى لي ولمن أجلسني في مجلسي . وعاث بلسانه فينا جميعا — كل ذلك والحراس من حوله يحاولون أن يضعوا أيديهم الكثيرة على فمه الواحد ، فلا يكادون يصلون إليه وهو يلتوي بين أذرعهم ، ولا يمكنهم من نفسه ، حتى حملوه آخر الأمر حملا ، وخرجوا به من القاعة . . . .

ووجم الناس الذين كانوا في قاعة الجلسة . وبدا عليهم روح الاشمئزاز من ثورة هذا الكفيف . ولاحت عليهم سيما الاستنكار ، مع التشوف إلى معرفة العقوبة التي ستنزلها به « المحكمة » . وقد نص القانون على أنها قد تكون الحبس الذي يرتفع إلى سنة كاملة أو الغرامة التي يمكن أن تبلغ خمسين جنيها .

وكنت أنا منذ لاحت ثورة هذا التعس قد نكست رأسي ولبثت أنتظر الفرج بأن يتم خروجه هو من القاعة . وتحويل « فوهته » إلى فناء الدار . وإنقاذ « المنصة » ومن عليها من ذلك الوابل القذر الذي كان يرمي به . فلما اطمأننت إلى خروجه ، وهدأ السكون من بعده ، لبثت قليلا على إطراقي وصمتي ... وأخيرا عاد إليّ بعض الحراس يسألني جهرة أمام الحاضرين عما آمر به في شأن هذا المتهم . واشرأبت الأعناق . وأرهفت المسامع لاستجلاء الوسيلة التي سأرد بها على هذا السباب . فهنا هو القانون وهذه هي الجريمة ... وأخيرا هذه هي المحكمة ...

وتدبرت الأمر في خطفة كلمح البصر ... وكان علىّ أن أبت فيه بهذه السرعة الخاطفة. ولم أجد في نفسي ميلا إلى الانتقام، فإني لم أشعر أني أوذيت. وكانت نظرات الناس أمامي ناطقة بمعنى واحد واضح. وهو أن الوحل الذي خرج من فم ذلك الوثني إنما سقط تحت أقدامه هو بعد أن لوث وجهه وصدره ولم يصل منه شيء إلى أبعد من ذلك. والعقوبة في مثل هذا المقام إنما شرعت للردع وللمحافظة على الهيبة والكرامة. فإن كانت الكرامة باقية، والهيبة مصونة، والردع غير مطلوب لأنه لا محل له. فالأمر بعد ذلك متروك لصاحب الشأن، إن شاء عفا وإن شاء قمع.

وأومضت هذه الخواطر في ذهني كما يومض البرق. فرفعت رأسي وقلت للحارس:

قل للحاجب ينادي على القضية التالية!

***

وانتهت الجلسة — وانسحبت إلى غرفتي — ودخل علىّ صاحبي الذي ظل طول الوقت في مقاعد النظارة يتفرج علي. فرحبت به مهللا متهللا. ولكنه حدّق فيّ متراجعاً إلى الوراء وهو يقول:

— ماذا أرى؟! أفيمد كل ما كان بينك وبين هذا المعتوه في الجلسة تريد أن تتظاهر أمامي بأنه لم يكن بينكما شيء. وأنك في حالتك العادية — تريد أن تسمر وأن تضحك مع أصحابك؟! إني لو كنت في مكانك لطلبت النقل من هذه المحكمة فوراً حتى لا أواجه فيها الناس الذين شهدوا كل هذا الاعتداء المهين وهو يقع على رأسي وأنا في كامل أبهتي فوق دست العالي!؟

قلت: ياصاحبي! ليست هذه هي الأولى. ولا أظنها تكون الأخيرة!

قال: ما شاء الله! وتقولها أيضا بفمك ولا تستحي؟

قلت: لا ينبغي للإنسان أن يستحي إلا من المنكر الذي يأتيه. أما المنكر الذي يأتيه الناس فإن واجبه أن يستغفر لهم الله من أجله!

حسين جلال

اعلان

تعلن منطقة شبين الكوم التعليمية حاجتها إلى محضرين بالمدارس الثانوية والزراعية. ويشترط فيمن يتقدم لهذه الوظائف الشروط الآتية:

(١) أن يكون المرشح للوظيفة مصرى الجنسية لا يزيد عمره على ٣٠ سنة ولا يقل عن ١٨ سنة

(٢) أن يكون حاصلا على إحدى الشهادات الآتية:

دبلوم الفنون والصناعات. الدراسة الثانوية للقسم الثانى علمى أو القسم الخاص « شعبة العلوم ». دبلوم المدارس الزراعية المتوسطة لمن سيعين لهذه المدارس

(٣) أن يكون لائقاً فى الكشف الطبى أمام القومسيون الطبى العام

(٤) أن يكون مستوفيا لمسوغات التعيين

(٥) أن يجتاز امتحان المسابقة العملى فى صيانة الأجهزة وتحضيرها

(٦) يكون التعيين فى الدرجة السابعة أو الثامنة حسب المؤهل

تقدم الطلبات على الاستمارة ١٦٧ ع.ح باسم حضرة صاحب العزة مراقب المنطقة التعليمية بشبين الكوم فى ميعاد نهايته يوم الأحد ١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٧ مرفقا بها صورتان شمسيتان مقاس ٥ × ٨

٨٤٦٦

روسيا تحفر الأنفاق

يزداد الاهتمام تدريجيا بمعرفة مدى تقدم البحوث العلمية في روسيا ومقدار نمو صناعتها، وخاصة في الشئون الحربية، لما في ذلك من دلالة في السياسة العالمية والتوازن الدولي. وقد جاء في الأنباء أخيراً أن روسيا صنعت قنبلة ذرية وجربتها في سيبيريا، وكثرت التكهنات في هذا الشأن ما بين مصدق ومكذب ومرجح وغير مرجح. ولكن الدوائر الروسية لزمت الصمت وخرجت من الموضوع بغير لا أو نعم. ولا مراء في أن العلم متقدم في روسيا وكذلك الإنتاج الصناعي، ولكن أخص ميزات العلم الروسي هي غرابته وشذوذه واتجاهه في نواح مختلفة عما هو مألوف في العالم الغربي. فقد اهتمت روسيا خلال الحرب بتدعيم مدفعيتها تدعيما جعلها خير مدفعية ميكانيكية في العالم، واهتمت بالمظلات الهابطة وفرق الهجوم بها، قبل أن ينتبه إليها الألمان. وعنوا في بحوثهم الطبية بدراسة إطالة العمر وحفظ الخلايا حية واستبدال الأعضاء الفاسدة في الجسم الحي بأعضاء سليمة من جسم آخر. وفي النبات فصلوا القطن الملون وزرعوه في ساحات واسعة بألوان متعددة، وغير ذلك من المواضيع التي تدل على أنهم يفكرون في حل مشكلاتهم الخاصة بطرقهم هم، ولا يعتمدون كلية على محاكاة الدول الغربية.

وقد جاء في الأخبار العلمية الصادرة من الهيئات الروسية مباشرة أن العالم الروسي زيليف قد اخترع آلة ميكانيكية يمكنها أن تدخل إلى باطن الأرض وتحفر فيها نفقاً، كأنها الدودة أو حشرة الحفار. وقد استعملت هذه الآلة الغريبة بنجاح في منجم (بلاجوداتنايا) في منطقة التعدين بجبال الأورال. ودلت التجربة على أن الآلة تحفر النفق بسرعة متوسطة تبلغ ٣٠ قدما في الساعة في الأرض ذات الصلابة المتوسطة. وقطر الآلة أربع أقدام وطولها ١٦ قدماً، وهي تدار بمحرك كهربائي داخلها يستمد التيار الكهربائي من محطة على سطح الأرض بواسطة سلك يمتد خلف الآلة ويتقدم معها.

ويحتوي جسم الآلة الأسطواني الشكل على مقعد للسائق وآلة تليفون وآلة (جيروسكوب) لتحفظ التوازن وتبين اتجاه السير في باطن الأرض، وخزانات للهواء النقي ومراوح لطرد الهواء الفاسد من طريق خراطيم من المطاط تمتد إلى سطح الأرض، ومقدم الآلة مدبب ومؤخرها عريض مستدير. وطريقتها في الحفر أن تدار مثقاب قوية في مقدمتها، فتفتت الصخر وتكسره، ثم يحرك السائق رافعة تنقل عجلة مركبة في مؤخرة الآلة وحولها من الخارج إلى المقدمة، وهذه العجلة محاطة بتروس حادة قوية، فإذا انتقلت العجلة إلى الأمام ودارت في الصخر الذي فتته المثقاب، تخلخل وصار طينا أو ترابا، ثم يحرك القائد رافعة أخرى فيدور حلزون مركب حول الآلة مثل حلزون (الطمبور) أو البريمة، وتتقدم الآلة كلها إلى الأمام، فيحمل الطمبور التراب ويضغطه على جوانب النفق الناتج من مرور الآلة كلها في الأرض؛ وبذلك يتكون نفق متماسك مضغوط الجوانب يمكن للآلة أن تخرج منه ثانية ويتسع لمرور الأفراد واختبار طبقات الأرض والرواسب الحجرية والمعدنية في المناجم وأسفل مواقع المنشآت الضخمة قبل بنائها.

وقد صمم زيليف هذه الآلة بعد أن عكف طويلا على دراسة طبيعة الحيوانات التي تحفر لنفسها الأنفاق في الطين. درس تلك الحيوانات من فقرية ولافقرية، وفحص الأجهزة الطبيعية التي تقطع التربة وتمتص الطين وتفرز المواد اللزجة لتماسك النفق، وجاء زيليف بديدان من هذه ووضعها في صناديق مملوءة بالطين وراقبها بواسطة الأشعة السينية، ثم صنع زيليف نموذجا مصغراً لآلته المنشودة، وأدخل على هذا النموذج تعديلات كثيرة، ضمنها

تخليط ووسوسة ...

هذا مقال قُصد به إلى الفكاهة والدعابة قال الكاتب :

إنه تخليط ووسوسة أن يعيش السيد « بط » ووجهته في الحياة فعل الخير ...

فهو مهما يكلفه فعل الخير من وقت وجهد ، لابد فاعله . وسواء أبدا على الناس أنهم في حاجة إلى معاونته ، أو في غنى عنها ، فهو لابدّ معينهم على أمرهم .

وهو لا يبخل وقته ومشورته وقفا على الذين هم في حاجة إلى رأيه ومشورته ، بل يسخو بهما سخاء لا يدانيه سخاء ، على أولئك الذين تدل الظواهر كلها على أنهم في غنى عن رأيه ومشورته .

وأنت فقد تراه باسما متهللا ، وهو واقف على أبواب دور أصحابه الذين مستهم الحياة بالأقل الأمل من متاعبها .

وهو كلما سمع أن فلانا من أصحابه يريد أن ينتقل من بيت إلى بيت ، أو أنه يريد أن يشتري أثاثا لبيته أو يبيعه ، أو يبحث عن خادمة ، أو يطرد خادمة ، أو يبغي سائقاً لسيارته ، أو يطلب سببا كالبعض شئون بيته ، أو يريد شراء « بيانو » — إذا سمع شيئاً من هذا ، وقف إلى جانب صاحبه ، ولازمه ملازمة الظل .

فلما لقيته ذات ليلة في النادي يرتدي معطف المطر ، ويضع الخف فوق حذائه ، ورأيت وجهه يفيض بشاشة ، ويفيض بشرا ، عرفت أنه في طريقه إلى عمل من أعمال الإحسان والخير .

ثم قلت له : هيا بنا نلعب لعبة « البلياردو » .

فقال لي : لوددت أني كنت أستطيع إجابة طلبك ! ولوددت أن لو كان وقتي يتسع لي ذلك ! وأنا أعرف أن في هذا ما يسرك ويرضيك ، ولكني خارج لمهمة .

فقلت له : وإلى أين ؟

وقد وجهت إليه هذا السؤال ، لأني أعرف أنه يريد أن يوجه إليه هذا السؤال بذاته فقال :

— إني ذاهب لألقى الزوجين « إيزل جونس » وأظنك لا تعرفهما ، فقد وصلا إلى المدينة منذ ساعات . وقد حطا رحالهما في بيت من بيوت حي « سافسم » .

فقلت له : ولكن الشُّقة شاقة . وأظنها تبعد ميلا من نهاية طريق المركبات . أليس كذلك ؟

قال : يكاد يكون الأمر كما تقول .

فقلت : والوقت يهدف إلى الساعة العاشرة ، والجو ينذر بالمطر !

قال (ووجهه متهلل ، وهو يصلح خفه) : هوِّن عليك ! فما بالبيت الظريف بيمناً . بل لعله ينتفس ! أما

الآلة التي جربت بنجاح في التنجيم .

ويجري بحوث الآن لكي تسير الآلة بدون قائد ، فتوجه أوتوماتيكيا من فوق سطح الأرض . ويقول المهندسون الأمريكيون إن الاتجاه يتم من أغراض أخرى قد تستعمل روسيا هذه الآلة الحافرة لتحقيقها . وإن هذه الأغراض قد تكون غير سلمية . وقطر الآلة التي صنعت وجربت أربع أقدام ، ولكن ليس ثمة ما يمنع من زيادة هذا القطر إلى عشر أقدام مثلا أو عشرين . وعندئذ يمكن حفر أنفاق عميقة بسهولة . وقد تصلح هذه الأنفاق كمخابئ للسكان في العصر الذري .

وليس لنا في مصر إلا أن نروي هذه القصة وغيرها من أمثلة التقدم العلمي في الخارج ، ولو أن في إمكاننا أن نشجع علماءنا ومهندسينا على الابتكار والاختراع ، لنشارك العالم في تقدمه ؛ ولكننا نقف اليوم متفرجين ، وليس لنا دلو وسط الدلاء .

إبراهيم علي عبد الرحمن

البيت الذي سكنوه. فلست أعرف مكانه. ولكني أستطيع الاهتداء إليه في سهولة ويسر. ولي في الاستدلال على البيوت أثناء الليل طريقة مبسطة. وهي أن أطرق كل باب حتى أعثر على البيت الذي أقصد.

قلت (معترضاً): ولكن الوقت قد فات!

قال (في نبرة بادية): قلت لك يابني إني لا أبالي ذلك مطلقاً! والأمر الذي يهمني في هذا هو أن هناك زوجين صغيرين لم يمض على زواجهما غير بضعة أسابيع. وقد حطا من فورهما رحالهما في بيت جديد. وقد يكون كل شيء عندهما مقلوباً رأساً على عقب. ولا صاحب لهما ولا أنيس:

وكان وهو يقول هـذا القول يلف عمطفه، ويبدو كأنما انتابته نوبة من تحمس الرجل الحسن المتفضل. وقال: يا إله السموات! إني لم أعرف أنهما قد هبطا المدينة إلا ساعة الغداء. ولو قد علمت من قبل لذهبت إليهما منذ أيام ... ! نعم منذ أيام ... !

وما إن قال صاحبنا هذا القول حتى رأيته يشق طريقه والسماء تمطر. ووجهه تغضبه الرغبة في عمل الخير ...

ثم لقيته غداة الغد في النادي، فسألته: هل لقيت صاحبيك؟ قال: نعم. وأقسم لقد سرني أني لقيت في سبيل العثور على البيت عناء ونصباً. ولكني لم أبال بذلك. بل لقد كنت أتوقعه. فقد كان الظلام حالكاً، وكانت الأرض موحلة، والشوارع لم تعرف مصابيح الإضاءة بعد.

وعلى الرغم من ذلك فقد كنت أطرق كل باب. حتى إذا رأيت بصيص نور توجهت إلى مصدر النور وقلت: هل تعرفون أين يقيم الزوجان «إيفرل جونس»؟ فإذا أجاب مجيب بالنفي قلت: حسناً! عد إلى فراشك ولا داعي لإزعاج نفسك بالنزول.

ولكني أخيراً، وبعد طول السؤال عثرت على البيت وكان الظلام يلفه برداته. وقد أطل «جونس» برأسه من شباك في الدور العلوي. فناديته، فقال: إننا آسفان فقد أوينا إلى مضاجعنا.

فقلت: لا داعي للاعتذار. ألق إلي المفتاح، وسوف أنتظر حتى ترتديا ملابسكما، ولا عليكما في هـذا. فليس في الأمر ما أضيق به ...

ثم قال السيد «بط»: صور لنفسك أن هذين المسكينين قد أويا إلى مضاجعهما في منتصف الساعة الحادية عشرة. وذلك — طبعاً — بسبب ما انتابهما من كآبة الوحدة ...

وأقسم لك أني سررت لذهابي إليهما. وقلت لنفسي إن علي أن أدخل السرور على نفسيهما، وأن أضفي على جو المكان شيئاً من البهجة ...

ثم نزلا لقائي. فجلسنا كلانا على صناديق الأثاث. وأخذنا بأطراف الأحاديث. وأرادت السيدة أن تصنع لي قهوة فقلت لها (ومعرفتي بها ترجع إلى يوم كانت هي وزوجها صغيرين): يا نيتي، إني أرفض أن تصنعي أنت القهوة. فدعيني أصنعها أنا. فاحتج كلاهما، وأصررت أنا. ثم ذهبت إلى المطبخ. وكل شيء فيه مشوش، وكان علي أن أفتح عشرين علبة على الأقل لكي أعثر على البن. وأخيراً صنعت القهوة. وطلبت إليهما أن يتناولاها معي. فاعتذرا بأنهما قد شرباها منذ ساعة. ثم ظللنا نتحدث حتى انتصف الليل. وكان يبدو عليهما الملل أول الأمر. فأمسكت أنا بزمام الحديث أبدئ فيه وأعيد. وأنا — كما تعرف — أستطيع التحدث كما أردت.

ثم نظر الزوج في ساعته وقال: أقسم أن الساعة قد جاوزت منتصف الليل. وإني لأظنه قال هـذا القول من فرط المرح، لا من فرط الملل.

ثم طال بنا نفس الحديث، فطالت متعتنا. وكان الزوج ينظر بين آونة وأخرى إلى ساعته ويقول: إن الساعة

تطل النصف بعد منتصف الليل . . ثم الواحدة بعد نصف الليل ، وهكذا . . .

ولقد عنيت — طبعاً — بأن لا أطيل السهر . . . وعند ما غادرتهما وعدت أن أعود إليهما في صبيحة اليوم التالي لأعاونهما في ترتيب المنزل وتنظيمه . فأصرا على الرفض . وأصررت على العودة .

ثم لقيني بعد حين وقال لي : لقد ذهبت إليهما ، وخلعت ردائي ، وبدأت العمل ، فعلقت الصور أولا . وكانا قد علقاها من قبل فلم يحسنا التعليق .

ثم جاءني بعد أيام . وأكثر لي حديث الأثاث . وحديث فكه وتركيبه .

ثم لقيته بعد غيبة طال أمدها . وقلت له : كيف حال الزوجين . وهل طاب لهما المقام في بيتهما الجديد ؟ فهز رأسه وقال : لقد كان ما خفت أن يكون ؟ فلم يستريحا إلى البيت ، وإني لساع إلى نقلهما إلى بيت قريب من المدينة . ولقد قضيت ساعات الصباح كلها أبحث عن شقة . فإذا عثرت بها توليت نقل المتاع .

وبعد أن تم له ما أراد . طفق يبحث لهما عن « بيانو » .

ثم جاءني بعد أيام يقول : هل سمعت عما حل « بجونس » ؟ قلت : لا ! قال : إنه مريض ، وهو يعاني آلام الحمى منذ ثلاثة أيام ، وقد أخفيا الأمر عني كادتهما . وإني لذاهب إليهما من فوري .

وظل السيد « بط » ينبئني بتطورات مرض صديقه يوماً بعد يوم . فيوما يحدثني حديث هذيان صاحبه المحموم ، ويوماً يحدثني حديث إفاقته . ويوماً يحدثني حديث إبلاله . ويوماً يحدثني حديث ما عاناه في أسابيع مرضه .

ثم قال لي : ولقد كوفئت من الزوجة أجزل المكافأة . فقد طلبت إلي — اعترافا منها بفضل — أن أعني بنفسي وأن أغادر البلاد في سفر طويل لكي أستعيد قواي التي أضر بها طول الجهد .

وفي مثل لمح البصر كانت هذه السيدة الشابة تدرس خرائط مختلف الأقطار . فمرة تشير بالسفر إلى الجنوب ، ومرة إلى الشمال ، وآونة تنصح بالسفر إلى كندا . وتارة تقترح السفر إلى أمريكا الجنوبية ...

فقلت له : إني معجب بهذا التقدير الجميل ، فقال : وكذلك أنا ، وإنه لأكثر مما أستحق ... ثم أضاف إلى ذلك قوله : إني وحيد في هذا العالم . وإن خلاني وأحبائي هم كل ما أملك في هذه الدنيا . وإني لا أستطيع أن أنبئك عن مقدار ما أحسه من عاطفة الود عندما أرى إخواني هنا في النادي ، وكذلك في المدينة يفرحون بلقائي ، ويبالغون في تقدير مايلقونه مني من قليل العون والمساعدة . وهم لا نهاية تقوسهم إلا بمشاورتي في كل الأمور .

ثم استطرد يقول : وإني لأضرب لك مثلا بالسيد « جونس » الذي أسلفت لك وصف ما أديت له من عون . فقد حدثني خادم النادي — وهو رجل صادق — قال :

إن أول شيء يفعله السيد « جونس » كلما جاء النادي هو السؤال مني ، (وهذا ما يثلج صدري وتقر به عيني !) ثم توقف عن إتمام الحديث ، فرأيت الدموع تكاد تطفر من عينيه من فرط التأثر .

ثم تركني صاحبي حيث أنا ، وسار إلى ردهة النادي ، وما إن غاب عن بصري حتى رأيت رجلا صبيح الوجه ، وضاح المحيا ، يدخل النادي وهو يسترق الخطى . وينظر حوله ، والخوف ملء إهابه . ثم يهمس في أذن الخادم وهو يسأله : هل السيد « بط » في النادي ؟ وما إن سمع من الخادم كلمة نعم حتى أسرع الخطى . ثم ولى فراراً وغاب عن النظر . فسألت الخادم : من يكون هذا السيد ؟ قال : إنه عضو جديد ، واسمه السيد « إيفرل جونس » .

مبارك إبراهيم

التجنيد فى مختلف الأمم

قد يهم الكثيرين من حضرات القراء لمناسبة صدور قانون التجنيد الإجبارى والنظر فى تقوية الجيش المصرى وتعزيز وسائل الدفاع عن الأراضى المصرية أن يعرفوا شيئاً من التجنيد وشروط اللياقة للخدمة العسكرية فى مصر وفى أهم الدول الأجنبية.

خول المرسوم الملحق بالقانون رقم ١٤٠ لسنة ١٩٤٧ الذى نشر فى العدد ٨٤ من الوقائع المصرية الصادرة فى يوم الاثنين ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٧ لمجلس التجنيد أن يعتبر غير لائق للخدمة العسكرية ويعفى منها من كان فى حالات خاصة من حيث طول القامة وسلامة العينين وأصابع اليدين والقدمين، ومن يتضح للجنة الطبية أن به مرضاً أو عيباً من أمراض وعيوب حددها وقسمها ذلك المرسوم.

أما فى الولايات المتحدة فقد بلغ متوسط طول الجندى الأمريكى فى الحرب الأهلية والحربين العالميتين الأولى والثانية خمس أقدام وسبع بوصات ونصف[1]، أما وزنه فاختلف، إذ كان فى الحرب الأهلية ١٣٦ رطلا وفى الحرب العالمية الأولى ١٤٢ وفى الثانية حوالى ١٥٠.

وفى كندا بلغ متوسط طول المتطوع ٦٦٫٦ بوصة، ومتوسط وزنه ١٤٤٫٦ رطلا.

ولقد اهتمت الولايات المتحدة لأول مرة فى تاريخ حروبها بأمر أسنان رجالها، إذ اشترطت وجود ما لا يقل عن ست أسنان سليمة فى الفك الأعلى، وهى عبارة عن ثلاثة قواطع وثلاثة ضروس يقابلها ست أسنان أخرى فى الفك الأسفل.

ويتطلب من الجند فى الجيش الألمانى أن تكون صحته العامة جيدة، وألا يكون ممن حتمت عليهم تغذية خاصة، وأن يكون قادراً على العمل فى الجيش أو مع القوات المحاربة. وفى حالة وجود أسنان صناعية لا بد أن يكون تركيبها ملائماً كل الملاءمة بحيث لا يشعر صاحبها أنها صناعية.

أما فى بريطانيا فهم لا يرون فى فقد بعض أو كل الأسنان سبباً لعدم اللياقة للخدمة.

بخلاف الحال فى اليابان التى لا تعتبر الجند غير لائق للخدمة بسبب أسنانه إلا إذا كان غير قادر على المضغ أو إذا أثر ذلك على حديثه.

أما الروس فيقولون إن أسنانهم سليمة، ويزعمون أن السر فى ذلك هو إكثارهم من أكل الخبز الأسمر.

أما عن الطول فالجندى الفرنسى يبلغ متوسط طوله خمس أقدام وخمس بوصات، والروسى خمس أقدام وست بوصات. أما اليابانى فيزيد قليلا عن خمس أقدام. ولكنهم فى أمريكا يصرون على أن يكون طول الجندى خمس أقدام وبوصتين على الأقل، بعكس الحال فى بريطانيا العظمى، فهى تقبل الجند إذا كان طوله خمس أقدام فقط.

ومتوسط وزن الجندى فى أمريكا ١٥٠ رطلا وفى اليابان ١٠٦ وفى الجزر البريطانية ١١٣.

وأهم أسباب عدم اللياقة الطبية فى مختلف الجيوش هى: —

الولايات المتحدة — يقبل الجند عند ثبوت لياقته طبيا وفى حالة عدم وجود أعراض مرض قد يظهر فيما بعد فيجعله غير قادر على الاستمرار فى الخدمة. والأمريكيون فى مجموعهم يفخرون بسلامة أجسامهم.

روسيا — السل الرئوى والزهرى وأمراض العيون والكساح وكسر العظام.

بريطانيا — لا يقبل الجند إذا كان عنده كسر فى العظام أو مرض فى العينين أو كان مريضاً بذات الرئة أو ضعيف السمع أو عنده عيوب جسمانية.

(١) القدم تساوى ٣٠٫٤٨ سم والبوصة تساوى ٢٫٥٤ سم

أنباء وآراء

روسو يصف اشراق النفس

فى الجزء السادس من اعترافات روسو فقرة تعد من غير شك من أجمل ماجرى به قلمه ، تلك هى التى يصف فيها يقظة الإحساس الأدبى فى نفسه . فقد كان يشعر بالموت شعورا متصلا ، فلما ضرب فى مضارب الرجال شعر بخوف متصل من أن يدركه الموت فجأة ، فجعل يسائل نفسه عن أحسن مايستطيع أن ينفق فيه الفترة الباقية له على قيد الحياة . ولم يكن قبل ذلك منصرفاً إلى الأدب ، ولكنه أحس أن الأدب هو خير ماتنفق فيه الفترة الباقية ، وقد أوحى له ذلك فولتير ، إذ انتعشت نفسه وهو يطالع كلامه الحى الصافى ، فقال لنفسه مرة حسنا : « كلنا محكوم عليه بالموت ، كما قال فكتور هيجو ، كلنا يرزح تحت حكم الإعدام هنا ، وأمامنا مهلة قصيرة غير محددة ، أمامنا مهلة نختنق بعدها ولا يصبح لنا بعدها مكان على وجه هذه الأرض . فأما بعض الناس فينفقون هذه المهلة فى كسل وتراخ ، وينفقها بعضهم فى الاستسلام لعواطف حادة . وأما أعقل أبناء هذه الدنيا فينفقون هذه المهلة فى الغناء والفن ، لأن حظنا فى الحياة يتوقف على قدرتنا على إطالة أمد هذه المهلة ، ومعنى الإطالة هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الأحاسيس خلال المهلة المعطاة . والميول الحادة تجعل صاحبها يشعر أن الحياة تسرع فى خطوها ... وليس بين الميول مايكاد يعدل الميل إلى الحكمة أو الميل الشاعرى ، والتطلع نحو الجمال وحب الفن للفن ، لأن الفن يمنحك أجمل ماتستطيع أن تحوز به فى الدنيا ، إنه يزيد فى نظرك قيمة اللحظات التى تمر بك ، وهذه اللحظات التى تمر بك وأنت تشعر هذا الشعور الفنى وتحس أن مدى حياتك قد رحب خلالها هى التى توقد فى نفسك شعوراً يضىء كأنه بريق لؤلؤة . وإذا استطعت أن تطيل مداها فقد كتب لك الفوز فى فترة الحياة ... »

ووالتر باتر ، دراسات فى أدب النهضة ، ١٨٧٣

رد مفحم :

أقبل موسيقى ناشىء على موزار وسأله :

— هل تستطيع أن تعرفنى كيف أستطيع أن أكتب سيمفونية ؟

فقال الموسيقى الكبير :

— لا زلت صغيرا يا بنى على مثل هذا العمل ... أولى لك أن تبدأ بتلحين قطع صغيرة ...

فقال الشاب : ولكنك كنت تكتب السيمفونيات فى مثل سنى .

فقال موزار : أجل ، ولكننى لم أكن أسأل أحدا كيف أكتبها ..

ألبرت أينشتين : حياة موزار

من أقوال الدكتور صموئيل جونسون :

● يندر جداً أن نجد إنسانا يجد السعادة فى عمله ، لأن الإنسان إنما عمل شيئا بدافع الحاجة اضطر إلى مغالبة ميوله حتى يستطيع القيام به ، وفى هذه الحالة تعرض النفس بأسباب القلق ويسرى إليها بغض داخلى ، وهذا

فرنسا — إذا كانت به عيوب جسمانية أو عنده ضعف فى حاستى البصر والسمع ، أو كان سيىء التغذية .

ألمانيا — إذا كان ضعيف البصر أو لديه ضعف ناجم من إصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية ، أو عنده تشوهات فى العضلات والجهاز العظمى أو عنده مرض صدرى أو كان مصابا بمرض فى الجهاز البولى التناسلى .

اليابان — إذا كان عنده رمد حبيبى أو ضعف فى قوة الإبصار أو مرض تناسلى .

محمد محمد نعمت

هو السبب فى أن معظمنا يتمنى لو ترك عمله الذى يشتغل به .

• الثقة هى نتيجة النجاح عادة ، وإنك لتجد أولئك الذين وفقوا فى عمل واستدحهم الناس فيه ميالين إلى الاعتقاد بأن ملكاتهم تؤهلهم لكل عمل .

• لا بد للإنسان من رغبات حتى يطرد نشاطه ، ولهذا لا بد لمن وفق إلى الحصول على رغباته الواضحة أن يضع لنفسه رغبات خيالية ويسعى لتحقيقها .

• الدمع دين فى عنقك لمن يعدمك ، أما الملق فهدية ...

• خير لمن لايعرف إلى أين يمضى أن يبقى مكانه .

• الشىء الذى يصلح لكل شىء لايمكن أن يصلح لشىء واحد منها صلاحية تامة .

• ربما جاز أن تبذر بذور الحكمة أثناء الوحدة ، ولكنها لا تزرع إلا فى الجماهير ...

أقوال جونسون الجيلة ، لندن ١٧٨١

حال الدنيا :

— هل تظن الدنيا سائرة إلى أسوأ ؟

— لا ...

— هل تظنها سائرة إلى أحسن ؟

— لا ...

— إذاً ، كيف تسير ؟ ..

— على عهدها دائما ... تدور حول نفسها !

فنل بيرون : الشعر دول فى أحسن حالاته

الحب والشر :

ألقى أحدهم بحضرى هذا السؤال : ما هى أعظم مسرات الحب ؟

فقال أحد الحاضرين : إن أعظم مسراته هى أننا حينا نحب « نأخذ » من المحبوب .

وقال آخر : أعظم مسراته هى شعورنا بأننا نعطى من نفوسنا .

وقال ثالث : إنه يغذى كبرياءنا .

وقال رابع : إن اللذة كلها فى إذلال النفس .

ثم دخل المجلس رجل خيالى نبيل الحرص ، وقال بلاهة : إن أعظم مسرات الحب هو أنه وسيلة معقولة للإكثار من النسل ...

أما أنا فقلت : إن أعظم مسرات الحب هى عنصر الشر الذى يخالطه ، إن شيئا ما فى نفوسنا يهيب بنا أن فى الحب شيئا من الشر ، شيئا محرما ؛ وكل إنسان — رجلا كان أو امرأة — يعرف أن المسرة كلها فى الشر .

شارل بودلير

إعجاب الجماهير :

كان يوهان سباستيان باخ يقول : إن إعجاب الجماهير صخرة تتحطم عليها ملكات كثيرة لم يتم نضجها . ونحن وإن كنا لا نذهب فى كراهية الجمهور والزهد فى إعجابه مذهب أستاذ الخطابة اليونانى الذى قال لتلميذه بعد أن صفق له الجمهور طويلا : لابد أنك لم تجد . وإلا ما صفق الجمهور لك على هذا النحو ! إن زهدنا فى إعجاب الناس لا يبلغ هذا المبلغ ، ولكننا لا بد أن نقرر أن إسراف الجمهور بعض الفنانين واتخداعهم بهذا الإسراف قد أضاعهم ، وخاصة إذا أحاطهم الجمهور بالإعجاب فى سن مبكرة . وكان — أى يوهان سباستيان باخ — يتفق مع شلر فى قول هذا الأخير :

— إذا لم تستطع أن تسر كل الناس بفنك أو عملك ، فاقنع بأن تسر نفرا قليلا ، لأن السعى فى إرضاء الناس كلهم مُبغض .

يوهان نيكولاوس فوركل : حول حياة ى . س . باخ

صبحى مرتضى

بين المسموع والمقروء

زواج الست عشرة ، كيف يحلو ؟

لكل زمان طرازه ، وطراز هذا الزمان زواج الواحدة ، وطراز الأزمنة الخوالي ، أزمنة الأنبياء والمرسلين ، زواج الكثيرات . ويعتقد أهل الزمن الحاضر أن الزواج بالكثيرات مشقة وشقاء . ولو أنا بعثنا رجلا من رجال تلك الأزمنة الخالية ، وأطلعناه على ما نحن فيه ، لاعتقد أن الزواج بواحدة مشقة وشقاء . ويظهر أن المسألة مسألة عادة يتعودها الناس ، والناس ينكرون ما لم يتعودوه ، فإن أتت حاجتهم أخذوا يلتمسون الحجج لإنكارهم إياه . فالإنكار ينهض أولا تبعاً للعادة ، ثم تنهض الحجة في المكان الثاني .

على أننا لسنا في حاجة إلى بعث رجل عاش في عصور الأنبياء ، ليحدثنا عن زواج الكثيرات ، فلا تزال على سطح هذه الأرض أركان تتصل بتلك العصور ، عادة ونظاما ، وإن اختلفت زمانا .

ومن تلك الأركان نيجيريا .

ذهب شاب من شبابها إلى أوربا ، يقتبس من الحداثة إلى القدم ، ومن المدنية التركبة الحديثة ، إلى مدنية قومه البسيطة العتيقة ، وخلف وراءه أبا له ست عشرة زوجة .

وعلم من نزل فيهم من أهل الغرب أن له تسعة وثلاثين أخا وأختا ، فأرهقوه بالسؤال ، فلما ضاق بهم ، لم يجفل ، ولم ينكر ، ولم يتزحزح ، بل أخذ يدفع عن حال تراءت له وهو في أوربا ، كما تراءت له في نيجيريا ، أمرا عاديا .

سألوه :

س : أتحب أن يشارك أمك في حب أبيك خمس عشرة امرأة ؟

ج : نعم أحب ذلك ، أحب أن يكون لأبي زوجات عديدات غير أمي .

س : أفلا تجعلك هذه الكثرة غريبا من أبيك ؟

ج : لا . لا تجعلني هذه الكثرة غريبا عن أبي .

واسترسل يشرح في أناة ، وفي غير غضب ، وفي غير استخذاء :

— وستعجبون أيها الغربيون أنه لم يقع بين زوجات والدي الكثيرات خصام يذكر . ولم يقع طلاق . ونحن الأولاد نحب هذه الكثرة لأن معناها الغنى ، كما تحبون أنتم القلة ، لأن معناها عندكم الاستغناء . إن الكثرة في بلادنا معناها الثروة ، وقد لا تكون كذلك في بلادكم .

ولقد عدت إلى بلدي منذ سنة مضت ، ووصفتُ لأخي « أوكافو » من أمركم ما وصفت ، وجئت على زواج الواحدة ، فهزّ أخي رأسه استنكارا ، وقال إنه الزواج التعس ، وأنا أهزّ رأسي معه ، وأصف زواجكم بالتعاسة ، على الرغم من بقائي فيكم سنين طويلة .

إنكم تتزوجون الواحدة ، ولكن الكثير منكم لا يلبث أن يسيء إلى الواحدة . وهو إن رضي الواحدة قرضا أنكرها عملا . وقد يغيب الغائب منكم في الأمساء عن بيته ، فيسأل الولد أمه عن أبيه ، كيف يقضي أمساءه ، فتقول الأم في حسرة : إنك يا بني أصغر من أن تدرك ، وسأحدثك عن هذا عندما تكبر . أما الولد منا في نيجيريا فيسأل أمه عن أبيه ، كيف يقضي أمساءه ، فتقول له في غير حسرة : إن أباك يا بني رجل ثري قوي ، وإن لك غيري أمهات أخريات هن لي أخوات كثيرات .

ولقد أذكر طفولة قضيتها في بلدة أبي ، في تلك الساحة الكبيرة التي انتظمت حولها مساكنه . كنا جميعا أسرة واحدة على اختلاف المنازل . ونخرج جميعا إلى ساحة

الدور نلعب ونزأط ، ونجرى ونقع وننهض ونضحك ، في مرح لا يقل عن مرح ما رأيت عندكم من أطفال . مع فارق واحد . أن بين أطفالكم ، وهم يلعبون ، قد تدخل الإحن ويدخل التحزب وتمرق فئة عن فئة . أما في ساحتنا فلم يكن خصام ولا تحزب وتكتل ، لأننا جمعتنا جميعا نطفةٌ واحدة نزلت من أب واحد .

ولقد عشت مع والدتي إلى أن شببت . وكانت أمي أولى زوجات أبي ، فسكنتْ معه الدار الأولى . حتى إذا جاء دور غيرها ، نزحتْ من تلك الدار الأولى ، فزادت كرامة وزادت حرمة بسكناها دارا لها جديدة ، هي فيها السيدة الآمرة ، ولها فيها خدمها والأتباع .

ولأن والدتي كانت الزوجة الأولى لأبي ، صار ابنها البكر الوارثَ الأول ، وسوّى العرفُ بين سائر الإخوة والأخوات في الميراث .

وعندما بلغت الثانية عشرة ، وجب عليّ أن أترك منزل والدتي ، فانتقلت أعيش مع أترابي ولِدّاتي إلى منزل واحد ، ضمنا جميعا ، فيه نمنا وقمنا وأكلنا ولعبنا ، وفيه درسنا . وظلت لأمي رعايتي ، إلا في التعليم والترويض ، فإن نابت وناب أمهات الآخرين ، قام الحزم على رعايتنا . وفي هذا البيت عرفتُ معنى الأسرة وتذوقت لذة اجتماعها .

ولما تركتُ والدتي جاءت تسألني عن حالي . فقلت خير حال . وسألتها على عادتي شيئا من الحلوى . فقالت : لا ، إن الحلوى تأخذها من اليوم فصاعدا من يد أبيك لا من يدي . وهكذا يفعل أخوانك ، لتأخذوا جميعا بالسوية فلا تكون محاباة .

ومثل الذي جرى علينا نحن الأولاد ، جرى على الأمهات . فما اشترى والدي ثوبا جديدا لأمي حتى اشترى مثله لأمهاتي جميعا . وما اشترى لها مكنة للخياطة حتى اشترى لهن ، ولا جوهرا إلا اشترى منه بعددهن .

ولا توجد في نيجريا عهارة أو زنا ، ولا تلد المرأة قبل أن تتزوج . فإن حدث شيء كهذا لفتاة لحقها العار ، ولحق أخواتها والأسرة . لهذا تحرص الفتاة على سمعتها أشد الحرص .

ونحن نطلب الزواج في غير استحياء . بلغ أخي الأكبر سن السابعة عشرة ، فقال لأمي إنه يريد الزوجة ، وسألها أن تبحث له عنها . وبعد أسبوعين اجتمعت الأسرة من آباء وأمهات ، وأعمام وعمات ، وأجداد وجدات لتختار لأخي الأكبر زوجة ، واستعرضوا المرشّحات ، واستعرضوا أوصافهن وشكلهن ومحاسنهن وكل شيء فيهن ، وأخيرا انتهوا على أن ابنة « شوكوبكا » خير البنات ، وكان اسمها « أولينة » .

وفي اليوم المحدد قامت الأسرة كلها إلى الجبل المجاور التي تعيش عليه أولينة وأهلها ، وحملوا معهم العطايا والهدايا وخمرا من نخيل . وما وصلوا إلى بيت « شوكوبكا » حتى أنزلوا أحمالهم .

وجرى الحديث بين الأسرتين في كل شيء إلا الزواج . جرى الحديث في الحصاد وفي الجو وفي السياسة . وأخي العريسُ جالسٌ يسترق النظرات من عروسه وهي تقوم على الأضياف توزّع الخمر والفطير .

وبغتة قام والدي واتجه بحديثه إلى رب البيت يقول : أظنك تدرك السبب الذي من أجله حضرنا . إن ابني الأكبر يريد أن يقترن بابنتك أولينة ، وإنه ليشرّفنا أن تقبل منا ذلك .

وما فتح الموضوع حتى كانت الأم قد خرجت بابنتها على عجل نحو المطبخ . وفي المطبخ سألتها أمها ، أترضى من زوجها . فكان جوابها نظرةً خفيفةً إلى الأرض . وكان معنى النظرة : نعم .

وعندئذ جاء دور المهر ، والمهر في تيجريا يتراوح بين العشرين والخمسين جنيها .

وفي أثناء هذه الخطبة رأى أخي قليلا من عروسه ، ورأت منه . ولم ينفرد بها ولم تنفرد . ولم يقبلها ولا جرى بينهما غرام .

وجاء يوم العرس ، فاجتمع عند بيت العريس أترابه الأعزاب يشربون ويرقصون ويصدحون بالغناء . واجتمع عند بيت العروس رباتها والولائد .

وجاءت الساعة التاسعة مساء ، فانتظم موكب العرس ، وسارت العروس فيه مع أهلها نحو بيتنا . وكانت في أزهى لباس ، وعليها الحليّ والجوهر . وتقدمت العروس الموكب ، وإلى جانبها أقرب صديقاتها ، ومن ورائها ذكور الحيّ يحملون المتاع ، وقد زاد ثمنه على المهر كثيرا . كان أحدهم يحمل مكنة للخياطة جديدة ، وكان آخران يرزحان تحت ثقل صندوق عظيم ، وآخرون حملوا أشياء أخرى من المتاع . وعلى الجانبين وقف القرويون يُعجَبون بالعروس وما تُحضِرها من أشياء .

وبعد استلام المتاع والهدايا بدأ الاحتفال واشتد الرقص . وفي الرقص لم يمسّ الشاب فتاة ولم تمسه . ولم يَزُورن معهم في أركان المكان يتحدثن أو يسمعن حديثا من أنفسهن . إن الغزل عندنا ممنوع . وجاء الصباح فانفض الجمع .

ومضت الأيام فالأشهر فالعام ، وانتظر الناس الولد ، فلم يجيء . وأخذت الأسرة تقلق . وكانت أولينة أشد الرجال والنساء قلقا . فالعقم عندنا يشنؤ العار . لهذا أسرعت أولينة يوما إلى أبي فقالت له : إني أحسب أن زوجي بدأ يهجرني من أجل الولد ، فهو يقضي أمساءه بعيدا عني ، يشرب مع رفقائه . وأظن أن الحياة تعود إلى مجاريها لو اتخذ له زوجة ثانية .

واختارت أولينة لزوجها الفتاة ، ولم تمض أسابيع حتى أعرس أخي بعرسه الثاني .

أحمد زكي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٩٩
القاهرة



بحث في مسألة تعدد الزوجات

١ — من عدة أشهر مضت تفضل حضرة الأستاذ دريني خشبة فزارني وتحدث معي في مشروع قانون خاص بالزواج تعتزم وزارة الشئون الاجتماعية استصداره. وقد تشعب الحديث فتناول مسألة تعدد الزوجات. فقلت له إن الذي أفهمه من مقارنة بعض الآيات القرآنية ببعض أن الأصل عندنا نحن المسلمين تحريم التعدد، وبينت له وجه استدلالي. فنشر حديثي في عدد مجلة المجتمع الصادر في فبراير سنة ١٩٤٧. ثم علمت أن أحد الأفاضل من المشتغلين بالفقه الإسلامي ردّ عليّ رداً نشر في عدد مارس سنة ١٩٤٧ من تلك المجلة. فاطلعت على كلام حضرته فإذا به يعترض عليّ بما حاصله أنه مصرح للمسلم بزواج أربع، وكل ما يطالبه إليه القرآن إنما هو العدل المستطاع بين الزوجات، وأن هذا مدلول عليه بقوله تعالى: «فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة»، ورأى في حديثي تركت هذه العبارة التي هي موطن الحكم، وأن عملي في تركها كعمل من يقول: «ويل للمصلين» تاركاً ذكر باقي الآية — إلى أقوال أخرى لحضرته في الاعتراض.

ولأسباب شخصية خاصة بي وأسباب تجريبية مما رأيته في أحوالنا الاجتماعية أمسكت عن الخوض في هذا الموضوع الذي أحسس أن الكلام فيه وفيما هو من واديه يكثر بلا نتيجة.

ولكن في يوم (٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧) شرفني بعض أفاضل إخواني بالزيارة وبينهم أستاذنا أحمد بك أمين. وقد جر الكلام إلى هذا الموضوع، ولاختلاف الآراء فيه بدا مني أني سأكتب رأيي تفصيلاً وأنشره بمجلة الثقافة. ومع أن إنجاز هذا الوعد ليس فيه سوى الإسراف على صحتي دون جدوى، فقد آثرت أن أتحامل على نفسي وأنجز ولو مع التراخي، فإن الخلف شين.

آيات القرآن ووجوه الاستدلال بها

٢ — هاك نص الآيات القرآنية التي بنيت وأبني عليها رأيي، وكلها في سورة النساء: —

أولا: الآية الثانية من السورة وهي: «وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً».

ثانيا: الآية الثالثة ونصها: «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألا تعولوا».

ثالثا: الآية التاسعة والعشرون بعد المائة ونصها: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة».

٣ — وأقول: إن الكلام في الآيتين الثانية والثالثة من السورة مسوق لتحقيق فضيلة العدل في المعاملة. فأشار في أولاهما إلى ما كان حاصلاً من أكل المخاطبين أموال اليتامى الذين في ولايتهم ومن العبث بها؛ وقد أمرهم باجتناب هذا العبث وعدم التورط فيه لأنه إثم عظيم.

ولما كان بعض اليتامى إناثاً في حجر المخاطبين وكان لهن أموال تحت يدهم وكان من عاداتهم السيئة أنهم يتخذون هؤلاء اليتامى زوجات لهم ويمسكونهن هن وأموالهن ضراراً، وكان هذا أشنع مظهر من مظاهر أكل مال اليتامى، فتتميما

لفكرة تحقيق العدل (التي في الآية الثانية من السورة) وتثبيتاً لها أشار في الآية الثالثة إلى هذا التكرر ، وأتى بأبلغ ما يكون من القول لصرفهم عنه . إنه يقول لهم : إذا فهمتم قولى في الآية السابقة وعلمتم أن أكل مال اليتامى مطلقا (من ذكور وإناث) إثم كبير ، فلا تتذرعوا إلى هذا العبث بنكاح اليتيمات اللاتي في حجوركم ، بل تعففوا من نكاحهن المفضى بكم إلى أكل أموالهن ، ولديكم ممن تستطيبونهن من غيرهن من النساء كثيرات ، تستطيعون أن تنكحوا منهن ما تشاءون ، لا واحدة ولا اثنتين واحدة بعد أخرى ولا ثلاثا واحدة بعد الاثنتين الأوليين ، بل حتى مثنى وثلاث ورباع ، أي جزافا بلا حساب ولا عدد .

٤ — فهذه الآية ليست مسوقة لتحديد عدد الزوجات مطلقا ، بل هي مسوقة بالذات وبالقصد الأول إلى التضييق على الخاطبين في نكاح من تحت حجرهم من اليتيمات ، مع تبكيتهم لعدم انصرافهم عن هذا المنكر من تلقاء أنفسهم ، والحال أنهم يرون أن لهم مندوحة عنه ، وأن شفاء شهواتهم ورغباتهم ميسور التحقق لهم من غير تلك السبيل الآثمة الخطرة . وكل متذوق يلمح كم في التعبير بهذه الكيفية من الهزؤ والسخرية بالخاطبين من جهة إبرازه أمام نظرهم صورة تكاد تكون مجسمة لتعاميهم من إدراك ما هو في متناول يدهم عفواً صفواً لا إثم فيه ، وارتكابهم ذلك الإثم الذي هم في غنى من ارتكابه .

غير أنه مع هذا التوسيع التقريبي العظيم لم يترك فكرة العدل التي هي أساس القول في هذه الآية وفي التي قبلها ، بل سارع إلى التنبيه إليها والتنويه بها فقال : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » . بل إنه كيما يثبتها في أذهان الخاطبين أكدها بذكر العلة الرقيبة الموجبة فقال : « ذلك أدنى ألا تعولوا » .

٥ — ويلاحظ في الصدد الذي نحن فيه أنه لا فرق بين أن يكون النص أتى على التعدد المطلق المألوف للعرب كعادتهم أو لإباحة إلى الأربع فقط كما يقول حضرات الذاهبين ، بأن الرباط الذي وضعه في قوله « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » يسقط قيمة كل كلام في التعدد وإلى أي حد يكون ، ويجعل العبارة تؤول إلى شيء واحد هو : أن الشارع يستوى عنده أن يتزوج الرجل واحدة أو ألفاً ما دامت معاملته لكل واحدة من زوجاته تكون عادلة ، وما دام يسوى بين الجميع في هذه المعاملة العادلة ، وما دام لا يخاف من نفسه عدم العدل ، وبحيث إنه إن خاف عدم العدل فواجبه أن يقتصر على الواحدة .

٦ — أكرر إن النص في نظرى بعيد — كما أسلفت — كل البعد عن إفادة أن الآية مسوقة لتحديد عدد الزوجات الجائز جمعهن ، كما يقال . وذلك :

أولا : لأن تحديد عدد الزوجات من الأمور الأساسية في التشريع للعرب لأنه يصادم عادة متأصلة فيهم ، والقرآن أجلّ من أن يأتي بهذا الشأن الأساسي بصفة عرضية جوابا لعبارة شرطية بعيدة بظاهرها عن هذا الشأن ولا مناسبة بينها وبينه . إذ الحق أن أحدا لا يستطيع أن يفهم ما هو الارتباط بين خوف عدم الإقساط في اليتامى وبين نكاح النساء وإلى أربع فقط . إن القرآن لأجلّ بلاغة من أن يأتي بهذه المفارقة .

ثانيا : لأن كلمة (ما) في قوله « ما طاب لكم » هي من أقوى ما يكون في إفادة العموم . ولست أميل إلى ما قد يقولونه من أنها موصولة مستعملة في محل كلمة « مَن » . بل الذي أطمئن إليه أنها نكرة بمعنى (أيّ شيء) ، فهي من أعم ما يكون في الدلالة ، أي فانكحوا مما ينكح أي شيء طاب لكم ، أي أية امرأة أو أية مجموعة من النساء طابت لكم . ولا شك أن هذا التعبير في ذوق كل عربي أعمّ من دلالة « ما » إذا فهمت على أنها موصولة .

ومتى اطمأن الناظر إلى أن لفظ (ما) عام ذلك العموم ، وأنه بأصل وضعه يطلق على الإنسان والحيوان والجماد وسائر الموجودات ، ولا يتحدد إلا بالوصف المباشر الذي يتبعه ، وهو هنا « طاب لكم من النساء » ، فما يطمئن على بلاغة القرآن وتساوق عباراته وتناسبها أن ينحدر من هذا العموم الكلى إلى التحديد بالأربع ، بل إنه انحدارٌ يكون غير مقبول شكلا (كما يقول الناس فى وقتنا الحاضر) . إذ لا مشاكلة بين ذلك الإطلاق المتسع به وبين هذا القصر الفاجىء الذى يصدم الفكر لأنه من واد آخر مفارق لوادى التعميم ، وهو فى التمثيل أشبه الأشياء بفارس يكبح فرسه ويكرهه على الوقوف فجأة وهو فى أوج انطلاق عدوه . وبلاغة الآية لا تحتمل هذا العبث الشديد .

ومما تجب ملاحظته أن القرآن عند ما نعت كلمة (ما) المذكورة راعى عمومها المطلق فاستعمل فى النعت كلمة (طاب) ولم يستعمل كلمة (حلّ) لأن (الطائب) قد يكون حلالا وقد يكون حراماً ، فمدلوله أعم وأشمل من مدلول الحلال . وهذا من أبدع ما يكون فى مراعاة المشاكلة . فحرام إذن أن يعبث أحد بهذه البلاغة المتناهية .

ثالثا : لأن التناقض من مقصود العبارة القرآنية وفهمها على ذلك التحديد الحرفى يؤول بنا إلى نتيجة منكرة : ذلك أن مثنى وثلاث ورباع معناها المتفق عليه عند الجميع اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ، لأنها أوصاف معدولة من أصابها هذا العددىّ . ومثل هذا التعبير سواء كأصله أو كما عُدل به إليه مستعمل الآن وقبل الآن فى كثير من الظروف . يقول الضابط لجنوده : سيروا اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة (أو يقول لهم ما يساوى هذا بالضبط فى فصيح العربية الموجز : سيروا مثنى أو ثلاث أو رباع) ؛ فاذا أراد الجنود تنفيذ هذا الأمر وجب أن يكون حدث السير واقعاً من كل اثنين منهم معاً فى آن ، أو من كل ثلاثة منهم فى آن ، أو من كل أربعة فى آن ؛ بحيث إنه إذا سار واحد منهم بمفرده ثم سار الآخر من بعده بمفرده فإن سيرهم لا يكون مثنى (أى اثنين اثنين) بل يكون موحد فقط . وكذلك إذا قلت لأحد الناس : كلْ هذه العنبات مثنى وثلاث ورباع ، فتنفيذ هذا يكون بأن يأخذ فى اللقمة الواحدة حبتين من العنب أو ثلاث حبات أو أربعا .

أقول هذا لإفادة أن المعنى الحقيق للفظ (مثنى) يقتضى أن الحدث المتبوع بهذا الوصف يقع فى وقت واحد من الفاعلين أو على المفعولين . فقوله : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » معناه بحسب حقيقة هذه الألفاظ يقتضى أن حدث النكاح يقع فى الوقت ذاته على اثنتين أو ثلاث أو أربع ، أى أن يأتى الرجل لامرأتين فيتزوجهما فى وقت واحد بعقد واحد أو أن يأتى لثلاث نساء أو لأربع فيتزوجهن فى وقت واحد بعقد واحد كذلك . وهذا من أشد ما يكون إفساداً للفكر ، لمخالفته لما هو معلوم من ماجريات العادة عند العرب وغير العرب فى الزواج . هذا الفساد الشنيع الذى يؤول إليه المعنى يفيد أن تلك الملالة اللفظية يستحيل أن يكون معناها الحرفى هو المقصود ، بل هى كناية من لأخذ الجزاف الناق لكل تحديد ، وقد جاءت هنا للغرض الواضح الذى أشرت إليه وهو تفريع الخاطئين والمزوّ بهم لتماديهم فى أكل أموال اليتامى بالباطل من طريق نكاحهن ، وتعاميهم عن الباب الواسع الموصل إلى تحقيق رغباتهم من النكاح بلا حرج ولا فسوق ولا أثم . أما رجوع الآية بعد هذا الكلام إلى قوله : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ... » فهو تمهيد منه بالعودة إلى ما يجب من تحقيق فكرة العدل التى قامت عليها الآية التى نحن فيها والآية التى قبلها وكثير مما بعدها من الآيات .

رابعا — لأن عبارة الآية « مثنى وثلاث ورباع » أتت بكل ما فى العربية من ألفاظ الصفات العددية التوزيعية .

إذ ليس في العربية (خماس) ولا ما يليها ، وخلاصة ما قاله ثقات اللغويين المختصين أنه ورد فيها لفظ (عُشار) سماعاً فقط ولكنه من الشذوذ .

وهذا يدلك على أن القرآن استقصى في الآية كل ما في العربية من ألفاظ التوزيع الجراف ولم يترك بعدها لفظا لمزيد . ومن التسأول الرخيص على عبارة الآية أن تُلتمس منها إرادة تحديد الزوجات بشيء من المجاميع التوزيعية المبينة بها . ولقد يخيل إليّ أن هذا التسأول الرخيص هو من عمل بعضهم أيام التدوين واجتهادهم في تصويب ما استقر عليه الإجماع في زمنهم من عدم تعدي الأربع . وجدوا ألفاظ هذه الآية تنتهي إلى (رباع) فجعلوا هذا اللفظ متكأهم وأخذوا يؤولون الآية ويفسرون العربية على غير ما لألفاظها من الدلالات والمفاهيم .

بل إن من أبلغ ضروب التسأول ما تحدثت إليه بعض البيئات من قولهم إن الآية إذ قالت : « مثنى وثلاث ورباع » فقد أباحت المسلم تسعاً من النساء ، لأن (مثنى) معناها اثنتان و (ثلاث) معناها ثلاث و (رباع) معناها أربع ، وهي متعاطفة بالواو المفيدة للجمع ومجموع هذا تسع ، ثم من تأييدهم هذا الفهم الجرئ بما كان من ترك النبي تسعا من الزوجات . وأخطر من هذا التسأول زعم بعضهم أن للمسلم التحديد إلى ثماني عشرة لأن ألفاظ الآية تفيد التكرير .

ومن عبارات الحق التي يُدمَغ بها الباطل أن المقتصرين على أربع ردّوا على أولئك بأن التسع من خصوصيات النبي لا يشركه فيها مسلم ، وظنوا أنهم بهذا الرد ألزموا بنظريتهم في جيل الأربع فقط مخالفيهم أولئك المتطرفين .

وأقول إن الحق بيّن . هو أن الآية لم تعمد قط إلى تحديد عدد الزوجات بالنص ، لا بأربع ولا بتسع ولا بثماني عشرة كما هو مزعوم . ولا يطمئن على أي دين من الأديان أنه يترك تعدد الزوجات على أصله من الإباحة ؛ إنما الذي يطمئن على الدين أن لا يأس بالعدل التام فيما بين الزوجات المتعددات ؛ والدين الإسلامي يأمر به بأقوى العبارات ويشدد في أمره غاية التشديد ، بل يصرح بأنه فوق استطاعة الإنسان .

خامساً — لأنهم — تأييداً لتفسيرهم الإكراهي — يقولون إن في الآثار أن فلاناً أو فلاناً كان تحته ثماني نساء أو عشر ، فلما نزلت الآية كلم النبيّ فأمره بإمساك أربع ومفارقة الباقيات .

وأقول : كيف تطمئن قلوب المؤمنين إلى الأخذ بمثل هذه الأحاديث ؟ إنه حق مع التسليم جدلا بأن الآية تحدد عدد الزوجات ، فإن فلاناً الذي يروون حكايته إمّا أن نساءه كن جميعا لديه في الجاهلية ، وإمّا أنه جمعهن بعد الإسلام ومن قبل إسلامه هو ، أو بعد إسلامه ومن قبل نزول قوله تعالى : « فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة » . وعلى أيّ الفروض فهل يعقل أن مثل هذا الرجل الذي قد يجوز أن يكون كل نسائه والدات ، ويجوز أن يكون له من كلهن أطفال في دَوْر الرضاع — هل يعقل أن أية شريعة سماوية أو وضعية تأتي بخراب بيت مثل هـذا الرجل وتشتيت بعض زوجاته وما قد يكون لهن من أطفال ؟ هذا منكر لا يأتيه شرع الله ، ولا يمكن أن يكون النبي أمر به إلاّ إذا تصورنا النبي — وحاشاه — قد فارقه ما فطر عليه من الخلق العظيم . وأية ضرورة دينية أو اجتماعية عاجلة تدعو الشرع الإسلامي إلى مثل هذا التخريب العاجل الشنيع ؟ ألا يكفي أن يكون القانون نافذاً في المستقبل وأن الله الغفور الرحيم يعفو عما سلف ، بلا إسناد للحكم ولا رجعية ؟ أظن هذا هو الحق وأنه هو مراد القرآن ، وهو جار على طريقة القرآن .

ومن ناحية أخرى فإن قوله : « وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة ... » إن فُرض أنه مسوق للتصريح بتحديد النساء إلى أربع فقط (على التفسير

المصرى الإكرامى الذى يريده أصحاب هذه النظرية) ، فإنه يقرر أيضا حكما أساسيا هاما هو وجوب الاقتصار على واحدة عند خوف عدم العدل بين الأربع المزعومات . وهذا الحكم الأساسى كان يقتضى بطبيعة الحال أن يأمر النبى الناس بمفارقة ما زاد من واحدة ، لأن الخوف يملأ كل نفس حتى نفس النبى . فلماذا يترك النبى تنبيه الناس إلى هذا ويقتصر على تنبيههم إلى مقتضى الحكم الأول الخاص بعدم الزيادة على الأربع (كرأيهم) ؟ إن هـذا ليجعلنا نرتاب كل الارتياب فى صدق تلك الأحاديث التى يحتجون بها .

دفع اعتراض

٧ — أما ما قيل من أنى فى حديثى الأول أشرت إلى الآية الأخرى الواردة فى نفس سورة النساء ، ولكنى ذكرت جزءاً منها فقط هو قوله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » وتركت باقيها وهو قوله تعالى : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ... » وأن هذا الذى لم أذكره هو موطن الحكم ، وأن عملى فى تركه كعمل من يقتصر من الآية القرآنية على قولها : « ويل للمصلين » — كل ما يقال من هـذا لا جِدّ فيه . وحضرة المعترض الفاضل يعلم طبعاً أن لا جد فيه ؟ ولكن يبدو أنه يريد الاعتماد على الأدلة الخطابية التى لا تجدى فيما نحن فيه . وإن أرادنى على بيان عدم جدّ هذا القول ، فإنى كذلك لا أرجع للعبارات الاصطلاحية التى يراها ثقيلة . بل يكفى أن أقول إن هناك طريقة عملية بسيطة تبين فساد التشبيه : هى أن تذكر العبارة القرآنية أو غيرها مجردة ، وأن تنتظر هل يقال لك : (هذا صحيح) ، أو يقال : (هذا كذب) . فكل عبارة يقول لك سامعها : (هذا كذب) تعرف بلا رجوع إلى الاصطلاحات العلمية أنها عبارة لا تستقل بذاتها ، ولا يجوز فصلها عما يتممها . فإذا قلتَ : « لا تقربوا الصلاة » فقط أو « ويل للمصلين » فقط قيل لك (هذا كذب) ، فتعلم من هذا أن عدم تتميم الكلام خطأ فاحش . أما كل عبارة لا تسمع أحدا بعدها إلا قائلا : (هذا صحيح) مثل قوله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » فإنها تكون عبارة مفيدة معنى تاما صحيحا كل الصحة ، ويكون لك أن تقتصر على إيرادها وأن تستنتج منها أو تفرّع عليها ما شاء الله أن تستنتج أو تفرع مما لا يمنعك منه مانع شرعى أو عقلى . وكل هذا معروف طبعا وترديدى إياه الآن لمجرد التذكير .

٨ — إن آية أول السورة بعد أن وسّعت فى الزواج ذلك التوسيع النظرى الجزاف الذى لا تحديد فيه قالت : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » ، وآية آخر السورة تقول : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، ولفظ (العدل) وارد فى الآيتين بحروفه ، فلا يمكن أن يكون معناه فيهما إلاّ واحدا على حقيقته الشاملة العاديات ثم المعنويات الباطنية جميعا . ولقد فهمتُ أن الآيتين متكاملتان وأن أولاهما إذا كانت أوجبت على من يخاف عدم العدل بين زوجاته أن يقتصر على واحدة ، فإن الثانية إذ قررت أن هذا العدل غير مستطاع مهما حرص الإنسان عليه ، فقد أكدت بهذا أن الخوف حقيقة واقعة لا محالة ، فكان تأكيدها هذا أدعى إلى الاقتصار على واحدة وأوجبَ له وجوبا لا انفكاك منه . فهمتُ هذا وقررته وقلتُ إنى من دعاته والمؤمنين به . فقال حضرة المعترض : إنه يحتج علىّ بالجملة التابعة للآية الثانية وهى قولها : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ... » ، وإن القرآن أباح التعدد إلى الأربع ، وإنه لو كان أراد تحريم تعدد الزوجات حقيقة لسهل جدا أن يعمد إلى النص على هذا رأسا فى عبارة موجزة تقتصر على بيان تحريم التعدد وحكمة التحريم بما فى التعدد من جور . اهـ .

فوّى احتجاج حضرة الأستاذ أن الأصل القرآنى هو أن التعدد مباح دائما بلا شرط ولا قيد ولكن إلى الأربع فقط ، وأن عبارة « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » وردت لتنظيم السير عند الأخذ بهذه الإباحة المطلقة الدائمة إلى الأربع .

٩ — وأقول إنه لو صح هذا الفهم لتعارضت هذه العبارة على الدوام والاستمرار تعارضا شديدا مع عبارة « فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة » ولاضطرب قلب المسلم وما فهم كيف أن الله يأمره عند مجرد خوفه من عدم العدل بين الزوجات أن يقتصر على واحدة ، وكيف أنه مع حكمه فى قوله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » بأن هذا العدل غير ممكن مهما حرص الرجل على تحقيقه — كيف أنه مع حكمه هذا الحكم القاضى بتحقق الخوف حتما بصفة دائمة والمقتضىّ عقلا وبطريق الأولى وجوبَ اقتصاره على واحدة — كيف أنه هو نفسه يُسقط عمل هذا المقتضى ويجعل الرجل حرا فى تعديد الزوجات ، وكل ما يطلبه إليه هو العدل بينهن ما استطاع ؟ أقول لاضطرب قلب المسلم ولم يدرِ هل بعبارة « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » نسخ الله أمره الأول وهو الاقتصار على واحدة عند خوف عدم العدل نسخا أبديا ؟ أم أن له منها مراداً آخر ؟ إشكال شديد تصطرع فيه ذمة من يريد السير على مقتضى شريعة الله القائمة . واحتجاج حضرة المعترض لا يُنتج إلاّ إذا كان هذا النص الذى يحتج به قد نسخ النص الأول فأصبح لا معول عليه ، وأصبح النص الثانى المذكور وهو قوله : « فلا تميلوا كل الميل » هو النص الأبدى المعول عليه . وما أظن أحدا يجرؤ أن يقول بهذا النسخ .

لا إشكال فى النصوص

١٠ — والواقع الذى يبدو لى أن ليس فى عبارات القرآن التى نحن بصددها شىء من الإشكال أو الغموض لو نظرنا إليها على بساطتها ونظرنا إلى حال العرب الأولين عند نزولها ، وأدركنا أن القرآن كتاب هداية وإرشاد ، كان يتنزل ويتابع العرب رويدا رويدا تبعا للحالة الاجتماعية والاستعداد النفسى الذى يتربى بالزمن شيئا فشيئا بغير عنف لا تقتضيه الظروف .

ذلك بأن الآية الأولى — كما أسلفنا — لم تأت قط بقصد التصريح بتعديد الزوجات ، ولكن إلى أربع فقط كما هو مزعوم ، وإنما أتت — بظاهرها — غير مانعة من أخذ أى عدد كان من النساء ، ولكنها مع هذا التوسيع التقريبى الجزافى خشيت أن يسىء المخاطبون فهمها فنبهتهم إلى لزوم الاقتصار على واحدة عند خوف عدم العدل . وبما أنه يبدو أن النبى وكثيرا من الناس كانوا على عادة العرب متزوجين بأكثر من واحدة ، تخوفهم من عدم العدل حاصل بالطبع وقلوبهم واجفة واقعة فى الاضطراب حتما ، وهى حال لا تطاق ، فما العمل ؟ هل يسارعون إلى العمل بقوله : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وحينئذ يفارقون ما زاد على الواحدة ؟ أم أن الله فى لطفه وكرمه والدين الإسلامى فى يسره وسهولته ينظر إلى الزوجات التى تبين ، والأطفال التى تهمل ، والبيوت التى تخرب ، والعرب الواجب تأليفُ قلوبهم لا تنفيرهم ، فيجعل لتشريعه المستقبل ويتساهل فى الماضى وفى أثر النكاح القائم ويتركه حتى يزول بطبعه بعد قليل من الزمن ، شأن كل تشريع سليم يرضاه العقل ويطيقه الاجتماع ؟ يبدو لى أن هذا هو الواقع ، وأن المسلمين علموا وجأروا والنبى إلى الله متململين من هذه المحنة الراهنة ، فلطف الله بهم فبين مراده بأن أنزل قوله : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة »

لا تنظيما للمستقبل الأبدى كما يقولون ، بل تنظيما للحالة الوقتية الناشئة عن تلك المحنة التي وجدها المسلمون حائقة بهم ، وهي حالة الزوجات المتعددات الموجودات فعلا عند نزول هذا القول ؛ وذلك بأن يراعى العدل بين الزوجات المذكورات بقدر الاستطاعة وبأن لا يحل لمفارقتهن وعدم الإبقاء إلا على واحدة فقط منهن بسبب خوف عدم العدل .

١١ — وهذا الفهم الذي نفهمه من اضطراب المسلمين وشكواهم ومن تخفيف الله عنهم على الوجه المذكور — (الذي هو مجرد تخصيص أو بيان لحكم « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » من جهة زمان تطبيقه) — هذا الفهم تؤيده نصوص القرآن نفسه ، فإن الآية (رقم ١٢٩) التي ورد فيها قوله : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » إنما نزلت ضمن ما نزل بعد قوله تعالى في الآية (رقم ١٢٧) « ويستفتونك في النساء . قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن ... » فأنت ترى في هذه الآية (رقم ١٢٧) ما يؤيد فهمنا من أن العرب ضجوا وجأروا بالشكوى من المحنة التي وجدوا أنها نزلت بهم فاستفتوا النبي . وأنت ترى أيضا أن هذه المحنة المشكو منها والمستفتى فيها أشار القرآن إليها وإلى موضوعها إشارة واضحة ، وذلك بتصريحه بأن الاستفتاء هو في النساء ، ثم بتصريحه بأن فتواه هي هي ما سبق تلاوته عليهم في القرآن في يتامى النساء اللاتي كان العرب يأكلون أموالهن ويريدون أن يتزوجوهن ، أى تذرعا لأكل أموالهن . والذي سبق للقرآن تلاوته عليهم في هذا الصدد إنما هو قوله تعالى في الآية الثالثة من السورة : « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة .... » ولا شك أن إشارة القرآن في الآية (رقم ١٢٧) إلى الآية (رقم ٣) المذكورة إنما هي توكيد منه لهذه الآية (رقم ٣) ولفت نظر إلى وجوب العمل بها . على أن القرآن لم يكتف بهذا التوكيد المفهوم بطريق الإشارة والإيماء ، بل إنه — كيلا يتأول العرب أى تأول في معنى خوف عدم العدل المفهوم من قوله : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » — قد سارع قبل قوله : « فلا تميلوا كل الميل » إلى قوله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، فكان هذا زيادة تثبيت منه لمقتضى قوله : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » كما كان بيانا منه واضحا لوجوب العمل بقوله هذا في المستقبل وتأكيده تأكيدا محتوما .

١٢ — فعبارة « فلا تميلوا كل الميل » المراد الاحتجاج بها ليست إذن — يعلم الله — سوى حكم وقتى ينقضى بانقضاء الموجود من الزوجات عند نزولها مهما يكن عددهن . ومن المستبعد عقلا أن تكون — كما يزعمون — تنظيما أبديا للسير عند تعدد الزوجات إلى أربع (أو إلى تسع أو إلى ثماني عشرة كنظريات المتطرفين) . مستبعد هذا عقلا ، إلا إذا قيل إن الله ألقى قوله : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » أو أنه مع إيجابه على الناس تشغيل عقولهم فإنهم يجوز لهم تأويل كلامه بما يخالف مقتضى العقل ، ولو حكم العقل بأن ما يذهب إليه هو الأولى . ومن ذا الذي يقول ذلك ؟

١٣ — ومتى فهمنا عبارة « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » على هذا الوجه المعقول الموافق لأصول التشريع أبعدنا عن نصوص القرآن شبهة التعارض والإشكال والنسخ ، ومن الدين شبهة ظلم النساء المتزوجات فعلا إذ ذاك بلا موجب اجتماعي أو ديني ، ومن سلمي ذلك الوقت مضض العنت اللازم عن تنفيذ مثل تلك الأحاديث التي يروونها عمن يقولون إن النبي أمرهم بترك الزائد عن أربع من النساء .

١٤ — وخشية سوء التأويل لا يفوتني هنا تكرير القول بأن القرآن الكريم لم يحرم تعدد الزوجات بنص صريح

قاطع خاص ، بل إنى إذا كنت ذكرت فى حديثى الأول أنه يحرم التعدد فواضح من الحديث ذاته أن ذلك استنتاج من الآيتين (رقم ٣) و (رقم ١٢٩) واحتياط منى بصفتى مسلما يجب أن يُعنَى بتقرير ما يغلب على ظنه أنه هو المقصود للنصوص الواردة بكتاب شريعته .

١٥ — أما ما اعترض به من أن القرآن (لو أراد تحريم تعدد الزوجات لنص على هذا ... الخ) فيبدو أن أساسه ما تلقفه حضرة المعترض من كلمة (بتاتا) التى وردت فى حديثى ، تلك الكلمة التى توهم بظاهرها أنه تحريم مطلق لا مثنوية فيه . فأنا أعذره فى اعتراضه . ولكنى أعتب عليه لتركه ما فى تفصيل الحديث وتلقفه تلك الكلمة الشاردة لبناء الاعتراض ، وهو لا بد عالم بأن المحادثات الشفوية ، وبخاصة فى مثل هذه الموضوعات الحماسية ، غالبا ما يلابسها التشدد فى تأييد الاعتقاد فلا تخلو من شرود بعض الألفاظ . وبقطع النظر عن هذا ، فإن مايقوله الآن هنا غير قويم : لأننا جميعا نعرف — كما أشرت إليه من قبل — أن الدين الإسلامى عالج نقائص العرب تدريجيا مع الأناة والتلطف والاستناد من كل مايفرقهم بلا مقتض . ومسألة تعديد الزوجات كانت من العادات المتأصلة فيهم ، فسادمتهم بتحريمها بالنص القاطع القاضى لا على لها . لكنه اتخذ لهذا أسهل طريق وأحكمه ، طريق التحدى بالعدل . والعدل لاينفر عربى ولا غير عربى من سماع لفظه ولا من إقرار معناه . اشترط عليهم العدل بين الزوجات ، فكانت وسيلة سائغة من شأنها — لو أخذ بها — أن تكون موصلة إلى الغرض غاية التوصيل ؛ بل إنه — كما أفهم — لطف بهم فلم يكلفهم فى الموجود من الزوجات إلا العدل المستطاع ، ولم يجعل حكم الاقتصار على واحدة عند خوف عدم العدل نافذا فى هذه الموجودات . وإذن فما محل اعتراض حضرة الأستاذ المعترض ؟ إنما المحل للاعتراض هو دعواهم على الآية أنها تحدد الزوجات الحلالات إطلاقا بأربع . إن هنا موطن القول بأن القرآن لو أراد لتعمد أن يقول بعبارة بسيطة موجزة : (يحل نكاح النساء إلى أربع) أو (يحرم نكاح أكثر من أربع) . بل — بما أن عدم الزيادة على أربع هو من باب محرمات النكاح — كان من الأولى أيضا أن يذكر أمره به فى آية «حرمت عليكم أمهاتكم» بأن يأتى بعد عبارة «وأن تجمعوا بين الأختين» فيقول : (ولا أزيد من أربع إلا ما قد سلف) — أو كان يذكره استقلالا كما ذكر «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم» . ثم هو لا يحتاج فى تسويغ هذا التحريم لشىء من العلل لأن العلة واضحة .

منهج القرآن والأصل المتبادر فى هذه المسألة

١٦ — ويدفعنى لى أن أسارع إلى القول بأن أعمال الله تعالى تقوم على الحق ودينه يقوم على الحق . والعدل هو ميزان الحق أى هو الطريق الوحيد الممكّن للحق فى هذا الوجود ، وليس للحق من ميزان غيره . ولذلك تجد القرآن الكريم يشيد بالعدل ويحث على تحريه فى كل منحى من مناحى الأعمال المقصودة للدنيا أو للآخرة ؛ وما هذا إلا ليتحقق فى ملكوت الله قيام الحق . وفيما عدا الحق المعلوم من الدين بالضرورة كوجود الله وقدرته والبعث والحساب وما شاكل هذا مما علينا اعتقاده ؛ فإن العدل الذى هو وسيلة التمكين للحق أمر نسبى يتغير مجراه بحسب الأحوال والظروف . فمن بيده تدبير أمور العباد يلاحظ ظروفهم ملاحظة دقيقة ، ويقر العدل فيهم موازنا دائما بين النفع والضرر فيما يأتى من التدابير وما يذر ، غير مجيز فيهم إلا ما هو نفع محض أو ما نفعه أكثر من ضرره .

١٧ — على هذه الوتيرة سار الدين الإسلامى فى تدبير أمور المسلمين . عالج أحوال العرب بكل تؤدة وسار بهم رويدا

زوجاً بلا مقدرة نحو ما كانوا مبصرين له من السكاك الخانق والرق المادي . وكل يعرف كيف كان تحريجه في كثير من الأنظمة التي وضعها . وفي الموضوع الذي نحن بصدده الآن قد ترك القرآن الناس على حريتهم وعاداتهم يتزوجون أي عدد من النساء يريدون . وغير صحيح – في نظري – أنه حد من هذه الحرية نصًّا أي تحديد . بل كل الأمر أنه نبههم إلى القاعدة الأساسية في تشريعه ، وهي مراعاة العدل والابتعاد عن مزالق الجور ، فأوجب على المسلم عند ما يقوم في نفسه الخوف من عدم العدل أن يقتصر على زوجة واحدة . ثم أكد هذا المعنى تأكيداً لا هوادة فيه بقوله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . فأصبح الأصل الواجب أن يحتذيه كل مسلم يريد الاحتياط لنفسه هو الاقتصار على زوجة واحدة .

١٨ – وهنا يعرض السؤال الآتي : ألا هوادة في هذا الأصل ولا محيص عنه أصلا ؟ .

والجواب حاضر ميسور . وهو ما قرره السلف ويقره العقل من أن الشرط إذا انتفى بطل المشروط ، ومن أن العلة الموجبة إذا زالت زال المعلول ، ومن أنه لا تكليف بما لا يطاق ، ومن أن الضرورات تبيح المحظورات – تلك القواعد التي لها مصادر أساسية في القرآن ذاته ، كقوله تعالى : « وإذا حللتم فاصطادوا » وقوله : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وقوله : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » وكقوله بعد تحريم بعض أصناف الطعام : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه »

١٩ – وهذا يبين لك حل التعديد في حالتين : الأولى إذا انعدم الشرط بأن انتفى موطن خوف الجور بتاتاً والثانية إذا قضت الضرورات الماسة بإباحة التعديد ولو مع قيام خوف الجور .

فإذا فرض أن الرجل زوجة مرضت وأصبحت نهائياً في حال لا تصلح معها للزوجية ، فإنها يستحيل أن تكون محلا لتحقيق العدل في القَسْم ، وكل ما بقي من العدل في حقها إنما هو إجراء النفقة عليها بالمعروف بحسب حاجتها ، كما يجريها الرجل على أبيه أو أمه أو أخته أو غيرهم ممن تلزمه نفقتهم . فهذه الصورة وما قد يشبهها لا مانع شرعاً ولا عقلا يمنع فيها من التزوج ثانية .

ثم إن الأمم قد يقوم فيها من الظروف ما يقضي عليها حتما بتعديد الزوجات ، كأن تدخل أمة في حرب تقضي على كثير من رجالها فيقل عدد سكانها وتتضاعف فيهم نسبة الإناث ، ويكون لا محيص من تعديد الزوجات تكثيراً للنسل من الذكور الذين يرفعون الأمة من وهدتها . فهذه أيضاً صورة تبيح طبعاً تعديد الزوجات . إذ الضرر من خوف الجور فيها لا يصح أن يقام له وزن بجانب ذلك النفع العظيم الذي يأتي به التعديد ، وهو المحافظة على كيان الأمة ومنع تعرضه بسبب قلة رجالها وصيرورتها هدفاً لأعدائها .

٢٠ – وأنت إذا دققت النظر وجدت أن فكرة تحقيق العدل هي أيضاً القاضية بتعديد الزوجات في مثل الصورتين السابقتين . ذلك أن الضرورة الطبيعية تقضي على الرجل بمباشرة لاختلاط الجنسي ، والزنا محرم عليه شرعاً ، وامرأته في الصورة الأولى لا تصلح لهذه المباشرة ، فمن العدل في حقه أن تبيح له التزوج بغيرها وإلا فقد طالبته بتكاليف ما لا يطاق ، وكذلك من العدل في الصورة الثانية عدم تعريض الأمة للهلاك بحرمانها من تقوية نفسها ، ولا وسيلة إلى هذه التقوية إلا بتكثير النسل من الذكور ، ومظنته إنما هي إباحة تعديد الزوجات .

وحاصل ما تقدم أن الأصل في الأحوال الاعتيادية هو الاقتصار على زوجة واحدة ، وأن هذا الأصل قد يقضي العدل نفسه بالخروج عليه في بعض الصور ، ولكنها تكون صوراً استثنائية تقدر بقدرها ، ومن بيده أمر السياسة الشرعية يلاحظ هذا ويأمر به بحسب مقتضيات الأحوال .

خصوصيات النبي

٢١ — بعد هذا لك أن تسأل : أليس للنبي خصوصيات وإن كان قاصراً ؟

والجواب أن له خصوصيات ولكنها فيما يتعلق بالزواج ليست خصوصيات تمتع . بل خصوصيات حرمان أو تكاليف مست إليها الضرورة لتحقيق المصالح الدينية والاجتماعية ، وقضت بها السياسة الشرعية القائم هو دون غيره بإجرائها .

إنك إذا قرأت سورة الأحزاب وجدت فيها عبارة خاصة زينب بنت جحش وزيد بن حارثة معتوق النبي ومتبناه الذي كانوا يدعونه (زيد بن محمد) كعادة العرب في الأدعياء . ثم عبارة أخرى بعدها يتناول خاصة ما أحله الله للنبي من الأزواج .

وكلتا العبارتين يظن من يأخذ بظاهرهما أنهما خصوصيتا تمتع اختص بهما النبي . والواقع أن أولاهما بلية ابتلى بها لضرورة التشريع الماسة ، والثانية خصوصية يكاد كل ما فيها يكون مشوبا بالحرمان والإيثار كما سترى :

٢٢ — يظن بعضهم في قوله تعالى : « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » . يظنون أن الذي كان يخفيه النبي في نفسه ويخشى فيه الناس دون الله هو ميله لزينب بنت جحش ، ويحسبون أن الله يعتب عليه لعدم تصريحه بهذا الميل خشية تعيير الناس له . ولكن لا ريب أن هذا الظن إثم . إذ ما عار الحب على رجل يحب امرأة ويكتم حبها ؟ هل الأصل الأخلاقي أن الرجل عليه أن يلغط بين الناس متشهرا بنفسه وبمن يحبها ؟ أم أن الأخلاق الكريمة توجب كتمان الحب والتستر فيه ؟ وعلى الأخص متى كان حاصلا بالمخالفة لعادات القوم وتقاليدهم ، وذلك حتى لا يفضح الرجل نفسه وغيره ؟ أليس أن من أفشى حبه كشف ستر نفسه فكان في عرف الناس مجنونا ، ومثله عند العرب مجنون ليلى ومن أشبهه ؟ أو كان بالأقل مستهترا ، فسفّهه الناس ، وتنقصوه مهما علا مركزه كامرئ القيس الذي لقبوه بالملك الضليل ؟ وإذن فمن المستحيل خُلقيا وعادة أن يكون مراد الآية ما ظنوه ، بل إن هذا الظن — كما نقول — إثم ، وإثم كبير .

٢٣ — والحق أنك لو التفتّ ، في آخر الآية الرابعة من نفس سورة الأحزاب ، إلى قوله تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » . ثم إلى قوله عقب هذا في الآية الخامسة : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم . . . الخ » — لو التفتّ إلى هذا لعلمت أن الله تعالى أراد إبطال نظام التبني كما هو معروف عند العرب ، وذلك لدمامة نتائجه التي منها خلطهم المتبنَّى بنسب متبنيه ودعوتهم إياه كذبا لغير أبيه الحقيق ، فأشار في النصوص المذكورة إلى ذلك الخلط وعابه ونهى عنه .

ولما كان التبني من المباحات يأتيه من يريد ويهمله من يريد . وإبطاله يتحقق بمجرد الكف عنه ، وهذا الكف أمر سلبي يستوي فيه كل تارك له سواء أكان الإمساك من جانبه إطاعة للنهي عنه أم كان لسبب آخر ، فلهذا قصد الله إلى شيء عملي يبهر الناس ويثبّت في قلوبهم ضرورة العمل بما يريده من إبطال ذلك النظام . وإذ كان أخطر نتائج التبني وأظهرها إغراقا في الكذب والتلبيس اعتبارهم المتبنَّى كابن الصلب حتى من حيث تحريم حليلته على متبنيه سواء طلقها هو أو مات عنها . فقد اختار الله إبطال هذه النتيجة ، وأن يكون إبطالها بعمل إيجابي لا مستتر ولا وقتي ، بل علني ظاهر ومستمر باق بين الناس ، وذلك لما رآه من أن مثل هذا العمل هو وحده الذي تقوم به الحجة ويتحقق المقصود .

وإذ كان من البعيد عادة أن يحدث في العرب مثال رجل متبنى كزيد بن حارثة له امرأة يختلف معها ويطلقها أو يموت عنها ثم يأتي متبنيه فيتزوجها — إذ كان هذا الحادث في ذاته بعيد الوقوع في البيئات العربية لشذوذه فيها كل الشذوذ، فقد اختار الله النبي ليكون هو مثال المتبنّى الذي يدور على شخصه تحقيق موجّب التشريع . وواضح أنه إنما اختار هذه الشخصية الفذة البارزة لتكون الأحدوثة في الناس أسْيَر، والتشابع بها آكد وأرق، والملائبة فيها أتم، والحاجة أبلغ . ثم جرت المقادير بأن يختلف زيد وزوجته . فالنبي الذي اختاره الله لهذا الغرض كان من الطبيعي أن يتأذى من تنفيذ ما أمر به من ترك زيد يطلق زينب حتى يتزوجها هو من بعد، وكان طبيعيا أن يتراخى في هذا التنفيذ، وكان طبيعيا جداً أن يحق في نفسه تأذيه ونفوره من أن يكون هو نفسه الذي ابتلي بأن يكون شخصه مدار التشريع في هذا الموضوع ، وكان طبيعياً جداً أيضا أن تدفعه غريزة الحياء، وكرم النّجار بادي الرأي إلى ما يشبه معارضة هذا الأمر بالنصح لزيد أن يمسك زوجه ويتق الله ، ففعل مضطراً على رجاء أن ينظر الله إلى ما هو واقع فيه من المشقة فيخفف عنه ، كما جرت عادته تعالى معه في مثل هذا من المآزق .

فالذي أخفاه في نفسه ليس ميله لزينب كما ظن بعض الظانين ، بل هو تأذيه ، وهو — قبل أن يكون نبيا رسولا — إنسان بشر يجد من أشق التكاليف على نفسه أن يبادر إلى تبليغ أمر الله في هذا الموضوع ، وأن يسارع إلى العمل على تنفيذه، وأن يعرض نفسه بهذا أمام قومه لتهمة شنيعة عندهم، هي أنه أعان على تطليق زيد لزينب كيما يتزوجها، خروجا على تقاليدهم المتوارثة ، وذلك عوضا من أن يعمل جاهداً على تصالحهما والتوفيق بينهما وألا يصرفه عن هذا السعي الحميد صارف، كما هو المأمول منه والمنتظر من كريم أخلاقه في مثل هذه الظروف . وقول الآية « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» ليس سوى عتاب من الله له على تراخيه في امتثال أمره وفي العمل على تنفيذه، وباقي الآية نفسها وهو قوله تعالى : «لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . . . » يدلك دلالة واضحة على أن كل المقصود إنما هو التشريع الذي أشارت إليه هذه العبارة الأخيرة . فكل ما في الآية ترتيب مقرر محتوم للوصول إلى هذا المقصود . وقول الآية الأخيرة « وكان أمر الله مفعولا » من أبلغ ما يكون في الدلالة على عتاب النبي لتراخيه في تنفيذ أمر الله الذي من شأنه ومن حقه أن يكون مفعولا وانفا حتما على الرغم من أي إبطاء أو تراخ . وقول القرآن من بعد : « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وكفى بالله حسيبا » — هذا القول أيضاً بالغ في الدلالة على صدق ما أسلفنا من أن علة تراخي النبي إنما هي تحرجه وتأذيه ذلك التأذي الذي أشرنا إليه ، وبالغ في الدلالة أيضا على أن الموضوع هو أمر قد جرت به إرادة الله وقدره مما لا حرج على النبي في المسارعة إلى تنفيذه، ومما لا محل لأن يخشى فيه أحدا سوى الله .

فأنت ترى من كل هذا أن مسألة زينب وزيد بن حارثة التي طالما طنطن بها المرجفون هي في حقيقتها المفصلة في القرآن بلية ومحنة للنبي استحق العتاب على تأذيه منها وعدم المبادرة إلى الامتثال لها ، وليست نعيما له كما يزعمون .

٢٤ — أما العبارة الثانية الواردة في سورة الأحزاب فهي قوله تعالى : « يأيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين . قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما » .

يقولون إن هذا الكلام أدل بخصوصية النبي ولا سيما في تعقيب القرآن عليه بقوله : « ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك » .

٢٥ — وأقول مبدئيا : إن سياق آية التحليل المصدر بها هذا الكلام يدل على أنها نزلت كما هي دفعة واحدة . وقد جاء من بعد في نفس السورة قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ... »

وظاهر هذه العبارة الأخيرة قد يدل على أن آية التحليل نزلت بعد أن كان النبي قد تزوج كل من تركهن عند وفاته . لكن هذا الفهم يمنع منه ما ورد في الآية من قولها (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها) هذه العبارة الشرطية التي لا يمكن أن يقع الحدث فيها إلا مستقبلا . وإذن يتعين القول بأن البعدية في قول الآية الأخرى « لا يحل لك النساء من بعد » ليست بعدية زمان بل هي بعدية أعيان أي غيرية ، وبأن آية التحليل تبيح للنبي أنواعا من الأزواج مبينة فيها بالتحديد ، ليس له غيرها ، وأن من ضمن هذه الأنواع طبعا من كن موجودات عنده بالفعل وقت نزولها ؛ ويجب طبعا أن يكون منها من حال له النص أخذهن بعد نزولها .

بعد هذا أقول إنى على أى حال لست أجد في كلام آية التحليل التى نحن بصددها شيئا خاصا يفيد تمتع النبي بما لم يكن متمتعا به غيره من المسلمين الذين صحبوه وشايعوه إلى ما بعد وقعة الأحزاب التى نزلت الآية في سورتها . بل إن الرخص التى يتضمنها كلام الآية كادت كلها تكون مقترنة بالشقة والتضييق في تفصيلها كما شرحت بهما من بعد في جملها .

٢٦ — أما من جهة التفصيل فأنت ترى من قوله « اللاتى آتيت أجورهن » أن الله لم يحل للنبي الزوجة إلا إذا كان قد عجل لها المهر ، مع أن المسلم أن يتزوج ويباشر حقوق الزوجية بدون تعجيل المهر . وإنى بمقارنة ما تردد في هذا المقال من آيات القرآن وجعلها بعضها ببعض لا أشك في أن هذه الجملة ليست تصريحا بحل زواج مستقبل ، بل هي إقرار لحل نوع الزوجات الأجنبيات المهرات الموجودات فعلا عند نزولها . واستعمال القرآن صيغة الماضي في « آتيت أجورهن » يتمشى مع هذا الفهم وقد يؤيده . ويغلب على ظنى أن هؤلاء هن اللواتى كن موجودات عنده وقت نزول « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » كسودة وعائشة وحفصة (دع زينب بنت جحش التي لها شأن خاص) وإذا صح رأيى وفرض أن النبي كان باقيا في ذمته لأية من أولئك الثلاث شيء من مهرها ، فإنه لا شك قد اضطرب عند نزول هذه الجملة ووفى لكل منهن ما قد كان باقيا في ذمته لها من المهر حتى تستمر حلالا له . فالنبي بهذا قد ضيق عليه وحرم مما لم يحرم منه أى مسلم .

وكذلك مما أحل للمسلم أن ينكح ما ملكت يمينه إطلاقا ، ولكن هذا الإطلاق قيد في حق النبي بقول الآية « مما أفاء الله عليك » فلم يحلل له من ملك اليمين إلا ما كان سبيا من فيء الحرب ، أما الرقيقات اللاتى تباع في الأسواق فلم يحلل له شيء منهن كما هو حلال لكل مسلم .

وكذلك لكل مسلم أن يتزوج بنت عمه أو بنت عمته أو بنت خاله أو بنت خالته إطلاقا ، أما النبي فحرم من هذا الإطلاق بقول الآية : « اللاتى هاجرن معك » . أى أنه منع من تزوج أية من قريباته هؤلاء ما لم تكن قد هاجرت معه من مكة إلى المدينة .

والذى أفهمه في مسألة المرأة المؤمنة التى تهب نفسها للنبي أنها تصور حال فئتين من النساء : أولاهما المنقطعات اللواتى لا عائل لهن فيتزاحمن على من يتوسمن فيه القيام بمعاشهن ، نعى كما تقول الآن في العامية (تلقيحة) ، وثانيتهما المؤمنات

الصالحات اللواتى يلذن بالنبي تدينا وتقوى ، ويكون من شأن النبي حمايتهن مروءة وتدينا وتقوى . فالزمة الصورتين داخلة فيما أشار إليه لفظ الآية . ولكن الله فى لطفه بالنبي ورفقه به بفقره وعدم استطاعته الإنفاق على تلك اللائذات ، وفى علمه فوق هذا بأن مشاغله الدينية قد لا تسمح له بقبول كل وافدة منهن ، أشار بقوله « إن أراد النبي أن يستنكحها » إلى عدم إحراجه إلى النهاية فى هذه البلوى ، فقرر لهذا أنه ليس مكلفا حتما بزواج كل طارئة من تلك الوافدات ، بل إنه حر مختار فى القبول وعدمه . وجلى أن ترك هذه الحرية للنبي كان ضروريا كل الضرورة ، لأن المرأة المؤمنة التى تهب نفسها للنبي قد تكون مجذومة أو مصابة بمرض آخر مُعْدٍ أو مشهورة فى القوم بسوء السلوك فى ماضيها ، أو قد تكون متدينة مجذوبة قريبة من الجنون ، ومنصب النبي لا يحتمل ألبتة تعريضه للعدوى ، ولا للتعيير وسوء القالة ، ولا أن يكون بيته مستشفى مجاذيب . فترك الحرية له فى القبول كان — كما أقول — ضروريا حتى يقدّر حال كل وافدة وينظر ما إذا كانت مصلحة الأخلاق والدين والاجتماع تقضى عليه بقبولها وحمايتها فى بيته أم لا .

والحاصل أن تفاصيل الآية دالة على حرمان النبي مما لم يحرم منه المسلمون ، وعلى تكليفه بما لم يكلفوا به . وشبهة الميزة التى تتراءى فى مسألة المؤمنة التى تهب نفسها للنبي هى شبهة وهمية ، وليس من الإنصاف أن يقال عنها إنها ميزة تلقاء ما بها من عظيم البلوى . وكيما تدرك أنها فى الحقيقة بلوى وبلوى عظيمة ، يحسبك أن تتخيل أن الحكومة المصرية مثلا أصدرت قانونا يلزم كل من تولى رياسة الوزراء أو مشيخة الأزهر أن يتزوج أية امرأة مصرية مؤمنة تعرض نفسها عليه — يحسبك هذا لتدرك يقينا أن يوما واحدا لا يكاد يمضى على صدور مثل هذا القانون حتى يضج الرئيس أو الشيخ ويفر من منصبه ، وهذا حتى لو كانت الوافدات أبكارا مكنونات مكتنيات الثروة ، لا أرامل أو مطلقات من المسنات المعدمات المستميتات .

٢٧ — ذلك من جهة التفصيل . وأما من جهة الإجمال فإن المقرر لكل المسلمين أن الرجل إذا مات نساؤه أو طلقهن فله أن يتبدل بهن غيرهن فى حدود المشروع . لكن النبي حرم من هذه الميزة التى يتمتع بها كل المسلمين . وجاء هذا الحرمان عاما ساريا حتى على نسائه اللاتى كن عنده قبل نزول هذه الآية ، كسودة وعائشة وحفصة وزينب . قال تعالى بعد ما تقدم : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا » ! ! أرأيت هذا الحرمان ؟ ! ثم أرأيت هذا التحذير بل التهديد الذى بالجملة الأخيرة ؟ ! : أفلا تحس كأنما هذه الجملة ترسم أمام نظر النبي لوحة رهيبة تتراءى فيها عين القدر شاخصة إليه محلقة فيه ترقبه وترصده لترى هل يطيع أو يعصى فيبوء بالرضوان أو بالعتاب ؟ !

٢٨ — لننظر الآن كيف كان فى العمل أخذُ النبي بنص آية التحليل التى نحن فيها :

إن القرآن — كما أسلفت لك من التدليل — لم يمنع تعدد الزوجات بنص صريح خاص ، بل ترك العرب أحرارا فى تزوج أى عدد يريدون ، وكل ما اشترط عليهم أبديا هو الاقتصار على واحدة عند خوف عدم العدل بين المتعددات . ولكنه بيّن مراده بهذا بجملة ، فيما يتعلق بالموجودات وقت الاستفتاء ، آيلا إلى مراعاة العدل المستطاع بينهن ، وأنزل لهذا قوله « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

فكل أزواج النبي اللواتى كن عنده وقت نزول هذا القول واستمررن إلى وقت واقعة الأحزاب فى السنة الخامسة من الهجرة ونزول سورتها ، كان شأن النبي فيهن كشأن باقى المسلمين فى نسائهم اللاتى كن عندهم وقت نزول القول المذكور

(أى فلا تميلوا كل الميل . .) واستمررن إلى وقت واقعة الأحزاب ونزول سورتها أو إلى ما بعد ذلك .

٢٩ — ولست أعرف بالضبط تاريخ نزول عبارة « فلا تميلوا كل الميل » ولا من هن اللواتى كن عنده وقت نزولها ، ومن هن اللواتى أخذهن بعد نزولها . ولكن المعروف على كل حال أن سودة وعائشة وحفصة ، هؤلاء الثلاث هن من أوليات من كن عنده فى أوائل سنى الهجرة ، وكان معهن رابعة هى زينب بنت خزيمة أخذها فى السنة الثالثة وتوفيت فى الرابعة قبل واقعة الأحزاب . فهؤلاء الثلاث (أو الأربع) هن اللواتى كن عنده وقت نزول قوله تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ذلك القول الذى بُيِّن — على الوجه الذى أسلفنا — بعبارة « فلا تميلوا كل الميل » وبديهى أن شأن النبى فيهن كان كشأن كل المسلمين من جهة حلهن له وعدم التزامه بالعدل بينهن إلا بقدر استطاعته .

فإذا فرضنا أن الست الباقيات قد أخذهن بعد نزول العبارة المذكورة — سواء أكان أخذه لكلهن بعد واقعة الأحزاب أم أنه أخذ بعضهن قبلها — فإنك فيما تقدم قد رأيت العلة التشريعية الخاصة بأخذه إحداهن زينب بنت جحش وما لابس أخذها من البلوى . أما الخمس الأخريات فهن جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق وصفية بنت حُيَيّ سيد بنى النضير كانتا سبيتين أسرتا بعد غزو قومهما وهلاك أبويهما وزوجيهما ، أى أنهما من ملك اليمين المباح إطلاقا للمسلمين من قبل . فلو أن النبى كان أخذهما عقب أسرهما فلا خصوصية له فى هذا ولا استثناء . ولكنه لم يأخذهما مباشرة بل إن هاتين السيدتين اللتين كانت لهما السيادة فى قومهما بعد هلاك أبويهما وقعتا فى نصيب بعض العرب المحاربين معه ، فلم تطق جويرية هذه الحال . فكاتبها من هى عنده على مال ليعتقها ، فاستنجدت بالنبى طالبة أن يعينها على قضاء مبلغ المكاتبة . ففى هذا الوضع الذى يستدر عطف الجماد ماذا تنتظر أن يكون من النبى وهو من هو فى سمو الخلق ورجاحة العقل ؟ دفعته المروءة والمصلحة الدينية إلى استنقاذها هى وصفية بنت سيد بنى النضير ، وعدم تركهما لسوقة العرب وهما العزيزتان ذاتا . انتشلهما بأن عمل على إعتاقهما وتزوجهما متقللا على نفسه وحده بتحملهما . وهذه المواساة التى اندفع إليها كان من نتيجتها أن جذبت قومهما إلى الإسلام لاعتبارها مصاهرة من النبى لهم .

ولقد يخطر فى بالك أن تقول إن النبى كان فى استطاعته قبول التجائهما إليه وأن يحميهما فى بيته بعد أن أسلمتا وعتقتا من غير أن يتزوجهما . ولكن يفوتك أن النبى بوصفه القوام على الآداب والأخلاق فى الإسلام كان لا بد له أن يتحرج من هذا الذى يخطر ببالك . لأنه لم يكن يقيم هو وعائلته فى قصر فسيح مترامى الأماكن والبيوت كالقصور التى كانت من بعد للخلفاء ووزرائهم أو التى نراها للأمراء والرؤساء اليوم . بل إن منزله فى المدينة كان بالبداهة موجزا قليل الأماكن ، والمقيم به مهما تحرز لا بد أن يطلع من النساء المقيمات معه فيه على بعض العورات التى لا يجوز بحسب أخلاق الإسلام أن يطلع عليها أجنبى . ونفس سورة الأحزاب التى نحن فيها نزلت بآداب للنساء مما يزيد فى ضرورة التحرج . أضف إلى هذا أن كثيرا من العرب كانت أخلاقهم غير مأمونة ، وكان بنفس المدينة كثير من المسلمين المنافقين الذين آمنت ألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، فكانوا متحفزين يتصيدون أقل الشبه ضد الإسلام ونبى الإسلام ويجسمونها . وإن النبى لم ينج من شر تقولاتهم فى مسألة الإفك المشئومة ، فما ظنك لو أنه أدخل فى بيته سيدتين معروفتين مترفتين ممن لا يحل له الاطلاع على مواقع زينتهما شرعا ؟ ! ! كل هذا يشهد بأن زواج النبى بهما كان هو الوسيلة الوحيدة المتعينة لإمكان حمايتهما فى بيته حماية قوامها نوع الألفة المسقط لكل تحرج وكلفة .

وأما الثلاث الباقيات وهن أم سلمة وأم حبيبة بنت أبى سفيان وميمونة بنت الحارث فهن من أشرف بيوت العرب .

وكن جميعا أرامل مسلمات صالحات بائسات . وكان أخذه لكل واحدة منهن له علة قوية هي أيضاً ضرورة دينية أو اجتماعية ماسة ما كان يستطيع ألبتة تأديها بوصفه القوام وحده على مصالح الإسلام والمسلمين .

ولا مانع يمنعك من اعتبار هؤلاء الثلاث هن وجويرية وصفية أيضا من المؤمنات اللتيجئات إليه المشار إليهن في الآية ، وأنه اختارهن من بين الواقدات عليه للأسباب القوية التي تجدها — ولا بد — في كتب السيرة عن سبب أخذه لكل منهن .

٣٠ — ولعلك قائل أيضا : إذا كان القرآن مع عدم منعه التعدد بالنص أوجب العدل أو الواحدة ، وقد صرح بأن العدل غير مستطاع للإنسان فكيف أجاز هنا للنبي التعديد ؟ .

قول يخطر وسؤال يعن وشبهة أشرنا إليها عقب إيراد نص الآية . ولكن هل نسيت أن ما نحتج به هو الأصل وأنه يخضع لقاعدة (الضرورات تبيح المحظورات) ؟ وهل تظن أن هناك ضرورات أمس وأقوى من تلك التي عرضت وأشرت إليها ، فلم يجد النبي فيها بدا من الامتثال لقضاء الله أو من العمل بما توجبه المروءة والنخوة ومكارم الأخلاق ؟ ولا شك عندي أن ما لم أشر إليه هنا من الضرورات وأحلت فيه على كتب السيرة لا يمكن أن يكون أقل مما أشرت إليه سبباً واقتضاء . ومن جهة أخرى هل بلغ بك اليأس من روح الله أن تظن أنه يقدر على النبي أولئك المطلقات والأرامل المنقطعات ثم لا يخفف عنه هذا البلاء ؟ هون عليك ولا تظن هذا ، فإن الواقع أن الله خفف عنه بقوله : « ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك » . ولكون هذا التخفيف يشف ظاهره عن إعفائه من مراعاة العدل ، فإنه تعالى بقوله : « ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن » قد نبه إلى أنه أقر في قلوب النساء عاطفة الرضا بكل ما يأتيه النبي من التصرف الذي أبيح له معهن . وإذ كان المقصود من العدل هو رضا النساء والحمشاتهن وهذا حاصل هنا بشهادة الله ، فقد توافر العدل وخرج النبي من عهدته ، وسقطت الشبهة .

٣١ — من كل ما تقدم نرى أن نصوص سورة الأحزاب ، التي قدر الله فيها على النبي أخذ زينب بنت جحش ، ثم أخذ ما أحل له غيرها من أولئك المطلقات والأرامل البائسات ، هي نصوص كل ما فيها محن وتكاليف مشوبة بالشقة والحرمان . ومصلحة الإسلام هي التي أوجبت على النبي تحملها ، ولو أنه كان حراً غير مقيد بأحكام الله وكان ممن يعملون لإرضاء شهواتهم لتخير لنفسه من حسان الأبكار ما أراد .

٣٢ — وإذن فلا محل لإقحام خصوصيات النبي فيما نحن فيه ، فإن هذه الخصوصيات قائمة على مبادئ الضرورات التشريعية والأخلاقية ، والنبي هو وحده صاحب السياسة الشرعية المكلف دون غيره بتنفيذ ما تقتضي به الضرورات تحقيقا لمصلحة الاجتماع . ومع ذلك فقد رأيت كم في هذا التحليل من الحرمان ومن البلوى ومشقة الأوضاع .

أما الذي نحن فيه فغير هذا . نحن إزاء نص في الآية الثالثة من سورة النساء ، يقولون إنه يصرح بزواج أربع إطلاقاً ، وإن النبي مستثنى منه ، أي أنه عند تساوي الأوضاع وعدم قيام ضرورة من الضرورات فللمسلم أربع ، ولكن للنبي أن يزيد على أربع ، أي ولو بغير ضرورة ماسة أو مصلحة اجتماعية عامة . وهذا هو الذي لا أسلم به مطلقا ، بل إني أراه تحريفاً للمبادئ وتطبيقا للرخص في غير موطن تطبيقها .

سؤال آخر محتمل

٣٣ – كأنى ببعضهم يقول إنا أطلقنا مع الكراهة قولك إن الأصل القرآنى يوجب الاقتصار على الزوجة الواحدة وإن الخروج على هذا الأصل لا يجوز إلا لضرورة ماسة تقدرها السياسة الشرعية بقدرها ، فإنا لا نسلم بما تقوله من أن نظرية إباحة التعدد إلى أربع إطلاقاً قائمة على التسلل على لفظ (رباع) الوارد في الآية ، والاعتماد عليه لتصويب ما استقر عليه الإجماع ، فهل أنت لا تحترم إجماع السلمين ؟ أو هل أنت أعلم باللغة العربية من أهلها العرب السلمين الأولين ؟

هذا سؤال أوجهه إلى نفسي قبل أن يوجهه إلى المغرمون بالجدل اللفظى . وجوابى عليه بسيط :

أما أن إطاقة رأيي لا تكون إلا مع الكراهة فذلك لا يهمنى في دينى ، لأنه لا يخرجنى من الجنة ولا يدخلنى النار ، واستحقاق الجنة أو النار ليس بأمانيهم ولا أمانىّ غيرهم . إنه رهن بآرائي أنا وبعملي أنا دون آرائهم هم وعملهم هم . ثم هو متعلق بإرادة الله ومشيئته ، وإرادة الله ليست في سند تحت إذنهم يحولونها كيف شاءوا لمصلحة من شاءوا وضد من شاءوا .

وأما عن الإجماع فأنى ما ناقشت قط في حجيته في البيئات التي يتسلط فيها ولو كان فاسداً . إنه آخذ بجراء قضاه على الرغم منى ومن كل إنسان . ولو كنت من المغرمين بالنساء لكان من الحق أن أتزوج خمساً منهن ، لأن السلطة العامة في مصر تقوم في وجهى وتفرق بينى وبين واحدة منهن ، رضيت أو أبيت . لكنى مع هذا الانصياع لحكم القضاء أعتقد أن الإجماع الذى يسرى على المسلم ديانة له صور ثلاث : الأولى – أن يقوم في أساسه على نصوص قرآنية مسلم بصحة قيامه عليها مباشرة ، أو بطريق القياس الصحيح ، والثانية – أن يقوم على سنة نبوية يطمئن الضمير إلى صحتها وإلى صحة قيامه عليها مباشرة أو بالقياس الصحيح كذلك ، والثالثة – أن يكون إقراراً من الناس كافة لعادة من المباحات لم يأمر بها كتاب ولا سنة ولم يمنع منها كتاب ولا سنة ، لا مباشرة ولا بالقياس . وهذه الصورة الثالثة هي التي يصح أن يطلق عليها اصطلاح (الإجماع) . أما الصورتان الأولى والثانية فإن الدليل الشرعى فيهما ليس هو إجماع الناس إنما هو نص الكتاب أو السنة أو هو القياس الصحيح على نص أيهما . والمسألة التي نحن بصددها غير مقول إن فيها إجماعاً من القبيل الاصطلاحى المذكور بالصورة الثالثة ، بل يقولون إن الإجماع فيها قائم على العمل مباشرة بقوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » وقوله من بعد ، « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » . ولا شك أن الحكم ما دام مرده إلى النص فإن لكل مسلم ، وإن انصاع قضاء للإجماع المرتب عليه ، أن يعترض ويبين ما يعتقده في الأساس من خطأ التأويل . فأنا مع انصياعى لما استقر عليه الإجماع في بيئتنا المصرية وما وافقها ، من أن المسلم زواج أربع نساء لا يسأل من العدل بينهن إلا بقدر استطاعته – صرحت وأصرح بأن الأساس القرآنى الذى يبنون عليه هذا الإجماع لا يصلح ألبتة لأن يكون أساساً لرأيهم . وإذ كنت لا أتطاول أنا ولا غيرى إلى ادعاء العلم بالعربية كأهلها العرب السلمين الأولين ، فأنى – على بقصورى هذا – لم آت في بيانى بشىء إلا مأخوذاً عن شيوخ اللغة الأولين .

وإذن يرى أن السؤال الوارد برأس هذه الفقرة بعضه لا أهمية له والبعض لا إنصاف فيه .

سؤال آخر فى لب الموضوع

٣٤ – بقى معرفة كيف مال المسلمون إلى عدم التدقيق فى تأويل النص القرآنى وانحدروا إلى القول بإمامة الأربع إطلاقا، ثم إلى الإجماع فى بعض البيئات عليه ؟.

مظنة الجواب على هـذا السؤال هى تاريخ الفترة الأولى فى الإسلام من ابتداء الهجرة إلى أواخر القرن الثانى الذى ابتدأ فيه شيء من التدوين. ومن المسلم به أن العرب كانوا أميين ندر منهم من يعرف القراءة والكتابة. والخلفاء الراشدون لم يعنوا بغير القرآن، فهو وحده الذى نقلوه إلينا نقلا تاما كما أنزل. ومن المسلم به أيضا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه منع كتابة الحديث اكتفاء بالقرآن ولكى لا يشتبه شيء منه به، ولم يقم فى مدة الخلفاء الراشدين ولا فى مدة بنى أمية مؤرخ دون الحوادث المعاصرة له ووصل إلينا كتاب منه. بل إن عمر بن عبد العزيز فى آخر القرن الأول أحس – كما يقولون – بضرورة تحقيق الأحاديث النبوية وكتابتها، خلافا لرأى ابن الخطاب، ولكن لم يتم هذا المقصود فى عهده. بل إن أقدم كتاب من الكتب المعتبرة الآن فى سيرة النبى هو – إذا لم يخطئ ظنى – لابن هشام المتوفى سنة ٢١٨، أى أنه كتب مدة العباسيين فى آخر القرن الثانى أو أوائل الثالث بعد نحو مائتى سنة من وفاة النبى. وكل كتب الحديث المعتبرة الآن جمعها أصحابها فى أواخر القرن الثانى أو فى القرن الثالث وما بعده. وإذا كان المدون بها أقرب الأخبار إلى الصحة فإن هذا التقدير ظنى، ولامانع من أن يكون بعضها موضوعا لاحقيقة له. خصوصا متى علمنا أن الإجماع تم على وقوع الوضع فى الأحاديث، لأغراض سياسية وغير سياسية، من أعداء الإسلام ومن المنافقين، بل ومن بعض صالحى المسلمين.

٣٥ – ومن ناحية أخرى فإن تلك الفترة الأولى من بعد الهجرة إلى آخر القرن الثانى كانت كلها فترة نشر للدين وقتال لمن اعترض سبيل الدعوة إليه. قاتل النبى المشركين وغيرهم من العرب فى وقائع بدر وأحد والأحزاب وغيرها، وعقب انتقاله إلى الرفيق الأعلى فى أوائل الحادية عشرة من الهجرة اشتغل المسلمون فى خلافة أبى بكر بحروب الردة فى بلاد العرب نفسها – تلك الحروب الدالة على أن بعض العرب الذين أسلموا كانوا أعرابا لما يدخل الإيمان تماما فى قلوبهم. ومدة خلافة عمر وعثمان كانت كلها عهد فتح فى فارس والشام وفلسطين ومصر وأرمينيا وغيرها. وفى مدة على قام الخلاف المزلزل وكانت الحرب الأهلية بينه وبين معاوية. ومدة الأمويين كلها كانت عهد فتح فى أفريقيا وأسبانيا وغيرهما رفع ثورات حزبية أو مذهبية إلى آخر ما هو معروف بالتواتر من الاضطراب فيها وعدم الاستقرار.

٣٦ – فأنت إذا تمثلت تلك الظروف التى كانت تلابس العرب فى فترة الإسلام الأولى، وأضفت إلى هذا ما تتيقنه بالمشاهدة فى العصر الحاضر من أن أخلاق الأمم تتدهور حتما إبان الحروب وعقبها إلى حين، لا فرق فى ذلك بين غالب ومغلوب، ولا بين متدين وضعيف الإيمان، ثم لو أضفت إليه أيضاً أن الجنود فى كل أمة يجدون ويجاوز لهم من كثير من الآثام فى مقابل أنهم وهبوا حياتهم نفسها طوعاً أو قدموها كرها فداء لوطنهم ولأهليهم وذويهم المتخلفين القاعدين – إذا تمثلت كل هذا، وأعملت عقلك لوصلت إلى الإجابة على السؤال، ولكانت إجابتك أصح من كل تاريخ مدون، لأن سندها المشاهدات والنواميس الاجتماعية التى لا تتخلف، ومرجعها حكم العقل وحده لا شهادة شاهد يجوز عليه التلفيق عمداً أو سهواً فى رواية الحوادث وفى الحكم عليها.

والذي يهدي إليه العقل بعد استصحاب ما تقدم أن شبان العرب الذين خرجوا للقتال كانت الضرورة الطبيعية تدفعهم إلى الاختلاط الجنسي ، وكانت هذه الضرورة تتساقط عليهم كلما فرغوا من واقعة ، وحق لهم الخلوّ إلى الراحة ، والإخلاد إلى شيء من لذات الدنيا ومباهج الحياة . ولقد ترامت غزواتهم في مواقع متعددة بكل قطر من تلك الأقطار الشاسعة التي فتحوها في عهد عمر وعثمان وبني أمية . فلا غرابة ولا شذوذ ولا استنكار في عمل الجندي منهم إذا مالت نفسه ، في فترة الراحة التالية الموقوتة ، إلى إجابة داعي الطبيعة الشديد ، ولا سبيل له في هذا إلا التزوج ، لأن الزنا محرم عليه . والوقائع كانت متعددة ، والتنقلات كثيرة ، والطبع الداعي هو الطبع لا يفتأ داعيا .

لكن الجنود — إذا أراد الواحد منهم بعد إحدى الوقائع أن يتزوج فوق من تزوجها بعد واقعة سابقة — كانوا يجدون قوله تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » مانعاً من التعديد . كان الجنود يجدون أمامهم هذه العقبة ، ولكنهم من جهة أخرى يعرفون أن آباءهم وأجدادهم المسلمين متزوجون قبل وفاة النبي (أو كانوا في حياته وقبل وفاته هم متزوجين) بعدة من النساء ليس عليهم (أو ما كان عليهم) إلا العدل بينهن بقدر الاستطاعة عملا بقوله تعالى : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » — كان الجنود يجدون هذا فيتأففون لسلبهم ميزة التعديد لمجرد تأخرهم في الوجود ، مع اختصاص كثير من القاعدين بها لمجرد تقدمهم فيه ، والحال أن هؤلاء القاعدين المتمتعين بكثرة الأزواج من عهد النبي يبعدون عن مواطن المشقة والهلاك ، وليسوا أجدر منهم بالامتياز . ومهما يكن حكم تلك العبارة وقتيا — كما أسلفنا — فإن واقع المشاهدات والضرورات كان في وجدانهم أقوى أثرا وأشد فعلا من كل تفقه .

٣٧ — ذلك وضع تقوم الفطرة البشرية ذاتها دليلا على حدوثه ولا تُقبل لنفيه شهادة أي شاهد ، ومن المكابرة المماراة فيه . والعقل يحكم بأن تلك المفارقة الحرجة تدفع الجنود إلى التحلل من حكم الآية وإلى تعديد النساء ، فيتزوج الرجل منهم واحدة أو أكثر في كل بلد قاتل فيه وانتصر . وإنك لتعلم من المشاهدات الآن أن الجندي — كما أسلفنا — مدلل وأنه يغتفر له ما لا يغتفر للقاعد . اغتفر إذن أولو الحل والعقد للجنود هذا التجاوز . وبديهي أن السياسة الشرعية ما كانت تأبى هذا الاغتفار ، لأن النفع الذي كان يحدث للدين الإسلامي وللوطن الإسلامي من استرضاء الجندي وتحصينه من الزنا أكثر بكثير من إثم التعديد .

٣٨ — استمر الجنود إذن على التعديد كما قال ، ولكنهم في داخل ضمائرهم لم ينسوا أنهم لا يستطيعون العدل وأن واجبهم ديانة الاقتصار على واحدة فما العمل ؟ لم يعدموا من يهوّن عليهم هذا الوضع بالحيل الشرعية المأخوذ بها من عهد إبراهيم الخليل وأيوب . تلمس المتلمسون لفظ (رباع) في الآية فحلوا لهم الأربع إطلاقا وألزموهم الوقوف عندها . وظروف الفتح قد ساعدت على هذا الوقوف . فتحوا فارس وبعض بلاد الترك وأرمينيا والشام وغيرها ، وسبوا منها ما لا يحصيه العد من النساء الجميلات اللاتي توزّعوهن . وفي هذه السبيات المملوكات الجميلات ما يفي بالمقصود من الإنسال والحاجة الجنسية ، وفيهن كل الغناء عن الحرائر المهيرات الثقيلات المتعنتة من عربيات وغير عربيات .

ويغلب على الظن أنه لولا هذه الظروف المسهلة لما تنازل الجنود عن التعديد ، ولاستحلوه إلى ما فوق الأربع ، ولوجدوا من يبيحه لهم على هذا ، كما أفتى بعض طوائف المسلمين الذين يقولون إن الآية تحلل تسعا ، بل إن ألفاظها تفيد التكرار فتحلل ثماني عشرة ! ولعلك لو بحثت لوجدت معظم المفتين بهذا والآخذين به موالي من البلاد المفتوحة لم يخصهم من السبيات شيء ، ثم هم يستنكفون شراء الرقيقات لأنهن من بلادهم المفتوحة ذاتها .

٣٩ – ولقد يخيل إليّ أيضاً أن أولئك الجنود الذين استنوا تلك السنة قد شايعهم عليها أعلامهم الذين قضت عليهم بعض الأسباب بالتخلف من الخروج إلى ميادين القتال. لأن هؤلاء المتخلفين سواء منهم الشبان أو الشيوخ كانوا جميعاً يعلمون أن لا محل لتدليلهم كالمحاربين فعلاً ولا لمعذرتهم في التعديد إذا أراد الشبان منهم التزوج بأكثر من واحدة، أو أراد الشيوخ – من الأولين، السارى عليهم حكم «فلا تميلوا كل الميل» – الاستزادة من الأزواج فوق الواحدة الباقية من كل متقدم وقت نزول هذه العبارة؛ فكان من مصلحة جميعهم المبادرة إلى تمهيد سنة الجنود وإلى تعميمها. وهؤلاء المتخلفون إذا كان لهم من غرائزهم دافع إلى مناصرة السنة التي استنها الجنود فإن السياسة الشرعية أيضاً كانت ترى المصلحة في هذه المناصرة. وذلك لأن الحرب تهلك الجنود وتقلل عدد المواطنين، ومن الواجب التغاضي عن العمل بالواحدة في حق المتخلفين وإباحة تعديد زوجاتهم لزيادة النسل الذي في زيادته مصلحة الإسلام والمسلمين.

ولقد كان أهم ما يشغل الناس بداهة هو الحرب وميادينها المختلفة وما تأتى به من الغنائم وما تكسبه للإسلام من أنصار. أما الزوجات وتعددهن وعدم تعددهن فبديهي أنه كان من الأمور الثانوية التي لا يحسن أن يشتغل بها الرؤساء وأولو الحل والعقد والحرب قائمة على ساق وقدم. كما أن حالة التراخي الخلقي الذي يصاحب فترات الحروب كانت صالحة كل الصلاحية للأخذ في هذه المسألة بأيّ حل كان ما دام أنها ليست من أصول العقائد التي لا هوادة فيها.

٤٠ – استمرت إذن عادة الأربع هذه التي أسسها الجنود – وأغلب شبان المسلمين وكهولهم كانوا جنوداً – استمرت ودامت بدوام الحروب والثورات في القرنين الأول والثاني. فلما جاء عصر التدوين في آخر الثاني وأوائل الثالث كانت قد صارت من التقاليد القديمة المستقرة الحبيبة إلى المسلمين والملائمة لغرائزهم الموروثة من آبائهم العرب من غابر الدهور، فاضطر الفقهاء في كثير من الجهات إلى مسايرتها وتدوين الواقع من متابعة الناس لها، وتساهلوا في تأويل سندها القرآني كما تساهل فيه المحاربون الأولون.

هذا ما أجيب به على السؤال. وحاصله أن البداهة ملزم قضاؤه بعبارة الإجماع في مسألة تعدد الزوجات إطلاقاً إلى أربع في بيئتنا المصرية، ولكني أراه غير قائم على سند من القرآن صالح لقيامه عليه، بل أساسه عمل المجاهدين الأولين في أول الإسلام وإقرار من يهمهم السياسة الشرعية لعملهم، وجنوح الفقهاء في تسويغه إلى تأويل النصوص بالشبهة اللفظية مسايرة لهم، وما كان في استطاعتهم غير هذا خصوصاً وليست المسألة من العقائد التي تدعو إلى التحرج ونبذ المسايرات.

أكتوبر سنة ١٩٤٧

عبد العزيز فهمي

فلسطين...!

حَبَتْكِ بالأملِ المنشودِ آياتُ
وباركتكِ بلحن الشدو هالاتُ
وضمخت جوكِ الرطوب أخيلةٌ
من الخلودِ وأحلامٌ شذيّاتُ
وقبّلت قلبكِ الشبوبَ أشعةٌ
وأنفسٌ، تثير خفاياها الصباباتُ
رفّت عليكِ أرواحاً مجنّحةً
تزكى هواها مقاديرٌ وغاياتُ
ومستثيرِ أغاني الوصل مخترقٌ
رنّتْ بشكواه ألحانٌ شجيّاتُ
يبكي قيامتكِ العذراء دنّسها
رجسٌ ومسّت حواشيها الدناءاتُ
وقيل أمسيتِ آمالاً مضيّعةً
تغنّى بها الخلد دهراً وهي آياتُ
وقيل أمسيتِ حقلاً غاب حارسه
فأفسدت فيه ديدانٌ وذيباتُ
وقيل (صهيون) يبغيها له وطناً
يُنصبُ فيها له عرشٌ ورايات
بُطلٌ وأحلامُ مجنونٍ وسخريةٌ
تلك الدعاوى وهاتيك الدعايات
متى؟ وأين قد كنتم ذوي وطن
وأين مثواه؟ أرض أم سموات
إنا خُلقنا، وآباء لنا خلقوا
وقبلهم كان آباء وأماتٌ ...!
وما سمعنا بأن كنتم قياصرة
قبلاً، ودالت لكم في الأرض دولات
وإنما أنتم، مذ أنشئتْ، يتمٌ
طفيليات .. وأرواحٌ شريراتُ

●●●

يا معشر الشر. ماذا مسّ رائدكم
أم قد أثارته بالضرب الإثاراتُ
هي المنايا إلى الأحداث تدفعكم
فلا استقرت لكم في الأرض حالات
ستعلمون غداً إذ ناح ناعيكم
وإذ يجاركم مُلس خليات
وإذ جاجكم أشلاء مدركة
مبعثرات. وبيتات ثبيرات
أنا هم القوم لا تخبو مشاعلهم
ولا تُمسّ لهم بالرجس حرمات
وأننا العرب جمرات مؤجّجةٌ
وثورة ليس تثنيها الدعاياتُ

●●●

يا معشر الشر. والألحان داميةٌ
على فمي. وزهور الموت باقات
قد فاضت الكأس حتى جُنّ شاربها
وعربدت في ثناياه المناجاةُ
وأعول الناي حتى ذاب نافخه
فيه وضجّت لشكواه الآهات
هي العروبة أرواح مؤلّفة
نحدو بها في سبيل المجد غايات
وليس ثمة أديان تفرّقها
وليس ثمة زلات ونحلات
وما فلسطين إلا كعبة طهرت
للشرق فيها لدنياه رسالات
وأهلها العُرْب والأجيال شاهدة
والله والدين والدنيا شهادات

●●●

فليبحث التائه الملعون من وطن
له سواها، وللمجنون وجهات
كلّا! فلسطين لن يدنو لساحتها
فدونها أممٌ تفنى ومهجات

محمد مفتاح الفيتوري

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تلفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٤٦٨ — الثلاثاء ٣ من صفر سنة ١٣٦٧ — ١٦ من ديسمبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

ملك سليمان

كان لبنى إسرائيل فى سالف العصر والأوان مملكة تشغل رقعة ضيقة من الأرض لا تقاس بأية امبراطورية من الإمبراطوريات التى عرفها التاريخ . ولبثت هذه المملكة فترة قصيرة لا تعد شيئا مذكورا فى أعمار الممالك ، وتكاد تكون لمحة خاطفة فى تاريخ الأمم . ثم أدركها الفناء وقضت عليها عوامل الضعف والتفكك فى كيانها ، وشرد اليهود فى أقطار الأرض منذ ذلك الحين البعيد .

وقنع المتعبدون منهم ببكاء أطلال هيكلهم الدارس ، والتحسر على ملكهم الضائع . ثم أدركهم اليأس ، وغلبتهم غريزة البقاء ، فطووا صفحة الماضى ، ورضوا بأن يعيشوا فى مختلف الجماعات التى نزحوا إليها أفرادا عاديين يمارسون من ألوان النشاط ما يكفل لهم الرزق والطمأنينة فى بيئاتهم الجديدة .

ولكن طبيعتهم الخاصة التى انتقلت فى أصلابهم من أبعد العهود جعلتهم فى شبه عزلة عن مواطنيهم ، وعلى الرغم من محاولتهم الانخراط فى جنسياتهم الجديدة ، فقد ظلوا يدينون بالولاء الأول لتلك الفكرة المبهمة التى تلابس نفوسهم ، وهى الفكرة التى تخالط الوطن بالدين ، وتوحى لهم أن لهم كيانا خاصا يتصل بغير الوطن الذى يعيشون فيه .

ولقد كان لهذا الشعور منهم بعزلتهم أثره فى نشاطهم الكبير لتوفير أسباب اليسر والقوة المادية ليكون لهم فيهما عوض عما ينقصهم من المكانة الاجتماعية ، وساعدتهم خصائصهم الموروثة على النجاح فى هذا السبيل ، فهم بطبيعتهم أقل حرجا من اصطناع بعض الوسائل والأساليب التى يترفع عنها غيرهم .

وامتد نجاحهم المادى حتى أصبحوا يسيطرون على شبكة من الأعمال فى مختلف الأقطار ، ثم استغلوا هذه القوة العظيمة فى التأثير فى الحكومات والشعوب .

ولم يكد القوم يحسون ما أصبح لهم من قوة وتأثير ، حتى استيقظت فى نفوس فريق منهم أحلام الماضى ، وامتد خيالهم إلى حد الطموح إلى استعادة مجدهم القديم ، وملك سليمان الذى أصبح فى ذمة التاريخ .

وجاءت الحرب العظمى الأولى فاستطاعوا بنفوذهم أن يستخلصوا من بريطانيا وعد بلفور المشئوم الذى مهد لهم الطريق للهجرة إلى فلسطين .

ثم انتهت الحرب العالمية الأولى وقد رسخت لهم فى فلسطين قدم ، وعاونتهم إنجلترا على المضى فى تحقيق أحلامهم ، فأزهقت الثورة العربية وسمحت لجموعهم بالتدفق فى أرض فلسطين .

وحدثت محنة اليهود فى ألمانيا واستغلها دعاة الصهيونية

لاستدرار عطف العالم عليهم وتحويل هذا العطف إلى تأييد هجرتهم لأرض الميعاد التي منتهم بها أساطيرهم .

وانتهت الحرب العالمية الثانية ، وإذا اليهود قد أصبح لهم في فلسطين جموع كثيرة ، وإذا هذه الجموع تتلقى المعونة المنظمة من يهود العالم ومن يهود أمريكا بصفة خاصة ، وإذا لهم فيها مدن ومستعمرات ومصانع وجيوش مجهزة ، وإذا بالقوم لا يقنعون بهجرة عدد محدود بقدر ما تستطيع تلك الرقعة الضيقة احتماله ، وإذا بهم لا يقنعون بأن يكون لهم في فلسطين وطن قومي . بل يريدونه دولة يهودية مستقلة ذات جيوش وأساطيل ، وإذا بأحلامهم لا تقف عند جزء من فلسطين ، بل تتطلع إلى الشرق الأدنى كله ليكون لهم مجالا حيويا ، وإذا بهم لا يقفون في خيالهم عند ذلك ، بل يرون أنهم شعب الله المختار ، وأن لهم من المزايا والحيل ما يستطيعون به حكم العالم بأسره .

وتحس بريطانيا هذا الخطر الصهيوني الذي يخشى إذا استفحل أن يقضي على نفوذها ، فتحاول أن تغير سياستها وتضع له حداً ، فتتحرك عصابات اليهود للاعتداء على جنود بريطانيا ومقار حكمها ، وتتلقى بريطانيا ذلك بصبر عجيب ! فهي تعلم نفوذ اليهود في بلادها وفي أمريكا التي تتطلع إلى مساعدتها لها في ظروف شدتها الاقتصادية ، وتصانع اليهود ، وتمد لهم في حبل الصبر حتى أعياها . ثم ترى أنها قد أغضبت العرب وجنت عليهم بإحلال هذا العنصر الغريب في ديارهم ، وخسرت بذلك صداقتهم ، وهي قد خسرت صداقة الصهيونيين وأفلت من يدها قيادهم ، فتلجأ إلى هيئة الأمم تستشيرها في حل المشكل ، وتنذر الهيئة بأنها ستنفض يدها من فلسطين .

ثم كانت مهزلة التحكيم في هيئة الأمم ، واتفقت أمريكا وروسيا على التقسيم وراحتا تؤثران في الدول الصغرى بمختلف وسائل الإكراه والإغراء ، حتى ظفرت الصهيونية بأغلبية مزيفة تقر التقسيم .

ثم ماذا ؟ لقد ترك أمر التنفيذ لمجلس الأمن ، ولا ندري كيف ينفذه وبأية قوة حربية يفرضه . أبالقوة الروسية وأمريكا وبريطانيا تعلمان أن جنود البلشفية إذا دخلوا الشرق الأدنى كان في ذلك أكبر الخطر عليهم ؟ أبالقوة الأمريكية ، وأمريكا سخية بالأرضينية بالرجال ، وإذا سمح للأمريكان بالعمل اقتضى التعاون أن يسمح لروسيا بمثله . وهو أخشى ما يخشونه ؟ أبقوة بريطانيا وقد أعلنت قرب انسحاب جنودها ورفضها الاشتراك في تنفيذ هذا القرار ؟ أبخليط من الدول الصغرى وهي لا ناقة لها في الأمر ولا جمل ؟

إذاً لم يبق إلا أن يترك الأمر للصهيونيين والعرب ، والصهيونيون أعلم الناس بأن ذلك معناه القضاء النهائي عليهم وعلى دولتهم ؛ فالعرب وإن كانوا فيما يبدو أقل استعدادا في الحاضر ، ولكنهم أكثر عددا وأقدر على مواصلة القتال ، وقد صحت كلمة الشعوب العربية على معاونة عرب فلسطين في دفع هذا العدوان عليهم .

إن الأمر فيما يبدو كان خطوة لم يحسب حسابها كله ، وقد استعجل الصهيونيون نهايتهم .

وبعد ، فإن الصهيونيين قد يغيب عنهم في نشوتهم الحاضرة أنهم إذا قدر لهم أن تكون لهم دولة فإن ذلك نذير بانصراف شأنهم في العالم كله ، فسيصير اليهود في كل مكان غرباء حقيقيين بعد أن كانوا مواطنين صوريين ، وسيقل العطف المالي عليهم بعد أن صارت لهم دولة تتولى مهمة العناية بشأنهم ، وسيفقدون سيطرتهم المالية ، ويقل نفوذهم في مختلف الدول ، ثم هم بعد أن تصير لهم مملكة سيفقدون كل خصائصهم التي إنما قواها ضعفهم وصهرتها الظروف الشديدة التي مرت بهم .

على أنهم ليسوا ببالغي هذه المرحلة ، وسيعلمون أي منقلب ينقلبون .

(. . .)

صور قضائية :

عندما يغضب القاضي

كتبت في عدد الأسبوع الماضي من مجلة الثقافة كلمة تحت عنوان « عندما يشتم المتهم قاضيه » ورويت فيها قصة وقعت لي وأنا قاض بإحدى محاكم القاهرة . وذكرت أن متسولا ضربراً تعدى علي وأنا في مجلسي بأقذع عبارات السب عقب نطقي بالحكم في قضيته ، وأن الحراس وضعوا يدهم على فمه وحملوه حملا إلى خارج قاعة الجلسة ليكفوني شره ، وأن القانون يخول القاضي أن يحكم في مثل هذه الحالات بحبس المعتدي مدة قد تصل إلى سنة كاملة . وذلك لضمان الاحترام الواجب في حق القاضي الجالس ، وكفالة هيبته . سيما وأن أحكامه بطبيعتها لا بد أن تمس الناس في أموالهم وفي حرياتهم . فإنه إن جلس كقاض مدني كان لا بد لكل حكم يصدر منه أن يحرم واحدا من الطرفين المتنازعين من ماله الذي يدعيه لنفسه . وذلك لأن الدعوى المدنية قوامها نزاع على مال يدعيه (المدعي) لنفسه ، ويزعم أن (المدعى عليه) ينازعه فيه . فإن قضى به القاضي المدعي كان معنى ذلك حرمان المدعى عليه من حقه الذي يدعيه في هذا المال ، وإن رفض دعوى المدعي كان معنى ذلك إخراج هذا المال من يده لصالح غريمه . وعلى كلا الحالين لا يخرج الخصمان إلا وفي نفس واحد منهما ضغن على القاضي . أما إن جلس القاضي ليقضي في جرائم الناس فإن موجدة هؤلاء الناس عليه تكون أشد وأعظم . لأن أحكامه تمس حرياتهم . وقد تبلغ أحيانا من الجسامة بحيث تمس حياتهم نفسها . ومن أجل ذلك أحاطه الشرع بهذا السياج . ووضع في يده هذا السلاح ليدفع به عن نفسه — وعن مجلسه .

فلما ذكرت في كلمتي السابقة أني تجاهلت ما وقع من ذلك الضرير التعس وأني تظاهرت بعدم الاستماع له . ورفضت أن يؤتى إلي به لأحاكمه على ما فرط منه . بدا لي من حديث بعض من اطلع على هذا المقال أن تسامحت فيما لم يكن ينبغي التسامح فيه — وأن مسلكي هذا قد أساء إلى فريق من الزملاء ، فيطمع فيهم الذين في قلوبهم مرض . ويتطاولون على مقامهم . وقد فني الذين حدثوني هذا الحديث أني لم أشرع تشريعا جديدا بحرم القاضي من حق الدفاع عن نفسه . فالقانون باق والسلاح في يد القضاة مشهور . ومن شاء أن يجرب حظه منهم فليتقدم ، وعليه إجرامه . على أن من جانبي لم أعلن عن نفسي أن هذه خطتي التي اخترتها . والتي أرى أن التزمها في كل حادث من هذا القبيل . فلكل مقام مقال كما يقولون . ورب غضبة يغضبها الرجل لكرامته تكون هي الماضية على ما له من كرامة . والحلم إن كان سيد الأخلاق عند عامة الناس ! فهو عند القاضي ضرورة خلقية لا غنى له عنها . ولكل إنسان أن يغضب . ولكني أرى أن القاضي إذا تسرب الغضب إلى أعصابه وجب عليه أن يقوم من مجلسه حتى يهدأ ، لأنه حاكم يعطي ويمنع . ولا يؤمن مع غضبه صواب النظر ولا صحة الحكم . وليس أجدر بالاحترام عندي من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .

والمسألة بالقياس إلي ليست على كل حال مسألة بحث نظري أو جدل فلسفي في أي المسلكين خير وأيهما شر . ولهذا الأمر تفصيل . .

• • •

فقد كنت وكيلا للنيابة في مستهل حياتي القضائية ، وكان أول عمل أسند إلي هو أن أحضر الجلسات . ولم يكن لي دور أقوم به في هذه الجلسات إلا أن أبقى في مكاني أستمع لما يدور من مناقشات القاضي ومرافعات المحامين ، حتى إذا أعلن القاضي انتهاء الجلسة ، وقام من مكانه ،

انصرفت فى أعقابه لا على ولا لى ! وكان القضاة يتغيرون ويتبدلون ، وكان لكل واحد منهم طريقته الخاصة فى إدارة جلسته . فمنهم صاحب الجد الذى لم يتبسم فى الجلسة قط ، لأنه يرى أن هذا أليق بالقاضى وأصون لوقاره ؛ ومنهم من كان يتبسط فى مجلسه حتى ليمازح المتقاضين ويضحك كما يشاء حتى لتبدو نواجذه ؛ ومنهم من كان رزينا هادئاً ، يثور الخصمان فى حضرته وتكاد تدك ثورتهما جدران القاعة ، وتتوتر أعصاب الحاضرين جميعا لما يشهدون من مساجلات حامية وتجاذب حاد ، وهو على كرسيه قابع كأنه قطعة من الجبل ، محتفظ بكل هدوئه وصبره لتدخل آخر الأمر بين الخصمين المشتبكين فيفصل بينهما كيف يشاء ؛ ومنهم من كان كثير الصياح ، خفيف الحركة يظل يصرخ فى وجه الناس لأتفه الأسباب ، ويقرع بيديه خشب منصته حتى ليحول بهذه الحركات العصبية بين أسماع الناس وبين ما يحاول أن يقول ؛ كل ذلك وأنا فى مكانى من الجلسة أسمع وأرى ، وألاحظ على وجوه الناس مقدار تأثرهم بعملك كل واحد من هؤلاء القضاة ، وأعرف فى نظراتهم مبلغ رضاهم أو استنكارهم ، وأتخذ لنفسى طريقها على هدى ما أشهده ، وأرسم لها خطتها المستقبلة على ضوء ما ألاحظه .

وظللت على هذه الحالة حتى كان يوم لا أظن أنى سوف أنساه .

كان اليوم يوم خميس . وكانت الجلسة جلسة الجنح فى ثغر من ثغورنا المصرية . وكان القاضى — رحمه الله — رجلا حاد الطبع ، سريع الغضب ، إذا انزلق لسان الماثل أمامه إلى سرد واقعة على صورة غير صورتها الثابتة فى أوراق الدعوى لم يحمل ذلك منه على محمل السهو أو النسيان أو الخطأ . ولكنه — ويا للعجب — كان يرى فى ذلك استهانة من الماثل بعقليته ، ومحاولة منه لاستغفاله . فكان لا يملك نفسه تحت هذا التأثير أن تهيج ، ولا يملك لسانه أن يهدر ويثور . وهو بحكم مجلسه وما يتمتع به من السلطات أعلى من غيره صوتاً ، وأقوى مكانة ، وأفسح طريقا ؛ فيصول ويجول فى ميدان ليس به فى واقع الأمر منازل غيره ولا مبارز ! وكان بطريقته هذه يعمل على حبس الكلام فى أفواه الناس ، حتى لا يشتبكوا معه فى نقاش ولا يدخلوا معه فى معركة هم فيها الخاسرون أبدا . ولم يكن يدرى أنه بهذه الطريقة أيضا يسد الأبواب فى وجه نفسه ، ويصبح فى وضع لا يأمن معه العثار فى حكمه .

وكانت جلستنا فى ذلك اليوم جلسة طويلة شاقة . وكانت من بين قضاياها قضية هامة قدمت النيابة فيها رجلا وامرأته على أنهما ضبطا يتجران فى المخدرات . وكنا قد بقينا فى مجلسنا منذ الصباح حتى انتصفت الساعة الثالثة بعد الظهر . فرأى القاضى — أقول رحمه الله — أن يرفع جلسته بعد أن أعلن أنه سيعيدها فى الساعة الخامسة مساء .

وعدنا بعد الظهر متعبين مكدودين . وفرغ القاضى من نظر قضاياه ، ولم تبق إلا قضية المخدرات التى أشرت إليها . وكان قد رأى — لأهمية القضية — أن يتفرغ لها فى آخر جلسته . وكان لهذين الزوجين قصة ؛ فالزوج كان لصاً معروفاً فى المدينة — معروفاً لى على الأقل ولغيرى من وكلاء النيابة الذين كانوا يعملون معى — وكان لا يكاد يخرج من السجن حتى نراه بين يدى رجال الشرطة مقبوضا عليه ، فتعيده إلى السجن من جديد . وكانت سرقاته كلها من المتاجر ، فهو (حرامى دكاكين) — كما كانوا يسمونه — ومن عجيب أمر هؤلاء اللصوص أنهم « يتخصصون » كما قد « يتخصص » أصحاب المهن الشريفة ؛ فالنشال الذى يلتمس فرائسه فى زحام المركبات والطرق لا شأن له عادة بالأقفال ومفاتيحها المصطنعة وكسر

الأبواب وما إلى ذلك . و « لصوص الحمير » في الريف لا يسرقون القلال ؛ ولست أنسى أن لصاً تقدم إلى بتهمة أنه سرق دجاجة ، فلما طلبت (سوابقه) وجدت أن له ثماني « سوابق » ولما تصفحتها وجدت سبعاً منها في سرقة دجاج . أما الثامنة فكانت « دخول منزل بقصد ارتكاب جريمة فيه » . أي أنه ضبط بداخل المنزل ولم يستطع أن يبرر وجوده فيه . ولكني أيقنت بيني وبين نفسي أن فناء هذا المنزل لا بد أن تكون به (عشة) للدجاج !

ونعود إلى صاحبنا موضوع قضية المخدرات . فإنه استطاع آخر الأمر أن يقع على فتاة من أجمل فتيات المدينة فتزوجها . ولا أدري كيف رضيت به بعلا . وهو (حرامي الدكاكين) الذي لم يكن يقضي شهرا حرا إلا ليقضي شهرين في السجن . على أن الفتى أراد أن يثبت أنه كفء لجمال عروسه ؛ وكان لا بد لهذه الكفاءة من المال الوفير ، فنظر فرأى أن (دخله) من سرقة التاجر لا يكفي لتعمير بيت الزوجية الجديد ؛ ولذلك اتجه إلى (المخدرات) يعمل على مساعدة مهربيها ، ويشاركهم في الاتجار بها . ومن المعروف من هذه التجارة أنها أقصر طريق إلى الثراء العريض لولا ما يحف بها من المكاره . ولم تكن هذه المكاره مما يخيف الزوج الشاب . فأقبل على عمله الجريء وأقبلت عليه الدنيا . وعاش شهورا مع عروسه ألبسها فيها الحرير وحلاها بالذهب . ولكن وقعت الواقعة يوماً — كما كان لا بد لها أن تقع — فاقتحم عليه الشرطة داره ، وضبطوه هو وعروسه وهما يشتغلان بتعبئة (الهيروين) في (تذاكره) . فكبلاهما وخرجا من الدار وقد وقع « الأسد » في شباكهم كالعتاد ، ولكنه في هذه المرة كانت إلى جانبه (لبؤته) !.

ولم أر الفتى ثائرا هائجا في قفص الاتهام كما رأيته في ذلك اليوم . فقد كان في كل مرة من المرات السابقة يدخل علينا مستسلما ويخرج من عندنا راضيا . وكانت المسألة بالقياس إليه كأنها قد دخلت في دور (الروتين) . فهو يسرق لأن هذه مهنته التي يعيش منها . ثم يساق إلينا لنحبسه فلا يمتعض لأنه يرى أن تلك مهنتنا التي نعيش منها أيضا . أما بعد زواجه ، وبعد تغير حياته باجتماع الشمل بينه وبين عروسه . فيبدو أن الأمور قد تغير وجهها عنده . فإنه كان ضيقا بنا أشد الضيق ، ناقما علينا أشد النقمة . وظهر أثر كل ذلك أثناء مناقشات قاضينا معه . فإنه كابره . وهوش عليه ، وتحداه . ولم يكن القاضي في حاجة إلى كل ذلك ليخرج عن طوره ؛ فاحمر له . وأخذ صوته في الارتفاع والتهدج . وشرع محامي المتهمين يدافع عنهما ، فتصدى له القاضي وأكثر من مقاطعته . وكان ذلك مدعاة لتدخل المتهم واشتراكه مع « المحكمة و « الدفاع » في النقاش . وزجره القاضي ولكنه لم يزدجر . فتوعده القاضي بتغليظ العقوبة — هذا والدفاع لم ينته بعد من مهمته — وكان ذلك بدوره عاملا جديدا زاد في كهربة الجو . وأحس كل من في القاعة أن عاصفة توشك أن تنفجر فيها . ولم يكن يملك أحد أن يصنع شيئاً لتهدئة الحالة ؛ فالقاضي في ثورة . والمتهم أمامه في ثورة أعنف منها ، والمحامي لم يكن من اللباقة والكياسة بحيث يعمل على الحد من قوة هذا الاصطدام المنتظر . أو على مصانعة القاضي ليعيد إليه هدوءه فيأمن بذلك شر غضبه . ولكنه اندفع اندفاعا خاطئا لنصرة موكليه وإثبات حقوقهما وما أعده القانون لهما من ضمانات أثناء محاكمتهما . فاضطر القاضي إلى أن يصبر عليه قليلا ريثما ينتهي من مرافعته ؛ فلما فرغ ، نطق في مواجهته بالحكم على المتهمين ، وقد رفع فيه عقوبة الزوج إلى حدها الأقصى ، وزاد في بلاء الموقف أنه كان ينطق بحكمه في نبرات قوية يشد عليها شدا ، وهو يقذف بها في وجه المتهم كما يفعل المنتصر المتشفي بخصمه المغلوب ، وطار لهذه الصدمة ما كان

بعد الثلاثين :

العمر والشعر

قليل لدى العمر أقضيه فى الشعر
فمن لى بأعمار الكواكب والبدر ؟
ثلاثون عاما من حياتى قضيتها
ولم أقض حق الشعر مهما سما شعرى
لهى من الأفكار دنيا رحيبة
وحانة آلاف الأحاسيس فى فكرى !
يجيش بها صدرى ويغلى بها دمى
وألبث فيهـــا كالمقيم على الجمر
عوالم شتى من شباب وحيرة
وكدح وإقبـال على الحلو والمر
تجاذبنى بالشعر والعمر ضيق
قصير وإن طال الخلود على الدهر
وأحيا أنا الحر الطليق مقيــداً
أسيراً لفكر مل حرية الأسر
أغوص وأطفو فى بحور من الشعر
وأسبح من بحر لبحر إلى بحر
أروح من نفسى بشتى قصائدى
وأحسبها شعرى ولكنها عمرى !!
ومن لم يبع بالعمر شعراً خالداً
فقد عاش فى قبر وقد مات فى قبر !

أحمد أحمد العجمى

باقيا فى رأس المتهم من عقل . وكأنما قد خسر بهذا الحكم كل شىء ، وكأنما لم يعد أمامه ما يستحق أن يبقى من أجله على نفسه . فحاول أن يتسور قفص الاتهام ليصل من ورائه إلى القاضى . ولكن الحراس حالوا بينه وبين ما يريد ، فترك لسانه العنان . وأطلقه فى عرض القاضى وفى شرفه وفى حسبه وفى نسبه ! وبدلا من أن يرتد إلى القاضى هدوؤه لمواجهة هذه الثورة الجامحة ، تلقاها بثورة مثلها ، فجعل — كلما سكت المتهم برهة يتنفس فيها — يوجه هو إليه تهمة « تعديه على هيئة المحكمة » ويضيف مدة جديدة إلى فترة الحبس المحكوم بها أولاً حتى بلغت جملة العقوبات التى وقعها عن « التعدى » وحده عدة سنوات !!

***

منذ ذلك اليوم نفرت نفسى من صورة القاضى (الحانق) وآليت أن لا أكونه .

ومنذ ذلك اليوم أيضاً عرفت أن السلاح ليست قيمته فى حدة نصله . ولكنها فى طريقة استعماله !

عيسى عبيد

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسى
تليفون — ٥٦٧٢٩
القاهرة

صور من المجتمع المدنى

فى أواخر حياة الرسول

كانت آخر غزوة غزاها الرسول (ص) ابتلاء لعزائم المسلمين، وكشفا عن معادنهم، وميزا لدرجات إيمانهم، وفرصة لتحديد موقف الإسلام من مختلف الجماعات التى كانت تؤلف صفوف دولته الناشئة، أو تقف منها وقفة التربص والانتظار.

وقد سجل القرآن أحداث هذه الغزوة كما سجل من قبل شئون «بدر» و «أحد»(١) وما تلاهما من الوقائع والغزوات، فى أسلوب معجز فى تصويره، رائع فى تأثيره، يعرض الموقف كله من جوانبه الخالدة، ويكشف عما استتر فى طيات الضمائر، وينكب عن ذكر الأسماء والتفاصيل إلى تصوير النيات والمقاصد، والأسباب والنتائج والعبر والعظات.

والحق أنى كلما قرأت سورة «براءة» وما كتبته كتب التفسير والتاريخ والسيرة من تفصيل لأحداث غزوة «تبوك»، تمثلت لى من مجتمع «المدينة» وما حولها فى أواخر حياة الرسول صور تبهر باختلاف أشخاصها وتباين طباعهم: من إقدام وإحجام، وبذل وشح، وصدق ونفاق؛ وتروع بما تبرز من جوانب عظمة الرسول فى حسن سياسته وقوة عزمته، وإيثاره خطة الصبر والتسامح وتألف القلوب، حتى ينزل عليه الوحى باتباع النهج الحاسم ومجابهة أهل الرياء والنفاق بالغلظة والعداء الصريح.

وكلما قرأت هذه السورة رأيت ذهنى مدفوعا إلى أن يصل الماضى بالحاضر؛ فيربط بين جهاد المسلمين أيام النبى، وبين صنوف الجهاد القومى التى توجبها الحياة الحديثة على المواطن الصالح؛ ويقرن بين مناقف تلك الأيام ومناقف هذه، والمخلفين من الأعراب إذ ذاك، والمخلفين عن الجهاد اليوم، ومن قبضوا أيديهم من أهل المدينة عن البذل والصداقة فى ساعة العسرة، ومن لا يزالون يغلون أيديهم إلى أعناقهم ويقبضونها عن الإنفاق فى سبيل استقلال البلاد، وتوفير الصحة لأهليها، وإخراجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم فى أيامنا الحاضرة.

إن الأزمات التى تمر بالجماعات والأمم فى شئونها الدينية أو القومية إنما هى اختبار من الله لإرادات أفرادها، وقوة إيمانهم، ومبلغ احتمالهم للشدائد، وصبرهم من الرغائب، وإيثارهم الآجلة على العاجلة.

لقد استنفر الرسول المؤمنين إلى قتال الروم فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، فى وقت اشتد فيه القيظ، وطابت الثمار، وأحبت الظلال، وبعدت الشقة إلى أطراف بلاد الروم بعيدة مضنية؛ فتثاقل بعض المؤمنين من الاستجابة للدعوة، وراح بعض المنافقين يستأذنون فى القعود عن القتال من غير علة، وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم، وتخلف نفر من المسلمين أبطأت بهم النية، ممن عز على رسول الله تخلفهم، وأطلق المنافقون ألسنتهم يستهزئون برسول الله وبجهود المسلمين، ويخوفون العرب سطوة الروم وبأسهم فى القتال ويقولون:

«انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هيهات، هيهات»!

ومثل هذه الخذلات كفيلة أن تفسد على أى قائد شجاع أمره، وتصرفه عن نيته؛ ولكن عزيمة «محمد» كانت من ذلك النوع العبقرى الذى لا يؤمن بالإخفاق ولا النكوص، وقد عرف أصحابه فيه الثبات فى ساعة الروع، والصمود للأعداء، ولو فى طائفة قليلة من المقاتلين؛ فمضى صلوات الله عليه بمجموع المجاهدين حتى وصل

(١) راجع «أدب الجهاد فى سبيل الله» — القسم الأول من كتاب «دراسات فى الأدب الإسلامى» ص ١٣ — ٢٧

« تبوك » ، وأقام فيها أياما ، وجاءته الوفود من الجهات المجاورة تصالحه على دفع الجزية ، وأرسل خالد بن الوليد بفريق من الجيش إلى دومة الجندل فأسر صاحبها واستولى عليها .

ثم عاد الرسول إلى المدينة ، وأنزل الله عليه أثناء إقامته في « تبوك » ، وخلال منصرفه عنها ، سورة « براءة » ، فأرسل بها ابن عمه « عليا » ليقرأها على الناس في الحج غداة النحر . وقد كشفت هذه السورة القناع عن وجه المنافقين ، ووسمتهم بميسم العار الذي لا يُمحى على مر الزمن ؛ وأدرك هؤلاء — ولكن بعد فوات الوقت — أن الله مخرج ما يحذرون ، وأنه لا يعبأ بهم في شيء ، وأنهم — وقد مردوا على النفاق ومرقوا من الصفوف — لم يعودوا يستأهلون من رحمة الله نصيبا ، ولم يعد يغني عنهم صلاة ولا استغفار . وحاسب الله المسلمين على ما فرط منهم في هذه الغزوة ، وندد بموقفهم تنديدا رجفت له قلوب المخلصين ، حتى كان الكثير منهم يسمي سورة التوبة (المبعثرة والمخزية والفاضحة والمدمدمة) ، وكان حذيفة رضي الله عنه يقول : « إنكم تسمونها سورة « التوبة » ، وإنما هي سورة العذاب ، والله ما تركت أحدا إلا نالت منه » :

لقد صورت موقف فريق من المؤمنين الذين قيل لهم انفروا في سبيل الله فاثاقلوا إلى الأرض ، وكأنهم رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة ، وزجرتهم زجرا فيه تهديد وتأنيب ، وفيه عتب وتذكير ، معلنة إياهم : « إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » .

وكشفت السورة عن طوية المستأذنين في القعود بغير عذر ، فذكرت أنه لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوا الرسول ، ولكن بعدت عليهم الشقة ! وفي مثل هذا الموقف لا يستأذن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ؛ وإنما يستأذن فيه أولئك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم ، فهم في ريبهم يترددون ، ولو أنهم أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ، ولو خرجوا مع المسلمين ما زادوهم إلى خبالا ، ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة .

وتحدثت السورة بأولئك الذين أكل الفرق قلوبهم ، فلو وجدوا ملجأ أو مغارات أو مدّخلا لولوا إليه وهم يجمحون ؛ ووسمت أهل النفاق بسيماهم ، ووضعت في الكفة الأخرى من الميزان ملامح أهل الإيمان : فالمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم .. ، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم » .

ومن الصور التي تعرضها « براءة » صورة فريق عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقنّ ولنكوننّ من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون ؛ وصورة المخلّفين الذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحرّ ، ونار جهنم أشد حرّا لو كانوا يفقهون ؛ وقد أمر الله رسوله أن ينبذ هؤلاء ، وألا يقبلهم في صفوفه ، وإذا جاءوه يستأذنونه للخروج

فليقل لهم : « لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة . فاقعدوا مع الخالفين » .

ومن الصور التى تثير فى قارىء « براءة » ألوانا من شعور الإعجاب والمشاركة الوجدانية صورة بعض فقراء المسلمين الذين لم يجدوا ما ينفقون فى هذه الغزوة ، فأتوا الرسول ليحملهم ، فلما أخبرهم أنه لا يجد ما يحملهم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون . لقد تسابق الصحابة إلى الإنفاق فى سبيل هذه الغزوة . فحمل أبو بكر ماله كله ، وجاء عمر بنصف ماله ، وحمل العباس وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما من ذوى اليسار أموالا طائلة ، وجهز عثمان بن عفان ثلث الجيش ؛ وأتت النساء بكل ما قدرن عليه ، فكن يلقين — فى ثوب مبسوط بين يدى النبى (ص) — المعاضد والخلاخل والأقراط والخواتيم ؛ وبادر سائر المسلمين كل يجود بما عنده حتى إن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكما تعتقبانه . ومن الطريف المثير فى هذا المقام رواية تذكرها كتب السيرة عن « أبى ذر » رضى الله عنه ، فقد خرج إلى الغزو على بعير نِضْو أعجف ، فلما عجز البعير تركه وحمل متاعه على ظهره ، وخرج ماشيا فى حر شديد وحده ، حتى لحق رسول الله (ص) نصف النهار وقد بلغ منه العطش ، فقال له : مرحبا بأبى ذر ! يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده ، ما خلَّفك ! فأخبره خبر بعيره ، فقال : « إن كنت لمن أعزّ أهلى علىّ تخلّفا ! لقد غفر الله لك بكل خطوة ذنباً إلى أن لقيتنى » .

ومن هذا النوع صورة الثلاثة الذين خُلفوا ، لا عن شك أو نفاق . وتذكر كتب السيرة أنهم كانوا كعب بن مالك أحد الفحول من شعراء الأنصار ، ومرارة بن ربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى . فلما رجع الرسول من الغزو نهى عن كلامهم . فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم ، حتى تنكرت لهم أنفسهم ؛ وقعد مرارة وهلال فى بيتيهما ؛ وكان كعب يخرج فيشهد الصلوات مع المسلمين ، ويطوف بالأسواق فلا يكلمه أحد ؛ ويأتى رسول الله (ص) وهو فى مجلسه بعد الصلوات فيسلم عليه ، ويصلى قريبا منه يسارقه النظر وهو معرض عنه . وظل الثلاثة على ذلك أياما طويلة يتحاشاهم الناس ويلازمهم الهم والندم . وقد رسمت « براءة » موقفهم هذا فى إجمال معجز ، فذكرت أنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ؛ ثم أذن الله لهم بالتوبة فتابوا ، إنه هو التواب الرحيم .

أما الرسول صلوات الله وسلامه عليه فقد كان محور هذه الأحداث وقطب دائرتها ؛ وكان سلوكه فى معاملة المخلصين والمنافقين من جنوده نموذجا يستحق الدرس والتحليل : فقد استنفر الناس لقتال الروم ، وكشف لهم من عظم المهمة ، ثم تركهم لعزائمهم ونياتهم ، وكلما جاءه منهم معتذر بعلة أو مستأذن فى قعود أذن له . وقد تلطف البارى جل وعلا فعاتبه على الإسراع بهذا الإذن ، فى قوله : « عفا الله عنك ! لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ! » ثم عزاه عن تخلفهم بقوله : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم .. »

وتذكر كتب السيرة أنه (ص) لما مضى بعسكره من ثنية الوداع جعل يتخلف عنه قوم ، فيقولون : يا رسول الله تخلف فلان ! فيقول : « دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » .

وعمد المنافقون فى محاولة إيذائه ، فيصفونه بأنه أذُن ، يسمع كل ما يقال له ويصدقه ، وكأنهم يريدون بذلك أن

يستغلوا هذا الضعف المزعوم فيه ، فيرد الله عليهم عزمهم وسخريتهم ، ويُشرف خُلق نبيه في هذه الناحية فيصفه بأنه أُذُن خير ، يؤمن بالله ، ويؤمن للمؤمنين فيصدقهم لما يعلم من خلوصهم ، ويسكت عن أسرار الطوايا فلا يفضحها ، رفقاً ورحمة بالناس .

وموقف الرسول من المنافقين موقف إنسانى وعملى رائع يثير الإعجاب حقاً ! فقد مكر به أناس منهم فى رجوعه من تبوك وائتمروا أن يطرحوه من عقبة ، وعلم رسول الله بنياتهم ، وأخبر أصحابه بذلك فأشار عليه أحدهم (أسيد ابن حضير) بقتلهم قائلا :

« حتى متى نداهنهم ، وقد صاروا اليوم فى القلة والذلة ، وضرب الإسلام بجرانه ، فما نستبقى من هؤلاء ؟ »

فقال عليه الصلاة والسلام :

« يا أسيد : إنى أكره أن يقول الناس إن محمدا — لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين — وضع يده فى قتل أصحابه ! . . . . »

وتذهب الرواية إلى أنه كان يقوم على قبور المنافقين يستغفر لهم . ولما مرض رأس النفاق عبد الله بن أُبَىّ ، كان الرسول يعوده مدة مرضه . . فلما مات حضر غسله وكفنه (ويقال إنه ألبسه قميصه الذى يلى جلده) ، ثم حُمل إلى موضع الجنائز فتقدم الرسول ليصلى عليه ، فوثب إليه عمر بن الخطاب قائلا : يا رسول الله تصلى على ابن أبى ! فإنه قال يوم كذا كذا ، ويوم كذا كذا . . ! فتبسم النبى وقال : أخّر عنى يا عمر ! فإنى خُيرت فاخترت ، (قد قيل لى : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) فلو أنى أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له زدت عليه » . فصلى عليه وأطال الوقوف . ويقول رواة السيرة إن هذا الصنيع وجد طريقه إلى قلوب « الخزرج » فأسلم منهم كثيرون ، تأثراً بوفاء الرسول وخلقه . ولكن الله الذى يعلم خبايا النفوس ، وجه رسوله إلى السياسة التى لا بد منها لنجاح الدعوة وسلامة الدولة ، وأوحى إليه ألا يصلى على أحد منهم مات أبداً وألا يقوم على قبره ، فقد كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون .

وقد مر بنا ما كان من تأديب الرسول لأصحابه الثلاثة الذين خلفوا ، وما كان من أمره الناس بقاطعتهم ؛ حتى إذا خلصت نفوسهم ، وصفت معادنهم ، وغسلت دموع الندم حوبة التخلف ، كان الرسول أكثر الناس فرحا بتوبتهم : دخل عليه كعب بن مالك بعد أن بشر بالتوبة وسلم ، فقال له الرسول — ووجهه يبرق من السرور — « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » ! فقال : أمن عندك يارسول الله أو من عند الله ؟ قال : من عند الله . وتلا عليهم الآيات . . فقال كعب : يارسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة ، فقال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » . قال : فالثلثان ؟ قال : « لا » قال : فالنصف ؟ قال : « لا » قال : فالثلث ؟ قال : « نعم » .

هـذه أنماط من الصور ونماذج من الناس فى مجتمع المدينة فى السنة التاسعة للهجرة ، — تذكرها كتب السير أخباراً وتفاصيل ، وتعرضها سورة « براءة » عرضاً رائعا ، يستل سخائم النفاق من القلوب ، ويزيد المؤمنين حرصا على رضوان الله ، ورغبة فى التضحية ، كل حسب وسعه وطاقته ؛ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ؛ حتى الذين يحبسهم المرض عن صفوف المقاتلين بعدهم الرسول شركاء لهم فى الأجر والحسبة ، فيقول لعائشة بعد رجوعه من تبوك : « إن بالمدينة لأقواما

ما سرنا من مسير ولا هبطنا وادياً إلا كانوا معنا ، حبسهم المرض ، أوليس الله يقول فى كتابه : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » ؟ فنحن غزاتهم وهم قعدتنا ، والذى نفسى بيده لمداوهم أنفذ فى عدونا من سلاحنا » .

على أن بعض السلف الصالح كانوا يؤثرون أن يخرجوا مع جيش الغزو رغم ما عندهم من رخصة فى التخلف ؛ فقد رووا أن « سعيد بن المسيب » خرج إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه ، فقيل له : إنك عليل صاحب ضرر ! فقال : استنفرنا الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع !

إن سورة « براءة » قد جعلت الجهاد بالمال قسيم الجهاد بالنفس فى سبيل الله ، وقرنتهما معاً فى كثير من آياتها : فقررت أن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ؛ وبشرت الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بعذاب أليم ؛ وجعلت البخل مُعقبا للنفاق فى القلوب ، واعتبرت قبض اليد من آيات المنافقين ؛ واستهجنت مسلك المخلفين الذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ؛ وبينت أنه ليس على الضعفاء، ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله ؛ وإنما السبيل على أولى الطول الذين يقعدون وهم أغنياء قادرون ، ويرضون أن يكونوا مع الخوالف ؛ وقد أمر الله رسوله أن يأخذ من أموال التائبين صدقة يطهرهم ويزكيهم بها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله !

وبعد فسورة براءة تؤلف مع الأنفال وآل عمران والأحزاب والفتح سلسلة من أدب القرآن ، تؤرخ لمراحل الجهاد فى سبيل الله ؛ وتصور أهم ملاحم النبى وأصحابه منذ أذن لهم أن يقاتلوا ؛ وتحلل عوامل النصر وأسباب الهزيمة ؛ وتكشف عن فوارق الطبائع البشرية حين يدعوها الداعى إلى بذل النفس والمال فى سبيل المبدأ والعقيدة .

(الاسكندرية) محمد خلف الله

من كلمات جيتي

من الأنباء التي تحدثت عنها الإذاعة ونقلها البرق في أثناء الحرب الكبرى الأخيرة نبأ نسف المنزل الذي ولد به الشاعر الألماني الكبير جيتي في فرانكفورت الواقعة على نهر الين ، وقد روى الشاهدون أنه لم يبق من ذلك المنزل سوى أنقاض متراكمة ، وقد وضعت فوقها بطاقة من الورق القوى كتب عليها « هنا كان يقوم منزل الشاعر الألماني القديم جيتي » ، ولا ريب في أن هذا النبأ قد أحزن المولعين بالذكريات التاريخية والحريصين على الاحتفاظ بآثار النبوغ والعبقرية ، ولعله مما يعزيهم أن التاريخ هو مقبرة الإنسانية برمتها ، وأن الآثار تتخلف من أصحابها حيناً ثم يدركها الفناء فتتبعهم كما يقول المتنبي .

وجيتي من كبار الشعراء الذين انعقد عليهم الإجماع وأنزلتهم الإنسانية من نفسها أسمى منزلة لأدبه وحكمته ، وقد ظلت ألمانيا على إعجابها به وتقديرها العالي لأدبه ، برغم العواصف والتقلبات التي ابتليت بها ، بل كان له على الدوام في ألمانيا منزلة أرفع وتقدير أسمى ؛ وذلك لأن من عادة الألمان ألا ينظروا إلى كبار كتابهم وفحول شعرائهم باعتبارهم رجالا موهوبين فحسب . وإنما يرونهم أنبياء ملهمين قد أضاء نفوسهم نور الوحي ، وجرى الإلهام على ألسنتهم وأشرق من بيانهم ، وقد استجاب جيتي لنزعاتهم من هذه الناحية ، فقد كانت حياته بوجه خاص مرتبطة بأعماله ارتباطا وثيقاً ، حتى قال عنها « إنها أجزاء يسيرة من اعترافات طويلة » ، وقد تجاوز سحر شخصيته ألمانيا إلى انجلترا ، فتعلق به كارلايل وغيره من أدباء البريطان ، وأثر تأثيراً واضحاً في سائر الآداب الأوربية والعالمية .

وجيتي ممن رفعوا شأن الأدب الألماني في القرن التاسع عشر ، وكانت رواية (أحزان ورتر) المعروفة تعتبر ثورة « الإنسان الحديث » على التقاليد والمجتمع ، ومن مآسي حياة جيتي أنه ظل ينظر إليه من حيث هو الشاعر الثائر والهدام المبيح بالرغم من أن نزعة الثورة والتمرد والهدم كانت مرحلة باكرة من مراحل حياته الطويلة الحافلة ، سرعان ما تجاوزها وانتقل إلى أقطار أخرى وعوالم جديدة ، وظلت أحزان ورتر إنجيلا « للرجل الحديث » الثائر على التقاليد والعرف .

وقد كان جيتي أحد هؤلاء الجبابرة الضخام والعقول العالية الشاسعة الرحبة التي حاولت أن تستوعب ضروب المعرفة الإنسانية قبل أن يتصدع شملها تصدعا لا يشعب كسره ولا يرجى علاجه ؛ فهو نظير ليوناردو دافنشي وباسكال وفولتير وغيرهم من أصحاب النظرة الإنسانية المستوعبة الشاملة .

وكان جيتي يمثل وحدة أوربا قبل أن تمزقها القوميات المتناكرة والاتجاهات المتعارضة ، وقد رأى في شيخوخته انبعاث النزعات القومية في أعقاب الحروب النابليونية ، وخشي مغبة الإسراف في هذه النزعات وما قد تحدثه من آثار سيئة في عالم التفكير والثقافة ، وكان يرى الأدب شيئاً عالميا تتآخى فيه الأمم وتتبادل الأفكار وتمتزج الثقافات ، فهو يريد لأدب كل أمة أن يتقدم ويسمو بالاتصال بمختلف آداب الأمم وثقافاتها ؛ وهو يستمد ذلك من فكرة القرن الثامن عشر عن الإنسانية ونزعته العالمية ؛ وقد كان جيتي يضع الفكرة العالمية الإنسانية فوق الفكرة القومية والوطنية التي أثارتها حروب نابليون ، وقد وجه إليه اللوم لتساميه فوق التيارات السياسية الصاخبة ، ورمى من أجل ذلك بالأثرة والجمود ، والواقع أن جيتي كان لا يعني بالدولة ، وإنما يعني بالإنسان والمجتمع ، وهو لا يفهم القومية بالمعنى الحديث لأنه نشأ في مجتمع لا يعرف رابطة سياسية سوى الرابطة التي كان يعرفها سكان الإمارات الصغيرة في ألمانيا الإقطاعية ؛ وقوى القومية التي بدأت في عصره يشتد ساعدها وتلعب

دونها كانت تهدد ملكة الإنسان القائم على الأدب والفن .

وقد عانت ألمانيا الويلات من جراء إسرافها في القومية المتطرفة الحمقاء ، وهي الآن في محنتها القاسية تدير الطرف نحو أدب جيتي وتتمس من حكمته ما يعينها على إقالة عثرتها والنهوض من كبوتها ؟ ويرى بعض نقاد جيتي — ومنهم الناقد الإنجليزي الكبير ماتيو أرنولد — أن أنفس ما خلفه جيتي ليس هو أشعاره ورواياته ، وإنما رسائله وملاحظاته التي نثر فيها حكمته وضمنها نظراته الصائبة وتوجيهاته النافعة ؟ وإذا صح هذا الرأي فقد يرى القارئ في الشذرات الآتية التي اخترتها من كتبه ما يدل على صدق نظرته وكثرة تجاربه واستفاضة حكمته : —

كل ما هو جدير بأن يتناوله التفكير قد فكر فيه الناس من قبل ، وليس علينا سوى أن نعيد فيه التفكير .

كيف يتعلم الإنسان معرفة نفسه ؟ إنه لا يتعلم ذلك بالتأمل والتدبر ، وإنما يتعلمه بالعمل ، حاول أن تقوم بواجبك فإنك سرعان ما تعرف ما تنطوي عليه .

ولكن ما هو هذا الواجب ؟ إنه مطلب اليوم .

حدثني عمن تجتمع بهم أخبرك من أنت ، وإذا عرفت ما تشتغل به نفسك علمت ما يمكن أن يصنع منك .

الرجال البارعون الذين يعرفون قواهم ويستخدمونها في رفق واعتدال وتبصر ، هم الذين يصبحون الرجال الناجحين في الدنيا .

من الخطأ العظيم أن يتصور الإنسان نفسه أعظم مما هو ، أو أن يقدرها تقديراً أقل مما تستحقه .

خير ما يعطينا التاريخ هو الحماسة التي يثيرها في نفوسنا

الرجال الذين يفكرون تفكيراً عميقاً في حماسة وغيرة يكون موقفهم حرجاً بالقياس إلى الجمهور .

الاعتقاد بالخرافات جزء جوهري من طبيعتنا ، وحينما نخال أننا قد تغلبنا عليه ونبذناه يلوذ بالمسارب الخفية ويبرز منها فجأة حينما يعتقد أنه مأمون .

كل ما يحرر روحنا ولا يعطينا السيطرة على نفوسنا ضار بنا .

ليست التقوى غاية ، وإنما هي وسيلة لتحصيل أسمى ثقافة خلال أعظم هدوء تستشعره الروح .

الذي يجهل اللغات الأجنبية لا يعرف شيئاً من لغته .

كل منا في طبيعته شيء لو عبر عنه بصراحة لأثار الاستهجان والنفور .

الحق شعلة ، ولكنه شعلة ضخمة ، ولهذا نرانا جميعاً نمر بها سراعاً مغمضين نختلس النظرات خشية الاحتراق .

تقدم السن يجعلنا نقلل من ميلنا إلى النقد ، ولا أرى خطأ ارتكب لم أكن عرضة للوقوع فيه .

الوقوع على الخطأ أيسر من كشف الحق ، فالخطأ يبدو على السطح ويمكن التغلب عليه ، ولكن الحق يكمن في الأعماق ، ولم يرزق كل إنسان المقدرة على البحث عنه .

أسخف الأخطاء هو الخطأ الذي يقع فيه الشبان البارعون ، باعتقادهم أنهم يفرطون في طرافتهم إذا اعترفوا بحقيقة قد عرفها الغير من قبل .

عالم الآداب التجريبية يتكون معظمه من سوء النية والحسد وحدهما .

لا يستطيع الإنسان أن يعارض النقد أو أن يحمي نفسه منه ، وإنما على الإنسان أن يعمل فيعنو له النقد .

الذي لا يستشعر الحب عليه أن يتعلم التملق ، وإلا فإنه ملاق الفشل والإخفاق .

الجبل مظهر لقوانين الطبيعة الخفية التي لولا وجوده لظلت على الدوام مستخفية .

أستطيع أن أعد بأن أكون مخلصاً ، ولكني لا أستطيع أن أعد بأن أكون محايداً .

هناك قوم لا يتورطون في الخطأ لسبب بسيط ، وهو أنهم لا يصنعون شيئاً له قيمة .

في الواقع أن أخطاء الإنسان هي التي تجعله محبوباً .

نكران الجميل نوع من الضعف ، ولم أعرف قط رجلاً صادق القدرة ناكراً للجميل .

نحن جميعاً محصورون في حدود أفكارنا إلى حد أننا نعتقد دائماً أننا على حق ، ولذا من السهل أن نتمثل رجلا راجح العقل أريبا وهو مع ذلك لا يتورط في الخطأ فحسب بل يجد فيه سروراً ومتعة .

من الناس من يحبون أشباههم ويبحثون عنهم ، ومن الناس من يحبون أضدادهم وينجذبون نحوهم .

مهما وعينا من أمور الدنيا فإنها ستظل محتفظة بجانبها المشرق وجانبها المظلم .

في جميع الأزمنة كان الأفراد وحدهم هم الذين يعملون في سبيل المعرفة لا العصر ، والعصر هو الذي قضى على سقراط بأن يموت مسموما ، والعصر هو الذي أحرق هس ، وقد ظلت العصور متشابهة .

يسألونني عن خير الحكومات ، إنها الحكومة التي تعلمنا أن نحكم أنفسنا .

ابتعد عن الجمال والعبقرية إذا كنت تخشى أن تصير لها عبداً .

يقال إن البطل ليس بطلاً في نظر خادمه ، وذلك لأنه لا يعرف البطل إلا من كان بطلاً مثله ، والخادم يستطيع أن يقدر أمثاله من الخدم .

الذي يتحدث حيناً من الزمن في حضور الغير دون أن يتملق سامعيه يثير استياءهم .

لا شيء أدل على أخلاق الإنسان من الأشياء التي يراها مضحكة .

المعرفة وحدها ليست كافية ، وإنما على الإنسان أن يعرف كيف يطبقها .

الشعراء المعاصرون يضعون كثيرا من الماء في مدادهم .

في أعمال الإنسان كما في أعمال الطبيعة ما يستحق الالتفات ، هو الدوافع .

فتى أدهم

معرض كتب سنة ١٩٤٧

قررت الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف لمناسبة إقامة المهرجان الأدبي والفني في فبراير القادم ، تنظيم معرض للكتب الصادرة عام ١٩٤٧ ، وقد بدأت إدارة خدمة الشباب (٧ شارع سليمان باشا) تلقى المؤلفات الصادرة في ذلك العام من المؤلفين ودور النشر .

قصة الأسبوع

المأساة المتواضعة

للكاتب الفرنسي الكبير جي دي موبسان

(١٨٥٠ – ١٨٩٣)

يلذ للإنسان أن يصادف الغرائب خلال أسفاره ورحلاته ، وكثيراً ما صادفتُ ألواناً من الغرائب في أسفاري . فالعالم بعد جزءاً صغيراً ، وقد يقابل الإنسان مصادفة في الصحراء صديقاً يعرفه من زمن بعيد ، بل قد يصادف إنساناً يحقق مثله الأعلى ، أو يرى لفترة قصيرة مَنْ قُدِّر له أن يترك في حياته أثراً بعيد المدى .

وقد يحدث في بعض الأحيان أن تجلس في عربة القطار أمام سيدة تجهلها ، ذات جمال رائع ، فتلتمس الأعذار للتحدث إليها دون جدوى ، ولا تستطيع أن ترد الطرف عنها ، وتعجب من أين أقبلت ، وإلى أين تمضي ، وهل هي متزوجة أم غير متزوجة ، سعيدة أم شقية . وتخيل إلينا أن قلبها متعلق برجل ، فنأسف على أن ندعها تخرج من حياتنا ، وذلك لأننا أخجل من أن نحاول الحديث .

ولكن أملنا قد يخيب — وهذا يحدث في كثير من الأحيان — فيقابل الجميلة المجهولة في محطة الوصول زوج وولد . وتخرج الأسرة السعيدة من فناء المحطة وقد حمل الوالد طفله على ذراعه . ووضع ذراعه الأخرى حول زوجه ، فتودعها بنظرة ملؤها الأسى والأسف ، لأننا لن نراها مرة ثانية ، وذلك على الرغم من أننا لم نحادثها قط .

وكنت ذات مرة في أورڤيني أجول بين الجبال ، فدخلت فندقاً صغيراً من فنادق الطريق ، يجاور كنيسة يقصد إليها الحجاج لزيارة « السيدة العذراء » في ڤـنـبير ، فوجدت سيدة عجوزاً غريبة الشكل ، يثير منظرها العطف والشفقة ، ولا تقل سنها من السبعين ، وكانت مديدة القامة ، نحيفة الجسم ، بيضاء الشعر ، وقد ارتدت ثوبها الغريب في إهمال . ولم تطلب من طعام غير بيض وكوب ماء .

وكان يبدو عليها أنها من هؤلاء اللاتي نامت عليهن الحياة بكلكلها ، فجعلتُ أطيل النظر إليها ، وأتساءل : ما هي قصتها ؟ فلا بد أن يكون لها قصة مثيرة .

ودفعت السيدة ثمن طعامها ، ووقفت وجعلت ترتب وشاحها على عجل وفي إهمال ، ثم تناولت عصا التسلق ، وخرجت مسرعة جامدة كأنها الجندي أثناء العرض ، وكان الدليل ينتظرها خارج الفندق ، فبعدت أطول منه قامة ، وصارت أسرع منه خطًى .

وكنت بعد ساعتين أتسلق جانب جبل كالدخنة ، فوصلت إلى بحيرة « باڤن » . وهي بحيرة ماؤها أزرق صاف ، فبدت كأنها موجة لا زوردية نزلت من السماء . وكنت أرغب في أن أعيش في كوخ صغير على جانب الغابة التي تشرف على فوهة البركان الخامد حيث يوجد الماء الهادئ البارد .

ووجدت هناك السيدة الغريبة . وكانت ترقب صفحة الماء الشفاف داخل الفوهة ، وتقول الأساطير إن هذه الأعماق كانت مأهولة بالغيلان والأسماك الكبيرة التي تشبه الحيتان .. ورأيت عينيها تدمعان ، ثم انضمت إلى دليلها الذي كان واقفاً عند سفح التل .

ولم أرها مرة ثانية طوال ذلك اليوم . ووصلت في مساء اليوم التالي إلى الحصن الضخم الذي يقع في قلعة « مرول » . وكان يبدو بناء أسمر اللون عظيماً رائعاً على الرغم من أبراجه الساقطة ، ومن فقدانه المجد القديم . وكان بناء بسيطاً ضخماً يظهر عليه طابع الصرامة والقوة ، نصعد إليه من طريق صاعدة ، صُفّت على جانبيها أشجار الصنوبر . وندخل إليه من باب صغير غريب الشكل ، فنجد في داخله درجاً وأسواراً ساقطة ، وحفراً غريبة ،

وأقبية سرية وأنفاقا نمت على جوانبها الأعشاب البرية ، وعاشت فيها الزواحف .

وكان يخيل إلى أنى وحيد بين تلك الأطلال ، فرأيت إنسانا أو شبحا خلف الأسوار ، فوجئت به حتى إنى تراجعت خطوة أو خطوتين ، ثم تبينت أنه السيدة العجوز التى رأيتها مرتين قبل ذلك .

وكانت تبكى فى هذه المرة ، وقد انحدرت على وجنتيها دموع كثيرة . فحاولت أن أرجع أدراجى ، فتكلمت فجاءة دون أن أتوقع ذلك ، ولا بد أنها خجلت من مفاجأتى لها وقالت فى بساطة :

— أجل يا سيدى كنت أبكى ، ولكنى لست كثيرة البكاء .

فاضطربت وقلت وأنا لا أكاد أعى ما أقول :

— سامحينى يا سيدتى ، فقد أزعجتك . لابد أنه قد ألم بك خطب جليل .

فقالت : هذا حقيق .

ثم وضعت منديلها على عينيها وجعلت تبكى فى حرقة . فتناولت يدها بين يدى ، وحاولت أن أسكن من روعها ، فجاءت تخبرنى بقصتها ، فلم تعد من بعد بقادرة على احتمال آلامها وحدها . وقالت :

— إنى شقية . ولا يعرف أحد مقدار شقائى . وكنت سعيدة ذات يوم . وكان لى منزل خاص لا أستطيع الآن أن أرجع إليه . وكان لى ابن حدث بسببه ما حدث . ولكن الأطفال لا يعلمون أن الآباء والأمهات هم وحدهم الذين يحبونهم خالص الحب . وقد لا أعرفه لأول وهلة إذا ما رأيته الآن . ولكنى مازلت على حبى له ، وما فتئت أفكر فيه ، بل هو كل شىء عندى . هو إنسان عينى . وكان فى الثامنة من عمره عندما ذهب إلى المدرسة . وكان هذا بدء النهاية ، فلم يصبح ابنى من بعد .

وكان يحضر أيام الآحاد . وهذا كل شىء . ثم انتقل إلى المدرسة الثانوية ، ولم يعد يرجع إلى المنزل سوى مرة كل ثلاثة أشهر . وكنت أدهش عند ما يرجع لما يفتابه من تغير وتبدل . ولكنى لم أره يكبر . فشعرت بأنى حرمت جانبا من جوانب طفولته ، وكنت أريد أن أراه ينمو ويتحول إلى رجل . ولكنى أحسست أن صوته وحركاته وضحكاته لم تصبح ملكى .

وعاد ذات مرة فى إجازة ، وقد غدا له شارب صغير . هو ابنى دهشت وحزنت بالطبع ، وكدت لا أجرؤ على تقبيله . وأين ابنى ذو الخصلات المموجة . أين ابنى العزيز الذى كان يحبو ويتعثر فى مشيته ، والذى كان يعتمد على فى كل شىء ؟ هل هو ذلك الشاب الطويل الأسمر الذى لم يعد يعرف كيف يقبلنى ، والذى أضحى يحبنى حبا واجبا ، وينادينى بأمى تبعا للعادة والتقاليد ؟ .

ثم مات زوجى ، فبقيت وحيدة . وكان ابنى حينذاك يدرس القانون . وآملت أن أعيش بجانبه ، وأموت بجانبه ، فأسرعت إليه فى باريس حتى نعيش سويا .

ولكنه أصبح يشابه أغلب الشبان فى أفكاره وعاداته ، ولماذا يختلف عنهم ؟ . أعتقد أن كل أم تأمل فى أن يختلف ابنها عن بقية الشباب .

وأدركت سريعا أنى أقف عثرة فى سبيله . فتركته لأنى لم أرد أن أحول بينه وبين السعادة ، ولأنى امرأة ذات كبرياء . وانتابنى الألم ، فقد أحسست بأنى دخيلة . أنا أمه . فرجعت إلى منزلى ثانية .

ومن النادر ما رأيته بعد ذلك .

ثم تزوج وكدت أطير من الفرح . لأنى سأراه مرة ثانية . فلا بد أن يحتاج إلىّ وإلى دعواتى . ولن يكون أنانيا بعد الآن وسأصبح جدة ، وأجد صغارا أعتنى بهم .

ولكنه تزوج من فتاة أصبحت تكرهنى . لماذا ؟ لست أعرف . وكانت من هؤلاء الزوجات اللاتى يكرهن الحماة . ثم لأنى كنت شديدة الحب له .

ولهذا اضطررت إلى تركه مرة أخرى ، وأصبحت وحيدة مرة ثانية . وسافر إلى بلاد غريبة حتى يعيش مع أهل زوجه . فقد استحوذ هؤلاء القوم على ابنى . أتفهم يا سيدى ! سرقوه منى ، حقيقة أنه يرسل إلى خطابا فى كل شهر ، وجاء مرة ليرانى . ولكنه أصبح لا يأتى .

ولقد مرت سنوات أربع على آخر مرة رأيته فيها ، وقد ابيض شعره . ابنى يكتهل . وليس من شك فى أن كلا منا لن يرى الآخر بعد الآن .

ولهذا جعلت أقوم بالرحلات والأسفار طوال العام . أسافر دائما وحيدة كما ترى دون أصدقاء ، أو معارف ، شقية كالكلب الضال . والآن وداعا يا سيدى . يؤلمنى أن أخبرك بهذا ، ولا ينبغى أن تبق بجانبى .

فتركتها وسرت فى طريق . ونظرت خلفى وأما أول التل فرأيتها تقف منتصبة تطل على الوادى المنفرد ، وتشرف على بحيرة شجرون التى تبدو من بعيد ، والريح تعبث بأطراف ملابسها ، وبالوشاح الملق على كتفيها فبدت كأنها العلم .

حسن الطفى المنفلوطى

وزارة الصحة العمومية

تعلن وزارة الصحة العمومية عن حاجتها إلى عدد من المعاونين الصحيين ويشترط للالتحاق بالمعهد الصحى المعد لتخريج هؤلاء أن يكون الطالب مصرى الجنس لا تقل سنه عن سبعة عشر عاما ولا تزيد عن خمسة وعشرين عاما وأن ينجح فى الكشف الطبى وكشف الهيئة وأن يكون حاصلا على شهادة التوجيهية (شعبة العلوم أو الرياضة) ويفضل من أمضى سنة أو أكثر بنجاح فى إحدى الكليات الجامعية أو الأحدث عهداً بالدراسة وللوزارة الحق فى عقد امتحان للمتقدمين إذا زادوا عن العدد المطلوب

وتقدم الطلبات بالبريد المسجل برسم (حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الصحة « المعهد الصحى » بريد البرلمان) فى ميعاد لا يتجاوز ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٧ ويحرر الطلب على ورقة تمغة فئة ٣٠ مليما أو على الاستمارة ١٦٧ ع . ح ويرفق به شهادة الميلاد وشهادة الجنسية وشهادة حسن السير والسلوك (تحرر كل منهما على ورقة تمغة فئة ٣٠ مليما) والمستند الدال على الحصول على شهادة التوجيهية أو على القيد بإحدى الكليات الجامعية وصورتان شمسيتان مقاس ٥ × ٨ سم ولن يلتفت لأى طلب غير مستوف لتلك الشروط ، ومن يقبل بالمعهد يحصل منه عند الدخول رسم قدره خمسة جنيهات مصرية — وقد تحدد يوم ٢٣ الجارى لكشف الهيئة ، ومن يقبل فى هذا الكشف سيكشف عليه طبياً بمعرفة القومسيون الطبى العام بمصر — مع العلم بأن مصاريف الحضور والعودة ستكون على حسابهم الخاص سواء قبلوا أو لم يقبلوا بالمعهد ٨٤٧٩

أنباء وآراء

فوارق بسيطة :

إن الفارق بين صحفي سياسي روسي وصحفي سياسي انجليزي ، هو أن الأول يعتقد أن واجبه هو أن يؤكد لقرائه أنهم سعداء في ظل أعظم حكومة أخرجت للناس . أما الثاني فمهمته أن يقنع القراء بأنهم تعساء في ظل شر الحكومات .

وفارق آخر بسيط بين الاثنين . هو أن الصحفي الإنجليزي يستطيع تغيير الحكومة ، في حين أن الحكومة هي التي تغير الصحفيين في روسيا ...

جيمس دن : وورلدز برس نيوز

في عالم آخر :

طاف صحفي أمريكي ببلاد أمريكا الوسطى ليتعرف آراء الناس في الحرب خلال سنة ١٩٤٤ ، فالتقى مرة براع يسوق أغنامه في واد منعزل ، فأخرج أوراقه وسأله :

— ما رأيك في هذه الحرب أيها العم ...

فنظر إليه الرجل وقال : أي حرب تعني أيها الشاب ؟

— هذه الحرب الدائرة الآن ...

فقال الرجل بكل بساطة :

— شيء غريب ..! كيف لم أعلم أن هناك حربا ؟

ا . ج كنجز : النيوز كرونيكل

ذوق الإنجليز :

كنت أحسد الإنجليز على أن الله لم يهبهم ذوقا طيبا في الطعام ، لأنهم يأكلون ما يقدم لهم أيا كان في شهية وعدم تذوق . فلما عرفت السبب في فساد ذوقهم من هذه الناحية لم أعد أحسدهم : إنهم لا يميزون الطعام الحسن الطهي من رديئه ، لأن ألسنتهم وأفواههم متجلدة محترقة من كثرة التدخين وشرب الوسكي .

صحيفة الأورور ، باريس

وشهد شاهد :

يسخر الناس في أنحاء الدنيا من البيانات التي تذيعها مصالح التنبؤات الجوية ، وقد حكى وولتر ونشل الساخر الأمريكي المعروف أنه لقي مرة مدير إدارة التنبؤات الجوية في كانساس حاملا مظلته في الطريق فقال له :

— ولكنك أعلنت اليوم أن الجو سيكون صحوا اليوم وغدا ! فقال المدير : ذلك ما أعلنته ... ولكني أفضل الاحتياط ...

وولتر ونشل : نيويورك تايمز ماجازين

حسين مؤنس

باب الكتب

من الوجهة النفسية

في دراسة الأدب ونقده

للأستاذ محمد خلف الله

الفكاهة الحلوة طابع يتسم به أدب « جورج برنارد شو » الكاتب الإنجليزي المعروف ، وقد صوّر لنفسه بهذا التفكه الجميل في كتاب من كتبه ، رجلا أخرج فقيسا من بيضة وهو في سن العشرين ، وإنما صور لنفسه هذا ، ليسمع ماذا عسى أن يقول الفقيس الجديد في العالم الذي نعيش فيه ، ولقوله دلالة خاصة ، لأنه مكتمل العقل والإدراك من ناحية ، مجرد من التعصب والهوى من ناحية أخرى ! وقد جعل الكاتب هذا الفقيس يتلفت حوله في عجب منذ شهوده أوضاع الحياة لأول مرة ، فيصيح لنفسه دهشا : أعجب ما أرى في هذا العالم ، هو أن من يعملون لا يملكون مالا ، وأن من يملكون المال لا يعملون !

وليس يعنيني الآن ما قاله هذا الفقيس العجيب ، وإنما أردت أن أحدثك عن فقيس آخر لبيضة أخرى ! ذلك أني استخدمت هذا الخيال بعينه ، وأخرجت فقيسا جديدا ليشهد أوضاع الحياة في مصر ، لله مني ، ما خطبها ؟ فما إن مسح عينيه براحتيه ليشهد النور . حتى ضرب كفا على كف في عجب وسخرية ، وقال : أرى أمة قد أقسمت ألا يكون في سيرها نظام . فالناس يضحكون ممن يطالبهم به ، ويؤثرون له ولأنفسهم أن يمشوا « بالبركة » — لأن البركة والفوضى صنوان متآخيان — وعبثا يرتل لهم المرتلون في المذياع صباحا ومساء : « أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمّن يمشي سويًّا على صراط مستقيم » ؟

وتمنى فقيس البيضة لهذه الأمة — وتمنيتُ معه — أن يأخذوا في حياتهم وفي أسلوب عيشهم وفي نظرتهم إلى اللهو والجد ، في الفراغ والعمل ، بشيء ولو قليل من أسلوب العلم وطريقة العلماء .

فأسلوب العلم لا يقتصر على العلم ، إنما يمتد إلى كل أوضاع الحياة وجوانب العيش ، وطريقةُ العلماء في النظر إلى الأمور ليست مقصورة على المعامل بما فيها من أنابيب ومخابير ، بل تجاوزها إلى شئون العيش مما يصادف الناس إذا أصبح صباح أو أمسى مساء .

***

وقرأت هذا الكتاب الجليل العظيم الذي أخرجه لنا أستاذ فاضل ممن يعملون في صمت الجادين وهدوء العلماء ، وإنما عنيت بهذا كتاب « من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده » للأستاذ محمد خلف الله ، أستاذ الأدب العربي بجامعة فاروق الأول .

قرأت هذا الكتاب الجليل العظيم ، فوجدت كاتبه يكاد يتميز من الغيظ إشفاقا على بني وطنه أن يمضوا فيما هم ماضون فيه من تحدٍّ لأسلوب العلم وطرائق العلماء — لا أقول في أمور حياتهم اليومية الجارية — بل فيما يعالجون من بحوث علمية ! فقلت لنفسي مستجيبا لهذه الدعوة الكريمة التي أشاعها الكاتب في كتابه منذ فاتحته حتى ختامه ، قلت لنفسي : الله أكبر ! إن هذه الدعوة في ذاتها ، وما أخذ به المؤلف نفسه من استمساك بها في كتابه ، لكافية وحدها أن تضع الكتاب في أعلى منزلة يسمو إليها كتاب .

استهلّ الكاتب كتابه بهذه العبارة : « كانت الحاجة إلى الروح العلمي — وإلى تطبيقه في مختلف نواحي الحياة — أول ما شعرت به مصر حين بدأت نهضتها الحاضرة ،

فقد أدركت أن تأخرها فى العلم ، وعدم اصطناعها لمنهجه كان العلة الأولى فى تأخرها عن العالم الأوربى فى ميادين السياسة والفكر والاجتماع » . ويمضى قليلا ثم يتبنك عما يقوله « وايتهد » — من أعظم فلاسفة الإنجليز العلماء — من أن « الشىء الذى يستطيع الغرب أن يعطيه للشرق ، إنما هو علمه ومنزعه العلمى » .

ويخشى مؤلفنا الفاضل أن تسبق إلى الأذهان فكرة خاطئة — بل لعلها قد استقرت فى أذهان الناس استقراراً مكينا — وهى أن العلم وطرائقه من شأن العلماء فى أبحاثهم ، فما للناس فى حياتهم ولها ؟ بل ما للناس ولها فى أبحاثهم الأدبية التى ليست من الطبيعة أو الكيمياء فى شىء ؟ « فالكثيرون من المشتغلين بالدراسات الأكاديمية فى مصر يظنون أن العلم ليس إلا التجربة والمعمل والوصول إلى القوانين . . . » وأن الدراسات الأخرى التى لا تقوم على المعمل والتجربة لا حق لها — ولا سبيل — فى أن تسمى نفسها علوما ؛ ولكن القرن الحاضر قد نسخ هذه الآية بخير منها ، إذ وصل إلى أن العلم روح وحياة ومنهج ، وأن لكل موضوع إنسانى طريقته العلمية التى تستلزمها طبيعته ... (ص ٥) .

وكأنما تحتاج هذه البداهة إلى إيضاح وإقناع ، فترى الكاتب الفاضل يستعير لقارئه آراء الأعلام من غرب ومن شرق ، ليؤكد لهم صدق ما هو زاعم لهم بصدقه ، فـ « سير رس تن » — الربى الإنجليزى العظيم — يقول : « إن أعظم منحة وهبها أبطال العلم لثروة العالم الثقافية هى الحياة العلمية ، فمهمتنا — إذاً — أن نعلم الطالب كيف يحيا هذه الحياة » (ص ٦) وفى مقدمة « فجر الإسلام » لـ « أحمد أمين » بيان لوجوب انتهاج الطريقة العلمية فى البحوث الأدبية « فما حال بين الأدب العربى إلى الآن وبين الحياة والخصب والنفع إلا أن مناهج البحث والاستقصاء فيه سيئة ورديئة لم تنتظم بعد . والأدب العربى كغيره من الآداب ، بل كغيره مما يتصل بالحياة الإنسانية ، بل كغيره مما يصلح موضوعاً للدرس فى هذا الكون ؛ شىء لا ينبغى أن ينظر إليه على أنه منقطع الصلة عما حوله . » (ص ٢٢) ؛ كذلك يجعل المؤلف جزءا من كتابه هو أكبر جزء فيه وأهم جزء منه لعرض ناقدين : أما أحدهما فقديم هو عبد القاهر الجرجانى ، وأما الآخر فحديث هو طه حسين ؛ عرض المؤلف طريقة هذين الناقدين عرضا علميا دقيقا بارعا ، ليبين لقارئه كيف يمكن للنقد الأدبى أن يكون علما كأدق ما تكون العلوم ؛ لعل قرئه أن يؤمن بصدق دعوته .

يريد المؤلف الفاضل للناقد الأدبى أن يأخذ نفسه بالمنهج العلمى فى بحثه أخذا جادا عنيفا ، ويسوق له مثلا عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » من الأدب العربى القديم ، وطه حسين فى كثير من كتبه ، من الأدب المصرى الحديث ؛ ثم يعبر البحر المتوسط ليسوق له أمثلة من شعراء الإنجليز الذين اشتغلوا بالنقد الأدبى أيضا ، فيخصص فصلا بأسره للمحاورة التى جرت فى ذلك بين « وردزورث » و « كولردج » ؛ لا ، بل هو قبل ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، وأهم من ذلك كله ، يسوق نفسه مثلا فى كتابه هذا ، فهو العالم المدقق من أول سطر فى الكتاب إلى آخر سطر فيه ، والكتاب يفوح بالمنهج العلمى فى كل صفحة من صفحاته ؛ لا يكاد المؤلف يقرر فيه شيئا إلا جاءك بالسند والدليل ؛ فقد رجع إلى أربعة وسبعين مرجعا ، وهو قد رجع إلى هذه المراجع أكثر من مائة وستين مرة ؛ أستغفر الله ، بل إن فى هذا الإحصاء العددى لإجحافا بالمؤلف أيما إجحاف ، لأن المراجع المذكورة ليست كل المراجع التى استقاها ليكتب هذا

الكتاب ، ولابد أن يكون قد ملأ جعبته بشتات من الكتب ، أملته على أن يكتب ما كتب ، وهو لم يذكرها بالطبع لأنها أصبحت من نسيجه العقلى لحمة وسدى .

ثم يريد المؤلف الفاضل للناقد الأدبى علما واسعا بكثير من العلوم ، فى طليعتها علم النفس (وعلى هذا الأساس سمّى كتابه) وعلم الجمال ؛ وهو يعجب — بحق — « كيف يجرؤ ناقد لم يواجه هذه الأسئلة (التى يسألها علم الجمال وعلم النفس) مواجهة جادة ، ولم يكون لنفسه فيها رأيا يرضاه ويستطيع تبريره ، على أن يلبس بين الناس مسوح الحكم ، ويهجم على الآثار الأدبية فيقضى على هذا بالجمال ، وعلى ذاك بضده ، ويفضل شاعرا على شاعر وأديبا على أديب ! » (ص ١٢١) بل إن مؤلفنا ليدمى حالنا دما ألما حين يروى لنا صادقا أن رجال النقد عندنا ، بدل أن يأخذهم الخزى والخجل لما هم فيه من جهل وعمى ، تراهم « يرفضون الاستعانة بعلم النفس فى فهمهم للأدب » . وهم فى ذلك يتسترون وراء لفظة لا يفهمون لها معنى ، وتسبب كثيرا من الفوضى الأدبية ، وهى كلمة « الذوق » كأنما يخبط هنا « الذوق » المزعوم خبط عشواء على غير هدى من المعرفة العقلية ؛ لهذا ينادى المؤلف بوجوب التعديل فى قاعدة « الذوق » والاعتماد عليه فى الحكم الأدبى ، بحيث يصبح عمادنا « الذوق المستنير » (ص ١٢٥) أى الذوق الذى يستند على ركيزة من العلم الصحيح .

ولو أردت وصفا للمنهج الذى اتخذه الأستاذ المؤلف فى هذا الكتاب ، والذى أراده منهاجا لكل ناقد ، وجدته مبسوطا فى كثير من مواضع الكتاب فى وضوح وجلاء ؛ فهو يقول : « إن الوجهة التى اتجهنا إلى إبرازها فى فصول هذا الكتاب هى ضرورة توسيع ثقافة الأديب والناقد وطالب الأدب من طريق الاطلاع على نتائج الدراسات الإنسانية الأخرى — بعد طول ممارسة الأدب وتذوق روائع آثاره — ثم رفع البحوث الأدبية إلى مستوى منظم واضح المعالم ، تتلاقى فيه عقول الباحثين وأذواقهم (ص ١٢٧) .

* * *

إزاء مؤلف من هذا الطراز الممتاز ، الذى يحبك نسيجه حبكا ، ويرص براهينه وأسانيده رصا ، لا تدرى ماذا تقول إذا ما قرأت الكتاب فمن أين تأتى بشىء من النقد هنا وهناك ؛ فما أظن النقد بنائل من بناء هذا الكتاب شيئا إلا بمقدار ما ينال الظفر الضعيف من صم الجلاميد ؛ ومع ذلك كله فحب الاستطلاع يدفعنى أن أتساءل عما يلى :

١ — هل هناك تطابق تام بين اسم الكتاب ومادته ؟ بعبارة أخرى : هب أن الكاتب قد ترك كتابه بغير عنوان ، ثم تناولت الكتاب فقرأته بإمعان كما قرأته ، فهل تدفعك مادة الكتاب دفعا إلى تسميته « من الوجهة النفسية » ؟ لا أظن ذلك ، وقد كنت أوثر « من الوجهة العلمية » قاصدا بذلك إلى منهاجه العلمى ، فلا أظن أن علم النفس — باعتباره علما — قد بنى لهذا الكتاب أساسه .

٢ — يقول المؤلف فى صفحة (٣) إن حركة النهضة الأوربية بدأت بإحياء الآداب والفنون القديمة ودراستها ، « غير أن هذه الحركة لم تلبث أن أسلمت إلى حركة أخرى ، هى إحياء الآداب الوطنية ، والكتابة بلسانها ، ثم العناية بعد ذلك بدراسة رجالها وتتبع تاريخها وتطورها » .

وليس هذا الترتيب — فيما أرى — صوابا ؛ فلم يكتب أدباء النهضة باللسان القومى بعد إحياء الآداب والفنون القديمة ، لكنهم استخدموا اللسان القومى قبل ذلك ؛ ففى إيطاليا كان « دانتى » من طلائع النهضة الأدبية ، وقد اتخذ من اللهجة العامية فى إقليمه « تسكانا » لغة لآيته

الكبرى « الكوميديا الإلهية » — وكان ذلك فى القرن الثالث عشر — وحركة نقل الآداب القديمة وإحيائها بدأت بعد ذلك فى أوربا بما يقرب من قرنين كاملين .

وكذلك حدث فى الأدب الإنجليزى أن بدأت الكتابة الأدبية باللسان القومى على يدى « تشوسر » ولم تبدأ حركة إحياء الآداب القديمة إلا بعد ذلك بكثير .

٣ — يقول المؤلف فى صفحة (٤) إن من آثار العلم الحديث فى الأدب الإنجليزى ظهور طائفة من الأدباء أمثال « ستيل » و « اديسن » و « سوفت » ؛ ولست أدرى كيف كان هؤلاء وأضرابهم نتيجة « للعلم الحديث » — أيكون اختراع الطبعة واستعمالها فى طباعة المجلات والكتب هو ما يرمى إليه الكاتب ؟ لو كان ذلك ، فإنى لأخشى أن يظن القارئ أن المطبعة ظهرت فى ذلك العهد أو قبله بقليل ، ولم يكن ذلك هو الواقع .

٤ — من أهم ما تعرض له الكتاب البحث فى هل نعد الجمال فى الأدب ذاتيا أو موضوعيا ؛ وقد فرغت من قراءة الكتاب دون أن يوقفنى المؤلف على أرض صلبة فى هذا الموضوع ، ولو اتخذت كتابه مرجعى الوحيد فى الحكم ، لما وجدتنى قادرا على الجواب الحاسم ؛ ويخيل إلىّ أن الكاتب وصل فى نهاية الفصل الثانى إلى الرأيين معا ، أثبت أولهما فى صفحة (٤٥) ، وثانيهما فى آخر الفصل صفحة (٤٧) — بل إنه فى بحثه الطويل لهذه النقطة فى عرضه لعبد القاهر الجرجانى ، لم يبين فى حسم قاطع إلى أى الفريقين يتبع الجرجانى ؟ لقد تركنا أمام نصوص هذا الناقد القديم ، مع أنه كان أقدر منا على استخلاص المبادئ العامة من هذه النصوص ؛ فى نص أثبته الكاتب للجرجانى فى موضعين ، أحدهما فى (ص ٢١) يقول : « فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ ، فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق ، وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوى ، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده » ، وهذا النص — فيما أرى — يجعل جمال الأدب عند الجرجانى ذاتيا لا موضوعيا . لكن المؤلف يعود فيسوق الجرجانى نفسه مثلا لناقد لا يقف من الأعمال الفنية موقفا نفسيا انفعاليا (ص ٤٢ — ٤٣) .

٥ — فى تقسيم الناس إلى أربعة أنواع من حيث تأثرهم بالقطعة الفنية (القسم الثانى من الفصل الثانى) قد يظهر شىء من التداخل بين القسمين الثانى والثالث ، بحيث تستطيع أن تضع الرجل الواحد ذا النزعة الواحدة فى كل من القسمين معا .

٦ — ألم يكن فى الوسع ترجمة لفظتى « كلاسيكى » و « رومانتيكى » بلفظتين عربيتين لأهميتهما فى النقد الأدبى ؟ لقد جربنا فى كتابنا « قصة الأدب فى العالم » على ترجمتهما بلفظتى « اتباعى » و « ابتداعى » ؛ ولست أريد أن أدلى بترجمة بعينها على الأستاذ خلف الله ، لكنى كنت أوثر لفظتين عربيتين يقبلهما هو ، لعلهما تشيعان فى الكتابة النقدية العربية ؟

ويجدر هنا أن أشير إلى أن الأستاذ خلف الله قد استعمل لفظة « ابتداعى » بدل « رومانتيكى » مرة واحدة فى الكتاب (ص ١١٩) مما يدل على قبوله لهذه الترجمة ، وأعتقد أنه إذا قبل هذه اللفظة لتدل فى العربية على معنى « رومانتيكى » كان أقرب إلى قبوله للفظة الثانية « اتباعى » لتدل على معنى « كلاسيكى » .

وبعد ، فهذا كله أدنى إلى التساؤل منه إلى النقد ، فليس فى وسع قارئ مثلى يأخذ النقد الأدبى موضوعا لهوايته ، أن يجد مأخذا فى كتاب مثل الأستاذ المؤلف ، الذى جعل هذا الموضوع مادة هواية ودراية فى آن معا .

زكى نجيب محمود

بين المسموع والمقروء

ساعات الحرج، على المسارح

عرفت رجلا قويت ذاكرته، فذكر بها الكثير من الأشياء، ولكنه ضعف عن ذكر الأسماء. وكان يشعر بالحرج أكبر الحرج، عند ما كان يأتيه في متجره زبون قديم، فيقابله بالتهليل والترحيب، ويذكر له آخر مرة لقيه، وآخر شيء اشتراه؛ ويجيء على ذكر اسمه، فلا تسعفه الذاكرة، وعندها يداور ويحاور، ويناديه بكل صفات الإعظام، وأسماء الاحترام، إلا ذلك الاسم الواحد الذي لا يصدق إلا به النداء.

ويأتي دور كتابة الوثيقة بالثمن، وهنا لا ينفع اللف والدوران، فيسأل ذلك العزيز القديم عن اسمه، فيقول: قل يا سيدي، أريد أن أعرف اسمك كاملا. فيجيب الزبون في شيء من الغرابة: علي عبد القدوس، فيقول: أعرف ذلك، ولكني أريد الاسم الأوسط، فيقول ليس للاسم وسط، فيقول: إني آسف، وقد كنت دائما أظن أن الاسم علي أحمد عبد القدوس. وتنطلي الحيلة أحيانا، وتخفق أحيانا، ولكنها على كل حال كانت تدفع محرجا من ضيق.

وأحرجُ من مُحرج الذاكرة من الرجال والنساء، رجال المسارح ونساؤها. فالممثل ليس من صفاته أن يحسن التمثيل وكفى، بل لابد له من الذاكرة. وليست الذاكرة ذاكرة ألفاظ وجمل وسطور فحسب، بل لا بد له من أن يذكر أين يبدأ وأين ينتهي. ويعسر هذا عليه خاصة في المحاورة والمداورة، لا سيما إن كانت بين أكثر من اثنين. وعلى الممثل فوق ذلك أن يذكر في أي مكان من المسرح يتعلق بما يتعلق.

ومن أجل هذا الحرج كله استنوا سنة الملقنين في المسارح.

والملقن يختفي في كل مكان بالمسرح لا تقع عليه الأنظار، ويكون على مقربة من الممثل المحرَج فيدله همسه « بالمجاهل ». وكثير من الممثلين لا يحتاجون إلى الملقن، ويكفيهم منه وجوده، فاطمئنانهم بوجوده، وهذا يعطيهم الثقة بالنفس، ويجنبهم العثرات.

ولكن كثيراً أيضا ما يحتاج الممثل إلى الملقن فلا يجده، أو يجده ثم لا يسمع همسه. وللممثلين في ذلك، والممثلات، طرائف تحكى وتشاع.

كان الممثل الكوميدي « فل باكر » يمثل في الرواية الشهيرة، رواية « الابن المسرف ». وكان يمثل الابن. وغاب الممثل الذي يمثل الأب، وحل محله شخص جديد. وتزيا بزي الأب في أثواب رجل هرم، والتحى لحية بيضاء طويلة. ودخل المسرح فجلس يستدفىء إلى جانب الموقد، وتناول الصحيفة يقرأها. وبعد ثوان دخل الابن، فصاح بأبيه: « ها أنذا يا أبي أعود مرة أخرى إلى بيتنا »، وانتظر الجواب، وانتظر الترحيب، فما كان جواب، ولا كان ترحيب. لقد أنصت الممثل الأب الملقن فلم تبلغه لقانته، فعاد الابن يصيح لأبيه: « ها أنذا يا أبي ... ». وانتظر الجواب فما كان جواب. عندئذ اتجه إلى النظارة وهو يقول: « إن أبي العزيز الشيخ لم يسمع مما قلت كلمة ». وانتقل إلى غيرها.

وحدث الممثل الشهير « روبرت جليكار »، أن هوش على من أمامه في دوره من الممثلين بأن دار على المسرح يمينا، وكانت الخطة أن يدور يسارا. وتابعه الممثلون وهم في دهشة من أمره. وانعكست الحركة في الدور كله، وكان سبب ذلك أن فردة شاربه اليمنى كانت قد سقطت، فدار حتى لا يدرك القوم ما حدث.

والممثلة « بيجي ريان » ، أرادت أن تستغني عن الملقن ، فكتبت كل « أدلتها » على ظاهر الستار الأول من ستائر المسرح بحيث تراه ، ولا يراه المتفرجون من بطن الدار . ومضى المنظر الأول بخير . ودخلت إلى المنظر الثاني ، ونظرت ، فإذا « الأدلة » طارت . لقد تغير المنظر فأصاب حتى الستار الأول . ولفوه فارتفع إلى السقف وفي طيه « الأدلة » الغالية .

وفي رواية « العيش مع والدى » ، فصل يظهر فيه الوالد من فوق سلم الدار ليلقى ولديه الصغيرين عند أسفله ، ولكنه ظهر على السلم فوجد المسرح خاليا . كان المعجبون أرسلوا للصبيين بهدايا ورسائل للإعجاب والتحية ، فاشتغلا بها وراء الكواليس ، ونسيا أن وراءهما دورا يلعبانه . ودخلا إلى المسرح متأخرين ، فما كان من الممثل اللبق ، إلا أن عاتبهما معاتبة الرجل الكبير أطفاله على أن لم يكونا عند قاع السلم عند ما دخل ، وذكر لهما ما كان عليهما أن يقولاه له ، فأصلح بذلك ما فسد ، في أسلوب ظن معه رائوه وسامعوه أنه بعض الرواية ، إلا من عرفها .

وفي الأبرا الشهيرة « لوهن جرن » ، في أحد مناظرها منظر تدخل فيه بجعة إلى المسرح . وفي ليلة من لياليها تطوع زوج المغنية الأولى أن يعفى الملقن من واجبه ، ليقوم هو به . واتفق مع من يُدخلون البجعة إلى المسرح أن يشير إليهم بوقت ذلك ، برفع منديله ، فيدخلوها . وكان التلقين عملاً له جديداً ، وتبعة ثقيلة لم يعهدها . وثقلت عليه فأثرت في أعصابه ، وكان الصيف ، فأخذ العرق يسيل من جبينه . فرفع منديله إلى رأسه يمسح العرق . فظن القائمون بأمر البجعة أنها الإشارة ، فساقوا البجعة داخل المسرح . فما رأتها الممثلة حتى اختصرت دورها اختصاراً لتحيي البجعة في تخطرها . وكان من ذلك أن تقدمت الرواية على الموسيقى خمس دقائق . وإن استطاعت الممثلة أن تتقدم لم تستطع الموسيقى أن تجاريها . وأُنزل الستار ، والموسيقى تمزق أشد المزق استكمالا لدورها . فكان هذا حدثا في تاريخ المسارح عظيما .

وإن لقى الممثلون الحرج من نسيانهم ، فقد يلقى الملقنون حرجا لا يقل عن حرجهم . وأكبر حرجهم يكون في انتظار الحرج أن يسعفوه . فحرجهم من النوع العصبيّ الذى يجده المرء وهو ينتظر الواقعة أن تقع ، والنازلة أن تنزل .

ومن صفات الملقن الصبر . ولكن قد يحدث مايضيق به صدر الملقن ، فينفجر . حدث هذا لملقن معروف ، وقع له في رواية ، أن ممثلين خمسة ، في منظر واحد ، ظلوا يرسلون له الإشارات بطلب الإسعاف ، وهو يسعفهم ولا يلاحق . وكيف يسعف خمسة في مسرح واحد ، في منظر واحد . فلما بلغ الضيق به الغاية ، أمسك بالنسخة التى يلقن منها وقذف بها في بؤرة المسرح ، وهو يصيح غاضبا للممثلين : هذه هى الرواية ، فاستخرجوا منها ماتريدون .

وقد يحدث أن ينسى الممثل ، فيكون ملقنه الممثلَ الذى يشاركه ، لأنه أحفظ منه . حدث مرة في رواية أن كان زوج وزوجة يشاركان . ونسى الزوج الممثل زوجته ، وأرادت أن تكيل له الصاع صاعين . ولكنها وجدت صاعها فارغا . ونظرت الملقن فلم تسمع منه . عندئذ استدار لها الزوج وهو يقول : إنك لا أمل فيك ياعزيزتى . لا أمل فيك أصلا . حتى السب لا تجيدينه : إنى لو كنت مكانك ، وسمعت سبًّا كهذا من زوجى لأجبته بكذا وكذا . وبهذا قال ما كان يجب عليها أن تقوله ، وخلّص الموقف ، ولم يفطن له أحد .

إن اللباقة ، وحضور الذهن ، ضرورتان لازمتان لأدوار المسارح ، وهما كذلك لازمتان لأدوار الحياة . فكم خلّصت الكلمة الواحدة ، أو الحركة الواحدة ، أو الفعلة الواحدة ، من مواقف ، وكم دفعت من مكاره .

أحمد زكى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٧٦٩

العدد ٤٦٩ — الثلاثاء ١٠ من صفر سنة ١٣٦٧ — ٢٣ من ديسمبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

روسيا ودول الشرق العربى

كشف قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين عن حقائق كثيرة كانت تبدو لأعيننا فى صور خادعة ، فظهرت هيئة الأمم المتحدة ، التى أقيمت للعمل على صون السلم ، وتحقيق العدالة الدولية فى نفس الصورة الرجعية المتيقة ، التى عرفناها عن عصبة الأمم : صورة هيئة لينة مطواع ، تغلب النزعات والأهواء السياسية على كل مقتضيات الحق والعدالة ، وتتجه حيثما توجهها الدول ذات النفوذ والسلطان . ورفعت روسيا السوفيتية لأول مرة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية بموقفها من المسألة الفلسطينية القناع الذى كان يستر أهدافها الحقيقية تجاه الشرق الأوسط ، وظهرت سياسة الكرملين على حقيقتها ، تواقة كالأخرين إلى تبوء مكانها فى تلك الرقعة التى ما زالت بعيدة عنها .

وقد استطاعت روسيا السوفيتية مدى حين أن تثير عطف الأمم العربية والشرقية ، بدعايتها الخلابة ضد الاستعمار والدول الاستعمارية ، وتظاهرها بنصرة الشعوب المغلوبة ، وتأييد قضايا الحرية والاستقلال ؛ وكان لها غير مرة فى مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة مواقف تحمل على الظن بأنها تؤثر حقا هذا الاتجاه ، وكان موقفها من القضية المصرية فى مجلس الأمن مدعاة إلى الثناء وحسن الظن ؛ وقد لا نرى موسكو بأسا من أن تتخذ هذه المواقف وأمثالها كلما أرادت أن تحرج بريطانيا أو أمريكا ، ولكن الحقيقة أن هذه المظاهر الخلابة لا تكون للتعبير عن جوهر السياسة السوفيتية الخارجية ، وإنما تكشفها وتعبر عنها بالأخص مواقف روسيا إزاء إيران ، وإزاء تركيا ومسألة الدردنيل ، ثم موقفها الأخير إزاء تقسيم فلسطين .

والحقيقة التى أكدناها فى هذا المكان غير مرة هو أن روسيا السوفيتية ليست فى سياستها الخارجية أقل طمعاً من الدول الاستعمارية الأخرى إلى التوسع ، وأن الساسة البلاشفة يترسمون اليوم نفس السياسة القيصرية القديمة دون تغيير أو تحفظ ، وأن أهداف روسيا البلشفية تتفق تمام الاتفاق مع أهداف روسيا القيصرية ، فالسيطرة على أوربا الوسطى والبلقان ، والاندفاع نحو البحر الأبيض المتوسط ، والسيطرة على شمال إيران ، وعلى منشوريا ومياه البحر الأصفر فى الشرق الأقصى ، هذه كلها مما تعمل له اليوم سياسة الكرملين ، وهى كلها مما عملت له السياسة القيصرية القديمة ؛ ولكن الجديد فى سياسة موسكو هو ما بدا فى العهد الأخير من اتجاهها نحو التدخل فى شئون الشرق الأوسط . وقد حاولت روسيا أن تنزل إلى هذا الميدان بكل وسيلة ؛ فأبدت رغبتها غير مرة فى مؤتمر وزراء الخارجية فى الحصول على قاعدة فى لوبية ، أو فى أريتريا ، وهى تحاول اليوم أن تشترك فى الوصاية على إحدى المستعمرات الإيطالية السابقة ، ولم يكن تأييدها لتقسيم فلسطين إلا محاولة جديدة لوضع أقدامها فى الشرق إلى جانب بريطانيا وأمريكا ، وقد جاء هذا الموقف من

جانب روسيا مفاجأة لأولئك الذين كان يخدعهم بريق الدعاية السوفيتية، وإذاعات موسكو، وحملاتها المتواصلة على الدول الرأسمالية والسياسة الاستعمارية. أما الآن فإن السياسة السوفيتية تبدو على حقيقتها دون تحفظ، ومن الواجب أن يعتبر أولئك المخدوعون بما حدث في هيئة الأمم المتحدة، وأن تفطن الأمم الشرقية لما ترمى إليه سياسة الكرملين من الأهداف الخطيرة في رقعة كانت حتى اليوم في مأمن من محاولاتها وتدابيرها.

وإنه ليحق لنا أن نتساءل: كيف ارتضت السياسة الأمريكية لنفسها هذا الوضع الشاذ الذى ظهرت به في الجمعية العمومية لهيئة المتحدة! فهي فضلا من جنوحها إلى مجانبة الحق والعدل في المسألة الفلسطينية، وتحمسها الواضح لتحقيق رغبات الصهيونية في إقامة الدولة اليهودية، تضطر إلى استمالة روسيا لتقف إلى جانبها مع الدول المشايعة لها في قرار التقسيم. ولقد دفعت روسيا بتأييد قرار التقسيم ثمناً بخساً، ولكن أمريكا التي ما فتئت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية تعمل على مقاومة سياسة التوسع السوفيتية، ومقاومة الزحف الشيوعي على غرب أوربا وجنوبها، وترصد الاعتمادات الضخمة لمعاونة الأمم الأوربية على رد محاولات البلشفية، وتبدو في كل فرصة زعيمة الكتلة المناوئة لروسيا وأهدافها المذهبية والاستعمارية، قد دفعت لاجتذاب روسيا إلى جانبها ثمناً فادحا؛ ذلك أنها قد أفسحت المجال لروسيا للتدخل في شئون الشرق الأوسط بصورة مشروعة وهيأت لها فرصة لبث نفوذها ودعايتها في منطقة كانت الجبهة البريطانية الأمريكية تحرص أشد الحرص على إبعادها عنها، ومنذ الآن تستطيع روسيا البلشفية أن تشترك في كل إجراء يتخذ في سبيل تنفيذ قرار التقسيم؛ وربما أدت الأمور إلى اشتراكها في الأعمال العسكرية التي قد يتطلبها الموقف. وأخطر من ذلك كله أن الفرصة قد أصبحت الآن مواتية لروسيا لبث الدعاية الشيوعية في بلاد الشرق الأوسط، واتخاذ الدولة اليهودية المستقبلة مركزا لنشاطها الهدام. فإذا ذكرنا أن السياسة الأمريكية البريطانية كانت إلى ذلك اليوم تعمل على مقاومة الزحف الشيوعي إلى الشرق الأوسط بكل ما وسعت، وعلى توطيد الجبهة الدفاعية في تركيا واليونان لدرئها، أدركنا مدى المأزق الحرج الذى انزلقت إليه السياسة الأمريكية بتصرفها في المسألة الفلسطينية. وفي الأنباء الأخيرة ما يدل على أن أمريكا قد أخذت تشعر الآن بهذا الحرج، وتلتمس الوسائل للخروج منه.

وإذا كانت روسيا قد خسرت بموقفها المجحف في المسألة الفلسطينية عطف الدول العربية وثقتها بعد أن تكشفت خططها ونياتها الاستعمارية، فإن أمريكا قد منيت بنفس الخسارة، وقد كانت الدول العربية تحبو أمريكا حتى اليوم بكثير من العطف والثقة، باعتبارها أبعد الدول عن النزعات الاستعمارية، وأكثرها مناصرة لحقوق الأمم وحرياتها، ولكنها اليوم ترى مع شديد الأسف خيبة أملها تتجلى في السياسة الأمريكية نحو المسألة الفلسطينية؛ ولا ريب أن أمريكا تشعر اليوم أنها فقدت في البلاد العربية والإسلامية كلها كثيرا من العطف والثقة اللذين كانت تتمتع بهما.

إن مصر والأمم العربية يجب أن تعتبر بهذا الدرس القاسي، وأن تقيم سياستها نحو الدول الكبرى على كثير من الحذر وبعد النظر، فإن المساومات والأهواء الاستعمارية كفيلة بأن تتخطى كل حاجز، وأن تقضى على كل حق مشروع، وهي تعقد دائما على حساب الدول الصغرى. وقد حان الوقت لأن ندرك هذه الحقيقة المرة، وأن نعمل على ضوئها، وأن نعتمد قبل كل شيء في كفاحنا على أنفسنا، وأن نطرح من حسابنا فكرة الاعتماد على مناصرة هذه الدولة أو تلك، فكلهم سواء في انتهاز الفرص، وكل سواء في مجانبة الحق والعدالة.

محمد عبد الله عنان

مخاطر المهنـــة

كنت أتحدث إلى صاحبي يوماً ، فجرنا الحديث إلى ذكر المهن المختلفة ومخاطرها . وكان من رأيي أن كل مهنة لا تخلو من مخاطر خاصة تهدد صاحبها في صحته وسلامته . ولم يكن هـذا رأى صاحبي . فجعلت أستعرض له بعض المهن لأبين له ما تنطوى عليه من مخاطر ، وضربت له الأمثال . . .

قلت : إني لا أحدثك عن الطيران مثلا . فمخاطره ظاهرة معروفة لا تحتاج إلى شرح ولا بيان . ويحسب الإنسان ما يسمعه كل يوم عمن غرق من ركابه ، وعمن احترق . ولا أحدثك عن البنائين المعلقين بين السماء والأرض ، وهم يشتركون في تشييد المباني الشاهقة ، وما قد يصيبهم إذا طاح منهم رأس ، أو زلت بهم قدم . ولندع كل محلق في السماء ، ثم لنهبط إلى الأرض ، فنستقر على ظهرها لننظر في تلك المخاطر الدفينة الخفية ، التي لا تكاد تخلو منها مهنة واحدة ، مهما سفل صاحبها ومهما علا .

فللوزير مخاطر مهنته كما (للسباك) الذي يقوم بإصلاح مواقد البترول ، يكون الأول رجلا مستورا في بيته ، هادئا في معيشته . ثم لا يكاد يضع رجله في الركاب حتى يصبح في أفواه الناس مضغة يتسلون بعلكها وإعمال أضراسهم فيها ؛ فأبوه كان كذا — وزوجته كانت كذا — وهو يتردد على فلان وفلانة — ومنزله الذي بناه جاء بثمنه من كيت وكيت — وأرضه التي اقتناها لم يحصل عليها إلا بالغدر والنصب . وهكذا يُنهَش عرضه في السر والعلن ، ويخوض في (خصوصياته) من يعرفه ومن لا يعرفه . وقد يفلح (السباك) إذا أخذ حيطته الواجبة . فلا تنفجر في وجهه المواقد التي يقوم على إصلاحها . أما صاحب السلطان ورجل الوزارة ، فلن يفلح في دفع ألسنة الناس عن سلقه ونهشه .

وصناعة الطب لها مخاطرها . تلك المهنة الإنسانية التي تقوم على النجدة والمواساة . والتي يتطلع الناس إلى أصابع أصحابها كما يتطلع الغريق إلى منطقة النجاة . لا تخلو هي الأخرى من المفاجآت والمخاطر . والمبضع الذي يمسكه الجراح لتخليص مريضه من آلامه قد يشتط فيغمز صاحبه غمزة مهما بلغ من دقتها فإنها قد تحمل الموت في ثناياها . والأشعة السينية التي يفحص بها الطبيب مرضاه ويكشف بها خبايا أحشائهم الباطنية كثيراً ما تسببت في تفتيت أطراف طبيبها ، وكثيراً ما أكلت من لحمه وعظمه .

وعمال النسيج الذين تضطرهم مهنتهم إلى العمل في الأماكن الرطبة آفتهم السل .

والطهاة الذين يقضون جل وقتهم أمام النار والأفران قلّ بينهم من يخلو من مرض يتوطن في بطنه بسبب تأثر بطونهم بالحرارة ، واضطرارهم إلى التنقل من مكان إلى مكان ، وما قد يستتبعه ذلك من تعريض بطونهم الحارة إلى تيارات الهواء البارد .

والموسيقىّ النافخ الذي ينفخ المزامير مصيره عادة إلى الصمم بحكم مهنته . فإن النفخ الشديد المتواصل يؤثر أسوأ تأثير على أجزاء الأذن الباطنة ، ولا يلبث أن يذهب بحاسة السمع كلها .

وذلك العامل الذي يعمل في (تبييض) الجدران ورشها بالجير مصيره في الغالب إلى العمى بحكم مهنته ، وما يتعرض له وجهه وعيناه من رشاش الجير ، والمواد الكاوية الأخرى التي يستعملها في صناعته .

قلت لصاحبي :

— وماذا تريدني أيضاً أن أستعرض لك من صنوف المهن الأخرى ، والحديث قد لا ينتهي إذا أنا استرسلت معك في ضرب الأمثال ؟

قال الخبيث متبسما :

— إنك رجل تشتغل بالقضاء . وهذه مهنة ولا شك

كسائر المهن ، ولست أظنك تزعم أن في هذه المهنة شيئاً من الخاطر !

قلت : يا صاحبي ! إن هــذه المهنة بالذات ليست لها مخاطرها ، وما قد يتعرض له صاحبها من صنوف البلاء على يد المتقاضين فحسب ، بل لقد أصبح لها أمراضها المتوطنة ، كما للمناطق الحارة أمراضها سواء بسواء . فهنا الملاريا ، ومرض النوم ، وما إلى ذلك . وهناك : السكر ، وضغط الدم ، والذبحات الصدرية ، والسكتات القلبية ، وباقي تلك السلسلة من الأدواء ، أصبح يطلق عليها اسم «داء القضاة» كما يطلق على «النقرس» اسم (داء الملوك) ! وذلك لأن القاضي بحكم مهنته قد يضطر إلى العمل وهو جائع ، كما قد يضطر إليه وهو مكتظ . وعمل القاضي ليس من قبيل الأعمال الجسمانية . بل هو إلى حد ما قد لا يعتبر من قبيل الأعمال العقلية وحدها ؛ لأن ما يتطلبه ذلك العمل من تعبئة الأعصاب كلها ، وحشد هــذه القوة العصبية تلك الفترات الطويلة التي يستغرقها عمل القاضي في أيام (جلساته) ، ثم ما يترتب على تلك الحيرة التي يظل يتقلب فيها القاضي أبداً بحكم مهنته ، وهو يحاول أن يتلمس طريق الحق بين الفريقين المتنازعين — كل ذلك يفسد جهازه العصبي كما يفسد أجهزته الأخرى رويداً رويداً . وأول ما يمسه الفساد من هذه الأجهزة ، هو في العادة جهازه الهضمي . وينشأ مرض السكر في الغالب بسبب هذا الاضطراب وما يصحبه من الهم والتفكير المستديم .

أما ضغط الدم فإنه في العادة يسير في ركاب العمل الكثير مع الانفعالات التي تهز النفس وتزلزل الكيان . ولقد أصبح من المعروف الآن أن الحالات النفسية حالات مُعدية . فأنت تصيبك عدوى صاحبك الضاحك فتضحك معه . وتصيبك عدوى المقبض فتضيق لانقباضه . ورواد السباق إنما يرتادون حلبته ليشاركوا الفرسان في انفعالاتهم وليشعروا شعورهم — وهم على أرائكهم متكئون ! وانظر إلى نفسك وأنت تشهد حفلة ملاكمة مثلا بين اثنين من أبطال هذه الرياضة . وتأمل كيف يكون خفقان قلبك متى دق الجرس وتهيأ الخصمان للنزال ، ثم انظر كيف يظل نفسك مضطربا معلقا كلما اشتبك هذان الخصمان . وكيف يظل قلبك صاعدا هابطا كلما كال أحدهما لمزعه لكمة — كل ذلك وأنت في مكانك آمن على نفسك معافى . ولكنها هي عــدوى الانفعال لا يمكن أن يسلم منها أبق الناس عصبا ولا أكثرهم رصانة ورزانة .

والقاضي في أبسط صوره حَكَمٌ بين اثنين يتلاكمان . إنهما يطلان لا بإنسان « القفازات » ولكنهما يتهيآن للنزال بلبس « الأرواب » . فهو لا يجلس جلسة المتفرج النادي الذي تصيبه عــدوى الانفعال من بعيد . ولكنه باق بنفسه في الحلبة طائشا أو كارها ليتعقب كل « لكمة » أو كل « كلمة » ، وليشترك في كل حركة ، وليحول بين الفريقين إذا اشتبكا ، وليعد لكل واحد منهما (سقطته) ليصدر حكمه إذا ما انتهت الجولات بين الطرفين . على أن الخصمين قد ينسحبان إذا انتهى دورهما فيجدان من يلعق لهما جراحهما ، ومن يمد إليهما يد الرحمة والإسعاف والمواساة ؛ أما هذا « الحكم » فإنه مضطر أبدا إلى الوقوف وسط الساحة يتلقى « زوجا » من بعـد « زوج » من هؤلاء المصطرعين ليعيد مع كل « زوج » نفس الدور ، وليعيش معه أقسى لحظاته ، وليتلقى عنه أعنف انفعالاته . ثم ينسحب الخصمان دواليك ويبقى هذا (الحكم) دائما في مكانه .

وأي دم لا ينضغط في مواجهة كل هذه الأزمات ؟ وأي قلب لا يكل من ممارسة كل هذه الانفعالات !

* * *

قلت لصاحبي :

— على أن للأمر وجها آخر — فهل أتاك حديث القضية التي قتلت قاضيا ؟

قال : وهل في القضايا ما يقتل القاضي ؟

قلت : لقد كان !

قال : وكيف كان ذلك ؟

قلت : كنا ثلاثة نجلس فى محكمة واحدة . فإذا فرغنا من نظر قضايانا فى الجلسة وخلونا بعد ذلك لأنفسنا لنفرسها ولنصدر أحكامنا فيها ، تقاسمناها فوزعناها بيننا بالسوية كما يوزع ورق اللعب على اللاعبين . وكما أنه يحدث بين اللاعبين أن يقع (الجوكر) فى يد أحدهم فيفرح به ، وتقع ورقة أخرى خاسرة فى يد لاعب غيره فيغتم لها ، كذلك كان يحدث لنا أن تقع القضية الخفيفة فى نصيب أحدنا فيفرح لهـا ، وتقع القضية الثقيلة أمام واحد آخر فيربد لها وجهه ويخفق قلبه .

واتفق أن جلس معنا فى وقت من الأوقات قاض حديث ، كان وكيلا للنيابة قبل أن يجلس للقضاء ، فكان بحكم تكوينه فى عمله القديم يحتاج إلى مران طويل قبل أن يتصدى للقضايا الثقيلة — ولكنه كان قاضيا مجتهدا ، وكان حساسا ، وكان غيورا على كرامته ؛ فحدث وأنا أوزع القضايا بالتناوب أن وقعت أمامه قضية ضخمة ، كان ارتفاع أوراقها إذا وقفت وحدها لا يقل عن نصف متر . وكان على القاضى الذى تقع فى نصيبه هذه القضية أن يدخلها من أولها فيدرس أوراقها ورقة ورقة ، وأن يتتبع النزاع فيها خطوة خطوة ، وأن يحل مشاكلها عقدة عقدة ، حتى يتسنى له أن ينفذ منها آخر الأمر ويخرج من جانبها الآخر وفى يده مشروع للحكم فيها (يناقش فيه مع زملائه) .

ولاحظت أن هبوط هذه القضية سيكون ثقيلا على زميلنا الجديد فسحبتها من أمامه ووضعتها فى نصيبى وأعطيته ملفا آخر بدلا من ملفها . ولكنه ساءه هذا التصرف . وأحس بأن فيه ما يمس كفايته وكرامته ، وأصر على أن تسير الأمور فى مجراها الطبيعى ، وأنه يود أن يجرب حظه مع هذه القضية الضخمة لعل فيها ما يعينه على تحصيل أكبر قدر من الخبرة فى أقل فترة من الوقت . وكان له ما أراد .

وحل موعد اجتماعنا للمداولة و (المداولة) كما يسمونها — وحمل كل واحد منا قضاياه ، وجلسنا نستعرضها ونتشاور فيها . ولما جاء دور القضية (إياها) اعتذر صاحبنا من عدم عرضها فى ذلك اليوم وطلب أن يعطى مهلة أخرى ليتم دراستها ، فوافقناه ومددنا أجل الحكم فيها ، وحل موعدها مرة أخرى وتكرر طلبه فأعطيناه مهلة جديدة .

وانتهزت خلوة بينى وبينه ، فعرضت عليه من جديد أن يرسل إلىّ ملف هذه القضية لعلى أعاونه فى دراستها . وما زحته قائلا : وضعيفان يغلبان قويا ! — ولكنه لم يجد منه مزاحا ، وأكد لى أنه لا بد سيفرغ من دراستها هذه المرة ، وأنه لخص جميع النقاط الفرعية المتصلة بالبها ، وأنه حصر جميع نقط النزاع التى أثارها الخصوم ، وأنه راجع بعضها فى كتب المراجع وأنه لم يبق أمامه إلا أن يراجع بعضها الباقى ، ولم أجد بدأ من النزول على إرادته مرة أخرى .

وحل موعد القضية الأخيرة الذى اتفقنا عليه . ولكن زميلنا لم يحضر فى ذلك اليوم ، وسألنا عنه فقيل لنا إنه مريض . فحملنا مرضه على محمل البرد الذى لم يكن يخلو أحد من بعض آثاره فى تلك الفترة من السنة .

ولكن غيبة الزميل طالت . وامتدت إلى أسابيع ثلاثة ، وترددنا عليه ، وعلمنا من طبيبه أنه يشكو اضطرابات عصبية تحتاج إلى الراحة والعلاج مدة أخرى .

ولم تكن هذه الظروف تسمح بالخوض فى ذكر ما عنده من القضايا أو فى طلب استردادها وإعادة توزيعها ، فانتظرنا حتى كتب الله له أن يشفى ، وأن يستأنف جهاده معنا ؛ ولكنه لم يكن فى هذه المرة على غيرته الأولى وحماسته التى بدأ بها العمل ، وبدأت أسمع منه ما يفيد أنه أصبح يفضل عمل النيابة على عمل القضاء .

فأدركت بيني وبين نفسي إلى أي شيء يشير ، ووضعت إصبعي على مكمن دائه ، ولكني لم أستطع أن أفاتحه مرة أخرى في شأن (تلك القضية) ، فهو كما يبدو شديد الحساسية ، عظيم الثقة بنفسه ، وخشيت إن أنا حاورت حديثي معه فيها أن أسيء إليه ، فسكت على مضض .

وتطوع هو للكلام ، فأفضى إلى بأن الوعكة التي أصابته ، إنما أصابته عقب انقطاعه نحو عشر ساعات متواليات في تقليب أوراق تلك الدعوى ، وتركيز موضوعاتها وتحديد طلبات أطرافها ، وأنه قام عقب جلسته تلك وهو يشعر بتحطيم وغثيان ودوار ، وأنه لم يتداركه إلا نوم ثقيل حطه الله فوق رأسه ، فراح به في سبات عميق . على أنه حين أفاق من نومه لم يستشعر شيئا من نشاط الصاحين الذين استوفوا قسطهم من الراحة ، فراح ينام من جديد ، ولم ينقذه هذا النوم الجديد مما أحس أنه يتشاه من الضعف والإعياء ، فاستدعى الطبيب ، وكان هذا هو السبب الذي من أجله تخلف عن المحكمة حوالي أربعة أسابيع ! فاكتفيت بأن أشرت عليه بضرورة تجنب الإجهاد ، وتحميل نفسه ما لا تطيق . ولم أستطع أن أفصح له عن حقيقة ما أريد .

ومضى هو في عمله معنا أياما أحس بعدها أنه لا بد له أن يقول لنا شيئاً عن ملفات القضايا الباقية عنده . والتي تعطل صدور الحكم فيها بسبب غيابه . فقال إنه سيفرغ منها كلها في ظرف أسبوعين وإنه سيحملها إلينا في هذا الوعد المضروب .

وبر بوعده لنا — ولكن فيما يتعلق بباقي قضاياه . أما « تلك » فإنه قال إنه رأى أن يتخلف بها عن أخواتها أسبوعا آخر لينفرد بها فيه . فتمنينا له النجاح والفلاح ، وأوصيناه بنفسه خيراً . وانصرفنا على أن نلتقي بعد أسبوع . . .

ولكنه في هذه المرة لم يحضر أيضاً . وسألنا عنه فقيل لنا : إنه دخل المستشفى إثر نوبة قلبية . . وإن حالته لا تسمح لنا بزيارته ، فأجلنا . . . وانتحيت أنا بنفسي جانباً وقلت لها : إني أعرف « المجرم » وإني سوف أتولى أمره بنفسي بعد اليوم ولا أخلى بينه وبين زميلي أبدا . . وقطعت على نفسي هذا العهد . . .

واستطعت أن أبر بشقه الأول . فإني طلبت « ملف القضية » — القاتلة — لأقوم على كتابة حكمها . . .

أما الشق الثاني — فوا أسفاه — لم يتسن لي تحقيقه . . لأني وصلت إلى نجدة زميلي متأخراً . وبعد أن فات الأوان إنه لم يعد إلينا قط — رحمه الله ! .

حسن جلال

تنعى أسرة الثقافة إلى قرائها مع الأسف البالغ عضوا لامعا من أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ذلك هو المغفور له حسين محمد سعيد بك وزير مصر المفوض في سفارة لندن .

تخرج رحمه الله في مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩١٧ واشتغل بالتدريس في مدارس القاهرة عدة سنوات ثم درس القانون ، وكان أول زملائه في العام الذي تخرج فيه . والتحق بالنيابة العمومية . وفي وسط مسئولياتها أخذ يتجلى استعداده العظيم ، ولكن قيود العمل في مهنته الجديدة دفعته إلى التفكير في تغيير مجرى حياته المرة الثالثة . فانتقل من السلك القضائي إلى السلك السياسي ، لأنه رأى في أفق الحياة الدبلوماسية ذلك المجال الفسيح الذي يتفق مع نفسه الكبيرة . وبدأ عمله قنصلا لمصر في مدينة لندن ، ثم عين سكرتيرا ثالثا بالسفارة المصرية هناك . وما زالت ترفعه كفاءته حتى أصبح وزيرا مفوضا . وما من عمل مشكور قامت به السفارة المصرية في الحقبة الأخيرة إلا وللراحل الكريم فضل تدعيمه بجهوده الخفية المتواضعة .

أجزل الله فيه عزاء وطنه وذويه ، وأسكنه عنده في منازل المجاهدين الأبرار .

التوازن الدولى

المبدأ الذى قامت عليه سياسة الدول الأوربية منذ عهد إحياء العلوم هو مبدأ المحافظة على التوازن الدولى ، وقد حاول تحديده وتوضيح معالمه الكثيرون من كبار المفكرين السياسيين مثل مكيافلى وبيكون وجروتياس وفردريك الأكبر وروسو وهيوم وفنلون وهيجل ؛ ويتلخص هذا المبدأ فى أن بقاء الدول الأوربية رهن بأن لا تصير إحدى هذه الدول من القوة بحيث تصبح قادرة على إرغام الدول الأخرى مجتمعة وفرض إرادتها عليها ؛ وأى دولة تعبث بهذا المبدأ يقتضى الأمر المبادرة إلى إخضاعها وإرغامها على اتباعه ؛ وخوف كل دولة من إثارة المعارضة العامة أو الاستهداف لانتقام الدول يكون لحملها على التزام حدود الاعتدال ومجانبة الشر والعدوان والجشع والطمع ؛ وإذا استطاعت إحدى الدول أن تبلغ من القوة المبلغ الذى يمكنها من تحدى الدول مجتمعة فإن مثل هذه الدولة يجب اعتبارها عدوا مشتركا عاما ، وأن لا نهمل أى وسيلة من الوسائل التى تمليها الحكمة السياسية لإضعاف قوتها وتحطيم شوكتها .

ولم تكن هذه النظرية معروفة فى العصور الوسطى ، فقد كانت أوربا حينذاك متحدة إلى حد ما تحت سيادة البابا والإمبراطور ؛ ولكن لما تفككت روابط الدولة الرومانية المقدسة وبدأ ظهور الدول الحديثة ظهرت مشكلة التوازن الدولى ، وكان بدء ظهورها العملى والنظرى بإيطاليا فى القرن الخامس عشر ؛ فقد حاول لورنزو المعظم أن يوجد نوعا من التوازن بين الولايات الإيطالية الأربع الكبيرة ، ولما غزا شارل الثامن إيطاليا قام تحالف بين الدول المطرودة منها وتعاون على ذلك البندقية والبابا وأسبانيا وانجلترة ، وانتقلت النظرية من إيطاليا إلى أوربا عامة ؛ وقد حث الدول على الاستمساك بها تزايد قوة شارل الخامس وفيليب الثانى ؛ وقد لعبت فرنسا وانجلترا دورا كبيرا فى توطيد النظرية وتأييدها ؛ ولما تزايدت مطامع لويز الرابع عشر ونابليون من بعده استدعى الأمر تحالف الدول على مقاومة فرنسا والوقوف فى سبيل مطامعها ؛ وقد روعى مبدأ التوازن الدولى فى معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ ، وفى معاهدة أوترخت سنة ١٧١٣ ، وفى معاهدة أكس لاشابل سنة ١٧٤٨ ، وفى معاهدة فرساى سنة ١٧٨٣ ، وفى معاهدة باريز سنة ١٨١٤ ، وفى مؤتمر فينا سنة ١٨١٤/١٨١٥ ، وفى معاهدة باريز سنة ١٨٥٦ ومعاهدة لندن سنة ١٨٦٧ ومعاهدة برلين سنة ١٨٧٨ ، وفى نهاية الحرب البلقانية سنة ١٩١٣ ، وفى معاهدة فرساى ؛ وقد نص فى معاهدة أوترخت على منع اتحاد فرنسا وأسبانيا رعاية للتوازن الدولى ؛ وهكذا كان الحرص على مبدأ التوازن الدولى يتصدى للدول التى تتنكر له مثل فرنسا أو النمسا ويحارب الأفراد الذين يخلون به مثل لويز الرابع عشر ونابليون .

ولا تزال نظرية التوازن الدولى هى النظرية المتبعة فى أوربا والتى يسترشد بها الساسة فى توجيه سياستهم وتدبير خططهم ، وقد نشأ أكثر الساسة المرموقين فى ظلال هذه الفكرة وتحت قوة تأثيرها بحيث أصبحت جزءاً من كيانهم السياسى يعز عليهم مفارقته .

والآن نريد أن نتساءل : هل كان التوازن الدولى كافياً لإصلاح الحالة الدولية خليقا بمنع الحروب وحسم الخلافات الدولية الخطيرة ؟ .

مما لا نزاع فيه أن هذا التوازن كان فى مصلحة الدول الكبيرة ، فقد استخرج منه فقهاء القانون الدولى حق التدخل فى شئون الدول الصغيرة لتغيير الحالة الراهنة أو المحافظة على بقائها ، ففى سنة ١٨٨٦ تدخلت الدول باسم هذا التوازن لمنع الحرب بين تركيا واليونان ، وتدخلت كذلك باسمه فى أثناء الحرب التى نشبت بين الأتراك واليونانيين من أجل جزيرة كريت ، وقد يكون هذا التدخل

فى بعض الأحيان من مصلحة الدول الصغيرة ، ولكنه فى أغلب الأحيان كان شراً ووبالا على الدول الصغيرة ، وحقيقة أنها قد تستمد منه حماية تصون استقلالها ، ولكن معظم هذه الدول تصبح مناطق نفوذ اقتصادى ومالى ، ويتبع ذلك الخضوع السياسى ، وفى الحرب تصبح أراضى بعض تلك الدول ميداناً للهجوم والدفاع والكر والفر ، بل هناك خطر آخر يتهدد تلك الدول ، وذلك أن هذا المبدأ يستلزم التعادل فى الموازنة ؛ ومعنى ذلك أن بعض الدول الصغيرة قد تمزق وحدتها وتقطع أوصالها من أجل إقامة هذا التوازن والمحافظة عليه ، وهى نقطة سوداء فى سجل التوازن الدولى .

وفكرة التوازن الدولى تقوم على الاعتقاد بأن الحالة الراهنة حالة حسنة صالحة ، ويجب الحرص عليها والاحتفاظ بها ، فهى قد تسوق إلى الرجعية ، وهى نظرية سلبية تقرر ما يجب أن لا يعمل وتجيز أعمالا سلبية خاصة ضد الدول التى تشتد قوتها .

وقد يقال إن الأخذ بنظرية التوازن الدولى قد أفاد أوربا مدة قرون ، ومنع الكثير من الحروب الطاحنة ، وكبح جماح الدول الطامعة ، وحد من طغيانها وضراوتها ، وقد صان أوربا من طغيان ألمانيا وتعاظم فرنسا فى القرن السابع عشر ، وأخذ فرنسا سنة ١٨١٥ وأبقى على ألمانيا ووحدتها سنة ١٩١٩ وحافظ على كيان تركيا وسد بذلك مطامع الطامع وأبواب الفتنة ؛ وقد مكن انجلترا وروسيا فى سنة ١٨٧٥ من كف عادية بسمارك ومنعه من استثارة فرنسا ، وضمن حياد بعض الدول الصغيرة ، وأنه ساعد من بعض الوجوه على نمو القانون الدولى ، وكل هذا ممكن أن يقال ويقال بحق ؛ ولكن برغم ذلك فإن تاريخ القرون الخمسة الأخيرة يثبت أن نظرية التوازن الدولى لم تكن كافية لاستقرار السلم وإبعاد شبح الحرب . وقد منعت الخلافات الصغيرة المدمرة ، ولكنها لم تحل دون وقوع الحروب المروعة الخطيرة ، بل قد مهدت السبيل لاشتعال نار الحرب ؛ فكلما قويت دولة من الدول تحالفت الدول الأخرى واتفقت على مقاومتها ، وقد قاومت الدول نفوذ النمسا حتى صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ ، وقاومت الدول بعد ذلك سيادة فرنسا حتى صلح أوترخت سنة ١٧١٣ ، وتلا ذلك عهد محالفات لمقاومة سيطرة نابليون انتهت بعقد مؤتمر فينا .

على أن التوازن الدولى كما يستعمل فى الخير يستعمل كذلك فى الشر ، فإن التوازن كما قدمت يستلزم تساوى كفتى الميزان ، ولا يكون هذا التساوى إلا على حساب الدول الصغيرة ؛ وقد تضم بعض الدول الكبيرة أرضا جديدة إلى ممتلكاتها فتقوم دولة أخرى كبيرة بضم أرض أخرى إلى أملاكها باسم المحافظة على التوازن الدولى ! وهكذا كان يقضى على بعض الدول الصغيرة بالتقسيم وفقدان الاستقلال من أجل المحافظة على هذا التوازن المحبوب ، ولقد كانت بولندة من ضحايا هذا التوازن المعروفة المأثورة .

ومع خطورة الدور الذى لعبه مبدأ التوازن الدولى فى الماضى فإن بعض المفكرين السياسيين يشكون فى قدرته على مواجهة المستقبل وعلاج مشكلاته ، وذلك لأن نظام التوازن الدولى يمكن الأخذ به فى حالة تخلف التقدم الصناعى أو وجود مسافات شاسعة بين الأمم ، وقد قضت الكشوف العلمية الحديثة على هذين الشرطين فقربت الأمم البعيدة وأحدثت تطورا فى فنون الحرب وأصبح فى وسع أى دولة من الدول القوية أن تقضى على قوة الدولة التى تناوئها فى يوم واحد دون أن تعلن عليها الحرب ؛ ولا نزاع فى أن ذلك مما يخل بالتوازن الدولى ويجرده من قيمته ؛ فالسلام القائم على التوازن الدولى لا يرجى استقراره ولا يطمأن إلى دوامه ، وهكذا ضعف الإيمان بنظرية التوازن

ليس لدينا سياسة جامعية

اختلف المفكرون فيما بينهم عن حقيقة رسالة الجامعة في الحياة الحديثة ، ولكن اختلافهم هذا لم يمنعهم من الاتفاق على أن الطالب يتلقى في الجامعة إعداداً مهنياً ، وتمايا فنيا ، يؤهله للعمل بعد تخرجه واكتساب الرزق . والإعداد المهني وحده لا يكفي لتكوين شخصية الطالب ، وجعله مواطناً صالحاً قادراً على إفادة نفسه ووطنه في مستقبل حياته على الوجه الأكمل ، بل يلزم أن تزداد ثقافة الطالب الجامعي زيادة عامة في نواح شتى ، عدا دراساته الفنية ، ويلزم أن تربي الجامعة في طلابها روح تقدير العوامل المختلفة ، وتعودهم حل مشكلاتهم وتمرنهم على النظرة الصائبة للأمور الخاصة والعامة على السواء . والسنوات التي يقضيها الطلبة في الجامعة سنوات هامة في حياتهم وحياة بلادهم ومستقبلهم ، لأنها قنطرة فاصلة بين مرحلة الثقافة العامة حيث لا يتحمل الطالب مسئولية كبيرة ، وبين مرحلة العمل في خضم الحياة المتلاطمة الأمواج ، بما فيها من مسئوليات وتبعات .

هذا ما يبتغيه الطالب من الجامعة ، وما ينبغي أن تؤديه هي له من حق كامل غير منقوص . ولكن رسالة الجامعة أوسع من أن تقاس بما بينها وبين طلابها من حقوق وواجبات ، إذ أن الجامعة تضطلع بمهمة أخرى قبل العلم والعرفان . لأنها تضم نخبة من الإخصائيين في مختلف العلوم والفنون ، الذين يقومون بواجبات التدريس في جزء من وقتهم ، وينصرفون في الجزء الباقي إلى الدرس والتنقيب والبحث ، وزيادة حدود المعرفة الإنسانية في شتى نواحيها ومختلف فروعها . فإذا أصبحت الجامعة مكانا للخلق العلمي والمعرفة المتزايدة ، أمكن لها أن تشع نورها الوضاء في جميع مناشط الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فالعلم قوة والمعرفة نور . وبالقوة والنور يهتدي الناس سواء السبيل .

وقد نشأت التقاليد الجامعية في الأزهر وفي الجامعات الأوروبية العريقة على عدة مبادىء أساسية ، أهمها الربط القوى بين حياة الطالب وحياة أستاذه ، حتى يمكن للأول أن يقتبس من الثاني القدوة ، وحتى يمكن للثاني أن يرشد الشخصية النامية التي بين يديه ويتعهدها ، ودليل

الدولي التي كانت سبباً من أسباب الحروب الكثيرة المتوالية ؟

وإذا كانت نظرية التوازن الدولي قد أصبحت من المبادىء التي لا يمكن التعويل عليها والاستناد إليها ، فما هو الحل المناسب إذاً لمشكلة العلاقات الدولية والروابط الأممية ؟ .

الحقيقة التي تواجهنا هنا أن الحل الوحيد الذي يصون السلام ، ويقي العالم شر الحرب والدمار هو الاتجاه إلى الوحدة العالمية التي تقوم على الأسس الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، وهي وحدة تدخل فيها الأمم بمحض اختيارها وخالص رغبتها ؟ ولعل ما تعانيه الأمم الآن من الضائقات الاقتصادية يشير إلى ضرورة إنشاء وحدات اقتصادية متحدة متعاونة ؟ وإذا عجز العقل والتفكير والإقناع من تحقيق تلك الوحدة المنشودة فسيظل العالم يعاني ويلات الحروب حتى تتمكن قوة قاهرة جبارة من فرض تلك الوحدة فرضاً على أمم الأرض ودول العالم ؛ والظاهر أن هذه الوحدة هي الاتجاه التاريخي لهذا العصر ، فإذا فهمت الإنسانية روح العصر ونزعته وعلاماته ودلالاته ، فقد تستطيع أن تتجنب الكثير من الكوارث ، وتعرف كيف تعالج مشكلاتها المعقدة وتفرج أزماتها المستحكمة ؟ ولعل ذلك الاتجاه العالمي هو الطريق الوحيد لتفادي المركة الرهيبة المنتظرة بين النفوذ الأمريكي والنفوذ الروسي .

علي أدهم

على ذلك نشأة الأروقة ومساكن الطلاب حول الجامعات ، وهو نظام ما زال متبعاً بنجاح في بلاد كثيرة . ومبدأ آخر هو تكوين هيئة من الأساتذة أنفسهم تتولى شئون الإدارة الجامعية بنفسها دون تدخل من حاكم أو وال في حدود الميزانية المتوافرة للجامعة . والأمثلة كثيرة على مدى اعتزاز رجال الأزهر القدماء بمبادئهم . وثمة أمثلة كثيرة من تاريخ الجامعات الأجنبية تبين مراحل الصراع بين أهل العلم وأهل السلطة ، وكيف أن الغلبة في النهاية كانت للعلم وأهله . ويخطئ من يظن أن الدعوة إلى الاستقلال الجامعي مبعثها الأثرة وحب الذات ، لأن سببها الحقيقي هو أن التدخل الخارجي لا يؤدي في النهاية إلا إلى انهيار البناء الجامعي ، وتحول الكليات إلى مدارس ثانوية راقية أو غير راقية . وهذا هو ما حدث في مصر الآن .

ونحن إذا نظرنا إلى التعليم الجامعي في مصر اليوم ، لا نجد فرقاً محسوساً بينه وبين التعليم الثانوي أو الابتدائي من حيث الأغراض والأهداف . فالبرامج محددة ، والمدرسون يقومون بإلقاء الدروس أو المحاضرات ، وفي آخر العام يتم الامتحان حيث يكرم المرء أو يهان . وصلة الطلبة بالمدرس لا تزيد في التعليم الجامعي المصري عنها في التعليم الابتدائي أو الثانوي ، لأنها صلة تبدأ بدقة ناقوس الحصة ، وتنتهي بالدقة التالية . والعيوب التي نشكو منها في التعليم العام من حيث المناهج وازدحامها ، وكثرة الدروس أو قلتها ، وسوء المحافظة على النظام ، والتدخل الإداري المستمر وغير ذلك ، هذه العيوب توجد بأشكال مختلفة ودرجات متفاوتة في التعليم الجامعي .

وليس ثمة فرق جوهري اليوم بين المدارس المصرية وبين الجامعات سوى بحوث أعضاء هيئة التدريس . إذ لا يوجد مقابل لها في المدارس ، ولكننا لو أمعنا النظر فيها نجد أنها ناشئة من نفس الداء المتفشي في المدارس . وتفسير ذلك أن الجامعة في مبدأ نشأتها استعانت بالعلماء الأجانب ، وأرسلت البعوث العلمية إلى الخارج ، ليحلوا محل الأجانب شيئاً فشيئاً ، ولكن المبعوثين لم يكتب لهم عادة التفوق في الإنتاج العلمي والبحوث بعد رجوعهم ، مثلما كتب لهم أثناء إقامتهم في الخارج ، ولذلك رغبت الجامعة في رفع مستواهم العلمي ، فحرصت على أن تحثهم على ذلك ، بأن تعد المنتج منهم بالدرجات والترقيات العالية ، وتهدد غير المنتج منهم أو غير الموفق بعدم الترقية وعدم تطبيق مزايا الكادرات الخاصة ، وما إليها ، وغير ذلك من وسائل الوعد والوعيد ؛ وكذلك وجدت حركة البحث العلمي القائمة الآن في الجامعات المصرية . وشبيه بها حركة الاستثناء من المدرسين ذوي الخبرة والكفاءة وإحلال حاملي الشهادات العالية محلهم في المدارس الابتدائية والثانوية ، وشبيه بها أيضاً نظم الدراسات التكميلية والعليا التي أقبل عليها الكثيرون ابتغاء الميزة وتلمساً للترقية . فالدوافع واحدة وإن اختلفت الوسائل .

فلا غرو إذاً أن نجد الجامعة مكتظة بآلاف الطلاب ، ومقرراتها مليئة بآلاف الموضوعات ، ودرجاتها مشغولة بمئات الأساتذة من ذوي الألقاب والمؤهلات ، وميزانياتها تزيد على الملايين من الجنيهات ، لا غرو أن نجد هذا كله ، ونجد أيضاً كاتب هذا المقال وأمثاله يطالبون بوضع سياسة جامعية ، كأن ليس كل شيء على ما يرام .

وأمامنا بعض موضوعات ينبغي أن نجد لها رداً مدعماً من الهيئات المسئولة في الجامعة وخارجها .

أولا : هل يجوز أن تكون الأمة في حاجة إلى أطباء ويصرف الطلبة عن أبواب كلية الطب بأي حجة من الحجج المالية أو الإدارية ؟ .

ثانياً : هل يجوز أن يزداد عدد الطلبة في الكليات

ازدياداً لا يتناسب مع ما يعد لهم من أدوات ومعامل ، وهل يؤدي هذا إلى انحطاط مستوى التعليم الجامعي ؟ .

ثالثاً : هل الأفضل أن ينخفض مستوى التعليم الجامعي في مصر . أم أن يحدّ عدد طلابه مع المحافظة على مستواه ؟ .

رابعاً : هل ثمة هيئة جامعية أو غير جامعية ، تنسق بين العرض والطلب على مختلف المعاهد والكليات ما أمكن ذلك ، وخاصة أن اختلال التوازن بين العرض والطلب في هذا الموضوع ، يؤدي إلى غرم فاحش يدفعه الطالب بكل حياته ، والأمة زهرة شبابها .

خامساً : هل تعنى الجامعات بترقية البحوث العلمية بين موظفيها ، وكيف تظهر هذه العناية في الميزانيات السنوية على شكل أدوات معامل وكتب ومجلات دورية ومواد . وما نسبة ذلك إلى الميزانية الكلية ؟ .

سادساً : هل تعنى الجامعات بوضع سياسة إنشائية لإصلاح عيوبها وتدعيم أسسها ، وخدمة طلابها خاصة ، والأمة عامة .

سابعاً : هل صحيح ما يقال إن التعليم الجامعي عندنا متضخم في الكم وناقص في الكيف ، وأن الأولى بنا العناية بالتعليم المتوسط الفني .

ثامناً : كيف تساعد الجامعة على تكوين شخصية الطالب فيها وإعداده ليكون مواطنا صالحا .

والردود الرسمية على كثير من هذه الأسئلة معروفة ومعلومة ، إذ يمكن أن تسمع بلاغات رسمية عن الخدمات الصحية والاجتماعية واتحادات الكليات ومختلف مظاهر الرقي الجامعي . ولكن القائمين بالأمر يعلمون حق العلم أن الواقع يختلف عن المكتوب ، وأن ثمة إصلاحات كثيرة واجبة في التعليم العالي في مصر .

وقد اهتمت الجامعات الراقية في مختلف أنحاء العالم بمواجهة ظروف ما بعد الحرب ، فتألفت لجان عديدة لبحث أمورها ، وتحسين شئونها ، وتنسيق أعمالها ؛ واهتمت الحكومات بمعاونة الجامعات ماليا وأدبيا معاونة فعالة ، فقدمت الحكومة البريطانية مشروعا للبرلمان يعرف باسم تقرير لجنة بارلو ، كان من شأنه أن زيدت إعانة الحكومة للجامعات من ٢½ مليون جنيه قبل الحرب إلى ١٢ مليون جنيه هذا العام ، واعتمدت الحكومة مبالغ لتوسيع المعامل والمباني الجامعية في السنوات العشر المقبلة ، بلغ مجموعها ٥٠ مليون جنيه . وطالبت الحكومة بأن يزداد عدد الطلبة من ٥٠٠٠٠ قبل الحرب إلى مائة ألف مع الاهتمام بزيادة عدد طلاب الكليات العلمية . وقد رفضت جامعتا كمبردج وأكسفورد أن يزداد عدد الطلبة فيهما ، بينما قبل ذلك جامعات أخرى . وتألفت لجنة من مديري الجامعات البريطانية لبحث المسائل المشتركة بينهم . وعقدت هذه اللجنة مؤتمرين عامين ، آخرهما في الصيف الماضي ، نوقشت فيهما جميع الأمور التي تتصل برسالة الجامعة في المجتمع الحديث . وألفت لجنة تدرس حالة البحوث العلمية في جامعات اتحاد أفريقية الجنوبية . ووضع تقرير عن أعمالها نشر في جامعة ناتال ، ويشير هذا التقرير إلى مسائل كثيرة تشبه ما نحن فيه من تخبط وقصور .

وعندنا والحمد لله لجنة برئاسة معالي وزير المعارف العمومية تبحث أمر الاحتفال بمرور ٢٥ عاما على إنشاء جامعة فؤاد الأول ، وذلك في سنة ١٩٥٠ ، وكل ما نطمع فيه ألا يحل موعد هذا الاحتفال القومي العظيم دون أن تتكون هيئة عليا تتولى درس مشكلات الجامعة ، وتجيب الأمة إجابة شافية عن السؤالين التاليين : هل أدت الجامعة رسالتها كاملة ؟ وما هي الوسائل اللازمة لتمكينها من أداء تلك الرسالة .

إبراهيم حلمي عبد الرحمن

القوم يقرأون ...

(١) كتاب الزراعة :

هو ترجمة فرنسية نقلها فى القرن الثانى عشر « كليمن موليه» من كتاب باللغة العربية من تأليف «ابن العوام».

وهذا الكتاب فضلا من احتوائه على كثير من المقتبسات التى نقلت عن اللاتينية واليونانية ، فهو يعطيك وصفاً جم الفوائد للحياة ، وللاقتصاد القومى لدى العرب فى الأندلس .

فهو يبحث بحثا عميقا فى إدارة الملكية الزراعية ، وفى الحياة المنزلية ، وفى كيفية معاملة الأجراء ، وفى مركز الزوجة .

وإن كان المؤلف قد عنى بكل شيء له علاقة بالزراعة إلا أنه قد خص بالعناية تلك الأبحاث ذات الصلة بالنباتات العطرية ، والطرق المختلفة لاستقطار العطور منها .

وقد أمدنا المؤلف أيضا ببيان عن المراقات التى كانت شائعة لدى عرب ذلك الزمان ، فى الأقاليم الزراعية من أسبانيا .

(٢) آدم :

قصة روائية ألفها فى القرن الثانى عشر مؤلف مجهول وهى مكتوبة بالفرنسية إذا استثنينا بعض الأناشيد المكتوبة باللاتينية . وهى تستمد أهميتها من أنهـا أقدم رواية فى اللغة الفرنسية .

وهى تعطى القارىء تاريخاً مفصلا عن خروج آدم من الجنة ، وعن مقتل هابيل . يتلو ذلك وصف لموكب جميع الأنبياء الذين بشروا بمجيء المسيح . وكانت تمثل هذه الرواية فى ساحة المدينة أمام رجال الكنيسة .

وكانت بعض مناظر الرواية تمثل ببراعة فائقة . وحوار الرواية يسير على نسق بديع .

والمنظر الذى يمثل إغراء الحية لحواء يستحق التسجيل ، وذلك لمـا فيه من البساطة والحيوية .

(٣) المراهقة :

كتاب يبحث فى المراهقة من الوجهة السيكولوجية ، وينظر فى علاقتها بعلم وظائف الأعضاء ، وبعلم الأجناس ، وعلم الاجتماع . وينظر كذلك فى علاقتها بالمسائل الجنسية والدينية ومسائل التعليم .

وهو فى الجملة رسالة ضخمة فى العلوم النفسية والاجتماعية . ألفه ج . ستانلى هول ونشره عام ١٩٠٤ .

وقد خص الفصول الثلاثة الأولى بالتغيرات الجسمانية التى ترافق سن المراهقة . أما الفصلان الرابع والخامس فقد قصرهما على بحث الأمراض والجرائم . وأما الفصلان السادس والسابع ، فقد اختصا بالتغيرات والأضرار الجنسية . وأما الفصل الثامن ، فقد خصصه لتسجيل ما يستشهد به من ألوان الأدب ، ومن تراجم الحياة .

والجزء الثانى من هذا الكتاب يعنى بسيكولوجية التوليد والملل لدى المراهقة مبتدئاً بالحس والحركة ، ومتنقلا من ذلك إلى ألوان الشعور والإرادة والذكاء .

ويبحث هذا الجزء فى نشوء الحب ، وفى نشوء الإحساس بالطبيعة ، وفى سيكولوجية التحول ، وفى البيئات الغرائز الاجتماعية . وفى خصائص الذكاء فى سن المراهقة .

وهو يعطينا صورة تفصيلية لحماسة الشباب ، ومتاعب الشباب ، كما يعطينا ألوانا من الحكمة لحسن قيادة الشباب وتثقيفه .

(٤) كل ما ينتهى بحل حسن فهو حسن :

هى إحدى روايات شكسبير ، وقد ألفها عام ١٦٠٢ ، وهى مأخوذة من قصة لبوكاتشيو الكاتب الإيطالى مع بعض تغييرات .

وفي هذه الرواية ينبئنا شكسبير كيف أن « هيلين دي ناربون » ، وهي الفتاة الصغيرة اليتيمة بنت أحد الأطباء ، قد فرضت حبها على ذلك الفتى الفرنسي النبيل الجميل « برترام دي روسيون » ، وكانا قد تربيا معا منذ الطفولة . وهي رواية من روايات اقتناص الأرواح بحيلة من الحيل الغريبة .

فقد أبرأت هيلين الملك بوصفة من وصفات أبيها . وطلبت أن يزوجها « برترام » مكافأة لها على شفائها الملك وقد تم زواجها به .

ولكن الفتى الختال الفخور قد سار إلى الحرب في اليوم المحدد لزواجه قبل أن يدخل بعروسه ، فتعود العروس إلى « روسيون » حزينة آسفة . وتجد هناك خطابا من زوجها يقول لها فيه : إنها يوم تجد خاتم الزواج في أصبعها ويوم تريه طفلا جاء من صلبه . فإنه يومئذ سوف يعترف بها زوجة له :

فاعتزمت الفتاة أن تغلبه بالذكاء والحيلة . وأن ترده إليها : فغادرت « روسيون » بحجة أنها تريد الحج إلى مقام أحد الأولياء الصالحين . والواقع أنها كانت تحاول أن يظن الناس أنها قد ماتت .

وحقيقة الأمر أنها سافرت إلى إيطاليا ، وأنها أصبحت زوجة لبرترام بالعمل لا بالاسم . وذلك بحلولها سراً محل «ديانا الجميلة» التي كان «برترام» على وعد معها .

ثم توالت الحوادث متشابكة متعارضة ، وقضى الأمر بأن بررت هيلين أمام الملك موقفها بأنها قامت بتنفيذ شروط « برترام » . فلما رأى زوجها ما خاطرت به في سبيله ، ورأى أنها قد نذرت أن تكون له مطيعة ، فقد جعلها أقرب الناس إلى قلبه .

ويقول شكسبير : « لابد أنهما عاشا سعيدين حتى جاءهما هازم اللذات ومفرق الجماعات .

(٥) نعم الآداب ومسراتها :

كتاب من تأليف « اسحق دزرائيلي » ، والد لورد « بيكونسفيلد » ، وقد نشر عام ١٨٤١ ، يوم كان المؤلف في الخامسة والسبعين من عمره .

ويقول المؤلف في المقدمة : إن هذا الكتاب يكوّن جزءاً من عمل ضخم أعد مشروعه ، ولكنه لم يقدر له الظهور .

ويقول المؤلف أيضاً : ما قصدت أبدا أن أخرج للناس سرداً جافاً لأسماء الكتب ومؤلفيها . إنما قصدت أن أتتبع خطوات العقل الإنساني خلال العصور والأجيال وأن أتقصى أثر ظهور الآراء العامة وأثر تقدمها وانحطاطها .

وبينما يعد المؤلف العدة لإنجاز مشروعه ، كف بصره ، وكان قد أتم هذا الجزء من كتابه . فكان هذا الجزء في جملته هاديا للناس ، ومرشدا يقودهم إلى الطرق الجانبية في تاريخ الأدب الإنجليزية . يقص عليهم القصص الغريبة من الكتب ، وعن مؤلفي تلك الكتب .

(٦) الحب :

كتاب كتبه المؤرخ الفرنسي الشهير « ميشليه » عام ١٨٥٩ عندما كان المؤلف في الحادية والستين من عمره .

وهو يقول في مقدمة كتابه : إن عنوان الكتاب يدل على موضوعه . وهو الحب ، ودلالته وأهميته . وهو يعطيك صورة عن الانطلاق ، والنبل ، والتحرير ، الذي ينبعث من الحب الصادق .

وإذا قسنا ما جاء بذلك الكتاب بمقاييس الزمن الذي ظهر فيه تبين لنا أنه كان يضم بين دفتيه آراء جريئة . ومع ذلك فلم يكن ذلك الكتاب إلا محاولة لتقرير حق الاحترام لحياة المرأة الجسمانية . أما حياتها العقلية فقد كان

المؤلف ينظر إليها نظرة إلى لاحق يتبع الحياة الجسمانية .

ويبدو أن ميشليه لم يكن يعرف المرأة ، إلا فتاة عذراء ، أو زوجة ، أو أما ، أو ربة منزل .

وكان الدافع له على تأليف هذا الكتاب ، هو حب الخير للناس . فقد رأى حوله أمة مكونة من مجموعة أفراد ، لا من مجموعة عائلات . فرأى لزاما عليه أن يرسم لبني قومه صورة المثل الأعلى لحياة الأسرة ، ومثله الأعلى كان نبيلا ، بلا شك ، ولكنه كان محدود المدى ، ضيق الحدود .

وكانت المرأة في نظره ، إحدى القوارير ، التي يجب أن يعنى بها ، والتي يجب على الرجل أن لا يقصر في تدليلها .

(٧) تحليل الجمال :

هو رسالة تحدثنا عن بضعة مبادئ فنية ، ألفه « وليم هوجارث » ونشره عام ١٧٥٣ .

وكان هذا المؤلف قد رسم عام ١٧٤٥ الصورة المشهورة لنفسه ، ولكلبه الصغير الأفطس الأنف ، وهي الصور التي يضمها الآن المتحف البريطاني . وفي ركن من أركان تلك الصورة ظهر رسم لوحة ألوان المصور ، يحمل في ثناياه خطا متموجا ، كتب تحته : خط الجمال والظرف .

وهذا النقش قد أثار كثيرا من التساؤل والتفسير . حتى اضطر « هوجارث » أن يكتب رسالته هذه التي سماها « تحليل الجمال » تفسيرا لهذا النقش .

وقال في مقدمة رسالته : إني أقدم الآن للجمهور رسالة قصيرة ، مصحوبة برسمين تفسيريين . وسوف أحاول في هذه الرسالة أن أبين المبادئ التي أقرتها الطبيعة . تلك المبادئ التي تؤدي بنا إلى القول بأن شكل بعض الأجسام جميل وأن شكل البعض الآخر دميم . وأن بعضها ظريف وبعضها سمج ثقيل .

وتمس الفصول الأولى من الرسالة بموضوعات التنوع والتناسق ، والبساطة والتعقيد وبنظام تأليف الخطوط وتناسبها .

وقد ذاق « هوجارث » بتأليفه رسالة « تحليل الجمال » طعم المدح الذي فاق كل مدح ، حلاوة من المعجبين به ، كما ذاق الصاب والعلقم من شانئيه وحاسديه .

وقد أصدر المؤلف — لسوء حظه — حكما على رسالته صدر به الصحيفة الأولى من تلك الرسالة ، بقوله : إن الغرض من كتابة هذه الرسالة هو التوفيق بين الآراء المتذبذبة .

ولم يستطع المؤلف أن يحقق ذلك الغرض . ولكن الرسالة بالرغم من ذلك قد انطوت على آراء سديدة تلهم التفكير وتوحي به .

(٨) القانون القديم :

كتاب ألفه « هنري منزمين » (عام ١٨٦١) . وفي هذا الكتاب المتصل العلاقة بالتاريخ القديم للجماعة الإنسانية ، القوي الصلة بالآراء الحديثة ، حاول « سير هنري مين » أن يبرز بضعة آراء قديمة من النوع الإنساني كما تنعكس صورته في التاريخ القديم ، وأن يشير إلى العلاقة بين تلك الآراء وبين الفكر الحديث .

وقد اقتبس المؤلف الكثير من صوره من القانون الروماني . ذلك لأن هذا القانون يحمل في أقدم صوره آثاراً من أبعد العهود القديمة . وهو في الوقت نفسه يمدنا بعناصر كثيرة من عناصر الثقافة الحديثة .

وكان المؤلف في نضاله العلمي يهدف أول ما يهدف إلى إثبات أن السلطة الأبوية هي الجرثومة الأولى للنظام الاجتماعي .

وقد أدى التفوق الذي بلغه المؤلف بتأليفه هذا الكتاب إلى تعيينه مندوباً قضائياً في مجلس حكومة الهند ، كما أدى به بعد عودته من تلك البلاد إلى تعيينه أستاذاً للقانون في جامعة اكسفورد .

أصل السلاجقة

وإسلامهم

قال الأستاذ أحمد زكى وليدى فى الباب الرابع من كتابه : إن استيطان الجماعات التركية الكثيفة الشرق الأوسط بدأ بهجرة السلاجقة . وكان نزوحهم إلى هذه الجهات فى شكل الانتشار فى بادئ الأمر . فقد شهد أبو الفضل البيهقى المؤرخ بأنهم كانوا فى حالة يُرثى لها حينما اجتازوا جيحون فى خوارزم العليا إلى خراسان مطرودين من قبل أعدائهم المنتصرين عليهم فى شرق بحيرة خوارزم . ولكنهم استطاعوا فيما بعد أن يلموا شعثهم واستوطنوا مناطق معينة ، ثم شرعوا فى الفتوح وأنشأوا لهم وطنا جديدا فى الشرق الأوسط واستقروا فيه نهائيا بمساعدة الأتراك الجدد الذين قدموا فى العصر المتولى ، حتى أسسوا أخيرا الإمبراطورية العثمانية العظيمة . ويبقى أن ألخص هنا الأحداث العظيمة التى تمت فى نحو ثلاثة قرون من القرن الخامس إلى الثامن الهجرى (١١ — ١٤ م) .

كان السلاجقة ينتمون إلى غُز الخزر القاطنين بين بحيرة خوارزم وبحر الخزر وبين جبال أورال الجنوبية ، وخاصة إلى أسرة قائمة بزعامة الـ « قنق » التى هى قبيلتهم . وقد وصف حياة هؤلاء الغُز ابن فضلان الذى زارهم عام ٣١٠ هـ (٩٢١) ومؤلف مجهول لكتاب « حدود العالم » الجغرافى المؤلف سنة ٣٥٤ هـ . كانت نظمهم السياسية حين زارهم ابن فضلان النظم نفسها التى وصفها بعض المؤلفين من قبله . فكان رئيسهم يسمى « يَبْغو » ويدعى مساعده « كُذَركين » . وتتركز إدارتهم العسكرية بيد قائد يطلق عليه « سوباشى » . ولهم عظماء يُدعون بأسماء نحو « إينال » و « إينال الصغير » و « طرخان » . ولرئيسهم الدينى الشامانى المدعو « قام » نفوذ عظيم . وسوباشى هو الذى قام بإدارة العلاقات بينهم وبين حكومة بغداد . استقبل أعضاء البعثة ورد عليهم . ومع ذلك فقد عد رجال البعثة أنفسهم ضيوفا على « كذركين » . ذكر اسم السوباشى بأنه « أترك » بن القطغان . ويمكن أن ينطق هذا الاسم بحسب حركات الحروف العربية الـ « قطغان » أو « أترك أو أترل بن القطغان » . وكان سلجوق جد

وقد ظهرت أول مجموعة من محاضراته (عام ١٨٧١) تحت عنوان « جماعات القرى » .

وكان موضوع مجموعة محاضراته التالية فى اكسفورد « تاريخ القوانين القديمة » (١٨٧٥) .

وكلتا المجموعتين كانت أثرا من آثار ما اكتسبه من خبرة فى الهند . وقد أراد بهما أن يلقى ضوءا على الأوضاع الاجتماعية والسياسية القديمة .

وقد امتازت هاتان المجموعتان بالبراعة فى عرض الآراء وبالأسلوب الممتاز المعجب ؛ وهذا ما يكسبهما صفة الإفادة الباقية على الزمن بوصفهما نماذج ممتازة للتحقيق العلمى .

وفى عام ١٨٨٣ ألف « هنرى مين » كتابا آخر يعتبر متمما للكتاب السابق . وقد قصره على البحث فى أصل القوانين والدساتير الاجتماعية وفى تقدمها .

وكان غرضه فى هذا الكتاب كما كان غرضه فى الكتاب السابق هو التوفيق بين تقدم التشريع وبين ما أدى إليه البحث فى علم الأجناس الحديث . متخذا من دراسته لأحد الفرعين هاديا يمشى بنوره فى دراسة الفرع الآخر .

وقد اختتم كتابه الثانى بدراسة لنظرية الملكية الإقطاعية ، وأثرها فى مسائل الإجارة ووضع اليد فى التشريع الحديث » .

(مترجمة) مبارك ابراهيم

السلاجقة قائداً أيضاً أي سوباشيا ، وقد سماه محمود الكاشغري في كتابه ديوان لغات الترك ، سلجوق السوباشي . وكانت شئون الخزر الإدارية في زمان سلجوق بيد قائد الجيش أي بيده أكثر من أن تكون بيد الـ « يبغو » . فيحتمل أن يكون سلجوق الذي اندفع في ميدان السياسة بعد نحو نصف قرن من أترك الذي قابله ابن فضلان ، حفيداً لذلك الرجل . ومن عادة الأتراك الموروثة أن يعرف كل امرئ نسبه من أجداده . وهاك أسماء أجداد طغرل بك السلجوقي كما ورد في « كتاب الغز » رواية عن السيد لقمان : طغرل بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق بن أرطغرل ابن لقمان بن طُقُشْمِش أبين بن كرا كوس خوجه . وكان دُقاق أبو سلجوق على رواية الذهبي مسلماً حديث العهد بالإسلام . طلبت حكومة بغداد إلى « أترك » أن يُسْلِمَ فلم يُرِدْ بل وعد رجال البعثة بأن يجيبهم حين عودتهم من البلغار . وكان إينال الصغير من عظماء الغزول قد أسلم فعلاً . فمن المحتمل جداً أن يكون « دُقاق » جد سلالة السلاجقة هو ابن أترك وأن يكون « أترك » هو أرطغرل .

نظراً إلى رواية نقلها ابن العديم وميرخوند من كتاب « مليكنامه » للمؤلف الأمير « إناج ملك » من أمراء طغرل بك ، أنه حدث خلاف بين « دقاق » وهو أمير تابع للخزر وبين اليبغو ملك الخزر ، فاكتسب دُقاق بهذا الخلاف مكانة عظيمة بين الغز . ولما مات دقاق صار لابنه سلجوق نفوذ عظيم ؛ فأراد اليبغو الحد من هذا النفوذ بإغراء من زوجته ، فجلا سلجوق وأعوانه المؤلفة من مائة فارس ومعهم ١٥٠٠ بعير ونحو ٥٠ ألف رأس من الأغنام إلى جهة مدينة « جَنْد » المسكونة بالمسلمين . وكتب ابن حسُّول وهو وزير طغرل بك ، اسم سلجوق في صورة « سَرْجُق » مبدلاً اللامَ بالراء ، وقال إنه ضرب ملك الخزر بسيفه أثناء قتال أو نزاع عادي فأوقعه من فوق جواده ضارباً بدبوس كان يحمله . ويكون على هذا

قد ذكر شخص واحد بلقب الـ « يَبْغو » أي حاكم الغز في مرجع وبلقب ملك الخزر في مرجع آخر . ومهما يكن من شيء فليس الشخص المذكور بلقب ملك الخزر هو خاقانهم ، بل هو نائب الخان الذي ورد اسمه في كافة المراجع بلقب « ملك الخزر » . وكما كان نائب الخاقان عند الأتراك الخاقانيين يلقب بـ « يُغروش » و « يَبْغو » فإن نائب خاقان الخزر كان من رؤساء القبائل الملقبين بلقب « خاقان بي » و « يَبْغو » .

يُفهم من هذا أن سلجوق وأباه دُقاق كانا « يَبْغو » الغز في زمانهما ، وفي الوقت نفسه نائبي خاقان الخزر . ومن هنا نشأ أن عَدَّ ابن طقطقي مؤلف كتاب الفخري ، سلجوقَ من أتراك الغُز وأن عَدَّ ابن خلدون الخزر من الأتراك . ووجود الأسماء كإسرائيل وميكائيل وداود ويونس وموسى في أسرة السلاجقة دليل على انتشار الثقافة الخزرية اليهودية في الطبقة الأرستقراطية الغزية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . وكان كثير من الغُز أثناء مرور ابن فضلان يلازم أسرى في يد خاقان الخزر أي رهينة (أمانة على العادة المعروفة عند أتراك آسيا الوسطى والروس) . حتى إن بعض رؤساء الغُز فكروا في تسليم أعضاء البعثة العربية إلى خاقان الخزر لإنقاذ أنفسهم من الأسر . ولما كانت صلة أترك الوثيقة ببغداد والبلغار المسلمين ، وبدء انتشار الإسلام في البلاد في أيام خلفه قد أفسد العلاقة بين نائب خاقان الخزر وبين أسرة السوباشي التي مالت إلى المسلمين وكانت جماعة هذه الأسرة أضعف من الجماعة الثائرة لها ، اضطرت للجلاء من بلاد الخزر إلى بلاد السامانيين .

اضطربت أسماء السلاجقة الأول كثيراً في المصادر المكتوبة بالحروف العربية . وكذلك اسم دُقاق ولقبه . وكما أنه من الممكن أن يكون اسم « أترك » الوارد في رسالة ابن فضلان منقلباً إلى « أترل » واسم « أرطغرل »

الذى ورد فى الأساطير الغزية منقلبا من « أطيرغل » ، فإنه من الجائز أيضا أن يكون لقمان أو سقمان الوارد فى الأساطير الغزية محرفا من « قطغان » الذى ذكر فى رسالة ابن فضلان . ومن حيث الزمن أيضا يجوز أن يكون دقاق أخو أرطغرل بن لقمان المذكور فى الروايات الغزية أخا لأرك بن القطغان لأن سلجوق السوباشى كان قد بلغ المائة من عمره حينما توفى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) ؛ ومعنى ذلك أنه كان قد جاوز الثلاثين من عمره حين قدم ابن فضلان إلى بلاد الغز سنة ٣١٠ هـ .

وأما « طغشرمش ألجى » (والجى معناه السفير) وهو الجد الرابع لسلجوق ، فلعله لقب بهذا اللقب لقيامه فى وقت ما بمأمورية السفارة . ويدعى أبوه « كرا كوجى خوجه » ويفسر اسمه بأنه كان صانع هياكل الأخبية . قال محمود الكاشغرى : (« كرا كو » الخباء عند زكن ، وهو البيت الشتوى عند أهل المدر) . وذكر أبى سلجوق فى كتاب الغز بصانع هياكل الأخبية كان للاستدلال على أن هذه الأسرة لم تكن من الطبقة الأرستقراطية ، وإنما نشأت من الطبقة الشعبية . وليس هذا فحسب ، بل يحكى من رواية تنبئ بظهور عظماء الرجال من نسل صانع هياكل الأخبية . ومما لاريب فيه أن أبناء هذا الخيام ما ارتقوا إلى رتبة قيادة الجيش إلا بالشجاعة والكفاءة . وقد ذكر ابن فضلان أن أرك بن القطغان مشهور فى الغز بالرماية والفروسية ، وله أسرة مؤلفة من عدد كبير من الأقارب وأبناء العم . وقد روى فى « أوغوزنامة » بأن الحاكم عيّن أبناء الخيام فى منصب أمير الصيد (أمير شكار) مكافأة لما أظهروا من الشجاعة والبطولة . وواضح أن الأسماء التى اشتهر بها أبناء سلجوق مثل « طغرل بك » و « جغرى بك » و « جارل بك » ليست أعلاما ، بل هى ألقاب لمنصب « أمير الصيد » . وقد استعملت هذه الألقاب عند الخزر كما استعملت عند الأتراك الخاقانيين .

وحافظ أبناء هذا الخيام على نظام الإدارة الغزية القديمة بوجه عام ، حتى بعد انفصالهم عن عز الخزر ، فنصبوا أحدهم نائب الخان ، والآخر إينالا ، وعينوا غيرهما فى سائر المناصب . وكانت مدينة « ينى كند » التى على مصب سيحون العاصمة الشتوية لنائب الغز . ونظرا إلى رواية ابن حوقل كان بعض المسلمين يقيمون بمدينتى « جند » و « خوارة » القريبتين من « ينى كند » تابعين لنائب الغز . فلما قدم سلجوق وأتباعه واستولوا على تلك المدن الثلاث انتقلت إليهم الأقسام الشرقية من بلاد نائب الغز ، فادعى نائبهم بأنه نائب الغز جميعا . وكان من المحتم أن يكون كل نائب تابعا لخان . فيبدو أن سلجوق وأبناءه بعد ما انفصلوا عن الخزر وخاقانهم ونصبوا أحدهم نائبا فى مدينة « جند » عدوا أنفسهم تابعين للخاقانيين . إلا أن تبعيتهم هذه لم تكن دائمة ، لأنهم نصروا السامانيين حينما قام نزاع بين الخاقانيين وبين السامانيين .

ولم يستتب الإسلام لأبناء سلجوق فى البداية ، بالرغم من التجائهم إلى بلاد الأتراك المسلمين والسامانيين . فقد ذكر أن « ينوم » أسلم فى عام ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) أثناء مناصرتهم السامانيين ، وذلك اليبغو هو أرسلان بن سلجوق . لقد وجد من أبناء الخيام من يعتنق الإسلام منذ قدوم البعثة العربية عام ٣١٠ هـ ، ولكنه ما صار دين الغز العام إلا فى عهد طغرل بك محمد حفيد سلجوق ، بعد عهد اهتداء تدريجى دام مائة عام .

حمزة طاهر

الفن والحقائق الواضحة

خلاصة مقال للكاتب الانجليزى الكبير[1]

ألدوس هكسلى

جميع الحقائق الكبيرة واضحة ، ولكن ليست جميع الحقائق الواضحة حقائق كبيرة ، فمن الواضح أن الحياة قصيرة ، وأن القضاء محجوب عنا ، وأن سعادة الإنسان تعتمد إلى حد كبير على الإنسان نفسه ، ولا تعتمد على الظروف الخارجية ، وكذلك من الواضح أن أغلب الآباء والأمهات يحبون أولادهم ، وأن الناس يتعلقون بمنازلهم وأوطانهم ، وبما تعلموه فى طفولتهم من معتقدات وآراء ، وكذلك بالقانون الخلقى للجماعة التى نشأوا فيها . وهذه الحقائق جميعا حقائق واضحة ، وكلها حقائق كبيرة ، لأنها شائعة فى العالم أجمع ، ولأنها تدل على خصال أصيلة فى الطبيعة الإنسانية .

ولكن هناك نوعاً آخر من الحقائق الواضحة ، وهى الحقائق التى تخلو من المعانى الخالدة ، ولا تدل على خصال أصيلة فى النفس الإنسانية ، فمن الواضح أن فى مدينة نيويورك عدداً كبيراً من السيارات ، وكثيرا من الأبنية الشاهقة . ومن الواضح أيضا أن معاطف هذا العام أطول من معاطف العام الماضى . وأن الإنسان يستطيع الانتقال بالطائرة من لندن إلى باريس فى ساعتين ونصف . وهذه الحقائق واضحة ولكنها ليست حقائق كبيرة . فقد يجىء الوقت الذى لا ترتدى فيه المعاطف ولا نرى فيه السيارات إلا فى المتاحف .

ويستغل الفن الشعبى هذين النوعين من الحقائق الواضحة ، صغيرها وكبيرها . فقد يلقى الجمهور من الموضوعات المستمدة من الخيال ، ولكنه يجد لذة ومتعة من مجرد التعرف على ما اعتاد رؤيته من الأشياء والأحداث ، ويسر من قراءة وصف الطرقات والسيارات والمطاعم التى اعتاد مشاهدتها ؛ وهو لا يتطلب الحقائق الواضحة الصغيرة فحسب ، بل يتطلب أيضا الحقائق الواضحة الكبيرة .

فيريد من القائمين على الفنون أن يصوروا له حب الأمهات لأطفالهن ، وأن يؤكدوا له أن الأمانة تقود إلى الخير ، وأن زواج العاطفة خير من زواج المصلحة ، وأن الحياة الإنسانية قصيرة ، فيقدم القائمون على الفنون ما يطلب منهم ، ويعالجون الحقائق الكبيرة الواضحة الأصيلة فى الطبيعة البشرية ، ولكنهم يعالجونها على الأغلب بشكل غير لائق ينبو عنه الذوق السليم .

وكان الفنانون فى الماضى يعالجون الحقائق الكبيرة الواضحة بطريقة تبدو بها أكاذيب كبيرة . ولكن الأمر لم يصل من قبل إلى الحد الذى وصل إليه الآن . والأسباب لذلك كثيرة : أولها أن انتشار التعليم ، واتساع أوقات الفراغ ، وارتفاع مستوى الحياة ، قد أوجد إقبالا كبيراً على الفن الشعبى . وعدد الفنانين النادرين قليل ، فاحتاج الأمر إلى كثير من الفنانين غير القادرين ، الذين عالجوا الحقائق الكبيرة الواضحة فى أغلب الأحيان معالجة غير لائقة ينبو عنها الذوق السليم .

وربما كان لانحلال التقاليد القديمة ، وانتشار الآلية فى العمل ، وفى قضاء أوقات الفراغ ، أثر سىء على الذوق العام ، وإدراك الجماهير (وقد خلت جهود أغلب الناس فى العالم المتمدين من الابتداع والابتكار) . ولكن مهما كانت الأسباب ، فالحقيقة أن العصر الحالى قد أنتج مقدارا كبيرا لم يسبق له مثيل من الفن الشعبى . (شعبى بمعنى أنه أنتج للشعب ولم ينتجه الشعب) . وأن نصف الفن الشعبى مكون من الحقائق الواضحة الصغيرة التى صورت فى كثير من الجهد والاقتراب من واقع الحياة ، ونصفه

(١) من كتاب Music at Night

الآخر مكون من الحقائق الكبيرة ، التي صورت في شكل قاصر حتى إنها تبدو مزيفة منفرة .

وكان لهذا الحال تأثير غريب في بابه على بعض من اتصف بشدة الحساسية من الفنانين ، فقد أصبحوا يخشون الحقائق الواضحة كبيرها وصغيرها . وليس من شك في أن كثيراً من الفنانين في كل عصر كانوا يخشون الحقائق الواضحة الصغيرة أو بالأحرى يترفعون عنها . ويعد المذهب الطبيعي Naturalism ظاهرة شاذة في تاريخ الفن . ولكن من اتصف بشدة الحساسية من الفنانين لم يرفضوا الأخذ بالمظاهر الخارجية لواقع الحياة فحسب (وهذا شيء نحمده لهم) بل رفضوا أيضاً الأخذ بباطن الواقع ؛ فلم يعترفوا بأغلب حقائق الطبيعة الإنسانية . ولما كانت أغلب نواحي الحياة مكونة من الحقائق الواضحة ، فإنهم قد قصروا جهودهم على شطر ضئيل من الوجود .

وامتاز فنانو فرنسا بالتطرف في هذا السبيل ، كما امتازوا بالاتجاه إليه عن قصد . ولكن هذا الاتجاه كان ظاهرة سادت أغلب بلاد العالم ؛ فتجردت فنون النحت من كل عناصرها الأدبية ، وأصبحت الصور والتماثيل مجرد أشكال وخلت الموسيقى من التعبير عن عواطف الحزن والحنان ، واقتصرت على التعبير عن النشاط الجسدي وأغاني السرعة والحركة الآلية ، وتأثرت الموسيقى والفنون البصرية بهذه الحركة الابتداعية Romanticism الجديدة ، التي مجدت الآلة والزحام والجسد ، واحتقرت الروح والعزلة والطبيعة . وامتلأ الأدب بهذه الابتداعية المعكوسة ، وتسطحت موضوعاته بتجنب جميع الحقائق الواضحة الخالدة في الطبيعة الإنسانية .

ويبرر هؤلاء الفنانون هذا الاتجاه تبريراً نظرياً بنوع من فلسفة التاريخ ، وهي فلسفة تؤكد أن الطبيعة الإنسانية قد تغيرت تغيراً أساسياً في السنوات الأخيرة ، وأن الإنسان الحديث يختلف عن أسلافه وأجداده أو ينبغي أن يختلف عنهم . ولا يبدو خوف الفنانين من الحقائق الواضحة في الموضوعات فحسب ، بل هم يخافون الوضوح في وسائل التعبير الفنية أيضاً ، فيقودهم هذا الخوف إلى هدم القمة التي طالما بذلت الجهود في سبيل الوصول بها إلى حد الكمال . بل قد يجنح المتطرفون منهم إلى الرغبة في فناء جميع الفنون والعلوم ، وإلى انحلال المجتمعات الإنسانية المنظمة .

وكانت أغلب الأعمال الفنية التي تميزت بالجرأة نتيجة لهذا الرعب والخوف الذي ساد في عصر تميز بالابتذال ، وانتشرت فيه الحقائق الواضحة .

وإذا شاء شباب الفنانين أن يبرهنوا حقيقة على شجاعتهم وجرأتهم فعليهم أن يواجهوا الحقائق الواضحة ، وأن يحاولوا غزوها ، والسيطرة عليها سيطرة فنية ، لا أن يهربوا منها فرقاً ورعباً . فالحقائق الواضحة الكبيرة حقائق موجودة ، وهؤلاء الذين ينكرون وجودها ويعلنون أن الطبيعة الإنسانية قد تغيرت منذ إعلان الحرب الكبرى في ٤ أغسطس عام ١٩١٤ ، إنما يختلقون المبررات للرعب الذي داخلهم ؛ وقد عبر الفن الشعبي تعبيراً قاصراً مبتذلاً عن الحقائق الواضحة ؛ وشديدو الحساسية من الفنانين يكرهون الابتذال . ولذلك يبرهنون بطرق طبيعية — وإن كانت غير علمية — على عدم وجود الأشياء التي عبر عنها الفن الشعبي في ابتذال . ولكنها أشياء موجودة — كما يثبت ذلك أي بحث عن الحقائق مجرد من العاطفة ؛ وما دامت موجودة ، فيجب أن نواجهها ونكافحها ونخضعها إلى النظام الفني الصحيح . وأما التظاهر بعدم وجود أشياء هي في الواقع موجودة ، فقد يؤدي إلى أن جانباً كبيراً من الفن الحديث الراقي يقضي على نفسه بالقصور والجدب والشيخوخة المبكرة والموت .

حسن لطفى المنفلوطى

بين المسموع والمقروء

الخديعة الكبرى

دخل الرجلان البنك بأحذية طويلة ثقيلة مُتربة، وملابس لاتمل علاها آثار الحفر في الصحراء، وبوجهين لفحتهما الشمس فكستهما حمرة كادت أن تكون سوادا، علتهما لحيتان كثتان لم تزدهما إلا اخشيشانا. وبرقت عيون الرجلين في حُمَرها من الوجه، فكانت هي الشيء الوحيد الذي يرق في هذا المنظر المترب الطميس.

دخل الرجلان البنك، فما وصلا إلى نافذة «الوارد» حتى ألقيا على رخامها حقيبة من جلد وصاحا بموظف المصرف:

— نريد أن تحفظ لنا هذه الأحجار وديعة إلى حين.

كان البنك بنك كاليفورنيا، وكان العام عام ١٨٧٠، وكانت البنوك في تلك الناحية قد اعتادت أن يأتيها المدّانون بتراب الذهب فيحفظوه بها، لحقول الذهب كانت قد اكتُشفت والناس ساروا إليها ألوفا ألوفا، ويضع الرجل منهم يده على ما وجد، فيكون له. وكثرت الودائع في البنوك، ودائع الذهب، يودعه مودعه في البنك ترابا.

أما أن يودع المودع في البنك أحجارا فشيء جديد لم يفهمه موظف البنك. لهذا سأل:

— فأي أحجار تعني؟.

فأجاب أطول الرجلين قامة:

— أحجار من ماس.

وفتح الحقيبة وقال:

— هاك انظر.

ونظر موظف البنك وصَفَّر صفرة العجب لما رأى.

ثم قال:

— وباسم من أودع هذه الوديعة الغالية؟

فقال أطول الرجلين:

— باسم جون سلاك. والأفضل أن تضع اسم زميلي أيضا فيليب أرنولد. لقد حضرنا إلى البلد لنشتري عُدَدا ولنستريح قليلا. وسنعود لنسترد الأحجار بعد غد.

وسأل الموظف:

— وإذاً تعودان إلى المنجم لتحفرا عن أمثال هذه الأحجار من جديد.

— نعم. فالماس يرود وقلة أكثرات.

وذهب الرجلان.

وما اختفيا حتى أسرع الموظف إلى الخزانة يعيد النظر إلى ما في الحقيبة. وأجرى الماس بين أصابعه ماسة ماسة، وكلما جرت ماسة اهتز لها قلبه. ونظر فإذا بين الأحجار ياقوت أزرق وأحمر. وقدّرها فبلغت نحوا من مائة ألف من الدولارات. وهذه هي الفاتحة، فما باله بالذي سيجيء من بعد ذلك. لقد وقع هذان المدّانان حتما على منجم يساوي ملايين من الجنيهات.

وجرى موظف البنك إلى مديره، وكان اسمه رلستون. وهذا اسمه حقا، وهذه كانت أسماؤهم جميعا حقا، فما في هذه القصة خيال، وإنما هي قطعة من تاريخ تلك القارة التي انفتحت لها من أول الأمر طاقات من السماء، تدفقت عليها بشتى الحظوظ وبصنوف غريبة من الثراء.

ذكر الموظف لمديره ما رأى. فكذّب. فأخذه إلى الخزانة وأراه، فكادت أن تخرج مما رأى عيناه. إنه كشف سيتضاءل إلى جانبه كل ما مضى من كشوف الأرض وكنوزها.

ومضى اليومان، لحضر الرجلان المدّانان.

فقال لهما الموظف:

— قبل أن أعطيكما الحقيبة بالذي فيها، أريد منكما أن تقابلا مدير البنك.

فقال الرجلان في شيء من الريبة:

— وما القصد من هذا؟ ليس عندنا وقت نضيعه.

— ليس في الأمر اشتباه، ولكن حديثا يجري

بينكما وبين مدير البنك قد تكون له عواقب نافعة .

وتناظر الرجلان يتشاوران . ولم يمهلهما مدير البنك ، فقد حضر بنفسه ، وما وجد من مظهرهما أنهما عدادان بسيطان حتى رحب بهما فى كثير من الترحيب إلى مكتبه ، ورفع الكلفة بينهما وبينه ، وأعطاهما سيجاراً وأشربهما شرابا . وما كادا ينهيان الشراب حتى دخل الحجرة رجلان من كبار رجال الأعمال والأموال فى المدينة . وبدأ مدير البنك ، المستر رالستون ، حديثه . قال إن هذا الاجتماع لم يكن وليد المصادفة ، فهو مهيأ مرتب . ذلك أن العدادين كشفا عن منجم الماس ، إن صح أن هذه بشارته ، فهو لاشك سوف يربح الشرق ربحا . وأثمان الماس فى العالم قد تهبط هبوطا فاحشا . وقد يكون من نتائج هذا الكشف أن ينتقل مركز الماس العالمى من أمستردام بهولندا إلى سان فرنسسكو بأمريكا .

وسمع العدادان ما سمعا . ثم استأذنا أن يتشاورا فى ركن من أركان المكان . وبعد ما تقارضا همساً عادا . ثم قال أحدهما :

— أظن أنكم على حق فيما ارتأيتموه . وأنا وزميلى على استعداد لأن نبيع المنجم بثمن ٦٦٠٠٠٠ ريال . ولكنا فى غير حاجة إلى هذا المال الآن . وعندكم الأحجار التى أودعناها فى الحقيبة فاحتفظوا بها . ولكن ادفعوا لنا الآن بضعة آلاف من الريالات على سبيل النفقة الجارية . وسنعود إلى المنجم لنرجع إليكم منه بمليون دولار من هذه الأحجار .

قال رجال المال : لا أوفق من هذا ولا أعدل .

وأعطوا العدادين ما طلبا على سبيل النفقة . ومضيا . وإن صح أن فى الناس مغفلين كثيرين ، فلم يكن مدير البنك ، رالستون ، مغفلا قط فى حياته الطويلة الناجحة . من أجل هذا لم يكد يصل العدادان له ظهريهما ، حتى اتصل بالتليفون بمكتب للتجسس والاستخبار شهير . وكلف أصحابه أن ينظروا فى أمر هذين الرجلين ، فجاءه التقرير بأنهما رجلان عاديان ، قضيا فى التعدين سنوات ، وليس لهما سوابق

وقضى رالستون هو وأصحابه أياما يحلمون الأحلام . وحسبوا أن المنجم لا يقوم على استغلاله إلا شركة تؤلف ، لا يقل رأس مالها من ١٠ ملايين من الدولارات . ومن يكون مديرها ؟ ووقعوا على المليونير الخبير فى التعدين ، المستر أسبرى . وكان عندئذ فى لندن . فأبرقوا إليه أن يحضر فقبل الحضور .

وتسرب خبر المنجم إلى الناس ، فتكوكبوا على رالستون وأعوانه ، يريدون أن يشركوهم فى استغلاله . ودفع رالستون عن نفسه بأن المنجم لا يمكن أن يستغل حتى يُفحص ويقدَّر . واتهمت إحدى الجرائد رالستون وأشياعه بأنهم يريدون أن يحتفظوا بالمنجم لأنفسهم استئثارا .

وشاع خبر المنجم من سان فرنسسكو إلى نيويورك . شاع من المحيط الهادى إلى الأطلسى . وحاول رجال المال فى كل بلد أن يشتركوا ، فلم يجابوا .

وجاء موعد مغادرة الخبير المليونير ، أسبرى ، شاطئ انجلترا إلى أمريكا . وفى أمسية الرحيل ذاتها زاره المالى التاريخى الشهير ، البارون روتشلد . وتحدثا فى الأمر . قال اسبرى إنه يظن أن رالستون قد خُدع . فقال روتشلد ، ولم لا تقول إن أمريكا عادت تهز العالم من جديد بمورد جديد من موارد ثراء عظيمة كشفت عنها الأيام ولا تزال تكشف ؟

وبلغ أسبرى سان فرنسسكو . وزار رالستون فى مصرفه . وإذ هو يتحدث إليه دخل العدادان بصيد جديد ، بحقيبة واحدة مليئة بالأحجار ، هى كل ما بقى مما كانوا قد جمعوا من حقل لا يقل ما فيه عن مليون ريال من الأحجار . لقد اعترضهم فى عودتهم فيض عظيم من الماء اضطروا إلى عبره على عوامة من صنع أنفسهم واتقلبت بهم العوامة ، وكادوا يغرقون لولا عناية الله . وفقدوا كل متاعهم ، إلا هذه الحقيبة الواحدة . وفيها ما يُغنى .

وأرسلوا فى طلب خبير ، فجاء ، وفحص . نعم . إنها ماسات لاشك فيها ، وفيها قليل من ياقوت أحمر وأزرق .

قال رالستون : بقى أن نزور المنجم سراً ، ولن يصحبنا

إليه إلا الخلصاء ، فما كتموا أمره . وفي الموعد المضروب اجتمع الخبراء المتشّعون ، على غير علم من أحد ، وفي مكان لا يطرقه الناس . وقاموا تلصصا ، على الخيل ، ينهبون الأرض نهبا . فلم تكن بعدُ عرفت السيارات . وساروا أربعة أيام سويا . وأخيراً جاءوا إلى أرض منبسطة تحفها الجبال .

قال المدّانان : هنا حفرنا ، في هذه الحقول .

وانطلق الجمع ينقبون ويحفرون . وكلما وجد أحدهم ماسة صاح بأصحابه . وكثر التصايح . وكان أكثرهم تصايحا الخبراء .

وعادوا أدراجهم ، فلم يبق إلا إنهاء الصفقة . ودفع البنك للمدانين ٦٦٠ ألف دولار . وتنازلا عن كل حقوقهما في هذه الحقول للبنك وشركائه .

وألف البنك شركة بلغ ما دفع من رأس مالها عشرة ملايين دولار . واشترك فيها روتشلد بمايين ألفا .

ولكن أسبرى ، الجيولوجي الخبير ، وكان ذهب إلى الحقل فيمن ذهب ، ظل بقية أيامه مرتابا .

وفي يوم من الأيام بلغت به الريبة حد القلق . فاصطحب خبيرا جاء به هو نفسه ، وذهب إلى المنجم . وظلا ينقبان ، ووقفا على الماس . ولكن الخبير وقع على ماسة لعب فيها المبرد والمنشار . فصاح بصاحبه : إن هذا الحقل لا ينبت الماس فحسب ، ولكنه أيضا يقطّعه . ومن هذه القطعة الواحدة افتضح أمر هذه الخدعة المالية الكبرى التي حركت رجال قارتين ، أوربا وأمريكا .

وبزيادة الفحص زادت الأعجوبة افتضاحا . إنها مائة ألف قطعة ، من الماس الرخيص ، وفيها بعض الماسات الطيبة ، غرست في هذه الأرض غرسا . غرست بقلم دقيق ، وتركت عاما كاملا لتمس الأمطار والرياح على آثار ذلك .

أصيب مدير البنك رلستون ، في نفسه ، وأصيب في أمله . ولكنه صمد صمود الرجال . فدفع هو وأصحابه كل ما دُفع لهم لاستغلال هذه الحقول الكاذبة . وبعد دفعها اعتزم أن يخلد إلى الراحة عند شاطئ البحر . ولكن بعد أيام رمى البحر بجثة على الشاطئ ، وفحصوها فإذا هي جثة رلستون . ولم يدْر أحد إلى الآن هل كان انتحر ، أم أن هذه لعبة أخرى من لُعبات القدر .

والمدانان أين ذهبا ؟

أحدهما لم يعثر له أحدٌ على أثر . ذاك الطويل المتصدّر دائما .

أما الآخر ، فقد عثروا عليه . ودفع بأنه لم يكن يدرى مما كان يجرى شيئا . وأنه مدخول عليه . وأنه غنى ثرىّ ليس بحاجة إلى الخداع في سبيل مال . وأطلعهم على رصيد بنك عظيم جاءه من التعدين . وثبت أنه جاءه من التعدين حقا ، ومع هذا فقد احتالوا عليه حتى دفع لهم مائة وخمسين ألف ريال ، ليخلص بشرفه وبجلده .

ولكن القدر لم يمهله طويلا . ففي ضحوة نهار خرج إلى السوق ، فلقى خصما ، فاشتجرا . وكان الخصم أسبق إلى مسدسه من صاحبه . وبطلقة واحدة ذهب ثالث الثلاثة ، في هذه القصة ، قتيلا .

ولم يصدق أحدٌ ، أن مثل رلستون ، ومثل أعوانه الناجحين ، يُخدعون ، على الخبرة الطويلة في الأموال والأعمال . ولكنه الطمع البالغ ، غطّى على الحنكة البالغة ، فوقع من حكم القدر ما كان .

أحمد زكى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة
AL-THAQAFA
الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩
العدد ٤٧٠ — الثلاثاء ١٧ من صفر سنة ١٣٦٧ — ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

خرافات جديدة تغزو العقول

هذا العصر الذي نعيش فيه يسمى عصر العلم والحقائق . ومؤدى هذا أن يكون التفكير فيه منطقيا مبنيا على الوقائع والشاهدات الحسية ، وأن تكون النتائج التي يصل إليها الباحث متسلسلة عن مقدمات سليمة تناولها الدرس والتمحيص ، فلا تؤخذ الأمور على ظواهرها ، ولا تنزل الخيالات والأوهام منزلة الحقائق .

ولكن العقول البشرية لها مسارب خفية تتسلل إليها تلك الأوهام في غفلة من الفكر الواعي ، وتمد سلطانها عليها ، وتوجهها من حيث لا يشعر اتجاها لا يتفق مع المنطق السليم . وفي كل عقل بشرى مهما ارتقت مداركه قابلية للاستهواء وميل كثير أو قليل للتصديق ، يمكن استغلاله للتأثير فيه إذا أحسن اختيار الوسيلة اللائقة وانتهز الظرف المناسب لهذا التأثير .

واستهواء الجماهير والطبقات غير المثقفة أيسر بكثير من استهواء غيرهم ، لأنهم بطبيعتهم بعيدون عن معرفة حقائق الأمور عاجزون عن تناول ما يقال لهم بالنقد والتمحيص ، سريعون إلى تصديق ما يلقى إليهم من أفواه من يرونه أعرف منهم وأبصر ، وخاصة متى كان الداعي يصطنع الغيرة على مصالحهم الخاصة أو العامة ، ويعدهم ويمنيهم خلابة ولو كانت غير معقولة .

أما استهواء المثقفين فأسلوبه أدق وأشد تعقيدا ، فهو يتوخى اختيار الشباب منهم لما يعلمه من شبوب العاطفة لديهم وميلهم في هذه المرحلة إلى المغامرة وارتياد كل الطرق التي يحسبونها محققة لخيالاتهم وأحلامهم ، حبا في الظهور والعظمة وغلبة النزعات المثالية البريئة التي تلقوها في دروسهم على مشاعرهم وتفكيرهم ، وحداثة عهدهم بالحياة العملية ونقص خبرتهم بمشاكلها ، فيتصل بهم من طريق الصور النظرية الحبيبة إليهم ثم يستدرجهم إلى غايته من حيث لا يشعرون .

وأفضل الظروف لعملية الاستهواء هي ظروف القلق والسخط والملل ، فتبدأ العملية بتجسيم هذه الظروف وتهويلها وإشاعتها بين من يحس بها ومن لا يحس بها ، ثم تتدرج إلى خلق عدو وهمي تركز حوله الهجمات ، ويلقى في روع الجميع أنه مصدر هذه المتاعب ، وقد يكون هذا العدو شخصا أو نظاما اجتماعيا أو سياسيا ، ثم تتحرك الفتن وتطل الدعوة المخبوءة برأسها ، على أنها الوسيلة المنقذة أو الجنة المفقودة ؛ فإذا مكن لها ظهرت حقيقتها تدريجيا ، وتبخر السحر الذي يحيط بها ، وأدرك المخدوعون بعد فوات الوقت أنهم كانوا يتعلقون بخرافة ويتحمسون لوهم ، وأن الأقوال تخدع والحقائق تفجع .

وقد كانت الخرافات فيما مضى شعوذة دينية يقوم بها

المخرفون أو ينشر وراءها الدعاة السياسيون . وهى فى هذا العصر شعوذة اجتماعية يختفى وراءها أصحاب المطامع والغايات من الساسة . وكما كان واجب قادة التفكير الدينى تنقية الدين من هذه الخرافات وحماية أصوله من الدجل والأباطيل ، فكذلك واجب المفكرين الاجتماعيين أن يطهروا التفكير الاجتماعى من زيف الدجل والأباطيل ، وأن يوضحوا النهج السليم لهذا التفكير ، وأن يبصروا الناس بالحقيقة والخرافة فى هذا التفكير ، ولا سيما أن الدعاية الآن أمهر وأوسع .

ولسنا بسبيل حصر مواضع الزيف فيما يغزو العقول من الدعوات الاجتماعية الخطرة ، ولا ندعى القدرة على احتمال هذا العبء وحدنا ، ولكنا نورد ملاحظات سريعة نرجو أن تشق بها الطريق لغيرنا ممن هم أقدر منا على متابعة هذا الجهاد .

العبرة فى المذاهب الاجتماعية بالتنفيذ لا بالأقوال

لسنا فى مقام المفاضلة بين مذهب اجتماعى وآخر ، فمجال مثل هذا البحث غير صفحات هذه المجلة ، وهو بحث نظرى لن يخرج منه الباحث برأى حاسم ، فلكل مذهب ما يقال تأييداً له واعتناقاً منه . ولكنا نكتفى بإشارة عامة هى أن العبرة فى هذه المذاهب كلها ليست عباداتها وأصولها ، وإنما هى بطريقة تنفيذها والصورة التى تكون عليها حين توضع موضع التنفيذ .

واعتقادنا الذى نطمئن إليه ، هو أن هذه المذاهب فى النظر شىء ، وهى فى العمل شىء آخر ، يختلف كثيراً أو قليلا عن صورته النظرية . فالصورة النظرية موضوعية لم تدخل فى حسابها كيف يؤولها القائمون على تنفيذها ، وكيف يتلقاها من يقع عليهم التنفيذ . والتنفيذ العملى أمر ذاتى يكيفه الأشخاص القائمون على إخراج الصورة إلى حيز العمل ، ويكيفه مدى استجابة الناس لوضعهم الجديد واستعدادهم لتقبله .

ومن هنا قد تنجح أنظمة لارتياح النفوس إلى أصولها النظرية ، وقد تفشل أنظمة لها صورة نظرية جذابة . وليس النجاح أو الفشل راجعا للمذاهب أو الأنظمة فى ذاتها ، وإنما يرجع ذلك للقائمين على التنفيذ ، والظروف والبيئة التى تم فيها .

فقد ينجح النظام الاستبدادى — على كرهنا جميعاً له ، وعلى اعتقادنا بأنه نجاح قصير موقوت — متى كان المستبد حكيما عادلا .

وقد يفشل النظام الديمقراطى — مع حبنا له وإيماننا به — إذا تفكك المجتمع وضعف التعاون بين عناصره ، وأسىء استخدام الحرية التى يتيحها هذا النظام لتعطيل الإنتاج والنشاط العام .

والثورة الفرنسية قامت تدعو للحرية والعدالة والمساواة ولكنها انتهت إلى الفوضى والاضطهاد والدماء ، ومهدت لامبراطورية استبدادية .

والنظام البرلمانى الديمقراطى فى انجلترا نظام قوى ناجح ، يعد من أكبر أسباب قوة انجلترا وعظمتها واستقرارها ، ولكنه فى بلاد أخرى لم يصب ما أصابه فى انجلترا من النجاح ، بل كان سببا من أسباب الاضطراب والانقسام .

والذى نستخلصه من هذا كله أن بريق المذاهب الخلاب لا يصح أن يفتننا عن الحقيقة الأبدية ، وهى أن العبرة فيها كلها بمن ينفذها وكيف ينفذها ، وأنها قد تفقد مفاتنها وتتحول إلى صورة خاطئة إذا تولاها أيد تسىء فهمها ، أو إذا أقحمت على أرض لا تصلح لها .

التطور أدوم ، والانقلاب أخطر وأسرع زوالا

الأمر الثانى الذى نرى إبرازه هو أن استقراء التاريخ يهدينا إلى أن ما ينمو بطيئا ينمو قويا متينا ، وأن لكل فكرة كالكل كائن حى دور حضانة ونمو ونضج ، وأن هذه

العملية تتم فى بطء وهدوء ، وأن كل خروج من هذه السنة ومحاولة فرض فكرة وتعجيل إخراجها للعمل بالقوة قبل أوانها أمر محقق الفشل ، وكل نجاح تصيبه هو نجاح ظاهرى لا يصمد لتقلبات الظروف . والفكرة الصالحة لا تحتاج إلى قوة لتغليبها ، وإنما تحتاج إلى الدعوة بالحكمة حتى تختمر وتنضج وتتهيأ الأذهان لقبولها . والقائلون بالطفرة يحسبون أن لهم فى عصر السرعة الذى نعيش فيه ما يؤيد نظرتهم ، ولكنهم واهمون . فعصر السرعة ليس معناه الشطط والخروج عن سنة الأمور ، ولكن معناه تعجيل التطور بالبحث المنظم ، وحشد الكفايات لتنظيم الإنتاج ، واستخدام الوسائل العلمية لمعاونة عملية التطور .

إننا نقرر فى صراحة أن الطفرة والعجلة الطائشة أشد تعطيلا للرقى من عملية التطور البطىء ، ولكننا فى الوقت ذاته نرى أن الجمود والتراخى وإهمال تنظيم العمل للمساعدة على التطور ، أمر لا يتفق مع روح العصر .

العنف والقهر نكسة رجعية تأباها الكرامة الإنسانية

ويسوقنا الحديث عن الطفرة والتطور إلى ما يصحب الطفرة عادة من الالتجاء إلى العنف والقسوة والقهر ، وهى وسائل يلجأ إليها أنصار الطفرة لفرض اتجاهاتهم الحديثة .

ومما لا شك فيه أن أثمن شىء ربحه الإنسان خلال الأجيال بعد تجارب طويلة قاستها الأفراد والشعوب من الرق والاستعباد وحكم الطغاة ، هو الحرية الفردية التى يستطيع معها كل إنسان أن يشعر بوجوده وذاتيته وكرامته الإنسانية ، تلك الحرية التى أصبح يشعر بأن الحياة لا معنى لها بدونها .

فإذا تعرضت هذه الحرية للأخطار فى سبيل فكرة اجتماعية مهما كان خطرها ، كان معنى ذلك عودة بالإنسان إلى طور اجتماعى قديم شب عنه وتحرر من أغلاله . وإذا كان

بكبره

واختياره ، وأن يجعله آلة صماء يحركها المهيمنون على نظام لا يقام له وزن فى تعديله وتبديله ، فقد ارتدت الإنسانية إلى الوراء ، وباءت فى هذا العصر بالخسران .

إذا كانت المسألة مسألة آراء ومذاهب فسبيلها الإقناع . أما إذا كانت مسألة فرض نظام معين على الناس فهى مسألة طغيان وقهر . والطغيان والقهر لا يصح أن يبقيا فى عصر العلم والنور .

وبعد ، فهذه ملاحظات دعانا إلى سوقها تبلبل الآراء وتخبط الأهواء ، واضطراب الأمور ، مما حفز دعاة الفتن أن يطلوا برءوسهم ، وينفثوا سمومهم . وأملنا أن يستيقظ الشعب العربى فى كل أقطاره ، ويتنبه إلى أن الظروف الشديدة التى يجتازها ، قد طوعت لهؤلاء أن ينتهزوا فرص المحن التى تمر به ، والخلافات القائمة بين أحزابه ، والمتاعب التى يواجهها بعض طوائفه وأفراده ، ليخذلوه عن غايته ، ويشغلوه بمسائل غير مسائله الكبرى ، ويصرفوا أبناءه وحكوماته إلى التقاتل والتنابز ليخلو لهم الجو أخيرا ويقضوا على الجميع . فافتحوا عيونكم أيها النائمون ، وتنبهوا أيها المخدوعون . (. . .)

أأنت التى ...؟!

أأنت التى كانت إذا ما رأيتها
تذوب حياء ثم تغضى وتطرق !؟
فما بالك استشرى جمالك وانتضى
لحاظاً أرى فيها شياطين تنطق ؟
أحين سلوت العشق تقوى وعفة
تعبثين ؟ هيهات هيهات أعشق !؟
فإن تظفرى منى بنظرة مشفق
ألا فاعلمى أنى بها أتصدق !!

أحمد أحمد العجمى

إلى من يلزمه فى مصر وانجلترة :

حكومة تفزع

من ذكر الحرية!

طلعت علينا الأخبار منذ حين بأن حكومة السودان قدمت للمحاكمة أستاذاً مصرياً فى تهمة عجيبة — تهمة أنه نطق فى حفل عام مشيداً بذكر الحرية ! ثم طلعت علينا الأخبار مرة أخرى بأن شهوداً أدلوا فى المحكمة بشهادتهم أن ذلك الأستاذ كان يخطب فى جمع من المثقفين لجهر باسم الحرية، وناشد الجمع أن يطلبوها وإن كلفهم طلبها أغلى الأثمان. ثم طلعت الأخبار مرة ثالثة فإذا الحكم يقضى بسجن الأستاذ ثلاثة أشهر على أن يعجل فى الحكم بالنفاذ. ولماذا ؟ لأن ذكر الحرية والحض على التعلق بها يعتبر فى قانون السودان تحريضاً على الثورة ! هذا هو والله ما كان، لا مبالغة فيه ولا تحوير، إلا أن أكون قد أجملت فى إيراد القصة واختصرت فى سرد حوادثها.

ثم طلعت علينا أخبار أخرى بأن حكومة السودان قد حاكمت الطلاب والصحفيين وبطشت بكل من ينطق بلفظ أو يكتب كلمة يشتم منها أنه من دعاة الحرية أو طلاب الاستقلال.

إذاً فهناك قانون فى القرن العشرين يعتبر ذكر الحرية تحريضاً على الثورة، وهناك حكومة تعيش فى القرن العشرين وهى فى خوف دائم من كل هاتف باسم الحرية، فهى تحتمى وراء قانون يعاقب كل من ينطق بذلك اللفظ الرهيب، ويهيب بالإنسان أن يلهج به ويقدسه.

هناك إذاً قانون فى بقعة من بقاع الأرض يجعل الجهر باسم الحرية ذنباً يستحق العقوبة، وهناك حكومة فى بلاد متمدينة تحكم قوماً من بنى الإنسان لهم كل حقوق الإنسانية، ولكنها تخشى من كل ناطق بذكر الحرية، يحض الناس على الحرص عليها والذود عنها والتمسك بها والتضحية فى سبيلها.

هناك إذاً حكومة يقوم عليها رجال ينتسبون إلى أمة بلغت من المدنية ذروتها، وتجرى فى عروقهم دماء أجيال جاهدت من أجل الحرية، وبذلت فى سبيلها دماء أبنائها وكانت ولا تزال تصيح بأعلى صوتها متغنية باسم الحرية، ولكنهم يخرجون على كل مقدسات أمتهم، ويجحدون من صنعها فى تمجيد الحرية ! فهم يفزعون أن يسمعوا صوتاً يعلو باسم الحرية فى ربوع السودان الذى يحكمونه. وهناك إذاً فى السودان حكومة قد رضى ضميرها بأن يستند حكمها على قانون مثل ذلك القانون الذى عاقب الأستاذ المصرى على تهمة النطق باسم الحرية ! وهذا كله فى القرن العشرين، الذى صارت فيه الحرية قدساً من الأقداس تقدم إليه القرابين فى كل أمة متمدينة، ويتخذ وسيلة للدعاية المريضة عند خوض ميادين القتال أو التماس الحجج فى الجدال.

لقد أثيرت الحرب الماضية على هتلر وأشياعه، وعلى موسولينى وأصحابه، وعلى أمة الميكادو المقدس، وكانت أقوى حجة فى تلك الحرب أنها جهاد فى سبيل الحرية تثيرها الأمم التى لا ترضى أن تعيش فى رهبة من الطغاة الذين ينشرون الذلة والعبودية ! ولا تزال دول الغرب كل يوم تدعو فى صحفها وأحاديث خطبائها أنها لا تقيم وزناً للحياة إذا هى خلت من تلك الحرية المقدسة، ولا تزال كل يوم يطلع علينا نبأ جديد عن حرص أمم العالم على الجهاد فى سبيل المحافظة على حريات البشر ! والدعامة الكبرى لكل هذه الدعاية هى حجة واحدة : هى أن الحياة لا تستحق أن يحياها الناس إذا هى خلت من الحرية.

فما بال أولى الأمر فى حكومة السودان يخشون رجلاً يقوم فى جمع مثقف ويذكر ذلك الاسم الرهيب الذى كان من قبل يفزع قياصرة روسيا وسلاطين تركيا ؟ ما بال حكومة السودان تستتر بمثل ذلك القانون الذى ينم عن نظام يرتجف ويتزلزل من ذلك الاسم كما كانت نظم الحكومات المستبدة من قبل ترتجف من ذكره ؟

على أن الأمر يزيد فى نظرنا ونظر المنصفين عجباً إذا نحن تحدثنا عن المناسبة التى قيلت فيها تلك الكلمة الرهيبة ، تلك الكلمة التى كان ذكرها كافياً لأن يبعث أستاذاً مصرياً إلى ظلمات السجن فى غير هوادة ولا إبطاء ولا تأجيل فى النفاذ . فإن الأستاذ لم يقم فى الطريق ليحرض الناس على أن يحملوا السلاح وينهضوا لإسقاط الحكومة الزعجة المتوجسة ، ولم يجتمع مع طائفة من المتآمرين لكى يقلبوا نظام الحكم الجامد المتوثب المدافع من جموده . ولم يأت بطائفة من بدو العرب يوزع عليهم السلاح ويملأ قلوبهم الساذجة بدعاية خبيثة ليثير فى قلوبهم نوازع الكراهية والاضطراب والفوضى لم يفعل الأستاذ المصرى شيئاً من ذلك ، بل قام فى ناد يجمع صفوة المثقفين من مصريين وسودانيين فى يوم الهجرة النبوية ليتحدث إليهم عن رسول الله محمد بن عبد الله إذ هاجر من مكة هارباً بكرامته الإنسانية معرضاً نفسه لأجل الأخطار فى سبيل المحافظة على حريته وعقيدته .

هذه هى المناسبة التى قام فيها الأستاذ المصرى متحدثاً عن الحرية يذكر المسلمين فى هذه العصور بأكرم تراث خلفته لهم الأجيال المتعاقبة . لقد كانت ذكرى الهجرة النبوية للمسلمين على مرور العصور علماً من أسمى الأعلام يحلقون به أنظارهم وقلوبهم ويعتصمون به كلما اشتدت حولهم الكروب . ولن تزال ذكرى الهجرة النبوية لهم علماً من أسمى الأعلام ، يعينهم على مقاومة العبودية والذل ، ويضىء أمامهم السبيل إذا أظلمت حولهم الآفاق . وما كان الأستاذ المصرى وهو ينطق بكلامه إلا أحد المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، إذ يستعيدون ذكرى ذلك اليوم المجيد وما كان فيه من إقدام وتضحية فى سبيل الحرية البشرية . فما الذى أغضب حكومة السودان من قوله حتى قدمته للمحاكمة ؟ وأى قانون هذا الذى يعاقب على التحدث فى مثل تلك الذكرى الكريمة ؟ ألم تفطن حكومة السودان إلى أنها قد اتهمت نفسها بغير أن تحس أنها تتهم نفسها ؟ إن الحكومة التى تفزع من ذكر الحرية لهى حكومة قائمة على جرف هار تحس فيه بحرج موقفها . وإن الحكومة التى تخشى لفظاً من الألفاظ لجديرة بأن يزلزلها ذلك اللفظ ويدك قواعدها . وإن القانون الذى يخدم مثل تلك الحكومة ويعينها على أن تبقى فى القرن العشرين لهو قانون رجعى لا ينبغى له أن يوجد فى العصر الذى ثارت فيه الحروب الدموية الهائلة فى سبيل قصد واحد وهو حماية الحرية .

إننا لم نغضب لسجن الأستاذ المصرى ، بل لعلنا نجد فيه عزاء وفخراً ؛ فإنه مما يشرف مصر أن يؤذى أحد أبنائها فى سبيل تقديس ذكرى الحرية فى مثل ذلك اليوم الذى تحدث فيه المسلمون عنها فى المشارق والمغارب ؛ ولكننا أسفنا وامتلأ قلبنا من ذلك الحكم حنقاً وإنكاراً ، بل إننا قد شعرنا بأن هؤلاء الحكام الذين قدموا الأستاذ للمحاكمة قد خرجوا عن حدود هذا العالم الحديث الذى نعيش فيه ، وخانوا مدنية الأمم المتمدنة التى ينتمون إليها . وشعرنا كذلك بأن هذا القانون الذى قضى بعقوبة الأستاذ المصرى إنما هو بقية من بقايا الطغيان الذى ما كان ينبغى له أن يعيش فى عصر يقدس الحرية .

إنه لمن العار على مصر وعلى انجلترة معاً وهما شريكتان فى حكم السودان أن تكون الحكومة التى تمثلهما قائمة على مثل ذلك القانون الرجعى ، محتمية وراء نصوصه البالية ؛ وإذا كنا نلوم الحاكم على حماية الطغيان بذلك القانون فإنا نعتب على الحكومة المصرية لأنها شريكة فى إقامة نظام كذلك النظام الذى يقوم على مثل ذلك القانون . وأملنا عظيم فى أن تفطن مصر وتفطن بريطانيا إلى أن الواجب عليهما إعادة النظر فوراً فى ذلك التشريع الرجعى بقطع النظر عن موقف النزاع الحالى بينهما فيما يتعلق بمصير الحكم فى السودان .

محمد فريد أبو حديد

قصة صديق

إلى روح أخي وصديق المرحوم حسين
محمد سعيد بك وزير مصر بسفارة لندن .

كنا ما نزال في دور الصبا حين التقينا . ولكني ما كدت أتصل به ، وتلمس نفسي نفسه ، حتى وجدت فيه الأخ الذي لم تلده أمي .

وكنا قد فرغنا من إتمام دراستنا الثانوية ، وزينت لنا نفوسنا أن ندخل مدرسة المعلمين العليا — فلم تكن في ذلك العصر معاهد تربية ، ولا كليات ، ولا جامعات . ومنذ دخلنا تلك المدرسة ، ووضعنا أقدامنا معاً على الدرجة الأولى من سلمها إلى حين تخرجنا منها ، ونحن لا نكاد نفترق في اليوم الواحد إلا ريثما يقضى كل واحد منا ساعات نومه في فراشه . ففي المكتب نحن متجاوران ، وفي قاعة الطعام نحن متواجهان ، وفي ساعات الرياضة واستذكار الدروس نحن متلازمان .

وكنا نطمع إذا نحن انتهينا من مدرستنا وحصلنا على إجازتها ، أن تبعث بنا الحكومة إلى جامعات أوربا مع من تبعث في كل عام من طلبتها المتفوقين ؛ ولم يكن التفوق شرطاً من الشروط التي كنا نحسب لها حساباً . فقد كان صديق دائماً في الطليعة ، وكنت دائماً إلى جانبه . ولكن مشكلتنا جاءت عن طريق اعتبارات عائلية ، أقعدتني عن السفر . فتخلفنا وسافر غيرنا .

واشتغلنا بالتعليم في بعض مدارس القاهرة . وانقضت سنة فسنة . وأوشك زملاؤنا الذين في الخارج أن يعودوا ، وعز على نفوسنا أن نقضي العمر في عمل لا يحتل مكان الصدارة فيه إلا « رجال البعثات » . فهمس صديق يوماً إلى قائلا :

— ما رأيك ؟

قلت : فيم ؟

قال : ندرس القانون . ونتخرج في مدرسة الحقوق ونغير مجرى حياتنا !

قلت : هذا ما كانت تحدثني به نفسي . ولقد سبقنا في هذا المضمار فلان وفلان

فإذا كانا قد أفلحا فنحن بحمد الله أطول منهما نفساً ، وأكثر جلداً . فلنتوكل على الله .

وجعلنا نقضى النهار في مدارسنا بين تلاميذنا ، حتى إذا أمسينا قسمنا ليلنا بين دراسة القانون وبين النوم .

وانتهت الأعوام الأربعة ، فإذا نحن نحمل في أيدينا أيضاً إجازة الحقوق .

وجلسنا نفكر .

قلت : ما أجمل أن ننتفع الآن بإجازتينا فنكون مدرسين في مدرسة الحقوق نفسها !

قال صاحبي : إن هذا يتطلب أولا أن نحصل من أوربا على شهادة (الدكتوراه) في أي فرع من فروع القانون .

فأجبته في سذاجة : الأمر إذاً هين ! نقصد غداً إلى وزارة « الحقانية » فنعرض أنفسنا على وكيلها ، ونفهمه أننا كنا من رجال بعثة وزارة المعارف ، فتخلفنا لأسباب خاصة . والآن نطالب بحقوقنا في السفر عن طريق وزارة الحقانية ، سيما وأن مدرسة الحقوق ليس فيها مدرس واحد ممن درس التربية وأصول التعليم ، فوجودنا في هيأتها سيكون كسباً محققاً لها .

وكان في صديق حياء شديد ، فاستحيى أن يذهب ليعرض نفسه على من لا يعرفه ، ولكنه استحيى مني أيضاً ، فلم يشأ أن يرفض اقتراحي ، فترك لي عبء التصدى لتنفيذه ، ومواجهة الناس بالكلام ، فقبلت .

وفي اليوم التالي كنا في وزارة الحقانية نطلب مقابلة وكيلها .

فتعرض لنا سكرتيره الخاص ، ومنعنا من الدخول إليه إلا بعد أن نفصح عن سبب زيارتنا ، وبعد أن يعرض أمرنا

عليه ، ويحصل منه على الإذن لنا بالمثول بين يديه ! وخيل إلى أن هذه الإجراءات « الشكلية » قد تكون ضرورة نظامية عندهم ، فلم أر بأساً من أن أكتب فى مذكرة صغيرة سبب الزيارة ، ودخل السكرتير . وتهيأنا للدخول فى أعقابه ، ولكنه ما لبث أن ارتد إلينا يقول : « خلاص ! » .

فسألته : ألسنا سنقابل الوكيل ؟

قال : كلا ! إنه سيحيل المذكرة على إدارة المستخدمين ، وإدارة المستخدمين تحيلها على لجنة البعثات . وعندما تنعقد اللجنة يدرج سكرتيرها طلبكما فى « جدول أعمالها » فتنظر فيه عند ما يحل دوره وسط مئات الطلبات الأخرى !

فنظرت مشدوهاً إلى صديقى وهو يتقدم فى مكانه . فأدركت ما يجول بخاطره . وعرفت أنى كنت متفائلاً أكثر مما يجب حين اقترحت أمر هذه الزيارة . فوضعت يدى فى يده وخرجنا من الوزارة ولم نعقب .

وعاد إلى صاحبى يقول : وما العمل إذاً ؟

قلت : نحن لا نستطيع الآن أن نسافر على نفقتنا الخاصة . وهبنا فعلنا فقد نعود فلا يقبلوننا فى هيأة تدريسهم ما داموا يتولون بأنفسهم إيفاد البعوث طبقاً لاحتياجاتهم .

قال : فماذا ترى ؟

قلت : إن لى صلة بمحام نابغ من أبرز رجال مهنته ، فما رأيك فى أن نلقاه لنعرض عليه أن نعمل فى مكتبه كمحامين ! إنه سيطير فرحاً ولا شك حين يعلم بأمر هذا الاقتراح .

قال صديقى بهدوئه المعتاد : عليك أن تدبر أمر لقائنا معه . وهنا أنا دائماً إلى جوارك .

ولم أضيع وقتى سدى . ففى مساء اليوم التالى كانت تجمعنا مائدة واحدة فى محل « سولت » الشهير فى ذلك العصر الغابر . وقدمت صديقى لذلك المحامى الكبير . ثم عرضت عليه ما نحن بصدده من الأمر . وتهيأت لتلقى تهانيه على هذه الخاطرة السماوية التى أشرقت فى رأسى . فإذا هو يشيح بوجهه من هذا الاقتراح ، ويأبى أن يمسه من قريب أو من بعيد . ثم يحول حديثه فى الفترة القصيرة التى قضاها معنا بعد ذلك فى أمور عامة لا تهمنا . وأغلب ظنى أنها لا تهمه أيضاً . ولكنه مهد بها للتخلص منا والانصراف عنا معتذراً بأنه على موعد آخر لا يمكنه من الاستمتاع بمجلسنا أكثر من ذلك ! ...

* * *

وبدأنا نتلقى على يد الحياة العملية أول دروسها . فعرفنا أن ما كانت تتطلبه منا الحياة الدرسية من حفظ الدروس وإجادة تسميعها لم يعد له قيمة فى « معركة الحياة » التى بدأنا نخوضها . فأعدنا النظر فى أمر آمالنا وأحلامنا . وبدأنا من جديد .

التحق صاحبى بالنيابة العامة . وآثرت أنا البقاء فى الميدان الحر إلى حين . ولكنه لم يلبث كالمعتاد أن جذبنى إلى حيث هو . غير أنى ما كدت أنخرط فى السلك القضائى حتى كان هو قد ضاق بعمله فى النيابة . وعاودته فكرة الهجرة إلى أوربا للاستزادة من الدرس والتحصيل . وكانت وسيلته إلى ذلك وهذه المرة أن ينتقل إلى السلك السياسى ليدرس ما يشاء وهو فى عمله كما درس القانون وهو يشتغل بالتعليم .

وسافر إلى لندن ليكون « قنصلا » لمصر فيها ، وشغلته أعماله الكبيرة عن أن يفكر فى نفسه ، فبقى أعزب لم يتزوج . وعاش حياته بعد ذلك لا يفكر فى الزواج ، حتى أصبح وزير مصر المفوض فى سفارة لندن ، وبقيت أنا فى مصر . وتزوجت كما قد يتزوج الناس ، وأنجبت كما ينجبون . وأصبح عندى طفلان جميلان . وانتهزت فرصة ظهورهما على ذراعى فى صورة أخذناها على شاطئ البحر ، فأرسلت نسخة منها إلى صديقى فى لندن ، ولبثت زماناً أرقب رده ولكنه أبطأ على . وأخيراً وردت لى منه هذه الرسالة :

إذا سابقنا الصوت ... وسبقناه

تبلغ سرعة الصوت في الهواء ٧٦١ ميلا في الساعة . وهذه هي السرعة التي ينتقل بها صوت طلقة مدفع الإفطار إلى أذنيك في غروب كل يوم من أيام رمضان . وهي سرعة بطيئة جداً إذا قورنت بسرعة الضوء والكهرباء ؛ ولذلك كثيرا ما نسمع صوت المدفع في الراديو قبل أن نسمعه مباشرة في الهواء . والصوت موجة تنتقل في الهواء بالسرعة المحدودة المذكورة ، فإذا أمكنك أن تركب طائرة تطير بسرعة الصوت فماذا يحدث لك ؟ يحدث أن لا تسمع شيئاً مما يحدث خلفك ، لأن صوت ما يحدث خلفك لا يلحقك ، ويمكنك فقط أن تسمع الأصوات التي تواجهك ، وبذلك تستريح من نصف اللغو (أو الحكمة) التي تصب في أذنيك في كل لحظة .

وليس سباق الصوت أمراً مرغوبا في ذاته ، إذ ليس بيننا وبينه منافسة ، ولكن السباق الحقيقي هو في زيادة سرعة الطائرات ، حتى يمكنها قطع أطول المسافات حاملة الركاب والبضائع النفيسة من قنابل ذرية وغيرها في أقصر الأوقات . وأسرع طائرة عرفت حتى اليوم ، واحدة من طراز دوجلاس سكايستريك ركبها الماجور ماريان كارل الأمريكي فوق سهول كاليفورنيا في شهر أغسطس الماضي ، وبلغت سرعتها المسجلة ٦,٦٥٠ ميلا في الساعة ، فأمامنا مائة ميل أخرى حتى نبلغ سرعة الصوت ونبزه في الحركة . وتصنع شركة (بل) طائرة جديدة لضرب الرقم القياسي نرمز لها بالرمز (XS—1) .

ولعلك تتساءل عما يمنعنا من وضع آلات قوية في طائرات صغيرة ، حتى يمكنها بلوغ سرعة ألف ميل أو أكثر . وجواب ذلك أن الصعوبة الحقيقية هي في مقاومة الهواء للطائرات السريعة ، لأن جزيئات الهواء لا يمكنها أن تسرع فتتنحى من طريق الطائرة التي تمرق كالسهم فيه . وبذلك تتراكم جزيئات كثيرة من الهواء أمام الطائرة ، فيزداد تضاغطها فتعوق الحركة . وشبيه بذلك ما يحدث إذا أسرع شخص مهرولا وسط جمع غفير ، إنه يصطدم بهذا وذاك ، ويلزم له أن يكون عريض المنكبين ، متين البناء ، حتى يتحمل تلك الصدمات المتتالية ، ويحتفظ

« كان على أن أكتب إليك قبل الآن . وقد كان لى حافز على الكتابة لا أدرى كيف قعدت معه وقت أن طالعتنى بصورتك مع طفليك . لقد وجدت نفسى على غرة أمام « نسختين » مصغرتين منك ، وقد وزعت فى الصورة بينهما نظراتك وابتساماتك . ولا أحسب قلبى خفق يوما بمثل ما خفق فى تلك اللحظة ، فأنى أعلم أنك تزوجت ، وسمعت منك حديث الزواج وأخبرتنى أن لك أولادا ، ولكن كل هذا ما كان ليجعلنى ألمس حقيقة ما أحدثت فى حياتك من تغيير حتى رأيت هذه الصورة ! .

« لقد أصبحت بعد رؤيتها أكثر إيمانا بعقيدتى الأولى : إما زواج مبكر وإما (لا) قاطعة مانعة ! بالله قبلهما لى فقد قبلت الصورة مرارا . إن من أجل مثلهما تهون كل تضحية ويحلو كل عذاب » .

* * *

لك الله يا صديقى ! لقد فرحت لطفل على البعد وهما بعد طفلان . فلما كبرا وأصبح أحدهما رجلا ملء العين اختاره الله إلى جواره . فسكتُّ أنا لا أجرؤ على نعيه إليك وسكتَّ أنت لا تجرؤ على عزائى فيه . وكان هذا آخر ما بيننا من كلام . وأول ما بيننا من سكوت . فلقد فوجئنا بنعيك أنت فى صحف هذا الأسبوع ؛ وهكذا انقلب بيننا الوضع وانعكست الرغبات ؛ فبالله قبله لى أنت هذه المرة . فما أشد شوقى إليه . . وإليك .

حسن محمود

بعض قوة لمواصلة السير وسط الجموع الحاشدة . وكذلك الأمر فى الطائرة المسرعة وسط الهواء ، إذ يتعين بناؤها بإحكام وتقوية أجزائها بحيث تتحمل الضغط الشديد .

وصعوبة أخرى ، ما يخشاه رجال الطيران على أنفسهم إذا طاروا بسرعة الصوت ، إذ قد يؤثر ذلك تأثيرا ضاراً يمنع الجسم من تأدية بعض وظائفه مثل التنفس أو الحركة بسهولة . ولذلك يفضلون فى بادىء الأمر أن تجرى التجارب على طائرات أوتوماتيكية بدون قائد ، حتى إذا استيقنوا من سلامتها وصلاحيتها أمنوا على من فيها من الراكبين .

وقد صنع البريطانيون نموذجاً مصغراً لطائرة صاروخية وزنها ٩٠٠ رطل وامتداد جناحيها ثمانى أقدام ، وربطوها إلى طائرة عادية حملتها معها إلى ارتفاع سبعة أميال فوق سطح البحر ، حتى بلغت سرعتها ٤٠٠ ميل فى الساعة ، ثم فصلت الطائرة الصاروخية ، وأديرت فيها المحركات التى بداخلها بطريقة أوتوماتيكية فابتدأت تكتسب سرعة بعد ١٥ ثانية ، واستمرت فى الطيران لمدة دقيقتين ثم وقعت فى البحر ، كما كان مقدراً لها ، وفى خلال هاتين الدقيقتين ، كانت الآلات العلمية والمناظير الحاسبة ترقب حركة الطائرة ، وتسجل ما يحدث لها وللهواء الذى حولها ، وقيل إن سرعتها قد زادت من الألف ميل بكثير . وأعلن البريطانيون هذا النبأ فى الشهر الماضى بزهو وافتخار .

وقالوا إن تكاليف الطائرة الصاروخية الواحدة تبلغ حوالى عشرين ألف جنيه ، وإن لديهم ٧٤ طائرة أخرى لاستمرار التجارب . وسرعان ما سخر الأمريكيون من هذا القول ، وأعلنوا أنهم قد أجروا تجارب مماثلة منذ سنتين ، وكانوا يطلقون الطائرات الصاروخية من سطح الأرض مباشرة بالقرب من شواطىء ولاية فرجينيا ، وإن السرعة وصلت فى هذه التجارب إلى أكثر من ١٥٠٠ ميل فى الساعة .

ومن المعلوم أن القذائف العادية كثيرا ما تنطلق من البنادق والمدافع بسرعة تفوق سرعة الصوت ، وقد أجريت تجارب كثيرة على القذائف الصاروخية التى استعملها الألمان فى الحرب الأخيرة وهى المعروفة باسم (V2) ، وتبين أن سرعتها تصل إلى ٣٦٠٠ ميل فى الساعة ، وكانت هذه القذائف وأمثالها تسقط على المدن الإنجليزية بعد أن تطلق من الشواطىء الألمانية ، دون أن يسمع لها صفير ، ينذر باقترابها ، لأنها كانت تسبق كل صوت ينم عنها ، فتهبط بغتة كالصاعقة . وكان لهذا أكبر الأثر فى إضعاف حالة السكان المعنوية .

وقد عرض فى بعض دور السينما المحلية شريط يمثل منظر إطلاق بعض هذه القذائف من فوق سطح حاملة الطائرات الأمريكية ميدواى التى تبلغ حمولتها ٤٥ ألف طن . وقد أجرت البحرية الأمريكية هذه التجارب يوم ٦ سبتمبر الماضى لمعرفة صلاحية حاملات الطائرات لإطلاق مثل هذه القذائف .

وأغلب الظن أن الطائرات التى ستسبق الصوت لابد وأن تكون أقل اعتماداً على الهواء العادى من الطائرات العادية ، إذ أنها ستطير على ارتفاعات عالية حيث يقل الأكسجين فى الهواء لقلة كثافته ، ولذلك ينتظر أن تكون تلك الطائرة نفاثة ، وإذا أديرت بمحرك يكون من نوع التربينات الغازية ، وقد أدخل النوعان معاً فى طائرة مقاتلة حديثة صنعت للأسطول الأمريكى وركب فيها تربين غازى فى المقدمة ونفاثة فى الخلف ، وتبلغ سرعة هذه الطائرة ٥٠٠ ميل فى الساعة .

فالطائرات الحديثة تسابق الصوت وستسبقه بعد سنوات قليلة على الأكثر ، وعندئذ يبدأ سباق آخر للخروج من ربقة الجاذبية الأرضية إلى الفضاء الواسع ، وإذا حاول الإنسان يوماً أن يسابق الضوء فسيكون فيه له الفناء أو الفشل ، إذ ليس ثمة سرعة أكبر من سرعة الضوء ، وليس ثمة جسم مادى يمكنه أن يقترب كثيرا من هذه السرعة المطلقة .

ابراهيم حلمى عبد الرحمن

الخواطـــــر

يا وابور قولي :

كان المرحوم حسنين بك رأفت ناظر مدرسة حلوان الثانوية يقطن في أخريات أيامه في الشقة المجاورة لي بحي قصر الدوبارة . فكان عليه أن يأخذ كل صباح قطار الساعة السادسة والنصف لينقله إلى مقر عمله بحلوان . وكنت كلما سمعت صفارة هذا القطار وهي تؤذن ببدء سيره من محطة السيدة زينب رثيت لجاري العزيز الذي يضطر لترك الفراش الدافئ في تلك الساعة المبكرة . وذات يوم عدت إلى منزلي ففاجأني بواب العمارة بخبر محزن وهو وفاة جاري فجأة وهو يزاول عمله بالمدرسة . وملأ الأسى نفسي بقية النهار ، ومضى الليل وأنا أنتظر بروح فلسفية عميقة صفير قطار الصباح المبكر ، وكان في تلك المرة طويلا ومتواصلا ، فخيل إليّ أنه يتعجل عزيزاً لم يعتد منه قبل ذلك إلا المواظبة والدقة في حضوره وانصرافه ، ولما يئس القطار من مقدمه بدأ سيره في هوادة وبطء وكأنه يود أن يعطيه فرصة أخيرة . وبينما أنا أتخيل المسجى على فراشه ، بين أرملة تدمع ، ويتيمة تولول ، وقطار يستحث ويتعجل ، تمتمت لنفسي قائلا :

يا وابور قولي رايح على فين

يا وابور قولي وسافرت منين

دي الأرض بساط وانت بتطويه

ما تقول يا وابور رايح على فين

أينا يموت أولا :

حدثني صديق قال :

عند ما طلب مني هذا الصباح أن أمضي شهادة الوفاة لفقيد الطب سالم هنداوي باشا ، ارتجفت مني اليدان ، لأن الذكريات طافت بي إلى عام ١٩١٣ .

وكنت إذ ذاك طفلا صغيرا يلعب أمام منزله بحي محرم بك بالاسكندرية ، وإذا بي أفاجأ برجل يلبس قبعة فاقعة يحملني بين ذراعيه ويقبلني من جبيني . وأرعبتني المفاجأة ، لأني ظننته أجنبيا (خواجة) يريد اختطافي أو إلحاق أي أذى بي ، ولكنه لما بدأ يتكلم بالعربية دخلني الاطمئنان . سألني عن والدي ، فمسحت دموع الخوف ، وأجبته أنه بداخل المنزل ، فدخلنا معاً ، وكانت مقابلة الأحباء بعد طول الغياب . لقد كان بطل الحادث الدكتور سالم هنداوي ، وكان قد وصل في تلك الساعة من بعثة بالخارج وعاد إخصائيا ومديا ، وكان أول ما فعله أن زار والدي الذي كان منه بمثابة الأخ الكبير المرشد .

ترى هل كان يتصور الدكتور هنداوي أن هذا الطفل الذي بكى وهو يحمله بين ذراعيه ، يصبح هو الآخر طبيبا يشار إليه بالبنان ، ويعالجه في مرضه الأخير ، ويختم سجل الحياة بإمضاء شهادة الوفاة المحتومة ؟

أنصت إلى صديقي وهو يسرد ذكرياته ، ولما انتهى من حديثه تأملت مليّاً فيما خطر بذهنه ، وترددت قليلا قبل أن أطلق لنفسي العنان ؛ وأخيراً قلت له : « إن عجلة الزمان لا يقف سيرها ، وهي تطوي في دورتها الساعة جيلا عقب جيل ، وسيان عندها الملوك والصعاليك ، فهي جماد لا يحس ولا يميز بين مدقع أو ذي جاه ومال . وهي تجندل ضحاياها على دفعات ، إذ أن لها القدرة على صرعهم دفعة واحدة ، ولا بد أن يأتي دوري ودورك في ذات يوم جميل أشرقت شمسه وازدهرت ؛ فلا تفتقدك الشمس ولا القمر ، ولكن قد تزهو الأرض برفاتك ، وتتراقص ذراتها حول ما تبقى منك ، فقد عدت إليها بعد طول الانتظار ، لأنك منها وداعاً منها ، مهما ارتفعت هامتك إلى السماء . والغريب في ابن آدم أنه يعتقد عن خطأ أنه الخالد الأول ، وأنه سيرث الأرض ذات يوم مع خالقها ، فكلما شيّع عزيزاً إلى مقره الأخير بدا — رغم حزنه — ولو في مرآة نفسه فقط ، عقلا

ضخماً عريض القفا والمنكبين ، ويوازن في غرور جبروته المدفقة بالجسد المساوى المحمول على أكتاف أربع ، ثم يتأبط أقرب ذراع — دون أن يحمد الله على السلامة — ويتحدث مع صاحبه في دعوات زائلة ، حتى تصل الرفات إلى مقرها الأخير ، فإذا عاد إلى المدينة ورأى أنوارها التي لا تفتقد أحداً حتى الملوك والسلاطين ، تمتم لنفسه قائلا : يا إلهي ! ما هذه الأتربة والحجارة التي نعثر فيها منذ قليل ! هذه دنيا عظيمة تستحق العيش فيها ! رحم الله صديق . لقد شيعناه إلى مقره منذ ساعات ، ولكنه أصبح وكأن قد مر على موته خمسون عاما . . .

ولولا هذا الشعور بالخلود بالصديق لتكاسل الناس ونامت الدنيا على أذنيها . وحكمة الخالق سبحانه وتعالى أنه تركنا في ضباب من الشك ، لا ندرى من بعض أمورنا شيئاً . إنك لا تدرى مثلا من يموت أولاً . لقد قص على أحد الضباط الإنجليز الذين خاضوا معارك الحرب الأخيرة بعض خواطر طريفة كانت تطرأ على فكره وكان يسمعها من الجنود وزملائه الضباط على السواء . كانت إذا تقدمت شرذمة منهم نحو صفوف العدو بين قصف المدافع ودويها انتاب كلا منهم شعور بالشفقة نحو جاره الذى لابد أن يصرعه الرصاص عما قريب ، ولولا شعور الجندى بأنه هو وحده الباقي وزملاؤه هم الفانون بإذن الله لما نشبت معركة ولما تطوع جندى لخوض غمارها .

وهناك من يفزع لقاء الموت فيبدو على سحنته الجزع حتى بعد موته . وهناك من يلقى ربه هادئاً مطمئناً . أنت تعلم كيف كان فقيدنا الدكتور على باشا إبراهيم قويا كالصلب إبان حياته . كنت عندما أراه يسير في طرقات المستشفى أدهش كيف يخطر ببال أحد أن هذا الصباح المنير قد ينطفئ عندما يحين الأوان . ولا عجب فقد كان جزءاً متمماً للحياة الطبية اليومية ، وكان ساقولة لا غنى عنها لدولاب الطب الفني . وكان يتمنى أن يموت في الميدان كالبطل في أقصر وقت ، ودون أن يرهقه المرض الطويل ، ولكن مرضه الأخير طال قليلا ، فأخذ ينتظر نهايته في صبر وشجاعة . وكان يسلى نفسه بالعكوف على مجموعاته الأثرية يدقق النظر فيها ويدرسها في شغف وحنان ، حتى جاءت الساعة المحتومة ، فبعد أن تناول وجبة الغداء دخل غرفة نومه واستلقى على فراشه الحبيب الذى آواه بعد تعب النهار خلال تلك السنين الطوال . ثم نام على جنبه الأيمن ووضع ذراعه اليمنى تحت رأسه ومضى في نومة هادئة لم يصح منها أبداً ! فقد انتابته الأزمة القلبية وهو نائم في هذا الوضع فلم يشعر بأى ألم ، لأن هدوء سحنته وتقاطيع وجهه دل على أن الله أكرمه حتى في نهايته .

ووقفت في ميدان الإسماعيلية في اليوم التالى أنتظر وصول الجثمان لتشييعه إلى المقر الأخير . وخطر لى أن أدقق النظر في المشيعين الخالدين ! وكان أول ما هز عليا عقب وصول رجل ذو مقام كبير في سيارته الضخمة الأنيقة ، وكان ممسكا في إحدى يديه بسيجار ضخم فخم ، وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة كادت تصل أذنيه بعضهما وكأنه مقدم على حفلة عرس ، ولما فوجئ بمواجهة نعش الفقيد انقلبت البسمة العريضة عبسة متكلفة وتمتمات آلية تقال في مثل هذا المقام . وشاءت سخرية القدر بالصديق أن يشيع هذا الغرور الآدمى المجسم من نفس المكان بعد أسبوعين بالتمام . وأقبل بعده الرجل الوديع المرحوم إسماعيل باشا تيمور . كنت ترى الأسى الخالص مرتسما على تقاسيم وجهه ، ولكن شاء القدر القاسى أن يشيع من نفس المكان بعد شهر من الزمان . وهكذا ذابت في التراب تلك المتفاعلات المختلفة ، كما ذابت مثيلاتها منذ بدء الزمان ، فكم من لاحق يبكى سابقا إلى المصير ، ثم إذا باللاحق يصبح سابقا بدوره ! وقد في حلقه دفون .

لقد امتد بك حبل العمر حتى صرت (المستقبل) لن فاتك سناً ؛ ولكن ألا يحدث مثلا أن ترى طفلا باسماً

فغدا بعضا فتحسده على أن أمامه من العمر الطويل ما يحمله على المستقبل المزدهر بالنسبة لك يا من تزحف بسرعة نحو خريف العمر ، ثم لا يلبث أن يدهمه مرض من أمراض الطفولة ، فيقضى فى أيام أو أسابيع ، فتجد نفسك وقد أصبحت (المستقبل) بالنسبة لمن كنت منذ أيام أو أسابيع تحسده على نضارته والعمر الطويل الذى ينتظره .

إنك لا تدرى من يموت أولا !! .

دكتور مصطفى الديواني

«شاعرة ملهمة»

السماء عبوس فى شهر نوفمبر التجهم ، والزمهرير يكشر من نابه ، ويؤلب على تلك السماء أشتات الغيوم ، ولكن الشمس الآفلة كانت تستبطئ فى جنوحها للمغيب ، وتتراخى فى سيرها ، لا تريد من صفحة السماء ذهابا ، وكان لهذا المنظر الذى تجاوبت مظاهره متباينة أثر بالغ فى نفس صبية حساسة لم تتجاوز الثامنة من سنى حياتها ، إذ وقفت وراء زجاج النافذة وراحت ترقب من أمره ما ظهر ، وتتابع منه ما خفى ، ثم حاولت أن تسجل له على الورق وقتئذ صورة كلامية فى قصيدة لم يبق منها فى ذاكرتها غير بيتين تستطيع أن تبتسم لها وهى تستحضر لنفسها ذكرى ذلك اللألاء المتخافت الأبيق ، الذى غادرته الشمس الغاربة يومئذ ، فوصفته فى ذينك البيتين بقولها :

« كأن الظلام ينبسط ويجثم فى مشية حالكة ، كأنها ارتدت لباس الثكالى ، والكون ساكن مسجور ، ونسمات الأصيل منعشة محببة ، والشمس المتكئة على أريكة الأفق الغاربة ، ترسل أشعتها المتألقة تارة وشى ، وهى تنحدر رويداً رويداً ، كأنها الإبريز المسجور ، متسربة بأقدام لاهية نحو التراب ، وتجرى ظلالها بلألائها المترقرق ، فتسطع عليه تارة ، وتخبو طوراً ، ثم تغرق ظلاله فى بحر من أضوائها » .

وقد استخفها اعتزازها بباكورة مجهودها الأدبى فاستعرضته أمام ذويها ، رجاء أن يجعلوه من مفاخرها المأثورة ، إلا أنهم وجدوه ثقيلا على أذواقهم ولم يستسيغوا مبناه ، وأعرضوا عن استجلاء دلالته ومعناه . فلم تنظم من ذلك اليوم بيتا واحداً من الشعر إلا بعد أن تم زواجها بحين . ويشرق جبينها حين تعترف بأن زوجها « نورمان كرو ول » لم يتصل بحياتها إلا لأن اشتغاله بالتأليف قد أحاطه بهالة جذبتها إليه . وتقول : « بل إن ورق الكتابة كان له فى نفسى على الدوام فعل السحر ، وإنى كنت فى حداثتى ألعب به كما يلعب غيرى من ترب بالدمى ، وكنت أجد فى ذلك من الإلهام والمتاع ما لا أجده فى أى ضرب من ضروب الرتع والتسلية . ولا شك أن المتبسطين فى فنون اليراع على صفحات المجلات ، وميادين الصحف السيارة ، ينبغى ألا يسلكوا فى زمرة الورى الذين صوروا فى جبلة البشر ، وصيغوا من ماء وطين » .

وحاولت جهدها أن تهدهد من سلفية والديها المزمتين المحافظين على شعائر الدين ؛ بتلطيف ما ينكرانه على ذلك الشاب كروول الذى ارتضته شريكا لها . وراحت تحسن التنصل أمامهما فى المأخذ الصارم الذى رماه به ما اعتاده من ضروب اللهو العصرى كالرقص ولعبة كرة البأس . وبعد أن تخرجت من الكلية وأجيزت من مدرسة التجارة ومعهد الموسيقى اقترنت بنورمان كروول سنة ١٩٠١ ، وكانت لا تعدو الرابعة والعشرين ، وما إن استكنت فى عشها الجديد حتى خفق فؤادها فرحاً وشعرت أن الحياة التى أرادت أن تستلفها لنفسها قد تجلت لها فمنحتها حياة كاملة موفورة فى ذلك البيت الصغير ، ولم تدخر وسعاً فى تعهده وسهرت على نظافته وازدادت لذعة العيش فى أكنافه نواحى الوفر والكمال ، فقرنت اليمن بيمناه ، وبسطت اليسر بيسراه ، وأحبت كل قطعة من موجوده وأثاثه ؛ وذكرت ، وهى تعنى بصقل أوانيه الفضية والبلورية ، الفرحة التى تمنحها تمكنها

من تنظيف إبريق قديم من النحاس كانت أمها قد دفعته إليها ذات يوم لتدرب يديها البضتين على العمل المنزلي النافع في أول نشأتها ، وعبرت تلك الذكرى من مخيلتها ، فلم تملك نفسها من الطرب الآن ، وهي تتأمل الرونق المعجب الذي يسطع من بينها ويلوح على مشتملاته كافة . على أنها لم تنعم بالعيش في تلك الجنة الأرضية ، سوى ثلاث سنوات قصيرة ، أعوزت حياتها في غضونها من تلاوين القريض الذي لم تقو على ترويض قوافيه ، وأثبتت على صحائف كل يوم من أيامها ذلك الشعر الرقيق الذي جاش في صدرها إنباءً حياً باقي الآثار قبل أن يقدّ قدها من عالم الحياة إلى عالم الأوراق ؛ وذلك أن أول الأحزان التي قرعت ساحتها الرحيبة الوادعة كان عند مولد بكرها ، وقد صرع السقم جنبها وألزمها الفراش مدة شهور طوال ، وكان أقسى ما عانته في آلامها ركونها إلى الغير للنهوض بشئون بيتها والعناية بطفلها ، بل كان إحساسها بوجودها العقيم أشد وقعاً من نكاية الشكاة التي لا تملك لها دفعاً . وقد قالت في ذلك : « شد ما آذاني أن تقطع بي الأسباب فتنقبض يدي من تدبير شئون بيتي والنهوض بحقها من أمومتي المقدسة ، ولقد كربني أيضاً التي كانت تنضب على الولاء مصباح الرجاء ، حتى خيل إلي أني أستمسك بحبال الهباء ، حين طغى علي الحنين في أحد الأيام إلى الكتابة ، فتناولت قلمي وبعد دقائق قليلة تسارعت الألفاظ إلى خدمتي ، وتحرّمت التالي لهمومي ، فكتبت قصيدة راحت تحبو بأقدامها الصغيرة وتتعثر حتى انتهى بها المطاف إلى بعض الجهات ؛ والحال أوامت بالخوض في لجة البيان مع تحققي من أن بحر معلوماتي الشعرية مجزوف المادة ، ضيق الخطيرة ، ومن أني لم أتضلع من علوم اللسان وأسرار اللفظ وفرائد اللغة ، ولكني مع ذلك التجمت فضل خالق الأرضين ومبدع السموات في خشوع ، وصعدت إليه بقضيتي ، بعد إذ ضقت ذرعاً بمحاولاتي التي لا تني من الخير فتيلا ، وسألته أن يصرفني بصرف الكلام ، ورجوته أن يعول علي بما شاء إن أذن لي أن أكون من حاكة الشعر ، وأمضيت إليه في الصدق مهدى بألا يجرى خاطرى إلا بكل غرض نبيه ، وعاطفة شريفة ، ومنهج واضح ، ومسلك سعيد ، وأن أدأب ليل نهار ، على تمجيد اسمه في كل ما يخطه بناني ، فأجابني إلى ما سألته واهتم لشأني وتنازل بإفاضة إلهامه على شوارد إسامه فتقشع ضباب اليأس ، وشق بشعاع الرجاء والنفع ظلمة القنوط والعجز ، وأنا منذ ذلك اليوم أرقى درج السنين بخطى ثابتة ، وأسير بأقدام الزمن إلى عتبات عرشه الأسنى ، رافعة الرأس وقد أمسكت يده بيدي وجعلت فيها راية الإنشاء ورفعت لي فوقها علماً على علم ، ومدت بي على توالي الأيام ، حتى مشيت فوق بسط من الأعناق والقمم » . فهل من عجب إن كان قد قام في الأذهان أن قصيد هذه السيدة لم يكن فناً فحسب ، بل إنه كان وحياً وإلهاماً . فما كان في مقدور الثقافة التي تلقتها في صدر أيامها ، ولا في مقدور مظاهر الذكاء وخواص العبقرية التي أخذتها منذ حداثتها ، أن تبلغ بها هذه المنزلة الرفيعة ، والكفاية الوافية والعبقرية الباذخة ، وإنها كانت بفضل إيمانها وابتهالها تتمس قلمها لتمجيد الله ، وتتجمل لها من شاعريتها متنفساً ينبثق منه كل مدخور من خوالج النفس وهزات الحس . وجلست يوماً تستعرض عهد مرضها الماضي فكتبت قصيدة عنوانها « انتظر واصطبر » ! وقالت فيها : « مهما يطل سيرنا في مجاهل الزمن فلا بد أن يشعل لنا الله مصباح الرجاء إن كنا ننتظره في اصطبار وثقة » . ويترقرق السيال الشعري القوي في هذه القصيدة الصغيرة التي نسجت فيها الرجاحة ورسوخ الإيمان طرازاً لا يمكن أن تبليه الأيام ، فيجدي على فتاة وحيدة مروعة ، ترى في أمها التي يقترب بها الداء من وادي ظلال الموت كل يوم ، حماها الذي تأوي إليه ، وسندها الذي تتعلق به ، فتعتصم بالثبات وتتجمل في ذلك الخطب الذي دهاها في طراوة سنها ، وتأبى إلا أن تقابل اليتم واثقة مستبسلة . وتطلع القصيدة العصماء في بيت آخر ، يضم ولمن فيهم من المقاطع الشعرية ، ذلك الأمل

الزاخر على قلب الأم المروعة ، وهى تحنو على وليدها الباكى الكسيح ، فتتوجه إلى الله أن يشمل له ذلك الصباح فيمنحه حظه من نور البرء والمعافاة ، ويثيب إليه نشاطه وقواه . ويشمل عزم من كبار المذيعين تلك الرسالة الشعرية الحلوة ، فتبعث فيه فتوة من فتوة روحها ، أو مضاء من مضاء عزمها وإيمان مؤلفها ، بعد إذ لم تكن له صلة بعالم لم يبق فيه صديق رحيم ، فيسر إلى الشاعرة كلمة موجزة متواضعة يحييها على شكر موارقها ، ويخلع حلل ثنائه على قدود قصيدتها ، وكأنه يخاطبها بقول حسن بن طباطبا العلوى :

لا تذكرى إهداءنا لك منطقاً
منك استفدنا حسنه ونظامه

فالله عز وجل يشكر فعل من
يتلو عليه وحيه وكلامه

ولا تصل هذه الجريدة الغراء ، إلى أيدى زوجين متنافرين ، حتى يميلا على الاسترشاد بهديها والصيرورة إلى راحة النفس التى تناديهما فيها بالاصطبار ، فيتريثان من إبرام الطلاق الذى كانا قد أجمعا أمرهما عليه ، ويتمرسان من ثم باستئناف حياتهما الزوجية فى رحمة وحنان ، ولم تلبث أن انقادت لهما أعناق الألفة والهناء والتوفيق والودة .

وينفجر نبع العزاء والتأسى من قصيدة أخرى لهذه الشاعرة عنوانها «صلاة لالتماس الشجاعة» فنجد فيها شابة مرتاعة رقيقة لأحشائها التى مزقها مصرع أخيها فى ساحة القتال ، ويقرؤها كثيرون فتربط على قلوبهم من النوائب ، وتجملهم يتصمون بالصبر على المصائب ، وذلك لأن الشاعرة تقول فى هذه القصيدة : «لئن حملتنا الحياة على تجرع الغصص ، وغشتنا بظلمات متواصلة متلاحقة تسود الفكر ، وتهيم العقيدة وتوحش النفس وتزعزع القرار ، فإن ثقتنا من أن الله يلهمنا القوة ويمدنا بالعون ، كفيلة بأن تثبت جأشنا عند المصائب فلا تؤثر فينا ، ولا بد لمن يستضىء بمصباحها أن ينجو إذ يبصر النور الساطع فى الظلام المكفهر» . ويسارع مؤلف خطير من زعماء مذهب اللاأدريين إلى القرطاس فيزجى إلى الشاعرة خطاباً مستفيضاً يشكر لها فيه تلك السكينة التى بلغته مأمنه وسكنت روعه ، ومنحته قبساً متوهجاً يحدوه بالهداية والنور فى شعاب الحدس والشكوك . وتمد فتاة انطفأ بصرها إلى الآلة الكاتبة ، وتبعث إلى الشاعرة مكتوباً حدثتها فيه من نسيم الرضى الذى استروحته فى دنيا منظوماتها العاطرة وأخبرتها عن أثر أبياتها التى نسخت بصبح إيمانها ليل ضجرها ووحشتها . ولا نزاع فى أن شعر «جريس كرودل» يعكس حياً اختياراتها الدقيقة ويصدح بأهازيج الفرح المتخلصة من الترح ، ويذهب الهموم ويتأرجح فى أغوار النفس سجسجا سهلا يتدفق طيبا وسلاسة ، وكفى بالشاعرة أنها لا تتكلف فيه الإعراب عن شغفها بطيب دنياها ، وما تحفل به من المسرات والنعم ، وتستشق من خلاله ، ما فى النفوس البشرية من نبل وجلال ، وترجع به أصداء اعتدادها بما فى الكون من نضارة وجمال ، فتغترف من مباهج الأرض بما فيها من زهر فواح ، وبحر رقراق ، ونسيم عليل وسماء صافية ، وشمس ضاحكة ، ونجم لواح ، وطبيعة متبرجة ، فتجعل هذا الوجود نعيما وفردوساً ، كما تجعل الحياة نعمة سابغة ، جديرة أن نستمتع بها ، ونحرص عليها بجد من النفس ، وصحة من النية ، وإنارة من البصائر ، كى تنال توفيقاً من ربها .

والشاعرة ليست قصيدة سربها اليوم ، فقد صحت من علتها منذ حين ، وإلى جانب التوفيق الذى أصابته فى النهوض بواجباتها البيتية على الوجه الأكمل ، ظفرت بطبع ثلاثة عشر ديواناً شعرياً — نشرت أربعة أو خمسة منها فى خمس السنوات الأخيرة ، وباعت ألف قصيدة مطبوعة على حدة ، وهى تجد الآن فى تأليف كتابين . وتتحدث الكاتبة «لولا سبنسر» مراسلة إحدى مجلات الشباب الأمريكية من المهام والأعمال التى أنجزتها «مسز

كروول » يوم أن أذنت لها بمقابلتها فتقول :

« عرفت أنها كانت قد فرغت من الرد على عشرين خطاباً ثم طهت شيئاً من صنوف الكمثرى ، وقامت بحزم هدايا العرس المرسلة إلى ابنها ، وأملت ثلاث دعوات موجهة إليها لإلقاء قراءات من تصانيفها ، ونقدت إحدى المجلات نقداً أميناً ، ونطقت منضدة ودهنتها بالطلاء ، وقالت إنى إنما أعمل ذلك بها ، لفرط شغفى بالطاقة » .

ويقول زوجها إنها توقع على مائة خطاب وقصيدة يومياً ، وإنها تورى زند التشجيع لنار النجاح لذوى الحاجات ، وتصطنع من مكانتها عند أرباب الأعمال ، مفاتيح الطلبات ، وتقوم مع ذلك بواجبات الضيافة ، فتقابل بهشاشة مراسلى الصحف وطوائف الشباب ، وجموع المعجبين والمريدين الذين يكتظ بهم مجلسها فى ثمانية ساعات يومها . ويعالج زوجها جانباً كبيراً من مراسلاتها ، ويتولى تصدير الكتب والرسائل والخطابات ، ويصمم على الجاهرة بأن الاضطلاع بهذا البريد اليومى الضخم لا يتيسر إلا لرجل أمثل قوى العضلات نظيره . وقصائدها الأخيرة تبدى للعيان هدوءها ورصانتها ، كما أنها فى الوقت نفسه تنم رغبتها الملحة فى إدخال الطمأنينة على القلوب التى دكتها أهوال الحرب الأخيرة ، وإرسال ريق الحياة إلى البيوت التى باتت فيها سكرة الموت ، ولها قصيدة فريدة نظمتها مؤخراً وعنوانها : « من أم إلى ابن فى الخدمة العسكرية » ولا تستطيع الأرقام أن تحصى عدد المرات التى تليت فيها هذه القصيدة فى جبهات القتال ، فقد بعثها آلاف الأمهات إلى أولادهن المقاتلين ، كما طلب رجال الكهنوت فى الجيش نسخاً مائة منها لتوزيعها فى الميادين المختلفة . ويروى مستر كروول الحادثة التالية فيقول : « زارها جندى شاب غداة إقلاعه إلى الجهة التى عينتها له الهيئات الحربية المختصة ، واتضح فيما بعد أنه أرسل إلى ما وراء البحار فى مانيلا . ولم تتلق زوجه كلمة منه ، وبات القلق يناجيها حالما عرفت أن سلاح العدو الجوى راح يحطم ذلك الميدان بوابل قنابله ، ثم استولى آخر الأمر على « مانيلا » ، فتضيفتها الهموم ولم تتمك من تسقم أخبار الظلام . ويعرض فى حياتها الكثير من مثيلات هذه الحادثة ، ولكل حادثة ضريبتها الفادحة التى تفرضها على وقتها ومجهودها وعواطفها الجياشة ، ولكنها لا تتقل من بذل اهتمامها ورعايتها ، لأن هذه السيدة الصالحة ضافية المعروف ، سخية النفس ، تتعهد الجميع بحنانها فى صمت ودأب وإيثار ، فهى تشبه خمائل البنفسج المختبئة بين لفائف الأدغال ، ينتشق الناس من طيبها ويحمدون عرفها ، وإن لم يعرف مكانها .

وطلبت منها « باترس بلب » مكاتبة إحدى الصحف الشهيرة الأمريكية ، أن تأذن لها بكتابة مقال عنها ، فقالت : « ترفق بى يا « باترس » وبعمل اليسير الهين الساذج ، ورجائى إليك فوق كل رجاء ، ألا تتخذ منى لساناً من أفصح ألسن الإصلاح الإنسانى ، وأن لا تقدمينى إلى الجمهور فى صورة الشرعة الفقيهة ، والحكيمة الخارقة بأخبار المتقدمين والمتأخرين ، والخطيبة التى لا ترهقها عقدة ، ولا تملكها لجلجة ، وهى تهيب بالعالم الحزين قائلة : ابتسم ، ثم ابتسم ، ثم ابتسم ، فإنى لا أطيق أن أبدو للجماهير فى هذه الصورة الملائكية ، وأن أطلع عليهم بهذه الدعوى المريضة التى تزين لهم فضائل الابتسام والبسالة . واذكرى أن الفصاحة ليست من طبيعتى وأنى لست جريئة الصدر كما يزعمون ، بل إن لى خوراً ، وأنت ترين أنى ضئيلة الأجلاد ، وإنما أنا لفرط ما قاسيت فى العالم من آلام وصدمات ونكبات ، ولكثرة ما تجرعت من كئوس الجزع والرهبة ، وتذوقت من طعوم الوجل والارتباك ، ولطول ما ارتعبت وانتظرت من خلال الظلام ، قد أردت بجمعة قلبى وابتهالات روحى ألا أولى ظهرى للحياة ، بل أسير فى شرعتها قدماً معتقدة أننا إنما نكبو لنقوم من عثرتنا ، وأننا ننام لنستيقظ من هجعتنا ، لذلك آليت على نفسى أن أروى ظمأها ، بتقديم شىء للعالم عما أخذته هناك فى الظلام ، حيث كان الله على الدوام » .

أنباء وآراء

حكى أنه كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبد، فنظر إلى جارية جميلة، فهويها وهام بها عقله، ونزل بها ما نزل به، فأرسل يخطبها، فقال أبوها: هي مسماة على ابن عمها. فاشتد عليهما ألم الهوى، فأرسلت إليه: «قد بلغني شدة محبتك لي، وقد اشتد بلائي بك، فإن شئت زرتك أو تأتيني إلى منزلي»، فقال للرسول: «لا واحدة من هاتين الخصلتين، إني أخاف نارا لا يخبو سعيرها ولا يخمد لهيبها». فلما أخبرها الرسول بما قال، قالت: «أراه مع ذلك زاهدا يخاف الله، والله ما أجد أحدا أحق بهذا الأمر مني» ثم انخلعت من الدنيا ولبست المسوح، وجعلت تتعبد، وهي مع ذلك تذوب وتنتحل، وتزداد حبا للفتى حتى ماتت. وكان الفتى يأتي قبرها، فرآها في منامه، وكأنها في أحسن منظر، فقال: «كيف أنت؟». قالت: «نعم المحبة محبتك حبا يقود إلى خير» فقال لها: «إلى م صرت؟» قالت: «إلى نعيم وعيش مقيم لا نفاد له في جنة الخلد». فقال لها: «اذكريني هناك فإني لست أنساك» فقالت: «وأنا والله لا أنساك، وقد سألت ربي مولاي ومولاك، فأعني على ذلك بالاجتهاد». ثم ولت مدبرة. قال: فقلت لها: متى أراك؟. قالت: «عن قريب» فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليال.

(عن نزهة الناظرين لعبد الله الضرير)

لا زال أهل فينا يحتفظون — رغم المحن التي عبرت بهم خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية — بابتسامهم ومرحهم اللذين كانا روح جاذبيتهم خلال فترات إقبال سعودهم أيام الموجنجرج وأعياد البراتر وحفلات يوهان

ولما سئلت من سر نجاحها، قالت «لوليم استدجر» كما ذكر في كتابه «الناحية الإنسانية من العظمة» ما يأتي: «إن الألم الذي قاسيته، لا يمكن أن يكون المرجع الوحيد لفلاحي، وإن كنت أعده العامل الأول فيه، ولست أستطيع كذلك أن أرد هذا النجاح الذي تقول به، إلى كفايتي ومواهبي ككاتبة وشاعرة، وأنا كما تعلم لا أملك من أدائهما شيئا، ولا أعتقد في الوقت نفسه أن للفرص يدا كبيرة في نجاحي، فإن ما لقيته من الفشل والخذلان في بعض أطوار وجودي، قد قدم لي الدليل الساطع على أني لم أكن مجدودة الطالع، أثيرة مقربة عند ربة الحظوظ السعيدة. وأريد أن أقول كذلك إننا لا ننجح في عمل شيء لا نجيده، وإننا لا نجيد عملا نرغم على أدائه إرغاما؛ وذلك لأننا نتقن ما تحفزنا عليه الرغبة والشوق والمحبة. وإذا وقر في نفوسنا أن الحياة مناضلة تتطلب الإيمان الراسخ، والعزم الثابت، والإرادة الصادقة، والرأي الحصيف، والثقة الدافعة الملهمة، نجحنا في الحياة وجنينا من قطافها كل ندي شهي». وقد نبذت من تفاؤلها واستبشارها واستمساكها بمواعيد الله ووعائها للخير، منبرا يحمل الجماهير إلى السعادة الفائقة، ويوصلهم إلى قارة الطمأنينة المفعمة بالأمل، فقد صمدت في معامع الحرب العالمية الأخيرة، ومعها المجاح، كمنارة سامقة، ليس لأنامل الحوادث إليها مسرى، ولا لإعصار الزوابع مجرى، ولا عجب في ذلك، فإنها تحوي من الحصافة المذوبة قدرا لا تستهان مواقعه، وتطوي في المنعة الروحية جيشا لا تستلان أخادعه، وترفع للسفر إيمانها الذي يلوح مصباحه، وتمل للسارين قصيدها الذي يلمع بصيصه؛ فإذا اللجج تنشف، والطريق يستبين، وإذا اليأس يتحول إلى رجاء مرموق، وأمل مروم، يستنان به في قوائم الأعماق، ومجاهل البر، وغدافيات البحر، ودياجي الأمصار والآفاق.

الزهرة

شتراوس الراقصة ، وكل ما يحيط بهم من خراب وبؤس يبدو لهم وكأنه ظاهرة عابرة غير عادية ؛ وإذا اشتدت على أحدهم المتاعب توجه إلى عراف يشترى منه بعض الأمل .

وهناك فى الشوارع الضيقة والحارات المظلمة المحيطة بدار البلدية وكنيسة السكابوشين يقف عدد لا حصر له من المروجين والمشعوذين يؤكدون للناس أنهم يستطيعون إنباءهم بما ينتظرهم من سعود وحظوظ ، وهم يتنبأون للناس بكميات الفحم والملح والتبغ التى ستكون من نصيبهم خلال الشتاء المقبل . ! أما أعظم ما يتوقعه الشعب فهو الحب ، ولو أنه نقد العراف مبلغا محترما لقال الرجل على الفور : سيكون من نصيبك امرأة فاتنة ذات مال وفير خلال الشهرين المقبلين .

وقد أصدرت الحكومة قرارا يحرم هذه الشعوذات بحجة أنها تفسح للناس من مجال الآمال ما يحول بينهم وبين تصور الشقاء الذى يحيط بهم تصورا يحفزهم إلى علاجه .

(عن السكاريفور ، باريس)

عاد الطفل من المدرسة بعد أن قضى أول يوم فى حياته الدراسية ، فسأله أبوه :

— قل لى ... ماذا تعلمت اليوم ؟

فأجاب الطفل فى سذاجة :

— لم نتعلم شيئا كثيرا اليوم ... لا بد أن أعود إلى المدرسة مرة أخرى ...

(دبلن أوبنيون)

لا تحتاج الراقصة إلا إلى أن ترقص مرة واحدة ليصفق لها الناس ويمطروها بوابل من الإعجاب . وتتحدث الصحف عن براعتها وعبقريتها ، وينهال عليها أصحاب المسارح بالعروض والأموال . أما العالم فلا بد أن يقضى عشرات السنين يدرس ويحقق ، ثم لا يحظى إلا بكلمة تقدير متواضعة فى الصحيفة التاسعة أو العاشرة من صحيفة لا تبيع إلا بضعة آلاف .

(الأستاذ ر . ا . خضر ، من إذاعة فى « البى بى سى »)

ليست الحكومة علما ولا فنا ، ولا يستطيع الإنسان تطبيق أساليب أيهما عليها ؛ فهى ليست علما لأن مادتها الخامة أى الناس المراد حكمهم — ليست قابلة للقياس ، ولا يمكن كذلك إخضاعها لأصول الفن ، لأن مادتها تسير على أساليب فردية يختلف حكم الفن عليها من فرد لفرد ، وربما كان أصح الأوصاف لها أنها صناعة يمارسها أصحابها على قواعد يكتسبها أصحابها بالمران والخبرة ، وقد تبين لى بعد تأمل طويل ومشاركة فى أعمال الحكومة أن أهل هذه الحرفة — حرفة الحكم — ليسوا أمهر ولا أقدر ولا أعرف بها من غيرهم من الناس ، وإنما هم ناس فرغوا لها واحتملوا متاعبها وعرفوا كيف يجدون لذة فى احتمال هذه المتاعب والاستفادة منها .

(ن . و . ليفى « عضو البرلمان الإنجليزى ، من التريبون » لندن)

اكتشف عالم أمريكى أن أعظم متاحف الفن والتاريخ الطبيعى فى الدنيا ليس متحف اللوفر فى باريس أو المترو بوليتان فى نيويورك ، وإنما هو متحف طبيعى يقع على سفوح جبال الأنديز على مقربة من مدينة نازكا القديمة فى بيرو . وهذا المتحف إن هو إلا صحراء واسعة مساحتها نحو مائة ميل مربع تضم رمالها أكبر وأغرب مجموعة من الطيور والمناكب والنباتات والحيات ، وعلى أرض هذا « المتحف » رسوم كبيرة وصغيرة لصورة الأرض وقبة الفلك ، كما تخيلها العلماء والفنانون فى ذلك الشعب البائد الذى كان يسكن هذه المدينة القديمة ، ويقدر عمرها بما يزيد على ألفى سنة .

وأغرب ما فى الموضوع أن سر هذا « المتحف » ما زال مغلقا ، لأنه لا يحتوى على كتابة واحدة تكشف هذا السر وتسفر عن حقائق هذه الرسوم التى يغطى بعضها بضعة أميال . ومهما يكن من أمرها فهى لا شك تمثل أكبر عمل فنى قام به الإنسان إلى يومنا هذا .

(إيتاج دموند ، باريس)

صبحى مؤنس

باب الكتب

عائشة والسياسة

تأليف الأستاذ سعيد الأفغاني

الأستاذ سعيد الأفغاني من أدبائنا المبرزين ، معروف في الأوساط العلمية بسعة الاطلاع ، والدؤوب على البحث والتنقيب ، والقدرة على التدقيق والتحقيق ، مع أناة وروية وجودة فهم . وهو ذو قلم عضب متين ، وأسلوب يشهد له بالتمكن من علوم العربية في وضوح وبيان .

أولع بدراسة حياة عائشة الصديقة رضي الله عنها منذ أمد بعيد ، فراح يقرأ ويستقصي كل ماله علاقة بهذه السيدة الجليلة ، أي أنه اضطر لمراجعة أكثر كتب التاريخ والأدب واللغة والحديث والعقائد والجدل ، لأن موضوعه بحر زاخر بعيد الغور .

نشر الأستاذ كتباً عدة عن السيدة الجليلة ككتاب الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للإمام الزركشي ، ورسالة في المفاضلة بين الصحابة لابن حزم الأندلسي ، وجزءين من سير النبلاء للذهبي ، وأخرج كتاب « الإسلام والمرأة » في العام الماضي ، وكتاب « عائشة والسياسة » الذي نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر هذا العام .

والكتاب في جملته من الكتب القيمة التي استوفت حظها من البحث والتحقيق ، استعرض فيه المؤلف الفاضل حياة عائشة رضي الله عنها منذ بدء عهد عثمان رضي الله عنه ، إلى حين وفاتها : ذكر موقفها من قتل الخليفة الشهيد ، والحوادث التي اكتنفته ، دافعاً اتهام بعض الرواة والمؤرخين إياها بأنها كفرته وأمرت بقتله ومهدت الأمر من بعده لطلحة . ثم انتقل إلى ذكر موقفها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، مفصلا القول في علاقتهما منذ عهد الرسالة ، وفي موقفها من بيعته ، وأفاض في ذكر حرب الجمل ومراحلها وأسبابها ونتائجها ، ثم عرج على حياتها السياسية بعد حرب الجمل إلى حين وفاتها . وختم كتابه بفصل قيم عن عائشة في نظر الفرق الإسلامية المختلفة ، وبفصل آخر في عبرة الحوادث ، أثبت فيه وجوب ابتعاد المرأة عن غمرة السياسة لأنها لم تخلق لها .

والحق أن هذا الكتاب في نظرنا من أحسن ما ألف في دراسة ذلك العصر المضطرب ، وفي عرض تلك الحوادث التي تضاربت فيها أقوال المؤرخين إلى حد كبير يصعب معه الوصول إلى الحقيقة المجردة . فلقد محص المؤلف الفاضل تلك الحوادث كلها تمحيص العالم المدقق ناظرا إليها بمنظار الباحث المحايد الذي لا يعنيه إلا الوصول إلى الحق . وقد وفق في هذه السبيل توفيقا نذكره له بالشكر والإعجاب .

وكثيرا ما يناقش المؤلف في كتابه المؤرخين « المتزيدين » كابن أبي الحديد في شرحه النهج ، مناقشة علمية هادئة ، ليخلص من ذلك إلى توهين رواياتهم . وهو لا يخفي إعجابه بحياد بعض المؤرخين من أهل السنة كالطبري وغيره .

(وبعد) فإننا نشكر الأستاذ على جهوده القيمة ، ونسأل الله أن يعينه على إتمام كتابه الجديد في دراسة حياة عائشة العلمية والأدبية ، فيسد بذلك فراغا كبيرا في المكتبة العربية الإسلامية .

(دمشق) (م . ط)

قصة الأسبوع

انتحار قطة

كنت أقيم في القاهرة في حي الحلمية، الذي لا تزال به مسحة من شهرته القديمة، السكن والمحافظة، وكان يسكن قريباً مني شاب، لا، بل رجل، عرفته وصادقته منذ الطفولة، وقد نيف الآن على الأربعين، كان طفلا مدللا، وشابا ذا نعمة وخفض ورغد، اضطرته ظروف زمانه — المصري بعد ذلك — أن يترك القاهرة في أوائل الحرب العالمية الثانية ليقيم في الريف. ثم مهد له بعض أصدقائه الطريق إلى وظيفة رقيقة، في إحدى الوزارات المتواضعة، وظيفة لا تكفيه رزقا إلا بشق النفس والتنوع في التقتير، والافتنان في الاقتصاد، ولا ترضى له أملا، ولا تتناسب مع ما حصله من علم، ولا مع ما وعاه عقله الذكي من ثقافة، كان شديد الجشع طول عمره في تحصيلها.

كان وجلا من الوظيفة، وكان أشد ما يخشاه منها أن تؤثر على نفسيته المرة الترفعة، وعلى أخلاقه النبيلة الصريحة التي لا ترضى الرؤساء، وبالحيرة من إرضاء الرؤساء!

لم تنقطع لنا صلة، غير أني لاحظت عليه كثيراً من التغير بعد اشتغاله بوظيفته الجديدة. فقد تخلف من كثير من الجماعات، حتى اتهم من الإخوان بالتقصير. وكثر اعتكافه في بيته، وما كان يستقبل فيه غيري وغير بعض أهله الأقربين، بعد ما كان يعج دائما بمن فيه من الضيوف والأصدقاء، وصار ملازما حياة رتيبة، من البيت للوزارة، ومن الوزارة للبيت، ويزور في النادر بعض أصدقائه القدامى، وفارق وجهه ذلك الإشراق الفضي، وذلك الضحك الطليق الهنيء، وحل محله تلك الابتسامة التي يجهد في إخفاء اغتصابها.

كان أديباً كثير الكتابة، وكثيرا ما قرأنا له في الصحف وهنأناه، ولمحنا بريق مستقبله اللامع في أفق حياته. أما الآن فلا يظهر اسمه في أية صحيفة، وقل شراؤه الصحف والمجلات، حتى إن مكتبته المعززة عليه، والتي كان يرى أنها أثمن وأغلى ميراث يترك للأولاد، تسرب منها لسوق الكتاب تلو الكتاب حتى أقفر منها مسكنه، وما كان يغص من ذكر شيء خسره في الدنيا — وقد ابتلي بالكثير — غصته من حديث الكتب والمكتبات.

كانت حالته تحز في نفسي، وكل مرة أهم بالحديث معه فيها، أو بإبداء النصح والعزاء له، يتحبس القول في لساني، فقد كنا نتفاهم غالبا من غير كلام، وأفهم جوابه قبل السؤال، وما كان يزيد لو جرنا الحديث على قوله: «إن أصدقائي أرادوا بالوظيفة حفظ ماء وجهي — كما لابد وأن يقال — فبعت في سبيل ذلك روحي وعقلي وعلمي بثمن بخس كما ترى».

في بعض الليالي كنا نسمع مواء ينبعث من مسكنه، ومواء القطط شيء مألوف في هذا الحي القديم، إلا أني لاحظت أنه لا ينقطع إلا ليبدأ ويعيد، ويعلو ويقرب من الشرفة، ويخرج فيها، ثم ينتهي عند ما تمتد يد صغيرة لأحد الأطفال فتجذب القطة للداخل.

تكرر هذا المشهد، أو السمع، مرات من غير أن يعلق بالذهن شيء منه، فليس فيه ما يوجب ذلك، ولكن في آخر مرة سمعت القطة وهي تموء في الشرفة بصوت مكبوت متقطع متهدج، يخيل لسامعها أنها تتحدث، وتكاد تبوح. ويتم صوتها بجلاء عن معركة نفسية حادة يحس عنفها، فيها جذب ومد، وأخذ ورد، وإقبال وإدبار، ثم بعد صدمة مسموعة عنيفة، خفت الصوت فجأة، وتلاشى في ظلام الطريق.

وكنت قريبا من نافذتي ، فرأيت طفلة صديق الصغيرة ، وقد خرجت إلى الطريق ، تعود إلى أبيها قائلة في حنان وتأثر ، وبصوت تنديه الدموع : لقد ماتت يا أبي .

بعد ذلك اجتمعت معه في بيته ، وحولنا أولاده من بنين وبنات في حجرة صغيرة شبه خالية إلا من الطعام ، وجلس قبالتي يستمتع بدخان سيجارته ، وأكواب الشاي بيننا ، وما كدت أسأله عن حديث قطته حتى وجم الجميع وبهتوا ، وتنبه صديقي ، وفتح عينيه وفمه بابتسامة حزينة مازحة وقال : سيغضب الأولاد كما ترى مما أقول لك ، وسيقولون إني أمزح ، ولك أن تصدقهم إن أحببت ، فالدنيا كما تريدها ، إن جدا فجد ، وإن هزلا فهزل . أما حديث القطة ، فمن الأحاديث التي لن أنساها ، والتي أثرت في نفسي أثرا لن يمحى ، إلا إذا امحى من الوجود سبب نكبتها . قلت : وهل في الأمر نكبة ؟ قال : نعم . وإليك قصتها :

حينما وجدنا هذا المسكن الصغير الذي استأجرناه على أنه مؤقت حتى تنفرج أزمة المساكن ، على حد تعبيرنا لأنفسنا ، وأحضرت أولادي من البلد ، وأقمنا بجوارك ، وفرحت صاحبتي والأطفال بالوظيفة الحكومية الجديدة ، وتصوروا أنها ستغرقهم في الخير ، وتجدد لهم ما أبلى الزمان من متاع ، وما أفنى من مال ، وتعيد لهم عالمهم التي كانوا ألفوها . ولكنها ويا للأسف ! كانت سرابا لهذه العائلة الظمأى — رأينا مسكننا كثيرا من الفيران الكبيرة ، تزعجنا بحركاتها ليلا ، وتصدمنا بشدة الخاطفة على المتاع ، ومتابعة له وإخفائه ، خوفا من سطوها عليه ، فلم نجد بدأ من إحضار قطة للإقامة معنا ، ولتدفع عنا شر هذه الجرذان المعتدية . وهكذا انتهى البحث إلى قطة صغيرة هي بنت قطة أستاذنا الشيخ ... وكان صديقا لأبي ولا تزال علاقة الود بيننا متصلة ، وأنت تعلم أنه شيخ ، والشيوخ يحبون اللحم ويفضلون الضأن على ما سواه . فلا عجب أن تنشأ قطتنا سمينة هادئة ناعمة في كنف مطبخ الشيخ العامر الدافئ ، جيء بها من منشئها الوثير إلى بيتنا مرفوعة الرأس بتاريخ نعمتها السابق . وكانت تسير فيه شامخة مزهوة ، معجبة بوبرها الناعم الجميل ، تلاعب الصغار ويلاعبونها ، والكل بها فرحون ، يؤثرونها — في الأيام الأولى — ببعض نصيبهم من الطعام على قلته .

سارت الأيام معها جميلة محتملة بهذا الشكل . ثم بدأ القتال بينها وبين الفيران ، وكان النصر نصيبها . وكم كان منظرها لطيفا جدا وهي تتفقد الفأر وتستقبله ، حتى إذا صار في دائرة نفوذها وإمكانها ، أخذت تلاعبه وتداعبه ، وتقصيه ثم تدنيه ، وتمسكه ثم تتركه وتلاحقه . كل هذا بحركات بهلوانية نشيطة رائعة . حتى إذا ما اكتفت من عينها القاتل ، وأشبعت شهوة نفسها المتملكة المسيطرة ، انقضت عليه في قفزة خاطفة ، وضربته الضربة الأخيرة ، وقضت عليه .

بعد مدة من الزمان ضن الأولاد بأنصبتهم عليها ، اكتفاء بنصيبها الوفير في الصيد ، وأضربت هي عن أكل الخبز وما على شاكلته ، وظهرت عليها بوادر السأم والملل ، فأحكم إغلاق المسكن حرصا على بقائها وخوفا من الانفراد بأعدائها . وقل لعبها ، وكثر مواؤها كما صمتت ، ونحل بدنها ، وصار وبرها الجميل البراق أغبر مفتولا ، وانتهى أمرها بتركها الفيران وشأنهم ، والانزواء في أركان البيت .

تضايقت جدا حينما رأيتها على هذه الحال ، وذكرت صاحبتي بالحديث الشريف : « دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » . وحاولت إقناعها بتركها تذهب حيث تشاء ، فلم

أعجج ، واعترضت عليّ قائلة إن الطعام الذي نأكله يقدم لها منه لتأكله ، فما ذنبنا ؟ ثم كيف تمتنع من أكل الخبز وهو من خير أدم لغذاء ملايين من الناس . لا ، لا ، يجب أن تعود ، إن التنعم والتدلل من الصفات البغيضة ، التي لا نبيحها لصغارنا ، ورحم الله والدك الذي كان يقول لنا — ويا ليتنا استمعنا إليه — (اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم) ، فإذا كنا نحرم التنعم والتدلل على صغارنا ، فكيف نبيحهما لصغار القطط . هون عليك من كل هذا ودعها للأيام ، فلابد وأن تعود وتعيش كما نعيش . وأمام هذه الحجج كنت أصمت لا عن اقتناع .

ومرت الأيام وازدادت حالها سوءا ، وكثر بحثها عن الفرج والمخرج ، فاشتد تضييقهم عليها ، وصعب عليهم التسليم برغبتها ، ففيه إظهار لخطئهم — ولو لأنفسهم — يجرح قلوبهم الرطيبة ، ولا يبدونه بحال ، وأنت ترى بنفسك حزنهم من هذا الحديث وعنادهم فيه .

وكم تألمت حينما كنت أراها تسير بجانب حيطان المنزل عجفاء ذابلة ، وبريق عينيها ، وقد خلا من أنسه السابق ، يتبع حركات الأولاد ، حتى إذا اتجه أحدهم نحو الباب كانت أسبق إليه منه ، فلا يفتح مصراعه حتى يدعو من يأخذها ويغلقه بحذر خلفه ، فتعود بعيون تشع منها الوحشية الكبيرة والغضب القليل ، وتنام غير نائمة في ركن من أركان الغرفة ، ويقدم لها الطعام ، فلا يكاد يقترب منها حتى تنظر إليه كما ينظر السجين البرئ إلى طعامه الذي ينغص من رؤيته .

انتشر في البيت جو مقبض من التعاسة استنشقه كل فرد منا وأحسه ، رغم تجاهله المتعمد . فقد كانت هذه القطة البطلة نذيرا ولسانا مبينا لهذه الحال السيئة التي عجز من احتمالها حيوان صغير أليف قانع . وأبى إلا أن يعبر عن مجه لها بكل ما يستطيع من مؤديات التعبير .

ولعل القطة المسكينة يئست من أن تجد من الباب مخرجا فاتجهت حركاتها ونظراتها صوب الشرفة . فقد تجد من طريقها السبيل إلى التحرر من هذه العائلة الحبيسة والذهاب إلى مكان لا يرتبط به السكان الحي إلا بمقدار ما يجد فيه من ري وشبع . فكانت تذهب إلى الشرفة مرارا ، ولكنها كانت تخشى الوثوب منها لعلوها من الطريق فكانت تموء بصوت يذيب الصخر لو سمعه .

ولكنك لم تصدق أن الصبر حداً . ويظهر أن قطتنا كانت بغريزتها تؤمن بقول الشاعر وتحس به (وجهنم بالعز أطيب منزل) . ففي إحدى نزواتها ومحاولاتها في الشرفة سمعنا مواءها بصورة غير معهودة ، لم تسبق لها ، فيها عزم وحزم وإرغام ، بعد ضعف وتردد . ثم قذفت بنفسها وارتمت في أحضان الفضاء كأنما رأت وقدرت أنه لن يكون شرا مما هي فيه . وصمت إلى الأبد ذلك الصوت الكسيف الحزين المظلوم .

قلت لأولادي وهم يبكون — لا عليها — لقد انتحرت . ورحمنا الله من انتحار القطط أبدا .

عبد الرحمن عبد اللطيف

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
تليفون — ٥٦٧٦٩
القاهرة

حول تدوين الحديث

كان فيما ذكره حضرة صاحب المعالي عبد العزيز فهمي باشا في البحث الممتع الذي نشره بالعدد ٤٦٧ من مجلة «الثقافة» الغراء في مسألة تعدد الزوجات «أن عمر رضي الله عنه منع كتابة الحديث اكتفاء بالقرآن».

وإنا مع احترامنا لما قال معاليه، نقول إن منع عمر لكتابة الحديث لم يكن من عند نفسه، ولا من رأيه، وإنما كان اتباعاً لأمر رسول الله صلوات الله عليه.

فقد روى مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري أن النبي (ص) قال: «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه».

وقد استجاب أصحابه لهذا النهي، فلم يكتبوا عنه غير القرآن، ولم يقف أمرهم عند ذلك، بل ثبت عنهم أنهم كانوا يرغبون عن رواية الحديث وينهون عنها، ويتشددون في قبول ما يروى لهم منها؛ وقد كان أبو بكر وعمر لا يقبلان الخبر من الصحابي مهما بلغت مكانته، إلا إذا جاء عليه بشاهد يشهد أنه سمعه من النبي. وكان علي يستحلف الصحابي على ما يرويه له.

وروى حافظ المغرب ابن عبد البر والبيهقي في المدخل عن عروة أن عمر أراد أن يكتب السنن، فاستفتى أصحاب رسول الله في ذلك، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً، وقد عزم الله له فقال: «إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله. وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً»، ثم كتب في الأمصار: من كان عنده شيء فليمحه. وروى الحاكم بسنده عن عائشة قالت: جمع أبي الحديث عن رسول الله فكانت خمسمائة حديث، فبات يتقلب. قالت: فغمني كثيراً. فلما أصبح قال: أي بنية، هلمي الأحاديث التي عندك. فجئته بها فأحرقها، وقال: خشيت أن أموت وهي عندك فيكون فيها حديث عن رجل ائتمنته ووثقت به، ولم يكن كما حدثني فأكون قد تقلدت ذلك. زاد الأحوص: أو يكون قد بقي حديث لم أجده فيقال: لو كان قاله رسول الله ما خفي على أبي بكر.

وروى ابن سعد عن عبد الله بن العلاء، قال: سألت القاسم بن محمد أن يملي علي أحاديث، فقال: إن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب، فأنشد الناس أن يأتوه بها، فلما أتوه بها، أمر بتحريقها، وقال: مثناة كمثناة أهل الكتاب.

ودخل زيد بن ثابت على معاوية، فسأله عن حديث وأمر إنساناً أن يكتبه. فقال له زيد: إن رسول الله (ص) أمرنا أن لا نكتب شيئاً من حديثه فمحاه. والأخبار الصحيحة في ذلك كثيرة نجتزىء بما أوردناه منها خشية الإطالة.

محمود أبو رية

شتاء الحب

في «سماء» الوصل «تغيم» ... من غيوم الصد خيم
«لثم الشمس» التي بالسحـ ... ـر كانت تتظلم
كان «جو» الورد بسا ... ما ، ولكن قد تجهم
لا ترى إلا «عيوناً» ... من جفـون تتكلم
«ورعـوداً وبروقاً» ... من فؤاد يتضرم
«ورياحين» من الآ ... مال «تصفر وتسقم»
«ورياحاً» كلما مر ... ت على «غصن تهشم»
«وظلاما» قد تغشى ... ه «نجمى» تبرم
«وطيوراً» في فنن تبـ ... كى ، وقد كانت ترنم
«يا شتاء الحب» رفقاً ... بعض ذا يكفي المتيم

(كرمة ابن هانىء) كمال بسيوني

بين المسموع والمقروء

رب البيت ، أيهما ؟

لارِسَّا ، اسم فتاة روسية ، وسيمة . وهو اسم طريف ظريف ، به كثير من وسامة صاحبته . وهو اسم لا يكاد السامع ، لخفّة جرسه ، أن يربطه بأثقال الحياة ومتاعبها . ولكن الحياة مع ذلك أثقلت صاحبته وأتعبتها بالرغم من خفة اسمها ، ووسامة وجهها .

تزوجت لارِسَّا في السابعة عشرة من عمرها ، وسعدت في زواجها وسعدت بزوجها . وولدت ولداً ، وهي وأبوه لا يزالان طالبين في مدرسة المعلمين . فهكذا يتزوج الشباب في روسيا ، قبل أن يتأهل للكسب ، وقبل أن يدخل مضمار الحياة .

وجاءت الحرب .

فتطوع الزوج الشاب في الجيش ، وما تطوع وتدرّب حتى أرسلوه إلى جبهة القتال . ومضى على الزوج عشرون شهراً لم تسمع الزوجة فيها من زوجها شيئاً ، ثم جاء الخبر بأنه قتل في الميدان .

عندئذ صممت لارِسَّا على الثأر لزوجها ، فتطوعت ، ودخلت ميدان القتال ، وتركت ولدها وديعة عند حماتها . واختارت للقتال الأسلوب الذي هو أحق بالمرأة وأنسب لها . ذلك التمريض . وما فرغت من التدرب عليه ، حتى لحقت بالجند في جبهاتهم ، جبهة لينينجراد مرة وجبهة أوكرانيا مرة أخرى .

وبينا هي في جبهة القتال ، جاءها الخبر بأن زوجها لا يزال حياً ، وأنه يعمل مع العصابات الروسية وراء خطوط الألمان . ومن تلك الساعة صار أملها الحلو الوحيد أن تلقى زوجها مرة أخرى ، وأن تضمه هو وولدها منه في بيت صغير يكون ، بعد الفراغ من الحرب وصخبها ومآسيها ، هادئاً هانئاً .

واشتدت الحرب وتأزمت ، فلم يبق للارِسَّا بد من امتشاق السيف . فتركت التمريض وخرجت إلى جبهات القتال الأولى ، وأعانت الرجال بالمدفع الرشاش الذي كان لها ، وأعانت في إخراج العدو من قرية من بعد قرية ، برصاص المدفع تارة وبقنابل اليد تارة أخرى ، وتعرضت في سبيل ذلك لأخطر ما تعرض له الرجال . وفي أوقات القتال الهادئة كانت تخرج متلصصة ببندقيتها ، فتقتنص ألمانيًّا من هنا ، وآخر من هناك ، زيادة في الصيد .

وانتهت الحرب ، وعادت الأسرة الصغيرة ، فاجتمع شملها المتفرق . ووجدت مسكناً لها صغيراً ، وبدأ الزوجان دراستهما من جديد .

واجتمع في منزلها الأصحاب ذات ليلة . وجرى الحديث في الحرب ، وما كان فيها . قال الزوج الشاب : في يوم واحد قتلت خمسة من الألمان . فقالت الزوجة الشابة : وأنا في يوم واحد قتلت ثلاثة عشر ألمانيا .

وضحك الزوج لمغالبة زوجه إياه ، وغلبتها . ومضى في الحديث يقول : إن العيش وراء الخطوط الألمانية كان مروعاً ، ولقد بقينا مرة ثلاثة أيام متتابعة كاملة بدون غذاء . قالت الزوجة : نعم ، لقد وجدنا الجوع مراً أول الأمر ، ولكنه هان من بعد ذلك . ولقد حاصرنا الأعداء تسعة أيام لم نأكل فيها إلا قليلا من البسكوت الجاف ، ومع هذا لم نجد مس ذلك شديدا .

وضحك الجمع . ونظر الزوج إلى زوجته في غير إشراق ، وصَمَتَ بقية المساء . وأرادت لارِسَّا أن تُشيع في الحاضرين شيئاً من البهجة ، وشيئاً من الحركة ، فأخذت تتحدث عن حوادث الحرب وما جرى لها في القتال . وانتهت السهرة ، وأحست لارِسَّا أنها سهرة لم تكن ناجحة .

وفي المساء التالي عاد الزوج إلى بيته فرحا زائطا ، وفي

بعد تذكرتين للأوبرا ، يلوح بهما لزوجته . فسألته الزوجة : هل كلفتاك كثيرا ؟ قال الزوج : وماذا لو كلفتاني ألفا ؟ إن الأوبرا من أحسن الأوبرات وأمتعها .

قالت الزوجة : إنك يا عزيزي تبعثر ما تقتصد في غير رفق ، وأنت لم تسألني قبل الشراء أأحب الذهاب إلى الأوبرا ، أم أنى قد رتبت المساء أمرا آخر .

وهكذا بدأ النزاع بينهما وتعددت أسبابه ، وتراكت نتائجه . وأراد الزوج أن يثبت أنه الزوج ، وأن يمتلك زمام البيت ، ولارسا تأبى له تمليكا . واتهمته بأنه زوج عتيق ، يرى سلطان الزوج هو أخطر ما في البيت وأنه الغاية من الزواج . واتهمته بأنه لا يحب ولا يحترم الزوجة إلا إذا كانت دونه قدرا ودونه فطنة .

وذات يوم حملت ابنها وتركت منزلها ولم تعد .

ولكنها ، مع فراقها لزوجها ، كانت مضطرة أن تحضر وإياه إلى المدرسة الواحدة . والتف بها أصدقاؤها وأصدقاؤه ، وظلوا يغرونها بالعودة إلى زوجها . وألحوا إلحاحا جعل حياتها في المدرسة لا تطاق .

عندئذ وجدت لارسا الفرج في القلم . رفعت قلمها وكتبت قصة حياتها إلى الصحيفة « برافدا » ، تلك التي تكتب خصيصا للشباب . وطلبت من قرائها النصيحة فيما هي فيه ، وطلبت منهم العون .

وجاءها ستة آلاف جواب .

وقد تحسب أن في روسيا ، بلد الاشتراكية الغالية ، وبلد المساواة ، يكون أمر مساواة الرجل بالمرأة أمراً مفروغاً منه . وقد تحسب أن المجيبين ، ولا سيما المجيبات ، سلقن الزوج بألسنة حداد .

ولكن هذه الجوابات ، إن دلت على شيء ، فهي تدل على أن المرأة هي المرأة ، أينما كانت ، وعلى أيّ نظام نشأت . فقد تضمنت هذه الخطابات نفس النصائح التي تأتي المستنصح في سائر الأمم ، أزرقها وأحمرها ، وما بين هذين اللونين من ألوان .

وكان أكثر هذه الخطابات من نساء . قالت إحداهن ، وهي تمثل آراء الكثيرات من النساء : « إنك على حق في تذكرك بالذي كان منك في هذه الحرب . ولكنك على غير الحق عند ما تتحدثين بالذي كان ، وتفاخرين به ، وزوجك حاضر . إذا حضر زوجك فاتركي له الميدان ليجول فيه ويصول . إنه الرجل » .

وقالت أخرى : « يظهر أن الحرب أفسدتك ، فلم تعودي تصلحين لأن تكوني ربة بيت . إن زوجك تواق ، بعد ما عانى في الحرب ما عانى ، إلى شيء من الراحة والهدوء ، ولست تستطيعين إهداءهما إليه » .

وقالت أخرى : « لا شك أن المرأة كفء الرجل ، ولكن ليس من الحكمة أن يقول الزوج قصة ، فيكون كل هم الزوجة أن تقول قصة خيراً منها . إن هذا ليس من المساواة في شيء » .

وكتب الأخريات ما معناه : إن المشكلة ما كانت لتكون لو أن كلا من الزوج والزوجة عالج الأمر من أوله بالحكمة . واتفقوا جميعا على أنه ، حتى في البيئة الشيوعية ، يجب على الزوجة أن تقبل وتتخلق بالذي يوحي لزوجها دائما أنه رب البيت وسيده .

أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب المجلة
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي ، عابدين ، القاهرة

تليفون : ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٥٧٥ — السنة الثانية عشرة

الاثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١٣٦٩ — ٢ من يناير سنة ١٩٥٠

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً



في ذكرى مولد الرسول :

رســـــول عظيم

للأستاذ محمد مصطفى العالم

يقدر الناس قيمة الأرض بقدر ماتنتج من الثمار ، ويزنون الرجل العظيم بميزان الدرهم والدينار .. فكلما زادت غلة الأرض زادوا ثمن الأرض أو زادوا الإيجار .. وكلما جاد الجواد بمقدار من الدراهم والدنانير صار له عند الناس مقدار واعتبار ؟ ولكن ما بالنا إذا كانت أرضنا لا تعطى ثمراً ولكن تعطى قمراً ؟ وما بالنا إذا كان رجلنا لا يعطى دراهم ودنانير .. ولكنه يهدى إلى مالك الملك الذى هو على كل عطاء قدير .. إن أرضنا تكون أفضل الأرضين ، وإن رجلنا يكون أكرم الناس أجمعين ... تلك هي جزيرة العرب ، وهذا هو محمد سيد العجم والعرب ...

وفى أكنــاف طيبــة هاشمى
تصرفه السماحــة حيث شــاء
إمــام المرســلين ومختــام
حَوَى الخيرات ختما وابتــداء
كفته كرامــة المعراج فضــلا
بها فى القرب ســاد الأنبيــاء
عظـيم إن تواضع من علو
كبـير لبس يرضى الكبرياء
وذلك خـير من حلتــه أم
ومن لبس العمامـة والرداء

•••

إذا اختلف رجلان على أمر من الأمور ، يكون التوفيق بينهما فى الغالب من صعب الأمور .. فإذا كان الاختلاف بين عائلتين ، تضاعفت الصعوبة فى التوفيق بينهما على الأقل ضعفين .. فإذا قام بالتوفيق بين الرجلين أو بين العائلتين جماعة من رجال الخير ، تسجنا لهؤلاء الرجال حلل الثناء وبذلنا لهم الشكر والتقدير ، ووصفنا كلاً منهم بأنه المصلح الكبير القدير ... ولكن ماذا يكون الحال لو أننا أردنا من رجل واحد أن يوفق لا بين فردين ولا بين عائلتين ، بل بين قبائل متعددة ، ومعبودات من الأصنام جامدة .؟؟

أتيت والنــاس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هــام فى صنم
والأرض مملوءة جــوراً مسخرة
لكل طاغية فى القــوم محتكم
مسيطر الفرس يبغى فى رعيتــه
وقيصر الروم من كبر أصم عمى
يعذبان عباد الله فى شــبه
ويذبحان كما ضحيت بالغــنم
والخلق يفتــك أقوام بأضعفهم
كالليث بالبهــم أو كالحوت بالبلم

ماذا كان فى استطاعة أكبر المصلحين أن يعمل ها هنا ؟ إن التوفيق بين هؤلاء ، وعر المسالك ، كثير المنعطفات

والحروب .. إلا على أولي العزم من الرسل .. فلا عجب أن فاز محمد في هذا الامتحان العسير فوزاً منقطع النظير .. لقد جعل من المتنابذين المتناحرين أمة واحدة ، تهدي إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .. لقد هدى الناس جميعاً إلى النور ، وأخرجهم جميعاً من الظلمات .

* * *

حين يرسل رجل إلى رجل رسالة ورسولا ، فإنه يحرص على أن تكون رسالته جذابة خلابة ، وأن يكون رسوله حصيفاً حكيماً .. فإذا كانت الرسالة والرسول مرسلين من رجل إلى رجال ، وجب أن تزداد العناية بمحتوى الرسالة ، وأن يزداد الاهتمام باختيار الرسول ، ولزم أن تكون الرسالة مقنعة ، وأن يكون الرسول قوي الحجة ، صافي الذهن ، لماح الخاطر .. هذا شأن المخلوق الضعيف حين يرسل رسالته ويختار رسوله .. لم تتكشف أمام عينيه صور القلوب ولا ضمائر النفوس ولا طوايا الأفئدة .. ولكن ما قولنا إذا كانت الرسالة والرسول ليسا مرسلين من مخلوق إلى مخلوق ، ولا من رجل إلى رجال .. بل مرسلان من رب السماوات وخالق المخلوقات إلى الناس أجمعين .. لا شك في أن رسول الله يكون خير من أنجبته البشرية ، وأن رسالة هذا الرسول تكون قدسية سماوية .

يا رسول الله : إن ميلادك الخالد كان ولا يزال على رأس الزمان إكليلاً .. وإن سيرتك الطاهرة العاطرة ترسل الأمل في النفوس فياضاً جميلاً .. وإن ذكراك الباهرة تبعث البشائر في كل واد لحناً طروباً نبيلاً .. ترى ماذا يكون حال العالمين لو لم يرسلك الله بالحق رسولاً ...؟ من كان ينقذ الإنسانية من الجهل والجاهلية ، والضراوة والوحشية ، والرق والوثنية ..؟؟ من كان يحيي القلوب الخامدة من سباتها ، ويوقظ العقول الراقدة من مواتها ..؟؟ من كان يملأ قلب الزمان بدعوة الحق والإيمان .. ومن كان يشنف سمع الزمان بالذكر والقرآن ..؟؟ .

محمد مصطفى العالم

من أقباس النبوة :

قصة الجن

« وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين » . (قرآن كريم)

هنالك في «الشعب شعب[1] الحجون» على جبل مشمخر الذرى
يطوّق مكة مثل السوار يردّ الأذى إذا ما عرا
بناه وسوّاه عزم الإله … منيعاً — ليحمي أم القرى
مغارٌ رهيبٌ به جِنّةٌ … تنامت عن العدّ لن تحصرا
يلوحون خلف سياج الظلام … تهاويل تغمر دنيا الورى
عمالقة يتلوث الرياح … فتجري ذلولاً تحت الثرى
بأجفانهم وهجٌ مفزع … كأن الجحيم بها سُعّرا
من النار أجسامهم صوّرت … كما أن إبليس قد صوّرا
تراهم يؤمّون مهد الغيوب ليلتمسوا فيه ما سُتّرا
وآناً يغوصون طيّ البحار ليستخرجوا الدر والجوهرا
ويمشون فوق بساط الأثير … وحيناً يسيرون فوق الثرى

* * *

ومن بينهم قام جنّيٌّ خطيبٌ … من الصخر شادوا له منبرا
وراح يقص لهم ما رآه … ويشرح في حيرةٍ ما جرى
وما راعه غير أن السماء … أرادت به اليوم ما أنكرا
تردّى فردّته عن غيبه … وأقصته حتى اختفى ما يُرى
وبالأمس كان له مجلسٌ … إذا حلّ فيه فلن يُزجرا
فماذا أريد به في الخفاء … فلا بُد في الكون أمرٌ طرا
وولول يبكي على أمسه … ويندب حظاً له أهدرا

* * *

ولما انتهى قال : من منكم … يفتش في الكون مستفسرا
فهب من الجنّ ذو خبرةٍ … وطار مع الريح مستخبرا
وفي قفرةٍ قد رأى عابداً … تهجّد في الليل واستغفرا

(1) شعب الحجون : علم على موضع وقعت فيه القصة بمكة ..

(البقية على صفحة ٢٩)

وضع العقل فى غير موضعه

من وحى مقال أستاذنا الجليل الدكتور أحمد أمين بك فى العدد الماضى

للدكتور زكى نجيب محمود

اكتبى إلىّ ، فما أنا إلا مخلوق ضعيف ، يفرح بالرسائل تأتيه ، فرحة الأطفال بالحلوى .

اكتبى إلىّ ألف مرة ، وارفعى الضوابط عن سن القلم ؛ خففى بعض الشىء من الضوابط والحجُم والشكائم التى تكبحين بها القلم إذ تكتبين ، لعله ينساب انسياباً ، فيمتزج بانسيابه قلبٌ بقلب وروح بروح .

اكتبى إلىّ ، فإنى أقرأ الرسالة وأطويها ، ثم أقرؤها ثانية وأطويها ، ثم أحفظها فى مكتبى ، لأعود إليها بعد أيام ، أو بعد ساعات ...

وقد عدت إلى رسالتك لأقرأها مرة أخرى وأطويها ، حين أحسست فى القلب خفقة غامضة تناديني ؛ لكنى لم أكد أمسها بأصابعى ، حتى وسوس لى العقل بالتأنيب ، الذى ما انفك يوسوس لى به كلما زت من نزوات قلبى : بأنى لا تتحدث حديث القلوب ، فهذه لغة الشباب ، ولم تعد شاباً ... إن من سلخ من دهره ما سلختَ من دهرك ، خليق به أن ينظر إلى الأشياء نظرة العقل لا نظرة الهوى .

وخفقان القلب — عند العقل — اضطراب فى دورة الدم ؛ وهذا الخطاب — عند العقل — ورقة عليها نثار من مداد !.

هكذا همس لى العقل عندما عدتُ إلى رسالتك أقرؤها ، فارتعشت أصابعى ، وبردت دمائى ، وتندى جبينى بقطرات باردة ، لأنى رأيتنى عندئذ تائهاً سخيفاً ، قد أفلت زمام عقلى من يدى ، وأسلمت نفسى لما يشبه نزَوات الشباب ؛ فأعدت الرسالة مكانها ، ليرضى العقل عنى ، وعرفت بعدئذ كيف أسكت القلب وأصرفه عن سخافات الصغار .

لماذا أضعُ العقل فى نزوات الفؤاد ؟ .

لا ، عودى بربك فاكتبى إلىّ ؛ فإن كان وضع الهوى فى موضع العقل عيباً ، فكذلك وضع العقل فى موضع الهوى .

* * *

لكن أين يكون موضع العقل ، وأين يكون موضع الهوى ؟ هذا هو السؤال الذى تزاح بجوابه مشكلات لا أول لها ولا آخر ، فلو تحدد لكل منهما نطاقه ، انحسمت أسباب الخلاف ، أو إن شئت دقة فقل إنه لو تحدد لكل منهما نطاقه ، انحسمت أسباب الغضب عند الناس حين يقوم بينهم خلاف .

فأولاً : لن يكون بين الناس اختلاف فى مسائل الهوى ، لأن الأهواء شخصية ذاتية بحكم تعريفها ، وما هو ذاتى بطبيعته لا يكون موضعاً لجدال ، فإذا شعرتُ بالبرد ولم أشعر به ، وإذا أحسستَ ألماً ولم أحسه ، وإذا استحسنتَ طعاماً ولم أستحسنه ، لم يكن هنالك ما يبرر أن نعترك أو نصطرع ، فحالك خاص بك ، وحالى خاص بى .

وثانياً : قد ينشأ بين الناس اختلاف فى مسائل العقل ، لكنه اختلاف يستحيل أن يؤدى إلى غضب أو حقد أو قتال ، فإذا رأيتَ مثلاً أن الضوء يسير فى موجات ، ورأيتُ أنه جسيمات تنبثق نفثات متتابعة بينها فواصل ، وإذا رأيتَ أن الخطين المتوازيين لا يلتقيان مهما امتدا ، ورأيتُ أنهما يتلاقيان فى اللانهاية ، وإذا رأيتَ أن الصحراء يمكن إخصابها ورأيتُ استحالة ذلك ، لم يكن

هنالك ما يبرر أن تعترك أو تصطرع ، إلا اعتراك الحجة واصطراعها ، وما سمعنا قط أن عالمين من علماء الرياضة أو العلوم الطبيعية قد انتهى بهما اختلاف الرأى إلى مبارزة بالسيف ، ليكون الحق للغالب .

إنما ينشأ الغضب بين فريقين ، وينشأ الحقد ، وينشأ العراك والقتال ، حين يختلط نطاق العقل بنطاق الأهواء الشخصية ، فتُخضع مسائل الهوى لأحكام العقل ، وتظل فى جدال يستحيل — بطبيعة الحال — أن ينتهى ، لأن الأهواء لا تنتقل من شخص إلى شخص بالحجة ، إنما تنتقل بالإغراء ، فإن لم يُجْدِ إغراء ، فلا سبيل إلى نقلها بالإقناع ! ثم يستحيل أن يخلو اختلاف الناس فى مسائل الأهواء من الغضب وثورة النفس ، لأن أهواءك متصلة أوثق صلة بذاتك ، فمن أنكرها عليك ، فقد أنكر عليك وجودك كله وكيانك كله .

أعود فأقول إنه لو تحدد لنا على وجه الدقة أين يكون موضع العقل ، وأين يكون موضع الأهواء ، لانحسمت كل أسباب الغضب بين الناس حين ينشأ بينهم خلاف ، لأنه لا غضب حين يكون الخلاف فى مسائل العقل ، ولأنه لا وجه لمناقشة حين يكون الخلاف فى مسائل الأهواء الذاتية .

بل إننا إذا حددنا على وجه الدقة ، أين يكون موضع العقل ، وأين يكون موضع الهوى ، لما كان سبيل لاختلاف المرء مع نفسه ، كهذا الخلاف الذى دب بين عقلى وقلبى حين هممت بقراءة الخطاب بدافع من القلب ، وأبى علىّ العقل ذلك لما فيه من سخافة ظاهرة ... فإذا كنت مثلاً بصدد قياس البعد بين الشمس والأرض ، فلا يجوز لهواى الشخصى أن يتدخل فى أمرى ، بحيث يقول لى : اجعله كذا ميلاً واخلص من الإشكال ، وكذلك إذا خفق قلبى لهذا الخطاب وأردت تلاوته مرة بعد مرة ، فلا يجوز لعقلى أن يتدخل فى الأمر قائلاً : إنه لا ينبغى لك أن تحس هذا الإحساس إزاء ورقة انتثرت عليها قطرات من مداد .

لكن الناس يخلطون بين نطاق العقل ونطاق الأهواء ، بل إن الفرد الواحد يخلط بينهما ، فيعترك الناس فريق مع فريق ، ويعترك الفرد عقله مع قلبه

• • •

ولو جاز لنا أن نقول إن ميدان العقل هو ميدان العلوم على اختلاف أنواعها ، فهلاً يجوز لنا أن نقول كذلك إن ميدان الأذواق الشخصية هو الفنون على اختلاف صنوفها ؟ أظن ذلك .

فموقف العالم إزاء جبال الهملايا ، هو أن يصف صخوره ويقيس ارتفاعه وما إلى ذلك : حقائق لو خالفته فى واحدة منها ، لم يشعر فى نفسه بدافع لمبارزتك بالسيف ، واكتفى بمطالبتك أن تسافر إلى الهملايا كما سافر ، وتصفه أو تقيس ارتفاعه كما وصف أو قاس .

أما موقف الشاعر أو الفنان بصفة عامة إزاء الهملايا ، فهو أن يحس إحساساً خاصاً ، فيرهب جبروت الطبيعة مثلاً ، أو يحب الإقامة فى غابات السفوح هناك ، وما إلى ذلك : إحساسات لو خالفته فى واحد منها ، لم يكن ثمة سبيل إلى اتفاق بينكما ، فإذا أحس هو جبروت الطبيعة بحيث عبدها ، وإذا جئت أنت فأحسست إزاء الطبيعة نفسها بالاستهزاء والاستخفاف ، فقد يؤذَى فى شعوره إيذاء يدفعه إلى حمل السلاح ، فإما خشعتَ معه لما خشع له ، وإما قاتلك أو قاتله .

وليس كل من يحس إحساساً خاصًّا إزاء شىء يخافه أو يحبه بقادر على إخراج هذا الإحساس فى كلمات إن كان أديباً ، أو فى ألوان إن كان مصوراً ، أو فى حجر أو برونز إن كان نحاتاً ، أو فى أصوات إن كان موسيقياً ... على أنه لا يجوز لك فى كلتا الحالين — فى حالة قدرة صاحب الإحساس على التعبير الفنى وحالة عدم قدرته — أن تجادله فيما أحس ، وإلا كنت بمثابة من يضع العقل فى موضع الهوى ؛ كل ما لك من حق فى هذا الصدد هو أن تذوق مذاقه أو لا تذوقه ، وكفى الله المؤمنين شر القتال .

ومن ثم كان أكبر اختلاف بين العلم والفن ، أى بين

الحالات التي يجوز لنا أن نحتكم فيها إلى العقل والتي لا يجوز فيها ذلك ، هو أن الأولى عامة يشترك في إدراكها الناس جميعاً لو أتيحت لهم وسائل الإدراك ، والثانية خاصة يدركها صاحبها وحده ؛ ولست أريد القارئ أن يظنني مدافعاً من الاحتكام في النقد الفني إلى الذوق دون العقل ، لأني على نقيض هذا الرأي ؛ فأنت تنتج الفن تبعاً لذوقك وهواك ، وتستمتع بفن غيرك تبعاً لذوقك وهواك أيضاً ، لكنك إلى هنا لست بناقد . أما إذا بدأت تنقد ، فقد بدأت تناقش صاحب الفن في فنه ، أعني أنك قد أهملت الجانب الذاتي الخاص في فنه ، لأن ذلك يستحيل بطبيعته أن يكون محلاً لمناقشة بينكما ، وأخذتَ من فنه إطاره أو بناءه أو هيكله ، فهذا وحده ما يصح أن يكون عاماً بينك وبينه ، وبالتالي ما يصح أن يكون محلاً للمناقشة والنقد .

●●●

إني حين كتبت مقالي « عندما أطللت من النافذة » لأسوقه مثالاً على سبيل التجربة للاتجاه الحديث في الأدب — بل في الفنون عامة — وهو أن يسجل الأديب خواطره كما تقع له في مجرى شعوره بغير تفرقة بين ما يسميه الناس فكرة جليلة تستحق التسجيل ، وما يسمونه فكرة وضيعة لا تستحق الذكر — لم آخذ موقف المدافع عن هذا المذهب ، لكني أردت عرضه وتطبيقه على سبيل التوضيح والتمثيل .

وتفضل أستاذنا الجليل الدكتور أحمد أمين بك فنقد هذا المذهب في مقال بالعدد الماضي من « الثقافة » — لكنه جعل بعض نقده قائماً على أساس أن الخواطر السابحة كما اتفق ، لا تتفق مع العقل ، لأنها لا تفرق بين ما هو شريف وما هو وضيع من الخواطر ، وأنها تهم علم النفس ، لأنها تصور نفسية الكاتب ، أكثر مما تهم الأديب .

وإني وإن كنت لا أتصدى للدفاع عن هذا المذهب الأدبي بصفة عامة ، إلا أني لا أرى أن هذا الجزء من نقد أستاذنا أحمد أمين بك يهدمه ، لأننا إن قلنا لأنصاره : إنكم لا تفرقون بين الشريف والوضيع من الخواطر ، كان جوابهم حاضراً على أطراف ألسنتهم ، وهو أن الرفعة والضعة من القيم الذاتية ، التي لا سبيل إلى المناقشة فيها كما تناقش المسائل العقلية ؛ إننا نصور لك نفوساً كما هي على حقيقتها ، فلك أن تحب هذه النفوس من أوصافها ، أو تمقتها لأنها من نوع لا يعجبك ولا تميل إليه ؛ وهل تقول للكاتب المسرحي : لا تصور في مسرحيتك إلا الشخص العظيم ؟ .

إن غاية ما ينشده الأديب بأدبه أن يصور نفوساً : نفسه أو نفوس غيره في ضوء خبرته ، وكلما دنا تصويره من الحبكة التي تجعل النفس المصوَّرة حية واضحة المعالم ، كان أدنى إلى الكمال في فنه ، ولا عبرة بعد ذلك أبداً للقيمة الخلقية لما صوّر ، فلا تفاوت في القيمة الفنية بين تصوير الكريم وتصوير البخيل ، أو بين تصوير الشيطان وتصوير القديس . المهم دائماً هو صدق التصوير . وكما أنه لا وجه للاختيار على أساس خلقي بين شخص وشخص عند التصوير الفني ، فكذلك لا وجه للاختيار بين خاطر وخاطر على هذا الأساس الخلقي .

وكذلك إن قلت لأنصار هذا المذهب : إن خواطركم السابحة في مجرى شعوركم تهم علم النفس أكثر مما تهم الأديب ، كان جوابهم هنا أيضاً على أطراف ألسنتهم ، لأنهم سيقولون : إنها تهم الأديب وعالم النفس في وقت واحد ، لكن من وجهين مختلفين : فهي عند الأديب صورة فذة فردة حية ، وهذا كل ما يريد ، وهي عند عالم النفس تمثيل يستطيع أن يضيف إليه أمثلة أخرى من الأدب أو من الحياة الواقعة ، ليستخرج ما يريد استخراجه من قواعد وقوانين .

لكن أستاذنا الجليل الدكتور أحمد أمين بك يؤثر أن يكون الأديب مهتدياً بعقله فيما يكتب ، فيختار الطيب ويدع الخبيث ، ويريد أنصار هذا المذهب ألا يكون الزمام هنا في يد العقل ، لأنه ليس من اختصاصه ، كما يقول أصحاب الدواوين الحكومية ؛ فهل هم على حق في هذا التقسيم ؟ .

الحق أني لو استطعت أن أضع حداً لاختصاص العقل في شئوني ، لما عانيت في حياتي الخاصة كثيراً جداً مما أعانيه من صراع بيني وبين نفسي ؛ وقد صدَّرتُ لك المقال بمثل يسير من هذا الصراع .

زكي نجيب محمود

مجمع فؤاد الأول للغة العربية

فى خمسة عشر عاماً

كلمة ألقيت فى افتتاح المؤتمر السادس عشر لمجمع فؤاد الأول

للدكتور إبراهيم مدكور

— ١ —

فى الحاضر قدر كبير من الماضى ، وهما معاً يمهدان للمستقبل ويتزجان به ، ومجموعة ذلك كله ما نسميه الزمان ، مقياس الحركة والتطور ؛ وأوضح ما تكون هذه الأطراف اختلاطاً فى لغة العلماء والباحثين ، ومع هذا فإنهم لا يترددون أن يتصوروا فى مجرى الزمن سداً يفصل بين الماضى والحاضر ، وجسراً يلقون منه نظرة إلى الخلف ، فيتبينون ما كان فى الأمس وما يتوقع أن يكون فى الغد .

وعلى هذا السنن نقف اليوم من المجمع اللغوى ، لنستعرض فى إجمال ما كان من أمره فى الخمس عشرة سنة الماضية ، وفى هذا الاستعراض ما يعيننا على رسم خطة أو تدارك بعض ما فات . ولا شك فى أن هذه الفترة لا تكاد تذكر فى حياة المجامع العلمية واللغوية . وكم يذكرنى موقفى هذا بحديث تلك الساعة الكبرى التى أهداها كلبير (Colbert) للمجمع الفرنسى كى يقيس بها الزمن جماعة الخالدين . فكانت مثار تندر وفكاهة ، إلا أن سنواتنا المعدودات ملأى بالحوادث والآثار .

هى بالدقة خمسة عشر عاماً ونحو أحد عشر شهراً ، وقد أبت الحرب الأخيرة إلا أن تطغى على جزء منها ، فحرمت الأعضاء المصريين من مشاركة زملائهم الشرقيين والمستشرقين خلال خمس سنوات متلاحقة ، ومع هذا طرأ على المجمع فيها أمور لها شأنها . فعدل مرسوم إنشائه غير مرة ، وزيد أعضاؤه من عشرين إلى ثلاثين ، ثم إلى أربعين ، ونما عدد محرريه وكتابه نمواً ملحوظاً ، وغُيِّر نظام انعقاده ، فبعد أن كان يجتمع بكامل أعضائه لمدة شهر أو يزيد ، قسم إلى مجلس يقتصر على المصريين ويعمل معظم السنة ، ومؤتمر يشمل جميع الأعضاء ، وينعقد سنوياً أربعة أسابيع متوالية على الأقل . وإذا كان المجمع قد بلى غير مرة فى هذه الفترة القصيرة بالهجرة من مسكن إلى مسكن ، وكلها فى الغالب غير كافية ولا ملائمة ، فإنا نرجو أن يعد له قريباً مبنى خاص يحمل شارته وتتركز فيه تقاليده .

•••

بيد أن هذا التغيير والتعديل لم يقف سيره ولم يعق سبيل عمله ، وامتد نشاطه إلى نواح شتى أهمها أبواب أربعة : تشجيع الإنتاج الأدبى وجمع المصطلحات العلمية ، وتيسير اللغة متناً وقواعد أو كتابة ورسم حروف ، ووضع بعض المعاجم اللغوية والفنية .

فأما تشجيع الإنتاج الأدبى فلم يتجه إليه المجمع فى بدء حياته ، ولم ينص عليه فى صراحة مرسوم إنشائه ، مع أنه من أعمال المجمع الفرنسى البارزة . وقد قضى مجمعنا نحو عشر سنوات وليست له جوائز أدبية معروفة ، وإنما بدأ بالحكم فى مسابقات دعت إليها وزارة المعارف ، وحاول توزيع جوائز تبرع بها بعض الخاصة . ولكنه لم يلبث أن اتجه نحو تشجيع الإنتاج الأدبى بوسائل مختلفة ، فتوج بعض الأشخاص أو الكتب تتويجاً أدبياً ، ومنح ما منح من جوائز مالية . وقد انتهى به الأمر إلى تقرير هذا المبدأ ورسم طرائق تطبيقه ، ففى ميزانيته مبلغ معين للإنتاج الأدبى ، وله جوائز يعلن عنها سنوياً ويحدد موضوعاتها وشرائطها فى وضوح ودقة .

وكم حفزت هذه الجوائز من همم ، وأثارت رغبة البحث والكتابة ، وربطت المجمع بالناطقين بالضاد فى مختلف البلاد ، فلم تقف الآثار الأدبية التى وصلت إليه عند الإنتاج المصرى

وحده ، بل جاوزته إلى إنتاج الأقطار الشقيقة وبلاد المهجر في جنوب أمريكا . ومن بين هذه الآثار ما أضاف إلى الأدب المعاصر ثروة يعتد بها ، وبدا جديراً بالتقدير والتنويه .

وإذا كان البحث الأدبي مما يمكن أن ترسم له خطة وتحدد غاية ، ويعالج بشيء من المران والدربة ، فإن الشعر والقصة في أساسهما فيض الخاطر ووحي السليقة ، ولذلك قد يصيبهما أحياناً ضرب من الجدب والإفلاس . هذا إلى أن الجوائز الأخرى قد تطغى على الجوائز المجمعية بما اشتملت عليه من حفز وإغراء أتم ، فلا يصادف المجمع دائماً ذلك الإنتاج الأدبي الممتاز الذي ينشده . ولو حظي بتبرعات وهبات مالية ذات شأن ، لتحرر من قيود الميزانية السنوية ، وأفسح الأجل لمسابقاته ، فتجيء ثمارها أطيب وأقوم ، وما أجدره أن يعالج ذلك بوسيلة أو أخرى . خصوصاً وقد اتجه أخيراً نحو باب خليق به من أبواب الإنتاج الأدبي ، ألا وهو المساهمة في نشر النصوص القديمة وإحياء الآثار الأدبية القيمة ، وما أحوج هذا إلى زمن وأناة .

* * *

وأما المصطلحات فقد كانت شغل المجمع الشاغل منذ نشأته إلى اليوم ، استدعى من أجلها الخبراء ، وعقد اللجان والجلسات ، والمتتبع لمحاضره يلحظ أنها تمثل الجزء الأكبر من إنتاجه . ولا غرابة فقد نص مرسوم إنشائه على أن الغرض الأول من أغراضه « أن يجعل اللغة وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر » . لهذا لم يقنع بالمصطلحات العلمية ، بل ضم إليها ألفاظ الحضارة ، وقطع في ذلك كله شوطاً بعيداً .

ففي أضابيره وسجلاته عشرات الآلاف من المصطلحات العلمية في الطب والطبيعة ، وعلوم الأحياء والكيمياء ، والرياضة والموسيقى ، والتاريخ ، والفلسفة ، والقانون ، والاقتصاد ، إلى غير ذلك ، كما أقر آلافاً أخرى من ألفاظ الحضارة وأسماء المخترعات الحديثة . وقد نشر بعضها متفرقاً فيما نشر من مجلة المجمع ومحاضره ، وظهر منها عام ١٩٤٢ مجموعة مستقلة تشتمل على ما يقرب من أربعة آلاف مصطلح علمي وفني ، هي جملة ما أقر في الدورات الست الأولى .

وإذا كان المجمع قد تردد إزاء هذه المصطلحات زمناً : أيخترع أم يسجل ؟ أيأخذ من العامية أم يرفضها رفضاً باتاً ؟ أيعرب من اللاتينية أم يحيي قديماً تراكمت عليه الأنقاض ؟ أيقنع باللفظ الأجنبي ومقابله العربي أم لا بد من قسط من التوضيح والتعريف ؟ وإذا كان قد تردد في هذا كله ، فإن منهجه فيه الآن استقر على نحو ما . فهو يؤمن بأن مهمته الأولى أن يسجل ما اصطلح عليه العلماء والمختصون من ألفاظ ودلالات ، ويقرر أن العامية ليست بعيدة عن الفصحى كل ذلك البعد ، وأن كثيراً من ألفاظها عربي الأصل وإن فقد بعض اعتباره ، ومن الخير أن يرد إليه هذا الاعتبار ، ويأخذ بالتعريب كلما مست إليه الحاجة ، متحاشياً حوشي الألفاظ ومستهجنها ، ويرى من الضروري أن يقرن المصطلح بقول شارح يوضحه ويكشف عن مدلوله ، خصوصاً وفي ذلك تمهيد لازم للمعاجم اللغوية والفنية المنشودة .

ولعل المصطلحات وألفاظ الحضارة هي الباب الأول الذي نفذ منه النقد إلى المجمع والمجمعيين ، فكانت فرصة مواتية لألوان من الدعابة والفكاهة . وما حديث « الإرزيز ، والشاطر والمشطور بينهما كامخ » عنا ببعيد ، وإن لم تدخل هذه فعلاً في مناقشات المجمع وقراراته ! ونحن لا ننكر أن من بين ما أقره المجمع قديماً من مصطلحات ما قد يعيد النظر فيه اليوم ، ذلك لأنه لم يتم على نحو شامل ، أو لأن المصطلح العلمي نفسه في تغير وتبدل ، شأن الألفاظ الحديثة المختلفة . هذا إلى أن مجمعنا اللغوي تنقصه أداة ضرورية من أدوات إعداد المصطلحات العلمية ، فليس بجانبه تلك المجامع الأدبية والعلمية والفنية التي توجد إلى جانب المجمع الفرنسي مثلاً . ومما يلفت النظر أن في وزارة المعارف مشروعاً يرجع إلى عدة سنوات ، ويرمي إلى إنشاء معهد مصري عام (Institut) مكون من خمس شعب : علوم ، وطب ، وآداب ، وفنون ، وسياسة واقتصاد ، إلى جانب

(البقية على صفحة ١١)

يقول الطبيب :

التطعيم ضـــد السل

للدكتور مصطفى الديوانى

صدق من قال إن الناسَ أعداء ما جهلوا ، حتى ولو كان فيه صالحهُم ومنفعتهم . ألم يأتك حديث تلك الضجة التى اجتاحت المدينةَ عندما سمع أهلوها بوصول أفراد البعثة النبلاء الذين جاءوا من أقصى الشمال ليؤدوا واجباً إنسانياً وهو تحصين أفراد هذه الأمة المنكوبة الحظ ضد مرض من أشد الأمراض فتكا بالأجسام ، وأعنى به مرض السل ؟ فى اعتقادى — وفى اعتقاد كل عاقل — أن هذه الضجة التى تغلغلت فى جميع الأحياء — سواء الراقية منها والمتوسطة — ليس لها ما يبررها . فلو كان ولاة الأمور يعلمون أن هناك أىّ خطر من هذه الحقن لما عملوا جاهدين على استحضار هذه البعثة . وشئونكم الصحية — بحمد الله — فى أيد أمينة ، ولا نعتقد أنها أقل حرصاً منكم على سلامتكم وسلامة فلذات أكبادكم .

ولقد عم استعمال هذا الطعم فى بلاد الدنمرك والسويد والنرويج منذ عام ١٩٤٠ ، وحُقن به منذ ذلك الوقت حتى عام ١٩٤٨ ما لا يقل عن مليون شخص لم نسمع أن أحدهم أصيب بضرر بسبب هـذه الحقن ... ولما تيقن القومُ هناك أن الرسالة قد نجحت تماماً ، وأن عليهم أن يزحفوا إلى بقية أنحاء العالم لينقذوا سكانه من براثن هـذا الداء الوبيل بدأوا زحفهم الزاهى المنتج نحو بلدان أوربا ، فقاموا بفحص وتحصين معظم سكان بلاد وسط أوربا وجنوبها ! والذى يحدث تماماً فى هـذه الحالة أنهم يُجرون كخُطوة أولى اختباراً خاصاً هو اختبار التيوبركلين ، وهو الذى يثبت إذا كان الطفل يتمتع بمناعة ضد مرض السل أم لا ؟ فإذا كان تفاعل التيوبركلين إيجابياً فإن الطفل لا يُحقن بالطعم الواقى . أما إذا كان التفاعل سلبياً فإن هـذا يدل على أن الطفلَ مُعرَّضٌ للإصابة بالمرض ، وفى مثل هـذه الحالة يجب حقنُه .

ويعمل اختبار التيوبركلين فى الوقت الحاضر بطريقة سهلة جداً ، وهى وضع قليل من مرهم يحتوى على مادة التيوبركلين وسط قطعة من الشمع اللاصق وإلصاقها على أى مكان من جسم الطفل كصدره أو ذراعه مثلاً ، ثم إزالتها بعد أربع وعشرين ساعة فأكثر ، وتسمى هـذه الطريقة طريقة مورو . أو قد تحقن المادة بالجلد نفسه فيظهر التفاعل الإيجابى بعد ثلاثة أيام أو أربعة . وهذه تسمى طريقة مانتو . وفى الحالات السلبية ، أى التى لا يحدث فيها أى تغير فى الجلد ، يجب إجراء عملية التطعيم الواقى ، وهى فى حد ذاتها بسيطة جداً لا يشعر الطفل خلالها بأى ألم إلا وخزة إبرة دقيقة وسطحية جداً ، لأن المفروض أن تحقن المادة فى الجلد نفسه لا تحته ، بمقدار لا يزيد عن ١/١٠ من السنتيمتر المكعب ، وهـذا لا يحدث أكثر من بقعة حمراء قطرها حوالى ثمانية مليمترات ، لا تلبث أن تختفى خلال نصف ساعة . وبعد ثلاثة أسابيع أو أربعة تظهر مكانها بقعة حمراء تأخذ هى الأخرى فى الاختفاء تدريجياً ، وقبل أن تختفى تماماً يكون الجسم قد تحصن بإذن الله ضد مرض من أشد الأمراض فتكا بالبشرية ، أى أنه لا ألم هناك ولا خطر من جراء هذه الحقن . فالمرحلة سهلة ميسورة مأمونة الجانب ، والاختبار البدئى يستبعد الأشخاص الذين يتمتعون بالمناعة الطبيعية .

وقد أثبتت التجارب الواسعة أن لا ضرر هناك إطلاقاً ، حتى فى حقن الذين عندهم إصابة درنية ظاهرة أو غامضة ، وهذا سؤال طالما وجهه إلىّ الوالدون ، فهم يقولون :

« وما أدرانا إذا كانت بطفلنا إصابة خافية ؟ ألا يكون فى حقنه بالطعم خطر كبير عليه ؟ » . ولقد سبق أن أجبت على هذا السؤال جوابين : أولهما أننا نختبر الطفل أولاً ، لأن التفاعل الإيجابى يثبت وجود مناعة اكتسبت فيما مضى نتيجة إصابة ضئيلة سابقة تغلب الجسم عليها . وثانيهما أنه حتى لو كان الطفل مصاباً — لا قدر الله — فإن حقنه بالطعم لا يضر به إطلاقاً .

وقد يخطر على بال القارئ سؤال عن : أى الأعمار أحق بالاستفادة من الطعم الواقى . أهو الطفل أم الشخص البالغ ؟ وللإجابة على ذلك أقول مؤكداً : إن الشخص البالغ لا يقل عرضة للسل عن الطفل . بل بالعكس إن مقاومته للإصابة الأولى واهية سرعان ما تنهار فيقع المريض الشاب فى الميدان صريعاً فى فترة أقصر من التى تستغرقها جرثومة السل فى قهر المريض الصغير . فإذا ثبت بالفحص البدنى بواسطة التيوبركلين أن الشاب أو الشابة خاليان من المرض ، فيجب حقنهما بأسرع ما يمكن . وإذا شئنا المفاضلة بين أيهما أحق بالتطعيم من غيره : الطفل أم الشخص البالغ . فإنى أقول بكل قوة : إن الشخص البالغ يجب أن يكون المفضل . فإذا وجدت أيها القارئ الكريم أن تفاعلك للتيوبركلين سلبياً ، فلا تتردد فى تقديم نفسك لهؤلاء الزملاء الأبرار الذين جاءوا إلى عتبة منزلك ليمنحوك الوقاية التامة ضد هذا الداء القاتل .

سامح الله هؤلاء الذين نشروا بذور الشائعات الضالة ، فأثاروا الرعب والفزع فى نفوس كان يجب أن تطمئن وتغتبط وتفرش الزهور والرياحين فى طريق هؤلاء السادة الذين أتوا إلينا من أقصى الشمال حاملين أكبر هدية يمكن أن يمنحها الأخ إلى أخيه ؛ فبدل أن نهلل ونصفق انتابتنا موجةٌ من الفزع الذى لا مبرر له ، والتى يبعث مجردُ ذكرها أو تذكرها شعوراً بالخيبة والخجل . فنحن أمة تَشَجَّعَ أهلوها أو كادوا ، وكان أملنا كبيراً على الأقل فى الطبقات المثقفة ، وهى التى كانت أول من رفع لواء الخوف والهزيمة مع الأسف الشديد . فلنَنْسَ ما فات ، ولنقبل على التطعيم ضد السل بقلوب مطمئنة ؛ فوالله ما ثبت لى أنّ ابنّ آدم عدوُّ شىءٍ إلا بعدما شاهدتُه ولمستُه خلال موجة الفزع الكاذب التى حدثت أخيراً .

فاتقوا الله فى أنفسكم وفى أولادكم ، واعلموا أنّ أولى الأمر منكم لا يبغون لكم إلا نفعاً .

دكتور
مصطفى الديوانى

مجمع فؤاد الأول للغة العربية

(بقية المنشور على صفحة ٩)

المجمع اللغوى ، ولم يقدر له أن يظهر إلى حيز الوجود بعد ، على الرغم من تحريكه غير مرة ، وفى قيام بعض الجمعيات العلمية والأدبية الحرة ما يمهد له ويحفز إليه .

وقد تساءل المجمع فى وقت ما : أيقنع بجمع المصطلحات وتسجيلها ، أم يحاول أن يمنحها صفة إلزامية ويبحث عن من وسائل قاهرة تحمل على استعمالها والأخذ بها ؟ ومن حسن الحظ أنه عدل عن ذلك عدولاً باتاً ، تاركاً الأمر حرية الكتاب والباحثين ، ومؤمناً بأن فى إقراره لطائفة من المصطلحات ما يمنحها قوة وسلطاناً فوق ما كسبت من الاستعمال العادى . ولكن مما يؤسف له أن قسطاً كبيراً من هذه القرارات لا يزال نزوة مهملة ، فإنه لم ينشر شىء فى استقلال من المصطلحات العلمية والفنية التى أقرها المجمع بعد تلك المجموعة التى نشرت عام ١٩٤٢ ، وقد أبطأت الحرب الأخيرة بمجلة المجمع وسلسلة محاضره بطئاً شديداً ، فلم يظهر من كل منهما إلا الأعداد الخمسة الأولى ، ولا تزال هناك عشر دورات فى انتظار النشر . وواجبنا أن نعجل بذلك ونتحت فيه الخطى ، كيفما كانت الصعاب التى تصادفنا فى الطبع ووسائله . ولئن لم تسعفنا المطبعة الأميرية فلنعدل عنها إلى مطبعة أخرى ، كى نخرج إلى التداول ما انتهينا إليه من قرارات ، ونضع أمام القراء ما عالجه المجمع من بحوث . وحبذا لو بوبنا مصطلحاتنا العلمية ونشرنا كل باب منها على حدة . إنا إن فعلنا يسرنا أمرها للطلاب والباحثين ، وأفدنا مما يمكن أن يوجه إليها من نقد أو ملاحظة .

ابراهيم مدكور

كيف ؟

أنبــــاء علمية متفرقة

للدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن

الفضاء بين النجوم :

دعى الأستاذ بنجت ستر جرن الدانماركى إلى لندن ليلقى سلسلة محاضرات فلكية فى جامعتها ، فتكلم عن توزيع المادة فى الفضاء بين النجوم ؛ إذ أن من المعلوم أن الفضاء لا يخلو عادة من ذرات تراب أو غبار تتجمع ، تكون سحبا حيكة جداً تنتشر إلى مسافات شاسعة ، بحيث تحجب ضوء النجوم القوى فيما وراءها . ويرى الدكتور بنجت أن كتلة تلك المادة المنتشرة تعادل فى مجموعها كتلة المادة المتركزة فى النجوم ذاتها . ويحوى السنتيمتر المكعب من الهواء الجوى ٣٠ مليون مليون مليون جزئ من الهواء ، أما فى الفضاء الذى بين النجوم فقد لا توجد فى السنتيمتر المكعب الواحد سوى بضعة جزيئات قليلة . وهذا يدل على قلة كثافة المادة ، ولكن ضخامة حجمها يجعل كتلتها تعادل كتلة النجوم جميعاً . ومن الطريف فى هذا الشأن أن النظريات الفلكية الحديثة تعتبر دائماً أن النجوم ، ومنها الشمس ، تكونت أصلاً ، من مادة منتشرة تجمعت شيئاً فشيئاً بفعل تجاذب ذراتها بعضها إلى بعض ، ثم إن المادة بعد تجمعها ارتفعت حرارتها شيئاً فشيئاً بالاحتكاك والتضاغط حتى أصبحت متوهجة ترسل الضوء والحرارة فى الفضاء . والنجوم التى نعرفها لا تزيد كتلتها كثيراً على ٥٠ مرة قدر كتلة الشمس ، وليس من بينها ما تقل كتلته عن نصف كتلة الشمس . والمفهوم أن النجم إذا قلت كتلته عن نصف كتلة الشمس لا تصل حرارته إلى الدرجة التى تجعله متوهجاً مضيئاً بنفسه ، بينما إذا زادت كتلته عن كتلة الشمس ٥٠ ضعفاً فإن حرارته تكون من الشدة بحيث ينفجر النجم فلا يصبح متماسكاً ، وتتوزع مادته فى الفضاء . ويشاهد العلماء انفجار النجوم وتحطمها أحياناً .

فالمادة التى توجد فى الفضاء قد تنتج عن تفجر النجوم ، ومنها تنشأ النجوم ، فدراستها لها أهمية فى زيادة معرفتنا بهذا الكون الواسع الشاسع المترامى الأطراف الذى نلصق فوق ظهر أحد كواكبه الثالثة الخامدة .

تحويل مجرى الأنهار :

يشاع أن روسيا تقوم الآن بتحويل مجرى نهر الأوب ونهر الينسى من الشمال إلى الجنوب ، حتى تتدفق مياههما نحو سهول بحر قزوين وبحر الخزر ، بدلاً من ضياعها فى سهوب سيريا المتجمدة فى طريقها إلى البحر المتجمد الشمالى ؛ ولا يعلم بالتحقيق نصيب هذا الخبر من الصحة . ولكن ثمة دليل من التصريح الذى أعلنته وكالة تاس رداً على إعلان الرئيس ترومان أن روسيا قد توصلت إلى إحداث انفجار ذرى فى أرضها ؛ فقد جاء فى هذا التصريح :

« من المعلوم أن الاتحاد السوفييتى يقوم بتنفيذ مشروعات إنشائية ضخمة على مقياس كبير ، من محطات للقوى الكهربائية ومناجم وقنوات وشق طرق ، مما يستدعى تحطيم الصخور بأحدث الطرق الفنية .

وقد يؤدى هذا التحطيم الذى يحدث كثيراً إلى أن يستدل عليه خارج الاتحاد السوفييتى بواسطة أجهزة الترقب الحديثة » .

فمعنى هذا أن روسيا ربما كانت تستخدم الطاقة الذرية في عمل لم يتم بشق الصخر وفتح القنوات وسط الجبال . ومما يؤكد هذا الظن أن المهندس الروسي داڤيدوف نشر أخيراً في مجلة (نيوس وربتشلاند) التي تصدر في ألمانيا بموافقة السلطات الروسية أنه وضع مشروعاً لرفع مياه نهر الأوب ونهر الينيسي إلى مستوى لا ينخفض عن أعلى نقطة في السد الجبلي الموجود في منطقة تورجاي إلا بمقدار ٥٠ متراً . ومن المفهوم بعدئذ أنه إذا أمكن تحطيم هذا السد حتى يصل إلى مستوى المياه ، أي إذا أمكن تحطيم ٥٠ متراً من الجبل في تلك المنطقة ، فإن تحويل المياه من الشمال إلى الجنوب يصبح ممكناً ، وعندئذ يمكن تعمير مناطق شاسعة في آسيا الوسطى . ويقول داڤيدوف إن من اللازم لإتمام المشروع بعد ذلك حفر حوالي ٤٠٠ كيلو متر من القنوات والترع .

وتغيير مجرى الأنهار ثابت في التاريخ . وأنهار الصين لا تزال تغير مجاريها حتى اليوم في السهل الواطئ بالقرب من الشاطئ وكذلك في انحدارها من الجبال الغربية العالية . ومجرى النيل الجاف في وادي حوف شاهد على تحول مجراه .

ويمكن للمرء أن يرى مجرى النهر الجاف ودوراته وانحرافه وتآكل الصخور بفعل تدفق المياه فيه قديماً . وهو منظر جميل جداً ولا يبعد عن شرق حلوان والمعصرة إلا ببضعة كيلومترات . ويقال إن أودية غربية كثيرة توجد حتى اليوم في الصحراء الشرقية تجاه أسوان وكوم أمبو ، كانت في الأصل مجاري سابقة للنهر ثم تحول عنها .

ولكن هذه كلها أمثلة لتحول المجرى بالعوامل الطبيعية . فهل يمكن الآن بالطاقة الذرية أو بغيرها تحويل الأنهار صناعياً ؟ ربما كان هذا فتحاً عظيماً في الحضارة والعمران ، وربما كان مجرد أراجيف الرواة والمدعاة .

المخ والحرارة :

درس العالمان تيشان وجيامورن من جامعة مينوسوتا بأمريكا مدى تحمل المخ لدرجات الحرارة العالية ، فأجريا تجارب على القطط المخدرة . فسخنا المخ إلى درجة ٤٦ر٤ مئوية ، ثم إلى درجة ٥٠° دون أن تحدث أضرار لا يمكن علاجها فيما بعد . ومن المعلوم أن عضلات الجسم تتلف إذا عرضت لحرارة عالية أكثر من ٥٠° مئوية ، وكان يظن أن خلايا المخ أقل قدرة على تحمل الحرارة . ولكن التجارب المشار إليها تثبت تساوي القدرة بين المخ والعضلات في تحمل الحرارة .

وهذا موضوع يختلف عن مسألة تحمل الجسم الحي والدم للحرارة العالية . فالدم يفقد الكثير من صفاته الطبيعية والكيميائية عند درجة حرارة أقل مما ذكر ، إنما الخلايا ذاتها تحتفظ بوظيفتها وقدرتها الحيوية .

الكهرباء في كندا :

تعنى كندا باستغلال مواردها الطبيعية عناية فائقة . وقد أمكنها في الربع قرن الأخير أن تنشئ محطات لتوليد الكهرباء من مساقط المياه قدرتها الكلية ١١ مليون حصان ، ويمكنها أن ترفع هذا الرقم في المستقبل إلى ٥٢ مليوناً . وتتضح ضخامة هذه الأرقام إذا لوحظ أن الولايات المتحدة ليس عندها سوى ٢٣ مليون حصان من القوى الكهربائية المائية ، مع أن عدد سكانها عشرة أضعاف سكان كندا . ويبلغ نصيب الفرد من القوى الكهربائية في ولاية كويبك ١½ حصان من سقوط المياه ، ومثل هذا القدر مرة أخرى من البترول والفحم والوقود الخشبي .

وتستغل كندا أيضاً موارد البترول الكائنة في ولاية ألبرتا ، وتهدف إلى أن تنقص وارداتها من البترول إلى الثلث ، بحيث يكفيها الإنتاج المحلي بعد سنوات قليلة .

إن الاقتصاد القومي السليم يقوم على ثلاثة عناصر أساسية : الخام ، والقوى ، والعقل المفكر . ونحن ننتج الخام الزراعي أو المعدني ونصدره إلى الخارج . ونستورد الفحم والبترول لتوليد القوى ، ولا نعنى بإنشاء محطات القوى عناية كافية . أما قوانا الفكرية فمشتتة في الصراع السياسي ، وما يوجه منها نحو الاقتصاد يتخذ سبيله في التجارة والعمليات النقدية التي هي ليست في الواقع عمليات إنتاج ، إنما عمليات توزيع وجني أرباح . لذلك يظن الكثيرون أن موقفنا الاقتصادي أقل متانة في الواقع مما يظهر من الموازين النقدية والحسابية التي تنشر .

إبراهيم حلمي عبد الرحمن

طعـــام الجَمَـــال

لذة المطالب في هذا المقال هي لذة المرئيات ، لأن المرأة أكثر بحثاً عن الجمال من الرجل ...

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

لقد بات في مقدور العلم يا سيدتي أن يمنحك السحر والجاذبية بتناول « طعام الجمال » ... ولكن هل هناك ما يدعى بهذا الاسم ؟!

من البديهي أنه لا يوجد طعام طبيعي أو صناعي يمكنه أن يغير من شكل أنفك أو لون أسنانك أو طبيعة أعصابك ! ولكن يوجد ذلك الطعام الذي يمدك بالعناصر اللازمة لكي تبين طلعتك في أحسن صورة ... وما أكثر ما تقدمه إليك الأطعمة المنتقاة المختارة ..! إنها تمنحك النشاط والحيوية والتوقد والبشرة الناعمة الصافية والشعر الغزير الساحر وتنشط إفرازات الغدد الحيوية التي بغيرها لا يتأتى السحر والجاذبية .. كل هذه الألوان من الجمال تعتمد إلى حد كبير على عناصر الطعام اللازمة الضرورية التي تقدم إليك الوقود لتكوين شخصيتك الساحرة . .

وهناك بالطبع عوامل أخرى تدخل الرتوش إلى صورة جمالك مثل أدهنة الشعر ومستحضرات التجميل والتمرينات الرياضية ...

ولا تتوقعي يا سيدتي أن يقدم لك الطعام معجزات الجمال إذا كنت تتناولين طعاماً مثالياً طوال حياتك ... فالطعام الصحي لا يصلح عيوب الجمال الشائعة إلا إذا كان لديك نقص حقيقي في عنصر ضروري لازم ... وقد يكون لديك هذا النقص وأنت لا تشعرين ...

وإنه لشيء لذيذ مشوق أن تعلمي ما يقوله العلم حين يبين لك الدور الهام الذي يلعبه الطعام في السحر والجاذبية والجمال ...!!

الفيتامينات والجمال :

إذا درسنا الفيتامينات وجدنا أن بعضها يقوم بالمعجزات في إزالة عيوب البشرة التي تجلب الحزن والهم للفتاة ... فالبشرة الجافة وسقوط الشعر وقصفه والأظافر الخشنة السهلة التكسر ... كل هذا ينتج غالباً من نقص شديد في فيتامين (١) كما أن البشرة الخشنة المظلمة التي تبدو في المرضى بالبلاجرا تصفو بتناول جرعات من فيتامين (ب ٧) ... وما عليك إلا أن تلاحظي وجود ألوان الطعام الغنية بهذه الفيتامينات في قائمة طعامك اليومية لكي تصفو بشرتك وتضيء ...

ويوجد فيتامين (١) في الزبد واللبن وزيت كبد الحوت وكبد العجل والإسبانخ والجزر والطماطم ...

ويوجد فيتامين (ب ٧) في معظم الأغذية وخصوصاً منتجات اللحوم كالكبد والبيض والسالمون بجانب وجوده في الخميرة .

ولو رغبت أن تكوني على قدر كبير من النشاط والحيوية فعليك أن تتناولي في طعامك مقداراً كافياً من الفيتامينات بانتظام .. وقد لوحظ أن النقص المستمر في فيتامين (ب) ينتج عنه ضعف وخمول عام .. ويكثر هذا الفيتامين في الحبوب الكاملة والخميرة والفول والخضراوات ...

والمهمة الأساسية للفيتامينات هي مساعدتك على تمثيل الطعام والاستفادة منه على أحسن وجه ، فهي عوامل مساعدة ، أي مواد كيميائية تزيد من سرعة تلك العمليات الحيوية ، وهي الهضم والتمثيل ...

تورد الخدين :

ولا يمكن لوجهك أن يتورد إلا إذا وجد الدم القاني الذي يهبه اللون الأحمر ... ومما يؤسف له أن « الأنيميا » شائعة بين الفتيات ؛ ذلك الفقر في الدم الذي ينتج عنه التعب والخمول والضيق ، وهذه بلا شك عوامل منفرة للرجال ...

فإذا نحن نظرنا للدم لوجدنا أن العنصر الأساسي فيه هو مادة «الهيموجلوبين» الذي يدخل الحديد في تركيب جزأيه ، وبذا فإن الحديد مكون مهم للدم .. فعليك يا سيدتي أن تراعي وجوده في طعامك ...

ومن الأطعمة الغنية بالحديد أذكر الكبد والكلى ولحم البقر والمشمش والعنب والبرتقال والكمثرى .

وقد أبان الفحص الحديث فائدة البروتينات القصوى في بناء الدم ، فإن خمسة في المائة لا غير من جزيء «الهيموجلوبين» هو الجزء الحامل للحديد ... وأما بقية الجزيء أي ٩٥ في المائة ، فهو يتكون من «الجلوبين» وهو مادة بروتينية ، فإذا تناولت مقداراً كبيراً من الحديد فإن هذا لن يزيد مقدار الدم إلا إذا تناولت معه كمية كافية من البروتين .

وقد أجريت عدة تجارب على حيوانات مصابة بفقر دم ، فأعطيت كميات زائدة من الحديد ، وكمية قليلة من البروتين ، فلوحظ أنها مكثت على حالها مصابة بالأنيميا ...

ومن الأطعمة المكونة لبروتين الدم نذكر الكبد وبياض البيض والكلى ...

وأحب أن ألفت نظرك يا سيدتي إلى أن الأنيميا كغيرها من الحالات قد تتسبب لا عن نقص غذائي فقط ، بل عن حالات أخرى فزيقية ، فيجب عليك دائماً أن تستشيري طبيبك حين تظهر عليك مثل هذه الأعراض ، لا أن تعتمدي كلية على الطعام ليشفي لك العلل ..

التوازن :

وإن التوازن والجمع بين الألوان المختلفة في الطعام هو كلمة السر — إن صح هذا التعبير — إلى الصحة الجيدة ، والنشاط الدائم .

وهناك بعض الأطعمة إذا أسرفت في تناولها ، فإنه ينتج عنها ضرر يبشرتك ، كأن تظهر في بعض الأجزاء قشور جافة أو بقع جافة أو صغيرة كما تترك أظفارك آثاراً إذا أمررتها على الجلد ... كل هذه الأعراض تحمل على الشك بأن المسئول الأول عن هذا التشويه في جمالك هو حاسة الطعام ..

والدقيق والبن والبيض والشيكولاتة هي أكثر الأطعمة الشائعة التي قد تتأثرين بها ، فعليك ألا تسرفي كثيراً في تناولها .

الجنس والطعام :

يلاحظ أن وظيفة الإنتاج بين الحيوانات معقدة للغاية ، ولكنها تتوقف إلى حد كبير على عوامل الطعام ، حتى إنه من المسلم به أن القدرة على الإنتاج ما هي إلا صدى التغذية الصحيحة ...

ولا داعي لأن نخبر أن الجنس البشري يختلف في هذا الشأن عن الحيوان ، ولو أنه يبدو مخجلاً أن نرجع الحب والهيام وليالي الصيف المقمرة إلى اعتبارات غذائية ..!

ولكن دعينا يا سيدتي نلاحظ العلاقات التي كشف العلم عنها النقاب ...

يخبرنا العلماء الفاحصون أن البدانة والزيادة في وزن الجسم لها تأثير مهبط للوظائف الجنسية ، فالنساء البدينات اللاتي لم يحملن أمكنهن أن يلدن في أحيان كثيرة حين نقص وزنهن إلى المستوى الطبيعي العادي .

والآن لنتساءل : ما هي عناصر الطعام التي تلعب دوراً هاماً في الحب والهيام ؟؟

إنها تتألف أساسياً من المواد المعدنية والفيتامينات والبروتين . وليس هناك فيتامين خاص يمكن أن تتناوليه في كوب ليجعلك تحبين ..!! فإذا كان لديك نقص في الفيتامين فهذا النقص عادة متعدد ، وعليك أن تتناولي أنواعاً مختلفة متباينة من الأطعمة الغنية بالفيتامينات .

أما من ناحية المواد المعدنية فقد أسلفنا القول في الدور الهام الذي يلعبه الحديد في القضاء على الأنيميا أو فقر الدم ...

واليود عنصر أساسي يلزم بكميات صغيرة لكي تقوم الغدة الدرقية بواجبها على الوجه الأكمل . وهي الغدة الرئيسية التي تنظم سرعة تمثيل الطعام وتوزيع الطاقة على الجسم .. فإذا كانت الغدة بطيئة في عملها ، فهذا معناه شخصية بطيئة خاملة ، وإذا زاد نشاطها عن الحد اللازم

(البقية على صفحة ١٧)

غلبتني بعوضـــــة

للأستاذ عفيف محمود

حدثني أحد العلماء قال :

— في إحدى ليالي الصيف كنت أجلس في معمل مكباً على فحص عينات دقيقة من الحشرات النادرة ، محاولاً جهد الطاقة أن أميز بينها وأتعرف على خواصها ، حتى أخذ مني الجهد والإعياء ، فتلفتُّ حولي في سأم وضيق ، ثم استلقيت على مقعدي في تراخ شامل وأطبقت أجفاني ...

« ولم تكد عيني تكتحل بأول ومضة من ومضات الوسن حتى أقبلت بعوضة تهوِّم حول وجهي في إلحاح ، فذببتها عني بيد متراخية ، فدارت في سماء الغرفة دورة أو دورتين ، ثم استقرت على عدسة الميكروسكوب وسكنت لحظة كأنها تتأمل باهتمام ما تحته من تشريحات ، ثم رفعت رأسها عن المنظار وعادت إلى طنينها المتواصل ... وخيل إليَّ أن في صوتها كثيراً من السخرية والرثاء ، وكأنها تهتف بي :

« ألا ما أتعسكم وأشقاكم بالعلم أيها العلماء ! بالله عليكم ماذا جنيتم من طول السهر والتحديق ، إلا ضموراً في الخد ، وشحوباً في الوجه ، وعوينات زجاجية تلبسونها طول الحياة !؟ .

« إن أقصى غاية لما تبذلونه من الجهد ، هي أن تصلوا إلى مأرب مادي أو مصلحة خاصة تنفع عشيرتكم التي سادت الكائنات فركبها الغرور فأفسدت كل شيء ..

« انظر ! لقد طغى عليكم غروركم فأردتم أن تتزينوا بلبس الديباج والحرير لتظهروا بالمظهر البراق الذي لا يستهوي سواكم ، فعمدتم إلى الفراشات الطائشة في شرانقها فقتلتموها قبل أن يتم نموها ، وقبل أن تخرج إلى النور والحياة .. لا لشيء إلا لتحتفظوا لأنفسكم خيوطها الحريرية سليمة ، ولم تفكروا يوماً ما كيف جاهدت دودة القز الضعيفة التي لا تزيد على خنصر أحدكم ، فأخرجته خيطاً دقيقاً من رأسها ، حتى تم لها تكوين مأوى تسكن إليه ...

« ثم اشتهت أنفسكم العسل فهاجمتم مستعمرات النحل ، واستوليتم على كل ما جمعته طيلة العام بكدحها وكدها ، وادخرته لصغارها الناقفة في خلاياها المختومة ، ناسين أنها هي التي قامت بتلقيح مزروعاتكم فساهمت بنصيب وافر في إكثار البذور والثمار ...

« ثم استبد بكم الغرور فامتدت أيديكم إلى ما ليس لكم به صالح ولا نفع ، ورحتم تأسرون الفراشات الجميلة وتحرمونها حرية التنقل بين الخمائل وامتصاص رحيق الأزهار ، لتحنطوها وتضعوها حبيسة في الصناديق والعلب ، لا لشيء إلا لتعرفوا إن كانت ألوانها الزاهية الجميلة راجعة إلى أصباغ كيميائية أم أطياف ضوئية !!

ألا ما أسخفكم وأجهلكم أيها الآدميون !!

« إنكم على غروركم وكبريائكم ضعفاء مساكين ... ألم تر محموماً يغلي دمه في عروقه وتهذي شفتاه بلا وعي ، يطويه الألم بالليل وينشره بالنهار ، وقد عافت نفسه الزاد والشراب !! إن ذلك بسبب بعوضة تافهة مثلي أنشبت خرطومها في خده الأسيل فلم يستطع دفع الخطر عن نفسه وتحت يديه السيف والمدفع !

« إنكم على علمكم تنقصكم الحكمة !

« ألم تنظروا إلى مملكة النمل أو مستعمرة النحل وفيها كل فرد يقوم برسالته التي خلق لها دون انتظار لجزاء أو خوف من عقاب ... ليس بينها عاطل أو خامل أو متكاسل أو متواكل ... وأنتم معاشر الآدميين تسنون القوانين وتضعون اللوائح والعقوبات وتنشئون السجون والمعتقلات ، ولا زال فيكم السارق والبلطجي والفكر الهدام !! ..

« ألم تنظروا كيف تتعاون أفراد الفصيلة الواحدة منا

على عمل الحب، والمسئولية ... !! . وأنتم تتحاربون على أيكم يحمل الحب، والمسئولية !

. واعذرونا إذاً إذا اعتدى عليكم بعض سفهائنا وجهالنا فأكل الجراد محاصيلكم وأتلف الدود زرعكم وضرعكم وأفسدت دودة القطن مجهودكم .. فإن هذا قليل عليكم في باب الجزاء .. »

وما وصلت تلك البعوضة الثرثارة إلى هذا الحد حتى ثارت ثائرتي ، فجمعت قبضة يدي وسددت إليها لكمة قوية تحطمت لها أدوات المعمل الزجاجية المرصوصة أمامي .. ورأيت البعوضة الفيلسوفة الماكرة تحلق جذلة منتصرة في سماء الغرفة .. فلم يبق في وسعي إلا أن أضع رأسي بين كفيّ لأعترف بيني وبين نفسي أن قد غلبتني بعوضة !! » .

عفيفي محمود

طعام الجمال

(بقية المنشور على صفحة ١٠)

فهذا بسبب سرعة الهياج والنرفزة والاضطراب . وأطعمة البحر من أغنى مصادر اليود ...

والكالسيوم والفسفور هما الآخران فائقا الأهمية . فالكالسيوم يلعب دوراً هاماً في تنظيم ضربات القلب وفي العمل على هدوء الأعصاب .. وكلا الاثنين أساسيان في تكوين العظام والأسنان ..

وقد اكتشف حديثاً أن الفلورين يمنع تلف الأسنان . ويبدو أنه لازم الوجود مع الكالسيوم والفسفور لتكوين أسنان قوية جيدة ...

والعظام من أغنى مصادر الفلورين . فلكي تنتفعي بها عليك أن تحضري قطعة من العظم التي تلزم للحساء ، ثم تكسريها إلى قطع صغيرة وتتركيها في الماء على النار عدة ساعات . فإذا طبخت تحت ضغط فإن قطع العظم تتحول إلى كتل لينة تهبك مصدراً لا يضاهى في المواد المعدنية ...

ولنرجع ثانية إلى البروتينات ... هل لها أثر في سحرك وجاذبيتك !؟ وإذا فرضنا هذا ... فكيف يتأتى تأثيرها ؟؟ .

إن الهرمونات أو المواد الكيميائية المثيرة التي تفرزها الغدد الجنسية والغدة الدرقية والبنكرياس والأدرينال تتكون إلى حد كبير من الأحماض الأمينية . وما هذه إلا الوحدات الأساسية التي يتكون منها البروتين ... ومن الظاهر أنه بغير هذه المواد الأولية ليس هناك أمل في الحب والغرام . فقد وجد أن النقص في حامض أميني واحد منع تكوين الحيوانات المنوية في الذكور !! .

جمال الدين محمد موسى

سـل نفسك . . .

هل أنت رجل متدين ؟

للأستاذ عبد القادر السماحى

ينبغى لنا فى مبدأ كل عام عندما تدق ساعة الزمن دقتها أن نخلو إلى أنفسنا ونحاسبها ...

ولدى الكثير من الناس قدرة عجيبة على مصانعة أنفسهم ومخادعتها ، فيستقيم الأمر بينهم وبين ضمائرهم . فلا هم يؤدون حسابا إليها ، ولا هى تحفزهم أو تبكتهم أو تؤرقهم ...

ومن الأمور التى يخدع فى شأنها معظم الناس ، الدين . فكم منهم يخال نفسه متدينا ، وإذا ما سئل فى ذلك يقول بلهجة من يرضى عن نفسه كل الرضا : « الحمد لله » ثم يقيل يده ظهرا لبطن ! وكم من هؤلاء لا توجد بينه وبين الدين أثارة من صلة ! وكم من هؤلاء لا يعدو أن يكون الدين فى حياتهم ثوباً قديماً رثاً يقبع تحت أجسادهم ولكنهم لا يلقون بالا إليه !

ولكم يكون من الطريف ، القيام بعمل إحصاء للمتدينين حقا من بين الناس ! إذاً لجاءت النتيجة مذهلة مفزعة ...

سل نفسك إذاً : « هل أنت رجل متدين ؟ »

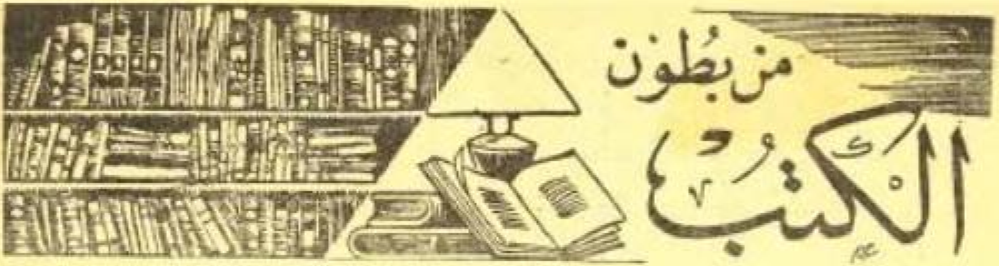
وأنت لا تكون متديناً إذا كنت من أولئك الذين أفردت الآراء الدينية بمعزل عن سائر معتقداتهم الدنيوية ، فحُبست فى قرارة نفوسهم ولم يعد لها من أثر يحكم أعمالهم ويسم سلوكهم فى حياتهم اليومية .

ولستَ متدينا إذا كنت من أولئك الذين يؤدون الطقوس الدينية بالتقليد والمحاكاة . والذين يذهبون إلى أماكن العبادة بدافع من عادة تأصلت فى نفوسهم ، وهم فى الحقيقة لا « يذهبون » وإنما « ينساقون » إليها . فهؤلاء ليسوا غير أشخاص يعوزهم من الإرادة ما يجعلهم يقلعون عن تلك « العادة » .

ولستَ متدينا إذا كنت من أولئك الذين يعتقدون فى قرارة أنفسهم أن الحافز الوحيد لهم على اعتناق الدين وإطاعة أحكامه هو التشبث بتلابيبه ، إذ هو لا يمثل لهم غير طريق للخلاص والنجاة . فالصلاة والعبادة ليستا عندهم غير وسيلة للحصول على الحظوة عند الخالق ليبعد عنهم الآلام والأخطار ، ويجنبهم الصعاب والمكاره . وليس « الله » بالقياس إليهم غير صورة من الأب . وحالهم هو حال الطفل الذى اعتاد صغيرا أن يرى أباه يبذل ما فى وسعه لوقايته ودفع المكروه عنه . فإذا كبر وجد نفسه وجها لوجه مع القدر ، ضعيفا عندما تهب عواصفه ، وحيدا عندما تجتمع عليه صروفه ، فيقيم عندئذ لنفسه « أبا » فوق البشر ، قويا ، جبارا ، ينحصر عمله فى أن يبعد عنه الضر والأذى . وهو لا يلبث أن يصيح إذا أصابته مصيبة : « ماذا فعلت يارب حتى تأذن بذلك ! » .

ولست متديناً إذا كنت من أولئك الذين يمثل الدين لهم لوناً من ألوان السيادة والاستعلاء على الغير ، فهو لا يعدو أن يكون نوعاً من العدوان وفرض الإرادة . وهؤلاء أشخاص خلت قلوبهم من المحبة ، وطبعوا على الأمر والنهى . ومظهر الدين عندهم هو فى التسبيح بحمد الله لأنه لم يخلقهم كسائر البشر ، ولأنه حباهم بالقوة والصولة . وهم أنانيون لا يفكرون فى غير أنفسهم ، عتاة يرتدون مسوح القديسين مثل مستر بارت فى مسرحية « آل بارت بشارع ويمبول » . ومثل هؤلاء الأشخاص يظهرون شجاعة لا تقهر ، وسيطرة على النفس لا تهن ، واستقامة خلقية لا تميل ولا تلين ... ولكن لا مناص لهم

(البقية على صفحة ٢٣)



أحسن ما قرأت

للأستاذ حافظ أحمد أمين

حوار طريف :

سنياس : إن الرومان يامولاى أهل حرب وأبناء نضال ، فلو قدر لنا أن ندحرهم ونلزمهم طاعتنا فماذا نستفيد من انتصارنا ؟

بيروس : لن يقوى على الوقوف فى وجهنا بعد اندحارهم اغريق ولا برابرة ، فتسود إيطاليا بأسرها من غير منازع ، وتصيب ثراءها الطائل وتتمتع بعظمتها الفتية .

سنياس : وإذا استولينا على إيطاليا كلها فماذا نفعل بعد يامولاى ؟

بيروس : على مقربة من إيطاليا تقوم « صقلية » وهى تنشر ذراعيها لاستقبالنا .

سنياس : وإذا قدر لنا يامولاى أن ندحر صقلية أنقف حروبنا عند هذا الحد ؟

بيروس : إن السماء لتبارك جهودنا ، فما الذى يمنعنا من السير إلى إفريقيا ، وإذا تهيأت لنا سيادة هذا البلد عدت إلى بلاد اليونان وفرضت سيادتى على الإغريق جميعا .

سنياس : من غير شك ... ثم ماذا بعد ؟

فضحك الملك وقال : ثم نهدأ بعد هذا ونستريح .

فأجابه الفيلسوف : وما الذى يمنعك يامولاى من أن تهدأ الآن وتستريح ؟!

رأى تاغور فى حرية المرأة :

● إن الرجل النهم الذى يحب السمك ، لايتردد فى تقطيع السمكة كما يشتهى . أما الذى يحب السمك الحى فيود أن يراه سابحا فى المياه ، وإذا تعذر عليه أن يراه ، لبث عند الشاطىء ، فإذا لم يوفق إلى رؤيته عاد وعزاؤه أن يعلم أن السمك سعيد فى مياهه .

● إن امرأتى ليست ملكى ، إنما هى ملك نفسها ، فلا الهياج ولا الغضب ولا المناقشات تبرهن أنها لى ، فعلى أن أمنحها الحرية بجملتها .

أغنية هندية :

إذا أعطيتَ جرعة ماء ، لقاء جرعة ماء ، فإنك لم تعط شيئا .

الجمال الحق أن تقدم الخير إزاء الشر .

ولكأس من الماء ، قدم أكلة طيبة .

وللتحية الخفيفة ، انحن فى احترام .

والدرهم الصغير رده ذهباً .

وإذا أنقذت حياتك ، فلا تبخل بالحياة .

إن فتانا الصادق الذى يعرف ويحس حزن غيره كما يعرف حزن نفسه .

إنه مستعد أن يخدم ، إنه لا يباهى أبدا ولا يحتقر أحداً ، محتفظاً بطهر فكرته ، وكلمته ، وفعله .

أقوال مأثورة :

• إن لكل من الرجل والمرأة اتجاهه الخاص في الحياة ، الرجل يرغب في السير نحو الشمال ، والمرأة ترغب في السير نحو الجنوب ، والنتيجة هي أن يسيرا في اتجاه الشرق ، مع أن كليهما لا يحب السير في هذا الاتجاه . (برنارد شو)

• إني أريد أن أجد امرأة تصلح أماً لأبنائي (نيتشه)

• إنك إذا فتحت رأس امرأة لما وجدت فيه غير هذه الغاية : « السطو على الرجل » (توفيق الحكيم)

• لا يجب أن نتخلى عن عقولنا من أجل أن نطيع إنساناً ما ، فإن الطاعة العمياء لشخص محبوب أشد خطراً من الطاعة للعصبية بالسياط ، إذ أن هناك أملاً في حرية الذي استعبدته القوة ، ولكن لا أمل في الذي استعبده الحب . (غاندي)

• المال يعطينا مظاهر الأشياء دون جوهرها ، إنه يعطينا الطعام لا الشهية ، والدواء لا الصحة ، والمعارف لا الأصدقاء ، والخدم لا المخلصين ، والمرح لا السعادة . (ابسن)

• غاية الحياة هي الحياة نفسها .

• اعتقادك أن الحياة جديرة أن تعيشها يمدك بقوة عظيمة (وليم جيمس)

• إنها المادة التي تثقل الجسم حينما تحل فيه ، فإن تحرر الجسم منها أصبح روحاً خفيفة كالبخار (عنايات خان)

• يارب الغابات ، ياربي القدير على كل شيء ، إني أحس البركات وأشعر بالسعادة في هذه الغابات ، هنا كل شجرة من هذه الأشجار تسمعني صوتك ، يالها من روعة أيها المولى العظيم ! هذه الأحراش ، وهذه الوديان ، تفوح برائحة الهدوء والسلام ، هذا السلام الذي لا بد لنا منه لنستطيع أن نتفانى في خدمتك (بيتهوفن)

• إن السكك الحديدية والطائرات قد أعطتنا السرعة وتوفير الوقت ، ولماذا توفير الوقت ، كأنما قد هبطت علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط ، ما نحن إلا قطرات ماء في نهر الحياة ، ما حظنا من سرعة التيار واندفاعه إلى البحر ! وإنما حظنا الأكبر في التمهل حول الأعشاب ، والسكون عند شواطىء الجزر يداعبنا النسيم . (توفيق الحكيم)

• قل هذا هو خيري وهذا هو شري ، ولا تقل أبداً بأن الخير خير الكل والشر شر الكل . (نيتشه)

• هم يقولون لنا إن الحياة العضوية قد تطورت تدريجياً من خلية إلى فيلسوف ، ويؤكدون لنا أن هذا التطور تقدم لا سبيل إلى الشك فيه ، ولكن من سوء الحظ أن من يؤكد لنا هذا هو الفيلسوف لا الخلية . (برتراند راسل)

• إذا لم تستطع أن تتمتع بما حصلت عليه فلن تحصل على المتعة أبداً . (برنارد شو)

قصة رمزية :

(الأستاذ عبده حسن الزيات)

مات رجل عن ثلاثة بنين ، وكان بين تركته بطيخة جميلة اعتز بها الأولاد الثلاثة وحفظوها في موضع من البيت حرز ، ولكن الزمن أفسدها فانتشرت منها رائحة خبيثة ملأت المنزل كله ، وجلس الأولاد يتشاورون .

أما الأول فقد دعا إلى الاحتفاظ بها رغم كل شيء ولو تعرضوا بسببها الهلاك « فإن حكمة أبينا لم تكن فوقها حكمة ، وما نحن بقادرين على أن نأتي بخير منها ، بل إنا لعاقون إن نحاول من ذلك شيئاً » .

ودعا الثاني إلى عكس ذلك ، ونصح بلفظ هذا الشيء القذر وشراء بطيخة جديدة ، فإن من الخجل لنا أن نحتفظ بهذه البطيخة الفاسدة .

وقال الثالث : « هيا نرى البطيخة بعد أن نتخلص منها لبها فنبذره فيخرج لنا بطيخاً جديداً تصل الوشائج بينه وبين تراث أبينا . إن التجديد هو ملاك الحياة والتقدم ، بيد أن كل جديد ينبغي أن يتولد من بذور الماضي وأن تقوم بذوره في أرض الماضي ، ولو تغيرت الفروع لتتوائم مع مقتضيات الفصول ، وتناولها التطعيم لتجديد الثمار » .

حافظ أحمد أبيعو

هذا الرجـــــل هو ابنى

بقلم القصصية المشهورة « ارسولا بلوم »

للآنسة الزهرية

لما رزقنى الله ابناً ، حلقت — كغالبية الأمهات — فى فضاء الطموح ، وأخذت أرسم خططاً طريفة لتنشئته ! ووجدت ذاتى أرملة وأم طفل صغير ، وعرفت أن مستقبله بين يدى ..

إن زمرة الأبناء الذين تعنى الأمهات الأرامل بتنشئتهم يكونون متأنثين ، ومدللين لأقصى حدود الدلال ، لأنهم لا ينعمون بسطوة الأب ، ولا يتكون فى خلقهم ذلك التوازن البديع ، الذى يعصمهم من التطرف ويقيهم مغبة الإفراط والتفريط ، ويفقدون الرسوخ الذى يمنحه عطف الأب ، المقرون بحزم الرجل ، وحنان الأم الممتزج بتبصير المرأة ، ويفتقرون إلى الاعتدال الذى هو وليد الأبوة والأمومة المتعاونتين على تربيته ، والمتين تمدان نحوه أيديهما فى حنان ، طافحة بعطايا المحبة والرحمة ، والاهتمام والنصح والتدبير والرعاية . ولقد شعرت بالمسئولية المضاعفة فى تنشئة ابنى ، لأنى أردت أن أقوم نحوه بالواجبات التى يؤديها له الأب والأم معاً ، ورغبت فى أن لا يكون لحساسية جنسى ومرونتها ، أقل تأثير على قوة خلقه ، وبذلك واجهت أعظم مسئولية فى حياتى ، وبدأت أتعهده بأسلوب طريف ، ونبذت كل قواعد التربية المألوفة ، ولم أرد أن أقيده بما أثقله من خصائص وراثية وقيود عصبية ، وابتعت وعى العقل الذى يتملص من ضغط العاطفة ، ليستوى فى أفق التبصر والعرفان ، ويتخرج فى رحاب الاستقلال والتصرف الحر الأبى .

ومذ بلغ ابنى الشهر الأول من عمره ، عاملته كما أعامل شخصاً مسئولاً مدركاً ، ولم أرد أن أغمره بتلك العاطفة الآمرة الحثالة — عاطفة الأمومة الآثرة — التى ترمى إلى إنكار شخصيته ، ورأيت فيه الرجل الرشيد ، لا الطفل الذى يوشك أن يشب ليصير رجلاً !! .

إن الدرس الأول العظيم فى الحياة ، الدرس الذى تلقنه الحيوانات لأولادها منذ البداية ، والذى تلقيه على أولادها أخيراً — هو الاضطلاع بأعباء المسئولية ، وقد لقنت ابنى الاعتماد على نفسه ، وأردت أن أعوده الحرية والاستقلال فى الرأى والعمل ، مع شعوره بأنه وحدة كاملة فى ذاته ، وأنه كفيل بأنه يدير دفة حياته الشخصية !! .

ورأيت أن أقوم بخدمة ذاته ، وكان عمره يقل عن سنة واحدة حين تعلم أن يضع حذاء صوفياً فى رجليه ، ثم تعلم أن يلبس جلباباً وحده ، وبعد ذلك قدر أن يلبس بذلة مؤلفة من قطعة واحدة ، وأخيراً .. تعلم أن يلبس ثيابه كلها .

وكان عمره يزيد قليلاً عن سنة ونصف سنة ، حين قدر على الذهاب بمفرده لشراء الحلوى لنفسه . ومع أنه لم يكن يقوى كثيراً على النطق والكلام ، إلا أنه كان قادراً على أن يومئ إلى الأصناف التى يود شراءها .

وكان له ثقة تامة برفاقه ، تجعله يقبل عليهم ببساطة اليقين . ولم يكن يعرف معنى الخوف ، لأنى جنبته كل شعور بالخوف ، فى حين أنى نميت فى روعه عناصر التبصر والوعى والحذر والنظر الصائب إلى مسائل الحياة المختلفة ، والأخذ بمقتضيات الأحوال .. بيد أن العالم لا يتسع للرجل المجبول ، وكان من القواعد الأساسية التى توخيتها فى تنشئة وحيدى — حثى إياه على اعتبار جميع الناس أصدقاء له ، وقد حاولت جهدى أن أنظم عنده عوامل الاستحسان والاشمئزاز ممن حوله ...

وقويت فى نفسه الشجاعة المعنوية ، والاحتمال بعزة وإباء — وهما عندى دعامتا الحياة ! وقد يستهجن القارئ هذه الطريقة التى أنادى بها ، ويزعم أنى أكلف الطفل فوق طاقته ، وأتطلب منه ما لا تتحمله سنه الصغيرة ! ولكنى أعتقد أن الطفل — مهما تصغر سنه — يقدر أن يتعلم كل

شيء لأن عقله قابل لكل شيء ، فهو كقطعة لينة ، طيّعة ، تستطيع أن تطبع فيها كل حركة ، يقصد منها شيء .. وأجزم بأن كل طفل — مهما كان قبأ شللاً — يستطيع أن يتعلم الإشفاق على الإنسانية المتألمة ويحنو على الضعفاء ، وأن يبث في نفسه روح الإقدام والفضيلة ، وأن يكون من قوة الشكيمة والإيمان بمنزلة يقتحم معها المصاعب تحت مهماز الحياة القاسية ، دون أن يتطرق إليه الضعف أو الوهن .

وقد تعلمنا رويداً رويداً أن نتلقى صدمات الإخفاق والخيبة بشجاعة وثبات .. ولا خير فيمن لا يقوى على الكفاح في حينه ، غير متخاذل لضربات الخيبة الممضة ، ولا ناكص على أعقاب الخذلان !! وقد تعودنا الاضطلاع بصنوف من الإخفاق المبين ، وتحملنا برصانة وحزم ، تسويف الظروف ومماكساتها لنا ، بإرجاء حفلات ، كنا نرجوها لتتم شيء من الأنس والمسرة ، وتحملنا بصبر تصاريف الحوادث الصغيرة ، التي كانت تمتحن قدرتنا على جهاد الحياة وتعدّنا للوقوف أمام زوابعها الهوجاء في المستقبل ...

ولقد تعلّمت في بادئ الأمر ولوثة اليأس الطفل ، بل صيحة الأم المبرح ، الذي تجنح الأم بطبيعتها إلى تلطيفه ! ولكن لم تميل الأم إلى التشكك بولدها عن طريق الصدمات ؟ إن من الأثرة أن تتوق الأم إلى حماية ولدها من الألم التقف ، فتنتزع بذلك منه عدة النزال ، وتجعله غير لائق للتقدم إلى ميدان الكفاح ...

هذا ونحن دائماً نجلس المرأة على عرش رفيع ، ولذلك أيقنت أن المسئولة دون سواي من معاملته لحليلته في المستقبل ؛ ولذلك عودته أن يحترم النسوية ويقدسها ، ويعتقد أنها تستحق منه كل إكرام وكل رعاية وكل مجاملة وكل حب .. ونحن نعتقد كذلك أن وظيفة الأبوة هي أسمى وظيفة ، وأجل وظيفة في العالم ، ولذلك سعيت لكي أعده وحيدي لجلالتها .

إن مستقبل الطفل معلق على عاتق الأم وحدها ، وهي التي تدير دولابه ، وتقبض على أعنة الفضيلة فيه ! ولذلك اعتقدت أن طفلي هو أعظم مسئولية موضوعة عليّ في الحياة ، ولم أجرؤ على التمتع به كطفل ، بحملي في مراقبة بسماته ، ومطالعة قسماته ، لأني أحسست بأنه ينبغي لي أن أصرف كل دقيقة ، في صوغ ذلك المستقبل ، وفي تخير أهدى السبل إلى تكوين الرجل الكامل الذي ينبغي أن أقدمه للعالم ! .

وقد حرصت غاية الحرص على أن لا أكذب عليه ، وتوخيت الصدق معه في كل حال ، ولكن كثيرين من الوالدين يحبسون الحقائق عن الطفل ، لأن جهلهم بها يثير في نفسه حب الفضول والإكثار من الأسئلة المزعجة . بيد أن في ذلك من الأثرة ما فيه .

والطفل القادر على تأليف سؤال وتوجيهه إلى والديه قادر بالتالي على فهم جوابه ، وله الحق في أن يتلقى الجواب الصادق عليه .. ولا تحوي الحياة أسراراً خافية على ولدي ، وهو يعرف أنه يستطيع أن يستفهم مني عن أي شيء ، دون أن أخشى إفادته عليه في صراحة وصدق .

وقد غرست في نفسه إيماناً قوياً بالله عز وجل ، ولكني تركت له حرية اختيار المذهب الديني الذي يود الانتماء إليه ، وأي حق لي في أن أملي عليه المعتقد الذي أدين به وأوثره على غيره من المعتقدات ؟! .

وهو يعرف أن معظم الناس لا يرون الحياة من وجهة نظره ونظري ، ويعلم أنه بينا نعامل السيدات بموفور الاحترام ونراهن يمثلن الجمال والفضل والصلاح ، يوجد في النساء من هن لسن جميلات ولا فاضلات ولا صالحات .. وليس من الحق ولا من العدل أن أسمح له باقتحام الحياة ، دون أن يرى العالم كما هو قد امتزج حلوه بمره واختلط شره بخيره ، وليس للإنسان أن يتحكم فيه ولا أن يجعله صفواً خالصاً ، وإنما الإنسان مضطر لأن يتحمله كما يراه ، فيتمتع بما فيه من خير ، ويصبر على ما فيه من شر ، وقد يكون هذا الشر كثيراً ، وقد يكون خالصاً لا أثر للخير فيه ، ولكنه مع ذلك ليس قانون الحياة ، وإنما أثره في الحياة قوي ، ولا ينبغي ازدراؤه أو الإعراض عنه ، كما لا ينبغي أن يؤول إلى ذم الغير ، والتعصب عليه .. إن ابني آخذ في النمو ، وإن نبته ليزكو ويترعرع ، وأنا مزمعة أن أستقيل من وظيفتي كأم له ، وسنصبح عما قليل صديقين ودودين ،

والحيوانات التي هي أحكم منا تأبى أن تنكر الشخصية المستقلة التي لأولادها حين يدركن طور البلوغ ، وترفض أن تعتدى على رغباتهن ، أو تتدخل في شئونهن .

والمرأة الوحيدة الخليقة بالاهتمام — في حياة ابني ، هي تلك المزمعة أن تصبح زوجه وحليلته .

إنه ليس بالولد الأريب الماهر ، ولكني لا أتطلب من وحيدى ذكاء خارقاً ، بل أتطلب منه أن يكون رجلاً فاضلاً ناهماً ، رقيق الشمائل — أتطلب منه أن يكون مفخرة لشعبه ، وأن يجعل العالم أفضل مما وجده عندما هبط إليه !!..

وقد شجيت نفسي ، وأنكرت ذاتي من أجله ، لأن مصلحته وفائدته هما أهم شيء لدى ، وهو وحده الذي يهمني خيره ويعنيني أمره ..

ولا أتطلب جزاء أعظم ، من أن أفاخر بحق ، قائلة : « إن هـذا الرجل هو ابني » !! وأنا آمل أن يغتبط هو بحق ، حين يذكرني بدوره ، فيناجي نفسه قائلاً : « إن هذه المرأة كانت أمي ! » .

الزهرة

سل نفسك ...

(بقية المنشور على صفحة ١٨)

ولن حولهم من أن يدفعوا ثمناً كبيراً لهـذه الصفات التي تشرى على حساب كل شعور بالرقة والعطف والمحبـة والتسامح .

ولست متديناً إذا كنت من أولئك المتزمتين الذين يأخذون أمور الدين بجد يجاوزون فيه كل حد ، فلا يحتملون فيـه تساهلاً أو تهاوناً ، ولا يرضيهم منه الاعتدال والقصد . وهؤلاء ينسحبون عادة من محيط الحياة ويتحللون من مسئولياتها ، ويعتزلون الناس ، منزوين في صوامعهم ، منطوين على أنفسهم . وعند ما يغالون في زعمهم يغدون كالمتصوفين من فقراء الهنود الذين يقضون كل حياتهم من غير أن يغتسلوا ، أو يقضون الشطر الأكبر منها قابعين على أعمدة طويلة كحشرات ملتوية على نفسها في قواقعها . وهؤلاء هم الذين صورهم الفريد آدار أحسن تصوير بقوله : « إنهم يتمثلون بالله » . وليست هذه النزعة الدينية في الحقيقة غير هروب من الواقع وخوف من مواجهة الحقائق .

ولست متديناً إذا كنت من أولئك الذين يعتقدون أنه يكفيهم الاحتفاظ بمثل أعلى مبهم ليس له بالدين صلة ، وإنما يحل لديهم محل عقيدة صلبة أكثر تصلباً وتشدداً ، مقتفين بذلك أثر الرومانتيكيين الذين كانوا يحومون حول شعلة مقدسة بطيب لهم الاحتراق بنارها ، وتتمثل في عباداتهم لمذهب من مذاهب الفن ، أو مظهر من مظاهر العشق ، أو صورة من صور الجمال .

***

والآن سل نفسك مرة ثانية : « هل أنت رجل متدين ؟ » .

عبد القادر السماحي



من روائع الفن المصرى

النقش على العاج فى عصور مصر الأولى

للدكتور محمد أنور شكرى

أقبل المصريون منذ أوائل العصر الحجرى الحديث على استخدام العاج فى كثير من صناعاتهم ، وذلك سواء كان من أنياب أفراس النهر التى كان يزخر بها مجرى النيل فى مصر حتى عدة قرون مضت ، أو من أنياب الفيلة التى كانت تعيش بكثرة فى السودان . وقد صنعوا منه الأساور والدمالج والأمشاط ودبابيس الشعر ورءوس كثير من السهام والخطاطيف ومقابض بعض السكاكين والصحاف والملاعق وغيرها . ولا أدل على أهمية العاج فيما قبل عهد الأسرات من كثرة ما عثر عليه من مصنوعاته فى معبد الكوم الأحمر ، وإن كانت رطوبة الأرض قد أتلفت معظمها . وليس من شك فى أنه ساعد على استخدامه فى كثير من الصناعات كثافته ودقة حبيباته وصلاحيته للنقش والنحت ، فقد برع المصريون فى نقش الصور المختلفة عليه وعمل التماثيل الصغيرة منه للإنسان والحيوان .

> تسود نقوش العاج فيما قبل عهد الأسرات صور أنواع معينة من الحيوانات ... وقد بذل الفنان عناية بالغة فى تمثيل الحيوان وإبراز صفاته الجوهرية وخصائصه المميزة ، حتى ليعتبر عهد ما قبل الأسرات العصر الذهبى للنقش فى العاج على وجه الإطلاق .

ومن مصنوعات العاج المنقوشة من عهد ما قبل الأسرات مشط حفرت على كل من صفحتيه صور بعض الحيوانات فى صفوف منتظمة ، بحيث تتجه حيوانات كل صف إلى الجهة المضادة التى تتجه إليها حيوانات الصف التالى (شكل ١) . ومما يزيد فى توكيد أهمية هذا الاتجاه أن حيوانات كل صف على أى من صفحتى المشط تتجه إلى نفس الجانب الذى تتجه إليه حيوانات الصف المقابل على الصفحة الأخرى ، بحيث تبدو صور معظم الحيوانات وكأنها مثلت من جانبيها على كلتا الصفحتين . وفى صور هذه الحيوانات ما يدل على أنه كانت تحدو الفنان فى تمثيلها وترتيبها أغراض خاصة.

ومما كان ينقش من مصنوعات العاج من عهد ما قبل الأسرات أيضاً مقابض بعض السكاكين . وكان كل من هذه المقابض يصنع من قطعة واحدة من العاج يركب فيها نصل من الظران ، سحقت كلتا صفحتيه ، وشظيت إحداهما بدقة تامة . وكانت تجمع النصل مع المقبض حلية غير عريضة من الذهب تمسكهما معاً ، غير أنها ضاعت فى أغلب الأحيان . ويبرز فى وسط إحدى صفحتى المقبض نتوء مثقوب ، كان يعلق منه السكين . ومن أمثلة هذه المقابض « مقبض كرنارفون » ، وقد نقشت على صفحته المحدبة فى صفوف منتظمة صور اللقلق والزرافة ومالك الحزين والفيل والسبع والثور ؛ وعلى الصفحة الثانية الأيل والمهاة والنيتل والكلب وغيرها ، وذلك فى غير نظام واضح . وتدل هذه الصور على مهارة فائقة فى تمثيل الخصائص الجوهرية للحيوانات ، ويتجلى ذلك بصفة خاصة

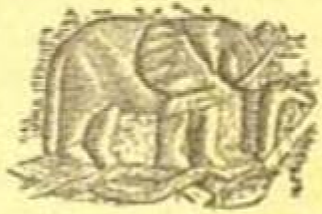
فى صورة الفيـل وهو يطأ بأقدامه ثعبانين ملتفين معاً (شكل ٢) ، فقد أجاد الحفار تمثيله حسب نسبه الطبيعية ، كما أبدع فى تمثيل الجبهة المائلة للرأس الصغير ، الذى يمتاز به الفيل الإفريقى ، وفى تمثيل الأذن بتجعداتها المتوازية ، مما يوحى بلطافتها وسهولة حركتها ، وفى تمثيل الأرجل وعظم الخاصرة ، حتى إنه ليقع فى روعنا أننا أمام صورة حية دقيقة . وفى متحف بروكلن فى الولايات المتحدة مقبض سكين عثر عليه هنرى دى مورجان فى « أبو زيدان » بالقرب من إدفو ، حفرت على صفحتيه مئتان وثمانى عشرة صورة لحيوانات مختلفة فى صفوف منتظمة ، بحيث لا تكاد تزيد مساحة ما تشغله كل صورة على نصف سنتيمتر مربع ، مما ينطق بمهارة الصانع الفنان .

وتدل الصور المنقوشة على المشط ومقابض السكاكين على صفات مشتركة واضحة . فهى تقتصر على صور الحيوان وحده ، وذلك فى صفوف متتالية دون خطوط تفصل أحدها عن الآخر ؛ ويقتصر كل صف فى معظم الحالات على صور نوع واحد من الحيوان . ومع أن عدد صفوف الحيوانات يختلف فى كل حالة ، إلا أن الحيوانات الممثلة تكاد تنحصر فى أنواع معينة ، فليس بينها مثلا الحمار وفرس النهر والحُمر ، وهى من الحيوانات التى عرفها المصريون فيما قبل عهد الأسرات . وقد مثل كل حيوان بمفرده فى أغلب الأحيان ، بحيث تستقل صورته عن صور غيره من الحيوانات التى تسبقه وتليه . على أن بعض الحيوانات مثّل فى مجموعات ، وذلك كالنسر الذى ينسر فريسته ، والفيل الذى يطأ بأقدامه ثعباناً أو ثعبانين . وتدل صفوف الحيوانات على ترتيب مقصود ؛ فصور النسور والفيلة واللقالق تعلو دائماً صفوف غيرها من الحيوانات . وصور الحيوانات التى لم تمثل فى أعداد كبيرة كالكلب ومالك الحزين والسمك تلتزم دائماً مكاناً خاصاً لا تتعداه ، وهو فى الغالب فى نهاية الصفوف . إلى جانب هـذا يلاحظ عدم توالى صفين من الحيوانات المجترة أو المفترسة . ويرجع بعض هذا كله إلى بعض التقاليد الفنية التى أخذت تشيع فى فن النقش على العاج وغيره ، ومنها ترتيب الصور وتنظيمها




(شكل ١) مشط من العاج نقشت على صفحتيه صور بعض الحيوانات

ومحاولة تمثيل النوع بأكمله بالإكثار من صور مفرداته[1]. على أن بعضه الآخر يرجع بغير شك إلى طبيعة الأغراض التي كان يتوخاها المصريون في هذه النقوش .



(شكل ٢) فيل أفريقي على مقبض كرنارفون

وليس من السهل الآن معرفة هذه الأغراض على وجه التحديد ، غير أنه مما تجدر ملاحظته أن أشكال الحيوانات في صور ونقوش ماقبل الأسرات تسود غيرها من الأشكال ؛ وفي هذا ما يدل على أنه كانت لسكان وادي النيل في العصور القديمة نظرة خاصة إلى هذه الحيوانات ، كان لها آثارها العميقة في تصوراتهم وعقائدهم ، مما كان يدعوهم إلى تصويرها ونقش أشكالها على كثير من أدواتهم . في ضوء هذا يبدو أن صور الحيوانات ، وخاصة ما كان منها على مقابض السكاكين . وقد كانت من بعض أدوات الصيد ، كما كانت أداة نحر الضحايا من الحيوان ، لم تكن تخلو من أغراض سحرية ودينية ، وهي وفرة الماشية وحيوانات الصيد ودرء شر الحيوانات الضارية . ومما يتفق مع هذا الزعم نظام ثابت تقليدي في اختيار الحيوانات الممثلة وترتيبها ، اعتقاداً بأن في ذلك مايضمن تحقيق هذه الأغراض ، وإن كان هذا لم يكن ليمنع الفنان من مراعاة الاتجاهات الفنية التي سادت في عصره .

ومع هذا فقد ذهب جورج بنديت إلى أن هذه النقوش إنما هي سجل جغرافي لمصر قبل قيام مملكة الوجه القبلي ، أو بعبارة أخرى هي ثبت بالطواطم من الحيوانات لبعض القبائل أو العشائر المتجاورة ، وذلك في شكل تصويري تحدوه فكرة الصيد . مما يجعل من المستحيل انتماء الفنان أو صاحب السكين لأي من القبائل أو العشائر ذات الطواطم

(١) ومع هذا كان الفنان يقتصر في أحيان أخرى على تمثيل فرد واحد يرمز به إلى النوع كله ، كما يتضح ذلك في نقوش صلاية مطاردة الحيوانات الوادعة .

المتضمنة ، وهي الحيوانات المجترة . ولا يتسع المجال هنا لمناقشة هذا الرأي ، غير أنه لا يخفى مايبدو فيه من تكلف ظاهر . ومن الغريب أن يرى بنديت أن اقتصار الطواطم الممثلة على عالم الحيوان وانتظام تعاقب الحيوانات المفترسة والمجترة إنما يرجع إلى « نوع من الفكاهة » يسود تنسيق الحيوانات الطوطمية إلى حيوانات صائدة وحيوانات مصيدة ، مما يدل على ما كان يختلج في نفس الفنان من « شواغل فنية » ، ولا يرى في التقاليد الفنية والأغراض السحرية والدينية ما يشرح ذلك .

ولسكين جبل العركي[1] أهمية خاصة ، إذ تختلف المناظر المنقوشة على صفحتي مقبضه عن المناظر المنقوشة على مقابض السكاكين الأخرى (شكل ٣) . فعلى إحدى صفحتيه صفان يمثلان فريقين من الرجال يتقاتلان ، أحدهما بشعر قصير والآخر بشعر طويل . ويتألف رجال الفريق الأول من خمسة رجال مسلحين ؛ أما الفريق الثاني فتمثله ثلاثة رجال عاطلين من السلاح ورجل واحد يحمل سكيناً . وجميع الرجال عراة إلا من حزام يتدلى منه جراب اسطواني يخفي العورة . ويدل واقع الحال على رجحان كفة رجال الفريق الأول في القتال ، وإن كان أحد رجال الفريق الثاني يمسك بيد وذراع خصمه ليحول دون أن يطعنه بسكينه ، بينما يمسك آخر خصمه من ذراعه وفخذه ليلقي به على الأرض . ويلي ذلك صفان من السفن من طرازين مختلفين ، أحدهما بقاع مسطح ومقدم ومؤخر مرتفعين ، والثاني بقاع مقوس وعلى مقدمه رأس ظبي[2] . وإلى يسار الصف الأول رجل بشعر قصير يمسك بحبل طويل ، غير أنه ينتمي لصورة صيد الوعل على الصفحة الثانية . وبين صفي السفن جثث الغرقى من الرجال في أوضاع مختلفة . وليس من شك في أن

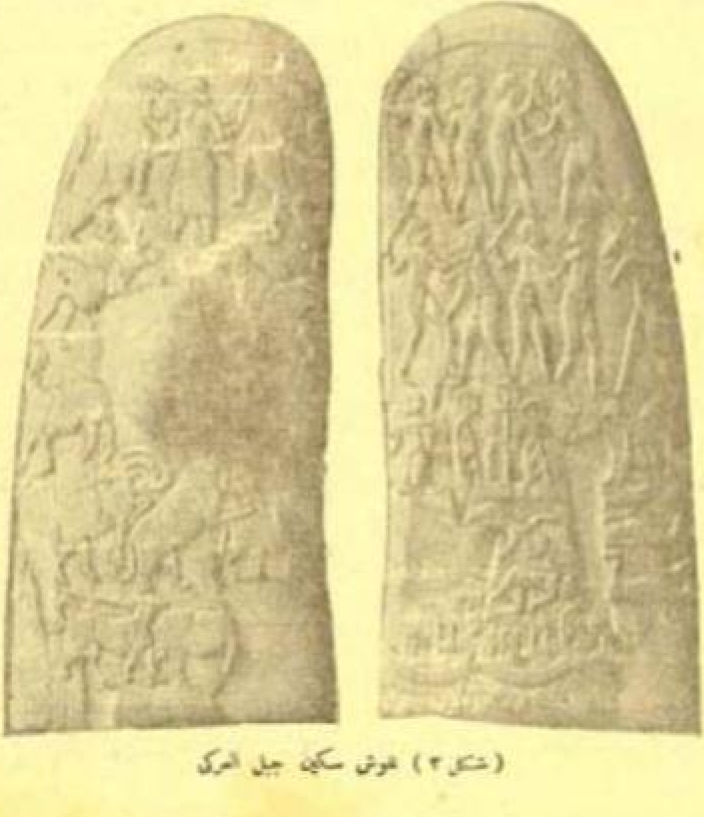
(١) وهي سكين اشتراها بنديت في عام ١٩١٤ لمتحف اللوفر من أحد تجار الآثار في القاهرة ، وقد قيل عنها إنها وجدت في جبل العركي تجاه نجع حمادي ؛ ومما يؤسف له أن تخرج هذه القطعة الفريدة من مصر ، دون أن يعمل المتحف المصري على اقتنائها إذ ذاك . ولعل هذا وأمثاله يلفت نظر المسئولين إلى ضرورة الاهتمام بما يحصل عليه تجار الآثار من قطع أثرية هامة ، فإن لم يسرعوا إلى اقتنائها ، فإنها لا تلبث أن تجد طريقها إلى الخارج .

(٢) هذا ما يشابه في رأس الغزال على مقدم سفينة الإله سكر .

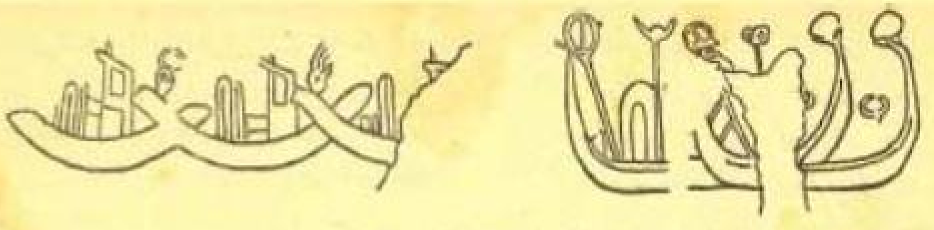
هذا كله لا يمثل منظراً عادياً ، وإنما يسجل حادثاً تاريخياً هاماً . على أنه مما يسترعي النظر من الناحية الفنية أن السفن لم تمثل بحيث تستقل كل منها عن غيرها ، وإنما تتداخل أطرافها معاً بحيث يقع مؤخر السفينة المتقدمة من خلف مقدم السفينة التالية (شكل ٤) ، مما أدى إلى تقاطع الخطوط في شكل جميل .

وتتوج الصفحة الثانية صورة بطل بلحية كثة ، وثقبة طويلة ، وعلى رأسه ما يشبه القلنسوة أو العمامة ، وهو يمسك بأسدين ضخمين يقفان على جانبيه ، وضع كل منهما كفه على خصر البطل في هيئة التوسل أو التمجيد والتبجيل . ولهذه الصيغة ما يماثلها في صور جدران مقبرة الكوم الأحمر (شكل ٥) ، ولكنها على مقبض سكين جبل العركي أكثر اتساقاً ووضوحاً وأعظم فخامة وتعبيراً . وقد ذهب بترى إلى أن هذه الصورة لا ترمز إلى المصالحة بين قوتين والحد من استعمال العنف بينهما ، وإنما تشير إلى الاستحواذ على السلطة والتحكم في طبائع الأشياء . ومن أسفل ذلك كلبان مطوقان يواجه كل منهما الآخر وضع كفه البعيد عن الناظر على النتوء البارز في وسط الصفحة وعلى يمين النتوء وعل ، وعلى يساره غزال ، ومن أسفل ذلك أسد يثب على مؤخرة ثور ، ومن ورائه وعل يلتفت برأسه إلى الخلف ، وقد علق بإحدى ساقيه الخلفيتين الوهق ، ويلي ذلك ثور وكلب ، ومن ورائه صياد ، لم يبق من صورته غير ساقه اليسرى وجراب العورة .

وقد رأى ريشارد هامان في سائر صور هذه الصفحة منظراً واحداً ، لا يمثل الطبيعة كما هي فحسب ، وإنما يصلها إلى عالم ما فوق الطبيعة . ففي أعلى الصورة إله الجبل أو إله الرعاة وحامي القطعان ، وقد روض الطبيعة الوحشية الأسود وذللها لسلطته ؛ ومن دون ذلك الكلاب القوية التي تحمي وتحرس القطعان ؛ ثم يلي ذلك عالم الصحراء والواحات بحيواناته المختلفة ، ما يصاد منها وما يفترس غيره ،



(شكل ٣) نقوش سكين جبل العركي



(شكل ٤) السفن الداخلة في نقوش سكين جبل العرك

أي بخيراته وأهواله ؟ ومن أسفل هـذا كله الإنسان بقطيعه وما يتضمنه من أعباء ومخاوف . وبهذا لا تتجلى العناصر الجديدة في تكوين هذا المنظر على ما يبدو في مظهره الخارجي من تصفيف وتراصف فحسب ، وإنما تتمثل أيضاً في الارتقاء معنوياً بمجموعات الصور إلى ذروة تسمو بما لها من قوى تفوق قوى البشر ، مما يرقى بالصورة من عالم الطبيعة إلى عالم الأفكار والمعاني ، ومن عالم السحر إلى عالم الإيمان بقوة علوية وبنظام الحياة . وعلى ما في هذا التفسير من طرافة وحسن تخريج ، فليس هناك ما يدل عليه دلالة قاطعة ، كما أنه ليس هناك ما ينقضه .

ومهما يكن من أمر فإنه تتجلى في سائر نقوش هذا المقبض مهارة الفنان في تنظيم الصور وتنسيقها بما يتفق وشكل المقبض ، كما تتجلى فيها أيضاً براعته في تمثيل الرجال والحيوانات على سجيتها ، وفي أوضاع وصيغ مختلفة ، تتميز بحيويتها وجمال نسبها ونقاوة خطوطها ووضوح أجزائها وخفة حركاتها ورشاقتها . ويتضح هـذا بصفة خاصة في صورتي الكلبين المتقابلين ، فقد أبدع الفنان في تمثيلهما وإبراز خصائصهما الجوهرية وصفاتهما الطبيعية ، حتى إنهما لتعتبران من أجمل صور الحيوان وأصدقها على ضآلة المساحة التي يشغلانها ، مما يدل على براعة فائقة ومهارة ممتازة . علاوة على هذا لا يخفى ما يبدو في حسن توزيع الأشكال ، وموافقتها لأماكنها ، وتراصف بعضها ، من جمال زخرفي رصين . وإذا كان هـذا كله يدل على تأليف فني مقصود ، وأن الفنان صاغ صوره ، وألف بينها بعد أن أحكم الروية والتدبر ، مما يقتضيه كل عمل فني ، فإن هذه الصور توحي بأنها مثلت في يسر وسهولة ، وعلى البداهة دون عناء أو تكلف بفضل رهافة شعور الفنان ودقة إحساسه وقوة ملاحظته وبراعته التامة . وعلى هذا يمكن أن يقال إن هذه النقوش إنما هي من نتاج المزاوجة بين التدبر الفني ، وهو من أعمال الفكر وبين الشعور الفني الدقيق والمهارة الفائقة ، مما سما بها إلى درجة من الكمال لم تبلغها نقوش العاج في أي عهد آخر .

ومع هذا كله يلاحظ أن الفنان وإن كان قد نقش صوره وأشكاله في صفوف منتظمة إلا أنه مثلها وكأنها تعمل أو تعدو في الفضاء دون خط تستقر عليه ، يمثل الأرض أو الماء ، مما يعتبر من الصفات العامة للفن فيما قبل عهد الأسرات .



(شكل ٥) صورة رجل بين أسدين من مقبرة الكوم الأحمر

عدا مقابض السكاكين المنقوشة لقد عثر على كثير من القطع الصغيرة من العاج في معبد الكوم الأحمر ، نقشت عليها في الغالب صور الحيوانات ، وبعضها في غير ترتيب ظاهر ، وبعضها في صفوف منتظمة تتجه إلى اليمين وإلى اليسار على التوالي ، أو تواجه ناحية واحدة . وفي المرابة المدفونة عثر أيضاً على كثير من قطع العاج المنقوشة في عهد بداية الأسرات ، ومنها ما يمثل رجالاً بلحى طويلة وثياب مزركشة ، كما أن منها ما يمثل رجالاً يحملون تقدمات مختلفة ، أو أسرى قيدت أذرعهم من وراء . علاوة على

هذا فقد كشف عن كثير من اللوحات الصغيرة من العاج والأبنوس ، كانت أشبه ببطاقات تعلق على بعض محتويات المقابر ؛ وهي تحمل علامة في خطوط غائرة اسم إحدى السلع كالزيت مثلاً . ونقوش هذه البطاقات من نوعين مختلفين ، يتألف أحدهما من اسم الملك واسم إحدى السلع ، ثم بعض الصور أو المناظر في صفوف أفقية ، لعلها تمثل أهم الحوادث التي كانت تسمى بها سنوات حكم الملوك . أما النوع الثاني من النقوش فيتألف من علامة السنة واسم السنة واسم الملك وألقابه ثم اسم أحد كبار الموظفين واسم السلعة التي كانت تعلق عليها البطاقة . ومن أمثلة ذلك بطاقات النصف الثاني من الأسرة الأولى .

وعلى ما لنقوش البطاقات على اختلافها من أهمية تاريخية كبيرة ، فإنها من الناحية الفنية أقل قيمة من كثير من نقوش ما قبل الأسرات . ولا يرجع هذا إلى نضوب معين الهبات الفنية عند الفنانين أو إلى قلة الفنانين الموهوبين ، وإنما يرجع إلى ما كان لتوحيد البلاد من آثار عميقة في انتشار الرخاء ، وازدياد مطالب الحياة الراقية المتحضرة واتساع آفاقها ، مما دعا الفنانين من جهة إلى إيثار الأحجار الصلدة يجلون فيها أحلامهم الفنية ، ومما أدى من جهة أخرى إلى أن يقع على كواهل الكتاب أعباء ما تقتضيه الملكية القديمة والحكومة القوية والأغراض الجنازية من تسجيل الأعمال وتدوين الأخبار وإرصاد البيانات . وقد بذل الكتاب في سبيل ذلك قصارى جهدهم ، وكان أهم ما يعنيهم تسجيل المعاني والأفكار ، مما شغلهم في مثل هذه الحالات عن الناحية الفنية حتى وفقوا في أقصر مدة إلى أسلوب للكتابة يعتمد على العلامات والرموز ، مما يتفق وما تقتضيه الحياة السياسية الجديدة ، بدلاً من أن يعتمد على التمثيل والتصوير . ولهذا كله يبدو في نقوش هذه البطاقات رغبة قوية في هجر الموضوعات التقليدية ذات الأغراض المحدودة ، واتجاهاً واضحاً نحو تمثيل الحركة والمناظر الحية المعقدة . ولم يكن الغرض من هذه المناظر ما تمثله في حد ذاته بقدر ما كان لتسجيل ما تدل عليه من معانٍ وأفكار ، وإن كان أكثرها يخفى علينا الآن .

يتضح من هذا كله أنه تسود نقوش العاج فيما قبل عهد الأسرات صور أنواع معينة من الحيوانات لأغراض خاصة ، مما كان يدعو في أغلب الأحيان إلى التزام نظام تقليدي ثابت في اختيار الحيوانات الممثلة وترتيب صورها . وقد حرص الصانع الفنان بدوره على أن يحقق في هذه النقوش ما كان يهدف إليه من تنظيم وتنسيق ، كما بذل فيها عناية بالغة في تمثيل الحيوان وإبراز صفاته الجوهرية وخصائصه المميزة ، حتى ليعتبر عهد ما قبل الأسرات العصر الذهبي للنقش في العاج على وجه الإطلاق . أما في عهد بداية الأسرات فيدل ما حفظ لنا من النقوش في العاج على أن المصريين قد استهدفوا فيها أغراضاً جديدة ، لم يلبثوا أن بلغوا فيها غايتها بفضل ما بذلوه من جهود ومحاولات .

محمد أنور شكري

قصة الجن

(بقية المنشور على صفحة ٤)

فعاد يقص لهم ما رآه ... وشرح سراً له أبصرا
ويهتف : إني رأيت الرسول ... ومن جاء بالحق مستبصرا
يرتل قرآنه خاشعاً ... وشخص في الأفق مستعبرا
ترى النور ينبع من ثغره ... ورد اليقين إذا ما قرا
كتاب يعطر ما حوله ... كأن به المسك والعنبرا
فلو نال من نوره جاحد ... قليلاً لخر له مكبرا
به أزهر الكون بعد الموات ... وصخر الجزيرة قد أزهرا
وحررها من إسار الجمود ... وكم من عقول لها حررا
هو السحر للنفس لكنه ... يحيل أسير العمى مبصرا
وليس خيالاً وما مثله ... يصاغ وما مثله يُفترى
ولكنه الوحي نور الحياة ... أتى ليوثق منا العرى
رباط يوحد ما بيننا ... ويجعل كل فتى قسورا
كتاب ستخلد آياته ... لتفهم من ضل واستكبرا
فمن أمّ عرفانه قد هداه ... ومن حاد عن نوره استأخرا
ونحن بني الجن جئنا له ... فهيا لنحمد أو نشكرا
وكبر بينهم ضارعاً ... فكبرت الجن إذ كبرا

(القاهرة) كيلاني حسن سند

في رثاء الشاعر علي محمود طه :

نشيدك حي..!

نشيدك حي أم رُفات نشيدِ
أذاك غناءٌ أم تذكّرُ وجدِ ؟
وما لك سلوٍ ! ما تجيبُ مخاطباً
ولستَ بصبٍّ في الحياة عميد !
وما أنت عصفورٌ يُضيعُ جناحه
على لُجَجٍ مستقتلٍ وعنيد
يحلّقُ ساهٍ ثم يومض برقُه
ورقص أمواج الخضمّ ورودي
ولستَ بشادٍ حائرٍ فوق صخرةٍ
يُرجّي حياةً من دمٍ وحديد
وما أنت إلا الحلم والحلم فوقه
هناك ، وروحٌ قد سرت بوريد
وأنت شعور ربما تحرق المنى
على أملٍ مستعذبٍ وجديد
تغنيتَ دنيا بالأهازيج ، ضجةً
لطيرٍ صدوح بالأصيل غرود !
فما دهاك الدهر منه بغادرٍ
عنيد أشرٍ كالجبال عتيد !
فما كان منه جمعُ ظلمٍ ممزقٍ
وبين ركوع صرفه وسجود
ويا رُبَّ كأسٍ بالمنايا سقاكها
وراحٍ ، وما في الراح غير صديد !
فإنك لم تبغ الحياة رفاهةً
ومتَّ شهيد الفن أيّ شهيد !
خيالك سار يستثير ضياءه
عواصف نفس أو ضرام كبود
شريداً بهذا الكون ، أين رضابه ؟
وأين كئوس أترعت لشريد ؟
جزت عذاب البؤس منك ضحكةٌ
صداها بملء القلب أين وجودي !
وقد كان ذا مُرًّا وقد كان هاجعاً
كمختال موج في زئير رعود

تنادى وما في الروح غير دمائقٍ
وقد دوّت الدنيا بصفق جنود
دوافٍ وأشلاءٍ ! فإنّيَ شاعرٌ
إذا كنت حيًّا أو وشيك لحود
فيا ويح قلبي ! ما أمضّ دماءه
جموداً ، وبعض الاحتضار جمودي
وياويح جسمي ! ما استطاع إجابة
وأشد ما اختال دماً بقصيدي
فلولا يرى أنت يا دهر صانعٌ
تحطم قيثاري وتقصم عودي !!

وما أنا إلا للجمال قصيدة ... من النور تختال العداة وجودي
فهذا قصيد للمهيمين جمالهم ... ورُبّت مجهالٍ بغير قصيدِ
كأنّ أروى عبقراً في زمانه ... وأشرُ في هذا القصيد ورودي
عصاماً من النزر الذين حياتهم ... رواية مجدٍ أو كتابُ خلودِ
شباباً من الله استفاض بضوئه ... وراح يشعل في الفضاء بجيدِ

ولي تمثالٌ في الكون هاتٍ عتابه
فهذا تريني في الحياة جليدي
كما قال زينونُ الرواقيُّ فإن بما
لعينيك تخلفُ فاستمع لعقيدي
هو الدهرُ بل لكنما الدهرُ ذرةٌ
أمام محالٍ والتناسي وجودي

سلوتُ عن الدنيا وواقع أمرها ... ورُحتُ إلى العليا بغير قيودِ
فلا تعجبي إذا أسكب الدمع من دمي ... وأبللُ نفسي في عمار نشيدي
فما كان ذا فرقٍ ولكنما الهوى ... أقام بقلبي واستباح وريدي
وقد طاش حباً في العذاب فهامه ... صبابة كأسٍ أو نغمة عود
وشعراً أضيع الشاديات لفنه ... كشعر (علي) أو غناء وحيد(١)

كما صرتُ للدهر الخئون رَميّةً
مصمّمةً في حدقٍ ووعيد

وكان زميلي في الحياة فمن له ... بحسبة زميلٍ في الممات ودود

عادل أبو سعود

---

(١) في (علي) تورية يقصد بها الفقيد الأستاذ علي محمود طه أو علي بن جريج المعروف بابن الرومي ، ووحيد مغنية مشهورة كان لها شأن مع ابن الرومي ، وقد قال فيها قصيدة دالية منها :

مد في شأو صوتها نفس كا(م)ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه ... وبراه الشجا فكاد يبيد
خلقت فتنة غناء وحسنا ... مالها فيهما جميعاً نديد الخ

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

مدير الإدارة
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى ، عابدين ، القاهرة

تليفون : ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٥٧٧ السنة الثانية عشرة

الاثنين ٢٧ من ربيع الأول سنة ١٣٦٩ — ١٦ من يناير سنة ١٩٥٠

صفحة

ثمن العدد ٣ قرشان صاغاً

الدكتور النبراوى

الطبيب الخاص لمحمد على الكبير

بدأ حياته بائعاً للبطيخ

للدكتور جمال الدين الشيال

طفل من عشرات ، بل مئات الأطفال الذين تزخر بهم القرى المصرية ، حبا كما يحبو الأطفال ، ومشى كما يمشى الأطفال ، ونما كما ينمو الأطفال ، غذاؤه الشمس والهواء ، ثم الخبز والماء . وله أبوان فقيران يمتهنان الفلاحة شأن سكان القرى المصرية جميعاً ، ولما بلغ الرابعة من عمره أرسله أبوه إلى الكتاب فتعلم مع أقرانه القراءة والكتابة وحفظ القرآن ؛ فلما اكتمل نموه واشتد عوده انضم إلى أبيه وأمه يعاونهما فى فلح قطعة من الأرض يزرعانها ويأكلان وبنوهما من ثمارها .

غير أن الصبى لم يكن خاملاً كلداته من الصبية الآخرين ، بل كان فيه نشاط دافق وحيوية كامنة ، فانطلق فى أوقات فراغه يجرب حظه تاجراً ، يشترى بعض الحبوب من ذرة أو قمح ، وبعض الثمار من بلح أو بطيخ أو خيار ، ويبيع هذا كله فيصيبه نصيباً من الربح الحلال ، والأبوان يلاحظان هذا النجاح الذى أدركه ابنهما ، وهذا الربح الذى ناله فيشجعان ويباركان .

ومضت الأيام والحياة فى هذه الأسرة تجرى رتيبة كعادتها . وزرع الأبوان فى إحدى السنوات أرضهما بطيخاً ، وبارك الله جهودهما فأنبتت الأرض ثمراً وفيراً حلواً طيباً أكله ، ففرحت الأسرة بما أوتيت من خير ، وجلس أفرادها تحت ضوء القمر فى الليل يتشاورون — بعد أن جمعوا الثمار — فى خير طريقة لبيع هذا المحصول للحصول على أكبر ربح ممكن . وطال النقاش وكثرت الآراء : إنهم لو باعوه فى قريتهم « نبروه » لما جنوا من ورائه ربحاً يذكر ؛ فالأسعار فى القرية دائماً بخسة . وأبدى الوالد اقتراحاً أن يذهب الصبى بالمحصول إلى طنطا عاصمة المديرية ليبيعه هناك علّه يصيب ربحاً أوفر ، غير أن الصبى كان أكثر طموحاً من أبيه فأبدى رغبته فى أن يذهب بالمحصول إلى العاصمة الكبرى — إلى القاهرة ؛ وأعجب الوالدان بالفكرة ، وشجعهما على قبولها ما أصابه ولدهما من نجاح فى صفقاته القليلة التى مارسها فى القرية . ونامت الأسرة ليلتها تلك والأمل الحلو يداعب خيال كل فرد من أفرادها .

وأذّن مؤذن الفجر وخرج الأب وابنه إلى مسجد القرية فصليا ودعوا الله مخلصين أن يبارك لهما تجارتهما ، وعادا فحمّلا الجمال بالثمار وشاركهما فى ذلك الأم والصبية الصغار ؛ فلما انتهوا جميعاً من عملهم قبّلت الأم فتاها وباركه الأب ودعا له بالنجاح ، وهلل الصبية الصغار له مودعين .

وسار الفتى فى طريقه والجمال تتهادى من خلفه وئيدة فى سيرها ، واستهوته مناظر القرى والمدن التى يمر بها ؛ فهذه أول رحلة له خارج قريته فانطلق يغنى مسروراً ، وانتهى به السير إلى القاهرة ، وقصد إلى حى الحسين والأزهر كما أوصاه أبوه ، فهو حى عامر بالسكان ، وبضاعته فيه لا شك رائجة .

وانتحى الفتى ركناً من أركان السوق ورصّ بطيخاته أمامه ، وراح يعلن عنها فى صوت حلو رخيم وبكلمات مليحة مغرية ، وأقبل مشترٍ وثانٍ وثالث ، غير أن السعر الذى عرضوه كان أقل مما أمّل الفتى ومما أمّل أبوه ، فرفض أن يبيع ، وظل على رفضه حتى انتصف النهار أو كاد ؛ وظن الفتى أول أمره أن البائعين ربما لاحظوا عليه سمات الفلاحين الغرباء، فأرادوا أن يستغلوا سذاجته ، فانتقل إلى جاره الذى عن يمينه ، وإلى جاره الذى عن يساره ، وسألهما عن الأسعار ، فإذا هى أسعار قليلة ضئيلة ، فصدمته الحقيقة وزال عنه سروره وانشراحه .

هكذا قضى إبراهيم — وكان هذا اسمه — اليوم الأول في القاهرة ؛ فلما أقبل الليل أخذ يفكر وحيد التفكير، ويدبر وحيد التدبير، وانتهى به الرأى أخيراً إلى أنه لا بد من بيع محصوله ولو كان في البيع خسارة، لأنه لو لم يبع لفسدت عليه ثماره ولكانت الخسارة أفدح.

وباع إبراهيم بطيخاته، وكانت الخسارة فادحة، فخشى أن يعود إلى قريته فيناله الأذى من أبيه، وجلس إلى الركن الذى كان عامراً منذ قليل ببطيخاته، بل بأمله وأمل الأسرة المفقود، وراح ينظر إلى المارة من أهالى الحى وهو يلعنهم ويلعن بلدهم في نفسه. وجذب انتباهه منظر غريب طريف، لقد نظر فرأى شيخاً كبيراً ذا لحية طويلة بيضاء بيده كتاب وبيده الأخرى سبحة يرسل حباتها الواحدة بعد الأخرى، ومن يمين الشيخ وعن شماله ومن ورائه عدد كبير من الفتية المعممين، والشيخ يسير في تؤدة ووقار، والفتيان يتبعونه في أدب جم واحترام بالغ، وتتبع إبراهيم هذا المنظر بناظريه، واستعاد في الحال صورة شيخ القرية وكتابها وأولاده من الصبية الصغار.

وانتهى السير بالشيخ وتلاميذه إلى باب المسجد فدخلوه، ومال إبراهيم إلى جار له وسأله عمن يكون الشيخ وعما يكون المسجد، وعلم أن هذا المسجد هو الأزهر، وأن هذا أحد شيوخه، فبهرته الصورة، واستهواه وقار الشيخ الأستاذ وزىّ الفتية التلاميذ، ولمعت الفكرة في خياله لمعان البرق، وانتفض واقفاً وأخذ طريقه إلى المسجد، ودخل مع الداخلين، وراعه كثرة حلقات الدرس، فانضم إلى إحداها، واستمع ثم استمع، ثم انتقل إلى غيرها وغيرها؛ ولم يكد ينتهى اليوم حتى كان قد قرّ عزمه أن يصبح أزهرياً يطلب العلم كما يطلبه مئات غيره من الكثيرين على الكتب حوله، وسيؤهله هذا إلى أن يكون شيخاً للقرية، يقبّل الجميع يده، ويسعون إلى رضائه، أو على الأقل في هذا حل مؤقت لمشكلته ومشكلة تجارته الخاسرة.

ونبغ إبراهيم ونال الكثير من تقدير شيوخه وأساتذته؛ فقد كان بحق موفور الذكاء. ورضى بهذه الحياة الجديدة التى حملت عنه عبء التفكير في المأوى والغذاء؛ فالرواق فيه مأواه والجراية فيها غذاؤه.

ومضت الأيام يتابع بعضها بعضاً وإبراهيم مطمئن إلى حياته الجديدة، منصرف إلى دروسه وكتبه، إلى أن كان أحد الأيام حين أرسل إليه شيخه يستدعيه، فهرول مجيباً، ولكنه لم يكد يقبل عليه حتى وجد في حضرته جماعة من الناس لا يعرفهم، فيهم من يتزيا بزى أمراء الجيش، ومنهم من يتزيا بزى الشيوخ، وتقدم فقبّل يد أستاذه، وأقبل عليه الأستاذ مرحباً، ثم قدمه لهؤلاء الضيوف تقدمة كلها ثناء على كفايته وتقريظ لمواهبه. وفهم إبراهيم من الحديث أن هؤلاء السادة قدموا ليختاروا نخبة من نوابغ الطلاب ليكونوا نواة أولى لمدرسة الطب التى يزمع إنشاءها ولى النعم محمد على باشا.

وهكذا انتقل به القدر نقلة جديدة من طالب بالأزهر يزمع أن يكون شيخاً صاحب كتّاب في القرية إلى تلميذ بمدرسة الطب الجديدة حيث يدرس علوماً جديدة لم يسمع بها من قبل، من كيمياء، وطبيعة وتشريح ودراسة للأمراض والأدواء، ويستمع فيها إلى أساتذة ليسوا من دينه ولا من جنسه، فهو لا يعرف لغتهم، وهم لا يعرفون لغته، إنهم أساتذة من أوربا وخاصة من فرنسا.

ونبغ إبراهيم النبراوى — نسبة إلى بلده نبروه — في مدرسة الطب، كما نبغ في الأزهر من قبل، وقضى سنوات الدراسة جميعاً بنجاح وتفوق.

ولما تخرجت الدفعة الأولى من طلاب هذه المدرسة أراد محمد على أن يبعث بالناجحين إلى فرنسا ليتموا هناك علومهم، ووكل إلى ناظر المدرسة كلوت بك أمر اختيار المبعوثين، فكان إبراهيم واحداً منهم.

وسافر إبراهيم النبراوى إلى فرنسا في سنة ١٨٣٢، فرأى دنيا غير التى كان يراها في مصر، الرجال غير الرجال، والنساء غير النساء، والأخلاق والعادات والمدن والقرى والمدارس وطرق التعليم والتفكير... الخ، كل أولئك يختلف في باريس عنه في القاهرة وعنه في قريته المتواضعة «نبروه».

وكان إبراهيم في عنفوان شبابه، فخفق قلبه في باريس كما يخفق قلوب الشبان، وأحب باريسية وتزوج بها، ولم يلهه هذا عن واجبه، بل أقبل على دروسه إقبال النهم،

وحصل على إجازته بنجاح وعاد إلى مصر فى سنة ١٨٣٦ تصحبه زوجه الباريسية .

وعين إبراهيم النبراوى بعد عودته مدرساً بمدرسة الطب المصرية ؛ فقد كان محمد على يهدف من وراء هذه البعثات إلى إحلال المصريين محل الأجانب .

ونجح إبراهيم طبيباً ومدرساً كما نجح تلميذاً ، وأظهر مهارة فائقة فى فنه ، فقصده المرضى من كل فج ، وأقبلت الدنيا عليه إقبالاً .

ولم يشغل إبراهيم النبراوى بهذا كله عن المشاركة فى النشاط العلمى لمدرسته ؛ فترجم ثلاث رسائل طبية لأستاذه كلوت بك عن الفرنسية إلى العربية ، وطبعت هذه الرسائل فى بولاق سنة ١٢٥٣ هـ ، ثم ترجم كتاباً فرنسياً آخر عنوانه « الأربطة الجراحية » طبع فى بولاق أيضاً سنة ١٢٥٤ .

وذاع صيت النبراوى وبلغت أخباره الوالى المصلح محمد على ، فاختاره طبيباً خاصاً له ، وقربه إليه وأغدق عليه النعم ، وظل طبيبه الخاص إلى آخر حياته ؛ وعندما مرض محمد على مرضه الأخير وسافر إلى أوربا للاستشفاء صحبه النبراوى فى رحلته طبيباً معالجاً .

يقول على مبارك باشا فى ترجمته له : « ولنجابته وحسن درايته فى فنه اختاره العزيز محمد على باشا حكيمباشى لنفسه ، وقربه وخصصه به ، وبلغ رتبة أميرالاى ، وكثرت عليه إنعامات العزيز ، وانتشر ذكره ، وطلبته (العامليات) والأمراء » .

وظل إبراهيم النبراوى وفياً لزوجه الفرنسية مخلصاً لها لم يتزوج غيرها إلى أن أدركتها الوفاة فى مصر ، فأنعمت عليه والدة عباس باشا الأول بفتاة بدوية فتزوج منها .

وفى غضون تلك السنين استقال كلوت بك من نظارة مدرسة الطب ، فخلفه طبيب فرنسى آخر هو الدكتور « برون » ، وفى سنة ١٨٤٦ استقال برون أيضاً ، فعين الدكتور إبراهيم النبراوى باشا وكيلاً لهذه المدرسة فكان أول مصرى يلى هذا المنصب .

وظل النبراوى باشا يتمتع بمكانته الممتازة لدى الأسرة العلوية الكريمة حتى بعد وفاة العاهل العظيم محمد على الكبير ، فقد اختاره عباس باشا الأول طبيباً خاصاً له بعد توليه العرش ، ونال لديه ولدى والدته الحظوة الكبرى ؛ فلما سافرت لأداء فريضة الحج اصطحبته معها ليشرف على صحتها وعلى صحة من معها من الحجيج .

وقد نبغ من أولاده ولدان رزقهما من زوجته الفرنسية ، أحدهما يوسف باشا النبراوى ، تلقى علومه الأولى فى مصر ، ثم أرسل فى بعثة إلى فرنسا سنة ١٨٥٥ فى عهد سعيد باشا للتخصص فى الفنون والعلوم الحربية ، وعاد إلى مصر فى سنة ١٨٦١ فعين ضابطاً بالجيش المصرى ، غير أنه لم يمكث به إلا قليلاً ، ثم عاد إلى فرنسا فأقام بها طويلاً ، وتزوج هناك من سيدة فرنسية ، وكانت له جهود حميدة فى إقناع أولى الأمر من الفرنسيين بالموافقة على إنشاء المحاكم المختلطة ، ثم استدعى إلى مصر بعد إنشاء هذه المحاكم وعين رئيساً لواحدة منها .

والثانى خليل النبراوى ، تلقى علومه الأولى بمصر ، ثم التحق بمدرسة الطب المصرية ، وبعد إتمام الدراسات بها أرسل فى بعثة طبية إلى النمسا وفرنسا ، وعاد إلى مصر فى عهد إسماعيل وعين طبيباً بالمصلحة الطبية . ومن نسل هذا الرجل العظيم أيضاً الآنسة الأديبة الصحفية سيزا نبراوى سكرتيرة الاتحاد النسائى .

هذه قصة فتى من قلب الريف المصرى تنقل به القدر العجيب من بائع بطيخ فاشل إلى طالب فى الأزهر ، واتصلت به عناية منشىء مصر الحديثة إلى مدرسة الطب ، ثم إلى فرنسا حتى أصبح طبيباً ومدرساً ووكيلاً لمدرسة الطب وطبيباً خاصاً لعاهل مصر ، وارتقى به نبوغه إلى أن حصل على أكبر لقب فى وطنه وهو لقب «الباشوية» ، وكم فى عصر محمد على من صور مشابهة لهذه ؛ فقد كان محمد على حقاً ولياً للنعم وخالقاً للرجال .

وقارىء هذه الصورة لا بد سائل نفسه بعد ذلك : كم فى قلب الريف المصرى حتى اليوم من نبوغ دفين يحتاج إلى يد رحيمة كيد محمد على للكشف عنه وتوجيهه للعمل لخير مصر ؟

الدكتور
جمال الدين الشيال

من آراء ت. س. إليت

للأستاذ محمود محمود

ت. س. إليت (T.S.Eliot) كاتب انجليزى معاصر، له مذهب خاص فى كتابة القصة، وله آراء طريفة فى النقد الأدبى، ننقل بعضها هنا للقارئ العربى.

— ١ —

معنى الثقافة:

إن العقيدة لا تحتاج إلى التعريف إلا بعد أن تظهر فيها البدع والضلالات، وكذلك كلمة «الثقافة» أصبحت بحاجة إلى التعريف والتحديد بعد ما أسىء استعمالها حتى فى أرقى الأوساط العقلية؛ فإنى أشك فى أن منشئى (مؤسسة التربية والثقافة والعلوم لهيئة الأمم المتحدة) أنفسهم قد استخدموا لفظة «الثقافة» دون أن يفقهوا لها معنى.

تشمل الثقافة كل نواحى النشاط والاهتمام التى تميز شعباً من شعب: سباق الكلاب، ويوم دربى، وكأس التفوق، والألعاب المنزلية، والكرنب المسلوق، والبنجر المخلل، وكنائس القرن التاسع عشر القوطية، وموسيقى الجاز، وآداب المعاشرة، والعلم والأدب، والفلسفة والفن، وغير ذلك... يكوّن ثقافة الجماعة. ولا يمكن أن تظهر الثقافة أو تتطور إلا مع دين من الأديان.

وهكذا نرى أننا لا نستطيع أن نقول: هـذا رجل مثقف، ولكنا نستطيع أن نقول إن مقومات الثقافة عند هذه الجماعة أو تلك هى هذا أو ذاك.

— ٢ —

تأثير الأدب:

إن كل ما يتناول المرء من طعام يكون له عليه أثر آخر غير مجرد الاستمتاع بمذاقه ومضغه، إنه يؤثر فى تكوينه الجثمانى خلال هضمه وتمثيله.

ولكل ما نقرأ مثل هـذا الأثر فى نفوسنا وعقولنا. إن تأثير القراءة لا يقف عند حد الاستمتاع بالجمال والتذوق الأدبى، ولكنه يترك فى الذهن أثراً بالغاً لا يمحى. فالأديب حينما يكتب يحاول أن يؤثر بآرائه فى قارئيه، قصد إلى ذلك أو لم يقصد؛ والقارئ حينما يطالع كتاباً من الكتب يتأثر بما يحوى الكتاب بقصد أو بغير قصد. وكل منا يذكر كيف كان كاتب من الكتاب أو شاعر من الشعراء يستولى على لبه فى فترة من فترات حياته، ثم يتلوه كاتب آخر أو شاعر آخر، وهكذا، وبعدئذ تتفاعل فى الذهن هذه الآراء، ويبدأ العقل فى الموازنة بين رأى ورأى، ويدرك أن لكل كاتب صفة لا تتوفر فى الآخرين، وأسلوباً يميزه عن غيره، فيصبح القارئ ناقداً من حيث لا يدرى، وتنمو لديه قوة النقد تدريجاً حتى تحميه من طغيان شخصية أدبية واحـدة على تفكيره وآرائه. فليس الناقد إذاً هو الرجـل الذى يحترف التعليق على الكتب فى الصحف والمجلات، وإنما هو القارئ الذى يضم إلى الإحساس الرقيق اطلاعاً واسعاً فى خير ما أنتج الكتاب والأدباء من كتب. وليست قيمة الاطلاع الواسع فى اكتناز الآراء، أو تكديس المعرفة، أو حشو الذهن بمختلف الآراء، وإنما قيمته تنحصر فى تمكين القارئ من التخلص من الخضوع لكاتب بعينه أو لعدد محدود من الكتاب. ينبغى أن تتفاعل الآراء المتباينة فى أذهاننا، وأن يكون لكل منها مكانته فى نفوسنا، ثم نفرض عليها شخصيتنا، ولا تفرض نفسها علينا فرضاً.

ولست أعتقد أن الشخصيات القصصية التى يرسمها الكاتب بقلمه، ويجعلها تقوم بمـا يتخيله من أعمال، ويُجرى على ألسنتها ما يدور برأسه من أفكار وما يجيش فى صدره من عواطف، تزيدنا مباشرة بالحياة علماً وبشئونها خبرة ومعرفة. إننا لا نعرف الحياة معرفة مباشرة إلا بما يتصل بنفوسنا اتصالاً مباشراً، كالأحياء من الأشخاص الذين نقابلهم وتقتضينا ظروف الحياة أن نتعامل معهم. ولا يفيد القارئ من القصص إلا أن يعرف آراء كاتبها. وليست الشخصيات القصصية كالشخصيات الحية بأية حال من الأحوال. والقارئ المبتدئ يأخذ من القصة الخطأ أكثر مما يأخذ

منها الصواب . فإذا ما تم نضجه العقلى لا ينظر إلى آراء الكاتب إلا باعتبارها وجهة نظره الخاصة ، التى قد تتفق ووجهته وقد لا تتفق . ولا يجد القارئ مما يطالعه إلا بعد أن يبلغ هذه المرحلة ، حينئذ تدرك أن فى الحياة وجهات نظر متنوعة متعددة فتتسامح غير متعصبين أو متحيزين .

ومن ثم فإنى أعتقد أنا لا نفيد من شكسبير ودانتى وجيته ومن إليهم أكثر مما نفيد مما نحسبه لمجرد التسلية وقتل الفراغ ، بل إنى لأميل إلى الاعتقاد بأن ما نقرأ لمجرد المتعة والتسلية أنفع لنا مما نقرأ مع بذل الجهد وتقديس الكاتبين ، لأننا فى الحالة الأولى نقف موقف الناقد البصير ، وفى الحالة الأخرى نرفع الرأى إلى مكانة من التقديس قد لا يستحقها ، ونخضع له خضوع الأذلاء المسترقين .

— ٣ —

من حديث له مع مراسل صحيفة أدبية :

— ما السبب فى غموض الشعر الحديث ، وهل لا بد من غموضه ؟.

— للغموض طرق متعددة : فمنه ما يتكلفه الشاعر تكلفاً لكى يتظاهر بعمق التفكير ، وهو حينئذ لا يخدع إلا نفسه ؛ ومنه ما ينشأ عن صعوبة التعبير عن عاطفة قوية يحسها الشاعر من غير نفاق أو رياء ، وهى صفة يتميز بها الشباب من الشعراء خاصة ، وكلما حذق الشاعر فنه ازداد وضوحاً وقل غموضاً . ومن الأفكار ما هو غامض بطبعه ، ولا يمكن أن يعرضه الشاعر فى جلاء ووضوح ، ومن الشعر ما نراه غامضاً لأن الشاعر يعرضه فى صيغة لم يألفها القراء ، شأنه فى ذلك شأن الفن الحديث . ومن ألف التعبير بطريقة ما يشق عليه أن يدركه بطريقة مبتكرة .

ثم إنك عندما تقرأ كتاباً من الكتب الأدبية الخالدة لن تشعر — مهما حاولت — أنك قد استوعبت كل ما يحويه . ومن ذا الذى يزعم أنه أدرك كل ما يرمى إليه أى كتاب من الكتب المقدسة ؟.

— ألست تظن أن خير صفات الشعر الجرس ووضوح الفكرة — أى سهولة انتقالها من ذهن الشاعر إلى ذهن القارئ ؟.

— الجرس ميزة لاشك فيها ولا مراء ، أما وضوح الفكرة فقد لا يكون مما يهدف إليه الشاعر ، لأن المهم فى الشعر هو انتقال الحالة الروحية من نفس الشاعر إلى نفس القارئ .

— قرأت كتابك الأخير عن « التقاليد » بشىء كثير من المتعة والاهتمام . ولست أشك فى قيمة ما تعرضه فيه من آراء ، غير أنى ألفيت أجزاء منه فى غموض لم أدرك له سبباً . فهل لى أن أسألك : لماذا لجأت فى هذه الأجزاء إلى التعقيد اللفظى ؟.

— إنما لجأت إلى ذلك لكى أتحاشى شدة التبسيط وشدة الوضوح . ولا تسألنى عن غموض أفكارى ، فمن العسير علىّ أن أدرك إن كنت قد هضمت فكرتى تماماً أو لم أهضمها . وقد تتسم أفكارى بالتعقيد ، ولكنى لم أفعل ذلك مهملا أو عامداً .

— لماذا ترى أن الدين جزء لا يتجزأ من التفكير ؟

— أفتسألنى لماذا خلق الله الفيل أربع أرجل ؟ إن الدين أهم عنصر من عناصر الحياة ، وفى ضوء الدين يفسر المرء أية مشكلة من المشاكل .

— إذاً فأنت ترى أن للهند فضلا كبيراً على التفكير الإنسانى .

— لقد هدانا الهنود إلى فكرة لا تعدلها أية فكرة أخرى .

— وما تلك ؟

— إن الإنسان بغير المعرفة الروحية كائن ناقص .

— هل ترى أن الشعر سوف يكون شعبياً فى يوم من الأيام ؟ وإن كان كذلك ، فكيف السبيل ؟

— يتوقف الأمر على المستمعين — أى على الجماعة التى ينشد فيها الشاعر شعره . وليس من شأن الشاعر أن يشغل نفسه بطبقة القراء ، وينبغى ألا يعبأ بهم ، سواء لديه إن كانوا صفوة مختارة ، أو جمهوراً من السوقة ، إنما يجب عليه أن يعبر عما يشعر بضرورة التعبير عنه ، وألا يفكر فى شىء آخر بعد ذلك .

* * *

هذه شذرات من آراء ت. س. إليت ، الأديب الإنجليزى المعاصر ، أقدمها للقارىء العربى لنشحذ فيه قوة الفكر وأصالة النقد .

محمود محمود

الكويت والحياة الاقتصادية

للأستاذ أحمد طه السنوسي

.. لو نظرنا إلى القطر الكويتي العربي لألفيناه قطراً تجارياً قبل كل شيء ، وذلك بحكم موقعه في رأس الخليج الفارسي .. فالكويت محور لحركة الاتصال الدائبة بين البلدان الواقعة على ذلك الخليج ، كما أنها تقع بين إيران والشرق الأقصى ، وبين نجد والعراق ، مما يبرر أنها قطر تجاري اكتسب التجارة وفنها بالفطرة والسليقة طبقاً لعوامل البيئة التي يحيا بين مؤثراتها .

والشخصية التجارية للكويتي شخصية بارزة بين تجار العالم ؛ ويعزى ذلك لدأبه وحيويته وجرأته على ظهر الفلك وسط العباب .. بين البحار والمحيطات . وبفضل تلك الروح المعنوية صار للكويت أسطول تجاري شراعي كان الأساس الأول الذي بنت عليه الكويت علاقاتها بالشرق الأوسط والشرق الأقصى ...

والسفينة الكويتية مثال في الدقة ، ويطلق عليها الانجليز اسم Dhow ويسميها أصحابها « بوم » ، ولقد ربا عدد السفن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى تقدر اليوم بنحو ثلاثة آلاف سفينة شراعية تربو حمولتها على مائة وعشرين ألف طن .. ولقد استطاعت تلك السفن أن تصل إلى جميع ثغور الهند الغربية كما وصلت إلى شرق أفريقيا ، وأندونيسيا وغيرها ...

وأستطيع أن أقول إن الكويت بيداء قاحلة إجمالاً من الناحية الزراعية ، وكل ذلك مرجعه إلى عدم توفر المياه اللازمة للزراعة . اللهم إلا تلك الآبار التي تحف بالجهرة وفيلكه والفنطاس حيث تزرع بعض الخضراوات وبعض الحبوب .. ويوجد هنالك التمر بنسبة ضئيلة لحاجة السكان ، وهو الفاكهة الوحيدة التي توجد في الكويت ؛ كما أننا نرى ثمار (الكنار) التي تنتجها أشجار (السدر) وأشجاراً أخرى يؤخذ منها خشبها فقط لعدم إثمارها كالأثل وغيره . وفي فصل الربيع تكثر الأزهار البديعة ، فتصير الكويت يانعة ، يعطر الجو بشذى ورودها .. وهي كثيرة منها : (الصيلو) و (الأقحوان) و (النوير) .. و (الخزامى) و (الحميض) و (النيصوم) وهي من النباتات الذكية التي تنبتها الكويت ..

.. والسمن والصوف والأسماك والجلد والبندورة واللؤلؤ هي صادرات الكويت .. أما وارداتها فهي الأواني المعدنية والخزفية والأدوات الكهربية والأسلحة والأدوية والسيارات والسجاير والبهارات والمنسوجات وغير ذلك .

وقد كان الاشتغال بالغوص على اللؤلؤ هو العمل الرئيسي للكويت ، وكانت تأتيها منه أرباح جمة ، بيد أن اليابان وجزرها قد طوحت بلؤلؤ الكويت ، فركدت فيها تجارته إلى حد كبير ...

.. ولقد بدت الثروة المعدنية في الكويت في عناصر ثلاثة ، هي النفط والكبريت والجبس ، ولعل النفط هو أطيب هذه الثروات ، مما صار وسيصير له شأن عظيم في الكويت وفي الشرق العربي ؛ ولقد كُشِفَ إبان الحرب العالمية الثانية ، بيد أنه لم يستغل إلا بعد انتهائها تبعاً لظروفها ، وقامت شركة النفط البريطانية الإيرانية في (عبادان) بعد

أن اتفقت مع شركة البترول البريطانية الأمريكية للإشراف على نفط الكويت . وقد قامت الأبحاث الجيولوجية ورأى (المستر جلير) — وهو عضو البعثة الفنية الأمريكية — أن نفط الكويت يقدر بوجوده في نحو خمسمائة مليون برميلاً . وتملك شركة مباحث الكويت الأمريكية (شركة دارسي بإنجلترا) نصف امتيازات حقوق بترول الكويت ، بعد أن حصلت على النصف الآخر شركة الزيت الكويتية التي مركزها مدينة (الأحمدي) . وفي مؤتنف صيف عام ١٩٤٦ سُهلت عمليات التخزين في الأحمدي إلى حد كبير ، كما أنشئت الأنابيب من (البرجان) ومحطة التجميل والشحن في مدينة التجميل وهي تشارف الخليج الفارسي وتتصل بها خزانات النفط من الأحمدي . ويبلغ الإنتاج البترولي الآن في الكويت نحو مائة ألف برميل يومياً ، وذلك الإنتاج قابل للزيادة في المستقبل ، وأرى أن تتخذ الإجراءات لإنشاء شركة لتكرير النفط في الكويت .

أما الكبريت فقد استثمرته شركة أمريكية منذ عام ١٩٤٤ . ونظراً لاشتغال الكويت بالتجارة ، فقد قامت فيها الصناعة على أساس التجارة ، فقامت صناعة بناء السفن ، وقد عُدت الكويت من أشهر الأقطار العالمية في بناء السفن الشراعية .. وتشبيها برستول بريطانيا أطلق الإنكليز لقب (برستول الخليج) على الكويت لحذقها في تلك الصناعة . وقد بدت عدة أنواع محببة من تلك السفن ، فهذه (السنبوك) و (البتل) و (البغلة) و (الجالبوت) و (البكبت) و (الشوعى) و (القطاع) و (الكلس) وغيرها .. وياحبذا لو قامت شركة مساهمة وطنية في الكويت تنظم حركة التجارة وتستبدل السفن الشراعية بسواها من البخارية ، وقد بُدئ في هذا الاستبدال . وإلى جانب بناء السفن توجد صناعات صغيرة منها صناعة : (النجارة) و (الصفارة) وهي صناعة القدور النحاسية ، وصناعة لوازم السفن وغيرها .

وقامت في الكويت شركات مساهمة كثيرة .. ففي مؤتنف عام ١٣٤٥ هـ قامت شركة السيارات الكويتية العراقية بين البصرة والكويت ، وكان رأس مالها مائة ألف روبية ، وما عتمت محتكرة إلى الآن . وقديماً أقيم معمل لتوليد الكهرباء ، وقامت عليه شركة وطنية كان إدخال النور على يدها ، وكان رأس مالها أربعة آلاف روبية . وقامت (شركة المواصلات الكويتية) في غضون عام ١٩٤٦ واستطاعت أن تفتتح خطاً بين الكويت والرياض ؛ وقامت من قديم الزمن شركة التنزيل ومهمتها أن تنزل البضائع من البواخر في الخليج الفارسي وهي راسية قاصية عن شاطئ الكويت ، ولها كثير من السفن الشراعية . وفي أثناء الحرب العالمية الثانية قامت (شركة مصائد الأسماك) وهي تساعد سفن الصيد وتهتم بتصريف الأسماك ، وأنشئت معها شركة تموين الأقمشة وكانت مهمتها أن تكبت روح الغلاء بعد ازدياد أثمان الأقمشة وقت الحرب ، وقد وفقت في سبيلها واستطاعت إدارة (الكوتا) للكويت .

ولعل شركة الماء من أكبر الشركات في الكويت ، فرأس مالها من أكبر رءوس الأموال ، وقد أنشأت هذه الشركة أسطولاً شراعياً يتكون من أربعين سفينة تقريباً استطاعت أن تمد إمارة الكويت بمياه الشرب .. ومياه الشرب من المشاكل الاقتصادية في الكويت ، إذ أنها تأتي إليها عن طريق شركة الماء ، وعن طريق بعض السفن الأهلية التي تنقل الماء من شط العرب إليها ، ومرت تبعاً لذلك أزمات شديدة أدت إلى إنشاء تلك الشركة .. وقد كان لرجال الفكر في الكويت آراء متضاربة لحل مشكلة الماء في الكويت ، فبعضهم يرى أن أحسن طريقة لتوفير مياه الشرب هي مصدر الآبار الارتوازية ، وبعضهم يراها في ضمان تبخير ماء البحر من الخليج ، وآخرون يرون جلب الماء في أنابيب ممتدة من شط العرب ، وفي هذا الرأي نصيب كبير من الوجاهة .

وهناك فى الكويت كميات هائلة من السيول تنساب فى الوديان إلى البحر لا ينتفع منها بنفع ، وما هى إلا إقامة بعض السدود حتى ترتوى الأرض وتنتج أطيب الثمرات .

وغذاء الكويت الرئيسى هو الأرز كما فى أندونيسيا ، ويلى ذلك السمك واللحوم المتباينة . وهناك بعض المشروعات الاقتصادية النافعة ؛ فى الخليج الفارسى فى مياه الكويت تكثر الأسماك ويوجد ثمة أنواع فاخرة كالزبيدى وغيره ، وياحبذا لو قامت شركة وشركات لصيده وحفظه فى العلب وتصديره إلى أرجاء المعمورة ؛ ثم اللؤلؤ الذى يتمنى ألا ييأس الكويتيون منه ، وعليهم أن ينشئوا معامل لنظفه وثقبه وتحويره وصوغه فى أشكال هندسية فنية للتصدير . وثمة مشروعات صناعية كثيرة تغدق بالصناعة الكويتية مئات الأعوام ؛ فهم يستطيعون صناعة (الطابوق) وعليه ترقى العمارة ، ويستطيعون عصر (البندورة) ثم تصديرها ، وهم يستطيعون استخراج العطور من زهور الربيع ، بيد أن كل ذلك يحتاج إلى عزم وعزيمة ، وهما موجودان فى الروح الكويتية ، وما بقى على تلبية النداء إلا قليلاً ...

وليس فى الكويت مشكلة مكوسية (جمركية) ، وذلك ما أخلى للتجارة دروب الرقى ؛ فالجمارك قليلة ومتساوية على جميع أنواع البضائع الواردة كماليات كانت أم ضروريات ، ويبلغ مجموعها ٦ ٪ ، وقد كانت قبل ذلك ٦٫٥ ٪ .. وتقسم تلك الجمارك بين إدارة المعارف والصحة والبلدية والمالية بنسبة ١ ٪ لكل من الصحة والمعارف ، و ٤٫٥ ٪ للمالية ، و ½ ٪ للبلدية .

.. ولعلنا ندرك أثر النقد والعملة فى الحياة الاقتصادية لكل قطر ، ولو نظرنا إلى الكويت نرى أن العملة المتداولة هناك هى العملة الهندية ، وهى تدور حول (الروبية) ، وهى تساوى بالعملة المصرية سبعة قروش ونصف ، وتساوى من الآنات ست عشرة ، والآنة الواحدة بها أربع بيزات ، ويوجد ورق قيمته عشرة روبيات ، وآخر قيمته مائة روبية ، على أن شأن العملة لم يستقر بعد ، ولا ندرى هل ستظل عملة هندية أم ستستبدل بعملة أخرى ؟ .

وهاهى الحكومة الكويتية تسير قدماً فى دروب الرقى والدأب ، وقد بلغت ميزانيتها ما يساوى مائة وخمسين ألفاً من الجنيهات المصرية فى عام ١٩٤٧ ، وذلك بفضل المجهودات الجبارة التى بذلتها ...

هذه لمحة عامة من لمحات الحياة الاقتصادية فى الشرق العربى ، وسيدرك العالم أهمية الكويت العربية وأهميتها الاقتصادية والاجتماعية ... وإن اقترن التفكير فيها فى الذهن بعمرها الضئيل الذى لا يتجاوز الثلاثة القرون نستطيع أن نفكر فيما عساها تكون عليه من شأن وشأو ، وفيما تتطلع إليه من مستقبل منشود تنشده وهو ينشدها ، وأفراد أمتها كفيلة بإبداء هذا المستقبل وإبراز هذا النشد الميمون .

أحمد على الشربينى

حلفـــاء الشقـــاء

للأستاذ عبد المنعم الليجى

« لم يبق لى من رصيد الحياة ، غير قلب محطم ، وجسم مهدم ، وذهن مكدود ؛ حتى لقد أوشكت أن أكتب آخر سطر فى صفحة حياتى ، ثم استنجدت رجولتى ، وخيالات أولادى ، وطيف زوجتى ، فتراجعت ، واستردت أعصابى ... وابتسمت للحظ وهو يقفز بجانبى ، متخطياً جدارى كأبطال أولمبيا ، لينثر سهامه الذهبية على الإمعات والفقاقيع » .

وكانت كلماته لهجة جديدة لم يحادثنى بها من قبل . فلم يكن فى هذه المرة حالماً أو شاعراً مترنماً أو فناناً متمتعاً ، كما عهدته منذ عشرة أعوام ، يوم كان الأدب يتملك نفسه ، فيصرفه عن هموم الدنيا ، ويزهده فى قيم المجتمع . لقد كان حينذاك شاباً برغم الشيب الذى بدأ يدب فى رأسه ، راضياً برغم الخطوب التى جارت عليه ، متعاطفاً مع الناس برغم ما لقى فى ماضيه من خيانة وخلف للعهود .

ولكنه اليوم يفيق من إغفاءته الحلوة ، وحلمه الجميل ، على مرارة الواقع التى تطرد الأطياف الراقصة ، وتبدد أوهام الشعر التى طالما انتشى بها . ويكاد يسقط من حالق إلى هوة سحيقة ليس لها من قرار ، فيقول فى حنق وكأنه يحدث نفسه :

« سأحيا من جديد ، وسأبدأ الكفاح مرة أخرى لأظفر بمصباح علاء الدين . سأنزل إلى مستوى هذا العالم . سأنافق أحياناً ، وأغضى أحياناً ، فورائى بيت يطلب حقه فى الحياة ، وزوجة تريد حظها من المتعة ، وأولاد يجب أن يأخذوا مكانهم فى الميدان ، وورائى فوق هذا نفس تضطرم بين جوانحها رغبات وحاجات . هذه النفس قد عثرت عليها اليوم ، وأنا أشرف على شاطئ الخمسين » .

ولكننى أقول له :

« ونريد أن نفقدها فى سن الخمسين . إنك لا تقصد ما تقول ولا شك ، إنما الصدمة خرجت بك عن طورك فأنطقتك بما يخالف دينك ، ولا يرضى ضميرك القابع فى أعماق نفسك » . فيرد مؤكداً : « إنى أعنى ما أقول ، وأزيد أن المثالية الأخلاقية لن تكون دينى بعد اليوم فى عالم يصفق للمهرجين ويدوس العبقرية بالأقدام » .

قلت : لتكن فلسفتك كيفما تود أن تكون ، فأمرك فردياً لا يعنينى ، ولكن الذى يعنينى الفلسفة التى علينا أن نلقنها الجيل الجديد — ومنهم أبناؤك الذين قدسوك لكفاحك وإبائك . ولا أحسبك ناصحاً لهم بالسقوط وانتهاج سبيل الوصولية والتهريج . وكأنما مست ضميره يد سحرية فيطرق إطراقة أتاحت لى أن أمضى فى حديثى :

ما من عظيم مضت حياته فى يسر ونعمة وهدوء . ومع ذلك فلست أراك إلا مؤمناً أن مآسى العظماء أخلد وأنبل وأمعن فى الإنسانية من مباذل السلاطين والقياصرة والسراة ، ذوى الجاه العريض والغنى التافه . ثم ألا ترى معى أن مآسى هؤلاء انتهت إلى خاتمة سارة عادلة ؟ .

ولكنه يسارع إلى الاعتراض قائلاً :

— لقد عدوت الصواب فقد ختمت حياة الكثيرين منهم ختاماً أليماً ، بغير الحزن والكمد ، إن لم يثر السخط والحفيظة .

فأرد عليه :

— إن قصة العظيم لا تنتهى بانتهاء حياته ، فما كانت حياته لتتبدد مع آخر أنفاسه ، أو تخمد بخمود جذوة الحياة فى قلبه . إنها تدوم : لا فوق سطح الأرض ، ولا فى باطنها المظلم ، ولا فى السماء التى لا ندرك مداها ؛ ولكن فى عقول الأجيال ، وقلوب البشر ، وخواطر المفكرة ، وضمائر

الخلف . وقد علمنا التاريخ — أردت أو لم ترد — أن النصر حليف هؤلاء الأبطال المكافحين ، فى أى ميدان ، علمياً كان أو فنياً أو اجتماعياً . وسيان عندى كان النصر فى حياة هؤلاء ، أو بعد مماتهم ؛ فالبشرية شاهد عليه ، وحياة البشرية ليست رهناً بحياة فرد أو أفراد . لست أطلب شططاً .

« إنى لا أطمع أن تكون الحياة فى عينى روضة ، وفى أذنى أنشودة ، وفى أنفى طيباً ، وفى فمى شهداً . لست أطمع فى شىء من ذلك ، ولكن من الظلم أن تكون حياتى كلها شقاء ، وأن يكون عيشى كله دموعاً ، ودهرى كله جوعاً » .

وألمح فى ثنايا حديثك أعراض مرض تفشى حالياً فى نفر كبير من أبناء هذه الأمة ، ولا أحسب إلا أن عدواه قد انتقلت إليك ، وغاية ما أخشاه أن ينتقل إلى أبنائك . ذلك المرض يدفع صاحبه إلى محالفة الشقاء ، وإدمان البؤس والركون إلى الهموم . قد تعجب من قولى هذا ، ولكن العجب يزول من غير شك إذا علمت أن هـذا النفر دون سواه ، يُصيبه الإخفاق فى كل عمل يقوم به ، ويتأخر عن الصفوف الأولى حتى يبدو للناس أن الحظ يخونه ويبدو لنا أن امرأ يضطهده ويحول بينه وبين التقدم . ولو بحثنا حال هؤلاء بشىء من الدقة ، لوجدناهم أولى نفوس هشة ، وإرادة ضعيفة ، ولاكتشفنا أنهم يهربون من المسئوليات ، ويخشون جلائل الأمور . وليس العيب عيبهم ، إنما هو عيب التربية الأولى التى غرست فى أذهانهم — عن طريق التدليل — أنهم خير الناس ، وعوّدتهم أن يكونوا مركز الاهتمام ، ولم تتح لهم فرص البذل مكتفية بإتاحة فرص الأخذ ، فنشأ هؤلاء أطفالاً يبدو لهم أنهم خير الناس ؛ ولكن المجتمع الخارجى ليس كالأسرة تحنو على الطفل أياً كانت قدرته ، وليس مستعداً دائماً لمواجهة حاجات الأفراد ، أو التماس المعاذير لهم ؛ فالهياب الوجل ، يبقى خلف الصفوف ، والمقدام الجسور ، يتقدم تلك الصفوف .

ولكن هذا الوضع لا يرضى أطفالنا الكبار ، ولا يحقق رغباتهم الخارقة التى تعجز عن تحقيقها إرادتهم القاصرة ! فيثورون ، لا على أنفسهم ولكن على الدنيا ، ويلعنون الحظ ، ويتهمون الرؤساء بالمحاباة ، والزملاء بالتملق ، وعامة الناس بالغفلة وعدم التقدير . ويجأرون بالشكوى يرددونها على مسامع الأصدقاء الذين ينفرون منهم بعد قليل ، أو يعضون ناب الندم على ما ضاع من أعمارهم . وما اللعنات التى يصبونها أو التهم التى يقذفون بها ، أو الشكوى التى يجأرون بها ، أو الندم الذى يحسون به ؛ ما كل ذلك إلا وسائل تعمية يستخدمونها لإخفاء عيوبهم عن ذات أنفسهم . وكلما أحسوا بنقصهم ، وكلما شعروا بتخلفهم عن غيرهم ، ألحوا فى هذه الوسائل حتى ينتهى الأمر أن يصدقوا أنفسهم ، وتصبح اللعنات والتهم والشكاوى حقائق دامغة ، يتلمسون لها البراهين ، ويصبح العالم المتقدم ، والناس الماضون فى حياتهم ، أعداء مسئولين عن إخفاقهم . فهم حينئذ كالنعام يدسون الرءوس فى الرمال ، فيخفون حقيقة نفوسهم عن أنفسهم ، ولكنها لا تخفى على الناس ، ويتهربون من المشكلة فلا يواجهونها فى صراحة ، أو يعالجونها فى حكمة .

وأنا أرجو ألا تكون واحداً من هؤلاء ، لأنهم ضعاف لا زاد لهم ، وأنت غنى بفنك ، قوى بأدبك . وأنا لا أراك منكود الطالع لأن كارثة حلت بك ، أو منصباً حرمت منه ، أو جاهاً سلبته . إنما أراك كذلك حين يعتريك الخمول ، وتنثنى عليك الكآبة التى قيل عنها إنها أفعوان فاغر فاه ليلتهمك وأنت على قيد الحياة . حينئذ فقط ، أندب حظك ، إذ تفقد مالك من قيمة ، وتتلاشى ما تنطوى عليه حياتك من معنى نبيل .

وكان صديق ينصت إلى ، كما ينصت التلميذ إلى أستاذه ، ورغم أن علامات الرضا بدأت تبدو فى قسمات وجهه إلا أنه خشى أن يسلم فقال مهاجماً إياى :

— إنك رأس بغير قلب ، وفكر بغير عاطفة ، وعقل

(البقية على صفحة ١٤)

جـــــوته والطبيعة

للأستاذ حسن لطفى المنفلوطى

لا جدال فى أن شخصية الشاعر الألمانى « جوته » كانت متعددة النواحى ، وأن اتجاهاته كانت كثيرة إلى الحد الذى يستطيع فيه الناس أن يجد كلٌّ الناحية التى تعجبه أو الاتجاه الذى يلائمه . ولهذا تعددت نواحى الدراسات والبحوث التى قام بها النقاد والأدباء فى مختلف أقطار الأرض .

وهناك من النقاد من يعلى من شأنه بسبب رأيه فى الطبيعة والإنسان ، ويضع مؤلفاته فى المرتبة الثانية من عبقريته ، بعد فكرته عن الإنسان وشعور هذا الإنسان بالطبيعة وبمركزه منها .

ويرى الناقد الإنجليزى « هوايت » أن هناك ثلاث مراحل هامة فى تطور الفكر البشرى : المرحلة الأولى منها تبدأ من بدء انفصال الإنسان عن الفصيلة الحيوانية ، وكان الإنسان فيها يشعر بأنه جزء من الطبيعة لا يحس استقلالا عنها ، والمرحلة الثانية تبدأ فى القرن الرابع قبل مولد المسيح ، وقد أصبح الإنسان فى هذه المرحلة يشعر بوجوده مستقلا ، ويفكر فى نفسه باعتباره منفصلا عن الطبيعة . وقد بدأ هذه المرحلة الفيلسوف الأغريقى أفلاطون ، الذى فصل القيم الثابتة عن عالم الظواهر الطبيعية . وهذا الفصل العميق قد صبغ بلونه تفكير أغلب مفكرى العالم منذ ذلك الحين . فقد اعتبروا الفكر والمادة شيئين منفصلين فى الأصل ، وأن الشعور الإنسانى والإرادة الإنسانية منفصلان عن العالم الخارجى . وأما المرحلة الثالثة ، فيرى كثير من المفكرين أننا مقبلون عليها ؛ وسوف تمتاز هذه المرحلة بأن الإنسان يسترجع فيها ذلك الشعور بالوحدة مع الطبيعة ، ولكنه يدرك هذه المرة العمليات الطبيعية التى تعمل فى نفسه . وهذا الشعور نتيجة للاعتقاد العقلى الواضح الذى يعززه الفهم العلمى للعمليات العضوية وغير العضوية والعقلية التى تعمل داخل عقل الإنسان ، وثمرة مباشرة للأثر المتزايد للعلم ولاتساع مجاله ومدى أبحاثه ، وخاصة فى ميادين علم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع . وإذا ما استمر تقدم العلم ، سوف يرى الإنسان نفسه بعد قليل أو كثير جزءاً من النظام العام للطبيعة . ولذلك لا يدهشنا إذا ما وصل عدد كبير من المفكرين إلى أننا ندخل المرحلة الثالثة التى تمتاز بالإدراك العقلى الواضح للإنسان باعتباره جزءاً من الطبيعة .

ولذلك يرى « هوايت » أن أفلاطون كان رمزاً للمرحلة الثانية ومبشراً بها وممهداً لها ، كما يرى جوته رمزاً للمرحلة الثالثة ومبشراً بها وممهداً لها أيضاً .

ومهما كان رأينا فى فكرة « هوايت » فلا جدال فى أن إحساس جوته بالطبيعة كان إحساساً غير عادى ؛ فلقد اعتقد هذا الشاعر فى أن الإنسان يستطيع بالملاحظة الدقيقة أن يفهم جميع التغيرات التى تعترى الطبيعة ، حتى إنه قال ذات مرة إن مطمعه الوحيد هو الكشف عن قانون واحد للتغيرات التى تطرأ فى عوالم الطبيعة المختلفة : العالم غير العضوى فى الكيمياء والجيولوجيا ، والعالم العضوى لنماء النبات وتطوره ، والعالم الإنسانى للدرس والتعلم ، والعلاقات الفردية والإبداع الفنى . وظل من فجر حياته حتى مغربها يسيطر عليه إحساس عميق بالوحدة مع الطبيعة . وهناك لحظات خيل إليه فيها أنه كشف هذا القانون فى إحدى هذه الميادين ، ولكن الرأى العلمى لم يقدر اكتشافاته هذه كما قدرها هو نفسه .

وكان هذا الاتجاه جديداً . فلم يكن جوته يفكر تفكيراً منظماً مضطرداً ، ولذلك استطاع ببصيرته وإلهامه أن يتغلب على تلك الثنائية التى سيطرت على الفكر البشرى .

ونحن لا نستطيع أن نسمى هذا فلسفة عن الطبيعة ولا حتى رأياً ، ولكن يكفى أن نسميه إحساساً بالطبيعة ، لأن جوته فكر فيه من الناحية البصرية ، ولأنه كان إحساساً حياً غير عادى بالطابع العام للوجود ، وهذا واضح فى كتاباته عن الطبيعة وفى مذكراته عن نفسه وعن العلوم ؛ على أننا نستطيع أن نتبين آثاره أيضاً فى جميع مؤلفاته وأطوار حياته .

ويبغى ألا يعوقنا النقاش عن قيمة اكتشافاته فى العلوم عن رؤية جمال رأيه فى الطبيعة ومغزاه ، فلم يكن جوته عالماً بالمعنى الذى نعرفه اليوم .

وهذا الإحساس ملون بفلسفة الوحدة مع الطبيعة وفلسفة الحلولية ، فقد اعتقد جوته أنه لا يوجد دوام ، فكل شىء فى مرحلة التكون والتحول ، وأنه علينا أن نكتشف قانوناً واحداً يسود الكون للتكون (Gestaltung) والتحول (Metamorphose) ، ولا ينبغى أن ننظر إلى الإنسان باعتباره فرداً معزولا ، ولكن باعتباره تعبيراً عن الطبيعة العامة . وهذه الوحدة فى العمليات الطبيعية تكمن تحت التقسيم الظاهرى للعقل والمادة ، وللذات وللموضوع ، وأن المواهب الإنسانية التى تعمل فى الخلق والإبداع تعبير عن العمليات العامة التى تعمل فى الإنسان ، ومن الحكمة أن تقبل ما تتضمنه هذه العمليات ، وأن نحاول إيجاد التوافق بين جميع الدوافع التى أوجدتها الطبيعة فينا .

وكان جوته مقتنعاً اقتناعاً جازماً بأن الطبيعة الإنسانية تصور القوانين العامة ، وهذا يتضمن موهبة الخلق والإبداع فى رجل الفكر ورجل الفن ، وهذه القوانين يمكن وجودها فى الطبيعة العضوية وغير العضوية . وكان يرى أن التاريخ وعلم الحياة وعلم الأخلاق وعلم الجمال تصير كلها واحدة إذا ما فهمناها جيداً ؛ وقال إنه يمكننا معرفة الجمال الموجود فى الطبيعة والفن معرفة كاملة ، إذا ما عرفنا أولاً القوانين العامة للطبيعة ، وثانياً القوانين الخاصة التى تعمل بها الطبيعة عملاً منتجاً داخل غدد الإنسان .

ومهما كان رأينا فى تلك الآراء ، فلا جدال فى أنها قد أثمرت ثمراً فنياً وإنسانياً ، وخاصة أن جوته قد رأى بجانبها وحدة الجنس البشرى ، وقال فى عصر اشتدت فيه روح القومية والتعصب للحضارة الأوروبية :

ومن يعرف نفسه وغيره ،
يتحقق من هذا أيضاً ،
فالشرق والغرب ،
لا يستطيعان العيش معزولين من بعد .

حسن لطفى المنفلوطى

حلفاء الشقاء

(بقية المنشور على صفحة ١٢)

بغير خيال . أنتم رجال الفكر ، ودعاة العقل ، ورواد الحكمة تعيشون فى هذه الدنيا عقولا مجردة ، لا تعرف اللذة والألم ، ولا تحس الرضا والغضب ، ولا تتذوق البسمة والدمعة ... ولكنها تحلل وتعلل ، وتزن وتقيس . أعصابكم من الثلج ، وقلوبكم من الجرانيت ، وعيونكم من البلور ، والإنسان الكامل فى نظركم من سلم قلبه من الرقة ، وثبت وجدانه عند « درجة الصفر » ، وعاش كما تعيش الآلهة فكرة مجردة ، خالدة ، تشرف على الدنيا من خلال برج من العاج .

ولا أظنى كما زعمت نظرياً أحلق فى أجواء التجريد . فما تطلبت منك المستحيل ، ولا أنا فرضت عليك الاستسلام أو البلادة والجمود ؛ وإنما أردت ألا تكون ممن تخلع قلوبهم لأتفه الآلام ، أو تهدهم أبسط الأحداث ، وقصدت أن تكون آفاقنا أوسع من حدود أنفسنا . ومادامت الأحداث تترى ، والأحقاد تلاحقنا ، وقيود الحياة تخنقنا ، فما يمنع أن تبقى حيث كنت دائماً : ساخراً بالقدر ، مستهيناً بالصعاب ، تتناول آلام الحياة وشرورها وتحيلها إلى صور فنية . إذاً فاكتب ، وانظم ، واقصص ، وتلق ضربات القدر بهزة من رأسك ، وبسمة من فيك ، ثم قم بجولة فى فكرك ، وتقدم لتبادره بطعنة من قلمك تبعث الحياة فى أوصالك ، وتحكى للأجيال القادمة قصة كفاح المفكرين الأحرار فى سبيل الحق والحرية والجمال . وسوف ننتصر فى النهاية ، ولا يعنينا أن نفوز بالنصر فى حياتنا ، أو بعد الممات ، طالما استقر فى أذهاننا قول سنان كور الخالد :

« الإنسان فان . فليكن . ولكن لنفن ونحن نقاوم ، وإذا كان العدم ينتظرنا فلا يجوز أن نعمل على أن يكون هذا العدم قضاء عادلا » .

عبد المنعم المليجى
مدرس علم النفس بمعهد التربية

كيف؟

بحوث علميـــــة

للأستاذ حافظ أحمد أمين

ماهى وظيفة الرادار وكيف يميز بين الطائرات المختلفة :

الرادار جهاز يشبه إلى حد ما أجهزة الراديو العادية ، فهو يؤدى عمليتى الإرسال والاستلام اللاسلكية ويعطى تسجيلات ضوئية مبكرة عن مدى واتجاه الطائرات أو البواخر أو أى جسم معدنى متحرك أو ثابت بالنسبة للمحل الموجود به هذا الجهاز .

ووظيفة الرادار أن يرسل شعاعاً لاسلكياً مركزه المحطة التى بها الرادار وطرفه ينتهى على بعد يقرب من خمسين ميلا أو أكثر ليصطدم بأى جسم معدنى يعترض طريقه فى الفضاء المجاور فيرتد ثانية فتستقبله أجهزة الاستقبال الموجودة بنفس المحطة المرسلة ، وعلى العامل المختص بمراقبة جهاز الرادار أن يميز بين نوع الأهداف — الثابت منها والمتحرك — وذلك يتأتى بعد مدة يقضيها فى التمرين .

والتمييز بين الطائرات الصديقة والطائرات العدوة ، تحمل الطائرات الصديقة جهازاً يستقبل الشعاع الذى ترسله محطة الرادار ويكبره ، ثم يرسله ثانية ، فتظهر للعامل المختص بمحطة الرادار كنقطة ضوئية تختلف عن النقط الناشئة عن انعكاس الشعاع عند اصطدامه بهدف لا يحمل هذا الجهاز ؛ ومن مزايا هذا الجهاز ، أنه بواسطة مفتاح صغير يحركه الطيار — إذا ما كان فى حالة خطر — تظهر هذه العلامة للعامل المختص بمحطة الرادار فترسل المساعدات اللازمة ؛ وهذا الجهاز مجهز بديناميت يستعمل إذا ما اضطر الطيار إلى النزول بأرض الأعداء .

ما هو التلفزيون وكيف يعمل :

التلفزيون جهاز يقوم بإرسال صورة من الصور لجسم متحرك إلى مستقبل بعيد ، باستخدام جهاز الراديو .

ويتلخص عمل التلفزيون فى تجزئة الصورة إلى جزيئات صغيرة جداً — كما هو الحال فى طبع صور الصحف — ويمكن اعتبار كل من هذه الجزيئات ذا شدة إضاءة مستقلة عن الأخرى ، يمكن تحويلها إلى موجات كهربائية تذهب لمحطة إرسال لاسلكية ، وتتوقف شدة وضوح الصورة المرسلة على عدد الجزيئات التى تجزأ إليها الصورة المراد نقلها .

ولا بد أن تكون حركة عملية التجزئة سريعة جداً حتى لا تتأثر بها العين أو تلاحظها ، كما يجب أن يتذبذب كل جزء بعدد مناسب من التذبذبات كل ثانية لكى تصور لنا حركة ثابتة متواصلة فى نهاية الأمر .

لماذا تفرغ المصابيح الكهربائية من الهواء :

إن الجزء الأساسى فى المصباح الكهربائى عبارة عن سلك مرتفع المقاومة من معدن خاص ، معلق فى حيز مفرغ من الهواء أو يحتوى على غاز الأزوت أو الأرجون ومحاط بغلاف من الزجاج ، وعندما يمر التيار الكهربائى فى السلك الرفيع ترتفع درجة حرارته ويتوهج .

أما فائدة فصل هذا السلك عن الهواء الجوى فهى وقايته من الاحتراق واتحاده بأكسوجين الجو عند ارتفاع درجة حرارته .

كيف تستعمل مواسير التدفئة فى تسليح خرسانة الأسقف ؟

فكر المهندسون فى تركيب مواسير تمر فيها المياه الساخنة فتسخن السقف ثم يتولى السقف إشعاع الحرارة داخل الحجرات ، ولقد جعلوا الخرسانة ملامسة لجميع أجزاء المواسير حتى تتشعب الحرارة إلى مدى أوسع فيسخن السقف بسرعة ، كما عملوا على ألا تتسرب حرارة السقف إلى أعلى وذلك بعزله عن الأرضية العليا .

وقد فكر المهندسون فى طريقة استخدام مواسير التسخين فى القيام بوظيفة أسياخ التسليح لمقاومة الشد حتى نجحوا أخيراً ، وأدى ذلك إلى توفير ٥٠٪ من حديد التسليح .

ومن حسن الحظ أنه وجد أن معامل تمدد الحديد والخرسانة واحد ، فأصبحت المواسير والخرسانة كتلة واحدة تتمدد وتنكمش بمقدار واحد .

ويجب علينا اختيار أحسن المواد التى تضمن عدم حدوث أى عطب أو رشح فى هذه المواسير ، كما يجب أن تكون مواد البياض ذات خواص معينة ، فلا تتشقق ، وتكون موصلة للحرارة .

كيف تستعمل الحرارة أو الكهرباء فى التبريد ؟

قد يكون من الغريب — حين ننظر إلى الثلاجات وآلات التبريد — أن نرى آلة تعطينا ماء مثلجاً حين نمدها بالحرارة أو الكهرباء ، فهذا هو ما لا تتقبله عقولنا من أول وهلة ، فقد رأينا الحرارة والكهرباء إذا أضيفت إحداهما إلى جسم من الأجسام ارتفعت درجة حرارته .

ولكننا حين ننظر إلى السيارة أو القطار أو غيرهما ، نجد أن هذه الآلات حين نمدها بالحرارة تمدنا بالحركة ، وذلك بواسطة بعض الأجهزة اللازمة لذلك ، فإذا عكسنا حركة هذه الأجهزة استطعنا أن نحصل على آلة إذا مددناها بالحركة أمدتنا بغازات متباينة الضغط (نتيجة هذه الحركة المتولدة عن الكهرباء أو الحرارة) .

وهذا الاختلاف فى الضغط يسبب حاجة الغازات ذات الضغط العالى إلى التمدد ، وهذا التمدد يحتاج إلى حرارة تستمد من الماء أو الأشياء المراد تبريدها والتى تحيط بهذه الغازات المضغوطة ضغطاً عالياً .

• • •

ما معنى الديزل ؟

من هو الدكتور ديزل ؟ :

رودلف ديزل مهندس ألمانى كبير ، ولد فى باريس عام ١٨٥٨ ، وقضى طول حياته محاولاً تصميم جهازه الشهير باسمه حتى توصل إليه عام ١٨٩٢ .

ولقد كان للتجارب العديدة التى قام بها البروفسور شروتر فى أوجسبرج على آلات الديزل أثرها الكبير فى عرض هذه الآلات فى ميونخ عام ١٨٩٨ .

فى أى المركبات تستعمل آلة الديزل ؟ :

ولقد بُدئ فى استخدام آلات الديزل فى تسيير القطارات — بدلاً من الآلات البخارية — ثم استخدمت فى إدارة دوامات السفن ، حتى أن كثيراً من البواخر الكبيرة تسير الآن بواسطة آلات الديزل .

ولقد بُدئ أخيراً فى استخدام آلات الديزل فى السيارات الكبيرة ، كما نلاحظ الآن فى السيارات العمومية « ج » بالقاهرة ، وفى بعض سيارات الرمل بالإسكندرية .

لماذا لم تستعمل آلة الديزل فى الطائرات ؟ :

إنه لمن المعروف أن إدارة أى آلة يتم بالحصول على ضغط عال يحرك أجزاء هذه الآلة ، فيستخدم ضغط البخار فى إدارة الآلات البخارية ، كما يستخدم الضغط المتولد من احتراق البنزين فى إدارة السيارة والطيارة والموتوسكل ، والضغط المتولد من احتراق زيت الديزل فى آلات الديزل .

ويلاحظ أن الضغط فى آلات الديزل — المتولد من الاحتراق — ضغط كبير جداً ، فقد يصل إلى أعلى من ٦٠٠ رطل على البوصة المربعة ، ومن هنا زاد سمك اسطوانات الآلة — لكى تتحمل هذا الضغط — وبالتالى زاد وزنها إلى درجة لا يمكن استعمالها فى الطائرات ، وإنما استخدمت بدلاً منها الآلات التى تسير بالبنزين كما هو الحال فى السيارات .

ما هو الفرق بين آلة السيارة والديزل ؟ :

فى كل من السيارة والديزل يتم الضغط داخل إسطوانات الآلة عندما يحترق الوقود ، فتحاول الغازات أن تتمدد ، ولكن طريقة احتراق هذا الوقود تختلف اختلافاً بيناً فى كل من الآلتين .

ففي السيارة يتم احتراق البنزين نتيجة إمرار شرارة كهربائية داخل الأسطوانة التي بها البنزين والهواء، فيحترق البنزين ويرتفع الضغط إلى حوالى ٤٠٠ رطل على البوصة المربعة؛ أما في آلة الديزل فيتم احتراق زيت الديزل نتيجة ذلك الضغط الشديد الذي يحدثه المكبس وبدون الحاجة إلى شرارة.

ونلاحظ أن الحرارة المتولدة من احتراق الوقود يضيع جزء كبير منها، ويبقى جزء آخر يتحول إلى طاقة ميكانيكية تدور بواسطتها الآلة؛ فإذا علمنا أن هذا الجزء المتبقي من الحرارة هو حوالى ٢٠ في المائة في حالة السيارة، وأنها حوالى ٣٥ في المائة في حالة الديزل، رأينا مقدار الفائدة التي نحصل عليها من آلة الديزل.

لماذا كانت آلة الديزل أفضل من آلات البخار ؟

وما قلناه عن الفائدة في حالة الديزل والسيارة نستطيع أن نقوله بين الديزل وآلات البخار، فقد نحصل على فائدة من آلة الديزل تساوى ضعف الفائدة التي نحصل عليها من آلات البخار.

هذا فضلاً على أننا استطعنا أن نحصل على سرعة أكبر بكثير من السرعة التي حصلنا عليها في آلة البخار، وذلك لأن الدورة الواحدة في حالة الديزل (والتي تتكون من ضغط واحتراق وتمدد وطرد الغازات المحترقة) استطعنا أن نتحكم فيها إلى أن جعلناها تتم في أقل من جزء من الثانية في بعض آلات الديزل، ولكننا لم نستطع أن نتحكم في انتشار البخار داخل آلة البخار إلى مثل هذا الحد.

من أين نحصل على زيت الديزل ؟

يستخرج زيت الديزل من الزيت الخام الموجود في آبار البترول، وهو أحد مركباته الثقيلة التي تنفصل عن الزيت الخام في غلايات كبيرة كما ينفصل أيضاً الزفت وزيت التزييت.

أما المركبات الخفيفة كالبنزين والغازات فتخرج من أعلى الغلايات وتحفظ في خزانات كما هو مشاهد في مصانع التكرير لشل وسكونى فاكوم في الزيتية بالقرب من السويس.

ما هو أهم جزء في الآلة يستحق العناية؟

رأينا فيما سبق أن احتراق البنزين في السيارة يتم بواسطة الشرارة الكهربائية داخل الأسطوانة، ولما لم يكن ثمة داع لوجود هذه الشرارة الكهربائية في آلة الديزل — إذ أن الاحتراق يتم نتيجة الضغط الشديد الذي يحدثه المكبس — فإننا نحتاج في هذه الحالة إلى جهاز يوصل زيت الديزل إلى الهواء المضغوط ضغطاً عالياً داخل الأسطوانة، وهذا يتم بواسطة مضخة تنقل الزيت إلى رشاش مثبت في رأس الأسطوانة.

ووظيفة هذا الرشاش هي تذرية الزيت إلى دقائق متناهية الصغر ودفعه إلى داخل الأسطوانة عن طريق ثقوب غاية في الصغر فتساعد هذه التذرية الزيت على الاحتراق السريع.

وعلينا من وقت لآخر أن ننزع هذا الرشاش من محله، ثم علينا أن نفحصه بعد ذلك وننظفه ونزيل الرواسب التي تعلق بالثقوب الصغيرة.

ما هو وجه الشبه بين الإنسان والديزل :

إذا ما غضضنا النظر عن النواحي الروحية والعاطفية في الإنسان، استطعنا تشبيهه بالآلة: وقوده الطعام، ويقوم بعملية الاحتراق خلاياه وأنسجته.

ونلاحظ أن كل آلة — سواء كانت ديزل أو غير ديزل — تصمم تصميماً خاصاً، لتؤدي عملاً معيناً بقوة معينة ولوقت معين، فإن صممت آلة ديزل مثلاً قوتها أربعون حصاناً لتجر قطاراً ذا وزن معين لمدة ثلاثين عاماً، فإننا نستطيع أن نجعلها تبذل خمسين حصاناً لتجر قطاراً ذا وزن أكبر من المفروض، ولكننا نلاحظ أنها لن تسير هكذا إلا لمدة عشرة أعوام، وتكون الفائدة المرجوة منها أقل من الفائدة الأولى بكثير.

وكذلك لا يجوز أن نجعلها تقوم بقوة أقل من القوة المفروضة عليها فتضيع الفائدة المرجوة منها.

وهكذا خُلق الإنسان، له من الطاقة ما يجعله يقوم بأعمال معينة تناسب حالته الجثمانية والفكرية، فإن أراد أن يضاعف هذه الأعمال قل نشاطه وقصرت المدة التي يستطيع تحملها، وإن أراد أن ينقص من الأعمال المفروضة عليه ضاعت الفائدة المرجوة منه.

وكما تحتاج الآلة إلى راحة شاملة من وقت لآخر للتشحيم والتزييت، فكذلك الإنسان يحتاج إلى هذه الراحة، يستعيد بعدها نشاطه، ويبدأ عمله بقوة جديدة تساعده على تحقيق آماله وتنفيذ خططه.

حافظ أحمد أمين



نقوش رءوس الدبابيس

للدكتور محمد أنور شكري

اتخذ المصريون الدبابيس[1] كأداة للقتال في عصور ماقبل الأسرات ، وهو ماتمثل عليه إحدى الصور على جدران مقبرة الكوم الأحمر (شكل ١) ، ونقوش الصفحة الخلفيـة لصلاية الملك نعرمر وغيرها من نقوش عهد الأسرات ، التي تمثل الملك يهوى بدبوسه على رأس أحد أعدائه أو على رءوس مجموعة منهم ، ولو أن مثل هذه النقوش قد أصبحت في عهد الأسرات صوراً رمزية تحكي عن انتصار الملك وبطشه بأعدائه . وكان الدبوس يتألف من مقبض من الخشب في أغلب الأحيان مما عرضه للتلف والضياع ، ومن رأس مثقوب من الحجر ، كان يركب فيه المقبض ، ثم يحكم شدهما معاً بسيور من الجلد . وقد صنعت رءوس الدبابيس من الصخور النارية ، كالبازلت ، والحجر الأسواني (السيانيت) ، والديوريت ، والدولوريت ، والبورفير ؛ أو من الصخور الراسبة كالحجر الجيري ، والبريش ، والألباستر المصري ، أو من الصخور المتحولة كالرخام .

تمثل نقوش الدبابيس ما وقع من أحداث ، وما أقيم من طقوس واحتفالات ، وتعبر في نفس الوقت عن أماني الشعب ودعواته ؛ فهي بهذا كله أحداث مصورة ، وأماني مرسومة ، ودعوات محققة ، سجلها الفنان على الحجر تمجيداً في شأن ملوكه ، وتخليداً لذكراهم ، وابتغاء استدامة آثار ماقاموا به من أعمال ، وما احتفلوا به من طقوس .

وكانت دبابيس الوجه البحري في أوائل العصر الحجري الحديث ذات رءوس مكورة من أعلى ودقيقة بعض الشيء من أسفل ، أي على شكل الكمثراة ؛ وهي بذلك تشبه رءوس الدبابيس التي ظهرت في الشرق الأدنى وفي قبرص وكريت . أما رءوس الدبابيس التي شاعت في الوجه القبلي وفي بلاد النوبة في عهد نقادة الأولى ، فقد كانت على شكل قرص مفلطح أو بقاعـدة صغيرة مقوسة الجوانب إلى الداخل . وفي عهد نقادة الثانية ساد في الوجه القبلي الدبوس ذو الرأس الكمثرى الشكل ، مما يتخذ دليلا على انتشار حضارة الوجه البحري إلى صعيد مصر في ذلك العهد . ومهما يكن من أمر فإنه يلاحظ أن الدبوس الذي يهوى به الملوك على رءوس الأعداء في عهد الأسرات هو من هذا الطراز دون استثناء . عدا هذين الطرازين لقد صنع المصريون بعض رءوس الدبابيس بطرفين مدببين وجانبين مقوسين .

ومنذ بداية عهد الأسرات على الأكثر بطل استخدام الدبابيس على اختلاف طرزها كأداة للقتال ، وغدت من

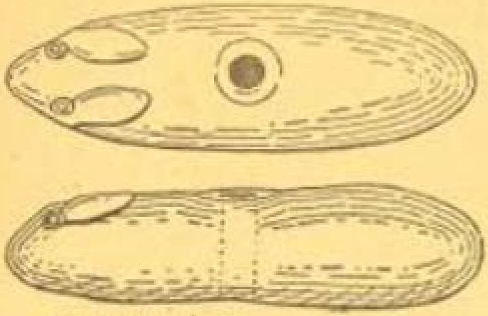
(١) الدبوس كلة معربة على مايبدو للقمعة ، وهو حسب كتب اللغة عصا من خشب أو حديد في رأسها ما يشبه الكرة . وقد ذهب Bonnet في كتابه عن أسلحة شعوب الشرق القديم إلى أن الدبوس هو هراوة من شكل خاص ، وأن الهراوة قد ترجع في أصلها إلى قصبة من عظم ذات رضفة قوية تصلح في حد ذاتها لأن تكون سلاحاً .



(شكل ١) زعيم يهوى بدبوسه على رءوس أعدائه

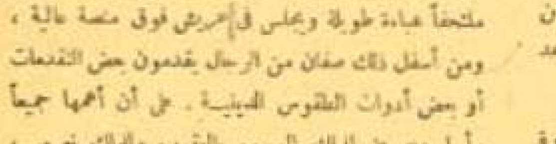
شارات الملك وأدوات الطقوس الدينية والجنازية ؛ ويدل على ذلك تمثيل الملك وهو يقبض على الدبوس في حضرة الآلهة ، وما عثر عليه من رءوس الدبابيس في بعض المعابد ، وبعضها من حجم كبير وعليه نقوش كثيرة مختلفة ، كما تدل عليه أيضاً صور الدبابيس على توابيت الدولة الوسطى . بل هناك ما يشير إلى أن استخدام الدبابيس لهذه الأغراض يرجع إلى عهود ما قبل الأسرات ، فقد كانت توضع إلى جانب الميت في بعض الأحيان نماذج صغيرة من الصلصال لبعض الدبابيس ، رءوس بعضها من اللازورد أو المعدن أو الخشب ، ومقابض بعضها من العظام ، ولعل بعض هذه النماذج على الأقل قد صنع لبعض التماثيل الصغيرة . ومن عهد نقادة الأولى كشف عن رأسي دبوسين كبيرين بمقبضين من العاج والأبنوس ، مما يدعو إلى الظن بأنهما كانا من شارات الشرف أو على الأقل مما صنع خصيصاً للميت . وفي معبد الكوم الأحمر عثر على كثير من رءوس الدبابيس ، غير أنه يلاحظ أن ثقوب بعضها غير عميقة ، وبذلك لم تكن تصلح كأداة للقتال . وفي بلاد النوبة عثر على دبوس ذي مقبض من الذهب عليه صور بعض الحيوانات ، مما يشير إلى أنه أعد للاحتفالات وما إلى ذلك من مناسبات .

وكانت رءوس بعض الدبابيس تحلى بشكت صغيرة منتظمة في الغالب ، ويبدو أن بعض هذه الشكت كانت ترصع بمادة أخرى ، فقد ذكر بترى رأساً من هذا القبيل ملئت شكته بعجينة زرقاء . عدا هذا فقد كانت بعض الرءوس تحلى بنقوش محفورة أو بارزة ؛ ومن هذه النقوش ما يمثل وجوه رجال بلحى طويلة أو رءوس بعض الحيوانات كالثور وفرس النهر والأرنب (شكل ٢) ، أو صور بعض الحيوانات كالتمساح والثعابين والطيور . وقد ساعد هذا على تحلية بعض رءوس الدبابيس بصفوف الحيوانات أو بصفوف الأسرى أو بالمناظر المختلفة ، فقد عثر في معبد الكوم الأحمر على بضعة رءوس محلاة بنقوش مختلفة ، منها رأس من « السرباتين » كررت عليه صورة كلب يهجم على أسد ثلاث مرات (شكل ٣) ، بحيث تتداخل صورتهما معاً ، وقد أجاد الفنان تمثيلهما في شيء كثير من المهارة . ومنها أيضاً رأس من العاج نقشت عليه في ثلاثة صفوف متتالية صور الأسرى ، قيدت أذرعهم من وراء ظهورهم وعقدت في رقابهم الحبال ، ويتجه أسرى كل صف إلى جهة مضادة للجهة التي يتجه إليها أسرى الصف التالي . ومنها كذلك بضعة أجزاء من رأس كبيرة لدبوس آخر



(شكل ٢) دبوس مدبب نحت أحد طرفيه على شكل رأس الأرنب

من الحجر الجيري ، عليه صورة ملك بتاج الوجه البحري ملتحفاً عباءة طويلة ويجلس في عرش فوق منصة عالية ، ومن أسفل ذلك صفان من الرجال يقدمون بعض التقدمات أو بعض أدوات الطقوس الدينية . على أن أهمها جميعاً رأسا دبوسين للملك الموسوم بالعقرب والملك نعرمر ، وهما رأسان كبيران من الحجر الجيري نقشت عليهما مناظر مختلفة ، يحسن عرضها في شيء من التفصيل .



(شكل ٣) صورة متداخلة لكلب يهجم على أسد على رأس أحد الدبابيس

لم يبق للأسف من رأس دبوس الملك العقرب غير ما يقرب من نصفه ، ويبلغ طوله ٣٢ سنتيمتراً وعرضه ٢٥ سنتيمتراً تقريباً . ويبدو مما بقى من نقوشه أنها نظمت فى ثلاثة صفوف متتالية (شكل ٤) . وكان الصف الأعلى يشتمل على مجموعتين من الألوية ، علق بكل من ألوية المجموعة الأولى الزقزاق ، وهو طائر كان يرمز به إلى سكان مصر ، وعلق بكل من ألوية المجموعة الثانية القوس ، وكان يكنى به عن سكان الواحات ووديان الصحارى المحيطة بمصر ؛ وبهذا يتضح أن المقصود هو تسجيل انتصار الملك على بعض سكان مصر والقبائل المجاورة . وفى الصف الثانى يبدو الملك فى حجم كبير وعلى رأسه تاج الوجه القبلى وأمام وجهه علامتان تمثلان وريدة وعقرباً ، مما دعا إلى تسميته بالعقرب . وقد مثل وهو يمسك فى يديه معزقاً يريد أن يشق به الأرض ، ومن أمامه رجل فى حجم متوسط يحمل بين يديه وعاء من خوص لينقل فيه التراب ، يتبعه رجل يقبض فى يديه على مجموعة من سنابل القمح ، ويعلوهما رجلان يحملان لواءين ، ومن خلف الملك تابعان يحمل كل منهما مظلة أو مروحة ، ومن ورائهما صفان من نبات البردى ، ثم شخصان جالسان فى محفتين من خلفهما تابع يحمل عصا فى يمينه ، وإلى جانبهما بعض الراقصات يرقصن ويصفقن بأيديهن . ويشغل الجزء الأعلى من الصف الثالث مجرى ماء يتفرع منه مجرى آخر ، على جانبيه رجلان يعملان فى



(شكل ٤) نقوش رأس دبوس الملك العقرب

شفتيه ، ومن خلف أحدهما معبد صغير إلى اليسار ، بينما يسرع إلى الثاني رجل ثالث يحمل في يده مجرفاً ، وعلى مسافة منهما إلى اليمين خص تتوسطه شجرة باسقة من النخيل . على أن هذا المجرى لا يلبث أن ينثنى إلى اليمين ، حيث يرى على خطه العلوى مقدم قارب ، وعلى مسافة من خطه الأسفل معبد آخر ؛ ويبدو أن الغرض من هذا كله هو تمثيل الاحتفال ببعض أعمال الرى أو الزراعة .

وقد استعان الفنان بالشرائط الأفقية فى فصل الصف الأول عن الصف الثانى ، وفى تمثيل الأرض التى يقف عليها بعض الأشخاص أو التى ينمو منها نبات البردى . على أن صورة الشخصين الجالسين فى المحفتين ومن خلفهما التابع تخلو من مثل هذه الشرائط . أما الملك ومن يقف أمامه أو خلفه مباشرة فتستقر أقدامهم على الخط العلوى لمجرى الماء . وفى صورة الملك وصورة التابع الواقف خلف المحفتين يتمثل الطراز الذى ساد فى تمثيل الأشخاص فى الفن المصرى ، فقد مثلت العين والكتفان من أمام وباقى أجزاء الجسم من الجانب ، ومثل باقى الأشخاص بكتفين من الجانب ، بحيث تبدوان فى أغلب الأحيان كأنهما منطبقتان إلى الأمام ، ويرجع هذا إلى طبيعة ما يقوم به كل منهم من عمل أو إلى ما يلتحف به من رداء يخفى الذراعين .

أما رأس دبوس الملك نعرمر (شكل ٥) فيبلغ طوله ١٩٫٥ سنتيمتراً وعرضه ١٨٫٨ سنتيمتراً ؛ وقد مثل عليه الملك يتدثر بعباءة طويلة وفى يمينه المذبة وعلى رأسه تاج الوجه البحرى ، وهو يجلس فى عرش نصب فوق منصة عالية ، تؤدى إليه عدة درجات ؛ ويعلو العرش نسر ناشر جناحيه ، يظل الملك بحمايته ، ومن خلفه الاسم الحرّى للملك[1] . وإلى جانب المنصة شخصان يحملان مظلتين أو مروحتين ، لا يكاد يبلغ ارتفاعهما قدمى الملك ، ولذلك يظن أن مكان الرجلين هو على جانبى الملك ، غير أن الفنان اضطر إلى تمثيلهما بجانب المنصة رغبة فى إظهار صورة الملك وإبرازها . ومن وراء الملك خمسة رجال فى صفين يعلو أحدهما الآخر ، ويحمل ثلاثة منهم عصياً طويلة ، بينما يحمل الرابع قدراً ونعلين ، أما الخامس فيقف خلف الملك مباشرة ويشير بردائه الخاص . ومن أمام الملك ثلاثة صفوف ، وقد مثل فى الصف الأول حملة الألوية ومن أمامهم حظيرة بداخلها بقرة وعجل ، ومثل فى الصف الثانى شخص يجلس فى محفة ومن خلفه ثلاثة رجال بلحى طويلة يضعون أيديهم على صدورهم ، ومن أمامهم وخلفهم علامات على شكل الأهلة . أما الصف الثالث فيشتمل على بيان عدد الغنائم

(١) الاسم الحرّى هو الاسم الذى كان يتخذه الملك عند توليه العرش باعتباره الحر خليفة أوزوريس على الأرض ، الذى ورث عن أبيه حكم الأرض .



(شكل ٥) نقوش رأس دبوس الملك نعرمر

من الثيران والماعز والأسرى ، وفى أقصى اليمين معبد وحظيرة بها ثلاثة حيوانات تعدو ، تؤلف معاً مجموعة رشيقة ؛ وقد اختلف الرأى فى تفسير ما تمثله هذه الصور ، على أنه يبدو أن لها علاقة بما يعرف « بعيد السد » ، وهو عيد كان يحتفل به ملوك مصر فى فترات مختلفة وتؤدى فيه طقوس معينة ، كان يعتقد بأنها كفيلة بأن تعيد لهم قوتهم ونشاطهم للملك وقدرتهم على تولى الحكم فترة جديدة . وقد مثل الفنان الملك والشخص الجالس فى المحفة من الجانب تماماً ، وإن كان قد رسم العين وظلة المحفة من أمام . ومثل النسر وكأنه يضم جناحه القريب من الناظر إلى جسده ، ويبسط جناحه الثانى إلى أسفل ؛ وفى هذا تمثل إحدى الطريقتين اللتين اتبعهما الفن المصرى فى عهد الأسرات فى تمثيل الطيور الطائرة ، وإن كان قد غير فيها بعض الشىء بأن جعل الجناح البعيد عن الناظر منشوراً إلى الأمام ، مما أكسب صورة الطائر جمالاً وإن كان قد بعد بها عن الصورة الطبيعية .

وقد بذل الفنان فى سائر نقوش هذه الدبابيس عناية واضحة فى تمثيل الأجسام والأشكال ونحت خطوطها الخارجية وتسوية سطوحها ، وحفر كثير من التفاصيل ، كما حاول تشكيل بعض أجزاء الجسم وهو ما يتجلى بوضوح فى ذراعى الملك العقرب . ولا تخفى صعوبة هذا كله على السطوح المقوسة لرءوس الدبابيس ، وما يقتضيه من مهارة خاصة وحسن تقدير ، وقد أثبت الفنان المصرى أنه كان أهلاً لذلك بما يستحق عليه المدح والثناء .

ولا يعرف الآن على وجه التحديد الغرض من الدبابيس فى المعابد ، غير أنه يبدو أنها كانت تهدى لها قربة وزلفى ولتؤدى بها بعض الطقوس الرمزية ، وبذلك أصبحت من الأدوات التقليدية فى المعابد وخاصة قبيل عهد الأسرات وفى بداية الأسرات . ومما يلفت النظر كبر حجم رءوس بعض الدبابيس بنسبة غير عادية . ولعل ذلك يرجع إلى النقوش الكثيرة التى تحملها ؛ ومهما يكن من أمر فإنه تتجلى فى نقوش هذه الدبابيس الرغبة فى تمثيل المناظر الكبيرة المستفيضة ، وتصوير الأحداث وتنسيق صورها معاً . وقد اتبع الفنان فى ترتيبها وتنظيمها قواعد خاصة التزمها الفن المصرى فيما بعد طوال عصوره التاريخية . فقد قسم المنظر الواحد إلى أجزاء أو مزالف ، إذا جاز هذا التعبير ، مثلها جنباً إلى جنب فى صفوف طويلة منتظمة يلى أحدها الآخر ، أو فى صفوف قصيرة من داخل الصفوف الطويلة . وإذا كان فى ذلك ما يناقض قواعد الرسم المنظور ، فإنه لا يصعب الآن فى كثير من الأحيان فهم ما تمثله هذه الصفوف ، واستكناه الصلة بين أجزاء المنظر الواحد ، واستبانة العلاقة بين الأشخاص الممثلة . فنقوش رأس دبوس الملك العقرب تدل على أن الملك بعد أن فرغ من قتال أعدائه ، بدأ أعمال السلم فى احتفالات خاصة ؛ وصورة الملك بقامته المديدة فى الصف الثانى تجعله بيت القصيد بين سائر أجزاء المنظر ، كما أن فى اتجاه سائر الأشخاص الممثلة على رأس دبوس نعرمر إلى الملك ما يبرز من صورته ويربط بين مختلف أجزاء المنظر ويوضح معناه . وهكذا استطاع الفنان تمثيل المناظر المركبة وإبراز أجزائها المختلفة بما يصعب على الرسم المنظور تمثيله فى وضوح تام . وإذا كان يخفى علينا الآن معنى بعض المناظر فى جملتها أو فى بعض أجزائها ، فذلك لأننا نجهل تفاصيل الاحتفالات المصرية القديمة ، أما المصريون القدماء فقد كانوا على دراية تامة بها ، ولذلك كانوا أقدر منا على فهم صورهم ومناظرهم .

ومما تتميز به أيضاً نقوش الدبابيس الفاخرة ما تدل عليه من اهتمام بتمثيل البيئة ، وهو ما يتجلى فى مجرى الماء المتعرج ، ونبات البردى ، وشجرة النخيل فى الحص ، والمعبدين الصغيرين ، والقارب فى نقوش دبوس الملك العقرب ؛ وفى الحظيرتين والمعبد فى نقوش دبوس الملك نعرمر . وإذا كان بعض هذا أو كله قد اقتضته الحفلات الممثلة ، إلا أنه لا يخفى ما لتمثيل ذلك من أهمية فى حد ذاته ،

وخاصة إذا لاحظنا أنه كان يكتفى أيضاً فى صور الدولة القديمة ببعض المبانى والنباتات لتمثيل البيئة . وقد مثل الفنان مجرى الماء من أعلى وغشاه بخطوط متموجة ، وهو ما أصبح تقليداً ثابتاً فى الفن المصرى فيما بعد ؛ كما مثل المنظر تبدو من أعلى أيضاً ، بحيث يرى ما بداخلها من حيوانات ، غير أنه مثل هذه الحيوانات من الجانب .

وتشير موضوعات هذه النقوش إلى أن تقديم الدبابيس للمعابد قد أصبح يستهدف أغراضاً جديدة ، إذ مما لا يخلو من مغزى أن الفنان لم يقتصر عند حد تمثيل ما له علاقة بالدبوس من مناظر الانتصار(١) ، وإنما تعداه إلى تمثيل ما لا يتصل به من قريب أو بعيد ، كتمثيل الاحتفال ببعض أعمال الرى أو الزراعة على دبوس الملك العقرب . ولعل هذا يرجع إلى تطور موضوعات النقوش مع تقدم الزمن وخاصة إذا علمنا أن جدران المعابد كانت من القصب أو اللبن وأنها بذلك لم تكن تصلح للنقش عليها ، مما دعا الفنان إلى قصر نقوشه على مسطحات الأدوات المختلفة كالصلايات والأمشاط . وبهذا يمكن القول بأن سطوح رءوس الدبابيس أتاحت الفرصة للفنان بأن يسجل عليها ما يريد تخليده من صور ومناظر ، مما أغراه أيضاً بأن يزيد من حجمها لتسع سطوحها ما يريد نقشه عليها من مناظر كبيرة ، حتى ولو لم تكن لها صلة بالدبابيس نفسها والغرض منها .

وبهذا غدت الدبابيس بحجمها ونقوشها مجرد أدوات رمزية ، تسجل عليها أعمال الملوك واحتفالاتهم ، إشادة بهم وتبريراً لهم أمام الآلهة ، الذين ورثوا عنهم البلاد وحكمها ، ومسئولية الدفاع عنها ، ورعاية مصالحها . علاوة على هذا لقد كان المصريون بتصوير هذه الأعمال إنما يعبرون عن تمنى دوام آثارها ونتائجها ، كما كانوا يعتقدون أن فى مجرد تصويرها ما يضمن دوام قهر الملك لأعدائه ، وبقاء أعمال السلم على الدوام ، وتحقيق مقاصد الطقوس والاحتفالات على مدى الدهر . وهكذا تمثل نقوش الدبابيس ما وقع من أحداث ، وما أقيم من طقوس واحتفالات ، وتعبر فى نفس الوقت عن أمانى الشعب ودعواته ؛ فهى بهذا كله أحداث مصورة ، وأمانى مرسومة ، ودعوات محققة ، سجلها الفنان على الحجر تمجيداً من شأن ملوكه ، وتخليداً لذكراهم ، وابتغاء استدامة آثار ما قاموا به من أعمال ، وما احتفلوا به من طقوس .

محمد أنور شكرى

(١) لا يبعد أن يكون الفنان ، وهو لم ينس أن الدبابيس كانت من أدوات القتال ، قد اقتصر فى بداية الأمر على تمثيل مناظر القتال وانتصار الملك على أعدائه على رءوس بعض الدبابيس وقد يكشف يوماً ما عن بعض الرءوس وعليها مثل هذه المناظر الصريحة ذات العلاقة الوثيقة بالدبوس نفسه كأداة قتال .



من روائع الأدب

للأديب جلال أمين

● إن أسعد الناس هم أولئك الذين كالأطفال يذهلون عن الماضي ويغفلون عن المستقبل ولا يفكرون إلا في الحاضر.

(جوته)

● احرص على أن تهذب مثلك العليا بحيث تتسامى بها شيئاً فشيئاً إلى ذروة ترى فيها قمتك القصوى في سلوك يتحتم أن يزجى الخير إلى جارك وإلى مجتمعك في نفس الوقت الذى يُرضى فيه نفسك أولاً.

(مارك توين)

● حاربوهم بالسلاح الذى يخافونه لا بالسلاح الذى تخافونه أنتم، ويقّنوا لهم أن سلاحهم لا يخيفكم فتفلوا ذلك السلاح فى أيديهم.

(غاندى)

● الفلاسفة والحياة:

ومما يفزع له المرء بل ومما يسخر منه، أننا كالأطفال نفكك الساعة أجزاء فخورين راضين عن أنفسنا ثم نستخرج الزنبرك ونجعل من الساعة ألعوبة، وندهش بعدئذ لأن الساعة لا تسير.

(تولستوى)

● من البلاهة أن يتعجل الإنسان متاعب الحياة أو يطيل أمدها، ولهذا فأنا أفضل أن تطول شيخوختى على أن أشيخ قبل الأوان.

(مونتيى)

● إن التفكير سهل، لكن العمل صعب، والعمل وفقاً للتفكير هو أصعب ما فى العالم.

(جوته)

● إن الإنسان لا يستطيع القضاء على ما فى العالم من قسوة ولكنه يتمكن من أن يحمى بعض الأقاليم من القسوة وذلك بما يبديه من حكمة.

(فولتير)

● ليس فى الحياة أعذب من السكينة والسلام، والكراهة لا تنفع أحداً.

(ديكارت)

● لا شىء من أمور هذه الدنيا يمكن أن ينظم تنظيماً دائماً باقياً على الدهر، وإن أى نصر مهما عظم لا يحدد المستقبل البعيد. وأية معاهدة مهما أحكم وضعها لن تستقر بها العلاقات بين الدول لزمن طويل، وإن أى ثورة مهما امتدت لا تمنح السعادة الأبدية للشعب أو الجماعة. إياكم أن تستسلموا إلى الأمانى فتخطئوا، تظنون أن رجلاً بعينه أو جيلاً من الناس متى فرغوا من أداء ما فرض عليهم أصبح لهم الحق فى الكسل والنعيم المقيم، إن مرحلة الحياة لا تنتهى إلا فى الساعة التى يغشانا فيها ظلام الليل.

(أندريه موروا)

● إن فهم كل شىء يؤدى إلى العفو عن كل شىء.

(مدام دى ستايل)

● إنك إن فقدت من تحب فلن تفقده دفعة واحدة، إنما يحيا فيك ردحاً من الزمن، كالعين إذا أطالت النظر إلى الشمس وهى تغرب بقيت فيها أشعتها بعد أفولها وذهاب

نورها ، لأنها لا تزال متلألئة فى نفسك مشرقة فى حسك ، وهيهات أن تدرك الفقدان التام والحرمان المطلق إلا إذا أدرك شعورك القصور وحدك الفتور ؟ فتستطيع حينئذ أن تقول : لقد ماتت فىّ !

ذلك لأن الموت لا يتم بالفقدان ؟ وإنما يتم بالنسيان .

(لامارتين)

• لعمرى ما هذه الزوج والبيوت والغابات والسماوات والبحيرات والسهول إلا عارية مستردة ، يعيرنا الله إياها لحظة من الزمن لنضع فيها قلوبنا وأحلامنا وغرامنا ثم يستردها .

(من مقطوعة شعرية لفكتور هوجو)

• يقول الحكيم الوثنى : « هذا رأس الحكمة : لا تجزع لشئ » وذلك هو عين رأى (كلير) ولكنه جازع ! ويقول المسيح : « لا يدخل قلبك القلق ولا الخوف » وعلى ذلك كان (كلير) يوافق من صميم الفؤاد ولكن القلق كان فى قلبه ، وكم ود لو استطاع مواجهة ذينك الفكرين العظيمين وأن يناشدهما مناشدة الإنسان الإنسان أن يدلاه على طريقتهما !

(توماس هاردى)

• إنا لا نسير ، لا نتقدم ولا نتأخر ، لا نرتفع ولا ننخفض ، إنما نحن ندور ، كل شىء يدور وهذه هى الأحجية ، يالها من خدعة ! تسأل الطبيعة عن سرها فتجيبنا « باللف » والدوران !

(توفيق الحكيم)

• لأن يصبح الرجل مالكا أو سائلا ، فستكون له دائماً تلك العينان السوداوان أو الرماديتان ، وذلك الفم الحذر أو الضاحك ، وتلك اليد نفسها ، فبين هذا الإصرار من الطبيعة فى كل منا وبين هذه المصادفات المختلفة فى غير ما تناسب ، يمر تاريخنا كأنه صفحة بين أسطوانتى مطبعة تتلقى الحروف فى كل لحظة من الجانبين !

(ألان)

• المهنة والموت :

هل تعلم آخر جملة نطق بها الأب بوهور النحوى « أنا مشرف على الموت ، أو إنى سأموت ، كلا القولين صحيح ! » .

ومات ريشليو ميتة وزير إذ قال : « أتصفحون عن أعدائكم ؟ لم يكن لى أعداء غير أعداء الدولة ! » . ومات كورو ميتة مصور فقال : « أرجو من كل قلبى أن يكون فى الإمكان التصور فى السماء ! » .

ومات شوبان ميتة موسيقار فقال : « اعزفوا ألحان موزار فى ذكراى » .

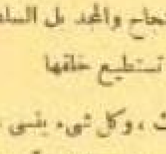
ومات نابليون ميتة رئيس دولة إذ كانت كلماته الأخيرة :

« فرنسا .. الجيش ... رأس الجيش ! »

• إن الثروة والنجاح والمجد بل السلطة ، قد تزيد من السعادة ، لكنها لا تستطيع خلقها (دزرائيل)

• كل شىء يحدث ، وكل شىء ينسى ، وكل شىء يصلح ، إن أحداً من البشر لن يحقق شيئاً من لا شىء ، لو درى كل الناس بما يقوله كل الناس عن كل الناس ما خاطب أحد أحداً ..

جميل أمين



بريد الثقافة

سيدي الأستاذ أحمد أمين بك المحترم :

سلاماً واحتراماً :

وبعد : فإن الأدب العربي والأمة العربية لمدينان لمصر بما أخذته من نشر الكتب الأدبية نشراً علمياً يساعد الباحث على استقاء المصادر الأدبية والتاريخية من منبعها استقاء صحيحاً يعينه على تكوين فكرة عربية للأدب العربي وللأمة العربية .

وإن المؤرخ الذي يعتمد على الكتب الأدبية كما يعتمد على كتب التاريخ سوف يسجل لكم هذه المنة وبعدها مساهمة منكم لبعث التاريخ العربي بعثاً صحيحاً نوعاً يؤدي واجبه المطلوب منه .

وحيث إن كتاب العقد الفريد عراقي وإن كان مؤلفه مغربياً ، كما يقول الصاحب بن عباد ، فنود أن تكون البضاعة العراقية تُرد إلى أهلها كاملة غير منقوصة أو مشوهة . وبما أنكم أخذتم على عاتقكم تقديم هذه البضاعة إلى الأدب العربي عامة ، وإلى الأدب والتاريخ العراقي بصورة خاصة ، فقد تتبعت طبعتكم هذه التي طال شوقي إلى قراءتها ، ورأيت في الجزء الخامس بعض هفوات تاريخية أود لو تتكرمون بإصلاحها فتكونون بذلك كما نأمل من وصول بضاعتنا إلينا .

أولا : في ص ١٨ حول ابن نهية الذي ذكره الحجاج ؛ فإن الحجاج لم يقصد رجلاً كان على الشرطة كما يتبادر إلى الذهن من مفهوم العبارة هنا وفي الكامل للمبرد ، وإنما المقصود مصعب بن الزبير .

فقد ذكر ابن أبي الحديد (ج ٤ ص ٤٩٢) ما يأتي نقلاً عن ابن ما كولا في كتاب الإكمال حول خطبته هذه أن الحجاج يعني مصعب بن الزبير وعبد الله أخاه ؛ وهي نهية بنت سعيد بن سهم بن هصيص ، وهي أم ولد أسد بن عبد العزى ابن قصي ، ثم يقول : وهذا من المواضع الغامضة .

ثانيا : حول يوم الكلاب الثاني في ص ٢٢٥ منه ، ذكرتم أن ذا العينين من أهل مدينة هجر ، وأن الذين أتوا بجيشهم عليهم من الحارثيين ؛ وإني وإن لم أفتش عن هذا الموضوع في كتاب آخر أثناء كتابة المكتوب ، إلا أنه يتبادر إلى ذهني أن المقصود من هجر هذه غير هجر البحرين ، وأنها هجر نجران ؛ فرجائي إليكم أن تتتبعوا عنها وتشيروا إلى ذلك .

ثالثاً : أود لو تشيرون إلى موقع عين أباغ المذكورة في ص ٢٦٠ كما بين ذلك الأستاذ موسيل في كتبه ، لأن في ذلك تشجيعاً للمتأدب العربي لمعرفة تاريخه الأدبي . كما أن ذا قار تقع في لواء الناصرية من جهة البادية في العراق ، وتسمى الآن « أبو غار » .

رابعاً : إني أرى ما ذكر في ص ٢٦٨ من أن شعر لقيط الإيادي كان لبني شيبان لم يكن صواباً ، وإني أرى الفقرة هذه مقحمة لا ترتبط بوقعة ذي قار ، لأن القصيدة ذاتها تشير إلى أنها كانت موجهة إلى قومه إياد ، وقد نشرت القصيدة بكاملها في كتاب عرب المستقبل الذي أهديته إليكم .

(بغداد) عبد الرزاق الحسّان



الوزير ..!

« هذه القصة لا تعني أحداً ، وهي قصة خيالية ، لأني لا أعلم الغيب ، ولا أعلم ما تحدث به النفوس »

للأستاذ عبد الجبار الخليلي

كان يقطع غرفته ذهاباً وإياباً ، وقد شبك يديه خلف ظهره وأحنى رأسه قليلاً واتخذ سمة المفكر العالم المنغمر في حل مشكلة من مشاكل الفكر ...

ولم يكن يشغله شيء من مشاغل الوظيفة أو أزمة من أزمات السياسة ، لم تكن هذه أو تلك ، وإنما كانت تدور في رأسه خواطر وأفكار جليلة خطيرة ...

كان يعرف أنه وزير ، وكان يعرف أن منصبه هذا ليس بالمنصب التافه الصغير .. بل كان على يقين من أن الوزارة لها مكانتها ورفعتها ، ولا بد لمن يشغلها أن يكون رفيعاً خطيراً .. ولذلك فإنه منذ تسلم زمام الوزارة ، عمل بإخلاص وجهد لأن يكون كوظيفته جليلاً مهماً .. فكانت له مكتبة جميلة مليئة بالكتب الضخمة المتنوعة العلوم ، من كتب الأدب والفلسفة والسياسة والرياضة والفلك بقديمها وحديثها .. وقد بذل الجهد والمال في تكوينها وترتيبها .. ولكن شيئاً واحداً ظل يحرجه ويخجله وفيه كان يفكر ويسائل نفسه : كيف يتدبر أمره ، وكيف يتخلص من هذا الحرج وينزع من نفسه هذا الخجل .. أما هذا الشيء الذي بقي يحرج الوزير ويخجله هو قراءة هذه الكتب التي جمعها . فقد حدث قبل جمعة أيام أن سأله صديق له ساخراً عما إذا كانت هذه الكتب للزينة أم للقراءة ؟.. ومنذ ذلك اليوم وهو يحاول أن يجد حلاً لنفسه ولهذه الكتب وطريقاً يتحاشى به ألسنة أصدقائه الساخرة ... وها هو ذا يروح ويغدو ويقول لنفسه :

« من المستحيل أن أقرأ كل هذه الكتب ، بل عشرة منها .. ومن أين آتي بالوقت ، أين هو الفراغ ، والحفلات كثيرة والمتاعب جمة ... ؟ ثم إني لا أحس الميل للمطالعة ، بل أنا أجهل الكتب وأجهل مؤلفيها منذ طفولتي ، فكيف أطالع الآن بعد أن غدت الحياة مليئة بالمشاغل التي لا تترك لي دقيقة واحدة أخلو فيها لنفسي ؟!... ولماذا أقرأ هذه الكتب ؟... أما من السخافة أن أضيع الساعات من أيامي الجميلة في تصديع رأسي بتخريف هؤلاء المؤلفين ؟! .

ولكن كيف أسكت هذه الألسن الساخرة ؟ كيف أفهمهم بأني قدير على إدارة هذه الوزارة من غير حاجة إلى قراءة هذه الكتب ؟.. هل عجزت حقاً عن إيجاد حل لهذه المشكلة ، وهل استنفدت جميع الطرق ؟ ألا يوجد طريق آخر غير القراءة ؟!... »

وتوقف عن السير وأشعل سيجارة ، ثم جلس على كرسيه الوثير وهو ينفث الدخان في خيوط رفيعة ، أخذت تتلوى أمامه كالأفاعي وهو يرقبها في هدوء ... وبينا هو على هذه الحال إذا به يلمح من خلال النافذة جاره المدرس ، وهو يتمشى في حديقة داره ، فقفز من محله على عجل ، وتقدم إلى النافذة بكل حذر وفتح أبوابها جيداً وأسرع

كالقط إلى النضدة ، وأمسك القلم وتظاهر بالكتابة :

« لا شك أن جارى سيرانى وأنا منهمر بين هذه الأوراق ، ولا شك أنه سيكبر فىّ هذه الهمة وهذا الجهد الذى أبذله فى سبيل الخدمة العامة .. ولا أظن إلا أنه سيتحدث أمام أصدقائه وسيحدثهم عن الساعات الطوال التى أقضيها بالدرس والمطالعة ومتابعة أعمال الوزارة فى دارى ... »

وأخذ يخالس النظر إلى جاره بين الفينة والفينة ، وهو يدعو الله أن يلفته إليه ...

« يا جارى العزيز .. انظر إلى .. انظر إلى تأنقى ، دع تلك الزهرة القبيحة وتعال إلى هنا .. إلى جانب النافذة ... ألا ترى ؟ انظر التفسح الرائع .. انظر إلىّ .. أدر رأسك أكثر .. تماماً ، هذه هى الأزهار الحلوة .. لا .. لا تفعل بالله ، لا تدر رأسك ، ليس هناك شىء يدعوك إليه ... تبا لك من غبى قليل الذوق » .

ولمعت فى ذهن الوزير فكرة ، فحمل الدواة بيده ولطمها بالأرض ، فتحطمت وأحدثت صوتاً مسموعاً ، ولكن جاره لم يسمع الصوت ، ولم يلتفت إليه وترك الحديقة ودخل الدار ...

« أتكتفى بثلاث زهرات وتذهب ، ومن غير أن ترانى يا أعمى يا أصم ! تبا لى من غبى يجاور مثل هذا السخيف » .

ونهض من محله منبطأً ساخطاً على جاره .. وفكر فى أن ينتقم منه ، ولكنه أبعد هذه الفكرة عن مخيلته حين لاح له أنه ليس من المستحسن بمثله أن ينحط إلى مثل هذه الترهات ، فيفكر فى الانتقام من البعوض ...

« ثم ماذا كان يفيدنى مثل هذا السخيف لو رآنى ؟ صحيح أنه سيتحدث أمام زملائه ، ولكن ما فائدة كلام عدد من الأفراد عنى ؟ إنى يجب أن أفكر فى طريق أبرع ، يجب أن أجد حلاً أحسن ، يجب أن أدع الناس جميعاً يتحدثون ويتحدثون عنى ، لا بضعة أفراد ... »

وسار من جديد يقطع الغرفة جيئة وذهوباً وهو يردد فى نفسه :

« كيف أصل إلى غايتى هذه ؟.. أعجز هذا المخ من التفكير فى مثل هذه المسائل ؟.. أين إذاً تمتى بذكائى وقدرتى ؟.. أنا الوزير ، أأعجز عن إيجاد حل لمثل هذه الورطة ؟! .. »

وظل يعصر فكره ويبذل ما فى رأسه من طاقة .. من غير جدوى ، حتى كلت قدماه من السير ، وتعب رأسه من التفكير ، ويبس ريقه من التدخين .. فتهالك على مقعده ، وقد تملكه اليأس وساوره القلق على ما كان يظن لنفسه من ذكاء وقدرة على فض المشاكل وحل الألغاز .. وتراخى فى مقعده ، ومط رجليه وحاول أن يترك التفكير إلى وقت آخر ، فتناول صحيفة من جانبه وأخذ يتصفحها ، ولكنه أعادها إلى محلها ، ولم يكن قد قرأ منها شيئاً :

« ما أبغض القراءة إلى نفسى ! وما أسخف هذه الصحف التى يقرؤها الناس ..

— التى يقرؤها الناس ؟! .

— الناس يقرأون الصحف .. يقرأون الصحف ؟! » .

وقفز الوزير من محله وصاح بصوت مسموع :

« لقد وجدتها ! لقد وجدت الطريقة الصحيحة .. أنا ذكى .. سأضحك من الجميع ، أنا وزير .. صبراً أيها الساخرون ! سوف ترى ، من منا الذى سيفوز على الآخر .. » .

وتبسم الوزير وطفح وجهه بالبشر .. لقد وجد الأداة أو (العربة) التى توصله إلى حيث يريد ... وراح كعادته حين يفكر يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً .

« وجدت الطريق ، وهذا نجاح باهر .. ولكن دعنى أفكر بمهارة .. دعنى أفكر كوزير كيف سأسلكه وما الذى سأعمله ؟ أظن أن الأمر قد سهل ... سأدعو الصحفيين إلى حفلة عشاء أقيمها لهم بدارى ، حيث سأملأ بطونهم بكل ما لذ وطاب .. وسأحدثهم عن مكتبتى وكتبى و .. لا ، هذه سخافة ثانية كالتى وقعت فيها أول مرة حين سخر منى ذلك الصديق الكئيب ..

— إذاً سأحدثهم عن نية الحكومة فى إنصاف أعلام الفكر ومساعدة الناشئين والمكافآت التى ستمنحها لهم و...

— ومن الذى سيقرأ مثل هذه البيانات ويهتم بها ؟ .. أسيقرؤها الناس جميعاً ؟.. لا ، لا .. سيهتم بها أولئك الذين سيحظون بالمكافآت والمساعدات المزعومة وحدهم دون بقية الناس ... ثم ما الذى سيصيبنى من رفعة الشأن ؟ ومن

الذى سيمتدحنى .. بل إن حصل شيء من هذا وامتدح هؤلاء أحداً ، فإنهم سيمتدحون الحكومة ... وهذا ما لا أقصد .. وسوف لا يتحدث أحد عن مبلغ اهتمامى بالكتب والمؤلفين ومتابعتى لتيارات الفكر فى العالم .. لا ، لا . يجب أن أسير سيرة أخرى غير هذه .. يجب أن تكون بغيتى هؤلاء الناس جميعاً ، يجب أن أبحث عن شيء آخر تتوفر فيه صفات ثلاث : أن يحول الأنظار إلىّ ، ويثير ضجة كبيرة ، ويتحدث الناس به جميعاً .. هذا ما أريد .. فما هو ؟.. ما هو ؟.. النفط ؟.. الكهرباء ؟.. تبليط الطرق .. مشاريع الرى .. فلسطين ؟.

— فلسطين ؟! .

— أجل والله .. لن أجد خيراً منها .. لقد نجحت مرة ثانية فى اختيار الموضوع !.

وانفتحت مغاليق فكره ، وأنارت للوزير طريقه ، ولاح له هدفه واضحاً جلياً ، فجلس على مقعده بهدوء وأغمض جفنيه نصف إغماضة ، وراح يرسم لنفسه خطوط الطريق ، ويصور لها ما سيجرى من تمثيل بكل دقة ، فقال لها :

« تبدأ المسرحية حين يرفع الستار عن جماعة من الصحفيين يقودهم خادمى (محسن) إلى غرفة الانتظار ليتركهم هناك ينتظرون إلى ما شئت لهم من الوقت — ولكن نصف ساعة — وسيقدم لهم الشاى فيها ..

— كلا ، كلا .. لأدعهم بلا شراب ولا طعام فى هذه الفترة حتى يتجرعوا كأس الصبر بتمامها ، ولكن تقديم الشاى أو القهوة عند مقابلتى لهم ، فهذا تصرف رشيد سيتيح لى فرصة أطول للتحدث معهم ... وعند انتهاء الفترة سأخرج أنا من مكتبى — بعد أن أعبث بشعرى وأخلع سترتى وأنزع رباط رقبتى — لأبدأ تظاهرى التضحية وبذلى نفسى — أنادى خادمى (محسن) بصوت مرتفع لاعناً إياه شاتماً أباه ...

— كلا ، كلا .. أنا وزير ، وهذا لا يليق بى .. سأناديه بلا لعن ولا شتم ، سأناديه وأسأله عن مكان الدواة وأوبخه لهذا الإهمال الذى سأقول عنه إنه يكلفنى كثيراً من الوقت فى البحث عن الحبر .. وسأحدث ضجة كبيرة سيسمعها الصحفيون بأكملهم من أولها إلى آخرها .. إلى حين ألتقى بهم ، حيث سأتظاهر بالدهشة لوجودهم .. وسأعتذر لهم وأوبخ (محسن) لما فعل بهم ، وسيكون الحوار بينى وبين خادمى هكذا :

— لماذا لم تخبرنى بقدومهم ؟ .

— (بك) ألم توصينى بألا أناديك حين تجلس فى مكتبتك تؤلف كتابك الجديد ؟! .

— لقد أخبرتك بهذا حقاً ، ولكنى ما كنت أقصد أن تتمهل فى إخبارى بالأمور المهمة ؟! .

وسألتفت إلى الصحفيين معتذراً من جديد عما أحدث لهم خادمى من إزعاج وسأقول :

— لم أر مثل هذا الخادم الغبى طول عمرى .. ويخيل أن الدار لو احترقت لما نادى علىّ ! .

وسأضحك بعد هذا الحوار ... وسيضحك الصحفيون معى كما أتخيل ! .

ولاشك أنهم سيسألونى عن هذا الكتاب الذى أؤلفه ، فلا بد لى من أن أخترع عنواناً لهذا الكتاب الموهوم .. وليكن اسمه « رسالة الفلسفة الحديثة » !!

وسأصحبهم إلى مكتبتى حيث يتناولون هناك الشاى والكعك ويتفرجون على كتبى الضخمة الكثيرة ، وحيث سأصرح لهم تصريحاً جديداً عن فلسطين ...

— ولكن عماذا ؟ سأصرح ؟ ماذا سأقول ؟

— ولماذا أفكر الآن بهذا التصريح ؟ ... سأقول ما يتبادر إلى ذهنى حين الحديث ، ولكن — إنه لم يستحق التفكير — استغراقاً للماضى » .

وتنفس الوزير الصعداء .. وارتسمت على شفتيه بسمة ساخرة ، وعادت إلى نفسه الطمأنينة والثقة بذكائه وقدرته . سيفوز .. سيفوز حتماً على خصومه .. وما عليه الآن إلا أن ينتقل من دور التحضير إلى دور العمل ...

ومد يده إلى التليفون ، وألقى إلى سكرتيره الأوامر ، ونادى على خادمه ليلقنه دوره ...

* * *

وبعد يومين ، ظهرت الصحف وقد نشرت فى صفحاتها الأولى ، وفى مكان بارز وبخط عريض تصريح الوزير ووصف لمكتبته وحديث طويل عن كتاب « رسالة الفلسفة الحديثة » ؟!

(بغداد) عبد الجبار الجليلي

حياة مقفرة

جمالٌ ومالى من سناه نصيبُ
وزهرٌ ولكن قد علاه شحوبُ

ودنيا من الأنغام يطربُ لحنها
ولكنها فى مسمعى .. نحيب

وروضٌ كساه الظلُّ حسناً وبهجة
ولكنه فى ناظرىَّ كئيب

وكيف يطيبُ العيشُ والعودُ ذابلٌ
ذوى فى ربيع العمر وهو رطيب ؟

• • •

أيا قارئ الكف الذى طالَ لمسُه
لكفى ، وكفى صفحة صفراء

ترى : أنبأتك الكفُّ أنى على الجوى
مقيمٌ ، ومالى فى الحياة رجاء ؟

أنا الدنفُ المحزونُ ذوبتُ شقوتى
بكأسى ؛ ونم الكأسُ والبُرَحاء

تساميتُ ... حتى فى شقائى ، وإنما
عزائىَ أنى — لو علمتَ — غريبُ .

• • •

أأحبابنا ما أظلمَ العيش بعدكم
وقد كنتم لحناً سنياً مجدداً

وكنتم على مُقفرِ الحياةِ وجدبِها
أساةً وأفياء ورياً وموردا

فما تأيتم غصنٌ باللحنِ مُلهمى
وقد كان فياض الشاعرِ مُسعِدا

وأعجبُ ما ألقــاه أن مزاركم
يعز إليه السعى وهو قريبُ !

• • •

وددتُ لو أنى عشتُ فى ظل ربوةٍ
مع الطير والأزهار والجدول الصافى

أجولُ — كما أختار — بين ربوعها
وأغفو — إذا ما عدت — فى روضها الصافى

وأرعى النجومَ الساطعاتِ بعالها
وأتلو مع الأطيار لحن الهوى الشافى

وددت لو أنى عشت حراً بجانبى
حبيبى ، ولكن هل هناك مجيب ؟!

• • •

أضاليل ما تلق من القوم جمةٌ
وأهونها أن الحياةَ ... سلامٌ !

ولو صحَّ ما قالوا لما بتُّ ساهراً
وحيداً بخفرى ، والعيون نيامُ

أناجى رجاء فى خيالى مبدداً
وأنشدُ صفواً كالسراب يُرام

وأشدو بحرمانى ، وأهفو لأسرى
وأرضى بقيدى ، والفضاء رحيب

• • •

تعاميتَ ياحظى ، فأثقلتَ كاهلى
وإن كان — رغم الحادثات — فتيا

وقيدتَ آمالى وكانت طليقةً
وكنتُ بها غضَّ الإهابِ نديّا

ألا أيهــا الباغى المُدِلُّ ببغيه
رويدك ! قد أصبحتُ عنك غنيا

فلو زهر الصحراء إن جادها الحيا
فإنى سأمضى ، والفؤاد جديبُ .

على بيومى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحبها ومديرها
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس تحريرها المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة : ٩ شارع الكردلي ، عابدين ، القاهرة

تليفون : ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٥٧٨ — السنة الثانية عشرة

الاثنين ٥ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٩ — ٢٣ من يناير سنة ١٩٥٠

صفحة

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً



العالم يسير أسبوعاً بعد أسبوع

وزارات جديدة :

كان الأسبوع الماضى من أكثر الأيام حركة ونشاطاً ، كان من أهم الظاهر فيه اضطلاع الحكومة الجديدة بأعبائها الجديدة ، وافتتاح البرلمان وعودة الحياة النيابية إلى نشاطها المألوف . ومن عناصر التجديد فى تأليف الحكومة القائمة — أمران يستحقان التسجيل ، أولهما إدخال عناصر جديدة ممن يعدون من الشباب ، فى العرف الوزارى ، وإن لم يكونوا شباباً فى عرف التقاويم الفلكية . وتقليد هؤلاء « الشبان » وزارات ذات خطر ، مثل : المعارف والخارجية والمالية والشئون الاجتماعية وغيرها ؛ ولا شك أن هذا تجديد محمود بل حيوى وضرورى ، لأن الأجسام التى يعوزها التجديد مصيرها حتماً إلى الذبول والفناء . ومثل هذا التجديد أيسر منالاً للحكومة التى تمثل حزباً واحداً ، إذ يتسع أمامها المجال إلى إرضاء القدامى من أنصارها الذين سبق لهم تولى مناصب الوزارة ، وإلى إضافة عدد آخر من الوزراء من أجيال أحدث . والوزارة على كل حال عبء مرهق ثقيل ، ولا بد للشباب الموفور القوة من المساهمة فى احتمال هذا العبء ، حتى يمكن الجمع بين تجارب الشيوخ ونشاط الشباب . والحكومات الائتلافية وإن كان لها بعض المزايا فإنها عادة لا تستطيع مثل هذا التجديد إلا فى نطاق محدود جداً ، وذلك لاضطرارها لتقسيم المناصب الوزارية بين الأحزاب المؤتلفة مما لا يدع مجالاً للتوسع فى إدخال عناصر جديدة .

أما الأمر الثانى الذى ظهر فى تأليف الوزارة الجديدة ، فهو إنشاء وزارتين جديدتين : الأولى وزارة الاقتصاد الوطنى ، والأخرى للمرافق العامة حيث وزارة الشئون البلدية والقروية . وإنشاء الوزارات الجديدة ظاهرة ليست بجديدة على البلاد التى تنمو أعمالها وتتعدد مرافقها ، وتزداد فيها الأعباء على أولى الأمر فيها ؛ فقد كان المألوف فى مصر أن تنشأ إدارات ومصالح جديدة يكتفى بإلحاقها ببعض الوزارات القائمة ، فتضخمت أعمال بعض الوزارات وتعددت وثقلت الأعباء على القائمين بالأمر فيها ، حتى أفضى ذلك إلى تعطيل بعض المشروعات وشل حركة النمو والتقدم . ولا شك ان هاتين الوزارتين الجديدتين ستخففان من الأعباء التى تضطلع بها بعض الوزارات الأخرى ، وتستطيع بفضل استقلالها أن ترسم الخطط وتسعى فى تنفيذها .

وهناك وزارة ثالثة ، كان كثير من الناس يودون أن تنشأ وتستقل بأعمالها ، وهى وزارة الشئون الثقافية ، تعنى عناية خاصة بالفنون والآثار والمتاحف والمكتبات ، والتعاون الثقافى بين مصر وسائر أقطار العالم ، وتشجيع حركة التأليف والترجمة والنشر ، والثقافة الشعبية فى مختلف صورها ، وهى التى تعنى بالمسرح والسينما والإذاعة اللاسلكية ، والصحافة والمطبوعات .

هذه الأعمال موزعة فى الوقت الحاضر بين جهات متعددة ، أهمها وزارة المعارف العمومية ، وهى من أكثر الوزارات المصرية أعباء ، وتشتمل على أكثر من نصف موظفى الدولة . وحركة التعليم فى نموها السريع الهائل ،

جديرة بأن تشغل من وزارة المعارف ومن رجالها كل ما يستطيعون بذله من مجهود . ولا بد في مثل هذه الحالة أن تحتل الشئون الثقافية المكان الثاني من اهتمام الوزارة وعنايتها . وقد فطنت لهذا الأمر غير واحدة من الدول ، فأنشأت للشئون الثقافية وزارة خاصة ؛ ولعله لن يمضي وقت طويل حتى تحذو مصر حذوها . ومثل هذه الوزارة ألزم لمصر من وزارة الدعاية التي كثر التحدث فيها ، بل إننا إذا بحثنا اختصاص وزارات الدعاية في البلاد التي أنشأت مثل تلك الوزارات لوجدناه في جملته لا يعدو البرنامج الذي تضطلع به وزارة الشئون الثقافية . وحسبنا دليلاً على الحاجة الشديدة لمثل هذه الوزارة أن نذكر أن أداة من أهم أدوات الدعاية والثقافة العامة في آن واحد ، مثل السينما ، قد وزعت أمورها بين ثلاث وزارات مختلفة على الأقل ، وليس من الممكن والحال هذه أن نرجو للنشاط السينمائي تقدماً كبيراً لا في الميدان الفني ولا الثقافي .

مؤتمر كولمبو وزيارة بفن :

من عادة الدول التي تتألف منها الإمبراطورية البريطانية — بقطع النظر عن المستعمرات والحماية وأقاليم الوصاية والانتداب — أن تعقد مؤتمرات من آن لآن لتبادل الآراء والمشاورة عملاً بالمثل العربي ، ما خاب من استخار ولا ندم من استشار . وقد يكون المؤتمر للاتفاق على الشئون الاقتصادية ، فيبرز فيه رجال الاقتصاد والمال ، أو لتنسيق الخطط السياسية فيحتشد له رجال السياسة ، وعلى رأسهم وزراء الخارجية . وقد اشتهر الإنجليز ، شهرة أظنها لا تستند إلى أساس متين ، بنبوغهم في عالم السياسة . ومجرد وجود هذه الشهرة كفيل بأن يلفت أنظار العالم إلى اجتماع أقطابهم في أي بقعة من بقاع العالم ، لأن مؤتمر كولمبو وإن اشتمل برنامجه على بعض الشئون الاقتصادية ، فقد كانت الشئون السياسية فيه المكان الأول . وقد أريد لهذا المؤتمر أن يجتمع عام ١٩٤٨ ، ثم أجل فترة من الزمن ، ثم تقرر عقده أخيراً في كولمبو عاصمة أصغر دولة في الاتحاد الإمبراطوري ، وهي دولة سيلان . ولا أدري هل أريد بذلك إزجاء التحية لهذه الدولة الناشئة ، أم لأنها إقليم وسط بين بريطانيا من جهة وبين زيلندة الجديدة من جهة أخرى ؟! ولكن اختيار كولمبو قد جعل لهذا المؤتمر صفة خاصة ، وهي عنايته بشئون جنوب شرقي آسيا ؛ فإن ظهور الحكم الشيوعي في الصين ، وانكماش الحكومة الوطنية فيها إلى جزيرة فرموزا ، قد خلق في الشرق الأقصى حالة جديدة لا بد أن تعنى بها إنجلترة وأخواتها في آسيا والمحيط الهادي عناية خاصة ، ولا بد أن ينسق سياستها التنظيم الذي تقضي به مصالحها في هذا الركن العظيم من العالم ، الذي تشتبك مصالحه مع مصالح عدد كبير من دول الإمبراطورية ، مثل كندا وزيلندة الجديدة وأستراليا والهند وباكستان وسيلان ، إلى جانب المصالح البريطانية الأخرى بحكم ما لإنجلترة من المستعمرات ومناطق النفوذ في تلك الجهات .

ولا شك أن النظر في شئون الشرق الأقصى قد استوعب معظم نشاط المؤتمر ؛ ومن أهم هذه الشئون مسألة الاعتراف بحكومة الصين الجديدة ، فقد اعترفت بها كل من إنجلترة والهند وباكستان وسيلان . ويتفرع من هذه المسألة ويتصل بها اتصالاً وثيقاً ، مسألة انتشار النفوذ الشيوعي بوجه عام ، واتخاذ إجراء مشترك وسياسة موحدة نحوه .

ولعل الوقت لم يكن ملائماً كل الملاءمة لعقد المؤتمر ، ولولا الضرورة الملحة لكان الأولى إرجاؤه ، ذلك أن الانتخابات البريطانية قد تقرر فجأة عقدها في الشهر المقبل ، وقد أخذ هذا القرار والوفد البريطاني في طريقه إلى المحيط الهندي ؛ وزعيمه مستر بفن من زعماء حكومة العمال ، ولا بد له أن يعود إلى بلاده بسرعة لكي يدلي بدلوه ، وينهض بواجبه في المعركة الانتخابية .

ولهذا السبب نفسه سيمر مستر بفن بمصر مر الكرام ،

الطاغيـــة الصغير

للدكتور زكي نجيب محمود

كتب هيجل — الفيلسوف الألماني في النصف الأول من القرن الماضي — يقول في مجرى عبارة له عن تطور الحرية: « ... إن أهل الشرق لا يعرفون حتى اليوم (١٨٤٠) أن الإنسان حرّ لمجرد كونه إنساناً عاقلاً ؛ إنهم لا يعرفون إلا أن تكون الحرية لرجل واحد، ثم لا تكون حرية هذا الرجل الواحد إلا اندفاعه وراء نزواته ... »

وقد مضى على هذا الذي كتبه هيجل قرن أو يزيد، وتبدلت أحوال الشعوب الشرقية في كثير جداً من الجوانب والأوضاع، فصدرت لها الدساتير وقامت فيها مجالس النيابة وما إليها من مظاهر الحكم الديمقراطي الذي يعترف للإنسان العاقل بحريته، ولا يقصر الحرية على رجل واحد يندفع وراء نزواته — كما يقول هيجل — لكنني برغم ذلك كله، ما كدت أقرأ لهيجل هذه العبارة، وأدير فيها الفكر، أو أديرها في الفكر بتعبير أصح، حتى تبينت صدقها إلى اليوم (١٩٥٠).

نحن أهل الشرق لا نعترف بالحرية إلا لرجل واحد من كل هيئة أو جماعة، ثم لا تكون حرية هذا الرجل الواحد إلا أهواءه ونزواته. هذا قول صادق في الأسرة المصرية الصميمة، وفي ديوان الحكومة المصري الصميم، وفي كل علاقة تنشأ بين جماعة من الأفراد كائناً ما كان شأنها ولونها.

* * *

المثل الأعلى في الأسرة المصرية الصميمة، أن يكون الزوج صاحب الكلمة النافذة على زوجته، ثم أن تكون هذه الكلمة النافذة متقلبة مع أهوائه ونزواته ...

لقد عرفت زوجين، أراهما يمثلان وجهة النظر المصرية تمثيلاً صادقاً دقيقاً، فالزوج مستبد طاغية، والزوجة لا يطوف برأسها، ولو على سبيل الأحلام العابرة، أن تنكر على زوجها حقه في استبداده وطغيانه؛ كلاهما من الريف، لكنهما أنفقا في حياة المدن أربعين عاماً؛ وهما من الطبقة المتوسطة التي تعتقد أنها إلى أصحاب العوز أميل منها إلى ذوي اليسار.

جاءا إلى المدينة يحملان في أصلابهما تقاليد الريف كلها، أعني التقاليد المصرية الصافية الخالصة من أخلاط الثقافة الأوربية؛ ولم يكن للزوجة نصيب من التعليم كائناً ما كان، أما الزوج فيكتب ويقرأ ويحسب ويناقش ويجادل ويفكر على نحو يدعوك إلى الاعتراف بحدة ذكائه أكثر مما يدعوك إلى احترام دقة تفكيره وصدق خبرته.

كان للزوج حقوق على زوجته، وكادت أن تكون

دون أن يقطع عرقاً أو يسبح دماً، ولن يستطيع أن يقطع برأي أو يناقش اقتراحاً، أو يهتدي إلى الحق حتى إذا رآه واضحاً ناصعاً، لأن الوزير المقبل على معركة انتخابية لا يعرف مآلها على اليقين لا يستطيع أن يبت في أمر خطير.

ولذلك ستكون زيارته على الأرجح زيارة ودية يتعرف فيها إلى رجال الحكومة وقادتها، وسيلقى على كل حال، ما اعتادت مصر بذله من الحفاوة والترحيب الحار، وسيعود إلى وطنه مزوداً بالأماني الطيبة؛ لعله إذا ولته أمته ثقتها مرة أخرى أن يكون أكثر إدراكاً لحق مصر الطبيعي وآمالها المشروعة، فنحن لا نطلب حقاً في أراضي الإنجليز ولا في الإمبراطورية البريطانية، بل نطالب بحقنا في أرضنا وديارنا وفي وادي النيل الذي عشنا على ضفافه ناعمين منذ آلاف السنين.

محمد عوض محمد

•

هي صفراً من كل حق إزاءه ، فهو يخاصمها وهي لا تخاصمه ، البيت بيته هو لا بيتها ، والأبناء أبناؤه هو ، حتى ليوشك أن يظن أنهم أبناؤها بالمصادفة ! من حقه أن يدعو من شاء من الضيوف ، ولا وزن إطلاقاً لقبولها أو رفضها ! أما هي فيستحيل عليها استحالة قاطعة أن تدعو زائراً أو زائرة إلا بعد استشارته وموافقته .

وحدث في ليلة ليلاء من ليالي الشتاء ، أن تأخر الزوج عن موعده المألوف ، فنامت الزوجة ونام الأبناء ، وكان أكبرهم في نحو العاشرة ؛ حتى إذا ما انتصف الليل ، نهض هذا الغلام — وهو الذي قص عليّ قصة والده بعد أن شب واكتهل — نهض من نومه فزعاً ، لأنه سمع أمه تبكي ؛ وتسلل من غرفة نومه خائفاً مرتعشاً ، مشوقاً متطلعاً ؛ كان يرتعش خائفاً لأن أباه في الدار ، وحسبه هذا باعثاً على الرعشة والخوف ، فما بالك وأبوه هذا يجرجع بصوته غاضباً ثائراً ؛ ثم ما بالك والغضب والثورة قد جاءا في هذه الساعة من الليل ، التي يسكن فيها الإنس وينشط الجن !! وكان مشوقاً متطلعاً لأنه يسمع بكاء أمه نحيباً قوياً حزيناً ، ويود لو يعلم فيم بكاؤها في مثل هذه الساعة التي يخلد فيها المحزون فينسى حزنه في غمرة من أحلام الظلام ، حتى تعود الشمس فتستيقظ لتوقظ في الناس أحزانهم من جديد .

وقف الغلام في ردهة الدار دقيقة أو نحوها ، يتسمع ويعي مما يسمعه قصة فاته نصفها الأول ؛ وإذا بأبيه يناديه دون أن يراه ، فأسرع الغلام إلى سريره ليجيب على النداء من فراشه ؛ وأجاب الغلام من مخدعه نداء أبيه ، وجاءه مسرعاً إلى حيث كان ؛ وإذا بالغلام الصغير — وهو في العاشرة من عمره !! — يرى عجباً ويسمع عجباً .

فقد عاد الوالد إلى الدار ومعه سمك ، وأمَرَ الزوجة التي استيقظت كالناعقة الخالة في تلك الساعة من الليل ، أمَرَها أن تعدّ له من هذا السمك عشاء ! وهمت الزوجة أن تعترض على هذا الأمر الشاق العسير ، فكان ما كان من ثورة وغضب وصياح .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد ، لما كان في الأمر ما يقتضي الحكاية والرواية ، ففي كل دار زوج يثور ويغضب ويصيح ؛ لكن الرجل الطاغية ، أقسم بالطلاق ليقذفن بالسمك في النيل ! ومن ثم كانت دعوته الغلام الصغير أن ينهض من نومه ليحمل له السمك ويصحبه في هذه الساعة من زمهرير الليل ... إلى النيل ! والشر بعضه أهون من بعض ؛ الخروج الصبي مع أبيه على هذه الحال ، أهون شراً من خراب الأسرة وانفصال الوالدين .

ويمضي الصديق في حكاية ذكرياته عن هذا الحادث العجيب ، فيقول دفاعاً عن أبيه ، إنه كان مفرط الذكاء ، ولولا اندفاعه لكان خيراً من ذلك حالاً ؛ ويروي كيف أن أباه قد أحس لذعاً قوياً من ضميره على ما فرط منه ، وراح يلتمس لنفسه الغفران عند ابنه الصغير وهو يسير إلى جانبه يحمل مقطفاً صغيراً ، يحمله بيمناه مرة وبيسراه مرة ، حتى لم يسع الغلام عندئذ إلا أن تدمع عيناه إشفاقاً على أبيه !.

ووصل الوالد والولد إلى مكان من ضفة النيل ، وإن الفتى ليذكر جيداً كيف اضطرب جسمه كله عندئذ حين خيل إليه أنه يسمع حفيفاً في أعشاب الشاطئ ، وتوهم أن عفريتاً من الجن قادم إليهما من مكمنه ؛ لكن الوالد طمأن ولده ، وتناول مقطف السمك وقبّله قبلة أحس فيها الغلام كل ما ينطوي عليه الوالد الطاغية من حنان الأبوة الذي استحال على طغيان الشرق أن يمحوه من القلوب .

تناول الوالد من ولده مقطف السمك وأفرغه في النيل عند شاطئه ، ووقف قليلاً ، وعاد مع ابنه خطوتين ، ثم رجع إلى كومة السمك يعيدها إلى وعائها ، قائلاً لابنه الغلام الصغير ، إنه لم يعد يرى مانعاً من أخذ السمك إلى الدار بعد أن نفذ اليمين ؛ والغلام لم يفهم بعدُ ما تلك اليمين التي تدعوهما معاً أن يخوضا في هذا البرد الشديد وفي تلك الساعة التي لا يخرج فيها الناس من بيوتهم .

* * *

لما قرأت قول هيجل إن أهل الشرق لا يعرفون إلا أن تكون الحرية لرجل واحد ، وإن حرية هذا الرجل الواحد لا تكون إلا اندفاعه وراء نزواته ، ارتسمت في ذهني صور لرجال ثلاثة : منهم هذا الوالد الذي قص عليّ الفتى قصته .

بل إني بعد قليل من تفكير وتدبر وتذكر ، لم ألبث أن أتبين أننا — أهل الشرق — قد ألفنا على أنفسنا من أنفسنا ، في كل منعطف من طريق حياتنا ، طاغية صغيراً .

زكي نجيب محمود

جهل العلمـــــــاء

بين هزلت وابن خلدون

للأستاذ على أدهم

عقد ابن خلدون فى مقدمته النفيسة فصلاً شائقاً ليثبت أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها ، وقد علل ذلك بأن العلماء قد اعتادوا النظر الفكرى والغوص على المعانى وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها فى الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ، ولا يكتفى العلماء بذلك ، بل يشرعون فى تطبيق الكلى على الخارجيات ويقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس . وصاحب السياسة فى رأى ابن خلدون يحتاج إلى مراعاة مافى الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها ، فإنها خفية وربما كان فيها مالا يتيسر إلحاقه بشبه أو مثال وينافى الكلى الذى يحاول تطبيقه عليها . ثم يسترسل فى تعزيز رأيه فيقول : « لا يقاس شىء من أحوال العمران على الآخر ، إذ كما اشتبها فى أمر واحد فلعلهما اختلفا فى أمور ، فتكون العلماء لأجل ماتعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا فى السياسة أفرغوا ذلك فى قالب أنظارهم ونوع استدلالاتهم فيقعون فى الغلط كثيراً ولا يؤمن عليهم » . ويلحق ابن خلدون بهؤلاء العلماء المستهدفين للوقوع فى الخطأ أهل الذكاء والكيس ، لا لأن ذكاء المرء محسوب عليه كما يقولون ، فمثل هذا التعليل الغامض لا يعجب ابن خلدون ، وإنما لأن هؤلاء الأذكياء الأكياس ينزعون بثقوب أذهانهم إلى مثل شأن العلماء من الغوص على المعانى والقياس والمحاكاة فيقعون فى الغلط . والعامة عند ابن خلدون أسعد حظاً وأنأى عن الخطأ من هؤلاء الكيسى الألباء ، لقصور فكرهم عن ذلك وعدم اعتياده . والرجل العامى لا يقيس ولا يعمم ، ولا يفارق فى أكثر نظره المحسوس ، فهو كالسابح لا يفارق البر عند الموج أخذاً بنصيحة القائل :

فلا توغلن إذا ما سبحت
فإن السلامة فى الساحل

ويستخلص ابن خلدون من ذلك كله « أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس » . فهؤلاء العلماء الناطقة لا يصلحون للسياسة فى رأى ابن خلدون ، لأنهم يلمحون أوجه الشبه وتغيب عنهم نواحى الاختلاف ، ويبادرون إلى استخلاص النتائج وتكوين الأحكام فتجىء أحكامهم خاطئة ، فهم حيرى مساكين لأنهم يعيشون فى عالم من التجريدات بعيد عن حقائق الحياة ووقائع الوجود ، أوهم يعيشون كالحائرين بين الأخيلة والظلال والأخطاء والأوهام ، فهم لا يحسنون فهم أمور الدنيا ولا يجيدون سياستها ، وحالهم يشبه حال هذا الرجل الطيب الذى حدثنا عنه الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين ، وذكر أنه نسى فى المسجد نصيبه من العطاء ، فما صار فى منزله ذكره فبعث رسولا من قبله ليأتيه به ، وكان الرسول على ما يظهر رجلاً عامياً لم تفسده الأقيسة المنطقية فقال لسيده : « وأين أجد هذا المال الذى تركته فى المسجد ؟ » فعجب سيده من شأنه وقال له : « سبحان الله أو يأخذ أحد ما ليس له ! »

فالعلماء فى رأى مؤرخنا الكبير أهل نظر وقياس وتجريد وهذا من شأنه أن يبعدهم عن الحقائق المحسوسة . وقد كان ابن خلدون نفسه من أهل النظر والقياس والتجريد ، وقد حاول أن يجعل من التاريخ علماً يقوم على استخلاص

الناتج من الظاهر المتشابهة وينتزع الأحكام العامة والتعميمات ، وكان فضلاً عن ذلك رجلا ذكي الفؤاد لماح الخاطر كيساً لبيباً أريباً ، فهل يا ترى كان يرى رأي المتنبي في قوله :

أبلغ ما يطلب النجاح به الط

بع وعند التعمق الزلل

ويلحق نفسه بزمرة الذين أخفقوا في السياسة من العلماء والمفكرين ؟

مهما يكن من الأمر ، فإنه قد ترفق بحال العلماء إخوانه ، ولعله قد راعى في ذلك واجب الزمالة وحق الأخوة المهنية ، ولم يقس عليهم قسوة النقادة الإنجليزي وليام هازلت الذي تناول العلماء في أحد فصول كتابه الشائق « حديث المائدة » فأوسعهم نقداً وتنقصاً وزراية ؛ فهو يقول في بداية هذا الفصل الممتع معرضاً بالعلماء : « إن القَمْعَدَةَ الكمة الذي لا يرى إلا حاملاً سفراً من الأسفار بين يديه ليست له قدرة ولا ميل إلى أن يلاحظ ما يحدث حوله ، أو يمر بفكره ، ويخطر بباله ، ويمكن أن يقال في مثل هذا إنه يحمل عقله في جيبه أو يتركه في بيته فوق رفوف كتبه ، وهو يخشى الجرأة على التفكير أو إبداء أي ملاحظة لا توحيها إليه الحروف المكتوبة بطريقة آلية ، وينفر من احتمال عناء التفكير الذي يصبح عبئاً ثقيلاً لأنه لم يتعوده ، ويكتفي بالألفاظ التي تملأ فراغ عقله وتمحو بعضها البعض بغير انقطاع . والتحصيل في حالات كثيرة عقبة في طريق التفكير السليم وبديل من المعرفة الحقة . وتتخذ الكتب أستاراً تحجب ضوء الطبيعة القوي عن العيون الكليلة أكثر مما تتخذ نظارة لرؤية الطبيعة ، وتنوع الأشياء يذهله ويحيره وسرعتها ترهقه وتستنفد قواه ، وحب الراحة والسلامة هو شعاره . وإذا سُئِمَ القارئ المحصل نبذ كتبه والتفكير بنفسه كنت كمن يطلب إلى المشلول أن يثب من مقعده ويلقي بعكازه » .

والعالم في رأي هازلت ليست له أفكار خاصة ، وإنما هو يعيش على تفكير غيره من الناس ، وعادة استجلاب الأفكار من الغير تضعف تفكيره ؛ والذي يتلقى دراسة كلاسيكية منظمة ولا يصبح سخيفاً يكون قد نجا بأعجوبة .

ويلاحظ هازلت أن الصبية الذين يبرزون في المدارس وأيام التحصيل الباكرة لا يكونون من الأفذاذ المعدودين بعد مبارحة المدارس ، وذلك لأن الأشياء التي يفرض حفظها ومعرفتها على الناشئين ويتوقف عليها نجاحهم لا تتطلب تدريب أسمى المواهب ولا أعود الملكات بالفائدة على الإنسان ، وعماد هذه الدراسة الذاكرة وهي ليست من الملكات السامية ، بل هي في رأي هازلت أنزل المواهب منزلة . والغلام الضعيف البنية البطيء التفكير الذي يحفظ ما يطلب منه حفظه ، وليست له قدرة على التمييز أو التذوق وإمتاع النفس سيكون في العادة أول فرقته . ويلاحظ هازلت أن أكثر ما نسميه غباء في الصبية هو في الغالب نقص في الاهتمام والالتفات والعناية بالحفظ لعدم وجود دافع يرغم على ذلك بسبب جفاف الدروس وخلوها من أسباب التشويق ودواعي الترغيب وإيقاظ الاهتمام والعناية .

ويقول هازلت : « أعظم العبقريين عندنا لم يظهروا تفوقاً في التحصيل أثناء دراستهم في المدارس أو الجامعات » .

والعلماء في رأي هازلت « ينظرون بعيون الآخرين ويسمعون بآذانهم ويطلقون بقبهم بهم ، والعالم يفخر بأنه يعرف الأسماء والتواريخ لا الرجال ولا الأشياء ، وهو لا يعرف شيئاً عن جيرانه الأقربين ، ولكنه واسع الاطلاع حجة في معرفة قبائل الهندوس والتتار ، وهو لا يعرف طريقه إلى الشارع المجاور ، ولكنه يعرف بدقة أبعاد القسطنطينية وبكين ، ومعرفته بالأشياء التي يتكلم عنها تشبه معرفة الأعمى بالألوان ؛ وهو يعرف اللغات البائدة الميتة ، ولكنه لا يتكلم لغته بطلاقة ، ولا يكتبها كتابة صحيحة ؛ والعالم الذي لا يعرف غير الكتب لا بد أنه جاهل بالكتب ، لأن الكتب لا تعلمنا كيف نفيد من الكتب ،

الكتابة وتجويدها وتذليل صعابها ، ولا تيسر هضم المعلومات التي يجمعها الإنسان من شتى المراجع والمصادر فلا يستطيع الإفادة منها وعرضها عرضاً سائغاً مقبولاً ؛ وقصوره في التعبير يجعله عاجزاً عن تحديد أفكاره وحصرها ، ومن ثم يستكثر من الألفاظ المتضائلة ، والتراكيب البالية ، ويجعل الموضوعات الحية الشائقة عملة منمية ، فاترة باردة ، جدباء مقفرة ، في حين أن الكاتب المطبوع الذي يفهم ما يكتب ويحسنه يستطيع أن يروض الجموح ويلين الصعب ويشيع الحرارة في الموضوعات الجافة ، ويحيي مواتها ، ويفجر الماء في صخورها ، ويستنبت الأزهار في قفورها ، ويطلع الكواكب والأقمار في ظلماتها المدلهمة . ولن يظفر الإنسان بالمعرفة الحقة والعلم الصحيح إلا إذا طلب العلم للعلم ، أما من طلب العلم والمعرفة للجاه أو المال فقد يظفر منهما بالقشور فيخالها علماً حقاً ومعرفة صادقة ، ولا يجيد العلم والمعرفة إلا من جعلهما غاية لا وسيلة ، لأن الإنسان لا يخلص في طلب شيء إلا إذا جعله غايته . ولا بد أن يوازن الإنسان بين معرفة الحياة ومعرفة الكتب ، فكلتاهما تلقي ضوءاً على الأخرى ، ومن جهل الحياة لا يفيد من الكتب ، ومن جهل الكتب كذلك أصبح عامياً ثقيلاً بغيضاً جهولاً مهما أوتي من الذكاء . وقد بدا للمازني أن ينشط في تنقص الذين يكتفون بالكتب ويبصر العامة والجهلة رغبة في إبراز وجهة نظره في صورة تثير الاهتمام ، وليس أدل على أنه كان لا يؤمن بكل ما قاله في العلماء ، من أنه هو نفسه كان واسع الاطلاع ، دائم القراءة ، مكباً على الدرس ، منقطعاً للكتابة والتأليف . وعندي أنه وابن خلدون على ما بينهما من اختلاف في التفكير وطرائق التعبير يتلاقيان ويلتقيان عند نقطة واحدة ، وهي ضرورة الرجوع إلى الحياة نفسها في استيحاء الأفكار واستلهام الواقع ، وعدم الاكتفاء بالتعويل على القراءة والاطلاع والتفكير المجرد .

علي أدهم

كيف؟

قصة الطباعة فى مصر

فى عصر محمد على الكبير

للدكتور جمال الدين الشيال

كانت أول دولة شرقية عرفت الطباعة هى تركيا ، فقد أدخلت إليها أول مطبعة فى سنة ١٧٢٨ ؛ ثم تلتها سوريا ، فقد جلبت إليها المطابع الإرساليات الدينية لطبع الكتب الدينية ؛ فلما وفدت الحملة الفرنسية إلى مصر أحضرت معها مطبعة (البرو باجندا) من إيطاليا ، ولكن هذه المطبعة لم تعط الفرصة الكافية والهدوء اللازم لتخرج للشعب مطبوعاتها ، ثم قدر لها أخيراً أن تخرج من مصر بخروج الحملة.

وظلت مصر خالية من المطابع نحو العشرين عاماً حتى بدأ محمد على يضع الأسس لإصلاحاته ، وكان عماد هذه الإصلاحات فى نظره مدارس جديدة وجيشاً جديداً ، يتبع فى إنشائهما النظم الأوربية الحديثة ، ورأى أن هذه النظم الحديثة لا توجد فى الكتب العربية أو التركية القديمة ، وهنا اتجه بتفكيره إلى إنشاء مطبعة فى مصر تزود هذه المنشآت بالكتب اللازمة .

ويرجع تفكير محمد على فى إنشاء المطبعة إلى سنة ١٨١٥ تقريباً ، وهى السنة التى أوفد فيها بعثته إلى إيطاليا للتخصص فى فن الطباعة ، أما المطبعة فقد أنشئت فى سنة ١٨٢٠ وإن كانت لم تبدأ العمل إلا فى سنة ١٨٢٢ .

وقد بدأ محمد على فأحضر ثلاث آلات للطبع من (ميلانو) ، كما أحضر الحبر والورق والمواد الأخرى اللازمة للطباعة من (ليجهورن) و (تريستا) ، غير أنه بعد أن صدف عن إيطاليا واتجه إلى فرنسا أخذ يحضر ما يحتاج إليه من آلات الطباعة من (باريس) .

وقد أحضرت للمطبعة عند إنشائها مجموعات من الحروف العربية والإيطالية واليونانية صنعت كلها فى ميلانو بإيطاليا ، غير أنه تبين بعد طبع الكتب التركية والعربية الأولى أن هذه الحروف العربية المصنوعة فى إيطاليا رديئة مختلة ، لهذا لم يكد محمد على يعلم بوجود (سنكلاخ أفندى) الخطاط الفارسى المشهور بالقاهرة حتى أصدر أمره فى ٨ صفر سنة ١٢٣٧ بأن يكلف بنقش حروف جديدة للمطبعة فجاءت حروفه جميلة ؛ وأجمل الكتب التى طبعت بخطه الفارسى : « ديوان محى الدين بن عربى » الذى طبع فى بولاق سنة ١٨٥٤ . وقد كانت الحروف العربية بمطبعة بولاق صنفين : خط التعليق أو الفارسى ، وكانت تطبع به عناوين الفصول غالباً ؛ والخط النسخى المعتاد وتطبع به المتون .

أما الحبر فلم يلبث أن صنع فى مصر ، وبذلك أوقف استيراده من أوربا ؛ كذلك الورق ، فقد أنشئت (فابريقة) لصنعه حوالى سنة ١٢٥٠ أو قبلها بقليل ، وكان مقرها الأول فى الحسينية ، ثم نقلت إلى بولاق . وكان الورق يصنع أولا من مواده الأولية ، وفى ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٥٠ صدر أمر من محمد على إلى ناظر الجهادية جاء فيه : وبما أنه صار البدء فى تشغيل فابريقة الورق التى تم إنشاؤها ،

وأن هذا الصنف يشتغلونه من اللبوسات الكهنة وما يشابهها ، فيشير بالتحرر من الجهادية إلى سائر الآلايات والأورط بإرسال اللبوسات المرتجعة إلى ديوان الجهادية أولا بأول ، وبورودها ترسل إلى فابريقة الورق أولى من بيعها أو إتلافها بالبقاء ، فضلاً عما فى ذلك من الفائدة فى كثرة تشغيل الورق » .

ولم يكن محمد على يسمع بأى تحسين صناعى يتم فى أوربا حتى يبادر بالأخذ به فى مصر ، ففى ١٣ شعبان سنة ١٢٦٣ — قبيل وفاته بسنتين — نشرت الوقائع المصرية : « أنه استحضر من أوربا آلة بخارية لإدارة فابريقة الورق ... وصار للأمول ازدياد ما يعمل فيها من جميع أصناف الورق بدلاً من إدارة الفابريقة بالمواشى » .

وقد ظلت الآلات الخاصة بالمطبعة وفابريقة الورق وأصول الحروف واللوحات الإيضاحية الملحقة بالكتب المترجمة — وخاصة الكتب الحربية والرياضية والجغرافية تصنع فى أوربا — فى إيطاليا وفرنسا — حتى تاريخ متأخر .

وظل الأمر على ذلك حتى نهاية عصر محمد على ، فيما عدا اللوحات الإيضاحية ، فقد ألحقت بمطبعة بولاق حوالى سنة ١٨٤٢ مطبعة أخرى لصنع هذه اللوحات وطبعها .

وقد كان أول مدير للمطبعة هو نقولا مسابكى ، وظل يشرف على إدارتها من الناحيتين الفنية والعملية حتى توفى فى سنة ١٢٤٤ (١٨٣٠) .

وقد ذكر الرحالة الإيطالى (بروكى) أن مسابكى هفا — فى أول عهده بالعمل — هفوة خطيرة كادت تقصيه عن العمل وتودى به ، وذلك أن قسا إيطاليا من (كالابريا) اسمه (كارلو بيلوتى) كان مدرساً بمدرسة بولاق ، نظم قصيدة طويلة موضوعها « الأديان الشرقية » ، وكانت تتضمن طعناً فى الدين الإسلامى ، وأعطاها لمسابكى ليطبعها فى مطبعة بولاق ، وكان المستر (سولت Solt) قنصل إنجلترا فى مصر يكره هذا القس فأراد أن يوقع به ، ونقل خبر هذه القصيدة إلى محمد على الذى أمر فى الحال بإحراق أصول هذه القصيدة ، ولولا وساطة عثمان نور الدين لما عفا عن مسابكى ، بل لناله منه عقاب أليم .

وعقب هذه الحادثة أصدر محمد على أمره فى ١٣ يوليو سنة ١٨٢٣ (١٦ ذو القعدة ١٢٣٩) ألا تطبع المطبعة أى كتاب غير حكومى إلا بعد صدور إذن خاص منه ، فكان هذا أول قانون صدر بالرقابة على المطبوعات فى مصر الحديثة .

وقد ألحق بنقولا مسابكى — منذ اللحظة الأولى — عدد من تلاميذ الأزهر ، وكلف بتعليمهم طريقة الطبع وصف الحروف ونواحى العمل الفنية الأخرى ، فلما حذقوا العمل ومرنوا عليه أسندت رئاسة الأقسام إلى نفر منهم ، فعين الشيخ عبد الباقى رئيساً للسبك ، والشيخ محمد أبو عبد الله رئيساً للطباعين ، والشيخان يوسف الصنفى ومحمد شحاتة رئيسين للصفافين .

وقد تولى الإشراف الفنى على المطبعة منذ إنشائها نقولا مسابكى ؛ أما الرئاسة الإدارية فقد تولاها أناس كثيرون بألقاب مختلفة ، كان أولهم عثمان نور الدين الذى عين مفتشاً للمطبعة فى ٨ صفر سنة ١٢٣٧ (٤ نوفمبر ١٨٢١) وظل يشغل هذا المنصب حتى شهر ذى الحجة سنة ١٢٣٩ (يوليو ١٨٢٣) ثم خلفه مفتشون ومديرون ونظار آخرون .

وقد كانت المطبعة الوسيلة الكبرى لتحقيق غرض محمد على من نقل الحضارة الغربية إلى مصر ، فلقد كانت طريقته فى هذا النقل هى الترجمة ، وما كان للترجمة أن تحقق غرضها إذا لم تطبع من الكتب المترجمة نسخ كثيرة توزع على الجند فى فرق الجيش ، وعلى الطلاب فى المدارس بل وعلى الأهلين .

ولهذا أنشئت مطابع أخرى كثيرة ، وألحق معظمها بالمدارس ، وخاصة البعيدة منها عن بولاق ، ليتيسر لها طبع الكتب التى تترجم بها دون تكبد مشقة الانتقال إلى مقر المطبعة الكبرى ؛ فكانت هناك مطبعة ملحقة بمدرسة الطب حين كانت فى أبى زعبل ، وقد طبع بها فى سنة ١٢٤٨ أول كتاب ترجم فى الطب وهو كتاب : « القول الصريح فى علم التشريح » ؛ ثم ظلت تطبع بها الكتب الطبية المترجمة حتى نقلت المدرسة إلى قصر العينى فأصبحت كتبها تطبع فى بولاق .

وكانت هناك مطبعة ملحقة بمدرسة الطوبجية بطرة ؛ وأول كتاب طبع بها هو كتاب « الكنز المختار فى كشف الأراضى والبحار » ، وقد طبعت بها كتب حربية ورياضية

وجغرافية أخرى . كذلك كانت هناك مطبعة أخرى في المدرسة الحربية بالجيزة ؛ وكان في القلعة مطبعة طبعت بها الوقائع المصرية مدة ما .

ورغم وجود مدرسة المهندسخانة في بولاق فقد ألحقت بها حوالي سنة ١٢٦٠ مطبعة حجر خاصة لطبع الكتب الرياضية المختلفة ، وما يتصل بها من أشكال ولوحات إيضاحية .

وهناك مطبعة أخرى لم يُعن أحد بذكرها أو الإشارة إليها — رغم أهميتها — وهي مطبعة سراي الإسكندرية ، ولسنا نعرف بالتحديد متى أنشئت هذه المطبعة ، ولكنا نعرف أنها شاركت في طبع بعض الكتب المترجمة في ذلك العصر ، وخاصة الكتب التاريخية التي ترجمت إلى اللغة التركية ، ومنها نستطيع أن نرجح أن هذه المطبعة أنشئت في سراي رأس التين حوالي سنة ١٨٣٢ ، ففيها طبع في سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) كتاب « تاريخ نابليون » تأليف « دوق دي روفيجو » ، وكتاب « تاريخ إيطاليا » تأليف « بوتا » ، وقد قام بترجمة الكتابين عن الفرنسية إلى التركية عزيز افندي كاتب الديوان الخديوي بثغر الإسكندرية .

وفي هذه المطبعة أيضاً كانت تطبع الجريدة الرسمية الفرنسية « لومونيتور اجيسيان Le moniteur Egyptien » التي ظلت تصدر نحو ثمانية أشهر من أغسطس سنة ١٨٣٣ إلى مارس سنة ١٨٣٤ .

وبعد وضع التنظيم الإداري الجديد لمصر ألحق ببعض الدواوين مطابع خاصة بها لنشر أوامرها ومنشوراتها وقوانينها ، فقد كان لديوان المدارس مطبعة ، ولديوان الجهادية مطبعة ، غير أنا نلاحظ أن هذه المطابع شاركت أيضاً في طبع الكتب المترجمة ؛ ففي مطبعة ديوان الجهادية طبعت « رسالة في علاج الطاعون » في سنة ١٢٥٠ و « رسالة فيما يجب اتخاذه لمنع الجرب والداء الإفرنجي عن عساكر الجهادية ونسائها » في سنة ١٢٥١ ، والرسالتان من تأليف كلوت بك .

وقد كان الغرض الأساسي من إنشاء هذه المطابع هو طبع الكتب المترجمة ، ولكنها قامت أيضاً بإحياء كثير من المخطوطات القديمة التي دعت الحاجة إلى طبعها . وقد كانت تقاليد العصر تقضي بطبع ألف نسخة من كل كتاب يترجم ، وإن كان القليل منها قد طبع منه خمسمائة فقط .

وكانت هذه الكتب توزع على تلاميذ المدارس ، فهي من أجلهم ترجمت وطبعت ؛ وكانت أثمان الكتب تخصم منهم في أول الأمر ، وثمن الكتاب هو ما صرف على طبعه دون تقدير أي ربح . وحوالي سنة ١٢٥٨ (١٨٤٢) رأت الحكومة أن تصرف الكتب للتلاميذ على نفقتها الخاصة ، ولكنها كانت تأمر بأن تكون هذه الكتب عارية للتلاميذ تجمع منهم إذا انتقلوا إلى فرقة أعلى لتصرف إلى التلاميذ الجدد ، وهكذا يستمر الكتاب يتداول بين التلاميذ من يد إلى أخرى إلى أن يهلك فيستهلك .

وبعد مدة أخرى رأى ديوان المدارس أن يقرر مبدأ ملكية التلميذ للكتاب ، وبهذا أصبح كل تلميذ يحتفظ بكتبه إذا انتقل من فرقة إلى أخرى ، أو من مدرسة إلى أخرى . ويبدو لي أن الديوان قرر هذا النظام بعد أن رأى أن الكتب التي طبعت لم تجد لها قراء غير تلاميذ المدارس ، فتكدست أكواماً في المخازن .

وكان محمد علي يفخر بنهضته العلمية كل الفخر ، ويعتز بكتبه التي ترجمت وطبعت ، ويحب أن يباهي بها الدول الأخرى ، بل كان يعتبرها خير هدية تهدى لملوك أوربا المثقفين ؛ ففي ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٢٦١ أصدر أمره إلى مدير ديوان المدارس «بانتخاب ثلاث نسخ من كل كتاب من الكتب الكثيرة القيمة التي طبعت في مطبعة مصر ، والتي سبق إرسالها إلى أوربا ، وتجليدها وتذهيبها ، وإرسالها لطرفنا ، وخصم الثمن على طرف الديوان ، لترسل بمعرفة أرتين بك مدير التجارة والأمور الخارجية ، لصاحب الجلالة ملك فرنسا بصفة هدية » .

وفي ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٦١ صدر منه أمر آخر ، جاء فيه : « الكتب المدرجة بالجدول طيه سترسل هدية مني إلى صاحب الحشمة ملك الروسيا ، فيلزم فرزها وتجليدها وتذهيبها مع ٣ نسخ من كل نوع من أنواع الكتب السابق طبعها بمطبعة بولاق ، وأرسل منها إلى أوربا » .

الدكتور
جمال الدين الشيال

الدولة والفـــــرد

للأستاذ يحيى هويدى

يحدثنا روسو فى كتابه « العقد الاجتماعى » كيف كان الأفراد يعيشون أول الأمر عيشة فوضى وهمجية لا يرعون فيها حرمة ، ولا يتبعون شريعة ، ولا يقفون بأطماعهم عند حد . وكثيراً ما كانت هذه الأطماع تصطدم وتصطرع ، فنشأ من هذا كله تلك المعارك والحروب التى ساد فيها قانون الغاب ، وجعلت من حياة الرجل البدائى سلسلة من أعمال القتل والسلب والنهب . ويحدثنا روسو كذلك كيف أن الأفراد لم يستطيعوا أن يستمروا فى حياة هذا قانونها وتلك دعائمها ، فأجمعوا أمرهم على أن يتنازل كل منهم عن جزء من حقه وأطماعه ، وبذلك يترك الفرصة لغيره لكى يحقق هو الآخر جزءاً من أطماعه ؛ وعلى أساس هذا العقد الذى عقدوه فيما بينهم نشأت الدولة .

وهـذا كلام معقول . فالدولة — كما صورها لنا روسو — قد قامت على قمع غرائز الفرد والحد من أطماعه البدائية . لقد قالت الدولة للفرد : إياك أن تحاول تحقيق كل مطامعك واغتصاب كل حقوقك . إن المسألة ليست فوضى ، فلا تحاول مثلاً أن تغتصب أرض جارك وتأخذها لنفسك ؛ لو سولت نفسك لك هذا ، فإن غياهب السجون تنتظرك . لا تراوغ ، فقد أعددت لكل شىء عدته . إن امتلاك قطعة أرض كانت ملكاً لغير يعد جريمة فى نظرى ، إنه اغتصاب لحق من حقوقه وأنا قوامة على الحدود والحقوق . وقالت له كذلك : إياك أن تحدثك نفسك بسرقة الضعيف أو نهبه أو التحكم فيه على أية صورة من الصور ، إنه ضعيف بنفسه قوى بى ، هزيل فى ذاته جبار عتيد بى . أفهمت . إن الضعف والقوة ليسا كل شىء فى حياتك الجديدة . إن القوانين التى وضعتها أنا والتى تقوم كلها على صيانة الحقوق وبث روح الثقة والطمأنينة فى نفس الضعيف هى التى تسيطر عليك الآن . وقالت له كذلك : إياك إياك والقتل ، إنه سلب للغير فى أهم حق من حقوقه وهو حق الحياة ؛ إنك ستفقد حياتك أنت الآخر ثمناً لهذا الهجوم . ثم ما هذه البشاعة ؟ أتحتمل منظر الدماء وهى تسيل ؟ ألا يحرك فيك هذا المنظر أية عاطفة إنسانية ؟ لا . لا . إنك اليوم إنسان ، ولست حيواناً ، وعليك أن تقدر لإنسانيتك قدرها .

ولا بد أن يكون الفرد قد قابل هذه المبادئ أول الأمر بشىء من الدهشة وبغير قليل من النكران . ولا بد أن يكون قد عجب لهذه السلطة الوهمية التى أخذت فى فرض مجموعة من القوانين عليه جعلته يطامن من غرائزه ، ويحد من سجيته البدائية . ولكنه سرعان ما ألفها ووجد حياته فى ظل هذه السلطة أمتع وأجدى من حياته الأولى ، ونظر إلى نفسه نظرة إعلاء وإكبار : إنه أصبح اليوم إنساناً .

ولكنه أخذ يصحو شيئاً فشيئاً . فما بال هذه الدولة التى لم تقم إلا على هذه المبادئ الإنسانية السامية تصدر أوامرها إلى جيوشها وجحافلها بأن تتقدم ، وتأمر جنودها بإطلاق النيران ، وبأن يعبثوا من دماء الأعداء ما وسعهم ذلك نهلاً وعلاً ، وبأن يمروا فوق جثثهم غير عابئين ؟ والويل لهم لو اختلجت فى نفوسهم أثناء ذلك أية عاطفة إنسانية ، وإياهم إياهم أن يلبوا أى نداء للرحمة ، أو ينصتوا لأى صوت ينادى باستخدام الشفقة . يا للويل !! إن الدولة تأمر أفرادها إذاً أن يقتلوا ويذبحوا ويعبوا من الدماء ، وهى التى أمرتهم قبل ذلك بألا يقتلوا وبأن يكونوا أناسى . ثم لم هذا كله ؟ لم تصدر الدولة أوامرها إلى أفرادها بأن يخوضوا تلك المذابح والمعارك ؟ لم تتناقض مع نفسها هكذا ؟ أتدرى لماذا ؟ إنها تود أن تغتصب من جارتها ما تملك ! إنها تود أن توسع من ممتلكاتها على حساب غيرها غير عابئة بما لهذا الغير من حقوق ! يا عجباً !! ألم تحذر الدولة الفرد قبل ذلك من أن يسطو على ممتلكات غيره ؟ ألم تلق بكثيرين من أفرادها فى ظلمات السجون

لا تفي، إلا لأنهم قد ارتكبوا بالنسبة إلى الآخرين من رعاياها ما ترتكبه هي الآن بالنسبة إلى دولة أخرى ؟ إنها إذاً قد حللت لنفسها ما حرمته على الغير، واستباحت لنفسها ما قد سخطت على الفرد من أجله. ثم هي في هذا كله لا تحترم إلا القوة، ولا تُبجّل من الدول إلا أقواها وأوسعها نفوذاً وأكثرها سيطرة، وتحتقر من الدول أضعفها وأقلها شأناً، وتحاول دائماً أن تلتهم أقاليمها وتسلبها حقوقها! ما هذا؟ ألم تقل الدولة للفرد يوم قامت أن يحترم الضعيف احترامه للقوي لأن له من الحقوق ما لهذا القوي؟! ها هي ذي تناقض نفسها بنفسها.

حق للفرد إذاً أن يكفر بالدولة، وحق له أن يقابل تغريرها به بالاستخفاف بمبادئها والتنكر لها، وحق له أن يثور في وجهها.

ولكن لتطمئن كل دولة، فإن هذا لم يحدث ولن يحدث؛ ذلك أن كل دولة قد علّمت أفرادها فيما علّمتهم أن يحترموها هي فقط على حساب الدول الأخرى، وأن يتحمسوا لها وحدها، وأن يغتبطوا إذا ما رأوها قوية طاغية مُدلّة لغيرها من الدول. إنها قد علمتهم أن يصفّقوا لها ولمسلكها فقط إذا ما رأوه خلاقاً رقراقاً؛ وحينئذ ينسى الأفراد تلك المبادئ التي ناشدتهم الدولة يوم قامت باتباعها وعدم تخطيها. وحينئذ تضمن الدولة دوام تغريرها بالأفراد.

* * *

وهكذا كتب على الفرد أن يكون مخاتلاً منافقاً: عليه أن يلقي وراء ظهره بكل المبادئ السامية التي علمته إياها الدولة إذا ما طلبت هي منه ذلك، ثم عليه من ناحية أخرى أن يكبرها وينزلها من نفسه مكاناً علياً إذا ما طلبت الدولة منه ذلك أيضاً. عليه أن يكون قوّاماً على الحقوق ساهراً على الحرمات حيناً، وعليه أن يعصف بكل هذه الحقوق ويطأ هذه الحرمات بأقدامه حيناً آخر. والفرد الذي يستطيع أن يمثل هذا الدور ويجمع في نفسه بين هذا النوع الغريب من ازدواج الشخصية هو ذلك الذي تكبره الدولة وتصوغ له قلائد المديح.

ولا بد أن يخلو الفرد إلى نفسه قليلاً لكي يفكر فيما آل إليه مصيره على يد هذه الدولة، وفي قيمة هذه المبادئ التي استندت إليها، ولا بد أن يصل في تفكيره هذا إلى نتيجة حتمية هي: أن هذه المبادئ التي تلقنها الدولة له مبادئ مرنة ليست بها تلك الصرامة التي تصورها عليها أول الأمر، وأن احترامه لها لا يمكن أن يرقى إلى درجة القداسة أبداً. وأن عليه ألا يأخذ نفسه بكل هذا الجد ولا يصطنع كل هذه الدقة عند محاولته تطبيق هذا القانون أو ذاك من قوانينها، ما دام يرى تحت سمعه وبصره عبث الدولة بنفس هذه القوانين التي وضعتها. حقاً! إنه يعرف أن في مخالفته لتلك القوانين عقوبة قاصمة له، وهو يعرف كذلك أن أي عبث بها سيؤدي به إلى غياهب السجون، ولكنه سيظل دائماً يتحين الفرصة التي تتيح له أن يعبث بتلك القوانين في الخفاء، وأن يحاول تخطيها في مأمن من أعين الساهرين على تطبيقها؛ واحترامه لهذه القوانين بعد ذلك لن يكون مقصوداً لذاته، بل لما عساه أن تناله به هذه القوانين من أذى وما تصيبه من مكروه. ولا بد له لكي يحقق هذا كله، أي لكي يتم له العبث بالقوانين دون أن تمتد يد الدولة إليه بسوء، أن يسلح نفسه بصفات كثيرة لا توافقه عليها الدولة ولا يقرها المجتمع ولا يرضاها القانون الأخلاقي. وعدم موافقة سلوك الفرد للقانون الأخلاقي نتيجة طبيعية جداً لاستخفافه بالقوانين الوضعية ولاستخفاف الدولة نفسها بما سنته من قوانين. والمحنة الأخلاقية التي يجتازها العالم اليوم قد يستطيع ردها بعض المصلحين إلى تناقض الدولة مع نفسها، وإلى محاولتها الاستخفاف بعقل الفرد: فتأمره بما لا تأتمر هي به، وتنهاه عما لا تنتهي هي عنه، وتستبيح لنفسها ما تحرمه عليه، فضاق الفرد بها ذرعاً، وحاول من جانبه أن يستخف بها وبقوانينها؛ وقد استتبع ذلك استخفافه بالقواعد الأخلاقية لتمشي هذه القواعد مع القوانين الوضعية، ولاقتباس هذه الأخيرة عن الأولى أكثر ما جاءت به.

إن استخفاف الدولة بما سنته من قوانين وما تبعه من استخفاف الفرد بهذه القوانين والقوانين الأخلاقية أيضاً، جعل الفرد ينظر إلى كل شيء في الكون على أنه مرن متغير متقلب، لا يخضع لصرامة، ولا تسيطر عليه دقة منظمة. لقد أصبح الناس جميعاً من أتباع هيرقليطس، ذلك الفيلسوف الإغريقي القديم الذي صدق حين قال: إن كل شيء في تغير، وإنك لن تستطيع أن تنزل البحر مرتين متتاليتين دون أن تشعر بأن مياهاً جديدة تتدفق من حولك.

يحيى هويدي

جـــــوته الروائي

للأستاذ حسن لطفي المنفلوطي

أخبرنا جوته بنفسه أن مؤلفاته سوف تظل من أدب الخاصة ، ولن تكون من أدب العامة ، وقد تحقق رأيه في أدبه . فلم يتسع مدى إعجاب الجماهير بأدبه وإقبالهم عليه ، وخاصة الروايات الثلاثة التي كتبها . ونحن حين نقدر قيمة هذه الروايات ، ينبغي علينا ألا ننظر إليها إلا على أنها مراحل ثلاثة في تطور الرواية ، باعتبارها نوعاً من أنواع التعبير الفني ، ومراحل ثلاثة في تطور جوته نفسه ، وهي روايات شبابه ورجولته وشيخوخته .

وأول هذه الروايات « فرتر » وتعد أبسطها وأقربها إلى نفوس القراء ، وأشهرها في مصر ؛ فقد ترجمت إلى العربية ، وقد أفصح بها جوته معبراً عن جيل بأكمله ، وهو جيل أشعل فيه جان جاك روسو مبدأ الرجوع إلى الطبيعة ، وكتبها جوته ، فأصبحت قانون ملهمة لألمانيا وأوربا بشكل عام وما زالت حتى اليوم تثير في قرائها اضطراباً وقلقاً . كتبها في أسلوب شاعري رقيق تدوي فيه أصداء العواطف الثائرة والانفعالات المضطربة ، فرحب بها معاصروه باعتبار أنها دفاع عن الفرد وعواطفه وطبيعته ، وثورة على القواعد والقيود المادية . وذرفوا الدمع السخين على مصير فرتر الحزين .

ودوافع فرتر بطل الرواية دوافع نبيلة خالصة . وكان إنساناً ضعيف الإرادة ، سهل الانقياد ، لا يستطيع السيطرة على نفسه وعلى عواطفه ، وقد عاش في عالم خلقه لنفسه يهرب إليه من حقائق الحياة . وأحب شارلوت باعتبار أنها رمز للبراءة والطهارة والاستكانة وسلامة الطوية . ووجد الراحة والهناء في قراءة القصص والاتجاه إلى عالمها المصنوع ، وأنسته ملحمة الأوديسة للشاعر الإغريقي هوميروس همومه وأحزانه ، ولكن بعض أغاني هذه الملحمة كانت تسبب له الجنون . وكان يجب أن يكون في صحبة الأطفال والبسطاء . وظل حتى النهاية كما هو لا يفكر إلا في نفسه ، ولا يشعر بوجود أحد في العالم سواه ، ولا يلين لأوضاع الحياة ونظمها وتقاليدها ، ولا يستطيع أن يلائم بين نفسه وبين العالم الذي يعيش فيه ، فاختل وتداعى ثم انتحر .

وظل الشعراء مدى قرنين يتبعون نهج فرتر ، ويطلقون العنان لعواطفهم وأخيلتهم ، ولم يستطع الخلاص من ذلك إلا هؤلاء الذين وهبوا عبقرية وقوة في الشخصية مثل جوته .

على أن حياة جوته ومؤلفاته ترينا كيف استطاع أن يتغلب تدريجياً على الأخطار التي تعرض لها فرتر بفضل شدة حساسيته ، وكيف سيطر على نفسه . وقد شعر بعد أن نفّس عن نفسه بتأليف رواية « فرتر » ، بأنه حر سعيد مرة أخرى ، وله الحق في أن يحيا من جديد . ولكنه لم يستطع أن يحمي نفسه بالكتابة نهائياً من خطر الإغراق في الحساسية ، بل ظل يعارض هذا الإغراق ويقاومه ، فزادت قدرته على التحكم في نفسه ، واستطاع أن يخرج من نطاق ذاتيته ، وأن ينظر إلى الحياة نظرة موضوعية مجردة ، على أنه ظل حتى آخر ساعة من ساعات حياته يسمع صدى ذلك النغم القديم الذي كان فرتر يردده في نفسه .

والرواية الثانية « ولهلم ميستر » هي رواية متناهية في الطول ، تتكون من جزأين : الأول منهما يسمى « سنوات التدرب » ، والثاني يسمى « سنوات الترحال » . وتتطور الرواية تطوراً وئيداً ، وتبدو كالطود الشامخ ، وقد أصبحت من يوم كتابتها حتى اليوم نسيج وحدها لا تضارعها رواية أخرى من نوعها .

ونحن نجد بطل هذه الرواية أول الأمر يشعر مدفوعاً بروح الشباب والمخاطرة بصحة الحياة وانبساط العالم ،

فيعب منهما عباً ! ثم يتقشع قرب نهاية الجزء الأول ذلك الضباب الخفيف الذي يغلفه ، فيصحو البطل من أحلامه وأفكاره الخيالية ، ويترك ميوله للمسرح ، ويهجر آماله الخاطئة في أن يحقق الشهرة بأن يكون ممثلاً أو كاتباً للمسرح ، وينبذ أحلامه عن المجد الشخصي ، ويفكر جدياً في خدمة المجتمع ، ويقرر أن يصبح جراحاً ، ويأخذ في تدريب نفسه على معرفة نفسه ، ورؤية حياته في معناها الحقيقي .

والجزء الثاني يحتوي على عالم شاسع من الآراء والمثل العليا . ونجد فيه آراء جوته عن التربية ، واهتمامه بالناحية العملية منها ، مما يتفق إلى حد كبير مع الآراء الحديثة . ونلمس خلال هذه الرواية كما نلمس في مؤلفات جوته الأخرى ، اهتماماً دائماً بالمجهودات الإنسانية ، وبأحسن وسائل نماء الفرد وتطوره ، وذلك بواسطة التربية وتدريب النفس ؛ وهو لا يستهدف هنا مستوى عاماً معيناً ، بل يستهدف الكمال الذاتي في طبيعة كل إنسان على حدة ، ولا غرو فقد كان يمثل مدرسة كانت متطرفة في الفردية . ونجد في هذه الرواية أيضاً الوسائل التي بلغ بها جوته النضوج باعتباره رجلاً وفناناً ، ونلمس وجود الشاعر في نفسه قوياً جباراً ، وهو يقاومه بأفكاره وإخضاعه ، وينظم تلك الناحية المضطرمة في عقله ويسيطر عليها ، فيحقق التوازن والتوافق في نفسه .

وهناك من النقاد من لا يرضى عن الجزء الثاني من هذه الرواية ، الذي يهجر فيه جوته أحلام شبابه ، ويقبل على حياة تسيطر فيها الإرادة ويسودها العقل ، ويقولون إنه قد خان عهده الفني ، ويبدو جوته في هذا الجزء كأنه يلقي علينا درساً عن عظمة النثر في أسلوب شعري رائع ؛ وإنه مملوء بالمتناقضات ، وفيه ما يخيل إلينا أنه اضطراب ، وهي أخطاء لا يستطيع كاتب أقل من جوته مقدرة أن يتخلص منها ، ولكننا نشعر طوال الوقت بروعة عبقريته ، فتبدو لنا هذه المتناقضات كأنها متناقضات الحياة ، والحياة مملوءة منها ، وتتبدل الأخطاء ، فتصبح حسنات بفضل مقدرته وبراعته . ولكن لا جدال في أن الجزء الأول يمتاز على الجزء الثاني بذلك الغلاف الرقيق الذي تبدو منه القصة كأنها حلم ذهبي جميل ، وقد خلا من كل ما لا لزوم له فبدا رصيناً متماسكاً .

والرواية الثالثة هي تجاذب الأشباه ، وهي أكثر رواياته متانة في بنيانها ، وكأنما قد أقام هيكلها مهندس بارع أزال عنها كل ما لا ضرورة له ولم يجعل فيها موقفاً واحداً تخطه حقه أو بدت له أهمية أكثر من اللازم . وأسلوبها النثري محكم نقي صاف ، يضارع أروع الأساليب النثرية جمالاً وجلالاً . والرواية تعد دفاعاً عن قدسية الزواج ، ونجد فيها كما وجدنا في « فرتر » تلك العواطف والانفعالات التي تنهار أمام حقائق الحياة . على أن الرواية لا تعالج الشخوص إلا بقدر ما ينم عن الأفكار ، وتدور حول قانون تجاذب الأشباه ، ذلك القانون الذي يجعل أصحاب الميول المتشابهة يتقاربون ويتجاذب بعضهم البعض على الرغم منهم ، ويعالج جوته هذا القانون باعتبار أنه مبدأ هام يقوم بدور هام في تكييف الرواية وتقريرها . ويفسر جوته هذا القانون قائلا :

« تصور (ا) الذي يلتصق بـ (ب) ولا يستطيع عنه انفصالا ، وتصور (ج) الذي يلتصق بـ (د) ولا يستطيع أيضاً عنه انفصالا ، ثم يتصل الزوج الأول بالزوج الثاني ، فتكون النتيجة أن يتصل ا بـ (د) و ج بـ (ب) دون أن يعرف أحد منهم من ترك الآخر أولاً ومن اتصل بالآخر أولاً » .

ويعتبر جوته هذا القانون قوة جبارة تشبه إلى حد كبير فكرة القدرية في الأدب الإغريقي القديم . ويبدو لنا هذا القانون قوة مستقلة مريعة متصلة بعنصر غامض من عناصر الوجود . وقد اقتنع به جوته بفضل تجاربه وملاحظاته . وهو يعرض علينا في هذه الرواية قصة غير عادية لتبادل التجاذب والتقارب بين زوجين من الناس يستسلمون لهذا القانون بعد أن يبذلوا الجهد في المقاومة ، فنتأمل موقف الصراع بين ما نعتبره حقاً من الناحية الأخلاقية وبين قوة غامضة تبدو لنا كظاهرة من ظواهر الطبيعة والحياة ، لا يمكننا الحكم عليها ولا نجرؤ على تخطئتها ، وما علينا إلا أن نقف بصددها في ذهول واحترام . وفي هذه الرواية إلى جانب هذا تحليل دقيق لما يدور في نفوس شخوصها من عواطف وانفعالات ولأسباب سلوكهم وأعمالهم .

وعلى الرغم من أن الصراع صراع بين الأفكار والقوى ،



أحسن ما قرأت

للأستاذ حافظ أحمد أمين

الانتخابات كما يراها برنارد شو :

● إن الديمقراطية كمنطاد عظيم مملوء بالغاز ، يصعد إلى السماء ، وترفعون أعينكم ناظرين إليه ، في حين أن النشالين يسرقون المال من جيوبكم . وعندما ينزل المنطاد إلى الأرض كل ٥ سنوات يطلب إلى واحد منكم أن يصعد فيه إذا استطاع أن ينزع منه أحد الركاب المتشبثين بمقاعدهم فيه ، ولكن بما أنه ليس لديك المال أو الوقت الكافي ، فإن المنطاد يرتفع مرة ثانية وليس به سوى ركابه السابقين ويترككم حيث كنتم من قبل .

● فلنتصور أننا مضطرون لاختيار من يملأ وظيفة ساعي البريد ، وأن أمامنا جملة طلاب ، ولكن أحدهم أكثر شهرة ، لأننا كثيراً ما شربنا الخمر على حسابه ، وكان كثير الملاطفة للأطفال عند المرور بهم ، فتحمسنا له واخترناه ، ومددناه بالزي الخاص وبالدراجة الحمراء ، وكلفناه بتوزيع الخطابات ، ثم يحول بخاطره لأول مرة أنه أمي لا يستطيع القراءة ، فيستخدم صبياً لقراءة العناوين وإرشاد الساعي إلى المنازل ، ثم يموت الرجل وله شهرة عظيمة في أداء مهمته ، فنختار ساعياً آخر أمياً مثله للأسباب السابقة ، ولكن في أثناء ذلك يكون الولد قد كبر وأصبح لا غنى عنه في توزيع البريد ، ويقدم نفسه لكل ساع جديد لأداء المهمة التي اختارها ، وعلى كر الأيام تعترف به القرية وتدفع له أجراً باعتباره ساعياً مساعداً .

● إن الحروب الكبيرة التي يقوم بها شعب من الشعوب ، ليست نتيجة لأطماع هذا الشعب أو لأطماع حاكم هذا الشعب ، وإنما هي نتيجة لمطامع الرأسمالية فيها .

● إن التاريخ الإنساني ليس إلا صراعاً بين طبقات مصالحها الاقتصادية متنافرة .

● ما من طبقة نزلت عن امتيازاتها وسلطاتها إلا مكرهة بحكم القوة القاهرة .

● إن السلطة التنفيذية في الدولة ، ما هي إلا لجنة لإدارة الشئون المشتركة لصالح الرأسماليين .

النظم السياسية في مصر :

(الأستاذ توفيق الحكيم)

● إن موسم الانتخاب في مصر كموسم دودة القطن سواء

وليس بين الأفراد ، إلا أن الرواية مملوءة بالملاحظات الإنسانية التي تبعث الحياة فيها . ولا جدال في أن كتابتها قد احتاجت إلى مجهود ذهني كبير ، ولابد أن يبذل القارئ جهداً ذهنياً كبيراً لمتابعتها ، وإذا ما بذل هذا الجهد فسوف يجد جوته وقد تجردت أفكاره وأخذت أشكالاً وصوراً .

فقد أفاد من حياة عاشها أعظم الفائدة ، ووصل إلى السن التي تخلص فيها من لهف الشباب وقلقه ، وأدخلنا إلى عالم كامل خلقه بنفسه . وكانت روايته الأولى لأنه مصره وتدخل في مزاج معاصريه ، ولكنه بروايته الأخيرة هذه ، سبق عصره بمراحل وأجيال .

حسن لطفي المنفلوطي

بسواء ؛ جمع الأصوات وجمع الدولة إن هما إلاعملية واحدة في أرض مصر ، عمادها النقود ومقاولو الأنفار من جانب ، وساعد الحكومة من جانب آخر .

● إن النظم السياسية والأوضاع الديمقراطية والمبادئ المثالية ليست في ذاتها كل شيء ، وهيهات تصلح من فاسدها وتبلغ من كاملها ، فلن يغنينا ذلك إلا قليلا ما دام الفساد ينخر في نفوس الأشخاص ، وما نفع الثوب الرائع لشخص منحل ضائع ؟

أقوال عن الرأسمالية :

● كان لانتشار الرأسمالية نجاح عظيم وثراء ورخاء ، وتقدم في العلوم ، وتحسن صوري في مستوى المعيشة ، ولكن ظهر الفارق الضخم بين الطبقات ، وزادت الجرائم ، وتحولت التجارة إلى غش ، وحلت الرشوة محل الاضطهاد ، وأصبح المال — بدلا من السيف — أداة القوة الاجتماعية ، وأصبح الأطفال يضحى بصحتهم لإشباع نهم الوالدين وجشع أرباب الأموال .

أقوال مأثورة :

● إن الذين يبذلون التضحيات في سبيل بلادهم يحق لهم أن يُدعوا خدام بلادهم ، وأما من يُكره الغير على التضحية باسمه كي ينال هو مجدها فهو خائن لوطنه ، لأنه يختلس حرية مواطنيه كي يصعد بها إلى القمة (عاصون)

● إن فاكهة الحكم في مصر ليس لها شوك ولا نوى ، بل هي سهلة المأخذ ، سائغة المأكل ، أما في أوربا فإن أسلاكا شائكة من المسئولية تحيط بهذه الفاكهة ، ولذلك فإن كثيراً من الناس يعافونها ويخشون أن يمدوا إليها يداً .

(توفيق الحكيم)

● ولتتطهر الهند من خوفها وفقرها وجهلها ، ولتتطهر أوربا من استعمارها وجشعها وطمعها ، ثم ليتحدث الناس بعد ذلك عن عصبة الأمم ونزع السلاح والسلام العام .

(غاندي)

● إن أحسن الحكومات هي التي تعلمنا أن نحكم أنفسنا .

● إن الشعوب التي تقدمت ، إنما كان نجاحها بالعمل لا بالإحراق والاختراق .

● ليس يخاف أن يكون عادلاً غير الضعيف ، فهو يتملص من واجب العدل ، ويحاول نيل النتائج السريعة عن طريق الظلم .

حوار طريف :

هذا حوار دار بين قسيس وعبد من العبيد الذين حكم عليهم بالإعدام :

— أطلب منك أن تعتنق المسيحية حتى تكون الجنة من نصيبك .

— هل يوجد في الجنة أحد من السادة ؟

— نعم يا بني .

— إذاً من الخير لي أن أموت وثنياً .

حافظ أحمد أمين

نساء أسبانيا

لهافلوك إليس

من كتاب له عنوانه : « النفس الأسبانية »

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

من كان يريد أن يجادل في جمال الأسبانيات وحور عيونهن ، فليذهب إلى « إشبيليه » في أيام « المولد » . وليرنا كيف يجادل أو يكابر أو ينكر .

فهذا « المولد » موسم من مواسم الجمال ، وسوق من أسواقه ، حيث تجتمع جميلات الأندلس خاصة وأسبانيا عامة ثلاثة أيام سويا ، وهي الأيام التي يعقد فيها « المولد » .

وهناك يرى الرائي الشال والطرحة تزين رءوس الحسان الفاتنات وصدورهن .

والمرأة الأندلسية لا تبدو جميلة في الأزياء الباريسية ، ولكن جمالها يبدو على أتمه إذا ارتدت زيها الوطني .

والفتاة الإشبيلية تعقص شعرها فوق رأسها في شكل قلعة صغيرة تتوجها الأمشاط ، ثم تزينه بشريط وردى اللون أو في لون القرنفل ، ثم تلبس فوقه الطرحة كما تفعل نساء أسبانيا كلهن .

والشيلان التي يلبسها النساء هناك غالية الثمن ، حتى تلك التي تلبسها الفقيرات .

وملابس الأسبانيات قد خلت كلها من التطريز والتعقيد ، وكأنهن أردن بذلك ألا تشغل الملابس المطرزة أنظار الرجال عن جمال اللابسات .

والمعروف أن الألوان الغالبة في وجوه الأندلسيات هي السمرة أو ما يقرب منها ؛ ولكن هذا الوصف لا يمثل الحقيقة تمثيلاً صحيحاً .

والرجل الإنجليزي الذي ينظر إلى النساء الأسبانيات يرى كثرتهن لسن بالطويلات ولا القصيرات ، ويرى لهن أيديا وأقداماً لطيفة قوية .

وهن في صغرهن نحيلات نحيفات ، ولكن لهن صدوراً وأردافاً مكتنزات ، حتى إذا بلغن منتصف العمر أوفين على الغاية في السمنة ، فإذا بلغهن الكبر زالت تلك السمنة وبقي لهن النشاط في الحركة والقوة في العضلات .

والنساء الأسبانيات يبدو فيهن انحناء ، وكأن هذا الانحناء أثر من آثار ثقل الأكتاف والأرداف .

ولا شك أن ظرف الأسبانيات ، ووضوح قسماتهن ، ومهارتهن في الرقص ، إنما يرجع الفضل فيها إلى ركوب الخيل .

وهن إذا حملن أشياء فوق رءوسهن مشين مشدات منتصبات القامة ، معتدلات المشية ، وكأنهن راهبات من عذارى الهيكل يحملن الذخائر المقدسة .

وهن إذا مشين كن كما قال الشاعر في إحداهن :

تمشي إلى بيتها من بيت جارتها

مشي السحابة لا ريث ولا عجل

وهن إذا جلسن زانت جلستهن المجالس بما يبدين فيها من عظمة ومن كبرياء .

أما شعرهن فاللون الغالب عليه هو القتمة الحالكة ، وأما ملابسهن فاللون الغالب فيها هو الأبيض وقد رقشته أزهار حمراء .

والمرأة الأسبانية إذا نظرت بعينها سبت وفتنت أيا كان لون تلك العين .

والأسباني مهما يختلف موطنه وإقليمه يفضل العيون التي خفت صبغة السواد فيها ، والتي يسميها العيون الحمراء .

ولون بشرة وجوه الأسبانيات ليس في حاجة إلى تلوينه

بالمساحيق والأصباغ ، ذلك أنه بفطرته أجمل لون بين ألوان الوجوه في أوربا .

وهناك خصيصة في بشرة الأسبانيات يشاهدها القريب والبعيد ، هي الصقل الذي يذكر الناس بالمعادن التي أجيد صقلها .

والمرأة الأسبانية امرأة مصونة تزينها الملاحة والوقار ، وهي لهذا لن تحيا بالنظرة الخاطفة . وآية ذلك أنها تبالغ في تجميل وتزيين صورة « السيدة العذراء » .

وهي لفرط اعتزازها بنفسها لا تميل بالأ إلى الحبيب المرتقب ، ولذلك تطول عند قومها مراسم الخطبة قبل الزواج . وهـذا ما يحبب فيهن الرجال ، ويجعلهم أشد شغفاً بهن ، وأكثر شوقاً إليهن .

وإذا أردنا أن نعرف رأي الرجل الأسباني في المرأة الأسبانية فعلينا أن نرجع إلى كتاب «دون كيشوت» حيث يقول عن ابنة صفيه وتجيه « سانكو » : إنها طويلة كالرمح الرديني ، وهي تشبه في صباحتها صباحاً من أصباح الربيع ، وهي في قوتها كأنها حمال يحمل الأثقال .

« وسرفانتس » في مكان آخر من كتابه يصف إحدى الفتيات فيقول : إنها شجاعة القلب ، جريئة غير خوارة ، وهي شبيّه القميص شبى الوشاح . وهي أصلح زوجة لأصلح فارس .

وهذه الصفات التي يلصقها «سرفانتس» بالمرأة الأسبانية في زمانه قد هبطت من الجدات المليحات إلى حفيداتهن من الصبايا الحسان .

ونساء أسبانيا يمارسن إلى اليوم ألعاباً لا يستطيع نساء أية أمة من الأمم أن يمارسنها .

وأمة تمارس نساؤها من كل الطبقات مثل هذه الألعاب سوف تبقى في عنفوان شبابها وإن هرم الزمان ، بل سوف لا تفنى أبداً .

وقد جرت عادة الكتاب أن يطيلوا ويسهبوا في وصف التفوق الذي بلغته نساء أسبانيا كقديسات وملكات ! وقد ينسحب هـذا الوصف إلى كل صنف من صنوف النساء الأسبانيات أية كانت الحرفة ، ومهما تكن الصناعة .

ونساء أسبانيا كن في مقدمة من برعن في فن التمثيل .

وكثيرات منهن قد دخلن الدير ثم غادرنه إما إلى سفر قاصد ، وإما إلى سفر بعيد ، وإما إلى غير رجعة .

ونساء أسبانيا حظهن من العلم قليل ، ذلك أن التعليم هناك محدود ، والكثرة منهن لا تعرف القراءة والكتابة .

ولكن هذا لم يكن بمانعهن أبداً من أن يتفوقن في كل ما يمارسنه من أعمال الحياة ...

(عن الإجلاء) مبارك إبراهيم

محكمة ألبا الجزئية الوطنية

إعلان بيع عقار في القضية المدنية رقم ٣١٦٨ سنة ١٩٤٢ يبوع

بأنه في يوم السبت ٢٥ / ٢ / ١٩٥٠ الساعة ١٠٫٣٠ أفرنكي صباحاً بأودة المزايدات بسراي المحكمة ، سيباع بطريق المزاد العمومي العقار الآتي بيانه بعد ملك محمد افندي حسن النهاني الكائن بشارع المسيق البحري بمصر ألبا ، وهذا بيانه :

٤٠ متراً كائنة بمصر ألبا مركز ألبا قطعة ضمن ن ٩ عوائد بشارع المسيق البحري ن ٣٢ بالشيوع في مسطح المنزل البالغ ٩٠٦٫٣٨ متراً مربعاً ، الحد البحري بشارع فؤاد الأول وطوله ١٢٫٦٠ م والشرقي بعضه منزل ورثة أحمد افندي رشدي جابر وبعضه ورثة ليب بك برسوم وطوله ٦١٫٢ متراً منكسر مكون من سبع سنتيمترات ، والحد القبلي منزل ورثة محمد عبد العال وبعضه منزل ورثة علال محمد أحمد وبعضه منزل وقف الحاج عبد العزيز خلاف وبعضه منزل إبراهيم افندي عبد الملك يعقوب وطوله ٣٠٫٧٩ متراً منكسر ومكون من ثلاثة مستقيمات ، والحد الغربي شارع المسيق وطوله ٣٨٫٥٠ متراً وفيه الباب .

٤٠ أربعون متراً فقط .

وهذا البيع بناء على طلب المأمورية المالكية ومتخذة لها محلاً مختاراً بألبا قلم قضايا وزارة الأوقاف .

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٢٢ / ١١ / ١٩٤٣ ومسجل بقلم كتاب محكمة ألبا الكلية الوطنية في ٣٠ منه تحت رقم ٣٦ وذلك لمبلغ ٣٣٤ مليم و ٣١ جنيه ، وذلك بخلاف ما يستجد من المصاريف بثمن أساسي قدره ٦٠ مليم و ٦٦ جنيه ، وذلك بعد تنقيص العشر المرة السادسة .

فعلى راغب الشراء الحضور للمزايدة والمشترى وشروط البيع وكافة الأوراق مودعة بقلم كتاب المحكمة للاطلاع عليها لمن يريد .

كاتب أول البيوع

الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة

لابن رشد[1]

بمناسبة تقرره على طلبة السنة التوجيهية هذا العام

للأستاذ عبد الجليل السيد حسن

— ١ —

تمهيد : تمتاز فلسفة ابن رشد بالعمق فى النقد والتحليل ، كما أن ابن رشد يمتاز بقدرته الفائقة على الشرح ، حتى أن الأوربيين سموه بالشارح . ولابن رشد طريقة فى النقد يتفرد بها وحده . فعنده أن للأقاويل ثلاث مراتب (١) برهانية (٢) جدلية (٣) خطابية ؛ وحين تقدم بنقد آراء خصمه ، ويوضح أنها قاصرة عن رتبة اليقين والبرهان ، ويلحقها بالجدلية أو الخطابية . ولابن رشد ناحية أخرى ، هى ناحية التوفيق بين الآراء المتعارضة ، وأخذ الحق المشترك بينها ؛ وهذه هى ناحية التوفيق والجمع بين الفلسفة والدين .

وفى هذا الكتاب تبدو الناحيتان : ناحية النقد العميق لآراء المتكلمين ، وإثبات أن ما قالوه ليس مراد الشرع ؛ وناحية الكشف عن مراد الشرع .

وعند ابن رشد ، أن الناس على ثلاث مراتب : (١) الخطابيون : وهم ليسوا من أهل التأويل ، وهم الجمهور الغالب (٢) الجدليون ، بالطبع فقط أو بالعادة والطبع معا ، وهم من أهل التأويل الجدلى (٣) البرهانيون : وهم من أهل التأويل اليقينى ، وهم العلماء الراسخون ، والقلة النادرة .

وعند ابن رشد أيضاً ، أن الشريعة قسمان : ظاهر ، ومؤول ؛ والظاهر فرض الجمهور ، والمؤول فرض العلماء ، ويحمل الجمهور على الظاهر ولا يحل للعلماء تأويله .

ومقصده فى هذا الكتاب : البحث عن الظاهر الذى قصد به الشرع حمل الجمهور عليه ؛ ويتحرى فى ذلك جهده ، فإنه قد حدثت فى الشرع فرق ضالة ، يكفر بعضها بعضاً ، وأشهرها : الأشعرية ، والمعتزلة ، والباطنية ، والحشوية ؛ ويبدأ يناقش هذه الفرق .

القسم الأول من الكتاب

الفصل الأول (ا) مناقشة الفرق

بدأ بالبحث عن الطريق التى تؤدى إلى معرفة الله ووجوده ، وأخذ يناقش الفرق الأربع ، ليثبت أن آراءها أقاويل محدثة وتأويلات مبتدعة .

الفريق الأول : الحشوية . ويبدأ بالحشوية القائلة : إن معرفة وجود الله بالسمع لا بالعقل . وهى مقصرة حيث دعا الشرع إلى الإيمان بالبارى بأدلة عقلية فى غير ما آية .

الفريق الثانى : الأشعرية : — ويرى أكثر الناس أنهم أهل السنة ، وهم غالبية المسلمين ، وهم الذين ينصب عليهم كل نقد ابن رشد فى الكتاب تقريباً — وقد ابتنت طريقة الأشعرية على القول بحدوث العالم ، وابتنى عندهم حدوث العالم على القول بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ (الجواهر الفردة) ، والجزء الذى لا يتجزأ حادث .. ويناقش ابن رشد مسألة حدوث العالم (ورأى ابن رشد فى العالم أنه قديم مخلوق) — ويتلخص نقده فى :

١ — أن المحدث له فاعل محدث ، ولا يمكن أن يكون هذا المحدث أزلياً إذا تعلق فعله بالحادث ، ولا يوجد فعل حادث عن فاعل قديم ، لأن المقارن للحوادث حادث . وإن

---

(١) طبع الكتاب مع كتاب ابن رشد الآخر (فصل المقال) تحت عنوان « فلسفة ابن رشد » ، وقد اعتمدنا على هذه النسخة لشيوعها فى مصر . وقد طبع الكتاب أيضاً المستشرق : ليون غوتيه ، وقد قسمنا الكتاب إلى قسمين : القسم الأول وينقسم إلى أربع فصول ، والثانى إلى خمس مسائل .

ويمتاز الكتاب بطرقه لجل موضوعات الفلسفة الإسلامية وعرض حلول لمشكلاتها .

كان أزلياً ، فيجب أن يكون فعله المتعلق بالموجودات أزلياً ، فتكون الموجودات أزلية .

٢ — إذ لماذا يحدث الله الفعل في زمن دون غيره ...؟.. إذاً هناك علة تتحكم فيه فتصيره حيناً يفعل وحيناً لا يفعل .

٣ — وأما ما يقولونه في جواب ذلك : من أن الفعل الحادث كان بإرادة قديمة ، فليس بمنج .. لأن الإرادة غير الفعل المتعلق بالمفعول ؛ وإذا كان المفعول حادثاً ، كان الفعل المتعلق به حادثاً أيضاً ، وكان فاعل الفعل حادثاً هو الآخر .

٤ — ولماذا تتعلق الإرادة المتقدمة على المراد بوقت مخصوص ...؟.. ضرورة أن هناك عزماً على الإيجاد لم يكن قبلا .. أي أن هناك حالة تزيد ؛ وإن لم تكن هناك حالة زادت لم يكن وجود الفعل في هذا الوقت أولى من عدمه (ص ٣٣ — ٣٤) .

ثم يعرج ابن رشد على المسألة الثانية لدى الأشاعرة ، وهي طريقتهم في إثبات العالم ، بأنها لا تصلح للعلماء لأنها ليست برهانية ، ولا للجمهور لأنه لا يقبلها بطبعه ، وهو ينبه على ذلك بقول : إن لهم في إثبات العالم طريقان :

الطريق الأول ، وهو الأشهر ، ويبنى على ثلاث مقدمات :

١ — الجواهر لا تخلو من الأعراض .

٢ — الأعراض حادثة .

٣ — إن ما لا يخلو عن الحوادث حادث .

ويبدأ ابن رشد في نقد مقدماتهم الثلاث :

١ — نقد المقدمة الأولى : يعنون بالجوهر الجزء الذي لا ينقسم (الجوهر الفرد) ، وفي ذلك شك .

(ا) لأن وجود جوهر غير منقسم ليس معروفاً بنفسه ، ودليلهم على ذلك خطابي ، فهم يقولون : إننا نقول : إن الفيل أعظم من النملة من قبل زيادة أجزاء فيه على أجزاء النملة ، إذاً فهو ليس واحداً بسيطاً ، بل مؤلف من تلك الأجزاء ؛ وقد دخل عليهم الغلط من شبه الكمية المنفصلة (العدد) بالمتصلة (السطوح والأجسام) (ص ٣٥) .

(ب) الكم المتصل (وهو متناهي) ، إذا انقسم إلى أجزاء لا نهاية لها كان في المتناهي لا نهاية ، وهو تناقض .

٢ — نقد المقدمة الثانية : وأدلتهم على حدوث الأعراض تنبني على قياس الشاهد على الغائب ، وهو دليل خطابي ، إذ الشك في حدوث الأجسام كالشك في حدوث أعراضها .

٣ — نقد المقدمة الثالثة : ويريدون منها : ما لا يخلو من جنس الحوادث ويخلو من آحادها ؛ وهي باطلة لأنه يلزم عنه حدوث المحل ، ولأنه يمكن أن يتصور المحل الواحد (الجسم) تتعاقب عليه أعراض غير متناهية (ص ٣٩) .

الطريق الثاني : وهو طريق أبي المعالي (يعني إمام الحرمين) ويبنى على مقدمتين :

١ — جميع ما في العالم جائز أن يكون على مقابل ما هو عليه ، حتى يكون من الجائز مثلاً أصغر مما هو عليه أو أكبر ، أو أن تكون حركة كل متحرك إلى ضد الجهة التي يتحرك إليها ، فيتحرك الحجر إلى فوق والنار إلى أسفل (أي تنعكس قوانين الطبيعة) .

٢ — أن الجائز محدَث وله محدِث — أي فاعل صيره بأحد الجائزين أولى منه بالآخر ، أي خلق العالم على ما هو عليه بأنظمته وقوانينه .

ويبدأ ابن رشد في نقد مقدمتي طريقهم الثاني :

١ — نقد المقدمة الأولى : هذه المقدمة خطابية وليست برهانية ، لأنها مبطلة لحكمة الله ، إذ ما الحكمة في أن يرى الإنسان بأذنه ، ويشم بعينه ...؟.. ولا بد أن الله خلق الإنسان والعالم بما هو عليه لحكمة أو سبب اقتضيا ذلك .

٢ — نقد المقدمة الثانية : وهذه المقدمة غير بينة بنفسها ، ولا تتضح إلا لأهل البرهان ، وقد اختلف فيها العلماء ؛ وأجاز « أفلاطون » أن يكون شيء جائزاً أزلياً ومنعه « أرسطو » .

وسيناقش ابن رشد مسألة الجواز هذه بعنف أكثر حين الكلام عن خلق العالم (ص ٨٥ — ٩٠) فقد تبين أن طرق الأشعرية المشهورة ليست يقينية ولا بسيطة .

الفريق الثالث : الصوفية . وطريقتهم ، ليست نظرية يعني مركبة من مقدمات وأقيسة ، ولكنها إشراقية ، فهم يزعمون أن معرفة الله تلقى في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية . ويحتجون لذلك بظواهر الشرع ، مثل : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، وعنده — أي عند ابن رشد — أن هذه طريقة خاصة وليست عامة ، ولا ينكر إفادة تجريد

النفس من العوارض الشهوانية — ورأيه في التصوف من أصوب الآراء .

الفريق الرابع : المعتزلة . وهؤلاء لم تصل إلى ابن رشد كتبهم ، إذ يقول : لعل طرقهم من جنس طرق الأشعرية . وهذا لا يعقل ، إذ أن كتب خصومهم مملوءة بآرائهم ، وقد عرض هو بعض آرائهم في كتابه ، ولكنه لم يرد أن يطيل حبل النقاش .

(ب) دليل العناية والاختراع

والأدلة التي دعا الشرع الناس إلى الإقرار بوجود الله من بابها ، تنحصر في دليلين ، هما دليلا العناية والاختراع .

١ — أما دليل العناية : فيوقف عليه من العناية بالإنسان ، وخلق جميع الموجودات من أجل هذه العناية . ويبنى على أصلين : الأول : أن جميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان ؛ والثاني : أن الموافقة من قبل فاعل قاصد لذلك .

٢ — وأما دليل الاختراع : فيوقف عليه مما يظهر من اختراع جواهر الموجودات ، مثل اختراع الحياة في الجماد ، والإدراكات الحسية والعقل . ويبنى على أصلين موجودين في فطر الناس بالقوة ، الأول : أن هذه الموجودات مخترعة فنحن نرى الأجسام الجمادية تحدث فيها الحياة ، والثاني : أن كل مخترَع له مخترِع .

وقد أتى القرآن بذلك ، وتنقسم الآيات إلى ثلاثة أنواع :

١ — آيات تدل على العناية فقط ، مثل : « ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتادا » ، فجعل الأرض مهاداً حتى يستطيع الإنسان أن يعيش ، وجعل الجبال أوتادا حتى لا تميد الأرض ؛ ومثل قوله تعالى : « الذي جعل في السماء بروجاً ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » .. إلى غير ذلك .

٢ — آيات تدل على الاختراع مثل قوله تعالى : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق » ، ومثل « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ... الآيات » وغير ذلك .

٣ — آيات تجمع بين الدلالتين[1] : دلالة العناية ودلالة الاختراع ؛ مثل قوله تعالى : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون » .

وهذه الطريقة لمعرفة الله هي طريقة أهل البرهان والجمهور . والفرق بين العلماء والجمهور ، أن الجمهور يقتصر في معرفته على ما يدرك بالحواس ، أما العلماء فيزيدون على ما يدرك بالحواس ما يدرك بالبرهان . ومثل الدهريين كالذي يحس بالمصنوعات ولا يعترف بها ، بل ينسب ما فيها من الصنعة إلى الاتفاق والأمر الذي يحدث من ذاته .

الفصل الثاني : الوحدانية

نص الكتاب على الوحدانية في ثلاث آيات ، الأولى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، وهي برهان على امتناع وجود إلهين فعلهما واحد ؛ الثانية : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ؛ إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » ، وهذا رد على من يضع آلهة كثيرة مختلفة الأفعال ؛ الثالثة : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً » ، وهي كالأولى ، إلا أنها ردّ على امتناع آلهة مختلفة الأفعال ، لأن اختلاف أفعالها لا ينتج عنه عالم واحد .

وهذا هو الدليل على الوحدانية بالطبع والشرع . والفرق بين معرفة العلماء والجمهور هو في العمق والتفصيل فقط .

ورد ابن رشد على الأشاعرة الذين يستنبطون من هذه الآية دليل الممانعة ، ويسمونه دليل السبر والتقسيم ؛ وهو دليل لا يقدر الجمهور على فهمه ، فضلاً عن أن يعتقد بصحته ، وذلك لأن (١) دليل الممانعة المذكور هو ما يعرف لدى المناطقة بالقياس الشرطي المنفصل ، والدليل الذي في الآية هو الشرطي المتصل ؛ والفرق بين الدليلين معروف (٢) العقل يجوز الاتفاق بين الآلهة وهو الأليق (٣) أن المحال الذي أفضى إليه دليلهم غير محال الآية ؛ وذلك أن محالهم : أن يكون العالم — ا — إما لا موجوداً ولا معدوماً — ب — وإما أن يكون موجوداً معدوماً — ج — وإما أن يكون الإله عاجزاً مغلوباً ؛ أما محال

---

(١) الواقع : أن كل آية تدل على العناية تدل على الاختراع .

الآية فوقوت بوقت فساد العالم ، ولكن العالم غير فاسد ، فواجب أن يكون هناك إله واحد .

الفصل الثالث : الصفات

صرح الكتاب بوصف الله بأوصاف هي أوصاف الكمال الموجودة للإنسان ، وهي سبعة : العلم ، الحياة ، القدرة ، الإرادة ، السمع ، البصر ، الكلام .

١ — العلم : دل الكتاب على هذه الصفة بقوله : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . ووجه الدلالة : أن الشيء المصنوع يدل من جهة الترتيب لأجزائه وتركيبها بحيث توافق بعضها بعضاً على صانع عالم بها — وهي صفة قديمة لا يجوز عليه سبحانه أن يتصف بها وقتاً ما ، فهو يعلم المحدثات حين حدوثها ، والله عالم بالشيء قبل أن يكون على أنه سيكون ، وعالم بما كان على أنه قد كان .

٢ — الحياة : وظاهر وجودها من صفة العلم ، إذ من شرط العلم الحياة في الشاهد ، والشرط ينتقل فيه الحكم من الشاهد إلى الغائب .

(٣ ، ٤) الإرادة والقدرة : من شرط صدور الشيء عن العالم الفاعل أن يكون مراداً له وكذلك من شروطه أن يكون قادراً ، وهو مريد لكون الشيء في وقت كونه ، وغير مريد لكونه في غير وقت كونه .

٥ — الكلام : وهو إفهام المخاطب بأي دلالة ، والإنسان يقدر على ذلك ! أفلا يقدر عليه الله ..؟ والكلام واسطة في الشاهد وهي اللفظ ، وكلام الله يكون (أ) بالوحي ، وهو بدون لفظ ، بل بانكشاف المعنى بفعل يفعله الله في نفس المخاطب (ب) أو من وراء حجاب ، وهو بلفظ يخلق في نفس من اصطفاه (ﺟ) أو بواسطة رسول — أي ملك — والقرآن — كلام الله — قديم ، واللفظ الدال عليه مخلوق ، والحروف في المصحف من صنعنا ، وهي تدل على اللفظ المخلوق والمعنى الذي ليس بمخلوق .

(٦ ، ٧) السمع والبصر : صفتان لله ، إذ هو لا بد عالم بمدركات السمع والبصر .

وهذا هو القدر الذي نص عليه الشرع من أمر الصفات ، في تعليم الجمهور . ومن البدع التي حدثت في هذا الباب السؤال عن الصفات ، هل هي عين الذات (نفسية) ..؟.. أو زائدة على الذات (معنوية) ..؟.. فالأشاعرة يقولون : إنها معنوية ، فالله عالم بعلم زائد على ذاته ، قادر بقدرة زائدة على ذاته ... وكذا في باقي الصفات ! ويلزم من ذلك أن يكون الخالق جسماً ، لأن هناك صفة وموصوفاً ، وحاملاً ومحمولاً ، وهذه حال الجسم . ومن هذا الوضع زلت النصارى ، إذ اعتقدت كثرة الصفات ، وأنها جواهر قائمة بنفسها كالذات عندهم (الأقانيم ثلاثة : الوجود ، والحياة ، والعلم . ص ٥٨ — ٥٩) .

وأما المعتزلة فيقولون : إن الصفات نفسية (تهرباً من أن يكونوا مكثرين كالنصارى) ، أي أن الذات والصفات أمر واحد ، وذلك بعيد ، لأن صفة العلم غير العالم ، وهذا التشعب بعيد عن مقصد الشرع . والذي ينبغي أن يعلم من أمر هذه الصفات هو ما صرح به الشرع فقط ، وهو الاعتراف بوجودها دون تفصيل الأمر هذا التفصيل ، إذ أن ذلك لا يفيد الجمهور ولا الجدليين ، بل يضلل هؤلاء وهؤلاء .

الفصل الرابع (أ) في معرفة التنزيه

ما هي طريقة الشرع في تنزيه الله ..؟.. وما القدر الذي اقتصر عليه من ذلك ..؟.. ولماذا اقتصر على هذا القدر ..؟..

صرح الله بذلك في غير ما آية ، وأبينها في ذلك وأتمها قوله تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . وبرهان ذلك قوله : « أفمن يخلق كمن لا يخلق » ، ويفهم من ذلك أن الشرع صرح بنفي المماثلة بين الخالق والمخلوق . ويفهم من ذلك شيئان (١) أن يعدم الخالق كثيراً من صفات المخلوق (٢) أن توجد فيه صفات المخلوق على جهة أتم وأفضل بحالا يتناهى في العقل ، وقد نفى الشرع عنه صفات النقائص التي فيها الموت والنوم والنسيان والخطأ .. الخ .

(ب) صفة الجسمية

وهي من الصفات المسكوت عنها ، والشرع إلى التصريح بإثباتها أقرب منه إلى نفيها ، فقد صرح بالوجه واليدين .

وعند ابن رشد ، أن الواجب ألا يصرح فيها بنفي ولا إثبات ، ويجاب من سأل في ذلك بقوله تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ، وينهى عن هذا السؤال. ويبدو أن ابن رشد في حل فلسفته التوفيقية يحل المشاكل بالإعراض عنها .. وليس عند المتكلمين دليل بنفي الجسمية عنه تعالى ، وهذا هو السبب :

(الأول) أن الشرع لم يصرح بأنه ليس بجسم . (الثاني) أن الجمهور لا يقدر على إدراك غير متخيل ولا محسوس . (الثالث) إذا صرح بنفي الجسمية عرضت في الشرع شكوك كثيرة مما يقال في المعاد والرؤية وغير ذلك . (الرابع) ويوجب ذلك : انتفاء الجهة عن الخالق سبحانه وقد ثبتت بالشرائع كلها ، إذ الوحي نازل من السماء . (الخامس) يوجب التصريح بنفيها نفي الحركة . وبنفي الحركة : لا يفهم ما جاء في صفة الحشر من أن الله يطلع على أهل الحشر ، ولو سلط على ذلك التأويل عاد الشرع كله مؤولا ، فبماذا يجاب السائل في ذلك إذاً ..؟..

يجاب بجواب الشرع ، فيقال : إن الله نور (ص ٦٥) وهذا المثال مناسب لأن النور محسوس يعجز البصر والأفهام عن إدراكه ، والله سبب الموجودات وسبب إدراكنا لها ، والنور مع الألوان هذه صفته ، أعني أنه سبب وجود الألوان بالفعل .

(حـ) الجهة

أثبتها أهل الشريعة من أول الأمر لله ، ثم نفتها المعتزلة وتبعها الأشعرية ، ولكن ظواهر الشرع تقضي بإثبات الجهة مثل قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ، « تعرج الروح والملائكة إليه » ، « أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض » .. إلى غير ذلك من الآيات التي إن أولت عاد الشرع مؤولا ، وإن قيل إنها من المتشابهات كان الشرع كله من المتشابهات ، والشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء ، ومنه تنزل الملائكة بالوحي إلى الرسل .

وقد نفى نفاة الجهة عن الله ذلك ، لظنهم أن إثبات الجهة يوجب إثبات المكان ، وإثبات المكان يوجب الجسمية ، ويقول ابن رشد : إن الجهة غير المكان (ص ٦٧) ، ووجه العسر في تفهيم هذا المعنى مع نفي الجسمية هو أنه ليس لها مثال في الشاهد .

واستطرد ابن رشد فتحدث عما عرض في الإسلام من التأويل ، وتكلم عن التأويل وتاريخه (ص ٦٩ — ٧٤) ونحن نرجئ هذا إلى الكلام عند قانون التأويل .

(د) مسألة الرؤية

قالت المعتزلة : إن كل مرئي في جهة من الرائي ، وإذا رؤي الله كان في جهة ، وإذا كان في جهة كان جسماً ؟ ولهذا نفوا الرؤية ، وأولوا الأخبار الواردة فيها .. أما الأشاعرة فراموا الجمع بين نفي الجسمية وبين جواز الرؤية ، فعسر عليهم ذلك ، واضطروا إلى أقوال سوفسطائية . وانقسم كلامهم إلى قسمين :

أولاً : أدلتهم على رفع قول المعتزلة (١) جائز أن يرى الإنسان ما ليس في جهة ، إذ يرى القوة المبصرة نفسها دون عين ؟ وقد اختلط عليهم إدراك العقل مع البصر ، إذ العقل هو الذي يدرك ما ليس في جهة (٢) قال الغزالي : إن الإنسان يرى ذاته في المرآة مع أن ذاته لا تحل في المرآة ، فهو يبصر ذاته في غير جهة . وهذه مغالطة : إذ الذي يبصر هو خيال ذاته ، والخيال في جهة ، إذ الخيال في المرآة ، والمرآة في جهة .

ثانياً : أدلتهم في إمكان رؤية ما ليس بجسم ، ويقولون في ذلك : إن الشيء يرى من قبل أنه لون أو جسم أو أنه موجود ؟ فإن كان يرى من جهة أنه لون لما رئي الجسم ، ولو رئي من جهة أنه جسم لما رئي اللون ، فلم يبق إلا أن يرى من جهة أنه موجود . وهذه مغالطة . إذ الشيء يرى بذاته ، وهذه حال اللون والجسم . ثم لو سلمنا بأن الأشياء ترى من جهة أنها موجودة ، لوجب أن ترى الأصوات وسائر المحسوسات (إذ هي مشتركة في الوجود) وكانت الحواس حاسة واحدة . وقد أخذ في إلزامهم المحالات من جراء أقوالهم .

(يتبع) عبد الجليل السيد حسن



الرجـــل والثعبان

للكاتب الأمريكي امبروز بيرس

ترجمة الأستاذ محمد فتحي عبد الوهاب

تبسم هاركر برايتن وقد استلقى على الأريكة في لباس نومه ، وهو يقرأ الجملة التي عثر عليها في كتاب موريستر القديم « عجائب العالم » .

« من صحيح الأخبار التي أيدها الكثيرون ، والتي رددها العلماء والحكماء ، أن للثعبان عينين تمتلكان صفات مغناطيسية . وأن من يقع تحت ناظريه ينجذب نحوه رغماً عن إرادته ، ويهلك من عضة الحيوان » .

ثم حدث نفسه قائلاً : « إن وجه العجب في الموضوع هو أن العلماء والحكماء إبان عهد موريستر قد آمنوا بمثل هذا الهراء الذي ينبذه حتى أجهل الناس في يومنا هذا » .

وتتابعت أفكاره — فقد كان برايتن رجلاً مفكراً — ثم نكس الكتاب بلا شعور دون أن يغير اتجاه عينيه . وما أن ابتعد الكتاب عن مستوى نظره حتى أثار انتباهه شيء في ركن مظلم من أركان الحجرة ، فقد شاهد في الظلال تحت فراشه بقعتين صغيرتين من الضوء ، تبعد الواحدة عن الأخرى بمقدار بوصة .

لعل منشأ ذلك انعكاسات المصباح الغازي القائم فوقه ، والمثبت بمسامير ذات رءوس معدنية . وعاود القراءة دون أن يعير البقعتين اهتماماً كبيراً . وإن هي إلا لحظة حتى دفعه دافع لم يفكر في تحليل مصدره إلى أن ينكس الكتاب مرة أخرى ويتطلع أمامه . كانت البقعتان المضيئتان لا تزالان هناك ، تلمعان أكثر من ذي قبل ، وتبرقان في توهج أخضر لم يكن قد لاحظه في المرة الأولى ، وخيل إليه أنهما تحركتا قليلاً — ازدادتا منه قرباً . وكان الظلام يشملهما فلم يستطع تكشف أصلهما ، ثم عاود القراءة .

وعلى حين غرة ، وأثار الموضوع الذي كان يقرأه في نفسه فكرة جعلته يجفل ويلقي بالكتاب فيفلت من يده ويسقط منطرحاً على الأرض . وهب برايتن واقفاً ، وجعل يمعن النظر في الظلام المخيم تحت الفراش حيث تلمع البقعتان المضيئتان ، وقد عاوده اهتمامه .

بدا له ، تحت أحد قوائم الفراش ، ثعبان منطوٍ ، ولم تكن تمتد الضوء سوى عينيه ! وكان رأسه المخيف مندفعاً من داخل طيات جسمه ومتجهاً صوبه في استقامة ، وفكه العريض المتوحش وجبهته تشيران إلى اتجاه نظراته الشريرة . ولم تعد العينان تبدوان له مجرد بقعتين مضيئتين ، بل كانتا تحدجان في عينيه بمعنى خبيث .

إن وجود ثعبان بحجرة نوم مسكن فاخر بمدينة راقية — من حسن الحظ — ليس ظاهرة شائعة تجعل المرء في غير حاجة إلى تفسيرها . وكان هارك برايتن عزباً في الخامسة والثلاثين من العمر ذا بنية قوية ! وكان قد عاد إلى سان فرانسسكو بعد أن جاب أنحاء البلاد ، وقبل في سرور دعوة صديقه الدكتور دروريغ العلامة الشهير . وكانت

دار الدكتور واسعة الأرجاء من الطراز القديم ، واقعة في حي مظلم من أحياء المدينة ، تضم معملاً ومتحفاً ومعرضاً للوحوش ، حيث يقوم الدكتور بدراسة أنواع الحياة لبعض الحيوانات ، ومن أهمها الزواحف ؛ ولذلك كان يطلق على المكان الذي يحتفظ فيه بهذه الزواحف اسم «ملجأ الثعابين» . وكان الملجأ متروكاً بلا عناية وبطريقة تسمح للزواحف بالتجول في حرية تامة ، فلا تعدم من التهام بعضها البعض ، أو هروب إحداها إلى أماكن أخرى حتى تثبت وجودها . وعلى الرغم من وجود هذا الملجأ ومشاكله ، فقد وجد رايفن الحياة مريحة حقاً في دار دروورنج .

ولم يتأثر رايفن كثيراً عندما اعترته الدهشة ، وانتابته رجفة من الاشمئزاز من رؤيته الثعبان . كان أول ما خطر له أن يقرع الجرس ليستحضر خادماً ، بيد أنه لم يأت بأية حركة ، ولم يتقدم صوب الجرس على الرغم من أن حبله كان متدلياً على مقربة منه ؛ فقد خطر له أنه إذا فعل ذلك فسيكون عرضة للشك في شجاعته ، وهذا شيء لم يحدث له من قبل .

كان الثعبان من فصيلة لم يعهدها رايفن من قبل . واستطاع أن يستنتج طوله ، كان جسمه في أعرض جزء يبدو له في ضخامة ذراعه . وسأل نفسه : أين موضع الخطر فيه ؟ أهو سام أم مفترس ؟ إذا لم يكن الحيوان من النوع الخطر ، فهو على الأقل البادئ بالهجوم ، إنه على أية حال دخيل .

جالت كل هذه الأفكار في بال رايفن ، فأخذ عقله ينشط ويقوم بتلك العملية التي تدعوها التدبر ثم العزم .

ثم وقف في أعتابه على قدميه ، واستعد للتراجع في هدوء صوب الباب بعيداً عن الثعبان محاولاً ألا يزعجه . إن الناس يلتجئون عندما يواجهون العظمة ، فالعظمة هي القوة ، والقوة معناها التهديد . وكان يعرف أنه يستطيع أن يتراجع دون ما عائق ، ويجد الباب بلا أدنى خطأ . هل سيتبعه الوحش ؟ إن الأسلحة الشرقية التي كان يتحلى بها الحائط قد تنفعه عند الحاجة . وكانت عينا الثعبان في أثناء ذلك تلتهبان في خبث قاس .

ورفع رايفن قدمه اليمنى حتى يقوم بأولى خطواته متراجعاً ، وفي هذه اللحظة شعر بقوة تمنعه من التراجع .

وتمتم قائلاً : إنهم يعدونني من الشجعان . إذا الشجاعة ليست أكثر من كبرياء ! فلا يوجد هنا من سيشاهد انسحابي .

واتكأ بيده اليمنى على ظهر المقعد ، وقدمه معلقة في الهواء . ثم قال في صوت مرتفع : هراء ! لست جباناً حتى أخشى أن أبدو خائفاً .

ثم رفع قدمه أكثر فأكثر حتى يتراجع . وأخيراً دفع بها إلى الأرض فلم تبتعد كثيراً عن قدمه الأخرى ، ولم يستطع أن يفكر كيف حدث ذلك . وحرك قدمه اليسرى فحاز نفس النتيجة السابقة .

وكان رأس الثعبان الخبيث لا يزال متجهاً نحوه دون ما حراك ، وقد انبعث من عينيه شرر كهربائي .

وحاول أن يخطو مرة أخرى إلى الوراء ، وهو يسحب المقعد معه ، ولكن سرعان ما زلقت يده وسقط المقعد على الأرض في صدمة عنيفة . وتأوه الرجل ، ومع ذلك ظل الثعبان ساكناً ، ولم يتم بأية نأمة أو صوت ، وهو ينظر إليه بعينيه المتوهجتين .

وتناهى إلى سمعه دقات طبل كبير وضجيج موسيقى مقبلة من بعيد ، موسيقى جميلة النغمات ، ثم انقطعت الموسيقى وتلاشت أنغامها شيئاً فشيئاً . وخيل إليه أنه يرى أمامه فضاء فسيحاً تتألق فيه الشمس بعد أن هطلت الأمطار ، واختفى قوس قزح كبير فأحاط بمئات من المدن . وشاهد وسط هذا الفضاء ثعباناً هائلاً على رأسه تاج ، ينظر إليه بعينيه والدته المتوفاة . وعلى حين غرة بدا له أن الفضاء المسحور قد ارتفع في سرعة واختفى عن ناظريه . ثم إذا بشيء يصدمه صدمة قوية في وجهه وصدره ؛ كان قد سقط على الأرض وتدفق الدم من أنفه المكسور وشفتيه المجروحتين . ومكث

برهة مشدوهاً مغمض العينين ووجهه إلى الأرض . وإن هي إلا لحظات حتى أفاق ليدرك أن سقطته قد ألاشت السحر الذي كان يشل حركاته ، وشعر بأنه إذا نحى نظره عن الثعبان استطاع مغادرة الحجرة . بيد أن تفكيره في أن الثعبان يتحفز على مقربة من رأسه دون أن يراه — وربما كان في هذه الآونة يستعد للوثوب عليه والالتفاف حول عنقه — كان شيئاً فظيعاً لا يحتمل . ثم رفع رأسه فالتقت عيناه بتلكما العينين الباهتتين ، وإذا به مقيد بالأغلال .

ولم يتحرك الثعبان . وبدا للرجل أن الحيوان قد فقد بطريقة ما مقدرته على السحر . وظل هذا الوهم البديع يراوده برهة . كانت عينا الحيوان السوداوان الواقعتان تحت تلك الجبهة المسطحة تتألقان في تعبير خبيث . لكأن المخلوق ، وقد أدرك فوزه المحتم ، قد عزم على ألا يزاول سحره بعد ذلك .

ثم تلا ذلك مشهد رهيب . رفع الرجل الراقد على الأرض بمقربة من عدوه الجزء الأعلى من جسمه وقد استند على مرفقيه وامتدت ساقاه ودفع رأسه إلى الخلف ، ولاح وجهه شاحباً بين قطرات الدم ، وجحظت عيناه ، وانسال الزبد من شدقيه ، ثم انتابته رعدة قوية سرت في جسده جعلته يلتوي كما يلتوي الثعبان . ثم أحنى جزعه وهو يدفع بساقيه من جانب إلى جانب . لقد كانت كل دقيقة تمر تجذبه شيئاً فشيئاً نحو الثعبان . ودفع بذراعيه إلى الأمام حتى يبعد جسمه إلى الخلف ، ومع ذلك وجد نفسه يتقدم على مرفقيه .

***

كان الدكتور دروزنج جالساً وزوجه في المكتبة . وكان العلامة يتمتم قائلاً : لقد حصلت عن طريق المبادلة على عينة بديعة من الأوفيوفاجس .

فسألته السيدة في اهتمام فاتر : وماذا يعني ذلك ؟ .

قال : ماذا ! يا إلهي ! ما أشد جهلك ! يجب على الذي يدرك بعد زواجه أن زوجته لا تعرف اللغة الإغريقية أن يسرع فيطلقها . إن الأوفيوفاجس يا عزيزتي ثعبان يأكل غيره من الثعابين .

فقالت وهي ترنو بنظرة شاردة صوب المصباح : أتعني أن يأكل ذلك الحيوان كل ثعابينك . ولكن كيف يصل إلى هذه الثعابين الأخرى ؟ أظن أنه يسحرها .

فقال الدكتور في امتعاض ظاهر : إنه جاهل مثلك يا عزيزتي . لشد ما يضايقني أن أسمع تلك الخرافة السخيفة الشائعة عن مقدرة الثعبان على السحر .

وهنا قطع الحديث صوت صرخة قوية دوت خلال سكون الدار ، وكأنها صوت شيطان يصيح من رمسه . وتردد الصوت الهائل عدة مرات في جلاء ووضوح . فهب الاثنان على أقدامهما ، وارتبك الرجل وشحبت المرأة وقد أخرسها الرعب . وقبل أن يتلاشى صدى آخر صيحة كان الدكتور قد غادر الحجرة وصعد الدرج مسرعاً ، فالتقى ببعض الخدم وقد أقبلوا من الطبقة العليا ، واندفعوا جميعاً إلى باب حجرة برايتن دون أن يطرقوه ، وكان غير موصد فتداعى وانفتح .

كان برايتن راقداً على بطنه وقد فارقته الحياة ، وكان جزء من رأسه ويديه مختفياً تحت أحد قوائم الفراش . وجذبوا الجثة وقلبوها . كان الوجه قد غمره الدم والزبد . وكانت العينان منفرجتين تحدقان في نظرة مخيفة !

وقال الدكتور وقد انحنى واضعاً يده على موضع القلب : لقد مات من سكتة قلبية .

ثم ألقى بنظرة تحت الفراش فإذا به يصيح : يا إلهي ! كيف أتى ذلك الشيء إلى هنا ؟ .

ومد يده تحت الفراش ، وجذب ثعباناً سرعان ما ألقى به إلى وسط الحجرة وهو لا يزال على حاله من الالتفاف ، فانزلق في صوت جاف على أرض الحجرة الملساء حتى ارتطم أخيراً بالحائط ، فظل هناك بلا حراك . كان ثعباناً محنطاً ، وكانت عيناه مصنوعتين من زرين من أزرار الأحذية !!

محمد فتحي عبد الوهاب

فى خريف العمر

تصـــابت وقد لفّقتها السـنو
ن بأحمـــالها فتراءت مُعجـــالها
تبـــدت عليها الحيـــاة كلِّـ
ـل يضـــلُّ به اللاعبون الإيابا
يُريك التجمّلُ فيهـــا رسوماً
عولاً ، وليس يُريـــك شـــبابا
وإن شئتَ قلتَ بلوح مصـــاباً
يُؤمـــل فيها اشتعـــال سرابا
تصـــابت وأخرى بهـــذا الثرا
ء ورامت زواجاً ، فرمنا انتحابا
تحـــوّم فوق شـــبابٍ يرعه
لِتطعمَه من جناها عِـــذابا
وقد أبرزتْ فى يديهـــا اللآ
لى تصيد بهـــا بالسنين غضابى
أناختْ عليهـــم صروف الزما
ن فضلوا السبيلَ ، وكانوا الشبابا
تقـــول لهم وهى أدرى بهم
لدىّ الذى تنشدون طِـــلابا
لدىّ الطعـــام لدىّ الشرا
ب أليس الحياةُ الطعامَ الشرابا !؟
فقـــالوا بلى ثم قـــالوا بلى
وأقسَمُوا لديهـــا فـكانوا كلابا
له الويل من جاء للقبر يرجو
من الأمنيـــات اللطافَ العِذابا
ومن يعتسف طرقات الحيـــا
ة يجد غبَّ ذلك مُرًّا وصـــابا
تصابت لتأخـــذ حظ الكعا
ب فمن للحقوق إذا السهمُ صابا ؟
أليس الـــــــثراء له ما يرو
م وإن أصبحت كل دار خرابا
لِمُتعةِ مَنْ هؤلاء القضـــا
ة وهـــذى السماءُ تبدو مآبا
أليست لكل مطيق صراعاً
وليس لكل ضعيف أهـــابا ؟
فحتام يبنى العـــدالة تاجر
وحتام تُمدى عليهـــا سحـــابا
وأيان هـــذا الزمان الذى
نرى الحق فيـــه قوياً مُهابا ؟
لقـــد ضقتُ ذرعاً بهذى الحيا
ة وإن كنتُ فيها أرجّى الرغابا

(الإسكندرية) أحمد محمود عرفه

الفهرس

صحيفة

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة
AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

٩ شارع الكردانى ، عابدين ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٨٠ | الاثنين ١٩ من ربيع الثانى سنة ١٣٦٩ — ٦ من فبراير سنة ١٩٥٠ | السنة الثانية عشرة

من وحى الحوادث :

عودة الشـــباب

للأستاذ فؤاد السيد خليل

كانت تبتسم وتضحك وتغنى وترقص ، ثم تقبله وتعانقه . وكان هو مرحاً شديد المرح سعيداً كل السعادة ، وإن كان يعجب أشد العجب من نفسه ومنها . أنى له كل هـذا الجمال الذى أتى بها وسباها ، وأنى له هذه القوة والفتوة ؟ ! وهى ! كيف عادت تظهر له الآن كل هذا الحب وهذا الإخلاص بعد طول الهجر وطول العذاب ! لقد بدأ حبهما أيام شبابه البعيد ، بل أيام طفولته الجميلة ، الجميلة برغم كل ما بها من حوادث وأحداث منها المحزن ومنها الكئيب ومنها الدامى أيضاً . على أن تلك المصائب لم تكن تصب عليه إلا فى غيابها ، ولكنه لم يكن يهتم إلا بها ولا يأبه إلا لها . وكانت جميلة جداً كما هى الآن مع فارق واحد بسيط ؛ كان جمالها الأول فى نظره جمالاً خرافياً ليس له حدود ، ولكن فيه روعة وفيه سحر وفيه أمل ، بل آمال لا حصر لها ولا حد لها ؛ أما جمالها الحالى فهو جمال إنسانى محدود ، ولكن فيه الروعة وفيه السحر وفيه الأمل أيضاً ، أمل محدود ولكنه عظيم وجميل .

كلا . كلا . إنه لا يريد أن يفكر الآن فى آماله وفيما قد يعترضها من صعوبات . يكفيه الآن قربها . يكفيه الآن حبها هذا الحب الذى كاد ييأس منه ، بل كاد يسخر منه بعد ما فعلت الأيام كل ما فعلت بملامحه وبنفسه وبقلبه . ولقد كاد يظن أنها هجرته إلى الأبد ، وكاد ييأس من الحياة . وأوشك أن يقتل حبيبته ويقتل نفسه ! أما الآن فوا فرحتاه !.

وجعل يحدثها قائلاً : هيا ! تعالى إلى جانبى أيتها الحبيبة . أريد أن أشعر بوجودك معى وقربك منى . أريد أن أضع يدى عليك . أريد أن أقبض عليك بيدى . تبتعدين ! نعم . تذكرت . أنت لا تطيقين القبض ولا الاعتقال . إذاً ماذا أصنع ؟ أريد أن أحس بك بكل جوارحى .. تكلمى .. تحدثى إلىّ .. غنى .. ارقصى .. ودعينى أتحدث إليك أنا أيضاً وأغنى وأرقص إذا استطعت .

أتذكرين أول عهدنا يوم كنت أنا طفلاً ؟ لقد كنت فتاة فتية كما أنت الآن ! إن الزمن لا يغيرك يا أعز المخلوقات . لقد كنت أحتفى — كما أمل الآن — باسمك وأشيد بمحاسنك ولا أملّ ، وكنت تبتسمين لى أحياناً وتعبسين

أحيانا . لم كنت تعبسين أحياناً ؟ تذكرت . لقد كنت تطلبين منا أن نكون فى حبنا رجالاً حتى لا يشمت بنا العذال . أجل لقد كنا كثيرين ، وكنا نحبك كثيراً وإن كنا لا ندرى ماذا نصنع لكى ترضى عنا ، ولكننا كنا مخلصين فى حبك إلى درجة التقديس ! فلم يكن أحدنا يغار من محبيك الآخرين ، بل كان يفرح بهم ويتقرب إليهم .

أجل يا حبيبتى لم نكن نغار عليك لأننا لم نكن نطمع فى أكثر من حبك والإخلاص لك ، وكنا نعلم أن أحداً لا ينال أكثر من حبك ، وكنا نراك نعمة أنعم بها الله على عباده فيجب أن يستمتعوا بها كلهم على حد سواء . وكنا نحزن أشد الحزن ، ونجزع أعظم الجزع ، ونبكى أحر البكاء ، إذا خشينا أن يعتدى عليك معتدٍ أثيم . وكنا ندافع عنك بألسنتنا الضعيفة وأيدينا الصغيرة وقلوبنا الكبيرة !.

وكان أهلك — ولا زالوا — كراماً ، كانوا يعطفون علينا ويرحبون بنا بل يشجعوننا على حبك ! كانوا يعلمون أنك طاهرة وستعيشين عمرك الخالد طاهرة ، فما ضرهم لو أحبك الناس كلهم ، بل ما أحراهم أن يفرحوا عندما يرون الناس كلهم يحبونك ويتمتعون بنور جمالك ! أليسوا كراماً ؟! والكريم يفرح بأن يعطى ويعطى من كل ما يملك ، فكيف به لو كان لا يعطى إلا العطف والحب وهما يسعدان الناس ولا يكلفانه شيئا . ولا يكلفانه شيئا ! يا للنكران ! إن الذى يبذل العطف والحب إنما يبذل خير ما يملك . إن بعض الناس لا يكتفون بأن يضنوا هم بالعطف والحب على الناس ، بل لا يطيقون أن يروا غيرهم يوزع عطفه وحبه على غيرهم ، إنهم يريدون أن يستأثروا بكل خير فى هذا العالم . فكان أهلك حينئذ — وما أبرهم — يتحملون الأذى ويقبلون التضحية ويأبون أن ينفرد بعض الناس بالاستمتاع بعطفهم وحبهم دون الآخرين ، وكانوا يهتفون مع أبى العلاء المعرى طيب الله ثراه قائلين :

فــلا نزلت علىّ ولا بأرضى
سحائب ليس تنتظم البــلادا

وظللنا نشب ونحن حافظون لعهدك ، ساعون لودك ، إلا نفراً ضئيلاً منا أعمتهم الأنانية الحمقاء فأرادوا أن يستخلصوك لأنفسهم ، فكانوا يتعاونون مع العذال على حبسك عنا قهريين منهم ومنا .

لم الله ! ماذا استفادوا ؟ إن كل ما استفادوه لا يساوى لحظة واحدة من قربك ، ولا لمحة واحدة من نور جمالك ، جمالك الذى يستطيع أن يعم الناس كلهم ، وأن يسعد الناس كلهم !.

ولكننا لم نكن نسكت على الضيم يا حبيبتى . كنا نظل نذكرك ونذكرك ، وكانت ذكراك تنغص عليهم عيشهم كما نغصوا علينا عيشنا ، وكنا نظل دائبين على ذكراك والمناداة باسمك والعمل لأجلك حتى تعودى إلينا فنفرح ويحزنون ، ونضحك ويبكون ، وكم كانوا بنا وبك يسخرون .

يا حبيبتى . إنك عدت فى هذه المرة أشد فتنة وأكثر جمالاً ! وإن فرحنا بك هــذه المرة لشديد ، وإن سرورنا لعظيم ! فلقد كانت غيبتك هذه المرة أطول من كل مرة سبقتها ، حتى خشينا ألا تعودى بل خشينا أن يكون حبنا لك قد فتر ، وسعينا لك قد ضعف ، بل أصبح كل منا يخشى أن يكون زميله فى حبك قد أصبح من عذالك ! واحسرتاه من تلك الأيام المظلمة المرعبة الكئيبة .

يا حبيبتى . إنى أشعر الآن أنى عدت لعهد شبابى ، بل عهد طفولتى ، فمن كان يستطيع أن يصنع هذه المعجزة إلا أنت ! فأهلاً ومرحباً بك . وشكراً لله ثم لك .

امكثى بجانبى يا حبيبتى ، لا تبتعدى عنى .. لا تخافى منى فلن أضع يدى عليك ، بل لن أوذى سمعك بكلمة نابية ، ولا بصرك بأشارة جارحة . يكفينى أن أمتع ناظرى بنور جمالك الباهر ، وأشنف أذنى بسماع حديثك الساحر ، بل إن قربك منى يخلق الدنيا من حولى خلقاً جديداً ! إن الشمس اليوم أجمل منها فى كل يوم ، والأرض أراها قد لبست زخرفها وازينت وأنبتت من كل زوج بهيج ، والجو !

الجو فيه أنغام سحرية لا عهد لي بها ، بل كان لي بها عهد ولكنها انقطعت عني فترة طويلة من الزمان حتى أنسيتها .
في تلك الفترة السكنية كان في لساني عيٌّ ، وفي أذني وقر ، وعلى بصري غشاوة ! لم أكن أتكلم إلا نفاقاً ، ولم أكن أسمع إلا زوراً ، ولم أكن أرى إلا نكراً . يا لله ! إن السماء والأرض لم تتغيرا كثيراً منذ اليوم ولكني أنا الذي تغيرت ! كنت يائساً فأصبحت آملا ، وكنت بائساً فأصبحت سعيداً ، وكنت كافراً فأصبحت مؤمناً ، وكنت عبداً فأصبحت حراً ! أصبحت لي كرامة ! رفعت رأسي .. صرت أعلم أن لي حقوقاً كما علي واجبات . في أيام هجرك لم أكن أعلم إلا أن علي واجبات ، واجبات فقط بغير حقوق ! كنت حانقاً عليك نقمت على كل شيء حتى على للوثة الكريمة ! والآن أمنت عليك فأمنت على كل شيء ، ورأيت كل شيء جميلاً !

اقتربي مني يا حبيبتي ، دعيني أشعر بالدفء وبالحياة . إن أنفاسك العطرة تنعشني ، ويدك السحرية تبث في جسدي القوة والنشوة ! إنك بجانبي تدفعينني دائماً إلى الأمام ، إلى طريق السعادة ، أما في غيابك فكنت أمشي وأعثر ، بل وأسقط ، كان بعض الناس يدفعونني إلى الوراء ! يا للعار ! العالم كله يهرول إلى الأمام ، إلى العز والمجد والكرامة ، وأنا وحدي كنت أسير القهقرى ! .

عديني ألا تمكني بعد اليوم أعدائي وأعداءك من أن يستولوا عليك . أعدائي ! إنهم ليسوا أعدائي ، إنهم إخوتي ، ولكنهم أنانيون جداً ، يريدون أن يحجبوا أشعة الشمس فلا يعيش بها غيرهم ! يريدون أن يمنعوا نور القمر فلا يستمتع به سواهم ! يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ! أما إن أراد أحد مشاركتهم أو جرؤ على اتهامهم بالظلم والقسوة فكانوا يقتلونه ! يا للهول ! إنهم كانوا يقتلون إخوتهم وأبناءهم ! حتى النساء والأطفال لم يسلموا من أذاهم ! أخذوا منهم عائلهم ، ومنعوا عنهم مورد رزقهم ، وحرّموا التصدق عليهم والإحسان إليهم !! والذين فعلوا ذلك كان لهم نساء يخشون لهن وأطفال يدللونهم ، فلا أدري كيف طاوعوا نساء وأطفالاً آخرين كانوا في أشد الحاجة إلى كلمة طيبة ، بل إلى لقمة الخبز ! كيف طاوعت هؤلاء القوم قلوبهم على ذلك ، بل كيف كانوا يهنأون بالعيش أو بالنوم ! .

لا تنتحي يا حبيبتي ولا تبكي ، فهم يقولون : إن أولئك الظالمين الذين اختطفوك كانوا من أعدائك أيضاً . تقولين وما ذنب النساء والأطفال ؟ ذنبهم يا حبيبتي أنك لم تكوني موجودة لتحميهم . ها أنت ذي تعودين فتحمين كل الناس ، تحمين حتى أعداءك السابقين ، فلا يؤاخذهم أحد بأكثر من كلمة العتاب ، وتأخذين بيد كل إنسان ، تأخذين بيد الجاهل الفقير ، والبائس المريض ، والطفل الشريد ، والأسرة التي أخنى عليها الدهر ! انظري إليهم جميعاً ، إنهم ينظرون إليك فرحين مستبشرين . لقد نسوا ما هم فيه ، نسوا آلامهم ومتاعبهم ، وأصبحوا يعيشون في المستقبل السعيد بإذن الله . لقد كنا قبل عودتك لا نعيش إلا بالماضي فقط ، لم نكن نستطيع أن نحيا في الحاضر ! كنا نهرب منه بعقولنا وقلوبنا ، فأصبحنا نقفز إلى المستقبل قفزة الأمل الحلو ، بل قفزة الثقة والاطمئنان . لقد نلنا بفضلك خير ما في الماضي والحاضر والمستقبل معاً ! يا لها من آية ! لمن غيرك أنت يستطيع هذا يا خير هبة لله في الوجود ! .

يا حبيبتي ! ما أجملك وما ألطفك وما أحلاك ! وما أحلى اسمك بين الأسماء كلها ! يا أجمل من الحياة وألذ من النعيم ! الحرية ! ما أبدع الجرس ، وما ألطف الجرس ، وما أجمل المعنى ! الحرية ! إن اسمك لكما قال المغفور له شوقي بك :

كنا النداء اسمها حسنا وحببه
حتى كأن اسمها البشرى أو العيد !

بل أنت خير من ذلك يا حبيبتي ! إن البشرى والعيد لا يعيشان إلا بك ، ولا يكونان إلا حيث تكونين .

فؤاد السيد خليل

شبكة الصيـــــاد

للدكتور زكي نجيب محمود

صَبَّتْ صديقتي الشاي في قدحي ، فتناولته ساهماً ما كنت ، وأخذت أتحساه على مهل ، وكأنما بدا على وجهي ساعتئذ شرود الفكر ، فسألتني :

قالت : ماذا دهاك ؟ .

قلت : إنه اليوم الأول من شهر فبراير ، إنه يوم مولدي .

قالت : إذاً فهو يوم تفرح فيه ، فمالي أراك قد بترت حبل الحديث وأخذك الوجوم ؟ .

قلت : لا ، ليس ما بي من وجوم ، إنما هي خِلْقة طبعها الله على وجهي ، فأبدو واجماً ولست بواجم .

قالت : لكنك شطحت بفكرك في السحاب ...

قلت : بل سَرَحْتُ به دنياً على هذه الأرض ؛ كَرَرْتُ به راجعاً عشرين عاماً ، إلى العام الذي أتممت فيه دراستي العالية ، واستعرضت في مثل اللمح بالبصر كل ما كان ، وكنت قد بدأت أحاسب نفسي ...

قالت : أعِدْ لي ما دار في رأسك ، لأحاسبك معك حسابك لنفسك .

قلت : كان البحر مضطرباً مائجاً ، وكانت السماء مكفهرة دكناء ، حين خرجت بشبكتي أقصد الصيد ، وكان معي فريق من الزملاء ، حملوا شباكهم على أكتافهم ، إذ كانوا كذلك إلى الصيد يقصدون .

خرج الصيادون جماعة واحدة ، يحملون شباكهم ، كلٌّ قد حَبَكَ الشبكة حبكا يتفق مع وجهة نظره فيما يراه أنفع في الحياة وأجدى ، وكل لا يكاد يدري شيئاً عن شبكة زميله ؛ فكان الصيادون في جملتهم يعتقدون أن الشباك قد تقاربت نسجاً وحبكاً ، فإن اختلفت عيونها سعة وضيقاً ، وإن تباينت خيوطها شدة وضعفاً ، فاختلافها — في رأيهم — يسير على كل حال ، لن يؤدي إلى تفاوت كبير فيما يصيدون ، لذلك لم يكن بينهم يومئذ حسد ولا حقد ، ولم تدبّ في نفوسهم يومئذ شحناء أو بغضاء ؛ حتى لقد ذهب بهم الوهم الجميل إلى الإيمان بأنهم سيظلون أحباباً أصحاباً ، فقد أخرجتهم إلى الصيد قرية واحدة ، وأسكنتهم تلك القرية منازل متجاورة متقاربة .

أقلعت الزوارق بجماعة الصيادين من مكان واحد عند الشاطئ ، ثم أخذ الموج المضطرب المائج يباعد بينها ، فهذا زورق يمضي قدماً في خط مستقيم ، وذلك زورق ينحرف ذات اليسار ، وثالث يتجه إلى اليمين ، ورابع لم يكد يسبح قليلا حتى ارتطم بالصخر ووقف حيث كان .

وها أنذا يا صديقتي أصور لنفسي جماعتنا وقد عادت إلى الشاطئ بعد رحلة الصيد .

قالت : فماذا رأيت ؟ .

قلت : هاتي الزوارق بين صيد وصيد .

هذا صياد قد أخرج من شبكته سمكة واحدة كبيرة ضخمة جبارة ، لم يكد يراها الزملاء حتى خجلوا من صيدهم الهزيل .

وسألناه جميعاً بصوت الشدوه المبهوت : كيف كان ذلك ؟ فقال : حبكتُ شبكتي منذ البداية على هذا الأساس ، فجعلت عيونها قليلة لكنها وسيعة ، وكنت أعلم منذ البداية أني مغامر مخاطر مقامر ، فإما عدتُ بغير صيد على الإطلاق ، أو عدت بمثل هذا الصيد السمين ؛ ذلك أن معظم السمك في البحر — كما تعلمون — متوسط الأحجام أو صغيرها ، وشبكتي هذه عيونها أوسع من أن تمسك بمتوسط أو صغير .

فقال له زميل وهو يبلع ريقه الذي جف في حلقه غيرة وحيرة : لقد ركنت إلى الحظ فواتاك ! فأجابه الصياد الناجح ضاحكا مزهواً بنجاحه : ليس الأمر كله حظاً مواتياً . يا صاحبي لا يحملك الفشل على غمط الناس حقوقهم ؛ إني حين حبكتُ شبكتي على نحو ما حبكتها ، كنت أصدر عن

روية وتفكير وإرادة وتدبير ؟ ثم جاء أوان الصيد فتخيرت الموضع الذي ألقي فيه بشبكتي ، وليس التخير الصحيح من قبيل الحظ المواتي والصادفة العمياء ... ثم قد كان من الجائز أن أخطئ عيون الشبكة على نحو ما فعلت ، وأن ألقي بها حيث ألقيت ، فلا تصادفني السمكة الكبيرة التي رجوت ؟ لكن الحياة السليمة الصحيحة القوية هي في التعرض لمثل هذا الخطر ، فهو تعرض للخطر قائم على حسن الروية لا على الطيش والجنون ، ثم هو تعرض للخطر يحدوه الأمل .

وكان طبيعياً أن تلتفت أنظارنا إلى شبكة الزميل المعترض ، فإذا هي مليئة بالسمك الصغير ؟ إن صيده كثير غزير ، ومع ذلك فقد أفرغ شبكته خجلا ، ونظرنا إليه في ابتسامة الساخرين !! فاعجب لكثرة تبعث على السخرية وتدعو إلى الخجل !! لقد رسم هذا الصياد خطة صيده على أساس الحذر الشديد والحرص الشديد ، فأعدّ لنفسه شبكة ضيقة العيون لا تفلت منها سمكة شاردة أو واردة من صغار السمك ، لكن كبار الأسماك وأوساطها ليست من نصيبه . إن السمك الصغير موجود في كل موضع من البحر ، فأينما ألقيت بالشبكة الضيقة العيون جاءتك منه بعدد كبير ، وأهم ما كان يهتم له هذا الزميل الصياد ، حين بدأنا رحلة الصيد ، ألا يعود من الرحلة صفر اليدين ؟ إنه أراد حصاداً مؤكداً ، فكان لابد له أن يستغني عن أوساط السمك وكبارها ...

لا ، فإني أذكر الآن صديقاً ثالثاً ، كان أكثر من ذلك عناية وأشد حرصاً ، فقد استوقف صيده أنظارنا بأنه خليط من متوسط وصغير ، وسأله سائل كيف كان ذلك ؟ فأجابه بأنه قد تحوط للأمر فحمل معه شبكتين ، ووقف في زورقه ممسكا إحداهما بيمناه ، والأخرى بيسراه ؟ وعاد بما عاد به من صيد يستوقف الأنظار ، لكنه مع ذلك يدعو إلى الإشفاق على صاحبه ! لأن المسكين قد أجهد نفسه إجهاداً أضناه وأشقاه ، حتى ليكاد ينظر إلى صيده نظرة المتحسر الذي يحس أنه قد صار الصيد لسواه ...

قالت صديقتي : إنك لم تذكر شيئاً عن صيدك أنت ، فإلى الآن ولصيد زملائك ؟ إن اليوم يوم ميلادك ، وقد حلا لك أن تشطح عن بفكرك إلى ماضيك تستعيده ، لتنصب لنفسك ميزان الحساب .

قلت : كانت عيون شبكتي أقرب إلى الضيق منها إلى التوسط أو السعة فأمسكت بسمكات قلائل ، كلها أقرب إلى الصغر منها إلى التوسط فضلا عن الكبر والضخامة .

قالت : أفهم أن تجيء أحجام السمك في صيدك أقرب إلى الضآلة منها إلى التوسط أو الكبر ، لكني لا أفهم أن تكون سمكاتك قلائل ، فما شأن الشبكة وعيونها بكثرة السمك أو قلته ؟

قلت : ها هنا يا صديقتي يقع الخطأ الأكبر في رحلة صيدي ، فقد أخطأت الحساب وألقيت الشبكة في غير موضع الغزارة والدسم ، فجعلت أطرحها وأجذبها ، ثم أطرحها وأجذبها ، مرة بعد مرة ، ولا أظفر في كل مرة بأكثر من سمكة أو سمكتين .

قالت : ولماذا لم تتحول عن ذلك الموضع إلى سواه ؟

قلت : إنه يا صديقتي أمر عجب ، أن يدرك الإنسان مدى إخفاقه في موضعه ، ثم يستحيل عليه أن يتحول عنه إلى غيره ، كأنما قد أصابه الشلل فلا يقوى على الحركة ! وأعجب من ذلك أني إلى اليوم لا أقصد إلا إلى ذلك المورد من البحر كلما أردت صيداً ؟ أطرح الشبكة نفسها في المكان نفسه وأعود بمثل ما عدت به من الصيد في كل مرة !.

لكني فيما مضى كنت ألقي التبعة على الحظ الأنكد ، كأنما هـذا الحظ رجل من لحم ودم يضطرب معنا في سبيل الحياة ، فيعين هذا ويعرقل الطريق لذاك ؟ فلما كبرت وازددت خبرة ودقة ، أدركت أن تبعة الصيد الهزيل واقعة لا محالة على الصياد ، فالشبكة من نسج يديه ، وموضع الصيد من اختياره ؟ إن هـذا « الحظ » المسكين الذي نلطخه بأوحالنا ، ونفرغ على رأسه قمامتنا ، مظلوم مغبون ، إنه بريء إلا بمقدار ضئيل جداً مما يصيبنا . ليتني أعرف أين يسكن هذا الذي ظلمه الناس وقسوا عليه ، لأبعث إليه بقطعة من الحلوى اليوم — يوم ميلادي — تكفيراً عما ألقيتُه في فمه من حنظل مر في سالف الأعوام .

ثم ابتسمت لصديقتي وسألتها : ترى أين يكون موضعك أنت من هذه الأنواع المختلفة من الشباك والصيد ؟.

فقالت ضاحكة : نحن النساء لنا شباك أخرى وصيد آخر .

زكي نجيب محمود

نصر بن سيار

للأستاذ علي أدهم

حينما عبست الأيام للأمويين ، وتخلى عنهم الحظ ، وماجت بهم الفتن ، واشتعلت نيران الثورة في كل ناحية من نواحي ملكهم العريض ، وتنكر لهم الصديق ، ولم يرع عهدهم الولي ، وتهاوت معاقلهم المنيعة ، وتوالت الهزائم على جيوشهم ، كان يقف إلى جانبهم ويثبت في صفوفهم رجل كالطود الراسخ ، وهذا الرجل هو نصر بن سيار حاكم الإقليم الذي هبت عليهم من نواحيه العاصفة العاتية ، وأصابتهم من جوانبه الضربة القاضية ، وهو خراسان .

ولد نصر في سنة ٤٦ هجرية في عهد خلافة معاوية ، وكان أبوه سيار من رجال مصعب بن الزبير ، وقد اتهم أبوه بسرقة عيبة ، وقطعت يده فكان يقال له الأقطع ، وطالما عير نصراً أعداؤه بهذه الهفوة التي ارتكبها أبوه ؛ وربما كان من البواعث التي حفزت نصراً على حب المخاطرة والرغبة في ابتناء المجد ونيل المكانة السامية حرصه على أن يرحض عن أسرته هذا العار ، ويستنقذها من سوء المقالة والهوان . ولا تزودنا المراجع التي يمكن الاعتماد عليها بمعلومات عن نشأة نصر ؛ ولكن علاقة أبيه بمصعب بن الزبير الذي كان حاكماً للعراق من قبل أخيه عبد الله تميل بنا إلى ترجيح أن نصراً كان عراقي النشأة ، وترجع سلسلة نسبه إلى بطن من بطون كنانة ، فهو مضري صليب . وقد تلقى نصر الدراسة التي كان يتلقاها أمثاله في ذلك العصر ، وهي دراسة الفقه الإسلامي والأدب ؛ وكان لنصر ملكات أدبية ممتازة ، ولكنه لم يكن بطبعه ميالاً إلى حياة الفكر والتأمل أو الانقطاع للشعر والكتابة . كان رجلاً طموحاً جم الحيوية محباً للسيطرة والنفوذ ؛ وقد وجد منفذاً لنشاطه في الانضمام إلى جيش القائد الكبير والقائد المقدامة قتيبة بن مسلم الباهلي الذي اختاره الحجاج لولاية خراسان ، وهو الذي وثب من خراسان لغزو بلاد ما وراء النهر ، وأوغل في بلاد الترك حتى وصل إلى حدود الصين . وفي سنة ١٠٦ هجرية اشترك نصر مع مسلم بن سعيد الكلابي أمير خراسان في غزو فرغانة ، ولما تقاعدت قبيلتا ربيعة والأزد عن مناصرة مسلم اعتمد على نصر في محاربتهما وإرغامهما على طاعته والانضواء تحت رايته ، وقام نصر بأعباء هذه المهمة بما عرف عنه من حماسة وكفاية وشدة ومضاء . ثم استعمل خالد القسري حاكم العراق أخاه أسد بن عبد الله على خراسان ، وأبلى نصر بلاء حسناً في محاربة خاقان الترك مع أسد القسري ، ولكن أسداً كان شديد التعصب لليمنية متحاملاً على المضرية ، فلم تشفع لنصر عنده مواقفه المشرفة وحسن بلائه ، وأساء معاملته ، وضربه هو ونفراً معه بالسياط ، وحلقهم وسيرهم إلى أخيه خالد ، وكتب إليه أنهم أرادوا الوثوب به ؛ وقد أثار ذلك خاطر الشاعر الفحل الفرزدق ، وكان من المعجبين بنصر ، المقدرين لبطولته ، فقال منددا بخالد القسري :

أخالد لولا الله لم تعط طاعة
ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا
إذاً للقيتم عند شد وثاقه
بني الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجرا

ولم يرض هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي حينذاك عن سياسة أسد في خراسان ، وكتب إلى أخيه خالد بعزله فرجع أسد إلى العراق في سنة ١٠٩ ، واستعمل هشام أشرس بن عبد الله السلمي والياً على خراسان ؛ وقد رد أشرس لنصر اعتباره ، واختاره والياً على بلخ . وظل نصر والياً عليها حتى عزله عن ولايتها الجنيد حينما ولي خراسان ، واستعان به في محاربة الترك في ما وراء النهر ، وحضر نصر

مع الجنيد وقعة الشعب التي كاد الترك أن يهزموا فيها جيش المسلمين الفاتحين ، وأبلى في هذه الوقعة بلاء حسناً ، وذكرها في شعره فقال :

إني نشأت وحسادي ذوو عدد
يا ذا المعارج لا تنقص لهم عددا
إن تحسدوني على مثل البلاء لكم
يوماً فمثل بلائي جرّ لي الحسدا
يأبى الإله الذي أعلى بقدرته
كعبي عليكم وأعطى فوقهم عددا
هلا شهدتم دفاعي عن جنيدكم
وقع القنا وشهاب الحرب قد وقدا

ومدحه أحد الشعراء المعاصرين له بهذه الأبيات ، وقد أشار فيها إلى مواقفه في وقعة الشعب فقال :

يا نصر أنت فتى نزار كلها
فلك المآثر والفعال الأرفع
فرّجت عن كل القبائل كربة
بالشعب حين تخاضعوا وتضعضعوا
يوم الجنيد إذ القنا متشاجر
والبحر دامٍ والخوافق تلمع
ما زلت ترميهم بنفس حرة
حتى تفرج جمعهم وتصدعوا
فالناس كلاً بعدها عتقاؤكم
ولك المكارم والمعالي أجمع

وأعيد نصر إلى ولاية بلخ . ولما ولي أسد بن عبد الله خراسان المرة الثانية في سنة ١١٧ هجرية اشترك نصر معه في إخماد ثورة الحارث بن سريج الذي خلع طاعة الأمويين وانضم إلى الأتراك واستعان بهم . وكان أسد يستشير نصراً ويستنصحه ويعمل برأيه ويقبل نصحته . وفي سنة ١٢٠ مات أسد حاكم خراسان وعزل أخوه خالد من ولاية العراق وأسندها هشام إلى يوسف بن عمر الثقفي . وكان هذا الرجل غريب الشأن عجيب الأطوار ، ومزيجاً من القسوة والتعصب والخبث والأثرة . وأراد الخليفة هشام أن يختار حاكماً لخراسان ، فكتب إلى يوسف يأمره أن يوجه إليه رجلاً له علم بخراسان وأحوالها ، فأرسل يوسف إليه عبد الكريم بن سليط . ولما دخل عبد الكريم على هشام وسلم عليه بالخلافة دارت بينهما هذه الحادثة :

هشام : من أنت ؟.

عبد الكريم : أنا عبد الكريم بن سليط بن عطية الحنفي .

هشام : كيف علمك بخراسان وأهلها ؟.

عبد الكريم : أنا بها جد عالم ، وقد أرسلني إلى يوسف جعفر بن حنظلة البهراني لأخبره بما حدث في خراسان .

هشام : إني أريد أن أولي أمرها رجلاً من القواد الذين هم مرتبون بها ، فمن ترى أن أولي أمرها منهم ؟ وأيهم أقوم بها ؟.

عبد الكريم : يا أمير المؤمنين ، أين أنت عن رجل من قوادها ذي حزم وبأس ومكيدة وقوة ومكانة من قومه ؟.

هشام : ومن هو ؟.

عبد الكريم : جديع بن علي الأزدي المعروف بالكرماني .

هشام : وكيف سمي بالكرماني ؟.

عبد الكريم : سمي كذلك لأنه ولد بكرمان ، فقد كان أبوه مع المهلب عند محاربة الأزارقة فولد هذا هناك .

هشام : لا حاجة لي في اليمانية (وكان هشام قد بدأ يبغض اليمانية ويتحول عنهم إلى المضرية) .

عبد الكريم : يا أمير المؤمنين فأين أنت من الحربي البطل النافذ اللسن ؟.

هشام : ومن هو ؟.

عبد الكريم : يحيى بن نعيم .

هشام : لا حاجة لي فيه ، إن ربيعة لا تسد بها الثغور .

عبد الكريم : يا أمير المؤمنين عليك بالماجد اللبيب الكامل الحسيب ، عقيل بن معقل الليثي . ولمح عبد الكريم أن هشاماً قد لاحت على وجهه علامات القبول ، فاسترسل يقول : هو يصلح إن اغتفرت فيه هنة .

هشام : ما هي هذه الهنة ؟.

عبد الكريم : ليس بعفيف .

هشام : لا حاجة لي فيه .

عبد الكريم : المجشر بن مزاحم السلمى ، عاقل شجاع له رأى مع كذب فيه .

هشام : لا خير فى الكذب .

عبد الكريم : هناك ذو الطاعة لكم المتمسك بعهدكم المقتدى بقدوتكم يحيى بن الحضين .

هشام : ألم أخبرك أن ربيعة لا تسد بها الثغور ؟ .

عبد الكريم : الكامل النافذ البطل الشجاع قَطَن ابن قتيبة بن مسلم ، إن اغتفرت منه هنة .

هشام : وما هى ؟ .

عبد الكريم : لا آمنه أن أفضى إليه السلطان أن يطلب جنود خراسان بدم أبيه قتيبة ، فإنهم جميعاً تضافروا عليه .

هشام : لا حاجة لى فيه .

عبد الكريم : فأين أنت يا أمير المؤمنين من العفيف المجرب الباسل المحنك نصر بن سيار إن اغتفرت منه خصلة ؟ .

هشام : وما هى ؟ .

عبد الكريم : ليست له بخراسان عشيرة من جنودها ، وإنما يقوى على ولاية خراسان من كانت له بها عشيرة من جنودها .

هشام : وأى عشيرة أكثر منى لا أبالك ! (والتفت إلى غلام له وقال) : « يا غلام انطلق إلى الكتاب فرهم بإنشاء عهده والتوقى به » .

ولما تمت كتابة العهد دفعه إلى عبد الكريم وأمره أن يحمله إلى خراسان .

وأحسن نصر الولاية والجباية فى خراسان ، وعمرت خراسان عمارة لم تعمر قبلها حتى قال بعض الشعراء :

أضحت خراسان بعد الخوف آمنة
من ظلم كل غشوم الحكم جبار
لما أتى يوسفاً أخبار ما لقيت
اختار نصراً لها نصر بن سيار

وغزا نصر ما وراء النهر ، ورأى أن يحسن السياسة ليثبت أقدام المسلمين فى هذه الأنحاء ، فوعدهم بكشف المظالم ورفع الجزية عمن أسلم منهم . وأعاد الكرة فى غزو الترك وارتفع إلى فرغانة وأمعن فيها ، وتقدم منها إلى بلاد الشاش فتلقاه ملكها بالصلح ، واشترط عليه نصر إخراج الثائر الشهير الحارث بن سريج من بلاده ، فأخرجه إلى فاراب .

وكان نصر لا يرجع إلى رأى يوسف حاكم العراق فى شئ ، فساءه ذلك وحاول أن يفسد ما بينه وبين هشام ، واغتنم قدوم مغن بن أحمر من قبل نصر ، وكان مغن يريد زيارة هشام بعد زيارته العراق ، فقال له يوسف : « أيغلبكم الأقطع على سلطانكم ؟ » ، وأخذ يحرضه على نصر وأوصاه أن يقع فيه عند هشام ، والظاهر أنه مناه الأمانى ووعده الوعود ؛ فلما دخل على هشام قال له فى عرض الحديث عن خراسان : « جند خراسان لهم طاعة ونجدة ، ولكن ليس لهم قائد » ! فعجب هشام وأجابه : « ويحك وماذا فعل نصر ؟ » فأجابه مغن : « إن نصراً له بأس ورأى ولكنه لا يعرف الرجل ولا يسمع صوته حتى يدنى منه ، وما يكاد يفهم منه من الضعف لأجل كِبَره » .

وكان أحد رجال الوفد القادم من خراسان حاضراً ولم يعجبه كلام مغن ، فقال لهشام : « لقد كذب والله مغن ، إن نصراً ليس بالشيخ يخشى خرفه ولا الشاب يخشى سفهه ، بل هو المجرب ، وقد ولى عامة ثغور خراسان وحروبها قبل ولايته » .

فأدرك هشام أن قول مغن من وضع يوسف بن عمر ، ولم يلتفت إلى قوله . وهكذا أخفقت دسيسة يوسف ولم يستطع زحزحة نصر عن مكانته التى نالها بجهوده الجبارة ودأبه المتواصل .

ولما مات هشام وخلفه الوليد بن يزيد ، استأنف يوسف جهوده لعزل نصر عن خراسان ، واشترى من الوليد نصراً وعماله ، فرد الوليد إلى يوسف ولاية خراسان ! وكتب يوسف إلى نصر يأمره بالقدوم عليه مع أفراد أسرته ، وكتب الوليد إلى نصر يأمره بأن يستحضر له معه من خراسان برابط وطنابير وأباريق ذهب وفضة ، وأن يجمع له كل صناجة بخراسان وكل باز وبرذون فاره ، ثم يسير بكل ذلك بنفسه فى وجوه أهل خراسان ، وألح يوسف على نصر بالقدوم واستحثه ، فسار نصر إلى العراق ؛ فبينا هو يسير إلى العراق وافته أنباء مصرع الوليد ، فعاد أدراجه إلى خراسان . وساءت الأحوال بعد قتل الوليد واشتدت الخصومة بين اليمنية والمضرية ، واضطربت أحوال الدولة

الأموية اضطرابا شديداً مكن دعاة العباسيين من استغلال الوقف واغتنام الفرصة ؛ وابتلى نصر بثورة الكرماني وخروجه عليه ووثوبه به ، وآزر الكرماني الثائر الخطير الحارث بن سريج ، ولم يغب عن عين نصر البصيرة ملابسات الموقف . ولما أفضت الخلافة إلى مروان بن محمد أبقى نصر حاكما على خراسان ، وشغل مروان بمحاربة الخوارج والخارجين عليه في بلاد الشام ، وقوى أمر أبي مسلم ، واشتد ساعده ، وتكاثرت جموعه ، ولاح لنصر شبح الخطر الرهيب ، فأرسل إلى مروان أبياته المشهورة محذراً ومنذراً ، وهي أبيات قوية التصوير بعيدة التأثير يقول فيها :

أرى خلل الرماد وميض جمر
ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى
وإن الحرب أولها كلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم
يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري
أأيقاظ أمية أم نيام

ولما تلقى مروان هذا الإنذار الصريح والاستغاثة الصارخة كتب إلى نصر يقول : « إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب فاحسم الثأول قبلك » ! فقال نصر لرجاله : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده » . وأراد نصر أن يستعين بيزيد بن هبيرة والى العراق فكتب إليه بهذه الأبيات البليغة :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه
وقد تيقنت أن لا خير في الكذب
أن خراسان أرض قد رأيت بها
بيضاً لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت
لما يطرن وقد سربلن بالزغب
إلا تدارك بخيل الله معلنة
ألهبن نيران حرب أيما لهب

فاكتفى يزيد بأن يكتب إليه قائلاً : « لا تكثر فليس لك عندى رجل » .

وهكذا تخلى عنه الخليفة وأكبر ولاته وزكاه ومصيره ، وقد اضطر نصر إلى الفرار من خراسان . وكانت جيوش أبي مسلم تطارد هذا الشيخ الطاعن في السن من مدينة إلى مدينة من مدن خراسان ، وهو مع ذلك يقاوم في تقهقره ، ويعمل على إيقاف تقدم رجال أبي مسلم حتى قدم مدينة الري ، وأقام بها يومين ، ثم اعتراه المرض فكان يحمل حملاً ؛ فلما بلغ ساوة أدركته الوفاة وأراحته من هذه المطاردة القاسية المرة ، والملاحقة التي لا تني ولا ترحم ، وكان قد شارف الخامسة بعد الثمانين .

وقد هز مصرع نصر الشاعر المطبوع أبا العطاء السندى فرثاه بهذه الأبيات المؤثرة التي يقول فيها :

فاضت دموعى على نصر وما ظلمت
عين تفيض على نصر بن سيار
يا نصر من للقاء الخيل أن لقحت
يا نصر بعدك أو للضيف والجار
الخندق الذى يحمى حقيقته
في كل يوم مخوف الشر والعار
والقائد الخيل قبا في أعنتها
بالقوم حتى تلف الغار بالغار
من كل أبيض كالمصباح من مضر
يجلو بسنته الظلماء للسارى
ماض على الهول مقدام إذا اعترضت
سمر الرماح وولّى كل فرّار
إن قال قولاً وفّى بالقول موعده
إن الكنانيّ واف غير غدّار

وكأنما كانت حياة نصر موصولة بحياة الدولة الأموية التي وفى لها وأبلى في الدفاع عنها ؛ فقد ولد بعد ميلادها بأعوام قلائل ، ومات قبل أن يتقلص ظلها بأشهر معدودات . وقد كان هذا الرجل الذى أفنى زهرة عمره في الجهاد جديراً بمية أكرم من هذه الميتة ، ومصيراً أكثر إسماحاً من هذا المصير ، ولكنها مشيئة الأقدار ، ولا مرد لمشيئتها ولا دافع لقضائها .

علي أدهم

خـــواطر عن المرأة

للأستاذ محمود محمود

يتميز الأديب الإنجليزي المعاصر جورج برنارد شو بنقده اللاذع للمجتمع ، وبفكاهته البارعة التي يسخر بها من عيوب الناس . وله آراء طريفة تنتثر هنا وهناك في مسرحياته عن فنون الحياة المختلفة ، ننقل منها هنا للقارئ بعض ما جاء فيها عن المرأة :

* * *

النساء المتقلبات

ليست الحركة شيئاً غير مستحب ، إنما هي الحياة إذا قورنت بالركود والسكون والموت ؛ هي التجديد إذا قورنت بالشيء المتكرر المألوف . ولا غنى للمرء عن التجديد في حياته . ولو أنك أخذت ما امتدت إليه يداك — من خير الطعام ، والموسيقى ، والكتب ، والحالات النفسية ، أو أي شيء آخر جميل لا يتغير — ولازمته زمناً طويلاً ، انتهى بك الأمر إلى كراهيته والنفور منه ؛ ولهذا فإن النساء المتقلبات أخف ظلاً على النفوس من زميلاتهن الرتيبات المألوفات ، مهما يكن تقلبهن بغيضاً على القلوب . وقد تجد منهن من تُقتل ، ولكنك لن تجد من تُهجر . إن الحياة الزوجية لا تحتمل إلا لما فيها من ساعات الضيق إلى جانب ساعات السرور . وإن قابلت رجلاً يهز رأسه ضجراً لأنه يعيش في عصر يسوده القلق ، فسله إن كان يحب أن يعيش في عصر ثابت لا يتغير . إنك إن اشتريت لنفسك سيارة لا تجعل شعارك « كلما أبطأت كان خيراً لي » . الحركة ممتعة إذا أمكننا أن نقودها ونسيطر عليها ، وأن نوقفها عندما تهوي بنا إلى الهلاك .

* * *

حتى الممات :

عندما يكون الرجل والمرأة تحت تأثير عاطفة قوية سريعة الزوال ، وإحساس خادع جنوني ، نطلب إليهما أن يقسما أن يبقيا على هذه الحال التي ترهق الحس من شدة التهيج والشذوذ حتى يفصل الموت بينهما . (ذلك هو الزواج) .

* * *

اختيار الزوجة :

عقد القسيس القران بين مئات الأزواج ؛ ومن هؤلاء الأزواج من اختار كل منهما الآخر ، ومنهم من قام باختياره الآباء والأمهات ، ومنهم من أرغمهم ظرف من الظروف على الزواج . ويؤكد لي القسيس أنا لو أعمنا هذه الزيجات بوضع أسماء الرجال جميعاً في حقيبة ، وأسماء النساء في حقيبة أخرى ، ثم أتينا بطفل كفيف البصر ينتزع اسماً من هذه واسماً من تلك ، كما نفعل في اليانصيب ، لما قلت نسبة الأزواج السعداء عما هي الآن في انجلترا . وليس كيوبيد (إله الحب) سوى هذا الطفل الكفيف البصر .

* * *

العانس الحرون :

(حوار بين عانس ووالد)

العانس : أنا عانس عجوز متشبثة ، شديدة الاهتمام بما أملك . أحب أن يكون لي بيتي الخاص ، وأن يكون لي وحدي . وإحساسي بالجمال والتناسق والنظافة والنظام مرهف دقيق . وأنا فخورة باستقلالي ، شديدة الغيرة عليه . وعقلي مفعم بالأفكار ، تكفيني رفقته ما دام عندي الكثير من الكتب والموسيقى . والشيء الوحيد الذي لا أطيقه هو

الرجل الجلف الغليظ يدخّن في أرجاء بيتي ، ويفرط في النوم بعد العشاء مستلقياً على مقعده ، ويحلّ نظام كل شيء .

القائد : ولكن الحب .

العانس : أوه الحب ! أليس لديك خيال ؟ وهلا تظن أني أحببت رجالاً من أنجب الرجال ؟ أبطالاً ، وملائكة ، وأمراء ، وحكماء ، بل وأوغاداً لهم جاذبية عظمى ، وكانت لي معهم أغرب المغامرات ؟ وهل تعلم كيف أنظر إلى الرجل — كرجل فحسب — بعد ذلك ؟ الرجل الذي ترى حذاءه في كل ركن من أركان البيت ، وتشم رائحة تبغه الذي يدخنه فوق كل ستار من الستائر ؟ .

القائد : أجل ! ولكن — واسمحي لي أن أذكر هذا — ألا تريدين لك أطفالاً ؟ .

العانس : ينبغي أن يكون لي . وأحسب أني أكون أمّاً طيبة لأطفالي ، وأعتقد أن من الخير لبلادي أن تجزل العطاء لي ليكون لي ولد ؛ غير أن بلادي تقول لي إني لا أستطيع أن يكون لي ولد في بيتي دون أن يكون به كذلك رجل ، ولذا فإني أقول لبلادي إن عليها أن تستغني من أطفالي . لو كان لابد من أن أكون أمّاً ، فإني لا أستطيع أن يكون لي رجل يضايقني بأن أكون له زوجاً في نفس الوقت .

القائد : عزيزتي ! أنت تظنين أني لا أحب أن أكون وقحا ، ولكني أصارحك أن هذه الآراء لا يليق بسيدة إنجليزية أن تبوح بها .

العانس : ومن أجل هذا فإني لا أبوح بها إلا لرجال مهذبين لا يجيبون بغير ما أجبت . والصعوبة هي — كما ترى — أني سيدة انجليزية ، وأني فخورة بأن أكون كذلك .

القائد : أنا على ثقة كبرى من ذلك ، ولم أقصد قط ...

العانس : آه ، ياعزيزي . أرجو أن تفكر في شيء آخر غير أنك ربما أسأت إليّ ، أو أنك لم تخطئ في سلوكك كرجل إنجليزي مهذب . إنك لم تخطئ قط ، ولكنك غبي بليد .

القائد : ها ، هذا عيبي ، إني لست ذكياً ، إنما أنا جندي ساذج سخيف .

العانس : الأمر بسيط جداً . فأنا — كما قلتُ — سيدة إنجليزية ، وأقصد بذلك أني نشأت على أن أستغني عما لا أستطيع أن أحصل عليه مع احتفاظي بشرفي مهما يكن ذلك الشيء .

القائد : حقاً ، إني لست أفهمك .

العانس : وإن لم تحب إذاً لماذا تريد أن تتزوج من امرأة لست تفهمها .

القائد : لست أدري . أحسب أني أحبك .

العانس : حسناً يا ... تستطيع أن تحبني كما تشاء ، بشرط أن تبدو سعيداً بذلك ولا تضايقني . غير أنك لا تستطيع أن تقترن بي . وهذا كل ما في الأمر .

القائد : يشق عليّ جداً أن أناقش الأمر معك مناقشة عادلة دون أن أسيء إلى رقة إحساسك بتجاوزي حدود الذوق السليم . ولكن لا ريب أن للطبيعة نداء ...

العانس : لا تقل ما يوجب السخرية يا ...

القائد : كيف لي إذاً أن أعبر عما أريد ؟ دعينا من هذا يا ... ألا تريدين لك زوجاً ؟ .

العانس : كلا . إنما أريد لي ولداً ، وأريد أن أكرّس كل نفسي للولد لا لأبيه . غير أن القانون لا يسمح لي بذلك ، ولذا فقد عقدت العزم على ألا يكون لي زوج أو ولد .

• • •

عشر ما يتفقان :

تقول تريا : ينبغي أن يكون لي بيتي الخاص المنفصل ، أو جزء من البيت منفصل . ولكن (...) يدخن ، ولست أطيق التبغ . وهو يعتقد أن النافذة المفتوحة معناها الموت من البرد والتعرض لنسيم الليل ، وأحب أن أستنشق الهواء

التي دائماً . نستطيع أن نكون صديقين ، ولكننا لا نستطيع العيش معاً ؛ ويجب أن يُنص على ذلك في عقد الزواج .

* * *

نظرة الفيلسوف :

لا يدخل النساء حياة الفيلسوف إلا لإفسادها ، فهن يتطلبن الالتفات إليهن أكثر مما ينبغي .

* * *

الحب :

إذا أردنا أن نقرأ شيئاً من الأعمال التي تمت في سبيل الحب فأين نبحث عنها ؟ في أنهر الصحف التي تخصص لأنباء القتل ، فهناك قلما يخيب لنا رجاء .

* * *

الملابس تخلق الفروق :

كنت حتى سن التاسعة والعشرين مهلهلاً في لباسي ، لا تطيقني امرأة . أنقل خطاي في سترة خضراء بالية ، أطرافها غير مستوية ، وحذائي عتيق مريع ، وغير ذلك . ثم وجدت لي عملاً يدر عليّ أجراً ، فاشتريت رداء جديداً بكل ملحقاته ؛ وسرعان ما دعتني سيدة لتناول الشاي ، وطوقتني بذراعيها ، وقالت إنها تحبني !!

* * *

جسم واحد وروح واحد :

يجمل بنا ألا نقع في الخطأ الشائع فنتوقع أن نصبح جسداً واحداً وروحاً واحداً . إن لكل نجم فلكه الذي يدور فيه ، وكما أن بينه وبين أقرب نجم يجاوره جاذبية عظمى ، فكذلك بينهما شقة لا نهاية لها ، فإذا تغلبت الجاذبية على هذه الشقة ، فإن النجمين لا يتعانقان ، وإنما يصطدمان حتى يهويا من عليائهما ؛ وكذلك نحن ، لكل منا فلكه الخاص ، ويجب أن تبقى بيننا شقة لا نهاية لها كي نتحاشى صداماً مهلكاً . والاحتفاظ بهذه الشقة هو كل السر في حسن العاشرة ، وبغير العاشرة الطيبة لا يطاق المجتمع ولا يحتمل .

* * *

رغبتان ملحتان :

للمرء رغبتان ملحتان من رغبات الجسد : التهتك والتطهر . يُجن الإنسان في سبيل إشباع رغباته الجنسية ، كما يجن في سبيل كبتها ؛ وما لم نشبع هذه الرغبات يفنى الجنس البشري ، وما لم نكبحها تودى بأنفسنا إلى الهلاك .

* * *

ضرب من الانتحار :

إن أكبر تضحية في الزواج هي التضحية بحب المغامرة في الحياة ، والرضى بالاستقرار . قد يعشق الاستقرار من يولد متعباً منهك القوى ، أما النفوس الفتية القوية فترى الاستقرار ضرباً من ضروب الانتحار .

* * *

مبالغة :

إنك — كغيرك من الشبان جميعاً — تبالغ كثيراً في الفرق بين فتاة وأخرى .

* * *

إنهن لا يستطعن :

احذري من هذا يا لورنا : إن كل الفتيات يبدأن حياتهن الزوجية وهن يعتقدن أنهن يستطعن أن يغيّرن ويصلحن الرجال الذين يتزوجنهن . إنهن لا يستطعن .

* * *

النجاح مع النساء :

سر نجاحك معهن أنك لا تأبه بأن تعاملهن كنساء فحسب ، إنما أنت تتحدث إليهن كما تتحدث إليّ أو إلى أي صديق آخر . إنك قد لا تقدر مقدار ما يصيبهن من ملل

(البقية على صفحة ١٦)

الإخلاص المتبـــــادل

للدكتور محمد أحمد أمين

قام محسن بك من مكانه بعربة (البولمان) عند ما اقترب موعد قيام القطار ونزل منه مسرعاً، ثم توجه إلى النافذة التي تطل منها زوجته مديحة .. وعنـد ما صار قبالتها أشار إليها برأسه إشارة فهمت منها أنه يريد أن يسر إليها أمراً. فأخرجت رأسها الجميل بشعره الفاحم من النافذة فهمس في أذنها :

— اسمعي يا ميمي .. احترسي من الشاب الجالس أمامك فقد لاحظت أنه يطيل إليك النظر .. وأحسب أنه سينتهز أول فرصة للتحدث إليك .. إن الرحلة طويلة مملة ، ولكن لديك من المجلات والروايات ما يكفي لقتل الوقت .

فأجابته زوجته :

— ما هذا الكلام يا محسن ؟ ألا تثق فيّ ؟ إن عندي ما يشغل وقتي من القاهرة إلى أسوان ، لا من القاهرة إلى الإسكندرية . فأرجوك أن ..

— أعرف ذلك يا حبيبتي ولكني لاحظت عنـدما هممت بالخروج من الديوان أنه بدا عليه الارتياح لسفرك وحدك .. أقسم لك أنه لولا ارتباطي بموعد هام لسافرت معك ورجعت بالقطار التالي ..

— محسن ! أيرضيك أن أسافر غاضبة ؟ أما يكفي قلقي على صحة والدتي .. إني الآن في حالة لا تسمح بأن توجه إليّ مثل هذا الكلام وهذه النصائح . أقسم لك أنه منذ اللحظة التي تسلمت فيها البرقية التي تخبرني بمرض والدتي وأنا في حالة لا يعلمها إلا الله .. من يدري فربما ..

— أرجو أن تبلغيها سلامي وتمنياتي لها بالشفاء .. ولولا ارتباطي السابق — كما قلت — لسافرت معك للاطمئنان على صحتها .. ها هو ذا القطار يتحرك .. لا تنسي أن تتصلي بي غداً تليفونياً ما بين العاشرة والحادية عشرة صباحاً .. ولا تنسي نصيحتي إليك ..

وازدادت سرعة القطار فتحركت الأيدي وغابت مديحة عن الأنظار ..

وبخطى سريعة عاد محسن بك إلى عربته خارج المحطة . وعند ما أمر السائق أن يذهب به إلى الزمالك انفرج فم الأسطى محمد عن ابتسامة رآها محسن بك فابتسم هو الآخر .

وأخذت الأفكار تراوده .. لقد خلا له الجو .. فها هي زوجته قد سافرت إلى الإسكندرية لتطمئن على صحة أمها .. وقد تمكث فيها أسبوعاً كاملاً أو يزيد .. فعليه إذاً أن يستمتع بكل دقيقة من وقته قدر الإمكان .

لقد مثّل دوره بمهارة ، فقد أظهر لها اهتمامه بها وغيرته عليها ، وأفهمها أنه سيصعب عليه تحمل فراقها ، وأنه سينتظرها بصبر وترقب ، وأوصاها أن تتصل به تليفونياً في مقر عمله حتى يطمئن عليها .

وأخيراً سافرت وقد اطمأنت إلى حديثه بعد أن وعدته بالعودة بمجرد اطمئنانها على صحة والدتها . فله الآن أن يقضي الأيام القادمة بقرب إحسان .. تلك الحسناء الفاتنة التي تحيطه بجو كله سحر ودلال ..

وعند ما نظر الأسطى محمد في المرآة المثبتة أمامه وجد محسن بك ، وقد استلقى في ركن العربة ، وقد أغمض عينيه وعلى فمه ابتسامة تنم عن الرضا والطمأنينة .

ووقفت السيارة أمام إحدى عمارات الزمالك فاستيقظ محسن بك من أحلامه ، ونزل مسرعاً بعد أن أمر السائق بالمرور عليه في الصباح الباكر .

.. واتصلت مديحة بزوجها تليفونياً في اليوم التالي وأخبرته أنها وجدت صحة أمها سيئة للغاية ، وأنها لا تدري تماماً موعد عودتها إلى القاهرة .. فأجابها محسن : بأنه مشتاق إلى حضورها متألم لغيبتها ، ولكنه نصحها بالبقاء مع أمها حتى تطمئن تماماً على صحتها وزوال الخطر .

ومرت الأيام مرور البرق ، وانصرم الأسبوع وانتصف الأسبوع الذي يليه .. وحان موعد عودة زوجة محسن بك فودع خليلته مسرعاً بعد أن أخبرها أن زياراته لها ستصبح قليلة خاطفة وفي أوقات متباينة .

فأبدت إحسان استياءها ، ولكن هذا الاستياء تلاشى بسرعة عندما أخرج محسن بك من جيبه سواراً ذهبياً نفيساً وقد طبع اسمها عليه ، وقدمه إليها .

فهل استمتع حقاً بهذه الفترة التي قضاها مع خليلته ؟ كلا .. فاللذة التي كان يشعر بها أثناء زياراته لها قد أصبحت في حكم العدم ، وبدأ يشعر بانحطاط نفسه وتوبيخ ضميره .

لذلك لم يكن بالمنافق عندما استقبل زوجته عند رجوعها استقبالاً رائعاً ، ولم يكن بالكاذب عندما أخبرها أنه اشتاق إليها ، وأنه لن يدعها تتركه مرة أخرى لحظة واحدة .

ولما ذهب ليشتري السوار لإحسان أراد أن يكفر عن خيانته لزوجته المخلصة ، فلم يترك الدكان إلا ومعه سوار آخر لمديحة يفوق سوار إحسان دقة وجمالاً .

وجلس الزوجان إلى المائدة يتحدثان في انتظار حضور الطعام .. ورفعت مديحة (فوطتها) فتبينت في طياتها سواراً يلمع ، فصاحت مهللة وقامت من مكانها لتقبل زوجها قبلة شكر .. وحب ..

وابتسم محسن بك راضياً ، وقد ارتاحت نفسه ومد يده ليتناول (فوطته) ، فإذا به يجد في طياتها سلسلة ذهبية تلمع .. فكانت دقة بدقة .

وزالت ابتسامته في الحال ..

وعندما أحضر الخادم الطعام وجد الزوجين مطرقين ، وقد علاهما الوجوم والصمت .

محمد أحمد أمين

خواطر عن المرأة

(بقية المنشور على صفحة ١٤)

عندما تعاملهن بالاحترام الواجب لجنسهن اللطيف .

● ● ●

شر الآثام :

إنك لا تبلغ نهاية السخط من النساء إن أنت كرهتهن ، إنما شر ما ترتكب معهن من إثم أن تهملهن فلا تمنحهن حباً أو بغضاً ، فالإهمال أبلغ قسوة من البغض . ولو راقبت الناس ملياً لأدركت أن البغض عندهم كالحب سواء بسواء .

● ● ●

الزواج في سن الأربعين :

إنك يا صاح لم تدرك طبيعة اعتراض عارفوت على الاقتران بك . ليس الأمر حباً أو كرهاً بالمعنى المألوف ، إنما هي تعترض عليك كما تعترض على أبي وأخي وكل من يكوّن جزءاً من الماضي الذي لم يكن لها فيه نصيب . إنك في اللحظة التي تلج فيها الغرفة التي أقيم فيها تخلق عالماً تحس فيه — كما أحس — بالألفة كأنك في بيتك ، أما هي فتشعر بأنها غريبة في هذا العالم . وهذه هي المشقة التي يعانيها الرجل عندما يتزوج في سن الأربعين .

● ● ●

لماذا يختلف الزوجان :

إنما يختلف الزوجان لأنهما لا يعرفان ما يصنعان غير ذلك ، ولا يعرفان وسيلة أخرى للتسلية . إنك لا تعرف يا صاحبي كيف يكون الرجل وحيداً مع امرأة نصيبها من الجمال قليل ومن سحر الحديث أقل . ماذا يستطيع الرجل أن يفعل ؟ إنها لا تستطيع أن تتحدث حديثاً مشوقاً ، وإن فعل هو قرأها لا تفهمه . وهو لا يستطيع أن ينظر إليها ، وإن فعل لا يرى فيها أي لون من ألوان الجمال . وقبل أن تنقضي خمس دقائق يدب في نفسيهما الملل الشديد ، ولا يخرجهما من هذا المأزق إلا أن يتنازعا .

محمود محمود

أهداف الفلاسفة

للأستاذ عبد المنعم المليجى

لا يقف الفيلسوف فى تأمله عند حد إرجاع الظواهر الطبيعية التى يدركها بجوارحه إلى عللها وأسبابها القريبة ، ولا هو يقنع باستخلاص العبر والعظات المتناثرة شأن حكماء الشعب ، إنما هدفه الذى لا يفارق ذهنه ، أن يعيد تنظيم العالم ، بل الوجود بأسره على أساس معقول . العالم كما تدركه حواسه يتكون من أجزاء لا حصر لها ، تنسجم أحياناً وتتنافر فى كثير من الأحايين ؛ يأبى عقله إلا أن يرد الكثرة إلى الوحدة ، يرد الظواهر المتعددة إلى علة واحدة ليس من ورائها علة ؛ ويأبى عقله إلا أن يحيل الفوضى البادية فى الواقع إلى وحدة متسقة يتصورها تصوراً منطقياً .

من أجل هذا نشأت المذاهب الفلسفية ، وما كانت غير محاولات عقلية قام بها الفلاسفة لتصور الوجود تصوراً معقولاً يتفق مع العقل ، ويفسر له كل ما يجرى بالكون من أحداث ، بحيث لا يترك ثغرة إلا ملأها بتفسير يستمد من المذهب . ومن أجل هذا لم يقنع الفيلسوف بدراسة العالم الموضوعى البادى لحواسه كما يقنع العلماء ؛ وكيف يقنع وكثير من الأمور التى تجرى فى عالمنا لا نجد لها تفسيراً فى هذا العالم المحدود ؟ .

إذاً فليحلّق فوق ظواهر الطبيعة ، وليتجاوزها إلى ما وراءها ، إلى « ما وراء الطبيعة » لعله يهتدى إلى التفسير الكافى ويجد السر الخافى . ولا يزال الفيلسوف يعلو ويعلو على جناح التأمل ، حتى لا يعود يميز التفاصيل التى يغرق فيها عامة الناس ، ولا يعبأ بالروابط العلّية القريبة التى تشغل جمهرة العلماء ، إنما يرى الكون فى مجموعه كلاً واحداً متكاملاً ، فيكب على الأمور العامة يتفحصها بمنطق العقل الذى قد يتفق ومنطق الواقع التجريبى لدى بعض الفلاسفة الواقعيين ، وقد يتعارض معه لدى المثاليين منهم .

أوضح ذلك بمثال : كل كائن طبيعى لا يثبت على حال واحدة ، بل تطرأ عليه فى كل لحظة تغيرات لا حصر لها من حيث تركيبه ، وما يجرى فى بنيته من تفاعلات كيميائية ، وما تثيره فيه البيئة من سلوك وتصرفات . وبوسعنا أن نمضى فى تعداد مظاهر التغير دون أن نتوقف . لا يعنى الفيلسوف أن يقف عند تلك المظاهر المتغيرة ، بل هو يتأمل التغير فى ذاته بصرف النظر عن الأمور المتغيرة ، يستخلص من عالم الطبيعة فكرة التغير (أى الحركة) بوجه عام ، فيتساءل : هل الحركة البادية لى حركة ظاهرية توهمنى بها الحواس المتنقلة المتغيرة ؟ أم أن كل وجود يمضى ويعقبه وجود آخر لا استقرار له بدوره ؟ .

أجاب « هرقليطس » الفيلسوف الطبيعى القديم : لا شىء إلا الحركة الدائمة ، التجدد المستمر ، الأشياء تزول ولا شىء يبقى غير الحركة الجارفة الشاملة . ويحس هرقليطس — وقد يشاركه هذا الإحساس غير قليل من المفكرين — أن الإنسان القائم فى هذا الخضم المائج المائع لا يستطيع أن يعلم شيئاً ، لأنه قبل أن يشير إلى الشىء يكون قد مضى وأضحى على حال غير الحال ؛ كل شىء بالنسبة إليه زائل قبل أن يعرفه . وهكذا قد تفضى بنا نظرية التغير المستمر إلى نظرية أخرى فى المعرفة الإنسانية : عجز العقل الإنسانى عن الوصول إلى حقيقة ثابتة عامة ، ولا سبيل إلا إلى حقائق متغيرة بتغير الأشياء والأشخاص ، فالفرد مقياس كل شىء : ما يراه حقاً فهو حق بالنسبة إليه ، وما يراه غيره حقاً فهو حق بالإضافة إلى ذلك الغير ؛ فلا يطمعن المرء إذاً فى علم أياً كان ، لأن العلم لا يقوم بغير الحقائق الكلية الثابتة رغم تغير الموجودات الفردية .

لنعد ثانية إلى عالم الواقع لعلنا نصل إلى فلسفة تدحض فلسفة التغير المستمر . يطرأ على الإنسان منذ طفولته ، بل منذ كان نطفة فى قرار مكين ، تغيرات متعاقبة حتى يكبر

ويشب عن الطوق ويصير شاباً فكهلاً فشيخاً ؟ ولكنه رغم هذه التغيرات جميعاً هو الإنسان الذي لا يختلف تعريفه مهما اختلفت الأفراد التي تصدق عليها كلمة إنسان . ألا يعني ذلك أن التغير الذي يصيب الفرد في مظاهره لا ينفي وجوداً يكمن وراء الظواهر ، ذلك هو جوهره أو ماهيته الثابتة الواحدة في جميع الأفراد ، أو في الفرد الواحد في جميع الظروف ؟ .

الحركة إذاً تنال الظواهر دون الجواهر ، والأعراض دون الماهيات . وما الظواهر والأعراض وجوداً حقاً ، إنما الوجود الحق الجواهر والماهيات . الظواهر والأعراض كاللون والشكل والحركة والطعم والحجم والثقل ... ندركها بحواسنا . أما الجواهر والماهيات فنستنتجها ونستنتج صفاتها بالعقل وحده الذي يدرك ما وراء الواقع الملموس . والخلاصة التي نخرج بها أن الوجود الحق ليس حركة وتعدداً ، ولكنه وحدة وثبات ؛ وأن العلم ممكن طالما هنالك شيء ثابت بوسع المرء أن يشير إليه . يذهب بعض الفلاسفة هذا المذهب فيؤمنون بالمحسوس ، ويؤمنون بالمعقول . يؤمنون بالوجود المادي ، ويؤمنون بوجود لا مادي نسميه روحياً أو عقلياً ، ويرون أن معرفة الوجود المادي بحواسنا توصلنا إلى إدراك الوجود العقلي بعقلنا أي بالاستدلال المنطقي ، ولكنهم يعتبرون العلم الحق هو العلم بالعقل لا بالحس .

بيد أن فلاسفة آخرين يغالون في نزعتهم العقلية المثالية ، فلا يكتفون بتفضيل الوجود الروحي على الوجود المادي ، والمعرفة العقلية على المعرفة الحسية ، بل ينكرون الوجود المادي إطلاقاً : يعتبرون العالم الطبيعي الذي نحيا فيه ، ونضطرب في جنباته مع كائنات وأشياء ندركها ونحققها ونتعامل وإياها ، يعتبرون هذا العالم أوهاماً هيأتها لنا حواسنا الخادعة ، ولا يقرون بوجود غير وجود الأفكار التي نعقلها بأذهاننا ، دون أن نحققها بحواسنا ؛ من هؤلاء : بارمنيدس وأفلاطون في الفلسفة القديمة ، وباركلي وهيجل في الفلسفة الحديثة .

عبد المنعم المليجي

كيف ؟

نجوم بغير ضوء

للأستاذ حسن محمد حسين

في عام ١٧٨٣ منحت الجمعية الملكية بإنجلترا ميدالية كوبلي ، وهي أكبر شرف تمنحه الجمعية ، شاباً أصم أبكم منذ الولادة اسمه جون جودريك ، استغل حاسة إبصاره إلى درجة خلدت اسمه بين مشاهير الفلكيين ؛ فقد كان أول من افترض وجود نجوم مظلمة . ومع أن جودريك مات في سن مبكرة ، إذ لم يتعد الثانية والعشرين ، إلا أنه أجرى مشاهدات عديدة في مرصد صغير بمدينة يورك ، وكان أول من قام بدراسة منظمة للتغيرات في بريق النجم المسمى « الغول » .

يسطع هذا النجم ببريق ثابت مساو لبريق النجم القطبي في الشدة مدة يومين ونصف تقريباً ، ثم يتضاءل ضوؤه فجأة ، وفي مدى حوالي أربع ساعات ونصف يخبو بريق النجم حتى يصل إلى ثلث بريقه الأصلي ، ثم بعد ثلاث ساعات ونصف يسترد بريقه الأصلي الذي يظل ثابتاً مدى تسع وخمسين ساعة . وهذه التغيرات تتعاقب بتوقيت دقيق منتظم لدرجة أنه في الإمكان حساب أوقات بدء تضاؤل ضوء « الغول » مدى سنوات مقدماً ، وهي محسوبة بالفعل وموضوعة بجداول ضمن التقاويم الفلكية والطبوعات المماثلة . وهذه الأوقات معروفة بدقة كبيرة جداً ، لدرجة أن الفلكي يمكنه الاستعانة بجدول منها لضبط كرونومتره ، وذلك بملاحظة وقت بدء تضاؤل ضوء « الغول » ومقارنته بالزمن المبين بالجدول .

ولتفسير هذا التضاؤل الفجائي في ضوء «الغول» افترض جودريك وجود جسم مظلم يدور حول النجم ، بحيث يعترض سبيل ضوئه إلينا دورياً مسبباً كسوفاً جزئياً في كل دورة من دوراته . ولما كان النجم لا يمكن رؤيته أكثر من نقطة ضوئية مهما كانت قوة المرقب المستخدم لرؤيته ، فإنه يستحيل في هذه الحالة تمييز أي تفاصيل لجسم مظلم على قرص مضيء كما نرى في حالة كسوف جزئي للشمس بواسطة القمر ؛ إلا أن تفسير جودريك حاز قبولاً لتمكنه من تعليل التغيرات المشاهدة .

ولم يأت الدليل القاطع على صحة فرض جودريك إلا بعد مضى أكثر من قرن عليه ، وكان الوصول إلى هذا الدليل عن طريق وسائل غير مباشرة . فإذا فرضنا أن « الغول » كان له رفيق مظلم ، فإن الغول ورفيقه لابد أن يدورا حول نقطة توازنهما المشترك أو ما يسمى بمركز ثقلهما . فعندما يكون الجسم المظلم مقبلاً علينا قبل أن يمر أمام الكرة المضيئة تكون هذه الأخيرة مدبرة عنا ، وعندما يكون الرفيق المظلم متراجعاً بعد حصول الكسوف يكون النجم المضيء متقدماً نحونا . وعلى ذلك فإنه إذا كان تفسير جودريك لسبب التغير في ضوء «الغول» صحيحاً فلابد أن يقبل الغول علينا ثم يدبر عنا في دورة تتفق مع التغيرات في بريقه .

وقد أثبت الطياف أن هذه الحركات الدورية «للغول» من إقبال وإدبار تحدث فعلاً . والطياف آلة ضوئية يمكن بواسطتها تعيين سرعة إقبال نجم نحو الأرض أو إدباره عنها بدقة إلى كسر الميل في الثانية ؛ وباستخدامه أثبت «فوجل»

عام ١٨٨٨ فى مرصد بوتسدام أن « الغول » يدبر عن الأرض بسرعة تقرب من أربعة وعشرين ميلاً فى الثانية قبل أن يتضاءل ضوؤه ، ثم يقبل نحونا بمعدل ثمانية وعشرين ميلاً فى الثانية تقريباً بعد حدوث هذا الكسوف الجزئى له ؛ وبأخذ السرعة المتوسطة ستة وعشرين ميلاً ونصف الميل فى الثانية يمكن بسهولة حساب عدد الأميال المقطوعة حول نقطة التوازن فى الدورة بأكملها ، وهكذا يمكننا إيجاد قطر المدار . وبمعلومية هذه الأبعاد وزمن الدورة الكاملة يمكن تعيين كتلة « الغول » ورفيقه بالنسبة إلى كتلة الشمس ، وذلك باستخدام القانون الثالث لكبلر المسمى بالقانون التوافقى . وبهذه الكيفية نصل إلى أن قطر الرفيق المظلم « للغول » يساوى تقريباً قطر الشمس ، فى حين أن « الغول » نفسه أكبر من ذلك بقليل .

هذا الرفيق المظلم لم تقع عليه للآن عين بشرية ، وأغلب الظن أنها لن تقع عليه ، ومع ذلك فليس هناك أدنى شك لدى الفلكيين فى وجوده ، بل ولا يمكن أن يتسرب الشك فى وجوده لأى عقل يكون قد فحص هذا الدليل الذى أمدنا به الطياف . وقد عرف حتى الآن حوالى أربعمائة من هذه النجوم المزدوجة التى يتغير ضوؤها بنفس الكيفية مثل « الغول » ، ويعتبر لكل منها تابع مظلم يدور حول النجم المضىء بانتظام كانتظام الساعة .

هذه النجوم المظلمة التى تحجز عنا دورياً ضوء رفيقاتها الساطعة تشهد على وجود عوالم أخرى فى الفراغ غير مرئية . ويقدر الفلكيون أن نجماً من كل ثلاثة أو أربعة نجوم له شريك قريب منه تستحيل رؤيته . وقد تستجد طرق للبحث تكشف لنا عن أجسام عديدة لا يستطيع المرقب توضيحها للعين البشرية ، ولكن حتى بدون هذه الطرق لدينا الدليل الكافى على وجود عالم شاسع من النجوم غير المرئية . واهتمام الفلك بدراسة هذه الكتل المظلمة لا يقل عن اهتمامه بدراسة الأجسام التى تشع الضوء .

وهكذا دلل الطياف على وجود نجوم مظلمة ، ولكنه لم يكن الوسيلة الوحيدة لإقامة الدليل على وجود مادة غير مرئية فى الفراغ ؛ فقد أثبت المرقب وآلة التصوير أن مناطق السماء التى تظهر كأنها فارغة تكون فى كثير من الحالات مليئة بالنقط المتلألئة ومناطق الضوء السماوى الرقيق لدرجة تجعله غير مرئى للعين العارية . ولوح التصوير إذا وجهناه نحو الفضاء اللانهائى قد لا يسجل شيئاً لأول وهلة ، ولكنه إذا ترك كذلك قدر ساعة أو نحوها لانطبعت عليه آثار متراكمة لأشعة ضعيفة تعمل باستمرار مثبتة وجود ضوء فى طيات ظلام الفضاء ؛ وقد ساعدت هذه الوسيلة على التنبؤ بمواضع نجوم ومساحات من الضباب السماوى لم تقع عليها عين إنسان مباشرة .

وهكذا تخرج العوالم الجديدة تباعاً من الظلمات إلى النور كلما تقدمت أساليب دراسة السماوات وارتقت عددها وآلاتها . فقد كان الاعتقاد السائد فى وقت من الأوقات أن الملايين العديدة من النجوم المستطاع رؤيتها باستخدام أكبر مرقب أو تسجيلها بآلات التصوير ، هى كل ما يضىء فى الجزء من الفراغ الذى يحيط به « طريق المجرة » ، ومنها يتكون — فى رأيهم — العالم بأجمعه . أما الآن فالمعروف أن كل هذا النظام الذى يدخل فى تكوينه ما هو إلا جزء من العالم كله ، وأنه يحوى ما يقرب من مائة ألف مليون من النجوم ، ولو أن العين العارية لا ترى منها إلا ما يقرب من ستة آلاف نجم .

فكأن كل كشف علمى يزيد رجل العلم اعتقاداً أن الشىء القليل فقط قد تم إنجازه وبقى الشىء الكثير ينتظر إنجازاً ، أو كما قال نيوتن قبيل موته : « لا أدرى ماذا يظن بى العالم ، ولكنى أرانى لنفسى كما لو كنت غلاماً يلعب على شاطىء البحر مسلياً نفسه بالعثور على حصاة ملساء تارة ، وقوقعة جميلة طوراً ، بينما يظل خضم الحقيقة أمامه مجهولاً » .

فالإنسان من الناحية المادية ليس إلا جزءاً ميكروسكوبياً من العالم ، ومع ذلك يحمله عقله فى صعود دائم محاولاً الوصول به إلى قمم أعلى الجبال بروح مقدامة لا تعرف الهزيمة . ورغم معرفة الكثير عن السماوات وما تحويه من نجوم ، فإن الفراغ اللانهائى يظل عاملاً على الحد من كبريائه ، ولكنه يتابع بحثه فى المجهول ، وسيواصل هذا البحث أولاده وأحفاده من بعده .

عيسى محمد عيسى

السكارين ... أحلى من السكر خمسمائة مرة

للأستاذ سيد خليل شهاب

يضرب المثل في الحلاوة بالسكر ، فيعتقد البعض أن السكر هو أحلى شيء في الوجود . ولكن الواقع غير ذلك ، فإن من المركبات الكيميائية التي أنتجت ما هو أحلى من السكر بكثير . من أهم هذه المركبات السكارين Saccharine فما هو السكارين هذا ؟ وما قيمته الغذائية ؟

السكارين مركب كيميائي يمكن تحضيره بسهولة في المعمل ويحضر على نطاق واسع للتجارة من إحدى نواتج التقطير الإتلافي للفحم الحجري وهو التالوين Toluene . وفي عملية التقطير الإتلافي هذه ، يسخن الفحم الحجري في معزل عن الهواء تسخيناً شديداً وتكثف نواتج التقطير ، ومن هذه النواتج يمكن أن تفصل مادة التلوين هذه ... وبسلسلة من التفاعلات الكيميائية البسيطة يمكن للكيميائي أن يحول هذا المركب الرخيص إلى مادة حلوة جداً هي السكارين ..

من أهم مميزات السكارين أنه بالغ الحلاوة ، وقد وجد أنه يفوق السكر في حلاوته بمقدار خمسمائة مرة ، ولو أنه أقل منه ذوباناً في الماء . ولقد أمكن الحصول على أحد أملاح السكارين ، سريع الذوبان في الماء ، وإن كان أقل نوعاً ما في حلاوته عن السكارين ، ووجد أنه أكثر حلاوة من السكر بمقدار أربعمائة مرة . ويتميز السكارين عن السكر بأنه يحتوي على عنصر الكبريت الذي بواسطته يسهل التمييز بين السكر والسكارين في محاليلهما .

ومن المؤلم حقاً أن تكون للسكارين هذه الحلاوة الشديدة ، ولا تكون له بجانب هذا أدنى فائدة للجسم . ولقد اعتبرت هذه الملحة قاضية وجهت إلى السكارين ، ولولا هذا العيب لكان للسكارين الآن شأن آخر . فالسكارين لا يفيد الجسم في شيء ، فهو غير قادر بتاتاً على تزويد الجسم بالطاقة الحرارية التي تزودها به السكر نفسه ، ولا في استطاعته أن يبني شيئاً من أنسجة الجسم التالفة ؟ فلذا كان استعمال السكارين شيئاً غير مرغوب فيه لعدم فائدته للجسم .

كثيراً ما يعاني مرضى البول السكري تعباً في استعمال المواد السكرية والنشوية ، وكثيراً ما ينصح الأطباء هؤلاء المرضى بتقليل كمية المواد السكرية والنشوية إلى حد ضئيل فلا يتناول المريض منها إلا بقدر ما يحدده الطبيب ، وكثيراً ما يحز هذا في نفوسهم وخصوصاً أولئك المعتادين على تناول المواد الحلوة ، فيجد هؤلاء المرضى عزاءهم في السكارين ؟ ففي استطاعة الشخص أن يحلي فنجاناً كبيراً من الشاي بقرص صغير من السكارين يبلغ حجمه نصف حجم الحمصة ، وبهذا يستطيع المريض بالسكر أن يرضي رغبته وفي نفس الوقت لا يحدث السكارين في جسمه المتاعب التي يحدثها السكر نفسه ، وإن كان جسمه لم يستفد من السكارين شيئاً . وليس معنى هذا أن يتناول المريض بالسكر مقادير كبيرة منه ، ولكن يجب دائماً أن يكون استعماله ومقاديره مما يحدده الطبيب المعالج ضماناً لحسن سير العلاج » .

ولما للسكارين من حلاوة بالغة ، فقد لجأ إليه كثير من أصحاب محال الحلوى والمشروبات ، فاستعملوه بدلا من السكر ، خصوصاً أثناء أزمة السكر خلال الحرب . فكان الشعب يتناول هذه الحلوى فيجدها لا تختلف عن مثيلاتها المصنوعة من السكر في شيء ، وإن كانت القيمة الغذائية قد نقصت نقصاً ملحوظاً ، لأن السكر والمواد النشوية عموماً إحدى الدعامات التي يبنى عليها الغذاء الصحي السليم . ولكن وزارة الصحة الساهرة على صحة الشعب لا تترك محلا من هذه المحلات بدون أخذ عينات منها لتحليلها في معاملها للتأكد من أن أصحاب هذه المحال يستعملون السكر حقيقة . ومن السهل على الكيميائي في أي معمل أن يفرق بين السكارين وبين السكر في أي غذاء كان .

يباع السكارين في مخازن الأدوية والصيدليات لأي فرد ، في علب صغيرة ، كل علبة بها مائة حبة صغيرة من السكارين ، وهذه الحبوب لا تتعدى الواحدة منها حجم نصف الحمصة . وتباع بسعر تافه ضئيل لا يتجاوز قروشاً معدودة .

هذه لمحة عن إحدى المركبات الكيميائية التي بلغت في الحلاوة مبلغاً كبيراً ، ولكن شاءت الأقدار أن تذهب سدى .

سيد خليل شهاب



اللحيـــة وتاريخهـــا

للأستاذ مبارك إبراهيم

أولئك الذين لا يحبون اللحى في عمومها ، أو لحية من اللحى في حالة من حالات الخصوص ، قلما يترددون في إعلان سخطهم .

والمعروف عن أصحاب الأعمال أنه إذا جاءهم ملتح يطلب عملاً أشاروا إشارة يفهمها اللبيب أن إزالة اللحية لها أثرها في الحصول على العمل المرجو ، ثم في زيادة الأجر بعد حين .

ويحكى أن أسقف «كليرمون» ، الذى أسس كلية كليرمون للجزويت ، كان صاحب أجمل لحيـة في فرنسا .

ولذلك فقد اجتمع كهنة الكنيسة في هيئة مجمع عام ، وأعلنوا فيما بينهم أن لحية الأسقف قد بلغت من الجمال حداً لا يليق بأسقف من أساقفة الكنيسة ، ثم أجمعوا أمرهم على إزالة تلك اللحية ! وتربصوا له حتى جاء إلى الكنيسة فأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، وقد حمل هذا الموسى ، وأمسك هذا بالمقص ، وأمسك واحد بالصابون ، وأمسك آخر بالماء الساخن .

وما أن رأى الأسقف أولئك الحلاقين المزعومين حتى ولى منهم فراراً ، واعتصم بقصره في «Beau Regard» حيث مات بعد مرض قصير لحقه من أثر ما أصابه من غيظ وحنق على أولئك الذين حاولوا إلحاق الأذى بلحيته .

وفي روسيا ، وفي حكم بطرس الأكبر ، كان أصحاب اللحى في زمرة غير المرضى عنهم ، بل كانت تفرض على لحاهم الضرائب والمكوس .

وفي عام ١٧٠٥ أصدر بطرس الأكبر مرسوماً يفرض إتاوات على اللحى تختلف انخفاضاً وارتفاعاً باختلاف أقدار أصحابها ، فالضريبة على لحية التاجر الكبير ترتفع إلى مائة روبل . أما لحية التاجر العادى فضريبتها ستون روبلا ، أما الفلاحون ، وأما خدم الكنيسة فلا يدفع الواحد منهم إلا ثلاثين روبلا .

وقد أعفيت بعض طبقات الفلاحين من دفع ضريبة اللحى ماداموا في قراهم ، وما داموا لا يطئون أرض المدن .

وبلغت الحرب التي شنها بطرس الأكبر على اللحى أشدها في عام ١٧٢٢ يوم طلب إلى مجلس الشيوخ أن يصدر قانوناً يوجب على كل موظف ملتح أن يرتدى ملابس الأجيال الخالية ، ومن يخالف عن ذلك يدفع غرامة مقدارها خمسون روبلا ، ومن كان منهم معسراً فعليه أن يعمل في السجون أياماً يوازى أجرها مبلغ الغرامة .

وقد أبيح لكل مرشد من المرشدين أن يأخذ بخناق كل ملتح ، وأن يسوقه إلى المحاكمة ، وعند ثبوت التهمة

والحكم في الدعوى يقبض الرشد نصف مبلغ الغرامة ، وكذلك يأخذ ملابس المحكوم عليه .

وكان أتباع النظام الديني القديم في روسيا يطلقون لحاهم تشبها برجال الدين ؛ ولما كان هؤلاء يقفون سداً منيعاً في وجه الإصلاحات التي كان يريدها بطرس الأكبر ، فقد كان يرى في كل ملتح خارجاً على الإصلاح الديني المنشود .

وفي أنجلترا ، وفي عهد الملكة اليصابات ، كانت اللحية مرغوباً فيها ، بل كانت تعتبر مكملة لرجولة الرجال .

ولذلك فقد كنت لا ترى رجلاً — مهما تكن منزلته — إلا ملتحياً . وكان شباب القوم يتبارون ويتنافسون في تجميل لحاهم وتزيينها ، كلون من ألوان الأناقة ، فكان منهم من يقشها بالنشا ، وكان منهم من يصبغها ؛ وكان لون الصبغة الحبيب إلى كل قلب هو اللون القرمزي .

وكانت اللحى يومئذ مختلفة الرسم والشكل ، فمنها التي تشبه المذراة في تشعبها ، ومنها ما تشبه ذيل العصفور ، ومنها ما تشبه المعول ، ومنها المقصوص ، ومنها المدبب .

أما لحية رجال الدين فكانت طويلة عريضة غزيرة .

وقد كتب كاتب من كتاب ذلك العصر يصف من أنواع اللحى لحية كانوا يسمونها لحية قابيل . وهي لحية نزرة الشعر ، لونها أحمر يميل إلى الصفرة ؛ وقد سميت كذلك لأن قابيل وكذلك يهوذا الأسخريوطي كانا يمثلان في الصور القديمة بمثل تلك اللحية .

وذكر ذلك الكاتب أيضاً اللحية التي أكل الفار أطرافها ، فخصلة هنا وخصلة هناك .

وكان الملتحون يحملون أمشاطاً لمشط لحاهم . وكان حاملوا اللحى التي تشبه المروحة يضعون لحاهم أثناء الليل في غشاء مبطن أنيق مليح التنسيق .

وفي رواية حلم ليلة صيف لشكسبير سأل سائل : بأية لحية يراد له أن يمثل دوره ، فما ترك له أن يختار عدّد صنوفاً منها وألواناً .

وفي روايات شكسبير إشارات كثيرة إلى اللحى ؛ فقد جاء في إحداها على لسان أحد شخوص الرواية قوله : إن من اللحى ما تقابل بالسخرية والاستهزاء ، ومنها ما تكون أداة للقسم ، فيقال : وحق لحيتي لأفعلن كذا ...

وفي رواية « مكبث » يجد القارئ إشارة إلى الاعتقاد الذي كان سائداً منذ قرون ، وهو أن المرأة الملتحية إنما هي إحدى الساحرات ، فيقول « بانكو » عند ما التقى بالساحرات الثلاث : أنتن نسوة ، ما في ذلك شك ، ولكن يمنعني عن التصديق أنكن ملتحيات !.

ولقد اختلفت أقوال القائلين في اللحى مدحاً وذماً ؛ فالألمان القدماء يقولون : « لن تجد حسن إدراك الأمور إلا عند ذوي اللحى » . والإنجليز القدامى ، إنجليز القرن السابع عشر يقولون : « لم تكن اللحية يوماً دليلاً على رجاحة العقل » .

وفي الحضارات القديمة ذاقت اللحى ألواناً من كؤوس النحس والسعد . وقد أتى على الإنسان حين من الدهر كان يعاقب إذا التحى ، كما أتى عليه حين من الدهر كان يعذل ويؤنب إذا بقي أمرد ولم تنبت لحيته .

وفي مصر الفراعنة كانت مكانة الرجل في المجتمع تعرف بشكل لحيته وطولها ، فملاك الأرض والتجار والعلية من القوم عامة كانت لحاهم تبلغ البوصتين طولاً .

أما الفراعنة العظام فكانت لحاهم يتراوح طولها بين الأربع والست بوصات .

ويبدو أن اللحى كلها كانت لحى مستعارة ، وأنها كانت تصنع من خصل من الشعر تمسكها أربطة تلف حول الأذنين .

وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد كانت « الملكة حتشبسوت » تلبس لحية مستعارة ، وتتزيا بزي الرجال إذا اجتمع الحفل ، وذلك لتخفي أنها أنثى ، ولتستبقي في يدها كل سلطان الفراعنة .

وفي التوراة وصف للحية كان صاحبها يبدع في

تشبيهها ، وكان يذرّ عليها ذروراً مشوباً بالتبر المسحوق .

وكان من عادة القدماء من الإغريق والأشوريين ومن بعث إليهم من أجناس أخرى أن يجعلوا لحاهم فى شكل تجاعيد منسقة .

وقيل إن داود عليه السلام قد أرسل رسله مرة إلى ملك من الملوك فى بعثة سلمية ، فما كان من هذا الملك إلا أن حلق للرسل نصف لحاهم ، فلما علم داود بهذا أمر رسله أن يبقوا حيث هم حتى تطول لحاهم مرة أخرى .

وقد أفل نجم اللحى ببزوغ نجم الإسكندر الذى كان يأمر جنوده بأن يحلقوا لحاهم حتى لا يستطيع عدوهم أن يمسكهم منها .

وفى روما بدأت حلاقة اللحى فى عهد سيبيو أفريكانوس القائد الرومانى المعروف بسيبيو الأكبر (٢٣٧ — ١٨٣ ق . م) وكان هذا القائد يحلق ذقنه يومياً .

وكان شباب الرومان يؤرخون دور الرجولة عندهم باليوم الذى يحلقون فيه لحاهم لأول مرة ؛ وكانوا يحتفلون بهذا اليوم ويتقبلون تهانى المهنئين .

وأول من حبب للناس إطالة اللحى هو الإمبراطور « هادريان » ، وذلك لكى يخفى ندوب جروح كان قد أصيب بها . وتبعه فى هذا الإمبراطوران « أنطونينوس بيوس » و « مارك أوريليوس » وكان كلاهما فيلسوفاً .

وأصبحت اللحية آية التوقير وعلامة الاحترام عند الأباطرة اللاحقين . فلما جاء السلفيون أصبحوا يوقرون كل ذى لحية . ثم جاء الملوك فاستنوا لرجال بطانتهم أن يكونوا ملتحين .

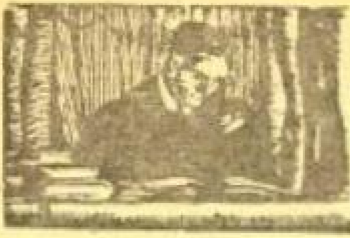
أما هنرى الثامن ملك انجلترا فقد كنت تراه تارة ملتحياً ، وتارة غير ملتح ، ولكنه فى عام ١٥٣٥ أمر رجال حاشيته بألا يزيلوا لحاهم .

وكان « هنرى الثامن » قد أقسم قبل ذلك ألا يزيل لحيته حتى يلتقى وفرنسوا الأول فى ساحة الوغى ، وقد أقسم فرنسوا مثل هذا القسم وبر بقسمه ، ولكن هنرى لم يبر بوعده .

ويعتذر أحد المؤرخين عن هنرى الثامن بأنه قد فعل ذلك إرضاء لمليكته حينذاك ، وقد كانت تكره « اللحية الكثيفة » كرهاً شديداً ، وتخالفها فى ذلك ملكة سابقة هى زوجة لويس السابع ملك فرنسا ، فقد أحست بالضيق والحرج يوم أزال مليكها لحيته .

وقد تعاور اللحى بعد ذلك السعد والنحس ، فكانت تبقى حيناً ، وكانت تزول أحياناً ، وكانت حيناً تقصر ، وكانت حيناً تطول ...

(عن الإنجليزية)　　　　مبارك إبراهيم



نقد الكتب

« بغـــــداد »

لابن طيفور أبي الفضل أحمد بن طاهر الكاتب المروزي

نشر وتحقيق « مكتب نشر الثقافة الإسلامية »

للأستاذ سعد محمد حسن

لا نكاد مع الأسف نعثر على ترجمة شافية تعرفنا بابن طيفور ، إذا استثنينا تلك السطور المعدودة التي دوّنها البغدادي وياقوت وابن النديم . ولقد أهمله ابن خلكان فلم يسلكه في وفياته ، وسار في غباره ابن شاكر الكتبي فأسقطه من فواته ...!

ومهما يكن من شيء فقد ولد صاحبنا أبو الفضل أحمد ابن طاهر الكاتب بمدينة بغداد يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر صفر عام ٢٠٤ هـ — ٨١٩ م — وهو العام الذي دخل فيه المأمون مدينة المنصور — وبها توفي ودفن بمقابر « باب الشام » ليلة الأربعاء لأربع بقين من جمادى الأولى عام ٢٨٠ هـ — ٨٩٣ م .

وقد انحدر أبو الفضل من أسرة فارسية خراسانية من « مرو الروز » . و « طيفور » لقب أبيه ، فاطمع بذلك ، فلست أميل إلى اشتقاق هذه الكلمة من أصول عربية ، وإنما أرى كما رأى فريق من الباحثين أنها مأخوذة من الكلمة الفارسية « تاج پسر » ومعناها ابن التاج ، ولعل في ذلك ما يشير إلى أصول ملكية لأسرة أبي الفضل الفارسية هذه ، وأكبر الظن أنها كانت تتمتع قبل الإسلام بقسط كبير من الفضل والسيادة ، أما بعد الإسلام فقد عُرفت هذه الأسرة بمناصرة البيت العباسي والإخلاص له ، حتى لقد عُرف أفرادها باسم « أبناء الدولة » ، كما يحدثنا ابن النديم .

وهكذا وُلد أبو الفضل من « أبناء الدولة » ، يحمل معه في عقله العربي حضارة فارسية عريقة ، انحدرت إليه من أسلافه ، وكان لها — في أكبر الظن — الفضل الأول فيما خلف من آثار فكرية تمتاز بالعمق والدقة ، نافت خمسة وأربعين مؤلفاً أصابها مع الأسف ما أصاب التراث الإسلامي كله من العدوان أو الفقدان ...!

ومن خير ما ترك ابن طيفور كتابه « المنثور والمنظوم » الذي يقع في ثلاثة عشر مجلداً ... لم يبق منها جميعاً غير المجلدين الحادي عشر والثاني عشر ، وهما مخطوطان بالمتحف البريطاني ، وقد طبع أولهما بالقاهرة عام ١٣٢٦ هـ بعنوان « بلاغة النساء وطرائف كلامهن » .

* * *

ومن أمتع ما خلفه ابن طاهر كتابه عن « بغداد » الذي نحدثك عنه اليوم ، وهو أيضاً كسابقه لم يصل إلينا كاملاً ، إذ لم يبق منه إلا المجلد السادس فحسب ، وهو مخطوط فريد بالمتحف البريطاني ؛ وقد قام العلامة الألماني « هنس كلر Hanas Keller » بطبع أصله العربي مع ترجمة ألمانية ، طبعة حجر بمدينة ليبسك عام ١٩٠٨ م .

ثم جاء «مكتب نشر الثقافة الإسلامية» لصاحبه البحاثة الأستاذ عزت العطار الحسيني، فأعاد لنا وللباحثين طبع الكتاب بالحروف؟ يقول الأستاذ العطار:

«أما هذا الكتاب فهو من مؤلفات أبي الفضل أحمد ابن أبي طاهر طيفور الكاتب المروزي، الذي عُرف في جميع الأوساط العلمية بأنه إمام من أئمة الأدب وعلم من أعلام الكتّاب، ومن أقدم من عُرف بتدوين التاريخ، بل هو أول من دوّن تاريخ مدينة السلام، وقد أخذ عنه ابن جرير الطبري وأبو الفرج الأصبهاني وغيرهما من المؤرخين والكتاب. وقد سارت بحديث ما خلفه من الآثار العلمية والنفائس الأدبية والتاريخية الركبان، فاهتم علماء الشرق والغرب بالبحث عنها فلم يعثروا إلا على هذه الضالة الفذة من بين كثير مما عبثت به الأيدي وطوحت به الأيام من مؤلفات هذا الكاتب الهمام. ولهذا رأيت من أوجب الواجبات تزويد الخزانة العربية بنشر هذا الكتاب النفيس؟ وذلك لقدم تأليفه وكثرة فائدته وعظيم أهميته... » الخ.

* * *

والحق أن الكتاب أول وأقدم وثيقة تؤرخ لمدينة السلام في عصر المأمون، من عام ٢٠٤ هـ — ٨١٩ م، إلى عام ٢١٨ هـ — ٨٣٣ م، وحسبك أن الطبري شيخ المؤرخين قد أخذ عنه واعتمد عليه، كما أخذ عنه أبو الفرج صاحب الأغاني. وأكبر الظن أن ابن طيفور كان معاصراً البلاذري المتوفى عام ٢٧٩ هـ ولابن واضح اليعقوبي المتوفى بعد عام ٢٩٢ هـ وإن كانت المصادر التي تحت أيدينا لم تحدثنا بشيء عن ذلك.

ولست أشك في أن الخطيب البغدادي، أبا بكر أحمد ابن علي المتوفى عام ٤٦٣ هـ، قد انتفع كثيراً بكتاب ابن طيفور هذا حينما وضع لنا موسوعته الكبرى «تاريخ بغداد» فهو يترجم له بقوله:

«أحمد بن أبي طاهر أبو الفضل الكاتب، واسم أبي طاهر طيفور، وهو مروروذي الأصل، كان أحد البلغاء الشعراء الرواة، ومن أهل الفهم المذكورين بالعلم، وله كتاب بغداد المصنف في أخبار الخلفاء وأيامهم»

ولكننا نحن نعتب على البغدادي كثيراً إذ لم يترجم لأبي الفضل ترجمة تليق بمكانته كأستاذ له، وكشخصية أدبية ممتازة لها خطرها.

والجزء الذي بين أيدينا من كتاب ابن طاهر هو من عمله دون ريب، أما بقية الكتاب — وهي مفقودة — فقد اشترك معه فيها ابنه عبيد الله، الذي يحدثنا عنه ابن النديم في الفهرست فيقول:

«وسلك طريقة أبيه في التصنيف والتأليف، وروايته أقل من رواية أبيه، فأما الدراية والتأليف فكان أحمد (ابن طيفور) أحذق وأمهر. ولابنه من الكتب، مازاده على كتاب أبيه في أخبار بغداد، فإن أباه عمل إلى آخر أيام المهتدي، وزاد ابنه أخبار المعتمد وأخبار المعتضد وأخبار المكتفي وأخبار المقتدر ولم يتمه».

لابن طاهر في كتابه هذا أسلوب خاص وطريقة في التأريخ طريفة تلفت نظر الباحثين، حدثنا عنها الأستاذ الكبير والشيخ الجليل زاهد الكوثري الذي أشرف على طبع الكتاب فقال:

«وطريقة المؤلف في تسجيل الأنباء مدعاة للاطمئنان بها؛ لأنه يذكر أولاً عدةً ممن عُنوا بتدوين أنباء ذلك الزمن، ويقول عند ذكره للأنباء المتعاقبة — إذا اتفقوا على حكاية نبأ منها — قالوا جميعاً: كيت وكيت، وعند انفراد أحدهم بنبأ يقول: حدثني فلان، فتكون قيمة هذا النبأ بحسب هذا المنفرد، وهذه طريقة بديعة جداً تسهل مهمة الباحث المستقصي».

ولا يسعنا في ختام حديثنا إلا أن نرحب كثيراً بكتاب ابن طاهر، وأن نشكر الشيخ الكوثري والسيد الحسيني على عنايتهما في نشر هذه الوثيقة التاريخية الخطيرة ذات القيمة العلمية الكبيرة لشيخ المؤرخين ابن طيفور، الذي كان أديباً ممتازاً وشاعراً رقيقاً؟ وحسبك من شعره قوله:

حسب الفتى أن يكون ذا حسب
من نفسه ليس حسبُه حسبُه
ليس الذي يبتدي به نسبٌ
مثل الذي ينتهي به نسبُه

سعد محمد حسن



الجواهر المزيفة

للقصصى الفرنسى جى دى موباسان

ترجمة الأديب حسين أحمد أمين

قابلها لأول مرة فى منزل رئيسه ، وسرعان ما وقع فى حبها .

فأما هى فأبوها طبيب ريفى مات منذ بضعة أشهر ، فجاءت مع أمها إلى باريس تبحثان عن الزوج اللائق .. وكان مظهرهما ينم عن الفقر والأمانة والبعد عن التكلف والتصنع .

كانت البنت مثال الفتاة الطاهرة النقية ، وهى إلى ذلك ذات جمال ملائكى وتواضع جم وابتسامة تشف عن روح جميلة صافية . فكان كل من يراها يقول : « ما أسعد الرجل الذى يفوز بحبها .. إنها ستكون له خير زوجة » .

لذلك تقدم مسيو لانتان إليها وعرض عليها الزواج قائلاً : إن مرتبه — رغم ضآلته — كفيل بأن يحقق لها حياة زوجية هنيئة .. فقبلت الفتاة ..

وعاش معها سعيداً للغاية ، وكانت تدبر أمور البيت بحذق وتدبير حتى لكأنهما يعيشان عيشة فخمة . وكانت تسبغ على زوجها الحنان والحب والرعاية حتى صار حبه لها بعد ست سنوات أضعاف حبه فى الشهر الأول للزواج .

ولكنه كان يعتب عليها أمرين : حبها للمسرح ، وشغفها بالجواهر المزيفة . وكانت صديقاتها — وأغلبهن من زوجات الضباط — يدعونها إلى مشاهدة التمثيليات معهن .. فكان زوجها يصحبها فى الغالب إلى المسرح رغم كراهيته الشديدة للتمثيل .

وبعد فترة من الزمن رجاها زوجها أن تعفيه من التعب معها لمشاهدة المسرحيات ، وأن تصحب إحدى صديقاتها بدلاً عنه .. فكان كدرها عظيماً فى بادئ الأمر ، ولكنها قبلت أمام إلحاح زوجها الشديد .

أما عن شغفها بالجواهر الزجاجية ، فقد كانت — رغم بساطتها وبعدها عن التكلف — تشترى من حين لآخر أقراطاً وعقوداً وأساور مزيفة لتتزين بها ؛ ولكن هذه الجوهرات كانت لجمالها ودقة صنعها أشبه بالجواهر الحقيقية الثمينة .

وفى إحدى الأمسيات عادت من الأوبرا وهى تشعر بالبرد يسرى فى جسمها .. وفى اليوم التالى بدأت تسعل ، وبعد ثمانية أيام ماتت بسبب الالتهاب الرئوى ..

وكان حزن مسيو لانتان عليها شديداً للغاية ، فابيض شعره كله ولما يمض شهر على وفاتها .. وكان يبكى باستمرار بينما كان عقله لا يفكر إلا فى ابتساماتها وضحكاتها وجمالها ..

ومرت الأيام ، ولكن جرحه لم يلتئم ، وحزنه لم يقل ، وكان فى كثير من الأحيان أثناء عمله — بينما يتكلم زملاؤه فى السياسة — يغلب عليه الألم فتفيض عيناه

بالدموع ويستسلم لنوبات عنيفة من البكاء .. وقد ظلت غرفتها كما هي ، وكان يدخلها كل يوم فيفكر في كنزه الضائع وبهجته المفقودة .

وسرعان ما اضطربت حياته .. فبينما كان دخله يكفيه هو وزوجته بفضل مهارتها في إدارة المنزل أصبح لا يكفيه هو وحده .. وصار يعجب كيف كانت زوجته تشترى أفخر المشروبات وأجمل الأثاث من هذا الدخل الصغير المحدود .

وبدأ يستدين وإذا بأصبح فقيراً بعد مدة .. فصمم على أن يبيع مجوهرات زوجته الزائفة . فأخذ عقدها المفضل وقال في نفسه : لا بد أنه يساوى ستة أو سبعة فرنكات ، فهو ولو أنه مزيف إلا أن صنعه دقيق وشكله جميل .

ووضع العقد في جيبه ودخل أول متجر للجواهر قابله في طريقه .. وكان خجلاً للغاية ، إذ يعرض فقره بهذه الصورة فيبيع الجوهرات الزائفة .

وقال للتاجر : سيدى .. أود أن أعرف كم يساوى هذا العقد ؟ .

فأخذ التاجر العقد وفحصه ، ثم نادى كاتبه وبدآ يدليان بعض الملاحظات عليه بصوت خافت ، ثم وضعه على المنضدة وجعل يتأمله ليصدر حكمه فيه .

تضايق المسيو لاتان لكل هذا ، وكان على وشك أن يصيح :

حسناً ! إني أعلم جيداً أن هذا العقد لا يساوى شيئاً ..

غير أن التاجر لم يمهله إذ قال :

سيدى .. إن هذا العقد يساوى ما بين اثنى عشر ألفاً وخمسة عشر ألفاً من الفرنكات .. ولكنى لا أستطيع أن أشتريه إلا إذا أخبرتني ممن اشتريته .

فتح مسيو لاتان عينيه وفغر فاه من فرط الدهشة دون أن يفهم ما يقوله التاجر .. وقال متلعثماً : أحقاً ؟ .. أمتأكد أنت ؟ .

فقال التاجر بامتعاض :

لك أن تبحث فترى إن كان هناك من يعرض عليك ثمناً أكبر . ولكنى أرى أن قدره لا يزيد على خمسة عشر ألفاً .. فإذا لم تجد عرضاً أكبر فارجع إلىّ .

مد مسيو لاتان يده وأخذ العقد ، ثم غادر المتجر وهو في حيرة من أمره والدهشة غالبة عليه .

وفجأة بدأ يضحك وقال في نفسه :

يا للغبى .. إن هذا التاجر لا يميز الجواهر المزيفة من الحقيقية .

ودخل متجراً آخر في شارع لابيه .. وما أن عرضه على التاجر حتى صاح الأخير :

آه .. إنى أعرفه جيداً .. لقد بعته أنا بنفسى ..

فقلق مسيو لاتان وقال : كم يساوى ؟.

فقال التاجر :

لقد بعته بعشرين ألف فرنك ، وإنى على استعداد أن آخذه منك بثمانية عشر ألفاً إذا أخبرتني كيف جاء العقد في حوزتك ..

وظل مسيو لاتان صامتاً وقد عقلت الدهشة لسانه وأخيراً قال :

ولكن .. افحص جيداً .. لقد ظننته مزيفاً ..

فسأله التاجر : ما اسمك يا سيدى ؟.

فأجاب : لاتان .. موظف في وزارة الداخلية .. ومسكنى في شارع دى مارتير رقم ١٦ .

ونظر التاجر في سجلاته ثم قال :

لقد بيع هذا العقد في ٢٠ يوليه سنة ١٨٧٦ لمدام لاتان . شارع دى مارتير رقم ١٦ .

وظل كل من الاثنين ينظر إلى الآخر .. مسيو لاتان مشدوهاً لا يستطيع الكلام .. والتاجر يظن أنه لص .. وأخيراً تكلم التاجر :

هل تستطيع أن تترك لى هذا العقد مدة أربع وعشرين ساعة ؟ سأعطيك إيصالاً ..

فأجاب مسيو لاتان بسرعة : طبعاً ..

وأخذ الإيصال وغادر المتجر ..

وظل يهيم في الشوارع دون وجهة وعقله مضطرب .. وحاول أن يفهم فلم يستطع .. إن زوجته لا تستطيع أن تشتري مثل هذه الحلية .. ربما كانت هدية .. هدية .. هدية من؟ ممن؟ ولم أهديت إليها؟.

وفجأة وقف في وسط الشارع .. ودخل الشك المفطع عقله .. هي؟ إذاً .. فباقي الجوهرات هدايا أيضاً .. وبدأت الأرض تهتز من تحته .. وخيل إليه أن الشجر يتساقط عليه، فقد يده ووقع على الأرض مغشياً عليه .

وأفاق في صيدلية حمله إليها المارون .. ثم نقل إلى منزله وأقفل على نفسه الحجرة ، وظل يبكي حتى جاء الليل فألقى بنفسه على السرير ، وقد حل به التعب وقضى ليلة مؤلمة ..

ونهض في الصباح فوجد نفسه غير قادر على الذهاب إلى مكتبه بالوزارة ، فأرسل خطاباً إلى رئيسه يعتذر .. وتذكر أن عليه أن يمر بالتاجر ؛ فلبس ثيابه وخرج ..

ونظر المسيو لانتان إلى الرجال الأغنياء المتسكعين في الشوارع فقال : إن الغني بلا ريب سعيد .. فبالمال تتبدد الهموم .. وفي استطاعة الغني أن يذهب حيث يشاء .. وبإمكانه أن يسافر فيبلغ أحزانه .. آه لو كنت غنياً !..

وشعر بالجوع ووضع يده في جيبه فلم يجد شيئاً .. وتذكر العقد .. ثمانية عشر ألفاً .. ثمانية عشر ألفاً .. يا له من مبلغ جسيم .

ووصل شارع لاپيه ، وتردد في الدخول إلى المتجر لما به من خجل .. ولكنه جائع وليس معه نقود .. وإذا به يجري ويعبر الطريق ثم يدخل المتجر ..

وتقدم التاجر وقدم إليه كرسياً بأدب ، ثم قال :

لقد قمت ببعض التحريات أمس ، وأنا على استعداد أن أشتري منك العقد إن كنت تريد بيعه ..

فقال مسيو لانتان متلعثماً .. بالطبع ياسيدي ..

ففتح التاجر درجاً وأخرج ثمانية عشر ألفاً أعطاها المسيو لانتان فوقع المسيو لانتان إيصالاً ووضع النقود في جيبه بيد مرتعشة .

واستدار للخروج ، ولكنه عاد يقول وقد أخفض وجهه :

إن عندي .. عندي مجوهرات أخرى من نفس المصدر .. هل تريد أن تشتريها أيضاً ؟.

فانحنى التاجر وقال : بالطبع ياسيدي ..

فقال مسيو لانتان : سأحضرها إليك ..

وخرج وعاد بعد ساعة ومعه الجواهر .

واشترى التاجر الأقراط اللؤلؤية بعشرين ألفاً من الفرنكات ، واشترى الأساور بخمسة وثلاثين ألفاً ، واشترى الخواتم بستة عشر ألفاً ، وبعض الأحجار الزمردية بأربعة عشر ألفاً ، وسلسلة ذهبية بأربعين ألفاً . فكان المجموع الكلي مائة وثلاثة وأربعين ألفاً من الفرنكات .

وتغدى المسيو لانتان في نفس اليوم في مطعم فوازان وشرب نبيذاً بعشرين فرنكاً ، ثم استأجر عربة ليتنزه فيها وهو ينظر إلى الناس في احتقار وكبرياء .. وظل يردد :

إني أيضاً غني .. إني أساوي مائتي ألف فرنك ..

وتذكر وظيفته ؛ فذهب إلى مكتبه وقال للرئيس بمرح :

إني أرفع إليكم استقالتي .. فقد ورثت حالاً ثلاثمائة ألف فرنك ..

وصافح جميع زملائه الموظفين ، وذكر لهم بعض مشروعاته في المستقبل .. ثم خرج ليتعشى في المكافيه أنجليه .

وجلس أثناء طعامه بين اثنين من الطبقة الأرستوقراطية وقال لأحدهما إنه ورث حديثاً أربعمائة ألف فرنك ..

ولأول مرة في حياته لم يسأم من مشاهدة المسرحيات ، فقد قضى ليله بطوله في المسارح ..!

وبعد ستة أشهر تزوج مرة أخرى ، وكانت زوجته الجديدة امرأة فاضلة صالحة جداً ذات مزاج حاد ..

وقد جعلت هذه المرأة رجلاً شقياً .

صبحي أحمد أبيض



نداء الجسد

قلتُ يوماً لنفسى المحزونهْ
أنت يا نفسُ — دائماً — محزونهْ
عشتِ للحب طاهراً وتقياً
لم تذوقى طعومه . . . وفنونه
فلنجربْ ! فقد سئمت حياةً
ليس فيها خشونة أو ليونة
ذات جرسٍ موحدٍ ورتيبٍ
كيف يا نفسُ لم تملّى رتينه
ولنغامرْ ! ففى الحياة متاعٌ
وجمالٌ غير الذى تألفينه
سوف أمضى مع الجموع بوادٍ
لا أبالى سهوله أو حزونه
ثم ألقى بين الدلاء بدلوى
فعساه يشفى الجراح الدفينة

● ● ●

وانطلقنا وبين جنبىّ نارٌ
تتلظى وفى خطاى . . رعونة
كأسيرٍ جارت عليه الليالى
وأطالتْ ظلامه وشجونه
ثم فكوا إساره فتولى
ينشد النور فى رحاب المدينة
ها هنا يحمد الصباح سراه
ويلاقى هنا الحزينُ خدينه
ها هنا الدفء والحرارة والنـ
ـور وجلى الفاتن المكنونة
ها هنا الروضةُ التى جُنّ شوقى
بين أطيافها الحفاف الضنينة
يا وقارى كفاك حطمتَ عودى
فى ربيعى وجنّ فى المرهونة
يا وقارى لقد هصرت شبابى
فى عنادٍ وقسوةٍ وخشونة
هو فجر الحياة إن ضاع منى
ضاع عمرى ، وما قضيت ديونه
ما جوابى غداً إذا سألتنى
عن شبابى — شيخوختى المسكينة ؟

● ● ●

ومضينا . . . وفى يدىّ جمالٌ
وشبابٌ ، وذكرياتٌ كثينة
والظلالُ الحمراء تشعل ناراً
فى كيانى ورغبةً مجنونة
والشفاه التى تلاقتْ ، أزاحتْ
عن خيالى قيوده وظنونه
والرضابُ الذى يُعَلُّ فيروى
أنا وحدى الذى كشفتُ معينه
والبريقُ الذى يشع سهاماً
ما نباتٍ كأنها مسنونة
من عيون زرقاء تسكبُ نوراً
ورجاء فى كل نفسٍ حزينة
حرتُ من حسنه فلم أدر ماذا
أتمنى أثغره أم عيونه ؟
وجفانى البيانُ حين تثنّى
فى دلالٍ وخفةٍ ومرونة
أسبلَ الحلوُ جفنه فدعونى
آن أن يطفئ الفؤادُ حنينه

● ● ●

وانتحينا معاً . . . ولكنّ نفسى
أيقظتنى فى رقةٍ وسكينة
قالت : ارجع . فقلتُ : كيف ؟ فقالت :
« أنت نبع » من المعانى الثمينة
أنت يا عاشق الجمال حَرِىٌّ
أن تصونَ الجمالَ لا أن تهينه
أنت روحٌ . فقلت : عفواً
وهذا هو عهدى وأنى لن أخونه

علي بيرم

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة
٩ شارع الكرداسى ، عابدين ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٨٤ — الاثنين ١٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٩ — ٦ من مارس سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

الأسس القوميـــــة

للدول الأسيوية الجديدة

للأستاذ على رفاعة الأنصارى

رأينا فى بحر الثلاث السنوات الماضية ظاهرة جديدة فى التاريخ الأسيوى ، هى نشأة عدة قوميات جديدة كالهند والباكستان وإسرائيل وأندونيسيا . كما أتمت بعض قوميات أخرى نموها واستكملت استقلالها ، مثل سوريا ولبنان وبورما . ويحق لنا أن نقف قليلاً بهذه المناسبة لنرى الأسس التى قامت عليها هذه القوميات الجديدة بعد الحرب العالمية الثانية .

يعد القرن التاسع عشر بحق عصر انتشار الروح القومية فى العالم الغربى ؛ فقد تمت إبانه روح الوطنية والاستقلال عقب الحروب النابوليونية ابتداء من عام ١٨٤٥ واستمرت طواله حتى انتصرت نهائياً فى أعقاب الحرب العظمى الأولى فى عام ١٩١٩ ، فشاهد القرن التاسع عشر استقلال بلجيكا واليونان ودول البلقان ودول أمريكا اللاتينية واتحاد ألمانيا ووحدة إيطاليا ، ثم تمزقت إمبراطورية النمسا والمجر ، ونشأت على أنقاضها دول أوربا الوسطى . كانت الروح القومية فى تلك الأيام هى القوة الدافعة والمسئول الأول عن أحداث التاريخ الغربى ، لها أكبر الأثر فى حياة الغربيين ، بل واحتلت المكانة التى كانت للدين من قبل فى تسيير أحداث التاريخ ، وسيطرت على عقول رجال السياسة والفكر والأدب والاقتصاد ، وكانت النبع الذى فاضت منه الثورات فى حماسها حتى أصبحت حركة شاملة أشبه بالحركات التاريخية الكبرى التى مر بها العالم ، من أمثال حركة انتشار الإسلام أو حركة الإصلاح الدينى ، وارتبطت بظاهرات سياسية أخرى كانتشار الديمقراطية ضد الاستبداد ومكافحة الحكم الأوتوقراطى أيا كان مظهره ، كما اقترنت بنمو الأفكار الاشتراكية والتوسع الاستعمارى .

ثم انتقلت الروح القومية فى مطلع هذا القرن إلى بلاد آسيا وأفريقيا ، وآسيا وحدها كما نعلم تضم نحو نصف سكان العالم ، وقد جرت فيهم الروح القومية مجرى العقيدة فى نفوس أهلها ، واتخذ سكان الدول الجديدة فكرتها على أنها فلسفتهم فى الحياة وفيها العلاج لجميع مشاكلهم .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نتتبع تطور معنى كلمة « أمة » فى التاريخ الأوربى الحديث ؛ فمنذ مائتى عام كتب الفيلسوف الإنجليزى هيوم بحثاً عن الطابع « القومى » أو الوطنى ، وتتلخص فكرته فى أنه لن يتيسر لجماعة من الناس أن تجد لغة مشتركة فى مناقشاتها وأحاديثها ، ما لم يسد أفرادها تشابه

فى الأخلاق والعادات وما لم تتفق فيهم معايير الفضيلة والرذيلة ، وما لم تتوحد عندهم القيم الحيوية الأخرى ، وما لم تضمهم تحت لوائها حكومة واحدة حتى تهيئ لهم فرصة الاشتراك فى الدفاع عن الوطن والاشتراك فى نعمه وتحمل أرزائه . هذه العوامل مجتمعة تهيئ لأفراد الجماعة جواً مشتركا يعيشون فيه، وقد تضاف إليها وحدة اللغة فتتشكل طرق الحياة عندهم تشابهها وتجعل لهم طابعاً قومياً واحداً .

ولعل الفضل فى تحديد معنى القومية فى التاريخ الحديث يرجع إلى جان جاك روسو الذى رفض فكرة ذوبان الأمة فى صاحب السلطان ، وفرق بين الشعب والطبقة الحاكمة ، ثم أخذت فكرته تجد طريقها نحو التعبير الصحيح عند قادة الثورة الفرنسية ؛ فقد أكد الكتاب الذين مهدوا للثورة الفرنسية طريقها ، حق الإنسان فى اختيار نوع الحكومة التى يود أن يعيش فى ظلالها ونوع الوحدة السياسية التى يرغب فى الانتماء إليها ، وهكذا كان القرن التاسع عشر هو قرن القوميات فى أوربا ، حيث شعرت بقوميتها الجماعات المغلوبة على أمرها ، فاتحدت لتترجم هذا الشعور فتحيله حقيقة سياسية واقعة .

وأول الحقوق التى اعترف بها المفكرون للقومية هو حق الأمة فى لغتها الوطنية باعتبار أن اللغة هى أقوى الروابط بين المواطنين ، كما أكدوا حق الأمة فى فرض قوانينها الخاصة وحقها فى حياتها الفكرية الخاصة وحقها فى اتباع سياسة تجارية خاصة ؛ ويتوج هذه الحقوق جميعاً حق الشعب فى الدفاع عن مثله ضد كل استبداد أو تعسف يراد بها .

وعلى مر الزمن لم تعد الفكرة القومية محدودة بأوربا ، بل أضحت إعصاراً هائجاً يجتاح العالم كله .

قيل مثلاً إن وحدة السلالة هى الأساس الذى تقوم عليه القومية ، غير أن الرأى منعقد عند علماء الأجناس البشرية على أنه قل أن يوجد فى العالم الآن جنس نقى خالص ، وأن نقاوة الجنس هى أبعد ما تكون عن الواقع البشرى ، وأن كل الأمم على سطح الكرة الآن هى مزيج من أجناس مختلفة ؛ وكثيراً ما لجأت العناصر الوطنية فى كفاحها إلى ادعاء تسلسلها من سلالة نقية من الدم البشرى ، وأنها تختلف عن غيرها اختلافاً أساسياً فى تكوينها الجسمانى والعقلى والروحانى ، ولا تخفى الدوافع النفسية وغير النفسية التى تحفز إلى ادعاء مثل هذه الفتريات ؛ وأوضح الأدلة على عدم صحة هذا القول أن القوميتين الجبارتين اللتين بيديهما الآن مستقبل الحضارة العالمية أى الولايات المتحدة وروسيا السوفيتية — كلتاهما ليست شعباً واحداً ، بل هما بوتقتان انصهرت فيهما السلالات المختلفة ، وأن كلاً من الأمتين ليست وحدة جنسية بقدر ما يربط أفرادها أسلوب فكرى واحد ونظرة متفقة إلى الحياة ؛ فهناك إذاً فارق ثابت بين السلالة والأمة ، فالسلالة هى مجموعة من الصفات الجسمانية المشتركة . أما الأمة فهى حالة عقلية مشتركة .

هل تقوم الروح القومية إذاً على وحدة اللغة ؟ مما لا شك فيه أن الناس الذين يتكلمون لغة واحدة يشعرون بالقرابة والألفة ، وربما كانت اللغة المشتركة أحد العوامل أثراً فى تكوين القومية ، وكثيراً ما اتخذت اللغة الوطنية رمزاً للاستقلال ، وكثيراً ما تفرض اللغة فى الدول الحديثة فرضاً على جميع الأقليات فيها ، وكثيراً ما تنادى دولة بضم الجماعات التى تتكلم لغتها لتدخل فى نطاق حدودها ، ولكنا إذا علمنا أن أهل سويسرة يتكلمون ثلاث لغات مختلفة وأنهم لا يرضون عن قوميتهم بديلاً ، وأن هذه الحقيقة لم تضعف شعورهم القومى ، ولم تعمل على تفتيت وحدتهم ، أدركنا أن اختلاف اللغة قد لا يقف حجر عثرة فى سبيل تكوين قومية واحدة .

وقد صاحب نمو القوميات فى آسيا شعور عميق بأهمية اللغة الوطنية، خصوصاً وأن الكفاح كان موجهاً ضد الاستعمار الأوربى ، واللغة الرسمية فى معظم الأحوال هى إحدى اللغات الأوربية ؛ غير أن بعض الدول الناشئة واجهت صعوبة الاختيار فى أول الأمر ، فحارت بين لغاتها الوطنية المتعددة ولهجاتها المختلفة — كما هو الحال فى الهند مثلاً ، حتى إن نهرو نفسه اعتذر فى إحدى المناسبات عن اضطراره إلى التحدث باللغة الإنجليزية لأنه وجدها أسهل من اللغات الهندية فهماً عند جميع الهنود ؛ ومن المصاعب التى ووجهت عند تقسيم البنغال بين الهند والباكستان ليذهب الهندوس إلى

الهند والمسلمون إلى الباكستان ، أن القاطعة كلها وحدة لغوية واحدة .

والصين ميزة الكتابة الموحدة على الرغم من أن الصينيين يتكلمون لغات مختلفة ، وقد بذلت محاولات جبارة في العصور الحديثة لنشر لغة صينية واحدة هي لغة أهل بكين ، حتى إن الدكتور صن يات صن باعث الجمهورية الصينية خلط في أفكاره عن القومية الصينية بين وحدة الجنس ووحدة اللغة ووحدة الدين . فإن الذين يتكلمون لغة واحدة يكونون أمة واحدة وإن الذين يعبدون معبوداً واحداً يكونون جنساً واحداً ، بل كان يقول لو أن الأجناس الأجنبية تعلمت اللغة الصينية لتمكنت من البلاد واستصفت المجتمع الصيني .

ثم يأتي الدين في المرتبة التالية بعد الجنس واللغة في تكوين الأمة ، فإن اتفاق الديانة هو عنصر هام من عناصر القومية على الرغم من أن الاتجاه الحديث ينذر بضعف أثر الدين في تكوين القوميات ؛ غير أننا نرى في هذه الأيام مولد دولة الباكستان وبعث دولة إسرائيل معتمدتين على الأساس الديني أكثر من اعتمادها على أي أساس آخر . كذلك الأمر في اليابان ، فإن الديانة الشنتوية هي نوع من البوذية دخله تحوير أدى إلى تأليه الإمبراطور وتقديسه ، ومن ثم ألفت الأساطير التي تؤكد بأن الإمبراطور هو سليل إلهة الشمس ، وهكذا اختلط الدين بالسياسة لتحقيق غاية قومية ، واقترن بهذا نمو النزعة العسكرية للشعب الياباني وتمجيد الرسالة المقدسة التي تؤديها اليابان .

وأخيراً يلي هذه العناصر الثلاثة السابقة وهي الجنس واللغة والدين ، عنصر رابع لا يقل عنها أهمية ، وهو رقعة الوطن وضرورة امتلاك الشعب لرقعة من الأرض ، وكانت هذه الحقيقة موضع جدل في بعض الأحايين ، وكان المجادلون يستشهدون بمثل اليهود والغجر في العالم وكيف أن الشعبين احتفظا بقوميتهما على الرغم من تشردهما في بقاع العالم طراً .

ولا ننسى بهذه المناسبة أن الجاليات الأسيوية في الخارج لعبت دوراً هاماً في تطور الحركات القومية ، فقد ساعدت الجاليات الصينية بأموالها وجهودها في الثورة الصينية عام ١٩١١ ، كما ساعدت الجاليات الهندية المقيمة في بريطانيا والولايات المتحدة وجنوب إفريقيا الحركة الوطنية في الهند ، بل إن حركة العصيان المدني بدأت بين الهنود في جنوب إفريقيا ، وكانت المدرس الذي لقنه غاندي لمواطنيه في مقاومة الاستعمار والاستبداد .

كما أن الحركة القومية في الدول الأسيوية تدور حول شخصيات خاصة . وقد يكون بين هذه الشخصيات إمبراطور كما هو في اليابان ، أو زعيم مثل نهرو في الهند أو محمد علي جناح « القائد الأعظم » في الباكستان ؛ ولما كانت الحركات القومية في آسيا قد وجهت ضد الاستعمار الأوربي فقد اقترنت بشعور من الكراهية ضد الحكام الوطنيين الذين ربطوا مصيرهم بعجلة الاستعمار الأوربي ، وازداد الحب والاحترام حتى بلغ درجة العبادة لزعماء الوطنيين من أمثال صن يات صن في الصين أو غاندي في الهند أو جناح في الباكستان الذي لقب بشاهنشاه أو ملك الملوك . ويلاحظ أن الولاء السياسي قد وجه نحو الأشخاص أكثر منه نحو البرامج السياسية ، لأن الولاء للأفراد أو للأسرة عميق الجذور في التقاليد الشرقية .

كما ترتبط الحياة القومية لشعب ما بضرورة توافر ميراث ثقافي مشترك ، وهو في نظر بعض المثقفين العنصر الأساسي الأول في تطور الوطنية ؛ غير أن هذا العامل على الرغم من أهميته المعترف بها لا يمكن أن يوجد مستقلاً عن باقي العناصر السابقة ، وفي معظم الأحيان تبدأ النهضة الوطنية على أنها حركة ثقافية صرفة ، وهي ظاهرة عامة في جميع القوميات الأسيوية ، إذ ينصرف الأدباء والفنانون نحو الأساطير الشعبية والفن الشعبي ووضع الكتب المدرسية وتأليف كتب النحو ، بل إنهم لا يفتأون يؤكدون في كل آونة وجود ثقافة وطنية خالصة ، ومن ثم يصبح الدور الذي يلعبه زعماء الفكر الوطنيون دوراً رئيسياً في الحركات القومية .

ولا يمكن الجزم على أية حال بأن أي هذه العوامل مسئول عن نشأة القوميات في آسيا ، فقد يكون واحداً منها

(البقية على صفحة ١٠)

الطرطوشي وكتاب «سراج الملوك»

للأستاذ علي أدهم

كان اليونانيون القدامى ينظرون في تفكيرهم الفلسفي إلى السياسة والأخلاق من حيث هما شيء واحد ؛ فمشكلة البحث عن طبيعة الحياة الصالحة للفرد ومشكلة معرفة المبادئ المسيطرة على اجتماع الأفراد في المجتمع أو التي يجب أن تسيطر على اجتماعهم كانتا عند اليونانيين وجهين لمسألة واحدة ، وكانوا يرون أنك لا تستطيع أن توفق في علاج إحدى هاتين المشكلتين دون أن تبحث المشكلة الأخرى وتهتدي إلى موقف خاص حيالها ؛ فليس في وسع إنسان أن يقرر ما هو أحسن نظام للمجتمع دون أن يفكر في حياة الأفراد وسبل إسعادهم ، وآراء أفلاطون في هذه الناحية تطابق آراء أرسطو .

وجرى التفكير الاجتماعي والفلسفي على هذا النمط حيناً طويلاً من الدهر ، ولكن في عهد إحياء العلوم حدث صدع فرق بين الاثنين ، فاستقلت السياسة عن الأخلاق ، وانفصلت الأخلاق عن السياسة ، ويعلل ذلك الفيلسوف المعاصر جود في كتابه عن فلسفة الأخلاق والسياسة بأن التفكير الروماني قد حافظ على هذه الوحدة ، ولكن المسيحية كانت ترمي إلى جعل أساس الحياة الإنسانية في العالم الآخر لا في هذا العالم ؛ و «مدينة الله» هي المقر الروحي للإنسان لا «مدينة الدولة» ، ومن ثم عملت من بادئ الأمر على إيجاد هذا التمييز ، وبتأثير البروتستانتية أصبح هذا التمييز نوعاً من التفريق بينهما ، ومن ثم نرى التباعد بين موضوع السياسة وموضوع الأخلاق منذ عهد الإصلاح ؛ فالأخلاق تتناول معنى كلمة الخير والشر ومعيار العمل الصالح وطبيعة الالتزام الأدبي ومصدره ومعنى الحق والباطل وأمثال هذه المسائل ، والسياسة اكتفت بتناول البحث عن أصل المجتمع ، وما هي الحاجات البشرية التي دعت إليه ؟ وما هي المبادئ المسيطرة عليه ؟ وعملت على البحث في ضوء هذه المبادئ عن أحسن أنواع الاجتماع الإنساني ، وهل هو حكومة الفرد الأوتقراطية ، أو حكومة الأقلية الارستقراطية ، أو الحكومة الديمقراطية القائمة على التمثيل الانتخابي ؟ فإذا كانت حكومة الأقلية هي خير أنواع الحكم ، فما هي المؤهلات التي يجب أن تتوفر في الصفوة المختارة التي تنهض بأعباء الحكم ؟ وإذا كانت حكومة الأكثرية ، فما هي الوسائل الكفيلة بصحة الاختيار وصدق التمثيل ؟ وما هي الضمانات التي تجعل النواب لا يسيئون استعمال سلطتهم ؟ وما هي حقوق الفرد في علاقته بالدولة ؟ وما هي حدود سلطان الدولة على الفرد ؟ وقد كانت هذه المسائل وأشباهها تبحث بحثاً سياسياً خالصاً إلى حد كبير لا أثر فيه للبحوث الأخلاقية ، ويتمثل ذلك في كتابات الفلاسفة السياسيين أمثال هوبز ولوك وروسو وهيجل وماركس وسبنسر ، فتفكيرهم السياسي يكاد يكون مستقلاً عن تفكيرهم الأخلاقي .

ولكن منذ أوائل القرن العشرين طرأ تغيير هام على ذلك ، وبدأ التفكير السياسي والتفكير الأخلاقي يتقاربان ويتلاقيان ، وطويت مسافة الخلف بينهما . والفكرة السائدة في العصر الحاضر أن الحياة الصالحة للفرد لا يمكن أن تتوفر أسبابها إلا في المجتمع الصالح ، فصلاح الفرد وسعادته متوقفة على حالة المجتمع ، وحالة المجتمع قائمة على حالة أفراده ، وبذلك تتلاقى السياسة والأخلاق . ومن عيوب النظم الفاشية أنها ترجح جانب الدولة ومصلحتها على جانب الفرد ومصلحته . ومن مزايا النظم الديمقراطية الصحيحة أنها توازن بين مصلحة الدولة ومصلحة الفرد ، ولكن معظم النظم السياسية الحديثة بوجه عام تجتهد في التوفيق بين السياسة والأخلاق .

ومعظم المفكرين السياسيين في الإسلام لم يروا هذا التفريق بين السياسة والأخلاق الذي ساد إلى حد كبير

الفكر العربي منذ عهد إحياء العلوم إلى أوائل هذا القرن ، وترى ذلك واضحاً فى تفكير رجل مثل ابن خلدون أو ابن الطقطقى صاحب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية وغيرهما من مفكرى الإسلام ومؤرخيه ؛ ومن أبرز هؤلاء المفكرين السياسيين وأهمهم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي مؤلف كتاب « سراج الملوك » ، وهو كتاب حافل بالأخبار الشائقة ، والنوادر الطريفة ، والقصص الممتعة ، والنظرات السديدة ، والملاحظات القيمة ، والحكم الجامعة ، وهو ثمرة تجربته المستفيضة ، وعلمه الغزير ، واطلاعه الواسع ، وتضلعه من التاريخ والفقه والشريعة والآداب الإسلامية ؛ وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى كتاب الطرطوشي فقال فى غضون كلامه عن العمران البشرى والاجتماع الإنسانى : « وكذلك حوّم أبو بكر الطرطوشي فى كتاب « سراج الملوك » وبوّبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ، ولكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، إنما يبوّب الباب للمسألة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس وغيرهم من أكابر الخليقة ، ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاباً . إنما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ ، وكأنه حوّم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ، ولا استوفى مسائله ، ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً ... » وقد أراد ابن خلدون أن يفخر بعلمه وبما أعثره الله عليه من أسباب التوفيق ، فلم ير بأساً فى التعالى على الطرطوشي ، ولم تكن غاية الطرطوشي علمية خالصة مثل ابن خلدون فى مقدمته ، وإنما كان يريد أن يعرض ملاحظاته ومشاهداته عرضاً فنياً لتؤثر فى النفوس وتخلب الألباب وتتغلغل إلى القلوب ؛ ولذا كان يستكثر من الأقاصيص العجيبة والنوادر المتخيرة ؛ وحقيقة أن أبا بكر لم يكن نداً لابن خلدون فى القدرة على التقصى والتماس العلل والأسباب ، ولكن هدفه لم يكن هدف ابن خلدون ؛ ومن الإنصاف فى النقد أن ننظر إلى مدى توفيق المؤلف فى إصابة الأهداف التى رمى إليها . وأعتقد أن كتاب سراج الملوك يرجح إذا وزناه بهذا الميزان لأنه حقق الهدف الذى قصده مؤلفه .

والطرطوشي نسبة إلى مدينة طرطوشة إحدى مدن إسبانيا ، وقد وصفها صاحب الروض المعطار بأنها واقعة فى سفح جبل ، وأن بجبالها خشب الصنوبر الذى تتخذ منه صوارى السفن ، وبينها وبين البحر المتوسط ما يقرب من عشرين ميلاً ، وبأنها وسط مجارى هام ، وقد ولد بها فى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة هجرية ، وتلقى بها علوم الأدب والدين والشريعة ، ثم صحب القاضى أبا الوليد الباجى بسرقسطة وسمع منه وأجازه أبو الوليد ، وقرأ الأدب على أبى محمد بن حزم بمدينة إشبيلية ، ثم رحل إلى المشرق فى سنة ست وسبعين وأربعمائة ، وأدى فريضة الحج ودخل بغداد فتفقه على أبى بكر الشاشى وأبى محمد الجرجانى ، ودرس فى البصرة وسكن الشام مدة ودرس بها ، ثم زار بيت المقدس ، ودخل مصر ، وقضى حيناً من الزمن فى القاهرة ، ثم انتقل منها إلى الإسكندرية ، واستقر بها إلى أن أدركته الوفاة فى سنة ٥٢٠ ، ودفن فى ناحية الباب الأخضر ، وقبره معروف بالإسكندرية ، وكان الطرطوشي إماماً زاهداً ورعاً ديناً متواضعاً متقشفاً متقللاً من الدنيا راضياً منها باليسير ، وله عدة مؤلفات منها مختصر تفسير الثعلبى والكتاب الكبير فى مسائل الخلاف وغيرهما ، وكان لهذا العالم الجليل والزاهد المتعبد شعر رقيق ينم على نفس حساسة وشعور مرهف ، من ذلك قوله :

أقلب طرفى فى السماء تردداً
لعلى أرى النجم الذى أنت تنظر
وأستعرض الركبان من كل وجهة
لعلى بمن قد شم عرفك أظفر
وأستقبل الأرواح عند هبوبها
لعل نسيم الريح عنك يخبّر
وأمشى ومالى فى الطريق مآرب
عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر
وألمح من ألقاه من غير حاجة
عسى لمحة من نور وجهك تسفر

وقد جعله زهـده وورعه قوّالاً للحق كارهاً للباطل شديد التبرم بالظلم طالباً للعدل نزّاعاً إلى الإصلاح مؤثراً للنصح والإرشاد والوعظ، صريحاً في مخاطبة الرؤساء والحكام، معتقداً أنه بذلك يؤدي واجبه ويبلغ رسالته.

وقد قدم الطرطوشي مصر في عهـد انحلال الدولة الفاطميـة وقرب أفول نجمها وانطواء سلطانها، وكان للوزراء الفاطميين في تلك الفترة السـلطة المطلقة والنفوذ التام. ولما وجد الخليفة الآمر الفاطمي أن وزيره الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي قد استبد بالأمر دونه ولم يترك له من الأمر شيئاً شعر بالحاجـة إلى التخلص منه، فدبر مكيدة لاغتياله، وقد قتل الأفضل في سنة ٥١٥هـ وخلفه في الوزارة أبو عبد الله المأمون بن البطائحي، ولأمر ما كان الأفضل يكره الطرطوشي فلم يرع حقه وقصر في إكرامه، وربما كان لصراحـة الطرطوشي أثر في ذلك، ولما قتل الأفضـل وولي بعده المأمون بن البطائحي أكرم الشيخ إكراماً كثيراً، والظاهر أن الطرطوشي أراد أن يقابل هـذا الإكرام والصنيع الحسن بالتقدير الذي يستطيعه، فألف كتابه المسمى «سراج الملوك» وأهداه إليه، وأشار إلى ذلك في مقدمته بقوله «ولما رأيت الأجل المأمون تاج الخلافة وعز الإسـلام، فخر الأنام، نظام الدين، خالصة أمير المؤمنين، أبا عبد الله محمد الآمري، قد تفضل الله به على المسلمين فبسط فيهم يده ونشر في صالح أحوالهم كفه، رغبت أن أتحفه بهذا الكتاب ليذكر فضائله ومحاسنه ما بقي الدهر» ثم تمثل بهذين البيتين:

الناس يهـدون على قدرهم
لكنني أهـدي على قدري
يهدون ما يفنى فأهـدي الذي
يبقى على الأيام والدهر

وعلل الطرطوشي إهداء الكتاب للبطائحي بقوله: «إن العلم عصمة الملوك والرؤساء، ومعقل السلاطين والوزراء، لأنه يمنعهم من الظلم، ويردهم إلى الحلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعيـة، فمن حقهم أن يعرفوا حقه، ويكرموا حملته، ويستبطنوا أهله».

وقد كسر الكتاب على أربعة وستين فصـلاً، فالباب الأول مثلاً في مواعظ الملوك، والباب الثاني في مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين، وعقد فصلاً لمنافع السلطان ومضاره، وفصـلاً آخر لمعرفة الخصال التي هي قواعد السلطان، واختص الوزراء بأحـد الأبواب، وتكلم عما يصلح الرعية من الخصال، وعن علاقة السلطان بالجند، وبيت المال، وما إلى ذلك من الموضوعات التي تتصل بسياسة الملك وتدبير أمور الرعية. ومؤلفنا الفاضل على نقيض مكيافلي، فقد وجـد الأحوال في مصر سيئة، وقد تكفل المؤرخون بوصف سوء حالة مصر في ذلك العهد المظلم، وأراد أن يطب لهذه الأحوال السقيمة فلم ير خيراً من تحري العدل في السياسة والتعلق بالخصال الحميدة، وأكثر من ذكر الشواهد والأمثلة والأحاديث والحكم والأخبار التي تؤيد وجهة نظره وتوضح سداد رأيه، وعنده أنه إذا أحسن الأمير ورجاله السياسة واستظلوا بالمبادئ الروحية السليمة توطد الملك وصلحت أحوال الرعية. أما مكيافلي فإن سوء الأحوال في إيطاليا جعله يفكر في علاج لإصلاحها وإنهاضها من كبوتها، فدله تفكيره على أن هذا العلاج غير ميسور إلا إذا وجدت الحكومة القوية التي تستطيع حسم الفوضى وتوحيد الكلمة، وأباح لأميره أن يختار السبل المفضية إلى ذلك دون أن يشغل باله بمراعاة الالتزامات الأدبية والوصايا الأخلاقية، وهو صريح في فصله الأخلاق عن السياسة فصلاً تاماً لا تردد فيه ولا جمجمة، وربما كان لحياة الرجلين الخاصة أثر في توجيه تفكيرهما، فقد كان مكيافلي رغم ملكاته الأدبية الممتازة وإخلاصه لقضية بلاده رجلاً دنيوياً حريصاً على المتعة كسائر أبناء عصره، أما الطرطوشي فكان رجل أخلاق وعفة وطهارة وزهد ونقاء قبل كل شيء. وفي رأيي المتواضع أن آراء الطرطوشي أصح في المدى المتطاول والنتائج البعيدة من آراء مكيافلي ومن يلفون لفه ويأخذون بوصاياه ونصائحه.

وأثر الزهد والروح الدينية واضح في الكتاب، وقد روى عن نفسه في أحد فصول الكتاب فقال: «أحكي

لك أمراً أصابنى طيش عقل وبلبل حزى وقطع نياط قلبى ، فلا يزال مرآه حتى يواربنى التراب ، وذلك أنى كنت يوماً بالعراق وأنا أشرب ماء ، فقال لى صاحب لى ، وكان له عقل : يافلان لعل هذا الكوز الذى تشرب فيه الماء كان إنساناً يوماً من الدهر فمات فصار تراباً فاتفق للفخارى أن أخذ تراب القبر فصيره خزفاً وسواه بالنار فانتظم كوزاً كما ترى وصار آنية تمتهن وتستخدم بعد ما كان بشراً سوياً يأكل ويشرب وينعم ويلذ ويطرب ، فإذا الذى قاله من الجائزات ، فإن الإنسان إذا مات عاد تراباً كما كان فى النشأة الأولى ، ثم قد يتفق أن يحفر لحده ويعجن بالماء ترابه فيتخذ منه آنية تمتهن فى البيوت أو لبنة تبنى فى الجدار أو يطين بها سطح البيت أو يفرش فى الدار فيوطأ بالأقدام » ويسترسل فى تحليل هذه الفكرة وتقليبها على جوانبها المختلفة ويقول فى نهاية تحليله : « أليس فى هذا ما أذهب العقول وطيش الحلوم ومنع اللذات وهان عنده مفارقة الأهلين والأموال واللحوق بقلل الجبال ؟ أليس فى هـذا ما يصغر أمر الدنيا وما فيها ؟ أليس فى هذا ما زهد فى اللذات وسلى عن الشهوات؟ » . وهذا الكلام يوضح لنا أن الطرطوشى كان مفكرا متأثراً بطبيعته الزاهدة ومزاجه الصوفى ، فإن غيره من الناس الذين يختلفون عنه فى المزاج والطبيعة قد ينتهى بهم تفكيرهم إلى نتيجة مخالفة للنتيجة التى انتهى إليها الطرطوشى ، فالرجل الأبيقورى المزاج مثلاً يرى أنه ما دام كل شىء إلى زوال وفناء ، فلماذا لا نغتنم الحاضر ونعتصره ونستمتع به إلى أقصى حدود الاستمتاع ، كالشاعر الأندلسى الذى قال :

لا تـنم واغتـنم مسرة يوم
إن تحت التراب نوماً طويلاً

فإن النوم الطويل تحت التراب لم يزهد هذا الشاعر فى طيبات الحياة ومتع العيش ، بل أغراه بطلبها وزين له الحرص عليها ، ولكن وجهة نظر الطرطوشى مع ذلك جديرة بالتأمل والتقدير .

وقد روى لنا فى كتابه أحد مواقفه من الوزير صاحب الحول والطول الأفضل ابن أمير الجيوش فقال : « دخلت على الأفضل ابن أمير الجيوش وهو ملك مصر فقلت : « سلام عليكم ورحمة الله » فرد السلام على نحو ما سنت رداً جميلاً ، وأكرم إكراماً جزيلاً ، وأمرنى بدخول مجلسه والجلوس فيه ، فقلت : « أيها الملك إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلاً عالياً شامخاً ، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً ، وملكك طائفة من ملكه وأشركك فى حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك ، وأمر الله قد ألزم الورى طاعتك فلا يكون أحد أطوع لله منك ، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعل والإحسان ، واعلم أن هـذا الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يديك بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل ... » وأنهى كلامه بقوله : « فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم ، أعانك الله على نصر المظلوم وجعلك كهفاً للملهوف وأماناً للخائف » وختم كلامه للأفضل بهذا البيت :

والناس أكيس من أن يحمدوا رجلاً
حتى يروا عنـده آثار إحسان

وربما كان من خير فصول الكتاب الباب الخاص بفضل الولاة والقضاة إذا عدلوا ، وفيه يقول : « ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة ، كما أن خيره يعم . كذلك ليس دون رتبة السلطان الجائر الشرير رتبة شرير ، لأن شره يعم . وكما أن بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد ، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد وتقترف المعاصى والآثام ، وذلك لأن السلطان إذا عدل انتشر العدل فى الرعية وتعاطوا الحق فيما بينهم ، وإذا جار السلطان انتشر الجور وعم العباد واضمحلت المروءات وفشت المعاصى وذهبت الأمانات وتضعضعت النفوس ... » . ويصف فى أحد الفصول خطورة موقف السلطان وصفاً دقيقاً فيقول : « الخلق فى شغل عنه وهو مشغول بهم ، والرجل يخاف عدواً واحداً وهو يخاف ألف عدو ، والرجل يضيق بتدبير أهل بيته وإيالة ضيعته ، وهو مدفوع لسياسة أهل مملكته ، وكلما رتق فتقاً من حواشى مملكته انفتق آخر ، وكلما لم منها شعثاً رث آخر » . ويطل

وجود الحكومة بقوله : « جبلت الخلائق على حب الانتصاف وعدم الإنصاف ، ومثلهم بلا سلطان كمثل الحوت فى البحر يزدرد الكبير والصغير ، فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر » والطرطوشى يمقت المكر والدهاء فى السياسة ، ولذا يقول : « من صرف فضل عقله إلى الدهاء والمكر والشر والحيل والخديعة كالحجاج وزياد وأشباههما فمذموم » ومن أقواله الحكيمة البارعة : « إن الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تفعل ، فاجتهد أن لا تقول تسلم من أن تفعل » .

ولم ينتفع رجال الدولة الفاطمية بكلماته الحقة ونصائحه الثمينة ، فقد كانت دولتهم تخب إلى السقوط ، فذهبت كلماته صرخة فى واد ، ولكنها كأكثر كلمات الحكماء ونظرات المفكرين الملهمين إن كانت تذهب مرة مع الريح فقد تذهب مرة أخرى بالأوتاد ، وفى اعتقادى أن كتاب سراج الملوك من الكتب الجديرة بأن تعرف ويلتفت إليها ، لما فيه من أدب وحكمة ونقد وسياسة وتوجيه وإرشاد فى أسلوب رفيع وتنسيق بديع .

على أدهم

الأسس القومية

(بقية المنشور على صفحة ٥)

وقد يكون مزيجاً منها تفاعلت عناصره تفاعلاً أدى إلى هذه النتائج ؛ ومهما يكن الأمر فإن ما يكون الأمة ليس وحدة الجنس ولا اللغة ولا الدين بقدر ما هو وحدة الشعور والتفكير ؛ فالقومية هى ظاهرة عقلية تنتج عن ذكريات مشتركة عن الماضى وعن رغبة مشتركة فى اتباع طريقة بعينها فى مستقبل الأيام .

* * *

ويحق لنا أن نتساءل أخيراً : هل الوطنية شر أم خير ؟ هل هى تؤدى إلى ازدياد الرخاء أو الفقر ، إلى الحرب أم السلم ، إلى الحرية أم إلى العبودية ؟ وهو سؤال قد يصعب الإجابة عنه ؛ فكثيراً ما تميل القوميات من هذا الجانب إلى ذاك ؛ غير أن الحقيقة الراهنة هى أن القومية مرحلة من مراحل التطور السياسى ، فقد كانت الأسرة فى الزمن الأول هى مجتمع قائم بذاته ، ثم حلت محلها القبيلة ، ثم جاء دور الدولة أو الأمة . والآن نرى أن هناك اتجاهاً نحو التكتل الإقليمى ، وهو واضح فى اتحاد دول غربى أوربا مثلاً ودول شرقى أوربا وجامعة الدول الأمريكية وجامعة الدول العربية ، وقد تصبح هذه المرحلة مصدر خطر لو دخلت القوميات فى سباق من التعصب الأعمى ، أو لو تمسكت بها الدول الجديدة طويلاً ولم تنتقل إلى ما بعدها من مراحل .

ولا شك أن العلم والاقتصاد وكل مقومات المدنية الحديثة كلها تسير بالعالم نحو الحكومة العالمية ونحو تأمين السلامة والأمن والسعادة للجنس البشرى كله ، على الرغم من المخاوف التى تساوره وعلى الرغم من التجارب القاسية التى قد تمر به .

على رفاعة الأنصارى

كيف ؟

العلم فى خـــدمة الانسان

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

منزل المستقبل :

إن التغيرات العديدة التى ستتم قريباً داخل بيوتنا تصور الطبيعة الثائرة للعلماء الذين يرنون دائماً إلى الأمام وإلى تهيئة كل ما يساعد ركب الإنسانية فى السير تجاه السعادة والراحة والحياة الهنية .

إنهم يرون أن بيوتنا لا تعكس إلا قليلاً من التقدمات الصناعية والميكانيكية التى أحرزناها فى هذا الجيل ، ولهذا القول نصيب كبير من الصحة . فلماذا لا تكون منازلنا مريحة خالية من الغبار ، مكيفة الهواء ، منشأة بطريقة تمنع الأصوات الخارجية المختلفة من اختراق جدرانها ، ومضاءة بضوء كأنه ضوء النهار لا يؤذى العيون ؟!.

لقد أتاح لنا العلم ما يحقق هذه الرغبات وقريباً سيتمتع الجميع بهذه المزايا الرائعة .

كلنا يعلم أن النور الكهربائى يؤذى عيون الكثيرين ويتعبها ، وبهذا فإن التفكير يتجه اليوم إلى استخدام أنابيب الفلوروسنت فى الإضاءة ، تلك المصابيح التى تتميز بضوئها الساطع الخالى من الحرارة والذى يماثل ضوء النهار ..

وستشمل الآلات التى تكيف هواء منزلك فى المستقبل مرسباً للتخلص من التراب يوضع عند مداخل الهواء ومخارجه ، وبهذا يتاح لك أن تستنشق هواء نقياً ، وترى الستائر فى بيتك نظيفة لا غبار عليها ..

وتصنع هذه الأجهزة اليوم فى أمريكا فى مؤسسة وستنجهاوس التى صنعت منها عدة مئات ركبت فى بعض منازل المدنيين ، وتبلغ تكاليف إنتاج المرسب خمسة وسبعين جنيهاً ، ولكنه بزيادة التوزيع فى المستقبل وزيادة الإنتاج سينخفض الثمن .

والكثير منا تثير أعصابه الضوضاء ، ويوجد الكثير منها فى منزل اليوم ، سواء أتت من الخارج أو من حجرة الأطفال أو المطبخ ... وبفضل العلم أمكن إنتاج مادة تمتص الأصوات استخدمت فى أثناء الحرب فى أغراض عديدة ، واليوم قد زودت بعض أكشاك التليفون فى مدينة نيويورك بهذه المادة فيمكن التحدث داخلها بكل سهولة حتى ولو كان هناك قطار يقرقع بصوته إلى جوار المتحدث . فلماذا لا نستخدم هذه المادة فى منازلنا لتريح أعصابنا وتهبنا الراحة ؟؟ .

إن منزل المستقبل سيحقق لنا أمنيتنا ، فيصمم بحيث يمنع الأصوات المتباينة من اختراق جدرانه ...

ثم ما هو أمر الأثاث الذى يشغل أغلب الفراغ فى منازلنا ؟؟.

إن الاتجاه اليوم هو التقليل بقدر الإمكان من الحيز الذى تشغله ، فتوضع الخزائن والدواليب وموائد الزينة داخل الجدران ، وتجهز بإضاءة داخلية بحيث يسطع فيها النور إذا ما فتحت أبوابها ..

الفرائن فى المنزل :

وإذا نحن نظرنا إلى الفرائن التى ابتدعها الإنسان فى معامله رأينا أنها ستجعل بيتنا فى المستقبل مفرحاً جذاباً ، فترى فيه الأدوات المتباينة وقد صنعت من تلك العجائن ذات الألوان الزاهية ، وستجد بين يديك ستائر أو أغطية ومنشفات منسوجة من خيوط الزجاج أو النايلون لا تتأثر بالنار ولا تبلى ، وتعيش العمر ..

تكييف الهواء :

وسيكيف هواء منزلك بحيث يكون دافئاً فى الشتاء منعشاً فى الصيف .

مطبخك الحديث :

وما أروع الصورة التى سيكون عليها مطبخك الحديث ، فسيحوى ثلاجات كهربية تصنع بحيث تتكون من أقسام متباينة الحجم توضع فيها ألوان الطعام المختلفة كل فى مكانه الخاص .

نصر رائع :

وهناك نصر رائع أحرزه العلم سيتيح لك امتلاك فرن وقوده الفحم ، ولكنه لا يعبق الجو بالدخان ، وسر ذلك أن أكثر من تسعين فى المائة من الدخان الذى ينتج من احتراق الفحم يستهلك فى الفرن كوقود ؛ إذ تدفع تلك الغازات المدخنة إلى الفرن فتحترق ، ولا يتصاعد من مدخنة الفرن غير الغازات التامة الاحتراق عديمة الدخان . وإن فى ذلك ما يقلل من استهلاك الوقود بما لا يقل عن خمس وعشرين فى المائة ، كما يجعل من الممكن استعمال أنواع رخيصة من الفحم ...

وقد أتم عمل هذا الفرن أستاذ الهندسة الميكانيكية فى جامعة إلينويس بالولايات المتحدة .

فمطبخ الغد إذاً لن يكون مرهق التكاليف بفضل مثل هذه الخدمات التى يقدمها العلم . هذا إلى جانب النظافة والأناقة .

حمام شمسى فى البيت :

وسيصمم الحمام الحديث بحيث تكون أرضه من المطاط الذى لا يتأثر بالماء ، وبذا يتسنى لك أن تسير عليه عارى القدمين بغير أن يصيبك البرد . كما ستكون به أجهزة خاصة تمدك بالماء فى أية درجة من درجات الحرارة ، ومصابيح شمسية تصدر عنها إشعاعات فوق بنفسجية ، فتتيح لك تناول حمام شمسى فى بيتك ...

* * *

فى عالم الطيران :

إن التقدم الذى أحرزه ويحرزه العلم فى عالم الطائرات سيجعل الطيران يقفز إلى الأمام فى سبيل الكمال .

ففى أمريكا اليوم تصنع طائرات يمكن أن تقل مائة مسافر أو يزيد ، كما تصمم طائرات لنقل نصف ألف من المسافرين دفعة واحدة . ويجرى العمل على قدم وساق لتوفير أسباب الراحة فى الطائرات توفيراً عظيماً ...

ويعرف الكثيرون قصة طائرة الهليكوبتر . فهذه الطائرة تتميز بأنها صغيرة الحجم يمكن الطيران بها أفقياً إلى أعلى والهبوط بها فى أى بقعة صغيرة من الأرض . كما أن مروحتها المثبتة فى رأسها يمكن طيها بكل سهولة وحفظها فى أى جاراج عادى . وتلك ميزات تؤهلها لأن تحل محل السيارة العادية فى المستقبل . وفى القريب ستخرج المصانع نوعاً من هذه الطائرات لا تزيد تكاليف الواحدة منها على أربعمائة من الجنيهات .

وتستخدم طائرات الهليكوبتر اليوم فى بعض أجزاء الولايات المتحدة فى توزيع البريد .

الذهب :

يتميز الذهب بأنه يقاوم لدرجة جيدة فعل المواد الكيميائية ، وهذا يؤهله للاستعمال فى أغراض صناعية عديدة ، ولكن ثمنه المرتفع يقف عثرة فى سبيل استعماله على نطاق واسع ، ومع ذلك فإنه يستخدم فى بعض المبانى فى تغطية السقوف لأن مقاومته المتميزة لفعل العوامل الجوية تجعل استعماله اقتصادياً ...

جمال الدين محمد موسى

المتاحف ودراسة العلوم

للأستاذ سليم فريد

لم تكن المتاحف لتعطى حقها من التقدير — إلى سنوات خلت — فى ناحية القيمة التعليمية والثقافية ، حتى أصبحت قيمتها من هذه الناحية ، تختلف عما كانت عليه من قبل ، وقدرت كما يجب . ويرجع هذا إلى أن المتاحف كانت تعرف بأنها أمكنة (تعرض فيها صفوف متراصة من حفريات مختلفة يغطيها الغبار) . وحتى طريقة عرضها لم تكن فى تنسيق أو تدقيق . ولذلك كان من الصعب أن تقنع أولئك الذين شاهدوا المتاحف فى صباهم ، كيف أنها تطورت ، وأصبح لها خطرها وأهميتها فى الثقافة والتعليم .

ثم إن كلمة (متحف) لم تتغير ، وإنما الأغراض والمثل التى يرمى إليها منظمو المتاحف فى عهدنا هـذا ، قد تغيرت تغيراً تاماً بالنسبة إلى ما كانت عليه الحال من قبل ، بل إلى عشرين سنة مضت فقط . وأصبحت المتاحف الآن معبرة عن الميل الغريزى المنظم ، فى جمع الحفريات وغيرها جمعاً منسقاً .

ولوحظ أن أول ما يلفت نظر المتفرج فى المتحف ، هو ما كان متعلقاً بالتاريخ الطبيعى وتطور السلالات البشرية Ethnology ، ولذلك أصبح من واجب منظمى المتاحف السعى أولاً للحصول على ما يجب عرضه بالمتحف وحفظه ، وثانياً ترتيب المعروضات ترتيباً يراعى فيه مطابقته للأصول العلمية من حيث تصنيف المعروضات نفسها ؛ فمثلاً تلك الخاصة بالتاريخ الطبيعى لها تصنيفها الخاص ، وما يخص علم الأجناس له تصنيفه الخاص ، وكذا علم الآثار والنبات وغيرها ، كل له التصنيف المناسب .

ويجدر بنا أن نقول إن التجربة قد أثبتت ضرورة فصل الأعمال الخاصة بالمتاحف عن تلك الخاصة بأبهاء الفن ، (Art Galleries) . وتكاد الآراء تتفق على أنه فى الجهات الآهلة بالسكان يحسن هذا الفصل بين الاثنين ، ولا بأس من أن يكون بناء المتحف قريباً من بناء (بهو الفن) . وهذا علته بسيطة ، وهو أن المتاحف يقبل عليها الجمهور أكثر مما يقبل على أبهاء الفن التى لها جمهورها الخاص .

وجمهور المتحف يختلف باختلاف أمزجته ، وقد قسمه الدكتور والبس (الذى ننقل عنه هذا البحث مما نشره بمجلة إنديفر "Endeavour") إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول ، وهو ما سماه بجمهور العطلة — هم أولئك الذين يدخلون المتحف هاربين من بلل المطر فى الطريق ؛ وإن كانوا يقضون وقتاً ما يتأملون إحدى القطع ، قد لفتت نظرهم لجمال شكلها أو لغرابته أو لشىء ما فيها يعرفونه .

والقسم الثانى — هو جمهور المتنورين المهتمين بالمتاحف ، كأعضاء الجماعات الثقافية ، والطلاب الذين يرغبون فى زيادة معلوماتهم عما درسوه . وهؤلاء جميعاً لهم اعتبارهم العلمى ، وإن كان محدوداً من ناحية زيارة المتحف ، فهم ليسوا متفرجين عاديين ، إذا دخلوا المتحف مرة أو مرتين لا يعودون إليه ، بل تتكرر زياراتهم ويطول مكثهم فى قاعاته ، ووقوفهم أمام معروضاته .

وأما القسم الثالث ، فهم أولئك الذين يعملون فى أبحاث خاصة ، يريدون استكمالها ، عن طريق دراسة بعض معروضات المتحف فى ناحية خاصة ، ليطلعوا على الوسط العلمى بنظرية جديدة أو رأى حديث ، استنبطوه خلال دراستهم .

• • •

لقد رأى أمناء المتاحف فى أيامنا هـذه أنه إلى جانب جمع وحفظ وتصنيف معروضات متاحفهم ، يجب أن يراعوا لذة التثقيف عن طريق المعروضات . فعليهم شرح كل قطعة للجمهور شرحاً وافياً مختصراً ، حتى تحدث الفائدة المرجوة من العرض .

والواقع أن أساس عمل أمين المتحف هو أن يمكن جمهور المتفرجين والدارسين من رؤية الشيء المعروض رؤية واضحة صحيحة ، وذلك بأن يكون موضعها فى مكان لا يكتنفه ظلام أو ظلال ، وأمامها بطاقة مكتوب عليها وصف القطعة بعناية ، حتى تكون عاملاً تعليمياً صادقاً .

ولا شك أنه فى المتاحف يمكن تصوير وتفسير العلوم المعروفة ، كعلم النبات وطبقات الأرض والحيوان . والمتاحف من هذه الناحية تسهل الدراسة البيئية ecology التى هى أيسر من تنسيق النباتات والحيوانات تبعاً لأجناسها . فإذا كان مدخل المتحف قاعة واسعة ، أمكن إعداد « قاعة المناظر الطبيعية diorama » بها ، لتصور للرائى تصوراً طبق الأصل منظراً لجهة قريبة بنباتاتها وحيواناتها .

ومن السهل انتقاء كتل من الصخور المحلية وبضعة نباتات وحيوانات محنطة لإقامة تلك القاعة . وفى المتحف الأهلى بويلز بالجزائر البريطانية مثل رائع لهذه القاعة . وقد يحتاج الأمر إلى تعدد قاعات المناظر الطبيعية كلما كان هناك اختلاف فى بيئات الناحية ، كذلك يمكن إعداد مناظر بيئية تبين حضارة ما قبل التاريخ وما بعده ، وهـذا من صميم أغراض المتاحف . وهـذه القاعات إذا أضيئت بطرق الإضاءة الحديثة فإنها تجذب جمهور المتفرجين عامة (وجمهور الطلبة) خاصة ، الذى قد يستفيد إذا طالت الأمطار فائدة عملية ، بتعرفه إلى البيئة التى يعيش فيها .

وإذا كان الباحث المحقق ، يستفيد من مثل هـذه المعروضات ، فإنه — فى الواقع ونفس الأمر — أكثر احتياجاً إلى ما هو أكثر تفصيلاً ، إذ تلزمه سلسلة من نماذج مبادئ العلوم المختلفة ، كعلم طبقات الأرض والحيوان والنبات والآثار ، تعرض فى أبهاء واسعة عرضاً علمياً منظماً . وليس الغرض هو عرض نماذج كاملة لجميع حيوانات الإقليم مثلاً ، أو حتى حيوانات العالم أجمع ، بل الغرض من تلك النماذج هو إعطاء فكرة واضحة سليمة عن مجموعة حيوانات من فصيلة واحدة . كذلك فى نماذج النبات ، يجب أن يُتجنب العرض السخيف لنباتات الإقليم ، ويكتفى ببعض النباتات الطبيعية والمزروعة فى الإقليم تعطى فكرة كاملة عن البيئة النباتية للإقليم . وإن الزراعة وفلاحة البساتين والتشجير ، لثروة علمية لمثل هذه المعروضات .

وليس معنى هذا أن نقول إن متحف المستقبل سيكون متحف آراء ، لا متحف معروضات ، بل المقصود أن أبهاء وقاعات العرض ستكون مشتملة على بيانات مجسمة تمثل التطور والوراثة وغزو الإنسان لعالم المادة ، والنقل فى مختلف الصور . ولسوف تغنى هـذه البيانات المجسمة عن الحيوانات المحنطة والنباتات المجففة ، وقطع المعادن وغير ذلك ..

وبمثل هذا يمكن لزائر المتحف أن يدرس الإنسان وعمله أيام سكنه الكهوف ثم الأكواخ ثم المنازل والقصور ، وأيام عريه ثم ستر عورته ثم تفننه فى الملبس ، وهكذا . ويوجد مثل رائع لهـذا فى متحف نيوارك بنيوجرسى بأمريكا .

وتملك معظم المتاحف قطعاً مما قبل التاريخ وعصوره الأولى ، مما يوجد فى مناطقها ، وكذا عدداً كبيراً من المعروضات الخاصة بدراسة الأجناس البشرية ، تبين لنا فنون وصناعات مختلف الشعوب ، وهذا ما اهتم به منظمو المتاحف أيما اهتمام . ولا شك أن هـذا من شأنه أن يرينا كيف كان يعيش أجدادنا فى الزمن السالف ، وحتى إلى مئات السنين القريبة .

وبذلك أصبح المتحف لدى الكثيرين عاملاً مهماً لتبيان أن المبادئ الأولية للعلوم ما هي إلا جمع الحقائق والظواهر ، لا إخراج نظريات ووضع فروض .

●●●

هذا ويجب أن يكون فى كل متحف إلى جانب القاعة الكبرى والأبهاء المختلفة سلسلة من الغرف الجانبية للطلاب الجادين فى عملهم ، على أن تحوى هذه الغرف معظم المجاميع مرتبة بدقة ولها بطاقات الشرح الخاصة بها طبقاً لأساليب الشرح الفنية .

وبهذا كله تغذى المتاحف العلوم بتفسيرات واقعية ، متمشية مع الاتجاهات الفكرية الحديثة ، هى عبارة عن مادة حقيقية معتمدة للبحث . كما أن المتاحف تسير مع اهتمام الجماهير بالعلوم ، ذلك الاهتمام الذى أخذ يتجه نحو المسائل الفلكية والطبية والعضوية والكيمياطبيعية ؛ وأمامنا الذرة مثلاً لهذا الاهتمام ، وقد طغى التفكير والبحث فيها على كل شيء فى هذه الأيام ، وأصبح العلماء يقومون ويقعدون ، باحثين فى مدى الإضرار ومدى النفع من الذرة . وإذاً فلا بأس من عرض صور مجسمة للذرة وتركيبها ومركباتها وغير ذلك ، حتى يتفهم جمهور المتاحف هذا الشيء الذى قرأوا عنه ولم يروه رأى العين ، ولم يلمسوه مادياً .

كذا لا بأس من أن تعرض المتاحف نماذج كبيرة تبين الخسوف والكسوف والمجموعات الفلكية ، والتطور التاريخى العلمى فى الفكر عن خلق الأرض ، والفوائد الفلكية للمرقب العادى والمرقب الطيفى ، كذا عرض المواد الجديدة التى ظهرت إبان وعقب الحروب الحديثة ، خصوصاً مصنوعات العجائن (البلاستيك) والنايلون مثلاً ، وطريقة صنعها ؛ وبذلك تمحى الفكرة التى تقول إن المتاحف ما هى إلا أمكنة لعرض أشياء أصبحت فى خبر كان ، وبذلك أيضاً يستفيد رجل العلم ورجل الصناعة ، كل فى ناحية عمله ، كما يزداد الشخص العادى معرفة .

ولا يغرب عن البال أن المتاحف فى حالات عديدة ، قد تكون منبعاً تاريخياً يغذى أسس حل بعض المشاكل الحاضرة خصوصاً فى الطب والتشريع ، وحتى فى علمى النفس والاجتماع ؛ ذلك لأن المتاحف يجب أن يكون من بين أغراض إنشائها أن تبين لنا كيف كان يعيش الناس ويعملون فى سبيل الحياة ، وكيف كانوا يتعاملون مع الطبيعة ومنتجاتها .

ولقد أصبحت المتاحف فى وقتنا الحاضر فى حالة انتقال من العصور الماضية المختلطة بالحاضر ، إلى عصر يقترن بحياة المستقبل . ولما كان العلم يزداد سيادة يوماً بعد يوم ، فيجب أن تمد المتاحف لتعريف الجمهور بالعلم ، تعريفاً مطابقاً لما بلغته العلوم عامة من تقدم .

سليم قرم



النهـــامة والنهمون ...

لـكاتب فرنسي

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

النهامة فن دعامه اختيار ألوان الطعام والشراب وإعدادها إعداداً يراعى فيه الذوق والفن ، فلا يكون الطعام والشراب إشباعاً من جوع ، وإرواء من ظمأ فحسب ، بل يكون الطعام والشراب متعة لحواس النظر والشم والذوق ، فتستريح النفس كما تستريح إلى سماع لحن عذب من ألحان الغناء ، تغنيه جارية مليحة الشكل ندية الصوت .

ولا تحسبن النهامة هي البطنة التي تقوم على امتلاء البطن من الطعام امتلاء شديداً ، بل قل إن البطنة هي نقيض النهامة ، بل قل إن البطنة هي الآية على بقاء الغرائز الوحشية بين قوم كانوا يحسبون — لولاها — من المتمدنين ، بينما النهامة هي الدليل الذي لا ينقض على أن صاحبها قد بلغ أعلى معارج الرقي ، لا في مسائل الطعام فحسب ، بل في مسائل الفن ! فهو يعرف كيف يربط بين الأسباب والمسببات ، وهو يعرف كيف يلائم بين الخطوط والألوان ، وهو يعرف كيف يوائم بين الرائحة والطعم ، وهو يعرف كيف يمزج بين السوائل والجوامد .

والنهم ليس عبقرياً من العباقرة ، وكذلك هو ليس من أصحاب الوسواس والهوس ، ولكنه شخص — سواء أكان رجلاً أو امرأة — لا يعرف الشذوذ والالتواء ، يستوى في ذلك النهمون من الأغنياء والفقراء ، ومن الشبان والشيب ؛ فهم جميعاً يعنون العناية التي رائدها الذكاء والعقل ، بما يأكلون ويأكلون ، وبما يشربون ويشربون .

ولا بد للنهم أن يكون معافى ، سليم الحواس الحسى ، ولا بد له فوق ذلك أن يكون سليم الحاسة الفنية ، أو إن شئت فسمها حاسة التقدير وعرفان القيم .

وهي الحاسة التي تقوم عليها الفروق بين الإنسان وبين الحيوان .

وليس أحد منا يستطيع أن يدعى أنه أبصر من نسر أو من قبرة ، أو أنه أسمع من الكلاب والقطط وأشم منها للروائح ، أو أقوى ذاكرة من الفيلة .

ولكن الشمس لم تشرق يوماً ما على أي صنف من صنوف الطير والحيوان ، سواء مما طار في الجو أو التفت عليه الغابات ، أو ضمته الحقول والمزارع ، قد أوتى حاسة التقدير وعرفان القيم ، وحاسة تمييز النغم كما أوتى الإنسان .

فالرجل الذي كف بصره لا يستطيع أن يستمتع بالصور والألوان ، ولكنه يستطيع أن يستمتع بالأنغام الموسيقية أكثر مما يستطيع أن يستمتع بها إخوانه المبصرون .

وكما أن من الناس من آفتهم العمى اللونى ، فكذلك منهم من آفتهم العمى الذوقى ، فهم يستطيعون أن يميزوا بين الحار والبارد في المأكل والمشرب ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعرفوا الفروق بين الطعام الحسن ، حسن المذاق ، وبين الطعام الحسن ، حسناً مجلوباً بنظرة ، وهو ذلك

الطعام الذي تفنن صانعوه ، وتأنقوا في صنعه ، فطهوه وتناولوه تنبيلاً .

وأمثال أولئك لا يمكن أن يحسبوا في عداد النهمين ، فهم لا يبالون أي طعام قدم لهم ، أو أي طعام وقع لهم ، وهم يفخرون بأنهم يأكلون كل شيء يلقونه في أي صورة من الصور .

والرأي عندهم أنهم يأكلون ليعيشوا ، وليسوا يعيشون ليأكلوا .

ولكنهم جهلوا أنهم بذلك قد حرموا أنفسهم أكبر لذة من لذائذ الحياة ، وما دروا أنهم بذلك قد أشبهوا الأسماك في البحار ، والطيور في السماء ، والوحوش في الغابات ، فهي تأكل من خشاش الأرض ، ومما ترمي به الريح ، دون أن تغضب أو تثور ، وسواء أكنا نهمين أو لم نكن فإنه (يجب) علينا أن نأكل ، وكلمة (يجب) هنا كلمة لا تقبل الاستثناء أبداً .

والنهمون يلاقون هذا الواجب المفروض بما يستحقه من تقدير أكثر مما يفعل غير النهمين ، وهم يأبون أن يصبح هذا الواجب المحبب ، واجب تغذية الجسم ، وتجديد ما اندثر من كيانه ، وما انهدم من بنيانه ، تكراراً مملاً ، أو عادة ميكانيكية ، بينما هم قادرون على أن يجعلوه هواية لطيفة تلتذ بها حاستا الشم والذوق .

وإن كان هذا العمل يقتضيهم مزيداً من الجهد والوقت ، فهو عندهم جهد غير مفقود ، ووقت غير ضائع .

والنهمون كـكل رجال الفنون يولدون ، ولا يصنعون ، وهل رأى الناس مغنياً أو شاعراً صنعه المران ، وأنشأه المال ؟ وكذلك لن يصنع المران ، ولن ينشئ المال نهماً واحداً من النهمين .

وهل رأى الناس شجرة تجود بالثمر إن لم تكن جذورها قد تأصلت في أرض خصبة ؟

وقد تبذر البذور في الأرض فتأكلها الديدان ، وقد لا تنبت البذور أبداً ، وذلك بسبب نقص التربة أو زيادتها ، ومن ثم نرى أن الفقر المدقع ضرره كضرر الثراء المريض .

وإذا أنبتت البذور وجب أن تحاط الشجرة بالرعاية والعناية ، وكذلك رجل الفن في كل ضرب من ضروب الفنون ، سواء أكان أديباً ، أو موسيقياً ، أو مصوراً ، أو نهامة .

والفروق بين الرديء ، والجيد ، والأجود ، لا تكاد تبين ، وهذه الفروق الدقيقة لا يمكن أن تدرك إلا بالدراية والمران .

ولما كان الغرض الأول من الطعام أن يكون لذة للنفس ، ووقوداً للجسم في آن معاً ، فإن أول ما يجب علينا هو أن نعرف ما يلائم ذوقنا ، وما يناسب حاجات جسمنا ، كما يجب علينا أن نغفل من حسابنا مسألة الڤيتامينات ، ومسألة الوحدات الحرارية ، فنحن لسنا من خنازير (غينيا) ، ولكننا كائنات تسيطر علينا أعصابنا ، بل نحن كائنات قوامها الأمزجة والعادات ، وخير ألوان الطعام هو ما يلذنا منظراً ورائحة ، سواء أكان ذلك اللون سمكاً أو لحماً أو تفاحاً .

والنهمون هم في العادة انفراديون ، ولكنهم يخضعون لسلطان بضع قواعد عامة ، أقرها أصحاب الذوق وأرباب الخبرة والتجربة .

ومن القواعد التي انعقد عليها الإجماع أن يكون صنف الطعام الذي يقدم أولاً نيئاً ، وقليل الكثافة ، وأكثر استساغة في المذاق من غيره ، ثم يتلوه الصنف الأكثر كثافة والأكثر إشباعاً ، وهو ما يسمى بالصنف الرئيسي ، ثم يأتي بعد ذلك صنف خفيف ، طيب الرائحة ، حلو المذاق ، ولا بد أن يكون هذا الصنف الأخير صنفاً بارداً حلواً ، فيكون مسك الختام .

ويجب أن يكون اللون الأول من ألوان الطعام كمقدمة الكتاب تشعرك بما سوف يشرحه لك الكتاب ، ويفصله تفصيلاً ، ويجب أن يكون حكمه حكم المقدمة خفيفاً غير ممل .

ومن الأغلاط الشاهدة لدى كثير من الآكلين ولعهم بمقدمات الطعام ، واتخاذها صنفاً أصلياً ، وهذا مخالف لطبيعة تلك المقدمات ، غير متفق مع ما اختصت به وأعدت له ...

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم

الرهـــــــان

لتشيكوف

ترجمة الأستاذ حسين كامل السعيد

كان الحديث يدور بين المليونير الشيخ والمحامي الشاب حول عقوبة السجن المؤبد ، وكان من رأى المليونير أن الموت أهون من هذه العقوبة ، ولكن المحامي الشاب عارضه في رأيه وأظهر استعداده للمراهنة على أن يقضي في السجن خمسة عشر عاماً .

وقبل المليونير أن يدفع إلى المحامي الشاب مليونين من الروبلات على شرط أن يخسر الرهان إذا بارح السجن ولو قبل الميعاد المتفق عليه بساعتين .

ومرت الخمسة عشر عاماً إلا قليلاً ، وفي أثناء هذه المدة كان كل ما عرف عن السجين أنه طلب عدداً كبيراً من الكتب في شتى الموضوعات وأنه زود بكل ما طلبه .

وفي أثناء هذه المدة أيضاً مرت على المليونير سنوات عجاف ساءت فيها حالته المالية إلى أن أصبح عاجزاً عن وفاء الدين ، والأيام إلى نهايتها بسرعة ، وأخذ يفكر في طريقة للخلاص من هذا الدين الذي أصبح عاجزاً عن قضائه ، ووجد بعد إمعان الفكر أن أحسن طريقة للخلاص من الدين هو الخلاص من الدائن .

ولهذا تسلل بحذر إلى حجرة السجين عشية يوم التحرير وقد عقد النية على قتله ، ولكنه فوجئ بما أفسد عليه خطته ، فلقد وجد بحجرة السجين شمعة في النزع الأخير ، وأبصر السجين جالساً على كرسي بجانب المائدة وظهره إلى النافذة وشعر رأسه مرسل على كتفيه ، والكتب مبعثرة هنا وهناك حول المنضدة وفوق الكرسي ، وعلى البساط ، ووجد على المنضدة وبجوار رأسه ورقة قد خط عليها عدة أسطر بيد مرتعشة ، وأخذ المليونير الورقة وأخذ يتلوها فوجد مكتوباً عليها :

« غداً في الساعة الثانية عشرة تفك قيود سجني ، وسأمنح حرية الخروج والاتصال ببني جنسي ، ولكنني قبل مغادرة هذه الغرفة ومشاهدة ضوء الشمس أرى من الضروري أن أقول كلمة .

« إني أصرح بضمير نقي وأمام الله الذي يراني ، أني أحتقر الحرية والحياة والصحة وكل ما تفاخر به كتبك على أنه نعيم الحياة ومباهجها ، خمسة عشرة عاماً قضيتها درست فيها الحياة على حقيقتها ، وأعلن أني لم أر فيها الأرض ولا الناس ، ولكن في كتبك شربت خمراً عطرة ، وأنشدت أغنيات شجية ، واصطدت الحية والضواري في الأحراش والغابات ، وأحببت النساء .. نساء جميلات مثل السحب الأثيرية التي أبدعتها عبقرية شعرائك السحرية ، زرنني في الليل وهمسن في أذني حكايات عجيبة أسكرتني .

« في كتبك صعدت إلى قمم الجبال ، ورأيت من فوقها كيف تشرق الشمس في الصباح ، وكيف تغرب في المساء ، رأيت البحار والجبال وقد غرقت في بحر من الذهب الأرجواني ، ولقد رأيت فوقي وأنا على قممها كيف يخطف ضوء البرق السماء ، ورأيت الغابات الخضراء ، والحقول والأنهار والبحيرات والمدن ، ولقد سمعت الأناشيد السماوية والمزامير الربانية ، ولمست بيدي أجنحة الملائكة التي أتت إلى طائرة لتحدثني عن الله . في كتبك هبطت إلى أعماق الهوات وصنعت المعجزات وأحرقت المدن وتركتها خراباً يباباً تبكي من بناها ، ونشرت ديانات جديدة وغزوت كل الممالك .

« إن الكتب قد منحتني الحكمة ! إن كل حكمة الأولين التي ابتدعتها عقلية الأجيال المتعاقبة قد تركزت

وتبلورت فى عقلى ، وإنى لأعرف أنى أكثر ذكاء منكم جميعاً .

« والآن أقول إنى أحتقر كتبك . أحتقر كل مباهج الحياة وحكمتها ، إن كل شىء باطل وزائل ووهم وخادع مثل السراب ، إنكم مزهوون . ولكن سيأتى اليوم الذى يكنسك فيه الموت من على وجه الأرض ، وتصبح كالفأر الذى تحت الأرض ، إن ذريتك وماضيك وعباقرتك الخالدين سوف يذوبون كقطعة الثلج التى توضع تحت أطباق الثرى .

« إنك مجنون وإنك تسلك الطريق الخاطئ ، إنك تؤثر الكذب على الصدق والقبح على الجمال ؟ إنك لتعجب إذ رأيت أنه بدلاً من أن تنمو شجرة التفاح والبرتقال تنمو الضفادع والسحالى ، فهل أعجب لك إذا كنت تشترى الأرض بالسماء ؟ إنى لا أريد أن أفهمك .

« إنى أريك احتقارى لكل شىء تعيش من أجله ، إنى أرفض مليونى الروبلات التى ظللت أحلم بها كما أحلم بالجنة والتى أحتقرها الآن .. إنى سأحرم نفسى منها بإرادتى .. إنى سوف أخرج من هنا قبل الميعاد المحدد بخمس دقائق وبذلك أخل بالشرط » .

وما إن انتهى المليونير من قراءة الخطاب حتى قبل رأس الشاب وعاد ثانية إلى منزله ، وفى اليوم التالى أتاه حارس الغرفة وأخبره أن السجين قد هرب .

الحياة بهيجة

إن الحياة ليست تجارة رابحة ، ولكن ليس من العسير أن تجعلها بهيجة . لأى سبب لا يكفى أن تربح مائتى ألف من الروبلات ، أو تمنح نيشان الصقر الأبيض ، أو تعطى مركزاً مرموقاً ، أو تتزوج بامرأة جميلة لتكون سعيداً ؟ السبب أن كل هذه الأشياء ستصبح شيئاً عادياً ، ولكن لتشعر أنك دائماً سعيد حتى فى أوقات الهم والكرب ، فأنت تحتاج أولاً إلى القناعة بحالتك الراهنة ، وثانياً تبتهج كلما أصابك ضر مؤمناً بأن الأمور ربما أتت أسوأ .

ابتهج إذا اشتعلت علبة الثقاب فى جيبك ، واسجد لله شاكراً على أن جيبك ليس مخزناً للبارود .

إذا حضر لك أقاربك فى عطلة الأسبوع فلا تضايق وتشحب وجهك ، بل تعجب لحظك السعيد ، وابتهج حامداً الله على أنهم ليسوا شرطة أتت للقبض عليك .

إذا نفذت شوكة فى أصبعك فابتهج على أنها لم تكن فى عينك . ابتهج لأنك لست حصان عربة أو ثور محراث أو خنزيراً أو حماراً أو دباً تقوده غجرية .

ابتهج على أنك لست سجيناً فى زنزانة ضيقة لعدم وفائك ديونك .

إذا شعرت بألم فى إحدى أسنانك فابتهج على أنه ليس فى كل أسنانك .

إذا لم تكن قاطناً فى مكان ليس جيداً مثل سيبريا ، ألا تبتهج إذا كنت تذكر أنه لولا حسن حظك لكنت أخذت إلى هناك .

ابتهج لأنك تستطيع أن تقرأ الجريدة اليومية وأنك لست مقهوراً على أن تسوق عربة قاذورات أو تتزوج من ثلاث نساء جميلات فى آن واحد .

إذا أخذت إلى زنزانة نقطة البوليس اقفز من الفرح ، واحمد الله على أنها ليست حجرة الإعدام .

إذا ضربت بغصن شجرة فاحمد ربك على أنه غصن شجرة وليس سوطاً .

إذا كانت امرأتك تخونك ، فابتهج على أن الخيانة موجهة إليك أنت وليس إلى وطنك .

صبحى كامل السعيد

الكويت وحالة الشعر

للأستاذ أحمد طه السنوسي

.. من الشعراء من ينظم الشعر للذة نفسه وإسعاد روحه دون ما نظر إلى تداوله بين الناس ، ومن هذا الصنف معظم شعراء الكويت العربية ، فهم ينشدون الشعر للشعر نفسه حيناً ولنفوسهم أحياناً ، إذ يحب الواحد منهم يدون ديوان لأشعاره ، ثم هو بعد ذلك يودعه صندوقه لا يريغ أن يطلع عالمه عليه ، ولا يحاول أن يضيف به إلى الذخيرة العربية درة أو عقداً ، فهو يهرع إليه في ظلمات الليل إذا ألم به أرق ، وهو يحتضنه ساعة فراغه إلى صدره ، ليثبه جديداً من الشعر والألحان ، أو ليردد ما على صفحاته من أنغام وأوزان .

وهنالك من الأسباب ما حدا بالشعر الكويتي لأن يكسب هذا الحظ القليل من الشهرة والبحث والإكبار ، فإن الكويتي بحكم بيئته وفطرته دائب العمل والجد ، فإن كانت لديه الملكة الشعرية أخذ من نظم الشعر حلية يتحلى بها ، وقيثارة يثبها لواعج نفسه إذا هزه الشوق إلى اللحن أو رفرفت حوله الذكريات .. وهذا فريق من شعراء الكويت ، إذ يوجد أفراد على غير هذه الشاكلة . والذي لحظته أن الكويتيين يعتبرون من كانت له هبة الشعر بعمله التكسبي الأصلي قبل أن يعتبروه شاعراً ، ولعل الشاعر لا يحاول أن ينال أكثر من ذلك ، وكل هذا على عكس ما في مصر مثلاً ؛ ففيها متفرغون للأدب كما أن الصبغة الأدبية تغلب على صبغة العمل التكسبي في الأدباء ، فقد تسأل المصري مثلاً عن أديب معروف ، فلا يعرف عنه إلا أنه أديب ، أما وظيفته في ديوانه ، فهنا ما لا يحس به وما لا يسعى إلى معرفته في أغلب الأحوال .

ومن هذا نستنتج ميزة جليلة من ميزات الشعر الكويتي ، فقد خلا من التكلف ، لأنه ليس المهنة الوحيد للشعراء ، ولأنه هو الذي يدفعهم إلى نظمه في وقت فراغهم أو في فراغ مناسباتهم ، ولأنهم لا يفكرون فيمن عسى أن يستمع إليه أو يبحث فيه .

ويتعطش الشعب الكويتي لكل نتاج جديد من الشعر ، ولا يلاقي الشاعر الناشئ كثيراً من التعب في سبيل الشهرة إذا كان شعره جيداً يستهوي الألباب .

والشعر الكويتي خير ما يعبر عن نفسية الكويتيين ، وهذه النفسية قد يستعصي فهمها على عابر ، لأن أعظم صفة يتصف بها الكويتي الجمود والبرود ، وهم في ذلك يتشبهون إلى حد كبير بالإنجليز ، وبذلك فالشعر طريق مختصر لأحب لفهم تلك النفسية المتعة المراسة في عالم النفسيات ..

والشعر الكويتي يخلو من السرقات ، وذلك لأن أكثره متداول بالرواية على طريقة الشعر الجاهلي ، فيسهل على الكويتي ملاحظة السرقة ووضع صاحبها في قفص الاتهام ، وبذلك يخشى كل شاعر أن يسطو على شعر سواه من الشعراء ، ثم إنه لم يتكسب بشعره إلا في النادر ، فلا حاجة به إلى السرقة .

ويمتاز الشعر في الكويت بأنه من خير الأشعار العربية الأخرى من حيث عدم التكرار ووضع كل كلمة ذات معنى خاص بها ، وهو بهذه الميزة أدنى الأشعار العربية إلى الشعر الجاهلي في هذا الصدد ، ولعل ما يجعل ذلك سائداً وسهلاً أن الكويتيين يفهمون العربية ، بل ويستعملون في كلامهم بعض الكلمات الفصحى ضمن لهجتهم ، فصار من السهل عليهم أن يتفهموا الأشعار ويرددوها بسهولة ويسر ..

والشعر الكويتي خير ما يمثل لك التطور منذ النشأة إلى الحاضر ، بل ويعدو بك إلى المستقبل ، كما يمثل لك الفكر ونضجه والتأثرات التي طرأت في ذلك الفكر ، ولو هيئت له الحرية التامة لرأيته صورة صريحة للنفس لا شبة

فيها ولا خدش بها ، وهـذه الصراحة هي ميزة من ميزات نفسية الشعب الكويتي .

ويستفيد الشعر في الكويت من كل نهضة حوله ، ويتلون حيث أثر فيه الجديد ، فهو أميل إلى التجديد دائماً ؛ وتلعب النهضة الأدبية في مصر دورها الخطير في هـذا التلون والاستفادة في الشعر الكويتي ، كما تلعب فيه النهضة الأدبية في العراق والمملكة السعودية وسوريا والبحرين ؛ ولعل الشعر في الكويت يفيد أهله في هذا الصدد أكثر مما يفيدنا الشعر في مصر والعراق مثلا ؛ ذلك لأن الشعر الكويتي يستفيد من النهضة التي تدالف في قطره ، وتزيده استفادته من النهضات العربية الحاضرة إفادة ليثه ؛ ولتبيان ذلك أقول : إن الشعر في مصر مثلاً لا يتأثر بنهضة الكويت أو البحرين أو الحجاز بقدر ما يتأثر الشعر الكويتي بها وبالنهضة المصرية الأدبية ؛ وذلك لأن هذه النهضة الأدبية في مصر من المكانة والمتانة بحيث تلهي الشعر في مصر عن أن يتجه صوب الأشعار الأخرى ليتلون منها إلا قليلاً ، كما أن الشعراء الكويتيين أكثر من سواهم اهتماماً بتتبع تلك النهضات العربية المجاورة وجني ثمارها ناضجة يانعة ...

ومن عوامل رقي الشعر في الكويت انتشار الثقافة والعلم ذلك الانتشار الواسع وتعدد المدارس وملاقاة التشجيع والبيئة الخصبة لتلقي كل ما ينتجه الخيال لتحويله إلى الحقيقة ، وما تنتجه الحقيقة لتحويله إلى التطبيق العملي ، كما لا ننسى أن لسمو أمير الكويت اليد الطولى في تشجيع الشعر على النهضة والرقي ..

.. والاتزان والمغالاة ميزتان كثيراً ما نلقاهما في الشعر العربي المعاصر ، وهما يظهران جلاء في الكويت ، بيد أن المغالاة أتت من الشعراء الذين اندمجوا في الحضارة والنهضة العربية الخارجة عن بلدهم ، فصدمهم الإعجاب بها للانفجار كالبركان ، كما لا ننسى أن هـذا الفريق المغالي أغلبه من جمهرة الشباب ، وللشباب حيوية فيها بعض الطيش والاندفاع ، وفيها قوة وحرارة ، ولو نحنا في الطيش والاندفاع والقوة والحرارة في شعر الشباب الكويتي ، لعرفنا أن الكويتي دائماً يكسب حماسته شيئاً من الرزانة والتعقل ، تريغ حرارة الشباب أن تمنيهما فيصطرعان ولا يصرعان ، ومن ثنايا هذا الصراع نشأت السياسة الشعرية التوجيهية التي يقلب بها شعر الشباب الكويتي الدنيا رأساً على عقب ثم لا تستطيع أن تأخذ عليه مأخذاً ..

والناسيات مسرح منبسط لنتاج الشعر الكويتي ، فيها تشحذ الألسنة ويهبط الوحي وتتغني الشفاه ، ومن الشعراء الكويتيين من يقتفي أثر شاعر مجيد ويدالف على مناهجه ، ومنهم من يعدل خطته ، ومنهم من يجدد ومنهم من يجنح إلى القديم ، ولو قورن الشعر في الكويت بشعر جزيرة العرب لكان له مكان مرموق ؛ ومع أن الكويت متصلة باللغة الهندية والفارسية وسواها من اللغات الأجنبية ، إلا أن ذلك لم يكن له أثر بين في الشعر هنالك ، ولكن أثره بدا جلياً في اللهجة الكويتية ، وبالتالي في الأدب الشعبي وإن كان طفيفاً ؛ وقد ساعدت الفطرة شعراء الكويت كل المساعدة ، وأذكر أنه منذ أعوام طغى الشعر في الكويت على النثر حتى كانت الخطابات الودية بين الخلان والخطب الرنانة في المجتمعات كلها قصائد شعرية من الجزل المتين ، وقد اتخذ بعض الدجالين الذين رزئت بهم الكويت فيما مضى من الشعر سبيلاً لتمويه العقائد والمذاهب والمدارك ، مرتكنين على ما للشعر من أثر وتأثير في النفوس ..

والشعر الحديث في الكويت شعر ينتزع من بين الأشعار العربية مركزاً سامياً ؛ فقد لفظ الأغراض التافهة ، وانخرط في سلك رائع تحوم حوله حمائم القوة وتنشده ألسنة الشباب وترضعه أثداء المدنيـة وتمده النهضة والنضج العقلي بروح الثورة وروح الحياة .

ولم يبد الشعر الكويتي كله جانحاً إلى نواحي القوة والحماس ، بل إن هنالك تحت سماء الكويت شعراء بؤساء ، أرضعهم البؤس لبناً ، وغذاهم اللبن بؤساً ، فسكبوا الدمع الهتون ، وجاشت صدورهم بأحاسيس الشقاء ، واندلعت ألسنتهم وقد أحرقتها جمار الفاقة لتقول شعراً دامعاً (مافيظي) البؤس تثخنه الجراح ...

.. ولم تكن في مؤتنف نشأة الشعر الكويتي وسائل

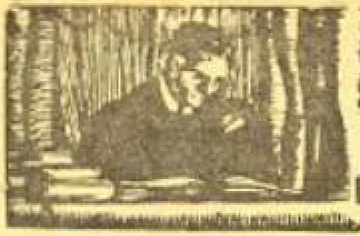
حديثة للذيوع والانتشار والانتقاد ، فكان يدلف على الطريق الذى رسمته الشاعرية العربية فى الجاهلية عن طريق الرواة وغيرهم ، حتى قيض الله للكويت تلك النخبة الكريمة التى ألفت (النادى الأدبى الكويتى) منذ سنوات ليست بالكثيرة ، يحتشد فيه نوابغ الشعراء والأدباء والعلماء، ليلقوا المحاضرات وليضربوا بأناشيدهم وشعرهم على أوتار القلوب ، فتهتز من ثمل ، وتتحول الأبصار فى أنحاء النادى تبحث عن علة الثمل ، فإذا بها فى الألسنة المشحوذة والشفاه المتلاعبة تنفتح وتنطبق على خمر تستلذ منها الآذان عن طريق السماع لا التقبيل ...

وفاحت من النادى الأدبى هذه النفحات ردحاً من الزمن ، ثم انمحى ليفسح لسواه من الوسائل سبيل البدو إلى معترك الحياة ، وتكونت على أنقاضه (الديوانيات) أى (الصالونات) ، وفى كل ديوانية منها يجتمع فريق من الأدباء والشعراء ليتدارسوا كتب الأدب وليتغنوا بأغاريد شعرهم ، فيتناشدونها وتسرى مسرى البرق فى أوساط الكويت ..

والملحوظ أن النهضة والحركة الفكرية حينما تطرقت إلى الحياة الكويتية سرعان ما تغلغلت فى أعماق الشعر الكويتى ، ولتبيان ذلك تحليل نفسانى .. فقد هاجر آل الصباح من موطنهم حتى استوطنوا الكويت ونعموا بها ووجدوا فيها دفء السعادة والاستقرار ، فاصطدمت نفوسهم بتلك النعمة والفرحة وألفوا أنفسهم يتنسمون الحرية ، فانتقلوا بذلك من حياة إلى حياة ومن مسئولية إلى مسئولية ، وانطبعت النفوس الكويتية بطابع التشوق للانتقال من الخمول إلى النشاط ومن الموت إلى الحياة فى لحظات سريعة ؛ وذلك لأن هذا الانقلاب الذى ذكرته فى حياتهم لم يستلب من الأيام دهوراً عديدة ، وإنما كفته الأعوام الطفيفة ..

أحمد طه السنوسى

نقد الكتب



حولية الثقافة العربية

السنة الأولى (١٩٤٨ – ١٩٤٩)

أصدرت الإدارة الثقافية (حولية الثقافة العربية — السنة الأولى ٤٨ — ١٩٤٩)، وهي من وضع وتصنيف سعادة العلامة الأستاذ ساطع الحصري بك، مستشار الإدارة. ولاشك في أن هذا العمل هو الأول من نوعه في مضمار الثقافة العربية العصرية، ويعتبر بحق كما قال الأستاذ المؤلف في مقدمته (افتتاحاً لسلسلة الحوليات التي ستنشرها الإدارة الثقافية للجامعة العربية عن شئون الثقافة العربية كل عام). ويقع الكتاب في ٦٢٣ صفحة من القطع المتوسط وينقسم إلى قسمين — الأول في المعاهد التعليمية، والثاني في المعاهد الثقافية الأخرى.

وقد بدأ القسم الأول باستعراض تاريخي للنظم والمناهج الثقافية في الأقطار العربية قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها، وهذا العرض التاريخي ذو أهمية بالغة في شرح التطور التاريخي للمناهج الدراسية في العالم العربي. وعقدت الحولية بعد ذلك مقارنات عامة، تناولت مدة الدراسة الابتدائية والثانوية، وأقسام المدارس الثانوية وفروعها، وساعات الدراسة الأسبوعية، ومناهج الدراسة الابتدائية والثانوية، ومناهج معاهد التعليم العالي ومعاهد إعداد المعلمين والمعلمات ولغة التعليم في مختلف المدارس، والتعليم المختلط، والطلاب العرب في مختلف الأقطار العربية.

وتناولت الحولية في الفصول التالية شرح مختلف مظاهر الحياة الثقافية في كل دولة من الدول العربية التالية: المملكة الأردنية الهاشمية، الجمهورية السورية، المملكة العراقية، الجمهورية اللبنانية، المملكة المصرية، مبتدأة بخلاصة إحصائية عن السنة الدراسية ٤٧ — ١٩٤٨ لكل منها، وموردة نبذة تاريخية وإحصاءات التطور الثقافي، ثم متحدثة عن الأحكام التشريعية والنظم الإدارية، ومحصية المعاهد التعليمية، من مدارس أولية وابتدائية وثانوية وخاصة وعالية وجامعية وشعبية الخ...

وأما عن القسم الثاني فقد تناول الحديث عن المؤسسات العلمية والثقافية، مثل الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، والمجامع العربية في دمشق وبغداد والقاهرة، والمؤتمرات العربية ودور الكتب. والحولية تذييل اشتمل على إحصاءات التعليم عن السنة الدراسية ٤٨ — ١٩٤٩ في الأقطار العربية.

ولا مشاحة في أن هذه الحولية تعتبر مرجعاً عاماً للباحثين والدارسين والمهتمين بتطور الشئون الثقافية والعلمية في البلاد العربية. ولقد تولت الإدارة الثقافية أمر توزيع نسخ منها على وزارات المعارف والجامعات والمكتبات العامة ومكتبات المعاهد العليا والمدارس الثانوية في الأقطار العربية المختلفة، كما وزعت منها نسخاً على الصحف العربية والهيئات الدبلوماسية والقنصلية العربية في مختلف الأقطار والمؤسسات الثقافية من نواد وجمعيات في البلاد العربية وخصوصاً الأمريكية.

وفضلاً عن ذلك، فإن الإدارة الثقافية معتزمة عرض عدد من نسخ هذه الحولية للبيع لمن يشاء من المهتمين بشئون الثقافة وطلاب المعرفة، كما أنها ترحب بمن يشاء من الباحثين الذين يرغبون في الاطلاع على النسخ المعروضة للزائرين بمبنى الإدارة.

نشر مخطوطة تاريخ الموصل

علمت الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية أن المجمع العلمي العراقي ببغداد قرر نشر مخطوطة تاريخ الموصل لابن زكريا بن محمد المعروف بابن إياس الأزدي. وقد باشر فعلاً بإعداد المسودات للطبع، وهذا الكتاب من الكتب القيمة التي تظهر نواحي مفيدة من تاريخ مدينة الموصل تلك المدينة التي كان لها شأن ثقافي وسياسي مهم.



ماين شـــاتز

للأستاذ أحمد بدران

ماين شاتز ، عنوان هذا الرسم . هـذه رسوم الغلاف للكتب التى ألفتها . الذى هناك أنت تذكره . وربما هذا أيضاً . أما الذى تنظر إليه فله شأن عجيب ، إنه لم يتم كما ترى . إن وراءه قصة .

قابلتها فى باريس ، وكنت أسكن فى مونبارناس ذلك الشتاء ، أضع كتاباً ، وتعودت أن أعمل طوال اليوم فى ساعات محدودة ، من التاسعة إلى السابعة وربما الثامنة ، ثم أتناول عشائى فى هدوء وآوى إلى فراشى مبكراً ، وقد أذهب مرة فى الأسبوع للرقص ، وفيما عدا ذلك لم أحد عن هذا النظام .

وكنت أتعشى دائماً فى نفس المكان ويدعى « القبة » ، وكان فى ذلك الحين أنيقاً وله جو خاص (لقد فسد الآن ، أعيد بناؤه ، وصار كبيراً) . وتعودت أن آكل وأمامى جريدة أو كتاب ، لكنى أحياناً كنت أتعب من القراءة ، فأراقب الناس ، وهكذا عرفت كل المترددات على المطعم . كانت دائماً مع نفس الرجل ، كان بورجوازياً فى منتصف العمر ممتلئ الجسم ، أما هى فصغيرة كعصفور الجناء ، وشعرها بنى ولها وجنات مستديرة وذقن صغير مدبب ، وفم صغير ممتلئ مصبوغ فى مثلثات ثلاثة ، اثنين صغيرين للشفة العليا وواحد كبير للسفلى .

ولم يكن حضورهما معاً ، ومن الجلى أنه اتفاق ، حرصا على أن يكون سراً ، ومن الجلى أيضاً أنهما بدءا يشعران بالملل ، فعندما كان يتحدث تنقر هى بأصابعها على المائدة ، وأحياناً تدع نظرتها تطوف حول القاعة حتى تلتقى بنظراتى فتلتقى أنظارنا برهة ، ثم تدير نظرها مرة أخرى ولا تزيد عن ذلك ، فقد كان لدى عملى ، ولم أكن لأسمح لشىء بأن يعوقنى عنه .

ومضت الأسابيع ، وكنت دائماً أرقبها فى العشاء ، والآن حين تلتقى أنظارنا يتراءى شبح ابتسامة على مثلثات شفتيها القرمزيتين ، ولم يلاحظ الرجل شيئاً ، وفى الأمسيات التى لا تحضر فيها كنت أفتقدها ، أفتقد تفاهمى معها ، فقد كنت وحيداً أعمل طول اليوم ولا أرى أحداً .

* * *

وذات ليلة حين أخـذت قلمى وأوراقى بدل الكتاب ومضيت أعمل أثناء الطعام ، كانت الفتاة وحدها ، وفى تلك الليلة لم تقع نظرتى على نظرتها ، وفى الليـلة التالية كانت وحـدها أيضاً ، وكان الجو بارداً وهى ترتدى معطفاً من الفراء الرخيص ، وكان من الواضح أنها لا تنتظر الرجل ، وبرغم أنها كانت شاعرة باهتمامى بها فلم تسمح بأن تقع عينى على عينها ، وفى طريقى إلى الباب مررت قرب مائدتها فنظرت إلىّ ، وأمسكتُ الكرسى الذى أمامها وقلت : « هل يُسمح لى ؟ » فقطبت وجهها ، ولكنى جلست .

كانت تعبث بغصن أزهار من اللآلئ ، حبات بلورية منظومة فى سلك ، وكانت حلية رخيصة عادية منتشرة فى باريس ذلك الشتاء .

يذكر الإنسان جيداً أول مقابلة له مع امرأة ، وآخر

مقابلة ، وربما واحدة أو اثنتين ما بين ذلك ، وفي تذكري لماين شاز أرى هـذه الأزهار من اللآلئ ، ومازلت أستطيع إذا ما أغمضت عيني أن أتمثل في خيالي بريقها وهي تقلبها في يديها الصغيرتين البضتين ، وتحدثت مترددة في لغة فرنسية سقيمة تشوبها لكنة وسط أوربا ؛ وكانت وهي تتحدث تقلب هـذه الحلية ، وكانت جديدة ولكنها لا تقدرها ، وربما كانت هدية الرجل الأخيرة ، وما زالت تلوى الأزهار حتى كسر السلك وتساقطت حبات اللؤلؤ على المائدة ، فجمعتها في كوم ومضت تعبث بزهرة أخرى .

وكانت من قبنا — هكذا أخبرتني — وتدرس الرسم في باريس تحت إشراف لوت ، وناقشنا في نظريات مشغيه ، قلت إنه من الخطأ أن تعمل في مرسمه وقتاً طويلاً ، فقد كان تلاميذه دائماً معروفين باستخدام التركيز والتكلف ، واستمعت في جد مدة كافية ثم اعتدلت في جلستها :

— ما هي معلوماتك في الفن ؟.

— إنني أرسم ... أحياناً .

— ظننتك كاتباً .. فأنت دائماً تقرأ .

— إنني أكتب فإذا لم أستطع رسمت .

فأدارت زهرة الجواهر وقالت :

— أنا أرسم فإن لم أستطع أحببت .

— هذا شيء جميل .

وكسر سلك زهرة أخرى وتساقطت حبات على المائدة وقالت : إني أتعجب .. هل ستحب بعضنا .

وكان مرفق بجانب مرفقها : « ماذا تظنين أنت ؟ » .

— لا أستطيع أن أعرف بعد .

— هل تتمنين ذلك ؟.

فنظرت إلى فجأة ، وكانت عيناها البنيتان مرحتين وبدأت تضحك ، وكان من الظاهر أنها لا تتجاوز الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين . وتحدثنا . ولم تكن تستطيع تحمل الجد طويلاً ... وظهر التأفف على خـدم المطعم ، وكان حقاً أن نطلب شيئاً آخر أو تنصرف !

على المائدة وسط الفتات كانت مجموعة من الحبات ، بقايا غصن من اللآلئ وأزهار .. ذلك في ذاكرتي أول منظر من قصة ماين شاز .

●●●

لقد صممت ألا أدع شيئاً يحول بيني وبين عملي في ذلك الربيع ، ولكنها قطعت بالطبع ، وقررت أن أكون قوياً ولكني ضعفت .

— ألا تأتي معي نمر على واجهات المتاجر في شارع لابويه هذا الصباح ؟ .

— ليس هناك ما يستحق أن نراه .

— إذاً تعال نتمشى .

— إن علي أن أكتب .

— الأيام الأولى للحب الجديد جميلة . جميلة جداً .

— ذلك ما أعتقده .

— ومن السخف أن نضيع الوقت داخل الأبواب والشمس مشرقة ..

— إن لدي عملاً يجب أن أؤديه .

— أعرف ذلك ، لكن في البداية يجب أن تضحى .. ستجد وقتاً طويلاً لكتابتك السخيفة فيما بعد .

— إنك لا تهتمين برسومك على ما يبدو .

— إنك لا تهتم بي . هذا كل ما في الأمر .

كنا في الحجرة الصغيرة التي تتخذها مرسماً وقد أتيت لأبحث عن مسودات التي تركتها في الليلة السابقة ، وكان في الحجرة منضدة ، ومدفأة ، ولوحة رسم ، وكوم من القماش للرسم ، وثلاثة كراسي ، ونحن . لو دخل شخص آخر لضاقت به الحجرة .

— إنك لا تهتم بي .

لم أكن لأقبل التهديد ، وبقيت واضعاً يدي في جيوب معطفي .

— لم أدع يوماً عكس ذلك .

— وهـذا مؤلم ... يجب أن تتظاهر قليلاً بحبي .. وإلا كان الأمر سيئاً .

ولكني لم أعترف بأني أهتم بها : « هذا شيء يهمك .. يهم النساء ، فليس عندهن سواه . إن لدي كتاباً أكتبه » .

— أتحب الكتابة إلى هذا الحد ؟.

— نعم .

وكنت واقفاً ، متصلباً ، عابساً ، وخيل إلى أنني شخصية خيالية . كنت مصمماً على أن آخذ المسودات وأن أعود إلى حجرتي وأكتب .

قالت : إلى هـذا الحد ؟ وكانت يداها على كرسيّ ثم زحفت إلى كتفيّ ، وكانت صغيرة وخدها يقابل مرفق ، وأجبت دون أن ألين : « نعم » . فجلست فجأة على طرف المنضدة واعتمدت ذقنها على يديها . كان وجهها مستديراً بائساً وقالت : « إنى حزينة ... حزينة جداً » .

— لأنك لم تنالى ما تبتغيه !

— كلا ليس لهذا السبب .

— فلم إذاً ؟

وأخرجت يدى من جيبى ... لقد بدأت ألين .

— دائماً يحدث ذلك لى ، الرجل دائماً لا يهتم . وأنت ! إنك لا تكلف نفسك حتى عناء التظاهر بحبى .. كنت أظن الأمر مختلفاً فى هذه المرة . أنت أفضل من الآخرين . آه لو اهتممت بى . إن الحياة لقبيحة إذا أحببت هـذا ثم هذا ثم ذاك ... إن الفتيات اللاتى نشأن معى قد تزوجن زواجاً محترماً .. ولكن هأنذا .

— كنت تستطيعين الزواج على ما أظن .

أردت أن أعود إلى كتابتى فكنت فظاً .

— ظننت أنى أختار حياة أكثر حرية ، من الجائز جداً . إنى لا أعنى كثيراً بالفن ... إنها حياة الفنانين تلك التى أردتها ... لقد سمعت عنها كثيراً فى جراتز (تلك كانت المرة الأولى التى علمت فيها أن قولها أنها من فيينا ادعاء) .. ولقد رأيت أنت ما أرسمه .. ليس فيه أى نفع .

كانت تنظر إلىّ ، وأصابعها تتحرك على خديها المستديرين

— أريد أن أكون معك .. إنى متخمة بالعمل ، واليوم أريد أن أركض معك .. أريد أن أتعلق بذراعك .. وأمشى معك فى الشمس . كيف يستطيع الإنسان أن يقاوم مثل هذا الشىء .

تحركت إلى الجانب الآخر من الغرفة إلى الكرسى الكسيح . كنت قد بدأت أضعف ، وبالطبع عرفت أنى أضعف ، فقفزت ووضعت يدها داخل معطفى وأخرجت قلمى من جيب بذلتى : « ستأخذنى إلى الخارج ؟ »

كانت تعلم أنها انتصرت . وتركت مسوداتى على الكرسى الأعرج وانتظرت حتى أحضرت قبعتها وتركتها تمسك بذراعى تقودنى ... وذهبت . وكان قلمى الذى أخذته موضوعاً مع المسودات على الكرسى إلى جانب الموقد .

وفى ذلك المساء ، بعد العشاء ، حين عدت لآخذه ، كان ملقى على الأرض — ولا أدرى كيف — محطماً وقد انسكب منه الحبر ، وما زلت أستطيع أن أرى قطع القلم المحطم على الأرض تحوطها بقع الحبر الجاف ...

وهذه الصورة منظر آخر من قصة ماين شارز .

•••

أحرقت شمعتها من الناحيتين ، وكانت هـذه مأساتها . كانت تريد أن ترقص طول الليل ، وتريد أن ترسم فى معهد لوت ، أو فى مرسمها الصغير من العاشرة إلى الخامسة ، ولو كانت تنام بعد ذلك لهان الأمر ، ولكن كان هـذا هو الوقت الذى أكون بلا عمل ، وكانت تريد أن تكون معى فلم تكن تستطيع أن تنام إلا قليلاً ، ولم تكن تنال كفايتها من الطعام ، كان يأتيها بعض المال من عمة فى جراتز ، لكنه لا يكاد يفى بأجر حجرة نومها ومرسمها وثمن الأصباغ التى تتطلب مالاً حتى فى باريس ، والملابس التى لا تستطيع شراءها . كانت تنالها هدايا ، وكانت تغسل ثيابها بنفسها فى دلو . وكانت تتغذى بالخبز الجاف والقهوة ، وتتعشى معى وتنسى أحياناً أن تفطر . ولو كانت فتاة أقل حيوية منها لانهارت ، لكنها كانت تتمتع بقوة كامنة تعيش عليها ، وفى النهاية استنفدتها حتى لم يبق منها شىء .

•••

قضينا عطلتنا معاً ذلك الصيف فى قرية على شاطئ نهر مدوزى ، وكنت أقضى الوقت فى صيد السمك ، وتجلس هى على الشاطئ ورأسها بين يديها تراقبنى ، وكان الجو حاراً ، وبعد الظهر كنا نستلقى فى الظل جنباً إلى جنب ، وكنا سعداء ، ولا شىء يعكر صفو هدوئنا ، وأحياناً كانت ترسم فى كسل ، وأحياناً كنا نتحدث عن الكتاب الذى سأنشره عنها ، كانت تقول إنى لن أكتبه يوماً ، وأقول لها إنى سأفعل . وتقول إنها ستضع رسماً لغلافه ، وأقول إنها أكسل من أن تفعل ، برغم أنه لا يأخذ منها إلا عمل ساعة ، وكنت أرغب فى قضاء الصيف كله هناك إلى أكتوبر ، لكنها فى منتصف أغسطس بدأت تسأم المكان وتحن إلى الصخب والرقص والموسيقى ، وأرغمتنى على أن نرحل إلى بياريتز ، وكان المستوى هناك غالياً ، وكنت أصرف أكثر مما يجب ، ولا أكتب شيئاً ، فأحسست أنها مضيعة للوقت

والآل .. فكنت دائماً أقول إنى لن أخرج الليلة ، إذا ما فرغنا من عشائنا فى المطعم الذى نهوى على تكاليفه ! فإذا ما ألحفت فى الرجاء تشبثت برأيى وضممت ذراعى فى عبوس .

●●●

وأحسسنا بالنهاية تقترب . وكنا خائفين ، وذات ليلة ما زلت أذكر تجوالنا على الشاطئ ، ثم جلسنا على الصخور وسألتنى : « أما زلت تحبنى ؟ » قلت : « نعم » .

— أحقاً ؟ .

— نعم حقاً .

— أما بدأت تسأمنى ؟ .

فطوقتها بذراعى فسكتت قليلاً ثم قالت :

— إنه لا يدوم إلى الأبد .. هذا هو الحزن .. ولا أريد أن أبقيك إذا أردت مفارقتى . إن البقاء بعد زوال الحب هو الذى يجعله بغيضاً .. عدنى بأن تخبرنى ساعة تسأمنى .

وانحنيت لأجعل وجهى إلى جانب وجهها وتحدثنا فى موضوع آخر . لكنها قالت :

— أريد بعض الأوراق ، فمزقت لها أوراقاً من كراسى وصنعت منها قاربين فقالت :

— الآن نحطهما فى الماء جنباً إلى جنب ، أنت تأخذ هذا وأنا آخذ الثانى ، لا ندعهما يتلامسان ، ضعهما بعيدين بهذا المقدار ، والآن دعهما .. ونستطيع أن نرى أيهما يفارق الآخر ... ووقفنا نرقبهما وأصابعنا متعانقة ، وسبح القاربان ، وكانت الليلة هادئة مقمرة ، واضطربا قليلاً ثم دفعت موجة بقاربى فبدأ يمضى بعيداً . قالت .. أترى .. إنه قاربك ، ذلك يعنى أنك ستفارقنى ..

قلت لها : إن هذا عبث تافه ، لكنها أصرت على قولها ، وأمسكتها بقوة كأنما لا شىء يقوى على أن يأخذها منى ، وكان فمها الصغير شهياً .

وبعد فترة طويلة حين أعدنا النظر كان قاربى قد غاب عن ناظرينا ...

وفى تذكرى لماين شاتز ، أرى صورة قاربين صنعا من أوراق كراسى يسبحان جنباً إلى جنب ثم يتباعدان ... ذلك منظر آخر من قصة تلك الأيام .

●●●

ولكنى أحسست الملل وأردت أن أخلو إلى نفسى لأتم كتابى ، واتفقت هى رجلاً صارت تتمشى معه على الشاطئ ، فلما علمت بذلك ثرت فقالت : « ولكنك لا تحبنى » .

— إذا ما سرت فى هذا الطريق .

— كنت أعلم أنك ستسأمنى . هكذا كنت أقول دائماً .

— إنى لم أسأمك ولكن لدى عملاً يجب أن أؤديه .

— إنك دائماً غضبان علىّ .

— لأنك لا تحسنين السلوك .

وفى ذلك المساء على مائدة العشاء لم نتحادث ، وانهمكت فى تصنع ، وبعد أن تناولت القهوة تمشيت قليلاً وحدى ، ثم أويت إلى مخدعى .

وفى الصباح التالى بينما كنت أتناول إفطارى بجانب النافذة المفتوحة جاءت إلىّ واتكأت على حاجز النافذة وتنفست نفساً عميقاً وقالت : « اصغ إلىّ ... لقد خنتك فى الليلة الماضية ، لقد رأيت أنك يجب أن تعلم » .

فقفزت قائلاً : ما ذا تقصدين ؟

فقالت وهى تنصرف مسرعة : لا شىء إلا ما قلت لك .

وارتديت ملابسى ومضيت إلى الطريق وكنت أغلى غضباً ، وصممت أن أسافر وأخلى لها الطريق ، ولست أعبأ إن ماتت من الجوع ، ولكنى أحضرتها من باريس ولا بد أن أرى أنها تستطيع العودة ، فاشتريت تذكرة وتركتها لها مع بضع مئات من الفرنكات فى ظرف وحزمت أمتعتى ودفعت حسابى ومضيت .

●●●

ستة أعوام مضت لم أسمع عنها شيئاً ، ثم أرسلت إلىّ من سويسرا ، لقد كانت تحرق الشمعة من طرفيها مدة طويلة فاستنفدتها ، وكانت تستشفى وتستفيد من العلاج ، وقالت إنها ترجو أن يتم شفاؤها قريباً ، وأن أكون قد بدأت كتابة القصة عنها ، وتأمل أن ترسم الغلاف لها حالما تسترد صحتها . وأجبت : إنى لم أبدأ كتابة القصة وتمنيت لها الشفاء ...

وبعد عامين كتبت إلىّ ، من ستوتجارت هذه المرة :

« يا عزيزى ، أنا أقطن الحجرة رقم ٢١٣ فى هذا المستشفى ، وهى صغيرة كحجرتى فى باريس ، لكنها نظيفة ،

الشتاء

هاهنا في هذه الغرفة في هذا المساء
في جوار الموقد اللهفان وهاج الضياء
والفراش الدافئ النشوان من حر اللقاء
والهوى الصارخ الظمآن يسرى في دمائي
سوف ننسى ثورة السحب وإعصار الشتاء

• • •

آه من عينيك من صمتك من هذا الحياء
من شباب حار في خديك مشبوب النداء
من قوام رائع الطلعة فتان الرواء
أين منك الآن يا حسناء وصف الشعراء
فتنة أنت لأهل الأرض من أهل السماء

• • •

إن يكن في خارج الغرفة برد ورياح
وللموج الخضر والشطآن غشاها النواح
في السما غضبة جبار وفي الأرض جراح
لم يعد يصدح عصفور ولم يخفق جناح
فهنا أنت . ومن أنت ؟ من الصيف صباح

• • •

ما علينا إن طغى الليل وماجت ظلماته
وثوى العصفور في العش وغامت نظراته
لفه رعشة مقرور تهاوت نبراته
أخرسته ثورة الريح فجفت نغماته
ما علينا والصبا ملك يدينا رغباته

• • •

ما علينا إن طغى الموج على الموج جبالا
ورأى الملاح في اليم من الموت ظلالا
حارت الدفة في كفيه يأساً وضلالا
الرياح الهوج لفته يميناً وشمالا
والغيوم السود غطته فما أبقت مجالا

• • •

ما علينا إن توارى البدر في السحب وغابا
وتولت أنجم الليل فراراً واحتجابا
واستحالت هذه الدنيا ظلاماً وضبابا
فلتكن ليلة هول لم تدع للصبح بابا
نحن أعددنا لها الحب وقاء والشبابا

• • •

نحن روحان طليقان تآلفنا حنانا
الني ملك يدينا والرضى ملء نهانا
ما علينا . سعد العالم أم لاقى الهوانا
هذه الغرفة دنيانا مكاناً وزمانا
لم يعد في هذه الدنيا من الناس سوانا

(اسكندرية) عبد العليم محمد القباني

نظيفة جداً ، لا غبار ولا صور ولا ألوان .

« إني مقبلة على الموت ، ويقولون إنه قد بقيت لي أربعة أيام أو خمسة ، وأريد أن أرسم غلاف الكتاب الذي ستكتبه عني فيكون ذكراي الوحيدة ، ولكنهم لا يسمحون لي بذلك ، ولكني أقول إنه مادام الموت مني قريباً فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً .

« إليك حبي » . (شارز)

وأبرقت إليها .. إني كنت أود أن أحضر لرؤيتها لولا أني لا أستطيع ، وبعد عشرة أيام جاءتني لفافة عليها خاتم المستشفى ، وداخلها كتاب من إدارته .. إنها لم تتم الغلاف قبل موتها ، لكنها طلبت أن يرسل إلي ، وكان هناك أيضاً خطاب منها .

« ياعزيزي : إني ذاهبة ، لكن أريد أن أقول لك شيئاً ... لم أخنك في تلك الليلة في باريز .. إنك الرجل الوحيد الذي لم أخنه قط ... لكني رأيت أنك قد تعبت مني وأردت أن أكون البادئة بالانفصال لا أنت .

« صدقني . فليس هناك من سبب يدعوني أن أكتب إليك هذا لو لم يكن ذلك حقاً .

« اذكرني في بعض الأحيان » (شارز)

هذا الكتاب هو الفصل الأخير من القصة ، إنه هناك في أحد الأدراج .

وهناك على الجدار .. الرسم .. الرسم الذي لم تتمه .. للكتاب الذي لم أكتبه : ماين شارز .

أحمد بدراته

من ديوان خفقات قلب :

الشتاء

نشر الشتاء على الطبيعة
سجفاً من السحب المنيعة
سوداء حالكة الجبـ
ـين ... كأنها ليل القطيعة
أو قلب مقترف الذنو
ب يرى الخداع له شريعة
يبكى .. بمقلة نادم
سحّت مآقيه .. دموعه

• • •

سحبٌ يسخّرها الشتا
... كفارس .. يرعى قطيعه
ضرب القباب على الفضا
... فضدّ ما تهوى طلوعه
أين « الغزالة » ؟ إنها
طويت أشعتها .. البديعة
تبدو وحجبها الغما
م — كغادة الخِدْر — الوديعة
هجرت له الأفق الرحيـ
ـب — غداة قد لجت جموعه
تخشى من القرّ الذى
أشقى — بمقدمه — الطبيعة

• • •

فى كل يوم .. نستقى
خبر الربيع ... أو الذريعة
متسمعين .. لعله
يدنى لنا .. منه .. صنيعة
لكن أخبار الإذا
عة .. فى مسامعنا — مريعة
يا وعده ، من زار
تستجير أطال .. بنا .. نجوعه

(القاهرة) كيلوان جسى سند

يا دموعى

يا دموعى طهرى روحى فإنى قد أثمت
وأزيلى ذلك الرجس حنانيك ندمت
تركتنى زلتى وهماً ... وفى الأوهام عشت
يا دموعى ... رحمة الله دموع ... أنا تبت
فاغسليلى .. ودعينى طاهراً أنى ذهبت

يا دموعى أنتِ يقظات من نار العذاب
يشرب الآلام والآهات فى كأس الصبا
فإذا غنى شكا اللحن بأنغام اكتئاب
.. أنا أنكرت وجودى ... أنا حطمت شبابى
كيف أن الله موجود ولا يعلم ما بى !!

يا دموعى قلبى الغض تهاوى من ضلوعى
أين ألقاه أنيرى لى طريقى يا دموعى
إن تكونى آفة العين فأحيى .. أطلعى
أنا إن أغمضت أبصرت ... بأعصاب الصريع
ويح من يرتاح للدمع فيغنى كالشموع

أنا فى دنياى مذرُوٌّ بإعصار الرياح
يا رياح البؤس صار البشر فى عينى نواح
آه يا نفس من الآلام والهم الشحاح
أظلم الليل ... فمن يأتى بأضواء الصباح
كم من الناس طوتهم ظلمة .. ما من براح !!

كم من الناس يرى الدنيا بعين نائمه
وشم حسين يدنو البشر روح الحائمه
صعقته الحادثات الشاردات الهائمه
فإذا الإبسام رغم الشمس حالكات مظلمه
وإذا الدمع تراب وطعام يُطعمه

أنا ذاك البائس المكلوم يا ويح شعورى
أرسل الآهات من قلبى وروحى وضميرى
ويسيل الدمع من عينى لآلام الصغير
فأجازى — بئس ما أجزى — جفاء من كبير
وأرانى كضمير الغيب ... مجهول المصير

عبد الخالق الشهاوى

الناس ...

هم الناس لا زهر يفوح ويعبق
ولكنهم نبت بشوك وحلق

هم الناس لا ينبوع خير ورحمة
ولكنهم نار تهب وتحرق

هم الناس لا فجر يرف وإنما
ظلام على قلب الطبيعة مطبق

ظننت بهم خيراً فأقبلت نحوهم
يحف بآمالى شراع محلّق .

وفى أرغنى لهم نشيد معطر
وفى خاطرى عنهم مقال منمق

ولما تصافحنا غداة التقائنا
تمنيت ذعراً أن يحين التفرق

لقد روعتنى منهم ألف ضحكة
ملونة كالموت أو هى أحمق .

وكف عليها يلتوى ألف مخلب
وناب كناب الفقر أو هى أزرق

ووجه يكاد المرء يقرأ فوقه
سطوراً معانيها الخداع المزوق

وألفيت فى الناس الذين لقيتهم
خلائق بالإيمان لم يتخلقوا

وأبصرت فيهم شاعراً متملقاً
على سكب ماء الوجه يحيا ويرزق

وأبصرت فيهم كاتباً متلوناً
له كل يوم قبلة تتملق ...

وأبصرت فيهم قائداً متكبراً
إذا قال لا يرضيه فى الكون منطق

وأبصرت فيهم طاغياً متمرداً
يمص دماء الشعب لا يترفق

وأبصرت فيهم جاهلاً رغم علمه
سواء لديه شاعر ومشقشق

وأخون من لاقيت فيهم صديقهم
وأخونهم ذاك الصديق المصدق

وأقبح من أبصرت فيهم جميلهم
وأقبحهم عندى الفتى المتأنق

فمن كان يرجو الخير منهم فإننى
كفرت بهم أنى أغاموا وأبرقوا

وآمنت أن الطين طين وإن سما
به قدر نحو السماء محلق ...

وآمنت أن الحق أكذوبة الورى
وأن المثاليات وهم مزوق

وأن الديانات التى زعموا بها
على جسد الدنيا رداء ممزق .

وأن معانى الطهر أحلام شاعر
وما ثم إلا مأثم يتدفق ...

وأن محاريب المصلين مدمع
وصومعة الرهبان فخ معلق

وما المثل العليا وكل محبة
لهم غير ألفاظ تلاك وتبصق

فلا تحسبن الكون إلا رواية
يمثلها خلق غبى وأحمق

ولا ترج إلا الشر منهم فإنهم
أراقط تؤذى أو ثعالب تسرق

وكن كأخيك الليث فى الغاب سيداً
فما للضعيف الرخو فى الأرض منطق

(الاسكندرية)　　　محمد مفتاح الفيتورى



مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك | الإدارة | رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٨٥ — الاثنين ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٩ — ١٣ من مارس سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

العالم يسير أسبوعا بعد أسبوع

ملك الأفغان :

رحبت مصر بالأمس بضيف كريم ، هو صاحب الجلالة ملك أفغانستان . ولئن فرقت بين بلاده ومصر تلك المسافات الشاسعة والفيافي الواسعة ، فإن أواصر المودة والصداقة ، كفيلة أن تطوى المسافات ، وتقرب الأبعاد ، حتى ولو لم تقربها الطائرات ووسائل النقل الحديثة .

وبلاد الأفغان توصف عادة بأنها سويسرة آسيا ، ووجوه الشبه بين البلدين كثيرة ، فهى مثل سويسرة قطر تخلله الجبال العالية ، والوصول إليها من الجنوب لا يتيسر إلا بواسطة ممرات ومسالك مهدتها الطبيعة وسط الجبال الوعرة ، كما هى الحال فى سويسرة ؛ أما الوصول إليها من الشمال ومن الغرب فأيسر وأهون نوعاً ما . وهى مثل سويسرة تحيط بها دول عظيمة ، فمن الجنوب دولة الهند (مثل إيطاليا بالنسبة إلى سويسرة) ، ومن الشمال تتاخم حدودها إمبراطورية السوفييت (بدلاً من ألمانيا) ، ومن الغرب تتصل اتصالاً يسيراً ببلاد إيران كما تتصل سويسرة اتصالاً سهلاً بفرنسا .

وهى مثل سويسرة محرومة من السواحل ، ولا بد لتجارتها الخارجية أن تسلك أرض جيرانها فى الجنوب . وأهم طريق لتجارة الأفغان ميناء كراتشى عاصمة باكستان الجديدة . وفى موقعها الجغرافى هذا تفسير لتاريخها القديم والحديث . فقد ظلت فترة من الزمن تتنازعها سلطة إيران من الغرب ، وسلطان دولة المغول من الشرق والجنوب . ولكن إخضاعها بصفة دائمة لم يكن أمراً سهلاً ميسوراً ، ولم يكن متاحاً إلا فى زمن الملوك الأقوياء . فإذا ضعفت شوكتهم نهضت البلاد مطالبة باستقلالها . وقد جاهدت فى سبيل هذا الاستقلال جهاداً عنيفاً متصلاً فى غضون القرن الثامن عشر والتاسع عشر . وكانت مضطرة أثناء ذلك إلى مجاراة جيرانها الأقوياء ، فكانت تغير على الهند وإيران ، وتقتطع منهما مساحات عظيمة تحكمها وتضمها إليها فترة من الزمن . وهكذا استمر هذا المد والجزر والدفع والجذب ، حتى استقرت حدود الدولة حيث هى اليوم .

ولعل أهم حادث فى تاريخ الأفغان الحديث ، ظهور جار جديد فى الشمال ، فى إقليم لم يكن مصدر خطر للبلاد فى أى وقت من الأوقات . فقد امتد سلطان الدب الروسى إلى بلاد التركستان ، وبسط سلطانه على نهر سيحون وجيحون ، واستولى على بخارى وسمرقند ، فأصبحت حدوده ملاصقة من الشمال لحدود الأفغان . ولما كانت بلاد الأفغان هى مفتاح الهند ، عنيت بريطانيا بأن يحفظ للأفغانيين استقلالهم ، لكى تقف حائلاً دون توغل الدب الروسى نحو الجنوب . وحرصت بريطانيا فى معاهدة سنة ١٩٠٧ التى عقدت بينها وبين روسيا ، على النص بأن بلاد الأفغان خارجة عن منطقة النفوذ الروسى . وقد تقلص عهد القياصرة ، وجاء من بعده عهد البلاشفة ، ولهم برنامجهم الاستعمارى الذى يشمل

بلاداً وأقطاراً لم يكن القياصرة يحلمون بالوصول إليها . وأصبحت بلاد الأفغان فى الخط الأمامى الذى يواجه هذه الحالة الجديدة . ولا شك أن الجهود تبذل لكى تنحاز أفغانستان لأحد المعسكرين ؛ ولكن العقل والحزم يقضيان بأن تقف البلاد موقفاً محايداً .

واليوم وقد تألفت فى الجنوب دولة باكستان ، وثار نزاع بينها وبين الهند حول كشمير المجاورة لبلاد الأفغان ، جدير بهذه الدولة الكريمة أن تكون واسطة خير بين جارتيها ، وألا تميل أو تتحيز لأحد الفريقين . فإن صداقة كل من الهند وباكستان يجب أن تكون محوراً أساسياً للسياسة الخارجية الأفغانية . ولئن حدث فى الماضى القريب ما يعكر صفو العلاقات بين أفغانستان وباكستان ، فإن ما بين البلدين من أواصر القرابة والمودة كفيل أن يزيل تلك السحب العارضة . ولعل هذه الزيارة الكريمة بما تتيحه للزائر العظيم من الاطلاع على ما بين جميع البلاد الإسلامية من روابط الإخاء ، أن تكون عاملاً فى توطيد الصلات بين الأفغان وجيرانهم فى الجنوب والشرق .

بعد المؤتمر الأمريكى :

عقد الساسة الأمريكيون فى دار سفارتهم بالقاهرة مؤتمراً ضم عدداً كبيراً من ممثليهم فى جميع أقطار الشرق الأوسط ، وقد سبق لهم عقد مؤتمر مشابه فى استامبول فى الخريف الماضى ، شهده رؤساء البعثات السياسية . أما المؤتمر الحالى فلم يشهده من رؤساء البعثات سوى سفير الولايات المتحدة فى مصر . ومع ذلك فقد شهده السفير المتجول مستر جيسوب ، ولو بصفة غير رسمية . فقد أعلن قبل عقد المؤتمر أن الذين سيشهدونه هم رجال الصف الثانى من أعضاء السلك السياسى ، لكى يقوموا بدراسة التفاصيل للمسائل التى تقررت فى استامبول ، حيث رسمت الخطط الأساسية . غير أن حضور مستر جيسوب لا يمكن أن يكون من قبيل المصادفة البحتة . وهو من غير شك ليس من رجال الصف الثانى ، بل لعله يحتل فى السياسة الأمريكية مكاناً أعلى مما يحتله رجال الصف الأول فى الشرق الأوسط ، لأن مركزه يجىء بعد وزير الخارجية الأمريكية مباشرة . وهو يوشك أن يكون أبرز الممثلين للولايات المتحدة فى مؤتمرات الأمم المتحدة . وله علم دقيق بشئون الشرق الأوسط ، وبالموقف غير المشرف الذى وقفته دولته من مشكلة فلسطين .

كذلك ليس من محض المصادفة أن وفد إلى القاهرة فى الوقت نفسه ممثل الولايات فى موسكو الأميرال ألان كيرك . ولعل حضور هذا الأميرال هو الذى يفسر وجود مستر جيسوب فى الوقت نفسه . فالمؤتمر المعقود فى السفارة الأمريكية يحتل المكان الثانى بالنسبة للمؤتمر الذى يعقده هذان الرجلان والمحادثات التى تدور بينهما . وربما لم يكن للشرق الأوسط سوى مكان ثانوى فيها .

ويحق لنا أن نتساءل عن فائدة هذه المؤتمرات فى توجيه سياسة أمريكا ، بعد الدور المحزن الذى لعبته حكومتها فى الشرق الأوسط . والذى جلب الويل والشقاء لمئات الآلاف من سكانه . وماذا تفيد النصائح التى يبذلها المؤتمرون لحكومتهم ، والقرارات التى يتخذونها ، إذا كانت هذه الحكومة ستضرب بهذه النصائح والقرارات عرض الحائط ؟ لقد كان الساسة الأمريكيون الذين يمثلون بلادهم فى الشرق الأوسط ، معترضين دائماً أشد الاعتراض ، على السياسة الصهيونية التى تتبعها واشنطن . بل كان الأمريكيون الذين يعيشون فى الشرق الأوسط جميعاً منكرين لها أشد الإنكار . فماذا أجدى إنكارهم وماذا أفادت نصائحهم ؟ إن المتحمس منهم كان يقصى عن منصبه ، أو يعتزله من تلقاء نفسه ، حين يرى حكومة واشنطن تنساق منقادة وراء الصهيونيين . ولم يعرف عن واشنطن أنها رفضت لهؤلاء مطلباً أو منعتهم من تحقيق مأرب يبتغونه ، مهما كان مسرفاً مجحفاً ظالماً . وواشنطن هى التى دفعت الدول الصغيرة دفعاً إلى التصويت بإنشاء دولة للصهيونيين ، فى اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فأنزلت بالشرق الأوسط كارثة لن يزيل آثارها ألف مؤتمر ومؤتمر . ومع ذلك فنحن فى مصر لا نزال حريصين على صداقة الولايات المتحدة ، لأننا مؤمنون بأن الشعب الأمريكى برىء من السياسة الخرقاء التى اتبعتها حكومته . ولذلك نرحب بالمؤتمر والمؤتمرين ، ونتمنى لهم النجاح فيما يتخذون من رأى ، ونرجو لهم نجاحاً أكبر فى إقناع حكومتهم بأن تهتدى إلى صوابها وأن تتحرر من النير الصهيونى الذى خضعت له هذه السنين الطوال .

محمد عوض محمد

٩ شـــــارع الـكرداسى

بمناسبة انتقال لجنة التأليف والترجمة والنشر
إلى دارها الجديدة ، ١٢ شارع سعد زغلول

للدكتور زكى نجيب محمود

منذ سبعة عشر عاماً ، وفى نحو هذا الوعد من السنة ، جاءنى خطاب ينبىء بقبولى عضواً فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ؛ وكان اليوم يوم أربعاء — فيما أذكر — وكنت ما أزال مترع الرأس بالأحلام ، عامر القلب بالآمال الضخام فى مستقبل تجىء أيامه مثقلات بالثمر !! .

قضيت عصر ذلك اليوم قلقاً ، أرقب غروب الشمس أو ما بعده بقليل ، لأذهب إلى دار لم أكن قد رأيتها أبداً من قبل ، ٩ شارع الكرداسى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر التى أصبحتُ يومئذ واحداً من أبنائها ! ترى كيف تكون هذه الدار التى تسكنها آلهة الأولمب ؟ وكيف يمكن أن أكون واحداً من هؤلاء الجبابرة الذين يقبضون على ناصية الحركة الأدبية فى هذا البلد ؟ غداً سَيُذكر فى المحافل كما يذكرون ، وسَيُعرف فى الأوساط الأدبية كما يعرفون ؛ أما والله إنه لحظ مُواتٍ سعيد أن أجلس حيث يجلسون وأبادلهم الحديث ويبادلون ؛ سيعرفنى أئمة الأدب وأنا بهذه المعرفة مجدود ...

قم الآن واذهب فى ضوء النهار ؛ لماذا ترقب ظلمة المساء ؟.. لا ، بل اصبر هذه الساعات القلائل ، لا تكن خفيفاً أرعن . إنك اليوم عضو فى هيئة من أعضائها فلان وفلان وفلان ؛ وأمثال هؤلاء لا يتحركون من دورهم قبل غروب الشمس ، مَنْ تظنهم يكونون ؟ أتظنهم من أمثالك لا يعرفون فى يومهم فرقاً بين ظهر وعصر ومساء ؟ .

وصبرت على جمرات من القلق حتى مضت ساعة بعد الغروب ، وارتديت أحسن ما عندى من ثياب ، وذهبت إلى ٩ شارع الكرداسى .. كان الليل قد أظلم ، وأنا أعلم من الوصف أن الطريق إلى دار اللجنة يبدأ قبالة قسم عابدين ، فألقيتنى هنالك أنحدر فى طريق هابط مظلم ، وبعد خطوات قليلة ، رأيت بوابة ضخمة لا تبشر وراءها بعمران ! فتثاقلتْ خطاى ، أيكون هذا الفناء المظلم بإزائه مهبط الوحى لأرباب الفنون ؟! كلا ، هذا محال ، امض قليلاً وسترى بناء يشع بالضوء ، ضوء المصابيح وضوء العلم على السواء ، وسيكون ذلك هو ٩ شارع الكرداسى ؛ لكنى ما مضيت عشرين خطوة حتى وجدتنى محاطاً بسيارات ضخمة قديمة بعضها كامل البناء ، وبعضها منثور الأجزاء !! .

اللهم إنى أعوذ بك من أشباح الشياطين ! ماذا عسى هذا المكان أن يكون ؟ ولم أكد أرى صورة رجل تنبثق من وراء كومة من العُدد القديمة اللقاة حتى بلعت ريقاً جافاً ، ونطقت بالشهادتين سراً ، ثم حييت :

— السلام عليكم .

— وعليكم السلام .

— أين أجد لجنة التأليف والترجمة والنشر ؟ .

— لجنة ماذا ؟! .

— لجنة التأليف والترجمة والنشر ، أما سمعت بها ؟ .

— لا والله يا سيدى ، لا تؤاخذنى .

— إنها « شارع الكرداسي ».

— آه ، شارع الكرداسي ! اخرج من هذه البوابة التي دخلت منها ، وملْ إلى يسارك .

وفعلت كما أشار ، وأنظرُ إلى شارع الكرداسي ، فإذا هو « حارة » تجمعت فيها ألوان كثيرة من الحياة البلدية ، وأنتقل بصري في لمحة من أول الشارع إلى آخره ، فلا أجد بناء واحداً يشع بشيء يمكن أن يكون ضوءاً جديراً بأبناء الآلهة ، جبابرة الأدب ...

وبلغت « شارع الكرداسي » ، فإذا الواقع يصدم الخيال صدمة عنيفة قوية ! أهاهنا إذاً يقيمون ؟ قل الحمد لله رب العالمين ، لأن ذلك معناه تواضعٌ فيهم ! ابلعْ ريقك الآن رطباً طرياً ، واصعد الدرَج ، تجد من تجده منهم مستعداً للقاء العضو الجديد في ترحيب كريم ؛ فلا يمكن لساكن هذه الدار أن يأخذه شيء من كبرياء ، خصوصاً إذا كان يستقبل زميلاً جديداً .

وأخذت أصعد السلم ، فمرّ بي رجل يهبطه ؛ إنه لم يسأل مَنْ ذا أكون ، لأنه بالطبع يعلم أنني الزميل الجديد ؛ صعدت ودخلت مكتباً مقابلاً ، وحييت وجلست ؛ ولم يكن في الغرفة إلا رجل يجلس إلى المكتب ووجهه إلى ورق أمامه ؛ لم ينطق كلانا بكلمة مدى نصف ساعة أو نحوها ، ولا دَخَلَ الغرفة في هذه الفترة إنسان ، فاستجمعتُ قواي وسألت :

— أليس في اللجنة أحد من أعضائها ؟.

— لا ، لكنهم قد يأتون غداً ، الحبيس ؟ مَنْ ذا تريد ؟.

— لا أريد أحداً بذاته ، أنا عضو في اللجنة جديد ، أنا فلان .

— تعال غداً ، وقد تجد بعض الأعضاء .

* * *

ومنذ ذلك الحين ، لبثت ما يقرب من سبعة عشر عاماً أتردد على هذا البناء ، « شارع الكرداسي ... ولست أريد أن أفيض القول هاهنا كيف وجدت الزمالة عسيرة الأسباب ؛ إن آلهة الأولمب لا يهبطون من قممهم الشاهقة بما قُنِتْ من بشر ؛ إنهم أعضاء أسرة واحدة ، لكنهم كجزر الأرخبيل ، تقوم كل جزيرة وحدها ويحيط بها الماء من أقطارها جميعاً ؛ كلا لم أجد ما أوهمني الخيال عصر ذلك اليوم بأني واجده ، لم أبادل الأرباب حديثاً ولم يبادلوا ، وجلست معهم لا كما يجلس الزميل مع الزميل ، فكما اصطدم الخيال بالواقع صدمة عنيفة حين رأيت مهبط الوحي لأول مرة : أين هو وكيف يبدو ، كذلك اصطدم الخيال بالواقع صدمة أشد عنفاً لما تبينت أن الأرباب أشد من سواد الناس حرصاً على أن يظل الأمر بينهم درجات ، فلا يصغر الكبير من أجل الصغير ، ولا يكبر الصغير ليستوي مع الكبير ، وأوشك كل أن يضرب حول نفسه نطاقاً من حراس وحجّاب ، حتى لا يظن ظان أن الملتقى سهل يسير .

لكني لبثت سبعة عشر عاماً أختلف إلى « شارع الكرداسي ، حتى بات جزءاً من حياتي ... ألا ما أعجب اختلاط الناس بالبناء ! من ذا يستطيع أن يقص قصة حياته دون أن يجد شطراً كبيراً منها مرتبطاً بهذا البناء أو ذاك ؛ فنزل ولد فيه ونشأ بين جدرانه ، ومدرسة تلقى فيها العلم وهكذا .. إن هذه الجدران الحجرية جزء حي من حياتي ، في هذه الغرفة سلخت كذا ساعة ، وفي تلك الغرفة بُذِرَتْ بذور هذا المشروع أو ذاك ، وفي هذه الردهة نبتت الفكرة الفلانية لأول مرة ، فكان من نتاجها كذا وكيت ... إني لا أعجب لشعراء العرب أن يقفوا عند الأطلال الدوارس يستوحونها ، لأن الأحجار تنطق كما ينطق الأحياء ؛ ورب حجر يظل أبد الدهر ناطقاً يقص على الناس القصص ، جيلاً بعد جيل ، والناس أنفسهم يمضون إلى حيث يعلم الله ولا يعلم الناس .

« شارع الكرداسي بناء قديم كسيح تكاد تتقوس جدرانه وتهوى سقوفه ، لكنه جزء لا يتجزأ من حياتي

ومن حياة رجال كثيرين ؛ بل إنه جزء لا يتجزأ من تاريخ الأدب المصري الحديث ؛ فكما ترتبط الحركات الأدبية أحياناً بهذا « الصالون » أو ذاك المنتدى ، فسترتبط الحركة الأدبية المصرية من بعض وجوهها بهذا البناء المتهافت ، ٩ شارع الكرداسي ؛ ففي حجراته قامت مشروعات وصدرت مطبوعات واجتمعت حلقات الأدباء والمتأدبين يسمرون وينقدون .

لكن دار الزمان دورته ، وضاق البناء على أصحابه ، أو قل ضاق أصحابه به ، فهجروه منذ قريب إلى بناء آخر أجمل وجهاً وأفسح صدراً وأرق موقعاً .

وذهبت بعدئذ إلى ٩ شارع الكرداسي لأقضي بعض شأني ، فأخذتني وحشة ، لأن المكان قد خلا إلا من المطبعة ترن بأصدائها في البناء الخالي كأنها حشرجة المحتضر ؛ وغداً أو بعد غد ترحل المطبعة إلى مكانها الجديد ، ويصبح ٩ شارع الكرداسي قطعة من التاريخ ، ومن يدري ماذا سيكون من أمره بعد ذلك ؟ من يدري ماذا أثبت في أم الكتاب لهذا البناء الذي دوت جنباته حيناً من الدهر بجد لا هزل فيه ؟ قد تزول عنه الكتب ليحل محلها أكياس الفحم أو صفائح الزيت ، فرب بيت صار بيتاً مراراً ، ضاحك من تتابع الأضداد !

لكني أستطيع التفاهم مع هذا البناء الذي هجرناه ، إذا أرضيته بما أرويه من حق : وذلك أني ذهبت إلى بديله الجديد ، فأحسست ببرودة عجيبة تدب في عظامي ، ولا أعني برودة الجو ، وإنما أعني برودة الروح ، فآثرت أن أعود إلى العمل في ٩ شارع الكرداسي حتى اللحظة الأخيرة ؛ أين أين جمال الجسم من خفة الروح ؟ لقد كان سقراط دميم الخلقة ومهبط الحكمة في آن معاً ..

فلو جاز لصداقة أن تنشأ بين إنسان وبناء ، فلا شك أن صداقة حميمة قد توثقت عراها بيني وبين هذا البناء .

زكي نجيب محمود

أمل ...

أملٌ يلوح لناظري والقلبُ يأكله الألمْ
رتع الهمومُ عليه واضطرمتْ به ، وبها اضطرمْ
أملٌ ... وقد طال انتظاري ، واستبدّ بيَ السأمْ
أملٌ يحارُ به نهاي ، فلا وجودَ ، ولا عدمْ !

•••

أملٌ ، أقول : غداً سأدركه وأحقق في (الغدِ)
وإذا مددتُ يدي له رُدّتْ ، بلا أملٍ ، يدي
ألوم عزمي وهْوَ عن نيل العُلى لم يقعدِ ؟
أبداً يُساوره النزوع ، هوًى ، لأرفعِ سؤدد

•••

أملٌ ، وللآمال سلطانٌ على دنيا الشباب ،
تملّكَ القضاء على حتى رحت أحضنه شبابي
وقضيت محنته(1) الكريمةَ بين جدٍّ واطلابِ
كالظامئ، الهيمان أغرتْ مقلتيه رؤى السراب !

•••

أملٌ عزتْ له القلادة ، والمسرة ، والسمرْ
وصدفتُ عن جرس الكؤوسِ وسحرِ أنغامِ الوترْ
متزهداً إلا به ، فهو السعادة والوطرْ
حتى إذا أوشكتُ أدركه تولى واستترْ !

•••

أملٌ غدا مني على كثَبٍ ، وراح إلى بعيدِ
وعلى كلا الحالين إني منه في ألمٍ شديدِ
أملٌ ، يكاد اليأس أن يودي به ، ياليت يودي
لأريح نفسي من تتبعه ، وأستبق جهودي !

•••

فلقد يكون اليأس مفتاحاً إلى أملٍ جديدِ
أو بابَ وجدانٍ فسيحٍ بعد حرمانٍ شديدِ
أو راحةً لفتى المكدود من جهد جهيدِ
أملي .. يكاد اليأس أن يودي به . يا ليت يودي

(العراق) علي جليل الوردي

(1) الضمير يعود إلى (شبابي) .

كيف ؟

القذائف الصاروخيـــــة

للأستاذ حسن محمد حسين

لم يتم اختراع الصاروخ فى هذا الجيل ولا الجيل السابق ، ولا فى هـذا القرن أو القرن السابق ، بل إنه اخترع منذ سبعمائة سنة على الأقل ، وبرغم هذا فإن استفادتنا منه كسلاح فعال فى الحروب ، أو كوسيلة للبحث فى طبقات الجو العليا ، لم تحدث إلا فى خلال العشرين سنة الأخيرة . وأول دراسة علمية لمحاولة الاستفادة من الصاروخ قام بها العالم الروسى « زيولكوفسكى » فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولكن لم تتعد أخبار عمله حدود وطنه . كما قام العالم الأمريكى « جودارد » والرومانى « هرمان أوبرت » فى قرننا هذا بأبحاث عظيمة وضعت هذه المادة على أساس رياضى متين . وقد أثبت جودارد أنه باستعمال وقود ذى جودة كبيرة يمكن لصاروخ صغير أن يصل إلى ارتفاعات شاهقة . أما أوبرت فقد بحث فى موضوع أبعد تحقيقاً ، وهو الوصول إلى الكواكب الأخرى . وقد كانت أبحاث الأخير من أقوى العوامل التى أدت إلى تقدم الأبحاث الألمانية فى الصواريخ فى عام ١٩٢١ والأعوام التالية ، والتى نتجت عنها الأسلحة الصاروخية الكثيرة التى استخدمت فى المراحل النهائية فى الحرب الأخيرة .

والخواص الممتازة للصاروخ تعزى إلى أنه أبسط الآلات الحرارية وأكبرها جودة ، أى أنه يعطى فى نظير أى قدر يستهلكه من الوقود قدراً من الطاقة أكثر مما تعطيه أى آلة أخرى فى نظير نفس القدر من الوقود . وليس هناك ، على ما يظهر ، حد أعلى للقوة المحركة التى يمكن إعداده لتسيير الصاروخ ؛ فالصاروخ (ف ٢) مثلاً كان يولد قوة ١٠٠٫٠٠٠ حصان ، والبحوث الآن مستمرة لتوليد أكثر من هذا بكثير . ومن أهم مزايا الصاروخ أيضاً استقلاله التام عن الوسط المحيط به ، لأنه يحمل فى جوفه وقوده والمادة المؤكسدة لهذا الوقود . وعلى ذلك يكون الصاروخ هو الآلة الاندفاعية الوحيدة التى يمكنها أن تعمل فى فراغ خال من الهواء ، حيث يكون عملها فى الواقع أجود منه فى الجو المعتاد .

ومدى الارتفاع الذى يمكن أن يصل إليه الصاروخ يتوقف على عدة عوامل : أهمها سرعته الابتدائية أى التى يبدأ بها حركته ، وعجلة الجاذبية أى مقدار عرقلة جذب الأرض لحركته ، ومقاومة الهواء . فإذا أهملنا مقاومة الهواء واعتبرنا عجلة الجاذبية ثابتة ، فإن الارتفاع الذى يصل إليه الصاروخ يتناسب طردياً مع مربع سرعته الابتدائية وعكسياً مع عجلة الجاذبية . ولكن عجلة الجاذبية تتغير قيمتها كلما ارتفعنا عن سطح الأرض ، بحيث إذا بدأ الصاروخ حركته بسرعة تزيد على ثلاثة كيلومترات فى الثانية ، فإنه يصل إلى ارتفاعات ضعف عندها جذب الأرض بدرجة كبيرة ، ويتمكن الصاروخ من الارتفاع أكثر وأكثر . وإذا وصلت السرعة الابتدائية للمقذوف إلى عشرة كيلومترات فى الثانية ظهر أثر التناقص فى شدة الجاذبية مع زيادة الارتفاع بشكل واضح ، حتى إذا تمكن المقذوف بشكل ما من بدء حركته بسرعة ١١٫٢ كيلومتراً فى

الثانية لتخلص تماما من أثر جذب الأرض . أى أنه يصل إلى ارتفاعات كبيرة قبل أن يتمكن جذب الأرض من إنقاص سرعته نقصاً كبيراً ، بحيث يتبقى له من سرعته الابتدائية ما يكفيه للاستمرار فى حركته حتى يخرج من مجال جذب الأرض تماماً ، ولذلك تسمى هذه السرعة الابتدائية « سرعة الهرب » أو « سرعة الخلاص » .

وأقصى سرعة توصلوا إليها للآن فى إطلاق الصاروخ هى ١ر٥ كيلومتر فى الثانية ، كما أن أقصى ارتفاع وصل إليه الصاروخ حوالى ١٨٠ كيلو متراً . وكانت هذه النتائج هى التى وصل إليها الصاروخ (ف ٢) وهو آلة حربية صرفة ، ولكن المتوقع الوصول إلى نتائج أحسن من هذا بكثير إذا صمم الصاروخ خصيصاً للبحث فى الارتفاعات الشاهقة . وفى العام الماضى كان يصنع فى الولايات المتحدة صاروخ اسمه « نبتون » للاستعمال فى الأبحاث الخاصة بالأسطول الأمريكى . والمفروض أن يحرق هذا الصاروخ وقوده المكون من الكحول والأكسجين السائل فى ٧٥ ثانية يرتفع خلالها رأسياً مسافة ٦٠ كيلو متراً تصل سرعته بعدها إلى ٢ر٥ كيلومتر فى الثانية ، وهذه السرعة كافية لتمكينه من الوصول إلى ارتفاع ٤٠٠ كيلومتر بحيث يصل إلى هذا الارتفاع بعد ٣٣٥ ثانية من بدء حركته . وقد وضع تصميم نبتون بحيث يتمكن من حمل آلات تزن ٥٠ كيلوجراماً إلى ارتفاع ٤٠٠ كيلومتر ، كما يمكنه أن يحمل بدلاً من ذلك ثقل طن إلى ارتفاع ١٤٠ كيلومتراً .

والتقدم الذى يطرأ على الصاروخ يفتح مجالاً واسعاً أمام البحث العلمى ، وقد حصل البحاث الأمريكان فى المكسيك الجديدة فعلاً على نتائج قيمة باستخدام صواريخ معدلة من نوع (ف ٢) . فقد أمكن الحصول لأول مرة على قراءات لدرجات الحرارة والضغط على ارتفاعات كبيرة جداً ، كما أمكن الحصول على أول صور طيفية للإشعاع فوق البنفسجى للشمس الذى لا يخترق الجو . وقد عملت الآن ترتيبات فى الصواريخ لإرسال الملاحظات منها باستمرار لأجهزة مستقبلة على سطح الأرض أثناء طيران الصاروخ ، كما عملت الترتيبات أيضاً للمحافظة على الآلات داخل الصاروخ بحيث تصل إلى الأرض سليمة عند سقوط الصاروخ بعد انتهاء رحلته . ومن العلوم التى سوف تستفيد كثيراً بتقدم الأبحاث الصاروخية علم الفلك ، وعلم الطبيعة ، وعلم الأرصاد الجوية .

ومما يساعد الصاروخ فى حركته شكله والارتفاع الذى يقذف منه وسرعته . فإن مقاومة الهواء للصاروخ مثلاً تقل كثيراً إذا بدأ حركته من قمة جبل مرتفع . كذلك عرقلة الجاذبية لحركة الصاروخ يمكن التغلب على جانب كبير منها باستعمال وقود يتم احتراقه فى وقت قصير . والمتوقع نظرياً أن يصبح فى الإمكان عمل صاروخ تصل سرعته إلى ١٠ كيلو مترات فى الثانية ، فيمكنه أن يصل إلى ارتفاع ٦٠٠٠ كيلومتر . وهذا الارتفاع على ضخامته بالنسبة للأبعاد المألوفة لنا إلا أنه لا يساوى إلا طول نصف قطر الأرض . والوصول إلى سرعة أكبر من هذه صعب جداً ولو أنه غير مستحيل ، وهو الأمل الوحيد للخروج من نطاق جذب الأرض لإرسال آلات فى صاروخ إلى القمر مثلا . وهى فكرة تلح على العلماء كثيراً فى هذه الأيام ويداعبهم الأمل فى إمكان تنفيذها .

وهناك عامل آخر هام يؤثر على حركة الصاروخ وهو « نسبة الكتلة » ، وهو عبارة عن نسبة كتلة الصاروخ كله إلى كتلة ما يتبقى منه بعد احتراق الوقود . وقد وجد أن « نسبة الكتلة » اللازمة للصاروخ لكى يتمكن من الحركة بسرعة ١١ر٢ كيلومتراً فى الثانية ، أى سرعة الهرب ، هى حوالى المائة . أى أنه لكى نطلق بهذه السرعة صاروخاً يزن هيكله ومحركاته وخزانات وقوده والآلات بداخله طناً لا بد أن يزن وقوده ٩٩ طناً ، ويخيل للمرء لأول وهلة أن هذا مستحيل ، ولكن يمكن التغلب على هذه الصعوبة باستخدام تصميم يسمى الصاروخ المتعدد .

والصاروخ المتعدد هو فعلاً مركب من عدة صواريخ بحيث إذا ما احترق الوقود فى أولها ينفصل عن المجموعة ويسقط ويستمر الجزء الباقى فى الحركة بسرعة كبيرة . ثم يشتعل الوقود بعد ذلك فى الجزء التالى حتى إذا تم احتراقه انفصل

بجزوه عن المجموعة بعد أن يكون قد أكسبها سرعة جديدة يستمر الجزء الباقي في الحركة بها ، وهكذا . وهذه العملية يمكن ، نظرياً على الأقل ، تكرارها أي عدد نشاء من المراحل بحيث يصبح في الإمكان استعمال صاروخ ذي كتلة ابتدائية مئات الأطنان أو حتى آلافها ، ثم يستمر ينفصل منه الجزء تلو الآخر حتى تبقى منه كتلة نهائية قدرها طنان أو ثلاثة فقط . ومن الناحية النظرية أيضاً يمكن تصميم صواريخ على هذا الأساس في استطاعتها الوصول إلى القمر أو حتى الكواكب . وقد دلت الأبحاث الحديثة على أنه لإيصال كتلة قدرها ٥٠ كيلو جراما إلى القمر نحتاج إلى صاروخ كتلته الابتدائية حوالى ٥٠٠ طنا . ويجب ألا يظن أن الصاروخ المتعدد ما زال فكرة نظرية فحسب ، بل إنه قد خرج فعلا إلى حيز التنفيذ ، فقد أطلقت على « أتوروب » في أواخر الحرب الماضية حوالى عشرين قذيفة من نوع مطيل من مسافة ١٥٠ كيلو متراً ، وهذه القذائف لم يعرف عنها الكثير على وجه التحديد ، ولكن المعلوم أنها كانت صواريخ ذات مراحل أربع .

ويجمل القول أن الموقف الحالى يدل على أنه إذا أمكن تذليل بعض العقبات الهندسية فيصبح من الممكن إرسال قذائف في الفراغ الطلق مسافات شاسعة ، كما يصبح من الممكن أيضاً استقبال رسائل منها أثناء طيرانها ... ومن بين الاحتمالات المفيدة الهامة التي يتيحها لنا مثل هذا التقدم إمكان الحصول على صور فوتوغرافية لوجه القمر المختفي عنا . واحتمال آخر قد يكون أكثر فائدة ، هو تسيير صواريخ في مدارات دائمة حول الأرض مزودة بآلات لقياس عدة أشياء ، ثم إذاعة قراءتها أولاً فأولاً بحيث يمكن استقبالها في محطات أرضية . وقد وجد أنه إذا تحرك جسم خارج نطاق الهواء الجوى بسرعة ٨ كيلو مترات في الثانية أفقياً ، فإنه يستمر في دورانه حول الأرض إلى ما شاء الله كالقمر مثلاً ، أي أنه يصبح تابعاً صناعياً للأرض . وباختيار السرعة المناسبة يمكننا أن نجعل الجسم يسير في مدار على أي ارتفاع نريد ، وبحيث تكون مدة دورانه حول الأرض ساعة ونصف ساعة أو أكثر كما نريد . فيمكننا نظرياً تسيير جسم حول الأرض في دائرة نصف قطرها ٤٢٠٠٠ كيلومتر بحيث يتم دورته في ٢٤ ساعة ، ومثل هذا الجسم تكون له تطبيقات عملية كثيرة ، لأنه يبقى معلقا في الفراغ فوق نقطة ثابتة من سطح الأرض ، وقد يتمكن العلماء باستخدام هذا المدار بالذات من حل كثير من المشكلات العلمية واللاسلكية .

هذه الاحتمالات جميعها لم تعد مجرد آمال تداعب خيال العلماء كما كانت إلى عهد قريب ، بل إنها من الأشياء المتوقع تحققها في السنوات القليلة المقبلة ، إذ أن الأساس النظرى لها أصبح كله معروفاً ولم يبق إلا التصميم الهندسى . وسيكون لهذا التقدم أثر كبير على كل من علم الفلك وعلم الطبيعة ، بل ويمهد الطريق إلى احتمال الانتقال من الأرض إلى الكواكب المختلفة ، وقد يتحقق بذلك أعظم حلم طرأ على عقل الإنسان .

كل هذا فيما يختص بإرسال آلات داخل صواريخ موجهة إلى القمر أو الكواكب الأخرى . أما إذا أريد إرسال إنسان داخل صاروخ إلى القمر مثلا فإن المشكلة تصبح أكثر صعوبة وأشد تعقيداً ؛ وذلك لضرورة ضمان سلامة وصول هذا الإنسان إلى القمر وسلامة عودته منه ، وهذا يستدعى اتخاذ احتياطات شديدة جداً والحذر من كل ما قد يمكن حدوثه ، ومما يزيد المسألة تعقيداً أن تكاليف الرحلة تكون باهظة لا تطاق ، لأن نقل الكيلوجرام الواحد في الرحلة بأكملها ، ذهاباً وإياباً ، يتطلب وقوداً زنته طن بأكمله في بدء الرحلة .

وينحصر أمل العلماء الآن في إمكان القيام بمثل هذه الرحلات باستعمال الوقود الذرى . فإذا أمكن تقييد الطاقة الذرية بحيث تستخدم في إطلاق الصاروخ تمكن هذا الصاروخ بسهولة من الوصول إلى أى كوكب نشاء . فإن المعلوم نظرياً أن قنبلة ذرية صغيرة زنتها لا تزيد على بضعة كيلو جرامات تحوى من الطاقة ما يكفى لحمل ألف طن من الأرض إلى القمر ثم إعادتها إلى الأرض . ولكن التنفيذ العملى لهذه النظريات يعتبر في الوقت الحالى من أصعب الأمور وأقلها احتمالاً . وعلى كل حال فالبحوث ما زالت مستمرة ، وقد يتحقق يوماً ما انتقال الإنسان من الأرض إلى أخواتها من الكواكب الأخرى . وبذلك يدخل الجنس

(البقية على صفحة ١٨)

طرائف علميـــــة

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

وزنه ٤٥٠٠ مليون طن :

هل تعلم أن الميل المكعب من ماء المحيط يزن حوالى ٤٥٠٠ مليون طن ، وأنه يحوى نحو ثلاثة ونصف فى المائة من الأملاح الذائبة التى يكون ملح الطعام أغلبها ..!!.

الفضة والحرب العالمية الثانية :

كان للحرب العالمية الثانية أثرها فى رفع الفضة من قائمة الفلزات النادرة النفيسة ووضعها بين الفلزات التى كان لها نفع كبير فى صناعة الحرب..!.

ففى خلال تلك الحرب استخدم الحلفاء كميات ضخمة من الفضة لطلاء الكرات التى تستخدم لتقليل الاحتكاك فى الآلات والعجلات والمحركات . ويقول الخبراء إنه لولا هذا الطلاء بالفضة لنقصت سرعة المحركات الهوائية بمقدار خمسة وسبعين ميلاً فى الساعة ..!.

والفضة تماثل النحاس فى صلابتها ، ولكن درجة توصيلها للكهرباء والحرارة تفوق درجة توصيل النحاس بمقدار عشرة فى المائة ...

ورق السلوفان :

سمع الكثير منا عن ورق السلوفان ، ولكن هل يعلم القارىء مم يصنع ؟. إن المادة الأولية لصناعته هى لب الخشب أو القطن .

أول صيدلية :

أنشئت أول صيدلية بالمعنى القديم فى لندن سنة ألف وثلاثمائة وخمس وأربعين . وبدأت الأدوية الطبية المحضرة من الأعشاب تأخذ طريقها إلى الظهور .

وبهذه المناسبة نقول إنه فى سنة ١٥٣٠ ذاعت شهرة طبيب يدعى فيلبس أورالس الذى كان مشهوراً باسم بارا سيلبس ، والذى ترك وصفات طبية جد غريبة فى كتاباته ومذكراته .

الجراحة والحلاقون :

كان أغلب العمل الطبى فى أوربا خلال العصور الوسطى فى أيدى الرهبان ، ما عدا الجراحة التى ترك مزاولتها للحلاقين ، وما كان للرهبان أن يقربوها ، فهى محرمة لما يراق فيها من دم ... ولهذا فقد وجهوا عنايتهم إلى تحضير أدوية من الأعشاب الطبية ... وقد أنتج هذا أول فرق بين الجراح والطبيب استمر حتى القرن التاسع عشر .

يساوى وزنه ذهبا :

هل يعلم القارىء أن الرصاص ولو أنه ليس من الفلزات النادرة النفيسة إلا أنه يساوى وزنه ذهباً لما يقدمه لنا من خدمات ؟

والرصاص معروف للإنسان من قديم الزمن ، عرفه قدماء المصريين وعرفه الرومان ... ففى المتحف البريطانى فى لندن تمثال صغير من الرصاص يرجع عهده إلى الأسرة الأولى ، كما أن بحاث الآثار قد وجدوا من آثار الرومان أنابيب من الرصاص ذات أقطار متباينة كانت تستخدم على الأرجح لتوصيل المياه .

ومنافع الرصاص للجنس البشرى عديدة متباينة . وسأحاول فيما يلى أن أشير إلى بعضها ..

فالرصاص يستخدم فى تسقيف المنازل وتعريشها وفى تبطين البراميل ، وإذا أنت ألقيت نظرة إلى أنابيب المياه فى منزلك لألفيت أنها مصنوعة من الرصاص .

وسبائك الرصاص مع العناصر الأخرى لها استعمالات عديدة . فرصاص البنادق يصنع من سبيكة له مع الزرنيخ كما تصنع حروف الطبع التى هى بلا شك عامل هائل

فى نشر الثقافة فى العالم من سبيكة له مع الأنتيمون والقصدير ...

وهناك عناصر إذا سبك معها الرصاص انخفضت درجة انصهاره ، ولذا تسمى باسم السبائك المنصهرة . ولها استخدامات عديدة فى مضخات إطفاء الحريق ، وتوصيلات أجراس الخطر المنبهة بحدوث الحرائق ، وفى صنع قطع الرصاص الواقية فى التوصيلات الكهربية .

الصناعات الحربية السرية :

إن أثقل عنصر معروف هو « الأوزميم » وقد كانت له استخدامات فى عمليات الصناعة الحربية السرية قحطاء .. كما أنه يستخدم أثناء السلم لصنع السبائك التى تطلى بها أحرف الأسنان الذهبية لأقلام الحبر ...

تراب ثمين :

هل هناك تراب ثمين ؟؟ .

نعم .. هناك تراب جد ثمين ، وهو تراب الفلزات الذى لعب دوراً هاماً فى الحرب العالمية الثانية فى توفير المواد والوقت بإنتاج أجزاء معدنية لآلات الحرب ...

وتتلخص العملية فى وضع تراب فلزين أو أكثر فى قالب بشكل الجزء المطلوب ثم ضغطه ، وبعد ذلك طبخ الجزء المضغوط فى فرن خاص .

وعلى الرغم من أن درجة حرارة الفرن منخفضة عن درجة حرارة انصهار الفلزات المستخدمة إلا أن جزيئات هذا السحيق تتماسك بشدة مع بعضها بطريقة خفية عجيبة .

وبعد خروج القطع من الفرن لا تحتاج إلا لعمليات صقل بسيط جداً تكون بعدها معدة للاستعمال ، وهذا معناه وفر كبير فى المعادن النادرة والمال والقوة المنتجة والزمن .

وقد استخدمت الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية فى الجبهات المختلفة آلاف القطع المصنوعة من السحيق المعدنى المضغوط — متفاوتة فى حجومها وأشكالها ، ومتراوحة فى وزنها بين أقل من أوقية وخمسة وستين رطلاً — فى الدبابات والمدافع والطائرات والسفن الحربية وأجهزة الراديو والسيارات المصفحة وسيارات النقل وغيرها من آلات الحرب .

ويستخدم الآن سحيق ثمانية وعشرين من الفلزات المتباينة فى تركيبات عديدة لإنتاج عشرات الآلاف من مختلف المنتجات ولكن الإخصائيين يصرحون بأن هذه ليست سوى البداية ، وفى القريب العاجل سيشيع استعمال هذا السحيق المعدنى المضغوط فى أنحاء الصناعة العديدة ، فتصنع منه أدق القطع كأجزاء الساعات كما تصنع منه الأجزاء الكبيرة كعجلات السيارات وغيرها ...

تشابه عجيب :

من الطريف ومن العجيب أن نعلم أن طبقات الجو العليا تشابه فى كثير من خصائصها أغوار البحر ، مع أن الاثنين قد تبدوان الناظر على طرفى نقيض ، فدرجة الحرارة والكثافة والتغيرات الموجية متشابهة إلى حد كبير ، والقوانين الطبيعية التى تحكم حركة الصوت فى المنطقتين والمعادلات الثابتة التى تملى دقائق تلك الخواص متماثلة ، ولو أنها قد تختلف فى مقدارها .

وقد وجدت معظم الأدلة على ذلك خلال الحرب العالمية الثانية .

صلب لا يتآكل :

يصدأ الصلب بتعرضه للهواء ، ولذا يضاف من اثنى عشر إلى ثمانية عشر فى المائة من عنصر الكروم لإنتاج صلب لا يتآكل .

وصلب الكروم الذى يحوى كميات قليلة من الكروم يتميز بأنه جد صلب ومرن ، وهو عظيم الفائدة فى صناعة الدروع وصناعة الكرات التى تقلل الاحتكاك فى الآلات والعجلات وتسهل من حركتها ..

مفارقة طريفة :

هل تعلم أن النفتالين الذى يحفظ ملابسنا من التلف والذى هو أبيض ناصع البياض ، هو إحدى المواد التى أتاحتها لنا مشتقات القطران ، السائل الأسود اللون السميك القوام ؟؟ .

جمال الدين محمد موسى

هل الطيران مقـــدور للانسان ؟

للأستاذ حافظ أحمد أمين

في شهر ديسمبر من عام ١٨٨٨ نشر المقتطف مقالاً تحت عنوان « هل الطيران مقدور للإنسان ؟ » . وهو مقال يحاول كاتبه أن يثبت أن الطيران بآلة أثقل من الهواء شيء مستحيل ، فيقول :

« إن أشد قوة في العالم هي القوة المتولدة من احتراق الكربون والهيدروجين ، وهي القوة المتولدة في جسم الإنسان والحيوان . وأكثر الآلات إتقاناً لإظهار هذه القوة واستخدامها هو جسم الإنسان . فلا يمكن أن تصنع آلة ثقلها كثقل الإنسان وتولد قوة أكثر من قوته أو مساوية لها (هذا الكلام غير صحيح طبعاً) . ومما تقدم نرى أن جسم الإنسان قد فاق الحد الذي يمكن أن يرتفع عن الأرض بقوته . فبالأحرى لا يمكن أن يستخدم آلة يطير بها ، لأنها مهما بلغت هذه الآلة من الإتقان لا تستطيع أن تولد قوة ترتفع بها وترفع الإنسان معها ، فالطيران إذاً مستحيل » .

ولكن الأيام تمر ، والسنين تتعاقب ، ونرى السير هيرام مكسيم (Sir Hiram Maxim) ولانجلي (Langley) ينجحان في بناء طائرتين بخاريتين تستطيعان التحليق في الهواء ، ولكن ما تلبث أن تسقط الاولى عام ١٨٩٤ ، وتسقط الثانية عام ١٩٠٣ .

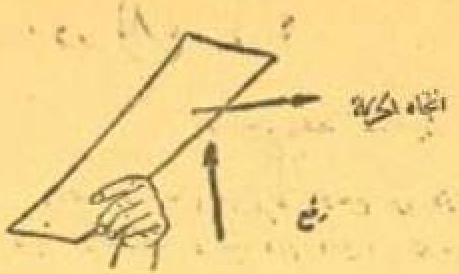
وبعد اكتشاف الآلات التي تعمل بالبنزين (Internal Combustion Engines) تقدمت صناعة الطائرات تقدماً باهراً حتى استطاع بولهان (Paulhan) عام ١٩١٠ أن يحصل على جائزة مقدارها عشرة آلاف جنيه ، نظير تحليقه في السماء مدة أربع وعشرين ساعة ، سافر أثناءها من لندن إلى مانشستر ولم ينزل إلا مرة واحدة .

وهكذا نرى أننا لم ننجح في الارتفاع عن الأرض فحسب ، بل استطعنا ، في هذه الأيام الأخيرة ، أن نسبق الصوت في الهواء .

وكان المهندسون يتجهون في جميع الأوقات إلى الإنقاص من وزن الطائرة ، فبحثوا عن مادة خفيفة الوزن ولكنها قوية تحتمل الإجهادات والحرارة الشديدة حتى توصلوا إلى بعض سبائك الألومنيوم فاستخدموها في صناعة الطائرات ، ولقد رأوا أن هذه السبائك جيدة التوصيل للحرارة ، وهـــذه الخاصية تساعد الآلة على التبريد السريع .

وكان نتيجة المحاولات لإنقاص وزن الطائرة أن فضل المهندسون أن تكون الطائرة ذات أسطوانات ومكابس صغيرة وكثيرة ، عن أن تكون الآلة ذات أسطوانة كبيرة واحدة أو أسطوانتين كبيرتين . فهذه الأسطوانة الصغيرة ، فضلاً عن أنها تجعل الآلة محكمة وخفيفة ، فإنها تقلل من الأخطار الجمة التي تتعرض لها الآلة ذات الأسطوانة الواحدة .

وللإنقاص من وزن الطائرة ، اتجهت الأبحاث إلى الحصول على وقود خفيف الوزن لاستعماله في الطائرة ، وهذا هو السبب الذي من أجله لم تستخدم آلات الديزل برغم مميزاتها الكثيرة . كما اتجهت الأبحاث إلى استخدام الهواء — بدلاً من الماء — في تبريد الآلة ، حتى يتخلصوا من وزن ماء التبريد ، كما يتخلصون أيضاً من وزن وحجم الجهاز الذي يمر به الماء بعد تبريده للآلة (Radiator) ، ولكنهم كثيراً ما اضطروا إلى استخدام الماء نظراً لسرعته في التبريد ، إذ أن الحرارة النوعية للماء تعادل ٤٥ مرة الحرارة النوعية للهواء .



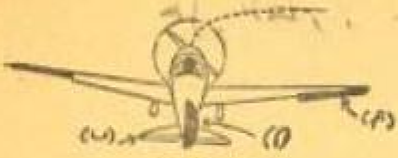
(شكل ١)

أما عن كيفية ارتفاع الطائرة عن الأرض ، وسيرها في الهواء ، فهذا أمر بسيط يمكن للقارئ تصوره إذا أتى بقطعة من الورق ودفعها إلى الأمام في الهواء وهي مائلة قليلا (كما في شكل ١) وشاهد كيف تميل هذه الورقة إلى الارتفاع ، ويستطيع القارئ بعد ذلك أن يتصور كيف تعمل الأجنحة على رفع الطائرة (شكل ٢) ، فترتفع الطائرة إلى أعلى عندما يصبح ضغط الهواء على الأجنحة من أسفل إلى أعلى أكبر من وزن الطائرة وما فيها ، والنسب الآتية تمثل وزن كل جزء من أجزاء طائرة من الطائرات التجارية :

جسم الطائرة بما فيه الأجنحة والذيل ... الخ : ٣٥ ٪ من الوزن الكلي

الآلة وماء التبريد وأدوات القيادة : ١٩ ٪ من الوزن الكلي

الوقود وزيت التزييت وخزان الوقود : ١٤ ٪ من الوزن الكلي



(شكل ٣)

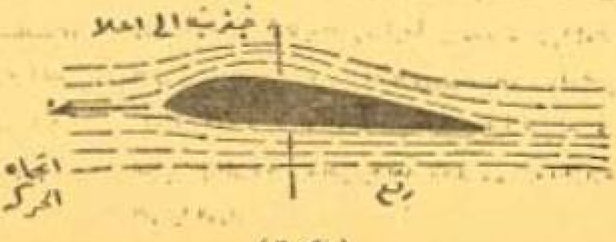
المراوح وملحقاتها : ٦ ٪ من الوزن الكلي

ركاب وأمتعة : ٢٦ ٪ من الوزن الكلي

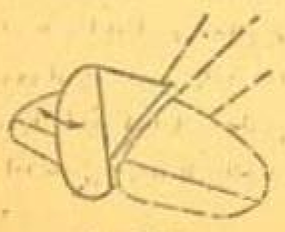
أما كيف تسير الطائرة في الهواء فهذا هو عمل المروحة التي تدور بواسطة الآلة فتعمل على دفع الطائرة إلى الأمام كما هو الحال في البواخر ؛ ففي أثناء دوران المراوح يندفع تيار شديد من الهواء إلى الخلف فيتخلخل الهواء أمام الطائرة ويتغلب عليه ضغط الهواء الموجود خلفها فتندفع إلى الأمام ، وكلما ازدادت سرعة المراوح ازدادت سرعة اندفاع الطائرة إلى الأمام .

وعندما يريد الطيار الهبوط فإنه يقلل من سرعة المحركات ، فتضعف شدة التيار الهوائي الناتج من حركة المراوح ، وبذلك تنقص القوة الرافعة للطائرة عن وزنها فتأخذ الطائرة في الهبوط تدريجياً .

أما عن آلة الطائرة فهي لا تختلف في عملها عن آلة السيارة ، ولكنها تختلف في شكلها ووزنها لتناسب الغرض الذي تعمل من أجله ، وهناك أيضاً عدة اعتبارات أخرى يضعها المهندس أمام عينيه وقت التصميم ، فكلنا نعرف أن كثافة الهواء تقل كلما ارتفعنا عن الأرض ، وبما أن حجم الهواء الداخل إلى الآلة ثابت فإننا نلاحظ أن



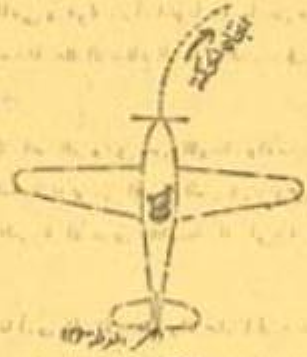
(شكل ٢)



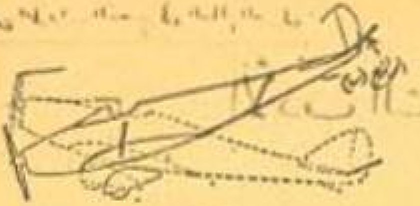
(شكل ٤)

الهواء اللازم لإحراق الوقود يقل كلما ارتفعنا إلى أعلى وتقل معه قدرة الطائرة ، ولذلك فإننا نحتاج إلى رفع ضغط الهواء الداخل إلى الأسطوانة كلما زاد ارتفاع الطائرة عن الأرض .

ويلاحظ أن الطائرة يمكن أن تتحرك في ثلاثة اتجاهات : فتعمل الدفة (أ) (Rudder) (أنظر شكل ٣) على تحريك الطائرة في المستوى الأفقي فتوجهها إلى اليمين أو إلى اليسار كما هو مشاهد في شكلي (٤) و (٥) .



(شكل ٥)



(شكل ٦)

وتعمل الرافع (ب) (Elevator) على تحريك الطائرة في المستوى الرأسي فتوجهها إلى أسفل أو إلى أعلى كما هو مشاهد في شكل (٦) .



(شكل ٧)

وتعمل الجنيح (ﺣ) (Ailerons) على تحريك الطائرة في المستوى الحالي كما في شكل (٧) .

حافظ أحمد أمين

غانيـــة

يا حبيبي لك أشواقي وحبي وعنائي
يا حبيبي لك آمالي وسهدي وعنائي
يا حبيبي منك دمعي وشجوني وشقائي
رحمة بالصب لو راح فأنت الجابر

يا حبيبي ذا فتاك أسكرته الكرم فناح
واستزاد القلب أشتاتٍ أذاقته فساح
بين أيدي ندماء حالفوا الليل فطال
يسدل الستر عليهم .. وهو منهم ساخر

يا حبيبي عصفت بالقلب أنواء عذابي
إذ توت جسدي بالنهش أنياب الذئاب
يحسبهم ميتاً من الهم فأسموه شبابي
وطليت الوجه أصباغاً .. فقالوا تاجر

يا حبيبي كنت في محراب شيطان الخطايا
أقرع الكأس وأمضي .. في طريق للمنايا
خنقته الشهوات الحمر وصفة بحنايا
فأتى طيفك يسري ... وفؤادي تائه

كنت كالزهرة في حضن الربيع الناعم
قطفتها عبثاً ، كف غرير آثم
والتوى عنها سريعاً ... ذات صبح قاتم
فأفاقت فإذا موتة ... ووحل جارح

يا حبيبي أنا لم أولد لأحجار الرحى
كنت في مجرى حقائقها . ثم لوثت الضحى
إلا أكن عاراً لقومي .. فعذابي قد محا
بدمي المعوان ما دنس ماكر غادر

يا حبيبي صل في بأسك من جدوى عذابي
فدموعي تحتويني حين نجوى أو متابي
أنشد الطهر فلا ألقى سوى شبح أمامي
واشتهاء الموت كفر ... يا حبيبي الطاهر

محمد زيد

الأدب الشعبي في «عدن»

للأستاذ أحمد طه السنوسي

.. للأدب الشعبي تأثير بالغ في حياة الشعوب العربية ، وخاصة في الأقطار الصغيرة ، وعدن من بلادنا العربية التي تتأثر بالأدب الشعبي كل التأثر وينتشر فيها انتشار السكر في الماء القراح . وأظهر ما يتمثل هذا التأثر في الوسط الشعبي بين النساء والأطفال الصغار ، فالمرأة حين تنهمك في عملها المنزلي لا ينفك فمها ينشد الأشعار الشعبية ، كذلك الطفل يحفظ الزجل ثم يأخذ في ترديده ومشاركة سواه من الأطفال في هذا الترديد ، في الأسواق المكتظة وفي الدروب الخافقة ، وفي ساعات اللهو وأوقات اللعب . وترى الشاعر الشعبي إذا ما قال شعراً سرعان ما يتلقفه الناس ، وسرعان ما يدب دبيب الحياة في الوسط الشعبي ، كما يصدح المطربون بهذه الأزجال وتلك الأشعار في (مبارز القات والمناذر) .

والبيئة العدنية توجه الأدب الشعبي حسب مواضعاتها واتجاهاتها ، وهو على هذا الوضع يتجه اتجاهين : الاتجاه الأول هو فيما تتغنى به النساء في دورهن وفيما ينشده المطربون في مجالسهم ، وهو رقيق عذب ، يهتم بالوصف ويعنى فيه ، ويأتي بأساليب الحياة الشعبية والحكم المستعذبة والأمثال المقبولة . أما الاتجاه الثاني فهو ما يسري على ألسنة الأطفال والشباب وما تنبض له أفئدتهم وتزخر به صدورهم ، وهو قوي عنيف ، فيه التبكيت وفيه الحياة ، وفيه الاندفاع والسخرية ، وفيه الحرارة والحماس ، وفيه التهكم والتقريع ..

والاتجاه الثاني قد ولدته البيئة الحديثة وشكلته الطفرة السريعة التي طفرتها عدن في الاتجاه الفكري والنحو الأدبي والتحرر من القيود والثورة على القديم والتخلص من الرجعية والتقاليد ، وكل تلك العناصر ممثلة في الشباب الحديث ، وهذا الشباب في عدن اليوم هو الحياة والحيوية مجسمة . لذا لا غرو أن نلقى اندفاعاً من الأدب الشعبي العدني تجاه تلك العناصر ، كما أننا نلحظ أن علة هذا الاندفاع وتلك الإجادة التي تحوطه جنباتها هي حداثة تلك العناصر وحداثة خالقيها وممثليها ، فلو قارنا بين حيوية الحاضر وطفرته ورجعية الماضي وخموله ، رأينا بوناً شاسعاً بين هذه وتلك ، وأدركنا عندئذ علة الاندفاع الزجلي الحديث في هذا البلد العربي الصغير .

وهناك اتصال وثيق بين اللهجة والأدب الشعبي ، واللهجة العدنية تدنو من اللهجة المصرية ، وهي أسهل من اللهجات العربية الأخرى كاللهجة الكويتية والبحرينية والعمانية .

.. ومما أدى إلى الاندفاع والاتجاه الجديد في الأدب الشعبي العدني أن البيئة العدنية تستحوذ عليها جدة الحياة الأدبية وطرائقها ، وأنها قد وجهت نظرها تجاه عنصر الأدب دون اندفاع طارف في سواه من العناصر الاقتصادية والسياسية .

وعدن تعيش في جو ملائم للنقد دافع له حافز إياه ، فثمة إحاطة بالمحميات وحماية من البريطانيين ، وانقباض من رجعية البيئات المحيطة بها ، إلى غير ذلك من التيار والبخار اللذين يشكلان هذا الجو ويوجهان تلك البيئة التوجيه الاندفاعي في الأدب الشعبي ، ثم تؤازرهما عداوة التقاليد ورقي الأدب وسلاسة اللهجة ومواجهة الضغط ونوازع التحفز وجدة الاتجاهات والمواضعات .

والأدب الشعبي العدني لم يصل بعد إلى الشأو البعيد المرجو ، فهو يهب في اتجاه ويهمل آخر ، ويندفع في سبيل دون وعي ولا تروٍ ، وتلهب الأحداث بعض السبل فيه ، وتخمد فيه جمرة سبل أخرى ، وتبدد من حوله جهود ومؤازرات عدة توهن من حدته وتذره لتندمج في الاتجاه القصصي أو الشعر العربي أو التفكير الاجتماعي أو الاطلاع

على الثقافات أو التزام الجدة فى الأنحاء أو النظر إلى رياضة البدن .

ومع هذا فهو فى درب النجاح وفى نهايته مستقبل عظيم ، وما يحتاج إلا إلى انتباه إلى أهميته واعتراف بمثله وتعمن فى تأثيره ، وتحسين فى أوضاعه وتثبيت لأغراضه وتغذية لروحه ببعث الدوافع التى تفهمها أوساط الشعب كلها ، وحد القوة الاندفاعية التى تجنح إلى الارتفاع عن مستوى الفهم الشعبى ، كيلا تغيب صغيرة ولا كبيرة عن سامعيه ومردديه ، وكيلا يرتفع إلى قمة جبل يراه أفراد الشعب منيراً وضاء فيه النور وفيه الجذب ، ولكن أنى لهم بالصعود إليه وأنى لهم بلمس ذراته الدقيقة التى تظلل الثقافة الحديثة بفيئها وترفع من معناها ، وهذه الثقافة موقوفة على البعض دون البعض الآخر .

والحقيقة أن الأدب الشعبى العدنى يمتاز بالمرمى البعيد والوشى البديع والجذب العنيف والمعنى الفاتن والأسلوب الأخاذ والوقع الحنون ، ومن كل هذا ندرك قدر هذا الأدب ورفعه فى أنظارنا إلى مقام هو حقيق به جدير برفعته .

* * *

.. الجو صحو يطغى الحماس على صحوه ، وينبض فى فتوره نبض الحياة فى الفؤاد ، وأضواء الضحى تشع فى النفس حيوية ودفئاً ، ونسمات عدن تمنح كل جسم يقظة وانتعاشاً ، واهتز الشاعر الشعبى العدنى ثم قال :

يرحمك يا عتيق إلى جنة الفردوس
قتّل جميع النجوس من فى صار محبوس
يرحمك يا عتيق يا بو الصلاة والدين
الى كلامك حسين قارىء تبارك وياسين
ياسين عليك ياعدن ماعند معك سلطان
حفات منك ملان لاعد غسله ولا كفان
عتيق لما اقتتل لابس حزيز أخضر
وأبو نوى السفر وأمه كما الطير بالبر
عتيق بز العصا يقول يادينا
ولا انتجع من رصاص ولا من مكينه
عتيق لما اقتتل يسده ثلاث آيات
جيابه حق الطمع زبود حق الديانه
ليتك ترى يا فلسطين مؤمن منكر
أربع مناظر حجر والهم بالأرض مطفر
عدن تقول العلا ارنى باهلك
والشيخ تضحك عليك كم من يهود لعب بك
سالم إبراهيم يقول البيت جنب البيت
جدوتا مجاد وعاد لنا ما تعديت

.. وعتيق فى هذه القصيدة الشعبية جندى مجهول يتفرع بالإيمان متخذاً إياه سلاحاً له ونصيراً ، قاد مظاهرات عدة وجمع جموعاً حية وارتمى على اليهود فبدد شملهم ومزق جمعهم وأشعل النار فى دورهم وبث الرعب فى قلوبهم والفزع فى أفئدتهم ، يحفزه حماس قلبه ويؤججه فرط إيمانه ، وبينا هو كذلك يجزر هؤلاء النا كيد إذ رماه جندى إنكليزى بطلقة نار فى صدره ، فأن ومال على ظهره ، وخر على الأرض يطلب النفس الأخير ، فواتاه فى نفحات ملائكية وقضى ، وقد أضحى من الشهداء ...

وسالم إبراهيم اسم تاجر يهودى ، ويراد بالشيخ (الشيخ عثمان) وهى بلدة تبعد عن عدن ثمانية أميال ، كما أن العلا بلدة بعدن أيضاً ..

ونستطيع أن نستخلص من هذه القصيدة بعض الكلمات التى تستعملها اللغة الدارجة المصرية ، ومنها (بابو — الى — مطفر) وغيرها . وثمة كلمات تقرب من هذه اللغة الدارجة مثل : (انتجع وتستعمل فى اللغة المصرية العامية فى الوسط الريفى انفجع أى خاف) .. وينبغى أن ننتبه إلى كلمة (أبو) فى أول الشطر الثانى من البيت الرابع فهى تعنى أباه ، وهكذا الواو عندهم فى مثل هذه الأحوال . كما يجدر أن نلحظ كلمة (مومن) دون همزة وكلمة (حسين) وهى كلمة ذات وقع عذب ، يجنح إلى استعمالها بعض الفنين الشعبيين فى بعض أرياف القطر المصرى .

وبعد ذلك أضع أمام القارىء العزيز نموذجاً ثانياً لهذا الأدب الشعبى ، وهو قصيدة نظمت تحت عنوان « طيطو » :

أين (البُلِيس)[1] فرأس اليوم محبوط
لمدحمل خانته بالشاش مربوط

(١) البوليس — الشرطة .

يا غادة الله ما للانسين بنا
من غاية ؟ ما بنى فينــا الروابط

يا خيطة الإثم كم أدميت من كبــد
حتى الجيــاع بكونا . . . والمرابط

آسفت شعب بنى قحطان من عدن
فـكلهم خلةٌ فى الكف محطوط

يبكى (الفضول) ويبكى جرح جبهته
وكل خــد لهم بالدمع مقــروط

وكلها خيطة صغرى بدت عجبــاً
فى حاجب العين زانتها السـلاطيط

عمــائم وطرابيش تطوف بنــا
والكوفيات أتتنا .. والبرانيــط

وزارنا كل طيران وذى ســعة
وشرفونا التعــاتبا والبابيــط

وآنستنــا طوابير العجــائز من
أدنى التطبع إلى أقصى الحشا (قبط)

والحول والعور والعميــان تندبنا
وكلهم قلبــه بالقهر مشــطوط

يبكى الزميل الذى لم يكف جبهتــه
وسم الجدار .. فوقتــه الحايط

● ● ●

.. ونظم هذه القصيدة الشعبية الفذة الأستاذ عبد الله عبد الوهاب ، وقد دعاه إلى نظمها أن رجلاً ضربه فى جبهته واعتدى عليه ! لأنه يكتب فى صحيفته (الفضول) مقالات حارة ضد اليمن وحكامها ، والأستاذ عبد الله شاعر عالى رصين العبارة قوى الشعر ، كما أنه من الأحرار الجاديين ، وهو يجنح إلى السخرية والاستمساك بعقيدة التهكم المر الجدى .

ونلحظ أن نظمه الشعر العربى قد أثر فى شعره الشعبى إلى حد كبير ، وكذلك نلحظ الروح التى تفيض على هـذا الشعر الشعبى روحاً جذاباً وطرافة مستحبة وتفتحاً بديعاً متفتاً .. ويعتبر هـذا النموذج وسابقه من عيون الأدب الشعبى فى عدن ، وساكتفى الآن بهما ، علّ فيهما ما يشبع نهم الباحث المدقق والفاحص المتمعن والناقد الجهبذ القدير ..

ولا أنسى أن أقول : إن الأدب الشعبى فى عدن يمتاز بالتسلسل ، وهذا التسلسل يكون أشبه بالتسلسل الخطابى إن كان موضوع الشعر من الأغراض الثانى ، ويكون تسلسلاً تحوطه الطرافة وترقرق العبارة وانهمار المعنى وسبك الأداة إذا ما كان دون ذلك ...

... وهكذا نرى أن الأدب الشعبى العدنى لمن البحث جدير بلفت الأنظار واحتضان الأذهان ، وجدير أن يلقى مكانته بين الآداب الشعبية فى العالم العربى ؛ لأنه عربى قالباً وموضوعاً قبل كل شىء ، وإن كان هنالك تأثير هندى أو صومالى أو إنكليزى على مناحى الحياة فى عدن ، إلا أن الأدب الشعبى محتفظ بمكانته العربية فى الحياة الأدبية التى ربما تطرق إليها هذا التأثير الأجنبى ...

أحمد على الشرعى

القذائف الصاروخية

(بقية المنشور على صفحة ٤٠)

البشرى فى طور جديد من أطوار تاريخه ، ويكون قد تغلب نهائياً على عزلته بالنسبة إلى بقية الكون . فقد تغلب الإنسان أولاً على اليابسة بوسائل مواصلاته السريعة التى تطوى فى ساعات ما كان يقطعه الإنسان على الأقدام أو ظهور الدواب فى أسابيع وشهور . ثم تغلب على البحار وأصبح يعبرها بما يشبه المدن الشيدة آمناً مطمئناً ، كما تمكن من الغوص فى باطنها ، بل وصل إلى أعماقها وبدأ يبحث فيما تحت هذه الأعماق . ثم كافح حتى سيطر على الجو وحقق بواسطة العلم أسطورة بساط الريح ، وصنع من هذه الأبسطة ما يستطيع حمله وحمل مئات الأطنان معه آلاف الأميال . وها هو ذا الآن يصبح وقد أوشك على التغلب على الفضاء الطلق والتحرر من الأرض ومن الماء ومن الهواء ، بل ومن عالمه بأجمعه .

حسين محمد حسين
أستاذ مساعد بكلية التجارة

جي دي موباسان والمجتمع

للأستاذ محمد فتحي عبد الوهاب

[لم يجد الكاتب الفرنسي جي دي موباسان من مجتمع باريس عند ظهوره فيه إلا السخرية في ثوب من الترحاب ، ولم يلاق منه سوى الازدراء في قالب من المجون . وكتب هذا المقال صديق حميم لموباسان يصف فيه ما لاقاه صديقه على يد ذلك المجتمع]

كان أول عهدي بجي دي موباسان عن طريق رسائل خطيبتي لوز ، وقد بعثت بها إليّ عندما كنت مقيماً بأفريقيا . وكانت لوز تنتمي إلى تلك الطبقة من المجتمع الباريسي الراقي ، ذلك المجتمع الأناني القاسي .

لقد حدثتني عنه في أول رسائلها حديثاً غريباً ، فقصت عليّ أنها ذهبت ووالدتها إلى حفل كبير . وعندما اكتمل عدد المدعوين حدثتهم الداعي أنه يتوقع حضور شخص مسل للغاية ، شخص نزق ساذج . وهو كاتب قدير تعوزه الموهبة المصقولة . وقد اقترح عليه أن يحضر مرتدياً سترته الحمراء الخاصة بالتنس ، زاعماً أن الحفلة التي يقيمها إنما هي حفلة تنكرية .

وإن هي إلا برهة حتى أقبل الكاتب ، فالتفتوا إليه جميعاً ، وانحنوا له في خشوع . ولم يبد على القادم ما يدل على الارتباك ، بل كان مالكاً زمام نفسه ، فانحنى مرتين رداً على تحيتهم ، ثم ابتسم ، وسرعان ما تعارف بالقوم قبل أن يقدمه لهم الداعي .

وبعد أسبوع جاءني منها كتاب تقول فيه إنها تشكر هذا الكاتب الذي زعم أنه أخرج عشرات المجلدات من القصص ، فظهوره في المجتمع يبشر بازدهار الموسم الحالي بباريس . إنه يباهي بقوته ، ويتحدث عما يستطيع حمله من أثقال ، وعن فوزه في سباق الزوارق .

وهكذا جعلت توالني بالرسائل التي تصف ذلك الرجل العجيب ، وتشرح كيف زج بنفسه في المجتمع الباريسي ، وقد اعتقد أن ضحكات القوم إنما هي نوع من الترحاب .

وعدت من أفريقيا في العام التالي ، وبطبيعة الحال سألت لوز عنه ، فضحكت ووعدتني أن تسمح لي بمقابلته ، ثم قالت : إنه مسل للغاية . لقد طلب من والدتي ذات مرة أن تلاحظ سلوكه على المائدة . وقد سألناه الحضور لتناول الغداء معنا في الأسبوع القادم ، ولا أظن أنه سيعتذر عن المجيء .

وعندما ذهبت إليهم في الموعد المحدد ، وجدت أنه قد سبقني إلى هناك . كان قاتم الوجه ، كث الشعر ، مفتول الشارب ، نحيل الأصابع ، قوي القبضة ، سريع النظرة . وكان في لهجته وحركاته خليط غريب من الجرأة والخجل . وكان من الجلي أن رغبته في الانخراط في سلك المجتمع الباريسي قد جعلت منه مجرد رجل متكلف .

وسمعته يسأل : هل حقيق أن السادة الداخلين إلى حجرة استقبال الكونتيسة سفيل قد اعتادوا الانحناء أمام كل سيدة يقبلون يدها ؟ هل هذا حقيق ؟ .

فأجابت خطيبتي : إنه كذلك يا سيدي .

ودهشت عندما وجدت والدة لوز تشترك في المؤامرة ، فجعلت تشرح كيف أن هذا التقليد قد نشأ منذ زمن بعيد . وكنت واثقاً من أن كل ما يقولونه إنما هو محض اختلاق ، ومن الجلي أنهم في سبيل القيام بمزحة سخيفة أخرى على هذا العبقري السيء الحظ . وكان موقفي دقيقاً ، فأنا لا أستطيع أن أعارض أهل الدار ، ولا يمكنني أن أزج بنفسي في تلك الحماقات .

وعندما انتهى الغداء ، اقترح السيدات على دي موباسان أن يقوم بتجربة دلوفه إلى حجرة استقبال آل سفيل ، فتردد قليلاً قبل أن ينحني تحت إلحاحهن ويقوم بالمهزلة ، ولم أطق صبراً فأخذت بذراعه وقاطعت التمثيلية وأنا أميز غيظاً .

وطفت به في الشارع وصحت قائلاً : ألا تستطيع أن ترى ؟ هل أنت أعمى ؟ ألا ترى أنهم يسخرون منك ؟ لماذا تسمح لهم بذلك ؟.

فوقف واجماً ثم قال في لهجة مبيانية : حقاً ، أتعتقد ذلك ؟ إنك أول من صرح لي بهذا القول . ولكني أعتقد أنك على حق . فعندما ارتديت سترتي الحمراء في العام الماضي وجدت الآخرين في لباس السهرة . وكان اعتذارهم أنهم قرروا في اللحظة الأخيرة عدم ارتداء الملابس التنكرية ، وأنهم نسوا أن يخطروني بذلك .

فصحت قائلاً : إنهم يكذبون .

فقال في بساطة : نعم ، ذلك ما أعتقده الآن .

قلت : وما قصة الكونتيسة سفيل إلا كذبة أخرى . لقد اقترضت مثل هذه العادات من باريس . إنهم يودون أن يجعلوا منك أضحوكتهم .

قال : ولكن كل من أحدثه يؤكد لي ذلك .

قلت : نعم ، لأنهم جميعهم متواطئون على السخرية منك .

قال : هذا ما ظننته أيضاً . بيد أنه عندما يخبرك كل من تقابله نفس الخبر ، فإنك ستأخذ في الاعتقاد بما يقال . لقد تسلمت ثلاث رسائل من الكونتيسة سفيل تدعوني فيها إلى زيارتها . غريب ! أليس كذلك ؟ غريب ! .

وفجأة حدجني بنظرة فاحصة وقال : وأنت ! أنت ! لماذا تخبرني بذلك ؟ لماذا لم تشترك معهم ؟ لماذا لا تضحك مني أنت الآخر ؟ لماذا ؟ .

قلت : لست أدري ! لست أدري ! .

فقال : أليس هذا شيئاً فظيعاً ؟ لماذا يسخرون مني ؟ خبرني ماذا أفعل ؟ .

قلت : لو كنت مكانك لاستطعت ...

ثم صمت لحظة قلت بعدها : في الواقع ، لست أدري ! .

ولم أستطع أن أزجي إليه أية نصيحة بعد ما شاهدت شدة تلهفه على الاندماج في تلك الزمرة .

وفي اليوم التالي أقبل رزيق وقد تأبط كتاباً يحتوي على بعض قصصه ، وسألني قائلاً :

— أتعتقد أن امرأة فرنسية فقدت ابنها في الحرب على أيدي الأعداء ، تستطيع أن تكبت حزنها عليه في قلبها ، وعندما يغزو العدو بلادها تغلق على بعض الضباط حظيرتها وتشعل فيها النار ؟ أتستطيع أن تفعل ذلك ؟ .

قلت : نعم أظن أنها تستطيع .

قال : وهل تعتقد أن خادمة شابة تستطيع أن تقود فرقة من الأعداء ، إلى قبو الخمور وتحبسهم فيه ، ثم تصب ماء عليهم من خلال ثقب في السقف حتى يهلكوا غرقاً كالجرذان ؟ .

قلت : إن الحرب لا تعرف الرحمة .

قال : ولكن النقاد يعترضون على ذلك . إنهم يزعمون أن هذا ليس طبيعياً ، ولا يمكن حدوثه مطلقاً . وحتى لو حدث لا يصلح لأن يكون قصة بالمعنى المقصود بها . وهذا هو السبب في إحضاري لك هذا الكتاب وهو يحوي مثل هذه القصص ، حتى تستطيع أن تقرأها وتحكم عليها باعتبارك ضابطاً في الجيش .

ثم أطلعني على رسالة جديدة من الكونتيسة سفيل تدعوه للحضور في ساعة معينة « للحديث ودي خاص » وتختم الرسالة بقولها : « يجب أن تحضر . إني أتلهف إلى رؤية عينيك الحزينتين . وستسرد علي إحدى قصصك ، وستؤنس وحدتي . صديقتك المحبة سفيل » .

وصحت قائلاً : هذا ليس خط يد الكونتيسة . إنها مكيدة تدبر لك . لقد جعلت وصيفتها تكتب لك باسمها ، وستخفي أصدقاءها ليشاهدوك وأنت معها . إنها مكيدة ! .

ولم يصدق ما قلته . بل حتى اعتقد أني أغار منه . وغادرني وهو يقول : إذا كنت أحمق فسأظل على الأقل شريفاً . وسترى .

ثم جاءني بعد أيام وقال في لهجة حزينة : لقد كنت على حق . إنها خدعة . بيد أنهم أجادوا التمثيل . أواه ! ما أفظع ذلك ! لماذا يقومون بهذا العمل ؟ لماذا ؟ ولماذا ذهبت ؟ لماذا ؟! .

فأمسكت يده وقلت : إنهم . إنهم . إنهم ما خلقوا إلا لذلك . إن عالمهم غريب عليك ، وأنت غريب عليهم . إنهم يضحكون لأنهم جاهلون ، لا يقدرون ، ولا يفهمون .

وانثالت الدموع تترى من عينيه . ثم قبلني قائلاً : أنت صديقي . وسأصغي إليك . خبرني ما الذي أفعله ؟ .

فرددت قائلاً : انسهم . استمر فى عملك وانسهم .

فغادرنى وهو يقول : نعم سأفعل ذلك ، سأفعل .

ومضت مدة جاءنى بعدها منه كتاب يدعونى فيه إلى مأدبة سيقيمها لأصدقائه فى مطعم معين بمناسبة سفره بعيداً عن باريس للاستشفاء . وذهبت فى الموعد المحدد . كانت المائدة معدة لما يقرب من عشرين ضيفاً . ولاحظت سمكة ضخمة موضوعة فى وعاء ، فتحت تحتـه مصباحان كحوليان مشتعلان لتسخينه . وكان صديقى مرتدياً سترته الحمراء . وشاهدت بطاقات موضوعة على المائدة ، وقد كتب عليها أسماء المدعوين ، كان من بينها لوبز ووالدتها والكونتيسة تيفيل .

وسألته : هل سيحضرون جميعاً ؟ .

— نعم ، لقد قبلوا الدعوة .

— إنى لأعجب .

— ماذا ؟ ! أنت لا تعتقد أنهم حاضرون ؟ بيد أنهم أكدوا لى أنهم قادمون . وعندى رسائلهم . إن كل شىء على استعداد . ولقد أعددت لهم خطبة قصيرة .

وانتظرنا ساعة كاملة دون أن يحضر أحد . وأخيراً نادى الخادم وقال له : تستطيع أن تقدم الطعام الآن .

ولاحظت مفتاحاً موضوعاً بجوار وعائه على المائدة ؛ تلك المائدة المعدّة لعشرين مدعواً دون أن يكون عليها سوى اثنين . وعندما انتهينا من تناول الحساء ، قال للخادم : « يمكنك الآن أن تقدم السمك » ، وأعطانى الخادم نصيبى وهم بإعطاء صديقى عندما قال له « كلا ، قدم أولاً للآخرين » ونظر الخادم حوله . لم يكن هنـاك أحد . بيد أن دى موباسان ردد قائلاً : « قدم لـكل ضيوفى أولاً ، ثم قدم لى أخيراً » ، وذهب الخادم من موضع إلى آخر ووضع قطعة من السمك فى كل وعاء . ثم هز كتفيه وغادر الحجرة .

وفى اللحظة التى انصفق فيها الباب انحنى صديقى علىّ وهمس فى أذنى قائلاً : لا تأكل السمك . أنت صديقى . لا تأكل . انتظر وشاهد . ثم قام وأخذ المفتاح وأغلق به باب الحجرة . وأخيراً عاد وجلس فى مقعده . وبعد لحظات وقف وقال فى صوت جهورى واضح :

« سيداتى ، سادتى . لقد أعددت لـكم خطبة قصيرة سأقوم بإلقائها الآن بعـد استئذانكم . لقد سألنى العديد منـكم ما الغرض من هذه المأدبة ، ولهذا وجب على أن أشرح السبب فى كلمات قلائل . أنتم ترون أنى مرتد سترتى الحمراء ، كما كنت أرتديها دائماً لأرضيكم . إنكم إذا ما سألتمونى أن أركع أو أتملق أو أرقص لوجدتمونى رهن إشارتكم دائماً . بيد أنه يجب أن أذكركم الآن أنكم نسيتم شيئاً — شيئاً صغيراً جداً حقاً ، ولـكنه شىء مهم — لقد نسيتم أنه فى يوم ما سيجىء حتماً دورى . لقد تعلمت منـكم ، والآن حان دورى وسترقصون أنتم . أقول سترقصون ، وإنى أعرف أنـكم سترقصون ! وأنتم يا نقادى الأعزاء ، يا من تحملون آلات جراحية فى جيوبكم قد علاها الصدأ ، لـكى تقطعوا بها كل ما يدعى حياة ، إنكم مخطئون يا أصدقائى . إن قصة العجوز التى أشعلت النار فى حظيرتها قصة واقعيـة ، وكذلك قصـة الخادم ، لقد آمن بهما المفكرون ، ثم التفت إلىّ قائلاً : أليس كذلك ؟ .

« نعم يا نقادى الأعزاء إنكم مخطئون . وأنتم سيداتى سادتى ، سأترك لـكم الحكم على أينا أعظم قسوة . إن هؤلاء النقاد يقولون إنى قاس . ربما ، ولـكن يجب أن أضيف أنى على الأقل رجل شريف النفس والعمل . بينما أنتم لا تعرفون نهاية لتعذيبكم ، كما أنـكم تجهلون نتيجة زيفكم وخداعكم ، وهذا ما أظنه عنـكم ، وعنك أيضاً يا عزيزتى الـكونتيسة ، فوصيفتك تقوم بالحب بدلاً منك ، ومتملقوك يسترقون السمع وراء الستائر . وأنت يا عزيزتى لوبز الفاتنة ، إن تحت طلائك مرارة ، ما ألطفك من سـيدة تصلحين لجمع من الماجنين . أتعتقدين أنك ستتزوجين ضابطاً وتخفين الرائحـة التى تفوح من طبيعتك الشريرة ؟ لا ، سرعان ما يكشف سرك . ولـكن ، كلا . لقد رتبت لك شيئاً آخر . عزيزتى لوبز ، ستركعين فى تؤدة . لا ، بل سيركع الجميع أمام كونتيسة النهاية البشرية . سيداتى سادتى ، إن السمك الذى أكلتموه الآن مسموم ! والباب مغلق ! وسأخنق أول شخص يصيح فى طلب المعونة ! » .

ثم صمت وقد ارتجفت يداه عنـد ما أهوى بهما على المائدة ، واهتزت الأوعية ، وسقطت بعض الأوانى الفضية على الأرض . وسمعنا طرقاً على الباب . كان الخادم يحرك المقبض . واسترسل دى موباسان قائلاً :

« موتوا أيها الجرذان . إن الرقص للحمق . أما السم

إلى المعـــــاش ...

للأستاذ محمد مصطفى العالم

عد إلى كبرك وعجبك — إن استطعت — يا سيدى ، ولا يستولين عليك الجزع ، ولا يملأن قلبك الفزع .. فلست أكتب إليك شامتاً بك ، ولكنما أكتب إليك مواسياً لك ، مشفقاً عليك .. ولن يدور بخاطرى أن أحمل عليك كما حمل الزمان عليك ، ولا أن أقسو عليك كما قست الأيام عليك ...

لقد كنتم تسكنون ذلك القصر الفخم الضخم الذى أعدته الحكومة لسكنى والدك الموظف الكبير .. ولقد كنا نحن نقطن ذلك المنزل المتواضع ذا الطابق الواحد الأرضى .. والذى يجاور قصركم ذاك الفخم الضخم .. ولقد كنت أعتقد أن هذا الجوار كفيل بأن يجعلنى أتعرف إليك ..! ولكن خاب ظنى حينما وجدتك تتباعد عنى بقدر ما أقترب منك ..؟.

ولعلك تذكر ما كان يرتسم على وجهك الصغير الجميل من الامتعاض ، وما كان يعتريك من الاشمئزاز والانقباض كلما صادفتنى فى بعض الطريق .. ولقد حاولت مراراً أن تتجاهلنى وتتنكرنى ، ولكننى لم أكن أعبأ بما يبدو منك .. إذ كان أحب شىء إلىّ أن أرى ابن السادة — كما كنا نسميك — وأن أجعل ابن السادة رفاقى ..؟.

ولا يخفى عليك يا سيدى أنك طيلة جواركم لنا لم تقدم إلىّ خيراً ، ولم تدفع عنى ضيراً .. بل لو أنك استطعت أن تقدم إلىّ الشر لقدمت ، أو تسدد إلى صدرى السهام لسددت ...

حاولت أن أعرف سر ازورارك عنى وضيقك بى فما استطعت فى مبدأ الأمر .. ثم وضح لى كبرك وتعاليك وعجبك وتعاظمك ، ورأيتك تجعل الفارق بينك وبينى كالفارق بين قصركم الفخم الضخم ومنزلنا المتواضع ذى الطابق الأرضى .. إذ تقول لى بصريح العبارة : ألا سبيل لمثلى أن يتعرف إلى مثلك إلا إذا ارتفع منزلنا ذو الطابق الأرضى حتى يقارب قصركم الفخم الضخم .. فأجيبك بأن هذا ما لا حيلة لى فيه ، ولا قدرة بى عليه .. وأمشى مفكراً فى أمرك هذا العجيب وأسأل نفسى : هل أرضعتك والدتك الكبر والتعالى فيما أرضعتك ..؟؟ .

ولكن الحظ واتانى حين نلت الشهادة الابتدائية بتفوق عظيم أتاح لى أن ألتحق بالمدرسة الثانوية بالمجان .. ويلعب الحظ دوره مرة أخرى ، فأندمج فى طلبة الفصل الذى أنت فيه ، وأراك عن قرب طيلة اليوم المدرسى ..

وشاء كبرك الذى ليس لنهايته حد أن تختلف مع ذلك الطالب الوديع الذى كان يجلس إلى جوارك ، فيصدر الأمر بأن أنتقل إلى جوارك ، وأن يجلس ذلك الطالب الوديع مكانى .. ماذا كان شعورك حينذاك أيها الجار العزيز .. ؟ لقد كان يثقل عليك أن أكون مجاوراً لك فى المسكن ، فإذا بى أجاورك فى حجرة الدرس أيضاً ..! إنك لم تستطع صبراً مع ذلك الطالب الوديع الذى كان يجلس إلى جوارك ..

فللجرذان ! ارقصوا الآن ، وليعفكم عذابكم معى للهزلة » .

ثم تهالك على مقعده .

وازداد الطرق حدة . فقمت وفتحت الباب . وأقبل خادمان وجعلا يتطلعان حولهما فى دهشة . فإنه لم يكن هناك فى الحجرة سواى وصديق ، وكان جالساً على مقعده صامتاً مفكراً .

وعدنا إلى الدار فى صمت . وقبل أن نفترق شد على يدى قائلاً : من الأسف أنهم لم يحضروا . فالسمك لم تكن مسمومة : بيد أنه قد يكون من الأنفع لهم أن يظنوا أنها كذلك . وكم يكون منظرهم طريفاً . إنى سأرحل غداً . وداعاً ، وتعانقنا ، وامتلأت عيناه بالدموع وهو يقول : « وداعاً ، وداعاً » . ولم أره بعد ذلك .

محمد فتحى عبد الوهاب

فكيف لك أن تصبر على جوارى وأنا لا أرضى المضيمة ، ولا أطوى السخيمة .. بل أرد اللطمة لطمتين ، وأرد اللطمة لطمتين ..؟؟ .

غير أنى ظللت أتودد إليك وأتحبب ما وجدت إلى ذلك سبيلاً .. وصرت أنظر إليك كما ينظر العابد إلى الصنم .. ووضعتك من نفسى حيث ينبغى أن يوضع الجار والزميل والصديق ، ولكنك لم تزدد إلا كبراً وتشامخاً .. لو استطعت أن تصعد إلى السماء من الكبر صعدت .. أو تخرق الأرض من العجب خرقت ..؟ حتى إذا ما حاولت أن تنتقص من قدرى أمام بعض الزملاء لشهوة فى نفسك ومرض فى قلبك ، لم أنس شجاعتى فألجمتك وألزمتك حدك ، وجعلت الطلبة يسخرون منك ويعبثون بك .. ولكنى لست أنكر أنك كنت تنظر إلينا جميعاً كما ينظر السيد إلى العبيد ..؟ .

ولقد كنت أعلم أن السيارة الفاخرة المخصصة لوالدك الموظف الكبير تأتى بك كل صباح إلى المدرسة .. وتنتظر خروجك عقب انتهاء الدرس لتقلك إلى ذلك القصر الشاهق الأنيق الذى يجاور منزلنا ذا الطابق الأرضى .. ولك بعد ذلك أن تذهب إلى المسارح والملاهى مع من تشاء من الأتراب الذين يحيطونك ترفاً وترفهاً وجاهاً ، فإذا أظلم الليل أعادتك السيارة الفاخرة إلى القصر الغارق فى الأنوار ، فيستقبلك الخدم على باب السيارة .. ويصعد بك الخدم فى المصعد الكهربائى .. ويساعدك الخدم حتى تخلع ملابسك .. ويخدمك الخدم حتى تتناول طعامك .. ثم يودعك الخدم حين تنام .. فأنت يا سيدى لا تعرف فى حياتك إلا البذخ والإسراف والنعيم والترف .. لا تعرف الفقر ولا البؤس ولا الجوع ولا الدموع ..؟ .

وإنى لمبتهج بما أنت فيه من نعمة وسعادة ، فليس أسعد لقلبى من أن أرى آثار نعم الله على عباده .. غير أنى كنت ألمح فى وجهك أنك لو استطعت أن تنتزعنا من منزلنا المتواضع لفعلت ، أو أن تهدمه فوق رءوسنا لهدمت ، حتى لا يبدو إلى جوار قصركم الفخم الضخم كالقزم بجوار المارد العظيم ؟ .

وتزداد بك التيه والغرور ، وتتمادى فى الكسل والإهمال ، وترسب المرة بعد المرة .. فتقرر المدرسة فصلك نهائياً ، وتخرج إلى اللهو الذى ألفته ، وإلى العبث الذى يجرى فى دمك ، دون أن تكون قد أكملت دراستك الثانوية ..

ثم تمر الأيام مسرعة ، ولا يروعنى إلا أن أرى حركة غريبة فى القصر الفخم الضخم .. وإذا الرياش والأثاث الفاخر يحمل على العربات ، والخدم منهمكون فى إخلاء القصر من ساكنيه وإعداده لقادم جديد ...

لست أخفى عليك ، لقد استولى على الذهول ، وأحسست بصدع فى قلبى ، ودمعة تتعلق فى محاجرى .. ماذا جرى لوالدك الموظف الكبير ..؟ هل نقل إلى مدينة أخرى ؟ لا شك أن فراقكم عزيز علينا ...؟

ولكن جاءنى النبأ الأسيف حين علمت أن والدك الموظف الكبير قد أحيل .. إلى المعاش .. ويترتب على ذلك إخلاء القصر الفخم الضخم للموظف الجديد الذى سيحل محل والدك المتقاعد .. ؟

قلت فى نفسى : ترى كم أين تذهبون الآن وقد أخرجتم من القصر الفخم الضخم إلى غير عودة .. وما لكم إلى قصر مثله من سبيل ؟ إن أزمة المساكن مستحكمة ، والبلد فى ازدحام بالسكان شديد ...

وأخيراً علمت أنكم قد وفقتم فى العثور على مسكن متواضع ذى طابق واحد أرضى فى بعض الأزقة ...

والآن عد إلى كبرك وعجبك — إن استطعت — يا سيدى ، ولا يستولين عليك الجزع ، ولا يملأن قلبك الفزع .. فلست أكتب إليك شامتاً بك ، ولكنما أكتب إليك مواسياً لك مشفقاً عليك ...

• • •

منذ ربع قرن أعاد ساعى البريد هذا الخطاب إلى أخى الأكبر مفتوحاً بعد أن كتب عليه جملته التقليدية : عاد للراسل حيث رفض المرسل إليه استلامه ..

واليوم حين زرت أخى الأكبر لأهنئه بمنصبه الجديد قال لى : خذ هذا الخطاب فانشره على الناس .. فليس عليهم من بأس فى أن يعلموا أن ذلك الشقيق الفاسد الذى رفض أن يستلم هذا الخطاب يوماً ما ليس إلا ذلك البواب الذى ينحنى لى فى خضوع واحترام كلما هممت بدخول القصر الفخم الضخم الذى أنا ساكنه الجديد ..

محمد مصطفى العالم



تماثيل الانسان من العـــاج

فى بداية الأسرات

للدكتور محمد أنور شكرى

كشف فى نهاية القرن الماضى فى معبد الكوم الأحمر (هيراكونبولس) عن مجموعة كبيرة من التماثيل من العاج، وجد بعضها ملقى فوق بعض فى غير نظام أو ترتيب، وقد أضرت بها كثيراً رطوبة الأرض وأملاحها، كما صدّعت بعضها جذور الحلفاء المتشعبة فى الأرض بما أحال أكثرها إلى عجينة رخوة أو إلى حفنة من التراب أو الصلصال. وما بقى منها لم يلبث أن استحال بعضه بمجرد تعرضه للهواء إلى تراب، أو شرائح غير منتظمة، أو أساطين مجوفة يتزلق بعضها فوق بعض. وما نجا منها بعد هذا كله لم يسلم سطحه الخارجى من التلف، بما أفقده كل نحته وجمال صناعته؛ ومع هذا فهو ينم عما بلغه المثال المصرى من مهارة فى نحت العاج، مما يورث الأسى على تلف هذه المجموعة النادرة، التى يرجع تاريخها إلى ما قبل عهد الأسرات بقليل أو إلى بداية الأسرات على الأكثر.

ومن أجمل ما بقى من هذه المجموعة رأسان صغيران، أحدهما يلبس ما يشبه تاج الوجه القبلى (شكل ١)، وفى ملامح الآخر ما يشبه سمات الليبيين بلحاهم الطويلة (شكل ٢).

> تتمثل فى كثير من هذه التماثيل ذروة ما بلغه فن النحت فى العاج فى مصر القديمة.
>
> وهى بدقة ملامحها، وسلاسة خطوطها، وما يسرى فيها من حيوية تشهد بما أصبح للمثال المصرى إذ ذاك من قدرة فنية ممتازة على نحت صور الإنسان فى براعة فائقة وفى شىء كثير من الصدق والإخلاص ...

وقد كانت عينا كل منهما والحاجبان من مادة أخرى على نحو ما جرى فى كثير من تماثيل ذلك العهد. ويدل شكل كل من العين والحاجب على تقدم ملحوظ فى نحت التماثيل من العاج، كما أن فى تمثيل الجمجمة والفم والأنف ما يدل على دقة كبيرة وأناقة واضحة فى تمثيل ملامح الإنسان. وما حفظ من تماثيل الرجال يمثلهم عادة واقفين وأذرعهم إلى جوانبهم وأيديهم مبسوطة وسيقانهم جنباً إلى جنب؛ على أن منها تمثالاً كان يمثل صاحبه وساقه اليسرى تتقدم خطوة إلى الأمام، مما أصبح من التقاليد الثابتة فى تماثيل الرجال طوال عهد الأسرات.

ومن قطع العاج المنحوتة نموذج صغير لقارب يجلس فيه رجل (شكل ٣)، وقطعتان تمثل كل منهما أسيراً بذراعين مقيدتين وجسم مقوس (شكل ٤) على نحو بعض مقابض العصى التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون؛ وقطعة أخرى على شكل أسير ليبى راكع، يرجح أنها كانت رجل نموذج صغير من المقاعد (شكل ٥). وفى هذه القطع الصغيرة ما يدل على براعة ودقة فى تمثيل الصفات الجوهرية للشعوب الأجنبية، وهو ما كان من

أهم مميزات الفن المصرى فى مختلف عصوره التاريخية .

وتماثيل النساء تمثلهن بملامح دقيقة ، وقامات رشيقة ، ووجوه صبيحة مشرقة ؛ وقد عالج المثال تمثيل شعورهن فى عناية كبيرة بما لا يكاد يختلف عما فى كثير من تماثيل الدولة الحديثة (شكل ٦ ، ٧) . ومع هذا فمن التماثيل ما يمثل امرأة بدينة بساقين مقوستين ، وقد كان هذا التمثال من قطعتين مما يدل على خبرة المثال بصناعة التمثال من أكثر من قطعة واحدة .

وفى أوائل القرن الحالى كشف فى أرض إحدى الغرف القريبة من معبد أوزريس فى العرابة المدفونة (أبيدوس) عن بعض التماثيل الصغيرة من العاج من عهد



(شكل ٩) تمثال جميل لسيدة فى متحف اللوفر



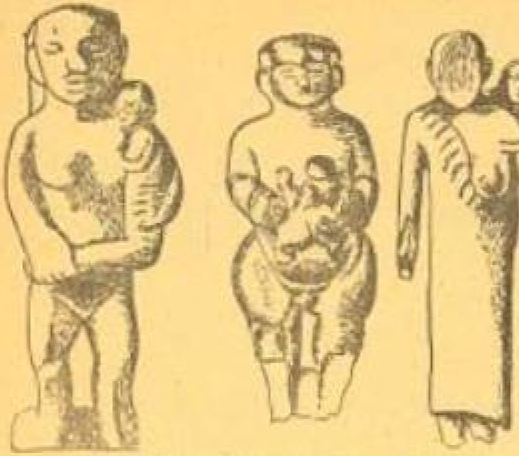
(شكل ٨) تمثال ملك من العرابة المدفونة

بداية الأسرات ، ومنها تمثال لرجل يمثله ورجله اليمنى تتأخر خطوة إلى الوراء ، وآخر لسيدة من صناعة دقيقة ، وبضعة تماثيل لأطفال واقفين أو قابعين يضعون سبابة اليد اليمنى فى أفواههم مما يميز تماثيل الأطفال فى الدولة القديمة . وأهمها جميعاً تمثال ملك بتاج الوجه القبلى يلتحف برداء مطرز ، وهو محفوظ الآن فى المتحف البريطانى (شكل ٨) . وكانت تبدو على وجهه سمات الشيخوخة ، مما دعا إلى الاعتقاد بأنه يمثل ملكاً هرماً ؛ وقد قوى هذا الزعم انحناء الرأس قليلاً إلى الأمام ، وما كان يبدو فى الكتفين من تقوس لانفصال إحداهما عن موضعها ، ولما كان يعلو الظهر من

أوساخ . على أنه بعد تنظيفه وإصلاحه اختفت منه سمات الشيخوخة ، كما أنه لوحظ مما بقى من الساقين أن الفرجة بينهما كانت بالنسبة لحجم التمثال أوسع عنها فى تماثيل الرجال التى تمثلهم والساق اليسرى إلى الأمام . ولهذا يبدو أنه يمثل الملك وهو يعدو فى بعض طقوس عيد « السد » ، مما يدل عليه أيضاً رداؤه واستقرار يديه على صدره ، وقد كانتا تقبضان على الدبة والصولجان على الأرجح . وفى هذا يتجلى السبب فى انحناء الرأس إلى الأمام ، مما يشهد بقوة ملاحظة المثال ، كما أن فى العينين الغائرتين وفى إشراف الأنف وانتشار المنخرين وبروز الشفتين وامتلائهما ما يوحى بعنايته بتمثيل ملامح الوجه فى صدق بقدر ما كانت تسمح به المعتقدات السائدة .

ومن الأمثلة الجليلة أيضاً لفن النحت فى العاج فى بداية الأسرات تمثال صغير لا يتجاوز طوله ١٢ سنتيمتراً ، استطاع متحف اللوفر اقتناءه فى عام ١٩٣١ (شكل ٩) . وهو يمثل سيدة عارية تضم ساقيها جنباً إلى جنب ؛ ومع أن سطحه الخارجى وبعض أجزائه قد تعرضت للتلف ، إلا أنه يمتاز بدقة ملامحه وما يتجلى فيها من حلاوة وجمال هادئ رصين ، كما يمتاز برشاقة خطوطه وطراوتها وما تنبض به من حياة صادقة لا تكلف فيها ، مما يدل على قدرة فنية تسمو بالمثال إلى مركز ممتاز بين الفنانين وإن كان لم يقدر لاسمه البقاء .

عدا هذا لقد أمكن لكل من المتحف البريطانى ومتحف برلين اقتناء بعض تماثيل صغيرة من العاج ، يمثل كل منها امرأة تحمل طفلها على خاصرتها ، على نحو بعض تماثيل الدولة القديمة والمتوسطة ، أو على كتفها أو بين يديها (شكل ١٠) ، مما يدل على أن المثال لم يكن يغفل فى ذلك الزمن البعيد من صناعة بعض مجموعات التماثيل ، التى يمثل كل منها شخصين بما يبين العلاقة بينهما .


(شكل ١٠) تماثيل نسوة يحملن أطفالهن

ولا يعرف الآن على وجه التحقيق الغرض من هذه التماثيل على اختلافها ، على أنه إذ وجد أغلبها فى كل من معبدى الكوم الأحمر والعرابة المدفونة ، فهى لذلك تماثيل معابد ، مما يميزها عن تماثيل المقابر ويعقد الصلة بينها وبين تماثيل الآلهة أو على الأقل يربط بينها وبين الطقوس الدينية التى كانت تؤدى فى المعابد . على أية حال تتمثل فى كثير من هذه التماثيل ذروة ما بلغه فن النحت فى العاج فى مصر القديمة . وهى بدقة ملامحها ، وسلاسة خطوطها ، وما يسرى فيها من حيوية ، تشهد بما أصبح للمثال المصرى إذ ذاك من قدرة فنية ممتازة على نحت صور الإنسان فى براعة فائقة وفى شىء كثير من الصدق والإخلاص ، مما يرقى بها عن كثير من تماثيل العصور التالية فى مصر القديمة التى غدت ترزح تحت عبء التقاليد الموروثة والطرز الفنية الرتيبة . ومع هذا فنى جمال سماتها ، وملاحة قسماتها ، وما يتمثل فيها من شباب وفتوة ما يوحى بأنه أضفى على الصورة الإنسانية شيئاً غير قليل من الجمال والحسن ، مما سما بها عن عوادى الأيام وصروفها ، مما يتفق وما كان يهدف إليه من أغراض .

محمد أنور شكرى



الحلم

للكاتب الإنجليزى الكبير سومرست موم

ترجمة الأستاذ حسن فتحى خليل

اضطرتنى ظروف العمل الذى كنت أقوم به فى أغسطس سنة ١٩١٧ أن أسافر من نيويورك إلى بتروجراد ، ولقد صدرت إلىّ الأوامر أن أسلك طريق ڤلاديڤوستك زيادة فى الاحتياط . وصلت إلى هناك فى الصباح وقضيت يومى متحرراً من الأعمال بقدر الإمكان ، وكان القطار الذى يخترق سيبيريا سيقوم فى التاسعة مساء ، فرأيت أن أتناول طعام عشائى فى مطعم المحطة ، وكان مزدحماً حتى إنى اضطررت لأن أشارك رجلاً — لفت نظرى مظهره — فى مائدته . كان روسياً ، طويل القامة ، مكتنز اللحم لدرجة مفرطة ، له بطن متسع حتى إنه اضطر لأن يجلس بعيداً عن حافة المائدة . وكانت يداه صغيرتين بالنسبة لحجمه ، تغطيهما طبقات من الدهن ، وشعره طويل فاحم ، وقد مشطه فى عناية على هامة رأسه ليخفى صلعته ، وكان وجهه الشاحب الضخم بذقنه الكبير المزدوج حليقاً فى نظافة ، أما أنفه فكان صغيراً ، وكأنه زرار دقيق على هذه الكتلة من اللحم .. وكذلك عيناه السوداوان اللامعتان كانتا ضيقتين ، ولكن فمه كان أحمر واسعاً ، وكأنه فم حيوان . وكان يرتدى حلة سوداء رثة يبدو أن الفرشاة أو المكواة لم تمسها منذ أن لبسها لأول مرة .

وكانت الخدمة فى المطعم رديئة ، ومن العسير عليك أن تجذب نظر الخادم نحوك ، فسرعان ما اضطرتنا الظروف لأن نبدأ حديثاً بيننا . وكان الرجل الروسى يتكلم الإنجليزية الصحيحة فى طلاقة ، فسألنى عدة أسئلة عن شخصيتى ومشروعات عملى ، وكانت مهمتى حينئذ تستدعى منى الكتمان ، فتظاهرت بالإجابة على أسئلته فى صراحة ، بينما كنت فى الحقيقة أخدعه . أخبرته أنى صحفى ، فسألنى عما إذا كنت أكتب قصصاً ، ولما أخبرته أنى أعالج ذلك فى أوقات فراغى بدأ يحدثنى عن الروائيين الروس ، كان يتكلم فى اطلاع أكد لى أنه رجل مثقف .

وكنا حينئذ قد تمكنا من إقناع الخادم بأن يحضر لنا شوربة الكرنب ، وأخرج زميلى من جيبه زجاجة صغيرة من الفودكا ودعانى لمشاركته فيها ، ولا أدرى تماماً هل الفودكا أو النزعة الطبيعية التى امتازت بها سلالته هى التى دفعته إلى الحديث عن نفسه ، فأطلعنى على كثير من أحواله الخاصة ؛ فهو من أصل عريق كما يبدو ، مهنته المحاماة ، ولكنه كان من المتطرفين ، فقامت بعض المتاعب بينه وبين السلطات اضطرته لأن يقيم أكثر أوقاته فى الخارج .. ولكنه كان يومئذ فى طريق عودته إلى منزله ، ولقد عطلته

بعض الأعمال فى فلاديفوستك ، ولكنه كان يأمل أن يسافر إلى موسكو بعد أسبوع ، وأخبرنى أنه سيكون سعيداً لو رآنى هناك .

ثم سألنى : هل أنت متزوج ؟ .

ولم أدر ما شأنه بذلك ، ولكن مع هذا أخبرته بأنى متزوج ، فتنهد قليلاً ثم قال : أنا أرمل .. كانت زوجى سويسرية من جنيف ، سيدة مثقفة ثقافة عالية ، تتكلم الإنجليزية والألمانية والإيطالية فى طلاقة فضلاً عن الفرنسية لغتها الأصلية ، أما لغتها الروسية فكانت أعلى من المتوسط بالنسبة لشخص أجنبى .

ونادى أحد الخدم وكان يمر بجانبنا وبدا لى أنه سأله بالروسية التى كنت أجهلها حينئذ عن المدة التى سننتظرها حتى يحضر بقية الطعام ، فأسرع الخادم ، وزفر صاحبى ثم قال : منذ أيام الثورة وقد أصبحت الخدمة شنيعة فى المطاعم .

وأشعل سيجارته العشرين بينما كنت أنظر أنا فى ساعتى متسائلاً فى دهشة عما إذا كان فى إمكانى أن أتناول وجبتى كاملة قبل قيام القطار .

وأكمل زميلى حديثه قائلاً : كانت زوجى امرأة مدهشة ، وكانت تقوم بتدريس اللغات فى مدرسة محترمة يؤمها بنات النبلاء فى بتروجراد .. وهكذا عشنا معاً عدة سنوات طويلة فى سعادة سعيدة . ولكنها كانت مع هذا امرأة تلهبها نيران الغيرة دائماً ، إذ كانت تحبنى للأسف الشديد حباً محيّراً .

كان من الصعوبة علىّ بمكان أن أظل محدقاً فى وجهه الذى أعده من أقبح الوجوه التى رأيتها فى حياتى ، ولربما يميز بعض النسان الرجين شىء من الظرف ، إلا أن ذلك البدين الكئيب كان رجلاً كريهاً .

وعاد يقول : لن أتظاهر بأنى كنت مخلصاً لها ، فلم تكن صغيرة حين تزوجتها ، وعمر زواجنا نحو عشر سنوات ، كانت صغيرة الحجم مزيلة كثيبة ذات لسان سليط .. تطغى عليها غريزة التملك ، فلم تكن تحتمل أن يجذبنى أحد سواها . ولم تكن تغار من النساء اللاتى أعرفهن فحسب ، بل من أصدقائى وقطتى وكتبى أيضاً ، بل حدث مرة أن تخلصت من بعض ملابسى لأنى كنت أفضلها على غيرها .

ولكن لما كانت طبيعتى معتدلة ، وبالرغم من اعترافى بأنها كانت تضايقنى بتصرفاتها تلك إلا أنى كنت أتقبلها كأنها قضاء من الله كالجو الردىء أو الزكام ، وكنت أنكر اتهاماتها كلما أمكننى ذلك ، أما إذا أسقط فى يدى فكنت أكتفى بهز كتفى وتدخين لفافة .

ومضت أسابيع حياتى ولم تؤثر فىّ تلك المشاحنات ، وكنت أتساءل أحياناً عما إذا كانت عاطفة الحب الدافقة أو الكراهية العمياء هى التى تدفعها إلى ذلك .. بل كان يخيل إلىّ أن الحب والكراهية عاطفتان مترابطتان بالنسبة إليها .

وهكذا كان الأمر سيستمر على هذا المنوال لولا أن حدث شىء غريب فى إحدى الليالى ، فقد استيقظت فجأة على صراخها الشديد .. فسألتها عن جلية الأمر فأخبرتنى أنها قد أصابها كابوس مخيف ، فقد كانت تحلم بأنى كنت أحاول قتلها ، وكنا نسكن الطابق الأعلى من عمارة ضخمة لها مسقط سلم متسع . وحلمت أنه ما إن وصلنا إلى باب شقتنا حتى أخذت أنا بتلابيبها وحاولت أن أرمى بها من فوق الحاجز .. وكنا فى الطابق السادس وذلك يعنى موتها لا محالة .

كانت ترتجف ، فحاولت شتى المحاولات لتهدئتها ، ولكنها كانت ما تزال تذكر هذه القصة فى الصباح ثم اليومين التاليين . وبالرغم من سخريتى بحلمها إلا أنى لاحظت أنه قد استقر فى ذهنها ، ولم أتمكن من التحرر منه أنا الآخر ، لأن هذا الحلم أطلعنى على شىء لم أكن أشك فيه من قبل ، فقد كانت تعتقد أنى كنت أكرهها وأنى أود التخلص منها ، وكانت تعرف طبعاً أنها تجلب لى المتاعب ،

فتصور من وقت إلى آخر أنى لا بد قاتلها . والحقيقة أننا نختلط أحياناً بأفكار غصباً ونخجل من التصريح بها ، فكم تمنيت مرات لو تهرب مع عشيق لها أو تموت ميتة طبيعية مريحة مفاجئة حتى أنال حريتى .. ولكن هذه الفكرة التى كانت تراودها لم يسبق أن طرقت ذهنى أبداً .. أبداً .

وهكذا كان تلك الحلم أثر علينا معاً ، فقد أخاف زوجى لحاولت أن تكون محتملة أكثر مما كانت من قبل ، ولكنى كنت إذا ما صعدت درجات السلم إلى مسكننا لا أملك إلا أن أتطلع من فوق الحاجز وأتخيل مقدار السهولة التى يمكن أن أحقق بها حلمها ، فقد كان الحاجز منخفضاً .. حركة سريعة .. وينتهى الأمر . وأصبح من الصعب على أن أطرد هذه الفكرة من رأسى !.

وحدث بعد ذلك بشهور أن أيقظتنى زوجى فى إحدى الليالى ، وكنت متعباً ساخطاً ، ولكنها كانت باهتة اللون ترتعش من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها ، فقد راودها الحلم ثانية ، فانفجرت باكية وهى تسألنى عما إذا كنت أكرهها ، فأكدت لها وأنا أقسم بمختلف القديسين الروس أنى أحبها .. حتى اطمأنت وهدأت نفسها وغلبها النوم فى النهاية . كان ذلك أكثر مما أحتمله فبقيت مستيقظاً .. وخيل إلى أنى أراها وهى تهوى إلى الدهليز وأسمع صوت اصطدامها بالأرض الصلبة .. فوجدتنى أرتعش .

توقف الرجل الروسى عن الكلام وقد تفصد العرق من جبينه . لقد سرد القصة سرداً حسناً وفى طلاقة عجيبة استرعت انتباهى كله . وكانت هناك ثمالة من الفودكا باقية فى الزجاجة فصبها وابتلعها دفعة واحدة . ثم أخرج منديلاً قذراً ومسح به جبينه وعاد يقول :

وحدث المصادفة الغريبة أن وجدوها فى وقت متأخر من إحدى الليالى ملقاة فى الدهليز مهشمة الرأس .

فسألته : ومن الذى وجدها ؟.

قال : وجدها أحد السكان الذى وصل بعد وقوع الحادث بقليل .

قلت : وأين كنت أنت ؟.

ولا يمكنى وصف النظرة الخبيثة التى خصنى بها ، فقد لمعت عيناه الضيقتان السوداوان ثم قال :

ـ كنت أقضى المساء عند أحد أصدقائى .. ولم أعد إلا بعد انقضاء ساعة على الحادث .

وحينئذ أحضر لنا الخادم طبق اللحم الذى سبق أن طلبناه فعكف الروسى يلتهمه فى شهية وهو يجرف الطعام إلى فمه جرفاً .

وتولتنى الدهشة .. هل قصد أن يخبرنى بهذه الطريقة أنه هو الذى قتل زوجته ؟ إن هذا الرجل البدين البليد لا تبدو عليه سمات الإجرام ، ولا أعتقد أنه يملك الشجاعة الكافية ليرتكب ذلك ، أو لعله يسخر منى ويضحك على بهذه الدعابة ؟.

وحان الوقت لأستقل قطارى فغادرت زميلى ، ولم أره منذ ذلك اليوم .. ولكنى لم أتمكن أبداً من أن أقرر هل كان الرجل جاداً أو هازلاً فى قوله .

حسن فهمى خليل

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٨٦ — الاثنين ١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩ — ٢٠ من مارس سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

اليأس من الحضـــــارة

للأستاذ على أدهم

فى خلال القرن الثامن عشر حدث تحول فى الفكر الأوربى ، من الاعتقاد بأن أمور الدنيا تسير على أحسن منوال ، وأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، إلى الاعتقاد بأن أمور العالم ليست على ما يرام ، وأن الوجود حافل بالمتناقضات والمساوئ والعيوب التى تثير الشكوك والتى لا يمكن تسويغها والاطمئنان إليها إلا بشىء من التغافل المتعمد أو المغالطة المكشوفة ؛ وقد بدأ هذا التحول رويداً رويداً حتى قويت تلك النزعة الثائرة المتمردة الناقمة المتبرمة ، ووجدت فى ڤولتير وروسو أقوى معبرين عنها ، وأبلغ قائلين بلسانها ، وأعظم حاملين لعلمها .

وكان أنصار هذه النزعة مجمعين على وجود العلة وفساد الأمور والتوائها ، ولكنهم كانوا يختلفون اختلافاً كبيراً فى تشخيص المرض وتحديد موطن الداء ، وقد ساء ڤولتير وعمّه ما رآه ولمسه من غباء البشر ، وسخر تفكيرهم ، وقسوتهم ، وظلمهم ، وطغيانهم ، وعدم اكتراث الطبيعة بأحوال البشر ، وأفضاه ذلك بإنكار فكرة العناية الإلهية المشرفة على الدنيا والظن بأنها خرافة لا نصيب لها من الحقيقة ؛ ولكنه ظل مع ذلك واثقاً بقوة العقل مؤمناً بالحضارة ، ولم يفقد يقينه بالتقدم والرقى عن طريق الاستنارة والاعتدال ومجافاة التعصب . أما روسو فقد ذهب مذهباً آخر ، فرأى أن الله خيّر عادل ، وأن الإنسان فى الأصل وكما خلقه الله كذلك خيّر صالح ، وأن الشر ليس فى الطبيعة ، وإنما هو شىء غير طبيعى ، وأن سبب هذا الشر هو الحضارة ؛ فالحضارة تعلى من شأن العقل ، وتزين لنا إكباره والاعتزاز به ، وتفسد الغرائز ، وتغرى بالإمعان فى الظلم والطغيان .

وقد لعب هذان الرجلان دوراً هاماً فى التفكير الأوربى والسياسة الأوربية ، وأثرا فيهما تأثيراً بعيد المدى عميق الجذور ؛ فإن الجم الغفير من الناس الذين احتفلوا سنة ١٧٧٨ بعودة ڤولتير إلى باريز بعد أن غاب عنها ثلاثين عاماً هم الذين اقتحموا الباستيل فى سنة ١٧٨٩ ، وكان زعماء الثورة الفرنسية من المتأثرين بكتاب العقد الاجتماعى الذى كتبه روسو ؛ وقد كانت المليكة كاترين الروسية من المعجبات بڤولتير ، ولكنها لما وقفت على الاتجاه الحقيقى للأفكار الجديدة أمرت بإبعاد تمثال ڤولتير النصفى الصغير من حجرتها ، وهو احتياط من القيصرة المستنيرة والسياسية الخطيرة لم يجد شيئاً ، ولم يستطع بطبيعة الحال أن يغير مجرى الحوادث ؛ فقد كان الثائرون فى روسيا من المتأثرين

بآراء ڤولتير وروسو ، وقد حاولوا أن يصنعوا فى موسكو وبتروغراد ما صنعه الفرنسيون فى باريز . وكان كبير الكتاب الروسيين ليو تولستوى يعمل وهو غلام يافع وساماً قد نقشت عليه صورة روسو ، وظل إلى النهاية متأثراً به فى اتجاهاته الأدبية والسياسية والدينية .

وكان موقف ڤولتير فى مطالع حياته من مسألة وجود الشر فى الدنيا مثل موقف بولنجبروك وبوب الشاعر الإنجليزى المشهور ، وعندهما أن الاعتقاد بكمال الله ينفى وجود الشر ، وأقوى الأدلة على وجود الله هو نظام الطبيعة البديع وما بها من توافق وانسجام وتجاوب واتزان وبهاء وجمال ، ولا يمنع ذلك وجود نقائص فى الإنسان لأنه محدود فان ؛ ومن أقواله فى الرد على پسكال : « لقد عجبت من أن الله خلق الإنسان على هذا القدر من الجهل والانحصار والبؤس ، ولكن لماذا لا تعجب من أن الله لم يخلقه أكثر جهلاً مما هو ، وأشد بؤساً ، وأضيق عقلاً » ، وكان يسره أن تتفق آراؤه فى ذلك مع آراء بوب ، وكان كذلك يقر بولنجبروك على قوله : « إنه من السخف أن تتحدث عن العدالة الإلهية أو الظلم الإلهى كما تتحدث عن الله بوصفه أزرق اللون أو مربعاً » .

ولكن تفاؤل ڤولتير وحسن ظنه بالله والطبيعة طرأ عليه تغير واستهدف لصدمة عنيفة ، وقد كانت حياة ڤولتير نفسها معركة طويلة فى مكافحة الظلم والغباء والتعصب والقسوة والوحشية ، وقد سجن فى الباستيل ونفى من باريز ، وقد رحب به فى برلين فردريك الأكبر ، ولكن قال عنه بعد ذلك : إنه برتقالة يريد أن يمتصها ، وأثارته فظاعات رجال الدين ومنكراتهم وكبارهم فحمل عليهم حملات شعواء ، وأعلن أنه لا يستريح له بال حتى يسحق الحقارة والنذالة ؛ ولما حدث زلزال لشبونة المشهور نظم فى ذلك قصيدة ذائعة الصيت انتقص فيها فكرة العناية الإلهية وسخر بها ، ولكن تشاؤمه وسخريته يتجليان فى أروع صورهما فى روايته العظيمة التى أسماها « كانديد » أو التفاؤل ، وفيها الفن فى السخرية بفكرة أن هذه الدنيا أحسن دنيا ممكنة وتمزق أديمها تمزيقاً شديداً .

وهو يتساءل : لماذا نكبت لشبونة ؟ وهل نكبت بسبب ما اقترفه أهلها من آثام ؟ إذا كان الأمر كذلك فهل أهل لندن وسكان باريز أعف وأتقى من القيمين فى لشبونة ؟ وإذا كان الزلزال جزءاً من نظام الطبيعة ، فهل منعه من وراء قدرة الله ؟ وهل كان الكون يزداد سوءاً لو منع هذا الزلزال ؟ وهل يخبر الله أهل لشبونة ويلومهم بذلك ، أو هو واقف موقف المتفرج على شقاء أهلها ونكبتهم ؟ وينتهى هذا التساؤل بقوله : « إنى لا أعرف شيئاً » .

وهكذا تترك هذه الشكوك ڤولتير فى ظلمة مدلهمة من اليأس وتجعله يعتقد أن كتاب القدر مغلق لا يدرى الناس من أمره شيئاً ، وأن البشر ذرات منتثرة ، ولكنها مفكرة شقية تحاول قياس الفضاء المترامى الشاسع واختراق اللانهاية ، وهى مع ذلك تجهل موقفها ولا تعرف حظها ، وادعاء الحكمة سخف محزن ، ونحن لا نستطيع أن ننكر أو ننفى وجود العناية التى لا نرى لها أثراً ، ويلوذ ڤولتير بالشك ويعتصم به إن كان بالشك ملاذ ومعتصم .

ولم يكن شك ڤولتير شكاً عاكفاً على نفسه منكمشاً محزوناً ، وإنما كان شكاً معتدياً ساخراً ، يجد متعة فى الاستهزاء بالمتفائلين والتحامل عليهم ، وسخريته لاذعة عاصفة ، ورواية كانديد سخرية عامة شاملة لأحوال الدنيا ، قد استوفى فيها بيان أسباب التشاؤم وأجاد استقصاءها . وكانديد المسكين لا يريد أن يتطاول على آراء بانجلوس العظيم ، ولكن تجاربه المرة تركته فى حيرة وارتباك وجعلته يتساءل : « إذا كانت هذه الدنيا خير دنيا ممكنة فما عسى أن يكون حال الدنى الأخرى ؟ » وينتهى الأمر بكانديد إلى ترك التفكير فى هذه المعضلات والاكتفاء بأن نزرع حديقتنا ! والواقع أن هذا هو الحل الذى انتهى إليه ڤولتير وحيده ، ولم يفقد ڤولتير يقينه وأمله فى الحضارة برغم شكه .

وروسو لا يقر ڤولتير على هذه الآراء ، فڤولتير فى رأيه قد جعل شرور الحياة ومساوئ المجتمع مسائل كونية ، وإنما أكثر هذه المساوئ والعيوب مما جره الإنسان على نفسه بسوء تصرفه وفساد نظمه .

وقد كانت حياة روسو حياة عجيبة متناقضة ، فقد كان رجلا شديد الحساسية لا يبالى ما يصنع ، أفاقا يبغى المثل الأعلى ولا يترفع عن الدنايا والنقائص ، وحياته مليئة بالمغريات والنديات والسخافات والمضحكات ، وقد هرب من جنيف مسقط رأسه ليتفادى الضرب من سيده ، وتقلبت به الأحوال واختلفت عليه صروف الدهر ، وذاق مرارة الإخفاق ، وأحس أن أيامه تضيع سدى ، وأن آماله تذهب هباء ، وأن الناس لا يعترفون بوجوده ولا يفهمونه ، ولم يعجبه ما كان يرى فى العواصم من مظاهر البذخ والترف ، وساءه وآلمه أن تفرق بين الناس فواصل الطبقات ، وتمرد الصوفى الكامن فى نفسه على التفكير العقلى السائد فى عصره ، وبينما كان يسير فى ذات يوم قائظ بالطريق من باريس إلى فنسن ليزور ديدرو قرأ فى إحدى الجرائد إعلاناً عن مسابقة أدبية لها جائزة موضوعها « هل كان من أثر العلوم والفنون أن أصلحت الآداب أو أفسدتها ؟ » فأثار هذا الموضوع كوامن نفسه وأخذت تومض فيها بوارق الأفكار وتتوافد عليها شتى الخواطر ، حتى أحس من فرط تكاثرها وازدحامها كأن الأرض تدور به ، وتوالت مسرعة نبضات قلبه ، ولم يستطع المشى فى السير لضيق نفسه ، وارتمى تحت ظل إحدى الأشجار القائمة على الطريق ، وقضى نصف ساعة وهو فى حالة شديدة من الاهتياج وثورة النفس وتضارب الأفكار .

وكانت شكوى روسو من الحضارة مشابهة لشكوى ديوجين ؛ فهو قد طوف فى شوارع باريز وهو يحمل مصباحاً فى رائعة النهار ليبحث عن رجل صادق الرجولة ، ولكنه لم ير إلا أقنعة وأشباحاً ، ولم يصادف إلا عواطف كاذبة ، وأدباً مزيفاً ، وطلاء وتمويهاً ، وكذبا ومغالطة ، وجبناً ورياء ، وادعاء وعبودية وضعة ؛ وفى مثل ذلك الجو الفاسد تنبت الرذائل ، ويعم الفساد ، ويكثر الفجور ، فلا صداقة خالصة نقية ، ولا تقدير ولا احترام ، وإنما يعرف الناس فى أمثال هـذه الأحوال سوء الظن والخيانة والغدر والملق ، وكل ذلك وراء ستار رقيق من التأدب الكاذب والتلطف المسموم .

وقد عزا روسو هذا الفساد الذى أصاب الطبيعة الإنسانية إلى انتشار الفنون والعلوم ، وذهب إلى أنه كلما ازدادت الفنون والعلوم انتشاراً ازدادت الطبيعة الإنسانية فساداً والتواء . ومصر واليونان وروما ودول الشرق لم تنزل من عليائها ولم يدب فيها الضعف وتعصف بها الحوادث إلا حينما تحضرت واستغرقتها الحضارة . أما شعوب التاريخ التى عرفت بالخشونة والصلابة مثل قدماء الرومان والجبليين والألمان فقد ظلوا فى التاريخ أمثلة للطبيعة الإنسانية الصافية النقية . ولابد أن يفسد العلم والفن الأخلاق لأنهما يولدان فى الفساد ، فعلم الفلك يولد فى الاعتقاد بالخرافات ، وفن المرافعة والمحاماة ينشأ فى جو الطموح والمطامع والكراهة والملق والخداع والغش ، والهندسة باعثها الشح والبخل ، والعلوم الطبيعية سببها حب الاستطلاع المغرور المزهو ، ولو لم يكن هناك ظلم لما كانت هناك حاجة إلى القضاء ، ولو لم يكن هناك طغاة وحروب ومؤامرات لما كانت هناك حاجة إلى كتابة التاريخ . ولما كانت الفنون والعلوم من نتائج الغرور والزهو والبطالة والترف فإن الإبقاء عليهما والإسراف فى احترامهما خطر كبير وشر مستطير ، لأنه يثنى حضارة قائمة على عبادة الألفاظ المصقولة المنمقة ، والحركات الرشيقة ، والعادات المخنثة ، وينسينا تقدير صنائع البطولة والإقدام ، ومزايا القلوب الكبيرة المخلصة ، ويرجو روسو الله القادر على كل شىء أن ينقذ أمته من شر الاستنارة والفنون والعلوم ، ويرد عليها الجهل والبراءة والفقر ، فإنها مقومات السعادة وراحة البال وصفاء النفس .

فثورة روسو على الحضارة سببها أن الحضارة قد سلبت الناس الحرية والطلاقة ، وعكرت صفاءهم وأفسدت طباعهم وعلمتهم الطغيان والاستعباد وعدم المساواة ، هى مصدر الشر فى رأى روسو ، وهو يصف حياة المتوحشين بأنها حياة فضيلة لم يشبها الفساد ، وحرية وانطلاق ، وفيها تفاوت بين الناس سببه التفوق فى القوة الجسدية وبراعة الحركات ، ولكنها مع ذلك ليس فيها استعباد وإذلال ، وإنما فيها تعاون على الخير وتوفير أسباب الراحة ، وتقدم الإنسان فى الفنون استدعى وجود الحكومات ، ووجود الحكومة تطلب وجود النظم السياسية والاجتماعية التى تضمن للأغنياء التسلط على الفقراء والتفوق الدائم عليهم ، وهذا هو علة وجود الحكومات فى رأى روسو ، والملكية الخاصة وعدم المساواة

هما أساس الحضارة ، والفنون والعلوم هما ثمرتها ، والبؤس والفساد هما محصل ذلك كله . ولروسو في ذلك كلمات مثيرة بليغة رنانة واضحة سهلة الفهم ، لا يعجب الإنسان حين يتأملها من أن كلمات هذا الرجل كانت من بواعث الثورة الفرنسية .

ولم تعجب هذه الآراء غريمه ڤولتير ، فكتب إليه حينما تلقى الرسالة التي أوضح بها روسو وجهة نظره يقول : « لقد تسلمت يا سيدي كتابك الجديد الذي حملت فيه على بني الإنسان ... ولم يبذل من قبل مثل هذا الجهد الفكري لجعلنا جميعاً بهائم جاهلة غبية ، وحينما يقرأ الإنسان كتابك يهم بأن يمشي على أربع » .

ولم يقصر روسو في اغتنام الفرصة لرد هذه التحية إلى ڤولتير حينما ظهرت قصيدة ڤولتير في زلزال لشبونة ، فقد كتب إلى ڤولتير يقول له : « إن معظم ما يصيبنا من البلاء سببه أسلوب الحياة المعوج الذي نأخذ بذنابه ، فلو أن سكان لشبونة كانوا يعيشون عيشة بسيطة خالية من التعقيد والتكلف لما هدمت فوق رءوسهم منازلهم المشيدة الكثيرة الطبقات ، والإنسان البدائي يعيش في الأباطح والغابات ، ولو أنهم عاشوا كذلك لاستطاعوا أن يفروا إلى الحقول وينجوا من هذا الخطر الماحق ، ومن يدري ؟ فربما يكون هؤلاء الذين قضوا نحبهم في لشبونة قد تخلصوا من آلام أفدح وشقاء أمر وأقسى » .

والفرق الهام بين روسو وڤولتير هو أن ڤولتير برغم عجزه عن إيجاد دليل على العناية الإلهية في أحوال الدنيا لم يفقد مع ذلك أمله في الحضارة واعتقاده بالاستنارة ، ولكنه كان يزدري الجماعات ويراها كالثيران التي تحتاج إلى حمل النير واستعمال السوط والعلف ؟ والحياة في رأيه أضحوكة محزنة ، قد يمكننا الذكاء من فهمها واحتمالها . أما روسو فقد ذهب إلى النقيض ، فقد ظل محافظاً على عقيدته الدينية ، واثقاً بالله ، مكبراً للطبيعة ، متغنياً بجمالها ومفاتنها ، معجباً بالمتوحش الجاهل لبساطته وبراءته ، مرجعاً كل العيوب والنقائص والآفات إلى الحضارة التي وجد ڤولتير في ظلالها راحة الإنسانية ؟ فروسو على تفاؤله يائس من الحضارة ، وڤولتير على تشاؤمه شديد التعلق بالحضارة مؤمل فيها التقدم والسمو ؟ والعجيب أن روسو يحقر عمل الإنسان ليكبر عمل الله ويمجده ، ولكنه في نفس الوقت يؤثر إنسان الغابات على الإنسان المتحضر ، أي أنه يؤثر وراثتنا الحيوانية على وراثتنا الثقافية الحضارية .

ومن ثم دعوة روسو الناس إلى العودة إلى الطبيعة ، وكتبه المشهورة تتناول هذا الموضوع من زوايا مختلفة ، فكتابه عن العقد الاجتماعي يوضح أن الإنسان قد ولد حراً ، ولكنه في كل مكان يجر سلاسل الأقياد ، وعلاج ذلك هو استرداد حريته الطبيعية جهد الطاقة ، وكتابه عن الويز الجديدة نجد فيه الحب الطليق من القيود ، وكتابه المسمى « إميل » يدعو إلى إنماء المواهب الطبيعية عن طريق التربية لتظهر طبيعة الطفل كما خلقها الله .

وأفكار روسو — على ما بها من مبالغات وعيوب أثرت في التفكير الغربي تأثيراً شديداً ، وتخرج عليه الكثيرون من الكتاب والمفكرين ، وربما كان في طليعة هؤلاء الكاتب الروسي الجبار العظيم ليو تولستوي ؛ ففي سنة ١٨٧٨ أي بعد موت ڤولتير وروسو بمائة سنة ، كان تولستوي البالغ من العمر خمسين عاماً قد تبرم بالحياة الناعمة المترفة الصاخبة الزاهية ، وكره الشهرة الأدبية ، والشكوك الدينية ، وأخذ يزدري الحضارة والقيم الثقافية . ويخطئ فيما أعتقد من يظن أن تولستوي قد انتابه هذا التغير فجأة بعد أن كتب آيته الفنية المشهورة رواية « الحرب والسلم » ، فقد كانت مقدمات هذا الاتجاه وبوادره ظاهرة في مؤلفاته وملامح شخصيته ، وقد بحث تولستوي عن السعادة في الاسترسال مع الأهواء والنزوات والسهر على موائد الميسر والعيشة بين أحضان الطبيعة في البراري والخلوات ، وفي خوض غمرات الحرب وفي الحياة العائلية الهادئة الهانئة وفي الشهرة الأدبية البعيدة المتنامية ، ولكنه لم يجد في ذلك كله ما يروي ظمأه ، وحينما بلغ قمة المجد رأى أمامه الهاوية السحيقة .

وقد كشف لنا تولستوي في اعترافاته عن ذلك الصراع الناشب في نفسه بين الفنان والرجل ، أو بين المؤلف الذي جابت شهرته الآفاق ، ولكنه مع ذلك يشك في قيمة أعماله لأنه غير واثق من أن الله راض عنها ، بل كان يشك في وجود الله نفسه ، وكان هذا الشك يؤلم نفسه ويفسد عليه

حياته ، وبرغم ما كان عنده من خيل ومال كان يسأل نفسه : « ما معنى ذلك كله ؟ وماذا بعد ذلك ؟ ولماذا يعيش ؟ وهل للحياة معنى ؟ » ولقد أحس بعد هذا التساؤل أنه كان يعيش من أجل لا شيء ، وأنه لا يرى موجباً للحياة . ولقد نظر إلى حياة الرجال المستنيرين من طبقته الارستقراطية فوجدهم لا يعلمون شيئاً عن القيم النهائية للحياة ، فأدار الطرف في حياة الزارعين الجهلة البسطاء ، وأدهشه أنهم برغم ما يعانونه من الفقر والجهل يقنعون بالخبز القفار ويرضون بالقليل ، واستخلص من ذلك أن الحياة لها معنى ، وأن هؤلاء الناس الفقراء المساكين يدركون هذا المعنى ، ويتكشف لهم سره ، وتفتح مغاليقه ، وقد أخبروه أنهم يتبعون قانون السيد المسيح ، ويعملون بوصاياه ، فحاول تولستوي أن يجد هذا القانون في الأناجيل ، وقد اعتقد أن في خطبة الجبل الوصايا التي ترشد سيره وتخرجه من الحيرة وتنير له السبيل ؛ فالسيد المسيح يدعو الناس إلى التسامح والاعتدال والحب ، وينهى عن الحسية والانقياد للشهوات واتخاذ المرأة مطية للمتعة ووسيلة للهو والعبث ، وينهى الإنسان عن وضع ضميره الحر تحت تصرف سادته الرسميين الأعلياء كما هو الحال في النظام الحزبي ؛ وقد هدم المسيح الحواجز التي تفرق بين الأمم وتفصل بعضها عن البعض ، وأراد إخضاع العلاقات الأممية للقانون الأدبي ، وأوصى الإنسان بأن لا يكتفي بحب جاره ، بل يحب كذلك عدوه وخصمه والقريب عنه والبعيد منه ، وأن يشمل حبه الإنسانية كلها ، ثم فوق كل شيء وقبل كل شيء أوصى بالإقلاع عن استعمال العنف ، ومقابلة الشر بمثله ، وبشر بقانون الحب وعدم المقاومة .

وقد لاحظ تولستوي أن هذه الوصايا والأوامر والمبادئ التي نادى بها المسيح وأعلنها تخالف ما هو متبع في المجتمع ، بل تناقض الأسس نفسها التي قام عليها المجتمع وأنظمته ؛ وهكذا أفضى نشدان الهدوء الروحي والسكينة الداخلية بتولستوي إلى نقد الحياة الحديثة ومظاهر الحضارة ومقتضياتها .

وأصل الشر في رأي تولستوي هو استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وهذه الرغبة الملحة في تأكيد النفس وفرض الشخصية وإمتاعها وإعطائها سؤلها في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والحياة الثقافية هو اللون الغالب على الحضارة ، ويحمل تولستوي حملة شعواء على الحضارة الحديثة من نواحيها المختلفة ، ويكشف عما بها من زيف وباطل وفساد ، وينقد أدبها وثقافتها نقداً لاذعاً نافذاً .

ولكن ما هو الحل لهذا المشكل ، وكيف تعالج الأزمة ؟ وهل يستسلم الناس للقضاء ، أو يلوذون بالصوامع وأحضان الطبيعة على طريقة روسو ، أو يعتصمون باليأس والعجز عن تغيير هذه الأحوال لأنه لا فائدة من هذه المحاولة اليائسة العقيمة ؟ ولقد حاول روسو في اعترافاته أن يلقي التبعة على المجتمع ، وهاجم الحضارة ليسوغ سلوكه ويبرر مواقفه وأعماله ؛ أما تولستوي فكان أنبل وأصرح وأصدق وأخلص ، فقد استطاع أن يواجه نفسه وينقدها ويعلن ما وجده من تناقض بين تفكيره وأسلوب حياته ، ويجهد لإزالة هذا التناقض ؛ ومن ثم بدأت معركة رهيبة بينه وبين نفسه ، وبينه وبين أسرته وأقرب الناس إليه ، وبينه وبين الحضارة الغربية كلها ، أي أنه أخذ يحارب قوى الظلام المقيمة في نفوسنا ، ويقاوم العنف والكبرياء والشهوة والميل إلى الظلم والاستغلال ، وكان لا يرى بأساً في التضحية بالحضارة من أجل إزالة هذه العيوب والمساوئ .

والعيوب التي يحصيها روسو على الحضارة ، والمساوئ التي يعددها تولستوي جميعها صحيحة ، ولها آثارها السيئة ونتائجها المحزنة ؛ ولكن هل تدل هذه العيوب والمساوئ على أن الحضارة شر ، وأن التقدم الثقافي والتقدم الأخلاقي لا يتفقان ؟ .

لقد تغيرت أحوال العالم بعد وفاة روسو ، ومرت بالدنيا أحداث جليلة بعد موت تولستوي ؛ ولكن سير الحضارة واتجاهاتها في العصر الحاضر واستهدافها لأخطار الحروب الساحقة لا يجعلنا نرفض شكوكهما بالحضارة في يسر وسهولة وثقة واطمئنان .

علي أدهم

أنصـــــاف الآلهة

للأستاذ عبد المنعم اللبجى

مضى على الإنسان حين من الدهر ظل فى حيرة عقلية إزاء ظواهر الطبيعة ، يغشاه الوجل والإشفاق تجاه معضلات الحياة وألغاز الوجود ، كل شيء يصعب فهمه تنسبه إلى الآلهة والأرواح ، أو إلى المردة والشياطين . على أنه لم يعمد إلى هذا التعليل الخرافى فى ميدان الظواهر التى لا قبل له بالتحكم فيها فحسب ، بل إن أى عمل إنسانى باهر اجتاح بغرابته وجدانه ، وصدم بإبداعه عواطفه صبغه صبغة إلهية ، وعد منتجه نصف إله فى حياته ثم إلها حقيقيا بعد مماته ، هو ماندعوه عبقريا بلغة العصور التالية . وهكذا لم يقنع اليونان القدماء بعبادة آلهة تسنموا قمة الأولمب الشامخ ، وأخر استوطنوا أعماق المحيط ، وغير هؤلاء وأولئك آلهة امتطوا السحب والرياح السارية ؛ إذ بينا هؤلاء فى آفاق علوية ، كان هنالك على الأرض أبطال بهروا الجموع بجمال أو قوة أو نثر أو شعر ، فأنزلوهم منزلة أسمى من البشر ، وعبدتهم الأجيال اللاحقة .

وهنا أخيل العدّاء اليونانى ، وفى مصر أمنحتب الطبيب المعبود ، وفى فارس زرادشت ، وفى الهند بوذا ، وغير هؤلاء كثير من عباقرة القرون الماضية ، أحالهم التاريخ أنصاف آلهة ، نسجت حولهم الأساطير ، وقدمت لهم القرابين . وما كانوا غير بشر يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق . غير أن الخوف يستبد بالإنسان القديم ، وتعوزه الثقة بقدرته على الخلق والإبداع ، حتى إذا تفتق ذهنه الخلاق من فكر معجز ، أو قدمت يداه عملا مبدعا ، أو تمخضت إرادته عن بطولة رائعة ، استبعد أن تكون هذه المنتجات العظيمة المعنة فى التفوق منتجاته هو ، إنما هى صنيع قوة خارقة ليس المرء إلا أداة لها ، ومجلا لوحيها وتأثيرها .

وهذه كلمة « عبقرى » اشتقت من « عبقر » ذلك الوادى الذى تمرح فيه الجن والمردة ، وكلمة genius أصلها gen أى الروح خيراً كان أو خبيثاً ، وشيطانة الشعر ، وإلهام الفن ، وغير ذلك من ألفاظ وتعبيرات تلوكها الألسنة ، إذ هى بصدد الإنتاج البارع الخلاق ، وكلها بقايا التفكير الخرافى القديم ، لا تزال — برغم التقدم العلمى — متشبثة بقوانا الفكرية ، مفسدة لأحكامنا — أحياناً — من حيث لا ندرى ولا نحتسب .

وكان أول انتصار ظفر به الإنسان ، وأعظمه شأناً ، انتصار الإنسان على الآلهة ، ذلك الانتصار الذى احتفى به « لوكريتيوس » الشاعر اليونانى الثائر بعبارته الساخرة :

« على مرأى من الجميع ، رقدت الحياة الإنسانية على الأرض رقدة العار ، وقد أعيتها تكاليف دين تبدى من أجواز الفضاء برأس مخيف ، ينذر بوعيد معلق على رؤوس البشر الفانين . حينئذ قام الرجل اليونانى — وهو أحد الفانين — فكان أول من تجرأ على أن يرفع عينيه متحدياً » .

صدق لوكريتيوس ، فقد كان الفكر اليونانى الذى أبدع الآلهة ، وخلق للعالم أروع الأخيلة وأمتع الأساطير ، هو أول من بدد الخرافات ؛ فهو حين أحرز النصر على الآلهة ، إنما أحرز فى نفس الوقت أروع انتصار على نفسه ، إذ اطرح أسلوب التفكير الخرافى السحرى وأحل محله أسلوب النظر العقلى والمنطق الحر ، وهو إذ فعل ذلك قدم تضحية كبرى ، وكيف لا يكون عمله هذا تضحية وقد تخلى عن العيش فى رحاب الخيال ، وتنازل عن الأسطورة التى تمتع الحس والقلب ، وتسبغ على الناس أجواء الأمانى والأحلام .

تحدى اليونانى « الفانى » الآلهة ، وسخر منها ، ولكنه ظل على وفائه لأنصاف الآلهة ، أعنى العباقرة الذين يتحفون الناس بروائعهم تغذية العقل والقلب والروح ، ويخففون بذلك من غلواء الحياة ويلطفون من جفافها . وأبى الإنسان إلا أن يحتفظ للعبقرية بصفات الغموض القدسى ، فلا يجسر على تحليلها وتأملها تأمل الفاحص المفتش عن سرها ، إلا حين أسلمت الفلسفة النظرية مكانها للعلم . وللعلم سلطان يطامن من كبرياء العقل ، ويحد من غلوائه ، إذ يفرض عليه قيوداً فى البحث لا يتعداها ، تلك قواعد التجريب الذى

يفي العلم بالعالم المحسوس الذي نعيش فيه ، ونضطرب بين جنباته . أما المجردات والغيبيات ، وأما الجواهر والتعريفات ، فأمور لا تعنينا ، وما يعنينا غير ما نرى ونسمع ، ونحس ونلمس ، من ظواهر وأحداث ، ولا ضير علينا إن لم نتجاوز هذه الحدود إلى ما وراء الطبيعة من أسرار قد نمعن في البعد عنها بقدر ما نمعن في تأملها تأملا منطقيا حراً من القيود ، مطلقاً من الحدود .

وعلى ذلك فلنتنح « لغز العبقرية » جانباً ، ولا علينا أن نعمق السر الخافي ، والكنه المستتر . فأمامنا العباقرة أناس نستطيع دراسة حياتهم وتعرف أحوالهم . وتحت أسماعنا وأبصارنا روائع وصفناها بالعبقرية ، نستطيع تذوقها وتفهمها ، فهي لا تستعصى على التحليل شعراً كانت أو صوراً ، أو نغماً ، أو علماً ، أو بطولة . وهكذا رأينا كتاباً أكثر كلفاً بآثار العباقرة من العبقرية في تجردها ؛ من هؤلاء "J. Segond" الفرنسي الذي كتب كتابه « مشكلة العبقرية » تناول فيه العبقرية بالتحليل النظري والاستقصاء التاريخي . وأخيراً يطلع علينا "Terman" عالم النفس الأمريكي ببحث ضخم عرض فيه المشكلة من زاوية تتفق مع الاتجاه العلمي الحديث ، اتجاه الدراسة التجريبية والاستقصاء الواقعي ، معرضاً عن المناقشات النظرية ، وأرجو أن ألخص نتائج بحوثه في مقالات قادمة . ويهمني في هذا المقال أن أقرب إلى الأذهان فكرة العبقرية بالحديث عن آثارها فينا ، وتحديد خصائص منتجاتها .

يتميز أي إنتاج نعده عبقرياً بسموه على قدرات الناس سمواً ملحوظاً ، وغرابته بالنسبة إليهم . ولكن غرابة الإنتاج وحدها غير كفيلة أن تسمه بالعبقرية ؛ فمن الأعمال النادرة الغريبة ما لا يستثير غير الازدراء لشذوذه وانحرافه ، ولا يستدعي غير المقت لخلوه من الروح الإنسانية . في حين أن العبقري منها يجتذب قلوبنا لسموه وأصالته ، ويحظى باحترامنا لإنسانيته . ورغم أن الإنتاج العبقري بعيد عن الناس غاية البعد ، إلا أن هذا البعد لا ينفرهم منه ، بل يزيدهم تعلقاً به وتشبثاً بأهدابه . فما السر في ذلك التناقض الذي يشوب موقفنا منه ؟ .

إن الإنسان لا يعيش في حاضره فحسب ، بل يعيش في نفس الوقت في الماضي ، بذكرياته وعواطفه وتقاليده ، ويعيش في المستقبل ، بآماله ومطامحه وأحلامه . ولذلك نخطئ إن نحن نظرنا إلى الفرد نظرتنا إلى الجسد بأبعاده المحدودة ، فهنالك الخيوط السحرية التي تقيده بالماضي بقيود محكمة ، وتشده إلى عجلة المستقبل شداً وثيقاً . ليس الإنسان عبداً للحظة الراهنة ، ولا سجيناً في حيزه الذي لا يتجاوز حدود البدن ، طالما كان بوسعه أن ينطلق على أجنحة الخيال ، يطوف في الآماد والأبعاد ؛ وطالما كان بمقدوره أن يمتطي بساط الذاكرة السحري ، الذي يحلق به في أجواء الماضي الحافلة ؛ وطالما كان يمكنه أن يتوغل في ضمير المستقبل ، بفكره الذي يستنتج ويتنبأ بالمآل ؛ وأخيراً طالما كان يستطيع التغلب على عجزه وقصوره ، فيتحدى الصعاب والعقاب ، ويحقق في عالم الأماني والأحلام ما عز تحقيقه في دنيا الواقع ، وعالم الحدود والقيود .

حين يبدع الشاعر قصيدة رائعة ، وحين يخرج المصور لوحة بارعة ، وحين يأتي القائد عملاً معجزاً ، وحين يكشف العالم عن سر طبيعي ، وحين يخرج النبي رسالة خالدة ؛ يحني الناس هاماتهم خشوعاً لما تنطوي عليه هذه الأعمال من سمو وإعجاز ، ورغم هذا السمو والإعجاز ، فهم يستشعرون وشيجة تربطهم بها ، وألفة تصلهم وإياها ؛ ذلك أن كل عمل من هذه الأعمال العبقرية ، إنما هو تحقيق فعلي لمثل أعلى طالما راود الأذهان ، واستكمال واقعي لنقائص كم ودوا القضاء عليها ، وإبداع لأمور لم تكن غير آمال وأحلام ، فأضحت حقائق واقعة . وهذا ما يحملني أومن أن تذوق الناس لإنتاج عبقري هو لحظة السمت التي تتحقق فيها الحرية الإنسانية : حرية العبقري المنتج ، إذ انطلق من عقال الزمن والحيز ، ليخلق الجمال والكمال ، برغم ما يوثق به من قيود القبح والنقص ؛ وحرية الجموع التي تتذوق هذا الجمال والكمال فتتحرر — ولو إلى حين — من هموم النقائص والشرور ، وتنعم — ساعة من زمان — بالكمال الذي طالما تطلعت إليه دون أن تحققه ؛ ثم تحقق على يد غيرها ، ورأى نور الحياة بفضل العباقرة .

وذلك يحملني أخلص إلى نتيجة ثانية ، غير الحرية الإنسانية ، هي أن الإنتاج العبقري برغم سموه وتعاليه ، ليس

صدعاً فى كيان المجتمع البشرى يفصم بين جموع غافلة وقلة تابهة؟ إنما هو على العكس من ذلك النقطة التى تتوحد عندها الإنسانية جمعاء. العبقرية فى جوهرها اتحاد شمى بين النفوس العاجزة، الطامحة — برغم هذا العجز — إلى الحق والخير والجمال، الجاهدة — برغم الأغلال الثقيلة — فى سبيل التحرر والانطلاق الروحى. وبين العباقرة الذين هم فى حقيقة الأمر رسلنا الذين يحققون أحلام الجموع، ويبددون مشاعر النقص بما يبدعون من آيات. العبقرية توحد فى إنتاجها — فكراً كان أو فناً أو عملاً أو بطولة — بين ما هو كائن من قدراتنا المتواضعة، وبين ما نحب وما ينبغى أن يكون من آمالنا ومطامحنا. وإن إعجاب الجموع الواعية بمنتجات العبقرية ليكشف عن الرباط المقدس الذى يربط بينها (ملاشياً الفروق المزعومة) فى نفس اللحظة التى يستشعرون فيها إعجاباً مشتركاً بعمل واحد.

ألا ترى مع ذلك أن القدماء — إذ عبدوا العباقرة — إنما كانوا يعبدون فيهم الإنسانية الفائقة، وأنهم عندما رفعوهم إلى مرتبة تدنو من مرتبة الآلهة، إنما كانوا يسجلون بذلك — مدفوعين بمشاعر خفية غامضة — انتصار الإنسان على القدر الذى حكم عليهم بالنقص والعجز، وألزمهم الحدود الضيقة والقواعد الصارمة؟! أو لا ترى كذلك أن الإنسان إذ يبدع، وأنه إذ يتذوق الإبداع، إنما يعلن فى نفس الوقت تمرده على مأساة البشر، ويجاهر بعيداً يعرف الإنسانية جمعاء، هو المقاومة، أعنى مقاومة استبداد الطبيعة أو الإنسان على حد سواء بجموع الناس. بيد أن العمل العبقرى قد يحظى بتقدير، فى حين لا يلقى من إنسان بربرى غير النفور والازدراء. وما ذلك إلا لأن ذلك العمل لم يكن من قبل مثلاً أعلى يتطلع إليه البربرى، ولا كان رغبة تهفو إليها نفسه.

وذلك ما يجعلنى أتخلى عن نظرتى إلى المشكلة نظرة الفيلسوف إليها، وأحل محلها نظرة الاجتماعى الذى يطمح فى تحقيق التآلف بين الناس جميعاً. فأقول إن العباقرة كثيراً ما طحنتهم الجموع الغافلة، وكثيراً ما استبدوا بدورهم بتلك الجموع. وما هذه الفرقة غير عرض سطحى ما علينا إن أردنا القضاء عليه، إلا أن نرفع المستوى الثقافى للجموع: فتغدو عقولها فكراً، وعلاً أفئدتها حبا للجمال، ونعينها بشتى الوسائل — من وقت وعلم ومال — على أن تتجاوز حدود اهتماماتها اليومية التافهة، وتتطلع إلى آفاق أوسع. حينئذ لن تغفل عن قيمة العبقرية، ولن تدع العبقرى أن يزدريها. ثم إن رفع المستوى الثقافى لجموع الناس لن يكون ترقية لهم فحسب، بل سيكون فى نفس الوقت رفعاً لمستوى العبقرية ذاتها. فطالما الإنتاج العبقرى كما أسلفنا لا بد أن يتميز بالسمو والغرابة بالنسبة للنابهين من الناس فضلاً عن أوساطهم، فإن نحن ارتقينا بالنفوس التى تتذوق وتقدر فلن تقنع حينئذ بالتفوق العادى، ولن ترفع إلى مصاف العبقرية إلا كل من سجل سمواً حقاً. ويؤيد ذلك أن كثيراً ممن اعتبروا فى عصور التدهور الفكرى عباقرة، محا التقدم أسماءهم من قائمة العباقرة؛ وكثيراً ممن سخر منهم الأقوام، ورموهم بالخلط والسفاهة، قدستهم الأجيال اللاحقة وخرطتهم فى سلك الخالدين.

العمل العبقرى إذاً لا يحظى بتقديس زمنه أو أهله فحسب، بل وبتقديس الأجيال البعيدة، والآماد المترامية، ذلك أنه تعبير عما يكمن فى أعماق النفس البشرية من عنصر إنسانى فريد مشترك، يربط بين الناس جميعاً، أنى كان الزمان وأيا كان المكان.

عبد المنعم المليجى
مدرس علم النفس بمعهد التربية

فلسفة العـــــــدم

للأستاذ يحيى هويدى

عبثاً نحاول أن نعرف الوجود أو العدم تعريفاً صحيحاً . ذلك أن معانى هذه الألفاظ — كما قال ابن سينا فى كتاب ما بعد الطبيعة من الشفاء — ترتسم فى النفس ارتساماً أولياً ، لا يحتاج معه إلى تعريفها . وقد قال أرسطو أيضاً عن الوجود إنه أكثر الكل كلية ، أو إنه أعم العام . ولهذا فيستحيل علينا أن نحده . ومع ذلك ، فإننا إذا قلنا إن هذا الشيء موجود ، فإننا نقصد بذلك أن نثبت صفة إيجابية له ، نستطيع بعدها أن نخلع عليه صفات إيجابية أخرى . وعلى العكس من ذلك ، فإن العدم يفيد النفى . وهذا ما يشهد به اللغويون أنفسهم . « فعَدِمتُ » الشيء عدماً يعنى فقدته ، والعدم أو العُدْم لديهم هو الفقر . إذاً ، فالوجود شيء والعدم ليس بشيء . الوجود إثبات والعدم نفى . الوجود إيجاب والعدم سلب . هذا ما يشهد به الجميع . ولكن الفلاسفة — شأنهم دائماً — أخذوا يقلّبون فى معنى العدم ، فحملوا له على معنى جديد غير المعنى الذى تواضع الناس عليه . ووصلوا إلى أن العدم لا يكون نفياً وسلباً دائماً ، لأنه يحتوى على نوع من الإيجاب والإثبات والوجود ، مع ما فى ذلك من تناقض ظاهرى . وهاك البيان :

فقد فرق شلنج بين نوعين من السكون : بين السكون الذى هو موات وسلب لكل شيء ، وبين السكون الذى ينتج عن تصارع قوتين متضادتين متساويتين . فإذا خضع جسم ما لتأثيرين متساويين فى اتجاهين متضادين ، فإنه لن يتحرك . ولكن حالة السكون التى يكون عليها هذا الجسم تختلف عن حالة السكون التى يكون عليها جسم آخر لم يخضع لأى تأثير . فالسكون الأول نتيجة اصطراع قوى وتأثيرات متساوية ، أما السكون الثانى فهو عدم وسلب لكل حركة . السكون الأول سكون يسبق العاصفة ، إذ قد تتغلب فى إثره قوة على قوة ، فيتحرك الجسم . أما السكون الثانى فلا ينذر بشيء .

وبعبارة أخرى : نستطيع أن نقول إن السكون الأول وجود ، والثانى عدم ، مع أن مظهر الاثنين هو العدم المطلق ، وهو انتفاء لكل حركة . ومعنى ذلك أن السكون أو العدم الأول يحتوى على الوجود فى باطنه ، أى أن السكون أو العدم الأول ليس انتفاء تاماً للحركة ، بل هو عبارة عن حركة كامنة . وهكذا استطعنا أن نجد معنى إيجابياً للسكون أو العدم .

ولكن أحداً لم يستطع أن يتعمق معنى العدم وينفذ إلى قيمة الدور الذى يلعبه فى الوجود مثلما فعل الفلاسفة الوجوديون ، وعلى رأسهم هيدجر وجان بول سارتر . ولابد لنا من مثال أو مثالين — نعرضهما لتقريب الفكرة إلى الأذهان — قبل أن نعرض لبعض آراء هذين الفيلسوفين فى العدم .

فإذا أردت مثلا أن تتخيل شيئاً معيناً بالذات ، فما الذى تفعله ؟ عليك أن تلغى من أمامك صورة العالم الواقعى بما فيه من أشياء واقعية ، وبما فيه من الصور الواقعية لهذا الشيء . ثم عليك بعد أن تلغى هذه الصورة المركبة أن تستحضر أمامك الصورة المتخيلة . ومعنى ذلك ، أنه لكى تستحضر أمامك فى الخيال صورة واضحة المعالم لشيء ما ، عليك أن تسقط من حسابك صور الأشياء الأخرى التى تكون مرتبطة به ، بل عليك أن تسقط من حسابك صورة العالم أجمع . وبعبارة أخرى : عليك أن تعدم العالم لكى تظفر بصورة واضحة المعالم لهذا الشيء المتخيل . ومعنى ذلك ، أن تخيل شيء معين لابد أن يسبقه عملية « إعدام » néantisation لجميع الأشياء الأخرى . وهذا معناه أن العدم أو الإعدام أصبح عنصراً مقوماً للوجود ، ولو أن هذا الوجود ليس إلا وجوداً متخيلا فحسب .

ودعنا من الخيال لنلتقى بحالة واقعية . فإذا فرضنا أنك

دخلت قهوة عامة لتبحث فيها عن صديق ضرب لك موعداً في مكان معين منها (وهذا المثال ضربه لنا سارتر في كتابه «الوجود والعدم»). فماذا يحدث؟ إن القهوة كلها بما فيها من كراسي وموائد وأنوار وروّاد ومشروبات وأصوات، كل ذلك يتلاشى أمام ناظريك، وتتجه بذهنك إلى المكان الذى اعتدت أن تقابل فيه هذا الصديق. أعنى أنك تبدأ بعملية «إعدام» تلغى فيها وجود القهوة بكل ما فيها خلا هذا الركن الذى اعتاد صديقك أن يجلس فيه. ومعنى ذلك أن العدم أو الإعدام يدخل هنا فى تكوين الوجود، بل ويكون سابقاً عليه أيضاً. أى أنك لكى تجد (من الوجود) صديقك لابد أن يسبق ذلك إعدام (من العدم) أو قضاء على كل من وما فى القهوة، وإسقاطه من الشعور. وإذا فرضنا أنك عندما اتجهت إلى الركن الذى اعتاد صديقك أن يجلس فيه، ولم تجده. فما الذى يحدث؟ إنك تعود فتنظر إلى الأشخاص والأشياء التى ألغيت وجودها من قبل، وتتراءى لك هذه الأشخاص والأشياء فى تلك اللحظة على أنها تعود إلى الوجود من جديد. فإذا لم تجد فيها من تنشده عدت فألغيت وجودها وأسقطتها من حسابك مرة أخرى. وفى كل هذا، يدخل العدم أو الإعدام مقوّماً من مقوّمات الوجود.

ولنترك بعد ذلك الأمثلة جانبا لنعرض لبعض ما قاله هيدجر وسارتر فى العدم.

يقول هيدجر: إن هناك نوعين من الوجود: وجود فى ذاته Das Seinde ووجود لذاته Dasein. أما الوجود الأول فيقصد به وجود الشىء الجامد الصلب الثابت الذى يظل على حالة واحدة لا تتغير. أما الوجود لذاته فهو وجود الإنسان المتغير الذى لا يستقر على حال ربما ينتقل إلى أخرى، هو فى المساء غيره فى الصباح، وهو قادر على إلغاء حالته الأولى ليحل محلها حالة جديدة. وهو من أجل ذلك، يحتوى فى ذاته على عنصر العدم لأن تغيره هذا معناه إعدام حالة أو القضاء عليها ليستبدل بها حالة أخرى. وحينما أقول: «أنا موجود»، فإن وجودى هنا يختلف دون شك عن وجود الجبل الذى لا يريم أمامى مثلا. أتدرى مصدر الاختلاف بين الوجودين؟ إن الوجود الأول يحتوى على عنصر العدم، أما الوجود الثانى فخلو منه. وهكذا أصبح الوجود فى أعلى درجاته (وهو وجود الإنسان) هو ذلك الذى ينطوى على العدم. ومعنى ذلك أن العدم أصبح له معنى إيجابى، وأصبح مقوّماً حقيقياً من مقوّمات الوجود؛ لا بل مقوّماً لأرقى أنواع الوجود.

وواضح أن وجود الإنسان وجود فى ذاته ولذاته معاً، أى أنه ذو طبيعة مزدوجة: فهو هذا الإنسان المتغير الذى لايستقر والذى يعدم حالة من حالاته ليعيش فى حالة أخرى، وهو من ناحية أخرى ذلك الجسم الجامد المادى. وجسم الإنسان، على الرغم من أنه يظل دائماً غريباً عنه إذ أنه يحسه كشىء غريب عنه وبالطريقة عينها التى يمر بها على أى جسم آخر مثل شجرة أو تمثال، إلا أنه مع ذلك يؤثر فيه وفى شعوره. ومن أجل ذلك قال سارتر عن الإنسان: إنه ذو طبيعة لزجة «Visqueux» فهو من ناحية «جامد»، «صلب» ويتمثل ذلك فيه جسمه المادى، وهو من ناحية أخرى مرن «مائع» أى متقلب. ويتمثل ذلك فيه قدرته الإعدامية، ووجوده لذاته. وهو يتذبذب دائماً بين هذين القطبين. وصفته المميزة دائماً هى «اللزوجة La viscosité» التى تجعله جامعاً لكونه مرناً مائعاً متقلباً من ناحية، وكونه جامداً صلباً لا يتغير من ناحية أخرى.

وقد أدى هذا التصور الطريف لوجود الإنسانى بسارتر إلى إعادة النظر فى حقيقة من أهم الحقائق الفلسفية، وهى حقيقة الكوجيتو الديكارتية التى تقول: «أنا أفكر فأنا إذاً موجود». فما هو المقصود من الوجود هنا؟ هل المقصود به تيار وجودى كله، مشتملاً على وجودى السابق والحاضر والمستقبل؟ ومعنى ذلك أنى سأكون قادراً بمجرد تفكيرى على أن أضع يدى على كل لحظات وجودى؟ كلا. إن سارتر ينكر هذا إنكاراً تاماً. ويقرر أن الوجود هنا لايعنى إلا وجود اللحظة الحاضرة فحسب، أى الوجود الحاضر الموقوت ليس إلا. فعندما أقول: «وأنا إذاً موجود» كنتيجة لتفكيرى فى شىء ما، فإنى لن أفهم من ذلك: «أنى كنت موجوداً قبل ذلك» ولكنى سأفهم من وراء ذلك «أنى موجود فعلاً الآن فقط»، بل وسيتضمن فهمى

لوجودي الحالي إلغاء أو إعدامٌ وجودي للماضي أو السابق . أي أن العبارة « أنا إذاً موجود » ستتضمن كذلك اعترافاً بقدرتي الإعدامية على إلغاء وجودي الماضي . ومعنى ذلك ، أن الوجود الذي سأفطن إليه هنا بعد تفكيري هو « الوجود للذات » أي الوجود الإعدامي المتغير المتقلب . وليس أدل على ذلك ، أي ليس أدل على أن الوجود في العبارة الديكارتية الشهيرة لا يفيد إلا الوجود الحاضر الموقوت متضمناً في ذلك إلغاء أو « إعدام » الوجود السابق من أن « إروسترات Erostrate » وهو بطل القاتل في رواية « الحائط » لسارتر بعد أن قتل ضحيته ، كان بوسعه أن يهرب من البوليس المطارد له أو أن ينتحر . ولكنه لم يفعل ! وذلك لأنه « فكر » فكانت نتيجة هذا التفكير أنه فطن إلى وجوده الحاضر فقط . أما وجوده السابق ، وجوده الذي لم يمض عليه إلا لحظات ، ووجوده باعتباره قاتلاً لم يمض على فتكه بضحيته إلا دقائق معدودات ، فقد أعدمه وأسقطه من حسابه ، وتصور نفسه مخلوقاً آخر له وجوده الحاضر الذي يمتد بآمال واسعة إلى مستقبل مشرق ، ولكنه لم يتصور فيه وجوده الماضي أبداً . وهكذا أصبح العدم مقوماً للوجود في أهم حقيقة فلسفية ، وهي حقيقة الكوجيتو الديكارتية .

• • •

أما موقف الإنسان من الأشياء الخارجية المحيطة به ، فيصوره لنا سارتر فيما يلي : فهذه الأشياء الموجودة في منزلي الريفي قائمة هناك لا تريم ، تستقبلني فيه كلما مررت به مرة في العام : هذه الساعة ، وهذا الموقد ، وهذه الأرائك ، لم يغير فيها مر السنين . وأسرح الطرف من النافذة فأرى الجبال والغابات لا تحرك ساكناً ، ولا يبدو عليها أنها تحفل بوجودي ، فهي قائمة هناك من غير أن يكون لوجودي تأثير عليها . وأحاول أن أفهم عن وجود هذه الأشياء الخارجية شيئاً ، ولكنني أخفق . ومن ثم يستولي عليّ شعور بالحصر النفسي أو الضيق L'angoisse . وسارتر هنا يتأثر كيركيجورد الذي كان أبرع من حلل هذا الشعور عند الإنسان — ثم أحاول بعد ذلك أن ألغي هذه الأشياء التي من حولي ، أي أن أعدم وجودها إعداماً ، طالما تغايرني ولا أمل لي في أن أفهم من ماهيتها شيئاً . ومن ثم ، أتجه بفكري إلى إلغائها . وفي أثناء هذا كله ، أشعر بأن وجود هذه الأشياء الخارجية يثير فيّ نوعاً من التقزز ، بل ويخلّف عندي شعوراً بالقيء La nausée (وهذا عنوان لأحد كتب سارتر) . وهذا تعبير قوي قد لا يوافق عليه الذوق العام ويشمئز منه . وما أكثر تعبيرات سارتر التي لا يوافقه عليها الذوق ، بل وحتى تلك التي لا تتمشى مع الأخلاق ! ولكنه يصور على كل حال هذا اليأس الذي يملك على الإنسان حسه وكيانه وشعوره كله عندما يجد نفسه محاطاً بأشياء كثيرة لا يدري عنها شيئاً ، ويمر ببصره سريعاً على هذه الأشياء جميعها فلا يكاد يعي منها شيئاً ، اللهم إلا أنها قائمة هناك ، وعلى الرغم منه ، وسواء أراد أم لم يُرد .

• • •

وقد شغف سارتر بالعدم وأنزله من نفسه المكان الأول ، حتى جعل منه أو من الخلاء le vide — وهو عكس الملاء le plein — مساوياً للحرية . فالأشياء قائمة في الخارج ، جامدة ، صلبة ، « ملاء » في « ملاء » ، ليس بيني وبينها سبب . ويقابلها الأنا أو الشعور ، وهو الخلاء المطلق الذي لا يحتوي على شيء ، وليست لديه معرفة بالأشياء الخارجية ، ولا حتى بجسمه المادي الذي يتقمصه . ومن أجل ذلك ، فإن بطل رواية « التأجيل » Le Sursis — ونستطيع أن نترجمها أيضاً « في مفترق الطرق » — ينظر إلى الأشياء وإلى يديه فيروعه مقدار ما يفصله عن العالم بأسره ! ومع ذلك فإنه يستنتج من عزلته تلك عن العالم كله أنه حر . « كل شيء قائم في الخارج ... أما في باطني ، فليس هناك من شيء ، ولا أثر لشيء . بل قل إنه ليس هناك باطن على الإطلاق . وليس ثمة شيء . والأنا هو لا شيء . ومع ذلك ، فأنا حر ... لستُ شيئاً ، ولست مستحوذاً على شيء . فأنا مقيد بالعالم مرتبط به ارتباط الشمس والضوء به ! ومع ذلك ، فأنا « مُبعد » عنه ، كضوء الشمس الذي يتسرب إلى الأحجار والماء ، وينساب من تحتها دون أن يعلق به شيء ، أو ينشب فيه شيء ... وأنا حر مع ذلك . والحرية هي النفي الذي كتب عليّ فيه أن أكون حراً » .

ولا يخفى أن سارتر هنا قد قال بمعنى جديد للحرية . فمن المعروف في علم الأخلاق أن الحرية هي قدرة الشخص على التأثير في الظروف الخارجية وإخضاعها له . أما الحرية عند سارتر فليست تتعلق مطلقاً بموقف الشخص من العالم الخارجي أو من الظروف المحيطة به . بل تتعلق بموقف الإنسان من نفسه ومن حياته الباطنة . فالإنسان الحر عند سارتر هو ذلك الذي يستطيع أن يعزل نفسه عن العالم ، ويعيش في عالمه الباطني ؛ هو ذلك الذي يستطيع أن يلغي العالم الأكبر ليعيش في العالم الأصغر وحده . ولكن حياته في عالمه الباطني لن تكون حياة على وتيرة واحدة ؛ وإلا لما كان حراً أبداً ، بل ستكون حياة متجددة « الأحوال » متدفقة التيارات . وسيكون فيها الإنسان مستغلاً « قدرته الإعدامية » إلى أقصى حد . ولكن كل ذلك سيكون بينه وبين نفسه . ومن أجل ذلك ، فالقضاء على الحريات بالمعنى العادي المألوف لهذه الكلمة ، وعزل الإنسان عن كل ما في العالم الخارجي ، يتيح له — في رأي سارتر — أن يحيا في باطنه حياة متجددة غنية إعدامية متقلبة . وهذا كله يجعل منه إنساناً حراً كما ينبغي . ولذلك نظر سارتر إلى فترة الاحتلال الألماني لفرنسا عقب دخول الألمان فيها ، باعتبارها الفترة التي أتاحت للفرنسيين قدراً من الحرية لم يُتح لهم من قبل . لأنها هي الفترة التي لم يسمح فيها للفرنسيين بأي نوع من الاتصال الخارجي ؛ ومن ثم عكفوا على ذواتهم يغيرون من أحوالها في كل آن ما شاء الله لهم أن يغيروا فيها ، ويعدمون اليوم ما رضوا عنه بالأمس . وتلك هي الحرية عند سارتر . وهكذا استطعنا أن نظفر بمعنى جديد للحرية كان الفضل في العثور عليه هي تلك « القدرة الإعدامية » التي اكتشفناها في الإنسان ، وهي تتمثل هنا في إعدام الأشياء والظروف الخارجية كلها حتى يخلو الشخص إلى نفسه وينطوي على ذاته بكليته ، حتى إذا ما تم له ذلك غيّر من أحواله الذاتية وبدّل ، وأصبحت حياته الباطنية بذلك سلسلة من أعمال الهدم والبناء ، والولادة والإعدام .

• • •

وقد سيطرت فكرة العدم على سارتر في القصة ومنهجه فيها أيضاً . فالروائيون عند سارتر طائفتان : فمنهم من يكتفي بعرض تاريخي لحياة بطله ، تأخذ فيه الحوادث بعضها برقاب بعض ، ويكتفي فيه المؤلف بعرض « الماضي » من حياة بطله . بيد أن هذا الماضي لن يكون حياً بحال من الأحوال ، بل سيكون جامداً مقفلاً لا حياة فيه . ولن يختلف عن الوجود في ذاته الذي سبق أن أشرنا إليه . وقد رأينا أنه وجود لا يمثل الوجود الحقيقي الحي المتغير الإعدامي في الإنسان . ومنهم من يتخذ موقفاً آخر جديراً بالاعتبار حقاً في نظر سارتر ؛ فهم يصورون من الإنسان « الوجود لذاته » الكامن فيه ، وجوده المتقلب الإعدامي الذي لا يخضع للترتيب المنطقي ولا يدين بالتسلسل العقلي . وهم لا يسردون « ماضي » البطل كما يفعل أفراد الطائفة الأولى ، بل يصورون حاضره ؛ والمقصود هنا بالحاضر لا حاضره المادي ، بل حاضره الروحي الحي ، الخصب الذي يعج دائماً بمشروعات المستقبل . وعلى ذلك فهؤلاء الروائيون يصورون الحاضر والمستقبل معاً ، لأن الحاضر لا يكون موجوداً إلا إذا كان مقدمة المستقبل . ومن أجل ذلك فإن المحكوم عليه بالإعدام في رواية « الحائط » لسارتر يرى نفسه في الليلة السابقة على الحكم بالإعدام عليه أنه ميت فعلاً . وذلك لأن مستقبله قد قُضي عليه وأصبح مقفلاً . فالحاضر الخصب المتناقض الذي ينتقل بسرعة من حالة إلى حالة أخرى ، ويعدم في طريقه حالات ليواجه حالات جديدة أخرى ، ويكون مبشراً في ذلك كله بمشروعات المستقبل — هذا الحاضر هو الذي يصوره لنا سارتر في قصصه ورواياته .

• • •

هل من شك بعد ذلك في أن العدم أصبح مقوماً حقيقياً من مقومات الوجود ؟ إن كنت ما زلت في شك من هذا ، فعليك أيها القارئ بكتب سارتر ورواياته ، فاقرأها لتقتنع إن لم يكن قد أقنعك عرضي الخاطف لبعض آراء هذا الفيلسوف .

يحيى هويدي

رؤية الله فى مذهب المعتزلة

للدكتور ألبير نصرى نادر

تجرد المعتزلة فكرة الله تعالى من كل عنصر مادى أو من كل ما يؤدى إلى وصفه تعالى بأى صفة من صفات المادة مهما كانت ضعيفة ، لأن المعتزلة كانوا يفخرون بأنهم المدافعون عن التوحيد الحقيقى المطلق . ولما كانت هذه هى فكرتهم فى الله فيكون من الطبيعى أن يردوا مسألة رؤية الله إذا كانت هذه الرؤية حسية ، ولكن إذا نظر إليها كأنها رؤية من نوع آخر يختلف تماماً عن الرؤية الحسية ، فالمعتزلة لا تمانع فى بحث المسألة من هذه الناحية .

الله لا يرى بالأبصار :

أجمعت المعتزلة على أن الله لا يمكن أن يرى بالأبصار فى دار القرار[1] لأنهم يقولون إن البصر لا يدرك إلا الألوان والأشكال أعنى ما هو مادى ؛ والله ذات غير مادية . فمن المستحيل إذاً أن يقع عليه البصر . فقط يقول أبو الهذيل وأكثر المعتزلة : إننا نرى الله بقلوبنا ، بمعنى أننا نعلمه بقلوبنا[2] وهذا لا يعنى أننا نعلمه علماً حقيقياً كاملاً شاملاً ، لأن المتناهى لا يمكن أن يدرك اللامتناهى — ونحن نعلم أن فكرة الله عند المعتزلة هى عبارة عن نفى كل صفة من صفات المخلوقات عنه تعالى — هذا ما أدى هشام الفوطى وعباد بن سليمان المعتزليين إلى إنكار رؤية الله حتى ولو بالقلوب ؛ بمعنى أن هذه الرؤية هى إدراكنا له أو علمنا به . فمثل هذا الإدراك أو مثل هذا العلم غير ممكن لنا لما يوجد من فارق بين طبيعة المخلوق وطبيعة الخالق . إذا كان العلم حسب قول أبى الهذيل هو مجرد شعور داخلى بوجوده تعالى ، فهذا ما يتفق عليه جميع المعتزلة . أما إذا كان هـذا العلم علماً حقيقياً لماهيته تعالى ومشاهدة مباشرة لهذه الماهية فهذا ما ينكره جميع المعتزلة حتى أبو الهذيل . وهذا ما يتفق وتعريفهم لله حين يقولون إنه لا توجد أى مشابهة بين ذاته اللامتناهية وماهية المخلوقات أجمع المتناهية .

(١) ابن حزم : الفصل جـ ٣ ص ٢ — الشهرستانى : الملل والنحل على هامش ابن حزم جـ ١ ص ٨٢ و ٨٣ — نهاية الإقدام ص ٣٥٦ — الأشعرى : مقالات الإسلاميين ص ١٥٧ . البافى : مرهم العلل المعضلة ص ٢١٩ .

(٢) الأشعرى : مقالات ص ١٥٧ .

استحالة رؤية الجواهر :

تلجأ المعتزلة إلى ما بين الأعراض والجواهر من فرق لتعزز قولها بنفى رؤية الله بالأبصار — يقولون إن الجوهر المجرد لا يمكن رؤيته بالأبصار ، لأن الألوان والأشكال فقط يمكنها أن تؤثر على عضو البصر وتسبب فيه الرؤية . والألوان والأشكال أعراض ، فإذاً بصرنا لا يدرك إلا الأعراض ، ولا يمكنه أن يدرك الجواهر المعراة عن كل عرض — وفى الله لا يوجد أى عرض . وهو تعالى ذات بسيطة ومجردة . فكيف إذاً يمكن القول بأنه يمكننا أن ندركه بالأبصار ؟ وعلى ذلك يكون الكلام فى إمكان رؤية الله كلاماً يترتب عليه الاعتراف بوجود أعراض فى الله ، وهذا محال ويناقض تعريف المعتزلة لله تعالى[1] .

تكفيرهم لمن يقول برؤية الله :

لما كان هذا هو قول المعتزلة فى استحالة رؤية الله ، ولما كانت هذه هى حججهم فى ذلك فمن الطبيعى إذاً أن يدافعوا بشدة عن هـذا الاعتقاد وهو فى مذهبهم ركن من أركان التوحيد كما يفهمونه . لذلك كانوا يكفرون كل من خالفهم فى هذا القول ، لأن القول برؤيته تعالى هدم للتنزيه وتشويه لفكرة الله وتشبيه له بخلقه . وهذا كفر . لذلك لم يترددوا فى تكفير من قال بهـذا القول ، وكلام أبى عيسى المردار المعتزلى صريح واضح فى هذا الصدد ، ويعبر أيضاً عن رأى المعتزلة أجمع حيث يقول : إن من قال إن الله يرى بالأبصار على أى وجه قال ، فمشبه لله بخلقه ، والمشبه كافر بالله ، والشاك فى قول المشبه كافر بالله أيضاً ، لأنه شاك فى الله لا يدرى أمشبه هو لخلقه أم ليس بمشبه لهم ، وكذلك الشاك فى الشاك

(١) الشهرستانى : نهاية الإقدام ص ٣٦٠ .

أبداً(١) . — والرؤية حسب قول المعتزلة هي المقابلة أو اتصال شعاع بصر الرائي بالمرئي(٢) . وذلك لا يجوز إلا لما هو مادي أو متصل بالمادة . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ما يترتب على القول بالرؤية :

تقدم المعتزلة البرهان الآتي لرد قول مثبتي الرؤية . فتقول إن البصر خاصية حس من حواسنا الخمس ، وإذا سلمنا بأن الله يمكن رؤيته فيستنتج ضمناً من هذا القول كونه تعالى مسموعاً مشموماً مطعوماً ملموساً . وذلك شرك عظيم(٣) وكأن هذه صفاته لم يعد يختلف عن الأشياء المادية المحسوسة . وشتان ما بين هذا القول وفكرة الله عند المعتزلة من الفرق الشاسع . فإذا نظرت المشبهة والرافضة إلى إلهها نظرة مادية يترتب عليها رؤيته بالأبصار ، فإن المعتزلة كانت مجتهدة في رد هذا الرأي الخاطئ وفي إظهار كل ما يترتب عليه من نتائج منافية لكماله تعالى .

هل يرى الله خلقه ؟ :

بعد ما نفت المعتزلة رؤية الله وقدمت البرهان على ذلك جابهت مسألة أخرى تتعلق بالأولى . وهي عكس السؤال الأول ، أعني : هل يرى الله خلقه ؟ وما معنى رؤيته لخلقه ؟ . الجواب على هذا السؤال يستخلص من فكرة الله عند المعتزلة . فهو تعالى منزه عن كل مادة . ويؤولون وصفه بالسميع البصير على معنى أنه عليم بالمسموعات التي يسمعها غيره والمرئيات التي يراها غيره . لذلك يقول الكعبي بوضوح إن الله لا يرى نفسه ولا غيره إلا على معنى علمه بنفسه وبغيره . والنظام يقول : إن الله لا يرى شيئاً على الحقيقة(٤) ، فقط هو تعالى « بكل شيء عليم » . نجد إذاً أن كل آراء المعتزلة متماسكة تماسكاً وثيقاً ، وتبدو كبنيان وطيد الأساس شيد على العقل . إنهم يقولون بالتنزيه وبكمال الله . نفوا عنه تعالى كل ما يتعلق بالمادة ، وعلى ضوء هذه المبادئ شرحوا وأولوا كل ما يمكن أن يؤدي إلى الاعتقاد بالتشبيه شرحاً وتأويلاً داخلين في نطاق التنزيه والتوحيد كما فهموه .

معنى قول أحمد بن حابط برؤية الله :

بينما ينفي جميع المعتزلة رؤية الله بالأبصار نجد أحمد بن حابط وفضل الحدثي وهما من أصحاب النظام المعتزلي يذكران الحديث التالي : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته » على رؤية العقل الأول الذي هو أول مبدع ، وهو العقل الفعال الذي منه تفيض الصور على الموجودات . فهل يعني هذا الحديث أننا سنرى فعلاً الله ؟ . كلا . والحديث يستمر قائلاً : إن هذا العقل الفعال هو أول ما خلق الله فقال له تعالى أقبل فأقبل ، ثم قال له تعالى أدبر فأدبر . فقال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك ، بك أعز ، وبك أعطي ، وبك أمنع . فهو الذي يظهر يوم القيامة وترتفع الحجب بينه وبين الصور التي فاضت منه ، فيرونه كمثل القمر ليلة البدر . فأما واهب العقل فلا يرى البتة(١) . فيكون هناك نوع من الرؤية ولو أنها ليست رؤية الله تعالى نفسه ، بل رؤية هذا العقل الأول الذي خلقه . إن الصور التي هي تميز الكائنات المخلوقة أجمع فاضت منه ، وإن حجاباً يحجب هذا العقل الأول عن هذه الصور الفائضة منه . فلما يرتفع هذا الحجاب تصبح حينئذ رؤيته ممكنة ، وهو الكائن الوحيد الذي له علاقة مباشرة بالمخلوقات وهي تفيض منه .

مصدر هذا القول :

يقول أفلوطين(٢) : إن في قمة الوجود الواحد أو الأول

(البقية على صفحة ١٩)

(١) الخياط : كتاب الانتصار ص ٦٨ — الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٧٥ — البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٥٢ — الأسفرائيني : التبصير في الدين ص ٤٧ .
(٢) البغدادي ، الفرق بين الفرق ص ١٥٢ .
(٣) الشهرستاني ، نهاية الإقدام ص ٣٦١ .
(٤) البغدادي ، الفرق بين الفرق ص ١٦٦ .

(١) الشهرستاني ، الملل والنحل ج ١ ص ٧٠ .
(٢) أفلوطين (٢٠٥ — ٢٧٠ م) جاء من ليقوبوليس (أسيوط) إلى الأسكندرية حوالي ٢٣٢ ولازم فيلسوفها الوثني أمونيوس ساكاس إحدى عشرة سنة ، ثم أراد أن يقف على الأفكار الفارسية والهندية فرحل إلى سوريا والعراق ، ثم قصد إلى روما سنة ٢٤٠ وأقام بها حتى مماته (أنظر كتاب تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم) .

كيف ؟

استغلال قوى الطبيعة

للأستاذ محمد فتحى عبد الوهاب

تقدم العلم فاستطاع أن يسخر من قوى الطبيعة ما استفادت به الحياة البشرية وارتفعت عن طريقه المدنية . وليس هناك من شك فى أن الهواء والماء والنار والفحم والبترول والكهرباء ، كل هذه قد أدت إلى بناء صرح الحضارة ، وأوصلت الإنسان قدماً إلى طريق التقدم والرقى ، بل أصبحت من أهم عماد الحياة فى يومنا هذا .

بيد أن الطبيعة وهبت قواها دون ما عدل أو قسطاس ، فنحت بلاداً أرضاً غنيــة بالفحم ، وجادت للبعض بتربة تجرى من تحتها أنهار من البترول ، ووهبت البعض الآخر مساقط مياه قوية ، ثم تركت ثمة بلاداً فقيرة بمواردها .

ولذلك ما فتئ العلم يبحث وينقب لعله يجد فى الطبيعة من جديد القوى ما يسد نقص تلك البلاد .

القوة من البحار الاستوائية :

منذ خمســة وعشرين عاماً حاول مهندسان فرنسيان استنباط القوة بطريقة جديدة من الطبيعة . وكان مناط بحثهما أن درجة حرارة الماء على سطح البحر فى المنطقة الاستوائية أعلى بدرجة ملحوظة من درجة حرارة الماء فى القاع ، أو تحت عمق معين . فإذا أمكن رفع ماء القاع فى سهولة حتى يصل إلى السطح ، فمن المستطاع الحصول على كميات وافرة من الماء فى درجات متغايرة الحرارة وفى اتصال مستمر ، بعضها بالبعض الآخر . ومن الجلى أن الطاقة الحرارية لسطح الماء تميل إلى الاندفاع صوب الماء البارد المقبل من القاع .

فهل فى الإمكان تدبير انتقال الطاقة الحرارية من الماء الدافئ إلى الماء البارد فيعترضها أى نوع من الآلات لاستغلالها ؟

لا بد أن يكون ذلك ممكناً نظرياً ؛ فإنه من المعروف أن الحرارة تمر من الأجسام الساخنة إلى الأجسام الباردة . ولكن هل يتأتى ذلك عملياً ؟ . وهل الآلة التى تعترض انتقال الطاقة الحرارية قادرة على تأدية عملها فى استغلال هذه الطاقة بطريقة عملية ؟

لنسأل أولاً : ماذا تعنى درجة الحرارة ؟ درجة الحرارة هى مقياس درجة اضطراب أو اهتزاز جزيئات الجسم . فالجزيئات فى درجة ٨٠ مئوية أكثر اضطراباً منها فى درجة ٢٠ . أى أنه كلما ارتفعت حرارة الجسم ، زادت جزيئاته اهتزازاً ، وازداد دفع بعضها البعض . وهذا الاندفاع يولد ضغطاً يزداد بازدياد الحرارة . ويسمى هذا الضغط فى حالة الماء « ضغط البخار » ، وهو يختلف باختلاف درجة الحرارة . فمثلاً ضغط البخار فى درجة ٢٠ مئوية يقدر بحوالى ½ رطل على البوصة المربعة ، وفى درجة ٨٠ ما يقرب من ٧ ½ رطل على البوصة المربعة . فإذا ما أدخل ماء فى درجة

٢٠ فى وعاء مفرغ من الهواء ، فإن البعض منه يتبخر إلى أن يصير الضغط فى الوعاء مقداره ½ رطل على البوصة المربعة ، ثم لا يتبخر الماء بعد ذلك . وإذا ما أدخل ماء فى درجة ١٠٠ ، فإن البعض منه يتبخر حتى يصل الضغط إلى ١٥ رطلاً على البوصة المربعة ، أى الضغط الجوى . وهذا هو سبب غليان الماء فى هذه الدرجة من الحرارة . فإن جزيئات الماء يدفع بعضها البعض بضغط يعادل ١٥ رطلاً على البوصة الواحدة ، فتندفع الجزيئات فى الهواء أو تتبخر كما يقال . والماء فى درجة ٢٠٠ يتبخر عند إدخاله فى الوعاء حتى يصل ضغطه إلى ٢٢٥ رطلاً للبوصة الواحدة المربعة ، أى أن أحواله تكون مشابهة لتلك التى للغلاية البخارية .

لنفرض إذاً ، أننا استطعنا إدخال سطح ماء البحار الاستوائية الذى فى درجة حرارة ٣٠ فى وعاء مفرغ من الهواء ، فسيتبخر الماء حتى يصير الضغط فى الوعاء رطلاً واحداً على البوصة المربعة . فإذا ما أدخل ماء البحر القادم من الأعماق — وتبلغ درجة حرارته ٢٠ أو أقل — فى وعاء آخر ، يتبخر حتى يصل ضغطه إلى ½ رطل للبوصة المربعة .

لنسأل الآن : ما الذى يحدث إذا ما أوصلنا الوعاءين بأنبوبة ؟ إن بخار الماء سيندفع فى الحال من الوعاء ذى الضغط العالى إلى الوعاء ذى الضغط المنخفض . فإذا ما اعترض مسار البخار تربين قائم بالأنبوبة ، فإنه سيتحرك باندفاع البخار ، ومن ثم يستطاع توليد الكهرباء .

وقد أجريت تجارب على أنموذج من هذا القبيل بفرنسا ، وكان الماء الساخن فى درجة حرارة ٣٣ ، والبارد فى درجة ٨ و ١٢ ، فكانت سرعة لفات التربين ٥٦٠٠ لفة فى الدقيقة ، وأدار بذلك مولداً كهربائياً أنتج ٥٩٫٤ كيلووات (قوة ٨٠ حصاناً) من الكهرباء ، احتيج منها إلى ١٨ كيلووات فحسب لتوصيل الماء إلى الوعاءين .

وقد كان مقرراً إنشاء محطة كهربائية من هذا النوع فى خليج المكسيك ، نظراً لأن سطح الماء هناك ذو درجة مرتفعة من الحرارة ، بينما الماء تحت عمق ٣٠٠٠ قدم لا تزيد حرارته عن درجة الصفر المئوى ، بيد أنه قامت عقبات فى سبيل الإنشاء ؛ منها صعوبة إنزال أنبوبة إلى هذا المدى من العمق ، كما وجد من المتعذر امتصاص الماء البارد العميق إلى سطح البحر . ثم هناك مشكلة إبقاء الأنبوبة دائماً فى نظافة تامة ، فإنها لا تسلم مطلقاً من دخول بعض الأسماك فيها ، فتندفع إلى التربين وتتلفه . ولا يجدى وضع مرشحات للأنبوبة ، فسرعان ما تسدها الطحالب .

ولو أمكن وضع هذا المشروع فى حيز التنفيذ ، فإن ذلك يؤدى فى الحال إلى عمران البلاد التى تنفذ فيها هذا المشروع ورخائها ، وازدهار الصناعة فيها .

استغلال البخار البركانى :

كان أول من فكر فى استغلال الحرارة البركانية الأمير جينورى كونتى الإيطالى . وكان من نتيجة أعماله أن أنشئت محطة كهربائية قوية بمقاطعة لاندرللو بتوسكانى ، تنتفع بالبخار البركانى الصادر من الينابيع المتفجرة بالمقاطعة .

ابتدأ الاهتمام بالينابيع الحارة عام ١٨١٨ عندما أمكن الحصول على حامض البوراسيك منها ، وذلك بالقرب من كاستلنوفو وساسو ومونتيرو تاندو وبعض المواقع بالقرب من فولترا . وكان محلول الحامض يبخر عن طريق الأبخرة المتصاعدة من فوهات الينابيع . وحتى عام ١٩٠٤ لم تتم محاولات للانتفاع بهذه الأبخرة فى أى جهاز آلى لإنتاج القوى الميكانيكية .

ثم استعمل البخار بادئ ذى بدء فى بعض محطات القوى بطريقة غير مباشرة ، فكان يستعمل فى تسخين الماء التى تزود الآلات بالبخار ، حيث إن الغازات الموجودة فى البخار البركانى كالإيدروجين المكبرت تساعد على تكوين صدأ الأجزاء المعدنية للآلات ، إذا ما استعمل البخار البركانى مباشرة .

وفى عام ١٩١٤ أقيمت ثلاثة تربينات قوة كل واحد منها ٣٣٠٠ حصان بناحية لاندرللو ، وذلك لتحريك مولدات كهربائية . وكان الفرق الرئيسى بين هذه التربينات وغيرها

أنها تستعمل البخار البركانى كوقود لغلاياتها بدلا من الفحم والبترول .

ثم قام إيطالى يدعى رتينى باختراع آلة ترشيح قادرة على إزالة الغازات الضارة الموجودة بالبخار البركانى ، حتى يمكن استعماله مباشرة بالتربينات دون أن تصدأ أجزاؤها المعدنية . وأمكن بذلك الإقلال من نفقات الغلايات ، وزيادة مقدرتها على العمل .

وقد نتج من ذلك ، أن استطاعت التربينات وقوتها ٣٣٠٠ حصان — التى تدار بالبخار البركانى التى — أن تولد تياراً كهربائياً متقطعاً قوته ٤٠٠٠ فولت ، جزء منه يتحول إلى ١٦٠٠٠ فولت يغذى مقاطعة توسكانا ، والباقى يتحول إلى ٣٣،٠٠٠ ، ٣٩،٠٠٠ فولت يغذى وسط إيطاليا .

وقد تفجرت ينابيع جديدة ذات فوهات كبيرة العمق والاتساع بالقرب من كاستلنوفو وسرارانو ، تحصل منها على كميات هائلة من البخار ذى الضغط العالى . وهو ضغط يبشر بتقدم مطرد فى توليد الكهرباء .

هذا الاستغلال المثمر قد وجه الأنظار إلى احتمال استعمال بخار البراكين فى كافة البقاع السكانية فيها .

استغلال الطاقة الذرية :

بيد أن كل هذه الوسائل ومثيلاتها لا تعد شيئاً إذا ما قورنت باستغلال الطاقة الذرية . ولو استطاع العلماء تعميم استغلال هذه الطاقة لمنفعة البشر — لا لدمار الإنسانية كما يفعلون — لكان ذلك بداية عصر جديد وعهد لا مثيل له ، عهد ذهبى من المدنية والحضارة . بيد أنه مع الأسف لا يزال استغلال هذه الطاقة موجها فى طريق الحرب والدمار .

ولعل إيماننا بتوجيه هذه القوة الجبارة لمنفعة الإنسان ، يتغلب على تشاؤمنا منها باعتبارها وسيلة لدمار العالم وإبادة الحرث والنسل ، وبذلك نبدأ صفحة زاهرة مجيدة من تاريخ نهضة البشر .

محمد فتحى عبد الوهاب

رؤية الله فى مذهب المعتزلة

(بقية المنشور على صفحة ١٦)

وهو جوهر بسيط كامل . والكامل جواد فياض . وفيضه يحدث شيئاً غيره ، فهو مبدأ الوجود ؛ والشىء المحدث عنه عقل شبيه به يفيض بدوره فيحدث صورة منه هى « النفس » ، وتفيض النفس فتصدر عنها نفوس الكواكب ونفوس البشر والأجسام . فإن المادة آخر مراتب الوجود وأصل الشر فيه . واتصال النفس الإنسانية بالجسم أصل نقائصها وشرورها ، فيجب أن تكون غايتها الخلاص منه والعودة إلى الأول الواحد .

ولكن يظهر أن ابن حابط لم يتأثر فقط بفلسفة أفلوطين ، بل بالمسيحية أيضاً ، إذ يقول إن المسيح تدرع جسداً ، وكان قبل التدرع عقلا[1] ، وإنه هو الذى خلق العالم ، وهو المحاسب للناس يوم القيامة والمتجلى لهم[2] ، والذى تقول عنه الآية « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » وهو الذى يجىء فى سحب[1] .

هذا أقصى ما وصل إليه بعض المعتزلة المتطرفين أمثال أحمد بن حابط وفضل الحدثى فى القول بالرؤية ، ولكن المعتزلة تبرأت منهما فيما بعد[2] . وحتى هؤلاء المتطرفون لم يقولوا بجواز رؤية الله متفقين بذلك مع سائر المعتزلة ، فقط هم يقولون برؤية العقل الأول الذى هو أصل وجود العالم والذى هو أول ما خلق الله أو أول ما فاض منه تعالى ، بينما المعتزلة لا تقول بكائن أوسط بين الله والعالم ، زاعمين أن الله وهب العالم الوجود مباشرة . فقط ماهية الله تختلف تماماً عن ماهية العالم ، فلذلك لا يمكن لأى كائن مخلوق أن يدركها . وكان من جراء هذا الأصل الأساسى فى مذهبهم أن نفوا نفياً باتاً رؤية الله وأن كفروا كل من قال بهذه الرؤية على أى وجه قال بها .

(بغداد) البير نصرى نادر

(١) البغدادى ، الفرق بين الفرق ص ٢٦٠ .

(٢) الخياط ، كتاب الانتصار ص ١٤٨ .

(١) سورة الفجر ٨٩ الآية ٢٢ .

(٢) الخياط ، كتاب الانتصار ص ١٤٨ .



رئيسك أرجل خير هو أم رجل سوء

هذا المقال هو خلاصة دراسات قام بها الكاتب في السنين الست الماضية . وهو رئيس شعبة العلاقات الإنسانية ، التابعة لجامعة مدينة نيويورك . وقد دون الكاتب ملاحظاته بعد فحص حالات موظفي أربعين مؤسسة .

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

قال الكاتب :

أعرف رجلاً يظن أنه الرئيس الأمثل بين الرؤساء ، وأنه عادل في حكمه غير جائر .

وهو يجلس إلى مكتبه كل أسبوع ، يأخذ من بين أدراجه كتيباً صغيراً أسود . ثم يفتحه ، ويدون فيه أمام أسماء موظفيه وعماله ما يعنّ له من ملاحظات وآراء .

وهو بعمله هذا يظن أنه يجعل مرؤوسيه دائمي اليقظة . ولكن الواقع أن هذا العمل يجعلهم دائمي القلق ، ويعوقهم عن إتقان العمل ، وقد كانوا إذا تحدثوا عن رئيسهم هذا نعتوه بالجاسوس لا الرئيس .

وأعرف رئيساً تختلف طريقته عن طريقة زميله السابق ، فقد ارتقى من بين « الصفوف » إذ كان أول أمره عاملاً ، فظن أن الرئاسة المثلى تقوم على « التودد » فكان كل مساء يشارب العمال ويؤاكلهم ليريهم أنه ما زال زميلاً طيباً .

وكان إذا بدا من أحدهم نقص أو إهمال في عمله أو مخالفة لقوانين المصنع لم يزد على أن يغمز بحاجبه . فإذا أصبح توقيع الجزاء حتماً مقضياً أسر القول لمرؤوسيه بأن هذا الجزاء لم يكن عن أمره ، إنما هو أمر صدر من كبار الرؤساء في الطابق الأعلى .

من أجل ذلك كله كان لزاماً أن يقال هذا الرئيس من عمله ، وأن يزاح عن منصبه . فقد هبط إنتاج المصنع ، وليس هذا فقط ، بل إن عماله لم يكونوا ليوقروه .

وإني لأستطيع أن أقرر أن آلاف الرؤساء الذين تحدثت إليهم قد ثبت عجزهم عن الاستفادة من مجهود عمالهم . وقد يرجع السبب في هذا إلى أن غالبية الرؤساء ، تنتخب في العادة من بين الفنيين أو من بين الذين طال عهدهم بالوظائف . دون التفكير في هل هم قادرون على أن يسوسوا العمال وأن يوحوا إليهم .

وقد أثبتت التجارب العديدة التي أجريت على أن العمال يضاعف عملهم وزيد إنتاجهم إذا تولى أمرهم رجل رشيد .

وقد أجرى جماعة من الخبراء الباحثين تجربة في مصنع تعددت أقسامه ، وتشابهت أعماله ، وتساوى عدد عماله ، واختلفت صفات رؤسائه ! وذلك بأن عمدوا إلى المقارنة بين أحسن الأقسام إنتاجاً وبين أسوئها ، فثبت لهم أن في القسم الأحسن كان كل واحد من عماله يمدح رئيسه ويثني عليه ، بينما في القسم الأسوأ لم يثن على الرئيس إلا ٣٦ ٪ .

وإني لأقرر أن الرئاسة المثلى والرئاسة السيئة إنما مرجعها إلى صفات أكبر رئيس في العمل . فقد جاءني مرة واحد من هؤلاء ، وقد أغاظه وأهمه نقص الإنتاج ، وطلب

إلى أن أرسم الخطط لرؤساء أقسام مصنعه . وبعد بحث دام بضعة أيام تحققت أن الرئيس الأكبر هو المشكلة الكبرى ولا مشكلة سواه ؛ فقد كان من عادته أن يصدر أوامره ثم لا يتبعها بكلمة ، كما كان من عادته أن يبت في كل أمر دون مشورة . كما كان من عادته أيضاً أن يسب الشمس والقمر كلما أخطأ مخطئ أو هفا .

وما راعني إلا أن جاءني يوماً وهو يقول في سرعة البرق الخاطف : هل جاءك أني قد أستطيع الآن أن أمشي على بعض سنتك ؟ فقلت لنفسي : إني لمولع هذا الرجل تفق ، والحق أنه قد غير من أساليبه ، في صدق وإخلاص ، وأنه سرعان ما جاء بمقترحات دقيقة محكمة ، وسرعان ما أفاض على مرؤوسيه فيوضاً من الثقة كلما أتقنوا عملاً .

ومن العيوب التي تؤخذ على الرئيس أن يبيح لنفسه الدخول في جدال ومحاجة مع مرؤوسيه ؛ فهو إن فعل ذلك فقد كشف عن عجزه وضعفه . ذلك أنه من المستحيل استحالة تامة أن تُلزم إنساناً الحجة وأن يقبل هذا منك طواعية واختياراً .

والذي تجادله إنما هو مشغول بالدفاع عن نفسه ؛ فهو لا ينصت لقولك مهما أطلت وأطنبت .

ونجاح الرئيس في البرهنة على أنه كان محقاً ، وأن مرؤوسه كان مخطئاً إنما هو نجاح خير منه الإخفاق . ذلك لأنه يكون بذلك قد خسر واحداً من المعجبين به ، الظانين به ظن الخير .

ومن أخطاء الرئيس غير الكيس إجراؤه التغيير والتبديل بين مرؤوسيه قبل أن يمهد لهذا التغيير والتبديل ، وقبل أن يُعد مرؤوسيه لما يراد بهم ، وقبل أن يبرهن لهم على ضرورة هذه القلقلة .

والرئيس الرشيد هو من يجني من عمل مرؤوسيه أطيب الثمرات ، وذلك بأن يبث فيهم ما خمد من كبريائهم ، وأن يجري في معاملتهم على أنهم أشخاص ذوو قدر وقيمة ، وأن يجعلهم يحسون أن بذل أقصى الجهد سوف يعود على المؤسسة بالخير والنفع ، وهذا هو لب القيادة الحسنة وروحها .

والطريقة الأخرى هي — بالطبع — أن يسوق المرؤوسين سوقاً ، وكثير من الرؤساء يلجأون إلى هذه الطريقة ، وهي إغراء يُوسوس به في صدور الرؤساء الذين يعرفون أنهم أصحاب حول وطول .

ولا شك أن المرؤوسين يقابلون هذه السياقة بأن لا يعملوا عملاً إلا ذلك القدر الذي ينأى بهم عن موجبات العقاب . وهم لا شك سوف يولون الأدبار في أول فرصة تتاح لهم .

وأشد الناس غلظة وفظاظة يحن — في قرارة نفسه — إلى شيء من الاعتراف الصادق بكفاءته وبراعته .

والرئيس الرشيد قادر على أن يجد في أقل مرؤوسيه كفاءة شيئاً يستأهل الحمد ويستحق الثناء .

والرئيس الرشيد يعرف أن في استطاعته أن يحصل على نتائج باهرة بالثناء على مرؤوسه حتى قبل أن يبدأ ذلك المرؤوس عمله . كأن يقول له مثلاً : يا فلان إنك واحد من الأدلة القائمة على أن عندنا رجالاً أكفاء . فهل لك أن تدلنا على طريقة في ترتيب أضابيرنا ومكاتبنا لنجد فسحة في المكان تساعد على تيسير الانتقال بين صفوف المكاتب . أو يقول له : أعِ هذا النحو يا فلان ! وفلان هذا بعد سماعه هذا الكلام لا بد باذل أقصى الجهد ...

والناس يُقبلون دائماً على الدخول في مباريات ما دامت لا يلازمها العنف . وقد تستطيع أنت أن تصور لنفسك أنك واحد من الرسامين في مؤسسة لتصميم المباني قد كثر العمل فيها وتراكم . فإذا قال لك رئيسك : إن عليك أن تبقى ثلاث ليالٍ لتفرغ من عملك هذا ، فإنك لابد نادب سوء حظك .

ولكن هبه قال لك : يا فلان إن عندنا عملاً هاماً علينا أن ننجزه قبل ظهر يوم الخميس ، وإني لتارك هذا الأمر لك ، تتصرف فيه كيف تشاء . فهل أنت ناظر في هذا الأمر نظرتك ؟.

فما إن تسمع أنت هذا القول حتى تقبل — إن كنت رجلاً رشيداً — على العمل إقبال الغيور المتحمس . لا يهدأ بالك حتى تنجز العمل في دقة وإتقان .

وخير امتحان لقدرة الرئيس الرشيد هي الطريقة التي يستقبل بها أولئك المقبلين على العمل الجديد .

والطريقة التقليدية عند الرؤساء من أصحاب الطريقة القديمة هي أن ينظر الواحد منهم إلى مرؤوسه ثم يصعد

النظر فيه وتصويبه ، ثم يقول له : ها هو العمل الذى سوف يوكل إليك . فأرنى مدى قدرتك على القيام به . ثم ينظر إليه نظرة الصقر للطائر الصغير . ثم لا يجد بعد ذلك لذة إلا فى تتبع سقطاته وغلطاته .

وعلى العكس من ذلك نجد الرئيس الرشيد ، فهو يعرف ما يجيش به صدر كل مقبل على عمل جديد من همّ وكرب . ولذلك فإن الرئيس يلقى صاحبنا لقاء ترحيب . ثم يأخذ بيده ويطوف به المكاتب والمصانع ، ويشرح له أنواع العمل ويجعله يحس أنه بين أهله وإخوانه .

وهو يمتدح كل ناحية تقرب من الصواب فى كل عمل يعمله ذلك المقبل الجديد . وإذا أخطأ صحح له خطأه بطريقة تحفظ عليه ماء وجهه . كأن يقول له مثلاً : أظننى لم أشرح لك هذا من قبل . أو : إن كثيراً من الناس يعملون هذا العمل بهذه الطريقة أول أمرهم ، ولكنهم يعرفون فيما بعد أنها طريقة خاطئة ...

وأشد ما يفت فى عضد العاملين هو الطريق الذى يسلكه بعض المختفين من الرؤساء ، فهو يترك الحبل على الغارب لاثنين من العمال من المرضى عنهم ، يسرحون ويمرحون فى أرجاء المصنع أو المكتب .

وإنه لشىء غريزى فى طباع بنى آدم أن يحنوا على من أوتى الذكاء من عمالهم أو على من تربطهم به صلة من قرابة أو جوار .

ولكنى رأيت هذه العادة سبباً فى خلق القلاقل . ذلك لأن الذين لا تضمهم دائرة تلك الصلة أو وشيجة تلك القرابة ، يحسون فى قرارة أنفسهم بالقلق وفتور الحمية . وهم — وقد فاضت نفوسهم بالمقت والكره — خليقون أن يقولوا عن صاحب الحظوة لدى الرئيس : إنه يعرف من أين تؤكل الكتف ...

وكلما سمعت رجالاً أو نساء يبالغون فى مدح رئيسهم ويجمعون على وصفه بالرجل العظيم الذى يسعدهم أن يعملوا تحت رئاسته ، أحاول دائماً اكتناه سر هذا المديح ، ذلك لأن مثل هذا الرئيس هو من القلة النادرة .

وهناك أجوبة مختلفة للرد عن هذا السؤال ، ولكنها تجتمع كلها فى جواب واحد وهو : إن الولاء يولد الولاء ، وإن الوفاء ينتج الوفاء .

والرئيس الرشيد يعرف معرفة مؤكدة أن الناس كلهم أسارى الولاء وحسن التقدير ، وهو يعرف أيضاً أن بعض الحوافز هى أكبر جدوى وأكثر نفعاً عند بعض القوم دون الآخرين ، وهو من أجل ذلك يحاول أن يعرف مَن من بين مرؤوسيه هو فى حاجة أكثر من سواه إلى المديح أو الطمأنينة أو الترقية أو المال .

وإنه لمن القلة النادرة ذلك الرجل الذى يعمل من أجل المال وحده . وإنه لمن الخطأ كذلك أن تقول إن كل رجل يعمل من أجل الترقية وحدها .

أما عن النساء العاملات فإن الرئيس الرشيد يعرف أن النساء اللاتى أمضين فى العمل حقبة من الدهر ، هن أكثر مطالبةً بما يرينه حقاً لهن من امتيازات بسبب طول الخدمة .

وقيادة العاملات من النساء تحتاج إلى مقدار من المهارة والسياسة أكثر مما تحتاجه قيادة زملائهن من الرجال .

ولكن الرئيس الرشيد يوفى ديونه فى هذه الناحية أكثر مما يوفيها إن كان الدائنون رجالاً .

والرؤساء من أصحاب الطريقة القديمة سوف يؤكدون لك أن كل هذه الحماقات التى تقوم على إزجاء الثناء إلى المرؤوسين واتباع طرق المداورة معهم ، إنما هى سخف له نتائجه الخطرة .

وهم يقولون لك : ربِّتْ كتف واحد من مرؤوسيك اليوم ، وهو لا شك ضاربك غداً ، وهو لا بد مطالبك بزيادة فى الأجر بعد غد .

وليس الأمر كما يظن صاحبنا الرئيس من أصحاب الطريقة القديمة ، فإن مرؤوسى اليوم هم أناس واقعيون ، يعرفون أن الرئيس فى عصرنا هذا تقيده قواعد النقابة وتحد من حريته أصول الاستخدام .

والرؤساء المثاليون فى نظر مترجم المقال هم الذين لا يبخسون الناس أشياءهم .

(ولا يجزون عن حسن بسىء
ولا يجزون عن غلظ بلين)

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم

الندوة العمرية فى الموصل

للأستاذ رمضان أحمد البكر

فى العراق اليوم نهضة أدبية مباركة ، وقد ولدت هذه النهضة ، أو بدأت هذه الحركة ، مع زوال الحرب العالمية الأخيرة ، فقد كانت الحرب الكونية المنصرمة أهم عامل من عوامل بعث هذه الحركة فى العراق ، وذلك بما جرت على البشرية من كوارث ، وما رسمت للحضارة والمدنية من خطط واتجاهات ...

فما إن وضعت هذه الحرب أوزارها ، إلا وظهرت فى العراق نهضة أدبية ذات ثلاثة ألوان ، أو حركة ذات ثلاثة اتجاهات ، أو بيئة ذات ثلاث مدارس ، ولكل من هذه المدارس آراء يعمل القائمون عليها لتبسيطها ، وخطط ينبرى أساتذتها لرسمها وعرضها ...

* * *

المدرسة الأولى :

تؤمن هذه المدرسة بالعلم التجريبى ، هذا العلم الذى هو طابع العالم الغربى ، وبما ينبثق من الكهرباء والذرة والهيدروجين ، وما يكتشفه هذا العلم من معارف وآفاق ، وتعمل جاهدة لنقل العراق من آسيا إلى أوربة بدون قيد أو شرط ، وتحث الناس على استمراء كل جديد باعتباره نتاج عقول نيرة ، والإيمان بالعقل باعتباره إلهاً لا شريك له ، وباعتباره القوة القادرة على اكتشاف قوانين الطبيعة ، والسيطرة على البيئة وتنظيمها تنظيماً رائعاً بحيث تكفل المناعة والسعادة ، وترفع البشرية إلى مستوى الإنسان الأعلى ، باجتياز نفس المرحلة التى اجتازها الإنسان عندما وضع زمبله « الغوريلا » وراءه كما يقول الأستاذ سلامه موسى ...

وشعار هذه المدرسة الكفر بكل قديم ، وإنكار الماضى بعصوره الذهبية ، وتحدى كل فكرة لها صلة ما بالعاطفة والقلب ، وأنه إذا كان فى الفلسفة المثالية — الإغريقية منها والإسلامية — ما يستحق الذكر ، أو يوجب الالتفات إليه ، فعلى اعتبار أنها مرحلة من مراحل التقدم الذى أوجدته الطبيعة ، واكتشفها العقل ، ولا ينبغى لمواكب الحضارة والمدنية — وهى التى وجدت لتسير دائماً إلى الأمام — أن تلتفت إلى الوراء ، أو تستمرئ ، فى عهد الطفولة ما يحجب ، أو ينتقص من معجزات الشباب ...

المدرسة الثانية :

هذه المدرسة تعاكس المدرسة الأولى تماماً ، فهى تؤمن بظلم الحكام ، وفساد الحكم ، على أنه قضاء الله وقدره ، وأن ليس على ظهر هذا الكوكب « الأرض » بل وحتى فى بقية الكواكب والأفلاك سوى حكم الجبر ، وليس هناك شىء يدعى الاختيار ، وكثيراً ما يتردد على ألسنتهم قول الشاعر الوجودى القديم :

الحكم حكم الجبر والاضطرار
ما ثم حكم يقتضيه الاختيار
لو فكر الناظر فيه رأى
بأنه المختار عن اضطرار
لا تعتب العالم فى كل ما
يكون فيه من غنى وافتقار
حرت وحار الأمر فى حيرتى
فليلزم العالم دار القرار

ألا ترى القــاضي في حكمه
يقتضي الشرع ، فأين الجبار ؟

ولا يكادون يجدون في الجديد سوى الفساد ، عزوف عن الله ، وتحد لأحكامه وتعاليم رسله ، ويدع توجب المقت والسخط ، وتجلب الويل والشقاء ، ولا يجدون شيئاً يجب الاعتداد به سوى الماضي ، ولا أمراً يجب الاعتزاز به سوى عصور ذلك الماضي الذهبية ، وكثيراً مايتردد على لسان هذه المدرسة :

وكل أرض قد وطئنا صــعيدها
غدون رياضاً زاهيات زهورها
وأبقين إحساناً وعدلاً وحكمة
وعلماً وفضلاً زاخرات بحورها

إلى آخر ما في مثل هذه الكلمات من تغن وتفاخر ، وما تحتويه من سحر وروعة ، وزهو وخيلاء ...

المدرسة الثالثة :

هذه المدرسة تعرف في العراق الآن بـ « الندوة العمرية في الموصل » ويتزعمها الأستاذ ابراهيم بك الواعظ ، رئيس الوحدة المدنية في الموصل ، وهي تخالف المدرسة الأولى في كثير من الآراء والخطط ، وتخالف المدرسة الثانية في الميل والاتجاه والتفكير ؛ فهي تجد في العلم التجريبي علماً له روعته وجلاله ، غير أنه علم ينقصه الدين ، والعلم الذي ينقصه الدين ، ويتحكم فيه أناس لهم عقول ، وينقصهم القلب والعاطفة ، ينتج الكهرباء ، فالذرة والهيدروجين ، ويعم نوعاً من الحضارة والمدنية عرفتها الإنسانية في هيروشيما وناكزاكي في الحرب الكونية الأخيرة ...

ويرون في المدنية الغربية ، تلك التي تزخر بها أوربا وأمريكا الآن ، حضارة لها ما لها من السمو والرفعة ، غير أنها حضارة ومدنية تنقصها الأخلاق والمروءة ، وهما صفتان عرفت بهما الإنسانية منذ فجر التاريخ ، والمدنية التي ينقصها الأخلاق والمروءة ، ويبشر بها أناس تنقصهم المثالية ، توحي المطامع الاستعمارية ، وتعمل على إشاعة فكرة الاستعباد ، وتجعل الأرض الطول ساحات سباق للمباراة الاقتصادية ، وتهيء الإمكانيات اللازمة للمسابقة في مضمار التسلح ، وتمهد لإعلان نيران الحروب والثورات ، كتلك التي نجدها ونحسها في أطلال أوربا التي تنعق فيها الغربان ، وممرات البلقان ، وسهول آسيا وأفريقيا ...

وذاك الذي تنقله لنا الأنباء اللاسلكية ، من أخبار مؤتمرات الغرف المقفلة في الشرق والغرب ، وما يتمثل أمامنا من خطط وحركات مريبة ، أقل ما يقال فيها : أنها أعمال تهدف إلى زوال الحضارة والمدنية ، ومحو البشرية من سطح الأرض ...

وترى في المدرسة الثانية جموداً واتكالاً وذلة ، وأعمالاً تدعو إلى التخلف عن ركب الحضارة والمدنية الذي لا يعرف التلكؤ ولا الوقوف ، وتهدف إلى إماتة الناس موتاً بطيئاً ، وأن ينعموا بحياة ذليلة ، لا يملكون فيها إلا التفاخر بالماضي ، وأملاً مشوهاً في الحياة الأخرى ، كما يقول الدكتور أحمد أمين بك ...

وتعتقد المدرسة الثالثة ، بأن الجمود في المدرسة الثانية ، ومصدر هذه الكوارث نفر من أدعياء التقوى وأدعياء العلم ؛ فهؤلاء النفر من أشباه العلماء ، كانوا لا يملكون سوى النفاق ، واتخذوه أداة للتقرب من حكام التاريخ المستبدين ، وأرادوا أن يستغلوا فساد الحكم السائد ، فلم يروا بداً من تزهيد الناس في طيبات الحياة ، وصرفهم عن الدنيا وما فيها من خيرات ، وأن يمنوا الناس بحياة أخرى ، وجنات فيها نعيم مقيم ، وأفهموهم بأن هذه الدار وما فيها من خيرات ، هي لمن زهد في هــذه الدنيا ، وترفع عن خيراتها ، وعزف عن كل ما فيها من مغريات ، وأن هــذه الدنيا هي الجسر الموصل إلى الأخرى ، حيث دار القرار ، والخير العميم ، وأن مما روج دعوى هؤلاء النفر ، كون هذه الدعوى هي في صالح الحاكم

المستبد ، تعينه على ابتلاع الملك ، وتمكنه من الإبقاء على الفساد ...

وأن من يضرب على هذه الوتيرة من علماء الدين المعاصرين ، فإنه لا يملك العيون التي تحدق إلى النور ، ولا يقوى على رفع رأسه والنظر إلى المستقبل ، ولا يقدر على الاستمتاع بطيبات هذه الدار التي أنعم الله بها على عباده ، وأن يقرأ هذا حالهم ، وهذه خططهم ، وفي عصر مثل عصرنا هذا ، لا بد وأنهم مستعدون لملاقاة اليوم الذي يجدون فيه أنفسهم وقد واجهوا : مدافع تواجه أحلاماً ، وقوى مسلحة تلاقي أوهاماً ...

يرى أساتذة المدرسة الثالثة والندوة العمرية في الموصل ، وعلى رأسها زعيمها إبراهيم بك الواعظ ، اقتباس الحضارة الغربية ، ولكن كما اقتبسها المسلمون الأولون من الفرس والروم ، وارتشاف العلوم الجديدة ، ولكن مثلما ارتشفها الأوائل من الإغريق والهند والصين ، أي علينا أن نرتشف ونقتبس ارتشاف واقتباس المعتز بدينه ، المعتد بعقليته ، الفخور بقدرته وحاكيته ، وأن نؤمن بأننا ورثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، قوى روحية لا يملها العالم الغربي ، أو فقدها الغرب على الأقل ...

وقد دفع إلى المطابع زعيم هذه المدرسة « الواعظ » عدة كتب ، لاقت رواجاً كبيراً في العراق ، مما يدل على أن هذه المدرسة ، أو هذا الأستاذ ، شخص الداء ، ووصف الدواء ، وأول هذه الكتب وخريجو مدرسة محمد بجزئين وقد نفد المطبوع خلال شهر من صدوره ، وقد اختار المؤلف لهذين الكتابين مادة من التاريخ ، وعرضها عرضاً رائعاً فيه الاعتزاز بالماضي المجيد ، والنظرة النافذة إلى المستقبل ، قوامها الأمل والثقة والاعتداد ... فقد اختار لمطبوعه رجالا من العرب والمسلمين ، حملوا مشعل الحضارة والمدنية ، وأناروا سبل الهداية والسعادة في مشارق الأرض ومغاربها ، وعمموا العلم والفضل والعدل بين الناس ، وطهروا البشرية من أدران المادية والشرك ، وغرسوا في قلوبها بذور الرجولة والمروءة والإحسان ، ونبه القراء إلى تلك الصرخات التي يتردد صداها عبر التاريخ ، لافتاً أنظارهم إلى موضع منار المجد الإسلامي المحمدي ...

فقد تطرق إلى سيرة أبطال مثل : علي بن أبي طالب ، وأبي ذر الغفاري ، وعمر بن الخطاب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن عبادة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وغيرهم ، واستخرج من سيرتهم وسجاياهم ما يجعل المرء يعتز بعصوره الذهبية ، اعتزازاً يبعث فيه القوة التي تمكنه من النظر إلى المستقبل بثقة ، وتحبب له مواكبة ركب الحضارة والمدنية ، والسير معه إلى الأمام ...

وتعتقد هذه المدرسة بأن الأزمة العراقية الحالية ، هي جزء من أزمة عالمية قد اكتنفت العالم ، وتغلغلت فيه ، وأن هذه الأزمة هي في صميمها أزمة أخلاقية ، وهكذا ، فالعالم أصيب بأخلاقه ، وأطبقت عليه الآفة الخلقية ، وجعلته لا يدري على أي أرض يقف ، وفي أي اتجاه يسير ...

وليس هناك طريق للإصلاح سوى تقويم الأخلاق ، ولا سبيل إلى تقويم الأخلاق إلا بارتشاف أفاويق الدين ، وهم كما قال شاعر العراق المرحوم الرصافي :

أرى مستقبل الأيام أولى
بمطمح من يحاول أن يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساع
يردد في غد نظراً سديدا
فوجِّه وجه عزمك نحو آت
ولا تلفت إلى الماضين جيدا
وهل إن كان حاضرنا شقياً
نسود بكون ماضينا سعيدا
تقدّر العالمين ذوو خمول
إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسب قديم
أقام لنفسه حسباً جديدا

(موصل — عراق) رمضان أحمد البكر



آكل اللوتس

للكاتب الإنجليزى الكبير سمرست موم

ترجمة الأديب حسين أحمد أمين

يعيش الناس حياتهم كما تمليها عليهم الظروف .. لا يحاولون أن يغيروا فيها أو يسلكوا طريقاً غير الطريق الذى سار عليه من سبقهم .. لذلك تجدهم أشبه بعربات الترام التى تسير دائماً على نفس القضبان .. ذهاباً وإياباً .. ذهاباً وإياباً .. حتى تفسد الآلات فتباع كأدوات مستهلكة .. وقلما تجد رجلاً استطاع أن ينحرف عن هذا الطريق ليتصرف فى حياته كما يريد وفق طبيعته غير متقيد بالتقاليد السائدة ..

فإذا وجدنا رجلاً من هذا النوع لكان من الواجب علينا أن نمهل ونستقصى بإمعان حاله ..

لذلك كانت رغبتى شديدة فى مقابلة توماس ويلسن .. فقد سمعت أنه قام بعمل جرىء، ومغامرة خطرة جعلتنى أشتاق إلى رؤيته لأجلس إليه وأستمع لقصته يتلوها هو بنفسه ..

وقد أتيحت لى هذه الفرصة عندما كنت أزور كابرى . فقد كنت — ذات مساء — أجلس مع صديق لى فى شرفة داره ، فأشار صديق فجأة إلى جموع الراقصين من الفلاحين وقال :

— انظر .. ها هو ويلسن .

— أين ؟.

— ذلك الرجل ذو القميص الأزرق ..

— ألا تستطيع أن تدعوه إلى تناول كأس معنا ؟..

— حسناً .. سأدعوه ..

وغاب صديقى بضع دقائق ، ثم عاد برفقة ويلسن ، وقدمنى إليه فصافحنى بأدب ، ولكن دون اهتمام .. وقال الصديق :

— ألا تأتى معنا فنتناول كأساً ؟.

فأجاب ويلسن : لقد كنت على وشك الانصراف لتناول العشاء ..

— ألا يستطيع العشاء أن ينتظر ؟.

— بلى ..

وابتسم ابتسامة جذابة ..

كان يبدو عليه الطيبة والرقة ، وكان يرتدى قميصاً أزرق من القطن وسروالاً رمادياً قذراً من القماش الخشن ، وفى قدميه حذاء ممزق .

وتناول معنا كأساً من النبيذ ، ثم ودعنا وانصرف .. والتفتُّ إلى صاحبى وقلت :

— إنى لا أصدق كلمة من القصة التى تقولها عنه ..

— ولمَ ؟.

— إنه يبدو لى رجلاً عادياً ليس فى إمكانه أن يقوم بمثل هذه الأعمال التى تنسبونها إليه .

ومرت الأيام .. وفى ذات صباح بعد أن استحممنا فى البحيرة صاح بى صديق قائلاً :

— انظر .. ها هوذا ويلسن قادم نحونا ..

ورآنا ويلسن فأخرج الغليون من فمه ولوح لنا بيده ، فقصدنا إليه وجلسنا معه نتحدث ..

وسألته : كم عاماً قضيتها هنا ؟.

فأجاب : خمسة عشر عاماً .. إنى أحب هذا المكان أكبر الحب .. وأعرف كل حجر به .. ولدى هنا متسع من الوقت للقراءة فى شتى الموضوعات .. ولكن الموضوع الذى أحب دائماً أن أقرأ فيه هو التاريخ الرومانى ..

قلت : ما أحبه فى كابرى هو الفراغ ، والوقت الذى يتسع لكل ما أريد القيام به ..

فأجاب : أجل .. الفراغ .. آه لو علم الناس .. إن الفراغ لأرخص ما فى الوجود وأجمل ما فى الوجود .. ما أحمق الناس !. إنهم لا يدركون أننا يجب أن نهدف نحو الفراغ .. العمل ؟ إن الناس يعملون من أجل العمل .. بينما العمل فى الحقيقة ما هو إلا وسيلة تمكن الناس من الحصول على الفراغ .

وتأمل المناظر التى حوله ملياً ، ثم استطرد قائلاً :

— ما أجمل هذا المكان !. عندما أتيت هنا لأول مرة ورأيت هاتين الصخرتين الشاهقتين ، ورأيت القمر فوقهما ساطعاً جميلاً .. ورأيت الصيادين يرمون شباكهم فى البحيرة ، شعرت بالسلام والنور والجمال يغمرن قلبى .. وقلت لنفسى : لم لا أمكث هنا إلى الأبد ؟ .. لقد ماتت زوجتى منذ أمد ، وقضى المرض على ابنى الوحيد ، وليس هناك من أحولهم ومن يضرهم ابتعادى عنهم ..

وصمت قليلاً ، ثم عاد يقول :

— وبدأت أفكر .. لقد كنت فيما مضى أعمل كل يوم ما فعلته فى اليوم السابق .. حياة مملة غير جديرة بأن يحياها المرء .. ولو ظللت أعمل هذه الحياة كما يعيش الناس لأحلت على المعاش بعد مدة واعتكفت منتظراً الموت .. لذلك فكرت فى أن أهجر العمل وأعيش وفق طريق لأتمتع بالحياة ..

ولكنى لم أقدم على هذه المغامرة إلا بعد عام .. وذلك عندما قرأت إحدى القصص ..

ملخص القصة هو أنه كان فى أحد عصور التاريخ مدينتان : إحداهما تدعى سيباريس ، والثانية كروتونا . وقد استمتع أهل سيباريس بالحياة وعاشوا فى مرح وسعادة واستهتار ..

وعاش أهل كروتونا يعملون ويجدون فى العمل ... وفى أحد الأيام هجم أهل كروتونا على سيباريس وقتلوا أهلها وخربوا المدينة .

وبعد هذا الهجوم بضع سنين ، هجم أهل مدينة أخرى على كروتونا وقتلوا أهلها وخربوا المدينة ..

وهكذا لم يبق من سيباريس أو كروتونا حجر . وكانت نهاية الشعبين واحدة .. فمن من الشعبين جدير بالإعجاب ؟.

لذلك قدمت استقالتى إلى رئيس العمل وحزمت أمتعتى ، وأخذت ما معى من نقود وسافرت وجئت إلى هنا ..

وسألته : ألم تندم ؟.

فأجاب : أبداً .. إنى أتمتع بكل لحظة هنا ..

وأطلت النظر إليه فانتابتنى رعشة ، فلما رأى ذلك ابتسم وقال :

— تعال معى .. سأريك منزلى ..

وأرانى المنزل الذى يعيش فيه ، وأخبرنى أنه قد استأجره من زوجين يعيشان فى البلدة .. ثم جلس يعزف على البيان ألحان شومان وشوبير وبيتهوفن وباخ وشوبان ..

لقد مكث خمسة عشر عاماً بالبلدة يتمتع بجمالها ويستحم ويعزف على البيان ويقرأ ويلعب الورق ويحضر الحفلات .. يحب الناس دون أن يتصل بأحدهم اتصالاً قوياً ، ويعيش

بالقصاد ولكن حياته مترفة ... لا يهتم بالنساء ولا تعكر عليه غريزته ، لا يقبل أن يسيطر شيء على روحه فيقيدها ويحد من حريتها .. حياته كلها أنانية ، فهو لا يخدم أحداً ، ومع ذلك فهو لا يضر أحداً ؛ فكل همه هو أن يسعد هو .. وأظنه نال ما يتمناه .. إن القليل من الناس من يعرف أين يبحث عن السعادة ، والقليل جداً منهم من يجدها . لست أدري أهو غبي أو حكيم ، ولكن ما أعطه حق العلم هو أنه يعرف ماذا يريد لنفسه .

وغادرت كابري واشتعلت نيران الحرب بعد ذلك بسنة فلم أرجع إليها إلا بعد ثلاثة عشر عاماً .. ووجدت صديق القديم مرة ثانية ، فسألته عن ويلسن فأجاب :

— إن قصته لتبعث الألم في النفس ..

فسألته : هل انتحر ؟ لقد أخبرني أنه سينتحر يوماً ما ..

وبدأ صديق يقص على قصته ..

— لقد ظل ويلسن يعيش بالجزيرة حتى انتهى ماله وانقطع عنه مورد الرزق ، فبدأ يستدين ، وأقنع القوم بأنه ينتظر أن يرث ثروة ضخمة .. ولكن المدة طالت وبدأ القوم يشكون في صحة رواياته ، فانقطعوا عن معونته ، ولم يستطع أن يدفع أجر منزله ، فهدده المالك وحدد له مدة يدفع فيها الأجر .

وانتهت المدة .. وفي اليوم التالي وجدوا ويلسن مغشيًّا عليه في حجرته .. لقد حاول الانتحار خنقاً .. وأرسلوه إلى المستشفى فقضى هناك مدة حتى شفي .. وأشفقت عليه زوجة المالك فأباحت له النوم في الإصطبل ، وكانت تقدم له القليل من الطعام على أن يقوم بتنظيف البيت وملء الجرات .

وتابع صديق القصة فقال :

— ولما ذهبت لأراه وجدته نصف مجنون ، ونظر إليّ نظرة غريبة .. سأحاول أن أصفها لك .. إذا رميت بحجر إلى أعلى فلم يرجع بدت على وجهك نظرة غريبة .. هي نفس النظرة التي كان ينظرها ويلسن ..

والآن .. تجده يسير طوال اليوم بين الجبال .. وقد حاولت الاقتراب منه مرات عديدة ولكنه كان يفر كما يفر الأرنب البري ..

إنها الحياة مروعة ، ولكنه نال ما يستحق ..

فأجبت صديق :

— إن كل إنسان ينال ما يستحق .

وبعد ذلك بثلاثة أيام كنت وصديقي نتنزه بين الجبال فصاح صديق فجأة ..

— هاهو ويلسن .. لا تنظر إليه لئلا يخاف .. استمر في سيرك ..

فتابعت السير ، ولكني لمحت من طرف عيني رجلا مختبئاً وراء شجرة زيتون .. وشعرت أنه يراقبنا .. وفجأة سمعت صوتاً .. لقد فر .. كما يفر الحيوان المطارد ..

ومات ويلسن في السنة الماضية .. لقد تحمل هذه الحياة ست سنوات ، ووجدوه أخيراً راقداً في سلام ، كما لو كان قد مات أثناء نومه .. مات بين الصخرتين الشاهقتين وتحت ضوء القمر الساطع ..

لقد قتله جمال الطبيعة .

حسين أحمد أمين

يا خمرة الحظ ..!!

.. ومحسن جاءني يُسدي إليَّ يداً ،
لما تَسمَّع عن عُري وإفلاسي
فارتاع حين رآني هيكلاً نخِراً ..
وليس بي من حياة غير أنفاسي !
فقال : عفواً !.. أراها غير لائقة ..
أخطأتُ ؟ إذ لم (أفصّلها) بمقياس!
فقلت : مالك ؟.. قال : انظر ، وقدمها ،
ذي (بدلة) لشتاءٍ برده قاسي !
لكن أراها ، رغم الضيق ، واسعةً
يخب جسمك فيها خبَّ (عبّاس) !
فقلت : بوركت من شهم أخي كرم
وما عليك ، ولو أخطأت ، من باس
تقول : جسمي !! مجازاً شئت تطلقه
على خيالٍ سرى من غير إحساس !!
أتيت أمراً .. أراك اليوم في نظري
عليه ، فذا قليل الكل في الناس
هوّن عليك ! فما برد الشتاء بذي
بأس على مُستَترٍ : عريان أو كاسي !
ران الشقاء على عقلي فتيته
فصرت أسي بعقل الذاكر الناسي !

● ● ●

كأسان ، قيل ، هي الدنيا ، أمرّهما
حسوتها !.. هل تراني أختها حاسي ؟!
فمن عليها ! متى تدعو ، لأنها
يا خمرة الحظ ! هلا فضت في كاسي !!

● ● ●

هذا أنا يا أخي ! لا شيء ينقصني !!
سوى ردائين من كعبي إلى راسي !
فواحد نسجه قد أحكمته يد ،
وواحد نسجه من صنع أضراسي !

عمر عبد العزيز الأقصري

عند الوداع

أي صبرٍ صحا به أملي
من رفاتٍ في القلب لم يهمُّرا
أي صبرٍ قضى على خُلُقي
وليفِ النوى أباح دمي !
وَيْكَ فاسأل عن حمرة الشفق !

● ● ●

ليتَ هذا الصباحَ لم يَرَني
بسعير الفراقِ أحرقني
رب نارٍ بالروح لا البدنِ
تمشي في السرِّ لا العلن
وحريق يفضي إلى غرق !

● ● ●

قلتُ عند الوداع : هاك يدي
غير أني أعطيته كبدي
وابتسمتُ بسمة الكمد
عجباً ، كيفَ لا يحس جسدي ،
وسروري في آخر الرمقِ !!

● ● ●

رمتُ تطويقه ، فوا حربا
أمسكتني رقابة الرقبا
فتحملت عنه مغتضبا
وسرى الوجد في الحشا لهبا
عابثاً في ضلوع أي شقي

● ● ●

بين قلبي وقلبه سبب
قف عنه صحونا العجب
كل قلب من وجده تعب
ذا جريح ، وذاك مضطرب
يشتوي في لاعج الحرق

● ● ●

أي حشد من الخواطر في قلب صب مودع وقف
رمت قبلة ، وكيف يفي بمرامي لسان مرتجف
من مآل النوى على فرق

● ● ●

يا مقبل الحبيب ، ويك ، قف
أقـــض حق الوداع ، وانصرف
وإذا احتجت للوقـــود فـــق
خـــافق الصدر ما بذاك بـــق
فهو أحمى من كل محـــترق !

●●●

آه ! يوم الاثنين فيـــك غـــدا
شملنا بعد عقـــده بـــددا
هل أراه يعـــود منعقـــدا ؟
أم ســـأقضى بحسرتى كـــمدا
ساكبـــاً مهجتى من الحدق ؟

(العراق) علي جليل الوردي

ملابس شاعر

فى أحد أمسية البرد السابق سطا لص بربرى ، فسرق ملابسى وملابس أطفالى . ولما اشتد البرد ذكرت هذه الملابس ورثيتها بهذه القصيدة :

●●●

سرق الجـــديد مع القديم   حتى جـــلابيب الفـــطيم
ومضى ولم يكُ راحمـــاً   هلْ ثَمَّ من لصٍّ رحيم
أمسى صوانُ ملابسى   قفراً وقلبى فى وجـــوم
قـــد ضـــاع ما جمّعته   وذخرتُ لليوم العـــظيم
حُللٌ بذلتُ لهـــا أعـ   ـزّ المال من دخلٍ السقيم
وكَوَيْتهـــا بنـــشيئةٍ   لأردَّ عـــاديةَ الهمـــوم
علّقتهـــا بمشـــاجبٍ   فحكَتْ عناقيد الكروم
وبثثتُ عينى خلفهـــا   تحظى بمرآها الوسـيم
وجعلتُهـــا سُـــلوانى   وحسبتها مجْلى همـومى
فلطالـــا حـــاك الزمـــا   نُ ملابسَ العُسْر اللئيم
فإذا الزمانُ يسوؤنى   يومـــاً ويبعثُ بالغريم
يختالهـــا فى روْحـــةٍ   وبمر مرَّاتِ النسيم
لو كان برزقُ كل لـ   ـص حكمة الرجل الحكيم
أبقى ولو بعض الردى   ء يعين فى الزمن المشوم
لكنه لـــصٌّ وطغْــــ   ـــيه استقرتْ فى الصميم

●●●

ورع لمعـــطفيَ القـــديـــم مضى ولم آلُ بالعموم ·
صاحبتُه عهـــداً فـكنْـ   ـتَ أعز من خِلٍّ حميم
وَوقيتنى شرَّ القـــوا   رس والعواصف والغيوم
ما كنتُ يومـــاً بالجحو   دِ لمن يقى بل ذاك شيمى
أغراك لصٌّ ظـــالمٌ   فغدوت كالأمس الظـــلوم
وتركتنى أســـوانَ فى   قلقٍ وفى حزَنٍ مقيم
لا تمتنْ فرعـــــا   ولّى ولم يكُ بالـــلوم
وارعـــا ســـمّ القـــا   م فقد يعدو كالظليم
فى ليـــلةٍ تحـــكى ســـنا   نُرها لنا وجهَ الأثيم
قد ظللهـــا بســـواده   بل منها يسدِ عقـــيم

●●●

تبكى « مـــدبجة » حظها   وتراه فى خطرٍ جسيم
لا تبكى العـــبرات فهـ   ـى أجـــلُّ من دُرٍّ نظيم
ودعى البكا ثوب الصفـــا   فِ أعز أثوابِ النعيم
وشكا إلىَّ « محمـــد »   ما نـــال من عرى أليم
قد كان يرفل فى الجـــديـ   ـد فصـــار يمشى فى القديم
ورنـــا إلىَّ بعـــبرةٍ   تهتاج عاطفةَ الحلـــيم
فهمست فى أذنيـــه همْـ   ـسة والدٍ برٍّ رحـــيم
ومسحتُ عَبْرته وقـــدْ   يشفى الكلام أسى الكلوم
فرنـــا إلىَّ مصـــدقاً   فى نظرة الزهرِ البسيم

●●●

فى أول الشهر الكريـ   ـم وفيتُ بالوعـــد الكريم
واشتريت حلتـــه ورخْـ   ـتُ أزفهـــا مثل النـــديم
ومنحتـــه بعـــد التعبُّـ   ـد منحـــة الصبر العظيم
فرأيتـــه جـــذلان مـ   ـا نـــال يهتف للعليم
لهُ يدعو دعـــوة الكـ   ـروب يضرع كاليتيم

●●●

هـــذا الصبي رأى القنا   عة خـير مُطّلب مروم
والنـــاس غرقى فى المطا   مع يبحثون عن العديم
يتصـــارعون على الحيـــا   ة وينهلون من السموم
يتحـــدثون عن السعـــا   دة والسعادة فى الجحيم
ونرام أفكـــــارها   وهم على ذاكَ ولوم

محمد عبده الحامضى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٨٧ — الاثنين ٨ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩ — ٢٧ من مارس سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

فى الربيـــــع

للدكتور أحمد أمين بك

يعز علىّ أن يأتى موسم الربيع ولا أكتب فيه ، وكل عام أكتب ولم تفرغ معانيه ، فالأفكار والشاعر تتجدد كما يتجدد الربيع ، وكم للربيع من معانٍ يغنى الكتاب والشعراء ولا تفنى جدتها ، وتعساً لمن لم يهتز قلبه للربيع ، ولم تبتهج مشاعره بجماله ، ولم يحاوبه بعواطفه . إن من حرم العين الفنانة والأذن الموسيقية والشعور بجمال الأزهار والأشجار حرم الخير الكثير ، ودلّ ذلك على أنه جامد القلب ، غليظ العاطفة ، مادى الحياة ، كثيف الطبع .

ها أنا ذا اليوم فى حديقتى الصغيرة والجو جميل والربيع ناضر والأزهار ضاحكة . فليكن حديثنا هـذا العام فى الأزهار :

إنها لا شك عالم وحده ، كعالم الطيور وعالم الإنسان ، تتعدد مناظرها وينتوع جمالها . ويمكنك الحديث عنها من وجوه مختلفة : أولاً من ناحية رائحتها ، فمنها قوىّ الرائحة كالفل والياسمين ، ومتوسط الرائحة كبعض أنواع الورد والقرنفل . وضعيفها كالأقحوان ، وعديمها لكثير منها . وليس يتوقف الجمال على الرائحة ، فالرائحة تتصل بالشم ، وهو أقل الحواس قيمة إذا قيس بالسمع والبصر ، بل ربما سمت قيمة الزهرة إذا عدمت رائحتها ، لأن الرائحة مقرونة بالنفع ، فإذا تجردت من الرائحة كان تقويم الجمال للجمال ، كالقطعة الموسيقية والغناء الجميل ؛ فالغناء الجميل ذو المعنى يوزّعك بين لذة العقل ولذة السمع ، والموسيقى الجميلة ينحصر جمالها فى جمال توقيعها ، وعندى أن الجمال المحدد خير من الجمال الموزع .

ثم هذه الأزهار أمامى كأنها جمع من الفتيات الفاتنات متنوعة السمات ؛ هذه زهرة تلفت النظر فى قوة إلى جمالها فتأسرك حتى لا تود عينك التحول عنها ، جمالها ظاهر بيّن ، واضح جذاب ، كالفتاة التى تملك عليك قلبك ومشاعرك ، قد لا تكون هذه الفتاة أجمل من فى الجمع ، ولكن لها من السحر والفتنة ما يبطل سحر غيرها ، وهذه زهرة أخرى جمالها فى وداعتها وهدوّها ، كالفتاة لا تلهبك ناراً ، ولكن تغمرك حناناً .

وهناك فى زاوية من زوايا الحديقة زهرة منعزلة مستترة لا يلتفت الناظر إليها إلا بالبحث عنها ، كالفتاة الحيية الخجول ، المنطوية على نفسها ، العازفة عن عرض جمالها .

ثم هذه الأزهار يختلف وحيها ، باختلاف نقوشها وألوانها ، فهذه زهرة توحى الطهر والعفاف ، وهذه زهرة توحى النقاء والصفاء ، وهذه زهرة توحى القوة والجبروت ، وهذه زهرة توحى تفتح الرغبة ، وهكذا . للأزهار لغات ودلالات ، تعجز عنها معاجم اللغات ، إذ كيف تنجح اللغات فى دلالات العواطف ؟ إن اللغة وسيلة قد تكون

جيدة في نقل الآراء والأفكار ، ولكنها وسيلة جد فقيرة في نقل العواطف والمشاعر .

وللأزهار دلالتها الخاصة على ما يرتبط بها من أحداث وما تظهر فيه من مواسم . فأزهار الشتاء تدل على الشتاء وأزهار الصيف تدل على الصيف ، وأزهار الربيع تدل على الربيع ، ولكل زهرة معنى عند صاحبها يوحى إليه تداعى المعانى ؛ فمن رأى طاقة زهر فى حفل بهيج ارتبطت هذه الطاقة ومنظرها بهذه الحفلة وبهجتها ، ومن رأى زهرة على صدر فتاة جميلة ذكر الفتاة إذا رأى الزهرة ، ومن رأى الزهرة فى مكان ذكرته الزهرة بالمكان ، وكذلك تدل الزهرة دائماً على بيئتها وزمانها ومكانها وأحداثها .

والفنانون يختلفون فى تقويم الأزهار اختلافهم فى تقويم جمال الإنسان وجمال الطبيعة ؛ وقد روى لنا الكثير عن اختلاف الشعراء فى تمجيد بعض الأزهار ، هذا يمجد الياسمين ويفضله على سائر الأزهار ، وهذا معبوده النرجس ، وهذا هواه البنفسج . وقرأت مرة عن فنان بغدادى استهواه الورد وجن به حتى كان إذا جاء موسمه انقطع عن عمله وخرج إلى حدائق الورد يتنقل فيها ، ويتغزل فى محاسنها ، إلى أن ينتهى الموسم فينصرف إلى عمله .

هذه الأزهار منتثرة حولى فى حديقتى ، يتنوع جمالها وبهاؤها ، من جمال بساطة إلى جمال تعقيد ، ومن جمال لون إلى جمال شكل ، ومن جمال صارخ إلى جمال خافت ، ومن جمال منفرد إلى جمال منتشر ، ومن جمال تام إلى جمال ناقص ، وكلها فى تنوع جمالها منسقة منسجمة ، كأنها موسيقى تنوعت آلاتها وتناغمت ألحانها .

وهذه الأزهار تختلف أعمارها كما اختلفت أعمار كل حى ؛ فزهرة سرعان ما تذبل ، وزهرة تطول حياتها ويطول جمالها ، ويكاد يكون أجملها شكلاً أقصرها عمراً ، كالشأن فى الإنسان . قل أن يعمر نابغ ويهرم عبقرى ، كأن الطبيعة تغار من نبوغه أو عبقريته أو كأنها تضن به عن أن يكون ثمة جيل فتخترمه ليكون مفخرة دهر .

إنى لأضن بجمال الأزهار عن أن يقطفها قاطف أو يعبث بها عابث ، وكلما رأيت باقة مجموعة ذكرت من جناها وجنى عليها . ولئن عذرنا الإنسان يجنى على الحيوان والثمار يتبلغ بها ويعيش عليها ، فكيف نعذره فى قطف الجمال وليس له كبير قيمة إلا فى مكانه وعلى أغصانه .

وبقدر ما أبتهج بالجمال وأكتئب أرثى للجمال وذبوله ؛ فأحزن لذبول الزهرة وتناقص القمر وشيخوخة المرأة ، ولا يعزينى عن ذبول الزهرة إلا أنها تموت لتحيا ، وتذبل لتزهر ، وتتناقص لتكمل .

فى جمال الأزهار معنى غامض كجمال النساء ؛ فقد تبلغ الحسناء أقصى درجات الجمال ، ثم لا تملأ قلبك ولا تسلب لبك ، وإذا بمن دونها حسناً وجمالاً تأسرك وتستولى عليك وتغمر مشاعرك . كذلك الشأن فى أزهار حديقتى ؛ هذه زهرة منتحية منعزلة ، ليست أجمل الأزهار ، ولكن هى أحبها إلى نفسى وأقربها إلى قلبى .

إن الشعور الحق بالجمال لا يتجزأ ؛ فمن أحب جمال الأزهار أحب جمال النساء ، وأحب جمال الطبيعة ، ومن لم يشعر بجمال الأزهار فقد الشعور بالجمال عامة ، فإن رأيته وقد استهوته المرأة فهو استجابة للغريزة لا حب فى الجمال .

إن الله خلق الإنسان والعالم ليتجاوبا ويتناغما ، فإذا لم يهتز القلب لجمال الأزهار فقيم خلقها ؟ وإذا لم يبتهج بالسماء ونجومها فقيم لمعانها وضياؤها ، وإذا لم يتأثر بالطبيعة وجمالها ففيم البحار وأمواجها ، والمياه وخريرها ، والجبال الشاهقة وجلالها ؟ لعبث وجدت العين الناظرة ووجد المنظور ، ولعبث كانت الأذن كان المسموع ، وإلا كان سؤالاً بلا جواب ، وعيناً تقرأ ولا كتاب .

ليت لستالين وترومان وبيفن وأمثالهم مشاعر يدركون بها جمال الزهر ، ويفهمون بها وحيه ، ويصغون بها إلى حديثه ، ويأنسون بها إلى وداعته ولطفه ، إذاً لتغير وجه الأرض وسادت الدعوة إلى السلام ، وتغلبت بواعث الإنسانية ، وإذاً لاشمأزوا من رائحة القنابل وحديث الذرات واعتداءات الحروب ، ولفكروا فيما يسعد لا ما يشقى ، وفيما يخلد لا ما يفنى . ولكن عدموا الذوق فاستأنسوا بالبارود ، ونسوا الزهور فنسوا أنفسهم ، وعبدوا الشيطان فصدهم عن الجمال .

وأخيراً ليت الزمان ربيع كله .

أحمد أمين

بين الإنسانية وأصدقائها

للأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي

هذه مقالة للأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ظهرت في صحيفة «تعمير» الأردوية ثم نقلت إلى اللغة الإنجليزية، ورأيت أن أنقلها إلى اللغة العربية لما فيها من الحقائق عن الحياة التي تهمنا جميعاً معرفتها.

ترجمة الأستاذ محمد بن رشيد الحسني

تحوي الأساطير الهندية كثيراً من الحكم، يبدو لنا أن حكماء هذا القطر قد أعربوا عن دقائق الفلسفة في لغة سهلة وأسلوب جذاب، أو حاولوا نقل الحقائق الجافة إلى الحياة العامة، نحن نستطيع أن نتلقى دروساً قيمة في الفلسفة والحياة بواسطة هذه الأساطير المتواضعة.

ومن الأساطير والحكايات التي حدثتنا بها في الصغر الأمهات وعجائز البيت أسطورة امرأة شقية كان جسمها حافلاً بالإبرات السامة وتولت ضرتها اقتلاع هذه الإبرات فاقتلعتها إبرة إبرة، وتظاهرت بالشفقة والإخلاص وتركت إبرات العينين عمداً؛ فبقيت المرأة تتململ من شدة الألم لاينطبق لها جفن ولا تكتحل بنوم؛ ونحن بصدد هذا الجزء من الحكاية فحسب.

إذا فكرت في الإنسانية وأصدقائها، ودرست أحوالها لوجدت قصتها تشبه قصة المرأة البائسة تمام الشبه، قد تمزق جسمها بالإبرات السامة التي دخلت في جميع هيكلها فتمتد أيدي المروءة والرحمة إليها لتقلعها، ولكنها تغفل العينين اللتين لا يقر قرار الرجل إلا بسلامتهما؛ فلا يتم خلاصها ولا يهدأ بالها، فتغدو وتروح جريحة الهيكل كئيبة الروح مضطربة البال، ثم تستأنف الجهود من غد وتنقطع من غير أن تكمل مهمتها وتبلغ غايتها.

الإنسانية تمثل الجسم البشري في أعضائه وأجزائه فهي جامعة للنواحي الحيوية بأسرها، وإنها تنتظم الجسم والبطن والرأس والقلب والروح والنسمة، وتحل بهذه النواحي أنواع من البلاء والشقاء، وهي إبرات جسمها التي تشق بها وتتجرع على أيديها مرارة الحرمان والألم.

الفاقة والبؤس وفقدان المواد الغذائية الصالحة هي إبرات البطن والمعدة التي تشق بها الإنسانية وتتعذب، ومن الشقاء للعالم البشري، ومن المعضلات المذهلات أن لا تجد أغلبية البشر الساحقة ما تسد به فاقتها وتشبع به بطنها لسوء تصرف حفنة من البشر في توزيع المواد الغذائية أو لعسف حكومة جائرة رغم سخاء القدرة الإلهية وثروة الحقول الزراعية، وأن لا تجد البشرية حاجتها من الطعام والغذاء بعد أن تفيض الحقول زرعاً وتدر الأرض لبناً وعسلاً.

الإنسان جسد مع الروح، والجسد يشعر بالحرارة والبرودة، فهو دائماً في حاجة إلى الكسوة واللباس، وقد أنزل الله لباساً يواري سوءات الناس وريشاً، وألهم الإنسان كيف يزرع القطن، وكيف ينسج الثوب، واشتغلت الأيدي العاملة في الحقول والمصانع، فكانت كميات فائضة من القطن والنسائج، فمن الجور الفاحش والظلم المبين أن يلجيء إسراف بعض الرجال في الملابس أو احتفاظهم بها في صناديق ومستودعات كثيراً من الناس إلى العري، أو يكسو الأغنياء جدرانهم، فلا يجد الفقراء من اللباس ما يستر جسمهم ويقيهم البرد والحر.

إن المرء يحمل في جنبه قلباً نابضاً له رغبات وعواطف طبيعية لا ضرر فيها ولا اعتداء، فلا يجوز أن يقف الإنسان سداً في سبيلها، وقد وهب عقلاً وذكاء، فلا يجوز لأحد أن يمنعه عن العلم ويحول بينه وبين التفكير؛ فإذا فعل ذلك فرد أو حكومة كان الإنصاف للإنسان المرهق وتحرير فكره خدمة بارة للإنسانية، وعملاً يستحق الشكر والثناء.

الثقافة لا تزدهر ، والمدنية لا ترتقي ، وقوى الرجل الروحية والمادية لا تنمو أبداً . إذا كانت في البلاد سلطة مستبدة وحكومة غاشمة ، فترى أن الحكومات الأجنبية والدول المستبدة تستولي على وسائل الحياة وتتولى توزيعها ، فطوراً تستأثر بها وتارة تقسمها قسمة ضيزى ، وأخرى تحول بين الأمة ومنتجاتها وثمرات كدحها وخزائن أرضها ، فتعيش في ديارها عيش الغرباء أو الصعاليك الطرداء ، فلا تلبث أن تخمد عواطفها وتجمد قرائحها وتضيع مواهبها فتكون أمة خامدة خائفة . فلا شك أن الاستعمار أو الاستبداد عدو لدود للإنسانية وظلم عظيم للأمة ، وأن جلاءه عن البلاد نعمة وسعادة تستحق الأمة عليها كل تهنئة .

إذاً فالجوع والعري والأمية والاستبداد هي الإبرات التي لا تفتأ تجرح الجسد البشري وتؤلمه ، ومن الواجب إزالة هذه الآفات وتخليص الأمة منها .

ولكن هل هذه الكُرَب والآلام هي جل آفات البشرية ، وهي إبرات جسمها فحسب ؟ وإذا قلعت هذه الإبرات اطمأنت القلوب ونعمت الأبدان وقرت العيون وصفا العيش وطاب النوم وزالت الهموم والأكدار ورجع كل شيء إلى نصابه ؟ .

لقد كان الخطب يسيراً جداً لو كان ذلك ، ولكن الأمر مع الأسف ليس كذلك ، والواقع لا يؤيده .

إن القوت واللباس والعلم والحرية ليست كل شيء في الحياة وليست دواء كل داء ، إن في جسم الإنسانية إبرات سامة غير الإبرات المذكورة ، وهي تجرح قلبه وتذيب حشاشته . خذ مجتمعاً قد وصل إلى كل مطلوب وقضى كل حاجة في نفسه ، فنال الحرية والاستقلال ، وجمع بين العلم والأموال ، واجتمع له كل ما يمكن من أسباب السعادة المادية والهناء ؛ هل تراه هادئاً مطمئناً لا يشكو ولا يئن ؟ .

الأمر ليس كذلك كما نعرف جيداً ، بل ربما يكون هذا المجتمع السعيد أشد قلقاً واضطراباً وأكثر شكوى وعتاباً من غيره ، فما السر في هذا ؟

سر ذلك أن الإنسان قد يظهر في بطنه الطبيعي بطن كاذب ، وهو بطن الجشع والشح الذي لا يزال صائحاً مثل جهنم : « هل من مزيد ؟! » إنه لا يعشق المال لأنه قنطرة إلى حاجاته أو شهواته — على الأكثر — بل قد يكون غرامه له كفاية ونهاية ، هنالك لا يطفىء غلته أعظم مقدار من المال وأعظم مجموع من الدراهم والدينار ، بل يركب رأسه في شدة غرامه وولوعه بالمال ويرتكب كل محظور ومنكر ، لأنه قد فقد الحاسة الخلقية وحرم الضمير والعقل وجن بالمال جنوناً ؛ وأحقر مظاهر هذه النفسية والطبيعة الغريبة السوق السوداء ، وابتزاز الأموال من كل وسيلة وطريق .

إذا درسنا تاريخ العالم الخلقي درساً عميقاً ، وفحصنا أسباب الفوضى الاجتماعية والانحلال الخلقي فحصاً دقيقاً ، وفكرنا في رءوس المسائل والمشاكل التي تواجه الحياة القومية والاجتماعية اليوم ، وجدنا أنها لا ترجع إلى الضروريات والحاجات الطبيعية في غالب الأحوال ، بل إلى الرغبات الباطلة والحاجات الكاذبة والشهوات المصطنعة في الغالب ، وهذه الشهوات هي التي تغري صاحبها بالمحظورات والجنايات ، وتتولد منها أزمات طريفة ومشاكل معقدة في الحياة المدنية وفي كل نظام حكومي ، وتحث على الاعتداءات والتدليسات والخيانات والعنف والارتشاء والمقامرة والاكتناز والاحتكار والخداع ، وتتورط لأجلها أعظم الدول والأمم في الفوضوية واللادستورية .

لو بحثت في الأزمات والمشاكل لاقتنعت بأن معشر مطالب أغلبية ساحقة وكثرة الجياع العراة في بلاد ليست هي علة الاضطراب واختلال الحياة الاجتماعية ، إن هؤلاء الجياع والعراة لم يضيقوا على الناس ولم ينغصوا عيش أحد في القطر ؛ أولئك هم الطامحون الكامنون الذين لا تشبع أنفسهم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ولا تنقطع رغباتهم ، هم الذين ملأوا الدنيا فساداً واضطراباً ، إن قائمة الحوائج الصادقة ليست بطويلة جداً كما يتوهم بعض الناس وكما يغالط أكثرهم ، ولكن قائمة الحوائج الكاذبة لا حد لها ولا نهاية ، وهي تستمر في الازدياد والتضخم على مر الأيام والليالي ، وقد تتضخم حتى لا تكفي رجلاً واحداً ثروة هائلة ، بل ثروة مدينة بأسرها .

لماذا هذا الغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخم النقدي؟ ألأن أغلبية البلاد جائعة عارية؟ لا! بل لأن شهوة المادة قد طغت وتخطت كل حد، وبلغ غرام الثراء حد الوله والجنون، وأمحت القناعة من الحياة، وتسرب الصلف والرياء وحب الجاه والزينة في جسم المدنية فأحال الحياة إلى الشقاء وصيّر الدنيا داراً للعذاب والبلاء، فتواجه في كل منعطف ومنعرج ارتشاء مسرفاً وسوقاً سوداء وأرباحاً جائرة.

لكن هل ترتكب هذه المحظورات لأن الجوع أو العري قد جاوز حده؟ لا! إنها أعمال طبقة فضلت أقواتها وملابسها عن حاجاتها، واجتمع عندها من الكماليات وفضول الحياة وأدوات الزينة والفخار شيء كثير. إنك لا تجد في هذه السوق السوداء فقيراً لا يملك قوت يومه ولباس جسمه، ألا إنها لأفاعيل أصحاب اليسار والأموال الذين قد حيزت لهم الدنيا بأطرافها وحذافيرها، ثم لا رادع لهم عن الخيانة واختلاس أموال الناس.

إن حاجات الإنسان الطبيعية الصادقة خطبها يسير وإنه لسهل أن يجد كل إنسان في بلاد ما يشبعه ويكسوه وكل ما يحتاج إليه في حياته، ولكن هل تستطيع دولة من الدول الكبيرة أو شريعة من الشرائع العادلة أن ترضي حفنة من السكان في حاجاتهم الكاذبة ورغباتهم الباطلة؟ وهل تقدر أن تشبع بطناً واحداً يشكو الجوع الكاذب والذي لا يشبع وإن أكل رزق الناس أجمعين!

فإذا كانت المسألة مسألة الرغبات المختلقة لا الرغبات الصحيحة، وإذا كانت العلة الاشتهاء الكاذب لا الاشتهاء الصادق، فهل تقدر فلسفة اقتصادية أو نظام معاشي قد تكفل الطعام واللباس فقط ولا يتعرض للضمير الإنساني ولا يغير نفسية المجتمع وطبيعته والذي يشغل الحس المادي ولا يعد له، أن يحمل مجتمعاً واحداً على الرضاء والقناعة وهدوء البال؟ وهل يستطيع كذلك أن يطلق سراح الحياة من الأزمات الراهنة بعد أن أخذت بالخناق وأناخت على المدنية بكلاكلها.

إن الارتشاء والسوق السوداء والغلو في الأرباح والجنايات ليست إلا نتيجة نفسية تدين بعبادة المال والتفاني في سبيله، ولن يقف هذا الفساد عند حد إذا لم تتغير هذه النفسية، بل إذا سد باب في وجه فساد تفتح له عشرة أبواب على مصاريعها، لأن الذهن البشري له نوافذ وأبواب كثيرة، كلما سد منه منخر جاش منخر.

إن علة المدنية الحاضرة وداءها العضال أنها دست سموم الأثرة والشح وعبادة النفس في شرايين المجتمع وعروقه، فأصبح ضميره لا يؤمن إلا بالفائدة الشخصية والنفع العاجل فيرتكب أكبر رجل في هذا المجتمع أشنع جريمة، فإذا اؤتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا حكم جار، وإذا كان وزيراً آثر ذوي قرابته وأفاد نفسه وعشيرته وأصدقاءه وأضر بأمته وحكومته، وإذا كان موظفاً ماطل وتساهل وأبطأ في العمل حتى يرضخ له شيء من الدريهمات فينشط ويخف العمل، وإذا كان ممثلا في مجلس أو عضواً في هيئة لم يمثل إلا شخصه ومصالحه ولم يفكر إلا في فائدته فيوقع لأجله بلاده وشعبه في خسارة فادحة، وإذا كان تاجراً أقام السوق السوداء على قدم وساق، وارتكب لزيادة ثروته وتضخيم ماله كل ما تأباه الفضيلة والمروءة ويمنعه القانون، فيجوع لأجله ألوف من الرجال ولا يبالي، وقد يرابي الناس فيلق على مئات من الفقراء أثقالا من الديون الفادحة، فيحتاجون إلى مليم واحد وقرص واحد ولا يجدون إليه سبيلاً.

وغلب شيطان الأثرة على الدول والأحزاب بعد أن كان مستولياً على الأفراد والرجال. فالأحزاب السياسية ممعنة في الأثرة والعصبية الحزبية. أما الجمهوريات الأوروبية والأمريكية فقد جرت منها الأثرة مجرى الروح، فتدوس الدويلات الصغيرة بقدمها وتغبن حريتها وكرامتها وتحرمها متعة الحياة وتجعلها لها مستعمرات وأسواقاً لبضائعها ومصانعها، فحولت هذه الأثرة العالم كله إلى متجر أو كور حداد، لا ترى فيه إلا تعاطياً في الدرهم والدينار أو سحائب من النار والشرار، والأرض كلها إلى ساحة حرب واسعة وقد استهان أصحابها في سبيل منافعهم بالعهود والذمم، واستحلوا أشنع جريمة وأكبر جناية، إذا اقتضت ذلك ظروف وأحوال، فيقتل ألوف من البشر بأمرها، وتسيطر دولة على دولة أخرى ضعيفة بأسماء مختلفة وعلل واهية، وتباع أمة لأمة أخرى بثمن بخس

دراهم معدودة كالضأن والنعم ، وتنقل من يد إلى يد كالرقيق والجماد ، وتقطع بلاد موحدة — يجمع بينها الدين واللغة والحضارة والقومية — قطعاً كالثوب ، هذه الأثرة القومية الأوربية التي هاجت العرب ضد الأتراك — وكلهم مسلمون ، فلما أتموا دورهم في الحرب الكبرى وكتبوا سطور نصر الحلفاء بدمائهم أشاحوا عنهم وتناسوهم واقتسموا بلادهم كالمال السائب أو تراث ميت ، حتى إذا أرهقتهم الأحوال واضطروا إلى منح الاستقلال أقاموا في سوريا الصغيرة أربع دويلات مستقلة ثم زينوا اليهود « الوطن القومي » وألهموهم تأسيس دولة مستقلة وقدموا لهم كل مساعدة ، حتى إذا أصبح وطن اليهود أمراً واقعاً وقامت دولة إسرائيل تصادمت مصالحهم وأهواؤهم وتضاربت الأثرة بالأثرة ، وما مسألة فلسطين اليوم ، وما تعقدها والتواؤها إلا نتيجة أثرة بريطانيا وأمريكا وروسيا القومية ونتيجة تنافسها في استغلال الشعوب ومنابع ثروتها والسيطرة على الشرق الأدنى ! كذلك حدث في الهند ، فقد استغلتها بريطانيا وحلبت ضرعها قرناً ! فلما أخذت بالجد وألجأتها الأحوال الدولية إلى أن تمنح الهند الاستقلال عاملت هذه البلاد التي عاشت عليها دهراً شر معاملة ، فأشعلتها ناراً على أهلها ولم تغادرها حتى جعلتها مذبحاً يقتل فيه بعضهم بعضاً ، ولم يكن ما صدر من أهل الهند سنة ١٩٤٧ عام الاستقلال إلا بإلهام الأجنبي وتدبيره الخفي ونتيجة الأثرة والتربية الخلقية التي نشأ عليها أبناء هذه البلاد قرناً كاملاً في ظل الإنجليز والتي أخذتهم بها السياسة الإنجليزية والفلسفة الأوربية والنزعة الجنسية التي جاء بها الأوربيون .

ثم تلك الأثرة الجاهلية قد بثت في العالم كله وفي نواحي البلاد كلها طبيعة المطالبة بالحقوق والتهاون بالواجبات ، فقام كل واحد في المدينة يطلب ما له على غيره ولا يؤدي ما عليه لغيره ، ونشأ الناس وقد مردوا على التطفيف ، إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، فأحدثت هذه العقلية الغربية في جميع الأرض نزاعاً بين الأفراد وعراكاً بين الأحزاب وجدالاً بين الطبقات وصراعاً بين الجماهير والحكومات ، وظهرت ثورة عنيفة في العمال والتجار والفلاحين والموظفين ضد الحكومات ، وعمت الإضرابات والتهديدات والاضطرابات في المدن ، وكل يبالغ في حقه ويحق في المسألة ويتغافل عن واجبه ويخون في وظيفته ، حتى صارت الحياة سلسلة من مطالبات ومصارعات ، وأصبحت الحياة حبلاً ممدوداً يتجاذبه الفريقان من طرفيه .

مهما بالغنا في ذم هذه الأثرة والتذمر منها وتوجيه اللوم إلى هذه المدنية وقادتها ، فإن سبب هذه الأثرة الجارفة والمدنية الشقية بأهلها واضح جلي ، فإذا كان الاعتقاد السائد أن لا حياة بعد هذه الحياة الفانية ولا نعيم بعد هذا النعيم الزائل والعهد الراحل ، وإذا كان أدبنا وفلسفتنا وبيئتنا كلها لا تحدثنا إلا عن المادة وحدها ، وتخضع لأصحابها خضوع الذليل المسكين وتتغنى بمجدهم وتحث على اقتفاء آثارهم وتقليدهم في الحياة ، وتنكر كل حقيقة دينية وخلقية ، وإذا ماتت فكرة الحياة بعد الممات وإذا تركت القيم الخلقية والحقائق الفاضلة ميدانها للقيم المادية الجسدية ، وإذا تضخم الجسم والبطن على حساب القلب والضمير حتى وسعا الحياة كلها وحجبا الحقائق الخلقية والمعاني الروحية ، فكيف لا يصير الرجل في هذا المحيط مادياً محضاً وكيف يؤخر ربح حياته الحاضرة وثمراتها النقد الموهوم ؟ وكيف يستبق ويدخر لذته وهناءه للآخرة التي لا يؤمن بها ؟ إنه إذا لم يؤمن بالعزيز الجبار العليم الخبير الديان المهيمن الرقيب الذي هو مالك يوم الدين والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فكيف يتردد في استخدام الوسائل التي تهيئ له عيشاً رغيداً وجاهاً عريضاً ومالاً ممدوداً .

ولما حصرت الفلسفة السياسية المادية حياة الإنسان في القومية والوطنية واستخفت بكل من يعطف على بني آدم عامة ويواسيهم وكل من يؤمن بالحياة الآخرة الخالدة وكل من يحب الإنسانية ولا يتقيد بوطن أو جنس ، أصبح الإنسان — إذا ارتفع عن الأثرة الشخصية والمنافع الفردية — لا يفكر إلا في مصالح وطنه ومنافع شعبه ، وقد تصل به هذه الوطنية والقومية إلى الاحتلال والاستعمار والقسوة والهمجية ، فيرى من واجبه الوطني والقومي المقدس ومن وفائه لأمته

وغايته في سبيلها أن يؤسس دولة أمة على أنقاض دولة أمة أخرى وعلى أشلائها ، وهذه هي الوطنية التي حدت بأوربا المتمدنة إلى استعمال كل قوة ووحشية في توسيع ممتلكاتها وإخضاع الأمم والشعوب لدولها وسياستها حتى انتهى بها ذلك إلى استعمال المدمرات والغازات السامة وإلقاء القنابل الذرية في الأخير واختراع (Hydrogen Bomb) وأشد منها أيضاً .

هذه الأثرة بمعناها الواسع هي آفة المدنية الحاضرة وجائحة زرعها ، فما دامت هذه الأثرة روح الاجتماع والسياسة وأساس المدنية والأخلاق ، فلا تفيد التنظيمات والإصلاحات والمشاريع الاقتصادية والعمرانية الجديدة ، ولا تغني شيئاً ، وإذا كانت الأثرة متغلغلة في أحشاء المجتمع جارية مجرى الروح وهي التي تملي على الناس سياستهم وسلوكهم ، وإذا كان الأفراد في أمة يتنافسون في الشهوات ويتهافتون على اللذات ويتطاولون في القصور والناطحات السحاب ويتسابقون في اقتناء آخر السيارات ويتسابقون في أسباب الترف والرخاء ومظاهر العظمة والثراء ، وإذا كانت قائمة الحاجات المختلفة والرغبات المصطنعة تتضخم كل يوم ، لم يغن تلك الأمة غناها ووسائلها وتنظيمها الاقتصادي ، ولم تكفها مواردها ومنابع ثروتها ، مهما كانت واسعة ضخمة ، ولا يفيدها أن تمطر السماء ذهباً وتلفظ الأرض خزائنها — من مناجم الذهب ومنابع البترول — فإن كل ذلك لا يفي بحاجاتها المختلفة المتجددة ولا يغني فقراءها ، ولا يشبع جياعها ولا يكسو عراتها ، فترى فيها على ثروتها الهائلة وأموالها الطائلة فوجاً من الفقراء لا يجدون من الطعام ما يقيم صلبهم ومن اللباس ما يكسو عورتهم ، أهذا الجوع القاتل والعري الفاضح الذي ترى مناظره المخجلة على الشوارع العامرة بالقصور المزدحمة بالسيارات لفقر البلاد وضيق مواردها وقلة وسائلها ؟ إذاً فمن أين هذه الناطحات للسحاب من القصور والمباريات لفرع من السيارات ؟ ولماذا هذه الجولات إلى عواصم أوربا وأمريكا ؟ لا والله ليس ذلك إلا لهذه الأثرة — قاتلها الله — التي حالت بين الفقراء وبين حظهم من العيش وحقهم من الحياة والتي ابتلعت موارد البلاد وأموالها فلم تترك للفقراء ولا للبلاد شيئاً .

لقد أصبح المجتمع الإنساني اليوم جسماً متورماً يستسمنه الجاهل ، وما هو بسمين ، إنما هو ورم غير طبيعي ، فقد بلغ شأواً بعيداً في الزخارف والكماليات وضخامة الميزانيات ، وقلت الأمية وشاع العلم في كثير من الأقطار ، وتساوى الناس في المعيشة وأسبابها في بعض الأقطار أيضاً — كما يقولون — ولكن الواقع أن هذه الدوحة التي تراها قائمة — دوحة المدنية والمجتمع الإنساني — قد أصابتها دودة أكلت كبدها ونخرتها ، فهي متآكلة جوفاء ، وهذه الدودة الخبيثة هي الأثرة التي تزين للإنسان الظلم وتحمله على الاعتداء ، فإذا بقيت هذه الدودة تأكل كبد المجتمع وتنخر جسمه حبطت الجهود الإصلاحية ، وضاعت المشروعات الاقتصادية ، وما دامت هذه الدودة تعمل عملها فلا تنفع الأمة « الاشتراكية » و « الشيوعية » ولا تؤثر في الحياة تأثيراً كبيراً ، لأن أمة نشأت على الأثرة وحب المال المفرط وحب الحياة الزائد ، لا تمتنع من الظلم والاعتداء لأجل تنظيمات اقتصادية وعقوبات مدنية ، فإن هنا ميادين غير ميدان الاقتصاد يستطيع المرء فيها أن يظلم أخاه ويغتصب حقه ، وإذا لم يستطع ذلك فإنه يقدر أن يؤذيه ويماكسه على الأقل ؛ فلا طريق إلى العدل والسلام والهناء الكامل إلا أن تقتلع جرثومة الأثرة والشح والاعتداء من قلوب الناس وعقولهم ، وذلك لا يقدر عليه إلا الدين المسيطر على الروح والقلب .

الدين الذي يحث على الاقتصاد في المعيشة والزهد في الدنيا ، ويمنع الإنسان من الاسترسال في الآمال والأماني والانهماك في اللذات والشهوات والإسراف في الأكل والشرب ، ويحض على الإيثار على النفس مع الخصاصة وإنفاق العفو من المال ، ويحض على طعام المسكين ، والحدب على اليتيم ، وينعى على الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، ويأكلون التراث أكلاً لمّاً ، ويحبون المال حباً جمّاً ؛ ذلك هو الدين الكامل العادل الذي ينقذ الإنسانية من كل بلاء ، ويقيم عوجها ، ويرتق فتقها ، ويأسو جراحها .

إن الشعوب أو البلاد التي استقلت في آسيا في الزمن الأخير ، لا تزال معرضة عن حقيقة ناصعة ، وهي أن رفاهة البلاد وسعادة الشعب ليست من كثرة الوسائل والآلات واكتشاف موارد المال ومنابع الثروة وازدهار الصناعة والزراعة وكثرة المصانع وتقليد أوربا وأمريكا في تنظيماتها وإن كان لا بد من ذلك ، ولكن الرفاهة الحقيقية في صحة المقاصد والغايات وحسن استعمال الوسائل والآلات وفي اعتدال الحياة وقلة الحاجات وحب العدل والمواساة . ولن يحصل هذا من طريق الآلات والماكينات ومن طريق التنظيمات الاقتصادية والنظم السياسية ، ولكن من طريق التربية الدينية وبتأثير الدين الصحيح ، والتعليم الصحيح . ولئن كانت الوسائل والآلات والتنظيمات ضامنة برفاهة البلاد وسعادة الأمة وهدوء بالها لكانت أوربا وأمريكا وروسيا أرفه بلاد الله ، وأطيبها عيشاً ، وأقلها كدراً ، وأنعمها بالاً ، وأرضاها بالحياة ، وأبعدها من القلق والاضطراب ، والشكوى والعتاب ، ولكانت جنة في الأرض لا خوف فيها ولا حزن ، ولكن الأمر بالعكس ؛ فمشاكل هذه البلاد وأزماتها وصراع الأحزاب والنزعات فيها ، وتذمر الناس من حياتهم وعدم رضاهم عن مدنيتهم ، وبحثهم عن هدوء البال وسكينة القلب حتى في الشرق وأديانه أمر معلوم .

إنا لا ننكر الفضل للأيدي التي تحاول إراحة البشرية المعذبة وإسعافها بإزالة تلك الإبر من جسدها ؛ ولكن لا سبيل إلى الطمأنينة الدائمة والسكينة التامة إلا بقلع إبرات العيون ، إن الحصول على الحرية والاستقلال عمل جليل وهدف سام جداً ، والجهاد في سبيل مكافحة الفقر والجوع والعري والأمية والجهل ، وإلغاء المظالم والاعتداءات الاقتصادية والاجتماعية ، والحصول على وسائل الحياة حسنات لا تنسى ، وأياد بيضاء لا تنكر ، ولكن الإنسانية أوسع من هذا ، وإن الإنسان أكثر من المعدة والبطن والجسد والعقل ، إن في جسده مضغة لو صلحت صلح الجسد كله ، ولو فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب ؛ فالمهم الأهم هو صلاحه وهدوؤه واعتداله وحياته ؛ فهل فكر المفكرون في هذا ؟ وهل وجدوا إليه سبيلاً ؟!.

قد تسابقت أيدي الإنسانية الرفيقة لقلع إبرات الجسد ، وقد عنيت بإبرات البطن والمعدة فاقتلعتها وأراحت الإنسانية منها ، ولكنها ما فطنت لإبرات العيون التي هي أصل البلاء ، ومثار الشقاء ، والإنسانية تئن أنين الثكلى وتهتف بأبنائها وأنصارها وتنادي : إليَّ يا أبنائي البررة ، أسعفوني وخلصوني من العذاب الذي أتجرعه ولا أكاد أسيغه ، ويأتيني الموت من كل مكان ، وما أنا بميت ، وأريحوني من وجع الفؤاد وألم العين الذي شرّد نومي وأقلق بالي ، وامسحوا ما بي من علة حتى أعيش قرير العين ناعم البال مطمئنا .

فهل من مجيب ؟! .

(لكناو ، الهند) محمد بن رشيد الحسني

خبرة السنين

للدكتور زكي نجيب محمود

سُئل سوفوكليز الشاعر المسرحي اليوناني مرة ، وكانت السنُّ قد بلغت به مبلغ الشيخوخة : « ما موقفك الآن إزاء الحب يا سوفوكليز ؟ ألا تزال قادراً عليه ؟ » فأجاب : « صه ! نشدتك الله لا توقظه في قلبي من جديد ! فكم يسعدني أن أراني قد فررت من حبائله ، فأحسُّ كأنما فررت من مستبد متوحش مجنون ! » .

فإذا جعلنا لفظة « الحب » في هذه العبارة رمزاً يشير إلى العاطفة في شتى ألوانها : من غضب شديد وحزن شديد ومقت شديد وحقد شديد وطموح شديد وحماسة شديدة ، إلى آخر هذه العواطف التي يحتدم أوارها عادة في صدور الشباب ، وتبرد نارها في صدور الشيوخ ، ثم إذا جعلنا « سوفوكليز » في هذه العبارة ينطق بلسان الرجل إذا تقدمت به السن ، كان لنا أن نضع السؤال والجواب السابقين في هذه الصورة الآتية :

— في أي شيء جوهري يختلف الشيوخ عن الشباب ؟

— في برودة العواطف بعد اشتعالها .

* * *

وفي برودة العاطفة تتلخص خبرة السنين ؟ فالشيخ المجرب الذي خبر الأيام وعرك الحوادث لا يقف نفس الموقف الذي يقفه الشاب إزاء مشكلة بعينها ، فلا يغضب أو يحزن أو يثور حين يغضب الشاب أو يحزن أو يثور ؛ ليس الفرق بينهما اختلافاً في الذكاء ، لأن علماء النفس يحدثونك حديث اليقين ، بأن ذكاء المرء لا يزيد بعد سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وإنما الذي يزيد بعد ذلك في المرء كلما تقدمت به الأعوام ، هو الخبرة لا درجة الذكاء .

وكذلك ليس كل الفرق بينهما هو أن خبرةً بعينها يصادفها الشاب لأول مرة في حياته ، على حين يصادفها الشيخ للمرة العاشرة أو العشرين ، فيكون الفرق بينهما اختلافاً في عدد الخبرات ، مما يمكّن الشيخ أن يتصرف في كل موقف على غرار ما تصرف في الموقف الشبيه به فيما مضى ، ولا يجد الشاب في خبراته السابقة ما يقيس عليه ، فيتخبط في خطاه ويضل سواء السبيل .

أقول إن الفرق بين الشيخ والشاب ، حين لا يغضب الأول ويغضب الثاني إزاء موقف معين ، أو لا يحزن الأول ويحزن الثاني ، ليس هو اختلافاً في درجة الذكاء ، بحيث يرى الأول ما لا يراه الثاني ، ولا هو اختلاف في عدد الخبرات السابقة فقط ، بحيث يجد الشيخ دائماً في خبرته من السوابق ما يقيس عليه الموقف الراهن ، ولا يجد الشاب في خبرته شيئاً يهتدي بضيائه ؛ إنما الفرق الجوهري الهام بين الشيخ والشاب ، هو برودة العواطف عند الأول ، واحتدامها في الثاني ؛ وهذه البرودة هي ما نعنيه بخبرة السنين .

لقد مات لي عمّان ، جاء موت الثاني بعد موت الأول بما يقرب من عشرين عاماً ، وشهدتُ موقف جدتي في الحالتين ، فكأنما شهدتُ امرأتين مختلفتين أشد ما يكون الاختلاف بين الناس ؛ شهدتُ في المرة الأولى أمّاً جزعت على موت ابنها جزعاً لم أشهد له مثيلاً في كل من رأيت من الأمهات اللاتي ثكلن أبناءهن ؛ شهدتُ عندئذ أمّاً

لا يكاد ينقطع لها بكاء ، تهيم على وجهها أحياناً في شوارع القرية صارخة نادبة لادمة ، وتصوم عن الطعام أياماً ، فإن أكلت تعمدت ألا يكون طعامها من أطيب الطعام ؛ وكثيراً ما كانت تذهب إلى قبر ابنها حيث تقضي اليوم كله والليل كله ، وتأبى أن تفترش غير الحصير الغليظ الخشن ، على أن تكون السماء غطاءها ؛ وألد أعدائها هم أولئك الذين يتقدمون إليها بالنصح أو بالتعزية والمواساة ، لأنهم إن فعلوا كان معنى ذلك عندها قصورهم عن إدراك المصاب بكل هوله وفداحته .

ثم شهدت جدتي هذه لما مات ابنها الثاني ، وكانت قد تقدمت بها السن عشرين عاماً تقريباً ؛ مات عمي هذا في القاهرة ونقلنا جثمانه إلى القرية حيث كانت تقيم جدتي ؛ وحمل النعش إلى بهو الدار ، حيث رأيت جدتي واقفة في سوادها ، وكان الليل قد انتصف والسكون ضارباً بجرانه على أطراف القرية جميعاً ، والأضواء خافتة في الدار حتى كاد الأشخاص يتحولون أشباحاً ... وقفت جدتي لحظة شاخصة ببصرها إلى النعش بعد أن وضعه حاملوه على أريكة خشبية في بهو الدار ، وقفت لحظة صامتة لا تتحرك ولا تنطق ، فلم يسعنا إلا الوقوف معها في صمت خاشعين ، ثم صرخت صرختين ، تنطق فيهما بلفظة « يا ولدي » .. وكان ذلك كل ما أبدته جدتي من علامات الجزع ؛ جلست هادئة في المأتم ، لا تصرخ ولا تبكي ولا تندب ولا تلطم صدراً ولا تمزق ثوباً .

فكان الفرق بين موقفها في المرة الثانية وموقفها في المرة الأولى ، هو خبرة السنين .

ولما كان التعليم هو بمثابة اختصار الزمن في تحصيل الخبرة التي تتطلب زمناً أطول بغير تعليم ، رأينا هذه العواطف الحادة أقل حدوثاً في المتعلم منها في الجاهل ؛ وقل ذلك بعينه في الأمم بصفة عامة ، فالأمة التي ارتفع فيها التعليم أقدر من غيرها على التخلص من هذه العواطف الشديدة على اختلاف أنواعها ، أو بعبارة أخرى : بردت فيها العاطفة وازداد العقل رجحاناً ؛ فلا تبلغ عاطفة الأبوة أو عاطفة الأمومة هذه الدرجة من الهوس التي تلحظها في الأمة المتأخرة ؛ ولا يبلغ حزن الوالدين على فقيدهما ما قد يبلغه في الأمة المتأخرة من درجة الجنون ؛ ولا ترى فيها علائم الغضب الشديد والغيرة الشديدة ، بل لا ترى فيها علائم الفرح الشديد .

إن العاطفة الحادة كائنة ما كانت ، نوعٌ من العرجة الخلقية ، تزداد مع الرعونة وتقل مع رجاحة التفكير ؛ ولعل أهم ما يؤخذ على اليونان في تصويرهم لآلهتهم ، أنهم صوروهم كائنات تنفعل بالعواطف كما ينفعل البشر ، فيضحكون ويحزنون ويحقدون ويتنافسون ويغضبون ؛ أما الإله في الديانات الرشيدة فيوشك أن يكون تفكيراً خالصاً لا عاطفة فيه ؛ وإذا أراد إنسان من البشر أن يعلو على سائر الناس في مكانه ، كالملك في الاحتفال الرسمي ، أو كالقاضي في ساحة العدل ، خلع عن نفسه مظاهر الخفة والطرب والحزن والغضب وما إلى ذلك ، وبدا للناس كأنما هو كائن بغير عاطفة .

ذلك أن العاطفة معناها نقص في قوة التفكير ؛ فانظر إلى ما شئت من أوضاع الحياة أو جوانب الطبيعة نظرة عقلية علمية ، تر العاطفة قد امحت آثارها . انظر إلى الحب — مثلاً — نظرتك إلى السمك يبيض ويلقح له البيض ، وانظر إلى المرأة « الفاتنة » نظرة عالم التشريح إلى الجسم الإنساني ، وإلى الزهرة « الرائعة » نظرة عالم النبات وهو يدرس أجزاءها وإلى أي نوع من الزهر تنتمي ، وحدثني بعد ذلك ماذا بقي لك من عاطفة .

إن الشيخ إذا تعلم من خبرة السنين ، تعوّد برودة العواطف ، فإن قلّتْ لذائذه تبعاً لذلك ، فقد قلّتْ كذلك آلامه ؛ ولست أتردد لحظة — إذا كان لي اختيار — في أن أوثر القلة منهما معاً على الكثرة منهما معاً ؛ ثم إن الشيخ لم تعد له لذة الحب الجامحة كما يتمتع بها الشاب ، لكنه كذلك مستريح البال من آلامه وأوجاعه .

ودونك شعراء الحب فانظر كم قصيدة قيلت فى نعيم الحب ، وكم قصيدة قيلت فى جحيمه ! لئن كان الشباب يعرف ما الحب ، فالشيخوخة تعرف كيف تكون الصداقة ، وما الصداقة إلا حب هدأت فيه العاطفة وزالت عنه شرورها .

التخلص من العاطفة الحادة هو — كما قال سوفوكليز — « فرار من مستبدٍّ متوحش مجنون » . فأنت مستبد برأيك إذا سيّرتك العاطفة استبداداً يستحيل معه الوصول مع خصمك إلى اتفاق ؛ وإن شئت فانظر إلى فريقين اختلفا فى عاطفتهما الوطنية ، وفريقين اختلفا فى نظرية علمية ، فالسبيل عند المختلفين فى الحالة الأولى هو القتال ، إذ لا سبيل إلى مفاوضة أو مداولة أو نقاش ، والسبيل عند المختلفين فى الحالة الثانية هو الإقناع ، إذ لا ضرورة إلى قتال .

وأنت متوحش إذا احتكمت إلى عواطفك فى حكمك على الناس والأشياء ، لأنك عندئذ ستحب هذا وستكره ذاك على غير أساس ، إلا ما يبنى عليه الحيوان الأعجم حبه وكراهيته ؛ إن الصحيح يريد الشىء بغرائزه وعواطفه أولاً ؛ ثم توحى له الأهواء أنه أراد الحق فيما أراد ؛ والعكس أرقى فى مراتب التطور البشرى ، وهو أن أرى أولاً أن الشىء حق دون تدخل من العاطفة والهوى ، ثم بعد ذلك أدرّب نفسى على حبه .

وأنت مجنون حين تمسك العاطفة زمامك ، لأن الجنون هو أن تأخذ بما فى رأسك من أوهام ، متحدياً بذلك الواقع المحسوس ؛ وليست العاطفة عاطفة إذا لم تكن تُجاوز الواقع المحسوس ؛ فيرى « العاقل » فى النهر ماء يجرى فى منخفض من الأرض ، أما « العاشق » فقد يراه كائناً حيًّا يهمس إلى الشواطئ والزوارق همسات الغرام ! .

الزمام الواقع فى هدوء بغير صخب العاطفة وهوسها — هذه هى خبرة السنين ؛ فالرجل طفل غِرٌّ مهما تقدمت به الأيام — إن ظلت تعصف به عواصف العواطف الهوج ؛ والشاب شيخ مجرب مهما صغرت أعوامه ، إن نفخ الدخان عن نيران الحوادث ليراها على حقيقتها ...

لقد كنت أنظر مع صديقى إلى ألعاب بهلوانية أجاد فيها اللاعبون ، حتى إذا ما فرغوا من ألعابهم ، صفق الناس تصفيقاً يمزق فى الأكفّ جلودها ، وجلستُ ساكناً لم أصفق ، فسألنى صديقى : لماذا لا تصفق مع الناس ؟ فأجبتها قائلاً : إنها خبرة السنين .

زكى نجيب محمود

الإدارة الهندســـية القروية

بمجلس مديرية الغربية

تقبــل العطاءات لغــاية ظهر يوم ١٧ — ٤ — ١٩٥٠ عن ردم برك بنــواحى زرعــة غنــيم وجوجر وميت الفرا وطليمة وأســديم بمديرية الغربيــة . ويقــدم الطلب على ورقــة دمغــة من فئــة الثــلاثين مليمــاً للحصول على الشروط والمواصفــات من الإدارة الهندســية القروية بطنطا نظير مبــلغ خمسمائة مليم خــلاف أجــرة البريد .

ويمكن الاطلاع على الرسومات بالإدارة المذكورة أو بمصلحة الشــئون القروية رقم ١ شــارع محــمد سعيــد باشا بمصر ، وكل عــطاء يجب أن يكون مصحوباً بتأمين ابتــدائى لا يقل عن ٢ فى المائة من قيمــة العطاء .

٤٤٣١

معرض الفن الاســــبانى

للأستاذ عبد القادر السماحى

يعتبر معرض الفن الاسبانى — بعد أوركسترا ڤينا ڤلهارمونيك — أكبر حدث فنى فى بلادنا فى هذه السنوات الأخيرة . فقد جاء حافلاً بالآثار الفنية الممتازة ، جامعاً لمختلف المدارس وشتى الاتجاهات .

ويحتل جويا مكان الشرف فى هذا المعرض ، كما أنه من الناحية التاريخية أقدم من عرض لهم . وتتكون الرسوم التى عرضت له من صور لنقوشه المشهورة التى حفرها بماء الفضة على النحاس ، والتى تتألف من أربع مجموعات : « النزوات » وهو يهجو فيها المجتمع الاسبانى الذى كان قد تطرق إليه الفساد ، ويعدد معايب السلطة الحاكمة فى سخرية لاذعة .



الاسبان شعب متدين ، ولذا فإن الرسامين يختلفون فى إبراز مظاهر الورع والتقى كما ترى ذلك فى صورة « نساء فى الكنيسة » لرسام سوتومايور

و « الأمثال » وهى رسوم محيرة وليدة مخيلة جامحة ، حتى لكأنها هذيان رأس محموم . فنشاهد فيها شياطين وسحرة ورجالاً دون مارقين وغوانىَ راقصات وأشباحاً عارية . و « مصارعة الثيران » وهى تصور تصويراً واقعياً أحب الملاهى لدى الاسبان . فكم من نطحات هائلة وطعنات رائعة ، وكم من خيول راكضة كالسهام المارقة ، ومصارعين تحصرهم وتضيق عليهم الحيوانات الثائرة . وأخيراً « ويلات الحرب » وقد أوحى إليه بها غزو جيوش نابليون لإسبانيا ، وحرب الاستقلال التى تلت ذلك ودامت أعواماً تربو على الستة .



جويا

وهي سلسلة من المشاهد البشعة للمذابح دامية ، حيث ترى نساء هتكت أعراضهن ، وبقرت بطونهن ، وجثثاً مدلاة من جذوع الأشجار ولم يحل وثاقها ...



الأصيل شعب والفن . وقد انضم الرسام سلفادوري دالي في أول الأمر إلى حركة السيريالزم ، ثم غلبته طبيعته الاسبانية فارتد إلى المذهب الواقعي ، كما ترى في صورة « امرأة بالنافذة » ، وهي من أروع اللوحات في المعرض

وإنه لمن العسير عندما يشاهد الإنسان هذه الرسوم الغريبة ، ألا يتساءل عن صاحبها وسيرته ! وفي الحقيقة لقد كانت حياة جويا ، مثل رسومه ، عجيبة مضطربة صاخبة . ولقد كانت له قامة فارعة ، وقوة خارقة ، ومهارة فائقة في الملاكمة والمبارزة ، وقد أزهق أرواحاً في مشاجراته ، وعمل مصارعاً للثيران اشتهر بخفته ورشاقته ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر . واختطف في إيطاليا فتاة أولع بها من الدير حيث وضعها أهلها .

وعقد ، بعد فراره وعودته إلى بلاده حيث اشتهر بفنه ، أوثق الصلات مع أمراء إسبانيا ونبلائها . ولكنه كان يمل صحبتهم ويعود إلى الحانات والسقائين يسامرهم ويلعب الورق معهم .

وكان جويا أباً لعشرين ولداً شرعيًّا ، ومع ذلك كنت تراه يمضي من حلبة المصارعة إلى خدر سيدة ، ومن هناك إلى « الاستديو » ليسجل طيشها ونزقها . وكان ينحني في أدب واحترام أمام السادة الكرام الذين قدموا ليصورهم ، ثم يشرع بعد أن يقودهم إلى الباب ، في تثبيت نظراتهم



يعزى مذهب الفن التكعيبي cubisme ومذهب « فيما وراء الحقيقة » surréalisme إلى الفنان بيكاسو الاسباني الذي هاجر من بلاده وعاش في فرنسا حتى أصبح الآن فناناً عالمياً . ولكن الصور المعروضة له هي مما رسمه قبل أن يستحدث مذاهبه الجديدة العجيبة . وفي هذه الصورة « المهرج » يصور بيكاسو أروع تصوير ما يلوح على وجوه تلك الفئة التي تضحك الناس ، من حزن وكآبة

البليدة بريشته أو إزرته ، وإبراز الظهر الفارغ الثروة والأبهة الذى يبدون فيه .



يحفى فانو الأهلى بنساء إقليمهم اللائى يتميزن بملامحهن الشرقية وسماتهن العربية ، وها هو فا سوريا آجو يمثلهن فى حياتهن اللاهية العابثة فى لوحة « نساء من غرناطة يشهدن مصارعة الثيران »

ولهذه الرسوم إلى جانب دلالتها النفسية — حيث تبين الثورة التى كانت تعتمل فى نفس الفنان لرؤيته بلاده التى عبها وسوس الفساد ينخر فيها — قيمة تاريخية ، إذ تنعكس فيها كل اسبانيا ، عاليها وسافلها ، بصبغتها المحلية ، وقد رأينا مصادر الوحى المختلفة التى كانت تستمد منها مادتها . وقد حفظت لنا إلى الأبد — فى الوقت الذى أوشكت فيه أن تندثر — آثار ذلك العصر الذى عاش فيه جويا بالملامح والهيئات والأزياء ، وخلدت عالماً بأكمله من مصارعى الثيران والغانيات والرهبان والمهربين ورجال الحفظ والسراق .

ولقد انتهت المدرسة الاسبانية بموت جويا . وأخذ البعض يتأثرون خطاه فى اتجاهه الرومانتيكى ، والبعض الآخر ينحون نحو المدرسة الكلاسيكية الحديثة التى كان يتزعمها الفنان الفرنسى داڤيد . ثم لم يلبث الفن فى اسبانيا أن سار بعد ذلك مع مختلف التيارات ، وخضع لشتى الاتجاهات فى المدارس الأوربية المتنوعة ، كما ترى ذلك فى الصور المنشورة .

عبد القادر السماحى

خواطر أدبية :

إليها ..؟

احمل الشوق يا نسيمُ إليها

أنتَ أدرى بما مرَّ فى أذنيها

واصطحب قبلة الوفاء وأقبل

برقيق الهوى على شفتيها

لا تداعب شعورها فشعورى

غار فى بعده على صدغيها

ليتنى يا نسيم كنتَ نسيماً

أطلقُ الشوق فى لظى وجنتيها

ألتقى دُنُوَّها باشتياق

فألاقى سهم الشقاء لديها

فى جراحى ولوعتى وحنينى

وأنينى شواهدٌ لى عليها

إن سلتنى هيهات أسلو هواها

كيف يسلو من كان طوع يديها ؟

هى دنيايَ راحتى وهنائى

أو شقائى فالقلب فى راحتيها

أنا فى قربها كبُعدىَ عنها

أشتكى الشجون منها إليها !!

(بغداد) محمد محمود

كيف؟

الطبيب يقرأ الكف

للأستاذ محمد صفوت محي الدين

إن الطب الحديث لا يعتمد فى فحصه اليد على الكف وحدها ، ولا يعتمد أيضاً على خط الحياة وخط القلب وما رسم قراء الكف من خطوط ، بل يعتمد على أجزاء اليد وأوجهها جميعاً ، وقد وصل فى هذا إلى نتائج لا تقبل الجدال ، أثبتها التشريح كما أثبتها الإحصاء ، فإذا كان قارئ الكف يستطيع أن ينبئك بما قد مضى لك من حياة وحب ، وبما قد بقى لك منهما ، كاذباً مستوحياً دجله ، فقد يستطيع لك الطبيب الفطن هذا كله صادقاً بنظرة فى يدك مستوحياً فى هذا العلم والعلم وحده .

فهو فى إنبائه بحظك من الحياة يستوحى تأثير بعض الأمراض على اليد قبل الفحص ، وفى دقته وفى إنبائه بحظك من العاطفة والحب يعتمد على تأثير نقص الهرمونات ، أو زيادتها على حجم اليد وهيئتها من البدانة والنحول ؟ فإذا علمنا أن لهذه الهرمونات (وهى إفرازات الغدد الصماء) أثراً عميقاً فى عواطف الفرد ، ولها الأثر كل الأثر فى قواه الجنسية لوضح لك ما قدمت .

إن نمو الظفر من مكمنه حتى نهاية الأصبع يتطلب أربعة أشهر ، وحدوث أى مرض حاد خلال هذه الفترة يترك انخفاضاً مستعرضاً فيه ... فإذا رأينا انخفاضاً مستعرضاً فى منتصف طول الظفر مثلاً ، كان معنى هذا أن هذا الشخص قد أصيب منذ شهرين بهذا المرض الحاد .

أما إذا بدا سطح الظفر مقعراً كأنه الملعقة ، فهذه إشارة إصابة بفقر الدم ونقص فى التغذية ، وإذا زاد تحدب الظفر طولاً وعرضاً حتى يبدو كجزء من كرة ، فهذه آية من آيات إصابة القلب بالتهاب فى غشائه الداخلى ، أو بمرض أصابه منذ الولادة ، أو إصابة الرئتين بالدرن ، أو بخراج ، أو سرطان . والعجيب فى سرطان الرئة الشعبى أنه إذا كانت الإصابة فى الرئة اليسرى كانت الأظفار المصابة هى أظفار اليد اليسرى وحدها .

وهناك غدتان صامتتان لهما دور خطير فى نمو الإنسان وعواطفه ونشاطه الجنسى ، كالغدة الدرقية فى أسفل العنق والنخامية فى أسفل المخ ؛ فإذا كانتا فى نشاط وحيوية كان عرض الكف عند مخرج الأصابع أكبر من طول الكف فى مواجهة الإصبع الوسطى ، وفى نقص إفراز هاتين الغدتين تكون العلاقة عكسية بين طول الكف وعرضها ، كما أن اليد والأصابع تكون أميل إلى البدانة .

وارتعاش اليد قد يقود الطبيب إلى تشخيص كثير من الأمراض العصبية الخطرة ، كما قد لا يعنى شيئاً أكثر من الأرق ، أو إدمان التدخين ، أو مجرد الخوف ، وقد يستطيع الطبيب الحاذق ، أو على تعبير أدق الطبيب النطاسى ، تشخيص المرض من غيره من ملاحظة طبيعة الارتعاش ووقته ودرجته .

أما البصمات فهى المأرب الجليل للطبيب الشرعى فى اليد ، حتى ليستطيع أن يقرأ منها الجريمة كاملة . والحقيقة أن البصمات التى يتركها الجانى على أداة الجريمة أصبحت فى عصرنا

(البقية على صفحة ٢١)

عــــــوانس

للأستاذ رشدي الأشهب

كانت دائمة الصمت كثيرة الوجوم ، وإذا تحدثت فإنما تتحدث مع نفسها ، أو مع القطط التي تربيها وتقوم لها بحاجاتها من مطعم ومشرب ونظافة ، وهناك مجموعة كبيرة من الحمام تعودت أن تعتني به ؛ فإذا ما نادته أسرع بالنزول من أوكاره الخشبية فرمت له بالحب ، وأخذت تتحدث مع نفسها وهي تتأمله ، وربما هبط بعضه على كتفيها وقد تعود ذلك بعد أن أمن جانبها ، كانت هذه « الحاجة صبيحة » صغرى ثلاث أخوات عوانس ، بقيت وحدها في الدار بعد أن توفيت الكبرى بعد مرض عصبي عنيف حاولت فيه أن تقتل نفسها مرتين ، وأما الثانية فهي تعيش في مستشفى المجانين ، أما هي فقد أبت أن تترك البيت لتنتقل إلى الدار الكبيرة التي يملكها أخوها « الشيخ مجاهد » ويعيش فيها مع عائلته وأولاده ، إذ عرض عليها أن تترك البيت لتأتي عنده فرفضت متشبثة بحمامها وقططها وبالمرتب الذي يدفعه لها أول كل شهر ، كانت تحب هذه الحيوانات وتعطف عليها ، وتحدثها بكل ما في خواطرها ، وطالما طردت خادمتها واستبدلت بها غيرها لأنها طردت قطة من المطبخ ، أو أهملت تنقية الحب الخاص بالحمام ؛ في مرة تشاجرت مع أخيها لأنه أراد أن يأخذ عدداً من الحمام ، وفي مرة أخرى حزنت وبكت عدة أيام حداداً على قط جميل كانت تدعوه « زهر » وحدثت عنه زائراتها من الجارات اللواتي كن يترددن عليها ويجدن في كلامها نوادر ومفارقات يتحدثن بها ، ومع ذلك فقد كانت تفضل الخلوة والاعتكاف عن الناس ، ولكنها لا تسأم الخلوة مع هذه الحيوانات الحبيبة إلى نفسها ، فهي لذتها لأنها تتحدث لها وتكثر من الحديث ، وربما قصت تاريخ حياتها وأفضت لها بعواطفها التي قتلها أخوها ، لأنه منع خطاباً كثيرين عنها وعن أختيها ، وتسبب أخوها الشيخ في موت الكبيرة منهن ، وفي جنون الثانية ، والأدهى من ذلك أنه يريد أن يضمها إلى بيته حيث تتحكم فيها زوجة أخيها ، والأهم من ذلك أنها لن تجد الهدوء الذي أحبته ، والسكينة التي تحلم فيها بأمانيها ؛ لأنها وإن تعدت الأربعين فإنها طامعة في موت أخيها ، وفي رجوع بعض الخطاب ليتزوجها من تختاره منهم ، لأنها ما زالت جميلة ، بدليل أن وجهها لم يتجعد ، وهي تخشى تقاليد الأسرة وإلا لأقلعت عن احترامها لأخيها وثارت عليه ، بل وهربت إلى حيث تجد الحرية والحب ، إنه منعها من أن تكون زوجة ، وكذلك منع أختيها وتسبب فيما حدث خوفاً على جزء عظيم من ثروته ، فقد خشي أن يطالبنه فيما بعد الزواج بحصتهن في الميراث ، وبذلك تخرج عدة آلاف من الجنيهات من يده ، ولم يكن له أبناء أخ ليزوجهن لهم كما يتخلص من هذا المأزق الكثيرون من أمثاله . لم تكن وحدها تتحدث بهذا إلى قططها وحمامها ؛ بل كثيراً ما تحدثت نساء القرية بقصتها وقصة أختيها الكبيرتين ؛ وعلى الرغم من أنها لم تشك لأحد حالها ولم تتحدث عن أخيها بسوء ، فقد كان يسمعها بعض المارين تتحدث مع حمامها ، وفيما عدا ذلك كانت عادية جداً تحاول أن تظهر بالأبهة والكبرياء في حضور الزائرات ، وربما تحدثت إليهن عن هدايا أخيها إليها حينما رجع من العاصمة ، أو حينما زارها في العيد .. ولكن حدث أن أكثر الناس من التحدث عنها لأنها أخذت تتحدث أحياناً وتصيح وتبكي أحياناً . وأراد أخوها أن يرى ذلك بنفسه ، فذهب إليها بعد أن سمع بنفسه وعزم على أن يضمها إلى بيته الكبير لعلها تجد مع أولاده وفي وسط عائلته ما يشغلها وينسيها آلامها وذكرى أختيها ؛ وعندما عرض عليها الأمر رفضت وبكت وصاحت فيه وأمرته بالخروج ، ولكنه أمرها بأن تسكت ؛ فما كان منها إلا أن هجمت عليه ، ولولا دخول بعض الناس من الجيران الذين حالوا بينهما لحدث ما لا تحمد عقباه .

وفي اليوم التالي تحدث الناس عن ذهاب الحاجة « صبيحة » إلى مستشفى المجانين ، ثم جاء بعض أولاد الشيخ فحملوا الأثاث وأخذوا الحمام وطردوا القطط .

(الناصرية — العراق) رشدي الأشهب

في دوائر الأدب والفن

معرض فني — بين حافظ والرصافي — محاضرة عن الديمقراطية

للأستاذ غائب طعمة فرمان

معرض فني :

من الظواهر الجميلة حقاً ، والملبئة بالإشراق ، أن تقام بين حين وآخر معارض فنية في القاهرة ؛ تصوِّر لنا نشاط الهيئات الفنية ، وتعبر عن مبلغ تمثل الفنانين الشرقيين للنظريات الفنية في الغرب ، وتأثرهم بها ، وإدراكهم لصفاتها ومميزاتها ..

من هذه المعارض المعرض الذي أقيم في الأسبوع الماضي في متحف الفن الحديث ، يضم مجموعة طيبة لأربعة فنانين مصريين ، هم الأساتذة : عز الدين حمودة ، وزينب عبد الحميد ، وصلاح يسرى ، ووليم إسحاق ..

وإنك لتجد نفسك في هذا المعرض أمام أربع شخصيات لها خصائصها وملامحها الواضحة وطريقة تعبيرها ، وإحساسها بالحياة ، وتأثرها بالأشياء ... فأنت تحس أمام لوحات الأستاذ عز الدين بأنه فنان مغرم بالجمال والانطلاق ... جمال الألوان ، وانطلاق الطبيعة .. تلاحظ ذلك في طريقة تعبيره ، واختياره لموضوعات رسمه .. فهو يختار المناظر الطبيعية البهيجة ، الفسيحة الآفاق .. الريف ، والنيل ، وأشجار الغاب ، والمراكب الجميلة على ضفافه ، وعشش العرب في رحاب الأرض الواسعة .. كل ذلك يبرزه بألوان جميلة جذابة .. وتكاد فكرة التعبير عن الجمال بالألوان البراقة تأسره وتستبد بمنطق الواقع عنده ، فتراه يزدري في بعض الأحايين ألوان الأشياء الطبيعية في سبيل هذه الفكرة ؛ فيلون بعض الأشجار باللون الأزرق الفاقع ، والأرض باللون الأصفر ، والنهر ببعض الألوان التي لا تناسبه ، ولكنها تكوِّن مع ألوان الصورة مجموعة وحدة جمالية في الألوان .. وأعتقد أن الأستاذ حمودة غير موفق في رسم النماذج البشرية لهذه الخاصية ، ولم أشعر أمام لوحاته الثلاث ، هيلين ، ومدموزيل يسكاليس ، وشقراء ، إلا بشعور واحد .

أما السيدة زينب عبد الحميد فهي لا تحفل إلا بالمناظر الشعبية المليئة بالحياة ، فهي تنفذ إلى البيئات الشعبية لتصوِّر بعض ملامحها ، ولتأخذ قطاعاً نابضاً بالحياة فيها ، فتصوِّر المحطة ، والمدرسة ، والبناء ، والمعدية ، وفي القطار ، وحطة الرسم وغيرها .. كل هذا بشيء من السخرية .

ولوحات الأستاذ صلاح يسرى أكثر تحرراً وانطلاقاً ، فهو متأثر بالمذاهب الفنية الحديثة عند الغربيين تأثراً كبيراً ، ولا غرو بعد أن علمت أن الأستاذ صلاح درس الرسم في باريس .. وتظهر في لوحاته الطريقة الهندسية التكعيبية الزخرفية في الأشياء وظلالها ، ويكتنف ذلك بعض التعقيد والغموض ، ومثل هذه الطريقة لا تحفل بتأثير الواقع وصدقه بقدر ما تحفل بالتأثر الذاتي للناظر وهو أمام اللوحة توحي إليه بأشياء تتصل بخياله .. ولست أدري لماذا أحسست أمام هذه اللوحات بالكآبة والجمود ؟!.

أما الأستاذ وليم إسحاق فأبسط الفنانين الأربعة تعبيراً وطريقة واستعمالاً للألوان .. فهو يستعمل ألواناً قليلة ، ويصور صوراً قصيرة ساذجة منطوية ، فيها كثير من الحنان والرقة والانطواء الحزين ، والبساطة الجميلة ، كالأم ، والفتاة ، وفلاحة .. وتستطيع أن ترى الفرق بين تعقيد صلاح وبساطة وليم حين تقارن بين لوحة « عار » الغامضة القاتمة الرمزية لصلاح وبين لوحة « عار » الهادئة الساكنة البسيطة لوليم ..

بين حافظ والرصافي :

احتفلت الدوائر الأدبيـة في العراق بالذكرى الخامسة لوفاة شاعر العراق الكبير معروف الرصافي .

ومن الملابسات الأدبية الطريفة أن تقوم وجوه المشابهة بينه وبين شاعر النيل حافظ ابراهيم .. وأن تقوم هـذه الوجوه على التقارب في منابع الإلهام ، والتشابه في منزع الشعر ، والاتفاق في كثير من الآراء ، ووجهات النظر ، وأمور الحياة !.

فقد عاش الشاعران أغلب حياتهما في أحضان العسر ، وبين ظلال الاضطراب في أمور الدنيا ، والقيا صنوفاً من العذاب النفسي ، والحرمان المادي ! فقاسا شكوى مرة من زمانهما الخئون ، وقومهما السادرين ، الموغلين في بوادي الجهالة ونكران الفضل ، وضياع الجميل !

مات والدا الشاعرين وهما لم يتجاوزا الرابعة ، فاضطر حافظ إلى الانضواء تحت كنف خاله ، يعينه على تدبير حياته ، ويساعده على بناء مستقبله ، ونزحت أم الرصافي إلى بغداد وبين يديها طفلها ، تحاول أن تقف في مهب الرياح من العوز والإملاق !

وحياة الشاعرين في تلك الفترة قاسية أشد القسوة ، عسيرة أعنف العسر ، تركت في شعرهما تلك الظلال الحزينة ، والنغمات الشاكية .. وسرعان ما رأى حافظ حياته في بيت خاله مفعمة بالمرارة ، لانصرافه عن الدرس والتحصيل ، وغيابه عن البيت ، وإقباله على الأدب تلك اللهاة المحرقة !! .. فاضطر إلى الدخول في المدرسة الحربية على رغم ما فيها من شظف وجفاء وسوء إدارة ، وتعرض بعد ذلك إلى كثير من الأساليب الاستعمارية الجائرة .. وكذلك اضطرت الأحوال المعاشية معروفاً إلى الدخول في المدرسة الحربية ببغداد ، ولم يستطع المضي بها حتى النهاية ، فتركها إلى النضال في سبيل وطنه العزيز ، وشعبه المكبل بكبول العبودية والفوضى والاستغلال ..

وظل الاثنان يكافحان المستعمر ، ويعلنانها حرباً عواناً على النازلين عليهم بالقوة والجبروت .. ويوجهان الجماهير الشعبية ، ومواكب الحرية ، إلى وجهة صحيحة ، يلهبان النفوس بالحماس .. حتى إذا تحقق الامل ، وانقشعت الغيوم السوداء .. لم يسكتا ، فظل الاثنان في معركة مع الواقع الرازح تحت أعباء من ذوي المنافع الخاصة ، وتحت وطأة من نكران الجميل !

ومن الطريف أن كلا الشاعرين وجد في حياته مَن يسنده في مضمار حياته المعنوية ، ويقوم حياته ، ويفزع إليه إن اشتد به الخطب ، فاتصل حافظ بالإمام الشيخ محمد عبده ولجأ إليه في أزماته واضطراب أموره ، واتصل الرصافي بالآلوسي فتزود منه زاده بالأدب والعلم القديم ومده بالقوة على مجابهة الحياة .

وهناك ما هو أكثر طرافة من ذلك ، وهو تنازع حافظ وشوقي على الإمارة الشعرية ، نعرف ذلك إذا نفذنا إلى أعماق حافظ ، وسبرنا نفسه ، وفي ذلك يقول الدكتور أحمد أمين بك : « ولعل حافظاً كان يرى في أعماق نفسه أن شوقي لم يفضله في شاعريته ، وإنما فضله بقربه إلى القصر وأنه شاعر الأمير ! » .. وكذلك نشأ هـذا النزاع بين الزهاوي والرصافي في العراق ، وحوادث تجافيهما وتنازعهما على الإمارة معروفة لكل من درس حياة الشاعرين العراقيين ..

ومجال اتفاق حافظ مع الرصافي في الآراء ووجهات النظر فسيح واسع ، كموقفهما من المرأة ، وتأييدهما للأتراك في بادئ الأمر ، ونضالهما ضد الأجانب ، ومناداتهما بالوحدة العربية في كثير من الأحايين .

محاضرة عن الديمقراطية :

ألقى الأستاذ أحمد كامل كالي في الجامعة الشعبية محاضرة استعرض فيها بعض الأطوار التاريخية التي مرت على الديمقراطية ؛ فشرح مفهومها عند اليونان قبل أرسطو ، ثم عرّج على الفلسفة الأرسطاليسية وذكر فهمها للأسس الديمقراطية ، فقال : إن أرسطو وضع أسساً للديمقراطية فقال : إنها حكم الشعب نفسه بنفسه ، ثم نادى بالمساواة ، وكانت طبيعة المجتمع اليوناني تسهّل قبول هذا المعنى ، ومع ذلك فقد تعرضت للضيق والاتساع ، حتى إذا جاء القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت الديمقراطية الواجبات الحكمية من الأغنياء

الفقراء ، فكان الأغنياء مكلفين بتوفير أسباب الراحة للشعب ، ومن تلك الأسباب إقامة التمثيليات والمسارح لتسلية الشعب ، وهم مكلفون كذلك ببذل الأموال لبناء السفن ، والمدن .. وكان الحكام لا يستبدون بالحكم ، ولا يطول أمدهم على كرسي الإدارة أكثر من سنة يكون الحاكم مسئولاً خلالها أمام الجمعية العامة ..

ثم انتقل الأستاذ المحاضر إلى عصر الرومان فقال : ثم فهم الرومان الديمقراطية فهماً جديداً ، وتعرضت إلى الضيق والاتساع ؟ فطوراً يرجع الرومان إلى فلسفة أرسطو وأفلاطون للسير على هديها ، وطوراً تتحول الديمقراطية عندهم إلى حكم أرستقراطي .. وحكم الأباطرة الرومانيين لا يخرج عن هذين الاتجاهين ...

أما في العصور الوسطى فقد دخلت أوربا في نظام إقطاعي وشملها ركود في مختلف الميادين ، وكان الناس في انقسام وتنازع ، ثم ظهرت نظرية الحق الإلهي ، النظرية السياسية التي كانت تقوم على أساس أن الله فوّض حكاماً على الأرض وهم خلفاؤه بين البشر .. وكان المفكرون السياسيون من رجال الدين أو ممن ينتصرون لهذه النظرية .. ثم نشأ نزاع بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ، ظهر بمظاهر مختلفة .. وعلى العموم كانت هذه العصور عصوراً مظلمة نشأت السلطة فيها على القهر والقسوة ، وتجاهلت حقوق الشعوب .

حتى جاء عصر النهضة وشاعت في أوربا فكرة بعث الفلسفة اليونانية والرومانية القديمة ، وأقامت نظرية الحكم على أساس علمي ، فظهرت النظرية الميكيافيلية التي تقوم على انتهاز الفرص ، وفصل السياسة عن الأخلاق وإبراز تناقضهما ؟ فللسياسي الحق في أن يلجأ إلى الأساليب جميعها بما فيها الغدر والقوة والخيانة لبلوغ مراميه .

وإلى جانب ذلك ظهرت فلسفة توماس مور في كتابه (المدينة الفاضلة) وهي محاولة لبثّ المساواة وإلغاء الملكية الفردية ؟ فقد فرض توماس مور وجود مجتمع يقوم على أسس معينة ، وتنظم حياته قوانين عادلة ، ويحكمه مجلس عام ، ونفى (مور) فكرة الجيش عن ذهنه ولم يجد له مسوّغاً ..

ثم ختم الأستاذ محاضرته بكلام عن الثورة الانجليزية التي قامت سنة ١٦٤٨ بقيادة كرومويل ، وكان الغرض منها إقصاء الملك شارل الذي يؤمن بالحق الإلهي ، ونشأت جمهورية كرومويل — وهي الفترة الوحيدة لنظام الجمهورية في انكلترا — وقد كان لهذه الثورة مؤيدون أمثال الفيلسوف (لوك) الذي قال : إن الإنسان بفطرته يستطيع التوفيق بين حريته وحرية الآخرين . وإذا استطاعت الحكومة أن تقيم العدل ألفاها ورعياها .. وكان للثورة كذلك مناهضون أمثال الفيلسوف (هوبز) الذي اعتقد أن الأفراد دائماً في عراك مستمر تسيرهم شهواتهم ونزواتهم وحريتهم في حق التملك ، ولا عاصم من هذا النزاع إلا الملك الذي يستند إلى سلطة قوية ...

غالب ظاهر فرمانه

الطبيب يقرأ الكف

(بقية المنشور على صفحة ١٧)

الحاضر أخطر دلائل الإثبات ، لا لأنها لا تتطابق قط بين شخصين ، بل لأنها منقوشة على اليد منذ الولادة لا تتغير مدى الحياة ، بل إنه بعد الوفاة ، وقد عبثت الجراثيم والديدان في الجثة عبثاً وعاثت فساداً فتعفنت وانفصل تبعاً لذلك النسيج السطحي للجلد ، تبقى هذه البصمات ثابتة سيفاً بتاراً للحق في أعماق الجلد !

إن الطبيب يستطيع أن يقرأ في اليد أموراً كثيرة ليس هنا مجال الإفاضة في تفصيلاتها ... بل إنه بمجرد المصافحة قد يميز شخصاً مصاباً بتضخم الغدة الدرقية الإفرازي ، حيث تبدو اليد للامسها أبداً دافئة ناضحة بالعرق ، وإن اشتد البرد واصطكت الأسنان ؟ أما إذا بدت اليد للامسها خشنة وعند الفحص حمراء داكنة ملتهبة ، فهذا معناه أن صاحب هذه اليد فقير لا يملك ما يبتاع به غذاء غنياً في فيتامين « ب » ، ولذا أصيب بالبلاجرا !... بل قد تستطيع أن تقول إن هذا الشخص الذي قدّمت — ولك أمل كبير في أن تكون على صواب !! — من إقليم الدقهلية الشمالي حيث تكاد تكون الإصابة بهذا المرض عامة .

محمد صفوت لطفي البربير



نقد الكتب

ديوان عمـــــاد

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

كنت أتلفت — منذ وقت قريب — يمنة ويسرة فى دواوين الشعر الحديث علنّى أصادف نموذجاً أقدمه كدليل على ما أومن به من الأصول الفنية والقواعد النظرية . ولكن عبثاً حاولت . فأصحاب المدرسة الحديثة فى الشعر قد خيبوا آمالنا أكثر من القدماء ، ولعلهم أفسدوا علينا عملنا — نحن النقاد — حينما أخذ الشك يتسرب إلى نفوس قراء الشعر فيما نقدمه إليهم من النماذج ، وفيما نفرضه عليهم من المزاعم . فالناقد المسكين لا يفعل شيئاً أكثر من أن يتابع ويلاحظ . وعمله بالضرورة سائر فى أثر الأعمال الأدبية الخالصة ، وإذا ظن القراء شيئاً بصاحب الشعر لم يرحموا ناقده ولم يعفوه من الأخذ واللائمة .

ومنذ عامين تماماً كتبت عن العقاد كنموذج الشعر الذى أعتقد فى صلاحيته وأنادى بضرورة فهمه والتأثر به . ونبهت حينذاك إلى ظاهرة العمق والجمال التى يتسم بها شعر العقاد الغنائى . وحاولت بعد ذلك أن أجد شيئاً مما أستحسنه فى الشعر المعاصر لغير العقاد ، ولكننى لم أجد مع الأسف الشديد ، ومع الاعتذار إلى شعرائنا الأشبال . فأرجأت الكتابة التفصيلية التى تعتمد على التحليل وعرض النماذج ، وأخذت أشرح فى النظريات النقدية التى تلائم روحى وتمثل اتجاهى الخاص وتعبر عن بعض ما أدين به ، حتى يبدل الله أذواقاً بأذواق ، وحتى ينسى الجميع ملابسات العاطفة ولا يبقى له غير منطق العقل وهداية الذوق .

ثم أخذت تظهر فى الجو تباشير أمل جديد عندما بدأ الأستاذ عماد ينشر بعض مقطوعاته الشعرية فى المجلات السائرة . إذ أخذت أرقبها من بعيد فأجد فيها بعض ما يسوءنى إلى جانب الكثير مما يعجبنى ويروقنى . فهاهى ذى ظاهرة العمق التى أنشدها ماثلة فى الأبيات من أولها إلى آخرها . ومن أجل هذا جاء شعره جديداً فى اللغة وجديداً فى التعبير ، دون أن يشعرك بالتفاهة التى يحس بها قارئ الشعر العربى الحديث ، ودون أن يصدمك بروح الزجل عند المعاصرين . والحق أن الشاعر المصرى فى هذه الآونة حائر بين العقل الذى يريد جديداً وبين الذوق الذى يحتاج إلى عناية كبيرة ومجهود ضخم حتى يتغير إحساسه وترتقى ملكته فى الوزن والاستساغة . وأستطيع أن أقول : إننا ، وإن كنا قد قطعنا شوطاً لا بأس به فى جانب الفهم الخاص بالعمل الشعرى ، لم نزل فوق العتبات الأولى من ناحية التقدير والاستطعام والتذوق . وهذا طبيعى لأن الذوق لا يقفز ، بل يحتاج إلى تمهيد طويل حتى يصل إلى الدرجة التى تتساوى مع المفهوم العام .

فلم يأت بعـد ذلك الوقت الذى تحكم أذواقنا وحدها فيه عندما نطالع عملاً شعرياً . وأغلب ظنى أننا محتاجون إلى تغيير كل المظاهر الحيوية فى المجتمع الذى نحن أفراده حتى

يتحول ذوقنا عن مجراه التقليدى إلى سبيل ابتداعى يلائم ما تصبو إليه أفكارنا التقدمية . فقد انتهت الفترة التى كنا نخضع فيها أعمالنا الفنية لمقاييس من صنع الأقدمين ، وجاء الوقت الذى نطبق فيه أنظاراً غربية مستحدثة على لغتنا وأدبنا العربى . وهذا من شأنه أن يوقعنا فى مشاكل عدة . من هذه المشاكل أننا مازلنا نسىء الرأى بكل ما هو أوربى ونحكم عليه حكماً جائراً يجيف طلاب العلم والثقافة . ومنها أن العمل النقدى يحتاج إلى النموذج الفنى أكثر مما يحتاج إلى الإفاضة فى شرح النظريات والتطويل فى وضع الأصول ، ومنها أيضاً أن الشعر الأوربى خاضع لمؤثرات غريبة عن مشاعرنا ومملوء بالعناصر البعيدة عن تصورنا .

ولهذه الأسباب نفسها سأجد صعوبة فى تقديم هذا الديوان الفريد الذى أخرجه الأستاذ الشاعر محمود عماد . إنى أحتاج هاهنا إلى الحاسة الذوقية الباطنة عند القارىء ، ولا أتطلب إليه عناء إخراج الأشعار فى نغمات صوتية . وكان بول ڤاليرى يقول إن إدراك صوت الكلمات عن طريق آذان الشعور والروح شرط أساسى للمتعة الفنية الخالصة بالشعر . فإن صح أن للروح آذاناً ؛ فأنا أرجو من القارىء أن يتفضل فيعيرنى إياها وقتاً قصيراً حتى أحدث فى نفسه متعة لا يصادفها فى أى مجال آخر من مجالات الفنون . إنها متعة الروح وقد خاطبتها الكلمات بالأسلوب الشفاف الذى يخفى من ورائه قلباً إنسانياً حالماً ووجداناً رقيقاً هادئاً .

قلت لك إن أهم ما يحبب فى شعر الأستاذ عماد هو العمق ، وها أنذا أؤكد هذه الظاهرة بمجموعة من النماذج القصيرة ، يقول عن الليل :

مشت الدجنّة فى الضياء وهوّمت
للنـــوم أطيـــار على الأشجـــار
فتشـــاءم الخلان من لون الدجى
وتطلعـــوا لـــساقط الأنوار
وتـــسالوا كلٌّ يرافق حظـــه
وبقيت أنظر فى المحيط الجـــارى
مستوحشـــا تحت الظلام كأنمـــا
فى كل ناحيـــة خيـــال ســـار
ليـــلان .. ليل فى السماء مروّق
بادٍ وليـــل فى الثرى متـــوار
يتشاكلان كواكبا ومصـــاعبا
وسوادٌ آتيـــة وبُعـــد مزار
بحران .. بحر فى الفضـــاء معلق
من فوق بحـــر ثائر زخار
يتشـــابهان جواهرا ومخـــاطرا
وصراع أمواج وعمق قـــرار
الليل ظلٌّ الأرض يجرى حولهـــا
والبحر ظل الواحـــد القهـــار

وكذلك اقرأ معى قصيدته فى الربيع :

عرس بـــدا أم معبـــد
فيـــه الطبيعـــة تعبـــد ؟

فتصـــل إلى هذه الأبيات التى يصف فيها شيخوخته أجمل وصف :

أأزاهر والمـــاء ينضب والثرى يتجمـــد ؟
ما قبلهـــا الفت واستمدى علىّ مفنـــد
لكنها الأيـــام تمرنـــا بما لا نعهـــد
حب الصـــبا يوحى لنا أن الصبا لا يبعـــد
إن الودع يكثر التحديق فيما يفقـــد
يا ليتنا مثـــل الغصون ربيعنا يتجـــدد
لكننا مهما نعش فلنـــا ربيع مفرد
ووراءه يأتى خريف ثم لا يتعـــدد
فصلان .. ذا يهب الحيـــاة لنا وذاك يجرّد
فصـــلان قصتنا وبعدها ستارٌ سرمد
أعجب بها من قصةٍ فى كل عرض تنقـــد
والنـــاقدون لها هم أشخاصها لا الشهّد

وإذا كانت ظاهرة العمق قد تمثلت فى شعر الأستاذ عماد بوضوح ، فقد جاء هذا ملائماً لما فيه من طبيعة النزوع إلى التأمل ، ولما فى عينيه من بريق التطلع والنظر . فليس

أجمل من الشعر الذى يحاول الأستاذ عماد أن يجعل منه سبيلاً إلى ملاحظة الحياة فى مظاهرها وشياتها المختلفة. وهاهنا نجد المحور الأصيل للعمل الشعرى لديه. فالأستاذ عماد وصّاف من الدرجة الأولى، وقواه الفنية التى يلتقط بها شكول الحياة ومشاهد الطبيعة هى أبرز ما فى شعره. والقدرة الفائقة التى استحوذ عليها فى معرض الوصف، إنما جاءته من باب العناية بالتأمل والنظر. وتبدو ظاهرة التأمل فى هذه الأبيات تحت عنوان (سر الصنعة):

أيهــا الموغل فى البحث على غير هــدايهْ
مستشفاً غاية الغــايات من تلك البــدايه
غاية الغــايات أدنى منــك من أقرب غايه
تطلب الآية بينــا تحتوى أبلغ آيــه
ليس من لا شىء يأتى أى شىء فى النهــايه
أنت مصنوع وسرُّ الصنعةِ استدعى الحمايه !!

ونرى حلقة الوصل فيما بين مقدرته على التأمل وصناعته البارعة فى مجالات الوصف. اقرأ هذه الأبيات عن حبيبة قديمة له، وعنوانها الجمال الذاهب:

أفى الحق هــذا ؟ لا.. وإنى واهم
فمن أين للــمانى الدفين نشورُ
وما إن أرى إلا كتــاباً مزوراً
أجلْ فريةٌ هذا الكتاب وزور
وتلك التى أنشأت أذكر عهدها
هى اليوم سر لم تبحه خــدور
وأكبر ظنى أننى كنت حالمــاً
أو انتاب عقــلى فى الزمان فتور
ولم يُر فيما مر حــلم مكرر
ولا لخيــالات النحول ظهور
ولو صح أن النفس إن يصف طبعها
تجــد بعد حلم ما إليــه يشير
لكان بحسبى أن أرى الآن روضة
بها نسمات حــلوة وهــدير
فأما وما ألقــاه ماضٍ مجــدد
فهذا على حظى القليــل كثير
وإنى أرى ذاك الجمــال مصوحاً
لذلك فى عرف الجمــال كبير
على أن ما بى من نزوع وخفة
خليق بأعمال النهى وجــدير
ألا لفتــة أو نظرة عرضيــة
تصــد جحيم النفس وهو يفور
أثر أيها الروح القوى إشــارة
عسى يلتمى تلك المجنــةَ نور
أيمكن أن ألقــاك من بعد سبعة
لحسب. فألقى الرأى فيك يبور
أيمكن أنى أمرك الماء آســناً
وعهدى بهذا المــاء وهو نمير ؟
أيمكن أن تصلاك عينى جهنما
وأنت لعينى جنــة وحــرير
أأنت الذى صحت بالأمس نظرتى
إلى الكون لــما لم أجده ينير
وأنت الذى أسريت حباً بمهجتى
وعلمتنى كيف النفوس تطــير
وأنت الذى أوحيتَ لى بعد حيرتى
تمــاويذَ سحر فعلهن خطير
نعم، أنت حقاً. لا خفاء ولا مرا
ولكنه حــق أمر مرير
فماذا عراك اليوم حتى تلكأتْ
رُؤاك وحتى ليس فيــك مثير
تغير ذاك الوجــه إلا أقلــه
ولاحت عليه وحشــة ونفور
ومُزّق من سفر الجمال صحيفةٌ
بها صور محبوبة وســطور
وأصبح وحى الشعر كالطير واقعاً
يريد نهوضاً والجنــاح كسير

خرائب آمـــال وآثار صبوة
وأمشـــاج نعمى جمعهن عبير
تخبط فيها القلب كاليوم ناعباً
تجيب طبول العوش تسير
فيا جنة الحسن التي جف زهرها
وغاب قــارئ بهـــا وقدير
ستهدى إليك اليوم أسلاب أمسنا
وتجزيك عنهـــا ما جزاه شكور
فما قطفتـــه العين زهراً نرده
دموعاً وأشجاناً إليـــك تثور
ويا معبد الحب الذى انقض ركنه
وتُكّسى فيه هيكل وستور
سنحيا نصـــلى فى ثراك بشعرنا
فتســـمع توراة به وزبور
ونحرق أكباداً عليـــه ذكية
فيعبق منها فى حمـــاك بخور
وتذبح أرواحاً بوحيك آمنت
فتقضى قرابـــين له ونذور
ومن لم تبق فى خرابك عامراً
تحييـــك آلام لنـــا وثور

ويمتاز شعر الأستاذ عماد — فضلاً عن ذلك — بأنه يقدم مع هذا الديوان بعمله الفنى فكرة نقدية . وهذه هى الضرورة التى ينبغى أن يراعيها الشعراء فى الوقت الحاضر . فليس الشاعر الآن شاعراً وحسب ، وإنما هو شاعر وصاحب رأى فى الشعر ، ولذا يخرج الديوان حاوياً فناً شعرياً ومقدماً للناس طريقة جديدة فى نظم الشعر . أو بعبارة أكثر وضوحاً : الشاعر مطالب فى هذه الأيام بأن يتقدم بشعره حسب مفهوم خاص ، وبناء على تعريف له يؤمن به ويقيم على أساسه نزعة أو مذهباً أو مدرسة .

وشعر الأستاذ عماد يستوفى هذا الغرض بشكل واضح جداً . بل لعله الشاعر الحديث الوحيد الذى لم يرقه أن يكون خالياً من الاتجاه وربما من الأسلوب الشخصى فى أعماله الفنية . وأول صفات هذا الشعر الجديد الذى نراه فى ديوان عماد ، هى تلك الخاصية التى أذاعها فى مستهل هذا القرن أستاذنا العقاد ، وذهب مذهبه فيها كل من المازنى وشكرى . فقد قال هؤلاء إن القصيدة بنية حية ووحدة كاملة لا تقبل التجزئة والتبعيض . جاء شعر عماد معبراً أبلغ تعبير عن هذه القاعدة الفنية ، حتى لتكاد لا تفهم أغلب قصائده إن لم تنته بها إلى الشطرة الأخيرة . مثال ذلك (الساقية الحالمة) و (حق الشعر) . ونذكر هنا مقطوعة (حدود الكون) حيث تتجلى هذه الظاهرة :

ويوم ضبـــاب أركبوني بفجره
أناناً عجوزاً لا يحس خطاهـــا
فسرتُ وسارت لا سوى ثرى ولا
أرى من جمال الكائنات سواها
فأول حدِّ الكونِ خلف ذيلها
وآخره من بعـــد ذا أذناهـــا ..

ورغبته فى أن يجعل من القصيدة وحدة هى التى أدت إلى وضوح الروح الفكاهية والدعابة فى أنحاء الديوان . فالمفارقة أو النكتة من أظهر الخصائص فى شعر الأستاذ عماد بناء على رغبته فى إيجاد كل موحد من القصيدة الشعرية . ومن طبيعة المفارقة أو النكتة أنها لا تظهر إلا عندما يحشدها الفنان فى مجموعة من الأبيات . وكلما توخى الشاعر أن يجعل من قصيدته كلها عملا واحداً كانت روح الفكاهة أظهر .

ومن أظهر الخصائص الشعرية فى هذا الديوان الجديد هى اختلافه عن القدماء فى عنصر الموسيقى الذى يرتكز عليه العمل الأدبى . ولعلك تذكر بهذه الناسبة ما قاله شلى فى دفاعه عن الشعر من أن الإنسان — وهو الوتر الذى تضرب عليه الحياة بأشجانها وملاهيها فتخرج منه النغمات — لا ينزع أحياناً إلى إنتاج اللحن بقدر ما يتوق إلى إحداث التوافق وإيجاد الانسجام . وهذا هو الأمر فى شعر الأستاذ عماد . فالموسيقى التى تظهر فى ثنايا شعره ليست من موسيقى اللحن فى شىء ، وإن كانت من موسيقى الانسجام فى كل شىء .

ومن هنا يعرضها القارئ على أذنيه فلا تكاد تمتعه ، ولكنه يعود فيستشعرها بقلبه ويحس بها فى خاطره ، فتداخل روحه وتنشىء فى وجدانه نوعاً من الوجد والانبساط . انظر فى قصيدته (دارم) و (نجوى النفس) و (هنا) . أما أنا فأسمعك بعض المقطوعات من قصيدة (ولدى الأول) :

وأخيراً صار لى ابنٌ   ثم أصبحتُ أبـا
ليت شعرى هل يرانى   محسنـاً أو مذنبـا

• • •

ولدى : وهو نداءٌ   لم يعوده لسانى
ولذا يضرب كالشـ   ىء أتى قبل الأوان
إن تقل إنى جان   لم أكن أول جان
من يعش بين ذنوب   فيحق أذنبـا

• • •

وإذا ما عشت وجه الـ   حق فى أصل الوجود
نحن لم نذنب ولم نحـ   سن بميلاد الوليد
إنما آلات تفـ   ـريغ أديرت من بعيد
لا نرى فى صنعها   رأياً لنا أو أربا

• • •

ذاك تفريغ من الكو   ن غريق فى القدم
نافذ فى كل حى   بين نبت ونسم
فإذا أصبحت لى ابا   فبك الكون حكم
وجهودى لانقضاء الـ   ـحكم قد ضاعت هبا

• • •

يشهد الله وإنى استـ   ـقبلت ميلادك حبا
ورأيت الكون مبدا   نا أ يهول الضاربينا
لا أرى عيشك نكراً   بعد أن صار يقينا
إنما النكر شديد الـ   ـنكر فى أن تهربا

• • •

صرت فى الميدان فاحمل   راجلاً أو راكبـاً
حملة يعدها والقا   ئد : أمراً واجبـاً
وسواء عدت منها   ظافراً أو خائبـاً
إنما الواجب أن تحـ   ـمل لا أن تغلبـا

• • •

لم لا تمشى مع الأيا   م حتى منتهاها
وترى الدنيا التى امتد   ت بنا أين مداها
تصل الأعمار عمراً   واحداً فوق ثراها
فيصير النـاس إنسا   ناً يبيد الحقبـا

وهذا كله يلائم اعتقادى فى أن الشاعر ليس مطلوباً منه أن يتوفر العنصر الموسيقى فى شعره بقدر ما هو مطلوب إليه أن يحقق عنصر الجمال فى إخراجه . فالوزن الشعرى يحقق عنصر الموسيقى والنغم من غير أدنى محاولة من الشاعر فى غير رص العبارات وملء الأوزان بالحروف . أما الانسجام والتوافق فيما بين أجراس الحروف ومواقع التنغيم ، فهى وحدها التى تحسب للشاعر فى عمله كفن خالص .

وإذا كنت فى جانبه حينما أقرر هذه الحقائق ، وإذا كان حبى لهذا الشاعر العظيم قد دفعنى لأن أقول عنه ما قلت ، فأنا لا أخاف الآن إذا قلت إن النغم أحياناً كان يبرد فى يده إلى حد يخيف على روحه فى الأداء الفنى . ومن ذلك كان القارئ يشعر عند بعض المقطوعات أنه لا يكاد يقرأ شعراً . ومن قبيل المآخذ أيضاً أن ملكته فى التصوير والتأمل كانت تجف فى تعبيره إلى درجة تتخيل معها أن بعض شعره لا يعدو أن يكون تجريداً خالصاً . وأنا لا أنكر شعر التجريد ، فهذا ضرب من الشعر له أصوله وأوضاعه ، ولكنى أخشى أن شاعرنا لم يقصد إليه قصداً ، فجاء تعبيره مفتعلاً ، ولم يكن حسب ما شاء لنفسه أن يكون .

وإذا كان للناقد أن يقول شيئاً بعد ذلك ، فيمكننى الحكم مع راحة الضمير بأن شعر الأستاذ عماد لا يقدم فناً وحسب ، وإنما يقدم مدرسة فى الفن أيضاً ، ولا يقتصر على أن يخرج لنا عملاً أدبياً فقط ، وإنما يحدث حركة نقدية إلى جانب العمل الأدبى الذى يخرجه . ومن ثم يظهر الديوان وقد أفاد الأدب أضعاف ما أفادته الأعمال الأخرى ، وسجل على صفحاته ميلاد اتجاه فنى ممتاز .

عبد الفتاح الرجدى



الرســـــالة

للكاتبة اللاتفية السكوتلندية هرمينا زور موبهلن

ترجمة الأستاذ محمد فتحى عبد الوهاب

عند ما قابلت مارتا للمرّة الأولى ، كانت فائقة القبح قد تعدت الأربعين . وكان وجهها يبدو كما لو أن فناناً غير موهوب قد نحته من خشب صلد بسكين غير حاد ، ثم حاول بلا جدوى أن يعالج ذلك الأنف الغليظ والذقن المربع والوجنتين الناتئتين والفم الواسع . ولعل هاتين العينين الزرقاوين وقد ظللتهما الأهداب السود يكون لهما نصيب من الجمال ، لولا ما تفصحان عن نظرات أبدية شرهة .

ومع ذلك ، كان من الغريب على مارتا ألا تتزوج . فقد كان من النادر على فتاة ريفية قد فقدت والديها فى سن مبكرة ، فتاة تمتلك مزرعة جميلة ، وبقرات سمان ، وجوادين وفناء كبيراً للدواجن ، أن تظل عانساً أبد الدهر فى بقاع لا تحيا حيث يعقد الزواج ، لا على شاب وفتاة ، وإنما بين مزرعة وأخرى .

بيد أن مارتا لم تكن لتهتم قلامة ظفر بالزواج . وهمس عجائز القرية من النساء يدلين بقصة حب حدثت وقائعها منذ عشرين عاماً أو أكثر — قصة عامل روسى ، شاب حسن الطلعة لا يصلح لشىء ، قد أتى إلى هنا كما أتى غيره للعمل فى محصول البطاطس .

وقالت عجوز وهى تبتسم ابتسامة من الكراهية ، فارتسمت على فمها الخالى من الأسنان : « لقد كان يسخر منها ، وكان قد خطبها وقرر الزواج فى العام التالى . بيد أن بوريس كان يود بادئ ذى بدء الذهاب إلى أميركا حيث يقيم أقرباؤه الأثرياء كما يقول ، فيجودون عليه إذا ما عرفوا أنه أحسن اختيار زوجه ، وحينئذ يستطيع أن يشترى الحقول الثلاثة المجاورة ، ولعله يقدر كذلك على شراء الطاحونة ، وقد بلغ صاحبها من الكبر عتياً ، وأصبح لا حول له ولا قوة .

ولم تكن مارتا تعير الحقول أو الطاحونة اهتماما كبيراً ، بيد أن بوريس كان يلح فى السفر ، ولم تكن لتستطيع أن ترفض له طلباً .

ثم سعلت العجوز الشمطاء ، وبصقت المضغة التى كانت تلوكها من بذور زهرة عباد الشمس ، وأخيراً استرسلت فى الحديث وقد سرها أن تجد من لم يسمع بهذه القصة ، قالت :

« لقد قال بوريس إنه فى حاجة إلى المال ، ولا يود أن يبدو معدماً . وباعت مارتا حقلين وبقرات خمساً وقلادتها الذهبية وحلى العرس التى كانت تخص جدتها . ووضع بوريس كل ذلك فى جيبه ، وراح يحتسى الخمر ضاحكا فى حانة القرية مع الشبان الآخرين ، ويسخر من مارتا ذات الوجه القبيح ، تلك التى صدقت كل ما قاله .

« وبعد حصاد البطاطس ، ظل بوريس بالمزرعة حتى نهاية الشتاء ، يعيش عيشة الأغنياء . ثم رحل فى الربيع ، ولم يعد بعد ذلك . ومنذ ذلك الوقت ندر أن تحدث مارتا

مع أحد . وها هي ذي تدير مزرعتها ، منتظرة عودة بوريس . بالمجنونة العجوز ... »

ولعل مارتا شعرت فجأة بحاجتها إلى من تفضي إليه بمكنون سرها ، ولعلها وجدت أنه من الأسهل لها أن تسرد قصتها على شخص غريب عن القرية . ومهما يكن السبب ، فإنها أوقفتني ذات يوم وأنا أمر أمام مزرعتها وسألتني أن أدلف إلى دارها وأشرب كوبا من اللبن .

ورمقتني بعينيها الزرقاوين ، وترددت ، ثم أخذت نفساً عميقاً ، وأخيراً قالت :

«من المحتمل أن تكون قد سمعت عنى كل أنواع الشائعات . بيد أنه يجب ألا تصدق ما يقولونه في القرية . إنه لم يهجرني ، ولابد أن يعود » .

ثم هبت واقفة في إعياء ، وكأنها شاعرة بثقل الشيخوخة المقتربة . واتجهت نحو صندوق كبير ، وفتحته وأخرجت منه رقعة باهتة : رسالة . كانت مؤرخة منذ عدة سنوات ، وكانت قادمة من بروكلين .

وقالت مارتا وقد أمسكت يداها الخشنتان بالرقعة الباهتة في حنان : « لقد كتب لي هذه الرسالة . وسطر لي فيها كلمات عزيزة ، كلمات حب . لقد وضع كل قلبه في رسالته » .

ونظرت إلىّ مرة أخرى ، وعلى حين غرة استقرت على رأي ، فإذا بها تقول : « إني أعرف بالطبع أنها رسالة غرامية . ومع ذلك أود أن أعرف بالدقة مضمونها . أود أن أعرف كل كلمة من كلمات الحنان ، وكل جملة عاطفية ، ومتى سيحضر ليكون سيد مزرعتي » .

ولا بد أنه قد بدت على سيمائي دلائل الحيرة ، فسرعان ما استرسلت قائلة : « أنت تعرف أني لا أستطيع القراءة . فإني لم أتعلمها مطلقاً . وليس هناك من أثق فيه فأطلعه على الرسالة . إن كل نساء القرية يكرهنني ، لأن الصبي الجميل قد أحبني ، والرجال يكنون لي البغضاء لأني لم أتزوج واحداً منهم . فأنا على يقين تام من أنهم لا يودون إلا مزرعتي . ولذلك حفظت الرسالة دون أن أطلع على ما فيها . ولكن أحياناً ما أخرجها من الصندوق وأتخيل ما كتب فيها . بيد أنك إذا ما قرأتها لي سيغمرني سرور لا يوصف » .

وأخذت الرسالة . كانت رديئة الخط ، تكاد تكون غير واضحة . وأخذت أطلع على محتوياتها قبل أن أقرأها لمارتا ، وكانت جالسة بجواري تلاحظني بعينيها الشرهتين المتلهفتين .

وقرأت الرسالة مرة ثم مرات . وسرت في جسدي رعدة قوية ، وانتابني دوار . لا بد أن الرجل كان ثملاً لما كتب هذه الرسالة . فقد أبدى في رسالته من الوحشية والقسوة ما لم أتخيل مطلقاً إمكان وجوده .

كانت الرسالة بأجمعها مصوغة في قالب من الازدراء والتهكم على المجنونة الشمطاء التي آمنت بحبه . وتعمق كاتبها في وصف مارتا وصفاً كاملاً ، فسخر من حاجبيها « وكأنهما شعر الخنزير » وأصابعها « مثل العظام » وفمها الواسع « كفم الضفدع » . وبعد أن انتهى من إهانة وجه مارتا وشكلها ، كتب يمدح الفتاة الأمريكية الأنيقة الظريفة الجالسة بجواره وقد فاحت منها رائحة تضاهي أريج الزنبق في فصل الربيع . وجعل يشرح كيف أن الفتاة قد ضحكت عندما أخبرها عن حمق امرأة وهبته مالاً للذهاب والإقامة في هذا البلد الجيد الزاخر بالنساء الجميلات .

وسمعت مارتا تسألني بصوتها الجامد الأجش المنفعل : ماذا يقول ؟ لماذا لا تقرأ ؟ ما الذي تنتظره ؟ .

وكذبت . فما الذي أمله خلاف ذلك ؟ ويدين مرتجفتين ، وغصة في حلقي ، أخبرتها أن بوريس دائم التفكير فيها ، تنتابه ذكرى رقتها ، والوقت السعيد الذي قضاه معها . وكذبت وقلت إنه متلهف للعودة ، وإنه سيعود حتماً في يوم ما ، في وقت أقل مما تتوقعه هي ، ولن يبتعد عنها بعد ذلك .

ولم يكن الكذب في بادئ الأمر شيئاً سهلاً على نفسي . فقد ولد اشمئزازي من الرسالة وشفقتي على مارتا شعوراً بارداً من السقم . ولكني أخذت بعد الجمل الأولى أكذب في توسع وعاطفة ، مستعملاً كل ما وعاه عقلي مما قرأته من رسائل الغرام الشهيرة .

وأخيراً وضعت الرسالة على المائدة ، ومدت مارتا يدها إليها ، وقد بدت كأنها تمثال خشبي قد دبت فيه الحياة بمعجزة . ولم تعد تلك المرأة القبيحة الشكل ، بل طغى عليها نوع من الجمال الغريب الذي تخلقه السعادة .

وهمست قائلة : هل كتب كل ذلك ؟ كل ذلك ؟ هـذا

الفيض من الكلمات العذبة ؟ هذا الدافق من الحب ؟.

ثم تنهدت وقالت : تصور أنى لا أستطيع أن أقرأ ذلك ؟ لماذا لم أتعلم القراءة ؟ أطلعنى على الصفحة التى كتب فيها مدى اشتياقه إلىّ ، وأين كتب أنه سيعود فى أقل وقت أتوقعه ؟.

وأطلعتها على بضعة أسطر فى الصفحة الأولى ، وقليل منها فى الصفحة الأخيرة . فأطرقت قائلة : لو كنت أعرف ذلك من قبل عندما كنت فى منتهى الوحدة واليأس ، لو كنت قادرة على قراءة تلك الرسالة البديعة كل يوم .. ثم نظرت إلىّ نظرة طفل يتلهف على الحلوى وقالت : خبرنى ، هل يستطيع إنسان فى سنى أن يتعلم القراءة ؟ .

وانتابنى الخوف فقلت : سيكون ذلك شاقاً جداً . ولماذا تودين تعلم القراءة مادمت قد عرفت فحوى الرسالة ؟ .

فقالت : إنك على حق . ومع ذلك ، أود أن أقرأها وأتمتع بكل كلمة فيها . سأذهب إلى معلمة القرية فلعلها ...

ثم صمتت وقد شرد فكرها وأومضت عيناها بالسعادة ، دون أن تلاحظ مطلقاً تسللى مبتعداً عنها كأنما ارتكبت جريمة .

ومنذ ذلك الوقت لم أمر بمزرعة مارتا خشية أن تسألنى قراءة الرسالة مرة أخرى فأقول شيئاً لم أفه به فى المرة الأولى ، وعندئذ يتطرق إلى قلبها الشك . ولكنى علمت من المرأة العجوز المتهكمة أن مارتا تذهب يومياً إلى المدرسة وتقضى ساعة مع المعلمة .

وقالت العجوز ضاحكة : إنها تتعلم القراءة . تتعلم القراءة فى سنها . هل تظن أنها ستصير سيدة ؟ لقد اشترت كتاباً كبيراً كذلك الذى عند الأطفال ، وهى تجلس على مقعد أمام دارها ، والكتاب فوق ركبتيها ، تردد فى صوت جهورى : « ا — ب — ت .. قط » بطريقة تميت الإنسان ضحكاً .

لقد كانوا يضحكون منها ، ضحكات قاسية جامدة ، ضحكات كالنقيق ، مع أنى كنت أشعر بما يبعثه حالها من بكاء وبكاء ، فى إشفاق وعطف .

وفى ذات مرة ضللت الطريق بينما كنت أتنزه ، فإذا بى أجد نفسى فى غابة كبيرة خلف مزرعة مارتا . كان الجو يوحى بقدوم الخريف ، والهواء يهب فى صفير من البحر .

واختبأت خلف الشجر ، ثم زحفت فى صمت . وبغتة ، أوقفنى صوت .. صوت أجش يردد بعض الكلمات فى حرارة « دار .. مزرعة .. كلب .. بقرة .. » كلمات بسيطة ، عادية ، ومع ذلك كانت تشق طريقاً يؤدى إلى طرد كأنه بشرى من الجنة ، ويصل به قدماً إلى الجحيم . واستمر الصوت « صلاة .. الله .. »

الله ! أواه ، لو يشاء الله لأرسل صاعقة من السماء تقتل مارتا قبل أن تستطيع قراءة الرسالة ، تلك الرسالة القاسية القاتلة الجاحدة . آه لو أراد الله أن يسعها برحمته ، لأعماها حتى لا تستطيع عيناها المرهقتان المتطلعتان رؤية كلمة واحدة .

وأقبل الخريف على نهايته ، واكتسحت العواصف السهول ، ودوّى البحر وهدر ، ومدت الأشجار العارية أفنانها كأنها تستغيث طالبة المعونة ، وامتد بساط فاخر من أوراق الشجر على الأرض . ثم أتى الجليد ، وكسا كل شىء ، فى طهارة سماوية ، وحوّل ما تخضب بيؤس الخريف إلى عالم أبيض .

وفى ذات ليلة ، قبيل عيد الميلاد ، أضحى العالم الأبيض قرمزى اللون . فقد اندلع اللهب ، وأضاء الغابة ، حيث استعرت بجوارها نار هائلة . وأقبل الرجال من القرية والعمال من المقاطعات المجاورة يتزاحمون لمكافحة الحريق . وأرشدهم الوهج الأحمر المتراقص على الثلج الأبيض إلى طريقهم ، حتى إذا ما أدركوا مقاطعة مارتا كانت المزرعة بأكملها تحترق . وألقت العاصفة التى كانت تهب من الشمال مخالف من النيران على كل شىء . وخار البقر فى الحظيرة ، وحُلّت الجياد من عقالها ، وأطلقت العنان لساقيها ، فجعلت تتسابق وقد جنت فزعاً مبتعدة عن اللهب فى طريقها إلى السهل الأبيض .

ووقفت امرأة أمام الدار المحترقة ، وقد انسدل شعرها الأشيب على وجهها المشوه وعينيها الزائغتين ، وهى تضحك ، ضحكات دوت فطغت على خوار البقر وطقطقة الخشب المحترق . وظلت تضحك وتضحك .

لقد قرأت مارتا الرسالة .

محمد قرنى عبد الوهاب

إلى الطبيعة

أنـا لا أضيق ومـا أرى
أحـداً بصاحبـه يضيقُ
فـإذا مررت عـلى الطريـ
ـق وقـد تجهمنـا طـريق
ورأيتـني أمشي وحيـداً
لا يصـاحبني رفيــق
متثقــلاً في خطــوتي
حتى وفي قلـبي خفـوق
لا تَلْحَـــني يا صـاحبي
فأنا — على الدنيـا — غريق

•••

أنا يا أخي نشـوان من
خمـر الطبيعـة لا أفيـق
في كفهـا الوَرْدُ الصـدو
ح وزهرهـا فيه الرحيـق
ودنانهـا العَسْجدُ المـلا
ح تفوح خمرتهـا العتيـق
كل الذي فيهـا أراه
لـناظري أبـــداً يروق

•••

يا للطبيعــــة إنهــــا
عذراء ليس لهـا عشيق
هي فتنـة طمس البصـا
ئر عن مفـاتنها عقـوق
ما ضرّ روضـة حسنهـا
أن ليس يعبـدها مشـوق
وكفى لهـا طـير الغصـو
ن وشـادٍ غِردٌ رقيـق
ومن الخليـق بهـا سوى
فنّانهـا فهـو الخليـق

•••

يا من تـقـل لقـادة
هيفـاء أقصِرْ ذا بريـق
أتـلاً مـا تبديه نحـ
ـوك من تموج لا يليـق ؟
أنا لا أطيـق عـذابهنّ
فـكيف أنت له تطيـق ؟
كل الذي فيهـا خيـا
ل زائف ألـه تتـوق ؟
مجِّـد الطبيعـــة إنهـا
في سحرها الحسن الأنيـق

•••

أرأيت أزهـار الحقـا
ل زانهـا عطر عبيـق
قـد ظلهـا للطـير الوديع
وصـالغ خمرتهـا الشروق
فيهـــا نضـارتها التي
ليست يشوّههـا خـلوق
أيشـوقك الثغـر الخئـو
ن وعنـدك الزهر الرشيق
هي ضلـة أن تطلب الأد
نى ونهجـر مـا يفوق

•••

إني عشقتك مذ نشأ ت وبيننا نسب وثيق
جسدي تكون من ثرا كِ وصورت منه العروق
فلذا أجيئك ناهـلاً وكأني طـيرٌ طليق
في صدرك الظل الحنون ونبعك الحلو الدفوق
يا للطبيعة إنهـــا أم لنـا وأب شفيق

•••

هـذي الطبيعة يا صديـ ـق لا يماثلها صديق
فلذا ذهبت لروضهـا والروض مزدهر وريق
ولحقتني أمشي وحيداً لا يصـاحبني رفيـق
لا تلحني يا صاحبي فأنا — على الدنيا — غريق

(القاهرة) كيلاني حسن سند

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٨٨ — الاثنين ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩ — ٣ من أبريل سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

حيـــــاد الشرق

للدكتور أحمد أمين بك

عاد العالم من جديد يستعد للحرب ، ويتأهب للقتال . وانقسم العالم إلى معسكرين : تتزعم أحدهما أمريكا ، وتتزعم الآخر روسيا ، وتبذل كل زعيمة جهدها لتضم ما تستطيع من الدول الصغرى إليها ، وتساعدها بالمال والعتاد ، ورسمت كل أمة تقريباً خطتها إذا قامت الحرب القادمة ، وعلمت كل زعيمة من سيكون معها ، ومن سيكون عليها ؟ فما شأن الشرق وما موقفه وما يجب أن يكون عليه ؟ أسئلة تتردد وتتردد ، وأرى أنها لم تبحث البحث الكافي ، ولم يضع قادة الشرق خطتهم النهائية في الإجابة عنها .

وقد سمعنا بعض القادة أمثال لال نهرو وأغا خان ، يرددون فكرة الحياد .

ومعنى الحياد أنه إذا قامت حرب بين روسيا وأمريكا لم ينحز الشرق إلى أحد المعسكرين وبقي بعيداً عن القتال . وهي فكرة بديعة لماعة لو أمكن تحقيقها ؛ فلو وقع قتال بين أمريكا وأتباعها ، وبين روسيا وأتباعها ، وظل الشرق بعيداً عن هذا القتال ، لاستفاد فائدة كبرى ، إذ يستطيع في هذه الفترة أن ينظم شئونه وينمي موارده الاقتصادية ويحسن شئونه الاجتماعية ، ويتجنب ما تقتضيه الحرب من خراب في الأنفس والأموال ؛ فالحرب القادمة ستضعف الغالب والمغلوب ، وتغلبهما وتدهمهما بالخراب المالي والنفسي والاقتصادي والاجتماعي ؛ فإذا سلم الشرق من ذلك كله استطاع أن يكمل نهضته ويكمل استقلاله ويخرج من هذه الأزمات سليماً معافى ، وينتهز هذه الفرصة فيسترد ما فاته ويسرع في السير إلى الأمام ، حتى إذا انتهت الحرب كان في مستوى لا يقل كثيراً عن مستوى الغرب ، ويكون في حالة خير من حالته ، ويبني مع البانين ويسترد اعتباره ومكانته ، ويكون قوة في العالم يعتد بها . ثم هو في تقريره هذا الحياد سليم التفكير قوي المنطق ، لأنه لا فائدة له من هذه الحرب ؛ لا يريد فتحاً ولا غزواً ، ولا يريد غنيمة ولا كسباً . وكل من المعسكرين يريد السيطرة على العالم والشرق لا يريد سيطرة . وكلٌ يريد إذلال خصمه والتنكيل به ، وأن تكون كلمته العليا وكلمة خصمه السفلى ، والشرق لا يريد شيئاً من ذلك . وهو إذا دخل الحرب كان ذيلاً لا رأساً ، وكان خادماً ذليلاً لا سيداً كريماً . ففيم حربه ؟ .

ولكن يأتي السؤال الآخر وهو : هل هذا في الإمكان ؟ هل تتركه الحوادث يقرر مصيره ويختار سياسته ويرسم خطته ؟ أو أن الحوادث ستضطره إلى السير في جهة معينة

ولو لم يرضها ، فترغمه على أن ينضم إلى أحد المعسكرين كرهاً ؟ .

لو نظرنا إلى الحرب الماضية وجدنا الحالتين قد حدثتا فعلاً ؛ فهولندة مثلاً شاءت السلام فأرغمت على القتال واكتسحت بلادها رغم أنفها ، وسويسرة مثلاً شاءت السلام فاحترمت إرادتها وخرجت من الحرب سليمة مستفيدة من ويلات المحاربين وخرابهم وبؤسهم وفقرهم ، وعلا شأنها مالياً وأدبياً ، فلم كانت هذه التفرقة ؟ .

يظهر أن الحياد ممكن لسبب من سببين . أولهما : أن يكون لدى المحايد من قوة السلاح والعتاد والجيوش البرية والبحرية والجوية ما يضطر كلا المعسكرين أن يحترم هذا الحياد ليأمن جانبه وليتجنب إثارة عدو جديد ذي قوة ومنعة . والثاني : أن يرى المعسكران المتحاربان جميعاً أنهما يستفيدان من حياد المحايد أكثر مما يستفيدان من قتاله . ولعل السبب الثاني هو الذي أنقذ سويسرة من الحرب الأخيرة ، وجعل الفريقين المتحاربين يحافظان على حيادها ؛ فلننظر في ضوء هذا إلى الشرق ، هل له من القوة الحربية ما يجعل المعسكرين يخشيان بأسه فيقران بحياده ؟ لا أظن أن ذلك موجود ؛ فقواته الحربية لا تستطيع أن تقف طويلاً أمام القوات الروسية أو الأمريكية إذا أراد كلٌّ منهما أن يستولى عليه . ثم إن له من القوة ما يستطيع بها أن يؤخر الزحف أياماً ، ولكن النتيجة معروفة بينة .

وأما السبب الثاني فلست أرى أن الفريقين المتحاربين من الفائدة ما يجعلهما يحتفظان بحياده ، بل بالعكس فإن ما فيه من آبار البترول وهو المادة الأولى للحروب وما فيه من خامات ترجح كفة من استولى عليها ما يغلب الظن بأن كلا المعسكرين سوف لا يحترم هذا الحياد ، وأنهما سيتسابقان في الاستيلاء عليه ، ثم يكون ميداناً فسيحاً قاسياً لحركات المد والجزر .

بقي احتمال ثالث ، وهو أن يعقد الشرق محالفات مع المعسكرين أعني بين روسيا وأمريكا أساسها احترام الحياد وعدم التعدى ، ولكن يأتي سؤال آخر ، وهو : هل لهذه المعاهدات قيمة في هذه الأيام ؟ وهل إذا ظهر في المستقبل لأحد المعسكرين أن مصلحته في خرق المعاهدة ، وقف عند المعاهدة واحترمها ، أو انتهكها وضرب بها عرض الحائط ؟ .

ثم هل كل دول الشرق حرة في تصرفها ، تملك زمام أمرها ، وتدرس مسائلها من غير أي اعتبار ، وتقرر ما ينفعها وما يضرها من غير تدخل ؟ أو أن بعض دول الشرق مغلوبة على أمرها ملزمة بمعاهدات أو نحوها أن تنضم إلى أحد المعسكرين في الحرب ، وحينئذ لا يمكن أن يكون الشرق كله كتلة واحدة ولا يمكن أن تكون له خطة مرسومة واحدة ، فتضيع فكرة تكتل الشرق كله في الحياد ، وهذا التكتل هو الذي يجعل للحياد قيمة ، وبدونه لا قيمة له .

هذه كلها مسائل يحق للسياسيين أن يطيلوا التفكير فيها ، وللباحثين أن يبحثوها ، وينيروا الرأى العام بنتائجهم فيها ، فذلك أنفع من كثير مما يكتب .

أحمد أمين

بين سورية ولبنـــــان

للأستاذ شكري فيصل

اتخذت العلاقات بين سورية ولبنان فى هذه الفترة الأخيرة شكلاً معقداً ، وتبودلت المذكرات بين البلدين ، وانتهت إلى القطيعة الاقتصادية وإقامة الحواجز الجمركية .. فما هو وجه هذه الأزمة التى نشأت بين بلدين شقيقين يعهدهما الرأى العام العالمى والعربى أقرب إلى البلد الواحد فى التماثل والتكامل والوحدة ؟

إننا لن نرجع بعيداً إلى الوراء حين كانت بلاد الشام وحدة واحدة مقسمة إلى ولايات تقسيماً إدارياً عهد الأتراك العثمانيين .. وإنما حسبنا أن نذكر أن سورية ولبنان كانا عهدَ الانتداب الفرنسى ، يخضعان إلى سياسة اقتصادية ترسمها فرنسا ، بشخص المندوب السامى ، وتنفذها حكومتا دمشق وبيروت .

وكانت هذه السياسة تقوم على نوع من التوازن ، وكانت لها أهدافها الكبرى فى إفقار الاقتصاد القومى ، واستنزاف الثروة الوطنية ، وعرقلة التقدم الزراعى والصناعى ، والعمل على الانحدار بالحياة الاقتصادية إلى مستوى الكفاف.

وقد انتهت هذه الفترة بكل شرورها حين جلت الجيوش الأجنبية عن البلدين وتمتعا باستقلال كامل لا تحده معاهدات ولا اتفاقات ولا قيود .

ونظرت سورية ولبنان فوجدتا أنهما يؤلفان وحدة واحدة من كل وجه ؛ وأنه إن كان هناك ما يحول بين الوحدة السياسية وبين أن تتم ، فإن من الخير التمكين لكل مظاهر الوحدة الأخرى ، تدعيماً لأخوة البلدين وتمهيداً لمستقبل أفضل سعيد يطوى كل عوامل الفرقة المصطنعة وينتهى إلى أخوة كاملة وتماسك تام .

ومن أجل هذه الغاية الكريمة لم يرتض السوريون واللبنانيون ، بعد الاستقلال السياسى ، أىّ مظهر من مظاهر الانفصال الاقتصادى ، فأجمعوا على نظام المصالح المشتركة بينهما ، ونظموا المجلس الأعلى لهذه المصالح ، وعقدوا اتفاقاً لوحظت فيه الحاجة السريعة إلى الاستقرار أكثر مما لوحظت فيه الدراسة العميقة للوضع الاقتصادى ، وهو الاتفاق المعروف باتفاقية شتورة : هذه البلدة الصغيرة الأنيقة التى تعيش قريباً من حدود البلدين وتشهد اجتماعات ومداولات لا تنتهى .. وقد وقع الاتفاق فى مطلع الشهر العاشر من عام ٤٣ ، وكانت مدته سنتين ، وفى خلاله مضى البلدان فى وحدة التشريع الجمركى .

* * *

وسارت العلاقات فى هدوء لم يخل من اضطراب ، وفى صفاء لم يخل من كدر ، غير أن الغاية البعيدة التى يستشرفها السوريون واللبنانيون ، أو التى يجب أن يستشرفوها ، والظروف العالمية التى كانت ترافق الأوضاع السياسية ، كل ذلك كان يكبت مظاهر الاضطراب ، ويستر عوامل الكدر ، وإن كان لا يعالجها ولا يقضى عليها .

واستمر الأمر كذلك تسويفاً لمشاكل وبعداً عنها حيناً ، ورغبة عن حلها حلاً سليماً حيناً آخر ، حتى أوشك الداء أن يجعل اقتصاديات البلدين فى حدود التدهور والإفلاس ..

والسبب الرئيسى فى ذلك يرجع إلى هذه الحقيقة الكبيرة ، وهى أن الصلات الاقتصادية بين سورية ولبنان كانت تتمثل فى « وحدة فى الجمارك واختلاف فى التشريع » يعنى أن هناك إلزاماً من نحو وانعتاقاً من نحو آخر ، قيداً فى التعرفة الجمركية من جهة وانطلاقاً كيفياً فى التشريع من جهة أخرى .

ولكن لماذا لا يكون هناك تشريع واحد بين البلدين؟.. أعنى لماذا لا يخضع البلدان لتشريع مشترك فى النواحى الاقتصادية ؟ .

هنا ينبع الخلاف .. وهو خلاف يرجع إلى طبيعة الاقتصاد القومي في كلٍّ من سورية ولبنان .

فسورية بلد زراعي صناعي تفيض محصولاته الزراعية عن حاجته ، وتنهض فيه صناعات عريقة وصناعات حديثة ، ويجتمع أهله على هذا الإنتاج القومي بالمعاضدة والتأييد والبذل .. ثم هو بلد تجاري لأنه يحتاج إلى تصدير ما يفيض عنه من غلته أو صناعته .. ولذلك فإن من مصلحة السوريين الحدّ من كل استيراد أجنبي ، وتقييده بالاستيراد المنتج ، أي بالآلات الزراعية والصناعية ، وتنشيط التصدير للحصول على العملات النادرة لتقوية الجيش بعد ذلك ، والعمل على كل ما من شأنه تعضيد المشاريع الصناعية والزراعية والوطنية .. وبتعبير آخر : تريد سورية أن تقف من حركة التجارة في الصادرات والواردات موقفاً موجّهاً قائماً على الحماية والتشجيع وحفظ ثروة البلاد .

هذا على حين أن الموقف في لبنان يختلف اختلافاً عميقاً .. فهو لا يزرع كفايته إلا من الفواكه (الحمضيات بوجه خاص) ، وإنتاجه لا يسمو إلى التصدير ، وهو ليس بلداً صناعياً ، لأن الصناعات فيه صناعات ثانوية خفيفة ، وأكثر اقتصاده القومي يقوم على ما تسميه الواردات غير المنظورة ، أعني الاصطياف والإشتاء وموارد المهاجرين وما إلى ذلك .. ولهذا فإن من مصلحة اللبنانيين أن يفتحوا أبواب الاستيراد على مصارعها ، يستفيدون من هذه الحركة ، من حيث هي حركة في ذاتها ، دون النظر إلى ما يكون وراءها من أضرار تلحق الزراعة والصناعة في سورية ولبنان معاً .

ومن هنا ، من هذا الاختلاف في طبيعة اقتصاد البلدين ومن وضع المصالح المشتركة التي تقيد التعرفة الجمركية وتبيح اختلاف التشريع ، كانت الأزمة الاقتصادية التي جرّت إلى أزمة العلاقات .

• • •

مراحل الخلاف :

في السنتين الأوليين اللتين أعقبتا اتفاق شتورة (٤٣ — ٤٥) وهما سنتا الحرب الأخيرتان ، كان يخضع البلدان للظروف الاقتصادية التي خضع لها الشرق الأوسط ، وكانت قيود التجارة الخارجية وضعف الإنتاج العالمي لا تدع مجالاً للاستيراد والتصدير المطلق ، ولذلك لم تكن هناك في علاقات سورية ولبنان شكوى كبيرة .

غير أنه في السنتين التاليتين اللتين أعقبتا الحرب (٤٥ — ٤٧) بدأت شكوى السوريين ، كانت أول الأمر همساً لأن القيود العالمية لم تكن كسرت بعد ، ثم انطلقت بعد ذلك فكانت حديثاً ، وامتدت فكانت لغطاً ، واشتد اللغط حتى كان شكوى وعتاباً .. وكان كل نمو في الإنتاج العالمي والتجارة الخارجية الدولية واكتساح الأسواق الضعيفة أمام الأسواق القوية ، يقابله من حيث العلاقات بين سورية ولبنان اتساع شقة الخلاف وتدهور الثروة والحاجة الملحة إلى معالجة سريعة .

وفي خلال ذلك كانت اتفاقية شتورة لا تزال ترعى علاقات البلدين الشقيقين . وكانت هذه العلاقات تتعثر فيداري المسئولون هذا التعثر مداراة ، وتتأزم فيلطفون الأزمة تلطيفاً ، ويحجبون عن أعينهم — تحت ضغط المشكلات الكثيرة — الهاوية البعيدة .

وفي خلال ذلك أيضاً ، وفي عام ٤٧ بوجه خاص ، كانت الكماليات والبضائع التافهة تغرق الأسواق السورية اللبنانية وتفيض عن حاجتها .. كانت قد امتصت النقد الزائد ، فلم يكن هناك قدرة شرائية تقابلها ، وكانت تجثم فوق صدر الصناعات الوطنية كالكابوس فلا تقدر على مقاومتها ، وكانت أوضاع البلاد المجاورة في فلسطين والأردن والعراق لا تسمح كذلك — بعد أن تبخرت أرباح الحرب الكاذبة — أن تتقبل هذه البضائع في أسواقها .

وكذلك يبدو أن إطلاق الاستيراد في هذه السنين عاد بأبشع النتائج .. كان استيراداً هزيلاً في نوعه (لا يعدو أدوات الزينة والترف) وكان ضخماً في كمه (لا يتوازن بحال مع الصادر) وكان عظيم الأثر في نتائجه لأنه جعل اقتصاديات البلدين على شفا جرف هار .

وقد عقدت لمعالجة هذه الحالة عدة اجتماعات ومؤتمرات ، غير أن العواطف السياسية كانت تتغلب على المعالجة الموضوعية ، وراق فكرة الوحدة التي يسعى لها السوريون كانت تخفف من حدة الضربات التي يعانونها ، ولم تنجح وساطات كثيرة

إلا في التهدئة .. بل إن الصحف السورية كانت تزعم أن جزءاً كبيراً من الاتفاقات التي كانت تعقد بين الوزراء المسئولين كانت لا تنفذ بدقة في لبنان فينخرم الأمر وتتجدد الأزمات ... وقد أوشكت الحكومة اللبنانية ذات مرة في أخريات عهد فخامة الرئيس القوتلي أن توافق على الحد من الاستيراد وأن تقيده بالنافع والضروري والمنتج ، غير أن التجار اللبنانيين قاموا مرة واحدة يحاربون هذا الاتجاه ، فأمسكت السياسة اللبنانية عن السير في الطريق السوي .

* * *

وإلى هنا كان القلق الذي يسود العلاقات السورية اللبنانية محتملاً ، وكان الأمل ضعيفاً ، ولكن كان هناك بقية من القدرة على احتماله ، غير أنه في آخر عام ٤٧ وأوائل عام ٤٨ نشأت أزمة النقد السوري اللبناني وعلاقته بالنقد الفرنسي ، وهي أزمة لا نستطيع تفصيلها هنا .. وحسبنا أن نقول إن مفاوضات قامت بين سورية ولبنان من نحو وفرنسا من نحو آخر لتسوية أمور النقد ، بدأت في أكتوبر ٤٧ واستمرت أربعة أشهر ، غير أنها لم تنته كما بدأت : لبنان وسورية في طرف ، وفرنسا في طرف آخر ، وإنما انتهت باتفاق بين لبنان وفرنسا فحسب ، وبقيت سورية وحدها تصارع هذا الاتفاق وتحاول أن لا تنحني له ، وجهدت في ذلك عاماً كاملاً في ظروف ألمية ، ثم لم يكن بد ، وقد انفردت ، من أن تضطر لقبول عقد الاتفاق مع فرنسا ، وكان لا بد لهذا الاتفاق أن يكون مماثلاً لاتفاق لبنان .

ويقول السوريون إن لبنان تخلى عنهم فلم يقف موقف المقاومة التي كانت جديرة أن تنتهي إلى كسب أكبر ، ويقول اللبنانيون إن هذا الاتفاق ، بالرغم من قيوده الثقيلة التي تشبه الإتاوة إلى عشر سنوات ، يحقق المصلحة .. ولكن مهما يكن من شأن هذه الأقوال فإن الذي لا شك فيه أن قصة النقد انتهت بالنسبة إلى سورية بكارثة عادت عليها بأضرار فادحة تتجاوز عشرات الملايين ، وانتهت بالنسبة إلى العلاقات الاقتصادية بازدياد التوتر واختلال التوازن بين المصالح التي يجب أن تكون مشتركة ، كما انتهت بالنسبة إلى النقدين السوري واللبناني — وكانا نقداً واحداً — بالانفصال .

وكذلك شهدنا أول انفصال عملي بين البلدين من جراء اتفاقية النقد اللبنانية الفرنسية .

* * *

لم يكن بد إذاً أمام هذا الوضع الاقتصادي الرتيب ، وهذه القطيعة في النقد ، وهذا الإطلاق للاستيراد ، من معالجة حازمة ، فقد بلغت الشكوى أقصاها ، وكان نداء السوريين دائماً كفوا عن الاستيراد ! ومن الطريف أن شعار النشرة الاقتصادية لغرفة تجارة دمشق مدى أشهر طويلة تملؤه صور مجموعة من الكماليات تعلوها هذه الجملة : كفوا عن المستوردات الكمالية .

غير أن ظروف عام ٤٨ لم تساعد على هذه المعالجة بحكم الموقف في فلسطين ، وبحكم أشياء أخرى ترجع دائماً إلى الرغبة في الإبقاء على وحدة البلدين ، وفي معارضة الاتجاهات السياسية الخارجية التي كانت تحب أن تفيد من هذه الثغرة لتنال منها .

وكذلك لم تساعد ظروف عام ٤٩ على هذه المعالجة بحكم الانقلابات المتصلة بسورية — وهي انقلابات ساعد الوضع الاقتصادي السيء على تقبلها — فكان المسئولون مضطرين إلى تمديد اتفاقية شتورة دائماً ، وحدث أن مددت منذ أول عام ٤٨ أربع مرات (ثلاثة أشهر ثم شهراً ونصف شهر ثم شهراً ونصفاً ثم ثلاثة أشهر ...) .

وبالرغم من الظروف السياسية الداخلية والخارجية كان الرأي العام السوري واللبناني على السواء ، لا ينفك يتحدث ويأتمر لحل هذه الأزمة الاقتصادية التي اتخذت شكل ضائقة خانقة ، وعقدت جمعيات التجار وغرف التجارة والصناعة والدوائر المسئولة كثيراً من الاجتماعات في هذا السبيل دون أن ينتهي ذلك إلى حل نهائي ، وإن كانت هذه الاجتماعات والأحاديث قد تبلورت في فكرتين : فكرة الوحدة الاقتصادية الكاملة أو الانفصال الكامل .

* * *

وقد كان من آخر المعالجات أن وجهت سورية مذكرة

إلى لبنان في حزيران ٤٩، سردت فيها قصة العلاقة الاقتصادية وأرفقتها بثلاثة مشروعات تتغلب على الوقف، وهي مشروعات مدروسة جاهزة: أحدها يقوم على الوحدة التامة بين البلدين، والثاني يقوم على نظام التبادل الحر، والثالث يقوم على إصلاح نظام المصالح المشتركة.

وقد جاء في مقدمة المذكرة السورية التي لم تنشر في لبنان إلا بعد حين ما يأتي: «إن جميع الحلول لم تكن مبنية على أسس عادلة ولا يبررها سوى حرص الحكومة السورية على استمرار التعاون وأملها بالوصول إلى توثيقه».

وجاء في ملخص أسباب الخلاف: «إن أسباب الخلاف الأساسية ناشئة عن رغبة سورية في الحد من الاستيراد ضمن منهاج موحد، يهدف إلى إيجاد توازن صحيح في ميزان المدفوعات، وإلى حماية إنتاج البلدين الصناعي والزراعي، والمحافظة على ثروتهما، ويقابلها في لبنان سياسة الاستيراد الحر حتى للمواد الكمالية لتوسيع أفق التجارة في لبنان وإبقاء سورية سوقاً حراً لها، وقد ازداد هذا الخلاف بتوسع الصناعات المحلية وازدياد الإنتاج الزراعي، بشكل أصبحت معه الرساميل معرضة للخطر، مما يؤدي إلى كارثة اقتصادية تعتبرها الحكومة السورية مشتركة للبلدين».

***

ليس غريباً بعد هذا كله أن نستمع في الأنباء البرقية الأخيرة عام ١٩٥٠ إلى نهاية هذه القصة التي بدأت عام ٤٣. وكانت مكونة قبل ذلك في جهامة الحكم الفرنسي ... بل أمس من الطبيعي، بعد هذه الأزمة الخانقة التي يمر بها الشقيقان ويكتوي بها أفراد البلدين، أن يبادر المسؤولون إلى كل ما يقف بالأزمة عند هذه النهاية التي وصلت إليها قبل أن تأتي على البقية الباقية من الثروة القومية هنا وهناك.

وفي سبيل ذلك قدمت سورية مذكرتها الأخيرة في العاشر من آذار تعرض الوحدة الاقتصادية الكاملة أو الانفصال التام، واستبعاداً للتسويف وسياسة المناقشات، والبطء، والتردد التي كانت تزيد الأزمة استحكاماً، حددت سورية عشرة أيام للإجابة على هذه المذكرة.

غير أن الحوادث تلاحق بسرعة، ورد الحكومة اللبنانية قبل انتهاء الأيام العشرة تريد فتح باب المناقشة دون اعتماد فكرة معينة، وهو الأمر الذي أراد السوريون تجنبه. فكان من هذا الانفصال الجمركي الأخير.. كان نتيجة طبيعية لأزمة طويلة استمر الجدل البيزنطي فيها ينهك الاقتصاد القومي ويغتاله.

***

إن تصريحات المسؤولين السوريين تريد أن تعتبر الحادث حادثاً محلياً، وتصريحات الرجال المسؤولين اللبنانيين تريد أن تضفي على الحادث ثوباً عربياً لتتوسط الجامعة العربية.

والاتجاه السوري إلى أن الوضع الماضي كفيل أن يودي بثروة البلدين معاً، والاتجاه اللبناني إلى أن سورية لا ينبغي أن تنظر إلى الموضوع نظراً رقمياً، بل يجب أن ترى ما وراء الأرقام من مصالح سياسية وقومية.

ووراء ذلك أزمة نفسية منشؤها خوف لبنان من مشروع ميناء اللاذقية أن يضار به ميناء بيروت، وخوف سورية من تفرد لبنان — رغم الشركة القائمة — بكثير من التدابير التي تعود بالضرر.

ترى هل سيمضي هذا الانفصال الجمركي إلى غايته، أم يكون هناك مجال لوساطة الجامعة العربية؟ وهل بقي عند سورية ما يساعدها على أن لا تنظر نظراً رقمياً؟ وهل يشاركها لبنان في مراعاة النواحي القومية؟

هل هناك نية طيبة وعمل حازم لتنفيذ أي اتفاق مقبل، أم قد تتكرر مأساة النقد والتصدير إلى بعض بلدان البحر المتوسط؟

هل يستطيع البلدان أن ينظرا نظرة واسعة مرنة، فيتجنبا مغبة هذا الانفصال وأضراره على البلدين معاً؟

وأخيراً بتعبير واحد: هل يصح للبلاد العربية التي تعيش إسرائيل في قلبها كالسرطان أن تسير باقتصاد مطلق أم باقتصاد موجه؟

ذلك ما ستتمخض عنه الأيام القريبة.

(القاهرة) شكري فيصل

مدام دى ستايل وموقفها من نابليون

للأستاذ على أدهم

من أهم نتائج الثورة الفرنسية وأبقى آثارها أنها أيقظت الشعور الوطنى ، ونبهت الوعى القومى ، وبدأت فى أوربا عهد الحركات القومية والتطلع إلى الحرية والمساواة والحكم النيابى ، ولم تؤثر هذه الاتجاهات الجديدة فى العلاقات السياسية بين الأمم المختلفة فحسب ، وإنما أثرت كذلك فى الصلات الثقافية والروابط الأدبية والتبادل الفكرى ؛ ولقد كانت الصلات الثقافية قبل عهد الثورة الفرنسية مجرد تبادل أفكار بين أفراد من بلاد مختلفة وأرضين نائية ، ولكنهم مع ذلك تجمعهم رابطة واحدة ، وينظمهم عقد الأدب ، وتؤلف بينهم جمهورية التفكير ؛ أما بعد عهد الثورة ، فإن هذا التلاقى الفكرى أصبح مقابلة بين آداب قومية مختلفة اللون متباينة النزع ، وقوى الاعتقاد بأن الأدب والفلسفة وسائر مقومات الحياة الثقافية ليست من عمل الأفراد فى عزلتهم الفردية ، وإنما هى نتيجة لأحوال البيئة وملابسات العصر والتقاليد القومية ؛ وقد تأثر بهذه الفكرة كثيرون من مفكرى القرن الثامن عشر ، وكان للكاتبة الفرنسية القديرة الموهوبة مدام دى ستايل أثر كبير فى ترويج هذه الفكرة وإذاعتها والدفاع عنها والمناضلة دونها بما أوتيت من بلاغة أداء وقوة بيان واجتراء على إعلان ما تعتقد أنه الحق والإصرار عليه .

ومدام دى ستايل هى ابنة الوزير الاقتصادى المالى المعروف نِكَر الذى اشتهر أمره فى أواخر عهد لويس السادس عشر ، وكان معقد آمال الطبقة المتوسطة فى فرنسا ، والذى حاول أن يصلح أحوال فرنسا المالية بعد فوات الأوان وتمكن الفساد وتأبيه على جهود المصلحين .

وقد بدأت مدام دى ستايل حياتها الأدبية برسالة عن روسو تناولت فيها كتاباته وأخلاقه ، ثم تزوجت إريك مجنس بارون دى ستايل هولستاين ، وقد رقى زوجها بعد ذلك إلى منصب وزير السويد المفوض ، فنالت بذلك المكانة التى كانت تطمح إليها ، وقد كانت مدام دى ستايل على ذكائها المتوقد وعمق تفكيرها وغزارة علمها امرأة مترامية الآمال ، حريصة على الشهرة ، محبة للظهور ، تريد أن تسترعى الأنظار ، وتخلب العقول ، وتترك فى الدنيا دوياً ، وتحدث فيها حدثاً ، وتود أن تصبح فى طليعة القادة والزعماء ، ولا بأس عندها من المغامرة والمخاطرة فى هذا السبيل وتحدى الطغاة والجبابرة المستبدين ولو كان على رأسهم نابليون العظيم !

ولقد طوفت مدام دى ستايل فى الآفاق وزارت معظم البلاد الأوربية وألمت بأحوالها وعرفت نظمها والكثير من دخائلها ، وكانت محبة للاستطلاع ، بالغة سئولاً ، قوية الملاحظة ، سريعة الفهم والإدراك ؛ وحبها الشديد للحرية ، ومطامعها السياسية ، وصراحتها فى إبداء آرائها جعلت نابليون يضطهدها ويعاديها ويتابعها بنقمته أينما حلت . وقد كان نابليون بوجه عام سيء الرأى فى النساء ، ولعل المرأة الوحيدة التى حازت إعجابه وظفرت بتقديره هى والدته ليتيزيا ، وكان لا يرى مساواة المرأة بالرجل ويفضل استعبادها وخضوعها التام للرجل ، وقد حاولت المرأة أن تطالب بحقوقها حينما اجتاحت الثورة فرنسا ، ولكن بعض المؤرخين يرون أن النساء أظهرن حينذاك حماسة واندفاعاً أكثر مما أظهرن من حكمة وتبصر ، وأن هذه الحماسة المسرفة كانت لها آثارها السيئة ، وقد أحدث ذلك حركة رجعية ترمى إلى الحد من حرية المرأة ؛ وكان لنابليون شيء من العذر فى محاولته إيقاف الحركة النسائية إبقاء على النظام وصيانة للأمن[1] ؛ ومن مأثور

(١) راجع صفحة ٢٤ من كتاب « شخصية نابليون » بقلم مولاندروز .

أقواله : « لن يكون للنساء تأثير في بلاطي ، وقد يضمرن لي الكراهة ولكني سأظفر بالهدوء والطمأنينة » ، وقد لوحظ أن هذه المعاملة زادت النساء تعلقاً به وإكباراً له ، ولم يشذ عن ذلك سوى بعض النساء القويات الشخصية ، ومنهن مدام دي ستايل .

وقد لاحظت مدام دي ستايل أن نابليون كان يحترم الخصم الذي يواجهه ويثبت له ويقارعه الحجة بالحجة ، وقد كانت حاضرة أمره في سنة ١٧٩٨ حينا تراجع وتخاذل تلقاء سيدة سريعة البديهة مفحمة الجواب ، فقد تقدم نابليون من سيدة في الصالون أثار جمالها وذكاؤها الإعجاب وقال لها في صراحة نادرة : « أيتها السيدة إني لا أحب النساء اللواتي يخضن في السياسة » فأجابته قائلة : « إنك على حق أيها القائد ، ولكن في البلاد التي تقطع بها رءوسهن من الطبيعي أن يحاولن تعرف أسباب ذلك » فلم يحر نابليون جواباً .

ومن رأي مدام دي ستايل أن نابليون كان رجلاً تنكبه المقاومة الحقة ، وأن الذين صبروا لطغيانه واحتملوه هم شركاؤه في الذنب ، وهي تذهب في ذلك مذهب خليل مطران في قوله من قصيدة « مقتل بزرجمهر » منددا بكسرى :

هم حكّموه فاستبد تحكماً
وهم أرادوا أن يصول فصالا

والواقع أن رأي مدام دي ستايل ينطوي على حكمة بالغة وحق عميق ، فإن المقاومة الثابتة الصابرة تكشف أحسن صفات الرجل القوي الممتاز ، أما الاستسلام والخضوع فإنهما يغريانه بالجموح والإمعان في الطغيان .

وقد حاولت مدام دي ستايل في بادئ الأمر أن تستميل نابليون وتستولي عليه بعد انتصاراته في إيطاليا . ولكنها لم توفق في ذلك ، لأن نابليون بطبيعته كان لا يحفل بالنساء المفكرات ، وبالرغم من ذلك ظلت معجبة به حتى بعد عودته من مصر ، ولكنها وجدت أنها كانت مخدوعة فيه ، ولاحظت أن طبعه الأصيل قد أخذ ينكشف ويظهر ، فحالما توطد مركزه وامتد ظله وسالمته الليالي طغى وتجبر ، وتعالى وتكبر ، وأصبح لا يطيق المناقشة ، ولا يحتمل أدنى مخالفة أو معارضة ، فحز ذلك في نفسها ، وأثارها ، فبسطت فيه لسانها ، وشنّعت عليه ، وعرّضت به ، فخاصمها نابليون ، ونصب لحربها ، ولم تكف هي عن مقاومته بلسانها الطويل ، وقلمها البليغ ، وحجتها الناهضة ، وقد كانت مدام دي ستايل معروفة المكانة ذائعة الصيت قبل مخاصمتها لنابليون ، ولكن المعركة التي نشبت بينها وبين نابليون جعلتها من الشخصيات الأوربية العظيمة البارزة التي يشار إليها بالبنان ويتردد ذكرها على كل لسان .

وقد حاولت في كتابها عن إيطاليا المعروف باسم كورين وفي كتابها عن ألمانيا أن تنقل رسالة فرنسا الحرة إلى إيطاليا وألمانيا ، وأن تستنهض همم الإيطاليين ، وتثير عزائم الألمان ، وحاولت أن تسترعي نظر هاتين الأمتين إلى الحياة السياسية ، وطلب الحرية الفردية ، والوحدة القومية ، وحاولت من جانب آخر أن تعرف الفرنسيين بالأدب الألماني وفلسفة كانت وفخت وشعر شلر وجيتي ، وقد قدمت للفرنسيين صورة حية مشرقة للأدب الألماني ، قربته إلى نفوسهم ، وأغرتهم بالاطلاع عليه ، والإعجاب به ، وإكباره ، وإجلاله ، والتأثر به ، وقد ظل لهذه الصورة البديعة سحرها الأخاذ حتى كشفت حرب السبعين عما بها من خطأ ومجافاة للواقع ، فألمانيا الحالمة الوادعة المثالية الشاعرة التي شاهدتها مدام دي ستايل عن قرب كانت — منذ بدأت مدام دي ستايل تصويرها — قد أخذت تتحول رويداً رويداً إلى ألمانيا الموغلة في المادية المعتزة بقوتها النزاعة إلى الكفاح والعدوان .

ولم تتعرض مدام دي ستايل في كتابها لمشكلات ألمانيا السياسية ، ولكن غرضها كان واضحاً ، فقد كانت ترمي إلى إيقاظ الشعور القومي الألماني ، وتمجيد توحيد الجهود ، وتوحيد الجهود هنا لابد أن يتجه إلى مقاومة فرنسا وتحدي مطامع نابليون ، ولهذا لا نعجب إذا علمنا أن الرقابة التي فرضها نابليون على الآثار الأدبية لم تسمح بظهور الكتاب في فرنسا سنة ١٨١٠ ، فقد كتب لها الوزير المشرف على

الرقابة رسالة مؤدبة رقيقة يقول لها في خلالها : «إن الفرنسيين لم يصل بهم الحال إلى حد أن يلتمسوا المثل والنماذج بين الأقوام الذين تعجب بهم» وصارحها بأن كتابها الأخير — عن ألمانيا — ليس كتاباً فرنسياً ، ولما تم طبع الكتاب في سنة ١٨١٣ قبل معركة ليبزج بأيام قلائل نشرت الخطاب في مقدمة الكتاب ، ودافعت عن نظريتها في القومية وأبانت أن اختلاف اللغات والحدود الطبيعية وذكريات التاريخ المشتركة وما إلى ذلك من العوامل تساعد على أن توجد الفرديات العظيمة التي تسمى «أمماً» . وذهبت إلى أن إخضاع أمة لأمة أخرى من الأمم أمر ضد الطبيعة ، ودافعت عن ألمانيا قائلة : «من يفكر اليوم في إمكان إخضاع أسبانيا أو انجلترا أو فرنسا ؟ ولماذا تكون الحالة مختلفة في ألمانيا ؟» .

وقد ظلت مدام دي ستايل وفية لفكرة القوميات الحرة ، مؤمنة بإمكان تعاون الأمم الحرة في سبيل الحرية النيابية الدستورية على النمط الانجليزي ، فهي كانت تؤمن بالاستقلال الثقافي والأدبي ، وتؤمن في الوقت نفسه بالتعاون الأممي ، وكانت لا تستريح لهذه الوحدة المتكلفة المصطنعة التي حاول نابليون أن يفرضها فرضاً على الدول الأوربية ، ولما زارت روسيا في سنة ١٨١٢ أعجبت بالملابس القومية الروسية ، ولم ترد أن يتركها الروسيون ويلبسوا الزي الأوربي ، ولم ترض أن يعم القانون النابليوني الأمم المختلفة ، لأنها كانت ترى أن حرية الأمم تستلزم أن تحكم كل أمة نفسها بالأساليب التي يلائمها ويطابق أحوالها الخاصة وعاداتها وتقاليدها ؛ وعندها أن الأمم الحرة يجب عليها أن تجنح للسلم وإلا فقدت حريتها واستقلالها ، والحربية تقوى الأمم وتشد بنيانها ، ولكن الحرية التي تسند الأمم وتشد منها هي الحرية المقترنة بالعدالة والإنصاف ؛ وقد استطاع الفرنسيون في أول عهد الثورة أن يثبتوا لأوربا جميعها في حرب الاستقلال ، وكانوا أقوى من أوربا جميعها بقوة الرأي العام ؛ ومع حضها فرنسا على الاستمساك بأهداب السلم وتحذيرها لها من الانتشاء بخمر النصر والغلبة ، فإنها كانت تقر الحرب الدفاعية ، وأشادت في كتابها عن ألمانيا بفضل الحماسة وقدرتها على أن تسمو بالناس فوق المصالح الخاصة ، واسترعت النظر إلى عظمة التضحية في سبيل الأغراض النبيلة ، وذكرت للإيطاليين والألمان المغلوبين على أمرهم أن المستقبل لهم إذا صدقت وطنيتهم وصحت عزيمتهم .

ولكن الاستقلال لم يكن له قيمة في رأي مدام دي ستايل إلا إذا كان استقلال أفراد أحرار قد احتاطوا لأنفسهم من خطر الطغيان الداخلي ومحاولة سحق الحرية الشخصية والاستقلال الفردي .

وأغرت الانتصارات المتوالية نابليون باحتقار ثقافات الأمم المختلفة ، ووسعت شقة الخلاف بينه وبين انجلترا ، وكانت مدام دي ستايل لا ترى تغليب ثقافة على ثقافة أخرى ، وكان إعجابها بنظام الحكم في انجلترا إعجاباً شديداً ، وقد زاد ذلك ما بينها وبين نابليون فساداً وعمق الهاوية التي تفصلهما ، وقد ظلت مدام دي ستايل إلى النهاية وهي تحمل على المعارضة لنابليون رغم الصواعق التي كان يرسلها عليها .

وقد زارت في سنة ١٨١٣ الكثيرين من الوزراء والساسة الأعلياء ، وحرضتهم على مقاومة نابليون ، وكانت تفرق بين نابليون وبين فرنسا ؛ فمحاولة إسقاط نابليون كانت في نظرها مسألة أخرى مختلفة كل الاختلاف عن محاربة فرنسا ، بل إن مصلحة فرنسا الحقة تقتضي إبعاد نابليون وإقصاءه عن عرش فرنسا ، وكانت أكثر إخلاصاً لمبادئ الثورة من أن تميل إلى ناحية البوربون ، كما فعل الكاتب الكبير شاتو بريان ، وكانت أخطر جريمة اقترفها نابليون في رأيها هي القضاء على الحرية الجمهورية في فرنسا ، وظل مثلها الأعلى هو الحرية المستنيرة المعتدلة المعقولة أو الحرية التي يتمثلها الكتاب والفلاسفة .

وفي ضوء هذه الأفكار كتبت كتابها عن الثورة الفرنسية ، وذكرت فيه فكرتها عن نابليون وعهده مفصلة معززة بذكرياتها المرة وتجاربها القاسية ونقداتها النافذة القوية ؛ وملخص رأيها في نابليون أنه كان جندياً قبل كل

(البقية على صفحة ١٤)

الوجودية تلقى حتفهـــــا

للأستاذ يحيي هويدى

هذه الفقاعات الفلسفية التى لا تظهر إلا لتختفى ... هذه التيارات السطحية التى هيهات لها أن تمس القاع ، قد عرفها تاريخ الفكر الفلسفى من قديم قبل أن يعرفها أخيراً فى شخص جان بول سارتر وأتباعه من الوجوديين . عرفها فى القرن الماضى فى شخصية فكتور كوزان الفرنسى ، وعرفها فى القرن الثامن عشر فى شخصية وولف الألمانى . فقد كان هذان المفكران ملء السمع والبصر فى وقت ما ، وكانا يسيطران على الحياة الفكرية والفلسفية فى زمانهما ، وفُتن بهما أتباع كثيرون . حتى إذا ما خلت الإنسانية الواعية إلى نفسها ، واختبرت ما قدمه لها هذان المفكران من آراء لم يتكشف لها منها عن شىء ذى بال ، فنبذتهما وأسقطهما التاريخ من حسابه إلى غير رجعة . ومصير سارتر وأتباعه من الوجوديين لن يختلف فى شىء عن مصير هذين الرجلين . فلن يحفل التاريخ بهم ، وسيسقطهم من حسابه كما أسقط الكثيرين من قبلهم . بل إن مياه المحيط قد أخذت تنحسر فعلاً عن شاطئ الوجوديين منذ عام ١٩٤٧ .

وبعد . . فما هذه الآراء العجيبة التى طلع بها علينا الوجوديون ؟ الوجودية فلسفة عدمية سلبية من ألفها إلى يائها ، تود أولاً وقبل كل شىء أن تقتل فينا التفكير وتشل القدرة على استخدام العقل . يقول شستوف وهو أحد الوجوديين فى كتابه عن هيدجر : « يجب أن تقتل فى نفسك العقل والمنطق إن أردت لنفسك خلاصاً ، إذ أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بهما » . وعندما سئل جان فاهل — وهو الذى يرجع إليه الفضل فى دخول الوجودية فى فرنسا وفى غزوها للجمعيات الفلسفية والجامعات — عندما سئل : تحت أية طائفة من الفلاسفة نستطيع أن نضع مذهبك ؟ قال : « إنى أفضل أن يُنظر إلىّ على أنى من أتباع برجسون » . وليس ثمة ما يدعو إلى الغرابة فى هذا التصريح ، لأننا نستطيع أن نتعرف على وجه شبه ظاهر يجمع بين مذهب برجسون وبين المذهب الوجودى . فمذهب برجسون ثورة على العقل وقواعده الجامدة ، واعتراف بقيمة الحياة بتيارها المتصل وديمومتها التى لا تنقطع . والمذهب الوجودى قائم كذلك على عدم اعتراف بالعقل . ولكنه لا ينتهى إلى هذه النتيجة المتفائلة التى انتهى إليها برجسون الذى اعترف بالقيمة الإيجابية للحياة والزمان . أما المذهب الوجودى فيتضمن عدمُ اعترافه بالعقل عدم الاعتراف بكل شىء . ولذلك نجده لم ينته إلى شىء ، اللهم إلا إلى ذلك الجزع النفسى الذى يملك على الإنسان حسه ونفسه جميعاً ، وإلى ذلك « الشعور بالقىء أو الغثيان » الذى يسيطر عليه عندما يواجه العالم .

وقد أدت تلك الثورة على العقل ببعض الوجوديين المتحمسين من أمثال كارل ياسبرز وجبريل مارسل إلى الارتماء فى أحضان نزعة دينية ذات مسحة صوفية ، على الرغم من أن هذا يناقض موقف سارتر الملحد من الدين . فنجد ياسبرز يعلن يأسه من العقل قائلاً : « من منا لا يود بعد ذلك أن يتحدث الله إليه كما لو كان يتحدث إلى طفل ، حتى ولو كان هذا على حساب حريته ... إننا جميعاً نود ذلك ما دمنا نجد أنفسنا فى قبضة يده » . وقد تزعم جبريل مارسل الحركة الوجودية الكاثوليكية « أول ما يجب على الوجودية الكاثوليكية أن تفعله ، هو أن تتخلى تماماً عن كل تفكير وعن كل فلسفة » . وقد سار فى ركبه أناس

كثيرون . فنجد مثلاً عمانويل مونييه يكتب محارباً كل نزعة عقلية ومحدداً خصائص الوجودية : « أول ما يجب أن يدين به الشخص الوجودي ، هو أن يبقى على أسرار الدين وألا يسمح بتدخل العقل فيفسدها » .

وقد تأثر المذهب كله بهذه الثورة على العقل . وكان أثر ذلك واضحاً في موضعين : في القصة ومنهج سارتر في كتابتها أولاً ، وفي نظرة الوجودية إلى الحرية ثانياً . فالقصة عند سارتر تتميز بذلك الخليط الهائل من الحوادث ، وذلك الانتقال الفاجئ من فكرة إلى أخرى وعدم سرد الحوادث سرداً منطقياً يخضع للتسلسل العقلي وبدون قانون المقدمات فالنتائج . هـذا عن القصة ، أما عن نظرة الوجوديين إلى الحرية ، فهي نظرة فريدة حقاً لا يوافقهم عليها إلا من أصابه مس . فالحر عنـد سارتر هو ذلك الذي استطاعت الظروف الخارجية أن تشل تفكيره وتوقف أية قدرة له على التأثير فيما يحيط به ، هو ذلك الذي انطوى على نفسـه واستطاع أن يحيا في باطنه حياة متجددة متقلبة . وبمعنى آخر ، الحر عند سارتر هو ذلك الذي فقد حريته بالمعنى المألوف لهذه الكلمة . ومن ثم ، فقد نظر سارتر إلى فترة الاحتلال الألماني لفرنسا عقب غزو الألمان لها باعتبارها الفترة التي أتاحت للفرنسيين قدراً من الحرية لم يُتح لهم من قبل !!!

هذه الثورة على العقل وعلى الحرية كما نفهمها وراءها شيء كما يقولون . ولـكي نصل إلى هذا الشيء لا بد أن نرجع بذاكرتنا إلى عام ١٩٣٣ . ففي هذا العام استدعت الحكومة النازية هيـدجر — وهو مؤسس الوجودية الحقيقي — لإلقاء محاضرات في جامعة فريبورج . فأخذ يذيع محاضرات في الشباب الألماني مشجعاً إياهم على الانضمام إلى النازية وعلى الخضوع الأعمى الذي لا يسمح بأي تدخل للعقل ، لـكل ما عليه عليهم النازية ولـكل ما يأمر به الفوهرر : « إنني أطلب من الطالب أن يتقدم بثبات عسكري صارم إلى الخطر ولا يبالي ، وأن يسير إلى الأمام معرضاً نفسه لـكل شيء . . . وأن يأخذ نفسه في صرامة وجد بتوكيد مصير ألمانيا ومستقبلها . وهو ماثل أمامه حالياً متمثلاً محققاً شرعياً مشرقاً في شخص هتلر » (من خطبته الافتتاحية التي افتتح بها موسم محاضراته) . ولم يمنعه حماسه هـذا للفوهرر من أن يسير على رأس جموع طلبة جامعـة فريبورج في صفوف منتظمة ليعلنوا جميعاً تأييدهم المطلق لعاهل ألمانيا ، قائلاً لهم : « إن الفوهرر هو وحده الحقيقة الألمانية الحاضرة والمستقبلة ، وهو قانون ألمانيا الأوحد » . وطبيعي أن يدعو رجل له هـذا الاتجاه إلى قتل التفكير ومحاربة الحرية والانطواء على الذات . وطبيعي كذلك أن يدعو مثل هـذا الرجل الشباب إلى الخضوع والامتثال ، وأن ينشر فيهم نزعة التشاؤم ، وأن يفهمهم أن الإنسان كائن بائس ، وأن « الشعور بالضيق والجزع » مسيطر عليه ، فلا حيلة له في أن يهرب منه .

وسار سارتر في ركب هيدجر النازي ، حتى نجده يعلن أن الفرنسيين كانوا في عهد الاحتلال الألماني أوفر حرية من كل عهد مضى . فالحرية عنده قائمة في كبت الحرية . وعلى يد من ؟ على يد الألمان بالذات . . . ومن ثم نفهم كذلك تلك الصيحات التي كان يرددها سارتر ومدام سيمون دي بوفوار معلنين فيها ثورتهما على حركات المقاومة أو حركات التحرر التي نشطت في فرنسا بعد الغزو الألماني لها . فقد ذهبا إلى أن هـذه الحركات لا فائدة من ورائها . ويحاول سارتر أن يبرر موقفه هنا تبريراً فلسفياً فيقول : وعلام كل هذه الحركات ؟ إنها لن تنتهي إلى شيء . وهل ينتهي أي فعل إنساني إلى شيء ؟ إن كل الأفعال الإنسانية تنتهي إلى لا شيء ؟ وهي في ذلك متساوية . لأنها تنتهي جميعاً إلى الإخفاق . فليوفر كلٌّ جهودَه ، وليرض بما قسم له . ولا حاجة إلى حركات المقاومة والتحرير » . ولن يصعب علينا بعد ذلك أن نفهم ما يضمره سارتر في قوله ذاك الفريد في الحرية . إنه يود أن يقول إن الناس جميعاً أحرار فيما بينهم وبين أنفسهم ، فليس ثمة ما يدعو بعد ذلك إلى أن يقاتلوا ويطالبوا من أجل الحرية ، وهي شيء هم حاصلون عليه في ذواتهم . وهذا منطق معكوس لا يوافقه عليه

إلا رجل يدعو لكبت الحرية بمعناها المفهوم . وهذا إن جاز في بلد كألمانيا النازية ، فإنه لا يجوز في بلاد الديموقراطيات والحريات ومن بينها فرنسا ومصر .

ولقد فطنت الكنيسة الرسمية في فرنسا أخيراً إلى ما تنطوي عليه الحركة الوجودية الكاثوليكية التي يتزعمها جبريل مارسل من اتجاهات خطيرة فناصبتها العداء . إذ وجدت أن هذه الحركة ترمي من وراء ارتمائها في أحضان تلك النزعة الدينية الصوفية التي تصطبغ بها في الظاهر لا إلى مجرد التدين ، بل إلى عداوة الحكم الديموقراطي الذي يقوم أولاً وقبل كل شيء على الحرية وعلى تحكيم العقل في كل شيء .

وهكذا استطعنا أن نفهم شيء هذا المذهب الوجودي . وإني أعلن على الملأ : أنه لا حياة للوجودية إلا في ظل النازية وما شابهها من أنواع الحكم . أما وقد انتهت النازية إلى غير رجعة ، فقد آن للوجودية كذلك أن تفارقنا . ولن تمضي سنوات معدودات حتى يتلاشى هذا المذهب من أساسه ، وينقضي إلى غير رجعة . إن هذا هو المصير المحتوم لكل تلك الفقاعات الفلسفية التي ما تظهر إلا لتختنق ، وما تطفو على السطح إلا ريثما تعود فتغوص مرة أخرى في اللجة إلى القرار . وعلى كتابنا الأفاضل الذين يتحمسون غاية التحمس للوجودية أن يطامنوا قليلا من حماسهم ...!!.

يحيى هويدي

مدام دي ستايل

(بقية المنشور على صفحة ١١)

شيء ، فهو لا يحفل بمبادىء الحرب السياسية ، وقد بدأ بالقضاء على المثالية الجمهورية في الجيش ، ثم استعان بالجيش للقضاء على هذه المثالية في الدولة ، وهو أنموذج مستوفى الشرائط للأناني المجرد من العطف الإنساني والذي يرى الناس آلات محتقرة وقطعاً في رقعة الشطرنج ، وهو غريب أجنبي بين الفرنسيين ، لا وطن له ولا إيمان ، ولا يسعى إلا لمجده الشخصي وعظمته الفردية ، وهو المكيافلي الذي يعد بالسلم ويعمل سراً على إثارة الحرب وتهيئة أسبابها وإعداد معداتها ، وما دامت مقاليد السلطان في يده فهو لا يكف عن الاعتداء وإثارة الحروب ، وليس للدين ولا للأدب من قيمة في رأيه إلا بمقدار ما يساعدانه على إعلاء سلطانه وبسط نفوذه ، فهو الطاغية بمعنى الكلمة .

ويرى المؤرخ المعروف جيل في كتابه عن « نابليون ماله وما عليه » أن الكثيرين من المؤرخين الذين نقدوا أعمال نابليون رددوا ما قالته مدام دي ستايل وأعادوه بتفصيلات أوفى وملاحظات أدق وأشمل .

وقليل من النساء أو الرجال من استطاع الثبات لطغاة والجبابرة مثل مدام دي ستايل ، ولا نزاع في أنها قد ضربت للإنسانية مثلاً عالياً في الدفاع عن الحرية والثبات في مواجهة الطغيان .

علي أدهم

كيف ؟

البركليوم - عنصر جديد

للدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن

تملك جامعة كاليفورنيا فى مقرها بمدينة (بركلى) آلة ضخمة لتحطيم الذرات والتلاعب بلبنات المادة ومكوناتها الأساسية ، اسمها السيكلوترون أو (الدوارا) . وقد اخترعت هذه الآلة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، وتوجد بضع عشرات منها فى مختلف أنحاء العالم ، ولكن أكبرها طراً ما يوجد فى كاليفورنيا ، حيث صنعت الآلة لأول مرة وعرفت فائدتها وأجريت عليها بحوث كثيرة قبل أن يفتتح عصر الطاقة الذرية بالقنبلتين اللتين أسقطتا على هيروشيما ونجازاكى وبثالثة الأثافى التى أطلقت فى اليم فى بكينى .

وتقدر ضخامة السيكلوترون بقطر رحاه ، إذ أن له رحى تدور فيها الدقائق فى لولب مفتوح ، وهى فى كل دورة تستمد من الكهرباء والمغناطيسية قوة تزيد سرعتها شيئاً فشيئاً حتى تنطلق من فتحة جانبية بقوة تزيد أضعافاً مضاعفة على قوتها حينما دخلت السيكلوترون . وأقرب شبه نعرفه للسيكلوترون هو (المقلاع) الذى يتكون من خيط فى مثل الذراع طولاً ينتهى بجعبة بها حجر ، يديره الصبى مراراً فوق رأسه على أقصى امتداد ذراعه ، ثم يطلق الحجر من الجعبة بعد أن يكتسب سرعة تقذفه إلى هدف بعيد فيصيبه بقوة ما كانت لتكون له لولا (المقلاع) .

وهكذا عكف العلماء منذ خمسة عشر عاماً أو تزيد على السيكلوترونات يصنعونها وفقاً للنموذج الأول الذى اخترعه لورانس فى جامعة كاليفورنيا ، ويبتكرون له نماذج جديدة ذات أحجام مختلفة ، وبعضها يختلف عن الأصل اختلافاً كثيراً ، فعرفنا منها السينكروترون والسيتاترون وغيرهما ، ولكنها كلها مقاليع ذات رحى تدور فيها الدقائق الذرية من جزيئات وكهارب وبروتونات ونيوترونات حيناً ، ثم تقذف فى النهاية بقوة قل أن يكون لها مثيل إلا فى حالات الانفجارات الذرية الكبرى . وسيكلوترون كاليفورنيا الضخم قطر رحاه ٦٠ بوصة أى ما يقرب من المتر ونصف متر ، وإنه لضخم حقاً .

وقد رأى الدكتور سيبورج من علماء كاليفورنيا أن يكمل نقصاً طالما أعيا العلماء إكماله فى جدول العناصر المعروفة فى الأرض . فجمع حوله نخبة من المساعدين الأذكياء ، واتخذوا مقراً لهم بجوار السيكلوترون يسلطون دقائقه (القواذف) على ذرات معروفة حتى تتحطم ، ثم يبحثون وسط حطامها عن ذرات غير معروفة ، أو يوجهون تلك الدقائق إلى ذرات أخرى عسى أن تلتصق بها فتوجد ذرات أكبر مما يعرف على سطح الأرض . واتبعوا سبيل الهدم والبناء ثم فحص ما يتهدم من كيان الذرات أو ما يستجد من بنيانها بحثاً وراء جديد من أمرها .

وآخر ما أعلن من نتائج سيبورج ومعاونيه عنصر جديد أسموه (بركليوم) نسبة إلى بركلى مقر جامعة كاليفورنيا ، وترتيبه فى جدول العناصر ٩٧ . وقد حضرت منه كميات ضئيلة وفحصت خواصه الكيميائية والطبيعية ،

وظهر أنه غير مستقر ، فقد نحضره الآن ، ثم نفتقده بعد خمس ساعات ، فلا نجد سوى نصفه ، ثم يتناقص إلى الربع بعد تسع ساعات ، فلا يكاد يمر نهار كامل حتى يتلاشى (البركليوم) ، إذ أنه يتفاعل مع الإلكترونات الطليقة فيتحول إلى غيره من العناصر . وهذا هو سبب عدم وجوده خالصاً ثابتاً فى الطبيعة . فهو مما لا يبقى على الزمن ولا يدوم على الأيام بله ولا الساعات والدقائق .

ومن عادة العلماء فى السنوات الأخيرة أن يسموا العناصر باسم البلاد أو مواطن الرجال ، فثمة عنصر البولونيوم نسبة إلى بولندا تكريماً لمدام كورى ، وهى بولندية الأصل وفرنسية الجنسية ، وثمة الجرمانيوم نسبة إلى ألمانيا والسكانديوم نسبة إلى سكندنافيا والأمريكيوم نسبة إلى أمريكا والتربيوم نسبة إلى (ترب) وهى مدينة صغيرة فى السويد كانت مقراً لعمل العالم الكبير (جادولين) الذى كشف عن الكثير من العناصر النادرة .

وقد تسمى العناصر بأسماء العلماء أنفسهم تكريماً لهم وإعزازاً لذكراهم ، من قبيل ذلك عنصر الكوريوم نسبة إلى مدام كورى ، وعنصر الجادولينيوم نسبة إلى جادولين المشار إليه آنفاً . وثمة طريقة أخرى فى تسمية العناصر ، هى تقليد تتابع أسماء الكواكب السيارة التى تدور حول الشمس خارج الكواكب القديمة المعروفة منذ فجر الحضارة ، وهذه الكواكب ثلاثة : أورانوس . ونبتون . وبلوتو . وقد سمى أحد العناصر (أورانيوم) أو (يورانيوم) والفرق بين الألف الأولى والياء ، هو الفرق بين نطق الفرنسيين ونطق الانجليز لحرف (U) الافرنجى . وكان اليورانيوم أثقل العناصر المعروفة على وجه الأرض ، التى توجد فى الطبيعة خالصة أو على شكل مركبات مع عناصر أخرى ، وترتيبه فى جدول العناصر ٩٢ .

ثم جاءت السيكلوترونات ومحطات الذرات وقنابل الجحيم ، وعنيت الحكومات — أى بعض الحكومات — بالبحوث العلمية والذرية لأغراض سلمية أو حربية ، (وكلها أغراض شريفة فى صالح الدفاع عن الحضارة والإنسانية) ، فلم يعد اليورانيوم آخر العناصر ، ولم يعد أثقلها ، بل جاء بعده عنصر ترتيبه الثالث والتسعون عرف باسم النبتونيوم ، لم تجعل له الأقدار خطراً ، ولكن منه أو فوق رقابه يتولد العنصر الرابع والتسعون ، واسمه (البلوتونيوم) ، وهذا خرت له (الجبابرة ساجدين) ، بل زهقت أرواحهم منه وعم الخراب بفضل قنابله الذرية . ولم يقف العلماء عند حد العنصر الرابع والتسعين ، بل أتقنوا صناعة بناء الذرات ، وتجميع ما تناثر من دقائقها ، وتابعوا الجرى وراء الذرات حتى أمسكوا بالعنصر الخامس والتسعين وهو الأمريكيوم ، ثم بالسادس والتسعين . وها نحن أولاء نعلم أنهم قد أمسكوا بالعنصر ٩٧ . ويقول الرواة إن العلماء على ثقة بإمكان تحضير العنصر ٩٨ ، بل ربما يكون قد تم تحضيره فعلاً .

إن التعرف على العناصر الجديدة له ولا شك دلالته الفلسفية الهامة بالإضافة إلى نتائجه الطبية أو العملية التى قد تتمخض عنها تجارب العلماء وبحوثهم التى تضفى عليها أستار الكتمان . فالعناصر الجديدة تنحل وغير ثابتة كما أشرنا ، ولا تعمر طويلاً دون أن تتحول إلى عناصر أرق منها بناء وأقل تعقيداً وأخف وزناً . ولكن هل معنى ذلك أن العناصر القديمة خالدة أبدية ، وأنها لا تنحل قط ولا تتحول أبداً ؟

الجواب على هذا السؤال ، سواء بالنفى أو الإيجاب ، يحملنا إلى الضرب فى بيداء الفكر على غير هدى مبين . فإن كان بالنفى ، جاز القول بأن عنصر البركليوم يفقد نصف كتلته فى ٢٧٠ دقيقة ، وأن عنصر الراديوم يفقد نصف كتلته فى بضعة آلاف من السنين ، وأن عنصر الحديد مثلاً يفقد نصف كتلته بعد حقبة مهما طالت إلا أنها مما يحيط بها العد وتدخل فى دائرة الحصر . أى معنى إذاً يكون للبقاء أو للدوام . حتى المادة الجامدة تفنى إلى طاقة وتتحول من صورة إلى أخرى . وتلك المادة الجامدة لها دورة مثل دورات الأحياء ، فهى تولد كما تولد الصغار ، وتنمو كما تنمو تلك وتتشكل وتتفاعل ، حتى إذا انقضى أجلها وبلغ بها الزمن منتهاها ، صارت شيئاً آخر ، أى أنها

الذرة وأثرها فى التوازن الدولى

للأستاذ عبد الكريم أحمد

كان البلاغ الرسمى الذى اشتركت فى إصداره كل من انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا عن حدوث انفجار ذرى فى روسيا وقع شديد فى شعوب المعسكر الغربى ، على الرغم من أن العلماء لم يكفوا منذ هيروشيما عن التصريح بأن احتكار القنبلة الذرية لا يمكن أن يظل فترة طويلة ملكاً لدولة واحدة ، وأن المسألة أصبحت مسألة وقت لا أكثر ، حتى تستطيع الدول الأخرى اكتشاف أسرار الذرة .

فمنذ أن ذاع سر إمكان استخدام الانفجار الذرى استخداماً عملياً فى الحرب ، وهو السر الذى أذاعته أمريكا بإطلاقها قنبلة هيروشيما ، أصبح الأمر لا يتطلب سوى الوقت والوسيلة .

والشىء الوحيد الذى قد يدعو إلى الدهشة هو أن روسيا استطاعت إحداث الانفجار الذرى فى وقت أقل مما قدر العلماء . ولكن ليس معنى ذلك أن روسيا أصبحت تقف وأمريكا على قدم المساواة فى إنتاج الأسلحة الذرية ، أو أنها اقتربت منها فى هذا الميدان . فالوصول إلى إحداث انفجار ذرى شىء ، والقدرة على إنتاج أسلحة ذرية بكميات ذات أثر استراتيجية شىء آخر تماماً .

ويجب أن نفصل الجانب العلمى والفنى من الناحية الاستراتيجية والسياسية فى هذا المضمار ، حتى نستطيع أن نكون فكرة صحيحة عن الموقف ، إذ أن إنتاج أول قنبلة ذرية لا يمنح الدولة تفوقاً سياسياً أو حربياً كبيراً ، وإن كان يدل على أنها قد حلت المشكلة من ناحيتها العلمية والفنية أو سارت شوطاً طويلاً فى حلها من هذه الناحية . وتحتاج الدولة التى تريد الإفادة من الأسلحة الذرية سياسياً واستراتيجياً ، إلى ما هو أكثر من القنبلة الأولى ، إنها تحتاج إلى زيادة قدرتها على إنتاج القنابل من هذا النوع زيادة تسمح لها باختزان كمية كبيرة منها تكون ذات أثر استراتيجى فعال ، لأن الأسلحة الذرية تعتمد على الموجود منها فعلاً عند بدء القتال لا على ما يمكن صنعه أثناءه .

ويجب أيضاً ألا يغيب عن بالنا أهمية الوسيلة التى ستنقل هذه القنابل إلى أهدافها ، سواء كانت الطائرات أو الصواريخ ، وكذلك القواعد التى ستطلق منها هذه الطائرات أو تلك الصواريخ . ونظرة واحدة نلقيها على خريطة العالم تكفى لأن تدلنا أى المعسكرين يملك مراكز استراتيجية أصلح .

ويقدر الخبراء أن العدد الذى يجب على الدولة أن تختزنه من القنابل حتى تستطيع أن تعتمد على هذا السلاح يتراوح بين ٣٠٠ ، ٢٠٠٠ قنبلة . ويتوقف هذا العدد على عوامل كثيرة أهمها نوع القنابل ومساحة الدولة التى ستستعمل ضدها هذه القنابل وقدرتها الإنتاجية الخ . فإن دولة مثل

(تموت) . فالخلق من العدم ، والعدم لما خلق سنة الوجود فى الحى والجماد سواء بسواء .

وإن كانت العناصر أزلية باقية ، فكيف لها أن تكون كذلك وأمثالها تتحلل بين أيدينا وأمام نواظرنا . هل هى عناصر مصطفاة أودعت الأرض لحكمة فى الوجود والأرض لم تعد بعد تمور موراً .

نترك هذا البحث لرجال الفلسفة ، ونترك البحوث الحديثة لعلماء الذرة ! فالأول مبحث يحتاج إلى دراية ، والثانى له العلم والمال . ولنتوجه إلى وزارة معارفنا الرشيدة برجاء أن تضيف العناصر الجديدة إلى الطبعات القادمة من الكتب الدراسية المقررة ، لعل ذلك يقرب إلى مدارك أبنائنا أن قافلة العلم تسير وتتقدم ، وأننا لا نكاد نقدر على المعاونة فى دفعها إلى الأمام ، بل إننا نكاد نعجز عن متابعة سيرها .

إبراهيم حلمى عبد الرحمن

بلجيكا قد تكفي ٣٠٠ قنبلة لتدمير جميع مرافقها وشلها تماماً من الناحية الحربية ، بينما لا يقل ما تحتاجه دولة مثل انجلترا عن ٦٠٠ قنبلة ، وكذلك فرنسا ، وبديهي أن روسيا تحتاج إلى أكثر من هذا العدد ، وكذلك الولايات المتحدة .

وللمسألة وجه آخر من الناحية الفنية البحتة . فنحن نعلم أن روسيا استطاعت إحداث انفجار ذرى . ولكن إلى أي حد ؟ فمن الجائز أن الوسيلة التي استعملتها لا تطلق سوى ١٠ ٪ من المادة المعدة للانفجار ، وهذا ما اتفق عليه خبراء الذرة . بينما الأبحاث التي يقوم بها المعسكر الغربي منذ قنبلة هيروشيما حتى الآن أدت إلى استنباط الوسائل الكفيلة بإطلاق أكثر من ٦٠ ٪ من الطاقة الذرية . وواضح أن قنبلة تفجر بهذه الوسيلة تساوى على الأقل ستاً من القنابل التي يستعمل في تفجيرها وسيلة لا تطلق إلا ١٠٪ من الطاقة .

ولم تكن الولايات المتحدة تملك عند نهاية الحرب الماضية سوى قنبلتين ذريتين استعملتهما في هيروشيما ونجازاكي ، كما اعترف قواد الجيش الأمريكي ، واعتمدت على الأثر السيكولوجي الذي تركته هاتان القنبلتان في إنهاء الحرب مع اليابان ، لا على ما تحدثانه من تدمير . وبعد ذلك بعامين كانت الولايات المتحدة لا تنتج أكثر من بضع قنابل لا يتجاوز عددها أصابع اليدين في الشهر ، كما جاء في تقرير لجنة الطاقة الذرية الذى رفعته إلى الكونجرس عام ١٩٤٨ . ومعنى هذا أن الوقت الذى يتطلبه إعداد كمية من القنابل ذات أثر فعال في الحرب قد يصل إلى خمسة أعوام إن لم يزد ؟ هذا إلا إذا اهتدت إحدى الدول إلى وسائل غير المعروفة حالياً للسيطرة على الذرة .

وإذا كان هذا الحساب ينطبق على الولايات المتحدة بمواردها الضخمة واستعدادها الفنى الهائل ، فمن الصعب تطبيقه على روسيا .

ويقول علماء طبقات الأرض إن مناجم اليورانيوم والثوريوم وهما المادتان الأساسيتان في صناعة القنابل الذرية لا توجدان بكميات متوفرة إلا في ست مناطق في العالم .

فاليورانيوم يوجد في الكونجو البلجيكي وكندا والولايات المتحدة وتشيكوسلوفاكيا ، بينما الثوريوم يوجد في الهند والبرازيل . وتوجد من بين هذه المناطق الست منطقة واحدة داخل النفوذ الروسى ، هي تشيكوسلوفاكيا ، واليورانيوم الموجود في مناجمها أقل بكثير من المناطق الثلاث الأخرى .

هذا ومن الجائز أن روسيا قد اكتشفت اليورانيوم في أرضها أو في إحدى البلاد التابعة لها ، ولكن هذا الفرض بعيد الاحتمال ، وحتى في هذه الحالة لن تكون الكميات التي تستخرجها روسيا من هذا المعدن قريبة من الكميات التي تنتجها الموارد التي يسيطر عليها المعسكر الغربي .

وهناك احتمال آخر ، وهو أن روسيا تستخرج اليورانيوم من التراب وهو يوجد فيه بنسبة لا تتجاوز ١/١٠٠٠٠ ٪ كما يوجد فيه الثوريوم بنسبة ١/١٠٠٠ ٪ وهي نسبة ضئيلة جداً تحتاج إلى عمليات طويلة ومجهودات كبيرة لاستخراجها لا تقارن بالمجهودات اللازمة لاستخراج اليورانيوم الذى يوجد في مناجم كندا مثلاً بنسبة ٢ ٪ ، وفي الكونجو بنسبة ١ ٪ ، وفي أمريكا بنسبة ١٫٢٥ ٪ .

فإذا احتاجت أمريكا إلى خمسة أعوام لإنتاج كمية من القنابل الذرية تكفي للسيادة في هذا الميدان ، فإن روسيا تحتاج إلى أكثر من عشرين عاماً لإنتاج هذه الكمية إذا قرنا بين موارد الدولتين في هذا المضمار ولاحظنا الفارق الضخم في التقدم الفنى .

ولكن الحال لن يستمر كذلك ، فإن هذا التفوق الذى تمتاز به الولايات المتحدة في عدد القنابل الذرية ونوعها ووسائل نقلها إلى أهدافها لن يظل على ما هو عليه ، وستتمكن روسيا بعد فترة من إنتاج أسلحة ذرية تجعلها تقف على قدم المساواة مع الولايات المتحدة إلا إذا استطاعت الأخيرة أن تنتج أنواعاً أخرى من الأسلحة مثل القنبلة الأيدروجينية مستعينة في ذلك بتقدمها العلمى والفنى الذى لا يبارى ، ومواردها التي تكاد لا تنضب . ولعل المستقبل يخبىء للبشر مفاجآت أخرى ، خبيئة لم تفرغ بعد .

عبد الكريم أحمد

الزمن والمســـــافة

في شعر ذي الرمّة

(مهداة إلى الأستاذ الكريم الدكتور شوقي ضيف)

للأستاذ إحسان عباس

كثيراً ما نسمع النقاد يقولون هذا شاعر رسام ، وهذا شاعر موسيقي ، وذاك رسام يرسم موسيقا ، وذاك موسيقي يصور بالألحان ، فنحس في مثل هذه الأقوال أن أحد الفنون قد تعدى مجاله الخاص به إلى مجال فن آخر ، وحاول أن يقوم مقامه في التعبير والأداء . وأقول « مجاله الخاص به » ، لأن الفنون تختلف فيما بينها في المادة ، ومن ثم تختلف على أساس المكان والزمن ؛ ففن الرسم يعتمد على المكان ، والموسيقا تعتمد على الزمن ؛ فإذا حاول الرسام أن ينقل حقائق الزمن في صوره ؛ فَقَدَ فنه بعض خصائصه المميزة ؛ وكذلك هو الشأن في الموسيقا ، فإنها حين تنحرف عن الاتجاه الزمني الخالص تفقد شيئاً ما .

والتمثال فني ، صحيحة فنيته ، لأنه مستقل عن الزمن ، وقطعة الموسيقا صحيحة لأنها بمنأى عن المكان ، ولا بد للفنان من أن ينفي أحدهما — الزمن أو المكان — ويثبت الآخر وإن كانت عملية النفي والإثبات تحتاج إلى جهد كبير وتركيز تام . فإذا انتفى الزمن من عالم التمثال وانتفى المكان من جو القطعة الموسيقية كان كل منهما مطلقاً .

وعالم المكان هو الذي يكسب الصورة عند الرسام ما لها من خصائص ، وهذا العالم يضم ما هنالك من أشجار وصخور وبيوت وناس ومناظر وأضواء وظلال وكل ما تقع عليه العين ، ولا بد للرسام من لحظة تتركز فيها كل قواه الفنية في النظر إلى المكان مجردة عن الزمن ، أي أن على الرسام أن يتصور تلك الأشياء تصوراً مطلقاً وتمر به لحظة من اللحظات وقد انعدم الزمن بالنسبة إليه .

كذلك هو الشأن في القصة الطويلة ، فهنالك قصة حرة في الزمن مقيدة من حيث المكان ، يمتد فيها الزمن ويتحرك دون أن نعرف متى ينتهي ، فإذا اتضح الهدف الذي يجري إليه ظهر القدر على مسرح الحوادث فمزّق بيده القوية كلّ شيء وانتهت القصة . وهناك قصة تتخذ المسافة مجالاً لها أشخاصها ثابتة في صفاتها وطابعها لا يغيرها الزمن ولا يغنيها ، ولكنها تتحرك وتعمل وفقاً لطبائع ثابتة ، ومرّ الزمن في مثل هذا النوع من القصص بطيء حتى ليخاله الإنسان متوقفاً[1] .

وكذلك هو شأن الشعر ، فإذا وجدت شاعراً يقف بك عند الصورة وينسى كل شيء عداها ، وتصبح الحركة الخارجية في قصيدته بطيئة أو متوقفة — تقريباً — فاعلم أنه إلى ناحية الرسام أكثر جنوحاً منه إلى ناحية الموسيقي .

وذو الرمة شاعر رسام يجري على اعتبار المكان فيما يتمثله من صور ، وفيه ما في الرسام من خصائص ، فهو قد يترك الأشياء تتحرك من حوله ويتخذ موقف المصور وينسى كل شيء أمامه إلا المنظر الذي يريد إخراجه ، ونحس وأنت تقرأ قصيدة من قصائده أن الحركة في الناحية الزمنية (الموسيقية) تكاد تقف ، وأن الشاعر قد انفصل عن كل ما حوله وتأنى في النظر وشمله استغراق تام ليخرج لنا ما يراه صورة كاملة . فَمَيَّةُ صاحبته ليست ظبية أو كالظبية فحسب — كما اعتاد الشعراء أن يشبهوا صواحبهم ؛

(١) انظر كتاب : The Structure of the Novel, by Muir ص ٨٩ — ٩٢ .

ولكنها كالظبية التي أخذت تراتيها تبدو من بعيد في ثم واد بين منعطفات من الرمل ، في وقت هو بين النهار والليل ، وعلى جانبي هذا الوادي أشجار ظليلة . وهكذا اجتمع في هذه الصورة كل ما يتطلبه المصور لرسم منظر طبيعي .

غير أن ذا الرمة لا ينسى وهو يؤدي مهمة الرسام ، أنه شاعر ، وأنه لا وجود للشعر بغير الزمن ؟ فلذلك نجده يصور ويزيد في الحركة الداخلية أثناء تصويره حتى لا تقف الصورة جامدة أو باهتة . وهذا جهد مضاعف ، ولكن ذا الرمة يبلغ فيه الغاية ، لأنه متأثر بما يرى ، يشعر بتجاوب بينه وبين المناظر التي يرسمها ؛ فإذا أراد أن يصور رحلة حمر الوحش إلى الماء في جوف الصحراء وقف موقف الرسام ، ولكنه أثار الحركة في كلّ ما بداخل الصورة ؛ فالحمر متدافعة في مشيها لتقترب من الماء ، فإذا أحست نبأة حدوث آذانها متوجسة ، ثم « اطبّاها خرير الماء » فأرسلت أعناقها لتشرب فأعجلها الصائد المتحفز المترقب بسهم من سهامه راح طائشاً ، فندّت تلك الحمر « تدوّم في الأرض » ... ويستعين ذو الرمة على إبراز الصورة بألفاظ تحمل في جرسها ما يريده من دلالة كما يستعمل الرسام الألوان .

وليس يشق لدارس أن يفهم لم تجيء الصور عند ذي الرمة غريبة — وهي غريبة حقاً — إلا إذا ذكر دائماً أن ذا الرمة مصور ، وأن البعد أو القرب من الجسم المرئي له أثره في إخراج الصورة . وأكثر صور ذي الرمة قد رسمت من بُعد ، لأن الصحراء بأبعادها الشاسعة قد أثرت في تصوره وتصويره ، فعودته النظر إلى الأشياء من بعيد . فالجوزاء قد مالت على الأفق كأنها قطيع من بقر الوحش تدلى على جبل من الرمل طوله أيام وعرضه كذلك :

وقد مالت الجوزاء حتى كأنها
صوار تدلى من أميل مقابل

ولا يمكن للإنسان أن يصور الجوزاء قطيعاً من بقر الوحش إلا إذا آمن أن ذا الرمة إنما اعتاد رؤية مثل ذلك القطيع وهو سائر في الصحراء ، وأنه كان يراه من بعيد .

وإن الظبية قد نام على الأرض ملتفاً على نفسه كأنه دملج تِبْه من الفضة نسيته إحدى عذارى الحي ملقى في ملعب العذارى :

كأنه دملج من فضة نَبَه
في ملعب من عذارى الحي مفصوم

ولابد لفهم هذه الصورة من أن نقدر مسافة معينة بين ذي الرمة وولد الظبية وإن كانت أقل من المسافة في صورة الجوزاء وقطيع البقر .

ويقول ذو الرمة أيضاً :

وضحى به الرعن الخشام كأنه
وراء الثنايا شخص أكلف مرقل

ومعنى ذلك أن أنف الجبل الأقصى وقد غاص في السراب يشبه فرساً أحوى يضرب لونه إلى الحمرة ، وهو ظالع في مشيته يتحامل على نفسه وقد تأخر وراء الجبل . ولست أظن أن هذه الصورة عادية ، ولا بد أن تتخيل وراءها شيئاً يوضحها ، فليس يكون الجبل الذي يبدو غارقاً بعضه في السراب فرساً أعرج إلا إذا قدرنا بينه وبين الناظر إليه مسافة بعيدة .

وكذلك قل في كثير من صور هذا الشاعر ، بل إن ذا الرمة لينحاز إلى جانب الرسام انحيازاً شديداً ، فيقلب الزمن في تصويره إلى مكان ، ويستحضر ماضيه استحضاراً ذهنياً أو عاطفياً ، ثم يقيم بينه وبين هذا الماضي مسافة كبيرة . فأي إنسان يتراءى له ماضيه الذي كان يلهو فيه ويلعب « بركة صغيرة » من الماء يسبح فيها ، إلا إنسان ينظر إلى ماضيه من علو شاهق[١] ؟ وذو الرمة في تصويره هذا على خلاف المألوف ، لأن الناس حين يصورون ماضيهم يقربون المسافة بينهم وبينه حتى يلامس ماضيهم حاضرهم ويطغى عليه . غير أنه يخالف المألوف لأنه تعود أن ينظر إلى المحسوسات من بعيد . وكذلك هو في قوله :

فدع ذكر عيش قد مضى ليس راجعاً
ودنيا كظل الكرم كنا نخوضها

ولا يكون الماضي كظل الكرم إلا حين يكون بعيداً في نظر المخيلة .

---

(١) ليالي اللهو يطبيني فأتبعه كأنني ضارب في غمرة لعب

في مهرجان الطبيعة :

عاد الربيع

عادَ الربيع وفي يديك رُواؤه
وعلى جبينك قـد بدت آلاؤه

واف ، يُغرِّد في الحدائق صبحه
ويكاد من طربٍ يذوب مساؤه

والجـدول الرقراق سطر قيده
ومضى يصفق في الخمائل ماؤه

والبلبـل المغرور غادر عشه
مترنماً ، يحيي الوجودَ غناؤه

والروضُ مخضرُّ الجوانب زاهرٌ
طابت أصـائلهُ ، ورقَّ هواؤه

والعاشق الحيرانُ بين جوانحي
غرِد ، وحبك داؤه ودواؤه

وأنا على العهد الذي أبرمتُه
راعٍ ، كما يرعى الهوى خلصاؤه

● ● ●

يا زهرتي ماذا أقول ، وفي دمي
لهبٌ يُسَعَّرُ وقدَه حرماني !

ماذا أقول وفي فمي أنشودةٌ
نشوى تثير كوامن الأشجان ؟

ألهمتنيها يوم ألتف بيننـــا
عيد الربيع ، وركبُه النوراني

يمضي الزمان وأنتِ لحنٌ ملهمٌ
ساهٍ يهز مشاعري وكياني

روحان مؤتلفان ، يفصل بيننا
شبحٌ من الجيل القديم الفاني

ما ضر لو أني أطعت خواطري
فبرئت من سقمي ومن نيراني

وطرحت أردية الوقار وربَّ له
من صاحبٍ مالي عليه يدان !

● ● ●

عاد الربيع ... نسيمه وغناؤه
بعـــد الغياب يرين فيه وفاؤه

فكأنه حِبٌّ يطول بعـــاده
لكنه وافٍ يشوق لقـــاؤه

في كل عام نلتقي فيروعني
يوم اللقـــاء جمـــاله وصفاؤه

ويثير في نفسي أحاسيسَ التي
ويعيد لي عهداً زهت أضواؤه

وأحس فيه بأنني حيٌّ .. ولي
أحلامه .. وشبابه .. ورجاؤه

لا شيء غير يد الربيع وعهده
يحيي سـقيماً قد تفاقم داؤه

تحجبَ الأسى دهراً فلما جاءه
عيـد الطبيعة ، أينعت صحراؤه

علي بيرم

فإذا نحن لم نأخـذ بقانون البعد والقرب في صور ذي الرمة تراءت لنا صورة غريبة ! وقد مات ذو الرمة شاباً ، فكان ماضيه في الواقع قريباً من حاضره ، وكان مصوراً والصور كثيراً مايغفل عن الزمن ، من أجل ذلك ربما كان قانون المسافة خير مايفسر بعد الماضي في مخيلته ، إلا إذا افترضنا أن لحظات التصور في حياته كانت قليلة وأنه كان بعدها يفرغ إلى نفسه ويتأمل دنياه وما أصيب به من إخفاق في حبه ، فيحس ببطء الزمن ويرى نفسه في الشباب قد أصبح شيخاً . وهـذا ما يصدق في الواقع على الجانب الآخر من شعره وهو الجانب الغزلي الملئ بالدموع والحسرات ؛ وفي نسبية الزمن تعليل هـذه الناحية ، فإن ذا الرمة مات شاباً بحساب السنين القمرية أو الشمسية ، ومات شيخاً لأنه أحس بعمره يمضي بطيئاً متشابه الأيام .

إحسان عباس



القـــــوم يقرءون

للأستاذ مبارك إبراهيم

١ — إيفانهو :

هى أبدع رواية أخرجها «سير والتر سكوت» وقد كتبت ونشرت عام ١٨١٩ فكانت مفاجأة للناس. وقد هجر فيها الكاتب اسكتلندة إلى انجلترا. وحاول أن يصور فيها صورة القرن الثانى عشر. كما حاول أن يرسم للناس صورة الرجل نصف الأسطورى «ريكاردوس قلب الأسد» وقد أعانه على هذا إلمامه بآداب عصر الفروسية، وقد خرجت روايته هذه على أبدع ما تكون رواية تصور القرون الوسطى، وتهز مشاعر المؤرخين والجماهير.

والنسخة الأصلية للرواية محفوظة اليوم بقصر (أبوتسفورد) الذى كان يقيم فيه الكاتب.

وهى تقص قصة «سير ويلفرد» فارس إيفانهو، ذلك الفارس السكسونى الشاب، الذى جمع بين الولاء والشجاعة والجمال، والذى حرمه أبوه من الميراث من أجل حب لفتاة اسمها (روينا) كان أبوه وصيًّا عليها. وكذلك لخدمته فى صفوف ملك نورماندى.

وكان هذا الفارس ذا حظوة عند الملك «ريكاردوس قلب الأسد» وقد ذاع صيته فى الحرب الصليبية فى فلسطين ثم تزيّى فى زى الحجاج العائدين من تلك البلاد. لكى يستطيع أن يمتع ناظريه برؤية (روينا).

ثم انضم هذا الفارس، متسمياً باسم (دسدیشادو) — وهى كلمة إسبانية معناها (المحروم من الميراث) — إلى جماعة من الضاربين بالسيف. وجرح فى إحدى المبارزات؛ فكان يرعاه واحد من أصحابه هو أحد أثرياء اليهود، واسمه (إسحق) وابنته (ريبكا) وكانت هذه تتولى تطبيبه والعناية به، وقد شغفها حب هذا الفارس المقدام النبيل.

أما (روينا) فقد سباها (دى براسى) وكانت قد سبت قلبه. ثم اعتقلها فى حصن (توركويلستون). فلما خرجت من معتقلها تزوجها (إيفانهو) وذلك بمسعى الملك «ريكاردوس». وكانت الفتاة (ريبكا) أحب شخوص روايات (سير والتر سكوت) إليه. وأعزها عنده على الرغم من تصويره للادى (روينا) فى صورة من الجمال النموذجى، ومن الاعتزاز بالنفس، ومن الملاحة والظرف.

وكانت (ريبكا) سخية كريمة بقدر ما كان أبوها شحيحاً جشعاً، وعلى الرغم من أن حبها لإيفانهو كان حباً لا يدانيه حب، فقد كانت واثقة أن زواجها به كان أمراً محالاً.

وكانت تغدق المال على (بوا جلبر) أحد جماعة «فرسان المعبد» ليسعى سعيه فى إطلاق سراح (روينا) من سجنها.

وقد هزئت تلك الفتاة الكريمة (ريبكا) بحب ذلك الفارس المفتون (بوا جلبر) وأقسمت لتلقين بنفسها من أعلى منارة البرج إن لم يرجع عن غيه.

ثم أخذ هذا الفارس الغيظ بناصية الفتاة، وقدمها إلى الهيئة القضائية للفرسان متهماً إياها بتهمة السحر، متخذاً من ديانتها، ومن مهارتها فى الطب، ومما أوتيت من قسامة ووسامة أسباباً للاتهام، ولكن قضاتها برأوا ساحتها وأخلوا سبيلها.

وصف (سكوت) الملك (ريكاردوس قلب الأسد)، وقد عاد من حروبه بفلسطين فى اللحظة التى كانت مؤامرة أخيه لخلعه قد بلغت الذروة، فدخل (قلب الأسد) حلقة المبارزة متخفياً فى زى الفارس الأسود، وأبدى من ضروب البطولة ما أبدى، ثم نجا من القتل بواسطة جماعة الفارس الأسطورى (روبن هود)، ثم ضيّق الحصار على حصن (توركويلستون).

والرواية ملأى بمختلف الشخوص، فيها اللوردات وزوجاتهم، وفيها الفرسان، وفيها (فرسان المعبد)، وفيها القسيسون والرهبان، وفيها المسجونون والسجانون، وفيها صور بارعة، صور فيها (سير والتر سكوت) النورمانديين، والسكسونيين، فأجاد الوصف، وأبدع فى التصوير.

وقد أجاد (سكوت) كل الإجادة فى وصفه لرضى الملك السكسونى عن الزواج بين ولده (إيفانهو) وبين الفتاة (روينا)، وكانت آية الرضا أن حضر بنفسه حفل الزفاف، وكان الساعى فى التوفيق بين الوالد وولده هو — كما قدمنا — الملك (قلب الأسد).

وجمع (سكوت) فى هذا الحفل كل الكبراء النورمانديين، وكذلك كل عظماء السكسونيين، وكان هذا الجمع بين عظماء الأمتين عربوناً على الصفاء والوئام بين الشعبين...

٢ — «الخطوبة» للكاتب الشاعر الإيطالى مانزونى (١٧٨٥ — ١٨٧٣):

قصة حدثت حوادثها فى ميلانو فى القرن السابع عشر، ثم جمعها من مرقدها (الساندرو مانزونى) فى عامى ١٨٢٥ — ١٨٢٦، ثم نشرها فى باريس عام ١٨٢٧، وهى القصة التى لم يؤلف مؤلفها قصة أحسن منها، وقد كان فيها الكفاية لأن تجعل منه قصاصاً ذائع الصيت فى أوربا بأجمعها، وذلك لأن هذا الكاتب قد عاش عيشة سداها ولحمتها الطهر والنبل، وكان أسلوبه فى الكتابة أسلوباً يمتزج بالروح امتزاج الخمر بالماء، وكان كاتباً مقلاً ولكن كل كلمة كتبها كان مصدرها القلب، وكانت تدل على أن الكاتب هو الرجل الحق.

وقد بدأ (مانزونى) حياته شكاكاً مرتاباً. ثم تزوج من سيدة تدين بالمذهب البروتستانتى فأرجعته إلى حظيرة الدين وأصبح كلاهما كاثوليكياً. وكان انحيازهما انحياز قلب وأخلاقه عقيدة. وقد صور (مانزونى) فى قصته التى نحن بصددها صورة كاملة للحياة الإيطالية. وقد أجرى هو حوادث القصة فى الأرض التى تحيط بمدينة ميلانو. وأدار حبكة الرواية على فلاح متواضع القدر اسمه (رنزو) وعلى خطيبة ذلك الفلاح واسمها (لوسيا) وهى عذراء القرية التى كانت محط أنظار (دون رودريجو) وهو زعيم عصابة من الخارجين على القوانين.

وكما صور الكاتب فى روايته حياة هذا البارون اللص ورجاله، صور كذلك حياة القسيسين والرهبان كما كان يمثلها قسيس القرية (أبونديو) ذلك الخوار الجبان. وكما كان يمثلها الراهب الشجاع (كريستو فورد) والكاردينال (بورروميو) الرضى الخلق، الكريم الشيم.

وكذلك قد صور الكاتب الوباء الجتاح بكل ما أحاط به من ذعر وهلع، ومن رعب وفزع. كما كان يحس به ذلك العاشق وهو يجوب أنحاء المدينة الكبرى، مدينة ميلانو، باحثاً عن حبيبته فى أرجائها وفى المحجر الصحى.

وقد صور أيضاً فى تلك القصة تلك العصابة العاتية، عصابة (موناتى) وهى تلك العصابة التى كانت تتولى دفن الموتى.

كما صور أيضاً الأثر الطيب للكنيسة فى إعادة النظام ووقف الفوضى، وفى إنزال العقاب بالأشقياء المجرمين. وفى إنزال السكينة والطمأنينة على قلوب أولئك الذين تخلقوا بالأخلاق الفاضلة.

وكأن تلك القصة قد اشترك فى الإيحاء بها (بوكاشيو) و (ديفو) و (والتر سكوت).

وكأنما قد رسم صورها الشاعر المصور (سالفاتور روزا ١٦١٥ — ١٦٧٣).

والروح الدينية فى القصة روح خالصة لا مغالاة فيها، ولا تجرى أبداً مجرى التعصب.

وقد نالت القصة إعجاب دوائر الأدب ونواديه فى أوربا. وسرعان ما نقلت إلى كل اللغات الحديثة. وقد تكون هذه القصة هى القصة الوحيدة التى يعرفها ويلم بحوادثها القراء الأجانب الذين يقرءون القصة الإيطالية...

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم

في دوائر الأدب والفن

فن الحياة – محاضرة عن إليوت – وصية بيتهوفن

للأستاذ غائب طعمة فرمان

فن الحياة :

عرضت إحدى دور السينما في القاهرة فلماً يصوّر كفاح الإنسان ومصاولته القدر ، وتغلّبه على مصاعب الحياة إذا أسعفته الإرادة القوية ، وأعانه الصبر الطويل ..

وخلاصة هذا الفلم أن شاباً أمريكياً رغباً في طبعه كثير من السذاجة التي تقرب من البلاهة ، يهوى لعبة من لعب الرياضة وهي البيسبول ، ويجاهد في أن يبلغ في إتقانها والبراعة فيها مبلغاً يجعل منه لاعباً ذائع الصيت .. وتتحقق للشاب أمنيته ، ويصبح بعد العمل الدائب والمران الطويل بطلاً من أبطال تلك اللعبة .. وفي فرحة الحلم ، ونشوة النصر ، وذيوع الاسم ، وإقبال الحظ يشاء القدر أن تصاب ساق الشاب برصاصة طائشة ، ويفقد تحت وطأة تلك الإصابة ساقه ، وهي أعز ما لديه .. ولم تنته قصة الشاب هذه النهاية ، ولا استولى على سماء حياته الهم ، ولا عاش في كهف مظلم من التشاؤم والقنوع بهذا النصيب الأعوج .. بل هو يكافح في ساق صناعية ويحاول أن يعيد حياته وآماله على أساس جديد .. كأن لم يقع الحادث المؤلم ولم يصبه القدر المشؤوم ! ويتمرن الشاب على اللعب بساقه الجديدة ويبذل الجهد الجهيد ، ويتذرّع بالعزيمة الصُلبة حتى يبلغ مراده ، فإذا مجده الغابر يبزغ من أفق جهاده المضنى متألقاً رفيع الجانب .

ليت شعري لو وقع هذا الحادث لشاب شرقي فماذا كان يصنع ؟!.

وهل هناك غير القنوع بالمقدور ، والرضى بما هو واقع ، وقضاء بقية العمر لانتظار الساعة التي يُسدل فيها الستار على المأساة ؟!.

الحق أن الشرق ينقصه ما يسمى بفن الحياة !!.. ينقصه ذلك التمرّد الذي يصنع المعجزات ، ينقصه ذلك الروح الذي لا يقنع بما هو واقع كأنه ضربة لازب ، ولا يألف الجو الذي تغمره سحب التشاؤم ، وتظلله ظلال قاتمة من اليأس المرير !.

والرجوع إلى منطق الحياة خليق بإرجاعنا إلى سواء السبيل .. فالحياة تزدري الضعيف وتحتقر المتخاذل المنطوي القانع بالنصيب القليل .. والأمم التي تقدس هذا المنطق ، وتؤمن بهذه الشريعة هي الأمم التي يصفق لها المجد ، ويُسطّر تاريخها المجيد بحروف من نور .

محاضرة عن إليوت :

ألقى مستر ألك كريج في المعهد البريطاني محاضرة باللغة الانجليزية عن الشاعر الانجليزي المعاصر توماس ستيرن إليوت .. ولم تتناول المحاضرة كل شيء عن إليوت ، وبذلك أخبرنا المحاضر ، فهو لم يتحدث إلا عن إليوت الشاعر ، وطبيعة أدبه ، والاتجاهات التي تأثر بها ..

قال المحاضر : إن (إليوت) ليس شاعراً معروفاً في انجلترا ومقروءاً في اللغة الانجليزية فقط ، بل هو شاعر ذو شهرة عالمية ، وصاحب مذهب في الأدب معروف .

ثم ذكر أن إليوت تأثر بمدرستين ، أولاهما : المدرسة الميتافزيقية في الشعر الانجليزي ، وعلى الأخص الشاعر الانجليزي (جون دَنْ) .. وثانية المدرستين المدرسة الرمزية الفرنسية ، وعلى وجه الخصوص الشاعر الرمزي (مالارميه) صاحب الأجواء الغامضة ، والانطلاق في التعبير والهيام وراء الآفاق البعيدة .. ولم يقتصر تأثر (إليوت) على هذا الحد ؟ فقد تأثر كذلك بدانتي في (الكوميدية الإلهية)

ونحن نجد مواقف بعينها في الكوميديا الإلهية والأرض المهجورة The waste land لإليوت ، ومن تلك المواقف وصف إليوت بأنه التقي بروح تجمعت فيها أرواح أساتذته جميعها .

ووجه المحاضر اهتمامه إلى ثلاث نواح . الأولى : الاصطلاحات الخاصة بشعر إليوت ، فقال إن إليوت حاول أن يعبر عن أشياء غريبة تصدم أذواق الناس الذين لم يألفوا سماعها في الشعر ، والناحية الثانية : المادة التي صاغ منها إليوت موضوعات شعره .. والناحية الثالثة : الصعوبة الظاهرة في شعره ؛ فلاحظ أن الصعوبة لم تأت عن تكلف وربط ألفاظ بألفاظ لاستخراج صور غامضة ليس لها طعم ولا غاية ، كما يفعل بعض الشعراء الذين يهوون الغموض ويتكلفونه .. بل إن صعوبة إليوت تفتح لك أبوابها عن معانٍ رائعة حين تمعن النظر فيها والتطلع إليها بتفكير عميق .

وسمعنا بعد انتهاء المحاضرة شريطاً مسجلاً لصوت إليوت يلقي قطعة من (الأرض المهجورة) فكان صوتاً عميقاً فيه حرارة وعمق يلائم تلك الأجواء التي نقلنا إليها إليوت .

وسأل أحد الحاضرين الأستاذ المحاضر : هل يحق لنا أن نقول إن إليوت تأثر بالشاعر الانجليزي ملتون .. فأجاب مستر كريج بالإيجاب .

وصية بيتهوفن :

احتفل العالم في الأسبوع الماضي بذكرى الموسيقار الخالد الذكر لودفيج بيتهوفن . ومن سخرية الأقدار أن يصاب خالق الألحان الجميلة بالصمم ويحال بينه وبين عالم الأصوات فيظل في عزلة كئيبة .. ففي عام ١٧٩٨ وهو في الثامنة والعشرين من عمره شعر بألم في أذنه تطور إلى صمم مؤلم ، وشعر بيتهوفن حينذاك بالغربة والكآبة في العالم الذي يرقص على ألحانه ، وأصابه القنوط ، وخيل إليه أنه على حافة الموت ، فكتب وصيته الخالدة مودعاً فيها كل عواطفه نحو العالم :

« ما أشد تجنيكم علي يامن تزعمون أني حقود متشائم من الحياة ، كاره للبشرية ! إنكم لا تدركون علة ذلك ، فقد ملكتني منذ طفولتي عاطفة الطيبة الرقيقة ، وهيأت نفسي لجلائل الأعمال — ولكن صدمتني تلك العلة التي أخفيتها ستة أعوام ظاناً أن محاولات الأطباء المتكررة تشفيني منها ، حتى وضح الحق ، وبان لي أن علتي ليس لها شفاء !! وكتب علي وأنا في ريق العمر أن ألوذ بكهف العزلة المظلم على رغم حبي المجتمع ومسراته ! وما أقسى هذه التجربة وأمضها في قلبي ! . ولم أجد في نفسي الشجاعة على مصارحة أصدقائي بعلتي ، لفقدان حاسة كانت مرهفة أقرب إلى الكمال .. كلا أيها الناس إني لا أستطيع ، فأستميحكم العذر حين أهرب من مجتمعكم إلى عزلة قاسية وحرمت على أن أجتمع بكم ، وأتحدث إليكم وألاطفكم ، وأصبح الاضطراب يستحوذ علي وتعتريني الحيرة حين أحضر مجلساً خوفاً من أن يقال : أصم ! .. وكم تملكتني الرغبة في الاجتماع وإطلاق نفسي من إسارها ، ولكني أشعر بالخيبة حين أرى رجلاً بالقرب مني ينصت إلى إيقاع قيثار بعيد وأنا لا أسمع غناء الراعي وهو على مقربة مني ! لقد دفعتني هذه المحنة إلى اليأس ودفعني اليأس إلى الانتحار ؛ ولكن الفن .. والفن ليس غيره ، هو الذي قيدني .. آواه ! .. من المستحيل أن أهجر الدنيا دون أن أكمل رسالتي التي أعتقد أني مكلف بأدائها .. وهكذا أريد لهذا الجسد المرهف أن يعيش مرتقباً أقل تغير لينقله من شقاء السعادة إلى صحراء الشقاء .. إنهم ينصحونني بالصبر ، وقد تذرعت به ، وآمل ألا يضيق ذرعي ، أو تخور عزيمتي حتى يحكم الله حكمه .. أليس من العسير أن يصبح الإنسان الفنان فيلسوفاً وهو في الثامنة والعشرين من عمره ! .

« يارب ! إنك عليم بذات صدري ، عالم أني أحب الناس وأرجو لهم الخير .. وأنتم أيها الناس إذا قرأتم كلامي فتذكروا أنكم ظلمتموني .. وإن عزاء وسلواناً لقلب الشقي أن يتحدى الطبيعة ويتغلب على عقباتها ليصبح في موكب الممتازين من رجال الفن » .

ولم يشأ الله أن يودع بيتهوفن العالم إلا بعد ربع قرن من كتابته لوصيته في سنة ١٨٢٧ ...

ثاقب طه فرماوي



شرح قانون العقوبات المصرى

تأليف المستشار العميد أحمد أمين بك ، نقحه وجدده الدكتور على أحمد راشد

للأستاذ ضياء شيت

ذلك اسم الكتاب الخالد الذى أخرجه لرجال القانون حديثاً الدكتور على أحمد راشد أستاذ القانون الجنائى بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول ، وهو من تأليف العالم الجنائى العظيم المرحوم أحمد أمين بك عميد كلية الحقوق والمستشار بمحكمة النقض سابقاً ، وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٢٣ على صورة محاضرات كان قد ألقاها على طلاب كلية الحقوق ، وقد نفدت الطبعة الأولى ولما يحل عليها الحول فأعادها ثانية فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، وهى آخر طبعة أخرجها العلامة أحمد أمين بك ، ومنذ ذلك الحين لم يطبع الكتاب بعد وفاته مع شدة الحاجة إليه حتى قيض له الله الدكتور على أحمد راشد فتناوله بالتنقيح والتجديد وساير به آخر تطورات الفقه والقضاء ، فأسدى بذلك خدمة عظيمة لرجال القانون ، فله الشكر الأوفى .

ويعتبر هذا الكتاب من المراجع الخالدة التى يسترشد بها القاضى فى حكمه ، والمحامى فى دفاعه ، والنائب العام فى مرافعته ، والأستاذ فى محاضراته ، كلهم يسألونه الرأى الصائب فيما يستعصى عليهم من مشكلات القانون الجنائى ، وقد استوفى مؤلفه شرح قانون العقوبات من الناحيتين الفقهية والعملية ، وعنى باستعراض النظريات الفقهية لأعلام القانون الجنائى ، وقد ساير آخر تطورات القضاء المصرى ، وهو قضاء غزير المادة دقيق الاستنباط من أحكام الأساتذة الكرام عبد العزيز فهمى باشا ، وسيد مصطفى باشا ، وحامد فهمى باشا ، وكامل مرسى باشا ، ومفق الجزايرلى باشا ، وأحمد محمد حسن باشا ؛ ولقد حرص الدكتور راشد على المحافظة على أصل الشرح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وأشار إلى ما استحدثه من زيادات أو تعديلات وحصرها بين قوسين أو وضع علامة النجمة فى أول كل فقرة جديدة .

والكتاب الذى بين أيدينا هو الجزء الأول فى الجرائم المضرة بالمصلحة العامة ، وقد قسمه إلى خمسة أبواب ، تكلم فى الباب الأول منه فى جرائم الرشوة ، وفى الباب الثانى فى اختلاس الأموال الأميرية وفى الغدر ، وفى الباب الثالث فى جرائم الصحافة ، وفى الباب الرابع فى المسكوكات الزيوف والمزورة ، وفى الباب الخامس فى جرائم التزوير .

ولقد بحث المؤلف فى تطور التشريع الجنائى المصرى منذ صدور قانون العقوبات سنة ١٨٨٣ ؛ فقانون سنة ١٩٠٤ ، وقانون رقم ٩٨ لسنة ١٩٣١ ، ثم قانون

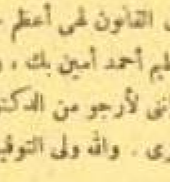
العقوبات المصرى رقم ٥٨ لسنة ١٩٣٧ وما جرى عليه من تعديلات حتى سنة ١٩٤٩ فى أسلوب من العربية مبين .

اقرأ معى إن شئت الباب الثالث فى الجنح والجنايات التى تقع بواسطة الصحف صفحة ١٠٠ (من الحقوق المعترف بها للأفراد حرية الفكر ، أى أن يكون لكل إنسان الحق فى أن يفكر كما يشاء ، وأن يجاهر بفكره ورأيه قولاً وكتابة — هذه الحرية قد كفلتها المادة ١٤ من الدستور المصرى الصادر فى ١٩ إبريل سنة ١٩٢٣ ، ونصها : « حرية الرأى مكفولة ولكل إنسان الإعراب عن فكره بالقول أو بالكتابة أو بالتصوير أو بغير ذلك فى حدود القانون — وحرية الفكر تستتبع حتما حرية الخطابة وحرية الكتابة وفى ضمنها حرية الصحافة ، غير أن هذا الحق مقيد كسائر الحقوق الشخصية ، فلا يجوز استخدامه للإضرار بالمصلحة العامة أو بحقوق الأفراد الآخرين ، ومن أجل هذا عنيت الحكومات ببيان الحدود التى يباح فيها استعمال هذا الحق ووضعت الجزاءات لمن يتجاوز تلك الحدود ، ورقابة الحكومات فى هذا الباب تتنوع إلى نوعين : رقابة إدارية يباح بمقتضاها للسلطة الإدارية أن تتدخل عند الحاجة لمنع الضرر وسد ذرائعه ، وأخرى قضائية من مقتضاها إنزال العقاب بمن ينتهك حرمة القانون بمجاوزة الحدود التى رسمها لحرية القول والكتابة . وكانت الحكومة المصرية قد أخذت بالوسيلتين فوضعت فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ قانونا للمطبوعات ضمنته أحكاما للطباعة والنشر وأباحت للسلطة الإدارية بمقتضاه أن تراقب تنفيذ أحكامه ، وتعطل الصحف والمطابع التى تخل بتلك الأحكام ، كما نصت فى لائحة التياترات الصادرة فى سنة ١٩١١ على تخويل السلطة الإدارية حق مراقبة الخطب التى تلقى فى الحفلات العمومية . وفى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٨٣ أصدرت قانون العقوبات وفيه باب مفصل لأحكام الجرائم الصحفية وعقوباتها ، وقد بقيت أحكام هذا الباب فى قانون العقوبات الصادر فى ١٩٠٤ ثم فى قانون العقوبات الصادر فى سنة ١٩٣٧ بعد أن كانت قد تناولتها تعديلات هامة بمقتضى بعض القوانين التى صدرت قبل ذلك ، وأهمها المرسوم بقانون رقم ٩٧ لسنة ١٩٣١ ؛ غير أن ما كان يخوله قانون المطبوعات الصادر فى سنة ١٨٨١ للادارة من سلطة مطلقة فى التعطيل والإلغاء أصبح ممنوعا بعد أن نصت المادة ١٥ من الدستور المصرى على حرية الصحافة فى قولها : « الصحافة حرة فى حدود القانون والرقابة على الصحف محظورة وإنذار الصحف أو وقفها أو إلغاؤها بالطريق الإدارى محظور كذلك إلا إذا كان ضروريا لوقاية النظام الاجتماعى » وبذلك انحصرت الرقابة الإدارية فى نطاق ضيق) .

ثم بعد هذه المقدمة الرائعة يبدأ بشرح مواد قانون العقوبات شرحا وافيا . أرأيت كيف يبدأ المؤلف بتمهيد عن حرية القول والكتابة ، ثم يذكر النصوص القانونية فى الدستور المصرى المتضمنة حرية الرأى ، ثم يعرج إلى تطور التشريع الجنائى منذ سنة ١٨٨١ حتى هذا التاريخ ، ثم يبدأ بشرح مواد قانون العقوبات ! وإنى لأقول بكل صراحة أن هذا الكتاب هو أروع كتاب فى شرح قانون العقوبات ليس ذلك فى اللغة العربية فحسب ، بل فى جميع اللغات . وإن الخدمة التى أسداها الدكتور راشد بنشره هذا الكتاب إلى رجال القانون لهى أعظم خدمة ، ففيها تخليد لذكرى المؤلف العظيم أحمد أمين بك ، ونفع رجال القانون فى العالم العربى . وإنى لأرجو من الدكتور راشد أن يبادر بنشر الأجزاء الأخرى . والله ولى التوفيق .

ضياء شيت
حاكم صلح الموصل الأول

(الموصل — العراق)





حب عجيب

لجي دي موبسان

ترجمة الأستاذ أحمد بدران

كان ذلك في نهاية مأدبة العشاء التي أقامها المركيز دي برتران لمناسبة بدء موسم الصيد، وقد جلس أحد عشر رجلاً رياضياً وثماني سيدات شابات حول مائدة ناصعة الضياء حفلت بالفاكهة والأزهار، وقد اتجه الحديث إلى الحب، وقامت مناقشة حادة حول ذلك السؤال الخالد: «هل يستطيع الإنسان أن يحب مرات عدة، أو أن الحب لا يكون إلا مرة واحدة؟».

وقد ضربت الأمثال بأناس لم يحبوا إلا مرة واحدة، وآخرين أحبوا مرات كثيرة حباً عنيفاً، وقد أكد الرجال بوجه عام أن هذه العاطفة كالمرض قد تصيب نفس الشخص مرة ومرة، وقد تكون قاتلة لو وقف في سبيلها عائق. أما السيدات وقد حاولن نقض هذا الرأي، فقد أكدن أن الحب، الحب الحقيق، حب الفداء والتضحية لا يأتي إلا مرة واحدة، وأن هذا الحب كالصاعقة، والقلب الذي قاساه مرة قد صار بعد ذلك إلى الأبد خرباً محطماً لا تستطيع جذور أي عاطفة — ولا العابرة — أن تنمو فيه.

وقد عارض المركيز — وله ماض حافل — هذا الرأي وقال: «أؤكد لكم أن الإنسان يستطيع أن يحب المرة بعد المرة بكل فؤاده وبكل روحه. لقد ذكرت السيدات أناساً استشهدوا في سبيل الحب كدليل على استحالة حب ثان، بيد أن ردي على ذلك أن هؤلاء لو لم يتقوا من الحماقة إلى حد أن يقتلوا أنفسهم — وهذا يحرمهم من أي فرصة للتجربة — لشفوا من الصدمة الأولى، ولأحبوا مرة أخرى، ومرة إلى آخر أيامهم. إن المحبين كالسكارى، من تذوق الخمر مرة لن يسلاها، ومن أحب مرة سيعاود الكرة، إن الحب طبع».

وكانت الكلمة بعد ذلك للطبيب الذي اعتزل في الريف بعد أن مارس المهنة في باريس، وقد طلبوا منه أن يدلي برأيه، بيد أنه لم يكن لديه حكم قاطع، فقد قال: «إنها مسألة طباع، كما قال المركيز، لكني أعرف حباً استمر خمسة وخمسين عاماً لم يفتر يوماً واحداً ولم ينقض إلا بالموت»، وضمت المركيزة يديها وقالت: «يا للجمال! إنه لحلم جميل هذا الحب! ما أسعد أن تعيش الواحدة خمسة وخمسين عاماً في هذه العاطفة القوية الطاغية، وما أسعد ذلك الرجل وما أشد رضاه بالحياة حين تنعم بمثل هذا التقدير»!

فابتسم الطبيب وقال: «أنت محقة في شيء واحد يا سيدتي، إن هذا الحب كان لرجل، وإنك تعرفينه فهو المسيو شوكيت الصيدلي، وأنت تعرفين من أحبته أيضاً، هي العجوز التي كانت تصلح الكراسي وتأتي هنا كل عام، لكني سأقص القصة بالتفصيل».

وأصيب حماس السيدات بهبوط مفاجيء وبدت علامات

الحية على وجوههن ، كأنما يجب أن يقتصر الحب على ذوى الجاه والثراء ليكون ذا أهمية عندهن . وتابع الطبيب حديثه :

« منذ ثلاثة أشهر دعيت إلى جانب فراش هذه المرأة العجوز وهى تحتضر ، كانت قد جاءت هنا فى اليوم السابق فى العربة التى كانت تتخذها مقاماً ، والتى يجرها ذلك الجواد الهزيل الذى لا ريب أنكم كلكم رأيتموه ، وكان معها كلباها الضخمان الأسودان ، صديقاها وحارساها ، وقد أقمنا — أنا والقسيس — منفذين لوصيتها ، ولكى تجعل رغبتها الأخيرة واضحة لدينا قصت علينا كل قصة حياتها التى لم أسمع أعجب منها ولا أغرب .

كان أبوها وأمها يُصلحان الكراسى ، ولم تعش قط فى منزل مستقر ، فقد كانت تتجول دائماً فى ثياب رثة قذرة ، وكانت أسرتها تعسكر فى ضواحى القرى على جانب الطريق ، فتخرج الحصان وتدعه يمرح طليقاً ، ويذهب الكلب لينام ، أما الطفلة فتتقلب على العشب بينما يجلس والداها تحت ظل أشجار الطريق يصلحان الكراسى . فإذا ابتعدت الطفلة صاح أبوها فى غضب : « تعالى هنا أيتها الشقية » ، وكانت هذه كل كلمات الحنان التى تسمعها . ولما كبرت صارت تذهب لجمع الكراسى من القرية صائحة صيحتها التقليدية : « كراسى للتصليح » وفى جولتها بدأت تعرف بعض الصبية ، لكن آباء هؤلاء الأصدقاء الجدد هم الذين ينادون الآن على أولادهم أن تعالوا هنا ، لا نحب أن نراكم تتحدثون إلى الشحاذين .

وذات يوم ، وكانت فى الحادية عشرة ، جاءت الأسرة إلى هذه القرية حيث رأت الفتاة شوكيت الصغير ، وكان يبكى لأن زميلاً سلبه بنسين ، وأثرت فى الفتاة دموع الفتى تأثيراً كبيراً ، فقد كانت تحسب أن مثله من الأطفال هم دائماً سعداء ، فتقدمت إليه ، ولما علمت سر بكائه ألقت بين يديه بكل ما ادخرته . سبعة سنتات ، فأخذها كأنها حق طبيعى ومسح دموعه ، وكانت هذه فرحتها الكبرى ، حتى لقد تجرأت على تقبيله ، ولما كان مأخوذاً فى سروره بالنقود فإنه لم يقاوم ، فلما رأت أنه لم يبعدها عنه أو يضربها ، ألقت ذراعيها حوله وقبلته مرة أخرى ، ثم جرت مبتعدة . ماذا كان يدور فى هذا الرأس الصغير المسكين ؟ أية رابطة تلك التى ربطتها بهذا الطفل ؟ أهى تضحيتها له بكل ثروتها الصغيرة أم منحها إياه قبلتها الأولى ؟ إن المأساة متشابهة فى الصغار كما فى الكبار .

وظلت شهوراً تحلم بهذا الركن ، وبهذا الصبى . وعلى أمل أن تراه مرة أخرى كانت تسرق من أبويها وتبقى معها بعض ما تعطى من أجر الإصلاح أو لشراء الطعام .

ولما جاءت فى المرة الثانية كان فى جيبها فرنكان ، لكنها لم تر الصبى إلا برهة خاطفة ، فقد كان يبدو عليه السقم والمرض وهى تنظر إليه من شباك صيدلية أبيه ، فازدادت له حباً ولم تفارق ذكراه خاطرها . وفى العام التالى لما رأته خلف جدار المدرسة وهو يلهو مع بعض زملائه ، اندفعت نحوه ، واحتوته بين ذراعيها ، وقبلته فى وحشية ، حتى إنه بكى من الرعب ، ولتهدئ من روعه أعطته كل ما معها من النقود ثلاثة فرنكات حملق فيها مدهوشاً ، وقبل النقود وسمح لها بأن تقبله كما تشاء .

وفى السنوات الأربع التالية كانت تضع بين يديه كل ما تدخره ، فيأخذه معتبراً القبلات عوضاً طيباً ، وكان يحتل كل تفكيرها . أما هو فكان أيضاً ينتظر مجيئها فى فروغ صبر ، ويجرى نحوها إذا ما رآها ، فيخفق قلبها بالسعادة ، ولكنه اختفى بعد ذلك ، فقد أرسل إلى المدرسة كما علمت بعد تحريات دقيقة ، وقد حاولت أن تغرى والديها بتغيير نظام جولتهما حتى تتفق زيارتهم والعطلات ، وأخيراً نجحت فى ذلك ولكن ذلك كلفها عاماً كاملا ، ولهذا مضت سنتان على رؤيتها إياه آخر مرة ، ولم تكد تعرفه ، فقد تغير كثيراً ، لقد نمى وأصبح منظره أكثر بهاء فى سترته ذات الأزرار الذهبية ، وتظاهر بأنه لم يرها ومر بجانبها رافع الرأس ، فبكت يومين ، وكان هذا بداية آلامها التى لم تنته قط ، ففى كل عام كانت تجىء ، فتراه فى الطريق دون أن تجرؤ على تحيته ، ولم يكن يمنحها نظرة . لقد أحبته حباً عنيفاً . قالت لى : يا دكتور إنه الرجل الوحيد الذى عرفته فى العالم كله .

ولما مات والداها حلت محلهما ، وأصبح لها الآن كلبان بدل واحد ، وحشان مخيفان لا يجرؤ أحد على الاقتراب منهما . وذات مرة لما قدمت إلى القرية التى خلفت فيها قلبها

رأت سيدة شابة خارجة من الصيدلية ، وهى تستند إلى ذراع شوكيت ، وكانت زوجته .

فى ذلك المساء ألقت نفسها فى المستنقع القريب ، وأخرجها أحد المارة ، وحملها إلى الصيدلية . وجاء شوكيت الشاب ليعنى بها فخلع ثيابها دون أن يبدو عليه أنه يعرفها ، وجفف جسمها ، وقال فى قسوة : « لابد أنك جننت . أى سخف اقترفت ! » ورفض أن يأخذ أجراً على خدمته رغم أنها أصرت على أن تدفع له .

وهكذا انقضت حياتها ، كانت تجلس تصلح الكراسى وتفكر طيلة الوقت فى شوكيت ، وكانت تراه كل عام من نافذة الصيدلية ، وتعودت أن تشترى منه الكثير من الأدوية الشائعة لكى تراه عن قرب وتتحدث إليه وتقدم إليه النقود كما كانت تفعل من قبل .

وكما سبق أن قلت لكم ، لقد ماتت هذا الربيع ، وبعد أن قصت هذه القصة المؤثرة سألتنى أن أحمل إلى الرجل الذى أحبته فى إخلاص كل ما ادخرته طيلة حياتها . لقد عملت من أجله وحده ، بل جاعت لتزيد من هذه الثروة حتى تضمن على الأقل أن يذكرها بعد موتها ، ثم قدمت إلى ألفين وثلاثمائة وسبعة وعشرين فرنكا . فأعطيت القس السبعة والعشرين فرنكا لنفقات الدفن وأخذت الباقى حالما لفظت آخر أنفاسها .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى شوكيت ، وكان يجلس وزوجته وقد أوشكا على الانتهاء من تناول العشاء . ودعيت إلى الجلوس ، وقدما لى شراباً فبلته ، ثم فى صوت يختلج بالتأثر بدأت أقص عليهما القصة وأنا أتوقع أن تثير دموعهما ! لكنه ما كاد يعلم أنه قد أحبته هذه الشحاذة التى تصلح الكراسى حتى قفز من مقعده فى غضب كما لو كنت قد سلبته شرفه وسمعته الطيبة وسمو مركزه . وقالت زوجته فى اشمئزاز : « تلك المرأة الشحاذة العجوز ... أى سخرية ! » وكان شوكيت يدور حول المائدة ثم صاح فى غضب : « هل سمعت بمثل هذا من قبل يا دكتور ؟ يا للبشاعة ! ماذا أستطيع أن أفعل ؟ لو عرفت هذا وهى على قيد الحياة لسقتها إلى السجن الذى تستحقه ! » .

وصعقت لهذه النتيجة ، لكن كان على أن أتم مهمتى فاستطردت أقول : « لقد كلفتنى أن أقدم إليك ثروتها البالغة ألفين وثلاثمائة فرنك ، لكن بما أن القصة التى قصصتها عليكم قد أغضبتكم إلى هذا الحد ، فربما كان من الأفضل أن أقدم هذا المال للفقراء » .

حملقا فى ، وقد أفقدتهما الدهشة المفحمة على النطق ، وأخرجت المال من جيوبى مجموعة مختلفة من النقود الصغيرة والكبيرة ، النحاسية والذهبية ، وسألتهما : « ما رأيكما ؟ » .

وكانت مدام شوكيت هى البادئة بالكلام فقالت : « حسناً ... بما أنها رغبة المرأة الأخيرة فأظنا لا نستطيع رفض ما قدمت » وأضاف زوجها : « نستطيع أن ننفقها على الصغار » فقلت بجفاء : « كما تشاءان » وأجاب شوكيت : « ما دامت طلبت منك ذلك ، فالأفضل أن تسلم المال إلينا ، وسنجد ما يستحق أن ننفقه فيه » وسلمت إليهما المال وانصرفت . وفى اليوم التالى جاءنى شوكيت وقال : « أرى أن المرأة قد تركت عربتها هنا ... فماذا أنت فاعل بها ؟ » قلت : « لا شىء ... خذها » قال : « أحتاج إليها سقيفة لحديقة المطبخ » وناديته إذ هم بالانصراف وقلت : « لقد تركت أيضاً حصانها الهرم وكلبيها فهل تريدها ؟ » فتوقف مندهشاً وقال : « كلا ... وما ترى أفعل بها ؟ اصنع بها ما تشاء » .

وضحك ، وصافحنا .. ففى الريف يجب أن يبدو الطبيب والصيدلى فى وئام مهما حدث . وأبقيت الكلبين ، وأخذ القس الحصان ، أما العربة فأخذها شوكيت ، والنقود اشترى خمسة أسهم فى شركة السكك الحديدية .

تلك سيداتى وسادتى قصة الحب الثالث الوحيد الذى أعرفه .

وصمت الدكتور ، وقالت الماركيزة وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

« هذا يثبت قولى ... المرأة وحدها هى التى تعرف الحب » .

أحمد جمعه

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

صحيفة

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٨٩ الاثنين ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩ — ١٠ من أبريل سنة ١٩٥٠ السنة الثانية عشرة

من أحاديث الخبراء

للأستاذ حسن جلال

سمعتهما يتحدثان ...

قال المحامي لزميله :

— لو كنت في مكان القاضي لما ندبت (خبيراً) في قضية من قضاياي قط ! إن القضية التي يعين فيها خبير يقضى عليها بالموت ! .

قال زميله :

— إن الخبير الذي تندبه المحاكم في بعض القضايا ، إنما يدعى لتنوير الدعوى . فأي موت هذا الذي تتحدث عنه ؟ .

قال المحامي :

— إنه الموت ذو الألوان المتعددة ... الموت في صورة الانتظار الطويل حتى يأتي دور القضية عند الخبير .. والموت في صورة ضياع المعالم التي تريد المحكمة إثباتها .. والموت في صورة تحميل طرفي الخصوم من المصروفات فوق ما يطيقون ... وأخيراً يأتي دور موت الحق نفسه الذي يكون موضوع التقاضي ! .

قال زميله :

— هل هي مرافعة أفلاطونية أخرى في قضية خاسرة . أم أن عندك الأمثلة الواقعية التي تستمد منها كل هذه الصور ؟ .

قال : إن لم أكن أستطيع أن أحصي وأعدد ما لم أكن قد اكتويت بنار كل حالة من هذه الحالات ...

لقد أراد أحد عملائي مرة — وكان رجلاً يوغوسلافياً — أن يبني داراً للسينما في ثغر من ثغور مصر الكبيرة . فعهد بذلك إلى مواطن له من المهندسين وضع له تصميم البناء ، ثم عرض عليه أن يقوم هو أيضاً بتنفيذه . فرحب عميلي بهذه الأريحية . وحمد لصديقه هذه المعونة التي يتطوع بتقديمها إليه . وظل المهندس يستنزف الألف بعد الألف من أموال عميلي حتى تجاوز ما قبضه عشرة آلاف جنيه . وتشاء المصادفة أن يزور (العمارة) من يلفت نظر المالك إلى عدم صلاحية (التصميم) وعدم سلامة البنيان . فتوقف المالك فوراً عن إمداد المهندس بالمال . وتحرج الموقف بين « المواطنين » حتى انتهيا إلى المحكمة . فطلب المالك ندب خبير هندسي من رجال الفن لمراجعة (التصميمات) ومعاينة المباني . وبيان ما في الأولى من نقص ، وما في الثانية من قصور ؛ ورفع المهندس دعوى على المالك يطالبه فيها بتعويضه عن وقف العمل الذي بدأ به ، والذي تعاقد من أجل تنفيذه مع عشرات المقاولين الفرعيين .

ورأت المحكمة أن تربط بين مصير القضيتين لارتباط موضوعهما ؛ وعينت خبيراً في قضية المالك ، ثم أجلت نظر الموضوع إلى ما بعد تقديم (التقرير) ... وظلت القضية تنتظر دورها بين القضايا المحالة على هذا الخبير حتى تصرمت الأعوام . وكان المهندس اليوغوسلافي قد افتتح أمامه

طريق العودة إلى بلاده بعد الحرب العالمية الثانية . فسافر وترك الدار من خلفه تبكي من بناها . ورأى المالك أن القاضي أصبح لا غاية له ، وأنه فقد وجه المصلحة فيه . فتنازل عن قضيته بعد أن أضاف ما أنفقه فيها إلى ما كان قد أنفقه على مشروع البناء . وعاد من الصفقتين بالخفين التقليديين !.

فهذا — يا صاحبي — مثال يريك كيف تموت القضية من طول الانتظار في أقبية الخبراء .

أما ضياع معالم الحالة التي يكون الخبير قد ندب لإثباتها فإني أراه في صورة تلك القضية الأخرى التي باع فيها المالك داره لأحد المشترين وقبض منه بضع مئات من الجنيهات على سبيل العربون . ثم تعذر على المشترى بعد ذلك أن يقوم بأداء أقساط الثمن في مواعيدها المتفق عليها . فضاع عليه العربون طبقاً لشروط العقد . وأصبح البائع حراً في عرض داره للبيع من جديد ، وقد وفق في هذه المرة الثانية إلى بيع الدار وقبض ثمنها فوراً . وكان الثمن في هذه الصفقة الجديدة يزيد على الثمن المتفق عليه في الصفقة الأولى . فرأى المشترى الأول أن هذه الحالة تعتبر من الحالات التي يسمح فيها القانون باسترداد العربون — فقصد إلى المحكمة ورفع دعواه على هذا المالك الذي استحل عربونه إلى جانب ما قبضه من الثمن المرتفع الجديد . ودفع المالك الدعوى بأن زيادة الثمن الجديد إنما نشأت عن التحسينات التي أدخلها على الدار قبل عرضها للبيع مرة أخرى ، وأن هذه التحسينات والترميمات بلغت تكاليفها أكثر من قيمة الفرق بين الثمن الجديد والثمن القديم . وأنه لذلك يكون قد أصابه الضرر الذي يبيح له الاستيلاء على قيمة العربون لنفسه .

ورأت المحكمة أن تستجيب لطلب المالك في ندب (خبير) لمعاينة ما أدخله على داره من تحسينات بين الصفقتين وما قام بعمله فيها من ترميمات ، وليقدر قيمة هذه الإصلاحات . فظلت القضية عند الخبير نحو ثلاث سنوات كان المشترى الجديد في خلالها قد هدم البنيان القديم وعلاه ، ونقل السلم من موضعه إلى موضع آخر يتفق مع رسم الدار الجديد . وأزال بذلك كل أثر من الآثار التي كان يمكن أن ينتفع بها الخبير في وضع تقريره المطلوب . ولذلك فوجئ الخبير عندما آن أوان ذهابه للقيام بعمله بأن يرى نفسه أمام حالة تختلف كل الاختلاف عن الحالة التي وصفها الحكم ، والتي كان يتكلم عنها الطرفان المتقاضيان عندما رفعت الدعوى منذ ثلاث سنوات . ومن عجب أنه على الرغم من تغير المعالم واستحالة المعاينة بالصورة التي يطلبها الخصوم ، فإن الخبير رأى أن يضع تقريره على أساس فروض خيالية مجردة لا أساس لها من الواقع ، وذلك ليستحل لنفسه شيئاً من الأجر عن عمله الذي ندب له . وفي هذا المثال يمكنك أن ترى كيف أن الموت لم يصب القضية وحدها ، ولكنه أصاب أيضاً قيمة (الأتعاب) التي كانت المحكمة قد كلفت المدعى بإيداعها على ذمة الخبير !.

أما موت الحق نفسه على يدي (الخبير) فحديثه طويل . ولست أريد أن أخوض فيه لأنه أليق بالمرجفين الذين يذيعونه في الأوساط القضائية ، وهو على كل حال مما لا أريد أن أقطع فيه الآن برأي .

قال الزميل :

— قد يكون كلامك هذا كله صحيحاً ؛ ولكن ما الحيلة إذا كان لابد من الرجوع إلى الفنيين في سبيل الاهتداء إلى وجه الحق بين المتنازعين . إنك لا تستطيع أن تفترض أن كل قاض يجيد العمليات الحسابية المعقدة التي تجرى بين الشركاء المتنازعين . ولا أن يلم بمبادئ الهندسة التي تبصره بوجوه الخطأ والصواب في مسألة معمارية تطرح عليه ... ولا أن يختص في الشئون الكيمياوية بحيث يمكنه تحليل المواد لتمييز الزائف فيها من الصحيح ... ففي كل هذه الشئون يحتاج القاضي إلى (الخبير الفني) الذي يعاونه على تعرف وجه الحق في النزاع الذي أمامه .

قال المحامي :

— هذه حقيقة لا أستطيع المكابرة فيها ، ولكن انظر كيف تسرف بعض المحاكم في أمر الخبراء وتعيينهم بحيث لا تجعل التجاءها إليهم مقصوراً على الشئون العويصة وحدها ، ولكنها — تحت ضغط العمل وكثرته — كلما واجهتها مشكلة تستطيع أن تعهد بها للخبير لم تتردد في تركها له ، وندبه لبحثها ، وتقديم تقريره عنها .

ولئن كان هذا مفهوماً من القاضي الرهق بالعمل الذي يريد أن يتخفف ولو موقتاً من بعض أعبائه فإني لا أفهم عذر المحقق مثلا ، الذي يلجأ إلى الخبير الفني في شئون لا تمس (الفن) في القضية التي يحققها من قريب ولا من بعيد . وإني لا زلت أذكر مع مزيد من العجب أن محققاً دعي يوماً إلى تحقيق حادث ذهبت فيه سيدة ضحية انفجار موقد بترول كانت تحاول إيقاده — وأمثال هذه الحوادث لا جناية فيها ، بل هي لا تحمل شبهة الجناية ما دامت الوقائع تكون قد ثبتت على هذه الصورة — ومع ذلك فإن المحقق في تلك القضية بالذات رأى أن يرسل الموقد إلى (الطبيب الشرعي) لفحصه تشبهاً بما يفعله المحققون الجادون حين ترتكب جناية قتل مثلا بعيار ناري فيبعثون بالسلاح الناري المضبوط إلى ذلك الطبيب لفحصه وبيان ما إذا كانت إصابة المصاب تحدث حتماً من مثل هذا السلاح ، وعلى المسافات والأوضاع التي قررها الشهود أم لا .

وإن هذا ليذكرني بحذلقة محقق آخر تحجر رأسه بفعل (الروتين) — جاءته ذات يوم قضية كان المتهم فيها سائق ترام دهس رجلا فقضى عليه . وأقبلت زوجة القتيل تشهد بما رأت لأنها كانت ترافق زوجها وقت الحادث ، فبعد أن فرغت من شهادتها سألها المحقق (الساهي) سؤالاً تقليدياً آخر جرى العرف على توجيهه ، خصوصاً في جرائم القتل الخطأ — فقال :

— وهل يوجد عداء سابق بين المتهم (السائق) وزوجك !؟

كما لو كان المتهم — مع افتراض وجود هذا العداء المزعوم — يستطيع أن يأخذ ترامه وينطلق به في الطرقات مطارداً خصمه حتى يدركه في بعض المآزق فيدهمه ويقضي عليه ويشفي بذلك غليل نفسه منه ؟ !

قال زميله :

— إن ندب (الطبيب الشرعي) في المثال الذي ذكرته ليس فيه ما يؤخذ على نظام الخبرة أو الخبراء . ولكنه خطأ غير مقصود وقع فيه المحقق .

قال :

— إني لم أعرضه لأدلل به على ما تقول . فلقد فرغت من تدليلي على هذا المعنى في الأمثلة الأولى التي سقتها إليك . ولكني استطردت منها بعد ذلك إلى الأخطاء التي قد تقع فيها الهيآت الأخرى التي لها أن تستعين بالخبراء وقت الضيق . فترى بعضهم يقع في أمثال هذه المواقف التي تبعث على الضحك ... وإني لتحضرني بهذه المناسبة (نكتة) أخرى سمعتها من طبيب فاضل يسوقها على ما يلقى الأطباء الشرعيون أحياناً من عنت في المهمات التي يسند إليهم أمرها . قال : إنه تلقى يوماً (حرزاً) لفحصه . وكان ذلك في قضية اتهم فيها المتهم بأنه (هتك عرض) صبي صغير ، فلما أمسك بالحرز في يده — قبل أن يفضه — أعياه أمره ، إذ أن ما اعتاد أن يتلقاه في أمثال هذه القضايا هو ما قد يكون على المتهم من ملابس وقت الحادث أو ما قد يكون على المجني عليه ، لاحتمال أن يكون قد علق بشيء منها أثر من آثار الجريمة . أما هذا (الحرز) فإنه لم يستطع الاهتداء إلى كنهه لفرط صغر حجمه ، فلما فتحه زادت دهشته إذ وجد أنه ليس إلا كرة من المطاط . فراجع أوراق القضية ليرى ما علاقة هذه الكرة بالحادث ، فظهر له أن المحقق اليقظ رأى من باب الحيطة التامة أن يبعث بهذه الكرة إلى (الطبيب الشرعي) لأنها هي التي استطاع المتهم عن طريقها أن يغري المجني عليه بقبول ما ارتكبه معه !

فإن كان موقد البترول يحتاج ولو إلى (سباك) لفحصه ومعرفة سبب انفجاره — مع عدم تعلق ذلك كله بوجود تهمة يصح أن يتناولها التحقيق لأن المتهم الحقيق في ذلك الحادث إنما هو الموقد نفسه — فبالله عليك ماذا كان يستطيع الطبيب الشرعي أن يستخلص من تلك الكرة التي أرسلت إليه على أنها أثر يستحق الصيانة و (التحريز) في القضية الثانية !

قال صاحبه مداعباً :

— الحق معك ، فقد كان أولى بالمحقق أن يبعث بتلك الكرة إلى إخصائي نفساني ليجري عليها تجاربه قبل أن يقرر إن كانت تصلح في إغراء الصبي أم أن مطاطها من نوع لا تتوافر فيه الخواص النفسية التي قد تؤدي إلى أمثال هذه العواقب !

حسن مجول

شمال وجنـــوب

للدكتور زكي نجيب محمود

كثيراً ما أقرأ الصحيفة أو الكتاب في شيء من الغفوة والذهول ، فعيناي تطالعان شيئاً ، والعقل مشغول بشيء آخر ، حتى إذا ما فرغتُ من قراءتي ، وسألني سائل : ماذا قرأت في هذا الفصل أو في ذاك المقال ؟ لم أجد ما أجيب به إلا على نحو مضطرب مهوَّش غامض .

لكني قد أصادف في غضون قراءتي الغافية الناعسة فقرة أنتبه لها مذعوراً كأنما هي تلسع ، فأعيد قراءتها متمهلاً متفهماً ، وأديرها في رأسي لأتخذ إزاءها موقف القابل أو الرافض أو المتشكك ، ثم أمضي في القراءة ... ولعله من مثل هذه الفقرات المنبِّهة الموقظة تتألف ثقافة الإنسان ، لأنها هي التي تكوِّن له رأياً ووجهة للنظر ؛ وما أكثر ما يكون الكاتب أو الفيلسوف صنيعة وخزة من هذه الوخزات القوية ، التي لولاها لظل العقل قابلاً ، يحصِّل العلم تحصيلاً يجمع الحقيقة إلى جوار الحقيقة ، حتى يصبح الرأس كتاباً متحركاً لا إنساناً مفكراً ؛ وهذا هو فيلسوف الألمان « كانْت » يقرأ زميله الإنجليزي « هيوم » ما ذهب إليه في إنكار العلاقة السببية بين الأشياء والحوادث ، « فيستيقظ من سباته » — كما يقول — وينهض ليجيب على قول زميله إجابة مستفيضة ، فإذا هو يقيم للناس بجوابه ذاك بناء شامخاً جباراً .

من هذه الفقرات التي قرأتها فتنبهت من غفوتي ، ثم أعدت قراءتها متمهلاً متفهماً متفكراً ، هذه الفقرة الآتية التي كتبها كاتبها (ديورنت) وهو يصف كيف أطبقت القبائل الآرية الشمالية في العصور القديمة على بلاد الهند ، « فاكتسحت أهلها نحو الجنوب اكتساحاً ، ولم تلبث أن استذلتهم واستعبدتهم وملكت زمامهم ... » ولم تكن غزوة الآريين لهذه القبائل المزدهرة ، وانتصارهم عليها ، إلا حلقة من سلسلة متصلة من الغزوات ، كانت تقع على فترات منتظمة بين الشمال والجنوب ، فينقضّ الشمال انقضاضاً عنيفاً على الجنوب المستقر الآمن ؛ وقد كان ذلك مجرى من المجاري الرئيسية التي سارت فيها حوادث التاريخ ، إذ أخذت المدنيات تعلو على سطحه وتهبط ، كأنها أدوار الفيضان يعلو عصراً بعد عصر ؛ فالآريون قد هبطوا على الدراڤيديين (في الهند) والآخيون والدوريون قد هبطوا على الكريتيين والإيجيين (في اليونان) ، والجرمان قد هبطوا على الرومان ، واللمبارديون قد هبطوا على الإيطاليين ، والإنجليز قد هبطوا على العالم بأسره ؛ وسيظل الشمال إلى الأبد يمدّ العالم بالحاكمين والقاتلين ، والجنوب يمده برجال الفن والدين ؛ فالجنة إنما يرثها الجبناء » .

إذاً فهذه تفرقة جديدة تقسم عباد الله قسمين : شمالاً سيظل إلى الأبد يمد العالم بالقاتلين الذين يحكمونه ، وجنوباً سيظل إلى الأبد كذلك ملقياً زمامه في أيدي سادة يجيئون إليه من الشمال ، لأنه في شغل بالآخرة عن الدنيا ؛ فلئن كان أهل الشمال يقاتلون بالحديد والنار ليمدوا سلطانهم على هذه الأرض وهادها ونجادها وسهولها ووديانها ، فأهل الجنوب ساهمون حالمون ، يريدون الجنة ؛ والجنة — في رأي الكاتب الذي نقلنا عنه الفقرة السالفة — يرثها الجبناء .

هذه تفرقة جديدة صادفتها ، تقسم الناس إلى شمال وجنوب ، بعد أن تهيأنا الصدد من تفرقة قديمة مألوفة ، شطرت الناس إلى غرب وشرق ؛ والمعنى في التفرقتين واحد ، والاختلاف في الأسماء وحدها ؛ إذ المراد في كلتا

الخالين أن يقال إن أوربا وأمريكا صنف من البشر ، وسائر العالم صنف آخر ؛ ولك بعد ذلك أن تجعل الصنفين شمالاً وجنوباً ، أو غرباً وشرقاً ، كيفما حلا وقع الألفاظ في مسمعيك .

وليس لي من العلم بالتاريخ ما أستند إليه في رد مفصل على هـذا الزاعم بأن مجرى التاريخ كان دائماً يتلخص في سادة ينقضون من الشمال ليحكموا في الجنوب ؛ لكن علمي الضئيل بالتاريخ يتيح لي على ضآلته أن أعلم بأن اتجاه الغزو لم يكن دائماً من الشمال إلى الجنوب ؛ فالمصريون القدماء قد ساروا في فتوحهم من الجنوب إلى الشمال ؛ وأخذت جيوش الرومان سَمْتَها نحو الشمال حتى بلغت بريطانيا ، وجاءت غزوات العرب في خط أفقي لا رأسيّ ، فاتجهوا من قلب صحرائهم شرقاً وغرباً ، والأتراك ساروا في الغزو نحو الغرب إلى جانب اتجاههم نحو الجنوب ، وهكذا .

على أني أعترف أن شعوري من الفقرة السابقة لم يكن أساسه تكذيب الكاتب فيما ذهب إليه من تفصيلات التاريخ ، بل كان شعوراً ذاتياً شعورياً ، ما فتئت أبديه كلما سمعت إنساناً يقسم عباد الله أقساماً ، فمرة هم شرق وغرب ، ومرة أخرى هم شمال وجنوب ؛ لأننا — في أغلب الظن — لا نظفر من هـذه التقسيمات إلا بصفقة المغبون ؛ فإن كان العالم غرباً وشرقاً ، فنحن شرق ؛ وإن كان العالم شمالاً وجنوباً ، فنحن جنوب ؛ أعني أن العالم إذا انقسم حاكماً ومحكوماً ، فنحن الفريق المحكوم ، هازماً ومهزوماً ، فنحن الفريق المهزوم ، سادة وعبيداً ، فنحن العبيد ، أهلا لنعيم هذه الدنيا ، وأهلا للجنة ، فنحن أصحاب الجنة .. « التي رزقها الجبناء » .

نحن نرفض كل تقسيم من هذا القبيل ، فلا شرق هناك ولا غرب ، ولا شمال ولا جنوب في خصائص البشر وصفاتهم ، فكل شعب في الدنيا كسكل شعب آخر من حيث الاستعداد والفطرة ، ويبقى بعد ذلك ظروف اقتصادية وسياسية ، قد توجد في الشرق أو الغرب ، في الشمال أو الجنوب على السواء ، فهي تظهر هنا مرة وهناك مرة .

هذا تقسيم خرافي أخذ به أصحابه لأنه يشبع في أنفسهم رغبة الاستعلاء والسيادة ، فحين ذهب « رديارد كبلنج » إلى الهند حيث أقام أعواماً ، ثم عاد إلى بلاده ليقول عبارته المشهورة : « الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا » ؛ لم يكن بالطبع يقصد أن اختلاف الهند عن انجلترا هو اختلاف النظائر الأنداد ، بل أراد أن يقول إنه اختلاف الأبيض عن الأسود ، والسيد عن المسود ؛ وكذلك فيما أعتقد ، يرمي « ديورنت » إلى شيء كهذا من قوله إن التاريخ لم يزل منذ بدايته يجري في مسلك يبدو فيه أهل الشمال سادة على أهل الجنوب ، على الرغم من أن «ديورنت» — على نقيض كبلنج الاستعماري المتعصب الضيق الأفق — من أشد الناس في عالمنا المعاصر تسامحاً وأوسعهم ثقافة ، وأرحبهم صدراً لما بين شعوب الأرض من أنواع الخلاف .

هم يقولون ذلك ليشبعوا في أنفسهم رغبة الاستعلاء والسيادة ، فماذا يقول أدباؤنا ؟ يعترفون لهم بالتقسيم ، ثم يأخذون في الدفاع عن شرقهم أو جنوبهم ، ليظهروا ما فيه من حسنات بينات ؛ ولست أدري لماذا نلزم أنفسنا بالدفاع عن قضية خاسرة ؟ لماذا نتورط في تقسيم خرافي بزعمه سوانا لغرض في نفسه ؟ لماذا نضرب على النغمة التي تؤكد في أنفسنا معنى التدهور والتأخر ؟

إن أعجب العجب في موقفنا ، هو أننا نختار لأنفسنا أسوأ الفروض ؛ إذ الفروض هاهنا ثلاثة : الأول أن يكون التقسيم باطلاً من أساسه خاوياً من المعنى ، ومن شاء فليدلني على الموضع من وجه الأرض ، الذي يبدأ عنده التقسيم شرقاً وغرباً ، أو شمالاً وجنوباً ؛ والفرض الثاني هو أن يكون التقسيم صحيحاً ، لكننا نقع من الأقسام في الغرب دون الشرق ، وفي الشمال دون الجنوب ، وهذا هو ما اختاره الخديو إسماعيل حين أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا ، وما يجب أن يختاره كل عاقل مخلص إذا أخذ بمبدأ التقسيم إطلاقاً ؛ فلو كانت الدنيا أقساماً فلسنا أقرب إلى السنغال وبوغندة وأثيوبيا منا إلى اليونان ويوغوسلافيا وإيطاليا ، والفرض الثالث هو أن يكون التقسيم صحيحاً أيضاً ، غير أننا

(البقية على صفحة ١١)

الجامعات البريطانيـــــة

للأستاذ أحمد بدران

كتب السير أرنست باركر رسالة صغيرة عن «الجامعات البريطانية» ظهرت فى سلسلة «الحياة والفكر فى بريطانيا» تناول بالبحث فيها الجامعات من حيث نشأتها وإدارتها ومناهج الدراسة بها، ثم وظيفة الجامعات فى النظام الديمقراطى وما تستطيع أن تساهم به فى تقدم ركب الحضارة، وتحدث عن حياة الطلاب فى الجامعات البريطانية، ثم عن بعض المسائل الهامة التى ستواجهها الجامعات فى مستقبلها.

ولقد شغل الكاتب مناصب جامعية مختلفة ؛ فكان محاضراً فى التاريخ بجامعة أكسفورد، وعميداً لكلية الملك بلندن، ثم أستاذاً للعلوم السياسية فى جامعة كمبردج، كما كان عضواً فى الهيئة الاستشارية للتعليم ما بين عامى ١٩٢٠، ١٩٢٨. وإذا كان البحث قد كتب عن الجامعات البريطانية فإنه قد تناول مسائل عامة نستطيع تطبيقها على جامعاتنا المصرية فى هذا الوقت الذى تتصارع فيه الآراء، فيطالب البعض بفتح أبواب الجامعة على مصراعيها لأن العلم — حق الجامعى — حق للفرد كالماء والهواء (مع أن الأغلبية الساحقة فى مصر لم تستطع بعد أن تحصل على الماء النظيف ولا على الهواء النقى) بينما يضج رجال الجامعة بالشكوى من كثرة الطلاب ويعلنون أن المستوى العلمى والخلق فى الجامعة ينحط شيئاً فشيئاً. ومنذ أيام طالب نقيب المحامين بإغلاق جدول المحامين، أو بلغة أخرى بإغلاق كلية الحقوق بضعة أعوام.

لذلك سنحاول أن نعرض بعض ما تناوله السير أرنست باركر، قال: منذ حوالى قرن من الزمان فى نهاية حروب نابليون لم يكن فى انجلترا سوى جامعتين أكسفورد وكامبردج. أما اليوم فهناك إحدى عشرة جامعة معظمها أنشىء فى القرن العشرين. وقد يبدو عجيباً أنه فى بلد مثل انجلترا بحضارتها وتقاليدها يكون معظم الجامعات حديث النشأة، لكن عجبنا يزول إذا ما أدركنا أنه قبل أن ينتشر التعليم الجامعى، يجب أن يصل التعليم العام إلى درجة واسعة من الانتشار. وهناك ظاهرة خاصة فى الجامعات البريطانية، وهى أنها مؤسسات أهلية لا حكومية، رغم أنها أنشئت بأوامر ملكية؛ لكن هذا من الوجهة القانونية فحسب، والحقيقة أنها جمعيات حرة لها إدارتها الخاصة وماليتها، وحقها المطلق فى اختيار هيئة التدريس بها. وإذا كانت الحكومة والسلطات المحلية تقدم لها بعض العون المالى فإنها لا تتداخل لقاء ذلك فى شئونها الخاصة.

وقد بلغ عدد الطلبة المقيدين فى الجامعات البريطانية فى بداية الحرب الماضية خمسين ألفاً من مجموع السكان البالغ عددهم ٤٥ مليوناً، أى أنه فى كل تسعمائة من السكان طالب جامعى واحد، فى حين أن النسبة فى أمريكا تبلغ ١٪. ومن مجموع هؤلاء الطلبة يؤلف الرجال ثلاثة أرباع والنساء الربع، وهم من طبقات مختلفة، ومن الخطأ أن نظن أن الطلبة — حتى فى أكسفورد وكمبردج اللتين اشتهرتا بأنهما جامعتان أرستقراطيتان — كلهم أو معظمهم من الطبقة العليا؟ فإلى نهاية العام الجامعى ١٩٣٤ — ١٩٣٥ كان حوالى ٤٢٪ من طلبة الجامعات البريطانية «طلبة مُعانين» أى أنهم يمنحون منحاً مالية ليستطيعوا إتمام دراستهم. بل إنه فى جامعتى أكسفورد وكمبردج كانت هذه النسبة فوق المعدل بقليل أى ٤٣،٤٪.

وربع هؤلاء الطلاب يقيمون داخل الكليات والباقى فى الخارج، كما أن فيهم ثلاثة آلاف طالب من الممتلكات البريطانية والبلدان الأجنبية.

ونستطيع أن نقسم الجامعات البريطانية إلى أربعة أقسام : أولها جامعة لندن كوحدة قائمة بذاتها ، والقسم الثانى يضم الجامعتين القديمتين أكسفورد وكامبردج ، أما القسم الثالث فيضم الجامعات المحلية الحديثة مثل برمنجهام ومانشستر ، والقسم الأخير هو جامعات اسكتلندا .

وتضم جامعة لندن ١٣ ألفاً من الطلاب المقيدين ، وهؤلاء تمنحهم جامعة لندن ، لكنهم يتلقون دراستهم فى كليات ومدارس بعضها أقدم من الجامعة نفسها . وكثير منها يستحق أن يكون جامعة بذاتها مثل « الكلية الجامعة » التى أنشئت سنة ١٨٢٦ قبل قيام جامعة لندن والتى تضم ألفين من الطلاب ، ومثل « كلية الملك » . وبعضها مؤسسات خاصة كالمدارس الطبية ومعاهد التربية والكلية الإمبراطورية للعلوم والهندسة . ومن هذه المؤسسات ثلاث خاصة بالنساء .

أما جامعتا أكسفورد وكامبردج فتشبهان جامعة لندن من حيث التكوين من كليات ، لكننا نجد أنه بينما كليات ومدارس جامعة لندن هى أولاً معاهد للتعليم عن طريق المحاضرات ويحضرها الطلبة بالنهار ، فإن كليات ومدارس الجامعتين القديمتين هى أولاً معاهد للإقامة تعتمد على طريقة حلقات البحث التى تجعل كل فريق من الطلبة على صلة مباشرة بمعلمهم . ولهذا السبب كانت هذه الكليات أصغر من مثيلاتها فى جامعة لندن ؛ فمتوسط عدد طلاب الكلية فى كامبردج ٢٧٠ طالباً ، وفى أكسفورد ١٧٠ طالباً فقط . وفى كل من الجامعتين القديمتين عشرون كلية ، وتمتازان باجتذاب أحسن الأساتذة وأفضل الطلاب فى البلاد ، كما أنهما تضمان أبناء الطبقات الأرستقراطية .

والجامعات الإقليمية السبع تختلف عن الجامعات السابقة فى أنها جامعات موحدة تضم فى صعيد واحد كل للدروسين والطلاب ، ولما كانت قائمة فى مراكز كبيرة للصناعة مثل برمنجهام وليفربول وليدز ، فإن هذا يجعلها أسهل اتصالاً بالحياة والبيئة المحيطة بها ومشاكلها . والجامعات الاسكتلندية الأربع مثل الجامعات الإقليمية الانجليزية ، إلا أن جامعة أدنبرة تضم عدداً كبيراً من الطلاب الذين يقيمون بها ، وتهتم هذه الجامعات بأن تقدم لطلابها ثقافة فكرية عامة أكثر مما تهتم بدراسات خاصة ، إلا أن جامعتى أدنبرة وجلاسجو وأساتذتهما قد تميزوا بالتعمق فى دراسة الأدب الانجليزى ، كما أن أساتذة الفلسفة مشهورين قد أضاءوا تاريخ هاتين الجامعتين .

وإلى جانب الجامعات فإن بعض الهيئات الأخرى تقدم دراسة فى مستوى الجامعات ، ومنها « الكليات الجامعة » فى نوتنجهام واكستر وساوثهامبتون ، وهذه تعد طلابها على يد هيئة تدريس فى مستوى جامعى ، لكنها لا تستطيع أن تمنحهم درجات ؛ لذا يتقدمون كطلاب خارجين لامتحانات جامعة لندن ، كما أن هناك كليات صناعية وزراعية ومدارس المعلمين تخرج معلمى المدارس الابتدائية بعد دراسة عامين ، وهذه بعضها مستقل عن الجامعات تماماً ، وبعضها له بعض الصلات بها من حيث إشراف أساتذة الجامعات على التدريس والامتحانات بها .

ولقد سبق القول بأن الجامعات البريطانية مستقلة لا تخضع لإشراف وزارة المعارف ولا سلطات التعليم المحلية ، فجامعتا أكسفورد وكامبردج يديرهما أعضاؤهما ، وفى الجامعات الأخرى مجلس يضم ممثلين للأساتذة مع أعضاء من الخارج ، لكن هناك مجلس أصغر يتكون من الأساتذة وغيرهم من المدرسين يختص بالنظر فى الأمور الجامعية البحتة ويقدم النصح والإرشاد للمجلس الأعلى .

والجامعات حرة فى مالها أيضاً ، وقد بلغ دخلها قبل الحرب ما يزيد على ستة ملايين من الجنيهات ، منها مليون مصدره الهبات والتبرعات ، ومليونان يدفعهما الطلاب فى الدراسة والامتحانات ، وحوالى مليونين من الهبات البرلمانية ، والباقى هبات من سلطات التعليم المحلية .

وطريقة التدريس فى الجامعات البريطانية ما زال فى الأغلب هى طريقة المحاضرات ، إلا أن جامعتى أكسفورد

وكامبردج بنظام الإقامة فى كلياتهما وبالعدد الكبير من « الزملاء » الذين يقيمون فى الكليات كمرشدين ومعلمين تقدمان منذ أمد طويل طريقة الإرشاد فى حلقات البحث إلى جانب المحاضرات ؛ فنى كل أسبوع يُحضر طالب الآداب إلى أستاذه مثلاً رسالة فى موضوع خاص متصل بدراسته ويناقشها معه ساعة أو أكثر فى حجرته ، وهذا النظام ينتشر الآن فى الجامعات الأخرى الحديثة ، لكنه يلاقى الصعاب . فتحاول هذه أن تطبق هذا النظام على مجموعات صغيرة من الطلاب . ولا شك أن لهذا النظام فائدة ظاهرة ، فإن اتصال الطالب بالمدرس لا يؤثر فى دراسته فحسب ، بل فى خلقه أيضاً ، وهذا جانب لا تغفل الجامعات عن أهميته .



حلقة بحث فى أكسفورد

وينتهى مقرر المحاضرات وطرق الإرشاد الأخرى للطالب بامتحان يأتى فى العادة فى نهاية ثلاثة أعوام ، ويشرف على الامتحانات فى كل جامعة على حدة لجنة من الممتحنين لكل مادة ، وهذه اللجنة تضم ممتحنين داخليين ، وهم الذين يقومون بتدريس هذه المادة فى هذه الجامعة ، ثم ممتحنين خارجيين من جامعات أخرى ، وتمنح الطلاب درجة البكالوريوس ، وهى نوعان : درجة الشرف والدرجة العادية ؛ فالجامعات تعطى درجة الشرف فى نهاية دراسة متعمقة فى مقرر خاص ؛ أما الدرجة العادية فتعطى فى نهاية دراسة عامة أقل تعمقاً ، وينجح كل الطلاب الذين دخلوا الجامعة للحصول على درجة فى الحصول عليها ، وفى هذا العوض عن قلة عدد الطلاب فى الجامعات البريطانية إذا قورن بعددهم فى الجامعات الأمريكية ؛ فنى نشرة حديثة تبين أن عدد الطلاب الذين يلتحقون بالجامعات الأمريكية فى العام ثلاثمائة ألف ، بينما عدد الذين يتخرجون فى العام لا يزيد عن مائة وخمسة وستين ألفاً ، بينما فى الجامعات البريطانية يلتحق فى العام خمسة عشر ألفاً يتخرجون كلهم تقريباً .

ومعظم الطلاب يغادرون الجامعة بعد حصولهم على البكالوريوس ، إلا القليل الذى يتابع دراسته ، إما للحصول على دبلوم تخصص عالٍ ، أو للقيام ببعض الأبحاث للحصول على الدكتوراه فى الفلسفة ، إلا أن هؤلاء قلة ، ولم تنشأ درجة الدكتوراه إلا فى نهاية الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٨ ؛ ومن عدد طلاب الجامعات البريطانية البالغ عددهم ٥٠ ألفاً كان عدد طلاب الدراسات العليا لا يزيد على ثلاثة آلاف .

ما هو موقف الجامعات البريطانية فى ظل النظام الديمقراطى ؟ إن نظام الإعانات الجامعية طريق لاكتشاف وتعليم طائفة من مختلف طبقات المجتمع ، فنى سن الحادية عشرة يستطيع الولد أو البنت فى المدرسة الابتدائية أن يفوز بمنحة تعطيه الحق فى الدراسة فى المدارس الثانوية ، وبهذا يتاح لكثير من رجال الطبقة العاملة أن يرسلوا أبناءهم إلى هذه المدارس ، ثم يستطيع الطالب أو الطالبة فى سن الثامنة عشرة أن يفوز بإعانة تتيح له الالتحاق بالجامعة ، وهذه الإعانات تقدم بعضها الجامعات والكليات ، وبعضها الحكومة ؛ وهذا يفسر لنا أن نصف طلبة الجامعات البريطانية تقريباً طلبة معانون . وتتبع البلاد الأخرى طرقاً مختلفة لكى تتيح لبعض الطلبة الفقراء الأذكياء أن يتمتعوا بفوائد ومزايا الدراسة الجامعية . فنى الجامعات الأمريكية

طريقة شائعة ، هى أن يعمل الطلاب بعض الوقت لكسب نفقاتهم ، فبعضهم يعمل سائق سيارة ، وبعضهم بستانيا ، وبعضهم بائعاً ، وهى طريقة تعلم الاعتماد على النفس ، لكنها للأسف تضيع على الطالب وقتاً يستطيع أن ينفقه فى دراساته ؛ وفى جامعات اسكتلاندة تقدم بعض المصارف للطلاب أقساطاً شهرية يردونها بعد تخرجهم ، وهذه أيضاً تحفظ كرامة الطلاب لكنها تعتمد على التضييق على الطالب فى مستقبله لقاء ما تمنحه له فى حاضره .

ما هى الديمقراطية فى التعليم ؟ هى فى رأيى أن يكون لكل مؤسسة علمية أكبر قدر ممكن من الحرية ، فتكون للدارس حرة على قدر المستطاع . أما الجامعات فيجب أن تكون لها كل الحرية . والجامعات البريطانية ، وهى مؤسسات مستقلة تحكم نفسها بنفسها وتتصرف وحدها فى مالها وأمورها ، تحقق هذه المثل الديمقراطية ، كما تحققها حياة الطلاب فى الجامعات . وحقاً أن هناك مراقبين يطوفون شوارع اكسفورد وكيمبردج فى المساء ليراقبوا الطلاب فى سلوكهم وأخلاقهم ، لكن الديمقراطية لا يمكن أن تتعارض مع نظام معقول يحد من حرية الشباب الطائشة ، أما ما عدا ذلك ، فللطلاب الحق فى إقامة الجمعيات وتنظيم المناظرات العامة فى كل الموضوعات التى تحت الشمس من سياسية واقتصادية ، وغير ذلك .

وفى رأينا أن واجب الجامعة الحديثة نحو المجتمع الديمقراطى الحديث ينحصر فى ثلاثة أمور : أولها اكتشاف وتعليم عدد كاف من الطلبة من مختلف الأوساط والطبقات . والثانى أن تهيء للمجتمع مستوى من الثقافة يجعله تقديراً للحق ذواقاً للفن والجمال محباً للعلم بكل ما تحمل كلمة العلم من معان . والثالث أن تساهم ما وسعها فى تقدم المعرفة ، وأن تشجع بكل قواها البحوث والدراسات . وما أشك فى أن الجامعات البريطانية تبذل غاية جهدها فى هذا السبيل .

أحمد بدران

شمال وجنوب

(بقية المنشور على صفحة ٧)

تقع فى الشرق دون الغرب ، وفى الجنوب دون الشمال ، وهذا ما قد جرى به العرف ، وما قد استسلم له أدباؤنا وتبنوه وأكدوه ، كأنما هو شرف نسمى إليه !

ليس الأمر هنا أمر ألفاظ ، وإلا لهان الخطب واحتملنا البلاء ، لكنه يصيب حياتنا ووجهة نظرنا وطرق إصلاحنا ونهضتنا فى الصميم ؛ إذا أردنا دستوراً سياسياً ، أو تعليماً ، أو إصلاحاً للأسرة أو المجتمع بأية صورة من الصور ، فأى طريق نختار ؟ إذا أراد الشاعر أن ينظم ، والفنان أن يرسم ، أو ينحت التماثيل ، والموسيقى أن يعزف ، فأى طريق يختار ؟

عندى أن الجواب واحد واضح ، لا تردد فيه ولا غموض لمن أراد أن ينظر إلى الأمور نظرة جادة حازمة ، وهو الجواب الذى أجابت به تركيا سريعة جريئة مخلصة ؛ الجواب الواحد الواضح هو أن ندمج فى الغرب اندماجاً ، فى تفكيرنا وآدابنا وفنوننا وعاداتنا ووجهة نظرنا إلى الدنيا ، الجواب الواحد الواضح هو أن تكون مصر قطعة من أوربا كما أراد لها إسماعيل ، وكل من يريد لها النهوض الذى لا يكبو ولا يتعثر ؛ ليس من العزة القومية فى شىء أن نحتفظ لأنفسنا بطابع إذا كان هذا الطابع مما يصم صاحبه بالعجز والقعود والبلاهة ؛ فإذا اختلفنا عن أمم أوربا وأمريكا ، فلا ينبغى أن يجاوز هذا الاختلاف مقدار ما تختلف به تلك الأمم بعضها عن بعض .

إنى فى ساعات حلمى ، حين أحلم لبلادى باليوم الذى أشتهيه لها ، فإذا أسوّرها لنفسى وقد كتبنا من اليسار إلى اليمين كما يكتبون ، وارتدينا من الثياب ما يرتدون ، وأكلنا كما يأكلون ، لنفكر كما يفكرون ، وننظر إلى الدنيا بمثل ما ينظرون ...

لسنا شرقاً إن كانت الدنيا إلى غرب وشرق ، ولسنا جنوباً إن كانت الدنيا إلى شمال وجنوب ... والتقسيم كله باطل من أساسه على كل حال .

زكى نجيب محمود

إلى أى حد أفاد المجتمع المصرى

من النهضة الثقافية فى عصر محمد على ؟

للدكتور جمال الدين الشيال

قامت النهضة الثقافية فى عصر محمد على على أسس متينة قوية ، فقد أرسلت البعوث إلى دول أوربا المختلفة ، وفتحت المدارس بمراتبها المتتالية : العالية ، ثم التجهيزية ، ثم المبتديان ؛ وسرعان ما خرجت هذه وتلك المختصين فى كل علم وفن ، واتجه هؤلاء جميعاً — بوحى من إرشاد العاهل العظيم — إلى تعريب التعليم فتوفروا على ترجمة مئات الكتب الأفرنجية ؛ وكان تقليد العصر أن يطبع من كل كتاب يترجم ألف نسخة يوزع العدد الأكبر منها على تلاميذ المدارس .

لحركة الترجمة فى معظمها كانت تتجه اتجاهاً علمياً ، وكانت دائرتها محدودة لا تتعدى جدران المدارس ، حقيقة كانت هناك دائرة علمية أخرى هى دائرة الأزهر بعلمائه وطلابه ، ولكن استفادة هؤلاء بالكتب الجديدة كانت محدودة ، فلم يقبل منهم على قراءتها إلا نفر قليلون ، وخاصة طائفة المصححين والمحررين من شيوخ الأزهر الذين شاركوا مشاركة فعلية فى نقل هذه الكتب ، وعدد آخر قليلون من أمثال الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ، فقد روى تلميذه رفاعة الطهطاوى أنه « كان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية » .

أما الغالبية العظمى من شيوخ الأزهر وطلابه فقد وقفوا من هذه الحركة موقفاً سلبياً ، بل لا نغالى إن قلنا إنهم وقفوا منها موقفاً عدائياً فى بعض الأحيان ، فكانوا — على حد تعبير المستشرق لولرز — « يسخرون من المصريين الذين تعلموا فى أوربا ، ويقولون إنهم تعلموا تعليماً سطحياً ، وهم كالطائر الذى يحجل ويتهادى فى مشيته دون أن يحسن الطير » ؛ ولم يكن الدافع لهم على أن يقفوا هذا الموقف الدينُ الإسلامى أو شىء من تعاليمه — كما فهم بعض الكتاب الأوربيين — بل كان الدافع الحقيق — فيما نرى — نوع من الضيق فى التفكير أنتجه جهل القرون السالفة ، وعشق غريب للمحافظة على القديم ، واعتداد أغرب بما درسوا من كتب ، وما كان أقلها ، وما كان أتفهها !! .

ولنستمع إلى ما وصف به مستشرق فرنسى عاش فى مصر فى عصر محمد على موقف هذه الغالبية من شيوخ الأزهر من الكتب المترجمة فى المدارس الجديدة .

هذا المستشرق هو « الدكتور برُّون Dr. Perron » ، وقد كتب إلى صديقه « جول مول » — سكرتير الجمعية الأسيوية — خطاباً عن مدارس محمد على ومطبعته ، قال فيه :

« وهل تعتقد يا صديق أنهم (أى شيوخ الأزهر) يقرأون كتبنا (أى الكتب المترجمة) ؟ لا ، فإنهم يتحاشونها ، ولكن من السهل أن يتهم الإنسان قبل أن يستمع ! وكتبنا هذه مثلها مثل التوراة والإنجيل ، فالشيوخ يتحدثون دائماً عنهما ، وليس بينهم من قرأ منهما سطراً واحداً » .

ثم روى (برُّون) أنه كان مرة فى ضيافة الشيخ الجوهرى ، وفى صحبته صديقه وأستاذه الشيخ محمد عمر التونسى ، وكانت المائدة تضم عدداً آخر من شيوخ الأزهر ؛ وفى هذا الاجتماع دارت بين (برُّون) والشيوخ مناقشة طريفة حول رأيهم فى الكتب المترجمة ، ننقلها كما رواها (برُّون) نفسه ، قال :

« وبعد تناول العشاء ، وبين القهوة والشبك ، تحدثنا عن الدراسة والمدارس ، فقال شيخى التونسى بعض كلمات عن الكتب التى راجعها وصححها فى مدرسة الطب ،

فسألني شيخ من الحاضرين عن ماهية الكيمياء[1] الحالية في أوربا ، لأنهم هنا لا يفهمون من لفظ « كيمياء » إلا فن تحويل المعادن إلى ذهب ... وقد حدثتهم عن الكيمياء حديثاً مختصراً ، فانبرى واحد من الشيوخ وقال : « وما فائدة هذه العلوم الدنيوية ؟ لنخش الله ، هذا كل ما يجب على الإنسان » ! وكأن هذا الشيخ كان يريد بهذه الكلمات أن يزيد في قيمة ورعه ، ويبرز شخصيته التقية الدينية ، فأخذتْ لهجة الجد وقلت له : « وماذا تعني بهذه الكلمات البعيدة عن الدين ؟ ولِمَ تهين هؤلاء العلماء الحاضرين بيننا ، وكلَّ العلماء الذين يعتز بهم الإسلام منذ ظهر في العالم ؟ إنك ترى أن دراسة العلوم غير الدينية جهد لا طائل تحته ، وإذاً فدراسة الشعراء العرب القدامى وأخبار الجاهلية أمر لا فائدة فيه ، بل هي دراسة خطرة ! إني أقدم لك ثنائي الخالص لأنك تجيد مدح الجهل ، وأنت أيضاً — فوق ما تظن — تلميذ من تلاميذ الجاهلية ، قل لي : أتعرف ما هو الله ؟ أليس الله سبحانه هو المعرفة كل المعرفة ؟ وهل تتكرم فتوضح لي أيضاً : أيهما أقرب لذات الإلهية ، الجاهل أم العالم ؟.

فأجاب الشيخ : « ولكن دراسة العلوم الإنسانية تقود إلى الإثم » ! فقال برُون : « إن دراسة العلوم الإنسانية تؤدي بالإنسان المفكر إلى الإعجاب بأفعال الخالق ، وإلى إكبار عجائب العالم والعقل الإنساني ! تُرى هل أضاع علماء الإسلام وقتهم وارتكبوا إثماً عندما توفروا على دراسة الشعراء الجاهليين لكي يصلوا إلى تفسير القرآن ؟ إنهم إن ظلوا مثلك وحكموا حكمك ، فمن منكم كان يستطيع فهم القرآن اليوم ؟... وذلك العالم الذي كان يحمل اسماً شبيهاً باسم مضيفنا النبيل ، والذي قضى عشر سنوات من حياته — على الأقل — متنقلاً بين القبائل العربية في الصحراء لجمع مفردات اللغة العربية لإنشاء قاموسه « الصحاح » ! هذا الجوهري ، هل كان مجنوناً أو كان غير مسلم أو مؤمن ؟ » .

ثم ختم برون حديثه بجملة خطابية ، قال : « سادتي : إني أنصحكم أن تقلدوا هذا الشيخ في خوفكم وخشيتكم من الله ، وعند ذلك يمكنكم أن تتأكدوا أن الإسلام سيخطو نحو الانحلال خطوات سريعة ! إن مدح الجهالة هو أخطر علامة على التأخر الاجتماعي .. »

وأخيراً ذكر برون أن مضيفه الشيخ الجوهري قد أبدى سروره بهذا الحديث ، فكان يرمق مناظره في ابتسام دون أن يقول كلمة واحدة . أما هذا المناظر فلم يعقب على حديث برون بكلمة واحدة ، بل انتقل إلى آخر المجلس ، ثم انسحب بعد ذلك دون أن يشعر أحد بانسحابه .

قد يكون برون مبالغاً في وصف ما حدث ، وقد يكون في حديثه غلو في اتهام الشيوخ ، وفي اعتداده بنفسه وبعلمه ، بل إننا نتهمه بهذه المبالغة ، وهذه المغالاة ، فقد كتب في خطاب آخر لصديقه يحدثه عن تفكيره في طبع القاموس المحيط في مطبعة بولاق ، وهنا انتهز الفرصة أيضاً فبالغ في وصف شيوخ الأزهر بالجهل الشديد ، فقال : « وليس هناك في القاهرة ولا في مصر كلها عشرة علماء يقتنون هذا القاموس ، بل ليس هناك عشرة علماء يعرفون كيف يستعمل القاموس » ، ثم ختم خطابه بجملة فيها تهكم مرير ، قال : « فلنعط إذاً قاموساً للعلماء :

Donnons donc un dictionnaire aux Ulémas.

وهذه مبالغة من « برون » ينكرها الواقع نفسه ، فهو عندما وفد إلى مصر تتلمذ على شيخين جليلين من شيوخ الأزهر ، هما : الشيخ محمد عياد الطنطاوي ، والشيخ محمد عمر التونسي ، وبفضلهما تقدمت معرفته في اللغة العربية ، وعندما فكر في طبع القاموس كان كل اعتماده في المراجعة على الشيخ التونسي ، وعندما فكر المستشرق الإنجليزي « لين Lane » في ترجمة القاموس إلى اللغة الإنجليزية لم يجد من يعينه على فهمه ومراجعته على القواميس والمعاجم

(١) يلاحظ أن برون كان أستاذ الكيمياء في مدرسة الطب المصرية في عصر محمد علي ، ثم ناظراً لهذه المدرسة ، وقد ترجمت محاضراته في الكيمياء وصححت بمعرفة الشيخ محمد عمر التونسي ، وطبعت في مطبعة بولاق .

الأخرى غير شيخ من شيوخ الأزهر هو الشيخ إبراهيم الدسوقي .

وهـذا هو الشيخ العطار وتلاميذه كانوا من المعجبين بالحركة القارئين لكتبها ، بل لقد كان أنبغ من ظهر من تلاميذ المدارس والبعثات هم من أخذوا من تلاميذ الأزهر وشيوخه ، وطائفة المحررين والمصححين للكتب المترجمة كانت كلها من شيوخ الأزهر ؛ ولم يكن انحراف المشايخ عن المدارس الحديثة تاماً كما وصفه « برون » ، بل لقد ابتعد بعض الشيوخ بأولادهم عن الأزهر وأدخلوهم المدارس ، فأدخل الشيخ سالم عوض القنياتي ابنه سالم سالم (الدكتور سالم باشا سالم فيما بعد) مدرسة الطب ، وأخذ الشيخ نصر الهوريني ابنه سعيداً (الدكتور سعيد باشا نصر فيما بعد) معه في بعثة سنة ١٨٤٤ إلى فرنسا .

هذه أمثلة مختلفة لا تنفي اتهام « برون » ولكنها تخفف من حدته . ونستطيع أن نستخلص مما سبق أن الدائرة العلمية القديمة ، ونعني بها الأزهر وشيوخه ، لم تقبل على الكتب المترجمة الإقبال الكافي ، بل لقد أقبلت فئة قليلة من الشيوخ على قراءة بعض هذه الكتب وفهمها ، وأعرضت الفئة الكثيرة عنها ، إما حذراً وإما كرهاً — شأن الإنسان في كل مجتمع ونظرته إلى كل جديد واعتداده بكل قديم — بل لعلنا نستطيع أن نلتمس لهؤلاء المعرضين العذر من أن العدد الأكبر من الكتب المترجمة كان كتباً علمية بحتة ، تبحث في التشريح أو الأمراض وعلاجها أو الهندسة الوصفية أو الكيمياء الحديثة .. الخ .. وفهم هـذه العلوم كان يحتاج إلى أسس من المبادئ الأولية لم تتح الفرصة لشيوخ الأزهر لتلقيها .

وهنا قد يدفعنا البحث إلى التساؤل : هل كان محمد علي محقاً عند ما ترك معاهد العلم القديمة كما هي وأنشأ إلى جانبها المدارس الحديثة إنشاء جديداً ؟ وإذا كان محقاً في تصرفه هذا فهل كان محقاً أيضاً عند ما ترك التعليم القديم على قدمه ، أم كان من الأفضل أن يحاول تطعيمه بشيء من البرامج والدراسات الجديدة حتى تستطيع هـذه المعاهد القديمة أن تقترب — مع مضي الزمن — شيئاً فشيئاً من المعاهد الجديدة ، وحتى يأتي وقت يتقابل فيه القديم والحديث ؟

وأخيراً : هل كان ينجح محمد علي لو حاول واحدة من هاتين المحاولتين ؟

هـذه ألوان من الأسئلة يثيرها البحث ، ولكننا نجد الإجابة عليها عسيرة ، لأن هـذه الإجابة تتطلب البحث فيما يجب أن يكون لا فيما كان .

وغاية ما نستطيع أن نقرره ، أن هذا الجمود من شيوخ الأزهر وقف بهم وبمعهدهم عن السير مع القافلة ، فتركزت العناية بالعلوم الحديثة وبالكتب المترجمة ، في المدارس الجديدة وتلاميذها ومدرسيها وخريجيها ، وبدأوا بهذا يحتلون مقام الزعامة الفكرية في مصر ؛ ويقول الدكتور برون : « والآن ينبثق من بين تلاميذنا قوة علمية ، هذه القوة لو استمرت نحيا بعض الوقت ، فإنها تستطيع أن تتغلب على معتقدات العلماء (يقصد الشيوخ) العلمية وأن تقضي على طريقتهم المدرسية العتيقة ، وتلاميذنا الآن — نتيجة الثقة التي أكسبتهم إياها دراساتهم التجريبية في العلوم الصحيحة — يحاربون الكتب القديمة وآراء العلماء البالية ، أولئك العلماء الذين يعتقدون — في قرارة أنفسهم — أن الرأي القاطع في العلوم هو ما ورد في كتبهم العربية » .

مهدت إذاً المدارس الجديدة — وحركة الترجمة بوجه خاص — السبيل للأفندية كي يخلفوا المشايخ في الزعامة الفكرية في مصر ، فماذا فعل الأفندية لنشر الثقافة بين الشعب ؟ .

عاشت الحركة الثقافية في عصر محمد علي نحو عشرين عاماً ، كان الجهد في خلالها متجهاً كله إلى الترجمة فقط ، ولم يجد تلاميذ المدارس ومدرسوها وخريجوها الفراغ الكافي ليستجيبوا للثقافات التي تلقوها فيؤلفوا ، كذلك كانت ترجمتهم تصطبغ بالصبغة الرسمية ؛ فهم — إن صح التعبير — كانوا مترجمين محترفين لا هاوين ، يترجمون ما يؤمرون بترجمته لا ما يريدون ترجمته ؛ وما يؤمرون

بترجمته كان علماً خالصاً ، لايستطيع القراء المصريون العاديون — على ندرتهم — أن يقرأوه أو يتذوقوه ، وهم إن فكروا فى قراءته لا يستطيعون فهمه .

كان الواجب إذاً أن يؤلف « الأفندية » للشعب أو يترجموا له ، ولكنهم لم يفعلوا للأسباب السابق ذكرها؛ ولهذا كان تأثير حركة الترجمة — فى عصر محمد على — فى المجتمع المصرى ضئيلاً جداً ، إن لم يكن منعدماً .

وعندما أنشئت مدرسة الألسن كانت كتبها التى ترجمت فى العلوم الاجتماعية المختلفة من تاريخ ورحلات وجغرافيا وأدب ، أقرب إلى ذهن القارئ العادى وفهمه ، وكان من الممكن أن تؤثر هذه المدرسة وخريجوها التأثير الطيب فى ثقافة الشعب المصرى لو امتد بها العمر ، ولكنها ألغيت بعيد موت محمد على ، وتشتت خريجوها موظفين فى المصالح والدواوين المختلفة ، وكانت نكسة تحت عصرى عباس الأول وسعيد ، ولكن الأثر الأول للمدرسة لم يخمد ولم يمت ، بل كان مستقراً مستجناً فى نفوس تلاميذها ؛ فلما استؤنفت النهضة فى عهد إسماعيل كان هؤلاء التلاميذ هم عدتها وعمدها ، فانطلقوا يترجمون من جديد ، بل لقد خطوا الخطوة الثانية الطبيعية ، فانطلقوا يؤلفون . وعاد إليهم أستاذهم رفاعة فانضووا تحت لوائه يعمل ويعملون من جديد ، فترجموا معه « قانون نابليون » ، وترجم وألف محمد أبو السعود وخليفة محمود وصالح مجدى فى التاريخ والجغرافيا ، وترجم عثمان جلال فى الأدب ، وألف قدرى باشا كتبه الخالدة فى القانون ، وأنشأ أبو السعود أول صحيفة أهلية وهى « وادى النيل » .

وفى عهد إسماعيل أيضاً وضع رفاعة كل مؤلفاته ، كناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، والمرشد الأمين فى تربية البنات والبنين ، وأنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل ، والتحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية .. الخ .

التاريخ والأدب والقانون والصحافة ، هذه هى الطرق التى يستطيع قادة الفكر دائماً أن ينفذوا من خلالها إلى نفوس الشعب وعقوله ، فينشروا فيها الثقافة العامة ويخلقوا فيها الروح القوية ، وقد قام بهذا الواجب تلاميذ الألسن القدماء ، ولكن فى عصر إسماعيل لا فى عصر محمد على ، فهذا الأثر فى الواقع — وإن تأخر به الزمن — هو أثر الترجمة فى عصر محمد على ، بل لعله أقوى آثارها .

دكتور

جمال الدين الشيال

عبقرية التـــــذوق

للأستاذ عبد المنعم المليجى

حتى القدماء أن ينزلوا العباقرة منزلة تدانى منزلة الآلهة . فما عمدوا إلى ذلك إلا لفرط إحساسهم بما أنتج أولئك العباقرة ، وتذوقهم لجمال الألوان وسحر الأنغام ونبل البطولة ؛ تلك أمور غمرتهم بفيض من المشاعر والانفعالات الغامضة غير المحددة ، فأضفوا عليها وهم فى نشوة الانفعال وتيه الغموض أوصاف القدسية والربوبية ، وأضحت العبقرية من ثمة سراً لا سبيل إلى الكشف عنه ، والعمل العبقرى ظاهرة خارقة تستعصى على التحليل العلمى أو الاستقصاء الفلسفى . ولكنا نرى فيلسوفاً مثل « كنط » يخترق نطاق الأسرار ويعلن أن العبقرية بهذا المعنى لا وجود لها فى مجال الفلسفة والعلم . إنما العبقرية فيهما ظاهرة طبيعية تحتمل التفسير وتقبل التعليل . مثلهما فى ذلك مثل الفن اليدوى ، فإن الآلة المبتكرة أو الجهاز المخترع كلاهما إبداع حقاً ، ولكن ما إن يطلع المرء على تركيبه والخطوات التى مر بها والقواعد التى يخضع لها فى حركته ، حتى تتلاشى الأعجوبة وتصبح أمراً يمكن تقليده .

وهكذا يمكن تفسير أى عمل على اعتبار كونه راجعاً لعملية عقلية ، ومن ثمة يمكن انتقاله من فرد إلى آخر إن توفر العلم بعناصر هذه العملية . وما دام فى الإمكان توارث خطوات التفكير الخلاق ، واستيعاب تراث عظماء المفكرين ، وهضم ما توصلوا إليه من أفكار مستحدثة ، فليس ما يمنع أن يتحقق التقدم الفكرى المطرد ، دون أن يكون هذا التقدم رهناً بوجود عقليات خارقة العادة ، فالتقدم فى جوهره إبداع طبيعى معقول ، وليس خلقاً من لا شىء ، وفوق ذلك فهو نتاج التفاعل بين من نسميهم عباقرة وبين أولئك الذين يدركون إنتاج العباقرة ويتذوقونه ويستغلونه .

وهكذا إن جاز لنا أن نقدس العباقرة فلا يجوز أن يتضمن هذا التقديس الظن بأنهم يخلقون التقدم أو يصنعون التاريخ ، إنما التقدم والتاريخ من صنع الجموع المبدعة والمدركة للإبداع على حد سواء .

أعجب « كنط » أيما إعجاب بتصور « نيوتن » للعالم الطبيعى ، وأطال التأمل فيما ينطوى عليه من تجديد وإبداع . ومع ذلك لم يأل جهداً فى إنكار العبقرية — من حيث هى عمل خارق — فى مجال العلم . وآية ذلك أن « نيوتن » قد عرض علمه على الناس ، ووجد هذا العلم سبيله إلى أذهان القراء ، حتى لم يعد سراً خافياً ، إنما أصبح ملكاً مشاعاً للجميع الذين بوسعهم أن يستغلوه فى فتوح علمية جديدة . وما يصدق على العلم — فى نظر « كنط » — يصدق على الفلسفة بدورها . فكل ما يعتبر فتحاً جديداً من مذاهب الفلاسفة يمكن أن ينتقل إلى اللاحقين من الفلاسفة ، لأن المذاهب — أيا كانت — مكتسبات عقلية يمكن البرهنة عليها خطوة خطوة ، ويمكن للأتباع أن يتصوروها تصور العباقرة الذين ابتدعوها .

أين إذاً تلك الهوة التى لا تعبر بين ذلك الذى يستقبل وذاك الذى يبدع ؟ لقد محاها « كنط » فى مجال الفن اليدوى أى الاختراع ، وفى مجال الفلسفة ، وفى مجال العلم . ولكن ما ينكره هنا يثبته فى مجال الفن الجميل . وحجته فى ذلك أن العمل الفنى ليس خاضعاً لتسلسل عقلى موضوعية تسلسلاً يمكن حدوثه من جديد على نحو حدوثه فى الفنان العبقرى . فالعمل الفنى غير محدد تحديداً موضوعياً كالمذهب الفلسفى أو القانون العلمى ، إنما هو متوقف على الفنان ذاته ، ولا يمكن لأقرب الناس إليه ، وأكثرهم فهماً وتذوقاً لإنتاجه ومعرفة بالخطوات التى مر بها ، أن ينتج نفس ما أنتجه . يعجز عن ذلك لا الأوساط من الناس فحسب ، بل وكبار الفنانين أيضاً . أجل إن الفنان الصادق لا يستطيع أن يجيد

في نفسه خطوات المنهج الذي سار عليه غيره من الفنانين الخلاقين . ذلك أن العمل الفني ليس شأن العلم أو الصنعة أو الفلسفة التي يمكن تفسير الإنتاج في كل منها تفسيراً عقلياً شاملاً . وفي حين يمكننا تعلم الإنتاج في هذه الميادين ، يمتنع علينا أن نتعلم قيم الخلق الفني ، وهـذا ما يجعل التقدم في ميادين العلم والصنعة والفلسفة ممكناً ، في حين لا معنى للتقدم ولا محل له في الفن . فالفن هو هو في جميع العصور وعند جميع الأجناس . فلا يقال إن هذا الفن أسمى من ذاك ، وهذا أكثر تقدماً من ذاك إن كان فناً بمعنى الكلمة ، أعني إن كان فناً عبقرياً . وإن التفاوت بين المنتجات الفنية ليس تفاوتاً في القيمة الفنية ، بل في خاصية الابتكار .

وهكذا نرى أنفسنا مسوقين إلى فكرة « مارسل بروست » ، فكرة تكافؤ العبقرية على مر العصور وفي مختلف البقاع ، أيًّا كان المظهر الذي تتجسده : شعراً كان أو رسماً أو تمثالاً أو نغماً .

• • •

ومهما يكن من تفرقة « كنط » بين الإبداع الفني والفلسفي وبين الإبداع الفني ، فهو قد قرب الشقة بين العباقرة وبين المستنيرين من البشر ؟ بل هو قد عقد الصلة الوثيقة بين عبقرية الإنتاج وبين عملية تذوق ذلك الإنتاج . وقد أمعن الفيلسوف الإيطالي « بندتو كروتشي » في هذا الاتجاه ، إذ جعل للتذوق عبقرية تقوم إلى جانب عبقرية الإنتاج . فإذا كان الإنتاج يتفاوت فنيا بما يكشف عنه من عبقرية ، كذلك التذوق يتدرج من الإحساس الساذج بجمال الإنتاج العبقري ، إلى البصر النافذ والتقدير العميق .

على أن التذوق ليس مجرد قبول سلبي ، أو فهم بسيط ، إنما هو عملية معقدة بدورها تعقد الإنتاج ذاته . وهو ينطوي على أصالة يتفاوت حظ الأفراد منها . فإن تقدير المرء لعمل فني ليس مجرد انطباع لهذا العمل في ذهنه ، بل العمل يثير من المشاعر والأحاسيس ، والأخيلة والأفكار ، التي تختلف من فرد إلى آخر من حيث العمق والخصب . وعليه فليست الرابطة التي تربطنا بالعبقرية هي القرابة الصادرة عن استشعارنا العجز إزاءها ، بل هي على العكس من ذلك قدرة فينا على الخلق تتجاوب مع الإنتاج العبقري ، وتتحد في مجال روحي واحد ، وتلتقي عند نقطة واحدة ، هي نقطة التذوق . ليست الأصالة نصيب المنتج فحسب ، بل هي نصيب المدرك والناقد أيضاً .

والحق أن قيمة العبقرية ليست منحصرة في الإنتاج العبقري وحده ، بل هي كامنة فينا أيضاً ، كمون النار في الحجر الصوان ؛ وإنا إن عجزنا عن الإنتاج الفني ، فقد لا تعوزنا القدرة على التقدير الفني . وإنا لنفقد أصالتنا ، ونبدد ما في أعماقنا من مصادر الإبداع ، ونطمس نفحات الإلهام في انسيابنا الأحمق مع تيار الحياة اليومية ، واستسلامنا المقوت للمشاغل المبتذلة والاهتمامات التافهة . وبوسعنا — لو أردنا وعزمنا — أن نكشف عن آفاق خافية يتراءى لنا فيها من الأفكار والمشاعر ما ينير — ولو إلى حين — ظلام الحياة الجارية . وهل للعبقرية وجود ، إن لم تكن ثمة نفوس تهفو إليها ، وتسامى ، وعقول تنفذ إلى أصالتها لتقدرها وتنوه بها ؟!! وهل يمكن للعبقري أن يبدع إن لم يكن ثمة من يمس أصالته بأصابع الإلهام السحرية ! ما أصدق « رينان » الفيلسوف الفرنسي حين أراد التعبير عن هذه الفكرة بدعائه الذي رتله في محراب الديموقراطية : « أيتها الشرعة ، يا مصدر العدالة ، أيتها الديموقراطية ، إن عقيدتك الأساسية أن كل خير يأتي من الشعب ، وأنه حيث لا يوجد شعب يذكي العبقرية ويلهمها فلا يوجد شيء ؛ علينا كيف نلتقط الجوهرة المكنونة في غمار الجموع الغفل » .

عبد المنعم المليجي
مدرس علم النفس بمعهد التربية



في دوائر الأدب والفن

مصر والحياد – أزمة الفلسفة الحديثة – رمزية

للأستاذ غائب طعمة فرمان

مصر والحياد :

نظم اتحاد الجامعة مناظرة حول (هل من مصلحة مصر أن تتمسك بالحياد ؟) ، وكان الأستاذ فكرى أباظة باشا ، والأستاذ محمد هيكل ، والآنسة ثريا الحكيم يؤيدون تمسك مصر بحيادها ، وكان يعارض هذا الرأى الأستاذ حسين كامل بك ، والآنسة ثريا الجبالى ، والأستاذ ثروت أباظة ، وقد اشترك فى المناظرة معالى الدكتور محمد صلاح الدين بك .

وبدأ الأستاذ محمد مبروك نافع الكلام قائلاً : إن إقامة مثل هذه المناظرة وفى رعاية وزير خارجية مصر لدليل رائع على أن مصر تتفيأ بأفياء الحرية الجميلة .. ثم حيا الوزير وشكره على حضوره .

وأعطيت الكلمة للآنسة ثريا الحكيم ، غير أن معالى الوزير وقف قائلاً : « الظاهر أننا بلغنا من الديمقراطية مبلغاً يصبح فيه الوزير على الهامش ! وإلا فكيف توجه إليه كلمات الشكر ، ولا تتاح له فرصة الرد ؟! » ، ثم قال معاليه : « والشكر يوجه إلى اتحاد الجامعة ، فهو الذى نظم الاجتماع ، وحرصتُ أنا على حضوره مستمعاً » .

وتكلمت الآنسة ثريا الحكيم فاحتجت على أن تعطى لها خمس دقائق ، بينا تعطى لفكرى أباظة باشا خمس عشرة دقيقة ! أى أنها تساوى ثلث الباشا بياناً وسناً ، فقاطعها الأستاذ فكرى باشا قائلاً : « بل حجماً !! » . ومضت الآنسة تقول : « إن مصر قدمت لانجلترا تضحيات كثيرة ولم تلق رداً على تضحياتها إلا الجحود المنكر ، فهى تؤجل الجلاء دائماً ، وتماطل فى وحدة الوادى ، وتعرقل المفاوضات الاسترلينية .. فلن نعود إلى محالفتها ثانية فنتحمل الخسائر ، فلسنا عبيداً ، ولكنا أحرار .

وعارضت الآنسة ثريا الجبالى هذا الرأى قائلة : « لقد كنا محايدين فى الحرب الأخيرة حتى عام ١٩٤٥ وبلادنا تدوسها الأقدام الإنجليزية ، وأرزاقنا نهب القوات الإنجليزية .. فما أفادنا الحياد .. يا إخوان اهبطوا إلى عالم الحقيقة ! » .

وتكلم الأستاذ هيكل مؤيداً الحياد فقال : إننا لن نكون الحصان الذى يجر العربة .. ثم إن العدوان مع التكتل حتمى ، والعدوان مع الحياد فرض جائز .

ثم تكلم الأستاذ فكرى أباظة باشا قائلاً : إن هذه المناظرة دسيسة .. بل دسيستان : إحداهما إيقاد الثورة وإشعال النار فى دار الحكمة .. دار السلام .. والأخرى أن رئيس المناظرة الدكتور صلاح الدين بك فتنة بشخصه .. فتنة موهوبة أخاذة .. ومع ذلك فإن الحياد سينتصر لأن رئيس المناظرة محايد ، ولأن المناظرة كذلك تجرى فى أرض محايدة ، فلا هى فى الجامعة المصرية ، ولا هى فى الجامعة الأمريكية !.. » ، ثم قال : « إلى أى المعسكرات نتحاز ، أإلى الاستعمار البريطانى ، أم إلى المعسكر الأمريكى الرأسمالى ، أم إلى روسيا الشيوعية .. ثم إن لدينا فى الداخل ما يشغلنا لصالح بلادنا وخيرها العام .. ونحن لا نفيد من تكتلنا شيئاً » .

وظل يتحدث ما يقرب من خمس عشرة دقيقة ، وفطن — أخيراً ! — إلى أن وقته قد أوشك أن ينفد فقال : أرجو أن يحذف وقت الضحك والتصفيق من الوقت المحدد !!.. ثم قال : إن صحيفة سوابق انجلترا عامرة ؟ فى عام ١٩١٤ ضحينا فى الصحارى بمليون ونصف مليون مصرى وبكل أرزاق مصر ، فهل قبضنا الثمن ؟! ، وفى عام ١٩٣٩ سرنا فى ركاب الحرب فماذا كانت النتيجة ؟! انجلترا مدينة لنا بـ ٥٠٠ مليون جنيه ، ولكنها تظهر الإفلاس ، ثم نطالبها بحقوقنا فتتعمل الماطلة .. وفى حرب فلسطين خدعتنا حليفتنا انجلترا .. إن على مصر أن تتمسك بحيادها ، فهو صمام الأمن » ، وختم كلمته قائلاً : « نداء الحكمة ، ونداء العقل ، ونداء الصراحة هو الحياد ! » .

وتكلم الأستاذ حسين كامل سليم بك عميد كلية التجارة فقال : « إن مصر ليست محايدة فعلاً فى حربها فى فلسطين وفى مسألة أندونيسيا والجامعة العربية .. والدول التى التزمت الحياد فى الماضى أصابها الضرر ، وإن نجاة دولة محايدة يقابله سقوط عشر دول .. إذاً فالأجدر أن نتكتل وخير تكتل هو أن يكون مع الدول العربيـة مثلاً ، فهو خدمة لنا كما هو خدمة لغيرنا » .

واستشير الحاضرون فى المسألة فكانت الغالبية مع الحياد !!.

أزمة الفلسفة الحديثة :

أصدر الفيلسوف الفرنسى (دوبنيك بارودى) كتاباً بعنوان « فى البحث عن الفلسفة » أوضح فيه مشاكل الفكر وأزماته الحاضرة ، وأبان الفوضى الظاهرة فى العلم والعقل وأثرها فى السلوك الأخلاقى ، وتزعزع الإيمان . وقد نشرت مجلة (العلم العربى) السورية تلخيصاً وافياً لهـذا الكتاب أعطانا صورة واضحة لتلك الأزمة المستحكمة فى العلم والعقل والاعتقاد والأخلاق ..

يقول بارودى : إن أزمة عامة تجتاح التفكير الفلسفى المعاصر ، وتظهر فى كل من العلم والعقل والاعتقاد والأخلاق ! .

فالمذهب الوضعى فى العلم قد أخفق إخفاقاً نهائياً ، إذ ليس من يدعى اليوم أنه يكفى أن يغمض العين عن بعض المشاكل حتى نهملها ! .. وهذه المشاكل لا تظهر فى مجال الفلسفة العامة وحدها ، وإنما هى فى صميم العلم نفسه ، ذلك لأن العلم كما بين (ميرسون) لم يقتصر فى تاريخه على ملاحظة الحوادث واستخلاص علاقاتها المتبادلة ، إنما حاول أن يفهم ويفسر .

وإذا قيل إن العلم تجريبى فى جوهره يخضع للتحقيق ، قلنا إن وسائل التحقيق نفسها لا تخلو من الاصطلاح .. فالعالم لا يتردد فى تعقيد القانون أو المبدأ الذى يفسر به بعض الظواهر بأن يلجأ إلى فروض ثانوية .. وعندما تحقق هذه الفروض المعقدة نجد أن ثورة علمية تهب لتستبدل مبدءاً جديداً بالمبدأ الذى كان موثوقاً به .. وهكذا انتقل العلم من نظريات بطليموس إلى نظريات كوبرنيكوس ، ومن عالم نيوتن إلى عالم إنشتاين ، ومن الميكانيكا المتصلة إلى ميكانيا الكم ..

ثم قال : إن أزمة العقل امتداد لأزمة العلم ، وهى تظهر فى الثورة على المذهب العقلى التقليدى ، ويبدو أن فى فكرة وصول العقل إلى معرفة موافقة كاملة تناقضاً حتمياً ، إذ أن الفكر فى نزوعه إلى الوحدة وإلى إرجاع الجديد إلى القديم المعلوم ، والمختلف إلى المتشابه ، والكيف إلى الكم ، لا بد من أن يصطدم بعقبات تقاوم منهجه ، لأن الواقع ملئ بالمختلف وغير الضرورى وغير المعقول !!.

لقد ظن بعض المفكرين أن إخفاق العلم والعقل راجع إلى الاعتقاد والدين ، ولكن نظرة واحدة تكفى لإفهامنا بأن الدين فى أزمة تشابه أزمة العلم والعقل ، فالتفكير الكاثوليكى المعاصر يدور فى دائرة مفرغة .. فالذى يؤمن به هارباً من العقل يجد فيه إلى جانب الصوفية ناحية ذهنية محضة تقوم على مذهب عقلى يبقى تضمه بالتالى أمام الصعوبات التى حاول الهروب منها !.. يقال إن الفلسفة الاسكلائية تعطى العقل قيمته وتعطى للاعتقاد نصيبه ، ولا تناقض بينهما ،

غير أن من اليسير أن نلاحظ التناقض بين الناحية الدينية البحتة وبين الناحية العقلية الأرسطية التي اعتنقت عروضاً في القرون الوسطى .. فأمام الدين طريقان : إما أن يتعرض لنفس الصعوبات العقلية التي يتعرض لها المذهب العقلي ، وإما أن يتحرر من اليقينية الخاصة كما كونها التاريخ لكي يحافظ على فضيلته الصوفية !.

ويمضي بارودي فيقول : ولابد من ظهور تلك الفوضى في العلم والعقل والإيمان في مفهوم السلوك ، وأن تجتاح العالم أزمة في التفكير الأخلاقي .. فقد أصبح العالم لا يرى في الأحكام التقويمية إلا وقائع نفسية أو تاريخية أو اجتماعية .. ولكن كيف نميز نزعتنا الخاصة من الواجبات الأخلاقية !؟ صحيح أن علم الاجتماع يحاول التوفيق ويعارض القرار الفردية بقواعد اجتماعية يقررها عقل المجتمع جميعه .. ولكنها تظل نسبية تتعلق بأشكال معينة من المجتمعات .. وإلى جانب كل قاعدة عقلية في الأخلاق رافقه ميل شديد نحو رومانتيكية جديدة تتبع دستيوفسكي وكيركجورد ، ولا تشق طريقها نحو السلام إلا فيما وراء الأمانة والعقل والواجب وإلا خلال اليأس والقلق مع ميل ثالث إلى التأمل الجمالي المجرد الذي خلق نوعاً جديداً من الحساسية الميتافيزيقية !

رمزية !

نشر الدكتور بشر فارس في العدد الأخير من مجلة الكتاب قصيدة رمزية سماها (الشاطيء الحافل) جاء فيها :

أنا السيد الأعلى الشاطيء الحافل
إليه من مواغل الأرض تقبل السيارة
ذوات الرغبات الحساس
عاجزات .. حيارى
فتموت ...

وقد علقت المجلة على هذه القصيدة بقولها وإن القصيدة من النثر لا من الشعر لخلوها من الوزن والقافية .. وسواء أكانت هذه المقطوعة من عالم الشعر أو من عالم النثر فليس هذا موضع الخلاف .. وإنما الذي يعنينا إلى التعليق ما تضمنته من رموز خشينا معها أن تند عن عمود الشعر العربي !! إن الشعر معنى وشعور وموسيقى يتعاون اللفظ والأسلوب والوزن والقافية على إخراج ذلك الثالث ! ، ومقطوعة (الشاطيء الحافل) مليئة بالمعاني اللطاف والفكرة العميقة ، ولكنها لا تنحدر إلى القلب إلا بعد تمنع .. ومتى انحدرت إليه ملأته بالحيرة والإعجاب ، ولعلها لا تثير فيه هزة الطرب والانفعال !.

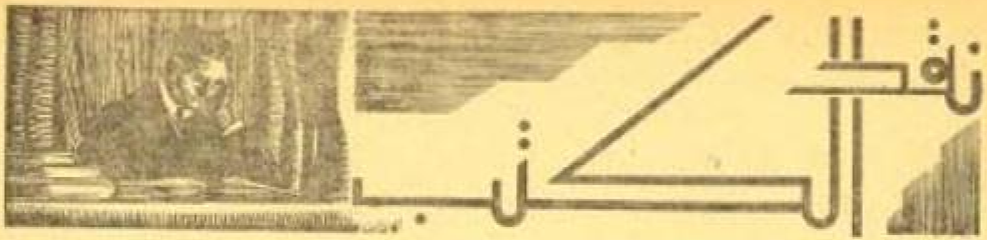
فرد الدكتور بشر فارس على ذلك بما معناه : أن التعريف المتقادم للشعر المحصور في الشكل وحده تعريف ضيق لنستبدل بالإدراك الشامل الحافل الشعر من حيث غاياته البعيدة وأسبابه القدسية ، والشاعر إنما يعمل في الظلمة .. ظلمة الخلجات ، فهو يبين بقدر ما يخلص النور إلى الزوايا .. ثم إنه التقاط أوهام تشغل الناس ولا يستوضحونها ، فهو يرسم خيالات ملامحها لبصائرهم لا لأبصارهم .

وعندي أن تحديد الشعر بما تواضع الأقدمون عليه جناية على ذوقنا الحاضر وتعسف على وجداننا العصري .. فلا شك في أن العصور الماضية كان لها ذوقها الخاص ، ووجدانها الذي خلقته ظروف بعينها .. فالمناداة بعمود الشعر العربي والمحافظة عليه خطأ فاحش .. والشعر العربي في عصوره التاريخية لم يلتزم هذا العمود المقدس ، فقد ند عنه شعراء كثيرون حتى سمعنا النقاد يشكون من أبي تمام لأنه خرج عن عمود الشعر العربي .. وبيننا وبين أبي تمام أكثر من ألف سنة . فما أجدرنا بأن نخلق مفاهيم جديدة للشعر !

أما العمل في ظلمة الخلجات — كما يقول الدكتور بشر فارس — فهو جناية على تلك الآفاق التي يحلق أن ينطلق فيها الشاعر ، ومحاولة للاقتصار على هذا الجانب المظلم ، وحد من حرية الشاعر في التعبير بسهولة ويسر .

وما فائدة التجربة الوجدانية الصادقة إذا هامت في أوهام ، وعبر عنها بتعابير لا نستشف منها شيئاً ، ولا نصل بعد إعمال الفكر وطول النظر إلى شيء !؟

غالب طعمة فرمان



بين السطور

تأليف الأستاذ محمد عبد الغني حسن — ٢٠٦ صفحة — دار الفكر العربي — ١٩٥٠

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

ليس مؤلف هذا الكتاب مجهولاً ، فهو شاعر كاتب أديب ، له عدة مؤلفات وعدة دواوين من الشعر . وقد عرفه القراء إلى جانب شعره ومقالاته ناقداً للكتاب العربي الذي يظهر حديثاً في مصر أو في الشرق ، حتى اشتهر بالنقد وعرف به . بدأ بهذه الصناعة الشاقة في مجلة المقتطف ، ثم في الرسالة ، ثم في مجلة الكتاب . وهو الذي يكتب في آخر كل عام في مجلة الكتاب الإحصاء عن الكتب العربية التي أخرجتها مجلة المطابع .

والكتاب الأخير الذي جعل عنوانه « بين السطور » ، هو كما يقول صاحبه « نظرات نقدية لطائفة من الكتب أخرجتها المطبعة العربية في بضع السنوات الماضية » . وتزيد هذه الطائفة على ثلاثين كتاباً ، صنفها صاحب بين السطور إلى كتب في الأدب والنقد ، وفي التربية والفكر ، وفي الفلسفة ، وفي بعض المخطوطات المنشورة ، وفي دنيا التراجم ، وفي دواوين من الشعر ، وفي مطالعات شتى .

وليس لنا اعتراض على التصنيف في ذاته ، غير أننا نعترض على وضع بعض هذه الكتب في أصنافها ، مثال ذلك محمد عبده ، فقد وضعه مع الفلاسفة ، وكان الأليق أن يجعله في دنيا التراجم .

وقدم الأستاذ عبد الغني لهذه الطائفة من النقدات بمقدمة قصيرة كنا نود أن تطول ، وأن يضرب فيها إلى صميم موضوع النقد ومبادئه ، حتى نتبين القواعد التي اهتدى عليها في النقد . فهو يقول في المقدمة : « وهو قد كان الحق والإنصاف دائماً أكبر دوافعه ، وكانت الغيرة على التحقيق العلمي والنشر الدقيق أول بواعثه » . هذا كل ما نجده عن بواعث النقد ؛ أما عن قواعده فقد أطال بعض الشيء في الكلام على نشر المخطوطات . قال : « وقد أطلت النقد في تحقيق المخطوطات المنشورة ، وتتبعت من المآخذ ما قد يظنه القارئ العادي عملاً لا غناء فيه . ولكني أرجو أن يجد الأديب المتمكن في هذا العمل حرصاً على التراث العربي أن يخرج على ما أراده له أصحابه المؤلفون الذين قرحوا جفونهم وسهدوا عيونهم في إخراجه . فلا محل بعد ذلك لأن يخرج الشعر مكسوراً ، أو النص محرفاً ، أو اللفظ مشوهاً ، ثم نزعم بعد ذلك أننا نحيي تراثاً ، أو ننشر ميراثاً . ويخطئ الذين يهونون من قدر التصحيح العلمي واللغوي والتاريخي والشعري في المخطوطات المنشورة ، أو الكتب التي تزدحم بالنصوص ؛ فإن الاستهانة في هذا السبيل ليست من مصلحة الكتاب العربي ، الذي نرجو له أن يبلغ من الثقة والتحقيق ما بلغه الكتاب غير العربي . ولا أعاد الله أيام الناشرين الأولين الذين كانوا يتجرون بالتراث العربي ، فأخرجوه على وجه سقيم لا ينفع علماً ، ولا يفيد فهماً » .

فأنت ترى أن الناقد الفاضل يعنى عناية عظيمة بتصحيح الأخطاء اللغوية ، حتى يخرج الكتاب خالياً من الأخطاء . وقد عاب على الأستاذ الشايب في كتابه تاريخ النقائض وجود أخطاء مطبعية فقال : « ولا أدري والله ألوم الأستاذ

الشايب أم أوم الناشر ، حين ازدحم هذا الكتاب الجليل بأخطاء ما كان ينبغي لها أن تكون . وإذا جاز ذلك في قصة أو مقال عابر أو في لغو الكلام الذي نقرؤه هذه الأيام ، فهل يجوز في كتاب جامعي وبحث رفيع أدبي ... » وقد أخذ على أحد المؤلفين رسمه ابن مسكويه بالتاء وهي بالهاء . وغير ذلك كثير .

وسوف نؤاخذ الأستاذ عبد الغني على أخطائه التي وردت في كتابه بنفس الميزان الذي أخذ به في نقد غيره . لأننا نفهم أن هذه الأخطاء لو وقعت من أديب ناشئ ، أو كاتب لم تكن اللغة صناعته لاغتفرناها له ، ولكنها صدرت عن عبد الغني حسن ، وهو من هو ، تفقهاً في اللغة ، ومعرفة بأسرارها ، وحرصاً على سلامتها .

يقول في صفحة ١٨٨ عند الكلام على كتاب مرايا الناس للسيدة وداد سكاكيني : « فذلك ما لا يعنيهم » ونحن لا نعرف أن لا النافية تدخل على الأسماء ، والعين المسبوقة بحرف الجر ، وأظن أن الصواب هو « ما لا يعنيهم » من عنى يعنى .

وفي صفحة ١٥٠ عند الكلام على كتاب البحتري للدكتور محمد صبري « والشرفة من من القصر ما أشرف من بنائه » وقد أدمنت النظر في هذا النص ، وقلبته على وجوهه ، أتكون « مَنْ » الأولى اسماً والثانية حرف جر ، فيكون المقصود الذين في الشرفة من القصر . ولعلها خطأ مطبعي جاء من تكرار اللفظ ، وسهو المصحح . وهو الأغلب .

وفي صفحة ١٥١ « فيقو : رباح جيشنا » وليست « يقو » لغة في يقول ، ولكن اللام قد سقطت من الطبعة .

إني لأعرف في عبد الغني يقظته الشديدة ، وحرصه العظيم على الكمال ، والعناية الفائقة بالتصحيح ، ومع ذلك لم يخل كتابه من أخطاء مطبعية لا تغيب عن فطنة القارئ . وهذا عيب الطبعة المصرية ، فقل أن يخلو كتاب من خطأ من هذا القبيل . وهذه مشكلة الطباعة العربية ، يرجع أعظم العيب فيها إلى جهل الذين يصفون الحروف أو يجمعونها وإلى امتلاء البروفات بالأخطاء مما يضيق به صدر مؤلف الكتاب . هذا إلى صعوبة الرسم في الحروف العربية مما دعا معالي عبد العزيز فهمي باشا إلى اقتراح كتابة العربية بحروف لاتينية . وأحسب أن دور النشر في مصر مسئولة عن الأخطاء أكثر من مسئولية المؤلف . وقد اشتغل بصناعة الوراقة قوم من الجهلاء ، لا يعرفون للعلم منزلته ، ولا يطلبون إلا الربح من أي سبيل ، مع أن طبع الكتب ينبغي أن ينزه عن التجارة والكسب .

ونرجع إلى صناعة النقد ، فهي لا تزال ناشئة في مصر مع عظيم منزلتها في الغرب . وقد اشتغل بهذه الصناعة أو بهذا الفن كثير من أدبائنا على سبيل الهواية ، مثل طه حسين والعقاد والمازني في الجيل الماضي ، وكانت كتاباتهم عن شوقي وحافظ بوجه خاص من الأسباب القوية التي لفتت الأنظار إلى شعرهما من جهة ، وإلى حفزهما إلى الكمال من جهة أخرى . وقد اهتم المحدثون بالنقد الأدبي والنظر في مبادئه وقواعده أو أسسه التي يقوم عليها ، وترجم الدكتور مندور طائفة من الكتب في هذا الباب . وكتب الشايب في الأسلوب والنقد الأدبي ، والزيات دفاعاً عن البلاغة ، وهي جميعاً ينصرف الكلام فيها إلى الأدب ، لا إلى الكتاب وتأليفه .

وقد اشتغلت بعض الوقت بنقد الكتب ، لأن جماعة من الأصدقاء طلبوا مني أن أكتب في ذلك ، وأعلن رأيي في تصانيفهم ، وقد كونت بعض الآراء عن طريقة النقد هي خلاصة التجربة ، وثمرة المعاناة . أولها أن القارئ يريد معرفة خلاصة يسيرة صحيحة عن الكتاب الذي تنقده ، ولذلك لابد أن يبدأ الناقد بتلخيص الكتاب وإبراز فكرته الجوهرية . وليس هذا عملاً يسيراً ، لأن تركيز مئات من الصفحات في صفحة أو أقل من ذلك قد يفسد الفكرة ، وقد يذهب برونقها ، وقد ترجع روعة الكتاب إلى أسلوبه وإلى طريقة معالجته للبحث . ولذلك أنصح دائماً بالرجوع إلى الكتاب الأصلي دون الاكتفاء بقراءة نقد عنه يوجز الفكرة وكثيراً ما يخل بها .

ولذلك أنصحك بقراءة كتاب الأستاذ عبد الغني ، لأنك سوف تستمتع بأسلوبه الرقيق ، ونظراته الفاحصة ، ولفتاته اللطيفة .

ونرجع إلى طريقة النقد فنقول : إن الناس يفهمون من النقد أنه تجريح وكشف عن عورة الكتاب وبيان مساوئه وأخطائه ، ويفهم البعض الآخر أنه تقريظ يساق فيه المدح إلى صاحبه . والنقد الصحيح ليس بالتقريظ ولا بالتجريح ، بل هو ميزان دقيق يتبين منه الناقد أحقق الكتاب الغرض المنشود أم لم يحقق ، أصاب الحق أم لم يصب ،

أسار على منهج سديد أم معوج . ولا بأس بعد ذلك أن يشير الناقد إلى الأخطاء العابرة التي وردت ، وكان في الإمكان تجنبها.

وبعد ، فليس من الممكن رسم خطة واحدة تتبع في نقد سائر الكتب ، لأن التآليف مختلفة من جهة موضوعاتها اختلافاً عظيماً ، وهذا يستتبع اختلاف طريقة النقد . وأحسب أنك لا تجرى في نقدك على طريقة واحدة حين تنقد ديواناً لشاعر ، وحين تنقد مخطوطاً نشره ناشر وحققه .

أنظر إلى ما كتبه عبد الغنى في نقد ديوان أنات حائرة للشاعر عزيز أباظة ، حيث يقول : « وقصة هذا الديوان هى قصة الدموع ، والنار الملتظية بين الضلوع » . ثم يمضى في تحليل الشعر ورده إلى نزعات صاحبه وأحواله النفسية . فهو لا يجرح ، ولا يتلمس خطأ ورد في لفظة ، كما يفعل ذلك عندما ينقد كتاباً مخطوطاً قديماً نشره ناشر .

وقد رأيت كثيراً من المؤلفين يغضبون أشد الغضب لنقد كتبهم ، ويودون لو كان النقد كله تقريظاً ومديحاً . وكان شوقى يفزع من نقد شعره أشد الفزع ، ويرسل الرسل إلى النقاد يطلب منهم أن يخففوا من غلوائهم . وإذا كان هذا الخوف مقبولاً من شاعر يعتز بما ينتجه ويفخر به ، فلن يقبل من أهل العلم الذين يطلبون الحق لذاته ، وأحسب أنهم ينبغى أن يتقدموا بالشكر إلى النقاد لمعاونتهم وإياهم على إصابة الحق ، وعلى التنويه بالكتاب وما فيه من مجهود . ولذلك لا يغضب طالب الحق من النقد بل ينوه بصاحبه ، وفى مصر بعض هؤلاء الفضلاء لم يزدهم قبولهم النقد إلا تقديراً ، والاعتراف بالخطأ فضيلة .

بقى شىء آخر هو أن النقد تنويه بالكتاب المنقود ولو كان هذا النقد تجريحاً خالصاً . وهو دليل على العناية بصاحب الكتاب . عندما كتب هيوم سيرة حياته ذكر أنه ألف « رسالة فى الطبيعة الإنسانية » وطبعها ، ووصف استقبال الناس لها فقال : « ولم تلق قط أى محاولة أدبية من سوء الحظ مثلما لقيت رسالتى فى الطبيعة الإنسانية ، فقد سقطت من المطبعة مولوداً ميتاً ، ولم تحظ بذلك القدر من الشرف الذى يثير همسات المتحمسين » .

قد تجد فى نقد الناقد شيئاً من القسوة ، ولكنه على أى حال ضرب من التقدير .

أحمد فؤاد الأهوانى



الزهرة البيضاء

هذه صورة لطيفة توضح لنا عادات الزواج في الهند ومدى تأثير المعتقدات القديمة والخرافات على أهلها ، أبدع رسمها الكاتب الهندي الحديث نارايان الذي يطلقون عليه تشيكوف الهند .

للأستاذ حسن فتحي خليل

رأى كريشنا الفتاة أول ما رآها عند صنبور الماء القائم في الشارع ، كما أنها اعتادت رؤيته هي الأخرى في نفس المكان . ولما كان من العسير عليهما أن يتعارفا رأساً فلم يتبادلا سوى بعض النظرات المفصحة عما يكنه كل منهما للآخر ، حيث إنه من غير المتبع أن يبدأ والدا الشاب بعرض الزواج ، بينما لم يخطر على بال والد الفتاة أن في إمكانه العثور على زوج لابنته عند صنبور الماء القائم بالشارع .

إلا أن صديقاً للطرفين أمكنه التوسط بينهما ، فقد كان والد الفتاة يستعد حينئذ لأن يزوجها ، فهي ستبلغ الرابعة عشرة بعد شهر واحد ، واقتنع بالتزكيات المقدمة عن كريشنا ! فهو من عائلة طيبة ، موسر ، مثقف يدرس الآداب العالية . كما أن والدي كريشنا اقتنعا أيضاً بالتوصيات المقدمة عن الفتاة ! فهي من عائلة طيبة ، جميلة ، رخيمة الصوت ، مثقفة . وحاول كريشنا خلال هذه الفترة أن يدقق النظر في ملامحها ، ولكن اجتماعهما كان دائماً لحظة خاطفة ، وكانت خواطره مضطربة وهو يتأمل لون بشرتها ويتعرف شكل أنفها محاولاً التيقن منه .. ولكنه لم يهتم بذلك ، فإن مجرد تفكيره فيها يشعره بأريج حلو يتصاعد نحوه فيستبشر بالحياة .

وجاء والد الفتاة في أحد الأيام المباركة إلى منزل كريشنا الذي استقبله واحتفى به ، وكان مضطرباً وقد اكتسى وجهه بحمرة الخجل ، فإنه مما يبعث الاضطراب حقاً أن تكون قريباً من والد الفتاة التي تتطلع في شوق إلى زواجها . وصافح والد كريشنا الرجل في إخلاص ، فخرج الابن لتوه وأسرع نحو صحن الدار .

تحدث والد الفتاة بعض الوقت عن الأمطار وأسعار الأرز والانتخابات البلدية وبعض المشروعات ، ثم أخرج قطعة من الورق اكتست أطرافها بالزعفران وقال :

« هذا هو طالع ابنتي .. وإنه ليشرفني أن نربط عائلتانا برباط المصاهرة » .

فقال والد كريشنا وهو يأخذ الورقة : وإنه ليشرفني ذلك أيضاً .

فقال والد الفتاة : هلا تقدم لي طالع ابنك ؟ .

فأجابه والد كريشنا : أوه .. ألا يمكن أن ننهي الأمر بدونه ؟ فأنا لا أعتقد في أمثال هذه الطوالع .

ولكن كان والد الفتاة من المتمسكين بالعادات القديمة ولا يمكنه أن ينهي الأمر إلا بعد أن يتيقن من أن طالعي الفتى والفتاة متفقان ، وقال إن الزواج إنما هو قفزة في الظلام ، وإنه من الضروري أن يتيقن المرء من سعادة وصحة العروسين طيلة العمر ، وهذه العوامل لا تتأتى إلا بالاطلاع على طالعيهما .

وعاد والد الفتاة بعد أيام قليلة ليقول إن هناك عيباً فى طالع كريشنا ، فإن كوكب المريخ عنده موجود فى البرج السابع ، وذلك معناه أن حياة زوجته ستكون قصيرة الأمد ، وفى إمكانه أن يذكر حوادث كثيرة مماثلة كان فيها ذلك العيب سبباً فى وفاة الزوجة بعد مدة قصيرة من زفافها ، وإنه لن يغامر بحياة ابنته . وأحس كريشنا أن النجوم والخرافات قد تحالفت على أن تصرعه .

استطلع والد كريشنا فلكياً كبيراً فجاء برأى مضاد ، فإن ذلك الكوكب الذى يقتل الزوجة قد وهنت قواه الآن .

فوعده والد الفتاة بأن يبحث ذلك الأمر ، ثم استشار فلكيه مرة ثانية ؛ فأخبره هذا أن الأمر جد خطير ، وأنه لا يأمن حتى على وضع أوراق الطالعين فى مظروف واحد . فأصر والد كريشنا على أن ذلك الكوكب أصبح عاجزاً ، وأضاف بأن الخوف من كوكب المريخ الضعيف الواهن يعد جبناً وخوراً لم يسبق له أن سمع بهما من قبل .

وكان ذلك هو نفس شعور والد الفتاة ، ولكنه كان حائراً بين رغبته فى إتمام المصاهرة وخوفه من المريخ .. وصرح أنه أصبح عاجزاً عن الاختيار ، فاقترح والد كريشنا أن يلجأ إلى الطريق العادى المتبع فى مثل هذه المعضلات .. ألا وهو أن يتركا الأمر لما يختاره الإله . فتمسك والد الفتاة بأهداب هذا الاقتراح .

وفى الصباح المبكر من يوم الجمعة ، وهو أكثر أيام الأسبوع بركة ، اجتمعوا فى المعبد .. كريشنا ووالده ووالد الفتاة وذلك الصديق الذى توسط فى الرباط بينهم ، وجاء الكاهن فأشعل المصباح الزيتى الطويل الموضوع أمام تمثال هانيومان إله القوة ، وقال الكاهن : « هلا يذهب أحدكم إلى المنزل المجاور ويسألهم إرسال ابنتهم الصغيرة إلى هنا لحظة واحدة ؟ » .

وسرعان ما وصلت طفلة فى الخامسة ، كانت تدير بصرها فى كل شىء فى دهشة وحب استطلاع .

وقفوا فى المعبد الداخلى المظلم ، وكسروا ثمار الجوز وقدموا أصابع الموز .. وحينما دقت الأجراس تصاعد لهب الكافور وداروا به حول التمثال المقدس .

وعقدوا أيديهم يبتهلون فى صلواتهم ، فلما أضاء اللهب الصنم المقدس المرتكز على الزهور دعا كريشنا الإله أن يكون اختياره فى جانبه ، وأن يجعل كوكب المريخ عاجزاً كعود من القش ، وأن يلهم الناس التعقل والمعرفة الكافيين ليروا أنه كوكب عاجز .

وتصاعدت ألسنة قليلة من النار من ذبالة المصباح ، فقال الوالدان : « إنه من فأل حسن » وحان الوقت حينئذ ليبدى الإله اختياره ، فانتزعت زهرتان إحداهما حمراء والأخرى بيضاء من إكليل الزهور المحيط بالتمثال ووضعتا على عتبة باب المحراب الداخلى .

ونادى الكاهن الفتاة ثم سألها : « هل تريدين إصبعاً من الموز ؟ »

ولم يكن هناك شك فى ذلك طبعاً .

فقال الكاهن : حسناً .. هل ترين هاتين الزهرتين ؟ خذى إحداهما وأتيني بها . فسألت الطفلة : والثانية ؟ .

قال : عليك أن تأخذى واحدة فقط .

قالت : لماذا ؟ .

قال : إن الإله لا يريد سوى واحدة فقط .. إن أتيتنى بها أعطيتك أصبع الموز .

فوقفت الطفلة هناك لحظة واحدة تتأمل الزهرتين وهى خالية الذهن من أهمية الدور الذى تقوم به كواسطة بين الخالق والمخلوق .. إنها ثم الإله الذى سيقرر إذا كان كريشنا سيتزوج من فتاته أو لن يتزوج منها ، فإن الزهرة البيضاء معناها « نعم » والزهرة الحمراء معناها « كلا » .

وأمسك الكل بأنفاسهم وهم ينتظرون فى قلق .. وانحنت الفتاة لتأخذ الزهرة .. ولم تحتمل أعصاب كريشنا هذا الإجهاد فأغمض عينيه .. ولما فتحهما .. رأى الزهرة البيضاء ملقاة على عتبة باب المحراب الداخلى .

وقال الوالدان وهما يشيران إلى الصنم : إن الإله أدرى بما فيه صالحنا .

وصعق كريشنا برهة طويلة ، وحين أفاق من صدمته كان يرجو لو أوتى من القوة ما يسمح له أن يحيل جميع الزهور فى العالم إلى زهور بيضاء .

حسن فتحى خليل

ميلاد الربيع

واسِه يا ربيع . أسْعِدْ فؤادَهْ
إنه يا ربيع يشكو انفراده
بلبل قيد الشتاء جناحيه
وأعياه أن ينال مراده
كلما همّ أن يطير تردّى
وأبت غضبة الرياح ارتياده
مزقت عشه العواصف حتى
غيبت عن عيونه أعواده
واسِه يا ربيع واعطف عليه
فالشتاء الكئيب أدمى فؤاده

* * *

... وإذا نسمة تفيض حناناً
مثل ما عاود الحبيب وداده
خفقت فهى أمنيات وطافت
فهى حلم وأقبلت فهى غاده
حملت أكرم العبير وصبت
نشر العطر والمنى والسعاده
وإذا بالرياض ماست فتوناً
وانتشت نضرةً ورقّت رغاده
وإذا الغصن هاتف . أى فجر
أعلنت نسمة الصبا ميلاده ؟
خفقت فيه كل ذات جناح
وهفت كل زهرة ميّاده
وسرى الدفءُ والحنان إلينا
وطوى الليل برده وحداده
وكأن المروج حولى بساط
فيه من كل ما يروق قلاده
وكأن الندى بتاجى ماس
لم تر الغيد قبله أنداده
فرحة فى السماء والأرض شاعت
وسرور فى الكون وشّى جماده
أى فجر ترى ؟ فقال أخوه
ذاك فجر الربيع فاغنم وداده

* * *

ضحك الكون للربيع وليداً
وبأيدى الحنان ناغى مهاده
وهفا الجدول الخفوق إليه
لم ينل قبله من الحب زاده
وتمشت من فرحهن عذارى
كنّ بالأمس شاكيات جماده
قلن ما أجمل الربيع وأنداه
وأعلنّ فى القرى ميعاده

* * *

فإذا كل عاشق يتمنى
أن يرى فى ظلاله أعياده
وإذا كل زهرة تتثنى
فى ابتسام ورقة وهواده
قد أطلّت من كأسها تتلقى
نسمات من الحياة المعاده

* * *

وإذا البلبل الشجى طليقاً
فى رحاب الربيع ضاحى الوفادة
غرد ملءُ صوته خفقات
ساحرات فمن طهر العباده
قال ما أبهج الصباح وأزهاه
ألا ليته يطيل امتداده
مثل هذا الصباح لم تشهد الـ
عين جمالاً وفتنة ورغاده
ضحكت فيه كل ذات عبير
وسجى البحر . كاد ينسى عناده
أى صبح ترى أطل على الكون
فوشّى حزونه ووهاده ؟
والضفاف المنسّقات اللواتى
تخذ النهر بينهن مهاده ؟
وإذا هاتف صدوح طروب
صاح أسعد الربيع فؤاده
قال يا أيها الرفيق ترنم   واملأ الكون بهجة وسعاده
فالشتاء الكئيب أغمض عينيه   وألقى إلى الربيع القياده !!

عبد العليم محمد القباني   (اسكندرية)

موكب الربيع

ثورةٌ ناعمةٌ فى كل وادى ..
أضحكت وجهَ الثرى بعد الحِداد
موكب الحسن لها فى الأرض حادى
يملأ الآفاق من سحر الربيع ...

عاد للكون بأثواب الشباب
ما كتسى من كفّه خير الثياب
بعد عُرْى فيه ألوان العــذاب
وشـتاء ثَلّ تيجان الربوع

موكبٌ فى قدســه للنور معنى
يهبُ الروح وفوق الروح حُسناً
أنطقَ الورقَ فغنت فيــه لحناً
يوقظ الشعر بحوراً فى الضلوع

فالرُبا ازدانت بتاج من زهور
بهجة الضــوء وأسرار العطور
وجمال الحزن فى بُشرى السرور
.. من معانى رقصها عند الركوع

والبطاح امتدّ فى الآفاق منها
سُندسٌ ينهاك أن تبعــد عنها
حُسنها جمٌّ .. ولكن لم يزنها
قلم الرسام .. بل كفُّ البديع .!

خُضرةٌ تُوحى إلى القطعان حِسًّا
أنّ يوم الجوع قد أصبح «أمساً»
فاستحال النطح بين العنز لمساً
.. ليس يدعو لقتالٍ مثلُ جوع..!

عندما يشبع للإنسان بطن
يظلم النــاس .. وللظلم يحنّ
غير أن العُجم إذ تشبع تحنو
فترى الألفة فى كل قطيع ...

والرياض الغُنّ .. فيها كل سحر
يترك النشوةَ فى الأوصال تسرى ..
ويُعيد الروح .. فى حالة سكر
.. كيف لا يهتز قلبى وضلوعى ..!

ذلك الدوح غدا فى الروض حيًا
بعد أن صار هشيماً .. وعِصيًا
فترى أوراقه تحكى حُليـا
..هزّها الريح .. فالت فى خشوع..

وتدانى بعضها يلــثم بعضا
فى عناقٍ واجف يُومض ومضا
ثم لا تلبث أن ترجع ركضا
باكيات من نداهــا بالدموع

وَيَدُ الريح تُمنّيهــا الأمانى
بين دفع .. وثنــاء .. وتدانى
فتراهــا راقصــات كالغوانى
فنها .. فى الكرّ منها والرجوع ..

رقصة تبعث فى الطــير جنونا
فتراه يعزف اللحن فنــونا
لست أدرى .. كيف يستهوى الغصونا
فتحيه بإيمــاء بديع ..

هو يبكى .. أم يناجى .. أم يغنى ..
كيف لا ينفك عن ترديد لحن .!
مشفق قلبى على هــذا المغنى ..؟
هل لموسيقاه فينا من سميع ..؟

إنه الشاعر فى الكون الكبير
قلبه مرآة حزن .. وسرور

يكشف السّرّ ومكنون الضمير
ويُغنّى الدهر في الفن الرفيع ..
حاكياً خلجة عينٍ .. وفؤادِ
.. راسماً لوعةَ حزنٍ بالمداد
لم يحزْهُ القيدُ منـه في الأيادي
فهو في حرية الطفـل الرضيع ...

ومضى الوكب في كل الوجـود
يوقظ النشـوة رفّاف البنود
ويعيد الكون خلقاً من جـديد
رافعاً عنـه عباءات الهجوع ..

ذلك الدفقه ، وهذا الصبح .. فيه
برزَ الزهر بإعجابٍ وتيـه
ما له في الحسن كَطَرًا من شبيه
إنه أجمل من حسن الصنيع ..!

عندما أبصرت في الكون انقلابا
ومشيب الأرض قد أضحى شبابا
قلت ــ والأعصاب تزداد اضطرابا ــ :
أيها الوكب هل أنت صبى ...؟
إننا ذقنـا تهاويل الشتاء
طقسُنا بردٌ .. ولو في «الاستواء»
فأجبني .. لا تمعن في شـقاء
.. نحن .. هل تم يوماً بربيع ..؟

قال : إنّ الحى لا يعرف يأسا
والشباب الحر .. لايخفض رأسا ..
أطلقوا في أفقكم للنور شمسا
فربيع الحق .. ملك للجميع ..!!

أحمد محمد صقر

محكمة المنيا الابتـدائية الوطنية

نشرة بيع في القضية رقم ٨٢ سنة ١٩٣٩ كلى المنيا

إنه في يوم الثلاثاء الموافق ٢ مايو سـنة ١٩٠٠ من الساعة الثامنة أفرنكي صباحاً وما بعدها .

سيباع بطريق المزاد العلني بأودة المزايدات بسراى محكمة المنيا الابتدائية الوطنية العقار الآتى بيانه بعد ملك محمد افندى على حسن التهامى ، وساطا افندى على حسن التهامى عن نفسه وبصفته وصياً شرعياً على عبد المنعم ، وإبراهيم ، وفاطمة ، وزوبية أولاد المرحوم على حسن التهامى ، وعبد الوهاب افندى على حسن التهامى ، وسيد افندى على حسن التهامى . وورثة المرحوم عبد المعبود افندى على حسن التهامى الذى توفى أثناء سير الدعوى وهم : الست زينب على عن نفسها وبصفتها وصية على سلوى ومحمد ولبيبه . والست أمينة عبد المعبود التهامى ، والست زينب التهامى . وهـذا بيان العقار :

٣ س و ٣٠٠ متر بشارع الحسينى البحرى رقم ٣٢ عوائد رقم ٩ عبارة عن جزء محدد من الجهة القبلية من العقار المنزوع ملكيته في القضية ن ٨٢ سنة ١٩٣٩ كلى المنيا ، وهذا القطع عبارة عن منزل مكون من ثلاث أدوار بخلاف غرف مانع بالسطوح كائن بندر المنيا حده البحرى باقى العقار المنزوع ملكيته في القضية ن ٨٢ سنة ١٩٣٩ كلى المنيا ، وطوله ٦٠ س و ١٣ متر ، والغربى بعضه منزل ورثة أحمد افندى رشدى جابر ، وبعضه ورثة لبيب بك برسوم ، وطوله ٤٧ س و ٢٨ متر ، والقبلى بعضه ورثة محمد عبد العال ، وبعضه منزل ودكان محمد أحمد ، وبعضه منزل وقف الحاج عبد العزيز خلاف ، وبعضه منزل ابراهيم افندى عبد الملك ، وطوله ٢٩ س و ٣٥ متر مكون من ثلاث مستقيمات ، والشرقى شارع الحسينى البحرى ٣٢ ، وطوله ١٠٠ س و ١٤ متر .

٣٠ و ٣٠٠ للأفدانية خمسة وخمسون متراً وثلاثة سنتى متر .

وهذا البيع بناء على طلب الست فاطمة هانم أحمد فهمى ناظرة مدرسة الأميرة فايزة للبنات بتفاقة ومحلها المختار مكتب حضرة الأستاذ مصطفى عبـد الجواد الشمى المحامى بالمنيا ومتابعة المحكوم بنزع ملكيته من محكمة المنيا الابتدائية الكلية بتاريخ ١١/٤/١٩٤٠ والمسجل حكم نزع الملكية بتاريخ ١٠/٤/١٩٤٠ تحت رقم ٣٣٦ بمحكمة المنيا الابتدائية الكلية .

على أن يباع هـذا العقار قسماً واحداً بثمن أساسى قدره ١٢٢ مليم و ١٢٩٨ جنيه .

وشروط البيع وكافة الأوراق مودعة بملف الدعوى بقلم كتاب المحكمة تحت طلب من يريد الاطلاع عليها ، وذلك وفاء لسداد مبلغ ١٢٥ مليم و ٢٤٤٦ جنيه بخلاف ما يستجد من المصاريف والفوائد .

فعلى راغب الشراء الحضور في الزمان والمكان المزايده والشراء .

كاتب البيوع

محكمة المنيا الابتدائيـــة الوطنية

إعلان بيع عقار فى القضية رقم ٢٣٠ سنة ١٩٢٨ كلى المنيا

إنه فى يوم ٢ مايو سنة ١٩٥٠

من الساعة ثمانية أفرنكى صباحاً بأودة المزايدات بسراى المحكمة سيباع بطريق المزاد العلنى العقار الآتى بيانه بعد ملك الشيخ أحمد يوسف عبد الله والشيخ محمد توفيق يوسف عبد الله مقيمين بناحية تم البصل القبلية مركز مغاغه الراسى مزادها بجلسة ٣ فبراير سنة ١٩٣١ على كل من رمزى خليل مرجان أفندى وخليل بشاى أفندى الذى توفى وحل محله ورثته وهم :

وليم أفندى خليل بشاى عن نفسه وبصفته وصياً على إخوته القاصرين ميشيل وداود والدكتور ألفى خليل بشاى وجرانت أفندى خليل بشاى وصبحى أفندى خليل بشاى والست أوجلا خليل بشاى والست فهيمة خليل مرجان أرملة المرحوم خليل بشاى ومحلهم المختار مكتب الأستاذ عزيز الجليل المحامى بالمنيا .

وهذا بيان العقار الكائن بناحية تم البصل القبلية مركز مغاغة بما عليها وما يتبعها من ملحقات وما استجد ويستجد من المبانى والأشجار والزيادات والتحسينات .

٧ ط و ١ ف قطعة بحوض كتامة رقم ٧ قطعة ن ٧ ملك أحمد يوسف عبد الله . الحد البحرى عبداللطيف ابراهيم وعبد الوهاب ابراهيم ١ بحوضه وطوله ٣٣ قصبة والحد الشرقى ورثة عبد اللطيف عبد الرحمن وإخوته ٥ بحوضه وطوله ٣/٤ ١٥ قصبة ، والحد القبلى ورثة شناوى على ٨ بحوضه وطوله ٣٣ قصبة ، والحد الغربى محى الدين زين الدين وآخرين بالقطعتين ٢٨ و ٣٣ بحوض زين الدين ٦ وطوله ١٢ قصبة .

١٦ س و ١٩ ط بحوض عبد الصمد رقم ٩ قطعة ن ٣٧ ملك أحمد يوسف عبد الله . الحد البحرى على بك صادق ٣٥ بحوضه وفاصل طريق وطوله ٣/٤ ٩ قصبة والقبلى عثمان حسن ١ بحوض اللقة رقم ٨ وطوله ٩ قصبة والحد الغربى ورثة شناوى على ٣٦ بحوض ٩ والشرقى محمد عبد الصالحين حسن ٢٨ بحوضه وطوله ٣/٤ و ٢٨ قصبة .

١٢ س و ٨ ط بحوض يوسف رقم ١٣ ضمن القطعة ن ١٢ و ١٣ ملك أحمد يوسف عبد الله شيوعاً فى مسطح القطعتين ١٢ و ١٣ الحد البحرى بعضه عوض سليمان ٧ وبعضه دوس جرجس ٨ وبعضه وقف خليل ٩ وبعضه القطعة ١٠ وطوله ٢٥٢ متر دائر الشرقى عبد اللطيف إبراهيم محمد ١١ بحوضه وطوله ٤٩ متر والقبلى ١٤ بحوضه وطوله ٣٦٠ متر والقبلى مصرف فنابوس عمومى وطوله ٣٠ متر .

١٢ س و ١٢ ط و ٢ ف (وقد صححت هذه المساحة بعد أن كانت ١٢ س و ١٢ ط بحكم رقم ٢٣٧ سنة ١٩٤٦ كلى المنيا) بحوض يوسف رقم ١٣ ضمن قطعة ن ١٤ ملك أحمد يوسف عبد الله شيوعاً فى مسطح القطعتين ١٣ و ١٤ البالغ مسطحها ١١ س و ٩ ط و ٥ ف والحد البحرى بعضه القطعة ١٣ بطول ٣٥ قصبة وبعضه ورثة حسن اسماعيل ١٢ بحوضه بطول ١/٢ ٣٢ قصبة وجملة طول الحد ١/٢ ٦٧ والحد الشرقى أبو الفضل معتوق ١٥ وزكى حسن ١٦ وصالح فتح الله ١٧ بطول ١٢ قصبة متجها إلى الجنوب ثم يتجه نحو الغرب بجوار ورثة المرحوم خليل بك صادق ١٨ بطول ١٦ قصبة ثم يعدل نحو الجنوب بجوار الورثة قبلى ١٨ جميعها بحوضه بطول ٣/٤ ٢٠ قصبة وجملة طول الحد ٣/٤ ٢٨ والقبلى محمد زكى ١٩ بحوضه بطول ٣/٤ ٥٤ قصبة والحد الغربى مصرف فنابوس عمومى طوله ٣/٤ ٣١ قصبة .

١٢ ط بحوض دلال رقم ٣٢ ضمن القطعة ١٠ ملك أحمد يوسف عبد الله الحد البحرى جلال يوسف بحوضه وطوله ٩ قصبة ، والحد الشرقى وقف خليل بك رقم ٣٧ بحوضه وطوله ١٧ قصبة ، والحد القبلى محمد توفيق يوسف رقم ٩ بحوضه وطوله ٩ قصبة ، والحد الغربى محمد توفيق يوسف رقم ١٠ بحوضه وطوله ٣/٤ ١٩ قصبة .

٨ س و ٤ ط و ١ ف بحوض عبد الجليل رقم ١٠ بقطعة ن ١٢ منه ٨ س ١٥ ط ملك محمد توفيق يوسف ١٣ ط ملك أحمد يوسف عبد الله ، وهذه القادير شيوعاً فى القطعة ن ١٢ وحدودها الحد البحرى أحمد عمران رقم ١١ بحوضه بطول ٢٠١ قصبة ، والحد الشرقى ورثة السيد محمد على ٢٥ بحوض رقم ١٠ بطول ٢٤ متر ، والحد القبلى على أحمد بحوض رقم ١١ بطول ٢٠٣ متر ، والحد الغربى عثمان عمران ١٣ بحوضه بطول ٢٥ قصبة .

٢٢ ط و٣ ف بحوض دلال رقم ٣٢ قطعة ١٠ و ٩ و ٧ جميعها ملك محمد توفيق يوسف . الحد البحرى وقف خليل بك المنسترلى رقم ١١ بحوضه وطوله ١٣٢ قصبة والحد الشرقى وقف خليل بك المنسترلى رقم ٣٧ بحوضه وطوله ٨٧ قصبة ، والحد القبلى بعضه السكة الزراعية بطول ٥٤ قصبة ثم يتجه بجوار جبانة النصارى بطول ١٩ قصبة ثم يغرب بجوار الجبانة المذكورة بطول ٣٢ قصبة ثم يقبل بجوار الجبانة بطول ١٨ قصبة ثم يغرب بجوار السكة الزراعية بطول ٨٣ قصبة وجملة طول الحد ٢٠٦ قصبة ، والحد الغربى ورثة أحمد حسين بالقطعة ١٤ و ٦ بحوضه وطوله ١٤٨ قصبة .

٨ س و ٤ ط و ١ ف شيوعاً فى ٢٠ س و ١٠ ط و ٥ ف بعد استبعاد ١٢ و ٦ ط و ٤ ف المحكوم فيها باستحقاقها فى القضية ٢٨٦ سنة ١٩٣٥ كلى المنيا بحوض دلال رقم ٣٢ بقطعة ٥ جميعها ملك محمد توفيق يوسف الحد البحرى حافظ أحمد محمد رقم ٢ بحوضه بطول ٢٩٤ قصبة ، والحد الشرقى مصرف فابوس عمومى بطول ٨٦ متر والحد القبلى السكة الزراعية بطول ٢٧٠ متر ، والحد الغربى حميدة وآمنة بنات السيد محمد رقم ٣ بحوضه بطول ٨٣ متر .

٢٠ س و ١٦ ط بحوض الحرسة ضمن قطعة ن ٤٩ ملك أحمد يوسف عبد الله شيوعاً فى جميع القطعة البالغ مسطحها ٤ س و ١٩ ط و ١ ف الحد البحرى عبد اللطيف أبو الخير رقم ٤٢ عمومى بطول ١٣٠ متر ، والحد الشرقى فرع سبخة عمومى بجسريه بطول ٦٢ متر ، والحد القبلى أحمد عبد الرحمن حسن رقم ٥٠ بحوضه بطول ١٢٤ متر والحد الغربى وقف خليل بك المنسترلى رقم ٤٨ بحوضه بطول ٥٥ متر .

٦ س و ٦ ط و ٢ ف بحوض دائر الناحية ضمن قطعة ن ٩ منه ١٢ س و ١١ ط و ١ ف ملك محمد توفيق يوسف و ١٨ س و ١٨ ط ملك أحمد يوسف عبد الله بالشائع فى جميع القطعة البالغ مسطحها ١٢ س و ١٠ ط و ١٢ ف الحد البحرى بعضه ورثة عبد الجواد محمد رقم ١٠ بحوض ٣١ وورثة عابد مهدى وآخرين ١٨ و ١٧ بحوض ٣٠ بطول ١٥١,٥٠ متر دائر ، والحد الشرقى حميدة وآمنة أولاد محمد السيد على رقم ٢٠ بحوضه بطول ١٢٠ متر ، والحد القبلى ورثة السيد المصطفى وآخرين رقم ٢٣ بحوضه بطول ٧٨ متر ، والحد الغربى أحمد يوسف بالقطعة ١٦ و ١٥ بحوضه بطول ٥١ متر .

١٨ س و ١٩ ط و ١ ف بحوض حنا رقم ٢٨ ضمن القطعة ن ٧ ملك أحمد يوسف عبد الله شيوعاً فى جزء من القطعة يبلغ مسطحه ٥ س و ١٣ ط و ٢ ف الحد البحرى محمد الفندى على حسن رقم ٧ بحوضه بطول ٢٨٣ متر ، والحد الشرقى مصطفى عبد الجواد رقم ٦ بحوضه بطول ٣٨ متر والحد القبلى ورثة أحمد يوسف رقم ٨ بحوضه بطول ٢٨١ متر ، والحد الغربى محمد محمد على وآخرين بالقطع ١١ و ١٢ بحوض ٢٧ بطول ٣٨ متر .

المجموع ٤ س و ١٣ ط و ١٦ ف فقط ستة عشر فداناً وثلاثة عشر قيراطاً وأربعة أسهم .

وهذا البيع كطلب البنك العقارى الزراعى المصرى الكائن بالقاهرة بشارع الشهدى المتفرع من شارع قصر النيل ، والذى يمثله حضرة صاحب السعادة علام بك محمد رئيس مجلس إدارته وعضوه المنتدب ، ومتخذ له محلاً مختاراً بالمنيا فرع المنيا .

ويكون البيع قسماً واحداً بثمن أساسى قدره ٣٥٠ جنيهاً للصفقة جميعها .

وذلك وفاء لسداد مبلغ ٨٢٥ مليم و ٨٩ جنيه حق ٣١ / ١ / ١٩٥٠ بخلاف ما يستجد للسداد ، وهذا المبلغ هو الذى خص البنك فى التوزيع رقم ٣ سنة ١٩٤١ كلى المنيا تحت يد الراسى عليهما المزاد ، ولم يقوما بسداد هذا المبلغ للطالب مما يحق له إعادة الإجراءات وبيع الأطيان .

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ١١ / ١ / ١٩٢٨ ومسجل بقلم كتابها فى ١٧ / ١ / ١٩٢٨ برقم ١١٤ .

وبناء على حكم مرسى المزاد بجلسة ٣ / ٢ / ١٩٣١ الصادر أيضاً من هذه المحكمة وشروط البيع مع باقى الأوراق مودعة بملف الدعوى لمن يرغب الاطلاع عليها .

كاتب البيوع

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

العدد ٥٩٠ — الاثنين ٢٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩ — ١٧ من أبريل سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

صور خاطفة لشخصيات لامعة :

أحمـــــــد أمين

للأستاذ محمود تيمور بك

أكنتَ سائراً ضحوة يوم فى شارع « قصر العينى » فصادفتَ امرءاً عبر الطريق ، وهو يسارق الخطا ، هيِّن المشية ، خاشع البصر ، يتلفت فى مراقبة وَحِذَار ، كأنما يستخفى عن أعين الناس ؟ .

لو تاح لك أن تصادف امرءاً هذه صفته ، لجرى فى خاطرك على الفور أنك ترى رجلاً من أولئك الذين تعهم بطيبة النفس ، وصفاء النية ، والكفّ عن الضرب فى غمرات الحياة ، ولحدّثتْك نفسُك بأن هذا الرجل يستوحش من الدنيا ، كأنه بين أهلها غريب ! .

ولعلك لا تلبث أن تجد الرجل قد أثار بين جوانحك عاطفة من التوسُّم له ، والتعرف به ، فإذا أنت متأثّر خطاه ، تُريد استطلاع أمره ، يحدوك إلى ذلك ما تلمح من سَمْت غير مألوف .

وما هى إلا أن ترى الرجل قد عَرّجَ على دار « المجمع اللغوى » وأخذ يتساس على سُلَّمه ، متلقياً ممن حوله تحايا الاستقبال ، وهو يردها بأحسن منها فى وداعة محبَّبة تجلوها ابتسامة خَفِرة ، وإنك لتجده يسخو بهذه التحية لمستقبليه من الكبراء وغير الكبراء بدرجة سواء .

ويستهويك ما تشهد من أمر الرجل ، فتتابعه فى مسيره ، حتى يُسْلِمَكَ إلى قاعة مديدة تَغَصّ بمنضدة مبسوطة قد رُصصت عليها كتل من الأسفار ، ما أشبهها بجماجم أثرية ضخام ! .

وثَمّةَ ترى صاحبك قد أوغل فى القاعة ، حتى إذا بلغ منها مكاناً قصيًّا ، اتخذ مجلسه فى سكينة وركون ، كأنه يخشى أن يشعر بِمَقْدَمِه أحد ، وما أسرع أن يمد يمينه إلى سفر من هذه الأسفار ، فيقلب من صفحاته لحظات ، ثم يمسك عنه ، وقد تكمش فى مجلسه وأطرق ، حتى لتَقول أغفى ! .

وتعمر جوانب القاعة بالقصّاد ، ويكتمل الجمع ، فيتجاذب الرفاق أطراف النقاش ، وتدور بينهم معركة الرأى حامية الوطيس ، وصاحبك على حاله ، لا تبس له شفة ،

ولا يطرف له جفن ، فتحسب أنه ساهٍ عما حوله ، لا يجرى شيء منه بباله ، فتتركه وشأنه ، وينشغل التحاور والجدال ، وفيما أنت كذلك إذ يداعب سمعك صوت يختلج مترققاً يحاول أن يجد له طريقاً في ملتطم ذلك الزحام . فإذا تبينتَ القائل عرفتَ أنه صاحبك المنطوى على غفوته ، فتأذَنُ له وأنت عليه مشفق ، فيروعك أنه قد استبطن الصميم من البحث ، وأنه يجمع لك في فقرات ما تشعث من أطراف الرأى ، ولا يتم أن ينتهى بك إلى حكم تأنس إليه النفوس ، وتضيق به فسحة الخلاف !.

وتظل مسحور السمع بهذه الساجلات الطريفة التي تصطرع فيها عقول ، وتستطعمُ بَدَائهُ ، غافلاً عن استشارة تلك الساعة الضيقة التي تبرز على حائط القاعة ، وما أنت لو استشرتها بمستفيد ضبطاً لوقتك ، فإنما هي ساعة عجمية كأنما أعليت في مكانها لتستهزئ بدورة الفلك ، وتسخر من حساب الزمن !.

ولتجدنّ المناقشات قد تناوحت يمنة ويسرة ، ولربما اشتد اشتباكها واحتدّ ، وأنت معقود العين بصاحبك ، تقفو مشاركاته فيما يتراءى من وجهات النظر ، فإذا بشخصيته تتوضح لك شيئاً بعد شيء ، وكأنك تجتلى كتاباً شائقاً جِدّ شائق ، كلما قلبت من صفحاته ازددت به من تعلق ، وطمحت منه إلى جديد !.

إنه في شتى مناقشاته ومساقلاته لا يفارق سَمْتَه ، فهو أبداً هادئ القسمات ، رفيق الإشارة ، أريحىّ الروح ، يتميز بذلك الصوت المختلج الحيي ... ولكنك تستبين من وراء ذلك كله إيماناً منه بفكرته ، وثباتاً في تعززها ، ولباقة في الدعوة إليها .

وإذا بهذا الرجل الذي رأيته أولَ ما رأيته متكمشاً مستوحشاً ، تحسبه ممن لا حظّ لهم في معترك الحياة — قد تفتق إهابه عن زعامة بصيرة قادرة تنتهج لها طريقاً لا عوج فيه .

وتعجب لصاحبك ، وقد استحرّ نقاشه ، وجعل يطارح رفاقه مصطلحات العلم في صلابتها وخشونتها ، إذ تراه وقد دس بين هذه الصخور والجنادل — في الفينة بعد الفينة — مُلحة فكهة ، أو مُزحة طريفة ، لا تلبث أن تشيع في جو المجلس نسمة من الطرب والمراح . فتعلم أن صاحبك على وثاقة علمه ، وأصالة وقاره ، يُجيد ما يجيده « ابن البلد » من خفة وظرف وإيناس ، فهو يحسن أن يستخرج من اللفظة الجافية « لابن سيده » ، أو القاعدة المعقدة « لسيبويه » نكتة ضاحكة ، أو دعابة لطيفة ، تُحيل تلك الجنادل والصخور رياضاً حالية بالنضرة والازدهار ...

ولا يكاد ينتهي بك المجلس الأول في صحبة الرجل ، حتى يغريك ما استبان لك من أمره بأن تطلب المزيد ...

✕ إذا جاز لنا أن نوجز وصف « أحمد أمين » في كلمة ، قلنا : إنه « بنّاء » !.

ولقد ملكت هواه نزعة البنَاء والتشييد ، وأولع بها أيما ولوع ، فوقف عليها فكره وجهده ، تارة يزاول ويمارس ، وطوراً يشرف ويرعى ، وحيناً يحض ويدعو ...

وخير ما يمتاز به هذا « البناء » في نزعته ، أنه اجتماعي عصرىّ ، وأنه واقعى عملى ، إذا تمكَّنَتْ له فكرة رسمها في ذهنه أدق رسم ، وجعل لها خطة محكمة ، وقدر لها كل ما عساه يكون من أقدار ، ولا يكاد يمد يده ليضع الحجر الأساسي لهذه الفكرة ، حتى يكون قد استوثق من الأمر غاية الاستيثاق ، وأحاطه بما يكفل له الرسوخ والشموخ ، فإذا البنيان تعلو دعائمه ، وإذا هو حصن للمراغم والمعقول .

وعبقرية هذا « البنّاء » العظيم تتمثل في أنه يجعل لنزعته طابعاً من التجديد ، لا مغالاة فيه ولا انسلاخ . فهو إذا شيد التمس لأساس بنيانه عتاداً من كنوز الشرق

وأمجاده ، ولكنه يقيم على هذا الأساس طرازاً تتوافر له كل مزايا التحضر العصري والعمران الحديث .

وهذا « البناء » العظيم يرمى دائماً من وراء سعيه إلى هدف مقصود ، ذلك أن له رسالة إصلاحية واضحة ، يبتغى بها تجديد العقلية العربيـة ، وإمدادها بما يعينها على ملاحقة الزمان فى سيره الحثيث ...

حول محور هذه الرسالة الإصلاحية يدور فكر الرجل ، ولا يمل أن يدور . وكأن هـذا المحور مغزل يستمد منه الخيوط لينسج منها أعماله ومساعيه ونفحات قلمه .

اقرأ كتابه « فجر الإسلام » وصنوه « ظهر الإسلام » ، تجده يؤرخ الحياة العقليـة للمسلمين فى مواضى الحقب ، ولكنك تستطيع أن تلمح خلف مظاهر البحث والدرس لوامع تلك الروح الأصيلة ، روح الدعوة إلى الإصلاح ، والتوجيه إليه ، إذ هو يجلو لك مناهج الفكر العربى فى تطوره وسموه ، ويميط الغبار عن معالمه ، ويريك الضوء من مصابيحه !

ولم يكن عجباً أن يشغف الرجل بدراسة القادة الأعلام الذين هم طليعة النهضة فى الشرق الجديد . وإن كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ليكشف لك أن الرجل يعنى أكبر ما يعنى فى تاريخ أولئك القادة الأعلام وتصوير حياتهم بإبراز ما كان لهم من جهود فى سبيل النهوض بالعقلية الشرقية وفى نشر رسالة التجديد !

وإليك كتابه « فيض الخاطر » ، لكأنه « فلم » سينمائى تتوالى فيه الصور والمشاهد ، « فلم » تنطبع عليه استجابة ذلك « البنّاء » الداعى إلى الإصلاح لكل ما يلابسه فى الحياة والمجتمع . وإنها لصور شائقة ، ومشاهد رائعة ، تأنس فيها قبسة من الفن فى العرض والتعبير ، حتى لتدهش إذ تتجلى لك فى شخصية هـذا العالم الدارس صبغة الأديب الفنان .

* وأنتَ لو تصفحتَ مختلفَ الجوانب من شخصيـة « أحمد أمين » لطالعت عينك صورة قاض تتوضح فيـه نزعة القضاء بأوفى ما فيها من خلال الدقة والوزن والنظام ، وأكرم ما فيهـا من خصال النزاهة والعدالة ويقظة الضمير .

إنه قاض فى خاصـة شأنه مع نفسـه ، قاض فى حديث مجلسه ، قاض فى الجامعة أستاذاً وعلى مكتبه رئيس عمل ، قاض فى معاملاته مع النـاس بين قريب وبعيد ، قاض فيما يجرى به قلمه من مباحث ودراسات وخواطر ...

وقد عرفت الأقدار نزعته القضائية فى بواكيرها حين شب شبابه ، فأرادت أن يكون أحد قضاة الشرع يفصل فيما هنالك من خصومة ونزاع ... ولكنه لم يمكث فى منصب القضاء طويلا ، فترك ذلك الميـدان المحدود ، ليكون قاضياً طليقاً لا تعقب به قيود المهنـة عند غاية ، ولبث فى دنياه ، على اختـلاف مناصبه ، وتنوع مجالات نشاطه ، تملكه نزعة القضاء ، وتهيمن على فكره ما وسعها أن تهيمن .

* وهذه النزعة القضائية قد وسمت حياة الرجل فى مناحيها العقلية والاجتماعية بسمة الاعتدال ... فهو معتدل أبداً فى تقديراته وأحكامه ، معتدل أبداً فى علاقاته ووشائجه ، لا يجمح فى القسوة ، ولا يتراخى فى اللين ، يحب حين يحب هوناً ما ، ويبغض إذا أبغض هوناً ما ، آنأى ما يكون عن التعصب والتحزب ، آنف ما يكون السرف والتطرف ، أميل ما يكون إلى الوادعة والحسنى !

* والعجب العاجب فى شخصية « أحمد أمين » أن نشأته قد اكتنفتها كل دواعى التحفظ ، من معتقدات راسخة ، وتقاليـد صارمة ، وتعاليم جامدة ... ولكن فكره توهج والتمع وسط ذلك كله ، كما يتلألأ الجوهر النقى ، وخرج يلتمس الطلاقة فى الأفق الرحيب ... فإذا التمسنا الآن حرية الفكر بين القـادة الأعلام ، ألفيناه منار الطريق !

محمود تيمور

على بن الجهـــم

للدكتور أحمد أمين بك

كنا نقرأ لعلى بن الجهم قطعاً متفرقة فى كتب الأدب هنا وهناك ، فنعجب بشعره لأصالته وجزالته وحسن معانيه ومتانة أسلوبه ، وتجنبه الإمعان فى الخيال والتعقيد فى التركيب والغلو فى المحسنات ، وكنا نتمنى أن نرى شعره مجموعاً فى ديوان أو كتاب ، حتى تكمل صورة الشاعر فيستمتع القارئ ويستفيد المؤرخ والناقد .

حتى طلع علينا الأستاذ خليل مردم بك بهذا الديوان على أكمل وجه ، وأتم صورة ، منقحاً مضبوطاً مع تعليقات دقيقة وتصحيحات بارعة .

ولم يكتف بما عثر عليه من نسخ الديوان ، فأضاف إليه ما وجده مبعثراً من شعره فى كتب الأدب مما لم يرد فى الديوان ، ثم قدم له بمقدمة واسعة جامعة فى تاريخ حياته ، ومذهبه الدينى والسياسى وقيمة شعره ونسخ ديوانه . فجاءت وافية بالتعريف به ، منسجمة فى الدقة والشمول مع ما بذله من الجهد فى جمع شعره .

وأنا أستأذنه فى أن أستلهم ما كتب فى مقدمته لتعريف القراء بشىء عن ابن الجهم .

فهو شاعر من فحول الشعراء العباسيين ، عربى قرشى ، استوطن أهله خراسان فكان خراسانياً أيضاً ، والناس يخطئون كثيراً ، فيظنون أن من نسب إلى خراسان أو إلى أى بلد من بلاد الفرس يكون فارسياً ، مع أن كثيراً ممن انتسبوا إلى بلد فارسى كانوا عرباً فى نسبتهم فرساً فى موطنهم ، وكذلك الشأن فى العرب الذين نزلوا الشام أو مصر أو المغرب أو الهند ، فهم عرب النسبة عجم الوطن ، وعلى ابن الجهم من هذا القبيل .

وكان يعتز بنسبه العربى القرشى ، كما يعتز بخراسانيته ، وكانت هذه الخراسانية عزاً فى الدولة العباسية ، إذ قامت الدعوة والدولة بسيوف الخراسانيين وعلى أكتافهم ، فكان نسل هؤلاء الجنود الخراسانيين يسمون الأبناء ، أى أبناء الجنود الفاتحين الذين أزالوا الدولة الأموية وأحلوا محلها الدولة العباسية ؛ فكان على بن الجهم هذا من الأبناء ، وكان كذلك يعتز بأسرته القرشية ، فالجهم أبو على أحد كبار الموظفين فى عهد المأمون والواثق ، ومحمد بن الجهم أخو علىّ كذلك يعد فى كبار الموظفين ، وفى كبار ذوى الرأى والمتفلسفين ، يقدره الجاحظ كثيراً ويستشهد بكلامه ، ويصفه ابن قتيبة فيقول إنه مصحف كتب أرسطاطاليس ، هذا إلى سعة اطلاعه فى الأدب ، وكثرة روايته للشعر .

أما علىّ شاعرنا فيظهر من سيرته أنه كان — كما نسميه اليوم — من « أولاد الذوات » الذين ينشأون فى بيت عز وثروة ، ولا يهتمون كثيراً بتحصيل العلم ، فيعيشون عيشة بوهيمية مملوءة بالشراب والقيان . فإن كان لديهم ملكة طبيعية فنية صحبوا الفنانين وأخذوا عنهم فنهم فى أوقات لهوهم وشرابهم ، وساعدتهم هذه المعيشة الناعمة على نمو شعورهم الفنى ، فيظهر أن على بن الجهم كان من هذا القبيل ، ظهرت شاعريته وهو فى الكتاب ، ولعله تأثر برواية أخيه لأشعار العرب وحفظه عنه ، وكان يتردد وهو شاب على المسجد الجامع ببغداد إذ كانت فيه قبة يجتمع فيها الشعراء كل جمعة ينشدون فيها الشعر ويسمع بعضهم إلى بعض ، ويتعلم بعض من بعض ، وينقد بعض بعضاً ؛ فكانت مدرسة لطيفة ظريفة كلٌ فيها مدرس وتلميذ . وصحب أبا تمام والبحترى وقارضهما الشعر ، وأعجب بهما وأعجبا به ؛ ولا يغرنك ما يروى من أنه لقى الإمام أحمد بن حنبل وسأله عن القدر فأجابه ، فهى حادثة جزئية عابرة لم تنتج من ثقافة دينية واسعة ولا عمق فى التفكير الدينى ، ولا تدل على صلاح وتقوى ، وإنما كان سؤالا أوحت به البيئة ، فقد كان الجو كله مملوءا بالحديث فى القدر مما أثار غبار المعتزلة وخصومهم — وقد تقسمت النزعات السياسية والمذاهب الدينية الشعراء والكتاب والمؤلفين فى ذلك العصر ؛ فشعراء يؤيدون العلويين ويشعرون لهم كدعبل الخزاعى ، وشعراء يؤيدون العباسيين ويشعرون لهم ، وهؤلاء الأخيرون بالطبيعة

أكثر عدداً ، لأن العباسيين بيدهم السلطة والمال والجاه يمنحونها لمن يشاءون من مؤيديهم ومن ينتصرون لهم . أما الشيعة فليس لهم إلا النفى والسجن والعقاب . كذلك المؤلفون ، فزعيم المعتزلة الجاحظ ، وزعيم السنية ابن قتيبة . وقد كان من الطبيعى أن يكون علىّ بن الجهم عباسياً للمذهب ، فأصله من جنود خراسان ، وأسرته من كبار عمال العباسيين .

ولكن يستوقف النظر أنه سنى يكره المعتزلة ويشنع عليهم . ولعل سبب ذلك أن الاعتزال يتطلب ضرباً من الفلسفة وضرباً من الثقافة الخاصة العميقة الواسعة كثقافة أخيه ، أما هو فمحدود الثقافة ، فأشبه به أن يكون من جمهور الناس ، فهو شاعر فقط لا فيلسوف ولا متكلم ، ثم كان ازدهاره ونضجه فى أيام المتوكل ، والمتوكل عدو المعتزلة ونصير أهل الحديث ، ولم يبال بصولة الوزيرين الكبيرين محمد بن عبد الملك الزيات وأحمد بن أبى دواد المعتزليين فذمهما وهجاهما هجاء مراً .

يصرف حياته كما يصرفها الشبان المترفون من أهل الفن ، شراب ومنادمة وقيان وغزل ومطارحة شعراء ، فى سماحة وشهامة وكرم ومروءة ، واتصل دهراً بالمتوكل فكان نديمه ينشده شعره ، ويطلع على أسراره ، ويسامره ، ولا يخفى عليه شىء من أخبار القصر والجوارى والغلمان وما إلى ذلك ، وكان يشاركه فى هذه المنادمة البحترى والحسين بن الضحاك وغيرهم من المغنين والأطباء والمضحكين ، ولكنه كان أعزهم نفساً ، وأعلاهم شأناً ، وأشدهم إلى المتوكل قرباً ، فيحكون أنهم حسدوه على منزلته فدسوا له الدسائس حتى تم عليه للمتوكل وحبسه ، ولكن يظهر أنه ارتكب غلطاً مكن خصماءه من النيل منه . أما ما هى هذه الغلطة : — أصاله بخطبة من حظايا المتوكل أو قولة قالها وهو سكران نال فيها من المتوكل أو شىء غير ذلك — فلم نقف فيها على خبر صحيح يدل على هذه الزلة . وقد شدد عليه المتوكل فى حبسه ووضعه فى الأغلال ، فقال فى حبسه قصائد كثيرة ومقطوعات رائعة أشهرها القصيدة المعروفة :

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى
حبسى وأى مهند لا يغمد

وأخيراً خرج من سجنه ، وكره الناس ، وعاف حياته الأولى ، حياة صحبة أهل الوجاهة ومنادمة الكبراء . وهاجت عواطفه فتطرف فى ناحيتين متناقضتين ، أحياناً يذهب إلى القبور ويأنس بأهلها انتقاماً من أهل الدنيا ، وأحياناً ينغمس فى اللهو ، فيقضى أوقاته فى بيوت القيان . ثم سئم ذلك أيضاً فخرج غازياً يحارب الروم على أثر ذعر عم الناس من انتصار الروم ، فهب الناس للنجدة بأنفسهم وأموالهم . وشاء على بن الجهم أن يختم حياته أحسن ختام ، فيموت شهيداً ، وما زال يقاتل حتى قتل . ويذكرون أنه وجد فى ثيابه رقعة فيها هذان البيتان :

وارحمتا للغريب فى البلد النا
زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا
بالعيش من بعده ولا انتفعا

* * *

هذا كله وأكثر منه يستلهم من البحث اللطيف الذى قدمه الأستاذ خليل مردم بك . والحق أنه مجهود قيم قام به الأستاذ ، ومثل رائع فى النشر العلمى والتصحيح الدقيق والصبر المضنى .

لقد عثر الأستاذ على نسخ من الديوان بذل جهداً كبيراً فى استحضارها ، وهو ديوان صغير يشتمل على جزء قليل من شعر على بن الجهم ، فلم يكتف الأستاذ بالديوان ، ورأى أن كثيراً من أشعار ابن الجهم مفرقة فى كتب الأدب ، فأخذ نفسه بجمعها وضبطها وتصحيحها . والحق — فى نظرى — أن ما جمعه كتكملة خير من الديوان نفسه ، فالديوان يحتوى على ما يصح أن نسميه « الشعر الرسمى » من مديح ونحوه ، أما التكملة فيسودها التعبير عن المشاعر النفسية الصادقة — عاطفة فى الغزل ، وفى الشراب ، وفى الهجاء اللاذع الظريف ، وفى وصف ما أعجب به ... الخ . وشعره فى كل ذلك جزل لا تفاهة فيه ، جميل جمال الوضوح والبساطة ، وجمال الفكرة ، وجمال العاطفة . وشعره أيام بؤسه أحر منه أيام عزه ، فقد صهرت المحنة نفسه وأشعلتها ناراً أثرت فى حرارة شعره .

احمد امين

(البقية على صفحة ٩)

وداعا حبيبي الجبـــــل

للأستاذ الدمرداش محمد

تم وداعاً حبيبي الجبل ! أودعك بعد صحبة طال عهدها ، أودعك ولا زلت الحبيب الذى أحن إلى زيارته ، وأشتاق إلى طلعته ، وتسعد نفسي بذكره وذكرياته .

رحلت إليك أول ما رحلت من أربعين سنة خلت ، فتى غض الشباب ، جم النشاط ، خلىّ البال ، سليم البدن . كان يمشى فى رحابك الساعات الطوال فلا يتعب ، ويصعد رباك فلا يلهث ، ويتسلق ذراك فلا تتقطع أنفاسه . لا يمل السير فى أرجائك ، ولا يخشى قر الشتاء فى سهولك ، ولا قيظ الصيف فى وديانك ، ولا عتو الرياح فى أعاليك ، ولا ظلمة الليل فى فيافيك ، ولا رهبة الوحدة فى وحشتك ، ولا نقص الزاد فى قفارك ، لا يشكو عقبات السير فى شعابك ، ولا مشقات التنقل فى بطاحك ، ولا عناء التصعيد فى هضابك . كان يخرج إليك فى الصباح مع الفجر ليقضى يومه فى صعود وهبوط لا يهدأ ولا يستريح ، ولا يمل ولا يكل ، ويعود منك وقد أمسى الليل مجهود الجسم ، منشرح الصدر ، ناعم البال . كان يقطع دروبك يتسلل بين شعابك يقفز من صخرة إلى صخرة ، ومن جندل إلى جندل ، خفيف الحركة ثابت القدم . كان يسير بين أعشابك النضرة ، وأزهارك الباسمة ، وأشجارك الصابرة ، يتأملها ويحنو عليها ، ويحييها ويناجيها ، ويملأ مشهدها نفسه غبطة وسروراً .

كان يبهجه هطل المطر فى ربوعك ، وتلألؤ البرق فى سمائك ، وصوت الرعد يتردد فى ثنياتك ، وانعقاد الضباب فى أرجائك ، ورائحة البليل تنبعث من رمالك وترابك . كان يقف على رباك العالية تحت شمسك الساطعة ، يجيل البصر بين السماء الزرقاء فوقه ، والصحراء الصفراء أمامه ، والوادى الأخضر تحته ، وتأتلف الصور المتباينة ، وتتناغم الناظر وتنتظم ، ويبدو جمالك فى أروع صورة ! فتأخذه نشوة ما يجدها لذة ! فيهتف عالياً من فرط الغبطة من أعماق قلبه : سبحانك مبدع الوجود ! .

كان فى مستقبل أيامه ، إذا ضاق صدره ، وتسربت الهموم إلى نفسه ، يلجأ إلى الوحدة فى ظل صخورك ، ينشد الطمأنينة فى فضائك ، والسكينة فى رحابك ، وشفاء نفسه فى صفاء جوك ، ونقاء هوائك ، وامتداد أفقك .

كان يرى فى عظمتك وخلودك ، ضآلة شأن حياته وحماقات عقله ، وصغر جسمه وقصر عمره .

كان إذا اختلط عليه الأمر ، وضلت بصيرته ، طلب الهداية فى ربوعك ، واستلهم الحكمة فى صخورك ورمالك وحيوانك ونباتك .

لقد كنت مرتع أحاسيس نفسه وقلبه وعقله فى صباه وكهولته وشيخوخته طيلة أربعين عاماً .

لقد نظم الرحلات ، وقاد الجماعات إليك ، وأنفق الكثير من ماله وجهده ، وجازف وخاطر لاستجلاء نواحيك محبة فيك ، وتزلفاً إليك ، لم يبغ من وراء ذلك نفعاً ولا شكراً .

حبيبي الجبل ! هل تذكر أحبابك وأصفياءك من جماعة الرحلات ، وكيف واظبوا على الخروج إليك فى يوم الجمعة من كل أسبوع طيلة شهور الشتاء ، يرتادون جبالك ووديانك وسهولك عاما بعد عام . أتذكر محمد صبحى بهجت ورياض فوزى وجلال ياقوت وميخائيل فرج وعبد الله رشيد وإخوته ؟ إنهم كانوا من طلائع روادك .

أتذكر أحمد أمين يوم أن بلى نعل حذائه من السير الطويل فى وادى أبى نسون ، فاستعاض عنه بنعل من ورق الكرتون والدكتور محمد عوض وجيوش العقارب فى وادى الخانق ، ومحمد بدران ونجوة القرين ، والدكتور

أحمد عبد السلام الكرداني ومحمد فريد أبو حديد وعبد الحميد العبادي وحسن علي البدراوي ومحمد بتونه والدكتور شاهين والدكتور علي حسن وابن رماح وغيرهم وغيرهم ممن غاب عني أسماؤهم ؟ لقد كنت مرتعاً لمرحهم ونشاطهم ومصدراً لغبطتهم وسرورهم سنين عديدة .

أتذكر يوم أن ضللت الطريق في وادي التيه في سنة ١٩١٩ ؟ لقد قسوت علىّ يومها وكان حقاً يوماً عصيباً .

أتذكر يوم أن ضلت قافلتنا الطريق إلى الواحات البحرية في سنة ١٩٢٥ ؟ لقد كدنا يومها نفقد الأمل في النجاة لولا أن قيض الله لنا خبيرا ملهما .

أتذكر رحلتنا إلى وادي العربة في سنة ١٩٣١ ؟ لقد كانت مخاطرة من مجازفات الشباب .

ثم هل تذكر يوم أن أتيتك مودعا من سنتين ؟ لقد كنت حينئذ شيخا ينوء بحمل السنين ولا يقوى على السير الطويل . لقد وقفت يومها عند سفحك أتطلع إليك في شوق ولهف أناجيك وأستلهمك وأستمد العون من سرك ؟ وبعد طول تردد بين إقدام وإحجام رأيت أن أستجيب لنصيحة الطبيب ، فارتميت عند قدمك يترقرق الدمع في عيني ، وبعد طول قعود قمت لأعود من حيث أتيت وأنا مكسور الخاطر كاسف البال حزين .

وداعا حبيبي الجبل .

الدمرداش محمد

علي بن الجهم

(بقية المنشور على صفحة ٧)

نُوَب الزمان كثيرة وأشدها
شمل تحكم فيه يوم فراق
يا قلب لِمْ عرضت نفسك للهوى
أو ما رأيت مصارع العشاق

● ● ●

وقال وقد خاصمه صديق ، ثم اعتذر إليه :

لم تُذقني حلاوة الإنصاف
وتصفتني أشد اعتساف
وتركت الوفاء جهلا بما فيه فأسرفتَ غاية الإسراف
غير أني إذا رجعت إلى حق
بني هاشم بن عبد مناف
لم أجد إلى التشفي سبيلا
بقواف ولا بغير قواف
لي نفس تأبى الدنية والإسراف لا تعتدي على الأشراف

● ● ●

ويقول في الهجاء :

بلاء ليس يشبهه بلاء
عداوة غير ذي حسب ودين
يبيحك منه عرضاً لم يصنه
ويرتع منك في عرض مصون

● ● ●

ويقول وهو في السجن :

ألمَّتْ وجنح الليل مرخ سدوله
والسجن أحراس قليل هجودها
فقلت لها أنى تجشمت خطة
بحزّ أنفاس الرياح ورودها
فقالت أطعنا الشوق بعد تجلد
وشر قلوب العاشقين جليدها
وأعلنت الشكوى وجالت دموعها
على الخد لما التف بالجيد جيدها
فقلت لها والدمع شتى طريقه
ونار الهوى بالشوق يُذكى وقودها
إذا سلمت نفس الحبيب تشابهت
صروف الليالي سهلها وشديدها
فلا تجزعي إما رأيت قيوده
فإن خلاخيل الرجال قيودها

الخ . . الخ . .

فنهنئ الأستاذ خليل مردم بك على حسن صنعه ، والمجمع العربي بدمشق على حسن توفيقه .

أحمد أمين

الأدب والأفكار

للأستاذ على أدهم

- العلاقة بين الأدب والمذاهب الفكرية السائدة فى أى عصر من العصور علاقة أكيدة لا سبيل إلى إنكارها والمماراة فيها ، وبعض النقاد لا يكتفون بالتحدث عن فلسفة الشاعر أو مجموعة الأفكار البادية فى شعره والغالبة عليه ، وإنما يعدون الأدب جميعه ضرباً من ضروب الفلسفة ، أو أنه مجموعة من الأفكار والنظرات والخطرات والمواقف تجاه الحياة والكون ، مفرغة فى قوالب جميلة تستهوى العقول وتملأ الأفئدة والقلوب . وأنصار الأدب الخالص قد ينفرون من اتسام الأدب بالفلسفة ، ولا تعنيهم اتجاهات الشعراء الفكرية ، ولكن مؤرخى المذاهب الفكرية يعمدون إلى تحليل الآثار الأدبية ليستعينوا بذلك على تعرف الأفكار التى كانت شائعة فى العصر الذى يحاولون دراسته والإحاطة بثقافته فى مختلف منازعها . وقد أتى على النقاد حين من الدهر أسرفوا أثناءه فى ذلك إسرافاً شديداً ، وحملوا الآثار الأدبية أفكاراً فلسفية ربما لم تخطر للشعراء ببال ولم تطف بخواطر الكتاب ، وقد استدعى ذلك ظهور مذهب فى النقد ينكر العلاقة بين الأدب والفلسفة ، ومن أقوال أحد النقاد المتطرفين فى ذلك — وهو الناقد جورج بوس — « الأفكار فى الشعر فى العادة مبتذلة وزائفة ، وأى إنسان تجاوز السادسة عشرة من عمره لا يضيع وقته فى قراءة الشعر لمجرد الوقوف على ما تضمنه من أفكار » . وقد قرر هذا الناقد على أن مشتملات بعض الأشعار المشهورة الفكرية ليست من الطرافة والابتداع بالمكانة المأثورة ، ولكن تغنى الشاعر بها ألهانا عن تفاهتها ، وحاباها ، وأكسبها روعة وجمالا ، وربما كان أبو تمام يقصد إلى شىء من ذلك حينما قال عن الشعر :

يُرى حكمة ما فيه وهو فكاهة
ويُقضى بما يقضى به وهو ظالم

والواقع أننا إذا حللنا الأفكار الواردة فى بعض أبيات الشعر التى نعجب بها نجد أنها أفكار عادية مألوفة ، بل تكاد تكون من البديهيات التى لا يكاد يجهلها أحد ، انظر مثلا إلى قول المتنبى فى بائيته الممتازة التى عزى بها سيف الدولة حينما فقد غلامه التركى « يماك » .

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا
وأعيا دواء الموت كل طبيب

فمن الذى يجهل أن الموت لا وقاء منه ولا دافع له ؟ فنحن البشر لسنا فى حاجة إلى المتنبى أو غيره من الحكماء ليعلمنا هذا الدرس الذى استظهرناه من التجارب اليومية والمشاهد المألوفة ، ولسنا فى حاجة كذلك إلى أبى العتاهية لنعلم أن :

بين عينى كل حى علم الموت يلوح

- والكثير من حكم المتنبى وأبى تمام والمعرى لا يزيد على كونه من الحقائق الأولية المعروفة المسلم بصحتها ، ولكننا بانتزاعنا هذه الأبيات الحكيمة من مواقعها فى القصائد والمقطوعات نسىء إلى وحدتها الفنية ، وبنائها البلاغى ، ونفرض عليها مقياساً قد يغاير طبيعة الفن وتقديره ، وفى اعتقادى أننا إذا نظرنا إلى هذه الأبيات التى تتضمن الحكم والمواعظ والنظرات الأخلاقية وما يسميه الناقدة الإنجليزى ماثيو أرنولد « نقداً للحياة » أقول إننا إذا نظرنا إلى هذه الأبيات من حيث هى جزء من الصورة الفنية التى رسمها الشاعر أو صورها الكاتب يتضح لنا سر إعجابنا بها وتقديرنا لها .

ولا نزاع فى أن الآثار الأدبية يمكن أن تعد وثيقة يطمأن إليها فى تاريخ الأفكار والمذاهب والنظم الفلسفية ، وذلك لأن تاريخ الأدب يسير فى حذاء التاريخ الفكرى ويعكس صورته ، وكثيراً ما تنم كلمات الشاعر ومضامين أبياته على المذاهب الفكرية الشائعة فى عصره . انظر مثلا إلى قول أبى تمام فى الخمر :

جهمية الأوصاف إلا أنهم
قد لقبوها جوهر الأشياء

فهو يتضمن إشارة خفية إلى مذهب الجهم بن صفوان زعيم الجهمية فى نفى الصفات ، مما يدل على أن المناقشات فى أصول هذا المذهب وفروعه كانت ذائعة فى عصر أبى تمام .

وقول المتنبى :

وكم لظلام الليل عندك من يد — تخبّر أن المانوية تكذب

يمكن أن نستخلص منه أن المناقشات حول مذهب مانى الثنوى القائل إن النور يفعل الخير والظلمة تفعل الشر ، كانت تشغل تفكير الناس فى عصر المتنبى) وكذلك قوله :

هوّن على بصر ما شق منظره — فإنما يقظات العين كالحلم

يدل على أن الفكرة الأصلية التى قامت عليها الفلسفة المثالية الألمانية فى القرن التاسع عشر كانت تراود الأفكار فى عصر أبى الطيب .

»ولا نزاع فى أن أمثال هذه الإشارات تدل على أن الشاعر قد ألم بهذه المذاهب الفكرية أو أحس على الأقل بوجودها وعلم بفكرتها العامة ، وفضلاً عن ذلك فإن تاريخ النقد الأدبى جزء من تاريخ التفكير الجمالى ، والتفكير الجمالى متصل أشد اتصال بالتفكير الفلسفى ، وأفلاطون وأرسطو من واضعى أسس التفكير الجمالى والنقد الأدبى)

وتاريخ الأدب الإنجليزى يوضح إلى حد بعيد اتجاهات التفكير الفلسفى ببلاد الإنجليز ، فالشاعر سبنسر يبدو فى شعره أثر الأفلاطونية التى سادت فى عصر إحياء العلوم ، وقصيدة بوب المشهورة المسماة « مقالة عن الإنسان » ملأى بأصداء التفكير الفلسفى ، والشاعر يجرى ضمن أشعاره أفكار الفيلسوف لوك ، وكان الشاعر الإنجليزى كولردج فيلسوفاً له قيمته وأثره فى التفكير الفلسفى ، وقد درس مذهبى كانت وشلنج وأخذ عنهما وتأثر بهما ، وعن طريق كولردج تسربت المثالية الألمانية إلى الشعر الإنجليزى ، وفى شعر وردزورث أثر فلسفة كانت ، وقد تأثر شلى بفلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيين وبتلميذهم جودون ، ثم تأثر بعد ذلك بأفكار سبنوزا وبركلى وأفلاطون .

وقد احتدمت فى العهد الفكتورى المناقشة بين رجال العلم ورجال الدين ، وقد ظهر أثر هذه المناقشة فى شعر تنيسون وبراونج ، وفى شعر سوينبرن وتوماس هاردى يبدو أثر التشاؤم فى صورة جلية ، وقد نقلت الروائية جورج اليوت بعض آثار فرباخ وكتاب ستراوس عن المسيح إلى اللغة الإنجليزية ، وبرناردشو كان من قراء صامويل بتلر ونيتشه ، وجيمس جويس الروائى كان من دارسى مؤلفات فرويد ويونج وفيكو وبرونو .

وكثيراً ما كتب نقاد الألمان عن علاقة شاعرهم الكبير شلر بفلسفة كانت وعلاقة شاعرهم الحكيم جيتى بأفلوطين وسبنوزا وعلاقة كلايست بكانت وعلاقة هبل بفلسفة هجل ، وفى أثناء النهضة الرومانتيكية بوجه خاص تأكدت العلاقة بين الأدب والفلسفة وتأثر الشعراء بالفلاسفة المعاصرين أمثال هجل وشلنج وفخت .

وفى الأدب الروسى وجد النقاد النزاعون إلى الفكر الفلسفى مجالاً واسعاً للدرس والتحليل فى مؤلفات دستوفسكى وتولستوى ، وبحوث أمثال مرزكوفسكى وشستوف وبارديف فى هذا السبيل من النقد الكاشف الممتاز .

وهذا كله حق واضح ليس به خفاء ، ولكن علينا أن نسأل : هل أجدى على الشعر وأغناه وأبعد آفاقه ورفع من مستواه تسرب الأفكار الفلسفية إليه واتكاء الشعراء على المفكرين والفلاسفة ؟ وهل تقدر قيمة الشعر بمقدار ما فيه من تفكير فلسفى وصحة نظر الحياة ، وعمق معرفة بمشكلاتها وغوامضها ؟ وهل أصالة التفكير الفلسفى وطرافته هى مقياس شاعرية الشاعر ومعيار تفوقه وامتيازه ؟ .

» الواقع أن الأدب ليس لوناً من ألوان المعرفة الفلسفية ، وليس من واجبه أن يقتصر عمله على نقل التصورات الفكرية إلى الأخيلة الشعرية ، وإنما يحاول الشعراء أن يتناولوا بعض المسائل المتصلة بالحياة البشرية ، مثل مشكلة القدر ومشكلة الموت والمشكلة الدينية ، وموقف الإنسان حيال الطبيعة وموقفه من مشكلة الحب ، وبعض هذه المشكلات تدخل فى حيز الفلسفة ، وبعضها يتصل بتطور الأحاسيس وأحوال العواطف الإنسانية ، ونظرة الإنسان للطبيعة قد تتأثر بتفكيره الدينى والتقاليد الأدبية المتوارثة والاعتبارات الجمالية ، ومن الصعب أن تؤرخ التغيرات الطارئة على العواطف

والأحاسيس لأنها ثابتة متغيرة ، فموقف جيل من الأجيال من الحب قد يختلف بعض الاختلاف عن موقف الجيل الذي يليه ، والدموع الغزار التي كانت تفيض من عيون كتاب القرن الثامن عشر وشعرائه من فرط التأثر إزاء أي حادث مهما هان أمره ، مما يسترعي النظر ويثير شيئاً من العجب .

وقد بدا لبعض الفلاسفة الألمان أن يقسموا مواقف الناس تجاه الحياة إلى ثلاثة مواقف ، وهذه المواقف تشمل الموقف الفكري والموقف العاطفي ، وأشهر محاولة معروفة في هذا السبيل هي محاولة المفكر الألماني دلتاي ، والطرز الثلاثة التي لمحها في تاريخ الفكر هي الطراز الوضعي ويمثله ديموكريتاس ولوكريتاس ، وهو يشمل هوبز والفلاسفة الأنسكلوبيديين الفرنسيين والماديين المحدثين ، والطراز الذي تغلب عليه المثالية الموضوعية مثل هيراكليتاس وسبينوزا وليبنتز وشلنج وهيجل ، والطراز الذي تغلب عليه المثالية الذاتية مثل أفلاطون وكانت وفخت ، والطراز الأول يفسر الأشياء الروحية تفسيراً مادياً ، والطراز الثاني ينظر إلى الواقع من حيث هو تعبير عن الحقيقة الداخلية ، والطراز الثالث يرى أن العقل مستقل عن الطبيعة ، ويلحق دلتاي بهذه الطرز الكتاب والشعراء ، فبلزاك وستندال عنده من رجال الطراز الأول ، وجيتي من الطراز الثاني وشلر من الطراز الثالث .

وقد حاول بعض الباحثين الألمان تطبيق هذه الطرز الثلاثة على التصوير والموسيقى ؛ فرامبرانت وروبنز في رأيهم من المثاليين الموضوعيين، وفيلاسكيز وهالز من الواقعيين، وميشيل أنجلو من المثاليين الذاتيين ، وكذلك بيتهوفن الموسيقار ، وألحقوا شوبير بالطراز الثاني وبرليوز بالطراز الأول .

وقد أثارت هذه التقسيمات اهتماماً كبيراً في التفكير الألماني ، وطبقت على تاريخ الأدب والفنون ؛ فأدب القرن التاسع عشر في أوربا بوجه عام انتقال من الطراز الثاني الذي كان يمثله جيتي والرومانتيكيون إلى الطراز الثالث الذي يمثله التأثريون والتعبيريون .

ولكن الذي يطيل النظر في هذه التقسيمات يخالجه شيء من الشك في مدى انطباقها على الواقع ، وقد يعجب من قدامة هذا التثليث الذي يحصر الأمزجة والملكات في حدوده ، والطبيعة الإنسانية أكثر تعقيداً وأعظم تنوعاً من أن تحويها أمثال هذه القوالب الضيقة ؛ وقد أدرك أنصار هذه التقسيمات ذلك ، فحاولوا أن يخففوا من حدتها ووسعوا مداها، وأدرجوا ضمنها تقسيمات أخرى فرعية تشمل أكبر عدد ممكن من الطبائع والأمزجة ؛ ولعل أوضح عيب لهذه التقسيمات أنها تذهلنا عن الخصائص الفردية للشعراء والكتاب والفنانين، وتجعلنا نكتفي بإلحاقهم بطراز من الطرز المذكورة ، وننصرف بذلك عن بحث خصائصهم ومزاياهم الذاتية.

والعلاقة بين الفلسفة والأدب في عصر من العصور علاقة خداعة ، وأكثر البراهين على وجودها قد لا تخلو من المبالغة والتهويل ، وهذا الشك لا ينفي أن هناك علاقة لأن المؤثرات التي يستهدف لها الأدب والفلسفة في أي عصر من العصور متشابهة ، ولكن بالرغم من هذه المؤثرات لا يمكن أن تكون العلاقة وثيقة قوية ، وذلك لأن ممارسة الشعر غير ممارسة الفلسفة ، وللأدب تطوره الخاضع لمنطقه الداخلي وطبيعة مشكلاته ، وللفلسفة كذلك تطورها الداخلي الخاضع لطبيعة مشكلاتها وتوالي هذه المشكلات ؛ وقد يجمع بعض الأفذاذ بين مواهب الشاعر ومواهب الفيلسوف مثل إمبيدوكليز قبل عهد سقراط في بلاد اليونان ، ومثل جوردانو برونو وجيتي وجورج سانتيانا في العصر الحديث .

وقد نسأل أنفسنا : هل تتوقف أهمية رواية فاوست أو روايات دستوفسكي على ما بها من فلسفة ؟ إن قيمة الأفكار الفلسفية في أمثال هذه الروايات هي أنها زادت الفنان عمقاً وسعة ، ولكن الأفكار الفلسفية إذا لم يحسن الكاتب أو الشاعر هضمها والانتفاع منها قد تعوق إنتاجه وتفسد عليه عمله . وقد لاحظ النقادة الفيلسوف الإيطالي كروتشه أن بعض أشعار الكوميديا الإلهية ليست سوى أفكار دينية منظومة ، وأن الجزء الثاني من رواية فاوست تطغى عليه الروح الفلسفية، كما لاحظ غيره من النقاد أن التفكير الفلسفي في روايات دستوفسكي يكاد يذهب بروعتها الفنية .

وتظهر براعة الشاعر أو الكاتب وقدرته على هضم الأفكار الفلسفية في استطاعته إحالة التصورات الفلسفية إلى أخيلة شعرية وصور حية معينة للأشخاص والأفكار .

علي أدهم

من فلسفة الناقوس ...

للأستاذ محمد مصطفى العالم

الليل ساج داج لا تسمع فيه حساً أو دبيباً . كأن الصمت قد نشر أرديته السكيفة على الناس جميعاً . حتى رجل الشرطة قد استسلم للنوم اللذيذ فى مثل تلك الليلة الرعناء التى غاب عنها القمر وزأرت فيها العواصف ، فما عاد أحد يسمع وقع قدميه الثقيلتين تتنقلان جوف الظلام المتكر .. فلقد خيل إليه أنه بمنأى عن الرؤساء ممن يستطيعون أن يحاسبوه حساباً عسيراً على نومه حين ينبغى أن يكون متيقظاً .. فما من أحد من هؤلاء الرؤساء يستطيع أن يخاطر بنفسه فى تلك البرودة القارسة القاصمة ... التى ألجأت الناس إلى المواقد مستدفئين أو إلى الفراش مبكرين . وألجأت الحشرات إلى جحورها ساهمة واجمة .. وألجأت الطيور إلى أعشاشها مذعورة خائفة .. فلماذا يظل هو وحده الساهر الساهد والكل غاف غافل .. ولماذا يظل هو وحده المشغول دون أن يكون هنالك شاغل ..؟ لقد نيطت به حراسة كل هاتيك المتاجر والمنازل ، فهو لها حافظ وعليها حارس .. ولكن يحرسها ممن . ؟ ! من اللصوص ! وأى لص مجنون يستطيع أن يخرج فى هذا الشتاء المريد وهو يعلم أنه هاهنا واقف كالرصد .. لقد ظل فى هذه المنطقة سنوات ذات عدد وهو يسهر الليل دون أن يعكر صفو الأمن معكر ، أو يفكر فى التعرض لبأسه مفكر .. ! فماذا عليه لو نام الليل كما ينام الناس .. وماذا على الناس لو أنهم سمحوا له أن يكون منهم ولو ليلة واحدة ، فيتمتع بنوم الليل كما يتمتعون . ولا سبيل إلى التعلل بالأمن . فالأمن مستتب مصون ؟ .

وأغفى الحارس النشيط إغفاءة عميقة كأنه السكير يخشى أن يستيقظ فتصدمه الحقيقة ؟ وليس أحد يدرى أى أحلام كانت تداعب رأسه الأصلع حين هب من غفوته مذعوراً كأن لدغته عقرب .. ثم يفرك عينيه بيديه ويرفع رأسه نحو السماء مشدوها كأنه يسألها تفسيراً لما أشكل عليه فهمه ! ما هـذا الصوت المجلجل المدوى ذو الرنين الذى يأتى من بعيد كأنه الاستغاثة . هل جد فى السكون شيء جديد خلال تلك الإغفاءة التى ودعها فى منتصف الطريق . ولماذا يدق هـذا الناقوس تلك الدقات المتسلسلة المتصلة التى لا تنقطع إلا لتتصل ، وما لأحد عهد بأن تخدش دقات الناقوس سمع الليل البهيم . ؟ ! يا له من عبد أحمق ذلك الذى أخذ على عاتقه أن يثيرها ضجة هوجاء بتلك الدقات المنطلقة من ناقوس المعبد ونحن لا نزال فى الساعة الثانية من الصباح . ولكن لقد أفلح الخبيث فيما أراد ، فتعالى الضجيج والصياح ، وأطل الناس من النوافذ يتساءلون : ما الخبر ؟ وإذا صوت أجش كأنه ينبعث من قبر يقول : أيها الناس ، إن الناقوس ينذركم أن هبوا من نومكم لتقوموا على حراسة أنفسكم وأمتعتكم .. فإن الرجل الموكل بالحراسة قد خان واجبه وامتثل للرقاد ! وما عليكم إلا أن تذهبوا إليه فى دركه فتجدوه نائماً كالقتيل ، لا تركنوا إلى ذلك الحارس النائم .. فإن الارتكان إليه كالارتكان إلى جدار منهار ؟ .

يا للناقوس الحالم ؟ يريد إيقاظ الناس حتى يضبطوا حارسهم متلبساً بالنوم . ولكن حمداً لله ، فقد استيقظ الجندى الهمام قبل أن يضبطه الناس نائماً .. وكان الفضل فى إيقاظه للناقوس الحالم ! .

ولقد كان هذا الجندى فى حاجة إلى بعض الوقت حتى يدرك أن الكابوس هو الذى هيأ له دقات الناقوس ، وأن المسألة لا تعدو أن تكون وهما من الأوهام أو حلما من الأحلام التى تعتمنا فى المنام . فلقد كانت هـذه أول محاولة له فى إهمال شئون الحراسة خلال خدمته الطويلة . وما دعاه إليها إلا الشيطان . فما تعود من قبل أن ينام ويترك منطقة حراسته وديعة بين يدى الأقدار ، أو بين أيدى الأشرار ؟

ولكن . يا للشيطان ؟ إنه يغريه بالنوم مرة أخرى وألا يستمع للأوهام ، فليس هناك ناقوس وليس هناك ناس . وما يكاد الشيطان يفلح فى تنويم الحارس حتى يقوم هذا من

النوم مرتاعا وقد بدت له دقات الناقوس أشد عنفاً وأكثر صرعا .. فآلى على نفسه ألا يعاود النوم مهما كانت الدوافع والأسباب !

كيف السبيل إلى قضاء هذا الليل الطويل الثاقل الذي لا يريد البراح ... ؟ لا شيء إلا التفكير يقتل الوقت وينقض على الزمن انقضاضا .. ولكن فيم يفكر هذا الحارس الذي علمته الحياة أكثر مما تعلم في كتاب القرية .. ؟ إن موضوع الناقوس موضوع جذاب جدير بالتفكير والتدبر فضلا عن أن حربا خفية قد استعرت بينه وبين دقات الناقوس التي أبت عليه النعاس ؟ فليفكر إذاً في : الناقوس .. وعلاقته بالناس !

وبدأ الجندي يحدث نفسه دون أن يدري أن هناك من يدون حديثه .. ولقد أريد له أن يدهش حين يجد حديثه منشوراً في الثقافة القراء :

لقد أودت النوم وأمنت الرؤساء ، ولكن كان الناقوس على من الرقباء ، فأبى على الرقاد وأشعرني بأنه يحصى حركاتي ويعد أنفاسي .. ألا ما أشبه الناقوس بالضمير ؟ ما يكاد الغافل يغفل والعابث يعبث حتى يستيقظ الضمير فيحذر وينذر تماما كما يفعل الناقوس .. ألا فليكن لي من ضميري رئيس .. وليكن لي من ضميري ناقوس ... ؟

إن ناقوس المعبد معلق في تلك النافذة المرتفعة .. وعلى خادم المعبد أن يصعد إلى أعلى البناء حتى يدق الناقوس فيسمعه الناس . لو كان هذا الناقوس معلقا في مكان منخفض أكان يسمعه الكثيرون الذين يسمعونه وهو في ذلك المكان المرتفع .. ؟ ؟ لا أظن .. ألا ما أشبه الناقوس بالألقاب والدرجات ؟ فكلما كان الإنسان ذا لقب كبير ودرجة رفيعة كان صوته مسموعا وكان أمره مطاعا .. فإن لم يك ذا لقب ولا درجة لم يسمعه أحد ولم يطعه أحد ولم يحس به أحد .. كالناقوس المطمور في التراب .. أليس كذلك .. ؟

لماذا يصنعون الناقوس من النحاس ولا يصنعونه من الخشب ولا من الزجاج .. ؟؟ ولو أن هناك ناقوساً من خشب أو زجاج هل كنا نسمع له ذلك الصدى والرنين اللذين نسمعهما لناقوس من نحاس ؟؟ إن الخشب بارد والزجاج هش ، ولكن النحاس قوي متين .. ألا ما أشبه الناقوس بالأخلاق ؟ فكلما كان الإنسان قوي الخلق ثابت العقيدة كان أقدر على الإنتاج ، وكان أقوى على الصبر والاحتمال ، وكان أقرب إلى بلوغ الأهداف .. ؟ أما ذلك الإنسان الضعيف الرخو ، فإنه كالناقوس المصنوع من الخشب أو الزجاج ، إما أن يكون بارداً لا روح فيه ولا حيوية ... وإما أن يكون هشاً سريع الانهيار لا يحتمل ولا يصطبر .. وكلاهما لا خير فيه ..؟؟

كيف يدق الناقوس .. ؟ بالمطرقة . وماذا تكون المطرقة في الحجم بالنسبة إلى الناقوس الضخم .. ؟ وهل يمكن للناقوس الضخم أن يؤدي رسالته ويسمع الناس دقاته دون تلك المطرقة الصغيرة الحجم .. ؟ الجواب لا ، بالطبع ! ألا ما أشبه الناقوس بالإنسانية ! فإن المجتمع الإنساني يقوم على التعاون بين أفراده ، لا فرق بين صغير وكبير ؟ فلكل منهما نفع .. فليس الصغير يستغني عن الكبير .. وليس الكبير في غنى عن الصغير .. كالمطرقة الصغيرة لا جدوى منها بغير الناقوس الكبير .. وكالناقوس الكبير لا فائدة منه بلا مطرقة صغيرة ..؟!

متى يدق الناقوس ..؟ حين يتحرك ويهتز ! فلو ظل الناقوس على جموده ما سمعنا له صوتاً .. ولكن حين يهزه الإنسان أو يحركه فإنه يجلجل ويصلصل .. علام يدل هذا ..؟ أليس في الحركة بركة كما يقولون ..؟ إذاً فلنرفض الجمود ولنتحرك حتى ننال البركة التي عنها يتحدثون .. فلم يكن هناك من يدري أن هنا ناقوساً لو لم يتحرك الناقوس ويهتز .. كذلك علينا أن نسعى في الأرض مرددين قول الشاعر :

إن العلا حدثتني وهي صادقة
فيما تحدث أن العز في النقل
لو أن في شرف المأوى بلوغ منى
لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

ما صوت الناقوس ..؟ أليس هو ذلك الصوت الذي يبدأ عالياً ، ثم يخفت ويخفت حتى يصير إلى العدم والانتهاء ..؟ وأي شيء يشبه هذه الحالة في دنيانا التي نحياها ..؟ أليس ذلك الصوت الذي يبدأ مرتفعاً يشبه كثيراً

جامعة الدول العربيـــــــة

الأستاذ شكري فيصل

يتجدد الحديث عن جامعة الدول العربية في هذه الفترة مع انعقاد الدورة الحاضرة لمجلس الجامعة، ويوشك أن يكون هـذا الحديث مستطيلاً على مدار الأيام منذ كانت كارثة فلسطين، فلا يكاد يمر أسبوع إلا وتكون أحداث أو وثائق أو مشروعات في مصر وغير مصر تستثير هـذا الحديث وتبعث به على صفحات الجرائد والمجلات

وكل ما ينشر عن الجامعة العربية يوشك أن يكون منصباً على التشكي والتمني: التشكي من الروح التي تعالج بها القضايا العربية، ومن تعرج الطرق ومن تباعدها حيناً، والتمني أن ينتهي ذلك، بعد هذه السلسلة من التجارب المريرة، إلى بناء سليم تتعاوره أيدي العرب جميعاً بالبناء والتقوية لا بالأثرة والاستئثار.

غير أن الذي يلفت النظر في هـذه الدورة أن أصواتاً ارتفعت قبل انعقاد المجلس تنادي بفض الجامعة حيناً، وانتهاج مصر سياسة مصر أولاً، أو السياسة المصرية الخالصة، والعمل على التخفيف من قيودها والتزاماتها نحو جاراتها العربيات، وقد رافق هذه الدعوات وزاملها سلسلة من الوثائق التي نشرتها الصحف توشك أن تقطع بقيام صلات ومفاوضات، يطبعها الود، بين إحدى الدول العربية وبين زعماء إسرائيل.

وكذلك نرى أن مجلس جامعة الدول العربية ينعقد في جو صاخب مترب، يملأ صخبه الأذن، ويسد ترابه الأفق، وتثور فيه رياح ساخنة لا تدع مجالاً لتنفس هادئ عميق.

فماذا سيكون موقف المجلس في معالجة الأوضاع القلقة؟ أينتهي إلى رأي وعمل فيها، أم سيكتفي بإدارة الحديث حولها؟.

لندع قصة الأزمة التي واجهت المجلس في أيامه الأولى، فالمستقبل وحده يكشف عما كان بين يدي هـذه القصة وما كان من خلفها يدفعها أو أمامها يجذبها، والمستقبل وحده يكشف بوضوح عن الخطأ في هذا الاتجاه أو صوابه، فليس هناك سبيل إلى الحديث عن هـذه الأزمة بعد أن وُفق المجلس إلى أن يظهر أمام الناس أنه استطاع أن يتغلب عليها أو يقهرها.

وأمام المجلس طائفة من الأمور في جدول الأعمال يبدو أن أولها وأهمها مشروع الضمان الجماعي والمشروعات الأخرى التي قامت من حوله.. وأهميته لا ترجع إلى بنوده فحسب، بل إلى ما ينتظر أن يكون منه من حيث إنه تصفية لوجهات النظر المختلفة بين الدول العربية وإقرار للتعاون بينها على أكمل وجوهه.

وما يستطيع أحد أن يتنبأ كيف ستكون معالجة هذا المشروع في هـذا الجو الذي تثقله النوايا الحذرة وتتوجس فيه النفوس، وما يدري أحد كيف توفق الحكومات فيما بينها إلى دراسته وإقراره، وهو مشروع يقوم أول ما يقوم على الرغبة البعيدة في التعاون من نحو وعلى الاستعداد

ذلك الصخب والضجيج اللذين نحدثهما نحن ونحن في فرحة الحياة وبهجة العمر..؟ ثم أليس ذلك الخفوت الذي ينتهي إلى الفناء يشبه كثيراً حشرجة الموت وذهاب الروح..؟ إن دقة الناقوس قد جمعت الضدين: الحياة والموت؟.

لمن يدق الناقوس..؟ لي أم لك أم للناس جميعاً..؟؟ إن الناقوس يدعو الناس إلى المعبد حيث تجمعهم المساواة في الوقوف.. والمساواة في الفرائض.. والمساواة في سماع المواعظ.. فهل هناك من يتعظ؟؟ لا، إنهم لا يكادون يخرجون من المعبد وتودعهم أجراسه الفضية حتى يخسروا القضية..؟؟.

محمد مصطفى العالم

التنفيذ من نحو آخر ، وعلى الصفاء الصادق فيما بين الدول الأعضاء .

* * *

وأخشى ما نخشاه ، كمواطنين ، كل آمالهم فى عالم عربى موحد الهوى واللسان ، أن يدرس المشروع دراسة سريعة عجلى ، وأن يقر إقراراً مظهرياً ، ثم يقدم للعالم العربى على أنه ثمرة هذه الاجتماعات المتتالية .

والرأى العام اليقظ فى العالم العربى يتملكه الحذر أن يكون المشرفون على شئون الحكومات العربية يحاولون أن يتخذوا من إقرار الضمان ستراً للفشل الذى مُنيت به السياسة العربية لا علاجاً لها .. أعنى أن يخرج مشروع هذا الضمان من أن يكون ضماناً حقاً ، وأن يكون دفعاً نحو العمل واتجاهاً إلى الحركة وتنظيماً للجهود ، إلى أن يكون رداء مزخرفاً يُلقى به فيما بين الناس وبين الكارثة فيشغلون به عنها ويتلهون بزخارفه عن مهها الويل .

إن العالم العربى لا يريد أى مشروع من أية حكومة ما لم يكن وراءه ضمانات صحيحة قوية واضحة لتنفيذه .. إنه لم يعد يطيق تناول هذه المسكنات التى تتالى عليه فى كل دورة لمجلس الجامعة ، والتى شغلته — بالرغم من أن الدماء لم تجف فى أرضه — عن التماس أسباب الداء الحقيق ومعالجتها ، وإنما صُرف عن ذلك إلى نوع من الجدل والتهاتر ، قد يستطيع المتفائلون أن يروا فيه بعض الحيوية والتنبه ونشدان الأفضل ، غير أن أشد المتفائلين لا يستطيع إلا أن يقول إنه تهاتر ذهب بالغاية وأضاع الهدف وأرجع الوحدة التى ينشدها الكل إلى خلاف يجمع فيه الكل .

ليس لمشروع ما إذن ، أى أثر بعيد فى مستقبل الجامعة العربية ، أو أثر بعيد فى نفس المواطن العربى ، إذا لم يولد ولادة حقيقية ، وإذا لم تتبنه الحكومات العربية تبنياً قائماً على الرعاية ، فتصله وصلاً محكماً بسياستها الداخلية والخارجية ، وتقرر له جانباً من مواردها المادية والأدبية ، وتتيح له أن يعيش جزءاً منها من نحو ، وجزءاً مشتركاً بينها وبين شقيقاتها من نحو .. فأما أن يكون مشروعاً يُكتب اليوم ليُنسى غداً ، وأما أن يكون مشروعاً تتدارسه هذه الحكومات لتلقى به نيران هذا الغليان الكامن فى كل قطر ، ولتطلع به على المواطنين العرب تلطيفاً لمشاعرهم وتصريفاً لنشاطهم .. أما أن يكون هذا أو ذاك ، فإنه من الخير لجامعة الدول أن لا تتعرض لهزة جديدة ليس فى وسعها أن تطيقها .

إن مجلس الجامعة يعرف أنه ينعقد فى دورته الثانية عشرة وهو يعرف أن هؤلاء العرب الشاعرين بأنفسهم لا تلازمهم أية عصبية لأية فكرة بينها ، وإنما تلازمهم العصبية لشىء واحد ، هو : التقريب بينهم فى ميدان العمل المشترك ضد العدو المشترك ، والاندفاع فى هذا الميدان فى قوة وتصميم .. وهذه الفكرة وحدها هى التى تعيش فى رأس الإنسان العربى ؛ فمواجهته بغير ذلك ، ليست خطأ سياسياً فحسب ، ولكنها قد تصل إلى حدود الجريمة فى مستقبل هذا الوطن العربى .

فلنخرج إذاً بالنتيجة الواضحة العامة الفاصلة .. فإن لم يكن ، فمن الخير لنا أن نواجه الحقيقة بكل بشاعتها ، من الخير أن نقول لهؤلاء الذين يعيشون فى قلق فى كل أطراف العالم العربى : إننا لم نستطع . فذلك أبقى من أن نخدعهم ببيانات وقرارات لا نعرف ما مستقبلها . إننا نريد أى مشروع ليكون دفعاً للقوى العربية وضبطاً لها واتجاهاً مشتركاً بينها ، ونخشى أن تكون المشروعات فى جامعة الدول أشبه بصمام الأمن فى الآلة ، إنما ينفتح ليحول بينها وبين الانفجار .. نريد أى مشروع قوة وتعاوناً وحراباً فى وجه أعدائنا فى الداخل والخارج ، لا حراباً تكسر بها حدة الشعور ورغبة الانطلاق .

وما لم يكن ذلك ، فإن الفكرة العربية توشك أن تخسر كثيراً من مقوماتها ، وفى مصر بوجه خاص .

فعلى الذين يشرفون من قريب ومن بعيد على دوائر الجامعة والذين يحملون أمانتها ، وعلى الذين سافروا وخلفوا وراءهم بلادهم يأكلها القلق .. على هؤلاء جميعاً أن يدركوا هذا .

(القاهرة)

شكرى فيصل

الموسم الفرنسى للتمثيل المسرحى

للأستاذ عبد القادر السماحى

قدمت فرقة الكوميدى فرانسيز هذا العام مسرحيات كانت بمثابة « عينات » من المسرح الفرنسى فى جميع أطواره ومراحله . فهى تحتضن حقبة من الزمن تمتد من القرن السابع عشر مع موليير إلى القرن الثامن عشر مع ماريفو إلى القرن التاسع عشر مع موسيه إلى القرن العشرين مع مورياك وبورديه .

وقد أعطت الفرقة مسرحيتين لموليير إحداهما « طبيب بالرغم منه » ، وهى ليست من هزلياته الكبيرة التى تجد فيها دائماً جانباً من المأساة ، والتى تتميز بالتحليل النفسى العميق ورسم الشخصيات الدقيق ، وإنما هى فكاهة Farce أهم عناصرها هو الهزل الذى يضحك ويذهب الهم ويملأ النفس بغبطة كثيرة ومرح جم . وتتلخص هذه المسرحية فى أن سجاناريل الحطاب السكير ضرب امرأته مارتين لأنها تلومه لمسلكه . فأضمرت المرأة الانتقام منه . وسنحت لها الفرصة عندما رأت رجلين يبحثان عن طبيب لمعالجة ابنة سيدهما جيرونت التى أصيبت بالبكم . فتنصح لهما مارتين أن يذهبا إلى الغابة المجاورة ويبحثا عن رجل يدعى سجاناريل ، وهو نطاسى بارع « يصنع المعجزات » . ولكنها تفهمهما أنه لا يكشف عن هويته ولا يظهر براعته إلا إذا ضرب ضرباً مبرحاً . ويلتقى الرجلان ، وعندما ينكر درايته بالطب ، يضربانه « علقة ساخنة » فيضطر إلى الاعتراف بما يريدان ، ويصحبهما إلى بيت سيدهما . ويفحص « الطبيب » المريضة ويعلن تشخيصه للمرض فى لهجة خطابية قائلاً : إن الفتاة بكماء « لأنها فقدت النطق » ، وهى قد فقدت النطق « لأنها لا تستطيع الكلام » ، ويدهش الحضور لعلمه وخبرته ! وتتعاقب طيلة الفصول الثلاثة الفكاهات اللطيفة والمواقف المضحكة .

أما المسرحية الثانية فهى « مريض الوهم » ، وهى آخر ما ألف موليير . إذ أنه أحس بتعب مفاجئ فى أثناء قيامه بتمثيل دور المريض ، ثم أخذ ينفث دماً من فمه وقضى نحبه بعد ساعات . وقد خلفت هذه النهاية الأليمة حول التمثيلية أثراً باقياً من الحزن والكآبة . ولا يبدو فى موضوع هذه المسرحية لأول وهلة شىء من المرح أو الفكاهة ، فهى قصة رجل موله بالمرض حتى الجنون ، رجل يريد أن يظل مريضاً رغم أنف الطبيعة . ولكن المواقف المضحكة التى يثيرها والتى تدفع إليها الشخصيات الأخرى تأتى لتشيع المرح وتجرد هذا الانحراف النفسى من الطابع الحزين المنفر الذى قد يكون عالقاً به . ويهاجم موليير فى هذه المسرحية إحدى نواحى الضعف الشائعة لدى البشر ، وهى ذلك الحب المفرط للحياة والتشبث بها ، وذلك الاهتمام البالغ بالصحة والذى يساء فهمه فيجاوز كل الحدود ، والذى يعمل على تدهور الصحة أكثر مما يعمل على صيانتها ، وهذه الثقة العمياء فى الطب والأطباء ، وإساءة استعمال الدواء ، فينتهى الأمر به أن يأتينا بما ليس لدينا من الأدواء بدلاً من أن يعالج ما لدينا منها . وفى الحقيقة أننا نجد لدى هذا المريض الموهوم كل النقائص التى تتصل بهذا الضعف النفسى : نجد لديه الأنانية ، فهو يريد أن يزوج ابنته من رجل لا تحبه لأنه طبيب ، وهو يريد طبيباً بالقرب منه ، ونجد لديه سرعة الهياج والغضب ، فهو يثور لأتفه الأشياء ، ونجد لديه الفظاظة والقسوة ، فهو يعامل ابنتيه اللتين فقدتا أمهما معاملة ظالمة ، حتى إنه قرر أن يضع كبراهما فى الدير ، ونجد لديه سرعة التصديق والسذاجة ، فهو ينخدع بسهولة ، ليس فقط بمظهر أدعياء الطب المحتالين الذين يبتزون ماله ، وإنما كذلك بتودد المرأة التى تزوجته طمعاً فى ثروته والتى تكرهه وتحتقره وتريد أن تسلخ جلده قبل موته . ونجد لديه العناد والصلابة ، فهو لا يسمع لنصائح أخيه أو خادمته اللذين يريدان خيراً به .

وقدمت الفرقة كذلك مسرحية « لعب الحب والحظ » لماريفو الذى ابتكر لوناً من ألوان الأدب المسرحى ، يمكن تسميته « بلهاة الغرام » ، حيث يتخذ الحب أهمية تجعل

منه الأصل فى كل النوازع والمحرك لكل الدوافع . ويحدثنا ماريفو عن نفسه فيقول : « لقد ترصدت فى القلب البشرى كل الزوايا الخفية التى يمكن للحب أن يختبىء فيها ، عندما يخشى الظهور والإبانة عن نفسه . وكل واحدة من تمثيلياتى ترمى إلى هدف واحد ، هو أن تحمله على الخروج من إحدى تلك الزوايا » . والحب كما يراه ماريفو عاطفة شريفة حيية ، تداوى نفسها وتنكر وجودها . والعقبات التى تصادف هذا الحب لا تأتى من الخارج وإنما من الداخل ، أى منه هو نفسه . وهذا الحب الذى يخجل من نفسه هو الذى يسلط ماريفو الضوء عليه ليرغمه على الظهور والتكشف . وينحصر فن ماريفو فى تحديد ظلال هذا الشعور الدقيق وتبيان مدارج ألوانه ، وتسجيل مظاهر تردده وحيائه وتناقضه مع نفسه ، وكشف الحيل التى يلجأ إليها قلبان يبحث الواحد منهما عن الآخر بدافع غريزى ، واللذان يبدوان كأنما يلعبان « استغماية » ، والاختصار تصوير كل ما يسبق أو يمهد أو يؤدى إلى الاعتراف بالحب . وفى هذه التمثيلية نرى كيف أن سيلفيا التى تنكرت فى هيئة وصيفة لكى تدرس دورانت الذى يراد تزويجه منها بدون أن يعرف أنها فتاته ، تجد نفسها وجهاً لوجه أمام خادم هو دورانت نفسه الذى خطرت له الفكرة ذاتها فتنكر فى هيئة خادم ليدرسها عن كثب ، وكيف أن كلا منهما أغرم بالآخر وهو مسلوب الإرادة .

وشاهدنا لألفريد دى موسيه مسرحية « الشمعدان » وملخصها أن جاكلين وهى زوجة مسجل عقود من أهل القلة ، لها عشيق هو ضابط جرىء مزهو بنفسه . وفى ذات ليلة كاد العاشقان أن يؤخذا على غرة فى حالة تلبس ! ومن ثمة بدا الضابط ، لكى يصرف عنه ظنون الزوج ، خاطر طريف ، فعرض على جاكلين أن تتخذ ما يسمونه فى لغة الضباط « بالشمعدان » أى شاباً تقربه إليها بقصد التمويه ، فيكون هو محط الأنظار ومثار الشكوك وما دامت الصلة بينهما بريئة ، فلن يحدث ما لا تحمد عقباه ، لأن الحقيقة هى التى ستظهر فى كل مرة ، وبذلك يبقى العاشق الحقيقى بمنجاة من الأخطار . فوقع اختيار الزوجة على شاب من بين الكتبة الذين يعملون عند زوجها ، وهو كثير الخجل ولكنه مشبوب العاطفة ، وكان يضمر لها أشد الهيام . وقد نجحت الحيلة . ولكن الأمر ينتهى بأن تقع الزوجة فى غرام « الشمعدان » ، وتهجر الضابط من أجله .

وتسود الفصلين الأولين روح الدعابة والسخرية ، ويسيطر فى الفصل الثالث الشعور بالحزن والكآبة وعنف الهوى ، مما يضفى عليه مسحة من الشاعرية الرقيقة .

وقدمت الفرقة كذلك مسرحية « آسموديه » لفرانسوا مورياك . وآسموديه هو الاسم الخرافى لشيطان اللذات المحرمة . وكان القصصى الفرنسى ليساج قد جعل منه الشخصية الرئيسية فى قصته : « الشيطان الأعرج » الذى يرفع السقوف عن المنازل ويكشف عن أسرار سكانها . وفى هذه المسرحية نرى كيف يتلاعب شيطان الغرام بالأفئدة ، فنرى رجلاً يعمل كمثقف لأبناء إحدى الأسر ، يحب الأم التى مات زوجها حباً جنونياً ، بالرغم من تفاوت المركز الاجتماعى بينهما ، ولكنها لا تبادله تلك العاطفة . ونرى امرأة أخرى تعمل أيضاً لدى الأسرة تحب هذا الرجل حباً جنونياً ، ولكنه لا يبادلها تلك العاطفة . ونرى الأم وقد وقعت فى غرام فتى انجليزى يقع نزيل ضيفاً على الأسرة بالرغم من تفاوت السن بينهما ، والفتى لا يبادلها هذه العاطفة ، فهو يحب ابنتها التى تحبه بدورها . ونرى الوصيفة والحزن يكاد يقضى عليها لانصراف المثقف عنها إلى الأم . ونرى هذا المثقف فريسة الغيرة التى تكاد تودى به لانصراف الأم عنه إلى الفتى . ونرى الأم فريسة كذلك الغيرة التى تأكل قلبها لانصراف الفتى عنها إلى ابنتها . ولكن هذا الحب الطاهر الوحيد الذى جاء فى موضعه ، هو الذى ينتصر فى النهاية .

وفى مسرحية « الأوقات العصيبة » لادوار بورديه ، نرى تصويراً رائعاً لحياة الطبقة البورجوازية والمتاعب التى يجرها المال ، سواء كان ذلك فى التوفر على جمعه ، أو إهمال شأنه ، أو الطمع فى الحصول عليه . ونرى فيها رسماً دقيقاً للشخصيات ، وأقواها هى شخصية جيروم رجل الأعمال الذى يفنى حياته فى عبادة صنم المال فى معبد « المكاتب والشركات » ، والذى نراه دائماً متعباً ، قلقاً ، مكتئباً . ونحس فى هذه المسرحية بالرغم من جو الواقعية الذى يسودها مسحة شاعرية رقيقة ، وتلك هى سمة الفن الصحيح .

عبد القادر السحامى

في دوائر الأدب والفن

معرض الأخوين وانلي – المسرح المعاصر في باريس

للأستاذ غالب طعمة فرمان

معرض الأخوين وانلي :

أقيم في (متحف الفن الحديث) معرض فني بديع لفنانين مصريين أخوين هما الأستاذ سيف وانلي ، والأستاذ أدهم وانلي ؛ هبطا من الإسكندرية ليعرضا للجمهور القاهري لوحاتهما الفنية .

والفنانان رمزان للإصالة الفنية ، والإحساس بحواسي البيئة ... فأنت أمام لوحاتهما لا ترجع بفكرك إلى فنانين معينين لتبحث عن مما كاتهما لطريقتهم ، وتأثرهما بهم ؛ ولكنك تشعر بأنك أمام روح فنانة تحس بالحياة ، وتتأثر بما حولها ، وتهضم ما وعته من البيئة ، وتنقل إليك مناظر فيها تأثير ، وفيها قبس من الروح التي صاغتها ، وبثت فيها حياة ، وأعطتها طابعاً خاصاً .

والجميل المبهج أن تظهر في هذا المعرض الشخصية الفنية التي ضاعت بين التقليد والسير على طرق معروفة في التعبير ! حتى لنحس أمام تلك الطرائق الفنية بالغربة وعدم الانسجام ، في حين أن حياتنا المحلية تظل مهجورة مظلومة ، كأنها لا توحي بشيء ، ولا يمتزج معها فنانونا أي امتزاج !!

وبين التقليد والتبعية ضاعت الإصالة ، وقبرت الذاتية الفنية ، وأهمل الفن القوي المعبر عن حياتنا ، المصور بيئتنا .

وفي هذا المعرض نجد البيئة البحرية بمناظرها المألوفة ، وطرق حياة أهلها مصورة واضحة في تلك اللوحات التسع والخمسين ، كالأحياء المائية ، ومستنقعات أدكو ، وبيت الصياد ، والباخرة للملك فؤاد ، ومراكب أدكو ، وميناء الإسكندرية ، والصيادين والمستحمات وغير ذلك .

وإذا كان الأخوان مشتركين في إحساسهما وبيئتهما وبما حولهما من مناظر ، فإنهما يختلفان في اختيارهما للموضوع ، وطريقتهما في التلوين .. فالأستاذ أدهم كثير الاحتفال بالمناظر الشعبية يتناولها بروح من الدعابة والسخرية ؛ فلوحة (مولد النبي) مثال رائع لتلك الصفة ، والهرج وليلة الحنة وشاي الساعة الخامسة ، والتحطيب ، لوحات تبرز لك في أحسن صورة تلك السخرية اللاذعة التي امتاز بها الأستاذ أدهم .. ولا يتخلى عن سخريته حتى في اختياره الموضوعات الخيالية كمركب نوح ، فهو مصور بديع ساخر !!



القط الوحشي

أما الأستاذ سيف ، فهو أكثر بهجة وانطلاقاً من أخيه ،

عس ذلك فى ألوانه البهيجة ومناظره الطليقة ، وقد لمست عنده شيئاً لم أدر ما سبب إلحاحه عليه ، ذلك هو ولعه بتصوير « السمك » !! وفى حالة من النضج والتهيئة للأكل ، حتى إنه ليرسم لك لوحة فيها سمك وسكين كأنه يدعوك إلى الأكل !!.

المسرح المعاصر فى باريس :

ألقى الدكتور بشر فارس محاضرة عن المسرح المعاصر فى باريس فى دار السلام .. وقد استهل محاضرته بقوله : المسرح الفرنسى ولد قبل ثلاثة قرون حين جاء إلى باريس من إيطاليا وانجلترا .. واليوم يمكن أن نقول إن المسرح قد بلغ ذروته الفنية فى فرنسا وانجلترا ويقال فى روسيا أيضاً .

ثم عدد الدكتور المسارح وأنواعها فى باريس كالمسارح الغنائية ، والمسرح الصاخب كالفولى برجيره ، والمسرح الساخر أو (مسرح الحارتين) كما يسمونه ، وكل هذه الأنواع لاشأن لنا بها ، إنما نريد أن نتحدث عن تلك المسارح التى تخرج روايات أدبية ..

وبعد ذلك عدد عناصر المسرح الخمسة : المؤلف ، والجمهور ، والممثل ، والمخرج ، والناقد . ثم أبان قيمة كل واحد منهم ، وأثره فى إنشاء المسرحية ونجاحها .. فالمسرحية تختلف تبعاً لمؤلفيها ؛ فهناك مؤلفون يهبطون إلى الجمهور لإرضاء غرائزه ، والانحطاط به إلى درك منخفض ، وهناك مؤلفون تعجبهم الفكرة الإنسانية السامية ، ويهمهم أن يرتفع الجمهور ، ويسمو بعواطفه .. والمؤلف فى باريس مكروه بخيف المسرح ، وتخشاه الإدارة ؛ ذلك لأن جمعية المؤلفين تسنده وتشد أزره ؛ فهو صاحب سلطة ونفوذ كبير ..

والجمهور يلعب فى باريس دوراً خطيراً فى نجاح المسرحية لأنه عنصر أساسى فى هذا النجاح . والمخرج هو الإله الذى يستبد بالمسرحية ، ويحاول وفق هواه ومزاجه الخاص أن يخرجها على المسرح ؛ فهناك مخرجون يظنون الإخراج هو كل شيء ، ويؤمن بهذا الرأى « جاستون بيتى » تلميذ كوكتو ، حتى إنه جعل مسرحية « موضوناس » معرضاً للبهلوانات ، فلقى من سخط النقاد وغضبهم ما جعله يترك المسرح ! وقد حاول « بيتى » أن يخرج من (مدام بوفارى) و (الجريمة والعقاب) مسرحيتين بأن يستخلص منهما مناظر ومواقف وربط بعضها ببعض .

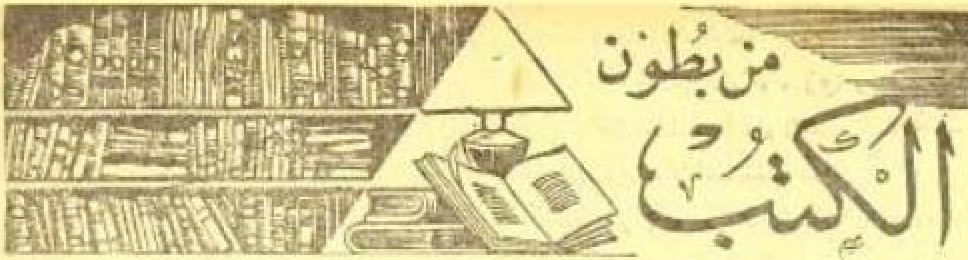
وقال الدكتور : لقد كثر فى باريس ذلك النوع القائم على الثالوث من المسرحيات : وهو الزوج والزوجة والعشيق ، وهناك ستة مسارح تخرج مثل هذا النوع ، وآخر مسرحية من هذا النوع « بيض النعام » ، وهناك نوع ثان من المسرحيات وهو القائم على حوادث مفتعلة ، وحوار ماجن سخيف ، ويذهب الناس للتسلية وتمضية الوقت على رغم تماديها فى الرذيلة وإسرافها فى المجون ، وآخر مسرحية لهذا النوع « أعراس الملوك » .

وإلى جانب مسارح الرذيلة والعبث تقوم مسارح الفضيلة ذات التفكير الكاثوليكى ، وأشهر مؤلفى هذا النوع هو الشاعر « كلوديل » .. وهناك مسارح الطليعة التى لا يهمها إقبال الجمهور أو إدباره ، والقائمون بها هم الشباب ، وعنايتهم أن يخرجوا للجمهور الفرنسى روايات فنية رفيعة .

ثم عرّج على فرقة (الكوميدى فرانسيز) فقال : يسمونها فى باريس معرضاً للأزياء ، وكل ما يهمها أن تعرض للجمهور ممثلين حسنى الصورة وفى أزياء جميلة !! .

غائب طعمة فرمان





قطعة من كتاب دون كيشوت

للكاتب الإسبانى الكبير « ميجويل دى سرفانتس »

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

ولد سرفانتس عام ١٥٤٧ ، وتوفى عام ١٦١٦ ميلادية أى قبل عشرة أيام من وفاة شكسبير .

وقد طبع الجزء الأول من كتاب دون كيشوت عام ١٦٠٥ ، ويقال إن هذا الجزء قد كتب فى غرفة من غرف السجون .

ولم يظهر الجزء الثانى من الكتاب إلا بعد قرابة عشرة أعوام من ظهور الجزء الأول .

ويؤكد كثير من النقاد أن الغرض من تأليف الكتاب إنما كان الطعن ، والقدح ، والحط من قدر فروسية العصور الوسطى ، ولكنا نرى أن الرأى هو مارآه الناقدة الكبير هازلت حيث يقول :

إن السجية الواضحة من سجايا دون كيشوت هى إنكار الذات ، وقد كان فوق ذلك محبًا للعدالة والحق ، كما كان من كبار الحالمين بالفروسية ، وركوب الأخطار ، حتى أذهلته تلك الأحلام عن نفسه ، فتحول عقله إلى عقيدة تؤمن بالفروسية واقتحام سبل المخاطرة .

وليس هناك خطأ أكبر من الظن أن كتاب دون كيشوت ليس إلا سلسلة مقالات فى الهجو والقدح ، أو هو محاولة سوقية لبعث نظام الفروسية بعد أن طال عليه البلى ، وهل يجوز فى الوهم أن يبعث نظام لم يعد له وجود ؟.

(وبعد) فقد كان (سرفانتس) عذب الروح ، حلو الفكاهة ، على طريقة (شارلس ديكنز) ، وإن كان (سرفانتس) أكثر أناقة وأجمل رواء ، فإن شخوص سرفانتس تذكرك بشارلس ديكنز وشخوصه ، وفى (دون كيشوت) جزء غير قليل من طينة (مستر بكوك) من حيث الرغبة فى عمل الخير بحماقة وجنون ، وبطريقة تدعو إلى السخرية ، على حين أن (سانكوبانزا) يبعث إلى ذاكرتك (بسام ولر) .

والكتاب ملىء بأنباء المفاجآت وقصص المخاطرات ، وصورة دون كيشوت فى الكتاب هى صورة واضحة لا خفاء فى تقاسيمها لرجل مجنون تصدر جميع أعماله — سواء تلك التى تبعث على السخرية ، أو تلك التى تثير الشجن — عن رغبته الجنونية فى إصلاح أخطاء العالم .

وفى إحدى روايات دزرائيلى اعترض أحد أشخاص الرواية بقوله : إن (دون كيشوت) لم ير الحياة أبداً . فأجابه محاوره : بل إنه عاش فى أنفسنا ...

وفى الحق أن (دون كيشوت) يحيا فى ذكرياتنا حياة

قصة ملموسة كأنه شخص من أشخاص التاريخ ، فوجهه المعروق ، ولحيته الخفيفة ، وفكاه البارزان ، وعيناه الشاردتان ، تكون في مجموعها صورة قريبة الشبه بصورة نابليون مثلاً .

ووصيفه سانكو بانزا ، وترجمة اسمه (سانكو ذو الكرش الكبير) هو كذلك ماثل في الذهن بقصر قامته ، وجسمه المثلي ، وبطنه المتكرش ، وساقيه النحيلتين ، ثم حدث ولا حرج عن سذاجته ، وطريقته الطريفة في التوفيق بين مُثل سيده العليا وبين أدق ما عرفه الناس من الخدع والحيل ، وفقاً لصالحه وصالح سيده معاً .

وبالرغم من سذاجته فإن (سانكو بانزا) كان على علم تام بأخطاء سيده . ولكن ذكاءه كان يعجز دائماً عن تلافي نتائجها . فأنت ترى مثلاً أنه لما غادر سيده الخان الذي نزلا فيه مرة معا بغير أن يدفع (دون كيشوت) حساب الخان ظناً منه أن ذلك الخان إنما كان قلعة من القلاع . والفرسان ينزلون القلاع والحصون ضيوفاً مكرمين ، أقسم (سانكو بانزا) أن الوصفاء هم كذلك غير مطالبين بالدفع . حكمهم في ذلك حكم الفرسان على السواء . فكان جزاء (سانكو بانزا) أن لفه غلمان الخان في لحاف وجلدوا به الأرض . ولم تأخذهم بالشريف (سانكو) شفقة ولا رحمة .

وكذلك حصان (دون كيشوت) وكان اسمه «روزينانت» وترجمتها « الحارون الأكبر » هو جزء متمم للصورة التي جمعت بين (دون كيشوت) و (سانكو بانزا) والحصان . فقد كان الحصان هزيلاً ، متقدماً في السن ، حتى إن الوصيف (سانكو) لم يكن يرى داعياً لأن يعقله لثقته بأنه كان حصاناً صادق الوعد ، إذا وعد بأن يبقى حيث أوقفه بقي ولم يغادر مكانه وفاء بوعده .

(وبعد) فإنا سنعرض عليك فيما يلي ملخصاً لبعض أمر (دون كيشوت) مع وصيفه (سانكو بانزا) :

اختار (دون كيشوت) لصحبته رجلاً من جيرانه . كان قبل صحبته أجيراً من الأجراء . وكان رجلاً طيب الخلق ، إذا جاز لنا أن نسمي الرجل الفقير طيب الخلق ، فقد كان فقيراً في عقله كما كان فقيراً في ماله .

تحدث الفارس (دون كيشوت) كثيراً مع وصيفه المرتقب محاولاً إقناعه بمختلف الحجج ، ومغدقاً عليه وابلاً من الوعود ، حتى رضي ذلك المهرج الفقير التعس أن يمشي في ركابه ، وأن يصبح وصيفه ونجيه .

ومن وسائل إغراء (دون كيشوت) لهذا الوصيف أن قال له : قد يسعدنا الحظ في موقعة من الوقائع فنغنم — بحكم الفتح — جزيرة من الجزر ، فيصبح هذا الوصيف حاكم تلك الجزيرة وصاحبها .

ولمثل هذا ترك (سانكو بانزا) أهله وولده ليسير وراء جاره . وجمع (دون كيشوت) قليلاً من المال فباع بيتاً ورهن آخر . ثم اقترض درعاً من واحد من أصحابه . ثم تولى بالرفو والترقيع إصلاح قفازه وغطاء رأسه . وأعلن لصاحبه موعد الرحيل لكي يُعد نفسه . وكلفه أن يزود نفسه بخرج من الأخراج فوعده (سانكو) بذلك وبأنه سيصحب حماره معه ، ذلك لأنه لم يتعود السير راجلاً .

فلما سمع (دون كيشوت) ذلك القول أطرق يفكر . ويستعيد دراساته ، ليرى إن كان من عادة الفرسان أن يركب وصفاؤهم حميراً . ولكنه لم يتذكر أنه قرأ عن سابقة مثل هذه من قبل . ولكنه اضطر أخيراً أن يخلق هو هذه السابقة واعداً إياه أن يُنزل أول فارس يلقاه غير مهذب عن حصانه ويركب صاحبنا مكانه .

وخرجا من القرية والليل مرخ سدوله . وهما لم يودعا أهلاً ولا ولداً ، وكأنهما سارقان يخافان رجال الشرطة .

وسار (سانكو بانزا) مختالاً مغروراً . أليس هو الحاكم المنتظر للجزيرة التي وعده بها (دون كيشوت) ؟

آراؤهم فى الدين والحب

للأديب جلال أحمد أمين

فى الدين :

● فولتير :

إن اختيار دين هو جل ما أعناه ، ولكن على من عسى أن أعرض روحى ؟ أترانى أكون مسيحياً لو أننى خلقت فى لندرا أو مدريد ؟ أم ترانى أكون مسلماً لو أننى كنت من مواليد تركيا ؟ كلا ، لا يجب أن أفكر إلا بواسطة نفسى ولنفسى .

● جوته :

« كل الحقائق تأتى من عند الله . وهؤلاء — يعنى رجال الدين — يزعمون أن الله لا يتكلم إلا بوساطة الكنيسة ، فهم لا يرون كيف يتكلم الله بلسان جميع الأشياء ؟ فما من حشرة تدب على الأرض ، وما من ورقة على شجرة إلا ولها نبأ تقوله من عند الله » .

وسأله صديق عقيب وفاة صديق لهما : « ما تظن فيلاند صانعاً فى هذه الساعة ؟ » قال : « إنه لا يصنع شيئاً حقيراً ، ولا شيئاً يغض منه ، ولا شيئاً يناقض عظمة الأخلاق التى أثبتها فى حياته » .

● تولستوى :

— إن أولئك الأنعام الذين يطيعون أمر مولاهم ، أولئك السذج العامة الجهال الذين نحسبهم كالأنعام ، لا يلقون على المولى لوماً . أما نحن الحكماء فإننا نأكل طعام المولى ، ولا نعمل وفقاً لإرادته ، وبدلاً من أداء العمل نرانا نجلس فى حلقة ونتناقش متسائلين : « ولماذا يؤدى ذلك العمل ، أليس هذا سخفاً ؟ » .

— وما إن اعترفت بوجود قوة تمسكنى فى قبضتها حتى شعرت فى الحال أنى أستطيع أن أعيش .

[من اعترافاته]

● لامارتين :

إن الله خلق العقول لتدركه ، فاكتشفْ فى الطبيعة خالق الطبيعة ، فإن صوتاً لا يني يحدث المرء عن ربه ، ومن ذا الذى لم يصغ إلى هذا الصوت ؟ طهر قلبك من الغرور الباطل والمتاع الزائل ، وأرهف أذنك لموسيقى السماء .

[من قصيدته الوادى]

فلما طلع النهار قال (سانكو) لصاحبه : أيها السيد الفارس ، إنى أستميحك الإذن فى أن أذكرك بوعدك ، فلا تنس مسألة تنصيبى حاكماً على الجزيرة .

فقال له (دون كيشوت) : أرجو أن تعلم — علمت الخير — أيها الصديق (سانكو) أنه كان من عادة الفرسان فى الزمن القديم أن يجعلوا وصفاءهم حكاماً على الجزائر ، بل على الممالك التى يفتحونها .

ولست أريد أنا أن أبقى على هذه السنة الحميدة ، بل أريد أن أزيد عليها وأن أجد أسلافى فى السخاء والكرم . ذلك بأن أسلافى من الفرسان كان من عادتهم أن يؤجلوا هذه العطايا والمنح حتى تتقدم بهم السن فيزلوا يومئذ لوصفائهم عن لقب من الألقاب كلقب (كونت) أو على الأقل كلقب (مركيز) .

أما أنا فقد لا يمر على صحبتنا ستة أيام حتى أفتح مملكة كبرى تتبعها ممالك صغرى . وسوف أجعلك ملكاً على واحدة من تلك الممالك .

ولا تظن أن هذا أمل بعيد التحقيق . فالليالى من الزمان حبالى . وهى قد تلد الأعاجيب . فامش وراء خطوى ، وسأعطيك ما وعدت . بل فوق ما وعدت ...

(من الإنجليزية) مبارك إبراهيم

● مارك توين :

كل أمة تعلم علم اليقين أن دينها هو الدين الحق الذى لا دين بعده ، والمذهب الذى لا مذهب غيره ، تحتقر معتقدات وأنظمة كل من عداها ، غير عالمة أنها ليست إلا قطيعاً من الحمر . كل أمة تفخر بتفوق موهوم وتؤمن إيماناً أعمى بأنها هى التى اختصها الله برعايته ، يدعوه الجميع بثقة لا يأتيها الشك أن يتولاهم ويوفقهم فى زمن الحرب ، ثم يدهشهم أن يستجيب الله لعدوهم من دونهم ، ولكنهم قادرون بحكم العادة على أن يلتمسوا عذرا ليعودوا للشكر والدعاء ! [من كتاب ما الإنسان]

● توفيق الحكيم :

— إنى أفهم أن يتكلم هؤلاء الشعراء الأوربيون عن الدين والمسيح كلاما كله إعجاب خالص . إنى أيضاً أعجب الإعجاب الخالص بالأديان . ولكن الذى أريد ليس مجرد الإعجاب كما تفعل أمام قطعة فنية من عمل عظماء الفن أو الأدب أو الفكر ، لست أريد الإعجاب الناشىء عن آلاتنا الفكرة وما فيها من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثة ، إنما أريد الإيمان ، إيمان القلب ، الإيمان الأعمى بأن المسيح فى السماء وأن الله هو الله كما يتصوره البسطاء ، وأن الجنة هى الجنة كما يتخيلها أولئك الذين قال عنهم المسيح « طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله » .

— إنى شديد الإعجاب بأنبياء الشرق ، إن المعجزة الحقيقية التى جاءوا بها ، هى أنهم قدموا للناس عالما آخر ، عالما لسكان من الملائكة ذوى أجنحة بيضاء جميلة ، زاخراً بجنات فيها أنهار من التبر وأشجار من الزمرد ، فى هذا « العالم » استطاعت البشرية أن تعيش حياة أغنى وأجمل من حياة الواقع . [من كتاب عصفور من الشرق]

فى الحب :

● أندريه موروا :

إختبئوا وراء الصفوف المتزاحمة من النساء المتسرعات اللواتى يكشفن فى كرم ، عن نفوس عفيفة تتردد فى إظهار وداعتها ومنح ثقتها ، والتمسوا بعين الإخلاص من أعماق قلوبكم إلى من ترونها جديرة بحبكم . لا تحسدوا « دون جوان » فقد عرفته ، لقد كان أتعس مخلوق وكان أضعف الناس نفساً وأكثرهم وساوس . [من كتاب فن الحياة]

● جوته :

ما قيمة العالم بأسره فى نظر القلب إذا خلا من نعمة الحب ؟ إنه يكون أشبه بالفانوس السحرى من غير ضوء ، فإذا ما أدخلت فيه المصباح لا تلبث أن ترى صورا جمة الألوان على الحائط الأبيض ، وإنا وإن لم نجد غير تلك الأشباح الزائلة والأخيلة الباطلة نسعد بالوقوف عليها والنظر إليها ، كالأطفال ذوى القلوب الفتية الغضة ، تبهرهم تلك الرؤى العجيبة والصور الغريبة .

[من كتاب آلام فرتر]

● لامارتين :

أليس ذلك منتهى ما يسمو إليه العشق ، استغراق مطلق فى جمال رائع ولذة قوية فى عبارة سامية ، فإذا مضت الحياة على مثل هذه الحال ، سكنت الطبيعة عن الحركة ، ووقف الدم عن الدوران ، وذهل القلب عن الخفقان ، فلا تعرف حواسنا حركة ، ولا عجلة ، ولا نصباً ، ولا حياة ، ولا موتاً ، ولا يكون بين شخصينا إلا اتحاد دائم وامتزاج مطلق ، وفناء هو كفناء النفوس فى الله وهى حية موجودة . [من كتاب رفائيل]

● توفيق الحكيم :

— شهريار الملك : أتدرى لماذا أحبك يا قمر ؟ .

قمر الوزير : ؟

شهريار : لأنى أستطيع أن أحبك دون أن أقبلك ! .

— شهريار الملك : أحقيقة أنت تحبها ؟ أنت واهم أيها المسكين ، أنت لا تحبها ..

قمر : مولاى ! .

شهريار : (يشير إلى جسم قمر) ، بل هـذا الذى يحبها ! . [من كتاب شهرزاد]

جهول أحمد أمين



حقائق الدنيـــا

للقصصي الإنجليزي الكبير سمرست موم

ترجمة الأديب حسين أحمد أمين

جلس هنري جارنيت إلى أصدقائه وقد قطب جبينه وبدا عليه الغضب . فانهالوا عليه بالأسئلة يستوضحونه سر حزنه ، فعلموا منه أن ابنه قد عصاه ، وأنه تصرف تصرفاً مشيناً أثناء رحلته إلى مونت كارلو .. وبدأ يقص عليهم قصته :

ذلك أن ابنه نيقولا ، وهو من خيرة لاعبي التنس في كامبردج ، قد عرضوا عليه أن يشترك في مباراة التنس التي ستقام في مدينة مونت كارلو .. وقد رحب الابن بهذا العرض ، إذ وجد فيه فرصة سانحة لإظهار مهارته في مباراة دولية كبيرة ، ثم لزيارة إيطاليا للمرة الأولى في حياته .

ولكن والديه استشعرا القلق ، فقد خشيا على ابنهما أن يجرفه تيار مونت كارلو وأن ينغمس في لهوها وجوها الموبوء . ولكنهما اضطرا إزاء إلحاحه ولمعها أن يقبلا ، وانفرد الأب بابنه يوصيه وينصحه :

إني آمل أن تسلك هناك مسلك الشاب الطيب العاقل .. ولن أثقل عليك بالنصائح ، ولكني أوصيك بأن تتجنب أموراً ثلاثة : الأمر الأول خاص بالميسر ، فلا تفكر في المقامرة .. والثاني خاص بالمال فلا تقرض أحداً مالاً .. والثالث خاص بالنساء ، فلا تقربهن ... أرجو أن تذكر ذلك جيداً ..

فابتسم نيقولا وقال : إني أعدك بألا آتي أمراً من هذه الأمور .

وسافر نيقولا إلى مونت كارلو واشترك في المباراة ، ورغم أنه لم يتغلب فيها على واحد من منافسيه إلا أن لعبه كان رائعاً ، ولكي يحتفظ بصحته امتنع عن تناول الخمر وقلل من التدخين وصار يأوي إلى فراشه في وقت مبكر . ولكنه في مسائه الأخير بمونت كارلو أحب أن يخرج ليشاهد معالم المدينة والحياة فيها ؛ ذلك أنه راحل في الغد إلى لندن ، وقد خشي أن تفوته مشاهدة هذه الحياة الصاخبة التي طالما سمع عنها واشتاق إلى رؤيتها .

ودخل نيقولا أحد نوادي الميسر ووقف خلف الجموع المحتشدة يشاهد لعبة الروليت لأول مرة في حياته . وداخله العجب وهو من عاش طيلة حياته باقتصاد ، ينفق النقود بحذر ، إذ يرى الآلاف من الجنيهات وهي تضيع من أصحابها في ثانية دون أن تتغير ملامحهم .

ودخل نيقولا في حوار مع الواقف بجواره وأفهمه أنه لم يلعب الروليت مطلقاً في حياته ، فأشار عليه صاحبه

أن يجرب حظه ولو مرة واحدة قبل مغادرته المدينة وقال :

— إنه لمن الحماقة أن يغادر المرء مونت كارلو دون أن يلعب الروليت . ولن يضيرك لو خسرت مائة من الفرنكات .

فأجاب نيقولا : ولكن الميسر هو أحد أمور ثلاثة وعدت أبي أن أتجنبها في مونت كارلو ..

وغادر نيقولا رفيقه وانتقل إلى مائدة أخرى يشاهد اللاعبين .. وكان اللعب مثيراً إلى أقصى حد ، فبدأ يتبين صحة قول صاحبه ، وأنه من الحماقة ألا يلعب المرء الروليت قبل رحيله عن مونت كارلو .. ثم إنها ستكسبه خبرة جديدة ، وعلى الشاب في مثل سنه أن يكتسب الخبرة أينما وجدها .. ثم تذكر أنه لم يعد أباه ألا يقامر .. إنه وعده فقط ألا ينسى نصائحه .. والوعد باتباع النصيحة غير الوعد بعدم نسيانها ..

وأخذ ورقة بمائة فرنك ووضعها على الرقم ١٨ وتتبع العجلة وهي تدور بقلب يخفق بشدة . وبدأت الكرة تخفض من سرعتها ، فهل صدق نيقولا عينيه عندما وقفت عند الرقم ١٨ ؟ .

وانتقلت إليه أضعاف القيمة التي راهن بها .. وفي غمرة ذهوله نسي أن يسحب ما وضعه على الرقم ، ودارت العجلة مرة أخرى فما راعه إلا صوت رفيقه يصيح به : لقد كسبت مرة أخرى ..

فسأله مدهوشاً : أنا ؟ إنني لم أراهن هذه المرة ..

فقال له : لقد نسيت أن تسحب ما راهنت به في المرة السابقة فكسبت مرة أخرى .

وانتقلت إليه مرة أخرى أكوام من الأوراق النقدية فأحصى ربحه وإذا هو يبلغ سبعة آلاف من الفرنكات .. ودار رأسه وتملكته قوة غريبة ، فابتسم ولاحظ امرأة فاتنة واقفة إلى جواره تبتسم له فقال لها :

— أليس ذلك غريباً ؟ إنها أول مرة أشترك فيها في اللعب .

فأجابته : وهذا هو السر في أنك تكسب .. هل لك أن تقرضني ألف فرنك .. لقد خسرت كل ما أملك وسأعيد إليك نقودك بعد نصف ساعة .

فأجابها : حسناً جداً ..

وأعطاها المبلغ فشكرته وانسحبت .

قال له رفيقه : لن تراها بعد الآن .

فذهل نيقولا وتذكر نصيحة أبيه الثانية ، وهي ألا يقرض أحداً .. فما أغباه فيما فعل .. وخاصة لامرأة لا يعرفها .. ولكن الحقيقة هي أنه شعر في هذه اللحظة بحب جارف لجميع الناس فلم يستطع الرفض ..

وتابع اللعب فخسر أولاً ثم بدأ يكسب باستمرار ، وبعد مضي ساعة وجد عنده عشرين ألفاً من الفرنكات ..

وانسحب من المائدة وكان على وشك الخروج من النادي عندما أتت إليه المرأة التي أقرضها الألف قادمة نحوه .. وقالت له :

— لقد بحثت عنك في كل مكان فلم أجدك .. ها هو ذا الألف الذي أقرضتني إياه وشكراً لك ..

واحمر وجه نيقولا .. كيف ؟ إنه شك فيها فإذا هي أمينة مخلصة .. وأساء إليها دون أن تدرك هذه الإساءة .. لقد حذره أبوه من الميسر فكسب عشرين ألف فرنك . وحذره من إقراض المال فإذا المرأة الغريبة عنه ترده إليه .. إنه ليس بالغبي كما يظن أبوه وقد دفعته غريزته إلى إقراض هذه المرأة وهو واثق من أنها سترد الدين فجاءت غريزته صادقة ..

وأفاق على صوت المرأة وهي تقول :

— إن زوجي موظف في مراكش وقد أتيت هنا للراحة والاستجمام لمدة أسابيع . لقد رأيتك تلعب في المباراة ، والحق أن طريقتك في اللعب رائعة .. كما أن منظرك في لباس اللعب جذاب ..

فداخله الزهو والغرور وقال في نفسه إنها لم تقترض منه المبلغ إلا لكي تتعرف به .

قالت : ألا تريد أن ترقص ؟ هلا ذهبنا إلى

«كنيكربوكر» لتناول العشاء هناك؟ وتذكر نيقولا نصيحة أبيه الثالثة وهي أن يتجنب النساء .. ولكن رفيقته لا بد وأن تكون من ضحايا النساء، فلم ير مانعاً من مرافقتها إلى المرقص.

ورقصا في كنيكربوكر، وشربا زجاجة من الشمبانيا، وألصقت خدها بخده فاضطرب قلبه وخفق خفقاناً شديداً وأحس بسرور غريب.

وقالت له: هل قال لك أحد من قبل إنك جميل الطلعة؟

فضحك وقال: لا .. وأضاف يقول لنفسه: لقد وقعت في حبي. وضمها إليه فأغمضت عينيها وتنهدت ..

وشعر نيقولا بمرور الوقت سريعاً فقام مستأذناً للانصراف فقالت: إني ذاهبة أيضاً فهل توصلني بعربتك إلى الفندق الذي أقيم فيه؟

ودفع نيقولا ثمن العشاء والشراب ثم استقلا عربته حتى الفندق فنزلا منها وصرف نيقولا العربة قائلا إنه سيكمل المسافة إلى فندقه ماشيا ..

— أرجو أن تصعد معي لحظة حتى أريك صورة طفلي الصغير.

وصعد معها إلى غرفتها ولكنها لم تره صورة طفلها الصغير، بل جعلت يديها حول عنقه وقبلته قبلة حارة على شفتيه ..

• • •

واستيقظ نيقولا بعد ساعتين فلم يدرك أين هو .. ولكن الغرفة لم تكن مظلمة تماما، فباب الحمام كان مفتوحا. وأدرك فجأة أن شخصاً يتحرك في الغرفة، ثم تذكر على حين بغتة أنه ما زال في غرفة صديقته، وكاد يتكلم لولا أن رأى أنها مقدمة على أمر فقد كانت تمشي بحذر وكانت تلتفت من حين لآخر إلى السرير .. وسأل نيقولا نفسه عما يمكن أن تضمره هذه السيدة .. ولكن تساؤله لم يطل؛ فقد رآها تتجه إلى الكرسي الذي وضع عليه ملابسه وتمسك بمعطفه ثم تأخذ منه العشرين ألف فرنك ..

وأرجعت المرأة المعطف ثانية إلى مكانه ونظرت إلى السرير فتظاهر بالنوم العميق ثم سارت إلى مائدة عليها أصيص تبرز منه نبتة فأخرجتها منه ووضعت النقود تحت الطين ثم أعادت النبتة وعادت إلى السرير.

واستمر نيقولا متظاهراً بالنوم العميق وجعل يلعنها:

— إنها لا تعدو أن تكون فاسقة محتالة هي وطفلها وزوجها في مراكش .. لقد حاولت خداعي وظنتني طفلا أبله.

وأعمل فكره سريعاً حتى انتهى إلى حل، ودله نفسها المنتظم على أنها قد استغرقت في النوم فقام بهدوء وانسل من السرير ومشى ببطء نحو المائدة وأخرج الطين من الأصيص وتحسست يداه موضع النقود فأخرجها وأعادها إلى معطفه ثم ارتدى ملابسه على عجل وخرج من الغرفة.

ولم يشعر نيقولا بالطمأنينة إلا عند ما ترك الفندق. فسار إلى فندقه وهو يكاد يرقص في الهواء، فأعد حقائبه وتناول إفطاره .. وبعد ساعة كان قد استقل الطائرة التي ستحمله إلى انجلترا.

وشعر نيقولا وهو في الطائرة برغبة في أن يعد نقوده من جديد فأخرجها من جيبه وبدأ يحصيها ورقة ورقة .. ولكنه لاحظ شيئاً عجيباً .. فبدلا من أن يجدها عشرين ألفاً وجدها ستة وعشرين ألفاً .. فانتابه الذهول ولم يفهم .. وأعاد عدها مرة بعد أخرى، ولكنه وجدها ستة وعشرين ألفاً كل مرة.

وفجأة قفز إلى ذهنه السر .. فهو عند ما تحسس بيده موضع النقود في الأصيص قد أخذ كل ما هنالك ولم يترك شيئاً .. فهو لم يدرك أن نقوده لم تكن وحدها هنالك بل ونقود المرأة أيضاً ..

وانفجر نيقولا يضحك كالمجنون .. فهذا أغرب ما مر به في حياته .. وتخيلها وقد استيقظت في الصباح متوقعة أن ترى النقود كلها في الأصيص فلا تجد نقوده ولا نقودها ..

وتمتم قائلا : إنها تستحق ذلك .. ثم انفجر ضاحكا مرة أخرى .

• • •

هذه هي القصة التي قصها هنري جارنيت على أصحابه وعلق عليها قائلا :

— ما يثيرني ويغضبني هو أن هذا الفتى الملعون مسرور من نفسه . لقد قال لي اليوم : « يظهر يا أبي أن نصيحتك لم تكن صحيحة تماما . لقد نصحتني بألا أقامر فكسبت الآلاف . ونصحتني بألا أقرض فرد على ما أقرضته . ونصحتني ألا أتصل بامرأة فزادت ثروتي ستة آلاف فرنك » .

وسكت هنري جارنيت فانفجر أصحابه ضاحكين ، فنظر إليهم وقال :

— لقد كان الفتى يحترمني ويثق في .. وإني لأعتقد الآن أنه لا يرى في سوى أني أحمق مغفل مع أن نصائحي — وأظنكم توافقونني على ذلك — نصائح طيبة للغاية .

فقال له أحدهم يهدئه : لا تقلق فإن ولدك قد ولد محظوظاً ، وإنه لخير للمرء أن يولد محظوظاً من أن يولد ذكيا أو موسراً .

عيسى أحمد أمين

مخلوق ...

وكم مُدَّعٍ للشعر يبهرُ لبّه
يشققه لفظاً وينظمه وزنا
أكبّ عليه معملاً في سطوره
قساوة فأس وقعها يزعج الجنّا
كأنّ به والليل مرخٍ ستوره
على الكون ... مخلوق من الناس قد جنّا
فراح يشدّ الشعر طوراً وتارة
يحرك كفيه ... وقد ينتف الذقنا
كأنّ به حُبلى أتاها مخاضها
فآونة تهمي وتُبسط أو تُثنى
فلما أتاها الطلق ألقت جنينها
فكان لقيطاً ... ما لميلاده معنى ...
كأنّ به الحطاب ينحت صخرة
فيوسعها خدشاً وتوسعه ضنّا
كأنّ به الفلاح يعزق أرضه الـ
بوار ... ليجنيَ منها الشوك والتبنا
كأنّ بضحكات الشياطين حوله
طبولٌ زَوْج قرعها يصفع الأذنا

فقلت له لما أتاني مباهياً
وقد خال ما عناه في أمسه فنّا :
دع الشعر يا هذا فإنك واغلٌ
على ملأ أسمى وفي حرم أسنى
فليس بشعر ما زعمت وإنما
هو اللفظة الجوفاء والفكرة الرعنا
وما دان حُر الشعر إلا لشاعر
أفاض عليه الله نعمته الحسنى
وما الشعر ألفاظ ولكن عواطف
وخلجة روح قد تقمصها معنى ...
وكن عالماً تجدي ... وإن شئت صانعاً
فما أنت حراً في القريض ولا قنّا
فأعرض عني في ازورار مسلّحاً
بكفيه ... يطوي لي الحفيظة والضغنا
لقد خالني إذ رحت أنصح حاسداً
مواهبه أو يجحد العمل الأدنى
وجهّلني من حيث كنت طبيبه
وخطّأني من حيث كنت به أحنى
كذا الجاهل المغرور يرهق نفسه
إلى غير ما جدوى وفي غير ما معنى

(الإسكندرية) محمد مفتاح الفيتوري

ختام ...

• بعد أن انتهى لي .. رحلة الذكريات •

هوى أنا عنه لواجبه غنيّ
طويت كتابه وأنا الأبيّ
وكنت إذا غضضت الطرف عنه
يثور عليّ بركان ... عتيّ
وكنت كمدلج في القفر يسعى
يوجه خطوه شبحٌ خفيّ
فلا الهدف الذي أبغي قريب
ولا الأمل الذي أرجو حفيّ
لياليَ كنت أقطعها وحيداً
وبين جوانحي أمل سنيّ
وفجر كنت أرقبه مشوقاً
وآواه الظلام السرمديّ
وغشال حرقت له بخوري
فضوّع مسكه العبق الذكيّ
ودنيا في مفاتنها .. تجلّت
وملء ربوعها ماءٌ رويّ
وأحلامٌ وآمالٌ عذاب
ذوى — بعضها — العودُ النديّ
هواي ، وقد نفضت اليوم منه
يديّ لأنني عنه ... غنيّ

رويدك ، أيها الباكي علينا
فقد نزل الستار وما انتهينا
أجل نزل الستار ، وثم قلبٌ
هوى بين الضلوع أسى وحزنا
تغنى بالهوى العذري .. حيناً
ولو عرف الحقيقة ... ما تغنى
وشاد لحسنك البراق صرحاً
وأنت هدمته غدراً ومينا

دَع الصبحَ المتون فكم شربنا
من الصبح المتون وما ارتوينا
وقل ما نشتهي إلا حديثاً
سئمنا ذكره لفظاً ومعنى
ومل .. كالظل ليس له مفر
وته ما شئت إنا قد صحونا
مضى العهد الذي قد كنت فيه
أحس بأن حبك ليس يفنى
أراك وما أرى إلا سرابا
سعيت وما وجدت لديه أمنا
ولا تذكر ليَ الماضي ؛ فهذا
هو العهد الذي قد غاب عنا

عجيبٌ ما تخبئه الليالي
فمالي لا أجاريهن مالي ؟
وما النجم لا يهدي الحيارى
وما الظل لا يدنو لسالِ ؟
وما القلب ليس يقر يوماً
على رأيٍ ولا يرضى بحال ؟
وما الكأس أترعها دهاقاً
فتظمئني وتسخر من كلالي ؟
وتسلمني إلى روض بهيجٍ
من الأحلام لم يخطر ببالي !
فكيف إذا أفقت على سرابٍ
وكيف إذا صحوتُ على ضلال ؟
إذا فتشتُ عن نفسي أراني
ثقيل القيد أرسف في عقالي !
وأنشدُ من جديب الصخر ماء
وأهدم ثم أبني في الرمال !
أهيم مع الليالي في كل وادٍ
وأفنى العمر في طلب المحال !
ولو خُيّرت لم أطلبْ مزيداً
سوى أني أعيش على خيالي

علي يبرك

وداع يوم ..

أيها اليــوم الذى عنى مضى
من حيــاتى فيك جزء يذهبُ
لا تدعنى دون مولودٍ أرى
فى ســماء الكون بحراً يدأب
لحيــاة المرء تحــلو عنده ..
كلما شــاب الزمان التعب !
نحن نهوى العيش إلا أننــا
لا نؤدى حقــه إذ يُطلب
ليس منــا من أتى قبراً له
عازفاً عن كأس عيشٍ يشرب
فسعيد الدهر غاوٍ طامعٌ ..
وشقيُّ الدهر رغــداً يرقب
كلنا يحيــا على رُقبى غــدٍ ..
فنِ الفــانى ومن لا يُنصَب !؟
لو أراد الله تخليــد الورى
ما يرى جيلاً بجيــل يُذهب
نكره المــوت ينادينا وإن
كان فيه عيش من قد نُنجب
من تمنى الموت فينا كاذبٌ
فغــرام المرء فيــما يصحب !
أيها اليــوم الذى غال الردى
صرت أمسى حين مال المغرب
فاكتم الذكرى التى كانت لنــا
من سرورٍ وأسى يا موكب
أنت جزء من حياتى ضاحكةٌ
دامــعٌ فى حــاله ما مذهب
أو لم تؤذن بصبحٍ أبلجٍ
ثم تغشى منتهــاك الغيهب !؟
فطويت العمر مسلوب المنى
مثل نحلٍ حين تمزّ المشرب
تحسب الأعمــار أعواماً وما
هى إلا بارقٌ لا كوكب
بعض أيامٍ طــوالٍ مُخلِفةٌ
تــلاشى كسرابٍ يَكذب
أيهــا اليــوم وداعاً كم بكى
لانطواك الســعدُ المتغرب
يُمرك الأيام من يشقى بهــا
فى شِعاب الجــدّ لا من يلعب
تقرر النـــاس يجو يومه
لانسياب اللؤم فيــما يجلب
هل رأى يوماً بلا لؤم جرى
فى عُروق مدّها فيــه الأب !؟
إنمــا الأيام فينــا تنقضى ..
كل يوم للدواهى مَرْكب ..
غير أن الناس مدوا لؤمهم
فى دِما الأيام ثم استعجبوا
أيها اليــوم رهيباً لم تكن ..
بفــؤادى فالأوان أرهب !
أنتَ ما سُوّيتَ فى لحد المدى
عنــد من يحييك فيما يَرسب
ومُثير العــزم لا يألو سُرى
فى شِعاب الدهر مجداً يطلب
وصــدوح يبعث اللحنَ مُنى
فيُذيب المرءُ فيمن مُحدّبوا
ورحيمٍ يمســح الدمعَ دماً
من عيونٍ البؤس ولهى تسكب
وحنــونٍ يبعث الودّ سنًى
فى قلوبِ النــاس كى لا تسلب !
أنت نعىٌ لأناسٍ قدّموا
نفسهم قربانَ حقٍّ يُغصب
وســلامٍ تشرق الدنيــا به
بعدَ ليل البغض ظلماً يُسكِب
فســلاماً أيها اليــوم الذى
فرّق النــاسَ هواه الخُلّب
أنتَ ذكرى وحيــاةٌ وغداً
ســوف تحيا فيك بينا تغرب

محمد مصطفى هدارة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٩١ | الاثنين ٧ من رجب سنة ١٣٦٩ — ٢٤ من أبريل سنة ١٩٥٠ | السنة الثانية عشرة

سرتسى خاما

للدكتور محمد عوض محمد بك

طالعت قصة الشاب الزنجي سرتسى خاما كما روتها الصحف المصرية فلم أعرها انتباهاً كثيراً ؛ ثم طالعت صحف انجلترة ، فإذا هذه القصة قد ارتجت لها المحافل ، وامتلأت بأنبائها وملابساتها أعمدة الجرائد ؛ وثارت عاصفة من الجدل الحار في البرلمان البريطاني نفسه ، هوجمت فيها الحكومة مهاجمة لا رفق فيها ولا هوادة . وترددت في الخطب الرنانة التي ألقيت هناك عبارة « الشرف » ، وهي كلمة عزيزة نادرة قلما تسمعها جدران تلك الدار الموقرة ، وقلما يرددها خطباؤها المصاقع ...

لقد مضى على الإنجليز سبعون عاماً يعدون بالجلاء عن وادي النيل ، ويخلفون وعدهم المرة بعد المرة دون أن تثار مسألة الشرف في البرلمان البريطاني . وحشد الانجليز الصهيونيين في أرض فلسطين وهم يقسمون بالله جهد أيمانهم أنهم سيحافظون على حقوق العرب ، ويحمونهم من عدوان اليهود ، ثم تركوا العرب عزلاً من السلاح ورأوا اليهود يفتكون بهم في ديارهم ، فلم يحركوا ساكناً ، ولم تخطر عبارة الشرف ببال عضو واحد من أعضاء ذلك البرلمان .

ومع ذلك أثيرت مسألة الشرف بعنف في قضية سرتسى خاما ؛ لم يثرها عضو متحمس لا يزن كلامه بميزان دقيق ، بل أثارها شيخ وقور وسياسي محنك وهو مستر ونستن تشرشل نفسه ، الذي لا يعرف عنه أنه قال يوماً كلمة طيبة في حق المصريين أو عرب فلسطين .

فلا بد أن يكون لقصة هذا الشاب شأنٌ أجل وأعظم مما كنا نعرف . فيجدر بنا أن نتأملها عن كثب ، بعد أن أثارت كل هذه الضجة في عواصم الإمبراطورية البريطانية .

لهذه القصة أبطال ثلاثة يحتلون المكان الرئيسي من المسرح ، غير أن هـذا المسرح نفسه مسرحٌ مزدوج : نصفه في إفريقية الجنوبية ، وعلى الأخص في بلاد بتشوانالاند ، التي تشملها الحماية البريطانية ، والنصف الآخر في بلاد الانجليز ، على ضفاف نهر التيمس ؛ وبين المسرحين مسافة تقدر بآلاف الأميال ، لأن أحدهما في جنوب نصف الكرة الجنوبي ، والثاني في شمال نصف الكرة الشمالي .

أما البطل الأول فهو سرتسى خاما نفسه ، وهو حفيد خاما العظيم زعيم قبيلة بامنجوانو ، ووريثه في زعامة هذه القبيلة ، وهي من أعظم وأشهر قبائل بتشوانالاند . وقد أراد أولو الأمر أن يعدوا سرتسى إعداداً حسناً لاحتمال أعباء الحكم ، فاختاروا له أحسن المؤدبين وأرقى المعاهد العلمية في بلاد الانجليز ، حتى التحق بجامعة أكسفورد ، ونزل فيها بكلية باليول ، حيث عاشر أبناء النبلاء والأمراء والعظماء . وجميع الشواهد تدل على أنه كان طالباً محبوباً محبباً إلى نفوس زملائه . فقد أرسل مائة وستة وثلاثون منهم خطاباً إلى جريدة التيمس يحتجون فيها على المعاملة السيئة التي عومل بها زميلهم .

أما البطل الثاني في هذه المسرحية فهو عمه تشيكيدى ، الوصي على زعامة القبيلة أثناء غياب ابن أخيه في طلب العلم ببلاد الانجليز . وقد طالت غيبة ولي العهد في تلك الديار ،

فكانت هذه الغيبة الطويلة لعمه فرصة لاكتساب الأعوان والأنصار ، ولتوطيد مركزه في القبيلة .

وكلا هذين البطلين كما ترى من صميم إفريقية الجنوبية ، أما البطل الثالث فمن بلاد الإنجليز . وهو عبارة عن فتاة مليحة صبيحة أحبها سرتسى خاما وأحبته ، وتُوِّج الحب بينهما بخاتم الزواج ، وباركت الكنيسة هذا الزواج ، لأن كلا الزوجين نصراني يدين بالمذهب البروتستنتي .

تم هذا الزواج في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٨ ، فلم يكد العم يحيط به علماً حتى أخذ يستميل الأعوان والأنصار لكي يعلنوا أن سرتسى خاما بزواجه هذا قد ضحى بحقه في ولاية شئون القبيلة وزعامتها . ولكن سرتسى كان له أيضاً أنصاره وأعوانه ، ولذلك بادر بالسفر إلى وطنه وقبيلته ، مصطحباً معه زوجته الإنجليزية . وأخذ يطالب بحقه الشرعي . وعقد شيوخ القبيلة ورؤساؤها ثلاثة مؤتمرات متعاقبة ، لكي يفصلوا في الخلاف الناشب بين ولي العهد وعمه . وفي كل مؤتمر تزداد كفة الشاب رجحاناً ، وتزداد كفة عمه خسراناً . ومع ذلك زعم الإنجليز أن المؤتمرات لم تصل إلى نتيجة حاسمة . وأن لابد من إرسال قاض انجليزي محايد لكي يحقق صحة القرارات التي اتخذت في هذه المؤتمرات . وكان من سوء حظ وزارة المستعمرات البريطانية ، أن كان هذا القاضي رجلاً نزيهاً لا تأخذه في الحق لومة لائم . فقام بالتحقيق على الوجه الأكمل ، وتبين له أن المؤتمر الثالث والأخير كان بلاشك راضياً كل الرضى عن زعامة سرتسى خاما وعن زوجته الإنجليزية ، ومن نسلهما وأحفادهما ... وكتب القاضي تقريره ورفعه إلى وزارة المستعمرات .

وتسلم الوزير المختص هذا التقرير ، وأودعه ركناً خفياً من أركان وزارته ، وأبى أن ينشره أو يذيع شيئاً عنه . وطلب من ولي العهد وعمه أن يحضرا إلى لندن « للحديث والمشاورة » . فحضر سرتسى خاما بسلامة نية ، تاركاً زوجته في وطنه في رعاية أهله وأنصاره ، واثقاً أنه سيعود إليها بعد أيام أو أسابيع ، غير أنه لم يكد يصل إلى لندن حتى طالبته وزارة المستعمرات بأن يعلن تنازله عن زعامة القبيلة . فأبى سرتسى النزول عن حق تؤيده فيه قبيلته كل التأييد . وعند ذلك أمر الوزير بوقفه عن تولي زعامة القبيلة خمس سنوات ، ومنعه من أن يعود إلى بلاده في أثناء هذه المدة . ثم صدر الأمر إلى المفتش الإنجليزي في بتشوانالند بأن يدير أمور القبيلة ويتولى حكمها « مؤقتاً » .

وهذا الفصل الأخير من الرواية هو الذي أثار مسألة الشرف وعدم الشرف ، لأن وزارة المستعمرات استدرجت الزعيم الشاب إلى العاصمة البريطانية ، للبحث والمشاورة ، وهي تبيِّت له النفي والتشريد من بلاده ... ومن الإنصاف للحكومة البريطانية أن نذكر أن هذا الأسلوب ليس بالجديد عليها ، فقد اتبع مثله أثناء ثورة العراق ، حين استدرج زعيم عراقي لتناول الشاي مع المندوب السامي وزوجه ، ثم قبض عليه وهو عائد إلى منزله . ولكن مستر تشرشل تناسى هذه التقاليد ، ولذلك رفع صوته بالاحتجاج على حكومة العمال ، متهماً إياها بأنها تنكبت من طريق الشرف .

ومما زاد المشكلة تعقيداً أن الزعيم سرتسى ترك زوجته الإنجليزية ، وهي تنتظر حادثاً سعيداً . ومن القسوة التي لا يطيق الإنجليز تصورها أن يفرق بين المرء وزوجه ، وهي في مثل هذا الحال . ولذلك اضطر وزير المستعمرات أن يجد بالسماح للزعيم المنفي أن يعود إلى جوار زوجته ، على أن يبادر بمغادرة البلاد بعد ذلك . وليس من السهل على سرتسى أن يعود إلى بلاده ، لأنها تقع جغرافياً وسط اتحاد جنوب افريقية . ولهذا الاتحاد حكومته المستقلة تمام الاستقلال وإن كانت جزءاً من الإمبراطورية البريطانية . وهي الدولة الوحيدة في العالم التي تحرم الزواج بين البيض وغيرهم من الأجناس . ولذلك لم تكد تسمع بزواج سرتسى حتى أصدرت أمراً تحرم عليه دخول أرضها في أي وقت من الأوقات ، ولا بد من مجهود خاص تبذله حكومة لندن حتى تيسر للزوج أن يعود إلى زوجته وأن يظل بجانبها بضعة أيام .

وفوق ذلك اجتمع ألف من أنصار الزعيم الشاب في العاصمة البريطانية وألقوا الخطب الرنانة ، ورفعوا التماساً إلى القصر البريطاني لكي يتدخل في الأمر ويرد إلى الزعيم كرامته . وأرسل مشايخ القبيلة احتجاجاً إلى الحكومة البريطانية يتهمونها بأنها تتبع الأساليب النازية . وأعلنوا أنهم سيقاطعون الحكومة التي فرضت عليهم ، وأنهم سيمتنعون عن دفع الضرائب . وحاول المندوب السامي في إفريقية الجنوبية أن يجمعهم للمشاورة ، فلم يحضر أحد منهم ، معلنين أنه لن يكون من بينهم كويسلنج واحد

وقد سمحت الحكومة البريطانية أخيراً للزعيم المنفي أن يطير إلى جوار زوجته بضعة أيام ، ثم يعود على الفور إلى منفاه ، على شرط أن لا يعقد اجتماعات أو يلقي خطباً ، وأن

جناية الصحافة على الأدب

للدكتور زكي نجيب محمود

لا أظنني مسرفاً في التقدير إذا زعمتُ أن تسعة أعشار الأدب المصري تُكتب مقالات في الصحف والمجلات ؛ ولو أردتُ أن أفرّق بين الأديب المصري والأديب الأوربي بكلمة واحدة ، قلتُ إن أديبنا يكتب مقالة وأديبهم يكتب كتاباً ؛ فطريقة الكتابة عندنا — في أغلب الأحيان — هي أن يكتب الأديب مقالة هنا ومقالة هناك ، حتى إذا ما تجمع له مما كتب مقدار يصلح أن يكون كتاباً ، جمعه في كتاب واختار له اسماً ، يوهم القارئ أنه كتاب ، وهو في الحق كتاب إذا كانت الوحدة فيما كُتب هي وحدة القلم والكاتب ، أما إن جعلتَ وحدة الكتاب موضوعه ، فليس هو بالكتاب إلا على سبيل المجاز ، والمجاز هنا أساسه أن مجموعة الأوراق قد ضمها غلاف .

هذه حقيقة واقعة ، وليس بالشاق العسير عليك أن تتبين صدقها باستعراض ما أنتجه الأدباء : طه حسين ، أحمد أمين ، العقاد ، المازني ، توفيق الحكيم ، وغيرهم ، لتعلم أن الكثرة الغالبة مما يخرجون للناس من كتب ، هي مجموعات من مقالات أو فصول .. حتى المسرحية ، هذا اللون الأدبي الذي كان يمكن أن يفلت وينجو ، لم تلبث أن طواها الاتجاه العام ، فإذا هي في الأعم الأغلب مسرحية ذات فصل واحد ؛ وكذلك القصة عندنا في معظم الأحيان هي القصة القصيرة التي تنشر في الصحيفة على دفعة واحدة .

وقد يكون تعليل هذه الظاهرة في أدبنا ، هو أن أديبنا قصير النفَس ، إذا قيس إلى الأديب الأوربي صاحب النفَس الطويل ؛ ثم قد يكون هذا النفَس القصير فطرة فينا ، ورثناها عن آبائنا مع سمرة اللون وسواد الشعر وكثافة الشفاه ؛ فالأديب العربي منذ أقدم عصوره — فيما يقال — معروف بالتركيز والإيجاز ، فتكفيه الحكمة الواحدة أو الفصل القصير ، حين لا يكتفي الأديب الأوربي بأقل من قصة طويلة عريضة ، قد تجاوز صفحاتها الألف ، ليحلل فكرة واحدة ، ويخلق لها الأشخاص خلقاً ليلبسوها ويمثلوها في أفعال وأقوال .

أو قد يكون هذا النفَس القصير عند أديبنا ، نتيجة لضعف ثقافته وضيق أفقه ، فليس لديه ما يقوله عن الفكرة أكثر من ثلاث صفحات أو أربع ، في الوقت الذي يتمكن فيه الأديب الغربي بحكم ثقافته الواسعة العريضة أن يكتب الكتاب الضخم لتحليل الفكرة الواحدة ، فيبرز ظلالها

يمتنع عن كل نشاط في قبيلته . ولا شك أنه قد أطاع هذه الأوامر حرصاً على رؤية زوجته .

وبعد ، فإن لهذا الحادث ناحيته الإنسانية وهي واضحة ، وله أيضاً ناحية عالمية ، فإن المداد الذي كتبت به وثيقة حقوق الإنسان ، التي طبل لها العالم وزمر ، لم يكد يجف ، وإعلان حقوق الإنسان قد تضمن فيما تضمن حق كل إنسان في الزواج بمن يشاء ، في أي وقت شاء ، دون أن يضار في شأن من شئون حياته بسبب هذا الزواج .

وكانت الحكومة البريطانية جديرة أن تغض النظر عن زواج الأمير الزنجي من فتاته الإنجليزية ، لولا أنها تخشى حكومة اتحاد إفريقية ، التي ما برحت طامعة في الاستيلاء على بتشوانالند ، وضمها إلى أملاكها . والحكومة البريطانية اعتادت أن تضعف وتستخذي أمام رغبات إفريقية الجنوبية ، وقد طالما هددت هذه البلاد بالانفصال عن الإمبراطورية البريطانية . ولذلك لا بد لحكومة لندن أن تجتنب كل ما من شأنه أن يغضب البيض الذين يحكمون إفريقية الجنوبية ، حتى لو اضطرت إلى تضييع حقوق الإنسان وارتكاب ما يخل بالشرف ، والشرف على كل حال ليس من الأشياء التي حرصت بريطانيا العظمى دائماً على رعايته والتمسك بأهدابه .

محمد عوض محمد

وأضواءها ، ويجعلها كائناً حياً يسعى على قدميه .

ثم جاءت الصحافة عاملاً آخر ، قضى على الأدب المصرى قضاءه الأخير ، وبات معه حتماً مقضياً على هـذا الأدب أن يظل على صورته الممسوخة الشائهة البتراء ، التى لا تسمح للأديب أن يستقر على أثره الأدبى حيناً من الدهر يكفى لتسويته كائناً كامل الأعضاء ؛ كما يفعل أدباء الغرب بما ينتجون من آثار .

جاء عامل الصحافة ، فقضى على أديبنا أن يكون صحفياً فى إنتاجه ، لا خالقاً متأنياً مبدعاً ؛ ذلك أن الصحافة استعانت بالأدباء ، فكان لها الفضل على الأدب مرة واحدة ، لكنها كانت جناية على الأدب ألف مرة ؛ أما فضلها فهو أنها أتاحت لكثير من الأدباء فرصة العيش المتواضع حيناً ، والمعتدل حيناً ؛ وأما جنايتها الكبرى فهى أنها صبّت الأدباء فى القالب الذى تريد ، فإذا الأدباء فى يدها مأجورون لا يكادون يسطرون من أجل الفن الخالص سطراً واحداً ، إنما يكتب أديبنا ما يصلح للصحف وما يقبله منه رئيس تحرير الصحيفة ؛ والصحف ورؤساء تحريرها أساس يحكمون به أبعد ما يكون عن الأساس الذى يرضاه الفن الرفيع ، وإذاً فقد بات أدباؤنا فى واد ، ومقاييس الفن الرفيع فى واد آخر .

كيف يكتب الأديب المصرى اليوم وماذا يكتب ؟ هنالك صحف يومية أو أسبوعية أو شهرية ، تركزت فى أيديها قوة الثراء ، بحيث أصبح محالاً أو قريباً من المحال أن ينافسها منافس تواضعت موارده المالية ؛ وهذه الصحف القوية بمالها هى أيضاً واسعة الانتشار ، لأن الأمر هاهنا كالحلقة المفرغة : قوة مالها توسع من انتشارها ، وسعة انتشارها تزيد من مالها ... والأمر عند رؤساء التحرير فى تلك الصحف ، هو كالأمر فى كل بيع أو شراء ؛ فهم كباعة الفاكهة والخضر يريدون أن يعرضوا على وجه الصندوق أو على سطح القفص برتقالتين كبيرتين تخفى وراءها البرتقال الصغير ، أو كرنبة ضخمة تستوقف الأنظار ؛ فيدق رئيس التحرير التليفون إلى فلان الأديب الكبير صاحب الاسم اللامع ، ويطلب منه مقالاً لعدد هذا الأسبوع أو هذا الشهر ؛ والأجر الكبير المعروض كفيل خير كفيل للأديب الكبير أن يضعف فيكتب ، ولا عليه حرج ، لأنه بشر كسائر البشر يريد أن يعيش .

فماذا يكتب الأديب عندئذ ؟ إنه لا يكتب ما يمليه عليه فنه ، أو ما كان ينبغى أن يمليه عليه الفن الرفيع ؛ بل يدير فى رأسه نوع المجلة التى طلب إليه أن يكتب مقالة فيها ، فيكتب شيئاً يلائمها ويلائم قراءها ، وإذا لم يفعل ، فقد يقبل منه رئيس التحرير مقالة هـذه المرة حياء ، لكنه لن يعود إليه مرة أخرى .

يقول الأديب لنفسه إذا ما هم بالكتابة : إن قراء هذه الصحيفة هم أوساط المثقفين ، الذين لا يطلبون إنشاء رزيناً رصيناً ، ولا يقوون على خلق أدبى رائع ممتاز ؛ إنهم طراز من البشر يشترى المجلة لتسليه فى الترام أو عند الحلاق ؛ فلا بد من مراعاة ذلك فى اختيار الموضوع ومعالجته معاً ، فينبغى للموضوع أن يكون خفيفاً لطيفاً ، وأن يعالج على نحو مسلٍّ ظريف ؛ وعلى هذا الأساس يكتب الأديب ، فليس هو حراً كل الحرية فى اختيار ما يكتبه ، ولا فى الطريقة التى يعالج بها موضوعه ، بل ليس هو حراً كل الحرية فى طول ما يكتبه ، لأنه يكتب ليملأ فراغاً طوله كذا سطراً وعرضه كذا نهراً ؛ إن رئيس التحرير يأمره بما يريد ، وهو يصدع بالأمر راضياً أو كارهاً ؛ فإذا عرفنا أى المواقع يحدو رئيس التحرير فى نوع ما يطلبه ، عرفنا من هو الآمر الحقيقى الآن الذى يستبد بأرباب القلم ؛ إنهم أنصاف المثقفين وأرباعهم .

ولا تقل إنها الديمقراطية فى الأدب ، وإنه لا عيب فى الديمقراطية بكل صورها ، سياسيها وأدبيها ؛ لا تقل : ماذا تريد ؟ أتريد للأديب أن يكون مترفعاً يخاطب الطبقة الأرستقراطية فى مالها وثقافتها ؟ لا تقل ذلك لأنى ما أردت شيئاً منه ؛ لأن الديمقراطية فى الأدب كما فُهمت فى الغرب لم تكن قط شيئاً كهذه الأمساخ التى يضطر أدباؤنا إلى صناعتها والاشتغال بها دون ما قد يستطيعون من آثار خالدة باقية . كان أهم معنى للديمقراطية فى الأدب عند الغرب — فيما أعلم — هو اختيار الأديب أشخاصاً من سواد الشعب يصورهم بأدبه ، فلم يعد شرطاً أن يجعل أشخاصه ملوكاً وأمراء ، بل أصبحت الخادم الساذجة تصلح أن تكون بطلة لقصة ، يهتم الأديب بتحليلها وتشريحها ، وبهذا جعل عنايته ملاحظة أوساط الناس كيف يعيشون وكيف يشعرون ويفكرون ، لا ليكتب ذلك على النحو الذى ترضيه الصحافة الأسبوعية

أو الشهرية ، بل على الصورة التى يرضاها الفن المتمهل المتأنى الذى يسوى خلقه تسوية كاملة فى كتاب كامل يقصر حيناً ويطول حيناً ، حسب ما تقتضيه أوضاع الفن ، لا حسب ما يأمر به رؤساء التحرير .

إنه من حسن حظنا — أبناء هذا الجيل — أن أدباءنا قد وجدوا بعض الفراغ فيما مضى — لم تشغلهم الصحف عندئذ كل وقتهم ، لأنها لم تكن — فيما يظهر — قد تنبهت إلى شراء هذه السلعة الرائجة ، من حسن حظنا أن أدباءنا قد وجدوا فى ماضيهم فراغاً أنتجوا لنا فيه قطعاً أدبية نعتز بها ، وإن تكن من النوع الذى لا يرتضيه رؤساء التحرير ؛ وإنى لأتساءل جاداً : ماذا عسى أن يؤول إليه الأمر بعد عشرة أعوام أو عشرين ؟ أذكر لى أديباً واحداً اليوم لم « تستخدمه » الصحافة استخداماً يعود عليها بغثاث الجنيهات وألوفها ، ويعود على الأدب الرفيع بالفقر ، وكدت أكتب : بالخزى والعار ؟ إنه بعد عشرة أعوام أو عشرين ، لن تجد مقالا واحداً يكتب من أجل الفن الصحيح والأدب الرفيع ، لأن « أشلاء » المجلات الأدبية الباقية فى طريقها إلى الزوال ، والبقاء للباقيات الفاسدات ، لأن العبرة فى الباقيات هى سعة الانتشار وقوة المال ، ولم يعد الأديب الكبير يرضى أن يضيع وقته فيما لا يعود عليه بالكسب ، والكسب مرهون بطاعة رؤساء التحرير .. إن الذى يعمل الآن فى تسيير الأدب المصرى هو قانون تنازع البقاء وبقاء الأفسد ، لا لأن أدباءنا غير قادرين على إنتاج الصالح ، بل لأن الصالح ليس هو ما يأمر به رؤساء تحرير الصحف القوية الغنية ، وأدباؤنا قد باتوا اليوم فى حكم المحررين فى تلك الصحف ، وقل على جودة الإنتاج ألف عفاء .

ومن أنواع التسلية — إذا أردت تسلية — أن تتعقب الأدباء وهم يتجمعون فى صحيفة بعد صحيفة ، كما ينتقل مركز البيع والشراء فى المدينة من شارع إلى شارع ؛ كان شارع الموسكى هو مركز الحركة التجارية فى عهد مضى ، ثم انتقل مركز التجارة إلى شارع فؤاد الأول ، وكأنى به اليوم ينتقل إلى شارعى قصر النيل وسليمان باشا ؛ وهكذا الصحف والأدباء ؛ ترى مجموعتهم فى هذه الصحيفة مرة ، ثم فى هذه الصحيفة أخرى ، لأن الصحف تتنافس كما تتنافس دكاكين البقالة ، فقد يعن لصحيفة منها أن تضارب زميلاتها بالإكثار من أجور الأدباء الكبار ، فيتجمع لديها هؤلاء ، ثم تعود صحيفة أخرى فتمسك بالزمام ، ويعود الأدباء فيرحلون رحلة جديدة ، وهكذا ؛ ولسنا نكره بالطبع أن يؤجَر الأدباء أعلى الأجور ، إنما الذى نكرهه ونتشاءم له ، أن تكون هذه الأجور ثمناً لطاعة الأدباء ، فلرؤساء التحرير أن يأمروا وعلى الأدباء أن يطيعوا ؛ كأن الأمر مقاولة وبناء ، فأضع التصميم الذى يعجبنى وأستأجر البنّاء ليفقد لى ما أريد دون أن يكون له حق الاعتراض ؛ إذا حدث هذا فلا فن فى بناء ، وكذلك قل فى فن الكتابة وفى أى فن آخر .

جناية الصحافة على الأدب جناية كبرى ، لا تعوضها الجنيهات القليلة التى تدفعها لأدبائنا ثمناً بخساً رخيصاً ، يموتون بعده فقراء — كما مات المازنى ؛ فأولاً جنت الصحافة على الأدب بجعله مقالات قصاراً ، ولم تفسح من الوقت لأديبنا أن يتفرغ للكتاب السهب الطويل ؛ وثانياً جعلت مدار ما يكتب هو ذوق الجمهور القارئ من حيث الصنعة والأداء ، ومن حيث الموضوع والعمق ؛ ولو سارت الحال على هذا النحو عشرين عاماً ، فلن تدور المجلات المطابع بكتاب واحد ممتاز يخرجه أديب إنتاجاً خالصاً لوجه الفن الرفيع .

زكى نجيب محمود

الجامعات البريطانيـــــة

— ٢ —

للأستاذ أحمد بدران

إن الجامعات هي معاهد تدريس ، ولكنها إلى جانب ذلك يجب أن تجعل من مهمتها حماية الفكر ورعاية مستوى الحضارة والقيام على تلك المبادئ الأساسية للذوق والحق التي هي عماد حياة العقل ، وهي أيضاً معامل في الأدب كما في العلم حيث يوجد رجال يتابعون البحث على الدوام . وهناك بعض الحق في قولنا إنه قد تقوم جامعة وتحقق بعض الواجبات العظيمة والهامة لجامعة دون أن يكون فيها طالب واحد . وعلى أي حال فإن هناك كلية في جامعة أكسفورد وهي كلية « كل الأنفس » ليس فيها طالب واحد ، ولكنها مع ذلك تقوم بوظيفة هامة وعظيمة في نشر الآداب . فالجامعة في المحل الأول هي مكان لمتابعة البحوث الجامعية على يد رجال قد برزوا في العلم ولكنهم ما زالوا يتعلمون ، وسيظلون إلى الأبد ينشدون العلم والمعرفة .

ومن واجب الأساتذة الكبار في الجامعات أن يختصوا بمتابعة العلم الخالص وتقدمه ، وإن كان يبدو أنهم الآن يجتذبون شيئاً فشيئاً إلى محيط الدراسات الجامعية المبتدئة ، لكننا يجب أن نستغل الأساتذة كأداة لتقدم العلم أكثر مما ننتظر منهم عن طريق إذاعة العلم بمحاضرة الطلاب . وهناك عاملان آخران يعوقان الأساتذة عن وظيفتهم الهامة ، العامل الأول : اشتغالهم بالشئون الإدارية واللجان في الجامعة ، وهذا هو ثمن استقلال الإدارة الجامعية ، لكنه قد يكون غرماً باهظاً . والعامل الثاني : هو اشتغالهم في العمل خارج الجامعة للحكومة وبعض الهيئات الأخرى .

ولقد سبق القول بأن إنشاء الدرجات العليا كان شيئاً حديثاً يرجع تاريخه إلى نهاية حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، كما لاحظنا أن الجامعات البريطانية لم تدرك واجبها في تيسير البحث وتنظيمه إلا أخيراً ، لكن هذا النقص سيكمل بسرعة في السنوات القليلة المقبلة ، وخاصة في الجانب العلمي الذي كان للحرب الأخيرة فضل توجيه الأنظار إلى أهميته .

ولا يفوتنا أن نذكر بالخير مكتبات الجامعة ومطبعتها ، فإن الذي يعيش في جامعة مثل أكسفورد أو كمبردج يتمتع بعزتين لا تقدران بثمن : مكتبة عظيمة تحوي كل كتاب قد يحتاجه المرء ، ومطبعة للنشر كبيرة يديرها جامعيون ، مستعدة على الدوام أن تنتقي وأن تنشر وأن تطبع في دقة عظيمة كل ما يقدم إليها من أعمال علمية ، فإذا ما ذكرنا الجامعات البريطانية فيجب ألا ننسى مكتباتها ويجب أن نذكر بالتقدير دور النشر بها .

نتحدث الآن عن حياة الطلاب في الجامعات البريطانية ،



مكتبة كلية الملكة في أكسفورد

فنلاحظ أن الطالب أثناء دراسته يسكن فى منزله أو وحده فى الخارج ، وأن القليل منهم فيما عدا أكسفورد وكمبردج هم الذين يقطنون داخل الكليات أو فى منازل الجامعة ، فالحاجة ماسة إذاً إلى زيادة الوسائل اللازمة لتيسير إقامة الطلاب . ولقد اقترح أنه فى المستقبل يجب أن توضع قاعدة فى كل الجامعات بأن على كل طالب أن يقضى عاماً من حياته الدراسية فى المدينة الجامعية ، وستظل جامعتا أكسفورد وكمبردج متمتعتين بتلك الميزة العظيمة ، وهى وجود محل إقامة عام مما يسهل المناقشات وتبادل المعلومات بين الطلبة ، وتلك إحدى واجبات الجامعة الهامة ، والطالب الذى يقيم فى منزله أو فى خارج الجامعة محروم من كثير من مزايا الحياة المشتركة ، لكن ليس منها كلها ؛ فالكاتب وقد كان عميداً لإحدى كليات جامعة لندن خلال الأعوام الثمانية من التعمير التى تلت الحرب العالمية الأولى ، يجب أن يسجل إعجابه الشديد حين يذكر النشاط الذى أبداه الطلاب يعاونهم الأساتذة ويشجعونهم ، فقد أنشأوا ملعباً رياضياً جديداً ونادياً . وأقاموا الجمعيات المختلفة للمحاضرات والتمثيل والموسيقى والشئون الاجتماعية والعالمية . ونظموا سلسلة من المحاضرات العامة يلقيها رجال ذوو شهرة فى الحياة العامة .

إن الإقامة المشتركة فى كلية توجد رجالاً من مختلف المشارب معا ، فقراء وأغنياء ، وطنيين ومن الخارج ، ولا بد حينئذ من أن يصهروا جميعاً فى بوتقة واحدة ، وسيمضون فى مناقشة كل الموضوعات التى تخطر بالبال فى حجراتهم حتى الثانية أو الثالثة صباحاً ، وستنشأ بينهم صداقات تستمر طيلة حياتهم وتؤثر فى مستقبلهم .

ولقد كان دخول الفتيات فى الجامعات البريطانية الذى بدأ سنة ١٨٨٠ ذا أثر كبير فى الحياة الجامعية ؛ فقد زاد من نواحى واتجاهات النشاط الاجتماعى . ففى لندن عدد من الكليات التى تختص بالنساء فقط ، لكن معظم الكليات تضم الطلبة من الجنسين ، وفى اكسفورد وكمبردج للطالبات كليات خاصة . أما فى باقى الجامعات فإن الطلبة والطالبات مختلطون ، ولو أن أماكن إقامة كل منفصلة بطبيعة الحال . ورغم أن إحدى كليات النساء بجامعة لندن تقدم دراسة خاصة بها تعد للحصول على درجة فى إدارة المنزل والعلوم الاجتماعية ، فإن الطالبات عادة يحضرن نفس المقررات ويحصلن على نفس الدرجات كالطلبة ، لكننا نتساءل : أليس من حق الطالبات فى المستقبل أن نهيىء لهن بعض ما يلائم مطالبهن الخاصة وإن أنكر الكثيرات منهن أن لهن حاجات تختلف عن حاجات الرجال .

وفى ختام هذا الحديث لابد أن نتعرض لبعض المسائل التى لابد أن تواجهنا فى المستقبل نتيجة لتقدم الجامعات البريطانية ؛ وأولى هذه المسائل وربما أخطرها هو ما يجب أن يكون عليه عدد الطلاب فى الجامعة . فما هو العدد الذى يجب ألا نتجاوزه ؟ إنه من الظاهر أننا لابد أن نواجه زيادة فى عدد الطلاب فى السنوات القليلة المقبلة ، لكن زيادة العدد ليست كسباً على الدوام ، بل إنها تصبح خسارة كبيرة إذا تهاونا فى مستوى الطلاب المقبولين إذا لم نعمل على زيادة أعضاء هيئة التدريس وزيادة المعدات والوسائل فى الجامعات لمواجهة هذه الزيادة فى الطلاب . لقد قال عالم مشهور : « إنى أرى كل عام بين الطلاب عدداً كان يجب ألا يكون فى الجامعة لأنهم فى الحقيقة لا يفيدون منها » كما لاحظ أحد عمداء الجامعات البريطانية أن زيادة عدد الطلبة الثمانين قد أنتج زيادة فى عدد المتخرجين بدرجات ضعيفة وقلل من عدد الحاصلين على درجات الشرف . فيجب أن نذكر أن الطلاب الذين سيقبلون يجب أن يكون مستواهم لائقاً وأن يختاروا بعناية ، ويجب أن نذكر أيضاً أنه قبل أن نقبلهم يجب أن نعد العدة لنكون واثقين أنهم سيلقون التدريب الكافى وسيجدون الاستعدادات اللازمة . ومهما قلنا إنه يجب أن يزاد عدد الطلاب الذين يتمتعون بالدراسة فى الجامعة لما فيها من روح عالية ، فلا ينبغى أن يغرب عن بالنا أننا نفسد هذه الروح التى أردنا أن نزيد عدد المتمتعين بها إذا ما أردنا أن نحمل الجامعات فوق طاقتها من الطلاب . فهناك حد أقصى لعدد المدرسين الذين يليقون للتدريس فى الجامعة ، وحد أقصى لعدد الطلاب الذين يليقون لتلقى الدراسة الجامعية . ولقد رأينا أنه بزيادة عدد الجامعات فى الماضى فإن مستوى أعضاء هيئة التدريس قد أوشك أن ينخفض .

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن الجامعة مكان يلتقى فيه الفقراء

(البقية على صفحة ١٣)

الأمثال العاميـــــة العربية

للأستاذ أحمد طه السنوسي

الأمثال العامية التي يتداولها الشعب ويعيها أبناؤه في صدورهم وتسري في أوساطهم وتتمثل بها ألسنتهم ولا تخلو منها مجالسهم ، هي صورة صحيحة لناحية من التفكير الشعبي ، وبرهان ساطع على بزوغ الحكمة من بيئته والاشتغال بالفلسفة بين ظهرانيه ... ونحن نجد إذا تصفحنا هاتيك الأمثال أن أكثر المثل الصحيحة والأصول القويمة مجسمة فيها مطبوعة على صفحتها نابضة من كلماتها نابعة من ألفاظها ...

والشعب يجنح إلى أمثاله إن أعيته مشكلة يريغ حلها أو قابلته معضلة يود تحليلها ، أو ارتطمت بواقعه صورة يريد أن يدقق النظر فيها . والشعب يرجع إلى أمثاله إن أراد أن يبرهن على خبرته ودقة تجاربه ، وإذا حاول أن يدلل على صحة قول أو على صحة إدلاء . والشعب يهرع إلى جعبة أمثاله ويوفض إليها ليستخرج منها ما يلائم متباين المواقف ومختلف الظروف ، ليطبع القول بطابع الصدق ويمهره بريشة « القضية المسلمة » أو بريشة « الفصل الختامي » ...

فكأن أمثال الشعب العامية مرجع للناس ومعجم لمشاكلهم ودائرة معارف لأعمالهم وقاموس يصحح أعمالهم ويبرر أقوالهم ، أو هي الحكم العدل في قضاياهم ، بل هي القاضي الذي يحكم بينهم ، أو هي قوانين القاضي إن اعتبرنا الشعب قاضياً وجعلنا بيئته وأحداثه ساحة القضاء ...

ولقد طغت هذه الأمثال العامية على الشعب ، فاستحكمت حلقاتها من فكره واستوت أعمدتها في مخه وإدراكه ، وأمسكت معقوليتها بمجامع لبه وزمام حلمه ، بل قد اعتادها على لسانه حتى بالتلميح عنها أو بالإشارة إليها إذا شردت عن ذهنه في حين أو عزبت عن ذاكرته في وقت من الأوقات ، فترى الرجل الشعبي أو المرأة الشعبية إذا استرسل أحدهما في كلامه ثم نسي مثلا من الأمثال يصلح للنقطة التي يتكلم فيها أو يلائم الحديث الذي يتحدثه أو (يفلسف) الموقف الذي يحصره في زمنه وظروفه وأحداثه ، يلفظ عبارة عجيبة كل العجب ، فيقول : (على رأي المثل ..) ا ...

هذه العبارة كثيراً ما تسمع في الوسط الشعبي وقت الحديث ، ولكن قائلها لا يورد بعدها مثلا ولا يطالبه المستمع — وهو عامي أيضاً — بهذا المثل الذي يطابق الموقف والذي ارتأى المتحدث أن يدلف (على رأيه) ، فترى المتحدث والمستمع بعد التلفظ بهذه العبارة يصمتان لحظة وينظر كل منهما إلى الآخر وتبرق عيونهما ببريق الثقة والاعتداد وحسن الإدلاء ، وكأنما قرأ المستمع في عيني المتحدث المثل الذي لم يذكره ، وكأنما أوحى المتحدث إلى المستمع بنص المثل الذي أراده دون أن يذكره ، وذلك بالبريق السابق : بريق الثقة والتلميح والاعتداد والإيماء ...

والفارق في هذه النقطة بين هذا الجاهل الذي يلفظ تلك العبارة السالفة وبين المثقف الذي يريد أن يدلل على قول أو يدعم حجة ، أن المثقف يأتي بنص المثل أو الحجة أو التدليل ، سواء أكان مثلا عربياً أو أفرنجياً أو نادرة معروفة أو بيتاً من الشعر أو اقتباساً من القرآن أو حديثاً من أحاديث الرسول أو نفحة من الأدب أو لمحة من العلوم أو لفتة طريفة من الثقافة العصرية ... أما الجاهل من أبناء الشعب فإن نسي مثله المحبوب الذي يدلل به على كلامه أو يبرر به حديثه أو يبدي به حجته أو يظهر به خبرته بأمور الدنيا وأمثال الحياة وفلسفة الحكمة والعقل ، فإنه يعتمد على أمور معقولة ملائمة له ، فيعتمد على إيماء عينيه واهتزاز رأسه وحركات يديه ، ثم على خبرة المستمع وتشابهه معه في نسبة الفكر والمعرفة وتشابهه معه في البيئة الشعبية ؛ فالمستمع كالمتحدث ملائم معه لأنه في مثل معرفته وجهله وفي مثل خبرته وتجاربه في الحياة أو قريباً من ذلك ، ويعيش في نفس البيئة التي يعيش فيها ؛ فكل هذا يقلب من سيئة نسيان المثل حسنة هي من أعمق الحسنات ، لأن فيها تلميحاً ، وفيها تمعن وفيها تشابه وفيها اهتزاز وفيها فلسفة وفيها مشاركة وتوافق بين فريق المتحدث والمستمع .

ثم إن هنالك من أبناء الشعب من يعتاد عبارة « على رأي المثل » دون أن يكون واعياً لكثير من الأمثال ، إما

لأنه لم يستمع لكثير من هذه الأمثال لقلة اختلاطه أو لابتعاده عن الأحاديث الشعبية ، وإما لأنه يستمع العبارة السابقة كثيراً ولا يهتم بسماع الأمثال ، وإما لأنه رأى فى تلك العبارة راحة فاستسهلها واستعملها لأنه كسول أومنطو لايحب أن يعى هذا العدد الوافر من الأمثال ، ولا يحب أن يكلف نفسه مشقة الإمعان حين سماعها من أبناء الشعب الآخرين .

ثم أنتقل إلى تعبير العامة حين يريدون أن يذكروا نص مثل من الأمثال ، فيقولون : (أهل زمان قالوا) ، ويعطينا هذا التعبير صورة لانتشار الأمثال وتاريخها ، فهؤلاء العامة المعاصرون أخذوا هذه الأمثال عن (أهل زمان) ، كما تعطينا صورة لاحترام هؤلاء العامة لمن سبقهم فى الزمان ولمنزلة السلف فى قلوب الخلف ، فالعامة يعتقدون اعتقاداً ثابتاً أن (أهل زمان) أناس يعقلون ، وأنهم كانوا أكثر منهم خبرة وتجربة وحنكة وكياسة ، وأنهم كانوا أناس مثل عليا وعقل راجح وذهن متقد وتفكير سليم ، فأهل زمان هؤلاء مثال للعامة يأخذون عنهم أقوالهم التى سرت مسرى الأمثال قضايا مسلمة وأقوالاً صحيحة وخلاصة تجربة وعصارة ذهن محنك وعقل فياض ، و (أهل زمان) فى عقلية العامة المحدثين أناس كانوا يدلفون درب (الأصول) ويترسمون خطاها ويتتبعون نهجها ؛ وهذه (الأصول) هى مجموعة المثل العليا التى يراها العامة كما رآها (أهل زمان) أى أنها الأحكام والأعمال التى لا تتنافى مع منطق الفضيلة ومنطق البيئة ومنطق الاجتماع والاختلاط ؛ فالأقدمون من العامة قد أقاموا صرح أمثالهم العامية على أساس هذه (الأصول) وتلك المثل الشعبية العليا . وإلى اليوم نرى أن كلمة (الأصول) تستعمل فى الوسط الشعبى بالمعنى الذى اصطلح عليه الأقدمون وسرى على نهجه العامة المحدثون .

ونرى أن العامة إذا نسوا أمثالهم الشعبية وخانتهم ذاكرتهم يجنحون إلى كلمة (الأصول) يتعلقون بها وكأنها كلمة مقدسة مكرمة تجمع تحتها كل بلاغة وتنطوى على كل الأمثال الفضائل والمثل العليا التى اصطلح عليها الشعب فى أوساط العامة ؛ فكلمة (الأصول) كلمة عادلة فاصلة ، لوقعها سحر تأثير سحرى ، ولسماعها إجلال وإعظام وتفكير وإمعان ...

والأمثال العامية تجمع عادة فى ذاكرات العجائز الشمط ، وهى عندهن أغزر مادة وأوفر عدداً وأكثر تداولاً واعتياداً وأصح أصلاً ، أى أنها تكون حين تصدر عن هؤلاء العجائز صادرة من المصادر الموثوق بها ، أما الشبان فيستعملون من الأمثال العامية أقلها ويستعيضون عن معرفة الكثير منها بما يتأثرون به ويعجبون به من الأمور والمظاهر الجديدة التى لا يألفها الكبار والشيوخ والعجائز الشمط ؛ فالعامة من الشبان والشابات يميلون إلى التأثر بالأغانى الشعبية ويأخذون منها ويشغلهم ذلك عن الاهتمام أو عن المران على استيعاب كثير من أمثال العجائز العميقة التى تحتاج فى بعض الأحايين إلى تفكير وإلى تمعن أو إلى اتزان وروية تتنافى مع حميتهم وحيويتهم ونشاطهم واندفاع شبيبتهم الطائشة ، فتراهم يهتمون بالغناء الشعبى وينغمرون فى الأغانى ويقبلون عليها ، وربما أخذوا من عباراتها التى تروقهم وتحسن وقعها عندهم أو تحسن موسيقاها فى صدورهم أمثالاً يتداولونها ويتغنون بها ويدللون بحكمها ، فنسمع العامة يقولون مثلا : « قالوا لى : إيه الشباب ؟ .. قلت : الشباب غنوة ! » ونرى هذه العبارة من الأغنية المعروفة مثلا بينهم ، كلهم يفهمونه وكلهم يستلقونه وكلهم يستحسنونه ، ويزيده حسناً فى أسماعهم وأذواقهم أنه قطعة من أغنية من الأغانى التى يسمعونها ويعجبون بها ، وأنه مقرون بموسيقى عذبة تكسوه كساء بديعاً وتخلع عليه خلعة من الطلاوة والطرافة .

وفى الوسط الشعبى فى مصر يتداول العامة كثيراً من الأمثال العامية التى نستطيع أن نستنبط منها فلسفة شعبية دقيقة وطريفة ، كما أن الأوساط الشعبية فى جميع البلاد العربية أيضاً نرى فيها الأمثال العامية التى تصدر عن فلسفة واسعة الأرجاء سليمة البناء مدعمة الأركان ..

وأصحاب المثل العليا وفلاسفة هذه المثل فى العصر الحديث لم يستطيعوا أن يوجدوا لنا فلسفة أرق ولا أعمق ولا أبعد مدى ، مما وصلت إليه فلسفة الشعوب ، إن لم يكونوا قد اشتقوا فلسفتهم من فلسفة الشعوب وفلسفة العامة ، ثم عزوها إلى بنات أفكارهم أو إلى مثلهم التى يرتأونها ، أو إلى الفلسفة المثالية التى دفعتهم إليها الثقافة الحديثة وأثرت فيها كذلك ..

وفلسفة الشعب وفلسفة العامة تمثل فى ركن هام من أركانها فى الأمثال العامية ، فمن أراد هذه الفلسفة فليرجع

إلى الأمثال العامية ، ثم إلى الأعمال والحركات التي ينسجم معها العامة ، ثم إلى المعتقدات والتقاليد الراسخة في الوسط الشعبي ، ثم إلى اتجاه التفكير في وسط أبناء الشعب ، ثم إلى الزجل والشعر النبطي الذي يتداوله العامة وينشدونه كلما اجتمع منهم نفر مناسب ، أو كلما خلوا إلى أنفسهم ، أو كلما مشت ألسنتهم الصمت وأرادت صدورهم الترويح والانشراح .

.. والأمثال العامية قد سبرت أغوار النفس فأتت بدرر في اكتناه هذه الأغوار وكشف هذه الأسرار ، وتعمقت وحللت ودرست ، فصارت بحق العالم النفساني للعامة الذي يحلل نفوسهم ويحل مشاكلهم ويفك عقدهم ويسبر أغوارهم ويكشف خباياهم ، ويميط اللثام عن ألغاز نفوسهم وتحفز روحهم وشرور أبدانهم وشراهة شهواتهم ومركبات النقص في تركيبهم ...

وفي الأمثال العامية منطق سليم ، تجد فيه الاستدلال ولكن بصورة غير التي عهدناها ، والقضايا وأحكامها في ثوب غير الذي تعودناه ، والتعريف والتقسيم والتصنيف والقياس والتحليل والتركيب والاستقراء ، وما إليه ، ولكن في قالب غير الذي ألفناه واعتدنا النظر فيه ..

وفيها الحكمة التي إذا قيلت أوجزت ودلت ، وإذا ألقيت كفت وأوفت ، وفيها الحكمة التي (تنطق) الموقف وتفحم المستمع فلا يهتم أن يطأطئ رأسه حياء من دلالتها وإعجاباً بقدرتها وتقديراً لكمالها وخشوعاً لهيبتها وخضوعاً لحكمها ! وهكذا الحكمة في كل زمن وفي كل بيئة وفي كل ظرف وفي كل موقف ، سواء أجاءت في مثل عامي أو مثل فصيح أو في كلام مرسل أو كلام منظوم ...

وفيها فلسفة الوجود وفلسفة الحياة وفلسفة الآمال والأطماع وفلسفة المثل العليا في الخلق والأعمال الاجتماعية ، وفيها الفلسفة الصامتة في الردود على السفهاء ورد الشدة بمثلها أو ردها بإغضاء وإعراض وعفو كريم ، وفيها فلسفة الحقيقة الواقعة وترديد الواقع المخجل في صورة تدعو لتذكره بعد إغضاء وإهمال ، وفيها فلسفة السعادة واللذة والصفات والفضائل والرذائل ، وفيها فلسفة الرؤية والإمعان وفلسفة الطبيعة والجمال ، وفيها وفيها مما لا يحصره عد ولا يفي به ذكر ولا يوفيه تذكير ولا يؤديه كلام أو أداء ...

وهنالك عهد ازدهار وانتشار لبعض الأمثال الشعبية ، كما أن هنالك عهد خمول لبعضها ، وذلك يرجع إلى أحداث الأيام والسنين وما يجد فيها وما تستلزمه هذه الجدة من أمثال تطابقها ، وهذا كشأن بعض الكلمات التي تتداول بكثرة في ظروف معينة أو في بيئة معينة ، وغيرها كلمات تهمل ويبور بدعها في سوق اللسان ! ففي أيام الحرب مثلاً تزخر في التداول الكلامي كلمات مناسبة ككلمات النار والدم والقنابل والخندق وصفارة الإنذار والغارة وما شابه ذلك ، وفي أيام شهر العسل يتذكر العروسان كلمة (العسل) ويذكرانها كثيراً ، أو أنها تكون معروفة ومهمة كل الأهمية في هذا الشهر ولو لم ينطق بها ، والناس في المسجد يذكرون (الله) كثيراً ، والفصل الدراسي في درس الجغرافية يتردد في أرجائه كثير من الكلمات الخاصة كالتضاريس والمناخ والرياح العكسية والأعاصير والجنادل ، وفي درس الكيمياء تتردد ألفاظ كالساحة والمخبار والأنبوبة ، وهكذا في كل درس خاص ، وكلمة (السمار) حية بالنسبة للتجار وخاملة بالنسبة لأستاذ الأدب أو لبائع اللبن ، وعلى هذا فكل صنف من الأمثال يتداول بكثرة في بيئة خاصة أو في زمن معين أو لظروف معينة ...

ولكن الذي لحظته أن كثيراً من الأمثال العامية تتداول في كثير من البلاد العربية ؛ فالمثل العامي الذي يستعمل في مصر قد يستعمله الكويتيون ، والمثل الذي يستعمله الكويتيون قد تستعمله البحرين ، والذي تتداوله البحرين قد يكون سارياً في العراق ، وهكذا ... وإن لم يستعمل في هذه البلاد بنفس النص ، فإنه يستعمل بنفس المعنى ونفس الأداء ..

ومن هذا نستطيع أن ندرك أن هنالك وحدة في الفلسفة والحكمة والشعبية بين البلاد العربية ، ووحدة في مشارب التفكير ؛ ومن هذا جاء القول بأن الشرق شرق والغرب غرب ، وباختلاف الشرق عن الغرب والغرب عن الشرق ..

والشعب إذا سرت الثقافة بين أوساطه استطاع أن يحول أمثاله العامية إلى أسلوب جديد يحمل المعنى أو الفهم إن رأى أن يدع نفس اللفظ ، وليس من عيب أن يستعمل الرجل

المثقف المثل العامي بنصه وأسلوبه ، ولكن الذي أريده أن يأخذ المثقف هذا المثل ويهذب لفظه أو يعدل نطقه ويصحح التلفظ به فقط ، فإن من الأمثال العامية ما عبارته صحيحة في اللغة ولكنها خاطئة في النطق بها بسبب اللهجة ؛ وعلى هذا فمن السهل على المتعلم أن يتخذ هذه الخطوة البارعة في استغلال تلك الأمثال العامية الهامة ، ثم إن المثقف يستطيع أن يستعمل الأمثال العربية الفصحى في كلامه ، بل ويستطيع أن يستشهد بالشعر العربي أو يذكر لحواه بأسلوبه الشعبي إن كان يكلم العامة وبأسلوبه الفصيح إن كان يتكلم مع الخاصة ..

وقد أخطأ الحكام الذين أرادوا حكم بلاد لم يدرسوها ولم يطلعوا على تقاليدها ومعتقداتها ولم يتعمروا ويعرفوا الكثير عن فلسفتها .

فالذي يريد أن يحكم الشعب أو أن يوجه الشعب أو أن يصادق الشعب ، فأول ما يجب عليه أن يدرس فلسفة الشعب ، وتستلزم منه هذه الدراسة أن يدرس الأمثال العامية أولاً ؛ لأنها مصدر أول لتلك الفلسفة ، وأن ينغمر في الوسط الشعبي ليلم بكل تافه وكل عظيم وكل دقيق وكل كبير .

فإن لم يقم بذلك وإن جهل أن الأمثال العامية والفلسفة الشعبية والأفكار الشعبية هي مفتاح الشعب ، فلن يستطيع الحكم ولا التوجيه ولا المصادقة ولا الاغترار ولا الاختلاط والإفادة ...

أما من يدرس الشعب من أمثاله وفلسفته وحكمته وأفعاله وحركاته وسكناته ولفتاته وخطراته ومعتقداته وتقاليده وآماله وأحلامه وتخيلاته ومعقولاته و (محمولاته) و (موضوعاته) ، فهو للشعب والشعب له ، وسيرى أن باب الشعب قد فتح على مصراعيه ومن خلفه الشعب يفتح ذراعيه ، وقد كان الباب في وجه الذين لا يدرسون الشعب موصداً مصفوداً والشعب حنقاً متضايقاً متذمراً ...

... هذه هي الأمثال الشعبية العربية ، وهذه ميزاتها ودراستها ، وعسى أن أوفق إلى بحثها في فرصة أخرى بنصوصها وأمثلتها وعلاقة تلك الأمثلة بالفلسفة الشعبية ...

أحمد طه الشرمي

الجامعات البريطانية

(بقية المنشور على صفحة ٩)

والأغنياء ، وأبناء الطبقة الراقية والطبقات الدنيا ، والطلبة الذين نشأوا في بيت ثقافة وأخلاق والطلبة الذين يجب أن يبدأوا من الحضيض في تكوين ثقافتهم وأخلاقهم ؛ وفي أي خليط مثل هذا يجب أن نفكر في النسبة اللائقة لهذه العناصر ليكون هذا الاختلاط ذا فائدة وجدوى ، فإذا كان الطلاب الفقراء وهؤلاء الذين يبدأون من الحضيض هم الغالبية العظمى فقد تكون ظالما لهم ، وهذا شيء من الصعب أن أقوله ، لكن الحق والصراحة يقتضيان قوله وإن كان الكاتب نفسه من هؤلاء الفقراء الذين بدءوا من الحضيض!

والمسألة الثانية هي نصيب الجامعات في إعداد المدرسين وبخاصة مدرسي المدارس الابتدائية ؛ فهل تكون الجامعة هي المورد الأول أو الوحيد لتخريج هؤلاء المعلمين ، كما أنها الوحيدة المختصة بإعداد الأطباء ؟ أم أن من الخير أن يبقى إعداد هؤلاء في يد مدارس المعلمين الحالية وإن قربنا بينها وبين الجامعات ؛ وأيا كان جوابنا فإنه يبدو أن على الجامعات البريطانية أن تتحمل مزيداً من العبء في إعداد هؤلاء المعلمين.

ومسألة أخرى هي نصيب الجامعات في إعداد موظفي الحكومة ، وفي أن تقدم لهؤلاء الذين يشغلون الآن وظائف في الحكومة مقررا خاصا لمدة عام أو أكثر في محيط جامعي ليكونوا أقدر على فهم المحيط الإنساني العام والأساس العلمي الصحيح للأعمال التي يؤدونها ، وإن كان يبدو أن هذا قد يعوق الجامعات عن أداء واجبها الأول ، وهو العمل على تقدم العلم الخالص ونشره .

والمسألة الأخيرة أنه يبدو أن الجامعات البريطانية لكي تؤدي مهمتها من تشجيع البحوث والدراسات يجب أن تنشأ بينها هيئة مركزية للاتصال والتعاون ، كما أننا قد نقترح أن تقام هيئة تعاون تام بين الجامعات في الأمم المتحدة كلها كجزء من هيئة الأمم ، وأن يكون من وظيفتها مسائل الاعتراف المتبادل بالدرجات الجامعية ومسائل تبادل الطلاب وتبادل الأساتذة لتحقيق سلم دائم وتعاون دولي على أساس سليم .

أحمد بدران

صور موسيقيـــــة شعرية

للأستاذ عز الدين اسماعيل

موسيقى الشعر عنصر فعال فى العمل الشعرى بحيث لا يمكن تقويمه دون اعتبار هذا العنصر والالتفات إليه من حيث صلته بالمعنى الذى يصوره الشاعر. يقولون إن الشاعر الفلانى قد شهر بتوليد المعانى، وهم يقصدون الإبداع والخلق، ولكن هذا الكائن الذى يتمخض عنه الشاعر، مهما أوتى من النضاضة والبضاضة، ومهما اكتملت فيه الأعضاء واستوت القسمات، فسيظل هذا الكائن فى حاجة إلى نفخة الحياة والحركة التى يسبغها عنصر الموسيقى أو ينفثها فى أعضاء هذا الكائن، وإذا بهذا العنصر الذى لا ينفصل مطلقاً عن العمل الشعرى، يلعب دوراً من أخطر الأدوار فى إبراز هذا المخلوق مرحاً طروباً أو عابساً كئيباً، متصل الأنفاس أو متقطعها، سريع الحركة أو وئيدها، قريراً هادئاً أو ثائراً فائراً؛ فإذا كان الشاعر عابساً ساعة التوليد أو الإبداع إذا بك تلحظ هذا الكائن أو هذا الوليد قد نزل يستقبل الحياة مقطب الجبين، وإذا كان الشاعر قد عانى الإجهاض المضنى جاء وليده معقد الخلقة مزدحم القسمات، ويضنيك بدورك أن تستشفه وتتبينه ... وهكذا يتولى عنصر الموسيقى تحريك أعضاء الكائن أنواعاً من الحركات، ويعطيها الألوان المعينة التى تمكن الناظر إلى تلك الحركات وهذه الألوان من أن يستشف الظلال النفسية التى نقلها الوليد عن أبيه، أو الشعر عن صاحبه.

ومن هنا تتبين لنا الصلة الوثيقة بين عنصر الموسيقى فى العمل الشعرى ونفس الشاعر بكل ما يحيط بها من أجواء وما يلابسها من أحوال، من جهة، كما تتبين لنا، من جهة أخرى، قيمة هذا العنصر فى تلوين العمل الشعرى وبث الحركة فيه. ويمكن، لمن يشاء، أن يتخذ من هذا مبدأ عاماً فى النقد، فيمتحن العمل الشعرى أول ما يمتحنه من جهة موسيقاه، فإذا وجد ذلك الكائن الحى يبدو فى سن الطفولة، وشعره أشيب، أو يبدو شيخاً هرماً ومع ذلك فهو يتراقص، أو أن يكون هذا الكائن بطبيعته حزيناً كئيباً ومع ذلك يبدو مرحاً. أو قل على العموم، إذا كان هناك تنافر بين الكائن بطبيعته (والمقصود المعنى فى أصله)، وبين قسماته وسماته وحركاته، أو بوضوح بين المعنى والموسيقى التى تبرزه، فعندئذ لا يكون من الصعب عليك أن تنكر هذا الوليد، أو على الأقل تنكر أنه قد ولد ولادة طبيعية، ثم تكون معاملتك للشعر بعد هذا على ذلك الأساس، وهو أنه شعر لم تصدق فيه الوصلة النفسية، وإنما كل ما قد اكتسبه من موسيقى، فهو من تلك الموسيقى التى توحى بها الألفاظ فى حد ذاتها بعيدة عن نفس الشاعر واستعمالاته الخاصة. وعكس هذا الكلام فى جملته صحيح.

لكل كلام موسيقاه، سواء أكان شعراً أم نثراً، ولكن الفرق بين موسيقى الشعر، وموسيقى الكلام، هو فى هذه الوصلة النفسية بين الشاعر وشعره، تلك الوصلة التى تشخصها الموسيقى تشخيصاً بيناً، فإذا بنفسية الشاعر تتراءى من خلال شعره؛ وهى وسيلة إذا أردنا الوصول إلى الشاعر نفسه، وهى غاية إذا أخذنا عمله الفنى واعتبرناه وحدة.

الموسيقى أسرع سرياناً فى النفوس من المعنى، وليس أكثر تخييباً لأمل الإنسان من أن يقرأ العبارة التى بدأت فيها الموسيقى بلون معين له فى نفس القارئ مدى يحسه ولا يحدده، فإذا بهذا اللون من الموسيقى ينقطع به دون المدى، فيحس بتوقف وهبوط يفسدان عليه المعنى، أو على الأقل يقلقانه، ويحدثان فى نفسه الضيق. ومن هنا وجب على الشاعر أن يعطينا مقادير متساوية من الدفعات المعنوية والموسيقية، بحيث يظهر الكائن كله موفور الحركة نابض

العرق ، لا أن يظهر ذلك فى أجزاء دون أجزاء . وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن القصيدة بما هى مفهومة عليه من أنها وحدة عضوية متماسكة تتمتع بما يتمتع به الكائن الحى من حياة وحركة ، كذلك يمكن أن يقال إن كل قصيدة مقطوعة موسيقية ، وذلك عندما ينسجم إيقاعها الموسيقى ومعناها فى عمومه وجزئياته .

وليس وضع المقاييس الثابتة ثبوت الأوزان العروضية لقياس هذا الإيقاع الموسيقى وربط كل غرض من الأغراض الشعرية بنمط أو أنماط منه مختلفة بجانب الشاعر إذا أحدث بها أدنى تلف كما نصنع عندما يختل الوزن العروضى فى يده — ليس هذا مما يستطاع ، وليس أيضاً مما نرغب فيه ؛ فهو غير مستطاع لأن اهتزازات النفوس بعاطفة واحدة — خذ الحزن مثلاً — يتصور عند كل نفس بصورة تخالف النفس الأخرى ، بل ويتصور فى النفس الواحدة صوراً تختلف باختلاف مقدار هذا الحزن واختلاف الظروف الملابسة . ولا نستطيع أن نضع نحن الإطار الذى نحتم على الشاعر أن يبرز لنا صورة عاطفة الحزن عنده على أى تحركات فى هذا الإطار بعينه . ونحن بهذا إنما نترك للشاعر الحرية الكاملة فى أن يضع الإطار ويرسم الصورة التى تملأ فراغه . ولسنا نرغب فى أن نضع هذه المقاييس لأن المقاييس الثابتة دائماً تكون سبباً كافياً لبث روح الجمود كما هو الحال بالنسبة للأوزان العروضية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإننا نريد أن نرى ما يصنع الشاعر نفسه دائماً ، ولسنا نرغب منه فى أن يصنع ما نريد .

وعلى هذا فأنا أعرض فيما يلى صوراً شعرية موسيقية لم تتحرر من الوزن العروضى ، ولكننا نستطيع أن نتبين بواسطتها ما سبق أن بسطناه فى مشكلة موسيقى الشعر .

هذه أبيات من قصيدة لعبيد الله بن قيس الرقيات يتوجع فيها لمقتل نفر من إخوانه فى الحرة :

ذهب الصبا وتركت غَيَّتَيْهْ
ورأى الغوانى شيب لِمَّتَيْهْ
وهجرننى وهجرتهن وقد
عنت كرائمها يطفن بيه
إذ لمتى سوداء ليس بها
وضح ولم أفجع بإخوتيه
الحاملين لواء قومهم
والذائدين وراء عورتيه
إن الحوادث بالمدينة قد
أوجعننى وقرعن مروتيه
وجَبَبْنَنى جَبَّ السنام فلم
يتركن ريشاً فى مناكبيه
كيف الرقاد وكلما هجعت
عينى ألم خيال إخوتيه
تبكى لهم أسماء معولة
وتقول ليلى وا رزيتيهْ

إلى آخر هذه النغمة الحزينة . وليس هناك داع لضبط الأشياء المادية التى أنجحت هذه القطعة فى إعطاء هذا اللون الحزين من الموسيقى . قد يبدو لنا هذا لأول وهلة من هذه الهاء الصامتة فى آخر كل بيت ، وقد يكون صحيحاً أن الهاء الصامتة إذا استخدمت حرف روى فإنها تصور تقطع الأنفاس عندما يتكلم المحزون شديد الحزن المتوجع كل التوجع ؛ ولكن هذا التحديد غير صحيح ، لأن الشاعر نفسه قد استخدم هذه الهاء الصامتة ولكن فى قصيدة قالها فى اللهو والعبث ، واتسمت بسمة الخفة . يقول :

بَكَرَتْ على عواذلى يَلْحَيْنَنى وألومهنه
ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه
إن العواذل لمتنى كيما أطيع أمورهنه
ولقد عصيت العاذيا ت الناشرات جيوبهنه
حتى ارعويت إلى الرشا د وما ارعويت لنهيهنه

فرق بين النغمة فى هذه الأبيات وبينها فى الأبيات السابقة . هذا ما يمكن تقريره بكل سهولة ؛ فالحزن يشيع فى تلك الصورة والعبث يشيع فى هذه . ونستطيع أيضاً أن نتكلم عن مقدار الحزن ومقدار اللهو ، فنقول : إن

الشاعر لم يوفق أبعد التوفيق فى الملاءمة بين كل صورة وموسيقاها ، ولكنه قد وفق على العموم فى أن يشيع فى إحدى الصورتين الحزن وفى الأخرى العبث وإن كان ذلك بقدر .

وهذه نغمة أخرى من شعر أحمد شوقى يرثى الأميرة فاطمة إسماعيل :

حلت بالسترة والروضة العطرة
ومجلس الزهراء فى الحظائر النيرة
مراقد السلالة الطيبة المطهرة
ما أنزلوا إلى الثرى بالأمس إلا تبره
سيروا بها تقية نقية مبرورة
نجلٌ ستر نعشها كالكسوة المسيرة
وتشق الجنة من أعواده النضرة

وأظنك أيها القارئ الكريم تعجب لهذه الصورة المرحة برياضها العطرة ومجالسها الزهراء ، كيف يمكن أن يكون هذا النغم مصدره الحزن وهو لا يشيع الحزن ، وكيف يمكن أن يكون هذا الشعر فى الرثاء صادقاً وهو مرح ، إذا استطعت أن تتخيل له صورة مادية فأقرب صورة له — كما يتراءى لى — هى صورة الفتيات يقفزن على حبالهن فى الروض متتابعات . وأنا معك أيها القارئ فيما تعجب منه ، ولكننى أربأك على ألا يتطرق إليك أن الذى باعد بين المعنى والصورة الموسيقية هو اختيار الشاعر لهذا البحر القصير ، فإن هذا لن يكون مطلقاً هو السبب الصحيح إذا عرفت أن الشاعر نفسه قد كتب تعزية فى بحر قصير أيضاً ، ولكنه نجح هناك إلى حد ما فى أن يجعل الصورة الموسيقية موائمة للمعنى منسجمة معه . وذلك فى القصيدة التى عزى بها الدكتور هيكل فى فقد وحيده :

الضلوع تتقدُ والدموع تطردُ
أيها الشجى أفق من عناء ما تجد
قد جرت لغايتها عبرة لها أمد
كل مسرف جزعاً أو بكاً سيقتصد

ولا أدعى أنه قد وفق تمام التوفيق فى الملاءمة بين الغرض والموسيقى ، ولكن الذى لا مانع من تقريره هو أنه لا يطالعنا التنافر الشديد بين الغرض والمعنى مثلما طالعنا فى الأبيات السابقة .

وكما يتبين لنا التوفيق أو عدم التوفيق فى الصورة التى تنتظم عدة أبيات ؛ فكذلك يتبين لنا هذا فى الصور الجزئية . والواقع أن نجاح الشاعر فى الصورة العامة يتوقف على نجاحه هنا . وهذا شوقى أيضاً يعطينا مثالاً واضحاً على الإخفاق فى الصورة الجزئية فى قصيدته التى رثى بها عبد الخالق ثروت إذ يقول :

ونفحة من فواق الشعر كنت لها
فى مجلس الراح والريحان تحتشدُ
أرسلتُها وجثت الجمع بكفنها
كما تحدّر حول السوسن البردُ

لعلك أيها القارئ قد فطنت إلى هذه « السوسنة » التى فى البيت الثانى وهذه « البرودة » . والواقع أن الإنسان يعجب فى نفسه كيف انتقلت الرسالة الباكية المخنوقة بالدموع إلى سوسنة يغطيها برد ! وهنا من مجلس الراح والريحان والنفحات فى البيت الأول !.

وهذه صورة عابثة لا أشك فى أن الشاعر قد رسمها وهو فى حالة من النقمة الشديدة والنكد القاتم والحيرة الحائرة . يقول أحمد محمود صبحى فى ديوانه « أغانى المحاريب » تحت عنوان « غروب » :

وخيم الليل وعربد الكبل
وأعول المجهودُ
يا نفس أحلامى زفتك أنغامى
منكود يا منكود
سر ما أنا سائر فى الزفت والقار
والمجهل المجرود
وحدى أنا وحدى طيات من زهدى
فى الشاطئ الممدود

وهى صورة قد وفق فيها عنصر الموسيقى إلى حد بعيد ، وديوان هذا الشاعر يمتاز كله بانسجام الصور الموسيقية فيه مع الصور المعنوية والوجدانات النفسية . وفى الصورة السابقة

تلحظ نوعاً من التلوين الصوتى فى هذه القوافى المتعددة ؛ ولعل ذلك ما اقتضته الملاءمة بين هذه التقطيعات النفسية وبين هذه الصورة الوصفية . وهذا مثال واضح — وهو لحسن الحظ من الشعر القديم — على أن القافية بدورها من المعوقات التى تلتزمها دون مبرر . قال الشاعر :

ألا هل ترى إن لم تكن أم مالك
بملك يدى أن الكفاء قليل
رأى من رفيقيه جفاء وغلظة
إذا قام يبتاع القلوص ذميم
فقال أقلا واتركا الرحل إننى
بمهلكة والعاقبات تدور
فبيناه يشرى رحله قال قائل
لمن جمل رخو الملاط نجيب

يقرأ الإنسان هذه الأبيات فلا يجد لهذا التنويع فى القافية أثراً سلبياً كما يمكن أن يتوقع ، بل يحس عندئذ بنوع من الارتياح لا يحس به عندما يقرأ تلك المطولات التائية أو العينية مثلا . وإذا نحن قرأنا قول عمر بن أبى ربيعة :

ما على الأرض من أحب سواكم
من جميع النساء قالت فهلاً
قلت لما دخلت هذا ولكن
غاب لما دخلت هذا وضلاً

رأينا بوضوح كيف اتصل منه البيتان اتصالاً وثيقاً بحيث إن قراءتهما منفصلين تفسدهما جميعاً . ولست أدرى كيف أستطيع أن أمثل القراءة الصحيحة بالكتابة ، ولكن أحسب أن الكتابة ، وأى أسلوب من أساليب الإفهام لن يكون مجدياً فى تفهم التقطيعات الصوتية حيث لا تقطيع فى الوزن ، والاتصالات الصوتية حيث لا اتصال فى القافية . ولكننى على العموم أقرأ البيتين هكذا :

ما على الأرض من أحب سواكم من جميع النساء !
قالت فهلاً قلت — لما دخلت — هذا ..!
... ولكن غاب — لما دخلت — هذا وضلاً !

ولعل هذه القراءة — للشعر الموزون المقفى — تقرب من نفوسنا قراءة الشعر غير الموزون أو المقفى . فما الفرق بين هذين البيتين — على القراءة الثانية — وبين قول آخر من قصيدة بعنوان « قلبى » :

ذلك المسكين ... قلبى
هو المحزون ... يحيا بلا أمل
خفف يا حياة من وطأتك على قلبى
وارحميه يا حياة ... ذلك المسكين

وأخيراً فمجال الشعر واسع ، وإنما أردنا أن نسوق هنا مجرد الأمثلة على ما سبق أن قلناه من كلام نظرى ، وعلى القارئ المتذوق للشعر أن يتلمس فيما يطالع نماذج يستبين خلال تناوله لها مقدار ما يمكن أن يكون لنظرتنا فى موسيقى الشعر من صدق .

عز الدين اسماعيل

لورنس بنيـــــون

شاعر انجليزي استلهم الشرق في شعره

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

تزخر القلادة الانجليزية بدرر غوال ، تباهى بها الأمم الأخرى ، ولورنس بنيون شاعر يعتبر من أغلى دررها ، وهو آخر درة في هـذه القلادة المزدحمة بكبار الشعراء ، ولا نغالى إذا قلنا إنه من أعاظم الشعراء لا في بريطانيا فحسب ، بل في الشعوب الناطقة بالانجليزية ، وذلك لما يمتاز به شعره من غنائية وحساسية تعيد إلينا ذكرى ما كانت تفيض به شاعرية (برس شيلي)[1] أمير شعراء الانجليز في القرن التاسع عشر في هذا الميدان .

ولقد كان لشغف بنيون بشعر عظماء الشعراء الانجليز وغيرهم ، وخاصة وليم بليك الذي يعد أبدع شاعر بين متصوفي شعراء الانجليز ، أثر في شعره وما بلغه من منزلة ، ولقد كان لبليك خاصة أثر ملحوظ في شعر لورنس وتوجيهه ، إذ أننا نجد في شعره كثيراً من لمحات الفكر الصوفي ، قد صاغها في أسلوب بارع وعبارات دقيقة ، تترك القارئ غارقاً في بحار التفكير ، سابحاً في عوالم الروح ، هائماً في قدسية هادئة ، مما كان يهيم بها متصوفو الشرق عندما تسبح أفكارهم في ملكوت السموات العلى ، ولا عجب في أن ينهج لورنس منهج متصوفي الشرق ، فلقد أعجب بهم ، وعرف مما قرأ لهم عوالم الروح الخالدة وتفاوتها وسموها على عوالم الماديات الزائلة .

ولقد كان لاشتغال بنيون بالفن الإسلامي خاصة والشرق عامة دافع في تأثر الفكر الشرقي وخياله الخصب ، فسلك في شعره ما سلكه شعراء متصوفة الإسلام . فنجد ذلك واضحاً في قصائده التي نشرها في كتابه المسمى (نجم الشمال) مثل قصيدته (أتكور) التي يقص فيها قصة النبي سليمان والملكة بلقيس وما جرى بينهما ، وهي قصيدة طويلة يحول بيننا ضيق المقام وبين إيرادها ، ولكن لا بأس بتخير بعض منها وإن كان أكثرها يعد مختاراً . ففي هذه القصيدة يظهر لنا لورنس مبدعاً في نظمه رائعاً في شعره محلقاً في سماء الخلود .

يرينا كيف أن عظمة الملك وفتنة بلقيس ودلالها ، وما اجتمع لسليمان من قوة وسطوة ومن مال وفير وجاه عريض ، لم تشغله كل هذه الماديات عن الروحانية القدسية التي تقربه إلى ربه ، ولم تحل بينه وبين إقامة الهياكل والمحاريب ليعبد فيها ربه فيقول :

« أقبلت بلقيس تتيه جمالاً وتفوح عطراً ، ثم جلست إلى جنب سليمان على عرش شامخ الأركان ، وتجمعت حولها الطيور الصداحة بألوانها المتعددة .

وكان الملك يميز أصواتها ويعرف لغاتها ، وكان أيضاً ينصت إلى صوت الأسد في الصحراء القاصية .

انتظرت بلقيس أن يتحدث إليها الملك عن ملكه الواسع وجاهه العريض ، وعما اجتمع له من الروعة والبهاء ، ولكنه لم يتحدث إليها عن ذلك ولا عن شيء مما يشبه مما يفوق حد التصديق ولا يبلغه العقل .

بل تحدث عن الهيكل الذي أقامه حديثاً ، تعظيماً وتقرباً إلى الله الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، الله خالق السموات والأرض مبدع الكائنات موجد البشر جميعاً ، الله خالق سليمان وحكمته ، وواهبه ملكه وعظمته .

---

(1) ولد برس بيش شيلي سنة ١٧٩٢ (بهورشام) ومات غرقاً في خليج سبتزيا بإيطاليا سنة ١٨٢٢ ، ويمتاز شعره بقوة الشخصية ومتانة الأسلوب وقوة العاطفة التي تهز الأفئدة تأثراً ، كما يمتاز بسمو الخيال ورقي الفكر ودقة التعبير .

تحدث عن ذلك الهيكل الذى شاده ليبقى على كر الدهور والأيام ، يذكر الناس ويبعث فى قلوبهم نفحات الإيمان .

ولما انتهى من حديثه ران عليهما وما حولهما صمت رهيب وسكون مخيف ، وقد أخذت الشمس المزمعة الرحيل ترسل شعاعها المتماوج إلى الهيكل الشامخ فى بيت القدس ، فكسته حلة زادته روعة إلى روعته ، فبدا كأنه شمس الخلود يتماوج لهيبها أمام أعينهما . وما لبثا أن أدركهما المساء فذهب كل إلى سبيله ... » .

وفى قصيدة أخرى سماها (المستشفى) قدمها بقوله :

« أصاب الشاعر مرض ألجأه إلى أحد المستشفيات ، وبينما هو مستلق على فراش المرض ، يعانى شدته ويغالب وطأته ، أخذت أنوار الفجر الأولى تتسرب إلى الكون ، ونسماته اللينة تداعب الأشجار ، فتح الشاعر عينيه ببطء فرأى شبح رام سماوى يقف بين يديه ممسكاً قوسه متأهباً للرمى » .

فى هذه القصيدة يصور لنا كيف يتعجل الإنسان أمره لايقنع بما أفاء الله عليه من فيض أنعمه ، فيسعى وراء الآمال وهى برق خلب ، يلقى فى سبيلها صنوف الأذى ، ويكابد مختلف الصعاب ، حتى إذا جاءها لم يجدها شيئاً ، وربما أضاع فى سبيل ذلك ما فى يده ، فتنتابه الحسرة والندم فى وقت لايفيد فيه التحسر ولا ينفع الندم .

كما يصور لنا ذلك الإنسان الذى يشوقه المجهول ويغريه البعيد إذا ظهر له منه شعاع ، كالفراشة تسعى إلى النار وهى لاتدرى أنها صائرة إلى نهايتها ، فيكد ويكدح ليبلغ ذلك المجهول ، ثم لايعنيه أعاش بعد ذلك أم مات ، يسعى ويجاهد حتى إذا أصبح قاب قوسين أو أدنى من رؤية ذلك المجهول ، هوى إلى نهايته ولقى حتفه قبل أن تكتحل عيناه بما فى سبيله هلك ، فيقول :

« أيها الرامى العظيم ! القائم بين يدى ، مفتول الساعد ، مجدول العضل ، قوى البنيان ، لو أنك أحنيت قوسك وشددت السهم ببطء إلى محاذاة أذنك لأصبت الهدف .

« مالى أرى جسمك المشدود يتبدل سريعاً .

« فما إن انطلق السهم الذى فى قوسك حتى هبط ساعداك وتراخى كتفاك إلى أسفل .

« أيها الرامى المجيد ! لماذا يظل وجهك مستتراً عنى مختفياً عن ناظرى ، تبعد كلما حاولت الدنو منك ؟ .

« إن قلبى يخفق خوف أن يظهر لى وجهك ، ولكنى أود أن تتجلى لى هائلاً فى سكون وهدوء ، هائلاً فى جمال وقوة .

« أيها الرامى القدير ! لماذا تولى وجهك بعيداً عنى ؟ آه لو أستطيع رؤيتك ، إذاً لكان لى نصر لا أبالى بعده أن يصرعنى سهم نافذ ، بعد أن تملىء عيناى من صورتك وأتمتع ببصرى اليقين » .

* * *

ولقد كان بنيون يحيا حياته بوجه طلق مستبشر وروح فياضة بالمعانى الإنسانية ، يشرف على دنيا زاخرة بالجمال الروحى ، غنية بالمعانى السامية ، فقد عرف أن كل كائن حى ينطوى على الحق والخير والجمال ، ولكن تنقصه العوامل التى تحرك هذه الأشياء إلى الظهور ، وهذه العوامل هى الدوافع الإنسانية والعواطف السامية والتهويمات الروحانية فى عالم الخلود . فعاش أيامه فى صحبة الحق والخير والجمال ، ينظر إلى الأشياء نظرة الخير رغم أن العالم الذى يحيط به مزدحم بالمآسى والآلام ، قد تعامى عن الحقيقة ورانت على بصره غشاوة المادية ، فحجبت عنه شعاع الروحانية الباهرة . فيقول :

« ما أكثر الأحلام التى مضت ولم يبق منها إلا الصورة الباهتة . ما كان أقل قيمة الحياة وأحقر منظرها ، إذ انعكست فى جدول من حمأ مسنون .

« أما الآن فإن نفسى قد ارتاحت من تلك الأحلام الخادعة ، فلا أطأطىء الرأس فى خزى وخجل ، إذ أرى النفس مجردة من كل زخارف الحياة الكاذبة .

« ما أجمل جسد الأشجار عارية من أوراقها قد ارتفعت بلا زخرف أو حجاب ، وشمخت إلى أعلى فى السكون وفى العاصفة . إنى لأحبها أكثر مما أحب أستار الأوراق الناعمة الملساء تحجب عنا وجه الحقيقة .

« لقد انكشفت الحقيقة للعيون ، فلا شىء يخفى عامة الطبيعة أو الزيف الذى أحدثته يد الإنسان .

« وقد طهرت روحى من كل شائبة واشتاقت إلى مدارج السمو العلوى .

« الريح تكتسح الطريق فتجرف الأشياء عارية . وهذه نهاية كل حى ، والسبيل إلى الثوى الأبدى » .

* * *

ولقد كان للحربين الماضيتين أثرهما فى نفس الشاعر وفى إنتاجه الذى بلغ الذروة بقصائده التى رثى بها ضحاياها ، الذين وهبوا دماءهم لأوطانهم المحبوبة ، وقدموا أرواحهم قربانا لإنقاذها من الأعداء ، فاسمعه يقول فى رثاء ضحايا حرب سنة ١٩١٤ فى قصيدة سماها (إلى الضحايا) وهى قصيدة نقشت على أكثر النصب التذكارية فى مختلف أنحاء الإمبراطورية وحفظها الكثيرون . وانتشرت بين الشعب البريطانى انتشاراً كبيراً ، وذلك لما تمتاز به من سمو التفكير وسلامة الأداء وقوة التعبير ، كما أنها تعد من القصائد التى تملكت عواطف الشعب الإنجليزى واستثارت كوامن شعوره ، لأنها تعبر تعبيراً قوياً فى ألفاظ تثير انفعال الناس وآلامهم على ذلك الدم الراق فى سبيل الأطماع الشادية ، وقل أن تجد قصيدة استدرت دموع الشعب الإنجليزى المعروف عنه جمود العاطفة وعزة الدمع ، كما استطاعت هذه القصيدة . لقد استدرت من المآقى الدموع ، ولكنها دموع ممزوجة بالعظمة والفخار . فيقول :

« ها هى الطبول تدق فى أسى ولوعة ، والموسيقى تصدح فى حزن وألم ، والموت فى جلاله الملكى يبث ألحان اللوعة فى أجواء الخلود .

« وإنجلترا تبكى ضحاياها بكاء يشوبه الألم والحزن ويمازجه التباهى والفخار ، لقد كان أولئك الضحايا أولادها وفلذة كبدها وقبس روحها ، الذين سقطوا صرعى فى سبيل الحرية . إن دموعها لمعة المجد وفتنة العظمة .

« إن بين جوانحنا أملا عظيما وثقة بالغة عميقة ، كمين الماء المخفية عن الأنظار ، فى أن هؤلاء الأبطال باقون فى سويداء قلب أمهم إلى الأبد ، كما تبقى النجوم فى أحشاء الليل .

« إنهم سيبقون إلى الأبد كما تبقى تلك النجوم تتألق نوراً فى قبة السماء ، تلك النجوم التى ستظل تتألق وتدور فى أفلاكها ، فى حين نكون نحن قد صرنا ترابا وعدنا إلى ظلام الرمس » .

يالها من مرثية عظيمة وكلمات باسلة ! حقيق بها كل شعب عرف كيف يرد عن وطنه كيد الكائدين ، فظفر بالخلود وغناء الذكر على الزمن . وقد قدر للشاعر الذى بكى ضحايا الحرب الكبرى ذلك البكاء الحار ورثاهم الرثاء الخالد ورفعهم إلى أسمى الدرجات ، أن يعيش ليشهد البربرية المتوحشة تجتاح العالم وتهدده بالفناء فى الحرب العالمية الثانية ، فلم يملك نفسه من البكاء على الحضارة المنهارة والعالم الذى انتزعت منه الرحمة والشفقة . ففاض يراعه بقطع أخر تمثل فيها سمو العاطفة ورقة الإحساس ، فيقول :

« أيها النور الذى يفيض علينا الحياة ويهبنا الحركة والقوة ، ليخترق شعاعك حجب القلوب وظلام الأرواح ، ونحن جميعاً كأننا حى واحد .

املأ شغاف قلوبنا بنورك وقوتك ، امنحنا القوة والثبات فى الوقفة الفاصلة ، موقفة الروح » .

* * *

وفوق ذلك فإن بنيون يعتبر حجة فى الرسم الشرقى وخاصة المصغر منه ، الذى نبغ فيه الفرس ، فقد ألف فى ذلك عدة كتب تعتبر ذات قيمة نادرة فى هذا الفن ، كما كتب الكثير من المقالات والفصول الطريفة الخاصة بهذا الموضوع ، ومن يرى كتابه (أشعار النظامى) يدرك المدى الذى وصل إليه بنيون فى هذا الفن ، فالكتاب محلى بصور كاملة الحجم ملونة أبدع تلوين ، وقد جاءت معبرة أقوى تعبير وأدقه لعصر النظامى الذى يعد العصر الذهبى للرسم الفارسى الجميل ، وقد أسند إلى بنيون منصب الإشراف على القسم الخاص بالمجموعة الممتازة من الرسم الشرقى فى المتحف البريطانى ، مما أتاح له فرصة ذهبية لدراسة دقائق هذا الفن من مختلف وجوهه ، ولم يترك بنيون هذه الفرصة الطيبة ، بل استغلها أطيب استغلال وأحسنه ، وأخذ ينشر على العالم دقائق هذا الفن فى تفسيرات بارعة بهرت أنظار العالم الغربى الذى كان يجحد فضل الشرق فى هذا الفن الجميل والتى جعلت عشاق الفن الشرقى وأبناءه ينظرون إلى بنيون نظرة تقدير وإجلال .

(أسيوط) عبد الرحيم عبد الحافظ

في دوائر الأدب والفن

مناظرة أدبيـــة ـ السـراب

للأستاذ غائب طعمة فرمان

مناظرة أدبية :

نظمت الأسرة الأدبية فى كلية الآداب مناظرة عنوانها (يجب أن يستلهم الأدب العربى الحديث الأدب الغربى أكثر مما يستلهم الأدب العربى القـديم) ، وقد أيد هذا الرأى الدكتور محمد القصاص ، والأستاذان عبـد الرحمن الجبسى وغايث لطف الله ، والآنسـة كلبوبارة خليل ، وعارضـه الأساتذة : عمر السوق ، وحامد حفنى داود ، ومحمود مكى ، والآنسة بشرى جنينه .

وقد بدأت المناظرة بمقدمة للدكتور عبد اللطيف حمزة أشاد بجهود الأسرة الأدبية وعملها الموفق فى مضمار التعاون الأدبى ، ثم أعطيت الـكلمة للآنسة المعارضة كلبوبارة خليل فقالت : إن الأدب العربى وليد ظروف معينة ، وطبيعة معروفة ، وحته بيئات من الخشونة والغلظة والجفاء ، وكان العرب لطبيعة بيئتهم ، وطابع حياتهم بدائيين فى الإحساس والتفكير ، ماديين فى النظر إلى الأشياء ، فى حين أن لنا عالمنا الخاص ، وبيئتنا المميزة ، وشعورنا المختلف عن شعورهم ، وإحساسنا المغاير لإحساسهم .. فاستلهام الأدب العربى القديم مفسدة لنا ، وجناية على ذوقنا .

وتلتها الآنسة بشرى جنينه وكانت خطيبة حقاً ، وذات صوت موسيقى عذب ! فأشارت إلى أن دعاة الأدب الحديث يتهموننا بالرجعية والتقليد ، فى حين أن الأدب تعبير انطلق عن الجمال ، فهو مسـألة شعورية خالصة لا تختلف جيلاً عن جيل ، وأدبنا العربى القـديم يعبر عن عواطف الإنسان ومشاعره ببساطة ويسر ، وقد عرف المدارس الأدبية التى نراها فى الأدب الغربى ، فكانت الرمزية ممثلة فى أدب الصوفية ، والرومانسية شائعة عند الشعراء الغزليين .. ثم إن مزاجنا الأدبى لا يكوّنه جيل من الأجيال ، بل هو وليد قرون كثيرة يتصل بعوامل الوراثة والبيئة ، فمن الجناية على مزاجنا أن تقطع سلسلته ، ونبتر حاضرنا من ماضينا .. ثم أشارت الآنسة الفاضلة إلى القرآن الـكريم وصلته بالأدب العربى ، وتأثيره فى الأجيال الناشئة ، وقالت : إن القرآن استمد صوره وأساليبه من صور العرب وأساليبهم ، وليس هناك منكر لإعجاز القرآن ، وجاحد لبلاغته .. فلماذا لا نؤمن بأدبنا العربى ولا نستلهمه !!.

وتكلم الأستاذ غايث المؤيد للرأى فقال : فيم الجدل والأدب العربى الحديث قد استلهم الأدب الغربى أكثر مما استلهم الأدب العربى القديم الذى أصبح لا يمثل ذوقنا ، ولا يعبر عن إحساسنا ..

وخطب بعد ذلك الأستاذ محمد مكى خطبة منبرية جاحظية الأسـلوب ، مقفعية التفكير ، ورمى دعاة الأدب الجديد بالخروج على كل عرف ، والسخرية بكل نظام .. وقال : إن لأدبنا جوهراً وطبيعة تغاير طبيعة الأدب الغربى ، لأن أدبنا وليد الشمس المشرقة ، والسماء الصافية ، فى حين أن الأدب الغربى يمثل الطبيعة الغربية الصاخبة القاتمة .

وبعد ذلك تكلم الأستاذ عبد الرحمن الجبسى فقال : إن عنوان المناظرة يجب أن يتبـدل ! فالأدب لا يستلهم أدباً ، بل يستلهم الواقع ! والأجدر بنا أن نقول (يجب أن نطعم الأدب العربى الحديث بالأدب الغربى) .. ثم كلمة (الأدب العربى) كلمة فضفاضة ، فالواقع أن لـكل بلد عربى أدبه الخاص ! فمصر أدبها ! والعراق أدبه ، ولسوريا والحجاز أدبهما .. ونحن يجب أن نؤمن بالبيئة التى تؤثر فى الأدب وتوجهه .. والتطور سنة الحياة ، والتطور الأدبى كما نعرفه من التاريخ كان نتيجة لالتقاء ثقافتين ! فالأدب

الروماني لم ينضج إلا بعد التقائه بالأدب اليوناني ، والأدب العربي لم يرتفع إلا حين امتزج بثقافة الفرس واليونان .. والأدب العربي الحديث محتاج إلى أن يلتقي بثقافات أخرى ، ويتأثر بآداب الأمم الحية لكي يبلغ مبلغاً رفيعاً من الكمال والجودة .

ثم قال : يجدر بنا أن نطعم الأدب العربي بالأسلوب الغربي ، فاستعمال الأسلوب العربي القديم للتعبير عن مشاعرنا عقيم غير وافٍ بمقصودنا ، ولا ملائم لبيئتنا ومزاجنا .

وتلاه الأستاذ المعارض حامد حفني دواد ، فدار حول محور الحماسة في خطبته ، وارتفعت يداه وصوته أكثر من (اللزوم) ثم قال : عندنا في الأدب العربي أحسن من أدب (تولوستوي) وشعر (زوردث) ، مخطئاً رأس (تولستوي) مكسراً ضلع (وردزورث) !!!

ثم عاب الدكتور محمد القصاص بخطبة منبرية الذين ألقوا خطباً منبرية ، ثم قال : إن مفهوم الأدب في الغرب أكثر صدقاً وأقرب إلى الحقيقة من مفهوم العرب له ، فالأدب عندهم أدب حياة ورسالة ، لا أدب شعوذة لفظية أو عقلية .. ومالنا نبتعد عن الواقع ونحن مطالبون بأن نحيا في عالمنا الحاضر ، ونلم بثقافة أهله ، ونخاطبهم بلغتهم وأساليبهم .

وختم المناظرة الأستاذ عمر دسوقي قائلاً بحماسة فائقة : إن إخواننا يقولون إن العرب أمة بدائية ، فليتنا كنا مثلهم (!!!) والغرب اليوم في ماديته الجشعة ، واضطرابه في أمور الحياة أكثر بدائية !!! ، وعلى ذلك فأدبهم أدب انحلال وتفسخ وأنا أربأ بالشباب العربي أن ينزل إلى هذه المركة (هات واحد ميه) وينحط في خلقه وأدبه هذا الانحطاط .

وانتهت المناظرة بعد خطبة تشابكت فيها ألفاظ قس ابن ساعدة ، وتضاربت تعابير الجاحظ ! وبعد .. فلي رأي في مثل هذه المناظرة ، وهو أنها عبث وتزجية وقت .. وإلا فكيف يستلهم الأدب العربي الحديث الأدب العربي القديم أو الأدب الغربي ؟! أيستلهم أسلوبه ، أم يستلهم أفكاره ومشاعره ؟ أم يستلهم نظرته للحياة وذوقه الخاص ؟! لا هذا ولا ذاك ؟ فالأدب العربي يجب أن يستلهم الواقع ، ويعيش في حاضره فلكل عصر أدبه الخاص وموضوعه المحدد .. يخيل إليّ أن الإخوان لا يفرقون بين قراءة الأدب وتذوقه وبين إنشائه وخلقه .. فنحن لا نفرق حين نقرأ ونستمتع بين أدب عربي وأدب غربي إلا في مقدار الجودة ، ومبلغ الإجادة .. أما حين ننشئ فإن الحقيقة أننا كما قال الأستاذ الحبيبي نستلهم الواقع ، ونعبر عن بيئتنا ومشاعرنا بأسلوبنا الخاص ، فالواجب أن يكون لنا أسلوب عصري تحتمه ظروفنا وحاجتنا إلى الإبانة ، لا هو غربي ولا عربي قديم .. وواقعنا غير واقع أجدادنا ، ومن الواقع نستمد أفكارنا ، وتكون آراءنا وتتبلور عواطفنا .. فمن الجناية أن نستلهم أدباً من الآداب السالفة !

السراب :

من الظواهر الأدبية في أدبنا المعاصر أن القصة القصيرة تكاد تكون أكثر فنون الأدب شيوعاً ، وأوسعها انتشاراً .. فقد كثر القبلون عليها ، والطالبون لها ، وجاءت الصحف السيارة تشجع الكتاب على إنشائها ، وتساعدهم على ذيوعها .. وليس هذا بالأمر المهيج ! فقد شاءت الظروف القاسية التي مرّت على الأدب العربي إبان الحرب العالمية الثانية وبعدها أن يروج لون من الأقاصيص يتصل بالحب والجنايات والفضائح وما أشبهها ، وأن تظهر إلى الوجود مجلات ترى الصورة أحق من القصة ، وأولاها بالمكان ، فأخضعت القصة للحيز ، ولتملق القراء ، ولكسب مرضاتهم .. ونجم عن ذلك أن القصة المصرية ابتعدت كثيراً عن الواقع ، وعاشت في ضباب من الأوهام ، وأصبح عنصر المغالاة — قصد التشويق — العنصر الرئيسي عند كثير من منتجي القصة ، لا يكادون يتنازلون عنه إلى عنصر ثان من العناصر الفنية الأخرى !

أما القصة الطويلة فكادت تهمل لأنها مشقة ، وجهد ضائع ، وفيها عناء كثير ، وهي بعد ذلك تحتاج إلى استيعاب الواقع ، ومقدرة على الامتزاج والتصوير ، وصبر على التتبع والمراقبة ، وما إلى ذلك من الصفات النادرة في عصرنا هذا !!.

فبقاء قصصي ماهر يخلص لمبدئه ويحرص على فنه ، ويمضي في طريقه التي رسمها له أمر غريب بالغ الغرابة .. والأستاذ نجيب محفوظ يمثل هذه الغرابة ! فقد سار على طريقة واقعية فنية في كتابة القصة الطويلة ، ولم تستطع تلك

الأنوار الباهرة فى الصحافة أن تخرجه من طريقته . وآخر إنتاج له هو قصته الطويلة الرائعة (السراب) .

والسراب قصة شاب فى بيئة مزعزعة الأركان ، وفى عائلة تركها عائلها إلى الخمر والعبث الطويل .. ففتح الشاب عينيه على منظر محزن .. والد سكير لا يعرف أولاده ، وأم مهجورة حائرة لا تستطيع تدبير أمورها .. فنشأ الشاب خجولاً مفرطاً فى الخجل ، مرهق الأعصاب ، مشلول القوة .

.. والقصة بعد ذلك تصور لحياة ذلك الشاب الخجول ، وانجرافه مع تيار اللذة ومعاقرته للخمر وإدمانه شربها ... ثم عرض جميل رائع لتلك النفسية الهشة المصابة بالضعف الجنسى .. وهناك مواقف مسرفة فى الواقعية ، أمينة على الحقيقة ، صريحة فى إظهار كل شىء !!.

والقصة لا أستطيع تلخيصها ، فذلك تحطيم للعمل الفنى ، ورسم صورة مشوهة له .. ولكننى أنفذ إلى بعض المآخذ فيها :

يعترف بطل القصة فى أولها بقوله : « إنى أعجب لما يدعونى للقلم ، فالكتابة فن لم أعرفه لا بالهواية ولا بالمهنة ، ويمكن القول بأنه فيما عدا الواجبات المدرسية على عهد صباى ، والأعمال المكتبية المتعلقة بوظيفتى ، فإنى لم أكتب شيئاً على الإطلاق » فهو يعترف بعجزه عن الكتابة والتعبير ؛ فما رأيك فى هذا الرجل الجاهل وهو يتفلسف فى الموت والحياة وغير ذلك من الأمور ؟ لا شك فى أن ذلك تعسف وخروج على نفسية الرجل .. وفى مواضع كثيرة من القصة ، يطالعنا تحليل نفسى موفق ، وإدراك صحيح للأمور ، وفلسفة اجتماعية .. كل ذلك يجرى على لسان البطل الجاهل .

والحق أن الأستاذ نجيب محفوظ قد وفق توفيقاً عظيماً فى رسم ذلك الجو المضطرب ، وتصوير شخصيات القصة ؛ فأم الشاب صورت فى غاية من الإبداع ، فى حين أن زوجة الشاب لم تظهر فى القصة إلا باهتة اللون كأنها تعيش على الهامش .. مصابة بشىء من البرود العاطفى ، أو هكذا خيل إلىّ وأنا أقرأ القصة .. وإلا فما ظنك بامرأة يعرفها الناس بأنها متزوجة ولكن زوجها لا يعاملها معاملة الأزواج ، وبعد ذلك لا تحس أن فى الأمر تعسفاً عاطفياً ، وكبتاً مريراً .. بل هى باردة برود الدمية !! كنت أود أن يصور الأستاذ هذه النفسية بصراحة وانطلاق ، ويفصح شيئاً عن بواعثها النفسية ، وهواجسها العاطفية .

وبقى مأخذ آخر .. وهو نهاية القصة ، فقد جاء بارداً بوليسياً ، فى حين أن القارئ كان يتشوق إلى نهاية أكثر حرارة وصدقاً ، وواقعية .. فتموت الزوجة فى حادثة إجهاض غامضة فيها كثير من الافتعال والبرود !.

وثمة شىء آخر .. وهو نظرة المؤلف إلى الحياة ، تلك النظرة التى لا تتغير فى قصصه جميعها .. فالأسرة فى قصصه دائماً فى انحلال ، والرابطة الزوجية رابطة ضعيفة لا تثبت على الواقع ، ولا تستمر أمداً طويلاً .. بل هى رابطة مفككة فى أغلب الأحيان .

ليت شعرى .. أيؤمن المؤلف بهذا الرأى ؟!.

غائب طعمة فرمان



أحمد أمين من « حيـــاته »

للأستاذ محمود محمود

كنا طلبة بالمعلمين العليا عندما سمعنا بأحمد أمين وطه حسين وهيكل والعقاد والمازني وغير هؤلاء ممن يمثلون النهضة الأدبية الحديثة في مصر ، وكنا نقرأ لهم كل ما يكتبون ، وندرسه دراسة إمعان وتمحيص ، ونهتم بأدبهم مثلما نهتم بما يلقى علينا من محاضرات ، ونناقش آراءهم في حماسة شديدة ، تسهر علينا أحياناً إلى ما بعد منتصف الليل . والآن بعد ما انقضى على هذا العهد ما يقرب من ربع قرن ، أعود بذاكرتي إلى هذا الماضي البعيد من حياتي ، وعلى شفتي ابتسامة السخرية من حماسة الشباب التي تغالي وتغرق في المغالاة في وزن الأمور وتقديرها . غير أني — برغم ذلك — لا أنكر أن تلك الحماسة البالغة ، وذلك التشيع لهذا الأديب أو ذاك ، هو الذي حبب إلينا المطالعة والنقد ، وجعلنا نهتم بالأدب وشئون الثقافة العامة ، كما نهتم بالتربية والتعليم .

وكنا نحاول أن نلتقي بهؤلاء الرجال ونتعرف إليهم ، ونبادلهم الحديث ، ونناقشهم الرأي ، ولكنا جماعة الصفت فيما اتصفت به بالانطواء على أنفسنا ، وحب العزلة والبعد عن الناس ، والاكتفاء بزمرتنا تجتمع في بيت أحدنا تارة ، وفي المقهى تارة أخرى ، واستمررنا على ذلك حتى اليوم مع تحوير طفيف اقتضته ظروف الحياة ومرور الأيام ؛ فهذا عضو ينخلع عنا ، وذاك آخر ينضم إلينا ، ولكن طابعنا هو هو لم يكد يتغير إلا قليلاً .

ولكني استطعت — مع ذلك — أن أتعرف إلى أحمد أمين ، وأن أستمع إليه وهو يتحدث في لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فوجدت رجلاً أن تسمعه خير من أن تسمع به ، على خلاف كثير من الرجال .

مهيب الطلعة ، وقور الحديث ، يترفع عن السفاسف ، صريح جريء ، قوي الحجة ، واضح الفكر ، واسع الثقافة ، ثائر في هدوء ، بناء عظيم ، كما قال عنه الأستاذ محمود تيمور بك في مقالة عنه في هذه المجلة في العدد ٥٩٠ ، أو هو كما يصف نفسه بقلمه في كتابه في صفحة ٣٣٠ :

« حيي خجول يغشى المجلس فيتعثر في مشيته ، ويضطرب في حركته ، ويصادف أول مقعد فيرمي بنفسه فيه ، ويجلس وقد لف الحياء رأسه ، وغض الخجل طرفه ، وتقدم له القهوة فترتعش يده ، وترتجف أعصابه ، وقد يداري ذلك فيتظاهر أن ليس له فيها رغبة ولا به إليها حاجة ، وقد يشعل لفافته فيحمله خجله أن ينفضها كل حين ، وهي لا تحترق بهذا القدر كل حين ! وقد يهرب من هذا كله فيتحدث إلى جليسه لينسى نفسه وخجله ، ولكن سرعان ما تعاوده الفكرة فيعاوده الهرب ، حتى يحين موعد الانصراف ، فيخرج كما دخل ، ويتنفس الصعداء بعد أن أدركه الإعياء ... يحب العزلة لا كرهاً للناس ، ولكن هروباً بنفسه .

« ثم هو مع هذا جريء إلى حد الوقاحة ، يخطب فلا يهاب ، ويتكلم في مسألة علمية فلا ينضب ماؤه ، ولا يندى جبينه ، ويعرض عليه الأمر في جمع حافل فيدلي برأيه في غير هيبة ولا وجل ... ويرسل نفسه على سجيتها فلا يتحفظ ولا يتحرز .

وهو طموح قنوع ، تائه خامل ، تنزع نفسه إلى أسمى المراتب فيوفر على ذلك همه ، ويجمع له نفسه ، ويتحمل فيه أشق العناء ، وأكبر البلاء . وبينا هو في جده وكده ،

وحزمه وعزمه ، إذ طاف به طائف من التصوف ، فاحتقر الدنيا وشئونها ، والنعيم والبؤس ، والشقاء والهناء ، فهزئ به وسخر منه ، واستوطأ مهاد الخمول ورضى من زمانه بما قسم له ...

« وأغرب ما فيه أنه متكبر يتجاوز قدره ، ويعدو طوره ، ومتواضع يخفض جناحه وتضاءل نفسه ، يتكبر حين يصغر الكبراء ، ويتصاغر حين يكبر الصغراء . يتيه على العظماء ، ويجلس إلى الفقراء يؤاكلهم ويستذل لهم ، لا تلين قناته لكبير ، ويخزم أنفه الصغير .

« يحب الناس جملة ويكرههم جملة ، يدعوه الحب أن يندمج فيهم ، ويدعوه الكره أن يفر منهم ، حار فى أمره ، وامتزج حبه بكرهه ، فاستهان بهم فى غير احتقار ...

« ورأسه كأنه مخزن مهوّش أو دكان مبعثر ، وضع فيه الثوب الخلق بجانب الحجر الكريم . يتلاقى فيه مذهب أهل السنة بمذهب أهل النشوء والارتقاء ، ومذهب الجبر بمذهب الاختيار ، وتجتمع فى مكتبته كتب خطية قديمة فى موضوعات قديمة ، قد أكلتها الأرضة ونسج الزمان عليها خيوطاً ، وأحدث الكتب الأوربية فكراً وطبعاً وتجليداً . ولكل من هذين ظل فى عقله وأثر فى رأسه ... »

ثم يزيد على ذلك أنه غضوب حليم ، حمّال للهموم ، شديد الحساسية ، شديد الخوف على سمعته الخلقية ، قليل الثقة بنفسه وبما يصدر عنه ، محب للنظام والهدوء . يحب العزلة ولا يميل إلى الاجتماع كثيراً ، له نزعة صوفية غامضة ، ومزاجه فلسفى أكثر منه أدبيًّا .

فى كتابه عن نفسه (حياتى) يعرض لك كل هذا فى تفصيل وتحليل ، وفى أسلوب سهل جذاب . والكتاب قصة واقعية لرجل من رجال هذا الجيل يروى لنا حياته ، كما يصف الأحداث العامة التى وقعت خلالها ، فيكون سجلاً تاريخياً قيماً لنصف قرن من الزمان ملئ بصنوف من التطور والارتقاء .

وكم كنا نحب لو أسهب الكاتب فى قص حكايته فعرض حياته مفصلة أكثر مما فعل ، لا يخفى منها شيئاً خجلاً أو تواضعاً ، فهو عظيم فى نفسه ، تمر به الحادثة الصغيرة فتكبر به ولا يصغر بها .

وكم كنا نحب كذلك أن يذكر فى كتابه الحق كل الحق ، وقد علمنا أن الصدق أهم صفات الأديب . وليس من الصدق أن يذكر شيئاً ويسكت عن شيء ، ولا تكون الصورة إلا بتمامها . غير أن الأستاذ يرى أن من الحق ما يرذل قوله وتنبو الأذن عن سماعه ، وإذا كنا لا نستسيغ تعرى كل الجسم فكيف نستسيغ عرى كل النفس ؟ ولست أوافقه فى ذلك ؛ فالفنان لا يصور جمال الجسم إلا عرياناً كله ، وفى تعرية النفس زيادة فى التحليل والتعليل .

وكان من أثر تشبع الأستاذ بهذه الفكرة أن وصف لنا كثيراً من رحلاته ، ومما شاهده ومر بحياته ، دون أن يفصل فى انفعاله بما يرى ، وتأثره بما يشاهد ، فكان فى كثير من مواضع الكتاب إلى العالم أقرب منه إلى الأديب ، يحاول أن يخفى عنا نفسه ونحن فى أحر الشوق إلى معرفة ما فى نفسه . يتحجب حين نتوق إلى السفور ، ويذكر أشخاصاً لا يسميهم ، وإن كنت كثيراً ما عرفت من عنى .

قرأت الكتاب ذات مساء ولم ألقه من يدى حتى فرغت منه من الغلاف إلى الغلاف ، فهو مشوق ممتع إلى حد بعيد . ثم طرحته وأغمضت عينى ، وسألت نفسى : ما أهم ما يميز هذا الرجل ؟ فرأيت أنه المزاوجة بين الثقافة العربية والثقافة الغربية ، وكأن عقله بوتقة ينصهر فيها ما يقرأ فيخرج مادة جديدة ، لا هى إلى هذا ولا إلى ذاك . فلا أثر للتقليد فيما يكتب . نسيج وحده ، له طريقته الخاصة فى العرض والتحليل ، وفى هذا تتمثل فيه ميزة من أهم مزايا الأديب ، وهى الخلق والابتكار .

عجيب هذا الرجل فى إفادته مما يقرأ وما يمر به من حوادث وما يشاهد من مناظر . يقرأ الكتاب فيخرج منه بأدق المعانى والعبر ، ويقوم بالرحلة القصيرة فى الشرق أو فى الغرب ، ويعود منها وقد اختزن فى نفسه ما لم يختزنه من أقام هناك عدة سنوات . وهو فى كل ما يطالع أو يشاهد لا يفقد شخصيته ، وإنما تبقى بارزة كقمة الجبل . لا تبهره المدنية الغربية فينسى عروبته وشرقيته ، ولا ينساق فى العروبة أو التحيز للشرق إلى حد الجمود والوقوف فى وجه كل جديد .

وهذا التفرد فى شخصية أحمد أمين درس ينبغى أن يأخذه عنه شباب هذا الجيل . لا يتحمس إلى حد التهور لرأى يراه غيره . ولا تبهره الأسماء العريضة فى الآداب الشرقية أو الغربية . وقد عاونته على هذا التوسط فى الأمور التربية التى تلقاها والحياة التى حييها ، فقد تعلم فى المدارس الدينية وفى الأزهر ، وكان لمدرسة القضاء الشرعى أكبر الأثر فى تكوين شخصيته ، وهى مدرسة أخذت بطرف من

القديم وطرف من الجديد ، وناظرها عاطف بركات نفسه رجل جمع بين التعليم العربي والتعليم الغربي . واشتغل أحمد أمين أستاذاً في مدرسة القضاء الشرعي وأستاذاً في كلية الآداب ، فاختلط بشيوخ الأزهر وعلماء الفرنجة ، وأفاد من هؤلاء ومن هؤلاء ، وأخذ منهم خير ما لديهم .

ورغم ثقافته الأزهرية لم يتعصب للأزهر كما يفعل أكثر الأزهريين ، بل لعل في نفسه ثورة ضده ، حتى قد آثر أن يخلع العمامة ويستبدل بها الطربوش : « ومما آلمني أني أحسست العمامة تقيدني فلا أستطيع أن أجرى كما يجرى الأطفال ، ولا أمرح كما يمرح الفتيان ، فشخت قبل الأوان ، والطفل إذا تشايخ كالشيخ إذا تصابى ، كلا المنظرين ثقيل بغيض ، كمن يضحك في مأتم أو يبكى في عرس . » (ص ٥٠) . وفي صفحة ٢١٢ من الكتاب يقول : « وقالت لي سيدة انجليزية زوج صديق لي : إني كنت أفضل لبسك العمامة . فقلت لها : لك الحق ، وإنما تفضلين العمامة على النمط الذي تفضلين به الطرف القديمة في خان الخليلي على مخازن البيع في شارع فؤاد . وعلى كل حال كنت بذلك أكثر اندماجاً في الوسط الجامعي وأشد انسجاماً » .

والطربوش والعمامة والقبعة (أو عرى الرأس) عندى رموز لثقافات متباينة ، وقد اختار منها أحمد أمين الطربوش .

وتتميز حياة الرجل كذلك بالكفاح المستمر ، الذي يكلل بالنجاح دائماً ، لا لمجرد التوفيق ، ولكن لبعد النظر وحسن التدبير وإحكام الخطة ، والدأب والاجتهاد . ولعل كفاحه في تعلم الإنجليزية والإفادة منها مثل طيب لما أقول . وكان يمكن لأحمد أمين — لولا اجتهاده — ألا يزيد عن معلم في إحدى المدارس الأهلية ، وكان يمكن أن يكون إبان دراسته في الأزهر — كما يقول — إماماً في مسجد ، وكان يجوز أن يكون قاضياً شرعياً لا يعلو على رئيس محكمة شرعية أو قريباً من ذلك . ولكن أحمد أمين أصبح بكفاحه وجلاده عميداً لكلية الآداب ، وأديباً علماً من أعلام هذا الجيل ، ورجلاً من رجال العصر يشار إليه بالبنان .

ونبتت عنده نزعة الكتابة والمحاضرة منذ أيام الطلب ، فاتصل بجريدة المؤيد وبجريدة السفور ، وبالأندية الأدبية ، وبيت مصطفى عبد الرازق ، وظل كذلك ينمى هذه النزعة في نفسه ، حتى أصبح رئيساً للجنة التأليف والترجمة والنشر ، وأخرج من الكتب والمقالات ما تفخر به المكتبة العربية .

وكنا نحب أن يفيض في حديثه عن لجنة التأليف . غير أنه لم يشر إليها إلا لماماً ، لميله الشديد إلى الإيجاز كما ذكرت .

ويقول أحمد أمين في مستهل كتابه : « ما أنا إلا نتيجة حتمية لكل ما مر علي وعلى آبائي من أحداث » . وهو بذلك يشير إلى أن الرجل أثر من آثار البيئة والوراثة على السواء . وهو موضوع مفصل في كتب علم النفس . وتعتبر حياة أحمد أمين مثالاً قوياً لأثر البيئة ، ليس للوراثة أثر بين في سيرته . البيت والحارة والكتاب والمدرسة الابتدائية والأزهر ومدرسة القضاء الشرعي ، والرجال الذين التقى بهم ، والأعمال التي مارسها ، كل ذلك واضح فيما يكتب وما يحدثنا به ، وأثره بين في سلوكه وحياته . رجل يؤمن بألاعيب القدر ، متدين متزمت ، لا يضحك ولا يمزح إلا قليلاً .

« في سنة ١٩٤٨ قرر مجلس كلية الآداب ومجلس جامعة فؤاد الأول منحى الدكتوراه الفخرية فلقبت : الدكتور أحمد أمين ، ومنحت جائزة فؤاد الأول ، وهي جائزة تمنح لمن ينتج أحسن عمل أو إنتاج في الآداب والعلوم والقانون ... وكان من الطبيعي أن أبتهج بهاتين المنحتين العظيمتين اللتين منحتا لي في يوم واحد تتويجاً لجهودى في الجامعة وجهودى في الإنتاج الأدبي ، ولكن جاءت عقب العملية الجراحية في عيني وما أصابني من ذلك في نفسي ، فلم يهتز لها قلبي كما ينبغي ولا ابتهجت لها نفسي كما يجب ! يضاف إلى ذلك حالتي النفسية وهي أن تستجيب لداعي الحزن ، ولو صغيراً ، ولا تستجيب لداعي السرور ، ولو كبيراً ، إلا بقدر » . (صفحة ٣٢٩) .

وفي ص ١٨ من الكتاب يقول : « فإن رأيت في إفراطاً في جانب الجد وتفريطاً معيباً في جانب المرح ، أو رأيت صبراً على العمل وجلداً في تحمل المشقات ، واستجابة لعوامل الحزن أكثر من الاستجابة لعوامل السرور ، فاعلم أن ذلك كله صدى لتعاليم البيت ومبادئه . وإن رأيت ديناً يسكن في أعماق قلبي ، وإيماناً بالله لا تزلزله الفلسفة ولا تشكك فيه مطالعاتي في كتب الملحدين ، أو رأيتني أكثر من ذكر الموت وأخافه ، ولا أتطلع إلى ما يعده الناس مجداً ولا أحاول شهرة ، وأذكر في أسعد الأوقات وأبهجها أن كل ذلك عرض زائل ، أو رأيت

أحمـــــد أمين

في كتاب « حياتي »

للدكتور شوقي ضيف

كنا نعرف أستاذنا الجليل أحمد أمين بك ، في فجر الإسلام ، وضحى الإسلام ، وقصة الفلسفة ، وقصة الأدب في العالم . نعرفه باحثاً محققاً من طراز فريد ، أحب العلم والدرس وشغف بهما ، وجعلهما همه ووكده ، وكل ماله من مُتعة في دنياه . أما أحمد أمين الشخص ، وكيف نشأ وتطوّر ، حتى انتهى إلى فجر الإسلام ، فهذا ما لا يعرفه تلاميذه ، وقلما عرفه أصدقاؤه .

وما هي إلا أن ثبتت عنده فكرة تاريخ حياته ، فإذا هو يمسك بالقلم والقرطاس ، يريد أن يسجلها ويعرضها ، فإذا هذا الكتاب الجديد « حياتي » يقص فيه سيرته ، غير محتال على هذا القصص بشيء من الخيال ، إنما هو الواقع يحاول أن يرسمه ، وكأنه يؤرخ حياة ، فهو إلى ذوق المؤرخين في هذا الكتاب أقرب منه إلى ذوق الأدباء ، ولعل ذلك ما جعله ينحدر من تاريخ نفسه إلى تاريخ عصره .

هي حياة أحمد أمين وعصره ، وقد بدأ المؤلف هذه الحياة منذ تباشيرها الأولى إلى أن أصبح من كبار المفكرين في هذا الجيل ، وهو يطوف بك في الكتّاب ودور الدرس الأولى التي التحق بها ، كما يطوف بك في أروقة الأزهر وقاعات مدرسة القضاء الشرعي ، ويعطيك صورة من نفسه ونفسية مَنْ حوله منذ أن كان معلماً في مدرسة راتب باشا بالأسكندرية إلى أن أصبح أستاذاً في الجامعة .

وأثناء ذلك يعرض عليك بيته الذي نشأ فيه ، وما عمل في تربيته من عوامل ، كما يعرض عليك حلقات الأدب المختلفة التي كان يمضي فيها بعض وقته . ومن حين إلى حين تُطلّ علينا مصر ، وهي تتطور في جانب من جوانب حياتها السياسية أو الاجتماعية ، كجانب الحركة الوطنية أو جانب السفور .

وكتاب « حياتي » من هذه الناحية ، له قيمة تاريخية طريفة ، لأنه يصور لنا كثيراً من حقائق عصر الكاتب ، وقد أظهر حقاً أنه كاتب نفسي يكشف كثيراً من دخائل النفوس ، نفوس الأمة في طبقاتها المختلفة من متعلمين وغير متعلمين .

بساطتي في العيش وعدم احتفالي بمأكل أو مشرب أو ملبس ، وبساطتي في حديثي وإملائي ، وبساطتي في أسلوبي وعدم تعمدي الزينة والزخرف فيه ، وكراهيتي الشديدة لكل تكلف وتصنع في أساليب الحياة ، فرجعه إلى تعاليم أبي وما شاهدته في بيتي » .

ويقول أحمد أمين عن نفسه إن حياته الأولى أماتت فيه الذوق . وإني لأعجب من هذا القول ، لأني أرى في أدبه ذوقاً فنياً رفيعاً ، طبيعياً غير متكلف . ولعل مرد ذلك إلى ثقافته الغربية التي ثقف بها إلى جانب ثقافته العربية .

وقد كان أحمد أمين في شبابه إبان الحركة الوطنية المصرية ، غير أنه لم يستطع أن يظهر في السياسة ظهور غيره لأن « أبي علمني الإفراط في التفكير في العواقب ، ومن فكر في العواقب لم يتشجع . والسبب الثاني أن مزاجي علمي لا سياسي » .

وحياة الرجل حافلة بالإنتاج الأدبي والعلمي . كتب ومقالات وإذاعة ، وأستاذية ، وإشراف على جمعيات علمية ، ونشاط أدبي لم يفتر حتى بعد الستين . ولم يقعده مرض السكر وضعف البصر عن وفرة الإنتاج . بل لعل ما حدث له من انفصال شبكية العين كان من أكبر البواعث له على عمق التفكير ، ومن أروع ما قرأت له في كتابه (حياتي) أحاسيسه عندما دخل المستشفى لإجراء عملية في عينه .

يقول ألفرد آدلر العالم النفساني : إن الرجل يعتبر ناجحاً في حياته لو وفق في ثلاثة أمور : أسرته وعمله وأصدقائه . وبهذا القياس يعد أحمد أمين من الناجحين الموفقين . نرجو له من الله مزيداً من النجاح والتوفيق . ففي نجاحه وتوفيقه نفع للناس أجمعين .

• • •

أما بعد فكتاب (حياتي) من أمتع ما أخرجت المطبعة العربية في العصر الحديث . قرأته فنعمت به كثيراً ، وحفزني على مضاعفة الهمة والنشاط في حياتي .

محمود محمود

وقد قص بعض قدمائنا حياتهم ، فاختاروا غالباً سيرتهم العلمية ، ولكن أستاذنا انصرف عن هذه الطريقة ، وأكبر الظن أنه انصرف عنها لتواضعه ، وأكبر الظن أيضاً أن ذلك هو السبب في أنه انصرف عن صياغة الكتاب في حياته الشخصية وحدها ، فجعله شركة بينه وبين عصره ، فهو يعرض نفسه ، وكأن نفسه ليست غايته ، وإنما هي مدخل أو منفذ لحوادث عصره النفسية والاجتماعية .

إلا أن يكون قد رأى أن يدرس عصره خلال ترجمته لنفسه ، وكأنه يريد أن يطبق طريقة مؤرخي الأدب على من يدرسونهم من الشعراء والأدباء ، إذ يقفون عند عصورهم يدرسونها ، ويربطون بينها وبين الأديب ، أو الشاعر الذي يُعنون به ، وكأنما طريقته التي تعوّدها في البحث والدرس لحياة العقلية والأدبية عند العرب جارت على قصته ، أو قل طبعتها بطوابعها ، ووسمتها بهذه السمة من الربط بين الشخص والعصر ، أو قل إن علم العلّية والسببية الذي جدّ له في الأزهر والقضاء الشرعي ، ثم أكله في بحوثه ومؤلفاته ، هو الذي وجهه دون أن يشعر ، أو لعله كان شاعراً ، إلى هذا الاتجاه في التأليف عن حياته .

وهو اتجاه يقوم على الفحص في هذا الشخص «أحمد أمين» يريد الكتاب أن يرده إلى علله ، وإنه ليقول في مستهل كتابه : «ما أنا إلا نتيجة حتمية لكل ما مر عليّ وعلى آبائي من أحداث ، فالمادة لا تنعدم ، وكذلك المعاني . قد يموت الطير ، وتموت الحشرات والهوام ، ولكنها تتحلل في تراب الأرض ، فتتغذى النبات والأشجار ، وقد يتحول النبات والأشجار إلى فحم ، ويتحول الفحم إلى نار ، وتتحول النار إلى غاز ، ولكن لا شيء من ذلك ينعدم ، حتى أشعة الشمس التي تكوّن الغابات ، وتُنمّي الأشجار ، تُختزَن في الظلام ، فإذا سلّطت عليها النار تحولت إلى ضوء وحرارة ، وعادت سيرتها الأولى» .

فهو يقص علينا كل ما مر به ، وهو لا يزال في المهد صبياً ، يريد أن يضع أيدينا على كل ما كوّنه وألفه بالصورة التي تراها والنتيجة التي وصل إليها ، فإنما هو معلول لعلل أو هو مسبَّب لأسباب ، وهو يحاول أن يفسّر هذه العلل والأسباب ، وكأنه عالم كيميائي يريد أن يرد مركب أحمد أمين إلى وحداته الأولى والعوامل التي عملت في هذه الوحدات منفصلة ومجتمعة .

هي إذاً ليست قصة بالمعنى المتبادر ، وإنما هي دراسة ، كتبها مؤلف خبير بموضوعها ، يعرف كيف يحلل المركبات العقلية والشعورية ، ويردها إلى عناصرها الأولى ، وهو الآن يسلّط أشعة عقله على هذا الشخص أحمد أمين يدرسه ويطيل في الدرس ، يختبر ويمتحن ، يمتحن ما أمامه ، ثم يمتحن ما وراءه من علل خارجة عنه ، وعلل داخلة فيه ، ولكنها مستترة في مناطق اللاوعي .

وما أشق هذا الامتحان ، لأنه يضطر الفاحص إلى استعراض أسرة أحمد أمين وحياته في أسرته والأوساط المختلفة التي تقلّب فيها ، ومشاهداته التي شاهدها في مصر وغير مصر من الأقطار التي رحل إليها في الشرق الأوسط وفي أوربا . فهذه كلها ذرّات عاملة ، وهذه كلها جزئيات مكوّنة ، ولابد لعين الباحث أن تستعرضها جميعاً ، وتضع كل وحدة منها في مكانها من البحث والدراسة .

وكل ذلك يعرضه المؤلف في لباقة المحدّث الممتاز الذي يجعلك تنصت إليه لبساطة حديثه وطبيعته ، وإنك لتنطلق معه ، فلا يعوقك ما يمنعك من الانطلاق ، إذ هو يؤثر السهولة في كتابته ، لا يتعمد فيها تصنيعاً ولا تزويقاً .

وفي رأينا أن من أهم أسباب نجاح المؤلف في كتابة حياته ، هذه البساطة ، ثم ما يتصف به من الحديث الهادئ المتزن ، أو بعبارة أدق الحديث العادل إن صح أن توصف الأحاديث بالعدل ، وهو عدل يتحكم في قلم الكاتب فلا يشتط في إظهار شعور ، بل يضبط شعوره وعواطفه ، ويسيطر عليهما ، بحيث لا تُشنَّع كتابته بحماس ظاهر في عرض جانب من جوانب حياته .

العدالة والهدوء ، والاتزان والبساطة هي أهم ما يصف أسلوب هذا الكتاب ، وهو من أجلها جميعاً يُحبّب إلى نفس القارئ ، فليس فيه ما يؤذيك أثناء القراءة من الألفاظ المتكلفة والصور المتعملة أو الصاخبة ، وإنما فيه التأملات الهادئة والتبصّر المحمود والأسلوب البسيط الذي يعنيه جمال الفكرة الداخلية لا جمال الزخرف الخارجي الزائل .

شوقي ضيف

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر



يبحثـــــان عن أم

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد

[لم يشهد العالم فجائع كتلك التي شهدتها أوربا في الحرب الأخيرة . فلم تقف النكبات عند إزهاق أرواح ودك مدن ، ولكن شملت ملايين ممن فقدوا بصرهم أو سمعهم أو أيديهم أو أرجلهم ، وممن شوهت وجوههم وأجسامهم ، وممن ضلوا في البرارى والغابات — رجالاً أو نساء أو أطفالا — فماتوا جوعاً وبرداً . وما زال كثير من الضالين لم يهتد إلى أهله . وقد كانت الغارات الجوية تطن فيهرع الناس من دورهم مذعورين ، فتصدق عليهم قوله تعالى : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » . وقد أسفرت هذه الحرب عن أدب غزير وفن وفير ، ظهرا فيما سجل من روايات ومسرحيات وأفلام ورسوم وتصاوير . والقصة التالية صورة من حوادث هذه الحرب] .

كان السيد ش .. من المحاربين القدماء ، ما في ذلك من شك . فقد اشترك في الحرب العالمية الأولى ، وكان قائد فرقة . وقد سجل بطولته التي كان يفخر بها برمزين خالدين : أحدهما وسام الصليب الحديدى الذى كان يحمله على صدره في كل مناسبة وغير مناسبة ، وثانيهما ذراعه اليسرى المبتورة التي كان يتخذ من فقدانها وسيلة للتحدث عن جرأته وشجاعته . ولكن السيد ش .. لم يعد صالحاً للمساهمة في الحرب العالمية الثانية . فهو قد جاوز الخامسة والخمسين ، وهو مع ذلك مبتور الذراع ، وإن كان غير مقتنع في قرارة نفسه بوجاهة هذين السببين .

كان صاحبنا يتردد على الحانة القريبة من منزله كلما سمحت له ظروفه البائسة . إنه أب — وأم أيضاً — لتوءمين هما « كونراد » و « مالى » اللذين لم يريا أمهما ! فقد ماتت عند الوضع . وكان على السيد ش .. أن يرعاهما بقدر استطاعته ! فيقدم لهما من الطعام ما يجد ، ويدفئ لهما الغرفة الوحيدة التي كانوا يعيشون فيها . فإذا ما جاء المساء ، أنامهما وقبلهما ، ثم استرق الخطى إلى الحانة القريبة يتسمع أخبار الميدان من الجنود العابرين أو الراجعين . وكثيراً ما كان التوءمان يستيقظان ليلاً مذعورين ، وينادیان : « أماه ! أماه ! » فلا يرد عليهما أحد ، فيظلان يجلسان في بؤس حتى يعود أبوهما .



جلس السيد ش .. ذات مساء في الحانة ، وقد احتسى كأس الجعة ، ثم نظر إلى جماعة من الجنود حوله وقال : لقد أنقذت مدينة بأكملها من احتلال العدو . وها هي ذى ذراعى شاهدة بذلك . فعندما كانت جيوش الأعداء تتقدم إلى المدينة عابرة الجسر الموصل إليها ، تأثرت بعيائق ، وتسللت إلى كمين من البارود تحت الجسر فنسفته نسفا . وبذلك فشلت خطة العدو ، وتمكن جنودنا من تحصين خطوطهم .

ولم يكد السيد ش . يتم قصته حتى أعلن الإنذار بالغارة فهرول الحاضرون إلى المخابئ ، وهرول هو إلى خارج الحانة يطير راجعاً إلى المنزل ليكون بجانب التوءمين فيطمئنهما

ورعاها . ولكن النارة كانت أسرع من رجليه ، فلم يصل إلى المنزل ، ولم يعثر له أحد على أثر .

وفي صبيحة اليوم التالي رفعت أنقاض المنازل المتهدمة ، وأخرج التوملان حيين ولكن في غيبوبة ، وحملا إلى «دار الكفالة» حيث كان مصيرهما مصير الثلاث من أمثالهما هناك ..

كانت مالى الشقراء أذكى من أخيها كونراد ، وكانت دائماً ساهمة واجمة ، غارقة فى أفكار حزينة . ذهبت ذات يوم إلى أخيها وقالت : كونراد ! هل لنا أم ؟ قال كونراد : أم ؟ ما الأم ؟ قالت مالى : لست أدرى ما الأم ! إنى أسمع الأطفال يقولون «أمنا ، أمنا» . فما الأم ؟ فأجاب كونراد : وهل لنا أم كهؤلاء الأطفال ؟ وأين هى ؟ وما لونها ؟ وما طعمها ؟ وما شكلها ؟ .

لم تجد مالى رداً شافياً من أخيها ؛ فذهبت إلى إحدى المشرفات بدار الكفالة وقالت : سيدتى ! ما الأم ؟ إنى أسمع بعض الأطفال يقول «أمى ، أمى» فما الأم ؟ قالت المشرفة : ألا تعرفين الأم ؟ ألم يكن لك أم ؟ الأم هى المرأة التى تحنو على أطفالها ، وتحميهم كما تحمى عينيها . وهى المرأة التى تحرم نفسها وتطعم أطفالها الجياع ، وهى التى تحتضن أطفالها فتدفئهم بحرارة دمها وحبها ، وتقيهم قارس البرد .

انصرفت مالى عن المشرفة وهى تفكر .. «الأم هى المرأة التى ... الأم هى التى ... فأين إذاً أمنا ؟» .

كان الصيف فى أواخره حينما وجدت مالى باب الدار مفتوحا ، والحارس غائباً . فأسرعت إلى أخيها وقالت : هيا بنا نخرج الآن ولنبحث عن أمنا !

سار الطفلان فى شوارع المدينة هائمين على وجهيهما يقفان أمام المنازل والحوانيت مبهوتين ، ويتأملان وجوه المارة من النساء ، لعلهما يعرفان أمهما . وخرجا من المدينة إلى القرى المجاورة عبر الحقول والغابات . وكانا يقفان الناس فى الطرقات سائلين : أين أمنا ؟ إننا نبحث عن أم . ولكن الناس كانوا فى شغل شاغل ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . لقد كانت الطرقات ملأى بأمثال هؤلاء الأطفال الضالين الذين يبحثون عن أمهاتهم وآبائهم ، والذين ليس لهم مأوى يؤويهم .

لم يجد الطفلان من الحشود الكثيرة التى قابلاها وسألاها أحداً يمنحهما أما ، أو يدلهما على أمهما . وكل ما ظفرا به لقيمات جادت بها قلوب رحيمة . وكانت مالى تجمع هذه اللقيمات لتسد بها رمقها ورمق أخيها فى طريقهما الطويل .

كان الشتاء بزحف ببرده وثلوجه ، وكان الطفلان هائمين فى البرارى والغابات . ولم يكن عليهما من الكساء أو الغطاء ما يكفى لحمايتهما . قالت مالى لأخيها : ربما كانت أمنا قد ماتت ، ولكن لماذا لا تعود إلينا ؟ ألا يعود الموتى ؟



وهل ترضى أمنا أن تبقى ميتة وتتركنا نبحث عنها ؟ تعال نمت لعلنا نقابلها بعد موتنا . قال كونراد : تعالى نمض الليلة فى هذه الغابة فربما كانت هناك . إن البرد شديد والظلام يحيط بنا من كل جانب . وقد دب التعب فى جسمى والنعاس فى عينى .



دخل الطفلان الغابة ، وأسندا ظهريهما إلى ساق شجيرة فيها ، وأخذا يقولان : لقد تعبنا يا أماه . ارجعى إلينا . اتركى الموت وعودى إلينا ، وإلا فكيف نأتى إليك ... ثم سرى إليهما النعاس ، ولكنه كان نعاسا سرمديا .

(عن الألمانية) عبد العزيز عبد المجيد

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز	الإدارة	رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك		محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٩٣ — الاثنين ٢١ من رجب سنة ١٣٦٩ — ٨ من مايو سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

من اقتصاديات الشرق العربي :

عدن والحياة الاقتصادية

للأستاذ أحمد طه السنوسي

قبل عام ١٨٣٩ م لم تكن عدن سوى بلدة صغيرة تقطنها مائتا أسرة من أسر الصيادين الذين أخذوا يبنون لهم بيوتاً صغيرة من الخيزران والبن ، ويطلق العدنيون على هذه البيوت (العشش) ، وكان ذلك قبل أن يدخل الانجليز أرض عدن حيث كانت تحت الإدارة العبدلية التي تتخذ مقرها الرئيسي اليوم في سلطنة لحج .

ولعدن أهمية كبرى ، وذلك يرجع إلى أهمية موقعها الاستراتيجي وإلى مركزها التجاري العظيم ، فعلى كل باخرة تمر بالبحر الأحمر قاصدة أي بلد من بلدان هذا البحر أن تمر بعدن وتقف عندها وترسو في مينائها إذا شاءت ذلك .

وقد استغل الانجليز موقع عدن وأهميتها الاستراتيجية في الحرب الكونية الماضية ، وقد ساعدتهم هذه الأهمية على كسب المعارك التي دارت بينهم وبين جنود الإيطاليين في بلاد الصومال والحبشة وما جاورها ؛ إذ قد استطاعوا من عدن أن يشنوا غارات جوية شديدة على مراكز الإيطاليين الحربية في تلك المناطق من بلاد الصومال والحبشة ...

وبما أن عدن ميناء كبير فقد نجحت فيه التجارة نجاحاً كبيراً حتى صارت التجارة ظاهرة محسوسة مسيطرة عليه ، وقد انغمر العدنيون طبقاً لذلك في النزعة المادية بكل ما لديهم من همة وعزم .

وعدن جزء حي في جنوب الجزيرة العربية ، بل وفي الشرق العربي ، إذ يصل إليها كل يوم عشرات من الأناسي وفئات من الناس ، وهذه الحركة الدائبة من الاختلاط بهؤلاء الوافدين تثير القرائح والمشكلات مما يذكي النهضة الفكرية وييسر الحركة الدائبة في هذا البلد العربي الصغير .

والأسماك لها أهمية في عدن ، ومن أهم مناطقها ومصايدها فيها المناطق المسماة : (البريقة — وأبين — والحريقة — وشقرة — ولحور — وسيحوت) .

ولم تستطع عدن بعدُ أن تصدر الأسماك المحفوظة ، نظراً لأن الأهالي يستهلكون كثيراً من الأسماك العدنية ، ونظراً لأن صناعة تلك الأسماك العدنية لم يهتم بها العدنيون اهتماماً كلياً ، بيد أن المستقبل كفيل بإبراز هذه الناحية في الحياة الاقتصادية ، ومن المستحسن أن توضع مناهج خاصة ينشر بواسطتها الإرشاد والتوجيه لطرق الصيد الحديثة ولاستعمال الأجهزة الطارقة كأجهزة التبريد وغير ذلك ، ويقمن أن

يعنى بهذا الأمر ، لأن فريقاً من الأهالي يعتمد على هذا السمك في حياته ومعيشته .

وليست عدن بلد زراعة ولا بلد صناعة ، اللهم إلا بعض الصناعات الطفيفة التي لا تعتبر عدن على أساسها بلداً صناعياً ، ولكنها إن لم تكن بلداً زراعياً ولا صناعياً فهي بلد تجاري ملاحي من الطراز الأول ..

والملح أهمية كبيرة في عدن ، إذ تعتبر رابعة بلاد العالم في إنتاجه بعد الصين والهند واليابان . وأرض عدن صالحة للملاحة ، ويعزى ذلك إلى أنها شديدة الحرارة ، ولأن المياه العدنية تتمتع بوفرة الملح ، ولأنه ليس ثمة أنهار تصب الماء العذب في البحر فتخفض درجة ملوحته ، ثم لوجود الرياح الجافة التي تساعد على تبخر ماء البحر ، ولوجود التربة العدنية الصلبة التي تساعد على بناء أحواض الترسيب الملحي ..

ويوجد إلى جانب الملح في البلد العدنية أملاح أخرى كسلفات البوتاسيوم وكلوريد المغنسيوم وكاربونات الكالسيوم . وعمن أن يهتم أولو الأمر بهذه الأملاح فيستغلوها كما استغلوا الملح في الحياة الاقتصادية ، ولقد ظلت عدن عدة سنين تصدر هذا الملح إلى بلاد الهند وبرما واليابان وبعض بلاد الشرق ...

ومما يعطى عدن اليوم الأهمية الكبرى أنه ظهرت منابع للبترول في الأراضي الحضرمية التي حولها ، كما يعطيها هذه الأهمية أن ما جاورها من محميات كثيرة تعتمد عليها في حياتها الاقتصادية كما تعتمد عليها في الحياة الأدبية والفكرية .

وإلى جوارها تقع (المكلا) تلك الميناء الحضرمي الكبير الذي اشتهر بالتجارة ، ولا غرو فقد عرف الحضارمة بالمخاطرة والملاحة والتجارة منذ فجر التاريخ ، حتى لقد وصلوا بسفنهم إلى أماكن بعيدة في الشرق الأقصى عبر المحيطات ؛ ويقول السيد محمد بن هاشم بن طاهر العلوى في كتابه (رحلة إلى الثغرين الشحر والمكلا) : « تردد البواخر إلى المكلا القادمة من عدن والهند وأفريقيا وأوربا وجاوة أكثر من ترددها إلى الشحر ، وعليه فواردتها وصادراتها أكثر من أختها ، وحركتها التجارية أقوى ، ويبلغ ما يصدر عنها يومياً من القوافل على وجه التقريب مائة وخمسين جملاً ، بينما الشحر لا يصدر عنها إلا نحو ثلث هذا القدر » .

والصلة الاقتصادية بين عدن وبين المحميات الجنوبية صلة قديمة ليست وليدة الأيام الحديثة فحسب . وتصدر المحميات إلى عدن الصمغ والسمن والبن فتنتشر هذه في الأسواق العدنية ، بل إن بعض الخضراوات تصل أيضاً إلى عدن من المحميات .

وتوجد قوافل تحمل أنواع الخضراوات تدخل في عدن من المحميات كل صباح ، ويفهم من ذلك أن أراضي المحميات صالحة للزراعة . أما الأراضي العدنية فغير زراعية ، ولا تنزل الأمطار فيها إلا في بعض الأحايين ، بل في فترات متقطعة ، والأمطار إن نزلت فهي ضئيلة ، بل ربما مرت سنون طويلة دون أن تسقط قطرة من هذه الأمطار ، ولكن كل هذا لا يمنع من أن تكون عدن ذات أهمية كبرى ، فهي ملتقى السفن كما أنها نقطة كبيرة للتموين والتجارة .

وإذا اكتفت الحاجة العدنية بما يصلها من المحميات واليمن وبلاد الصومال ، يصدر الباقي إلى الأسواق الخارجية كأسواق الحبشة وجيبوتي وغيرها .

ولا ننسى أيضاً أن بعض الأشياء كالأقمشة على اختلاف أنواعها وتباين أشكالها والبهارات والتوابل والمواد الغذائية المحفوظة والكماليات التي تصل عدن من الهند واليابان ومن بريطانيا والولايات المتحدة ، يباع في الأسواق العدنية ، بينما يهتم التجار المحليون بتصدير بعض هذه البضائع والمواد إلى الحبشة والمحميات واليمن وإلى بلاد الصومال ليبيعها في أسواق مدن هذه البلاد .

كما أن التبغ الذي يصل إلى عدن من (المكلا) يباع بعضه في الأسواق العدنية ، وما يتبقى منه يصدر إلى أراضي الحجاز وإلى بعض المناطق الأخرى في الشرق ...

وتصدر عدن إلى المحميات واليمن بوجه خاص : الأرز والسكر والدقيق والأقمشة وبعض الكماليات الأخرى ...

وتتأثر الحياة الاقتصادية في كل قطر بالعملة ، ونحن لو نظرنا إلى عدن لرأيناها تتداول العملة المتداولة في البحر الأحمر وفي بلاد الحبشة والصومال ، وهي تقوم على الريال النمساوي القديم الذي تطبع عليه صورة الملكة ماريا تريزا ، وعلى أساس العملة الهندية التي تقوم على الروبية والآنة والبيزة ، والروبية تساوى بالعملة المصرية سبعة قروش

وضف قرش ، وتساوي الروبية من الآنات ست عشرة ، والآنة الواحدة بها أربع بيزات ، وتتداول هذه العملة أيضاً الكويت والبحرين وعمان والمحميات وحضرموت وغيرها ...

ويقول صاحب كتاب (تاريخ ثغر عدن) : « ومادتهم — أي مادة عدن وأهلها — من الهند والسند والحبشة وديار مصر ، وما كولهم الخبز وأدمهم السمك ، غاية عمل نسائهم القفاع ، ورجالهم تبيع العطر والقماش ، وبناء دورهم مربعة كل دار وحدها طبقتان ، الأسفل منهما مخازن ، والأعلى منهما مجالس ، وبناؤهم بالحجر والجص والخشب والنخل » .

ويقول أيضاً صاحب هذا الكتاب : إن الأشياء التي لم يؤخذ عليها عشور هي : « الواصل من ديار مصر ، الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون الرقي والأشنان والقطارة وزيت الزيتون وزيت الحار والزيتون المملح وكل ما يتعلق بالنقل إذا كان قليلاً ، والعسل النحل إذا كان قليلاً ، والذي يجلب من الهند كل ما يرسل في البحر ، والهليلج الربي ، والأكرار ، والمناد ، والساور ، والأنطاع ، والأرز الكحل ، وهو الأرز ، والماش مخلوط ، والسمسم ، والصابون ، ومن البضائع التمر الكلاهي ، والشمع ، وحطب القرنفل » .

.. والمرأة في عدن تشتغل ببعض الصناعات الصغيرة . ومن المستحسن أن نذكر ما جاء في كتاب (خواطر) للأستاذ حمزة علي لقمان ، إذ قال : « أذكر لكم شيئاً عن الأعمال اليدوية وغيرها التي يقوم بها بعض النساء العدنيات في بيوتهن لكسب معيشتهن وإعالة أطفالهن ومن يلوذ بهن أو مساعدة رجالهن في كسب الرزق ، وهي أعمال وإن تكن بسيطة لا تدر عليهم إلا ربحاً بسيطاً ، إلا أنها شريفة تدل على ترفع المرأة العدنية وعدم رضاها بأن تعيش عالة على غيرها ؛ ويقوم بهذه الأعمال النساء اللاتي فقدن أزواجهن أو أبناءهن أو عائليهن ، أو اللاتي يضطرهن الفقر إلى مساعدة رجالهن ، ومن هذه الأعمال : الخياطة والتطريز و (النسالة) ، وعمل مناديل الرأس المطرزة الوشاة والكوافي الوطنية التي يصنعها من (الولايع) — وهو القطن ومفردها ولعة — وغير هذه من الأعمال التي تمت إلى الخياطة بصلة . ويقوم بعضهن بطبخ أنواع من المأكولات لبيعها في الأسواق والتي تجد إقبالاً من الناس » .

« ومن الأعمال الأخرى التي يقوم بها النساء ويشاركن فيها الرجال الدلالة (السمسرة) ، وكثيرات منهن يقمن بأعمال التجارة . فيبعن الأقمشة والتوابل والعطر والصابون وكل ما يمت إلى التجميل وإلى النساء بصلة ، ولبعضهن دلالات يساعدنهن في القيام بزيارات البيوت وعرض بضائعهن النسوية » . « ويقوم بعضهن بصناعة الحبال والسارف والمكانس ومراوح اليد وسجاد الصلاة والمدم ، وهذه جميعها تصنع من سعف النخل الذي يجلب من البلاد المجاورة التي يكثر فيها النخيل » . والسارف نوع من الحصر يوضع تحت أواني الطعام ساعة الأكل ، والمدم معناه الحصير ..

مما سلف نستطيع أن نقف على تفاصيل الحياة الاقتصادية في عدن ، فنجد أن أهم شيء هنالك هو التجارة ؛ ولذلك ظهرت النزعة المادية في نفسية الشعب العدني ، ولكننا نجد هذه النزعة بادية في الرجال والشيوخ ، أما الشباب الحديث ، فقد بدت أمام ناظريه أمور ونزعات أخرى أهم من النزعة المادية ، فقد انغمر في الوعي القومي والحياة الأدبية من علم وتثقف وصحافة ورياضة بدنية إلى غير ذلك . والملحوظ أن الحياة الأدبية ستسمو في المرتبة على الحياة الاقتصادية ، ومما يساعد النهضات الحديثة على البدو السريع والانتشار الكامل في عدن أن عدن صغيرة في حجمها وأن عدد سكانها عدد طفيف ، وقد بلغ في إحصائية عام ١٩٤٨ نحو ٨٦٠٠٠ نسمة .

والذي لا شك فيه أنه كلما تقدمت الأيام وانصرم الزمن ازداد العدد واتسع الحجم والمساحة وانتشرت الحياة أكثر في النهضات والتأثرات الحديثة ، وعلى ذلك تعظم التبعات الاقتصادية والأدبية والاجتماعية لعدن رويداً رويداً ...

أحمد طه السنوسي

حامد سعيد

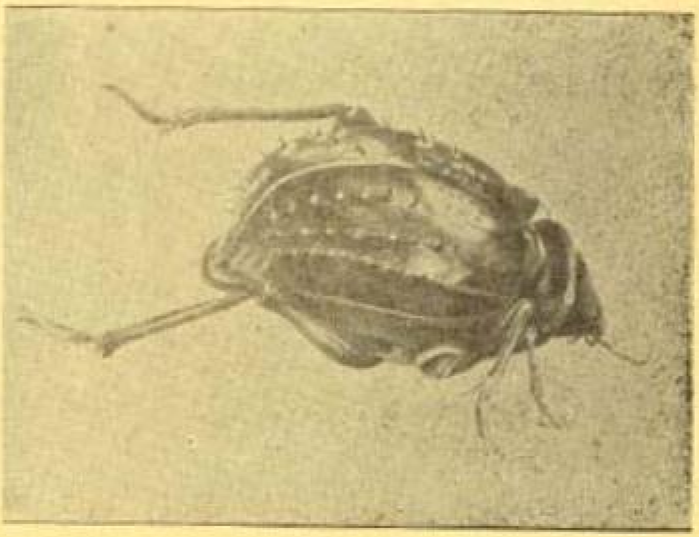
للدكتور زكي نجيب محمود

هناك ، على مبعدة نائية من المدينة وصخبها ، وفي أحضان النخيل المتشابك المتعانق ، أقام هذا الفنان الشرود لنفسه داراً من الطين ، تراها بقبابها وسط الزرع ؛ فيخيل إليك أنك دانٍ من مهبط ولىٍّ من أولياء الله ، تنفرتْ به قداسة روحه عن مطارح العمران ، وتدخلُ الدار فيزداد هذا المعنى شيوعاً في نفسك ، منذ تنحنى راكعاً لتدخلها من باب وطىء ، إلى أن تدور في قِبابها القليلة البسيطة المترعة بالروح في كل شبر من أرضها وجدرانها وسقوفها ... ويودّعك الفنان وزوجه الفنانة ، وكأنهما ملَكان طاهران ، قد نظرا إليك نظرة الإشفاق ، أنْ رَكَنَ لهما ركناً معموراً بالروح والمعنى ، لتعود إلى مدينة مزدحمة الأرض والهواء بكل ما تضيق له الصدور وتكتئب النفوس .

أغفل هذا الفنان الشرود النفور مدائننا وشوارعنا وبيوتنا وأسواقنا وموائدنا وما كلنا ومشاربنا وأطماعنا ، ليعيش هو وزوجه في تلك العزلة النائية ، فينصرف إلى الطبيعة يستمد منها الحياة غزيرة دفّاقة ؛ واسمع له يحدثك في هدوئه العجيب الأخاذ ، كيف تمتلئ الطبيعة في كل ركن من أركانها بما تهتز له النفوس الحية اليقظى فتنة وإعجاباً ؛ ألا خبئتْ عينان تغضيان عن هذا الغصن ، وهذه الصخرة ، وتلك الصَّدفة ، وهاته الحشرة ؛ أنظر إلى هذه الحشرة يوماً ويوماً وأياماً ، تطالع فيها كل يوم جديداً من ترتيبٍ وتنسيق ونظام وجمال وجلال ، سبحانك اللهم خالق الخلق ! .

وفي هذه اللفتات إلى ما يغفله الناس صغار نوافه ، وما يرى فيه الفنان موضعاً للفتنة ومصدراً للسحر ؛ ثم فيما بين كائنات الطبيعة من وحدة وإخاء ، برغم ما يبدو فيها من تباين وخلاف ، يدور « حامد سعيد » بفكره وفنه ، وعلى هذا الأساس يقيم مدرسته ، وبهذا المبدأ يعلّم حوارييه .

وأين عسى هذا الفنان المصري الصميم جسماً وروحاً ، أن يجد مصدر إلهامه ؟ عند أجداده القدماء ، عند المصريين الأوائل ، فتراه مع تلاميذه في المتحف المصري ينظرون ويتأملون ويستوعبون ، ليخلقوا روحاً ،



حشرة صراوية
رسم الأستاذ محمد عيسى شحاته (من مدرسة حامد سعيد)

ثم يعودون إلى لوحاتهم ليصبوا أرواحهم المترعة آيات من الفن الجميل .

وشعار هذه الجماعة هو تمثال « حتحور » ! أنظر إليه ، كيف اتحد فيه الإنسان بالحيوان والطبيعة ! هذا إنسان واقف تحت عنق البقرة وكأنه جزء منها ، وهذه بقرة لها قرنا نور ليمّحي عندك كل تفريق بين ذكور الطبيعة وإناثها ، ثم هذه هي الشمس قد استقرت بين القرنين في اتساق وانسجام ! بهذه العين ينظر الفنان وتلاميذه إلى الأشياء ، فيرون الطبيعة كلاً واحداً لا تجزئة فيه ، وهذا الكل ماثل في كل جزء كائناً ما كان ! ففي هذا الغصن الجاف روح الطبيعة كلها .

وفي هذه الصَّدفة الحاوية سر الكون كله ! أنظر إلى هذه الصَّدفة الحاوية التي قد تصادفك ملقاة على رمل الشاطئ فلا تعيرها التفاتاً ! تأمل أي ركن شئت من أركانها ، تر فيه الثنايا والخطوط والتعاريج على اتساق كأنه أنغام اللحن المنسجم ! ثم اجمع هذه الألحان بعضها إلى بعض ، تجد في الصَّدفة الحاوية الملقاة على رمل الشاطئ بناء موسيقياً كاملاً ، قد يشغلك التفكير فيه ، وتتبع أجزائه وبنائها واتساقها ، يوماً وأياماً ! وتلك هي الطبيعة الساحرة !! .

أو انظر إلى جذع هذه الشجرة ، التي قد تفيأ ظلها وأنت لا تدري ما هي ! أنظر إلى هذه الأجزاء المتآخية فيه ، كأنما قد تعاقد كل منها مع أخيه على أن يكون له مؤازراً وظهيراً .

***

وزرت حامد سعيد في داره الثانية ، وزرت المعرض الذي أقامه لرسوم تلاميذه في متحف الفن الحديث ؛ فعرفت معنى جديداً لأشياء كنت قرأتها ، وكنت ظننت أني فهمت معناها !! فقد كنت قرأت فيما قرأت ، هذه الفقرة الآتية في « يوبانشاد » — الكتاب الهندي المقدس — التي عبّر بها الهنود عن عقيدتهم في وحدة الوجود ، وفي أن الكائنات كلها تعبير عن إله واحد قهار ، فأضيئت لي اليوم بضوء جديد :

« لم يشعر بغبطة ، بادئ ذي بدء ، لأن واحداً وحده



حتحور

لا يشعر بغبطة ، فطلب ثانياً ، وكان في الحق ذا حجم كبير ، حتى ليعدل جسمه رجلاً وامرأة تعانقا ، ثم شاء لهذه الذات الواحدة أن تنشق نصفين ، فنشأ من ثم زوج وزوجة ، وهكذا تكون النفس الواحدة كقطعة مبتورة ...



صدفة — رسم الأستاذ محمد الخليل عبد الحميد (من مدرسة حامد سعيد)

وهنا الفزع تملؤه الزوجة ! وضاجع زوجته وبهذا أنسل البشر ، وسألت نفسها الزوجة قائلة : « كيف استطاع مضاجعتي بعد أن أخرجني من نفسه ، فلأختف » ، واختفت في صورة البقرة ، فانقلب هو ثوراً ، وزاوجها حقاً ! وكان بازدواجهما أن تولدت الماشية ؛ فاتخذت لنفسها هيئة الفرس ، واتخذ لنفسه هيئة الجواد ! ثم أصبحت هي أتاناً ، فأصبح هو حماراً ، وزاوجها ، وولدت لها ذوات الحافر ؛ وانقلبت عنزة ، فانقلب لها تيساً ؛ وانقلبت نعجة ، فانقلب لها كبشاً ، وزاوجها حقاً ، وولدت لها الماعز والخراف ، وهكذا حقاً كان خالق كل شيء ، مهما تنوعت الذكور والإناث ، حتى تبلغ في التدرج أسفله إلى حيث النمال ؛ وقد أدرك هو حقيقة الأمر ، قائلاً : حقاً أني أنا هذا الخلق نفسه ، لأني أخرجته من نفسي .. وهكذا نشأ الخلق » .

ولكن « حامد سعيد » لم يقف عند الحيوان وحده في تصوره لوحدة الوجود ، فأضاف إليه النبات والجماد والحجر ! ثم ، فهمت معنى جديداً لوحدة الوجود بعد زيارتي لهذا الفنان العجيب ، وآمنت بصدق ما قاله القديس برنار : « إن ما تعلمته من العلوم الدينية ومن الكتاب المقدس ، قد عرفته من الغابات والحقول ؛ فليس لي من معلم سوى أشجار الزان والبلوط ... إن الشجر والحجر ، يعلمانك أكثر مما تتعلمه من شفتي الحكيم ... » .

●●●



جذع شجرة — رسم الأستاذ محمد خميس شحاتة (من مدرسة حامد سعيد)

ليس من عجب بعد هذا كله ، أن ينقل حامد سعيد رسومه ورسوم تلاميذه يعرضها في لندن ، فيكتب فيها « هربرت ريد » — وهو في انجلترا إمام في علم الفنون — ما يلي :

« ... لما طُلب إليَّ منذ أسابيع أن أرى نتاج طائفة من الفنانين المصريين .. ذهبت لا يحدوني شيء من رجاء عظيم ؛ فما أكثر ما خاب رجائي فيما مضى ، وأنا الناقد الفني في مثل هذه السن وهذه الخبرة ... فآخر ما كنت أتوقعه ، أن أرى أصالة حقيقية ... لكنني ما كدت أبصر رسمين أو ثلاثة من رسوم الفنانين المتصلين بحامد سعيد ، حتى أدركتُ أني إنما أرى فناً أقل ما يقال فيه أنه لا ينساق وراء الأساليب الجارية ، فهو فن فيه من صدق الفنان ما يلزمك إلزاماً أن تقف له معترفاً به ؛ وليست كلمة « الصدق » بالكلمة التي تجرى هذه الأيام على اللسان إذا ما أردت وصفاً لشيء مما ينتجه الفن السائد ؛ لكنها أول كلمة ترد على ذهني وأنا ماثل أمام رسوم بلغت مدى بعيداً من الإخلاص — لا أقول إخلاص الفنان للطبيعة نفسها ، بل إخلاصه في إخراج مواقع الطبيعة من نفسه ...

... وإنما سر الأصالة في هذه الرسوم ، وما يخلع عليها هذه القوة التي تفرَّدَتْ بها ، هو الفلسفة الكامنة وراءها ... » .

ولو قد زار الناقد العظيم « هربرت ريد » حامداً في بيته الذي نأى به عن العمران المدنى ليزداد قرباً من أحضان الطبيعة لأضاف إلى قوله ذاك عبارة أخرى ، هي : وسر الأصالة في هذا الفنان العجيب ، وما أشفق عليه روحاً محياً تفرد به ، هو الفلسفة الكامنة وراء حياته التي يحياها .

زكي نجيب محمود



الأرض اليابسة (تصوير السيدة آن سعيد)

من ضوابط السـلوك

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد

كنا ثلاثة ألف وباء وأنا . أما ألف فرجل فى قمة الشباب ؛ أتم تعلمه الجامعى بمصر ، ووصل فى دراسته العلوم إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه شاب فى سنه . وكان يصح أن يكون فى طليعة من ترسلهم الحكومة فى إحدى بعثاتها إلى الجامعات الغربية لولا قيام الحرب . فبقى بمصر وصار زوجاً وأباً وشعر بتبعات الزوجية والأبوة ، وصار موظفاً وتركزت حياته المهنية فشعر بأهميته وبتبعات المهنة . وتجاوز تفكيره الاجتماعى فلم يَحُدُّه حدود البيئة التى يعيش فيها . وقد منذ عهد قريب إلى انجلترا فى بعثة عملية — أو على الأصح اجتماعية عملية — ليزور معامل بعض الجامعات ، ويتصل ببعض الأساتذة ، ويستمع بعض المحاضرات ، ويسير فى الشوارع والميادين ، ويعرف كيف يعيش الناس ويتحدثون ويناقشون ويختلفون ثم يتفقون أو لا يتفقون .

وأما باء فرجل قارب الستين ؛ يبدو هـذا فى رأسه الأصلع وتضاريس وجهه ، أقل مما يبدو فى حديثه عن تجاربه ومعارك الحياة التى خاض غمارها . جاء إلى انجلترا فى باكورة شبابه مغامراً ببعض المشروعات ، ينشد الغنى . وهو أحد المصريين القلائل الذين غامروا وتركوا بلادهم الرخية الهادئة ، يبحثون عن حياة فيها شىء من الكفاح الممتع ؛ فكافح وكوفح ، واغتنى وافتقر ، وكسب وخسر ، وجاع وشبع ، حتى صادفه التوفيق فاستقر فى هذه البلاد ناجحاً فى مشروعاته ، راضياً بما أصاب من آمال . وهو لهذا رجل قديم العهد بالحياة الإنجليزية يتحدث عنها حديث الخبير الملم بشئونها . وهو يعتقد أن الحياة هى المدرسة الحقيقية ، وأن النجاح فى الجامعة ليس ضماناً للنجاح فى ميدان العمل ، وهو يؤمن بأن تربية الواقع هى التربيـة الجدية . وقد كوّن لنفسه فلسفة براجماتيـة تبدو فى حديثه ومناقشاته ، وفى سخريته بالآراء النظرية .

أما أنا فوسط بين الرجلين ؛ عشت فى انجلترا قبل الحرب الأخيرة وأعيش فيها الآن ، ولهـذا أعد نفسى مخضرماً إذا قورنت بالرجلين .

جمعنا مجلس ، وبدأنا الحديث . قال ألف : إن سلوك هؤلاء الناس مدهش حقاً ! قلت : أىّ الناس تعنى ؟ وأىّ سلوك أدهشك ؟ قال : الناس هم الإنجليز . وأما سلوكهم فهاك بعضاً مما شاهدته :

كنت راكباً فى الطابق الثانى من إحدى السيارات العامة ، وقد ازدحم الطابق فجأة بالركاب ، فجاء « الكمسارى » وكان على عجل ، فوزع التذاكر على الركاب ولم يأخذ منهم الثمن . وأسرع هابطاً إلى الطابق الأول يشرف على الخارجين والصاعدين ، عندما وقفت السيارة . وتركت لأغادر السيارة مع المغادرين ، فما كان من الركاب الذين أخذوا التذاكر ولم يدفعوا الثمن ، إلا أن تقدموا كل واحد منهم يدفع ثمن تذكرته إلى « الكمسارى » ، يدفعه ويغادر . فانظر كيف يثق الكمسارى بالركاب ، وكيف يقدر الركاب هذه الثقة فيدفعوا الثمن دون رقيب أو محاسب !

قال باء : ثم ماذا ؟ قال ألف : ثم ماذا ؟ ألا يدهشك هذا السلوك فتطلب المزيد ؟ هاك إذاً حادثة أخرى شاهدتها فى السيارة العامة أيضاً . كان الكمسارى فى الطابق الثانى حينما وقفت السيارة وهمّ جارى فى الطابق الأول بالخروج . فنظر إلى وناولنى بنسين قائلاً : أرجو أن تسلمهما إلى

الكمسارى ثمناً للتذكرة التى لم آخذها ، وأنا مغادر الآن . فعل هذا وانصرف ! إنه ترك الأجرة وراءه ، وهو لو أراد أن ينصرف دون أن يدفع الأجرة وأن يراقبه «الكمسارى» لفعل . ففى أى البلاد يحدث هذا السلوك ؟.

قلت : إن هذه الظاهرة مألوفة فى انجلترا . وقد تكون غريبة حقاً على الأجانب الذين لم يشاهدوها فى بلادهم . ومع هذا فهناك أنواع أخرى من السلوك تستحق الإعجاب الخالق ، أذكر منها الحادثة الآتية .

نويت السفر من إحدى المدن الإقليمية إلى لندن ، فاشتريت من محل تجارى معروف فى تلك المدينة حقيبة خفيفة تصلح للسفر القصير . وعبأت فيها من المتاع ما أحتاج إليه . وحشوت المتاع — كعادتى — بعدد من الكتب والمجلات . فلما وصلت محطة السفر ، وجاء القطار رفعت الحقيبة بجد ، وأسرعت لأستحوذ على مكان فيه . ولكن الحقيبة الثقيلة هوت على الأرض تاركة فى يدى يدها المقطومة .

فلما بلغت لندن عرفت أن بها بعض فروع المحل التجارى الذى اشتريت منه الحقيبة . فاتصلت تليفونياً بأحد الفروع ، وأخبرته بما حدث . فكان الجواب : « هات عنوانك . وأفرغ حقيبتك . وسيكون عندك رسولنا ليأخذها ويعطيك واحدة جديدة بدلاً منها » . ولم تمض عشرون دقيقة حتى كان رسول المحل يطرق باب الفندق ، فسلم وتسلم .

ثم نظرت إلى النديمين قائلاً : فما رأيكما فى هذا السلوك ؟

ابتسم باء ابتسامة ساخرة وقال : لست أجد فيما قصصنا شيئاً غريباً . وكل ما حدث إنما هو سلوك طبيعى يتفق وظروف القوم الاجتماعية والاقتصادية . وقد يكون غريباً أن يسلكوا عكس هذا . إنى ... فقاطعه ألف بحماس قائلاً : إن كلامك هذا عام وعائم ، فأفصح ووضح . غريب أن تلجأ إلى النظريات وأنت رجل عملى .

قال باء : رويداً يا بنى ! فما عندى من نظريات إنما هو نتيجة دراستى العملية . إنى أعتقد أن السلوك الاجتماعى — كالظواهر الطبيعية — سلسلة من المقدمات والنتائج ، أو الأسباب والمسببات ، وأن هناك قوانين اجتماعية تضبط سلوك الناس وإن لم تشبه هذه القوانين فى دقتها ووضوحها القوانين الطبيعية . من ذلك ما أدهشك من دفع الركاب ثمن التذاكر دون أن يكون عليهم رقيب . فلهذا السلوك أسبابه الاقتصادية والاجتماعية . من هذه الأسباب أن كل راكب يستطيع اقتصادياً أن يدفع أجرة السيارة العامة لأن دخله يسمح بهذا ، ولأنه قد دبر نفقات معيشته — أو دُبّرت له — على أساس أن يكون ضمنها أجرة للمواصلات . فلو لم تسمح اقتصادياته بدفع هذه الأجرة لحاول التهرب . وأنت تشاهد هذا التهرب من كثير من الركاب فى بعض البلاد ؟ لأنهم حريصون على أن ينفقوا هذه الأجرة فى أشياء هم أشد حاجة إليها . فهم يحاولون السرقة ليسدوا حاجة عندهم . ولو كان دخلهم كافياً ما حاولوا هذا .

قلتُ : إنك تجعل ظروف الفرد الاقتصادية الخاصة ضابطاً لسلوكه ومبرراً له . فأين إذاً دور الظروف الاجتماعية ؟ قال : نعم إن ظروف الفرد الخاصة تضبط سلوكه وتوجهه ، ولكنها قد لا تكون مبرراً لهذا السلوك ، فهناك اعتبار آخر هو اعتبار المجتمع . ولهذا يعاقب القانون من يهمل هذا الاعتبار أو ينساه . ومع هذا فسلوك الفرد خاضع أيضاً لشعوره الاجتماعى . خذ مثلاً الراكب الذى يقبض عليه الكمسارى متهرباً من دفع الأجرة ، ويسوقه إلى الشرطة . إنه يشعر بخدش كرامته الاجتماعية ، وبأن المجتمع ينظر إليه نظرة شك وريبة . وبهذا يخسر ثقة الناس فيه . وقد يخسر وظيفته التى يؤديها . إن هؤلاء الناس يعتقدون أن « الأمانة خير أساليب النجاح » Honesty is the best policy .

قال ألف : فلأسلم جدلاً بما تقول ، فكيف تفسر سلوك المحل التجارى ؟ فعجّل باء قائلاً : الأمر لا يحتاج لتفسير .

إن نجاح أى مشروع تجارى يتوقف على رضاء الزبون ؛ لأن فى هذا الرضى دعاية كافية . والزبون الراضى لا يعود بنفسه إلى المحل فحسب بل يحضر معه زبوناً غيره . فلنتصور هذه العملية الحسابية البسيطة ، عملية تضعيف عدد الزبائن من يوم لآخر . ومهما قل الربح الذى يناله المحل التجارى من الزبون فإنه ينمو بنمو الزبائن . فنى كسب الزبون وإرضائه إذاً كسب مالى مهما قل الربح . إن الحقيبة مقطوعة اليد التى استردها المحل التجارى لا تكلفه إلا دراهم معدودات لإصلاحها ، ولكنها ضمنت له عودة الزبون ، لا بل والدعاية له . ومن الأمثلة الانجليزية التى تشير إلى حرص التجار على إرضاء الزبائن قولهم : « الزبون دائماً على حق The customer is always right » . وكم من محال تجارية أفلست لأنها حرصت على الكسب العاجل ، فنفر منها الزبائن .

قال ألف : هذا صحيح ، ولكنى أعرف بعض المحلات التجارية الكبرى عندنا ، وهذه لا تسمح بإرجاع البضاعة إليها — حتى ولو كانت سليمة — بعد أن تخرج من المحل .

فرد باء قائلاً : نعم ، ولهذا أيضاً أسبابه الاجتماعية والاقتصادية : أما الاجتماعية فإن الزبون الذى تشير إليه لم يرتق بعد إلى المستوى الذى يدرك فيه متى يرجع البضاعة ومتى لا يرجعها . وهو لهذا قد يلتمس أوهى الأسباب لإرجاعها ؛ كأن يتوهم أنها غالية الثمن ، أو أن يعيبها شخص لا يعرف ثمنها . فنى مثل هـذا المجتمع الذى لم ينضج فيه تقدير الزبون السليم للبضاعة التى يشتريها ، وشعوره بنتائج إرجاعها للمحل ، ينبغى ألا يباح الإرجاع . أما الاقتصادية فإن فتح الباب على مصراعيه لإرجاع البضائع إذا ظهر بها عيب ، فى مجتمع كالذى أشرت إليه ، يكبد المحل التجارى خسائر فادحة . وقد يتلف الزبون البضاعة لجهله ثم يحاول التخلص منها بإرجاعها .

قلت لباء : لقد لجأت إلى التعميم فى حكمك هذا ؛ فنى بلادنا ولا شك — كما فى انجلترا — الزبون الذى يدرك ما فى إرجاع البضاعة إلى محلها من خسارة . ومثل هذا الزبون يتردد كثيراً فى إرجاع البضاعة إلا إذا كان بها عيب واضح .

فعجل باء قائلاً : ومن هذا الزبون يقبل المحل التجارى البضاعة المردودة ، ولكن كم عندنا من هـذا النوع ؟

فقاطعه ألف محتجاً : نعم عندنا الكثير ، ونحن لا نقل فى وعينا الاجتماعى وتقديرنا المسئوليات عن أى بلد آخر .

قال باء : أرجو أن تجنبنى المقارنة ، فلست هنا بصدد المفاضلة بين سلوك قوم وسلوك آخرين ، ولكنى أريد أن أبحث السلوك بحثاً موضوعياً وأن أقرر أن سلوك أى قوم — أو فرد — إنما هو نتيجة عوامل اجتماعية واقتصادية ، وأنك إذا أردت أن تغير من هذا السلوك وجب أن تبحث عن هذه العوامل والظروف المؤثرة فتغير منها ؛ كأن ترفع بمستوى التعليم عند الشعب وتعمل على زيادة دخل الفرد وتحسين مستواه المعاشى . عند ذلك لا يفكر فى خرق القانون أو الخروج على المبادىء الأخلاقية السليمة .

قلت : ولكن ثمة عوامل أخرى نفسية داخلية غير العوامل الاجتماعية والاقتصادية ، ولهذه أثر كبير فى تكييف سلوك الفرد . فقد يعيش اثنان فى ظروف اجتماعية واقتصادية متشابهة ومع هـذا يختلفان فى سلوكهما ؛ لاختلافهما فى المزاج والطبع والخلق . قال باء : إنى رجل لا أعرف شيئاً عن العوامل النفسية ، ولا أفهم الفرق بين المزاج والخلق ، وأغلب ظنى أن هـذه اصطلاحات يلجأ إليها المتفلسفون للتعمية إذا أعوزتهم الأدلة العملية من الحياة . قلت : لا بأس عندى أن أشرح لك ما تسميه « اصطلاحات قصد بها التعمية » . فعجل ألف مقاطعاً يقول : بربك أمهلنى قليلا فإنى أريد أن أسأل العم باء : إذا كانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية هى التى تضبط سلوك الناس فكيف إذاً تفسر انتشار حوادث الشبان الاعتدائية المتفشية بينهم الآن ، وما تشكو منه الصحف من تعدد السرقات وحوادث القتل والسلب ؟

نظر باء إلى ساعته وقال : لم يعد لدينا من الوقت ما يسمح باستمرار الحديث . فلنقف اليوم هنا ، ولنستأنف اجتماعنا فى يوم آخر نسمع فيه شيئاً عن العوامل النفسية والمزاج والخلق ، وأشرح أنا وجهة نظرى فى الأسباب الاجتماعية والاقتصادية لحوادث الشبان الاعتدائية الأخيرة .

ثم نهضنا نحن الثلاثة ، وودع بعضنا بعضاً .

(مانشستر) عبد العزيز عبد المجيد

كيف؟

قصة كوبرنيكس

« إن الأرض ليست سجينة لا تتحرك ، بل هي حرة دائبة على الدوران تحملنا معها في مناحيها الأبدية خلال الفضاء الشاسع لهذا الكون ....!! » (كوبرنيكس)

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

أسماء مميزة :

في الفترة ما بين سنة ١٤٧٣ وسنة ١٥٤٣ شهد العالم مجزرة بشرية هائلة وحركة تدمير عامة ، إذ كان هناك عدد من الغازين والقاهرين الطامعين الذين حاولوا أن يستولوا على العالم ويشيدوا على أشلاء البشر ذكرى خالدة لانتصاراتهم .

ومن أولاء بيزارو ، وقيصر بورجيا ، وفرنسيس الأول ، وشارل الجرىء ...

واليوم إن أحداً لم يعد يذكر أسماء أولئك الغازين ، ولكن أسماء ثلاثة رجال ثلاثة عاشوا في تلك الحقبة من الفوضى العسكرية ما زالت ماثلة في الأذهان خالدة في سجل الأيام ... وهي أسماء كولمبس ، ومارتن لوثر ، وكوبرنيكس ...

لم يكن أولئك من الغازين ، ولكنهم كانوا من الباحثين عن المجهول والمنقبين عن أسرار الطبيعة ! فقد اكتشف كولمبس قارة جديدة ، ورسم لوثر طريقاً جديداً إلى الله ، كما وجد كوبرنيكس الحل لمشكلة الوجود ...

مشرع السماوات :

إن أصل كلمة كوبرنيكس هو كوبرنيج ، ومعناها « متواضع » ، وإن هذه الكلمة لتلخص لنا صفات مشرع السماوات وشخصيته ...

كان أبا لحاز مجهول في بلدة بولونية يطلق عليها اسم تورن ، تقع على ضفاف نهر الفستولا ... وكان في طفولته يلحظ الشمس وهي تقطع طريقها في السماء من جلوة الصباح إلى جلوة المساء ... وفي أثناء الليل يحدق في الشموع النجمية المتألقة العديدة التي تضيء السموات ... وكثيراً ما سأل والديه عن الشمس والنجوم فكانا يحيلانه على عمه لوك واسيلرود — رجل الدين المتعلم — الذي أرسل إليه كتباً تبحث في علم الفلك استوعبها نيكولاس ، ثم حول ناظريه إلى القصة الأكثر طرافة والأكثر إثارة للاهتمام ، قصة النجوم في كتابها المفتوح ، كتاب السماء ..!!

وحين بلغ العاشرة من عمره توفي والده ووضع تحت رعاية عمه ، وكان عزاؤه عن موت والده مكتبة عمه العامرة بالمجلدات التي تبحث ليس فقط في علم الفلك ، بل في الأدب والرسم والنحت والرياضة والموسيقى ، والتي انغمس في قراءتها وأخذ ينهل من موردها حتى اتسع أفق معلوماته منذ البداية في كل العلوم والفنون ..

وفي سن الثامنة عشرة التحق بجامعة كراكو وتتلمذ على يد الأستاذ ألبرت برودزيوسكي أحد كبار الفلكيين في

ذلك العهد ... ومع ذلك فقد نصحه عمه من أجل حياته العملية أن يحول أنظاره من السماء إلى الأرض ، وأن تكون مهنته الطب عوضاً عن الفلك ، فاتبع ذلك النصح ونال إجازته فى الطب من كراكو ، ثم طلب من عمه أن يأذن له بتكملة دراساته فى إيطاليا ، فوافق بكرم على ذلك ...

ولكن قبيل سفره إلى إيطاليا أخذ يدرس فن الرسم بعض الوقت ، حتى يجلب معه كما كان يقول صوراً دقيقة تعبر عن جمال تلك البلاد وحسنها ...

فى إيطاليا :

وبها فقد سافر إلى إيطاليا مصطحباً معه كتبه وفرشاته حيث انقطع مدى ثلاث سنوات للطب والفن ودراساته الفلكية . فقد تعلم كيف يرسم لوحات لمجاميع النجوم فى السماء ، إلى جانب المناظر الطبيعية الخلابة ...

وفى نهاية سنى الدراسة الثلاث (فى جامعة بادو) توّجه أساتذته — كما كان التعبير بلغة ذلك العهد — بتاجى الطب والفلسفة ...

ولكنه لم يعمل بعد ذلك لا فى الطب ولا فى الفلسفة ، وعوضاً عن ذلك فقد عين أستاذاً للفلك سنة ١٤٩٩ بجامعة روما .. وهنا قضى أربع سنوات تميزت بمحاضراته الرائعة وشهرته الواسعة ، وأخيراً عدم رضائه عن عمله .. !!

الأرض مركز الكون :

والسر فى عدم رضائه هو تطلعه وشغفه الطبيعى إلى المعرفة وإزاحة الأستار عن المجهول ، فقد كان يدرس علم الفلك لطلبته وفقاً لنظرية بطليموس ! وهو مذهب كان يضع الأرض فى مركز الكون وينظر إلى الشمس والكواكب كأجسام تابعة تدور حول الأرض ... هذا النظام البطليموسى ظل متبعاً لمدة ألف وخمسمائة عام ، وبدا كأنه سيظل محتفظاً بقوته إلى الأبد .. فأساسه وعماده والحقيقة الأولية التى بنى عليها هى — كما كان يقول علامة ذلك العصر — ما تراه الحواس التى لا يمكن أن تخطئ ...

هذه الحقيقة الأساسية هى « أن السماء التى فوقنا ، كما تبدو لكل من ينظر إلى دائرة الأفق ، عبارة عن إناء مقلوب تشغل الأرض مركزه ... »

واعتماداً على هذا الأمر البديهى الذى يثبت نفسه بنفسه ، وضع الفلكيون نظريتهم ، أن الأرض تقف ثابتة فى مكانها كملكة خالدة أبدية تقدم لها فروض الطاعة كل الأجسام السماوية ! فالشمس تدور فوق الأرض أثناء النهار ، وتحتها أثناء الليل ، فى حين أن النجوم تقوم برحلتها تحت الأرض أثناء النهار ، وفوقها خلال الليل .. وفى كلمات أخرى : أن الكون كرة تقوم بدورة كاملة حول الأرض كل أربع وعشرين ساعة ...

ولكن لاحظ الفلكيون أن هذا التفسير للكون لم يكن سهلاً كما تبدى أول الأمر . فقد لاحظوا أن بعض الأجرام السماوية تغير مواضعها بالنسبة للبعض الآخر ... وبدا كما لو كان لهذه السيارات السابحة أو الكواكب حركة ذاتية .. وأحد هذه الكواكب الذى سماه الفلكيون الزهرة (فينوس) كان يبدو فى بعض الأحيان وهو يتبع الشمس الغاربة ، وفى أحيان أخرى يظهر قبل شروق الشمس .. وكوكب ثالث وهو المشترى (جوبيتر) كان يقوم برحلة بطيئة فى السماء فى اثنى عشر عاماً .. وكوكب ثالث المريخ (مارس) ، كان يقوم برحلته فى سنتين .. وكوكب رابع زحل (ساترن) استنفد ثلاثين سنة ليتم رحلته ، وخامس عطارد (ميركرى) ، كان يبدو هو الآخر كما لو كان يدور فى السماء مستقلاً عن بقية الأجسام السماوية ! ثم كان القمر (عين الليل) كما كانت الشمس (عين النهار) وكان هو الآخر رحالة مستقلاً يتم دورته السماوية فى حوالى ثمانية وأربعين يوماً .

وهنا — إذاً — كانت الأرض فى المركز محاطة بسبعة أجسام سماوية هى : القمر والكواكب الخمسة والشمس ، كل كجوهرة فى كرة متحركة بذاتها .. وخارج الجميع كانت توجد الكرة الهائلة الكبرى التى تحوى النجوم الثابتة ..

هذا فى اختصار كان النظام البطليموسى فى علم الفلك .. كرات متتابعة مثبتة بعضها داخل البعض ، والكل يدور فى

اتجاهات متباينة ، وفي سرعات مختلفة حول الأرض التي نعيش فوقها .

فالإنسان إذاً هو محور كل الأشياء ...

الروح الحي :

ولكن بمرور الزمن وتعمق الفلكيين في دراساتهم وملاحظتهم للسماوات غدا من الضروري لهم أن يخترعوا كرات جديدة وحركات أكثر تعقيداً ، حتى يفسروا كسوف الشمس وخسوف القمر والرحلة التجالية لكوكب من كرة لأخرى ، وبلغ عدد الكرات السماوية في عهد كوبرنيكس تسعاً وسبعين كرة ، في حين غدت حركاتها جد معقدة غير واضحة ، بعيدة عن متناول الفهم .. وعندئذ اتجه علماء الفلك إلى السحر والشعوذة ؛ فكلما بدا أن هناك كوكباً أو نجماً قد خرج عن مداره الصحيح عزوا ذلك إلى الروح الحي لذلك النجم أو الكوكب ...

فيثاغورس وأرستطاليس :

وكان هذا هو نوع علم الفلك الذي يدرسه كوبرنيكس في جامعة روما ، ولكنه ثار بعد ثلاث سنوات من تدريسه ؛ فهو قد وجد أثناء قراءاته العديدة المتباينة إشارات مختلفة لنوع جديد من علم الفلك .. وبعض هذه الإشارات يرجع تاريخها إلى عهد فيثاغورس الفيلسوف الإغريقي الذي عاش قبل كوبرنيكس بعشرين قرناً .. ومن قوله :

« إن مركز الكون ليس الأرض ولكنه الشمس ، فالأرض ليست إلا أحد الأجسام السماوية التي تدور حول الشمس » .

وقد سخر أرستطاليس من هذه الفكرة ، ولكن من حين إلى حين خلال الألفي سنة التي مرت بين فيثاغورس وكوبرنيكس ارتفعت بعض الأصوات مرددة من جديد فكرة فيثاغورس على الرغم من تأكيد أرسطو بخطئها ...

وقد أثارت هذه النظرية التي تقول بحركة الأرض حول الشمس تطلع كوبرنيكس العلمي وزادت شغفه بالمعرفة وكشف أستار المجهول ؛ فماذا لو أمكن لنظام جديد فلكي مؤسس على هذه النظرية أن يفسر كل الكسوفات وكل المواضع وكل الحركات للأجسام السماوية ؟؟ .

كانت فكرة تستحق العناية والدراسة ..

ولكن اختبار مثل هذه الفكرة كان يستلزم انقطاعاً وتفرغاً وعملاً متواصلاً ، وفوق ذلك كان عليه أن يترك تدريس نظرية لم يعد يؤمن بها ، فليس للباحث أن يظل مرشداً ..

إلى الرهبنة والتأمل :

ولهذا استقال كوبرنيكس من جامعة روما ودخل الدير في قرية فرونبورج بپولندا ليتفرغ لإعلاء كلمة الله والتأمل في ملكوته والتفكير فيما أبدع .

ولم يستنفد راهب فرونبورج كل طاقته في واجباته الدينية ودراساته الفلكية ، بل أعطى الفقراء كثيراً من وقته وعنايته الطبية .. وقد جلبت له مقدرته وحذقه كطبيب شهرة واسعة ، حتى إن المرضى من البلاد البعيدة الذين يئس أطباؤهم من شفائهم كانوا يقصدونه تلمساً للعون والشفاء على يديه ... كما كان أطباء أوربا المشهورون يراسلونه باستمرار لينتفعوا بإرشاداته في الحالات التي تستعصى عليهم ..

خزان على النهر :

ولم يكتف كوبرنيكس بتوجيه وإدارته الروحية وخدماته الطبية لأهالي بلدة فرونبورج ، بل بدأ يعمل على راحتهم المادية .. فهذه القرية كان موقعها على جبل ولذا لم يكن في إمكان الأهالي الحصول على الماء الجاري إلا بصعوبة كبيرة ، إذ كان عليهم أن يذهبوا إلى النهر الذي يبعد نحو ميلين تقريباً لجلب ما يلزمهم من الماء .. ولذا صمم كوبرنيكس على أن يرغم الماء على المجيء إلى القرويين بدل أن يرغم القرويون على الذهاب إلى الماء ... فأنشأ خزاناً رفع به مستوى النهر ، وحول مجراه إلى قاعدة الجبل ثم بنى طاحونة ساعدت بطريقة بسيطة ، ولكنها تدل على العبقرية ، على رفع الماء إلى مستوى برج الكنيسة ، ومن ذلك المرتفع استقبل القرويون الماء رأساً داخل منازلهم بواسطة أنابيب ؛ وتقديراً

لهذه الخدمة الجليلة وضع أهل البلدة عند قاعدة التصميم حجراً حفر عليه اسم كوبرنيكس ...

عطوف حكيم :

والحقيقة أن اسم كوبرنيكس كان مرادفاً للفظى العطف والحكمة ؛ فى كل مشروع تعليمى أو لتحسين مستوى الحياة كان عالمنا يستدعى ليدلى باقتراحاته ، وقد وضع نظاماً جديداً للعملة بناء على طلب الحكومة ، كما أدخل تحسينات عملية فى النتيجة استجابة لدعوة الكنيسة ، ويخبرنا كلافيوس فى كتابه القيم الأثرى عن النتيجة : « كان كوبرنيكس أول من اكتشف المدة الزمنية الصحيحة للسنة » (أخطأ كوبرنيكس فى حقيقة الأمر فى حسابه للمدة الزمنية للسنة فى ثمانى وعشرين ثانية) .

وهذا تقاسمت الحكمة والواجبات الدينية والشفقة والعطف حياة كوبرنيكس ، فغدا موضع تقدير واحترام زائد من جمهرة كبيرة من الرجال والنساء ...

ولكنه فى نفس الوقت جلب كره البعض له — وخاصة جماعة التوتونيين — وهم جماعة كانت تتستر تحت مسوح الدين ، فتسرق رجال الكنيسة والجماهير ، وحين جرؤ كوبرنيكس على الاعتراض على سرقاتهم نشروا ورقة وقحة الأسلوب يتهمونه فيها بنفس النقائص التى يتصفون هم بها ... وقد أنكر كل فرد بطبيعة الحال — هذه الاتهامات ، ولكن ذلك لم يوقف هذه الجماعة عند حدها ، بل على العكس أثار أفرادها ودفعهم إلى القيام بأنواع جديدة من الهجوم أعنف من ذى قبل ضد كوبرنيكس ... فحاولوا أن يبلغوا بالسخرية منه ما لم يبلغوه بطرقهم الأخرى .. فقد علموا أن كوبرنيكس كان يضع نظام بطليموس الفلكى على محك الاختبار ليثبت صحته أو خطأه ؛ فوجدوا فى هذا العمل نقطة يشنون منها هجومهم على عدوهم ، وتبعاً لذلك استأجروا عدداً من المهرجين ليذهبوا إلى القرى فيعرضوا على الجماهير دراساته الفلكية فى أسلوب ساخر هازئ ؛ فيبينوا لهم الأرض الثابتة والشمس المتحركة — وتلك الأشياء التى يمكن لأى مغفل أن يراها — ثم عليهم بعد ذلك أن يقدموا — الراهب المجنون — الذى يقول خلافاً لكل نظام وكل إدراك إن الأرض تدور حول الشمس وإن الشمس ثابتة لا تتحرك ...

وقد أغضب ذلك السلوك الدنئ ، وتلك الخصومة غير الشريفة وهذه المعاملة القاسية أصدقاء كوبرنيكس ... ولكن عالمنا الحكيم لم يزد على أن ابتسم وقال :

« دعهم فى غيهم يعمهون .. فحركة الأجسام السماوية لن تتأثر البتة بسخرية هؤلاء المغفلين أو باحترامهم » ..

ثم استمر فى دراسته للسماوات وازداد إيمانه بتفاهة الإنسان وضآلة الأرض بالنسبة إلى الكون ... فقد بدأ يدرك أن كوكبنا هذا لا يعدو أن يكون ذرة من تراب تدور دورة أبدية حول أتون الشمس ...

وأخذت الليالى تترى وهو يرقب النجوم من قمة الجبل ليلة بعد ليلة ويعمل قليلاً قليلا فى النظرية الهائلة للسماوات التى ما زالت حتى اليوم تحمل اسمه ...

وهنا فى اختصار نظريته — نظرية تفسر بكل دقة الحركات المتداخلة والكسوفات للأجسام السماوية .. حتى إنها مقبولة اليوم كحقيقة من الحقائق ..

نظرية كوبرنيكس :

تدور الأرض حول الشمس التى هى مركز الكون حركة مزدوجة — كنحلة — فهى تدور حول محورها وفى مسرى دائرى (أو بالأحرى بيضاوى) .. هذه الحركة المزدوجة تفسر تعاقب النهار والليل وكذلك تعاقب الفصول .. ولكن ليست الأرض هى الكوكب الوحيد الذى يدور حول الشمس ، فهناك كواكب أخرى تدور حول هذا النجم المركزى للكون ، وهى : نبتون ويورانس وزحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد ...

وليست هذه الحركات نتيجة لرغبة جامحة للأرواح الحية لتلك الكواكب ، بل هى تتبع قوانين الطبيعة الثابتة التى لا تخطئ ، وكل من تلك الكواكب يدور داخل مداره الذاتى حول الشمس ، ولا يحيد عن مساره بجزء من الثانية من النظام الزمنى الثابت الذى لا يتغير للسماء ... فكل كوكب لا بد أن يوجد فى أية لحظة فى المكان المحدد له ،

وكل فصل يصل فى الميعاد المحدد له ، وكل حركة لكل جسم سماوى تتم طبقاً للمرسوم .

هذه هى ساعة السماء الخالدة التى لا تخطىء ، كما بينها كوبرنيكس فى نظامه الفلكى . فإذا أنت وجدت مفتاح هذه الساعة وهو حركة الأرض حول الشمس وحركة القمر حول الأرض ، لأمكنك — ليس فقط — أن تفسر ، بل أن تحدد المواقع النسبية لكل نجم وكوكب فى أية لحظة تعطى لك ، وأن تبين الوعد الزمنى للفصول فى أى جزء من الأرض ، والكسوف والخسوف فى أية بقعة من السموات ...

وقد أتم كوبرنيكس نظريته الفلكية الجديدة النواحى فى ثلاثين سنة ، واستعان على إتمامها عملياً بمساعدة حواسه — فلم يكن التلسكوب قد اخترع بعد — ورياضياً بتقديرات عقله النابه وتفكيره الهادىء ...

فبكل صبر وأناة كان يقارن بين مشاهداته المحدودة ومعادلاته الرياضية ، فلاحظ كسوف القمر سنة ١٥٠٩ وسنة ١٥١١ ، وموقع المريخ فى سنة ١٥١٢ وسنة ١٥١٨ ، ومكان زحل والمشترى فى سنة ١٥٢٠ .

واتصال الزهرة بالقمر سنة ١٥٢٥ ، وفى كل حالة كان يلمس المطابقة بين مشاهداته والتقديرات العلمية التى وضعها .. وأخيراً فى سنة ١٥٤٣ كان على استعداد لأن يعلن للعالم أن الأرض ليست سجينة لا تتحرك يسمح لنا منها أن نحيط برحلات النجوم ، بل هى عربة دائبة على الدوران تحملنا معها فى مغامرتها الأبدية خلال الفضاء الشاسع لهذا الكون ...!!

وبتحليلنا النهائى لنظام كوبرنيكس فإننا نجد أنه لم يقلل من كبرياء الإنسان الذى اعتبر فى نظام بطليموس مركز الكون ، بل إنه جلاها وأظهرها .. فبتحرير جسده نرى أيضاً أنه قد حرر عقله ... لقد أعطى هذا النظام أجنحة لتصور الإنسان وزاد من رغبته للمعرفة .. وإن عمل كوبرنيكس ليعتبر فى دنيا الفلسفة وخاصة فى محيط العلم بداية لعهد جديد ...

وأثناء عمله فى نظريته الفلكية كان كوبرنيكس يراسل بشأنها أساطين العلم فى أوربا ، ولكنه تردد مرة بعد مرة فى نشر نتائج دراساته مصدقاً كما كتب فى خطاب إلى البابا أنه قد يكون من الحكمة « اتباع مثال الفيثاغوريين الذين لم يتركوا شيئاً من مشاهداتهم على الورق ، ولكنهم نشروها شفوياً وأوصلوها لمن توسموا فيهم المقدرة على تفهمهم .. » .

وقد أظهر علمنا بهذا التردد أنه حكيم حريص ، فمن المحتمل أنه ظل مدة طويلة مشفقاً من نشر كتابه — ليس لما قد يلحق بشخصه من الضرر — ولكن لما فى ذلك من الخطر على نظريته . فقد كان يشعر أن عليه أولاً أن يبرهن على صحة نظريته بعدد كاف من الحقائق البينة التأكيدية قبل أن يعرضها على العالم ، وإلا كان كمن يضع فكرة غير ناضجة بين أيدى عالم يترصد له ...

كان يخشى ويفزع من أن يرى نظريته القيمة تحطم وتموت قبل أن تعطى الفرصة لتأخذ مكانها فوق أسس قوية ...

وعلى الرغم من ذلك فقد اكتملت له دلائله وبراهينه آخر الأمر وغدا على استعداد وأهبة لأن يقدم نظامه الجديد للكون ، ليس كفكرة ولكن كحقيقة ...

الكتاب الخالد :

كانت سنه حينئذ تسعاً وتسعين سنة ، فعهد بنشر كتابه الذى ضمنه أبحاثه ونتائجه إلى صديق يثق به يدعى تيدمان جيسيس ..

وظهر الكتاب إلى حيز الوجود فى ربيع سنة ١٥٤٣ بمقدمة محية بدون توقيع ، يقول فيها كاتبها المجهول معتذراً عن كوبرنيكس : « لقد كتب هذا الكتاب ليقدم صورة خيالية لا حقيقة علمية .. »

وحين نشر الكتاب كان كوبرنيكس عاجزاً أن يعترض على هذا التقديم الساخر الذى يسخر فيه كاتبه من عمله الذى أمضى فيه زهرة حياته ، إذ كان على شفا الموت مصاباً بالشلل .. ومات بعد عدة أيام من نشر كتابه الخالد الذى لا يموت ، فى الرابع والعشرين من مايو سنة ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين ...

جمال الدين محمد مرسى



هل زار هــــؤلاء مكة

فى القرن الخامس عشر (١)

للأستاذ إحسان عباس

لم يكن وصول الأوربيين إلى بلاد العرب بالأمر الهين اليسور ، وخاصة فى القرن الخامس عشر حين كانت المنافسة التجارية على أشدها بين البحارة العرب والبرتغاليين للاستيلاء على تجارة الهند ؛ ولكن وصول الأوربى إلى بلاد العرب يومئذ أمر ممكن إذا ما قارناه بمحاولة الوصول إلى مكة وزيارتها ؛ ومع ذلك فلدينا أنباء تفيد أن بعض الرحالين زار مكة نفسها فى ذلك التاريخ .

وأقدم رحلة جرت الإشارة إليها ، رحلة قام بها كابوت الأكبر — فيما يقال — . والمصدر الوحيد عن هذه الرحلة كتاب رسمى كتبه سفير دوق ميلان فى لندن ، جاء فيه أن كابوت ذكر خبر زيارته لمكة وتحدث فيها إلى تجار التوابل . وقد حاول بعض الباحثين أن يرد هذه الدعوى وينكر أن يكون شىء من ذلك قد حدث ؛ وحجته فى ذلك أن وصول أوربى مسيحى إلى مكة يعد ضرباً من المستحيل ؛ غير أن دائرة المعارف البريطانية سجلت خبر هذه الرحلة فى آخر طبعة لها ، وذكرت — دون تردد — أن كابوت زار مكة فى أحد أسفاره ، وأن مكة كانت يومئذ أكبر سوق يتم فيها تبادل البضائع بين الشرق والغرب .

لعل كابوت سافر إلى مكة متنكراً كما فعل غيره من المسيحيين ، وفى هذا ما فيه من مجازفة ، ولكن ليست هذه هى الصعوبة الوحيدة التى تقف فى وجه الرواية المتعلقة برحلته ، ذلك أن ما دونه السفير يفيد أنه زار مكة أكثر من مرة ، فما معنى هذا ؟ إن كانت محاولة الوصول إلى مكة مرة واحدة ضرباً من المخاطرة ، فمن الحق أن يحاولها رجل مسيحى أكثر من مرة ؛ ثم هب أن فى النسخة التى وصلتنا شيئاً من التحريف ، فإن الخبر بعد كل ذلك لا يسلم من الاعتراض والتشكك . فقد ذكر السفير فى كتابه أن كابوت رأى القوافل المحملة بالتوابل آتية إلى مكة ، وسأل من ينقلونها : من أين جاءوا بها ، فأجابوه بأنهم لا يعرفون مصدرها ، ولكنهم تسلموها من جماعة آخرين أتوا بها من بلاد بعيدة ، وهؤلاء تسلموها من جماعة غيرهم جاءوا بها من بلاد بعيدة أيضاً ، وهكذا ؛ فاستنتج كابوت مما قالوه أنها تجىء من الشرق الأقصى ، وتصور أنها تنقل من مصدرها الأصلى على ظهور الجمال وتقطع آسيا براً ؛ ولكن كل من يتحدث إلى التجار فى مكة يستطيع أن يفهم منهم أن التوابل كانت تجىء بحراً لا براً ، وأنها لم تكن تأتيها من بلاد

(١) من مقال فى JRAS ، سنة ١٩٤٩ (Part 344) للأستاذ : C. F. Beckingham

جيدة ، بل كانت تنقل إليها على ظهور الجمال من جدة وهي على مسيرة يومين منها .

وإذا كان هناك شك حول ما يروى عن زيارة كابوت لمكة ، فليس ثمة داع لمثل هذا الشك في زيارة بيرو دي كوفيلا لمكة والمدينة — كان كوفيلا رجلاً برتغالياً يحسن اللغة العربية ، سافر مرتين مبعوثاً إلى مراكش ، ثم عهد إليه ملك البرتغال بتقصي البحث عن طرق التوابل . ويقول الفارس الذي كان قسيساً مرافقاً لسفير البرتغال في الحبشة (١٥٢٠ — ١٥٢٦) : إن كوفيلا كان يعرف كل اللغات المسيحية والإسلامية والوثنية . وقد ألقى كوفيلا عصا التسيار في الحبشة بعد أن قضى أربه من الرحلة ، ولم يُسمح له بمغادرتها ، فأفادت السفارة البرتغالية فيها من معرفته باللغة والعادات الحبشية ، وهناك تعرف إليه الفارس ، واتصل به اتصالاً وثيقاً ؛ ولذلك نستطيع أن نتلقى ما يقوله الفارس عنه في ثقة واطمئنان ، لأنه كان رجلاً دقيق الملاحظة .

ذهب كوفيلا وفي صحبته صديق له يدعى بايفا إلى الإسكندرية والقاهرة متنكرين في زي التجار ؛ ثم صحبا فريقاً من المغاربة إلى طور وسواكن وعدن ، وهنا افترق الصديقان ، فذهب بايفا إلى الحبشة ، واستمر كوفيلا في رحلته فوصل إلى الهند ، ثم عاد إلى القاهرة ، وكان قد اتفق هو وصديقه على أن يلتقيا فيها ، غير أنه حين عاد إليها علم أن صديقه قد أدركته المنية ، فوطن النية على أن يرجع للبرتغال ، وفيما هو يتأهب لذلك ، وافاه اثنان من اليهود يحملان له من ملك البرتغال أوامر خاصة ، ونزولاً على تلك الأوامر كتب سجلاً باكتشافاته واستطلاعاته وأرسله إلى البرتغال مع أحد اليهوديين ، ورحل مع الثاني إلى الشرق ، ولما بلغا هرمز افترقا ، وحينئذ ذهب كوفيلا إلى جدة ومكة والمدينة وجبل سيناء . ثم رجع إلى الحبشة حيث أمضى بقية حياته .

ويذكر الفارس أن قبر النبي محمد في المدينة ، وهي إشارة هامة تثبت أنه التمس المعلومات الصحيحة عن كوفيلا ، وهي دليل أيضاً على صدقه فيما روى ، لأنه لم يخطئ، كما أخطأ كثيرون من قبله ومن بعده حين حسبوا أن النبي مدفون في مكة ، وأن المسلمين إنما يحجون إلى قبره .

أما فون هارف — ثالث هؤلاء الرحّالة — فقد كتب رحلته بنفسه ، فقال إنه غادر القاهرة في شهر يوليه عام ١٤٩٧ إلى سيناء ، وإنه قطع بلاد العرب حتى وصل إلى عدن ، وفي طريقه مرّ بمكة ، وهي سفرة فريدة وخاصة إذا قام بها رجل أوربي ؛ ولكن ما يقوله فون هارف يجب أن يؤخذ في حيطة ، ونحن نستطيع أن نصدقه في بعض ما قاله لا في جميعه . حقاً أن قسطاً كبيراً مما جاء في رحلته صحيح ولكنه مشوب بكثير من الأساطير والخرافات .

ونحن قد لا نصدق أبداً أن فون هارف اجتاز بلاد العرب من شمالها إلى جنوبها، ولكنا لا نشك أنه ذهب من مصر إلى فلسطين ، ثم أضاف إلى ما كتبه عن هذه الرحلة أخباراً أسطورية . فقد سمى في بلاد العرب عشراً من المدن لسنا نتبين منها إلا اسم مكة ، أما بقيتها فلا يمكن تعيينها . ويحدثنا فون هارف أنه رافق في الطور جماعة من الحجاج ، وإذاً فلابد أن يكون قد مرّ بالمدينة غير أنه لا يسميها ، اللهم إلا إن كان يعنيها حين يذكر « ربا » — وهو اسم يذكرنا بيثرب — غير أن هذا البلد يقع — حسب تقديره — على مسيرة عشرة أيام من مكة .

ويقول فون هارف إنه رافق ركب الحجاج غير متنكر ، وكان في الرفقة جماعة من المسيحيين واليهود ، ولما أصبحوا من مكة على بعد ميلين ونصف ، توقف عن السير لأن دخوله إلى مكة كان محرماً عليه في هيئته تلك . وهذا كلام غريب . إذ كيف يتيسر له أن يشرف على مكة ، والحجاج إنما يبدأون إحرامهم عند أبيار علي الواقعة على مرحلة واحدة إلى الجنوب من المدينة ، هذا إذا سلمنا معه أنه استطاع مرافقة الحجاج دون تنكر . وأغرب من ذلك

(البقية على صفحة ٢٢)

برهان المعتزلة على وجود الله

للدكتور ألبير نصري نادر

تسترشد المعتزلة بالعقل في البرهان على وجود الله . تقول إن كل كائن عاقل يمكنه أن يدرك هذه الحقيقة — أعني وجود الله — بواسطة عقله . ولذلك يكفيه أن يفكر في المعلولات الحادثة وفي أسبابها المختلفة حتى يصل إلى القول بوجود سبب أول لها . وعلى المفكر أيضاً أن ينظر إلى النظام السائد في العالم ليرى فيه برهاناً جلياً واضحاً على وجود منظم له . فيكون للمعتزلة برهانان أساسيان على وجود الله : برهان بالعلة الفاعلية ، وبرهان بالعلة الغائية .

البرهان بالعلة الفاعلية :

المعلولات كثيرة وعديدة . والحركة أوضح وأعم هذه المعلولات ، وبها تبدأ المعتزلة وتبرهن على حدوث العالم وعلى وجود محرك أول له . فيقول أبو الهذيل العلاف : إنه لا أول لحركات لا تتناهى أولاً(1) . أعني لا تتناهى من طرفها الأول ، وبمعنى آخر هو ينكر الحركة التي لا بداية لها . فإذاً لكل حركة محرك تتحرك بواسطته . وهذا ما تظهره لنا التجربة . ولما كان الأمر كذلك فلا يمكن التسلسل في مجموعة العلل . لذا وجب حتماً أن نقر بوجود محرك أول لا يحركه آخر ، وهو السبب الأول لكل حركة ، وهذا المحرك الأول هو الله(2) .

(1) الشهرستاني : الملل والنحل ج 1 ص 48 .
(2) هذا البرهان بواسطة الحركة فكر فيه أرسطو قديماً وقال بمحرك أول علة الحركة في العالم ، ثم تراجع في قوله لما أدرك أن المحرك يجب أن يماس ما يحركه ، وجدد أفلوطين هذا القول لما قال إن « الواحد » الأول يفيض ويفيض « عقل » ثم يفيض هذا العقل فيحدث النفس العالمية وهي علة حركات العالم ونظامه . لكن أبا الهذيل ترك جانباً فكرة الفيض محافظة على التوحيد والتنزيه ، ومن جهة أخرى لم توافقه فكرة المماسة بين المحرك والمتحرك ، لأن العلة الأولى أو المحرك الأول للعالم لا يمنح هذا العالم المحدث ماهيته ، بل منحه الوجود فقط وكل ما يتعلق بالوجود من حركة وأعراض أخرى .

ويزيد أبو الهذيل قائلاً : بما أن الحركات لا تتناهى أولاً فهي أيضاً لا تتناهى آخراً(1) . أعني أن كل حركة لها أول فلها آخر حتماً . وعلى هذا القول المنطقي يبني أبو الهذيل نظريته في سكون أهل الخلدين ، وهذا السكون هو بمثابة « حالة » نعيم أو عذاب ينتهي إليها كل مؤمن وكافر لما تنتهي حركاته .

والنظام يوضح فكرة أستاذه أبي الهذيل هذه عندما يتكلم في النهايات ويبرهن على أن كل حركة متناهية ، وأن ما هو كذلك فإنه محدث . فيقول النظام : ليس يخلو ما مضى من قطع الأجسام من أن يكون متناهياً أو غير متناه ، فإن كان متناهياً فله أول ، فإذاً هو محدث ، وإن كان غير متناه فليس له أول ، وما لا أول له لا يجوز الفراغ منه ، وفي الفراغ مما مضى دليل على نهايته(2) . فلما كانت جميع الحركات مقيسة بالنسبة إلى المكان والزمان فهي إذاً متناهية ، وعلى ذلك تكون محدثة ، وكل محدث يحدث عن علة ولا يمكن التسلسل في العلل ، فلازم القول بعلة أولى غير محدثة ، وهي الله .

ليس البرهان بالحركة هو كل ما تستند عليه المعتزلة لإثبات وجوده تعالى — وإن كان هذا البرهان هو أسهلها وأولها — هناك براهين أخرى ترتكز على نظريات فلسفية يقدمها بعض المعتزلة ، فمثلاً يستنتج الإسكافي وجود الله من وجود الأشياء ، ويقول : إن الأشياء تبدأ من بدايتها لأنه إن لم يكن لها بداية فلا يمكن أن يوجد شيء . فوجود الأشياء يدل على أن لها بداية . والبداية حركة ، إذ أنها المرور من حالة العدم إلى حالة الوجود . وهذه الحركة يلزمها محرك

(1) الشهرستاني : الملل ج 1 ص 48 .
(2) الخياط : كتاب الانتصار ص 34 .

والتسلسل يمتنع هنا ، فإذاً يوجد محرك أول حرك الأشياء من العدم إلى الوجود(١) .

وبرهان هشام الفوطي يرتكز على الفرق في الوجود بين الجوهر والعرض ، فيقول : إن الأعراض لا تدل على كونه تعالى خالقاً ولا تصلح الأعراض دلالات ، بل الأجسام تدل على كونه خالقاً(٢) . ولا عجب في ذلك — رغم أن الشهرستاني يتعجب من هذا القول ؛ ففي نظر هشام — وفي نظر أغلب المعتزلة أيضاً — الأعراض تصدر طباعاً عن الجواهر ، والأعراض ملازمة للجواهر في حالة العدم . ولما كانت الجواهر تتحقق عندما يمنحها الله الوجود فتكون هذه الجواهر فقط هي البرهان على الأشياء التي منحها الوجود . والأعراض لا تصدر من الله بل من الجواهر عند وجودها — يريد هشام أدلة على الله يُعرف وجودها باضطرار . والأعراض يعرف وجودها باستدلال ونظر ؛ لذلك رأى أن الأدلة القاطعة هي الأجسام ، أعني الجواهر من حيث إن الأعراض تابعة للأجسام والأجسام تابعة للوجود ، ومُنح لها وجودها من علة خارجة عنها . لذلك قال : ليس في العالم لون ولا طعم ولا رائحة ولا حر ولا برد ولا يبس ولا بلة ولا تأليف ولا افتراق يدل على الله ؛ وذلك أن هيئات الأجسام كلها لا تدل على خالقها(٣) . إن قول هشام هذا نتيجة منطقية لقول المعتزلة بالعدم والوجود(٤) . وابن حزم يزيد

(١) تقول المعتزلة إن العدم شيء وذات وحقيقة ينقصها الوجود ، وإن الله يمنح هذا العدم الوجود فقط فيصبح موجوداً . لذلك يقول الاسكافي إن وجود الأشياء برهان كاف على وجود الله الذي منحها الوجود .

(٢) الشهرستاني : الملل جـ ١ ص ٧٨ .

(٣) الخياط : كتاب الانتصار ص ٥٨ .

(٤) هذه الأقوال تبدو مدهشة لأول وهلة ، ولكنها تبدو تماما لما نبحثها على ضوء قول المعتزلة بالعدم . ومسألة العدم من المسائل الرئيسية في فلسفتهم ، وهم يفسرون بواسطة فكرة العدم وجود الله ويميزون ماهيته تعالى عن ماهية العالم كما أنهم يفسرون مسألة الخلق وما يتصل بها من أقوال في الجوهر والعرض — والخلق في نظر المعتزلة هو مرور من حالة العدم إلى حالة الوجود . ولكن في حالة العدم الأعراض ملازمة للجواهر . فإنه الخلق يتعلق فقط بالوجود الذي يمنحه الله للجواهر حتى تكون — أعني حتى تتحقق ، فلا يكون الله الخالق المباشر للأعراض ، إذ أنها تفعل الجواهر بالطباع .

هذا القول توكيداً عندما يذكر معمراً ويقول إنه كان يزعم أن الله لم يخلق لوناً ولا مساحة ولا طعماً ولا رائحة ولا جمالاً ولا قبحاً ولا شيئاً أملس ولا خشناً ولا قوة ولا ضعفاً ولا حياة ولا موتاً ولا مرضاً ولا صحة ولا بصراً ولا سمعاً ولا فساد النبات ولا صحته ، لأن كل هذا إنما تفعله الأجسام طباعاً . وينتهي معمر إلى أن الله لم يخلق سوى الجواهر(١) .

فيكون برهان المعتزلة الأول هذا برهاناً أساسه نظريات فلسفية تتعلق بماهية الكون وبتركيبه من جواهر وأعراض وبمروره من حالة العدم إلى حالة الوجود . فقط هذا المرور — وهو الحركة الأولى للكون — يتطلب عاملاً خارجاً عن العالم ومميزاً عنه . أما الحركات الأخرى وكل ما يتعلق بالجواهر من أعراض فالمعتزلة تقول بأنه عمل طبيعي للجواهر ولا يمكن أن يكون برهاناً حاسماً على وجود الله . لذلك لجأوا إلى الأجسام في إثباتهم لوجوده تعالى(٢) .

البرهان بالعلة الغائية :

إذا كان البرهان الأول يقوم على نظرية للمعتزلة جديدة في الفكر الإسلامي ، ألا وهي فكرة المعدوم الذي يسبق الوجود ، فالبرهان الثاني يقوم على العالم المتحقق في الوجود . وأول ما يلفت نظر العاقل عندما يتأمل في الكون هو هذا النظام السائد فيه . والنظام لا يحصل اتفاقاً . والأفعال المحكمة — على حد قول المعتزلة — دالة على علم مخترعها ؛ إذ الاتفاق والإحكام من آثار العلم لا محالة ، وإذا كان الفعل صادراً من فاعل متقن فيجب أن يكون من آثار علم ذلك الفاعل(٣) . والعقل يدرك هذا النظام عندما يشاهد الصلات الطبيعية المحكمة بين الأعراض وجواهرها ويفهم حينئذ أن لها مدبراً

(١) ابن حزم : الفصل جـ ٤ ص ١٤٨ .

(٢) حاولت المعتزلة أن تبين أن ماهية الله تختلف تماما عن ماهية العالم ، وأنه لا توجد أي مشابهة بين الماهيتين ، فلذلك لا يصلح العالم من حيث ماهيته وأعراضه أن يكون برهانا على إثبات ماهية الله ، بل فقط « وجود » العالم وكل ما يترتب على هذا الوجود يمكن أن يكون دليلا على وجود علة أول لوجود العالم .

(٣) الشهرستاني : نهاية الإقدام ص ٦٧ .

دبرها[1] . وهكذا ترتفع المعتزلة من الأشياء المحسوسة التي تحقق في ثناياها أحكم نظام بتصوره العقل المجرد من كل مصلحة شخصية ، ولتثبت وجود عقل غاية في الكمال رتب ونظم هذا الكون .

فيكون هـذا البرهان متمماً للبرهان الأول ، لأن الله واهب الوجود ، والوجود محقق للجواهر ولكل ما يتعلق بها من أعراض . ولما كان الوجود كالاً . وهـذا الكمال يحرك العقل لما يفكر في المحسوسات أعني الأعراض ؛ والعقل يصل حتماً بعد هذا التفكير إلى القول بعدبر متعال غاية في الكمال . فالعقل كاف في مذهب المعتزلة للوصول إلى معرفة الله ؛ لذلك يقولون إن كل من أهمل هذه المعرفة وقد اكتمل عقله فهو كافر ويحاسب على إهماله هـذا ؛ وبما أن العقل مشترك بين الجميع فعلى كل عاقل أن يدرك هذه الحقيقة الأولى وذلك قبل أي تنزيل .

وإثبات الله بالعقل يترتب عليه أيضاً إثبات الشريعة عقلاً ؛ وهذا ما تقوله المعتزلة وتبني عليه كل المسألة الأخلاقية ، وهذا الأصل من أهم الأصول التي يتمسكون بها وهو أكبر ركن لفلسفتهم .

(بغداد — كلية الآداب) ألبير نصري نادر

(1) الخياط : الانتصار ص ٥٩ .

هل زار هؤلاء مكة

(بقية المنشور على صفحة ١٩)

ما وصف به مكة نفسها ، فقد كان معه ترجمان مسيحي عاولة أشار عليه أن يتنكر ففعل ، وأدخله مكة متنكراً فإذا هي : « مدينة جميلة تسر الناظرين ، وتحيط بها الحدائق .. » وإلى جانبها « نهر جميل واسع المجرى » . وليس هناك نهر كهذا في الحجاز ، وربما كان يعني سيلاً من السيول ، غير أن السيل لا يجرى على مقربة من مكة بل يخترقها .

ويقول أيضاً : « إن المسجد فيها مشيد كأعلى بناء على وجه الأرض » ومن الغريب أن يصدر مثل هذا القول عن رجل شاهد منارات القاهرة ورأى مسجد المدينة ؛ ذلك لأن ارتفاع الكعبة لا يتجاوز خمسين قدماً .

وربما كان الوصف الذي كتبه فون هارف ينطبق على المدينة أكثر منه على مكة ، فالأرض الواقعة بين المدينة والحرة تكسوها أشجار النخيل ، وبين النخيل يزرع القمح وبعض الخضر ، وهناك مجرى من الماء يمر من ناحيتها الجنوبية . وفي ذلك التاريخ كان قايتباي قد جدد مسجد الرسول ، ولعل ارتفاعه استطاع أن يستأثر بإعجاب هذا الرحالة . ومن المحتمل أن فون هارف سمع وصفاً للمدينة ، فأدرجه في رحلته وجعله وصفاً لمكة . وأخطأ حين ظن أن قبر محمد في مكة ، وأن المسلمين يحجون إليها لوجوده فيها . وعند فون هارف ملاحظات أخرى عن بلاد العرب ، ولكن ليس فيها ما يوقف عنده .

إحسان عباس



تلخيص كتاب النفس

لأبي الوليـــد بن رشد

نشر وتحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى — ١٨٨ + ٦٢ صفحة — القاهرة سنة ١٩٥٠

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

لابن باجة — أو ابن الصايغ الأندلسى — ثلاث طرق فى حصول المعقولات : (طريق الجمهور) ، وهو النظر فى الموضوعات أولاً للوصول إلى المعقول ؛ (وطريق النظار) بالنظر إلى المعقول أولاً وإلى الموضوعات ثانياً ؛ (وطريق السعداء) وهم الذين يرون الشىء بنفسه . وقد حاولت — شهد الله — أن أحصل على شىء ذى بال من مسائل النفس والعقل فى هـذا الكتاب فلم أظفر بكبير جدوى .... !

حاولت أن أسلك طريق الجمهور — ونحن فى عصر ديموقراطى — حتى لا أخرج عن إجماع العصر ، فلم أصل إلى شىء ... وحاولت أن أسلك طريق النظار فلم يزدنى النظر إلى المعقول إلا جهلاً بالمعقول . فلم يبق إلا طريق السعداء من طرق ابن الصايغ الأندلسى ، وهو طريق لم أحاول — فى الحق — أن أسلكه خشية أن لا أكون أهلاً للسير فيه ، أو مخافة أن لا أكون مُعدًّا لمثل هذا الطريق .

ولا أكتم القارئ أنى اتهمت (نفسى) ، واتهمت (عقلى) حين لم أخرج من هـذا الكتاب بكبير طائل ! وإلا فما الذى يعنينى أن تكون (العقول) أربعة أو أربعين أو ما شئت أن تضاعف ذلك من الأعداد ! وما الذى يفيدنى أن يكون الفيلسوف العربى (الكندى) قد قسم العقول إلى أربعة ، على حين أن (الإسكندر الأفروديسى) قد قسمها إلى ثلاثة ؟ .

أؤكد لك أنى لم أبال من ذلك الخلاف بين (العقول) فى قليل ولا كثير .. على حين أن الدكتور الأهوانى قد أخذ المسألة بأخذة الجد ، فراح يوفّق بين رأى الكندى ورأى الإسكندر الأفروديسى ، لأن الإسكندر هنا يتحدث عن عقل رابع أو صفة للعقل بالفعل . و « أو » هذه هى التى حيَّرتنى فى منطق الدكتور الأهوانى وفى إدراكه للمعقول ، لأن الصفة للعقل بالفعل لا يلزم منها أن تكون عقلاً رابعاً . فكيف تجعل الصفة لعقل قائم عقلاً جديداً ؟ اللهم إلا أن تكون محاولة التوفيق بين فيلسوف وفيلسوف هى التى تقذف بنا إلى مثل هذه المباحكات .

وقد يسأل سائل كريم : وما دخل الكندى هنا فى كتاب عنوانه « تلخيص كتاب النفس لابن رشد » ؟ . ولكن الحق أن هـذا الكتاب الذى أخرجه الدكتور الأهوانى هو خمسة كتب فى كتاب (واحد) . ولفظ (الواحد) هنا فى كلامى أنا ليس إلا تعبيراً بسيطاً عن المعنى الذى نفهمه جميعاً من كلمة « واحد » . أما (الواحد) بالمعنى الفلسفى الذى ذكره الدكتور الأهوانى فى صفحة ٥٠ شرحاً لنظرية المعرفة والاتصال عند ابن باجة ، فذلك ما لم أرده ولا أود أن أريده لأنه (واحد) غير مفهوم .

وأعود إلى هذه الكتب الخمسة في هذا الكتاب الواحد ؛ ألا تذكرنا بكتب الجامع التي تضم فيها رسالة إلى رسالة ليتكون من الرسائل كتاب ؟ وما في ذلك بأس إذا كانت الرسائل ينظمها سلك واحد ويؤلف بينها موضوع واحد . والسلك هنا في هذا الكتاب الذي نتحدث عنه أقوى ما يكون ظهوراً . فهو النفس والعقل واتصال العقل بالإنسان .

وكتاب النفس هو لأبي الوليد بن رشد ، ورسالة النفس الأخرى هي المنسوبة لإسحاق بن حنين ، ورسالة العقل هي ليعقوب الكندي ، والرسالة الأولى من الاتصال هي لأبي بكر بن الصائغ الأندلسي ، والثانية هي لولد ابن رشد أو لابن ابن رشد ، وقد آثر صديقنا المحقق أن ينسبها على الغلاف إلى ابن رشد ، وأن يحقق نسبها في ص ١١٩ إلى ولد ابن رشد الذي أخذها عن أبيه في حياته ؛ وعدّها صاحبنا من هذا الوجه من كلام ابن رشد .

وكم كنت أوثر أن يكون ترتيب الدكتور الأهواني لهذه الرسائل — من حيث تقديم بعضها على بعض — أكثر تمشياً مع منطق الأشياء ؛ ذلك المنطق الذي ترتاح إليه النفس للطمأنينة وترضى به . فقد كان طبيعياً أن تأتي رسائل النفس والعقل أولاً ثم تليها رسالتا الاتصال ؛ حتى يكون موضوع النفس والعقل في طرف ، وموضوع اتصالها بالإنسان في طرف آخر . أما هذا القفز من النفس إلى الاتصال ، ثم العودة ثانية إلى النفس فالعقل ، فترتيبٌ ما أجدره أن يسمى غير ترتيب .

وكم كان يزعجني ، وأنا أقرأ هذا الكتاب ، أن أنتقل من نفس ، إلى اتصال ، إلى نفس ، كأنما كنت أتوقّل مرتفعاً وعر الصخور ؛ ولطالما سألت نفسي : ألم يكف ما في الرسائل نفسها من صعوبة وعدم طواعية للفهم حتى يزيد الدكتور الأهواني طريقها وعورة بفقدان الترتيب والتسلسل ، وهما سبيل إلى الفهم ؟

ونخلص إلى أن ترتيب الرسائل وترتيب المقدمة الطويلة للناشر المحقق ، قد عرض لهما من الأمر ما لم يكن في طوق صديقنا الدكتور الأهواني ... ففي رسالة العقل للكندي — وهي آخر رسائل الكتاب — يقول الدكتور في التمهيد لها :

وسوف نعرض لهذه الرسالة بشكل أوفى عند الكلام في المقدمة الموضوعية عن العقل وتطوره منذ أرسطو إلى شراحه اليونانيين والإسلاميين .

ونبحث — بعد ذلك — عن هذه المقدمة الموضوعية التي « سوف يعرض لها المحقق » فنراها قد سبقت في أول الكتاب ، وأخذت مكانها منه ؛ فلم يكن هناك حاجة إلى هذا « التسويف » الذي لم يكن له محل ... !

ولنعرج على « طريقة النشر » التي سار عليها صديقنا المحقق والتي عالن بها في مقدمة الكتاب . فقد ذكر أن هناك طريقتين للنشر : الأولى الاعتماد على مخطوطة تثبت في المتن ، وتوضيح الفروق بينها وبين النسخ الأخرى في الهامش ؛ والثانية إدماج النسخ في نسخة واحدة يرى الناشر أنها أليق ما يندرج في النص مع إثبات الفروق في الهامش . وآثر الطريقة الأولى ، لأنه كان أمام مخطوطتين بينهما خلاف كبير . فأثبت نسخة مدريد في متن الكتاب ، لأنها هي التي ارتضاها ابن رشيد وصححها . ولكنه بعد ذلك يقول :

ومع ذلك ، فقد رفعنا من الهامش إلى المتن بعض ألفاظ وعبارات وفقرات عن نسخة القاهرة ، إما لأنها أصح ، وإما لأنها طويلة رأينا إنزالها في المتن .

وليأذن لنا الصديق المحقق أن هذا الاضطراب في الطريق لا يتفق وأصول النشر العلمي ، مهما حاول أن يجد له من أسباب . ولو أنه سار على الطريقة الثانية — طريقة إدماج النسخ الخطية في نسخة واحدة لكان أقوم سبيلاً من الخلط بين طريق وطريق . إلا أنه — على كل حال — متفضل بتقديم هذه الرسائل إلى المطبعة العربية لأول مرة ؛ وبهذا أتاح لها أن ترى النور من جديد بعد أن كانت مطوية في ظلام المخطوطات . وبهذا أيضاً أتاح للناس — أو ميتيح لهم — أن يقرءوها ، وأن يعرفوا وجهة نظر هؤلاء الفلاسفة في النفس والعقل وكيفية اتصال العقل بالإنسان .

وأعود فأسأل نفسي وأسأل الدكتور الأهواني : ما قيمة الاشتغال بهذه البواطن والبحث عن جوهرها

وحقيقتها الأولى ، وهو — كما يقول صاحبنا المحقق — مطلب عسير المنال بعيد عن حدود العقل البشري ؟ وإذا كان علم النفس الحديث يبحث في السلوك والمشاهدات ليصل من الملاحظة والتجربة إلى القوانين العامة ، فلماذا نصدع رءوسنا بمباحث النفس والعقل عند القدماء — يونانا وعربا — وهي مباحث تدخل في الغيبيات التي لا تدركها عقولنا حتى ولو كانت عقول الفلاسفة أو المشتغلين بالفلسفة ...؟!

على أن الدكتور الأهواني معذور حين يخرج لنا هذه المباحث القديمة ! بل فرضٌ عليه وعلى المشتغلين بالفلسفة أن يخرجوها ، لندرك — على الأقل — مدى تصور القدماء للعقل والنفس ؟ وقد أحسن الناشر بهذه المقدمة الطويلة — التي يتواضع فيصفها بالإيجاز — والتي عرض فيها تطور فكرة العقل والمعرفة من أرسطو — عند اليونان — إلى ابن رشد عند المسلمين .

● ● ●

وبعد : فقد قرأت كتاب النفس لابن رشد ، وقرأت معه الرسائل الأربع في فترة من الحر اللافح الذي اجتاح القاهرة من أيام فجعل عذاب النفوس فيها غراماً ... ولعل لتلك الموجة الشاوية أثراً في تقديري لهذا الكتاب ، وسأعيد قراءته حين تسكن النفوس ، فلعل المعاودة لكل هذه الكتب أحرى بالتغلب عليها ! على أني لا أكتم الحق أني أنِستُ من مسائله الجدلية اللطيفة بما يهوّن المشقة في قراءته وفهمه . فما ألطف تساؤل الفيلسوف وهو يقول : (ما بال الحواس لا تحس أنفسها ، مثل البصر لا يبصر نفسه ، ولا الذوق يذوق نفسه ، ولا سائر الحواس تحس بأنفسها ؟) . والفيلسوف هنا هو أرسطو ، ومترجم كلامه هو إسحاق بن حنين المترجم الإسلامي المشهور .

وما ألطف الاعتراضَ على « أفلوطين » القائل بالنفس الواحدة لجميع الناس ، والردَّ على الاعتراض من أفلوطين نفسه . فإن هذا الفيلسوف الذي يعرفه المسلمون وتعرفه الفلسفة الإسلامية يقول بأن النفس الإنسانية لا تقبل التجزئة البتة ، فإذا اعترض عليه بأنه إذا كانت هناك نفس واحدة لجميع الناس فكيف يحدث أن يحسَّ إنسان ما لا يحسه الآخر ، وأن ينفعل الواحد من الناس بما لا ينفعل به الآخر — إذا اعترض عليه بذلك أجاب بقوله : إن النفس واحدة في الناس ، ولكن الأفراد الذين يتركب الواحد منهم من نفس وبدن مختلفون . فإذا وجد شيء واحد في شيئين مختلفين اختلفت صفاته .

وهكذا لا يحرمنا هذا الكتاب من متع عقلية لذيذة ، ولعلها — وهي منثورة مبعثرة في ثنايا الكتاب — أشبه بالواحات الظليلة في صحراء تنقطع فيها الأنفاس ...

محمد عبد الغني حسن



فى مستهل شهر العســـــل ...

حديث فكاهة للكاتبة الأمريكية "Dorothy Parker"

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

قالت الكاتبة :

ضم ديوان عربة « البولمان » رجلاً وامرأة ، هما عروسان فى مستهل شهر العسل ، وبدأ العريس ، وهو فى بذلته الزرقاء الجديدة ، يضع الأمتعة فى أركان رفوف الديوان ، والقطار ينهب الأرض نهباً ، وكأنه عفريت من الجن ينفث الحمم ، ويقذف باللهب .

وكان قوام الأمتعة حقيبتين للثياب ، وصندوقاً للقبعات ، ومع هذا فقد استغرق وضع هذه الأشياء الثلاثة ثمانى دقائق ، وهو وقت طويل جداً ...

ثم جلس الرجل قبالة عروسه ، وكانت فى أتم زينتها ، إذا رأيتها حسبتها درة تتألق ، وكانت تُطل من نافذة القطار وتحدق إلى الأفق وهى ذاهلة ، فلما جلس عريسها تركت النافذة والتقت عيناها بعينيه ، ثم بدأت بابتسامة كادت تكتمل لولا أنها قطعتها ، وبدأت تولى وجهها شطر كتفه اليمنى .

ثم بدأ الزوج الحديث فقال : وبعد ! .

قالت العروس : وبعد ! .

— ها نحن هنا ! .

— نعم ها نحن هنا ! وما دمنا هنا فأين نكون إذاً ؟ .

— ألا خبرنى : كيف يكون إحساس فتاة من الفتيات إذا تخيلت أنها أمست ثم أصبحت فإذا هى زوجة قد تخطاها الشباب ، وتقدمت بها السن ، واشتعل رأسها شيباً ؟ .

— لقد شط بك الخيال فى توجيه هذا السؤال ، بل لقد جانبك الذوق الحسن ، ذلك لأنه لم يمض على زواجنا غير ثلاث ساعات ، أليس كذلك ؟ .

فنظر الزوج إلى ساعة يده ، كأنه يريد أن يتحقق من براعته فى قراءة الوقت ، ثم قال : إن شئت الدقة فاعلمى أنه مضى على زواجنا ساعتان وست وعشرون دقيقة ...

قالت : يبدو لى أن الوقت قد مر بطيئاً ... وإنى لأظن أن هذا راجع إلى أن النهار قد بدأ يقصر ، وأن الليل قد بدأ يطول ، وإنى لأعجب كيف تمر بخاطرى هذه الخواطر ، وأنا التى قد عشت دهراً لا أعد الليالى ...

وإنى لأعجب كذلك مما مر بى ليلة الزفاف ، فقد عدت من الكنيسة ، ثم بدلت ملابسى ، ثم رمانى كل واحد ممن حولى بشىء ، ثم تفرق المتفرجون ، وانفض السامر ، وطوى البساط .

وإنى لأعجب أيضاً كيف يفعل ذلك الناس كل يوم ...

هو : يفعلون ماذا ؟ .

هى : أعنى يتزوجون ، وإنى ليسبح بى الخيال فأرى هذه الاحتفالات تقوم فى الصين وفى كل مكان ، وكأن الأمر سهل ، وكأن الخطب جد يسير .

— وماذا يعنيك من أمر الصين والصينيين ؟ من الخير لك أن تفكرى فى أشياء أخرى .

— إن الذى يعنينى أن الناس كلهم فى سائر بقاع

الأرض يتزوجون كل يوم ، وهم غافلون عما يجيء به الغد ، وأكبر الظن أن كل مقبل على الزواج قد رسم لنفسه صورة ضاحكة للسعادة واضحة المعالم والحدود ، وإذا بتلك السعادة لا أثر لها ولا وجود .

هو : تعالى ! فليس هذا الكلام مما يستهل به شهر العسل ، وها نحن قد تزوجنا ، فلننعمْ ولنسعدْ ! .

هي : حسناً ! ولكن قل لي هل حقاً أعجبك فستاني ؟ .

— لقد كنت في العظمة آية ! .

— يسرني أن أسمع منك هذا كل السرور ، ولقد بدت « إيل » و « لوز » جميلتين حقاً ، أليس كذلك ؟ .

— أقبلي على بسمعك ، فإني أريد أن أسر إليك شيئاً ، ذلك أني رأيت — وأنا أنتظر قدومك في الكنيسة — هاتين الوصيفتين من وصيفاتك فأعجبت « بلوز » الإعجاب كله ، بل قد أعجب بها كلُّ من وقعت عينه عليها .

— أحقٌّ ما تقول ؟ أما أنا فالرأي عندي أن قبعتها وفستانها كانا جميلين ، أما هي فبدت متعبة أو كالتعبة ، ولقد تحدث الناس في ذلك وأطالوا ، أما أنا فقلت لهم : لا تنسوا أنه لم تبق اليوم فتاة في حداثة السن ونضارة الشباب ، وذلك من أثر الهموم والقلق ، و « لوز » تستطيع أن تقول إن سنها لم تتجاوز الثالثة والعشرين ، ولكنها — والحق يقال — تهدف اليوم إلى السابعة والعشرين .

— ولكنها أيضاً — والحق يقال — كانت قبلة الأنظار ، بل كانت فتنة الناظرين .

— يسرني أن أسمع منك هذا الثناء ، ثم أريد أن أسمع رأيك في جمال « إيل » وملاحتها ؟ .

— الحق أقول أني لم أنظر إليها ! .

— أحقٌّ هذا ؟ وإنه لنبأ سيء إن صح ، وما كان لي أن أقول شيئاً في الثناء على أختي ، ولكني — ولا حياء في الحق — لم أر في حياتي من يشبهها ملاحة وجمالاً ، وإنها لتفيض وسامة ، وتفيض حسناً ، وهي قد برئت من الأثرة والأنانية ، وإنه ليسوءني أنك لا تنظر إلى أختي ، بل إن هذا ليحزنني ! .

— بل إني لأجن بها جنوناً ! .

— أرجو أن لا تظن أن تجاهلك إياها ينقص من قدرها ، إن قوماً كثيرين قد جنوا بها من قبل جنوناً .

والذي يغيظني الليلة هو أننا يوم نعود إلى بيتنا ، ويوم تستقر أمورنا سوف لا ترضى أنت عن زيارة أختي لنا ، وكأني بك أيضاً لا ترضى عن زيارة أحد من أهلي لنا .

ألا فاعلم أن في حرماني من زيارة أهلي خسارة لك أنت ، فلا تبالغ في الإعلاء من شأنك ، ولا تمش في الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً .

— هذا شرود في القول ، فأنت تعرفين أني أحبُّ أهلك كلهم ، ومنهم أبوك وأمك ، ومنهم الأحمق والكيس ، ومنهم الخطير والحقير ، فعلام هذه الضجة الكبرى يا مَن تُحبني ؟ وماذا أغضبك مني ؟

ألا فاعلمي أن هذا الشهر هو عندي وعندك شهر العسل ، ولا يليق أن يبدأ شهر العسل بما يحيله شهراً للعلقم والحنظل ، وإني لأظنك اليوم ثائرة الأعصاب .

— إني آسفة على ما بدا مني من غضب ، إنه مجرد تفكير ، وإنك لن تستطيع أن تلوم إنساناً على التفكير ، فلنتعاهد على أن لا يكدر صفونا مكدر .

ثم استطردت تقول : إني لخائفة قبعتي ، فهي تضغط على رأسي ضغطاً شديداً ، وعلى ذكر قبعتي ، أتروقك هي ؟

— إنها تبدو جميلة فوق رأسك .

— أريد أن أسمع رأيك في القبعة ، أجميلةٌ هي ؟

— أنا أعرف أنها من الطراز الحديث ، ولكنها تبدو واسعة ، وإني لأفضل تلك القبعة الزرقاء التي كنت تلبسينها .

— أحقٌّ هذا ؟ ما أجمل هذا القول وما أظرفه ! إن أول شيء تقوله لي ، وقد بعدت عن أهلي وشط بي المزار ، أنك لا تحب القبعة التي ألبسها ، اذكر هذا جيداً ! واذكر أن أول كلمة توجهها إلي أني فاسدة الذوق في اختيار القبعات ...

— لم أقل هذا أبداً يا أعز الناس عندي .

— كأنك لا تعرف أن هذه القبعة قد كلفتني أكثر من عشرين ريالاً ، وأن تلك القبعة الزرقاء التي أعجبتك لم يزد ثمنها عن ثلاثة ريالات إلا قليلاً ، وكان عليك أن لا تتزوج فتاة لا تعجبك قبعاتها .

والآن قل لي : لماذا لم تتزوج لوز .. التي تحسن الظن

دائماً بجمالها وحلاوتها . وبالتالي بحسن ذوقها في اختيار القبعات ؟ وإني لأعرف أنك بها مغرم مفتون . ذلك أن لسانك لم يفتر عن التحدث عنها برهة . وإنه لشيء عجيب جداً أن تجيء بي إلى بلد غريب . وأنت مفتون بأخرى وهواك معها ! فلم لا تطلب يدها ؟ إني لواثقة أنها ترحب بهذا الطلب ، بل ترقص فرحاً . وإني لأتنبأ لك بالسعادة كلها إذا تزوجتها .

— أرعيني سمعك يا فتاتي ! ما دمت قد بدأت حديث الزوجات والأزواج . فإني بدوري أسألك : لماذا لم تتزوجي « جو بروكس Joe Brooks » ؟.

— لست آسفة على ذلك ، ولكني أظنه ما كان يتهز فرصة بعدي عن عشيرتي وأهلي ، ثم يبدأ بالقدح والذم في ذوقي وملابسي ، وما كان Joe Brooks يبالي بمسابقتي أبداً . فإنه كان دائماً بي جد مفتون ...

— لو كان حقاً مفتوناً بك لما توانى في إرسال هدية لك في يوم زواجك .

— لقد علمت يقيناً أنه كان مسافراً ، وهو لن يتوانى عند عودته أن يهبني كل شيء أطلبه من أثاث وفرش .

— اسمعي ! إن هذا لن يكون أبداً . وسوف ألقي من النافذة بكل ما يرسله إليك من أثاث وفرش !.

ولكن كيف عرفت أنه مسافر فهل تبادلتما الرسائل ؟.

— إني لأظن أن لأصحابي الحق في مراسلتي ، ولم أسمع أن قانوناً قد صدر بمنع هذا .

— إني لن أسمح لزوجتي أن تراسل ياماً جو"الأ حقيراً .

— ليس Joe ياماً جو"الأ حقيراً . إن له راتباً كبيراً ، وهو رجل له مقامه ومكانته .. (وبعد) فكيف تجيز لنفسك الكلام عن Joe Brooks ولا أجيز لنفسي الكلام عن صاحبتك « لوز » .

— ثقي أني لم أكن في حديثي عنها سيء القصد والنية . وما كان حديثي عنها إلا وسيلة لإضحاكك وإدخال السرور على قلبك . ثم اعلمي أننا عما قليل سنبلغ « نيويورك » وننزل في أحد فنادقها ، وعندما تفرغين من كتابة خطاباتك سأشتري لك مجلة من المجلات أو كيساً من الحلوى ...

— ماذا تقول ؟.

— أريد أن أقول إني لن أضايقك أبداً ..

— أتستطيع أنت إزعاجي ونحن زوجان ، هذا شيء محال .

فلما وصلا إلى الفندق قال لها في مداعبة : أترين واجباً محتوماً أن تكتبي الخطابات الليلة ؟.

— كلا ! فلست أرى بأساً في التأجيل إلى غد .

ثم ساد الصمت بينهما . ثم استأنف الزوج الحديث بقوله : لن يدب الخلاف بيننا بعد اليوم .

فأجابته : بل لن يدب الخلاف بيننا أبداً ! ولست أدري ماذا دهاني حتى قلت ما قلته .

إن فترة العراك التي مرت بي كانت كالكابوس الثقيل . (وبعد) فلنذكر أننا في مستهل شهر العسل .

فأجابها مردداً قولها : نعم لنذكر أننا في مستهل شهر العسل ...

(من الإنجليزية) مبارك إبراهيم

من أدب الواقع :

لا تيأسى

لا تيأسى من طلوع الفجر وانتظرى
فمن قريب سيجلو ظلمةَ الكَدَرِ
مهما تطاول ليلُ البؤسِ إن له
فجراً يداعب جفن البائس الضَّجِرِ
لا تيأسى — يا ملاكى — وابسمى وثقى
بأن منتظراً يوفى لمنتظِرِ
إياكِ أن تنظرى الدنيا بواحدةٍ
وتُغمضى عينَكِ الأخرى عن النظرِ
فلا ثباتَ لناموسِ الحياةِ ، ولا
ركودَ حتى بجلمد الصخر والمدَرِ
كلٌّ يسير إلى غاياته خبباً
وإن غايتنا النعماء فانتظرى

أتذكرين خلال العام كم حدثٍ
أراعَ قلبَكِ ما يحويه من خطرِ !
إذ كان زورقُنا فى جوف مُصْطَخبٍ
لم يُبقِ عزماً لدى جفنٍ ولم يذَرِ
وكادتِ العاصفاتُ الهوج تقذفنا
إلى دمارٍ فظيعٍ بالغ الأثرِ
عبرتُها مطمئناً غيرَ منخذلٍ
واجتزتُها بسلامٍ غيرَ منكسرِ
وكنتِ يائسةً ، تعساءَ ، جاهدةً
عما يوافيك هذا اليأس من فِكَرِ !!

أتذكرين ؟؟ فما الذكرى بنافعةٍ
إن لم تكونى من الذكرى على عِبَرِ
لا تيأسى فرداءُ اليأسِ مهلكةٌ
لكلِّ متَّشحٍ باليأس مؤتزرِ
هذا الشتاء الذى عانت بنا بدُه
يتلوه خطاءَ ربيعٌ رائعُ الزهرِ
لكن من لم يكن فى الحقل ذا عملٍ
لم يحظ منه بطيبِ الظلِّ والثمرِ

(العراق) — فلى جليل الوردى

الغـــلاء

غلا الغلاء وعما — دى فى الغلو واستمر
وصار سيفاً مُصلتاً — يُزهقُ أرواحَ البشر
وصار حِمْلاً أن نحـ — ـه البُداة والحضر
وحاكماً قد استبد — بالرعايا وقهر
أما له فى مصرع الـ — ـبغى هدًى أو مُزدجر ؟
أرى الغلاء فرساً — أزهم يسبقُ النظر
جاوزَ كل غايةٍ — تبلغ شأوَها الفِكَر
يأيها المُضنى الحيا — ةَ أين أين المستقر ؟
حمَّلتَهُن خلقكَ الضـ — ـنا ووَعثاء السفر
وحسرةَ الجهدِ لم — يُبلغه جهدُه الوَطَر
كأن الجنيه حاكماً — بأمره الكونُ ائتمر
يُسرع فى طاعته الـ — ـمُنقبُ مثلَ مَن حضر
وانتظمت أحكامه — أرضاً وجوّاً وبحر
ويستجيبُ إن دعا الطـ — ـيرُ على هام الشجر
إن يُومِ للماء جرى — أو يُومِ للبدر ابتدر
أو يَشَعْ للقفرِ يَعُدْ — روضاً أريضاً وزهر
تراه من قدرته — يكاد يُنطق الحجر !
يكاد يعدو للنجو — ل ممكناً إذا أمر !
واليوم ولَّى مجدُه — وعن مكانه انحدر
وسحره القديم قد — زال سناه واندثر
مالى أراه كلما — مس الغلاية عثر ؟
وكلما خف إلى — نمائه أخطأ الظفر !
لا يُرتجى بالعين إلى — عهدٍ تولى وغَبَر
فالدهر من عاداته — يُبدل مَن له خطر !
يرى الفناء فى الوفا — ء بعضَ أوهام البشر
إن الحياةَ عِبرٌ — وهو بها بعض العبر !
ويلٌ لمن قد أوقدوا الـ — ـحرب وأيقظوا الغِيَر
وسيَّروا الجنة فى الـ — ـأرض لظًى وشرر
وأسكنوا شبابها الـ — ـكادحَ أعماقَ الحُفَر

مشوا عليها بالخراب يهدمون ما تعمر
ومنجل الحرب الرهيب لم يبق يُبقي أو يذر !
ثم جرحوا جسم الجبا ة وطوّوا مجدَ الدّهر
وملئوا الأيام رعبا والنفوس بالحذر
وبحروا الأرض يسو ح بالبوار مُستطر
ونشروا هذا الغلا ء وهو موتٌ مختصر
هل يُستطابُ العيش والـ موت على الناس انتشر ؟
رباه إن الركب ضلّ عن هداه واعتذر
ظنّ سفاهاً أنه يملكُ أحكام القدر
فلا تدعه يصطلي في الأرض نيران سقر !
فطالما ساد الورى وساد رقٌ وفقر !

محمد الصادق معروف

لقـــاء...

ياقلب صبراً ! فهذا بعض ما حكمت
به عليّ يدُ الأقدار في القِدَمِ
قضت عليّ بأن يشتد بي ظمئي
والسلسلُ العذب مبذولٌ لكل ظمي

•••

قابلتها في أصيلٍ والفؤاد شجٍ
والطير في دعةٍ ، والزهر لم ينم
هيفاء تأسر رائيها .. وترفعه
إلى جواء من الآلاء والنعم
والصدر يبرز معتزاً بما جمعت
مولاته من سمو العقل والكلم
والعودُ رطبٌ ، رواه في منابته
فيضٌ من الدمع أو فيضٌ من الديَم
غضُّ الإهاب فما طاف الحريف به
إلا شفته يد الأنداء والنسم

•••

لما تصافحت الأيدي شعرتُ بها
تُسجل العهدَ ، عهداً غير منفصم
ومسّنى قبسٌ من حبها ، وهجٌ
من كفها ، دافقٌ إشعاعه بدمى
الثغرُ يفترّ عن ضوء ومن شَهَدٍ
والعين يكمنُ فيها بالغ الألم
تبدو الخاوف في أهدابها ألقاً
يسمو بها عن مجالى الشك والتهم
ثم انتحينا وراحت تشتكي حرقاً
باتت مرارتها لاذعة .. بفمي
لها لهاةٌ كأن الهمّ أنطقها
قيثارةً فذةً سحرية النغم

•••

من أنتِ ؟ قالت : أنا أنشودةٌ نَحرت
تشدو بوادي الأسى والوجد والسقم
أنا الجداول تجري من منابعها
فياضةً بالهوى الظامىء النهِم
جارت عليها رمال الشط فانحسرت
وأصبحت نهبةً للجدب والعدَم !
ياتوأمَ الروح مايشجيك يقلقني
حلمٌ تضرب في داجٍ من الظلَمِ
أثرتِ في النفس داء كنت أكتمه
وهجتِ ذكرى سرت مشبوبةَ الضرَم
نفسى فداؤك يا قمرية شرقت
باللحن حزناً فلم تعتب ولم تلم
إنا رفيقان بالبلوى .. يجمعنا
همٌ دفينٌ ، وجرحٌ غير ملتئم
أما شجاك فما زالت لواعجه
في وحدتي خاطراً يوحي إلى قلمي

علي بيرم

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٩٤ | الاثنين ٢٨ من رجب سنة ١٣٦٩ — ١٥ من مايو سنة ١٩٥٠ | السنة الثانية عشرة

على هامش «حيـــاتى»

للأستاذ حسن جلال

خطفت نسخق من هـذا الكتاب من يد الدكتور أحمد أمين بك قبل أن تمتد إليها يد غيرى من بقية الأصدقاء الحاضرين. وكان الأمل أن أفرغ من قراءته فى ليلة واحدة ، ولكنه لازمنى عشرة أيام ، لأنى لم أكن (أزدرد) قصصه وذكرياته ، بل كنت (ألوكها وأتمطق) من بعد قراءتها . فأضعت كثيراً من الوقت فى هذه العملية . وعذرى فى هذا الأمر واضح ؛ فإنى عشت فى جيل أحمد أمين ، وكنت أقرأ فى كتابه — فى كثير من مواضعه — تاريخ حياتى لا تاريخ حياته ...

« فالبيت القديم وسلطان الأب فيه » — لا يزال يطبع خلق . « والحارات ذات البيوت التى يمدها السقاءون بالماء » — من بعض تجاربى . ومعارك (الفتوات) فى الأحياء الوطنية من الصور الخالدة التى انطبعت فى نفسى . والكتّاب ، وحصيره البالى ، وزيره الأسود الأخضر ، وشيخه المكفوف عادة ، وعصاه الطويلة ، وذلك السيار اللعين والآلة الشيطانية التى يحملها — كل أولئك من ذكريات الطفولة التى دمغت أعصابنا الغضة بطابعها الذى لا يمّحى . وطعم ما فى تلك (الزواجير) الأزرية الخضراء

ما زال عالقاً بفمى كما لا يزال طعم (الفلقة) عالقاً بأقدامى — وهذا اعتراف خطير كنت فى غنى عن أن أبوح به كما كان (غيرى) فى غنى كذلك عن أن يكتبه فى كتاب ! ولكن أستاذنا انسجم مع حوادث ماضيه فسجلها فى تلك الصراحة الحية التى عرفناها فيه — ثم قرأناها فأثارت شجوننا :

> وذو الشوق القـــديم وإن تعزى
> مشوق حين يلقى العاشـــقينا !

●●●

أقول إنى قضيت كل ذلك الوقت فى كتاب كان من حقه أن يقرأ فى جلسة واحدة لتسلسل أحداثه ولسلاسة روايته . وذلك لأن صوره الصادقة ألفتنى عن حاضرى ، وسحبتنى حبواً إلى جو ذلك الماضى الضيق الذى لا يمكن أن يستوعب كل ما فيه من جمال إلا من عاش فيه . ونحن الذين عاصرنا أحمد أمين بك تلذنا مطالعة « حياته » أكثر مما تلذ غيرنا من أبناء الجيل الجديد .

وسبب آخر يجعلنى أكثر ارتباطاً من غيرى بمحتويات هـذا الكتاب . وذلك أنى كنت أرى نفسى فى كثير من

لوحاته وصوره . فإنى فى الخمسة والعشرين سنة الأخيرة كنت على صلة مستمرة بأستاذنا لا يكاد ينقضى أسبوع تقريباً دون أن أراه . ولو كان هذا الكتاب (فيلماً) سينمائياً لظهرت فى كثير من مشاهده إلى جوار « الفتى الأول » ...

وعلى ذكر هذا الحديث توجد مناسبة هامة كان يصح أن يشير إليها الدكتور فى كتابه ، ولكنه لم يفعل — ولئن لم تكن هذه المناسبة هامة بالقياس إليه ، فإنها كانت هامة جداً بالقياس إلىّ ، وها أنا أرويها له اليوم بكل تفصيلاتها ، فإن كنت آثرت أن لا أقص عليه تلك التفصيلات فى حينها ...

***

فى صيف سنة ١٩٢٧ على ما أذكر عرضت للأستاذ مشكلة العمامة واستبدال الطربوش بها ، لأنه كان قد ترك القضاء الشرعى ، وعاد إلى التدريس ليكون مدرساً فى كلية الآداب بالجامعة ، فوجد نفسه فى بيئة جديدة يقول عنها هو : « كأنها عصبة أمم . فهذا انجليزى وهذا بلجيكى وهذا ألمانى وقليل من الأساتذة مصريون ، وليس فيهم معمم إلا أنا ... » ويستطرد الأستاذ فى بيان الأسباب التى حملته أخيراً على لبس الطربوش فيقول :

« وشجعنى على هذا ما كنت ألاقيه فى لبس العمامة من عناء . فعامة الناس فى مصر — وخاصة فى المدن — يجلون العمامة ظاهراً ولا يجلونها باطناً ، ويوقرون الطربوش غالباً ويستخفون بالعمامة غالباً . وتغلغل فى نفوسهم مبدأ مقرر ، وهو أن صاحب الطربوش يُحترم إلا إذا ظهر عكس ذلك ، وصاحب العمامة يُحتقر إلا إذا ظهر عكس ذلك ، وكم حدث لى من فصول كرهت من أجلها العمامة . ذهبت إلى فندق مرة فقال لى صاحبه ليس عندى مكان خال ، وإذا بطربوش يأتى بعدى فيخلق المكان ، وأذهب مرة إلى مكتب البريد فأقف وأنا معمم أمام الشباك وقد أتى الطربوش بعدى ، فيقدمه رجل البريد علىّ ، ويجيب طلبه فأثور عليه ، وأطالبه بالعمل بالترتيب . وآتى مرة لركوب الدرجة الأولى فى الترام فيقول لى الكمسارى : تعال هنا — مشيراً إلى الدرجة الثانية — فمنك الدرجة الأولى ! وأذهب مرة إلى كازينو فى ضاحية من ضواحى الاسكندرية ومعى صديق مطربش فيسمح له بالدخول ويمنعنى ، فأعود معه مكتئباً خجولاً . وهكذا وهكذا .

... فذهبت إلى الخياط ، وفصلت بذلتين ، واشتريت طربوشاً . وعدت إلى هذا النوع من اللباس بعد سبع وعشرين سنة منذ كنت تلميذاً فى مدرسة أم عباس . وقد كنت نسيت رباط الرقبة كيف يكون . فكنت ألجأ إلى من يربطه لى إلى أن تعلمته . وانتهزت فرصة افتتاح الدراسة فى العام الجديد ، فذهبت مطربشاً . وكنت أتعثر فى مشيتى فى الشارع ، وفى الكلية خجلاً من الناس ... » .

وهنا — وفى هذا الوضع من حياة الأستاذ — يأتى دور من أدوارى البسيطة ! فقد كنت فى ذلك الحين شاباً أنيقاً أحتفل بهندامى ، وأعنى برونق ثيابى . ولم أكن تزوجت بعد ، ولكنى كنت خطبت عروسى وعقدت عليها — دون أن أراها طبعاً كعادة أهل ذلك الزمان — فلما زرتها بعد العقد ، وأمكننى أن أصافحها وأن أرى وجهها لأنها أصبحت زوجتى الشرعية ، رأت من باب الذوق والمجاملة أن ترد لى زيارتى فى بيتى الذى كنت أسكنه وحدى إذ ذاك ، ويقوم على خدمتى فيه فتى نوبى اسمه « حسن » كذلك . فحددت لى موعد الزيارة وأخطرتنى أنها ستحضر إلىّ مع أختها فى الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم . وشاءت المصادفات أن يكون نفس ذلك اليوم هو الذى حدده الأستاذ لاصطحابى إلى بائع القمصان الأفرنجية وأربطة الرقبة ليشترى منها ما يوائمه مستعيناً فى ذلك بذوقى الذى كان لا يزال يثق فيه حتى ذلك الحين . ولم أشأ أن أحدثه عن ظروفى الخاصة ، وعن ذلك « الموعد الرسمى » الذى حددته

لى عروسى أتزورنى فيه زورتها الأولى . ولكنى قلت لنفسى إن شراء قميصين ورباطين سوف لا يستغرق كثيراً من وقتى ، فلا بأس على من أن أجمع بين الموعدين فأقضى مصلحة صديقى ثم أعود مسرعاً إلى عروسى . ولكن المقادير غير المواتية لعبت دورها معنا فى ذلك اليوم . فقد بعثرنا وقتنا فى اختيار الألوان ... وفى شراء الأزرار الأمامية والخلفية ... وفى انتقاء الأربطة وتجربة ربطها ... ولما طرت راجعاً إلى منزلى وأنا أدرك ما تورطت فيه من سوء التدبير وجدت قرينتى العزيزة فيه تنتظر مضيفها فاسد السوق ، وتواجه أول فصل من فصولى البارودة التى ظلت تحتملها منى منذ ذلك الزمان فى صبر جميل أسأل الله أن يجزل ثوابها عنه . وقد مر ذلك اليوم فى ظاهره بسلام ، ولكنى لا أبرئه من إحداث أسوأ الآثار فى نفس تلك الآنسة المهذبة التى أصبحت فيما بعد أم أولادى ، ومن تلك النظرة الصامتة الشزراء التى تلقيها على كلما سقطت معها سقطة جديدة ، كأنما تريد بها أن تذكرنى بما مضى وتقول :

— ومع ذلك ألست أنت من تركنى وحيدة فى أول زيارة لى إلى منزله ليشترى قميصاً لبعض أصدقائه ؟ !

• • •

إنى لأرجو أن يكون لهذا الحديث نصيبه عند إعادة طبع الكتاب . كما أرجو أن تتناول الطبعة الجديدة قصة « عادة السوارس » بتعديل طفيف فى أمر « المخالفة » « والجنحة » « وسلطة النيابة فى حفظهما » ، ثم « عريضة الدعوى » « وورقة الاتهام » مما يقتضيه المقال فى مثل هذا المقام .

• • •

وبعد ...

فقد أكثر الأستاذ من وصف نفسه فى شبابه « بالصبى الشائع » ، وبأنه صاحب النفس الحزينة التى لا تعرف المرح والابتهاج ، وهو يمعن فى تفسير هذه الظاهرة وتحليلها .

وأنا أريد هنا أن أطمئنه على نفسه وأقول له إنه كان دائماً صاحب أصلح نفس فينا ، كما كان أكثرنا استمتاعاً بالفكاهة ، وأكثرنا استعداداً لإلقائها . وهذا وصفه لحياته تزخر مشاهده بالدعابة الرقيقة والفكاهات الطريفة التى يزجيها حساً ذلك الأسلوب الساذج السمح الذى اصطنعه لنفسه فأصبح من خواصه ومميزاته . وأنا إن اخترت النادرة التالية لأختم بها كلمتى هذه فإنما أسوقها على سبيل المثال للتدليل على صحة ما أذهب إليه من نظر فى هذا الشأن . فهو يروى فى كتابه أنه انتخب ليكون عضواً فى مؤتمر المستشرقين الذى تقرر انعقاده فى بروكسل فى سنة ١٩٣٨ ، وأنه حدثت له هناك حادثة طريفة رأى أن يشير إليها فى مذكراته فقال : « ذهبت إلى حلاق فى تلك المدينة لا يعرف كلمة انجليزية وأنا لا أعرف كلمة فرنسية ، فكان كلما حدثنى بالفرنسية قلت له : Yes ، وإذا حدثته بالانجليزية قال لى Oui ، وأنا لا أفهم ما يقول ، وهو لا يفهم ما أقول ، حتى رأيت آخر الأمر رأسى وليس به إلا شعر خفيف جداً قصير جداً والدنيا برد ، وأنا مضطر عند دخولى قاعة المؤتمر أن أخلع قبعتى ، فلا أجد بها شعراً يقاوم برداً ولا يجمل منظراً » . وقصصت القصة على زميلى الدكتور طه حسين والدكتور عبدالوهاب عزام فضحكا وأغرقا فى الضحك ، وقال الدكتور طه : إنى سأضع رواية أسميها « حلاق بروكسل » على وزن « حلاق إشبيلية » ، ونظم الدكتور عزام قصيدة أذكر منها :

ونظر الأستاذ فى (المراية)
فلم يجد فى رأسه (شعراية)

• • •

جزى الله إخوان الصفاء خيراً عن كل ما أمتعونا به من أحاديثهم المؤنسة وعما يدخلونه دائماً على نفوسنا من سرور !

حسن جبول

بعض أنواع القرائح والأفهام

للأستاذ على أدهم

من حكم المتنبي المأثورة قوله :

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وآفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الآذان منه
على قدر القرائح والعلوم

ورأى المتنبي في هذين البيتين صحيح لا غبار عليه ، فالرجل المدخول العقل السقيم الفكر كثيراً ما يعيب الأقوال الصحيحة ، لأن عقله الواهن العاجز لا يمكنه من فهم مدى صحتها ومقدار حظها من الصدق والإصابة ؛ ولكن هل ضعف التفكير وعجز العقل وقصور النظر هو السبب الوحيد الذي يلقى بين الناس وبين الفهم الصحيح حجاباً صفيقاً ويقيم حاجزاً لا يمكن تخطيه ؟ أظن أن تجارب الحياة تنقض ذلك ، فليس الفهم السقيم وحده هو الذي يجعلنا نرى الصواب خطأ والخطأ صواباً والجمال قبحاً والقبح جمالاً . وكثير من الناس الذين لا نشك في رجحان تفكيرهم وأصالة آرائهم قد يعيبون الأقوال التي نراها صحيحة لا لأنهم أوتوا من ناحية الفهم ، وإنما لأن أسلوبهم في فهم الأمور وطريقتهم في النظر إلى الأشياء تخالف أسلوبنا وتناقض طريقتنا ؛ وقد تتفاوت العقول في القوة والضعف كما لاحظ المتنبي بحق ، فتفهم الأمور فهماً واسعاً شاملاً أو فهماً ضيقاً محدوداً على قدر نصيبها من السعة أو الضيق وحظها من العلم أو الجهل ، ولكن هذا شيء آخر غير اختلاف ألوان الأفهام وتباين أنواع القرائح الذي يجعلني أمقت تفكير فلان من الناس وأرميه بالخطأ والانحراف لأن طريقته في الفهم تختلف عن طريقتي وتناقضها .

والواقع أن عقولنا حينما تحاول فهم الأشياء تكون متأثرة بأحوالنا الجسدية وظروفنا العاطفية وأهوائنا وميولنا وعقائدنا الموروثة ونشأتنا وسائر ملابسات حياتنا ، أي أن حالتنا الصحية وحالتنا الأخلاقية لها أثر كبير في فهمنا للأمور ، وكثيراً ما نعرف رجالاً لهم فطنة وذكاء ، ولكنهم مع ذلك لا يحسنون عملاً ولا يصنعون شيئاً ، لضعف في إرادتهم أو لفتور في همتهم أو لخطأ وقع في تربيتهم ، ولكن برغم مؤثرات التربية والنشأة والجسد والبنية ولون المزاج ، فإن العقول تتفاوت وأساليب الفهم تختلف وتتباين وتتعارض ، والعقول قد تختلف في النوع والصنف كما تتفاوت في القدرة والتفوق ؛ فإذا استعنا في تنسيق أنواع العقول بالنظام الأفقي والنظام الرأسي وجدنا أننا قد نضع في مستوى أفقي واحد عقلين مختلفين اختلافاً شديداً ، ولكننا نضعهما على مسافات متباعدة ، وذلك مثل عقل برجسون وعقل برتراند رسل مثلاً ، وقد يكون بعض المتصوفين أقل قوة بكثير من عقل برجسون ، ولكن فيه من الشبه به والاقتراب منه ما يجيز لي أن أضعه في درجة أنزل منه في المستوى الرأسي ؛ وهكذا قد تتقارب العقول في المستوى الأفقي لأنها من نوع واحد وتتباعد في المستوى الرأسي حسب قوتها أو ضعفها .

وبعض الفروق الأفقية أو الرأسية طبيعية ، وبعضها مكتسب حادث ، وقد تخفف التربية من حدة الفروق أو تصلح منها .

وأوفق ما عرفت من تقسيم ألوان العقول وصنوف الأفهام هو التقسيم الذي وضعه العلامة النفسي الكبير يونج في كتابه المشهور عن الطرز النفسية ، فقد قسم يونج الناس إلى قسمين رئيسيين : النوع المنطوي على نفسه ، الدائم النظر في ذاته ، والنوع المنبسط الموكل بالنظر إلى العالم الخارجي ، فالمنطوي على نفسه يؤثر الانسحاب من العالم الخارجي ، لأنه يتحاماه ويخشاه ويضل في متاهاته ويشعر بما فيه من مقاومة له ، فيلوذ بعالمه الداخلي ويعتصم به ، وهو يعتقد أن فكرته عن الأشياء أصح وأصدق من الأشياء في ذاتها ؛ وهو حينما ينظر إلى الأشياء الخارجية يريدها على أن

تلائم الصورة التى رسمها لها وتوافق الفكرة التى كونها عنها . أما النوع المنبسط فإنه يحاول أن يلائم بين نفسه وبين الأحوال الخارجيـة ؛ فعند المنطوى لا قيمة للمظاهر الخارجية الزائلة ، وعنـد المنبسط أن الأفكار إن لم تطابق الواقع فإنها خيالات لا قيمة لها ولا معنى ، وهو يبذل جهده فى الملاءمة بين نفسه وبين الواقع ، ولذا لا يطمئن المنطوى إلى أساليب تفكير المنبسط ، ولا يرتاح المنبسط لتفكير المنطوى ويشك فيه ويتهمه ؛ ومن ثم الخلاف القائم بين وجهة نظر الطراز المنطوى والطراز المنبسط ؛ وهو يتمثل فى عالم الفلسفة فى الخلاف بين الإفلاطونيين والإرسطاطاليسيين ، أو بين المثاليين والواقعيين ؛ فهذه المعركة القائمة بينهما منذ عهد بعيد هى فى الواقع الخلاف القائم بين وجهة نظر الطراز المنطوى والطراز المنبسط ؛ والمذاهب الفلسفية المتعارضة والآراء المتناقضة لم تخرج عن كونها تعبيرات عن هـذين الطرازين المتعاكسين ، وكلا الطرازين له حججه وبراهينه وآياته وبيناته ، وهما يختلفان بطبيعة الحال فى اختيار المقدمات ؛ ففريق يرى مثلاً أنه من الطبيعى المألوف أن نفترض أن العالم الخارجى أكثر واقعية وأصدق دلالة من عالمنا الداخلى ، والفريق الآخر يرى أن الأمر على نقيض ذلك ، ويذهب إلى أن العالم الداخلى هو الأحق بالرعاية والأولى بالتصديق ، وكلاهما يرى أن وجهة نظره هى الحق وأن وجهة نظر مخالفه هى الباطل .

وهـذه المعركة التى تدور رحاها فى عالم الفلسفة لها نظائرها فى ميادين الفن والدين والاجتماع ، ودوافعها الأصيلة هى نفس اختـلاف الطرز العقلية وتفاوتها . وقد قرأت فى صدر حياتى الأدبية كتاب المفكر المعروف إدوارد كيرد عن حياة هجل وفلسفته ، كما قرأت كتاب هجل عن فلسفة التاريخ ، وقرأت ما كتبه مؤرخ الفلسفة شوجلر عن فلسفة هجل ، ووقفت على رأى سترلنج صاحب كتاب « سر هجل »[1] ، ومضيت بعدها فى الاطلاع على الجوانب المختلفة لفلسفة هجل ، فأعجبت بها وأكبرت عقله المستوعب الدقيق وتفكيره الشامل المحيط ؛ وأتيح لى بعد ذلك

(١) The Secret of Hegel. by J. H. Sterling

أن أقرأ ما كتبه عنه « ماكى توردار » فى كتابه عن « تفسير التاريخ » فإذا بتوردار يهاجمه هجوماً عنيفاً ويسخر به ويتهكم عليه ، ولا يكتفى بذلك بل يغمزه غمزاً قاسياً ، وقد اطلعت فى العام الماضى على كتاب الأستاذ بوبر المسمى « المجتمع المفتوح »[1] ، فإذا به يفرد فصلاً من فصول كتابه الضافية لنقد فلسفة هجل ، ولا يكتفى بذلك بل يتنقص شخصه وحياته ، وينعته بالوصولية وتملق الأقوياء وأصحاب السلطان ؛ وقد جعلنى ذلك أعجب من شأن هذا المفكر الكبير الذى يذهب قوم إلى أنه فيلسوف كبير ويهبط به قوم آخرون إلى مستوى الأدعياء والدجالين والسوفسطائيين والوصوليين ! وتفسير هـذه الظاهرة فى رأيى هو هذا الخلاف القديم بين رأى المنطوين على أنفسهم والمنبسطين ؛ وملاحظتى لنفسى تجعلنى أميل إلى حشرها فى زمرة المنطوين على أنفسهم المعتدلين ؛ ولعل هـذا من أسباب إعجابى بفلسفة هجل وأمثاله من الفلاسفة المثاليين . وماكى توردار والأستاذ بوبر على ما يبدو لى من الطراز المنبسط ، ولذا لا تعجبهما آراء هجل ، ويريان أنه يحاول أن يفرض أفكاره على الواقع بدلا من أن يسترشد بالواقع ويحاول أن يلائم بينه وبين تفكيره .

ومن الناس من يرتاحون بطبيعتهم إلى التفسير المادى لحياتنا الداخلية ، ومنهم من ينفر من ذلك ويستنكره ؛ ومن الصعب على المثالى النزعة أن يؤمن بوجهة النظر المادية ، وكذلك يجد المادى النزعة الكثير من الحرج والضيق فى الأخذ بآراء المثاليين .

ولا يكتفى يونج بتقسيم الناس إلى هذين الطرازين ، بل يحاول أن يقسم كل طراز من هذين الطرازين إلى أربعة أقسام أخرى ، وهى الطراز المفكر والطراز الشاعر والطراز الذى يفهم الأمور بالبداهة والفطانة والطراز الحسى ؛ فالطراز الفكرى نقيض الطراز الذى يعول على الشاعر ، والطراز الذى يعتمد على الفطانة نقيض الطراز الذى يرجع إلى الحس . وتقسيم الناس إلى من يعولون على الفكر ومن يعولون على الشعور قد سبق إليه مفكرو القرن الثامن عشر ، فقال لورد

(١) The Open Society & Its Enemies. by Popper

ستريفيلد كلمته المشهورة : « الدنيا ملهاة عند الذين يفكرون ، ومأساة للذين يشعرون » .

فالفكر المنبسط يعنى بالأشياء والناس ، ويرى أنه رجل عمل ، ويبدأ من الحقائق والوقائع ويعتمد عليها ويقيم بناءه فوق صخورها ، وكونه من الطراز المفكر يدل على أنه ينقص حدة الشعور ، فهو من ثم يفخر بأنه رجل لا تسيطر عليه العواطف ولا ينقاد للأهواء ، بل لعله يجد شيئاً من الصعوبة في فهم هؤلاء الناس الذين ينقادون لعواطفهم ويستسلمون لأهوائهم ونزعاتهم ، وهو يعتقد أن العقلاء هم الذين يوافقونه على آرائه ويذهبون مذهبه ، وأن الحمق السخفاء هم الذين يعارضونه ويخالفونه ، ومن ثم يحاول أن يفرض آراءه على الغير ويحاول جهده أن يحملهم حملاً على الأخذ بها والإيمان بصحتها ؛ ومن أمثلة ذلك فريق من المشتغلين بالسياسة وفريق آخر من المعنيين بالمسائل العلمية .

أما الفكر المنطوى على نفسه فإنه يغلب عليه التزام الهدوء ، وقد يصل به الهدوء إلى حد الفتور والبرودة ، وهو يعنى بالأفكار لا بالوقائع ، وهو يبدأ بالنظرية ويستنبط منها الحقائق ، وغلبة التفكير عليه قد تنقص إنسانيته وتجعله أسير الأفكار والنظريات ، وقد تزين له الإسراف في ذلك حتى يصل به الأمر إلى حد الهوس والتعصب الأعمى ، وبعض الثائرين الطغاة من هذا الطراز مثل روبسبيير وكارل ماركس ولينين .

والمنطوى على نفسه الذى تغلب عليه النزعة الشعورية يصبح بسبب انطوائه على نفسه زاهداً في الاجتماع بالناس والاقتراب منهم ، ويجد صعوبة في التعبير عن نفسه ، ويكون قوى الشعور سواء بالحب أو العداوة والبغضاء ، ويسبب له ذلك آلاماً شداداً وأزمات حادة ، لأنه لا يستطيع إظهار هذه العواطف ، ويصفه الناس بالأنانية وإضمار الكراهة لهم ، وكثير من الشعراء من هذا الطراز ، فهم يكتبون على الورق ما لا يجترئون على النطق به ، وربما كان الشاعر الألماني العاطفي الهجاء هيني من هذا الطراز .

والطراز المنبسط الشعورى يكثر بوجه خاص بين النساء ، وأصحاب هذا الطراز واقعيون اجتماعيون مستمسكون بالتقاليد ، لا يشذون في ميولهم عن جيرانهم وأهل جيلهم .

والمنطوى على نفسه الحسى يقدر طيبات الحياة ويتذوق أنعم العيش ، ولكن وراء ما يبدو من امتلاكه لنفسه قلق دائم واضطراب خفى ، لأن أوهامه ومخاوفه وأحلامه تلقى ظلاً من الريبة على الأشياء التى يستمتع بها ويستطيبها .

والطراز الحسى المنبسط يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فهو تحت رحمة ظروفه المادية وبيئته الواقعية ، وهو سريع الملل والتبرم ، ويتطلب على الدوام محركات ودوافع من الخارج ، ولا يثبت على خطة ولا يصبر على متابعة عمل من الأعمال ، وقد يبدو طلقاً باشاً جم المرح ، ولكنه قد ينقلب في طرفة عين فظاً غليظاً لأن نقص بداهته يجعله في كثير من المواقف عاجزاً عن تقدير ظروف غيره من الناس وفهم أفكارهم ومشاعرهم ؛ كما أن عقله الباطن يوحى إليه على الدوام أن الناس يحاولون استغلاله والإفادة منه ، وهو عرضة لنوبات الغرور والمغالاة بالنفس ، وقد يعزو إلى نفسه ضروباً من الحزم وبعد النظر ، وأصالة الرأى تنقصه كل النقص .

والمنطوى على نفسه من الطراز الذى تغلب عليه قوة البداهة ، هو نقيض الطراز الحسى المنبسط ، فهو لا يحفل بالحقائق الخارجية عنه ، وعالمه ذاتى خالص ، والمحتملات هى التى تستأثر بتفكيره لا الوقائع والكوائن ، وهو يحاول أن يلقى ظل نفسه على الأشياء ؛ وأصحاب هذا الطراز شديدو الاعتزاز بكرامتهم ، وربما كانوا غير ثابتين فى ولائهم وصداقتهم .

والمنبسط من الطراز الذى تغلب عليه قوة البداهة لا يستقر على حال ، مثل المنطوى الذى تغلب عليه قوة البداهة ، ولكن قلقه أظهر وأوضح ، فهو لا ينفك طالباً التغيير ، وكراهته للاستقرار تجعله يرحب بكل ما يقع من تبديل ويقبل على كل جديد ؛ وهو من ثم يميل إلى المقامرة والمخاطرة لأن محتملات الربح والكسب ونقص التفكير المنتظم يجعلانه غير عابئ بالأخطار الكامنة وأسباب الإخفاق المنتظرة ، وهو فى الحياة نهاز للفرص ، يشق طريقه فى الدنيا بالعناد الذى يشبه عناد الأطفال ، والتعلق بالأمل الذى قد لا يكون له من الظروف والأحوال ما يسوغه ،

(البقية على صفحة ١٢)

الحياة الأدبية فى أندونيسيا

للأستاذ أحمد طه السنوسى

تنتشر فى أندونيسيا مدارس البنين والبنات من ابتدائية وثانوية ، وذلك فى المدن والقرى ، وإقبال الأهالى عليها شديد . أما المعاهد العالية كالطب والهندسة والحقوق والزراعة والتجارة ، فهى فى المدن الكبرى فقط ، وقد تخرج منها عدد كبير ، فهناك المحامون والمهندسون والأطباء ، كما أن هنالك عدداً كبيراً تخرج من جامعات أوربا ، وعلى الأخص من جامعات هولندا ، وتشترك الجامعة المصرية فى تخريج من يتعلم فيها من الشباب الأندونيسى ، كما أن الأزهر الشريف له حظ فى ذلك .

وتقوم الجمعية « المحمدية » بأعظم قسط فى تعليم الأهالى الدين وغرس مبادئه الصحيحة فى نفوس الأحداث ، أنشأها المرحوم الحاج دحلان ، ولها مئات الفروع فى أنحاء أندونيسيا ، ولا يقل أعضاؤها عن ثلاثة ملايين ، وجمعية « والفجر » التى أنشأها الأستاذ هاشم هى الجمعية الوحيدة التى تعنى كثيراً بتدريس اللغة العربية بعد المدارس العربية ، وقد استعانت بعض مدارس البنات العربية ببعض خريجاتها لتدريس اللغة العربية فيها .

وتسير رياض الأطفال على أحدث الطرق التربوية ، وتقوم برعايتهم مدرسات مثقفات ثقافة عالية ، وتهتم المدارس على اختلاف أنواعها بالنشاط المدرسى اهتماماً عظيماً ، فالكشافة والكرة والرحلات وتأليف الجمعيات وإصدار المجلات كل ذلك من أهم ما يعنى به المنهج الدراسى ، ومما هو جدير بالذكر حقيق بالتسطير أن المناهج الدراسية يسودها الاستقرار ، وهى تخلق من الأحداث رجالاً يعتمدون فى مستقبلهم على أنفسهم أكثر مما يعتمدون على الوظائف الحكومية ، ولذا نجد كثيراً من حملة الشهادات يفضلون الأعمال الحرة على دواوين الحكومة ...

والمطابع هناك كثيرة ، والورق متوفر ورخيص الثمن ، بيد أنه بالرغم من هذا كله ، فإن الإنتاج العقلى يعوزه التشجيع والاهتمام والنشاط والتقدم ، فالمؤلفات قليلة جداً ، ولكن الصحف والمجلات كثيرة ويقرأها خلق كثير كما يقبل عليها معظم الناس ، ويلاحظ أنه ليس من أثر للمجلات الفكاهية ، وهذه ظاهرة عجيبة يماثلها أنه لا يوجد أيضاً فى نفس البلد مجون فى الغزل ، فالملحوظ أن الجد يسيطر على ما يكتبه الأدباء والعلماء .

ويلاحظ أيضاً أن ميل الرجل الأندونيسى إلى الفنون الجميلة أكثر وأقوى من ميله إلى الأدب وإقباله عليه ، ولذا كان بروزه فى الرسم والغناء والموسيقى العاطفية واضحاً ملموساً . والأندونيسيون يقدسون هذه الفنون كل التقديس ، ومعظم أسس أغانيهم على الأنغام لا الكلمات ، أما الأنغام فخليط من الغولية والهندية ، وجلّ أغانيهم فى الغزل ، ومعظمها حلو عذب يميل إليها الشرقى ويستسيغها الغربى ، بيد أنها لا تحمل شيئاً كثيراً من صفات الخلود ، فسرعان ما تندثر وتحل محلها أغان جديدة .

والرقص الأندونيسى رائع ، ولكنه دقيق صعب يحتاج الغريب إلى تكرار مشاهدته حتى يتمكن من تقديره وفهمه ، وأساس هذا الفن مرونة الحركات ولغة اليدين والرجلين والوجه ، فكل لمحة وكل لفتة وكل حركة بالذراع أو بالكف أو بالقدم تعنى شيئاً خاصاً ، والرجال كالنساء يرقصون ويحركون رقابهم وأيديهم وأرجلهم وعيونهم طبقاً لقواعد تلك اللغة الصامتة . وهناك ضرب من الرقص الكلاسيكى يقال له Wajang ما عتم محتفظاً بأوضاعه القديمة وهو محبوب جداً من الوطنيين ، وثمة ضرب آخر من الرقص يجيده غالبية الأندونيسيين ، وذلك هو (البدويو) ،

ونوع خاص يسمى (سريمبي) تجيده طبقة خاصة من الفتيات النبات، وهذا النوع يعتمد على لفتات الوجه ورشاقة الإمساك بالثوب المنهاف ...

ومسارح التمثيل قليلة، وتقوم معظم موضوعاتها الروائية على الأساطير الأندونيسية القديمة وعلى قصص ملوك الزمان الغابر وما ناله هؤلاء من عز ومجد، والمسرح الجاوى يهتم الاهتمام كله بالقصص الأندونيسى التاريخى، ولهذا يتزاحم الأندونيسيون ليشاهدوا ما يعرضه ذلك المسرح من قصص تمثيلى وتمثيل وطنى وأداء شعبى.

.. ويتداول الأندونيسيون لغات كثيرة، أهمها وأكثرها انتشاراً اللغة الملايوية (الماليزية) وهى سهلة التفهيم بسيطة فى قواعدها ومفرداتها، وتكتب بالحروف اللاتينية، ولكن رجال الدين يكتبونها بالحروف العربية، وفيها كلمات دخيلة من عربية إلى سنسكريتية إلى فارسية.

وبالتمعن فى الأدب الأندونيسى نرى أنه لم يبلغ بعد درجة سامية من الكمال، ومن هنا يجنح البعض إلى القول بأن اللغة الماليزية لغة تفاهم وتخاطب وليست لغة آداب.

ولكن ما قيل فى الغزل فى هذا الأدب — ومعظمه من هذا النوع — على جانب عظيم من السمو، فيجد المرء فيه حساً دقيقاً وروحاً رقيقاً ولطفاً فى انسجام الأخيلة وتناغمها، فهو غزل حالم يبعث العاطفة ويمجد الجمال ولا يزور عنه، ويسطر روح الفكرة دون أن يبلغ منها حد موضوعها، وتقرأ فيه فلا تجد تعقيداً ولا إفساداً فى المعانى، فإذا انتهيت إليه رأيت ازدحاماً فى المجازات وكثرة فى الاستعارات وجنوحاً إلى التشبيهات.

وقد خلا الشعر الأندونيسى من المآسى الباكية، وراء دنيوياً يتابع الدنيا دون أن يمد نظره فى أفق ما بعد الحياة أو ما قبل الوجود، يدلف ما بقيت الدنيا كأنه متخير لا يخلف لأنه لا يخلف، وليس له من سبيل إلى الغرب، وحظه فى ذلك كحظ الشعر اليابانى الذى تعلوه مسحة الشيخوخة وتغذيه الآداب الصينية وتمشى فى تجاليده المدنية الغربية أكثر مما تمشى فى الآداب الشرقية الأخرى ...

والملحوظ أن الأدب الأندونيسى يجيد استعمال الحواس كل الإجادة، ولعل للطبيعة الأندونيسية البديعة الأثر الكبير فى ذلك، فهذه المروج الخضراء، وهذه السهول والشلالات والبحيرات ذات المياه الصافية الساجية، وهذه السفوح والوديان، وهذه العيون والينابيع التى تتفجر فى البطون السحيقة كانفجار الدم من شرايين القلوب أو كانفجار الصدحات من أعماق الطيور، كل هذه ساعدت أدب أندونيسيا على إجادته استعمال حواسه كما ساعدت على تقوية خياله ...

ولقد كان للثقافة والآداب العربية حظ من التأثير فى الأدب الأندونيسى؛ ويرجع ذلك إلى اللغة العربية التى لها بعض الانتشار فى أندونيسيا بفضل الحضارة العرب. والشعب الأندونيسى على أهبة الاستعداد لأن يتعلم اللغة العربية. ويا حبذا لو حذت أندونيسيا حذو باكستان الشقيقة، فاهتمت باللغة العربية اهتمامها وأخذتها لتمها وساعدت على انتشارها وتعليمها وفرضها فى النشء الجديد ...

والقصة الأندونيسية تمتاز بثلاث نزعات: النزعة الدينية والنزعة الإلهية والنزعة الخرافية. ويدور محور القصة الأندونيسية المنتزعة من الفن القصصى الهندوكى القديم حول عرض وصفى للحروب والمقاتلات الخيالية بين جانب الإنس وجانب الجن أو وصف عرضى لتباين الحروب التى تقع بين آلهة الخير وآلهة الشر. وهذا المحور القصصى المقتبس إنما بدا على هذا الوجه الذى قدمته طبقاً للنزعة والتقاليد وطبقاً للبيئة وللخيال الخصب الذى يرتطم فى خيالات الآلهة وابتكارات المجهول، ووضعه فى قالب مشوق يستسيغه العقل الأندونيسى، وقد استساغه من قبل الذهن الهندوكى الغابر.

ونعود فنقول إن اهتمام الأندونيسيين بالقصة والشعر يتضاءل بالنسبة إلى اهتمامهم وميلهم إلى الفنون، ولكى يقف القارئ العزيز على مدى ما وصل إليه الرسم الفنى فى أندونيسيا يعن لى أن أعرض عليه قصة صغيرة حدثت فى أندونيسيا منذ سنوات ..

فقد كان هناك رسامان ماهران أحدهما أندونيسى والآخر هولندى، وكان كل منهما ينافس الآخر، وذات يوم دبر

(البقية على صفحة ١٥)

ثقـــافات واتجاهات

للأستاذ رشدي الأشهب

جماعة من الشباب المثقف ، ضمهم مجلس سامر اختلفت ألوان ثقافاتهم ، وتعددت مشاربهم واتجاهاتهم ، كانوا يتحدثون في كل فن ، ويطرقون كل موضوع ، تعرض بعضهم لعدم الاستقرار ، كما انتقد البعض أوضاع الحياة ، وفيهم من وصف الحال ، ودل على العلاج ، وربما انبرى له من قارعه الحجة ، وأفحمه بدليل . كان بينهم المتدين الذي يرى سبب التأخر والقلق والأخطاء في تخلينا عن ديننا ، وانحرافنا عن الطريق المستقيم ، وجلس إلى جانبه من عارضه ، ورأى أنه يجب الأخذ بأسباب المدنية ، والعمل بمبادئ الحضارة الحديثة جميعها ، خيرها وشرها ، لأنها كل لا يتجزأ ، ووحدة لها مظاهر متعددة ، ويجب أن نأخذ بجميع ذلك في جرأة وقوة وشجاعة ، وكان الثالث بين بين ، يرى التأني والاختيار والحذر ، فلا نقبس إلا ما نراه موافقاً لتقاليدنا وعاداتنا ، وكان يشفق على الطابع الشرقي ، ويعدد فضائله وميزاته ، ولذلك يجب أن نأخذ ما نحتاج ونحتفظ بما ينفع ، وكان بينهم رابع يتهور ويغالي في آرائه ، وهي مما تؤاخذ عليه قوانين البلاد العربية وأنظمتها وتقاليدها ...

كلهم يدعون الغيرة ويهدفون المصلحة ، حتى الصديق « ع » الذي كانت له طريقة خاصة في النقاش ، ولون ممتاز في الاتجاه والتعبير ، قد أولع بالإنجليز ، وأحب كل ما يتصل بهم من أدب وعلم وفن ، كان ولعه يلفت النظر لأنه لا يكتفي بالحديث عنهم ، أو الدعاية لهم ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، فهو يستخف ما يسمع إلا إذا اتصل الكلام بما أحب واعتقد . إنه عربي الأصل والمولد ، إنجليزي الروح والثقافة والهوى ، حتى نسبه العربي يكاد يلعنه ويتأفف منه ، ويلعن الظروف التي أوجدته فيه أوله . لقد كفر بقومه لأنه اعتقد عدم صلاحيتهم ، ولأنهم في آخر صف من صفوف الأمم ، ولأنهم لن يتقدموا ، فهم برابرة متوحشون ، لا يفقهون معنى المدنية ، ولا مفهوم الحضارة ...

كان يؤيد كل نقد موجه للعرب أو العربية ، ويذهب إلى القدح والسباب ، وربما استمع إلى من ينتقد ويريد الإصلاح فيوافق على النقد البريء ، ويدعي استحالة الإصلاح . إذا تحدث أحدهم عن الغناء الشرقي قاطعه وتحدث هو عن الغناء الإنجليزي ، وإذا طرق باب الفلسفة العربية ، تكلم هو عن الفلسفة والفلاسفة الإنجليز . والذي لاحظته أنه يلاقي الاحترام غالباً والامتعاض قليلاً . جرى مرة الحديث عن « رسالة الغفران » ، وكان المتكلم يراها فاتحة القصة في الآداب العربية ، وإذا به يحول الكلام إلى الأدب الإنجليزي فيتحدث عن « ملتون » ، فهو أعظم من أبي العلاء ، وأجود آراً ، وقصته « الفردوس المفقود » أحسن بكثير من «رسالة الغفران» . فرد عليه الأول قائلاً : إن قصة «ملتون» مستوحاة من قصة أبي العلاء التي ترجمت إلى اللغات الأوربية أيام الحروب الصليبية ، وإذا كانت « جحيم دانتي » هي الصدى الأول لرسالة الغفران فإن « الفردوس المفقود » هو الصدى الثاني ... وسكت .. فقد ظن أنه ألجم صديقه الذي أجابه : إنك متعصب ، وكأنك من الذين يردون كل شيء إلى الفكر العربي ، وإذاً فاعلم أن « جحيم دانتي » و « الفردوس المفقود » أخذت الفكرة فيهما من التوراة والإنجيل ... وهكذا كان صاحبنا ، فلم تكن آراؤه تقف في حدود النقاش في الأدب وما يتصل به ، بل تتعداها إلى جميع نواحي الحياة ، فالثقافة العربية عنده لا تليق بمجتمع ناهض ، واللغة العربية أداة ناقصة لا تصلح للتعبير ، والسياسة العربية جاهلة حمقاء ، والجامعة العربية أخفقت ، والزعماء العرب إذا أرادوا الإصلاح فالواجب يدعوهم إلى التفاهم مع الإنجليز ، لأنهم يتخبطون ارتجالاً ، والكثير منهم أتباع يسيرون كما يوجهون ، فلماذا نلجأ إلى الدجل والنفاق ؟ فلنتجه إلى الهدف المعين عن طريق الإنجليز ؟ إننا أضعنا فلسطين لأننا لم نعقد معهم المحالفات .

وفي مرة كان يتحدث بآرائه هذه ، فصاح فيه أحدهم قائلاً : إن رأيك هذا لا يقول به إلا خائن أو مأفون ، إن الإنجليز يريدون أن نبقى متأخرين جامدين نسألهم المونة دائماً ، ويأخذون كل شيء منا ، وإن حرب فلسطين علمتنا أشياء كثيرة ، كنا في غفوة عنها ، وعلى جدمنها ، أما أنت فلا تؤمن بقوميتك ، ولا تعرف طريق الحياة لقومك ، إنك تريد أن نبقى عبيداً أبداً ...

وهكذا يصادف أن يتطور النقاش إلى جدال عنيف أو شجار يتدخل فيه الآخرون بالكلمة الحسنة . وينفض المجلس ...

وأعود إلى نفسي أستعرض معها ما قيل وما سمعت ، والهم في وضعنا هذه التيارات المختلفة ، وتلك الثقافات المتعددة الألوان ؛ فهي — كما يظن — مفيدة ، ولكنها كما يحدث غالباً تشطح بالكثيرين ، فنصطدم بهذه العواطف المتطايرة الملونة ، وأعود إلى نفسي أسائلها ... أين مستقبل البلاد من هذه الثقافات المختلفة ؟ .

إلى أين ... ومع من يجب أن نسير ؟ .

ما الفوائد التي سنجنيها والأضرار التي يجب أن نخشاها ؟ .

(الناصرية — العراق) مشدى الأشهب

بعض أنواع القرائح والأفهام

(بقية المنشور على صفحة ٨)

وهو يحتمي بهذا العناد ويحرص عليه حينما تقف في طريقه الوقائع ويعترضه منطق الأشياء . والمبسط من هذا الطراز هو خير مثل للاعتماد على المفاجآت وعجائب الأقدار والمصادفات .

وقد لا نجد صعوبة تذكر في إلحاق أي فرد من الناس بطراز من هذه الطرز المختلفة المتباينة . وعند بوعي أن هذه الطرز قد تتداخل وتختلط وتتمازج ، ولكنها لا تتعارض ؛ فالطراز الفكري قد يأخذ بنصيب من البداهة والحسية ، ولكنه لا يأخذ بنصيب من الشعور . والطراز البديهي قد يظفر بحظ وافر من التفكير والشعور ، ولكنه لا يحظى بحظ وافر من الحسية .

ويستطيع القارئ أن يتتبع هذه الطرز المختلفة في مختلف الشخصيات التي يصادفها في الحياة أو التاريخ أو الأدب ؛ ولعلها تفسر لنا شيئاً من أسباب الاختلاف الأصيل بين وجهات النظر المختلفة ، والآراء المتعارضة ، والمذاهب المتناقضة ، والفلسفات المتعادية . وقد يعيب الإنسان آراء غيره لا لسقم في تفكيره ولا لعجز في رأيه ، وإنما بسبب اختلاف البناء النفسي ولون العقلية ونوع القريحة .

علي أدهم

المدنية الغربية الحديثة

والمدنية الشرقية القديمة

للأستاذ عبد الله أمين

بين المدنية الغربية الحديثة والمدنية الشرقية القديمة حرب عوان طحون ، تكاد تأكل الأخضر واليابس فلا تبقى ولا تذر ، وليست هذه الحرب سجالاً بين المتحاربين ينتصر أحدهما مرة وينهزم أخرى . وإنما هي حرب عُقِدَ لواء النصر فيها لأحدهما دون الآخر دائماً ، عقد للمدنية الغربية الحديثة ؛ وإذا تركت المدنية الشرقية بلا نجدة لإنقاذ أكثر ما يمكن إنقاذه منها ، فقدنا مقوماتنا وصرنا لا شرقيين ولا غربيين .

ونحن معاشر الشرقيين أمام هذا الصراع العنيف الجبار الذي يوشك أن يقضي علينا ، فريقان : فريق يؤيد المدنية الغربية الحديثة كل التأييد ، ويحاول أن يحملنا على التحضر بها كلها بما فيها من خير وشر ، وملائم لنا وغير ملائم بلا قيد ولا شرط ، ويتعجل احتلالها كل نواحي حياتنا المادية والأدبية . وفريق آخر يرى أن نكون منها على حذر فنتريث في الأخذ بأسبابها بأن نغربلها وننخلها ونأخذ الخلاصة الصافية النقية النافعة التي تلائمنا منها .

فالفريقان أمام المدنية الغربية كرجلين : أحدهما يريد أن يطحن قمحاً بسنابله ، وبما يختلط به من حصى وتراب ثم يعجنه ويخبزه بما فيه . والآخر يريد أن يدرسه ويذريه ويغربله وينقيه مما فيه ، ثم يطحنه وينخله حتى يصير شيئاً نقياً سائغاً . أو أنهما أمام المدنية الشرقية كرجلين في بيت آيل للسقوط ؛ فأحدهما يتعجل هدمه وتدميره ويعمل جاهداً لإنجاز هذا الهدم وهو فيه ، والآخر يقاوم الهدم ويؤخره حتى يجمع متاعه وأثاثه ويخرج سليماً ناجياً بنفسه وبأعز ما يملك .

ويقول أنصار التعجيل : إن الأخذ بأسباب المدنية الغربية الحديثة كلها بخيرها وشرها ، وملائمها وغير ملائمها جملة وتفصيلاً ، يكون فيه بلا شك جذب ودفع ؛ فهو تخمّر للأمة لا يلبث أن ينفي خبثها ويستبقي طيبها ، وتسلم الأمة في مجموعها في آخر الأمر من الأخطار .

وهذا قول ظاهر البطلان ، لأن كل مدنية لها مظاهر تدل عليها ، وعناصر تتكون منها ، وأسس تقوم عليها ؛ فالمظاهر كالمباني والطرق ووسائل النقل البرية والبحرية والجوية ، ووسائل الإذاعة والإضاءة والفراش والملابس والنظم الحكومية والمنزلية والاجتماعية والمصانع والمدارس وغير ذلك ، والعناصر هي العلوم والفنون والآداب . أما الأسس فهي أخلاق الأمة وعقائدها أو مزاجها النفسيّ والعقليّ .

فليس من المعقول ولا من الممكن أن نأخذ كل ذلك من الغرب بغير تمحيص ولا تنقيح ، لأن كل أمة تقدّ مدنيتها على مثال أخلاقها وعقائدها وتصبغها بصبغتها ، وهذه الأخلاق والعقائد وليدة البيئة والتراث القديم والقرون الخوالي ، فلا يمكن أن تستعير أمة مدنية أمة أخرى مطبوعة بطابعها مقدودة على مثالها بحذافيرها ، فلا بد من أن تنتقي منها ما يلائمها . وإنها إن فعلت ذلك كانت كمن يستعير ثوباً ضيقاً لا يلبث أن يتمزق أو واسعاً فضفاضاً يتعثر في أذياله فلا يستطيع حراكا .

إن المدنية الشرقية أمام تيار المدنية الغربية الجارف لفي أشد الحاجة إلى من يقيم في سبيله السدود والحواجز ، لا إلى من يزيل من أمامه ما قد يكون من عقبات وعوائق ، وهو في تدفقه علينا إنما ينتقل من انتصار باهر إلى انتصار أبهر .

وإن أول ميدان انتصرت فيه المدنية الغربية الحديثة انتصاراً مبيناً ، هو ميدان المظاهر ؛ فقد سارع الشرقيون وفي مقدمتهم مصر إلى استعارة كل ما وصلت إليه أيديهم من هذه المظاهر ، حتى صارت بعض البلاد الشرقية كالقاهرة والاسكندرية وغيرهما كمدن الغرب ، بل أحسن من كثير

منها ، وحتى أصبح الزائر الغربي الحديث يظن لأول نظرة أننا صرنا كالدول الراقية القوية الغربية ، وما نحن من ذلك في شيء ، بل لقد أثقلنا بكل مخترع وبكل بدعة استعرناها وتحلينا بها غلا في أعناقنا من أغلال الاستعباد ؛ فإن الاستعباد الاقتصادي والاجتماعي شر مقدمة للاستعباد السياسي .

وما كان إقبالنا على مظاهر المدنية الغربية الحديثة إلا لضعفنا وعجزنا عن مجاراة الغرب في أسباب القوة الحقيقية ولرغبتنا في ستر هذا الضعف بهذه المظاهر ، فعالجنا نقصاً بنقص وهذا هو مركب النقص .

وليس هذا شأن الأمم القوية ، فليس فيها أمة ترضى لها كرامتها وعزتها وحرصها على ثروتها وسيادتها أن تستعير شيئاً من مخترعات أمة أخرى إلا لتعرف سره وتنشئ له الصانع لصنعه في بلادها ، بل وتحاول أن تفوق الأمة المخترعة في الإجادة والإتقان وقلة النفقات لتسبقها في الأسواق العالمية .

أما مصر فأدل دليل على افتتانها بالمظاهر وتقصيرها في الأخذ بأسباب القوة ، أنها أول من استخدمت القطر البخارية بعد الأمة المخترعة ، وهي انجلترة ، ومع ذلك لا نزال تشترى هذه القطر وكل ما يتعلق بها من الغرب ؛ فإن قيل إن هذه صناعة ضخمة ، وإن الاحتلال الإنجليزي كان عائقاً فما عذرنا فيما دون ذلك من الصناعات .

فأما عناصر المدنية الحديثة ، فإن منها العلوم والفنون العلمية ، وهي قدر عام مشترك سائغ بين الدول في جميع الأقطار وفي جميع العصور ، إنه دولة بينهم ، وقد كانت مصر يوماً ما أستاذة العالم القديم فيها ، ولا شك أن العالم القديم أستاذ العالم الحديث ، فمصر أستاذة الجميع ، وقد رحبت مصر بهذه العناصر الآن حين عادت إليها أعظم ترحيب ، وأقبلت عليها أيما إقبال ، وأنشأت لها المدارس على مثال المدارس الغربية ، واستقدمت الأساتذة من الغرب ، وأكثرت من بعث أبنائها أفواجاً إليه ، وما زالت جادة في ذلك ، ونرجو أن تظل جادة حتى تفوق الغرب فيه ، فهو أمر حسن واجب شرعاً وعرفاً وعقلاً لموافقته مبدأ التوازن الدولي ولكفالته صيانة الأمة وعزها ومجدها ، غير أننا ما زلنا مقصرين كل التقصير في أعظم مقومات الحضارة الحديثة ، وهي الصناعة والعلوم والفنون الصناعية .

وإن من هذه العناصر الآداب والفنون الأدبية ، وهذه في جملتها إقليمية لا يمكن تحويل معظمها ، لأنها في كل إقليم خاضعة كل الخضوع للبيئة ولمزاج الأمة النفسي والعقلي الذي تكون واستقر فيها بمضي آلاف السنين ؛ فلكل أمة طابع خاص تطبع به آدابها وفنونها الأدبية ، وستبقى الآداب والفنون الأدبية مختلفات في الأمم ما دامت الأمم مختلفات في صفاتها الجسدية والنفسية والعقلية ، وما دام الأدب هو الأداة التي تعبر عن مشاعر الأمة وميولها وآرائها وآمالها وآلامها تعبيراً تفهمه وتتأثر به ، فما حاجتها إلى أن تستعير أدب غيرها ؟ والموسيقى وهي مما أريد بالفنون الأدبية . ما حاجة الأمة إلى استعارة موسيقى الغرب ما دامت موسيقاها تطربها وتؤثر فيها وتشبع رغباتها منها ؟

وليس في الإمكان أن نخلق الأديب ولا أن نوجهه كما نريد ، لأن الأدب هبة لها حريتها ، فقد نريد من ذي الهبة الأدبية أن يكون قصصياً فيكون كاتب مقالة ، وقد نريده ناثراً فيكون شاعراً ، وقد نريده شاعراً فيكون مؤرخاً ؛ فمن الخير أن يترك الأديب للزمن وللأطوار التي تمر بها الأمة وحضارتها ، معتمداً في ذلك على مواهبه وعلى ما يحيط به من أحوال وملابسات ، فإذا جاءنا من هذه الناحية بشيء واستساغناه صار من أدبنا .

وإذا أريد بالأدب ألفاظ اللغة وأساليبها الواردات في شعرها ونثرها وهذا الشعر والنثر نفسه ، فهذا لترقيته وتهذيبه في كل لغة وفي كل أمة ، طرق مستمدة من اللغة نفسها ، ومن الإقليم نفسه ، ومن الأمة وحاجاتها ، ومن علاقاتها بالأمم الأخرى ؛ وكتابها وشعراؤها وعلماؤها أفذاذ وجماعات كفيلون بهذه الترقية وهذا التهذيب .

وإذا أريد بالأدب المعاني التي يتناولها الشعر والنثر ، فإنا قد فتحنا للمعاني الغربية الحديثة أبواب أدبنا على مصاريعها ، وأصبحت معانيه هي معاني الأدب الغربي ، وما ذلك إلا لأن المعاني هي الأخرى دولة بين الأمم كالعلوم ، فليس لأمة أن تستأثر بشيء منها دون غيرها .

وأما القصة والأقصوصة فقد حلت في جميع صحفنا حتى

اليومية الكبرى منها محل المقالة ، فلا تفتح صحيفة ولا مجلة إلا وجدت قصة أو أقصوصة أو أكثر ، وقد كانت كل صحيفة لا تصدر إلا بمقالة افتتاحية وفيها مقالات أخرى ! أما الآن فقد كادت المقالة تختفي على حين أن لها مقاماً لا يصلح فيه غيرها .

وإذا أريد بترقية الأدب أن معاني قصصنا وأقاصيصنا غير سامية ، فلأن تكون في صميم الحياة المصرية — ولو كان معناها غير سام — خير من أن تكون سامية وهي غربية لحماً ودماً .

وأما الملاحم فهذا شعر قد دالت دولته حتى في الإقليم الذي نشأ فيه ، وهو بلاد اليونان ، وليس بالناس حاجة إليه الآن ولا يضيرنا أن نتركه .

● ● ●

هــذا شأننا وشأن المدنيتين الغربية والشرقية ، وأمر النزاع العنيف بينهما الذي سيقضى فيه على المدنية الشرقية ، وبعبارة أدق على مظاهرها وعلى الكثير من عناصرها ، القضاء الذي لا مرد له ، قاومنا أو لم نقاوم ؛ فمن السرف أن نفتح لها كل أبوابنا فتغرقنا ، ومن القصد أن نفتح هذه الأبواب بحساب دقيق وحذر لننقذ أكثر ما يمكن إنقاذه من تراثنا القديم الذي لا يمكن أن تكون أمة لها مميزاتها وسعادتها من دونه ، ولنصبغ ما نأخذه منها بصبغتنا وبه نبعث مدنيتنا بعثاً آخر حسناً .

إنا إذا فقدنا تراثنا القديم ، فإن فينا أشياء لا يمكن أن نفقدها لثباتها فينا ثبات الجبال الراسيات ، وهي صفاتنا الجسدية والنفسية والعقلية التي تكونت فينا بتأثير أرضنا وجونا وآثار آبائنا وأجدادنا ، وسنبقى ما حيينا خاضعين لهذا التأثير ، وسيبقى بيننا وبين الغرب ما بقي وبقينا فوارق ، وسيبقى الغرب مترفعاً عنا ضنيناً بنسبتنا إليه ، على قاعدته القديمة المعروفة : الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان ، ترفع الأمريكان البيض على الأمريكان السود .

وليست هذه الفوارق بناقصة قدرنا ولا برافعة قدر الغرب عنا ، ولا بمانعة لنا من سبقنا إياه في ميادين الحضارة ؛ فإن اليابان قد فاقت كثيراً من دول الغرب في القوة وأصبحت من الدول العظمى ، ولا تزال محتفظة بكل مميزاتها وطابعها القومي الذي كونته فيها أقاليمها وظروفها وأحوالها على ما في تقاليدها من غرابة .

فالخير كل الخير أن نحتفظ بأسس حضارتنا ، وهي أخلاقنا وعقائدنا ، وأن نستبقي من مدنيتنا الشرقية كل ما يلائم هذه الأخلاق والعقائد من أدب وفنون أدبية ونظم منزلية واجتماعية وقضائية وعادات وتقاليد صالحة .

وإن العقل والمنطق يقضيان علينا ألا ندع المتحمسين المتحضر بالحضارة الغربية يقودون بأنفسهم وبغيرهم من المواطنين في أحضان الغرب بغير تفكير ولا روية ؛ بل يجب — ولا يزال في الوقت والجهد متسع — أن نأخذ الأمر بكثير من الحذر ، وأن نصد تيار المدنية الغربية الجارف ما استطعنا إلى صده سبيلا ، حتى يتيسر لنا أن نأخذ منها الأصلح ونبعث مدنية شرقية صالحة .

وبهذين الأمرين ، الحذر والتريث ، نسلم ونغنم .

عبد الله أمين

الحياة الأدبية في أندونيسيا

(بقية المنشور على صفحة ١٠)

المولندي مكيدة لمناقسه الأندونيسي ، فدعاه لزيارته في منزله ، وحضر الرسام الأندونيسي ، ودخل الحجرة التي قاده إليها مضيفه ، ولما هم بالجلوس سقط على الأرض ؛ لأن الكرسي الذي أراد الجلوس عليه لم يكن سوى صورة مرسومة لكرسي على الحائط ، فكتم الأندونيسي غيظه ، وبعد برهة خرج المولندي من الغرفة لقضاء حاجة وترك نظارته على المكتب ، وانتهز الأندونيسي هذه الفرصة فرسم على زجاج النظارة صورة ذباب ، وعاد المولندي وأخذ يتحدث إلى الأندونيسي في أمور شتى ، ثم أراد أن يدلل على شيء مما قاله ، فتناول كتاباً ثم أخذ نظارته ولكنه هزها ليطرد عنها الذباب ، ولكن الذباب بالطبع لم يتحرك ، فاغتاظ وضرب بها المكتب فانكسرت ، وعلم المولندي أنها صورة رسمتها ريشة الرسام الأندونيسي في بضع دقائق ، فأعجب بها أيما إعجاب ..!

أحمد طه السنوسي

مخاطرات «جل بلاس»

للكاتب الفرنسي René Le Sage

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

ولد الكاتب عام ١٦٦٨ ومات عام ١٧٤٧ . وقصته هذه مجموعة صور من الحياة جعلت منه علماً من أعلام الأدب البارزين . فقد صوّر فيها أهل أسبانيا جميعاً في مختلف حالاتهم .

كان (جل بلاس) بطل القصة شاباً في السابعة عشرة من عمره يوم أرسله أهله بعد أن أركبوه بغلا وزودوه بمال قليل ليلتحق بجامعة (سلمنقه) وليتم تعليمه وليجد بعد تخرجه منصباً يدر عليه لبناً وعسلا .

ولكن صاحبنا لم يبلغ الجامعة بل انسلك في عداد اللصوص . ومضى في ركاب المثالين . وساس الغلمان . وصاحب السياسيين . وذلك كله في سلسلة طويلة من المخاطرات .

وقد عمل — على التعاقب — عند طبيب . وعند سيدة من ذوات الأناقة . وعند كبير الوزراء . وكلهم قد جعلوه موضع سرهم .

وعاش هو حيناً عيشة البذخ والإسراف . كما ذاق أحياناً مرارة الجوع والحرمان . وفتحت له أبواب القصور . كما فتحت له أبواب السجون .

وخيط القصة لا ينتهي . وهي قصة تشبه في تسلسلها وتتابع حلقاتها قصص ألف ليلة وليلة .

وأبدع ما في القصة صدق انطباقها على الطبائع البشرية . وما ملئت به جوانبها من مزاح لا ينقضي ، وسخرية لا تنتهي .

ومن العجيب أن مؤلف القصة كان رجلا فرنسياً لم ير البلاد الإسبانية أبداً . ولكنه درس الأدب الأسباني فأحبه . فأخرج هذه القصة إسبانية الروح والقلم . حتى لقد اتهمه واحد من الكتاب الإسبانيين بأنه سارق للقصة لا كاتب لها .

وقد كتب الكاتب قصته هذه في عشرين عاماً . إذ قد ظهر الجزءان الأولان عام ١٧١٥ ، ثم ظهر الجزء الأخير عام ١٧٣٥ . وقد ترجمت القصة إلى لغات كثيرة .

قال الكاتب :

كان (جل بلاس) وحيد والده الجندي الشيخ . وكان قد تعلم على يدي عمه القسيس قليلا من علم المنطق . وأثارة من اللغتين اللاتينية والإغريقية . ثم أرسل وهو في السابعة عشرة من عمره إلى جامعة (سلمنقه) ليدرس اللاهوت . ولكنه سرعان ما وقع بين أيدي جماعة من قطاع الطريق فأسروه وأخذوا بغله وماله .

وكان بين زملائه السجناء سيدة من ذوات الثراء (دونا منسيا) فقد أعانها وسهل لها سبيل الهرب منحته خاتماً من الألماس كما منحته ألف قطعة من النقود الذهبية .

وسرعان ما اتخذ لنفسه خطة جديدة في الحياة . فعقد العزم على أن يجرب حظه في مدينة (مدريد) فاشترى ملابس زاهية ، واتخذ لنفسه خادماً اسمه (لاميلا) .

ووصل هو وخادمه بعد يومين إلى مدينة «بلد الوليد» وهناك لقي (دونا كاميلا) التي تقدمت إليه بوصفها بنت خالة (دونا منسيا) ثم دعته إلى بيتها الفخم . وهناك أدبت له مأدبة . وحسب في زمرة من أوتوا الملاحة والحسن . ثم أعطته خاتمها ذا الفص من الياقوت لتأخذ خاتمه الألماسي . وفي الصباح ألفى نفسه في البيت وحيداً . وألفى متاعه وبغاله ونقوده وقد ضاعت كلها .

والسر في هذا أن خادمه (لاميلا) كان لصاً ، فاستأجر هو وإخوانٌ له من أصحاب الخدعة والحيلة البيت لمدة أسبوع . وذلك ليخدعوا صاحبنا . أما الخاتم ذو الفص من الياقوت فكان زائفاً .

وبينما كان (جل بلاس) يسير في الطريق سادماً نادماً يعض اليدين ، لقي واحداً من لداته في المدرسة اسمه (فابريشيو) الذي سعى سعيه فألحقه كاتم سر للطبيب الشهير الدكتور «سانجرادو» الذي علّم (جل بلاس) طريقته في مداواة أمراض الناس بالفصد وبجرعات من الماء الساخن .

وكان بين مريضاته (كاميلا) فاسترجع منها خاتمه الألماسي كما أخذ منها جواهرها وحليها . وذلك بأن ألبس ستاً من أصحابه ملابس رجال الشرطة ، موهماً إياها أنه سيلقي القبض عليها .

وعالج (جل بلاس) فتاة أخرى ولكنها لقيت حتفها على يديه . فرأى لزاماً عليه أن يفرّ من وجه خطيب الفتاة .

ثم احترف فى أثناء هروبه مختلف الحرف ، فعمل وصيفاً بعد أن بدد ماله فى صحبة جماعة من الممثلين والممثلات . ثم عمل خادماً فى بيت رجل من الأغنياء كان فى شبابه داعراً ، واسمه (دون فنسنت دى جوزمان) وكان لهذا الداعر بنت مليحة وسيمة اسمها (أورورا) ما لبث أن مات عنها .

وخيل إلى (جل بلاس) أن (أورورا) قد شغفت به حباً ، ولكن الصحيح أن قلبها قد علق بحب فتى نبيل اسمه (دون لوى باشيكو) كان غافلاً عن حبها له ، فعقدت (أورورا) العزم على أن تلحق به فى (سلمنكه) حيث كان يتلقى العلم ، وأخذت فى صحبتها (جل بلاس) كما أخذت وصيفتها .

وفى (سلمنكه) اتخذت لسكناها بيتين كانت تبدو فى أحدهما فى زى الرجال متسمية باسم (دون فليكس) ، وكانت تعيش فى البيت الآخر عيش فتاة .

وكسبت (أورورا) على أنها (دون فليكس) ودّ (دون لوى) كصاحب من أصحاب اللهو والخلاعة ، وأعدت العدة ليتلاقى هو وبنت خالتها (أورورا) فأنبأ (دون لوى) صاحبه المزعوم (دون فليكس) أن فى نيته أن يتزوج (أورورا) ، وعندئذ أزاح (فليكس) الشعر المستعار .

وما مضى أسبوعان حتى كانا زوجين ، وعندئذ كوفىء (جل بلاس) وأجزل له فى العطاء ، ذلك أنه هو الذى مهد للزوجين سبيل اللقاء .

ثم عمل (جل بلاس) فى خدمة سيدين آخرين فى مدريد ، ثم سافر إلى (طليطلة) على أثر حادث له مع فتاة لقى فيه من العناء ما لقى . وفى الطريق إلى (طليطلة) صادق فارساً شاباً اسمه (دون ألفونسو) كان قد آواه من المطر فى كهف من الكهوف .

وكان فى الكهف ناسكان يتعبدان ، وقد تبين أنهما (لاميلا) وشريك له مستخفيان ، وكان الوصيف السابق لا مال عنده فاتخذا زى ضباط محاكم التفتيش ، واقتحما دار يهودى اسمه (صموئيل سيمون) كان قد ارتد عن دينه ، وكان مرابياً فسرقا ماله ، بحجة أنهما جاءا ليفحصا عن أوراقه الخاصة .

وبذلك أصبح (دون ألفونسو) وصديقه (جل بلاس) يملك كل منهما من المال ألف قطعة ذهبية ، فسافرا إلى (طليطلة) وهناك تم الصلح بين (دون ألفونسو) وبين (الكونت بولان) الذى كان (دون ألفونسو) قد قتل والده فى مبارزة ، وزاد على ذلك أن تزوج بنته ، فاستقرت (بدون ألفونسو) النوى ، وعاش عيشة هانئة سعيدة .

واعترافاً بجميل (جل بلاس) عمل (دون ألفونسو) على أن يلحقه بحاشية قريب من أقربائه هو رئيس أساقفة (غرناطة) ككاتم سر له .

وكان رئيس الأساقفة هذا قد ركبه الغرور ، وكان رجلاً بارزاً مهيباً . وكان (جل بلاس) يثنى على ما يلقيه رئيس الأساقفة من مواعظ وخطب ، وبالغ فى ثنائه حتى خلب لب الرجل ، إلى أن جاء يوم انتابت فيه رئيس الأساقفة نوبة من الفالج فأصبح الرجل يهذى .

ولم يكن (جل بلاس) موفقاً حين قال لصاحبه إن خطبه وصلواته قد أصبحت أسوأ من ذى قبل ، فكان جزاؤه على ذلك الحرمان والطرد .

ثم أصبح (جل بلاس) فإذا هو فقير معدم ، فادعى أنه أخ لإحدى الغانيات الخليعات ، وبذلك استطاع أن يعمل كاتم سر لأحد أغنياء البرتغال اسمه (مركيز دى ماريالفا) ، ولكن الخدعة قد كشفت فطرد مرة أخرى ، وعاد إلى مدريد ، وهناك بعد سلسلة من المخاطرات كلها لا تصدق ، وإن كانت كلها تبعث على الابتسام ، صار صاحبنا سكرتيراً مساعداً (لدوق دى لرما) الذى كان كبير وزراء الملك .

وهناك فى وظيفته الجديدة عرف (جل بلاس) أن الإنسان يستطيع أن يحوز الثناء والمديح جزاء له على أى عمل حقير يعمله ما دام فى خدمة عظيم من العظماء .

وقد قال إن تجاريبه وصحبته لمختلف طبقات الناس من لصوص وشرفاء ، ومن خليعين مستهترين ودجالين محتالين ، ومن شعراء وممثلين ، ومن أفاقين خبثاء ، وريفيين طيبى القلب ، قد دلته على أن ذكاءه كان بالغاً ، وأن سلطانه كان قوياً ، وأن ما أوتيه من علم قليل قد أعانه وسدد خطواته .

وكان هذا القول قد أثار ثائرة الغرور عنده ، فهو رجل يسعى الناس إلى لقائه ، ويستعينون بجاهه ، وهو

(البقية على صفحة ٢٠)

المقالة فى يد الدكتور احمد زكى بك

للأستاذ محمود محمود

هذه كلمة لا نقصد بها أن نقدم الدكتور أحمد زكى بك إلى القراء ، فقد عرفوه من قبل على صفحات هذه المجلة وغير هذه المجلة ، وعرفوه فى كتبه ومؤلفاته عالماً وأديباً ، له طريقة ساحرة فى عرض العلم فى أسلوب أدبى . وله فضل كبير على الأدب العربى ، فقد زاد من ثروة اللغة بما نحت من لفظ وما اشتق من كلمات . كأنه علّم الأدب ، أو أدّب العلم ، فى أسلوب جزل رصين ، أثر الصناعة الفنية فيه واضح ملموس . وكأنه صائغ يصوغ الذهب ، أو جوهرى يؤلف بين الجواهر ، فى صورة رائعة ومنظر يأخذ بالألباب .

لا نقصد أن نقدم الدكتور أحمد زكى بك ، فهو عن ذلك فى غنى ، وإنما نقصد أن ننوه بأحدث ما أخرجت له المطبعة العربية من كتب .

فى « ساعات السحر » يقدم لنا الدكتور ثمانياً وعشرين مقالة فى موضوعات شتى . وكلها نظرات ثاقبة فى الحياة والمجتمع ، جمعها المؤلف فى كتاب لم يدر ما يسميه . ثم رأى أن يختار له عنواناً (ساعات السحر) يربط أجزاءه بزمانها الذى كتبها فيه لما عز عليه أن يربطها بموضوع .

مقالة الدكتور أحمد زكى بك مقالة من الطراز الأول فى الآداب العالمية ، لا تقل قيمة فى ميزان النقد عن مقالة بيكن أو مُنتين . فالمقالة فى معايير الأدب الرفيع يجب أن تصدر عن قلق يحسه الأديب مما يحيط به من صور الحياة وأوضاع المجتمع ، على شرط أن يجئ السخط فى نغمة هادئة خفيفة ، مصطبغاً بفكاهة لطيفة . وينبغى لكاتب المقالة الأدبية أن يكون لقارئه محدثاً لا معلماً . ولذا وجب أن يكون المقال على غير نسق من المنطق ، كما وجب أن يكون الأسلوب عذباً سلساً دقاقاً . وكاتب المقالة الأدبية على أصح صورها هو الذى تكفيه ظاهرة ضئيلة مما يعج به العالم من حوله ، فيأخذها نقطة ابتداء ، ثم يسلم نفسه إلى الأحلام يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن يكون له أثر قوى فى استدعائها عن عمد وتدبير . ولا يجوز أن تبحث المقالة فى موضوع مجرد يصح أن يكون فصلاً فى كتاب أو بحثاً فى علم .

وبهذا المقياس الأدبى الذى نستعيره من رأى الدكتور زكى نجيب محمود تكون مقالات الدكتور أحمد زكى بك أدباً خالصاً . لولا أنه يتأنق أحياناً فى أسلوبه إلى حد الصناعة المتكلفة ، فلا يندفع القارئ مع الكاتب منساقاً يجرفه تيار الحديث ، كما ينبغى أن يكون أسلوب المقال . حتى إن الكاتب ليستهويه السجع أحياناً فيستخدمه فى غير موضعه .

ومن أجل هذا التأنق والتكلف فى الأسلوب جاءت بعض المقالات قصيرة ينقصها التدفق والإفاضة كمقال (حب الأوطان) . ومن أجل هذا كذلك كثرت العبارات التى يتركز فيها المعنى ، وهى ميزة كبرى فى الأسلوب بمعيار النقد فى الآداب العربية ونقيصة واضحة بمعيار النقد فى أدب الغرب . وذلك كقول الكاتب : « لك من دفء اللحم ما أغنى عن دفء الفحم » .

ولعل من خير الأمثلة للمقالة الأدبية التى تبلغ أقصى حدود الإجادة بمعيار النقد الحديث المقالة التى عنوانها : (خواطر عند الحلاق) . فقد أثار دكان الحلاق عند أديبنا خواطر سامية ، تضرب فى صميم الحياة وطبائع الناس ، والأديب الحق هو الذى يستمد من أتفه الحوادث أعظم العبر : « ونظرت إلى يسارى فوجدت رجلاً أصلع ، له لحية حجبت وجهه . خطأ بسيط فى التوزيع أنتج وجهاً كرأس ورأساً كوجه . وأخذت أحاضر نفسى فى سوء التوزيع وعلله ، وما جره على الناس من بلايا . وذهب بى الفكر فى هذه الناحية بعيداً . ذهب بى إلى سوء توزيع الوزن فى حرب ، وذهب بى إلى سوء توزيع الثروة فى سلم وحرب ، وذهب بى إلى تلك المبادئ الجديدة التى تريد أن تهدم ما نحن فيه ، فذكرت بها الروس . ومن الروس عدت من جديد إلى ذكر اللحى فعلمت أن الفكر ، كالأرض ، دوار » .

وفى مقالات الدكتور زكى فلسفة عملية يصح أن يتخذها شباب اليوم دستوراً لهم فى الحياة . ففى أولى مقالات

الكتاب (يعجبنى الشباب إذا ...) يقول : « فإن كان العمل فحماً وزيتاً انغمس فى الفحم والزيت ، وإن كان انبطاحاً على الأرض تمرغ فى تراب الأرض ، وإن كان غباراً وعفاراً ، تشق الأبخرة ، ولم يشح بوجهه عن الأعفرة » ثم يقول : « ويعجبنى الشباب أن يكون مجدداً ومتجدداً » . غير أن الدكتور لا يرى أن يندفع المرء فى سبيل التجديد إلى حد إنكار الماضى والقديم ، فيفرد فى كتابه مقالاً للدفاع عن القديم ، ولم يخش أن يقال عنه رجعى ذو رأى عتيق ، بل « إن الشىء القديم قد يحسن ، ولا يستطيع فوات الزمن أن يغير من حسنه ، والشىء الحديث قد يسوء ، ولا تستطيع حداثته أن تقلل من سوئه . وأكثر أصول الحياة ثابت ، لا يتغير مع الزمان » .

والكاتب طموح لا ترضيه القناعة ، ينصح للقارىء أن يطلب الكثير الخطير « وأنا أعيذك أن تسرق لأنك فى حاجة إلى ما تسرق ، فهذه سرقة تأتيها العامة ، وأنا لا أريدك أن تكون عامياً فى سبيلك إلى العلا ! » . ولا يعجبه الرجل يخشى دنياه ، فلولا أقوام آثروا التعب على الراحة ، وقلق الحياة على استقرارها ، ما كان فى الدنيا تجديد ، ولا كان لبنى الناس تقدم . وهو يرى أن الحياة عمل يحدوه أمل ، ولا ينبغى أن نستشعر الخيبة عندما تصادفنا العقبات فى الحياة أو أن نلوم الناس على ما يصيبنا من عثار ، أو أن نبحث عن فلسفة نتوارى فيها ونرقد تحت ظلالها الوريفة الباردة ، أو أن نتخفى فى شعر أو أدب . وإنما الدنيا لا تؤخذ إلا غلاباً واغتصاباً .

ويدرك الكاتب ما رُكب فى خلق الله من ضعف فى النفوس ، حتى كبارهم وزعمائهم ، فلكل منهم عيبه ونقيصته « ولقد أعرف كبيراً أو زعيماً ، وأسمع منه ، وأقرأ عنه ، فأرى فى ثنايا كل هـذا عثار الرجل الذى خلق من طين ، وحمأ مسنون » .

ويتعلم من الحمار الحكمة . فكلنا كذلك الحمار الذى علقت بعنقه جزرة ورآها تتأرجح أمام عينيه فأسرع فى الخطا لينالها ، ولكنها لا تقترب : « إنه كلما أسرع أسرعت وكلما أبطأ أبطأت ، والمسافة بين فمه وبينها دائماً واحدة ، ولكنه ظل يدأب » .

وهو يتعطش إلى الحقيقة ، غير أنه لا يرى إليها سبيلاً . وفى بحثه عن الحقيقة يدرك بعين الأديب النافذة ما لا تدركه عامة الناس . يدرك أن الاستقامة اعوجاج وشذوذ ، وأن القناعة فى الزحام تزج صاحبها إلى الموقف الأخير ، والأمانة ميراثها الفقر ، والصدق جزاؤه التأفف والكراهة : « وأنت إذا أردت أن ترع طلبت من الشر جليله ، وعففت حقيره ، فالشر الضخم مهيب ، والشر الضئيل الحقير صاحبه مكشوف مغلوب . إن السرقة مفضوحة معيبة ، إن اختلست رغيف ، ولكنها غير ذلك إذا هى اختلست ، أسهما ، فى سوق الغلال بألف ألف رغيف » .

ومن أروع ما فى الكتاب مقال (الكرة التى تحمل فوق عنقك) ! ففيها يرى الكاتب أن كلا منا برأسه ثقل ، بل أثقال تميل به : « والثقل قد يكون فى الرأس عن يمين فيميل بالفكر إلى يمين . والثقل قد يكون فى الرأس إلى شمال ، فيميل بالفكر إلى شمال . وهو لا يكاد يجرى فى أحد على استقامة أبداً » .

وما أكثر ما ضمن الكاتب من حكم فى مقاله (علمتنى الحياة) . فقد علمتـه الحياة أن الحياء المحض غير نافع إذا لم تدعمه من ورائه صفاقة تظل دائماً على استعداد أن تبرز وتظهر ، وعلمته « أن هؤلاء الذين ترى من صغار ومن كبار ، ومن صاحب كوخ وصاحب قصر ، وصاحب غنى وصاحب فقر ، ومن ذى رتب وسلطان ، وغير ذى رتب وسلطان ، كل هؤلاء ، إذا أردت أن تسود فيهم ، فانظر إذاً إليهم شزراً ، وتربص بهم الفرص لتوسعهم سباً وركلاً . وقد يكرهونك ، ولكنهم يخافونك ، وفى الخوف الإكبار ، ومن خاف فأكبر ، فعل فيـه مركب النقص فتراجع لك وتقهقر » . وقد خالط الناس صنوفاً وألواناً فلم يجد أحداً يمتاز فى الحكمة على أحد بالقدر الذى توحى به الظاهر ، ووجد أن أفرغ الأشياء الطبول . والدنيا عنده حظوظ . بل لقد يؤمن أن الغباء على الجد أنجح للمرء من ذكاء يصحبه تكاسل وتخاذل وارتخاء .

ويحاول الدكتور أن يربى فى قارئه الذوق السليم ، فالأكل عنـده فن وفلسفة ، ومن حسن الذوق التناسب

في الثياب وفي الصحاب. وفي اختيار الزوج، والتوسط في الإنفاق، فلا بذخ ولا إمساك.

ولا يعجبني منه رأيه في الجمال. فهو عنده يسكن إلى الضعف أكثر من سكنه إلى القوة، وهو في مظاهر المرض أفعل منه في مظاهر الصحة. وعندي أن الجمال صنو القوة ورفيق الصحة.

والأدباء فريقان، فريق متشائم، لا يرى إلى الإصلاح من سبيل، وآخر متفائل، يبسم للحياة، ويتوقع لها أن تسير إلى الأحسن وإلى الأرقى دائماً. ومن هذا الفريق الثاني الدكتور زكي. ففي مقاله (قلوب كبيرة) يقول: «وسألت من بعد هؤلاء أحباباً وصواحب، عن القلوب الكبيرة، ما هي؟ ومن هي؟ وخرجت من السؤال والجواب مقتنعاً بأن الدنيا لا تزال بخير، وأنه لا يزال في الخلق لبعض النفوس عظمها وضخامتها... ورجعت عن نفسي وعن الحياة راضياً. وزاد في رضاي أن حكيم الإغريق، طلب الرجل قديماً، ومصباحه في يده، فلم يجده، وطلبته أنا، حديثاً، وبغير مصباح، فوجدته. ووجدت مع الرجال نساء». وعلمته الحياة ألا يأس مع الحياة، وأن الليل دائماً يعقبه نهار «وما وقعت في ضيق إلا انتظرت فرجاً، ولا حلّ بي مرض إلا صبرت أنتظر الشفاء».

***

هذه أمثلة يسيرة لما في الكتاب من حكمة وفلسفة، ولا يغني القليل عن الكثير. وتكاد كل عبارة أن تكون موضع جمال في الفكر والصياغة. وليس (ساعات السحر) بالكتاب الذي يقرأ ثم يلقى. إنما هو من روائع الأدب وكنوزه التي ينبغي لكل صاحب مكتبة أن يقتنيها ليعود إلى قراءتها، يلتمس عندها عزاء وسلوى، كلما أصابه هم أو اعتراه قلق.

محمود محمود

مخاطرات «جل بلاس»

(بقية المنشور على صفحة ١٧)

رجل يأخذ راتباً ضخماً، فأصبح يبالغ في قدر نفسه، وأصبح شرهاً طماعاً.

ولكن صرح آماله قد انهار يوم قبض عليه بأمر الملك لأمر من الأمور التي لا تشرفه، ثم حبس في سجن (شقوبيه)، ثم أخلى سبيله بسعي من ولي العهد، اكتفاء بنفيه ومصادرة أمواله.

ولما عرف ذلك (دون ألفونسو) وهو الذي أصبح بفضل مساعي (جل بلاس) حاكماً على (بلنسية) أقطعه قطعة أرض صغيرة تقع في أرباض تلك المدينة، ويومئذ عقد (جل بلاس) العزم على أن يزور مسقط رأسه، وهناك وجد أباه يحتضر ووجد أمه قد أضر بها الجهد في تمريضه والسهر حول سريره، ووجد عمه قد أصابه انهيار عصبي.

و (جل بلاس) وإن كان قد أحاط جنازة والده بمظاهر البذخ والترف، وإن كان قد جعل لوالدته راتباً سنوياً، فإن القوم في المدينة كانوا عنه غير راضين لجفائه أهله وهجرهم ذلك الهجر الطويل.

ولذلك لم ير صاحبنا بداً من أن يرحل عن الديار وأهلها لينجو بنفسه، ولما عاد إلى (بلنسية) ألفى (دون ألفونسو) وقد جاء لمزرعة صاحبنا بسبعة من الخدم فطرد أكثرهم توخياً للاقتصاد. ثم عاش عيشة هادئة، وتزوج فتاة اسمها (أنطونيا) هي بنت (دون باسيليو) أحد أجرائه. ولكن الحزن حل بساحته يوم ماتت زوجته وهي تضع حملها.

ثم تولى ولي العهد العرش. فلما أراد أن يرفع (جل بلاس) مكاناً علياً، قال له هذا: إن كل ما أريد هو أن أعمل عملاً ليس فيه ما يغري على نقض العهود، وكان جزاؤه أن عين أمين سر عند كبير الوزراء الذي أوكل إليه أمر تربية وريثه وابنه غير الشرعي.

ثم أصبح (جل بلاس) صاحب لقب. ثم لحق بدوق (دي ليرما) معتزلاً عمله عند كبير الوزراء، يوم غضب الملك على وزيره الأول.

فلما مات الدوق ورث عنه (جل بلاس) مالاً كثيراً، وعاد إلى أرضه يزرعها، وتزوج مرة أخرى، وعاش عيشة هادئة يحوطه الإكبار والإجلال، يقطع أيامه ولياليه بالسهر على تربية أولاده وتثقيفهم، ويكتب مذكراته يبدي فيها رأيه في الحوادث والأشياء، ويقص فيها أنباء مخاطراته..

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم



تماثيل الانسان من الحجر

فى عصور مصر الأولى

للدكتور محمد أنور شكرى

يرجع أقدم ما حفظ من قطع منحوتة من الحجر على شكل الإنسان إلى عهد نقادة الأولى . وهى قطع صغيرة من حجر جيرى أحمر أو من الحجر الصفيح (الاردواز) أو حجر الدهن (steatite) ؛ وتقتصر على تمثيل الجزء الأعلى من جسم رجل بوجه عريض ولحية مدببة غالباً ، ولعلها بذلك كانت أشبه بالتمائم ، على نحو بعض القطع المنحوتة من العاج أو العظام . وكانت العينان ، وفى بعض الأحيان الحاجبان والثديان ، تطعم بمادة أخرى (شكل ١) .

ومنذ أواخر ما قبل الأسرات عمد المثال المصرى إلى صناعة التماثيل الكاملة للإنسان من الحجر . ففى إحدى المقابر فى « طرخان » عثر على تمثال صغير من الحجر الجيرى لشخص يركع على ساقه اليمنى وينصب ساقه اليسرى . وفى « أبو صير الملق » كشف عن تمثال صغير من حجر مائل للسواد ، لا يزيد طوله على ٧ ر ٥ سنتيمتر ، ويظن أنه لامرأة (شكل ٢) . وهو يمثلها برأس كبير ، ووجه عريض من أعلى ودقيق من أسفل ، ويداها على صدرها وساقاها مقوستان بينهما ثقب . وقد عثر أيضاً على حصاة طويلة ، يبدو أنها وضعت إلى جانب جثة الميت لتشابهها فى خطوطها الخارجية لجسم إنسان بذراعين تتدليان على الجانبين (شكل ٣) . ومن العلماء من يذهب إلى أنه ربما كانت الأحجار الطبيعية المماثلة قد أوحت إلى الإنسان بعمل التماثيل من الحجر ، غير أن فى قلة ما وجد فى مصر منها وتطور فن النحت فيها ما لا يؤيد مثل هذا الرأى بالنسبة للمصريين على الأقل .

> طرق المثالون فى نحت التماثيل من الحجر فى أوائل عهد الأسرات باباً جديداً ، كان له أكبر الأثر فى فن النحت فى كافة عهود مصر القديمة ، وقد اتخذ بعضهم من الأوضاع والقواعد ما التزمه المثالون فى العهود التالية ...

على أن أهم تماثيل أواخر ما قبل الأسرات تمثالان فى متحف الأشموليان ، يمتاز أحدهما بمادته الثمينة وهى اللازورد وقد عثر عليه فى الكوم الأحمر (هيرا كونبولس) . وهو يمثل امرأة عارية بشعر على شكل خصل صغيرة مجعدة ، على نحو شعور بعض صور الأشخاص على الصلايات ، ويداها على صدرها وقد مثلت جميع أصابع اليدين (شكل ٤) . وكانت العينان من مادة أخرى ، وليس من شك فى أنهما كانتا تضفيان على الوجه حياة ، مما يعتبر من مآثر الفنان المصرى الذى أدرك ما للعينين من أهمية فى تمثيل الإنسان . ومن الممكن ترسم بداية اهتمام الفنان المصرى بالعينين فى كثير من تماثيل العاج منذ حضارة البدارى وفى صور الأشخاص على بعض الصلايات ، وقد



(شكل ١)
قطعة من حجر الدهن
محلاة برأس بلحية طويلة



(شكل ٢)
تمثال امرأة من
« أبو صير الملق »

يلغ ذلك غايته من الكمال فى كثير من تماثيل الدولة القديمة. أما التمثال الثانى فهو من حجر أسود قاتم وطوله ٤٠ سنتمتراً. وهو يمثل رجلاً واقفاً وذراعاه إلى جانبيه ويداه



(شكل ٣)
حصاة طبيعية على شكل انسان

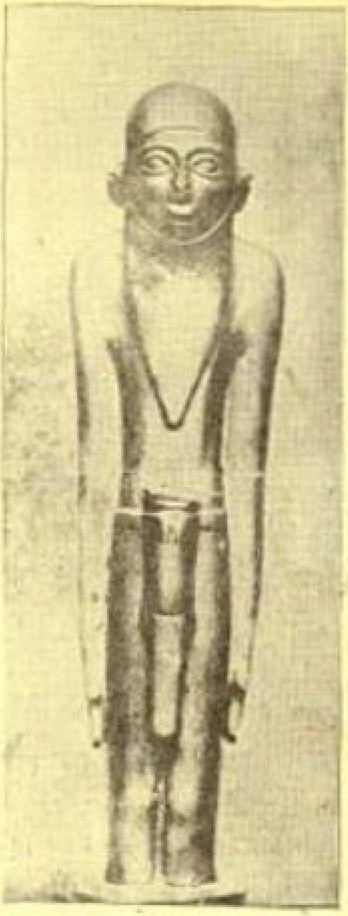
مبسوطتان وساقاه جنباً إلى جنب لا يفصلهما غير حز طويل من أمام ومن خلف (شكل ٥) . والعينان واسعتان والأذنان كبيرتان ، تبرزان كثيراً من جانبي الرأس على نحو كثير من تماثيل الإنسان من العاج والحجر . ويبدو الرأس كأنه تشمله قلنسوة ملساء محبوكة تمتد على صفحتى الوجه



(شكل ٤) تمثال امرأة من اللازورد من الكوم الأحمر

وتحيط باللحية ؛ على أنه ربما كان ذلك يرجع إلى طريقة المثال فى تمثيل شعر الرأس واللحية وخاصة إذا لاحظنا عنايته بصقل سطوح هذا التمثال ، مما يدل على تقديره للمادة التى صاغه منها وعلى شعوره بجمالها . وفى رشاقة القامة وحسن استدارة الكتفين وجمال انحدارهما ، وفى بساطة خطوط الجسم وبساطة تمثيل السطوح المختلفة بما يتفق وصلابة الحجر ، ما ينم أيضاً عن براعة المثال ومهارته ، كما أن

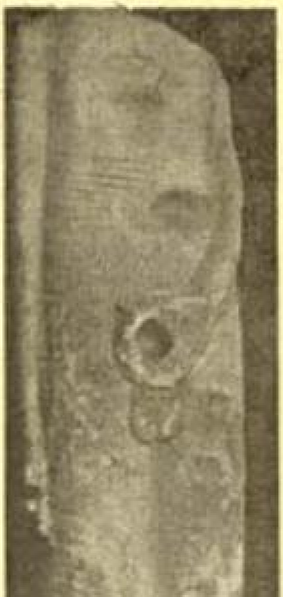
على أن صوره وتماثيله في الصور التالية تمثله دائماً رافعاً ذراعه اليمنى ؛ وعلى هذا يبدو أن السبب في تدلي الذراع اليمنى في هذه التماثيل إنما يرجع إلى طبيعة الحجر ورغبة المثال في ألا يتعرض بعض أجزاء التمثال للتلف السريع . وهي تمثله عارياً إلا من حزام يلتف حول الجسم عدة مرات ، بحيث يتدلى أحد طرفيه على الجانب الأيمن ، وقد نقشت عليه صور ورموز مختلفة تدل على مهارة فنية كبيرة (شكل ٧) . ومع هذا تبدو هذه التماثيل أشبه بأساطين طويلة من الحجر ، شكلت فيها تفاصيل الجسم باقتضاب . فالذراعان لا تكادان تبرزان من الجسم إلا قليلا ، ولا يفصل الساقين غير حز طويل ، كما أن عظام الركبة لم تمثل بوضوح ، وهي أشبه بمثلث ذي خطوط بارزة جافة . وفي تمثيل هذا الإله بقامة



(شكل ٥)
تمثال رجل من حجر أسود أجيد صقل سطوحه

في تمثيل أظفار اليدين وعظام الركبة ما يشير إلى محاولة تمثيل الطبيعة في شيء من الصدق والإخلاص .

ولم يقتصر المثال على صناعة التماثيل الصغيرة من الأحجار . وإنما عمد أيضاً في كثير من الأحيان إلى نحت التماثيل الكبيرة . فقد عثر في قفط على ثلاثة تماثيل من الحجر الجيري للإله « مين » ، تمثله واقفاً وساقاه جنباً إلى جنب وذراعه اليمنى إلى جانبه وقبضة اليد منقوبة ، مما يدل على أنها كانت تقبض على المذبة أو السوط من مادة أخرى (شكل ٦) .



(شكل ٦)
تمثال للإله « مين » من الحجر الجيري

أطول كثيراً من القامة الطبيعية ما يكشف عن رغبة الفنان في تمثيله في شكل يفوق كثيراً مقاييس الإنسان ، بما يعبر عما كان له من عظمة وجلال .

ومما يشبه تماثيل الإله « مين » في بساطة تشكيلها وقلة تفاصيلها تمثال من الحجر الجيرى كشف عنه في معبد الكوم الأحمر وينقصه الرأس والقدمان . وهو يمثل شخصاً واقفاً يضع يده اليسرى على صدره بينما تتدلى ذراعه اليمنى إلى جانبه ، وقد أفرغت قبضة اليد اليمنى بما يدل على أنها كانت تقبض على إحدى أمارات الشرف . وتبدو الساق اليسرى متقدمة قليلاً إلى الأمام ، أما الركبتان فقد مثلتا في غير عناية ، ويحيط بالجسم رداء طويل يصل إلى الركبتين تقريباً ويترك صفحة الكتف اليمنى عارية .

وفي معبد الكوم الأحمر كشف أيضاً عن تمثالين من الحجر الجيرى ، وجد أحدهما في حالة سيئة ، حتى إنه لم يمكن نقله من مكانه . أما التمثال الثانى فهو الآن في متحف القاهرة ، وهو يمثل صاحبه في حجم طبيعى جالساً على ساقه اليسرى وناصباً ساقه اليمنى ويداه مبسوطتان على ركبتيه . ووجهه ممتلئ يحيط به شعر مستعار قصير يغطى الأذنين ويصل حتى الكتفين . والشفتان غليظتان وعلى الشفة العليا شريط



(شكل ٧) بعض صور ورموز دقيقة
على أحد تماثيل الإله « مين »



(شكل ٨) رأس من الحجر الجيرى بملامح أجيد تمثيلها

بارز يمثل الشاربين كما في بعض التماثيل في العصور التالية . ويحيط بالجسم حزام تتدلى منه أهداب بين الساقين على نحو ما يبدو في صور بعض الأشخاص على صلاية نعرمر وفي بعض نقوش الدولة القديمة . وفي خطوط التمثال رخاوة واستدارة ، بما يمثل تفاصيل الجسم في اقتضاب كثير ، ويكاد الرأس يستقر على الكتفين ، وبذلك يبدو التمثال مكتزاً متداخلاً . عدا هذا لقد عثر أيضاً في هذا المعبد على رأس تمثال صغير من حجر جيرى هش ، يمثل صاحبه بوجه مسنون ، وأنف أجيد تشكيله ، وشفتين بارزتين ، وشعر مستعار ، يتألف من خصل قصيرة مجعدة في صفوف رتيبة (شكل ٨) . وكانت العينان مطعمتين بمادة أخرى ، وتدل خطوط الوجه على تقدم ملحوظ يبشر بما سيكون عليه فن النحت في الحجر . وقد عثر أيضاً على عتبة باب من حجر صلد قاتم ، نحتت على شكل أسير قيدت ذراعاه خلف ظهره ، وذلك في خطوط بسيطة تتفق والغرض المعمارى الذى صنعت من أجله . ومع هـذا فقد عولجت ملامح الوجه في شيء

من التفصيل كما يتضح من العينين والأنف والشفتين البارزتين . وفى تمثيل الأسير على هــذا النحو ما يثير ذكرى ما جاء فى كتاب الموتى عن سحق الأعداء تحت أعقاب أبواب الجحيم .

وفى متحف كلية الجامعة فى لندن تمثالان جالسان من الحجر الجيرى قيل عنهما إنهما أيضاً من معبد الكوم الأحمر وإنهما يمثلان ملكا وملكة . وتمثال الملك يمثله برداء طويل ويده اليسرى على صدره واليمنى على ركبته ، وعلى رأسه قلنسوة تشبه القلنسوة الملكية فى العصور التالية . والعينان واسعتان وأشفارهما بارزة ، ولم تمثل ملامح الوجه بعناية . ويبدو من تمثال الملكة أنه يمثلها جالسة أيضاً ، وعلى ذلك يعتبر هذان التمثالان أقدم التماثيل الجالسة ، وقد وجد هذا الوضع سبيله فيما بعد إلى كثير من تماثيل الملوك والأفراد . وتمثال الملكة يمثلها وقد جمعت شعرها فى ضفيرتين تتدليان على صدرها . على أنه أمكن لمتحف القاهرة حديثاً اقتناء تمثال يدل نحته على عناية أوفى بتمثيل ملامح الوجه وعلى الرأس شعر مستعار يشبه كثيراً الشعر فى تماثيل الإلهة حاتحور وتماثيل بعض ملكات الدولة المتوسطة .

يتضح من هذا كله أنه على كثرة ما كشف عنه حتى الآن من مختلف آثار ما قبل الأسرات ، فإن ما حفظ فى القطع المنحوتة من الحجر على شكل الإنسان لا يعدو بضع قطع قليلة ، وقد كانت فى بداية الأمر من حجم ضئيل وشكل بدائى ، مما يدل على أنه لم يكن للحجر إذ ذاك شأن يذكر فى فن النحت . ومنذ أواخر ما قبل الأسرات أخذ المثال يتحسس طريقه إلى استخدام الحجر فى صناعة التماثيل الكاملة للإنسان ، تغريه بذلك صلابة مادته ورغبته فى متانة التمثال وكبر حجمه ، مما يرضى غايات عصره ومطالب العقائد السائدة . على أنه وإن كانت هــذه التماثيل تمتاز ببساطة سطوحها وأشكالها ، إلا أنها فى مجموعها تبدو غليظة ثابتة ، فالرءوس تؤود الكتفين بثقلها ولا تكاد تخلص منها ، كما أن أجزاء الجسم يتداخل بعضها فى بعض بحيث لا تكاد الأعضاء تتجرد عن الجسد .

وقد أدى هذا إلى القول بأن المثال لم يكن قد وفق بعد إلى حل مرضى للمصاعب الصناعية فى نحت الحجر . غير أنه مما يضعف هذا الرأى ما تدل عليه الأوانى من الأحجار من قبل الأسرات وبداية عهد الأسرات من مهارة فائقة وقدرة كبيرة على صناعة الأحجار الصلدة ، وخبرة وافية بطبيعتها . فإذا قيل على سبيل الاعتراض إن المصاعب الصناعية فى صناعة الأوانى من الحجر تختلف عنها فى نحت التماثيل ، فإنه يلاحظ أن ما حفظ من تماثيل الحيوان من هــذه العهود يدل على كفاءة صناعية كبيرة فى نحت الحجر الصلد . ولا مجال للظن بأن القدرة الصناعية التى يقتضيها نحت الحجر تختلف فى تماثيل الإنسان عنها فى تماثيل الحيوان . ولعله مما يعين على استكناه الأسباب الحقيقية ما يتجلى فى تماثيل الإنسان من الأحجار ، وخاصة ما كان منها من حجم كبير ، من حذر شديد وحرص قوى على ألا يتعرض بعض أجزاء التمثال للكسر . ويؤيد هذا ما يلاحظ من أن تماثيل الإنسان من الأحجار الصلدة أكثر إتقاناً من أغلب تماثيل الإنسان من الحجر الجيرى الرخو ، فهى على رخاوة مادتها تبدو فى خطوطها العامة أكثر بداوة ، بحيث لا تكاد تتخلص من كتلة الحجر التى صيغت منها إلا قليلا .

وكما أنه لا يصح الاعتماد على هذه التماثيل للحكم على القدرة الصناعية للمثال ، فإنه لا يصح الاعتماد عليها كذلك فى تقدير كفاءته الفنية دون حساب لظروفه وأغراضه ، فتماثيل الإنسان من العاج فى ذلك العهد تدل على كفاءة فنية ممتازة ، وما نظن أنه قد اختص بصناعتها فريق دون غيره من المثالين . ومهما يكن من أمر فقد طرق المثالون فى نحت التماثيل من الحجر فى أوائل عهد الأسرات باباً جديداً ، كان له أكبر الآثار فى فن النحت فى كافة عصور مصر القديمة ، وقد اتخذ بعضهم من الأوضاع والقواعد ما التزمه المثالون فى العهود التالية ، ومنهم من خطا بفن النحت فى الحجر خطوات موفقة تبشر بما سيكون عليه فيما بعد نحت التماثيل من الحجر .

محمد أنور شكرى



حول كتاب «هذا هو الاسلام»

تأليف الأستاذ عبد القادر المغاوى

للأستاذ أنور الجندى

لست أدرى ، أهو من علامات النضج والنهضة والحيوية ، أن تظهر مؤلفات كثيرة متنوعة ، لقادة الفكر ، أو لشبابه ، فى مختلف الدراسات والموضوعات ، الجديدة النافعة الحيوية ، ثم ينقضى وقت طويل ، دون أن نقرأ فصلا من الفصول فى نقد هذه المؤلفات ، أو درسها ، أم أن ذلك من علامات الركود والضعف والكسل النفعى المرير ...

ويقينى أن الصحافة اليومية ، السريعة المتعجلة ، هى التى جنت على الأدب والنقد ، معاً ، هذه الجناية ، فما كنت صاحب الرسالة ، أو مؤلف الكتاب ، بأن يكتب له هذا المحرر ، أو ذاك ، كلمة ثناء .. فى بضعة سطور ، ثم يمضى ..

وأصبح النقد الأدبى كريهاً إلى نفوس المؤلفين ، لأنه ينتقص من أقدارهم ، ويغض من قيمة إنتاجهم .. وشاد الأدب ، هم الآخرون ، آثروا السلامة ، وقنعوا بالصمت ، ولاذوا بالجمود ، فخفتت روح النقد التى كانت قوية عارمة قاسية ، يشعر كل كاتب أن لها سيفاً مصلتاً ، وقوة مرهوبة ، وميضاً جباراً ، فيحسن حين يكتب ، ويراجع ويبحث ، ويطيل المراجعة والبحث ، قبل أن يطلع على الجمهور بكتاباته وآرائه ..

ومن الكتب التى ظهرت فى عام ١٩٥٠ ، والتى وقف النقاد منها موقف الجمود والصمت ، كتاب الأستاذ المغاوى « هـذا هو الإسلام .. » والواقع أن هذا الكتاب خليق بالنقد والبحث ، فهو يحمل حملة قاسية على الصوفية ورجال الدين والجماعات الدينية . ويقدم خلاصات واضحة ، تدل على سعة الاطلاع ، وعلى البحث العميق ، لمختلف ما كتب عن الإسلام والدين والروحية والحضارة ، سواء ما كتب فى الشرق أو فى الغرب .

والأستاذ المغاوى من شباب المدرسة الحديثة ، فهو إذاً يلفت النظر حين يتحدث عن الإسلام ، ويرغب فى الإصلاح بهذه الروح المتحمسة ، الغيور ، الواعية .

وهو إلى ذلك قد أوتى وسائل الطبع والنشر كما أوتى وسائل التأليف والبحث ، سواء ، وإن كان لى أن أقول شيئاً ، فإنما ذلك هو الرجاء الحار إلى المشتغلين بأمور الإصلاح والنهضة فى الميدان الدينى ، أن يطالعوا هـذا الكتاب وأن يفصلوا القول فيما أثار مؤلفه من المسائل والآراء . وقد علمت أن الأستاذ عبد المتعال الصعيدى قد قرأ هـذا الكتاب ، وهو عالم من علماء الإسلام الأجلاء ، وإنا لحريصون أن نسمع رأيه ، كما نحب أن نسمع رأى من يهمهم شأن البحث فى النهضة والإصلاح فى الشرق الإسلامى ..

للمؤلف عذره عندنا ، أنه شاب مثقف ، تلمذ على الأدب الحديث ، فإذا جاء ليتكلم اليوم فى الإسلام وعن أسباب تأخر المسلمين ووسائل النهوض ، كان عليه أن يتمهل ، ويمحص ، وأن يطيل التأمل والنظر قبل أن يقول كلمته .

لست أشك فى أن الدراسات التى عرض لها المؤلف عن الإسلام والمسيحية واليهودية ، وعوامل ازدهار الإسلام وعرضه للحاضر القائم ، والمجتمعات الغربية والشرقية والفلسفات والنظريات الأوربية فى الوجودية والروحية وفلسفة الأديان ، لست أشك أن ذلك كله يدل على علم

زيارة لجزيرة الملك

وسط نهر النيل قبالة مدينة أسوان

قصدنا الجزيرةَ في زورقٍ
تماثلهم حلوة كالنهر
وقد ولّى الصبحَ شمسٌ لها
جلالٌ وضوءٌ عظيمُ الأثر
شققنا الغديرَ بفُلكٍ لنا
فلاحَ على جانبيها الغرر
بنا اهتزت الفلك في تشوقٍ
كأن الغدير بنا قد سكر
وصافح أوجُهَنا ذا النسيم
فأسكرنا شذوُ العطر
فلولاكَ يا نيل ما كان حسنٌ
بمصر ولا كان ذاك الزهر
ولا كان روضٌ ولا بهجةٌ
ولا رقدةٌ في ظلال الشجر
عبرنا العباب إلى أن وطئنا
جزيرة ملك كبير الخطر
مليكٌ نحييه كلَّ صباح وتذكره في ليالي السمر
متيّمةٌ مصر في حبه (فاروق) بمع الحلى والبصر
كأن الكنانة في حسنها حديقتنا وهو فيها الثمر
كأن الجزيرة قد أشبهت على جبهة النهر إحدى الطُّرر
زمردةٌ فوق فضةِ ماء تماوجَ فيها نضارٌ بهر
تدبّ الحياة بخضرة نبت إذا ما شعاعُ ذكاء ظهر
فيا حسنها حين يأتي الربيعُ ويا حسنها حين يبدو القمر

(بنها) مصطفى حسن القبطان

كأس من النور

« مهداة إلى الشاعر . م »

هات الكئوس وناجي القلب واسقيه
واعزف بقيثارك المحبوب تحييه
كأس من النور لم تفتأ تغازلني
والروح ظمأى لفيض من معانيه
يا هذه الكأس جودي بالشعر لنا
فإن نورك روحي عزّها فيه
روحي هي الفلك والأنوار سبحها
والكأس بسّامة بالحسن توجيه
كأس المحبة لا يحظى بشربها
إلا الذي فاض شعر الحب من فيه
لا يعلم المجد من كانت منيته
فقد الشعور لمن بالكأس يسقيه
روحي إذا غبت عني فارقت جسدي
فأنت كأسي الذي أحيا بما فيه
لا تظهر الصدّ إن الصد يقتلني
وأنقذ القلب بالقبلات وحييه
قلبي وقلبك قد جارا على جسدي
قلبي صبرك لكن أنت تبكيه
رفقاً بقلبي فلا تطربك فرقته
وفرقة القلب سهم أنت تلقيه
عار على الحر أن ينسى أحبته
وكيف ينسى الهوى من بات يزكيه
وكيف ينسى الهوى من روحه سبحت
في عالم الحب تحيا في معانيه

عبد الرحيم أحمد العراقي

عميق ، وعلى أن المؤلف قد شغل نفسه بالبحث شغلا جماً ، ولكني لا أوافقه على كثير من آرائه عن مجتمعنا اليوم ، هذه الآراء التي أعتقد أن صاحبنا كان يلبس ، وهو يكتبها ، منظاراً أسود قاتماً ..

إذ الواقع يشهد بأن الشرق كله يمضي في طريق النهضة بخطى واسعة ، وأنه يسير في طريق معبدة قويمة ، وخير ما أحيل عليه كاتبنا الشاب ، ذلك السفر الجليل الذي أصدره أستاذنا العلامة الكبير أحمد أمين بك « زعماء الإصلاح » فإن قرأه فسيقتنع بصدق ما أقول .

وبقي أن الأستاذ العداوي لو نظر إلى الشرق بروح المصلح قبل أن ينظر بروح الفيلسوف لاقتنع بأننا نمضي إلى اشتكال النهضة في قوة ومضاء ..

أنور الجندي



قارع الناقوس الهرم

للكاتب الروسى فلاديمير كرولنكو

ترجمة الأستاذ محمد فتحى عبد الوهاب

أخذ الظلام يزحف بجيوشه ، وأطبق على القرية الصغيرة الراقدة على مقربة من النهر بجوار غابة الصنوبر ، فى إحدى ليالى الربيع ، وقد ازداد الشجر حلكة من ضباب الأرض المتصاعد ، فيملأ الفضاء الرحب ظلاً لازوردياً . كان كل شىء ساكناً كئيباً حزيناً . وكانت القرية هاجعة فى هدوء .

وبدت الأكواخ البالية القاتمة واضحة المعالم ، وتلألأت الأنوار هنا وهناك . وكنت تسمع بين الفينة والفينة صرير باب أو نباح كلب سرعان ما يكف عنه . ثم لا يلبث أن يبرز من أحشاء ظلام الغابة المترعة شبح يمشى على قدميه أو آخر يمتطى جواداً أو ثالث تترنح به مركبته . هؤلاء كانوا أهل القرى المنتشرة بالغابة المتفردة ، قاصدين إلى كنيستهم للاحتفال بعيد الربيع العظيم ، تلك الكنيسة القائمة على هضبة بسيطة وسط القرية ، وقد شمخ برج أجراسها القديم الداكن حتى ضل فى السماء الزرقاء .

وصر الدرج تحت قدمى قارع الناقوس الهرم ميخيتش فى طريقه إلى قبة النواقيس ، ومصباحه الصغير المدلى من يده يتأرجح فى الجو فيبدو كالنجم المتألق فى السماء . وجعل الكهل يرتقى الدرج فى مشقة ، فقد كانت ساقاه تكادان تعجزان عن حمله ، وعيناه يتعذر عليهما تمييز ما حولهما ... لقد كان الأولى برجل فى سنه أن يكون فى عداد الأموات . بيد أن الله باعد بينه وبين الموت . لقد دفن أولاده وحفدته ورافق الكهول والشبان إلى مرقدهم الأخير . ولكنه لا يزال على قيد الحياة . وما أشق ذلك على نفسه ، وما أكثر ما استقبل من أعياد الربيع . إنه لا يستطيع أن يتذكر كم من المرات قد انتظر ساعته المحتومة فى ذلك البرج ذاته . ولكن يشاء الله مرة أخرى أن ...

ووصل الكهل إلى قمة البرج ، ثم اعتمد على الحاجز . وبدت له قبور القرية فى الظلام حول الكنيسة ، وقد لاحت الصلبان القديمة باسطة أذرعها وكأنها تحمى الأجداث ، وانحنت فوقها هنا وهناك أشجار عارية . وحمل إليه النسيم الأريج الشذى للبراعم الصغيرة ، يتصاعد من أسفل ، فيجلب معه شعور الحزن من النوم السرمدى .

ترى أين يكون بعد عام ؟ أيتسلق أيضاً هذا البرج ويصل إلى هذا الارتفاع تحت الأجراس النحاسية ليوقظ الليل الهاجع برنينها المدوى ، أو يكون راقداً فى ركن مظلم من أركان القبر تحت أحد الصلبان ؟ إنما يعلم ذلك الله !... إنه لعلى استعداد . أما فى الوقت الحاضر فقد منحه الله سعادة استقبال العيد مرة أخرى .

وهمست شفتاه « الحمد لله ! » تلك الجملة المعتادة ، وقد تطلعت عيناه نحو السماء اللامعة بملايين النجوم المتلألئة ، ثم رسم علامة الصليب .

• • •

وناداه صوت مرتجف لرجل كهل : « ميخيتش ، يا ميخيتش ! » كان الكهل يحدق إلى قبة الأجراس ،

وقد ظلت يده عينيه الشاردتين الفاحتين من فرط الدموع، محاولاً أن يرى ميخيتش.

ورد قارع الناقوس وهو ينظر إلى أسفل البرج قائلاً:

— ماذا تريد؟ أنا هنا. ألا تستطيع أن تراني؟.

— كلا، لا أستطيع. لا شك أن وقت دق النواقيس قد حان. ماذا تقول؟.

وتطلع الاثنان إلى النجوم. وتلألأت آلاف الأضواء في عنان السماء. وجعل ميخيتش يتأملها مفكراً.

— كلا، لم يحن الوقت بعد... إني أعرف متى...

حقاً لقد كان يعرف. ولم يكن في حاجة إلى ما يدله على الوقت، فنجوم الخالق ستخبره عندما.. إن السماء والأرض والسحاب الأبيض السابح في خفة، والغابة الحالكة بدبيبها المبهم، ومجرى الماء المتماوج يغلفه الظلام — كل ذلك كان شيئاً مألوفاً عنده، جزءاً من كيانه. إنه لم يقض حياته هنا سدى.

وتعالى الماضي السحيق أمامه: تذكر كيف صعد للمرة الأولى هذا البرج مع والده. يا إلهي! ما أطول ما مضى من الزمن! ومع ذلك لكأنه لم يمض منه شيء!.. وشاهد نفسه صبياً أشقر الشعر، متألق العينين، والريح — لم تكن تلك التي ترتفع من غبار الطرقات، إنما ريح غريبة يخفق جناحاها الصامتان، فتعبث بشعره... وهناك في الطريق تحته، سارت مخلوقات كالأقزام هنا وهناك، وبدت أكواخ القرية صغيرة أمام ناظريه، وتراجعت الغابة، وخيل إليه أن رقعة الأرض المنبسطة البيضاوية التي تقوم عليها القرية قد أصبحت شاسعة ليس لها نهاية...

وابتسم الرجل ذو الشعر الأشيب وهو يرنو إلى تلك الرقعة الصغيرة ثم قال: «ومع ذلك فها هي ذي بأجمعها!» إنها سنة الحياة. فعندما يكون المرء في زهرة العمر لا يستطيع أن يرى نهايتها. أما الآن، ها هي ذي، كما لو أنها في راحة اليد، من بدايتها إلى القبر الراقد هناك، ذلك الذي تخيله لنفسه في ركن المقبرة... حسن، الحمد لله! لقد حان وقت الرقاد. إن ما حمله من أعباء الحياة قد حمله في شرف. وبدت له الأرض الرطبة وكأنها والدته... وقريباً، قريباً جداً!...

بيد أن الوقت قد أزف. وتطلع ميخيتش مرة أخرى إلى النجوم، ثم خلع قلنسوته، ورسم علامة الصليب، وأخيراً أمسك بحبال النواقيس. وإن هي إلا برهة حتى ردد نسيم الليل صوت رنة أعقبتها أخرى، فثالثة، فرابعة.. الواحدة تلو الأخرى، فتملأ العشية المقدسة الساكنة وتصب فيها أصواتاً جهورية شادية.

***

وتوقفت النواقيس. وبدأت مراسيم الكنيسة. وكان ميخيتش قد اعتاد من قبل أن ينزل ويقف في ركن بجوار الباب يصلي ويسمع التراتيل. ولكنه ظل بالبرج في هذه المرة، فقد كان من المتعذر عليه أن ينزل الدرج، فضلاً عما يشعر به من جهد ونصب. وجلس على المقعد، ثم غرق في لجة من التفكير. وهو يصغي إلى رنات النحاس المتلاشية. فيم يفكر؟ لقد تعذرت عليه الإجابة... كان البرج سيء الإضاءة، تلك المنبثة من مصباح واهن الضوء. وكانت النواقيس مختفية في الظلام ولما تزل تهتز. وكان يتناهى إلى سمعه بين الفينة والفينة ترانيم خافتة مقبلة من الكنيسة. وتلاعب نسيم الليل بالحبال المشدودة إلى ألسنة النواقيس الحديدية.

وترك الرجل الهرم رأسه يسقط على صدره، وقد هامت بعقله الخيالات. وفكر قائلاً: «إنهم الآن يرتلون» وتخيل نفسه داخل الكنيسة يستمع إلى تراتيل الصبية. وشاهد الأب ناعوم، وقد فارق الحياة منذ زمن بعيد، يقود الصلاة جماعة، فترتفع وتنخفض رءوس مئات القرويين وكأنها أعواد الحنطة الناضجة أمام الريح... ورسم القرويون علامة الصليب... كان كل هذا شيئاً مألوفاً لديه، على الرغم من أنه قد ولى جميعه وانقضى... ها هو ذا يلمح وجه والده القاسي. وهناك شقيقه يصلي في حرارة. وها هو نفسه واقف هناك، يرفل في حلل الصحة والشباب، وقد غمره أمل لا شعوري بالسعادة... وأين كانت تلك السعادة؟... وأومضت أفكار الرجل الهرم فترة، فأضاءت مختلف أطوار حياته الماضية؟..

ولاح له الضنك والحزن والهم... أين كانت هذه السعادة؟ إن الضنك لا بد أن يشق طريقه حتى في وجه كل شاب، ويحني ظهره القوي، ويعلمه كيف يتنهد كما علم أخاه الأكبر.

ها هي ذي حبيبته واقفة هناك بالجهة اليسرى بين نساء

القرية ، وقد أطرقت برأسها في خضوع . امرأة طيبة . فلبها الله فسيح جنانه ! يا المرأة المسكينة ، كم تعذبت ... إن الإملاق الدائم والجهاد المستمر والأحزان التي لا مناص منها في حياة امرأة لابد أن تذوي بجمالها ، وتفقد عيناها بهاءهما . ثم يستقر بدلاً من الهدوء المألوف ، خوف مبهم من مصائب جائية ، يستقر استقراراً دائماً على وجهها ... حسن إذاً ، أين كانت سعادتها ؟... لقد بقي لهما ولد واحد ، أملهما الوحيد ، بهجتهما . بيد أنه كان أضعف من أن يتحمل أعاصير الحياة .

وها هو ذا عدوه الثري راكع يصلي حتى يسامحه الله على الدموع الغزيرة التي ذرفها الشاب بسببه . ورسم علامة الصليب في حرارة ثم خبط جبهته بالأرض ... وغلى قلب ميخيتش في صدره ، وعبث الغضب بوجوه القرويين ، وقد حلكت من الأحزان البشرية والشرور الإنسانية .

كان كل ذلك قد ولّى وخلّفه وراءه . وأصبح العالم كله الآن أمام عينيه محدوداً بهذا البرج ، حيث الريح تئن في الظلام ، والحبال تهتز ... وتمتم الرجل الهرم قائلاً : « اللهم عفوك ! » ثم أطرق برأسه الأشيب ، وقد انحدرت الدموع على وجنتيه .

• • •

وصاح أحدهم من تحت : ميخيتش ، يا ميخيتش ! هل استسلمت للنوم ؟ . فأجاب الرجل الهرم وقد هب واقفاً على قدميه : ماذا ؟ يا إلهي ! أكنت نائماً حقاً ؟ لم يحدث لي مثل ذلك من قبل مطلقاً ! .

وبيدين سريعتين مجربتين أمسك بالحبال . كان القرويون يسيرون تحته وكأنهم أسراب من النمل ، وكانت الأعلام تلمع بالحرير الموشى بالذهب ، وترفرف في الفضاء ... والتف الموكب بالكنيسة ، ثم سرعان ما وصل إلى سمع ميخيتش الدعاء البهج « المسيح يقوم من بين الأموات ! » .

واستجاب قلب الكهل في حرارة إلى هذا الدعاء ... وبدت له الشموع المحترقة أكثر إضاءة ، والحشد أشد حركة ، والأعلام ، وقد دب فيها دبيب الحياة ، والريح المستيقظة وقد جمعت أمواج الصوت على جناحيها ، وسبحت بها ، ثم مزجتها برنين النواقيس مرحبة بالعيد .

• • •

إنه لم يسبق لميخيتش أن قرع مثل هذا من قبل ! .

وبدا كما لو أن قلب الرجل الهرم قد انتقل إلى النحاس الخالي من الحياة ، فأخذت النواقيس تشدو وتضحك وتبكي ، وتتعالى رنينها ، وقد أخذت ألحانها في تيار متناسق متسام ، ثم ترتفع إلى عنان سماء متألقة بآلاف النجوم ، وأخيراً تتدفق إلى الأرض في رعشة .

وأعلنت مختلف النواقيس بألحانها المتنافرة « قيام المسيح ! » وبدت القبة القديمة ترتجف وتهتز والريح تضرب بجناحيها وجه قارع الناقوس الشيخ وهي تردد « المسيح يقوم ! » .

ونسي القلب الهرم حياته الزاخرة بالهموم والأحزان . ونسي قارع الناقوس الشيخ أن حياته محصورة بالحدود الضيقة لقبة الجرس المظلمة ، وأنه وحيد في العالم وكأنه جذع شجرة قديمة اقتلعتها العاصفة ... واستمع إلى تلك الأصوات الغنائية الباكية تتصاعد إلى السماء ثم تسقط ثانية إلى الأرض الحزينة ، وخيل إليه أنه محاط بأولاده وحفدته ، وأنه يسمع أصواتهم النشوية بالبهجة ، أصوات الشباب والكهولة تتحد في شدو أغنية السعادة التي لم يتذوقها في حياته مطلقاً ... وجذب الحبال ، والدموع تنحدر على خديه ، وقلبه يخفق في شدة ، كلما تصور هذه السعادة ...

• • •

وأصغى الناس أسفل الدرج إلى رنين الأجراس ، ثم قال بعضهم لبعض : إنه لم يسبق لميخيتش أن قرع الأجراس في مثل هذه الجودة .

وعلى حين غرة ، صدر من الناقوس الكبير صوت مبهم ، وما لبث أن صمت . ثم أعقبه دوي الناقوس الأصغر في صوت متقطع ، ثم توقف كما لو كان عن خجل ، ليصغي إلى الصدى الكئيب للنبرة المترددة المتطاولة تتلاشى في الجو ...

وتهالك قارع الناقوس الشيخ ، وقد استنفد قواه جميعها ، ساقطاً على المقعد . وانحدرت العبرتان الأخيرتان في بطء على وجنتيه الشاحبتين ...

« إيه . يامن هناك : أرسلوا بديلا . فقد دق قارع الناقوس الشيخ آخر دقاته » ...

محمد فتحي عبد الوهاب

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٩٧ | الاثنين ١٩ من شعبان سنة ١٣٦٩ — ٥ من يونيه سنة ١٩٥٠ | السنة الثانية عشرة

حياة مباركة

أو

حياة أحمد أمين

« .. نعم يسرني كل السرور أن يقدر الناس كتبي وأفكاري ، ولكن إذا قدروها في أدب صدقت ذلك ضرباً من ضروب تقديرها والاهتمام بها »
أحمد أمين في حياتي ص ٣٣٥

للأستاذ عبده حسن الزيات

يقول « ألفرد دوفيني » في كتاب « مجد الجندية ورقها[١] » : إن المرء حين يتحدث عن نفسه لن يجد أفضل من الصراحة مصدراً لوحيه[٢].

ويقول أحمد أمين في حياته : « .. خير الأدب ما كان صادقاً يعبر عما في النفس من غير تقليد ، ويترجم عما جربه الكاتب في الحياة من غير تلفيق . ولقد اطمأننت إلى هذا النوع من الكتابة ، إذ كان يفتح عيني للملاحظة والتجربة ويسري عن نفسي بالإفراج عما اختزنته من حرارة ، فكنت أشعر بعد كتابة المقالة كما يشعر المحزون دمعت عينه ، أو المسرور ضحكت سنه[٣]... خير لي أن أصدق مع نفسي ومع غرضي ومع ميلي من أن أزوق أسلوبي وأكذب على نفسي ليجمع الناس على أدبي[١] » .

ـ الصراحة والصدق هما إذاً خير مصادر الوحي عند أحمد أمين ، أو هما مصدراه بغير ثالث لا في خصوص الحكاية عن الذات فقط ، بل في عموم الحديث وفي الأدب مطلقاً بغير تخصيص ؛ فليس عجيباً أن تتعاقب أمام أنظارنا نماذج هذه الصراحة خلال حديثه عن ذاته ، أو أثناء هذه الناحية العلية .

إننا لا نحس العجب ما دامت هذه خطة الرجل وفلسفته ، ولكنا نحس الإعجاب حين نراه يقمع الزهو ، بل الزهو السلبي أيضاً ، ذلك الذي يقنع بالإغضاء عن مواقف الضعف والحرج ، فلا يعرض لها بذكر ولا نفي ولا إثبات .

(١) Grandeur et Servitude Militaires.

(٢) Quand on parle de soi la meilleure Muse est la franchise.

(٣) ص ٢٩٢ .

(١) ص ٢٩٤ .

إننا ليأخذنا شعور الإكبار حين نرى الرجل يتطوع غير مسئول فينشر على الناس من أموره ما عطل من أسباب الاعتزاز ، أو قامت به مبررات التناسي والإنساء . ولست أستقصي ما حفل به الكتاب من هذا القبيل ، ولكني أقنع بتخيّر بعضه على سبيل المثال : فهو يصف ضرب أبيه إياه واحتجاج أمه احتجاجاً لا تنال من جرائه إلا أن يتحول الضرب إليها « فكان إذا حدث هذا فيما بعد اكتفت بالصراخ والعويل من بعيد[1] » ، وهو يتحدث عن عهده مدرساً بمدرسة راتب باشا بالإسكندرية فيذكر إحساسه كفايته في تدريس القواعد « حتى كان من غروري أنى أخطئ الكتب المدرسية التى قررتها وزارة المعارف ! أما في دروس الإنشاء فلم أكن بارعاً ، بل كان بعض التلاميذ يكتبون خيراً مما أكتب لأنى لم أمرن على الكتابة[2] » . وهو يسجل على نفسه خطأه — حين تقدم إلى مسابقة التدريس التى أعدتها الجمعية الخيرية الإسلامية — في تفسير لفظ « زوّد[3] » . وهو يروى انصرافه طالباً إلى لعب القمار في الأزهر مع زميلين أنيقين إلى أن تنبه ضميره بعد أشهر « وفهم أن هذه الحال تؤدى إلى سوء المآل فترك صحبتهما والتفت إلى دروسه[4] » ، وبارك الله في هذا الضمير الذى لم يستنقذه من وهدة القمار القذرة القاتلة لنفسه ولأهله فحسب ، ولكنه استنقذه لهم ولوطنه وللعلم والأدب ، وليستطيع أن يكتب « حياتى » . ثم هو يذكر حيرته على منصة القضاء في قضيته الأولى[5] ، ولا يأبى أن يشيع السرور في نفوس قرائه على حسابه وهو يقص عليهم مقدمات زواجه ، وكيف تعمد أن يحمل معه كتاباً إنجليزياً حين سعى إلى منزل أراد أن يُصهر إلى أهله ، وكيف حشر في حديثه بعض الألفاظ الإنجليزية ليزيل من نفوسهم وقع العمامة فأفلح لديهم ، ولكن فتاة القصيد أطلت من النافذة فرأت عمامته فرفضته كل الرفض[6] .

● ● ●

بيد أن الكتاب ليس اعترافات وكفى ؛ إنه اعترافات وغناء وإخوانيات بالمعنى الواسع الذى ينتظم الأسرة والأستاذ والصديق ، ورثاء وتسجيلٌ لأحداث سياسية وجامعية ، وتنويهٌ أو نشرٌ لمواقف شخصية داخلية وخارجية ، ووصفٌ دقيق للأمكنة والأشخاص وخلجات النفوس ، وفلسفة عملية ونظرية ، وسياحة ويوميات ونقد اجتماعى ومقترحات إيجابية للإصلاح القومى .

كل هذا في الكتاب ، ولعل فيه أكثر منه ؛ فمن الحق في رأيى ألا نسمه بسمةٍ بعينها من سمات الأدب ، وألا ننسبه إلى فصيلة واحدة من فصائل الفن ، فقد جاء كصاحبه متعدد الجوانب ، بل لعله جاء مثله متناقض الأطوار ضاحكاً حيناً عابساً حيناً ، باكياً مبكياً في غير ذلك من الأحايين . وإنى لواثق أن أى قارئٍ أتمّ الكتاب لن يطالبنى بالدليل على ما أقول ، ولكن الذين لما يقرأوه قد يجدون فائدة في بعض الأمثلة أسوقها إليهم .

ولعل حديث الأستاذ عن أيامه في المستشفى قد بلغ من نفسى وعقلى فوق ما بلغته سائر أحاديثه . وقد حفلت هذه الصفحات المؤثرة بما يصلح مثالاً لكثير من هذه الأغراض الأدبية التى ذكرتها : فهى غناء بالألم ، وهى شطحات صوفية ، وهى نقدات اجتماعية ، وهى فلسفة سوداء ، وهى اعترافات بأمانى النفس ومخاوفها وتشبثها بالسلامة ، وهى التفاتات إلى الإصلاح واقتراحات لتحسين حال المستشفيات .

فلنعش مع المريض ساعة ، ولنستمع إلى مناجاته :

« .. وأرهب ما يكون إذا تقدم الليل وانقطع الزوار وانصرف الأهل ونام الناس واعترانى القلق وشعرت بالوحدة واستولت علىّ الأفكار المقلقة ، فاجتمع علىّ ظلام الليل وظلام النفس . أستجدى النوم فلا يجدى ، وأفزع إلى الأفكار المطمئنة فلا تسعف ، وأعدّ ساعة الجامعة بالقرب منى ربعاً ربعاً ، وتغفو عينى غفوة فأظن أن الليل انقضى بؤسه وشقاؤه ، ثم أتسمع إلى حركة الشارع لعلى أتبين منها قرب النهار فأسمع حركة عربات وسيارات ومارة فأتساءل : هل الناس عائدون من آخر سهراتهم ، أو هم مستقبلون لبدء نهارهم ؟ وأظل في هذا الشك زمناً حتى

---

(١) ص ٤٥ .　(٢) ص ٧٦ .
(٣) ص ٦٢ .　(٤) ص ٦٠ .
(٥) ص ١٣١ .　(٦) ص ١٧٢ .

٤

رجاء أن يكون الصبح وخوف أن يكون الليل ، وإذا بالساعة تدق الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، فأجزع من أنى مقبل على ليل ليس له آخر ، وأنشد مع الشاعر :

يا ليـــل بل يا أبدُ   أغائب عنــك غــد ؟

... ولم يكن لى من العزاء أحسن من الإيمان ، فهو الركن الذى يستند إليه المرء فى هذا الوقت الرهيب ، وبدونه يشعر كأن الهاوية تحت قدميه » .

ثم لنستمع إلى المريض الناقه وقد انتقل إلى منزله :

« .. وأدخل المكتبة لذكرى الماضى فيزيد ألمى . غذاء شهىّ وجوع مفرط ، وقد حيل بين الجائع وغذائه . وأتساءل : هل يعود نظرى كما كان فأستفيد منها كما كنت أستفيد ؟ وهذه الآلاف من الكتب آلاف من الأصدقاء لكل صديق طعمه ولونه وطرافة حديثه ، وقد كان يمدنى بالحديث الذى يحسن حين أشير إليه ؟ فاليوم أراهم ولا أسمع حديثهم ويمدون إلىّ أيديهم ولا أستطيع أن أمد إليهم يدى » .

ولقد حز فى نفسى واسترعى انتباهى أن الأستاذ مرض لإصابته بالمرض السكرى ، فلم يقف أمامه مثل هذه الوقفة الباكية المبكية(١) ، مع أن صورة الحرمان بالقياس إليه واقعية محسوسة ، بينا هى بالقياس إلى مائدة الكتب مجازية عقلية ؟ إن هذه الموازنة لتظهر بجلاء شدة تعلق الرجل بالعلم ، وأنه يحيا فيه حياة حقيقية داخلية .

ولكن هذا الغناء الشجىّ الموجع ليس غناءه الوحيد ؟ فقد أنشد مزامير الوداع على قبور الأعزاء ، ولقد هاج فى نفوس قرائه لواعج الأحزان . لقد رثى أباه الذى مات أثر عملية جراحية ، فهل عاش آباؤنا الذين رحلوا عيشة هذه المستشفيات ؟ هل اجتمع عليهم ظلام المرض وظلام الليل وظلام نفوس تلبسها أجسام ممرض فدم غليظ القلب ، وطبيب مستهتر غائب ، وطبيب حاضر كغائب ، وطبيب ليته غاب وما حضر ؟ هل تحالفت عليهم ألوان هذا الظلام كلها لتجرعهم جرعاً ، ثم تتوج ظلامهم بالظلام الأكبر الذى ليس بعده صباح ، ولا أمل فى صباح ؟ » .

(١) ص ٢٢٣ .

غير أن الكتاب يجرح ويأسو ، فمن ذا الذى لا يتعزى عن مصابه وهو يشهد قبور الأحبة منثورة بين دفتى الكتاب ؟ هذا قبر أخيه الأصغر ضحية الحمى والإهمال ، وهذا ضريح أخيه الأكبر صريع الشلل المفاجئ ، وهذا أبوه يموت بالالتهاب الرئوى فى أثر الجراحة ، وهذه أمه يملأ قلوبنا رقة لها وعطفاً عليها وهو يؤبنها على حافة القبر . وهذا أستاذه عاطف بركات تمتلئ بخصاله العالية وأطال الثناء ، حتى إذا تحدث عن نهايته أحسسنا كأن الرجل قد مات لساعته ، وكأننا نسمع نبأه الآن لأول مرة ، فيأخذنا الجزع من أقطارنا لا على راحل عظيم ، بل على هذه المجموعة النادرة من الأخلاق والطباع التى تفتقر إليها مصرنا أشد الافتقار .

* * *

— ٣ —

وكما تنقل المؤلف بنا بين أواخر القرن التاسع عشر وأواسط القرن العشرين ، وبين الأموات والأحياء ، وبين الحزن والسرور ، تنقل بنا بين الشرق والغرب ، وأرسل وصاياه صريحة ومضمرة ، ودعواته الإصلاحية سافرة ومستخفية ، فهو ينبه العراق إلى كنوزه المعطلة ، وهو يحكم على نفسه بفساد الذوق لأنه أشار إلى جدب الصحراء فى حفلة تكريمه ، وذلك حكم أخالفه فيه على الأقل لأنى لم أجد غضاضة فى أن أدعو الطلبة العراقيين إلى الجد واستخراج كنوز حقولهم وأرضهم ، وأن أستحثهم بتذكيرهم بقول شاعرهم :

ولم أر فى عيوب النـــاس عيباً
كنقص القـــادرين على التمـــام

وهو يؤاخذ المصريين على تقصيرهم فى التزام النظافة ويشــيد بنظافة الأتراك وهدوئهم ، فهم فى هذا « إنجليز الشرق » .

وهو يقص على قومه بعض ما أعجبه من خصال الإنجليز التى عاينها فى زيارته لانجلترا ، ويروى هـذا المثل الموحى المؤثر مثل « وكيل وزارة يشهّر بزوجته لأنها أخذت قنطاراً من الفحم زائداً عن سائر الناس وإن كانت فى حاجة

إليه ، لأنها تسكن بيتاً كان مهجوراً مرطوباً يحتاج إلى نار أكثر لتذهب برطوبته[(1)] » .

* * *

— ٤ —

وللمسائل التربوية والجامعية والعقلية والاجتماعية واللغوية قسطها الموفور من الكتاب . وإنى أبادر منذ الآن فأنص على أنى أرى فى شأن بعض هذه المشاكل غير ما يراه الأستاذ الجليل ، ولكنى أرجئ النقد كله إلى آخر الكلام ، وأجعل همى الآن التمثيل لبعض هذه المسائل :

فما يتصل بالشئون التربوية عرضه لقضية التأديب الجسمانى بما يفيد اعتراضه عليه ، وتصويره الرائع للكتّاب وتشخيصه لسيدنا ، ذلك التشخيص الذى ذكرنى بشارلز دكنز ، فلن أنسى كوعْضُ عصاه الطويلة التى يبلغ بها أبعد الأطفال مكاناً وهو فى مقعده لا يريم ، ولن أنسى عوضُ صورة الغلام يخطئ فى التلاوة وهو يهتز إلى أمام ووراء فيضربه سيدنا « فيصرخ ويصيح بالقراءة والبكاء معاً[(2)] » .

ويدخل فى النطاق التربوى والخلق أيضاً مؤاخذته الناظر الذى ضبط تلميذاً يسرق كتاباً فعلق على ظهره لوحة تسجل صنعته الجديدة ، فلم يتحمل التلميذ هذا الهوان العلنى وانقطع عن الدرس إلى الأبد .

ومما يتصل بالأمور الجامعية اعتراضه الحق على لجوء الأساتذة إلى طريقة إملاء الدروس[(3)] .

أما إرشاداته وانتقاداته وإيماءاته الاجتماعية فكثيرة لا تلاحق ، ومنها انتقاده الصائب للإسراف فى التكريم بحفلات الطعام ، ونعيه على مصر أنها « بلد تسره المجاملة ولو بالظلم ، ويفرح بالوعد ولو بالكذب » ، وإشارته إلى مأدبة قويسنا التى دعى إليها وهو قاضى البلدة ، فلما رأى الحر اختلق عذراً وانصرف ، وقوله فى وصف تصرفه : « وكان صواباً ما فعلت ، فلو جلست معهم لحرجت الشائعات بأنى كنت أشرب مع الشاربين ، وألهو مع اللاهين ، ولسقط مركزى الدينى ومركزى الخلقى ومركزى القضائى معاً[(1)] » .

أجل كان صواباً ما فعل ، وإنه لصوابٌ ما يقول الآن ، وإنى لشديد الإعجاب بهذا الحديث الشريف الذى يقول : « من وضع نفسه مواضع الشبهات اتهم ولا أجر له » .

وإن عينه النقية اليقظى لا يفوتها وهى فى الواحات أن ترى الأجنبى الذى يجمع نبات السكران ليبيعه بالأثمان الطائلة ، فيسجل هذه الظاهرة ألماً وتحريكاً للمصريين أن يتفطنوا إلى ما فى بلادهم من خيرات ، وأن يستخرجوا ما تنطوى عليه من كنوز . ولعمرى إن هذه لهى الدعوة الحصيفة المستنيرة ؛ فإن هذا البلد لن تحل مشاكله الاقتصادية والاجتماعية بالثرثرة والشقاق واستجلاب التصفيق الرخيص ، وإنما تحل بتنمية الثروة العامة وتتبع أسبابها فى مظانها من زراعة وصناعة وتجارة وتعدين وزيوت وسياحة ونحو ذلك .

— ٥ —

وبعد .. فقد قالوا إن النقد يسير والفن عسير ، ولكنى أحس هنا أن النقد هو أيضاً قد أصبح عسيراً .

ولكنه لا معدى عنه فلنستأذن الأستاذ الجليل فى التقدم بهذه اللاحظات .

لقد وقفت أمام جملة من الآراء الشخصية للأستاذ فلم أستطع أن أحمل نفسى على إقرارها : فأنا لا أرى إلغاء التأديب الجسمانى للصغار إلغاء تاماً مطلقاً ، فهو ملح قد لا ينضجون بدونه ؛ وإن الإنجليز الذين أبدى الأستاذ إعجابه الشديد بهم فيما خلا الناحية الاستعمارية ليقولون فى أمثالهم : « وفّر السوط تخسر الولد[(2)] » .

ولقد عرض الأستاذ فى أكثر من موضع لقضية العامية والفصحى ، وروى فى ذلك بعض ما أخذته على لغتنا المكتوبة مدرّسته وتلميذته الإنجليزية . ولست أدرى لماذا لم يرد عليها التحية بمثلها أو بأحسن منها ؟ فإن فى اللغة الإنجليزية مخالفات للمنطق ومخالفات هجائية للنطق وتحكمات قاسية لا مبرر لها ، ولكن القوم يقدسونها ، وكم من تلميذ مصرى

---

(1) ص ٣٠٤ . (2) ص ٣٧ .

(3) ص ٢٨٢ .

(1) ص ١٩٩ .

(2) Spare the tod, spoil the child.

راح ضحيتها !.. إنى أذكر على سبيل المثال أن من الكفر اللغوى الذى يستوجب المؤاخذة الشديدة أن تقول : All What ، مع أن هذا اللفظ يساوى اللفظ الصحيح ، وهو That ، بل لعل الاستعمال الأول أكثر تبادراً إلى الذهن لأنه ألصق بالمنطق — وكلة جار تدل عليها لفظة إنجليزية تكتب بطريقة لا تتفق مع نطقها ، وكذلك كلة بنت ومئات من الكلمات — وبين الألفاظ الإنجليزية عشرات لكل منها أكثر من معنى وأكثر من استعمال كلفظة Since .

فماذا لم يضق القوم ذرعاً بصعوبات لغتهم ، ولماذا لم ينادوا بتغيير معالمها وتقريبها من العامية ، أو تقريب العامية إليها ؟ لقد بشر الأستاذ بما رآه ، وهو « أن تكون لنا لغة شعبية ننقيها من حرافيش الكلمات ، ونلتزم فى أواخر الكلمات الوقف من غير إعراب » الخ ؛ ولو جاز لغيرنا من الدول القوية المتكاملة أن تشوه لغاتها لما جاز لنا أن نمس هذا المقوم الذى يعصمنا من التبدد والضياع . ولست أهمل أن أسجل قول المؤلف فى وصف أستاذه على بك فوزى إنه كان يتكلم فى الدرس اللغة الفصحى ولا يلحن(١) ؛ وإنما أعنى بتسجيل هذا لأن الكتاب قد تضمن أن فوزى بك قال لمؤلفه : « لا أمل فى إصلاح مصر ما دام هناك لغة للعلم ولغة للكلام ، فإما أن ترقى لغة الكلام ، وإما أن تنحط لغة العلم حتى تتحدا » .

إن المشاهد أن لغة التخاطب قد زحزحت بعض الشىء عن دائرتها الأولى واقتربت إلى لغة الكتابة ، وذلك بتأثير الإذاعة والكتب والصحف . وقد لاحظت فى هذا الصدد أمراً أرى من الخير إبداءه ، هو أن اللغة الفصحى قد دخلت أو ازدادت دخولاً فى عالم الأطفال منذ أن جعلت وزارة المعارف دروس الديانة إجبارية وموضع امتحان ؛ فقد سمعت طفلة تستعمل فى حديثها العادى مع أسرتها تعبيراً قرآنياً أتت به فى مناسبته المطابقة دون أن يكون ذلك مسبوقاً بسؤال أو إيحاء .

نحن لا نعيش اليوم فى زمن قاسم أمين الذى دعا إلى إسكان أواخر الكلمات ، والرأى عندى أنه لو وجد فى زماننا وعايش هذا التطور لتخلى عن دعوته تلك فلنتخل نحن عنها .

ولعل هذا الأمر وثيق الصلة بمسألة أخرى أستسمح الأستاذ أيضاً فى أن أبدى مخالفتى عن رأيه فيها ؛ تلك مسألة أرستقراطية الأدب ، فإنى أفهم أن تختلف مناحى الأدباء وأساليبهم ، فيجنح بعضهم إلى السهل ، ولكنى لا أفهم أن نقسر جميع الأدباء على أن يصطنعوا أسلوباً معيناً لأنه أقرب إلى أفهام الكثرة العددية .

وهنا أمر آخر أعلن فيه راية الخلاف كذلك : إن الأستاذ يصف حارته الأولى فيقول : « ولم يكن الفرنج قد بثوا مدنيتهم إلا فى أوساط قليلة من الشعب ، هى أوساط بعض من يحتك بهم من الأرستقراطيين وأشباههم » . والمستفاد من هذه العبارة ، أو المحتمل منها أن مصر كانت خلواً من كل مدنية إلا ما يقدر الفرنج أن يبثوه . فهل كان الأمر كذلك على إطلاقه وبهذا الأسلوب الجازم ؟ لندع المصريين أنفسهم ولنفترض جدلاً أنهم كانوا مجردين من كل مدنية ، فما القول فى الأتراك والشراكسة ومن إليهم ؟ ألم يشد المؤلف نفسه فى كتابه هذا بنظافة وهدوء الأتراك فى بلادهم حتى سماهم إنجليز الشرق ؟! .

• • •

— ٦ —

وهذا نقد آخر لا ينصب على الآراء ولا على شىء من المكتوب ، وإنما مناطه أن الكتاب قد أهمل أموراً ليست أهون شأناً من كل ما ضمنه دفتاه ؛ فقد كان للأستاذ المؤلف نشاط عظيم فى بيت المغرب ، نظم المحاضرات فيه ونشر باسمه كتباً هامة تتصل بالمغرب ، ورعى الطلاب المغاربة وآواهم فى مسكن كريم قبل أن تصير مساكن الطلاب إلى انتشارها الحاضر ؛ ومع ذلك فإنا لم نقرأ حرفاً واحداً عن هذا الفرع من النشاط .

وقد زار الأستاذ كثيراً من أديرة القبط ، وأقام فى الدير المحرق ثلاثة أيام ، ولكنا لا نقرأ من هذه الرحلات حديثاً . وأطال « الرحالة » فى وصف كثير من الأماكن ،

(١) ص ٩٤ .

ولكنه غير « نابلس » فلم يذكر عنها إلا « ومررنا بنابلس » فمررنا بها مرور الكرام ...

* * *

— ٧ —

وأخيراً وآخراً أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ..

ولكن المؤلف نفسه يشجعني حين أقرأ قوله : « واعتقدت منذ أول عهدي بالقلم أن أقصد إلى تجويد المعنى أكثر مما أقصد إلى تجويد اللفظ ، وإلى توليد المعاني أكثر من تزويق الألفاظ ، حتى كثيراً ما تختل (ضمائري) فأعيد الضمير على مؤنث مذكراً ، وعلى مذكر مؤنثاً ، لأنني غارق في المعنى غير ملتفت إلى الألفاظ ، ولا أتدارك ذلك إلا عند التصحيح ، وقد يفوتني ذلك أيضاً[1] » .

لأدون إذاً شكوكي الآتية ؛ فإن أك مخطئاً كسبت من إظهار الخطأ معرفة الصواب .

جاء في ص ٣٧ : « .. لا يشتمل إلا على سيدة تركية و ... وعبدان أسودان رقيقان » .

وجاء في ص ١٥٣ : « ولا يرضيه إلا أن يتحمس السامعون حملته ويبتهجون بما يقول ابتهاجه » .

وفي ص ٢٢٠ : « وأعجبني في الأتراك خلقان لطيفان : نظافتهم وهدوءهم » .

وفي ص ٢٢١ : « ولعل ما لفت نظري إلى هذين الخلقين سوءهما في مصر » .

وفي ص ٢٢٤ : « فها نحن نرحل » بغير أولاء .

وجاء في ص ٢٥٣ : « ولقد نقدت من مذاهب أهل السنة ما لا يقل عن نقدي لمذهب الشيعة » ، أليس المراد : « ما لا يقل عما نقدته من مذهب الشيعة » ؟ أو « لقد قلت في نقد مذاهب أهل السنة ما لا يقل عما قلت في نقد مذهب الشيعة » ؟ .

وورد في ص ٢٦١ ما يأتي : « ويوماً نزور موغاوز وملاهيه والمكتبة الأهلية وإلقاء نظرة عامة على ما فيها » ، فهنا سبق يد جعلها تضع المصدر مكان (وتلق) .

وفي ص ١٣ نقرأ هذا التركيب : « .. فتارة يتبع طريقة أن يخط خطاً على الباب كلما أحضر قربة ، ولكن بعض الشياطين يغالطون فيمحون خطاً أو خطين . ولذلك لجأ السقاء إلى طريقة الحز » . ولست أدري لماذا ننتظر دائماً كلما قابلنا « التارة » الأولى أن نعثر على « التارة » الثانية بعد قليل !..

وأخيراً أشير إلى تركيب آخر وارد في ص ٢٢٣ « يعرف كل ما في مكتبات الآستانة من كتب وما فيها قيم وما فيها ليس بقيم » ، أليس أدنى إلى الأذهان وأقرب إلى مألوف التراكيب أن يقال : « وما فيها من قيم وغير قيم » ، أو « وما هو قيم فيها وما ليس بقيم » ؟ .

ولقد تعمد الأستاذ أن يستعمل ألفاظاً عامية مثل « الجزمة » و « وابور البحر » و « الزبلة » ، ولو سئلت رأيي لقلت إن هذه الألفاظ ليست دالة على مخترعات ولدت بأسماء غير عربية حتى يكون من المستساغ القول باستبقائها لأسمائها الأصيلة الأجنبية . هذا إلى أن ألفاظ الحذاء والباخرة ونحوها حقيقة مألوفة لا نحوج إلى غيرها .

وختاماً يجب أن أنضم إلى الملاحظة القانونية التي أبداها الأستاذ حسن جلال ، وهي الخاصة بتسمية الجنحة والمخالفة .

* * *

أما نقدي الأخير فليس منصباً على فكرة ولا على لفظ ، ولكنه منصب على قول الأستاذ إنه كان يجب أن يعالج كتابة القصة ، ولكن الأوان قد فات .

كلا إنه لم يفت ، وإن هذا الكتاب لوثيق الصلة بالقصة ، وقد اشتمل على أوصاف دقيقة ملئت حيوية وبثت في أعطافها الحركة ، وهذه الملكة الوصافة هي آلة من أهم آلات القصة إن لم تكن أهمها .

فعلى بركة الله تواصل سفينتك السير تقبس النور من حيثما حللت ، وتنشر النور أينما نزلت .

عبده حسين الزيات
المحامي

(١) ص ٢٩٣ .

خـــــواطر

— ١ —

للدكتور أحمد أمين بك

حدثني قاض فاضل جليل أنه عرض عليه يوماً قضية غريبة طريفة .

ذلك أن رجلاً ادعى على آخر أنه بينما هو يسير في الطريق إذ صفعه المدعى عليه صفعة قوية على قفاه من غير أن يكون هناك أي سبب يستدعي ذلك . فلما سئل المدعى عليه : هل صفعت هذا الرجل ؟ قال : نعم . أتعرفه من قبل ؟ قال : لا . هل بينكما معاملة تستدعي أن تصفعه ؟ قال : لا . هل حدثت بينكما مشادة ترتب عليها الصفع ؟ قال : لا .

فما السبب إذاً ؟ قال : كنت سائراً في الطريق ؛ فلفت نظري عظم قفاه وامتداده واسترخاؤه ، فأوحى إليّ هذا القفا أنه صالح كل الصلاحية للصفع ، فلم أدر إلا وقد تحركت يدي من جنبي وصفعته صفعة قوية شفيت بها شهوتي .

***

ربما كانت هذه ظاهرة — في الظاهر — غريبة ، وربما ظن الناس أنها ظاهرة قلّ أن تحدث في الوجود ، ولكن بالتأمل فيها نجد أنها هي وأمثالها تحدث كل ساعة وكل يوم ؛ فيكاد كل إنسان تراه يوحي إليك معنى من المعاني يتطلب منك سلوكاً خاصاً به .

ترى سائلاً يوحي إليك بالرحمة فتحسن إليه ، وسائلاً يوحي إليك بالقسوة فتقسو عليه ، وقد لا يكون هناك فرق بينهما من حيث البؤس والشقاء ومظهر الفقر والحاجة ، لكن معنى خفياً أوحى إليك بالعطف في الأولى والقسوة في الثانية .

ويتقدم إليك إنسان يطلب قضاء مصلحة مما هو في دائرة اختصاصك ، فتشعر أن حافزاً قوياً يحفزك إلى قضاء مطلبه ، والسرعة في إنجاز مصلحته . ويجيئك آخر فيوحي إليك منظره بالنفور منه والكره له ، والتثاقل في قضاء ما يبتغي .

هل يرجع ذلك إلى حسن المنظر أو قبحه أو إلى اللباقة في الطلب أو عدمها ، أو إلى حسن الأداء وسوئه ؟ كلا . قد لا يكون شيء من ذلك ، بل قد يكون العكس ؛ فتقضي الأمر لمن قبح شكله أو ساء هندامه أو كان على الفطرة في عرض مطلبه أو نحو ذلك . إنما هو معنى خفي وسرّ من أسرار الإنسان يحنّنُ القلب أو يقسيه ، ويبعث على العطف أو النفور .

ولو دققت النظر في سلوكك مع أصدقائك ومعارفك لوجدتك تسلك مع كل منهم مسلكاً خاصاً يتفق وما يوحيه إليك هذا الشخص من معنى : هذا صديق ما تراه في مجلس إلا بعث في نفسك حب السخرية به والضحك منه والاستهزاء بقوله أو فعله . وهذا آخر ما تراه إلا يبعث عندك التفكير الجدي ، والاهتمام به ، والإصغاء إلى قوله ، والاستجابة إلى أمره ونهيه ، وتقدير كل كلمة تصدر عنه . وهذا ثالث تجلس معه ، فيبعث في نفسك السرور والمرح ، وتحب أن تسمع قصصه ، وتضحك منه ، ولو كان قصصه كسائر قصص الناس ، ونكاته ونوادره كسائر ما يصدر من الناس ، ولكن فيه خاصة غريبة تبعثك على الاستعداد للضحك والسرور من كل ما يصدر عنه . وهذا رابع لا تراه إلا وينفتح له قلبك ، وتحب أن تكشف له عن كل سرك ، وتستشيره في كل ما شق عليك ، وهكذا من صفات لا تنتهي مما يوحيه إليك كل شخص تعرفه أو تقابله أو تجلس إليه .

وقد عرفنا ذلك ولمسناه ، وإن لم نلتفت إليه ، أيام كنا تلاميذ حتى في المدرسة الابتدائية ؛ فكان يدخل علينا مدرس جديد لا يعرفنا ولا نعرفه ؛ فما تمر علينا دقائق

إلا ويوحى إلينا هـذا الدرس بالهزء به والسخرية منه ، ويستمر هذا الإيحاء ما بقى هذا الدرس معنا . ويأتى بعده آخر ؛ فما نراه إلا وعلؤنا هيبة وإجلالاً واحتراماً ووقاراً ، ويستمر هذا أيضاً ما بقى معنا . كل هذا كان ونحن أطفال لا نحسن التفكير ولا نجيد التقدير ، وإنما هو الوحى أو الإلهام ، أو الخاصية أو ماشئت من الأسماء ، هى التى توحى بالمعانى المختلفة للأشخاص المختلفين .

***

بل ليست هذه الخاصية مقصورة على موقف الإنسان نحو الإنسان ؛ فإنك تزور بيتاً أو تمشى حديقة أو تدخل مسجداً أو نادياً ، فتشعر بانقباض فى صدرك ، ونفور من بقائك ، ورغبة ملحة فى الهروب من مكانك ؛ وتجد عكس هذا فى بيت آخر ومسجد آخر ونادٍ آخر ، إذ تشعر بالراحة والاطمئنان والسرور وحب البقاء ؛ فإذا أنت حاولت أن تعلل هذا بحسن الهندسة أو قبحها ، وانطباق فن العمارة أو عدم انطباقه ، أو وجود الضوء والهواء أو عدمهما ، لم تجد ذلك كافياً فى التعليل ولا مقنعاً فى التفسير .

فأما الصوفية فقد فسروا هذه الظاهرة بأن الله تعالى يتجلى على الأشياء بصفاته وأسمائه فتظهر فيها معانى هذه الصفات وهذه الأسماء ؛ فقد يتجلى على إنسان باسم القابض وعلى آخر باسم الباسط ، فتنقبض من الأول ، وتنبسط للثانى؛ وقد يتجلى باسم الرحمن الرحيم ، أو المتكبر الجبار ، أو الواهب الرازق ، أو المعز المذل ؛ فتنعكس كل صفة وكل اسم على الشىء المنظور حسب ما انطبع فيه من صورة صفة التجلى .

والناس — عادة — يدركون هذا المعنى ويعبرون عنه تعبيراً يدل عليه ، فيقولون إن هذا الرجل أو المرأة أو الشىء خفيف الروح أو ثقيله ، خفيف الدم أو ثقيله ، خفيف الظل أو ثقيله ، وهى كلمات لا تسعفك فى الإيضاح ، بل هى غامضة غموض الأصل ؛ فما خفة الروح وما خفة الدم ؟ إن الروح بالمعنى المعروف شىء وراء المادة ليس له وزن ولا حجم حتى يكون خفيفاً أو ثقيلاً . وأنت لو وزنت قيراطاً من ثقيل الدم لوجدته يساوى مثله من خفيف الدم . فكل هذه الاصطلاحات اصطلاحات غامضة لمعان غامضة ، بدليل أنك قد ترى امرأة انطبق عليها كل شروط الجمال كما يفصله علماء الجمال ، ومع ذلك تقول إنها فقدت خفة الروح ؛ فإذا سئلت عن تحليل هـذا اللفظ أجبت بكلمات مترادفة لا تشرح ولا تعلل ، وقد تفضّل عليها امرأة أخرى لم تبلغ هـذا المبلغ من الجمال ، بل قد يكون فيها قبح فى بعض أجزائها ، وذلك لما تحبه من خفة روحها .

هذا ما فكرت فيه عند سماعى القصة التى رويتها ، وأخيراً أوصلنى هذا التفكير إلى الحيرة والغموض ؛ فهل عند السادة علماء النفس المتخصصين فيها المتبحرين فى دراستها ما يذهب بهذه الحيرة ويكشف هذا الغموض ؟.

أحمد أمين

أوعـــــية الهم

إذا تأملت الناس وهم جلوس فى الترام ... لتصورت الإنسان وعاء أفرغت فيه المواد والمبادىء ، والصبت فيه الإحساسات والمشاعر ، ثم تفاعلت هذه كلها لتجعل منه إنساناً متأملاً حزيناً ... فما هؤلاء الناس إلا أوعية مليئة بشتى الهموم .

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

كلما تساقينا الكئوس فى الحانات ، وأحسسنا بالرغبة الدفينة فى نفوسنا من أجل الثورة والانفلات ، وأقدمنا على الأعمال الجريئة والمخاطرات الشاذة ، كنا أقرب إلى حقيقة ذواتنا وأدنى إلى مفهوم الحياة . هناك فى أزمة المعاش الإنسانى يستطيع ابن آدم أن يرتفع برأسه إلى قمة السماء ساعياً بالفرح والغفران ، ويمكنه فى الوقت نفسه أن ينحط إلى أعماق الأرض ساعياً من أجل الخطيئة والدنس . بل هناك فحسب نكون بإزاء الحياة وجهاً لوجه ، فلا قناع ولا حجاب ، ولا انحراف فى الفهم ، ولا تضليل فى الطريق . وقلما يقف الإنسان على حقيقة الوجود فى مكان غير تلك الشرفة العالية أو غير ذلك البرج الرفيع ، حيث تنحسر الخطايا وتتأهب الفضيلة منتظرة أولئك الضحايا الذين يخلفهم للملائكة أو تحوشهم الأبالسة .

لذلك يكون من العسير على المفكر أن يصل إلى شيء بالذات وسط هذه المعميات . فحياتنا العادية الباردة لا تؤدى إلى الوقوف على حقيقة المعاش الإنسانى ولا تتيح لنا فرصة من أجل أن نفهم تطورات الأحداث الجارية فوق الأرض . وحياتنا الخارجية على ما تواضعنا عليه من القيم والأخلاق ليس من اليسير أن يعيشها الفنان مهما كانت عاداته وصفاته ؛ وقلما يحياها برضاه . ومن هنا تأتى الحيرة فى مسالك الإنسان الذى يريد أن يكتشف الوجود ، وأن يستشعر حقيقته — إذا كان من الصعب أن يدركها إدراكاً عقلياً منفصلاً . فالحياة أميل إلى الظهور فى جانب النشوة التى تراود خياله ، والنفضة التى تزامل حواسه . ولكن الخطر كامن فى هذا الطريق ، مختف وراء كل علامة مرقومة على جانبيه . ومن هنا يحصل الشعور بالخوف دائماً أمام أحداث الحياة لدى كل من يجعل من الوجود موضوعاً لفكره . فإذا كان الأديب المفكر يحس بمشكلة المصير فى كل لحظة ، ودائم الذكر لطبيعة المعاش الإنسانى ، فإنما بأبه هذا لسببين : أولهما أنه مرهف الحس إلى درجة تزيد على المستوى العادى فى حياة الناس ، وثانيهما أنه يركز الوقائع التى تحصل فى الدنيا تركيزاً يجعلها أبعث على القلق مما لو كانت متفاوتة متناثرة ، وصور الأشياء فى خاطره على نحو يزيد من وهجها وبهائها .

والحق أن حياتنا العادية لا تثير فى الإنسان قط أى شيء مما تثيره أقلام الشعراء وريشات الفنانين ، ولا تصور جزءاً على ألف من ذلك الذى تصوره الأقاصيص والروايات . وغالباً ما يحس الإنسان بميل إلى أن يقلد بطلاً من أبطال الروايات فى أحد المواقف بالذات ، وكثيراً ما نشعر بأننا نحيا دوراً من الأدوار التى قرأناها فى كتاب ما . وهكذا الحال كلما خطر فى نفوسنا أن نأخذ المسائل مأخذاً جدياً وأن ننظر إلى المواقف المختلفة نظرة مبالية . فالأدب — من ثم — أعلى من هذه الوجهة ، يقدم للناس ركناً هاماً من أركان الحياة ولا يقتصر على كونه فناً ذوقياً خالصاً . وقد تحسبنى أغالى فى هذا القول ، ولكننى متيقن من أن تحليلاً بسيطاً نجريه على وجهة النظر هذه سيجعلنا نؤمن ، أو على الأقل نستيقن من صدق هذا الكلام .

إن الأدب لا يقدم لنا فناً نغذى به مشاعرنا ونتعمق معانيه ، بقدر ما يعطينا تجربة من تجارب الحياة ووصفاً لمطلب من مطالب العيش العادى . فلو أنك فتشت هنا وهناك عن شيء تبكى عليه أو حدث تفرح له لما وجدت ، وقلما نصادف فى الواقع شيئاً نركز من أجله قوانا الشعورية ،

وتبرز عنده بعضاً من عواطفنا . ولهذا السبب نفسه تكاد تكون حياة الناس العاديين خالية من الإشكالات ، عارية من الأحداث الخطرة العميقة . ويندر أن تجد واحداً من التجار والصناع ذا شعور عامر أو قلب مكتئز . وعندى على ذلك دليلان : فلو أن واحداً من الفلاسفة هبط إلى جماعة من السوقة ليناقشهم في المتاعب التي يجدونها ويحسون بها في كل يوم ، لسخروا منه وضحكوا من كلامه وأجابوه على التو بأن الحياة سهلة ميسرة ، وأن مشاكل الفلسفة لا تلزمهم ما دام السبيل أمامهم ممدوداً وما دامت الشوارع التي يمضون منها كل صباح إلى محال عملهم قائمة . ولو قال لهم إن الدنيا غريبة عجيبة وإنها مملوءة بالأسرار حاوية للخفايا، لأنبأوه في الحال بأنه لا معنى لقوله ذاك ، لأنهم ينظرون فيجدون الطبيعة منبسطة واضحة ، ويلقون الأوضاع جارية متصلة ، ولا يكاد يحتجب عن ناظرهم شيء من الأشياء التي تحيط بهم . فالناس العاديون لا يحسون بما يحس به الإنسان المتفلسف ، ولا يكادون يعطون وزناً لهذه التأملات التي تلازم فنه وعلامات الدهشة التي ترافق جبينه . فهذا هو السبب الأول أو هذا هو الدليل الأول على أن الحياة العادية تخلو دائماً من المشاعر ، ولا تولازمها ذرة من العاطفة الوجدانية النبعثة من أعماق الضمير الحى . أما الدليل الثانى فهو أن الناس يخلون دائماً من الملابسات الحسية الذوقية خلال قيامهم بالأعمال المناطة بهم ، وأنهم يفقدون كل معانى الرحمة والكرامة والإنسانية والشعور بالمسئولية الأخلاقية في تجار الأسواق والمساومات . فلو جاءت امرأة باعت كل حليها عند تاجر من تجار المصوغات لتشترى بالثمن ألبسة تقيها برد الشتاء هي وأولادها لما أحس البائع بشيء من الحنان عندما ينقص المبلغ قرشاً على الثمن المحدد . ولو أحس الطبيب بالشفقة عند إجراء عملية من العمليات لمريض ما لتلف عمله وفسدت كل أشغاله . وغالباً ما يأتى النقص المملى في حياة الفنانين من هذه الناحية . فقلما يستطيعون التخلى عن عواطفهم الوجدانية ويندر أن يتجردوا من أحاسيسهم البشرية.

فنحن إذاً مصدقون بأن حياة الفنان مختلفة عن حياة الإنسان العادى من ناحية التعقيد الذى تتسم به أعمال الأول ومن ناحية العواطف التى تخلو منها أعمال الثانى . ولا يأتى هذا من اختلاف الطبيعة البشرية التى تكون من نصيب كل منهما عادة ولا من الاختلاف المهنى فحسب ؛ وإنما السبب الأساسى لذلك كله هو أن الفنان ينحصر في المجالات الضيقة ويدور بين أوهام مقفلة ويعيش على السطور والكلمات .

ومن المعروف أو لعله من المتفق عليه أن الواقع بارد تافه ، أما التصوير الكلامى فيمتاز بأنه أقدر على التأثير ، وأجمع للحقائق الثائرة ، وأفضل عند المواجهة والتأمل . فالكلمات تخرج الحادثة إخراجاً مسرحياً ، وتثبت فيها غير قليل من الحرارة ، وتضفى عليها حياة أخرى تماثل حياة الفكر في سوراتها وتهدأرها ، وللخيال مكانته عند تصوير الأحداث ؛ فهو لا يكتفى بأن يسرد تطورات الأمور على نحو ما كانت عليه أو أن يحكى ملابسات الموقف كما حصلت في غضون الواقع ؛ وإنما يسعى لكى يبرز الجوهر الأصلى في المشكلة إبرازاً فنياً يراعى فيه الحبكة ، ويجارى فيه الأصول ويحسب فيه حساب المشهد الختامى .

ولما كان الأمر كذلك — أى لما كان الفنان مأسوراً على هذا النحو في نطاق كلامى خالص — كانت حياته مليئة بالمناسبات القوية الزاخرة ، وكانت استجابته للمؤثرات العاطفية أسرع . إنه يجمع عالمه الواقعى الفارغ إلى عالمه الفكرى المليء فيستشعر الوجود على نحو جديد . والإنسان الذى لا يشهد من الحياة غير هذا التسلسل الحادث من ناحية الوقائع والأحداث قلما يهتز أو يرتجف أمام مشهد من المشاهد ولا يعيش إلا بطريقة آلية منتظمة . وعلة ذلك أن الأعمال الأدبية والفنية تعبر عن إمكانيات الحياة وتعطى صورة لجانب من العيش لا وجود له . أو نستطيع أن نقول عن الأعمال الأدبية والفنية : إنها تجمع لنا عصارات الوقائع والمشاهد وتركز الأحداث الجارية في قوالب وتحشد الحركات والمناسبات في حزم مؤتلفة . ومن هنا يحس الأديب في لحة بما لا يستطيع الإنسان العادى أن يجمعه في فكره خلال أيام . أو من هنا تتدخل العاطفة وينفذ الإحساس إلى معاش الفنانين ومحبى الأدب .

فعندما تقرأ حادثة ، شيء ، وعندما تراها بعينك شيء آخر ؛ لأن الرؤية العينية محدودة ولا تسمح بالتطويل أو التغيير . أما القراءة فترسم لك حدوداً تستطيع أن

تملأها كما تشاء وعلى أى نحو تحب . وهكذا تأخذ الحادثة العادية شكلاً خطراً فى عقلية الأديب الذى لا ينى عن التخيل والإبداع ، ويكون إحساسه — من ثمّ — يغشا كل الوجود الإنسانى أعمق . ولذلك يصدق ما قلناه من أن الأديب يحاول أن يعين على الحياة بالنماذج التى يقدمها والمواقف التى يعرضها ، ولا يقتصر على الغذاء الروحى الذى يقدمه على صورة وجبات من القراءة والاطلاع . فالصور الأدبية لا تعنى الكشف ولا ترمى إلى البيان ، وإنما يهمها إلى جانب ذلك أن تُقوّى فى الأفراد جانب الإحساس بالمشكلات التى تصادفهم ، وأن تغذى فيهم القدرة على الدخول فى المواقف المتباينة دخولاً صحيحاً .

ونلاحظ بعد هذا أن الأديب لا تتجسم الأحداث فى عقله عبثاً ، ولا تتزاوج الوقائع فى ذهنه بغير فائدة ، وإنما تأخذ هذه الصورة من أجل أن تشبع فى طبيعته ميلاً إلى التعويض والتسرية . فالأديب الذى يحيل حادثة ما إلى ضرب من ضروب العمل الفنى ، ويتصرف فيها بحيث يجعل منها مسرحية أو قصيدة أو رواية ، يشفى فى نفسه أولاً جنوحه إلى الثأر وضيقه وبرمه ، ثم بعد هذا يحاول أن يعيش تجربة من التجارب الخاصة ؛ وقد تجرى الواقعة أمام الناس جميعاً فلا يلتقطها سوى الفنان الذى يقوم بإخراجها وجنىّ ثمراته من أجل تحضيرها التحضير المناسب . وكثير من المآسى تقع ، وكثير من الأفراح تجىء ، ولكن قلّ ما لا يهتز للأفراح والمآسى مثل هذا الوتر المشدود فى قلب الفنان . فهو وحده الذى يبخل على الأحداث أن تقع فى يد التاريخ ، ويخشى على المناسبات المختلفة أن تنسى فى بطن الماضى . كم من القلوب تحطمت فلم يذكرنا بها سوى قلم فنان ، وكم من الأرواح تعذبت فلم يحتفظ لنا بصورة عذابها سوى كتاب راوٍ ، وكم من الآمال تكسرت فلم يُبق لنا معناها سوى رسم مأثور . وكثير جداً من المسائل العامة التى نبحثها وننظر فيها ونعى بأمرها الآن ما كانت لتكون شيئاً لو أن الأقلام المؤرخة لم تتناولها بالبحث والتعليق ولم تنبش فى إثرها بين مخلفات القرون الغابرة . فكأنما محكوم على الأديب أن يتأمل معاش الناس كما يُخرج الأعمال المختلفة ، أو مقضىّ عليه أن يتعمق الوجود تعمقاً يُزيح من أمامه الستار عن أكذوبته الكبرى فإذا تخطّى عتبة الميل الفنى إلى مجالات التحقيق تردّى فى الأجواء التى يصعب عليه أن يخترقها بسلام . وهنالك يدرك هموم الإنسان وهى تطفح من آنائه وأنوفه ، ويشهد بنفسه مأساة المصير وهى تدلل على نفسها بما تمثله من القصص .

بل هنالك يتبدى له الإنسان على هيئة وعاء أو (كوز) من كيزان الهم والألم ، فلا تكاد تفرغ له هموم حتى تتجدد له هموم ، ولا تكاد تنتهى آلامه حتى تظهر له آلام من جديد . وإذا تأملت الناس وهم جلوس فى الترام وفى السيارات العامة أو عند الحلاق وفى أندية الحور لصورت الإنسان وعاء أو آنية أفرغت فيها المعانى والمبادئ ، واصطبت فيها الإحساسات والمشاعر .. ثم تفاعلت هذه كلها لتجعل منه كائناً متألماً حزيناً . والهم هو الحقيقة الوحيدة التى تضطر إلى الإعلان بها كلما وقعت أبصارنا على وجوه الناس فى حالات الانتظار والتفكير والتأهب . فهو نتيجة للانعكاسات المتجمعة فى بوتقة الإدراك والوعى ، وحاصل من جراء التبادل العاطفى بينها وبين الظاهرات المعاشية .

ولو أن حياة الإنسان خلت من المعانى والصور لأمكن أن تنتهى بسلام وألا يكون لها وقع فى نفسية الفرد على النحو الذى نشهده كل يوم . والهم الذى يملأ قلب الإنسان ، والحزن الذى ينصب فى روحه ، إنما يأتى من الأخيلة أكثر مما يأتى من الوقائع . لأن الحياة تمضى سلسة واضحة ، أما الأفكار والمعانى فمن شأنها أن تجسم الظواهر المعاشية المختلفة ، وتكبّر المآسى الوضعية البسيطة . وقديماً تنبهوا إلى هذه الحقيقة ؛ فجاءوا بمثل يعبر عنها تعبيراً جميلاً عندما قالوا : « وقوع البلاء خير من انتظاره » . فوقوعه سيحدد شكله ويخط سيره ، وسيقرر وضعه وسيعطيه روح الأشياء الواقعية ؛ أما صورته فلا يمكن أن تفقد روعتها فى نفسية الفرد ، ويصعب أن تنكسر وتلين على نحو ما تتكسر الأحداث وتلين . فصورة البلاء أخطر على الإحساس المرهف من نزوله . وسبب ذلك أنه يعبر عن إمكانية واسعة شاسعة يصعب الاطمئنان إليها ولا تتيسر الثقة فيها .

وأستطيع أن أجول جولة بسيطة بين المعانى المختلفة

فأيقن مما أقول. انظر مثلاً إلى الموت وكيف يرعبنا في الحياة العامة، وكيف يملأ قلوبنا دائماً بالخوف والقلق. ومع ذلك ففي كل يوم يموت ناس كثيرون، وقلما يحس الإنسان في واقعة الموت ذاتها بشيء من الجزع الذي يتخيله ويهجس به في خاطره قبل أن تنزل. وكذلك الأمر في العملية الجنسية فإن أحلامها أكثر بكثير من واقعها، ولا يكاد الإنسان يتخطى عتبة التخيل إلى عتبة التحقيق حتى يخيب ظنه وحتى يصطدم بالواقع الأليم. وهكذا الحال في جملة المعاني التي تساورنا وفي مجموعة الأفكار التي تظل أفكاراً إلى الأبد. إن الواقع كفيل دائماً بأن يفسد علينا تصوراتنا وأوهامنا، وقادر في كل حين على تمزيق تلك الآلة الشعورية التي تحيط بها معانينا وأفكارنا.

والصعوبة تأتي من أن بعض الأفراد لا يستطيعون أن ينتقلوا إلى دائرة التحقيق العملي، وأنهم يتوقفون عند أبواب التنفيذ بحيث ينحصرون انحصاراً ضاراً بأرواحهم. هذا مع أن التحقيق العملي يريحهم راحة كبيرة، ويزيل من نفوسهم كل صعوبة يستشعرونها عند التذكر أو عند الاحتلام، بل لعله أن يضع في أعينهم من قدر تلك الأشياء التي ظلت أمداً طويلاً داخل إطار القداسة في خزانة الفكر.

وطالما كانت هناك معانٍ وإحساسات بإزاء الحياة، فإننا لا نملك إلا أن نصور الإنسان على هيئة وعاء زاخر بالأفكار، مُتْرَع بالأوهام. ولا نكاد نستعرض تلك الأفكار والأوهام حتى نجد الهم جاثماً في زوايا الشعور، رابضاً في ثنايا الروح، كأنما لا سلطان لغيره من المعاني في هوى الإنسان. ولا يأتي الهم من الإحساس بالخوف أو القلق أمام القوى الأرضية، وإنما يتولد خاصة من العبء الذي لا يستطيع أن يهبط به عن أكتافه، ومن الثقل الذي يستشعره في قلبه تحت تأثير السآمة والملل. فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعرف أن الحياة مأساة، وأنه يقوم بدور تكرر آلاف المرات في شكله العام، وأنه سخر لغاية يجهلها ولحكمة قلما ترضيه. ثم إنه لا يفهم معنى لهذه الدوامات والطيارات المتلاحقة في تاريخ الإنسانية بغير حساب إلا لشهوات أفراد معدودين، وعصبيات شعوب مريضة، وأهواء عصابة من الأفاقين والأدعياء.

حاولت أن أتخيل الإنسان على كل وجه، ومن كل ناحية، ولكنني لم أجد سبيلاً إلى تصوره إلا على هذا النحو الذي قد يبدو في نظر البعض غريباً شاذاً. والحق يقال أننا كذلك، بل إننا أشقى وأتعس مما نحس في قرارة نفوسنا. والزمن كفيل بأن يرينا مقدار البؤس الذي منينا به فوق ظهر الأرض، والهم الذي حملناه منذ بدء المعاش. ولكننا حريون أن ندرك الآن شقاء الضمير لدى قوم أعدمهم من باقي الضرورات وأشقاهم من يقف في وجه الظلم والطغيان.

عبد الفتاح الديدي

كيف ؟

الأسنان هي الجنود القائمة بحراسة البوابة (*)

ترجمة الأستاذ عبد البارى نعمت

في الأزمنة الغابرة كانت المدن الكبيرة تحاط بأسوار عالية ، وكانت هذه الأسوار تصنع بحيث تمكن المحاربين من أهل المدينة من الوقوف فوقها وقذف من تحدثه نفسه الخبيثة بالاعتداء عليها بمختلف الأشياء الثقيلة لتمنع من تسلق الأسوار واقتحام المدينة . ولكن هذا لا يمنع من وجود بوابة بأسوار المدينة تسمح للأصدقاء بدخولها والخروج منها ، ولا بد من حراس أشداء يقومون بحراسة هذه البوابة .

والآن تستطيع أيها القارىء أن تشبه نفسك بمدينة كبيرة تحتضنها الأسوار المرتفعة من كل جانب ، وإن فمك هو بوابة هذه المدينة ، وشفتيك هما مصراعا هذه البوابة وأسنانك هي الجنود القائمة بحراستها ، وبهذه الطريقة من التفكير تستطيع أن تعرف أسنانك ، وتقف على أهمية الدور الذي تلعبه في حياتك .

لا شك أن الأسنان المريضة جنود قذرة رثة الثياب ، إنها تصيب بالقذارة كل من يدخل المدينة ، إنك تستطيع أن تتصور رجلاً يحمل زجاجة من السم ويفرّغ محتوياتها الرهيبة في صفائح اللبن الذي يوزع على المنازل في صباح كل يوم ، إن شأن هذا الرجل شأن الأسنان القذرة التي تصب السم في جميع ما تتناوله من طعام ، وإنك لا شك تستطيع تصور الضرر الذي ينشأ في الحالتين ، فهو واحد في النهاية ، ولكن قبل أن تفهم ذلك جيداً أراك في حاجة إلى معرفة كيف صنعت الأسنان ، ومن أي أنواع الجند تكون عندما تكون قوية سليمة .

إن الأسنان كالجنود سواء بسواء ، وأول ما يقع عليه نظرك منها كسوة بديعة براقة لها بياض اللؤلؤ أو الثلج ، وعندما تكون نظيفة فإنها تلمع وتتلألأ ويشع النور منها ، وتلك هي صفات الأسنان الجيدة ؛ فهي كالجنود المزهوّين بقوامهم الممشوق ، وزيهم المرموق ، وهي في الحق خير الجنود .

في الحرب الكبرى الماضية كان ضباط الإنجليز يعلمون علم اليقين ، أنه إذا كانت جنودهم كسالى خاملين نشأت عن ذلك الكوارث والمتاعب ، ولذلك عندما ساءت الأحوال وكان الألمان في أوج قوتهم ، وكان الإنجليز ضعافاً ، وكانت ميادين القتال متوحلة قذرة تجعل كل شيء يوحي بالتعاسة والشقاء ، برغم كل ذلك حافظ الجنود الإنجليز على نظافتهم واحتفظوا بأناقتهم وجمال هندامهم ؛ فكانوا يحلقون أذقانهم كل يوم ، ويغتسلون بالماء كلما وجدوا إليه سبيلاً ، وبذلك كتب لهم النصر ومنى أعداؤهم بالخيبة والهزيمة . ما كان الإنجليز يفعلون ذلك ابتغاء اللهو ، إنما فعلوه عن يقين ، لأن

(*) هذا أحد فصول كتاب How Our Bodies are Made, by R. M. Wilson.

الرجل النظيف الأنيق الذي يعنى بنظافة جسمه ، وجمال مظهره يكون محارباً قوياً ، ويفوق المحارب القذر الكسول المتراخي ويتغلب عليه — إن الجيوش المقهورة هي دائماً الجيوش القذرة المتكاسلة ، وهذا تماماً شأن الأسنان الرديئة أي الصابة المريضة ؛ فإن كسوتها تكون قذرة يلطخها السواد ، وتصيبها الثقوب العديدة ، وتصير بالتدريج بالية رثة .

إنك توهب أسناناً ذات كسوة صلبة سليمة يسميها أطباء الأسنان "Enamel" أي الميناء ، لأن لها بريقاً ولمعاناً كأحسن طلاء ، وهي تغطي السن جميعها ، ولكن ما فائدتها ؟ إن أغلب الناس يقولون عنها إنها وجدت لتجعل السن صلبة حتى تستطيع أن تقضم الطعام بحدة ونظافة ؛ هذا صحيح لا شك فيه ، ولكن هناك فائدة أخرى ، إن مثل كسوة السن كمثل درع الفارس في الأزمنة الماضية ؛ فدرع السن تحفظها وتحميها من أن تجرح أو يلحق بها الضرر .

إنك الآن تستطيع أن تلمس أهمية درع السن فإن هذه الدرع إذا اشتملت على ثقوب تستطيع السهام أن تخترقها وتدخلها ، وبذلك تفسد السن وتخرب ، ولكن ما شكل هذه السهام ؟ إنها صغيرة جداً ، بل هي متناهية في الصغر ، حتى إنك لا تكاد تراها ولا تستطيع رؤيتها إلا إذا استعنت بمنظار مكبر أي المجهر ، وبواسطته ترى الأشياء التي لا يستطاع رؤيتها بالعين المجردة ؛ وإذا استعنت بالمجهر رأيت هذه السهام كبقع صغيرة سوداء ، وكثيراً ما تشاهدها ملتصقاً بعضها ببعض على هيئة سلاسل صغيرة أو تراها متكتلة في مجموعات صغيرة ، ويطلق عليها الأطباء اسم « جراثيم المرض » .

إن للجراثيم أسماء كثيرة ، وإن لها من الأسماء أطولها وأشقها نطقاً ، وهي كثيرة الأنواع ويطلق على بعضها اسم « Bacillus » ومعناها باللغة اللاتينية « العصا الصغيرة » ويطلق على البعض الآخر اسم « Coccus » والاسم الشائع لها هو « Bairacte » وسوف نسميها بكل بساطة « جراثيم المرض » إنها مخلوقات دقيقة ، ولكنها برغم دقتها ذات أهمية كبيرة ولها شأن عجيب ، إنها ليست ميتة كالسهام ، بل هي حية كالكائنات ، وهي في نظر بعض الناس من النبات ، وفي نظر البعض الآخر من الحيوان ، وهذا لا يهم كثيراً في هذا المجال ، إنها خطرة مهلكة ، ولا يقل خطرها عن أشد السهام أو الحراب المسممة في شيء . إن أهم ما يجب معرفته عن جراثيم المرض أنها مسممة . إن كل واحد من أنواعها الخطرة يبث سماً كما يفعل الثعبان الخطر سواء بسواء ، وهذا السم عندما يتجمع هو الذي يقتل الناس عندما تتمكن جراثيم الأمراض منهم .

وتوجد الجراثيم في جميع أنحاء العالم وفي كل مكان ما عدا قمم الجبال العالية وسطح الماء المكشوف ، وهي موجودة باستمرار فوق جلودنا وبداخل أفواهنا ، ولا يراها أحد لتناهيها في الصغر ، وهي ليست خطرة طالما كانت بعيدة عن داخل جلودنا وأفواهنا ، ويبدأ ضررها عندما تتمكن من اختراق الجلود عن طريق الخدوش أو التسلخات أو الجروح التي تعلوها ، ومثلها في ذلك مثل مهاجمة الأعداء لمدينة مسورة وإحاطتهم بها ، فلا ضرر من وجودهم طالما كانوا خارج الأسوار ، ولكن بمجرد عثورهم على ثغرة أو بوابة يدخلون منها إلى داخل المدينة سرعان ما تنقلب الأوضاع ويتفاقم الضرر .

إنك الآن تستطيع أن تلمس ضرورة وجود درع السن ، فإن الجراثيم التي تفسد الأسنان لا تستطيع أن تخترق الدرع ، كالسهام التي تتكسر باصطدامها بالدرع ، والسن تحت درعها تكون في أمان زائد ، ولكن في اللحظة التي تبلى فيها الدرع يتغير الأمر ، لأن أصغر ثقب فيها هو في الواقع كبير جداً ، ويسمح لهذه السهام المسممة بالدخول ، فتستطيع أن تشاهد بعينيك ما يحدث عندما يوجد بدرع السن ثقب صغير ، فستندفع في الحال جميع الجراثيم بسهامها المسممة إلى داخل السن وهو ليس صلباً كخارجها ،

(البقية في صفحة ٢٤)

رياضيات العصر الحجرى

للأستاذ مبارك إبراهيم

جرت العادة أن ينسب اختراع الرياضيات إلى المصريين والبابليين ، وهم من يرجع تاريخهم إلى ستة آلاف أو سبعة آلاف عام .

ولكن إذا عرفنا أن الرياضيات قد وُلدت يوم بدأ الناس يعرفون شيئاً قليلاً عن العلاقة بين العدد والهندسة وجب أن نقول إن الرياضيات قد وجدت قبل مولد تلك الأمم القديمة ، بل وجب أن نؤمن أن تاريخها يرجع إلى السلالات الأولى ، سلالات العصر الحجرى الحديث ، بل إلى سلالات العصر الحجرى القديم . ويؤكد العالم « شارلس داروين » أن « الذاكرة » و « التصور » وهما من لوازم العقل الرياضى قد تبين وجودهما لدى الحيوانات العليا .

وإنه ليمكن التسليم بأن الإنسان فى مراحله الأولى قد وعى أثارة من المعارف الرياضية وراثة عن أسلافه الأولين من الحيوانات .

والإنسان حتى فى مراحله البدائية يُعد أعجوبة رياضية إذا قورن بالقردة العليا . ذلك بأنه هو البادىء بترقية لغة الكلام .

ولما خطا الإنسان خطوة أخرى فى سبيل التقدم بدأ يعرف شيئاً عن حجم الأشياء وشكلها ، وبدأ فوق ذلك بإدخال عنصر جديد يعمل على رقى الكائنات الحية .

هذا العنصر الجديد هو « العمل » ، والإنسان بالعمل قد أقحم نفسه فى ميدان جديد اشتدت فيه المعركة ، وحمى وطيس النضال بينه وبين قوى الطبيعة .

وهو بذلك قد بدأ يعمل على تغيير ما أوجدته الطبيعة ، وعلى تغيير ما بنفسه تبعاً لذلك ، فاخترع الآلات ، وبذلك ارتقى خطوة فى سبيل التقدم الاجتماعى ، ويرجع تاريخ هذا التقدم إلى بضع مئات الألوف من السنين ، وذلك يوم بدأ يعرف شيئاً عن العلاقات التى تربط بين الأعداد والأبعاد .

وإننا لنستعين علماء التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية لكى نعرف شيئاً عن تلك المعارف الإنسانية الأولى ، وهؤلاء العلماء يقولون : إن القبائل البدائية التى كانت تسكن « استراليا » و « بولينيزيا » كان أفرادها صيادين فى البر والبحر ، ولم يكونوا على علم بالزراعة ، وكانت آلاتهم جد بسيطة ، بل كانوا لا يعرفون القوس والنُشّاب ، اللذين كان يعرفهما أفراد بعض قبائل العصر الحجرى القديم .

ولكن تلك القبائل كانت قد سبقت فعرفت بدايات الطريقة العددية . وكانت لغاتهم تحتوى على كلمتين تعبران عن العددين : « واحد » و « اثنين » .

وكثير من بينهم كانوا يستطيعون العد إلى العددين : « ثلاثة » و « أربعة » . وكانوا يقولون عن الرقم الأول إنه مجموع واحد واثنين ، وعن الرقم الثانى إنه مجموع اثنين واثنين .

وكان هذا العد آخر ما وصلت إليه براعتهم العقلية . ويقال إن قليلاً منهم كانوا يعرفون اصطلاحاً خاصاً يطلقونه على العدد « ثلاثة » . وهذه المعرفة تبين لنا مدى التقدم العظيم الذى جاوزت به تلك القلة طريقة الأعداد الزوجية إلى الأعداد الفردية .

وأفراد بعض القبائل الاسترالية كانوا يعبرون عن العدد « واحد » بكلمة « مال » ، وعن العدد « اثنين » بكلمة « بولان » ، وعن العدد « ثلاثة » بكلمة « جوليا » ، وعن العدد « أربعة » بالكلمتين « بولان بولان » ، أى اثنين زائداً اثنين . وعن العدد خمسة بالكلمتين « بولان — جوليا » ، أى اثنين زائداً ثلاثة . وعن العدد « ستة » بالكلمتين « جوليا — جوليا » ، أى ثلاثة زائداً ثلاثة .

ولما انتقل أفراد القبائل البدائية من طور جمع الطعام إلى طور إنتاج الطعام زاد تقديرهم لفائدة القيم العددية . ولفائدة العلم بالعلاقة بين تلك القيم وبين أبعاد الفضاء . وهى معارف تعد حادثاً عظيماً فى سبيل تحرير الإنسان من ربقة الجهل . وهى تمثل لنا المرحلة التى انتقل فيها الإنسان من

العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث . وهو الانتقال الذي تم في أقطار عديدة من أقطار الأرض في عصور مختلفة يرجع تاريخها إلى عشرة آلاف عام .

وما إن استقر المقام بإنسان العصر الحجري الحديث مزارعاً بدائياً ، وبانياً للأكواخ والقرى — وفقاً لتفكيره يومذاك — حتى بدأ يصنع الفخار ، ويصهر المعادن ، ويحترف النجارة ، والنسج ، والخبز ، وصنع المشروبات المخمرة . كما بدأ يصنع الآلات اللازمة لتلك الصناعات .

وتلك الصناعات لم تكن واسعة الانتشار . فالهنود الحمر لم يكونوا يعرفون شيئاً من العربات إلى أن حل بديارهم الأقوام البيض .

ولما تقدمت الشئون التجارية زادت حاجة الأقوام إلى الطرق الحسابية لكي يعرفوا عدد السمك المصيد . وعدد القطعان من المعز والضأن . ومقدار محاصيل الأرض . ولكي يعرفوا أيضاً أصول المقايضة والمعاوضة . وليعرفوا كذلك عدد السنين .

ولا شك أن الإنسان قد بدأ علم الحساب بالعد على أصابعه . وكذلك لا شك في أن العد بالطريقة الخمسية أو بالطريقة العشرية لم يتخذ طريقه إلى الظهور إلا بعد أن تقدمت الحضارة تقدماً نسبياً . فالأقوام البدائيون كانت وسيلة العد عندهم أن يجعلوا الأشياء المراد عدها أكواماً منفصلة . كل كومة منها اثنان أو أربعة أو ستة . وكانت من طرائق التعبير والتبديل عندهم أن يلجأوا إلى الأكوام الثلاثية .

وقد وصف واحد من علماء الأجناس الصعوبة التي كان يلاقيها الإنسان البدائي وهو يجري عملياته الحسابية بالعد على الأصابع فقال : إذا سأل هذا الإنسان سائل : كم يوماً يسير المسافر ليبلغ مكاناً ما ؟ فترى هذا الإنسان قد أرتج عليه القول . ذلك لأنه يجهل كل فكرة عددية جهلاً مطبقاً .

وذلك أيضاً لأنه لا يعرف عدداً هو أكبر من العدد ثلاثة . فإذا أراد أن يقول « أربعة » اتخذ من أصابعه آلة حاسبة كأحدث ما يستعمله الحاسبون اليوم . فإذا أراد أن يقول « ستة » غم عليه الأمر . وسدت عليه المسالك . ذلك لأن اليد الواحدة التي تمسكها الأخرى فتعد عليها ليس بها إلا خمس أصابع .

وعلى الرغم من ذلك فإن القوم البدائيين قلما كانوا يفقدون ثوراً من ثيرانهم ؛ ذلك لأنهم كانوا يعرفون أن ثوراً قد فقد بفقدان صورة وجهه التي يعرفونها جد المعرفة ...

وقد بدأ اليونان القدماء بالعد على يد واحدة ، ثم ارتقوا إلى العد على أصابع كلتا اليدين ، ثم إلى العد على أصابع اليدين والقدمين ، ومن ثم نشأت الرموز التي تعرف بها الأرقام : خمسة ، ثم عشرة ، ثم عشرون .

ثم ارتقى الأقوام في العد والحساب ، وبخاصة أولئك الأقوام الرعاة ، الذين كانوا يملكون قطعاناً كثيرة من الماشية ، وكذلك أولئك الأقوام الذين كانوا يعنون بالزراعة ، وقد كانوا في حاجة إلى معرفة عدد الأيام والشهور .

والأقوام البدائيون يحبون الأرقام حباً جماً ، وتدفعهم إلى ذلك الحب رغبتهم في المبالغة في تقدير ما يملكون من قطعان الماشية ، وكذلك المبالغة — تفاخراً واختيالاً — في تقدير عدد من قتلوا من خصومهم ، ومن ذبحوا من أعاديهم .

ويوم عرف الناس أن يضعوا رمزاً خاصاً للرقمين (خمسة) و (عشرة) بدأ علم الحساب يثبت وجوده .

وكان الناس أول أمرهم إذا أرادوا أن يقولوا أربعة عشر قالوا : خمسة عشر إلا واحداً ، وإذا أرادوا أن يقولوا (ثلاثين) قالوا : أربعين إلا عشرة .

وعرف الناس عملية (الضرب) يوم عرفوا أن عشرين هي عشرة مضاعفة ، بدلاً من عشرة زائدة عشرة .

ولما أخذ هذا التقدم الحسابي مكانه واستقر بدأ الناس يوجهون عنايتهم إلى (قياس) الأشياء ، فاتخذوا من أجزاء أجسامهم وحدات قياسية كالإصبع ، والقدم ، والكف ، والذراع ، كما اتخذوا الأصداف والحلاء ذات الأشكال والحجوم المتساوية وحدات للكيل والميزان ...

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم

السينما والتعليم

للأستاذ أحمد محمد القيشاوي

كان أهم أنواع وسائل التعليم الحديثة فيما مضى السبورة — الخرائط — النماذج — الرحلات المدرسية أو الشيء الذي يمكن إحضاره بحالته الراهنة في حجرة الدراسة ، كنبات ما أو ثمرة أو طائر أو حيوان ... الخ . ثم استعملت بعد ذلك من وقت ليس ببعيد السينما الصامتة ، وما إن ظهرت السينما الناطقة حتى حدث من استعمالها وقللت من فائدتها التعليمية وأهميتها التوضيحية ، إلا أنها لا تزال لها سوق رائجة في نواح تعليمية متنوعة ، وإن كانت السينما الناطقة تخلق جواً من الواقعية في التعليم ، وهي من أهم الوسائل التعليمية الحديثة ، وتستعمل بكثرة في الوقت الحاضر في كثير من المعاهد والمدارس وجميع المراكز الثقافية ، وتستخدم لتعليم ضباط الجيش المصري وجنوده بعرض الأفلام الثقافية العسكرية في مدرسة الضباط العظام — وكلية أركان حرب ومدرسة الشئون الإدارية ومدرسة الهندسة العسكرية ، والكلية الحربية وبعض المدارس الأخرى بالجيش .

فأصبحت السينما الآن عاملاً رئيسياً هاماً في الحياة العصرية الحديثة لنشر المعلومات والأخبار ونقل المعارف والأفكار ، ويعتبرها الكثيرون طريقة للتعبير مطابقة لحاجيات العصر الحاضر ، كما أنها وسيلة للتثقيف والتهذيب عن طريق التسلية والترفيه ، ويزداد تأثيرها بمرور الأيام على أفكارنا وإحساساتنا وتخيلاتنا ، وتقوى سيطرتها على طباعنا وعواطفنا وتصرفاتنا — وقد ظهرت السينما في طفولتها كصناعة ، ثم تطورت وازدهرت حتى صارت في حداثتها فناً جميلاً ، وهي الآن مزيج من الفن الجميل والعلم الجليل . ولبيان مدى تأثيرها على البشرية نتكلم بلغة الأرقام فنقول إن رأس المال المستثمر في صناعة السينما في العالم يقدر بنحو ٥٠٠ مليون جنيه ، كما يقدر عدد الأشخاص الذين يرتادون دور السينما في مختلف أنحاء العالم بنحو ٢٥٠ مليون شخص في الأسبوع ، وقد عرفت المبادئ الأساسية التي بني عليها عمل السينما منذ آلاف السنين ، وتدل بعض الوثائق التاريخية على أن قدماء الصينيين استعملوا أجهزة مبسطة تنتج نوعاً من الحركة ، كما تدل آثار قدماء المصريين على إلمامهم ببعض مبادئ الصور المتحركة .

وهناك لعبة صبيانية طريفة كانت ولاتزال شائعة الاستعمال بين الأطفال للهو واللعب ، وتتكون هذه اللعبة من قرص مستدير من الورق القوى يرسم على أحد وجهيه قفص ، وعلى الوجه الآخر عصفور مقلوب ، ويثبت في ناحيتين جانبيتين منه خيط قصير بطول أحد أقطاره ؛ فعند إدارة القرص بسرعة إلى الأمام والخلف يظهر للرائي أن العصفور داخل القفص ؛ فهذه تعتبر على بساطتها الحجر الأساسي في بناء السينما الحديثة ، ثم كانت ترسم المناظر برسوم تخطيطية على شريط من الورق تلصق بأسطوانة تدار باليد ، وينظر الرائي خلال فتحات صغيرة إلى صورها في مرآة أو مجموعة من المرايا المصقولة ، ثم توالت عليها التحسينات والابتكارات . فاستبدلت بالرسوم التخطيطية صور فوتوغرافية حقيقية ، وبشريط الورق فيلم سينمائي ، وبالمرآة شاشة بيضاء ، وباليد جهاز ميكانيكي خاص (آلة العرض) يعمل على إظهار الصور المتوالية مكبرة على الشاشة ، فيسهل على عدد كبير من المشاهدين رؤيتها وتتبع حركاتها ؛ وتضافرت في ذلك مجهودات كثير من العلماء ، ومن الأسماء اللامعة في هذا الصدد « مايبرج » الذي أنتج أول سلسلة من الصور الفوتوغرافية لجسم متحرك ، و « ايستمان » الذي ساهم في اختراع الفيلم الذي تطبع عليه الصور الفوتوغرافية ، و« فريز جرين» الذي ساهم بنصيب كبير في نواح ابتكارية عديدة ، لذا يعتبره بعضهم المخترع الحقيقي للسينما ، و « أديسون » الذي اخترع أول جهاز لعرض صور فوتوغرافية حقيقية تظهرها متحركة .

أحمد محمد القيشاوي

كيف جاء الهولنديون إلى اندونيسيا؟

للأستاذ أحمد طه السنوسي

تأسست دولة « ملقا » الإسلامية في عام ١٤٠٩ ، بيد أنها لم تزدهر إلا في أيام السلطان (محمود شاه الأول) أي بعد مائة سنة من تاريخ تأسيسها ، وفي ذلك الوقت كان البرتغاليون يعدون رحلاتهم المعهودة إلى الشرق الأقصى ، ولم تكن غايتهم من ذلك الثراء وحيازة الجاه والسلطان فحسب ، وإنما كان من أهم أغراضهم أن يقتلوا روح الإسلام وأن ينشروا المسيحية .. ويقول المؤرخون إن أول تدخل للأوربيين في أندونيسيا كان في ذلك الوقت في شبه جزيرة ملايا ، حيث تأسست الدولة الفتية الإسلامية .

ولقد استطاع الإسبانيون أن يصلوا إلى ملقا ، بيد أنهم انسحبوا إلى الجزر التي أطلقوا عليها اسم (الفيليبين) نسبة إلى ملكهم (فيليب الثاني) وذلك تحت الضغط البرتغالي هناك ، ولقد وصلت سفن انجليزية وفرنسية ودنمركية إلى موانئ سومطره وجاوه وملقا ، وذلك كي تحصل على منتجات الشرق من التوابل والبهارات وغير ذلك من الأشياء التي اشتهرت بها هذه الجزائر ...

ولكي نقف على أول دخول الهولنديين إلى أندونيسيا يتحتم أن نتابع بفكرنا (كرنيلس دي هوتمان) ، وكان لا يزال قابعاً في (لشبونة) يتابع الملاحين البرتغاليين والأسبانيين ، ويستطلع أخبار كنوز الشرق الأقصى ، ودي هوتمان هذا رجل من أكبر الملاحين الهولنديين الذين تتطلع أعينهم إلى الأفق البعيد ، أفق التوابل والثروات ..

وقد عاد (كرنيلس) أخيراً إلى وطنه هولنده ، كي يحشد التجار والكبار من الهولنديين وليبدي لهم بزخرف كلماته آفاقاً واسعة من الثروة والجاه ، وسرعان ما سال لعاب هؤلاء التجار الكبار ، وإذا بهم بعد قليل يمخرون العباب .. وكنت ترى (دي هوتمان) بكل عددهم ، فصاروا مائتين وخمسين ، مات منهم في أثناء الرحلة مائة وخمسة وأربعون ملاحاً ...

وفي يوم ٢٣ من يونيه عام ١٥٩٦ نزلت السفن الهولندية الأربع في ميناء (بانتام) وهو يقع في شمال غربي جاوه ، وانبرى الهولنديون يأخذون ويعطون حتى ربحوا ربحاً طائلاً ، ثم اتجه (دي هوتمان) بسفنه وملاحيه من ميناء (بانتام) إلى (ياكرتا) ، وهناك بعد أن مرت عشرة أعوام بنى الهولنديون مدينة (بتافيا) نسبة إلى اسم (هولنده) المنطوق باللغة اللاتينية ...

أما ما كان من أمر (دي هوتمان) فإنه أمضى ما يربو على أربعمائة يوم في رحلته من مؤتنفها ، ثم مات مفارقاً النظر إلى الأفق الجميل ، إلى اللحد الأخير ..

ولقد هاجم القراصنة الأندونيسيون سفن (دي هوتمان) في شمال (سرابايا) حيث أغرقوا سفينة منها ، بيد أن الأندونيسيين في جزيرة (مدوره) أبدوا ولاءهم للهولنديين الذين لم يقابلوا هذا الولاء بولاء مثله ولا بوفاء من شاكلته .

وواصلوا رحلتهم إلى شرق جزيرة جاوة ، فإذا بهم أمام جزيرة (بالي) وأمام روعتها وطبيعتها الجذابة الساحرة ، فشدهوا ، وتركوا من صحبتهم اثنين على سطحها ...

وفي يوم سعيد يعرفه كل هولندي ، عادت الحملة الهولندية إلى وطنها حيث كان الاستقبال الباهر ، فقد قوبل أعضاؤها من الهولنديين بالبهجة والسرور .. ثم لم ينفك هذا الابتهاج أن تحول من ابتهاج بالقادمين إلى ابتهاج بالراحلين ، فلقد أخذت بعوث الهولنديين التجارية تتوالى إلى الشرق الأقصى ، إلى أندونيسيا الخضراء .

وكان موقف الأندونيسيين الترحاب بتلك البعوث ، مما أدى إلى التنافس الشديد الذي قام بين جماعات البرتغاليين وبين الهولنديين ، وعلى أساس هذا التنافس تضاعفت أثمان منتجات أندونيسيا ، وزادت أرباح الأندونيسيين عما كانت ، وتحرق البرتغاليون على سلطانهم الذي اضمحل وسيادتهم التي فقدت وأذرت بها أرباح الهولنديين . وفكروا فيما عساهم يصنعون ؟ وما السبيل إلى القضاء على منافسيهم ؟

.. وتوالت البعوث والحملات الحربية البرتغالية واحدة تلو أخرى ، بيد أنها كلها ذهبت هباء ؛ وذلك لوقوع الحادث الجلل الذى أطاح بهم وحطم ما بقى من سلطانهم :

ففى يوم ٢٠ من مارس عام ١٦٠٢ توحدت جميع الشركات الهولندية فى أندونيسيا ، وكونت شركة الهند الشرقية المتحدة ، وكان رأس مالها ٦٤١٩٠٠٠٠ روبية ، وكانت هذه الخطوة الأحادية تثبيتاً لمركز الشركات الهولندية وبسطاً للسيادة الاقتصادية على أندونيسيا ، ومحاولة لانتزاع النجاح من الصمود تجاه شركات الأسبان والبرتغال والإنكليز..

وأول عمل قامت به الشركة المتحدة أن أعدت أساطيل بحرية لتثبيت دعائمها وتدعيم أركانها ، ولمحاولة إجلاء البرتغاليين . وقد استطاعت أن تحصل على معاهدات مع بعض أمراء أندونيسيا ، فزاد نفوذها على بحار جزر الهند ، واستطاعت فى عام ١٦٤١ أن تكتسح شركات البرتغال من أندونيسيا ، فلم تبق لها أثراً ولا تأثيراً ..

أما الأسبان فقد حملهم الحقد على إرسال حملة من جزائر الفيلبين إلى ملقا هزمت الهولنديين ، بيد أن هؤلاء لم يفكروا فى الهزيمة ولا فى الحملة ..

وكان الإنجليز قد أسسوا شركتهم التى سموها (شركة الهند الشرقية الإنجليزية) قبل أن يؤسس الهولنديون شركتهم الهولندية بعامين كاملين ، ولكن رأس مالها كان ضئيلاً ، وما دام رأس المال ضئيلاً ، فإن الأمل فى النجاح قليل الجدوى ..

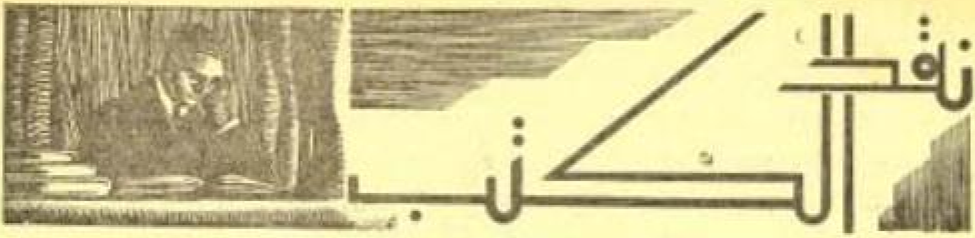
.. واستطاع القائد الهولندى (جان بترزون كوين Jean Pieterssoon Coen) أن يوطد دعائم الهولنديين ، وخاصة حين تولى منصب الحاكم العام لشركة الهند الشرقية ؛ فقد استطاع أن ينقل كثيرين من الهولنديين إلى أندونيسيا كى يحترفوا التجارة والزراعة ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى إقامة إمبراطورية هولندية فى آسيا أو فى جنوبها فى الشرق الأقصى ، وقد ارتكب فى سبيل الوصول إلى أغراضه من أعمال العنف والشدة الكثير . وفى القرن الثامن عشر امتد نفوذ الشركة الهولندية على أجزاء كثيرة من أندونيسيا وأخضعت معظم الأمراء الأندونيسيين ، وأضحى الهولنديون يملكون الضياع الواسعة ويستغلونها على أيدى الألوف من الوطنيين .

وفى نهاية القرن الثامن عشر أخذت عوامل الإفلاس تهاجم شركة الهند الشرقية الهولندية ؛ فقد حاصرت إنجلترا الموانى الهولندية وقطعت كل اتصال بينها وبين أندونيسيا ، فكسدت تجارة الشركة وحل بها الإفلاس ، لا سيما بعد أن تقرر فى معاهدة فرساى سنة ١٧٨٣ فتح بحار الهند الشرقية للتجارة الحرة . ولما جاء عام ١٧٩٦ استولت الحكومة الهولندية على إدارة الشركة وعلى جميع ممتلكاتها فى الهند الشرقية ، ثم حلتها بعد أن تعهدت بتسديد ديونها للدائنين .

.. ولما ضم نابليون بونابرت هولندا إلى إمبراطوريته فى عام ١٨١٠ مدّ سلطانه على ممتلكاتها فى أندونيسيا ، فبادر الإنجليز إلى احتلالها ، ولكنهم بعد مؤتمر فينا الذى عقد فى عام ١٨١٥ لتسوية شئون أوربا بعد حروب الثورة الفرنسية وحروب نابليون بونابرت أعادوها إلى هولندا ؛ ومن ذلك الوقت انهمكت الحكومة الهولندية فى استغلال الأراضى الزراعية الخصبة دون ما نظر إلى أى أمر آخر ؛ ولقد كان افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ وانخفاض نفقات النقل التى ترتبت على ذلك من أهم الأسباب فى ازدهار التجارة الهولندية ، لا فى أندونيسيا فقط ، وإنما فى خارجها أيضاً ؛ فقد أخذت المنتجات من السكر والشاى والتوابل تشق طريقها إلى أسواق ألمانيا وروسيا وأمريكا الشمالية .

وبالرغم من ذلك ، فقد ظهر العجز فى ميزانية البلاد فى عام ١٨٧٧ لسوء الإدارة المالية وفساد الضرائب ؛ فقد كان معظمها يجبى من العرب والصينيين والوطنيين ، أما الأوربيون فكانوا لا يدفعون من الضرائب إلا قليلاً لا يتناسب مع دخلهم ؛ ولقد أخذ الهولنديون فى النزوح إلى أندونيسيا أفراداً وجماعات ، فزادت نفقات الحكومة من أجلهم ، ولذلك فرضت عليهم ضرائب مناسبة منذ عام ١٩٠٨ ، فقلّ العجز فى الميزانية ، وظهرت بوادر الانتعاش فى دخل الحكومة ، فأقبلت على العناية بإصلاح المدن والطرق وإصلاح نظام الشرطة ، واهتمت بمشروعات الرى وبناء الكبارى والجسور ومدّ السكك الحديدية ونشر التعليم باللغة الهولندية وإنشاء المستشفيات ، وفى الوقت نفسه لم تنس أن تنفق بسخاء لإخضاع الإمارات الوطنية والحكام الوطنيين ...

أحمد طه السنوسى



من نبع الحيـــاة

ديوان للشاعر محمد عبد الغنى حسن

دار المعارف — ٣٢٢ صفحة — ١٩٥٠

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

لغز ينطوى على أسرار ، وصـندوق يحوى كثيراً من الأخبار ، ذلك هو الإنسان ، بدن وروح ، وظاهر وباطن ، ولولا الإفصاح بالعبارة لظل اللغز غامضاً والصندوق مغلقاً على سره منطوياً على جملة خبره .

ما هذا السر الدفين الذى يحاول الشاعر محمد عبد الغنى حسن أن يُخفيه ، وأن يعلنه دون أن يبرح عنه الخفاء ، وفى هذا من التناقض ما فيه ، إذ كيف تسر وتعلن فى آن واحد ؟.

وهذا منطق الشعر ، وطريقة الشعراء .

إنها أحاسيس غامضة تكتنف النفس الإنسانية ، وتضيق الألفاظ عن التعبير عنها فى الصورة المألوفة من الكلام ، فيخيل إلى الشاعر أنه مستطيع بالوزن والقافية أن يذلل المعانى ، وبالرمز والأخيلة أن يعبر عن مكنون الجوانح .

وقد أودع شاعرنا حياته صفحات هذا الديوان ، فكان سجلاً لعواطفه وآرائه ونظراته إلى الحياة . ليس هو كل حياته ، ولكنه « من نبع الحياة » .

وقد أصبحت حياته بعد نشرها ملكاً للجمهور ، ولنا أن نحلله من شعره ، فنعرف نفسيته فى ضوء العلم الحديث .

لقـد كانت أعظم أمانى الشاعر أن يرحل إلى أوربا ، فقال فى قصيدة له قبل السفر عام ١٩٣٢ :

اكشر قلاعك باربان إنّ بنا
شوقاً إلى البحر أو ميلاً إلى السفر

فردّ عليه الأستاذ عادل الغضبان بقصيدة مطلعها :

سافر فعين العلى ترعاك فى السفر
وعـــد إلينا أديباً فاز بالوطر

وهى من نفس البحر والقافية ، وهذا من حسن الأدب .

نقول : لم تكن الرغبة فى السفر طارئة ، بل هى قديمة ، ففى قصيدة له نشرت قبل ذلك بأربع سنوات :

بى همٌّ لا أرى مصدره وأرى آثاره تتبعـــنى
هو سر كشفه أعجزنى وهو لغز حـــله حيرنى
لم تَرُقْ لى العيش فى منصورتى
لا ، ولا طـــاب بمصر سكنى

فقـد علمت أن صاحب الديوان من مدينة المنصورة ، ولكن العيش لم يطب له فى مسقط رأسه أو فى عاصمة وطنه . ونجد السر فى ذلك فى قصيدة يناجى فيها طائراً ، ويوازن بين نفسه وبينه ، وهو ولا ريب يرمز للطائر بشىء ما يريد أن يخفيه عنا ، وقـد نستطيع الكشف عنه بعد قليل من قصائده الأخرى . فهو يحدثنا أن الطائر فى الجو مطلق ، وهو فى الأرض مضطهد :

تهب العمر فرحـــة وهو يقضيه فى نكـــد
أنت لم تدر ما مضى وهو يرجو لقـــاء غد

فمن هذا الطائر الذي كان يرجو لقاءه ؟.

أنت بالعيش قانــع   وهو الطامع المجـــد
حــدك القمة التي   تمسك الجوع أو تسد
وهو في العيش لم يقف   مطمع منه عند حــد
يخـدع النفس بالمنى   بين جزر بها ومـــد

إلى آخر هذه القصيدة الطويلة التي يصف فيها نوازعه وطبائعه ، وهو صادق دون نزاع في قوله إنه « الطامع المجد » فهو يطمع في المجد ، ويتخذ له سبيل الجد . ولكن النفس أيضاً تطلب بفطرتها شيئاً آخر ، هو مطلب جميع الذكور ، نعني الأنثى ، ولا نشك في أن الطائر الذي كان يناجيه الشاعر هو الأنثى التي صادفها في حياته ، ولكنه انصرف عنها لشيء آخر ، هو نفسه ، فهو يحب مطامعه التي لا حدّ لها ، ولا يسمح لفتاة مهما تكن على قدر من الجمال أن تحول بينه وبين الوصول إلى تحقيق هذه الأماني .

كاذب في غرامــه   هازل فيه لا يجـد
إن بكى فهي أدمع   ليس من مخلص بد

فأنت ترى أنه يعترف بالحب ، ويحكي الغرام ، ولكنه غرام كاذب ، لأنه يحب نفسه ، وأول شيء أحب أن يحققه لها ، السفر إلى الغرب .

وانظر إليه قبل الامتحان النهائي في دار العلوم ، كيف يأمل في السفر ، وهو مطمعه القديم :

لي فيك يا «غرب» شوق   وبي إليــك حنينُ
في الغرب علم كثير   في الشرق حقد كمينُ

وهو يطلب الرحلة إلى الغرب ليتزود من العلم ، كي يحقق غاية أخرى ، هي الشهرة ، والشهرة داء الشرق من قديم الزمان ، ولكنه لا يعرف إلى أي مدى يبلغ ، وإلى أي حد تتحقق الأماني :

هبني نجحت ومــالت   على نجاحي العيـــونُ
وكان غاية رحـــلي   بـــاريس أو برلـــين
هبـــني بلغت مكاناً   تعيــا عليــه الظنون
وطاب باسمي حـــديث   وكان باسمي شـــئون
هبـــني كذلك فقل لي   من بعدها ما أكون

حدثنا الشاعر في قصائد عدة عن نجاحه بعد الامتحان ، ونظم في هذا الإبان الشيء الكثير ، ووصف حاله من السهر والدأب والفرح بعد النجاح . لقد رضيت نفسه من جانب ، ولم ترض من جانب آخر ، هو جانب الحب ، ولعل إخفاقه في هذا الحب الذي يُخفيه عنا ، هو الذي دعاه إلى الهجرة من البلد ، وعن الوطن :

قالوا نجحت فقلت هل   يغني عن الشاكي نجاحه
هو طـــائر ... لكنه   في الحب مقصوص جناحه

وقد يهرب أحياناً أخرى نحو الماضي ، يريد الرجوع إلى عهد الطفولة ، حيث الصداقات البريئة ، والحب الخالص ، أما عهد الشباب ، فقد خانته المحبوبة :

مَنْ لي بـــأيام الطفولة إنهـــا
مرت من الأيـــام مر سحاب
مـــاذا لقيت من الشـــباب وكله
وله الحب وقـــسوة الأحبـــاب

ويبدو أن الشاعر تخلص من عذاب هـــذا الحب ، فكتب قصيدة بعنوان « إخلاص » لم يضع لها تاريخاً ، مع أنه سجل جميع قصائده ، ولم يذكر من هي التي يخاطبها جاء فيها :

قل للتي تزعم الإخـــلاص معذرة
إن كان إخلاصنا في حبها ذهبا
جعلتها ســـبباً المجد أنشـــده
لكنها جعلتني للهـــوى ســـبباً

وأكبر الظن أن هذه المحبوبة كانت من المنصورة ، فقد أفصح عن ذلك في قصيدة أخرى في أغسطس ١٩٣٠ ، وإذا صدقنا الشاعر فقد كان حباً طاهراً عفيفاً :

يا وردة من ورد وجنتهـــا
تذوي الورود ويستحي الزهرُ
يا درة من تاج عفتهـــا
تـــدي العقود ويخجـــل الدرر
هـــل تذكرين ونحن يجمعنا
في جانب « المنصورة » النهـــر
وكأننا من فـــرط عفتنـــا
ملكان لا خلـــق ولا بشر

* * *

وسافر الشاعر ، وطاف بباريس ولندن ، وأمضى بضع

سنين ، ثم عاد إلى أرض الكنانة ، وقد حقق الأمنية التي دارت بخلده زمناً ، وولى الشباب ، وذهبت تباريح الغرام التي شبت مع فتوة الشباب . ووصف حاله في ليلة من عام ١٩٤٦ تفيض أسى وحزناً وضيقاً بالحياة :

تألب الليـل عليـه وطـال
يا صبح هـل أنت بعيد المنال؟
ضاقت بها الآمـال عن شـاعر
آماله كانت فساح المجال

ولم يجد ما يفرج عنه إلا الابتهال إلى الله فرج كربه :

حتى إذا ما الهم أودى بنـا
ولم يعـد للصبر فينا احتمال
أطلـت الرحمـة من كوة
وفيـأ الله علينـا الظـلال

وحل الله — عـلا شـأنه —

من هذه الليـلة حالاً بحال
فلم أعـد أيـأس من بعدها
من رحمـة الله الوسـيع النوال

حقاً ، النزعة الدينية غالبة على صديقنا الأستاذ محمد عبد الغني حسن ، فقد افتتح الديوان بقصيدة في مولد الرسول ، نشرت عام ١٩٤٩ ، وفيها نرى الشاعر ، وقد استضاء بنور النبوة ، فطلع علينا بقصيدة من روائع الشعر استهلها بقوله :

جـد النبـوة والنبي الملهـم
استقبل الدنيـا بمنك وابسم
وأفض على الدنيا السلام فإنهـا
طـال الطريق بهـا ولما تسلم

وهكذا بدأ الشاعر في شبابه يجتني بسحر مفاتن الشباب ومغرياته ، المرأة التي تبعث بحبها على الأمل ، وتدفع إلى الجد ، ثم رأى بعد فورة الشباب أن الحقيقة الكبرى في هدوء النفس وسكون الجوانح إلى بارئها ، بعد أن بلغ التي وحاز المجد .

وغاية المجد أن يدوّن الشعر ثم يُروى .

أحمد فؤاد الأهواني

الأسنان

(بقية المنشور على صفحة ١٦)

بل إنه أكثر ليونة وهو طرى جداً ، وهو خير مكان محبب إلى الجراثيم ، ولذا تستقر به لأنه يوافق معاشها وتكاثرها . إنك لو سمحت للجراثيم بالدخول فإنها تسمم فمك وتقودك إلى الهاوية ، في حين أن أسنانك المسكينة تأكل وتخر صرعى ، وصير لك بدلاً من جنود أشداء يحرسونك جنود مهزومون لا حول لهم ولا طول .

وليس هذا هو كل ما يحدث ، لأن الجراثيم إذا دخلت إحدى الأسنان تقوى وتستطيع اختراق أسنان أخرى ، والسم الذي تصنعه وتنفثه في طعامك يسمم دمك ويجعلك سقيماً عليلاً ، وهي لا شك بالغة لثتك أيضاً فتتقرح ، وهكذا يصير لك فم ردىء وتصبح أنت بالتالي رديئاً تعاف نفسك ويعافك الناس ! وهذا هو السبب القوى الذى يدعونا إلى المحافظة على أسناننا ، وعلينا أن نحافظ عليها جهد طاقتنا ونحافظ على دروعها ونمنع وجود أصغر الثقوب فيها ، وعلينا أن نعنى بها يومياً لنضمن بقاءها قوية براقة .

لك أن تسأل عما يسبب الثقوب أى الحفر في درع السن . إن الجراثيم لا تفعل ذلك لأنها لا تأتى إلا بعد أن تكون الحفرة قد وجدت فعلاً والجراثيم لا تشترك في عملها إنما الطعام هو الذي يعملها وحده ، لأنه يصيب الدرع بالصدأ فيصيبه البلى والتلف

إن ذلك لم يكن يحدث مطلقاً لو أنك كنت تستعمل الفرشاة لتنظيف أسنانك واهتممت بإزاحة ما يعلق بها من فضلات الطعام . وحبذا لو اقترن استعمال الفرشاة باستعمال السنون وهو المادة التي تنظف بها الأسنان من مسحوق أو معجون . وخير وقت لتنظيف الأسنان هو قبل الذهاب إلى النوم ، لأنه عندما تكون نائماً يفسد الطعام الذي يتخلل أسنانك ويبدأ في إصابتها بالصدأ — وهذا التدريب اليومى الخاص بالأسنان يحتم أداؤه لأنه يحفظ الأسنان قوية نظيفة ذات منظر جميل جذاب ، فوق أنه يجعلها صالحة لقضم الطعام وحفظ الفم نظيفاً والجسم سليماً .

عبد البارى نعمت



الحملة

للكاتب الفرنسى أندريه موروا

ترجمة الأستاذ محمد فتحى عبد الوهاب

— ماذا ؟ ما هناك أيضاً ؟.

— سيدى الرئيس ...

— كيف ؟ أنت ؟... أنت تعرف جيداً أنى لا أود أن يزعجنى أحد بأى حال من الأحوال وأنا أكتب مقالى !.

— إنى أعرف جيداً يا سيدى الرئيس ، ولكن ...

— بأى حال من الأحوال ! قلت لك ذلك عشرين مرة ! حتى لو انهار العالم ...

— حتى لو مات مترال يا سيدى الرئيس ؟.

— ماذا تقول ؟ مترال لم يمت ؟.

— لقد مات مترال بعد ظهر اليوم فى الساعة الثالثة يا سيدى الرئيس ... سقط على الافريز بشارع الجامعة ، وقام رجال الشرطة بمعاونته على النهوض ، ثم نقلوه إلى مركز الإسعاف . وهكذا كانت النهاية .

— يا لها من قصة !... آه ! نعم ، إنك محق فى إخطارى يا صغيرى ... سأقوم بكتابة المقال ... فى الحال ... « انتحار المذنب » عنوان على ستة أعمدة .

— مستحيل يا سيدى الرئيس . إنه لم يكن انتحاراً .

— وكيف عرفت هذا ؟.

— كل شىء يثبت ذلك ... ظروف الموت ... شهادة الأطباء ...

— أنا لا أهتم بالأطباء ... هناك مخدرات بطيئة المفعول ... ومن الضرورى ، لصالح خاتمة حملتنا ، أن ينتحر مترال .

— أرجو المعذرة يا سيدى الرئيس ، ولكنها مسألة تعوزها الأدلة ، وقد يجازف المرء فى تدعيمها ... إن تكذيبها سيكون خطيراً ... فرض القلب ناشئ منذ زمن بعيد . وقد صرح أطباء نطاسيون لعائلته منذ أسابيع ، وهم على استعداد لترديد ما صرحوا به ، أن حالته تزداد خطورة ... وهناك رسائل وشهادات ... وقد تحدثت تليفونياً ست مرات عندما عرفت النبأ ، لأنى أردت أن أدلى إليك بتقرير كامل ... كلا ، كل ما يستطاع قوله ، أن « مترال قد مات » .

— حسن ... إذاً « مترال قد مات » على ثلاثة أعمدة ... وستدلى أنت بالوقائع بلا تعليق .. إنى أستطيع أن أوالى حملتنا بالجريدة بكل دقة ... ولكنى أعرف الرأى العام الفرنسى . إنه يكن للموت احتراماً خرافياً . إن أحقر الناس يصبح مقدساً ، عندما يصير جثة هامدة ... سخافة ، ولكن هكذا الأمر ... هناك إذاً مسألة قد دفنت ... يا للخسارة ...

— وإذا ما كتبت يا سيدى الرئيس للمقال الناقض « الموت يضع خاتمة للخلافات . لقد طاردنا الرجل ، وها نحن الآن ننحنى أمام قبره . لقد كان مترال السياسى يبدو لنا شريراً ، أما الآن ، فلا نضمر له ، لأجل أرملته وأولاده ،

إلا شعوراً من الرثاء عليه ... » ... فإن هذا سيكون شيئاً كريماً .

— هذا يكون غباء ! ... كيف ؟ نحن نقول منذ عام لقرائنا : « إن مترال لص . إن مترال مجرم . إن مترال مسخ » ، وفى اليوم الذى يختفى فيه . نقوم فننشر الزهور على تابوته ؟ أفقدت رشدك ؟ .

— ربما يا سيدى الرئيس ... لا بد أنك على حق ؟ فأنت دائماً على حق ... ومع ذلك . إذا كنت قد فقدت رشدى كما تقول ، فلأن ما فى هذا الموت من أشياء هو الذى يحيرنى ... إنك ستغفر يا سيدى الرئيس . ولكنى أشعر ... نعم ، أشعر بنوع من تبكيت الضمير .

— تبكيت الضمير ! ... لماذا بحق السماء ؟ إنك لم تكن مسئولاً عن حالة صمامات أو شرايين السيد مترال ... أنت تصرح بنفسك أن الموت كان طبيعياً .

— بكل تأكيد يا سيدى الرئيس ، إذا أخذت الكلام على عواهنه . ولكنا نعلم أن مرض القلب قد يظل ستة أشهر أو ست سنوات على حسب ما يعترى المريض من انفعالات . وفى حالة مترال ، لا بد أن حملتنا قد عجلت كثيراً من النهاية ... نعم يا سيدى الرئيس ، لا يمكن أن يكون غير ذلك . إن ما قلناه عنه كان فظيعاً . وإنى لأستعرض ما الذى تكون عليه حالتى النفسية لو أطلع فى كل صباح عند اليقظة على الجريدة وكلها يفيض من وجود اتهامات مروعة ضدى تقرأها زوجتى ، ويطالعها أولادى وملايين الفرنسيين ... أنا شاب ، ذو صحة حديدية ، ومع ذلك يخيل إلىّ أنا الآخر ، أنى سأموت من ذلك بمرور الأيام .

— لقد بدأت تضايقنى ... ما الذى تود أن تصل إليه ؟ إنك تتهم نفسك ، أو بالأحرى ، تتهمنى بقتل مترال ؟ أهذا ما تود أن تقوله ؟ .

— ليس تماماً يا سيدى الرئيس ... فنحن لم نقتل مترال عمداً ، بيد أننا كنا أحد أسباب موته . وأعتقد أن هذا لا شك فيه أكثر منى ! .

— حتى لو كان هذا هو الواقع . أتعتقد أنى آسف عليه ؟ .. كلا ، ولا لحظة واحدة ! إن مترال معارضنا ، الرجل الأكثر ذكاء ، والأعظم مقدرة فى معسكر أعدائنا . وقد كان عملنا يتطلب منا أن نتخلص منه ، وأن نلق به فى الحضيض ، بكافة الوسائل . وهذا ما حدث .

— بالطبع هذا ما حدث .. ولكن ..

— ولكن ماذا ؟ صرح إذاً بما فى قلبك ، بدلاً من أن تتخذ هذه اللهجة الملتوية ! .

— حسن ! إنى لأتساءل ، فى بعض الأحيان وليس فقط هذا الصباح : إذا كان ذلك قد حدث بطريقة مشرفة ، على أية حال يا سيدى الرئيس ، بينى وبينك . لقد اتهمنا مترال دون ما دليل . وقد أخطأنا بلا شك فى ناحية من الأمر ، وهى القرار . فإن الشهادات التى نشرها لا تفنّد . أما مسألة النقود ، فكذلك يبدو جلياً أن شرحه كان مقنعاً بعد كل ذلك . ما الذى بقى من المسخ الذى رسمناه ؟

— تبقى ادعاءات قوية . إن القدر يجلب الفاذورات ، وقد يخطئون فى تفاصيل هفوته ، ولكن ليس فى طبيعتها . ثم إن الوقائع لم يرد عليها مترال مطلقاً إلا مسألة القرار . ولو كان ذا ضمير نقى لكان من الأفضل له أن يدافع عن نفسه .

— ليس هذا مؤكداً يا سيدى الرئيس .. أولاً ، إن المذنبين غالباً ما يكونون أحسن من يقوم بدور البرىء .. ثم إنه كان يستطيع أن يحقق فيما تجاسرنا على قوله ، بل — يجب أن يقال — فى اعتقادنا الباطل . لقد كان يعرف أن كل الاحتجاجات ، حتى لو كانت فى محلها ، تجلب له من ناحيتنا جراحاً هائلة ، فما الذى يجنيه من الرد ؟ .

— يستطيع أن يقاضينا .

— بقانون القذف سيء التشريع ؟ بمحلّف عاطف دائماً تحت رحمة دفاع قاس ؟ إنه لن يكون له حظ من عشرة لاتهامنا . ولو نجح ، عن طريق المستحيل ، فما الذى يستطيع الحصول عليه ؟ فرنك واحد كتعويض .. كلا ، أنا أفهم أنه لا بد أن يلتزم الهدوء .

— يبدو أنك تفهم بالغريزة كل ما يقوى قضية المعارض ، وأنك تمد سلطة كل ما يقوينا .. آه ! لشد ما تخدعنى يا صغيرى ! .. أنت تعلم أى مركز قد أعطيته لك بالجريدة ، وأى مقام آمل أن أراك حاصلاً عليه .. فقد رأيت فيك ابناً روحياً ، وربما لفكرى وحملاتى .. وهأنذا أكتشف فيك ناقداً معادياً ، قاضياً ! إن هذا فى الحق شيء مبكٍ .

— إنى آسف يا سيدى الرئيس .. فأنا فى الواقع سيء التعبير .. لأنى أنا الآخر ، أكن لك الكثير من المودة ..

والإعجاب .. لقد غمرني من زمن سرور عظيم بالعمل على مقربة منك ، وقد أعجبت بطريقتك ، وقريحتك ، وقوتك .. وكنت فخوراً بالتعاون معك .. ولا زلت كذلك .. إني أحب مهنتي ، وأحب جريدتنا .. وإن أفكاري السياسية لم تتغير .

— إذاً ؟ .

— إذاً ، لكوني في الواقع أحب الجريدة ، ولأني معجب بك ، وددت أن كل ما تنشره يكون حقاً ، نبيلاً ، يليق بك .. وددت أن يعطى حزبنا مثالاً من العظمة والكرم والتسامح . وددت ألا يقال لي عندما يموت شخص مسكين : « إن كل إصلاح الآن بات مستحيلا ، ومع ذلك فأنا مدين له بإصلاح » .

— لقد أصبحت بليغاً يا بني ، ولكنك أصبحت أيضاً وقحاً .. وددت أن تكون جريدتنا عادلة نبيلة ! يستنتج من ذلك أنك تعتقد العكس .. أتعلم ما الذي تستحقه ؟ هو أن أقول لك بكل بساطة « لا تظل مدة أكثر من ذلك يامولاي الدون كيشوت متصلاً بأناس ظلمة . إن نقاء روحك سيتعرض للتلوث منهم ، فابحث عن وسط أكثر لياقة لك .. وبما أنك تحب معارضينا ، انضم إليهم ، وسيصير هذا هجراناً جميلاً ، وسيستقبلونك بصيحات البهجة » نعم ، كان يجب أن أقول لك هذا ، وأن أدفع لك مرتبك الشهري ، وألقي بك خارج الأبواب ..

— حسن جداً يا سيدي الرئيس ، إذا كنت تعتقد ..

— اصمت ، فإني لم أنته بعد .. واجلس .. يا إلهي ! اجلس !.. كان يجب أن أقول لك هذا ، بيد أني لا أقوله . لماذا ؟ لأن افتراقك عني يشق على قلبي ، وكذلك لأني آمل أن تكون محبة رؤيا حسب .. وإني أستطيع أيضاً أن أجعلك تفهم موضع خطئك .. اصغ إلي جيداً ياصغيري ، فإن ما سأقوله لك لا يردد على أحد ، حتى ولو جاء اليوم ..

— إني أقسم لك ياسيدي الرئيس ..

— لست في حاجة إلى مواعظك .. استمع .. ماذا نحن هنا ؟ نحن جريدة حزبية ، يقرأها قراء مشايعون . ونحن نبحث في إحراز نصر بحزبنا لسياسة ، لمبدأ . ولا نستطيع أن نصل إلى ذلك إلا إذا استندنا أولاً على أولئك الذين يفكرون مثلنا .. أتتبعني ؟.

— نعم ، حتى هنا .

— حسن .. والآن ، ما الذي ينتظره منا هؤلاء القراء ، هذا الجمع من المخلصين ؟ إنك تعرفه جيداً أكثر مني . إنهم ينتظرون منا ، لا العدالة ، بل النصر ، الخراب الشامل للمعارضين .. اختيار الوسائل ؟ إنهم يسخرون من ذلك .. الحقيقة ؟ لا يأبهون بها . نعم ياصغيري ، إن الأمر هكذا . فالرجال هم حسب ما يكونون . وبالعكس ، كلما ازدادت الوسائل قسوة ، اشتدت الحملات شراسة ، ورضي أصدقاؤنا . إن مسألة مترال قد أبهجتهم ، وقد ألقوا بأنفسهم في إثر صيد كبير بحرارة وحمية كلب صيد .. وقد ابتهجوا بعذاب مترال ، واحتراقه .. مع أنه كان وزيراً وعتالك كل القوة .. لقد قتل الكثيرين منهم بيديه ، دون أسف أو تبكيت ضمير .. أنت تعلم ذلك !.

— نعم يا سيدي الرئيس ، وهذا بالضبط ..

— وهذا بالضبط ما نود من أجله أن أبعد كلب الصيد عن حصته ، وأن أمنعه عن فريسته ؟ ولكن يابني المسكين ، لنفرض أني عملت جأة حساباً لوساوسك ، وأني بحثت عما يزن الشهادات بميزان العدل كما تقول .. فما الذي يحدث ؟.. يحدث أن ينخدع فينا مشايعونا ، ويخيب ظنهم ، ويهجرونا ..

— أنا معك في ذلك ياسيدي الرئيس ، بيد أنه سيستقيل بعض المتعصبين ، وسنستعيد كتلة من أناس شرفاء .

— مطلقاً .. في هذا أنت مخطئ .. إن قوة حزب ما ليست في كتلة غير متميزة ، إنما هي فيما نسميه المتعصبين .. فعندما يتغلغل الإيمان في جمع صغير من الرجال ، يسير قدماً ، فالشعب يندمج في خطاه .. وإنه لمن المتعصبين قد بنيت كل مسألتنا .. وإنه لأجل رضائهم قد أمسكت مترال من عنقه .. ظلم ؟ نعم . لعله ظلم .. ولكني لست بآسف على شيء .. فالحرب ينبغي أن تكون أحياناً ظالمة ، وفي بعض الأحيان قاسية .

— إني أعرف هذا المنطق يا سيدي الرئيس . فقد سمعناه في إيطاليا وألمانيا .. إنه ليس فرنسياً .

— إنه عالمي .

— إذاً فأنت تسلم بذلك ياسيدي الرئيس .. حسن . أنت تختار أن تكتب لأولئك القراء الذين تحتقر أنت قلوبهم وحكمهم ؟

— القيام بحرب ، لا بد من محاربين . والسياسة هي شكل من أشكال الحرب .

— في هذا لا أخالفك مطلقاً يا سيدي الرئيس ، وفي هذا أيضاً ، ما يبدو لي خطيراً من ناحية مسألتنا . لأن فرنسا في هذه الجهة معرضة للموت . إن الكثير من الفرنسيين قد فكروا — مثلاً فكرت — منذ عشرين عاماً في أن السياسة هي الحرب ، وأن الوسائل في الحرب صالحة طالما كانت ضد العدو . فماذا كانت النتيجة ؟ فرنسا مشطورة شطرين ، ومنقسمة حتى الأغلال . وما هو العلاج ؟

— ليس هناك علاج .

— بل هناك .. العلاج هو الدعوة بأن السياسة ليست الحرب ، وأن التابعين أنفسهم هم قبل كل شيء فرنسيون ، وأنهم قادرون على الاتحاد عند ما يتعلق الأمر بصالح فرنسا ، وأخيراً ، لكي يكون هذا الاتحاد ممكنا ، يجب ألا يفرقهم مالا يستطاع مداواته .

— لقد سبق أن أخبرتك أنك بليغ جداً . أمام هذا فمعلوماتك في تاريخ بلادك رديئة . عاود قراءة تلك التي للجيروندين . إن المعتدلين بفرنسا هم دائماً المغلوبون .

— ليس هذا الواقع .

— أكرر عليك القول أن لم بتاريخ بلادك إلماما جيداً .

— ولكني لا أعتقد ذلك يا سيدي الرئيس .. فالتاريخ يخطئك على طول الخط .. على أية حال ، كم من الوقت استمر اليعقوبيون ؟ والمتطرفون ؟ وماذا كان نجاح أيام يونيو سنة ١٨٤٨ ، وتلك القوانين عام ١٨٣٠ ؟ كل ذلك كان هباء منثوراً ! كلا ، فكلما ازداد تفكيري ، خيل إلي أنه ، على العكس ، لم يخلق الحزب الذي ينجح في أن يحكم فرنسا باستمرار . فضلاً عن أنه حتى لو أثبت التاريخ نجاح العنف — وهذا لم يحدث — ألا تعتقد أن دورنا يا سيدي الرئيس ، هو ليس تقليد الماضي ، وإنما خلق المستقبل ، بجعل فرنسا في الغد متحدة قوية ، وأننا في حاجة — بسبب ذلك — إلى معارضينا فضلاً عن أصدقائنا ؟

— نعم . إني أرى أنك تود تشكيل وزارة حزبية مع السيد مترال ..

— اليوم الذي يكون فيه الوطن في خطر ، بالطبع .. لا أتورع في تكوين حزب مع الشيطان لو اقتضى الأمر ذلك لإنقاذ فرنسا .. ومترال لم يكن شيطاناً إلى هذا الحد .

— وكيف عرفت ذلك ؟

— أنت تعرف مثلي .. أتذكر الخبيرين الخصوصيين اللذين كلفتهما بإجراء تحقيق عن مترال ؟ إنك لم تنشر مطلقاً تقريريهما . لماذا ؟ لأنهما في صالح مترال .. كلا ؟ الحقيقة يا سيدي الرئيس أنك ضحيت هنا بالعدالة من أجل العاطفة .. بيد أنه في فرنسا لا يضحون بالعدالة سدى .. أتذكر المسألة يا سيدي الرئيس ؟.. لقد تفوه صحفيون مثلك بأكاذيب مقدسة ، أخطاء وطنية .. وماذا أدى بهم ذلك ؟ خراب وطنهم .

— كفاك حديثاً .. إني هنا لأعمل ، لا لأصغي إلى مواعظ .. الساعة السابعة ! ويجب أن أكتب مقالي .. أتعرف عمن سأكتب ؟ عن مترال !.. نعم ، عن مترال . ولكي أخبرك عما سأكتب ، سأفضي إليك به — سدى — « لن تتحدث عن مترال بعد الآن . فقد اتقى أذاه . ولكن سنطارد بنفس الشدة كل من فكر أو يفكر مثله . نحن لا نريد صديقاً من وراء المتاريس » .. هاك !.. اذهب إلى عملك .

— حسن يا سيدي الرئيس .. ولكن إذاً ..

— ولكن إذاً ماذا ؟.. لقد أخبرتك أن تصمت .. وتتركني .

— إذاً أرجو أن تقبل استقالتي .. إني أسألك ذلك عن يأس . ولكني لا أستطيع أن أعضد بوجودي هنا سياسة لا أقرها ، سياسة تبدو مميتة لبلادي .. الوداع يا سيدي الرئيس .

— حسن جداً .. اذهب .. لم أكن لأعتقد أننا سنفترق هكذا . بيد أن هذا أفضل . إن ما يفرقنا هو فاصل عميق جداً .. الوداع .. استمر في عملك حتى يأتي بديل لك .. وقل لسيار أن يسوي حسابك ..

— حسن يا سيدي الرئيس .

— انتظر .. ضع عنواناً كالآتي . — « انتحار المذنب .. » على ستة أعمدة .

(عن الفرنسية)　　　　محمد فخري عبد الوهاب

من الأعماق ...

نعم أنا أهواه بعيداً ودانيا
وأشكو بما يشكو وما كنتُ شاكيا
وأرضى بما يُرضيه جذلان باسماً
وحسبي رضا روحي ، وما كنت راضيا
ألا إن آلامي أحالت مدامعي
عطوراً من الأزهار تنعش ما بيا
تغربتُ عن نفسي فلما لقيتُه
عرفتُ به نفسي فكان شفائيا
على البعد لا أسلو ولا أنا ثائرٌ
ولو كان من أرعاه قد بات ساليا
وفي القرب أحيا مستعزاً بحالمٍ
من النور يحلو في الدياجي سمائيا
أنا الطائرُ الشادي بما شاء حسنه
ولستُ بغير الحسن – ما عشتُ – شاديا
نعم أنا أهواه وهل من ملامةٍ
على الطير أن يهوى القطوفَ دوانيا ؟

• • •

مررتُ على دار الحبيب عشيةً
يسابقُ شوقي خاطري وخياليا
سعيتُ إليها شارد الفكر هائماً
أما كنت أدري : أيُّ داعٍ دعانيا ؟
دعاني إليها الحب والحب آمرٌ
إذا شاء لبَّتْهُ القلوبُ صواغيا
فما راعني إلا ظلامٌ مخيمٌ
وعهدي بها داراً تجيب ندائيا
ألا أيها الدارُ التي خفَّ أهلها
إلى أين أمضي والظلام أماميا ؟
خبا الضوء في قلبي فمات بشاشتي
وأقفر في عينيَّ ما كان زاهيا
لقد رحل الأحباب وانفض سامري
فهل ترجع الأيام ماضٍ ثانيا ؟
عفاءٌ على الدنيا إذا حال حالها
وردد فيها الطير شكواه باكيا !

• • •

وقفت بها أبكي وقد كان مدمعي
عصياً وصبري في الشدائد كافيا
دموعٌ تهادت في المحاجر عزةً
ومرت بأهدابي تفيض معانيا
دموع من الأعماق يبعثها الجوى
لأنّيَ من قلبي تهدد كيانيا !
لي الله من نأيٍ يطالعه النوى
نعيم أحال الأفقَ أغبرَ داجيا
عجبت لقلبي قد أثارته ليلةٌ
فكيف إذا طال الفراقُ لياليا
وكيف إذا اشتطت به حرقةُ الأسى
وجاء عصيُّ الدمع أحمر قانيا !
ألا رُبَّ يوم يجمع الشملَ صافياً
أراه فيأسو باللقاء جراحيا
فقد تبسم الأقدار بعد عبوسها
وقد تسعد الأيام من بات شاكيا

• • •

نعم يارفيقَ الروح ياغايةَ التي
لقد أيقظت عيناك من كان غافيا
فأنت الذي ألهمتني الشعرَ سلسلاً
ولولاك ضاق اللفظ بالشعر جافيا
تركت شبابي في يديك وديعةً ..
وكم خاب جدي ، فكن أنت وافيا
شهدت من الدنيا ثلاثين حجةً
وها هي ذي مرت ، فلم أدر ما هيا
حياةٌ شجاني اليأس فيها ومن يعش
بلا أملٍ ، يلقَ المنايا .. أمانيا
فلما التقينا أيقظ الحبُّ عفوتي
وجدد آمالي ووشَّى رجائيا
وهأنذا أمضي وحبك رائدي
وإلهامك العلويُّ يذكي جنانيا
لجدْ لي بومضٍ من سناك لعله
إذا مسني غيُّ الحياة هدانيا

علي بيرمي

حنين...

عودى فؤادى فأحيى ميت الأمل
يا ذكرياتى فقد أمسيتُ فى ملل
من ذكرةٍ بتُّ أرجو رجعها عبثاً
ومن ظــلام بهذا القلب مُتّصل
كأن قلبي غــدا صحراء موحشة
لا زاد فيهــا لحلٍ أو لمرتحلِ
من لى بيوم من الماضى يعاودنى
فقد غدوتُ من الأيام فى وجَلِ
سُقيا لعهد مضى ما عشت أذكره
كنا به نقطع الأيام فى جــذل
فالطير يرســل من ألحانه عجباً
فوق الغصون التى تهتز كالثمل
والبدر فى أفقه يزهو لرؤيتنا
وقد كسونا هوانا أطهر الحُلل
مرّت علينا الليالى لا ظــلام بها
فالشك بين الهوى والقلب لم يحُل
وهكذا ظلّنا دوحــة عصــفت
بها الرياح فأودتْ بأمّ الأمــل

●●●

راحتْ تسائل عن بعــد فرقتنا
أما كفى القلب تعذيباً فلا تسَل
لا توجهيــه بعطف ليس يدركه
مثل الشراب بلا رىٍّ ولا بلل
دعيــه فى شكه يتلو شــعائره
دعيــه يستعرض الماضى بمعزل
حيث القرار بنفس ليس يؤنسها
إلفٌ تضلّتْ بليل الهمّ فى السبُل
يا من على عشقى فى العيش يعــذلنى
لا تعــذلنّ مهيضاً غــير منتقل
يودُّ لو طــار لا يثنيه مُعترض
لولا الجناح وما يلقى من الشلل

إن الزمان الذى ما انفك يرهقنى
ألقى بستر على الغــايات منسدل
كم ليــلة بت فى أحضــانها أرقاً
والناس حولى نيام الروح والمقل
(أنشدتُ شعرى وأذن الليل صاغية
حتى مللت فراح الليل ينشد لى)
وراح يأســو بقلــبى ما ألمّ به
لجرحه اليوم دام غــير مندمل
صرح الأمــانى دكّ اليوم باذخه
فرحتُ فى لوعة أبكى على الطلل

●●●

نمتُ لى بغيبوبة لا صحو يقطعها
تودى بعقلى إلى أن ينقضى أجلى
فاليوم أســأل نفسى عن كآبتها
فلا تجيب، فأعفيها من الجــدل
يا ذكرياتى تعالىْ لى على عجــل
أو إن أردت فوافينى على مهل
عودى فؤادى فأحيى ميت الأمل
أو عاوديه فيحيى كامن العلل

●●●

محمد علي يونس

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | الإدارة | محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٩٩ الاثنين ٤ من رمضان سنة ١٣٦٩ — ١٩ من يونيه سنة ١٩٥٠ السنة الثانية عشرة

البترول والشرق العربى

للأستاذ أحمد طه السنوسى

... الشرق العربى مورد هام من موارد البترول ، وأهميته الكبرى ترجع إلى حد بعيد إلى هذا البترول الذى أضحى محور الحياة الاقتصادية ، وبالتالى ترتبت عليه الحياة السياسية والاجتماعية . وإلى البترول يرجع السر فى تكالب المصالح الغربية على الشرق العربى ، كما يرجع السر فى تنافس تلك المصالح الدولية وتسابقها إلى حيازة قصب السبق فى منابع ذلك الفيض البترولى الذى تقوم عليه الحضارة السلمية ، كما تقوم عليه الحضارة الحربية ..

ومن مناطقه الهامة فى هذا الشرق مناطق الخليج العربى (الفارسى سابقاً) ، وهى الكويت والبحرين ، كما يوجد فى العراق ومملكة آل سعود ومشيخة قطر وغيرها ، ومنذ شهور اكتشف فى (شَبْوَه) فى جنوب الجزيرة العربية ، وكان لهذا الاكتشاف أهمية بالغة فى محور الحياة الاقتصادية فى هذا الجنوب ، إذ اهتمت له حكومات حضرموت وعدن واليمن بالغ الاهتمام ، وانتهى الأمر بتولى شركة أمريكية أمر بترول شبوه الذى ينتظر أن يدر على جنوب الجزيرة كثيراً من الخيرات والبركات ...

والملحوظ أن منابع البترول تظهر فى الشرق العربى فى المناطق الجرداء ، فيضيف ذلك مورداً هاماً وأهمية بالغة للحياة فى هذا الشرق ؛ إذ أن أكثر البلاد التى يوجد فى أرضها فقيرة من الناحية الزراعية أو تكاد ، وهذا المورد يشجع فيها العمل ويعمل فيها على إصلاح أحوالها الاقتصادية ورفع مستواها الأدبى والاجتماعى .

... ومنذ زمن بحث الجيولوجيون الأوربيون أرض البحرين ، ثم يئسوا بعد أن استيقنوا من خلو صحاريها وأراضيها الرملية من النفط . وقد تسلمت إنجلترا منهم هذا القرار الهام واعتقدت معهم ألا سبيل لوجود البترول فى جزر البحرين ؛ فلما أراد بعض العمليين أن يلفتوا نظر بريطانيا إلى أن تلك الأراضى العربية البحرينية يوجد بها كنز عظيم من البترول ، إذا قام البحث والتنقيب على نطاق واسع ، لم يجدوا أذناً صاغية ؛ لأن بريطانيا كانت قد صدقت ما جاء به الجيولوجيون من خلو البحرين من البترول ، فلم تعر هذه الأقوال اتباعاً ؛ بيد أن (الميجر فرانك هومز) أعد عدته وقام يواصل أبحاثه وتنقيباته فى جزر البحرين بعد أن رحل إليها يحدوه الأمل فى الثروة والكنز المأمول ، وقد لاقى فرانك صعوبات كثيرة فلم يحقق مشروعاته التى كان يحلم بها ، لولا أنه دوّن كل ما وصل إليه من أبحاث وتقارير ، وآب إلى لندرة واتجه صوب

الجيولوجيين بطرق أبوابهم ليؤكد لهم وجود النفط في تلك البلاد العربية، ولكن جهوده ذهبت مع الرياح تتناقلها من فضاء إلى فضاء...

وسخت بريطانيا في منح الامتيازات لأمريكا التي قام منها (المستر إدروموالون) وصدق ما ذهب إليه فرانك، ثم تحول الامتياز من شركة المستر إدروموالون إلى شركة (ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا)، ولاقت الشركة كثيراً من النجاح في الحصول على البترول وتتالت عليها الأرباح من كل جانب، فلفت هذا نظر بريطانيا فأسقط في يدها وتحسرت واتهمت نفسها بالتبذير، حيث رأت أنها كانت سخية في منح الامتيازات للشركات الأمريكية طبقاً لتسليمها بما ذهب إليه الجيولوجيون، وتبين لها حينئذ خطأ زعمهم! أما فرانك هومز، فلم يخرج من المعترك خاسراً، بل قد امتلأت حقيبته أيضاً بما برق في عينيه وبما قضى الأعوام يحلم ويرسم الخطط والأخيلة المتباينة من أجله وفي سبيله..

ولقد قامت في البحرين معامل كبيرة لتكرير البترول، ولضخامتها وعظم شأنها مد خط بترولي من المملكة العربية السعودية إليها للتكرير، وقد استطاعت أن تقوم بتكرير ما يربو على ثلاثين ألف برميل من النفط في اليوم الواحد..

والكويت من أهم مصادر البترول في الشرق العربي، ويهتم بها الإنجليز من هذه الناحية كثيراً، كما يهتمون بالبحرين وغيرها، وأعظم منطقة له فيها هي منطقة (البرقان)، وتعتبر أعظم بقعة لإنتاج البترول في جميع أنحاء المعمورة، وكانت اكتشافاتها في عام ١٩٣٨، وفي مؤتنف صيف ١٩٤٦ أنشئ خط أنابيب منها، كما تم مركز للتحميل والشحن في (المحجيل)، وعملت تسهيلات شتى للتخزين في (الأحمدي)، وقد أخذ معمل التكرير في المحجيل على عاتقه تموين الكويت بالبنزين والكيروسين وما إلى ذلك... والمحجيل ميناء الشحن البترولي في الكويت الذي يأخذ من خزانات النفط في البرقان، أما الأحمدي فهي المدينة الرئيسية للبترول في الكويت العربية.

وإنتاج الكويت من البترول يربو على أربعين ألف برميل في اليوم الواحد، وينتظر كما حقق الخبراء أن يصل إلى مائة وعشرين ألف برميل يومياً، ثم إلى أبعد من ذلك كما بدت للوجود آبار جديدة مع دوام البحث والتنقيب في تلك الأراضي العامرة. وكان (المستر جلبر — عضو البعثة الأمريكية الفنية) قد قدر وجود البترول في أرض الكويت في حدود خمسمائة مليون برميل. ومما يدلنا على تقدم الإنتاج البترولي فيها أنه كان في عام ١٩٤٧ ثمانين ألف طن وفي عام ١٩٤٨ (٦,١٢٩,٥٧٧) وفي العام الماضي ١٩٤٩ حوالي ١٨٣,٦٩٩,١٢ طن.

ويداعب شركة البترول اليوم أمل في العثور على البترول على أعماق متباينة، مما يزيد من أملنا في الحصول على كميات عظيمة واكتشافات جديدة وربح وافر. على أن (شركة دارسي) بانجلترا لها نصف حقوق امتيازات شركة الزيت الكويتية، كما توجد أيضاً شركة مباحث الخليج الأمريكية.

... ويقترح صديقنا الكويتي الأستاذ الشاب عبد العزيز حسين على المسئولين في الكويت إنشاء معهد للبترول هنالك، دعاه إلى ذلك استغناء شركة البترول في الكويت عن العمال الكويتيين بالرغم من الاهتمام بالعمال الأجانب، حتى من غير الأمريكان والإنجليز أصحاب الامتياز، وبالرغم من الزيادة المطردة والتقدم الباهر في إنتاج البترول، كما دعاه إلى ذلك حاجة شركة بترول الكويت وشركة أمينويل (شركة المنطقة المحايدة) إلى المحلفين والفنيين من الكويتيين! تضيف إلى ذلك رغبة جامحة في فتح باب نافع جديد لأبناء الكويت وفي العمل على رفع شأن الكويتيين ومركزهم في شركات البترول التي تحتكر بترول بلادهم، وتمرينهم على العمل والإدارة لمورد هام من موارد الحياة الاقتصادية في أراضيهم. ويقول: إنه (يمكن أن يكون مركز هذا المعهد في الأحمدي، وذلك بالقرب من عمليات البترول المتعلقة — حفر واستخراج ونقل وتكرير وشحن وإدارة وتنظيم العمل — فيتمرن الطلبة عملياً ونظرياً بالقرب من مراكز الإنتاج، ولا بد من الدروس النظرية كاللغة الإنجليزية والآلة الكاتبة وبعض معلومات نظرية عن البترول وشركاته والإدارة وغيرها).

... ويداعب اليوم جنوب الجزيرة العربية أمل كبير في أن يكون مورد البترول في شبوه سبيلا لازدهار حضرموت وما جاورها من البلاد العربية، وخاصة بعد ازدهار ميناء

المكلا تبعاً لإنتاج شبوه ، وشبوه هذه في حضرموت بلد فقير ، وهي تقع على خط عرض خمس عشرة ونصف درجة وعلى خط طول سبع وأربعين درجة ، ويذهب المستر هارولد إنجرامس (Harold Ingrams) في كتابه عن (Arabia and the isles) أن شبوه لها أهمية محلية خاصة بمنجم الفحم الذي فيها ، كما يذهب إلى أن شبام قد بذت أهميتها أهمية شبوه ، نظراً لركود الحياة في هذه الأخيرة ، وأهمية شبوه كانت تتوقف إلى حد بعيد على أهمية التوزيع التجاري ، ولكن هذه الأهمية فقدت حينما انتقل مركز التوزيع التجاري إلى طريق البحر . على أننا نجد أن شبوه قد خلت من الحركة التجارية تماما في هذه الأيام الحاضرة . ويذهب المستر إنجرامس إلى أن السبب في رحال الأهالي من شبوه إلى غيرها من البلدان كشبام هو الرمال القاذفة ثم لتدهور الحركة الاقتصادية فيها . على أن تاريخ شبوه تاريخ كبير إذا ما علمنا أنها تقع في شرق (مأرب) وفيها سد مأرب العجيب الذي يدور حوله محور تاريخ كبير ، كما يدور حول البلد الذي قام بين ظهرانيه . أما من جهة الطرق البرية ، فقد كان لشبوه شهرة كبيرة بسبب طريق القوافل فيها ، وهو ذلك الذي ذكرته الس فريا ستارك Miss Freya Stark (الآن السيدة فريا ستارك) في بعض كتبها الضخمة عن حضرموت التي نالت بها الشهرة الكبرى لدى البريطانيين ولدى أبناء جنوب الجزيرة من العرب وغيرهم ؛ فإذا ما علمنا كل هذا وعلمنا أيضاً أن البلدان والمدن والقرى التي تحف بشبوه في جنوب شبه الجزيرة فقيرة في أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والأدبية ، أدركنا أن شبوه وبترولها ستكون له الأهمية الكبرى واليد الطولى في تحويل جزء كبير من هذا الجنوب إلى جنة زاهرة ورفعه إلى مرتبة عظيمة والعمل على إشراكه ومساهمته في المدنية الحديثة واقتباسه منها ما ينهض به وما يرفع من شأنه ..

وقد حصلت شركة شل منذ ما يربو على عشرة أعوام على امتياز البحث والتنقيب في حضرموت ، وقد استطاع المنقبون أن يكشفوا بعض آثار البترول في المنطقة الشرقية التي تقع بين حدود حضرموت القعيطية وبين بلاد المهرة .

وإنما أستطيع الآن أن أقرن مسألة البترول وأهميته في شبوه وبالتالي في جنوب شبه الجزيرة ، بمسألة الأبحاث الأثرية وثروتها ومسألة التاريخ وأهميته ؛ ذلك أن شبوه بلد به آثار ثمينة ونادرة ، كل منها يحتاج إلى درس وتنقيب واهتمام ، ولكن إلى اليوم نراها مهملة لا ينظر إليها ، وذلك كشكل المناطق الحضرمية في جنوب الجزيرة ؛ فهناك مناطق كثيرة غنية بآثارها المدفونة من عهد الحميريين والسبئيين وغيرهم ، كشف بعض المستشرقين قليلا جداً منها ، والكثير منها باق على حاله إلى اليوم لا ينظر إليه ، بسبب الخرافات المحلية والإبهام الذي خطته يد الأيام على بقاعها ، وبسبب عدم وجود التشجيع والشجاعة التي تكفل التقدم في هذا المضمار . ومما لا ريب فيه أن ازدهار شبوه ببترولها سيكون له كل الأثر في تطلع الأنظار إليها وإلى آثارها وآثار ما جاورها من البلدان ، فضلا عن أن ذلك سيكون له أبعد الأثر في مركز (المكلا) العاصمة الحضرمية وفي رفعها إلى ذروة المواني العظيمة ، مما يؤثر بالتالي في حياة الحضارمة وأبناء الجنوب العربي .

... أما البترول في (قطر) ، فهو يوجد في مكان يدعى (دخان) ، ويقال إن نسبة النفط فيه هي ٤٠٪ ، وهي نسبة عالية بالطبع إذا قسناها بغيرها من النسب العربية . ولا شك أن تقدم إنتاج مشيخة قطر من البترول والعمل على تنميته وتعديله مما يبعث على الأمل برفع هذه المشيخة العربية إلى مقام مرتفع من النضج المدني والنضج الاقتصادي والاجتماعي فيها ، وخاصة إذا علمنا أن شركة البترول قد عملت على إنشاء ميناء كبير فيما يدعى ميناء (أم سعيد) ، وقد بدأ فعلاً التصدير من هذا الميناء الجديد في خواتيم العام الماضي عام ١٩٤٩ من مركز البترول في (دخان) . ونحن لو تمعنا في هذه المشيخة ألفيناها أنها بلد صحراوي جاف معظمه من النفود . أما قراها فيعيش سكانها على بعض الحرف الساذجة كالتجارة وصيد الأسماك وتربية الجمال . أما وقد ارتقى إنتاج الزيت فيها فإن السكان أقدموا على العمل والنشاط بعد ذلك الخمول ، وفتح أمامهم مجال واسع للتقدم والاشتغال . وأما امتياز البترول في قطر ، فقد حظيت به شركة البترول الإنجلو الإيرانية المتحدة من شيخ قطر السابق الشيخ عبد الله .

والآن نرى أن الاهتمام البالغ بالشرق الأوسط والشرق العربي قد ازداد تبعاً للبترول ذلك الذهب الأسود ، وأن

إلى أي الدول اتجه محمد علي

عند النقل عن الغرب

للدكتور جمال الدين الشيال

بينا في حديثنا السابق أن محمد علي اتجه إلى أوربا والأوربيين عند القيام بإصلاحاته المختلفة ، وسنحاول اليوم في حديثنا هذا أن نبين إلى أي دول أوربا اتجه محمد علي وبأيها استعان ، لما لذلك من أثر واضح سيصبغ ثقافة مصر بصبغة خاصة طول القرن التاسع عشر :

كانت دول أوربا صاحبة الصدارة في العصور الوسطى المتأخرة ومطلع العصر الحديث ، هي : انجلترا وفرنسا وجمهوريات إيطاليا :

أما انجلترا فلم تفكر يوماً — حتى أواخر القرن الثامن عشر — في أن تكون لها بمصر علاقة ما ، وخاصة من الناحية السياسية ، وذلك إذا استثنينا الدور الذي لعبه الملك « ريتشارد » (قلب الأسد) في الحروب الصليبية ، وما كان بينه وبين سلطان مصر وقتذاك صلاح الدين الأيوبي وأخيه الملك العادل أبي بكر من علاقات صداقة كانت توحي بها روح العصر والمثل العليا لنظام الفروسية السائد في تلك الأيام ، وما كان يتمتع به كل من صلاح الدين و« ريكاردوس » من صفات البطولة الصادقة .

وبانتهاء تلك الحملة الصليبية انقطعت العلاقات بين مصر وانجلترا ، حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر سمعنا عن مساع كثيرة يبذلها الانجليز في مصر للعودة إلى استعمال الطريق البري القديم عبر مصر والبحر الأحمر للوصول إلى الهند ، لما يمتاز به هذا الطريق من قصر وسرعة التناسب ومبشرات الرغبة في هذه السرعة التي ستكون أهم مميزات القرن التاسع عشر ، وخاصة بعد الانقلاب الصناعي .

وأحست فرنسا في نفس الوقت أهمية مصر من هذه الناحية ، وبدأت المنافسات الجدية مع مولد القرن التاسع عشر بين هاتين الدولتين لامتلاك مصر ، وظهرت أروع صور هذه المنافسة في النضال الذي انتهى بإخراج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١ ، وتلكأت الجنود الانجليزية في مصر بعد خروج الفرنسيين حتى اضطرت إلى الجلاء بعد قليل ، ثم عاودت محاولتها مرة أخرى سنة ١٨٠٧ فمنيت هذه المحاولة بالخيبة .

فهل نستطيع أن نقول إن محمد علي يتجه في محاولاته للإصلاح إلى انجلترا ، أو أن يستعين بالانجليز ولم يكن في مصر منهم جاليات كبيرة ؟؟.

خريطة توزيع هذا الذهب في العالم قد اختلفت وقامت فيها خطوط رئيسية هامة لم تكن مرسومة على صفحتها قبل الحرب ، مما يدعو إلى القول بأن البترول قد صار محققاً ، بل حقيقة واقعة أنه مصدر كبير من مصادر الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في بلدان العالم العربي ، مما يضطرني إلى التنبيه إلى أهميته وتحويل الأنظار كبيرها وصغيرها إليه واتخاذه سلاحاً رهيباً هاماً من الأسلحة السياسية ، فضلا عن أنه السلاح الحاد في عالم الاقتصاد .

... إن العالم العربي اليوم وهو قابع في شرنقه في أمس الحاجة إلى كل سلاح ! إن كان قديماً جدده وقوى بنيانه ، وإن كان جديداً تعهده بالرعاية والتشييد ! إن كان ماديا انتبه إليه وقوى دعائمه ، وإن كان معنويا مهد سبيله وبعث بواعثه ، ليتعاون القديم والحديث من الأسلحة من رمح ومدفع وسهم وذرة ، وليتلاءم المادي مع المعنوي من ثروة وروح وإنتاج وشعور ، في سبيل إعادة بناء سياسي عظيم يوجه سياسة الشرق العربي إلى سبيل الرشاد والسداد والصواب .

أحمد طه السنوسي

فإذا تركنا انجلترا إلى فرنسا لاحظنا أن محمد على قد اشترك فى المعارك التى انتهت بإخراجهم من مصر ، وقد خلصت له مصر بعد عهدهم مباشرة ، فهو يحس تماماً ما تركوا فى مصر من آثار ، ولكن لعله كان لا يزال يتخوف منهم ؛ ثم إن عدد الجالية الفرنسية فى مصر قد نقص نقصاً كبيراً بعد خروج الحملة . فلم يكن من الطبيعى أن يتجه محمد على أول ما يتجه إلى فرنسا ، وإن كان سيتجه إليها بعد قليل لعوامل أخرى .

انحرف محمد على عن الاتجاه إلى هاتين الدولتين والاستعانة برجالهما أول الأمر — رغم ما كان لهما من زعامة على دول الغرب وقتذاك — واتجه أول ما اتجه إلى إيطاليا والإيطاليين ، ولذلك أسباب :

فقد ظلت العلاقات التجارية بين مصر وجمهوريات إيطاليا متينة وثيقة طول العصور الوسطى ، وكان للإيطاليين حتى أوائل عهد محمد على جاليات كثيرة العدد فى ثغور مصر والشام ، كما كانت اللغة الإيطالية هى اللغة الأجنبية الأكثر شيوعاً وتداولاً ، بل لقد كانت لغة المخاطبات الرسمية حتى بين القنصليات غير الإيطالية ، وكان هؤلاء الإيطاليون يعرفون العربية ، كما كان عامة الأهالى فى الثغور المصرية — وخاصة الاسكندرية — يتكلمون الإيطالية .

فلما انتهت مذبحة القلعة ، وأصبح أولاد المماليك وغلمانهم ملكاً لمحمد على ، بدأ الخطوة الأولى لإصلاح الجيش ، فأنشأ لهؤلاء الغلمان مدرسة فى القلعة على نمط مدارس المماليك القديمة ، غير أنه كان يدرس فيها إلى جانب الفنون الحربية اللغات العربية والتركية والإيطالية ؛ فاللغة الإيطالية هى أول لغة أوربية تقرر تدريسها فى مدارس محمد على ، وستكون للغة الإيطالية مكانتها فى المدارس التى تنشأ بعد ذلك فى مصر محمد على ، فقد تقرر تدريسها فى مدرستى بولاق وقصر العينى ، ثم فى مدرسة المهندسخانة ببولاق وفى بعض المدارس الحربية فى سنيها الأولى .

وعندما فكر محمد على فى إرسال البعوث إلى أوربا كانت أولى بعثاته فى سنة ١٨٠٩ وثانيتها فى سنة ١٨١٣ إلى مدن إيطاليا المختلفة : ليفورنو وميلانو وفلورنسا وروما ، وذلك لدراسة فن سبك الحروف والطباعة ، وبعض الفنون العسكرية وبناء السفن ونظم الحكم .

« ومن إيطاليا استدعى محمد على المعلمين للمدارس والضباط للجيش ، واشترى آلات الطباعة والكتب التى دفعها إلى المترجمين لينقلوها إلى التركية أو العربية » .

وقد ذكر كلوت بك فى تقريره عن الطب فى مصر الذى قدمه فى ديسمبر سنة ١٨٣٧ للدكتور بورنج — مبعوث الحكومة الانجليزية فى مصر — أنه بدأ عمله فى مصر والإدارة الصحية يشرف عليها — فى معظمها — الإيطاليون ، ثم ذكر فى إحصائية صغيرة أن مائة وخمسة من الأطباء والصيادلة فى الجيش والمستشفيات العسكرية كانوا من الإيطاليين ، واثنين وثلاثين من الفرنسيين ، وستة من الانجليز ، وخمسة من الألمان ، وأربعة من البولنديين ، واثنين من الأسبان .

وعندما استقدم محمد على بعثة حربية من فرنسا للاشتراك فى تنظيم جيشه كتب الجنرال بوايه (Boyer) رئيس هذه البعثة إلى صديقه المسيو جومار — عضو المجمع العلمى الفرنسى والمشرف على بعثات محمد على إلى فرنسا فيما بعد — يقول : « وجدت أن إدارة الشئون كلها فى مصر فى أيدى الإيطاليين ، واللغة الفرنسية فى المحل الثانى ، ولا يعلمون فى المدارس الحربية سوى اللغة الإيطالية ، ولا يترجمون سوى الكتب البسيطة التى وضعها مؤلفون من ذلك الشعب ، ومدرسو الرياضيات واللغات والعلوم والفنون وغيرها كلهم إيطاليون ، وفى كل عام يرحل إلى أوربا ثلاثون أو أربعون شاباً ليتعلموا علومها وفنونها ، وإلى (بيزة) يتجهون حتى فى دراسة الفنون الحربية ، ويظهر الوالى دهشته من هذا التفوق الإيطالى ، وإنهم ليثبون فى ذهنه المخاوف من ناحية الفرنسيين (المخادعين) . أما من ناحية الإيطاليين فلا يجب أن يخشى شيئاً ... » .

ومن الفقرة الأخيرة من هذا الاقتباس نعلم مبلغ المرارة التى كان يحسها الفرنسيون من تفوق الإيطاليين ولغتهم فى حكومة محمد على وفى إدارته وجيشه ومدارسه ؛ ولهذا نلاحظ أن الفرنسيين سيبذلون كل الجهود للقضاء على هذا النفوذ لكى تكون لهم وللغتهم الصدارة بين الأجانب واللغات الأجنبية فى مصر . وقد ساعدهم على ذلك أن الطوائف

الأولى من الإيطاليين لم تكن من العنصر الممتاز ، بل كان معظمهم من ذلك الخليط من الأطباء الذين وصفهم (ادوار جوان) بأنهم كانوا من « أفاق اليونان والطليان » وذلك في الوقت الذي ترك فيه الفرنسيون القلائل الذين التحقوا بخدمة محمد علي ، وخاصة (الكولونل سيف) و (كلوت بك) ، أطيب الأثر وأجله .

كذلك قد يرجع بعض الفضل إلى أن فرنسا كانت تسعى — برجالها وعلمائها وضباطها — إلى مصر وإلى محمد علي سعياً ، فقد كانت تعتبره منقذاً ومتمماً لما بدأه علماء الحملة من أبحاث ، ولما بدأته الحملة نفسها من إصلاحات .

وأخيراً لقد كان لمركز فرنسا الدولي الممتاز حينذاك — كدولة من دول البحر الأبيض المتوسط — أثر كبير في إشاحة محمد علي وجهه عن إيطاليا والإيطاليين ، واتجاهه في سياسته الإصلاحية نحو فرنسا والفرنسيين .

نجحت فرنسا في حلبة هذه المنافسة ، وألغيت اللغة الإيطالية شيئاً فشيئاً من المدارس المصرية ، واستغنى عن الضباط والمدرسين الإيطاليين ، واستعيض عنهم بضباط ومدرسين فرنسيين ، وعدل عن ترجمة الكتب الإيطالية ، فأصبحت الترجمة عن الكتب الفرنسية ، وألغيت البعوث الإيطالية ، فغدت ترسل — في معظمها — إلى فرنسا ؛ وفي كلمة واحدة لقد تحولت مصر عن النقل عن الثقافة الإيطالية إلى النقل عن الثقافة الفرنسية ، وسيكون لهذا أثره الملحوظ ؛ فستظل مصر طول القرن التاسع عشر مصطبغة بالصبغة الفرنسية في شتى نواحيها التفكيرية ؛ غير أنه لزام علينا أن نشير في ختام الكلام عن هذا الموضوع إلى أن محمد علي لم يكن أسيراً لحب فرنسا والثقافة الفرنسية وحدها ، بل كان يحب دائماً أن يستعين برجال كل دولة امتازت في ناحية من نواحي العلم والعرفان ، فكانت من بعثاته بعثات أرسلت للنمسا وانجلترا ، كما كان يدير بعض مدارسه ويعلم فيها أفراد من الإسبانيين والانجليز وغيرهم .

دكتور

جمال الدين الشيال

الفكاهة فى الأدب العربى

— ١ —

للدكتور شوقي ضيف

كلمة الفكاهة — برغم تداولها — من الكلمات التى يصعب تعريفها ، ومن الممكن أن نقول إنها الحالة العقلية التى تجعل صاحبها يثير الضحك والسرور . وقد كثرت الفكاهة فى الآداب العالمية كلها ، وأصبحت تحتل اليوم مكاناً رفيعاً وسط الفنون الأدبية ، بل الفنون العامة ، فاستخدمها الرسامون فى تصويرهم الكاريكاتورى ، واستخدمها السياسيون والصحفيون فى نكتهم التى لا تنفد ، وامتد ذلك إلى صحافتنا الحديثة ، حتى خصصت لها بعض المجلات الهزلية .

ومن يرجع إلى الأدب العربى يجده زاخراً بصنوف الفكاهة وألوانها المختلفة ، فكتبه العامة تعرض علينا دائماً دعابات ومُلَحاً ونوادر ونكتاً . وإذا كانت الصحافة الحديثة قد خصصت بعض مجلاتها بالفكاهة ، فكذلك خصصت بعض كتب الأدب العربى بها ، وامتلأت بلُعَبها ومضحكاتها . فالفكاهة عند العرب فرع مهم من فروع أدبهم ، وقد بدأ هذا الفرع فى الخروج من الشجرة الكبيرة لهذا الأدب منذ أن تكامل المجتمع العربى وأخذ شكل المدينة ، أى منذ أن مصّر العرب الأمصار ووجدت الجماعة العربية بالمعنى الكامل .

وطبيعى أن لا تكون فكاهة فى الأدب الجاهلى إلا فكاهة قليلة باهتة ، لأن حياة البدو حياة فردية ، والفكاهة تحتاج دائماً جماعة حتى يوجد المضحك والضاحكون ، فالرجل الذى يعيش وحده أو فى شبه انعزال لا يستطيع أن يكون فكهاً . واستمع إلى نكتة بين جماعة يجلسون بالقرب منك ، فإنها لا تضحكك كما أضحكتهم ، لأنك لست من الجماعة ، ولو كنت منهم لأغرقت فى الضحك مثلهم ، فالفكاهة لا تتم ، ولا تصبح فناً بالمعنى الصحيح إلا فى إطار الجماعة ومجتمع المدينة بنوع خاص .

وأول فنان اشتهر بالفكاهة فى عصور العرب الأولى « أشعب » مضحك أهل المدينة ، وكانت له قدرة على إضحاك الناس بإشاراته وحركاته وبكلامه وعباراته ، فيروى أن فكاهياً جديداً نبت فى المدينة يسمى الغاضرى ، وعلم أشعب أن الناس يعجبون بنوادره ، فراقبه ، حتى عرف أنه فى أحد مجالسهم ، فصار إليه ، ثم قال له : بلغنى أنك تحوت نحوى ، وشغلت عنى من كان يألفنى ، فإن كنت مثلى فافعل كما أفعل ، ثم غضن وجهه ، وعرضه وشنّجه ، حتى صار عرضه أكثر من طوله ، وصار فى هيئة لم يعرفه أحد بها ، ثم أرسل وجهه ، وقال له : افعل هكذا ، وطول وجهه ، حتى كاد ذقنه يجوز صدره ، ثم نزع ثيابه وتحادب ، فصار فى ظهره حدبة كسنام البعير ، وصار طوله مقدار شبر أو أكثر ، ثم قام فتطاول وتمدد ، حتى صار أطول ما يكون من الرجال ، فضحك الناس حتى أغمى عليهم . ومن حقهم أن يضحكوا ويغرقوا فى الضحك ، فأمامهم أشعب يتحول إلى ما يشبه الآلة الطاوعة بما يعطى عرضه وما يعطى طوله ، وما يدخل على وجهه من غضون ، ثم هذا التحادب الذى يتصلب جسمه فيه ، والذى يجعل الناس يظنون أن الحدب شىء يمكن صنعه ، أو تقليده . وإن كل تقليد على هذا النحو لقبيح فى الإنسان ليستخرج منا الضحك ، إذ يجعلنا فى شبه ذهول نفقد فيه منطقنا القديم للشخص دون وعى أو شعور . وأى فارق الآن بين أشعب والصور الكاريكاتورية التى تضحكنا بما ترى فيها من تشوه واعوجاج فى الخلق ؟ !

ولم يكن أشعب يضحك أهل المدينة بإشاراته وحركاته وتجسداته الكاريكاتورية فحسب ، بل كان يضحكهم أيضاً بعباراته ونكته التى أحصت كتب الأدب العربى منها طرفاً ؛ فمن ذلك أن عائشة بنت عثمان بن عفان مولاته دفعته فى أول حياته إلى البزازين وهم تجار الأقمشة ، ليحسن صنعتهم ،

فمكث عندهم حولا ، فسأله بعد الحول عما تعلم ، فقال لها : تعلمت نصف العمل وبقي النصف ، قالت : وما تعلمت ؟ فقال : تعلمت النشر وبقي الطي . وقال له جماعة : ألا تحفظ أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تتحدث بها ؟ فقال : أنا أعلم الناس بالحديث . فقالوا : حدثنا ، فقال : حدثني عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال خلتان لا تجتمعان في مؤمن إلا دخل الجنة ، ثم سكت ، فقالوا له : هات ما الخلتان ؟ قال : نسي عكرمة إحداهما ، ونسيت أنا الأخرى . وقيل له : ويلك يا أشعب ! أبوك صاحب لحية كبيرة وأنت صاحب لحية قصيرة ، فإلى من خرجت تشبه ؟ قال : إلى أمي . ودعا حلاقاً يحلق له لحيته فقال له : ألقم شدقيك حتى أتمكن منك ، فقال له : أأمرتك أن تحلق لحيتي أو تعلق الزمر ؟

وهكذا كان أشعب يطرف أهل المدينة بنكته ونوادره ، فهو أراجوزهم ، بل هو أراجوز الأدب العربي الأول الذي كان أهل المدينة يحركون خيوطه حسب رغباتهم . وكان قلما يعقد مجلس من مجالسهم إلا ويحضره أشعب ، وكذلك قلما تصنع مائدة إلا ويدعى إليها ليفكه المدعوين . ويروى أنه أكل يوما على مائدة نوعاً من الحلوى فسأله رب الدار : كيف تجده ؟ فقال : أنا بريء من الله ورسوله إن لم يكن عمل قبل أن يوحي الله عز وجل إلى النحل ، أي ليس فيه من الحلاوة شيء . ويروى أن بعض ولاة المدينة وكان بخيلا قدم على مائدته يوماً جدياً ، فلم يمسه أحد ، إلا أشعب ، فإنه تعرض له من بينهم ، وسرعان ما تساءل الوالي : أليس لأهل السجن إمام يصلي بهم ؟ قالوا : لا . قال : فليصل بهم أشعب . فقال أشعب : أو غير ذلك أصلح الله الأمير ؟ قال : وما هو ؟ قال : أحلف أن لا آكل لحم جدي أبداً .

ولم يكن يتولى المدينة وال إلا ويطلب أشعب ، فهو اللعبة اللطيفة التي يروح بها الوالي عن نفسه . وارتفع اسمه إلى الوليد بن يزيد الخليفة الأموي ، فطلبه ، وحمل إليه ، فلما حضر عنده كان يلبسه لبسة قرد لها ذنب ، وكانت تشد في رجليه أجراس وفي عنقه جلاجل . ولم يزل في ندماء الوليد وخاصته حتى قتل . وعلى هذا النحو كان أشعب يحترف الضحك والإضحاك في عصره بحركاته وصوره الكاريكاتورية ، وبنوادره ونكته ودعاباته ، وبملابسه وأزيائه وما يمثل من قرود وغير قرود ، فهو أراجوز كامل يقدر على إثارة الضحك بكل الصور المختلفة من وجهه وجسمه ولسانه .

وقد أخذت تخلفه في العصور التالية جماعات من المضحكين ، واشتهر منهم من طلبه الخلفاء والوزراء ونادموهم ، ومنهم من كان يسقط حتى يصبح سخرية ، أو كما يقال مسخرة ، ومنهم من كان يظل متماسكا له شخصيته ، مهما تظرف وتملح . ومن أشهر هؤلاء أبو دلامة نديم السفاح والمنصور والمهدي . ويروى الرواة أن السفاح قال له : اسأل . قال : كلباً ، فقال له : ويلك ! ما تصنع بالكلب ؟ قال : أصيد به ، قال : فلك كلب ، قال : ودابة ، فقال السفاح : ودابة ، قال : وغلاما يركب الدابة ويصيد ، فقال السفاح : وغلام ، قال : وجارية ، قال : وجارية ، فقال : يا أمير المؤمنين كلب وغلام وجارية ودابة ، هؤلاء عيال ولا بد من دار ، قال : ودار ، قال : ولا بد لهؤلاء من غلة ضيعة ، قال : أقطعناك مائة فدان عامرة ومائة فدان غامرة ، قال : وأي شيء الغامرة ؟ قال : غير الزارعة ، فقال : أنا أقطعك خمسمائة فدان غامرة من فيافي بني أسد ، قال : قد جعلنا لك المائتين عامرتين كلها ، ثم قال : أبقي لك شيء ؟ قال : نعم أقبل يديك ، قال : أما هذه فدعها ، قال : ما منعت عيالي شيئاً أهون فقداً علي منه . وفي هذه القصة ما يدل على مدى حيلة أبي دلامة وتأدبه في السؤال وما كان يطبع به من ميل للفكاهة . ويروى له نوادر مع الخيزران زوجة المهدي لا نستطيع أن نقصها لطولها . ويقال إنه دخل على أم سلمة زوجة السفاح بعد وفاته فعزاها فيه ، وبكى وبكت معه ، فقالت أم سلمة : لم أر أحداً أصيب به غيري وغيرك يا أبا دلامة ، فقال : ولسنا سواء يرحمك الله ، لك منه ولد ، وما ولدت أنا منه . فضحكت ، ولم تكن منذ مات السفاح ضحكت إلا ذلك الوقت ، وقالت له : لو حدثت الشيطان لأضحكته .

ومن هؤلاء الندماء المضحكين أبو العيناء نديم المتوكل وغيره من خلفاء القرن الثالث للهجرة ، وكان من ظرفاء العالم ، آية في الذكاء واللسن وسرعة الجواب ، وله نوادر وطرف كثيرة ، وهي كلها تدخل في باب الأجوبة المسكتة ، وكان في أول أمره بصيراً ، ثم فقد بصره . ومما يروى عنه أنه قيل له : فلان يضحك منك ، فقال : «إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون» . وقال له شخص : يا فاسق ، فقال : «وضرب لنا مثلا ونسي خلقه» . وسئل عن مالك بن طوق ،

مـــــدام دى ستال

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

جاءت مدام دى ستال فى فجر الحركة الرومانتيكية الفرنسية . وإذا أخذنا بالتقسيم الذى وضعه مؤرخو الأدب الفرنسى فيما يتعلق بالحركات الرومانتيكية فإنها توضع فى أولى هذه الحركات . وإذا عرفنا ما كانت تقتضيه هذه الفترة المبكرة فى حياة الأدب الرومانتيكى من العمل والتأليف قلنا إنها أنسب الشخصيات لتلك الأونة وأليقها بذلك العهد .

فالحركة الرومانتيكية مقسمة إلى ثلاث فترات : أولاها هى تلك التى ظهرت فيها مدام دى ستال (١٧٦٦ — ١٨١٧) ، والثانية هى التى تزعمها فكتور هوجو من عام ١٨٢٠ حتى ١٨٣٠ ، والثالثة تنتهى عقب ذلك فى سنة ١٨٥٠ تقريباً . أما عن الفترة الثانية ، فقد حاول شعراؤها ، وعلى رأسهم هوجو ، أن يجددوا فى أساليب المسرح ، وأن يعمقوا فى طبيعة الشعر ، وأن يضعوا للنثر أصولاً ويحددوه باتجاهات خاصة . وفى الفترة الثالثة تجدد المحتوى العام فى المؤلفات الأدبية ، وقامت فلسفة للحركة الرومانتيكية ، وتوطدت دعائم المجتمع فى نفسية الأديب . فإذا عدنا نتأمل الفترة الأولى ، أعنى تلك الفترة التى ظهرت فيها مدام دى ستال ، فإننا سنجدها من أغرب الفترات فى تاريخ الحركات الانتقالية ، وسنتعرف فيها على الخصائص التى لا تستدعى ظهور الأدباء الأصلاء بقدر ما تستلزم وجود الداعين والمحركين الاجتماعيين .

ونحن نعلم أنه فى زمن مقارب لتلك الفترة أو قبيل انتهاء القرن الثامن عشر على وجه التحديد ، هب لسنج فى ألمانيا وانهال بالتجريح والنقد على مذاهب الفن والشعر والتصوير

أحد معاصريه ، فقال : لو كان فى بنى إسرائيل حين نزلت آية البقرة ما ذبحوا غيره . وتخاصم مع هاشمى ، فقال له : تخاصمنى وقد أمرت أن تقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ؟ فقال : ولكنى أقول وعلى آل محمد الطيبين الطاهرين ، فتخرج أنت . وقيل له : ما تقول فى ابن مكرم وابن رستم ؟ قال : هما الخمر والميسر إثمهما أكبر من نفعهما . ومر يوماً على دار عدو له . فقال : ما خبر أبى محمد ؟ فقالوا : كما تحب ، قال : فما لى لا أسمع الصياح والعويل ؟ ! ووقف عليه شخص فلما أحس بعقال : من هذا ؟ قال : رجل من بنى آدم ، قال : مرحباً بك ، أطال الله بقاءك ، لقد كنت أظن أن هذا النسل قد انقرض .

وتتقدم بعد أبى العيناء ، فنلتقى بابن الجصاص ، نديم وزراء الخليفة المقتدر فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، ويقال إنه كون ثروة كبيرة من نوادره وفكاهاته ، وكان يعمد فيها إلى التباله وإظهار الحمق والغباء ؛ فمن ذلك أن عالماً كبيراً من علماء بغداد ماتت أمه ، فذهب إليه الكبراء والرؤساء يعزونه ، وبينما هم عنده والجو كله خشوع وصمت ، إذا ابن الجصاص يدخل ضاحكا وهو يقول : الحمد لله ، لقد سرنى والله ، فدهش العالم ومن حضروا عنده ، فقالوا له : كيف سرك ما غمه وغمنا ؟ فقال : ويحكم ! بلغنى أنه هو الذى مات ، فلما صح عندى أنها هى التى ماتت سرنى ذلك . فضحك الناس جميعاً . ومن نوادره أنه كان يأكل لوزاً يوماً فطارت لوزة فقال : لا إله إلا الله ، كل شئ يهرب من الموت حتى البهائم . وأعجب بفرخ فى يد غلام له فقال : أنظروا إلى هذا الفرخ ما أشبهه بأمه ! ثم سأل الغلام هل أمه ذكر أو أنثى ؟ ودخل على مريض فشكا المريض إليه وجعاً فى كتفه ، فقال : والله ما أتألم من وجع كتفى ، وضرب بيديه على ركبتيه .

وهكذا كان هؤلاء المضحكون يطرفون الناس بمثل هذه النوادر التى تروى عنهم ، وكان الواحد منهم لا يلم بمجلس من مجالس الخلفاء والوزراء حتى يصبح أراجوزاً ، وكأنما شدت فيه أسلاك وخيوط ، فلا يهز هذه الخيوط والأسلاك أحد حتى تنهال عليه الفكاهات . وما زال هؤلاء المضحكون والمندرون يقومون بهذه الوظيفة حتى شاعت لعبة الأراجوز فانتقلت إلى مسارحها هذه الشخوص المضحكة .

شوقى ضيف

والكتابة المسرحية حتى اقتلعها من جذورها وجعلها كالريشة في مهب الرياح ، على الرغم مما قوبل به من كراهية بالغة ومحاربة شديدة وإنكار شنيع . وفي انجلترا عرفت الآداب هازلت وتأثرت به بتحفظ شديد ، ولكن هذا التحفظ لا يجعلنا نغفل أثره الكبير في الآداب الإنجليزية عند بدء القرن التاسع عشر . واتجاهه في مقاومة التراث الفني التقليدي يظهر لنا بوضوح واختصار في مقاله المشهور عن الأسلوب الأليف ، حيث يصارح الكتاب بأن عجزهم هو الذي يجعلهم يمشون في ركاب المتقدمين ، وأنهم يحتمون في الألفاظ من أجل التهرب من المعاني التي تفضح جهلهم وتكشف عن عجزهم .

أما في فرنسا فقد امتاز الفن التقليدي برونق وجمال ، وحلاوة وطلاوة ، وبأصالة واكتمال جعل من الصعب على المجددين أن يشقوا طريقهم ويؤثروا في بيئتهم مثلما فعل أندادهم في كل من ألمانيا وانجلترا . بل إن مميزات الفن التقليدي تعدت حينذاك حدود بلادهم إلى ما يجاورها ، ولم يقتصر ضغطها على الأدب الفرنسي وحده . فانتشار الأدب الرومانتيكي في فرنسا لم يكن بنفس السهولة والسرعة التي صادفها في ألمانيا وانجلترا بسبب القوة والنفوذ الواسع الذي كان يتمتع به الأدب القديم في فرنسا بالذات . ولكن السياسة لم تهملهم كثيراً ، وانبعث من جوف الثورة الفرنسية والروح العامة ما أعان الأدباء الرومانتيكيين على البزوغ ، وما مهد لآدابهم سبل التغلب والانتصار . ومن هنا ذهب الفيلسوف الإنجليزي المعاصر برتراند رسل في كتابه عن تاريخ الفلسفة الغربية إلى أن السياسة كانت أصلاً للأنماط الرومانتيكية التي ظهرت هناك ، وأنها لعبت الدور الأول في تأييد شعرائها .

وفي هذا الجو عملت مدام دي ستال . فنبهت أولاً إلى أن الحاجة إلى تغيير المشارب والأذواق أكبر من الحاجة إلى تقديم عمل فني ممتلئ بالعناصر الجديدة ومحشو بالخصائص المستحدثة . واستطاعت أن تدرك حقيقة المشكلة التي يعانيها الشعر ، فلم تأل جهداً من أجل توجيه الأنظار إلى مهمة الشاعر الأصيلة تبعاً للتغيرات التي حصلت من حوله في المجرى اليومي للحياة . ليس هذا كل ما في الأمر ؛ وإنما أمكنها من ناحية أخرى أن تفهم خطورة التأثير الأجنبي على الأدب المحلي وأن تعرف أوجه الاستفادة من آداب الألمان ؛ فإذا كان روسو هو صاحب الفضل الأول في توجيه الفرنسيين نحو آداب الإنجليز فمدام دي ستال هي صاحبة الفضل الأول في توجيه الفرنسيين نحو أدب الألمان .

نشأت في جو من الغنط والحديث ، وتربت في صالونات الأدب على قوم من الأعلام الذين كانوا يترددون بانتظام على بيت أبيها . فتعلمت الكلام والجدل أكثر مما تعلمت أي شيء آخر ، ولم تستحوذ على القدرة الكتابية التي تؤهلها للارتفاع عن درجة البسطاء من محترفي الأدب . وهي تشيد عادة بهذه الملكة — ملكة التحدث إلى الناس — وتعتبرها من ضرورات الروح ، وتلتفت إليها دائماً في الشخصيات التي كتبت عنها . بل لقد كانت القدرة على الكلام غالبة على كل قواها الأخرى ، إلى درجة أفسدت عليها الانتفاع بأشياء كثيرة وأدهشت الذين اتصلوا بها من كبار الكتاب . مثال ذلك ما حدث عند ما التقت بجوته . ويحكى أنها ذهبت إلى ألمانيا فجالست مرة الفيلسوف فخته وسألته أن يعطيها لمحة عن مذهبه في (الأنا) بصورة موجزة . فأخذ الرجل في الكلام بلغة فرنسية متهالكة ؛ ولم يكد يمضي من الوقت عشر دقائق حتى فاجأته بقولها : « هذا يكفيني يا سيدي ، لقد فهمت . لقد ارتسم مذهبك في عقلي . إنه نوع من إسقاط الذات ... » وهنا بهت الرجل وحملق في المخلوقة التي لا تستطيع أن تنسى أنها من باريس .

ولكن الحركة الرومانتيكية كانت أحوج إلى هذه المخلوقة من أي إنسان سواها ، وكان يلزمها الكثير من هذه الطباع والأخلاق . فلابد دائماً في بدء النهضات الفنية أن تصاحب العوامل الاجتماعية والعناصر الحيوية عمل الأديب ، وتزامله في اتجاهه ، حتى لا يكون هناك تردد أو تأخر عند بعض الطوائف . إن الشعر يتأثر بالارتقاء العلمي والصناعي والتجاري ولا يقتصر على مجالات الروح من ناحية المجاورة والاتفاق . ومن هنا آمنت مدام دي ستال بأن التقدم الملحوظ في ميدان العلم الخالص كفيل بإحداث تغيير جوهري في طبيعة الفن الشعري . والمظاهر الروحية من أي نوع إنما تخضع في تكوينها وتطورها للعوامل المادية .

ومما لا شك فيه أن الخيال يتعرض في هذه الأثناء لمضاعفات كثيرة وأنه يخسر ما من شأنه أن ينضم إلى الجانب العقلى في الحياة . بيد أن الشعر ليس خيالاً فحسب ، وإنما هو مزاج من العقل والنفس والحساسية والأخلاق كما جاء على لسانها في مقدمة الطبعة الثانية من كتابها عن الأدب .

فمن هذا كله نرى أن مدام دى ستال كانت أول من واجه العاصفة بين الرومانتيكيين ، وأنها نقطة الفصل بين تاريخين أو بين عهدين من العهود الأدبية . وكان من الضرورى بالتالى أن تناقش مسألة القديم والجديد . وفهمها لهذه النقطة من أدق وأخطر ما ظهر في تاريخ الأدب العالمى ، وليس في تاريخ الأدب الفرنسى وحده . هذا مع أنها هى نفسها لم تكن جديدة في أعمالها الفنية إلى الحد الذى تصور أن تكون عليه زعيمة لنهضة من النهضات . وحينما تعرضت للشعر القديم وصفته بأنه شعر ممتاز حقاً من ناحية معينة ، وهى تلك الناحية الخاصة بالوصف الحى للأشياء الخارجية . أما الشعر الحديث فقد برز من الجانب الحركى في الروح الباطنة ، ومن الوجه الناطق للعقلية الكامنة . وتمخضت دراساتها الخاصة ومباحثها في الآداب الألمانية ونصوصها الشعرية عن رأى خاص بها في فن الشعر نحن أحوج ما نكون إليه في هذه الفترة من حياتنا الأدبية حيث زاغت أمام عيوننا الحقائق وبارت في أيدينا المقاييس . قالت : إن الشعر الحق لا يكون عادة في النظم مهما كانت درجة اتساقه ، ومهما بلغت الروعة في نسجه ، ومهما عظم الكمال في تركيبه . إذ ليس الشعر غير حالة داخلية في القلب ، وهذه الحالة قد تقبل أن تمثل في كلام وأن تصاغ في عبارة وقد لا تقبل ، ويمكن ترجمتها في قالب شعرى أو في أسلوب منثور ، وقد يبلغ النثر في التعبير عنها مرتبة لا يتوصل إليها القريض .

والشعر عندها تقديس للشعور أو تبجيل للعاطفة . وكيما يتوصل الإنسان إلى الحالة الشعرية عليه أن يطير في الأجواء الأثيرية بواسطة الأحلام ، ناسياً ضجيج الأرض ومنصتاً لانسجام السماء ، وناظراً إلى الكون بأكمله على أنه رمز لانفعالات الروح . والموضوع الأبدى في تفكير الشاعر هو مشكلة المصير الإنسانى ، ومن ثم فقد كان من طبيعة الشعر أن يعطى طابع الزمانية لتلك اللحظة الرفيعة التى يرتفع فيها البشر فوق الآلام والملذات في الحياة . فالتجربة الشعرية إذاً حالة من حالات الابتهاج خصوصاً ؛ وإذا اتسمت العبقرية الشعرية بشىء فإنما تتسم بالطابع الروحى والشرب الوجدانى . وتكون الشعر عامة من استخلاص العاطفة السجينة في قرار النفس البشرية ، وترجمة الشاعر الحية العميقة ترجمة طبيعية لا تكلف فيها .

وكانت تؤمن فضلاً عن ذلك بأن الشعر لا يحسن بالبراعة في نظمه والجودة في تأليفه بقدر ما يعلو على حساب الروح المشَعْرَنة في أطنابه ، والحساسية المرهفة بين أنغامه . ولذلك اعتمدت في أبحاثها النقدى بأن المكانة الأولى في نظم الشعر للخيال . وكان عملها ذلك رد فعل مباشر لحالة الشعر في الزمن السابق عليها وللخطة التى انتهجها بوالو Boileau في كتابه عن فن الشعر حيث خلط بين الشعر كعمل أدبى والشعر كنظم لغوى . وقد دفعها منطق الفكرة التى سعت من أجل توطيدها في النقد إلى أن تعلن شيئاً ذا خطر ، وهو تفضيلها للشعر الغنائى على كافة أنواع الشعر الأخرى . وانتهى الأمر بها إلى حد الاعتقاد بأن هذا الضرب وحده هو الذى يمكن أن يتسمى بالشعر .

والحركة النقدية التى تذكر بها مدام دى ستال في تاريخ الأدب الفرنسى هى حركة من طراز فريد ، ومن نوع خاص يلائم البيئة التى نشأت فيها والظروف التى كانت تحيط بها والآراء السائدة في ذلك الوقت . وهى بالإضافة إلى هذا حركة واعية تقوم على أساس من فهمها للشعر ، ولا تكاد تنفصل عن إدراكها لحقيقة الفن الأدبى . وقد جرها إلى هذا الموقف رأيها في أن الشعر فن لا يقف عند حد ، ولا ينتهى إلى وضع ، ولا يبقى على حال ، وإنما هو فن متأثر بالأحوال الخاصة والأجواء المحيطة ، وينبع من صميم البناء الحيوى في الأفراد . ومن هنا تقول إن الشعر من عمل الناس في بيئة معينة وفى عصور معينة . وإذا كان الأمر كذلك ، فهو متقلب متغير ، محكوم عليه بالتحول والتطور ، خاضع لسنن الحياة في الاختلاف الذى ينشأ عن سير الزمن ونمو الحياة . وشأن الشعر في هذا بطبيعة الحال

شأن كل الظواهر الحيوية وشأن الفنون الأخرى فى المجالات المتباينة .

ولما كان الأمر فى اعتقادها على هذا النحو ، فقد آمنت بعد هذا بأن النقد الأدبى هو الآخر لا يكون خاضعاً للقواعد التقليدية والأصول النظرية الموضوعة . فالنقد قائم على أساس العمل الأدبى ، والعمل الأدبى غير ثابت على حال أو راكد عند مرحلة . فلا بد إذاً من أن يتأثر النقد أيضاً بالمحيط المتجدد بتجدد الأيام والثقافات والأذواق . النقد خاضع لما يصيب الشعر ، والشعر متغير بتغير الأحوال والمقامات ؛ فالنقد هو الآخر لا يمكن أن يكون جامداً إلى الأبد . إن الشعر فى رأيها كما ذكرنا يعتمد كلية على الأخلاق العامة والسياسة القائمة والروح الشائعة . وكذلك يقوم النقد على كل هذه العوامل والعناصر الفعالة فى ضمير الهيئة الاجتماعية .

وهذا طبيعى جداً من ناحيتها إزاء الأغلال التى تبدى لها فى النقد الأدبى حيال أعمال الأقدمين . لقد كبلوا أنفاس العمل الأدبى بمجموعة من الأصول والأحكام القديمة ، وضغطوا على روح الشعر بالأطر التقليدية الضيقة . فلم تشأ مدام دى ستال أن تترك النقد الأدبى فى تلك الصورة من الهبوط والتخلف ، وأرادت أن تنقذه من مهاوى التأخر والتفكك . إذ كانت موقنة بأن ترقية الأداة الناقدة سيؤدى بدوره إلى إنعاش الفكرة العامة للأدب وإصلاح الخطوط الوضعية للأعمال الشعرية . بل ذهبت إلى أبعد من هذا ، فزعمت أن أى حركة تقدمية فى العمل الأدبى لا تستند إلى حركة مماثلة لها فى الجانب النقدى الخالص ، من شأنها غالباً أن تضيع بين صرخات الدعاة المغرضين . وأفادها الذكاء فى اتجاهها هذا بحيث استطاعت أن تدرك ما ينبغى لها وسط هذه التيارات المتزاحمة . عرفت أنه من الضرورى بالنسبة إليها أن تبدأ من الواقع وألا تكتفى بكونها من أصحاب النظريات . فبدأت تشتق أصولها النقدية من الأعمال الأدبية ، وجعلت تتحسس الجمال فى مواطن الإبداع من دواوين الشعر بغير ارتكان إلى قاعدة معروفة وبغير احتكام إلى شىء آخر سوى الذوق والإحساس البريئين . ولم تكن تأبه — فى خطتها هذه — لما يظهر من التفاوت بين فهمها العمل الأدبى وفهم الأقدمين له .

ولكننى فى النهاية لا أستطيع أن أنكر شيئاً ذا بال فى هذا المقام ، وهو أنه إذا كان لمدام دى ستال أى أثر فى المجال الأدبى فقد رجع ذلك إلى شخصيتها أكثر مما رجع إلى آرائها ، وكان نجاحها من أثرها فى الكلام أروع من نجاحها عن طريق القلم والبيان . لقد كانت مثال الداعية الممتازة فى الحركات التجديدية . فإذا عرفنا أن الأدب ككل شىء يحتاج إلى الفهم والتجاوب وعرفت أن الفهم والتجاوب لا يحصلان بغير الترديد المتصل والتذكير الدائم تبينت من خطورة هذه المرأة فى تلك الفترة من فترات الأدب الفرنسى . كانت آراؤها جديدة وغريبة فى آن معاً ، فلا بد من الدعاية القوية بالنسبة إليها حتى تثبت آراؤها فى الأذهان وحتى تستسيغ مشارب الناس أقوالها ومزاعمها .

ولم يكن يمكن أن يحل محل هذه المرأة إنسان آخر . فإذا كانت اليوم مطموسة الأثر ، غير بادية القيمة ، فذلك لأن خطورتها فى مجال الحديث والمشافهة أبرز من خطورتها فى مجالات التسطير والتحبير . كانت تبلغ فى مقدرتها الكلامية حد السحر ، وترتفع فى ملكة المحادثة إلى درجة الإعجاز .

قالت مدام دى تسى : « لو كنت ملكة لأمرت مدام دى ستال بأن تكلمنى دائماً . » وكانت تدرك قيمة هذه الموهبة فى نفسها من ناحية الأثر الشخصى الذى تحدثه عند من يجالسها ، فأفردت لها كثيراً من اهتمامها وعنايتها ، ووقفت عليها صفحات من التحليل الرائع . واستطاعت أن تستغل هذه القوة لإذاعة أفكارها النقدية وأصولها النظرية فى فنون الأدب . فاستفادت الحركة الرومانتيكية من هذه الموهبة أضعاف ما استفادته من شرحها واتجاهها الأدبى .

وكانت تجمع إلى هذه المقدرة روحاً مزدانة بالثورة والحماس وقلباً مفعماً بالمثالية والبطولة . واتصفت بنوع من الجرأة النادرة ، واستسلمت لموجة من الإيمان بالخير والحق إلى درجة كبيرة ، بحيث أمكنها أن تقف دائماً فى وجه الظالم والطامع . . . فأسبغ هذا كله على أسلوبها فى الكلام ضرباً من المثالية والجمال الذى لا يكاد يبلغ نفوس السامعين حتى يؤمنوا بما تقول ويتحمسوا له أشد الحماس .

عبد الفتاح الديدى

الشعر والفلســــــفة

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

تعصب صديقنا الأستاذ محمد عبد الغنى حسن لصناعته فرمى الفلسفة بقلة الجدوى فضلاً عن الغموض والإبهام، لأن كلام أبى الوليد فى العقل والمعقول والمعرفة والاتصال لا يحل عقدة، ولا يكشف قناعاً، ولا يروى الغليل. وقديماً قال الشاعر:

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقلـــه

وأخو الجهـــالة فى الشقاوة ينعم

ولم تصبر الفلسفة على هذا الاتهام، فرمت الشعر بالتمويه والغواية، واعتمدت على قول الله عز وجل: «والشعراء يتبعهم الغاوون» إلى آخر الآية الكريمة.

ونحن نرى أن الصناعتين من أشرف الصناعات وأكرمها، ولا موجب للنزاع بينهما، وقد عاشا دهوراً طويلة ينعمان بالصداقة الصادقة ويستظلان ظل المؤاخاة والمعايشة والمبادلة، وكل ما رأه فى هذه الدنيا من خصومات بين المذاهب، ومنازعات بين الدول، وأحقاد بين الأفراد، حتى ليندر أن تجد الخل الوفى أو تطمئن لحبيب.

وأنت تعلم أن الفلسفة صناعة يونانية، وهى لفظة يعنون بها فى لسانهم إيثار الحكمة، ثم نقلت إلى سائر اللغات. وقد جرت عادة أوائل الحكماء فى اليونان أن ينظموا حكمتهم شعراً. قيل ذلك عن طاليس أحد الحكماء السبعة وأول الفلاسفة فى بعض الروايات. قيل إنه نظم قصيدة فى الفلك والتنجيم أودعها بعض فلسفته.

هذا ما كان من حال الفلاسفة الطبيعيين؛ أما المصدر الآخر الذى غذى الفلسفة بالذوق والخيال والصوفية، فقد نبع عن أورفيوس، وكان شاعراً ومغنياً قرّب بين العقل والقلب، وجمع بين الفكر والشعور. وعنه أخذ فيثاغورس فلسفته ونزعته إلى الموسيقى وتفسير العالم بالنغم، والموسيقى هيكل الشعر، والنغم يسرى فى أعصاب الشعراء، فكأنهم حين اهتدوا إلى ضبط النغم بلغوا لب الحقيقة وعرفوا سر الوجود.

ومن الثابت أن بارمنيدس رأس المدرسة الإيلية ترك قصيدة فى الفلسفة تنقسم أقساماً ثلاثة: مقدمة، ثم الطريق إلى الحقيقة، ثم الطريق إلى الظن. ويحكى بلوتارك أنه عمد إلى الشعر كما عمد غيره من قبل، لأن أسلوب الشعر يجرى كالعربة؛ أما النثر، فإنه من السهولة بحيث لا يعبر عن الحركة. وقيل إنه أراد أن يُكسِب فلسفته تأييداً من سحر الوزن وعذوبة الألحان. وأكبر الظن أنه رأى مذهبه مستمداً من الوحى، فلا يليق بالتعبير عنه إلا الشعر، وهو يستهل القصيدة بكلام على لسان إحدى إلهات اليونان تفتح له الطريقين وتلق عليهما الضوء، طريق الحق وطريق الباطل. ثم تعلمه أنّ طريق الظن فاسد يشتغل به أفراد الناس الذين يحل عليهم الموت والفناء، ثم تنهاه عن السير فى هذا الطريق.

ويُقال إنّ أنبادوقليس من فلاسفة القرن الخامس، وصاحب مذهب العناصر الأربعة، النار والهواء والماء والأرض، ثانى فيلسوف نظم فلسفته شعراً، إذا أسقطنا من حسابنا شعر الفيثاغوريين، ونظم زينوفان. وإذا صدقنا رواية قدماء المؤرخين، فإن مجموع أشعاره تبلغ خمسة آلاف بيت، بقى منها حول ثلثمائة وخمسين.

وقد نظم أرسطو الشعر وكادت إحدى القصائد التى نظمها تودى بحياته؛ ذلك أنه بعد وفاة أفلاطون صاحب الأكاديمية هجر أرسطو المدرسة، وكان من أبرز تلاميذها، وذهب إلى هرمياس، وكان تلميذاً معه بالمدرسة، وأصبح طاغية أتارنيوس، جمع حوله حلقة من التلاميذ، وظل أرسطو معه إلى أن قتل. وسبب ذلك أن هرمياس ظل حائراً بين مقدونيا والفرس، وكان ينحاز إلى إحداها تارة وإلى الأخرى تارة ثانية، إلى أن وقع فى شرك منتور القائد المقدونى فسلمه إلى عدوه وشنقه. وأثرت هذه الخاتمة

فى قلب أرسطو ، فسجل شعوره شعراً فى لحن بعنوان « الفضيلة » جاء فيه :

أيتها الفضيلة ما أشق الحصول عليك !
أنت أثمن ما يطلبه المرء
ما أجملك أيتها العذراء الصغيرة
لقد اقتحم الإغريق الموت فى سبيلك
وتحملوا أعظم الآلام والأرزاء
إنك تملأين النفوس بثمار خالدة أغلى من الذهب
وأفضل من روابط الدم وأحلى من النوم الهادئ »

• • •

وكاد أرسطو أن يحاكم ويقتل كما حوكم سقراط من قبل بسبب هذه القصيدة ، لأن الآلهة فقط هم الذين يحظون بشرف النظم ؛ فإذا رثى أحد صديقاً بالشعر ، فهذا من قبيل الإلحاد والتطاول على الآلهة .

ولما انتقلت الفلسفة إلى المسلمين كان منهم الشعراء ، فهذا يعقوب بن إسحاق الكندى ، فيلسوف العرب ، سمع رجلاً ينشد قول ربيعة الرقى :

لو قيــل للعباس يا ابن محمــد
قل : لا ، وأنت مخلد ، ما قالهــا

فقال : ليس يجب أن يقول الإنسان فى كل شىء نعم ، وكان الوجه أن يستثنى . ثم قال :

هجرت فى القول لا إلا لمارضــة
تكون أولى بلا فى اللفظ من نعم

وعقب المرحوم مصطفى عبد الرازق باشا على ذلك بقوله : « وهذه الشواهد تعرب عن منهج الكندى فى النقد الأدبى ، وهو مذهب فلسفى يقوم على العناية بسلامة المعنى من الوجهة المنطقية واستقامته فى نظر العقل » .

وللكندى شعر آخر ، ولكن رأيى فيه أنه لم يكن أديباً من الطراز الذى يعتد به ، وقد ذهبت فى بحث لى نشرته منذ بضع سنين إلى أن فساد عبارته وغموضها مما دعا إلى إغفاله ، فلم يشتهر شهرة الفارابى مثلا .

أما أبو نصر الفارابى ، فهو المعلم الثانى ، من حيث إن أرسطو هو المعلم الأول . وقد سمى أرسطو المعلم الأول لأنه وضع المنطق ، وسمى الفارابى المعلم الثانى لأنه وضع علم الموسيقى أو التعاليم الصوتية . فلا غرابة أن يكون الفارابى صاحب ذوق مرهف الحس حسن العبارة . روى ابن أبى أصيبعة له شعراً ، أو بعض قطع من الشعر تدل على رقة الطبع منها :

لما رأيت الزمان نكسـا وليس فى الصحبة انتفــاع
كل رئيــس به مــلال وكل رأس به صــداع
لزمت بيتى وصنت عرضاً به من العزة اقتنــاع
أشرب مما اقتنيت راحاً لهــا على راحتى شعاع

ويبدو أن الفارابى كان يميل إلى العزلة والانفراد ، جاء فى سيرته أنه « لم يكن معتنياً بهيئة ولا منزل ولا مكتسب . ويذكر أنه كان يتغذى بماء قلوب الحملان مع الخمر الريحانى فقط ، ويرى الانفراد على شرب الخمر ولا يحب المنادمة عليها . . . »

ومن شعر له فى هذا المعنى :

بزجاجتين قطعت عمرى وعليهما عــولت أمرى
فزجاجــة ملئت بحبــر وزجاجــة ملئت بخمر
فبــذى أدون حكمتى وبذى أزيل هموم صدرى

ويبدو أنه ندم على ارتكاب الإثم فطلب من الله المغفرة فى شعر فلسفى منه :

يا علة الأشياء جمعاً والذى كانت به عن فيضه المتفجر
إنى دعوتك مستجيراً مذنباً فاغفر خطيئة مذنب ومقصر

أما أبو على بن سينا فقد أثر عنه شعر كثير ، منه قصيدته فى المنطق وهى طويلة نذكر منها :

وفطرة الإنسان غير كافيه فى أن ينال الحق كالعلانيه
ما لم يؤيد بحصول آله واقيــة الفكر عن الضلاله
وهــذه الآلة علم المنطق منه إلى جل العلوم نرتقى

وله الأرجوزة فى الطب التى مطلعها :

الطب حفظ صحة برء مرض فى بدن من سبب منه عرض

وسوف ينشرها الأستاذ كوتيز فى مطبوعات المعهد

(البقية على صفحة ٢٣)

جمال الدين الأفغانى

والإصلاح الدينى

للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

قضية الإصلاح الدينى فى الإسلام كما واجهها الأفغانى ، هى قضية اليوم يواجهها الذين أشربت عقولهم وقلوبهم آراءه وتعاليمه على قدر طاقتهم فى فهم روح العصر ؟ ويبدو أن هذه القضية فى اتساع دائرتها ستظل أيضاً قضية الغد ، حتى يبعث الله لها رجلاً ، بل رجالاً تتسع عبقريتهم للفصل فيها برأى قاطع يلائم بين وجهة الدين ووجهة المجتمع فى تطوره الدائب المستمر .

ومن الإنصاف فى البحث أن نقول إن قضية الإصلاح الدينى فى الإسلام قديمة العهد ، ترجع أصولها إلى القرن الثالث للهجرة ، إذ استمر الجدل بين علماء الكلام فى التوفيق بين تكاليف الدين وتعليل العقل ، حتى تفرقت فى ذلك الفرق وتعددت المذاهب ، وراح كل فريق يتلمس باب الإقناع برأيه والإلزام بحجته ، فوجدوا فى الفلسفة اليونانية مورداً مستساغاً ينهلون منه على هواهم ، ولعل الذى أغراهم بذلك أنهم وجدوا فى تدليل الفلسفة حرية للتأويل واللجاج لم تكن نصوص الدين تسعفهم فيها ، وقد أدى هذا الاتجاه إلى صبغ التفكير الدينى بصبغة فلسفية جدلية يتوزع الرأى فيها بين طرفى الرفض والتسليم .

وفى ناحية أخرى جلس علماء المذاهب الفقهية يحررون الأحكام ويقررون الفروع ويتحرون نصوص الدين فيما يلائم مطالب الحياة الاجتماعية ، وفيما يتواصل به الناس من شئون العيش والأخذ بمباهج الحياة ؟ ولقد وقع بينهم ما وقع من الاختلافات الشكلية فى تأويل الألفاظ وتلمس التدليل على الأحكام ، ولكنهم كانوا جميعاً يتفقون على غاية واحدة ، وهى تصفية العقائد الدينية وتهذيب العادات فى المجتمع الإسلامى ، وترويض الطباع على الملاءمة بين مطالب الدنيا وتكاليف الدين ...

وتطورت الحياة الإسلامية من الناحية التاريخية إلى أبعد مدى ، واتسعت دائرة الدولة حتى أصبحت تضم أمماً مختلفة ، وشعوباً متعددة الأجناس والأشكال ، وكل أمة لها بيئاتها وعاداتها ، وكل شعب له ثقافته وتعاليمه ، فكان هذا كله مما أثر فى الحياة الإسلامية الدينية ، جدت نزعات جامحة من الرأى ، وفكرات متحللة فى العقيدة ، وميول متطرفة فى الأخذ بمطالب الدنيا وزخارف الحياة ، وشطحات غامضة من التصوف فى فهم الصلة بين العبد وربه ، فكان هذا مما حمل بعض رجال الدين على مواجهة هذه الحال بالتشدد وفرض الأحكام والمبادئ التى لا تتعدى مدلول النصوص الواردة . وقد كان لهذا التشدد أثر عكسى ، فلم يأت القرن السادس للهجرة حتى كان التفكير الإسلامى يخضع لما يسمونه فى التعبير الحديث « بالروح المدرسية » التى تقف بالفكر فى أضيق ما يكون من الحدود ، وقد أفزعت هذه الحال كبار العلماء والمفكرين الإسلاميين ، فأخذوا يقاومونها جهدهم ، حتى الغزالى وهو العالم المتصوف الذى وقف يناضل أصحاب النظر بالعقل من الفلاسفة ، نراه فى ناحية أخرى يناضل دعاة الجمود الفكرى من علماء الدين نضالاً حاراً تتجلى فيه براعة ذلك المفكر العظيم .

وعندما انتهت الحروب الصليبية كان الإسلام قد أسلم كل شىء عنده ، وكان الفكر الإسلامى قد تاه تحت أعباء الأحداث القاصمة ، فاختفت الروح السمحة فى قبض من الوجهة اللاهوتية الجامدة ، وكان من الطبيعى أن تنفصم

العروة الوثقى بين الدين والدنيا فى الأخذ بمطالب الحياة والنهوض بأعباء الحكم والسلطان .

وكان المسلمون يحتفظون بالإسلام فى قلوبهم عقيدة لها طقوسها ومراسيمها ، ولكنها انمحت كقوة تصل المسلمين بنظم السياسة وأساليب الحكم واتجاهات الحياة الاجتماعية ، ولما تجددت الامبراطورية الإسلامية تحت لواء الخلافة العثمانية ظل هذا هو الوضع السائد ، وسرعان ما تجلت هذه الحقيقة واضحة على أثر انتهاء فورة الفتوحات واكتمال الغزو العثمانى إلى أبعد مدى وصل إليه ، إذ بدا الدين فى تقدير أكثر الناس أداة جامدة لا تساير روح العصر ، ولا تتمشى مع التيارات الجديدة التى تتصل بنواحى الحياة الاجتماعية والعقلية والفكرية والاقتصادية ، بل لقد تحولت الفكرة الإسلامية التى تستمد أصولها من الفطرة الإنسانية الصافية إلى سلسلة من الخرافات وشعوذات المتصوفة ، وأصبح علماء الدين أشبه بطائفة المراويش . كان الواحد منهم يطيل سباله ، ويوسع سرباله ، ويستغل الدين فى طلب الدنيا ، ويلفق عليه ما شاء من الغرائب والعجائب ، وينبش تلك ترهات القصاصين وأساطير الإسرائيليين ، ويحاول بهذا إشباع العواطف الخامدة والعقول الجامدة عند العامة من جهة ، وعند أهل السلطان من جهة أخرى ، ليشبع من مبذول الصدقات ووقف الخيرات . كانت هذه حال العلماء فى مصر وفى الشام وفى العراق ، على أنها كانت فى تركيا أعجب وأغرب ، فكنت ترى رؤساءهم وكبراءهم فى ردهات قصر « يلدز » يموجون فى أثوابهم الفضفاضة ويجلسون على الأرائك المصفوفة ومسابحهم بين أصابعهم يتمتمون عليها تمتمات لا تسمع ، ويظلون على هذا الساعات الطوال لا يتحركون فى مقاعدهم ، منتظرين دورهم فى المقابلة ليفضوا إلى الخليفة بتعبير رؤيا ، أو بنبوءة ، أو قراءة طالع ، أو وشاية فى شأن حاكم ، والخليفة من الضعف والتهافت بحيث يحظى بهذا كله ، حتى بلغ من سوء الحال أن سيطر رجل مثل « أبى الهدى الصيادى » على الخليفة «عبد الحميد» بشعوذات التصوف وتلفيقات الدراويش كما سيطر راسبوتين على قيصرة روسيا ، فكان هذا الرجل الأفاق هو صاحب الكلمة والصولة ، لا ينال أحد مأرباً فى الدولة إلا ببركته .

كانت هذه الحال مما أفضت إليه من عوامل الجمود والجمود ، تستدعى الفزع إلى الإصلاح ، إن لم يكن بدافع اليقظة الفكرية والغيرة الدينية ، فخضوعاً للضرورة التى تفرضها مطالب الحياة الجديدة وأساليبها ؛ وقد فكرت تركيا باعتبارها رأس الجسم الإسلامى فى ذلك الوقت فى الأخذ ببعض نواحى الإصلاح التى تلائم التطور الجديد ، فشرعت أول إصلاح تركى عام ١٨٣٩ م ، ولكن هذا الإصلاح لم يستمد أسسه من طبيعة الإسلام ومبادئه ، بل قام على المبادىء الفرنسية والاتجاهات الأوربية ، التى كانت تشير بها الدبلوماسية السياسية فى الخارج ، ويتنافس السفراء الأجانب لدى بلاط الخلافة فى فرضها على التقاليد الإسلامية ، وكان من الطبيعى أن يخفق هذا النظام ، لأنه لم يتصل بالروح الإسلامية ، ولم يلائم مشرب المسلمين وعواطفهم الكامنة فى نفوسهم ، وهكذا كان شأن كل إصلاح حاولته السلطات التركية والدوائر الرسمية فيما بعد .

أما فى الناحية الأخرى ، ناحية الجهود الفردية للمخلصين من رجال الدين ، فقد كان الأمر أجدى وأعود بالخير والنفع ، ويمكن أن تعتبر أول نقطة فى السعى إلى إدراك الإصلاح الصحيح ، وبث الروح الإسلامية القوية بأمجادها وأعلامها وسماحتها فى تقبل أوضاع الحياة ومجاراة التطور فى تلك الخطة التى رسمها — فى دائرة ضيقة محدودة — العلامة ابن تيمية ، إذ أخذ هذا العبقرى العظيم يحارب البدع والخرافات ويناضل الحشويين والفضوليين ، ويرد الإسلام إلى أصوله الصحيحة ونصوصه الصريحة ، وفطرته السمحة ، حتى حكم عليه أهل عصره بالكفر ورموه بالزندقة ، واتهموه بالمروق ، وألفوا فى ذلك الكتب والرسائل . ولكن الرجل كان قد بذر بذوراً قوية فى بعض النفوس الصالحة ، فنمت وأثمرت ، وكانت دعوة محمد بن عبد الوهاب فى نجد ثمرة من هذه الثمرات ، وكانت دعوة هدفها الرجوع بالإسلام إلى طبيعته الأولى ، والعمل على أن يخرج هذا الدين ببساطته من الجزيرة العربية لقيادة العالم مرة أخرى ، كما خرج إلى ذلك من قبل ، ومضى الوهابيون فى تنفيذ خطتهم عملياً ، وحشدوا لها جهودهم ، ورفعوا فى سبيلها السيف ، ولكن السيف لم يكن إلا سلاحاً ضعيفاً تافهاً أمام المدفع ، فما هى إلا جولة فى الميدان حتى طويت تلك الحركة أمام الجيش المصرى الذى أرسله محمد

على محاربة الوهابيين تحقيقاً لرغبة السلطة ..

وكان أن فتح على الإسلام باب جهنم ، ونعنى به باب الاستعمار الأوربى الذى أخذ يتنمر لافتراس تركيا تركيا ومواجهة الإسلام فى عقر داره ، ولم تكن المسألة مسألة القوة حسب ، ولكنها كانت أكبر من هذا وأخطر ، إذ حلت أوربا تهجم على الشرق بثقافاتها وتقاليدها ودياناتها ، وفاض على العالم الإسلامى فيض المبشرين والمستشرقين والدبلوماسيين وغيرهم من طلائع الاستعمار ، وكل غايتهم تحطيم الروح الإسلامية بكل ما يملكون من مال وفير وأساليب جديدة فى التفكير والدعاية والوصول إلى الهدف ؛ وكان هؤلاء الدعاة أحد ثلاثة : مبشر دينى متعصب يريد أن يقتلع الإسلام من أصوله ليزرع مكانه ديناً آخر ، أو صاحب غرض سياسى يهدف إلى غرضه على حساب الدين والثقافة الإسلامية ، أو ملحد أوربى يقاوم الإسلام كما يقاوم غيره من الأديان ، وهو يطمع أن يجد فى هذا العالم المتهوك تربة صالحة لتقبل مبادئه ومباذله ، كل هذا والعالم الإسلامى غارق فى الجهل ، تقتله الخرافات والأوهام ، وتستبد به مظالم الحكام ، وتتلاعب به شهوات الولاة وأصحاب المآرب المتهمة ؛ فآلت هذه الحال بالإسلام إلى أحرج ما يكون من المواقف ، وأضيق ما يمكن من الحدود . ولعل الإسلام لم يواجه فى تاريخه فترة أقسى من تلك الفترة الأليمة ، ولعل هذا الدين لم تشوه معالمه وتمسخ تعاليمه ، وتلفق عليه الأكاذيب والجهالات ، مثل ما ألصق به فى تلك الآونة المظلمة ، وما لحق به من جراء تلك الحال المنكرة ...

كان دعاة الخارج يتهمون هذا الدين بأنه أداة جامدة لا تقبل التطور ، ولا تساير أوضاع الحياة الجديدة ، ولا تصل الإنسان بمطالب الدنيا ، ولا تستسيغ حرية الفكر ، ولا تحتمل طبيعته أساليب البحث العلمى واتجاهات النظر القلق ؛ ويزعمون أنه ليس فى روحه ومنزعه إلا دعوة إلى التعصب والإصرار على الجمود ، والاستسلام للقضاء والقدر ، وكانت أبرع حجة لهم على ذلك ما يتناولون به من حال المسلمين الراهنة ، وما يتناولونه فى شئونهم الجارية ، حتى جازت دعاواهم على الكثيرين من الذين أخذوا بحظ من التعليم المدنى ، ولم يكن لهم أدنى حظ من التعليم الدينى ، وكثيراً ما وجدت هذه الدعاوى المغرضة من يدعو لها ، ويبشر بها ، من المأجورين أو المخدوعين من المسلمين أنفسهم .

هذه القوة الهاجمة من الخارج ، كان يقابلها ضعف متخاذل فى الداخل ؛ فعلماء الدين الذين يتولون القوامة عليه ، وينصبون أنفسهم دعاة له ، لا يعيون شيئاً مما يجرى حولهم ، ولا يفقهون الخطر الكامن فى هذا الهجوم الموجه إلى دينهم ، بل لقد كانوا فى جمودهم وجهلهم هذا حجة للمهاجمين ؛ فكلما مد الغرب على الشرق مده ، وكلما تدفقت روافد الحضارة الأوربية والمدنية الحديثة فى أقطار العالم الإسلامى ، أمعن هؤلاء القوامون فى الانطواء على أنفسهم ، وفى الجمود بالدين على الرسوم الكلامية والمماحكات اللفظية الفارغة حتى وقفوا بالإسلام بين جدران المساجد وحصروا مظهره فى السبال الطويل ، والسربال الفضفاض ؛ فكان الإسلام فى هذه الحال أحوج ما يكون إلى مصلح عظيم يبعثه بعثاً جديداً ، فيرده على أهله قوة تصلهم بأرقى ما فى الحياة من النظم الاجتماعية ، وتمكن لهم فى الأرض كما مكنت لهم من قبل ، وتطهر قلوبهم وعقولهم مما علق بها من أوضار الخرافات والترهات ، وآصار الشفاعات والتلفيقات ... كان الإسلام أحوج ما يكون إلى رجل يواجه قضية الإصلاح الدينى على هذا الوضع الذى انتهت إليه ، وتعقدت به ، وارتطمت فيه ، فكان ذلك الرجل هو جمال الدين الأفغانى .

(للكلام صلة) محمد فهمى عبد اللطيف

شركة تضامن

تكونت شركة تضامن بين عبد المتعال أحمد ونور مصطفى باسم شركة أحذية عبد المتعال لصناعة الأحذية وبيعها بالقطاعى ، ومقرها ٨ شارع البطل أحمد عبد العزيز برأس مال ٤٠٠ جنيه مصرى مناصفة ، والإدارة للأول بمقتضى عقد محرر بتاريخ أول مايو سنة ١٩٥٠ لمدة خمس سنوات ، وسجل ملخصه بمحكمة مصر الابتدائية تحت رقم ٥٢٠ سنة ١٩٥٠ فى ٧ / ٥ / ١٩٥٠ .

كيف

الأغذية الواقيـــــة

الأغذية لابد أن تعمر بها مائدة طعامك إذا كان لآلتك الجسمانية أن تسير وفق المرام .

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

كل منا يأكل ليعيش ، وإن من الطعام لأصنافاً وألواناً لا يحدها العد ولا يحصيها الحصر . ولكل لون من هذه الألوان فائدة للجسم . فالأرز والبطاطس والفواكه والزبدة والسكريات والكريمة والجلاس من الأطعمة التي تهبك الطاقة ، فهي تساعدك على أن تمشي وتقوم ، وأن تتنفس وتغمض عينيك وتفتحهما ، وأن تؤدي أعمالك الجسمانية المتباينة ، كما أنها تحفظ درجة حرارة جسمك عند حد ثابت .

واللحم والبيض واللبن والجبن والفول المدمس ألوان غذائية أخرى تساعد جسمك على النمو وتجدد باستمرار ما يبلى من أنسجتك ، فهي تجبر عظامك وتضمد جروحك ..

وإلى جانب ذلك فهناك أغذية ضرورية لا بد أن تعمر بها مائدة طعامك إذا كان لآلتك الجسمانية أن تسير وفق المرام ؛ هذه هي الأغذية التي تحوي المواد المعدنية كالحديد والنحاس مثلاً ، والأغذية التي تحوي الفيتامينات ..

وحديثي اليوم مع القراء عن المواد المعدنية والفيتامينات ..

* * *

المواد المعدنية :

يحتاج جسمك إلى حوالي خمسة عشر عنصراً من المواد المعدنية المختلفة إذا شئت أن ينشط ويعمل كما يجب .. ولننظر الآن بعض ما تؤديه المواد المعدنية في الجسم ...

هل تعلم وظيفة كريات الدم الحمراء في دمك ؟؟

إنها تقوم باستخلاص الأكسجين من الهواء حين يمر دمك داخل الرئتين ؛ وبغير الأكسجين في دمك لا يتأتى لطعامك أن يحترق ويهبك الطاقة ، وبغير الطاقة تحدث الوفاة .

وهكذا يتبدى لك أن عمل كريات الدم الحمراء كبير الأهمية ؛ ولكنه لا يتأتى لها تأدية هذا العمل بغير الحديد .. فالحديد إذاً لازم وضروري . ويحوي جسم الشخص الكامل النمو على جزء من عشرة من الأوقية من الحديد .

ولسبب عجيب لا يمكن للحديد في دمك أن يؤدي واجبه في غياب النحاس ، فهما متلازمان يكمل كل منهما عمل الآخر . وهناك في دمك كمية ضئيلة من النحاس ، ولكن هذه الكمية الضئيلة جد مهمة وضرورية ..

وهناك مادة معدنية أخرى يحتاجها جسمك وهي اليود . وبرغم أن الكمية التي تحتاجها منه يومياً جد ضئيلة حتى إنه من السهل وضعها على رأس دبوس إلا أنه لا بد لك منها لكي تعيش وتحيا . فهناك غدة كبيرة ومهمة في عنقك تسمى الغدة الدرقية ، لا يتأتى لها تأدية عملها بغير اليود . وحين تعجز هذه الغدة عن القيام بوظيفتها على الوجه الأكمل في الأطفال والبنات في دور النمو ، فإن نموهم يتوقف .

ومن المواد المعدنية الهامة عنصرا الكالسيوم والفسفور

لهما يدخلان في تكوين العظام والأسنان ، كما أن الكالسيوم وظيفة هامة وهي أنه يحفظ الأعصاب في حالة جيدة .

وإلى جانب هذا فهناك مواد معدنية أخرى تساعد في تنظيم نبض القلب والتئام الجروح ، وتساعد في عملية الهضم وتؤدى عديداً من أعمال الرقابة اللازمة في جسمك .

كيف تحصل على المواد المعدنية ؟؟ :

يحصل جسمك على المواد المعدنية من الأطعمة التي تتناولها . وخير الأطعمة التي تمدك بهذه المواد الفواكه والخضراوات الطازجة واللبن واللحم والبيض .

ويحتوى لحم الجاموس والكبد والجبرى والعسل الأسود والبيض والبرقوق على كثير من الحديد . واللبن من الأغذية الغنية بالكالسيوم ، وهذا هو السبب في أن الأطفال يحتاجونه في طور النمو ، ولا بد لهم منه لتكوين عظامهم وأسنانهم .

والجبن والبيض والفول والبسلة ، وكثير من الفواكه موارد جيدة للكالسيوم كما أنها تمدك أيضاً بالفسفور ... والمادة المعدنية الأخيرة موجودة بكمية كبيرة في السمك ...

أما اليود فهو يوجد بكثرة في أطعمة الماء الملح ، وفي النباتات التي تنمو إلى جوار المحيطات ، وفي ماء الشرب الذي يحصل عليه من جوار البحار والمحيطات ...

• • •

الفيتامينات :

إن الفيتامينات جد ضرورية ولازمة لتحمى الجسم ضد المرض وتجعله يعمل في نظام . ويعلم العلماء اليوم عن بعضها ما يكفي لتأليفها وصناعتها في المعمل ، وهم يعملون على تحليل البعض الآخر ومعرفة تركيبه تمهيداً لتكوينه صناعياً على نطاق واسع وثمن بخس .

ونحن لم نعلم بعد كل ما يجب معرفته عن الفيتامينات ! فما زال العلماء يدرسون هذه المواد الغذائية فائقة الأهمية ويقومون باكتشافات جديدة بين وقت وآخر ...

ولنتحدث الآن عن بعض الفيتامينات ...

فيتامين ا :

إن فيتامين ا ضروري للنمو الصحيح ، ولذا فإنه هام وبالأخص للأطفال والبالغين . وإلى جانب هذا فيتامين ا جد لازم لصحة العينين إذ يساعد في حفظها من المرض ، كما أن له أثراً بالغاً على النظر ، فإذا لم يحصل الفرد إلا على قدر ضئيل مما يلزمه منه فإنه يجد صعوبة في رؤية الأشياء في الضوء القاتم ، ويمكن للإنسان أن يخزن هذا الفيتامين في الجسم .

والآن ما هي الأغذية التي عليك أن تتناولها لتحصل على فيتامين ا .

إن من موارده الخضراوات الخضراء المورقة ، والخضراوات ذات الجذور الصفراء ، والكبد ومنتجات الألبان .

ومعظم أنواع اللحوم والحبوب والفواكه تحوى فقط كميات ضئيلة من فيتامين ا ، ولذا فليس لك أن تعتمد عليها لتحصل على هذا الفيتامين ...

مجموعة فيتامينات « ب » :

سأتحدث هنا عن ثلاثة من أفراد هذه المجموعة تسمى علمياً بالأسماء التالية : ثيامين — ريبوفلافين — نياسين .

الثيامين :

ربما لم تسمع عن شخص أصيب بمرض البرى — برى . إن هذا المرض يوجد بكثرة في البلاد الآسيوية التي يكون الأرز غذاءها الرئيسي ، وبسبب هذا المرض آلاماً عظيمة في الأرجل والأيدى ، وفي بعض الأحيان يغدو المصابون به مشلولين ، وفي أحيان أخرى يموتون .

وهذا المرض من أمراض نقص الفيتامينات . والثيامين مانع منه ...

وإلى جانب منعه لمرض البرى — برى ، فإن الثيامين يساعد في حفظ الأعصاب في حالة جيدة . وهو يساعد الجسم في عملية هضم مائيات الكربون والاستفادة منها ، كما أن له أثراً مباشراً على الشهية ، فإذا لم يحصل الإنسان على الكمية اللازمة منه ضعفت شهيته لتناول الطعام ... وهو إلى جانب ذلك جد لازم للنمو ...

ولكي تحصل على ما يكفي من الثيامين تناول الكبد والكلى والبيض والبسلة الجافة والفول الدمس والفول السوداني . والخميرة مورد رائع له ، كما أن أغلب الحبوب موارد جيدة للثيامين ، ولكن أغلبه دائماً ما يفسد حين تحضر الحبوب للاستعمال ! لحبوب القمح مثلاً غنية بالثيامين ، ولكن الدقيق الأبيض الذي يستخرج من القمح بعد طحنه ويستعمل في عمل الخبز ينقصه الكثير منه . ولكي تحصل على الفائدة الكاملة علينا أن نصنع خبزنا من طحين القمح بكل أجزائه ...

الريبوفلافين :

إن الريبوفلافين ضروري لحماية صحة الجهاز الهضمي . وحين يفتقر طعامك إليه فمن المحتمل أن يتسبب هذا في ضعفك ووجومك ، كما تفقد بشرتك جاذبيتها ، ويبدو الجلد في أركان فمك مريضاً غير صحيح ، كما لا تتاح لك مقاومة الأمراض المعدية بالقدرة التي تتوفر لك حين يحوي طعامك القدر اللازم من هذا الفيتامين ...

وألوان الطعام التي عليك أن تتناولها لتمنحك الريبوفلافين هي اللبن والبيض والكبد والكلى ولحم البقر والخضراوات الخضراء الورقة ...

النياسين :

إن النياسين هو الفيتامين المضاد لمرض البلاجرا . والقضاء على هذا المرض مشكلة وطنية ، فإن المئات بل الآلاف يموتون من هذا المرض سنوياً .

وإذا كان طعامك غنياً بمنتجات الألبان والحبوب الكاملة والخضراوات الخضراء الورقة ، فأنت تحصل على ما يكفي من النياسين ، وما دمت تحصل على الكفاية منه فمن المؤكد أنك لن تصاب بالبلاجرا ...

فيتامين « ج » :

يسمى فيتامين ج « حامض الأسكوربيك » وهو يمنع مرض الأسقربوط ؛ ذلك المرض الذي كان كثير الانتشار بين البحارة . ففي أيام السفن الشراعية كان من المستحيل غالباً الحصول على فواكه وخضراوات طازجة في الرحلات الطويلة ، وهي الأطعمة التي تعد من أحسن موارد فيتامين « ج » وبذلك كان يصاب البحارة بذلك المرض .

ولا يصيب مرض الأسقربوط اليوم حيوات عديدة ، على الأقل في وقت السلم ، لأن أغلب الأشخاص في أيامنا هذه يحصلون على بعض من « فيتامين ج » ، ولكن هذا لا يعني أن كل الأفراد يحصلون على كفايتهم منه . إن الكثير لا يتأتى لهم ذلك ، وخاصة في فصل الشتاء ، وإن الجسم لا يخزن هذا الفيتامين ، ولا بد من تناول قدر كاف منه كل يوم ...

وحين لا يحصل الفرد إلا على أقل القليل من « فيتامين ج » ، فمن المحتمل أن يغدو عصبي المزاج ، سهل الإثارة ، غير متيقظ الحواس ، وربما أحس بآلام في مفاصله ، وهو النوع من الألم الذي يعتقد الكثيرون حين يعانون منه بأنه روماتزم وما هو بذلك . وقد لا تتأتى له القدرة على مقاومة العدوى أو سرعة النقاهة .

وبسبب نقص هذا الفيتامين أمراض الشفاه والأسنان كالبيوريا .

وللحصول على الكمية اللازمة منه عليك أن تتناول البرتقال والعنب والطماطم الطازجة والكرنب والتوت . كما أن البطاطس والتفاح والموز تحوي ما يكفي الجسم من حامض الأسكوربيك ليجعلها موارد مهمة له ...

ويذوب فيتامين « ج » في الماء الساخن ، فحين يغلى الكرنب مثلاً ، فإن قدراً كبيراً من الفيتامين يذهب في ماء الطبيخ ، وتؤدي هذه الحقيقة إلى ضرورة اتباع قواعد ثلاث ...

١ — استعمل قدراً ضئيلاً من الماء حين تطبخ الخضراوات .

٢ — لا تلق الماء الذي تسلق فيه الخضر ، فإنه مورد غني بالفيتامينات .

٣ — تناول بعضاً من الفاكهة والخضراوات النيئة كل يوم لتتيقن من أنك تحصل على ما يلزمك من فيتامين « ج » .

فيتامين « د » :

إن في إمكان جسمك أن يصنع فيتامين « د » ، فضوء

الشمس بسبب صناعته فى الأجزاء الدهنية من جلدك؟ ومن أجل هذا، فإنه غالباً ما يطلق عليه ڤيتامين الشمس المشرقة. ويتسبب عن نقصه مرض الكساح. وإن طفلاً مصاباً بهذا المرض لا يمكن أن تنمو له عظام قوية مستقيمة أو أسنان سليمة جديدة ...

ويبدو أن ڤيتامين «د» يتحكم فى الطريقة التى يستخدم بها الجسم الكالسيوم والفسفور فى عمل العظام والأسنان، كما أنه أيضاً جد هام فى مساعدة الجسم على الاستفادة من كل أنواع الطعام.

وإن الزبد والبيض واللبن لهى أهم الأطعمة التى تمدنا بهذا الڤيتامين. ويحتاج الأطفال إلى جانب تناول كميات من هذه الأطعمة إلى إعطائهم باستمرار كميات من زيت السمك لتوفى بحاجات عظامهم النامية، إذ هو غنى بڤيتامين «د»، كما أنه مورد طيب لڤيتامين «ا» ...

* * *

وبعد فإن هناك ڤيتامينات أخرى غير ما ذكرت؟ ولكن الأنواع التى أخبرتك عنها هى أهمها .. إنها جد ضرورية للصحة. ويمكنك الحصول على حاجتك من هذه المواد الغذائية الضرورية بأن تتناول طعامك فى حكمة وتقضى بعض الوقت فى الشمس. ولا تشترى حبوب الڤيتامينات إلا بأمر الطبيب؟ ففى إمكانك أن تحصل على ڤيتاميناتك اللازمة بثمن أقل بتناول الأنواع والكميات الصحيحة من الطعام والمطبوخة على الوجه الأكمل ..

لقد ذكرت لك فى سياق حديثى أنه من الأنفع والأحكم استخدام أقل ما يمكن من الماء فى غلى الأطعمة، وثم طريقة أخرى لحفظ الڤيتامينات، هى منع الهواء عن الطعام بقدر الإمكان أثناء عملية الطهى ..

جمال الدين محمد موسى

الشعر والفلسفة

(بقية المنشور على صفحة ١٦)

الفرنسى. ويقال إن الصبيان من كتاتيب تونس لا يزالون يحفظونها حتى اليوم. وقد شرح هذه القصيدة كثير من الأطباء منهم ابن رشد. ونقلت إلى اللاتينية فى العصر الوسيط، وكان الصبيان يحفظونها كذلك.

وله القصيدة العينية فى النفس، وهى معروفة مشهورة:

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تدلل وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف
وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما
كرهت فراقك وهى ذات تفجع

* * *

فإذا عرجت على التصوف وهو باب من أبواب الفلسفة، أو هو طريق من طرق معرفة الحق سبحانه، والفلسفة سبيل لدرك الحقيقة، رأيت أن معظم الصوفية نظموا، بل أنشدوا وتغنوا، فوصلوا وطربوا، وتقلبت بهم الأحوال، وتذوقوا المواجيد، ورأوا آية الله فى كل موجود:

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

قال عامر بن عامر البصرى:

تجلى لى المحبوب من كل وجهة
فشاهدته فى كل معنى وصورة

وقال ابن الفارض فى تائيته:

جلت فى تجليها الوجود لناظرى
ففى كل مرئى أراهـا برؤية

فنحن نرى كما عجز المرء عن الاهتداء بنور العقل سلك سبيل البصيرة والذوق، وصاغ من حلاوة النظم والنغم ما يبعث الاطمئنان إلى القلب ويشيع السكينة فى الفؤاد، فيصبح الشعر أداة توصل إلى معرفة الحق، والفلسفة منهجاً يفضى إلى طلب الحقيقة؟

أحمد فؤاد الأهوانى

نقد الكتب



سكينة بنت الحسين

تأليف الأستاذ توفيق الفكيكي

١٣٦ صفحة — مطبعة الزهراء بالنجف — العراق سنة ١٩٥٠

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

ليس هذا الكتاب ترجمة للسيدة الطاهرة سكينة بنت الحسين ، ولا تعريفاً بها ، ولا دراسة لحياتها ؛ وإنما هو دفاع عنها ، وتبرئة لها مما اتهمت به في بعض كتب التاريخ والأدب من تعرض بعض الشعراء للغزل بها ، ومما أسند إليها من الأخبار والأحاديث مع عمر بن أبي ربيعة الشاعر وحنين بن سريج المغني ، ومما نسب إليها من حضور مجالس الغناء والتحرر فيها من كل ما لا يليق بمسلم في أي عصر فكيف بالعصر الإسلامي الأول حيث الدين متين لم يدنسه تطبع ، ولم يفسده مجتمع .

ونحن نجل أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً أن تتناولهم الأغراض ، وأن ينسب إليهم من ملفق الأحاديث ومزور الأخبار ما لا يليق ببيت رفع الله قواعده على التقوى والطهر . ونشكر الأستاذ المؤلف على توليه الدفاع عن قضية نرجو أن يكون الحق فيها بجانبه . فإنه لم يستند في الدفاع إلى العاطفة وحدها أو إلى حبه لأهل البيت ، ولكنه جعل من القضية مسألة علمية يناقشها بالدليل ويقارعها بالحجة ويناهضها بتضارب الروايات حتى يحكم على القضية كلها بالانهيار .

ولقد اتبع المؤلف في كتابه طريقة المحامين في الدفاع عن المتهمين ؛ فإن اختلاف الروايات في التحقيق الجنائي اليوم قد يكون سبباً إلى سقوط الاستدلال في الاتهام ..

وكذلك فعل صاحبنا الأستاذ الفكيكي في قضية السيدة سكينة ؛ فأثبت من اختلاف الروايات في الخبر الواحد دليلا على فساد الخبر كله ، وتبع ذلك الفساد ثبوت البراءة للمتهمة البريئة .

ولعل كتاب اليوم هو أول دفاع مطبوع قائم بذاته عن السيدة سكينة بنت الحسين ؛ فلم نقرأ في الأدب الحديث إلا إشارات إلى مجالسها الأدبية « وصالونها » الأدبي الذي يعدونه اليوم أول صالون في الإسلام . وبهذا سبقت هذه السيدة الطاهرة سيدات أوربا — وخاصة فرنسا — في الندوات التي خرجت كثيراً من الأدباء والشعراء في عصورنا الحديثة . ولم نقرأ في الأدب الحديث إلا إشارات إلى تزعم السيدة سكينة للأزياء ، وطرز اللباس . فقد كانت تصفف شعرها على هيئة طرة نسبت إليها ، فقيل « الطرة السكينية » ، كما نقول اليوم الطرة « الباريسية » ، والصفة « الأمازونية » ...

ولم نقرأ في الأدب الحديث إلا اتهاماً للسيدة سكينة بأنها كانت (في عفافها نزقة طائشة ، تؤثر الخفة على الوقار ، وتهوى أن تخلد حسنها في قصائد الشعراء) ، كما يقول الدكتور زكي مبارك في كتابه : « حب ابن أبي ربيعة وشعره » . ص ١٨١ .

ولم نقرأ في تاريخ الأدب الحديث إلا اتهاماً للسيدة

سكينة بنت الحسين بأن عمر بن أبي ربيعة شبَّب بها من قصيدة قال فيها :

أسكين ما ماء الفرات وطيبه
منا على ظمأ وحب شراب
بألذ منك وإن نأيت وقلما
ترعى النساء أمانة الغياب

كما ذكر ذلك المغفور له جورجي زيدان في ج ١ ص ٢٧٦ من كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » .

ولم نقرأ في تاريخ الأدب الحديث إلا اتهاماً للسيدة سكينة بأنها (كانت ممن تغزل فيهن عمر بن أبي ربيعة ، ومن النساء اللائي كن يطربنه ويرسلن له الرسل ويهيئن له مجلساً معهن ليحدثهن ، وليقول فيهن لاهياً متغزلاً) . كما يقول الأستاذ حسان أبو رحاب في كتابه : « الغزل عند العرب » .

ولكننا لم نقرأ دفاعاً واحداً عن هذه السيدة التي انصبت عليها التهم من كل جانب ، فرماها السابقون وقلدهم اللاحقون ...

* * *

لهذا كان ترحيبنا بهذا الكتاب الذي جاء دفاعاً عن مظلومة في نظر كثير من الذين يتعصبون لأهل البيت ويحبونهم ويرتفعون بهم عن مثار الكلام ووقع السهام . وإذا كنا نقرأ مذكرات الدفاع عن فلان وفلان ، أفما أحرانا أن نقرأ كتاباً برمته في الدفاع عن سيدة من بيت النبوة ، أبوها الحسين ، وجدها علي ، وجدتها فاطمة ، رضي الله عنهم أجمعين ؟ .

ولا أكتم المؤلف العراقي الفاضل أن كل دفاع مجيد ورأي سديد يحمل في ذاته دليل قوته ووجه حجته ، فلا يحتاج المدافع بعد ذلك إلى تيه في الكلام ، أو عنف في الخصام ، كما لا يحتاج إلى الجارح من العبارات ، أو غير المألوف في لغة الجدل من الكلمات . وما كان أغنى كتاب (السيدة سكينة) الذي نحن بصدده اليوم عن أمثال هذه الألفاظ : « الإسفاف المزري » و « الترهات المضحكة المبكية » و « الكلام المرذول الساقط » وما إليها من العبارات التي يُحرمها القضاء في ساحات المحاكم تحريماً تاماً .

وقد كانت شخصية المتهمة الجليلة في هذه القضية الخطيرة أولى بأن يصونها الدفاع في التعبير ، إن لم يكن إجلالاً للحق في قداسته ، فإجلالاً لشخص المتهم في قربه وطهارته ...

ولكني أدع هذا الجانب من الدفاع ، فالمؤلف حر في أسلوب دفاعه ، لأن الغرض الأول النبيل من تبرئ السيدة المتهمة هو عنده الهدف الذي رمى إليه . وقد يكون تحمسه الشديد للقضية قد مال به إلى طريق لا تتفق وهدوء العلماء وصبر الحلماء . ولكني أود أن أقف معه وقفة قصيرة . لا حباً في المناقشة . ولكن طمعاً في تصحيح بعض أمور لم تر من الإنصاف للحق أن نخفيها ، فإن الحق قديم كما يقول عمر بن الخطاب من رسالته في القضاء .

ذكر المؤلف في صفحة ٢٠ من كتابه أن الدكتور زكي مبارك قد فاته الصواب وخانته ذاكرته فيما كتبه عن سكينة في كتابه « حب ابن أبي ربيعة » فإنه — يعني زكي مبارك — ذكر أن القصيدة التي فيها : أسكين ما ماء الفرات وطيبه ، قالها عمر في اجتماعه بنسوة أهل المدينة ليلة الصورين . ونسب يعني — زكي مبارك — ذلك إلى صاحب الأغاني ، مع العلم بأن صاحب الأغاني لم يذكر هذا الشعر لعمر بن أبي ربيعة في ليلة الصورين ، بل ذكر له قوله :

ألم بزينب إن البين قد أفدا
قل الثواء لئن كان الرحيل غداً

هذا كلام الأستاذ توفيق الفكيكي ، وهو يفهم أن الأبيات الدالية التي منها « ألم بزينب » قيلت ليلة الصورين ، وأن الأبيات البائية التي منها « أسكين ما ماء الفرات » لم تكن ليلة الصورين ، لأن صاحب الأغاني لم يذكر ذلك .

والحق أن ليلة « الصورين » هذه قد تحيرت بين الأبيات البائية مرة ، وبين الأبيات الدالية مرة أخرى برواية صاحب الأغاني نفسه . وأن الجزء الأول من « الأغاني » الذي يستند إليه الأستاذ الفكيكي في التحقيق قد ذكر الأبيات الدالية — في رواية علي بن أبي صالح عن أبي هفان عن إسحاق عن مصعب الزبيري — منظومة في ليلة الصورين [ص ١٠٥ من الأغاني طبع دار الكتب المصرية] . كما ذكر الأبيات البائية — بسند الرواة السابقين أنفسهم !! —

منظومة فى ليلة الصورين أيضاً ..! [ص ١٦١ ، ١٦٢ من الأغانى — الطبعة نفسها] .

فالدكتور زكى مبارك على الحق — بل على الحق كله — حينما ذكر أن الأبيات البائية قيلت فى ليلة الصورين ... ولم تخنه الذاكرة . ولم يفته الصواب كما يقول الأستاذ الفكيكى . وإنما فات الأستاذ الفكيكى أن يقرأ بإحاطة كل ما يتصل بقضية السيدة الطاهرة البريئة سكينة بنت الحسين عليهما السلام .

ولعل الله أراد بهذا الفوت من الأستاذ المؤلف أن يقدم له ولنا دليلا — غير أدلته القوية — على سقوط الاتهام فى حادثة ليلة الصورين ؟ فإن رواة يتفقون على حادثة فى مكان معين كالصورين ، ثم يختلفون على ما قيل فيها من الشعر لخليقة روايتهم بالحذر فى أخذها ، وخاصة إذا عرفنا أن اسم السيدة المصونة « سكينة » قد ورد فى الأبيات البائية على روايات مختلفة ؟ ففى كتاب « أمالى القالى » الطبعة الأميرية ج ١ ص ٣١ : (أهل ماماء الفرات وطيبه) . وفى ج ٢ ص ٢٤ من طبعة دار الكتب : (أسكين ... إلخ) . وفى رواية أخرى « أسعيد ماماء الفرات ... » وسعيد هنا هى سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف .

وهذه الأبيات البائية مظلومة — كالسيدة سكينة — فى ورودها على أكثر من سيدة عربية واحدة . وإلا فما السر فى أن تكون هذه السيدة تارة « سكينة » وتارة « علية » وتارة أخرى « سعدى » .

ولقد أدرك هذا الخلط الذى هو دائماً فى مصلحة التهم جماعة من السلفيين كالمرحوم الشنقيطى فى شرحه « لأمالى الزجاج » حيث علق على رواية « سكينة » « وسكين » قائلا إن الرواية الصحيحة «سعيدة» و «سعيد» وهى تصغير سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف . وقد أخذ الشنقيطى هذا التصحيح عن الأصفهانى فى الأغانى ج ١٦ ص ١١٢ .

وبهذه المناسبة ذكر الأستاذ الفكيكى فى ص ١٨ أن أبا إسحاق الحصرى صاحب كتاب « زهر الآداب » قال بعد أن روى الأبيات البائية على رواية « سكينة » «وسكين » : (كذب من روى هذا الشعر فى سكينة عليها السلام) . وقد أحالنا المؤلف على ج ١ ص ١٠١ من كتاب زهر الآداب . والذى فى الطبعة المصرية الرحمانية لهذا الكتاب ج ١ ص ٥٨ قول الحصرى : (وفى سكينة يقول عمر بن عبدالله بن أبى ربيعة المخزومى كذبا عليها) . وفرق كبير بين هذا القول وبين ما ذكره الأستاذ الفكيكى منسوباً إلى الحصرى . فإن الأول معناه أن من يروون هذه الأبيات فى سكينة كاذبون : والثانى معناه أن الأبيات قالها عمر ، وقالها فعلاً فى السيدة سكينة ولكنه قالها فيها افتراء عليها بحب كاذب . . . وشتان بين القولين وبين النصين ... نصنا الذى أوردناه عن نسختنا المطبوعة من زهر الآداب .. أم النص الذى أورده الأستاذ الفكيكى عن نسخة أخرى مطبوعة لهذا الكتاب ؟

وبمناسبة الاختلاف فى النصوص التى يوردها المؤلف لفتت نظرى فى الكتاب ظاهرة خطيرة .. وهى إيراد آيات القرآن الكريم محرفة عن مواضعها ... ولو كان ذلك من أخطاء الطبع — أو مما يؤول فيه الخطأ للطبعى — لالتمسنا للمؤلف عذراً . ولكن ما باله — غفر الله له — يأتينا بقرآن من عنده لأنه ليس مما حفظناه ولا وعيناه ، والله تعالى يقول : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ...

وإلا فما بال المؤلف ينسب لله تعالى هذه الآية : (قل لنسائك إن أردنك أن لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى) . والذى نحفظه ونعرفه فى الصحف التى بين أيدينا قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) آية رقم ٣٣ . وما بال المؤلف — سامحه الله — ينسب إلى الله هذه الآية (.... إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا لئلا تصيبوا قوماً بجهالة) . والذى نتلوه ونتعبد به فى كلام الله الذى بين أيدينا قوله تعالى : (.. إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة) . سورة الحجرات آية رقم ٦ . وما بال المؤلف — قوى الله ذاكرته — لو جاز الاعتماد فى القرآن على الذاكرة — ... ما باله يذكر الآية الكريمة (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) هكذا . يريد الله أن يذهب ... الخ) ؟ أنظر سورة الأحزاب آية ٣٣ .

سبحانك اللهم !! حتى أقوى آية قرآنية وحجة سماوية فى الدفاع عن أهل البيت ، يحرفها مدافع عن أهل البيت .. !

ولكن الله يجزيه أحسن الجزاء بما دافع وبما أورد من حجج قوية لا نذكرها هنا ترغيباً فى قراءة هذا السفر النفيس .

محمد عبد الغنى حسن



أوليفـــر تويست

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

هي قصة ألفها شارلس ديكنز عام ١٨٣٨ ، وندد فيها بالصبر السيء الذي يلقاه الأطفال اللقطاء في الملاجئ ، حيث يلقون الجوع والفاقة ، فإذا ماتوا دفنوا في قبور حقيرة .

وفيها يصف ديكنز تلك الملاجئ بأنها مستقر اللصوص والمجرمين حيث يؤخذ بنواصي أولئك البائسين إلى طريق الجريمة عمداً ، مدفوعين إلى ذلك بالمثل السيئة التي يلقونها ممن سبقوهم في عالم الجريمة .

ثم يجعل ديكنز في نسيج القصة خيوطاً تمثل رجالا ونساء ممن هم أحسن حالا من أولئك المجرمين التعساء ، وذلك لكي يرينا أن في كل طبقة من طبقات الناس رجالا كانوا أم نساء من يستطيعون أن يوجهوا الآخرين فيصعدوا بهم في مراقي الفضيلة ، أو يهووا بهم إلى الدرك الأسفل من الرذيلة .

ويقول ديكنز إن الغرض الذي رمى إليه بتأليفه هذه القصة هو أن يصور الجريمة في أبشع صورة من الصدق الفظيع .

قال الكاتب :

في إحدى البنايات العامة في مدينة من المدن قام ملجأ من الملاجئ ، وفي هذا الملجأ ولد الصبي الذي عرفت به هذه القصة ، إذ وجدت أمه يوماً ملقاة إلى جانب جداره ، وقد أضناها الجهد والتعب ، وقد أبلى حذاءها السير الشقى الطويل ؛ وفي اليوم التالي وضعت طفلها « أوليفر » ، ثم ماتت مجهولة الاسم واللقب .

وألحق اليتيم بفرع من فروع هــذا الملجأ يقوم على مسافة ثلاثة أميال ، حيث قضى تسع سنين ، لم يلق فيها شيئاً من العناية والرعاية ، وكان طعامه فيها الماء والفت بلا إدام حتى تولاه السقم والشحوب .

وفي يوم ذكرى ميلاده التاسع جاء « مستر بمبل » شماس الكنيسة ليسترد الطفل الذي سماه Oliver Twist ، وهو يقول إننا نسمى لقطاءنا وفقاً للترتيب الأبجدى ؛ فالذى قبله سميناه Swubble ، وسوف نسمى الذى يجيء بعده باسم unwin .

وخرج المسكين « أوليفر » يجمع نسالة الحبال ليتخذ منها مادة لتعليمه ، وكان له ولكل صبي من لداته ثلاث وجبات من عصيدة بغير زبد .

فلما أمض الصبية الجوع ألقوا سهامهم ، أيهم يتقدم لكافلهم بطلب مزيداً من الطعام ، ثم اختير « أوليفر » فتقدم والصحفة في يده وقال : إننا نريد يا سيدى مزيداً من الطعام ، فذعر الرجل وأمسك بالصبي وتقدم به إلى مجلس إدارة النادى الذى عرض خمسة من الجنيهات جزاء لمن يزيحه عن ناديهم ، فالتقطه حفار القبور « مستر سوربرى » واتخذه صبياً مساعداً ، وكان لا يقسو عليه في المعاملة ، ولكن « أوليفر » كان يعمل تحت رحمة « نوح كلايبول » زميله في المهنة .

واضطر « أوليفر » آخر الأمر إلى أن يعود أدراجه يوم سمع « نوح » يذكر أمه بالسوء .

ولقى في طريقه الجوع والتعب حتى صادفه صبي سمى نفســه (جاك دوكنس الروائع الأحيل) فــكان يطعمه ، وكان هو الذى قاده إلى بيت من بيوت السوء يديره رجل يهودى قد تقوست قناته ، ووهن عظمه ، واسمه «فاجن» ،

وهناك لقى كثيراً من الصبية ، وهناك جادوا له بطعام وفراش .

وفى اليوم التالى ألفى الفتى الرواغ الأحيل يشارك صبياً آخر اسمه (شارلى بيتس) لعبة تقوم على نشل ساعة ، وصندوق نشوق ، وحافظة نقود ، من جيوب اليهودى (فاجن) ، وكان هذا يمثل دور رجل ينظر إلى معروضات الدكاكين ، فشاركهم فى لعبهم هذه « أوليفر » ، وبعد أيام تقدم هو بالرجاء فى أن يسمح له بأن يعمل عمل الصبية الآخرين .

وقبل (فاجن) آخر الأمر ، فأمر به أن يخرج فى صحبة « شارلى » و « الرواغ » ، وذعر « أوليفر » ساعة أن رأى الصبية يسرقون منديلاً من سيد هرم أمام إحدى المكتبات ، وفى لحظة واحدة عرف كل شىء وتولاه الارتباك ، فجرى فلحق به الناس وأمسكوه ، على حين أن الآخرين كانوا قد ولوا هاربين .

ثم قدم للمحاكمة فلما برأه القاضى أشفق به السيد الهرم الذى سرق منديله واسمه « مستر براونلو » إذ رآه مريضاً مغشياً ، فذهب به إلى بيته حيث عولج ، وحيث لقى الرعاية والعطف ، فكان هانئاً سعيداً .

وقبل أن يعرف هذا الرجل المحسن قصة الصبى كان هذا قد خرج لقضاء مهمة ، فلقيته فى الطريق (نانسى) وهى فتاة من أعوان (فاجن) فأمسكت به . وسارت به إلى قومها ليكون سجينهم . وعقد (فاجن) العزم على أن يلفق لأوليفر تهمة من التهم ، فأرسل الصبى إلى (بل سيكس) ، وهو حبيب الفتاة وصاحب ودها ، وهو لص يقتحم المنازل للسرقة . فأخذ هو وشريكه فى الجريمة (توبى كراكيت) يد الصبى وجعلاه يقتحم نافذة فى منزل من المنازل . ولكنهما أخطآ فى حسابهما فلم تنجح الخطة وأخفق التدبير فاضطرا إلى الفرار . وأطلق الرصاص على « أوليفر » فبقى فى مكانه . ثم سار يزحف زحفاً إلى داخل البيت الذى كان يراد به أن يسرق . وهناك لقى صاحبتى البيت (مسز مايلى) وابنة أختها (روز) اللتين كانتا لا تستطيعان أن تصدقا أن يكون هذا الصبى لصاً مجرماً . فأكرمتا مثواه . ولقى منهما رعاية وحباً . ولو أنه قد ذعر يوماً لما رأى (فاجن) وفى صحبته فتى أسود ، يبدو الخبث فى عينيه . وهما ينظران إليه . ثم غابا عن الأنظار فلم يرهما أحد من بعد .

وفى تلك الأثناء كانت (مسز كورنى) رئيسة العاملات فى ذلك الملجأ الذى ولد به « أوليفر » قد دعيت لترى امرأة عجوزاً تحتضر . وتلك العجوز كانت قد أعانت أمه أثناء ولادته . فأعطت رئيسة العاملات ورقة تسترد بموجبها خاتماً مرهوناً مكتوباً عليه اسم Agnes ومدلاة كانت العجوز قد سرقتها من والدة الطفل بعد أن فارقت الحياة .

ثم تزوج شماس الكنيسة (مستر بمبل) بمسز كورنى رئيسة العاملات . وجاءهما ذات ليلة رجل اسمه مستر منكس وهو الرجل الشرير الذى رآه « أوليفر » ذات يوم مع (فاجن) واسترد الرجل الخاتم والدلاة لقاء خمسة وعشرين جنيهاً ثم رآه (مستر بمبل) يقذف بهما فى البحر .

وسمعت (نانسى) ذلك الشرير (منكس) وهو يعرض مالاً على (فاجن) ليجعل من « أوليفر » لصاً سارقاً . فنبه هذا القول منها مكان الضمير الذى أماته حياة الجريمة التى عاشتها .

وقال (منكس) إن « أوليفر » أخوه الصغير . وأقسم ليلحقن الأذى به . فجازفت الفتاة (نانسى) مجازفة كبرى بأن نقلت هذه القصة إلى (روز) التى كانت فى لندن . ولم تقبل لقاء ذلك أجراً .

التقى « أوليفر » ومستر « براونلو » و « روز » فى لندن ، وهناك قصت « روز » على مستر « براونلو » ما سمعته من « نانسى » فأجمعوا على أن يبحثوا عن أهل الولد ، وأن يردوا إليه ما يستحقه من ميراث . فوضعوا الخطة مستعينين بآخرين على أن يوقعوا (منكس) فى الفخ ، وبدأوا بتنفيذ خطتهم بأن قصوا أثر الفتاة (نانسى) وهى عائدة بعد زيارة أخرى لها « لروز » .

وكتب على كثيرين من أعوان اليهودى (فاجن) أن يلاقوا جزاءهم فيقتلوا . ثم أخذ (فاجن) فشنق جزاء له على سرقاته .

ووقع واحد ممن بقى منهم وهو (منكس) أسيراً بين يدى (مستر براونلو) الذى عرف أنه هو بعينه (ادوارد ليفرد) ابن أعز صديق له . فلما ووجه هذا بما جمعه أنصار

الصبي «أوليفر» من أدلة وقرائن ، باح بمكنون سره ، واعترف اعترافاً كاملاً فقال : إن أباه وأمه كان قد دب بينهما الخلف فافترقا وسافرت أمه إلى أوربا وصحبته معها ، وهناك لقي قرناء السوء فسار سيرتهم . وكان أبوه قد جاء إلى روما في عمل من الأعمال وهناك انتابته العلة ، وقد ترك خطاباً إلى امرأة شابة كان قد اعتدى عليها يطلب إليها أن تغفر له خطيئته ، وترك كذلك وصية أوصى فيها بأن يكون نصف ما ترك لولده (ادوارد) والنصف الآخر للطفل الذي تُرزق به (Agnes Fleming) وترك خطاباً يشترط فيه إن كان المولود ولداً أن يحرم من نصيبه من الميراث إذا سار سيرة أهل السوء فألحق باسم أبيه العار .

وحرقت والدة (ادوارد) الوصية واستبقت الخطاب . أما والدة «أوليفر» وهي (Agnes Fleming) فكانت قد غادرت بيتها وماتت كما حدثتنا القصة ، وتركت أختاً صغيرة تعاني مرارة اليتم ! فقام بتربيتها بعض البائسين من الفقراء ، ولكن والدة (ادوارد) تولت إثارة حنقهم وكرههم للطفلة ، قائلة لهم إنها طفلة غير شرعية ، ثم رأت الطفلة سيدةٌ أرملة فأشفقت عليها وأخذتها إلى بيتها ، وهذه الطفلة هي (روز) التي تُعرف الآن أنها خالة «أوليفر» ، ورأت «مسز ليفورد» الطفل «أوليفر» فعرفته من ملامحه . وبينما كانت ترشو (فاجن) بالمال ليشب الطفل تنشئة معوجة فاسدة . كانت كذلك تعمل جاهدة على أن تمحو كل دليل يدل على شخصية الطفل .

وبقي من ميراث أبي (أوليفر) ٦٠٠٠ جنيه أخذ منها النصف وسمح لإدوارد أن يذهب إلى الدنيا الجديدة بالنصف الآخر حيث لقي الموت في السجن .

ثم تبنى (مستر براونلو) أوليفر واتخذه له ولداً . وتزوجت (روز) خالة «أوليفر» من (هاري) وقد أصبح قسيساً .

وحرم مستر (بمبل) وزوجته من وظيفتهما ، وأصبحا من اللاجئين في ذلك الملجأ الذي كانا فيه السيدين الحاكمين ...

(عن الإنجليزية) مبارك ابراهيم

قصائد فى أبيات ...

مهداة إلى الصديق الشاعر الأستاذ أحمد أحمد العجمى صاحب ديوان « قصائد فى أبيات »

صمت دخيل ..

عجبتُ لها أنى قصيرٌ حديثُها
وعهدى به فى النافهات يطولُ !
فإمّا لغـدرٍ أو لتدبير حيلةٍ
وصمتُ الغوانى - إن صمتن - دخيل

●●●

نـداء ؟؟

أليس فى مقلتيها ومقلتى ... نـداء ؟
فكيف نفنى انتظاراً ولا يكونُ اللقـاء ؟؟

●●●

بعد عام ؟

بعد عام كان عندى ألفَ عام
سألتنى : هـل تناسيت الغرامْ ؟
قلت : كلا يا فتاتى إنما
مهجةٌ يقظى ... وعينٌ لا تنام !
أنا مِنْ دهرىَ فى نار ، وفى
ذكرِ أيـامكِ بردٌ وسـلام

●●●

فى مليح ...!

وأنشدتُه شعرى فصفق معجبـاً
وقال لعمر الحق هذا هو الشعرُ
مليحٌ يغـارُ الظبى من نظراته
ويخجل من إشراقه الشمس والبدر
فقلتُ له لولاك أمستْ قصائدى
سيارةَ يأسٍ عافها الأمل البكر !
أيعلـم أنى فى حياتى معذبٌ
وأن هواه فى ظلامى هو الفجر ؟؟

●●●

قلوب وجيوب !!

حار عقـلى والله فى هذه الدنْ
يا وشأنُ الحياةِ جِدُّ عجيبِ !!
فقـلوبٌ تحيـا بغير جيـوب
وجيوب تحيـا بغير قلوب !!

●●●

دم الود والقربى ...!!

خبرتُ ضروبَ الناس طراً فلم أجد
أشدَّ عقوقاً من دم الود والقربى
همو أوسعونى غلظةً وشماتةً
وقد كنت قبل اليوم أوسعهم حبا !
وكنت سـلاماً غامراً فى ربوعهم
فيا عجبا ... أمسوا على مثيق حربا !!
إذا خذل الخلق الوفىّ وأوغلوا
فحسبُ الوفى الحر أن له ربا ...

محمد سعود مصطفى



مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٠٠ — الاثنين ١١ من رمضان سنة ١٣٦٩ — ٢٦ من يونيه سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

خواطر ليلة من رمضان

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

جلست فى هذه الليلة من رمضان عقب الإفطار فى خلوة بعيداً عن الضوء والضوضاء ، لأمتع نفسى حيناً بالأشعة الخافتة المتلألئة من عوالم السماء . وما هى إلا لحظات حتى احتوانى الكون الفسيح ، وبعد عنى حس صخب الحياة ، ووجدت كأنى أسمو إلى عالم آخر عرفته فى وقت من أوقات حياتى ، ثم ردت إليه بعد فترة انقطاع واحتجاب .

ناجيت الهلال فى أول الليلة وهو يفتح ذراعيه للزهرة التى انتحت عنه ناحية ، لا هو يتقدم إليها ولا هى تقترب منه ، كأنهما يصوران فى الكون رمزاً خالداً لمعنى قدسى . وناجيت النجوم مجتمعة فى أبراجها موزعة فى فضائها لا تتقدم إحداها شعرة عن موضعها ولا تتأخر — هكذا يمسكها الرحمن من أقدم الأزل إلى أبعد الأبد . وما زلت أقلب بصرى وعقلى فيما حولى حتى انبلج من الشرق خيط من النور يتنفس فى الظلام كالأمل الطالع فى القلب المؤمن أو القلب النبيل .

هـذا هو الليل الذى كنت أملأ منه قلبى فى شبابى ، وهذه هى العوالم التى كنت أقلب فيها بصرى وعقلى خاشعاً أسألها عن سرها القديم الذى أوحى إلى آلاف القرون . وأعادت إلى هذه الجلسة صنفاً من الوجد كان يغمر نفسى كلما خلوت تحت السماء فى صحبة دراري العلا .

وخطرت على قلبى خطرة من نبأ قرأته فى إحدى صحف الصباح ، إذ قيل إن أمريكياً فتح مكتباً فى نيويورك ليحجز مقاعد فى الطائرات لمن أراد السفر إلى الكواكب ، وحدد لذلك موعداً فى شهر مارس من عام ١٩٧٥ . وسألت نفسى ماذا يكون لو استطاع ذلك الأمريكى أن يحقق وعده الجرىء ؟ ثم سألت النجوم لم تبالغ فى كتمان سرها عن هذا العالم المأفون حتى يجرؤ أمريكى على مثل هذا التدنيس ؟ ثم سألتها : ماذا يكون مصير هذه الحياة إذا استطاع الإنسان أن يهتك كل الأستار ، وأن يقتحم كل الحجب ، وألا يبقى فى الكون معقلا للجلال ؟ .

قد سخر الإنسان من كل مقدس ، وخلع صورة غرائزه على كل مطهر ، ومد يده بالتحطيم إلى كل خفى ، وكل لطيف دقيق الهندسة ، فكان مثله فى ذلك كمثل الطفل يعبث بالآلة الدقيقة ؛ فما زال بها حتى يفككها ويزيل عنها سر إبداعها ، ثم يتأمل قطعها المبعثرة وقد زال عنها رونقها فلا يجد فى نفسه إلا الخيبة والحسرة ، فإذا هو حاول أن يعيد إنشاءها وردها إلى سابق صورتها ظهر عجزه وضعفه ، فإن الخلق والتكوين أسمى من مقدرته وأبعد من سلطانه .

ترى ماذا يكون مآل الإنسانية إذا مضى الإنسان فى عبثه الشنيع ؛ فجرد الحياة مما أودع الله فيها من جلال ومن جمال ، وترك الكون هيكلا بشعاً محطماً ، وهو يزعم أنه يبحث ويحلل ويكشف الأسرار ؟ .

ماذا جنى الإنسان على الحب عندما زعم أنه يحلله ويشرحه فلم يزد على أن أطلق عليه اسماً جديداً شائناً ضيع كرامته وأنزله من محرابه المطهر ؟ ماذا جنى فرويد وأضرابه على عاطفة البنوة والأمومة ، بل ماذا جنوا على عاطفة الصداقة عندما أمعنوا فى التحليل والتشريح ، فزعموا أنهم بلغوا ما وراء الأستار وكشفوا عن حقائق النفس البشرية ، مع أنهم لم يزيدوا على أن دنسوا المقدس بأن أطلقوا عليه

الأشياء التي تعود الناس أن يطلقوها على الدنس .

وقد كانت الإنسانية تقف مشدوهة أمام جلال الكون من سماء عالية ونجوم لامعة وهلال يتكامل يوماً بعد يوم حتى يصير بدراً ثم ينحدر متناقصاً حتى يحجبه المحاق بعد دورته الشهرية ، وكانت الشمس في مسيرها اليومي تملؤه خشوعاً والمطر إذ ينهمر في العاصفة والرعد إذ يجلجل والبرق إذ يخطف ، كان كل ذلك يقع من نفسه موقعاً يجعله يحرك نسبته إلى قوى الكون ويقر بجبروتها .

وكانت مناظر الغابة والجبل العالى والثلوج البيضاء التي تتوج رأسه والبحر الهادى، حيناً والهائج أحياناً . كان كل ذلك يملؤه روعة وإجلالاً ويوقع في نفسه من معاني الجلال والجمال ما يملأ حياته فناً ، وكانت الإنسانية تعثر في حياتها وتتطلع دائماً إلى بعض معالم من المثل العليا ، فكانت تعد تلك المثل نهائية مطلقة لاتبيح مناقشتها ولا الخروج عليها . كانت ترى الصداقة حقاً نهائياً مطلقاً ، وكانت تعلى قدر الوفاء والكرم والشجاعة والرحمة والإيثار وما إليها من الفضائل وتعدها جميعاً من الحقائق البشرية التي لا تحتمل الجدال ولا المراجعة . غير أن العالم الحديث لم يتردد في الهجوم على هذه المعاقل الحصينة ، وزعم أنه يحلل ويشرح لكى يفهم ويقيم مدنيته على العلم ، فما زال بها حتى أدخل إليها الشك وأزال هيبتها وسلطانها الروحى . فإذا هو اليوم ولا عاصم له من مثال عادل ولا من حق ثابت مطلق ولا من حدود واضحة بين ما هو حلال وما هو حرام في حياة الإنسان .

ويبدو لى أن العالم الحديث قد خرج بهذا الاتجاه عن سنة الإنسانية الطبيعية ، وأنه لا بد عائد إلى السنة الطبيعية ولو بعد حين عندما تصدمه الوقائع صدمات تعيد إليه وعيه واتزانه .

فالشعور بالجلال والتأثر بقدسية جمال الكون ووجود الحدود والمثل العليا طبيعى وضرورى لكل حياة اجتماعية . وما دام الإنسان يحيا في مجتمعات فإن الحدود والمثل العليا وتقدير الجمال لازمة لحفظ كيانه وبغيرها تحل الفوضى محل النظام ويسود الخصام والاعتداء ، وتعود الحياة إلى قوانين الغابة — فوضى يحكمها العنف ويكون فيها الحق للقوى وتتحطم فيها هذه العناصر العليا التي ميزت الحياة الإنسانية على مر الدهور ورفعتها فوق مرتبة الحيوان . بل إن هذه المشاعر الجليلة والحدود المطلقة وهذه المثل العليا هي التي مكنت الانسان أن يصبح سيد الأرض ويتسامى إلى مرتبة أعلى من مرتبة الحيوانية .

وأقل تأمل في هذا المعنى يظهر جلياً أن الخشوع للجلال والجمال وتقديس الحدود والمثل العليا معان طبيعية يتجه الإنسان إليها من تلقاء نفسه بحكم حياته الاجتماعية .

فالأطفال إذا أرادوا تنظيم لعبة من ألعابهم الاجتماعية أحسوا جلالها وجمالها ، وعرفوا الضرورة التي تدعوهم إلى الاتفاق على أصولها ، ويرون في الخروج على هذه الأصول إفساداً لجمالها وروعتها وتضييعاً لجهودهم فيها ، فيؤثرون إبطال اللعبة على المضى فيها إذا حاول بعضهم إنكار حدودها وأصولها أو الخروج عليها .

والعالم الحديث يشبه مجموعة من الأطفال يمارسون لعبة لها روعتها ولها أصولها وحدودها ، ثم بدا لبعضهم أن يناقش تلك الأصول ويجادل في تلك الحدود ، فلم تلبث اللعبة أن فسدت وفقدت جاذبيتها وحل محلها عراك وخصام وفوضى .

ومن العجيب أن الإنسان الحديث بعد أن اقتحم كل الحدود التي خلقتها العصور الطويلة وأحس أنه قد أفسد على نفسه حياته وسعادته عاد إلى عقله يناقش ويجادل مرة ثانية ليبحث عن طريق للخلاص مما هو فيه من الشقاء ، طامعاً أن يهتدى إلى وسيلة جديدة تعيد إلى حياته النظام والهدوء . فأخذ يفكر في توثيق الروابط الدولية ، وجعل يقيم اليونسكو وغير اليونسكو ليقر بين الناس السلام ، ويبذل في ذلك جهوداً كبيرة وتضحيات جسيمة ، مع أنه لن ينتفع من وراء كل هذه الجهود والتضحيات إلا الخيبة المرة . ذلك لأنه قد حطم المعالم الجليلة التي تعود أن يخشع لها ويطلب هدايتها ، واقتحم المعاقل التي كانت تعصمه ، وهي تلك الحدود الطبيعية والمثل العليا التي كان يتطلع إلى بلوغها ، ويحاول الأفراد أن يتقيدوا بها ويستوحوها في حياتهم الخاصة والعامة .

ولو استطاع ساسة العالم وقادة الحوادث الكبرى فيه أن يفتحوا عيونهم وقلوبهم لجلال السماء في ليلة مثل هذه الليلة من رمضان ، ولو استطاع أرباب الاقتصاد وعمالقة الصناعة أن يخلوا إلى أنفسهم ساعة في تأمل جلال هذا الكون ، وأباحوا لأنفسهم أو أباحت لهم أنفسهم أن يحسوا شيئاً من ذلك الجلال ، ويخشعوا له — لو حدث هذا لوجدوا المخلص من فوضى هذه الحياة الحديثة التي تهدد الإنسانية بالفناء . إن المخلص يسير ، ولا يكلف الإنسان إلا أن يرد نفسه إلى تقديس الجمال والجلال في الكون ، وأن يعيد إلى قلبه الإيمان الطبيعى بالحدود والمثل العليا التي كانت من قبل هي أمل الإنسانية في حياتها الخاصة والعامة .

محمد فريد أبو حديد

تولستوى والمعرى

— ٢ —

للأستاذ على أدهم

ولد تولستوى فى أسرة عريقة مكثرة مثرية ، ونشأ قوى البنية ، موفور العافية ، متدفق الحيوية ، مشبوب الحسية ، وتزوج المرأة التى حسنت فى عينه ، وصبت إليها نفسه ، وولدت له ثلاثة عشر طفلاً ، وتوالت آياته الفنية الشائقة ، وذاعت شهرته فى الخافقين ، وتضاعفت ثروته ، ونال أقصى ما يترامى إليه الأمل من الجاه والشهرة والمال والحب والنعمة ، فماذا يطلب بعد ذلك ؟ لقد كاد من فرط ما أغدق عليه الحظ يصحب الدنيا بلا أمل ، ولا يريد من الأيام شيئاً ، حتى لقد كتب فى إحدى رسائله يقول : « سعادتى لا تشوبها شائبة » . ولكن ما بين عشية وضحاها تغيرت أحوال هذا الرجل السعيد المحظوظ ، فوقعت النبوة بينه وبين زوجته ، وطال الخلاف ، وعادت الخصومة وتفاقمت ، وبدأ يشك فى قيمة أعماله ، ويتنقص آثاره الأدبية ، ويتبرم بها ، ويزهد فيها ؛ وتولاه الهم ، وضاقت عليه مقالده ، فكان ينبو جنبه عن الفراش كأنما به من مسه قروح ، فيظل ساهر الطرف ، شارد الفكر ، يذرع غرفته جيئة وذهاباً ، ويجلس فى النهار إلى مكتبه ، وقد توزعته الأفكار ، واحتضرته الهموم ، غير مطيق للكتابة ؛ فماذا أصاب هذا الرجل وحل بساحته من فادح الأرزاء ، وجليل الخطوب ؟ وهل أصابه مرض جثمانى أو ماذا ؟ كلا لم تصبه كارثة ، ولم ينشبه خطب ، وإنما راعه أن يرى لا شىء خلف كل شىء ، فاستحوذ عليه الشك ، وتداخله منه القعد المقيم ، حتى زهد فى كل شىء ومل كل شىء .

كان الرجل مفرط الحسية ، وكان الدافع الجنسى قوياً فى نفسه ؛ ولذا كان يخشى المرأة ويرهب سطوتها القاهرة ، ويحذر الوقوع فى مغوياتها ، وأن تقتنصه حبائلها ؛ ولذا كان يكره المرأة ، والنساء والموسيقى فى رأيه تثيران الحسية ، وتنبهان الجسد ، وتوقظان الفتنة النائمة ؛ ولقد نجح فى إخماد شهواته بعد صراع طويل وجهاد شاق ، ولكن حسيته ظلت مع ذلك مثل وحش عاد مفترس ، قد وضع فى الأقفاص الحديدية لتكف شره وتمنع عدوانه ، ولكنه متأهب للوثوب والانطلاق إذا غفل الحراس وافترص الفرصة ؛ وفى سورة شبابه جمحت به الشهوة حتى كادت توردة موارد التلف والبوار ، واستطاع بعد عناء أن يكبحها ، ولكن الوحش لا يزال حياً متأهباً لا يزال متوثباً للعدوان ؛ فموقفه يشبه موقف الراهب الناسك الذى فر إلى الخلاء ، واعتزل الناس ليهرب من إغراءات الجسد ومغاوى الشهوة ؛ وقد حمل فى روايته المشهورة « كرويتزر سوناتا » على اتخاذ المرأة وسيلة للفتنة حملة شعواء ، وندد بأفانين المرأة فى الاستغواء ، وحض الرجال على أن يبذلوا جهدهم فى التزام العفة التامة ، ويخرسوا هواتف الجسد ؛ وتتفق فلسفة تولستوى فى هذه الناحية مع فلسفة المعرى التى استوفى بيانها فى تائيته المشهورة التى استهلها بقوله :

ترنم فى نهارك مستعيناً
بذكر الله فى المترغبات

وفيها يقول أبو العلاء عن النساء :

فوارس فتنة أعلام غى
لقينك بالأساور معلمات

وقد فصل أبو العلاء فى هذه القصيدة الطويلة رأيه فى المرأة وموقفه منها ، وهو يتفق فى جوهره مع رأى تولستوى ؛ ولو تأخر الزمن بالمعرى وقرأ رواية « كرويتزر سوناتا » لأعجب بها غاية الإعجاب ، وأقر تولستوى على ما جاء بها من الآراء والنظرات ؛ ولو أتيح كذلك لتولستوى أن يقرأ تائية أبى العلاء لوجدها تعبر عما فى نفسه ، وتقرر ما يعتقده وما هدته إليه تجاربه وخبرته .

وقد وقف تولستوى أمام فكرة الموت وقفة طويلة مثل أبى العلاء الذى كان لا ينى يفكر فى الموت ويستحضر أهواله وفواجعه ، وقد كان تولستوى القوى الحواس الفياض الحيوية الواشج الجذور فى عرق الثرى يرى الموت شبحاً رهيباً . وكيف يطيق هذا الرجل المتوفز الشاعر فكرة

أن حواسه ستخمد وأن عينه ستشل فلا تقوى على الحركة ، وأن جسمه الذى يتدفق الدم فى عروقه سيغدو طعمة للدود حتى لا يترك منه سوى هيكل عظمى بشع مخيف ! وكان تولستوى يستولى عليه الفزع ويأخذه الخوف من جميع أقطاره كلما فكر فى هذا اللاشىء ، هذا العدم الأصم ، هذا السارق الذى دقّ شخصه ، فهو يسعى بلا رجل ويصول بلا سيف كما يقول المتنبى ، وكان يجمد الدم فى عروقه كلما خطر بباله أن هذا الموت متعلق به أسبابه ويملك عنانه شُطُنه ؟ وتصد طالعته صورته وهو فى الخامسة من عمره حينما ماتت والدته وجاءوه ليشاهدها وهى مسجاة على السرير ، ورأى أن هذه المخلوقة العزيزة التى كانت بالأمس جمة الحركة موفورة النشاط قد أصبحت جثة هامدة متصلبة الأطراف مساوية الحركة . فخرج من الحجرة صارخاً باكياً تتبعه المخاوف وتساوره الأوهام . ثم مات أخوه ، ومات أبوه ، وماتت عمته ، فترك موتهم فى نفسه ندوباً وخلف آثاراً لا تزول . وكانت صورة العدم تلوح له من وراء الكتب والبحوث فتنغص سروره ، وتغتال صفوه ، وتستأثر بتفكيره ، وكان خوفه من الموت معادلاً لحيويته الدافقة العارمة ، فهو لا يريد الموت ، ويتعلق تعلقاً شديداً بالحياة ، ويحرص عليها ، ويود طول البقاء ، ولكنه يعلم أنه ميت ، وأن الأمر كما قال كعب بن زهير :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يوماً على آلة حدباء محمول

وأكثر الناس يعقد لهم جسر بينهم وبين الموت ليسهل عليهم بلوغه ، ويهون احتماله ، وهذا الجسر هو المرض واعتلال الصحة ، ولكن جسم تولستوى كان قوياً أيداً لا يعرف المرض ، ولا يسرى فيه الداء ، ولا يدب به الضعف ، فلم يشعر بأن الناس يموتون جزءاً جزءاً وعضواً فعضواً ، فأخذ يكثر من التفكير فى الموت ، ويطيل النظر فى أمره عله بذلك يألفه ويقبله ويروض نفسه المتأبية على احتماله والصبر على مواجهته ، فالاعتياد يغلب الكراهة ، ويهزم الخوف ؛ وقد استطاع أن يجعل للموت خدناً وصديقاً ، ويتألف وحشته ، ويوطن نفسه على قبول حقيقته ؛ ومات فى الخيال ميتات كثيرة ، حتى أصبح عليما بالموت خبيراً بأحواله ؛ وقد وصف ذلك فى قصته البديعة « موت إيفان إيلتش » وقصته « ثلاث ميتات » وقد عمق ذلك معرفته بالحياة ، وأوسع تجاربه .

وموقف أبى العلاء من الموت ورهبته يشبه موقف تولستوى ، أنظر مثلاً إلى قول أبى العلاء :

فمالى أخاف طريق الردى
وذلك خير طريق سلك
يريحك من عيشة مرة
ومالٍ أضيع ومال ملك

فهو يحاول أن يهون على نفسه من طريق المنطق احتمال الموت والصبر على تجرع مرارته . ويقول فى موقف آخر :

ما أطيب العيش عند قوم
لو أنه كان لا يزول

ويردد هذا المعنى فيقول :

سقياً لطيب العصر لو أن الفتى
بالمرغبات إلى بقاء واصل

ويقول فى استفظاع الموت :

وطريق إلى الحمام كريه
لم تَهَبْ عند هوله الهيماء

والواقع أن فكرة الموت كانت كثيرة الجولان فى نفس أبى العلاء ، دائمة الدوران فى تفكيره ؛ وقد يبدو غريباً أن أبا العلاء الذى كان يحمل على الحياة ، ويفتن فى تعديد عيوبها وإحصاء مساوئها يستهول فكرة الموت ويعدها من المساوئ التى يأخذها على الحياة ! فهل كان يأس أبى العلاء من الحياة لوناً من ألوان التطلع إلى الخلود ، والحنين إلى البقاء ، والخوف من العدم ؟ قد يكون ذلك وقد لا يكون ، فإن أبا العلاء لغزه ليس من اليسير تفسيره ، ولست أدعى أنى أملك ما يسمى « مفتاح شخصيته » ، والنفس الإنسانية فى تقديرى شئ غامض شديد التعقيد ، وربما كان العثور على مفاتيح الشخصيات من حظ الموعودين .

وخصلة ثالثة فى فن تولستوى تجعله قريب الشبه بفن أبى العلاء على ما بينهما من اختلاف وتفاوت ؛ فتولستوى فى فنه البارع يعنى بوصف الحقائق ، ويتجنب الأحلام والأخيلة ، فليس فى رواياته وقصصه سبحات صوفيه ، ولا تأملات مسترسلة فى الأوهام ، وإنما هى واقعية بصيرة نافذة ، لا يغيب

عنها شيء ، ولم يكتب تولستوى طوال حياته شعراً لأنه كان يطلب الحق المجرد ؛ وكان أبو العلاء فى فنه مثل تولستوى طالب حقيقة ، فهو يعرض عن الزخرف والتأنق والتجميل ، ويكتفى بتصوير الحقائق فى بساطة مستحبة ، وصراحة مباشرة ، قد تصل أحياناً إلى الصرامة فى تقرير الواقع وتوصيف الحوادث والآراء ؛ ويشعر الإنسان وهو يقرأ روايات تولستوى بأنه يعيش على الأرض ، وأنه مقدر له أن يموت ، وأنه لا يستطيع أن يتخلص من قيود الجسد وأسر الحواس ، وأنه لا يستطيع الإفلات من أغلال الظروف والملابسات ، فلا تحويم فى الفضاء ، ولا ارتفاع فى السماء ، ولا مشاهدة لعالم آخر أصفى من هذا العالم الذى نعيش به وأشف وأنقى ؛ فعالمه ليس فيه أحلام ولا أوهام ولا أخيلة ولا أكاذيب ، عالم قفر خال جديب ، لا ينسى حقائق الحاضر ، ولا ينسى ضرورات الحياة ؛ فهو ينير البصيرة ، ويثير التفكير ، ولكنه لا يشعرنا بالسعادة ، ولا يدخل على نفوسنا السرور والابتهاج ، وكذلك عالم أبى العلاء ؛ ويعجبنى فى هذا المقام قول الكاتب النقادة القدير ستيفان زفايج فى فصل له قيم عن تولستوى : « حينما نقرأ تولستوى نشعر بأن الشتاء قد اقترب أو أنه قد أقبلت مقدماته وأن الطبيعة تحتضر ، وأن الناس جميعهم مثل الحشائش النابتة ، وأن تحسيسنا الخاص للحياة البشرية العامة مشرف على الفناء القريب »

ففن تولستوى تنقصه الموسيقية العذبة والإشراق الوثنى ولمعات الوحى وومضاته وحماسة اليقين وحرارته ، وهو لا يؤكد لك الحياة ، ولا يبعث فيك العزيمة ؛ والعالم فى نظره مسرح للموت ، والتاريخ فوضى لا معنى لها ، والناس هياكل عظمية يسترها اللحم حيناً من الزمن ؛ فغير عجيب أن ينتهى تولستوى إلى الفردية والفوضوية ، كما انتهى أبو العلاء إلى الفردية والاعتزال . وتولستوى ، مثل أبى العلاء ، يلاحظ الحياة ملاحظة صارمة ، فلا تضلله بيض الأمانى ، ولا تخدعه كواذب الظنون ، ولا تجتذبه جواذب الأوهام . وكيف يخدع نفسه هذا الرجل الحديد البصر القوى الحس النافذ الفكر ؟ وكيف يعد الوعود الخلابة ويمنى الأمانى الحسان ويبشر ولا ينفر وهو يرى الحياة ظلا زائلاً وفناء قريباً ماثلا ؟ فهو لا يكذب ، ولا يريد أن يكذب ، ومن ثم لا يبعث رجاء ، ولا يحيى أملا ، وكذلك عاش أبو العلاء .

ولكن تولستوى الذى كان لا يرى الحياة سوى مأساة ، خالجه فى شيخوخته الأمل فى أن هذه الحياة يمكن علاجها وتغييرها وإصلاحها ، وأن الناس يمكن أن يصبحوا أحسن مما هم عليه وأسمى وأكمل ، وأنه يمكن أن يتيح لهم مثل أعلى أخلاقى يخلب لبهم ، ويبهر عقولهم ، وأن تقيم فى عالم الروح ملكوت السماء ، وتلوذ به من آلية العالم ، ولذا حاول أن يضفى على فنه صبغة أخلاقية وأن يوقفه على تطهير النفوس من الآثام والأرجاس والسمو بها وتهذيبها .

ولم تكن هذه النزعة طارئة عليه كل الطروء جديدة كل الجدة ، فقد بدت بشائرها وسماتها فى رواية « أنا كارنين » ثم تجلت واضحة ناطقة فى رواية كرويتزر سوناتا ، ورواية البعث ، وأصبح تولستوى لا يرى الفن غاية فى نفسه ، وإنما يراه وسيلة من وسائل الإصلاح والتهذيب وإذاعة الأفكار ونشر العقائد والمعتقدات ، وأخذ يقيس الآثار الفنية بهذا المقياس ؛ فالآثار الأدبية التى تعين على فعل الخير وترقى بالنفس هى الآثار العظيمة الجديرة بالخلود ؛ أما الآثار التى لا يرجى منها العون على فعل الخير وتهذيب النفس فهى آثار سيئة تستحق الإهمال والإعراض والازدراء ؛ ومن ثم حملته على شكسبير وانتقاصه أدبه ونقده لفنه ؛ ولم يعف آثاره الفنية من هذا النقد ، فعاب روايته العظيمة « الحرب والسلم » وعدها رواية رديئة لا خير فيها ولا قيمة لها .

وتولستوى مثل أبى العلاء كثير الوصف لنفسه ، دائم التحدث عنها ، يصارحنا بكل ما يرد على خاطره ، ويهجس فى نفسه ، ولكنه لم يكن مع ذلك مغروراً مزهواً ، ولا متكبراً عاتياً ، وإنما كان شديد النقد لنفسه كثير التحامل عليها متواضعاً ألوفاً مثل أبى العلاء ، وقد عاش مثله فى حرب دائمة مع نفسه .

وقد بدأ هذا التحول عند تولستوى حينما بلغ الخمسين من عمره ، وكأنما فغرت عند قدميه هاوية ، فبدأ يرى الدنيا لغزاً مستعصياً يروع منه ، وأخذ يتأمل شقاء الحياة وبؤس البائسين ، وفقر الفقراء والمحرومين ، وأصبحت

(البقية على صفحة ١٦)

الفكاهة فى الأدب العربى

– ٢ –

للدكتور شوقى ضيف

تحدثنا قبل ذلك عن مجموعة من الفكاهيين فى الأدب العربى كانوا يحترفون تفكهة الخلفاء والوزراء ومن حولهم من الناس ، فكانوا منابع للفكاهة والضحك فى عصورهم . وهذه إحدى صفحات الفكاهة فى الأدب العربى ، وهناك صفحة ثانية نرى فيها أصحابها جادين كل الجد ، ومع ذلك فهم مضحكون كل الضحك ، لأنهم يبدون فى حركاتهم وفى أقوالهم كأنما ينقصهم شىء ؛ فهى حركات وأقوال عرجاء ، لأنها تخرج عن مألوفنا ، وتخالف ما نعتاده فى حياتنا ، فنظن حين نسمعها أو نشاهدها كأننا فى مسرح هزلى تُمثَّل فيه مهزلة من المهازل ، يمثلها شخص بحركاته وألفاظه ، ويرينا من صور عدم التناسب واختلاط المنطق واضطرابه ما يجعلنا نغرق فى الضحك .

ومثل هؤلاء المضحكين لا يكونون أذكياء ، ولا من هؤلاء العقلاء العاديين فى فهمهم وسلوكهم ؛ إنما يكونون من صنف آخر ، صنف شاذ يعيش بغير منطق ، ويحيى بغير فهم ، ثم يحاول أن يؤدى ما يؤديه المنطقيون العقلاء ، فتأتى الشعوذة ، ويأتى الذهول ، ويأتى الاستغراق فى مجاميع من الأخطاء ، فكل ما يُعَبِّرُ به يعتريه الخطأ والنقص والعجزُ فى النطق والبلادة فى الفهم .

وهذه النماذج من المضحكين هم جماعة الحمقى والمغفلين الذين لا يستطيعون الخضوع لمنطقنا ، فتسقط منهم أقوالهم وعباراتهم وكأنها لُعَبٌ تتدحرج على سفح النطق ومنحدراته ، وهى لعب ما تزال تغرينا على الضحك منهم ، وعلى ما أصابهم من عوج فى العقل واختلاط فى الفهم وتشويش فى الفكر . وطبيعى أن هؤلاء المضحكين لا يصنعون الضحك عن عمد ، فهم لا يقصدون إليه ، ومع ذلك فربما كانوا أهم منحدراته ومساقطه ، إذ ما يزالون يأتون بالمفارقات والتناقضات التى تشوه فهمنا ومنطقنا تشويهاً كاريكاتورياً ، على نحو ما يُشَوِّهُ أصحابُ الرسم الكاريكاتورى أجسامَ الناس والحيوان تشويهاً هزلياً مضحكاً ؛ فنحن لا نستمع إلى محاوراتهم وإجاباتهم الحمقاء وما تحوى من بلاهة وبلادة حتى نَنْذَهِلَ عن أنفسنا ، ونضرب الأرض بضحكنا .

وأوَّلُ من تنبه إلى هذه النماذج المضحكة عند العرب وروى نوادرهم وطرفهم الجاحظ ؛ فقد دأب على أن يحلّى بهم كتبه الكبيرة الجادة من بيان وتبيين وحيوان وغير ذلك ، فتراه يترك مجرى الكلام فى الموضوع ليرسم لقارئه صوراً هزلية من هؤلاء الحمقى والمغفلين . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يترك صاحب حمق أو غفلة فى عصره إلا وجمع أقواله وما تناثر من حماقاته ، وكأنما كان يجوب كل مجتمعات البصرة وبغداد وطرقاتهما ليجمع هنات هؤلاء الحمقى من مثل ديسموس اليونانى وجعيفران الموسوس ، وقد حكى عن الأخير أنه كان يتشيع لآل على ؛ فقال له قائل : أتشتم فاطمة وتأخذ درهماً ؟ فقال : بل أشتم عائشة وآخذ نصف درهم ، ومنهم أبوعبدالملك ، وقد سئل : أيهما أفضل ، شخص يسمى سلاما وآخر يسمى أبا على ؟ فقال : بل أبو على ، لأنه لما مات سلام مشى أبوعلى فى جنازته ، ولما مات أبوعلى لم يمش سلام فى جنازته . ويحكى الجاحظ أن بعض السلاطين دعا اثنين من هؤلاء الحمقى ليحرِّكهما ، فيضحك مما يجىء منهما ؛ فما أحماه وأحمهما غضب ودعا بالسيف ، فقال أحدهما لصاحبه : كنا مجنونين فصرنا ثلاثة .

ولعل الجاحظ لم يتعلق بنموذج لهؤلاء العقلاء اللامنطقيين كما تعلق بنموذج المعلمين ، فقد قص عن حمقهم طرفاً ونوادر كثيرة ، وروى عنه أنه قال : ألفت كتاباً فى نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب ، فدخلت يوما مدينة ،

فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه ، فرد علىّ أحسن ردّ ، ورحب بى ، فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن فإذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الآداب ، فقلت هذا والله مما يقوّى عزمى على تقطيع الكتاب ، فكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته ، فإذا بالكُتّاب مغلق ولم أجده ، فسألت عنه ، فقيل مات له ميت ، فحزن عليه ، وجلس فى البيت للعزاء ، فذهبت إلى بيته ، وطرقت الباب ، فخرجت إلى جارية ، وقالت ما تريد ؟ قلت سيدك ، فدخلت وخرجت ، وقالت باسم الله ، فدخلتُ إليه ، وإذا هو جالس فقلت : عظم الله أجرك ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا ، قلت : فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ، قال : لا ، قلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتى ، فقلت فى نفسى : هذه أول المناحس ، ثم قلت : سبحان الله ، النساء كثير وستجد غيرها ، فقال : أتظن أنى رأيتها ؟ قلت : وهذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت من لم تره ؟ فقال : اعلم أنى كنت جالساً فى هذا المكان وأنا أنظر من النافذة ، إذ رأيت رجلاً عليه بُردٌ وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمةً
رُدّى علىّ فؤادى أينما كانا
لا تأخذين فؤادى تلعبين به
فكيف يلعبُ بالإنسان إنسانا

فقلت فى نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسنُ منها ما قيل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو
فلا رجعت ولا رجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنت عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست فى الدار .

فقلت : يا هذا إنى كنت ألفت كتاباً فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويت عزمى على إبقائه ، وأول ما أبدأ ، أبدأ بك إن شاء الله تعالى .

ولم يصلنا هذا الكتاب الذى ألفه الجاحظ فى نوادر الحمق من المعلمين ، ولكن وصلنا منه طرف كثيرة احتفظت بها كتب الفكاهة .

فمن ذلك أن الجاحظ قال : مررت بمعلم صبيان ، وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة وصولجانٌ وكرةٌ وطبلٌ وبوق ، فقلت : ما هذه ؟ فقال : عندى صغار أوباش ، فأقول لأحدهم : اقرأ لوحك ، فيصفر لى ، فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخر ، فأضربه بالعصا الطويلة ، فيفر من بين يدى ، فأضع الكرة فى الصولجان ، فأضربه فأشجه ، فتقوم إلىّ الصغار كلهم بالألواح ، فأجعل الطبل فى عنقى والبوق فى فمى ، وأضرب الطبل ، وأنفخ فى البوق ، فيسمع أهل الحارة ذلك ، فيسارعون إلىّ ويخلصونى منهم .

ومن هذه النوادر الطريفة أن الجاحظ قال : مررت بدار خربة ، فإذا بها معلم ، وهو ينبح نبيح الكلاب ، فوقفت أنظر إليه ، وإذا صبى قد خرج من دار ، فقبض عليه المعلم ، وجعل يلطمه ويسبه ، فقلت : عرفنى خبره ، فقال : هذا صبى لئيم يكره التعليم ويهرب ، ويدخل الدار ولا يخرج ، وله كلب يلعب به ، فإذا سمع صوتى ظن أنه صوت الكلب ، فيخرج ، فأمسكه .

ومن هذه النوادر التى حكاها الجاحظ عن حمق المعلمين أنه قال : رأيت معلماً فى الكتاب وحده ، فسألته عن الصغار ، فقال : داخل الدرب يتصارعون ، فقلت : أحب أن أراهم ، فقال : ما أشير عليك بذلك ، فقلت : لا بد ، قال : فإذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لئلا يعتقدوا أنك أنا ، فيصفعوك حتى تعمى .

ونحن نضحك من هذه النوادر كلها التى يرويها الجاحظ عن بعض الحمق من معلمى عصره ، لأنها تفقدنا توازننا العقلى وتغمرنا بلامنطقية مذهلة ، تهز فينا نفس الأوتار التى يهزها المهرجون المزليون ، فنضحك ونغرب فى الضحك ، بل لعل هذه النوادر تضحكنا بأكثر مما تضحكنا النوادر التى تروى عمن اتخذوا الإضحاك مهنتهم ، فهؤلاء نقرأ نوادرهم ، ونحن نعرف أنهم يريدون أن يثيروا الضحك فينا ، فهو ضحك

مقصود ، قصد إليه أصحاب هذه النوادر . أما هؤلاء الحمق من المغفلين الذين عاصروا الجاحظ وغير المغفلين ، فإننا نضحك من نوادرهم ، وهم لا يعرفون ، فهم مضحكون لا يشعرون بأنفسهم . ومن هنا تأتي شدة المفارقة ، ويأتي عمق الضحك ، وخاصة إذا كان هؤلاء الحمق يمثلون لنا جانباً معنوياً في الحياة ؛ فحماقة العلم والتثقف تضحك أكثر مما تضحك حماقة الجاهل ، لأنه يتسع فيها فقدان التناسب والتوازن فيبرز الخطأ بروزاً يذهلنا ، وفي الوقت نفسه يضحكنا ، إذ نرى المغفل يتثقف التثقف ، ويربيه ، يتخبط كل هذا التخبط ، وكأنما ركبت فيه من حيث لا يدري خيوط الأراجوز وأسلاكه ، فقد أصبح لعبة الأطفال وطرفهم ، ولهوهم وتسليتهم ، بل أصبح هزأة وسخرية ، يهزأون منه ويسخرون ، ويخيفونه بعدما كانوا منه يخافون ، فالأوضاع قد انقلبت ، والموازين العقلية قد انتكست ، وأصبحنا من حيث لا نحتسب بإزاء فوضى من المنطق تفوق كل فوضى ممكنة من الهزل والتهريج .

وهذا النموذج من معلمي الكتاب الذي ضربه الجاحظ مثلا للحمق والمغفلين ، وما يجري على أيديهم وألسنتهم من نوادر وفكاهات ، قد أضاف إليه نماذج أخرى من العلماء وأخطائهم والتماس وأغلاطهم ، ودائماً نراه يعرف كيف يعرض ذلك ويستخرج منه المفارقة التي تضحك ؛ فمن ذلك ما رواه عن قاص يسمى سيفويه من أنه أتى بنوع من الحلوى ، فابتلع منه لقمة حارة ، فأغمى عليه ، فلما أفاق قال : لقد مات لي ثلاثة بنين ما دخل جوفي عليهم من الحرقة ما دخل جوفي من حرقة هذه اللقمة . وكانت للجاحظ قدرة عظيمة على تتبع مثل هذه الأخطاء ، لا في أقوال الناس وتصرفاتهم العادية فحسب ، بل أيضاً في سلوكهم وأخلاقهم ، وقد استطاع أن يكتب كتاباً طويلا في البخلاء ، وما يطوون في نفوسهم من نوادر وفكاهات .

وإذا تقدمنا بعد الجاحظ وجدنا التأليف في حمق الناس وغفلتهم يتسع مع مر الزمن . فقد أخذ المؤلفون يتتبعونهم في أصناف الناس المختلفين ، من أصحاب حرف ومثقفين ، ووزعوهم على فصول الكتب التي ألفوها فيهم ، ففصل لحماقات المتنبئين ، وفصل لحماقات المحدثين ، وفصل لحماقات القراء ، وفصل لحماقات الفقهاء ، وفصل لحماقات المؤذنين ، وفصل لحماقات القضاة أو النحاة أو الحكام والولاة . وهي كلها فصول لا نكاد نلم بها في كتبها حتى نغرق في الضحك إغراقاً . ونكتفي بهذه الحماقة لمؤذن وقاض . فقد قالوا : إن جماعة شاهدوا مؤذناً يؤذن من رقعة مكتوبة ، فقالوا له : أما تحفظ الأذان ؟ فقال : سلوا القاضي . فأتوه ، فقالوا : السلام عليكم ، فأخرج دفتراً ، وتصفحه ، وقال : وعليكم السلام . فعذروا المؤذن !

وليس من شك في أن هذه الصفحة من صفحات الفكاهة في الأدب العربي خليقة بأن يرجع إليها من حين إلى حين من يجهدون أنفسهم في أعمال عقلية أو جسمية حتى يرفهوا عنها بهذه المشاهد الهزلية .

شوقي ضيف

كيف؟

تحديد أجور العمال[1]

ترجمة الأستاذ حافظ أحمد أمين

إن ثمن أي سلعة من السلع موقوف — إلى حد بعيد — على نظرية العرض والطلب ، وكذلك كانت أجور العمال في الأزمنة الماضية ، ثم ظهرت عوامل أخرى شعبية واجتماعية وسياسية ، وتدخلت الحكومات والنقابات في تحديد هذه الأجور حتى أصبح تحديدها الآن من أصعب الأمور .

لن أتعرض لهذه العوامل التي حددت الأجر المتوسط للعامل المتوسط ، ولكني سأعرض الآن نوع النظم التي تعمل بها المصانع في هذه الأيام ، والتي أصبح من نتائجها تشجيع العامل على العمل بنشاط وحيوية .

١ — وأول هذه النظم هو نظام الأجر بالزمن (Day-work System) ، وفيه يعطى العامل أجره على أساس عدد ساعات العمل ، وينال العامل هذا الأجر عن كل يوم أو عن كل شهر أو سنة ، ويختلف الأجر لكل ساعة باختلاف نوع العمل ومهارة العامل ومقدار المسئولية التي يقوم بها .

وهذا النظام هو أقدم الأنظمة جميعها ، وقد بدىء في الحد منه عندما أخذت الصناعة في الكبر ، وبدأ نظام التخصص في الانتشار ، وهذه الطريقة في تحديد الأجر لها عيوب كثيرة ، أهمها :

(١) عدم وجود الرغبة الصادقة والدافع القوي من العمال لزيادة إنتاجهم .

(ب) الحاجة إلى رياسة قوية ، مما يسبب معاملة العمال بقسوة وعنف .

(ج) لن يكون الأجر عادلاً في معظم الحالات ، ولن يتناسب مع المجهود الذي يبذله العامل في العمل .

٢ — والنظام الثاني هو نظام الأجر بالقطعة (Piece-work System) ، وفيه يعطى العامل أجره على أساس كمية السلعة التي ينتجها ، وهذا النظام يفيد كلاً من العمال النشيطين الطموحين وأصحاب الأعمال ، إذ يقلل من تكاليف الإنتاج كما هو مبين[1] في جدول رقم (١)

عدد القطع التي ينتجها العامل يومياً	تكاليف المواد الخام بالقروش	أجر العامل يومياً	التكاليف الإدارية	مجموع التكاليف	ثمن تكاليف القطعة الواحدة
١٠	٥	٧ر٥	١٠	٢٢ر٥	٢ر٢٥
٢٠	١٠	١٥	١٠	٣٥	١ر٧٥
٣٠	١٥	٢٢ر٥	١٠	٤٧ر٥	١ر٥٨
٤٠	٢٠	٣٠	١٠	٦٠	١ر٥
٥٠	٢٥	٣٧ر٥	١٠	٧٢ر٥	١ر٤٥

وقد يتبين من أول وهلة أن هذا النظام نظام عادل كل العدل ، ولكننا إذا دققنا النظر وجدناه يؤدي إلى أن

(١) عن كتاب Principles of Industrial Organization

(١) في هذا الجدول ، وفي الجداول الآتية فرضنا أن الأجر المقبول للعامل هو ١٥ قرشاً يومياً وأن عدد القطع التي يستطيع العامل المتوسط إنتاجها هو ٢٠ قطعة .

يكثر العامل من كمية إنتاجه ، ولو كان ذلك على حساب صحته أو على حساب جودة الصنف ، كما يؤدى هذا النظام إلى بطالة بعض العمال وتشريدهم .

ومن أهم ما يعترض تطبيق هذا النظام ، صعوبة قياس كمية ما ينتجه كل عامل على حدة ، إذ أن كثيراً من العمليات تحتاج إلى جملة عمال فى وقت واحد ، كما أن عمل كل فرد متوقف — إلى حد كبير — على عمل غيره ، خصوصاً بعد أن انتشرت الصناعة فى العصر الحديث .

٣ — والنظام الثالث : هو نظام تيلور (Taylor differential piece rate) ، وفيه يعطى العامل أجراً صغيراً عن كل قطعة ينتجها إن كان عدد القطع الناتجة صغيرا ، أما إن كان هذا العدد الناتج كبيراً فإن أجر العامل عن كل قطعة يكون كبيراً ؛ فإذا أنتج العامل عشرين قطعة (مثلا) أعطى عن كل قطعة نصف قرش ويكون أجره عشرة قروش ؛ أما إن أنتج أربعين قطعة أعطى عن كل قطعة ¾ قرش ويكون أجره ثلاثين قرشاً . والجدول رقم (٢) يوضح هذا .

عدد القطع الناتجة يومياً	تكاليف المواد الخام	أجر العامل يومياً	تكاليف الإدارة[1]	مجموع التكاليف	نصيب القطعة الواحدة من التكاليف
١٠	٥	٥	١٢ر٥	٢٢ر٥	٢ر٢٥
٢٠	١٠	١٠	١٢ر٥	٣٢ر٥	١ر٦٢
٣٠	١٥	٢٢ر٥	١٢ر٥	٥٠	١ر٦٦
٤٠	٢٠	٣٠	١٢ر٥	٦٢ر٥	١ر٥٦
٥٠	٢٥	٣٧ر٥	١٢ر٥	٧٥	١ر٥٠

فإذا فرضنا أن $ر_1$ هو أجر القطعة الواحدة إذا قل الإنتاج عن س قطعة .

وأن $ر_2$ هو أجر القطعة الواحدة إذا زاد الإنتاج عن س قطعة .

فإن أجر العامل اليومى $= ر_1 ك_1$ أو $ر_2 ك_2$.

حيث $ك_1$ أصغر من س و $ك_2$ أكبر من س .

وفى حالتنا هذه $ر_1 = \frac{1}{2}$ قرش و $ر_2 = \frac{3}{4}$ قرش و س = ٣٠ قطعة .

ونظام تيلور هذا ضمن المحاولات الأكيدة التى تحاول دفع العامل لإنتاج أكبر كمية ممكنة ، ولكن له نفس العيوب التى للنظام السابق .

(٤) والنظام الرابع هو نظام هالسى (Halsey Premium Plan) . وفيه يعطى العامل أجراً يومياً ثابتاً إذا قل الإنتاج عن كمية محددة ، فإذا زاد إنتاجه على هذه الكمية زاد أجره بنسبة معينة ثابتة .

ونظام هالسى هذا كثير التطبيق فى المصانع الحديثة ، نظراً لما يمتاز به من بساطة وعدل ؛ وذلك لأنه يضمن للعامل أجراً ثابتاً يحصل عليه مهما قل إنتاجه ، كما أنه يتيح الفرصة للعامل المجد أن يزيد من إنتاجه (ولو أن المزايات فى هذا النظام أقل من تلك فى النظامين السابقين) .

والجدول رقم (٣) يبين العلاقة بين كمية الإنتاج وأجر العامل وتكاليف الإنتاج فى هذا النظام .

عدد القطع الناتجة يومياً	تكاليف المواد الخام	أجر العامل يومياً	تكاليف الإدارة	مجموع التكاليف	نصيب القطعة الواحدة من التكاليف
١٠	٥	١٥	١٠	٣٠	٣
٢٠	١٠	١٥	١٠	٣٥	١ر٧٥
٣٠	١٥	١٧ر٥	١٠	٤٢ر٥	١ر٤٢
٤٠	٢٠	٢٠	١٠	٥٠	١ر٢٥
٥٠	٢٥	٢٢ر٥	١٠	٥٧ر٥	١ر١٥

وهناك أنظمة أخرى قريبة الشبه من نظام هالسى[1] ، ولا تختلف عنه إلا فى نسبة زيادة الأجر عن القطع التى تزيد عن الكمية المحددة .

مقارنة بين الأنظمة :

إنه من العسير جداً أن نستنتج مقارنة دقيقة لهذه

---

(١) من العدل أن ترتفع تكاليف الإدارة من عشرة قروش إلى ١٢ر٥ قرشا لزيادة تكاليف التصميمات .

(١) مثل نظام رووان ونظام جانت .

قصة جاليليو

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

الصمت يخيم على قاعة الكاتدرائية في بيزا ، حيث يتعبد طالب طب شاب ، اللهم إلا من صوت سلسلة تتأرجح ؛ فقد ملأ سادن مهمل أحد المصابيح المعلقة بالزيت وتركه يتذبذب ... وكان لصوت تلك السلسلة المتأرجحة أثر في قطع تأملات الطالب المتعبد ، وبدأ سيل من الأفكار والتصورات في مخيلته ، خرجت به عن أفق تعبده وصلاته ، وإذا هو فجأة يثب على قدميه مثيراً دهشة من حوله من المتعبدين .. فقد أبرق عقله بقبس من النور فيما يتعلق بتذبذب المصباح ، إذ بدا له أن الذبذبات كانت متوافقة ، وأن بندول السلسلة المتأرجحة كان يأخذ نفس الوقت في كل ذبذبة على الرغم من أن مسافة الذبذبة كانت آخذة في التناقص باستمرار ...

فهل أصابت حواسه فيما أحست به ؟؟...

إذا كان الأمر كذلك ، فإنه يكون قد توصل إلى كشف عظيم ، وما عليه إلا أن يسرع إلى منزله ويجد فوراً هل كان اعتقاده خاطئاً أم أنه اكتشف إحدى حقائق الطبيعة الهائلة ...

التجربة :

وصل إلى منزله وأحضر خيطين متساويين في الطول وأوصل كلاً من طرفيهما بقطعتين من الرصاص من نفس الوزن وربط الطرفين الآخرين إلى مسمارين منفصلين، واستعد لإجراء تجربته ... طلب من والده الروحي موذيو تيدالدي ، أن يساعده في تجربته ، وذلك بأن يحصي حركات أحد الخيطين ، بينما يحصي هو حركات الخيط الآخر ؛ فهز الرجل الهرم كتفيه وهو يقول لنفسه : « إنها إحدى فكر جاليليو الجنونية » . ولكنه ارتضى مساعدته .

الأنظمة السابقة نظراً لاختلاف الأسس التي يقوم عليها كل نظام ، ولاختلاف النتائج التي نحصل عليها من كل خطة من هذه الخطط ؛ ومع هذا فإننا نستطيع — إلى حد كبير — أن نفرق بين ما يعود على كل من العامل وصاحب العمل من فوائد تحت كل نظام من هذه الأنظمة ، مع ملاحظة أن منفعة العامل ومنفعة صاحب العمل قد لا تسيران في اتجاه واحد في جميع الأوقات .

وبقليل من التأمل والتفكير ، نستطيع أن نختار النظام الصالح لنوع ما من أنواع الصناعة ، إذ أن لكل نظام عيوبه ومزاياه التي تجعله صالحاً لمصنع من المصانع ، وأقل صلاحية لمصنع يؤدي عملاً مخالفاً ، أو لنفس المصنع في مكان آخر .

نظام المكافآت :

ولما كانت هذه النظم السابقة لا تؤدي إلا إلى تشجيع زيادة الكمية التي ينتجها العامل ، فقد رؤي أن تعطى للعامل مكافأة شهرية أو سنوية إذا تحقق المصنع شروط خاصة في العامل ، مثل جودة الإنتاج أو توفير المواد الأولية التي يستخدمها العامل أو الإقلال من الحوادث والمتاعب أو غير ذلك من الشروط .

وهناك بعض الاعتبارات الأخرى في صرف بعض المكافآت الأخرى كإعانة الغلاء، أو إعانة المتزوجين وأصحاب الأولاد .

نظام مشاطرة الأرباح :

وهناك بعض المصانع التي تشرك العمال في الأرباح التي يكسبها المصنع ، وتقصد بذلك أن تزيد من اهتمام العامل بنتائج المشروع ، وتزيد من الصلة بين طبقة العمال وأصحاب العمل . ولكن يجب في هذه الحالة أن ترسم الحدود التي على العامل ألا يتعداها حين يطالب بالإشراف على الحسابات والتدخل في الإدارة .

حافظ أحمد أمين

أمسك جاليليو بالبندولين وأبعد أحدهما مسافة توازى عرض اليد أربع مرات ، وأبعد الآخر نصف تلك المسافة ، ثم تركهما فى لحظة واحدة ليتذبذبا ...

أحصى الرجلان عدد الذبذبات للبندولين فى مدة معينة ، ثم قارناها ، فكانت النتيجة واحدة ... مائة ذبذبة فى كل حالة !!!.

وهنا اكتشف جاليليو من الحركة التذبذبية لمصباح الكاتدرائية الزيتى القاعدة الذواقية الطبيعية التى تستخدم اليوم فى إحصاء نبض الإنسان وقياس الزمن فى الساعة ، وكسوف الشمس وحركة النجوم ...

كان جاليليو دائماً يجرب ، حتى منذ طفولته تجده رفض الاعتماد على معلومات غيره وما يؤمنون به من الحقائق ، بل يخضع كل شىء على محك اختبار حواسه وعقله ...

نشأة جاليليو :

ولد لأستاذ فى الموسيقى ، فأظهر من صغره شغفاً بموسيقى الكرات ، وكان والده إذا تحدث عنه ، يصفه بأنه ولد شارد تائه يرى رؤيا عجيبة ويسمع أصواتاً غير معقولة ويقضى ليله يحدق فى النجوم ..

وفى المدرسة حين كان الأستاذ يحاول أن يشرح للطلبة أهمية حروف الجر والأفعال اللاتينية يكون جاليليو شارد الفكر يسرح بفكره بين السحب ، مفكراً فى البالون الذى أهداه له والده بمناسبة عيد ميلاده .

كان أفق خياله منسرحاً ، وكانت له ذاكرة قوية ، فنى خلال أوقات لعبه ولهوه ، كان يصنع كل أنواع الآلات والأدوات الصغيرة مثل العربات والطواحين والسفن وأى شىء من الأشياء التى شاهدها بحواسه الخارقة غير العادية أثناء سيره فى الصباح .

وفى سن الثانية عشرة أرسله والده إلى مدرسة الدير فى فالمبروسا .. وهناك تحت تأثير رجال الدين ، فكر بعض الوقت فى أن يدخل الدير ويغدو راهباً . ولكن والده لم يشجعه على هذه الفكرة ، وأخذه من فالمبروسا ، إذ كان يود له أن يكون تاجر أقمشة .. !!

ولكن كانت لجاليليو أفكاره الخاصة ، إذ أصر على أن تكون له مهنة علمية ، وهى أن يتخصص فى الرياضيات ، ذلك الحقل من المعرفة الذى كان يعنى لصاحبه فى تلك الأزمنة غير العلمية الفقر المدقع مدى الحياة .

وأخيراً اتفق الوالد والابن على أن يلتحق جاليليو بجامعة بيزا ليدرس الطب . وهناك اندمج خفية وبكل عاطفته فى دراسة الرياضيات ، فكان يخفى تحت كتب هيبوقراط وجالينوس فى الطب كتب إقليدس وأرشميدس ، كما كان يجرى فى أوقات فراغه تجارب بآلات من صنعه ..

« لقد تكلم السيد .. ! »

ولم يلبث أساتذته أن علموا بدراساته وما يجريه من تجارب ، فاستاءوا منه ، إذ كان من الهرطقة أن يفكر طالب بنفسه وأن تكون له آراء ومعتقدات خاصة . فكل المسائل العلمية قد بحثها أرسطاليس وانتهى برأى فيها ..!!

وإذا جرؤ طالب على الاعتراض كان الأستاذ ينهى النقاش بالجملة المشهورة « لقد تكلم السيد » (يعنى أرسطو) وإن فى قوله لفصل الخطاب .. !!

طالب عنيد :

ولكن كان هنا طالب شاب عنيد قد عول على أن يوقف تحكم أساتذته وطرقهم فى فرض المعلومات بدون مناقشة ، بواسطة مشاهداته الخاصة وما يجريه من تجارب .

ولم يلبث الأساتذة أن كتبوا إلى والد جاليليو يطلبون منه وضع حد لهرطقة ابنه وعدم مبالاته بنتائج أعماله ، حرصاً على سمعة الجامعة وصوناً لحياته . فحذر الموسيقى الشيخ ابنه ونصحه باتباع ما يمليه عليه أساتذته وعدم التدخل فيما لا يعنيه من شئون المجهول ..

ولكن جاليليو لم يلق بالا إلى تلك النصيحة ، فقد اكتشف خلال مزاولته فى الخفاء لعلم الرياضيات أن ذلك العلم هو لغة الطبيعة ... وكان على استعداد لأن يتفرغ مدى الحياة لدراسة هذه اللغة ...

أرشميدس عدوه :

وكنتيجة لعناده رفض أساتذته أن يمنحوه دبلوم الطب ، ولما ترك جامعة بيزا وجدته خاوية ، والكل يرى فيه شخصاً خفيف العقل يضيع وقته فى عمل رسوم وأشكال لا طائل

تحتها ... ولكن مقدرته فى عمل تلك الرسوم والأشكال جلبت له سمعة طيبة بين أساطين علماء الرياضيات فى إيطاليا أمثال « جيسبي موليتى » و « الأب كريستوفورو كلافيو » و « جيدو بالدور ديفنت » وهم رجال أطلعهم جاليليو على بعض مشاهداته العلمية فقدروه ولقبوه « بأرشميدس عهده » .

ولكن أرشميدس عهده وجد الرياضيات بديلا فقيراً للطب ، ففى ذلك العهد كان هناك كثير من المرضى ، وليس هناك إلا قليل من المتعلمين المتقين عن الأسرار . وقد حاول البحث عن عدد من الطلاب من طائفة النبلاء ليدرس لهم الرياضيات ، فاكتشف أنه من الصعوبة بمكان أن يجد فرداً على استعداد لأن يعطى مقابل تلك الرسوم والأشكال الخيالية خبزا وزبدة ...!!

ومن حسن الحظ أن خلا كرسى الرياضيات فى جامعة بيزا لحصل جاليليو عليه ؛ ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن أحدا لم يهتم بالحصول عليه ، لأن المرتب السنوى كان حوالى خمسة عشر جنيها ...

امتحان مذاهب أرسطو :

ولكى يزيد من دخله بدأ يزاول الطب فى أوقات فراغه ، ولكن أوقات فراغه كانت قليلة ، فقد غدا الآن مشغولا أكثر من أى وقت مضى بتجاربه ؛ لأن غرضه كما يقول ، هو امتحان مذاهب أرسطو العلمية من جديد ، بدل التسليم بها على طول الخط كحقيقة واقعة ... فالطريق إلى المعرفة ليس باستيعاب كتب أرسطو ، ولكن بدراسة كتاب الطبيعة .

وأصغى الطلبة إلى محاضراته وهم يحاولون إخفاء ابتساماتهم ، فى حين صب الأساتذة على رأسه اللعنات ...

« ... ما الذى يجنيه هذا المحاضر المبتدئ الوقح حين يرمى بكتب أرسطو المقدسة عرض الحائط ويستبدل بها تلك الأدوات المبتدعة المضحكة من حبال وكتل من الرصاص إلى روافع وقوائم وزوايا ومسطحات ؟؟ ..

إن تلك الأشياء ما هى إلا لعب تلهو بها الأطفال ، وليست أدوات للدراسة الخطيرة لغوامض العالم ... »

ثم أنذروه وهددوه بالويل والثبور إن لم يرتدع ويوقف هذا الهراء — على حد اعتقادهم . ولكنه رفض التخلى عن تجاربه ؛ ولذا عولوا على أن يضعوا وعيدهم موضع التنفيذ .

قصة برج بيزا :

كان جاليليو قد أكد — خلافا لتعاليم أرسطو التى كانت تقول بأن سرعة الأجسام الساقطة تختلف بالنسبة إلى ثقلها — أن جسمين مختلفى الوزن إذا رميا معا ، أعنى فى نفس اللحظة من ارتفاع واحد فإنهما يصلان إلى الأرض فى نفس الوقت .

وقال الأساتذة : إن ذلك هراء ، فلا يصدق إلا مختل أن ريشة وكرة مدفع يسقطان إلى الأرض من عل بنفس السرعة ... ووجدوا أن الفرصة سانحة لأن يلحقوا العار الدائم بجاليليو بعرض معتقداته الزائفة غير المعقولة على أنظار الناس ، فتحدوه فى أن يثبت لهم قوله أمام أساتذة الجامعة وطلبتها ...

وقبل جاليليو بكل سرور هذا التحدى .. وكان المكان الذى اختير للعرض هو برج بيزا المائل . وفى اليوم المحدد ارتدى الأساتذة أروابهم الجامعية المصنوعة من القطيفة واتجهوا إلى البرج ، وكان الطلبة وكثير من الأهالى قد بادروا إلى المكان الذى اكتظ بجماعات من المهرجين أعدت لتشهد الإعدام الأدبى لشخص جاليليو ... !!

ومن العجيب أن أحداً لم يفكر فى أن يثبت لنفسه تلك الحقيقة البسيطة عن سرعة الأجسام الساقطة .. !

لقد تكلم السيد فلماذا تتعب نفسك ؟؟

مشهد رائع :

وبين ضحكات النظارة المازحة وسخريتهم اللاذعة صعد جاليليو سلم البرج المائل وفى إحدى يديه كرة تزن عشرة أرطال وفى الأخرى كرة زنتها رطل ...

وجاءت اللحظة الرهيبة ... ترك جاليليو الكرتين تسقطان من أعلى البرج مصحوبتان بصيحات عدم المبالاة من الجماهير والجموع المحتشدة .. ثم ماذا ؟؟ ... همهمة الدهشة والعجب .. فقد حدث ما لم يكن فى الحسبان وما لم يكن أحد ليصدقه وسقطتا خلال الهواء معا ووصلتا إلى الأرض فى نفس اللحظة ..

لقد أثبت جاليليو نظريته ، ولكن بعض الأساتذة أصروا على خطئه رغم ما شهدته عيونهم ، وظلوا يقدسون مذاهب أرسطو وتعاليمه ويعاملون جاليليو بقسوة وتعنت .

تعنت :

ولم يفقد جاليليو شجاعته برغم هذا التعنت وتلك المعاملة القاسية ، بل استمر فى طريقته التعليمية الخارقة للتقاليد وفى حياته غير العادية ؛ فقد كان من القواعد الأكاديمية المتبعة فى بيزا أن يرتدى الأساتذة أروابهم الجامعية ليس فقط داخل حجر الدراسة ، بل فى طرقات المدينة أيضاً . .

ولكن جاليليو خرق هذا التقليد ، لأنه كان يراه سخيفاً لا معنى له ، مصراً على أن تلك الأرواب تضايق حركاته ، فهو يريد أن يكون حراً فى كل وقت طبيعياً وعقلياً ... « فالملابس التقليدية كالعادات الموروثة من صنع الشيطان . »

واضطر بين حين وحين أن يدفع ثمن هذا الخرق للتقاليد على حساب مرتبه . وفى نهاية الأمر نفد صبر السلطات الجامعية على هذا الشاب الثائر الذى جرؤ على تكذيب الأفكار والعادات المأخوذ بها فى ذلك الوقت ، وانتهوا إلى أنه ليس بالنوع الصحيح من الرجال الذى يمكن أن يترك فى يده عنان النشء ، وقرروا أن يلفقوا له تهمة لطرده من الجامعة

الأمير الغبى :

ولم ينتظروا كثيراً ليجدوا هذا السبب الملفق ، فقد اخترع البرنس دون جيوفانى دى مديسى الابن غير الشرعى لكوسيمى الأول ، آلة لتنزح لتستعمل فى تنظيف خليج ليجهورن ، وأرسل نموذجاً لها إلى جاليليو ليختبره ويكتب عنه تقريراً . وجاء تقرير جاليليو مخيباً لآمال الأمير ، فقد كتب له يقول إن آلته جد رائعة ماعدا شيئاً واحداً ، وهى أنها لا يمكن أن تعمل ...!!

وغضب الأمير لكبريائه المجروحة وطلب طرد جاليليو من الجامعة لعدم صلاحيته . وكانت السلطات الجامعية جد راغبة فى هذا الطلب ، واشترك الطلبة بتحريض الأساتذة الأرسططاليين فى خلع هذا الأستاذ ، وبذا طرد جاليليو من جامعة بيزا ...

وهكذا أسدل الستار على الجزء الأول من حياة هذا العالم الفذ الذى سيبقى اسمه خالداً على مر السنين والأيام ...

جمال الدين محمد موسى

تولستوى والمعرى

(بقية المنشور على صفحة ٢)

أحزان الدنيا أحزانه ، وأثقال هموم البشرية همومه وأثقاله ، وشرع يبحث عن لغز الحياة ، ويلتمس معرفته عن طريق الكنيسة فيخفق ، ويتحول إلى شوبنهاور ثم يرتد إلى سقراط وأفلاطون ، ثم يطوف بالأديان المختلفة باحثاً منقباً ؛ ويقرأ نيتشه والمتصوفين ، ثم يتحول بعد ذلك كله إلى الزارعين البسطاء ليتعلم منهم اليقين ، ويستمد منهم الحكمة ؛ وينادى تولستوى بفكرة عدم مقاومة الشر بالقوة ، ويقصد تولستوى بالقوة القوة المطلقة التى تستتر خلف الاقتصاد السياسى أو الرخاء القومى أو التوسع الاستعمارى الذى قد يلبس لباس الفلسفة والمثل العليا القومية . وقد ذهب تولستوى إلى أن الملكية مصدر الشر وأصل الشقاء ، والملكية فى حاجة إلى القوة لحمايتها . والحماية هنا اعتداء وإجرام ، والملكية تستعين بالدولة على حمايتها ، وتقوم الدولة بأعباء هذه الحماية بتنظيم صور مختلفة من القوة مثل قوة الجيش وقوة الشرطة وسلطة القضاء ؛ والدولة فى العصر الحاضر قائمة على فكرة « القوة » لا على نظرية « الأخوة » .

ونخرج من وراء ذلك أن تولستوى ثائر على النظم الحديثة ، بل هو يعد من الذين مهدوا السبيل للثورة الروسية الحديثة بمهاجمته للدولة والكنيسة وتشهيره بالنظام القيصرى ونظام الملكية .

وأبو العلاء مثل تولستوى متبرم بنظم عصره ثائر على حكومته ، ولكن فى لين ومداراة واصطناع تقية . وقد حاول تولستوى أن ينزل عن ثروته ، ويتجرد من أملاكه ، ويعيش فقيراً زاهداً مغموراً ، فوقفت أسرته فى سبيله وعاقته عن المضى فى تنفيذ خطته ، وقد ثقل عليه ذلك وساءه وجعله فى هم ناصب ، وقد سأل نفسه فى يومياته قائلا : « هل أنت نفسك تعيش طبقاً للمبادئ التى تدعو إليها ؟ » ورد على نفسه قائلا : « كلا ، إنى شديد الخجل ومجرم ومحتقر » . أما أبو العلاء فربما كان فى هذه الناحية أسعد حظاً من تولستوى ، فقد عاش أفكاره وطابق إلى حد كبير بين أقواله وأعماله ، وقد يسرت له ذلك ظروفه الخاصة .

على أدهم

صور خاطفة لشخصيات لامعة

عن ديل كارنيجي

ترجمة الأديب حسين أحمد أمين

– ١ –

هـ . ج . ويلز

منذ ثمانين عاماً تقريباً كانت جماعة من الصبية تلعب في شارع من شوارع إحدى الضواحي المعروفة بلندن . وبينما هم يلعبون إذا حادث يقع . . ذلك أن واحداً منهم ضخم الجسم أمسك بزميل له ضعيف التكوين ضئيل البنية ورفعه بين ذراعيه ثم قذف به إلى أعلى وتركه يسقط على الأرض فكسرت ساقه .

واضطر برتي ويلز إلى أن يرقد في فراشه شهوراً طويلة دون حراك .. وعولجت ساقه ولكنها لم تعد إلى ما كانت عليه ، واضطر الأطباء إلى كسرها من جديد ، فكانت تجربة مخيفة مؤلمة لبرتي الصغير .

كان الجميع ينظرون إلى الحادث وقتئذ نظرتهم إلى مأساة ، ولكن برتي عاش ليشهد الكثير من المآسي غيرها . وقد أصبح فيما بعد واحداً من أشهر المؤلفين في هذا العالم .. واسمه كما تعرفه أنت ليس هو برتي ، ولكنه هربرت جورج ويلز أو هـ . ج . ويلز . وربما تكون قد قرأت له بعضاً من كتبه فمؤلفاته تتجاوز خمسة وسبعين مجلداً . وهو يصرح بنفسه قائلا بأن كسر ساقه هو أسعد حادث مر به في حياته . لماذا ؟ لأن ذلك اضطره إلى السكوت في داره عاماً كاملا قرأ كل كتاب وقع تحت يده . لأنه لم يجد شيئاً آخر يفعله . وكانت النتيجة أن شغفه بالكتب تكوّن وتعلقه بالأدب زاد . وتغير ويلز كلية ، وشعر كأنه قد بعثت في نفسه روح جديدة ، فصمم أن يعلو بنفسه عن الحوادث والظاهر التي تحيط به . فكان الكسر الذي أصاب ساقه نقطة التحول في حياته .

وأصبح هـ . ج . ويلز من أكثر المؤلفين ربحاً من أعمالهم ، فكسب مائتي ألف جنيه من مؤلفاته ، على أنه نشأ في بيئة فقيرة كل الفقر . فقد كان أبوه صاحب متجر صغير على وشك الإفلاس ومرناً بسيطاً في لعبة الكريكت . وقد ولد هـ . ج . ويلز في غرفة نوم بسيطة مقامة على متجر والده . وأما المطبخ فكان أسفل المتجر ، مظلما كل الإظلام قذراً كل القذارة . والضوء الوحيد الذي كان من الممكن أن يدخله مصدره ثقب في الرصيف في مستوى أعلى من مستوى المطبخ . ومن أقدم ما يذكره ويلز من حوادث صباه جلوسه في هذا المطبخ المظلم ومراقبته لأرجل الناس المارين على الرصيف فوقه . وقد كتب فيما بعد في أحد مؤلفاته أنه تعلم كيف يحكم على الناس بالنظر إلى الأحذية التي يلبسونها .

وأخيراً أفلس المتجر وتخبطت العائلة واختلط مصيرها . فاضطرت الأم إلى العمل كمدبرة لمنزل بمقاطعة سوسكس والمعيشة مع الخدم . وكان هـ . ج . ويلز يزورها مراراً هناك ، فكان ذلك بداية إشرافه على الطبقة الراقية الإنجليزية وإن كان إشرافه عليها من ركن الخدم .

وبدأ هذا الصبي الذي قدر له أن يؤلف في المستقبل معالم تاريخ الإنسانية يعمل في متجر للأصواف وهو في الثالثة عشرة من عمره . وكان عليه أن يستيقظ في الخامسة كل صباح فيكنس المتجر ويوقد النار ويعمل أربع عشرة ساعة كل يوم . وكان عملا تافهاً يثير احتقاره وسخطه . وأخيراً طرده صاحب المتجر بسبب قذارة مظهره وإهماله وشغبه .

(*) عنوان هذه السلسلة مقتبس من كتاب بهذا الاسم لمحمود تيمور بك .

ووجد عملاً في معمل الكيمياء ولكنه فصل في نهاية الشهر الأول . فاشتغل بمتجر آخر للأصواف ، ولما كان لا يجد بسهولة ما يسد رمقه فقد اضطر إلى الضغط على نفسه والاستمرار في العمل مدة أطول . غير أنه كان ينتهز فرصة غفلة سيده فينتحى جانباً ليقرأ في هربرت سبنسر .

ومر عامان فوجد نفسه غير قادر على الاستمرار في هذا النمط من الحياة . فاستيقظ يوماً من أيام الأحد وقطع ماشياً خمسة عشر ميلاً ومعدته خاوية حتى يقابل أمه . وبكى أمامها وتوسل وهدد بالانتحار إن أعادته إلى المتجر .

وكتب ويلز إلى ناظره القديم خطاباً مؤثراً يخبره فيه بأنه تعس كسير القلب ، وأنه لم تعد له رغبة في الحياة .

ودهش ناظر المدرسة لهذا الخطاب ، فرد عليه قائلاً إنه يعرض عليه أن يعمل مدرساً .

وهذه نقطة أخرى من نقط التحول في حياته .

غير أن هـ . ج . ويلز . كان يقول في مستقبل أيامه بصوته الرقيق المرتفع بأن حياته الشاقة في المتجر ، كان لها أكبر الفضل فيما آل إليه من رفعة ؟ ذلك أنه كان بطبيعته كسولاً مهملاً ، فعلمه متجر الأصواف كيف يعمل .

وبدأ يعمل كمدرس . وإذا كارثة تقع كما يقع الانفجار المفاجىء ، فقد كان يلعب كرة القدم في أحد الأيام ، وفي حدة اللعب وتوتره أصابته ضربة من أحد اللاعبين فسقط على الأرض فداست عليه الأقدام ، وكاد يقتل من الاختناق والألم .

وكان من أثر ذلك أن تلفت إحدى كليتيه وأصيبت إحدى رئتيه . وفقد الأطباء كل أمل في شفائه ، وعاش شهوراً طويلة خائفاً من أن يموت بين لحظة وأخرى ، فكانت الاثنا عشر عاماً التالية كلها تعلق منه بالحياة ، تعلق الغريق باليد الممتدة إليه . وفي هذه الأعوام تكونت عنده القدرة التي أذاعت اسمه في جميع أنحاء العالم المتمدين .

ومكث بعد ذلك خمسة أعوام يكتب بجدة واندفاع وشغف . ولكن ما كتبه من قصص ومقالات وكتب في هذه الفترة كان سخيفاً ككتابات الهواة . ولما كان عنده من صدق في الشعور وذكاء في النفس فقد أدرك ذلك كله فأحرق كل ما كتبه .

وأخيراً — وبرغم أنه كان مهدداً كالأموات — التحق مدرساً مرة أخرى لعلم الحيوان . وفي فصله لقي فتاة جميلة تدعى كاترين روبنز . فشغف بها أكثر من شغفه بعلم الحيوان وكانت ضعيفة مريضة ، وكذلك كان هو . وقد أرادا أن يستمتعا بأكثر ما يمكنهما الاستمتاع به ، فتزوجا على الفور .

كان هذا منذ خمسين عاماً تقريباً ، وبدلاً من أن يموت ويلز كما كان يتوقع ، استعاد صحته وقوته ، وإذا هو يصبح من أكبر القوات المنتجة التي عرفتها الإنسانية ، فكان ينتج كل عام مجلدين ضخمين يتداول الناس قراءتهما في جميع أنحاء العالم حتى انتهى نشاطه بموته عام ١٩٤٦ .

لقد كان عقل ويلز يتوهج بالأفكار . وكان عادة يقوم من نومه في منتصف الليل ليسطر أفكاره في مفكرته . وأصبح لدى هذا الرجل الذي فصل في صباه من متجر الصوف لكسله وإهماله ، معلومات وأفكار وآراء كان يستطيع أن يتخذها مادة لكتبه لمدة مائة وخمسين عاماً .

كان بإمكانه أن يكتب بأي مكان ، في المتجر بلندن ، في القطار ، أو تحت مظلة كبيرة على شاطئ البحر المتوسط . وقد أجر لنفسه منزلين على ساحل الريفييرا الفرنسي ، خصص واحداً منهما للعمل فيه صباحاً والثاني لمناقشاته مع زملائه وضيوفه مساء . فإذا لم يكن بمقدوره أن يستقبل هؤلاء الضيوف بنفسه بمحطة القطار فإنه يرسل إليهم عربة كبيرة لحملهم إليه .. وكانت ساعات ممتعة للجميع عندما يقضونها معاً . فما أكبر ما فقدوه من لذة وما أعظم ما لحقهم من خسارة عندما مات أخيراً هـ . ج . ويلز واختفى من العالم

حسين أحمد أمين

قصـــة «آدم بيد»

للكاتبة جورج إليوت

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

« جورج إليوت » هو اسم القلم للكاتبة الإنجليزية « ماري آن إيفانس » (١٨١٩ — ١٨٨٠) .

تلقت الكاتبة علومها في بيتها . وفي عام ١٨٥١ أصبحت « المحررة الأولى المساعدة » لمجلة « وستمنستر » . وهناك عقدت بينها وبين كثير من المؤلفين أواصر الصحبة . وكان من أولئك (جورج هنري ليوس) التي عاشت معه حتى توفي عام ١٨٧٨ . وبعد ثمانية عشر شهراً من وفاته تزوجت من رجل آخر . ثم أدركتها المنية بعد بضعة أشهر .

وقصة (آدم بيد) هذه هي أول قصصها . وقد ظهرت عام ١٨٥٩ وكتب على غلافها إنها بقلم مؤلف « مشاهد من الحياة الكهنوتية » .

قالت الكاتبة :

الساعة تعلن السادسة . والمكان مصنع واسع الأرجاء يملكه (جوناثان برج) النجار — البناء . والقرية قرية (هاي ستوب) . واليوم الثامن عشر من يونيو عام ١٧٩٩ وبطل القصة (آدم بيد) وهو فتى قوي البنية ، غليظ الأوداج ، صلب العضل ، يسير إلى البيت . ولكن أخاه (سيث) يتخذ طريقه إلى أحد المروج حيث كانت (دينا موريس) — إحدى المبشرات بمذهب جماعة النظاميين — تخطب في الناس .

وأوصل (سيث) الفتاة (دينا) إلى بيتها . وطلب إليها أثناء الطريق أن تكون زوجته ، ولكنها أجابته أنها نذرت نفسها لخدمة الدين . وأنها لذلك في شغل عن الزواج . فرجع إلى بيته غضبان أسفاً . وهناك وجد أخاه (آدم) يعمل في صنع سرير لميت كان أبوهما — الذي أصبح لا عمل له إلا التسكع في المقاهي — قد نسي أن يتم صنعه .

وبينما كانت أمهما (ليسبث) تشكو زمانها . كان آدم يدق بقدومه . وفي صباح اليوم التالي سلم السرير إلى أصحابه .

وإذ هما في طريق العودة إلى البيت ألفيا أباهما غريقاً في مجرى من مجاري البلد . فقال (آدم) في صوت الباكي المحزون : لكأن والدنا أراد ألا يكون علينا عبئاً ثقيلاً وهو في سنه المتقدمة .

وفي بيت (مسز Poyser) وهي خالة (دينا) كانت تعيش بنت أخرى اسمها (هيتي سوريل) وهي فتاة في السابعة عشرة من عمرها . جعدة الشعر ، وسيمة الطلعة ، مليحة القسمات . وكانت هذه الفتاة تعرف أن كلاً منهما تجعل حمرة الخجل تعلو وجه صاحبنا (آدم) . ولكن هواها كان مع (كابتن آرثر دونيثورن) وهو واحد من حفدة مالك الأرض .

وكان (الكابتن) لا يرى في الزواج إلا لوناً من ألوان الجنون . وكان قصاراه أن يستمتع بالمراع العبلة واليد البضة .

وكان عم الفتاة (هيتي) يريدها أن تتزوج (آدم) ، ولكنها هي كانت تحلم بمباهج العيش الرغيد التي كان يعجز (آدم) أن يمتعها بها .

وفي تلك الأثناء كانت (دينا) تسير في طريقها ، طريق هداية الناس إلى الصلاح والتقوى .

وفي منتصف ذلك العام سافر (كابتن آرثر) فظن آدم أن الجو قد خلا له ، وأن (هيتي) قد ترجع عن غيها . وقد تبادله حباً بحب .

ثم عاد (كابتن آرثر) في إجازة ليحتفل بذكرى عيد ميلاده . ولم يخطر بباله أن آدم ، ذلك السميق ، الضخم الجثة ، والذي ملئ وقاراً وجداً . قد وقع في هوى (هيتي) .

وفي ليلة من ليالي شهر أغسطس وكان (آدم) عائداً من عمل له ، رأى شبحين واقفين تحت إحدى الخمائل . وقد تشابكت أيديهما ، والتقى خدٌّ بخدٍّ . فلما سمعا نباح كلب (آدم) انفصلا . وتوردت وجنتا (آرثر) من الخجل وبلغ منه الانفعال أشده . ومشى إلى (آدم) يقول له في غير مبالاة : إنه لقي (هيتي) مصادفة وإنه سألها قبلة .

وفي غير ترويق وتنميق قال (آدم) لآرثر إنه وغد أناني . فحاول (آرثر) أن ينحي للعاصفة . ولكن آدم استطرد يقول: إنك قد سرقت مني سعادتي . وقد كنت أحسبك أوفى صاحب وأبر صديق . ولكني لقيتك رجلاً نذلاً . ثم تبادلا الصفعات . وأبى السيد رقيق الحاشية أن يصامد ويجالد رجلاً غليظ الأنواح من طبقة الصناع .

ولما أفاق (آرثر) من غشيته طلب إليه (آدم) إما أن يعلن أنه كان كاذباً في قوله : أنه لم يمسسها بسوء . أو أن يكتب لها خطاباً ينبئها أنه لن يراها مرة أخرى . فقام بين (آرثر) وبين نفسه صراع . ثم وعد بأن يكتب للفتاة خطاباً . ثم أكد لآدم أن ما كان بينه وبين الفتاة لم يكن إلا مغازلة لا تشوبها شائبة .

واستسلمت (هيتي) لدواعي اليأس لما جاءها خطاب (آرثر) . ورغبة منها في تغيير لون الحياة قالت لنفسها : ولماذا لا أتزوج (آدم) . فلما أعاد عليها القول في زواجه بها قبلت . وسرت (Mrs. Poyser) وزوجها لما عرفا أن قريبتهما قد قبلت آخر الأمر أن تتزوج بالرجل الذي كانا به معجبين .

وكان على الخطيبين أن يؤجلا زواجهما حتى يؤثث البيت . ومضت ثلاثة أشهر ، فأخبرت (هيتي) عمها أنها معتزمة أن تزور (دينا) التي كانت يومئذ في مدينة (سنوفيلد) ولكنها استبدلت زيارة (دينا) بالبحث عن (آرثر) حيث كان يقيم مع فرقته في مدينة (وندسور) ولكن (آرثر) كان قد نقل إلى (إرلنده) . ولما كانت (هيتي) لا تعرف تلك البلاد فقد ظلت تطوف على غير هدى . وفي قرية من قرى (إرلنده) ولدت لآرثر طفلاً . ولما كانت (هيتي) قد حملت هذا الولد حملاً ثقيلاً فقد تركته في الغابة . وعادت إليه بعد قليل فوجدته جثة هامدة .

ومات جد (آرثر) فعاد الحفيد إلى بيت آبائه ليعلم أن (هيتي) رهينة الحبس . وأنها متهمة بقتل وليدها . ثم ما لبثت أن حوكمت الفتاة وحكم عليها بالقتل .

وذهبت (دينا) لتزور (هيتي) في سجنها . وأعانت بنت خالتها على الصلاة والاستغفار . وقد استجاب الله لدعائهما إذ جاء (آرثر) بعد يومين . وحبل المشنقة قريب من رقبة الفتاة . يحمل أمراً يوقف تنفيذ العقاب .. اكتفاء بإبعادها ونفيها . وبعد بضع سنوات لقيت الفتاة حتفها وهي عائدة إلى بلدها .

وعاد (آدم بيد) إلى عمله في التجارة هازئاً بالدنيا وصروفها . وهو عالم أن سروره بالعيش قد ولى .

وفي خريف عام ١٨٠١ كانت (دينا موريس) قد عادت لتعيش مع آل (Poysers) بضعة أيام تعود بعدها مرة أخرى إلى عملها في المدينة . ولاحظت خالتها أن (دينا) التي لم تكن تعرف طعم الحب قد توردت وجنتاها يوم سمعت (آدم) يقول : وما (لدينا) والسفر . وقد حسبتها أنها جاءت لتعيش بيننا طوال الدهر . فقالت : (Mrs Poyser) وددت لو أنك كنت « نظامياً » تعرف ما على أتباع طريقة « النظاميين » من واجبات . ولكن (دينا) قالت وهي تحاول أن تبدو هادئة ساكنة : إنما قبلت أن أجيء لأؤنس وحشة خالتي لحظة .

وخرجت (دينا) في صحبة (آدم) ؛ ذلك لأن (ليسبث) كانت مريضة . وكانت في شوق إلى لقاء (دينا) . وفي الطريق قال لها (آدم) : لا بد أنك تعرفين أني طالما تمنيت أن تكوني أختي لتعيشي معنا العمر كله . ولو أجيبت هذه الأمنية لحسبت نفسي من السعداء .

ولم تجبه (دينا) وظلا يسيران صامتين . ولكن (آدم) لما رأى حمرة تعلو وجهها قال : أرجو أن لا أكون قد أسأت إليك أو آذيتك . وإني لأقنع منك أن تعيشي وبيني وبينك مسافة ثلاثين ميلا إذا رأيت في هذا صواباً . فيا للمسكين آدم ! ويا للرجال المخطئين في حسابهم ! وتحدث (آدم) في هذا الأمر مع أخيه (سيث) فقال له :

(البقية على صفحة ٢٩)

فى دوائر الأدب والفن

لحظات مع أندريه جيد — الواقعية فى الأدب — كتاب من العراق

للأستاذ غائب طعمة فرمان

لحظات مع أندريه جيد :

فى عام ١٨٩٧ أخرج (أندريه جيد) كتاباً غريباً سماه « ثمار الأرض » سجل فيه بأسلوب شعرى جذاب ، وصدق فنى ممتاز ! خطرات رجل عبّر عن عواطفه وأفكاره بحرية وانطلاق .

كان أندريه جيد إذ ذاك فى السابعة والعشرين من عمره شاباً قوى العاطفة شديد الاندفاع ، يجهد جهده لأن يكوّن شخصيته الأدبية فى عالم شغله الطلاء والصناعة الفنية عن الاتجاه إلى الأعماق للتعبير عنها بصدق لا تشوبه مراوغة ، وإخلاص لا ينكص على عقبيه .. فكتب كتابه الرائع ليفصح عما كان يحسه هو وعما جعله أساساً لحياته فى عهد شبابه من غير مواربة ولا دَجَل ! ؛ فجاء كتابه صورة لنفسية شاب مدته المبادئ السيحية بالصدق ، وعلمته « أن إنكار الذات خير الطرق لمعرفة الذات ، وهى أسمى ما يصبو إليه المرء من سعادة مطلقة » ، وألهمته نفسه التواقة إلى الحرية والظامئة إلى حياة مثلى ، كيف يجهر بصوته ليثبت وجوده ، ويثبّت دعائم حياته ..

والكتاب — بعد ذلك — صلوات فى هياكل الرغبة والغريزة وأناشيد لتمجيدها !.. غير أن أندريه جيد نفسه حاول أن يتغاضى عن ذلك ليقول : « إن كتابى ما هو إلا تبرير لشخصية رجل مُجرّد حتى العدم !.. شخصية رجل إن لم يكن فى الحقيقة مريضاً ، فهو قد أبل من توه ... شخصية رجل فى خطرات شعره ذاتها قوة امرئ يقدس الحياة لأنه كان على وشك أن يفقدها » !.. وهكذا يدافع جيد من حيث لا يدرى بكلامه هذا عن الرغبة والغريزة والحرية !.

.. إلا أن الرغبة التى حاول جيد أن يتغاضى عنها ظاهرة جلية فى كتابه جميعه .. وتقدم إلى القارئ هذه المقطوعة التى يمجد فيها جيد الرغبة بحرية وبقوة الشباب :

ماذا حلمت بالأمس ؟!
فعند ما استيقظت ألفيت كل رغباتى عطاشاً !
كأنها قطعت الفيافى ... خلال نومى !
إننا نتأرجح بقلق جيئة وذهوباً
بين الرغبة والخمول !

• • •

أيتها الرغبات !... ألا يعتريك الكلال ؟!
انظرى !... ثم انظرى !... إلى تلك المسرات القليلة الفانية ..
تلك التى تمر بنا سريعاً ..!
وا أسفاه ! إنى أعرف كيف أطيل عمر ألمى !..
.. ولكن .. كيف أستطيع أن أطيل مسراتى على البقاء ؟!
إننا نتأرجح بقلق .. جيئة وذهوباً
بين الرغبة والخمول !
ليخيل إلىّ أن البشرية كمريض يتقلب على جنبيه محاولاً أن يستريح ... ولكنه
لا يقوى على النوم !
لقد جابت رغباتنا عوالم عديدة
غير أنها لم تشبع !
وما زالت الطبائع كلها تتردد
بين الرغبة فى الراحة ، والظمأ إلى المسرة !
لقد صرخنا من العذاب .. فى مخادع مهجورة !
وتسلقنا أعالى الأبراج

حيث لا شيء غير الظلام
كالكلاب كنا نعوى ألماً على التلال الرملية اللافحة !
وكنا نزمجر كثيران ، ونرغى كجمال عطاش تجهد فى أن تمتص قطيرات الماء
من الأعشاب اليابسة !
وكأسراب من السنونو جبنا البحار النائية الأطراف .. القفر !
وأنشدنا الحقول الشاسعة كجراد يبحث عن طعام !
وعصفت بنا الزوابع كما تعصف بالأعشاب .. على شاطىء البحر !
وتناثرنا كما تتناثر دقائق البرد أمام العاصفة !
آه .. إنى لأستنجد بوحدة الموت فى سبيل الراحة الأبدية
حيث تتحرر رغبتى المنهوكة من البحث عن تناسخ الأرواح .
إيه .. أيتها الرغبة !.. لقد كنت معى فى الطرق الملتوية ..
وفى السهول تخليت عنك !
لقد أغليتك بالجمر .. ولكننى لم أروك !
وجعلتك تستحمين فى الليالى المقمرة ، وكنت معى أنّى حللت !
وهدهدتك على مهد الأمواج !
وغنيّت لك أغانى النوم ... فى وسط البحار !
إيه .. أيتها الرغبة !. أيتها الرغبة !.. ماذا أستطيع أن أقدم لك أكثر من هذا !!
وماذا تطمعين فى أكثر من هذا ؟
أيتها الرغبة !... ألا تتعبين ؟!!!...

الواقعية فى الأدب :

يقول جورج دبهامل : « إن الواقع لا ينفد .. ولكن هذا لا يعنى أنه سهل الإدراك ! » .

تلك حقيقة يجدر أن نلتفت إليها .. فالواقع ليس ميسوراً لكل فهم ، مبتذلاً لأى صاحب قلم .. ذلك لأن الواقع غير تلك الصور الخارجية التى تطالعنا لأول وهلة ، وتتراءى لنا فى كل مكان .. بل الواقع شىء أعمق من هذا وأعز منالاً .. الواقع يحتاج إلى تجربة طويلة وإحساس عميق ، ويحتاج إلى سبر الأغوار والنفاذ إلى الأعماق ، ويحتاج إلى صبر ومعاناة للظفر بما هو فوق السطوح وخلف الظواهر من الأشياء ..
ومن هنا كان الواقع بالغ الصعوبة للذين يمرون بمحفتهم على حقل الحياة ، سراعاً لا يتريثون ؛ يزغهم اللون ولا يبهرهم الجوهر ، ويوقفهم الجرم ولا يعرفون ما خلف الجرم .. حتى إذا كتبوا لم يكتبوا إلا عن تلك الظواهر ، ولم يقيسوا إلا بمقياس السطوح ، فيأتى أدبهم كذباً وخداعاً ، ويصبح عملهم بهرجة وطلاء ، وينقلب الواقع بين أيديهم صوراً باهتة لا تدل على شىء ، تمهدها الألفاظ الجميلة ، والتعابير المنمقة بالرعاية والتجميل ، لتخرج إلى الملأ دمية براقة الألوان !! .

(الفوتغرافية) فى الأدب غير الواقعية فيه .. فالأولى عمل العين المكلفة بتسجيل السطوح ، والثانية ثمرة البصيرة الثاقبة المكلفة بالغوص إلى الأعماق .. الأولى سهلة الإدراك ، ميسورة التناول ، عديمة الغَناء ، لا تقف على قدميها أمام تيار الزمن الجارف ، ولا تعطرها نسمة من نسمات الخلود .. أما الثانية فعلى النقيض من ذلك أدب المثابرة والممارسة الطويلة ، والاستيعاب الشامل .. ومثل هذا النوع من الأدب يمد الإنسانية بالقوة ، ويشد أزرها فى معركة المصير ! .

إن أغلب أدبنا العربى — اليوم — زبد يطوف على سطح حقائق الأشياء .. فهو أدب القشور والظواهر الزيفة .. ذلك لأن أغلب أدبائنا يصعب عليهم إدراك الواقع وهم يمرون سراعاً بحقل الحياة !! .

كتاب من العراق :

لو رأيت أحدهم لعرفت من هيئته ومظهره الخارجى أنه فنان !.. ولو ضمك مع أحدهم مجلس ، وأنصت إلى حديثه ، واطلعت على آرائه ، وقرأت شيئاً من نتاجه لما فاتك أن تدرك أن هذا الفنان متأثر بالغرب وأدبه وفنه تأثراً قوياً عميقاً ..

كلهم ساخط متبرم ، وكلهم مرهف الحس يعبد الحرية ! ، وكلهم يتخذ تلك المذاهب الجديدة فى الأدب والفن صورة لحريته المعبودة ، ومنفذاً لنفسه المتبرمة ، وعوناً له على تلك

المتناقضات التي يراها في بيئته ، فيتألم منها ، ويضيق بها ، ويسخط عليها أشد السخط ! ، لأن حياتهم عبث تمضي إلى غير غاية ، وملل يُذبل كل شوق ! ولهذا فقد أطلقوا على أنفسهم (جماعة الوقت الضائع) ! الوقت الضائع في إطار من الملل والوحدة والتفاهة المريرة !! .

هذه الجماعة التي نشأت في العراق تضم طبقة مستنيرة من الشباب العراقي ، منهم الشاعر بلند الحيدري ، والمثال جميل حمودي ، والفنان إبراهيم اليتيم ، والقصصي نزار سليم الذي أريد أن أحدث القارئ عن كتابه الجديد « أشياء تافهة » .

وفي عنوان الكتاب ما يشعر بمذهب الجماعة في الأدب والحياة ، ونظرتهم إلى الأشياء .

والكتاب مجموعة صغيرة من الأقاصيص تجمعها رابطة النظرة الواحدة ! فالقارئ يحس عند نهاية كل قصة بتفاهة الحياة .. فتمط شفتيك بازدراء وتبرم بتلك القوة الخفية — القــدر — تلك التي تعبث بمصاير الناس من وراء حجاب ! .

لقد عبّر نزار عن ذلك على لسان شخصية من شخصياته ببساطة ومن غير افتعال ! فقال في أقصوصته : (أشياء تافهة) « إنك تفهم من هــذه الأشياء التافهة أشياء كبيرة محزنة مرعبة ، أشياء تدل على أن الحياة عبث ، وأنك في هــذه الحياة تحاول أن تحيا وأنت مؤمن بشيء .. ولكن سرعان ما يتحطم هذا الشيء ، وتبقى أنت أنت وحيداً ضعيفاً في عالم غير مستقر .. في عالم فقد الثقة بنفسه .. استمع إلى المذياع وإلى حديث الناس في كل مكان ، فماذا ترى ؟!.. حروب وقتلى ودسائس وآلام .. لماذا ؟ .. لأن العالم فقد عاطفة الحب ! » .

ولا حاجة لأن تقرأ هذا لكي تحس بالمرارة .. فأنت تحس بها عنــد كل قصة .. شخصيات إنسانية يعمر قلبها الحب ، وتنشد في حياتها الحياة .. تتحطم بمعاول غير منظورة ، وفي الغالب الأعم تجور عليها الحياة فتسلبها تلك العاطفة النبيلة !.

هناك بعض القصاصين حين يريدون أن يعبروا عن مثل هذه الأفكار ، وحين يريدون أن يضعوا لقصصهم « فلسفة حياة » يلجأون إلى التهويل والمغالاة ، ويفزعون إلى التضخيم لإبراز الصورة بإطار من القوة والجاذبية ، في حين أن بإمكان هؤلاء أن يعبروا عن أفكارهم ببساطة من غير تهويل ولا مغالاة إن أسعفتهم القدرة الفنية التي تهيمن على القصة وتمدها بالحرارة والحياة . والأستاذ نزار سليم فنان أصيل يضرب مثلاً لتلك القدرة الفنية التي تصنع لك من البساطة والأمور الصغيرة أقاصيص قوية بأفكارها ، عامرة بالحرارة والحياة .. وهذه الصفحات التي أعجبتني من المؤلف ، فقد وجدت نفسي في جو جديد غير ذلك الجو التقليدي الفاسد الذي تعود القصصيون أن يخنقوا أنفاسنا بهوائه أزماناً ! ورأيتني أمام شخصيات إنسانية تحب ببساطة ، وتعاني ببساطة ، وتعيش بكل ما تملك من عاطفة وإحساس ، ولكن من غير ضوضاء ولا ضجيج .. وما أعظم توفيق الكاتب في إبراز ذلك ، وما أروع تصويره .. إن يد نزار ريشة ماهرة تعرف كيف تشير إلى مواقع الإحساس ، وتعرف كيف تعبر عن أدق العواطف الإنسانية ، فتهز القلب الإنساني بقوة .

وإلى هنا أقف مع الأديب العراقي لأعرج على مآخــذ لابد لها من إشارة وتنبيه ! أولها أن تلك البساطة التي أعجبتني في قصصه تتحول في أواخر بعضها إلى تكلف غير مقبول ، فتسلمنا إلى نهاية غير موفقة ونهاية « عقب سيجارة » خير مثال لهــذا التحول غير المستساغ ، فتتحول تلك الأقصوصة الإنسانية إلى « دعاية » تافهة !.. ويمكن أن نضيف إلى هذا اللون تلك الدعابة (القاسية) في أقصوصة (نصيب) ؟.. وثاني المآخذ أن تلك الريشة الفنانة تضطرب في بعض الأحيان .. فتتحول الصورة إلى ظلال باهتة ينقصها التنظيم والتأني ، كما في أقصوصة « أشباح بلا ظلال » ، وفي أقصوصة « الفأر » مثل هذا الاضطراب ، فيحاول المؤلف أن يربط بين موضوعين لا تجمعهما أية رابطة ، فتضطرب الريشة إذ ذاك ، ويتحول الجو إلى برود !

أما أقصوصة « أشياء تافهة » ، فهي خير أقاصيص الكتاب ، لأن ريشة الفنان كانت لم تضطرب ولم يحركها التوتر .

غالب طعمة فرمان



بعد الأعاصير

للأستاذ شكري فيصل

حين مضيتُ إلى صاحبي في السوق أسأله عن ديوان العقاد الجديد كنت أتساءل : هل سيقدم الأستاذ بين يدي قصائده بمقدمة نقدية عن آرائه في الشعر ومذهبه في النقد وسبيله في البيان الأدبي ، أم سيجرد الديوان من هذه المقدمة ويتركه للدارسين والناقدين والمتذوقين يقبلون عليه دون ما فكرة سابقة أو توجيه ممهد ؟ .. وكنت أقدر أن مقالتين كتبهما العقاد في عددي الكتاب الأخيرين عن الشعر قد تكونان هذه المقدمة .. غير أني لم أكد أتناول الكتاب حتى وجدتني أمام ديوان جديد ومقدمة نقدية ممتعة ذات غرض محدد وهدف مقصود .

وطبيعي أن يقترن ديوان العقاد بمثل هذه المقدمة النقدية ؛ فليس العقاد شاعراً فحسب ، بل قد يكون الشعر آخر ميزاته التي استوت له ، ولكنه مفكر وأديب وصاحب مذهب في البيان وناقد عميق الغور شديد العارضة واسع الأفق ، نهض على تزوّد ثقافي شامل ، وتوفرت له — مع الزمن — تجارب غنية ضخمة ؛ فمن حق شعره عليه — وهو شعر ذو طبيعة خاصة — أن يقدم له ، وأن يمهد الطريق أمامه ، وأن يفتح ما بينه وبين نفوس الناس الذين لم يألفوه ، أو الذين هم في أول عهدهم بتذوقه وإلفه .

وكذلك كان ، وكذلك قدم أستاذنا العقاد ديوانه ، غير أنه لم يقدمه للناس جميعاً ، ولا للأدباء والنقاد والمتذوقين عامة ، وإنما اختص به طائفة من « القراء الأكرمين » نجوا أو هم يستطيعون أن ينجوا من الأخطاء التي علقت بالنقد وخرجت به عن سوائه ، وعلى هذه الأخطاء ، وتعميمها وتجريد النقد منها أقام الأستاذ العقاد صفحات المقدمة ، وهي أخطاء ثلاثة :

١ — طغيان العصبية المذهبية ، السياسية أو الفكرية ، واستخدام النقد الأدبي لترويج هذا المذهب ومحاربة خصومه .

٢ — إساءة فهم حركة التجديد في الأدب واتجاهها إلى حركة تقليدية مريضة .

٣ — اعتقاد أن الشعر وجدان ، حظ الفكر والتأمل فيه دون حظ الواجد والشاعر .

فإذا كنت ولست لك عصبية مذهبية تجعلك تستخدم النقد الأدبي وسيلة لنصرة هذه العصبية ، وتصدر عنها في الذم والثناء — وإذا كنت وأنت من الذين وعوا التجديد الأدبي وعياً كاملاً وأدركوا أنه ليس كلمات تلقى وجملاً يتعلق بها — وإذا كنت من الذين يؤثرون الجانب الفكري في هذه المنطقة الشعورية ، أعني منطقة الشعر ؛ فأنت إذاً قد برئت من عيوب النقد ، ومن سلطان الهوى ، ومن الأخطاء التي خالطت أذهان الناقدين ، وأنت إذاً واحد من هؤلاء « القراء الأكرمين » الذين قدم لهم الأستاذ ديوانه الجديد .

وأحسب أن هذه المقدمة التي صغتها لك ، ستضعك وجهاً لوجه أمام بعض الخطوط الكبرى من شعر العقاد ، تتمثله قبل أن تقرأه ، وتتخيله قبل أن تمضي فيه ، وتقف من مشكلاته موقفاً واضحاً : تعرف خصومه وأنصاره ، وتدرك محبذيه ومعارضيه ، وتستبين لك أنها خصومة عنيفة بين ألوان من المذاهب في الأداء الشعري يقف العقاد على الذروة

من مذهب منها : مذهب يرعى جانب الفكر وضبب التأمل ، ويفرط فى هذه الرعاية حتى لتنعكس أحياناً إهمالاً لنوازع الحس ، أو سربلة لها فى نطاق الفكر — وإخفاتاً لهواجس الضمير ، أو تصعيداً بها إلى سماوات التأمل ، وحتى لتنعكس أحياناً أخرى استخفافاً بالسبك أو باللفظ أو بهما معاً ، وحتى لتبدو أنها تأخذ بيد القارئ من رأسه لا من قلبه ، ومن تفكيره لا من عاطفته ، لينقاد لها ويتجاوب معها .

ولن تجد جهداً فى إدراك ذلك والوقوف عليه ، فأسلوب المقدمة نفسه كفيل أن يقودك ويطلعك ويمكن لك من هذا الإدراك . فهذه المقدمة النقدية القوية التى كانت جديرة أن تكون عرضاً هادئاً للآراء ، ومناقشة متمهلة لألوان من التناول الشعرى ، جاءت ولها ثوب فضفاض من الدفاع وجرس واضح قوى من المرافعة والاتهام ، حتى عنوانها لم يخل من هذه الصبغة العاطفية التى تلونها حين سماه الشاعر « فى ذمة النقد » .

وتتساءل : لم كان ذلك ، أهو اليأس من الإقناع ، أم هو الملل من المعاودة ، أم هى الأنفة أن يردد فى العقد السابع آراء له سبقت منذ سنين وسنين ؟ . ولكنك لا تقع على جواب تطمئن إليه ؟ فإذا كنت ، مثلى ، من الذين يعرفون لهذا الكاتب الكبير قدرته الفذة ، ويدركون منزلته الرفيعة ويثقون أنه يستطيع أن يقلب الأمر على كل وجه ، وأن يعرض فى كل صورة ما يريد عرضه ، إذاً لرجوت لو كان حديث المقدمة عرضاً ، ولم يكن دفاعاً وما يضطر إليه الدفاع من تجاوز عن أمور ووقوف عند أخرى .

وتظلم نفسك وتظلمنى وتظلم الديوان ، إن أنت لم تقرأ هذه المقدمة مرتين قبل أن تحتويك جنة الشعر : تظلم نفسك لأنك تخسر هذه اللامحات النقدية البارعة التى لحس بها سيرة النقد العربى فى معالمها ، فى السنوات الأخيرة ، وتظلمنى لأنك قد تشاركنى هذا النقد دون أن يتاح لك مشاركتى هذا الإعجاب ، وتظلم الديوان لأن تهمه وتذوقه إنما يقوم على إعانتك بهذه اللفتات النقدية التى أراد الأستاذ العقاد أن يمكن لها فى عقلك ونفسك .

والديوان بعد هذه المقدمة طائفة من القصائد والمقطوعات فى ست مجموعات : خواطر وهواجس — نجوى — فكاهة — وطنيات — تقدير — تأبين .. ثم .. ثم هذا الشىء الذى قد تعجب له : ثلاث قطع منثورات (حيرة العقول — سلام على إبراهيم — عبقرية المازنى) يجمع بينها وبين الديوان أنها مقالات تتصل بموضوع قصائد التأبين .. ولك حين تعرف هذا أن يزول عجبك ، ولك أن يقوى هذا العجب ويشتد حين تجد ما يغتفر فى مقال حيرة العقول ، لأنه رثاء للنقراشى ، ومقال سلام على إبراهيم لأنه رثاء للمازنى ، ولكن يعوزك أن تجد ما يغتفر فى « عبقرية المازنى » وهو كما تلمح من عنوانه ، وكما سماه الأستاذ العقاد ، وكما هو حين تقرؤه ، بحث .. بحث عن عبقرية المازنى .

هل تقول إنه الوفاء لصديقه .. ولكن ألا يكون الوفاء إلا على هذه الصورة من الجمع المشوش ؟

* * *

لم سمى الأستاذ العقاد ديوانه « بعد الأعاصير » ومثل هذه التسمية توحى إليك بالهدوء والدعة ، وقد تجد لها رائحة الاستقرار ، وربما سكبت فى أذنيك نغماً من الطمأنينة .. وقد يسهم الأستاذ العقاد كذلك فى أن يخدعك عن نفسك فيقول لك إنه « قد يكون فى هذا الديوان غير شاهد واحد من شواهد الاستقرار بعد الإعصار » ولكن حذار .. فليست هذه التسمية أكثر من تسمية شعرية شكلية لأنه « أول ديوان يصدر بعد الديوان السابق (أعاصير مغرب) » . أما الأعاصير فلا تزال أعاصير ، لا تزال هذه الرياح الموج من الحيرة والقلق ، وهذه الضروب المضطربة من التساؤل والتعجب . لا تزال نفس العقاد هذا المحيط الكبير الذى يموج بالتيار المتدافع ولا يقر عن مد وجزر وحركة واضطرام . وخير مجموعات الديوان التى تمثل ذلك وتعبر عنه المجموعتان الأوليان : خواطر — ونجوى . وستقرأ فتجد فى الخواطر هذا القلق المشبوب دائماً وهذه الأسئلة التى لا تزال تعتلج فى صدر العقاد فيقذف بها على لسانه : ما المبدأ والمصير ؟ ما الكون والحياة ؟ ما الأزل والأبد ؟ ما الخير والشر ؟ أين كنا وإلى أين يكون مهبط الناقلة ؟ أتشاؤم أم تفاؤل ؟ ما الناس وكيف ركبت فيهم هذه الطبائع ؟ ما الأنثى وكيف تتقى ؟ ما الموت وما البعث ؟ .. هذه المشاكل الكبرى فى الذهن أو فى الحياة تتنفس عند العقاد شعراً قلقاً متسائلاً متحيراً .. يزيد قلقه وغموضه من جماله واستثارته بالقارئ حتى ليدعه نهب تصورات لا يخلص منها أو لا يكاد .

ليس هنا فى هذه المجموعة شاهد استقرار بعد إعصار .

وحين تجاوزها بعد وقفة مستأنية عندها وقراءة معادة لبعض مقطوعاتها (أم لعبة تنادى ٣٧ ، تهنئة بمولد ٢٩ ، يوم ميلادى ٢١) إلى مجموعة نجوى (وهى تسمية جديدة لنوازع الهوى وغوايات النفس ، فرضها وفاء السن على الأستاذ العقاد) فإنك لن تجد هذا الاستقرار إلا فى هذه التسمية الهادئة ، أما ما وراء ذلك فأنت واجد ما شئت من استيفاز الحس ويقظة الهوى وخصب المشاعر .. وأنت سامع ما شئت من حوار ونداء ، وضراعة ورجاء ، وحنين ووجد ، ونفس تعيش فى الثلاثين ، لم تخفت السنون حدتها ولم تذهب الأيام بوهجها وضرامها .

هاتان المجموعتان من الديوان خير مافيه ، على الخير الذى فيه ، عمق شعور فى الثانية ، وبعد تأمل فى الأولى .. فنى مجموعة خواطر وهواجس تتمثل كل قيم العقاد منشعبة فى فرعين اثنين ، ينفصلان حيناً ويتجاوران حيناً ، وقد يتمازجان حيناً ثالثاً : قيمه الأخلاقية من نحو (شعراء ، محصف ماجنة ، الصم الصامت ..) وقيمه أو سماته الفكرية من نحو آخر (لا فناء ، أيهما المستحيل ، على الحالين ، أغلب الظن ..)

وفى مجموعة نجوى تتضح كل المثالية التى يريدها العقاد للحب مقرونة إلى كل الواقعية التى تكتنف هذا الحب .. وقصائده هنا مزيج عجيب من الصورة المثلى ومن الواقع الواضح .. إنه يتمنى الحب خالداً خلود الدهر ، ولكن أنى له .. ويتمناه وفاء لا انفلات منه ، ولكن بين النساء والوفاء أرض ملأى بالعثرات .. ويتمناه حباً موحداً لا إشراك فيه ، ولكن ليس باختيار منه كان هذا الإشراك .. ويتمنى قمة الحب الطاهر الذى يحلق فى السماء ، ولكنها لا تأتى إلا بعد هذا الحب الذى يلاصق الأرض (مقاطع من عام رابع ٣٦ ، نعمة من نقمة ، أواخر قيثارة تبعث ..)

ليس هذا فحسب ، ولكن « نجوى » فى « هذا الأعاصير » قصة كاملة بعيدة الغور ، شكل صاحبها الطريق إليها .. وهى رغم كل التزمت الذى أحاطها به الأستاذ العقاد ، حتى ليخرجها أحياناً إلى منطقة التأمل الصرف ، تكشف الناقد عن صراع عنيف وتحكى قصة طويلة موزعة على أكثر من قصيدة (معجزة وبرهان ، عام رابع ، رأيت ..) ربما كانت هى القصة التى تشغل قلب العقاد اليوم ، وقصصا جانبية أخرى ربما لم يبق منها إلا الذكر والأطلال .

وأقصى الانطلاق فى هذه المجموعة هذه الأبيات الراقصة التى تتضح إغراء : شمس تغيرك بإبنه .. (٣٧) وقد اجتمع لنا فى هذين التصغيرين الحلوين إلى جانب رشاقة الوزن وأسلوب الحديث وهذا التجمع والتلاصق والتكامل كل ما يشاء الشيطان الذى أراد الشاعر أن يطرده .

أما أقصى التزمت والهدوء ومراجعة النفس ففى مقطوعة « الحب أحمق » .

• • •

فى المجموعات الأخرى من الديوان مجال لحديث طويل لا تتسع له هذه العجالة الطائرة ، ولكنه حديث يتصل وثيقاً بالمقدمة ويلتق بها .. ذلك أن أكثر القصائد الباقية جاءت فى نطاق المقدمة النقدية وعلى شروطها ، بل لعل جزءاً من هذه المقدمة كان تبريراً أو شرحاً لهذه القصائد .. ولذلك فإن حظها من التقدير إنما هو تبع لحظ المذهب النقدى من الصواب ، أو من الإيمان به ، وعلى قدر انسياقك مع هذا المذهب وانسجامك مع شروطه وفروضه يكون تقديرك لهذه القصائد ووزنك لها .

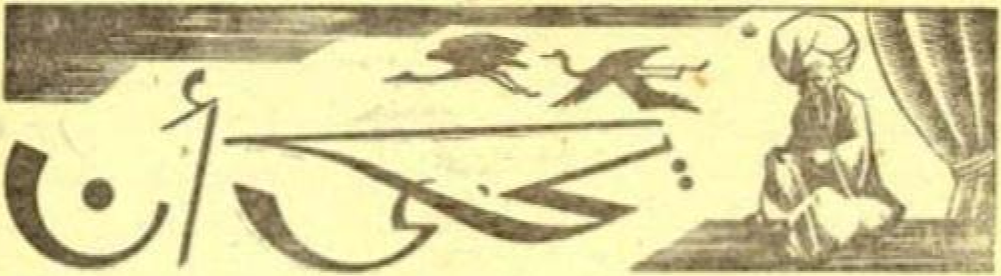
ومع ذلك فقد يبق لك أن تتساءل ، كاتباً ما كان أمر المقدمة : كيف جاءت قصائد التقدير والتأبين ، أعنى المديح والرثاء فى ٤٦ صفحة متجاوزة كل شعر الديوان الآخر ، الذى لا يبلغ ٤٠ صفحة .. فلو ضممت المنثورات ، وهى ذات صلة بقصائد الرثاء ، لكان ثلثا الديوان شعر تقدير وتأبين !!

ثم يبق أن نتساءل ونرجو الأستاذ العقاد لو يجيب : ما سر هذه الظاهرة فى الإقبال على الأوزان القصار إقبالاً غريباً حتى لا تتجاوز الأبيات من البحر الطويل بضعاً وعشرين بيتاً باستثناء القصيدة الأولى فى رثاء محمد محمود باشا ، والأبيات من البحر البسيط ستة عشر بيتاً ، ثم تتوزع الديوان بعد ذلك أوزان مطربة قصار !؟

وأخيراً ، حين تنتهى من مطالعة الديوان ، ستتساءل معى : أترى أن الشاعر ، حين يطلع على الناس بشعره ، أن يختار لهم ، أو أن يسوق لهم كل نتاجه ثم يترك لهم أن يختاروا ؟ .. ولن يعجزك الجواب فى هذه المرة .. لن يعجزك أن تقول إن شاعراً كبيراً كأستاذنا العقاد جدير أن يطلع على الناس بكل ما يقول .. فما أشد ما ينفعك فى التفسير ما لا ترضى عنه فى التعبير ، وما لا يستثيرك فى سن مبكرة قد يلهبك فى سن متأخرة .. وهل الشعر إلا تجاوب ؟

القاهرة

شكرى فيصل



إناء الريحـــــان

لجيوفانى بوكاشيو

١٣١٣ - ١٣٧٥

ترجمة الأستاذ أحمد بدران

[كان بوكاشيو صديق دانتى وصفيه ، وكتابه عن تاريخ حياة دانتى هو أهم المصادر عنه ، ولكن شهرة بوكاشيو تعتمد على كتابه « دى كاميرون » الذى أعاد فيه حكاية مائة قصة فى حلقة متصلة ، ومن هذا الكتاب أخذ شوسر وشيكسبير ودرايدن وتنيسون وغيرهم من كبار الكتاب ، وقد أحب ابنة غير شرعية لملك نابولى كانت زوجة أحد الأشراف ، وهى التى ألهمته أكثر آثاره ، وأظهرها بطلة قصته « فيامتا »]

كان فى مسينا ثلاثة شبان ، إخوة تجار ، تركهم موت والدهم — وكان من سان جيانيانو — أثرياء . وكان لهم أخت ، اسمها ليزابتا ، فتاة جميلة تفضل عنهم أدباً وتهذيباً ، لكنها لسبب ما لم تتزوج بعد . وكان عند الإخوة الثلاثة فى متجرهم شاب من بيزا ، اسمه لورنزو ، يدير لهم كل شئونهم ، ولما كان يمتاز بالأمانة والشهامة فإن ليزابتا كانت كثيراً ما تمنحه نظرة ، وبدأت تميل إليه . وقد لاحظ لورنزو ذلك فهجر كل حبيباته وبدأ يبادلها الإعجاب . وتمكن الحب من قلبيهما فاندفعا لا يحفلان بشيء ، ونسيا أن يحيطا أمرهما بالكتمان اللازم ، فحدث ذات ليلة وكانت ليزابتا ذاهبة إلى حجرة لورنزو أن رآها أكبر الإخوة دون أن تشعر ، فآلمه ما رأى لكنه اعتصم بالحكمة ولم يقل شيئاً ، وقضى الليلة يقلب الأمر فى ذهنه على أوجهه ، وفى الصباح أخبر إخوته بما رأى فى الليل ، ولكى لا يقع العار على أحدهم أو على شقيقتهم قرروا بعد تدبير طويل ، أن يعتصموا بالصمت كأنهم لم يروا أو يسمعوا شيئاً ، إلى أن يحين الوقت المناسب لكى يضعوا حداً لهذا الأمر قبل أن يستفحل ، ثم يكفوا عن الضحك والمزاح مع لورنزو كعادتهم ، وبعد أيام تظاهروا بأنهم ذاهبون إلى المدينة للمتعة ودعوا لورنزو لمرافقتهم ، فقبل هذا وذهب معهم . فلما وصلوا إلى مكان بعيد منعزل رأوا أنه يناسب غرضهم هاجموا لورنزو الذى أخذ على غرة إذ لم يطف بذهنه أى شك فى نياتهم ، فذبحوه ثم دفنوه دون أن يشعر به أحد .

وفى عودتهم إلى مسينا ادعوا أنهم أرسلوه فى مهمة تتعلق بالعمل ، ولما كانوا كثيراً ما فعلوا ذلك من قبل فإن أحداً لم يرتب فى شيء . لكن لما لم يعد لورنزو سألت ليزابتا إخوتها عنه بإلحاح وقلق وقد حزت فى قلبها غيبته الطويلة ، فحدث ذات يوم عندما كانت تلح فى سؤالها أن

قال لها أحد الإخوة : ما معنى هـذا ؟ وما شأنك أنت بلورنزو حتى تسألى عنه هكذا على الدوام ؟ لا تسألينا عنه ثانية وإلا جازيناك عن هذا السؤال بما تستحقين .

ولذلك كفت الفتاة عن السؤال . وقد غمر قلبها الأسى والشجن ، وأحست بخوف مبهم ، لكنها كثيراً ما نادته فى الليل فى ضراعة تدعوه أن يعود إليها ، وتبكى غيبته الطويلة بالدمع الهتون وتتلهف على عودته حتى أضناها الهم والسقم .

وحدث ذات ليلة إذ أوت إلى فراشها بعد ما بكت طويلا فاستغرقت فى النوم أن بدا لها لورنزو فى الحلم شاحباً وقد تمزقت ملابسه كأنها الأسمال وقال لها : « أى ليزابتا ! ما عاد لك من شغل إلا دعائى . لقد تسببت فى عذابك بغيبتى الطويلة ، ولشد ما تحز فى نفسى دموعك . لكنى لا أستطيع أن أعود إليك ، فنى آخر يوم رأيتك فيه قتلنى إخوتك ...

وبعدها وصف لها المكان الذى دفنوه فيه . وطلب منها ألا تبكى بعدها ولا تنتظره . ثم اختفى . فاستيقظت الفتاة فزعة وهى لا تشك فى أن هذا الحلم حقيقة . وفى الصباح لم تستطع أن تقول شيئاً لإخوتها وصممت على أن تذهب إلى المكان الذى عينه لها فى الحلم لتتحقق مما رأته فى المنام . فادعت أنها ذاهبة للترويح عن نفسها قليلا خارج المدينة واستصحبت خادمة مخلصة كانت تعيش معها وتعلم كل سرها ، وأسرعت إلى المكان الذى عينه لها بأقصى سرعتها ؛ وما إن أزالت بعض الأوراق الجافة المنتثرة فى ذلك المكان وبدأت تحفر حيث بدت لها الأرض أشد طراوة حتى وجدت جثة الحبيب البائس ولم يتناولها عبث ولا تلف ، وهكذا علمت دون أدنى شك أن ما رأته فى المنام كان حقاً ، وودت وهى أشد النساء حزناً وأسى لو وقفت طويلا تندبه هناك . وتمنت لو تستطيع أن تحمل الجثة كلها لتدفنها فى مكان يليق بها . ولكنها كانت لا تستطيع ، فأخذت سكيناً وفصلت الرأس من الجسد ، ثم لفته فى قماش وأهالت التراب على بقية الجثة وغادرت المكان ولم يرها أحد . ثم عادت إلى منزلها وهناك أغلقت عليها حجرتها وسعها الرأس وقبلته آلاف المرات فى كل موضع ، وبكت طويلا فى حرقة فوقه حتى أغرقته بدموعها . ثم لفته فى قطعة رقيقة من القماش ووضعته فى إناء جميل من ذلك النوع الذى يزرع فيه الريحان والورود ، ثم غطته بالتراب وزرعت فوقه بعضاً من أحسن أزهار الريحان فى سالرنو ، وكانت لا ترويها إلا بدموعها أو بماء معطر بالورد وشذى البرتقال ، وكثيراً ما جلست إلى جانب الإناء لتسقيه بدموعها ، وإذ تعهدت التربة بهذه العناية التى لا تنقطع وكان الرأس المتعفن داخلها يغذيها الغذاء الدسم فقد نمى الريحان بجمال فائق وشذى عجيب .

ومضت حياة الفتاة على هـذا المنوال . ودهش إخوتها إذ رأوا جمالها يذبل وعينيها مقرحتين ، وكان بعض الجيران قد لاحظوها إذ تجلس إلى إناء الريحان ، فأفضوا بالخبر إلى الأشقاء ، وهؤلاء راقبوها وزجروها مرة أو مرتين ، ولكنها لم تكف عن مسلكها . فأخفوا عنها الإناء دون أن تشعر ، ولما افتقدته ولم تجده أخذت تطلبه بإلحاح ، فلما لم يعطوه لها مضت لا تنقطع عن النواح والبكاء حتى مرضت وهى لا تكف فى مرضها عن التوسل إليهم أن يعيدوا إليها إناء الريحان . فدهش إخوتها الشبان دهشة شديدة وأرادوا أن يروا ما يحويه الإناء ، فلما أزالوا الطين رأوا قطعة القماش وبداخلها الرأس لم يأت عليه البلى ، فعرفوا أنه رأس لورنزو وأخذتهم الدهشة وخافوا أن ينتشر الخبر ، فدفنوا الرأس ؛ وفى سكون وهـدوء حصلوا على إذن خاص بمغادرة مسينا ورحلوا إلى نابولى .

ولم تكف الفتاة عن البكاء والتضرع حتى ماتت ؟

أحمد عبد الله



النشيد الباكى .. !!

لا القلب يسلو ولا جرحى بملتئم
أخنت على جبـــال الهم والألم !!
أنا الطريد على الأشواك ما رقأت
لى المـــدامع فى الأوهام والظلم
أنا الأسى لا تمـــوت بأنمـــلة
عدواى كالنار لا تبقى على ثم
أنا الذى سار لا يدرى متى غده
مرزأ الخطـــو شبّت ثورة بدمى
أحيا على هامش النسيان محترقاً
يا ليتنى كنت ظلا فى يد العدم !!
شـكواى أنات فنان تعانده
دنياه — إذ راح يبنى أضخم القمم
وما توانى ولـكن الزمان وفى
فبات فى حلك الآلام والســأم
هومت فى أفق الأحـــلام مقتربا
كأنى عـــبرة فى أعين النجم !!
وإذ أفقت عـــلى دنيـــا مرزأة
رأيت فجـــر الأمانى غير مبتسم
فرحت والفرحة الـكبرى محطمة
أحيا على هامش النسيان كالصنم
أخشى الليالى فما تنفك مؤتلقـــاً
تمشى وتهـــدمه عجالة القـــدم
تبكى الأجنـــة من هول به وصمت
قلوبهـــا طينة ســـفت فلم تلم
كم أزعجت من وكون بعدما أمنت !!
وهدمت من قصور الحسن فى القمم !
إن كان جرحك يا قلبى تحار له
نطس الأطبـــاء لم يشـــكا فيلتئم
شيّع شبابك للأرماس إن بها
طب العصىّ من الآلام والســقم
لاتقض عمرك لا لحن .. ولا وتر !
واعبر عباب الردى واهجر دنى الرمم
إن الأُلى رشـــفوا بالأمس لذتها
ماتوا ولم يدركوا منها سوى السقم
هذا الذى خلفت كفاه ما صنعت
ماذا جنى من ضياع العمر فى الظلم ؟
وذلك الجاهل المغرور لم رضخت
له الليالى ؟ .. فمضى .. وهو كالصنم
آمنت أن الليـــالى فى جنايتها
أعمى .. تخبط فى الظلماء كالرُّقم

يحيى الدرديرى فارس السردالى

قصة « آدم بيد »

(بقية المنشور على صفحة ٢٠)

إنه قد فقد الأمل فى أن يتزوج (دينا) وإنه يسره السرور كله أن يرى أخاه سعيداً . ثم قال له : يمكنك أن تعرض عليها أمرك . فهى لم تغضب يوم عرضت لها بالزواج . فلما سأل (آدم) الفتاة (دينا) قالت : إن قلبها منجذب إليه . ولـكن عليها أن تلبث ريثما يلهمها الله سبيل الرشد . ثم عادت إلى المدينة . وبقى (آدم) ينتظر عودتها . . ثم ذهب إليها يسألها الجواب فقالت : يا آدم إنها إرادة الله !

والآنَ أنت معى . وإنى لأحس أن الحب قد جمع بين قلبينا .

فنظر (آدم) إلى عينيها البريئتين وقال : إذاً فنحن لن نتفرق بعد اليوم أبداً يا (دينا) . ثم قبل كل منهما صاحبه . وقد استخفهما الفرح وماد بعطفيهما السرور .

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٠١ | الاثنين ١٨ من رمضان سنة ١٣٦٩ — ٣ من يوليه سنة ١٩٥٠ | السنة الثانية عشرة

في السياسة الدولية :

مشروع شومان

للأستاذ أحمد طه السنوسي

... في ٩ مايو عام ١٩٥٠ اقترح مسيو روبرت شومان Schuman وزير خارجية الجمهورية الفرنسية باسم حكومته اقتراحاً للجمع بين موارد الفحم والصلب لأوربا الغربية ، وقد ترك هذا المشروع مفتوحاً لدول أوربا الأخرى التي ترغب الدخول والاشتراك فيه ، وقد انضمت الدول إلى هذا الاقتراح ولكن انجلترا خالفت ذلك ...

ويقول (الجورنال ديجيت) في عدده الصادر في ٤ يونيه ١٩٥٠ : إن حكومات فرنسا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا ولكسمبورج وهولنده وقد قررت متابعة أعمالها وجهودها في سبيل السلام والتكتل الأوربي وفي سبيل التقدم الاقتصادي والاجتماعي إنما تريد أن تحصل على فوائد جمة من ذلك الغرض الحالي المشترك ، كما أنها بهذا المشروع الشوماني تريد أن تهيء لها سلطة جديدة كبيرة ، ولم تصدق الحكومة البريطانية أنها تستطيع أن تشترك مع الست الدول الأخرى التي وقعت على المذكرة المشتركة في هذا الشأن ، وقد سرت الحكومة الفرنسية حين فكرت في أن بريطانيا قد تقبل الاقتراح الذي تقدمت به لأجل تقدم المداولات والمخابرات وتدبير الأمور .

.. ويوافق مسيو بول هنري اسباك رئيس وزارة البلجيك السابق على الدعائم الأربع التي قام عليها مشروع شومان ، ورأيه في ذلك رأي يعتد به نظراً لسلطته ومركزه السياسي والاجتماعي ، وقد رأينا ذلك في العدد الذي صدر في ٧ يونيه ١٩٥٠ من جريدة (البورص اجيبسين) وفي نفس مقال الرئيس اسباك في نفس هذا العدد من الجريدة يذهب جنابه إلى أن يوم ٩ مايو ١٩٥٠ ربما يكون ذا أهمية أولية كبرى في تاريخ الهيئة الأوربية وإيجاد السلام ...

وفرنسا في تمهيدها الأول لهذا المشروع إنما تريد أن تجعل الدول الأوربية تسلم أولاً وقبل كل شيء بالأسس الأولية لهذا المشروع وهي أن تقبل مبدأ الجمع بين موارد الفحم والصلب ثم العمل على تكوين هيئة جامعة فوقها سلطة مركزية تستطيع أن تملي أحكامها وقراراتها على حكومات البلاد التي اشتركت في المشروع ...

بيد أن بريطانيا لم توافق على هذا ؛ نظراً لأن ذلك فى رأيها يجعل هنالك سلطة أعلى من السلطة الوطنية ، وهذا ما تتحاشاه ؛ وهى ترى أن الفحم والصلب من أسس الثروة الاقتصادية فى بلادها ؛ تلك الثروة التى قامت على دعائمها الثروات السياسية والاجتماعية والثروات الأخرى ؛ فوضعُ هذه الأسس الهامة تحت سلطة دولية أو سيادة أعلى من سيادة قوميتها أمر يتنافى مع منطقها ، ويتنافى مع أسس سياستها التى تحبو على أرضها بهدوء وجمود واتزان ..

وهذه النقطة هامة فى الموضوع كل الأهمية ؛ فأنا لا أرى عجباً فى إجماع دول أوربا على السير فى هذا المشروع ، مشروع شومان ، وخروج إنجلترا على هذا الإجماع وعدم الاشتراك فيه كالدول الأخرى ؛ وذلك لأن هذه صبغة سياسية قد تواضعت السياسة الإنجليزية منذ قرون على السير على نهجها والمألوف مع خطوط رسمها دون انحراف أو اعوجاج أو تغيير وتبديل ، إلا ما اقتضت الضرورة واقتضت الظروف ..

وأسوق مثلاً محسوساً فى تاريخ القرن التاسع عشر ، وذلك فى (المحالفة الرباعية) التى تكونت من الدول الأربع : النمسا وبروسيا وانجلترا والروسيا ، بعد فشل محاولات قيصر الروسيا فى (المحالفة المقدسة) التى اقترح برنامجها بعد أحداث الحروب النابليونية ومؤتمر فينا الذى عقد فى سنة ١٨١٥ لتنظيم شئون أوربا بعد هذه الحروب ، وكانت تلك الدول الأربع قد تعاقدت فى هذه المحالفة على الاحتفاظ بالسلم فى البلاد الأوربية ، وخاصة فرنسا وإسعاد شعوب هذه البلاد ، كما تعاقدت على أن تهيمن على الشئون الأوربية وتراقبها واحدة واحدة لتتخذ إزاءها الخطوات المطلوبة ، ودخول انجلترا فى هذه المحالفة ، إنما كان يستند ضمناً على ألا تتدخل الدول الأربع المتحالفة فى شئون الدول الداخلية والخاصة بها أو تهيمن عليها ؛ فلما رأت أن المحالفة إنما كانت ترى لهذا الغرض بالذات ، وذلك بفضل مترنخ زعيم الحركة الرجعية فى القرن ١٩ ، وبفضل الروسيا التى أراد قيصرها التدخل فى شئون الدول خشية عدوى الثورات فيها إلى بلاده وتركيزاً للحكم المطلق فى هذه البلاد ، صارت منذ ذلك الحين عاملا قوياً هداماً لهذه المحالفة الرباعية ، لأن مناهجها غامضة تحتمل التفسيرات المتباينة والتأويلات المختلفة ، ولأنها رأت أن هذا الغموض يؤدى دائماً إلى التدخل فى شئون الدول ومنها بريطانيا التى لا توافق بأى حال على إيجاد سلطة أعلى من سلطتها الوطنية وحريتها فى العمل وسيادتها القومية ، والتى تحول دون أى محرك يحركها غير أبنائها أو هدف يوجهها غير هدف بلادها أو محالفة تملى عليها إرادتها دون مخالفة قوتها الخاصة متمثلة فى حكومتها وفى شعبها البريطانى ..

تلى ذلك حين قام مؤتمر فيرونا سنة ١٨٢٢ للبحث فى مسألة الثورة فى أسبانيا ورغبة فرنسا فى التدخل كى تقمع تلك الحركة القائمة فى أسبانيا ، ذلك البلد المجاور لها والذى يقلق مضجعها أول ما يقلق إذا ما تقلقل واهتز وقامت فيه الحركات والثورات . فالذى حطم المحالفة الرباعية انسحاب ولنجتن مندوب بريطانيا منها ليفسح مجالا طيباً لحكومته كى تهتم بأمورها وتحافظ على حريتها ونزعتها التى تتمشى مع اتجاهها ...

ولن نفهم من ذلك أن انجلترا لا تود أن تشترك مع الدول الأوربية فى مثل تلك المحالفات وهذه المشاريع ، وإنما المفهوم أنها لا تمانع فيها ، إذا قامت على أساس أولى هو منح الحرية فى العمل ثم التعاون بعد ذلك على أى نص من النصوص لا يتنافى مع هذا الأساس الأولى . وما لنا نذهب بعيداً وأمامنا أمثلة بادية للعيان لاتعتورها الشكوك ولا تحوم حولها التفسيرات أو الشبهات ؛ فإننا نجد هذا الأساس الأولى فى سياسة بريطانيا فى ميثاق بروكسل وفى ميثاق الأطلنطى وفى غير ذلك من الميثاقات التى ترمى إلى التعاون وتقوم على الاتحاد لأداء غاية معينة فى اتجاه معين ...

وبتساءل حزب العمال في بريطانيا تساؤلا محيراً ، فيقول : أين هذه الحكومة التي ترضى أن تدع رقابة دولية أو سلطة دولية تراقب صناعتها الهامة الكبرى التي هي أسس الحياة الاقتصادية في البلاد الأوروبية ؟ بل أين هذه الحكومة التي توافق على جعل سلطة ما تعلو على السلطة الوطنية فيها ؟ ولعله بذلك يريد أن يطبع الحكومات الأوروبية بطابع حكومته ، مستنكراً رغبة هذه الحكومات إذا أبدتها في تناسي السلطة القومية والتفكير في رفع السلطة الدولية على الوطنية والقوميات ...

فترى بريطانيا اليوم أن حل هذه المشكلة الخاصة بمشروع شومان لا يكون إلا باجتماع وزراء الدول ليتباحثوا في أمور هدفية ترمي إلى الاحتفاظ بالسلام في أرجاء المعمورة ، وترمي إلى إيجاد وسائل جديدة تستطيع بها الدول رفع مستوى الاقتصاديات الأوروبية وتقدم الحالة الاجتماعية في أوربا ، مع الاحتفاظ بالحرية والتوفيق بين سياستها وروحها الذي تستمليه من القوة الموجهة لسياستها ، والتاريخ الحافل بأمثلة تلك الروح الخاصة التي لا ترغب في التسلط الدولي وتأبى دائما إلا التمتع بالسلطة القومية .

ولكن هذا كما يبدو واضحاً يتنافى مع ما ذهب إليه المسيو روبرت شومان في مشروعه ؛ وذلك لفرق جوهري هو أن رغبة بريطانيا هي أن تسير حسب وجهات واتجاهات عامة ، أما مشروع شومان فله أغراض محدودة ومنهج معين ...

ولا يخفى أن الدول الأوروبية الغربية تود إشراك بريطانيا في هذا المشروع لأن عدم اشتراكها يضيع على هذه الدول مكانة دولة من الدول الكبرى في السياسة والاقتصاد ، كما أننا لو نظرنا إلى العلاقات السياسية بين انجلترا وفرنسا صاحبة المشروع نجد أنها تقوم في هذه الأيام على أساس من الود الخالص والتواد الكامل ؛ لذا فلا شك أن الدول سوف لا تألو جهداً في إشراك بريطانيا ، وفي نفس الوقت ستعمل كل جهدها للتوفيق بين الروح والوجهة البريطانية وبين أغراض المشروع الشوماني ، وبالتالي سوف نرى أن بريطانيا ستشترك في هذا المشروع على أي نوع من أنواع المشاركة ، ولا غرو فهي اليوم تطلع أولاً فأولاً على التفاصيل الخاصة بتطور المباحثات الخاصة بذلك المشروع الهام الذي يشغل جزءاً هاماً من السياسة الأوروبية في هذه الحقبة من الزمن .

أحمد طه السنوسي

إليهـــا ..

قالوا : توارت في التراب ... فقلت ذا شيء عجاب
إن الكواكب كلهـــا .. ... تخفى على متن السحاب
فنظل ننظر نحوهـــا .. ... حتى تمزق ذا الحجاب
فاخسأ غراب البين لا ... تشطط وأحسن في الخطاب
يا نفس ليتــك قد جننت ... فلم يروعك الغراب
وقع المصاب وليس كل ... مصيبة مثل المصاب
قل للنواعي بعدها ... إن المحاسن في التراب
قل للورود تبعثري ... فالروض أصبح كاليباب
قل للغصون تكسري ... قد صوح العود النضاب
قل للبلابل نوحي ... أبداً إلى يوم الحساب
أنا لا أحس من الحياة ... سوى التياع واضطراب
يا موت أنت بجنتي ... فامسح بنفسك ذا العذاب
أنا لست جباراً فلا ... أقوى على حمل الصعاب
يكفيك تعذيب الصغار ... وما دروا طعم الشراب
وتداؤهم « ماما » ولم ... يسمع هنالك من جواب
يا موت منك تحسري ... وبك الدواء المستطاب
أفقد رفاقي من حبا ... في عيشها السم المذاب
فالقبر آمال الذي ... فقد الأحبة والصحاب

صبحي عبد الحميد هاشم

أرقـــــام

للدكتور زكي نجيب محمود

أزال الله بهذا القلم محنة طال أمدها حتى أشرف على الخمسين يوماً ، انقطع خلالها عن الكتابة في شتى ضروبها ، وقد كان يوشك قبل ذلك ألا ينقطع عنها يوماً واحداً ، وذلك أن صاحبه قد شُدَّ إلى أعمال الامتحان شداً عنيفاً ، حتى تحرج صدره وضاقت نفسه ، ولم يجد ما يعينه على البلاء سوى أن يرخي على عقله ونفسه ستاراً من خياله ، فلا يدرك ما حوله إلا إدراكاً غامضاً ، على نحو ما يُرْخَى الغطاء على عيني الثور المربوط إلى الساقية ، حتى لا يتبين ما هو فيه من محنة فيثور .

كان هذا القلم أيام محنته يملأ جوفه في الصباح مداداً ، ليفرغه طيلة الضحى أرقاماً ، يظل يرشها صفوفاً صفوفاً ، وكلما فرغ من كومة منها جاءته كومة أخرى : فالعقل لا ينفكّ يملي عليه ، والقلم لا ينفك يُفرغ مداد جوفه بما يملى عليه : ٧ ضعيف ، ١٠ مقبول ، ٥ ضعيف جداً ، ١٢ جيد ، ٦ ضعيف ، ٩ ضعيف ، ١١ مقبول ، ٨ ضعيف ، ٣ ضعيف جداً ... وهكذا راح قلمي المسكين اليائس الخيِّب الرجاء ، يملأ جوفه في الصباح مداداً ، ليفرغه طيلة ساعات الضحى بما يملَى عليه من هذه الأرقام وما يشبه الأرقام ! ولم يكن يعلم إلا الله وصاحبُه كم كانت تلتوي أمعاؤه من الألم حيناً بعد حين ، إذ كان يتمنى لنفسه شيئاً فوجد شيئاً آخر ، فما أبعد الفرق بين ما كان هذا القلم يرجيه لنفسه ، وبين ما سُخِّر له تسخيراً خلال تلك الأيام الخمسين .

وجاءني عندئذ رسالة كريمة تردني إلى الكتابة ، فهممت أن أجلس إلى مكتبي ساعة أصيدها اختلاساً من شبكة الأرقام ، التي ضربت حول قلمي نطاقاً كأنه نسيج العنكبوت وقد تعثرت فيه الفريسة المنكوبة ؛ هممت أن أجلس إلى مكتبي ساعة لعلي أجيب تلك الرغبة المشكورة ، فأطفئ من نفسي ظمأين ، وأحقق لقلبي غرضين ؛ لكني وجدت القلم محموماً مثل صاحبه ، فهو — كصاحبه — في غمرة من خيبة الرجاء ، كلاهما كان يريد لنفسه مكاناً ، ويأبى الناس إلا مكاناً أدنى ؛ فهذا القلم المسكين اليائس الخيِّب الرجاء ، ينظر إلى الأقلام التي يباريها وينافسها ، فيعجب لماذا يحكم عليه الناس من دونها أن يفرغ مداده فيما قد كان يصلح له أتفه الأقلام ، إلا أن يكون سجناً مقصوداً ونفياً منشوداً وتشريداً مدبراً ؟!

ولم أكد أفرغ من محنتي تلك ، وأخرج من ضائقتي كما يخرج السجين من غيابة سجنه ، حتى أفرغت ما في القلم من بقية مداده ، لعلي أطهره مما احتوت أمعاؤه من آثار الدنس ، وملأته مداداً جديداً نقياً ، إن صح أن يوصف المداد بالنقاء ، وقلت له : هو الآن فاكتب يا قلمي ، فدَمعَ دمعة سوداء كان منها عنوان هذا المقال : « أرقام » ، لأن الأرقام التي ظل يكتبها خمسين يوماً ، كانت لا تزال عالقة بشباته ، لكنها الآن قد نُفخ فيها روحٌ ، فإذا هاتيك الأرقام ناس !.

« ٧ ضعيف » ... ليست هذه العبارة رقماً أصمّ إلا عند صاحب القلب الميت والبصر المفقود ؛ انظر إليها متأملاً ، ترها شاباً في الثامنة عشرة من عمره ، أميل إلى السمرة ، كحلت له عين وعطبت عين ، له شارب خفيف ، وانتثرت على وجهه شعرات لحية عمرها أربعة أيام أو خمسة ؛ وفي الشاب ذبول الزهرة التي لم تذبل ذبول الموت ، ولا هي

ازدهرت ازدهار الحياة ، فهو وسط بين الصحة والمرض ، وبين النشاط والخمول ؛ إنه بحاجة إلى قطرتين من ماء لينتعش ويصحو ! هو بحاجة إلى قطرتين اثنتين من حب ليرتوى قلبه الظمآن ؛ لقد شبع وارتوى من حب أبويه ، وأرادت له الطبيعة الآن حباً آخر :

.. لكن اذبل عوداً يا بنى ، مت قلباً وروحاً وانطق عقلاً وفؤاداً ؛ إنك تحيا فى قفر يباب ، هيهات أن تجد فيه هاتين القطرتين اللتين تتعطش إليهما ، لأن الفضيلة عندنا يا بنى حَدُّها هاتان القطرتان من ماء ! اسرق ما شئت ، وانهب ما شئت ، واستهن بالناس ما شئت ، ودس على الواجب بقدميك ما شئت ، فلن يخرجك ذلك كله يا بنى ، ولن يخرجك أضعافه من حظيرة الفضيلة وزمرة الفضلاء ، ما دمت بمنجاة من هاتين القطرتين من ماء الحب اللتين يريدهما عودك ليرتوى ! وها قد آن سجناؤك آخر العام لينشروا أوراقهم بين أيديهم ، فيملى المملى على الناسخين : « ٧ ضعيف » ، ويكتب الناسخون فى جَهْمَةٍ على جباههم ورعشة بأيديهم : « ٧ ضعيف » — غيره .

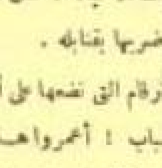
« ٧ ضعيف » — ليست هذه العبارة رقماً أصم خطه قلم ، لكنها صورة ذلك الشاب الذى سنحت له فى الدرس فرصة ذات يوم ، فقام يسألنى أسئلة فيها مرارة وثورة على كل صاحب سلطة ، فى الأرض أو فى السماء ، وفرغ الدرس ولم أكن قد أتممت حديثى معه ، فتبعنى فى ركن هادئ من المكتبة ، وراح يقص لى جملة حاله ، فإذا هو يعيش فى بيت كأنه الجحيم : أمٌّ مطلقة وزوجة والد تذيقه العلقم كلما أصبح له صباح أو أمسى مساء ، ووالد لا يكاد يجد القرش لغذاء أسرته ، فضلاً عما يتطلبه شاب كهذا الشاب مما تقتضيه صبحات الشباب ...

إذاً يابنى فالجوع الذى يعصف بقلبك الغض ، يشتد حتى يشمل المعدة والأمعاء ، ويوقر السمع ويعمى البصر ! لكن امض فى هذا السعير الذى تخوضه بالنهار والليل ، وستنقضى أشهر قبل أن يأتى يوم الحساب ، فيجلس زبانية جهنم فى أجنحة الملائكة ، فيملى منهم مُملٍ ، ويسجل ناسخ : « ٧ ضعيف » — والله يعلم أن الضعف بادٍ فى عينك وفى مشيتك ، وفى جناحك المهيض ، ولم يكن بهم حاجة إلى هذه الأروقة ينصبونها ، وإلى هؤلاء الحراس يقيمونهم ، والأجراس يدقونها ، كأنها جنازة وهذه شعائرها ! لم يكن بهم حاجة إلى كل هذا لينشروا بعد ذلك أوراقهم بين أيديهم خمسين يوماً كاملة ، يصفونك فيها بأنك « ٧ ضعيف » .

آه لو رزق الله هذا الإنسان المنكود قوة فى خياله ليرى أشخاصاً أحياء وراء الرموز !.. ينظر القائد الحربى إلى الخريطة ويضع إصبعه على نقطة سوداء ، فيهمهم لنفسه أن تضرب « هذه النقطة » بالقنابل ليفسح الطريق أمام جيشه ! والنقطة السوداء تحت مجهر الخيال حى بيوت ملأى بالآباء والأمهات والأطفال والقطط والكلاب والدجاج ! ياليت النقطة السوداء على الخريطة تطن بكل ما يملأ منازلها وشوارعها من أصوات الأحياء ، لعل القائد الحربى يتردد لحظة قبل أن يقرر ضربها بقنابله .

وكذلك هذه الأرقام التى نضعها على أوراقنا آخر العام ، فنحنط فيها جثث الشباب ! أعمروا هذه الأرقام بخيالكم لتشهدوا وراءها أبناءنا كائنات حية متنفسة نابضة القلوب ، فتروا فى أى قفر من الوجدان يحيون ، وفى أى جو من الجوع النفسى يتنفسون ، قبل أن تجلسوا إلى موائدكم آخر العام ، وفى أيديكم الأقلام مشرعة كالأسنة المسمومة ! فيملى المملى ويكتب الكاتبون : « ٧ ضعيف » ...

زكى نجيب محمود



من وحي البحيرات

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد

لو كنت — أيها القارئ الكريم — مثلي ، ممن تعلموا الجغرافيه في كتاب المستر مفارد ، أو كتاب « جغرافية مصر والسودان » للمستر مارتن ، لـكان من الجائز أن تعترى ذاكرتك الآن رعدة حين يقع نظرك على عنوان هذا المقال ، كما هي الحال معي كلما ذكرت درس الجغرافيه عن البحيرات ! فقد كان علىّ — كبقية التلاميذ — أن أحفظ أسماء البحيرات في آسيا وأفريقيا وأمريكا الشمالية والجنوبية وغيرها من القارات ، وأن أستمّع هذه السلسلة من أسماء البحيرات عن ظهر قلب ، وكان على أن أذكر أن بحيرة فكتوريا مثلاً تقع على خط الاستواء وجنوبيه ، وأنها أكبر بحيرة في أفريقيا ، وتزيد مساحتها على ٢٦٠٠٠ ميل مربع ، وأن البحيرات الخمس التي تقع بين كندا والولايات المتحدة هي أكبر مجموعة من البحيرات في العالم . ولو كنت من ذوي التصور البصري مثلي لتصورت — كما أتصور الآن — هذه القطع والبقع غير الهندسية التي يسمونها « بحيرات » مرسومة على خرائط الأطلس ، ومنتثرة هنا وهناك كل واحدة في مكانها وبجانبها اسمها ، ولم تكن هـذه الأشكال غير الهندسية للبحيرات تحمل إلى معنىً من المعاني أكثر مما يدل عليه شكلها العام . فالبحيرات الـكبرى بالولايات المتحدة وهي : Superior, Michigan and Huron ، كانت تذكرني بشكلها على الخريطة شكل ورقة الخروع . وبحيرة فكتوريا بروافدها الـكثيرة القصيرة التي تصب فيها تذكرني شكل الأخطبوط .

وفي الخرائط الملونة كانت البحيرات تبـدو زرقاء ، فكنت أتصورها آباراً أو عيون مياه . تشترك جميعها في التعريف الذي كنت أحفظه ، وهو أن « البحيرة جزء من الماء تحيط به الأرض من جميع الجهات » . وما دام هذا تعريف البحيرة فلن يضيرني ألا أعرف عنها أكثر من اسمها . وقد كنت بحفظي هـذه الأسماء أضمن الدرجة الـكاملة للإجابة عن سؤال البحيرات .

أما إذا كنت تسكن — أو سكنت — قريباً من إحدى البحيرات ، أو زرت بعضها ، فإن ذكرياتك عن البحيرات ستكون — ولا شك — إحياء لخبراتك السارة أو المؤلمة التي لابست قربك من هذه البحيرات .

وأنا أذكر أني لم أر واحدة من البحيرات المصرية قبل سن الأربعين . فقـد زرت وصحباً بحيرة قارون[1] ، تلك البحيرة التاريخية التي عاصرت مصر في كل أطوارها ، والتي اتخذ منها أمنمحت الثالث خزاناً لتنظيم الري في منطقـة الفيوم .

زرت هـذه البحيرة فوجدتها راقدة راكدة ، كأنما أنهكها مرور القرون ، فلم تعد تعبأ بما يحيط بها وما يطرأ عليها . زرتها فرأيت رقعة زرقاء فاقعة من الماء الآسن الصافي الذي تنبعث منه رائحة الملوحة في قوة وحدة ، ممتزجة برائحة السمك السجين . ورأيتها ، وقد انسابت إليها من هنا ومن هناك أمواه المصارف حاملة معها أملاح التربة التي غسلتها ، والبحيرة تبتلع الأمواه والأملاح في غير نمو ، لقد أدركها الهرم ، وبدأت تضمحل وتنكمش وتتجعد حافتها كما تتجعد بشرة الهرم . ثم حانت مني التفاتة إلى الفضاء الفسيح حول

(١) كانت هـذه البحيرة تسمى في التاريخ القديم بحيرة موريس . ويظهر أن العرب لما رأوها لأول مرة وشاهدوا شكلها سموها بحيرة القرون ، لأنه كانت لها أطراف كالقرون ، ثم حرف هذا الاسم فصار بحيرة قارون .

البحيرة ، فلم أر إلا تربة غبراء أو أرضاً قد اخضر إهابها بعد أن سقاها الفلاح الكادح بعرق جبينه ، وهى بهذا كله مناظر رتيبة كتلك التى ألفناها فى جميع أنحاء الوادى ، فليس بها جبال أو تلال ، وليس عليها غابات أو أشجار ، ولا يُجمّلها مسقط ماء ولا ينبوع زلال . وعلمت أن هذه الأراضى قد آلت إلى بعض الأثرياء بثمن بخس ، وسوف تقسم وتباع بعد إصلاحها ، أراضى للزراعة أو البناء . والزائر لهذه البحيرة من طالبي الراحة والمتعة لا يجد من المنازل غير فندقين أعدّا لمن كان ذا مال ، فيصل إليهما بسيارته ، ويدفع لهما من ثروته بسخاء . أما صاحب الدخل المعتدل فبينه وبين البحيرة طريق يسلكه إليها راجلاً ، ثم لا أمل له فى البقاء عند البحيرة بعد الغروب إلا إذا بات فى العراء .

ثم رأيت بحيرة البرلس ، وهى امتداد داخل للبحر الأبيض . وهناك بينها وبين هذا البحر ، وعلى ساحل رملى نظيف سهل منبسط ، أمضيت إجازة سعيدة صحية رخيصة فى أحد المخيمات . لقد كان الوصول إلى هذه المنطقة الهادئة البسيطة نوعاً من السفر الذى يسمونه قطعة من العذاب . ففى قطار سكة الحديد الضيقة ، وفى الدرجة الأولى منه ، تكدس الرجال والنساء والأطفال والأغنام والمعز وزكائب الحشيش ومقاطف البلح . وكان القطار يسير ويقف وفقاً لرغبات الأهالى . فلا يتحرك قليلا حتى يقف ، ويقذف الأهالى من راغبي السفر أحمالهم من نوافذه إلى داخله ، ثم يقذفون أنفسهم بعدها . وهكذا عانيت ورفاقى ما حرّمت بعده أن أضع قدمى فى مثل هذا القطار .

ولكن ما لهذا وسواحل البرلس وبلطيم ؟ إنها هناك ممتدة هادئة لمن يصل إليها طائراً أو سابحاً أو راكباً



غروب شمس عند بحيرة مريوط

أو راجلاً ، إنها هناك قطعة من الجمال الطبيعى البسيط : ماء ورمال وسماء وشمس وهواء . هذه هى الطبيعة التى لم تفسدها يد الإنسان كما يقول روسو . وإن كنت لا أومن بقوله على إطلاقه « كل شىء صنعته يد الطبيعة جميل مالم تمتد إليه يد الإنسان . فإذا امتدت إليه يد الإنسان أفسدته » فالطبيعة قد تكون جميلة حقاً ، فإذا امتدت إليها يد الإنسان المصلحة زادتها جمالا وتنسيقاً وتهذيباً ، وقد تكون الطبيعة عشواء فى إنتاجها فتحتاج إلى يد الإنسان المصلحة لتقودها وتوجهها . أما إذا كانت يد الإنسان مفسدة فإنها ستفسد ولا شك ما جملته الطبيعة .

هناك على بساط الرمال البيضاء ، وبجانب مياه البحر الأبيض الزرقاء ، وبالقرب من ضفاف البرلس عشنا فى مخيمنا

الهادئ بعيداً عن صخب المدنية وزحامها ، عيشة بدائية منظمة . وقد كان الذى دفع بنا إلى هذه البقعة النائية قصر اليد وخفة الجيب ، فما كان فى مكنتنا أن نرتاد من المصايف المتحضرة ما يرتاده أمثالنا ممن هم فى سعة من العيش .

وقد كادت تمضى إجازتنا سعيدة هادئة لولا أن نغصتها زيارة لإحدى القرى القريبة من البحيرة . زرنا تلك القرية فرأينا سكانها فى أكواخهم البدائية الجرداء الدكناء ، رأيناهم ونساءهم وأطفالهم ومواشيهم وحشرات الأرض وأسراب البق يعيشون فى تلك القبور ، وقد انبعثت منها روائح بشرية وبهيمية ، وتكدست حولها أكوام من الأسمدة الكريهة المقززة ، ورأينا أطفالهم — وفيهم العباقرة ورجالات المستقبل — وقد تجمعت على وجوههم زمر الذباب ولطع الأوساخ ، وتدلت فوق أجسامهم الناحلة أسمال قد ربطت أنسجتها بعضها ببعض بمزيج لزج من العرق والتراب . وكانوا ينظرون إلينا وننظر إليهم ، كأنهم ليسوا منا ، ولسنا منهم . وتأملنا وجوههم فلم نر فيها إلا أعور أو أعمش أو أعمى . ويلاه ! قرية بأ كلها مصابة بأمراض العيون ! إنها أمراض معدية وهم جاهلون مهملون . وما أسرع انتشار المرض مع الجهل والإهمال .

ولكن دعنى أنتقل بك بعد هذه التجربة الأليمة إلى منطقة تضم خمس عشرة بحيرة ، يسمونها « منطقة البحيرات » رقدت هذه البحيرات ، كبيرها وصغيرها ، بين أحضان الجبال الشامخة والتلال الناهضة . وقد تطامنت وهوت إليها خلال الجبال والتلال وديان تتسع أحياناً وتضيق أخرى ، وأخاديد عميقة بعيدة القاع . ولكن أى جبال ، وأى تلال ، وأى وديان ، وأى أخاديد ؟ إنك سوف لا ترى إلا لوناً واحداً قد طغى عليها جميعاً ، فغمرها وأغرقها ، هو لون الغابات الباسقة ، والأشجار المورقة ، والشجيرات الخضرة ، والأعشاب النضرة ، والمراعى الفسيحة . هو لون الخضرة ذات الظلال التى لا تحصى ! الخضرة القاتمة ، والخضرة الداكنة ، والخضرة الفاقعة ، والخضرة اليانعة ، والخضرة الفاترة ، والخضرة الذابلة ، والخضرة المصفرة ، والخضرة المحمرة ، إنها خضر لا حصر لها ، ولكنها مع ذلك خضرة مشتركة . ومن هذه الجبال والتلال ، وفى هذه الوديان



منظر فى منطقة البحيرات بشمال انجلترا

والأخاديد تنساب منذ الأزل نهيرات ومجاري مياه ، في حماسة وروعة تارة ، وفي وداعة ورقة تارة أخرى ، وتنطلق جميعها إلى حيث الزوال . تنطلق وتتلاشى في هذه البحيرات التي تبتلعها ، فتحيل ثورتها العاتية خضوعاً واستسلاماً ، ودويها التقي وسوسة فصمتاً . وخريرها الموسيقي لحناً فانياً .

ياعجبا لهذا المجرى الرقراق يجري مسرعاً إلى نهايته !

والبحيرات كالمرايا الناصعة اللامعة تحف بها أطر من الشطآن الخضرة المزهرة . البحيرات غير متشابهة شكلاً ولا لوناً ؟ فلكل منها شخصيتها المميزة لها . لا ، إن بينها جميعاً عنصراً واحداً مشتركاً هو سحرها وجمالها .

وفوق هذه الرقعة الصافية من مياه البحيرة قد انعكست آلاف الصور والألوان والأضواء مما يحيط بها . فلست تدري أيهما أجمل ! المناظر الحقيقية الماثلة فوقها أم الصور المنعكسة عليها ؟ كلتاهما سحر وكلتاهما جمال .

وقد تقف شاخص البصر حائر الفكر بين جمالين ، فتقطع عليك حيرتك مناظر أخرى ، هي مناظر القوارب الصغيرة ، جاريات بقلاعها الناصعة ، يعبث بها الهواء على صفحة الماء ، ذاهبة هنا وهناك ، تتهادى كعرائس تخطرن بيض الثياب . أو تقطع عليك حيرتك مناظر الجزائر الخضراء الصغيرة قد أطلت برءوسها فوق الماء ، كما تطل الأماني الحلوة المكبوتة أثناء حلم لذيذ .

والغابات الفارعة البعيدة على رءوس الجبال وقمم الهضاب لم تصل إليها يد الإنسان ، فظلت صائنة جمالها البكر ، عذراء لم تعبث يد بجمالها . وما امتدت إليه يد الإنسان مما أخرجته الطبيعة زادته جمالاً وتهذيباً . فهذه وديان من الأزهار الطبيعية ، صفراء وحمراء وزرقاء وبيضاء . وهذه حدائق نسقت أزهارها وأشجارها يد صانع . فلا ترى إلا زخارف هندسية ، وأبسطة هندسية عجيبة ذات ألوان واضحة جذابة . وقد ترى بحيرات من الأزهار وسط الغابات والأشجار .

وفي سفوح الجبال وعلى قمم الهضاب والتلال ، وفي أحضان الوديان ، وعلى جوانب البحيرات ، انتثرت « فيلات » مبعثرة هنا وهناك في غير نظام ، كما تنتثر حبات اللآلي انفصم سمطها .

هذا يوم عيد من أعياد القوم ؟ وفدوا فيه إلى بحيراتهم أفواجاً وزمراً ، وأزواجاً ووحداناً ، عجائز وشيوخاً ، شيباً وشباناً ، فتيات وفتياناً . بنين وبنات ، عاشقين وعاشقات ، غاديات غادين رائحات ، أطفالاً نضراً وادعين كأطفال الملائكة ، وفدوا وفي محياهم بشر ، وعلى وجوههم ابتسامة وسرور . يتحدثون في هدوء ، ويسمرون في دعة ، ويتغازلون في أدب ، ويجيئون في نظام . فلا ترى لكاعة متطفل ، ولا صفاقة متسكع ، ولا تسمع كلمة نابية ، أو صوت سيارة مزعجة . القوم في عيد . وموكب الحياة معهم في عيد ! القوم يسيرون طلقاً ، أحراراً ، وكل ما حولهم طلق حر . الهواء يسير حولهم حراً ، والأشجار تمايل حولهم حرة ، والطيور تغني حولهم طلقة حرة ! الطبيعة في عيد ! الطيور تدنو ثم تبتعد ، مغنية فرحة مرحة ، على أغصان الأشجار ، وفوق أسوار الحدائق ، وفي جوها الحر الطلق . إنها تغني لحناً متسقاً متنقلاً ، إنها تغني لحناً شجياً وآخر مرحاً . إنها تغني لأنها في الربيع . ولحنها موسيقى الربيع !

لقد كانت — وما زالت — هذه المنطقة « منطقة البحيرات » مصدر وحي وإلهام لكثير من الكتاب والشعراء والفنانين . ألم يعش فيها وردزورث ، وكوليردج ؟ ألم يتردد عليها سكوت وتشارلس لام وديكونسي ؟

لا عجب أن كانت هذه المنطقة مصدر إلهام هؤلاء ؟ فهي لوحة صورتها يد الفنان الأعظم ، لوحة صورتها يد الله .

ففي كل ركن له آية تدل على أنه المبدع .

(مانشستر)

عبد العزيز عبد الحميد

فى النقد الأدبى

الأرضيـــــة فى الأدب

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

هناك قواعد فى الفن لا يتقيد بها الفنان وهو خاص بها مُقدّر لها ، وإنما يحس بها فى عمله إحساساً بديهياً ، بعيداً عن التقرير والوضع . وهذا النوع من القواعد فى العمل الفنى يكون من فرط بداهته غير قابل لأن يُصاغ فى قالب أو يُوضع فى قضية أو يُرسم فى حد . فتصير من هذه الناحية شبيهة بقطعة الجبس التى يتحتم على الفنان أن يضع تصاويره ورسومه عليها أو مماثلة للمسلّمات التى توجه الفكر ، والقرائن التى ترشد الإنسان بدون أن تكون واضحة المعالم مفهومة الأغراض . وتنشأ هذه القواعد فى معظم الأحوال عن الضرورات أكثر مما تنشأ عن الرغبة فى التجميل والتزيين ، وتنتج من حب الإنسان لمجاراة الواقع والظروف أكثر مما تنتج عن الميل إلى التحلية والإبداع .

فأنا الآن مثلاً أخط كلامى على ورقة بيضاء وأجرى عليها بالعبارة تلو العبارة والفقرة وراء الفقرة . ولم يفترض علىّ أحد الكتابة على ورقى هذه من أجل أن أخرج مقالاً أو قصة ما . ولكنى أحسست بالضرورة أن عملى لن يأخذ سبيله إلى الحياة فى حروف الطبعة إلا على ورقة من هذه الشاكلة . فليست الورقة التى أسطّر عليها كلامى غير ضرورة صناعية ولازمة من لوازم الأداء البعيد عما يقتضيه الفن الخالص . ويصعب القول عن الورقة فى هذه الحالة ، إنها جزء من العمل الفنى ، ولكن يصعب فى الوقت نفسه الحكم عليها بأنها ليست ضرورة من ضرورات العمل ، وقاعدة من قواعده الخفية . ومن يدرى ! فلعلى — لو لم أجدها ، ولم يتيسر لى الحصول عليها — أخرج أعمالى على صورة أخرى من صور التعبير الفنى التى تتلاءم مع الأدوات المستخدمة فى الإجراء والإبراز .

فأنا إذاً بإزاء قاعدة من قواعد الفن البديهية عندما أخرج القلم من جيبى وأحضر ورقة تحت يدىّ من أجل أن أكتب هذا المقال . وليست الأصول الكتابية وحدها هى التى أخضع لها مقوّمات عملى ووسائلى فى التعبير . وكذلك الأمر فى اللوازم التى أصبحت تحيط بالكاتب المعاصر وتؤثر عليه ، والتى لم يكن الكاتب فى العصور السالفة يعرفها أو يدرى عنها شيئاً . فالأديب فى الآونة الحاضرة مضطر إلى وسائل جديدة غير الوسائل القديمة المتبعة فى الإخراج الوظيفى بالنسبة إلى العمل الأدبى . وأدوات الاتصال الجارية الآن بين كل من الأديب والجمهور مخالفة لتلك التى جرى على استعمالها القدماء ودخلت فى حدود اعتبارهم . فهناك المحاضرات العامة والأحاديث الخاصة والمناظرات والإذاعات الشفاهية والكتابات الصحفية ، والكتب التى يُقصد بها قوم معينون وتروج فى فترة بالذات ، والكتب التى يُقصد بها قوم آخرون وتروج فى كل الفترات . وقد يحسب الإنسان أن هذه الوسائل لا تتدخل فى طبيعة العمل الأدبى ، ولا تؤثر فيه ما دامت لا تعدو أن تكون مظاهر خارجية بعيدة عن الجوهر واللباب ، أو لأنها غير متصلة بالقرار الذى تستقر فيه المواهب الفنية والملكات الإبداعية . ولكن الحقيقة هى أن هذه الأدوات لها تأثيرها البالغ على حياة الأدب والفكر ، وخطرها الكبير فى توجيه الفن وتغيير القواعد

والأصول . وكثيراً ما تُحدث هذه التحولات البسيطة ، فى الأدوات الفنية ، انقلاباتٍ هائلة من ناحية مجرى التفكير وأساليب الفن والتعبير . شأن الأدب فى ذلك كشأن الصناعات والتجارات التى كانت وسائل العمل والنقل سبباً لإحداث التغييرات الجوهرية فى خطوط سيرها وفى الأشكال التى تطورت إليها .

فهذه اللوازم كلها ليست من قواعد الفن فى شىء ، ولكنك تعجز عن إخراجها من دائرة القواعد الفنية مع ذلك . فهى من قبيل الضرورات البديهية التى يراعيها الفنان من غير أن يشير إليها ، وبدون أن يستحضرها استحضاراً وجودياً فى عقله أثناء التحرير والكتابة . والناقد الأدبى لا يعمل شيئاً أكثر من أن يَلْفِت نظر الأديب أو الفنان إلى هذه اللوازم العصرية ، أعنى اللوازم التى تتجدد من عصر إلى عصر ، كما يُعِدّ نفسه لها ، وكما يلائم بين عمله الأدبى وما تفرضه عليه من الواجبات . والتاريخ الأدبى وتاريخ النقد على الخصوص إنما يسجلان هذه التوجيهات التى كان من عمل النقاد أن يقوموا بها ، وأن ينبهوا الفنانين إليها من حين إلى حين .

فمن ذا الذى ينكر أثر الطبعة — عندما ظهرت — على آداب القرن الماضى وأواخر القرن السابق عليه . ومن ذا الذى يرى الصحافة الآن بآدابها الشكلية الخاصة ، ولا يعترف بما أحدثته من التغييرات الجوهرية فى الأصول الثابتة للأدب ، وما أجرته على قواعد الكتابة من أنواع التبديلات . ثم انظر فى الأحاديث المذاعة بالراديو ، أو فى قاعات المحاضرات العامة ، وتمعن فيما تخضع له هذه الأحاديث من الضرورات . فستجدها شيئاً آخر غير تلك الضرورات التى سار عليها العرب القدماء فى الأمالى ودروس الجوامع ؛ ولقد نشأ عن الاختلاف الوضعى للقوانين والأصول اختلافٌ فى نوع الفن وفى طريقة الأداء . وهذه كلها ما كانت لتظهر لو لم تتغير الأرضية الفنية لدى الكاتب فى عصر عما هى فى عصر سواه .

فقد أحدثت المدنية بظروفها المختلفة أثراً كبيراً فى الأدوات الصناعية عند الأديب ، وجعلته — بالتالى — خاضعاً لمستلزمات البيئة . ونقاد الفترة الماضية فى نهضتنا الأدبية الحديثة ، إنما هبوا فى وجه شوقى وأضرابه من شعراء المدرسة القديمة وكتابها لهذا السبب عينه ، وليس لسبب آخر . فهم قد شعروا بالمدنية المعاصرة شعوراً قوياً جعلهم يسيرون فى الحياة بهديها ، ويمضون فى الإنتاج على ضوئها ، ويُخضعون مقاييسهم وأنظارهم وتجاربهم لها . ومن ثم نشأ التعارض فيما بين كل من الفريقين . فشوقى وأضرابه ينكرون الأوضاع الحديثة ويخرجون عليها ، ولا يُقرون فى أنفسهم بما تلزمهم به الحياة من حولهم . أما النقاد الذين هاجموه ، وألحوا عليه بالملامة ، فإنما فعلوا ذلك بقصد إحداث التغيير اللازم مجاراة للأساليب المستحدثة ، ومن أجل تنبيه الأذهان إلى تلك الشرائط والأصول التى ينبغى للأديب أن يعمل بوحيها إن لم يُخضع لها نفسه إخضاعاً كاملاً .

ومما ينبغى أن نلاحظه فى هذا المقام أنه لا وزن على الإطلاق لشعور الضعة والامتهان الذى يجده القارئ بإزاء هذه التحولات . بل لا ينبغى قط أن نضع من قيمة أدب من الآداب لأنه نظر فى الملابسات من حوله ، وتأمل فى الظروف التى تحيط به ، ثم خرج معبراً عن التجربة التى يحياها داخل ذلك الإطار المغلق . فهذا هو نوع الأدب الذى نعتز به ، وهو وحده الذى يكون معبراً عن محنة الإنسان من وقت لآخر ، ويكون حاوياً لتلك المشاعر الدقاق التى تمر بالأفراد إبان الحرج وعند توارد الأزمات . ولا بد بالتالى أن ننصح الأدباء من أجل أن يلتفتوا إلى هذه الحقائق من حولهم حتى يخرج أدبهم حاوياً لصدق الشعور وجمال التعبير ودلالة الحياة . فتكون هذه المسائل أدعى إلى الشرف والنباهة عند الكاتب المتنح منها إلى الشناعة والتحقير .

وعلى الناقد فى هذه الأحوال أن يؤكد حقيقة الأشياء

الخارجية وأن يبدأ من نقطة جديدة ، وهى تلك التى تضع الوسط العائلى والظاهرات المحيطة فى قمة الملاحظات والقواعد المرعية فى نتاج الأديب . أو بعبارة أخرى الناقد الأدبى ملزم — وهو صاحب الفضل فى التوجيه والإرشاد — بأن ينظر إلى العمل الأدبى الماثل بين يديه على ضوء هذه التجارب التى يمر بها والظروف التى ينبع منها والمواقف التى ينفذ خلالها . وبذلك تصير الأرضية هى القاعدة البديهية الأولى فى كلا الحالين : فى حال الإنتاج وفى حال التلقى . وكثيراً ما كانت أمثال هذه الضرورات مجهولة لدى الكتاب والنقاد ، وكان الجهل بها سبباً فى حدوث كثير من الاختلافات والمشاحنات . مع أنها جميعها لو فهمت على هذا الوجه لاستطعنا أن ندرك تماماً قيمة العمل الفنى فى الصور المختلفة . وكان من الممكن كذلك أن يتخطى الأدب مشاكل الانتقال سلمياً لو رأى أمثال هذه المسائل عند مراحل التصعيد والارتقاء .

ومن هنا نحس بأن العمل الفنى لا يخضع للقواعد الشكلية الموضوعة فحسب ، وإنما يجرى أيضاً وراء تيارات خفية لها أثرها الواضح ولها عملها البين . وهذه التيارات التى تمضى فى الخفاء ، وتعمل من وراء ستار هى صاحبة الأثر الأكبر فى توجيه الآداب وإحداث التغيير والتشكيل بين ضروبها . لأن التغيير قلما يتناول فى الآداب أصولها الشكلية المرسومة ، وكثيراً ما ينصب على الروح التى تبعث على التذوق والتفضيل ، والتى تلزم الكاتب بشىء دون شىء . بل نريد أن نقول بعد ذلك إنه من الممكن أن نحدث تحولاً فى الأدب بأن نحدث تغيراً فى الظروف . والناقد الواعى هو الذى يحاول أن يوجد تغيرات فى ملابسات الفن والوقائع المحيطة به على الصورة التى يريدها قبل أن يصدر أوامره إلى الأديب ذاته ، بأن يقول كلاماً معيناً أو يخرج فناً خاصاً . وبذلك نستطيع أن نلفت نظر الناقد إلى أنه يملك إحداث التغيير الذى يريده فى الأدب بأن يجعل الظروف الخارجية على نحو بالذات .

ولا نزال فى مصر متأخرين من ناحية فهمنا للأرضية الأدبية ، ولم نزل بعيدين عن الجو الذى نعمل فيه . وقد نشأ ذلك عن أمرين : أولهما صدوفنا عن البيئة التى تصدر عنها فى تصوير مشاعرنا وفى إنتاج آدابنا نتيجة لضعفها الشديد وعدم إمكانها أن توحى لنا بشىء ذى غناء . أعنى أنها أقل من أن تكون أرضية لفن من الفنون . وثانيهما أنه أجدر بنا الاشتغال عن أنفسنا بتلك التحف الجليلة التى أبدعها الفكر الغربى فى حضارته التى أوشكت على الأفول . فنحن لا نعمل لأنفسنا ، وإنما لأبناء الجيل القادم الذين نرجو أن نوطد لهم دعائم حياة أدبية ممتازة وبيئة حية وأرضية ذات قيمة . ولذلك نحس بضرورة العمل المتصل فى ميدان الترجمة والنقل وفى مجال التبشير للعالم الغربى .

ولو حاولنا على ضوء الحقائق المتقدمة أن ندرس أرضية الأدب فى مصر لوجدنا صعوبات شتى ، أهمها وأولاها بالعناية هى مشكلة التعليم . فالتربية لم يكد يعترف بها أحد فى مصر على الرغم من الجهود التى يبذلها الرؤساء كيما يجعلوا من أنفسهم مربين ، وعلى الرغم من الزحام التى يحشرونها على الناس فى كل ساعة وفى كل يوم . ولو صدقنا فى عزمنا على دراسة التربية الصحيحة لاستطعنا أن نخرج فئة من المثقفين أفضل من هذه الفئة التى لا تهوى شيئا وتعشقه بقدر ما تهوى الأمية وتعشق الجهل .. أستغفر الله .. فإنها لتكره أن يكون لواحد منها ذوق يعبث به أو شعور يدرك الكون خلاله . لكأنما خلقت لتباعد بين نفسها وبين الفن بقدر ما يسعها أن تباعد ، وكأنما قفزت إلى العلم محرومة من البطاقة الواقعة له ومن القدر الذى يخلقها العلم فى نفوس المقبلين عليه والباحثين فى فروعه .

ولقد أصبحت الصلة الجارية بين الكاتب وجمهوره حقيقة من الحقائق وعنصرا من عناصر الأرضية التى تؤثر فى العمل الأدبى وتوجهه . بل إن هذه الصلة نفسها هى التى تخلق مجموعة من القواعد والأصول التى يطبقها الأديب على نتاجه . وقد لا يشعر الأديب بما تفرضه عليه هذه الصلة من الالتزامات ، ولكنها تجرى فى عروقه وتتمثل على خاطره بصورة واضحة أتم الوضوح فى الآونة الحاضرة . والأديب

السكين الذي حكم عليه الزمن أن يظهر في مصر ، محروم من القارئ إلى حد معيب (ومن الناشر بالتالي) . فلا يكاد يجرؤ واحد من الكتاب أن يبدع شيئاً لغير هؤلاء الأميين الجهلاء الذين حدثتك عنهم ؛ وحسبك أن تقرأ كتاباً مهدى إلى هذه الطائفة ومقدما إلى هذا النوع من الجمهور ، حتى تشعر بالغصة وحتى تقف على حقيقة المشكلة ، وتعلم أين ما نحن فيه بالقياس إلى أصحاب هذه المهن في عالم الغرب وتلك هي أم المصائب في الإنتاج الأدبي عند كتابنا ، وأكثر الإشكالات إنما تنشأ من أن المدارس لم تستطع أن تربي في الأبناء ملكة القراءة والتزود من المعرفة واستطعام الفنون ، إلى جانب ما ربته فيهم من الملكات وما حفظتهم من المذكرات .

ولو كنا نعرف ، أو لو كان النقاد يعرفون هذه الحقيقة من زمن طويل ، ويدركون قيمة الأرضية بالنسبة إلى الإنتاج الأدبي ، لاستطاعوا أن يفعلوا شيئاً من زمن بعيد وأن يخطروا المشرفين على التعليم بهذه الحقيقة ، وهي أن وجود الكاتب متوقف على ظهور طائفة من القراء الذين يحسنون الفهم ويحسنون التذوق . وقد يظهر الكاتب الممتاز على الرغم من الجمهور ، ولكنه سيضطر إلى الانتظار طويلا حتى ينال الإعجاب وحتى يكسب اعتراف الناس به .

هل تعرف قيمة الأرضية في لوحة من لوحات الرسم ؟ وهل حاولت يوما أن تنسى كيانها بتأملك في الفراغات التائهة بين الألوان ؟ وهل وجدت في نفسك يوما رغبة في أن تلاحظ الجموع الغفيرة التي يظهر من بينها الزعيم قبل أن تحاسب ذلك الزعيم ؟ وهل حاولت أن تتعرف على الناس من أعمالهم العادية المتكررة على طول الأيام قبل أن تلتفت إلى الأحداث الخطيرة التي يقومون بها والأعمال الضخمة التي يأتونها كل عام أو كل عامين ؟ وهل سعيت من أجل النظر في الظروف المحيطة بأدوات الصناعة الأدبية وفي الجو الذي يحف بالفنان من ناحية الشكل قبل أن تبحث عمله وتنقد فنه ؟ .

إنك إن فعلت فستعرف ما هي الأرضية .

بل ستقف بذلك على الشيء الكثير ، خصوصاً إذا حاولت أن تتبين المسائل في غير جلبة ولا ضوضاء . إن القواعد المرسومة الواضحة لا تؤدي أعشار ما تؤديه التيارات الخفية التي تترك أثراً في الفنون بغير أن نراها ، والتي تعمل في الأذواق من غير أن نحس بها ، والتي تنتهي بنا إلى الانقلابات المعروفة في تواريخ الآداب على اختلاف أنواعها دون أن تتخذ أسلوباً إيجابياً محدداً . انظر إلى الموت لتعرف الحياة ، وتعرّف على الفراغ لتدرك الملاء ، وقف على حقيقة الأرضية الأدبية تميز الآداب الصحيحة من الآداب الفاسدة . ولربّ أشياء أهملناها وأغفلنا قدورها كانت صاحبة الفضل الأول في تحويل مظاهرنا الحضارية وإعلاء شئوننا العامة .

عبد الفتاح الديدي

نهاية حيـــاة

« إنها برغم ذلك تدور »
(جاليليو)

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

إصبع القدر :

كان والده يريد أن يجعل منه تاجر أقمشة ، ولكن الأقدار أرادته عالماً من علماء الرياضيات الأفذاذ ...

ذلك هو جاليليو جاليلى الذى عاش بين سنة ١٥٦٤ وسنة ١٦٤٢ .

بدأ حياته العلميـة أستاذاً للرياضيات فى جامعة بيزا ، ولكنه لم يلبث أن خلع منها وطرد شر طردة وسط سخرية الطلبة واستهزائهم ! والسر فى ذلك أنه أراد أن يكون عالماً بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة . كان يأبى إلا أن يجرب ويضع كل شىء على محك اختبار حواسه وعقله ، فامتحن مذاهب أرسطو ولم يسلم بها على طول الخط ، كما كان يفعل آراؤه من علماء العصر ! فالطريق إلى المعرفة فى نظره ليس باستيعاب كتب أرسطو ، ولكن بقراءة كتاب الطبيعة ..

وأنذر وهدد بالويل والثبور إن لم يرتدع ، ولكنه رفض التخلى عن تجاربه واختباراته ، فلفقوا له تهمة وطردوه من الجامعة .. وكانت هذه الحادثة بدء عهد جديد فى حياة جاليليو .. بل قل كان إصبع القدر هنا مرة أخرى يعمل ويدبر ؛ فقد أمكن لجاليليو بمساعدة أصدقائه من علماء الرياضيات والطبيعيات الذين تتبعوا دراساته وتجاربه الرائعة وقدروها حق قدرها — أمكن له الحصول على مركز أحسن فى جامعة بادو بمرتب ثمانية وأربعين جنيهاً سنوياً ، وهو مرتب جد ضخم بالنسبة لما اعتاده جاليليو . (كان مرتبه فى جامعة بيزا خمسة عشر جنيهاً سنوياً .

حرية الفكر :

على أن الأهم من زيادة مرتبه هو الحرية الزائدة التى منحها .. فقد أطلق له العنان فى بادو ليقول ما يريد .. وحين خطا جاليليو إلى القاعة ليلقى محاضراته الأولى فى الجامعة فى السابع من ديسمبر سنة ١٥٩٢ استقبل بصيحات الإعجاب من جمهور المعجبين والمريدين ، وتنبأ له الجميع بمستقبل زاهر عظيم فى هذا المركز العلمى حيث تتوفر حرية الفكر والرأى ... فبادو وكل جمهورية البندقيـة كانت خارج حظيرة الكنيسة لا تتمتع بعطفها ، وتبعاً لذلك لم تكن فرصة لتقييداتها وديوان تحقيقها (محاكم التفتيش) .

وفى الواقع أن علماء البندقية ، ومن بينهم علماء جامعة بادو كانوا يعرفون دينهم حق المعرفة ، ولكنهم كانوا

يصرون على فصل الدراسات العلمية عن المعتقدات الدينية ، وهذا ما أثار الكنيسة وتعاليمها ، فطردت جمهورية البندقية خارج حظيرتها ...

صار فى إمكان جاليليو أن يتم تجاربه بتفكير صاف وعقل غير مقيد ، تلك التجارب التى شملت نواحى واسعة من المعرفة النظرية منها والعملية ؛ فمن تتبع لمسارات النجوم إلى ابتداع لآلات الملوك ... وعلى الرغم من أنه لم يخدم أبداً فى الجيش ، إلا أنه أحاط بالهندسة العسكرية ، وساعده ذلك على أن يجمع حوله عدداً من خاصة الطلبة من الأمراء والنبلاء والمحاربين ، من الرجال الذين يرغبون فى أن يهبوا حياتهم إما للحكم أو الحرب ... وجرياً على القواعد المتبعة فى ذلك العهد قدموا ليعيشوا مع جاليليو واصطحب بعضهم خدمه الخاص ، فكانت مجموعة سعيدة مؤثرة تلك التى اجتمعت حول مائدة هذا الأستاذ الصغير الذى لم يتجاوز الثامنة والعشرين ! .

جماعة ذات ضوضاء :

ولكنها كانت فى ذات الوقت جماعة ذات ضوضاء وجلبة . ومن حين إلى حين كان جاليليو يجد راحة فى أن يهرب منها إلى أذرع فاتنات البندقية وإلى سماع الموسيقى ...

صديقة محبوبة :

كان رجلاً ذا حواس مرهفة وذوق بديع ، وكانت له صديقة جميلة تدعى « مارينا جامبا » لازمته فى طور من أطوار حياته ... ولكنه لم يتزوج البتة ، إذ كان يعتقد أن الرجل لا يمكن أن يكون فيلسوفاً عظيماً وزوجاً مخلصاً فى ذات الوقت ...

كان يقضى أوقاتاً طيبة فى فينيسيا ، فكان يحضر الحفلات الموسيقية الخاصة باستمرار كمستمع ، وفى بعض الأحيان كعازف ، إذ كان ضارب عود ماهر ... كما كان يشاهد كثيراً من حفلات الكرنفال والتمثيليات الغنائية العامة والقطع الكوميدية ، بل إنه ألف عديداً من تلك الروايات الكوميدية ، ومن المحتمل أنه مثل فى بعضها ؛ ففينيسيا فى تلك الحقبة من الزمن كانت مدينة تفكير حر وحياة طلقة ناضرة ...

نادى الأحرار :

ولكن تلك النواحى كانت مجرد نشاط عابر فى حياة جاليليو ، إذ كان عقله من البداية إلى النهاية متفرغاً لتتبع العلم ..

وقد كون أكاديمية خاصة فى قصر يقع بجوار قنطرة سانتا صوفيا .

وكانت هذه الأكاديمية عبارة عن نادٍ على نسق ، أعضاؤه من العلماء الذين هربوا إلى فينيسيا من مختلف أنحاء إيطاليا ليكونوا أحراراً فى إتمام دراساتهم والتعبير عن أفكارهم .

وفى ذلك النادى كشف جاليليو لأول مرة عن نتائج عديد من مشاهداته وتجاربه ، فأبان للأعضاء غوامض المغناطيس والقوى المغناطيسية للأرض ، وشرح لهم دقائق البوصلة ، وهى أداة جديدة من اختراعه . وعرض عليهم كيف تعمل آلة خاصة — من تصميمه — لرفع الماء ورى التربة ، كما بين لهم كيف تقاس درجة حرارة الجو بواسطة الترمومتر الذى ابتدعه ، وأخيراً أثار إعجابهم ولهفهم بأعجب اختراع وأدهشه ، وهو المرقب أو التلسكوب ، جهاز التحديق فى النجوم البعيدة ...

قصة أول مرقب علمى :

ولم يدع جاليليو أن له الفضل كل الفضل فى اختراع المرقب ، ففى إحدى زياراته لفينيسيا سمع جاليليو أن يهودياً يعمل فى العدسات يدعى هانز ليرهى اكتشف مصادفة أنه بوضع عدسة مقعرة مع أخرى محدبة فإنه بالنظر خلالهما يمكن رؤية الأشياء البعيدة قريبة . وقد أثار هذا الكشف الذى جاء عفو الخاطر اهتمام عالمنا الباحث العبقرى ؛ فبدأ يدرس الموضوع ويمتحن العدسات ويجمع مختلف أنواع

المدسات ، ويقدر ويحسب بمعادلاته الرياضية الدقيقة النتائج التي يراها لهذه الانحناءات وتلك التجميعات المتباينة ..

وأخيراً استعد في الحادي والعشرين من أغسطس سنة ١٦٠٩ لأن يقوم بعرض عام لأول مرقب علمي في التاريخ .. ففي ذلك اليوم التاريخي المشهود تسلق جاليليو إلى قمة كامبانيل في فينيسيا يتبعه أصدقاؤه ومريدوه ، ثم سمح لهم واحداً بعد الآخر بالنظر خلال المكبر السحري ، ولدهشتهم وعجبهم أمكنهم أن يروا أشرعة سفن لم يروها بالعين المجردة إلا بعد ساعتين ، كما أحاطوا بحركة المواصلات في اثنى عشر من الخلجان ، ورأوا قطعان الماشية وهي ترعى على سفوح التلال البعيدة ، والمتعبدين وهم يدخلون ويخرجون من كنائسهم في المدن والقرى النائية ... ثم في خلال الليل حولوا أنظارهم إلى السماوات فلمسوا قرب النجوم البعيدة خلال المرقب ...

وانهالت الطلبات على جاليليو لشراء مرقبه ، ولكنه قدمه بلا مقابل إلى دوق فينيسيا ، وكانت النتيجة أن أمر بانتخابه للأستاذية مدى الحياة في جامعة بادو بمرتب قدره حوالى ١٢٠٠ جنيه سنوياً ...

وبلغ جاليليو قمة نجاحه وشهرته ، ولكنه برغم ذلك لم يكن سعيداً ؛ فمنذ أن جاء إلى بادو وهو يأمل في العودة منتصراً معززاً إلى بيزا ؛ تلك المدينة التي طرد منها في استهانة وسخرية ؛ وكم من مرة كتب إلى كوسيمو دى مديسيس الدوق الأكبر لفلورنسا (وبيزا) ليعينه عالماً للرياضيات في بلاطه ؛ ولكنه أصم أذنيه عن سماع رجائه .. والآن وقد قبل الأستاذية مدى الحياة في جامعة بادو فقد قضى على نفسه بالنفي المؤبد ، وبأن يكون سجين شرف لمجده وشهرته ...

ثم مات كوسيمو واعتلى العرش ابنه كوسيمو الثاني ، وكان من تلاميذ جاليليو .. فعرض عليه المنصب الذي جاهد العالم العظيم للحصول عليه ، فكان أن خرق جاليليو عقده مع جامعة بادو ، واتخذ طريقه إلى بلاط كوسيمو الثاني ، وإلى مأساة حياته الكبرى .

المأساة الكبرى :

والسبب في مأساة جاليليو وشهرته الخالدة على ممر الزمن — هو كتابه الفائق الأهمية « رسول النجوم » فقد كتب جاليليو كتابه هذا في جو بادو المشبع بروح الحرية والتسامح ، ثم جرى به الآن في جو فلورنسا المحافظ المتزمت المتمسك بالتقاليد والعقائد الموروثة .

وقد طبع جاليليو كتابه — كما كتب إلى صديقه « بيلزاريو فينتا » .

« ... لكي يلم الفلاسفة وعلماء الرياضيات ببعض المشاهدات التي أجريتها على الأجسام السماوية بواسطة منظاري المقرب الذي يدهشني أيما إدهاش . وإني أشكر الله أن جعلني أول ملاحظ لتلك الأشياء الرائعة التي لم تتكشف لأحد في العصور الخالية ... لقد تحققت من أن القمر جسم مماثل للأرض .. كما رأيت عديداً من النجوم الثابتة التي لم تر من قبل . وزيادة على ذلك فقد أدركت طبيعة المجرة ، ولكن لعل أعظم أعجوبة وأروع حدث هو اكتشاف أربعة سيارات جديدة ، وقد لاحظت أنها تدور حول الشمس ... » .

وقد كان يصح أن يضيف ...

« وقد لاحظت أن الأرض أيضاً تدور حول الشمس » .

ولكنه لم يقل ذلك لا في رسالته ولا في كتابه ، واكتفى بأن ذكره شفاهاً لبعض أصدقائه المتحررين في أفكارهم ...

كان يعلم أن كتابة مثل هذه الجملة قد يعني تعريض نفسه لحجرة التعذيب بديوان التحقيق ، ولم يكن مصير « جيوردانو برونو » الذي أحرق حياً سنة ١٦٠٠ لما أعلنه من آراء علمية ببعيد عن ذاكرته .. ولما شعر أنه من الأسلم له ومن الأنفع للعلم بقاءه حياً ليجرى تجاربه بغير تدخل ديوان التحقيق ، إذ كان يعتقد أن مداد العالم ودم الشهيد متعادلان في القيمة في نظر السماء ...

ولكن قدر لجاليليو برغم تحوطه وحذره أن يكون شهيداً وعالماً ؛ فقد كان لديوان التحقيق داخل أراضي فلورنسا سلطة غير محدودة وعيون لا تنام ، وقد لاحظ الكردينال بيلارمين رئيس ديوان التحقيق أن

جاليليو — ولو أنه أغفل ذكر مسألة دوران الأرض حول الشمس — قد أعلن أنه من التبعين لكوبرنيكس (وهو الذي قال بدوران الأرض حول الشمس). ولذا فقد أصدر أمره في السادس والعشرين من مارس سنة ١٦١٦ بأن يقدم جاليليو نفسه لديوان التحقيق.

وحين وصل جاليليو إلى الديوان المقدس نصحه الكردينال بيلارمين أن يتخلى عن آرائه المرطقية في الأرض والشمس والنجوم، وألا يفكر مثل تلك الأفكار أو يعلمها أو يدافع عنها، سواء باللسان أو على الورق، وإلا كان عرضة للعذاب والوعيد..

وكان أن وعد جاليليو بالتخلي عن آرائه، فأطلق الكاردينال سراحه وعلى وجهه ابتسامة النصر، إذ أمكنه بحكم واحد قاس أن يوقف حركة السيارات حول الشمس ...!!

أما عالمنا فقد عاد أدراجه إلى فلورنسا حزيناً خجلا، واستمر لمدة من الزمن يجرى تجاربه في هدوء، معتله وهو لا يجرؤ على نشر اكتشافاته على العالم، ولكن العبقرية قد ولدت لتعبر عن آرائها كما تزرع البذور لتنبت، وكانت قد مرت مدة طويلة لم ينبس فيها جاليليو عن أفكاره، فنشر كتاباً آخر عن الفلك، فاصطدم مرة أخرى بعقائد رجال الدين وتعاليمهم القاطعة.

والمرة الثانية استدعى ليمثل أمام ديوان التحقيق، وكان من المقرر أن الاستدعاء الثاني لجريمة عوقب عليها الشخص من قبل جزاؤه الموت ...

فلما وصل إليه أمر الاستدعاء الثاني كان جاليليو مريضاً، وكتب أطباؤه تقريراً بينوا فيه أن سوء حالته لا يساعده على الذهاب إلى روما! ولكن الرحمة والشفقة كانتا منتزعتين من قلوب أعضاء الديوان، فأمروا بأن يقبض عليه مهما كانت حالته ويقيد بالسلاسل وينقل إلى روما...

وفي يناير سنة ١٦٣٣، وفي صقيع الشتاء، ترك جاليليو فلورنسا إلى روما وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وحين مثل أمام قضاته لم يكن في حالة تسمح له بالدفاع عن نفسه، لا من الناحية الجسمانية ولا من الناحية العقلية.

المحاكمة:

واستمرت محاكمته ستة أشهر وصلته خلالها رسائل تأييد — ليس فقط من المفكرين الأحرار — بل من عديد من الكاثوليك ورجال الكنيسة...

ولكن كان لديوان التحقيق طريقه المرسوم. ففي الثاني والعشرين من يونيه سنة ١٦٣٣ أرغم جاليليو على أن يضرب بمعتقداته في دوران الأرض عرض الحائط...

«إني أقسم ويداي على الإنجيل المقدس،»

«أن أنبذ نظرياتي المرطقية السالفة،»

«وإني أعترف أن خطئي تسبب عن طموح»

«كاذب وجهل تام. وإني أعلن الآن وأقسم»

«أن الأرض لا تدور حول الشمس.»

وبينما كان أصدقاؤه يقودونه بعيداً عن ساحة المحكمة، وهو مجهد متعب في حالة أشبه بالحمى، كان يغمغم من بين أنفاسه اللاهثة المتقطعة.. «إنها برغم ذلك تدور».

وكتب كرادلة الديوان حكمهم «باسم السيد المسيح المقدس والأم العذراء مريم حكمت المحكمة بقرار الحظر على كتب جاليليو، وزج كاتبها في سجن هذا الديوان المقدس لمدة تحددها وفق رغبتنا..». وكان تعليق جاليليو على الحكم:

«ولكن بالرغم من كل شيء فسأبقى مسيحياً..»

وعالماً... فعلى الرغم من أنه أمر ألا يتابع أبحاثه العلمية قد كتب وهو في السجن كتابه العظيم «قوانين الحركة» وضمنه ملخصاً وافياً لكل القواعد الأساسية لعلم الميكانيكا.. ثم أرسله خفية إلى هولندا حيث طبع ونشر هناك...

النهاية:

ولم ير جاليليو نسخة واحدة من ذلك الكتاب، إذ أصيب بالعمى داخل سجنه، ولكنه أحس بالمتعة والراحة حين احتضن نسخة منه بين ذراعيه وهو جالس على فراش الموت في الثامن من يناير سنة ١٦٤٢ وكان يغمغم.. «إن هذا العمل من خير ما قمت به... فهو نتاج أعسر جهاد وأشقه..»

جمال الدين محمد مرسي

عقدة وثلاث مشكلات

للأستاذ شكري فيصل

هل تكمن وراء كتاب « حياتي » عقدة تنتظم كل أبوابه وتطيف بكل فقراته ؟ ماذا تكون هذه العقدة وكيف تلف نفس صاحبها ؟ كيف تبدو وكيف تختفي ، وماذا هي جذورها الأولى وأصولها العميقة في النشأة والتربية والحياة ؟.

ثم ماذا هي المشكلات الكبرى التي تحس ، بعد أن تقرأ الكتاب ، أنها تملأ ذهن مؤلفه ، وتطل من قريب أو بعيد ، وتخالط حياته كلها ؟ .. وأين موضع هذه المشكلات ، وكيف وجدت سبيلها إلى أن تستبين خلال هذا العرض ؟ أتحدث عنها المؤلف في يسر ووضوح أم غلبت عليه فتبدت من وراء الأحداث التي قصها والمواقف التي عرضها ؟.

الواقع أنك تخرج من قراءة « حياتي » بعقدة واحدة وثلاث مشكلات كبرى .. أما العقدة فالحزن ، وأما المشكلات فالقديم والجديد ، والقدر ، والسعادة .

* * *

أما الحزن فلندع أستاذنا يتحدث عنه بألفاظه هو (ص ٣٢٩) : « .. يضاف إلى ذلك حالتي النفسية ، وهي أن تستجيب لداعي الحزن ، ولو صغيراً ، ولا تستجيب لداعي السرور ولو كان كبيراً ، إلا بقدر » .. ولنستمع إلى هذا المعنى مرة أخرى بلون جديد (ص ٣٣٤) : « ولو عرض لي عشر حوادث تسع منها تستوجب السرور وواحدة تستوجب الهم ، لغلبت الواحدة التسع » .

ترى ما مصدر هذه العقدة في حياة ، تتبعها ، فترى أنها أقرب إلى الهدوء وأدنى إلى السعادة .. ليس فيها يُتم ولا مسغبة ولا تأييم ، وليس فيها حادث أليم كبير ، ولا مفاجأة ضخمة ؟ .

الذين يعرفون أستاذنا من قرب يعرفون فيه هذا الحزن ممثلاً في لون من ألوان الوجوم ، أو الرغبة في العزلة والخلوة إلى النفس .. ولكنهم لا يعرفونه تلبياً لدواعي الأسى ، ولا استجابة لنداء الهم .. بل إن الذين يعرفونه من قريب قريب ، يعرفون طرافة مجلسه ، وحلاوة نكتته حين تكون النكتة ، وإصابته فيها الحزّ إن كان يقولها ، وتجاوبه معها وطربه لها إن كان يسمعها .. فما عقدة الحزن هذه التي يلح عليها كتاب « حياتي » ؟

أنا لا أجد مجالاً للقول في هذه الظاهرة الآن .. ولكني أكتفي أن أدلك على ما قال صاحبها فيها ، فهو يحاول أن يرد هذا الحزن في الأوراق الأولى من الكتاب (ص ١٠) إلى أنه « كان رابع ولد ولد ، ولم يكن أبي يحب كثرة الأولاد شعوراً منه بالمسئولية ، ولما لقي من الحزن العميق في وفاة أختي أبشع وفاة ، فقد كان لي أخت في الثانية عشرة من عمرها قامت تُعد القهوة للضيوف فهبت النار فيها ، واشتعل جسمها وشعرها ، وحاولت أن تطفئ نفسها أول الأمر فلم تنجح فصرخت ، ولكن لم يدركوها إلا وهي شعلة نار ، ثم فارقت الحياة بعد ساعات ، وكان ذلك وأنا حمْل في بطن أمي ، فتغذيت دماً حزيناً ورضعت بعد ولادتي لبناً حزيناً ، واستقبلت عند ولادتي استقبالاً حزيناً ؟ فهل كان لذلك أثر فيما غلب علي من الحزن في حياتي ، فلا أفرح كما يفرح الناس ، ولا أبتهج بالحياة كما يبتهجون ؟ علم ذلك عند الله والراسخين في العلم » .

ثم هو مع الزمن يلقى حادثة أخرى أو حادثة أولى هي وفاة أخيه الأصغر (١١٣ — ١١٥) فيقول بعد أن يتحدث عن أثرها في أهله وبيته : « وأما أنا فقد وضع هذا الحادث على عيني منظاراً أسود ، فلا أرى في الدنيا إلا السواد ،

ولا أحب أن أسمع من الأصوات إلا صوت البكاء ... » .

ثم تكون الحادثة الثالثة بعد سنة وأشهر فى وفاة أخيه الأكبر ، وهو لايتجاوز الخامسة والثلاثين (ص : ١١٦ — ١١٨) « وكان الحزن شديداً ، وكانت الصيحة قاسية ، وكانت النصال تتكسر على النصال .. »

وبعد أفلا يبدو لك أن ليست هذه الحوادث وحدها على فداحتها هى التى نشرت سحابة الحزن فى هذه السماء الصافية ؟ أرى أن وراءها حادثات أخرى أم أنه جد الأب وتجهمه وصرامة المدرسة ودقتها ورقة مزاج الابن والتهابه وحساسيته ؟!

* * *

وتواجهك فى الكتاب إثر عقدة الحزن مشكلة القديم والجديد ، فأستاذنا أحمد أمين محافظ ، ما فى ذلك شك ، وقد اصطلح على هذه المحافظة البيت الذى نشأ بين جدرانه ، والأزهر الذى جد تعلمه فيه ، وأخواله الذين يدرسون القرآن فيحسنون قراءته ، وأخوه الذى يتهجد حتى السحور ، وأخواته وأمه المحجبات ، وغرف البيت التى تعج بكتب الأزهر وثقافته ... والأستاذ أحمد أمين ، إلى جانب ذلك ، متفتح العقل يقرأ للمحدثين ويسمع آراء الإلحاد (ص ١٨) ويلتقى بجماعة من الناس ثقفوا الإنجليزية (١٥٢ — ١٦٧) وجماعة ثانية ثقفوا الفرنسية (١٦٧) فيتحدث إليهم فيما يعلم ، ويستمع إليهم فيما يعلمون .

والأستاذ أحمد أمين معمم ، متدين ، طالب العلم ، قاض ، مدرس يدرس أصول الفقه والمنطق .. ثم هو إلى ذلك ينتسب إلى نادى الجزيرة ، ويلبس « الشورت » و « الجزمة » البيضاء ، يعدو ويقفز ، حتى يعدو عليه التعب فيعاوده الوقار .

والأستاذ أحمد أمين متصوف النزعة يتصل بشيخ طريقة صوفية ، ويتصل بالطريقة النقشبندية ويعرف أذكارها وأورادها ، ويغلب شعوره الدينى شعوره الوطنى حتى ليسميه زملاؤه « السنى » ، ويجادل أساتذته فى معجزة نبع الماء من بين أصابع النبى صلى الله عليه وسلم جدالاً ينقلب إلى حدة وغضب .. ولكن أستاذنا إلى ذلك حر الفكر تطالعه النظريات الحديثة فيقبل عليها ويفيد منها ، ويتصل بنظرية النشوء والارتقاء فيقرأ « شبلى شميل » ويحاضر فى ذلك فى مدرسة القضاء الشرعى ، وتوشك أن تذهب هذه المحاضرة بالمدرسة كلها لولا أن يتدارك الأمر ناظر المدرسة فيفسر المحاضرة بما يرضى ذوى السلطان .

ذلك كله يتعاقب على نفسه ، وهى نفس مرهفة ، ويتوالى على حسه وهو حس رقيق ، ويغزو عقله وهو عقل نيّر ، فيكون من هذه النشأة والتربية والاختلاط والثقافة وعمق الإيمان الأول . يكون من ذلك إنسان يصف نفسه بنفسه فيقول (ص ١٨) : « وإن رأيت ديناً يسكن فى أعماق قلبى وإيماناً بالله لا تزلزله الفلسفة ، ولا تشكك فيه مطالعاتى فى كتب الملحدين ... فرجعه إلى تعاليم أبى وما شاهدته فى بيتى ... »

آية هذا أنه تعاقب فى الولاية على أستاذنا أبوان : أما أبوه فى النسب فقد زرع فيه الدين والتصوف ، وأما أبوه فى الثقافة والحياة فقد « أثر فى أثراً كبيراً من ناحية تحكيم العقل فى الدين ، فقد كنت إلى هذا العهد أحكم العواطف لا العقل ، ولا أسمح لنفسى بالجدل العقلى فى هذه الموضوعات ، فالدين فوق العقل ، فإن جاء فيه مالا يدركه العقل آمنا به ، لأن علم الله فوق علمنا ، وهو أعلم بما يصلحنا وما يضرنا ، وهو — يعنى المرحوم عاطف بركات — يأبى إلا تحكيم العقل والبحث عما لا تفهم حتى تفهم ، وكان له غرام بالبحث ، وصبر على الجدل ، وطول نفس فى المناقشة ، حتى ليفضل من يناقشه أن يسكت أخيراً ولو لم يقتنع ، من طول ما أدركه من التعب والعناء .. فكان من أثر هذا الجدال الدينى أنى أعملت عقلى فى تفاصيل الدين وجزئياته ، أما جوهر الدين من إيمان بالله وجلاله وعظيم قدرته فظل ساكناً فى أعماق قلبى لم ينل منه أى جدل ولم يتأثر بأى قراءة ، وكل ما فى

الأمر أنى صرت أكثر تسامحاً مع المخالفين ، وأوسع صدراً للمعارضين (ص ١١٩) .

* * *

والمشكلة الثانية بعد مشكلة « القديم والجديد » مشكلة « القدر » ... ويظهر أن هذا القدر يدير كثيراً من الجدل والنقاش ، ويبعث كثيراً من الاهتمام والتفكير فى نفس أستاذنا وفى أعماقه الشاعرة واللاشعورية .. ولا يبدو أثر هذا التفكير سافراً دائماً فى كتاب « حياتى » ولكنما تعبر عنه اللفظة وتصوره الإشارة ، وقد تدل عليه الجملة فى أقل الأحايين . واقرأ فى (ص ٦) هذه الفقرة المركزة : « وهكذا ألاعيب القدر : ظلم صراف البلدة أخرج أبى من صخراط وأسكنه القاهرة حيث ولدت وتعلمت ، ولولا ذلك لنشأت فلاحاً مع الفلاحين أزرع وأقلع ، ولكن تتوالد الأحداث توالداً عجيباً ، فقد ينتج أعظم خير من أعظم شر ، كما ينتج أعظم شر من أعظم خير ، ولا تستبين الأمور حتى يتم هذا التوالد ويظهر على مسرح الكون .. »

ويظهر أنه كان لقصص جدته حول القدر (ص ١٢) أثر من ذلك فى نفسه كما يبدو أن بعض الحادثات فى حياته قد فتحت له الحديث فى ذلك والخوض فيه ، مثل تثبيته فى بعض الوظائف ، ومثل قصة الباشا الذى أبى على خط الترام أن يمر أمام بيته ، وبخاصة حادث نجاته من سقوطه فى الماء (ص ٢٤) « وكم من أرواح نجت بمثل هذا وأرواح ضاعت بمثل هذا أيضاً — وعلى كل فلسفة الحوادث وفلسفة القدر غامضة عجيبة .

إن مشكلة القدر هذه تطل برأسها فى كثير مما كتب أستاذنا فى « حياتى » وغيره ، وهى تتخذ أحياناً شكلاً آخر ، شكل الموت والحياة ، والخوف من الموت ، والتشكيك فى قيمة الحياة ، والصلة بين هذا العالم والعالم الآخر ، مما لا مجال للحديث عنه هنا عبر هذا الكتاب الواحد من كتبه الكثيرة .

* * *

مشكلة ثالثة تختفى وراء الأحداث وتظهر مع التأمل ، هى مشكلة « السعادة » .. قد تكون فرعاً عن مشكلة القدر ، وقد تكون وجهاً ثانياً لها ، ولكنها على كل حال مشكلة تبدو فى خلال الأحاديث المختلفة ، ولعلها أشد ما تكون بدواً حين قرن بيته الجديد إلى بيته القديم فى مطالب الحياة (وكثرت مطالب الحياة لكل فرد وتنوعت .. فتصادمت وتخاصمت ، وكان ضحيتها سعادة البيت وهدوؤه) وفى أثاث البيت (وغزت المدنية المادية البيت ، فنور كهربائى و .. وأشكال وألوان من الأثاث ، ولكن هل زادت سعادة البيت بزيادتها ؟) وفى نشدان الزوجية والحياة الزوجية (١٧٠ — ١٨٦) .

أترى استطاع مؤلف « حياتى » أن يحقق السعادة التى يرجو ؟ ما مدى ذلك ؟ وما كان يعكر عليه من صفوه ؟ أليس التوفيق الذى أصابه فيما وسد إليه من أعمال كفيلاً أن ينثر الزهور البيضاء فى طريقه ويملأ أفقه بعبير السعادة ؟ أم هى عقدة الحزن غلّبت تشاؤمه على تفاؤله ؟

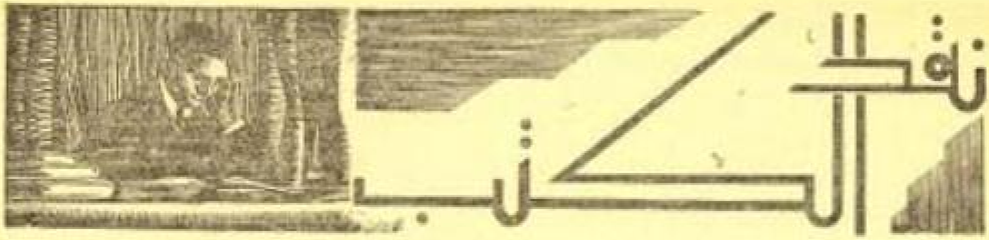
يبدو عسيراً أن نلمح جواباً فى «حياتى» فما من الله عليه به من توفيق فيما زاول من أعمال (٣٤٥) يشعرك بالطمأنينة والسعادة ، والاصطدام بالواقع والبيئة من حوله والعقبات فى طريقه (٣٤٤) تنتقص هذه السعادة .. ثم يلعب من وراء ذلك مزاج حاد دقيق رقيق يحمل الهم ويخاف العواقب (٣٤٤) ، شديد الحساسية للكلمة والفعل ، لا ينام الليل للكلمة النابية يسمعها أو تصدر عنه فى حق صديق (٣٤٤) .

ما أشد ما يلقى أولئك الذين يعيشون فى عواطفهم الظاهرة .

* * *

هذه هى العقدة والمشكلات الثلاث من ورائها .. أما العقدة فعقدة ذوى القلوب الكبيرة التى لا تسعد وفى النبع قذاة وفى النسيم ذرة غبار ، وعلى الزهر آثار ذبول .. وأما المشكلات فليست مشكلات فردية ، ولكنها مشكلات الإنسانية كلها ، والعقبة التى يقف عندها المفكرون والفلاسفة والمتأملون .

(القاهرة) شكرى فيصل



المصريون المحدثون

تأليف المستشرق إدوارد لاين ، وترجمة الأستاذ عدلى طاهر نور

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

هذا الكتاب — واسمه بالإنجليزية Modern Egyptians — كان من حقه على اللغة العربية أن يترجم من زمن بعيد . لأنه ليس نظرة رجل غريب إلى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، ولا مشاهدات دقيقة واعية لرحلة قام بها مستشرق ، ولا حكاية لزيارة من تلك الزيارات التى ينفذ بها السائح إلى صميم البلد النازل فيه ؛ ولكنه صورة صادقة ناطقة لمصر والمجتمع المصرى فى العهد الذى أعقب الحملة الفرنسية على مصر وصاحب قيام الأسرة العلوية . وما من شك فى أن الحياة فى ذلك العهد كانت امتداداً للحياة الاجتماعية فى مصر تحت الحكم العثمانى ؛ فإن التطور السريع لم يكن قد دخل بعدُ إلى صميم الحياة المصرية . ومن هنا نستطيع أن نقول : إن صور المجتمع المصرى التى أداها المستشرق الإنجليزى إدوارد لاين فى كتابه هذا فى مطلع القرن التاسع عشر ، إنما هى صور أو امتداد صور لمصر العثمانية قبل ذلك .

ومن هنا كانت أهمية الكتاب ، لأن مثل هذه الصور لم نجد من يسجلها بدقة وصدق أداء كما صنع مستر لاين . وما عهدنا كتب التاريخ فى اللغة العربية كانت تعنى بهذه الصور وأمثالها للشعوب والمجتمعات الإسلامية إلا عَرَضاً . ولم يكن غرضاً أصلياً للمؤرخ الإسلامى — فى أى عصر من العصور — أن يرصد الناحية الاجتماعية والعادات والتقاليد ؛ إلا ما جاء فى مثل « خطط المقريزى » من وصف الحفلات والمواسم والمهرجانات ، وما جاء فى كتاب الجبرتى المؤرخ المعاصر للحملة الفرنسية وشطر من عهد محمد على .

على أننا نتجوز كثيراً إذا عقدنا موازنة بين هذين الكتابين العربيين ، وهذا الكتاب المترجم عن الإنجليزية . فصاحب (الخطط) كان غرضه الأول من الكتاب وصف ما بمصر من آثار وخطط ، فلم يجئ فيه تصوير بعض ملامح المجتمع المصرى وعاداته إلا عارضاً حين يتحدث عن عيد أو موسم أو احتفال دينى . وصاحب (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) ، وهو الشيخ الجبرتى كان مؤرخاً بالمعنى العام قبل أن يكون واصفاً المجتمع المصرى ومسجلاً لعاداته وتقاليده . أما المستشرق إدوارد وليم لاين ، فقد جاء إلى مصر ليتعلم العربية ، ولكنه كان موجهاً همه وهمته إلى ملاحظة عادات المصريين وتقاليدهم وتسجيلها ، كما يقول هو فى مقدمة كتابه صفحة ١٦ من طبعة Everyman's الإنجليزية .

وعجيب أن كتاب المستر لاين الذى قصد به — كما يقول فى المقدمة — أن يجعل بعضاً من مواطنيه الإنجليز أحسن معرفة الطبقات المتحضرة فى أمة من أهم أمم العالم — هذا الكتاب لا يوثق معرفة الإنجليز بهذه الأمة المصرية الكريمة ، بل يزيدنا نحن — أبناء مصر — معرفة وثيقة بأهلنا وآبائنا منذ جيلين أو أكثر ، ويردُّ إلينا من ماضٍ كاد ينصرم كثيراً من المشاهد التى لم يعد لها اليوم وجود ، ويحفظ علينا من يد الضياع كثيراً من العادات والتقاليد التى طوح بها عالم متغير متطور .

ولم يكتف المستر لاين بالصور الوصفية التى دون بها ملاحظاته ومشاهداته بعين بصيرة نافذة ، ولكنه قدم لنا

في الكتاب عشرات وعشرات من صور ورسوم رسمها الرجل بريشته ، وهي ريشة فيها كثير من الفن والتعبير اللذين أجادهما « لاين » حين بدأ حياته بالحفر والنقش مع شقيقه « ريتشارد » .

وخيراً فعل الأستاذ عدلي طاهر نور حين أخرج لنا كتاب المستر لاين بما فيه من هذه الصور والرسوم التي لم يكن منها بدٌّ بجانب الصور القلمية البديعة التي يرسلها المؤلف في دقة وقوة ملاحظة وسبر للأغوار ، فلا يكتفي بالظواهر ، بل يعلل لها ويردها إلى أصولها ، ولا يسكت عن الشيء الذي يراه في مصر ، بل يذهب في السؤال عنه كل مذهب حتى ينكشف له وجه الحق فيه .

وإذا كان الأستاذ عدلي طاهر نور قد بلغ من الأمانة أن ينقل لنا كتاب المستشرق « لاين » كما كتبه صاحبه ، وكما وشحه برسومه وصوره ، فلا أدري لماذا أجاز لنفسه أن يحذف فصلاً كاملاً من الكتاب ، وهو الفصل الثالث الذي يتحدث فيه المستشرق عن « الدين الإسلامي وأحكامه » ، وهو فصل يبلغ من الكتاب في طبعة Everyman's خمسين صفحة كاملة . وهب أن ذلك الفصل يبلغ صفحة أو صفحتين — لا خمسين — فبأي حق يبيح الأستاذ المترجم لنفسه هذا ؟ ثم يدافع عن هذا البتر (بأن المؤلف يصف الدين وأحكامه وصفاً دقيقاً قد يمل القارئ لمعرفته إياه) .

وهذا الإشفاق من المترجم على القارئ عاطفة لا تدخل في حساب الناقلين حين يؤدون أمانة النقل كاملة ... فمثل هذا التقدير لو دخل في الترجمة لأفسد أصولها وفوت علينا كثيراً من أغراضها . أليس من حق كل قارئ عربي مسلم لم يتح له الاطلاع على كتاب المستر لاين بالإنجليزية أن يقرأ الكتاب مترجماً في غير نقص ؟ وأن يعرف على الأقل رأي هذا المستشرق في الدين وأركانه وأوامره ونواهيه ومعاملاته .

• • •

ولا أشك أن العمل الذي قام به صديق الأستاذ عدلي طاهر نور في ترجمة هذا الكتاب هو عمل له فيه فضلان ، فضل البداية ، وفضل الاستمرار ؛ وقد كلف كل منهما صاحبه حتى أتيح للكتاب أن يرى النور في طبعته العربية . فقد بدأ المترجم بنشر بعض فصول الكتاب في مجلة الرسالة من زمن ؛ ولما وقف النشر خشينا أن تكون الطريق قد انقطعت بصاحبنا عن المضي في الشوط إلى غايته . وكنت دائماً أقرن تحيتي له حين ألقاه بالسؤال عن مصير الكتاب خشية أن تكون عوقته العوائق . ولكن همة الأستاذ عدلي نور تعمل ولا تستعجل الزمن ، فقد خرج الكتاب اليوم — بعد صبر طويل — ونزل في السوق الأدبية ليلقى مصيره من التقدير . وليس من التقدير أن يستقبل الكتاب بالمدح والحمد وحدهما ؛ فأقل حقوق التقدير أن يقرأ الكتاب ، وأن يطال الوقوف أمامه ، وأن يخرج الناقد من طول الوقوف بما يدل على تزيد في العناية وتكثر في الاهتمام . فإن صاحب الإنتاج الحقيقي يسره أن يعلم أن بعضاً من الناس قد صاحبوه كثيراً فيما أخرجه ، وأطالوا الصحبة معه وخرجوا من هذه الصاحبة الفكرية الطويلة بما يدل على أن كتابه قد قرئ ... وحسبك من النقد مثل هذا الجزاء .

ولقد وقفت في الترجمة عند مواقف كنت أرجع إلى النص الإنجليزي عن شمالي والترجمة العربية عن يميني ؛ فأرى هذه غير مواتية ولا مقابلة لدقة المنقول عنها تمام المقابلة ... وأجد في الترجمة العربية ص ٢٠٩ (ويتقزز المرء من رؤية حمير النقل ...) مع أن التعبير في الإنجليزية ص ٢٩٢ (It is shocking) وشتان بين هذه وتلك .

ثم أجد في الترجمة العربية — هامش صفحة ٢٠٩ هذه العبارة (... بأن بركهاردت استفهم خطأ) مع أن الأصل الإنجليزي (have been Misinformed) وشتان بين العبارتين ، فإن المقصود أن بركهاردت قد أبلغ معلومات غير صحيحة ، لا أنه استفهم خطأ كما في الترجمة .

ثم أجد في الكتاب ص ٢٤٦ (إن تحريم الخمر ... جعل المسلمين) . مع أن الأصل الإنجليزي ص ٣٣٨ (The greater number) ، أي جعل أكثر عدد من المسلمين . وفرق دقيق بين الاثنين .

ثم أجد في صفحة ٢٠٤ (ويستشهد المسلمون حتى أشدهم تقى بالقرآن عند المزاح ، وقد حدث مرة أن طلب أحدهم أن أهدي إليه ساعة ، فأوعز إليّ بهذه العبارة المقتبسة : إن الساعة آتية أكاد أخفيها — الآية ١٥ من سورة طه) . والتعبير كله بعيد عن الدقة في الترجمة من وجوه ، أحدها : أن كلمة يستشهدون لا محل لها ، وقد تكون كلمة يقتبسون أقرب إلى المراد . والثاني أن وصف العبارة القرآنية « بالمقتبسة » قد يسيء قصد المؤلف الإنجليزي ، فوق أن الأصل لا يحمل هذا . وغرض المؤلف أن يقول

إن صاحبه استهداه ساعة ، فلجأ إلى آية قرآنية فيها كلمة الساعة بمعنى يوم القيامة . فليس فى العبارة القرآنية «التباس» كما تدل الترجمة العربية ، وكل ما هنالك أن رجلاً لجأ إلى تورية قرآنية ليستهدى صاحبه ساعة .

• • •

على أنى كنت أرجو لو تمهل الأستاذ عدلى نور فى اللغة — نحواً وتركيباً — قبل أن يتعرض للنقد أو يستهدف للأقلام ! وقد كان عنده من سعة الوقت حين بدأ يترجم الكتاب ما لا عذر له معه . وما اختاره من قوله صفحة ٤٠٩ (وقد قيل إن هناك نور خارق العادة يظهر فى القبر المقدس بأورشليم) . والصواب نوراً خارقاً .

ومن قوله فى صفحة ٢٣١ (عدد البيض المعطوب) . والعطب لغة الهلاك . ولا يقال عطب البيض . وعطبت الفاكهة . والصواب أن يقال مذرت البيضة أى فسدت . وبيض مذر .

وما اختاره من قوله فى صفحة ٢٣٤ (فى إحدى شوارع القاهرة) . والصواب أحد شوارع القاهرة ، لأن الشارع مذكر لا مؤنث .

وما اختاره من قوله فى صفحة ٢٨ بالهامش (تميز ثلاث عناصر) . والصواب ثلاثة عناصر . لأن العدد هنا يؤنث نظراً لتذكير المعدود وهو العنصر .

وما اختاره من كتابته التعبير إن شاء الله هكذا (إنشاء الله) ص ٢٠٨ .

وما اختاره من كثير غير هذا ، مما قد يظنه بعضهم شيئاً يسيراً أو حادثاً تافهاً ! ولكن الجادين فى فنهم وفى عملهم وفى صدق الخدمة التى يؤدونها لأمتهم حين يؤلفون وحين يترجمون يأبون بأنفسهم من هذه الزلات التى لم يعد لها احتمال فى مثل هذا الزمان .

وأعجب ما راعنى — أو روعنى — أن المستشرق الإنجليزى « لاين » كان أكثر دقة وأمانة حين يستشهد بآية من القرآن الكريم ، وحين يضعها فى كتابه الإنجليزى مترجمة إلى الإنجليزية ! على حين أن صديقنا الأستاذ عدلى طاهر نور قد نقل هذه الآيات خطأ ، وردها إلى عربيتها محرفة . ولو أنه كان يترجم هنا أيضاً — أى حين يرد الآية بالإنجليزية إلى أصلها العربى — لقلت خطأ فى الترجمة يلتمس تصويباً ! ولكن ما عذره هذه المرة أيضاً والقرآن العربى الكريم بين يديه وتحت عينيه ؟؟ فما باله لا يتثبت من الآية قبل نقلها ؟ ويستيقن من صحتها قبل كتابتها ! . فمن الآيات المحرفة ما جاء فى صفحة ٢٠٢ (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض) . وصحة الآية الكريمة (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض) سورة المائدة آية ٥١ .

ومن الآيات المحرفة ما جاء فى صفحة ٢٠٤ (إن الله يغفر الذنوب جميعاً وهو الغفور الرحيم) . وصحة الآية الكريمة (إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

• • •

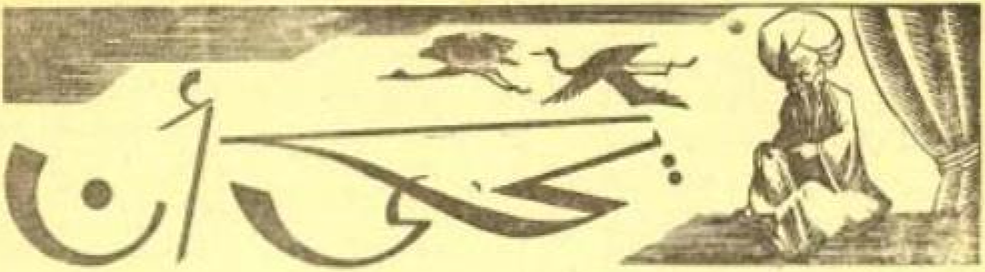
على أن هذه المآخذ — قلت أم كثرت — لا تمنع أن نقول كلمة الحق فى الجهد الذى بذله المؤلف حتى يسدى إلى العربية فضل ترجمة هذا الكتاب .

فما كان عملاً يسيراً أن يترجم كتاب إدوارد لاين إلى اللغة العربية .

ولكن الأستاذ عدلى نور استسهل فيه كل صعب حتى ذلت له مقادته ! ولا أنساه وهو على شاطىء النيل بالمنصورة أو فى ركن من أركان القاهرة ، والأصل الإنجليزى بين يديه أو تحت إبطه ، كأنما كان له شغلاً شاغلاً .

وإذا كنت قد صادفت له فى الترجمة قلة من المخالفات فإنى أشهد الله أنه كان فى أغلب المواطن أميناً فى الترجمة أمانة تكاد — كما يقول — لمطابقتها الأصل أن تكون حرفية . على أنه استطاع أن يختلس بعض الأوقات ليجمل هوامش الكتاب ببعض تعليقات كنت أود لو كثرت فى الكتاب . فإن مثل الكلام فى صفحة ١٠١ عن الاعتقاد الشائع بفساد الزواج فى شهر المحرم كان يستحق من المترجم تعليقاً . فالزواج فى المحرم ورمضان جائز شرعاً كما يجوز فى بقية شهور العام . ولكننا نسرف إذا طلبنا من الأستاذ عدلى نور أكثر من الترجمة ! ولكنه هو الذى اختار لنفسه التعليق فى بعض المواضع ، فوددنا لو اتسع وقته لأكثر من هذا . على أنه مشكور أطيب الشكر بما صنع . والله يوفق خطواته فى سبيل أمته التى تنتظر من توالى إنتاجه — بعد هذه الباكورة الطيبة — خيراً كثيراً ؟

محمد عبد الغنى حسن



مدموازيل برل

لجي دي موباسان

ترجمة الأديب حسين أحمد أمين

كانت فكرة فريدة تلك التي جالت في خاطري تلك الليلة فدفعتني إلى أن أختار مدموازيل برل من بين الجميع لأنصبها ملكة .

ومدموازيل برل هذه هي مدبرة منزل مسيو شانتال صديق والدي الحميم ، وقد اعتاد مسيو شانتال أن يقيم حفلة جميلة في يوم معين من أيام السنة سماه عيد الملوك ، فكان والدي يصطحبني إليها وأنا لا أزال طفلاً . وما زلت إلى الآن أذهب كل عام إلى هذا الحفل فأقضي ساعات سعيدة مع مسيو شانتال وزوجته وابنتيه .

وذهبت إليهم هذا العام في عيد الملوك . وكما هي العادة احتضنت مسيو شانتال ومدام شانتال ومدموازيل برل وحييت مصافحاً ابنتيه لويز وبولين .. وقد انهالوا عليّ بالأسئلة عن حوادث باريس وأخبارها ، ثم قصدنا إلى المقصف لتناول العشاء .

وعندما انتهينا من العشاء أحضروا كعكة الملوك ووضعوها على المائدة ، ثم توّجنا مسيو شانتال ملكاً كالمعتاد ، ولما وضعت التاج على رأسه صاح الجميع مهللين : عاش الملك .. عاش الملك .

ووقف مسيو شانتال وصاح موجهاً الكلام إليّ :

— والآن عليك أن تختار لنا ملكة .

وتزاحمت الأفكار والشكوك في رأسي .. هل يقصد بتفويضي اختيار الملكة أن أختار إحدى ابنتيه ؟ أهي وسيلة ليعرف أيهما أفضل ؟ أم هي طريقة جديدة لطيفة لاصطياد زوج لإحداهما ؟ إن فكرة الزواج هي الفكرة التي تراود الآباء على الدوام عندما تقترب ابنة لهم من سن الزواج .

وانتابني الخوف من أن أقع في فخ فأجد نفسي مضطراً إلى الزواج بمن أختارها على الرغم مني .

وفجأة جالت برأسي فكرة فأخذت تاج الملكة وقدمته إلى مدموازيل برل مدبرة المنزل . وقد دهش الجميع بادئ الأمر ، ثم انفجروا دفعة واحدة مهللين مصفقين وصاحوا : عاشت الملكة .. عاشت الملكة .

فأما المرأة المسكينة ، فقد انتابها الذهول وتمتمت متلعثمة : لا .. لا .. لا .. أرجوكم .. اختاروا غيري .. أرجوكم .

ولأول مرة في حياتي بدأت أهتم بمدموازيل برل ، وبعد أن كنت فيما مضى أنظر إليها كما أنظر إلى قطعة من أثاث المنزل لا أهتم بطريقة صنعها أو عناصر تركيبها ، بدأت أسائل نفسي تُرى من تكون .

إنها امرأة حزينة تحاول دائماً أن تخفي نفسها عن الأنظار . وقد اعتادت مدام شانتال أن تناديها ببرل ، وأما الفتاتان فتناديانها بمدموازيل برل ، وأما مسيو شانتال فيناديها بمدموازيل .

وأمعنت فيها النظر .. فكم سنها ؟ أربعون ؟ أجل . أربعون . إنها ليست بالعجوز ، وإن ظهرت دائماً بمظهر

العجوز . ورغم أنها تلبس وتتزين وتصفف شعرها بطريقة مضحكة ، إلا أن الناظر إليها ليس فى إمكانه أن يضحك منها ، فروحها ساذجة طبيعية بسيطة لا تكلف فيها ولا تصنع .

وعلى جبينها العادى تجعيدتان عميقتان وعيناها الواسعتان الزرقاوان فيهما جمال وحلاوة ، وفيهما خجل وخشية ، وفيهما حزن وألم .

أما وجهها فلم تذهب بجماله متاعب الحياة ؟ فمها لطيف ، وأسنانها منظمة ، ولكنى أعتقد أنها لم تحاول قط أن تبتسم .

وفجأة بدأت أقارنها بمدام شاتال .. ودهشت لنتيجة المقارنة ؟ فمدموازيل برل بلا شك أفضل وأنبل وأجمل .

وملأت كأساً من الشمبانيا وقدمته إليها ، فأخذته بيد مرتعشة ونفس مضطربة تريد الفرار . فلما رفعت الكأس إلى شفتيها صاح الجميع : الملكة تشرب .. الملكة تشرب .. فاحمر وجهها وانفجر الكل ضاحكاً .

ولما انتهى العشاء صعدت مع المسيو شاتال إلى حجرته ندخن السيجار ونلعب البلياردو . ولما تذكرت مدموازيل برل سألته :

— قل لى يا مسيو شاتال .. أهى إحدى قريباتك ؟ .

وكف مسيو شاتال عن اللعب وسأل وهو يرمقنى بدهشة :

— كيف ؟ ألا تعرف ؟ ألا تعرف قصة مدموازيل برل ؟ .

— كلا .

— ألم يقصها عليك والدك ؟ .

— كلا .

— حسناً .. حسناً .. سأقصها عليك إذاً . وإنها لمصادفة غريبة حقاً أن تسألنى هذا السؤال فى عيد الملوك .

— ولماذا ؟ .

— منذ أربعين عاماً تقريباً كنت أسكن مع العائلة فى روى ؟ أبى وأمى وعمى وعمتى وأخوى الكبيرين وأربعة من بنات عمى .. وكنت حينذاك فى الخامسة عشرة من عمرى .

وفى ليلة من الليالى كان الثلج يتساقط بغزارة لم تعهدها المدينة من قبل ، حتى إننا اعتقدنا أن نهاية العالم قد أتت . ومع ذلك فإن المرح كان يغشانا جميعاً ؟ فاليوم كان يوم عيد الملوك .. ولما هممنا أن نذهب للعشاء قال أخى الأكبر : هناك كلب يعوى فى الخارج . أرى أنه من الخير أن أذهب فأحضره .

وما إن أتم كلامه حتى سمعنا ناقوس حديقتنا يدوى ، فانقبضت قلوبنا لسماعه وأرسل أبى خادمه ليرى القادم ، ولكنه عاد قائلاً أن لا أحد هنالك .

وجلسنا إلى المائدة ولكن الناقوس عاد يدق من جديد ، فرفعنا أيدينا عن الأكل وذهب عمى مع الخادم لينظر الخبر ، ولكنه عاد بعد مدة طويلة وقد ظهر على وجهه الغضب وصاح :

— إنه الكلب الذى ينبح على بعد مائة متر .. إنه هو الذى يعبث بالناقوس .

وعاد الناقوس يدق مرة أخرى فعلمنا أن بالأمر شيئاً ، وخرجنا جميعاً هذه المرة نستطلع الخبر .

وكان الثلج ما زال غزيراً فى الخارج ، ولكنا مع ذلك قصدنا مكان الكلب وقد صممنا على حمله معنا إلى المنزل .

غير أن الكلب لم يكن وحده هنالك ؟ فقد رأينا إلى جواره عربة صغيرة بداخلها شىء لم نتبينه . فاقترب أبى من العربة ورفع عنها الأغطية فإذا هو يجد داخلها طفلة صغيرة نائمة .

وانتاب الذهول الجميع . لابد أنها ثمرة غرام ألقتها أمها الخاطئة فى الطريق ليجدها مار محسن فيرعاها ويتولى تربيتها .

وحملها أبى بين ذراعيه وعدنا جميعاً إلى المنزل .

وهكذا جاءت مدموازيل برل إلى منزلنا .

● ● ●

وسكت مسيو شاتال دقيقة ثم عاد يقول :

— لقد كانت وهى فى الثامنة عشرة من عمرها غاية فى اللطف .. غاية فى الكمال .. شجاعة . جميلة . جميلة جداً .. فاتنة . وكانت عيناها الزرقاوان فى صفاء الماء وشفافيته .. ولم أر فى حياتى أصفى من هاتين العينين ولا أكثر منهما صفاء .. مطلقاً .

وسألته : ولماذا لم تتزوج ؟.

قال متلعثماً : لماذا ؟ لماذا ؟ إنها لم تقبل العروض التى عرضت عليها . لقد كانت حزينة فى ذلك الحين .. وكنت حينذاك قد تزوجت من ابنة عمى شارلوت بعد خطبة دامت ست سنوات .

وتأملت مسيو شاتال وخيل إلىّ أنى أتوغل فى روحه وأرى خيال مأساة من أقسى المآسى التى مرت بقلبه الطيب .

وتملكنى فجأة حب الاستطلاع جارفاً فقلت دون وعى :

— لقد كان من الواجب عليك أنت أن تتزوجها يامسيو شاتال . وبوغت بقولى هذا فقال متلعثماً :

— أتزوج من ؟.

— مدموازيل برل .

— ولم ذلك ؟.

— لأنك كنت تحبها أكثر من حبك لابنة عمك .

واتسعت عيناه واضطرب وتمتم بصوت مرتعش :

— أحبها ؟ أنا ؟ كيف ؟ ما هذا الذى تقول ؟.

قلت : ولسببها هى دامت خطبتك لابنة عمك ست سنوات ولم تتزوجها إلا متأخراً .

وإذا بى أراه على حين بغتة قد انخرط فى البكاء وانحنى على مائدة البلياردو ، وجعل ينشج نشيجاً عنيفاً خيل إلىّ أن قلبه يتمزق معه .

وفجأة سمعت صوت مدام شاتال من أسفل تصيح : هل دخنتم سجائركم ؟ وفتحت الباب وقلت لها من أعلى السلم :

— نعم .. إننا سننزل حالاً .

ورجعت إلى زوجها وأمسكته من ذراعيه قائلاً :

— مسيو شاتال .. عزيزى شاتال .. اسمعنى .. إن زوجتك تناديك .. هدىء من روعك وجفف دموعك حتى لا تلاحظ عليك شيئاً .. يجب أن تنزل .

وقال متلعثماً وهو ما زال ينشج :

— نعم .. نعم .. إنى سأنزل .. يا المسكينة .. إنى سأنزل . قل لها إنى نازل .

وجعل يجفف دموعه فأمسكت بيده وقلت متوسلاً :

— أرجو المعذرة ياصديقى ، فلم أقصد إيلامك .. لم أكن أعلم أنك ستتألم إلى هذا الحد .

فهز رأسه قائلاً : أجل .. أجل .. ثمة لحظات مرعبة تمر بالمرء .

ونزلنا بعد أن هدأ روعه وصحته حتى جلس هادئاً بين زوجه وابنتيه ، ثم قصدت مدموازيل برل يدفعنى إلى ذلك حب استطلاع فظيع يلهب نفسى ويسيطر علىّ .

وساءلت نفسى : هل أحبته هى الأخرى ؟ وهل أحست بذلك العذاب الطويل المكبوت الذى أحس به .. ذلك العذاب الذى لا يراه أحد ، ولا يعلمه أحد ، ولا يحدسه أحد . ذلك العذاب لا يظهر إلا فى الظلام .. فى الوحدة .. فى حجرة النوم المظلمة .

وصممت على أن أرى ما بقلبها كما يصمم الطفل على كسر لعبته ليرى ما بجوفها .. فقلت لها :

— لقد كان مسيو شاتال يبكى الآن بكاء لو رأيته لتقطعت نفسك لمرآه .

فسألت جزعة : كيف ؟ أكان يبكى ؟

— نعم .. لقد كان يبكى .

— ولم ؟

قلت : من أجلك أنت .

— أنا ؟

— أجل .. لقد قص علىّ كيف كان يحبك فى الماضى حباً ملك عليه قلبه ونفسه ، وكيف كان يتعذب لزواجه من ابنة عمه بدلا منك .

ونظرت إليها فإذا لونها قد شحب ووجهها قد طال وعيناها قد أغمضتا ثم سقطت على الأرض فاقدة الإدراك .

وصحت : النجدة .. النجدة .

وجاءت مدام شاتال وابنتاها مسرعات .. أما أنا فقد أخذت قبعتى ومعطفى وخرجت مسرعاً .

وسرت بخطى واسعة وقلبى ينبض بشدة ونفسى تملؤها الحسرة والندم . ومع ذلك فقد كنت مسروراً راضياً .. فقد فعلت شيئاً كان من الضرورى فعله .

لقد كبتا فى نفسيهما مدة طويلة جروحاً دامية مؤلمة .. والآن .. أليسا الآن أسعد حالا ؟ ألم يندمل الجرح ؟ ألم يزل الألم ؟

لربما جلسا فى ليلة مقبلة جنباً إلى جنب فهز قلبيهما شعاع من القمر تسلل خلال أغصان الحديقة فسقط بالقرب منهما على العشب الأخضر .. ويدفعه هذا الشعاع إلى أن يأخذ يدها بين يديه بينما تجول أفكارهما فى آلام الماضى القاسية المكبوتة . ولربما أسرت هذه الملامسة فى عروقهما رعشة لم يعرفاها من قبل ، فأحيت نفسيهما وأيقظتهما بعد طول رقاد ، وبثت فيهما لذة تذوق فى القدر ما يحصله المحبون جميعاً طوال حياتهم من بهجة وسرور .

صبرى أحمد أمين

في موكب الذكرى :

كانت لنا ...

« مهداة إلى روح الشاعر الخالد (ع . م) المصري »

كانت لنا عند الغدير أريكة
تحنو عليها سرحة شماء
قام الهزار بها يغرد هاتفاً
وتباعدت عن جوها الأنواء
وأقام بين غصونها عشاً له
لم تدر أين طريقه الأدواء
وأنا اتخذت بظلها ومقيلها
عرشي وحولي جنة خضراء
كانت لنا ... ومضى الخريف بأنسها
إن الخريف على الرياض بلاء

• • •

قد كنت أقصدها وكل مسالكي
ظلم تكاثف موجها وتمادى
فإذا وصلت فثم نور غامر
يدع الهموم وقد رجعن رمادا
وإذا الرياض وقد بدت أنفاسها
عطراً سرى وكأنه يتهادى
وإذا الطيور على الغصون وقد شدت
تحيي النفوس وتنعش الأجسادا
كانت وكنت ... فهل تشرد مخلة
ذكرى ! إذا كان الفراش قتادا ؟

• • •

يا صاحبي ! وهل عليه ملام
هذا الذي عبثت به الأيام ؟
لم يدر حين مضى إلى غاياته
أن الرحيق — إن ابتغاه — حرام
وإذا بدا الفجر المحجب بالسنى
حجبته عن أضوائه الأوهام
وإذا رأى ماء وأسرع نحوه
ساخت به وتعثرت الأقدام
إني لأعجب للكريم ينـاله
ضيم ، فيقبل طائعاً ويضام !

• • •

مسكينة قدمي ! سعيت كثيراً
وحطمت تمثالي وعدت أخيرا
حطمته يأساً وعدت معذباً
متسفاً بين الجموع أسيرا
مالي أمني النفس ! إني واهم
إن كنت أنشد في الحياة سرورا
أنا لا ألقى والحياة كأنما
خلقت لمثلي علقماً وسعيرا
يا جنتي ! ماذا أقول لخافقي
قد بات بعدك في الضلوع كسيرا

• • •

عودي إلي فقد تعود حياتي
عودي إلي فقد يعود شتاتي
عودي فقد عاد الربيع مبشراً
بالحب والأحلام والصبوات
أنا لا أعيش لأنني لا أرتجي
شيئاً ؛ وتلك طبيعة الأموات
غمر الرجاء الأرض فهي مباهج
إلا أنا وأريكتي وفتاتي
قذفت بنا أيدي النوى في مهمه
قفر وفرقنا الزمان العاتي

علي بيرم

دعى لى الذكريات (١)

وأدت رغـائبي وطويتُ عهدي
وعدتُ إلى الطريق أسير وحدي

أحدق في الفضـاء، وخلف هدبي
خيـال مواثقٍ ورفاتُ وعدٍ !

يكاد الأفق يوقرُ عن شكاتي
وتعثر فيـه أفكاري وتكدي

وفي عينيَّ أشـواقٌ حيـارى
تبوح بلهفتي وتشي بوجـدي !

فديتـك ! قد سئمت خواء يومي
وتهت بوحشتي وأضعت رشـدي

تركت لي الفراغ فأين أخـطو ؟
وملت عن الطريق فضـاع قصدي

دعي لي الذكريات ! لعل فيهـا
بقيـة رحمـةٍ وسرابَ ودٍّ

أهدهد ناظريَّ بهـا وأغفـو
على حُلمين من ثقـة وسعـد !

فديتك ! كيف أوغل في طريق
يكاد على ثراه يُحطُّ لحـدي

حيـاتي نقمة وشجـاً ويأس
فكيف أعيشهـا بدمي وجلدي

تراودني فتخـذلني عروقي
وتخدع ناظري وتثير زهـدي

فآمل أن تردّ عليّ زهـوي
فتسألني الرؤى : أنقضتَ عهدي ؟

أطأطئ عنـدها رأسي وأمشي
بذلة قانطٍ وملال عبـدٍ !

أخاف من السـنين تفل بأسي
وتوهن مِرَّتي وتشـل زندي

وأفرق إن سـلوت ذهاب حلم
وقفت عليـه أشواقي وودي !

تكاد كآبتي تطـغى وتوري
ظماء محـاجري وأوار كبدي

دعي لي الذكريات ! ترق نفسي
وتهدأ ثورتي ويقر حقـدي

وأنمي الحيـاة خلال ذكرى
كتبتُ سطورها بدمي وسهدي !

* * *

فديتـك ! قد نكأتَ جراح قلبي
فأية جذوة أبقيت عنـدي ؟!

دعي لي الذكريات ! فكم ظـلام
طفقت أبثـه ألمي ووجدي

ألـم فيـه أخيـلة يتـامى
تنوح لحيني وتخـاف فقدي

إذا هدهدتهـا اضطربت وجاشت
وكاد زفيرها يودي برشـدي !

أنا هيمان في أفياء مـاض
ملأت شعابه بشـذى وورد

تركت به الشبـاب وجئت أبكي
ذبول براعمي وأفول جـدي !

وكان هواك يمـلأ لي حيـاتي
ويبعث عزمتي ويثير قصـدي

وهـا أنذا أدبُّ على طريق
نثرت عليـه أشواقي وسهدي !

فديتك ! قد أطل خريف عمري
فأين تهرّبي منـه وبُعـدي ؟

دعي لي الذكريات ! فكيف أحيا
إذا أفل الشباب وكنت وحدي !

(دمشق)　　عمر النص

(١) من ديوان « كانت لنا أيام » يصدر قريباً.

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٣٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٠٢ — الاثنين ٢٥ من رمضان سنة ١٣٦٩ — ١٠ من يوليه سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

من انتصارات الشرق العربي :

الحياة الاقتصادية في بلاد البحرين

للأستاذ أحمد طه السنوسي

.. البحرين بلد عربي يقع في شرق شبه الجزيرة العربية وفي غرب الخليج العربي (الفارسي سابقاً) ، وهو عبارة عن مجموعة من الجزر تنفصل عن ساحل قَطَر والقطيف ، أذكر من هذه الجزر جزيرة البحرين ، وجزيرة المحرق وسُتْرة وأم نَعْسان وغيرها . وكان يطلق على جزيرة البحرين سابقاً اسم جزيرة أوال ، وفي قديم الزمان كانت بلاد البحرين عربية قحة ، ثم تداولتها الأيدي من الأتراك والإيرانيين ردحاً من الزمن حتى قام فيها بنو خليفة العرب ، حيث استطاعوا بما وهبهم الله من جد ونشاط وحيوية وأشياء أن يكوِّنوا فيها حكومة عربية بعد أن استحوذوا بسلطانهم عليها .

والبحرين بلد تجاري معروف يعتمد على التجارة والملاحة في حياته الاقتصادية ، والملاحظ أن بلدان الخليج العربي تتخذ من التجارة أساساً لهذه الحياة تسير على هديه ، وقد دفعتها البيئة إلى خوض غمار تلك التجارة والملاحة نظراً لفقر أراضيها من حيث الزراعة ، ونظراً لوجود الخليج وحركة مرور السفن التجارية بها ، ثم نظراً لوجود حرفة قطف اللؤلؤ الذي يدفع إلى الاتجار به في الموانئ الجنوبية عبر المحيط الهندي ، ثم لا أنسى أن أشير إلى تلك الروح البحرينية التي تصبغ بصبغة الملاحة وتجنح لخوض غمارها إرضاء لشهوتها الدافعة واستعدادها الفطري ؛ وقد أوجبت حكومة البحرين على تجارها تنظيم دفاترهم بعد أن كانت التجارة حرة فيما قبل ذلك ، مما أدى بالتالي مع بعض تحديدات وإصلاحات إلى الرقي التجاري والتمشي معه في درب الكمال ، وهنالك ملاحظة هامة وجد عجيبة ؛ وذلك أن التجار في البحرين وكذلك في الكويت لا تكاد تعرف لهم اختصاصاً معيناً في ناحية خاصة أو صنف معين ، فهم يتاجرون في كل شيء ويحاولون الربح من كل شيء ؛ فالتاجر الذي يتاجر في الأقمشة والحبوب والعطور لا يتورع أن يتاجر في الأدوات الكهربية وفي السيارات ومختلف الآلات ، وكثير منهم من يُوكَّل لشركات أجنبية .. هذه الظاهرة العجيبة تدفعني إلى القول بأن تجار الخليج العربي مهرة أفذاذ ، ولديهم من الحيوية والجد الكثير ، كما أستنتج تكالبهم على كل ربح وراغبهم في جمع المال حتى غدت لديهم ثروات طائلة .
ولأهمية التجارة والتجار في البحرين نجد أن لهم مجلساً كبيراً ذا أثر بالغ في توجيه الأحوال العامة والخاصة وفي تسيير الأمور في البحرين ، فهو الهيئة الهامة الثانية بعد الأمراء والشيوخ في هذا البلد العربي .

والواجب أن تهتم البحرين بالتجارة اهتماماً بالغاً وتسعى لرقيها في بلادها ؛ لأنها في اقتصادي موردها الأول وساعدها

الأمن ، على أن موقع البحرين ملائم كل الملاءمة لتلك التجارة ومسوغات نشاطها ..

والبحرين من أهم البلاد العالمية في قطف اللؤلؤ من أعماق الماء ، ويربو عدد المشتغلين به فيها على عشرين ألف نسمة ، والمشتغلون بصيد اللؤلؤ يشتغلون في موسم اللؤلؤ بقطفه ، ثم إذا انقضى هذا الموسم يشتغلون بصيد الأسماك ، ومنها في مياه البحرين أنواع نادرة في جميع أنحاء العالم ، كالزبيدي وغيره مما يجعل لحرفة هذا الصيد في هذا البلد أهمية لا يغمط حقها .

ويقول سعادة الأستاذ حافظ وهبة في كتابه عن (جزيرة العرب في القرن العشرين) : « ولقد تقدمت التجارة في البحرين في الخمس عشرة سنة الأخيرة بسبب بناء رصيف السفن الشراعية ومستودعات البضاعة ؛ وقد أصبحت البحرين بالنظر إلى مركزها الجغرافي سوقاً هاماً لتجارة اللؤلؤ وغيره من أنواع المتاجر الأخرى ، فتجار اللؤلؤ من الكويت وقطر والقطيف وسائر السواحل العربية يبيعون فيها ما يجتمع لديهم من اللؤلؤ حيث يصدر بعد ذلك إلى الهند فأوربا ، وقد بلغت قيمة ما صدر منه في سني الرخاء مليونين من الجنيهات ، وأما المتاجر الأخرى فترد البحرين من الهند وأوربا ، ومنها يصدر قسم إلى القطيف وقطر والعقير حيث يرسل للأحساء وجنوب نجد » .

وليس اللؤلؤ في البحرين شيئاً ثانوياً ، بل إن له أهمية كبرى ؛ فإن ما يستخرج منه كل عام يربو على ثلاثين مليوناً من الروبيات ، على حين نجد أن ما يستخرج منه في الكويت يبلغ حوالى نصف هذه القيمة ، ويلي ذلك ما يستخرج في عمان فقطر فالقطيف .

ولقد أجمع المختصون على أن لؤلؤ البحرين أجود اللآلئ في العالم ، ولؤلؤ المناطق التي ذكرتها يدعى باللؤلؤ الطبيعي ، وهذا بالطبع لأنه لا يصنع بل يقطف من أعماق مياه الخليج ، ويوجد إلى جوار ذلك اللؤلؤ الصناعي الذي تنتجه اليابان وتعتمد عليه كمورد هام ، حتى لقد طغى إنتاج اللؤلؤ فيها على اللؤلؤ الطبيعي في البحرين والكويت وغيرها ، وأكثر اللؤلؤ المستعمل في مصر وأوربا وغيرها من اللؤلؤ الصناعي ، بيد أن هنالك فارقاً كبيراً بين اللؤلؤين ؛ ذلك لأن الصناعي لا بد من فساده وتغير أشكاله ولو امتد به الزمن ، والطبيعي على عكس ذلك يكون بمثابة الجواهر اللامعة الدائمة الإشراق ، أي أن منه التحف النادرة التي لا يبخل الأغنياء عليها بملايين الروبيات لاقتنائها وتزيين تراقي نسائهم بها . وليس أدل على عظمة اللآلئ الطبيعية من الضجة التي أحدثتها إحداها منذ زمن في صحف العالم وأودعت الآن في المتحف البريطاني ، وكان قاطفها غائصاً من البحرين .

وقمن بالبحرين أن تهتم بإنشاء معامل لتنظيف اللؤلؤ وتحويره وصوغه في الأشكال الفنية الهندسية لتصديره ؛ وهذه ناحية هامة في العمل على زيادة الارتقاء في ناحية التجارة اللؤلؤية فيها ، والمعروف أن هناك تنافساً ملحوظاً في تجارة اللؤلؤ بين بلدان الخليج العربي وبين بلاد اليابان ، ولو أن أولى الأمر من العرب اهتموا بالغ الاهتمام بهذه التجارة الرابحة فسوف تنتصر بلدان الخليج بلؤلئها على اليابان مما في ذلك شك ؛ نظراً لأن الأولى ذات لؤلؤ طبيعي ، في حين أن الثانية لؤلؤها صناعي . ولقد رأينا أن تقوم هيئة خاصة في البحرين للعمل على تنظيم تصديره وتحويره وما إلى ذلك .

ثم إن الأسماك لها أهمية بالغة في البحرين ، ومن الواجب أن يهتم بتجفيفها وتصديرها معلبة إلى الخارج لتعود على البلاد بمورد معقول ، وهنالك في البحرين بعض الصناعات اليدوية كصناعة الأقمشة والعباءات والحصر وما شابه ذلك ...

ومن الصناعات الهامة في البحرين صناعة بناء السفن ، وهي صناعة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لهذا البلد ؛ وذلك يرجع إلى أسباب : منها أن تجارة البحرين في حاجة ماسة إلى متانى السفن ، ويستلزم قطف اللؤلؤ أيضاً السفن المتعددة ، كما يحتاج إليها صيد السمك الذي يستخدمه الأهالي في قوتهم وغذائهم ، ثم إن البحرين كما يدلنا التاريخ بلد معرض دائماً للهجمات والأخطار والغارات ، فكثيراً ما جاءت إليها هذه وتلك ، وكثيراً ما شنت هي نفسها بعضاً من تلك الغارات والهجمات ، فلا غرو أن تستخدم البحرين السفن للدفاع عنها مما يضطرها إلى الاهتمام بصناعتها لكل تلك المطالب الهامة التي يقوم عليها محور حياة أهلها وأبنائها ..

ومما تجدر الإشارة إليه أنه ليس هنالك مشكلة اقتصادية في البحرين خاصة بمياه الشرب كما في الكويت ؛ وذلك لأن لديها سفناً تأتي لها بها من الينابيع العذبة التي فجرها الله تعالى في الخليج الملح الأجاج ، ثم من الآبار بطرق رفع متباينة ملائمة وإن كانت أولية . لكن لا يحسن الصمت تجاه مياه الشرب في هذا البلد ، فقمن أن تتحسن الوسائل فيه ،

وخاصة وأن الله خصه بعزة الينابيع العذبة في مياهه المالحة مما لا يوجد في غيره من البلدان .

وتستورد البحرين الأرز والمنسوجات والنبهات والسكر والتمر والسمن والأغنام والتوابل وغيرها ، ويتحدث السيد حافظ وهبه سفير المملكة السعودية في بريطانيا عن مواصلات البحرين وعن تجارة الخليج في كتابه السالف الذكر ، فيقول : « وتنقل السلع التجارية من الهند بوساطة الشركة الانجليزية الهندية ، وهي تكاد تحتكر تجارة الخليج ، وتمر أسبوعياً بالبحرين في طريقها إلى البصرة وفي رجوعها إلى بمباي ، وقد أصبحت البحرين منذ سنين مركزاً من مراكز الطيران الدولي ، فأصبحت الطائرات تمر بها كل أسبوع في طريقها إلى الهند أو أوربا ، وأصبح في وسع المسافر أن يصل إليها في أربعة أيام من لندن ، ويوم ونصف من الهند أو مصر » .

« وقد قامت الزراعة في البحرين وتقدمت ، وخاصة في السنوات الأخيرة نظراً لحفر كثير من الآبار الارتوازية التي أرجو أن تعم ويزيد الأغنياء من حفر أمثالها ، ويعتمد عدد كبير من الأهالي على هذه الحرفة ، فيزرعون مختلف أنواع البقول والخضراوات ، ولكن الفاكهة نادرة هنالك ويوجد منها التمر والليمون ، كما يزرع البطيخ والبلاز وهو من الفاكهة البحرينية ، والورد البحريني والزهور بأنواعها ، وتهتم بها النساء للتزين بها واستنشاق عبيرها واستخدامها في تعطير الفراش والغرف حين يهدأ السكون ويقبل الليل بسكونه ونسيمه الجميل ... »

ويتخذ البحرينيون (ويدعون البحارنة أيضاً) من التمر غذاء أساسياً ، والأرز غذاؤهم الرئيسي كالكويت وأندونيسيا ومعظم البلاد الأسيوية ، وأريد أن أوجه الاهتمام إلى زراعة هذا الأرز في أرض البحرين نظراً لأهميته لهم من ناحية الغذاء ، واعتماداً على ارتقاء الزراعة رويداً رويداً فيها ، تلك الزراعة التي اعتمدت على بعض المزروعات المصرية وعلى التوجيه المصري وإرشادات المختصين من مصر مما ساعد على هذا التقدم وذلك الارتقاء .

وإني لأنبه إلى أهمية الزراعة ووجوب اتجاه الكثيرين من البحارنة العرب فيها ، فيزرعون بجد ويعملون بدأب في أرضهم ، ولا يكلون أو يسأمون منها ليتجوا شتى المحصولات وليلقوا بالزراعة ما يلقوه بالتجارة وحركتها ، كما يتعين بهم أن يهتموا بالثروة الحيوانية فهي إلى جوار الثروة الزراعية مورد هام من موارد الرزق والرقي الاقتصادي ، وأسوق هنا ما قاله العلامة الأستاذ عزيز خانكي بك في كتابه « معجزة من معجزات الإصلاح الزراعي » : (إذا ما ثبت الفلاح في الأرض هو وزوجته وبناته وتكاثروا وتناسلوا تتكون مع الزمن نواة كبيرة تمكث في الأرض ولا تهجرها إلى المدن ، وإذا ما وجه الفلاح وزوجته وأولاده وبناته جهودهم إلى الأرض واستغلوها ضاعفوا غلتها فيستفيدون ويفيدون البلاد) .

ومن ناحية النقد أذكر أن النقد في البحرين كما في الكويت يقوم على العملة الهندية وروبياتها وآناتها وبيزاتها (يستحسن الرجوع إلى مقالنا عن الحياة الاقتصادية في الكويت المنشور في الثقافة الغراء) .

.. مما سلف نرى أن الحالة الاقتصادية في البحرين منتعشة حتى إن ثروتها القومية تقدر بآلاف الملايين من الروبيات ، ولكن البريطانيين لا يذرون هذه الآلاف وتلك الملايين ليتمتع أهلها بها ، بل يستحوذون عليها لينعموا بها ، فلهم الجنيه وللبحرين القرش ولهم الروبية ولها الآنة ولهم القرش والآنة ولها البيزة والمليم ! هذا علاوة على احتلالهم لمركز البحرين الاستراتيجي وسيادتهم على مركزها السياسي ونفوذهم وسلطانهم في بلد خليجي من أهم الخلجان ومن أهم المواقع في السلم والحرب ، ثم لا ننسى أرباحهم الطائلة من بترول البحرين واعتمادهم على هذا البترول في أحوالهم الاقتصادية والسياسية والحربية ..

.. إني لا أستطيع أن أمر مر الكرام على هذه الناحية الهامة دون أن أطلب إلى أبناء عالمنا العربي أن يدركوا كل هذا ، وأن يكونوا على علم تام بهذه الثروات العربية ومنافذها واليد التي تستحوذ عليها ... إن كثيرين منا لا يعرفون شيئاً عن هذه البلاد العربية الصميمة ، وقد آن الأوان وحان الوقت كي يفتحوا آذانهم ويصوبوا عيونهم .. والإدراك والتبصر أول الغيث ، وأول هذا الأخير قطر ، وإنه لمن أكبر ما يشين أن نهمل الإلمام بكل شيء في عالمنا العربي كبيره ودقيقه ، ويجب علينا أن نخبر أنفسنا في عهد جديد ، وآنذاك نستيقن من جدارتنا بالحياة الحقة والمطالبة بالحقوق والأخذ بعنان ثرواتنا وتوجيهها إلى الأمام ، لتوجهنا بالتالي إلى أمام وأمام ... !

أحمد طه السنوسي

نشأة التاريخ الاسلامى والطبرى

— ١ —

للأستاذ على أدم

ظهر الإسلام فى القرن السابع الميلادى ، وجمع أشتات القبائل العربية المتناثرة فى شبه الجزيرة العربية ، وانتشر بسرعة غير مسبوقة فى التاريخ ، وتهدلت ظلاله الوارفة على بلاد الشام وإيران والسند ومصر وشمال إفريقية والأندلس ، وأثار فى كل ناحيـة حل بها العقول ، وحرك القلوب ، واستنهض العزائم ، واستجاش الهمم . والأعمال الجليلة والمساعى الباهرة والمواقف الرائعة تستوجب الإعجاب والتقدير من ناحية ، وتبعث حب المفاخرة بها والرغبة فى تخليدها من ناحية أخرى ، وتمهد هذا السبيل وتفسح المجال لظهور الرجال الذين ينقطعون إلى جمع أخبارها ، واستقصاء أحداثها ، ووصف أحوالها وملابساتها ، ومن هؤلاء الرجال الرواة والإخباريون والمؤرخون والشعراء ؛ ولذا نلاحظ أنه لما هدأت فورة الغزوات الإسلامية الظافرة وتوقفت حركة الفتوح المتوالية كثر القصاصون والرواة والمؤرخون الذين يقصون أخبارها ، ويتحدثون عن وقائعها ومشاهدها ، ويصفون أبطالها وقادتها .

وقد كانت الأمية غالبة على العرب فى جاهليتهم ، ولذا كانت معلوماتهم التاريخية قليلة محدودة بالرغم مما عرف عنهم من صفاء الخاطر وقوة الذاكرة ، وكانت هذه المعلومات تكاد تقتصر على معرفة سلاسل أنسابهم التى يؤكدون بها عراقة أصولهم وإلمامهم بما كان يسمى « أيام العرب » ، وهى أخبار الحروب الداخلية التى نشبت بين القبائل المختلفة مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء ، وما إلى ذلك من الوقائع المحلية . يضاف إلى ذلك أخبار القبائل البائدة التى كانوا يتناقلونها ، مثل أخبار عاد وثمود وطسم وجديس ، وبعض ما انتهى إليهم من حوادث التوراة والتلمود عن أخبار اليهود أو قسس النصارى ، وشىء من الأخبار المتفرقة عن الأمم التى جاورتهم واحتكت بهم .

ولم يكن عندهم بطبيعة الحال مؤلفات تاريخية ولا مدونات للحوادث والكوائن ، ويمكن أن نستثنى من ذلك العرب الذين استطاعوا أن يأخذوا فى جاهليتهم بنصيب من الاستقرار والحضارة ، مثل عرب اليمن وعرب الحيرة ؛ فقد ترك أهل اليمن طرفاً من أخبار ملوكهم وأحوالهم العامة منقوشة بالخط المسند على قصورهم ومبانيهم فى مختلف معابدهم ، وخلف أهل الحيرة أخبارهم وأنسابهم ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم ، وما إلى ذلك من أمورهم فى مدونات استودعوها بيع الحيرة .

ولما كان النبى العربى هو باعث النهضة ومحركها الأول ؛ فمن الطبيعى والمعقول أن تصبح سيرته أول موضوع للتاريخ الإسلامى ، وأن يتبع ذلك فى الأهمية تاريخ صحابته الأوفياء الذين حاربوا تحت ألويته ، واستشهدوا فى سبيل دعوته ، أو أبلوا بلاء حسناً فى توطيدها ، وأزالوا العقبات فى طريق نشرها وإذاعتها وتغلبها .

والظاهر أن التاريخ الإسلامى نشأ نشأة مستقلة غير متأثرة بما كتبه أعلام المؤرخين اليونانيين أو الرومانيين ، فلم يعرف العرب أمثال هيرودوت وتوكيديس عند اليونان ، أو تيتوس ليفيوس وتاسيتوس عند الرومان ، وكانت نشأته استجابة لمطالب العالم الإسلامى وحاجاته وخصائصه وتطوراته .

ومن المزايا التى اشتهر بها مؤرخو الإسلام مراعاة الدقة فى تسجيل الحوادث وتأريخها بالسنة والشهر واليوم . وينقل مرجليوث فى كتابه عن مؤرخى العرب عن بكل قوله : « إن التوقيت على هـذا النحو لم يعرف فى أوربا قبل عام ١٥٩٧ ميلادية » ؛ وقد ابتدأ التأريخ بالهجرة فى عهد ابن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين .

والخصلة الثانية التى امتاز بها التاريخ الإسلامى هى الإسناد ، وهو إرجاع الرواية التاريخية إلى شخص شاهد عيان ، وفى سبيل تحرى صحة الأحاديث المنسوبة إلى النبى نشأ نوع من التحقيق يقوم على فحص سلسلة الأسناد ، وتتبع كيف وصل الحديث إلى كل جيل من الأجيال

المتوالية ، وكان دارسو الحديث فى بادئ الأمر هم المؤرخين ، ولكن التاريخ استقل بالتدريج عن علم الحديث ، وصار الأخبارى شخصاً آخر غير المحدث ، ولكنه أقل منه فى المنزلة والاعتبار .

ولم تبدأ حركة كتابة التاريخ الإسلامى إلا فى أواخر عهد الدولة الأموية ، ولعل السبب فى هذا التأخير هو قوة ذاكرة العرب واعتمادهم الشديد على هذه الذاكرة الواعية القوية . يضاف إلى ذلك اعتبار آخر لحظه مرجليوث وربما كان له أهميته ، وذلك أن الحرص على معرفة السنة كان من شأنه أن يعلى مكانة الحفاظ ، ويجعل الحاجة إليهم ماسة ؛ ووظيفة الحافظ هى أن يكون عنده معرفة دقيقة شاملة واسعة للحوادث التى يرويها ، وهذه المكانة التى بلغها الحافظ كان مما يضعفها من غير شك إمكان الحصول على هذه المعرفة بتفصيلاتها من الكتب ، وقد تعبوا هم فى تحصيلها والتثبت من صحتها ، وكان يهم هؤلاء الحفاظ أن يظلوا مرجعاً للتحصيل ، على أن المادة التى بدأت تكتب فى عهد العباسيين لم تؤثر فى مكانة الحفاظ ، وأكثر مؤلفى الكتب أنفسهم كانوا من هذه الطبقة ، وأرجح أن سبب اضطرارهم إلى الكتابة والتدوين هو تكاثر المعلومات التاريخية إلى حد جعل الذاكرات حتى القوية منها تنوء تحت أعبائها ، وقد أوجد الحفاظ حلاً وسطاً ، وهو طريقة الإجازة ، وهى أن يقرأ القارئ الكتاب ويدرسه على المؤلف نفسه أو من تكون له الأهلية والاستعداد لذلك ، وفى عصر الطبرى كان الناس يسمعون منه التاريخ والتفسير ، وكان العلم المستمد من الكتب يُنتقص ويطعن فى قيمته ويفضل عليه العلم المنقول بالسماع ، فهناك إذاً أسباب أبطأت بحركة الكتابة ؛ أبرزها أن وظيفة الحافظ جعلت الكتب لا لزوم لها ، ثم الاعتقاد بأن الكتب المكتوبة قد تكون وثائق لا يعتمد عليها لأنها قابلة للتزوير والتزييف .

وقد تغير هذا النوع من التفكير مع الزمن ، وقد استلزم تفسير القرآن ضروباً من المعارف التاريخية ، فالقرآن يشير إلى بعض الحوادث المعاصرة لنزوله ، ومن ثم نشأت الحاجة إلى معرفة مناسبات النزول ، والنصوص القرآنية تتناول الحوادث فى صورة تلميحية ، وتكتفى بالإيجاز عن التفصيل لتستخرج العبرة أو تستنبط الحكم والقاعدة ، والذين نزلت فيهم الآية كانوا يعرفون تفصيلات الظروف الموجبة للنزول ، ويعرفون مناسباته وملابساته ، ولكن الجيل التالى كان مضطراً إلى معرفة تلك التفصيلات ، ومن ثم احتاج المفسرون إلى التاريخ وإلى دراسة الظروف التى ولد فيها الإسلام ليقرأوا القرآن عن فهم وبصيرة .

وفى القرآن كذلك إشارات تاريخية ، ولمحات عن الأمم السالفة ومواقف الأنبياء المتقدمين ، والذى يريد أن يتفقه فى الدين ويستمكن من العلم يحرص على الرجوع إلى كتب المسيحيين واليهود لتزداد معلوماته وتتسع آفاق معرفته ، ولم يكن الرجوع إلى تلك الكتب فيما أعلم محرماً أو ممنوعاً ، ولكنه لم يكن فى الوقت نفسه مما يشجع عليه ، ومن ناحية أخرى كان اليهود أو المسيحيون الذين دخلوا فى الدين الإسلامى يميلون إلى الانتفاع بما فى ذاكرتهم عن الحوادث التى أشار إليها القرآن إشارات سريعة خاطفة لينفذ إلى الجوهر واللباب ، وقد اقتضى ذلك التوسع فى معرفة التاريخ والاستكثار من أخبار الأنبياء المتقدمين والأمم الوارد ذكرها فى القرآن .

ومن أسباب التوسع فى التاريخ كذلك رغبة بعض الخلفاء فى استماع أخبار الملوك السابقين لينتفعوا بتجاربهم ، ويتعرفوا سياستهم . ذكر المسعودى أن معاوية كان يستمع كل ليلة إلى أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، وكذلك كان المنصور يحرص على معرفة التاريخ للاستفادة من تجارب الماضين واستخلاص العبرة من سياستهم ، ذكر عنه فى(1) الجزء الثانى من كتاب الإمامة والسياسة أنه حينما هم بقتل أبى مسلم استدعى اسحق بن مسلم العقيلى وقال له : « حدثنى عن الملك الذى كنت حدثتنى عنه بحران » ، فقال له : « نعم ، أكرمك الله ، أخبرنى أبى عن حصين بن المنذر أن ملكاً من ملوك الفرس يقال له سابور الأكبر كان له وزير ناصح قد أخذ أدباً من آداب

(١) ونفس هذه القصة موجودة فى الجزء الثالث من البيان والتبيين للجاحظ .

الملوك وشاب ذلك بفهم فى الدين » وقص عليه الحديث ، وخلاصته أن سابور أنفذ وزيره إلى خراسان يدعو أهلها إلى طاعته فمضى الوزير وسعى فى تحبيب الناس به ، ودعاهم إلى طاعة نفسه ، فلما استفحل أمره صمم سابور على قتله عند رجوعه إليه بأعيان خراسان ، فلما رجعوا بجنهم ، لم يحيوا إلا ورأس الوزير بين أيديهم ، فاضطروا إلى طاعة سابور ، فلما سمع المنصور هذه القصة بما فيها من التشابه بين سلوك الوزير وسلوك أبى مسلم أطرق مليا ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا
وما علم الإنسان إلا ليعلما

وكان تقدير عطاء الجند يقتضى معرفة الأنساب ، وكذلك رغبة الدولة فى معرفة البلاد التى فتحت صلحاً أو التى اقتحمت عنوة أو التى فتحت بعد ، فقد كان لكل حالة من هذه الحالات حكم خاص من ناحية فرض الجزية وتقدير الخراج ، وبدون تدوين التاريخ كانت المحافظة على هذه الحقوق تكاد تكون غير ميسورة ، وبغير المعرفة التاريخية لا يمكن التثبت من صحة المعاهدات .

وفى عهد عبد الملك بن مروان أصبحت الدواوين عربية ، وقد شجع نقل كتابة الدواوين إلى العربية على نشأة الكتابة وانتشارها ، وأوجد وظيفة « الكاتب » الذى أصبحت معلوماته واسعة مستفيضة ، ومهد ذلك السبيل لظهور أساليب النثر العربى ، وقد أصبح الكاتب فى العصور المتأخرة هو المؤرخ ، لا لأنه أعلم ببواطن الأمور وخفايا السياسات ، وإنما لأنه قد تدرب على معالجة الكتابة فى الموضوعات المختلفة .

وأطلق اسم « القصاص » على الأشخاص الذين كانوا يعنون بجمع الأخبار الشائقة التى تثير حب الاستطلاع ، وكانوا يسمونهم كذلك الرواة والأخباريين ، وكانوا يعقدون حلقات فى المساجد ويتحلق حولهم الناس ، وكان كثير من هذه الأخبار يدور حول شخصية النبى وأبطال الإسلام ، أو عن الأنبياء الوارد ذكرهم فى القرآن ، وبعض هؤلاء الرواة المتقدمين قد اتهم بالكذب والتلفيق والانتحال والاختراع ، ففى ترجمة عوانة بن الحكم الأخبارى المتوفى سنة سبع وأربعين ومائة — كما روى لنا ياقوت فى الجزء السادس عشر من معجمه — وأن عوانة بن الحكم كان عثمانياً وكان يضع أخباراً لبنى أمية » ويقال إنه أنشد مرة بيتين من الشعر فقيل له : لمن هما ؟ فقال : « أما تركت الحديث بعضاً منى للإسناد ، ولست أراكم تخفونى منه فى الشعر » وفى رواية أخرى أنه كان علوى النزعة .

وحاجة النظام القضائى جعلت معرفة التاريخ ضرورة لازمة ، وذلك لأن نشوء السنة كان يستدعى معرفة الأعمال الماضية لذلك ، وقد كانت دراسة الأحاديث مما ساعد على نشوء علم الجغرافيا وفن التراجم ، وذلك لأن طريقة اختيار صحة الأحاديث كانت تدعو إلى معرفة حياة رواة الحديث وأخلاقهم وسجاياهم وعقليتهم وسلامة تمييزهم .

ويقال إن أول من صنف المغازى والسير عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٣ هجرية ؛ ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٤ هـ ، وقد ألف محمد بن مسلم الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هجرية كتاباً فى المغازى . ومهما يكن من الأمر فإن هذه الكتب قد فقدت ، وأقدم ما وصل إلينا هو سيرة النبى لعبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ فى كتابه المعروف بسيرة ابن هشام وهى منقولة عن ابن إسحق .

واشتغال المسلمين فى ضرب الخراج اضطرهم إلى تدوين أخبار فتوح البلدان مثل كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكيم المتوفى سنة ٢٥٧ وفتوح بيت المقدس وما إلى ذلك ، ومن أشهر كتب فتوح البلدان كتاب البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هجرية .

وأقدم كتب الطبقات التى وصلت إلينا كتاب الصحابة لمحمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدى المتوفى سنة ٢٣٠ هجرية ، وهو يحتوى على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء ، وقد ألفت كتب على نمطه فى طبقات الشعراء وطبقات الأدباء وطبقات النحاة وطبقات اللغويين والمتكلمين والنسابين والأطباء حتى الندماء والمغنين وغيرهم مما جعل كتب التراجم موفورة فى الأدب العربى .

ونرى من ذلك أن كتابة التاريخ نشطت وازدهرت وتنوعت فى خلال القرن الثانى الهجرى ؛ ومن أشهر مؤرخى

(البقية على صفحة ١٤)

الوجه الآخر من الحيـــــاة

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

كثيراً ما يشعر المرء بالتردد أمام أحداث الحياة وعند مفترقات الطرق ، بل كثيراً ما تظهر عليه أمارات الخوف والقلق فى أمثال هذه المواقف . وله الحق فى ذلك ، لأنه مهما بلغت شجاعة الإنسان وسط هذه الفواجع النامية التى تتربص له من حين إلى حين سيكون مضطراً فى النهاية إلى الإحساس بالرعدة ، وإلى أن تسرى فى بدنه القشعريرة ، وإلى أن يثور فى قلبه الشجن . فكلنا يعرف أن العمر يمضى بنا إلى الأمام ولا يعود إلى الخلف مرة واحدة ، وأن العيش الإنسانى محدود معدود علينا بالساعة واليوم والدقيقة ، وأنه من المستحيل على دورة الأفلاك أن تتوقف برهة فى سبيلها المحتوم ... وأمام كل هذا يقف الإنسان بمفرده على سطح الأرض مثل الغريب النازح من بلد بعيد ، فلا حول له ولا طول ، ولا جاه ولا باع . ومن أجل هذا تراه يُذعن أمام النوائب ، وتلمس تردده قبل أن يختار الوجهة التى يقصدها أو الطريق الذى يعنيه . فلا بد له أن يفكر ألف مرة قبل أن يقول « نعم » ، أو أن يقول « لا » إذا ما تفتحت أمام عينيه مسالك العيش .

ولا ينبغى هاهنا أن أناقش فكرة الحرية بالنسبة إلى الإنسان ، ولكننى أستطيع أن أزعم — وأنا متيقن مما أقول — أن الإنسان يبدأ من حالة معينة ، وأنه يتخذ خطة لسيره فى الحياة ابتداء من مكان بالذات . فالإنسان قد أحس بنفسه وسط مظاهر الوجود وهى موضوعة وضعاً خاصاً ، ثم شعر بالباعث إلى الانطلاق وبالرغبة فى المسير ، فكأنما سيق إلى المعترك وهو مربوط بالسلاسل المتدلية وراء ظهره وقيل له تقدم . ومعنى هذا أنه نظر حواليه فوجد العالم غريباً عليه ، ووجد الأوضاع مصنوعة بغير يده ، ووجد الحالة منافية لما يرجوه ويرتاح إليه . وعندئذ بدأ العراك ونزعت إرادة التحرر . لأن الضرورات التى وُلدت مع الإنسان قد أشعرته منذ الساعة الأولى بمعنى الخروج عليها والثورة ضدها ، وأفهمته فى الوقت نفسه جريرة العمل الفردى الشاذ . ولم يكن يأتى فى وقت من الأوقات عملاً غريباً حتى يرى نفســه تحت رحمة المقادير التى تلعب به وتضغط عليه وتؤدبه التأديب الكافى .

فالحياة مُرعبــة مخيفة ، والطريق مظلم موحش ، والمستقبل غامض مجهول ، والظروف القائمة لا تَرعِ بالاً ولا تطمئن الوحوش الفتاكة فضلاً عن الآدميين البسطاء . وتلفت الإنسان عن يمين وتلفت عن شمال ، فإذا هو وحده فى مفازة العيش المهجورة ، يقرر مصيره بمفرده ويعلن إرادته وحده ويدبر شئون حياته حسب ما توحى إليه الغريزة والضمير . وكان مضطراً بعد ما شاهد من القوى المتضاربة ومن العناصر المتنافرة أن يتريث ، فيسير متشدداً على ضوء تفكيره ، وفى هَدْى المشاعر التى تجول بخاطره . فهناك مصادفات قد تسعده ، وهناك مناسبات قد تضيع عليه ، وهناك خير لا ينبغى أن يفرط فيه إذا بات حاضراً لديه . بيد أن الخيار لازم فى أكثر الأوقات ، وقلما يستطيع أن يجمع بين حال وحال أو بين شيئين من الأشياء التى تَعْرِض له وتَتَعَرَّض عليه . وتلك هى أزمة الوجود الإنسانى التى يلزمه فى أغلب الأحيان اتخاذ وجه واحد والمضى فى طريق دون غيره .

ونستطيع أن نجعل من هذه الأقوال العادية فلسفة بقليل من التحوير فى الألفاظ والعبارات . فهناك إمكانيات أمام الإنسان عند تحقيق وجوده ، وهو مضطر إلى اختيار واحدة من هذه الإمكانيات حتى يعيش . أما إذا تمسك بكل هذه الإمكانيات وأغراه الطمع بأن يستحوذ عليها جميعاً

فيصعب عليه التوفيق بين مطالب نفسه المشرئبة وقلبه الطموح ، وبين الحياة الناعمة الماثلة في هذه الظواهر المتجمعة داخل نطاق الكون . فلا تستطيع أنت مثلاً السفر إلى أمريكا وانجلترا وفرنسا وسويسرا في آن معاً ، ولا بدّ لك إذا شئت الارتحال من مصر أن تختار واحدة من هذه الدول . وبذلك تقرر مصيرك وتنتقي لنفسك وجهاً واحداً من وجوه الحياة . فالحياة لا تحتمل أكثر من وجه واحد ولا سبيل إلى أن تتعدد وجوهها مهما تكاثرت مطامع الإنسان . وعلى الرغم من أن الإمكانيات الحيوية تنبثق أمام عينيه كلما تقدم في معاشه بوفرة ظاهرة ، فهو لا يملك الاستمتاع بها كلها ويضطر دائماً إلى الاكتفاء بواحدة . ومن هذه الناحية ينبع كل ما نعرفه في الأخلاق من القيم ، فتظهر الأثرة والتضحية وحسن النية والشجاعة الأدبية .

وقبل كل هذه الظاهرات النفسية لدى الإنسان ، أو بعدها ، يتجلى في الفرد ما جئنا على ذكره من الخوف والتردد والقلق . لأن اختيار سبيل بالذات ، مهما تكن درجة امتيازه وأفضليته ، معناه أنك ستقضي فترة من عمرك المحدود في حياة خاصة لا تعرف منها غير البشائر ؛ ومعناه أيضاً أنك ستفوّت على نفسك فرصاً أخرى يرجى منها الخير ويحتمل فيها النفع ، وقد تحقق لك ما تسعى إليه من المطالب . فتظهر من جرّاء ذلك كله معاني الخوف في قلبك ، وترتسم ملامح القلق والجزع على وجهك . وهذا طبيعي جداً ما دمت بإزاء مصيرك الذي تقرره وحياتك التي تنتقيها واتجاهك الذي تحدده بإرادتك ومشيئتك وهواك . وكلما كان الإنسان على علم بقيمة ما يفعل ومدركاً لخطورة ما يأتيه كان أعلى درجة في الإحساس بالمشكلة . وغالباً ما يشعر في أمثال هذه المواقف بأنه صاحب الحق الأول والأخير في رسم حياته ، وأنه يخلق نفسه بنفسه وينسج وجوده على نول أمانيه . وبهذا الصنيع من جانبه يعلن الفرد عن كيانه بأجمعه ويصرح بميوله ويبدي رغباته أمام الناس . بل بهذا الصنيع يؤكد الإنسان وجوده على الأرض التي يشعر بأنه من حقه أن يجرب فيها مظاهرها المختلفة ويقلبها على وجوهها المتباينة .

والخطأ في تصور الإنسان إنما يأتي من اعتقاده في شيئين : أولهما أنه يحس بعد مضي زمن قليل بأن هذه الوجهة التي اختارها كانت مرسومة له منذ الأبد في لوح محفوظ ، وأنه يمضي في الحياة تبعاً لخطة جارية على العباد ، مفروضة عليهم فرضاً . وثانيهما هو اعتقاده في أن الوجود ذو مناحٍ كثيرة ، وأن اختياره لمنحى واحد من هذه المناحي لا يعني فوات بقية المناحي عليه . أو بعبارة أخرى يجد الإنسان في قرارة نفسه ميلاً إلى الاعتقاد بأن السبل الماضية الأخرى قائمة موجودة على نحو ما توجد السبل التي ينتقيها وتقوم . وهذان الاعتقادان هما محض تصور ، ولا أساس لهما من الصحة . لأننا إذا نظرنا إلى الجانب الأول وهو اعتقاد الناس في حتمية التاريخ المنقضي وجدناه ينبع من جملة أسس خاطئة : أولها شعور الإنسان باستحالة التغيير فيما مضى من الأحداث ، وما صار جزءاً من التاريخ المروي . وثانيها أن الإنسان لا يريد أن يصدق أنه من القوة بحيث يمكنه أن يوجد بمحض إرادته نوعاً خاصاً من الظروف وأن يسيّر التاريخ ويُجري الأمور على النحو الذي يشاء . فهناك نوع من الضعف الداخلي في قلب الإنسان يجعله عاجزاً عن الاطمئنان إلى ما يفعله بيديه ويأتيه برغبته وهواه . ويحس الفرد بأنه يحتاج إلى سند أقوى منه حتى تثبت الأمور بشكل معين . وكأنما يستكثر على نفسه توجيه المسائل العامة بعقله وحده ، ويستهول الانفراد بالسلطة على هذا الكوكب النائي . ومن هنا نُراه يلجأ عند التقدير والفعل إلى قوة مجهولة يسبغ عليها من خياله وأوهامه ما يجعلها ذات الشأن الأول في تصريف الأمور . وثالث هذه الأسس الخاطئة — وهو أساس مبني على الأساس الثاني — أن الإنسان لا يريد أن يشغل نفسه كثيراً بأحداث الماضي ، ولا أن يوقع على نفسه مسئولية الوقائع التي جرت ، ويحب أن يخلي من قلبه إحساسه بالخطأ ، فيزعم أن الأشياء لم تقع على نحو ما أراد هو ، وإنما تبعاً لمشيئة عليا تسيطر على الكون وتوجه دفات الأمور فيه . فهو من أجل أن يخلص نفسه من تبعة الآراء التي يبديها والأفعال التي يأتيها ، نراه

يخترع مبدأ الحتمية التي لا تجعل مجالا للحديث عن الإمكان في تغيير معالم التاريخ . ولا يمكن أن تفهم الحتمية إلا بمعنى واحد ، وهو أن الإنسان يريد أن يحمي نفسه من اللائمة إذا تطورت الأمور على النحو الذي لا يريده . ومن هنا تراه يلصق الشناعة التي تحدث بين جدران هذا الكون إلى القوة العليا ويزعم أن ثمة إرادة تسيره أثناء إتيانه الأفعال المختلفة ، فلا يكون عليه ذنب ولا يركبه وزر .

أما الاعتقاد الآخر وهو القول بوجود النواحي الكثيرة في الحياة أو الوجوه المتعددة التي تتشكل على نمطها سلسلة الحوادث التاريخية ، فمصدر الخطأ فيه أن الإنسان يتصف بالطمع والشره الذي يجعله دائماً في نقمة على المعيشة التي يرتبط بها . فهو يتصور لذلك أنه إذا اختار وجهة من الوجهات أو سار في سبيل من السبل كان في استطاعته بعد ذلك أن يعود إلى الحالة القديمة إذا أخطأه التوفيق ولم يحقق وجوده على نحو ما كان يحب . ولكن هيهات أن يصدق مثل هذا التصور ... لأنك تختار وجهاً واحداً لوجودك في زمن معين ولا تستطيع في هذا الزمن نفسه أن تجتمع لك وجهان من الوجود أو أن تعود إلى وجه آخر من وجوه العيش إلا بعد التنازل عن الوجه الذي أنت عليه .

ولذلك نقول إنه لا يوجد للحياة غير وجه واحد هو الذي تسير عليه ، وكل ما عداه تخيل محض ووهم خالص . والجشع الذي ينبض في قلب الإنسان هو مصدر هذه الخيالات والأوهام . وقد يكون له أصل آخر ، وهو أن الإنسان لا يرى الناس جميعاً على نمط واحد فيحسب أنه قادر على أن يعيش مثلهم وأن يتقلب بين نماذج وجودهم . مع أنه مربوط بالحبال ، مشدود إلى حياته الماضية الناجمة عن ملابسات أيامه الخالية . فكل إنسان هو ابن لماضيه وأسير أحواله وعاداته في الزمن المبكر على الزمن الذي يعيش فيه . وإذا كان هناك إنسان متخصص في الطب أو الهندسة من صغره فمعنى ذلك أنه سيظل إلى آخريات أيامه متأثراً بهذه المرحلة من حياته التي تعلم فيها الطب أو الهندسة . ويظهر لنا من الدراسات النفسية أنه يصعب الفكاك من محيط الآثار الباقية في النفس منذ الصغر . كما تكشف لنا علوم الاجتماع والجغرافيا الجنسية عن الطبائع العامة التي تؤثر في كيان الأمة وتعين مستقبلها بواسطة البحث في جملة الخصائص القديمة المتأصلة في نفسية الشعب .

ومعنى هذا أن الفرد لا يمكنه أن يخرج من الحدود التي أحاطت بوجوده الخاص ولا يستطيع أن يجمع بين وجهين من وجوه الحياة . ولا بد له من الاختيار . وقد تظن أنه من المفيد بالنسبة إلى الإنسان أن يستشير سواء عندما يختار ، ولكننا لو عرفنا أن غيرنا من الناس لم يعش سوى وجوده الخاص ، ولم يعرف عن الحياة سوى وجه واحد ، فإننا سوف نشك كثيراً في قيمة النصيحة . لأن الخبرة لا تدل على أن إنساناً قد عاش أكثر من نمط واحد أو تقلب بين وجوه مختلفة . ومهما كانت تجاربه في الحياة ، ومهما كثرت أحواله واختلفت شئونه وطال عمره ، فليس معنى هذا أنه عاش أكثر من وجه واحد من وجوه المعاش في فترة معينة من الزمن . فإذا أعطى خلاصة ما رآه في حالتين مختلفتين في زمنين مختلفين ، فليس معنى هذا أنه يعرف ما يمكن أن يكون مصير إنسان سواء إذا مر بنفس الحالتين في زمنين آخرين . فما أجربه وأنا شاب يختلف عما أجربه وأنا في سن الشيخوخة ، وما أمر به وعمري عشرون سنة يخالف ما أمر به وعمري يربي على الخمسين ، ولو كان الشيء الذي أمر به في الحالين واحداً . فإذا سألت رجلاً مسناً عما إذا كان يصح لي الزواج أم لا ، فمن الضروري أن أراعي كل ما يلي : أولاً ينبغي أن ألاحظ الممكنات التي أدت إلى عدم نجاحه إذا كان متزوجاً وجهله بالوجه الآخر من الحياة إذا كان عزباً . كذلك ألاحظ أنه لم يذق الحالتين معاً أو إذا أحس بهما فلا يمكن أن يكون قد عاشهما في نفس الزمن . فقد يكون متأثراً بخيانة زوجته وهو في سن الشيخوخة ، ولو كان قد تزوجها في شباب التوثب لكان موقفها منه غير هذا الموقف الذي ينتج عن الشفقة واليأس أكثر مما ينتج عن أي شيء آخر .

كذلك ألاحظ الوقت الذى تزوج فيه والوقت الذى أختاره أنا للزواج . فقد تكون ظروفه التى أسعدته أو التى أضرّت به غير مشابهة لظروفى . وقد تكون سنى غير مقاربة للسن التى تزوج فيها .. وهكذا تتبين صعوبة الاستفادة من تجارب الآخرين وضائعهم .

فالإنسان ملزمٌ إذاً بأن يعيش وجوده الخاص على نحو ما يريد وعلى الصورة التى توافقه من غير أن يكون له ضابط سوى روحه وظروفه وممكنات عيشه . وبذلك تصير حياة الإنسان بأكملها تجربة من التجارب فلا يُستفاد منها ، ولا تستفيد هى من الطريق الذى سارت فيه حيوات الآخرين من قبل . أو من هنا يمكن وصف حياة الإنسان بأنها مخاطرة أولى من نوعها . وحياة كل فرد من الأفراد هى تجربة من طراز يخالف الطرز الباقية فى الجوهر والشكل على السواء . ومهما تشابهت الأحداث والوقائع فلا تحسبنّ أنها متكررة ، ولا تظنن عودتها من جديد ، وإنما لاحظ الفروق الدقيقة وتأمل البواعث المتأصلة لتعرف مقدار الفارق بين حادثة وحادثة أو بين واقعة وأخرى .

ولهذا يحق للإنسان أن يشعر بأزمة الوجود وأن يحس بخطورة الحياة ما دامت غير قابلة للتكرار والعود مرة أخرى . وإذا كان الإنسان بصدد تقرير لمصيره ، واختيار سبيل من سبل المعاش فلا بد من أن نراه قلقاً متردداً تبعاً لما يراه فى الوجود من محدودية المعاش ونتيجة لما يحس به فى أعماق نفسه من استحالة الفىء على أكثر من نحو منفرد . فحياته تجربة يعيشها بنفسه ، ويدفع ثمنها من عمره ، ويقضى على نفسه بنتائجها مهما كان نصيب الخير والشر فيها . وقد أرادت الحياة ألا تدع مجالاً لتوضيح هذه الحقيقة فى ذهنه حتى لا تتعطل حياته . فعملت شيئين : (أولاً) جعلته يحس بأن الحياة تتقدم عرضاً لا طولاً ، ودفعت الإنسان إلى الاعتقاد بأنها تسير على شكل لولبىّ بحيث تتأدى الحركات والأفعال فى مظهر من الحشور ، فهى تبدو أمام عينيه كما لو كانت تتسع فى حركتها من الجانبين على هيئة تتسع وتنمو . وبذلك ينسى الإنسان معنى الموت ، ولا تخطر على باله ، بين معالم التكامل ، صورة التفكك والانحلال . بينما لا تجد الشخصية الواعية إلى تدرك حقيقة الحركة ، وتعرف منتهى الوجود ، وتستشعر حياتها معلقة من أطرافها بخيط واه ... أقول لا تجد مثل هذه الشخصية فى الحياة غير مظهر السير التقدمى ، ولا تعرف غير معنى الخطو المندفع ، ولا ترى فى الوجود غير انبثاق طولىّ متصل . فالوجود لا يسمح بالإعادة ولا يتيح فرصة للتكرار . ومن هنا تأتى النزعة التشاؤمية ، وتتولد الروح اليائسة ، وتهب ذات الإنسان من باطن العالم الأرضى لتصرخ فى قبة السماء ، معلنة عجزها (كما فى العبادات الدينية) أو تمردها (كما فى الفلسفات اليسارية) ؛ وهى فى الحالين لا تكسب ولا تخسر ، وإنما تمضى الوقت وتجد شاغلاً فى ذلك كله عن التفكير فى مأساة المصير الإنسانى .

و(ثانياً) أوجدت الطبيعة ما سميناه بالوجه الآخر من الحياة ، واخترعت إحساساً فى قلب الفردية المتألمة بإمكان التغيير ، وأشعرت المنكوب بأن الرجعة ميسورة ، وتبدت للإنسان العادى فى صورة تأجيل مطّرد .

على أنى أريد أن أعلن الآن أكذوبة الوجه الآخر من الحياة ؛ وإذا أخذنا به فعلى أساس أنه تعبير عن مخاوفنا وآمالنا ، وأنه نوع من الحلم الذى نرتبه إبان اليقظة . فنظرتنا إلى الوجه الآخر من الحياة مزيج من المشاعر والهوايات والأذواق . ولذلك يصح أن يتخذها علماء النفس أساساً لبحثهم فى الأمراض المختلفة ، وخصوصاً إذا اهتموا بالتحليل الحالمى . فهو شىء لا وجود له أصلاً ، وإذا أنت ضيعت على نفسك فرصةً فإنما تضيعها إلى الأبد ، وإنك إذ تعتمد فى اختيارك للأمور على سواك وتقوم بتقليد حياة الآخرين من أجل تزيين حياتك ، تفسد قيمة حياتك وتجعلها شيئاً خاملاً بعيداً عن الابتكار والخلق . فلتكن حياتك إذاً قصة من وحى خيالك وعقلك فى الظروف التى تقوم من حوالك والإمكانيات التى تتوفر لديك . اخلقها بنفسك وتحمل مسئوليتها وحدك ، وكن أنت صاحبها من الألف إلى الياء فيها . وعندئذ ستدرك معنى الحياة ..

عبد الفتاح الديدى

صور خاطفة لشخصيات لامعة

لديل كارنيجي

ترجمة الأستاذ حسين أحمد أمين

— ٢ —

لينـــين

أريد الآن أن أحدثك عن رجـل مات منذ خمسة وعشرين عاماً فقط ، ومع ذلك فإنك تجد مائة مليون نفس تنظر إليه الآن نظرتها إلى القديسين والأبطال ، وتجد مدينة كبيرة يبلغ سكانها سبعمائة ألف نسمة قد سميت باسمه تمجيداً له وتخليداً لذكراه .

هذا الرجل يدعى لينين ، الذى أجرى فى روسيا أعظم تجربة لنظام اقتصادى ربما كان له بعض الأثر عليك أو على سكان العالم أجمعه .

كان لينين ضئيل الجسم أصلع الرأس مجعد الوجه ، وكانت ساقاه قصيرتين حتى إن قدميه لا تكادان تلمسان الأرض إذا جلس على مقعد .

ولم يعن لينين قط بمظهره الخارجى ؛ فسرواله بادى الطول ، وأنفه أفطس قليلاً ، وإحدى عينيه بها حول ، وربما لم يلبس فى حياته قبعة من حرير أو معطفاً فاخراً .

وكانت حياته الزوجية مثالاً للحياة السعيدة الهادئة ، وكانت زوجته تحبه كل الحب ، حتى إنها رفضت أن تتخلى عنه عندما نفى من البلاد ، فصممت على الذهاب معه للعناية به والسهر على راحته .

ولما كثرت أوقات فراغه وهو فى منفاه بسيبيريا عكف على لعبة الشطرنج حتى أصبح من أمهر لاعبيها . وكان فى إمكانه أن يلعب — فى وقت واحد — أدواراً عدة . وبلغ من ولعه بهذه اللعبة أنه كان يلعبها مع أصدقائه بواسطة البريد .

كان وهو فى صباه جاداً عبوس الوجه حزين النفس ، لا يشترك فى لعبة رياضية ولا ينضم إلى زملائه فى لهوهم . فلما تقدم به العمر لم يشعر بميل إلى الموسيقى أو الشعر أو الدين ، ولكنه درس القانون وتعلم ثلاث لغات : الفرنسية والألمانية والانجليزية إلى جانب الروسية .

وقد أعدمت الحكومة الروسية أخاه لأنه دبر مؤامرة لاغتيال القيصر اسكندر الثالث ، ونفت لينين نفسه بعد ذلك لأفكاره الثورية إلى مدينة صغيرة فى سيبيريا الشديدة البرد . وهناك شاهد لينين بعينيه تعاسة الفلاحين الروس وفقرهم المدقع . فلم يكن بإمكانهم أن يأكلوا اللحم إلا فى الأعياد الدينية الكبرى ، أى أنهم لا يذوقونه سوى عشرين مرة كل عام .

وفى أثناء المجاعة الكبرى عام ١٨٩١ عندما هلك الملايين من الفلاحين بسبب الجوع وانتشار التيفوس والكوليرا ، رأى لينين واعتقد اعتقاداً صارماً أنه لا سبيل إلى علاج هذه الحالة إلا بخطوات ثورية ، ومن هـذا الوقت أصبح ثورياً يتأجج تحمساً .

والخمسة والعشرون عاماً التالية كانت كلها اضطهاداً له وتجسساً عليه .. فكان لا يحل فى بلدة إلا طردوه منها ؛ فعاش تارة فى ألمانيا وتارة فى النمسا ، وتنقل من فرنسا إلى بولندا ، ومن سويسرا إلى انجلترا . وكان فى لندن يمكث ساعات طوالاً أمام مقبرة كارل ماركس أبى الاشتراكية الحديثة .

ولكى يتجنب القبض عليه كان يتنكر أحياناً فى زى فلاح أو بحار أو عامل فى مصنع . وكان تارة يضع شارباً مستعاراً على وجهه ، وتارة يلبس زى النساء . وكان يحرص دائماً على أن يكون بحقيبته حيّز خفى يضع به أوراقاً سرية ووثائق خطيرة . وكان أحياناً يضع هذه الأوراق والوثائق فى حديقته ويزرع فوقها أشجاراً للفلفل والكرنب .

وقد كتب أحد كتبه الثورية بالسجن . ولكى لا يكشف

أمرها أحد كتبها باللبن بدلا من الحبر . فلا تقرأ سطورها إلا بعد غمسها فى الماء الساخن . وقد أوصى تلاميذه بالكتابة إليه بنفس الطريقة . فإذا ما وصلته خطابات منهم من هـذا النوع طلب من سجانه قدحاً من الشاى .. وعندما يدير السجان ظهره يغمس الخطاب فى قدحه ليتمكن من قراءته .

وأصبح لينين عام ١٩١٧ دكتاتوراً على روسيا وألغى الملكية الخاصة ؛ وأصبحت الدولة مالكة لجميع الأراضى والمنشآت . وهرب ملاك المقاطعات الكبرى يحدوهم الفزع ، فوزعت أملاكهم على الفلاحين الذين انتهزوا فرصة هرب السادة فمزقوا طنافسهم وبسطهم الفاخرة وصنعوا منها أحذية لهم واستولوا على أوانيهم النادرة وأثاثهم الثمين .

وفى الوقت الذى جاع فيه شعبه رفض أن يضيف إلى شايه قطعة من السكر لأن شعبه محروم من السكر . وبرغم أنه كان الديكتاتور الأعلى فى روسيا فإنه حرم نفسه من أبسط أنواع الكماليات . وقد حكم روسيا دون أن يكون لديه هيئة من السكرتارين . ولم يمل فى حياته خطاباً على أحد . بل كان يكتب خطاباته بنفسه ، وكان يعمل من ثمانى عشرة ساعة إلى عشرين ساعة فى اليوم .

وبعد خمسة أعوام أصيب بالشلل وتصلب فى الشرايين وفقد القدرة على النطق ، فعادوا يعلمونه من جديد كيف يتكلم كما يعلمون الطفل . وشلت يده اليمنى فتعود الكتابة بيسراه . وجاهد مدة عامين كاملين فى سبيل التغلب على هذا المرض ، حتى وافاه أجله ، وكان يقول من حين لآخر : « مازالت أمامى أعمال كثيرة أريد أن أؤديها . »

وترى الآن صورته معلقة فى كل منزل وفى كل مصنع وفى كل جمعية فى جميع أنحاء روسيا . وقد اعتاد الخبازون هناك أن يزينوا كعكاتهم بصورته ، واعتاد البستانيون أن يبذروا حبوبهم بحيث تتفتح الأزهار على صورته ، واعتاد النساجون أن يطبعوا أنسجتهم بملامحه . والملايين يعبدونه كإله ، ويروى بعض الفلاحين أنهم رأوه يقوم من قبره ليساعدهم ويتقدم من مشاكلهم .

وجثته الآن موضوعة فى نعش من زجاج يحج إليها الجماعات من الحجاج .. ففى كل يوم يتقدم ألف من عابديه عارى الرؤوس خاشعى القلوب ليلمسوا من ذلك الرجل الذى فتح فتحاً جديداً فى تاريخ العالم — البركة والقوة .

حسين أحمد أمين

نشأة التاريخ الاسلامى والطبرى

(بقية المنشور على صفحة ٨)

هذه الفترة محمد بن إسحاق بن يسار صاحب السيرة التى اعتمد عليها ابن هشام ، وقد توفى سنة خمسين أو إحدى أو اثنين وخمسين ومائة ، وقد قيل عنه إنه كان تحمل له الأشعار فيضعها فى كتب المغازى ، وإنه أخطأ فى كثير من النسب الذى أورده فى كتابه ، وأصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه كما ذكر لنا ياقوت فى معجمه ، وكان قصد أبا جعفر المنصور بالحيرة فكتب له المغازى .

والمؤرخ الذى نال شهرة بعيدة ومكانة سامية فى ذلك القرن هو الواقدى ، واسمه محمد بن عمر ، وكان عالماً بالحديث والمغازى والفتوح ، وقد قربه المأمون وولاه القضاء بشرقى بغداد فى عسكر المهدى ، وتوفى هناك سنة ٢٠٧ هجرية ، وكان المأمون يكرمه ويبالغ فى إكرامه ، ولكن المحققين يستضعفون حديثه .

ومن مؤرخى ذلك العصر المعروفين الهيثم بن عدى الذى عاش من سنة ١٣٠ إلى ٢٠٩ هجرية ، وكان أهل الحديث لا يثقون به ، ويروون أن خادمته قالت عنه : « كان مولاى يقوم عامة الليل يصلى ، فإذا أصبح جلس يكذب » ، وكان من معاصريه هشام بن محمد السائب الكلبى ، ولكن الهيثم كان يفوقه معرفة .

ومن مؤلفى هـذا العصر المدائنى على بن محمد المولود سنة ١٣٥ ، والمتوفى سنة ٢٢٥ ، وقد مهد هؤلاء المؤرخون بما جمعوه من مادة السبيل لظهور المؤرخ المحدث الكبير ابن جرير الطبرى .

على أدهم

من خواطر رمضان

للأستاذ خليل مذكور

أرقت ليلة بعد تناول السحور ، فحاولت أن أبدد هذا الأرق ، أو — بالأحرى — أن أستفيد منه ، فعمدت إلى الأعداد الأخيرة من مجلة الثقافة ؛ فاسترعى تفكيري مقال نشر بالعدد ٥٩٧ الصادر في التاسع عشر من شهر شعبان الماضي للأستاذ الكبير الدكتور أحمد أمين بك تحت عنوان « خواطر » ، وقد رقّم سعادته المقال برقم « ١ » مما يتوقع منه تسلسل تلك الخواطر التي لا ساحل « لفيضها » . ذكر فيه ما قد يوحيه منظر شخص إلى آخر من النفور والكره ، أو يبعث في نفسه من العطف والحب دون أن تبرز للظاهر ما يبعث في النفس النفور أو العطف ، بل وقد تدعو تلك الظاهر — حسب ما اصطلح عليه عند رجال الفن وعلماء الجمال — إلى عكس ما يحس به إنسان نحو آخر ، وإنه يطل ما يشعر به نحوه بخفة أو ثقل روح هذا الآخر . واختتم سعادته مقاله الشائق بالتساؤل عما إذا كان عند حضرات السادة علماء النفس المتخصصين فيها والمتبحرين في دراستها ما يذهب بهذه الحيرة ويكشف هذا الغموض .

وإني وإن لم أكن من المتبحرين في علم النفس ولا أدعي أن في استطاعتي كشف ذلك الغموض ، لكني أثناء تأملاتي في « ساعات السحر » هذه (بعد استئذان الزميل القديم العلامة الدكتور أحمد زكي بك) رجعت بالذاكرة — أو هي التي رجعت بي — إلى خمسين عاماً أو تزيد إلى مجلس كان يضم المرحوم والدي وثلة من أجلة علماء الدين الأقدمين — رحمهم الله ورحم زمانهم — سمعتهم يتباحثون في معنى الحديث الشريف :

« الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

فخطر لي الآن أن أرجع إلى كتب الحديث لمعرفة سنده والظروف التي روي فيها ، والمناسبة التي قيل من أجلها ، فألفيت أنه حديث متفق عليه ، رواه الشيخان في اللآلئ ، وكذلك رواه أبو داود عن أبي هريرة ، وقال البيهقي إنه سأل الحاكم أبا عبد الله الحافظ عن معناه فقال : « المؤمن أو الكافر لا يسكن قلبه إلا إلى شكله » ورواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، وكذلك في صحيح البخاري عن سهيل ابن علقة عن عائشة — رضي الله عنها — أنها سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كانت امرأة مكية بطالة تضحك النساء وتلهي ، وكانت امرأة بالمدينة مثلها ، فقدمت المكية المدينة فلقيت المدنية فتعارفتا فدخلتا على عائشة فتعجبت من اتفاقهما ، وسألت عائشة المكية : هل كنت عرفت هذه ؟ فقالت : لا ، ولكنا التقينا فتعارفنا ، فضحكت عائشة وقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأرواح جنود » الحديث ، وروى هذا الحديث بهذا النص كثير من الرواة مثل سلمان وابن عباس وابن عمر وعمر وعلي وأبو الفضل ، لكن ابن مسعود رواه بلفظ آخر وهو :

« الأرواح جنود مجندة تلتقي فتتشامّ كما تتشامّ الخيل ؛ فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . فلو أن رجلاً مؤمناً جاء إلى مجلس فيه مائة منافق وليس فيهم إلا مؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه ، ولو أن منافقاً جاء إلى مجلس فيه مائة مؤمن وليس فيه إلا منافق لجاء حتى جلس إليه » وأخرجه الديلمي بلا سند عن معاذ مرفوعاً بلفظ : « لو أن رجلاً مؤمناً دخل مدينة فيها ألف منافق ومؤمن واحد لشم روحه روح ذلك المؤمن ، ولو أن رجلاً منافقاً دخل مدينة فيها ألف مؤمن ومنافق واحد لشم روحه روح ذلك المنافق » .

وجاء في الحلية في ترجمة أويس : لما اجتمع بهرم بن حيان العبدي ، ولم يكن لقيه ، وخاطبه أويس باسمه ، قال له هرم : « من أين عرفت اسمي واسم أبي ؟ فوالله ما رأيتك قط ولا رأيتني » ، قال : « عرفت روحي روحك حيث كلمت نفسي نفسك ، لأن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد ، وإن المؤمنين يتعارفون بروح الله ، وإن نأت بهم الدار وفرقت بينهم المنازل » .

وما أحسن ما قال الشهاب بن أسعد التنوخي في هذا المعنى :

إن القلوب لأجناد مجندة — قول الرسول فمن ذا فيه يختلف
فما تعارف منها فهو مؤتلف — وما تناكر منها فهو مختلف

وقال أحد الشعراء أيضاً :

بيني وبينك في المحبة نسبة ... مستورة عن سر هذا العالم
نحن اللذان تعارفت أرواحنا ... من قبل خلق الله طينة آدم

تفهم من كل هذا أن الأرواح تتناجى وتتنادى أو تتنافر وتتناكر . ولما كانت الأرواح هي المحركة للأجساد ، وقد خلقت الأرواح قبل الأجساد ، كما رجحته غالبية الشراح ، بل وادعى فيه ابن حزم الإجماع — فما تعارف منها في عالم الأزل ، أي قبل خلق الأجساد — وقع بينها الائتلاف والانسجام بعد خلق الأجساد ، وما تناكر منها في عالم الأزل حلت بينهما البغضاء والشقاق في عالم الحس الذي نعيش فيه .

أو لم يحدث لكل منا أن يدخل عليه شخص لأول مرة فترتفع بينه وبينه الكلفة ، ويشعر كل منهما نحو الآخر بعطف ، كما لو كان يعرف أحدهما الآخر منذ أمد بعيد ، كما يحدث عكس ذلك أن يعاشر المرء شخصاً السنين الطويلة ويبقيا ، وكأن بينهما حجاباً كثيفاً ، أو ليس هذا من فعل تمكنه روح كل منهما مما وقع لها في عالم الأزل .

هذا وما دمنا بصدد الحديث عن تناجي الأرواح وتناديها — والحديث كما يقولون ذو شجون — فإنه يمر بالذهن خاطر آخر يدعونا إلى التساؤل عما إذا كانت الأرواح المتآلفة لما بينها من التشابه في الميول تتقمص أجساماً متشابهة كذلك في الملامح وقسمات الوجه وأعضاء الجسم حتى وفي خطوط الكف ، وعما إذا كنا نستخلص من ذلك أن الأشخاص المتشابهين في الملامح وأعضاء الجسم يكونون متشابهين في الصفات والطباع ، وبذلك يحدث بينهم الانسجام والاتفاق ، وأن الذين تختلف ملامحهم لا يحدث بينهم انسجام ولا وفاق ، يؤكد ذلك علماء الفرس في مخطوطاتهم وكتبهم في علم الفراسة (Physionomie) .

— ولا أدري إذا كان لفظ « الفراسة » اشتق من الفرس لأنهم كانوا أول من درسوا هذا العلم — حتى لقد قالوا إذا أراد المرء أن يعرف حقيقة طباعه فلينظر في المرآة ، فإذا وجد أن فيه بعض الملامح التي يغلب وجودها عند أحد « إخواننا » الحيوانات (nos frères inférieurs) ، يحكم في الحال بأن عنده من الصفات والطباع التي يمتاز بها ذلك « الأخ » من شجاعة وإقدام أو مكر ودهاء ، إلى غير ذلك من الصفات التي خص بها الله مخلوقاته المختلفة . وإني أعتقد أنه ليس هناك من بين قراء الثقافة الكرام من ينطبق عليهم قول شكسبير في مسرحيته "As you like it" (كما تريدها) :

"If you hav'nt never seen an...."
"Go home and break your looking glass."

ما تعريبه مع بعض التصرف :

إذا لم تكن قط رأيت ابن الأتان .
فاعمد إلى مرآتك وحطمها بلا توان .

ولم يكن علماء الفرس وحدهم هم الذين قالوا بأن ملامح الشخص تنم على أخلاقه وطباعه ، فهناك بعض علماء القانون الجنائي من الطليان وعلى رأسهم لومبروزو Lombroso وفيري Ferri وجاروفالو Garofalo الذين ميزوا من بين المجرمين من يولد مجرماً بفطرته وطبيعته ، ووسموه بملامح جسمية جنائية مميزة له تدل على الإجرام ؛ منها نتوء الجبهة وضخامة عظم الفك الأسفل وتدلي الأذنين كخلقة الباب ، وعدم تناسب الجمجمة مع الوجه ، والقدرة على استعمال اليدين بقوة واحدة على السواء .

ويجرنا هذا الخاطر إلى خاطر آخر (والخواطر هي الأخرى كالأفكار وكالمعاني تتداعى وتتجاوب) وهو أنه يحدث لنا أن يمر بذهننا شخص أو نتكلم عن شخص معين فنراه يحضر على الفور فيقول العامة : « افتكرنا القط جه ينط » ويقول الفصحى : « ما كاد يمر بالخاطر حتى رآه الناظر » . ويقول الفرنسيون :

"Quand on parle du loup on en voit la queue"

ومعناه حرفياً : (عندما يتكلم المرء عن الذئب يرى ذنبه) .

ويقول الإنجليز :

Talk of the devil and he is sure to appear

وترجمته الحرفية : (إذا تكلمت عن العفريت فمن المؤكد أنه يظهر لك) أو ما يقرب من هذا المعنى على لسان العامة : (اللي يخاف من العفريت يطلع له) .

إخالني قد أثقلت كثيراً على القارىء الكريم بهذا الخبط الأعشى والخلط بين الجد وشبه الهزل ، ولكن معذرة ، فهذا من تخاريج الصيام وعمل ذلك الشهر الكريم الذي تكثر فيه « السلطات الاعلبية » والاضحية والسلام ؟

خليل مدكور

« السخرية » Satire

للأستاذ جمال الدين الرمادى

ماذا دهاك يا صاحبي ! أراك غريب الأطوار غريب الأساليب ! فأنت تستعمل أسلوباً في ظاهره الرحمة ومن باطنه العذاب . ولقد أحسست في عباراتك وكلماتك أصداء سخرية شديدة وتهكم عنيف . وما أظن إلا أن السخرية من بدائع هذا العصر الحديث ومن نبات هذه الحضارة الحديثة . وإذا كانت الحضارة تتكون على حد تعبير ول ديورانت من عناصر أربعة هي : الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون ، فإني أظن أن هذه العناصر قد تعددت وتنوعت في هذا العصر الحديث . وما أظن إلا أن السخرية من نتيجة هذا التعدد وهذا التنوع !

قلت وقد ارتسمت على ثغرى ابتسامة ساخرة عريضة : كلا يا صاحبي ! فالسخرية فن قديم من فنون الأدب ، وإن الناظر في الأدب العربي والآداب الأجنبية يلاحظ أن السخرية كانت منتشرة في هذه الآداب بشكل ملحوظ وبصورة ملموسة .

وقد تستعمل هذه السخرية ابتغاء التلهى أو التسلى أو يكون الغرض منها التشفى . والأصل في السخرية على حد تعبير دائرة المعارف البريطانية النظر إلى العيوب الإنسانية والتهكم على المثالب الخلقية والنقائص الجثمانية ؛ وكان أركيلوكس Archilockus الأستاذ الأول لهذا الفن عند الإغريق ؛ فمن خلال الآثار الأدبية التي وصلتنا عنه يمكن أن نستشف روح التهكم على المجتمع والسخط عليه والزهد فيه . وقد اشتهر غير أركيلوكس سومونيدس Somonides ، واشتهر هيبوناكس Hipponx كذلك . ولكن السخرية استعملت في الريف بمعنى أوسع ، وما لبثت أن نشت وانتشرت في الدراما واكتست بصبغة أدبية رائعة في أسلوب شعرى ممتاز . وظهرت السخرية في شعر ارستوفان ، وظهرت في إيطاليا عند كثير من الشعراء المقلدين لآثار الإغريق . أما عند الرومان فقد ظهرت السخرية في مسرحيات هوراس Horace وسيشرو Cicero وكنتيليان Quintilian . وقد اصطبغ التهكم عن هوراس بصبغة فلسفية مهذبة مشذبة ، ولكن عندما انقسمت الدولة البيزنطية ظهرت روح التهكم بشكل ملحوظ ملموس ، وألف كثير من القطع الساخرة الساحرة ، ونظم كثير من الأساطير التي تدل على السخرية بطريق مباشر أو غير مباشر ، وتنم عن التهكم بشكل ملحوظ أو مستور ، مثل رينارد الثعلب Reynard the fox ؛ وقد اشتهر صمويل بتلر في الأدب الإنجليزي بروح التهكم والسخرية ، واشتهر جون دريدن بها كذلك ، ولا سيما في قصيدة إبشالوم واكتيوفيل Abshalum and Achitophel التي نظمها للدفاع عن الملكية ضد شافتسبرى ، ويمكن أن نعد رحلات جليفر لسويفت ، كما يمكن أن نعد بعض إنتاج إديسون من الأدب التهكمي اللاذع ؛ ولقد اشتهر فولتير في الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر بتهكمه الشديد وسخريته اللاذعة التي لا يجاريه فيها أحد . وذاع التهكم في الأدب الفرنسي الحديث منذ القرون الوسطى ، وتمثل في القرن السادس عشر في شعر دى بلاى Du Bellay ورابليه Rabelais ، وقد اشترك الاثنان في تأليف أربعة مجلدات ؛ كما ظهرت السخرية كذلك عند رينيه وماكث وبوالو Boileau ، وظهرت في القرن السابع عشر في الفن الشعرى . أما في القرن الثامن عشر فظهرت عند جلبرت وأندريه شنييه ، وجرت السخرية في القرن التاسع عشر في مجراها الطبيعي في الصحف والمجلات والأخبار ، وكان من أعلامها أوجست باربيه وفيكتور هيجو وغيرهما من شعراء القرن التاسع عشر . وظهر التهكم كذلك في إيطاليا عند

أريستو في القرن السادس عشر بين عامي ١٥١٢ – ١٥٣١ ، وتصور السخرية عند أريستو حياة الشاعر وأفكاره وروح العصر ، وظهرت في إيطاليا عند الفييري وأرتين كذلك ، وامتدت إلى ألمانيا فبدت في أدب زيلند Weiland وليسنج Leissing ، ولكن لم تطغ على شعر بيرون ووردزورث روح العصر والوصف لكانا من أبرع شعراء السخرية في الأدب الإنجليزي .

ولكن ثاكري يعد من أبرع كتاب المقالة التهكمية في الأدب الانجليزي ، وكذلك الحال مع شارلز ديكنز الذي كان قوي النظر في الحياة والأحياء ، وقل مثل ذلك عن جورج اليوت التي كانت متأثرة بغرض نبيل وهدف سام في نقدها ، وقل مثل هذا عن بلزاك الذي كان كاتباً رساماً للحياة البرلسية ومثاليها ونقائصها ! ولكن السخرية أخذت عند برنارد شو طابعاً مميزاً ممتازاً ، لأنه صبغها بصبغة الكاريكاتير ! فهو ينقد المجتمع الإنجليزي ، وهو يسخر من مقومات الحياة الحديثة ، وهو يصب جام غضبه على كثير من التقاليد البالية ، وهو ينقد نظام السجون ويكتب في ذلك فصولاً طوالا ، وهو يتهكم على الأدب الإنجليزي ، ويرى أن شكسبير سرق فلسفته من مونتني وتاريخه من بلوتارك وموضوعاته من باندللو ، ويرى أن الزمن كفيل بأن يغير كل شيء ، وأن يتغلب دائماً على المواضعات الاجتماعية والدينية .

والواقع أن السخرية على اختلاف أنواعها وتباين صنوفها لا تتعدى أن تكون أحد أنواع أربعة تكلمت عنها دائرة المعارف الفرنسية لاروس ، وهي السخرية الدينية ، والسخرية الأخلاقية ، والسخرية السياسية ، والسخرية الشخصية .

ومن الطبيعي أن تقابل بعض ألوان السخرية بالامتعاض من كثير من الناس ، وإني لأذكر في هذا المقام قول لا برويير La Bruyler :

« قد لا يستطيع أحد السخرية التي تجرح الآخرين ... ولكن فاجعل الضحكات لك يا سيدي عندما أريد أن أقول ، ووجهي قوارص السخرية لي إن كنت شائني »

هذا حديث السخرية في الأدب الأوربي ، ولكننا إذا ما التمسناها في أدبنا العربي وجدنا بعض ألوان السخرية في الأدب الجاهلي عند شعراء المعلقات وغير شعراء المعلقات ، ولكنها كانت سخرية بسيطة ساذجة ليس فيها تعقد الحضارة ولا تصعب المدنية ، وكانت مستمدة من البيئة الجاهلية والطبيعة الصحراوية . وقد أطلق مؤرخو الأدب على هذه السخرية هجاء ، ولكن الهجاء ليس في الواقع سخرية ، إنما الهجاء لون من ألوان السخرية ، والهجاء ضد المدح في اللغة . أما السخرية فقال عنها الأخفش : سخر منه وضحك منه وبه ، وهزأ منه وبه كل يقال ، والاسم السخرية بوزن العشرية ، وقال تعالى : (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) ، والأصل في التسخير التذليل ! ولقد ظهرت السخرية في بعض الأشعار الجاهلية كما قلت ، ولكنها ظهرت في صدر الإسلام وعصر بني أمية بشكل أبشع وأشيع ، ولا سيما عند جرير والفرزدق اللذين كان يحاول كل منهما أن يقذع في الآخر قدحاً عنيفاً ذميماً ، ويتفنن في الصور التي تحط من قدره وتصغر من شأنه ، بل قد يتفنن في السخرية إقذاعاً ويفحش في التهكم إفحاشاً فتدفعه السخرية إلى ذكر العورات والحرمات دون تهيب ودون توقر ، وكذلك ظهرت السخرية عند الأخطل في بعض أشعاره . ولكن عندما جاء العصر العباسي والتقت الثقافات المختلفة والحضارات المتباينة من تركية وفارسية وهندية ونصرانية ويونانية ورومانية ، وجدنا الشعراء يلجأ كثير منهم إلى التعصب والشعوبية ، ودفعت الشعوبية كثيراً من الشعراء إلى السخرية والتهكم والهجاء . فكان الشاعر يفخر بأنه عربي ابن عربي سدى ولحمة ، ويقدح في الشاعر الآخر ويزعم أنه أعجمي ابن أعجمي سدى ولحمة كذلك . ولأجل ذلك يتفنن الشاعر في عرض السخرية فناً بديعاً رغم أنها سخرية إن صح هذا التعبير ! ولكن ينبغي ألا ننسى أن الجمال ليس هو التعبير عن الشيء الجميل فحسب . وليس الجميل على حد تعبير ف . جاريت معناه الصحيح أو المليح فحسب . وليس الجمال معناه السماء الزرقاء ، ولا القمر المتألق ، ولا الربيع المونق ، ولا الشجر المورق ، ولا الطير الصادح فحسب . وليس الجمال معناه الوجه الصبوح ، والعيون السوداء أو الزرقاء ، والشفاه اللمياء ، والشعور الشقراء أو الليلاء فحسب ، بل هناك جمال آخر يتمثل في العاصفة

العوجاء، والشيخوخة الوقرة، وتتمثل في أنات الألم وصفحات البأس.

فهنالك سخرية في الشعر العربي مضحكة الصور بشعة المناظر، ولكنها جميلة إلى أبعد حدود الجمال. وهنالك سخرية في الشعر الأوربي والفن الأوربي فيها بؤس وفيها يأس، ولكن فيها جمال ما بعده جمال. فبعض اللوحات الفنية عند رامبراندت Rambrandt تصور الرجال المسنين القذرين، وبعض التماثيل لميكل أنجلو تمثل الرقيق المهينين العانين المتعبين، ولكنها برغم هذا كله لا تقل في روعتها عن أي صورة جميلة أو تمثال بشري جميل.

فإذا كان ذلك كذلك في الفن فما بالك بالأدب! فهنالك تصاوير أدبية لشكسبير كتصويره الملك لير، ذلك الرجل الطاعن في سنه الطافل في عقله المشرد في حياته، لا يقل في قيمته الفنية عن تصويره لبطل عظيم آخر كهملت أو أنطونيو أو قيصر. وهنالك تصاوير أخرى لوردز ورث تمثل المتسول الذي يسير وئيداً، وتصاوير لتوماس هاردي لقاطع الأخشاب البائس اليائس وهو يجوب حيران أسفاً بين المروج الخضراء، لا تقل في قيمتها الفنية عن الصور الأخرى التي تمثل جمال الطبيعة أو جمال الوجوه والأجسام...

ولكن لم نذهب بعيداً وأمامنا أدبنا العربي وفيه صور متعددة عن السخرية في المنزلة الأولى من الجمال. وقد ظهرت هذه السخرية في العصر العباسي كما قلت آنفاً بشكل واضح، ولا سيما عند بشار بن برد الذي كان شاعراً ساخراً إلى حد بعيد. وذكر صاحب الأغاني أن بشاراً قال الشعر ولم يبلغ عشر سنين، ولما بلغ الحلم خشي من معرة لسانه. وقال صاحب الأغاني كان بشار يقول: (هجوت جريراً فبعد عني واستصغرني ولو أجابني لكنت أشعر الناس) وقال الأصمعي: (بشار خاتمة الشعراء، والله لو أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم) وقال الأصمعي كذلك: (إنه يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه)، وكان يشبه بشاراً بالأعشى، ويشبه مروان بزهير. قال أبو حاتم: (سألت أبا زيد مرة أخرى عنهما فقال: مروان أجد وبشار أهزل) فحدثت الأصمعي بذلك فقال: (بشار يصلح للجد والهزل ومروان لا يصلح إلا لأحدهما).

والواقع أن بشاراً طرق باب الهزل كما طرق باب الجد، ولجأ إلى السخرية في جده وهزله وتفنن في عرض سخريته فقال يَسْخَرُ من عباس بن محمد:

إن الكريم ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

والواقع أن السخرية في هذا البيت الأخير بشعة الصورة إلى أبعد غايات البشاعة، قبيحة إلى أبعد حدود القبح؛ فقد صور بشار علل البخيل الذي يقتر في ماله ضارباً الأسباب مبدياً المعاذير بعيون زرقاء على وجوه سوداء، ويمكن بأيسر أن تتصور العيون الزرقاء عندما تطل من أوجه سود فيبدو المنظر مرعباً رهيباً قد يرتجف منه جسدك ارتجافاً وتقشعر منه أطرافك قشعريرة.

ولكن بشاراً لم يكن الشاعر الساخر الوحيد في العصر العباسي، إنما جاء بعده شعراء ساخرون آخرون كأبي نواس، وكان أبو نواس شاعراً من أروع وأبرع الشعراء في السخرية. وسأذكر لك يا صاحبي مثلاً من أمثلة الهجاء عند أبي نواس لتتبين سلاطة لسانه وحدة بيانه وذكاء جنانه.

رأيت الفضـــل متكئاً يناغي الخبز والسمكا
فأسبل دمعه لما رآني قادماً وبكى
فلما أن حلفت له بأني صائم ضحكا!

وليس من شك في أن هذه الصورة الساخرة تدعو إلى الضحك حقاً وإلى الإعجاب حقاً. ولكن الفن الهجائي الذي وصل إلى ابن الرومي بعد بشار وأبي نواس كان سباباً وشتماً، وذكراً للحرمات والعورات في أكثر مظاهره وظواهره؛ فاستغل ابن الرومي السخرية استغلالاً حسناً، ونأى عن هذه الأمور جميعاً.

ويظهر أن ابن الرومي كان يستخدم هذا السلاح لأنه شعر بضعف في حسه؛ فكان إذا نكبه إنسان سلط عليه لساناً قاسياً مراً، وجرحه ليشفي غليله ويتقي شره، فسخرية ابن الرومي سخرية أساسها الضعف والحرمان لعدم الحيلة وتمس الوسيلة، إلى جانب أنه كان شخصاً متطيراً إلى أبعد حد؛ فقد زعموا أنه رجع إلى داره لأنه وجد قسين متعانقين على هيئة لا. وكان قلما يغشى المجالس، ولا يحسن

السياسة ولا مداراة الناس ولا مصاحبة الأصدقاء ولا خصومة الأعداء ، وكان ابن الرومي رقيق الإحساس إلى حد بعيد ، لكثرة الفواجع التي ألمت بساحته والنوازل التي هدت كيانه .

وكان ابن الرومي رائع التصوير صادق التعبير ، معانيه تميل إلى التجسيم والتجسيد مبتكرة في أغلب الأحايين . وقد قالوا إن عبقريته نوع من العبقريات اليونانية التي تتلخص في الحرص على الحياة والإفراط في حبها والتعلق بلذاتها ، ولكن السخرية في شعره كانت تتخذ خطوطاً كاريكاتيرية عجيبة .

استمع إليه يقول في ذم بخيل :

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
ولو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

وقد انتشرت السخرية بعد ابن الرومي عند المتنبي وأبي العلاء وغيرهما ، ولكن سخرية أبي العلاء كانت سخرية من الحياة ومن قيمها ومن معاييرها . فهو يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به
أبرُّ من درهم تعطيه محتاجاً

كأنما انصبت على الحياة والموت :

صاح ! هذه قبورنا تملأ الرحب
فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلا من هذه الأجساد

فهذه سخرية من العباد وسخرية من الحياة ليس بعدها سخرية ، تنم عن مذهب أبي العلاء واتجاهه القلق في الحياة ذلك الاتجاه الذي اشتهر به في التاريخ .

وقد حاول كثير من الشعراء في العصر الحديث أن يلجأوا إلى السخرية فتفاوتت حظوظهم واختلفت أنصبتهم في القوى والضعف والجمال والقبح ، ونحن إذا ما بحثنا في النثر العربي عن السخرية وجدنا الكاتب الأول في هذا اللون الأدبي هو عمرو بن بحر الجاحظ الذي قال عنه المبرد : « ما رأيت أفصح من أبي هذيل والجاحظ » وقد قيل لأبي هفان : « لم لا تهجو الجاحظ وقد هجاك؟ » فقال : « أمثلي يخدع في عقله؟ والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن بيت في سنة » وكان الجاحظ يلجأ إلى الألوان العقلية والفلسفية والمنطقية في عرض كثير من صور سخريته ، وقد يلجأ إلى المغالطة في القياس أو السفسطة في المنطق ليحبك صور تهكمه ولوحات سخريته ، وقد يعمد إلى نظرية الأوساط كما هو الحال في رسالة التربيع والتدوير التي أرسلها إلى أحمد بن عبد الوهاب ، فيتفنن في عرضها تفنناً ويتنوع في أسلوبها تنوعاً .

(كان مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدوراً ، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه أخمص البطن معتدل القوام تام العظم ، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعي أنه طويل الباد رفيع العماد عادي القامة عظيم الهامة) .

وقال الجاحظ أيضاً :

(خبرني عن شقاون وعن أهرمن وعن كان وكان ومرمرة وإيدرش وإفروش وإرشارش وخورنث بأم وكيف صارت خورنث هذه أعمر العوالم وأيما أكثر يأجوج أم مأجوج وأيما أقصر وأيما أطول أعماراً وأيما أفضل منكر أو نكير وأيما أخبث هاروت أم ماروت وأي حوت ابتلع يونس وأي حية ابتلعت الهلب) .

ففي هذه الرسالة نستمع إلى أسئلة الجاحظ الساخرة التي يتفنن في عرضها تفنناً عجيباً غريباً حقاً ، ونلمس روح الجاحظ الساخرة المتهكمة التي تتبدى في أكثر كتبه ورسائله .

وقد لجأ الحريري إلى السخرية كذلك في بعض مقاماته المشهورة على لسان أبي زيد السروجي الذي كان أديباً أريباً واسع الحيلة يجتذب إليه الناس بجواهر لفظه وسواحر كلمه وروائع صوره وشذراته وانتقالاته . ولكن ينبغي أن نعترف بأن السخرية في النثر العربي بوجه خاص لم تحتل مكاناً كبيراً ، إنما تناثرت هنا وهناك في بعض الآثار الأدبية لبعض الكتاب القدماء . ووجدت بعض مقالات ساخرة في العصر الحديث مأخوذة عن الأدب الأجنبي كما وجدت المقالة الزجلية التي قد تعرض بعض صور السخرية بين ثناياها في ثوب أدبي قشيب

جمال الدين الرمادي

لسنج الناقد الألمـــانى

للأستاذ عز الدين إسماعيل

١ — كثيراً ما لوحظ أن الحركات الأدبية فى ألمانيا تنهض على العموم من بدايات أو مقدمات نظرية أكثر منها عملية ؛ بمعنى أن المشاكل الأدبية توجد وتثار وتناقش قبل أن يكون لها رصيد من الأدب الألمانى ذاته . وهكذا كان الحال عند بداية القرن الثامن عشر . وفى بداية هذا القرن كان هناك إحساس عام بفقر الأدب الألمانى وفقدانه صفة الأصالة فقداناً تاماً . وحتى تلك المحاولة الجادة لإنتاج ثروة أدبية ألمانية ، تلك المحاولة التى ظهرت بظهور مؤلفات جتشد Gottsched (١٧٠٠ — ١٧٦٦) فقد كانت فكرتها واضحة فى تأسيس الأدب الألمانى الحديث على أساس تقليد الأدب الفرنسى الكلاسيكى . على أن الحاجة لم تكن فيما يبدو تدعو إلى هذا التقليد عن الأدب الفرنسى بخاصة ، لأن حالة فرنسا وظروفها فى القرن الثامن عشر لم تكن بعينها هى حالة ألمانيا وظروفها — فضلاً عن اختلاف الشعبين الفرنسى والألمانى فى الطبائع والأمزجة اختلافاً بيناً — فكان ذلك نذيراً بإخفاق تلك المحاولة . وزيادة على هذا لم يكن فى جتشد نفسه الكفاية لرفع مستوى الأدب الألمانى . ولم يكن فهمه للموضوعات الشعرية فى كتابه « فن الشعر » فهماً صحيحاً . ولم يكن حظ هذه المحاولة بأسعد من حظ النزعة الجديدة التى ظهرت عند بدمر وبريتنجر ، تلك النزعة التى كانت ترمى إلى توجيه الأدب إلى التراث الدينى واتخاذه مادة للموضوعات الأدبية . وكان نموذجهما هذه المرة الشاعر الانجليزى ملتن .

ولا يكاد يهل الشطر الثانى من القرن الثامن عشر حتى نجد نشاطاً قوياً له قيمته وأهميته قد ظهر بظهور بعض الكتاب الألمانيين ، وأيضاً فقد ظهر شعراء مشهورون أمثال بوب وتمسون وغيرهما ، وكانت السوق فى الوقت نفسه قد غمرت بالكثير من التقليدات والترجمات ، سواء عن الفرنسية أو الانجليزية . وهذه هى الحال التى كان عليها الأدب عندما وصل لسنج وهو فى سن الثامنة عشرة إلى برلين ليصير عما قليل أهم ناقد .

٢ — بدأ لسنج يشق طريقه كما يصنع كثير من الشبان الآخرين ، فأخذ يكتب فى إحدى المجلات الأسبوعية الخاصة بالنقد ، وقد كتب قصصاً كما كتب نقداً لألوان مختلفة من الأدب ، بادئاً من القصة الطويلة إلى الحكايات الخرافية ، متعرضاً لكل ألوان الشعر والمؤلفات الفنية والفلسفية والدينية . وقد استمر لسنج أربع سنوات يكتب هذا النقد ، مما أكسبه مراناً على الكتابة ، وطواعية فى الأسلوب ، ودربة على النقد وتكوين الآراء بسرعة . وهذه الآراء هى التى كونت فيما بعد أحسن مؤلفاته .

لم يكن لسنج يجنح مطلقاً إلى المغالاة ، بل كان معتدلاً يمتاز بعقل عملى فهيم . ولذلك نجده فى المشادات العنيفة التى قامت بسبب القافية فى الشعر قد وقف بين هؤلاء الذين دللوا بأهميتها وضرورتها وأولئك الذين عارضوا وهدفوا إلى إبطالها . ولم تكن القافية فى نظر لسنج أمراً لا بد منه كما أنها ليست أيضاً شيئاً يجاب ، وإنما يمكن أن يستعملها الشاعر أو لا يستعملها حسب ما يراه أليق . وقد دفعته خبرته المسرحية فى ليبزج إلى أن يلتفت إلى فائدة عملية للقافية فى الشعر ، فاعتبرها عاملاً له قيمته الكبيرة باعتبار أنها تعين المثل على التذكر .

وبعض هذه المقالات يلقى ضوءاً على عقلية لسنج ، ويحدد موقفه من النقد فى هذا العهد . حفل القرن السابع عشر فى مجال الدراسات الفنية بدراسة قواعد الفن . وقد استقرت هذه القواعد بالتدريج ، وأعطاها بوالوديبرو فى كتابه « فن الشعر » (١٦٧٤) نظاماً معيناً ، وكان جتشد أول من عرضها فى ألمانيا فى الشطر الأول من القرن الثامن عشر ؛ وبالرغم من الهجمات التى هوجمها جتشد فإن هذه القواعد قد استمرت ، واستمرت لها صفة الاحترام نظراً لاعتبارها مؤسسة على تجارب الأقدمين . كان من الطبيعى أن تلفت هذه القواعد نظر لسنج ، ولكنه نظر إليها نظرة أخرجتها من نطاق القداسة المعهودة لها إلى نطاق الأشياء

الطبيعية التي تخضع لقوانين التطور والظروف المحيطة، فتزداد وتنمو وتتشكل بحسب نوع الإنتاج. وإذاً فهي قواعد لا نفرضها فرضاً ولا نفرضها في كل حالة وعلى كل لون أدبي جديد؛ وإنما نحكمها فقط في المحيط الذي يسمح بتحكيمها، كما أننا نضيف إليها ونحذف منها عندما تستدعي الحاجة؛ وبذلك يكون أمام العبقري دائماً مجال فسيح للظهور، فلا يتقيد بهذه القواعد الموضوعة أو المتواضع عليها من قبل، بل من حقه أن يطلق لنفسه العنان، وأن يأتي فنه محرراً منها. فالصحيح إذاً أننا نقتبس من فن العباقرة ما ينير لنا السبيل في وضع قواعد الفن، وليس من حقنا مطلقاً أن نفرض هذه القواعد على إنتاج كل فنان، فضلاً عن إنتاج العباقرة من الفنانين. وعبارة لسنج: «لقد نشأت القواعد في الفنون الجميلة نتيجة لملاحظة الإنتاج في هذه الفنون، وقد ازدادت هذه الملاحظة من وقت لآخر، وهي ما تزال تزداد كما هو المعتاد من العبقري الذي لا يتبع مطلقاً خطوات سابقيه، وإنما يشق له طريقاً جديدة أو يستمر في طريق معروفة من قبل، ولكنه يتجاوز حدودها القديمة»[1]. وخلال هذه العبارة نفهم رأياً صريحاً للسنج في العبقري.

ومن تلك الآراء التي شرحها أيضاً ورفضها في هذه المقالات رأي روسو في أن تطور الفنون والعلوم سبب في انهيار الأخلاق.

ولا يبلغ لسنج سن الرابعة والعشرين حتى يقدم للجمهور طبعة تضم مجموعة من هذه المقالات، كما شغلت رسائله النقدية مجهاً ثانياً. وقد كانت هذه الرسائل دفاعاً عن الشاعر العالم «سيمون لم S. Lemm» الذي عاش في القرن السادس عشر واختفت شهرته تحت وقع الحملات التي شنها عليه مارتن لوثر وأنصاره.

وقد قلنا إن حركة الترجمة في الشطر الأول من القرن الثامن عشر كانت على أشدها، وكان من بين هذه الترجمات كتابا هوراس «أناشيد» و«فن الشعر» نشرها لانجه Lange سنة ١٧٥٢. وكان لسنج معجباً بالشاعر الروماني، فما إن ظهرت هذه الترجمة حتى أخذ واستشاط غضباً لأن الترجمة كانت ضعيفة، ونشر مقالة يبين فيها مواطن الخطأ. ومنذئذ تبدأ المعارك الأدبية التي خاض لسنج غمارها. وقد حاول لانجه أن يرد عليه، ولكنه تردى في اتهامه بأنه كاتب مأجور في نقده مما آذى لسنج أشد الإيذاء.

ومثل هذا الاهتمام بالتراجم والتدقيق فيها قد جر لسنج مرة أخرى وبعد مضي أربع سنوات إلى معركة أدبية أخرى بينه وبين ليركون الذي اكتشف لسنج أنه لم يترجم لتيوفريطس «منظومته» عن أصلها اليوناني ولكن عن اللاتينية. ومن هذا الاهتمام البالغ يتبين لنا بوضوح أن لسنج كان شديد الإعجاب بالأقدمين، وكان لهذا أثره في هذا الاهتمام. وهو لم يكن حريصاً على التراث الأدبي فحسب، بل كان يجده خطراً؛ ومن هنا كانت قسوته على المؤلفات التي لم تتوفر فيها العناية، أو المؤلفات السطحية أو التي تدل على جهل سواء أكانت أصيلة أم مترجمة.

٣ — وقد كانت تلك السنوات التي قضاها لسنج مشتغلا بالصحافة في برلين سنوات إعداد أعقبها حال من القوة والتمكن تبدو في رسائله الأدبية التي بدأها سنة ١٧٥٩ وكان فيها عملاقاً من عمالقة النقد. والرسائل الأولى تتناول مرة ثانية مسألة الترجمة الرديئة، وبعضها يدور حول المسرح وبعض التمثيليات، وبعضها يتناول شاعراً أو آخر، ولكن الأهم فيها هما هاتان الرسالتان اللتان أودعهما ملاحظاته على طبيعة الشعر. ففي الرسالة الثامنة عشرة نجده يقول: «إن ما يستحسنه أساتذة الفن هو القاعدة»، فنلاحظ أن موقفه من قواعد الفن — الذي سبق أن بسطناه بوضوح — لم يتغير، فقوانين الفن عنده تمتاز بأنها ليست قوانين يختلقها العقل اختلاقاً، ولكنها تستخرج من أعمال العباقرة. وفي الرسالة الاولى بعد الخمسين نجده يقول بأن الشعر الغنائي مسألة أقرب إلى الشعور منها إلى التفكير المنطقي، وكان لهذا أهميته في ذلك العصر الذي كان يتوقع دائماً من كل صور الأدب نماذج أخلاقية وتوجيهات تعليمية.

على أن هذه الرسائل لا ينبغي أن نبالغ في أهميتها وإن دلت على تنوع المجالات التي طرقتها. والواقع أن لسنج قد استطاع أن يملأ الفراغ الذي لم يستطع جتشد أو غيره من قبل أن يملأه، فوفى بحاجة الشعب إلى التوجيه في مرحلة التطور السريع للأدب الألماني، مما كان له أثره بلا شك في ترقية الذوق الألماني في مدى عامين.

(١) H.B. Garland : Lessing, The Founder of Modern German Lit., P. 44.

٤ — وكانت خدمة لسنج للأدب الألمانى أعظم فى مجال المسرحية ، فقد أصدر بمعاونة صديقه ميليس صحيفة تهدف إلى تثبيت المبادىء الموقية بفحص المؤلفات النقدية وإيراد النماذج من المسرحيات اليونانية واللاتينية ومن غيرها من اللغات الأوربية المعاصرة ، إلى المسرح الألمانى ، وذلك بطريق الترجمة ، ولكن يبدو أن لسنج لم يكن يستطيع النهوض بهذا العبء .

وقد كان لسنج أكثر ميلا إلى الأدب الإنجليزى منه إلى الفرنسى ، لإحساسه بالقرابة بين الذوق الألمانى والذوق الإنجليزى . ومن هنا كان يدعو إلى الاهتمام بأمثال شيكسبير ودريدن وغيرهما من كتاب المسرحية ، أو الأقل بمثل الاهتمام بالشعراء الفرنسيين . على أن هذه الصحيفة لم يصدر منها أكثر من أربعة أعداد . وقد قام لسنج فى العدد الأول منها بالتعريف بحياة بلوتس ومؤلفاته ، واتخذ للملهاة الألمانية نموذجاً منه هو ملهاة « الأسير » التى قام هو بترجمتها .

وقد حاول لسنج أن يحمل منذ البداية على المذهب الكلاسيكى الفرنسى ، ولكن الضيق يبدو فى أفقه فى ذلك الوقت عندما يشير إلى أن هدف الملهاة هو أن تؤثر فى سلوك المتفرجين وتحسنه . وقد كان ذلك مبكراً (١٧٥٠) .

على أن اهتمام لسنج الجدى بالمسرحية قد بدأ حوالى سنة ١٧٥٤ ، فبدأ من هذا العهد ينشر بانتظام سلسلة بعنوان « المكتبة المسرحية » . وقد كان معجباً بالملهاة الباكية كما هى عند جلرت ، على أساس أن الربط بين الهزل والإثارة العاطفية أكثر واقعية من تمثيل واحد منهما فقط ، وكان رأيه فى المأساة وسطاً بين الرأى الشائع فى عصره وبين فطرته الصادقة التى جعلته يقدر « المآسى » الخارجة عن حدود القرن الثامن عشر . ويتضح ذلك من قوله : « الواقع أنى لا أعده من الضرورة أن نفيد من قطعة من مأساة درساً عظيما ، وأن نتعلم من الصفحات المختلفة الحقائق المفيدة ، ومع ذلك فمن الضرورى على أى حال أن لا يتعلم الشخص منها درساً فى الشر » .

وقيمة هذا التقرير فى إطلاق سراح المأساة من ضرورة التوجيه الأخلاقى . وفكرة التوجيه الأخلاقى فى المأساة قديمة منذ عهد أفلاطون وقبل أفلاطون ، ولكنها تظهر بشكل واضح فى حملة أفلاطون على المسرحية على وجه العموم حينا خرجت فى عهده على هذه القاعدة قليلا على يد أمثال أيوريبيد . وإذاً ففكرة التوجيه إلى المثل الأخلاقية مرتبطة تقريباً بتاريخ المسرح اليونانى . والكلاسيكية الفرنسية المعاصرة للسنج كانت آخذة بهذه القاعدة وملتزمة لها فى مآسيها .

ولعل هذا بالذات — ونظراً لعداء لسنج للأدب الفرنسى عامة — هو الذى حدا بلسنج إلى الدعوة إلى الخروج على هذا التقليد الأخلاقى ، ولكنه لم يكن ثائراً ولا متهوراً ، فقد رأيناه ما يزال يتقيد بشرط ، هو أن لا يتعلم الشخص من المأساة درساً فى الشر . وكل همه من المأساة أن تثير دموع الشفقة والتعاطف الإنسانى .

٥ — لم يكن رفض لسنج للأصول الفرنسية فى المسرح بسبب نزعة هدامة فى نقده ، ولكنه كان موجباً بائناً فى هذا النقد ، وكان يهدف إلى البناء ، ولكنه كان معجباً بالمسرحية الإنجليزية . ومن أهم الأسباب التى جعلته يحمل على جتشد أن منهجه قائم على التقليد والتقليد فحسب ، أو على التقليد الأعمى ، فضلا عن أنه كان سيىء الاختيار فيما يحكى أو فيما يترجم .

على أن هناك تغيراً كان لا بد من ملاحظته بين الذوقين الفرنسى والألمانى ؛ فالأول يميل إلى الرقة والليونة ، والثانى يؤثر الفزع ويرغب فى مشاهدة حركة على المسرح أكثر مما هو مسموح به فى المأساة الفرنسية . وهذه الكلاسيكية الفرنسية ذاتها تدل على القصور الشنيع عند الأدباء الفرنسيين وبعدهم عن جوهر الفن . هذان هما كورنى وشيكسبير ، تبع أولهما الأقدمين ونادراً ما صنع ذلك الآخر ؛ فقرب منهم كورنى فى الخصائص الظاهرية حين قرب الآخر من الجوهر . ومن هذا يظهر لنا أن لسنج لم يكن يهدف فى نقده إلى الهدم وحسب ، بل كان أيضاً يتطلع إلى البناء على أسس سليمة .

وقد كان نقده للمسرحية الفرنسية والأمة الفرنسية على العموم يرجع إلى ضيقه الشديد بمفاخرهم وادعائهم لأنفسهم أكثر مما يستحقون (قدم فلتير مثلا لسميراميس بقوله إنه كان من الممكن أن يتعلم اليونان كثيراً فى باب المأساة من الفرنسية .) ، ثم لإهمالهم الشنيع ، ولهذا النفوذ الذى اكتسبوه بشهرتهم فى ألمانيا وأثره السيىء على المسرحية الألمانية .

عز الدين اسماعيل

إبراهيم عبد القادر المـــازنى

— ١ —

للأستاذ عبد السميع المصرى

المازنى ... تلك البسمة الساخرة التى ارتسمت على فم الأدب العربى زهاء أربعين عاماً ، وذلك الصوت المدوى الذى تجاوبت أصداؤه فى أنحاء العالم العربى ثارة مستثيرة حقبة من الزمان ، ما كان ينقضى فيها يوم دون أن نطالع للمازنى مقالاً أو يخرج علينا بكتاب ، وما نكاد نمسك بمجلة إلا ونجد فيها للمازنى حديثاً أو مقالاً .

— وكان المازنى من الرعيل الأول الذين تقدموا الصفوف وحملوا مشاعل التجديد فى مجتمعنا الشرقى وأدبنا العربى ، محتملين كل تضحية ، معرضين لـكل نقد وتجريح ، صابرين على كل أذى ومكروه فى سبيل تبليغ رسالتهم وتأدية أمانتهم.

وقد أعانه طبعه الثائر وما اكتسبه من جلد وصبر فى مغالبة ظروف الحياة القاسية على الاضطلاع برسالته واحتمال أعبائها ؛ وكأن بالقدر كان يعده لهذا العمل العظيم الذى قام به ، لأن المازنى قد ولد فى الحادى عشر من يناير سنة ١٨٨٩ فى حى الدرب الأحمر من أحياء القاهرة القديمة ، وكانت أسرته من الأسر المتدينة الحريصة على آداب الدين والتقاليد ؛ فللأخ الأكبر احترامه ومقامه فى البيت لمرتبته فى السن ، وللوالد منزلته التى تقارب التقديس .

وكان والده من أصحاب الطريق أو مشايخ الطرق ، لأن المازنى يحدثنا عن وجود مصلى وميضأة بالمنزل ، وغرف للأتباع والتلاميذ والمريدين على جانبى المدخل .

وقد ألحق المازنى بالكتاب ، لـكنه هرب منه لقسوة الشيخ والعريف ، فأدخل المدرسة الأولية ، ثم مدرسة القربية ، وكانت بحى الدرب الأحمر قريبة من منزله ، لـكن أباه توفى بعد التحاقه بها بأشهر قليلة ، وكان لم يتجاوز السادسة من عمره .

وهنا بدأت ظروف الحياة تقسو على هذه الأسرة الفقيرة حتى اضطرت إلى الاستغناء عن كثير من ضرورات الحياة ، ويسهب المازنى فى الحديث عن هذه الفترة ويبرز أهمية الدور الذى لعبته أمه فى حياته .

فهى التى وقفت فى وجه أخيه وأقاربه عندما أرادوا توظيفه بعد أن نال الشهادة الابتدائية ، فأبت عليهم ذلك وأصرت على إتمام تعليمه ، ودفع نفقات هذا التعليم ولو ببيع أثاث البيت ، وهكذا أكمل المازنى تعليمه الثانوى فى المدرسة الخديوية ، ثم التحق بعدها بمدرسة المعلمين .

ولا شك فى أن إصرارها على تعليم ولدها وقيامها بأداء هذه المهمة السامية عمل جليل فى ذاته ، وكان له أثر بليغ فى حياة هذا الوليد ، لـكنى لا أرى لهذه السيدة الطيبة أثراً فى حياة ابنها أبعد من هـذا ، ولو أن المازنى يحاول إفهام الناس فى بعض أحاديثه خلاف ذلك لما يشعر به من عظيم فضلها عليه بتعليمه .

ولقد التحق المازنى بعد أن تخرج فى مدرسة المعلمين عام ١٩١٠ بمهنة التدريس فعمل فى المدرسة السعيدية ، ثم ترك التعليم الأميرى للتعليم الحر ، ثم آثر بعد ذلك الصحافة على عالم الوظائف بعد أن كان اسمه قد بدأ يلمع — وهو فى وظيفته — فى مجلة البيان وغيرها .

وأول عمله فى حقل الصحافة كان مع المرحوم أمين بك الرافعى فى مجلة الأخبار ، ثم اشتغل بعد ذلك فى الكشاف والسياسة والسياسة الأسبوعية والبلاغ والاتحاد[1] .

أما فى أيامه الأخيرة ، فـكانت مقالاته لا تكاد تخلو

(١) العدد ٥٥٥ من الثقافة .

منها مجلة ، فهو يكتب في جميع صحف دار الهلال « المصور والاثنين والهلال » وأخبار اليوم وآخر ساعة ومسامرات الجيب والنداء ، وقد كان إلى جانب هذا النشاط المنقطع النظير عضواً عاملاً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، يعد له من البحوث ومواضيع الدرس في كل دورة الشيء الكثير .

وقد ظل المازني يكتب وهو على فراش المرض حتى اللحظات الأخيرة من حياته لم تفتر همته ، ولم تخبُ ابتسامته الساخرة من الحياة ، فكان يداعب طبيبه قبل وفاته بساعات قليلة قائلاً : « أتخشى أن أموت ، فيقال إنك أمت المازني ؟ » .

وهكذا لقي الموت مستهزئاً به ساخراً منه في مساء العاشر من أغسطس سنة ١٩٤٩ .

اعتداده بنفسه

كان المازني شديد الاعتداد بنفسه إلى حد بعيد ، شاعراً بتفوقه وامتيازه شعوراً قوياً ، وهو لا يفتأ يذكر الناس بذلك في كل ساعة تسنح له ؛ فانظر إلى مقدمة كتابه (حصاد الهشيم) تطالع قوله : « لست أدعي لنفسي فيها — المقالات — شيئاً من العمق والابتكار أو السداد ، ولا أنا أزعمها ستحدث انقلاباً فكرياً في مصر أو فيما هو دونها ، ولكني أقسم أنك تشتري عصارة عقلي وإن كان فجاً ، وثمرة اطلاعي ، وهو واسع ، ومجهود أعصابي ، وهي سقيمة ، بأبخس الأثمان » ، ثم يقول بعد ذلك : « واعلم أنه لا يعنيني رأيك فيه — الكتاب — نعم يسرني أن تمدحه كما يسر الوالد أن تثني على بنيه ، ولكنه لا يسوؤني أن تبسط لسانك فيه ، إذ كنت أعرف بعيوبه ومآخذه منك ، وما أخلقني بأن أضحك من العائبين ، وأن أخرج لهم لساني إذ أراهم لا يهتدون إلى ما يبغون وإن كان تحت أنوفهم » .

بل إنه يختم كتابه بتلك الصفعة الأليمة يوجهها إلى جمهور قرائه : « إني مستغن عن رضى النقاد المتحذلقين عن كتابي هذا ، وقانع باستحسان أمثالي من الأوساط المتواضعين ، وهم بحمد الله كثيرون في هذا البلد الأمي ، بل أكثر مما يلزم لي » .

وكأني بالمازني كان يشعر بتفوقه وعظمته كأي عظيم ، لكنه شعور زاده عمقاً إحساسه بأنه يكتب — وكان ذلك في أوائل العشرة الثالثة من القرن الحالي — إلى أقلية ضئيلة جداً من المتعلمين وأقلية تافهة من أنصاف المتعلمين الذين عبر عنهم بالأوساط المتواضعين ، وأنه وجد في بلد أمي لن يقدر نبوغه وعبقريته ، ولذا فهو يائس من هذا البلد ، ويملأ اليأس فراغ قلبه ويردده بين حين وآخر في صيحات يرسلها على الناس لتنبههم من غفلتهم ؛ فتراه يقول لقراء كتابه حصاد الهشيم : « هذه مقالات مختلفة في مواضيع شتى ، كتبت في أوقات متفاوتة وفي أحوال وصروف لا علم لك بها ولا خبر على الأرجح ، وقد جمعت الآن وطبعت وهي تباع المجموعة بعشرة قروش لا أكثر .. وتعال نتحاسب . إن في الكتاب أكثر من أربعين مقالا تختلف طولا وقصراً وعمقاً وضحولة ، وأنت تشتري كل أربع منها بقرش ! وما أحسبك ستزعم أنك تبذل في تحصيل القرش مثل ما أبذل في كتابة المقالات الأربع من جسمي ونفسي ومن يومي وأمسي ومن عقلي وحسي » .

تأمل ! إنه يحاسب قراءه عن القرش وعن المنفعة المادية لا المتعة الروحية ولا الفائدة العقلية ، وكأنه يستبعد على هذا القارئ أن يفهم ما يكتب المازني أو يحبه أو يقدر قيمته .. قد يعترض معترض بأن المازني اعتاد أن يركب الناس بدعاباته ، لكن هذا الاعتراض مردود ، لأن أقل تأمل يدرك منه المرء أن المازني كان جاداً في سخره أقسى الجد وأعنفه ، وإنه ليسخر من قراء عصره وثقافتهم ، ويمضي في هذه السخرية قائلا : « ثم إنك تشتري بهذه القروش العشرة كتاباً ، هبه لا يعمر من رأسك خراباً ولا يصقل لك حساً أو يفتح عيناً أو يثير مشاعر ، فهو — على القليل — زينة على مكتبك ، والزينة أقدم في تاريخنا معاشر الآدميين الناعمين من المنفعة وأعرق ، والمرء أطلب لها في مسكنه وملبسه وطعامه وشرابه وأكلف بها مما يظن أو يحب أن يعترف . على أنك قد لا تهضم أكلة مثلا فيضيق صدرك ويسوء خلقك وتشعر بالحاجة إلى التسرية والفث ، وتلقى أمامك هذا الكتاب ،

فلمن صاحبه وناشره ما عشت ! فإني أعرف كيف أحول لمانك إلى من هو أحق بها ! ثم أنت بعد ذلك تستطيع أن تبيعه وتتكسب به غيرك ... أو تفككه وتلقف في ورقه المنثور ما يلف ، أو توقد به ناراً على طعام أو شراب أو غير ذلك .. أفقليل كل هذا بعشرة قروش ؟ » .

» ورجح لدىّ أن هناك أسباباً أخرى لهـذه المبالغة في الاعتداد بنفسه ، ولعل أهم هذه الأسباب شعوره بالنقص ... نقص مرجعه البيئة أولاً ، وقد كان المازنى من بيئة محافظة متدينة لا تريم عن التقاليد الموروثة والعادات القديمة والآداب الدينية ، بينما اندفع هو في ثورة على هذه المواضعات وأخذ نفسه بتعاليم الغرب ، وكأنه كان يخشى النكسة فكان يبالغ بالتظاهر بحريته .

والسبب الثانى لهذا الشعور هو قصر قامته قصراً جعله يريد أن يوهم الناس جميعاً أنه عملاق .. عملاق في الأدب أو عملاق في الأثر ، وقد كان شعوره بقصره فادحاً ، وليس أدل على عمق هذا الشعور من هذه الحادثة التى يرويها عن نفسه ، وهى أنه كان أستاذاً في إحدى المدارس الثانوية — وكان التلاميذ حينئذ في مدارسنا الثانوية رجالاً ذوى شوارب وأجسام ضخمة — وقد لمحه الناظر ذات مرة واقفا في فناء المدرسة في وقت الدرس فحسبه تلميذاً فاقترب منه وصفعه على قفاه صفعة أطارت طربوشه ... والمازنى روى هذه القصة وما زال يذكرها رغم اتهامه نفسه بضعف الذاكرة .

ثم هذه الضائقة المالية التى أصابت أسرته بعد فقد أبيه وما عانته هذه الأسرة من شظف العيش ومن ضروب الحرمان ، وما خبره في هذه الفترة من جحود الناس وانعدام روح الخير بينهم حتى قال : « وأحسبنى من أسوأ الناس ظناً بالناس ! ومن طول ما وطنت النفس على معاناة الشر والأذى والمتاعب والمنغصات صرت لا أروع من حادث مهما جل ، والذين يعرفونى يظنون هذا جلدا ، ولكنه ليس من الجلد في شيء ، وإنما هو ثمرة ما تقرر في نفسى من سوء الظن بالدنيا والناس » .

وطبيعى أن المازنى إزاء هـذه الظروف كان مضطراً للاعتماد على نفسه وعلى مقدرته على مغالبة الحياة ومجالدة ظروفها ، مستقلا برأيه مستغلا مواهبه الخاصة وحيويته ، غير منتظر معونة من أحد من الناس .

وقد نجح المازنى في حياته المستقلة هذه ، وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يعتز بشخصيته ويترفع عن الناس ، لا سيا من كان يرجو العون عندهم إبان ضعفه فوجد عندهم الإعراض ، فلم يتوان هو عندما اطمأن إلى مكانه في معترك الحياة عن الإعراض عنهم واحتقار شأنهم حتى قال يوماً : « في الهند طائفة يحقرها بقية الهندوكيين ويعدونها من المنبوذين .. وأنا لا أحتقر أحداً ، ولكن ذوى الألقاب عندى منبوذون — أعنى أنى أنفر منهم وأكره مجالسهم وأتقى مخالطتهم وأوثر عليهم البسطاء الفقراء بل حتى الجهلاء والأميين ، وأرى لى عطفاً عليهم وحباً لهم وفهماً وإدراكا لأساليب تفكيرهم وسروراً بحديثهم وإن كان تخليطاً[1] » ، وقال مرة أخرى معبراً عن اعتزازه بنفسه وطريقته في الحياة في معرض حديث عن المجتمعات الراقية وحفلاتها التى كان قلما يجيب الدعوات إليها : « إنها مجتمعات حافلة بمظاهر التصنع والرياء والنفاق والتكلف الثقيل ، كلا يا سيدى (يفتح الله) إن بجلبابى الفضفاض وجلسة الحادثة البسيطة أنعم بما لا ينعم به إنسان » .

وكان المازنى مؤمناً برسالته في الحياة معتقداً أنها أسمى من كل رسالة أخرى في الوجود ، محباً لها ، ولا سيا لما منحته من حرية في التفكير والحياة ، ولذلك كان ينفر من الأحزاب السياسية ، ولا يطيق فكرة الانضمام إليها ، وقد قال عندما طلب منه ذلك : « لقد تركت وظائف الحكومة لأنى لا أطيق القيود ؟ فكيف أقيد نفسى بأغلال الحزبية الثقيلة ؟ إنى اليوم حر أكتب ما أشاء ، وأقول للمحسن أحسنت ،

---

(١) أخبار اليوم عدد ١٧ / ٩ / ٤٩ .

ولنفسي، أسأت ... فدعني بالله من هـذه القيود وتلك المظاهر »(1) .

والكتابة عنده أسمى وأرفع من أي وسيلة أخرى من وسائل خدمة المجتمع ، ولذلك كان يأبى أن يرشح نفسه للنيابة أو أن يسعى إليها ، وقد قال يوماً : « لقد خلقت كاتباً وسأظل كاتباً أخدم بلادي عن طريق الصحافة(2) » عندما ألح عليه سكان حيه في ترشيح نفسه عنهم .

وأظن أن المازني قد بلغ بذلك أقصى حدود الاعتداد بالنفس والإخلاص لرسالته في الحياة .

* مدرسة المازني

هل كان للمازني مدرسة ؟.

إذا كان المقصود بالمدرسة مذهباً جديداً في الأدب أو الفلسفة ؛ فلا أظن أن المازني قد جاءنا بجديد في هذا الباب ، وإنما كان المازني قائد جيل من الأدباء .

وقد عاصر المازني فترة انتقال خطيرة في تاريخ الآداب العربية ، وكان على المازني وزملائه كالعقاد وطه حسين أن يقودوا ثورة على القديم وأن يحطموا الأصنام المعبودة والمقاييس الجامدة التي أحيط بها الأدب العربي ، وأن يزلزلوا عقائد معاصريهم في قدسية كل قديم ، ولما كان العمل الأساسي هدماً وتمهيداً لما بعده ، وكان على المازني أن يكون معول هدم أولاً ليستطيع أن يبني ، وقد كان يدرك دوره ويشعر به ويحسه ؛ فهو يقول في حصاد الهشيم (ص ٣٦٤) في معرض حديثه عن الآنسة مي : « وأنا أيضاً أكتب وأقرض الشعر ، فما مصير كل هذا الذي سودت به الورق وشغلت المطابع وصدعت القراء ؟ إنه كله سيفنى ويطوى بلا مراء ؛ فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التي تسد الطريق وبتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم ؟ ومن الذي يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ؟ من الذي يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهدين الذين أدموا أيديهم في هذه الجلاميد ؟ » .

ورغم إشفاقه من الفناء ، وعدم خلود الذكر إلا أنه يمضي قدماً في رسالته ويدعو إلى التمرد على الأوضاع القديمة ويلتمس لنفسه العذر من هذا التمرد في حديثه عن ابن الرومي فيقول : « وعذره من هذا التمرد عذر كل فرد حساس مصقول النفس مثقف العقل ، تصطدم عنده الآراء والعقائد بظواهر الحياة وواقع الحال ، وليس أقسى من أثر ذلك في النفس ولا أوجع ، ولسنا نحتاج أن نرجع إلى عصره بصفة خاصة ؛ فإن الحياة كانت قديماً وما زالت إلى الساعة ، وستظل إلى آخر الزمن إن كان له آخر ، صراعاً دائماً وجهاداً متواصلاً ؛ وما نظن الحياة الإنسانية خلت قط من بواعث السخط ودواعي التذمر ، وما كان المرء ليهتدي إلى جانب هـذا — أو قبله — بحدود قدرته وباحتكاكه بما يجاوز هذه الدائرة أو يحده هذا المجال ، وقد يعين الجهل أو البلادة على الرضى وإشعار النفس الراحة الحيوانية ، فلا يرى المرء فيما يحيط به ويضيق عليه إلا عدلاً مقنعاً وضرورة لا مهرب منها ولا خير في التبرم بها » .

فهو هنا يعرض بهؤلاء المستسلمين للواقع القانعين بالدون من الحياة ، لكنه هو أحياناً يستشعر التعب من طول عنائه في إفهام الناس أغراضه وأهدافه من كتاباته التي لم يرم بها إلا إلى الإصلاح ، فتراه يقول : « رأيت عجباً أيام كنت أنشر هذا النقد ، من ذلك أني كنت إذا قلت إن حافظاً أخطأ في هذا المعنى أو ذاك ، قال بعضهم : (لم يخطئ حافظ وإنما تابع العرب وقد ورد في شعرهم(1) أشباه ذلك) كأن كل ما قال العرب لا ينبغي أن يأتيه الباطل ولا يجوز إلا أن يكون صحيحاً مبرءاً من كل عيب ... إلى غير ذلك مما يغري المرء باليأس ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول ! » .

« وإذا فرضنا أن العرب أصابوا في كل ما قالوا أفترى ذلك يستدعي أن نقصد قصدهم ونحتذي مثالهم في كل شيء ، ونحن لا نحيا حياتهم ؟ ألسنا الوارثين لفنهم والوارث حق

(1و2) من مقال لأحمد للمازني بالهلال .

(1) حصاد الهشيم ص ٢٣١

التصرف فيا ورثت؟ هل تقليدك العرب وجريك على أساليبهم يشفعان لك في خطأ نحوي أو منطقي؟ كلا! إذاً فكيف يشفع لك في غير ذلك مما لا يصح في العقول ولا يتفق مع الحق! وكيف تحاكم إلى العقل في الأولى ولا تستقضيه في الثانية؟».

— ولا ننكر ما لدراسة الأدب القديم من النفع والفائدة وما للخبرة ببراعات العظماء قديمهم وحديثهم من الفائدة والأثر الجليل في تربية الروح، ولكنه لا يخفى علينا أن ذلك ربما كان مدعاة لفناء الشخصية والذهول عن الغاية التي يسعى إليها الأدب والغرض الذي يعالجه الشعر والأصل في الكتابة بوجه عام».

ولعل أهم ما كان يعانيه تشبث القوم باللفظ والتركيب واستخفافهم بالمعنى وكأنه ليس هناك للأدب رسالة في الحياة سوى تجويد صنعة الألفاظ وإتقان أبواب النحو والصرف لا الترجمة عن معاني الحياة وخلجات النفس.

— ولنقرأوا معي هذه الصيحة الصادرة من الأعماق وفيها يبرز المازني في أسلوب شعري جميل — يفصح عن آلام نفسه — أهدافه الأدبية محاولاً شرحها للناس: «وكأنما شاءت الأقدار أن يذيب أحدنا نفسه ويعصر قلبه وينسج آماله ومخاوفه التي هي آمال الإنسانية ومخاوفها، ويستوري من رفات آلامه شهاباً يضيء للناس وهو يحترق، ثم لا يجد من الناس أخاً حاناً يؤازره ويعينه على الكشف عن نفسه وإزاحة حجب الغموض عن إحساسات خياله التي ربما التبست على القارئ، لفرط جدتها أو غابت في مطاوي اللفظ واستسرت في مثاني الكلام».

«أليس أحدنا بمعذور إن هو صرخ وبه من سائغ اليأس خاطر: يا ضيعة العمر! أقص على الناس حديث النفس وأبثهم وجد القلب ونجوى الفؤاد فيقولون ما أجود لفظه أو أسخفه! كأني إلى اللفظ قصدت ... وأنصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريهم لو تأملوها نفوسهم بادية في صقالها، فلا ينظرون إلا إلى زخرفها وإطارها، وهل هو مفضض أم مذهب، وهل هو مستملح في الذوق أم مستهجن؟ وأفضي إليهم بما يجي أحدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون: لو قلت كذا بدل كذا لأعيا الناس مكان نقدك! ما لهم لا يعيبون البحر بأمواج شطآنه وكثرة صخوره؟ يا ضيعة[1] العمر!».

— من هنا ندرك أن المازني كان يعاني رهقاً وشدة في حمل الناس على فهم مذهبه، وكان من أهم أسلحته — كما أسلفنا في نضاله الهدم وتحطيم الأصنام وزحزحتها عن قواعدها، فبدأ بنقد شوقي وحافظ — وكذا فعل العقاد وطه حسين — وكان ذلك في أوائل عهده بالصحافة سنة ١٩١٣، وعرض شعرهما على الناس وتلمس مواضع الضعف فيه حتى يؤمن الناس معه بأن قدسية القديم وهم باطل يجب التحرر منه وبأن الشعر يكون أصدق وأوفى بالغاية إذا عبر عن بيئته واستعمل أدوات عصره.

. وقد جمع مقالاته في نقد حافظ وأصدرها في كتاب عام ١٩١٤ ليعلم الناس على حد قوله مبدأه الجديد الذي يدعو إلى الإقلاع عن التقليد والتنكب عن احتذاء الأولين فيما طال عليه القدم ولم يعد يصلح لنا أو نصلح له.

ومع ذلك لم يكن عمل المازني هدماً كله، بل إنه نصب نفسه أستاذاً لجيل من الأدباء والناس، يعلمهم ماهية الشعر وماهية الخيال ويسمعهم لمرة الأولى في العربية أن المجاز «هو نقل لفظ مما وضع له في الأصل إلى غيره مما يشاركه في بعض صفاته أو خصائصه، فالروح في اللغة العربية أيضاً أصل معناها النفس» مخالفاً بذلك ما عرفوا وما طالعوا في كتبهم، وهو إذ يتصدى لكتابة ترجمة عظيم من العظماء يحاول أن يشرح لقرائه أولاً أصول النقد وما يجب أن يأخذ به نفسه من تصدى لتأريخ الناس ودراسة حياتهم.

وهكذا نرى صنعة الأستاذية أو مهنة التدريس تغلب في كتاباته دائماً أو هي ضرورة المناسبة وملابسات العصر الذي عاصره حتمت عليه أن يقوم بدور الأستاذ لتلاميذ الأدب في هذا الجيل ... دور الأستاذ الذي يريد أن يحرر تلاميذه من قيود التقليد ويأخذ بيدهم إلى طريق تكوين الشخصية الأدبية ويعودهم الاستقلال بالرأي والابتكار والتجديد.

عبد السميع المصري

---

(١) حصاد الهشيم ص ٢٣٣



هذا الهراء الذي يذاع عن الرجال

مقال صريح للنجمة المكسيكية دولوريس دلريو

للآنسة الزهرية

إنهم يصورون القيل والقال في شكل امرأة — وكان ينبغي أن يصوروه في زي رجل ؛ وذلك لأن السيدات حين يرغبن بلغو الحديث ، ويتناقش سقاطه ، قلّ أن يحلبن مضرة . أما الرجل فإنه يحثو في الوجوه ، ويدفع في الصدور ، ويلق على الأسماع وقراً ، ويبالغ في العبث ، فيطلق لسانه في الأعراض ، ويتناول الأحساب ، ويخرج إلى السخرية والقاذعة ، ويعدو على الناس بالشر ، حين يتلفق بالكلام ويشققه ويحدسه على عواهنه ، ويلدرع فيه حتى يلفظ الريبة على شدقيه .

وغير خاف أن السيدات مرهفات الحس ، ذوات نزعات عاطفية خيالية ، شاعرية . أما الرجال فعلى النقيض .

وكأني بالرجال يعتقدون أن السيدات يرغبن على الدوام في الزلفى لهم ، والتشرف بنيل رضاهم — ولو احدودبوا من الكبر ، ودقت الشيخوخة عظامهم — ولئن كان الرجال عموماً ، يمتازون عن السيدات بنزوعهم إلى التصبي والمغازلات ، والاستسلام للبدوات النفسانية العنيفة وفوراتها العارضة الموقوتة ، إلا أنهم ليسوا عاطفيين أقوياء الخيال مثلهن . ومعلوم أن الخيال عبد العواطف . والعواطف من شأنها أن تسلط الخيال على الحقائق الجافة العابثة الوعرة ، فيغير عليها ويسحقها سحقاً ، ويصوغ من حطامها صيغة حسنة ، ويفرغ فيها أكمل شخوصه وآلق عرائسه وأروعها ! ولذلك كثيراً ما يقول الناس : « إن الرجال لا يشيخون مطلقاً ، بل يظلون أولاداً صغاراً على الدوام — ولو كانوا طوال القامة .. » .

ولئن صح قولهم ، فينبغي ألا يفوتهم أن الأولاد الصغار عادة ، لا يعقلون شيئاً غير مرضاة ذواتهم ، وغير الافتيات في أمورهم والجري على هواهم . على أني لست أقصد بهذا الاستدراك — إلى تجريد الرجال من الميزات الفاضلة والخصائص الممدوحة . فهنالك الشجاعة ، وهي الميزة التي لا يتسم بها إلا أصحاب النفوس العالية الكبيرة ، والأخلاق القوية الراسخة . ولكنها في الوقت نفسه من شيم النساء !! .

وقد رأيت في موطني المكسيك ، سيدات — تركن مع أطفالهن في بيوتهن القائمة وسط معترك الوقائع الحربية ، وخضم المعامع الدامية — فكن يصمدن في أماكنهن ، ويقمن بفروضهن اليومية والقنابل تتناثر من حولهن ، ووابل الرصاص ينهال عليهن ، ويأبين أن يبدين هلعاً

أو يلتمسن فراراً ! بل لقد كن يرددن مقطوعات من الأغاني الخفيفة ، ويتضاحكن ويصطنعن الدعة والطمأنينة .

وكن إذا دكت الفلات أسوار نجلدهن ، وأعجزتهن عن الاحتمال — يسارعن إلى رزم أطفالهن على صهوة الجياد ، وعشين السير إلى الجبال ومعهن كمية صغيرة من المئونة ورطب حبك ، ويحافظن على مواصلة الغناء والإنشاد ، ولا يبدين بادرة لخوف أو فزع ..

إن النساء والرجال — على السواء — يتلقون أقسى مصائب الحياة وشدائدها ، بذرع فسيح وجأش رابط ، في كثير من الأحيان ، ولكن ترى : أي الجنسين يكون أثبت جناناً وأوفر شجاعة حين تعرض له في وجوده الأحداث الثائرة والمصائب الجمة ؟ !

لقد خالطت زمن النساء والرجال — في مغاني الأنس وصرائع اللهو وعلى متن البواخر ، وفي ردهات الرقص والقصف ، وفي منتجعات التشتية والتصييف المعروفة ، وقد أبصرتهم وهم يكدحون ويجدون في معاهد العلم وميادين التحصيل ، وقد رأيتهم وهم يسعون على عيالهم ، ويضطربون في المعاش ، ويضربون في النواحي ، ويسهرون في المعاسكر المخصصة لتدريب الخيل ورعاية البقر في أمريكا وفي غيرها من بلاد الله ! ولكني وجدت أن النساء كن يتماسكن في حالات الألم والمرض ، ويتجلدن في صمت على مضض المحنة الهوجاء وغصص الشكاة السفاحة الجاهدة ، وكثيراً ما رأيت فيهن من كان يغشاها الداء وتشتد بها العلة ، فتملك من نفسها ما لا يملك سواها ، وما إن تزال في مجاهدة آلامها حتى يرهقها من مواجعها ما يهيب باحتمالها وتخور معه تماسكها ، فيصيبها الإغماء دون أن يلحظ أحد من قبل أنها قد اضطلعت بمجاهدة أوشكت أن تخرج أنفاسها .

إن الفتيات في بلادي وفي غيرها من البلاد اللاتينية ، ينشأن على الاعتقاد بأن الرجال قوامون عليهن — وبأنهم دائماً على حق ولا يخطئون أبداً .. ولذا يتحتم عليهن أن يذكرن أن الطاعة لهم واجبة في كل حين . أما إذا ترعرعن وأصبحن زوجات ، فلا ينبغي أن يقوم نقاش أو حوار أو لدد بين الزوجين ، وليذكرن أن الزوج يقول « كذا وكذا » فتنزع زوجه منزعه — ولو تباينت مذاهبهما — وعليها أن تشايعه صاغرة قنعة ، وتداجيه على المنشط والمكره ...

حقاً أن حياة المرأة المكسيكية ليست مما تحمد عليه .. هذا ولا يفوتني أن أذكر أن مزاجي ومزاج زوجي ، قد شقا من نبعة واحدة . وإني لأوثر أن يراعى تمام الانسجام في الأمزجة ، ودقة التجانس في الطباع عند الزوجين ، لكي يتوافر لهما تبادل التفاهم ، ولكي يتيسر للواحد منهما أن يشارك صاحبه في كثير من الأمور — مع الاستقلال الشخصي — في مودة واحترام . وأنا شخصياً أحب الشيء الذي يستحسنه زوجي « جيمي » كما أنه لا يحرص على الشيء الذي أنفر منه !!

وعليه أقول : « إن التجانس بين الزوجين ، لا بد منه — لكي يتماسك شطرا المجتمع ، فتتوطد من ثم سعادة الشعوب ، وتقوى وحدة القومية في الأمم » .

الزهرة

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٠٤ — الاثنين ٩ من شوال سنة ١٣٦٩ — ٢٤ من يوليه سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

لمحات عن تركيا وحالتها الاقتصادية

للأستاذ أحمد طه السنوسي

... ليس من العجيب أن نرى أن الحكومة التركية منذ أعوام قد وجهت وجهها شطر الزراعة بعد ما علمت أنها كيان البلاد وأن لا بلاد بدونها ! فقد وزعت مليون هكتار من الأراضي بين المزارعين بين عامي ١٩٣١ — ١٩٣٧ ، لكل فلاح قطعة من الأرض له ولأولاده لا يشاركه فيها مشارك ! فانبرى يتم عمله فيها بجد وحيوية دون حاجة إلى أي مزارع آخر ...

ولو أننا نظرنا إلى تركيا من حيث إنها بلد صناعي مجيد لا نلبث أن نراها بلداً زراعياً قبل كل شيء ، له من الميزات ما يكفل له أن يكون في مقدمة البلاد الزراعية .. فثمة أراض خصبة وتربة متعطشة إلى النماء والاستثمار ، تحوطها البساتين والمروج السندسية والمراعي والزروع بكثة زاهرة لا جدب فيها إلا ما يعادل أربعة عشر في المائة من مجموع أرضها ...

وليس من شك في أن الإصلاح الذي تم بتركيا في الفترة العشرينية الماضية جهود جبارة خلدها التاريخ لجمهورية الأتراك . ولا ننسى أن زعيمها الأول مصطفى كمال ، كان رجلاً فلاحاً للأرض بفكره ويده . فلقد رأى أن تحسين الزراعة في البلاد وتوطيد دعائمها هو السداد الصالح الذي يقوم لإصلاح الاقتصاد والمجتمع ، إذ ذاك وضع استهدافاً لتنظيم الزراعة في العصر الحديث ؛ ولم يكن مصطفى كمال فقط هو الذي اعتنى بالشئون الزراعية ، بل إن الحكومات التي تلته قد وجهت عنايتها للأخذ بيد ركن مكين هام في العالم الاقتصادي ، فشيدت المخازن لخزن الحاصلات ومنحت ما أمكنها من البذور والسماد ومشاريع الري ومنح الأموال في سبيل الإصلاح الزراعي .

أما الآلات الزراعية كالمحاريث الخشبية والمناجل البالية فقد ذهبت إلى بارئها تاركة تركيا الحديثة تنعم بآلات عصرية تساعد الفلاحين وتشد أزرهم ولا تستحوذ منهم على الوقت الطويل أو المجهود الشاق ..

ولقد أنشأت جامعة الزراعة بأنقرة ما لا يقل عن عشرين مبنى لتعليم الزراعة والتدريب العملي والنظري ، وتعد هذه المباني من أحدث المباني في العالم ، ولا غرو أن تكون كذلك وهي التي قامت في سبيل رقي العلم وتعليم الزراعة والعمل على إصلاحها وتمشيها مع الحضارة المستحدثة والمبتكرات الاقتصادية ...

ولم يتسرب اليأس إلى وزارة الدفاع هنالك في أن تديم التجارب وتطبق الخطط والاستهدافات على النهضة

الأناضول » هذه الهضبة التي كنا نظن أنها كامرأة عاقر فلا تخرج نباتا ولا بتاتاً . ولقد لاقت التجارب التي أجريت في الأعوام السالفة نجاحاً مطرداً في أن تزرع المحصولات المختلفة في أراضي تركيا ، ولقد زرع الشاي في ولاية رز حوالي عام ١٩٢١ وسواء من المحصولات الجديدة .

ولقد يعيش الفلاح عيشة الجد والاجتهاد إذا رأى حكومة تسعى لمصلحته ومصلحة مهنته وتشريعها ، فلا غرو أن ترى فلاحي تركيا ينشطون نشاطاً محياً ويعدون كثيراً ، حتى إن محصول بلادهم بلغ ما يساوي محصول قارة استراليا بأكملها في عام ١٩٣٨ .

والحبوب بأنواعها المتباينة من أهم محاصيل الزراعة في تركيا ، ونخص بالذكر من هذه الحبوب في هذا البلد القمح والطباق وكثيراً من أنواع الفاكهة والخضراوات والقطن ، وقد قامت صناعة رائجة هامة على أساس البذور النباتية التي تستغل في صناعة الزيت وغيره من المصنوعات ..

وثمة معامل كثيرة في تركيا تقوم بالناحية الصناعية في البلاد ، فتكفي أكثر الحاجات التركية ، ولقد ارتقت هذه المعامل وارتقت تبعاً لها الصناعة التركية العامة ، وإنما يستطيع المرء أن يعزو ذلك إلى الحكومة التركية التي عملت جهدها في محاربة البضائع الأجنبية ، وذلك بطرق ووسائل شتى ؛ منها زيادة الضرائب والرسوم الجمركية ، وكذلك الحدث الهام الذي به ألغيت امتيازات الشركات الأجنبية التي كانت تحتكر البلاد وتستولي على أموال الاقتصاديات التركية ...

أما الناحية المعدنية ، فتركيا من البلاد الغنية في هذه الناحية ؛ وذلك لكثرة المناجم والمعادن فيها ، كما أن الناحية الطبيعية لها دخل كبير في اقتصادياتها ، إذ توجد بها غابات وآجام تستغل في الحياة العملية هناك . كما أن هنالك حمامات كبريتية وفوارات معدنية في المصيف التركي المشهور الذي يدعى (بورسه) وهو الذي يبعد حوالي تسعين كيلومترا عن استنبول . هذا فضلا عن البساتين الرائعة في هذا المصيف الجميل ..

ولكن بالرغم من كل هذا فلدى تركيا كثير من المشاكل الاقتصادية التي تحاول حكوماتها أن تجد لها الحلول الكافية ؛ فهنالك مشكلة الغلاء، وأحكام الرقابة على الأسعار القائمة ، وهذه المسائل هامة جداً بالنسبة للشعب والحكومة ؛ ونذكر من أمثلة الغلاء، فيها أن أسرا تركية كثيرة لا تأكل اللحم إلا في المواسم والأعياد . كذلك هناك مشكلة احتكار الحكومة لصناعة السكر ، كما أن الأرياف التركية حالتها الاقتصادية متضعضعة ، مما أدى إلى فقرها وبالتالي إلى سوء الحالة الصحية فيها وانتشار الأمراض بين ظهرانيها ؛ ويقدر من يقضي عليهم مرض السل في العام الواحد بنحو أربعين ألف شخص جلهم من الريف التركي ...

والملحوظ أن الحكومات التركية توجه اهتمامها الأول إلى الشئون السياسية والدفاعية والحربية والاستراتيجية ، بيد أن المفروض أن تحتل الاقتصاديات الوطنية اهتماماً خاصاً ، لكي تتعاون النهضة الاقتصادية مع النهضات الأخرى ، لتصل بالبلد إلى غايتها وشأوها من الرقي ، بل إن النهضة الاقتصادية سبيل أولى للوصول إلى الغايات السياسية والحربية وما إليها ...

وتتجه نية تركيا إلى طلب العون من أمريكا ، ولكن يجب أن يقتصر هذا الطلب على أن تقتبس تركيا من أمريكا النظم والتنظيمات الزراعية ، وأن تعمل جهدها في الأخذ بكل ما يلائم التربة التركية من المقتبسات الأمريكية ، كما تقوم تركيا باستقدام الخبراء والإخصائيين الأمريكان . ولا ننسى الآلات الزراعية الأمريكية فلها كل الفضل إذا استقدمتها تركيا ، ولن تشمل هذه المعونة الأميركية الأخذ من منتجاتها أو قبول نتاجها الزراعي ؛ لأن ذلك شيء موقوت معترض ، لا يتحقق منه رقي البلاد إلا لغاية ، ثم تتخلف البلد العالة عن ركب التطور الاقتصادي دون أن تنى لذلك شيئاً ...

هذه لمحات خاطفة عن بعض الأحوال الاقتصادية في هذا البلد الشرقي الكبير الذي نرجو له الرقي في كل أحواله العامة ليتابع ركب الحضارة والتطور الحديث .

أحمد طه الشرعي

نشأة التاريخ الاسلامي والطبري

– ٢ –

للأستاذ علي أدهم

كان القرن الثالث الهجري من القرون الخصبة الحُفّل في تاريخ الإسلام ، فقد نبغ فيه كثيرون من الشعراء والكتاب والمؤرخين واللغويين والنحاة والمحدثين والفقهاء ، وأينما أدرنا الطرف في ذلك القرن السَّرِي نجد مؤلفات هامة وكتباً قيمة أصبحت في القرون التالية مراجع للبحث وأمهات في فروع المعرفة المختلفة ؛ وقد عاش في هذا القرن من الشعراء أمثال البحتري وابن الرومي وابن المعتز ، ومن الكتاب أمثال الجاحظ وابن قتيبة الدينوري ، ومن النحاة أمثال المازني وثعلب والزجاج ، ومن اللغويين أمثال أبي حاتم السجستاني والمبرد ، ومن المؤرخين أمثال البلاذري وابن طيفور واليعقوبي وأبي حنيفة الدينوري ، ومن أبرز رجال هذا القرن رجلان ممتازان ، وهما البخاري صاحب كتاب « جامع الصحيح » المشهور بصحيح البخاري والطبري صاحب التفسير الكبير وكتاب تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري ، وكانا كلاهما من كبار المحدثين .

وقد كان التاريخ في نشأته عند العرب نوعاً من أنواع الحديث ، ولما اتسع نطاقه وتكاثرت مادته وتعددت فروعه استدعى الأمر شيئاً من التخصص ، فاقتصر بعض المؤرخين على رواية الحديث ، وتجرد فريق آخر منهم لجمع الأخبار ومعرفة الحوادث السالفة ، وصار يطلق على المتخصصين في ذلك لفظة الأخباريين ، وكان الواقدي وابن إسحاق من الذين انتقلوا من الحديث إلى الأخبار ، وفي ابن جرير الطبري عاد التياران إلى الالتقاء ؛ فالطبري محدث كبير ، وأخباري من الطراز الأول ، وتوفر هاتين الصفتين في الطبري من الأسباب التي ساعدت على رفع مستوى المؤرخين عند العرب ، وأعادت إلى التاريخ اعتباره ، وجعلت جهابذة العلماء وكبار الفقهاء لا يتحرجون من دراسة التاريخ والتوافر على التأليف فيه والانقطاع له .

وقد ولد الطبري سنة أربع أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين ، وكان مولده بآمل ، وهي قصبة طبرستان ، وقد روى لنا الطبري نفسه سبب تسمية البلاد التي نشأ بها « طبرستان » فقال : « جئت إلى أبي حاتم السجستاني ، وكان عنده حديث من الأصمعي عن أبي زائدة الشعبي في القياس ، فسألته عنه فحدثني به ، وقال لي أبو حاتم : من أي بلد أنت ؟ فقلت : من طبرستان . فقال : ولم سميت طبرستان ؟ . فقلت : لا أدري . فقال : لما افتتحت وابتدئ بنائها كانت أرضاً ذات شجر فالتمسوا ما يقطعون به الشجر فجاءوهم بهذا الطبر الذي يقطع به الشجر فسمى الموضع به[1] » .

وقد ظهرت قوة حافظته وشدة إقباله على طلب العلم من بواكير صباه ، قال عن نفسه في خلال حديثه مع أحد أصحابه : « حفظت القرآن ولي سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين » ولمح أبوه فيه ذكاء الفطنة وتوقد الخاطر والإخلاص في طلب العلم والجد في تحصيله ؛ فحرص على معونته على ذلك ، وكتب الطبري الحديث ببلده ، ثم بالري وما جاورها من البلاد ، وكان العالم الإسلامي حينذاك على اتساع رقعته وتراحي حدوده متصل الأسباب ، وكان التنقل في طلب العلم سهلاً ميسوراً ، فقصد الطبري مدينة السلام ، وهي حينذاك مثابة العلماء والنهل العذب للوراد ، وأقام بها حيناً من الزمن يكتب عن شيوخها ويحضر مجالسهم ويستمع إلى مناقشاتهم وأحاديثهم ومساجلاتهم ، ثم انحدر إلى البصرة فسمع من كان بقي من شيوخها في وقته ، ثم صار إلى الكوفة ليستوفي سماع الأحاديث عن علمائها ، ثم عاد إلى مدينة السلام ولزم المقام بها مدة ، وتفقه بها ، وأخذ في علوم القرآن ، ثم غرّب فخرج إلى مصر وكتب في طريقه عن المشايخ بأجناد الشام والسواحل والثغور وأكثر منها ، ثم سار إلى الفسطاط

---

(١) وفي كتاب المعرب للجواليقي أن معنى « الطبر » بالفارسية الفأس ، وكذلك طبرستان كان الشجر حول مدينتها أشباً ، فلم يوصل إليه حتى قطع الشجر بالفئوس .

وأكثر الكتابة عن علمائها ، ثم عاد إلى الشام ورجع إلى مصر ، وظهرت حينذاك قدرته فى دراسة القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر . وقد روى عن نفسه وهو بمصر فقال : « لما دخلت مصر لم يبق أحد من أهل العلم إلا لقينى وامتحننى فى العلم الذى يتحقق به ، فجاءنى يوماً رجل فسألنى عن شىء من العروض ، ولم أكن نشطت له قبل ذلك ، فقلت له : « علىّ قول ألا أتكلم اليوم فى شىء من العروض ، فإذا كان فى غد فصر إلىّ » ، وطلبت من صديق لى العروض للخليل بن أحمد فجاء به ، فنظرت فيه ليلتى فأمسيت غير عروضى وأصبحت عروضياً » ! وقد حاول الطبرى أن يلم بأطراف المعرفة جميعها فى عصره ويستوعبها استيعاباً ، ويسّر له ذلك قوة ذاكرته وجودة فهمه ومثابرته وانصرافه التام للتحصيل وزهده فى المطالب الدنيوية .

وعاد من مصر إلى مدينة السلام وهو يتابع الكتابة عن العلماء ، ويحضر دروسهم ، وزار بلده ثم استقر به المقام فى بغداد ، واشتهر اسمه فيها ، وشاع خبره بالفهم والتقدم .

وكان الطبرى على ما يظهر حراً فى تفكيره صريحاً فى إبداء رأيه ، وكان للحنابلة فى بغداد قوة ونفوذ وكثرة عددية ، واتفق أن الطبرى ألف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فسئل عن سبب ذلك فقال لأنه لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً » فكبر ذلك على الحنابلة فشغبوا عليه ورموه بمحابرهم ، فقام ودخل داره فرموا داره بالحجارة حتى صار على بابه كالتل وركب صاحب الشرطة مع الجند ليمنع عنه العامة ، وأمر برفع الحجارة عنه . ويذكر ياقوت أن الطبرى خلا بعد ذلك فى داره وعمل كتابه المشهور فى الاعتذار إليهم ، وذكر مذهبه واعتقاده ، وجرّح من ظن فيه غير ذلك ، وفضل أحمد بن حنبل وذكر مذهبه وتصويب اعتقاده ولم يزل فى ذكره إلى أن مات .

وقد نظر أبو جعفر فى المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون أبواب الحساب وفى الطب وأخذ منه قسطاً وافراً . قال عنه أحد معاصريه : إنه كان كالقارئ الذى لا يعرف إلا القرآن ، وكالمحدث الذى لا يعرف إلا الحديث ، وكالفقيه الذى لا يعرف إلا الفقه ، وكالنحوى الذى لا يعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذى لا يعرف إلا الحساب ، وكان عالماً بالعبادات جامعاً للعلوم .

وهذا العلم الواسع والمعرفة الغزيرة مع ثقته بنفسه وعلو همته جعله يقدم على تفسير القرآن ، ويضطلع بهذه التبعة الخطيرة . ولما همّ بتفسير القرآن قال لأصحابه : « أتنشطون لتفسير القرآن ؟ » فقالوا : « كم يكون قدره ؟ » فقال : « ثلاثون ألف ورقة » فقالوا : « هذا مما يفنى الأعمار قبل تمامه » ، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة ، وقد وفق فى تفسيره ، وحاز إعجاب العلماء الأعلام ، وظفر بتقديرهم العالى .

والظاهر أن تفسيره للقرآن اضطره إلى كثير من المراجعات التاريخية ، وأوحى إليه فكرة كتابة تاريخ العالم . ولما انتوى ذلك بعد فراغه من التفسير شاور أصحابه فقال لهم : « أتنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ؟ » فقالوا : « كم قدره ؟ » فذكر نحواً مما ذكره فى التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك فقال : « إنا لله ! ماتت الهمم » فاختصره فى نحو مما اختصر التفسير .

وقد أفاد الطبرى من المواد التى جمعها مؤرخو القرن الثانى ، وانتفع بحركة النقل عن اللغات الأجنبية التى بدأت فى ذلك القرن ، واستعمل طريقة الإسناد التى جرى عليها رواة الحديث ، وقد تأثر بطريقتهم فى كتابه ، واستطاع أن يجمع فيه مجموعة كبيرة من مختلف الروايات والأخبار التاريخية استوعبت كل ما تقدمها ، وقد استطاع أن يربط بعضها ببعض ببراعة فائقة ! وعيب الطبرى الأصيل هو عيب مؤرخى العرب جميعهم ، وهو أنهم لا يتجاوزون الوصف والسرد الحولى ! ولم يفكر الطبرى فى تعليل الحوادث ، ولم يحاول تعرف أسبابها ، ولم يعمل على كشف البواعث العميقة المستخفية التى تعمل وراء التغيرات الاجتماعية الظاهرة ! وكان يكتفى بذكر الأسباب المباشرة ، وهو فى روايته للحوادث يكتفى كذلك بالتعويل على الإسناد دون أن يعرض النص نفسه على تفكيره الخاص ، ويزنه بميزانه ويخضعه لبحثه وتحليله ! وهو يصارحنا بذلك فى بساطة مستحبة فيقول فى مقدمة كتابه : « وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أنى راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول ،

واستنباط بفكر النفوس ، إلا اليسير القليل منه ، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بإخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس ؛ فمهما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً فى الصحة ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا » .

وهذه هى الطريقة التى انتقدها ابن خلدون فى مقدمته وثار بها وخرج عليها وقال فى التنديد بها : « إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى ، ولا قيس الغائب فيها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق ؛ وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ، ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار ، فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط ، ولا سيما فى إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت فى الحكايات ، إذ هى مظنة الكذب ومطية الهذر ، ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد » .

وقد أخذ ابن خلدون على الطبرى ذهابه إلى أن غزوات التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب قد امتدت إلى إفريقية والبربر من بلاد المغرب ، وقال إن هذه الأخبار بعيدة عن الصحة ، وعريقة فى الوهم والغلط ، وإنها أشبه بأحاديث القصاص الموضوعة ، وذلك لأن ملك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن .

والأسلوب الذى اتبعه مؤرخو العرب بوجه عام فى أكثر مؤلفاتهم التاريخية كان يضطرهم من بادىء الأمر إلى ممارسة نوع خاص من النقد التاريخى ، وذلك لأن التاريخ كان عندهم قائماً على الثقة بالشاهد الأول ، والاعتماد على صدق روايته ، وصحة إدراكه ، واستقامة أخلاقه ؛ وقد استلزم ذلك بذل مجهود ضخم فى تحرى سير أمثال هؤلاء الرجال الذين يصح الاعتماد على أقوالهم ، والأخذ برواياتهم ؛ وكان على المؤرخ أن يشعر نفسه الاطمئنان إلى هؤلاء الرواة بعد التحقق والتثبت . والظاهر أنه كان يجد أن الرواة ونقلة الأخبار والحفاظ أهل للثقة والرجوع إلى آرائهم متى عرفوا باستقامة الأخلاق وسلامة العقيدة والبعد عن الشبه والريب واشتهروا بالسمعة الطيبة وحسن السمت . أما نقد الرواية فى ذاتها وتحقيقها فقد قصروا فيه تقصيراً واضحاً ؛ والنقد التاريخى بالمعنى الحديث لم يعرفه الواقدى ولا الطبرى أو ابن قتيبة أو المسعودى ، ولم يقدر أهميته سوى ابن خلدون ، فهو الذى عرف مداه وأدرك طبيعته . والواقع أن الحاجة كانت ماسة إلى ممارسة هذا النوع من النقد التاريخى فى القرن الثانى والقرن الثالث الهجريين ، فقد اختلطت بروايات هذين القرنين التاريخية الكثير من الأوهام والخزعبلات والأكاذيب المصنوعة والأقاويل الزائفة ، وكان للعصبيات المختلفة والأغراض السياسية والفرق المتنافرة أثر واضح فى ترويج بعض الروايات ، وإذاعة طائفة من الشائعات . وقد كان الطبرى رجلاً واسع المعرفة ، غزير العلم ، مستقل التفكير ، وإنى أرجح أن مثل هذا الرجل كان يغربل الروايات والأقاويل فى صمت وسكون ، فيلقى ما يداخله فيه الشك ، ويثبت ما يطمئن إليه ويراه جديراً بالثقة والتصديق ؛ فليس هو خابط عشواء ولا حاطب ليل ؛ فقد اعتمد على وثائق كثيرة وأحاديث وروايات وأخبار ممحصة إلى حد ما ، وفيها ما يدل على دقة النظر وصدق الحكم ، وقد أجاد عرضها ، وأحسن تنسيقها ، حتى أغنت عن الرجوع إلى ما كان قبلها ، وأصبحت مادة يستمد منها المؤرخون ، ويعتمدون عليها ، ويسيرون فى أضوائها ؛ وقد مهد الطبرى الطريق لمن جاء بعده من كبار مؤرخى الإسلام مثل المسعودى صاحب مروج الذهب ، وابن مسكويه مؤلف كتاب تجارب الأمم ، وابن الأثير واضع كتاب الكامل ، وأبى الفداء كاتب كتاب المختصر فى تاريخ البشر ، وابن خلدون نفسه مؤلف كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .

(البقية على صفحة ٩)

ظـــــاهرة جديدة

للأستاذ حافظ أحمد أمين

ظاهرة جديدة ، تلك التى نراها هذه الأيام تملأ جميع الصحف والمجلات المصرية ، وتذاع فى الأحاديث الخاصة والعامة ، ألا وهى تلك الموجة الواضحة من التشاؤم واليأس التى تظهر فى كثير من المقالات والأحاديث ، سواء كانت سياسية أو اجتماعية .

هى ظاهرة واضحة تمام الوضوح ، تحملت الشباب قبل الشيوخ ، حتى إنك لا تفتح فى هذه الأيام صحيفة من الصحف أو تسمع حديثاً ، أو تقرأ مقالاً ، إلا وتشتم منه تلك الروح المتشائمة ، التى تنظر إلى حالة البلد وحوادثها نظرة كلها يأس وقنوط .

إذا أردت أن تعرف بعض مظاهر هذا السخط والقلق ، فيكفيك أن تفتح أى صحيفة من صحف الصباح أو المساء فى هذه الأيام لتقرأ فيها أن طالباً من طلاب الجامعة قد ألقى بنفسه فى النيل ، تاركاً وراءه رسالة يقول فيها إن الذى أودى به هو الأوضاع المشوهة والحقائق المقلوبة ؛ أو لتقرأ فيها أن طالباً أراد قتل أستاذه ، أو أن بعض الطلبة فى لجنة من لجان الامتحان أحسوا بصعوبة الأسئلة ، فهاجوا وماجوا ، وكسروا الأدراج ومزقوا الأوراق ، وحاولوا إحراق اللجنة بما فيها ... أليس هذا هو القلق والسخط الذى إن دل على شىء فعلى أن الشباب قد كفر بالحياة .

ولا تقصر نظرك على التلاميذ وأعمالهم ، بل انظر أيضاً إلى سخط الموظفين ويأسهم من تحسين حالتهم وكفرهم بكل كادر وتيسير ، هذا الكفر الذى جعلهم يتفننون فى اكتشاف أصناف جديدة من الرشاوى والسرقات ، حتى أصبحت الأوراق لا تمر ، والخدمات لا تحل ، إلا إذا قدمت معها ما يلزم أن يقدم .

ثم انظر بعد هذا إلى ضباط الجيش وجنوده ، الذين فقدوا ثقتهم بأسلحتهم وموردبها ، وطالبوا المسئولين بالبحث عن المتهمين الذين كانوا من أهم أسباب الفشل فى حرب فلسطين ، فلم يجدوا غير آذان صمت عن الاستماع .

لن أتمادى فى ضرب الأمثلة وعرض النماذج ، فيكفيك أن تقرأ الحوادث فى الصحف وتسمع الأحاديث فى المجالس ، لتخرج بعشرات من هذه الأمثلة والنماذج ، ولكنى أريد أن أتساءل : كيف أتت هذه الموجة من القلق ؟ وما سبب انتشار هذه الروح من اليأس ؟ .

والسبب فى ذلك هو أن الشعب قد شعر — منذ وقت ليس بالقصير — بجهله ومرضه وفقره ، ورأى أن من حقه على الحكومات أن يتعلم ، وأن يدرك طعم الشبع والعافية ، ثم حاول أن ينهض ، وأن ينفض من فوقه هذا البؤس وسوء الحال ؛ فإذا هو يصطدم بحقيقة مؤلمة ، وهى أن السلطان فى مصر ليس فى يد الشعب ، ولا فى يد تمثل الشعب ، إنما هو فى يد الإنجليز وأعوان الإنجليز ، وهؤلاء لهم من القوة المادية وغير المادية ما لا يستطيع مقاومتها إلا إذا اتحد ... وكيف يتحد وهو ضعيف ممزق ، تنقصه الأخلاق والتربية ، والأجانب من حوله يحاولون هدمه واستغلاله ، وأسوأ من الأجانب ، كبراء الشعب وحكامه ، الذين اشتركت مصالحهم مع مصالح المستعمر ، وأخذوا فى استغلال الشعب من غير محاولة جدية لإصلاحه ؛ فإن حاولوا عمل شىء للشعب فعن طريق الارتجال ، واتخذوا المشروعات الطنانة وسيلة للتنافس بينهم ، والدعاية لأحزابهم ، فوقفت كل الأعمال النافعة ، اللهم إلا ما كان منها نافعاً بالنسبة لهم ولأقاربهم .

ولما انتشر الفساد والظلم ، وذهبت خيرات البلاد إلى أيدى المستعمر وأتباع المستعمر ، انخفض مستوى المعيشة فى مصر ، وزاد الغلاء واستفحل أمره ، فمد الموظف يده لأصحاب الحاجات ، فانتشرت الرشوة والسرقات ، كما مدّ المدرس يده للطلبة ، فانتشرت الدروس الخصوصية وبيعت الامتحانات وفقد الطلبة احترامهم لأساتذتهم بعد أن فقدوا الثقة بحكامهم وكبرائهم .

كل هذا نراه فى الوقت الذى تنتشر فيه مبادئ جديدة تعم البلاد ويؤمن بها الشباب وغير الشباب . وللأسف كان من هـذه المبادئ الجديدة التى غزت مصر مبادئ مادية ، صبغت الشعب بصبغة من الوصولية والاستهتار ، هذه المبادئ وقعت على شعب ضعيف غير مستقر فكان لها من الأثر السيء ما نراه الآن .

هذا هو مارآه الشعب ، ومع ذلك فقد ظل شعباً مجاهداً متفائلا ، إلى أن جاءت الصدمات المتتالية ، والنكبات الواحدة بعد الأخرى ؛ فمن مأساة فلسطين ، إلى هـذه المفاوضات التى لا تبشر بجلاء أو بوحدة ، إلى هـذه المحاولات للحد من الحريات وكبت الألسنة والأقلام .

هذه هى الحال التى سببت كل هذه الموجات من السخط والقنوط ، وهـذه هى أهم الأسباب التى جعلت كل مصرى ينظر ليرى الشر قد بلغ فى كل ناحية من نواحى الحياة غايته ، فلم يسعه إلا أن يذعن له ويسترسل فيه .

بقى دور المصلحين والموجهين ، الذين نرجو أن يكونوا الفئة التى ارتفعت فنجت من هـذه الموجة من اليأس ، والذين هم الفئة التى يحتاج إليها الشعب فى هذه الأيام ليعرف نوع مرضه وكيفية العلاج ، وليستمد منها الدواء لهـذا الداء الوبيل .

حافظ أحمد أبيض

نشأة التاريخ الاسلامى والطبرى

(بقية المنشور على صفحة ٧)

وأسلوب الطبرى عربى أصيل يجمع بين السهولة والجزالة والوفاء بالغرض من أقرب سبيل ، وفى تصويره للحوادث وضوح وقوة ، وقد مكنته سعة اطلاعه على الأدب وأشعار العرب من أن يرصع كتابه بمجموعة صالحة من القصائد البديعة ،والمقطوعات البارعة ، والخطب البليغة ، والأقاويل الحكيمة ، وهو لا يعرضها فى بذخ وإسراف ، وإنما يذكرها فى مناسباتها ، وينزلها منازلها اللائقة ، فيضىء بها جوانب التاريخ ، ويجلو بها غوامض الحوادث .

وقد عزا إليه ياقوت فى معجمه بعض أبيات من الشعر ، منها قوله فى تصوير إباءه وذكر قناعته ووفائه :

إذا أعسرت لم أعلم رفيقى ... وأستغنى فيستغنى صديقى
حيائى حافظ لى ماء وجهى ... ورفقى فى مطالبتى رفيقى
ولو أنى سمحت ببذل وجهى ... لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وأبرز ميزة فى هذه الأبيات هى ميزة الصدق ، فهكذا عاش الطبرى منقطعاً للعلم ، مثابراً على طلبه ، متقللاً متقشفاً ، قانعاً بما كان يأتيه من مال ضيعة ورثها عن أبيه ؛ وقد وجه إليه مرة محمد بن عبيد الله الوزير بصرة فيها عشرة آلاف درهم وكتب معها رقعة وسأله أن يقبلها ، وقال للذى حملها إليه : «إن قبلها وإلا فسله أن يفرقها فى أصحابه ممن يستحق» فلما دخل عليه الرسول وأوصل إليه الرقعة امتنع من قبول الدراهم ، ولما قال له الرسول : « فرقها فى أصحابك على من يحتاج إليها ولا تردها » أجابه الطبرى : « هو أعرف بالناس إذا أراد ذلك » .

ومع طول معاناته للدراسات الجدية ومعالجة التأليف فى المسائل الصعبة التى تستغرق الجهد وتعنى النفوس وترهق الأعصاب ظل محتفظاً بهدوء النفس وصفاء الخاطر وطيبة القلب ، وقد ترك أثراً جميلاً فى نفوس عارفيه ومنافسيه ؛ وقد وصفه أحد الآخذين عنه فقال : « كان أبو جعفر ظريفاً فى ظاهره ، نظيفاً فى باطنه ، حسن العشرة لمجالسيه ، متفقداً لأحوال أصحابه ، مهذباً فى جميع أحواله ، جميل الأدب فى مأكله وملبسه وما يخصه فى أحوال نفسه ، منبسطاً مع إخوانه ، حتى ربما داعبهم أحسن مداعبة . وكان إذا أهدى إليه مهد هدية مما يمكن المكافأة عليه قبلها وكافأه ، وإن كانت مما لا يمكن المكافأة عليه ردها واعتذر إلى مهديها .

وكان صاحب هذه النفس النبيلة والروح السامية رجلا أسمر إلى الأدمة أعين نحيف الجسم مديد القامة لم يغير شيبه حتى وافته المنية يوم السبت لأربع بقين من شوال سنة عشر وثلثمائة ، وقد فرغ من تصنيف كتابه فى التاريخ يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثمائة وقطعه على آخر سنة اثنتين وثلاثمائة ، وربما كان الطبرى والجاحظ وابن حزم الظاهرى أغزر المؤلفين إنتاجاً فى تاريخ الأدب العربى برمته .

على أدهم

نبات « ندى الشمس »

الإنسان يحس ، والحيوان يحس ، وهذا نبات له قوة إحساسية هائلة !.

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

الإحساس :

ما هو الإحساس ؟؟.

وهل هذا الشعور يقتصر على الإنسان أم هو عام بين جميع المخلوقات ، سواء فى مملكة الحيوان أو فى مملكة النبات ؟؟.

هذه التساؤلات تتطلب منا أن نلاحظ تفاعلات المخلوق لما حوله من المؤثرات وطرقه المعيشية التباينة .

الحيوان يحب ويكره :

وإننا لنجد فى أبسط أنواع الحيوان حركات تدلنا على أن هـذا المخلوق يحب ويكره ، وأن هذا الشعور بالحب أو الشعور بالكراهية كامن فى أعماقه ، فحين يحس الحيوان بالجوع ويبدأ فى تناول طعامه فإنه يختار من بين الحبيبات المختلفة الموجودة فى متناوله نوعاً خاصاً ، بينا ينبذ الآخر .

كذلك نجد المخلوق يتأثر بالضوء أو الحرارة ، وبملامسة أجسام أخرى سواء كانت حية أو ميتة .

هذه القوة الحيوية التى تستجيب للعوامل التى تؤثر فى أنسجة الحيوان هى ما ندعوه بالإحساس ...

هل الأعصاب ضرورية ؟ :

ويبتدئ هـذا الشعور بكل وضوح فى الحيوانات الراقية التى يوجد بها جهاز عصبى كامل ، ولكن لا يمكننا أن نقول إن وجود الأعصاب ضرورى لكى يحس الحيوان ...

النبات يحس :

وليس الإحساس مقصوراً على عالم الحيوان ، بل يتعداه إلى عالم النبات أيضاً . وما أكثر اللذة التى نحسها حين نلاحظ حركات ذلك النبات الذى يدعى باسم « ندى الشمس » أو « الدروزيرا » ، تلك الحركات التى تدلنا بكل وضوح على أن هذا النبات يحس ، وأنه قادر على أن ينقل المؤثرات إلى الأعضاء المختلفة فتتحرك استجابة لتلك العوامل الخارجية ...

ورقة « ندى الشمس » :

وإذا نحن فحصنا ورقة هـذا النبات ألفينا أنها تشبه فى شكلها صحن الفنجان ، ويوجـد على سطحها غدد قصيرة ، وتحف بمحيطها زوائد تنتهى كل منها بغدة — هـذه الغدد تفرز سائلاً لاصقاً يبدو على السطح على شكل نقط تقع فى ضوء الشمس كأنها نقط من الندى ، ومن هنا جاءت تسمية النبات باسم « ندى الشمس » ..!!.

غذاء غريب :

ويتغذى هـذا النبات على أجسام الحشرات التى تمسك بهذا السائل اللاصق الذى تفرزه الغدد على سطح الورقة ، وتمنعها من الهرب الزوائد التى توجد على الحافة والتى لها

الغالية على الحركة فتنحنى إلى الداخل حتى تحصر الحشرة وتسجنها. وهنا تنشط الغدد للعمل حتى تغرق الفريسة فى إفرازها فتختنق وتموت. وعندئذ تصب عليها رحيقاً حامضياً يهضم أنسجتها ولا يبقى إلا أن تمتصها خلايا الورقة ...

إحساس واستجابة للمؤثر :

من هذا نجد أن هناك إحساساً، وأن هناك نقلاً للمؤثر وأن هناك استجابة ... فالحشرة قد وقعت أسيرة فى قلب الورقة بهذا السائل اللاصق الذى تلمع نقطة فى الشمس كأنها الندى؛ وأحست بها الخلايا، وانتقل المؤثر إلى الزوائد الخارجية، فكأنها إشارة من اللاسلكى تقول: «أيتها الزوائد، أسرعى وانحنى إلى الداخل، وحاصرى هذه الفريسة التى أسرناها، والتى تجاهد للتخلص من ذل الأسر والعودة إلى حياة الحرية ...».

فإذا بالزوائد تستجيب للنداء، وتنحنى إلى الداخل وتحصر الحشرة قاطعة عليها سبيل الفرار ...

وإذا وقعت الحشرة على غدة فى نهاية إحدى الزوائد فإن هذه الزائدة تنحنى أيضاً حيث تنقل الحشرة إلى قلب الورقة ثم يتم ما رأيناه من قبل ...

الأعجب والأدهش :

ولكن أعجب وأدهش ما يلاحظ أن الحشرة إذا أسرت بالسائل اللاصق على سطح الورقة فى غير مركزها، فإن الإشارة التى تنقل تبين موضع الحشرة فتستجيب كل الزوائد القريبة وتتحرك تجاه موضع الحشرة فى دقة مدهشة ..!!.

ما هو السر ؟ :

هذا النقل للمؤثر من أعجب ما يمكن! لأننا لا نجد كما تبين لنا قوة إبصارنا أى عضو خاص بنقل المؤثر، وحقيقة أن التيارات التأثيرية يمكنها أن تنتقل بسهولة خلال عروق الورقة، ولكن فى هذه الحالة حين تتجه الزوائد فى دقة عجيبة تجاه نقطة معينة بالذات على سطح الورقة لا يمكننا أن نقول إن المؤثر قد انتقل خلال العروق .. لأنها قليلة العدد. وزد على ذلك أن التأثير يمكن أن يسرى بكل دقة وتستجيب الزوائد هذه الاستجابة العجيبة، وتتحرك حركتها الساحرة لو قطعنا خلال العروق ..!!.

ظاهرة أخرى عجيبة :

هذه القوة الهائلة على نقل المؤثر تظهر بكل وضوح فى ظاهرة أخرى عجيبة ...

لو وضعت قطعة من اللحم فى مركز الورقة، فإن الزوائد الخارجية كما قلنا من قبل تنحنى إلى الداخل، وفى النهاية تمس قطعة اللحم. ولكن الشىء العجيب أن الغدد فى نهاية الزوائد إذا اختبرت قبيل ملاصقتها لقطعة اللحم لوجد أنها مغطاة بإفراز حامضى، مما يدل على أن التأثير قد انتقل لا إلى الجزء القابل للحركة من الزوائد، بل أيضاً إلى الخلايا الإفرازية للغدد ..!!.

ما أشبهها بغدد اللعاب :

هذه الحالة شبيهة بحالة الغدد اللعابية فى فم الإنسان، فهى تفرز اللعاب فى حالة وضع الطعام فى الفم أو فقط بمجرد تحريك عضلات المضغ، وإن لم يكن هناك طعام لكى ينصب عليه الإفراز، تماماً كما تفرز غدد الدروزرا إفرازها الحامضى أثناء حركة الزوائد قبل أن يوجد أى طعام ليهضمه الإفراز، فكأنى بالزوائد يسيل لعابها حين ترى الطعام من على بعد قابعاً فى مركز الورقة قبل أن تلامسه ..!!

احساس فائق :

وإن لهذه الغدد التى توجد على أطراف الزوائد الخارجية قوة إحساسية هائلة، فقد وضع على إحداها قطعة متناهية فى القصر من شعرة إنسان لا يزيد طولها على جزء من المائة من البوصة، ووزن حوالى جزء من ثمانية آلاف من وزن الحبة. هذه الذرة من الشعر سببت حركة بينة واضحة فى الزائدة..!!

وإذا نحن دققنا فى هذا الأمر لألفينا أن تلك الذرة محوطة جزئيًا بنقطة الإفراز الغدى على طرف الزائدة، وعلى ذلك فلا مبالغة إذا قلنا إن الغدة يمكنها أن تحس وتشعر بوجود جسم لا يزيد وزنه على جزء من المليون من وزن الحبة ...!!

أقرب إلى حاسة الشم :

هذه الدرجة من الحساسية هى بلا شك فى غاية الغرابة. وإنها لتبدو لنا أقرب إلى حاسة الشم منها إلى حاسة اللمس، فإن هذه الذرات لا يمكن للساننا أن يحس بوجودها وهو أرهف عضو لامس لدينا ...

احساس آخر :

ولعل قوة الدروزرا على الشعور بوجود النشادر أكثر إبداعاً وروعة ، فإن محلولاً من فسفات الأمونيا فى الماء المقطر بنسبة جزء إلى مليون جزء من الماء سببت تغيراً فى شكل الزوائد ...!!

التمييز بين المؤثرات :

من هذه الحقائق أمكننا أن ندرك مدى القوة الإحساسية للنبات . ولكن هناك قوة أخرى رائعة وعجيبة أيضاً يتميز بها الدروزرا ، وهى قوة التمييز بين الأنواع المتباينة من المؤثرات . ويتبين هذا مما يلى ...

تبعاً لما لمسناه آنفاً من القوة الإحساسية الهائلة لزوائد الورقة ، لنا أن نتوقع أن أقل لمسة لها ينتج عنها الانحناء ، ولكن ليس هذا بصحيح... فلو لمست إحدى هذه الزوائد لمسة واحدة سريعة ، لمسة قد تكون من القوة بحيث تكفى لانثناء الزائدة بأكملها ، فإننا لا نلاحظ — برغم ذلك — تغيراً فى الشكل ...!!

ومعنى هذا واضح جلى ؛ ففى الجو العاصف لا بد وأن تتعرض تلك الغدد لمسات عديدة من أعواد الحشيش القريبة المتمايلة مع الريح ؛ وإنه ليكون مجهوداً ضائعاً أن تنحنى الزوائد ثم تعتدل لدى كل لمسة من هاته اللمسات . فهى لا تتأثر إلا بالضغط الدائم أو إذا لمست لمسات سريعة متلاحقة .. وهذا أيضاً واضح المعنى ، فحين تأسر حشرة بالسائل اللاصق الذى تفرزه الغدة فإن وجود الحشرة ينتج عنه ضغط متصل أو عدة ضربات للغدة الحساسة فتنحنى الزائدة .

ولو تمكنت الحشرة من الفرار بعد أول ضربة أو محاولة فإن الزائدة لن تنحنى كما قلنا ، وهكذا توفر على نفسها مجهود الانحناء ثم الاعتدال لغير ما فائدة تجنى ...

فما أبدع هــذا وما أروعه وما أجل عظمة الخالق البارىء المصور ..!!

•••

نبات آخر :

وهناك نبات مفترس آخر يدعى « ديونيا » قال عنه دارون إنه أعجب نبات فى العالم ... هذا النبات نجد تخصص حاسته عكس الحالة التى رأيناها فى « ندى الشمس » . فالأجزاء الحساسة لا تتأثر إذا وضعت فوقها باحتراس أجزاء ثقيلة نسبياً من شعرة إنسان ، فى حين أن أخف لمسة بخيط من القطن تسبب انحناء الورقة ...

جهاز الورقة :

وورقة هــذا النبات تتكون من فلقتين بينهما ما يشبه المفصلة على طول العرق الكبير الذى يمتد فى الوسط ، ولكل فلقة أسنان خشنة على حافتها ، كما توجد على السطح العلوى لكل منها ثلاث شعرات دقيقة حساسة تسمى « الشعرات القابضة » وهى للورقة بمثابة الزند للسلاح .

طريقة الاقتناص الصاعق :

والطريقة التى يقبض بها نبات « الديونيا » على فريسته هى طريقة الاقتناص الفاجىء أو الصاعق ، كما هو الحال فى مصيدة الفأر ؛ فليس هناك سائل لاصق لكى يمسك الحشرة حتى تنحنى الزوائد فى بطء وتعصر الحشرة كما هو الحال فى ندى الشمس ، بل إن الفرصة الوحيدة لدى النبات هى أن تقفل الورقة فى التو واللحظة لدى أخف لمسة ... فحين تمس أية حشرة إحدى الشعرات القابضة تنضم الفلقتان فى لمح البصر وتتداخل أسنانهما وتتماسك فيتعذر على الحشرة الهروب .. وعندئذ تهضم وتمتص ..

وهذا التخصص فى الإحساس فى نبات الديونيا ضرورى لكى يتمكن من أن يحصل على غذائه ويتم فى أحسن وجه قبضه على الفريسة ...

•••

وبعد إن هذه الأمثلة المتباينة على الحساسية وقوة التمييز بين المؤثرات بالرغم من عدم وجود أية أعضاء تشابه الأعضاء الحسية فى الحيوان ، يجعلنا نقول إن هذه الخاصية كخاصية الحركة موروثة فى المادة الحية ...

كما تزيد من إيماننا بعظمة الكون وعظمة الطبيعة وعظمة الله ..!!

جمال الدين محمد مرسى

القهوة مشروب عالمي (*)

ترجمة الأستاذ عبد الباري نعمت

إن تناول قدح من القهوة الساخنة ذات البخار المتصاعد هو ضرورة لا بد منها في وقت الإفطار لغالبية الأشخاص البالغين في الولايات المتحدة الأمريكية ، كما أن شرب عدد كبير من هذه الأقداح خلال النهار يزيد كثيراً من بهجة الحياة ومسراتها .

ولكي يستطاع تقديم الكميات الكبيرة اللازمة من هذا الشراب الشهي أصبح البن من أهم المنتجات اللازم توريدها إلى هذه البلاد ؛ وإن عملية استيراده وتجهيزه وبيعه لتخلق أعمالاً وتكون مصدراً لأرزاق مئات من الناس ، كما يشمل الأثر الاقتصادي الناشيء عن ذلك آلافاً آخرين .

وقد ظل البن ضمن المواد الست الأولى في قائمة واردات الولايات المتحدة مدى سنين عدة ، وما وافت سنة ١٩٤٧ حتى أصبح على رأس هذه القائمة ، وقد بلغت قيمته أكثر من ١٠ ٪ من قيمة جملة الواردات المقدرة بمبلغ ٠٠٠ ر٥٠٠ ر٦٤٨ ر٥ ريال ، وقد أتى وقت خلال السبع والأربعين سنة الأخيرة فاقت فيه قيمة الواردات من المطاط والحرير الخام والجلود والصوف قيمة الوارد من البن ، ومع ذلك فهو دائماً من ألزم واردات البلاد وأهمها شأناً .

ويقدم البن أساس التعامل مع كثير من ولايات أمريكا اللاتينية ، إذ يقدم العملة الأجنبية اللازمة لدفع قيمة صادرات الولايات المتحدة الأمريكية ، وتمثل قيمة صادراته بالنسبة لكثير من البلاد التي تنتجه أكثر من نصف القيمة الكلية لجميع الصادرات ؛ فهو بالنسبة لكولمبيا وسلفادور مثلاً يمثل ثلاثة أرباع القيمة الكلية لصادرات كل منهما ، وبالنسبة لكوستاريكا يمثل ثلثي القيمة ، في حين أنه بالنسبة للبرازيل وهي أكبر منتجيه يمثل ٣٥ ٪ فقط من القيمة الكلية للصادرات .

ولو أن النصف الغربي من الكرة الأرضية هو خير منتج للبن وخير مستهلك له في الوقت نفسه إلا أن شربه شائع أيضاً في مختلف أنحاء العالم الأخرى . وفي السنوات السابقة على الحرب الأخيرة ابتاعت دول أوربا الغربية كميات هائلة منه وفاق استهلاك الفرد الواحد في بلاد شبه جزيرة اسكندناوا استهلاك الفرد الواحد في الولايات المتحدة نفسها .

وموطن البن الأصلي هو بلاد الحبشة ، وربما كانت بلاد العرب هي ذلك الموطن ؛ وتخبرنا الأساطير أن تأثير البن عرف لأول مرة في بلاد العرب وكان ذلك وليد الصادفة ، فقد لاحظ أحد رعاة المعز أن المعز التي في رعايته بعد أن أكلت أوراق شجيرات البن وحبوبها بدا عليها المرح وأخذت تتواثب بهجة وسروراً ، مما حمل الراعي على تجربة ذلك فتعاطى الحبوب بنفسه .

وبدأ استعمال حبوب البن في بادىء الأمر كدواء ثم استعملت بعد ذلك كغذاء ، ثم لجأ الناس بعد ذلك إلى غليها لاستخراج شراب منها . ونشأ قلي البن أي تحميص حبوبه كما تخبرنا الأساطير أيضاً من محاولة العرب الاحتفاظ باحتكار زراعته ، فإنهم كانوا قبل تصدير حبوبه إلى الخارج يعمدون إلى معالجتها بالتسخين لقتل قوة إنباتها .

وسرعان ما صارت القهوة أي الشراب المستخرج من البن مشروباً مألوفاً في جميع الأقطار التي تتكلم العربية ، وما زال الأمر كذلك حتى اليوم ، ومن بلاد العرب انتقلت

(*) مقال بعنوان Caffee, A Popular World Beverage بقلم Kathryn H. Wylie في عدد نوفمبر سنة ١٩٤٨ من مجلة Foreign Agriculture, U.S.A.

حبوب البن إلى بلاد العالم أجمع وخصوصاً إلى بلدان أوربا ، وقد كان رجال الكنيسة في أوربا خير معين على نشر عادة تناول مشروب القهوة لما تحققوه من فائدته ، إذ لاحظوا فيه خاصية إبعاد النوم عن أجفانهم سواء عند نهوضهم البكر في الصباح أو أثناء سهراتهم المتأخرة في الليل لتأدية طقوس العبادة ؛ وما هل القرن السابع عشر حتى انتشرت المقاهي في جميع أنحاء أوربا وأضحت مراكز يتجمع الناس فيها للتحدث في شئونهم السياسية والاجتماعية ؛ وفي ذلك الوقت أرسلت إلى المستعمرات الجديدة بأمريكا الشمالية كميات قليلة من البن ، ومنذ سنة ١٧٧٣ حلت القهوة محل الشاي كمشروب شعبي بأمريكا .

يرد معظم إنتاج العالم من البن من بلاد نصف الكرة الغربي ، ولو أن شجيراته تنمو في كثير من البلاد الواقعة في حدود المنطقة التي تصل من خط عرض ٢٨ درجة شمالا إلى خط عرض ٣٨ درجة جنوبا ، وتشمل موطنه الأصلي أي الحبشة وبلاد العرب ؛ وتعد البرازيل في الوقت الحاضر أكبر البلاد المنتجة للبن ، وتليها في ذلك الشأن كولومبيا ؛ وقبل الحرب العالمية الثانية كانت جزائر الهند الشرقية الخاضعة لهولندا في ذلك الحين تلي كولومبيا في الترتيب ولكن توقفت صادراتها منذ سنة ١٩٤١ .

وبدأ البن يلعب دور محصول البرازيل الرئيسي في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، ولو أن شجيراته زرعت في بادئ الأمر بإقليم بارا (Para) إلا أن أحسن مراكز الإنتاج تقع في جنوب البلاد ، وتتركز على الخصوص في ولايات (Sao Paulo) و (Minas Gerais) و(Parana) و (Espirito Santo) و (Rio de Janeiro)

وقد زاد عدد أشجار البن زيادة مطردة منذ الخمسين سنة السابقة على سنة ١٩٣٤ ، وبلغت الزيادة ذروتها عندما وصل عدد الأشجار إلى ثلاثة بلايين شجرة (البليون = ألف مليون في أمريكا وفرنسا ومليون مليون في انجلترا) ولكن ما هلت سنة ١٩٤٦ حتى هبط عدد الأشجار إلى بليونين .

إن كمية المستهلك من البن قد زادت زيادة مستمرة سواء من ناحية جملة الاستهلاك عموماً أو من ناحية استهلاك الفرد الواحد طوال السنوات الأربعين الماضية ؛ ولستثنى من ذلك المدة التي مكثتها الحربان العالميتان الأخيرتان ، وكان أكبر نصيب للفرد من هذا الاستهلاك ببلاد المنطقة المعتدلة الشمالية حيث يكون الطقس عنيفاً في جزء كبير من السنة ، وتقع في حدود هذه المنطقة بلاد شبه جزيرة اسكندناوا وبلاد غربي أوربا وكذلك الولايات المتحدة .

وتعتبر الولايات المتحدة خير عميل لدول إنتاج البن ؛ فهي تستورد في بعض السنين ما يزيد على نصف الكمية المصدرة منه ، وكان يصل إليها قبل الحرب الأخيرة ٥٥٪ من صادرات البرازيل و ٧٧ ٪ من صادرات كولمبيا ، وقد ارتفعت هاتان النسبتان أثناء الحرب العالمية الثانية إلى ٨٣ ٪ و ٩٦ ٪ على التوالي ، وتأتي بلدان غرب أوربا في المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة ، وكانت ألمانيا وفرنسا وهولندا ومجموعة الدول الإسكندنافيه أكثر الدول استيراداً للبن قبل الحرب ، ولكن في أثنائها انسحبت ألمانيا من السوق كلية كما قلت الشحنات المرسلة إلى دول أوربا إلى أقل حد ، وبذلك صارت بعض جمهوريات أمريكا الجنوبية الوسطى أسواقاً مهمة .

وفي سنة ١٩٤٦ عادت أوربا إلى السوق ثانية وبلغ ما أرسلته إليها البرازيل أكثر من ١٩ ٪ من جملة صادراتها ، وكانت واردات البن إلى الولايات المتحدة في زيادة مطردة منذ سنة ١٨٥٠ ، وقد فاقت نسبة هذه الزيادة نسبة الزيادة في عدد السكان ، وكانت البرازيل هي المصدر الرئيسي إلى سوق الولايات المتحدة ؛ وفي سنة ١٨٠١ وهي السنة التي سجلت فيها أول شحنة من البن تدخل هذه البلاد بلغ وزن هذه الشحنة (٥٣٢ رطلا) ولكن وزن الشحنة قد بلغ الذروة في سنة ١٩٤٥ إذ وصل إلى ٥ر١ بليون رطل .

عبد الباري نعمت

محنـــــــة الامتحان

للأستاذ حسن محمد حسين

وأخيراً أراد الله وسمحت الظروف فأشرق علينا ذلك القلم الموهوب قلم الفيلسوف الأديب الدكتور زكي نجيب محمود، بإحدى مقالاته الشائقة بعد احتجاب دام حسين يوماً، امتكان فيها هذا القلم واستسلم للقدر المحتوم الذي لا مفر منه. لكن هذا القلم المحبوب قد جرى بما أثار في النفس شجوناً.

في مثل هذه الأيام من كل عام تجد أقلام مئات من زملاء الدكتور الفاضل في الجامعات المصرية، بل وأقلام آلاف من شركائه في مهنته الشريفة بمراحل التعليم الأخرى، تجد هذه الأقلام وتلك في سلسلة أعمال شاقة، من وضع امتحانات وطبعها، ثم تصحيح إجاباتها، وتقدير درجاتها، واستخراج نتائجها. تظل هذه الأقلام تعمل جاهدة على تسجيل وتنفيذ ما يدور في هذه الأدمغة الفنية المفكرة أسابيع طوالا، وهي في ذلك مطالبة بأعظم دقة وأقصى سرعة. مجهود شاق في عمل جدي أقل ما يوصف به أنه عنصر هام في تقرير مصاير شباب الأمة ومستقبل كل منهم، كما قد يوصف بأنه يقرر المستقبل القريب للأمة نفسها على يد قادتها وحكامها من هؤلاء الشبان أنفسهم بعد ربع قرن أو أقل قليلا أو أكثر قليلا.

يتأنى الأستاذ في وضع امتحان في مادته متقن غاية الإتقان لقياس مواهب الطالب وتحصيله في هذه الناحية. ثم يقوم الطالب بالإجابة على هذا الامتحان، فيتسلم الأستاذ إجابته ويسهر على تصحيحها تصحيحاً دقيقاً غاية الدقة، يخرج منه الطالب بدرجة معينة أو تقدير خاص. وهكذا الحال مع كل واحد من زملائه الأساتذة الآخرين، كل يعمل جاداً في ناحيته لتقدير مستوى الطالب في مادته. ثم تضم هذه التقديرات بعضها إلى بعض وفقاً لنظام خاص يتفاوت في الأماكن المتفاوتة، كما يختلف غالباً في الأزمنة المختلفة. يسفر هذا الضم عن تقدير عام للطالب، فإذا هو راسب أو ناجح. وللرسوب درجات مختلفة، كما أن للنجاح طبقات متباينة.

يخط الأستاذ على ورقة الطالب تقديراً يكون بمثابة حكم عليه. هذا الحكم، إن جاء في غير صالحه، قابل للاستئناف الذي ينظر ويصدر الحكم فيه بعد شهرين أو ثلاثة أشهر في امتحان الدور الثاني. وحكم الاستئناف، إن جاء مرة أخرى في غير صالح الطالب، أمكن نقضه بعد سنة دراسية أخرى.

ولكن هل هذا الأستاذ بعد كل هذا الإتقان في وضع الأسئلة وهذه الدقة في تصحيح الإجابات، هل هو راض كل الرضا، مرتاح كل الارتياح إلى حكمه النهائي؟ لا أظن ذلك!.

الامتحانات في الواقع كلها غموض في غموض. وقد لا أعدو الحقيقة إذا قلت إنها غامضة على الأستاذ مثلما هي غامضة على الطالب. فالأستاذ لا يدري شيئاً عن الظروف المتعددة التي تحكمت في إجابة الطالب بجانب استعداده الطبيعي ومدى تحصيله. فهو لا يعرف شيئاً عن صحة الطالب يوم الامتحان ولا قبله. وهو لا يعرف شيئاً عن الحالة النفسية للطالب يوم الامتحان أو قبله. وهو بالاختصار لا يعرف شيئاً عن هذه الأمور ولا الكثير من أمثالها مما له أثر كبير، من قريب أو من بعيد، على إجابة الطالب التي عليها يتوقف هذا الحكم الذي يصدر له أو عليه.

ألا يحدث كثيراً أن يرسب طالب كان الجميع يتوقعون نجاحه، أو ينجح آخر كان الكل ينتظرون رسوبه؟ وكثيراً ما يكون الأستاذ نفسه في الحالين بين المدهوشين

لهذه النتيجة . أيصح مع هذا أن يقال إن الامتحان مقياس عادل دقيق يعتمد عليه ؟ .

ثم إن الامتحان فيه غموض من ناحية أخرى هامة . فماذا يقصد الأستاذ عند ما يضع على ورقة الطالب ٧ — ضعيف ، أو ١٤ — جيد ، أو ١٩ — ممتاز ، وهي درجات مقدّرة من عشرين ؟ هل هو يعني بذلك أن الطالب الضعيف قد قام بتحصيل سبعة أجزاء فقط من عشرين جزءا مما قام الأستاذ بتدريسه لهم طول العام ، والطالب الجيد قد استوعب أربعة عشر جزءا من عشرين جزءا ، أي ضعف الطالب السابق ، والطالب الممتاز قد هضم مما درسه تسعة عشر جزءا ، أي أنه لم يفته أكثر من جزء واحد من عشرين جزءا من المنهج أي ما يعادل خمسة في المائة منه فقط ؟ أم هل يعني الأستاذ بتقديراته هذه أننا إذا قمنا بترتيب الطلبة في هذه المجموعة ترتيباً تصاعدياً من الضعيف إلى القوى ، فإن الطالب الضعيف الذى حصل على سبعة يكون ترتيبه بالنسبة إلى المجموعة السابع إن كان بالمجموعة عشرون طالباً ، أو الرابع عشر إن كان بها أربعون ، أو الخامس والثلاثون إن كان بها مائة . وهل هو يعني إذاً أن الطالب الممتاز الحاصل على تسع عشرة درجة لا يوجد في مجموعته من يفوقه في هذه المادة سوى خمسة في المائة منها ؟ هل الأستاذ يعني بتقديراته هذا أو ذاك أو شيئا آخر يختلف كل الاختلاف عن هذا وعن ذاك ؟.

أغلب الظن أن هذه التقديرات تعني شيئاً آخر قد لا يمت إلى هذا أو إلى ذاك بصلة من قريب أو من بعيد . إن الأستاذ عند ما يقوم بتصحيح الامتحان تكون في ذهنه إجابة نموذجية له بصورة صريحة أو متضمنة ، وهو يقيس إجابة كل طالب بهذه الإجابة النموذجية شعورياً أو لا شعورياً . فإن وافقتها تمام الموافقة حصل الطالب على الدرجة كاملة ، وإن وافقتها نصف موافقة بالضبط حصل الطالب على نصف الدرجة بالضبط ، وهكذا . فالامتحان لا يقيس مقدرة الطالب الحقيقية إلا على قدر تمثيله النقط الهامة بالمنهج وحسن إلمامه بها .

ليس هذا كل ما يمكن أن يقال عن الامتحانات ، بل هناك الكثير والكثير جداً . ومجمل هذا كله أن الامتحانات قليلة المزايا كثيرة العيوب . ولكن بالرغم من ذلك فإنه لا يمكننا الاستغناء عنها ، فهي حتى الآن الوسيلة الوحيدة لتقدير القيمة العلمية للطالب . وإلى أن نوفق إلى وسيلة أخرى لذلك تكون أقل عيوباً وأكثر مزايا ، علينا أن نبرر هذا الأسلوب العتيق ، أسلوب الامتحان . فإذا طعن في الامتحان بأنه يتأثر إلى حد كبير بعامل الحظ والصادفة ، فما أسهل أن نجيب : « وأى شأن من شئون الحياة لا يتأثر إلى حد كبير بعامل الحظ والصادفة ؟ » .

حسن محمد حسين

إبراهيم عبد القادر المـــــازني

— ٣ —

للأستاذ عبد السميع المصري

السخرية في أدبه .

يجرنا الحديث عن فلسفة المازني إلى بحث علاقة هذه الفلسفة بما شاع في كتاباته من سخرية ، وقد رأينا المازني برغم تشاؤمه حريصاً على الحياة ، وكان يود لو استطاع السيطرة على الحياة بطريقة الاكتفاء الذاتي التي انتهى إليها بفلسفته « ولكن كانت تحلو الحياة عندئذ لرجل كالمازني الذي ضاق ذرعاً بالحياة والأحياء حتى أصابه منهم اليأس وتفجر هذا اليأس سخرية وتنكراً للحياة ومن في الحياة وما في الحياة(1) » .

« وعلى الرغم من هذا التعلق بالحياة والنزوع إلى الاكتفاء بالذات لم يفلت المازني من أن يحس بهبوط هذه الحياة هبوطاً ذاتياً أيضاً عندما تتقدم بنا السنون وتخفف من عصير قلوبنا فقال : (متى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب له في عمره ، وأن ما تبقى من رحلته في هذه الدنيا أشبه بأن يكون وجوداً منه بأن يكون حياة — استمرار ومجرد اندفاع في الطريق الذي كانت تجرى فيه الحياة الأولى كما يجرى النازل من الترام خطوات إلى جانبه .. — عرف المرء أن أذنه التي كانت تملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذي كان يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طاح يخفق بلا احتفال ، ولا يخرج من دقه عن الانتظام ، وبدأت الآمال والرغائب التي كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها .. وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفر وتتساقط على اليد ويطيرها النسيم هنا وها هنا) » .

في هذه الفقرات يبلغ المازني من التشاؤم حداً لا يمكن تجاوزه ، وذلك لأنه تشاؤم من صميم الحياة ذاتها ، فلم تعله ظروف خارجية ولا أوضاع اجتماعية ولا دخل للغير فيه ، وإنما هي الحياة ذاتها تخبو بين أيدينا ونحن عاجزون عن أن نعود فنشعل ذبالها .. أو هي الحياة يرى المازني أنها صائرة إلى عدم بعد أن طوحت بآماله وملأت عمره آلاماً وأحزاناً ، فمن عسر في البدء إلى حب خائب منى به إلى فواجع متوالية أبرزها موت زوجه .

كل هذه العناصر تجتمع فتكون فلسفة المازني التي اتخذ السخرية سبيلاً لتعبير عنها ، وهي كما ترى عناصر بعضها مستمد من بيئة المازني وهي بيئة مصرية ، وبعضها مستمد من طبيعة الحياة في ذاتها ، وبعضها مما تأثر به في مطالعاته .

لقد انتهى المازني إلى السخرية من الحياة ومن في الحياة وما في الحياة(2) ولم يعد يؤمن بشيء فيها ، وامتدت تلك السخرية حتى شملت عصارة نفسه وجهد حياته ، فلم ير فيما يكتب غير حصاد هشيم وقبض ريح وملهاة أطفال .

لقد كان المازني يبدو متواضعاً في حياته ، لكنه في الواقع كان يلبس ثوباً مهلهلاً من التواضع يحاول أن يخفي وراءه كبرياءه وترفعه على الناس أو احتقاره الشامل للحياة وما فيها ومن فيها .

كان تواضعاً ينطق بإعجاب صاحبه بنفسه وبسموه على معدن الأحياء حوله حتى ليقول : « إن اللآلئ لا تذوب في الأوحال » وليس بعد هذا كبرياء بل قوة وشراسة .

ولذا كانت سخرية المازني تعبر عن ألم دفين وتنفس عن مرارة مكبوتة في نفسه ... إن هذا الذي يقول لقارئه : « أقسم إنك تشترى عصارة عقلي وإن كان فجاً ، وثمرة اطلاعي وهو واسع ، ومجهود أعصابي وهي سقيمة بأبخس الأثمان الخ ... واعلم أنه لا يعنيني رأيك فيه — الكتاب —

---

(1) ، (2) من بحث للدكتور محمد مندور في بلاغ ١٩٤٩/٨/٢٩ .

ولا يسوءني أن تبسط لسانك فيه ، إذ كنت أعرف عيوبه ومآخذه منك ، وما أخلقني بأن أضحك من العائبين ، وأن أخرج لهم لساني إذ أراهم لا يهتدون إلى ما يعيبون وإن كان تحت أنوفهم ... إني مستغن عن رضى النقاد والمتحذلقين عن كتابي هذا ، وقانع باستحسان أمثالي من الأوساط المتواضعين ، وهم بحمد الله كثيرون في هذا البلد الأمين ، بل أكثر مما يلزم لي » ... إن هذا الشخص الذي يقول هذا القول إنما يفصح عما يعتمل في نفسه من ثورة ومن آلام معركته اليائسة مع الحياة والأحياء ، ولذلك هو يسعى إلى الانتقام منهم بهذه السخرية اللاذعة المريرة .

إن السخرية — وقد كان المازني بارعاً في استخدام سلاحها — وهو سلاح أمضى[1] في يد الكاتب من كل الصرخات العاطفية ، لأن البكاء والولولة والنحيب أسلحة متلومة إلى جوارها تنفر القارئ بما تعرض من ضعف وبما تقحمه من مشاعر خاصة شخصية على مشاعر الناس .

بينما السخرية — وهي قلب للأوضاع وتحايل على المشاعر وتعبير بالإيحاء — تخفف من ثقل العاطفة الشخصية ، ويستطيع الكاتب بفضلها أن يلج رحاب النفس ، ويبلغ مأربه من قلب القارئ في غير عناء ... وهي بذلك تفضل الأسلوب التقريري العقلي أيضاً لانتفاء دعوى القدرة والسيطرة على عالم الفكر منها .

لكن للمازني في أيامه الأخيرة نحا نحواً جديداً من السخرية لا يغاير ما اعتدناه من سخريته كل المغايرة ، إنما يختلف عنه في ناحية واحدة أو في عاطفة جديدة لم تكن منعدمة في كتاباته السابقة ، إنما كانت في كتاباته الأخيرة أميل إلى الظهور وأوضح للقارئ ... تلك العاطفة هي عاطفة الرثاء للناس والإشفاق عليهم والحدب على آلامهم ! ووراء ذلك يبث للناس آراء جديدة في السخرية الأدبية بناها على أساس هذه العاطفة النبيلة « وأنا في العادة أوثر الاحتشام أمام الناس ، ولكني حين أكون بين إخواني وخاصتي أطلق لنفسي العنان ولا أبالي ما أقول أو أفعل ما دمت أريد أن أقوله أو أفعله ، ولو وسعني أن أملأ الدنيا سروراً وانبساطاً لفعلت فإني عظيم الرثاء للخلق ، وأحسب أن هذا تعليل ميلي للفكاهة ، فإني أتسلى بها وأنشد أن أدخل السرور على قلوب الناس ، لاعتقادي أن عند كل منهم ما يكفيه من دواعي الأسى ، وما دام في الوسع أن نعرض عليهم الناحية المشرقة الضاحكة فلماذا نغمهم ونحزنهم ... ثم إن للفكاهة مزية أخرى هي أنها من أقوى ما أعان على احتمال الحياة ومعاناة تكاليفها والنهوض بأعبائها الثقال ! فهي ليست هزلاً ولا تسلية فارغة ، وإنما هي تربية للنفس . والرجل الذي يلقى الحياة بابتسامة المدرك الفاهم — لا الأبله الغافل — خير وأصلح ألف مرة من الذي لا يزال يدير عينيه في جوانبها الحالكة ويندب ويبكي ويعول . ولو نفع السخط والغضب والبكاء لقلنا حسن ! فلماذا لا ننظر إلى الجانب الوضاء .. أو لماذا نعمى عنه وهو موجود ، أي لماذا نفقد القدرة على الاحتفاظ بالاتزان أو صحة الوزن[1] للأمور ؟ » .

وفي حديث آخر للمازني قبل وفاته بأيام قلائل ، وقد رفض رئيس تحرير المجلة أن يقبل منه رثاء المازني بقلم المازني يقول له : « كنت أريد أن أضع مثالاً جديداً في الرثاء ؛ فإن مديح الموتى أصبح عادة مملة ، والبكاء على الأموات في الصحف يذكرني بما يقوله النعابات في المآتم .. أريد أن نعود تسجيل أخطاء الموتى ونوادرهم .. أريد أن يبتسم الناس عندما يسمعون نبأ موتي .. إن حياتي كانت سلسلة من المآسي ، لكني يوم أموت أريد أن أسجل ابتسامة على شفاه قرائي .. إن الدموع تجف سريعاً ! ولكن الضحكة تعيش طويلاً » ! .

هذه سخرية المازني ، وهي سخرية ترفعه إلى مصاف كبار الكتاب العالميين ، لأنها صادرة عن فلسفة فيلسوف بصير بحقائق الحياة قدير على بلوغ أهدافه من نفوس قرائه .

ولا يسعني أن أختم هذا البحث قبل أن أشير إلى ميزة أخرى من ميزات المازني ، وهي ولعه في حياته الخاصة « بالمعاكسة البريئة » والدعابة اللطيفة ! ويروي لنا صديقه الأستاذ عباس العقاد هذه القصة عن الفقيد :

« كنا نقضي السهرة ذات ليلة في ناد كبير من أندية الموسيقى والغناء ، وطالت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل ، وكان

(١) بحث الدكتور محمد مندور في البلاغ .

(١) أخبار اليوم عدد ١٧ / ٩ / ٤٩ .

رحمه الله يبيت يومئذ بمنزل على مقربة من الإمام الليث ، ولم يكن خط الترام قد وصل إلى الإمام ، وقد كان الترام الذي يذهب إلى تلك الجهة ينقطع قبل ذلك الموعد على كل حال ... وودعته وهو يتفق مع حوذي ليوصله في مركبته — مركبة خيل — لأن السيارة لم تكن شائعة في تلك الأيام .

« وكان الجو ليلتها رائقاً والقمراء في أوائلها وسكون الهزيع الثاني من الليل يغري بالغناء ، ويظهر أن الحوذي حين رآنا نخرج من النادي الغنائي — قد بدا له أننا من هواة السمع فلا حرج عليه إذا طرب وأطرب ، وراح يتغنى بما شاء من الطقاطيق التي يهواها ، ولم ينس أن يعتذر إلى (زبونه) بعد أن رفع عقيرته بالغناء — (لا مؤاخذة ياسيدنا البيه .. إن محسوبك من هواة السمع وإنه ..)

« وقبل أن يمضي في الاعتذار بادره (الزبون) قائلا :

— خذ راحتك .. « أنا والله أحب أسايرك » .

« فلم يملك الحوذي نفسه من الطرب والارتياح لأن الجواب الذي سمعه جزء من « الطقطوقة » التي كان يغنيها ، وراح يغني تارة ويردد قصته التي بدأ فيها تارة أخرى ، وخلاصتها أنه كان — لهوايته السماع — يختار موقفه إلى جانب « تخوت الألاتية » ويسترق السمع بين لحظة وأخرى كلما استطاع الإفلات من رقابة البوليس .

« وانجلى الحوذي وخلا له الجو بعد باب السيدة عائشة ونسي البوليس والزبون ومضى كأنه في ليلة يود أن لاتنقضي به الطريق .

« وتدرك أخانا رحمه الله تلك الشقشقة التي لا تفارقه ، ويوحي إليه الموقف بالخاتمة الصالحة لهذا « الفصل الغنائي » الذي أقحمه الحوذي عليه فأفسد عليه في آخر الليل ما سمعه في أوله .. إن الطرب الفتجر قضى ساعة وهو يقول في الطقطوقة التي يغنيها « ما أشوف آخرتها معاك .. » فماذا لو كانت آخرتها أن يلتفت عند خاتمة المطاف فلا يجد الزبون

« خطر الخاطر فلحق به التنفيذ وخلت المركبة ، والطرب المشغول بغنائه لا يدري ، لأن خلو المركبة وامتلاءها بذلك الحمل الذي كان فيها يستويان(١) .

(١) كان المازني قصير القامة ناحل الجسم .

« والتفت الحوذي بعد أن طالت الرحلة ، ولم يستمع من الزبون صوتاً ولا أمراً بالوقوف .. فطار ما في دماغه من الغناء ، وامتلأ بكل ما وعاه في حياته من البذاء ... ولا حاجة بالقارىء إلى ترديد ما ألقاه من لسانه في ذلك الخلاء ، وليس من حوله أحد يجيبه أو يستدل به ، وغريمه الباحث عنه كان دليله الوحيد .

ويزورني الصديق في اليوم التالي فيسألني : « أتذكر شكل الحوذي الذي كنت معه بالأمس ؟؟ قلت : لا أظن أني أحقق شبهه ، فلماذا تسأل عنه ! هل فقدت شيئاً عنده ؟

قال ضاحكا : كلا ، ولكنه هو الذي فقد !

فلم أفهم شيئاً وسألته : وماذا فقد ؟ قال : فقدني أنا .. وقص علي تفصيل تلك القصة التي أجملتها هنا بعض الإجمال .

« انقضى إربه من المداكسة وجاء دور الرحمة بذلك المسكين ، فإذا هو مهموم بالبحث عنه لإعطائه أجره الذي خيل إليه أنه ضاع بغير أمل ، فقلت له إن حوذياً بهذه الصفة لا بد أن يكون معروفاً بين زملائه في موقفه وغير موقفه ، فهلم إلى الموقف نبحث عنه هناك .

« ولم يخطىء ظننا في جدوى البحث هناك ، لأن القصة كانت حديث زملائه وإن لم يكن هو بالموقف تلك اللحظة ، فأخبرناهم أين يجدنا إذا عاد ، ولم نلبث طويلا حتى أقبل الرجل يهرول وهو لا يصدق أن زملاءه قد صدقوا الخبر ، فلما رأى صاحبه بالأمس أقبل عليه متهللا وتناول منه ضعف الأجر الذي كان يطمع فيه وانصرف وهو يدعو له ويقسم « لاعدت إلى الغناء أبداً وأنا مركب » وإلا « فعلى روحي أنا الجاني » فقال له الصديق المرح « بل تغنى ما شئت ولكن تعطى وجهك للسميع »

وكان المازني رحمه الله ينقل الكثير إلى قرائه من هذه الدعابات البريئة والنوادر المستملحة في أسلوبه الساحر الذي يكشف عما يكمن وراءها من معان إنسانية .

مقارنة

لا يمكننا التحدث عن المازني دون أن نتم هذه المقارنة بين المازني والمازني أو بين المازني ونفسه ... المازني في

العشرة الثانية والثالثة وبعض الرابعة من القرن الحالى ، والمازنى فيما بعد حتى عام ١٩٤٩ .

لقـد كان المازنى فى أول عهده بالأدب والصحافة أديباً يعنى بمشكلات الحياة ويتعمق فى نظرته إليها ولا يكتفى بالقشور من الأمور ولا بالنظرة السطحية ، بل يحقق ويدقق ويتفلسف فيما يكتب ، وكان كما أسلفنا أستاذاً يعلم جيلا ويتزعم مدرسة من الأدباء والقراء ممن يتذوقون الأدب الحق ، وكان يوجه النشء الوجهة الصحيحة فى الحياة .

فهو فى كتاباته يعلج التراجم ويفرد كتاباً لابن الرومى وينصب نفسه للدفاع عنه وعن مذهبه فى الشعر ، وتراه فى حصاد الهشيم يحدثك عن المتنبى وعمر الخيام وماكس نورداو وشكسبير ؛ ومقاييس الفن والجمال والتصوف فى الأدب والشعر الوصفى والتصوير والطبيعة والخلود ، وكل وعر شائك من الموضوعات ، غير هياب ولا وجل ، ويبدى رأيه فى جرأة وصراحة ، ويتقبل نتائج كتاباته فى اطمئنان الواثق بنفسه المعتد برأيه .

لكنه فى الأعوام الأخيرة من حياته ترخص فى كتاباته ومال إلى إرضاء الجماهير ، فطرق المواضيع السهلة وكتب فى التافه من الأمور وكتب كثيراً وأجاد قليلا حتى قال مخاطباً صديقاً له من النقاد : « ستقول إن المازنى كان بالأمس خيراً منه اليوم وإنه ترك زمرة الأدباء وانضم إلى زمرة الصحفيين، وإنه يكتب فى كل مكان ويكتب فى كل شىء حتى أصبح تاجر مقالات تهمه ملاحقة السوق أكثر مما تهمه جودة البضاعة ، أليس كذلك ؟ ... ولكن لا تنس أن الأديب فى بلدكم مجبر على أن يسلك هذا السبيل ليكسب عيشه وعيش أولاده وليستطيع أن يحيا حياة كريمة تشعره بأنه إنسان[1] .. »

وحقاً كان للمازنى صاحب عيال ورب أسرة ، عليه أن يدبر أمرها ويحفظ لها عيشاً كريماً . وقد أيده الدكتور أحمد بك أمين فيما ذهب إليه فقال : « لذلك كان المازنى مضطراً دائماً أن يكتب ليعيش ويعيش أسرته .. يعانى المرض ويعانى الألم ويحس الحاجة القصوى إلى الراحة ، ولكن أنى[2] له الراحة والعيشة لا ترحم والحكومة لا ترحم والأغنياء لا يرحمون ؛ وتتدفق الأموال على الراقصة الخليعة والمغنى المهرج ويعيش الأديب عيشة سوداء تكبر قلبه ومن مجرى ضيق كشق قلمه » .

وهكذا كان المازنى مضطراً لأن يستجيب لرغبات الجماهير ويترك فنه الأصيل إلى ميدان آخر ...

أو هكذا تعود بنا هـذه المقارنة إلى علة العلل الكامنة وراء فلسفة المازنى الساخرة وتشاؤمه المرير .. ألا وهى الصراع العنيف الدائم ، والمعركة التى استمرت العمر كله بينه وبين الحياة ، حتى إنه اضطر ذات يوم إلى بيع مكتبته ليدفع عن نفسه الحاجة ، ومكتبة الأديب لو تعلمون أعز ما عنده فى الوجود .

أعماله

إنه أمر مؤسف حقاً ، ألا تهيأ الأسباب لأديب فذ كالمازنى حتى يتفرغ لأداء رسالته بدلاً من استغلال مواهبه فى هـذا العمل الصحفى العاجل الفانى الذى يستجيب لوحى الساعة وضرورات المناسبة .

ولو تيسرت موارد العيش للمازنى واستطاع أن يتفرغ للتأليف الذى يريده لأمتع الناس بالعجب العجاب فى هذا الباب ، ولظفر العالم العربى بثروة المازنى كلها ، وما أنفسها وأجلها !

ومما كتب المازنى : إبراهيم الكاتب ، إبراهيم الثانى ، قبض الريح ، الديوان ، رحلة الحجاز ، صندوق الدنيا ، فى الطريق ، خيوط العنكبوت ، بشار بن برد ، ع المائى ، مختارات من القصص الانجليزى ، عود على بدء ، السياسة المصرية والانقلاب الدستورى ، أقاصيص ، ثلاثة رجال وامرأة ، من النافذة .

وغير ذلك كثير . فما أحرانا بعد أن أضعنا من هذا الكنز ماضيعنا — وهو بيننا — أن نعلم كيف نصون ما أبقاه لنا ، وأن نجمع ما لم يطبع من كتابات المازنى ، وأن ننشره ضناً به على الضياع وحرصاً على تراث من آبائنا العربية من الفناء .

عبد السميع المصرى

(١) العدد ٨١٢ من الرسالة .

(٢) العدد ٥٥٥ من الثقافة .

صور خاطفة لشخصيات لامعة

لديل كارنيجي

ترجمة الأديب حسين أحمد أمين

— ٤ —

غاندى

يجلس الرجل الضئيل الأسمر بثوبه الأبيض على حصير صغير بسيط الصنع ، ويرفض أن يتناول طعامه حتى تجاب مطالبه أو يموت ، فإذا العالم يهتز وإذا الصحف تنشر الخبر فى صفحاتها الأولى وتعنى بتفاصيل القصة .

ذلك لأن المهاتما غاندى من أبرز القادة فى عصرنا الحديث .

فأما بالنظر إلى ماله فغاندى رجل فقير ، إذا بيع ما لديه من متاع لم تحصل على أكثر من ثلاثة جنيهات . ومع ذلك فهو أقوى من جميع أصحاب الملايين الذين تقلهم الأرض .

وأما بالنظر إلى بنيته فغاندى رجل ضعيف ، يرفض أن يلجأ إلى القوة أو العنف ، ومع ذلك فتعاليمه وتأثيره الروحى أقوى وأشد أثرا من مئات البوارج .

إن شخصا من كل ستة أشخاص فى هذا العالم يعيش بالهند ، وقد عاش الأهالى هناك قرونا طويلة غافلين نائمين ، إلى أن أتى هـذا الرجل الضئيل الضعيف الذى يزن أقل من مائة رطل ، فأيقظ مواطنيه وبث فيهم الروح وأشعرهم بما فى إمكانهم القيام به من جليل الأعمال .

لقد ترك من الأثر ما سيخلده له التاريخ أبد الدهر .

وثمة أشياء غريبة كثيرة عن هذا الرجل . فأسنانه صناعية يحملها معه فى كيس بثوبه الكتانى ولا يضعها فى فمه إلا عندما يجلس ليأكل . حتى إذا ما فرغ من طعامه أخرجها من فمه وغسلها ثم أعادها إلى كيسه من جديد .

وهو يتكلم الإنجليزية بلكنة إيرلندية فقد كان أحد مدرسيه إيرلنديا . وهو لا يلبس إلا هذا الثوب الكتانى البسيط . أما عندما كان يعيش فى إنجلترا فقــد كان يلبس قبعة من حرير وبذلة ويحمل عصاه .

لقد تعلم فى جامعة لندن وتخرج فيها وكيلا للنيابة ، وعندما ألقى مرافعته لأول مرة ارتعشت ركبتاه وغاض قلبه من الخوف حتى اضطر إلى الجلوس مضطربا مهزوما .

ولما اشتغل بالمحاماة فى لندن لم يلجأ إليه أحد ولاقى خيبة أليمة .

وكان أول ما حفظه بالإنجليزية على يد أستاذه الإيرلندى آية من الإنجيل كان يرددها كثيرا ليجاد نطقها . ونصها :

« اللهم بارك الودعاء الطيبين . إنهم سيرثون الأرض .. اللهم بارك دعاة السلام . إنهم أبناء الله » .

ما كان أعظم أثر هذه القطعة على نفس هذا الرجل .

وأرسل إلى جنوب أفريقيا ليقاضى هناك بديون جسيمة ، وقد حاول أن يطبق هذه الآية فى هـذه البقعة من الأرض ، فنجح والتف حوله الناس وأحبوه ، لأنه فض منازعاتهم بطرقه السلمية ، فلم تعد بهم حاجة للالتجاء إلى القضاء ووفروا الوقت والمال .. وبذلك كان يحصل غاندى على ثلاثة آلاف دولار كل العام ، وبدأ الودعاء الطيبون يرثون الأرض .

ولكن ، أكان سعيدا ؟ لا .. لأنه يعلم أن الملايين من مواطنيه يعيشون فى شقاء وتعاسة .. وقد شاهد الآلاف منهم يموتون من الجوع ، وبدا لعينيه أن النجاح الدنيوى

رخيص ثاه ، فتخلى عن ماله وفضل الفقر ووهب حياته لخدمة الفقراء والمضطهدين .

ونصح غاندى الهنود أن يكفوا عن النسل عندما رأى عشر سكان الهند يتضورون جوعاً . أليس من الأفضل ألا يخرج إلى هذا العالم قوم جدد ليتذوقوا الحاجة والحرمان ؟ .

وقد أجرى غاندى تجارب كثيرة لمعرفة الحد الأدنى للنفقة مع حياته حياة صحية .. فأصبح يعيش على الفاكهة ولبن المعز وزيت الزيتون .

وقد تأثر غاندى بتعاليم أحد الفلاسفة الأمريكيين ، ويدعى دافيد ثورو . وقد تخرج ثورو هذا فى جامعة هارفارد منذ مائة عام ، وأنفق مالاً كثيراً فى بناء كابين له على شاطئ والدن بوند فى ماساشوسيت . وعاش هناك متنسكاً زاهداً ، ورفض أن يدفع الضرائب ، فطورد وعومل بقسوة .. وأصدر حينذاك كتاباً حرض فيه المواطنين على العصيان وعدم دفع الضرائب ، ولكن الناس لم يأبهوا له . وبعد خمسة وسبعين عاماً قرأ غاندى كتابه فصمم أن يتبع تعاليم ثورو فى الهند . ولما وجد أن انجلترا لم تف بوعدها ولم تمنح الهند استقلالاً ذاتياً حرض الهنود — لكى يعاقب انجلترا — على عدم دفع الضرائب ، مفضلاً لهم السجن ، وطلب من مواطنيه أن يقاطعوا البضائع الإنجليزية . ولما فرضت انجلترا ضريبة على الملح لجأ غاندى وأتباعه إلى البحر يستخرجون منه الملح اللازم لهم .

وفى الهند وجد غاندى ستين مليوناً يعدون — حسب الدين الهندوسى — من المنبوذين . فما معنى ذلك ؟ فلنفرض أنك تعيش فى الهند ، وأن أجدادك عدوا منذ ألفين من السنين من المنبوذين حسب الدين الهندوسى . معنى ذلك أنك تصبح اليوم أيضاً من المنبوذين . وعلى روحك أن تكفر عن خطايا أجدادك الذين ارتكبوها منذ عهد بعيد ، ويحرم عليك أن تشرب من الماء الذى يخرج من بئر القرية ، فإذا أردت أن تشرب فعليك أن تلتمس ماء قذراً من ترعة مهجورة بعيدة عن العمران ، ويرمقك الناس باشمئزاز وكراهية ، حتى إنك لا تجرؤ أن تدخل متجراً لشراء حاجاتك ، فعليك أن تمكث خارج المتجر حتى يقذفوا لك بما تريد .

وليس بإمكانك أن تلجأ إلى القضاء أو تدخل مدرسة أو تسير فى مدى خمسمائة قدم من الطريق العام ، وإذا مس ظلك بطعام اعتبر غير صالح للأكل وأتلف .

تذكر أن بالهند ستين مليوناً من هؤلاء ، يعيشون اليوم حياة مؤلمة قاسية هى من أكبر المآسى التى يواجهها عصرنا الحديث . وقد خصص غاندى حياته يحارب فى سبيل استعادة حقوقهم ، فتبنى إحدى الفتيات المنبوذات ورباها كابنته .

اللاجئين تنظر إلى المهاتما غاندى كقديس ، ويعتقد البعض أن روح أحد الآلهة الهندوس قد حلت به ..

فى ذلك العالم الذى تشبع جوه بالحقد والشره والأنانية عاش ذلك الرجل الذى لا يريد شيئاً لنفسه ، والذى ضحى بحياته كى يكفل للآخرين الحياة .

حسين أحمد أمين



الندم أو الذباب لچان بول سارتر

ترجمة الدكتور محمد القصاص

للدكتور شوقي ضيف

تشيع في فرنسا اليوم فلسفة جديدة في الفكر والحياة هي الفلسفة الوجودية ، وچان بول سارتر أهم دعاتها حتى ليطلق خصومه عليه وعلى أنصاره اسم « اتحاد شركات سارتر وأصحابه » ؛ فقد دأب على الدعوة لها في مجلته « الصور الحديثة » وفي رواياته ومسرحياته ، وعلى رأسها مسرحية الندم أو الذباب التي ترجمها زميلنا الفاضل الدكتور محمد القصاص ، حتى يطلع قراء العربية على حقيقة هذه الفلسفة ، ولعل ذلك ما جعله يقدم لها بمقدمة طويلة حاول فيها أن يرسم الخطوط الأساسية لفلسفة سارتر الوجودية .

وهي خطوط يبدؤها بما تزعمه الوجودية من أن الوجود متقدم على الماهية ، فنحن نوجد أولاً ، ثم توجد ماهيتنا ، أو بعبارة أدق : نحن نوجد ، ثم نصنع ماهيتنا ، نصنعها بإرادتنا ؛ فكل منا يكتشف حياته حسب مشيئته ، ولا شيء يسيطر عليه في هذه المشيئة ، أو قل لا شيء يعطلها له من هذه الأوهام التي تسمى تأثيرات طبيعية أو اجتماعية . وحتى ماضي الإنسان نفسه لا يسيطر عليه منه شيء إلا ما يريد هو ، فهو الذي يحكم نفسه بنفسه ، وهو الذي يوجه نفسه لما يريده في مستقبله .

وهذا الخط الكبير من خطوط الوجودية عند سارتر ينتهي بنا إلى الخط الثاني ، وهو الخط الذي يدعمه بكل ما يستطيع من قوة ، ونقصد خط الحرية . فكل منا حر في تقرير مستقبله ومصيره ، إذ كل منا يستطيع أن يحيا كما يريد غير متأثر بأي نوع من أنواع الجبر المزعومة أو الموهومة ، مما يسمونه تارة مؤثرات طبيعية ، وتارة أخرى مؤثرات علمية أو فنية أو سياسية أو خلقية .

الإنسان حر أو ينبغي أن يكون حراً أوسع ما تكون الحرية ، فهو الذي يصنع ماهيته ، وهو الذي يوجدها على النحو الذي يريده غير متقيد بأوضاع ولا بقيم سابقة ؛ فالحياة ليس فيها جبر ، لا من بيئة ، ولا من تربية ، ولا من أشياء ماضية ، أو ما يسمونه التاريخ ، إنما فيها الإنسان الحر الذي يسوي نفسه في الصورة التي تبتغيها مشيئته وإرادته .

وليس معنى ذلك أن سارتر يلغي الوجود الجماعي البتة ، ويميله إلى فردية خالصة ، فهو يرى أن كلاً منا في وجوده الفردي يكتشف وجود الآخرين ، عن طريق هذا التشابك أو التلاصق في الذاتية أو الوجود بين الفرد وغيره من الأفراد .

وما زال فى هذه الأفكار التى يسوقها الدكتور القصاص حتى تنتهى إلى المسرحية ، وهى تقع فى ثلاثة فصول بث فيها سارتر فلسفته الوجودية . وقد دارت هذه الفصول فى أرجوس حيث نجد أهلها وملكهم وملكتهم يخطئون ، أو قل يغرقون فى الفساد ؛ فقد قتلوا الملك الظافر «أجاممنون» وارتضوا قاتله ملكاً عليهم تشاطره زوجة أجاممنون الخائنة . وكان لأجاممنون ابن منها هو أورست بطل المسرحية ، وكان حين قتل أبوه لا يزال فى المهد صبياً ، فأصدر زوج أمه أمراً بقتله ، ولكن الذين حملوه ليقتلوه أشفقوا عليه ، فطرحوه فى غابة ، والتقطه نفر من أعيان أثينا ، فرعوه أجمل رعاية ، وربوه خير تربية .

وتفتح أصول الرواية على منظر فى أرجوس حيث تمثال جوبيتر إله الذباب والموت ، ونرى نساء عجائز أثيان فى مسوح سوداء ، وفى أيديهن زقاق الخمر ، ليرقنها أمام التمثال ، ويدخل أورست ومربيه وجوبيتر . ويدور الحوار أولاً بين أورست ومربيه ، ثم بين أورست وجوبيتر ، ويطلع أورست على ما كان من خيانة أمه وزوجها الجديد ، وما غرقت فيه أرجوس من إثم وفساد ، ويتغير المنظر ، فإذا أخته إليكترا ، فيتحاوران ، وتعلن إليه فى حوارها ما تصب عليها أمها وزوجها من أسواط العذاب ، فهى تعمل لها خادماً مهينة . ويقول لها : إنه أخوها فلا تصدق ، لأنه لا يتقدم لتخليصها مما هى فيه ، ورد حريتها إليها ، وتسأله عن البلدة التى أقبل منها ، فيقول لها : إنها لا تعرف إلا المرح والغناء . وما زال يحاورها حتى يتضح له طريقه فيقتل أمه وزوجها ، ويحرر أخته والبلدة من القيود الثقيلة التى رزحا تحت أعبائها .

وأثناء هذه الفصول والمناظر المتعاقبة يبث سارتر آراءه الوجودية ، فهذا إيجست الملك يعلن فى حوار له مع جوبيتر أنه يصدر فى عمله عن مشيئته هو ، لا عن مشيئة جوبيتر ، يقول ص ١٠٧ : « منذ أن ملكت وكل أعمالى وكل كلماتى لا وجهة لها إلا تصوير صورتى ، أريد من كل واحد من رعاياى أن يحملها فى نفسه ، وأن يحس حتى فى وحدته نظراتى القاسية تنوء بأخفى أفكاره . ولكنى كنت أول الضحايا ، فأصبحت لا أرانى إلا كما يرونى ، وأطل على البئر الفاغرة التى تكن أرواحهم وأرى صورتى فى أقصى القاع ، فتقززنى بقدر ما تأخذ بلبى .. وهل أكون إلا هذا الرعب الذى فى قلوب الآخرين منى » .

وواضح أن إيجست ينكر الإيمان إلا بنفسه ، إذ يعلن أنه هو الذى صنع ماهيته أو صورته ، وأنه حملها من حوله من رعيته . ولم يلبث أن أصبح أول الضحايا عن طريق التشابك أو التلاصق فى الذاتية والشركة بينه وبين غيره فى الوجود ، فلم يعد إلا هذا الرعب الذى فى قلوب رعيته منه .

ثم هذا أورست بطل المسرحية يعلن فى غير موضع حريته وأنه جنى ما جنى حراً مختاراً ، إذ وجد نفسه أو وجد ماهيته ، يقول ص ١١٦ : « لقد فعلت فعلى يا إليكترا وهو فعل حسن سأحمله على كاهلى كما يحمل المسافرون عابر الماء ، وسأعبر به إلى الشط الآخر لأقدم عنه الحساب ، وكلما ثقل على حمله قرت به عيناى لأنه هو حريتى ، وحريتى ليست شيئاً سواه . بالأمس فقط كنت أهيم على وجهى ترجيني المصادفة المحضة ، وكانت آلاف الطرق تفر من تحت قدمى لأنها ملك لغيرى ، استعرتها جميعاً من طريق ساحبى السفن ، تلك الطريق التى تسير محاذية النهر إلى طريق البغالين إلى الطريق المرصوفة ، طريق سائقى المركبات . ولكن لم تكن لى واحدة من بينها ، واليوم ليس أمامى إلا طريق واحدة ، لا يعلم غايتها إلا الله ولكنها طريقى » .

وهكذا يطبق سارتر على أورست آراءه فى الحرية ، كما يطبق عليه نكرانه للجبرية فى أى صورة من صورها ، فقد نشأ بعيداً عن أرجوس ، ولكن لم ينفعه بعده ولا تربيته التى ترباها ، أو قل لم يحولاه عن قتل أمه وزوجها لكى يحرر أخته وأهل أرجوس ؛ فالإنسان حر وهو يريد الحرية لغيره ،

وليس هناك شيء يحول بينه وبين ذلك ، لا من بيئة ولا من ثقافة ولا من أي ظروف أخرى . وقد انتهى أورست إلى ما انتهى إليه من هذا المصير الذي أراده أثناء تشابكه الفاني أو تلاصقه الوجودي مع أخته .

وعلى هذه الشاكلة يكتب سارتر مسرحيات لكي ينشر آراءه ، وهي لا شك آراء فيها كثير من الغموض وفيها أيضاً كثير من المخالفة للحقائق المعروفة ، فهو ينكر كل تأثير خارج عن الإنسان في توجيه وتكوين مصيره . سواء أكان هذا التأثير من الطبيعة أو من المجتمع أو من التاريخ ؟ فلا شيء يصنع الإنسان ، إنما هو الذي يصنع نفسه أو يصنع ماهيته غير متأثر بعلة من العلل أو سبب من الأسباب .

وهذا تطرف في الرأي . فإننا لو درسنا شخصاً في يوم من الأيام لرأيناه يتأثر بمؤثرات كثيرة بعضها تافه وبعضها حاد قوي . فصياغة الإنسان لنفسه نظرية أو فلسفة مبالغ فيها . ولندع فلسفة سارتر إلى المسرحية نفسها لنحكم عليها من الوجهة الفنية ، ورأيي لا أتردد في القول بأن من يقرؤها يشعر أنه ليس لها نهاية محدودة ، إذ تسعى إلى رسم مواقف وأفكار دون رسم شخصيات . وأعترف بأني لم أشعر أثناء قراءتها لا بفرح ولا بحزن ، لأني كنت أقرأ عقلا سرفاً له آراؤه لا قلباً له عواطفه .

ومهما يكن فنحن نشكر الدكتور القصاص على ما بذل في شرح آراء سارتر وترجمة مسرحيته من عناء ، ونثني على هذا الجهد الخصب الموفق ، ولنا أمل وطيد في أن يتحف قراء العربية بترجمة الآثار الأخرى لكاتب الوجودية الأكبر ، حتى تتضح آفاق هذه الفلسفة الجديدة من جميع جوانبها .

شوقي ضيف



حكايات صغيرة

للأستاذ حسن فتحي خليل

المساواة :

هاجمت سمكة كبيرة أخرى صغيرة وأرادت ابتلاعها ، فصرخت الصغيرة قائلة : إن هذا ظلم بيّن ، فأنا بدوري أرغب في الحياة ، وكل السمك سواء أمام القانون . فأجابتها السمكة الكبيرة : هوّن الأمر على نفسك فإني لن أجادلك بشأن مساواتنا ، ولكن إذا رفضت أن ألتهمك أنا ، فلتتفضل أنت بابتلاعي إذا أمكنك ذلك .. هيا التهميني ولا تخافي .

فتحت السمكة الصغيرة فمها على سعته محاولة أن تدخل فيه السمكة الكبيرة عبثا . وأخيرا ندت عنها زفرة حارة وقالت : لقد ربحت المعركة .. ابتلعيني .

(فيدور سولوجب)

ميعاد في سمرقند :

قال الموت : كان هناك تاجر يقيم في بغداد أرسل خادمه يوما إلى السوق ليشتري له بعض حاجاته ، ولكن سرعان ما عاد إليه الخادم وهو يلهث ، حائل اللون ، يرتعش فرقا ، وقال : ياسيدي .. لقد حدث الآن فقط حينما كنت أطوف في السوق أن صدمتني امرأة وسط الزحام ، فالتفت إليها وإذا بي أجد أن الموت هو الذي صدمني .. فرمقني بنظرة نارية وهددني بإشارة منه ، وإني لأرجو منك الآن أن تعطيني جوادك لأهرب به من المدينة وأتفادى مصيري .. وسأذهب إلى سمرقند حيث لن يعثر علي الموت .

فأعطاه التاجر حصانه واعتلى الخادم صهوته وسرعان ماوخزه بركابه فانطلق الجواد يعدو في أقصى سرعة .

ثم ذهب التاجر بعدئذ إلى السوق فرآني واقفا وسط الزحام فبادرني قائلا : لماذا هددت خادمي حينما رأيته اليوم ؟

فقلت : لم يكن ذلك مني تهديدا .. ولكنها كانت مفاجأة لي .. فلقد عرتني الدهشة حين رأيته في بغداد .. لأني على موعد معه هذا المساء في سمرقند !

(سومرست موم)

اعتذار :

جاء إلى أحد الكتاب الأنجليز — وكان يتفاوض في ترجمة أحد كتبه إلى اللغة اليابانية — الخطاب التالي من إحدى دور النشر في طوكيو :

« قرأنا كتابكم في سرور نعجز عن وصفه ، ونقسم لكم بذكرى أجدادنا المقدسين أنه لم يسبق لنا من قبل أن سنحت لنا مثل هذه الفرصة النادرة لقراءة مثل هذه الطرفة الأدبية ! فإذا ما تولينا نشر كتابكم هذا ، فإن جلالة الامبراطور سيصر على أن يكون مثالا يحتذى لكل ما نقوم بنشره ، ولن يسمح لنا جلالته بنشر أي كتاب أقل شأنا

من كتابكم ، وعلى هذا فلن نتمكن من متابعة عملنا إلا بعد مرور عشرة آلاف سنة . لهذا تجدونا مكرهين لأن نرفض عملكم الأدبي القيم ، ويداخلنا الخوف في نفس الوقت مما ستتعرض له في الأجيال القادمة من الحكم القاسي لإقدامنا على مثل هذه الجناية الأدبية » .

ولعل هذا الاعتذار يقبله بطبيعة الحال أدق الكتاب شعوراً بمنتهى السرور .

ضراعة :

تسلم حاكم إحدى المقاطعات في نيجيريا الخطاب التالي من أحد أهالي أفريقيا الغربية :

« سيدي الرحيم :

حين تفتح خطابي هذا ستعرف أنه من شخص هو رب لعائلة كبيرة تتكون من زوجات كثيرات وأولاد عديدين ، فصله سيدي بنفسه من عمله .

وإنى لأرجو منك يا سيدي بحق السماء أن تتخيل الكارثة وقد وقعت على رأسك أنت ، وتصور أنك عائد في نهاية الشهر إلى خمس زوجات متوحشات وستة عشر طفلاً نهمين شرهين وجيبك خالٍ .. فإنك حتماً ستشفق على حالى .

وإنه لمن العجيب أن يتهمني سيدي بالتهاون والكسل ويفصلني من أجل ذلك ، بينما الحقيقة هي أن شخصاً مثلي أنجب ستة عشر طفلاً إلى هذا العالم المملوء بالدموع لا يمكن أن يحتوى جسده الفانى على ذرة واحدة من ذرات الكسل ، وإن فقدى المفاجئ لأحد عشر جنيهاً شهرياً ليتركني على حافة اليأس والعوز .

وإنى لأرجو مخلصاً أن تتراءى حالتي الزرية هذه إلى سيدي في أحلامه هذه الليلة ، وأن تذيب الملائكة جلود قلبه فيستيقظ مسرور القلب منشرح الصدر طيب النفس ليعيدنى إلى عملى .. آمين » .

وما رأى القراء ؟ أيعيده الحاكم إلى عمله بعد قراءته لهذا الخطاب ؟.

معرفة قديمة :

كان المغنى التينور المشهور كاروزو يحب دائماً أن يحكى هذه القصة :

فقد حدث يوماً أن كسرت سيارته حينما كان يخترق بها إحدى القرى ، فتقدم فلاح لمساعدته ودعاه لتناول الغداء معه في منزله لحين الانتهاء من إصلاح السيارة . وأراد كاروزو أن يرد هذا الجميل فتنازل وغنى له . فلما سأله الفلاح عن اسمه أجابه في خيلاء « كاروزو » .

فدهش الفلاح وقال : تصور هذا .. فلطالما قرأت عنك !

فقال كاروزو في ابتسامة والسرور يملأ فؤاده : « حقاً ! » .

فأجابه الفلاح : طبعاً .. ومن ذا الذي يتصور أنك قد غنيت لي هنا في مطبخي ! .. أنت الرحالة المشهور .. روبنسن كروزو ! .

دفاع :

حينما كان ابراهام لنكولن ما زال محامياً صغيراً حدث أن ترافع في قضيتين في نفس اليوم وأمام نفس القاضي . وكان محور القضيتين يدور حول مادة واحدة من مواد القانون ، ولكنه كان في إحداهما في جانب المدعى عليه وفي الأخرى في جانب المدعى .

وفي الصباح كانت مرافعة موفقة فكسب القضية الأولى ، أما بعد الظهر فقد اتخذ الجانب العكسي وكان يناقش بنفس الحرارة ، فسأله القاضي وهو يبتسم عن سر تغير موقفه ؛ فأجابه لنكولن : « يا صاحب السعادة .. لربما كنت مخطئاً هذا الصباح .. ولكنى أعرف أنى على حق الآن ! » .

عيسى فتحي خليل

من صلوات الشاعر الغريب :

خلود ...

لئن جحدوا قدرى فما جحدوا شعرى
وإن سخروا باسمى فما وأدوا ذكرى
وما ذا تنال السحب من وجنة السما ؟
وما تنقص الأفواه من لجة البحر ...؟
لسوف يطلُّ الصبحُ من شرفة الدجى
وتحترق الظلماء فى موقد الفجر ...
وتهلُّ روحُ الكون من لحنٍ مهجتى
فيرقص نشوانُ العواطف من خمرى
وتشجى فؤادَ العالمين ربابتى
بأروع ما غنته شبابة الشعر ...
على رغم أنف الحاقدين جميعهم
وأنفِ الزمان الساخر الوغر الصدر
جزى الله قوماً حاربونى بلؤمهم
وما لهم عندى — ولا لى — من ثأر !
أقاموا عراقيل الخديعة فى خطى
شبابى ... وبثوا بالعوائق فى سيرى
وما ذاك عن جهل لقدرى وإنما
كما تبغض الغربان إشراقة الفجر ...
وما قتلونى إنما كموا فمى ..!
وما هدمونى إنما عوقوا طيرى ...
ولا فتكوا بى حين راشوا سهامهم
ولا قبرونى عندما قدموا غيرى
جزاهم جزاء الحاسدين وحسبهم
بأن يشتهين ذكرى وأن يعلون قدرى
وقالوا : صغير السن لم يعْدُ طورَه
فقلت : وما شأن المواهب بالعمر !!
هل اللحن إلا فى غضون انطلاقه
أم الورد إلا فى لفائفه النضر ...؟
وكم من طويل العمر ذكراه ميتة
وكم من قصير عمره خالد الذكر ...
فلا تقرنوا عمرى بشعرى فإننى
لأصغر من شعرى وأكبر من عمرى
إليكم بيانى فاقرأوه مفصلاً ...
أأبصرتموا فى طرة الشمس من مُطرِ
عقود جمانٍ ما اشتغلن على نحر
وأحلام درٍّ ما اتكأن على صدر
ومعنى جديد لم يفضَّ ختامه
سوايَ ... ولم ينهلْ قبلى فكر
ولفظ مضىء اللون حتى كأنه
يموضعه من بيته العطرُ فى الزهر
مواهب فنان السموات وحده
ولله أن يكسو الذى شاء أو يعرى
وقالوا : كبير النفس يمشى على الثرى
ومن بين ذاك الأنف فوق السما يسرى
فقلتُ : الردى للقادرين فإنهم
تساموا ثيابه عن النطق الهذر
مطامحه فوق السحاب وكورها
لما يولنها دائماً مقلة الصقر
وآماله ما بينه وبلوغها ...
مسافة ما بين الحقيقة والكفر ...
وأيامه يا غائليه قصيرة
وما ظن يوماً أنه عائش الدهر
وروح الكريم الحر تحرق ذاتها
ونفس الكبير النفس فاقدة الصبر
فلا تعذلوه ظالمين فإنه
غريب عن الدنيا ... قريب من القبر
غداً سوف يطوى الموت ظل حياته
وياكم طوى من قبل ألوية الكثر ...
وتبلى به الأيام جدة عمره
وتنطمر الآمال فى قلبه البكر ...
سيفنى كما تفنون حتماً ... وإنما
ستبقى قوافيه محلقة الذكر ...!!

محمد مفتاح الفيتورى

لحن ضائع

• عرفتها ، فأدركت أحشاداً من معاني العفة والشرف .. اجتمعنا حول فكرة .. وتقابلنا تقابل الدمعة للدمعة ...

وإذا أوشكت يدانا أن تتصافحا أمام الله .. أنكر الدهر وأبى ...

قبل الإنسانة التي أجلها أكثر من حياتي .. والتي تعلمت منها الصراحة والصدق .. وتعلمت كيف يكون الوفاء .. أبعث بهذا اللحن تأسية لأوجاعي .. • .

سلام على ذكريات الوداع
وذاك الطريق وتلك البقاع
هناك تركت غرامي الضياع
وتجهل أنك لا ترجعين !

تناسيت قلباً كثير الجروح
بغير حنانك لا يستريح
سأبقى أحن ويبقى ينوح
طويلاً طويلاً وما تسمعين !

إليك إليك حملت الوفاء
ومنك وفيك عشقت الرجاء
كلانا يعاني ضروب الرياء
وزيف الوداد ، وإثم الظنون !

وفي النفس عنك حديث يطول
ستفنى الحياة وما إن يزول
شجاك صداه قبيل الرحيل
وطاف بعينيك فيض الشجون !

عتك الحياة بشق الصعاب
ومثلي نجت بغدر الصحاب
وحلت وحمدي هموم الشباب
ومر العذاب ، وطول الحنين !

يؤرق عيني دمع الضجر
فألثم شكاً عبيد الأثر
لمست الفؤاد به فاستعر
بيوم بعيد فهل تذكرين !

وحبك ملء المدى والزمان
وملء الوجود ووسع المكان
وعبر الخلود وفوق الحنان
عميقاً عميقاً كثير الشئون !

يأس ووجد وليل وكوب
حنايا فؤادي بقايا تذوب
وهيهات ما الحب يخشى الهبوب
سيبقى سعيراً بمر السنين !

وحبك أنت وهذا القسم
سيبقى فؤادي يحب الألم
وتمضي حياتي كوجه العدم
برود وصمت وما ترحمين !

سقاك الزمان بكأس دهاق
عذاباً يصب كثير الفراق
تعالي كفاك خسرت الرفاق
فهذي لعوب ، وهذا خئون !

تعالي نعوض صروح السلام
وضلع هوى أفسدته الطغام
سيبدو صباح [illegible] الأنام
وتهنا بعيش يقيناً ثمين !

وداعاً سيبقى لحني النشيد
يردد شوقي بسر الخلود
ويمنع فيك طباع الجحود
ولا أرتجيك ولو تشفقين !

(بغداد) أنور الناصري

من الشعر الكويتى :

تحيـــــة وابتهاج

[هذا شاعر كبير من شعراء الكويت ، قضى ما يزيد على عشرين عاما فى اندونيسيا ، ومرت به ظروف كثيرة اضطرته إلى الانقطاع عن أهله فى الكويت بسبب الحرب العالمية الثانية ، ثم شاء القدر أن يلتئم العقد من جديد ، فعاد إلى وطنه الكويت ، بعث إلىّ يقول : « .. وترانى سيدى العزيز فى هذه الأيام أعيش فى جو من الشعر ! لا أدرى ماهو !... وفى رأسى شعر وفى قلبى شعر وأمام عينى طيوف وأحلام !.. فى روحى أشجان وأحزان وأفراح ومتناقضات !.. جسد محطم وروح عدم ، وقلب خافق وشعر متير مظلم !.. لجة تصطدم بها الأنوار والظلمات ، ولا أدرى على أى صخرة أرتطم ، أو على أى جنة أخرج النغم .. ! » أهدى إلى هذه القصيدة ، وأنالى أهديها لصفحات الثقافة القراء]

(أ . ط . س)

مذ كنت أيام النوى أرعى الهوى
جمراً تأجج فى فؤادى لهبـــا

مذ كنت أسكب من دموعى أكؤسا
تفـــل يفور بها الأسى متصببا

مذ كنت فى جاوا أراقب أفق الـ
ـمحزون غيماً ألفته وغيهبـــا

فإذا بأقمار السماء تمـــك لى
درباً إلى الوطن المفضل لاحبا

وإذا بأنوار تروح وتغتـــدى
بين النجـــوم بها تراقصت الربا

وإذا بمعجزة الزمان تطير بى
وبنا فوق السحب تلتهم الفيا

وإذا بأمواج الخليج تلوح لى
كالحـــور تزخر بالنشيد المجتبى

وإذا الأحبـــة فى الربوع تهللت
أرواحهم أنساً مشـــيرا مطربا

فتعانقت أرواحنـــا وترنمت
قبل الثغور بما أهاج وألهبـــا

فلكم سكبت من الدموع سخينها
مذ جئت البشرى تسير بها الصّبا

يوم كأن به الدرارى عوضت
عزلة الأنوار فى خلل الصبـــا

فكفرت بالشيطان وانسلخ الهوى
عن جلده صرفاً وغرد وأسطبى

وغدا الهوى فى الروح شعلة عابد
لله عن طهر الشوق لن يذهبا

أواه يا أدب الكريم ترفقـــاً
فلى يغنيـــك الهـــوى متأدباً

وعساك عن لوى تعش بصيرة الـ
ـروح العظيم لما بشعرى شوّبا

أملى لديك رســالة عــطرية
أرقى بهـــا خطلى إذا ما غيّبا

محمود شوقى الايوبى



مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٠٥ — الاثنين ١٦ من شوال سنة ١٣٦٩ — ٣١ من يوليه سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

بمناسبة تقرير عودة ليوبولد إلى العرش :

استقلال بلچيكا
والنظام الملكى فيها

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

قرر البرلمان البلجيكي بمجلسيه — منعقدين على هيئة مؤتمر — إنهاء الوصاية على بلجيكا ، والسماح للملك ليوبولد الثالث بالعودة إلى العرش ومباشرة حقوقه الملكية من جديد ، بعد أن ظل محروماً منها عشر سنوات ، منذ الساعة التى قرر فيها وقف القتال ضد الألمان فى مايو سنة ١٩٤٠ .

وبهذا القرار الذى وافق عليه ١٩٨ نائباً وشيخاً — وهم الذين اقترعوا على عودة الملك — عبّرت الأمة البلجيكية — ممثلة فى برلمانها — عن رغبتها فى أن يتولى ليوبولد الثالث عرش آبائه ، على الرغم مما أبداه النواب والشيوخ الاشتراكيون والشيوعيون والأحرار من معارضة هذه الرغبة ، وعلى الرغم من انسحابهم من قاعة المؤتمر قبل عملية الاقتراع على القرار الجديد .

وقد بلغ عدد الممتنعين عن التصويت من النواب والشيوخ ١٨٩ نائباً وشيخاً ، وهو عدد يقل تسعة عن مجموع الذين أعطوا أصواتهم فى مصلحة القرار البرلمانى الخطير . ومن هنا كانت الأغلبية فى صف عودة الملك ،

واستعدت الأمة للاقاة ملكها العائد إليها من سويسرة ، بعد غياب سنوات تعرضت فيها بلجيكا لألوان من الاحتلال الألمانى وأهوال ما بعد الاحتلال ، وانقسمت فيها إلى معسكرين : يؤيد أحدهما عودة الملك ويعارضها الآخر ، حتى أخذ هذا الانقسام صبغة كانت شغلاً شاغلاً لكل فرد فى الأمة ، وظهر ذلك فى صحافتها وإذاعاتها ومجالسها العامة والخاصة .

وملك البلجيك الحالى هو رابع ملوك هذه الدولة التى تبلغ من العمر مائة وعشرين عاماً ، والتى حصلت على استقلالها سنة ١٨٣٠ بعد سلسلة من الحركات الوطنية والثورات القومية ، ضد هولندة التى كانت مالكة لبلجيكا ومسيطرة عليها حتى أغسطس سنة ١٨٣٠ .

وتعد ثورة ٢٥ أغسطس سنة ١٨٣٠ أول شغب حقيق اندلعت ناره ضد الهولنديين ، الذين أساءوا حكم بلجيكا ، وعدوها مُسْتَغَلاً لمنافعهم ، ومَرَاداً لمصالحهم ، ونسوا أو تناسوا كل حق وطنى لأهل البلاد الأصليين ، واعتبروا

أنفسهم سادة لهم وأوصياء عليهم، ولكنهم لم يحسنوا الوصاية. فاستأثروا بكل خيرات بلجيكا لأنفسهم، وحرموا منها أهل البلاد، وجمعوا الوظائف الكبرى في أيديهم؛ وفرضوا اللغة الهولندية على البلجيكيين فرضاً، وجعلوها اللغة الرسمية في البلاد، وأبعدوا الوالونيين "Walloons"، وهم سكان البلاد الأصليين عن الحياة العامة، حتى كادت أنفاسهم تختنق من هذه الأمور وأشباهها التي عدها البلجيكيون مظالم لا يصح احتمالها، ولا يليق السكوت عليها.

ولقد كان شغب أغسطس سنة ١٨٣٠ مقدمة لما بعده من ثورات وطنية اندلع لهيبها في كل مكان من بلجيكا، وكانت هذه الجذوات المتأججة تزيد يوما بعد يوم، وتجد لها وقوداً في نفس الشعب الذي كره سيادة الأجنبي، والذي يختلف عنه جنساً ومذهباً ولغة. فإن الهولنديين من أهل الشمال، ويختلفون عن أهل بلجيكا الوالونيين الذين ينحدرون من سلالة مختلطة من الكلتيين والرومان، كما كان الهولنديون أتباعاً للمذهب البروتستانتي الذي يعده البلجيكيون الكاثوليك مذهباً متساهلاً، ولا يجدون فيه من صرامة العقيدة ما يجدونه في كثلكتهم؛ أما اللغة فقد كانت سداً آخر يفصل بين الشعبين البلجيكي والهولندي، فلكل منهما لغته الخاصة وثقافته الخاصة. ومن هنا كان مستحيلاً على أمتين مختلفتين في الجنس والمذهب واللغة والعواطف أن تبقيا في اتحاد (مملكة الأراضي المنخفضة). وهو اتحاد كان يحمل عوامل تصدعه منذ اللحظة التي أقيم فيها.

ولعل شغب سبتمبر من العام نفسه كان أعنف مظهراً وأقوى دلالة على سخط البلجيكيين واستعدادهم للتضحية في سبيل استقلالهم من شغب أغسطس سنة ١٨٣٠؛ فقد اشتبك متطوعون بلجيكيون مع فرقة من الجنود الهولندية المنظمة في شوارع بروكسل — عاصمة بلجيكا — وكان القتال عنيفاً إلى حد أن ٦٠٠ متطوع بلجيكي سقطوا شهداء في شوارع العاصمة، فأثار مشهدهم عواطف الشعب بأسره، بل لفت أنظار العالم كله يومذاك إلى قضية استقلال بلجيكا.

ولا يزال النصب التذكاري القائم في ميدان الشهداء بمدينة بروكسل يحمل أروع الذكريات لدماء عزيزة غالية سالت في سبيل قضية اعتقدت عدالتها. ولا شك أن هذه الدماء الغزيرة كانت عاملاً مهماً من عوامل حصول بلجيكا على استقلالها. وإن كان بعض المؤرخين من أمثال الأستاذ «هـ. فيشر» الأنجليزي المشهور يرى أن هذه الدماء لم تحقق شيئاً من استقلال بلجيكا؛ وأن بسالة المتطوعين البلجيكيين الحربية لم تقم عليها دولة بلجيكا الحديثة؛ بل قامت على أ كتاف سلسلة من المحادثات والمفاوضات الدبلوماسية الطويلة بين انجلترة وفرنسا، أو بالأحرى بين «بالمرستون» وزير الخارجية الانجليزية في وزارة اللورد جراي من ناحية، وبين «تاليران» سفير فرنسا في لندن؛ وهو ذلك الداهية السياسي الفرنسي الذي اشترك مع نابليون واقترن اسمه باسمه كوزير لخارجيته.

وقد يكون «فيشر» على شيء من الحق حين يقرر أن استقلال بلجيكا الحديثة لم تصنعه الثورات ولا بسالة الرجال والجنود؛ فإن السيف لا يكون أصدق أنباء من الكتب إلا إذا تعادلت الكفتان، وقد كانت كفة بلجيكا من هذه الجهة غير راجحة، إلا أنه مما لا شك فيه أن دماء الشهداء التي سالت بها أباطح بروكسل وغيرها قد لفتت أنظار الأحرار من السياسيين وقادة الأمم؛ وإلا لما تحرك (بالمرستون) من ناحية و (تاليران) من ناحية أخرى للدفاع عن بلجيكا وضمان استقلالها المنشود.

وإذا تركنا العواطف جانباً في سياسة الممالك والشعوب — كما يقول المطلعون من السياسيين — فإن للمصلحة بين انجلترة وفرنسا — وهي مصلحة بدأت تظهر منذ القرن التاسع عشر — قد حتمت على «لويس فيليب» ملك فرنسا، و (تاليران) سفيرها في انجلترة، أن لا يفتحا نزاعاً مع جديد مع بريطانيا، وأن يكتسبا ودها بتحقيق رغبتها في منح بلجيكا استقلالها.

على أنه من الإنصاف أن نقول إن «بالمرستون» نفسه كان من أكبر العاطفين على بلجيكا في قضيتها، وإنه كان

مبالاً بنزعة حرة فيه إلى أن تتخلص بلجيكا من حكم هولندة الجائر ؛ لأنه كان نفوراً بطبعه من كل حكم أوتقراطى .

إلا أن هذه النزعة الطيبة من « بالمرستون » الإنجليزى نحو استقلال بلجيكا لم تكن كلها خالصة لوجه الله والحرية .. ولكنها فى الحق أيضاً كانت وقفة الحذر أمام فرنسا وأمام ملكها لويس فيليب الذى عرض التاج البلجيكى على ثانى أولاده ...! فقد رأى « بالمرستون » بدهائه وبعد نظره أن بلجيكا وتاجها الجديد صائران إلى فرنسا وإلى ابن ملكها لويس بالذات .. ! فرأى أن استقلال بلجيكا والبحث لها عن تاج لا يشوبه دم فرنسى خير من أن تنقاد فى محنة السياسة الفرنسية بوضع تاجها على رأس أحد الأمراء الفرنسيين ...

ومهما كان من أمر فقد وفق بالمرستون وتاليران إلى إعلان استقلال البلجيك سنة ١٨٣٠ ، وفى سنة ١٨٣٩ بمقتضى معاهدة شهيرة وضع لبلجيكا نظام من الحياد المستديم يضمن سلامتها من خطر جاراتها ، وخاصة بروسيا — ألمانيا . وهو حياد مع الأسف لم يحترم بعد ذلك بخمسة وسبعين عاماً ، حينما دخلت جيوش الإمبراطور غليوم الألمانى أرض بلجيكا فى سنة ١٩١٤ ؛ ولما نُبه إلى خرق الحياد ومخالفة ذلك لمعاهدة سنة ١٨٣٩ أجاب إجابته المشهورة بأن المعاهدات ما هى إلا قصاصة من الورق ... وذلك منطق القوى دائماً حينما لا يقيم وزناً لعهد ولا ذمة .

وبدأت بلجيكا المستقلة والملكة التى خلقتها الثورات من جهة ، ومخاوف انجلترة وفرنسا من جهة أخرى ، بدأت تبحث عن ملك يتوج أول القائمة فى سلسلة نظامها الملكى . ولم يطل البحث عن رأس لهذه الدولة الناشئة .. فقد عرض التاج البلجيكى على الأمير ليوبولد أمير ساكس كوبرج الألمانى ، وهو أخو الأميرة « فيكتوريا » الألمانية التى تزوجت بالأمير « إدوار دوق كنت » ، وأنجبت منه الملكة فيكتوريا ملكة انجلترا اللامعة فى الثلثين الأخيرين من القرن التاسع عشر . ومن هنا قامت الصلة بين الأسرتين المالكتين فى انجلترا وبلجيكا .. فإن ليوبولد الأول ملك بلجيكا كان خال الملكة فيكتوريا العظيمة التى حكمت انجلترا من سنة ١٨٣٧ إلى سنة ١٩٠١ ، أى أربعة وستين عاماً .

ولقد حكم ليوبولد الأول ٣٤ عاماً أثبت فى خلالها أنه أهل لشرف التاج الذى أولته إياه الأقدار ، وكان أديباً أريباً محنكاً واسع الدهاء ، ذا طبع رضى ، ولا أدل على حسن سياسته من أنه لما توفيت زوجته الأولى سنة ١٨١٧ عقب عملية الوضع — وكانت بنتاً لجورج الرابع ملك انجلترا — أظهر استعداده للاقتران من ابنة لويس فيليب ملك فرنسا ، كعلامة لعدم تعصبه — حتى فى المصاهرة — لمملكة على مملكة ...

وقد خلفه على عرش بلجيكا ابنه ليوبولد الثانى ، وظل ملكاً من سنة ١٨٦٥ إلى أن توفى فى سنة ١٩٠٩ . ولا يزال البلجيكيون والعالم يذكره بأنه مؤسس حكومة الكنغو الحرة فى القارة الإفريقية ، وهى تلك البلاد التى ربح ليوبولد منها أموالاً وافرة ، ثم أضافها إلى حكومة بلجيكا سنة ١٩٠٨ ، أى قبل وفاته بعام واحد .

أما ثالث ملوك بلجيكا فهو الملك ألبرت حفيد ليوبولد الثانى وابن ابنه فيليب دوق فلاندر الذى توفى سنة ١٩٠٥ . ولهذا صار العرش إلى الحفيد الذى تولى سنة ١٩٠٩ وظل ملكاً إلى سنة ١٩٣٤ قبيل الحرب العالمية الثانية بخمس سنوات . فكانت مدة حكمه ربع قرن من الزمان .

والملك ليوبولد الحالى هو الرابع من ملوك بلجيكا الحديثة ، وهو الابن الأكبر لألبرت ؛ وقد تولى الحكم سنة ١٩٣٤ ، وفى السنة نفسها تزوج الأميرة أستريد السويدية التى قتلت فى حادثة سيارة وهى لا تزال بعد فى ثياب عرسها ؛ فنُعيت بين معالم الأفراح ، وبكاها الشعب بكاء حاراً ، ورثاها الكاتب الشاعر « ميترلنك » بمرثية تعد من عيون الرثاء فى الآداب العالمية .

ولقد امتحنت بلجيكا وامتحن معها ملكها ليوبولد

الثالث – الملك الحالي – بغزو ألمانيا لها في فجر يوم الجمعة ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ . ولقد جاء الاعتداء على بلجيكا وزميلتها هولندة ولكسمبورج بعد الاعتداء على الدانمركة والنرويج في العام نفسه ؛ ولم تلق الأمة البلجيكية السلاح من أول ضربة من العدو المغير . فقد قاومت بلجيكا في الأرض والجوا، مقاومة كلفت الألمان غالياً ؛ وأظهر الحلفاء من ضروب المهارة والتضحية ما يستحق الإعجاب ، وخاصة سلاح الطيران البريطاني الذي ضرب في الشجاعة والصبر أروع الأمثال . ولكن في حومة الصراع أصدر الملك ليوبولد أمراً بوقف القتال ... مبرراً ذلك بالإبقاء على سلامة الجيش البلجيكي . ولكن ذلك عرضه لألسنة المعارضين الذين عدوها عليه مغمزاً وقاوموا عودته إلى بلجيكا ليتسلم عرش آبائه من جديد .

وعلى الرغم من ذلك فقد جاء قرار المؤتمر البرلماني بإنهاء وصاية « شارل » وعودة ليوبولد إلى العرش قراراً حكيماً خطيراً ، نرجو أن يتغلب على نزعات المعارضين فيفسح الطريق أمام ملك كريم ، لتحقيق آمال شعب عظيم .

محمد عبد الغني حسن

في نعيم الحرمان

ملكت الأمر في دنياي يا فتاك بالسحر
وهان عليك ما ألقى من الحرمان والهجر
ولله لديك تعذيبي بما أدري ولا أدري
فزد يا حلو في هجري أزدك الحلو من صبري
وأوقد نار حرماني وقلبي على الجمر

أنا أهواك يا فتان للحرمان والصد
فبارك حر أشواقي وأسكرني من الوجد
ودعني يا كثير الدل في عنك من الود
ولا تحفل بآهاتي ولا يغريك ما أبدي
فإني شاعر يحيا على الأوهام والوعد

تعالى الله يا قمري فقد أعيا بك الفكرا
تريق النور في عيني وتسكر خاطري شعرا
وتسكب في حياتي الخمر والأنداء والعطرا
وتنشرني وتطويني وتحييني على الذكرى
وتتركني ولا أدري وأنت بحالي أدرى

أنا يا قاتلي أحيا على القتال من دلك
فدعني في هجير الصد واحرمني سنا ظلك
وقل للفجر يا وضاح لا يطوي دجى ليلك
فإني أعشق الظلماء والأسداف من حولك
وأرجو أن يضيع العمر في شوق إلى وصلك

عرفت الله يا فتان في الدنيا على الغيب
ولم أبصره مرتاباً ولم ألمحه عن قرب
ولم أحفل بما تلقيه عين الشك والريب
وصفت لذاته معنى من الأحلام والحب
وعشت الدهر قديساً أرجي الخير من ربي

أنا يا فاتك الألحاظ لا أدري مدى نفسي
ولا أدري مدى يومي ولا أدري مدى أمسي
ولا أدري مدى طهري ولا فسقي ولا رجسي
ولكني أعيش الدهر بين الوهم والحدس
فتمتع حلو أوهامي بخمر الشك واليأس

لوجه الحسن يا فتان ما قد ضاع من أملي
وما قد راح من عقلي وما قد زاد من خبلي
وما تلقاه أيامي على حبيك من علل
لك الأقدار فاصنعها كما تهوى ولا تسل
فداء شبابك المختال عمر الشاعر الغزل

أنا يا أنت أهوى فيك كل مفاتن الحسن
وأعشق فيك أن ألقى صريع الهم والحزن
وأن أفنى بنار الهجر والحرمان والبين
فأسكرني بخمر الشوق يا فتان أسكرني
وخلدني على دنياي باسم الحب والفن

(القاهرة) محمد العدناني

المـــــــاضى

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

فرانز كافكا أديب معترف به فى الدوائر العالمية ، وإن كان مجهول الاسم فى اللغة العربية وعند القراء المصريين . ولا يهمنى هاهنا أن أعرّف الناس به بقدر ما يهمنى أن أبدأ هـذا المقال بعبارة من قصة كتبها بالألمانية وعنوانها القلعة . فقد بدأت أقرأ هـذه القصة مع مجموعة أخرى من القصص التى أبغى من ورائها قضاء الوقت ، ولا أريد بها الاستفادة أو التثقيف الشخصى . ولكن الرجل — أى فرانز كافكا — ليس من هؤلاء الذين تقرأهم وتنتهى منهم بسهولة . أعنى أنه ليس بالكاتب الذى تخلص من قراءته دون أن يثير عقلك ويشغل بالك . وحاولتُ أكثر من مرة أن أمضى فى قراءته كما اعتدت أن أقرأ القصص فى سهولة عابرة وفى استرسال منطلق . ولكنى وجدت نفسى مضطراً فى جملة من المواقف إلى التأنى والتأمل والتفكير . وكان يتكرر ذلك عند العبارات التى تقال فى مناسبة شبيهة بما يحيط بى والتى تصطدم بفكرة سابقة لدى وتوافق خطرة قديمة فى ذهنى .

ولا يعنينى أن يعرف القراء موضوع هذه القصة أو أن يعرفوا شيئاً عن هـذا الكاتب الممتاز كما قدمت ، وإنما يهمنى أن ألفت نظر القارئ إلى عبارة وردت فى القصة لتصور شخصية من الشخصيات . فقد جاء على لسان إحدى سيدات الرواية بصدد الكلام عن واحد من أصحاب النفوذ والسلطان الذين سبق لها معاشرتهم : « ... لماذا سوف يشغل نفسه بأمرى ، أو بتعبير أصح ، كيف يمكنه بأى حال أن يشغل نفسه بأمرى ؟.. إنه لم يعرف شيئاً عنى منذ ذلك الوقت . وعندما انتهى من استخدامى ، كان ذلك دليلاً على أنه قد نسينى . فعندما يكف عن استخدام الناس لا يذكرهم بالمرة . وليس ذلك نسياناً فحسب ، وإنما هو أكثر من ذلك . إذ من الممكن بالنسبة لأى إنسان أن يمر بخاطره من لم يعد يذكره ، وهذا طبيعى . أما هو فمن المستحيل أن يحدث هذا . فأى إنسان يكف عن استخدامه ينساه تماماً ، ليس فيما يتعلق بالماضى فقط ، وإنما بالنسبة إلى المستقبل أيضاً ... » .

وإنى لأتساءل بعد قراءة هذه العبارة : هل يمكن أن يوجد مثل هذا الإنسان ؟ أو بعبارة أخرى : هل يستطيع إنسان من بنى آدم أن يتخلى عن الأشياء التى صادفته فى ماضيه بهذه السهولة ، خصوصاً إذا كان هذا الشىء حبيبة غالية أو امرأة أثيرة ؟ من الطبيعى جداً أن ينسى الإنسان واحداً أو اثنين ممن التقى بهم أو كانوا فى خدمته ، ولكن هل يستطيع أن ينساهم جميعاً بغير استثناء وأن يتنكر لهم عن آخرهم ؟ وحتى مع افتراض النسيان ، هل لن يكون للحادث المنسى تأثير ؟ هذه هى المشكلة التى نريد أن نتحدث عنها فى هذا المقال .

وهى مشكلة من بنات الساعة إذا عرفنا مقدار ما يعانيه الشباب وتعانيه الإنسانية برمتها بسبب التربية المنزلية والتربية القومية والتربية الشعورية والأصل الجنسى . فالحياة الإنسان مصدران تتأثر بهما وتتشكل حسبهما ! أو قل إن حياة الإنسان ترجع فى تصورها وفى طبيعتها إلى أمرين : تربية الطفولة وأصالة الجنس . ولا يزال هذان العاملان من أقوى العوامل التى تؤثر فى كيان الفردية المتوحدة والجماعات المؤتلفة . وإذا كانت المسألة كذلك ، وإذا صدق ما يقرره علماء النفس وعلماء الاجتماع من وجهة النظر هذه ، وجدنا أنفسنا مضطرين إلى بحث مشكلة « الماضى » بحثاً مبنياً على أساس ما نراه من الاختلاف الحاصل فى الشعوب والأفراد . ذلك لأن ماضى الإنسان الواحد عبارة عن نشأته الأولى ومقدار العراقة فى الأصل مع جملة من المشاهدات الشخصية والعادات المتكونة والتجارب المكتسبة .

ولا أريد أن أمضي في النظر إلى هذا الموضوع قبل أن أقرر شيئين هامين : أولاً أريد أن أقول عن الماضي إنه يتوقف على نظرتنا الخاصة إلى عامل الزمن . فيستحيل أن تكوّن لنفسك فكرة عن الماضي بغير أن تقرر رأيك أولا في الزمن بوصفه عنصراً من العناصر التي تُبني عليها فكرتك عن التاريخ والوجود . فالماضي جزء من الزمن وأصلٌ لتقرر الوقائع التاريخية وشكل من أشكال الوجود . وأريد ثانياً أن أنبه إلى وجوب البحث في مشكلة « الماضي » مع اعتبار المرض النفسي ومع حساب الجانب المرضي في الشخصية . لأن كثيراً من الأمراض النفسية والعقلية تصيب الذاكرة وتعوقها عن العمل والحركة مما يحول دون خضوع الشخصية لمؤثرات الماضي واتساق الأفعال بناء على قانون العلة والمعلول .

ولتوضيح فاعلية هذين الأمرين في قياس الماضي واعتباره نقول بشأن المرض النفسي إنه من المستحيل أن يعترف الإنسان بعدم أهمية الأحداث الواقعة في الماضي إلا إذا أصيب بالنسيان واضطربت ذاكرته التي يعول عليها في حساب الزمن . وقد يكون التذكر الشديد أيضاً ذا تأثير سيء على شخصية المريض . فلابد للإنسان من أن ينسى كثيراً من الأشياء بطريقة عادية ولا تبقى أحداث الماضي متيقظة متحفزة داخل منطقة الشعور . وفي كل من حالتي النسيان الظاهر والتذكر الشديد تختل توازن الشخصية ويصير الماضي عاملا من عوامل الفساد في حياة الإنسان . فالماضي سبب من أسباب القلق والتعب في معيشة الفرد العادي عندما يكون منسياً وعندما يكون مذكوراً أيضاً . ونستطيع في الحياة العادية أن نقيس مقدار التفكك الذي يعانيه صاحب الذاكرة الضعيفة ومقدار الوجع والضيق الذي يعانيه صاحب الذاكرة القوية . فكم من الناس يتألمون ويصيبهم المرض النفسي وتختل حياتهم الاجتماعية ويفقدون مقدرتهم على التكيف مع البيئة التي يعيشون فيها من جراء نسيانهم الماضي . وكم من الناس يأتون الجريمة ويرتكبون الأعمال الشنيعة ويسكرون ويقامرون حباً في نسيان الماضي ورغبة منهم في عدم تذكر أحداث معينة من تاريخهم السابق . ويَعزّ عليّ أنا شخصياً فترات أذكر فيها شيئاً مؤلماً بالنسبة إلى فأود لو أكسر آنية زجاجية أو أضرب الحائط بقبضة يدي أو آتي بجملة من الحركات الجسمية العنيفة . وفي فترات أخرى تكثر الانفعالات والحوادث في حياتي بحيث أنشغل عن الماضي وأحس بأني كالغريب بين الناس وفي الأماكن التي أتردد عليها . وكلما اشتدت مثل هذه الحالة في حياة الإنسان وقلت روابطه بالماضي وضعفت علاقاته بأيامه السابقة كان ميله إلى الانتحار وقابليته للتأثر بفكرة التخلص من العيش أكثر ظهوراً . والشخصية التي تحدثت عنها السيدة في رواية القلعة لفرانز كافكا Franz Kafka هي شخصية مريضة إذا صح ماقيل عنها ؛ أو هي شخصية غير مريضة ، ولكنها تريد أن تبتر حياتها وأن تعيش بأسلوب مفتعل . وهي تدفع ثمن حياتها المبتسرة المقطعة في كل لحظة من لحظات تاريخها الطويل . والتردد من أهم صفات الشخصية التي لا يهديها تطور الأحداث وتسلسل الوقائع في ماضيها القريب أو البعيد .

أما الشخصية التي تعي ماضيها وعياً جيداً طبيعياً فإنها تتأثر في كل خطوة وفي كل عمل بهذا الماضي ، وتسير في حياتها تبعاً لخطة مرسومة في الأيام الفائتة . ونستطيع أن نتنبأ بحياة إنسان وبأعماله التي ستجرى مستقبلا إذا عرفنا ماضيه . ولا ينطبق هذا على الأفراد وحدهم ، وإنما هي قاعدة تشمل الجماعات كما تشمل الأفراد . وحسبك أن تنظر في تاريخ اليهود كأمة محافظة على عنصرها الجنسي حتى تدرك معنى الأفعال التي يقوم بها الإنسان . لقد صادفت هذه الأمة (ولا أقول الدولة) في تاريخها الطويل أنواعا من الاضطهاد والاحتقار الذي عقد في نفسيتها مركبات النقص المختلفة . وهذا هو السبب في غرورهم وعجبهم واعتقادهم بأنهم شعب الله المختار ، كما عوضوا الإحساس بالنقص الذي ينجم في نفوسهم عن الاضطهاد المستمر ؟ ثم امتاز اليهود — بالإضافة إلى هذا — باندفاع شديد نحو المال من أجل تحصيله في الميدان العملي واستعباد النفوس عن طريقه والإكثار منه

حتى يقوى إيمانهم بأشخاصهم ويحوج الناس إليهم . وتعد الجريمة أقرب الأشياء إلى نفسية الأمة التي هي من هذا القبيل . وليست كراهية الناس لهذه الطائفة بالشيء الغريب إذا عرفنا مقدار تغلغل المرض وتمكن الاعوجاج من نفسيتها . ومن هذه الناحية ندرك خطورة الأصل الجنسي والتربية بأنواعها المختلفة ؛ ويصعب أن يشذ فرد من أفراد الشعوب على الطبائع المتجلية في شخصية أمته تبعاً لما ينتج عن ذلك من القلق والاضطراب ، وغالباً ما يميل الناس إلى الاستفادة من الراحة والهدوء اللذين ينشآن عن العادة والألفة ؛ ويندر أن تجد من بينهم من يؤثر الحياة الثائرة الشاذة التي يهددها خطر الغربة والوحشة والعمل البدائي الذي لا يستند إلى تاريخ أو تجربة أو مران .

هذا هو تقدير الماضي في حساب المرض النفسي ؛ أما من ناحية القياس الزمني فبقدر ما سوف نكون بعيدين عن هذا التيار ، سنكون قريبين منه . لأن الذاكرة التي هي أصل المرض النفسي ومصدر التلف في تقدير الماضي ، هي نفسها الأصل في اعتبار الزمن ومصدر فكرته وإحساس الأفراد به . وحتى مع النظرة إلى الزمن باعتباره نوعاً من القياس الآلي للأحداث المتتالية في نطاق الوجود ، وللدورات التي تستغرقها حركة الأجسام ، سنكون ملزمين بأن نعترف بالماضي المتجمع في بوتقة الشعور . لأن النظرة التي تقدر الزمن آلياً فحسب ، تتقيد بالحركة الحاضرة المستمرة أكثر مما تتقيد بالخطوات السابقة . وإذا أردت أن تعرف الزمن بالنسبة إلى الكرة الأرضية الآن ، أو بالنسبة إلى نقطة على الكرة الأرضية بتعبير أدق ، فعليك أن ترسم خريطة لكواكب المجموعة الشمسية كما هي في وضعها الحالي . ويمكن القول تبعاً لذلك بأن اللحظة الماضية غير موجودة ، أو بأنها ضرب من العدم . ولولا الذاكرة الإنسانية لظلت اللحظة الماضية على هذا النحو . ومن هنا نقول بأن الذاكرة هي الأصل في تقدير الماضي . ونحكم بالتالي على الماضي بأنه متوقف في وجوده على وجود الذات المزودة بالذاكرة ، وبأنه لا يكون ما لم يكن الشعور الإنساني .

والحق أنه مهما كان نوع تصورنا للزمن ، ومهما كانت فكرتنا بشأنه ، فلن يكون ذلك حائلاً دون الشعور بثقل الماضي وضغطه على أعمالنا وتصرفاتنا إبان معاشنا المعتاد . ومن هنا جاء إحساسنا بأن الماضي لا يزال موجوداً ، أو بأن هناك حضوراً للماضي كما قال ياسبرز Jaspers . وعلى الرغم من أنك تستطيع أن تقول عن الأمس إنه غير موجود إطلاقاً ، وإنه عدم محض ، لا يمكنك أن تفلت من القيود العملية التي خلقتها لنفسك بنفسك خلال أيامك الفائتة . ولذلك يحس الإنسان بخطورة الحاضر الذي يكون مسرحاً في العادة لأعماله المختلفة ، ويتوقع دائماً أن يكون مسئولاً عن الأعمال التي يأتيها في الأوقات الحالية . وتبعاً للشعور بأن المستقبل متوقف على كل ما تقدمه لنفسك في اللحظات المتتالية على هيئة حاضر ، تنشأ القيم لدى الإنسان وتتجدد اعتباراته للأمور وتتوثق الروابط فيما بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه . وحينما تعلم أنك تأتي فعلاً من الأفعال مرة واحدة وإلى الأبد ، وأنك لن تملك تغييره أو تبديله بعد أن يصير ماضياً ، ستحاول بقدر مستطاعك ألا تقوم به ارتجالاً ، وألا تكون له ذيول تضرك فيما سوف يتلو من الأعوام .

فالإنسان قد تعود لذلك كله أن يخشى الماضي ، وأن يعمل له حساباً في نفسه ، وأن يضطرب عند إتيان فعل من الأفعال التي تضاف إلى تاريخ وجوده . بل يمكن القول بأن الحقيقة التاريخية الوحيدة المؤثرة في نظام الوجود هي هذا الماضي الذي نتحدث عنه ، لأن التاريخ نفسه لا يعني شيئاً غير حكاية الماضي ، ولأن ممكنات الحياة التي تتفتح عندما يتحقق المستقبل ليست شيئاً آخر سوى التتابع المترتب على أحداث وقعت . ولم يكن بد من أن يخضع الإنسان لهذا الماضي خضوعه للحقائق الثابتة والموجودات القائمة . وأكثر من ذلك أننا نخشاه ونرهبه ، ونحبه ونمقته ، ونداريه ونحابيه ، كما لو كنا بإزاء كائن من الكائنات القوية الفتية . وحينما يبدأ الإنسان تطلعه إلى شأن من الشئون ، وعندما يكون

بإزاء عمل من الأعمال ، تراه يضطر إلى أن يجعل من الماضي أساساً لفكرته ، وأن يتخذ منه أرضية لحياته . فالماضي كل إنسان بمثابة الرقعة التي تلعب عليها الشطرنج والطاولة التي تتركب فيها المفاتيح السلكية أمام عاملة التليفون . وكل الفارق هو أنه ليس خاضعاً لنا خضوع رقعة الشطرنج ومفاتيح التليفون .

وأدل شيء على سطوة الماضي بالنسبة لأعمالنا هو ما نراه في الناس من تأثر فسيولوجي بعامل السن . فالشيخ الهرم ، والمصاب بأمراض الكِبَر لا يعاني من أعضاء بدنه إلا بفضل ما مرّ عليها من الوقت . وتستطيع أن تقيس على هذا النمط أدواء كثيرة مما تصيب الإنسان . ولكن الماضي بهذه الصورة لا يكون سبباً من أسباب الشكوى وحدها ، وربما يكون من دواعي العزة والفخار ، ومن مبررات العظمة والأنفة . وبقليل من التأمل في مناصب القوم ومراكزهم في المجتمع يمكنك أن تدرك فائدة الماضي حين يزيد ، وأن تفهم قيمة الأيام عندما تمر . فهي لا شك مُضْفِيَة على صاحبها غير قليل من الرونق والأبهة ، ومجلبة له الكسب والمنفعة ، تبعاً لما يكون في القدم عادةً من دليل على المران والخبرة والتجربة . وليس بالبعيد عن أنظارنا ما نراه عند أصحاب المحال التجارية والشركات والبنوك من محاولة الإعلان عن طول عهدهم في مزاولة المهنة التي يختصون بها والشعار الذي يتزلون إليه . ولا يخفى علينا جميعاً أنه من دواعي الثقة بإنسانٍ ما أن يكون قد قضى فترة أطول من الآخرين في معالجة الموضوع الذي يوقف نفسه عليه . والأمثلة على ذلك كثيرة ومفهومة ولا تحتاج إلى زيادة البيان .

فمن هذه الناحية يكون الماضي شبيهاً بالأخطبوط الذي أحكم نسج أطرافه حول رقابنا وشد حباله على أجسامنا ووضع يده على كل القوى التي فينا ؛ أحاسنا بأمره ، وسعدنا بفضله وخيبتنا بمقتضاه . أنظر حولك في أي جانب من جوانب الحياة لترى مصداق هذا القول . إنما هبت في النقد مدرسة جديدة قبل أدعياء .. وإذا ظهرت في الفن شيعة مبدعة نسبت إليها الفتنة والزيف .. وإذا تجرأ الفتى الناشيء على الأصول التقليدية عدّ فضولياً متهوراً . والحق أنه ليس واحداً منا هو الذي ينطق بهذه الأحكام ويصطنعها اصطناعاً ، بل يفعل الماضي نفسه ذلك كله بفضل ما يوحيه إلى أبناء الجيل القديم .

وبقدر ما يثور الإنسان في وجه أثقال الماضي وتقاليد الزمن الفائت وميراث الأجيال المنقضية ، تنسب إليه البطولة وتعترف له بالقوة الشخصية . ولكن هذا كله لا يأتي اعتباطاً ، ولا يحصل بغير متاعب ، ولا نقدمه له إلا ونحن أذلاء منافقون . ونظل وقتاً طويلاً في مكابرة وسخرية من الحديث المستحدث ، حتى نبدأ في الإحساس بأن هذا الذي آمنا به واطمأننا إليه لم يكن شيئاً موضوعاً مبرأً من الشبهة والشك ، وأنه ليس بالكفر أن نستبدل به سواه . لأن الدين وضعوه في الماضي لم يكونوا يستوحون ربهم عندما وضعوه ، ولأن الجديد الذي نأتي به لن يخلو من المرور بتجربة السالفين . وقد يكون الكثيرون منا مؤمنين بثقل الماضي وطغيانه وسيطرته ، ومع ذلك لا تتحرك أياديهم من أجل تبديله أو هدمه . فللماضي جلاله وللقديم قدسيته . ولا ينشأ هذا الجلال وتلك القدسية إلا من عدم حضورنا في ذلك الزمن عملية إيجاد الأصول والأوضاع القديمة . شأنك في ذلك شأن القهوة التي تصنعها يدك والقهوة التي يعدها لك سواك بعيداً عن ناظرك . فإنك لتحترم قهوة الآخرين أكثر من احترامك للقهوة التي هي من عمل يدك . وأفسد شيء لشعور الإنسان بالنسبة إلى أكلة بالذات هو أن يحضر عملية طبخها . كأنما هي من طبيعة الإنسان أن يأخذ الأشياء بالسماع .

ويظل الماضي في تحكمه على ذلك النحو حتى تظهر شخصية ثائرة جريئة تنتبه لحاجة التاريخ إلى أن يحيد عما هو عليه وإلى أن يسير في غير مجراه . ولا يسلم له الناس إلا بعد أن يقوم بدوره كاملاً ؛ فعندئذ يعرفون له ملكاته ومواهبه

(البقية على صفحة ٦٤)

كيف؟

كيف تتقى أجسامنا حر الصيف وبرد الشتاء

الأستاذ عبد البارى نعمت

ألا فاعلم أن جلودنا بمثابة جدران تحيط بأجسامنا من كل ناحية فتحفظها من الأعداء الذين يحاولون اقتحامها دواما والوصول إلى داخلها، وإذا حدث أن تشققت جلودنا وتخللتها ثغرات فسرعان ماينفذ الأعداء إلى داخل أجسامنا، وسرعان ما يعترينا المرض وتشتد وطأته علينا.

إن جلودنا هى أداة الحس فينا وهى الرسول الذى يشعر المخ بما يجرى فى العالم حولنا، وكلما زادت حساسيتها زاد شعورنا بالألم، وفضلا عن ذلك فلجلودنا وظيفة ثالثة خلاف ما سبق، وهى من الأهمية بحيث تفوق ما عداها بالنسبة لما تؤديه لنا من خدمات جليلة، إذ تحفظ أجسامنا باردة فى الصيف دافئة فى الشتاء.

عليك أن تعلم أيضاً أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يرق جلده إلى درجة كبيرة، ولا يعلوه أو ينمو فوقه أى غطاء؛ إن للهر فراء كما أن لكل من الحصان والكلب معطفاً ذا شعر غزير، ولجميع الطيور ريش كثيف، وقد بز الفيل ووحيد القرن جميع الحيوانات فى سمك جلديهما، وعلى ذلك فالحيوانات والطيور تستطيع أن تحافظ على دفء أجسامها فى الطقس البارد، كما أنه عند اشتداد الحر لا تبلغ درجة دفئها ماتبلغه درجة الدفء عندنا، ويرجع ذلك إلى أن فراءها وريشها تمنع حرارة الشمس من الوصول إلى جلودها، وبذلك تبعد الحرارة عنها، ولكن الإنسان ليست له ريش ولا فراء، إذ ليس له إلا قليلا من الشعر فوق رأسه، ويبلغ من رقة جلده وليونته أن يتسنى لمدية غير حادة أن تنفذ فيه بسهولة وتقطعه. وإذا كان الأمر كذلك فكيف يتسنى للناس إذاً أن يكتسبوا الدفء فى الشتاء والبرودة فى الصيف؟

ربما قال قائل إن ذلك يتحقق بارتداء أنواع معينة من الثياب. وذلك صحيح إلى حد محدود، لأن الثياب ليست فيها الكفاية، ومن غير أن تكون جلودنا قادرة على معونتنا فى هذا السبيل أى فى الاحتفاظ بالدفء والبرودة فإننا نموت أو على الأقل نقاسى الأمرين من البرد فى الشتاء وتصيبنا ضربة الشمس فى الصيف.

ولنعالج أولاً كيف تتقى أجسامنا حر الصيف فإن ذلك أيسر كثيراً على الفهم؛ لا بد أنك قد لاحظت أن جلدك فى اليوم القائظ تعلوه حمرة ويبدو كأنه ملىء بالدم، ويرجع ذلك طبعاً إلى أن جميع الأوعية الدموية تكون قد تفتحت فإن لمنافذها أبواباً كتلك التى لقنوات الرى، وكذلك فإن لمنافذ الجلد أبواباً وعندما يكون ساخناً تفتح هذه الأبواب.

إن الحرارة تدفع خلايا الجلد الدقيقة إلى إخبار المخ عنها فيرسل المخ بدوره رسائل إلى جميع الأبواب يأمرها بأن تفتح على مصاريعها، وعندئذ تندفع نحو الجلد كمية كبيرة من الدم وسرعان ما يبدأ الجلد يفرز العرق — تدبر أمر هذا العرق جيداً لأنه من أهم العوامل فى إبعاد الحر عن

جسدك وفي تخفيف وطأته عنه ، وغيره تشتد وطأته عليك ؟ ويعزى ذلك إلى أن الماء الذي يعلو جلدك يكون سبباً في تبريده عن طريق التبخر ، ومعنى ذلك أنه يتحول إلى هواء ويصبح أكثر برودة أثناء ذلك التحول — لعلك شاهدتَ ما يحدث لبرك الماء التي يتخلف عن المطر بالطرقات عندما تشرق عليها الشمس — إنها تجف رويداً رويداً ولا تلبث أن تختفي كلية ، وذاك هو التبخر . وإذا استطعت أن تحس بحال هذه البرك فإنك لا بد واجدها تبرد تدريجاً كلما جف ماؤها ، وقد أدرك الناس ذلك منذ القدم ، وعلمه الجنود الذين حاربوا بالمناطق الحارة حق العلم . وإذا كانت قد تيسرت لك مرة رؤية زمزمية الجندي فإنك لابد قد لاحظت أنها مغطاة بقماش كثيف ولذلك حكمة بالغة ؟ فإن الجندي عندما يبدأ زحفه الطويل في يوم شديد الحرارة يعمد إلى زمزميته فيملؤها بالماء ويغطيها ثم يغمرها بالماء ، ويرمي من وراء ذلك إلى إشباع القماش الذي يكسوها بالماء ، ثم يحملها على كتفه ويأخذ في السير فتبدأ أشعة الشمس الشديدة تجففها قليلاً قليلا ، وكلما جف القماش الخارجي برد الماء بالداخل ، وهذا هو عين ما يحدث بواسطة العرق الذي يعلو جلودنا ويبللها ، إنه يجف فوق جلودنا ، وطوال الوقت الذي يجف فيه يكسبها البرودة والطراوة . إنك لو أحضرت منديلاً في يوم شديد الحرارة وبللته بالماء ودعكت به وجهك شعرت في الحال بأن وجهك قد صار أبرد مما كان .

وما العرق سوى ماء ينبع من ثقوب صغيرة تتخلل الجلد ، ويطلق على كل ثقب من هذه الثقوب الضيقة اسم « غدة » ، وللعرق غدد كثيرة يعيا المرء عن حصرها ، ولهذه الغدد أعصاب تصلها بالمخ ، وذلك هو السبب في أننا عندما نغضب وتهيج أعصابنا نعرق في الحال حتى ولو كنا في الشتاء وفي زمهرير البرد .

وليس العرق وحده هو الذي يلطف حرارة الجسم ويبرده ، بل للدم نصيب في ذلك أيضاً — ولتتذكر أنه في وقت الحر تتفتح أبواب جميع المنافذ الصغيرة الكائنة بالأوعية الدموية بالجلد ، وبذلك تكون بالجلد كمية كبيرة من الدم وهذه يجب تبريدها ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ إن الدم عندما يندفع نحو الجلد الذي يعلوه العرق يغيض في الواقع في جلد تنخفض حرارته ، ولذلك يبرد قليلاً قليلاً كلما تقدم في سيره ، وما يتركه من الحرارة خلفه يذهب جيداً لأن العرق يجف طوال الوقت فيجعل الجلد أكثر برودة .

أتعرف شيئاً عن السيارة ؟ إذا كان ردك بالإيجاب ، فإنك لا بد عالم أن محرك السيارة عرضة للسخونة الشديدة التي إن أصابته عاقته عن تأدية وظيفته على الوجه المرضي ، فتتوقف السيارة عن ارتقاء أي مرتفع من الأرض أو السير إطلاقاً . ولكي يبرد المحرك تجهز السيارة بطلمبة تدفع الماء فوقه بواسطة عدد من الأنابيب ، وبذلك يجري الماء حتى مقدم السيارة ، أي إلى ذلك الجزء الذي يطلق عليه اسم الشبك ، أي خزان التبريد "Radiator" ، وخزان التبريد هذا عبارة عن مجموعة من الأنابيب الضيقة يجري فيها الماء الساخن الذي يأتي من المحرك ، ويعود إليه بارداً بواسطة الهواء ، وذلك لأن السيارة وهي تجري بسرعة تجعل الهواء يهب بشدة نحو خزان التبريد فيبرد الماء ويعود إلى المحرك بارداً ، وعندما يسخن مرة ثانية يرتد إلى خزان التبريد ، وهكذا يظل في دورانه ؛ وتفصيل ما يحدث أن الماء يحمل الحرارة من داخل المحرك ويحملها الهواء ، فكأن الماء بمثابة حامل للحرارة ، وبذلك يحفظ المحرك بارداً ، ولو حدث ونسي السائق أن يحتفظ بقدر كاف من الماء في الأنابيب ، فإن المحرك سرعان ما يسخن ، والسيارة سرعان ما تتوقف . لعلك قد لاحظت تصاعد البخار من السيارة عندما ترتقي أحد المرتفعات ، ولكن هل علمت السبب ؟ سبب ذلك أن الماء يكون قد وصل إلى درجة الغليان ، لأن السيارة وهي تصعد التل تسير ببطء ، ولما كان الهواء والحالة هذه لا يهب على خزان التبريد بشدة ، فإن الماء لا يبرد بسرعة ؛ وبمجرد أن تعاود السيارة السير بسرعة فإن غليان الماء سرعان ما يقف ، وسرعان ما يقف تصاعد البخار نتيجة

لذلك ، وهناك شيء آخر يحتمل حدوثه ؛ فإن لكل سيارة طلمبة صغيرة تدفع الماء باستمرار بين المحرك وخزان التبريد ، وهذه قد تنكسر فيتوقف سير الماء ودورانه ، وسرعان ما يسخن المحرك ويتوقف عن العمل .

فكر الآن فى أمر نفسك ، كما فكرت فى أمر السيارة . اعتبر أن جلدك هو خزان التبريد ، وأن الدم هو الماء الذى يفيض دواماً ويستمر دورانه ، وأن قلبك هو الطلمبة التى تدفع الماء وتجعله يفيض ، وأن جميع أعضائك من الأمعاء إلى الكبد إلى العضلات هى المحرك .

وإذا كان دمك يذهب إلى جلدك مسرعاً (والجلد فى حالة عرق) فإن حرارته لا بد أن تنخفض ؛ ذلك إذا كان العرق جارياً على النحو الصحيح ، ولكن إذا لم تكن تعرق جيداً (كالسيارة وهى تصعد التل) أو إذا لم يكن قلبك يعمل جيداً فعندئذ ترتفع حرارتك كثيراً ، لأنك والحالة هذه لا تستطيع أن تتخلص من حرارتك ، ويترتب على ذلك أن تصير عاجزاً عن الحركة ، لأن عمل عضلاتك يكون رديئاً ، ومثلها فى ذلك مثل محرك السيارة .

إنك الآن تستطيع أن تعلم بسهولة مبلغ أهمية جلدك فى إبعاد الحر عنك وفى إكسابك البرودة فى الصيف .

والغريب أن يقول بعض الناس عندما تشتد عليهم موجة الحر ، إنهم يفضلون أن تنزع عنهم جلودهم وتبقى أجسادهم عارية من الجلد . إنهم لا يقصدون بطبيعة الحال ما يفهم من ذلك حرفياً ، إنما يقولونه وهم يجهلون كل شىء عن جلودهم ؛ ومثلهم فى ذلك مثل من يقول إنه يلزم نزع خزان التبريد من السيارة لتخفيف الحرارة عنها يوم يشتد الحر .

ولا ريب أننا نستطيع مساعدة جلودنا فى الجو الحار بارتداء ثياب خفيفة فضفاضة ؛ فهذه تسمح للهواء بملامسة جلودنا مباشرة فيتيسر للعرق أن يجف بالتدريج فتنخفض حرارتنا ونشعر ببعض البرودة .

عليك أن تعلم فوق ذلك أن تنفسك حار ، وتفهم من ذلك أن التنفس يخرج بعض الحرارة من جسمك ، وهكذا يساعد جلدك كما يساعد نفسك — فى تخفيف وطأة الحر عنك .

هذا ما نستطيع أن نقوله بشأن إبعاد الحر عن أجسامنا فى الصيف ، ولكن ماذا عسانا أن نقول عن جلب الدفء إلى أجسامنا يوم يشتد البرد .

إن الجلد عندما يحس بالبرودة يبعث برسالة إلى المخ لكى يرسل أمراً إلى النافذ لتغلق أبوابها ، وبذلك حتى لا يتجه إلى الجلد سوى قليل من الدم فلا يعرق . إنك لابد قد لاحظت الفرق بين لون جلدك فى الطقس البارد ولونه فى الطقس الحار ؛ ففى الحر كما قدمنا تراه مرطباً بالعرق وترى لونه غاية فى الاحمرار ؛ ولكننا على العكس من ذلك تراه فى الجو البارد جافاً ، وقد يظهر محمر اللون فى صباح يوم يشتد فيه الصقيع ، ولكن هذا الاحمرار يختلف عن الاحمرار الناشىء عن الحرارة ، وهو من النوع المؤقت ، ولا يظهر إلا بالخدين فقط ، ويظل باقى الجلد مبيض اللون إلا إذا كنت تجرى ، وارتفعت درجة حرارتك أثر ذلك ، وتستطيع أن تعلم أنه إذا وصل إلى جلدك قليل من الدم ، فإن قليلاً من الحرارة يمكن أن يفقد ، وبذلك تستطيع أن تحتفظ بدفئك حتى ولو كان الجو بارداً .

والاحتفاظ بالدفء والشعور به شيئان مختلفان ، ويبدو ذلك غريباً ، فإنك قد تكون دفيئاً ، وفى نفس الوقت تعتريك قشعريرة من البرد ، ويحدث ذلك على الخصوص فى بدء الإصابة بالحمى ، إذ بينما تشتد حرارة المريض يشعر بقشعريرة البرد تسرى بظهره غادية رائحة . ويحدث عكس ذلك عندما تخرج من الحمام البارد صباحاً ، فإنك تحس بالبرد وقتئذ ، ولكنك إذا كنت سليماً معافى ، فإنك تحس بموجة من الدفء تشمل جميع جسمك ، ويرجع ذلك إلى أننا نحس بالبرد عندما لا يكون الدم بجلودنا ونشعر بالدفء عندما يكون بها . إن برد الحمام يغلق أبواب النافذ فى لحظة ، ولكنك عندما تعود إلى الهواء ثانية تعاود النافذ فتح أبوابها فيندفع الدم إلى جلدك ، ولا تكون حرارته فى ذلك الحين أكبر منها قبل أن تأخذ حمامك

(عندما شعرت بالبرد) ، والآن يوجد بجلدك كثير منه ، ولذلك تحس بأنك أكثر دفئاً .

إنك من كل ذلك تستطيع أن تجزم بأن جلودنا بالغة النفع لنا وأننا سرعان ماغوت إذا لم تكن لنا جلود . ومن الحقائق المقطوع بصحتها كذلك أن الإنسان يموت إذا ما احترق من جلده قدر كبير ، وإذا تناهى الجلد فى السخونة أو تناهى فى البرودة فإنه فى الحالتين يبعد السعادة عن صاحبه ! فإذا كان بالغ السخونة دفع صاحبه إلى الشعور بالإعياء ، وربما أصابه الإغماء . وما ألذ شعور المرء عندما يخرج من حجرة ساخنة إلى الهواء البارد ! فما إن تلامس البرودة جلده حتى تنعشه وتضفى على جسمه شعوراً بالغاً بالانتعاش والنشاط ، كما تنعش الريح مياه البحر عندما تهب عليه فى غير عنف !

وبغير ذلك يصاب المرء بالصداع أو يعتريه المرض ويستولى عليه الخور والإعياء .

إن الإعياء الناشيء عن ضربة الشمس تبعاً للاعتقاد السائد لا يرجع إلى الشمس بقدر ما يرجع إلى الحاجة إلى ملامسة الهواء لجلودنا .

إن الناس يموتون إذا تكدسوا فى حجرة واحدة ، ولا يعزى موتهم هذا إلى حاجتهم إلى الهواء للتنفس بقدر حاجتهم إلى حركة الهواء . إن جلودهم فى حاجة إلى البرودة ، وعندما تستخدم مروحة فى حجرة تشتد بها الحرارة لا تحصل على هواء نقى جديد ، ولكنك تجعل الهواء الموجود يتحرك وهذا يضفى عليك البرودة ويكسبك الراحة والانتعاش فى الحال .

عبد البارى نعمت

الماضى

(بقية المنشور على صفحة ٦٠)

ويفتخرون فيه أعماله وعظمته ، ومن يدرك خطورة الماضى فى تأثيره وضغطه ، يمكنه أن يتبين مزايا الشخصيات الخارجة على الأصول المرعية والتقاليد الثابتة مهما أوتيت من قوة ومكانة وبأساء .

وقد يرجع حبنا الماضى واعتزازنا به إلى الألفة ، وقد تكون العادة سبباً فيه ، ولكن الذى لاشك فيه هو أننا نحِنّ إلى مافات ، وأن هـذا الحنين أصل هذه المحبة . وكثيراً مايكون الماضى سبباً من أسباب فخرنا وغرورنا واعتزازنا .. فبعض الساعات التى تمر بالإنسان لايكون لها مثيل فى حياته برمتها ، أو قد تكون الأوقات الحاضرة غير مناسبة لإتيان الأعمال القديمة ، فيجد الإنسان فى ماضيه مسرحاً لرغبته المكبوتة .

ثم من ذا الذى ينكر جمال الأحلام الزاهية فى الماضى الجميل ، ومن ذا الذى يجهل سرحة الخيال فى الأيام الشائقة . هنالك فى عمر الأمانى المفقودة تشب فى صدر الإنسان بهجة يخالطها الأنين ، وفرحة يمازجها الأسى ، ونور يكتنفه الظلام .. هنالك فى مجال التمنى والرجاء تثور لواعج الحسرة على مافات ، وتتجدد مطالب العيش السعيد وتتضح نهايات الأمور . كم من الناس لا يذكر ساعات النشوة فى حب الصبى ولا يعود بخاطره إلى الزمن السالف كى يجتر خيالات وأوهاماً تعوض بؤسه فى الحاضر التعيس .

يكفينا من الماضى أنه لوحة قد ارتسمت عليها خطوط آمال دفينة ، وانطبعت عليها ذكرى مناعم مطمورة .. تقول كنتُ وكنتُ ، وفى نفسك أن تقول أكونُ وأكون .. ولكنك مهما قدرت على أن ترتاد ماضيك هكذا على صورة ذكريات مخزونة ؛ فمن المحال أن تعيد تاريخك على هيئة وقائع مشهودة . فالواقعة من حيث هى واقعة قد ولت ، ولم يعد فى إمكانك أن تعيدها أثناء خطوك تحت أقواس الزمان وعثير رماله . أما من حيث هى تذكار وفكرة ، فليس أيسر من أن تمد أياديك إلى سجل الوقائع المشحونة فى نطاق الحس الخفى والوعى الغائب ، حتى تقف عليها وتستعير منها وتتأهب لما يجدّ على نمطها . أما إذا لم يكن أمامك جديد تقضيه ومستحدث تهم به ، فليس لك إلا أن تهتف ، وأنت تقفز إلى أعماق قبرك ، بأنه لا سبيل إلى استعادة ما عشته من الأيام ، ولا أمل فى اجتياز عمرك من جديد .

عبد الفتاح الدجوى

الشعر والنثر

أيهما أطوع لعوامل التطور ؟

للأستاذ يوسف خليف

— ١ —

الأدب ملكة فنية ، يمضي وقت طويل حتى تتكون ، ويمضي وقت طويل حتى تتطور ، فالتطور الفني لهذا يكون عادة بطيئاً .

ولعل من أهم الأسباب في ذلك أن الحياة الأدبية متصلة بحياة العاطفة ، والعاطفة ، كما يقرر علماء النفس ، لا تتكون ولا تنمو إلا بالتجارب ، ولكل عاطفة تاريخ طويل ، وهي لا تظهر ولا تنمو فجأة ، ولكنها تظهر لأسباب تقتضي ظهورها ، وتنمو نمواً تدريجياً بكثرة مثيراتها .

ومن هنا نستطيع أن نفهم السبب الثاني لبطء التطور الفني ، وهو أن الطفرة محال في الملكات الأدبية ، فمرور الزمن وتوالي الفرص ، كما يقرر علماء النفس أيضاً ، أهم الأسباب لتنمية العاطفة التي هي أساس الملكات الأدبية ، ومن الممكن أن توجد الطفرة في العلم ، إذ هو يعتمد كل الاعتماد على العقل ، والعقل بطبيعته جرئ وثاب ، وأكثر الحقائق العلمية قد ظهرت هذا الظهور الفجائي . فقد ظلت الأرض في أذهان الناس ثابتة لا تتحرك أزماناً متطاولة ، حتى ظهر فجأة من ينادي بأنها تتحرك ، فإذا الأرض بين عشية وضحاها تدور حول نفسها بعد أن ظلت تلك الأحقاب الطوال ثابتة ! وأظن أن هذه الطفرة الواسعة التي حركت الكرة الأرضية فجأة لا يوجد لها نظير في الحياة الأدبية .

وسبب ثالث لبطء التطور الأدبي ، هو أن حاجة الحياة إلى الأدب أقل من حاجتها إلى العلم ، ومن هنا أن عوامل الحياة تدفع العلم إلى التقدم والتطور لشدة حاجتها إليه ، في حين تقف من الأدب موقفاً أقرب إلى أن يكون مساً رفيقاً منه إلى أي شيء آخر ، وأقرب دليل على هذا ذلك الاستعداد للحرب الذي أشهدنا تطوراً رائعاً خصباً في الحياة العلمية حطم الذرة ، في حين ظلت الحياة الأدبية نائمة حيث حلا لها النوم من قبل .

وسبب رابع ، هو أن الحياة الأدبية مردها إلى الذوق ، والذوق يحتاج إلى تربية ومران طويلين ، فإذا انتهت فترة التكوين الذوقي فمن أصعب الأشياء أن يغير الذوق اتجاهه ، وهذا التغيير ، إن لم يكن منه بد ، يحتاج إلى زمن طويل وصراع عنيف حتى يتم ، ولهذا السبب نرى دائماً ذلك الصراع التقليدي بين القديم والجديد في كل مرحلة من مراحل التطور الأدبي ، ذلك لأن ذوق المجتمع الأدبي الذي ألف أدباً خاصاً يحتاج إلى زمن وصراع حتى يألف مزاجاً آخر من الأدب ، وهذا الصراع بين القديم والجديد لا نراه في التطور العلمي ، لأن العلم ليس مرده إلى الذوق ، وإنما إلى قواعد مقررة ولكنها ليست مفروضة على العقل فرضاً ، فقد يأتي عقل يغيرها من أساسها ، فيتغير العلم تبعاً لذلك دون صراع بين القديم والجديد .

وسبب خامس لبطء التطور الأدبي ، هو أن المحاكاة أساس من أسس الحياة الأدبية ، ويرجع ذلك إلى وجود مثل أدبية قديمة واحترام الأدباء لها ، ولعل هذه النظرة الأولى من ناشئة الأدب إلى الماضي هي حجر الأساس في بنائهم الأدبي . ومن القواعد المقررة في النقد الأدبي ، أن كل أديب ناشئ يصرف اتجاهه عن المثل الأدبية القديمة

يسقط أدبه عن مستوى الأداء ، ومعنى هذا أن التطور الأدبي لا يأتي إلا بعد دور المحاكاة الذي قد يطول وقد يقصر تبعاً لاستعداد الأديب وموهبته الفنية .

هذه أهم الأسباب التي تجعل التطور الأدبي بطيئاً ، ولكن يجب أن نقيد كلامنا قليلاً ، فليس الشعر والنثر سواء في هذا التطور الفني ، بل هناك اختلاف ملحوظ بينهما في سباق هذا التطور يدعونا إلى التساؤل : أي الفنين أسرع استجابة لعوامل التطور ؟.

لو أننا ألقينا نظرة عجلى ، ولكنها متعمقة ، على هذين الفنين في الأدب العربي ، للاحظنا أن الشعر من أقدم عصوره إلى اليوم يكاد أن يكون سائراً في طريق متشابهة المعالم لم يحد عنها إلا بقدر .

وأول ما يلفت النظر أن الشعر العربي لم يخرج في عصر من عصوره عن كونه شعراً غنائياً ، أما الشعر التمثيلي ، وشعر الملاحم ، والشعر التعليمي ، فلا نكاد نعثر على شيء منه إلا مع شيء من التجوز والتعسف ، أما أسباب ذلك فلسنا الآن بصدد البحث فيها ، وإنما نحن بصدد تقرير حقيقة واقعة ، وسواء أكانت هذه الحقيقة الواقعة لسوء حظ الشعر العربي أم لحسنه ، فالشيء الذي لا ريب فيه هو أن الشعر العربي سلك على مر عصوره هذه الطريق الغنائية « الليريك » ولم يحد عنها إلا بقدر .

وملاحظة ثانية تستحق النظر ، وهي مسألة « عمود الشعر » كما يسميها القدماء ، أو « كلاسيكية الشعر العربي » كما يصح أن نسميها ، تلك « الكلاسيكية » التي جعلت الشعراء يدورون حول عمودها كأنه ضريح لأحد الأولياء الصالحين لا يكادون يبعدون عنه حتى تتعالى صيحات شيوخه بوجوب التمسك به والتسبح بأركانه ! وكان من أكبر جنايات هذا العمود على الشعر العربي أنه خنق محاولات التجديد فيه وعاق تطورها وتقدمها ! وإذا لاحظنا أن الشعراء حتى أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر ظلوا متمسكين بذلك « العمود الأثري » الذي أصبح رمزاً للجمود في الشعر العربي ، استطعنا أن ندرك بسهولة مدى التطور الذي تطوره الشعر العربي منذ أقدم عصوره حتى اليوم .

ولسنا ننكر أن القصيدة العربية اليوم صورة متطورة من القصيدة القديمة ، ولكنه تطور يجب أن يطأطئ رأسه أمام أي تطور آخر تطورته الحياة في مظاهرها المختلفة ؛ فقد ظلت الأوزان هي الأوزان ، ونظام القافية هو نظام القافية ، وظلت الموضوعات هي الموضوعات ، وظل البيت وحدة القصيدة العربية ، وظلت القصيدة العربية ، كما يقول بعض المستشرقين[1] : « حبلاً من حقائق متفرقة يمكن أن تتكوم ، ولكنها لا يمكن أن تترابط » ، وعلى ما في هذا القول من مبالغة ، فإنها مبالغة كالحقيقة ، أو حقيقة كالمبالغة . ولا أكاد أستثنى من ذلك إلا بعض المحاولات التي يحاولها شباب الشعر في هذه الأيام ، ولكنها على كل حال لم تعد دور المحاولات ، وإن كنت ألاحظ أن التجديد في أكثرها منصب على تغيير نظام القافية ووحدة الوزن فحسب ، دون اهتمام بالبناء الداخلي للقصيدة ، وليس هذا ما نريده من التجديد الشعري ، لأنه تجديد يمس الصورة والعرض — كما يقول المناطقة — دون مساس بالجوهر ، ورب قصيدة ذات قافية واحدة ووزن واحد أشد إيغالاً في التجديد من حيث جوهرها من قصيدة ذات قواف متعددة وأوزان متعددة ، وجوهرها قديم . ولكننا على كل حال نأمل أن تنضج هذه المحاولات فتزيل عن الشعر العربي تلك الوصمة التي لحقته ، وصمة الجمود والتوقف في عصر الطيارات التي تسبق الصوت !

وملاحظة ثالثة نلاحظها على تاريخ الشعر العربي ، هي تلك المحاولات التجديدية التي كانت تظهر بين حين وآخر ، وهذه المحاولات نستطيع أن نردها إلى نوعين :

إما محاولات سطحية تتصل بالطلاء الخارجي للقصيدة لا ببنائها الداخلي ، وإما محاولات كانت تكون ناجحة لو أنها وجدت من يتم رسالتها ، ولكنها لم تجد ، فذهبت مع الريح ، كما يقال .

على أنني لا أستطيع أن أغفل محاولتين ناجحتين في التجديد الشعري الحقيق ، وربما أضيف إليهما محاولة ثالثة .

---

(1) A.S. Tritton; The Ency. of Islam, Art. Shi'r.

أولى هذه المحاولات الناجحة كانت محاولة الرجاز تطوير الرجز العربي في العصر الإسلامي على أيدي العجاج وأبي النجم ورؤبة وأضرابهم ، هذه المحاولة التي نقلت الرجز من « فن شعبي » تقال فيه الأبيات القليلة في موضوعات شعبية محدودة إلى فن يتسع لكل الموضوعات التي يقال فيها القصيد ، حتى أصبحت الأرجوزة لها كل ما للقصيدة من خصائص وتقاليد ، وظل الرجز في تطوره حتى رأيناه في العصر العباسي يتسع لمحاولات الشعر التعليمي التي قام بها أمثال أبي العتاهية وصالح بن عبد القدوس ، وحتى رأيناه في العصر الحديث متسعاً لمحاولات الشعر القصصي التي حاولها بعض الشعراء فيه أمثال شوقي في ديوانه الرجزيّ « دول العرب وعظماء الإسلام » .

والمحاولة الثانية الناجحة كانت في العصر الإسلامي أيضاً على أيدي شعراء السياسة من مختلف الأحزاب السياسية التي ظهرت في ذلك العصر ، تلك المحاولة التي دفعت الشعر السياسي العربي من طوره الجاهلي الساذج من فخر بالقبيلة أو ثورة عليها إلى نهضة رائعة ممتازة لها شعرها السياسي بمعناه الواضح الدقيق .

ونستطيع أن نضيف إلى هاتين المحاولتين محاولة ثالثة كانت ناجحة إلى حد ليس بالقليل ، وهي محاولة شعراء الغزل في العصر الإسلامي أيضاً الاستقلال بفنهم الرائع ، وهي المحاولة التي نقلت شعر الحب من أن يكون مقدمات للقصائد إلى لون من الفن يتخصص فيه شعراء يغنون حبهم في صلوات صادقة يسكبونها في محاريب معبده ، وهي محاولة استمرت في العصور التالية ، وكانت مجددة في نواح كثيرة تغرينا على أن نسلكها مع المحاولتين السابقتين ، إلا أنها كانت مقلدة في بعض النواحي ، وإن يكن تقليدها شكلياً ، إن صح العبارة .

أما ما عدا هذه المحاولات فنستطيع أن نردها في سهولة إلى النوعين السابقين .

فمحاولة زهير بن أبي سلمى ومدرسته الذين كان القدماء يسمونهم « عبيد الشعر » تقدمت بالشعر من طور النضج الطبيعي الذي تم عند امرئ القيس إلى طور النضج الصناعي ، هذه المحاولة كان يمكن أن تكون أكثر نجاحاً لو أنها وجدت من يسير برسالتها قدماً دون أن يقف بها أو يفسدها ، إلا أنها عندما وصلت إلى شعراء البديع ، وهم آخر من خرّجتهم هذه المدرسة ، وصلت إلى نهايتها ؛ ذلك أن أبا تمام قد انتقل بفن هذه المدرسة إلى قمة لم يستطع غيره من الشعراء أن يصاحبه إليها ، ومن هنا لم نجد تقدماً بعد أبي تمام في هذه المدرسة ؛ وعند هذه القمة التي وصل إليها أبو تمام كُفّن فن هذه المدرسة في أكفان بديعية منمقة ، وخط له مثواه بين أحجار من الطباق والجناس والتورية !

وجاءت بعد ذلك محاولة المتنبي لبث القوة في الشعر . وأحب أن أسجل هنا أن فن المتنبي غير فن أبي تمام ، وأن مذهب المتنبي في الشعر ليس امتداداً لمذهب أبي تمام ، كما يقول بعض مؤرخي الأدب العربي . ومن الحق أن المتنبي تأثر بأبي تمام ، ولكن التأثر شيء والمذهبية شيء آخر ، فمذهب المتنبي يقوم في مجموعه على القوة ، وأما مذهب أبي تمام فيقوم في مجموعه على التجميل والتنميق . وكانت محاولة المتنبي تكون ناجحة لو وجدت من يتم رسالتها ، ولكن المتنبي ابتلي بشاعر بعده ترسم خطاه فأساء إليه ، ذلك الشاعر هو المعري ؛ فالمعري أعجب بفن المتنبي إعجاباً شديداً حتى لقد اعتبر شعره معجزاً ، فسمى كتابه عنه « معجز أحمد » ، وبالغ المعري في تصنعه ، وأتيح له من الفراغ ما جعله يصل بالشعر إلى درجة من التصنع الثقيل حاول فيه أن يخضع الشعر للفلسفة ، لا أن يخضع الفلسفة للشعر ، فوصل إلى شيء لا هو من الشعر في شيء ، ولا هو من الفلسفة في شيء ، وإنما هو أقرب الأشياء إلى تمرينات لغوية كتلك التمرينات الحسابية التي يحاول فيها الرياضيّ أن يجرب كل الوجوه الممكنة في عدد من الأعداد . وكانت النتيجة أن محاولة المتنبي بث القوة في الشعر لم تتطور إلى كمال ، بل انحرفت إلى اتجاه آخر أفسدها .

وأما محاولات بشار وأبي نواس ، قبل ذلك ، فلم تكن محاولات مخلصة أو جادة ؛ فبينا نرى بشاراً وأبا نواس يدعوان الشعراء إلى طرح القديم والارتماء في أحضان الجديد

(البقية على صفحة ٢١)

صور طريفة من معلقة قديمة

الغـــزل

للأستاذ جمال الدين الرمادي

... لنصغ إلى هـذا الصوت الذي يأتي إلينا من بعيد ، من بعيد جداً ، رقيقاً رقيقاً ، ولنصغ إلى هذه الأبيات التي يترنم بها هذا الصوت ، بل لنقبل معي ولنتقدم شيئاً فشيئاً ليكون لنا حظ في الرؤية كما يكون لنا حظ في السماع .

ها هو ذا امرؤ القيس يمضي مع صاحبيه في الفلاة لا يكاد ينبس ببنت شفة ، ولكن ماذا ؟ ما هذا الذي أخرجه عن صمته ودفعه إلى الحديث دفعاً ؟ ها هو ذا ينظر إلى الديار التي أمامه ويطيل النظر ، ويفكر ويطيل التفكير ، ثم ها هو ذا يدعو صاحبيه أن يقفا في هـذا المكان ليبكي امرؤ القيس وليبكي صاحباه أيضاً إن لم يجدا في البكاء بأساً . ولم لا يكون هـذا ، وهم أمام ديار الأحباء الأعزاء ، تلك الديار التي انتشرت الظباء البيضاء في ساحاتها الوساع زمناً ما ، ومواطن الماء فيها ، وهبت عليها ريح الجنوب تارة ، وريح الشمال تارة أخرى ؛ فعبثت بمعالمها ، ولكن صورتها برغم ذلك جاثمة في قلبه ، باقية في فكره ، راسخة بين جوانحه ، لم تبل جدتها ولم تذهب فتنتها ...

ثم ها هو ذا امرؤ القيس يذكر لصاحبيه ذلك اليوم الذي ودع فيه صواحبه عند هذه الشجرات الشوكية المعروفة في الصحراء ، ويذكر لصاحبيه ما ذرفته عيناه من دمع ؛ فبدا يوم ذلك كأنه ذلك الرجل الذي يجمع الحنظل من شجره ، فعيناه دامعتان من فرط حرارته وحدة عرفه .

ثم ها هو ذا امرؤ القيس يلحق بصاحبيه اللذين تقدما عنه بعض التقدم ، وها هو ذا يعيد عليهما أن يقفا وألا يدفعا بنوقهما إلى الأمام ، وأن يشاركاه ما يجد من حس وشعور نحو هذه الديار ؛ فقد دعته صواحبه ألا يأسف وألا ييأس ، ولكن امرأ القيس برغم ذلك كله يبكي ويبكي ، فهو يجد في الدمعة التي تسيل على خديه متنفساً له من كربته ، ومفرجاً له من همه وغمه ، ليتك إذاً ما استطاع إلى البكاء سبيلاً ، بل ما استطاع البكاء إليه سبيلاً ، ولكنه لا يريد أن يبكي هو ويضحك صاحباه ، ولا يريد أن يحزن هو ويفرح صاحباه ، فيدعوهما إلى الانتحاب ؛ ألا يحلو الانتحاب على الطلل الذي ذهب بعضه وبقي بعضه الآخر ؟ ألا يحلو على الطلل الذي ارتحل عنه الأحبة وقبع فيه خيال الأحبة لتشييع البكاء ومسيل العبرات ؟

أكبر الظن أنه يحلو ، فلندع امرأ القيس وصاحبيه يبكون ويعولون ما شاءوا من البكاء والعويل ، ولننتهز هذه الفرصة لنحلل هذه الصور التي أتى بها امرؤ القيس لصاحبيه ولنا أيضاً . صورة البكاء هـذه صورة معتادة في الشعر الجاهلي ، ليس فيها جدة وليس فيها خلق . الشعراء الجاهليون يبدأون معلقاتهم أو قصائدهم بالبكاء على الديار في أكثر الأحايين ، اللهم إلا عمرو بن كلثوم الذي بدأ معلقته بوصف الخمر ، ثم عاد بعد ذلك في بيت مصرع إلى التشبيب وبكاء الديار . ويزعم بعض الرواة أن هـذا البيت المصرع هو مطلع المعلقة .

ولكني لم أكتب هذا الفصل لأحدث لك عن عمرو بن كلثوم ومعلقة عمرو بن كلثوم ، فقد يكون لهذا كله فصل آخر ، إنما أكتبه لأحدث عن معلقة امرىء القيس ، ولأبين لك أيضاً أن البكاء على الديار صورة معتادة في الأدب الجاهلي ، بل فيما بعد الأدب الجاهلي كذلك ، فأبو نواس الذي لام الشعراء لبكائهم على الديار قد بكى على الديار قبل ذلك ، ويحضرني الآن مطلع قصيدة له أنشدها في حضرة البرامكة :

أرَبْعَ البلى إن السكون لبادى
عليك وإن لم أخنك ودادى

فالصورة إذاً صورة معتادة فى الأدب الجاهلى قد أثقلتها هذه الأسماء التى كان يحرص على ذكرها العربى ، بل التى ظل يحرص على ذكرها وذكر غيرها من الأسماء حتى العصر الحديث ، برغم أن الشاعر لم يكن قد رآها ، إنما سمعها سماعاً فانطلق لسانه بالحديث عنها أو الإشارة إليها ، ليحفظ بذلك طابع الشعر العربى .

رأى امرؤ القيس بين انتشار بعر الآرام وحب الفلفل بعض التشابه والتلاحم فساق هذا التشبيه فى معلقته ؛ ولست أدرى هل كان هذا التشبيه حبيباً إلى نفس صاحبه أم لا ؟ وهل كان حبيباً إلى نفسك أيها القارئ الكريم أم لا ؟ ولكن الذى أدريه هو أنى لا أعد لفظة الفلفل هذه لفظة شعرية رقيقة بأدق معانى هذه الكلمة ، تحدث فى النفس ما يحدث اللفظ الشعرى من جمال وخيال .

ولكن الصورة التى أتت فى أعقاب الصورة السابقة قد علتها مسحة من الجمال والخيال ، وهذه المسحة قد أتتها من أنها ليست صورة صامتة ، إنما هى صورة متحركة تدفع فكرك إلى التصور والتخيل . فشبه امرؤ القيس نفسه بعد وداع صواحبه بجامع حب الحنظل من الحنظل ، وشبه دموعه المنهمرة بدموع ذلك الرجل ؛ فأنت إذ تذكر هذا تصور امرأ القيس ينتقل من فاتنة إلى فاتنة ، ينهمر الدمع عندما يسمع كلمة من هذه ، ويرقأ الدمع عندما يلمح بسمة من تلك ، حتى إذا ما ودع أولئك الفواتن لم يملك جماح أمره ولا زمام قلبه ولا عنان دمعه ، فمضى يبكى غضبان أسفاً يسيل الدمع مدرارا على خديه ، وأنت إذ تذكر هذا تصور أيضاً جامع حب الحنظل ينتقل من شجرة إلى شجرة ورائحة الحنظل الحادة تستدر مدارف دمعه ، حتى إذا ما انتهى من عمله وتنقله ، كثر الدمع فى مآقيه وسال على خدوده ، على حين أن امرأ القيس كان ينتقل بين غيد ملاح وحور حسان ، لا بين أشجار الحنظل ؛ ولكن صورة دموع امرئ القيس من فراق هاتيك الحسان الملاح رائعة حقاً بارعة حقاً ، كصورة دموع جامع الحنظل ، وهذا ما أراده الشاعر .

ويدعو امرؤ القيس صاحبيه بعد ذلك إلى الوقوف ثم إلى البكاء كما قلت آنفا ، وهو لا يعمد فى هذه الدعوة إلى تشبيه ، إنما هو القول يرسله إرسالا ، ولكن ماذا ؟ لقد تركنا امرأ القيس وصاحبيه يبكون ويعولون ، ولعلهم الآن ضاقوا بالبكاء والعويل ، وها هو صاحب امرئ القيس يذكره بأن حاله اليوم كحاله بل كعادته فى ذرف العبرات على ديار أم الحويرث وجارتها أم الرباب فى هذا المكان الذى يطلقون عليه « مأسل » . ولكن ها هو ذا امرؤ القيس تهيجه الذكرى فيصور هاتين الفاتنتين وقد هبتا من مكانهما يفوح منهما عطر عبق جميل أو مسك شذى بديع ، فهو أشبه شىء بنسيم الصبا الوادع الناعم وهو يخطر على أشجار القرنفل فيحمل بين أعطافه فوح القرنفل العاطر ليعطر به الأجواء .

ولكن نسيم الصبا الذى يحمل بين أردانه ريا القرنفل قد غاب ، وكذلك صاحبات امرئ القيس قد غبن ، وسكبت عينه الدمع عشقاً وشوقاً حتى خضل الدمع نحره وفاض على المحمل الذى يعلق فيه سيفه .

وتعزب صورة أم الحويرث والرباب من ذهن امرئ القيس لتحل محلها صورة أخرى . لتحل محلها صورة يوم جلجل ، صورة ذلك اليوم الذى عقر فيه للعذارى الحسان ناقته فظل العذارى يتهافتن على لحمها الطرى وشحمها الشهى الذى بدا كالحرير الأبيض المفتل ، فيسجل امرؤ القيس هذا كله فى بيت أو بيتين من الشعر ، حتى إذا ما انتهى من غدائه مضى على ناقته يضرب فى الصحراء ، يجنح إلى هذه ويتشبب بتلك حتى وصل إلى عنيزة وسعى إليها فى عقر دارها .

وهاهى ذى تدعوه أن يمتطى معها ظهر ناقتها فيغتبط امرؤ القيس بهذا ، ولكن ماذا ؟ هاهى ذى عنيزة تداعب امرأ القيس وتدعو عليه فى رقة ودعابة ودلال أو تدعو له فى رقة ودعابة ودلال ، فهى تحبه وتوده قريبا منها لولا أن الناقة لا تستطيع أن تحتملهما ، فتدعوه إلى الهبوط حتى لا يعقر بعيرها كما عقر بعيره .

ولكن امرأ القيس كان يهتم بقرب عنيزة ، وأكبر الظن أن عنيزة كانت تهتم بقرب امرئ القيس . والدليل على هذا هو أن امرأ القيس عندما دعاها إلى التخلى عن زمام الناقة صمتت ولم تتكلم ، والمرأة عندما تصمت تريد كما يقول

الفرنسيون ؟ وامرؤ القيس لم يشر إلى حديثها من قريب أو بعيد .

ماذا يقول امرؤ القيس لصاحبته يا ترى ؟ هاهو يميل عليها ويهمس فى أذنها . فلنقف إذاً عند الصور الرائعة والتشابيه البارعة فى أبياته السابقة .

امرؤ القيس يعقر للحسان ناقته ، وهذا ينم عن غنى وترف ويدل على كرم وسخاء ، وامرؤ القيس يشبه شحم المطية بالحرير الأبيض المفتل ، وهذا يدل على غنى وترف وكرم وسخاء فى التعبير والتصوير كذلك .

وامرؤ القيس يصور الهودج فوق الناقة وقد تطوح جهة اليمين تارة وجهة اليسار تارة أخرى ، وصاحبته تدعوه أن ينزل فلا ينزل ولا يحب أن ينزل ، وهو يدعوها أن تقترب فلا تقترب وإن كانت تحب أن تقترب . ولولا أنها تملك زمام الناقة فى يدها ، فيدعوها أن تدع هذا الزمام إن كان يمنعها من الاقتراب وأن تدنو منه علّه ينعم بجسدها العاطر ، وعله يجنى من خدها وثغرها شيئاً كما يجنى البستانى من روضه شيئاً !! ... وهذه الصورة جميلة ما فى هذا شك ، تصور جمال البادية أبدع تصوير ، وتبين غزل البادية فى أجمل بيان . لا تعجبك فحسب ولا تعجبنى فحسب ، إنما تعجب الأوربيين والأمريكيين من السياح الذين يرتادون منطقة الأهرام ومنطقة الحفائر ، ويعجبون بالنوق والجمال ويحبون ركوبها حباً جماً مع صواحبهم وخليلاتهم .

وقد أنبأ امرؤ القيس صاحبته بما دار بينه وبين امرأة حبلى وبما كان من إقبالها عليه داخل الدار وامتناع غيرها منه خارج الدار أو على سفح الكثيب بتعبير أرق وإمعانها فى هذا الامتناع وتشبثها بالقسم الغليظ . فهى واقفة على سفح الكثيب تدل وتمعن فى الدل وتأبى وتمعن فى التأبى ، وامرؤ القيس يضرع إليها ألا تمعن فى الدل ولا تسرف فى التأبى ، فكأنه روميو عند شكسبير يناجى صاحبته جوليت وهى فى الشرفة ، على حين أن صاحبة امرئ القيس تأبى وصاحبة روميو ترضى ، وعلى حين أن صاحبة امرئ القيس قد أخذها صاحبها إلى قمة الكثيب ، وصاحبة روميو قد سعى إليها صاحبها وهى فى الشرفة . فيلح عليها امرؤ القيس ويرجو ، ولكن صاحبته ترفض وتعرض ، فيضيق امرؤ القيس بهذا الإلحاح ويفتر من هذا الرجاء ، ويدعو صاحبته مرة أخيرة أن تكون مشفقة بقلبه عطوفاً على حبه ، ولكنها إن أعرضت فى هذه المرة ورفضت دعوته وسخطت على خلقه وسخرت من طبعه كان عليها أن تفرق ما بينهما من ود وتشتت ما بينهما من حبل ولا تدع الغرور يملأها لأنها ترى حبها فى قلبه غائراً وطلبها منه مستجاباً .

ولكن صاحبته إزاء هذا كله تبكى ، ولكنها لا تبكى خوفاً منه ولا رفقاً به ، إنما تبكى لتلهب جذوة الحب فى قلبه وتحرك لواعج الغرام بين جانحيه ، ولكى تضرب من عينيها نظرات كالسهام تصوبها إلى قلبه المفتت . فلنتركها تفعل ذلك مع صاحبها ولنحلل الأبيات السابقة ولنقف عند مواضع الجمال ومواطن الفتنة فيها .

صور امرؤ القيس نفسه مع المرأة الحبلى تصويراً فاحشاً فاضحاً لا أحب أن أشير إليه من قريب أو بعيد ، إنما أحب أن أقف وأن تقف معى قليلا عند التصوير الذى يليه ، وهو صورة صاحبة امرئ القيس وهى تدل عليه فيسوق إليها هذه الأبيات :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
وإن كنت قد أزمعت هجرى فأجملى
وإن تك قد ساءتك منى خليقة
فسلى ثيابى من ثيابك تنسل
أغرك منى أن حبك قاتلى
وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

ألا تجد فى هذه الأبيات رنة موسيقية عذبة ، فهى حلوة الجرس حلوة اللحن تبعث على الترجيع وتدعو إلى التوقيع ، وتشبه المنظومات فى تركيبها . ألا تجد فى تشبيه امرئ القيس النظرات بالسهام تشبيها مصيباً بارعاً يصور البيئة العربية أصدق تصوير ، ويعبر عن خصال العربى أصدق تعبير . ولقد كثر فى الشعر العربى تصوير النظرات بالسهام حتى العصر الحديث ، فأنت إذا تصفحت ديوان شوقى ومطران قابلت هذا التشبيه مرات متعددة فى مناسبات شتى .

وقد صور امرؤ القيس بعد ذلك موقفه مع صاحبة له سعى إليها والليل ساج وأنجم الليل قد انتثرت على صفحة

السماء الزرقاء كالزبرجد والخرز الذى يزين الرداء ويفصل بين مقاطعه . سعى إليها فى عقر دارها يخبئا ود الأحراس أن يقتلوه شر قتلة ويطردوه شر طردة ، وصور صاحبته كذلك فى ثوبها الجميل الطويل الذى ينساب ذيله على الرمال فيمحو ما تركت أقدامهما من أثر وما خلفته من معالم تساعد على معرفة سبيلهما وتتبع آثارهما . وقد وصف امرؤ القيس صاحبته أوصافاً شتى ؛ فهى نحيلة الخصر ممتلئة الساق ، وهى خفيفة اللحم والدم بيضاء ليست برهلة وليست بمسترخية . قد التمع موضع القلائد فى جيدها كالمرآة الصافية اللامعة . وصاحبته حينا تخفض وجهها عنه وتصرف بصرها عنه لا تطيق على هذا صبراً ، إنما تلحظه بين الحين والحين ، وترعاه بنظرها كما ترعى المها أطفالها بنظراتها الفتانة الحنانة .

وليس من شك فى أن امرأ القيس فى كل هذه الأوصاف رجل عربى أولاً وقبل كل شىء ، ينتزع أوصافه من بيئته التى يعيش فيها ، إلى جانب أنه رجل مترف قد طوف فى الآفاق فاتسع خياله وامتد أفقه الشعرى . كما أن أبياته تدل على جرأته وإمعانه فى طلب اللذة والسعى إليها والتعلق بها غير هياب ولا وجل ، لا يحفل بالعواقب ولا يأبه بالنتائج . ولست أدرى هل كان امرؤ القيس صادقاً فيما ذهب إليه من قول أم لا ؟ ولكن الذى أعتقده أنه كان رجلاً فاتكا لا يتورع عن اقتراف المنكر ، زد على ذلك ما له من جاه وما له من عصبية ترهب منه القوم وتخيف منه الأحراس وتمهد له السبيل .

وقد وصف امرؤ القيس المرأة وصفاً ماديا حسيا ، ولكن وصفه يوائم إلى حد بعيد ذوق الرجل المصرى الذى لا يزال يحرص على دقة خصر المرأة مثلاً لمراقصتها فى المراقص ومصاحبتها فى المحافل ، كما يحرص على امتلاء ساقها وخفة لحمها وما إلى ذلك من أوصاف . وجملة القول أن هذه الأبيات فى هذه المعلقة تعطينا صورة واضحة عن الغزل فى الجاهلية ، كما تعطينا صورة من نفسية ذلك الملك الضليل الذى كان يومه خمراً وغده أمراً ، حتى احتدم عليه الأمر فقرح ومات !!.

جمال الدين الرمادى

الشعر والنثر

(بقية المنشور على صفحة ١٧)

نجدها يفقدان القديم فى كثير من قصائدها ؛ ومعنى هذا أن دعوتهما للتجديد لم يكن ينتظر لها النجاح لأن صاحبيها لم ينتصرا لها كل الانتصار ، ولأنها إلى جانب ذلك قد سلكت طريق الهزل واللهو والعبث ، فنظر إليها الناس على أنها من عبث هؤلاء الشعراء العابثين ، أو « عصابة المجان » كما كانوا يسمون أنفسهم ، وأنها ليست من الجد فى شىء .

وأما محاولة أبى العتاهية فى الشعر التعليمى فلم يقدر لها النجاح الفنى الذى كان ينبغى لها ، ولم نجد من يتمم رسالتها فنيا كما بدأها أبو العتاهية ، ونقول « فنيا » لأن من اتبع أبا العتاهية فى شعره التعليمى كانوا جماعة من العلماء اتخذوه وسيلة لنظم علومهم تيسيراً لحفظها ، فبعدوا به عن طابعه الفنى الذى طبعه به أبو العتاهية ، وانتقلت المسألة عندهم من شعر تعليمى إلى تعليم شعرى .

وأما محاولات شعراء الأندلس التى أنشأت الموشحات ، فأظن أننى لست فى حاجة إلى أن أقول إنها كانت محاولات سطحية تتصل بالطلاء الخارجى لا بالبناء الداخلى ؛ وهى ، عندى ، ليست أكثر من تقتل لأوقات الفراغ التى كانت تملأ حياة هؤلاء الشعراء بأمثال هذه الألوان من التسلية الفنية التى لا تكلفهم مجهوداً كبيراً ، والتى هى أشبه الأشياء بألعاب التسلية التى تقتل بها أوقات الفراغ .

وأما المحاولات الحديثة فى الشعر التمثيلى والشعر القصصى التى بدأها شوقى ، ومحاولات شعراء المهجر فى سبيل الشعر المهموس ، كما يحلو لبعض النقاد المحدثين أن يسميه ، فهى لا تعدو أن تكون محاولات لم تشهد بعد خط تطورها ، ولا نستطيع أن نسبق الزمن لإصدار حكمنا عليها ، وإن كنا نلاحظ أنها لم تصل إلى درجة النجاح الكامل ، وأن شعراء المهجر قد أضعفوا مستواهم الأدائى بقطع صلتهم بالتراث العربى القديم .

هذا شأن الشعر ، أما النثر الذى فقد كان شأنه غير ذلك .

(للبحث بقية)

يوسف خليف

صور خاطفة لشخصيات لامعة

لديل كارنيجي

ترجمة الأديب حسين أحمد أمين

— ٥ —

جوزفين

هذه هي قصة فتاة فقيرة ولدت في قرية من قرى جزر الهند الغربية ، وعاشت في مسكن قذر لا أثاث فيه ، مقام على مصنع لتكرير السكر ، قصة فتاة تزوجت أشهر رجل في تاريخ العالم .

اسمها الحقيقي ماري جوزيف روز تاشر لاباجرى ، ولكن « جوزفين » هو اسمها الذي اشتهرت به .

وهي أكبر من نابليون بستة أعوام ؛ ففي وقت زواجهما كانت في الثالثة والثلاثين ، بينما كان هو في السابعة والعشرين . ولم تكن بالجميلة الطلعة ؛ فأسنانها رديئة ، ومعها طفلان من زوج آخر ، وهي فوق ذلك غارقة في الديون ، حتى كادت أن تدخل السجن من جراء ذلك .. فعيشتها الأولى إذاً كانت صعبة تعسة ، غير أن ميزة بها مكنتها من النجاح .. وتلك هي خبرتها بمعاملة الرجال .. لقد كانت أرملة كثيرة التجارب . وعندما قطع الثوار الفرنسيون رأس زوجها الأول وجدت جوزفين نفسها بلا عائل ولا مال . فبدأت — شأن الأرملة العاقلة — تبحث عن زوج جديد .

وأخبرتها إحدى صديقاتها عن نابليون ، ولم يكن في ذلك الحين قد ارتقى سلم المجد بعد ، وكان فقيراً لا مال عنده ، وقد عاد من حربه الأولى في طولون مصاباً بالجرب ، فاضطر إلى قص شعره كله ليتخلص منه .

ولكن أصدقاء جوزفين أكدوا وبينوا لها ما يمكن أن يكون لهذا الرجل من شأن وصيت . فأحبت أن تقابله ..

ولكن كيف ؟ دبرت لذلك طريقة رائعة ، فأرسلت ابنها الصغير وعمره اثنا عشر عاماً إلى نابليون يسأله أن يرد إليه سيف والده المتوفى . وبالطبع أجابه نابليون إلى طلبه ، فإذا بجوزفين تأتي إليه في اليوم التالي تشكره والدموع في عينيها على رقته وفضله .

وتأثر نابليون بشخصيتها وسحر جنتها الغريبة . ولما أدرك أنها ذات مركز اجتماعي كبير قبل دعوتها إياه إلى منزلها بسرور وفرح عظيمين .. وأثناء تناوله الشاي معها أخبرته أنها تعتقد أنه سيصبح أكبر قواد التاريخ شأناً .. وبعد ثلاثة أشهر أعلنت خطبتهما .

وكان نابليون دقيقاً في حساب وقته ، وكان شعاره : « الوقت هو كل شيء » ، وقال مرة : « قد يحدث فأخسر معارك ، ولكن لن يراني أحد أخسر دقائق » ، ومع ذلك ففي حفلة العرس تأخر ساعتين ، ولما وصل وجد الكاهن قد نام بعد أن مل الانتظار .

وبعد ثمان وأربعين ساعة من الزواج غادرها نابليون على رأس جيشه إلى إيطاليا .. وكان الجيش جائعاً مهلهل الثياب ، ومع ذلك فقد انتصر في مواقع هزت القارة الأوربية جميعها .. فلم يحدث أن شاهدت أوربا حرباً كهذه منذ ألف عام .

والغريب في الأمر أن نابليون في ساحة القتال كان يجد من الوقت ما يسمح له بكتابة خطاب كل يوم لجوزفين.. ويا لها من خطابات حارة ملتهبة .. لقد بيع ثمانية منها بالمزاد

الملق في لندن عام ١٩٣٣ بأربعة آلاف جنيه . وقد قرأتُ بنفسي هذه الخطابات وأرى أنها تستحق المبلغ ..

فترى مثلاً :

عزيزتي جوزفين

إن ذلك الحب الذي بعثتِه في قلبي قد سلبني إدراكي تماماً ، فلم أعد أجد لذة في الأكل ولا راحة في النوم .. لم أعد أهتم بأصدقائي أو أعبأ بالمجد .. والنصر لا أقدره إلا لأنه يسرك .. فإن تراءى إليَّ أن النصر لم يعد يثير إعجابك وسرورك لتركت الجيش وأسرعت عائداً إلى باريس لأرتمي عند قدميك .

لقد أثرت في نفسي حباً لا حد له وخالط عقلي ما يشبه الجنون . ولا تمر ساعة إلا نظرت إلى صورتك .. ولا تمر ساعة إلا وغمرتها بالقبلات !!

وبنفس هذه الروح سطر خطاباته الأخرى إليها .. ومع أن الكثيرات من النساء يقبلن أن تقطع أذرعهن في سبيل خطابات كهذه ، إلا أن جوزفين لم تكن لتعبأ بها . فقد كانت مولعة برجل آخر ، مما أثار حفيظة نابليون ، وخاصة لأنها لم تكن تهتم بالرد عليه إلا نادراً .

ولما نفد صبره إزاء جمودها نحوه وإهمالها إياه اتخذ عشيقة شقراء له أثناء حملته على مصر .. وكانت تصل إلى جوزفين في باريس الأنباء عن زوجها وعشيقته .

وعند عودة نابليون إلى فرنسا كان عليها أن تكفر عما جنته ، فصارحها نابليون برأيه فيها ، وردت عليه برأيها فيه ، وانتهى الصدام بينهما بأن طردها من غرفته وأوصد بابه .

وأحاطتهما المشاكل والخزازات العائلية ! فجوزفين أرقى تربية وثقافة من أخوات نابليون اللواتي كن يعتقدن أن جوزفين تحتقرهن لذلك مما أثارهن عليها . وأقسمن لتتخلصن منها إلى الأبد ، فأثرن حولها السخريات والفكاهات وأطلقن عليها اسم « المرأة العجوز » وحرضن نابليون على طلاق هذه الزوجة السمينة الشمطاء والزواج من امرأة أصغر سناً .

ولكن هذا كله لم يمح من قلب نابليون حبه لامرأته ، فلا سبيل لانقضاء هذا الحب .

وعلى أية حال فقد قر قراره فيما بعد على طلاقها وذلك لسبب واحد فقط : وهو رغبته في أن ينجب وريثاً له .. وقد حز في نفسه هذا الطلاق حتى إنه بكى وهو يوقع الوثيقة ، واعتكف في قصره ثلاثة أيام بعدها يحملق في الأفق رافضاً أن يقابل أحداً أو يقوم بعمل . وبعد الطلاق بوقت قصير تزوج ماري لويز النمساوية .

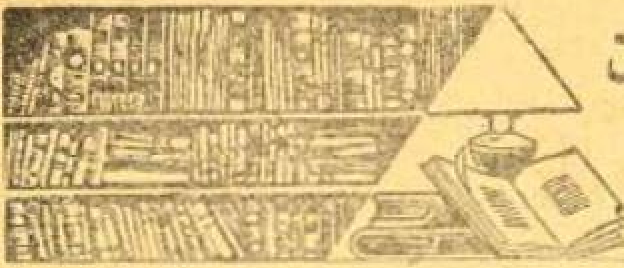
وقد نشأت ماري لويز شأن جميع النمساويين على كراهية نابليون ، وقد دعت ربها أن ينقذها من هذا الزواج ، غير أن أباها أصر ودفعها إلى الزواج من نابليون لأسباب سياسية . ولم تهتم ماري لويز بزوجها كلية ، ولما بدأت أمبراطوريته في التفكك هجرته وبدأت تحمل ابنها على كراهية أبيه .

لقد كانت جوزفين أول حب لنابليون وآخر حب له وأكثر غرامياته قوة .. ولما ماتت زار قبرها وقال وهو يبكي :

« ما كانت جوزفين لتهجرني إذا ما رأتني أسقط » .

وكان اسمها آخر كلمة نطق بها وهو على فراش الموت .

صبحي أحمد أمين



من بطون الكتب

روائع الأدب الغربي في سطور :

قصـــة « رومولا »

للكاتبة چورج إليوت

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

محور هذه القصة التاريخية هو ما دار في مدينة (فلورنسا) في نهاية القرن الخامس عشر من عراك بين « آل مديتشي » وبين السيطرة الفرنسية . ومن صراع بين الوثنية البائدة . وبين المسيحية الحديثة .

وأهم شخوص القصة رجلان : الأول (تيتو ميلينا) ذلك الإغريقي الذي جمع بين الذكاء والجمال وبين الخيانة والغدر . والثاني (جيرولامو سافونا رولا) — ١٤٥٢ — ١٤٩٨ أحد الرهبان الدومينكيين الذي انتخب عام ١٤٩١ رئيساً لدير القديس مرقس . والذي اشتهر ببلاغته خطيباً وكاتباً كما اشتهر بالرؤى والنبوءات فقويت لذلك شوكته . وامتدت سطوته . وعظم نفوذه لدى العامة .

والذي قاد في عام ١٤٩٤ ثورة كان من نتائجها خلع آل مديتشي وإقامة جمهورية ديموقراطية .

والذي كان عداؤه للبابا الإسكندر السادس . سبباً في حرمانه وتجريده من رتبته الكهنوتية . وذلك عام ١٤٩٧ ، والذي كانت خاتمته أن ألقي القبض عليه بتهمة الزندقة ، ثم عذب وشنق ، ثم أحرقت جثته . وذلك عام ١٤٩٨ .

قالت الكاتبة :

في عام ١٤٩٢ تجمعت الجموع كسابق عهدها في ميدان « السوق القديم » في مدينة (فلورنسا) . وكان موت « لورنزو دي مديتشي » قد بلغ مسامع العامة . ومشى بين الناس فتى جميل المحيا ، كان يتكلم برطانة غريبة عن لغة القوم .

وكان هذا الفتى إغريقياً . وكان قد وطئت قدماه أرض (فلورنسا) بعد سلسلة من المخاطرات .

واسم هذا الفتى (تيتو ميلما) وكان يومئذ يدير في عقله حوادث الكارثة التي نزلت بالرجل الذي ربى في بيته وهو (بلداسار كالفو) .

ففي رحلة إلى الجزيرة اليونانية (ديلوس) سطا على سفينتهم لصوص البحر .

وكان من حسن طالع (تيتو) أنه تمكن من الفرار وأنه كان يخفي معه ثروة ضخمة من الأحجار الكريمة . كان يمتلكها الرجل الذي رباه ، فارتقب هذا — وكان شيخاً كبيراً — أن يحتال (تيتو) في أمر افتدائه وخلاصه من أسر اللصوص .

وكان (تيتو) في تلك اللحظة جائعاً . فلما رأى فتاة جميلة تأكل وحدها سألها أن تقاسمه طعام فطورها . وقال لها — في مداعبة — إن الحب هو حافزه لهذا الرجاء .

وقالت له الفتاة إن اسمها (تيسا) . وعلى الرغم من أنها كانت تعمل فلاحة تحرث الأرض فقد فتن الفتى بحسن وجهها ، وجن بها جنوناً .

وقدّمته (تيسا) إلى (نبللو) الذي كان يعرف — على الرغم من أنه كان حلاقاً — كل رجل من رجال الفنون، وكل عالم من علمائها في (فلورنسا)؛ فقد كانت دكانه مجتمع كل الرجال المثقفين في تلك المدينة.

وأعجب (نبللو) الإعجاب كله بجمال (تيتو)، ولما علم أن هذا قد تلقى علومه باليونانية عزم على أن يحوطه برعايته، ولم يلبث أن قدمه إلى (باردو دي باردي) ذلك الأديب العالم الضرير، أحد أفراد آل (باردي) المشهورين، وصاحب أضخم مكتبة في المدينة، تلك المكتبة التي جمعت نفائس الكتب.

فاتخذ هذا العالم (تيتو) كاتم سر له وأعانه على بيع جواهر مربيه، وسرعان ما ظفر (تيتو) بثقة الجميلة الفاتنة (رومولا) ابنة ذلك العالم.

وكانت هذه الفتاة تحيا حياة عزلة، وتعاون أباها في مكتبته، فلما رأت (تيتو) أحبته لأول نظرة، ووثقت به ومنحته ودها، ما كانت تشك أبداً في تشابه المثل العليا لديهما. ولم تكن تعرف ما قام بينه وبين الفتاة (تيسا) من علاقات.

وبعد بضعة أشهر، وفي يوم ذكرى القديس (جيوفاني) جاء أحد الرهبان فسلم (تيتو) خطاباً جاء به رجل كان قد لقي (بلداسار كالفو)، وفي هذا الخطاب يسأل الشيخ أن يسارع (تيتو) إلى افتدائه من الأسر.

وكان (تيتو) في تلك الأونة قد أصبح مرموق المكانة بين علية القوم في فلورنسا. فقد نصبوه أستاذاً للغة اليونانية، وسرعان ما أحس في نفسه أن لا بد له أن يعلن خطبته للفتاة (رومولا)، ولم تكن به رغبة مطلقاً في أن يفك أسر مربيه.

وكان الراهب الذي سلمه الخطاب هو (الأخ لوكا) وكان قد عاد من بلاد الشرق مريضاً يعاني السقام، ولم يلق (رومولا) بأنه يعرف (تيتو). ولكنه، وهو يعاني سكرات الموت، وفي حضرة (سافونارولا العظيم)، حذرها تحذيراً خفياً لم تستطع ساعتئذ أن تفقه مغزاه.

وفي الوقت نفسه كان (تيتو) قد تزوج الفتاة (تيسا) زواجاً شكلياً، تلك الفتاة التي بلغت في السذاجة حداً، لم تستطع أن تتبين به ما في ذلك الزواج الشكلي من غش وتدليس.

وبعد قليل تزوج (تيتو) الفتاة (رومولا) بعقد صحيح.

ثم زاد (تيتو) ثراء ومالاً، وبلغ من ثرائه أنه كان من بين المواطنين الذين دُعوا لاستقبال ملك فرنسا (شارل الثامن) يوم دخل (فلورنسا) زائراً، وقد جاء في ركاب الملك الرجال الذين كانوا في أسر الفرنسيين، وكان من بين أولئك الأسرى (كالفو المحرم) وقد عرف هذا الشيخ — على الرغم مما أصاب عقله من تخرّف — ربيبه (تيتو) أثناء الطواف به في شوارع (فلورنسا) مع سائر الأسرى، ولكن (تيتو) أنكره الإنكار كله على الرغم من معرفته به.

ثم ألتقى بالشيخ الثائر — بطريق المصادفة — في بيت (تيسا) الذي اتخذه بعدئذ ملاذاً وملجأ. فلما زار (تيتو) الفتاة (تيسا) أذهله لقاؤه المفاجئ للشيخ الذي رآه؛ فهجم عليه هذا، ولكن الدرع التي كان (تيتو) يدرعها وقته شر طعناته.

وفي تلك الأثناء مات العالم الضرير (باردو دي باردي) وكانت آخر وصية له أن تكون مكتبته الضخمة — التي قضى عمره في ترتيبها وجمعها — حلالاً مباحاً لأهل (فلورنسا).

ولكن (تيتو) — لحاجته إلى المال — عقد العزم على بيع مجموعة الكتب، ولأول مرة تبينت (روموﻻ) ما عليه (تيتو) زوجها من ضلال وغي.

أما وقد زالت عن عينيها الغشاوة فقد رأت أن العهود التي بينها وبين (تيتو) يجب أن تنقض. فأجمعت أمرها على مفارقته.

وبينا هي في طريق الخروج من (فلورنسا) مستخفية لقيها (سافونارولا) فاستوقفها ونصح لها بأن تعود إلى

للدينة ، مؤكداً لها أن ليس من الخير أن تضع أهواءها الشخصية فوق الخير الذى تستطيع أن تغدقه على أهل (فلورنسا) .

فنزلت الفتاة على حكم (سافونا رولا) وعادت أدراجها لتعيش مع (تيتو) ولكنها نذرت لله أن لا تفعل إلا الخير للناس . فأصبحت واحدة من أتباع (سافونا رولا) المخلصين ، على الرغم من أنها كانت لا تقره على جميع آرائه .

أما (تيتو) ، فقد ظل يرقى معارج السياسة ، ولكنه كان متزعزع الولاء ، وكان فى قدرته أن يخدم كل حزب موهماً إياه أنه لا يخدم حزباً سواه .

وحاول (بلداسار كالفو) مرة أخرى أن يعلن شكاته من (تيتو) شارحاً للناس ألوان التهم ، وكان ذلك أثناء وليمة كبرى أقيمت فى إحدى الحدائق .

ولكن (تيتو) استطاع بنفوذه القوى أن يزج بالرجل فى السجن حيث أقام سنتين .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد استطاع (كالفو) أن ينبئ (روموﻻ) بنبأ (تيسا) ، وبأنباء ولديها اللذين رزقتهما من (تيتو) .

وفى عام ١٤٩٧ ثبت أن لتيتو يداً كبرى فى المؤامرة (الديتشية) ؛ فقد خان (تيتو) أبا (روموﻻ) فى العهاد ووشى به ، وهو (برناردو دل نيرو) الذى طالما أسدى الخير لأبيها ، فقبض على الرجل بوصف أنه ضالع فى المؤامرة .

ولما لم تستطع (روموﻻ) أن تستمد العون من (سافونا رولا) لإنقاذ أبيها فى العهاد ، فقد حوكم هذا وشنق ، فلم تر هى بداً من الفرار من (فلورنسا) .

وحطت الفتاة رحالها فى قرية أصاب أهلها الوباء ، فعملت فى تمريض المرضى ، وعاشت بين أنياب المرض ومخالب الموت .

وبينا هى فى رحلتها تلك قبض على (سافونا رولا) ، وساد الذعر مدينة (فلورنسا) .

ثم علم الناس آخر الأمر بخيانة (تيتو) ؛ فقد أنبأهم بها (دولفو سبينى) وأنصاره الذين جمعوا الجموع ومشوا إليه مغاضبين .

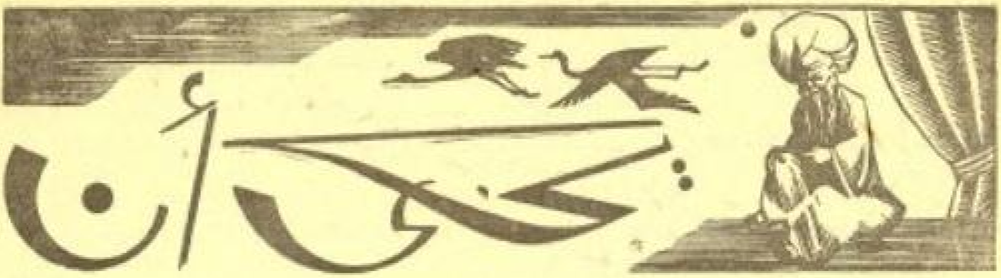
فهرب (تيتو) ، وعبر النهر سابحاً ، فلما بلغ الضفة الأخرى ، وكان قد أضناه الجهد ، لقيه (بلداسار كالفو) فقتله خنقاً ، ثم قتل نفسه .

وعادت (روموﻻ) إلى (فلورنسا) حيث علمت بموت زوجها ، وكانت حاضرة يوم فاضت روح (سافونا رولا) .

ثم بحثت من بعدها بالمرأة (تيسا) وطفليها فأسكنتهم بيتها وظلت ترعاهم وتعنى بأمرهم .

ثم عاشت بعد ذلك بقية عمرها لا تعرف إلا الولاء لذكرى أستاذها العظيم (سافونا رولا) ...

(من الإنجليزية) مبارك إبراهيم



الجرح الخفي

للكاتب الهنغاري كارولي كسفالودي

ترجمة الأستاذ محمد فتحي عبد الوهاب

في صباح ذات يوم ، استقبل الجراح الشهير زائراً في عجلة من أمره ، يطلب الاهتمام بحالته ؛ فإنها لا تحتمل التأجيل لحظة واحدة . وأفصح وجه الرجل الشاحب وحالته العصبية عما يعانيه من ألم جسدي شديد . وكانت يده اليمنى ترتكز على رباط حامل ، وافلتت من بين شفتيه صيحات من الألم من حين إلى آخر .

— تفضل اجلس . ما الذي أستطيع أن أفعله لك ؟ .

— لقد أصبحت عاجزاً عن النوم منذ أسبوع . إنها آلام في يدي اليمنى لا أستطيع أن أعلّل لها سبباً . فلعلها من سرطان أو أي داء عضال آخر . إنها لم تضايقني كثيراً بادئ ذي بدء ، بيد أنها أخذت تؤلمني أخيراً ، فتسلبني راحتي . تؤلمني ألماً فظيعاً ، ألماً يزداد كل ساعة ، ويشتد شيئاً فشيئاً حتى أصبحت لا أحتمله . لقد أتيت إليك من بلدتي أطلب استشارتك . فإذا كتب عليّ أن أكابده ساعة أخرى ، فأنا فاقد عقلي لا محالة . إني أود أن تحرقها أو تقطعها أو تفعل بها ما تشاء .

فطمأنه الجراح بقوله : إنه ربما ليس هناك ما يدعو إلى إجراء عملية جراحية . فألح الرجل قائلاً :

— كلا ، كلا ، لا بد من العملية . لقد أتيت واضعاً نصب عيني أن أستأصل الجزء المعتل ، فلن يجدي غير ذلك .

ثم خلص يده من الرباط في مجهود زائد وقال :

— أرجو ألا تتولاك الدهشة إذا لم تر جرحاً ظاهراً في يدي . فإن حالتي هذه غريبة في بابها .

فأكد له الجراح أنه ليس من عادته أن يدهش من كل ما هو غريب . ومع ذلك ، أسقط اليد بعد أن فحصها ، وقد تولته دهشة بالغة . فقد ظهر له أنه ليس هناك شيء فيها ، بل كانت تبدو مثل اليد الأخرى ، حتى لونها ، لم يكن متغيراً . ولكن كان من الجلي أن الرجل يعاني آلاماً مبرحة .

— أين موضع الألم ؟ .

فأشار الرجل إلى بقعة مستديرة بين الوريدين الكبيرين . وما إن لمسها الجراح بطرف بنانه في مزيد من الاحتراس ، حتى جذب المريض يده في سرعة .

— أتؤلمك في هذه البقعة ؟ .

— نعم ، ألماً فظيعاً .

— أتشعر بالألم عندما أضع إصبعي عليها ؟ .

فلم يجب الرجل ، بيد أن الدموع التي ذرفتها من عينيه كانت تنطق بما يعانيه من ألم .

— غريب جداً ! إني لا أرى شيئاً .

— ولا أنا . بيد أن الألم كأن فيها . إني أفضّل الموت على الاستمرار في هذه الحال .

وفحص الجراح البقعة مرة أخرى بمنظاره ، ثم قاس

درجة حرارة المريض ، وأخيراً هز رأسه قائلاً :

— إن الجلد سليم جداً . والشرايين طبيعية . ولا أثر لالتهاب أو ورم . إن يدك سليمة كاليد الأخرى .

— أعتقد أنها أكثر احمراراً في هذه البقعة .

— أين ؟ .

فرسم المريض دائرة على ظاهر يده في مساحة الدبوس وقال :

— هنا .

ونظر الطبيب إليه مفكراً . لا بد أنه يحادث مجنوناً . وأخيراً قال له :

— عليك بالبقاء في المدينة . وسأحاول أن أساعدك في الأيام المقبلة .

— ليس في وسعي أن أنتظر لحظة . لا تظن أني مجنون ، أو واقع تحت تأثير وهم . إن هذا الجرح الحق يؤلمني كثيراً . وأود أن تستأصل الجزء المستدير حتى موقع العظم .

— لن أفعل ذلك يا سيدي .

— لماذا ؟ .

— لأنه ليس هناك شيء في يدك . فإنها سليمة كيدي .

فقال المريض وقد أخرج من حافظة نقوده أوراقاً مالية قيمتها ألف فلورين ، ثم وضعها على المائدة :

— أظنك تخالني مجنوناً أو مخادعاً . إذاً فاعلم أني غير هازل ، وأن الأمر يهمني لدرجة أني على استعداد لدفع ألف فلورين بسببه . فأرجو أن تقوم بإجراء العملية .

— لن أمس يداً صحيحة بمبضعي ولو أعطيت لي مال العالم .

— ولِمَ لا ؟ .

— لأنه يخالف آداب مهنتي . فقد يدعوك الكل معتوهاً ، ويتهمونني باتفاقي ضعفك أو بعجزي عن تشخيص جرح ليس له وجود .

— حسن جداً ياسيدي . إني أسألك إذاً منة أخرى . سأقوم أنا بإجراء العملية . وغاية ما أطلبه منك أن تعتني بالجرح بعد ذلك .

ورأى الجراح في دهشة أن الرجل جاد في قوله . ولاحظه وهو يخلع سترته ويشمر كم قميصه . ثم أخذ مطواة من جيبه ، وقبل أن يتدخل الطبيب ، كان المريض قد أصاب يده بجرح عميق . فصاح الطبيب وقد خشي أن يصيب المريض شرياناً .

— قف . مادمت تعتقد أنه لامناص من إجراء العملية ، فدعني أقوم بإجرائها .

وعندما بدأ في القطع نصح للرجل أن ينحي برأسه بعيداً ، فالإنسان على وجه العموم يرتبك عند رؤيته دمه . فقال الآخر :

— لا حاجة بي إلى ذلك . فلابد أن أرشد يدك حتى تعرف مدى عمق القطع .

وقاد المريض العملية في مهارة ورباطة جأش ، واستفاد الطبيب من إرشاداته . ولم ترتجف يده مطلقاً . ولما فرغ الجراح من استئصال البقعة المستديرة تنفس المريض الصعداء في سعادة كأنما ازاح عن كاهله عبء ثقيل .

وسأله الجراح : ألا تشعر الآن بأي ألم ؟

فتبسم الرجل قائلا : ليس هناك أدنى ألم . إن ذلك التأثير البسيط الناتج من الاستئصال يبدو وكأنه نسيم عليل بارد يهب بعد حر شديد . دع الدم يجري فإنه يهدئ من حالي .

وبعد أن ضمد الطبيب الجرح ، بدا المريض سعيداً راضياً ، وأصبح رجلاً آخر . ثم ضغط على يد الطبيب بيده اليسرى شاكراً .

وزاره الجراح بعد ذلك بفندقه عدة أيام . وتعلم كيف يحترمه . فقد كان يتبوأ مركزاً كبيراً في الحكومة . وكان مثقفاً ينتمي إلى عائلة من أعرق عائلات القاطعة .

وبعد أن اندمل الجرح تماما ، عاد الرجل إلى بلدته .

ثم مرت أسابيع ثلاثة ، ظهر بعدها المريض في عيادة الجراح مرة أخرى . وكان يشكو نفس الآلام في ذات الموضع . وبدا وجهه باهتا كالشمع ، وقد تفصد العرق البارد من جبهته . وتهالك جالساً على مقعد . ثم مد يده اليمنى إلى الطبيب دون أن يفوه بكلمة .

— يا إلهي ! ما الذي حدث ؟

فتأوه قائلاً : إنك لم تستأصل البقعة بما فيه الكفاية . لقد عاودني الألم . بل هو أسوأ من ذي قبل . وأكاد

أموت منه . وقد احتملته فترة من الوقت لرغبتى فى عدم إزعاجك ثانية . بيد أنى لم أعد أستطيع تحمله أكثر من ذلك . يجب أن تجرى العملية مرة أخرى .

وفحص الطبيب الوضع . كان الجرح قد اندمل وتغطى بطبقة جديدة من الجلد . ولم يبد أن أحد الأوردة قد تأثر . وكان النبض عاديا ، ولم تكن هناك أعراض حمى . ومع ذلك كان الرجل يرتجف حتى أطرافه .

ولم يكن ثم مندوحة عن إعادة إجراء العملية . فتمت كما فى المرة الأولى ، وانقطع الألم . بيد أن المريض قد خانته الابتسامة فى هذه المرة ، وكانت تلوح على محياه دلائل الحزن واليأس وهو يشكر الطبيب .

وقال له قبل أن يغادره : لا تعجب إذا ما عدت إليك مرة أخرى خلال الشهر .

فقال الطبيب : يجب ألا تفكر فى ذلك .

فقال فى لهجة أكيدة : إنه شىء محقق عندى ، كحقيقة وجود الله . إلى الملتقى .

وانقضى شهر دون أن يحضر المريض . ثم تتابعت الأسابيع قبل أن يصل منه خطاب ، فلما جاء فضه الطبيب فى سرور وقد اعتقد أن الألم قد زال نهائياً . كانت الرسالة تتضمن الآتى :

«عزيزى الدكتور . إنى لا أروم أن أتركك نهبة للشكوك عن أصل متاعبى . ولا يهمنى أن أحمل سرى معى فى قبرى أو ربما فى مكان آخر . بل أود أن تلم بتاريخ مرضى المؤلم . لقد عاودنى مرات ثلاثاً ، ولست بعازم على مواصلة الكفاح بعد ذلك . إنى لم أستطع كتابة هذه الرسالة إلا بعد أن وضعت جذوة متوهجة على الوضع حتى أخمد ذلك اللهيب الجهنمى المحترق فى داخله .

«تزوجت منذ عام بعد أن أطعت داعى العاطفة . وكانت زوجتى حسناء فى مقتبل العمر . وكانت من قبل وصيفة لكونتيس تقطن على مقربة من أملاكى . وبادلتنى حباً بحب . ومرت علينا أشهر ستة كنا فيها فى أوج السعادة . وكنا مع كل يوم نزداد نعيما وهناءة . كانت تسير أميالا فى الطريق حتى تتلقانى عند أوبتى ، ولا تقبل الإقامة حتى فى دار سيدتها السابقة ، تلك التى كثيراً ما كانت تزورها وتظل معها مدة طويلة . لقد حسدنى الكل على حنانها نحوى ، وفى الحق كانت طفلة جميلة ساذجة .

«ولا أستطيع أن أقول لك ما الذى دفعنى إلى الاعتقاد أن كل ما تفعله لم يكن إلا ادعاء وتصنعاً . إننا معشر الرجال من الحماقة بمكان ، حتى إننا نبحث عن البؤس وسط أقصى درجات سعادتنا .

«وكانت لها مائدة للخياطة ، تحتفظ بدرجها مغلقاً دائماً وتحرص على ألا تترك المفتاح فى الدرج مطلقاً . فبدأ ذلك يثير شكوكى . وسألت نفسى : ما الذى تخفيه فى داخله ؟ وعلكتنى غيرة جنونية . ولم أعد أومن بعينيها البريئتين ، ولا بقبلاتها الحارة . من يدرى ؟ فلعل كل ذلك يخفى وراءه خدعة ماكرة .

«وفى ذات يوم قدمت الكونتيس ، وأقنعت زوجتى بقضاء اليوم فى قصرها . ووعدتها باللحاق بها بعد ظهر اليوم . وما كادت المركبة تبتعد بهما حتى أخذت أحاول فتح الدرج . واستعملت شتى المفاتيح إلى أن افتتح أخيراً . واكتشفت بين حاجياتها النسائية ، تحت منديل حريرى ، حزمة من الرسائل ، عرفت من نظرة واحدة أنها رسائل غرام ، مربوطة بشريط وردى .

«ولم أنتظر حتى أفكر فى أنه ليس من الشرف فى شىء أن أقترف مثل هذه الحماقة ، فأنقب عن أسرار زوجتى وقت صباها ! بل دفعنى دافع إلى الاستمرار فى البحث ، فلعل ذلك الحب قد حدث فى عهد متأخر — بعد أن حملت زوجتى اسمى . وفككت الشريط وقرأت الرسالة تلو الرسالة .

كانت أفظع ساعة فى حياتى تلك التى قرأت فيها هذه الرسائل . فقد أظهرت لى أكبر خيانة زوجية لا تغتفر . وكان كاتبها رجلاً من أعز أصدقائى . ولهجتها ... لقد دلت على أحسن الود وأعمق العاطفة . قرأت كيف يدفعها إلى التكتم ! وما يقوله عن الأزواج الغافلين ! وكيف نصحها بما تفعله حتى يجهل زوجها علاقتهما ! وكانت كل رسالة منها قد كتبت بعد زواجنا .

« إنى لا أود أن أصف لك شعورى حينئذ ، أنا الذى كنت أعتقد أنى قد وصلت إلى ذروة السعادة ! لقد قرأت الرسائل جميعها ، شربت السم حتى الثمالة ! ثم جمعتها وأعدتها إلى مخبئها ، وأغلقت الدرج .

« كنت أعرف أنى إذا لم أذهب إلى قصر الكونتيس فستعود زوجتى فى المساء . وهكذا بالفعل ما حدث ، فقد نزلت من المركبة فى بهجة ، واندفعت تتلقانى عند مدخل الدار ، وقبلتنى واحتضنتنى فى حنان . وتظاهرت بأنه لم يحدث شىء ، وتجاذبنا أطراف الحديث ، وتناولنا طعام العشاء ، ثم ذهبنا إلى الفراش ، كل فى حجرته . كنت قد قررت فى ذلك الوقت ما الذى سأفعله وأقوم به فى عناد رجل مجنون ، وحدثت نفسى قائلاً : « يجب تلك الطبيعة الخادعة التى تهب الرذيلة إلى مثل هذا الجمال » كنت أحدث نفسى وأنا أدلف إلى حجرتها فى منتصف الليل ، وأتأمل ذلك الوجه الجميل الساذج ، وهى نائمة . وكان السم قد بدأ تأثيره فى روحى ، وسرى فى كل عرق ينبض فى كيانى . ووضعت يدى اليمنى فى سكون على عنقها ثم ضغطت بكل قواى . ومرت لحظة قبل أن تفتح عينيها وتنظر إلىّ فى دهشة . ثم أغمضتهما ثانية وأسلمت الروح ، دون أن تبدى أية مقاومة للدفاع عن نفسها ، بل ماتت فى هدوء كما لو أنها كانت فى حلم ، ودون أن يظهر عليها ما يدل على أنها قد حملت أية ضغينة نحوى لقتلى إياها . ثم انحدرت قطرة واحدة من الدم من بين شفتيها ، وسقطت على يدى — فى الوضع الذى تعهده أنت . ولم ألاحظها إلا فى الصباح بعد أن جفت تماماً .

« وقمت بدفنها دون أية جلبة ، فقد كنت أعيش فى الريف فى مقاطعتى الخاصة ، ولم يكن هنالك من يشك فى شىء ، فضلاً عن أنه لا يوجد من يخطر على باله فكرة قتل زوجتى ، ولم يكن لها أقارب أو أصدقاء ، ولذلك لم توجه إلىّ أسئلة عن سبب موتها . وتعمدت إعلان وفاتها للجميع بعد انتهاء الجنازة حتى أتهرب من فضول الناس . ولم أشعر بأى تأنيب للضمير ، كنت قاسياً ، بيد أنها كانت تستحق ذلك . وكان فى استطاعتى أن أنساها فى سهولة . وما من قاتل أقدم على ارتكاب جريمته فى قسوة مثلما أقدمت .

« وعندما عدت إلى الدار بعد انتهاء الجنازة ، أقبلت علىّ الكونتيس بعد أن وصلها خبر وفاتها متأخراً كما درت وكانت فى اضطراب شديد ، وتحدثت فى لهجة غريبة حديثاً لم أفهم له معنى وهى تحاول تعزيتى . وفى الواقع ، لم أصغ إليها باهتمام ، فقد كنت فى غير حاجة إلى العزاء . ثم قبضت على يدى فى رفق وقالت : إنها تود أن تأتمننى على سر ، وتأمل ألا أنتفع به . ثم أخبرتنى أنها أودعت لدى زوجتى حزمة من الرسائل ، كان من المتعذر عليها الاحتفاظ بها فى قصرها ، وسألتنى إذا كنت أستطيع أن أردها إليها . وحينئذ شعرت ببرودة هائلة تسرى إلى جسدى . وفى هدوء متكلف سألتها : ما الذى تتضمنه هذه الرسائل ؟ فارتجفت عندما سمعت سؤالى وقالت : « لقد كانت زوجتك أكثر النساء وفاء وإخلاصاً . فلم تسألنى عن محتويات هذه الرسائل . بل وعدتنى ألا تطلع عليها مطلقاً » .

— وأين كانت تحتفظ برسائلك ؟

— لقد أخبرتنى أنها تخفيها فى درج مائدتها ، وهى مربوطة بشريط وردى ، فلن يصعب عليك تمييزها ، ثلاثون رسالة فحسب .

« وقدتها إلى المائدة ، وفتحت الدرج ، ثم أخرجت الرسائل وقلت لها : هل هذه رسائلك ؟ .

« فأخذتها فى لهفة ، ولم أجرؤ على رفع عينى خشية أن تقرأ فيهما شيئاً ، وسرعان ما غادرتنى وخلفتنى وحيداً .

« وبعد أسبوع من وفاة زوجتى شعرت بألم فى الموضع الذى سقطت فيه قطرة الدم ، ثم أنت تعرف بعد ذلك بقية القصة .

« إنى أعرف أنه لا يوجد سبب للألم ، ولكنه إيحاء لا أستطيع التخلص منه ، إنه عقاب أستحقه جزاء الكراهية والقسوة والغيرة التى دفعتنى إلى قتل قتاتى البريئة المحبوبة . ولا أستطيع الآن مكافحة الألم ، ولذلك فأنا فى طريق اللحاق بزوجتى حيث أطلب منها غفرانها ، وإنها ستغفر لى بكل تأكيد ، وستحبنى كما كانت تحبنى من قبل .

« وإنى لأشكرك على كل ما بذلته لأجلى » .

محمد فتحى عبد الوهاب

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

صحيفة

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول | محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٠٦ | الاثنين ٢٣ من شوال سنة ١٣٦٩ — ٧ من أغسطس سنة ١٩٥٠ | السنة الثانية عشرة

في السياسة الدولية :

مشكلة كوريا والأزمة الدولية

للأستاذ أحمد طه السنوسي

مشكلة كوريا شرارة تشتعل في الشرق الأقصى يقف العالم أمامها خائر الأعصاب مشتت الفكر لا يدري هل ستزيد شعلتها ولهيبها أم ستخمد الجذوة بعد قليل !؟ .

هذه الشعلة التي اشتعلت في الشرق الأقصى هزت الدول ورؤساء الدول ، وجمعت بين أمم كثيرة ووحدت بين أحلاف عديدة لمواجهة الشعلة والعمل على إخماد أوارها بخطب اللسان تارة ، وبشن الحرب تارة أخرى .

وأريد هنا أن أتعرض بالحديث عن هذه الكوريا التي استحوذت مشكلتها على الألباب ، فأخذت بجمعها وأمسكت بزمام العالم ، فأسلس العنان للتفكير والتدبير والتحفز والوثوب .

يسكن كوريا حوالي ثلاثين مليون نسمة ، وتنقسم قسمين : قسم في شمالها ، وقسم في جنوبها ، والأول معقل للشيوعية ، والثاني معقل للديمقراطية ، يفصل بينهما خط وهمي يقولون عنه إنه الخط الثامن والثلاثون من خطوط العرض ، بيد أن هذا التقسيم لا يقوم على أساس اقتصادي ، أو قومي ، أو أي أساس من الأسس .

والقسم الشمالي من الناحية الاقتصادية يحتل موارد الفحم ومناجمه ، كما يوجد به المنشآت الكهربية والدور الصناعية ؛ أما القسم الجنوبي فيمتاز باحتوائه على أخصب الأراضي من الناحية الزراعية .

وقد دخل الأمريكان جنوب كوريا ، كما دخل الشيوعيون شمالها ، وذلك في شهر سبتمبر عام ١٩٤٥ ؛ وقد قرر الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية تأليف لجنة تتكون من الأمريكان والروس كي تضع برنامج حكومة مؤقتة في داخل كوريا ، وقد قامت عقبات كبيرة لوقف تأليف هذه الحكومة ووضع برنامجها لاستمساك الشيوعيين بشمال هذه البلاد ، وبالرغم من أن الحلفاء بعد الحرب الأخيرة قد قرروا أن من حق كوريا الاستقلال ، وقد انتهى الوقت أخيراً بقيام حكومتين داخل هذا البلد ؛ فقامت حكومة شيوعية في الشمال ، والأخرى أمريكانية في الجنوب ، وقد عرض شأن هاتين الحكومتين على هيئة الأمم المتحدة ، وقد قررت لجنة هيئة الأمم السياسية أن تنكر وتستنكر قيام الحكومة الشمالية ، لأن الانتخابات التي

أقامتها قد رفضت واستنكرت رقابة هيئة الأمم عليها ، أما الحكومة الجنوبية ، فقد أقرتها اللجنة السياسية ، وذلك منذ عام ١٩٤٨ . وقد بدأ خلاف كبير بين وجهات النظر السياسية والاقتصادية بين حكومتي الشمال والجنوب ، وقد أفضى ذلك إلى النزاع الأخير والحرب الأخيرة التي تطورت إلى تدخل المعسكر الأنجلو — أمريكي .

وأريد أن نعرج إلى كوريا من ناحية القانون الدولي زيادة عما سلف ؛ فأقول : إن كوريا كانت دولة تابعة ذات سيادة جزئية ، بيد أنها ظلت تعتبر من الشخوص الدولية ؛ وذلك يرجع إلى استمرار وجود ممثلي الدول الأجنبية السياسيين والديبلوماسيين ممثلين لدى حكومة سيول عاصمة كوريا ، وقد جعلت اليابان لها في كوريا المستقلة مستشارين ماليين وديبلوماسيين يترأسون الإدارة فيها ، وكانت اليابان قد ضمنت استقلال هذه البلاد في عام ١٩٠٤ ، وقد استطاعت اليابان أن تستحوذ على الإدارة السياسية لكوريا ، كما سيرت أمورها الخارجية بعد أن استولت على الموانى والتلغرافات والتليفونات وسواها من وسائل المواصلات .. وهكذا كانت كوريا من ناحية القانون الدولي وصلتها باليابان واعتبارها شخصاً دولياً ...

يقول رفعة الأستاذ علي ماهر باشا في (القانون الدولي العام) : « وما دام مبلغ التبعية غير محدود ، فإن هذه الحالة لا تدوم طويلاً ؛ لأن العلاقات إما أن تزيد ، وإما أن تضعف ، والدولة التابعة إما أن تتقدم إلى الاستقلال التام ، وإما أن تلحقها الدول المتبوعة بها ، كما فعلت اليابان بكوريا في سنة ١٩١٠ » .

ويقول رفعته أيضاً في الدول ذات السيادة الجزئية : « الدولة التي لها حكومة أهلية تامة السلطة في الداخل ، ولكن لدولة أجنبية نصيب في إدارة أمورها الخارجية تكون دولة ذات سيادة جزئية ؛ ومهما كان العنوان الموسومة به بين الدول ، فإنها في الواقع دولة تابعة ، والدول الأجنبية التي تتولى أمورها دولة متبوعة » .

هذه بعض معلومات عن كوريا من ناحية القانون الدولي عرضتها لأهميتها ؛ ولأننا في هذا الوقت الراهن في حاجة إلى كل معلومات عن هذا البلد الذي يستحوذ على لب السياسة الدولية في هذه الأيام ...

وروسيا في حرب كوريا الحالية تقف موقفاً محيراً يفيدها فائدة تفرح لها كثيراً ، فنحن نجد أنها قد استفادت فوائد وبدت أمامها أمور تود أن تقف وتطلع عليها وتعرف مداها ...

فأول كل شيء ، يدل موقف روسيا على قوة شخصية وعلى اتزان بالنسبة إلى حماس المعسكر الأنجلو — أمريكي وخروجه عن حد الاتزان إلى امتشاق الحسام . وروسيا تريد أن تطلع على قوة دول ذلك المعسكر ، كما أنها تريد أن تجرب بعض الأسلحة الروسية الجديدة في ميدان القتال مما ظهر أخيراً في الحرب الكورية ، ومما عجب له المحاربون الأمريكانيون ؛ ثم أضيف إلى ذلك أن روسيا تحب أن ترى المواقف الدولية التي تتمخض عنها حرب كحرب كوريا تزعزع أقدام السلام في هذا العالم الهتاج كموقف دول الشرق مثلاً ؛ كما لا يخفى كل عاقل أنها تود أن توجه الانتباه إلى قطعة شرقية بسيطة لم يكن أحد ليسمع عنها إلا نادراً مثل كوريا ، للاهتمام بمسألتها والحرب فيها وإفناء قوى العدو ، لتتمكن هي من تعزيز الموقف والمكانة الحربية والعسكرية والاستراتيجية في المواقع الهامة الأخرى كإيران وتركيا وألمانيا الشرقية ... والعالم وخاصة الشيوعي منه ينظر إلى عدم تهور روسيا كأمريكا في مسألة المحافظة على السلام وحرب كوريا ، فتظهر أمامه وأمام سواه هذه الروسيا بمظهر المسالم المتزن ، كما أن الروسيا بهذه السياسة تحتفظ لنفسها بخط الرجعة ..

والمعروف أن مندوب روسيا قد ترك هيئة الأمم ومجلس أمنها منذ زمن بسبب عدم تمثيل الصين الشيوعية وإحلال مندوبها محل مندوب الصين الوطنية ، ومن هنا يفهم أن هنالك هوة سحيقة بين المعسكرين الكبيرين ، والروسيا تريد تمثيل الصين الشيوعية في مجلس الأمن ، والأمم الديمقراطية تأبى ذلك ؛ فما الرأي لو أن الروسيا أرادت بإثارة الحرب الكورية أن تجبر مجلس الأمن على قبول ذلك الممثل الشيوعي الصيني ، أو أن تمهد لذلك القبول بطريق سياسي بارع ، ثم لو أن الأمر في حرب كوريا

تطور زيادة على ذلك وتدخلت الصين الشيوعية فيها تدخلاً عسكرياً ؛ فإن الحالة سوف تزداد ولا شك سوءاً وتعقداً ، وسوف يكون ذلك تثبيتاً لدعائم الصين الشيوعية وسبيلاً لاتفاقها النهائي والتلاحق مع روسيا الشيوعية . وإن أمريكا والدول الرأسمالية معها لتحس بمرارة كبيرة وهي تأبى أن تسلم بقبول الممثل الصيني الشيوعي لأنها قد أهملت أمر الصين ولم تنظر بحكمة إلى عواقب الأمور ، وكانت تهزأ بقوة الجيش الأحمر والطابور الخامس الشيوعي ونفوذه ، وهي تدفع اليوم الثمن غالياً وعاقبة التقصير حسرات وحسرات ، يدلنا موقفها السريع من حرب كوريا بوضوح على هذه الحسرات ...

لقد دلتنا التطورات في الحرب الكورية على أشياء قمينة بالنظر ، بل تستحوذ على الاهتمام وتتطلب الانتباه ، ودلتنا على أن الروسيا في السنين الأخيرة لم تكن نائمة بل كانت تصنع المدافع والطائرات والقنابل والدبابات ، ودلتنا على أن النطاق الحديدي الذي حفت به حدودها السياسية إنما كان سياسة بديعة استطاعت بها تعمية الخارجين عن هذا النطاق في الوقت الذي تكد فيه وتكدح في سبيل رفع الثروة الصناعية والحربية والعسكرية في داخلها ؛ ودلتنا على أن هنالك رتابة في تطور أمريكا الحربي والسياسي بالرغم مما يقال من شأو وقوة .

وتذهب الصحف إلى أن أمريكا تفكر أن تستعمل القنبلة الذرية في حرب كوريا لإرغام الشيوعيين على الرجوع إلى ماوراء خط ٣٨ ، وندعو الله ألا تضطر إلى ذلك يوما ما. والحقيقة التي تبدو للعاقل أنها لو استعملت هذا السلاح الفتاك في هذه الحرب ، فإن ذلك لاشك سيدل على ضعف قوتها في الأسلحة الأخرى ، خصوصاً وأن الشيوعيين أنفسهم لم يستعملوا القنبلة الذرية في حربهم في كوريا ، كما أن كوريا نفسها بلد صغير بالنسبة إلى القنبلة الذرية وكان العالم يظن أن في مقدور أمريكا فض نزاعه وإرجاع البلد إلى مجاريها فيه ببعض من الدبابات وقليل من الطائرات ...

... أما ما كان من موقف مصر تجاه هذه المشكلة الحالية فالكل يعرفه ويتحدث عنه ومنهم المحبذ والمؤيد والمعارض والناقد ، ويتلخص هذا الموقف في أن مصر تمتنع عن إعطاء صوتها في مجلس الأمن ، وذلك لسببين بينتهما الحكومة المصرية في قولها : « إن النزاع المعروض ليس في حقيقته إلا مظهراً جديداً من مظاهر الخلاف المستحكم بين الكتلتين الغربية والشرقية ، ذلك الخلاف الذي يهدد سلام العالم وأمنه ، وإن هناك قضايا اعتداء على شعوب وعلى سيادة دول أعضاء في هيئة الأمم المتحدة ووحدة أراضيها ، وقد رفع أمر هذا الاعتداء إلى الهيئة فلم تعمل على وضع حد له كما تعمل الآن في حالة كوريا » .

ودهش العالم لهذا الموقف الجديد الذي ينم في حقيقة مبناه وفي أعماق معناه عن مرمى بديع ترق له الأمم المتوسطة والصغرى ، ذلك المرمى هو تبكيت هيئة الأمم ومجلس أمنها الذي أطاح بتلك القضايا التي دعاها تصريح الحكومة المصرية (قضايا اعتداء على شعوب وعلى سيادة دول أعضاء في هيئة الأمم المتحدة ووحدة أراضيها) وإيقاظهما من سباتهما الطويل وعدم اكتراثهما المهين بالأمم والشعوب والدول الصغيرة المنكوبة في سيادتها ووحدة أراضيها . وكان ما كان من تذمر مندوب انجلترا في مجلس الأمن من موقف مصر .

.. إن العالم اليوم يواجه أزمة من أشد الأزمات ، والواجب على كل الدول وعلى كل الجهود أن تتكتل وتتجه صوب غرض واحد هو السلام ، السلام العالمي الذي يحلم به كل مخلوق على وجه هذه الغبراء ، يحلم به العصفور في عشه الأمين ، ويحلم به الحطاب في جوف الغابة ، ويحلم به الأم الوادعة والطفل الصغير والحمامة الطائرة والابن الرضيع .. ولن يأتي هذا السلام وذاك التكتل إلا على أساس متين تقدمه الدول الكبرى في نياتها الحسنة التي تبديها محققة في إعطاء الحقوق إلى أصحابها ورد السيادة إلى أربابها وعدم تمزيق الوحدات أو تفريق التوائم والبلدان ، حينئذ تنفض اللغا كل ويبقى غرض واحد هو : السلام ولا شيء غير السلام ، ومن التوجه إليه يأتي ومن تكتل الجهود يتحقق ، ومن الشعور بالسيادة والكرامة وحسن النيات الدولية يتعزز ويتكرم ، ويصير قانوناً من قوانين الوجود كما يجب أن يكون دائماً .

أحمد لد الشرسي

بين صدقي وتولستوى

للأستاذ حافظ أحمد أمين

كان لصدقى باشا — رحمه الله — آراء فريدة جريئة ، آمن بها ودعا إليها مخلصاً أميناً ، وكان يقف فى أغلب الأوقات وحيداً لا يؤيده أحد ، ولا يؤمن بأفكاره أحد ، حتى إذا ما انتهت الزوبعة واستقر الحال وتكشف الموقف ، إذا رأى صدقى هو الرأى السديد ، وموقفه هو الموقف الأسلم .

سئل مرة عن الجيش وطريقة تسليحه ، فكان رأيه مخالفاً جميع الآراء التى ظهرت فى ذلك الوقت ! فقد صرح بأن تسليح الجيش ليس بالأمر اللازم ، ولا سيا فى الوقت الذى تستمد فيه سلاحنا من دول تستعمرنا سياسياً واقتصادياً ، وتمتص دماءنا وثروتنا ! وقد بنى صدقى باشا آراءه بعد ظهور القنبلة الذرية والإيدروجينية ، وما رآه من تأثيرها الفعال .

كان هذا هو رأى صدقى الذى وقف بمفرده ينادى به ، وهو موقف لا يقفه إلا زعيم جرىء ، حنكته التجارب ، جاءت آراؤه قوية جريئة ، تذكرنا بما قاله الفيلسوف الكبير « ليو تولستوى » منذ نيف وثمانين عاماً عندما سئل عن الجيش الروسى وتسليحه . قال الفيلسوف :

« فى كتاب ألف ليلة وليلة ، رواية سائح قد طرحته سفينته على صخرة جرداء ، فوجد فيها رجلاً هزيلاً جالساً بجوار مجرى من الماء يريد اجتيازه ولا يقوى على ذلك ! فأشفق السائح عليه ، وحمله على كتفيه ، ولكنه ما كاد يستقر عليهما حتى لف رجليه عليه ، وأبى النزول إلى الأرض مرة أخرى ، وصار يتحكم فى حامله ويأمره بالذهاب حيث شاءت إرادته ، وصار فى مكنته أن يجمع ثمار الأشجار التى كان يأكلها بمفرده ولا يعطى حامله شيئاً منها ، وصار يسىء معاملته بكل ما لديه من الوسائل .

« وحال هذا الرجل الهزيل يشبه حال الحكومات التى تشترى بالأموال التى تجمعها الأسلحة والمدافع والقواد الحربيين الطيعين لأوامرها ، الذين تستند إليهم تنظيم الجيوش ، وتدريب العساكر ، بتلك الطريقة الغريبة التى تفقد الجندى حريته ، تلك الحرية التى هى أعز شىء لدى الإنسان ، وتجعله آلة ذلولاً فى يدها . وفى هذه الآلة سر رق الناس ، فإنها لا تصبح فى يد الحكومة حتى يصير كل الناس خاضعين لها ، فتسىء إليهم وتزدريهم ، وتولد فى نفوسهم الإخلاص والطاعة لها بما تنشره بينهم من التعاليم الفاسدة .

« إن الحكام لا يقدسون النظام العسكرى ، ولا يهتمون هذا الاهتمام الكبير بالمناورات والاستعراضات والاحتفالات العسكرية ، وأمثال هذه المشاهد إلا لعلمهم أن وجودهم متوقف عليها ! فالجنود النظامية هى التى تؤيد سلطانهم ، وهى التى تسمح لهم بارتكاب أفظع المظالم وهم جالسون فى أرائكهم .

« إن الجيوش لا فائدة فيها إلا للفئة الغالبة ، وإنها مضرة جد الضرر بالمجموع ، لأنها سبب استرقاقهم ، والنظام العسكرى الذى تقدسه الحكومات هو أكبر جريمة يمكن للإنسان ارتكابها ، ودليل واضح على سوء نيات الحكومة بالشعوب ، لأن هذا النظام العسكرى يميت العقل والحرية ، وليس له غرض سوى تأهيل الشخص لارتكاب الجرائم التى يأبى أن يرتكبها أى إنسان وهو فى حالته الطبيعية ، وإن الجيوش ليست ضرورية حتى فى أوقات الحروب ، إذا كانت الحرب حرباً دفاعية ، كما حدث فى البوير أخيراً ، وإنما كان الغرض من هذه الحرب ما أظهره غليوم الثانى من ارتكاب الجرائم وقتل الإخوان .

« تقولون لنا ، أيها الحكوميون ، إنه لولاكم لغزتنا الأمم المجاورة ، ولكننا نتصفح الصحف فلا نجد ما يؤيد كلامكم ، وإنما أنتم — لأسباب تخفونها علينا — يكيد

بعضكم لبعض ، حتى تدفعوا بيلادكم إلى وهدة الخراب ، بما تجمعون من الضرائب لإنشاء الأساطيل وعمل الأسلحة ، مدعين أنكم لا تعملون ذلك إلا لحمايتنا ، والله يعلم أنكم لا تقصدون إلا أن ترضوا مطامعكم وغروركم .

« يقول البعض إن الحكام كاللصوص ، فللصوص عصاباتهم ، وللحكومة الجيش . ولكنى أشفق على اللصوص من هذا التشبيه الظالم ؛ فاللص لا يلزم أحداً بالانضمام إلى عصابته ، ولكن الحكام يلزمون الناس بالاندماج فى جنديتها ، واللص لا يسرق إلا الأغنياء ، ولكن الحكومة لا تتصدى إلا للفقراء ، وتحابى الأغنياء الذين يساعدونها على ارتكاب الجرائم ، واللص شجاع يقامر بحياته ، ولكن الحكومة تتعمد التضليل بالشعب للوصول إلى ما ترمى إليه ، فتفسد عقول عدة أجيال متعاقبة بواسطة التعليم الفاسد .

« إن الحكومات ، لا سيما هذه التى تعتمد على جيش رابض ، هى أضر هيئة نظامية بالناس ، لأنها عبارة عن خضوع فئة كبيرة لفئة أقل منها ، ثم خضوع هذه الفئة إلى من هى أقل منها ، وهكذا .

« وإنى لا أنصح أحداً بالاتجاه إلى العنف فى هدم الجيش وإلغائه ، فما استعمال القوة إلا شر ، فالشر بواسطة شر مثله ، ولا يمكن أن يؤدى العنف إلى تحرير الناس ؛ وإنما إلغاء الجيش يكون بأن يفهم الناس أنه ليس من الضرورى أن يحمى الناس بعضهم بعضا ، إذ لا عداوة بين الناس غير ما توجده الحكومات بينهم ، وإن الجيش لا فائدة فيه إلا للفئة الغالبة » .

كان هذا هو رأى الفيلسوف الكبير « ليو تولستوى » وهو رأى ذكرنا به موقف صدقى باشا بالنسبة للجيش المصرى وطريقة تسليحه . وقد وجد الزعيمان إزاء هذه الآراء معارضة قوية . ولكنهما وقفا موقفاً جريئاً وشجاعاً ، رحمهما الله .

حافظ أحمد أمين

الخليـــــل

الأستاذ عبد السميع المصرى

رب القريض وسيد القلم   وهبت قسطك للعلى فنم[1]

هـذا الشاعر الذى ملك زمام الشعر وناصية اللغة وقد ورد فى عالم الشعر ، كان من أكبر الناس قلباً وأنبلهم نفساً وأكرمهم شمائل ، وكانت حياته دعوة للسلم متصلة ونداء للمحبة والإخاء بين الناس ، وأنشودة عذبة من أناشيد الحب لبنى الإنسان ، وليس هذا بمستكثر ممن نشأ نشأة الخليل .

فلقد ولد خليل مطران فى مدينة بعلبك بلبنان عام ١٨٧١ م ، على أرجح الأقوال ، من أسرة عريقة ، وتلقى علومه فى المدرسة البطريركية ببيروت وعن العلامة ابراهيم اليازجى حجة اللغة والأدب فى عصره ، وقد قضى فى لبنان صدر شبابه ، ثم هجره إلى باريس حيث نهل من منابع الآداب الغربية وعلومها ما ظهرت آثاره فى أشعاره وكتاباته .

وفى باريس اشترك فى بعض الحركات الوطنية التى رمت إلى تحرير الوطن العربى ، ثم عاد إلى مصر التى اتخذها موطناً له .

وفى مصر ساهم فى تحرير الأهرام واللواء والمؤيد ، وظهر نبوغه فى تحرير المجلة المصرية والجوائب ، وقد عين مراسلاً للأهرام فى القاهرة عندما كانت تصدر فى الاسكندرية ؛ وبعد انتقالها إلى القاهرة طلب منه أن يتولى رياسة تحريرها فاعتذر عن قبول هـذا المنصب وتحول إلى الحياة العاملة ، وكانت له أوجه نشاط فى ميادين الاقتصاد فربح كثيراً وخسر كثيراً ، إلى أن انتهى به المطاف إلى العمل سكرتيراً للجمعية الزراعية ، وقد ظل يقوم بأعباء هـذا المنصب إلى أواخر أيامه .

وفى عام ١٩٣٥ تولى إدارة الفرقة القومية المصرية للتمثيل العربى ، وبقى فى إدارتها سبعة أعوام تقريباً .

وقد ألحت عليه العلة فى أيامه الأخيرة حتى عاقته عن النهوض بأى عمل ، وحتى رغبت إليه الموت فقال مخاطباً تمثالاً له :

مثـالى إنى أرنو إليك وإن بى رفقاً
دنا أجـلى فاجعلنى ولكن أنت قد تبقى
أخاف عليك أن تحيا ومن يحيا ولا يشقى ؟

وقد ودع الخليل شقاء الدنيا هذا فى مساء الخميس ثلاثين من يونيه عام ١٩٤٩ .

العوامل المؤثرة فى شعره

لقد أطال الله فى عمر الخليل سبعاً وسبعين عاماً استطاع أن يشهد خلالها أحـداثاً جساماً فى الشرق العربى ، وأن يتأثر ويؤثر فيما طرأ على الآداب العربية من تطورات بعيدة المدى عميقة الأثر .

وتعاقبت على هـذا الشرق فى حياته ثورات سياسية وحروب مختلفة .

من الثورة العرابية فى مصر ، إلى حرب البوير ، وحرب الجبل الأسود إلى الحرب العظمى الأولى ، ثم الحرب العالمية الثانية .

وكنا دائماً نشهد انعكاس آثار هذه الأحداث فى شعره ونفسه ... نفسه الأبية التى تبغض الظلم والظالمين وتكره البغى والباغين ؛ فاستمعوا إلى هذه الصرخة المدوية يرسلها عند نشوب حرب البوير :

ولـيك من ماتوا وما   منهم جبـان منهزم

(١) من رثاء الخليل لليازجى .

وليرث الضعفاء بغبنهم   قوى متحكم
خطب رآه الصغير ن كلّن   أحيانهم منهم
رأوا الذئاب فحاولوا   أن يدرأوها بالحكم
أين القضاء إليه أو   باب للمالك نختصم ؟
أين الحقيقة أين إنـ   ـصاف البرىء إذا ظُلم ؟
من للضعيف إذا شكا   وعلى القوى إذا أثم

وفي قصيدة أخرى يقول وقد هاله ما لحق القوم من أذى وظلم مبين ، وهم عزل إلا من أسلحة بدائية قديمة يحاربون بها قوماً مدججين بالمدافع والأسلحة الحديثة :

شيدوا لأرضكم مثل ما
شاده في أزل الدهر الطغاة
ثابروا في وثبكم ولتهتفا
في ملاقيها الجنات الجنيات
تابعوا النصر بنصر ولكن
خجلة الأبطال هذى النصرات
يجمع الجبار من تصدعه
منكم للضرب والطعن أداة

ويصحب هذا الاضطراب في الأوضاع السياسية وانتشار الظلم والعدوان ضعف في الأخلاق وإسفاف بين الناس يصوره لنا مطران في هذه الأبيات البليغة :

رأيت حروبا أوقد الظلم نارها
فدانت لها الآفاق واهتزت الربى
جرت مهج الأبطال فيها زكية
كأن الثرى بالأرجوان تجلببا
إذا الشمس جرّت فوقه ثوب نورها
طوته وراح الثوب بالدم مشربا
رأيت أساطين السياسة حلقوا
علت لهم عند المجرة مطلبا
ولكن أسفّوا بعد حين كأنهم
نسور هوت تبغى من الدم مشربا

ولا شك في أنه كان لظروف المجتمع التي أحاطت بمطران أثر بالغ في شعره ، بل لقد أفسد هذا المجتمع بعض شعره ...

لقد كان مطران أبي النفس حر الطباع نزاعا إلى التحرر من القيود لا سيما قيود الظلم ؛ ولذا نراه يدافع عن حرية الرأي ويحمل على قانون المطبوعات في مصر ؛ وكان من أثر هذا الدفاع أن هدده رئيس وزارة ذلك الزمان بالنفي ، فأجابه بقصيدة عنوانها « تهديد بالنفي » .

أنا لا أخاف ولا أرجي   فرسي مؤهبة وسرجي
فإذا نبا بي متن برٍّ   فالمطية بطن لجّ
لا قول غير الحق لي   قولٌ وهذا النهج نهجي
الوعد والإيعاد ما   كانا لدى طريق فلج

ومن دلائل روحه الجريئة المقدام شغفه في صباه بركوب الخيل والسبق على متونها حتى وقع من فوق أحد الجياد ذات مرة فتكسرت أضلاعه وتهشمت أرنبة أنفه .

وهذه الجرأة نلمحها في تركه الصحافة إلى الزراعة والتجارة والمضاربات وعدم استقراره على حال واحدة في حياته . لكن ظروف البيئة المحيطة كانت تكبح هذه الجرأة .. لقد رأى الأحرار تثقل أغلالهم بالحديد وتطرح في أعماق البسفور ، ورأى قلم الرقابة التركية ينهال على الصحف فتفقد حقوقها وتغل أعناقها ، فترى الخليل بعد ذلك يؤثر التلميح في قصائده الوطنية كقصيدة (شيخ أثينه) وهي دعوة حارة لمقاومة الاستعمار الغاشم ، وفي قصيدة (مقتل بزر جمهر) يرمي إلى تصوير ظلم السلطان عبد الحميد الذي كان يسوق أحرار العرب إلى القتل ، غير مراع فيهم إلاًّ ولا ذمة ، وهو يستحث القوم ليثوروا على الظلم بالموجع من القول مستتراً وراء بزرجمهر :

فلأنت كسرى ما ترى تحريمه
كان الحرام وما تحلّ حلالا
وليذكرنّ الدهر عدلك باهراً
ولتحمدنّ خلائقاً وفعالا
لو كان في تلك النعاج مقاوم
لك لم تجئ ماجئته استفحالا

وهل كان يعقل أن يعيش المرء جواباً فى الآفاق كما نبا به بر طوى خيمته وارتحل ؟ ولو قدر الرجل فى شبابه على الهجرة والترحال فهل تستطيع الشيخوخة أن تعينه على مجاراة عواطفه ؟

وإذا كان هذا من غير المعقول فكان إذاً على مطران أن يكبح جماح عواطفه وأن يكبت ثورته أو يخفف من غلوائها ، وأن يكيف نفسه وفق ظروف الجماعة التى يعيش فيها والتى شاع فيها الضعف والاستسلام ؛ ولهذا نرى التعقل يسود حياته بعد ذلك ويلون الكثير من شعره ، فيزخر هذا الشعر بألوان من المدح والرثاء والتهانى فى حفلات الزفاف مجاملة للناس فى أفراحهم وأتراحهم حتى آخر أيام حياته ، وفى وقت اشتداد العلة عليه كان يلح فى طلب الصحف لمطالع الوفيات وأخبار المجتمع لمجاملة الناس .

وأعتقد أن أثر البيئة لم يقف عند هذا الحد ، بل دفع مطران إلى التماس العزلة والابتعاد عن الناس ، حتى يأمن أذاهم بعد أن خالط نفسه شعور باليأس من صلاحهم أو صلاح دنياهم :

وكم فى فؤادى من جراح خفية
يحجبها ردائى عن أعين الناس
إلى عين شمس قد لجأت وحاجتى
طلاقة جو لم يدنس بأرجاس
أسرى همومى بانفرادى آمناً
مكايد واش أو تمائم دساس
يخالون أنى فى متاع حيالها
وأى متاع فى جوار لدعاس(١)

وهو شعور ردده فى شعره كثيراً ، فتراه فى قصيدة أخرى يقول :

متفرد بصبابتى متفرد
بكآبتى متفرد بعنائى

شاك إلى البحر اضطراب خواطرى
فيجيبنى برياحه الهوجاء
ثاو على صخر أصم وليت لى
قلباً كهذى الصخرة الصماء

وكان خليل مطران رقيق الشعور رقة مفرطة حساساً إلى درجة بالغة ، مل‍ء قلبه حباً للناس والكون المحيط به ؛ وقد انعكست هذه الرقة فى شعره حتى ليخيل إلىّ عند ما أقرأ بعض أشعاره أن كاتبها روح صافية خالصة .

تأمله مثلى يخاطب عصفورة رآها فى جنيف قرب تمثال جان جاك روسو :

سيرى وولى صدرك الـ ... ـمشتاق شطر الربع
حتى إذا ما جئته ... وشرعت أعذب مشرع
عوجى ببستان هنا ... لك فى العراء مضيّع
لى فى ثراه دفينة ... كالكنز فى المستودع
تخفى الأزاهر قبرها ... من أعين المستطلع
قولى له إن جئته ... يا أنس هذا البلقع
أتحس فى هذا الثرى ... نبضات قلب موجع
هذا حنين من فؤا ... د محبك المتفجع

وهو إلى جانب رقة الشعور يتحلى بتواضع جميل تنم عنه أشعاره الكثيرة كقوله :

كان فى الشعر لى مرام خطير
فعدا طوق المرام الخطير
هائم فى الوجود أسأله الوحـ
ـى كما يسأل الغنىّ الفقير
أكبرونى ولست أكبر نفسى
أنا فى الفن مستفيد صغير
لا يضيق صدر شاعر بأخيه
يكره الفضل أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملت فيها
ليس تحصى شموسها والبدور

---

(١) المقبور من الأرض .

كل جرم يحلو ويصبح نجماً
فله حيز وفيه يدور
والنجوم التي تلوح وتخفى
ربوات وما يضيق الأثير

وهناك خاصة أخرى من خصائص مطران العظيم تدل على عمق شعوره بعظمته وسمو تفكيره وترفعه عن الحقد أو الحسد الذي يحسه أبناء الفن الواحد بعضهم لبعض .

إنه يحب كل شاعر ، ويأخذ بناصية كل أديب ناشئ يلجأ إليه ، ويعتقد أن هذا الأديب سيكون نجماً له حيز في فلك الفن الذي يغص بالنجوم والشموس ، وكل فنان له طابعه الخاص ومجاله الذي يبرز فيه ، ولذلك نراه لا يتأخر من الاعتراف بالفضل لشوقي وتقريظ ديوانه تقريظاً شف عن نفس بلغت منتهى السمو الخلقي ... نفس فرحت فرحة قلبية خالصة بعمل شوقي :

ضمنت لهذا العهد ذكراً مخلداً
وجددت للإسلام معجز أحمدا
وزدت لمصر بالمفاخر محتداً
ومن قبلُ كانت المفاخر محتدا
لك الله من شاك عن الناس دهرهم
على حين لم يشكوا وقد جار واعتدى
ومن ساهر يفني منار حياته
ضياء ليهدي غافلين ورقدا
ومن ناظم أملاك تاج فرائد
من المدح تيجان الملوك له فدى
ومن منشد يحيي فخار جدوده
فيكسبهم مجداً بذاك مجددا
قواف يزين الشعر حسن نظامها
كما ازدان كأس بالحباب منضدا
وسبك يعيد اللفظ لحنا موقعا
ويبدي لنا المعنى الحق مجسداً
أسحرا نرى أم صحائف كلما
تقلبها وجها نرى عجباً بدا
بيانك سيف الحق في مصر قاطعاً
ذليلاً به الباغي قتيلا به الردى
وذو العلم فليختر كتابك مؤنساً
كريماً وأستاذاً حكيماً ومرشداً

بقي هناك عامل آخر — مرجعه البيئة أيضاً — من العوامل التي أثرت في شعر مطران وحياته؛ هذا العامل الخطير هو قلة احتفال الناس في عصره بالأدب والأدباء، وندرة القراء في العربية ، وهو عامل ما زال يشكو منه الأدب العربي ، وأعني بالأدب الأدب الخالص والإنتاج الفني الصحيح لا الصحافة الرخيصة .

وقد اضطر مطران عندما ضاقت به سبل العيش عام ١٩١٤ ولم يسعفه أدبه بما يسد الرمق إلى افتتاح حانوت متجر لبيع الفحم حتى يدرأ عن نفسه غائلة الجوع .

ولا شك في أن هذه حال لا تشجع الأديب على الإنتاج ، بل الأرجح أن تدفع به إلى اليأس دفعاً ، وقد عبر مطران عن شعوره في إحدى مراثيه قائلا :

إربأ بنفسك أن تكون نجيباً
وازجر خليلك أن يكون أديباً
فلقد أرى موت الأديب حياته
والعيش موتاً يلتقيه ضروباً
وأرى جوائز فضله وعلومه
إعساره والداء والتعذيبا
بالذكاء يشيرنا بضيائه
ويكون الجسم المضيء مذيبا
بالعلوم نظنها نعما لنا
فنصيبها نقماً لنا وخطوبا

عبد السميع المصري

الشـــعر والنـــثر

أيهما أطوع لعوامل التطور ؟

للأستاذ يوسف خليف

— ٢ —

لعل نظرة أولى إلى الفرق البعيد ، البعيد جداً ، بين ما وصل إلينا عن العرب في جاهليتهم من النثر الفني ، وبين ما وصل إليه النثر الفني الحديث ، ترينا مدى التطور الذي تطوره النثر العربي .

ومهما يكن الشك الذي يطوف بالنثر الفني الجاهلي ، فالأمر الذي لا شك فيه هو أننا لا نعدم نصوصاً ثابتة من هذا النثر ، وأظن أننا لو وازنا بين صور هذا النثر من المنافرات وسجع الكهان وخطب الوفود ومواعظ المواسم ونحو ذلك ، وبين صور النثر الحديث من المقالة والقصة والمسرحية والكتاب ونحو ذلك ؛ لاتضح لنا التطور البعيد الذي تطوره النثر العربي منذ أقدم عصوره حتى اليوم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لو أننا تتبعنا المراحل التي مر بها النثر العربي لوجدنا التطور فيها جميعاً واضحاً وقوياً .

وأول ما نقف عنده من هذه المراحل « الكتابة الديوانية » وهي النقلة الأولى التي انتقلها النثر العربي على يد عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم مولى هشام بن عبد الملك ، ويذكر أبو هلال العسكري أن سالماً كان يعرف اليونانية ، وأن عبد الحميد كان يعرف الفارسية ، وإن يكن بعض الباحثين المحدثين يذكر أنه كان شديد الاتصال باليونانية ، وعلى كل حال فقد ظهر أثر هذه الثقافات الأجنبية في كتابتهما . ظهرت هذه النقلة للنثر العربي عند عبد الحميد خاصة ، فهو الذي ابتكر الرسائل المطولة المتصلة الموضوع المرتبطة الأجزاء ، وهو الذي وضع للرسائل العربية نظاماً احتذاه من جاء بعده من صور البدء والختام والتحميدات وغير ذلك مما هو معروف ومقرر عند دارسي الأدب العربي .

وكانت النقلة الثانية للنثر العربي « التأليف » ، تأليف الكتب في الأدب واللغة وعلوم الدين والتاريخ وغيرها مما أداته النثر الفني ، ولست في حاجة إلى أن أقول إن هذه الظاهرة لم تعرف بأي شكل من أشكالها في العصر الجاهلي .

وكانت النقلة الثالثة « الترجمة » ، الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وكان رافع لوائها ابن المقفع ، وابن المقفع كان يجيد اللغة الفارسية إلى جانب إجادته للعربية ؛ ومن هنا نستطيع أن نعتبره واضع حجر الأساس في الترجمة إلى اللغة العربية . وليس من شك في أن الترجمة أثرت أثراً كبيراً في تطور النثر العربي . وأحب أن نلاحظ أننا لا نكاد نعثر على ترجمة لأي شعر أجنبي إلى اللغة العربية حتى ذلك العصر .

وكانت النقلة الرابعة ما يصح أن نسميه « حرية النثر العربي » وهي محاولة إخضاعه لحاجات الحياة المتعددة ، وهي المحاولة التي ظهرت عند الجاحظ خاصة ، والتي استمرت في تقدمها حتى العصر الحديث ، ويكفي أن ننظر إلى الموضوعات التي طرقها الجاحظ في كتبه لنعرف إلى أي مدى استطاع النثر الفني أن يتسع لشئون الحياة المختلفة .

وكانت النقلة الخامسة في سبيل « نشأة القصة » ، وهي التي بدأت بالمقامة على يد بديع الزمان ، ثم انتهت بنشأة القصة في العصور المتأخرة . ومع أن المقامة لم تكن مستكملة للخصائص الفنية للقصة في وضعها الحديث ، فإنها كانت « رأس الجسر » — كما يقال في المصطلحات الحربية الحديثة — في سبيل نشأتها .

ثم كانت النقلة الحديثة في النثر ، وهي ما نستطيع أن

نسميه « النقلة الصحفية » التي بدأت في العصر الحديث مع ظهور الصحافة ، وهي التي أظهرت المقالة في النثر العربي ، والتي من أخص خصائصها السرعة والتركيز والتنظيم والتقسيم .

وأحب بعد هذا أن نلاحظ ملاحظتين :

(الأولى) أن كل هذه النقلات قد مضت في تطورها على طول العصور المختلفة ، حتى أصبحت كل نقلة تاريخاً طويلاً بمراحله المختلفة وتقدمه وتطوره في كل مرحلة .

و (الأخرى) أنه وجد بجانب هـذا التطور الموضوعي الذي صورنا مراحله تطور أسلوبي تابع له من كتابة مقيدة ، وكتابة حرة ، وكتابة متوازنة ، إلى غير ذلك من الأساليب المختلفة المعروفة .

هذه صورة سريعة لما حدث في الأدب العربي من تطور في الشعر والنثر ، ومنها يتضح أن النثر كان أسرع استجابة لعوامل التطور من الشعر ، فما أسباب ذلك ؟ .

أسباب ذلك كثيرة ، ولكن من الممكن أن نخضعها لقسمة منطقية ثلاثية : فهناك أسباب تعود إلى الأدب ، وهناك أسباب تعود إلى الأديب ، ثم هناك أسباب تعود إلى أشياء خارجة عن الأدب والأديب ، وبهذا تنحصر هذه الأسباب في ثلاث مجموعات .

أما المجموعة الأولى ، وهي الأسباب التي تعود إلى الأدب ، فأولها أن الشعر أدب أرستقراطي ، والنثر أدب شعبي ، ومعنى هذا أن النثر من ناحية أشد قرباً إلى الحياة في مجموعها من الشعر ، ثم هو من ناحية أخرى أسهل تناولاً لها وأيسر نظرة إليها منه ، وهاتان الخصلتان من أهم خصال الأرستقراطية : خصلة الترفع عن الحياة في مجموعها ، وخصلة البعد عن السهولة واليسر في تناولها ، وكانت نتيجة هذا أن الحياة وجدت في النثر خادماً مطيعاً لها ، تدعوه فيلبي دعاءها ويعمل على إرضائها ، وتسير فيسير معها متتبعاً خطواتها ، فتطوّر النثر مع تطور الحياة ، بينما ظل الشعر في كبريائه يعيش في السحاب ناظراً إلى الأرض نظرة احتقار وسخرية لا يهتم بأمرها قدر ما يهتم بأمر نفسه ؛ من هنا كانت فكرة « الفن للفن » التي جعلت من الشعر حلية من أدوات الزينة تعيش على هامش الحياة ، بينما تغلغل النثر في صميمها وأصبح من أهم مقوماتها .

ويظهر أن هذه الفكرة ، فكرة أرستقراطية الشعر ، سيطرت على الشعر العربي في مختلف عصوره ، حتى في العصر الجاهلي ؛ فقد كان العرب في الجاهلية ينظرون إلى الشعر على أنه شيء غير أرضيّ ، شيء خارق للعادة ؛ فنسبوه للشياطين وجعلوا لكل شاعر تابعاً من الجن يلهمه كأنما الشعر فوق مقدرة البشر . وتروى بعض الأخبار أن فتاة جاهلية رفضت الزواج من فتى لا لشيء إلا لأنه لم يكن شاعراً ، كأنما الشعر شيء من تلك الأشياء الترفة التي هي سمات للأرستقراطية في عصرنا الحاضر التي تجذب أنظار الفتيات إلى الشباب .

والسبب الثاني أن الشعر فن جميل ، والنثر صناعة من الصناعات ، وفكرة أن النثر صناعة ليست جديدة ؛ فقد كان الكتّاب منذ أول عصورهم يسمون الكتابة صناعة ، وهذا عبد الحميد شيخ الكتّاب يقول في مستهل رسالته إليهم : « حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة » . ومع أن الشعر قد أطلق عليه في العصور الماضية « صناعة الشعر » ؛ فإن هذه التسمية كان مصدرها جماعة من العلماء لا الشعراء ، في حين كان مصدر تسمية النثر صناعة جماعة من الكتّاب أنفسهم ، مما يجعلنا نرفض في سهولة حكم أولئك العلماء على الشعر ، ولا نقبل إلا حكم الشعراء أنفسهم على فنهم .

الشعر فن ، والأصل في الفن التقليد ، وأظن أنه من الأكرم للفن أن نترك كلمة « التقليد » إلى كلمة « المحاكاة » ، فهي أخف وأقرب إلى تصوير طبيعة الفن ، والمحاكاة الفنية على نوعين : إما محاكاة نماذج ، وإما محاكاة طبيعة ، ولذلك نجد أن الشعر في مجموعه يتبع هذه القسمة الثنائية : فشعر يحاكي نماذج فنية ، وشعر يحاكي الطبيعة ، وهـذا القسم الثاني هو الشعر الذي يكتب له في العادة الخلود ؛ أما القسم الأول فهو الذي وصم الشعر العربي بتخلفه عن موكب التطور وتوقفه في قافلة التقدم ، ولعل مما شجع على وجود هـذا النوع كثرة النماذج الكلاسيكية الممتازة في الشعر وسهولة حفظها .

أما النثر فما دام صناعة من الصناعات ، وما دام الأصل في الصناعات أن تأخذ مادتها من الحياة الواقعية ، ثم تردها إليها في صورة أخرى نافعة ؛ فالكاتب إذاً يأخذ عن الحياة

كما هي أمامه ، لا كما يتخيلها ، وهو لا يلتفت إلى الماضي ، إذ يجب أن تكون نظرته إلى الحاضر ، ولعل مما ساعد على ذلك صعوبة احتفاظ الذاكرة بنماذج النثر .

والسبب الثالث يرجع إلى « التكوين الأدبي » نفسه ؛ فالتكوين الأدبي في الشعر يدعو إلى البطء ، وليس كذلك في النثر . وتفصيل ذلك أن علماء النقد الحديثين يحللون الأدب إلى أربعة عناصر : العاطفة والخيال والفكرة والصورة . أما في الشعر فالعاطفة هي الأساس ، وأما في النثر فالفكرة هي الأساس ، وفي الشعر تجيء الفكرة في مكان ثانوي لتبعث في العاطفة الصدق والبقاء ؛ وأما في النثر ، فالعاطفة عامل مساعد للفكرة ، وما دامت العاطفة كما قدمنا عند كلامنا في خصائص التطور الأدبي ، بطيئة ، وما دام نموها تدريجياً بعكس العقل ، مصدر الفكرة ، فالشعر من هذه الناحية إذاً أبطأ من النثر .

وأما من ناحية الخيال ، فهو عنصر أساسي في الشعر ، فيجب أن تكون الصور الخيالية فيه ممتازة تحتوي على عناصر القوة والجمال ، وأما في النثر فالخيال أميل إلى الاقتصاد والوضوح ، ويرجع ذلك إلى طبيعة كل من الفنين ووظيفته : فطبيعة الشعر الرمزية الموسيقية تجعل وظيفته أن يكون مؤثراً ، وطبيعة النثر التقريرية العقلية تجعل وظيفته أن يكون مفيداً ، وما دام الأمر كذلك فستعود بنا المسألة إلى أن الشعر يحيا لنفسه ، بينما يساير النثر الحياة الواقعية .

وأما من ناحية الصورة فمما لا ريب فيه أن صورة الشعر بقيوده من القافية والوزن والأنماط الخاصة التي يسميها علماء النقد ألفاظاً شعرية تجعل تطور الشعر أبطأ من تطور النثر ، وهو متحرر من تلك القيود ، حتى ليستطيع الإنسان أن يتكلم كما يكتب ، ولذلك نلاحظ أن الارتجال من خصائص النثر دون الشعر ، فالأديب يستطيع أن يرتجل نثراً ممتازاً كأنما قد أعده من قبل ، ولكنه لا يستطيع أن يرتجل شعراً ممتازاً كالذي يفرغ لإعداده وتحبيره .

هذا هو القسم الأول من الأسباب . أما القسم الثاني وهو ما يعود إلى الأديب ، فأول أسبابه « الشخصية المعنوية للأديب » وفهم هذه الشخصية عند الشاعر والناثر يوضح لنا لماذا ساير النثر تطور الحياة ، في حين وقف الشعر وتخلف عن هذا التطور .

أهم ما يميز شخصية الشعراء ما يصح أن نسميه « الغرور الفني » فهم معتزون بفنهم اعتزازاً يصل إلى درجة الغرور ؛ فالشعر عندهم أسمى ما يمكن أن يصل إليه إنسان ، وكانت نتيجة هذا الغرور الفني أن اعتقد الشعراء أن الشعر كل شيء في الوجود ، وأن كل ما سواه تافه إلى جانبه ، ومن هنا أهملوا تثقيف عقولهم واكتفوا بالرجوع إلى عواطفهم في كل شيء ، بل إن منهم من اعتقد أن الثقافة تفسد الشعر ، وأن التثقيف العقلي يجني على العاطفة فيضعفها .

وواضح أن هذه الفكرة ، فكرة أن الثقافة تفسد الشعر ، خاطئة من أساسها ، وأنها لم تنشأ إلا لتبرير جهل الجهلاء من الشعراء ؛ وأقرب دليل على خطأ هذه الفكرة أن الشعر لم يتطور إلا على أيدي الشعراء الذين أخذوا من الثقافة العقلية بحظ وافر ، ولا ينقض هذا أن بعض الشعراء المثقفين أفسدوا شعرهم بثقافتهم العقلية ، فهذا مرده إلى الشعراء أنفسهم ، لا إلى هذه الثقافة العقلية . وإنما يجب أن ينظر للمسألة من زاوية أخرى : كيف يعرض الشاعر هذه الثقافة العقلية في شعره من غير أن تفسده ؟ فالمسألة إذاً إنما تخضع لقانون مزج الألوان لا خلطها ، ومدى ما أتيح الشاعر المثقف من عبقرية شعرية ، وهل هو شاعر عالم أو عالم شاعر ؟.

أما شخصية الناثر فغير ذلك ، الكتاب متواضعون ، اعتقدوا ، منذ أقدم العصور ، أن صناعتهم الكتابية لا تغني ولا تستغني عن الثقافة العقلية ، وأن النثر ما دام صناعة فيجب أن يتوافر لها كل ما يأخذ بيدها إلى الكمال ، وليس أفضل لذلك من أن يأخذ الكاتب نفسه بأطراف الثقافات المختلفة في عصره ، وأن يعيش مع الناس لا في برج بعيداً عنهم .

وإذا لاحظنا أن الكتابة في بعض العصور الإسلامية كانت في منزلة الوزارة ، وأن الكاتب كان في منزلة الوزير ، عرفنا إلى أي مدى كان الكاتب يأخذ نفسه بالشدة في تثقيفها بما يليق بهذا المنصب الكبير ، والثقافة العقلية عند الكتاب في العصور الماضية كانت أشبه شيء بالثقافة القانونية التي يجب على الوزراء في العصر الحديث أن يأخذوا بها أنفسهم ، وفي تاريخ الكتابة العربية نجد كتباً كثيرة جد

ألفت لترشد الكتاب إلى ما يجب أن يتزودوا به من ألوان الثقافات المختلفة وضروب المعارف المتعددة .

وسبب آخر يتصل بالأديب ، هو قلة عدد الشعراء الممتازين الذين يمكن أن يتطور الشعر على أيديهم ، وسنسقط من حسابنا أولئك المتشاعرين الذين ليس لهم من الشعر إلا الوزن ، وإلا القافية فى بعض الأحيان ، فما دام الشعر فى أساسه موهبة ، فالشعراء الذين يصح أن نسميهم شعراء قليلون ، ولا يلزم أن يوجدوا فى كل عصر ، بل لقد تمضى فترات طويلة دون أن تظفر الأمة بشاعر عبقرى ممتاز .

وغير ذلك نجده فى الكتاب ؛ فالملاحظ أن عدد الكتاب وافر بالقياس إلى عدد الشعراء ، ونتيجة هذا أن كل كاتب من ناحيته يقوم بدوره فى تطور النثر ومسايرته للحياة ، فى حين يقف الشعر منتظراً ربه الذى يخلق فيه الحياة ، ويشدو به أغاريد التقدم والتطور .

ولعل مما يتصل بهذا ما يقوله النقاد من أن الشاعر الممتاز خير من الكاتب الممتاز ، ولكن الشاعر العادى خير منه الكاتب العادى . وهى فكرة على جانب كبير من الصواب .

وسبب ثالث لبطء تطور الشعر هو ما يصح أن نسميه « اللامذهبية فى الشعر العربى » ، فالناظر فى الشعر العربى يلاحظ أن أكثر الشعراء لم يعرفوا التخصص المذهبى الواضح ، فقد ظل أكثرهم طوال العصور الأدبية يقولون الشعر لا لشىء إلا لأنهم يريدون أن يقولوا شعراً كمن سبقهم من الشعراء . أما قول الشعر تحقيقاً لمذاهب فنية معينة واضحة فشىء لم يعرفوه ؛ بل لم يحاولوا أن يفهموا المذاهب الفنية المختلفة التى اتبعها الممتازون من الشعراء فى فنهم ، حتى يكون تقليدهم لهم على بينة وبصيرة ؛ وإنما هم يقلدون هذه القصيدة أو تلك لهذا الشاعر أو ذاك لا لشىء إلا لأنها أعجبتهم أو لأن نقاد الأدب قد قرروا أنها جيدة ، حتى لو كانت كل قصيدة من مذهب فنى مناقض للمذاهب غيرها .

وبهذا ظل كل شاعر يقول فى كل موضوع وفى كل مناسبة ما دام غيره من الشعراء قال فيهما ، دون مراعاة لمذهب فنى يسير عليه ؛ والشعر بطبيعة الحال لا يمكن أن يتطور على أيدى من لا يفهمون مذهبهم الفنى أو من لا مذهب لهم .

ولعل مما يتصل بهذا أننا لا نكاد نعثر فى مختلف دواوين الشعراء على مقدمة يقدم بها الشاعر مذهبا فى الفن يريد تحقيقه فى ديوانه ، وإنما الذى نلاحظه أن الشاعر يحشد فى ديوانه قصائد له من هنا ومن هناك لا يجمعها مذهب معين ، ثم يترك كتابة المقدمة لسواه ، أو يخرج ديوانه بغير مقدمة .

وكانت النتيجة أننا لا نجد فى الشعر العربى مذاهب فنية واضحة كالتى نجدها فى الشعر الغربى ، يعمل أصحابها على تحقيقها فى فنهم ، ويعمل تلاميذهم على تطويرها والنهوض بها .

هذه أهم الأسباب التى ترجع إلى الأديب . أما القسم الثالث من الأسباب وهو ما يرجع إلى أشياء خارجة عن الأدب والأديب ، فأهمها الترجمة . ونحن نعرف أن الترجمة فى العصور الإسلامية الماضية كانت موجهة إلى الثقافة العقلية أولاً ، وإلى بعض صور النثر الفنى ، ثانياً ؛ ولم نسمع فى مختلف العصور الماضية عن محاولة لترجمة شعر أجنبى أو كتاب فى الشعر الأجنبى إلى اللغة العربية ، اللهم إلا كتاب الشعر لأرسطو ، وهو لم يترجم إلا لأنه من مجموعة كتب المعلم الأول ، وإلا محاولة لترجمة الشاهنامة قام بها الفتح بن على البندارى الأصبهانى للملك المعظم عيسى الأيوبى فى سنة ٦٩٧ هـ وإلا بعض محاولات أخرى تافهة كانت كلها عن الشعر الفارسى ؛ كما أننا لم نسمع عن شاعر عربى كان يجيد لغة أجنبية — فيما عدا الفارسية — واستطاع أن ينتفع بها فى شعره فيجدده ويطوره ، على كثرة ما سمعنا عن كتاب أجادوا لغات أجنبية وانتفعوا بها فى كتاباتهم ، وأقرب مثل لهذا عبد الحميد الكاتب الذى ظهرت فى نثره بعض الآثار اليونانية .

وإذاً فالمسألة ذات ناحيتين :

فليس عندنا أثر أجنبى من الشعر أو فى الشعر ترجم إلى العربية .

وليس عندنا شعراء أجادوا لغة أجنبية — فيما عدا الفارسية — وانتفعوا بها فى شعرهم .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا أننا وجدنا النثر يتطور لتأثره بالترجمة ، فى حين وقف الشعر ولم يتطور تطوراً واضحاً وقوياً .

هذه أهم الأسباب التى جعلت النثر أطوع لعوامل التطور من الشعر فى الأدب العربى .

(تم البحث)

يوسف خليف

الشاعر الروائي « سكوت »

١٧٧٠ - ١٨٣٢

للأستاذ إبراهيم سكيك

لقد ترعرع الأدب الانكليزي ونما نمواً عجيباً في الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، ولا عجب فيه بزغت نجوم سكوت وبايرن وكولردج وكيتس وشلي ولام ووردزورث . وكان النتاج الأدبي لهذه الفئة متنوعاً ، بدأ به وردزورث وكولردج اللذان وضعا مبادئ رد الفعل للأدب السابق المتأخر ، وأثرا على من تبعهما من الأدباء مع أنهما ظلا دون شهرة مدة طويلة . أما سكوت وبايرن فقد سبقا في الشهرة وذياع الصيت بين جميع الطبقات ، فتمكنا من تحويل الرأي العام والذوق الأدبي من الشعر الرزين والأدب الواقعي إلى الشعر الخيالي والأدب الرومانتيكي .

أما والتر سكوت فهو من قبيلة اسكتلندية قضى أيام صباه بين مناظر اسكتلندة الجميلة ، وكان يسلي نفسه بقراءة الكتب المتنوعة . ولما شب وترعرع تعلم القانون لكنه لم يندفع إليه بميل ، وإنما ثابر على القراءة وخصوصاً قراءة قصص الحدود أي الوقائع التي كانت تحصل على حدود انكلترا وأسكتلندة ، ثم بدأ تأليف القصائد والروايات منذ ١٨٠٥ ، واشتهر على الأخص منذ ١٨١٤ حين نشر رواية واڤرلي التي ذاع صيتها في أنحاء الإمبراطورية ، وصارت روايات سكوت تترقب باهتمام من قبل القراء ، كما لو كانت بشائر النصر . ومع أن حقوق التأليف لم تكن معروفة في تلك الأيام إلا أن الأرباح الطائلة جعلت سكوت غنياً فعاش عيشة الأمراء وشغل مراكز عالية ؛ منها أنه كان عمدة مدينة سلكرك وكان فرحاً بهذا المركز لا لما يناله من الرواتب ولكن لاستطاعته الاتصال بالشعب والتعرف إلى خصاله ، ولم يقعده ذلك عن متابعة التأليف بجد ونشاط .

واشتهر سكوت بكثرة إنتاجه ، فكان يكتب نحو مجلدين كل عام ، وساعده على ذلك تنظيم أوقاته ونهوضه مبكراً بحيث كان يكتب فصلاً كاملاً قبل الإفطار . وقد بلغ من أرباحه أنه كسب من تأليفه نحو ٢٨ ألف جنيه في عامين ، لكنه كان مسرفاً شديد الإسراف ، واشترك مع الناشرين في نشر مؤلفاته ومؤلفات غيره حتى بلغ دينه في عام ١٨٢٦ نحو ١٤٠ ألف جنيه فقابل الصدمة برباطة جأش وأخذ يكد ويؤلف ليسد العجز حتى أنهك قواه ، وفي خلال ذلك توفيت زوجته وأصيب بنكسات عائلية لكنه عاش سبع سنوات في عمل شاق تمكن في خلالها من تسديد ٩٠ ألف جنيه ثم سدد باقي المبلغ من التأمين والنشر ، وهكذا انتهت حياة سكوت بمأساة مروعة .

والمعروف عن سكوت من الناحية الأدبية أنه قصصي بارع ، وإن لم يكن كاتباً مسرحياً ، ترك لنا كثيراً من القصص نظماً ونثراً . فإذا بحثنا عن عبقريته الشعرية نجد من خصائصها الميل إلى الأسلوب القصصي ؛ فهو من هذه الناحية قد أحيا أسلوب تشوسر الذي اختفى نحو أربعة قرون ، وكان يرى أن التعمق في القصيد والغوص لاستخراج المعاني الغامضة والتشابيه والاستعارات والتنميقات اللغوية لا ضرورة لها لأنها تضيع وقت الكاتب والقارئ . ومع هذا فيجب ألا نهضم الشاعر حقه ، لأنه في كثير من الأحيان قد أخرج

للأدب الانكليزي قصائد رائعة ذات معان عميقة . وكان يحاول تقليد شكسبير ، غير أن النقاد من الأدباء أخذوا عليه اختياره لشخصيات رواياته جعلهم أناساً مثاليين أصابوا في تصرفاتهم ، وأحكموا تدابيرهم مما جعلهم غير جذابين للقراء ، بخلاف شكسبير الذي كان يدخل في رواياته أشخاصاً فيهم شذوذ وغرابة تلفت النظر وتثير الضحك والاستهجان .

ويرى بعض الأدباء أن سكوت تمكن من استخراج رواياته من بطون التاريخ ، فعرض علينا صفحات من التاريخ كأنه أحياها في شاشة سينمائية ، وصور لنا في الوقت نفسه أساليب الحياة في عهده تصويراً رائعاً . وامتاز سكوت أيضاً بأنه أقل الكتاب تصويراً لوقائع الغرابة والاعتماد عليها في رواياته ، وأنه من أكثر الكتاب اعتماداً على علم النفس العقلي ومعرفة الطبائع البشرية بما فيها من خير وشر وهو محب لقصص الفروسية والبطولة .

وأريد هنا أن أقدم ترجمة لثلاث قصائد متنوعة ، أولاها أغنية رثائية يقول فيها :

« لقد ذهب في وسط الجبال فقدته الغابة

هو كالنبع يجف ماؤه في الصيف عندما تشتد الحاجة إليه

لكن النبع يعود إلى الظهور بعد أن يستعير ماء المطر

أما « دنكان » فلن يطلع عليه فجر يوم جديد ولن يثلج صدرنا برؤيته

يد الحصاد تختار السنابل الناضجة

غير أن صوت البكاء تندب الرجولة في أوج شبابها

ورياح الخريف الهوجاء تسقط أوراق الشجر الذابلة الجافة

غير أن زهرتنا التي قصفتها يد المنون كانت في ريعانها

لقد كان سريع الوثوب إذا دعا داعي الغوث

وصائب الرأي في وقت الشدة

ومخضب اليد في ميادين الوغى

ولكن يا له نوماً عميقاً يرقد فيه الآن .

إنه كالطل على سفح الجبل ، أو كالزبد على وجه الغدير وكفقاعات الماء عند فم النبع زال من الوجود بسرعة وللأبد .

وفي قصيدة ثانية يصف منظراً طبيعياً رائعاً ، لكنه كان في أيام بؤسه وإخلاده لم تستمتع نفسه بذلك المنظر ولم يبهره ذلك المشهد على روعته كما يظهر من قوله :

« أرى الشمس تنحدر على سفح تلة « وردلو » لتغيب وراء وادي « آرك » ،

والريح الغربية هادئة لا صوت لها ، والبحيرة ترقد نائمة عند أقدام التلة

غير أن هذا المنظر بجلال روعته لا يحمل بين طياته تلك الألوان البراقة والجاذبية الخلابة التي كان يحملها في زمان سالف وعهد غبر

مع أن يد المساء تطلي بوهيجها شاطئ « آرك » فتكسبه صبغة أرجوانية

ألقيت نظرة على ذلك السهل لأرى تيار نهر « تويد » الفضي ينساب متماوجاً في مجراه ، وأشاهد هيكل « ملروز » قائمة في كبرياء إلى جانب البحيرة الوادعة

لكن الهواء العطري والتلة والغدير والبرج والشجر ، مالي أراها تبعث الملل

فهل هي كما كانت بالأمس أم أن التغيير هذا في نفسي فقط ؟

* * *

ويلاه ، كيف يمكن للوح النقوش المحطم أن تزخرفه يد الدهان

وكيف يمكن للقيثارة ذات الأوتار المتشنجة غير المنسجمة أن تتناسق أنغامها مع صوت الطرب الشادي .

وهكذا كل منظر رائع تتضاءل روعته في نظر العين الواجمة

وكل نسمة عليلة من الهواء اللطيف تبدو للمحموم زوبعة قارسة

وكل عرائش البادية وجنات عدن قاحلة كهذا القطر في نظرى .

وحتى لا نغفل الشعر القصصى أقدم ترجمة قصيدة قصصية قصيرة بعنوان لكنفار يصف فيها مغامرة فارس عاشق فيقول :

لقد قدم لكنفار الشاب من الغرب على جواد أصيل لم يخترق الحدود الاسكتلندية له مثيل ، ولم يكن لديه من السلاح سوى سيفه العريض البتار ، وهكذا جاء وحيداً أعزل بقلب مفعم بالحب الصادق ، فلم يكن ثمة فارس مغوار بلغ من الجرأة ما بلغه لكنفار .

لم تعقه في سيره غابة كثيفة أو صخرة عاتية ، بل إنه عبر نهر الإسك وهو خالٍ من المخاضات ، لكنه برغم ذلك جاء متأخراً ؛ لأنه قبل أن يصل إلى باب قلعة « نذربى » كانت عروسه قد وافقت على الزواج من خطيب متخاذل ذى همة خائرة في ساحة الوغى وميدان الغرام . فكان وصوله يوم زفاف عروسه الشقراء « إلن » على ذلك الوغد .

اقتحم لكنفار ساحة القلعة بجرأة منقطعة النظير وسط أقارب العروس . أما العريس فإنه لم ينبس ببنت شفة ، فتقدم لخاطبه والدها وقد وضع يده على مقبض سيفه : هل قدمت إلينا في حرب لتقاتلنا ، أم في سلم لتشاطرنا الأفراح ؟ .

فأجابه لكنفار : لقد خطبت ابنتك منذ عهد بعيد وكنت ترفض ذلك ، وحيث إن الحب كالنهر في مد وجزر ، فإنى قد جئت بعد أن تراجع حبى لأحظى برقصة واحدة وأرشف كأساً واحدة من الخمر ، إذ هناك في اسكتلندة فتيات كثيرات يفقن « إلن » جمالاً ويرغبن من أعماق قلوبهن في الزواج من لكنفار الشاب .

وما إن قبلت العروس كأس النبيذ حتى تناولها الفارس لكنفار وجرعها جرعة واحدة ، وألقى بالكأس جانباً فطأطأت العروس وجهها الذى احمر خجلاً ، ثم نظرت إلى الأعلى وهى تتنهد . وبينما كان الدمع يترقرق في عينيها والابتسامة تعلو شفتيها أخذ لكنفار يدها ليراقصها قبل أن تتمكن والدتها من الحيلولة بينهما .

وكانت رقصة ممتعة لم تشهد صالة مثيلا لها ، لأنها جمعت بين فتاة فاتنة وفارس رشيق ، رقص كلاهما بينما كانت أمها تتميز غيظاً ، وأبوها يرغى ويزبد ، وعريسها يداعب قبعته بيده ، وأخذت قريباتها يتهامسن ويقلن لبعضهن : لقد كان خيراً لنا أن نزوج فتاتنا « إلن » من هذا الفارس الشاب .

وبعد أن همس في أذنها ولمس يدها وصل بها إلى باب القاعة حيث يربض جواده فعلا بها على صهوته ووثب وراءها قائلاً : لقد فزت بها وستجتاز البرارى والقفار مهما حاولوا مناجزتنا بما لديهم من خيول سريعة .

وكان طراداً رائعاً قام به فرسان القبيلة ورجالها في السهل والتلال ، لكنهم لم يدركوا العروس المخطوفة لأنها اختفت عن الأنظار . فهل رأيت أو سمعت بفارس يدانى لكنفار من حيث جرأته في الحب وبسالته في الحرب .

ابراهيم سكيك

معلم أول بمدرسة غزة الثانوية



رأى فى الترجمـــة ...

للكاتب والشاعر والناقد والمترجم الانجليزى John Dryden

(١٦٣١ - ١٧٠٠)

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

الترجمة لون من ألوان الرسم منقولاً عن الحياة ، بحيث يستطيع كل واحد أن يسلم بأن هناك نوعين من المشابهة : مشابهة مليحة حسناء ، ومشابهة قبيحة شوهاء .

وعمل المترجم ينقسم قسمين : أولهما أن يجيد رسم الخطوط الرئيسية ، وأن يتقن تصوير الملامح ، وأن يحمل التناسب بين أجزاء الصورة تاماً ، وأن يعمل على أن تكون الألوان منسجمة متناسقة .

وثانيهما أن يُلبس تلك الأشياء الجافة الجامدة ستراً رقيقاً يشف عما تحته من الرقة والظرف ، وذلك فى القعدة أو الوقفة ، وفى رسم الظلال التى تحيط بالصورة ، وأن يُضفى على تلك الأشياء كلها روحاً تبث فيها الحياة .

وإنى لتعرونى هزة من الاشمئزاز والكره إذا نظرت صورة شوهاء منقولة عن صورة رسمها مصور صناع اليدين فأجاد فى تصويرها وأبدع .

وكذلك ينتابنى الهول والفزع كلما ألفيت (فرجيل) و (هومير) ومن لف لفهما يمسخ فى وجوههم أحد المترجمين المتعفين ، و (فرجيل) و « هومير » وأمثالهما هم أولئك السادة الأفذاذ النوابغ الذين قضيت حياتى كلها فى مجالستهم والنقل عنهم .

وكيف يصدقنى القراء أو يصدقون أمثالى إذا قلنا لهم إن أولئك النوابغ هم الذين اغترفنا من مناجمهم كل رائع من النثر ، وكل بارع من الشعر ، إذا قرأوا ما نقله عنهم أولئك المترجمون الجهال الذين أشبههم بالرائين فى أمراض الناس .

وإنى لأستطيع أن أؤكد القول لأولئك القراء أن لا وجه للمشابهة والتماثل بين الشاعر وهو حى يملأ الدنيا دوياً ، وبين جيفته وهو رمة تحت أعواد .

ومن الناس كثيرون يعرفون اليونانية واللاتينية ، ولكنهم يجهلون لسان قومهم ، فخصائص اللغة الانجليزية ودلالاتها لا يعرفها إلا القليلون ، وإنه لمن المستحيل حتى على من كان ذكياً أن يحسن فهم تلك الخصائص والدقائق ، ولا أقول أن يحسن استعمالها ، إلا إذا أوتى حظاً عظيماً من التعليم والتثقيف ، وإلا إذا أدمن القراءة ، وتمثل ما يقرؤه من آثار المجيدين الفطاحل ، وإلا إذا درس طبائع الناس وأخلاقهم وعاداتهم ، وإلا إذا قصر التحدث على النوابغ من الرجال والنساء ، وإلا إذا أزال عن نفسه صدأ ما علق بذهنه من علم قد أصابه الركود .

وليس مطلوباً من الدارس اللغة أن يعرف ما بتلك اللغة من أساليب صافية عذبة ، ولا أن يعرف ممن من

الكتاب قد برع أسلوبه ، ومن منهم قد كان أسلوبه غثاً رديئاً ، ولكن المفروض على دارس اللغة أن يعرف خصائص كل كاتب ومعايبه .

وإنى لأرى الكثرة من الدارسين قد غفلوا عن هذا ، بل إنى لأرى كثيراً من أذكياء الشباب يتخذون بعض الكتاب والشعراء قدوة لهم وإماماً ، وهم يُغدقون عليهم فيوضاً من الإعجاب والتقديس ، ويأخذون فى محاكاتهم ، غير ملتفتين بالمرة إلى ما فى نثر أولئك الكتاب أو شعر أولئك الشعراء من مآخذ وعيوب .

من أجل ذلك أرى لزاماً على كل دارس أن يتخذ من نفسه ناقداً لكل ما يقرأ فى لسان قومه ، قبل أن يحاول النقل من لغة من اللغات إلى لغة قومه .

وعلى الدارس أن يجيد معرفة لسان الكاتب الذى ينقل عنه ، كما أن عليه أن يعرف لسان قومه هو معرفة تامة شاملة ، فإن حاول ترجمة قصيد شاعر مجيد كان لزاماً عليه أن يكون هو شاعراً مجيداً .

وليس يكفى المترجم من لغة إلى أخرى أن تكون كلماته مستقاة منتخلة ، تجرى على أنماط الشعر ، ولها جرس موسيقى ، على ما فى يخرج هذا كله من صعوبة ومشقة ، ذلك أن مثل هذا المترجم قد غاب عنه سر من أخفى الأسرار ، وذلك السر هو محاذاة الكاتب أو الشاعر ومحاكاته فى خصائصه ومميزاته ، وبخاصة تلك التى تميزه عن سائر أنداده وزملائه .

وللتقريب هذا من الأذهان نقرر أن الفكرة عند (فرجيل) تختلف عن الفكرة عند (أوفيد) ، بل إن للمذهب الشعرى وطريقة قرض الشعر عند كليهما هى جد مختلفة ! وعلى الرغم من ذلك فإنى أرى بعض أحسن شعرائنا وأقدرهم على الترجمة من يخلط — عند الترجمة — بين المذهبين ، حتى ليلتبس الأمر علىّ — لولا معرفتى بأصول القصائد — أكان القائل (فرجيل) أم كان (أوفيد) .

ولقد نال النقاد باللوم الشديد مصوراً من أبرع المصورين ، ذلك لأن صوره تكاد تكون كلها متشابهة ! والباعث على هذا أن ذلك المصور كان يدرس نفسه هو أكثر من دراسته لأولئك الذين يجلسون إليه لتصويرهم .

وإنى لمستطيع إذا قرأت قصائد أولئك الشعراء ، أو نظرت إلى صور أولئك المصورين أن أعرف اليد التى كتبت تلك القصائد أو صورت تلك الصور ، ولكنى لا أستطيع أن أعرف الشاعر الذى ترجموا عنه ، أو المثال الذى احتذوه ونقلوا عنه .

وإنى لأومن أن قد يكون هنالك شاعران أوتيا حلاوة اللفظ وبراعة التعبير ، ولكنى أومن أيضاً أن هنالك صنفين من الحلاوة : حلاوة السكر وحلاوة الشهد .

وأنا إذ أنظر إلى (فرجيل) أجده يحب الإيجاز ، ويكل سرى من اللفظ ، ويكاد يزن كل كلمة ، بل كل مقطع ، كما يزن الجوهرى جواهره ، وهو يلجأ كثيراً إلى الاستعارة والمجاز ، حتى ليجد القارئ نفسه فى حاجة إلى معجم خاص يستعينه على تفسير ما يقرؤه .

وإنك لتحس فى شعر (فرجيل) ، بل فى كل شطر من أبيات قصائده ، جرساً موسيقياً يقرب إلى أذنيك الإحساس الذى يمثله ويؤديه ذلك الشطر من البيت .

و (فرجيل) يلجأ دائماً إلى التنويع فى روى قصائده ، وذلك مخافة الإملال ، ويخالفه فى هذا الشاعران (أوفيد) و (كلوديان) ، وإن كان كلاهما يختلف عن زميله فى الأسلوب ، ولكنهما يتفقان فى أن لكليهما لوناً موسيقياً واحداً ، تلقاه فى كل قصيدة تقرؤها له .

والشاعر (أوفيد) على ما أوتى من حلاوة فى القول ، وبراعة فى النظم ، قليل التنويع والتلوين ، وهو فى هذا كأنه جواد لا يعرف إلا الرَّمحة الوئيدة ، وهو إذا جرى فكأنما يجرى فوق بساط من الأبسطة ، فشعره ناعم بالغ النعومة ، وقوله لين بالغ الليونة .

أما (فرجيل) ، فهو وإن كان قوله سهلاً إذا احتاج المقام إلى السهولة ، فهو لا يتكلف تلك السهولة ولا يصنعها ، بل إنه ليبدو عليه أنه يزدرى اللين من القول .

وهو فى كل حالاته يأبى بنفسه عن الإطناب الممل ، وهو يتمسك بالجمع بين فخامة القول ووضوحه .

وهو يضيء ، ولكن ضوءه لا يبهر العين ، ولا يُعشى البصر ...

(عن الإنجليزية) بادل ابراهيم

صور خاطفة لشخصيات لامعة

لديل كارنيجي

ترجمة الأديب حسين أحمد أمين

— ٦ —

ماركونى

منذ بضعة أعوام هيأ لى حسن الحظ فرصة مقابلة رجل كان له أثر خطير على حياتك .. فقد طرأ بفضله تغير كبير على عالمنا هذا الذى نعيش فيه . ومكن لنا أن نرسل رسالة حول العالم فى سبع الثانية . ومكننا من الجلوس فى البيت وإدارة لولب فى جهاز لاسلكى للاستماع إلى الملك وهو يتكلم فى قصر باكنجهام أو الاستماع إلى أشهر الفرق الموسيقية وهى تعزف أنغام الدانوب الأزرق الساحرة .

وجميعنا ينظر إلى ماركونى كإيطالى الأصل .. والواقع أن أباه كان إيطالياً ، أما أمه فهى إرلندية عاشت فى لندن ، وقد أكسبه دمه الإرلندى شعره الخفيف وعينيه الزرقاوين؛ والحق أن هيئته إنجليزية أكثر منها إيطالية .. وهو يتكلم الإنجليزية بطلاقة مع لكنة لندنية خفيفة ، ويلبس عوينة من طراز بريطانى على عينه اليسرى وقد فقد للأسف عينه اليمنى فى حادث سيارة وقع منذ عشرين عاما .

وعندما جلست لأتحدث إلى هذا الرجل المتواضع ذى الكلام الرقيق والمظهر البسيط كان من الصعب على أن أصدق أنى حيال واحد من أعظم الرجال على وجه الأرض . وفى أثناء طفولتى عندما كنت أقيم فى ميسورى قرأت عن عالم كبير فى إيطاليا قد اخترع جهازاً تلغرافياً لاسلكياً . وفى عام ١٩٢٠ ذهبت مع لويل توماس للغداء فى مطعم بلندن حيث كان من السهل الاستماع إلى اختراع جديد هو الراديو . والآن هاهو ذا الرجل الذى قام بهذه المعجزات يجلس أمامى وجها لوجه .. ليخيل إلىّ أنى فى حلم .

وسألته عن المرة الأولى التى شغف فيها بالسعى وراء اكتشاف الراديو ، فأجابنى بأن شغفه هذا يرجع إلى أيام شبابه عندما أراد أن يقوم بعمل يمكنه من السفر حول العالم . وأخبرنى أنه سافر مراراً مع أمه من موطنه فى إيطاليا إلى أهلها فى لندن . وأثناء اختراقهما لفرنسا جلس إلى نافذة القطار يستعرض الجبال وقد كساها الجليد ، والأنهار الثلجية والقصور الفخمة التى توحى بالخيال . فنشأ لديه فى طفولته عاطفة قوية وحب عارم نحو السفر والسياحة . وأخبرنى أنه دائماً كان يشعر — أثناء تجاربه فى الموجات الكهربائية والأجهزة اللاسلكية — برغبة شديدة فى السفر إلى بلاد بعيدة مخترقاً البحار والمحيطات ؛ وقال إنه لا يستطيع العمل فى معمل صغير مقفل ، وإنه يقوم بمعظم تجاربه على ظهر يخته الذى جهزه بكل المعدات والأجهزة الضرورية للمعامل .. وقال إنه عبر المحيط الأطلنطى سبعاً وثمانين مرة .

وقد اعتاد ماركونى عندما كان صبياً أن يتبادل الرسائل اللاسلكية خلال غرف بيته . واستطاع بعد مدة أن يرسل الرسائل على بعد ميلين . وقد سر كثيراً لهذا الاكتشاف . أما أبوه فقد ساءه أن يضيع ابنه وقته على هذا النحو .. ولكن ماركونى استطاع أن يبيع بعض مخترعاته — بعد عدة سنين — إلى الحكومة الإنجليزية بخمسين ألف جنيه ، فذهل أبوه لذلك .

وقد سألت السينانور ماركونى عما فعله عندما قبض الخمسين ألف جنيه ، فأجابنى بأنه خرج واشترى دراجة له وعاد إلى العمل ثانية كما هى العادة . فلذة العمل عنده تفوق كل ما يستطيع أن يجلبه له المال من لذائذ .

وأدرك ماركونى عام ١٩٠١ أن حلمه العظيم على وشك أن يتحقق ، فأسرع وعبر الأطلنطى موقناً بأنه يستطيع أن يتلقى الرسائل فى أمريكا من محطة الإرسال فى أنجلترا .

وفى نيوفوندلاند أرسل ماركونى طائرة كطائرات الأطفال فى الهواء ، وجعلها تمثل « الإيريال » .. ولما كانت الطائرة رقيقة الصنع ذات غطاء حريرى فقد حطمها الهواء . فأرسل بالوناً بدل الطائرة ، غير أن الريح عادت فحطمت البالون وألقته فى عرض المحيط . فصنع طائرة أخرى قوية متينة وأطلقها فى الهواء ، وأمضى جانباً أعقابه ساعات طويلة ، وانتظر أن يتلقى العلامات التى توقع صدورها من محطة الإرسال فى كورنوول .. ولكنه لم يتلق شيئاً ، ولم يسمع صوتاً . فأصابته خيبة الأمل والحزن الشديد ، واعتقد أن تجربته قد خابت تماماً ، وأن حلمه الكبير قد تبدد .

وفجأة سمع دقة خفيفة .. ثم دقة أخرى .. ثم دقة ثالثة .. أجل .. إنه الإرسال .. إنها الإشارة التى اتفقوا عليها .. إنها الدقات الثلاث التى تقوم مقام حرف S عند عمال البرق .

واهتز ماركونى من السرور ، وأدرك أن اكتشافه حدث كبير فى التاريخ ، واشتاق إلى إعلان الخبر إلى الناس ، ولكنه تردد .. فقد خشى ألا يصدقوه . فمكث ثمانياً وأربعين ساعة مغلقاً السر على نفسه ، وأخيراً استجمع الشجاعة وأرسل بالخبر إلى لندن ، فأثار هذا اضطراباً كبيراً ، ونشرت الصحف والقارات الخمس تفاصيل القصة ، وقامت الدوائر العلمية لهذا النبأ وقعدت . فها هوذا الإنسان ينتصر مرة أخرى على الوقت والمسافة ، وها هو العالم على باب عهد جديد .. لقد ظهرت الأجهزة اللاسلكية ، فكان هذا إيذاناً بتغير فى حياتك وفى حياتى .

فكم كان عمر ماركونى عندما توصل إلى هذا الاكتشاف ؟ سبعة وعشرين عاماً . وقد وصلت إليه حينذاك رسائل كثيرة يشكو فيها أصحابها ، إذ تخيلوا أن الموجات الكهربائية تجتاز فى سيرها أجسامهم ، فتحطمت لذلك أعصابهم ، ولم يعد باستطاعتهم النوم .

وهدد الكثير من هؤلاء ماركونى بالقتل .. وأخبره أحدهم — وهو ألمانى — بأنه قادم إليه فى لندن ليقتله ، فسلم ماركونى الخطاب إلى بوليس سكتلنديارد ، واحتاطت الحكومة حتى لا يدخل هذا الألمانى الجزيرة البريطانية .

وسألت السيناتور ماركونى عن المدة التى تكفى حتى يصبح لديك ولدى فى بيوتنا أجهزة دقيقة منتظمة من التليفزيون . فأجابنى بأن فى استطاعة العلم أن يحقق ذلك فى مدى عشرة أعوام أو أقل ..

وقد مرت العشرة أعوام — كما نعلم — غير أننا جميعاً ندرك أن سنى الحرب قد منعت العلم دون الوصول إلى هذه الغاية .

حسين أحمد أمين



أعلام من العصر الحديث

تأليف الأستاذ محمود محمود

٣٧٠ صفحة من القطع المتوسط — مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة سنة ١٩٥٠

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

يقول « و . هـ . أودين » W. H. Auden الشاعر الانجليزى المعاصر : (إن هـذا العالم الفسيح يبدو للرجل البدائى العقل محصوراً فى زمان ومكان واحد ! على حين تلتقى الأزمنة والأمكنة كلها فى صعيد واحـد أمام الرجل الناضج المتفتح مسالك العقل) . وكذلك كان هذا الكتاب حين أراد صاحبه أن يترجم لطائفة من أعلام العصر الحديث ، فامتد به الزمان والمكان — بناء على نظرية الشاعر Auden — إلى ما قبـل العصر الحديث ؛ وإذا به يترجم لأوليفر جولد سميث من كتاب القرن الثامن عشر ! بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيترجم للأديب الفرنسى « مونتاين » من كتاب القرن السادس عشر ... ! .

ولا أدرى هل فطن الأستاذ محمود محمود إلى رأى الشاعر « أودين » فى التقاء الأزمان والآباد كلها فى لحظة واحدة ، أم التـقى « جولد سميث » و « مونتاين » وحدهما فى حلقة من الدراسات لطائفـة من رجال القرنين التاسع عشر والعشرين من غير أن يشعر الأستاذ المؤلف بانسلالهما إلى هـذه المجموعة من تراجم العصر الحديث ؟! .

وأياما كان الرأى فى تحديد « العصر الحديث » و « العصور الحديثة » فإن الخلاف لا يغير من جوهر الأمر شيئاً ... وجوهر الأمر أن الأستاذ محمود محمود رأى فى حياة هذه الحفنات من الرجال — أو الأبطال كما سماهم — ما يستحق أن يقدم إلى القارئ العربى (راجياً أن يتخذ شبابنا من هذه السير مُثلاً لهم يحذون حذوها ، وينهجون نهجها ، فهى صفحات من المجد رائعة ، وقصص من البطولة تستحق الذكر والخلود) — مقدمة الكتاب .

وبمناسبة حديث المؤلف عن البطولة والأبطال يظهر أن له معياراً للبطولة غير المعايير التى اصطلحنا أن نقيس عليها زمناً ... فأنا أفهم أن يكون « غاندى » بطلاً سيرتفع مع الزمن إلى مستوى أبطال الأساطير .. ! وأفهم أن يكون « تشرشل » بطلاً ، وأفهم أن يكون غاريبالدى بطلاً ، وأفهم أن يكون « مصطفى كمال أتاتورك » بطلاً ! ولكنى لا أفهم أن يكون « أولدس هكسلى » الأديب الانجليزى المعاصر بطلاً ، وأن يحشر مع غاندى ، وتشرشل ، وأتاتورك ، وغاريبالدى ، وبادروسكى فى صف واحد ... ! .

ولست عدواً لهكسلى ، وجوله سمث وغيرهما ممن سلكهم المؤلف فى عداد الأبطال ، ولكنى أحب أن يوضع الناس مواضعهم ، وأن ينزل الرجال أقدارهم ، حتى لا تهون البطولة إلى حد تعود فيه كالسلعة الرخيصة .

وحتى أن يكون « هكسلى » علماً من أعلام الفكر الحديث — كما كان جده علماً من أعلام العلم الطبيعى ؛ أما أن يكون بطلاً فمسألة نقف عندها إلى أن يعرّف لنا الأستاذ محمود محمود البطولة فى مصطلحه الجديد !.

وأغلب الظن أن الأستاذ المؤلف قد سار فى منهج التراجم على الخطة التى وضعها « هاقلوك إليس » لمن يتصدون لكتابة تراجم الرجال . وهى الخطة التى وجهها إلى المترجمين على شكل خطاب مفتوح ، والتى أعجبت مؤلفنا فنشرها فى آخر الكتاب . وكم كنت أود أن تحتل هذه الخطة مكان الصدر من الكتاب حتى تكون دستوراً لكتابة التراجم .. ولكن الأستاذ محمود اختار لها آخر الكتاب حتى يدرك القارئ مدى انطباق ما فيها من آراء على ما قدمه فى تراجمه .. وأنا أستطيع أن أهنئه على نجاحه فى هذا الانطباق إلى حد كبير . فإن « هاقلوك إليس » يلوم كتاب التراجم على أنهم يقومون بعمل المؤرخ ، وليس المترجم بالمؤرخ ؛ ويلاحظ أن المترجمين يقدمون لنا — عوضاً عن الترجمة الحقيقية — نتفاً من التاريخ وُضعت فى غير موضعها . ومن هنا استفاد الأستاذ محمود بنصيحة « هاقلوك » .. فقدم لنا تراجم حقيقية ، واستطاع أن يحدثنا — فى النسياب إلى أعماق النفس — لا عن أعمال هؤلاء الرجال ، ولكن عن الظروف والملابسات التى تمت فيها هذه الأعمال .

وبمناسبة هذا الخطاب الأدبى الذى وجهه « هاقلوك إليس » إلى كتاب التراجم أذكر أن المؤلف قد دعانا إلى غير قليل من التبلبل وهو يقول فى تقديم كتابه إنه ذيله (بمقال يحوى خلاصة رأى « ماثيو أرنولد » الأديب الناقد الإنجليزى فى كتابة السير ، كتبه فى صورة خطاب وجهه إلى كتاب التراجم) . ثم نبحث فى ذيل الكتاب عن خطاب « ماثيو أرنولد » الموعود فلا نجد إلا خطاباً من « هاقلوك إليس » إلى كتاب التراجم ... والقارئ معذور حين يختلط عليه الأمر بين رأس الكتاب وذيله . فبينا هو ينتظر خطاباً أدبياً من « ماثيو أرنولد » إذا به يجد خطاباً من « هاقلوك إليس » ، حتى لا يهتدى القارئ إلى وجه الحق فى هذا الخطاب الأدبى الرفيع : أهو لهاقلوك كما فى ذيل الكتاب ، أم لماثيو أرنولد كما فى المقدمة !

مالى حاجة أن أقول إن الأستاذ محمود محمود بارع فى كتابة التراجم ؛ ولو أنه جعل كتابه وقفاً على تراجم الأدباء والشعراء والكتاب ورجال الفكر والفن لأخذ الكتاب مكانه فى التراجم الأدبية العربية . ولكنه شاء أن يعرّفنا بأعلام من الرجال لا يربطهم — فى أغلب الأمر — سلك واحد أكثر من الشهرة التى تضمهم فى محيطها . ففى كتابه نرى « كارل ماركس » الاقتصادى الاشتراكى بجانب « ماركونى » العالم المخترع و « دزرائيلى » السياسى المحنك و « مصطفى كمال أتاتورك » المحارب و « طاغور » الشاعر و « برنارد شو » الكاتب .

إنه خليط من الرجال ! بالضبط كما يفعل دايل كارنيجى D. Carnegie فى تراجمه المألوفة المحبوبة ؛ لا كما يفعل هنرى توماس H. Thomas فى تراجمه القائمة على جمع الأضراب وضم الأشباه والنظراء . فللمفكرين مجموعة ، وللشعراء مجموعة ، وللروائيين مجموعة ، وللعلماء مجموعة ، وهكذا ..

فلو حذف من كتاب « أعلام من العصر الحديث » هؤلاء السياسيون وهؤلاء المحاربون ، وبقيت حفنة أو حفنتان من الكتاب والشعراء والأدباء الذين يمت إليهم الأستاذ محمود محمود بأقوى الوشائج لكان إنتاجاً أقرب إلى طبيعة الأدب والأديب .

ومالى ألوم المؤلف وقد وضع لنا فى تقديمه الوجيز أغراض كتابه .. فلم يجعله أدبياً ولا تقنياً ، ولكنه جعله « مثلا » يرجو أن يحذو الشباب حذوها ؛ وإذاً فلا محل

قومنا له وعيبنا عليه ؟ لأن قصاراه في الكتاب أن يعرض لنا رجالا — مهما كانت أعمالهم — وأن يكشف لنا من وراء هذا العرض عما يصح أن يكون مثلا يحتذى . وهنا وفق المؤلف إلى أبعد الحدود . فقد استطاع أن يعرض فضائل الرجال عرضاً حيًّا متواضعاً في غير مظاهرة أو إعلان .. ولو أعلن لفقدت هذه الفضائل كثيراً من جمالها وأثرها . اسمعه وهو يقول في ختام ترجمة «غاريبالدى» : (كان غاريبالدى دائماً في الطليعة أثناء القتال ، وفي المؤخرة بعد ما ينتهى القتال ، يزرع ولا يحصد ، ويجاهد ولا يجنى ثمرة الجهاد) . واسمعه يقول في ترجمة «جيته» : (كان يحب بلاده حباً جماً ، ولكنه لا يمقت البلدان الأخرى . ولما اتهم بالتراخى لأنه لم يكتب أناشيد حربية تشعل الحماسة في القلوب أجاب بقوله : إنى لم أتفوه قط بما لم يدخل في تجاربى فإنى لم أضع أناشيد الحب إلا بعد ما أحببت ، فكيف أستطيع إذاً أن أضع أناشيد البغض دون أن أبغض ؟) . واسمعه يقول في ترجمة «سن يات سن» : (جسم الأمة كجسم الإنسان ، إن أجريت فيه جراحة استأصلت بها الأوساط العليلة طهرت جسم الأمة وروحها) .

وهكذا كان الأستاذ محمود محمود مترجماً وطبيباً روحياً بارعاً ؛ ولم أره في خلال الكتاب كله يلبس معطف الأطباء ويمسك في يده «روشتة الدواء» ؛ متحاشياً بذلك التصرف الحكيم كراهة المريض للطبيب من قديم الزمان . ولم أره في خلال الكتاب كله واعظاً يلبس ملابس الوعاظ ويتكلف حركات أيديهم وغَّ حلوقهم ، حتى يقال إنهم أجادوا الوعظ وأتقنوا الإرشاد ..! ولم يمسك الأستاذ محمود محمود عصا «الوعظية» إلا مرة واحدة وهو في ختام الحديث عن «مونتاين» الفرنسى حين يقول : (يعلمنا مونتين الحرية ، وهو درس نافع لنا في هذه الأيام التي بلغ فيها التعصب السياسى أشده ... ألسنا بحاجة إلى مثل هذا الدرس في هذه الأيام ؟) . ولا أكون منصفاً «لمونتين» ، ولا منصفاً للأستاذ محمود محمود وصدق وقوعه على فضائل النفس البشرية حين لا أذكر هذا الدرس الذى يقوله «مونتيق» منصفاً أصدقاءه وخصومه على السواء : (وسط هذا الاضطراب الذى يقوم في بلادنا لم تنس مصلحتى الخاصة صفات أعدائى الطيبة ، ولا الصفات السيئة التى يتصف بها من أتبعهم .. إن الخطيب المصقع لن يفقد قيمته في عينى لأنه يظهر نقائصى وعيوبى ... يريد الناس أن يخدموا شهواتهم دون الحقيقة ، وإنى لأخدم الحقيقة دون شهواتى ، حتى لو أدى ذلك إلى الإجحاف بنفسى ؛ فإنى أخشى أن تفسدنى الشهوة ؟ لأنى أفقد الثقة في نفسى في كل ما يتعلق برغباتها ..) .

وفقدان الثقة بالنفس عند «مونتيق» فيما يتصل برغباتها هو الذى عبر عنه شاعرنا «البوصيرى» بقوله :

وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محضاك النصح فاتهم

***

هذه خطوط كبرى وضعتها وأنا أرسم خطة لنقد كتابك أيها الأخ الكريم ؛ أما ما عدا ذلك من مسائل صغيرة فإنى محدثك بها ؛ وأنا واثق أنك ستجد فيها سروراً ؛ فما بقيت من اللذات إلا أحاديث الرجال ذوى العقول !. تحدثتَ يا أخى عن مزح «برناردشو» وهو مزح كنت أرجو منك أن تعقد موازنة بينه وبين مزح «مارك توين» أمير السخرية في العصر الحديث . ولست أدرى لماذا خطر على بالى أن يكون لمارك توين مقام في كتابك هذا بجانب «شو» حتى تجمع بين الساخرين من الحياة في كتاب واحد ...

على أنى أقرر دائماً بأنك حر في اختيار تراجمك ؛ ولكن الموازنة بين ساخر وساخر كانت ضرورية وأنت ترجم لشيخ الساخرين الأحياء .

وذكرت يا أخى كتاب «رأس المال» لماركس وأثره في توجيه برنارد شو ؛ ولكنى لا أدرى لماذا أغفلت ذكر الكتاب الآخر الذى أثر في «شو» أثراً كبيراً ، وهو

كتاب "Progress and Poverty" الذي ألفه « هنري جورج » ، والذي كان يبشر به « شو » في أول عهده بالخطب السياسية .

وذكرت أسماء الفلاسفة الذين كتب « تولستوى » من مناهلهم ، واستطاع طلع آرائهم ، فعددت أفلاطون ، وكانت ، وشوبنهور ، وباسكال . ولكنى لا أدرى ما الذي أنساك اسم « جان جاك روسو » الذي كان يعبده تولستوى — بلا مبالغة — كما تعبد الآلهة . وكان يحلّى جيده بصورة الفيلسوف الفرنسى الشهير تتدلى من رقبته !.

ولا أوافقك يا أخى على قولك (إن أحداً من الثائرين فى الروسيا فى القرن التاسع عشر لم يمهد السبيل « للينين » و « تروتسكى » كما فعل هذا الرجل — يعنى تولستوى) فإن عوامل الثورة الروسية لم تكن — كما يقول المؤرخ الإنجليزى فيشر — بحاجة إلى مُثيرين ... فقد كان الجوع والشقاء ، والسخط والاستياء ، والاختلاسات ، وسوء توزيع موارد البلاد ، وفضائح راسبوتين الراهب الخليع الفاجر فى البلاط ، والقائمة الطويلة من نكبات روسيا الحربية ، وفظائع Propopoff بروتوبوف وزير الداخلية ... كل أولئك مهد السبيل لثورة لينين وتروتسكى أقوى مما مهدته كتب تولستوى .

وتقول يا أخى إن « مونتين » الفرنسى تخلّى عن منصبه فى أخريات أيامه وشغل نفسه بالقراءة والتفكير ، ولزم بيته لا يكاد يفارقه . ولكن دجراغ "Des Granges" مؤرخ الأدب الفرنسى المشهور يقول : إن « مونتين » حبس نفسه بين كتبه فى سنة ١٥٧١ ، أى قبل أن يموت بواحد وعشرين عاماً . فلم يكن هذا الحبس الأدبى فى أخريات أيامه ، وإنما كان لحقبة طويلة من العمر تبلغ ثلث حياة هذا الكاتب الكبير .

ولن يبلغ الخلاف بينى وبينك فى مثل هذه التوافه من الملاحظات حداً ينسيني ذلك الفضل الذى أسديته إلى المكتبة العربية بكتابك هذا ، وأنا أطمئنك على أنه سيتبوأ مكانه بين كتب التراجم ، وهو مكان أشبه بالقمم — غير مبالغ فى التقدير — ولا مجامل لك فى بعض الود الروحى والفكرى الذى ألفته بيننا الأخوة الأدبية منذ قرأت لك كتبك ومقالاتك .

ولا أشرفك يا أخى إذا كنت تغضب حين أسرّ إليك أن استعمالك « الملاك » بدلاً من الملك ص ١٠٩ ، والفعل « استأجر » بدلاً من استجار ص ١٥٢ ، والفعل « أثناه » بدلاً من ثناه ص ١٧٦ ، و « القسس » بدلاً من القسوس والقسيسين ص ١٩٨ ، و « شهوة » الطعام بدلاً من شهوة الطعام ص ٣٤٢ ؛ أقول إن استعمالك لهذه الكلمات وأمثالها مما لا يقره الوضع الصحيح للغة العربية . ولكنى طامع فيك أن لا تغضب أو يضيق صدرك بمثل هذا . ولا تنس أنك رويت فى صفحة ٣٠٠ من كتابك العظيم — وأنا أعنى هذه الصفة — قولك عن « دزرائيلى » : (كان يصحح زلاته بعناية فائقة ، قائلاً : لست أحب أن يتداول عنى الخلف أخطاء فى النحو)

محمد عبد الغنى حسن

تبيـــــان حقيقة

أخي الأديب الكبير الأستاذ محمد عبد الغني حسن المحترم

سلام الله عليك ورحمته . وبعد فأتقدم إليك بوافر الشكر وجزيل الثناء لما تضمنته كلمتك الرائعة من النظرات الصادقة الفائقة ، والآراء السديدة الصائبة حول كتابي (سكينة بنت الحسين) المنشورة في عدد — ٥٩٩ — من الثقافة الغراء . وقد دهشت لاهتمامك الكبير ، وعنايتك البهيجة بهذا الأثر الضئيل . إلا أن طبعك الكريم ، ونفسك المهذبة ، وفضلك الواسع ، وأدبك الجم الرفيع أبى عليك أن تبخس الناس أشياءهم مهما كانت قيمتها ووزنها ، والحق أن الفضل لايعرفه إلا ذووه ، ولايقدره حق قدره إلا الفضلاء من أمثالك النجباء ، الذين يزخر بهم وطن الكنانة وتنعم بأنوارهم الساطعة جنبات النيل المبارك .

أخي الكريم : لقد كان لتعليقاتك الأدبية القيمة ، وإرشاداتك المفيدة القيمة ، ونصائحك الجليلة المهمة أكبر الأثر في نفسي . وقد ساءني بالوقت نفسه ما تركته الأخطاء المطبعية البارزة في الآيتين الكريمتين في نفسك من الألم الممض مع شديد الأسف . ولو علم الأخ الفاضل ما عليه المطابع العراقية والنجفية منها خاصة ، من إهمال عمالها وعدم اهتمامهم بثقل المسئولية لعذر الناشر ولما استنكر ما لاحظه من الخطأ الفاحش ؛ هذا ولو علم أيضاً الحقيقة الراهنة ووقف على جلية الأمر وكيفية طبع الكتيب لما وصمني في آخر كلمته البليغة بتلك الوصمة الشنيعة من جراء ذلك الخطأ المطبعي المخل في نص الآيتين الكريمتين .

أما حقيقة الواقع ياسيدى الأستاذ ؛ فإن هذه المجموعة من المقالات كنت نشرتها في إحدى المجلات ، ولاحظت ما لاحظت حضرتك من الخطأ المعيب الواقع في الآية رقم ٣٣ من سورة الأحزاب وقمت بتصحيحها بعد نشرها ، وبعد زمن التمس مني صديق الفاضل صاحب سلسلة حديث الشهر أن آذن له بطبعها فأذنت له وأخذ المسئولية على نفسه بعد أن لفت نظره إلى تدارك الخطأ الواقع ، ولكن يظهر أنه بالرغم من حرصه الشديد على سلامة الكتاب من التشويه والخطأ الفاضح لم يستطع تحقيق ما أراده ، بالنظر لتمرد عمال المطبعة وإخلالهم بالواجب .

أما الآية رقم (٦) من سورة الحجرات التي جاء فيها حرف (لئلا) بدل (أن) فقد استدل بها حضرة الناشر في حاشية (ص ٥٣) من الكتاب ، وكل ذلك لم يكن من تقصيري حتى يقال بأني أتيت بقرآن من عندي أو قمت بتحريفها كما وصمني الأستاذ الجليل والعياذ بالله من شر ذلك .

ولا أدرى كيف تسرع الأستاذ بهذا الحكم المجحف وهو الثبت الحريث ، والكتاب بين يديه ينطق باسم ناشره في أول صفحة منه (غيرى جنى وأنا المعذب فيكم . .) مع أن الكتاب ضم بين دفتيه جملة من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة فلم يقع فيها من الخطأ ما وقع في هاتين الآيتين الكريمتين . وهذا ما يؤيد ويبرر موقف الناشر من عمال المطابع وإهمالهم الذي نشاهد آثره في مطبوعات الغرب والشرق .

ولا أنكر على الأستاذ المحترم أن إيراد آيات القرآن الكريم محرفة عن مواضعها ظاهرة خطرة أشد الخطر . وإني أكرر شكرى العظيم لشدة غيرته الإسلامية ، وإخلاصه العميق الصادق لنصرة كرائم القرآن والذود عن قدسيتها السامية . وأرجو أن يوقن حضرته بأني مازلت والحمد لله أسير في موكب المصلحين الذائدين عن الكرائم القرآنية . وأخيراً أسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أتباع القرآن وأنصاره وحلفائه ، ومن حماة شريعته الغراء الخالدة ، إنه بالإجابة جدير .

(بغداد) توفيق الفكيكي

حول أبيـــــات ثلاثة .. !!

ذهبت لعيادة طبيب ، فإذا بعـدة صحف ومجلات على منضدة صغيرة بحجرة الانتظار ، لفت نظرى بينها عدد قديم من جريدة « الأساس » فتناولته ، فإذا فى تضاعيفه مقال أدبى للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، عنوانه « شعر العبيد » ، يقول فيه ما نصه :

« .. وفى هذا الجيل نبغ نصيّب مولى عبـد العزيز ابن مروان .. وكان الشعراء الفحول فى عصره يقولون عنه إنه أشعر بنى جلدته ، لينزلوه فى منزلة دون التى يدعونها لأنفسهم ، وهى منزلة الشاعر الأول بين العرب ، فكان يقول لهم : نعم ، وأشعر الإنس والجن .. وهو القائل وقد أجاد :

وركب كأن الريح تطلب عنـدهم
لها ترة ، من جذبهـا بالعصائب
سروا يركبون الريح وهى تلفهم
إلى شعب الأكوار ذات الحقائب
إذا استوضحوا ناراً يقولون : ليتها
وقد خَصِرت أيديهمُ ، نار غالب

وشعره كله على هذه الطبقة من الجزالة .. الخ » .

وبهذا نسب الأستاذ العقاد هـذه الأبيات الثلاثة إلى نصيّب مولى عبـد العزيز بن مروان ، غير أن المتصفح للجزء الأول من « الشعر والشعراء » لابن قتيبة « تحقيق وشرح الأستاذ أحمد محمد شاكر » يجد هذا النص :

« .. دخل الفرزدق على سـليمان بن عبـد الملك ، وسليمان ولىّ عهـد ، ونصيّب عنده ؟ فقال سليمان أنشدنا يا أبا فراس ، وأراد أن ينشـده بعض ما امتـدحه به ، فأنشده :

وركب كأن الريح تطلب منهمُ
لها سلباً ، من جذبهـا بالعصائب
سروا يركبون الريح وهى تلفهم
إلى شعب الأكوار ذات الحقائب
إذا استوضحوا ناراً يقولون : ليتها
وقد خصرت أيديهمُ ، نار غالب

فغضب سليمان ، فأقبل على نصيّب فقال : أنشد مولاك يا نصيّب ، فأنشد :

أقول لركب صـادرين لقيتهم
قفا ذات أوشـال ومولاك قارب
قفـوا خبرونى عن سليمان إننى
لمعروفه من أهل ودّان طـالب
فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهـله
ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فقال سليمان : أحسنت ، وأمر له بصـلة ، ولم يصل الفرزدق ، فخرج الفرزدق وهو يقول :

وخـير الشـعر أكرمه رجالاً
وشر الشـعر ما قال العبيـد

هذا نص ما جاء فى « الشعر والشعراء » ، وقد ورد كذلك فى « الكامل » ، وجاء أيضاً فى « اللآلئ » ، والأبيات الثلاثة ذكرت ضمن قطعة من ستة أبيات بديوان الفرزدق ..

ومن كل هذا يتضح أن الأبيات الثلاثة المذكورة ، والتى وردت فى مقال الأستاذ العقاد ، من شعر الفرزدق لا من شعر نصيّب .. إلا إذا كان عند الأستاذ الكبير رأى آخر غاب عنا .. وفى هذه الحال نرجوه الإفصاح شاكرين ..

(بور سعيد) محمد عثمان محمد

صلوات فى محراب الجمال

يا حبيبى ها هو العيدُ خفاقٌ ينادى
هزّه الشوق فغنّى .. وهو نشوان المهاد
إن فى حانته خمرٌ التى تغرى فؤادى
فتنةٌ أنت ! وما أحلاك .. أحلاى الشوادى

* * *

أشرق فى قلبىَ الظمآن لا تقسُ عليّا
قرّبى تحركك منى .. تعلن السرّ الخفيّا
هدّلى شعرك فوق .. ظلّل الصبّ الشقيّا
زورقاً أسرى ! وما أنت سوى الشط نديا

* * *

أنت ما بين فراديس الهوى العذرى زهره
يشمك الرفافُ فى قلبى فهل تنسين نهره ؟
نهرَه الشادى !! به الأحلام فى أعمق سكره
أنا زادى من جمال الله فى وجهك نظره !

* * *

يا ملاكى أنا فى للعيد فى طهر الصلاةِ
فى أفلاك تخال ربيعا فى فلاتى ؟
وأرى جدبَ التى ينبتُ فى حقل حياتى
الأمانى فوق نهديك ها قيثار ذاتى !

* * *

ذبتُ فى معنَيهما .. فى السحر .. فى الفن البديع
شاربا فى الكون كالمجنون .. كالطفل المروعِ
أقبل الليل .. وللنار هديرٌ فى الضلوع
وأرى الأرغنَ قد غصّ بألحانِ الدموع

* * *

قد شجانى فى قِفار الوهم ليلٌ سرمدىٌّ
ونجوم غرقت .. والليل بحرٌ غسقىٌّ
ورياح عصفتْ والكون فى عبق رفى !
مات فى صمتى .. وأوهامِىَ نایٌ عبقرىٌّ

* * *

أنت طيف من سماء الله كالإشراق لاحا
أنا غالبت جنونى حينا هاج رياحا
بين وديان فؤادى ماردَ الخطو نواحا
آه لو هدّأت آلامى وضمدتِ الجراحا !

* * *

أنت ! ما أنتِ سوى الجنّةِ قد فاحت عطورا
زفّتك الفنُّ جمالاً يملأ الأكوان نورا
أنت ! ما أنت سوى السحر الذى فاض بحورا
كل ما فيك ينادى .. ساحر الطرف نضيرا

* * *

أنت ! ما أنت سوى نبع بحانات السماء
فاسقنى منه اسقنى أدفنْ مع اليأس شقائى
أنت ! ما أنت سوى وحيى .. وبحرى .. وغنائى
وربيعى .. وزهورى .. فى أمانىّ الوضاء

* * *

حدّثنى قلبىَ فى الأوهام إن ضلّ ضلاله
وارتمى فى اليأس حيران ولم يشرق هلاله
حدثيه ربما ينسى الذى فات مناله
بسمةٌ أنت بثغر الروض قد رفتْ حياله

* * *

التباريح .. العذاب .. السود قد أوّتْ بجامى
أنا ظمآن على النهل وعطشان الكلام
أنا فى الدنيا غريبٌ أنا فى سجن الهيام !!
ودعَ من زفّ ربيع العمر قربان غرام

محيى الدين فارس السودانى

سؤال ...؟

أحكى لكم عن مؤنسٍ قصةً
ومؤنسٌ طفلى الصغيرُ الحبيبْ
نشأته حـــــراً له رأيه
وقلما يخطىء طفـــلٌ نجيب
إحساسه صـــافٍ وإدراكه
يصدرُ عن نبعٍ وراء الغيوب

***

فى ليلةٍ والبدرُ واهى الخُطا
وقد بدا يجنحُ نحـــو المغيب
سمعتُ — أو خُيِّـــل لى أننى
سمعت — طرقاً فوق بابى رتيب
فأسرعَ الطفل إلى ضـــيفه
وعاد لى يقولُ عمى «حبيب»
وعندما رأيتـــه لم يكن
بالعم أو بالخـــال أو بالقريب
وإنمـــا رأيتُ قطاً لنـــا
يحب أن يخرجَ قبلَ الغروب
قـــد عاد مشتاقاً إلى داره
والنفسُ لا تجفو المكان الرحيب

***

وحينما عـــدت سمعتُ الذى
يضحكُ منى ضحكات الطروب
والطفـــل لا يكذب لـكنه
يمتاز عنا بالخيـــال الخصيب
فقلت : «يا طفلى ويا مؤنسى
هل أنتَ يا من أفديه كذوب ؟
والله لا يقبلُ من عبده
فعلاً يعـــد فى نطاق الذنوب»
«والله» — قال الطفل — «يا والدى
من هو : خبرنى به كى أتوب»
فقلت : «مثنى الكون بارى الدنا
من يبعثُ الموتى ويحيى الجديب»
فأطرق الطفلُ كمن يبتغى
حلاً لمـــا دار بعقلٍ لبيب
وقال : «هل يُعقل يا والدى
أن إلهى وهو رب القـــلوب
يعـــذب العبـــدَ على عثرةٍ
والعبد مخلوق كثير العيوب ؟»

على بيومى

فورة الأمس

جئتِ بالأمس لفحـــةً من رياحِ
جئتِ تذكين فورة فى جراحى
جئت تذكين فى دمـــائى شراراً
وعيَين شعـــلة الصـــباح
جئت خمراً من دن تلك الليـــالى
وجحيماً من نارها اللفـــاح
كنت كالنور فى الصـــباح يغنى
للأزاهـــير .. للربى .. للأقاح
كلهيب الأحـــلام يحرق أيا
مى بنارٍ من الشكوك الصواحى
مالنـــا والغرام ! لم يبـــق طهر
فى هوانا وقـــد دفنت صباحى
قد نسيت الهوى نسيت عهودى
فـــاتركينى لحـــرتى وارتاحى

(بغداد)   زهير أحمد

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٠٧ — الاثنين ٣٠ من شوال سنة ١٣٦٩ — ١٤ من أغسطس سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

الامبريالزم الاقتصـــــادية

للأستاذ على أدهم

الأوربيون قوم معتزون بحضارتهم ، معجبون بملكاتهم ومواهبهم، مفتونون بطلب القوة وحب السيطرة والاستعلاء ؛ وقد حاولوا منذ شعروا بقوتهم وأدركوا تفوقهم أن يبسطوا سلطانهم على العالم ، ويخضعوه لمشيئتهم وسامى إرادتهم ؛ وقد كانت هذه المحاولة الجبارة الطاغية متقطعة غير متصلة ، مضطربة غير منتظمة ، قلقة غير مستقرة ، قبل القرن التاسع عشر ؛ أما فى خلال ذلك القرن فقد أصبحت هذه المحاولة منظمة متسقة ، لها مراحلها المرسومة ، ودرجاتها المعلومة ، وأساليبها الملتوية المعروفة ، وأفانينها من الدهاء والاحتيال والغدر والقسوة ، ولها كذلك آدابها وفلسفتها التى تناصر الأقوياء ، وتسوغ العدوان وتبيح الحرمان .

فى سنة ١٨٠٠ ميلادية لم يكن قد استهدف النفوذ الأوربى سوى أجزاء قليلة من العالم ، وحين انقضاء القرن التاسع عشر كان معظم العالم يرزح تحت أعباء سيطرة الأوربيين ، ويعانى من جشعهم وخبثهم وسوء صنيعهم الأمرين ، وبالرغم من وقوع حربين عالميتين طاحنتين لا يزال العالم يشقى من جراء مطامعهم ورغبتهم الجفاء فى استدامة سلطانهم ، وعملهم على الوقوف فى سبيل تقدم الأمم التى تخلصت بعض الشىء من نفوذهم .

كان هناك إذاً فى خلال القرن التاسع عشر محاولة أوربية عامة لطبع العالم بالطابع الأوربى ، ولم تكن هذه المحاولة شيئاً جديداً فى تاريخ العالم ؛ فقد حفل التاريخ بحركات القبائل والشعوب والأقوام وغزواتهم ؛ وفى استعمار أمريكا وأستراليا أمثلة جديدة ونماذج طريفة من هذه الحركات ؛ ويبدأ عادة هذا النوع من الاستعمار بالقتل والفتك والتدمير ، وينتهى بخلق حضارة جديدة ملونة باللون المحلى كما حدث فى أمريكا الجنوبية ؛ ولكن فى إفريقية — إذا استثنينا جزءاً صغيراً منها — وفى آسيا لم يكن هناك استعمار ولا امتزاج شعبى بين الغزاة والسكان الأصليين ، ولا ظهور حضارة جديدة ، وإنما أخضع القوم للنفوذ الأوربيين .

وقد اتخذت هذه العملية صورتين مختلفتين ؛ فى الهند وأجزاء من الصين استعملت قوة الدول الأوربية استعمالاً مباشراً فى بسط النفوذ وإخضاع السكان ، وفى أكثر أنحاء الصين ، وفى إيران وتركيا كانت قوة النفوذ الأوربى تعمل بطريق غير مباشر لبسط النفوذ والتوسع ورعاية مصالح الأوربيين الاقتصادية .

وقد انتهت هذه السياسة غير المترددة بإخضاع إفريقية

جميعها على وجه التقريب ، وآسيا للنفوذ الأوربى المباشر ؛ فما هى دوافع تلك السياسة ، وما أغراضها ونتائجها ؟ وما الذى أغرى الأوربيين باتباعها وأرغم حكوماتهم المختلفة على الأخذ بها والعمل على تنفيذها ؟

إن الدوافع البشرية للأفراد والأمم ليست بسيطة خالية من التعقيد ؛ ومن السخف والسطحية أن ندعى أن مثل هذه الحركة الشاملة كان لها سبب واحد ؛ فالحوادث التاريخية الكبرى تشترك فى صنعها الأسباب المختلفة والبواعث المتنوعة ، ولكن من المعلوم كذلك أن مثل هذه الحوادث على ضخامتها وتعقيدها واختلاف الأسباب والمحرضات لحدوثها يمكن أن تخص سبباً هاماً من أسبابها بالصدارة وجلالة الشأن ، وتقدر أنه كان فى طليعة الأسباب ، وتذهب إلى أنه أقوى المحرضات وأعظم البواعث والمحركات ، وأنه لولاه لتعطل تأثير الأسباب الأخرى الثانوية والأقل فى مرتبة الأهمية .

وقد انتهت هذه السياسة التى سار عليها الأوربيون تلقاء قارتى إفريقية وآسيا بتقسيم القارتين بين بعض الدول الكبيرة وإيجاد مناطق نفوذ ومناطق استغلال لتجارتها وتوظيف أموالها ؛ وقد ناصرت هذه الحركة بعض الأفكار والعقائد التى غلبت على الأوربيين فى تلك الفترة وأملت لهم فى اتباع هذه السياسة والإيمان فى هذه الخطة .

وهذه الأفكار والمعتقدات والآراء التى ساعدت على رواج الإمبريالزم وأيدتها وحببتها إلى نفوس الأوربيين وأخفت بشاعتها وقبحها وشناعتها يمكن أن تقسمها إلى أربعة أقسام مختلفة ؛ فمنها طائفة من الأفكار الأخلاقية ، ومنها طائفة من الآراء العاطفية ، ومنها مجموعة من الأفكار الحربية ، ومنها آراء اقتصادية ، أى أنها أسباب أدبية وعاطفية وحربية واقتصادية .

وكل عامل من هذه العوامل لعب دوراً هاماً فى توطيد أركان الإمبريالزم ؛ فبعض الكتاب الذين تصدوا للدفاع عن الإمبريالزم ذهبوا إلى أن إخضاع الشعوب الإفريقية والأسيوية لحكم الأوربيين أمر لازم واجب لا محيص عنه ، وأنه عمل أخلاقى جليل يهدف إلى رفع مستوى هذه الشعوب وتهذيبها وتلقينها مبادئ الحضارة وأخذها بأسباب الرقى وسوقها إلى طريق التقدم . وقد لخصوا هذه النظرية فى قولهم : « عبء الرجل الأبيض » ؛ فهذا الرجل الأبيض القدرى عليه يحمل هذا العبء الثقيل جداً ، عبء إصلاح أحوال الإفريقيين والأسيويين ، ويحمل الأمانة ، ويقوم بالواجب ، ويفيض على هذه الشعوب المتأخرة نعمة الحضارة ، ويغدق عليها خيرات التمدن وبركاته ؛ والرجل الأبيض بموجب هذه النظرية أسمى الأجناس عقلاً وأكرم قلباً وأسماهم عاطفة ، ونظمه السياسية والأخلاقية والاقتصادية هى أرقى النظم والغاية القصوى ؛ فهو شعب الله المختار فى العصر الحاضر ، وواجبه إخضاع غيره من الشعوب ليرفعها من حضيض الهمجية إلى أوج المدنية ؛ وإذا رفضت هذه الشعوب بعناد وإصرار هذا الخير المتدفق والكرم السابغ والإخلاص الجم ، فلا بد من غزوها فى عقر دارها وتقتيل رجالها حتى يقبلوا هذا الحكم ويرضوا عن هذه الخطة .

والطريقة التى تسربت بها هذه الأفكار إلى مذهب الإمبريالزم تسترعى النظر ؛ ففى القرن التاسع عشر لم تكن الأفكار الأدبية هى الدافع إلى مخاطرات الغزو والفتح والضم ، ولم تعلن أى حكومة من الحكومات الأوربية البلاد التى كانت تنوى الاستيلاء عليها ، أنها إنما تفعل ذلك لتشملها ببركاتها وتجعلها تنعم بحكم الأوربيين ؛ وإنما كان يقال هذا الكلام وتذاع هذه الحجج بعد الضم والاكتساح لتسويغه والدفاع عنه وستر جرائمه وإخفاء عيوبه .

أما الحجج التى كانت تقدم قبل ضم الممتلكات وبسط النفوذ ، فهى إما أن تكون حججاً حربية أو اقتصادية أو عاطفية متصلة بالكرامة والمكانة الدولية والسمعة الأممية ، فكانت الدول الأوربية تسوغ عدوانها بأنها تريد أن تؤدب غير الأوربيين وتضطرهم إلى احترام الأوربى وتقديره أو بأنها تحاول أن تحمى ممتلكاتها من اعتداء القوم المتأخرين أو لتحمى مصالح رعاياها الاقتصادية ؛ وقد أصبح بطلان هذه الحقائق فى أواخر القرن التاسع عشر من الوضوح بحيث لم يكن يصلح بعد ذلك الادعاء بأن الدول الطامعة فى التوسع إنما بسطت سلطانها لترفع من شأن الأمم المتخلفة

واتسبغ عليها ثم الحضارة الصافية وتذيقها أذاوقها ؛ ولكن هذه الادعاءات الأدبية ظلت مع ذلك تحيط الامبرالزم بهالة من القداسة ، فإن كانت الدول الأوربية لم تسع إلى فرض سلطانها على الإفريقيين والأسيويين رعاية لصلحتهم والنهوض بهم وتعويدهم أساليب الحضارة فهي تأبى الجلاء عن البلاد خشية أن تعمها الفوضى وتسودها الاضطراب ، أى أن الأوربيين قد أخضعوا الأمم الإفريقية والأسيوية بدافع من الأثرة وتوخى المصلحة الخاصة ، ولكنهم يحتفظون بسلطانهم في هذه البلاد لأسباب مثالية سامية متعالية ، ومعنى ذلك أن الرجل الأبيض ينهض بعبء المحافظة على الحضارة ولكن بعد أن يملأ جيبه ويغفل وطابه .

وقد لعبت العاطفة دوراً هاماً في التوسع الإمبراطورى ؛ فهى تطلق المجال للخيال في قصة المخاطرات المتصلة بالغزو والفتح على شريطة أن تكون الحرب بعيدة قاصية يستمتع الناس بأخبارها دون أن يعانوا ويلاتها . والواقع أن الخطوات الأولى في التوسع الإمبراطورى الحديث كانت في كثير من الأحيان من قبيل الأعمال الفردية التى يقوم بها رجال مغامرون لم يجدوا في المدن الصاخبة مجالاً لإشباع رغباتهم في حب المخاطرة والميل إلى ارتياد المجاهل ؛ ولكن من الخطأ الاعتقاد أن الأفكار العاطفية المنبعثة من حب المخاطرات كانت هى الأسباب الفاصلة في التوسع الإمبراطورى، وإنما الذى أثر في سياسة التوسع الإمبراطورى اعتقاد عاطفى أقوى من ذلك ، وهذا الاعتقاد يمكن استخلاصه من كتابات الكثيرين من الساسة المسئولين وكتابات المؤرخين الأعلام والصحفيين البارزين ، وهو أن ضم الممتلكات وتوسيع الرقعة في خارج أوربا مما يزيد في عظمة الأمة ويكسبها المجد ؛ ومما يزرى بالأمة وينال من كرامتها أن تضم أملاك غيرها من الأمم ؛ وقد صرح أحد الوزراء الفرنسيين بعد أن استولى الانجليز على جزيرة قبرص بأن ضم قبرص إلى أملاك بريطانيا ضربة شديدة موجهة إلى فرنسا ، وأن فرنسا لا تستطيع بعد ذلك أن تسترد مكانتها إلا إذا استولت على أملاك في تونكن أو في تونس . وبعض مؤرخى الانجليز كانوا يعتبرون استيلاء الألمان على أفريقية الجنوبية الغربية طعنة ليست موجهة إلى التجارة البريطانية والمصالح الاستراتيجية وحدها — بل إنها موجهة قبل كل شىء إلى كرامة بريطانيا ومكانتها بين الدول .

وحقيقة أن هذا الاعتقاد بالكرامة أو الولع بالمجد قد أثرا في السياسة الأوربية ، ولكنه لم يكن مع ذلك الموجه للساسة والدافع القوى لها ؛ وأكثر الساسة الأوربيين لم يذكروا حين قيامهم بمغامرة الاستيلاء على الأملاك بأنهم إنما يفعلون ذلك حباً للمجد ، والتماساً للعظمة والفخار ، وإنما كان يقال في أغلب الأوقات إن الدولة قد اضطرت إلى ذلك لتحمى مصالحها الاقتصادية أو لتزيدها وتنميها .

والواقع أن الأفكار العاطفية مثل العقائد الأدبية تتخذ في أغلب الأوقات وسيلة لاستبقاء الممتلكات تحت السيطرة والنفوذ وإسكات معارضة الذين ينتقدون سياسة التوسع الإمبراطورى ويحذرون دولهم من سوء مغبتها .

والذى يحدث في العادة هو أن تقوم الدولة بمخاطرة ضم الأملاك سراً بعد الاتفاق مع أقطاب الماليين ورجال الجيش ، ويستيقظ الفرد العادى في انجلترا أو فرنسا أو ألمانيا فيجد أن بلاده قد استولت على أملاك جديدة أو اتخذت لها مناطق نفوذ ومجالات استغلال ، فيظهر معارضون يطالبون بالجلاء عن تلك الأملاك المغتصبة والتى تستغل برغم أنف سكانها ، فيتصدى لهم أنصار فكرة الامبرالزم ويواجهونهم بالحجج الأخلاقية والأفكار العاطفية ، وكثيراً ما تصبح معارضة التوسع الإمبراطورى في نظر المتطرفين في القومية لوناً من ألوان الخيانة للوطن وعدم الولاء للدولة .

والتمسك بالأسباب الاستراتيجية والضرورات الحربية واتخاذها ذريعة للعدوان والاستيلاء والغزو والفتح كثيراً ما يساء فهمه ؛ ففي مساحة محدودة ومجال ضيق مثل البحر الأبيض المتوسط قد يكون لفرنسا أو إيطاليا حجة في الاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من شواطئ أفريقية الشمالية ، وهى أن غيرها من الدول قد يسيطر على هذه الأجزاء ويهدد سلامتها ويصوب السهم إلى قلبها ويتخذها قاعدة حربية للمهاجمة ؛ ولكن هذا العذر لا يكون له شىء من

الوجاهة إلا في حالات قليلة نادرة ؛ فإن آسيا وأفريقية بعيدتان عن أوربا بعداً لا يؤثر في سلامة أوربا الاستراتيجية ، ولم يقل أحد إن التوسع الإمبراطوري للدول الأوربية في الشرق أو في شواطئ أفريقية الغربية كان باعثه الحرص على سلامة الدولة وتأمين مواصلاتها ، ولكن حالما يتم الاستيلاء والتوسع يتغير الموقف ، فإن على الدولة التي بسطت نفوذها وملكت زمام الأمر أن تحمي أملاكها كما تحمي حوزة بلادها ، ويصبح الأمر يستدعي توسعاً جديداً توطيداً لسلطانها وتأميناً لأملاكها ، وقد كانت أكبر حجة يرددها الانجليز للبقاء في مصر هي تأمين طريق الهند .

ولا نزاع في أن المزاعم الأخلاقية والادعاءات العاطفية والأعذار الاستراتيجية كان لها تأثيرها في تقوية فكرة الإمبريالزم وترسيخها في النفوس وصبغها بالصبغة القومية ؛ ولكنها مع ذلك كله لم تكن هي الدافع الأساسي والعامل الأصيل المكين في تحريك شهوة التوسع الإمبراطوري ودفع الدول الكبرى إلى مغامراتها المعروفة في إفريقية وآسيا .

فإذا أدرنا النظر إلى النواحي الاقتصادية وجدنا الأمر مختلفاً كل الاختلاف ؛ ففي كل خطوة من خطوات التقدم في التوسع الإمبراطوري نجد الدوافع الاقتصادية ظاهرة جلية . وفي تاريخ الإمبريالزم الاقتصادي في القرن التاسع عشر مرحلتان لكل منهما حدودها الواضحة ؛ ففي النصف الأول من ذلك القرن التاسع عشر استدعى النظام الاقتصادي الصناعي الجديد في أوربا التغلغل في أفريقية وآسيا ، ولكن هذه الحركة لم تكن في بادئ أمرها منظمة متتابعة ، ولم تؤثر في سياسة الدول الكبرى تأثيراً ذا بال ، وكانت العلاقة بين القارات الثلاث علاقة اقتصادية محضة ، ولكنها قائمة على المشروعات الفردية لإيجاد أسواق لتصريف المصنوعات الأوربية ، وكانت السلع الأوربية تباع في هذه الأسواق لقاء الحصول على المواد الخام ، وقد أدى ذلك إلى استيلاء الشركات التجارية على مساحات شاسعة من الأرض ، ونشأ عن هذا الاستيلاء احتكاكات خطيرة بين أقطاب هذه الشركات والحكام الوطنيين ، فتدخلت الدول التي تنتسب إليها هذه الشركات دفاعاً عنها ورعاية لمصالحها .

وقد كان تدخل الدول لحماية مصالح الشركات على هذا النحو شيئاً جديداً في السياسة الأوربية ، ولكن هذا الشيء الجديد سبقته أحوال وملابسات مهدت له السبيل وأعدت لقبوله الأذهان ؛ فإن الثورة الصناعية التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر أوجدت مجتمعاً صناعياً ، وصار سكان أوربا يزيدون زيادة مطردة ، وتجمع كثيرون منهم في المدن الصناعية ، ولكي تستخدم هذه الملايين المتزايدة في الصناعة كان لا بد من الحصول على المواد الخام والأغذية الكافية من سائر أنحاء العالم ؛ ولما كان النظام الرأسمالي هو النظام الذي كان سائداً في تلك الفترة فقد حتم ذلك أن تكون حركة المبادلة في الحصول على المواد الخام مما يدر الربح الجزيل لأساطين الصناعة وأصحاب رؤوس الأموال وكبار التجار وجهابذة الماليين ؛ وفي مثل هذه الحالة تصبح المصالح الاقتصادية ملحة مسيطرة مستبدة تستبيح كل وسيلة لإنماء أرباحها وتوسيع نطاق أعمالها ، وتسخر قوة الدولة في سبيل الغايات الاقتصادية ، وقد دل على هذا الاتجاه أحد كبار السياسيين الإنجليز بقوله : « إن التجارة هي أعظم المصالح السياسية » .

وحوالي سنة ١٨٧٠ أصبحت أوربا ناضجة للامبريالزم الاقتصادية ، وغلب عليها الاعتقاد بأن الاقتصاديات هي أعظم المصالح ، وقوي الاعتقاد بأن قوة الدولة يجب أن تستعمل في مختلف أنحاء العالم لحماية المصالح الاقتصادية ومعاونة التجارة ، وفي الوقت نفسه بدأت الدول تتعلق بمبدأ حماية التجارة ، وقد أدى ذلك إلى اشتداد التنافس بين الدول الكبرى في التوسع الإمبراطوري والتسابق إلى اقتحام الأسواق والاستيلاء على الممتلكات وإقامة الحواجز الجمركية والعمل على الاستئثار بالمواد الخام في المناطق الخاضعة للنفوذ .

فالدافع العتيد وراء الامبريالزم الحديثة هو الدافع الاقتصادي ، وقد تمخضت هذه الامبريالزم الخطيرة عن حربين عظيمتين ، والعالم في الفترة الراهنة يتهيأ لاستقبال حرب ثالثة أشد نكراً وأعظم هولاً من الحربين السابقتين ، وماذا وراء ذلك ؟ وراء ذلك تلك الدوافع الاقتصادية المشئومة والمطامع الأشعبية الملومة .

علي أدهم

مهمة الكاتب المعاصر

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

لا ينبغى أن يكون للأديب أو الكاتب مهمات أبدية ووظائف خالدة يقوم بها فى كل عصر ويعمل تحت لوائها فى كل زمان . إذ أن مهمة الكاتب فى الحقيقة مهمة وقتية محدودة ، ولها ظروفها التى تنبعث منها وأحوالها التى تنشأ معها . أما تلك المثل العليا التى لا تختلف باختلاف البيئات والثقافات ، والتى لا تتغير عندما تتغير الملابسات ؛ فإن عرفها أصحاب الحرف جميعاً ، لا يستطيع الكاتب بالذات أن يستوثق بها ، وأن يطمئن إليها . لأن الكاتب يمتاز خصوصاً بروح تجديدية مرنة ، لا يقوى على تثبيتها ، ويعد الجمود فيها ، ويكره الموت بين طياتها ، أخطرَ أنواع السموم التى عرفها الإنسان ..

فليس للأديب إذاً مهمة معروفة محدودة الوجهات واضحة السمات . وإنما تتولد هذه المهمة مع العصر الذى يعيش فيه ، وتتشكل تبعاً للبيئة التى يترعرع فى ظلالها . ولا بد من أن نلتفت إلى هذه الحقيقة فى كل مناسبة ، وهى أن الكاتب بآرائه وأفكاره وليد المجارى العادية للحياة من حوله ، وأن اتجاهه فى الاعتقاد والكتابة ، إنما ينشأ عن المشكلات الوقتية التى ينبغى له أن يشترك فيها بحكم وجوده ، وبناء على التجاوب الحاصل فيما بينه وبين المجتمع . وإذا شئنا فى الأونة الحاضرة أن نحدد عملاً خاصاً للكاتب فلا بد وأن نستوحى الظروف المحيطة بنا عند استجلاء حقيقة هذه المهمة ، وعند رسم خطوطها الأصيلة . ومن المسلم به ، بل لعله يكون من المؤكد ، أن الكاتب لا يتلقى الأوامر من أحد ، ولا يتجه فى عمله الفنىّ الخالص بناء على تعليمات تجيئه من النقاد والراقبين . فإذا حاولت أن أحدد الخصائص التى يلزم وجودها فى العمل الأدبى المعاصر ، فإنما أفعل هذا وأنا مؤمن بأن الكاتب لا يتلقى إرشاداً ، وإنما يمكن لفتُ نظره إلى بعض الأشياء التى تغيب عنه ، وتنبيهه إلى ما قد لا تواتيه الظروف كيما يتأمله وينظر فيه . فالناقد لا يسوق كاتباً من الكتاب إلى عمل بالذات ، وإنما يمهد له الطريق ويعيّن له الحدود ويضع بين يديه المواد اللازمة .

فإذا كان الأمر كذلك ، وكان الأديب خاضعاً بالضرورة للمؤثرات العالمية أو المحلية التى تكتنفه من كل الجهات ، كنا ملزمين بأن نناقش العوامل الفعالة فى الأدب قبل أى شىء آخر . وقلما يتناول كاتب من الكتاب هذا الموضوع بغير أن يشير إليها إشارة واضحة ، ودون أن يقف عندها وقفات طوالاً . ومما لا شك فيه أن الحرب واحدة من المؤثرات التى تعمل فى نفسية الأديب من جهة ، وفى موضوعات الكتابة من جهة أخرى . أو لعلها من أنسب العوامل التى يصح لنا أن نناقشها فى الأوقات الحاضرة مناقشة تفصيلية نموذجية . لأن كاتباً من الكتاب إذا تعرّض لموضوع فى الفن ، أو حاول إخراج عمل فى الأدب إبان الحروب كان إنتاجه ميالاً إلى التشاؤم والقنوط ، مشرباً بالظلمة والسواد . أو هو ، على الأقل ، ينحرف انحرافاً ظاهراً نحو تأييد السلطات والعمل فى الدعايات المغرضة التى تؤيد الاتجاهات السياسية المختلفة أو تنكر عليها تصرفاتها .

وقد عدمْنا فى مصر كل مميزات التقدير الصحيح فى أمثال هذه الحالات . لأننا كنا أقل الأمم معرفة بقيمة هؤلاء الذين يصبغون آدابهم بهذه الصبغة ، ويُشبعون فى أعمالهم روح الثورة والحماس . فلم نستطع أن نفهم عمل الكاتب فى نُصرة قضية العدل التى يرتئيها ، ولم نكن قادرين على تبين المميزات الخاصة عند هؤلاء الذين يصارعون الظلم ويقفون فى وجه الطغيان . ومعنى ذلك أننا ما زلنا حتى الآن نجهل ما ينبغى للأديب أن يشتغل به ، وغير مدركين لاختصاصه الذى يُعزى إليه .

ولا يمكن القول — بعد ذلك — أننا قد استفدنا شيئاً من التيارات العالمية الأخيرة . فقد اعتقدنا بضرورة تنزيه الكاتب عن الغرض وتساميه عن الدعايات طيلة السنوات

الماضية التي عاصرتها الحروب . ومن هنا ظللنا مترددين شاكين ، نغمض عيوننا ونصم آذاننا عن كل كلمة من كلمات الإذاعة والصحافة خشية الوقوع في حبالة التأثير السياسي الذي تريده دولة من الدول . مع أن هذه الأدوار التي تمر بالشعوب بتلك الصورة لا بد منها في الأساس التربوي ، وضرورية عند النظر في العناصر التكوينية . بل إنها لتلعب دوراً من أخطر الأدوار في تنشئة الرجال وإعداد المواطنين الصالحين . ولا يمكن أن تمضي أمة من الأمم في حياتها دون أن تتأثر بالأجواء الخطابية والظروف الكلامية التي تحيط بها . فهذا اللغط من حولها هو نوع من التجربة التي ينبغي لها أن تمر بها ، وأن تتشربها على نحو يتيح لها العيش الصحيح خلال الأطوار الإنسانية المتناوبة . وكما أن الفرد الواحد يتخذ لنفسه مبدأ يعيش به وفكرة يمضي بوحيها ، تجعل الأمم من سياستها العامة دستوراً يؤيد أعمالها ويزكي خصالها في مجالات النشاط الدولي . وكلما ارتقت الأمة في وعيها كانت مبادئها التي تستظلها في تبرير أعمالها أكثر مرونة وعمومية وارتكازاً في أذهان الشعب . إنه من الضروري — من ثم — أن تقوم الأمة بدور أثناء الظروف الجارية ، وهذا الدور لا يكون ولا يمكن أن يتم إلا على أساس من المعرفة التامة للأقوال والكلمات الذائعة . أما نحن فقد خيل إلينا أن القوة والشجاعة والرجولة لا تسمح لنا بأن نكون فريسة ، مع أن القوة والشجاعة والرجولة لا تتبدى إلا إذا افترسنا هذه الدعايات والتهمناها التهاماً .

ولو أننا فعلنا ذلك ، أعني لو أننا تأثرنا بالآداب المغرضة والدعايات والنشرات التي ظلت الدول الكبيرة تذيعها خلال فترات الحرب وما بعدها ، لاستطعنا أن ننزل إلى معمعان الصراع الذهني وأن نمزج آدابنا بالصبغة العملية وأن نخرج فناً معيناً يماشي أفكار هذه الفترة ويسجل تيارات الحياة الاجتماعية . والشيء الذي لا يماري فيه أحد هو أن أدبنا المصري قد عاش في الأبراج العاجية The ivory towers أثناء فترة الحرب ، وأننا كنا بعيدين بعداً واضحاً عن الظروف التي أحاطت بنا والأجواء التي كانت حولنا ، وبقينا مسالمين أو كالمسالمين خشية أن يتبدى الضعف في أعمالنا إذا حاولنا الاشتراك الفعلي في معركة الحرب أو في معركة الكتابة والإنتاج المناسب . مع أنه لو أتيح لنا النزول إلى المعركة ، نضرب مع الضاربين بالسلاح ونهذي مع الهاذين بالقلم ، لاستطعنا أن نعمل شيئاً ذا خطر عندما وقفت الحرب بيننا وبين اليهود . لقد كانت الحرب الماضية تجربة من أهم التجارب التي مرت بها الشعوب ، فآثرنا أن نتزوى وفضلنا العزلة واستطعمنا الراحة .. وكانت النتيجة أن الهزيمة رافقتنا عندما حاولنا الدعاية لأنفسنا ، وعندما أحببنا أن ندافع عن كياننا .

والآن ننظر حولنا فنجد أنفسنا في وضع مقارب للوضع الذي كنا فيه أثناء الحرب : فالدول الكبيرة تدعو لمبادئها وللمذاهب السياسية تعلن حقيقتها ، والآداب المغرضة تروج والأفكار الموجهة تشيع ... ولا بد أن نتدبر الأمر على نحو سليم وبصورة دقيقة حتى لا نرتكب عين الغلطة بإزاء المظهر العالمي الذي يؤثر في كياننا الأدبي والفكري . إن الخوف من الارتماء في أحضان الدول الكبيرة هو الذي يخيفنا دائماً في هذه الحالات ؛ ولكن فلنعلم أنه لا سبيل إلى تكوين أنفسنا إلا بهذا الارتماء الذي يسمح لنا بالتجربة والممارسة . وما دمنا واثقين من ذواتنا ، فاهمين لحقيقة المهام المناطة بنا والدور الموكل إلينا ، فلا خوف إطلاقاً من النزول والمغامرة والمزاحمة حتى نؤكد شخصيتنا المستقلة بين الأمم العريقة في مضمار الحضارة . والحق أن هذه الدول لم تقف ولم تثبت في تاريخها الطويل عبثاً ، وإنما فعلت ذلك كيما تحتفظ بتراث الإنسانية وتبقي على تقاليد البشر التي ينبغي لنا الآن إدراكها والنسج على منوالها والمشي في إثرها .

وفي العالم بأجمعه دعوات غريبة بعضها معروف شائع وبعضها الآخر مجهول غير ذائع . ولا نكاد ننظر عن يمين أو عن شمال إلا ونقع على ما يكشف أساليب القول والتفكير في الأمم البعيدة ، فثمة مذاهب وآراء ، وثمة بحوث وعلوم ، ولن نقوى على المضي فيما نحن بصدده من العمل القومي حتى نعب من هذا كله عبًّا مستمراً متصلاً . ولا ينبغي أن نخشى فئة أو نخاف من جماعة كما فعلنا في

المرات السابقة ، وإلا وقعنا في نفس الغلطة وارتكبنا عين الإثم ، وكنا مخطئين في حق الأبناء الذين سنخرجهم في المستقبل إلى الحياة . إن من حقهم علينا أن نجرب وأن نخطئ في التجربة مرات قبل أن يولدوا ، فإذا بالشوط أمامهم ، كما كان أمام أعيننا ، طويل وعر لا أثر فيه لعول الإنسان .

وسيكون الأمر بالنسبة إلى آدابنا أكثر أهمية من كل ما عداه . لأننا في تلك اللحظة فحسب ، أعنى في الوقت الذى يصدر فيه الرأى عن قلوب مؤمنة وعن نفسيات منعمة ، نستطيع القول عن آدابنا إنها تنبع من تيارات الحياة اليومية وتصدر عن أقلام ذات خبرة بالمسائل الجارية . وأسخف شيء هو ألا نلبس الدور كاملاً وألا نأتى اللعبة تامة في الوقت الذى تقهم فيه الدول جميعها مواقفها وظروفها وتحاول الاستفادة منها بقدر الإمكان . إن الحياة مجموعة من الأوضاع المتناوبة وجملة من المناسبات المتوالية ، فإذا أخفقنا عند ارتقائنا المدرجات الأولى أو عند قطعنا الشوط التمهيدى فمن المؤكد أننا لن نستطيع المضى في بقية المراحل . وشأن الإنسانية في هذا شأن الفرد الذى يتطور به العمر من وقت إلى آخر . فهو لا يستطيع أن يقوم بدور الرجل في سن العاشرة ، ولا يمكنه أن يخرج في سن السبعين مثلاً عن حدود الظروف المحيطة به وعن لوازم المعيشة في تلك الأيام الأخيرة . وإذا حاول الفتى الناشئ الخروج بنفسه عن مؤثرات البيئة والوسط ، وعدم الخضوع لما تمليه عليه الحياة من حوله ، خاب في تكوين شخصيته وقصر في تغذية ملكاته بما يلزمها في كل حين .

فلنكن عمليين دائماً ، ولنقدر في أنفسنا مزية المراوغة والتهرب قبل أن ندفن رءوسنا في التراب كما يفعل النعام ، ولنعرف للظروف المحيطة حقوقها في المجاراة والمهادنة حتى نخلص من هذا كله إلى ما نرجوه لآدابنا وأوطاننا من التجربة والحصانة . فإذا قمنا بهذا العمل أمكننا في القليل من الزمن إخراج اللحن الذى يعبر عن طابع ويدل على شخصية ، وقدرنا على إظهار الآداب الشعرية بروح الأوان الذى نستظل به ونعيش فيه .

وكتاب الفترة الماضية — وإن كانوا على كثير من القوة والأصالة — لم يفهموا نفوسهم ولا عرفوا ما يستوجبه عليهم الزمن الذى ظهروا فيه . ومن هنا جاء التفاوت الشنيع بينهم في العقليات والاتجاهات والأساليب . ولكنهم — والحق يقال — قد مهدوا الطريق للكاتب المعاصر ، فخففوا عنه كثيراً من الأعباء ، وأزالوا عن أكتافه غير قليل من المسئوليات . فكاتب هذه الفترة لا يهتم باللغة كما كان يهتم بها الكتاب السابقون ، لعلمه بأنها قد مرت على صورة اجتماعية واضحة وأخذت قالباً وضعياً مناسباً . كذلك لا يقف الكاتب المعاصر أمام ضروب التعبير القديمة ولا تعوقه عن أن يقول ما يشاء وأن يتذوق الجمهور كلامه في غير نفور أو استنكار . وعصف الكتاب السابقون بمجموعة من الاعتقادات والآراء البالية ، واشترك بعضهم في التيارات الأدبية العالمية . ولكن الحمل كان أثقل من أن يخففوه بأكمله فضاعت قواهم بأنفسهم بعد وقت قصير .. وكان السبيل من الصعوبة بحيث جعلهم يرتدون ولم يتقدموا إلا قليلاً ..

وإذا كان على الكاتب المعاصر أن يبدأ ، فلا مندوحة له عن أن يبدأ من هنالك ، حيث بدأ الشك يتسرب في نفوس الكتاب السابقين بشأن المذاهب والآراء التى أخلصوا لها وتعلقوا بها أيام الشباب . وقد كان هذا الشك سبباً في أن يعودوا إلى الكتابة في مسائل الدين وأن يتخلصوا من مزاعمهم القديمة في النقد الأدبى . فالمازنى وطه حسين قد عادا من جديد وأنكرا كل ما كانا يؤمنان به في انتقاد شوقى بك ؛ بينما ظل العقاد محتفظاً بآرائه اعتماداً على ما كان قد أذاعه من المبادئ والقيم . وهاهنا مجال آخر للاعتبار بالنسبة إلى الكاتب المعاصر ، وهو أنه من الضرورى أن يكون له مذهب يحتمى به إذا ما تنوزعته الأهواء والرغائب ولعبت به كرة عامل النسيان .

فالمذهب أو الفكرة الذاتية أو المحيط الجارى من شأنه أن يجعل الأديب مرتبطاً بالحياة العامة وملزماً بالتنويع والابتكار . ولو عمل الكاتب في اتجاه موحد — مهما كانت شأنه — لاستطاع أن يبث فيه الشيء الكثير . فالإيمان المذهبي من شأنه أن يقوى فينا روح العمل الفكرى

(البقية على صفحة ١١)

بين صدقي وتولستوي

— ٢ —

للأستاذ حافظ أحمد أمين

ذكرت في المقال السابق ما كان يراه صدقي باشا في تسليح الجيش المصري ، وما كان للفيلسوف الشهير « ليو تولستوي » رأي يشابه رأي صدقي في التسليح ، فقد عرضت للقارئ رأي الزعيمين الجريئين في هذا الموضوع .

وقد كان رأي صدقي باشا في التسليح مخالفاً جميع الآراء التي ظهرت في ذلك الوقت ، وكذلك كان رأيه في مسألة دخول مصر حرب فلسطين رأياً مخالفاً لما كان يراه بقية الزعماء ، فقد وقف صدقي باشا بمفرده ينادي بأن ليس من مصلحة مصر أن تدخل هذه الحرب ، وذلك بعد أن درس الموقف الدولي دراسة عميقة .

وأحب هنا أن أعرض رأي ليو تولستوي في الحرب ، لأنه كان ينصح دائماً — كما كان يفعل صدقي باشا — بعدم الاشتراك فيها ، ولست أدعي هنا بأن الدوافع التي دعت هذين الزعيمين إلى التصريح بهذه الآراء دوافع واحدة ، وإنما هي النتائج المشتركة التي وصل إليها الزعيمان هي التي دعتني إلى عرض رأي الزعيم تولستوي الذي قال :

« في هذه الحياة التي يتطاحن فيها الناس ويتناهشون كالبهائم ، دعني أقول إني أكره الحروب وأود السلام ... دعهم يقولون إني رجل أبله مذبذب ، فإني راسخ الإيمان ثابت العقيدة بأن الحرب تجارة واسعة تباع فيها سعادة الناس وهناؤهم .

وليس للحرب غاية سوى الدمار وإراقة الدماء الذكية ، وذلك ثمرة خضوع الأكثرية للأقلية من جراء تغرير الثانية بالأولى . وما دام الحال على هذا المنوال فمحال أن يتم إصلاح .

« إن الحكومات تعمل دائماً على نشوب الحرب وتسعى دائماً إلى إيجاد سوء التفاهم بينها وبين الدول ، لأن وجوده يسوغ لها إيجاد الجيوش التي تعتمد عليها في إبقاء سلطانها .

« أفيقوا أيها الإخوان ، لا تسمعوا أقوال هؤلاء اللئام الذين يلوثون عقولكم من الصغر بعاطفة الوطنية الشيطانية ، التي تنافي العدالة ، وتقضي بكم إلى تضحية أملاككم وحريتكم ووقاركم . لا تصدقوا دعوى هؤلاء الأدعياء ، وأقوال هؤلاء القساوسة الفاسدين الذين يفهمونكم أن مقاتلة الأعداء إرضاء لله . لا تعولوا على كلام هؤلاء المتظاهرين بحبكم ، الذين يوالون إقامة المجتمعات وإلقاء الخطب وتدوين المقالات ، بدعوى أنهم سيوجدون نظاماً حسناً للناس بدون أن يتعبوا أنفسهم ، فإنهم يريدون إبقاء هذا النظام على حاله .. لا تصدقوهم ... لا تتبعوا إلا ما تمليه عليكم ضمائركم ، التي تنبئكم بأنكم أحرار ، ولستم بحيوانات ولا أرقاء .

« أيها الناس توبوا إلى رشدكم ، وتدبروا قليلاً فيما أنتم فاعلون ، انظروا فسرعان ما يتبين لكم أن أعداءكم الحقيقيين ليسوا بالبوير ولا بالإنجليز ولا بالفرنسيين ، بل أنتم أنفسكم ، لامتثالكم للحكومات التي تستبد بكم وتجركم إلى هاوية الشقاء ، لتصوركم أنها تحميكم ، وتذود عن حياضكم ، فصيرتكم بحمايتها الغريبة هذه جنوداً ذليلين ، وليس بمنجد لكم إذا أنتم لم تنجدوا أنفسكم .

« إن الإصلاح الحقيقي لن يأتي إلا بإظهار حقيقة هذا التغرير الذي تخدع الحكومات به الناس فيندفعون تحت تأثيره إلى مقاتلة غيرهم برغم إرادتهم . ولست أنا بأول قائل بهذا الحل ، فقد نادى به قبلي الكثيرون من الكتاب ، وأظهروا ما في الاندماج في الجندية من الأضرار ، وقد عمل به كثير من الأفراد في معظم ممالك أوربا ، بل وكثير من القبائل الضاربة في أنحاء أوربا وآسيا .

وها كم ما كتبه أحد أهالي الولايات المتحدة :

« نحن مزارعون ومهندسون وتجار وصناع ومدرسون ، كل ما نطلبه هو أن نكون أحراراً في القيام بأعمالنا أحراراً في التصرف في أوقاتنا ، ولكن هؤلاء السياسيين لا يرضون بذلك ، هم يريدون أن يتحكموا في معيشتنا ، يفرضون علينا الضرائب ، ويطلبوننا لتأدية الخدمة العسكرية ويسوقون

أولادنا إلى ساحات الحروب ، وتلك الألوف المؤلفة من كبار الموظفين إنما يعتمدون على ما يجبونه منا من الأموال ليتمتعوا بها ، ويؤلفوا جيوشاً رابضة لإلزامنا بدفع ما يطلبونه ، مدعين أن وجود الجيوش ضرورى لسلامتنا ، والله يعلم مقدار كذبهم وبهتانهم .

« إن كل حكومة توهم شعبها أن هناك أعداء متحفزين للوثوب عليهم ، وتدعوهم إلى محاربتهم ، مدعية أن خدمة الوطن خدمة لله ، بهذه الطريقة يستنزفون أموالنا ويحولون إخواننا أعداء لنا ، مع أنه ليس لنا أعداء سوى هؤلاء القوم الذين يدعون بأنهم يجبون منا الضرائب لإيجاد ما هو لازم لنا .

« والحل الوحيد هو التعليم ... علموا الناس أن القتل جريمة ، علموهم هذا القانون الذهبي « أحب لأخيك كما تحب لنفسك » ، علموهم عدم الاكتراث لأبهة الحكوميين ... علموهم أن الدخول فى الجيش أمر معيب ، دعوهم يطلبون منهم النزول إلى ساحة العمل المثمر معهم ، دعوهم يصرحون بأنهم يؤمنون بالمسيح ولا يطيعون ما يأمرون به مما يخالف أوامره .

« لا ندخل الجندية ، لا نطلق الرصاص إذا أمرونا ، لا نصوب بنادقنا نحو هؤلاء الزارعين والرعاة الذين يدافعون عن أوطانهم ، لا ندفع لكم الضرائب ، سنصرح بآرائنا ، سنعلم الناس الحقيقة ، سنفهمهم أن الحكومات لا تصرح لنا إلا بكل ما هو كذب وبهتان .

حافظ أحمد أمين

مهمة الكاتب المعاصر

(بقية المنشور على صفحة ٩)

وأن يرفع مستوى أولئك الذين لا يقوون على المباشرة الكتابية للعمل الفنى حينما يكتفون بأن تكون لهم أنظارهم الخاصة وآراؤهم الفكرية . فالمذهب يسد حاجة القارئ الذى يود أن يشارك بوجدانه كاتباً من الكتاب ، والعامل الذى يريد أن يجمع إلى حرفته الخاصة فناً ذوقياً يعتمد عليه ساعة الفراغ . ويكون المذهب دائماً مفيداً لدى أولئك الذين يريدون أن يقولوا ولا يجدون الأداة الكتابية المناسبة أو الطريقة الأدبية الفعالة أو الفكر السليم الواثق . وكم يفرح القارئ عندما يجد على صفحات الجرائد أو فى الكتب العادية رأياً آمن به وفكرة تشيع لها ومبدأ كان يحب من زمن بعيد أن تلتفت الأنظار إليه .

كذلك من الضرورى — فيما أعتقد — أن يراعى الكاتب المعاصر حالتنا الثقافية الراهنة . فالكتاب هاهنا — فى مصر — ليس شيئاً ذا خطر وقراؤه لا يزيدون على بضع مئات مهما كان الأمر . وإذا شاء أن يخدم فكرة أو مبدأ معيناً فعليه أن يلح على ذهن القراء بشق الطرق حتى تصير أفكاره ومبادئه وأقواله أمام أعينهم كالنبراس الهادى . وذلك العمل أساسى بالنسبة إلى الكاتب المعاصر ، لأن عامة الناس الذين لا يقرءون يأخذون أفكارهم ويستمدون ثقافتهم من المجموعة القارئة النشيطة . وبذلك يستطيع الكاتب — بإلحاحه المتواصل وتوكيده المستمر — أن يضع بين أيدى المثقفين طائفة من المواد المهضومة التى يسهل النطق بها ، ومجموعة من الأقوال التى لا يصعب ذكرها ، فيكون الكاتب بهذه الطريقة ممثلاً فى نفسه وفى سواه ممن تأثروا به ، وهذه فى الواقع لازمة من لوازم الكاتب عندما ينقصه التأثير الاجتماعى الملحوظ ، وعندما لا يكون ذا كلمة مسموعة لدى جمهور القارئين .

ويلزم الكاتب المعاصر باللغة العربية أيضاً أن يثور وأن يكون فى ثورته واعياً إلى نتائج كتاباته العملية . فما أحوجنا إلى أن نتخلص من أشياء كثيرة ومن معايب شتى فى أفكارنا وحياتنا العادية . وإذا كان ثمة شىء من الركود فى روح الكاتب عندنا ، فذلك من جراء المخاوف التى تلعب فى باطنه ومن جراء المصائب التى نزلت بساحة الكتاب السابقين وقتما لمع فى كلامهم بريق الثورة .

فهيا — كتاب الفترة الحالية — كيما نجعل للكتابة مفهوماً آخر غير ذلك المفهوم الذى تواضع عليه الناس ، والذى كان من شأنه أن يجعل الكاتب إنساناً فارغاً يقدم للناس ألواناً من المتعة وصنوفاً من الأطايب والملذات .

عبد الفتاح الديدى

كيف ؟

ملء ملعقة من السكر

للأستاذ عبد البارى نعمت

ارمق ببصرك وعاء السكر الذى فوق المائدة بمنزلك ، ثم أغمض عينيك بعض الوقت ، وتخيل أنك واقف تحت أشعة الشمس المحرقة بإحدى بلاد المناطق الحارة ، إنك فى ذلك الوقت تشاهد جموعاً من الوطنيين منهمكين فى شئون زراعاتهم ، وترى بعضهم يقطعون سيقان نباتات متناهية فى الطول ، إذ يبلغ طول إحداها أحياناً عشرين قدماً ، ويبلغ سمكها بوصتين ، ويتيسر لك فى مشهد آخر أن ترى آخرين يحزمون العيدان المقطوعة ويحملونها العربات المرسلة إلى محطات السكك الحديدية لتنقل منها إلى المصانع التى تعج بالآلات التى تستخرج العصير وتحوله إلى سكر يشحن بالسفن التى تنقله إلى مختلف الموانى ، وبذلك يستطيع البدال القائم حانوته إلى جوار منزلك أن يملأ وعاءك منه .

يرد معظم سكر القصب من جزائر الهند الغربية ، من جاميكا وبربادوز وكوبا ، وهى بلاد الشمس الساطعة والمطر الغزير .

ارمق ببصرك وعاء السكر كرة أخرى ، فماذا ترى ؟ .

إنك سوف لا تكون فى هذه المرة تحت أشعة الشمس الساطعة ، فلا ترى السيقان الفارعة الطول ، بل ترى بدلاً منها البنجر ذا اللون الأصفر ، تراه منزرعاً فى حقول منبسطة مترامية الأطراف ، وبدلاً من أن تقع عيناك على عمال من أهل المناطق الحارة ، تشاهد عمالاً من أهل أوربا ، فترى عمالاً من الإنجليز فى « إيست إنجليا » ، ومقاطعة نورفولك بإنجلترا هى مركز صناعة سكر البنجر هناك ، وربما كان السكر الذى يقدمه إليك البدال مجلوباً منها ، وإن القصب والبنجر لمتنافسان قويان ، وسواء أكان السكر فوق الطاولة أو بداخل فنك ، فإنك لا تستطيع أن تميز من أى النباتين صنع ، ومن أى مكان يرد السكر ، نجد خلف كل ذرة منه عصارة نبات وأشعة شمس ومطراً وآلات .

وإنك لتجد السكر بهيئات مختلفة ؛ فمن سكر ناصع البياض ذى حبوب مجروشة أو بلورية إلى سكر ماكينة ، أو رءوس أو بلاط إلى سكر أصفر إلى مسكرات وحلويات إلى عسل أسود وشراب ، وقد صنعت جميعاً من عصير النبات ، إن مادة السكر توجد بجميع أنواع الفاكهة ، وهذا هو الذى يجعل الذباب والنحل تبحث عن الرحيق الحلو بالأزهار ، ولما كانت النحل تصنع عسلها من هذا الرحيق ، فهو لا شك يحوى هذه المادة الحلوة ، ومما لا ريب فيه أنك تذكر كيف تطن الزنابير والذباب حول العسل والربى اللذين تأكلهما عندما تكون فى رحلة خلوية ، أو فى نزهة بحديقة غناء ؛ إن حب المواد الحلوة المذاق شىء طبيعى بالنسبة لهذه الحشرات ، كما هو بالنسبة إلينا بنى الإنسان ، فلا تلومن إذاً الذبابة التى تدب فوق السكر وتلعقه قبل أن تتمكن من طردها عنه أو قتلها .

ولو أن السكر عرف فى الهند منذ ثلاثة آلاف سنة تقريباً ، إلا أن أقلية ضئيلة من الناس فى أوربا قد علموا بأمره فى القرن الثامن عشر ، وعندما أدخل السكر إلى أوربا كانت أسعاره مرتفعة للغاية ، ولم يكن يأكله لمجرد

القلة ، حتى القادرون على دفع هذه الأثمان الباهظة ؛ فكان استعماله في ذلك الحين مقصوراً على اعتباره دواء ، ثم استعمل بعد ذلك لتحلية الأشربة المختلفة ، وخصوصاً بعد أن عرف الناس الشاي والقهوة وبدءوا يشربونهما ، مما كان له أكبر الأثر في التوسع الجدي في زراعة القصب بالمناطق الحارة ، واستخدام أحدث الآلات لاستخراج أكبر كمية ممكنة من العصير يتيسر الحصول منها على أكبر قدر من السكر بدلاً من الطرق العتيقة البطيئة المسرفة .

وأصل اكتشاف أمر السكر بالهند منذ ثلاثة آلاف سنة لا يعرف بالتحديد ، ولا يمكننا في هذا الصدد سوى الحدس والتخمين بأن بعض الوطنيين من ذوي الإقدام قضموا ومصوا مصادفة بعض قطع من قصب السكر قطعوها بغير اكتراث من حيث ينمو بريًّا ، كما يفعل بعضنا أحياناً عندما يضع بفمه ساق إحدى الحشائش ويأخذ في قضمها ومص عصارتها بغير وعي ، ثم بدءوا يعصرون عود القصب بطرقهم البدائية بعد أن تذوقوا حلاوة عصيره ليستخلصوا منه ذلك العصير الحلو بسهولة ، وربما كان صنيعهم هذا هو الذي قادهم إلى صنع السكر لأول مرة .

وقد انتقل الاهتمام بالسكر من الهند إلى الصين ، وبمرور الزمن انتشرت زراعة القصب في جميع أنحاء المناطق الحارة ونشأت الصعوبات في بعض الجهات بسبب انعدام المطر كلية ، لأن قصب السكر نبات شديد العطش ، ولكن المهندسين دعوا إلى ري الأراضي الجافة التي يعوزها الماء ، وسرعان ما جعلوا الماء يفيض إليها ؛ فزرع بها القصب فنما وترعرع وامتلأ عصيراً وبلغ منتهى طوله .

وهكذا نرى كيف نشأت من عادة مضغ القصب عند الهنود صناعات بدونها نكون في عوز شديد إلى شيء نستطيع بواسطته أن نحلي ما يقدم إلينا من قهوة أو شاي أو كاكاو ، وإنه لمن العسير حقاً أن نتصور عالمنا الحاضر بغير سكر .

وقد تقدمت صناعة السكر في الوقت الحاضر بعد أن مرت بالخطوات الآتية :

١ — في الأيام الأولى للسكر كان الوطنيون يعدونه نوعاً من أنواع الترف ، أي ذي المذاق الحسن ، ولم يعرفوه كطعام يبني العضلات ويمد بالنشاط ، وكانت طرقهم الخاصة بعمل السكر من العصير بطيئة وفيها إسراف كبير ؛ فكانوا بعد أن يقطعوا العيدان من الحقل يخرطونها قطعاً صغيرة ويضعونها في أوان كبيرة ثم يدقونها بعصي غليظة ذات أطراف ثقيلة ، وكانوا في عملهم هذا بعيدين عن الترتيب والنظام ، كما كان العصير المتجمع في الآنية بعيداً كل البعد عن النظافة حتى ولو نقي من بقايا قطع القصب المهشمة بعناية .

٢ — ولما تقدم الأمر قليلاً وزاد الطلب على السكر أدخلت على صناعته تحسينات كثيرة ؛ فاستعملت معاصر كانت في بادئ أمرها بسيطة ، وكانت مزودة بأسطوانات خشبية صغيرة تمر بينها عيدان القصب ، عود أو عودان في كل مرة ، وكانت الخيول والثيران تدير هذه الأسطوانات ، وكانت عدة الحيوان متصلة بعمود خشبي بمستوى الكتف ، وكان طرف هذا العمود يتصل بالمعصرة بطريقة تجعل أسطوانات العصارة تدور كلما سار الحيوان الأمام ، وكان العصير المتساقط يتجمع في دلو بأسفل العصارة ، وبهذه الطريقة أمكن عمل السكر ببعض السرعة ، كما أمكن التخلص من أجزاء القصب الكثيرة التي كانت تختلط بالعصير .

٣ — إن الخطوة التي تلت ذلك هي إنشاء معصرة تديرها الرياح ، كان يضم المعصرة بناء شامخ مشيد من الطوب ومزود بآلات العصير التي تعمل بقوة الريح فتدير شراعها القائم بأعلى البناء ، وما زال كثير من هذه المعاصر قائماً حتى الآن ، ولو أن المعاصر الحديثة تدار بالبخار والكهرباء .

هذا ولم يكن المستعملون الأولون للسكر يهتمون كثيراً بأمر نظافته ولم يكونوا يعيرون بياض لونه في المرحلة الأخيرة من صناعته كبير اهتمام ، ولم يكن عدم تحقق ذلك يضايقهم كثيراً ، ولذلك أتقنوا طريقتهم البطيئة الخاصة بتحويل عصير القصب إلى سكر .

وعندما كان يتجمع لديهم بالمعصرة كمية كافية من العصير كانوا يضعونها في أوان كبيرة غير مغطاة ، وقد كانوا يفعلون ذلك يقيناً ، وما زال ذلك متبعاً في بعض البلاد الاستوائية الحالية ، وتساعدهم على ذلك حرارة الجو عندهم وتجعله ممكناً ولو أنه غير متيسر في جو أوربا ؛ وبلى ذلك

وضع مسحوق الجير أو الطفل فى الأوانى المحتوية على العصير ليساعد على تنقية السائل الذى يُغلى بعد ذلك ، وفى أثناء غليانه تتجمع الأقذار ، ألياف القصب الصغيرة وغيرها من الشوائب ، وترسب بأسفل الأوانى ، ثم تنزع الرغوة الطافية فوق العصير وينقل إلى أوانٍ أخرى معدة فى الخلاء ليبرد ، وبعد مرور يومين تفرغ الأوانى من محتوياتها وتجفف بلورات السكر التى تكونت خلال هذه الفترة بتعرضها لأشعة الشمس — ويتبق بأسفل الأوانى كثير من العصير السميك الذى يطلق عليه اسم العسل الأسود "Molasses" وهذا كان يتخلص منه بارى قديماً فى حين أنه يستعمل اليوم فى أغراض شتى .

ويلاحظ أن السكر الناتج بهذه الطريقة كان قاتم اللون لاختلاطه بالعسل الأسود ، وطبيعى أنه بغير التكرير العتى به لا يتيسر الوصول إلى البياض الناصع المعروف للسكر .

إن هذه الطرق العتيقة تذكر لمجرد الذكرى وهى مضياع متلاف ، لأن كمية السكر المستخلصة من العصير بواسطتها لا تزيد عن نصف الكمية التى يمكن استخلاصها منه ، ومعامل التكرير الحديثة تستطيع أن تصنع الطن الواحد من السكر المعد للاستهلاك من حوالى تسعة أطنان من القصب تقريباً دون أن تضيع شيئاً منه — وبعد استخلاص السكر الممكن استخلاصه من العسل يحوّل العسل الباقى إلى شراب ذهبى اللون يصنع منه نوع معين من السكر يدخل فى صناعة بعض أنواع الخمور وفى صناعة بعض أعلاف الماشية ، كما أن الرواسب المتخلفة عن المرشحات تستعمل فى تسميد الأرض ، وتدار مصانع السكر بواسطة ألياف القصب بعد عصره فهى وقود جيد لآلات توليد البخار .

ولا يجرى العمل بجميع المعاصر الحديثة على وتيرة واحدة ، ولو أن الفروق بينها ليست ذات بال . إن عيدان القصب تصل إلى بعض هذه المعاصر وقد قطعت أطرافها العليا وأوراقها وجذورها ، فى حين أنها تصل إلى البعض الآخر بكامل طولها فتوضع العيدان فوق حمالات مصنوعة من شبكة من السلاسل التى لا تتيح للعيدان أن تفلت أو تنزلق ، وفى أثناء سيرها بواسطة هذه الحمالات إلى الآلة التى سوف تهشمها تقطع إلى شرائح بواسطة مدى دائرية لماقة ، ثم تذهب شرائح القصب إلى آلة التهشيم ومنها إلى أسطوانات معدنية مزودة بنتوءات بارزة حفرت فيها أسطوانات هذه العصارة تجهز بحيث تكون كل اثنتين أو ثلاث منها مع بعضها ويبلغ ارتفاع الأسطوانة الواحدة ثلاث أقدام وطولها سبعاً ، وما إن يتم عصر قطع القصب بهذه العصارة حتى تفقد القطع كل شبه لها بعيدان القصب ، لأن ضغط هذه الاسطوانات يعادل خمسمائة طن وتمر هذه القطع بثلاث أو أربع من هذه الأسطوانات .

إن السكر الآن لايزال بعيداً عن سلطانيته بعزلك ، ولكنه يتقدم بسرعة نحو هذه النهاية السارة .

عندما تفرغ آلات العصر من عملها يصفى العصير ثم يسخن إلى حرارة ١٨٠ درجة ثم يتجه إلى حوض يمزج فيه بماء الجير والكبريت ثم ترفع درجة حرارته مرة ثانية إلى ٢٣٠ درجة ، ووقتئذ يصبح رائقاً ويكتسب لون العنبر ، لأن جميع ما يحويه من الشوائب يكون قد رسب بأسفله نتيجة للعمليات الكثيرة التى أجريت عليه — يتجه العصير الرائق بعد ذلك إلى حوض آخر فى حين يصفى الجزء غير الرائق ليحصل منه على كل نقطة من العصير الجيد يمكن استخلاصها من هذه الحمأة (الوحل) .

يتجه العصير بعد ذلك إلى حوض يصل اتساعه إلى نحو ١٥ قدما ويزيد ارتفاعه عن عشرين قدما حيث يغلى مرة ثانية ، ثم يذهب من إناء إلى إناء حتى تتم نظافته ويغلظ قوامه ، وتتكون بلورات السكر أثناء هذا الغليان ، ولإتمام بلورته يمكث العصير مدة ثلاثة أيام أو أربعة فى إناء ويقلب خلالها بصفة مستمرة تقليباً آلياً .

إن بقايا العصير أى العسل الأسود يلزم التخلص منها الآن ، ويتم ذلك بنقلها إلى براميل مستديرة ذات ثقوب جانبية وهى تدور حول نفسها بسرعة ١٢٠٠ دورة فى الدقيقة الواحدة مما يجعل العسل يندفع إلى جوانبها بشدة فيخرج من ثقوبها فتتلقاه جدران أسطوانة كبيرة تشتمل عليها وتتبقى بلورات السكر بالداخل ، وعندما يتوقف الدوران يسقط السكر من أسفل .

ثم يذهب السكر إلى آلة التجفيف حيث يسلط عليه هواء ساخن ثم يلف السكر الجاف ويحزم استعداداً لاستعماله في الأغراض العديدة التي تفتق عنها الذهن البشري .

ولكن ما هي قصة سكر الماكينة وكيف تحصل عليه بالشكل الجميل الذي نعهده إذا كانت الآلات تخرج لنا السكر على هيئة بلورات كما رأينا ؟ تستعمل لذلك قوالب خاصة فيوضع فيها العصير السميك بعد أن يكون قد تم تكريره تماما فتخرج السكر على هيئة بلاط كبير فتتناوله آلة أخرى وتخرج لنا منه تلك القطع الجميلة التي تتلقفها الألسنة .

وبينما تجرى هذه العمليات المعقدة الخاصة بصناعة السكر لا بد وأن يكون إنتاج القصب مستمراً ، وتحصل على نباتات جديدة من القصب بأخذ عقل من العيدان القديمة وغرسها في جور ، فلا تلبث أن تتكون لها جذور وسرعان ما تنمو عيداناً قوية تقطع بعد اثنى عشر شهراً ، ولكن الجذور تبقى في الأرض فتنمو منها في كل سنة عيدان جديدة ، ويتكرر ذلك لعدد معين من السنين حتى تعجز الجذور القديمة عن إنبات عيدان جديدة ، وعندئذ يجب أن تحل محلها نباتات شابة قوية — وعيدان القصب لا تلبث أن تتوج بزهورها ويبدأ قطعها (كسرها) بعد ذلك الإزهار مباشرة ، وما أبهج منظرها وهي بالحقل قائمة بألوانها الخضراء والصفراء والقرمزية وخطوطها البديعة التنظيم ، ولكنها سرعان ما تطرح على الأرض تحت وطأة مدية رجل الحصاد الطويلة الحادة ؛ وما أبهج منظر عمال الحصاد بجلبهم النافع الجيد . ولكن عمال زراعة القصب بجزر الهند الغربية ليسوا جميعاً من الوطنيين سكان هذه الجزر الأصليين ، وأغلبهم من سلالة العبيد الذين انتزعت عائلاتهم من أفريقيا قسراً في الأيام السالفة التعيسة التي سادت فيها تجارة الرقيق ، وقد رحلوا إلى جزائر الهند الغربية لمدها باليد العاملة الرخيصة للعمل بزراعات القصب في أول عهد هذه الجزر بها ؛ وقصب السكر بالنسبة لهذه الجزر دخيل أيضاً ؛ فقد نقله الأسبان إلى جزيرة كوبا ، ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أن يكون النبات والعمال القائمون على خدمته من الأجانب الدخلاء على مجموعة الجزر التي تعد بحق أعظم مصدر لإنتاج القصب .

ليس ما سبق سوى إحدى القصص التي تتلى عن قصب السكر ، وقد كان عود القصب شغل العلماء الشاغل دواماً ، وقد توصلوا اليوم إلى استنباط أنواع منه لا تمتاز بكمية السكر التي تعطيها أكثر من غيرها فحسب ، بل تمتاز أيضاً بقوة استعدادها لمقاومة الأمراض والآفات التي كانت تصيب الأنواع القديمة .

وقد تهب الزوابع والأعاصير الهوجاء ، وتكتسح هذه الجزر وتهشم العيدان أحياناً ، وأمام ذلك يعجز العلماء ، ولكن قد صارت لهم اليد العليا نحو الحشرات الضارة سواء منها الزاحفة والطائرة ؛ وفي أوائل هذا القرن أقلقت العلماء حشرة صغيرة تصيب العيدان فتحفرها وتضعف قوة إنتاجها السكر ، وقد ظهرت هذه الحشرة في بادئ الأمر بجزر هاواى (Hawaii) الواقعة بالمحيط الهادى ، ولولا اتخاذ إجراءات سريعة فعالة نحو مقاومة ملايين هذه الحشرة المخربة والقضاء عليها لقضى على زراعة القصب بهذه الجزر . استدعى على عجل خبير الحشرات المدعو مستر مور « Muir » فما باشر عمله حتى بدأ بإحضار نوع آخر من الحشرات يستطيع أن يتطفل على الخنفساء الحفارة (Boring Beetle) ويتغذى عليها ، وبذلك يقل عددها ويقضى عليها . إن طريقة هذه التضحية بإهلاك حشرة معينة بحشرة أخرى عدوة لها من بين الطرق الشائعة في وقتنا الحاضر لمقاومة الحشرات ، ولكنها لم تكن شائعة في ذلك الحين . وقد جاهد هذا الحشرى الفذ الذى وكل إليه أمر إنقاذ زراعات القصب بجزر هاواى مدى عامين أنفقهما باحثاً منقباً عن الحشرة المنشودة حتى وُفق إلى العثور عليها أخيراً في مكان يبعد بنحو أربعة آلاف ميل عن جزر هاواى بجزيرة تقع شمالى جزر الهند الغربية تدعى آمبوينا (Amboyna) وهناك جمع ذبابه الحية قاصداً حملها معه إلى جزر هاواى ، حيث يربيها ويكثرها ليوقف بها وباء الحفار ، ولكنه مرض أثناء رحلته البحرية فمات جميع الذبابات لفقد عناية راعيها بعض الوقت ؛ ولما أبل من مرضه اضطر إلى السفر إلى آمبوينا ثانية وجمع عدداً أكبر من نفس هذا النوع من الذباب ، وبالرغم من الصعوبات التي صادفته والتي تثير غضب الحليم

(البقية على صفحة ١٩)

الخليـــــل

للأستاذ عبد السميع المصرى

— ٢ —

مذهبه فى الشعر

قال خليل مطران فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه متحدثاً عن شعره :

« عدت إليه وقد نضج الفكر واستقلت لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر ؛ فشرعت أنظمه لترضية نفسى حيث أتخلى ، أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى ، متابعاً عرب الجاهلية فى مجاراة الضمير على هواه ، ومراعاة الوجدان على مشتهاه ، موافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ، لا أخشى استخدامها أحياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى شىء منها إلا ما فاتنى علمه أو تجاوز إدراكى فهمه ، ولم أكن مبتكراً فيما صنعت ؛ فقد فعل العرب فى كل زمان قبلى ما لا يقاس إليه فعلى ؛ فإنهم توسعوا فى مذاهب البيان توسع الرشد والحزم ، وجاريتهم فى تصريف الكلام على ما اقتضاه هذا العهد من أساليب النظم .

فيا هؤلاء ، تم هذا شعر عصرى ، وفخره أنه عصرى ، وله على سابق الشعر ، مزية زمانه على سالف الدهر .

هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ، ودابر المطلع ، وقاطع المقطع ، وخالف الختام ، بل ينظر إلى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه وإلى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحر وتحرى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر .

كذلك حاولت أن أصنع شعرى وأعرف أنى لست من العلم واقتدار الفكر فى المكان الذى يبلغنى منه أوفى المرام ، ولكننى تيقنت أن ما أردته به من الأغراض قد نفذ إلى قلوب قارئيه وأحدث فيها ما أبتغيه من الأثر ، وكفى بذلك سروراً لى ورضى ، إلى أن يجىء فى زمانى أو بعدى من يدرك من طريقى الشأو الذى قصرت عنه ويصل إلى المقام الذى لم أدن منه .

على أنى أصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة — ولا أعنى منظوماتى الضعيفة — هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً ، وللدلالة على صعوبة الوصول إلى الإتقان فى مثل هذا النوع من النظم نشرت فى هذا الديوان القصيدة الأولى من شعر الصبى وعدة قصائد أخرى ، كان فى وسعى أن أضرب عنها صفحاً وأن أكتفى بما أستجيده من قولى ولا آخذ على نفسى فيه شيئاً ؛ غير أنى آثرت أن يدارجنى القارىء مدارجة حتى كونها غاية فى الإيجاز تمثل لديه تمثيلاً إجمالياً فى كل حال مررت بها من أحوال هذه الطريقة ؛ وليس أكثر شعرى هذا بين الطرس والمداد إلا مدامع ذرفتها وزفرات صعدتها وقطعاً من الحياة بددتها ، ثم نظمتها فتوهمت أنى استعدتها .

على أنى لم أخل إلى الآن شعرى من كل ما آخذ عليه السابقين بسيرى على هذه الطريقة الفطرية الصحيحة ، ولكننى أرجو أن أقدم على ذلك فى المستقبل إن كان فى الأجل فسحة » .

✻ ماذا يعنى مطران بهذا الكلام الذى ألقاه على الناس عام ١٩٠٨ ؟ ماذا يعنى بقوله : « سأجارى الضمير على هواه

والوجدان على مشتهاه ، موافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة فى الألفاظ والتراكيب » ؟.

إنها الثورة على أوضاع الشعر العربى والخروج على ما تواضع عليه القوم حتى ذلك اليوم . وقد كان مطران فى ثورته ابتداعياً متأثراً إلى حد ما تأثراً متأثراً بالابتداعيين الفرنسيين أمثال لامارتين وهوجو وموسيه ، لا سيما الأخير منهم الذى قال فيه :

شاعر كان عمره بيت تشبيـ
ـب وكان الأثير فيه الرويا

وهو وصف ينطبق على شعر الشباب عند مطران الذى زخر بالمذهب الابتداعى (الرومانتيك) وتغلب فيه الشعور والخيال على العقل والتفكير مع روح من اليأس والتشاؤم والامتزاج بالطبيعة الخالدة إلى حد التفانى .

وقد تحرر مطران فى ثورته على أوضاع الشعر العربى القديم من كل ما يعوقه عن التعبير الصحيح عن مشاعره ، ولعله أول شاعر معاصر تحرر من ضرورة القافية مع العناية التامة بوحدة الموضوع ، وهذه أبيات من إحدى قصائده الباكرة :

البحـــر ساج والسكينة سائده
والليـــل داج والمدينـــة راقده
غمر الظلام هضابها وجبـــالها
وقلاعهـــا وصروحها فأزالهـــا
شبـــه المحيط المستوى وبقـــاعه
ما لا يرى من شمه وبقـــاعه
لا نجم فى الأفق المحجب ســـافر
خلف السحاب ولا سراج ساهر
وإذا أشاح إلى الجهات مطيف
جمعـــا فلا ركز يحس خفيف
إلا خطا شبح ضئيـــل هـــائم
كالوهم يسرى فى عجمـــة واهم

ولقد كان لمطران علم غزير باللغة العربية وأسرارها ومفرداتها وصيغها ومبانيها ، عاونه على ثورته الابتداعية ، فأتى بكل مبتكر فى موضوعاته وتشبيهاته وصوره الشعرية الرائعة فجاءت كما أرادها :

خـــواطر وضـــاءة بهـــا ملامح السهر
ألبستهـــا من أدمعى ومن دمى هذه الحبر
قشيبـــة غريبـــة عصرية لبيع مضر

وكان لمطران ما أراد من أثر فى معاصريه ، فالتف حوله تلاميذه ومريدوه وتابعوا طريقته ودعموا مدرسته فى الشعر العربى ؟ بل لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن مطران قد علم جيلا من الأدباء ؟ ولعل الدكتور أبا شادى خير معبر عن رأى هذا الجيل بما ذكره فى ديوانه « أنداء الفجر » عن مطران :

« عرفت محبة هذا الرجل الإنسانى وأستاذيته منذ ثلاثين سنة ، إذ تعهدنى صغيراً وجئت أهتدى بهديه ، وأثره فى شعرى أثر عميق ، لأنه يرجع إلى طفولتى الأدبية ، ويصاحبنى فى جميع أدوار حياتى ؛ وإذا كان استقلالى الأدبى متجلياً الآن فى أعمالى فهو فى الوقت ذاته يمثل الاطراد الطبيعى للتعاليم الفنية التى تشربتها نفسى الصبية من ذلك الأستاذ العظيم ، وما زالت تحرص عليها نفسى الكهلة الوفية ، ناظرة إلى آثار الصبى وإلى معلمى الأول بحنان عميق » .

وإذا كان لمطران مدرسة فى الشعر فإنه لم يكن صاحب مذهب فى الفلسفة ، وما ورد فى أشعاره فى هذه الناحية لا يعدو أن يكون معانى معادة طرقها الشعراء من قبله كقوله :

هى بحـــر الحيـــاة بالإدبار
فإذا مر فهو فى الآثـــار
والصبى كالكرى نعيم ولكن
ينقضى والفتى به غـــير دارى
نعم المرء عيشـــه فى صبـــاه
فإذا بان عاش بالتـــذكار

أو قوله وقد رام إظهار هوان شأن الإنسان وهو يخاطب فراعين مصر بناة الأهرام :

يا أيهـــا الموتى ألم يسمعكم
صوت المنـــادى صادعاً مرددا
قوموا انظروا السوقة فيما حولكم
تدوس هامات الملوك عمـــدا
قوموا انظروا أجسادكم معروضة
فى مشهد لمن يروم المشهـــدا

بعث به يسألكم حساب ما
قدمتم من راح منا واغتدى
لم يغنكم منه البناء عاليا
والأرض نهبا والملوك أعبدا

وكانت هذه الأشعار الفلسفية تغلب عليها صبغة الاستسلام لقدر الله وتصاريف الحياة كقوله :

فإذا وجدت الأمر مقـ ـضياً أسرك أم شجاك
وعلمت أن الله يبـ ـلو خائفيه كما بلاك
ووثقت أن عظيم حز نك إنما يدنى حشاك
سـ ـلم إلى تلك الجلا لة فهى من عال تراك
سلم وقل يارب إن رضاى ما فيه رضاك
فاجعل شقائى نعمة لابنى وسعداً فى حماك
هـذا هو السنن القويم فكل أسلك إلى ثناك

ومطران فى سبحاته الفلسفية هذه واسع أفق التفكير كبير القلب ، يشمل بنظرته الإنسانية جمعاء دون النظر إلى اختلاف فى المذاهب أو الأديان أو الأجناس .

وهاك مثلا من هذا التفكير الفلسفى الناطق فى قصته الشعرية (الطفل الطاهر) ، وهى من أروع قصصه الشعرية التى تنبع من عاطفته الإنسانية العميقة ، وفيها يثور على أحد رؤساء المذاهب الذى أصر على إبطال عقد زواج بين اثنين ، ولو تم هـذا الإبطال لألحق بولدهما البرىء العار ، وكان الزوج المسيحى تزوج على غير مذهبه الأصلى :

يا طفـل قلب طرفك للتردد
أو ما ترى شبحاً عبوساً أسودا
متجهـاً لك من وراء ستار
هـذا أتاه إليك قبل المولد
وجنى عليك جناية المتعمد
ومن السماء دعاك صوب النار
زعم الإله يريد مثلك مذنبا
من يومه ومعاقبـاً ومعذبا
فى الغيب قبل مظنة وسرار
رسل المسيح الشاربين دماءه
الآكلين بلا تقى أحشاءه
الولين عليه كل نهار

الله أوحى فكرة هى دينه
فمن اهتدى هى نوره ويقينه
أو ضل فليحر بغير منار
نزلت على الهادى الأمين الشافع
كلا ثلاثا تحت لفظ جامع
قدسية النفحات والآثار
الحب فى المعنى العميم الكامل
معنى الغرام والفداء الشامل
بالـبر للأعداء والأنصار
لا تنقضوا بيتاً لدى تكوينه
وحذار من يتم الصغير بدينه
وحذار من بأس المضيم حذار
هذى المذاهب كلها دين الهدى
كأشعة الشمس افترقن إلى مدى
وللتقى فى مصدر الأنوار

شاعريته

لا شك فى أن مطران كان له خيال واسع مبتكر ونفس شاعرة شديدة الحساسية انعكست فى مرآتها الصافية أحداث عصره وانفعالات نفسه .

كان له وجدان مرهف سريع التأثر بما تقع عليه العين وما يعترض طريقه فى الحياة ، فيترجم عما يحسه بشعر بالغ فى الروعة لأن وراءه كنزاً لغوياً عظيماً ، ولذا فكثير من شعر مطران تدرك فى تضاعيفه جودة الصنعة الفنية ، من جزالة اللفظ وبسط المعنى وإبراز الفكرة وإحكام القافية . وقد قيل إن مطران كان يشق شقاء مراً فى صياغة الشعر وإفراغه فى قالب خاص ، فالكلمة عنده لها قدرها ، والجملة لها قيمتها ، وكان يحرص أشد الحرص على انسجام موسيقاها وتناسب روابطها .

وإن الأمثال كثيرة لا سيما من هذا الشعر الغنائى المنتشر فى ديوانه ، والذى تكاد تحس موسيقى ألفاظه كقوله :

حسناء لكن قصور بادٍ عليها الفتور

لا تكسر الجفن إلا وقلب صبٍّ كسير
ولا تبسم إلا وجفن باك يمور
ولا تلفت إلا وحيرة الحى صور
يا قرةً لعيونى فى الصدر منها سعير
كم جئتكم مستزراً وطيفكم لا يزور
إن كان صبرى قليلاً فإن وجدى كثير
وما المحب صدوق فى الحب وهو صبور

وإن الكلمات لتكاد تهتز طرباً لما حواه تركيبها من موسيقى لفظية عجيبة باستعمال اللام المكررة فى قوله :

القلوب والقبل هن للهوى رسل
لسن للهوى عللاً فى الهوى لها علل

أو قوله مستعملاً حرف الراء المكررة :

سررت فى العمر مره وكنتِ أنتِ المسره
كانت حياتى روضاً وكنت فى الروض نضره
وكان غصنا شبابى وكنت فى الغصن زهره
وكان فكرى [illegible] وكان حبك جمره
وكان لحظك يهدى إلى بيانى سحره

ويغلب على شعر الشباب الروح الابتداعية التى تغلب العاطفة على العقل . وقد أخرج لنا مطران فى تلك الحقبة من حياته شعراً فى الصدارة من الشعر الغزلى للعصر الحديث أفردنا له مكاناً خاصاً من هذا البحث .

عبد السميع المصرى

ملء ملعقة من السكر

(بقية المنشور على صفحة ١٥)

فقد تمكن أخيراً من إيصال شحنته الغالية إلى حيث أراد ، وأطلقت هذه الذبابات على زراعات القصب بهاواى حيث استقرت وتكاثرت وعاشت متطفلة على الخنافس الحفارة تتغذى بها ، وهكذا قضت عليها وأنقذت صناعة السكر بهاواى مما كان يتهددها وذهب عنها ذلك على ألا يعود .

لقد شاهدت ما لاقاه الإنسان من جم الصعاب فى سبيل السكر ، وما يجريه عليه من العمليات الشاقة حتى يحصل على ملء ملعقة منه ، ولكن هل يوجد للسكر بديل يمكن الحصول عليه بغير هذا العناء الكبير ويحل محله ويؤدى رسالته ؟ نعم ، يوجد هذا البديل ويطلق عليه اسم سكرين "Saccharin" ، ويمكنك شراؤه من الصيدليات على هيئة حبوب صغيرة ، وإذا كان ما نحصل عليه منه من أجود الأنواع ، فيكون أحلى من السكر بمقدار ٥٥٠ مرة ، وليس السكرين طعاماً كالسكر الطبيعى ، وما هو سوى أداة للتحلية ، وهو ليس مستخلصاً من عصير نباتى ، بل يستخرج من القطران "Tar" ، تلك المادة السوداء المتخلفة عن مصانع غاز الاستصباح المستخرج من الفحم الحجرى ، ونستعمله لإضاءة الشوارع ، كما نستعمله مصدراً للحرارة بالمنازل ، وإن كثيراً من الأشياء النافعة للدهشة يمكن صنعها من هذه المادة الثانوية ، وليس أدعى إلى الدهشة من السكرين هذا ، ولو أننا لا نقبل على استعماله كما أقبلنا على استعمال السكر النباتى ، إلا أن بعض الناس لا بد لهم أن يستعملوه ، وهم هؤلاء الذين يعانون مرض البول السكرى ، ويوجد السكر فى دمائهم بكثرة ؛ هؤلاء يحتاجون إلى تحلية شرابهم وطعامهم ، ولا سبيل لهم إلى السكر فيولونه ظهورهم ويلجأون إلى السكرين فيولونه وجوههم ، فهو حقاً ضالتهم المنشودة ، ولا يلحق بهم أى ضرر من ناحيته .

عبد الباقى نعمت

حديث فى القصة

للأستاذ جمال الدين الرمادى

نشأت القصة منذ فجر التاريخ وذاعت وشاعت على الألسنة منذ أن كون الإنسان المجتمع . ولقد امتزجت القصة عند الإغريق بالميثولوجى والخرافات والأساطير ، كهذه القصص الخرافية التى نجدها عند هزيود . وقد استمد هوميروس قصصه من الحرب التى نشبت بين الإغريق والطرواديين وحلفائهم ، وهى تلك الحرب التى دامت عشر سنين ، كما استمد الأوذيسة مما جرى لأحد أبطال الإغريق وهو أوديسيوس بعد سقوط طروادة . وقد وضع هوميروس بهذا أساس الشعر القصصى فى الأدب الأوربى ، فنشأت الملاحم التى أتت على غرارها ، مثل إنيادة فرجيل ، وكوميديا دانتى ، وفردوس ملتون ، وملحمة إرلندو الغاضب لاريستو ، وغيرها من الملاحم .

وقد تفرع من هذا الشعر القصصى لون آخر من الأدب وهو فن القصص ، وقد تقدم على مر الأزمنة حتى أصبح فناً قائماً بذاته فى الآداب الأوربية .

ولم يعرف التاريخ قصة أقدم من القصة المصرية ، وذلك لأن المجتمع المصرى كان أول مجتمع عرفه التاريخ ، فهناك قصة السحرة الثلاثة التى ترجع إلى ألفى سنة قبل الميلاد . وقد عرفت مصر فى عهد الدولة الوسطى فى تاريخ مصر القديم قصة سنوحى ، وقصة البحار الغريق ، وتنسب كل منهما إلى الأسرة الثانية عشرة . أما فى عهد الأسرة التاسعة عشرة فقد عادت القصة المصرية إلى الازدهار ، وشغف أدباء هذا العصر بكتابة القصص الغرامية والخيالية . وقد بلغ إعجاب المصريين بالقصص حداً كبيراً ، إلى درجة أنهم وضعوها إلى جوار الميت فى قبره لتسليته وإبعاد الوحشة عنه . وعرف المصريون القدماء كذلك قصص الأسفار والملاحين الذين تاهوا فى البحار ، أو الحداة الذين ضلوا فى القفار .

وربما عرف الأدب الجاهلى كثيراً من القصص ، ولكن الذى لاشك فيه ولا محيص عنه هو أن الأدب الجاهلى لم يصل إلينا كله ، إنما وصل إلينا بعضه ، بل إن قدر ماوصل إلينا من النثر الجاهلى لا يعادل قدر ما وصل إلينا من الشعر الجاهلى . ومن يدرى فربما فقد بعض القصص الجاهلى مع ما فقد من التراث الجاهلى . وقد أذكت حرب عبس وذبيان ، وحرب المهلهل بن ربيعة وسيف ذى يزن ، وإجراء الخيل من جبال القمر — تأليف كثير من القصص .

وما جاء القرن العاشر الميلادى حتى وجدنا قصص ألف ليلة وليلة ، وهى قصص شعبية شغلت الناس فترة طويلة من الزمان ، نجد فيها قصة قمر الزمان ، وابن الملك شهرمان ، والسندباد البحرى ، وعجيب وغريب ، وفيروز شاه . وقد ترجم كتاب كليلة ودمنة إلى اللغة العربية ، وكان أصله الأول هندياً ، فأضاف ذلك العمل إلى القصص العربى ثروة كبيرة . ولكن بعض أدباء العرب كانوا يعتبرون كتاب ألف ليلة وليلة (كتاباً غثاً بارداً) كما روى ذلك المسعودى فى مروج الذهب وابن النديم فى الفهرست . ولكن السواد الأعظم منهم ينظرون إليه ككتاب قيم مفيد وتراث أدبى كبير ، وقد تمنى الكاتب الفرنسى ستندال أن ينساها ليقرأها مرة ثانية ويلتذ بقراءتها .

ولقد وجد قصاص فى المساجد يقصون على الناس أخبار الأمم السابقة ، ويعظونهم ويرشدونهم إلى الطريق السوى المستقيم ، كعبد الله بن سلام ، والحسن البصرى ، ووهب بن منبه ، وتميم الدارى . بل لقد أضاف بعض المفسرين فى تفسير القرآن عنصر الإسرائيليات ، وهو الذى قام به بعض اليهود الذين أسلموا ، ككعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، كما يقول المستشرق الألمانى جولدتسيهر . وقد ذكر ابن الأثير

أن ابن ورقاء في حوادث سنة ٧٧ سار في أصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ، ولما لم ير القصاص التفت وقال : أين القصاص ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : أين من يروى شعر عنترة ؟ فلم يجبه أحد .

وقد شاعت ألوان أخرى من القصص في الأدب العربي ، كمقامات الحريري والهمذاني ، ولكن هذه المقامات كانت تعنى في الغالب بإظهار البراعة في الأسلوب ، والسجع في التعبير ، وتلجأ إلى التزويق اللفظي والتنميق اللغوي . ولقد نهضت القصة في الأدب العربي في العصر الحديث وتخلصت من هذه المظاهر وتنوعت وتعددت ، فألفت القصة التاريخية ، وألفت القصة الواقعية والقصة الخيالية ، وألفت المسرحية . وقد لقيت القصة المصرية على يدي الدكتور طه حسين بك وتيمور بك وتوفيق الحكيم خيراً كثيراً وتقدماً كبيراً ، وأوشكت أن تطغى على الشعر طغياناً عظيماً . وحذت حذو القصة الأوربية في مناهجها وطرائقها وطرق عرضها ؟ ولا عجب في هذا ، فالقصة في الآداب الأوربية الحديثة أهم أنواع النثر الإنشائي وأكثرها ذيوعاً ، وقد شاعت على أيدي سكوت وثاكرى وديكنز وهاردى في الأدب الانجليزي ، وبلزاك وإميل زولا وأناتول فرانس وموباسان في الأدب الفرنسي .

وقد تعددت أنواع القصة ، فهنالك الأقصوصة ، ويسميها الفرنسيون Conte ، وهنالك القصة القصيرة ويسميها الفرنسيون Roman ، وهنالك الرواية ويسميها الفرنسيون Roman .

وقد قال سارتر في إحدى مقدمات كتبه : « إننا يمكن أن نقول بعض التحفظ إن القصص الجيدة تصبح مشابهة تماماً للظواهر الطبيعية ، فننسى أنها من تأليف مؤلف ونعتبرها كصخرة من الصخور أو شجرة من الأشجار ، ولهذا السبب فإنها تعيش » .

ونحن إذا ما استعرنا تعبير سارتر وجدنا كثيراً من القصص والروايات خالدة بين ظهرانينا خلود هذه الصخرة الشماء التي لا تحركها يد البلى ، أو هذه الدوحة الفارعة التي لم تصل إليها يد الفناء . وإني لأذكر أن مستر د . س . سافج Savage قد كتب منذ عهد قريب كتاباً عن القصة الحديثة عنوانه « دراسات ستة في القصة العصرية » ، وقد تحدث فيه عن القصة عند إرنست همنج ، وفورستر ، وفرجينيا وولف ، ومارجيارد إيفانز ، وألدس هكسلى ، وجيمس جويس ؛ ولكن سافج قبل أن يبدأ حديثه عن هؤلاء القصاصين تساءل قائلاً : ما الفكرة ؟ واستطرد قائلاً : ما القصة ؟ بل ما الفن ؟ وهكذا كان سافج مثله كمثل الذي يقف على المسرح قبل أن يرفع الستار ليقول دعونا نتبين هل تعجب هذه المسرحية أم لا تعجب ، ودعونا نعرف أولاً لماذا جئتم إلى هنا ؟ !! ..

والواقع أن سافج Savage قد اضطر إلى ذلك اضطراراً ، فهو يعتقد أن للفن تأثيراً شديداً واعتماداً كبيراً على الحياة وعلى التجربة الإنسانية ؛ فالعمل الأدبي يحمل بين ثناياه تصعباً وتوازناً بين الشخصيات وبين الذاتية والموضوعية وبين الكلى والجزئي ، والذاتية تلتقى دائماً مع الموضوعية ، فتنجم عن ذلك عنصر جديد هو عنصر الصدق التام في الأداء . ويضيف مستر سافج إلى هذا قوله : إن القصاص يقدم الحياة كفن من الفنون ، كما أن الفنان يقدم الفن كفكرة من الفكر ، راسماً معانيها الخفية ، متيحاً إياها حق الظهور .

أما فورستر E. M. Forster فيقول عنه سافج إنه من الطائفة الثانية من الكتاب ، والطائفة الأولى عنده هم هؤلاء الكتاب الذين يستمدون مؤلفاتهم من مركز الحياة ، أما الطائفة الثانية عنده فهم هؤلاء الذين يتخذون قصصهم من صراع داخلي في النفوس .

ويعتبر سافج Savage فرجينيا وولف قصاصة من نوع غريب ، فهي لا تقسم الحياة إلا كتقسيم دقات الساعة . فقصة (مسز دالاوى) مثلاً قصة رمزية رائعة تصور تاريخ بيت على شاطئ البحر ، وأحلام طفل في سبيل الوصول إلى المنار الذي يتألق نوره في وسط البحر ، وتاريخ حياة رجل يصل إلى هذه الحقيقة عندما يترك مرحلة الطفولة والشباب ، فإذا هي حقيقة سقيمة عقيمة .

أما جيمس جويس James Joyce ؛ ففي روايته يوليس قد برع في تحليل الإحساسات المكبوتة والرغبات المكتومة ، وقصة يوليس عبارة عن تاريخ يوم من أيام مستر بلوم ، والناس الذين يتنزهون في المدينة في ذلك اليوم ؟ وقد عدتها

مسز فرجينيا وولف فضيحة هائلة وجرعة منكرة ، وذلك لأنها تنتهي بليلة فاجرة داعرة .

وقد ظهرت الرواية التاريخية عند موريس هيوليت Hewlett في كتابه عشاق الغابة . كما ظهرت عند ستانلي ويمان Stanley Weyman في قصة (بيت الذئب) ؛ وقد حاول ستانلي هذا منافسة ألكسندر دوماس الكبير ، فكتب تاريخ فرنسا على شكل روايات ، وقد ظهرت القصة النفسية على أيدي كتاب كثيرين ، أهمهم د . ه . لورنس D. H. Lawrence ، الذي تتلمذ على يد سيجموند فرويد ، وموريس بارنج Baring صاحب القصص النفسية الكثيرة . أما القصة الاجتماعية ، فقد ظهرت عند إسرائيل زانجويل Zangwill الذي وصف حياة اليهود في كثير من قصصه ، وجولد ورثي Golds Worthy ، والكاتبة الأمريكية هاريت ستو Harriet Stewe التي وصفت حياة الرقيق في كثير من قصصها ، كقصة (كوخ عم توم) .

وليس من شك في أن القصة سواء كانت تاريخية أم نفسية أم اجتماعية ، فإنها تحتاج إلى فن في تأليفها ، وإلى قواعد في تنظيمها ؛ فينبغي أن تكون القصة وحدة متينة يحاول الكاتب دائماً أن يبرزها في إطار واضح مبين ، وينبغي له أن يخضع أسلوبه لموضوعه ، لا موضوعه لأسلوبه ؛ كما ينبغي له أن يحسن رسم الشخصيات ، ويحلل مشاعرها ، ويحكم أقوالها وأعمالها ؛ فلا يصدر عمله إلا عن صدق ، ولا يبني كلامه إلا على معنى ، ولا ترسم شخصياته إلا عن فكرة . كما أن الكاتب القصصي ينبغي أن يعنى بأسلوب قصته ولغتها ، وألا ينقلب إلى واعظ يعظ الناس ، بل يتخذ من الوسائل في عرضه ومعالجته ما يجعل الآذان مصغية إلى صوته ، والأسماع مشوقة إلى شخصياته ، وأن يفرق بين القصة والأقصوصة ، وبين الحكاية والرواية .

وتمتاز القصة بالنثر والطول على حد تعبير شارلتون ، وتمتاز بالنثر لأنها تصور أعمالاً مقصودة ، وقد تقف منها وقفة طويلة محللة مفصلة ، وليس فيها قصر الرواية المسرحية مثلاً في التصوير . فالكاتب المسرحي يكتفي بالإشارة ، فإذا صور وليمة مثلاً كوليمة شكسبير في ماكبث ، أو حفلة عشاء أو سمر كما فعل إليوت في حفلة كوكتيل في مستهل الرواية ، اكتفى بالمنظر دون مقدماته وبواعثه . أما الكاتب القصصي فإنه يمهد لهذه الحفلات بأسلوبه ولا ينزع الأفعال ليجسمها تجسيماً على المسرح كما يفعل الكاتب المسرحي .

ويقسم بعض نقاد الأدب القصة إلى قسمين : القسم الأول القسم الخيالي كقصص رحلات جوليفر وروبنسن كروزو وغيرها ، والقسم الواقعي . ومن القصص الواقعية قصة بلزاك (جلد الأحزان La peau de chagrin) ، وهي قصة رجل يملك جلد أحزان قد جمع قوة سحرية عجيبة تمكنه من تحقيق رغباته . ولكن الجلد أخذ يتقلص إلى أن استنفد الرجل جميع رغباته فاستنفد حياته . ورواية كنديد لفولتير أقصوصة فلسفية تسخر من التفاؤل ومن المتفائلين ومن الفيلسوف الألماني ليبنز الذي يقول إننا في خير حال في خير عالم ممكن ، وهي قصة رجل طيب ساذج يدور مع أستاذه بنجليوس ، فيلاقي ما يلاقي من محن وقرصنة وعذاب . وقد صور جوستاف فلوبير في قصته « سلامبو » الحرب البونية الثانية التي كانت بين قرطاجنة وروما . ويعد إميل زولا زعيم الروائيين الطبيعيين في فرنسا . وقد ظهر المذهب الواقعي في منتصف القرن التاسع عشر في لوحات ميليه Millet وكوربيه وروايات فلوبير والفونس دوديه . أما المذهب الطبيعي فزعيمه موباسان وزولا الذي كان يرى تطبيق مبادئ العلم ومناهجه التي بسطها كلود برنار في كتابه الشهير « مقدمة لعلم الطب التجريبي » على الأدب والقصة .

جمال الدين الرمادي

شـــــارلت برونتى ...

كانت شارلت برونتى بارعة النكتة ، قوية الملاحظة ، لاذعة فى تهكمها وسخريتها . أما أسلوبها فى الكتابة فكان أسلوب الفصحاء الذين لا تجد فى أسلوبهم عوجاً ولا أمتاً .

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

المترجم لها هى واحدة من ثلاث أخوات هن : شارلت (١٨١٦ — ١٨٥٥) وإميلى جين (١٨١٨ — ١٨٤٨) و (آن) (١٨٢٠ — ١٨٤٩) . كان أبوهن قسيساً إرلندياً هو باتريك برونتى (١٧٧٧ — ١٨٦١) . وقامت على تربيتهن عمة لهن ، وذلك على أثر وفاة أمهن ، يوم كانت كبراهن فى الثامنة من عمرها . فلما بلغن مبلغ الشباب عملن كربيات .

وقد عُلِّمنَ وهن فى دور الطفولة أن يناقشن مسائل الموت وما بعد الموت .

ولم يرين — وهن فى بيت أبيهن — من الرجال أحداً غير محارمهن .

وكن إذا نظرن من النافذة لا يرين غير المقابر بقبورها الصامتة ، وغير أرض سبخة ذات نز وملح .

دعاهن والدهن ذات يوم ووجه إلى صغراهن سؤالاً هذا نصه : ما هو ألزم الأشياء لطفلةٍ فى مثل سنك ؟.

قالت (آن) وكانت زرقاء العينين فى الرابعة من عمرها : العمر والتجربة ...

وسأل (إميلى) وكانت فى الخامسة من عمرها : ماذا أصنع لأقوم من اعوجاج أخيك (برانويل) ؟ . قالت : جادله بالتى هى أحسن ، فإن لم يرعو فاضربه بالسوط ...

وسأل (شارلت) ، وكانت فى الثامنة من عمرها : ما هو أحسن كتاب فى العالم ؟ قالت : الإنجيل ومجالى الطبيعة ...

وقد عملت المترجم لها — يوم كبرت — كمعلمة فى إحدى المدارس ، ولكنها لم تكن تحب هذه المهنة ، وأرسلت يوماً بعض قصائدها إلى الشاعر « روبرت سوذى » وسألته إن كان يرى أنها تصلح للأدب ، فأجابها هذا المتزمت القديم بأسلوبه اللاذع يقول : إن الأدب لا يمكن أن يكون شغل المرأة أبداً ، ولا يجب أن يكون كذلك .

وأرسلت فصلاً من فصول رواية لها إلى الشاعر (وردزورث) فأجابها : أنه لا يستطيع أن يعرف إن كانت مؤلفة الرواية كاتبة عند واحد من موثقى العقود ، أم كانت خائطة ثياب قد أصاب عقلها الخبل .

وكان هذا كافياً ليصدها عما أخذت نفسها به . فقبلت أن تعمل كربية فى بيت رجل من أوساط الناس يقيم فى لندن ، ولكنها وجدت نفسها شقية الشقاء كله . فقد كتبت مرة بتهكمها اللاذع تقول : إن أسعد يوم لقيته هناك ، هو ذلك اليوم الذى خرج فيه عند الأصيل (السيد سدجويك) وفى صحبته أولاده وكلبه . وقد أمرت أن أسير وراءهم ، على أن يكون بينى وبينهم بضع خطوات ...

وإذا سألتنى عن الأطفال الأعزاء ، أولاد ذلك السيد ، فإنى قائلة لك إنهم قد برعوا البراعة كلها فى القذارة ، بل قل إنهم قد أتوا فيها بالمعجزات . فهم يرشون اللبن على غطاء المائدة ، وهم يزجون بأصابعهم فى آنية بعضهم ، وهم يمسحون أفواههم وأيديهم فى ملابس أمهم ، وهم إذا نطقوا سمعت لهم خواراً ، كأنه خوار البقر . وتراهم يبصقون إما فى وجوه بعضهم ، وإما فوق جلباب مربيتهم .

وأنى لأطفالٍ أن يُطيعوا مربيةً لهم ، كأنها فى دمامتها سعلاةٌ من السعالى .

وتساءلت صاحبتنا بعد أن أصابها الإخفاق : أية حرفة بعد ذلك تحترف ؟ أما الزواج فلا ينبغي أن يدخل في حساب فتاة لم تُرزق مالاً أو جمالاً .

وقد وصفت مرة دمامتها فقالت : إنه إذا نظر إلى وجهي رجل غريب ، فإنه سوف يعمل جاهداً أن لا ينظر أبداً إلى ذلك الركن الذي أجلس فيه .

وكانت (شارلت) ترى لزاماً عليها يومئذ أن تأخذ بيد أهلها ، وقد جاءتها الفرصة في كتاب تلقته من إحدى زميلات المدرسة ، وكانت تدير مدرسة داخلية في بروكسل تقترح عليها فيه أن تجيء لتعمل عندها كمدرسة .

فغادرت صاحبتنا بيت أهلها وأقلعت بها السفينة إلى بلجيكا ، وهي تناجي نفسها بقولها : إني أمكث هناك سنة أزداد فيها علماً وتجربة ، ثم أعود إلى بلدي أفتح فيها مدرسة للفتيات .

وفي تلك المدرسة لقيت الأستاذ (هيجر) فعلقت به ، وكان هو زوجاً وأباً لخمسة أطفال ، وكان آية في قبح الصورة ودمامة الخلقة ، وكان يرجع إلى أصل ألماني ، وكان قصير الساقين ، وكان ذا جمجمة مقببة ، وكان الناظر خلال منظاره يرى عينين كأنهما شعلتان تحترقان ، وهو في الجملة كأنه أسد صغير ، له وجه يختلف في التعبير والإبانة باختلاف ما يدور بنفس صاحبه ، فهو تارة يعطيك صورة عن سنور قد أصابه الكلب ، وهو تارة يمثل لك ضبعاً ، قد أصابتها الحمى فجنّت ، وكان يختلف عن صاحبتنا في العمر والميل والمزاج ، فقد كان سريع الانفعال ، تسحّ دموعه سحاً إذ هو يلقي محاضراته ، ولكنه على الرغم من ذلك كله كان أذكى رجل رأته ، فقد كشف لها عن آفاق واسعة في دنيا الفلسفة والعلم والفن .

ولما انقضت مدة التعاقد عادت (شارلت) إلى بلدها ، ولكن الأستاذ «هيجر» كتب إلى أبيها يطلب عودة تلميذته الناجحة إلى بروكسل ، فعادت وكأنها كانت تحت تأثير سحر ساحر شيطان .

فلما تلاقيا طلب إليها أن تعلمه الإنجليزية فطربت لهذا طرباً مبعثه أنها سوف تخلو بذلك الرجل الذي أصبح هوى لها .

وكانت (شارلت) ترضى من صاحبها بالنظرة العجلى ، وبأن تظل ساعة تستمع لحديثه ، وكان أستاذها هذا إذا حدثها حديث الحب كان كأنه يتكلم عن فكرة مجردة .

وانقضى عامان ، وضاق بكتمان الحب صدرها ، فخرجت يوماً تهيم على وجهها ، ووقفت أمام إحدى الكنائس الكاثوليكية — وهي فتاة من البروتستنت — وهناك اقتحمت الباب وتقدمت إلى كرسي الاعتراف تفضي بمكتوم سرها ، ثم عادت فحزمت أمتعتها ، ورجعت إلى قريتها ، وكتبت إلى أستاذها تقول في لهجة تقذف باللهب :

سيدي : إن الفقراء لا يبغون إلا أقل القوت الذي يقيم صلبهم ، وهم لا يسألون الأغنياء إلا فتات موائدهم ، وكذلك أنا ، لست أريد ممن أحب إلا قليلاً من الود ، وقد يكون صدى كل هذه أن يقول قائل : إنها تهذي ! وكل ما تمليه عليّ خواطر الانتقام هو أن أتمنى أن يذوق من أحب بعض ما أذوقه من عذاب السعير ، الذي ظللت أتلظى بلهيبه ثمانية أشهر كاملة ، وسأرى يومئذ إن كان يظن بنفسه أنه يهذي ...

والمرء يذوق العذاب في صمت ، ما دامت له قوة على الصمت ؛ فإذا خذلته قواه نطق بكلمات تلبس الأوزان من خصائصها .

ولما لم تظفر برد خطابها كتبت إليه مرة أخرى تقول : حاولت أن أنساك ، فأكثرت من شواغلي ، ولجأت إلى كل حيلة ، ولست أدري لم لا أهبك من صداقتي بمقدار ما تهب ... وإني لأرجو منك يا أستاذي أن تحدثني أي حديث ، حدثني حديث أطفالك ، ذلك أني أريد أن أسمع منك ، فحديثك عندي هو الحياة .

وأخيراً جاءها منه كتاب ظلت قانعة به ستة أشهر ، ثم كتبت إليه تقول :

لقد كان كتابك غذاء لنفسي في الأشهر الستة الماضية ،

وإنى لنى حاجة ملحة إلى كتاب جديد ، وإنى لواثقة أنك سوف تبعث ، ذلك لأن قلبك الرحيم سوف لا يرضى بأن يطول عذابى ، لتكسب أنت بضع دقائق ...

فلما طال عذابها ، أمسكت بالقلم لتكتب قصصاً ، وقالت لأختها : سوف أريكما أن الكتّاب مخطئون ، إذ يصورون بطلات قصصهم جميلات فاتنات ، وسأريكما بطلة فى مثل صورتى لا تعرف للملاحة السبيل إليها .

واتخذت لنفسها اسماً هو (Currer Bell) فقال الناس : من يكون هذا الكاتب الذى كتب قصة خرجت على ما تعارف الناس عليه ، ووصف فيها حب مربية لرجل متزوج من امرأة مجنونة .

وأرسل « تاكيراى » نسخة من روايته (سوق الغرور) إلى مؤلف رواية (جين إير) ، وكان رد التحية أن أهدت إليه الطبعة الثانية من روايتها تلك ، وظن الناس أنها كانت خطيبته .

وبينما كانت (Currer Bell) ترشف كئوس المجد مترعة فوق رفوف المكتبات ، كانت صاحبة هذا الاسم تذوق من صنوف الحزن ألواناً ؛ فقد مات أخوها ، وكان فى الحادية والثلاثين من عمره ، وبعد بضعة أسابيع لحقت به أختها (إميلى) ، وبعد شهر من وفاتها سعلت الصغرى (آن) ، كما سعلت (إميلى) من قبل ، فنقلتها (شارلت) إلى بلد على ساحل البحر ، لعل هواء البحر ينقذها ، ولكن (إميلى) أمسكت بيد أختها وقالت : لا تبكى ولا تجزعى ! وفى أصيل ذلك اليوم قضت الفتاة نحبها .

وتقدم إلى (شارلت) فى أخريات حياتها أحد رجال الكنيسة يعلن إليها حبه ، ويطلب يدها ، وبعد عراك نفسانى عنيف قبلت أن يكون زوجاً لها .

ومرت شهور ، وذاع بين الناس نبأ يقول إن (شارلت) على وشك أن تضع حملها ، وإن طفلاً على وشك أن يجىء إلى هذه الدنيا ليرى فصول الرواية ، رواية الحياة بمظلوظها المقلوبة ، وبناسها الذين يتعاورهم السعد والنحس .

ومرضت (شارلت) ، وجاء الطبيب وبشر بالشفاء ، وقال : أن لا خوف عليها ، وأحست بقوة ، وهى فى غمرة المرض ، ولكنها كانت قوة هى صحوة الموت ، ثم رفعت رأسها وقالت لزوجها : إنى أسعى إلى الموت سعياً .

ولن يفرق الموت بينى وبينك ، فقد كنا سعيدين ...

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم



معجم مقاييس اللغة

لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي

نشر وتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

للأستاذ سعد محمد حسن

حدثتك من قبل عن الأستاذ البحاثة عبدالسلام هارون ، وعن هذا العمل الضخم المثمر الذي وقف عليه جهده كله ، وأعني به إحياء الآداب العربية ونشر تراثنا القديم الزاخر بالذخائر نشراً علمياً صحيحاً طابعه التحقيق والدقة ، واليوم أقدم للقراء الجزء الثالث من سفر عظيم من تلك الأسفار الممتعة التي يزخر بها هذا التراث ، وهو «معجم مقاييس اللغة» الذي يعمل الأستاذ منذ سنوات على تقديمه للمكتبة العربية في سبعة أجزاء بعد طول رقاد في ظلمات المخطوطات ، والكتاب بذلك جدير ، فهو يعد بحق مفخرة من مفاخر الفكر العربي .

أما مؤلف الكتاب فهو ابن فارس الرازي ، أبو الحسين أحمد ، صاحب «المجمل» و «الصاحبي» ، وأحد أساطين النهضة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .

والأستاذ عبد السلام هارون يحدثنا أن كتب التراجم «لم تعين تاريخاً لولادة أبي الحسين» وقد رجعت إلى ما تحت يدي من مصادر فوجدتها — مع الأسف — قد أغفلت ذلك تماماً ، ولكني — بعد شيء من الجهد ليس باليسير — عثرت على تاريخ يؤرخ مولده في «الديباج المذهب» لابن فرحون ؛ إذ يقول في ترجمته :

«كان أديباً شاعراً ، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين (كذا .. وهو خطأ مطبعي ، صوابه وثلاثمائة) ، و... سنة ست وقيل ثمان ومائتين .. »

وقد ترجم ابن فرحون لابن فارس باعتباره فقيهاً مالكياً ، وأكبر الظن أن الأستاذ الناشر لم يسلك هذا المصدر في عداد المصادر التي اعتمد عليها في التقديم للكتاب .

وقد اضطرب صاحبنا أبو الحسين في كثير من البلاد الإسلامية ، ثم استقر به المقام — إلى حين — في «همذان» حيث اتصل بابن العميد ، وتتلمذ له فيها البديع «فأخذ عنه جميع ما عنده واستنفد علمه واستنزف بحره» كما يقول صاحب «اليتيمة» .

ولكن المقام لم يطل بصاحبنا في «همذان» فقد ضاق بها أو ضاقت به ، فما إن دعاه — إلى مدينة «الري» — أبو طالب بن فخر الدولة البويهي ، ليقرأ عليه ، حتى لبى الدعوة مسرعاً ، وقد صور لنا ضيقه بهمذان وسخطه عليها في أبيات ساخرة مريرة ، إذ يقول :

سقى همذانَ الغيثُ لستُ بقائل
سوى ذا وفي الأحشاء نارٌ تضرّمُ !
ومالي لا أصفى الدعاء لبلدة
أفدتُ بها نسيان ما كنت أعلمُ !
نسيت الذي أحسنته غير أنني
مدين وما في جوف بيتيَ درهمُ !

* * *

وبالري قضى أبو الحسين بقية حياته ، وقد تحول إلى مذهب مالك بعد أن كان شافعياً حاذقاً ، لا لشيء إلا لأن

« الرّى » ، وهى — كما يقول الأنبارى — « أجمع البلاد للمقالات والاختلافات فى المذاهب على تضادها وكثرتها » ، كانت تخلو من أتباع لمالك بن أنس . قال ابن فارس :

« دخلتنى الحمية لهذا الإمام (يعنى مالكا) المقبول على جميع الألسنة أن يخلو مثل هذا البلد ، يعنى الرّى ، عن مذهبه ، فعمّرت مشهد الانتساب إليه حتى يكمل لهذا البلد فخره » .

وبالرى تلمذ له الصاحب بن عباد الذى شهد لشيخه بقوله : « شيخنا أبو الحسين ممن رُزق حسن التصنيف وأمن فيه من التصحيف » .

ولقد كان ابن فارس — إلى جانب تفقهه وإمامته فى اللغة والنحو — شاعراً ظريفاً ، يقرض الشعر فكهاً سهلاً خفيفاً وقعه على الأذن والقلب ، لجمع — كما يقول الثعالبى بحق — بين « إتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء » ، ومن شعره :

قد قال فيما مضى حكيم   ما المرء إلا بأصغريه
فقلت قول امرئ لبيب   ما المرء إلا بدرهميه !

ويقول وكأنه يخاطب أبناء هذا الزمان :

إذا كنت فى حاجة مرسلاً   وأنت بها كلف مغرم
فأرسل حكيماً ولا توصه   وذاك الحكيم هو الدرهم !

ويقول مصوراً لنا ذلك الحظ العاثر الذى يلحق دائماً بالعلماء والأدباء كأنه ضربة لازب :

وصاحب لى أتانى يستشير وقد
أراد فى جنبات الأرض مضطرباً
قلت اطلب أىّ شىء شئت واسع ورِد
منه الموارد إلا العلم والأدبا !

وقد أورد الأستاذ هارون فى الصفحة الثامنة من مقدمته للجزء الأول من كتاب « المقاييس » هذا البيت :

ونفسك فز بها إن خفت ضيماً
وخلّ الدار تنعى من بكاها

وأكبر الظن أن الدار لا تنعى من بكاها وإنما تنعى من بناها ، وقد نقل الأستاذ البيت محرفاً عن طبعة دار المأمون لمعجم ياقوت ، مع أن القائمين على أمر هذا المعجم قد صوبوا البيت فى قائمة الأخطاء المطبعية بنهاية الجزء الرابع .

ولقد كان أبو الحسين قبل هذا كله أو بعد هذا كله ، يتمتع بقسط وافر من حرية التفكير ، وقد قدمت لك فى مقال لى بعنوان « كم ترك الأول للآخر »[1] رسالة له بعث بها إلى أبى عمرو محمد بن سعيد الكاتب ، ورواها لنا الثعالبى فى « يتيمة الدهر » ، يثور فيها على وثنية التفكير — إن صح هذا التعبير — وأعنى ذلك التقديس الأعمى لما ورد عن الماضين ، مظن أوهان ، وإنها حقاً لوثيقة رائعة من وثائق النقد الأدبى الحر عند العرب فى القرن الرابع الهجرى .

***

وبعد حياة مديدة مثمرة توفى أبو الحسين بمدينة الرى ودفن فى محلة بها تدعى المحمدية مقابل مشهد القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ، وقد عرض علينا الأستاذ الناشر خلاف المؤرخين فى سنة وفاته ، ومما نسبه إلى ابن خلكان قوله (ص ٩ من المقدمة) :

« وذكر ابن خلكان أنه توفى سنة (٣٧٥) بالمحمدية .

« وقيل إنه توفى سنة (٣٩٠) ذكر ذلك ابن خلكان أيضاً » .

وهذه العبارة التى أوردها الناشر تشعر باضطراب ابن خلكان وخلطه ، مع أن رواية « الوفيات » لا تعطينا هذا الخلط ، إذ يقول ابن خلكان :

« توفى سنة تسعين وثلاثمائة رحمه الله تعالى بالرى ، ودفن مقابل مشهد القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ، وقيل إنه توفى فى صفر سنة خمس وسبعين وثلاثمائة بالمحمدية والأول أشهر » فعبارة ابن خلكان هذه لا تشعر بالخلط الذى يتبادر إلى ذهن القارئ مما نسبه إليه الأستاذ الناشر . ومهما يكن من شىء ، فكلا التاريخين مرفوض إذ وجد ياقوت الحموى خط يد أبى الحسين على كتابه « الفصيح » ، وقد كتبه عام ٣٩١ هجرية ، والحق أن وفاته كانت فى شهر صفر عام ٣٩٥ هـ — ديسمبر ١٠٠٤ م كما رجح كثير من المؤرخين ؛ قال السيوطى فى (بغية الوعاة) : « قال الذهبى وهو أصح ما قيل فى وفاته » .

***

(١) الثقافة العدد ٥٢٨ .

أما كتاب أبي الحسين « معجم مقاييس اللغة » الذى نحدثك عنه اليوم فهو — كما يقول ياقوت — « كتاب جليل لم يصنف مثله » وقد وضعه ابن فارس فى أخريات حياته فركز فيه ثقافته اللغوية ، فجاء الكتاب فتحاً جديداً فى معاجم اللغة ، بذّ به الأولين وأعجز الآخرين ؛ فأصبح أبو الحسين — كما يقول ابن خلكان بحق — « إماماً فى علوم شتى وخصوصاً اللغة فإنه أتقنها » .

والكتاب محاولة ناجحة فريدة لإرجاع مفردات كل مادة من مواد اللغة إلى معنى أو معان تشترك فيها هذه المفردات ، قال الأستاذ الناشر (ص ٣٣ من المقدمة) :

« وقد انفرد من بين اللغويين بهذا التأليف لم يسبقه أحد ولم يخلفه أحد ، وأرى صاحب الفضل فى الإيحاء إليه بهذه الفكرة العبقرية هو الإمام الجليل أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ؛ إذ حاول فى كتاب الاشتقاق أن يرد أسماء قبائل العرب وعمائرها وأفخاذها وبطونها وأسماء ساداتها وثنيانها(١) وشعرائها وفرسانها وحكامها إلى أصول لغوية اشتقت منها هذه الأسماء » فجاء ابن فارس — كما يقول الناشر — يطرد فى كتابه « المقاييس » قاعدة الاشتقاق فيما صح لديه من كلام العرب .

و « دائرة المعارف الإسلامية » تطلق على معجم أبى الحسين اسم « كتاب الثلاثة » ، قال « محمد بن شنب » كاتب المقال :

« وقد حاول فيه ابن فارس أن يثبت أن الكلمات التى تتكون من ثلاثة حروف متماثلة ، والتى يمكن أن تتركب حروفها فى ثلاثة أوضاع مختلفة تكون متقاربة فى المعنى » .

والمؤلف نفسه يحدثنا فى مقدمة معجمه عن سبقه اللغويين بهذا التأليف الفريد ، كما يحدثنا عن قيمته العلمية وعن منهجه فى البحث فيقول (ص ٣) :

« قال أحمد : أقول والله التوفيق : إن للغة العرب مقاييس صحيحة وأصولاً تتفرع منها فروع ، وقد ألف الناس فى جوامع اللغة ما ألفوا ، ولم يعربوا فى شىء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس ولا أصل من الأصول ، والذى

(١) الذين يجيئون فى الرتبة الثانية فى السؤدد؟ قال فى القاموس : « والثنيان بالضم الذى بعد السيد » .

أومأنا إليه باب من العلم جليل وله خطر عظيم ، وقد صدرنا كل فصل بأصله الذى يتفرع منه مسائله ، حتى تكون الجملة الموجزة شاملة للتفصيل ، ويكون المجيب عما يُسأل عنه مجيباً عن الباب المبسوط بأوجز لفظ وأقربه » .

ثم هو بعد ذلك يحدثنا عن مصادره فى الدرس ، وهى — كما يقول — كتب مشتهرة عالية ، تحوى أكثر اللغة ، فأعلاها وأشرفها كتاب أبى عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، المسمى (كتاب العين(١)) ، ثم كتابا أبى عبيد القاسم بن سلام « غريب الحديث » و « مصنف الغريب » و (كتاب المنطق) أو (إصلاح المنطق) لابن السكيت ، وكتاب (الجمهرة) لأبى بكر بن دريد ، قال أبو الحسين :

« فهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة ، وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع إليها » .

* * *

وبعد ، فلا يسع الباحث المنصف إلا أن يقدر للأستاذ هارون عمله ويشكر له جهده ، وينتظر منه أن يتم هذا العمل الجليل بإخراج بقية أجزاء « المقاييس » الذى يقول فيه الطيب الذكر العلامة أنستاس مارى الكرملى :

إن « اللغوى الذى وضع معجمه مبنياً على المواد ، واحدة واحدة ، وذكر ما لكل مادة من المعنى الخاص بها هو ابن فارس ، فإن سفره الجليل ، الذى لا يمكن أن يقوَّم هو (المقاييس) الذى يجد فيه الباحث كل مايتمناه من خصائص الأصول وتراكيبها الأصلية » .

والله نسأل أن يمين الأستاذ الناشر ويوفقه لإخراج بقية هذا الكتاب ، وغير هذا الكتاب ، مما يعمل على إحيائه وتقديمه للقراء ، وأن يجزيه عن لغة الضاد خير الجزاء .

سعد محمد حسن

المدرس بوزارة المعارف

(١) أكبر الظن أن كتاب « العين » — وهو أول المعاجم اللغوية — قد وضع الخليل فكرته أو شيئاً من مواده ، ثم أتمه بعده وأذاعه ونشره تلميذه الليث بن نصر بن سيار الخراسانى ، وقيل إنه ليس من عمل الليث أيضاً ، وقد انتقصه ابن جنى فى « الخصائص » قائلا : « أما كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد مالا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلا عن نفسه » راجع فى هذا الصدد « كشف الظنون » لحاجى خليفة جزء ٢ ص ٢٨٩ وما بعدها طبع الأستانة ١٣١٠ .

معنى الحيـــــاة

للأديب جلال أحمد أمين

هل استطعنا إلا أن نهب الأشياء من تقديرنا ، ونهبها من حبنا بمقدار ما تهبنا من السعادة ؟ وهل هي حقاً نظرة عادلة إلى الأشياء والحياة ؟ أن ننظر إليها من وراء أنفسنا ومن وراء مصالحنا ؟.

هي نظرة كنظرة ذلك القاضي الذي حكمت نفسه بحكم رآه عادلاً ، ويريد القانون شيئاً غير ما أرادته نفسه ، وهو مقيد بقانونه ، لا يملك إلا أن يسير حكمه معه ، ولا يملك إلا أن يضحي بنظرته تلك التي يراها عادلة .

ونحن في نظرتنا إلى الأشياء مقيدون بقانون ، هو القانون الذي تفرضه علينا مصالحنا ، وتختفي وراء ذلك القانون الحكمة ، ويختفي وراءه العدل ، فلا يظهر إلا الصالح وبمقدار ما تهبنا الحياة يكون حكمنا عليها .

فنحن حقاً إذاً نقدر الأشياء ونهبها من حبنا ونخلع عليها من المعاني ، بمقدار ما تهبنا من السعادة وما تشبع من مصالحنا . فهل استطعنا أن ننظر إلى الأشياء كأشياء مجردة بعيدة ، نقرب منها عقولنا ونطرد عنها الشهوات والصالح ؟ وهل استطعنا أن ننظر إلى الحياة كحياة مجردة ، فتكون نظرتنا إليها دائماً حكيمة وواحدة ، لا تختلف باختلاف الأشخاص والأهواء ؟ .

لا أحسب رجلاً أراد أن يصل إلى سابح في الماء فلم يسبح بدوره ، فهل ترانا نستطيع أن نصل إلى التجرد دون أن نتجرد ؟ .

لن نستطيع في يوم أن نصل إلى حقيقة الحياة المجردة إلا مجردين من أهوائنا وشهواتنا ومصالحنا ، وهذا أعسر مما تصور ، وأهواؤنا معنا في كل مكان ، وشهواتنا غرائز فينا ، ولا عاش إنسان إلا وله في حياته مصالح ؛ فلنحتفظ إذاً بأقل ما يمكن من الأهواء ، وأقل ما يمكن من الشهوات والصالح ، ولنسبح إلى حقيقة الحياة المجردة ومعناها المجرد ، فهل نجد لها مهما سبحنا إليها متجردين ، معنًى ، وهل نصل إلى حقيقة ؟.

وإنما هو بحر هائل يعجزنا فيه أن نصل إلى شيء ، انعدمت فيه المعاني وانعدمت الحقائق ، وإنما هو ماء في كل جهة ، وترانا نعود مُتعبين منهوكين دون أن نبلغ للحياة المجردة معنى ، ولا نبلغ لها حقيقة ، وإذا بنا نصل إلى شاطئنا الذي بدأنا منه .. وإذا بنا نُصدم صدمة عنيفة تحطم لنا ثقتنا في عقولنا وثقتنا في حكمتنا ، فإذا بنا على هذا الشاطئ الذي بدأنا منه نجد المعنى ونجد الحقيقة ، ذلك أننا تجردنا من المعنى والحقيقة قبل أن ننزل لنبحث عنهما .. لقد تجردنا قبل أن ننزل إلى البحر من الأهواء والشهوات والصالح ! .

• • •

إن ذلك الذي نزل يسبح باحثاً عن الحقيقة المجردة للحياة ، قد تجرد من الحقيقة قبل أن يسبح ، وذلك الذي عاش حياته على شاطئ الحياة دون أن يكلف نفسه أو بدنه عناء البحث ، لهو أقرب إلى معناها من ذلك الذي نزل إلى بحرها المضطرب يبحث عن المعنى فأتعب نفسه ولم يصل إلى شيء .

جلال أحمد أمين

حفل الآلام :

يا ليـــل !..

يا ليل !.. طلت .. وطال فيك ثواء !
وتُخطئ الصباح إلى دجاك بطاء !

أنا ذلك الثاوي الطويل !.. فهل تُرى
سيطول لي يا ليل فيك بقاء ؟!

يا ليل في صدري ظلامك مسرح
لـيلال عمّ صبحها الظلماء ..

تخشى إذا رأت الضياء فتختفي ..
وتعيث حين يجنها الإمساء !

في السعي كالخفاش .. وهي تعابث
رقطاء .. ما لمضاضها إبراء !

يا ليل !.. يا أسد ليّ !.. وأنت في
صالح الضّيق نسامة ربداء !

ترمي سدولك بالهموم .. وبينها
أنا مشرف حالت به الأعـــداء !

نفسٌ موزعة ! وقلب مدنف !
وحشاشة عصفت بهـــا الأنواء !

ومهجة ... لم تبق غير صبابة
فيها : تنازعها بقى وفنـــاء !!

أنا ؟؟ هل أنا يا ليل غير ذبالة
وسط الرياح مصيرها الإطفاء ؟!

حيٌّ !! بلى !.. لا للحياة .. وإنما
لبشار نحوى ، والمراد : شقاء !!

حي ! أتُقنع بي الحياة مسائلاً —
وضميره الإنكار — : ما الأرزاء ؟!

حيٌّ ؟ لأنني بالدليل خرافة ال
ـموت للعقول ؟ لأنني أشلاء !!

حي مجازاً .. أو أميت ميت ..!
فالموت عندي والحياة ســـواء !

أم كيف تعت بالحيـــاة مجرداً
مما به يتميز الأحيـــاء ؟!

يا ليل !.. أنت أبو الليالي ، أنت (ذو ال
ـقرنين) !.. سبّح باسمك الخلفاء !

يا ليل !.. وابنتك البقى بمخدعي .. !
وعلى فؤادي أختهـــا العـــذراء !

يا قبح ثالثـــة الأثافي ! هـــذه ال
ـزنجيـــة اللعـــوبة الشمـــطاء !

يكمن أنفاسي ، يردن تمـــذباً
بدني ! .. وكل غذائهن دمـــاء !!

لا يرتجرن .. ولا يردن تحصنـــاً
قبـــاتهن مع الأديب بغـــاء !!

يا ليل !.. قد طال الحصـــار على فتى
هو في دجـــاك النقطة البيضـــاء !

يا ليل !.. قد طال الحصـــار على فتى
مالت بســـاحة نفســـه الفحشاء !

لفؤاده خفق التـــقى ما شابهـــا
ولطـــرفه تلقـــاءها إغضـــاء !

مضنى ، حليف الحزن ، مكتئب ، كثيـ
ـر الخوف من آثامه ... بكاء !

يا قســـوة الأيام ! يا طغيـــانها .. !
حاشا تطيش .. وكلها نجـــلاء !!

يا قلـ ـب ! يا مسكين ! ويحك أنت من
هدفٍ حواه من النبـــال غشاء !

يا قلب ! إن لم تستطع نبضـــاً فعد
رك واضح ! لم تبق فيـــك دماء !

قد ما أشقـــاك يا مسكيـــن في
دنيـــاك !! وهي جهنم الحمـــراء !!

يا صبح أسفر ! وادع جيشك يُجل لي
ليـــلاً يعـــزّ على دجاه جـــلاء !

ثكلتك أمك يا ضياء ! .. ألا ترى
بالله ما فعـــلت به الظلمـــاء ؟!

ربي !! ولا أدعو سواك ، وأنت بي
أدرى !!.. ولكن الدعاء قضـــاء !

عفواً !.. أتسمعني ؟ حاشاك ! ليس بي
شك .. ولكن الشقـــاء عمـــاء !!

اللهم إما كنت عني راضيـــاً ..!
فعلى حيـــاة الترفين عفـــاء !!

عمر عبد العزيز الأقصري

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٠٨ — الاثنين ٧ من ذى القعدة سنة ١٣٦٩ — ٢١ من أغسطس سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

في السياسة الدولية :

قضية السلام في العالم

للأستاذ أحمد طه السنوسى

... بعد الحرب العالمية الثانية وضع المستر إمرى ريفس كتاباً دعاه « قضية السلام » كان له تأثير بالغ فى حياة العالم ؛ لأنه يبحث قضية تجول فى أذهان الغالبية الساحقة من الناس ، وتستحوذ على لب المفكرين والسياسيين ، والداعين إلى خير الإنسانية ، والمحافظة على سعادة الإنسان وسلامته . على أن الفكرة التى دار عليها محور حديث المستر ريفس فى « قضية السلام » فكرة من البساطة والسهولة بمكان ؛ ذلك لأنه رأى أن تلك الوسائل الكثيرة التى تستخدمها الدول والأمم لقيام السلام وتدعيمه والمحافظة عليه قليلة الجدوى ، ولن تغنى بغير الإخفاق التام تجاه امتناع قيام الحروب ومنافيات السلم فى أرجاء المعمورة .. والمحاولة التى تقوم لا شك مخفقة ، والوسيلة التى يعمد إليها لا ريب خاسرة ؛ لأن هنالك عاملاً سياسياً هاماً كل الأهمية ، يبذل قصارى الجهد لإخفاق الوسائل وضياع المحاولات ، هذا العامل هو السيادة القومية فى بلاد العالم ؛ فهذه الأمة تتمتع بقومية كاملة ؛ وتلك الدولة تتم بسيادة مطلقة ، وهذا يؤدى إلى التمسك والتنزع من جانب كل أمة ، ومن جانب كل دولة ، وكل من هذه وتلك ترمى إلى مصلحتها أول ما ترمى ، ولو طوحت بمصالح الآخرين ، وتسعى لإرضاء شهوة السيادة المطلقة فى نفسها ، ولو كان فى ذلك ذهاب لسطوة غيرها ، وضياع لاعتبار دول العالمين . يترتب على ذلك كما لا يخفى على كل لبيب أن تحدث الفوضى وتنتشر فى علاقات الدول بعضها بالبعض ، فيكون ذلك سبيلاً لقيام الحروب ، وارتباك الأحوال ، وقصم ظهر السلام ...

فالذى ذهب إليه المستر ريفس هو أن تتخلى الدول عن هذه القومية الكاملة والسيادة المطلقة ، وتفوض أمر تلك السيادة والقومية إلى قانون عالمى ، وإلى نظام دولى ؛ فالقانون يعصم ويمسك بالزمام ، ويحد من السيطرة والشرود السياسى ، ويقبض على ناصية الأحوال ، ويوجه العالم إلى برنامجه الموضوع ، وإلى غاية المجموع ، التى هى دون ريب هدف السلام ...

والمعاهدات التي تعقد بين الدول لا تستطيع أن تنظم علاقات الأمم ، وليس في وسعها أن تحافظ على السلام ؛ ذلك لأنها غالباً ما تكون مزعزعة ، وكثيراً ما يدب فيها الوهن ، ويتسرب إليها الضعف ، وتنحسر عنها دقة التنفيذ ؛ فقد تمليها ظروف خاصة ، وقد تضيعها ظروف أخرى ، وقد تقيمها وجهات معينة ، وقد تطوح بها أحداث جديدة ، وقد تهب بها ريح ، ثم تؤازرها أرواح ، وقد تذروها الرياح ...

وعلى هذا ، فهي غير صالحة لأن تكون أساساً للسلم ، أو سبيلاً لتنظيم العلاقات الدولية إلا لوقت خاص أو ظرف معين ، أو في بيئة محدودة ، أو لغرض موقوت .. أما الذي يستطيع أن ينظم العلاقات ويضع برامج وغايات الدول والمحافظة على وبين الأمم ألا ينقطع وألا يتقطع ، وأما الذي في مقدوره أن يقيم دعائم السلام وألا يخل بها ولا يرضى به بديلاً فهو « القانون » .. أجل .. القانون ، ولا شيء غير القانون ...

فالدعوة التي يقمن أن توجه يجب أن تسعى أولاً إلى إقامة حكومة عالمية تقوم على أساس القانون ونظام القانون ، وتدع المعاهدات جانباً ؛ لأن التذرع بها خطل ، والتمسك بها عقيم ، نظراً لما يحوطها من وهن ، وما يلابسها من ظروف ، وما يحف بها من تناقضات وملابسات وتفسيرات ومغالطات ...

ويتمشى ريفس في كتابه مع الرأسمالية حتى يتوصل معها إلى إخفاقها ، ويسير مع الاشتراكية فيفضي بها إلى فشل ذريع ، وينظر إلى الدبلوماسية ويتحقق من عقمها ، ويوجه الدين إلى الوجهة العالمية كما خلق له ، ويصل في النهاية إلى النتيجة التي وضعها وارتآها ، وهي أن مسألة السلم في هذا الزمان رهن بقيام نظام قانوني يستعلي على الدولة القومية ، ويستوجب ذلك منا أن نأخذ من سلطات السيادة في هذه الدول القومية القائمة جانباً لنستقله في الهيئة العالمية أو لنسنده إليها ونكله لها ، أو بالأحرى قيام حكومة عالمية في استطاعتها أن توجه الشئون العالمية طبقاً لقانون عالمي تضعه بسلطتها ويدها ، وأساسه وهدفه السلم الدائم في أرجاء العالم ...

* * *

.. وفكرة الحكومة العالمية فكرة باءت بالخيبة ولاقت كثيراً من النقد وعاصفة من المواجهات ، بل إنها لن تستطيع أن تقوم في الواقع ؛ لأن هذه الحكومة ستخول سلطة تستعلي بها على السلطة الداخلية والسيادة القومية في داخل بلاد العالم ؛ وهذا إن صح أن نتصوره في بعض الدول الصغرى ، فإن الدول الكبرى لا تسلم به بأي حال من الأحوال مهما كانت بداعة الفكرة وجاذبيتها وجدواها ، سواء أكانت هذه الدول شيوعية أم رأسمالية ؛ فهل يستطيع إنسان أن يصدق أن روسيا تسمح بسيادة حكومة على سلطتها الداخلية أو سيادتها الشخصية التي تقوم على أساس الشيوعية ؟.. إن هذا لا يحدث إلا إذا كان أساس الفكرة أن تكون هذه الحكومة حكومة اشتراكية تتعهد بنشر الشيوعية في العالم تحت زعامة موسكو !.

.. وهل نصدق أن بريطانيا توافق على سلطة تستعلي على سلطتها وسيادتها وتوجهها التوجيه الذي تريده ؟.. إن تاريخ بريطانيا ينكر ذلك كل الإنكار ، ويدلنا على وجود نفسية وروح خاصة للشعب البريطاني منذ القديم ، هي المحافظة على حرية الفرد وسيادة القومية الوطنية دون استعلاء أي سلطة أو نفوذ عليها .. ولا نبعد للتاريخ القديم ، فأمامنا الأيام الحاضرة ، وموقف بريطانيا من مشروع شومان Shuman معروف ، فهي ترفضه بالرغم من وجاهته وجدواه في الظروف الحاضرة ؛ لأنه يخلق سلطة فوق سلطتها الداخلية ونفوذها القومي ...

* * *

يقول المستر سمنر ويلز الذي كان وكيلاً لوزارة الخارجية الأمريكية : « ما من حكومة رضيت عن الميثاق كل الرضى ، وقل من الناس من رضي عنه ، ولكن الأكثرية تؤمل أعظم الأمل أن يتم تحسين الميثاق على التدريج ، بحيث تصبح

هيئة الأمم المتحدة أقرب شيء إلى حكومة عالمية متحدة، وتحقق هيمنتها على الديمقراطية الغربية، إذا ما أمكنت المحافظة على السلم فى السنوات الخمس القادمة، وهى فترة الانتقال بعد الحرب الأخيرة، وأنا أومن إيماناً قوياً بأن الهدف الذى يجب أن ترمى إليه الأمم هو أن تصل فى النهاية بمعونة هيئة الأمم المتحدة إلى إقامة حكومة اتحادية عالمية تقوم على القانون وتتمثل فيها المبادئ الحقة للديمقراطية الدولية »[1].

ولكن هذا إن جاز أن نسميه فلا نستطيع إلا أن نقول إنه توفيق فقط، لأن صيغة هيئة الأمم المتحدة لا توجد بها أية ناحية تمثلها الحكومة العالمية إلا من وجوه قليلة، ونحن لا نستطيع أن نسلم أن هيئة الأمم تعدو فى طريق إنشاء حكومة اتحادية عالمية نظراً لاعتبارات خاصة، كحق الاعتراض (الفيتو)، وكشقة الخلاف بين دولها من شيوعية وديمقراطية، وكتشبث الدول الكبرى بالمحافظة قبل كل شيء على مصلحتها الخاصة دون تعديل لبرامجها السياسية تجاه البلاد الصغرى...

• • •

بيد أن المرء حين يستطيع أن يفند ماذهب إليه المستر ريفس فى كتابه « قضية السلام » من أن غاية السلام لا تتحقق فى العالم إلا بقيام حكومة عالمية، بأن هذا الزعم خيالى أكثر منه عملى حين يواجه الحقيقة الواقعة، لا يستطيع أن يطوح بباقى ماذهب إليه، فأهم شيء أن تعدل الدول الكبرى أول ما تعدل هذا التكالب على مصالحها الخاصة دون اعتبار بمصالح الدول الصغرى ودون إنصاف لقضاياها.. إن الكبت والمعاملة السيئة لهذه الدول لن تمكث طويلا ولن تمر عليها الأيام دون أن تحدث لها نتيجة وأثراً، وهذا التغاضى عن قضايا الدول الصغرى وإنصافها من الدول الديمقراطية الكبرى هو العامل الأول الذى مهد لانتشار الجيش الأحمر فى الدول الصغرى بل والدول الكبرى نفسها، وعمل على نجاحه فيما وكل إليه من أعمال وما كلف بنشره من مبادئ، كما كان العامل الهام الذى حدا بالنفوذ الشيوعى أن يتوطد فى البلاد الصغيرة التى تدنو رويداً من المعسكر السوفيتى.. ولا تلومن الدول الديمقراطية إلا نفسها إن رأت أمامها نتائج سيئة ما كانت لتنتظرها فى جو البلاد الصغرى؛ لأنها هى المسئولة أولاً وأخيراً عن هذه النتائج، بل هى التى دفعت إليها من حيث لا تشعر...

إن الدول الديمقراطية يجب قبل أن تقدم على توطيد دعائم السلام أو أن تسعى إليه، أن تضمن الدول الصغرى إلى جانبها تآزرها معها بنفوذها الأدبى والسياسى وما إليه، فإنها بذلك تقيم العالم الديمقراطى بأجمعه تجاه المعسكر الشيوعى الذى لا شك أنه لن يناوئ تجاه هذه الكتلة المتضخمة، مع التمشى معه بكل صنوف السياسة والكياسة والديبلوماسية والتوفيق حتى يهدأ ويستكين، ويجد أن أهم ما يعتمد عليه وهو الطابور الخامس فى الخارج قد وهن طبقاً لتحسن العلاقات بين الدول الكبرى الرأسمالية وبين سواها من الدول الوسطى والصغرى فى عالم الشرق!..

أحمد طه الشرمى

---

(١) عن نسخة عربية لأحد أعداد الريدرز دايجست.

جناية التراث اليونانى

على الفكر العربى

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكى

هدفت فرق القرامطة والباطنية من بين فرق الشيعة إلى التشهير بشعائر الإسلام وتعاليمه ، وتهديد أركان الدولة العربية . فهى لذلك تعد بمثابة أوكار سرية لاذ بها العلويون المضطهدون ، والفارسيون الساخطون ؛ فاختلطت فيها أهواء العلويين فى طلب الحكم بنوازع الفارسيين فى بعث تراثهم الدينى ، وإحياء حضارتهم ، حتى صارت مرتعاً خصيباً لتذمر العام ، نفث فى بعض النفوس بمبادئ متطرفة ضالة ، حضت على الاتجاه إلى أساليب العنف ، واستخدام قوى الفكر فى تنفيذ مآربها الخطرة على المجتمع العربى .

ويرجع اضطهاد العلويين ، وسخط الفارسيين إلى عهد يمعد فى القدم إلى صدر الدولة الأموية ، التى نظر خلفاؤها إلى العلويين على أنهم ثوار يتآمرون على قلب حكمهم ، فأباحوا دمهم ، ولم يتورعوا عن قتل الحسين بن على ، والفتك بآل بيت رسول الله فى ساحة كربلاء ، كما أخذوا فى قتل كل من تسول له نفسه طلب الحكم لآل على بن أبى طالب ، وأخمدوا ثورات الشيعة بكل غلظة ووحشية ، مما دعا رجال الشيعة تحت ضغط هذا الإرهاب الهمجى إلى تحويل حركتهم التى تسعى لتولى خلافة المسلمين ، إلى دعاية خفية مستترة لتأمن شر الحكام ، ولم يرحم العلويين من هذا الإرهاب المتواصل إلا إعلان الفارسيين الحانقين الثورة على بنى أمية ، الذين أذلوا كرامتهم ، وحطوا من قدرهم ، وأبعدوهم عن المناصب الهامة فى الدولة ، فكرهوا الحياة فى ظل خلافتهم ، وقام أبو مسلم الخراسانى بثورته المعروفة ، فقربت قسوة الخلفاء الأمويين بين العلويين والفارسيين ، وتعاونا معاً فى محاربتهم ، وإن كان غرض كل من الفئتين يختلف عن الآخر فى هـذه الحادثة ، إلا أن ذلك لم يقف دون توحيد جهودهما فى سبيل إزالة سلطان دولتهم الطاغية الباغية .

ولئن كان غرض العلويين من مقاومة بنى أمية هو تولى خلافة المسلمين ، فإن غرض الفارسيين الظاهر فى ذلك الوقت ، هو طلب حسن الرعاية ، وحفظ الكرامة الفارسية ومساواة الفارسيين بغيرهم من الشعوب الإسلامية . وكانت رغبة الفارسيين فى تحقيق مساواتهم بالعرب على الخصوص من القوة بحيث أشعلت نيران ثورة أبى مسلم الخراسانى ، الذى تعمق فى فهم مختلف التيارات التى تتضارب فى الحياة العربية ، فاستعان لإنجاح ثورته بدعوة عريضة ، تطلب الخلافة لنسل صاحب الرسالة الإسلامية ، فلاقت رواجاً واسعاً بين جميع طوائف المسلمين ، إذ كيف يتولى أمر الحكم فى الإسلام من لا يتصل بصلة رحم برسول الله ، فوجدت هذه الثورة تأييداً عاماً ، وساعد على انتشارها فى ربوع العالم الإسلامى بنو العباس وهم من أقرباء نبى الله ، وكانوا يدعون سراً لتوليهم مناصب الحكم ، وارتاح إليها الفارسيون الذين ذاقوا مر الهوان من تعسف الاستبداد الأموى ، واغتبط لها الشيعة لأنهم أدركوا أن ساعة تولى أئمتهم خلافة المسلمين قد حانت .

وما إن طوح أبو مسلم الخراسانى بالدولة الأموية ، حتى تردد العلويون فى تربع كراسى الحكم ، لأن الأهوال التى عانوها أمراؤهم علمتهم الحذر والحيطة . ولما آلت الخلافة إلى العباسيين ، سخطوا عليهم ، ورأوا أنهم أولى منهم بها ، وقاموا بثورات عديدة فى وجه خلفاء بنى العباس ، ولكن قضى عليها بسهولة ، واضطر العلويون إلى أن يعودوا إلى أساليبهم السرية ، بينما لم يهتم الفارسيون كثيراً بتولى

العباسيين دون العلويين ، لأن العباسيين والعلويين جميعاً من أقرباء رسول الله ، وكل ما يطمعون فيه هو أن يحظوا بالمساواة بالعرب ، ويعاملوا بالحسنى ، ويرد إليهم اعتبارهم وهيبتهم ، ويتحرروا من ضغط الحكم الأموى . وقد كفل العباسيون لهم تحقيق هذه المطالب . ولكنهم بغتوا بعد حين بمصرع أبي مسلم الخراساني على يد أبي جعفر المنصور ، فغضب أهل خراسان ، وقامت عدة ثورات متتالية ، أخطرها ثورة سنباذ ، الذى أراد أن يكتسح المملكة العربية ، حتى يصل إلى الكعبة الشريفة ويحطمها انتقاماً لمقتل أبي مسلم ! ولكن جيوش المنصور أوقفته عند حده . ولم يكد ينسى الفارسيون هذه الفاجعة ، حتى فوجئوا بنكبة البرامكة فى عهد هارون الرشيد ، فجددت هذه الحادثة الأليمة الأشجان وجعلتهم لا يطمئنون إلى العرب ، سواء أكانوا أمويين أو عباسيين . وأخذت تنتاب نفوسهم عواطف تطلب الثأر ، وتراود عقولهم أفكار تسمى بالانتقام . حتى إن يعقوب بن الليث بعد أن استولى على فارس ، عزم على أن ينتقم لأبي مسلم ، ويثأر لآل برمك ، ويخلع الخليفة المتوكل العباسى ، ولكن المنية وافته قبل أن يشرع فى هذا الأمر .

وهكذا ضاق العلويون ذرعاً بحكم الأمويين والعباسيين معاً ، وكره الفارسيون طغيان الأمويين ، وارتابوا فى دوام حسن رعاية العباسيين لهم . وكما عضدوا العلويين صراحة فى قلب الحكم الأموى ، ساعدوهم سراً فى نشر دعوتهم ضد خلافة بنى العباس ، حتى لا ينكشف أمرهم فيتعرضوا للاضطهاد أو يستهدفوا للأخطار . وكانت فرق الشيعة هى الخلايا السرية ، التى كانت تجمع بين عرب ساخطين على الحكام لاعتقادهم أن أئمة آل على أحق الخلق بخلافة المسلمين ، وبين فرق أذهلهم الفتح العربى ، فتقبلوا تعاليم الإسلام وهم فى غيبوبة لم يفيقوا منها إلا بعد أن اشتدت قوة الأمويين عليهم ، وطال أمد احتقارهم لجنسهم واعتزازهم بعنصرهم العربى . وما إن زالت خلافة بنى أمية وجاء العباسيون حتى تيسرت لهم سبل الاشتراك فى الحكم ، وتولوا أعلى مناصب الدولة وأهمها . فأخذت روحهم المعنوية تنشط تدريجياً ، وتقوى شوكتهم شيئاً فشيئاً . فأحسوا أخيراً أنهم محكومون بعد أن كانوا حاكمين ، وأن حضاراتهم وثقافتهم ودياناتهم تلاشت ، وطغت عليها الحضارة العربية والثقافة الإسلامية ، فلم يستطيعوا مقاومة انفعالاتهم القومية فى استعادة مجدهم البائد وبعث ثقافاتهم الزائلة وإحياء دياناتهم من جديد .

وهكذا أخذت تقوى نزعة الفارسيين المتطرفين نحو تحقيق استقلال الوطن الإيرانى عن الإمبراطورية العربية ، خلف صورة رغبة الانتقام من الحكام العرب والسلطان الإسلامى ، وأخذت تتجدد آمالهم فى بعث التراث الإيرانى ، فى صورة الطعن فى الإسلام ، ونقد طقوسه ، ومحاربة تعاليمه فى تعابير إيرانية هلينية . وأصبح الفارسيون الوجه الأول لسياسة الفرق الهدامة فى الإسلام . فأخذوا فى تأييد دعوة الشيعة فى طلب إمامة المسلمين بالأفكار الفارسية ، وطالبوا لأئمتهم الحكم كستار لاستعادة نفوذ الفرس على إيران ، كما اندسوا بين صفوف العرب ، وادعوا أنهم من نسل على ، وطالبوا بالخلافة لأنفسهم . وبدأت فرق القرامطة فى سوريا والبحرين والعراق ، وفرق الباطنية فى فارس تنفذ سياستهم ، فلم تترك وسيلة من وسائل الثورة على العرب والإسلام لم تسلكها ، فلم تتوان فى استخدام العنف ماوجدت إلى ذلك سبيلا ، كما برعت فى استغلال الفلسفة والأساليب العقلية لنشر تعاليمها بين المسلمين .

ويبدو العنف فى جرأة القرامطة التى بلغت حد الاستخفاف بالسلطات الحاكمة ، فلم تتورع عن السطو على البصرة والكوفة وغيرها من البلاد العربية ليلاً ، ولم يشق عليها سلب الأموال وقتل الأنفس وسبى النساء ، بل إنهم لم يحجموا عن إيذاء الحجاج فى ذهابهم وإيابهم ، وسولت لهم أنفسهم أخيراً غزو مكة المكرمة يوم التروية ، وقلعوا الحجر الأسود ، ونهبوا كسوة الكعبة الشريفة ، وحققوا جزءاً من الحلم الذى كان يراود سنباذ فى تحطيم الكعبة ، وكشفوا عن حقدهم الدفين لأقدس رمز يعتز به الإسلام . ولم تختلف طرق الباطنية الخفية عن طرق القرامطة ، فقد كانوا يعمدون للاغتيال ، وقطع الطرق ، واغتصاب الأموال ،

كما كانوا يستولون على القلاع الحصينة ، ويهددون سلطان الخلفاء . وجميع هذه الأعمال تنطق بالتحدي السافر للخلافة الإسلامية ، وتفصح عن رغبات قومية مكبوتة ، نفس عنها بأساليب فوضوية أثيمة ، تنم عن عجز يقصر دون الوصول إلى الحكم والسلطان بالطرق المشروعة ، فلجأت إلى العنف والثورة .

إلا أن أساليبهم العقلية كانت أخطر بكثير على العقلية العربية والمجتمع الإسلامي ، من خطر الفتن التي كان يثيرها القرامطة والباطنية من حين لآخر ضد الحكم العربي ، لأنها كانت تحاول أن تستميل النفوس ، بالغش والخداع ، وتثير الشك والحيرة في العقول ، وتزيغ قلوب المسلمين ، وتقضى على الائتلاف الديني الذي تقوم عليه الحضارة العربية ، لتدفع المسلمين للانضمام إلى فرقتهم ، وتحثهم على اعتناق أفكارهم المناوئة للإسلام وتحضهم على نشر دعوتهم في ربوع العالم الإسلامي . ولقد لجأت كما لجأ كل مفكر حاول أن يحارب الإسلام إلى الفلسفة اليونانية ، واتخذت من مناهجها المنطقية الاستدلالية معولا لهدم الأسس التي تشيد عليها شعائر الإسلام ومبادئه . كما استعانت بطرق ابن الراوندي في إظهار لا معقولية تعاليم الدين الإسلامي ، واقتنعت بعقيدة الرازي في تفضيل الفلسفة على الدين ، لتجعل كلمة الفلسفة والعقل تعلو على كلمة الدين والوحي .

ولدعاة القرامطة والباطنية طرق غريبة في ترويج مذاهبهم ، إذ يندس هؤلاء الدعاة بين الطبقات الدنيا من الشعب ، ويلقون عليهم أنواعاً كثيرة من الأسئلة المحرجة ، التي يشق فهمها على الجهلاء ، وتحير ألباب السذج ، الذين يغيب عنهم مكر هؤلاء الدعاة ، الذين يقصدون من وراء هذه الأسئلة أن يظهروا لهم ما هم عليه من جهل ، ويبينوا لهم سعة أفق أئمتهم ، ومعرفتهم بأحوال الكون ، واطلاعهم على أسرار تعاليم الإسلام وخفايا أحكامه ، بأن يطالبوهم مثلاً بتفسير ظاهرة ثبات أهداب الإنسان على جفنيه ، وثباتها على جفن واحد فقط عند سائر الحيوانات ، أو يطالبوهم بتعليل غسل جميع البدن بسبب خروج قطرة منى ، وغسل أجزاء منه فقط بسبب البول ، بالرغم من أنهما يخرجان من موضع واحد ، أو يطالبوهم بتبرير عدم قطع فرج الزاني كما تقطع يد السارق ، حيث إنهما جميعاً آلة الجناية . فإذا ما عجز هؤلاء العوام عن الإجابة ، يخبرونهم بأن من يلتحق بفرقهم يطلع على كل هذه الأسرار من أئمتهم . ولا ريب أن هذا النوع من الأسئلة يربك العقول الساذجة البسيطة ، ويبلبل أفكارها ويدعوها لطلب معرفة ما يبدو في الكون من غموض ، وما في الإسلام من تناقض ، حتى لا تبقى في حيرة مقلقة ، لا تجد ما يبرر تغاير الظاهرات الطبيعية ، ولا تعثر على ما يوضح لا منطقية أصول الإسلام من عبادات وشرائع ، فتسعى للانضمام إلى سلك هذه الفرق ، لتعرف ما يغيب عنها من أحوال العالم ، وتدرك ما يستعصى فهمه في الشريعة الإسلامية ، من كبار أئمة القرامطة والباطنية ، الذين كشف الله تعالى لهم سره ، ومنحهم القدرة على فهم غوامض الكون ، ويسر لهم تأويل آياته ، حتى تزول عنهم شكوكهم ، وتذهب حيرتهم ، وينعموا بالاستقرار العقلي والديني .

ولا يكشف الدعاة عن العلم الذي استقوه من الأئمة ، إلا بعد أن يبذل المسترشد العهد بألا يفشى تعاليمهم ، ويدفع قدراً محترماً من المال . ويبدأ الدعاة تلقين المسترشد بمدح الشريعة الإسلامية ، وإعلان فضائل رسول الله ، حتى يكسبوا ثقته ، ويرتاح إليهم ، ثم يستدرجونه عن طريق تأويل الآيات القرآنية تأويلاً يتفق مع نزعاتهم وأغراضهم ، إلى إسقاط فرائض العبادات ، ويذكرون له أنها شرائع وضعها الأنبياء حسب حاجة الدهماء ، وأنها لا تليق بخاصة القوم من أصحاب العقول الكبيرة ، ثم يرقونه إلى تحقير الكتب المقدسة من توراة وإنجيل وقرآن لتعارض شرائعها ، ويدفعونه إلى الطعن في النبوة بأن يبينوا له كيف أن الأنبياء يكذب بعضهم بعضاً ، وينسخ كل منهم ما جاء به الآخر ، ويوهمونه بأن الوحي ما هو إلا صفاء النفس ، ويحرضونه على إنكار المعجزات ، لأنها تقوم على أساس غير عقلي ، ويشوقونه إلى الفلسفة ، ويرفعون منزلة الفلاسفة في نظره إلى مرتبة تعلو

مرتبة أنبياء الشعراء والرعاع ، لأنهم رسل الخاصة ، ثم يلقنونه آخر الأمر مفاهيم الفلسفية ، وهى مزيج مشوه من أفكار عنصرية وأفلاطونية محدثة تستعير تعابير إيرانية وتحاول أن تضفى عليها مسحة إسلامية .

وبهذه الطرق التى لا يشك أحد فى أنها تطبق تطبيقاً عملياً آراء ابن الراوندى والرازى ، وتعتمد على أساليبهما الجدلية ، استطاعت أن تشيع الزيغ فى قلوب المسلمين ، وتضعف من وازعهم الروحى ، وتملأ النفوس بوسوسة تفت فى عضد الائتلاف الدينى الذى تقوم عليه الخلافة الإسلامية ، وأن تعد العقول لتقبل مجموعة من المذاهب الهلينية معبر عنها بألفاظ إيرانية ، لم تجد المحاولات فى صبغتها بصبغة إسلامية ، وما كنا لنستطيع أن نعيب على مثل هذه الفلسفات لو نجحت فى مزج أفكار اليونان بأفكار إيران ومبادئ الإسلام مزجاً كيفياً ، وابتكرت مذاهب جديدة تنم عن نزعة تقدمية تنشد رقى الفكر الإنسانى وازدهار الحضارة — وإنما إخفاق هذه الفرق فى إدماج هذه الأفكار فى بعضها يحثنا على التنديد بها ؛ وإن دل على شىء فإنما يدل على أن الأفكار غير المتجانسة لا سبيل لاتحادها ، بل إن السماح بتدخل التراث اليونانى فى حياة العرب الدينية ، أدى إلى أنه تبنى الميول المنحرفة ، واحتضن النزعات المتطرفة ، وزود العقول المتنورة والنفوس المتذمرة بأساليب منطقية ، دعت إلى ضرب من ضروب الإلحاد المتحلل ، الذى أفسد مزاج كثير من المسلمين الناشئين ، وعطلهم عن التفكير القويم الذى ينمى الاستعدادات ، ويقوى المواهب ؛ هذا فضلاً عن أن الدور الخطير الذى لعبته الفلسفة اليونانية فى ذلك النضال الحاد الذى قام بين المسلمين وأتباع القرامطة والباطنية ، قد منع امتزاج الثقافات الفارسية ، التى أرادت أن تشق طريقها فى العالم الإسلامى ، بالثقافة العربية ، لأن الفلسفة مدت كلا من الثقافتين بأسلحة عقلية ، أخذتا تراشقان بها ، حتى بعدت الشقة بينهما ، وأصبح من المحال التوفيق بينهما ، بالرغم من أن مقوماتهما متجانسة ، وروحهما واحدة ، وأن بينهما وبين التراث اليونانى تفاوتاً عميقاً فى الاتجاهات ، ومفارقات دقيقة فى النزعات ؛ ومع ذلك لم تسلم العقول الإيرانية من الطعن فى الإسلام متذرعة بالتراث اليونانى ، وإن كان للظروف السياسية والاجتماعية دخل كبير فى هذا الطعن ؛ إلا أن الفلسفة الإغريقية وطدت الاتجاهات الضارة فى النفوس ، ودعمت الأفكار الهدامة فى العقول ، وبررت محاربة الإسلام تبريراً منطقياً ، كما ساعد على تنفير العقول العربية من الثقافة الفارسية ، حتى استحكم الخلاف بينهما ، واستحال تكوين ثقافة روحية مبتكرة ، تجمع بين مبادئ الإسلام وتراث إيران ، مع أن التاريخ يشهد بأن تزاوج الثقافات المتجانسة ينبعث منه نبع من الفكر الخصيب القادر على الخلق والإبداع .

عبد العزيز محمد الزكى

طرائف عن القمر

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

الحديث عن القمر حديث حلو جميل، يحمل طابع الطرافة والمتعة، وسأحاول فيما يلي أن أعرض على القارئ بعضاً من الطرائف عن هذا التابع الفضي الذي كثيراً ما تغنى به الشعراء وناجاه العشاق.

• • •

رحلة في ثمانية أشهر:

إن القمر هو الوحيد من بين جميع جاراتنا السماوية القريب منا ... ولكن هل هو قريب حقاً ؟؟

دعنا نقدر الأمر ... لنتصور أننا أنشأنا خطاً حديدياً بين الأرض والقمر فكم ترى يلزم لقطار سريع لكي يقطع المسافة بين كوكبنا وذلك التابع ؟؟... إنه يحتاج إلى مائتين وأربعين يوماً أي حوالي ثمانية أشهر لقطع تلك الرحلة إذا سار بسرعة ألف ميل في اليوم ...!!

كرة قدم قطرها ٢٠٠٠ ميل:

ويبدو القمر للعين العارية بحجم كرة القدم .. ولكن يا لها من كرة ..!! إن قطرها يبلغ حوالي ألفين من الأميال أي ما يعادل المسافة بين بورسعيد ولندن ... فإذا أنت رأيت بعين الخيال كرة ضخمة معلقة في الفضاء يساوي قطرها المسافة بين بورسعيد ولندن فأنت إذاً قد شاهدت جسماً يقارب في حجمه حجم القمر ...!!

عالم ميت:

والآن دعنا نتساءل: هل يوجد فوق القمر أناس وحيوانات وأشجار ونباتات، أم هو عالم ميت جدب لا حياة فيه ؟؟..

لقد تبين للعلماء وثبت لديهم أنه عالم ميت انعدمت فيه أسباب الحياة وصورها، فليس فيه ماء ولا هواء. ومن الصعب أن نتصور مخلوقاً حياً يعيش بغير ماء وحيا بغير هواء.

لا سحاب ولا جو:

وكنتيجة لانعدام الماء والهواء فوق القمر، فليس هناك سحاب ولا جو كهذا الذي يحوطنا والذي يحمينا من حرارة الشمس المحرقة أثناء النهار، ويحول دون فقدان الأرض لحرارتها أثناء الليل.

ففي خلال النهار القمري، والذي يمتد إلى أسبوعين تسقط أشعة الشمس توا على سطح القمر، لا يخفف من حدتها أي حائل جوي، وبذا يكون لها من الأثر ما يفوق أثرها فوق الأرض خمس مرات.

وفي خلال الليل القمري الطويل، والذي يمكث أيضاً أربعة عشر يوما يفقد سطح القمر بسرعة ما جناه من الحرارة أثناء النهار، وتنخفض درجة حرارته إلى حوالي ٢٥٠ تحت الصفر وهي درجة تكفي لتجميد الهواء ..!

أطباق القمر :

وهناك عديد من الفوهات الغائرة فوق سطح القمر . ويعتقد البعض أنها نتيجة لتصادم نيازك هائلة بسطح القمر ، ويعتقد فلكيون آخرون أنها فوهات براكين خامدة .

وإذا نحن نظرنا إلى فوهات البراكين الأرضية لألفينا أنها عادة تماثل في شكلها أكواباً عميقة ، بينما الفوهات الموجودة فوق سطح القمر تشبه أطباقاً ضحلة واسعة ، وأكبر تلك الفوهات ، والتي يطلق عليها اسم « كلافيوس » يبلغ قطرها مائة وثلاثة وعشرين ميلا ، ومع ذلك فعمقها أقل من ميل ..!!

جبال القمر الخالدة :

ولننظر الآن إلى صورة أخرى من صور القمر البديعة ، ألا وهي جباله الخالدة الثابتة على مر الدهور والأزمان ... ما أبدعها وما أروعها تلك الجبال ! إنها ترتفع في الفضاء ارتفاعاً هائلاً يبلغ في بعض الأماكن خمسة أميال ، وما أشبهها بناقورات المواد المنصهرة التي تصعدها البراكين الثائرة ... وإنها لجبال لها صفة الخلود ، لا تتهاوى على مر السنين ولا يأكل منها الدهر ويشرب كما هو الحال في جبالنا الأرضية التي تؤثر فيها عوامل التعرية من جليد وماء وأمطار ورياح ، فهذه العوامل الجوية المتباينة لا وجود لها فوق ذلك التابع ، وبذا فجباله أبدية باقية لا تتعرض لأسباب الانحلال والبلى .

صخور القمر :

وينطبق هذا على سطح القمر كله ، فلا يحدث فيه أقل تغيير مع الزمن ؛ فبينما تتعرض صخرة على سطح كوكبنا إلى آثار الجو من ريح ومطر وعواصف وزوابع ، فتذبل صلابتها وتتهاوى عودها ، ويصيبها الانحلال والبلى بمرور السنين ، نجد أن صخرة قمرية قد تلبث خلال أحقاب عديدة متلاحقة دون أقل تغيير ، اللهم إلا تغير درجة حرارتها ، فتسخن حين تسطع عليها الشمس أثناء النهار وتبرد حين تغيب عنها وتبرد أثناء الليل ..

مرآة ضخمة هائلة :

وإن ضوء القمر الفضي البديع الذي نتمتع به في الليالي القمرية فوق كوكبنا لهو انعكاس لضوء الشمس على سطح القمر ، فهذا التابع جسم غير مضيء بذاته ، ولكنه كمرآة فضية دائرية ضخمة خشنة الملمس يستقبل الإشعاع من المورد الشمسي الهائل ويعكسه ويبعث به إلينا ...

التفاهم بلغة الإشارة :

وكما قلنا من قبل فليس في القمر ماء ولا هواء ، وليست هناك عواصف أو رياح ؛ وعلى ذلك إذا تصورنا أننا نعيش فوق القمر فلن يمكن لأحدنا أن يسمع الآخر لأن الأصوات ليست إلا أمواجاً هوائية ، فعلينا أن نتفاهم إذاً بلغة الإشارة !.

سماء القمر :

وسماء القمر سماء سوداء كالفحم تلمع فيها النجوم بنور ساطع ثابت غير مضطرب .

وقد يتساءل البعض : لماذا لا تبدو السماء زرقاء كما هو الحال في سماء الأرض ؟. إن السر يرجع إلى أن القمر لا يحوطه جو — كما أسلفنا — بينما الأرض محاطة بجو ، وهذا هو العامل الذي يساعد على انتشار الضوء وتشتيته وتحليله ، فتبدو السماء زرقاء للناظرين ..

منظر غروب الشمس :

ومنظر غروب الشمس ، ذلك المنظر الجميل الممتع ، الحبيب إلى نفوس أهل الأرض ، لا وجود له فوق القمر ، لأن ألوان الغروب البديعة ليست إلا نتاجاً من نتاج الجو .

الأرض من القمر :

ولنتصور الآن أننا نعيش فوق القمر . فكيف نرى تبدو لنا الأرض ؟؟.

إن للقمر وجهين أو جانبين أحدهما يبقى دائماً في مواجهة الأرض ، بينما الآخر بعيد عنها ... فإذا خلنا أنفسنا على جانب القمر المواجه للأرض فسنرى أبدع المناظر وأحبها ... سنرى الأرض الأم معلقة في سماء القمر .. ثابتة لا تغير

مكانها ويثيرها ضوء الشمس . وكما اعتدنا أن نفكر في القمر الكتمل ، فعلينا أن نفكر الآن في الأرض عندما تكون بدراً ! فهي تمر في نفس الحلقة من الفصول التي يمر بها القمر حين نراه من الأرض ، ولكن كم هي أكبر وأشد لمعاناً .. ففي خلال الليل القمري حين تتجلى الأرض بدراً تبدو أكبر ثلاث عشرة مرة ونصف مرة من قمرنا الكتمل .. وحيث إن القوة التي تعكس بها الأرض الضوء توازي ست مرات من قوة القمر ! فإن « ضوء الأرض » الكتمل سيبين لنا ثمانين مرة أشد وأكثر بريقاً من ضوء القمر ..!!.

الشمس من القمر :

ويمكن من القمر رؤية اللهب الهائل من الغازات المشتعلة ، وهو ينبعث من الشمس على الدوام ، ذلك اللهب الذي لم يتح لعلماء الفلك رؤيته إلا في اللحظات القليلة من كسوف الشمس . فحين يأتي القمر بالتمام بين الأرض والشمس ، فإنه يمنع عنا ضوء الشمس ويتركنا في ظلام دامس ، ويسمى هذا « كسوف الشمس » ، ولا يستمر هذا الكسوف إلا لدقائق معدودات ، لأن الأرض والقمر يتحركان بسرعة هائلة ، فلا يلبث القمر أن يولي في سيره مفسحاً المجال أمام أشعة الشمس لتأخذ طريقها إلى هذا الكوكب .

خسوف القمر :

وهناك أيضاً خسوف القمر ، ويسبب هذا حين تأتي الأرض بين الشمس والقمر ، فتمنع ضوء الشمس عنه ، وبذا لا يمكن لنا أن نراه من الأرض ، لأنه كما قلنا من قبل جسم غير مضيء بذاته يستمد نوره من الشمس ، وبهذا النور ليس إلا نتاح لنا رؤيته .

الخفة والسرعة فوق القمر :

ولنتحدث الآن عن شيء مدهش عجيب يواجهنا فوق القمر ..

إن الأرض تدور وتدور باستمرار ، ومع ذلك فنحن لا نسقط في الفضاء ، ومرد هذا إلى جاذبية الأرض ، تلك القوة التي تحفظنا في أماكننا على سطح هذا الكوكب ...

وحيث إن القمر أضأل بكثير من الأرض ، فقوة الجاذبية هناك أقل ست مرات منها فوق الأرض . فلو كنت تزن ستين كيلو جراماً فوق الأرض لبلغت زنتك هناك عشرة لا غير من الكيلو جرامات . وبذا تكون حركاتك خفيفة بلا أدنى مجهود ، فيمكنك أن تجري بسرعة تفوق سرعتك الأرضية ست مرات ، كما يتاح لك أن تقفز إلى ارتفاع يوازي ست مرات الارتفاع الذي يمكنك أن تقفزه وأنت على الأرض .

كرة القدم فوق القمر :

ولو تصورنا أن هناك فريقين يلعبان كرة القدم فوق القمر لوجب أن تكون ساحة اللعب أوسع ست مرات منها على الأرض ، لأن رمية الكرة تنطلق مسافة أطول بستة أضعاف من مماثلتها فوق الأرض !! .

رفيق مدهش :

وبعد ، إن القمر ، برغم أنه عالم ميت جدب ، إلا أنه رفيق رائع مدهش للأرض .. إنه يتحكم في المد والجزر في بحارنا ومحيطاتنا .. وقديماً كان الناس يصدقون أن له تأثيراً عظيماً — ليس فقط — على محاصيلنا وإنتاجنا ، بل على عقولنا وإدراكنا ..!!

جمال الدين محمد موسى



الخليـــل

للأستاذ عبد السميع المصرى

— ٣ —

شعر الطبيعة وشعر القصص

أما شعر مطران فى الطبيعة فسيماه الحب العميق الذى يحسه الشاعر نحو الطبيعة الخالدة إلى حد التفانى فيها والامتزاج معها ، فلا يعود هناك عنصران مختلفان بل شخصان من عنصر واحد أو روحان تتناجيان ، فاستمع إليه يتساءل عن صديق صباه النهر :

والنهر هل هو لا يزال كما   كنا لذاك العهد نألفه
يسقى الغياض زلاله شبما   ويزيد بهجتهـا تعطفه
يطغى حيال السد أو يجرى
متضايقـاً آنا ومنفرجا   متخللا خضر البساتين
متهللا لتحيـة الشجر   متضاحكا ضحك المجانين
لاعب النسمات والزهر

وهكذا فالطبيعة دائماً لديه روح حية يخاطبها وتخاطبه ويحدثها وتتحدث عنها وهى تشركه شعوره وعواطفه :

وفى الهـواء حنين   تذوب منـه الصخور
وللنسيم حديث   على الروح يـدور
وللأزاهر فكـر   يرويه عنهـا العبير

وفى قصيدة أخرى نراه يعد فى الجبال فيتوهم قصة حب بين وردة وزهرة من زهور الزنبق ورويها فى شعر بلغ منتهى الرقة :

قطفت على الأزهار فى أمن نومها
أنبهـا جلبا إلى فتجفـلُ
أحاول سلوانا بتشكيـل باقة
فأدخل منهـا ما أشاء وأشكل
وما كنت من يجنى عليها خلائقـاً
ضعافاً ولكن جنة اليأس تحمل
إلى أن بدت لى وردة مستكينة
كأن دموع الفجر فيها تهلل
لها طلعة الحسناء المؤثل والصبى
وفى الوجه تقطيب لمن يتأمل
تلوح عليهـا للكآبة والأسى
مخايل دقت أن ترى فتخيل
ويكسبها معنى الحيـاة ذبولها
لدى ناظريها فهى فى النفس أجمل
مليكة ذاك الروض جاور عرشها
من الزنبق العـالى مليك مكلل
بقيـة عفواً عنهمـا فكلاهما
شقى بود الوت والموت ممهـل
فلا تسق سيف القضـاء إليهما
على أنه يشقيهمـا لو يعجـل
حبيبان سرا ساعة ثم عوقبـا
طويلاً كذلك الدهر يسخو ويبخل
لقد جاورت هذى العروس أليفها
لدُنْ هو مياس العاطف أميل
فكان إذا مرت به نسم الصبـا
يميل إليهـا عاشقـاً يتغزل
يداعبهـا جهد الصبابة والهوى
ويعرض عنها لاعبـاً ثم يقبل
ويرشف كلٌ من جبين حبيبه
دموع الندى خمراً رحيقاً فيثمل
ولكنه لم يلبث العـود أن قسا
فلم تثن عطفيه جنوبٌ وشمـأل
فشق عليهـا بينه وهو جارها
وباتت لفرط الحزن تذوى وتنحل

وقليل فى ديوان الخليل الوصف الواقعى للطبيعة كوصفه لصيف الصعيد وحره :

أوقد الصيف في الصعيد لظاهُ
فأجف الحقول والآجاما
وغدا الناس بين جو كثيف
مترد من الغبار غماما
وفلاة كأنما الرمل فيها
شرر مدّ لجة واضطراما
وكأن الماء في النيل تجري
بخطى أبطأت ووجه تعامى

وقد أكثر مطران من كتابة الشعر القصصي، وكان لنا منه فتح جديد في عالم الشعر العربي، وقد اتخذ هو منه وسيلة للتعبير عن أحاسيسه الإنسانية وعواطفه الصادقة لبني الإنسان، فاستمع إليه باكياً متفجعاً وهو يروي قصة العوادة المتسولة التي ماتت مريضة بعد عام من زواجها في قصيدته (وفاء) وذلك على لسان زوجها:

لججت فؤادي يا زمان بخطبها
فليتك مرزوء الفؤاد بأفجع
عروس لعام لم يتم صرعتها
ولو شئت لم تضرب بأمضى وأقطع
فباتت على مهد الضنى ما لجفنها
هجوع ولا جنبي بصدرة بمهجع
وكانت ربيعاً لي فأقوت مرابعي
من الزهر والشدو الرخيم المرجع

إن مثل هذا الشعر ينم عن شعور صادق بالمشاركة في السراء والحزن، وإنك لتجد منه أمثلة كثيرة كقصة (الجنين الشهيد) و (الشحر) و (الطفل الطاهر).

وليس كل شعر مطران القصصي أو قصصه الشعري فواجع ومآسي، بل هناك نواحٍ مشرقة مستملحة أجاد فيها الدعابة الخفيفة الراقية كقصة (إن من البيان لسحرا) وهي قصة شاعر عذب الحديث ساحر البيان نهيت الفتيات عن الاستماع إليه، لكنهن لم يعبأن بالنهي والسائل إليه خفية فأخذ يقص عليهن من القصص ما سحر ألبابهن وأوقعهن في أسر بيانه:

سر العذارى منى؟   عن شاعر للحي زائرْ
قصدنه وسخرن من   زجر الأمهات الزواجر
ليرين فتنته التي   تغوي العفيفات الحرائرْ
فوجدنه رجلاً مليـ   ـحاً خلقه حسنّ الظواهر
لا شيء يفتضح النهى   فيه كما ادعت النواهي
فسألنه إنشاد شيء   من بدائعه الخواطر
فأطاعهن ومن ترى   يعصي الجميلات الأوانس
فقعدن فيما حوله   عقداً فريداً من جواهر
وتناول الرجل الربا   ب وفكره في الغيب ناظر
وأثار في الأوتار تغـ   ـريداً كأن العود طائرْ
ثم انبرى يروي روا   يته وتتبعه الخواطر

***

ثم انثنين مكفكفاتٍ   دمعهن عن المحاجر
متلفتات نحو من   هو مثله غزلٌ وشاعر
كل تقول بلحظها   يا قيس إني بنت عامر
تالله أنصفت النوا   صح ليس هذا غير ساحر

ولقد وسعت شاعرية مطران الفياضة كل فنون الشعر المتنوعة، فله في الوطنية قصائد كثيرة، وكان دائم الحنين إلى وطنه الأول الشام والفخر به:

إيه آثارَ بعلبكَ سلامٌ
بعد طول النوى وبعد المزارِ
ووُقيتِ العفاء من عرصاتٍ
مقويات أو آهلاتٍ بالفخار
ذكرى طفولتي وأعيادي
رسم عهد عن أعيني متواري

***

أهل فينيقيا سلام عليكم   يوم تحيي تحية الأدهار
لكم الأرض خالدين عليها   بعظيم الأعمال والآثار
خضتم البحر يوم كان عصياً   لم يسخر لقوة من جبار
وركبتم منه جواداً حروناً   قلقاً بالمرسى للغوار

وهو يردد هذا الشعور في كثير من قصائده لا سيما إذا أحس آلام الاغتراب:

فذكرت مفترقي فتىً   عن عشيري الأوفياء
بولاء طفل لم يذق   ألم الفطام من الولاء

ولقد كان لا ينسى واجب الوفاء لوطنه الثاني الذي أحبه وأخلص في حبه الولاء:

يا مصر دار السعد والهناء

ومهبط الأسرار والإيحاء

عليك من هــذا المحب النائى

ســلام قلب ثابت الولاء

يهواك فى السراء والضراء

ولم يكن مطران متخلفاً عن عصره ، بل كان يجد مادة شعره فيما حوله من بيئة وأحداث ، ولذا فقد سجل تاريخ حقبة من الحياة بكل ما فيها حتى مخترعات العلوم .

ولا شك أن الكشف عن أشعة (رنتجن) كان حدثاً فى العلوم خطيراً ، وقد سجله مطران فى شعره حيث قال :

خلقتها من ضياء عجيب يسر برؤيتــه الزائر

له زرقة المــاء لكنه شرار من النار متطاير

كمنتشر من غبار الزمر د يحمــله لهب ثائر

كأن به للعيون عيوناً فكل خفى به ظاهر

يرينا الجسوم أضالع خفت وزايلها حسنها الناضر

هيا كل محكمة شادها لطيف لمــا شاءه قادر

وإذا أضفنا إلى شدة حساسية الخليل عمق وفائه للأصدقاء علمنا السر الكامن وراء هذه القوة الخارقة لمراثيه وهذا التفجع الصارخ فيها :

لقد قال يرثى أنطون الجميل :

يدعوك معتل وأنت بعيــد

بالأمس كنت تعوده وتعيــد

عز العزاء على السقيم وهج فى

نياته التصويب والتصــعيد

آأبا المروءة إن خطبك خطبها

أو لم تفارقها وأنت شهيد ؟

رزئتك طائفــة بحار عبابها

أنى يعزيها وأنت فقيــد

وكان مطران إذا بلغه نبأ وفاة صديق من أصدقائه زلزل كيانه النبأ وبكى صديقه بالدمع السخين قبل أن يرثيه بالشعر الرصين ، وهو يحس ألم الفراق لما سيفقده فى الصديق الراحل من صداقة ومن عشير يشعر معه بدفء العاطفة الذى يجد فى طلبه المغترب ويحرص عليه ، وهو ما نحسه إذ نطالع رثاءه لنقولا توما :

وقف الزمان فما لوشك موعدُ

وعفا المكان فما لعهدك معهدُ

هى طلعة لك فى الحياة وغيبة

كالظل إذ يبــدو وإذ يتبدد

بالأمس كنت وأمس فى أفق التقى

تدق الحجاب فكان منك المولد

مات الودود الأريحى ولم يجئ

يوما لديه الصــاحب المتودد

فى غربة غبراء لم يلمم به

سكن هناك ولم يعــده العوَّد

يارب سفنا وإن فطرت أسىً

منا حشاشات وشــفت أكبد

أما رثاؤه لمصطفى كامل فقد غلبت عليه الروح الوطنية وأحس بفقده لخسارة وطنية كبرى الشرق العربى قبل أن يفقده كصديق :

أعلى مكانك الإله وشرفا

فانعم بطيب جــواره يا مصطفى

اليوم فزت بأجر ما أسلفته

خيراً وكلٌ واجــد ما أسلفا

وجزيت من فانى الوجود بخالد

ومن الأسى الماضى بمقبل الصفا

فوردت وردك فى الخلود منعماً

والأرض مائدة عليك تأســفا

لم تُلف قبلك أمةً فى مشهد

يذرو الرجال به المدامع ذرفا

يمشون من حول الجنازة ضلّفاً

بهم الرحيب من المسالك مصرفا

بحر من الأحيــاء تمشى فوقه

فلكٌ يظلله اللــواء مرفرفا

يبكون فى آثاره العلم الذى

آثاره من رفعــة لا تختــفى

جزع النصارى واليهود لمســلم

هو خير من والى وأوفى من وفى

يبكوا المرجى فى خلاف عارض
ليزيل ذاك العــارض المتكشفا
واشتد رزء المسلمين وحزنهم
لما مضيت ولست فيهم مخلفا
مَن بعد كاتبهم وجهيد خطيبهم
يُعلى لهم صوتاً وينشر مصحفا
قف أيها الساعى عليه جحوده
فلقد تجاوزت المدى متفلسفا

• • •

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها
وأرى ترابك من حنين قد هفا
وكأنى بالقبر أصبح منبراً
وكأنى بك موشك أن تهتفا
مصر التى غسلت يداك جراحها
بصبيب دمعك جارياً مستنزفا
مصر التى أحببتها الحب الذى
بلغ الفداء نزاهة وتعففا
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفاً
من شملها ما لم يكن ليؤلفا

• • •

من كان أقدرَ منك تصريفاً لما
يعيى الحكيم مدبراً ومصرفا
من كان أطهر منك خلقاً جامعاً
فيه مهيبَ الطبع والمتظرفا
من كان أزهد منك إلا فى الذى
يجدى البلاد فتبتغيه مُلحفا

• • •

لهفى على ثغر الصبى هادى النهى
عالى اللواء حمى الروعة والوفا
يامن نعى تلك الفضائل والعلى
أغدت معالمهن قاعاً صفصفا
لا لا وحقك يا شهيد وفائه
ورجائه كذب النعىُّ وأرجفا
ما أنت بالرجل الذى يمحى وقد
ملء الوجود به ويصبح قد عفا

• • •

والآن نحن لدى تراك نحييه
متلهفين تشوقاً وتشوفا
نثنى وهل يوفى ثناؤك حقه
وبأى ألفاظ الحامد يكتفى

لقد أطلت الوقوف على هذا الرثاء، لما يبدو فيه من روح الخليل السمحة التى تعالت على الصغائر، ولما فيه من تسجيل رائع لشعور المصريين عامة لفقد مصطفى كامل، وما فيه من دفاع مجيد عن الفقيد وآرائه، ورد على خصومه وشانئيه، وإثبات لحقائق تاريخية من تاريخ مصر كدنا أن ننساها.

بقى كلمة أخيرة فى الحديث عن شاعرية الخليل، وهى أن الخليل عندما تقدمت به السن قل فى شعره جموح العاطفة، وغلب عليه التعقل والهدوء، اللهم إلا أن تثير شجنه ذكرى سانحة أو زهرة باسمة حتى قال فى آخر عهده:

فاعذروا ضعف شاعر يتغنى
بتراجيع من بقايا البالى

ولذلك قلت استعاراته الفاجئة وتشبيهاته الثرية وتحليقه الجامح فى سماوات الخيال، واستحالت النظرة الابتداعية المتشائمة إلى ابتسامة فيلسوف يرقب أحداث الحياة ويسجلها.

ومع ذلك، فقد ظل مولعاً بالتصوير الشعرى يقدمه فى مراثيه فى نوع من الواقعية العجيبة التى يسمو بها الفن سمواً عظيماً لما يصاحبها من خيال خصب فسيح المدى كقوله فى رثاء الشيخ عبد العزيز البشرى:

شخص قليـل ظله طاوى الحشى
يمشى فلا تتوازن الكتفان
حفت ملامحه بمسحة أدمة
هى من «منا» إن شئت أو عدنان
وبعارضيه الحاجبين ولمة
شعثاء لم تسلم من التوران

عبد السميع المصرى

قصـــــة (ترلبي Trilby)

الكاتب (جورج دو مورييه)

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

كان « دو مورييه » مؤلفاً ، وكان رجل فن ، ولد في فرنسا عام ١٨٣٤ ، وهناك درس الفنون ، ومات أبوه عام ١٨٥٦ فانقطعت بوفاته دراساته ، ثم عاد فاستأنف دراسة الفنون في باريس ، ثم في أنتورب .

وسافر بعد ذلك إلى انجلترا حيث عمل في تزيين الكتب والمجلات الإنجليزية كمجلة (بنش) وغيرها بالرسوم والصور .

ومات في لندن عام ١٨٩٦ إثر نوبة قلبية ، وكان قبل ذلك قد تجنس بالجنسية الإنجليزية .

وهذه القصة نشرها الكاتب عام ١٨٩٤ ، وهي قصة تتحدث عن حياة الفنون والآداب في انجلترا وفي البلاد الأوربية في الجيل الذي سبق جيله ، يقصها صاحبها وقد شارك في حوادثها ، ثم اختزنها في ذاكرته .

والصفحات الأخيرة منها تقوم مقام الحاشية ، وقد كتبت بعد عشرين عاماً من تاريخ إتمام القصة ، وهو يقص فيها مصير أشخاص كانت لهم في القصة أدوار هي في المقام الثاني ، أما الفائدة المستفادة من الرواية فتنتهي بانتهاء حياة (ترلبي) .

قال الكاتب :

في منتصف القرن الماضي كان « الحي اللاتيني » في باريس كعبة يحج إليها كلُّ شادٍ من شداة الفنون ، ولا يزال هذا الشأن شأنه إلى يومنا هذا ! ففي يوم ماطر قد اعتدل هواؤه من أيام شهر إبريل كان ثلاثة رجال من الإنجليز يعملون في مرسمهم الذي أقاموه وأثثوه منذ زمن قريب في ميدان (سانتاناتول « راعي الفنون ») ، وكان أحدهم واسمه (تافي) رجلاً طوالاً ، متين البنية ، صلب العضل ، وكان من أهل « يوركشير » ، وكان قد شارك من قبل في حرب القرم ، ولكنه لما كان يحس في نفسه ميلاً إلى الفنون لا قبل له بصده ؛ فقد ترك الجيش وولى وجهه شطر باريس ، وهو الآن يتخذ التصوير مهنة له .

وكان ثانيهم اسمه (لورد كوكبن) ، وهو وجيه اسكتلندي من أصل عريق ، دفعه ولعه برسم صور مصارعي الثيران إلى الرحيل إلى باريس .

وكان ثالثهم رجلاً بناه الله بناء قوياً ، وجمله بالظرف والذكاء ، ففاق بهما صاحبيه الآخرين اللذين كانا يكبرانه سناً ، وكان اسمه (بالي) ، وقد تلقى تعليمه في البيت ، أما أمه وأخته الأرملتان فقد كانتا تعيشان في « ديفونشير » .

وكان (تافي) يحب (بالي) الصغير ، ويحنو عليه لملاحته وسذاجته ، وفي أصيل يوم من الأيام زار الثلاثة الانجليز رجلان هما : الموسيقي (سفنجالي) ونجيُّه وصفيُّه (جكو) وكان هذا رجلاً غريب الأطوار .

أما (سفنجالي) فقد كان طويل القامة ، وثيق التركيب يبدو من مظهره أنه من اليهود ، وكان زريّ الهيئة ، زري الملبس ، يتكلم الفرنسية في طلاقة تشوبها لكنة ألمانية ، وكان يسحر سامعيه إذا عزف مقطوعات (شوبان) .

وعلى حين غفلة من القوم سمع دقٌّ شديد على الباب ، وتبعه صوت جهوري يقول : خذوا اللبن ! ومشت إلى داخل البيت فتاة مغبرة ملتفة في رداء من أردية الجنود الفرنسيين ويبدو من ثنايا الرداء قميص قصير مخطط ، ونظر الرجال فرأوا عجباً جميلاً ، ورأوا في مظهر الفتاة البساطة المحببة ، كما رأوا في حديثها الفكاهة الحلوة التي جعلتها تلقى التأهيل والترحيب أينما ذهبت .

وقدمت الفتاة نفسها باسم (ترلبي أوفيرول) وسرعان ما علموا أنها تعمل (نموذجاً) عند مصوري الحي ، وأنها

اشتهرت بجمال قدميها ، ولكي تدخل على الرجال السرور غنتهم أغنية قديمة ، وهي وإن كانت تترنم في غنائها أصول الفن ، فإنها قد أدهشت القوم بجمال صوتها ، وبدا على (سفنجالي) بصفة خاصة أنه قد تأثر بهذا الصوت الجميل ، ومضى ينبيء القوم أنه معنيّ بالغناء ، وأنه مولع بأن يصبح مغنياً .

وزارت (ترلبي) المرسم بعد ذلك مراراً ، فعلم القوم منها أن أباها وأمها قد ماتا ، وأنها تعنى بتربية أخيها الصغير ، وأن أباها كان رجلاً مثقفاً ، طيب الأرومة ، كريم المحتد ، وأنه أولع بالخمر فقضت عليه وأسكنته القبر ، وأن أمها كانت فتاة اسكتلندية كانت يوماً ما (خمارة) في باريس ، وهذه الفتاة (ترلبي) لم تكن مبرأة من الشوائب .

وكان (سفنجالي) كلما رأى (ترلبي) في المرسم حاول إقناعها ، لتأذن له في تدريب صوتها ، ولكنها كانت تسخر منه ، وتهزأ بمهارته ، وكانت تراه بغيضاً ثقيل الظل .

وكلما زادت معرفة (ترلبي) بالرجال الانجليز زادت أواصر الود بينها وبينهم ، فكانت تطهو لهم طعامهم حيناً ، وكانت ترفو جواربهم أحياناً ، وكانت تعنى بترتيب المرسم ، وكانوا يصحبونها في رحلاتهم إلى الريف كلما رحلوا .

أما (سفنجالي) فلما فاتته الفرصة يوماً في التحدث إليها ، وكان يدعي الحب لها ، وكان يحدثها بقصصه التي تبعث الرعب ، ولولا فضل (بللي الصغير) و (تافي) على الفتاة لأذاقها (سفنجالي) المر ألواناً .

وفي ذات صباح كان (بللي الصغير) يسير إلى الفصل الذي تتخذ فيه الأجسام الحية نماذج للتصوير ، فإذا به يرى (ترلبي) تقف ليصورها المصورون وهي عارية ، فأسرع بالخروج من الفصل ، وبعد قليل أمسك به إخوانه وهو في طريقه إلى المحطة ، وكل ما استطاع أن يقوله تبريراً لسفره أنه ذاهب إلى (باربيزون) — وهي إحدى ضواحي باريس — ليصور مناظر الطبيعة هناك .

وبعد أيام حدثته (ترلبي) حديث وقوفها ذاك ، ثم لم تلبث أن أقلعت عن هذا العمل ، وعادت إلى عملها القديم عمل الغسالات .

وكان (تافي) وكان (اللورد) يعرفان أن (بللي الصغير) قد شغف حباً بترلبي كما كانا يعرفان أن (ترلبي) مغرمة مستهامة ببللي . وقد سمعاه — وهما يتمشيان الهوينا في الخلاء — يطلب إليها أن تتزوجه فأبت أن تجيبه إلى ما طلب .

وفي يوم عيد من أعياد الميلاد طافوا معاً ببيوت أصحابهم حيث تغدوا وتعشوا . وقد بدأ العشاء في الساعة العاشرة مساء ، وظل القوم يسمرون إلى صباح اليوم التالي . وكانت فرصة مواتية لها خطرها وشأنها عند (بللي الصغير) ذلك لأنه اقترح يومئذ للمرة التاسعة عشرة أن تتزوجه (ترلبي) وفي هذه المرة أجابت بالقبول . ولأول مرة في حياته كان قد سكر .

وفي يوم رأس السنة كان (تافي) واللورد يعملان في المرسم ، إذ جاءتهم ربة البيت تعلن قدوم زائرين . وكان أولئك الزائرون هم والدة بللي الصغير وصهرها ، ومعهما رجل من رجال الدين ، هو القس (توماس باجوت) .

وقد سألوا (اللورد) كما سألوا (تافي) أسئلة يتقصون فيها أنباء (ترلبي) . وبينا القوم يسألون أسئلتهم دخلت (ترلبي) فعرفتها امرأة القسيس .

وأعلنت الفتاة أن قبولها الزواج ببللي الصغير كان خطأ كبيراً ، ووعدت أن تتخلى عن صاحبها . فلما غادرت (ترلبي) المكان أعلنت زوجة القس أنها جدّ سعيدة لأنها وفقت فيما بذلت نفسها له وهو فض العلاقة بين (ترلبي) و (بللي) .

وفي صباح اليوم التالي وصل خطاب من (ترلبي) إلى (تافي) وكان خطاب توديع غمر كآبة جوانب القلب . وقد ذكرت في خطابها أنها قد أخطأت ، وأنبأته أنها مرتحلة إلى باريس وفي صحبتها أخوها الصغير . ولم تقل في الخطاب أين تتوجه وتمضي .

ولما عاد (بللي الصغير) إلى باريس وحدثه المحدثون بما جرى تساقطت نفسه غماً وأسفاً . وزفر زفرة كاد ينشق لها ، ومرض مرضاً شديداً . فلما أبل بعد شهور رجع إلى (ديفونشير) وفي صحبته أمه وأخته .

وانقطعت أخبار (تَرلي) وعلم (نَاقي) بطريق غير مباشر أن أخاها قد مات في أثر مرضه بالحمى القرمزية .

ثم انقضت سنوات خمس وإذا بالصور التي صوّرها (وليم باجوث) وهو الاسم المستعار لبالي الصغير قد جملته مل‌ء سمع الدنيا في أندية الفن في أوربا . ولكنه منذ مرض لم يعرف الحب الطريق إلى قلبه . فقد ماتت تلك العاطفة التي اسمها الحب ، فلم يتزوج صاحبنا ولم يحب .

وفي تلك الأثناء كانت حواضر البلاد الأوربية قد جن جنونها إعجاباً بمغنية جديدة اسمها (لاسفنجالي) .

وفي باريس رقى (بالي الصغير) مرة أخرى في صحبة (الورد) و (ناقي) وقد جاءوا ليسمعوها وهي تغني . وفي ليلة الغناء احتلوا مكانهم مبكرين . فلما دخلت جوقة الموسيقى رأوا أن عازف الكمان الأول هو صديقهما القديم (جكو) . وبعد قليل خرج (سفنجالي) ليقود الجوقة وهي تعزف ، وكان يبدو عليه أن الزمن ، وأن العيش الرغيد ، قد كان لهما أثر بالغ الحسن . وكأن عصا سحرية قد أحالته رجلاً بادي السعادة .

ولما رفع الستار برزت امرأة في ملابس موشاة بالذهب على الطراز القديم . وكان وجهها معروفاً بادي الشحوب . ولكن تبدو عليه آيات الحنان والرقة وأمارات الحلاوة والبساطة .

وكانت تلك المرأة هي (تَرلي) عينها . وليس في مقدور الكلمات أن تؤدي وصف الأداء الفني الذي كانت تلك المرأة تؤدي به مقطوعاتها ، ويبدو أن قوى من قوى الجن قد رفعت من شأن تلك الأغنيات القديمة الساذجة التي كانت تغنيها ، وكأنها في نغماتها وألحانها كانت تناجي حبيباً غائباً وتناديه .

وفي اليوم التالي بصرت عين (بالي الصغير) بسفنجالي في مكتب البريد ، فلما خرجا تقدم (بالي) إليه يحدثه ، فكان جواب (سفنجالي) أن سبه وبصق في وجهه . وفي تلك اللحظة كان (ناقي) يصعد السلم مسرعاً فبادر (سفنجالي) باللوم والقطع .

فلما عاد (الورد) و (ناقي) إلى لندن لم يكونا يفكران إلا في أمر (تَرلي) ، وكان محبو الغناء في لندن ينتظرون ليالي غنائها بصبر نافد .

وقبل موعد الغناء شاع في الناس الخبر أن (سفنجالي) قد أصابه جرح قاطع من مدية طعنه بها (جكو) أثناء إحدى التجارب التمرينية .

وفي ليلة الغناء ترقب الأصدقاء الثلاثة أن يروا (سفنجالي) يقود الجوقة الموسيقية كما كان يفعل ، ولكنه كان غائباً ، ولم تستطع الفتاة أن تؤدي دورها في الغناء مفقودة بين قائم مقام (سفنجالي) ، وكانت هذه دسيسة دسها (سفنجالي) للفتاة ليحط من قدرها ، وضج السامعون ، وكانت هذه آخر دسيسة من دسائس ذلك الرجل ؟ فإنه ما كاد يفارق المسرح حتى وقع مغشيّاً عليه ومات لساعته بالسكتة القلبية .

وسرعان ما أخذ الصاحبان (بالي الصغير) و (ناقي) يعنيان بأمر (تَرلي) ، ولكن الأطباء كانوا من برئها يائسين ، وكانت تتحدث عن (سفنجالي) كصديق قديم ، وكانت تقول لمن حولها إنها لم تحب في حياتها إلا حبيباً واحداً ، ذلكم هو (بالي الصغير) .

وكان موتها مصيبة كبرى تزلزلت زوال النائبات على كل من عرفها ، ولكن (بالي الصغير) كان أشد الناس جزعاً ، فبات لا يملك دمعه ، ولا يملك قلبه ، وما لبث أن لحق بها بعد قليل .

وبعد بضع سنين — وكان (ناقي) قد تزوج بأخت (بالي الصغير) — لقي في طريقه إلى باريس (جكو) فأنبأه هذا كيف درّب (سفنجالي) الفتاة (تَرلي) على الغناء ، فكان هو العقل المفكر ، وكانت هي الأداة التي تؤدي ما يلهمه ذلك العقل ، وبعد مران طويل أمكنه أن يحيطها بما يشبه الرقية ؟ ولكن المران الطويل الشاق ، وما يسببه الغناء من عناء وجهد ، قد أضرا بصحتها أبلغ الضرر ...

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم

معنى الحضـــــارة[1]

للأستاذ محمد سيد أحمد شريف

الحضارة اسم يطلق على جميع نماذج السلوك التي يكتسبها الإنسان من حياته في المجتمع، والتي يتبادلها الأفراد فيما بينهم ويورثونها لما يليهم من الأجيال، معتمدين في هذا النقل والتوريث على عدد من الرموز والمصطلحات الجمة، من أهمها اللغة والكتابة. ومن ثم فهي تشتمل على كل ما أنتجته الجماعات البشرية على طول التاريخ، وهي بهذا لا تقتصر على اللغة، أو الصناعة، أو الفن، أو العلم، أو القانون، أو الحكومة، أو الأخلاق، أو الدين فحسب؛ وإنما تتضمن أيضاً جميع المظاهر المادية من منشآت ومؤسسات وغيرها مما تتجسم فيه المنتجات الحضارية، وتستطيع الحضارة العقلية أن تؤثر تأثيرها العملي عن طريقه، وبهذا يعتبر من مظاهر الحضارة مختلف الأبنية، والأدوات، والآلات، ووسائل المواصلات والأدوات الفنية ... الخ.

... ومن هذا يتضح لنا أن الدلالة العلمية لكلمة «الحضارة» تختلف تماما عن معناها الدارج؛ لأنها – كما رأينا – تشتمل على كل ما يمكن أن يعلم عن طريق اتصال الأفراد في المجتمع، واتصال المجتمعات بعضها ببعض، وواضح من هذا أنها تضم جميع اللغات، والتقاليد، والعادات، والمؤسسات، والنظم الاجتماعية. ولما كنا لا نعرف جماعة إنسانية إلا ولها لغة وتقاليد وعادات ونظم ومؤسسات، فإن الحضارة تكون هي الخاصية العامة التي تتميز بها المجتمعات الإنسانية ...

... على أن من الجائز أن يكون هناك ظل من الحضارة في عالم الحيوان، أو على الأقل في مراتبه القريبة من الإنسان؛ ولكن لما لم تكن ثمة جماعة حيوانية ذات لغة منطوقة، فإن الوسيلة الأساسية لنشر وتوريث حضارة مثل هذه الجماعة – إن كان لمثلها حضارة – تكون قد انعدمت، وبالتالي يحق لنا أن ننفي معنى الحضارة عن عالم الحيوان.

... وأصل الحضارة باعتبارها مميزاً من مميزات الإنسانية، إنما يكمن في هذه القدرة السامية التي يتمتع بها الإنسان، وهي القدرة على التعلم من تجاربه وخبراته، وعلى نقل ما يتعلمه بواسطة رموز أهمها اللغة. والكشف والابتكار هما ثمرتا التعلم لدى الإنسان، ونقل ما يُكتشف وما يُبتكر، وتوريثه بواسطة عمليتي التعليم والتعلم يؤدي إلى نمو الحضارة وازدهارها لدى الجماعات ...

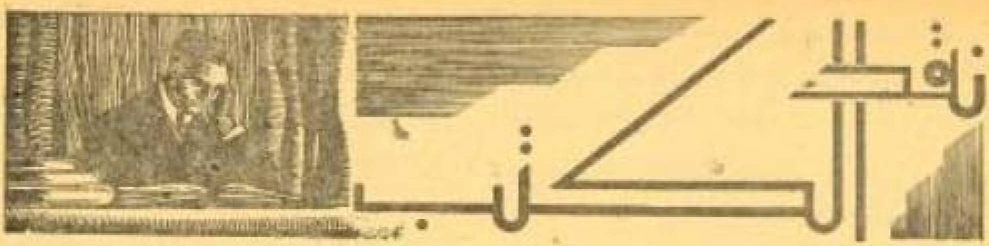
... ولما كانت الحضارة تنتقل بواسطة التعليم والتعلم – سواء كانا مقصودين أو غير مقصودين – فإن الجانب الأساسي من الحضارة إنما يكمن في نماذج السلوك التي تتمثل في تقاليد الجماعة، أي في معارفها وأفكارها، ومعتقداتها، وقيمها، ومعاييرها، والعواطف التي تسود فيها، وبالجملة في كل ما يتعلق بالجانب العقلي والوجداني فيها..

... أما الجانب الحسي من الحضارة، فهو عبارة عن سلوك الجماعة الفعلي، أي في كل ما تقوم به وما تنتجه وفقاً لمستواها العقلي والوجداني، فيتمثل هذا الجانب في عاداتها، وفي نظمها، ومؤسساتها.. الخ. ولكن العادات، والنظم، والمؤسسات، تكون في معظم الأحيان تعبيراً عن أفكار الجماعة، ومعتقداتها، وقيمها، وما يغلب عليها من مشاعر وعواطف. ومن ثم يكون صميم الحضارة في جماعة من الجماعات هو المزاوجة بين أفكار هذه الجماعة وبين ما يكتنفها من ظروف الحياة ...

... وبهذا يكون تعريف الحضارة تعريفاً سلوكياً، (أي بحسب ما يتمثل منها في السلوك الظاهر للجماعات) تعريفاً ناقصاً؛ لأن التعريف الجامع للحضارة يجب أن يتناول كلاً من مظهريها الذاتي والموضوعي. فالواقع أن حضارة جماعة من الجماعات الإنسانية، إنما تتمثل في كل من تقاليدها، (وهي أفكارها، ومعتقداتها... الخ) وعاداتها، (وهي التطبيق العملي لهذه الأفكار، والمعتقدات...الخ)، مع مراعاة أن التقاليد – وهي الجانب الذاتي من الحضارة – تعتبر هي العنصر الأساسي فيها.

محمد سيد أحمد شريف

(1) Fairchild : Dictionary of Sociology. pp 80—81 (New York, 1944)



الثورة في الصحراء

أو الثورة العربيــة ١٩١٦ – ١٩١٨

تأليف لورانس ، وترجمة الدكتور رشيد كرم

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

لا يرتبط بصحراء العرب وثورتهم الكبرى ضد الترك في سنة ١٩١٦ إلا « لورانس » المشهور في التاريخ الحديث باسم لورنس بطل الجزيرة ، كما أسماه مواطنوه الإنجليز . وليس هذا الاسم وحيداً في التاريخ الإنجليزي الحافل بالرجال .. فهناك « السير توماس لورانس » الرسام الإنجليزي المشهور الذي توفي سنة ١٨٣٠ ، والذي أوصلته شهرته لأن يكون المصور الخاص لملك أنجلترة . وهناك « السير هنري لورانس » الجندي والسياسي المشهور الذي شارك في قضية الهند قبل حركة العصيان فيها في منتصف القرن التاسع عشر ، وهناك « د . ه . لورانس » الأديب والقاص الإنجليزي المشهور الذي توفي سنة ١٩٣٠ ، والذي اشتهر بمجموعة من القصص أهمها « أبناء وعشاق » (سنة ١٩١٣) ، و « قوس قزح » (سنة ١٩١٥) ، و « عاشق اللايدي تشاترلي » (سنة ١٩٢٨) ، والذي جمع الأديب الإنجليزي المفكر « ألدوس هكسلي » رسائله في كتاب وقدمه للسوق الأدبية سنة ١٩٣٢ .

ولكن لورانس بطل الجزيرة يحمل اسم « توماس إدوارد لورانس » ، أو « ت . ا . لورانس » الذي غيّره فيما بعد إلى « توماس شو » في سنة ١٩٢٧ ، أي بعد دخوله دمشق مع الملك فيصل بتسع سنين .

وعجيب جداً أن يغير لورانس اسماً اشتهر به واقترن بأمجد أعماله في الجزيرة العربية ، ورددته شفاه البدو فيما بين جدّة والعقبة وشرق الأردن وعمان ... وأن يختار بدلاً منه اسم « شو » ، وهو اسم منكور غير مذكور .

وأعجب من هذا أن يتنازل لورانس عن أمجاده وعن رتبه وألقابه ، وأن يرضى بعد سلسلة من المغامرات الخيالية أن يكون عمولاً ميكانيكياً في سلاح الطيران الملكي البريطاني ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى جندي بسيط في سلاح الدبابات ... لا يهتف باسمه لسان ، ولا تطلب مشورته في مؤتمر السلام ... ثم يقرأ الناس بعد ذلك أن الجندي البسيط « توماس شو » قد قتل في حادثة من حوادث الطيران بالهند .. فيجهل الكثيرون أن « شو » هذا هو الشخصية العبقرية الفذة التي أقامت جزيرة العرب وأقعدتها ضد الأتراك ، والتي طوّفت بكل شبر من شمال الجزيرة ، كما تطوف الجن في وادي عبقر السحيق ...

• • •

وكم كنت أود أن يقول الدكتور رشيد كرم شيئاً من أشياء هذا الكلام ، ولو في مقدمة قصيرة يقدم بها ترجمة لكتاب يبلغ خمسمائة من الصفحات ... ولعل الدكتور رشيد تحرج أن يقدم لورانس إلى قراء العربية

بعد أن قدم لورانس نفسه في كل سطر من سطور الكتاب . فالكتاب — في الحق — هو مذكرات غير مؤرخة غالباً لأعمال قام بها المؤلف في خلال سنتين من سني الحرب العالمية الأولى ؛ فلا غرو أن يكون ترجمة المؤلف في سنتين من حياته التي يبدو أنها كانت مليئة بالأخطار والأسرار ..

وكتاب « ثورة في الصحراء » ، على طوله وضخامة حجمه هو في الحق مختصر الكتاب الكبير الذي ألفه لورانس بعنوان « أعمدة الحكمة السبعة » ، والذي ظهر لأول مرة سنة ١٩٣٦ في انجلترة فلقي من الرواج وتخطف الناس له وإقبال المترجمين على ترجمته إلى اللغات الأوربية ما حمل المؤلف على أن يقدمه إلى القراء موجزاً سنة ١٩٢٧ . وظفر هذا الموجز بما ظفر به الكتاب المطول من رواج وإقبال ، وتخطفته النفوس الظمأى إلى استطلاع ما وراء الأفق في جزيرة العرب ، أو المتلهفة إلى قراءة أغرب الأخبار وأعجب الأخطار ... وترجم الموجز إلى اللغة الفرنسية — كما ترجم المطول — وعن هذه الترجمة الفرنسية نقل صديقنا الدكتور رشيد كرم هذا الكتاب إلى اللغة العربية .

* * *

ولا تسأل كيف ظل هذا الكتاب محجوبا عن القراء العرب قرابة ربع قرن ، فلا يترجم لهم ولا يقدم على موائد أفكارهم ؟... فالحمد هنا للدكتور رشيد كرم أولى من العتاب على الذين فاتهم ترجمة الكتاب كل هذا الزمان الطويل ..

والحق أن عنى بترجمة الدكتور كرم لكتاب لورانس كان مفاجأة لى لم أملك نفسي عن العجب منها ... فالمترجم شاعر وأديب ولغوى وراوية ، أعرفه عن يقين وأشهد له عن تجربة .. وأعرف أن الأقرباذين والعقار والبضع لم تلهه يوما واحداً عن أن يجد في الشعر والأدب ظلا لروحه الطيبة ... أفما كان أحرى به أن يخرج لنا ديواناً من الشعر ، أو فصولا في النقد أو بحوثا في الأدب بدلا من أن يقدم لنا «لورانس» في مغامراته الحربية الخطيرة بجانب الأمير فيصل — الملك فيصل فيما بعد — ليثير شعور العرب ضد الترك ويؤلبهم عليهم ...

ولقد كان العرب يحلمون من وراء هذه الثورة أعذب الأحلام ، ويمنون أنفسهم التوثبة إلى الحرية بأطيب الأماني . فكأنهم كانوا مع الشاعر القائل :

منى إن تكن حقاً تكن أعذب المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنــاً رغدا

ولكنهم — مع الأسف — وقفوا ووقف معهم لورانس بعد مؤتمر السلام سنة ١٩١٩ ليشهدوا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم خيبة « القوات The Powers » لتحقيق وعودهم لحلفائهم العرب ...

ولعل هذه الخيبة الموئسة هي التي حملت لورانس — كما يقول المؤرخون الإنجليز أنفسهم — على التنازل عن رتبته والتجرد من ألقابه والتنكران لماضيه اللورانسي إبدأ ماضياً هادئاً جديداً تحت اسم توماس شو ...

وهنا فقط أدركت البواعث الخفية التي حملت صديقنا الدكتور رشيد على أن يقدم للعرب كتاب الثورة العربية مترجماً لعل أولى الألباب يأخذون منه على قدر القرائح والفهوم ...

* * *

وفكرة « الثورة العربية » التي يزعم لورانس أنه اقتنع بها قبل ثمرة ، بفيصل هي «تقطيع أوصال الدولة العثمانية» .. ولعلها فكرة انجلترة نفسها .. التي أمدت العرب بكل شيء لتحقيق هذه الفكرة . وكان لورانس نفسه يرى أن يسلح العرب بالمدافع .. (إذ كان الكبير فيهم والصغير ، من «فيصل» إلى الجندي الحقير ، يرددون دون انقطاع : مدفعية ! مدفعية .. ومنذ وصولى إلى هنا شعرت بارتياح شديد لاتساع نطاق العصيان .. فإن هذه القاطعة الصغيرة القليلة السكان قد تحولت إلى انتفاض حقيقي ضد تركيا بعد أن كانت نوعاً من السطو على القوافل) ص ٤٤

ولا أدل على اعتمال فكرة الثورة العربية في الضمير الانجليزي من قول لورانس إن الأميرال « ويمس » (كان لشدة ذكائه ولاتساع مداركه وعقله الدائم التفكير قد اهتم من أول لحظة بالثورة العربية ، وكم من مرة كان يتوقف

بتركيه على الشواطىء العربية ليقدم للعرب مساعدة ما في بعض مواقفهم الحرجة) ص ٤٦ .

على أن فكرة هذه الثورة لم تظهر فقط في سنة ١٩١٦ ، بل يصرح لورانس بأن السردار السير ونجت قد سر لقربه (لأن الثورة العربية كانت حلم أحلامه منذ سنين) ص ٤٧ .

وعجيب جداً أن لورانس يُغفل هذه الحقائق أحياناً ، ويغفل مساعدات انجلترة الدائمة في إشعال هذه الثورة ... ويذكر في ص ٢٩٠ (أن الترك أصبحوا يشعرون بالمضايقة والقلق .. إلى حد أنهم نسبوا تدبير عصيان العرب إلى الانجليز .. وأنهم هم المحركون والمنظمون لهذه الثورة) . يا سبحان الله ؟ كأن الترك وأحلافهم الألمان كانوا نياماً عن حقيقة هذا العصيان الذي ينسبونه إلى الانجليز ... !!

وامتدت الأيدي العربية البدوية إلى التخريب والتدمير مدفوعة بسحر العصيان الذي كان يزيده لورانس — وقيادته — كل يوم اشتعالاً .. حتى تعلم العرب تفجير الديناميت لتخريب المنشآت التركية ؛ فهذا « عودة » — وهو عربي ثائر — (كان يجهل — إلى ذلك الحين — الديناميت وعظم مفعوله ، فكان فرحه فرح الطفل بلعبته لما استعمله لأول مرة .. وأخذته نوبة شعرية تتغنى بقوة هذه الآلة الغريبة) ص ١١٧ . وفي سبيل هذه الغاية لم يجد لورانس بأساً من التضحية ببعض العرب لبلوغ هدفه البعيد ويقول في ذلك : (وإذا كان فقد رجلين من رجالنا العرب أمراً يؤسف له ، إلا أنه لم يكن الوقت وقت حسرة .. فعلينا احتلال « معان » بأي ثمن كان ... ويكفي يعلى، إرادتي أن أضحي بأكثر من اثنين من رجالنا العرب لبلوغ الهدف الذي نصبوا إليه . . . وإن مثل هذه المواقف الدقيقة لتبرر كل تضحية ؛ وكل غال يرخص أمام نجاحنا المقبل) ص ١٦٧ .

وإذا كانت الثورة العربية في أول أمرها نوعاً من العصيان المحرض عليه فإنها انقلبت بعد ذلك سلاحاً خطراً ضد تركيا وألمانيا معاً . وفي هذا يقول لورانس : (وكان الناس جميعاً ينظرون إلى العصيان العربي نظرة المتعرض دور قوم غزاة ؛ فكانت وسائلهم متيلة ، وكذلك واجباتهم وأطماعهم .. أما الآن فقد عدم « الثني » من عوامل خطة هجومه التي لا يستهان بها ... وإن المسئوليات التي تلقى على مناكب أولئك القوم تضع مشروعنا فوق الأمر العادي ...) ص ٣٣٨ .

* * *

وفي سبيل الغاية اللورانسية .. أو الانجليزية ، لقي بطل الجزيرة لورانس ألواناً من العناء في التوفيق بين العرب المتخاصمة والقبائل المتنافرة ، والشيوخ المتدابرة ... لأن الصلح بين هؤلاء البداة المتخاصمين هو ربح للوحدة العربية التي يسعى لورانس إليها . حتى يقاتلوا تركيا صفاً كالبنيان المرصوص ...

فهؤلاء « الحويطيون » هم رجال حرب أشداء كثيرو العدد إلا أنهم أعداء ، دم لأبناء عمهم « أبو تايه » لشجار قديم لا يزال عالقاً في أذهان « عودة » و « محمد » — ص ٩٠ .

وفي سبيل هذا التأليف والتوفيق يقول لورانس : (وكان باقي الرجال يمشون جماعات جماعات من غير نظام .. فالتزم الجري كصيحة الحائك ذهاباً وإياباً على طول الركب .. أكلم شيخاً حرداً ، مقطب الجبين ، وأتقدم إلى آخرين يتناظرون فأوفق بين الجميع .. وأحاول تخفيف المداوات والمناظرات .. حتى إذا جاء وقت العمل ودقت الساعة يكون المتحاربون متمكنين من بعضهم البعض ...) ص ٢١٠ .

* * *

على أن ثورة طائفة كالثورة العربية لم يكن يكتب لها النجاح لولا ما أرصدته انجلترة لحسابها من الذهب .. الذهب الذي لعب دوراً كبيراً في الصحراء . ولا يخفي الكولونيل لورانس ضرورة الذهب لنجاح ثورة العرب في مواطن كثيرة من الكتاب . ففي ص ٣٧ يقول : (وبعد مرور زمن غير يسير وصلت إليهم كمية البنادق اليابانية قديمة غير صالحة تقريباً ، وحديدها من النوع الردئ ، فكانت تنفجر لأول طلقة في يد العربي الجاهل ... إلا أنه لم يصل إليهم

الذهب الذي كان أهم ما يعتمد عليه في الصحراء بين القبائل)

وفي ص ٤٣ يقول: (ولم يكن قط غير الذهب ليأتي بالمعجزات في الصحراء، ويحفظ ذلك الجيش الشكل من القبائل الرحل مدة خمس سنوات متواصلة تحت السلاح)، وكان الذهب في يد الأمير فيصل — الملك فيما بعد — يعثر ذات اليمين وذات الشمال ... ويصرح المؤلف فيقول: (وسلم إلينا فيصل عشرين ألف دينار ذهباً ... وكانت هذه القيمة فوق ما طلبنا إليه لندفع أجور الرجال الذين نجدهم في طريقنا؛ ولنذكي نار الشهوة للذهب في قلوب الحويطات فيعاونونا بحماسة) ص ١٠٤.

ولا تتعب أيها القارئ الكريم في البحث عمن كان يمد الثورة العربية بهذا الأصفر الرنان ... فإنك ستعرف ذلك في مثل قول المؤلف: (فانتزع «كلايتون» من الخزانة الحديدية ١٦٠٠ جنيه ذهباً وأمر بشحنها) ص ١٨٥. ولما وقف لورانس أمام «الوورد النبي» وصف هذا اللقاء قائلاً: (وإن هذا الكائن الغريب — حتى نفسه — لا يطلب — من الوورد طبعاً — سوى التموين ... ومقدار مائتي ألف دينار من الذهب ... لتثبيت أولئك المهتدين في عقيدتهم الجديدة وإدارة حركاتهم ..).

وقد عرف لورانس كيف يسيل لعاب العرب لهذا المعدن الكريم ... فقد أغرى الثائر الكبير «عودة» ورجاله بمثل هذه العبارة:

(وإن النبي سيرسل إلى «العقبة» بنادق ومدافع ومتفجرات وذهباً!) ص ١٩٢، إلا أن البنادق في هذه المرة لم تكن من النوع الذي ينفجر عند أول طلقة، لأن انجلترة كان لها مصلحة أية مصلحة في أن تكون البنادق بيد العرب الثائرين ضد تركيا من أجود الأنواع ...!

وكانت مطالب لورانس الذهبية تحقق دائماً على وجوه الاستعجال .. وخاصة بعد نجاحه في اقتحام «العقبة». اسمعه يقول: (وكانوا قد أرسلوا إليّ من «العقبة» ثلاثين ألف جنيه ذهباً ...) ص ٣٣٢.

والضمير في «كانوا» يعود بالطبع على انجلترة، وعلى رؤساء الحركة التي كان مركزها «القاهرة» ... التي كان للمؤلف دائم الاتصال بها .. فيقول: «كنا قد أبرقنا إلى القاهرة». أو يقول في ص ٣٣٧: (وكانوا في القاهرة خلال الأربعة الأيام التي قضيناها هناك يهتمون بأمرنا اهتماماً جدياً). أو يقول في ص ٨٢: (وقد وعدتنا القاهرة — تحت تأثير هذه الأخبار الطيبة — بالذهب والبنادق والبغال والتراليوز والمدافع ..).

●●●

وفي خلال هذا السرد الشائق لسلسلة متتابعة من الحوادث المثيرة يظل لورانس مبدعاً في وصف العادات العربية والتقاليد البدوية، ووصف المدن العربية وقراها ودساكرها وصفاً لا يملك القارئ نفسه من الإعجاب بدقته وروعته. على أن لورانس بارع أيضاً في وصف الرجال: عرباً كانوا أم غير عرب، ويكفي أن أحيل القارئ على أوصافه البارعة للشريف شاكر ص ١٦، ووصف فيصل ووصف النبي وغطرسته وصراحته ص ١٨٦، ١٨١، ووصفه لأبناء الشريف حسين فيصل وعبد الله — الملك عبد الله — وعلي، ووصفه لعودة البدوي ولفهد اللذين يمثلان أخلاق الصحراء ...

ولورانس مؤلف من طراز رفيع، فهو حين يتوجس إملالاً في السرد يلقي إليك بفكاهة تسري عنك وتبعثك على المضي في القراءة، كوصفه لجيوش الحشرات والبراغيث التي أرادت أن تجعل من جلده الناعم سماطاً شهياً لها، ولم يشأ أن يكون كريماً معها — كرم العرب — إلى حد أن يقدم دمه طعاماً لهذه الضيوف الثقيلة .. ص ٢٥٦.

وهكذا يمضي بك الكولونيل لورانس في خمسمائة صفحة من التاريخ والمذكرات والعادات خلال عامين في الصحراء، فتشعر وأنت في جو من الترجمة العربية البليغة والأسلوب العربي المشرق للدكتور كرم أن أطراف الجزيرة كلها قد اجتمعت بين يديك وتحت ناظريك ...

محمد عبد الغني حسن



وداعا إلى غير لقاء

للأستاذ أحمد بدران

ودعها فى ذلك المساء وقد عزم على ألا يلقاها بعدها، وعندما أمسك يدها وصافحها عرته رجفة، وأوشكت أن تقفز من عينيه دمعة ولكنه أسرع فرد‌ّها. ودعا لها سيارة لتحملها إلى منزلها، وكانت الليلة ممطرة والبرد قارساً والقمر متدثراً بالغمام، فكأن الطبيعة تشاركه الأسى فى ذلك المساء. ونظر إلى وجهها الصغير الجميل من خلال زجاج نافذة السيارة وقد علته طبقة من الماء، فبدا الوجه مضطربا، ولوح لها بيده، ثم قفل إلى الملهى الذى كانا فيه، فجلس ثانية إلى المائدة التى كانا عليها يجلسان، ولما استأذنت دمعتان فى الانحدار لم يقاومهما، وأطلق لفكره العنان ومضى يذكر.

يا لله!! أكان ذلك حقاً منذ ثلاثة أعوام؟ ما أسرع مانمر الأيام! نعم فى ليلة جميلة منذ ثلاثة أعوام كان مدعواً إلى حفل قران فى المعادى عند أسرة صديقة، وتردد كثيراً فى الذهاب، ولم يأنس فى نفسه تلك الليلة ميلا إلى الصخب والضجيج، كان مزاجه يومها أقرب إلى الحزن دون ما سبب، والتمس عذراً فى هذه الأكوام من النشرات والمجلات الطبية لم ينظر فيها منذ أسابيع، لكنه خشى لوم الأسرة الصديقة وغضب العروس الصغيرة وقد كان يعتبرها له أختا، فحزم أمره ومضى إلى المعادى ... إنه ليسائل نفسه الآن: كم تتوقف الأمور الجليلة على المصادفات الصغيرة؟ ترى لو لم يذهب فى تلك الليلة ... ولكنها الأقدار كانت تعد له يومها حدثاً كبيراً ...

ورآها هناك ... كان جالساً وحده فى ركن قصى يرقب الراقصين والراقصات يتخاصرون على نغمات الموسيقى، وأبى عقله إلا أن يتفلسف.

أيها الفتى الذى يضم فتاته فى قوة كأنما لا شىء يستطيع أن ينتزعها منك، عبثاً ماتبذل من جهد. سيتمتع بهذا الصدر وتراقص غيرك ومن بعده غيره وهكذا فى الحياة دأبهن ... تلك خصلة ورثنها جميعاً عن أمهن حواء ... عدم الوفاء!

وأنت أيها الرجل الذى تراقص هذه الفتاة الفاتنة ذات الثوب الأسود، إن فتنة الجسد الأبيض لا يبديها مثل إطار أسود، فحذار أيها الغريب من هذه النظرات التى تصوب إليك كالسهام المريشة من هذه العيون النجل ذات الأهداب كأسنة الرماح. إنها سلاح المرأة منذ الأزل، كم أغرت بها، كم صدت وكم قربت وأبعدت، وكم أحيت وكم صرعت ...

ولكن صوتاً يهمس فى أذنه: «وأين أنت؟.. فى أى واد سحيق؟ يا سيدى نحن هنا». وكانت ربة الدار تقول: أنت تجلس وحيداً؟ ولكن الذنب ذنبى، وسأكفر عنه فى الحال، هذه فتاتى سأقدمها إليك، فحذار ألا تشرفنى!

يا إلهى! كيف غابت عيناه عن هذه الفتنة من قبل؟! وكانت قيد خطوات منه ... وقال لها:

— هل أحظى هو فاتن حقاً؟

فأجابت دهشة :

— نعم !

قال : سموك به منذ وقت ؟

قالت فى سخرية : أو بعدها بأيام !

قال : وكيف عرفوا وقتها أنك ستصبحين فاتنة ... ؟!

أجابت وقد ضمت شفتيها الصغيرتين فى تحد وصوبت إليه عينين كأنهما من عيون البقر : هل أعد هذا غزلاً ؟

قال وهو يتكلف الجد : إذا شئت .. ولكن قومى بنا إلى حلبة الرقص .

وكان وهو يراقصها يطيل التأمل وبصره حائر بين ذلك الجبين المشرق الذى يشع نوراً يضىء ما حوله . وهذه الأجفان التى تلقى على الوجه ظلالا فاتنة ، وهذا الفم تحيط به شفتان رقيقتان مضمومتان فى قوة كأنما تتوقعان خطراً مباغتا أو تحرسان صفين من اللالىء الناصعة ، وهذا الذقن الجميل الذى يذكره بوجه نفرتيتى فى تماثيلها ، والثوب الجميل الذى يضمها فى شغف ترى أهو ذلك الجسم الجميل الذى يسعد بهذا الثوب الأنيق ، أم هو الثوب يتيه زهواً بما يضمه من جمال ؟ لكأنما تمنى الجسد فكان ذلك الثوب تحقيق أمنيته ، أو دعا الثوب فكان فى موضعه استجابة لدعوته ..

وتوقف العزف وقالت ربة الدار : ها كم أيها الأصدقاء والصديقات مفاجأة صغيرة ... إن الآنسة فاتن ستغنى لنا مقطوعة بكل من اللغات العربية والانجليزية والفرنسية ، ونظر إليها وقال : أنت ؟ أجابت : يبدو ذلك . واتجهت إليها الأنظار ، واشتد التصفيق ، وغنت فى كل صوت رائع حنون أطربه وملك عليه حواسه ... استهوته وهى تنشد من شعر شوقى :

جحدت عيناك زكى دمى ... أكذلك خدك يجحده

قد عز شهودى إذ رمتا ... فأشرت لخدك أشهده

بينى فى الحب وبينك ما ... لا يقدر واش يفسده

ما كان أحرى هذا الحديث أن يوجه إليها .

ونظرت إليه رانية وهى تغنى بالانجليزية :

أحبينى ... أحبينى إلى الأبد ... ودع الأبد يبدأ الليلة

ثم تبسمت له وهى تقول فى أغنية فرنسية :

الحب .. الحب ... هو سيد متعالٍ .. ولكنه خادم مطيع ! .

ولما انتهت من غنائها أحس بأنه يريد أن يخلو بنفسه ليفكر فيها ، فهو لا يدرى ماذا حدث له الليلة ، لقد قلبت له هذه الفتاة حياته رأساً على عقب ، وتسلل إلى الشرفة الباردة وأغلق الباب وراءه ، ورأى القمر ينظر إليه فى رفق وحنان وأشعته الفضية تنعكس على صفحة ماء النيل فى منظر ساحرى يأخذ بالألباب ، وضوؤه إذ يتسلل من بين فروع أشجار الحديقة قطعاً كأنها النقود الفضية ... لكن الباب فتح فجأة .. وكانت هى ، وقالت له ضاحكة : « قل لى أطبيب أنت أم شاعر ..؟ » .

قال : كنت طبيباً ولكنك جعلتنى منذ الليلة شاعراً ! ولكن أنت ما جاء بك إلى هنا ؟..

— فررت من الصخب والضجيج .. ولم أعلم طبعاً أنك هنا .

— ولكن الصخب والضجيج ما زال يلاحقنا هنا فتعالى معى ..

وأمسك ذراعها وقادها إلى ركن قصى فى حديقة الدار وجلس إلى جانبها وقال : أريد منك أن تغنى لى الآن كل ما غنيته هناك ! .

— ولكنى لا أستطيع ... إنى متعبة ..

— ولكنى أصر على ذلك ..

— تصر ؟ إنك تخاطبنى بلهجة غريبة ... يظهر أن من عرفتهن قد دللنك أكثر من اللازم فاعتدت أن تنال كل ما تريد ... ولكنى لن أجيب طلبك ..

— فى هذه الحالة لن أدعك تنصرفين ، وكم يسرنى أن تقضى ما بقى من الليل هنا إلى الصباح ..! .

وغنت له وحده ، ولما أتمت غناءها قبلها فجأة ، وقالت غاضبة :

— إنك لجرىء .

أجابها فى مثل لهجتها : إن كنت لا تريدينها فرديها إلىّ فى الحال ... .

فضحكت ...

ثم إنه يذكر هـذا اللقاء الأول ، يذكر كل لحظة فيه ولن ينساه أبداً ، وهو يذكر بعد ذلك كل ساعة قضياها سوياً فى الأعوام الثلاثة التى مضت كأنها الحلم ... وهو يذكر المرات القليلة التى اختلفا فيها ، ثم ذات يوم مشمس من أيام الشتاء . كانا يجلسان فى جزيرة الشاى ، وأخرجت من حقيبتها صوفاً ومضت تعمل . سألها عن هـذا « البول أوفر » ؟ وتحايلت فقالت : كلفتنى إحـدى صديقاتى أن أصنعه لأخيها . فتناوله منها فى هدوء وألقى به فجأة فى البركة التى تحيط بالجزيرة ، ووجمت هى لحظة ولكنها لم تقل شيئاً حتى هما بالانصراف ، فسألته فى هدوء :

— هل تثق بى ؟

فأجاب :

— أكثر مما أثق بنفسى .

قالت : كان الـ « بول أوفر » لك ! .

ومرة أخرى كانا يجلسان فى ذلك المقهى الذى يطل على النيل ، وقال لها فجأة : أريد أن تهدى إلىّ صورتك .

قالت : ولكنك ترانى فى كل حين ، فما فائدة الصورة ... ثم أنت تعلم ما تجره من قلق ومتاعب ..

فقال لها : اسمعى .. لقد سألتنى ذات ليلة هل أثق بكِ وعرفتِ إجابتى ، وأنا اليوم لم أسألك هذا السؤال ، ولكنى عرفت إجابته ، وأنا على أى حال أشكر لك حسن رأيك فىّ .

وقاما لينصرفا وقد خيم عليهما الصمت ، ولكنه سمع صوتها أول شىء فى الصباح فى التليفون تقول : اعذرنى إذا كنت قد أغضبتك . ولكنه أمعن فى الرفض وأصرّ على ما طلب . وكان له ما أراد ، وقدمت إليه مجموعة كبيرة من صورها لا صورة واحدة ...

ثم يستعيد ذكرياته مسرعاً حتى يصل إلى الليلة الماضية ، حين زارته سيدة جميلة ، فيها من فاتن شبه كبير ، وجلست ثم قالت : إنك لا تعرفنى ، ولكنى أعرف عنك كل شىء من قبل ، أعرف ملامح وجهك ، وألوان جميع ربطات عنقك ، وأى الأماكن تحب وأيها تكره ، وكم قالباً من السكر تضع فى فنجان الشاى ، أعرف كل هذا ، لأن فاتن أختى ، ولم تكن تحدثنى طوال الأعوام الثلاثة الماضية عن شىء إلا عنك ، قصت علىّ كل شىء ، وقد جئت إليك دون علمها أتحدث إليك .. أنت تعلم أن فاتن مسيحية ؟ فاجتماعكما بعقد مقدس أمر مستحيل ، طبعاً أنت تعرض أن تتزوج منها ولو احتفظت بدينها ، ولكننا من أسرة محافظة فى الصعيد ، شديدة التمسك بالتقاليد ؛ فمن المؤكد أنها لن تقبل هذا الزواج ، وقد تهجر هى أسرتها من أجلك ، ولكن هل تقبل أنت هذا الوضع ؟ قد يبدو لك الأمر اليوم سهلاً ، ولكن إذا مضت السنون وآن للعاطفة المتأججة أن تهدأ — وهذا شىء لا بد منه — فسترى أنت أنك أخطأت ، وسترى هى أنها ضحت بالكثير ، ولن تشعر بالسعادة قط وهى منتزعة من أهلها ، وسيكون فى ذلك تنغيص حياتك أيضاً ، وبعد فهذا هو الوضع ! ولقد تقدم إليها الكثيرون ، ولكنها رفضتهم جميعاً ، وأنا أعرف السبب فى رفضها ؛ فهو أنت . إذا كنت تحبها حقاً يا سيدى كان عليك أن تضحى من أجل سعادتها وتتركها ، فإن الأعوام تمر . وأنا أدرك فداحة ما أطلب منك ، ولكنى أركن إلى نبلك وكرم خلقك ، وأترك لك بعد ذلك الأمر ...

وأفاق من أحلامه ، ورأى المقهى يغلق أبوابه ، فمضى منصرفاً حتى إذ وصل إلى منزله جلس يكتب :

« فاتن ... اغفرى لى ... سأتزوج قريباً ، فلن أستطيع بعد الآن أن أراكِ .. فوداعاً ... إلى غير لقاء » .

وانحدرت من عينيه دمعتان ، مسحهما فى رفق .

أحمد بدالة

من صلوات الشاعر الغريب :

جحود ...

هل كان قلبي سوى قربان فنانِ
أو كان شعري سوى قرآن وجداني
واضيعتاه لفنٍّ الحسد يمنعكم
يا أمة خلقت من غير ميزان ..!
واضيعتاه لأشواقي وأخيلتي
ما بين عباد أصنام وأوثانِ
مالي أغني فلا يهتز سامركم
على اهتزازات أشجاني وأوزاني
أنا الذي يرقص الآباد مزهره
ويلتقي النور والظلماء في حاني
مالي أغني فلا يشجي بكم أحد
كأنني هاتف في سمع موتانِ
وكم طربتم لأصداء مشوهة
من نعق بوم ومن تعاب غربان
حسام يشكرني قومي وأنكرهم
كأنني في سوى قومي وأوطاني
حسام الهم كالمحموم من ظمأ
والنبع قربي يسقي كل ظمآنِ
يا لائمي ... وأنتم حبل مشنقتي
وعاذلي ... وأنتم نسج أكفاني
فكوا بأيديكم الأغلال عن عنقي
فالفن ماكان يوماً ذنب فنان
لا تثرعشوا ريشة الإبداع مل. يدى
فتخلطوا بين أصباغي وألواني
لا تحرقوا صلوات الفن في شفتي
فإنها ملك أجيال وأزمان
لا تحرموني حقي في محافلكم
لفرية اسمي فاسمي غير ألحاني

وربما حلقت في الأفق قبَّرة
وعطرت زهرة أرجاء بستان
لكن غداً سوف يجري كل ذي أذنٍ
غداً ... متى حررت آذان عُبدان
أن الذي فجّر الإلهامَ في أفق
قد شاء أن تصهرنه نارُ حرماني

محمد مفتاح الفيتوري

النيل

يا نيلُ ! من نبعك في الجنوبِ
ومن مدار النار والهيبِ
وراء خط الأزل المحجوبِ
ومن مجيرات الشذا والطيبِ
يحملن — غداً — كآبةَ الغريب
يرسله فيضاً بلا حسيب
يمر بالسودان من قريب
ويغمر مصر الفجر الخصيب
إلى مصبِّ الأبد الرهيب
البحرِ ذي الثورةِ والشبوب
وادٍ ، يشق أكرم السهوب
يضم مجرى مالك السكوب
كالنور من شرقٍ إلى مغيب
أو خطراتِ الشاعرِ الوهوب
يرسلها صافية الشؤبوب
أشهى من الخمر أو الحليب
الماء ، أصفى من زجاج الكوب
شوقي إلى منابعِ العذوب
في سفر الإدلاج والتأويب
شوقُ حبيبٍ تاقَ للحبيب !

● ● ●

يانيلُ ! كم من سرٍ عجيبِ
يروى حديث مجدك السليبِ
فى صفحاتِ سفرك المكتوب
وصبرك المأثور عن أيوب
وقصة الغالبِ والمغلوبِ
ووقفة الغاصب للمغصوب
يقذفه بالجمر واللاهوب ..
ويحتى الخمر من الزبيب
ويزدهى فى ثوبه القشيب
لم يخشَ منه ثورةَ الغضوب
ولا اشتداد الوقفِ العصيبِ
فى عاصفِ الأمطار والهبوبِ !

***

يانيلُ ! يامربى الشعوبِ
، ومخرج الأبطال للحروبِ
مالكَ أعنّةَ الدروب
سهول مصرَ أو جبال النُّوب
تحبُكَ خوف الصدع والتشعب
وتحت تاج (المليكِ) المحبوب
يهمُّ للنهضة والوثوب أكرم مؤلف القلوبِ !

عامر محمد بحيرى

جامعة إبراهيم باشا الكبير

إعلان

عن وظائف كتابية خالية

تعلن جامعة إبراهيم باشا الكبير عن حاجتها إلى تعيين كتبة بالإدارات المختلفة بها . وفيما يلى شروط التعيين :

أولاً : أن يكون المرشح مصرى الجنسية لا يزيد عمره على ٣٠ سنة ، ولا يقل عن الثانى عشرة سنة .

ثانياً : أن يكون حاصلاً على إحدى الشهادات الآتية :

١ — دبلوم مدارس التجارة المتوسطة .

٢ — شهادة الدراسة الثانوية القسم العام .

٣ — شهادة الدراسة الثانوية القسم الخاص (التوجيهية) .

ثالثاً : أن يجتاز الكشف الطبى أمام القومسيون الطبى العام .

رابعاً : أن يكون مستوفياً جميع مسوغات التعيين .

وسيكون التعيين فى الدرجة الثامنة بأول مربوطها على حسب الشهادة الدراسية .

فعلى راغبى التقدم لهذه الوظائف تقديم طلب استخدام على الاستمارة ١٦٧ ع . ح . مرفقة بالشهادة الدراسية المنوه عنها ، وشهادة الميلاد ، أو مستخرج رسمى ، وصورتين شمسيتين مقاس ٦ × ٨ سم .

وترسل الطلبات باسم حضرة صاحب السعادة سكرتير عام جامعة إبراهيم باشا الكبير بمبنى معهد التربية للمعلمين بالمنيرة (١٩ شارع أمين باشا سامى) فى ميعاد لا يتجاوز ٢٦ / ٨ / ١٩٥٠ .

٥٦١١

المؤتمر الثقـــــافى العربى الثانى

هــذا المؤتمر هو المؤتمر الثانى الذى تدعو إليه الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربيـة ، وتشترك فيـه وفود الدول الرسمية تمثل وزارات المعارف العمومية العربية والجامعات الرسمية والأهلية ، كما دعى إلى الاشتراك فيه لفيف من رجال التربية الممتازين ، وأبيح الانتساب إليه للأساتذة والمدرسين والمدرسات فى مختلف الأقطار العربية .

وقد بلغ عدد المشتركين فى المؤتمر زهاء أربعمائة عضو من بينهم حوالى مائة مدرسة من مدرسات المدارس الثانوية والعالية فى مختلف الأقطار العربية ، وقد لوحظ أن الضغط كان شديداً من المشتركات فى سوريا ولبنان ، وهـذا دليل واضح على تقـدم الحركة الفكرية والثقافية بين نساء هذين القطرين ، ولولا القيود المفروضة على تحديد الأماكن الخاصة بإقامة الأعضاء لكانت الإدارة الثقافية قد سعت لتلبية تلك الطلبات الكثيرة من المشتغلات بالتربية والتعليم فى هذين القطرين .

وكانت جامعة فاروق الأول بالإسكندرية صاحبة الفضل فى إعداد مكان انعقاد المؤتمر بمبنى كلية الآداب بالشاطبى وإعداد أماكن السكنى المجانية لمعظم المشتركين والمشتركات من الأقطار العربية .

ومدار البحث والمناقشة العامة فى هذا المؤتمر موضوعان هامان من المواضيع الهامة التى تشغل أذهان رجال التربية فى مختلف أرجاء العالم وخاصة فى الأقطار العربية فى الآونة الحاضرة ، وسيشترك فى بحث هذين الموضوعين بحثاً تفصيلياً كافة أعضاء المؤتمر من رسميين وغير رسميين ، بيد أن هناك مسألتين سيقتصر بحثهما والاهتمام بهما على الممثلين الحكوميين دون سواهم ، وهاتان المسألتان هما :

١ — بيان الخطوات التى اتخذتها كل حكومة من الحكومات العربية فى سبيل تنفيذ قرارات المؤتمر الثقافى العربى الأول .

٢ — دراسة التقارير التى وضعتها وزارات المعارف العربية عن الأحوال والاتجاهات الثقافية والتربوية السائدة فى كل قطر من الأقطار العربية .

وللمؤتمر جانبه الثقافى العام فضلا عن جانبه الفنى الذى أشرنا إليه آنفاً ؛ فهناك محاضرات عامة فى شئون التعليم والتربية كلف بإلقائها أيام انعقاد المؤتمر لفيف من رجال التربية الممتازين ، وقد حددت للمحاضرات العامة مواعيد تقع بعد الفراغ من أعمال اللجان التى سوف تستمر صباحاً وبعد الظهر بغية الانتهاء إلى القرارات والتوصيات اللازمة .

وللمؤتمر كذلك جانبه الاجتماعى الذى من شأنه التخفيف من ضغط الجو العلمى المتصل الحلقات ، فقد أعد برنامج للرحلات والمشاهدات والحفلات الشائقة .

ولا شك أن أهم ما نستخرجه من هذا المؤتمر هو أنه يتيح لعدد كبير من أبناء الأقطار العربية فرصة زيارة مصر والتعرف إلى معاهدها ومعالمها ، كما يتيح لهم الاجتماع بإخوانهم المصريين فى صعيد واحد ، وفى ذلك خير فرصة لتبادل الآراء وتلاقى الأفكار وتمازج وجهات النظر ، وهذا هو الكسب المحقق الذى يعود بالخير على الثقافة والتعليم فى البلاد العربية .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٠٩ | الاثنين ١٤ من ذى القعدة سنة ١٣٦٩ — ٢٨ من أغسطس سنة ١٩٥٠ | السنة الثانية عشرة

صورة من الجهاد فى الشرق بمناسبة إعلان وحدة الدول الأندونيسية يوم ١٧ أغسطس :

اندونيسيا اليـــــوم

بحث تاريخى سياسى

للأستاذ محمد جنيدى

الحديث اليوم عن التطورات السياسية فى إندونيسيا هو الحديث عن الحركات القومية للشعوب الإسلامية فى جميع أنحاء المعمورة للتحرر من الاستعمار الغربى .

وتدخل اليوم إندونيسيا فى عهد جديد ، عهد الوحدة ، عهد الإخاء ؛ فقد ألغيت الولايات المتحدة الاندونيسية ، وأصبحت إندونيسيا حكومة الجمهورية الإندونيسية .

وحبيبٌ إلىّ أن أقدّم للقارئ الكريم فى هذا المقال الموجز بحثاً تاريخياً سياسياً يتعلق بالوضع الإندونيسى التاريخى والسياسى منذ بدأ الاستعمار الغربى حتى اليوم ، لتزداد ثقافته العامة ، وليقف على مدى قوة الحركات التحررية فى الشرق الأقصى .

إندونيسيا هى مجموعة جزائر الهند الشرقية ، وتضم ما يزيد على ألفى جزيرة ، منتشرة بين القارة الأسيوية والقارة الاسترالية . وأهم هذه الجزائر من ناحية السكان والإنتاج الزراعى والمعدنى وتقدم الثقافة والعلوم ، جزر جاوا وسومطرا وبورنيو وسليبيس . أما جزيرة جاوا فهى مركز الثقافة والآداب ، ومهد الحركات القومية ، ومجتمع الأوربيين من مستعمرين ورجال تجارة وصناعة وعلوم .

وقد بلغت شأواً بعيداً فى الحضارة والمدنية . ويبلغ عدد سكانها أربعين مليون نسمة .

وتحتل اليوم جزيرة جاوا المكانة الممتازة لبلدان الشرق الأقصى . فهى واقعة فى موقع جغرافى ممتاز ، وغاصة بالسكان ومملوءة بالمصانع والمعامل ، وزاخرة بدور العلوم والمعارف ، وفيها عاصمة الجمهورية الإندونيسية ودور الوزارات .

ومن أهم إنتاجها الزراعى : الأرز ، وقصب السكر ، والشاى ، والكينا ، والمطاط ، والنارجيل ، والدخان . وأهم إنتاجها المعدنى البترول . وقد رسمت الحكومة الإندونيسية سياستها الإنشائية العمرانية ، وقررت جعل جزيرة جاوا مركزاً صناعياً عاماً للجزر الإندونيسية ، كما قررت ترحيل بعض سكانها إلى جزيرة سومطرا ، فيمكن بذلك تكييف الحياة الاقتصادية لهذه الجزيرة حسب حاجات عدد السكان .

وأما جزيرة سومطرا فهى فى الدرجة الثانية بعد جزيرة جاوا من حيث الحضارة والمدنية ، لأن المستعمرين لم يلتفتوا إليها كثيراً ، فلم يستغلوا ثرواتها المعدنية والنباتية إلا قليلاً . وتتقدم الحياة الثقافية والعمرانية والاقتصادية فى شرقها

وغربها ، وذلك لخصب التربة في شرقها ، ونشاط السكان في غربها .

وإذا نظرنا إلى جزيرة سومطرا من ناحية الاستغلال لمعادنها ونباتاتها ، فيمكن أن نعتبرها بلاداً بكراً ، لم تستغل بعد . فهي غنية بالمعادن والنباتات المفيدة التي يحتاج إليها العالم ، وتوجد في أواسطها آبار البترول ، كما توجد في شرقها حقول المطاط ، وكما توجد في غربها مناجم الفحم الحجري ، وتملك الشركات الهولندية جل هذه الحقول والمناجم . وستكون هذه الجزيرة الهدف الأول لبرنامج الانتعاش الذي قررت الحكومة الإندونيسية تنفيذه في الوقت الحاضر ، وقد جلبت إليها فعلا المعدات والآلات الزراعية من الفلبين . وترحب الحكومة الإندونيسية باستغلال رءوس الأموال الأجنبية فيها ، لتنتعش الجزيرة اقتصادياً وعمرانياً . ويبلغ عدد سكانها عشرة ملايين نسمة .

وأما جزيرة سليبيس فتقع في شرق إندونيسيا ، وتتبعها عدة جزر صغيرة ، وتقع في شمال هذه الجزيرة مقاطعة (منادو) ، وهي مقاطعة يسكنها المسيحيون الإندونيسيون ، ويمتازون عن بقية سكان هذه الجزيرة بالحضارة والمدنية . إذ أن هولندا لما استعمرت إندونيسيا أفسحت مجال التعليم لهم ، كما أفسحت المجال لسكان ولاية (ملوكو) ، وتوجد في جنوب هذه الولاية مقاطعة أخرى هي مقاطعة (أمبون) ، وسكانها كإخوانهم سكان مقاطعة (منادو) من حيث الثقافة والتعليم ! وخلال العهد الهولندي السابق كانت قوات جيش حكومة الهند الشرقية منتخبين من سكان مقاطعة (منادو) و (أمبون) ، لثقة هولندا في ولائهم لها ، ولاندماجهم في البيئات الهولندية في إندونيسيا ، ولرابطة العقيدة الدينية . وقد استغل الهولنديون هذا الولاء وهذه الرابطة فبثوا روح التفرقة والبغض والكراهية بين سكان هاتين المقاطعتين وبين إخوانهم الإندونيسيين سكان الجزر الأخرى الذين يدينون بالعقيدة الإسلامية . ولا ننس أن هؤلاء الإندونيسيين قد لعبوا دوراً هاماً بإرشاد السلطة الهولندية في مناهضة الحركات القومية خلال أربعين عاماً (١٩٠٨ — ١٩٤٨) ، فقد كانوا البوليس الحربي لحكومة الهند الشرقية ، وكانوا يمثلون الغطرسة العسكرية المتعجرفة . وبعد أن أعلنت إندونيسيا استقلالها كان بعض زعماء ولاية ملوكو وسليبيس من سكان مقاطعة (منادو) و (أمبون) كالدكتور لمينا ، والدكتور راتولانجي ، والدكتور هار هاري ، والمهندس فاتوهينا ، كانوا الدعامة الأولى في صرح الاستقلال والأساس الأول في بناء الجمهورية . وقد غدا جيش حكومة الهند الشرقية الذي يشكل السواد الأعظم منه سكان مقاطعة (أمبون) و (منادو) مندمجاً في جيش الجمهورية الإندونيسية عن رغبة وإخلاص في خدمة الجمهورية التي ترمز إلى الديموقراطية الحقة ! وإلى المساواة التامة بين جميع سكان إندونيسيا العظمى !...

ومن أهم إنتاج جزيرة سليبيس « التوابل » ، وقد اشتهرت بها منذ عهود سحيقة ، وهذه « التوابل » هي مصدر البلاء لأندونيسيا ، إذ رحل إليها الأوربيون في القرن السادس عشر ، وصاروا ينقلون « التوابل » منها عبر الشرق الأدنى إلى أوربا ، ثم توسعت تجارة « التوابل » فأسست على الأثر شركات إسبانية وبرتغالية وهولندية وانكليزية ، ثم اندمجت الشركات الهولندية في بعضها وكونت (شركة الهند الشرقية) في عام ١٦٠٥ . وتركزت بذلك أقدام الهولنديين في أندونيسيا ، وعقدوا بعض الاتفاقات التجارية مع بعض سلاطين جزيرة جاوا وأمرائها ، وجعلوا من مدينة (جاكرتا) مركزاً رئيسياً للتجارة الأوربية . ولما سلمت الشركة أمورها إلى الحكومة الهولندية في القرن الثامن عشر ، وأصبحت أندونيسيا مستعمرة هولندية ، أبدل الهولنديون اسم المدينة (جاكرتا) إلى اسم هولندي هو (بتافيا) . وهو اسم لمقاطعة في هولندا ، ثم أعيد الاسم الأول إلى هذه المدينة بعد أن تحررت أندونيسيا في السابع عشر من شهر أغسطس عام ١٩٤٥ .

والحياة الثقافية والزراعية في جزيرة (سليبيس) تتقدم بخطى ثابتة ، وهي أحسن الجزر الأندونيسية الواقعة في شرق أندونيسيا من حيث الحضارة والمدنية . ولما عقدت اتفاقية لنجارجاتي بين الحكومة الأندونيسية والحكومة الهولندية رفضت هولندا أن تضم الجمهورية الأندونيسية جزيرة سليبيس . وقد شكلت فيها حكومة أندونيسية صورية لا جيش لها ولا حول ولا نفوذ . وفي هذه الجزيرة أباد الهولنديون المستعمرون بقيادة الكابتن (وسترلنج) الهولندي أربعين ألفاً من الأندونيسيين في عام ١٩٤٦ ...

ولم تستطع حكومة أندونيسيا الشرقية التي أقامها الهولنديون تحمل مسئولية هذه الإبادة . واحتجت الحكومة الأندونيسية لدى الحكومة الهولندية على ما قامت به الجيوش الهولندية من الفظائع الوحشية على المقاطع الثائرة في جزيرة سليبس . ولا تزال هذه المسألة الخطيرة معلقة بين الحكومة الأندونيسية والحكومة الهولندية ، وستثار في يوم من الأيام ... ويبلغ عدد سكان هذه الجزيرة اثنى عشر مليون نسمة .

وهناك الجزيرة الرابعة التي تعتبر إحدى الجزر الأندونيسية الكبرى ، وهي جزيرة (بورنيو) ، وهي أكبر جزيرة في العالم . كانت تستعمرها هولندا وانكلترا ، وقد زال الحكم الهولندي فعاد الجزء الهولندي إلى حظيرة الجمهورية الأندونيسية . وأما الجزء الانكليزي وهو يشمل الشمال الغربي لهذه الجزيرة ويعرف بمقاطعة (سراواك) فلا يزال تحت النفوذ الانكليزي .

والحياة الثقافية والصناعية في هذه الجزيرة لم تتقدم بعد ، برغم وجود مادتين حيويتين للعالم ، وهما الذهب والبترول . وقد بدئ في استخراج البترول في هذه الجزيرة في نهاية القرن التاسع عشر ، فكانت آبارها حتى أصبح شرق هذه الجزيرة حقولاً للبترول . وتعد مدينة (تاراكان) الواقعة في شرق هذه الجزيرة أكبر مصدر للبترول في الشرق الأقصى ، ففيها حقول البترول الواسعة ، وفيها معامل تكريره الضخمة ، ومنها كانت هولندا والشركات الاحتكارية الغربية تصدر البترول إلى أوربا وأمريكا .. وعندما بدأت هولندا تنسحب من أندونيسيا في أوائل عام ١٩٤٢ حطمت حقول البترول وبعض معامل تكريره كيلا يستغلها اليابانيون في أعمالهم الحربية .

ومدينة (تاراكان) هي أول مدينة احتلتها القوات المتحالفة من القوات اليابانية خلال معارك الشرق الأقصى التي أدت إلى انهيار اليابان في أغسطس عام ١٩٤٥ . وقد احتلتها القوات الاسترالية ثم سلمتها للقوات الهولندية التي كانت سائرة خلف القوات المتحدة !.. ويظهر من هذا التسليم نية الدول الكبرى نحو استعمار الشرق واستعباده !.. فهولندا التي انسحبت من أندونيسيا إثر نزول القوات اليابانية فيها ، لم يبق لها أية سلطة أو سيادة على أندونيسيا .

ولكن الاستعمار الغربي يحاول بقوة السلاح إعادة السلطة الهولندية إلى أندونيسيا ، لتحفظ له مركزه السياسي والاقتصادي ! وقد أثبتت الحوادث الكبرى التي حدثت في أندونيسيا بعد إعلان استقلالها صحة هذا الرأي . فقد أيدت القوات المتحالفة الجيوش الهولندية في احتلال بعض المدن الأندونيسية الكبرى وتثبيت أقدامها في الجزائر الأندونيسية ، مما أدى إلى عرقلة نمو الحياة الأندونيسية الحديثة ، حياة الحرية والاستقلال . فحدثت الحوادث العسكرية وحروب العصابات بين القومين — الأندونيسية والهولندية — واستمرت الاضطرابات في جميع أنحاء أندونيسيا خمس سنوات .

والمادة الثانية من المواد الهامة في هذه الجزيرة هي الذهب . ويوجد في جنوب الجزيرة مناجم الذهب وتستغلها الشركات الغربية . وتدرس الحكومة الأندونيسية الآن السياسة التي ستتبعها إزاء هذه الشركات الاحتكارية التي تسيطر على المرافق العامة في أهم المدن الأندونيسية . والنية متجهة نحو تأميم الشركات والمصانع والمعامل التي تحتاج إليها الدولة في أعمالها الحربية والمدنية ، وتعويض أصحابها نقداً ، كما ستوضع للشركات الأخرى نظم تحفظ حقوق المواطنين وأصحاب الشركات .

ذكرت آنفاً أن الحياة الثقافية في جزيرة بورنيو لم تتقدم بعد . والسبب في ذلك هو السياسة الاستعمارية الرامية إلى بقاء الشعب بعيداً عن نور العلم . وقد ثبت فعلاً أن بعض رجال التعليم الأندونيسيين حاولوا إدخال التعليم الحديث في هذه الجزيرة فوجدوا مناهضة من الحكومة الهولندية ، بدعوى إثارة الأفكار ضد سياستها . وكانت هولندا تصرف على التعليم في أندونيسيا جزءاً بسيطاً من ميزانية حكومة الهند الشرقية . وحل الواردات تعمر بها هولندا الأراضي الواطئة وتجعلها مروجاً خضراء ... وقد أشار الدكتور سوكارنو حين بدأ جهاده السياسي إلى الأموال الطائلة التي تسحبها هولندا من أندونيسيا قائلاً : « لو عملنا جسراً من ذهب من الأموال الأندونيسية التي سحبتها الحكومة الهولندية إلى هولندا من أندونيسيا . حيث يبدأ الجسر من أندونيسيا إلى هولندا لكفى ! » ويبلغ عدد سكان هذه الجزيرة مليون نسمة .

محمد جنيبه

المؤرخ الجغرافى المسعودى

للأستاذ على أدهم

بين التاريخ والجغرافية علاقة صميمة ورابطة وثيقة ، جعلت بعض المفكرين يذهبون إلى أن الفهم الصادق للتاريخ والتفسير الصحيح لا يكونان إلا عن طريق البحوث الجغرافية ، وآمن بعضهم وصدق بالجبرية الجغرافية ، وحسبها وحدها كافية لجلاء ما غمض من أسبابه واستسرت دوافعه من أحداث التاريخ وتطوراته ، وقد عارض هذا الرأى ونقده وأظهر بطلانه المؤرخ المفكر توينبى(١) ، وقد شغلت مشكلة علاقة الإنسان ببيئته اليونان القدامى ، وبدا لأفلاطون أن يصدر حكماً حاسماً فى الموضوع يلائم نزعته التالية فقال : « إن البلاد لا تملك الناس ، وإنما الناس هم الذين يملكون البلاد »(٢) والواقع أن البيئة لم تسيطر قط على الإنسان سيطرة مطلقة ، ولكن الإنسان مع ذلك لم يستطع أن يتغلب على تأثيرها تغلباً تاماً ، وأوضح مكانة للجغرافية فى التاريخ أنها تدرس دراسة مستوعبة دقيقة علمية نزيهة بأساليبها الخاصة وطرائقها الفنية العملية — مجالات النشاط الإنسانى ومواقع الحوادث التاريخية ؛ وإبراز خصائص هذه المجالات ومميزات هذه المواقع لا يعرض على أبصارنا اللون المحلى لهذه المجالات والمواقع فحسب ؛ وإنما يرينا كذلك كيف تأثر بها النشاط الإنسانى والحوادث التاريخية ؛ ومما يلاحظ فى عالم الأدب أن فحول الروائيين الواقعيين مثل بلزاك وفلوبير وغيرهما يتحرون الدقة فى توصيف البيئة ورسم الأمكنة والمواقع التى تدور فيها حوادث رواياتهم وأقاصيصهم حتى يشعر القارىء بالعلاقة الأكيدة بين طبيعة المكان والحوادث الرواية ؛ وكثيراً ما تشبه الجغرافية بالمسرح ويشبه التاريخ بالرواية التمثيلية ، وهو تشبيه تعوزه الدقة ؛ وذلك لأن الرواية التمثيلية تصلح للتمثيل على مختلف المسارح ، ولكن روايات التاريخ لا تمثل سوى مرة واحدة على مسرحها الخاص ، وهى تتأثر إلى حد ما بخصائص هذا المسرح ، فرواية نابليون مثلاً فى أسبانيا أو روسيا أو مصر لا يمكن أن تمثلها إلا متأثرة بمسرح حوادثها فى أسبانيا وروسيا ومصر ؛ ولا نزاع فى أن طبيعة البلاد الأسبانية أو السهوب الروسية أو الأراضى المصرية كان لها أثر واضح فى إخراج الرواية وتمثيلها .

ودراسة الجغرافية معناها دراسة عامل هام من العوامل الكثيرة التى تعمل فى تكوين التاريخ ونسج خيوطه ، والمؤرخ يحاول أن يصور أعمال الناس ويكشف عن دخائل الفكر البشرى ، وكلما أجاد الاستقصاء وأمعن فى تحرى الحق ومعرفة الواقع وجد نفسه مضطراً إلى الإفادة من جهود الكثيرين الذين يعملون فى مناطق أخرى قريبة من منطقة بحثه ؛ فهو فى حاجة إلى الإلمام بجهود الباحثين فى أصول السلالات والشعوب والأجناس والباحثين عن مناشىء اللغات والعادات والأديان والمعتقدات ، وكذلك هو فى حاجة إلى الاطلاع على النتائج التى ينتهى إليها الباحثون فى طبائع الأمكنة والبيئات وما توالى عليها من تغيرات ، ومن الواضح أن المؤرخ يستطيع أن يعمق دراسته ويكمل تجاربه وخبرته بفهم الناحية الجغرافية لمشكلاته التاريخية ، لأن التفكير الإنسانى أو العمل الإنسانى لا ينشأ ويتكون فى الفراغ ، وإنما لا بد له من بيئة تؤثر فيه تأثيرها وتطبعه بطابعها .

---

(١) راجع من صفحة ٥٥ إلى صفحة ٥٩ من مختصر كتابه « دراسة التاريخ » "Study of History" .

(٢) نقل هذا الرأى عن أفلاطون البحاثة ألفريد كيرشوف فى صفحة ٣ من كتابه « الإنسان والأرض » Man and Earth .

ولقد ذهب بعض المفكرين إلى أن التاريخ يبدأ حيث ينتهى عمل الجغرافية ، لأن الجغرافية تتناول الحقائق الطبيعية ، ولكن هذا التصور للجغرافية يعتوره النقص ؛ فحقيقة أن الجغرافية تدرس البلاد والأقطار من مختلف نواحيها وتحاول أن تتفهم علاقاتها المعقدة ، ويشمل ذلك بضرورة الحال دراسة الإنسان ، لأن الإنسان عامل فى الأرض لا يمكن تجاهله ؛ فالتاريخ والجغرافية كلاهما فى حاجة إلى الآخر ، وقد كانت الجغرافية قديماً تعد المكان وتهيئ المسرح وتنفرد بذلك ، ولكن الإنسان استطاع أخيراً أن يكون له أثره فى إعداد المكان وتهيئة المسرح .

فالتاريخ فى أكثر الأحيان يفيد من الجغرافية ويحاول أن يعاشيها . وهيرودوت نفسه الذى يعتبره اليونانيون أبا التاريخ يلتقى فيه المؤرخ والجغرافى ، فقد كان رحالة كثير الأسفار ، وقد طاف فى أقطار الأرض المعروفة فى عهده ، فزار بعد هجرته من مدينة هليكارناس التى ولد بها بلاد اليونان ، وزار مصر ، وجال فى أنحائها وأغار وأنجد ، وزار بلاد الفينيقيين ، وزار بابل وما حولها ، وجاس خلال بلاد الفرس ، وطاف بسواحل آسيا الصغرى ، كما زار المستعمرات اليونانية فى إيطاليا ، وقد وسعت هذه السياحات آفاق تفكيره ، وصقلت عقله ، وأغزرت تجاربه ، وأمدته بمعلومات وافرة ، ومكنته من الإلمام بأشياء كثيرة ومشاهدات جمة ، وأطلعته على مصادر مختلفة للتاريخ ، ويسرت له استماع أخبار الرواة وقراءة الآثار المكتوبة وغير المكتوبة ، وجعلت كتابه شائقاً ممتعاً لا يمله القراء ويتذوقونه على اختلاف ثقافاتهم وتباين مداركهم وملكاتهم .

وفى طليعة مؤرخى العرب الذين يشبهون هيرودوت فى الجمع بين التاريخ والجغرافية المؤرخ الشهير على بن الحسين المعروف بالمسعودى ، فهو مؤرخ وأخبارى من الطراز الأول ؛ وهو فى الوقت نفسه جغرافى راسخ القدم عالى الكعب ، وصاحب أسفار بعيدة ، وجواب أقطار نائية قاصية ؛ وقد سبق المسعودى بعض مؤرخى العرب فى الجمع بين معرفة التاريخ والتمكن من الجغرافية ، مثل اليعقوبى الذى ألف كتابه المشهور فى التاريخ العام وألف كذلك كتاب البلدان ، وقد جمع فيه ما عرفه بنفسه من أحوال البلدان فى عصره ، لأنه عانى الأسفار من صغره ، وكان كلما رأى رجلاً من تلك البلدان بالمشرق والمغرب سأله عن وطنه ومصره وأحوال أهله وأجناسهم وعاداتهم فى المأكل والمشرب ، وأبعاد البلاد ومبالغ الخراج وأخبار الفتح ، ويدون ما وصل إليه حتى ألف كتاب البلدان ؛ ومثل أبى زيد البلخى صاحب كتاب البدء والتاريخ وكتاب صور الأقاليم ؛ وكان أكثر هؤلاء المؤرخين الجغرافيين يؤلفون كتباً فى التاريخ وكتباً أخرى فى الجغرافية ، ولكن ميزة المسعودى أن الجغرافى منه يصاحب على الدوام المؤرخ ، فهو ينظر الأمور ويتأملها فى الوقت نفسه بلواحظ الجغرافى ، وهذه الخصلة هى التى تؤكد الشبه بينه وبين هيرودوت بوجه خاص ، وهى ماثلة فى الكتابين اللذين وصلا إلينا من مؤلفاته الكثيرة وهما مروج الذهب والتنبيه والإشراف .

والمسعودى من أقدر مؤلفى القرن الرابع الهجرى ومن أغزرهم مادة ، وقد قال عنه محمد بن اسحاق النديم فى الفهرست إنه من أهل المغرب ، والظاهر أنه قد أخطأ فى ذلك ، فقد ذكر المسعودى نفسه فى الجزء الثانى من كتابه مروج الذهب ما نصه(١) : « وأوسط الأقاليم الإقليم الذى ولدنا به ، وإن كانت الأيام قد أنأت بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه ، وولدت فى قلوبنا الحنين إليه ، إذ كان وطننا ومسقطنا ؛ وهو إقليم بابل ، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلاً وقدره عظيماً ، وكانت عنايتهم إليه مصروفة ، وكانوا يشتون بالعراق وأكثرهم يصيفون بالجبال ، وذلك لما خص به هذا الإقليم من كثرة مرافقه واعتدال أرضه ،

(١) راجع صفحة ٩٥ من الجزء الثانى من كتاب مروج الذهب (الطبعة الثالثة بتحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد) .

وغضارة عيشه، ومادة الوافدين إليه، وهما دجلة والفرات، وعموم الأمن فيه، وبعد الخوف عنه، وتوسطه الأقاليم السبعة، وقد كانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد، لأن أرضه من إقليم بابل الذى تشعبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب، وبذلك اعتدلت ألوان أهله، واعتدلت أجسامهم، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة، وسواد الحبشة، وغلظ البربر، ومن جفا من الأمم، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار، وكما اعتدلوا فى الجبلة، كذلك لطفوا فى الفطنة والتمسك بمحاسن الأمور، وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام، ويعز علىّ ما أصارتنى إليه الأقدار من فراق هذا المصر الذى عن بقعته فصلنا، وفى قاعته تجمعنا، لكنه الزمن الذى من شيمته التشتيت، والدهر الذى من شروطه الإبانة، ولقد أحسن أبو دلف العجلى حيث يقول:

أيا نكبة الدهر التى طوحت بنا
أيادى سبا فى شرقها والمغارب
فقى بالتى تهوى فقد طرت بالتى
إليها تناهت واجمعات المصائب

وقد ذكر الحكماء — فيما خرجنا إليه من هذا المعنى — أن من علامة وفاء المرء، ودوام عهده حنينه إلى إخوانه، وشوقه إلى أوطانه، وبكاءه على ما مضى من زمانه، وأن من علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها تواقة، وللإلف والعادة قطع الرجل نفسه لصلة وطنه، وقد قال بعض حكماء العرب: عمر الله البلدان بحب الأوطان، وقالت الهند: حرمة بلدك عليك كحرمة والديك، لأن غذاءك منهما وغذاءهما منه، وقال آخر: أولى البلدان بصبابتك بلد رضعت ماءه وطعمت غذاءه، وقال آخر: ميلك إلى موضع مولدك من كرم محتدك».

وقد أعاد هذه النغمة وضرب على هذا الوتر الحساس فى كتاب «التنبيه والإشراف» فقال حينما تحدث عن العراق: «والصقع الذى مدينة السلام منه أفضل مواضع الأرض جميعاً فى الطيب والغذاء، وذلك أن أطيب خيرات الدنيا بعد الأمن والعافية والعز والرياسة صلاح الماء والهواء، ثم أفضل أنهار العالم دجلة والفرات، وإن نازع فى ذلك أهل مصر وفضلوا نيلهم، وأطيب مواضع العالم فى كل الأزمنة عند قياس بعضها إلى بعض وقياس بعض البلدان إلى بعض موضع اجتماع دجلة والفرات، وذلك أن بعض المواضع يطيب صيفه ويفسد شتاؤه فساداً يمتنع فيه من المكاسب المهنية والمطالب الصناعية، لشدة برده ودوام سقوط ثلجه، ومنها ما يطيب شتاؤه ويفسد صيفه حتى يشغل الحر والرمد والبق والهوام عن تحصين الرزق بالتماس والتصرف فى المهن والصناعات، ويعز علينا بما دفعنا إليه من مفارقة هذا المصر الذى به مولدنا وفيه منشؤنا، فنأت الأيام بيننا وساحقت مسافاتنا عنه، فبعدت الدار، وتراخى المزار، ولكنه الزمن الذى من شأنه التشتيت والدهر الذى من شرطه الإفاتة، ولولا الشوق إلى الوطن والحنين إلى المنشأ لم نذكر ما ذكرناه من هذه المعانى».

وواضح من ذلك أنه عراقى الأصل والنشأة، وقد ذكر ياقوت فى معجمه أنه من ولد الصحابى عبد الله بن مسعود، وقد جاء مصر ورحل فى طلب العلم إلى أقاصى البلاد، فطاف فى فارس وكرمان سنة ٣٠٩، حتى استقر فى إصطخر، وفى السنة التالية قصد الهند إلى ملتان والمنصورة، ثم عطف على كنباية فصيمور فسرنديب، ومن هناك ركب البحر إلى بلاد الصين، وطاف فى البحر الهندى إلى مدغشكر، وعاد إلى عمان، ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤ إلى ما وراء أذربيجان وجرجان، ثم إلى الشام وفلسطين، وفى سنة ٣٣٢ زار أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق، واستقر أخيراً بمصر، ونزل الفسطاط سنة ٣٤٥، وتوفى فى السنة التالية، وقد مكنته هذه الرحلات البعيدة والأسفار المتتابعة من إجادة البحث

والاستقصاء ، وجمع المعلومات التاريخية من مظانها ، والحقائق الجغرافية من مصادرها الأصلية ؛ وكان على طول معاناته للأسفار كثير التأليف ، واسع الاطلاع منوعه ، ولذا استطاع أن يكتب في موضوعات شتى ويحيط بها ، والكتابان اللذان وصلا إلينا من مؤلفاته يدلان على تراى حدود معرفته ، وتعدد جوانب تفكيره ؛ فهو يبدو فيهما باحثاً جغرافياً ومؤرخاً أخبارياً ومتكلماً جدلياً ، ملماً بالعقائد المختلفة والمذاهب المتباينة ، وفقيهاً محدثاً وأديباً بارعاً ، كثير المحفوظ حسن الاختيار طريف النوادر شائق الأخبار ، وهو على غزارة معلوماته خفيف الظل ، جذاب الأسلوب ، ممتعاً مبدعاً ، حسن السرد ، واضح الحجة ، ليس في أسلوبه المتدفق الجارى غموض ، ولا خفاء ، ولا إملال ، بل فيه لمعان وإشراق وسلامة وبلاغة لم يشنها التكلف ، ولم يفسدها التعمل .

والظاهر أن أوفى مؤلفاته الكثيرة هو كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ؛ فهو كثير الإشارة إليه والإحالة عليه ، ولكنه من أعلاقه المفقودة وذخائره الضائعة ، على أن كتابه الحافل المسمى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » يكفى فى الدلالة على فضله وتمكنه وسعة ذرعه .

وقد أوقف الفصول الأولى من كتابه هذا على ذكر المبدأ والخليقة وذرء البرية من آدم إلى إبراهيم ، ثم تناول الفترة بين المسيح والنبى محمد ، وأتبع ذلك بفصل عن الهند ومدد ممالكها وسيرها وآرائها فى العبادة ، ويتلو ذلك فصول عن الجغرافية الطبيعية والتاريخية تحدث فيها عن الأرض والبحار ومبادىء الأنهار والجبال والأقاليم السبعة وما والاها من الكواكب ، وكثيراً ما يستطرد فى هذه الفصول ويذكر بعض الأقاصيص العجيبة والأخبار المستغربة ، وقد اختص الصين بفصل من فصول كتابه فيه تقدير لديانتها وأخلاق أهلها وسياستهم ، وتكلم بعد ذلك عن أخبار البحار وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك ، وتناول فى فصول تالية تاريخ ملوك السريانيين وملوك الموصل ونينوى والكلدانيين والفرس الأولى ثم ملوك الطوائف الاشغانيين ثم ملوك الساسانية ، وانتقل بعد ذلك إلى أخبار اليونانيين وحروب الاسكندر وذكر الدولة الرومانية ، وقد أفرد لها ثلاثة فصول : الفصل الأول عن تاريخها قبل اعتناقها بالديانة المسيحية ، والفصل الثانى عن أباطرة بيزانطة السابقين لظهور الإسلام ، والفصل الثالث عن الأباطرة الذين حكموا بعد ظهور الإسلام حتى الوقت الذى ألف فيه كتابه وهو سنة ٣٣٢ هجرية ، وتحدث فى الفصول التالية عن مصر ونيلها وأخبار الأسكندرية ، ثم عن السودان وأنسابهم والصقالبة ومساكنهم والإفرنجة والجلالقة ، ثم اليمن وأنسابها وملوك الحيرة وملوك الشام ، وديانات العرب وأساطيرها ، وأخبار الكهان ، والبيوت المقدسة عند الهنود واليونان ، والصقالبة والمجوس ، ثم تاريخ النبى محمد ونشأة الإسلام والخلفاء الراشدين والدولة الأموية والدولة العباسية حتى خلافة المطيع ، وقد انتهى من كتابته سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، أى أن تأليف هذا الكتاب القيم استغرق أربع سنوات .

ويمكن أن يستخلص من ذلك أن المسعودى قد جمع بين دفتى كتابه القيم معلومات ضخمة وأخباراً كثيرة ومشاهدات عدة ، ولكنه لم يظهر براعة ممتازة فى تنسيق هذه المعلومات ، وكانت تنقصه الحاسة الفنية التى تمكنه من أن يخرج من هذه المعلومات المتناثرة والحقائق المتكاثرة كلاً حياً متجاوب الأجزاء متناسق الأوضاع ، وكان على ما يظهر سريع التصديق ، يعوزه قليل من الشك ويقظة الملكة الناقدة ، وقد جعله ذلك يستهدف لنقدات ابن خلدون اللاذعة فى مقدمته ، ورغم ما يتأثبه من عيوب وما فى فنه من نقص فإنه مع ذلك من مؤرخى الإسلام الأفذاذ المعدودين .

على أدهم

العامة في التحايا والمجاملات

للأستاذ أحمد طه السنوسي

.. يلحظ المرء في التحايا والمجاملات العامية أموراً غريبة وظواهر عجيبة ؛ فقد تواضع العوام على استعمال تعبيرات خاصة لهذه التحايا وتلك المجاملات دون بحث في دقة معناها أو اتجاه مرماها أو صحة أسلوبها ، وإنما هي سارية معروفة يلبس العامي حقيقة معناها ولو كان أسلوبها مفعماً بالأخطاء المعنوية أو اللفظية أو ما إلى ذلك ...

.. ففي التعزية مثلاً يقول هـذا لذاك : « البقية في حياتك » ، والمفهوم من هـذه العبارة أن البقية التي تبقت من حياة المتوفى ستأتي لك لتزيد في عمرك ، وهـذا كلام غريب لو أننا وضعناه على الأسس العقلية والمقاييس الفكرية وفي معيار الدين وميزان الحقيقة ؟ وذلك لأن المفروض في المتوفى أنه قد أكل حياته ، أي أن حياته قد انتهت إلى هذا الحد ، فما يتبق منها يوم ولا ساعة ولا دقيقة ، ولو تبقى شيء من ذلك لبقي المتوفى لينعم بها ، هذه هي الحقيقة التي أخبرنا بها الله والدين ، والرجل العامي نفسـه يعرفها ولا ينكرها لو سألته عنها ، وذلك أيضاً نفسـه في ثنايا حديثه عن المتوفين والأموات ، فيقول مثلاً : (فلان عمره انتهى) و (دي أعمار محدودة يا عم !) .. وغير ذلك من التعبيرات ، فلماذا إذاً يستعمل (البقية في حياتك) وهي ذات معنى يتنافى مع المعنى الذي يعرفه والهدف الذي يريد أن يعبر عنه ؟.

.. إن السبب في ذلك أنه تعبير تواضع عليه العامة فسرى بينهم دون تعديل أو تبديل ودون محاولة لإحداث شيء من هذا القبيل ... ولو سلمنا جدلاً بأن المتوفى يتبقى من حياته شيء لك وأنت تقف في مواقف تعزيات كثيرة ويقال لك (البقية في حياتك) مئات المرات من الأصدقاء والخلان والمعارف والزملاء والجيران وغيرهم ، فـكم بقية تبقى لك وإلى متى تمتـد حياتك زيادة عن عمرك المقرر وأعوامك المخطوطة في الـكتاب المسطور ؟! ثم إننا لو نظرنا بعين الحقيقة إلى هذا التعبير لم نجد فيه أي معنى من معاني التعزية ، اللهم إلا في إزجاء السرور إلى الشخص الذي نعزيه بالبقية التي اقتطعناها بتعبيرنا من المتوفى لنضمها إلى عمره وبقائه في هـذه الحياة ، أليس هذا يدل على تبكيت لهذا الشخص الذي نعزيه ، أي أننا نقول له : لا تحزن ولا يتطرق الشجن إلى قلبك فإنك ستتمتع بحياة طويلة طبقاً لما زاد في عمرك من هـذا الميت الراحل ؟.. والعجيب أن المثقف أيضاً كثيراً ما ينسى أن يدقق في هـذه العبارة فيجرفه تيارها ويقولها كما يقولها الناس في مواقف التعزية والموت ..

.. ثم لننظر لهـذا الذي يقابلك في موسم من المواسم الكبرى كشهر رمضان مثلاً ، تجده يقول لك : (رمضان كريم) ، ولست أدري ماذا يريد بذلك التعبير ، ومن أين جاء الـكرم لرمضان وهو الذي يمنع الناس من الأكل ويبخل عليهم بلقمة من الخبز أو قطرة من الماء طوال ساعات النهار ؟ وإن سلمنا بأن رمضان كريم فهل معنى ذلك أن قائل هذه العبارة يريد من سامعها أن يذكرها فيمنحه بعض النقود تشبهاً بكرم رمضان ؟ وإن كان المراد بالـكرم الرمضاني أن ذلك الشهر جليل أو أن الله تعالى يكرم فيه عباده الصائمين أو أنه شهر يكثر فيه كرم الناس بعضهم لبعض ، فما دخل هذا كله في هذا الموقف ، وما معنى أن نقول عبارة كهذه في جو التحية لشهر كل الناس يسلمون بأنه مبارك وجليل وكريم لأن الـكرم يكثر فيه ؟... ولـكن المسألة هي أن هذه عبارة استعملها الناس فسرت دون تبديل أو تحوير ...

والملاحظ أيضاً أن العامي في جو هذه المناسبات يلقي على ملاقيه أو زائره أو مضيفه كثيراً من التحيات والمجاملات والتسليات ، فمن (رمضان كريم) إلى (كل عام وأنتم بخير) إلى (كيف الأحوال) إلى السؤال عن الصحة وعن فلان وفلانة ، إلى غير ذلك من الأشياء ، وهو إنما يلقي كل هذا دون توقف حتى ليعجز المستمع أن يرد كلا من هذه التحايا والأسئلة والتسليات ، فيكتفي بالرد على أولها وأوسطها وآخرها إن بدا له ألا يلتزم الصمت تجاه هذا السيل الجارف والتيار العنيف ...

ثم هيا نمعن قليلاً في أسلوب العامة حين يريد الواحد منهم أن يتأسف لذنب جناه أو خطأ وقع منه فيقول : (لا مؤاخذة) وهذا التعبير حي جداً ويستعمل ويتداول في الأوساط الشعبية كثيراً ؛ وذلك يرجع إلى كثرة ما يقع من الناس من أخطاء ، وما يأتون من فعال تتنافى مع صيغ اللياقة وأقيسة الذوق في البيوت والمصانع وفي الترام والسيارات وفي المجالس ودار الحياة وغير ذلك من أمكنة الحياة العامة ؛ فنجد أن هذا التعبير جد غريب وجد شاذ ، فالمفروض أن قائله يعتذر فكيف به يملي على من يعتذر إليه ألا مؤاخذة على ما فعل !! إنه يجبره على ألا يؤاخذ ولا يتكلم ، والمعتذر كما هو معروف إما أن يرجو العفو عما حدث ، وإما أن يتأسف لما وقع ، ولكن (لا مؤاخذة) هذه ما فيها رجاء لعفو ولا تأسف على شيء وقع ، إنها إرغام وإجبار ، إنها أمر وإيقاف ، إنها صيغة قوة ، وصيغ الاعتذار فيها الرقة وفيها نغمة الاستعطاف ورنة الأسف والرجاء ...

ولكن المعروف أن هذا التعبير العجيب يستعمل زيادة على ذلك في ثنايا الأحاديث حين يريد المتحدث العامي أن يذكر شيئاً قبيحاً أو أمراً غير معهود أو كلاماً خارجاً عن اللياقة أو الآداب المعهودة المصطلح عليها في جو العامة ، ونحن لو بحثنا هذا التعبير في هذا الصدد أيضاً وجدناه غريباً في موضعه مخلاً في ذوقه غير ملائم المقام ؛ ذلك لأن معناه كما يتفق كل الناس الاعتذار والتأسف ، والمرء لا يتأسف قبل أن يقع منه الخطأ ، ولا يعتذر إلا إذا جاء بالنافي للذوق أو الخارج عن حدود اللياقة والأخلاق ؛ وذلك لأن التأسف تابع للخطأ ، والاعتذار يقع عادة بعد الوقوع في ذلك الخطأ ، فكون المرء يريد أن يذكر أمراً قبيحاً أو كلاماً خارجاً عن الحدود الخلقية المتواضع عليها برغبته ومشيئته أي عن عمد ، فيعتذر قبل أن يتحدث ويتأسف لما سوف يقوله من سقط الكلام ولغوه ، فليس لذلك الاعتذار وذاك التأسف من موضع معقول أو علة مقبولة ؛ وذلك لأن الأمر الذي يجدر الاعتذار عن حدوثه لا يقع متعمداً وإلا لما وجب التأسف عليه ، وإنما هو يأتي عفواً وعن غير عمد ، لذا وجب الأسف واستحق قبول الاعتذار ، ثم ما دام العامي يحادث عامياً مثله وقد وجد لديه الدافع لأن يذكر شيئاً قبيحاً أو خارجاً عن ذوق الجماعة واحترام المجلس ، فلماذا لا يتشجع ويقول ما يريد ، ثم إنه سوف يقول هذا الذي يريد فلماذا يحفه كل لحظة بعبارات التأسف ولا مؤاخذة الاعتذار ..

تعليل ذلك أن (لا مؤاخذة) هذه في هذا الجو من المجالس وفي هذا الأسلوب من الكلام شيء يدل على احترام المجلس والجالسين فيه ، ويدل على جلال الشخصية التي تتكلم ، كما أنه دافع على انتباه الحضور ودليل على لباقة المتحدث في جذبهم إليه واستمالتهم إلى حديثه سواء أكان قبيحاً أم غير قبيح ، فصيحاً أم غير فصيح ، وتعليل ذلك أيضاً أن هذا أسلوب تواضع عليه العامة وطريقة دأب على منهاجها الآباء العوام في مجالسهم التي كانوا يعقدونها وأحاديثهم التي كانوا يقضون بها أوقاتهم ويرضون بها دوافع ألسنتهم ونفوسهم ...

●●●

... هذا قليل من كثير مما يستعمله العامة في تحاياهم ومجاملاتهم ، وأريد هنا أن أشير إلى أن بعض المثقفين وكثيرا من أنصاف المثقفين يستعملون هذه الأساليب وأمثالها دون أن ينتبهوا إلى ما فيها من أخطاء ، وما يحفها من معان متباينة وما تتجه إليه من منافاة لما يراد والمعروف أن هنالك من الأساليب العربية السهلة البسيطة الكثير مما يستعمل في جو المثقفين وما يمكن أن يستعمل في غير هذا الجو من أجواء ، والواجب على كل من حظي بنصيب من الثقافة أو نال قسطاً من العلوم سواء العلوم الثقافية أو العلوم الشعبية أن ينبذ تلك الأساليب النافية لما يريد ، وأن يدقق فيما يريد أن يدلي به وأن يكون مقدراً للأسباب التي دعته إلى نبذ هذه الأساليب واستعمال تلك ؛ لأن ذلك يجعله دائماً شديد اليقظة والحذر دائم التمعن والتدقيق في الأمور ، سواء أكانت تعبيرية أم عملية ، يفكر قبل أن يتحدث ويتأنى قبل أن يقدم ، ويتمعن قبل أن يدلي برأيه ويتريث قبل أن ينغمر في لجة أو في غمار وقبل أن يجرفه التيار في مجاري عدة من الأغلاط والأخطاء ...

وأما ما كان من أمر العامي ، فإنه يقتبس ما يستطيع من تعبيرات المثقف والمتعلم في تحياته ومجاملاته ؛ وذلك يعتبره على حد تفكيره شيئاً مثالياً يدل على الاختلاط بجو المثقفين

والتحلين والتأديبن ويدل على سعة ذوقه وفكره لتقبل هذه الأساليب الخاصة ، كما يدل على مساهمته في مشاركة هذه الفئات من التأديبن والتفنين في أساليب أحاديثهم ومجالسهم ومقابلاتهم ، تزيد على ذلك الناحية النفسية ، إذ يشعر العامى بفخر واعتزاز وانتفاخ أوداج حين يستطيع أن يستعمل مجاملات هذه الفئات وتحياتها وحين يستطيع أن يقلد اللهجة التى تقال بها ، كما أن ذلك يجعله علماً فى المجلس الذى يجلس فيه أو الجماعة التى يجتمع بها لأنه شذ عن المألوف العامى ، والشذوذ ميزة تسترعى الانتباه وسبيل لاحب للبدوّ والظهور ودافع لجذب الأنظار واهتمام الألسنة ، ودافع لجنوح الآخرين إلى الاقتداء به إن وجدوا فى ذلك طرافة وجمالاً وجدّة ، وإلى الحسد أو الضيق إن كانت الجنوب تحمل حسداً أو تعمل فى منافسة . وفى الحسد والمنافسة دواع شتى إلى التحادث والتنابز وإلى الثرثرة والأخذ والرد وإلى المشاجرات والاختلافات ، وعلى هذا كله يقوم ركن ركين من دعائم الحياة العامية فى جو هذه الجماعات وهذه الجماهير من الشعب .

بيد أن الملموس أن هذه الظاهرة فى جنوح العامى إلى الاقتباس من مواضعات التأدب ومجاملات التعلم قليلة نادرة ؛ وذلك للمحافظة التى تسود جو العوام والاستمساك بالتقاليد المرعية والموازين العامية والأصول البلدية والمألوف عن رسيم السابقين من أبناء الشعب والعوام ، ولكن هذه الظاهرة ترتقى مع الأيام ؛ وذلك لأن الزمن يدفع إلى التطور ومواكبة ركب هذا التطور ، ذلك الذى يبدو ملموساً فى كل مظهر من مظاهر الدنيا وعموساً فى كل قديم من تقاليد الحياة . والذكاء عامل مهم كل الأهمية وميزة مفهومة كل الفهم فى أولئك القلائل من العامة الذين يجدون لدى أنفسهم دوافع الاقتباس والأخذ من أجواء أهل العلم والثقافة ، والجيل منهم أن يصمدوا أمام عاصفة زملائهم العامة إن أثاروها ضدهم رامين إياهم بالخروج عن حدود اللياقة والفطرسة والحذلقة والتشبه بأولئك الذين رمى بهم آباؤهم إلى المدرسة فعلمتهم ماهى الفرقعات والتفاعلات وعلمتهم قراءة الكتب ، وربما كان فيها من الفساد والإفساد ما لا يعلمون ومالا يرجون أن يستمعوا إليه ، بيد أن ذلك أيضاً نادر ، أى أنه ليست هنالك عواصف كثيرة تثار أو تهب على أولئك (المجددين) فى مواضعات الحياة الشعبية ، وذلك أيضاً بفضل التطور وبفضل دفع الزمن واندفاع الوجود وانبلاج صبح الحضارة والتقدم رويداً رويداً من احتباس الأفق وغياهب الظلمات ...

.. ولقائل أن يقول : إن تحايا العامة ومجاملاتهم قد تواضعوا عليها وتداولوها من قديم ، وكل واحد منهم يفهم مدلول كل منها حتى وإن كان لا يستساغ ذوقاً أو يقبل منطقاً فى جو الثقافة والتوسع فى الادراك ، ولا يهم أن يمحوا هذه الأساليب أو أن يصلحوها . بيد أنى أستطيع أن أرد على هذا القول بأنه قد نسى أو تناسى ما يفرضه التطور وما تتطلبه المدنية والثقافة فى عصرنا هذا ، كما أنه قد نسى أو تناسى أن الفرض فى هذه الحقبة الجديدة من الزمن أن نرتقى ونسمو فى رقى الفئات التى لم تنل حظاً من التوسع الإدراكى أو التفكير الثقافى ؛ وحسبنا أن نعلم أن ذلك جنوح منا إلى انتشال هذه الفئات العامية من جو فيه تناقض فى الحياة والمواضعات ، وأزيد على ذلك ماسبق أن ذكرت من فائدة ذلك فى دفع هذه الفئات إلى الحذر واليقظة وما إلى ذلك من مسوغات التجربة ودواعى الرقى الفكرى فى انتهاج مبدأ التطور فى هذه الحياة ، ثم إن العامى نفسه لا يشك أنه سيضحك من نفسه ومن زملائه العوام حين تذكر له تناقض أساليبه فى تحياته ومجاملاته ، وحين تفند له هذه الأساليب والتعابير بما وهبت من مقدرة وما أوتيت من برهان وما اتسم به منطقك من حجة وإقناع ولسانك من بيان وتأثير ....

... إننا لا نأسف على محو هذه النماذج العامية فى الطرافة النطقية والظرف الفكرى ، ولا نأسف على إبادتها ؛ لأن أدبنا سواها مما يتقبله العقل ويستسيغه المنطق ، وينسجم معه الذوق الإنسانى انسجام النحل مع زهيرات الرياض ؛ ولأن هذه الأساليب لم تكن نماذج للظرف والطرافة إلا حين غبط الناس عن تناقضها العجيب وشرودها المنطق ، وقبل ذلك كانت متسقة مع ذوق العامة متزنة مع منطقهم منسجمة مع ألسنتهم جارية سائرة فى أجواء اختلاطهم وحياتهم غير قابلة للمناقشة والبحث والتبديل ، وبتعبير أدق لم يفكر أحد منهم فى غير ذلك ..!

أحمد طه السنوسى

الخليـــل

للأستاذ عبد السميع المصرى

— ٤ —

المرأة فى شعره

لقد عاش مطران حياته عزبا ، ورغم ذلك فقد كان للمرأة أعمق الأثر فى حياته وبالتالى فى شعره ، لأنه عرفها ودرسها ، وأشاد بمكانتها بحديد نكاد لا نرى مثله فى الشعر العربى من قبله إلا نادراً .

والشعر العربى القديم فى المرأة لم يكن يعنى غالباً إلا بمفاتن جسدها ، وأنت لا تكاد تميز بين جميلات الشعر القديم لأنهن كلهن ذوات وجوه كالبدور أو الشموس ، وشعر كالليل ، وجبين كالصبح ، وخد كالورد .. الخ هذه الأوصاف الناقضة الوحدة .

والمرأة فى الشعر القديم غالباً ما تكون مبهمة ، لأنه (لبس مخضوب البنان يعنى) ، أو كما قال المتنبى مشبها الدنيا بالمرأة :

فهى معشوقة على الدهر لا تحفظ عهداً ولا تتم وصلا
شيم الغانيات فيها فما أدرى لذا أنث اسمها الناس أم لا

أما مطران فقد رد للمرأة العربية كرامتها واعتبارها ، وأشاد بمكانتها من المجتمع فى شعره حتى قال :

إن لم تكن أم فلا أمة وإنمــا بالأمهات الأمم

وأول ما يلفت النظر فى شعر مطران أنه يعنى بجمال المرأة قبل جسدها ، ويهتم بجمال عقلها قبل جمال جسمها ، وما أروعه فى ذلك حين يقول :

أذاك الجبـــين ونوره يمثل أفكارها الخاطره ؟
أتلك العيون وأنوارها مراء لأخلاقها الباهره ؟
أتلك الشفاه وما قبلتها سوى الأم والدها الزائره ؟
أذاك القوام ومن حسنه تميل الغصون لمحاضره ؟
أذاك العفاف وكما صفا تغره العقل الناظره ؟

أو قوله فى أخرى :

فاتنى من جمالهـــا الوجه طلقاً
لا يبـــاهى والقدّ لدنا رشيقـــاً
فاتنى عقلها الذى يبـــدع الحســا
طر روحـــاً وهيكلا وعروقـــاً
فاتنى نظمهـــا القـــريض كما
تنظم عقداً فى جيـــدها منسوقاً
فاتنى لطفها الذى يعطى الوجـ
ـد ولو شـــاء أمعن التوفيقـــا

ثم هو ارتقى بالمرأة من التالية الشوهة الغامضة فى وصف الجمال إلى واضحة فنية واضحة المعالم دقيقة الخطوط ، فتراه يقول :

لهـــا شعر كالليـــل يحلو سواده
يباهى نهـــاراً يبهر التوضحـــا
وعينان كالنجمين فى حالك الدجى
هما نعمـــة الدنيـــا وشقوتها هما
وأهداب أجفـــان تخال أشعـــة
مصففـــة غراء تعكس عنهمـــا
ومنفرج عن خالص العاج مازن
كأن الهوى قد بث فيـــه تنسما
وخصر إليه ينتهى رحب صدرها
وقد دق حتى خيل بالثوب أرما
فإن أقبلت فالغصن أثقله الجنى
فمـــال قليـــلاً واستوى متقوما

وقد عرف مطران المرأة عن الطريق الطبيعي .. طريق الحب .. لقد أحب مطران مخلصاً ، وملأ الحب شغاف قلبه وفراغ حياته ، وصبغ تفكيره ولون شعره ، حتى إنه ليخيل إلى أن الحب كان أساس حياة مطران وأن حياة مطران لم تكن إلا دعوة متصلة للمحبة .

وهو القائل :

سوى الحب لا يشفي الفؤاد المكلَّما
ولا يَهنِىء المال وإن كان مؤلما
وما زال ذو القلب الخليّ من الهوى
كظمآن لا يروى له مورد ظما
هو الشعر كالتيار يكتسح الورى
بليل من الأحــداث أعكر أهيا
فما أســعد الروحين أن يتلاقيا
ويقتسما فيـــه الأسى والتنعما
كما يتـــلاقى في طريق مخوفة
غريبان نالت شقة السير منهما
وكم عاشق يســلو رزاياه بالهوى
وقد يجتلي وجه العنـــاء توهما
كسالك وعر راقه حسن كوكب
فأرجله تدمى وعينـــاه في السما

ولعل قلب مطران قد هفا لكثيرات من النساء ، فقال فيهن شعراً ، لكنه لم يتعلق سوى واحدة ، ولا شك في أنه عرف غيرها ، لكنه لم يحب سواها ، ولم يخلص الهوى إلا لها .

وقصة هذا الحب طويلة ، وحوادثها منتشرة في ديوانه ، ولو أنه أفرد لها في الجزء الأول قسماً خاصاً بعنوان (قصة عاشقين) ، لكني أعتقد أن هذه القصة أطول بكثير من هذا القسم المحدد من الديوان .. إنها الشعلة التي تأججت في صدره يافعاً حين التقى بهذه الحبيبة ، وقد لمحها لمحة فقال :

أفتــدى من لمحتها لمحــة تطلب وردا
فتنت الوجنــة وَرداً فأتت ترشف شهــدا

وسعد بجوارها دهراً قصيراً له أثر في حياته كبير ، وذكرى لم تمحها الأيام .. ذكرى ذلك الحب الساذج واللهو البريء :

هل تذكرين ونحن طفــلان
مهــداً بزحــلة كله نغم
إذ يخــتق في الكرم ظــلان
يتضــاحكان ويأنس الكرم

• • •

هل تذكرين بلادنا الحســنا
حين اقتــطاف أطايب العنب
نعطي ابتســامات بها تحنــاً
وبنا كنشوتها من الطــرب

لكن الدهر لم يغفل عن هذه السعادة ، فاختطف هذى الحبيبة سريعاً وخلف لمطران لوعة وأسى صاحباه ما بقي من العمر ، وكأن بالدهر قد غار من هذه السعادة كما يقول مطران :

كنا كغصني دوحــة نبتــا
بل زهرتي غصن تعانقتــا
بل حبتين بزهرة نمتــا
وتــآلفا لمــا تعــانقتا
نار الغرام مع النــدى العذب
تمت سعادتنــا على قــدر
فسطت عليهــا غيرة القــدر
أودت معــاً بالعين والأثر
واستبقت البــاقي من الخبر
ذكرى وتبصرة لذي لب
ماتت وكل ضــاحك جذل
ما للورى ولوت من جهــلوا
لا قلب يكبرهــا ولا عقــل
بل نبلهــا واللطف والأمل
وشبابها وطهــارة القلب

وقد هاجر مطران من موطنه بسبب هذا الرزء ، كما يشير في قصيدته « مشاكاة » :

أرى مثل سُهدىَ في الكوكب
أحلَّ به مثل ما حل بي ؟
يهيم هيامى من وجده
ويهرب من مهده مهربي ؟
ويجتاز هذا الفضاء الرحيب
إلا بنا فهو لم يرحب

وتأججت نيران هذه الشعلة بفعل الفراق ، فألهبت مشاعر مطران ، وأشقته دهراً طويلاً ، حتى داخل نفسه اليأس ، واصطبغت نظرته للحياة بصبغة التشاؤم ، وعظم حزنه على حبيبه ، حتى خال كل الوجود حزيناً .. فانظر إليه يصف الغروب الذى تغنى به الفنانون والشعراء :

يا للغروب وما به من عَبرةٍ
للمستهام وعبرة للراقى
أو ليس نزعاً للنهار وصرعة
للشمس بين جنازة الأضواء ؟
أو ليس طمساً لليقين ومبعثاً
للشك بين غلائل الظلماء ؟
أو ليس محواً للوجود إلى مدى
وإبادة لمعالم الأشياء ؟

بل حتى الموت تمناه لنفسه فقال :

من بالمنون لواهم صب
ذاكى الأضالع مقلق الجنب
ليت الرزية فيك أودت بى
فنجوت من ألمى ومن كربى
وفزعت من نفسى إلى ربى

وهو يردد نفس المعنى فى قصيدة أخرى :

إن لى فى الغيب إلفاً	قد نأى عنى نفورا
حجبت منه الليالى	عنىَ الصبح المنيرا
فإذا أدركته أطفأ	تُ من وجدى السعيرا
واتحدنا فاغتدينا	مَزَج روحين سرورا

وظل مطران حافظاً لعهده ، ذاكراً لحبه ، وإذا كان حزنه قد تناقص مع الأيام إلا أن شعلة الحب بقيت مضيئة فى قلبه تنعكس أشعتها على أشعاره رقة وعذوبة .

أعمـــاله

قال الخليل :

ويظل المرء فى دنيا	هُ من شغلٍ إلى شغل
يُجِدُّ متى ويخلقها	على الأعوام كالحلل
ومن سنة إلى سنة	يعاودها بلا ملل
فمن أمل إلى يأس	ومن يأس إلى أمل
ولا سعدٌ ولا سلوى	ولا مجد سوى العمل

ولقد مثل الخليل ما قال ، وعاش حياته مجداً فى العمل ، فأنتج كثيراً فى الشعر والأدب برغم مشاغله فى دنيا الصحافة والمال وميادين الاقتصاد المختلفة وإدارة المشاريع المتنوعة .

استطاع الخليل برغم هذه المشاغل أن يهدى الأدب العربى ترجمة العيون من أعمال أدباء الغرب (كليالى ألفريد دى موسيه) ورواية (هرنانى) لفيكتور هجو ، وترجم لكورنى مسرحيات (السيد) و (سينا) و (بوليكيت) ، وترجم لراسين رواية L'incomparable Bérénice ولشكسبير رواياته الخالدة (هملت) و (ماكبث) و (عطيل) و (تاجر البندقية) و (الملك لير) وغير ذلك من الترجمات كما أصدر كتابه (مرآة الأيام) .

وكتب فى غير الأدب فترجم « تعليم الإرادة » لپايو و « التاريخ الطبيعى » لفيكتور دورى و « الموجز فى علم الاقتصاد » و « الأحوال الزراعية فى القطر المصرى » .

وأخيراً أصدرت لجنة تكريم الخليل ديوان شعره كاملاً ، فما أحرى الخليل أن يوصف بقوله :

أبقيت ذكرك فى القلوب كريماً
وقضيت حياً وارتحلت مقيما

عبد السميع المصرى

صور طريفة من معلقة قديمة

الطبيعـــة

للأستاذ جمال الدين الرمادى

... وأرخى الليل سدوله على امرئ القيس وتقدم عليه شيئاً فشيئاً، فيمضى فى الفلاة هيمان الخطى يبث الليل ما يعتلج فى قلبه وما يجيش فى صدره من عواطف ومشاعر. أرخى الليل عليه سدوله كموج البحر فبدا قلقاً ضجراً. أيصبر أم يقنط؟ أيفرح أم يحزن؟ كان امرؤ القيس أسرع إلى القنوط منه إلى الصبر، وإلى الحزن منه إلى الفرح؛ فدعا الليل أن يسرع فى سريانه والزمن أن يهرع فى جريانه، ولكن امرأ القيس تصور أن الليل لا يقدم رجلاً إلا ليؤخر أخرى، ولا ينهض إلا ليهبط، ولا يرفع صدره إلا ليخفض صدره، ولا يأتى إلى وسطه إلا ليرجع إلى أوله؛ فيدعوه امرؤ القيس أن ينجلى وأن ينقشع عن صبح باسم مشرق بهيج، ليس كهذا الليل الذى تجمعت فيه الهموم وتكدست فيه الأتراح.

ولكن امرأ القيس يضرع إلى الليل وهو لا يسمع، فنجومه قد وقفت فى السماء لا تتحرك ولا تنتقل كأنها قد ثبتت بفتل محكم إلى طود شامخ يرسخ فى قلب الصحراء. ذلك الطود هو يذبل، وكأن هذه المجموعة من النجوم التى يطلقون عليها الثريا قد شدت بأمراس كتان إلى أحجار صخرية صماء؛ فهى لا تتحرك جهة اليمين أو جهة اليسار، ولا تتقدم إلى الأمام أو إلى الخلف. ماذا! ها هى ذى النجوم الواقفة قد سارت، وها هى ذى الثريا الثابتة قد تحركت، وها هو الليل الهابط قد ارتفع وانبثق أول خيط من خيوط الصباح، وانسكب النور على امرئ القيس فغمره وهو يمضى فى الصحراء رويداً رويداً ...

فلندع امرأ القيس يمضى فى الصحراء رويداً رويداً، ولنقف عند منابع الحسن وينابيع الجمال فيها، لا لشىء إلا لأنه قد وقف على معين من الماء يملأ قربته، ولا لشىء إلا أننا نريد أن ننتهز هذه الفرصة لنمنح أبياته نصيبها من الحسن والقبح.

تشبيه امرئ القيس بموج البحر تشبيه مبتدع مخترع، ولنعلم ابتداعه واختراعه يجب أن نتصور الصحراء المقفرة الجدبة التى لا تقع العين فيها إلا على الرمال الصفراء والسماء الزرقاء، والنخيل الذى يضرب فى عنان السماء، والبيوت الصغيرة، أو الخيام التى تضرب طنبها فى أديم الأرض، ونتصور بعد ذلك امرأ القيس يشبه الليل فى هذه البيئة المحدودة بالبحر ...

ليس من شك فى أنك توافقنى على أن هذا التشبيه مبتدع مخترع، لأن امرأ القيس قد طوف فى أقطار شتى وشاهد البحر فرسخت صورته فى ذهنه حتى إذا ما عاد إلى وطنه دُفع إلى هذا التشبيه دفعاً ...

وصدقنى أيها القارئ العزيز أنى لا أذكر هذا البيت إلا وألحظ على ثغرى ابتسامة عريضة أخاف أن تتحول إلى ضحكة عالية مدوية فى أرجاء المكان، ولست أخاف أن أضحك لأن هذا البيت ضعيف حتى إنه يبعث على ابتسامة الرثاء، أو قبيح حتى إنه يدعو إلى ضحكة الاستهزاء، إنما أبتسم وأخاف أن أضحك لأنى أذكر ما كان بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب بعد أن مات امرؤ القيس بأعوام طوال فى ركوب البحر وغزو مصر. فالعرب كانوا يرهبون

البحر . عمرو بن العاص كان لا يجد دافعاً لهذه الرهبة ، وعمر بن الخطاب كان يجد دافعاً لهــذه الرهبة ؛ فقام بين الاثنين نقاش عنيف وجــدال صاخب . عمرو بن العاص يريد ركوب البحر ويغرى الجيش على ركوب البحر ، وعمر لا يريد ركوبه ويمنع الجيش فى شىء من الحــدة وشىء من العنف . ولم ينقذ عمراً من هــذا الجدال إلا ذلك الوصف الأدبى الذى وصف به البحر ، وفيه أنه خلق كبير يركبه خلق صغير وما إلى ذلك ، واستطاع أخيراً أن يأخذ السماح من عمر بركوبه مع من أراد من جنــده . ولــكن عدم ركوب البحر لا يمنع من معرفة البحر ، ولــكن هذه المعرفة لم تكن إلا لهؤلاء الشعراء الذين طوفوا فى الآفاق وجابوا شتى الأصقاع وبلغوا الســواحل والشطئان وعرفوا شيئاً عن التجارة بين البلدان ...

وامرؤ القيس بعد ذلك التشبيه البديع المخترع يصور همومه وأشجانه التى ألقاها عليه الليل ليعلم هل ييأس أم يصبر وهل يتحمل أم لا يتحمل ويصور حديثه مع الليل فى أسلوب قصصى لطيف طريف كأنه عمر بن أبى ربيعة وهو يسوق فى أسلوبه القصصى الجميل شعره ؛ ويصور امرؤ القيس الليل وقد هبط بثقله على الــكون فى معنى سهل رائع وإن كان فى مبنى صعب خشن ، ولــكنه لا يلبث أن يسهل وأن يلين فى البيت الذى يليه حين يدعو الليل إلى الانقشاع والانقشاع الذى يصحبه الصباح السعيد فيمضى المعنى والمبنى جميلين رائعين .

وتشبيه النجوم فى ثباتها كأنها قد شدت بفتل إلى طود شامخ تشبيه مصيب كل الإصابة يبين لهفة الساهد الذى طال به الأرق على زوال الليل ويبين ثبات النجوم فى عينيه . وأنت تستطيع أن تقول هــذا التشبيه كما قاله امرؤ القيس منذ قرون فتنال اليوم إعجاباً وتقديراً مستطاباً على شريطة أن تغير لفظة يذبل الغريبة عن أسماع أبناء العصر الحديث القريبة من أسماع أبناء العصر الجاهلى ؛ بل إنى أذكر أنى قرأت لفيكتور هيجو الشاعر الفرنسى الرومانتى المشهور قصيدة فيها بيت بهذا المعنى يصور فيه الليل فى التلال بين مونتليون وسانت لو فى فرنسا .

وكذلك أعتقد أن تشبيه امرىء القيس الثريا تشبيه رائع ما فى هذا شك ؛ ولــكن امرأ القيس انتقل بعد ذلك إلى وصف نفسه وهو يحمل قربته أو قربة صحبه بتعبير أدق ، ويمضى فى رحلة عبر واد خال خاو كجوف العير الوحشى لا ينتفع به ؛ ولــكن ما هذا الصوت البشع المنكر الذى يأتى من بعيد ، فيسعى إليه امرؤ القيس ويسعى حتى يدنو منه ...

ترى ماذا وجد امرؤ القيس ؟ إنه ذئب يعوى كالرجل المقامر الذى يقامر مع أنه صاحب أسرة وصاحب أبناء . يسعى امرؤ القيس إلى الذئب غير هياب ، ويسعى الذئب إلى امرىء القيس غير هياب ، ويدور بينهما حديث عجيب .

امرؤ القيس لا يغنى عن الذئب شيئاً والذئب لا يغنى عن امرىء القيس شيئاً . امرؤ القيس يطلب أمراً . والذئب يطلب أمراً . فلن ينفع أحدهما الآخر . ومن طلب من امرىء القيس شيئاً لن يناله ومن طلب من الذئب شيئاً لن يناله . فمن ابتغى من أحدهما مأرباً فقد تعب ومات هزالا ..!!

لنقف عند هذه الأبيات وقفة قصيرة ؛ فقد زعموا أنها ليست لامرىء القيس ، إنما هى لتأبط شراً أو الشنفرى من صعاليك العرب ؛ ونحن نرجح أنها ليست له ، لما عرف به امرؤ القيس من التسوّد والجد ، ولــكننا ذكرناها فى المعلقة حتى نحلل كل الأبيات التى تنسب إلى المعلقة ؛ وعلى أية حال فالأبيات تدل على البؤس والفقر ، والشاعر يحمل على عاتقه قربة كأتباع وجوه القوم عند الرحيل ، والشاعر يشبه الوادى القفر بجوف العير الوحشى الذى لا يجدى فتيلا . والشاعر يعطينا فكرة جلية عن الصحراء وما فيها من حيوان كاسر جاسر كالذئب ، وعن حياة العرب بين خمر وقمر ؛ والشاعر يصور الحديث الذى جرى بينه وبين الذئب فى أسلوب قصصى لا يخلو من جاذبية ، ويبين أنه لا يملك للذئب شيئاً كما لا يملك الذئب له شيئاً ، مما يدل على الأثرة وينم عن القحط والجدب الذى يتمثل فى الصحراء ، والاستهتار الذى يتمثل فى خلق كل منهما لضياع كل ما يظفر به ويستحوذ عليه . وقد كتب البحترى فى العصر العباسى قصيدة يصور فيها ما جرى بينه وبين الذئب ، تعد من روائعه وبدائعه ، بل إن شعراء العرب قد كتبوا فى وصف ورثاء حيواناتهم قصائد شتى ، فليس هذا الفن عبثاً

أو طيشاً ، وليس هذا اللون غريباً أو عجيباً ؛ وتحضرنى الآن قصيدة للورد بيرون الشاعر الإنجليزى الذائع الصيت يوجهها إلى كلبه الوفى الأمين .

لنرجع إلى امرئ القيس وهو يغدو ممتطياً صهوة جواده الضخم الفخم ليدرك الوحوش ويقترب منها ، أو يصبح قيد آبدة منها كما يقولون ، أو يصبح بمثابة القيد منها ، كما يريد أن يقول امرؤ القيس : والطير لا تزال فى أوكانها فى قنن الجبال . فرسه هذا يصلح للكر ، ويصلح للفر ، حسن الإقبال ، حسن الإدبار ، إذا ما عدا بدا كأنه صخرة صماء قد حدرها السيل من القنن العالية ، وفرسه هذا أملس الظهر ، وعلى ضموره ونحوله إذا عدا جاش صوته كما تجيش القدر فى غليانها . سهل سلس العدو ، كما يسح السحاب بالمطر فى سهولة وسلاسة ويسر ؛ على حين أن غيره من الأفراس تفتر قوتها ، ويبطئ عدوها ، وتثير حولها نقعاً كثيفاً وغباراً صفيقاً ، وتركل بأرجلها ركلاً إذا عدت فوق أرض غليظة ، وفرسه سريع حتى إن الغلام الخفيف إذا ما امتطى صهوته سقط ، والرجل العنيف إذا ما امتطى صهوته لم يتمالك أن يصلح ثيابه ويعدل قوامه ، وهو نشط سريع خفيف كالخذروف الذى يلعب به الصبى ؛ فكأن له كشح ظبى وساق نعامة ، وكأن جريه جرى الذئب ، وهبوبه هبوب ولد الثعلب ؛ ولفرسه ذنب سابغ ضاف ينحدر بين رجليه لا على جانبيه ؛ فإذا كان قائماً عند البيت غير مسرج لاح ظهره أملس كمداك العروس فى صفائها وملاستها ، أو كالصلاية التى يعرض فوقها الحنظل فيلمع ويسطع .

والواقع أن هذه الصور التى أتى بها امرؤ القيس فى وصف فرسه صور فيها كثير من الحركة والحياة ؛ ففرسه يجيش دون أن يستحثه على الجرى ، أو يقرعه بالسوط ، وهو سهل الحركة ، كما يسح الماء من السحاب فى سهولة ؛ والجواد حين يسقط الخفيف ويؤرجح العنيف يدفعنا إلى استحضار صور عدة ذكر لنا امرؤ القيس بعضها ، ودفعنا إلى ذكر البعض الآخر ؛ فالجواد يعدو ويعدو والغلام فوقه يحاول أن يأخذ مجلسه فوقه ويحفظ اتزانه ، فيقبض على زمامه ويشتد فى قبضته ، فلا يفلح فى شىء من هذا ، ولا يلبث أن يهوى على الأرض متدحرجاً متحطماً أو كالمتحطم ؛ والجواد يعدو بالرجل الثقيل وهو يحاول أن ينصب قامته ويعدل أطراف ثوبه التى تجذبها الريح جذباً وتدفعها دفعاً ، فلا يستطيع أن يفعل شيئاً من هذا . وقد أتى امرؤ القيس بعد ذلك بتشبيهات شتى لكشحى الفرس وظهره . وأكبر الظن يا سيدى أنك ضقت بهذه الأوصاف التى لا نهاية لها ، ولكن صدقنى يا سيدى لو أن شاعراً صاغ هذه المعانى التى أرادها امرؤ القيس فى وصف حلبة من حلبات السباق فى الجزيرة ، أو مصر الجديدة ، أو اسبورتنج فى أسلوب سهل سلس واضح قريب الألفاظ ما وجهنا إليه عتباً ، ولما وجدنا فى شعره طعناً ، وصدقنى كذلك يا سيدى أن هذا ليس عبثاً ، أو ما يشبه العبث ، وليس لهواً ، أو ما يشبه اللهو ، إنما هو جد أشد ما يكون الجد ، لا فى الأدب العربى فحسب ، بل فى الأدب الأوربى أيضاً ؛ فقد فرغت منذ يومين من قراءة كتاب فى صفات الجياد ألفه أحد الكتاب الحديثين فى انجلترا فى حوالى خمسمائة صفحة مزينة باللوحات والصور .

جمال الدين الرمادى

قصة بيتر إبتسون

للكاتب الأنجليزي « جورج دو موريه »

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

قال الكاتب :

إن هذه القصة سجل حوادث وقعت لرجل كان نزيل مستشفى من مستشفيات الأمراض العقلية . وقد جيء به إلى هناك لجريمة اجترمها . فهو إذاً نزيل من النزلاء المجرمين .

وقد سجلت هذه الذكريات وفقاً لرغبة أبداها (بيتر إبتسون) وهو في ساعة الاحتضار . وطلب أن تنشر تلك الذكريات كما كتبها كاتبها أول مرة .

ولذلك فإن (مادج بلنكت) وهي المرأة الوحيدة من قريباته التي عاشت بعده ، لم ترض للقصة أن تتم براحة الموت .

واستعرضت تلك المرأة ذكرياتها عن (بيتر إبتسون) الذي عرفته يوم كان طفلاً في المهد ، فقالت : إنه كان طفلاً لم تر عيناها أجمل منه أبداً . وكان لطيف الروح . وكان ظريفاً ذكياً .

وفي النسخة المخطوطة التي تركها لها بطل القصة تناولت (مادج) الأسماء بالتغيير والتبديل ، ونالت من بعض الحوادث التي لا غناء فيها بالحذف والبتر ، وهي — فيما خلا هذا — قد أبقت الرسائل كما جرى بها قلم كاتبها .

وكان اسم صاحبنا أول أمره (بيير باسكيه) لا (بيتر إبتسون) كما تسمى فيما بعد . وقد عاش أيام طفولته الأولى في مدينة (باسي) وهي ضاحية من ضواحي باريس ، وكانت تلك السنون مليئة بالخير والبركة . فكان هناك أقرباؤه وقريباته الذين تسربلوا بالجمال . وكان هناك جيرانه الذين ملئوا ظرفاً ورقة . وكان هناك أنداده ولداته في اللعب ، وهم مثال البهجة والوداعة .

وقد صحبت ذكريات تلك السنين فتانا في مراحل حياته . فكانت له تلك الذكريات كأشعة الشمس التي تضيء في داج من الظلم .

وكانت كلما مرت بخاطره ، تذكر تلك الأغنيات الفرنسية الحلوة التي تعرج بالمرء إلى أبواب السموات العلى . ثم تذكر تلك الحديقة التي كانت مراتع آرامه ، ومراد أحلامه . ثم تذكر تلك البركة ، بركة (أوتي) التي كأنما كان ماؤها فضة ذائبة ، والتي كان يراها أكثر برك العالم إحاطة بالأسرار .

وكان أحب أصحابه إليه ، وأبرهم به ، وآثرهم عنده ، هم (آل سيراسكيه) فكان الدكتور (سيراسكيه) وزوجته الإرلندية ، البارعة الشكل ، اللطيفة التكوين ، وابنتهما (ميمسي) الجريئة المقدام ، على الرغم مما بها من هزال — كان أولئك الثلاثة كأنهم قومه وأهله .

وكان (جوجو) هو اللقب الذي كان يتسمى به الصبي ، وكانت الفتاة (ميمسي) تحب (جوجو) عدد النجم والحصى والتراب .

وكان (آل باسكيه) والمحيطون بهم يؤلفون فيما بينهم حلقة ، فيها الجمال ، وفيها الخير ، وفيها السعادة .

ولكن الدهر عصف بسعادة الصبي وهناءته يوم قتل أبوه ، وهو يقوم بتجربة اختراع له ، كان يأمل أن يجود عليه بالثراء العميم .

ثم لحقت به (مدام باسكيه) بعد حين، فبقى الصبي يعاني مرارة اليتم.

ثم انتقل ليعيش في كنف أحد أقرباء أمه، هو (الكولونيل روجر إبشون) الذي كان قد أحب فيما مضى (مدام باسكيه)، ولكنه خسرها ليظفر بها والد (جوجو).

أما الفتاة (ميمى)، فقد كاد الحزن يقتلها يوم فارقها (بيير) وانتقل إلى انجلترا.

وأصر القيّم عليه أن يُلحقه بنسبه، فأصبح الصبي (جوجو باسكيه) يسمى باسم (بيتر إبشون).

ولقي الصبي في انجلترا صنوفاً من الذل، وذاق ألواناً من الشقاء، فكان يكره الوصي عليه كرهاً شديداً؛ ذلك لأنه كان رجلاً وضيعاً يتعاظم، وكان مختالاً مغروراً، وكان يجمع بين اللؤم والخسة، وكان — كما عرف الصبي يوم كبر — خليعاً فاجراً. فقد طالما رمى المحصنات الغافلات بهتاناً وزوراً، وقد طالما ثلم عرض من لم يدنس بالخنا عرضهن.

واتفق له أن راقص ذات مرة أرملة شابة، وكانت من السيدات الفضليات، ثم قامت بينهما أواصر الصحبة؛ فلم يكتف بأن يخلف وعده لها بالزواج، بل زاد على ذلك بأن رماها كذباً بأشنع التهم. ولما بلغ (بيتر) مبلغ الشباب خلف وراءه هذا الرجل وسافر ليلتحق جندياً يخدم سنة واحدة في جيش المملكة كواحد من الفرسان.

ولما انقضى أجل الخدمة تتلمذ على مهندس معاري اسمه (مستر لنتوت) وظل معه يدرس ويعمل في مدينة (بنتونفيل) وهي تلك المدينة الصغيرة التي رانت عليها الكآبة.

وشب (بيتر) فتى، وضيء الطلعة، صبيح الوجه، وضاح المحيا، سبط القوام، سوي الخلق؛ ولكنه كان يجمع إلى ذلك حياء شديداً، وفرط إحساس، فأصبح يتنأى عن الخلان والأصحاب. وكان يحس لذلك شقاء لا حد له، وكان يذم الناس والزمان، وكان عن نفسه غير راض.

ثم علق بالفنون، ولكن ماذا تفعل الفنون بمن انقطع عن الناس، وانقطع عنه الناس؟.

واتفق له أن رأى لأول مرة (دوقة تورز) وذلك يوم كانت في حفلة راقصة، قامت في بيت من بيوت الارستقراطية، وقد جن الفتى بالدوقة لأول نظرة، وفتن بها، وأصبح عبد هواها، ولكنه لم يتحدث إليها، ولم يكن يأمل أن يراها مرة أخرى، ولكنها — على الرغم من ذلك — قد ملكت عليه لبه، فكان يراها في أحلام اليقظة، وكان يراها إذا غفا وأخذته سنة من النوم:

(تلك القلب هوى يروح فيه ويجى)

وأخيراً استطاع أن يجمع مالاً يستطيع به السفر إلى فرنسا. فلما عاد إلى (باسى) وهي تلك الضاحية التي شهدت مباهج طفولته، لم يعرفه أحد غير ذلك الضابط الشيخ الذي كان يقص عليه الأقاصيص أيام طفولته.

وفي باريس رأى (دوقة تورز) التي شغفته حباً، رآها وهي تسوق عربتها، وظن أنها قد عرفته.

فلما جن الليل رأى في المنام رؤيا صادقة. رأى أنه التقى بالدوقة وأنه تحدث إليها، ورأى أنها علمته كيف يحلم أحلاماً تتحقق، ورأى أنه تذكر راجعاً إلى أيام طفولته، وأنه رأى ساعتئذ أنه لبس قميص أمه، فاختنق شبحها، واستيقظ هو من نومه.

ومنذ تلك الليلة أصبحت به قدرة على أن يخلق لنفسه — كما أراد — دنيا غير دنياه هذه، وأن يعود إلى الأيام السعيدة التي كان ينعم بها.

ولما عاد إلى لندن تلقى دعوةً إلى مأدبة تقام في البيت الذي لقي فيه الدوقة لأول مرة، وعلم أن (ماري تورز)

لم تكن إلا الآنسة (سيراسكيه) وهي ليست إلا صغيرته (ميمي) حبيبها وبناتها.

وفي حديث له مع الدوقة أعلن لها — غير عامد — أنه (جوجو) الصغير قد شب وكبر.

ولكن (ماري) كانت أقل منه دهشة، ذلك لأنها قد تبينت فيه مشابهة لجوجو عندما التقيا أول مرة.

ودهش كلاهما إذ علما أن رؤياه في الليلة السابقة، وهي أنه التقى وإياها في باريس، قد رأتها هي في منامها.

وباحت له (ماري) بمكنون سرها؛ فقالت إنها لم تنس حبه أبداً، وإنها ظلت تذكره على مر الأيام، وإن رؤيا حبها له في طفولتها قد كانت لها عزاء في إبان محنتها، يوم تزوجت وغداً سكيراً، ويوم رزئت بولادة طفل معتوه.

ثم افترقا، وعاد (بيتر) إلى عالم شقائه، تغمر رأسه الخواطر عن (ماري)، ولكنه فارق دنيا أحلامه، يوم فارقها.

وفي تلك الآونة رآه (مسز دين)، وقد أصبحت (مسز جرجوري)، وكان يمشي وحده، وأرته خطاباً أحست هي أن لا بد له من قراءته.

وكان الخطاب قد بعث به إليها (الكولونيل إبسون)، وقد ضمنه كذبة خبيثة مؤداها أن والدة (بيتر) كانت عشيقته، وأن (بيتر) كان ولده غير الشرعي؛ فجن جنون (بيتر) من الغيظ على ما نال أمه من فضح وتعيير.

ثم مشى (بيتر) إلى (الكولونيل إبسون) وفي يده الخطاب؛ فلما واجهه (الكولونيل) بالتعيير والحط من قدر أمه، أهوى عليه بضربة من عصاه فكانت الضربة القاضية.

وأبى (بيتر) أن يعيد على مسامع المحققين ألفاظ التعيير التي رميت بها أمه، والتي كانت السبب في اعتدائه على (الكولونيل)؛ فلم ير القضاة له عذراً مخففاً، فحكموا عليه بالقتل.

ولكنه في الليلة التي صدر فيها الحكم عاودته أحلامه، فرأى في المنام (ماري) فأخبرته أن الحكم سوف يخفف إلى عقوبة السجن مدى الحياة، وأنبأته كذلك أن زوجها وولدها الصغير قد ماتا، وأنها وإن تكن تفصلها عن (بيتر) جدران السجن، فإنهما يستطيعان أن يلتقيا في عالم الرؤيا.

وقد تحقق ما أنبأته به (ماري)، وعاش (بيتر) في السجن خمسة وعشرين عاماً؛ وهو سعيد غاية السعادة؛ فكان يلتقي وإياها كل ليلة في ذلك البيت الجميل الذي كان يضمهما وهما طفلان.

ثم تواقفا — في المنام — على لغة سرية، كانا يتراسلان بها.

ومرت تلك السنون السعيدة، مر السحاب، وبرع كلاهما في فن الأحلام براعة لا حد لها، حتى لقد استطاعا أن يجعلا العصور تكر بهما راجعة إلى ديار أسلافهما الأقدمين فينعما معاً بلقاء الأجداد والآباء، والتحدث إليهم.

ولكن باب السرور قد تغيب مفتاحه يوم ماتت (ماري)، فلعب الحزن بعقل (بيتر) فاعتدى على حراسه، فنقل من السجن إلى مستشفى المجاذيب.

وأصابته حمى مخية وتمنى الموت، ولكنه لم يمت، ثم عاودته نوبة الحلم، وكان في أحلامه الماضية يرفل دائماً في حلل الشباب، وهو اليوم قد ناله الكبر، فأصبح يرى في منامه أنه شيخ متهدم، يهيم على وجهه فوق شواطئ بركة (أوتي)، وأن امرأة عجوزاً تنتظره هناك، وأن تلك العجوز هي ... ماري ...! وأنها قد عادت إليه من العالم الآخر لتوصيه بالصبر، وبالتعلق بالأمل؛ فمن يدري! فلعلهما أن يلتقيا مرة أخرى ...

وكذلك عاش هو بقية حياته، وغذاؤه الأحلام! فكان في كل ليلة يعود بذاكرته إلى تلك المغاني التي أحب، وكان طيف (ماري) يزوره حيناً بعد حين، فكان يحس بالسعادة تغمره كلما عاوده الأمل: أن قد يجمع الله الشتيتين ...

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم



كانت لنا أيام

ديوان شعر للشاعر السوري عمر النص

١٣٦ صفحة — المطبعة الهاشمية — دمشق

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

ألا فليطمئن هذا الشاعر على آماله وهمساته ! فإنى أراه جازعا خشية أن يدفن الزمان هذه الأنات فلا تجد من يصغى لها فى زحام الحياة وضجة الأبعاد. وأراه يسأل فى تلهف وتطلع فيقول :

من ترى يصغى إذا رتّـ ـلت آمالى وهمسى ؟
حين تندى العين بالدمـ ـع لمـا تكتم يأسى ؟
حين يأوى الطير للوكـ ـر ويطوى كل تيبس ؟

ولكن هذا الشاعر غنى عن حيرة السؤال ! فإن فى ديوانه كله أنغاماً ستظل سارية مع الفجر ومع البدر ومع النهر .. وستظل كل أذن تصغى إليها فى سكون ، وتستوعبها فى لذة ، وتشفق على صاحبها الذى جعل من ديوانه نغمة واحدة هى نغمة الحب الظامئ المتحرق ، الخائف الوجل ، المتعب المكدود ، الباكى على أمسه ، المتوجس من غده .

ولم يسعدنى الحظ أن أعرف عن الشاعر شيئاً قبل أن يهدى إلى ديوانه الجديد ؛ فصاحبته فى « الانتظار » و « الحرمان » ، وفى « السأم » و « القلق » وفى « الصباء » و « زفرة اليأس » ... وصاحبته فى غير ذلك من قصائد الديوان التى تحمل عناوين تنوء بأعباء السنين ؛ فرأيته قلباً يذوب قطرة قطرة على (أيام) كانت له ! ويتشوق إلى (غد) ينعم فيه بالقرار بعد أن أكداه السير والسرى ، وبعد أن أطال التطلع فيما وراء الآفاق . ولكنه لا يزال خائفاً من عثار الطريق ، ودوى الضجيج فيقول :

وقفتُ على الدرب منذ الصباح
أجوب الثرى وأجيـل النظر
وها قد ونيت وحـل المساء
وضـاق الفضـاء وغام البصر
وما زلت أطوى سنى الجفاف
وراء خيـال شحيح حذر ..
وما زلت ثم أمـدّ اليـدين
وأصرخ : ربى متى أنتصـر ؟
وما زلت أخشى عثار الطريق
وأخشى الضجيج وأخشى القدر

***

وإذا كان الشاعر (عمر النص) قد أتعبته السنون ، أو أتعب هو نفسه بهذه النظرات الكئيبات وهـذا التشاؤم الذى لا أجد له مسوغا — مهما كانت مناسباته وملابساته — فإنه قد أتعبنى معه حتى كدت أسقط من الإعياء، وأنا أقرأ ديوانه مرة ومرة ومرة .

ولم أجد فى أسلوب الشاعر تعباً ولا إعياء ؛ ولم أجد فى تلك الصياغة الشعرية المحكمة نصباً ولا رهقاً ؛ ولم أجد فى نفسية الشاعر إجهاداً ولا تعقيداً . ولكنى وجدت أخا لى فى الإنسانية ، وزميلا لى فى الشاعرية قد ذهب شبابه ،

وأجدب ترابه ، وامتد على الرمل سرابه . ووجدت فى الشاعر رجلا قد آده الدهر بأحماله ، وأناخ عليه بأثقاله .. فراح يندب « أيامه » فى أنغام حزينة ، شاكية ، باكية . وراح لم يجد ما يغريه فى البقاء أو يطمعه فى العيش فقال :

أيها الطيف الذى يعـ ـبر دنيـاى ويجرى !
هاهنا القلب الذى أضـ ـنيته أثمن ذخر
لم يجد بعـدك ما يحـ ـلو من العيش ويغرى
ودّ لو يحـلم لم يبـ ـق ..ولكن كيف يدرى

ترى من يكون هـذا الشاعر السورى الذى أراد أن يضيف إلى أوتار العود الحزين وترا جديداً ؟ ترى من يكون هذا الإنسان المتعب الذى لم تشرق من خلال ديوانه ومضة واحدة بأمل جديد ؟ وهلا أبقى من الدموع شيئاً (لغده) ؟ أو ترك فى قرارة الكأس شيئاً ؟ لندعه هنا يحدثنا عن نفسه ، ويعرفنا بهويته فيقول :

أنا شيخ أدب فى شعب الأر
ض وأهـذو بحريق وفراق
أزوى فى الحيـاة أذكر دنيا
ى وأحيا فى الأمنيـات العتاق
أنشر الذكريات بين يدى يو
مى وأرنو لهن فى استغراق
وعلى المقلتين نظـرة يأس
خلفتهـا الكروب فوق حداق
أنا شيخ أمرّ بالأرض سأما
نَ ، وأطوى الحيـاة فى إشفاق

فهو هنا يعترف بشيخوخة يستعيد فى ظلماتها إشراق ماض قديم ؛ وهو فى مقطع آخر من قصيدة أخرى يتساءل : هل أوغلت فى ظلام الكبر ؟ وهل شاخ القلب فلم يعد يستهويه غناء ، ولا يزدهيه للحياة نداء .

ويقول فى أسلوبه الحلو الرصين :

ترى هل أضعت الطريق السوى
وأوغلت فى ظلمـات الكبر ؟
أولّى زمان الهوى والغنـاء
وأقفر درب الـندى والزّهر ؟
وماتّ الشذى فى الرُّبى واليفاع
وجاس الخريف خـلال الشجر
أم القلب شاخ .. فمـا يزدهيه
نداء الحيـاة وزهو الظفر !

ولقد حمدت الله عند بلوغ هـذين النصين . على أن الشاعر عمر النص ليس شاباً يائساً .. وإنما هو شيخ نال من الحياة ونالت منه ، وشبع منها وشبعت منه .. فلا ضير عليه بعد ذلك إن بكى أمسه ، أو ندب نفسه ..! ولا ضير علينا — بعد ذلك — إن قسونا عليه فقلنا : ياشيخ ! فيم البكاء وفيم هذه اللهفة العارمة ، وفيم هذه الزفرة المغتلية .. وقد شبعت من الحياة .! ثم شبعت منها باعترافك وإقرارك ، فلم تعد تبكينا معك — مهما كنت بارعاً فى الاستبكاء — على شبابك الذى لن يعود ...

وقد يقول قائل : إن الشاعر هنا يعالج تجربة شعورية خاصة به ، فما باله يقيم الدنيا ويقعدها من أجل نفسه ، وما باله يتصور أن الأرض ستنطبق عليها السماء لأن شاعراً « كانت له أيام » ثم فتح عينيه على الأفق ، وعلى الفضاء ، وعلى الماضى والحاضر والمستقبل ، فإذا هـذه الأيام قد ذهبت إلى غير عودة ، ومضت إلى غير رجعة ؟.

ولكننا جميعاً — أعنى الناس — لنا أيام ؛ وسنقف فى النهاية على غاية الدرب بعد طول التجوّب ... نجيل النظر فلا نرى غير ظلام المساء وهو يطبق على النهاية . فإذا استطاع شاعر — كالأستاذ عمر النص — أن يعبر عن تفاهة الحياة ، وفراغ الحياة ، ويأس الحياة ، وخداع الحياة بالنسبة إليه فقد استطاع أن يعبر عن ذلك جميعاً بالنسبة إلى كل واحد منا — منا نحن الحيارى الضائعين فى تيه قد تشغلنا عنه قليلاً بعض ألفاء الطريق ...

ومن هنا لم تكن « أيام » عمر النص أيامه وحده ، ولا كان ماضيه له وحده ، ولا كانت مخاوفه من الحياة مخاوفه وحده ، وإنما هى شكاة كل إنسان ، وعلة كل موجود .

* * *

يتطلع الشاعر عمر النص فى ديوانه الحزن إلى الماضى ؟ ولكن هذه النظرات لا تشغله عن التطلع إلى « الغد » . وتطلعه إلى الأمس هو تطلع التحسر . أما تطلعه إلى « الغد » فهو تطلع مشوب بالخوف أولاً ، ومقرون بالخيبة ثانياً .. لأن الشاعر تصوره أخضر يانعاً ، فإذا هو مقفر موحش كئيب كما يقول :

أمامي غد قفر يكاد يضيق بي   وخلق من ذاك النعيم حقول !

وكما يقول في قصيدة أخرى :

وفتحت للأنوار أفق غدي   فإذا البهجة فيه تنصبُّ

أما خيبة الأمل في هذا الغد المرتقب ، والصورة التي تخيلها الشاعر له خضراء مورقة فإذا هي على الضد من ذلك ، والتلهف الحبيب إلى استشراف الغد ...

أما ذلك كله فقد عبر عنه الشاعر أصدق وأجمل تعبير في قوله :

وكان لنا غـدنا السرمدى
نمدُّ خطاه ونستبشرُ
ونرمقه بارتقاب اللهيف
ونرصده القلب والمحجر !
تخيلته أخضر الصفحتين
يموج به النور والكوثر
وقد نضّرته رؤى من هواى
وزينه أمل مزهرُ !
تبينته في الفضاء القصيّ
وقد غمض النبأ المخبر
فأبعثه القلب يخف الخطى
يحدق فيه ويستبصر
فلما رأى ! عاد يبكى هواه
ويمتم : تمة ! إنه مقفر

●●●

وأيام الشاعر التي (كانت) هي صنو (الربيع) الحلو الريّق حين يدبر ! وغده المرتقب المخوف المخيب للآمال هو صنو « الخريف » ... الخريف الذي يهابه الشاعر ! ويحاول أن يجد منه مهرباً ، ولكنه مدركه .. كالليل النابغة الذبياني الذي يقول فيه النعمان :

فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وما أشد خوف شاعرنا عمر النص وهو يقول :

فديتك قد أطلّ خريفُ عمري
فأين أهرب منه وبعدى

●●●

مسكين هذا الشاعر في إسلام نفسه لمثل هذه الهواجس والخواطر التي تبلبل الفكر ، وتحير العقل وتنغص ما بقي من العمر ! وإن كان يتظاهر أمامنا بالصبر ، وباستقبال ما لا بد منه كأنه حقيقة واقعة ، وبعدم الاستسلام للخوف والرهبة ... فيقول :

أنا ذاكر غـداً إذا ذَوِيَ الور
د ومرّ الخريفُ بالأوراقِ
نازف من دمى بقية حلم
خلقتها الأحلام في أعماقي
أيهذا الخريف ! لا أرهب الر
يح .. فصُدّ بالغيوم والإبراق ..
الربيعُ الذي أؤمل ولى
في ذهول ورقبة واشتياق !

●●●

الخوف دائماً هو آفة هذا الشاعر الذي يخيل إليّ أنه قطع مراحل العمر على فزع موصول ، ولم يغادره الخوف حتى في شيخوخته التي يعبر عنها شعره ...

ويخيل إليّ أنه يتوهم الحياة فلاةً مملوءة بالرعب ، فلا يلتمس فيها نسمة من نسمات الأمان ، أو نسمة من نسمات الحنان ... أو يخيل إليّ أنه « أناني » مسرف في الأنانية ، أو « شحيح » مبالغ في الشح ! فيقف على أطلال « الماضي » وفوقَ مخيل ضائع في التراب خاتمه ... اسمعه وهو يقول :

أخاف أخاف أن يطوى   ظلام اليأس إبلالي
ويتركني على الأرض   بلا ماضٍ ولا آتٍ
سليب العزم أستجدى   من الحرمان أيامي
إذا ما أومأ الفجر   ثرثت عليه فلاقى

ويعود لشاعرنا كبره الأدبي وكبرياؤه ... فيلجأ إلى الصبر وإلى التكبر ... ولكن هذا كله طلاء لا يخدعنا عن شعور الخوف في نفس الشاعر مهما قال مثل المقطع الآتي :

فديتك أيها القلب   أأنت تراع من دهرك ؟
أأنت تخاف أن تُثنى   أأنت تشك في صبرك ؟
لقد جدّ بك النأى   فماذا كان من أمرك ؟
وقد روّعك الدهر   فكاد يُجنّ من كبرك !

فلو أن الدهر كاد يجن من كبر الشاعر حقاً لما سمعنا

أنغام الندبة والتشكي تسري في خلال ديوان (كانت لنا أيام) ؟ ولكن لعلها فكاهة شاعر من الذين يقول فيهم القرآن : (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) . .

ولقد صور الخوف لشاعرنا « عمر النص » من الأوهام في الحياة ما كاد يعطل فيها معنى الوجود وقيمة الوجود . حتى صارت الحياة في نظره ، وأصبحت المرئيات أمام عينيه هباء في هباء :

هباء هي الدنيا ! هباء هي الرؤى
هباء هباء كل ما أنا أرمق

وهذه النظرة « العبائية » للحياة هي صنو الموت وأخت العدم ، وهي تتنافى مع القوة الحيوية التي يجب أن يتسلح بها الإنسان — ولو كان شاعراً ... وأي إنسان حي قوي مفعم بالحيوية يرضى أن يردد مع الشاعر عمر النص قوله :

في فضائي تحوم أخيلة المو ت وفي خافقي أحس شظايا
وعلى مغلقي ينعقد اليأ س ويجري مع الدموع الظايا

• • •

وعلى الرغم من أنغام اليأس والخوف وخيبة الأمل التي تشيع في ديوان (كانت لنا أيام) من أوله إلى آخره ، فإن الشاعر استطاع في صدق وقوة سبك وبراعة أسلوب أن يصور لنا جانباً من الحياة ... ولو أنه عمد إلى بعض جوانبها المشرقة الباسمة لاستطاع أن يصب الفرحة في قلوبنا صباً .

ولا يقولن قائل : كيف يصور الشاعر لنا ما لم يجربه من أشراق الحياة . فإن الشاعر لا شك قد جرب في (أيامه) الماضية كثيراً من السرور الذي جاءنا اليوم ليبكيه ... وما الذي أسكته وهو غرقان في ماضيه السعيد عن أن يسمعنا أنغام سعادته ؟ حتى إذا ولت هذه الأيام عاد يندبها في ديوانه (كانت لنا أيام) ؟ .

ألم أقل لك إن الشاعر « عمر النص » أناني ؟ ودليل أنانيته أنه لم يشركنا معه في أفراح ماضيه السعيد ، ثم يجيء اليوم فيشركنا معه في آلامه ووساوسه ومخاوفه من عنده ، ويفرض كل ذلك علينا فرضاً ... !

• • •

ولا أدري لماذا أعجبت بهذا الديوان فقرأته أكثر من مرة ، وجعلته سلوتي في شهر رمضان ، شهر النسك والعبادة ؟! قد يتعبد الإنسان بالألم لأنه يطامن من غرور النفس البشرية المغرورة ... ! ولعل ذلك هو الذي حبب إلي ديوان « كانت لنا أيام » ، أو لعل أشياء أخرى قد دفعتني إلى قراءة هذا الشعر الحزين دفعاً ، فوجدت من قراءته طرباً وسروراً ...

ولا أدري لماذا سررت في جو خانق بالحسرات واللهفات؟ ولعل شاعرية الأستاذ عمر النص ، وأسلوبه العربي الرصين المشرق ، وصدقه حتى في التعبير عن الآلام هي مبعث ذلك الطرب والسرور .

• • •

بقيت بعد ذلك كلمة تحتمها الصراحة أن أحبسها ... فلو خلا هذا الديوان العربي الفصيح من بعض الضرورات وخطأ البناء اللغوي لكان سبيله الكمال ...

ففي صفحة ١٣ « أخاف من السنين » ، وصوابها « السنين » .

وفي صفحة ٢٥ « الجُذلان » ، وصوابها « الجَذلان » .

وفي صفحة ٣٦ « أدفُن » ، وصوابها « أدفِن » .

وفي صفحة ٤٣ « يُرْخاه » ، وصوابها « يُرَخّاه » .

وفي صفحة ٩٨ « سنينه » ، وصوابها « سنيه » ، لأن النون الثانية تحذف للإضافة إلى الهاء .

وفي صفحة ٩٨ « بُح صوتي » ، وصوابها « بَح » بالبناء للمعلوم لا للمجهول .

وفي صفحة ٣٣ ، ٨٨ ، ٩٠ « ورقة » بتسكين الراء ، وهي ضرورة كان يجب عدم الالتجاء إليها .

وفي صفحة ٤٨ « ولن أرى إلا يا » ، والصواب إلا إياي ، لأن إلا لا يقع بعدها الضمير المتصل . وهذه ضرورة من الشاعر عمر النص كالضرورة التي وقعت في شعر القائل القديم :

وما نبالي إذا ما كنت جارتنا ألا يجاورنا إلاك ديار

• • •

وماذا تكون هذه المآخذ في جانب كثير من الحسنات التي امتلأ بها ديوان « كانت لنا أيام » ؟ وهي حسنات في الشعور ، وحسنات في التعبير ، وحسنات في التصوير ، يُزهى بها هذا الديوان في إنتاج الشعر هذا العام ، وفيما قبله من أعوام .

محمد عبد الغني حسن

سندباد إلى الغرب

تأليف الدكتور حسين فوزى

دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٥٠

للدكتور حسين مؤنس

كان من حظى أن أقرأ هذا الكتاب الفريد وأنا أتنقل بين متاحف الفن وروائع الإبداع الإيطالى فى فلورنسا ، فكنت أشعر كأنما هذه الفصول التى أقرؤها وتلك الآثار التى أراها قد صيغت جميعها من مادة واحدة ، ولم أكن أشعر أن هناك أى فارق بين فصل « الطارد » ، أو صورة « الموقعى الصغير » ، أو مقال « الفن المصرى » ، وبين تمثال « سان چيورچيو » لدوناتيلو ، أو تمثال « العذراء والطفل » للوكا دللاروبيا : كلها ابتكارات لطيفة صدرت عن نفوس مرهفة أوسع الله عليها فى نعم الإحساس الكامل والخيال الخلاق والتصور السليم والتعبير الصادق ، فجرت أيديها بالريشة أو بالأزميل أو بالقلم فى سهولة ويسر ، وأبدعت ما شاء الله لها أن تبدع من لطائف المثالة والتصوير والكتابة . أجل ، أحسست وأنا أقرأ هذا الكتاب فى ذلك الجو الفنى الحافل أن مادة الفن واحدة ، وأن هذا الذى كتب هذه السطور ، إنما هو مصورٌ يرسم بالقلم والكلمات ، وموسيقى تنطوى كلماته على نغم ونشيد ، وما عليك إلا أن تقرأ فصوله عن « لا بالوفا » و« موتسارت » و« بيتهوفن » ، حتى تشعر أنها سيمفونيات مكتوبة ، لأن هذا الإحساس الكامل بعظمة موسيقى عظيم مثل موتسارت لا تضمه إلا نفس موسيقية حافلة بالنغمات والألحان ...

ولا أبالغ إذا قلت إنى لم أقرأ منذ سنوات كتاباً عربياً أثار نفسى وأحدث فيها من الانفعالات ما أحدث هذا الكتاب ؛ فإن كل سطر فيه ينطوى على فكرة لتثير الذهن وتهز الإحساس هزاً عنيفاً . وإنى لأعجب كيف استطاع هذا الفنان المبدع أن يبلغ من الإجادة فى التصوير والتصوير ذلك المبلغ الذى مكنه من أن يصف أجواء متباينة ينتقل الإنسان معها من أثينا إلى النورماندى ، ومن رودس إلى لندن ، ومن روما إلى مولد السيد البدوى ، فى خفة وصدق وإمتاع ، وطوع له أن ينقل قارئه من بحار الشمال حيث الثلوج والأعاصير إلى سهول مصر ، حيث الجو الراكد الساكن ، والحر الذى يجثم على الأفئدة ويكتم الأنفس ! وهو إذا يحدثك عن « القبلة الضائعة » فى نورماندیا ، ويصور لك اجتماع الناس فى منوار (دوّار) شاعر فرنسى متقاعد ، وإذ يعطيك صورة من حياتهم وما يشتغلون به من طلى الحديث ، أو حين يحدثك عن صديقه مكفرسون الساخر من البطولة ورجال الحرب ، أو عن كئوس خمر ساموس الثقيلة الدسمة التى شربها قبل أن يصعد إلى الأكروبول ، يشعرك فى كل كلمة يقولها أنه فنان أصيل يستطيع بلمستين من ريشته الصَّناع أن ينقلك إلى حيث يريد إلى العمق الذى يريد ... ويكشف لك عن ثقافة واسعة واطلاع بعيد لا نجدها عند أكثر من نقرأ له من الكاتبين بالعربية ، بل تشعر أن الكاتب يستلهم وحيه ويقتبس الأضواء التى يوزعها بين سطوره من عالم غربى خالص لا يتاح الوصول إليه إلا لمن شرب هذه الحضارة من بحارها الواسعة ، وطاف فيها طواف السندباد بحور الدنيا ... وحتى فى الفصول التى يتحدث فيها عن أشياء مصرية بحتة ، كمولد السيد البدوى ، أو دوائر الفن فى مصر ، تشعر أن

أساتذته يقيمون هناك فى إغريق القديمة ، وإيطاليا فى عصر النهضة ، وألمانيا فى أيام جيته وشلر ، والنمسا فى أيام موتسارت وبيتهوفن ... تشعر أنه نهل من هذه المنابع الفياضة واغتذى بخيرها وتمثله حتى أصبح جزءاً من كيانه .

من هنا لا غرابة أن تشعر وأنت تقرؤه أنك تسبح من عقله وإحساسه الفنى فى بحر زاخر يبعث فى نفسك لوناً من النشوة قلما تشعر به وأنت تقرأ كتاباً عربياً آخر ...

أجل ، وما أصدقه وهو يتحدث إليك عن أيام الطفولة وصف لك نفسه طفلاً يصنع طائرة من الورق ليحبها فى الهواء ويحلق معها بعقل الطفل فى أجواز الفضاء ، إنه يصل بوصفه هـذا إلى أبدع وأدق ما بلغه الواصفون فى العربية ، لأنه يجمع الصدق والبساطة والعمق فى النظرة فى آن واحد ، وما أصدقه حينما يصف لك المشعوذ الذى أتى به مرة ليفتح المندل ، فناداه — وكان إذ ذاك صبياً — وأجلسه ووضع على رأسه خرقة وأعطاه فنجاناً وطلب إليه أن يصف ما يرى ، فلم ير الصبى شيئاً ، وجعل فاتح المندل يغريه ليؤثر فى خيال الصبى ، ويصور له أنه يرى فى قاع الفنجان سارق الشىء الضائع ! فأصر الصبى على أنه لا يرى شيئاً ، فرفع الرجال الخرقة عن رأسه وقال لمن حوله كمن يتعزى عن الخيبة : « الولد أدرك ! » ، وهو يريد بذلك أن الصبى قد بلغ مبلغ الرجال ، فلم تعد الشياطين توحى له بالأسرار . ولكن حسين فوزى يريد بذلك أن « الولد بلغ الإدراك العقلى » ، وأصبح يميز بين الحقيقة والخيال ، ولم يعد يرى إلا ما تراه عيناه لا ما يهجس له به خياله الصغير ! هذه لمحة فنية بارعة لا تصدر إلا عن ذهن حساس مرهف قدير على أن يصل إلى أعماق الأشياء ! فقد رأينا عملية المندل جميعاً ، ولكن الفنان وحده هو الذى يستطيع أن يصل إلى هـذا العمق فى النظر والتصور .

ثم انظر إليه يتحدث عن بيتهوفن ، بل يصل فى عرابه ،

إن كلامه فى هذا الفصل ليدل على أن الأصابع التى جرت بالقلم لا بد قد جرت على أوتار القيثارة بسوناتات الموسيقى العظيم ، وشاركت فى عزف رباعياته ، لأن هذه الغزارة فى الإحساس لا تصدر عن العقل المفكر ، بل عن القلب النابض . ومن هـذا الطراز أحاديثه عن موتسارت وهواة الموسيقى الغربية فى مصر ، وما إلى ذلك ، مما لا يصدر إلا عن موسيقى مطبوع وفنان زاخر الإحساس ...

إن أكبر ما يقرب هـذا الكتاب من نفسى ويجعلنى أعود إلى مطالعة فصوله المرة بعد المرة هى هذه النزعة الغربية التى ينزع إليها الدكتور حسين فوزى فيه ، نزعة صادقة صريحة قوية ، تدل على أن صاحبها يشاركنا الإيمان فى أننا لن نصل إلى ما نصبو إليـه من رقى إلا إذا اتجهنا وجهة غربية خالصة ، وتخففنا من أعباء هـذا التراث الثقيـل الذى يشل حركتنا عن السير ويقف بنا فى منتصف الطريق ، فلا نحن مستطيعون بعث الماضى والعيش فى ظلاله ، ولا نحن قادرون على أن نلاحق العصر الذى نعيش فيه ...

ذلك كتاب فياض بالدوافع والحوافز ، ومهما تكن وجهـة نظر قارئه ، ومهما يكن اتجاهه فى الحياة ، فهو خارج من قراءته بطائفة من الانفعالات تنفعه أكثر من قراءة أى كتاب مريح يستجدى عطف القراء بالتمسح فى ذكريات عاطفية ماضية .

حسين مؤنس





هيروتا والطفل

عن لين يوتانج

ترجمة الأديب حسين أحمد أمين

الطفل : أبي ، من الذي سيأتي اليوم ليتناول معك الشاي ؟ .

هيروتا : وانغ شانجهاي .

الطفل : من هو وانغ شانجهاي ؟.

هيروتا : إنه صيني .

الطفل : هل تتخذ لنفسك أصدقاء من الصينيين ؟ يا أبي لقد أخبرتني أن الصينيين أقل مستوى من اليابانيين بكثير .. كما أن مدرسنا قد اعتاد أن يقص علينا كل يوم أحاديث قذرة عن هؤلاء الصينيين .

هيروتا : من الأفضل أن تمسك عن الحديث وتسكت .

الطفل : هل لي أن أتناول معكم الشاي ؟ إني أريد أن أرى وانغ شانجهاي .

هيروتا : حسناً . لك أن تأتي على أن تكف عن توجيه الأسئلة .. ومع ذلك فحديثنا اليوم سيدور حول العلاقات بين اليابان والصين ولن تفهم من أمر هذا الحديث شيئاً .

الطفل : هل من الصعب عليّ أن أفهم العلاقات بين اليابان والصين ؟.

هيروتا : جداً .

الطفل : لماذا هي مستعصية على الفهم ؟.

هيروتا : إننا نريد أن نتخذ منهم أصدقاء وهم لا يريدون .

الطفل : ولماذا ؟ هل يكرهوننا ؟.

هيروتا : نعم .. إن كراهيتهم لنا لأكبر من كراهيتهم للأوربيين .

الطفل : ولم هذا ؟ هل نعاملهم بأقسى مما يعاملهم الأوربيون ؟.

هيروتا : هلا كففت عن لف هذا الخيط حول أصابعك !

الطفل : ولكن لم يكرهوننا بينما نحن نريد أن نصبح أصدقاء لهم ؟.

هيروتا : من أجل المانشوكو .

الطفل : هل المانشوكو بلادهم أم بلادنا ؟.

هيروتا : لقد عدت إلى اللعب بالخيط ثانية — إن ندفاً منه تسقط على السجادة فتجعلها قذرة .

الطفل : وما هي المظاهر التي ستتخذها صداقتنا لهم ؟.

هيروتا : سنقرضهم المال ونزودهم بالمستشارين .

الطفل : أليس لديهم مستشارون أوربيون ؟ هل تريد أوربا أن تصادق الصين أيضاً ؟ هل سيقرضونها المال ؟.

هيروتا : أجل .. ولكن يجب علينا أن نمنعهم . يجب عليك أن تفهم أنه إذا أقرضت أوربا مالاً للصين فسيستعمرونها .

الطفل : وإذا أقرضنا نحن مالاً للصين ؟.

هيروتا : إذا أقرضنا نحن مالا للصين فإنما نريد من وراء ذلك أن نتخذ منهم أصدقاء، وأن نساعدهم .

الطفل : إذاً ، فالصينيون يفضلون أن يقترضوا منا المال على أن يقترضوه من الأوربيين .

هيروتا : كلا . إنهم لن يقترضوا منا إلا إذا أجبرناهم على ذلك .

الطفل : إن هذا الموقف مضحك حقاً ! ولماذا نجبرهم على أن يتقبلوا منا المعونة إذا كانوا لا يريدونها ؟

هيروتا : لا تضع إصبعك في فمك .. إنك لم تذهب إلى طبيب الأسنان بعد .

الطفل : حسناً جداً يا أبي . ولكن خبرني : لنفرض أنك صيني هل كنت تثق في اليابانيين ؟

هيروتا : إنك ترى يا عزيزي أننا لسنا بأصدقائهم تماماً . ولكننا الآن نريد أن نصادقهم . نريد أن نقرضهم المال ونمدهم بالمستشارين ، نريد أن نزود بلادهم بالبوليس ، وأن نقر فيها النظام .. إننا نريد أن نجعلهم يبصرون حقيقة نياتنا .

الطفل : وما هي حقيقة نياتنا ؟

هيروتا : أيها الأحمق .. لقد أخبرتك حالاً عنها .. إنني أريد أن يعلم وانج شانجهاى الآن أننا نريد مساعدتهم ..

الطفل : وهل وانج شانجهاى أحمق ؟

هيروتا : كيف تجرؤ على هذا القول ؟ إنه رجل مثقف ، ومن كبار الفقهاء في بلاده .

الطفل : هل أستطيع أن أكون في المستقبل مثل وانج شانجهاى ؟

هيروتا : بإمكانك هذا إذا اجتهدت في دروسك .

الطفل : لنفرض أني وانج شانجهاى ، فكيف تنوى أن تخبرني عن نيات بلادنا الحقيقية ؟

هيروتا : سأوضح لك كيفية إمدادنا لكم بالمال والمستشارين العسكريين والبوليس حتى يستتب في بلادكم النظام .

الطفل : خبرني يا أبي .. لماذا تصرون على منح الصين هذه المعونة ؟ لم لا تتركونها وشأنها ؟

هيروتا : حسناً .. إننا نريد أن نستولى على جميع التجارة الصينية ونطرد الأوربيين من الصين .. نريد أن نبيع لهم منتجاتنا ، وباستطاعتهم شراء الكثير منها . واتحادنا معهم مفيد للغاية ؛ فعند قيام حرب بيننا وبين الروس يجب أن نضم الصين إلى صفوفنا . وليس لدينا الحديد أو القطن أو المطاط ، وليس لدينا من الطعام ما يكفى لإمداد الجنود أكثر من اثنى عشر شهراً ، وفي الصين ما يسد هذا النقص .. يجب أن نحارب الروسيا في الصين .

الطفل : إنك لن تخبر وانج شانجهاى بكل هذا ، أليس كذلك ؟

هيروتا : بما أنك ابن لأحد الدبلوماسيين يجب عليك أن تعلم أننا معشر الدبلوماسيين لا نقول ما نرمى إليه ، ولكننا اعتدنا أن نفهم أكاذيب الآخرين بسرعة ودقة . وليس وانج شانجهاى في حاجة إلى أن أخبره ما أخبرتك إياه .

الطفل : يالذكائه ! ولكن بم تنوى أن تسمى هذه المحالفة ؟

هيروتا : سنسميها « بدء عهد جديد للتعاون بين الصين واليابان على أساس من الدفاع المشترك والتقدم المشترك لأجل الحرص على استتباب السلام في آسيا والعالم أجمع » .

الطفل : أوه .. ياله من شيء مثير ! ياله من شيء عظيم ! من أين تعلمت كل هذا ؟ هل علموك في المدرسة أن تنطق عبارات بهذا الجمال ؟

هيروتا : هذا هو ما تعلمك مدرستك إياه كل يوم في درس الإنشاء .. ولكن الإنسان يولد بدبلوماسيته ولا يتعلمها .

الطفل : أوه ! ما أعظمك يا والدى ! ولكن لنفرض أن وانج شانجهاى رأى كل ما ترمى إليه حقيقة ورفض مساعدة اليابان .. فكيف ستحصل على التجارة الصينية ؟

هيروتا : عند ذلك ينظر الجيش الإمبراطورى في الأمر .

الطفل : ولكن في الالتجاء إلى الجيش ما يحطم الصداقة التي تريد توطيدها بين البلدين .. إن ذلك سيجعلهم يكرهوننا أكثر من ذى قبل .. هل تحب الطريقة التي يتبعها الجيش الإمبراطورى ؟

هيروتا : (بسرعة) هش .. هش . لا تجعل أحداً يسمعك تقول هذا القول . أرى أنه من الخير أن تسرع فتذهب إلى طبيب الأسنان .. وحذار أن ترمى بأطراف فمك أو بالخيوط على الأرض .

(يلتقط الطفل خيطه وسن فمه من الأرض ويضعهما في جيبه ثم يغادر الغرفة .

هيروتا يتنفس الصعداء) .

حسين أحمد أمين

خواطر عابرة :

غضب حسناء

قالت مليكة حسن لستُ أولها
لا شيء أحسن من نوم الخليينا
فقلت كلا ! ولكن الهوى تعب
وشى نوم الورى نوم الهنينا
قالت : حرام علينا أن نكلمكم !
خالفتنا ؟ يا ترى ؟ هل أنت قالينا ؟
فقلت حاشا ! أرى ما ساءكم أبداً
وكيف أقدر ؟ بالظن يشجينا !
إن الخلاف برأي لا خلاف هوى !
ما أكثر الخلف من هاو وهاوينا
فاستضحكت حيث شع الورد من فرح
وافترّ ثغر جمال بات يسبينا
وغنت بدلال الحسن قائلة :
نحن الحسانُ تقود الناس ماشينا

•••

فتـــاة ؟...

إني – على رغم الجوى والصد –
أعجبت في حاجبـك الأزجّ
الساحرِ الخالبِ دون عمد
والسابقِ الغـالبِ كل نهج
وفي نِصال اللحظ ذات الحد
وفي العيون البارقات الدُّعج
وحمرة فاتنـة في الخـد
إذا تخطرت زهت في الرج
وقدك الصنوع وفق القصـد
وكفـلٍ مكـوَّرٍ مُرَجَّج
ورمح يهتز وسـط النهـد
فيغمـر الرائي بسيم لجي
وعَقيد في جِيـدِك العقـد
لـسحر كل جاذب وفج
أقسم بالجمـال أن تُعْتَدِي
تمثـال حسن للرؤى والمهج
تصبو قلوب كُثْرت بالعـد
تتيه في ظلال هـذا الغنج
تبـدو ولكن لا حراك تبدى
كأنها غرقى بدون منجى

(بغداد) أحمد محمود

إلى المنتصرة

دعيني دعيني فقد مـات حبي
وماتت بقلبي أماني الشبابْ
دعيني فأمسى انطوى في الضبـا
ب وعمري طواه الأسى والعذاب
دعيني فقـد أقبرت أمنيـا
ت وماتت آمالي وغاضت رغاب
دعيـني فقـد ذبلت زهرتي
وجف هواي وولى الشبـاب
دعيني خبا في الجفون الضياء
وغـام السـنا في ركام التراب
وقـد ضجّ في مقلتيّ الهوان
وتـاه فؤادي بدنيـا السراب
فرحت أنادي ولا من مجيب
وأدعو ولكن ما من جواب
وضاقت لياليّ ضاقت حيـاتي
وقلبي الرقيـق ضعيف الإهاب
ورحت أغني وغنى النشيـد
وأصرخ : هل يا ترى من مآب ؟؟

زهير أحمد

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

صحيفة

ثمن العدد ٢ قرشان صاغا

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتيـــاز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٣ — ٥٩٧٦٩

العدد ٦١٥ — الاثنين ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٣٦٩ — ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

فى السياسة الدولية :

مسألة ناقلات البترول

للأستاذ أحمد طه السنوسى

لا تزال حالة الحرب قائمة بين مصر وإسرائيل بالرغم من تلك الهدنة التى عقدت بينهما والتى لا تغنى ولا تسمن من جوع ، وهــذا ما حدا بالحكومة المصرية أن تشدد الرقابة على السفن التى تمر بقناة السويس وتمنع ما يكون منها حاملا للبترول إلى إسرائيل الدولة المعادية .. ومن هنا قامت مسألة ناقلات البترول التى هزت ولا تزال تهز كيان الصحافة وكيان البرلمانات والنواب وخاصة برلمان انجلترا ونواب الانجليز ، وتستحوذ على لب الساسة الذين يهمهم الأمر كساسة بريطانيا ، وبالتالى تتالت الاحتجاجات وتوالت البلاغات ، وما فتئت حكومة مصر متمسكة بموقفها مصرة على سياستها تجاه هذه المسألة وتجاه تلك الناقلات ..

وقبل أن تنشب حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ كانت السفن تمر فى قناة السويس حسب النظام العادى دون رقابة ، حتى كان إعلان الأحكام العرفية فى مصر ؛ إذ صدر من حاكم مصر العسكرى أمر يدعى برقم ٥ لعام ١٩٤٨ ينص على أن السلاح البحرى الملكى سيقوم بتفتيش السفن التى تمر فى المياه المصرية ؛ وذلك لكى يمنع منها ما قد يكون مرسلا فيه أسلحة وذخائر لإسرائيل ، وقد صدر أيضاً أمر رقم ١٣ فى نفس عام ١٩٤٨ ينص على أن تقوم سلطة الجمرك المصرى بتفتيش تلك السفن للنظر فيما قد يكون مهرباً فيها من بضائع وحاجيات . وألغيت الأحكام العرفية فى عهد وزارة الوفد الأخيرة التى أصدرت أمراً فى شهر فبراير سنة ١٩٥٠ يقضى بتفتيش السفن والطائرات التى تأتى إلى الموانى المصرية كى يضبط ما قد يوجد فيها من المواد والبضائع التى تهرب إلى إسرائيل ، وظل هذا الأمر سارى المفعول .

وقد تضامنت مصلحة الجمارك المصرية مع شركة القناة فى تنفيذ أمر الحكومة المصرية سواء فى زمن الأحكام العرفية أم فى عهد إلغائها ، وأصدرت مصلحة الجمارك هذه تعليمات مشددة إلى غرفة الملاحة الدولية والشركات البحرية فى منطقة قناة السويس تنص على أنه من المتعين بها أن تبلغ إدارة الجمرك نبأ أية ناقلة من ناقلات البترول تمر فى قناة السويس فى أى اتجاه ، كى يمكن مراقبتها وتتبعها والوقوف على الجهة التى تنقل إليها حمولتها من البترول ، كما ألقت مصلحة الجمارك المصرية مسئولية إفلات أية ناقلة من هذه الناقلات التى تخل بالنظام الموضوع ، على عاتق تلك الهيئات البحرية ...

* * *

... وبالرغم من كل تلك التعليمات المشددة التى جنحت إليها حكومة مصر ، فقد تبين أن كثيراً من ناقلات البترول تصل إلى إسرائيل عن طريق غير طريق القناة ، فأحيطت وزارة الخارجية المصرية علماً بذلك من مذكرة رفعتها إليها إدارة الجمارك العامة ، واجتمع مجلس الوزراء المصرى واتخذ إجراءين حاسمين بشأن هذه المسألة ...

فأما الإجراء الأول فينص على أن كل ناقلة بترول تمر فى قناة السويس متجهة جهة الشمال إلى أى بلد محايد يجب تعهدها رسميا بالإتيان بشهادة رسمية من جمارك البلد الذى ستصل إليه وتصدق عليها السلطات السياسية المصرية فى هذا البلد بإثبات أن الشحنات التى تحملها الناقلة قد أفرغت فعلاً فى نفس البلد ، وأن هذه الشحنات قد اتخذت سبيل الاستهلاك المحلى فيه ...

وأما الإجراء الثانى فيقضى بأن تمنع ناقلات البترول التى تفرغ شحنتها فى موانئ إسرائيل ، ويتضح ذلك لمصلحة الجمارك المصرية ، من شحنها فى الموانئ المصرية ، فضلا عن منعها من التزود بالمؤن فى هذه الموانئ ...

ولا أنسى أن أذكر أن الحكومة المصرية قد رفضت تقديم أية تسهيلات فى موانيها للناقلات التى تمر بقناة السويس وتكون ضمن ما وضعته مصر فى قائمتها السوداء التى تضم الناقلات الأثيمة التى خالفت أوامر الحكومة المصرية وأفرغت شحناتها البترولية فى إسرائيل !

وبذلك نرى أن الغرض الأساسى الذى تسعى إليه حكومة مصر هو أن تمنع كل إمداد يصل إلى دولة إسرائيل التى تعادى مصر وتحاربها منذ توترت المشكلة الفلسطينية على أثر إعلان التقسيم بين العرب واليهود ...

* * *

... على أن موقف الحكومة المصرية من هذه المسألة قد حدا بالحكومة البريطانية إلى أن تحتج عليها ، وأن توعز إلى حكومات أخرى بالاحتجاج أيضاً ، والعلة التى دعت إلى ذلك أن السفن التى تنقل البترول إلى إسرائيل عن طريق القناة لا تتكلف أجراً كبيراً ولا مجهوداً شاقاً ، ولكن حين تدور هذه السفن عن طريق جنوب أفريقيا ثم إلى مضيق جبل طارق جنوب أسبانيا إلى البحر المتوسط ثم إلى إسرائيل ، تتكلف الكثير من النفقات والباهظ من المتاعب والأجور ...

والمفهوم أن السفن التى تصل إلى إسرائيل مشحونة بالبترول هى سفن بريطانية ، وقد رأت الحكومة المصرية أن تعلن فى ١٢ من أغسطس سنة ١٩٥٠ أن القيود التى فرضتها على ناقلات البترول لا تنطبق على ناقلات البترول البريطانيـة التى تمر بقناة السويس إلا ثبت أن حكومة بريطانيا تملكها ...

وبريطانيا متذمرة كل التذمر ، وتعتقد أن موقف مصر من هـذه المسألة موقف يدل على التحكم المطلق فى قناة السويس ، كما يدل على خرق المعاهدة التى عقدت فى ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٨٨ والتى نصت على حرية الملاحة فى هذه القناة ...

واعتقاد كهذا أعتبره خطأ من الأخطاء الكبرى ! إذ أن موقف مصر من هذه المسألة لا غبار عليه ، فكما يثبت أن مصر فى حالة حرب مع إسرائيل ، وكل محارب من جهته يعمل على الحد من تقوية مواجهه ، فلا غرابة أن تقف مصر مثل هذا الموقف .. ثم إن هناك فى المعاهدة المذكورة فقرات تنص على حق مصر والدولة العلية فى اتخاذ أية إجراءات للدفاع عن مصر أو لإقرار الأمن العام فيها ، ومصر تريد ذلك لتدفع عن نفسها أخطار إسرائيل التى تزقى حربياً من جراء شحنات البترول من الناقلات التى تمر فى القناة وتأتى من إيران والبحرين وبلاد العرب وسواها كل يوم وكل يومين .. إن مصر لو تركت مثل هذه الشحنات البترولية تمر إلى أعدائها هكذا على مرأى ومسمع منها لكانت أحمق دولة فى العالمين ! فماذا إذاً تلومها بريطانيا وتحتج عليها وتريد منها أن تعدل عن هذا الموقف وتدع القناة دون منع ودون رقابة ؟!.. ومع هذا لا نجد من الدول إلا تأييداً لمثل هذا اللوم وترجيحاً لمثل ذلك الاحتجاج !.. لكأن مصر خاطئة فى أى قرار تتخذه وفى كل موقف تقفه ، ولو كان لها الحق كل الحق فى اتخاذ هذا القرار وفى الوقوف مثل ذلك الموقف ما دامت بريطانيا ترى الفائدة فى غير ذلك ، ولكأن بريطانيا محقة كل الحق فى كل ما يحلو

(البقية على صفحة ٦)

خواطر

للدكتور أحمد أمين بك

— ٧ —

كان الأدب أرستقراطياً ، لا يهتم إلا بحياة الملوك والأمراء ؛ فإذا اهتم بحياة الفقراء فليسرهم ويضحكهم ، وفي هذا العصر نتج الأدب الكلاسيكي الرفيع مثل السمفونية الرفيعة وقصص شكسبير ونحو ذلك ، ثم صار الأدب ديمقراطياً يهتم بكوخ الفقراء ، كما يهتم بقصور الأمراء ، ونتج من ذلك الأدب الخفيف الذي يناسب جمهور المتعبين ، ثم صار الأدب شعبياً يعني بما يسر العمال والفلاحين ، ونزل الأدباء إلى مستوى الشعوب ، ورأينا برنارد شو و ه . ج . ولز وأمثالهما يعرضون أدبهم على الشاشة البيضاء ، ويختارون الموضوعات التي تسر العمال والفلاحين ، أكثر مما يهتمون بما يسر الأمراء والعظماء ؛ فكان الأدب أخف ، وكان أكثر انساعاً وأقل عمقاً ، روعي فيه ما يسر ويضحك أكثر مما روعي فيه غذاء العقل وتربية الخلق ، ولا ندري إلى أين المصير !

وكان الكتاب هو الذي يغذي عقول القراء وحده ، فصارت تسليه بجانبه الإذاعات والسينمات والصحف والمجلات ؛ وكان الأدب لا يؤلف إلا للطبقات الرفيعة في أسلوبه وموضوعاته ؛ فأصبح يراعى فيه الشعب في أسلوبه وموضوعاته ، وانحط رواج الكتب ، وقلت الرغبة فيها بعد أن كانت أداة الأدب الوحيدة .

وكان المؤرخ لا يؤرخ إلا أعمال الملوك والأمراء ، وقل أن يتعرض لحالة الشعب ؛ فيعني بالحروب يشنها الملوك والأمراء ، والمباني الضخمة يقيمها الملوك والعظماء ، ويسجل كل صغيرة في حياة الملوك والأمراء حتى في لهوهم ، ولكنا قلما رأينا شيئاً في بؤس الشعب أو رخائه ، في صحته أو مرضه — وحالته الاجتماعية ساءت أو حسنت — ثم أصبح التاريخ ديمقراطياً يعني فيه بحالة الشعب ، كما يعني فيه بأخبار الملوك ، ثم صار شعبياً في أسلوبه وموضوعاته ، أكبر عنايته بالحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للشعوب ، وقلما يتعرض للملوك والأمراء . ولا ندري أيضاً إلى أين المصير !

وقل مثل ذلك في الشعر وسائر الفنون ، وقد كان يراد منها إدخال السرور على الملوك والأمراء ، وكان الشاعر لا يزدهر إلا إذا قصدهم وتغنى بمدحهم وشعر بما يرضيهم ؛ وإذا نبغ نابغة من سائر الفنانين ، فإنما ينبغ في قصورهم ، ولا يشتهر إلا إذا نال حظوتهم ، ولذلك نبغ شعراء بغداد أكثر مما نبغ شعراء الأقطار الأخرى ، واشتهر مغنو بغداد أيام الخلفاء أكثر مما اشتهروا في الأقطار الأخرى .

ثم صار الشعر وسائر الفنون ديمقراطية يغني الشاعر لنفسه ، ولا يغني لخليفة ولا ملك ، وضعف شعر المديح وتخلف عن شعر الغزل وما إليه ، ثم صار الشعر وسائر الفنون شعبية تعني بحالة الشعب في غناه وبؤسه ، والظلم يقع عليه ، أكثر مما يعني بالمديح والغزل ، ثم لا ندري كذلك إلى أين المصير !

— ٨ —

منذ أشهر قليلة اعتدت كوريا الشمالية على كوريا الجنوبية بحجة توحيدها وإخضاع المدائن كلها تحت نظام واحد عادل ، وكوريا في أقصى الأرض ، فقامت أمريكا ، وضحت بجنودها وأرسلت دباباتها وطائراتها وفتكت بمئات الآلاف من الناس وعرضت مئات آلاف أخرى للموت من رجالها ، وعاونها في ذلك حلفاؤها ، لادعاء تحقيق العدالة .

ومنذ سنتين كان نحو تسعمائة ألف عربي مستقرين في بلادهم فهاجمهم اليهود من الداخل والخارج ، وشردوهم كل مشرد ، وهم في وسط العالم لا في أقصاه ، وموقف اليهود من العرب أسوأ جداً من موقف كوريا الشمالية من كوريا الجنوبية ، فساعدهم الأمريكيون وحلفاؤهم بكل ما استطاعوا من مال وعتاد ، ثم قررت هيئة الأمم في سنة ١٩٤٨ رسم الحدود بين اليهود والعرب ، وكان النقب من نصيب مصر ، وفي سنة ١٩٤٩ قررت هيئة الأمم رجوع اللاجئين العرب

إلى مساكنهم الأصلية . وفى ديسمبر ١٩٤٩ قررت هيئة الأمم تدويل القدس ؛ وشىء من هذه الأمور الثلاثة لم ينفذه اليهود كما قررته هيئة الأمم المحترمة ؛ فلم يعيدوا اللاجئين إلى بلادهم ، بل بالعكس شردوا من فى النقب من العرب ، واستولوا على الحدود المصرية ولم يريدوا تدويل القدس كما قررت هيئة الأمم ؛ كل هذا وأمريكا لا تحرك ساكناً ، ولم ترد أن تنفذ قراراتها المحترمة ، بل ولا تنظر نظراً شزراً إلى اليهود . فأين العدالة ؟ وأين تنفيذ القرارات . ولماذا غضبت وسخطت وعرضت العالم كله لحرب دامية بسبب كوريا ولم تحرك أى ساكن لفلسطين ، فهل فلسطين أبعد عن العالم من كوريا ؟ أم حركة الكوريين الشماليين أقسى من حركة اليهود فى فلسطين ؟ لا شىء من ذلك ، وإنما نظرت الولايات المتحدة فى كل ذلك إلى شخصها لا إلى العدالة مجردة ، خافت أن تنتقل الحرب من كوريا إلى الحرب فى ألمانيا إلى الحرب فى الصين واليابان والهند ، وأن تتوسع الشيوعية تدرجاً بعد كوريا ، فأرادت أن تجرب حظها فى كوريا لتمنع هذا التوسع ولو أدى ذلك إلى خسارة مئات آلاف من الجنود ، ومقدار كبير من العتاد ، ولو أدى ذلك إلى حرب عالمية ثالثة ؛ وليس هذا هو الشأن فى فلسطين . فالأمر ليس عدالة ، وإنما هو نظر إلى المصلحة الشخصية . ولأول مرة أدرك العرب مع غفلتهم أن دعوى العدالة أثناء الحروب ونصرة الأمم الضعيفة واحترام رغبة الأقليات ، كانت جوفاء تقال إما خداعاً للشعوب المظلومة وذراً للرماد ، وإما أنهم يقولون ما يقولون فى أوقات الشدة ثم ينسونه فى أوقات الرخاء . وويل للإنسان من ظلم الإنسان !

أحمد أمين

مسألة ناقلات البترول

(بقية المنشور على صفحة ٤)

لها أن تفعل فى مصر ، ولو كان فى ذلك كل الضرر للمصريين ما دامت ترى فائدتها فى هذا وتشعر بجدواها فى ذلك ...

* * *

.. لقد قامت فى برلمان الإنجليز احتجاجات وأصوات تجأر باتخاذ قرار حاسم ضد موقف مصر من مسألة ناقلات البترول ، حتى لقد قامت وجهات ترى أن مصر ليس لها أن تقف موقف الدولة المحاربة ضد إسرائيل ، وتريد أن ترفع الأمر إلى هيئة الأمم ، أو إلى المحكمة الدولية فى لاهاى ، أو إلى سواهما من وسائل الاحتكام ... أليس من العجيب أن تصدر أمثال هذه الوجهات عن الإنجليز ؟!.. أهم يشكون فى أننا دولة لها أن تتخذ اسم الدولة المحاربة ويستنكرون علينا موقفاً نقفه من ناقلات البترول إلى أعدائنا ، ويريدون الاحتكام معنا إلى الهيئات الدولية ، ونحن نراهم قد احتلوا ديارنا وامتلكوا سوداننا وسامونا الخسف وهوان التدخل والاحتلال ، ولا نريد أن نحتكم إلى محاكم العدل ، ولا إلى هيئات الأمم ، بل لو فكرنا فى ذلك — وكثيراً ما فكرنا — لا نلاقى إلا المصاعب والعقبات ، ولا نلاقى غير التبكيت من الإنجليز وغير الإنجليز ....! حقاً أن هذا العالم لا يعرف غير القوة ، ولا يفقه غير معنى السلاح ...

وإن تركناهم يشكون فى أننا دولة محاربة ، وإن تركناهم يرون خطأ موقفنا فى مسألة ناقلات البترول حسب هواهم وأوطارهم ؛ فلا بأس من أن ندعهم أيضاً يشكون فى مقدرتنا على أن نكون أمة تستحق أن تحيا ، ولها الحق فى أن تعيش ..؟!

... وتأتى الأخبار بأن إسرائيل تزمع أن تنفق مبلغ مليون جنيه لكى تحول قرية (إيلات) التى تقع على خليج العقبة إلى ميناء ، وتعبد له طريقاً يصله بشبكة الطرق الرئيسية فى إسرائيل مما يجعل هناك ميناء ينافس قناة السويس التى تعرقل فيها مصر — حسب رأى إسرائيل والإنجليز — تجارة إسرائيل وناقلات البترول إليها ، ومن مثل هذه الأخبار نستطيع أن نقول إن القمين بنا أن نظل على هذا الموقف الذى نتخذه ، بل وأن نتمسك بمبادئ قومية نتخذها فقط للحفاظ على مصالحنا قبل غيرها من المصالح ، وبخطوط رئيسية تكون غايتها فائدة مصر ومصلحة المصريين وقضايا المصريين ...

أحمد طه السنوسى

في ضوء المصباح

قـــلوب ...

للدكتور زكي نجيب محمود

جاء في الأنباء العلمية أن طائفة من العلماء الروس قد لبثت تجاهد — حتى أفلحت — في نقل الأعضاء من حيوان إلى حيوان ، فإذا الأعضاء المنقولة تعمل عملها في صاحبها الجديد ، على نحو ما كانت تعمله في الصاحب القديم .

فهذا هو العالم « مارزف » يحدثنا عن نقل الساق من كلب إلى كلب ، فما هو إلا أن يمشي الكلب بساقه الجديدة ويجري ويقفز ، كأن الساق كانت ساقه منذ ولد ؛ وليس ذلك شيئاً مذكوراً إلى جانب ما وفق إليه العالم الأستاذ « ديميكوف » في نقل الرئتين من حيوان إلى آخر ، ثم ما استطاعه أخيراً الأستاذ « أوجنيف » من نقل القلوب ، فأخذ القلب من هذا ليضعه في ذاك ... وإنما جاهد هؤلاء العلماء ما جاهدوا لينتقلوا بعلمهم عن الحيوان في عالم الإنسان .

وإذاً فقد جاء اليوم الذي ينتقل فيه القلب من أضلع زيد لينبض في جوانح عمرو ...

* * *

كان « خالد » منذ أيام الشباب الأولى ، حاد العاطفة سريع الانفعال ، حتى توشك ألا تراه إلا محمر العينين منتفخ العروق من غضب ، وتكاد لا تسمعه إلا صائحاً ملوحاً بيديه وذراعيه في تحد ووعيد ، فسماؤه عاصفة أبداً ، وبحره هائج مائج أبداً .

تصادفه المشكلات فيعالجها بالغريزة لا بالعقل ، وينظر إلى الحياة نظرة أقرب إلى نظرة الفنان منها إلى نظرة العالم ، أعني أنه يواجه الأشياء في مجموعها وجملتها ، ويكره أشد الكراهية أن تطالبه بتحليل شيء أو موقف إلى عناصره ، أو تعليل نتيجة بمقدماتها ؛ اختار زوجته لا لشيء ، سوى أنه قد سمعها مرة في لقاء عابر تقول كلاماً لطيفاً عن حوض من الزهر في حديقة ، وصمم — ولو أنه لم ينفذ ما صمم عليه — أن يؤلف كتاباً في موضوع معين ، لأنه تصور العنوان فأعجبه رنينه إذا نطق به ، وأعجبه رسمه إذا كتب ، حتى لقد أوصى بهذا العنوان أن يكتب ويحفر ، قبل أن يخط من الكتاب حرفاً واحداً ؛ ووضع « الكليشيه » في درج مكتبه انتظاراً لفراغه من الكتاب ؛ فلا فرق عنده أبداً بين أن تقرأ أحرف الهجاء من الألف إلى الياء ، أو من الياء إلى الألف ، أو أن تبدأها من الوسط ثم تسير راجعاً أو متقدماً ، أعني أنه في ترتيبه لأموره ، لا يعبأ أن يجيء الأول قبل الآخر ، وعنده أن الطريقة الأصح في أي أمر ، هي الطريقة الأعجل ، والتصرف المعقول في نظره هو التصرف الذي يرضي أهواء نفسه ونوازع قلبه .

ولما كان « خالد » مدفوعاً في حياته بعواطفه ، ثم لما كانت العواطف أقرب إلى التقلب منها إلى الدوام ، رأيته سريع التنقل في فكره وفي فعله على السواء ؛ فلا تكاد العاطفة تغريه بعمل ويبدأ في أدائه ، حتى تعود العاطفة فتغريه بعمل آخر ، ولهذا قل أن ينجز عملاً من أوله إلى آخره ؛ فحياته أقرب إلى كومة من مواد البناء منها إلى البناء المشيد المرصوص ، أو هي أقرب إلى قطرات المطر التي تدق النوافذ والجدران والأرض والشجر ، منها إلى نهر متصل المجرى متدفق التيار ، يبدأ شوطه عند منبع معروف ، لينتهي بمجراه إلى مصب معروف .

وهو قلق سريع الحركة ، لا تراه مرة واحدة يستطيع الجلوس على مقعد واحد في مكان واحد ثلاث ساعات متصلة ، ويقال إنه لا ينام من الليل إلا قليلاً .

لا يمنع عنده مانع أن يذهب إلى مقاول يقاوله في بناء بيت مساحته كذا وشكله هكذا ، دون أن يكون في كيسه من المال ما يكفي لبناء عش من أعشاش الطير أو بيت من بيوت

الحق ؛ ولكنه يفعل ذلك إن طاف برأسه مثل هذا الحلم الجميل ، وليس من ضرر على أحد إن لم يكن بناء .

وأنت عدو من أعدائه إذا عرفت أنه بصدد مشروع فسألته : ومن أين لك المال ؟ ذلك لأنه يكره العدّ والحساب ؛ وله حجة في ذلك ظريفة طريفة ، وهي أنه قد عاش ما عاش من دهره لم يحسب ولم يعد ، وترك أموره تجرى « بالبركة » فلم يمت من جوع أو مرض ، وليست أعوامه الباقية في الحياة بأطول من أعوامه الماضية حتى يحسب لها الحساب .

وهكذا ترك « خالد » زمام أمره لعواطف قلبه .

* * *

وأصابت العلة هذا القلب الفياض بعواطفه ، الجياش بدوافعه ، فلم يعد يقوى على الحياة الزاخرة بالحركة السريعة والتقلب الفاجيء ، حتى لكأن هذا القلب قد قطعت نياطه كما يقولون ، يلهث إذا مشى الهوينا وقد كان الجرى لا يكفيه ؛ غير أن الطب قد بلغ في معالجة القلوب مبلغاً جيداً ، فما أهون أن يوضع قلب سليم مكان قلب مريض ، فاستبدل خالد عند الطبيب قلباً بقلب .

لكن الطبيب حين يضع قلباً مكان قلب ، لا يعبأ بما تحتويه هذه القلوب من مشاعر وعواطف ، فهو يريد أن يستبدل بعضلة ضعيفة عضلة قوية وكفى ، أما هل يعمر هذا القلب الجديد ما كان يعمر القلب القديم من عواطف ، فأمر لا يعنيه في قليل أو كثير .

وكان أن حمل خالد قلباً جديداً وخرج من عند الطبيب لا يدرى أنه قد أصبح في الحق إنساناً آخر ، لأنه حمل الآن قلباً يختلف مكونه عن مكون قلبه القديم .

ذهب إلى داره ، وجلس إلى مكتبه ، وفتح درجاً من أدراجه ، فإذا عيناه تقعان على عنوان الكتاب الذى كان قد طلب إلى الخطاط أن يكتبه له ويحفره ، وأخذ يقلبه بين أصابعه متعجباً : لماذا يكون هذا قبل أن يكون الكتاب ؟ وما هو إلا أن ألقى « بالكليشيه » في سلة المهملات ، لأنه عرف الآن أن الكتاب لن يكتب ؛ وجاءه المقاول يحاوله في أمر البيت الذى يريد بناءه لنفسه سكناً ، فلم يستمرئ أن ينطق في الموضوع بكلمة واحدة إلا إذا تهيأت له الأسباب أولاً ، فما هو اليوم بالرجل الذى كان ، وبدأت تدب بينه وبين زوجته ضروب من الخلاف لم تكن تقع بينهما فيما مضى ؛ فهو الآن يعد ويحسب قبل أن يذهب إلى المصيف ، وكان فيما مضى يذهب إلى المصيف بغير عد ولا حساب ؛ وهو الآن يفصل ميزانية داره تفصيلاً ، وكان فيما مضى ينفق ما في الجيب معلقاً رجاءه بما قدر له في الغيب ...

لم تعد حياة خالد تشيع في نفسه لذة ونشوة كما كانت تشيع فيه حياته الأولى اللذة والنشوة في عهد قلبه القديم ، فليس في القلب الجديد من دخان العواطف ما يحجبه عن الحقائق الواقعة ؛ والنظر بالعين المجردة إلى الحقائق العارية عن تزويق الخيال فيه مرارة وألم ، ولكنه آمن عاقبة وأسلم ختاماً وأخصب نتاجاً .

كان « خالد » في عهد قلبه القديم طفلاً يلهو بأحلامه لهواً لذيذاً جميلاً ، فأصبح تحت سيطرة القلب الجديد رجلاً يواجه الواقع المرير المؤلم في شجاعة الرجال ؛ إن أحلام القلب شبيه بمتعة اللذة لأننا نطبخ لأنفسنا فيها ما نشتهى ، فننقص من ملحها وفلفلها كما نشاء ونهوى ، ونزيد من لحمها وأرزها كما نشاء ونهوى ؛ وأما الواقع فطعام مرير في أكثر الأحيان ، لأن الطاهى يقدمه لنا مُعَدّاً مطبوخاً على مشيئة طاه سوانا ؛ لكن الأحلام على لذتها من طبيعة الطفولة الغريرة ، والواقع على مرارته من مميزات الرجولة المكتملة الناضجة .

النضج العقلى معناه إدراك الواقع والاعتراف به ، والعمل بمقتضاه ، فيجيء العمل منتجاً بقدر ما يسمح طبائع الأشياء أن تنتج ؛ والعقل الفج هو الذى لا يطيق النظر إلى الواقع كما هو ، فيغمض عينيه ويرسل للأحلام عنانها ؛ ولا غرابة بعد ذلك أن جاء الشعر قبل النثر في تاريخ الأدب ، ما دامت مرحلة الشعر الحالم أسبق من مرحلة النثر الواقعى في تاريخ الحياة — حياة الأفراد وحياة الأمم على السواء ...

تجرع « خالد » في عهد قلبه الجديد ، الذى لم يطق معه أن يركب للواقع الثقيل أجنحة من ريش الأحلام الطائرة الدوارة ، تجرع في عهد قلبه هذا مر الواقع وعلقمه ، لكنه مع ذلك تمنى لأمته كلها أن يبدلها الله قلوباً بقلوب ، فينزع من صدورها القلوب الحالمة الساهمة النائمة ، ليضع مكانها قلوباً صاحية متيقظة واعية .

زكى نجيب محمود

مشكلة الحرية

للأستاذ على أدهم

الحرية شرط لازم من شرائط الحياة السليمة للفرد والمجتمع ، وليست الحرية مجرد مجموعة من القواعد المرعية والأصول المتبعة ، وإنما هي موقف تجاه الحياة ونزعة غالبة تسمح لكل فرد من أفراد الأمة أن يتولى أمور نفسه على الطريقة التي تروقه ، ويعبر عن آرائه بالأسلوب الذي يختاره .

وقد مر بالإنسانية حين من الدهر كان مصدر الخطر على الحرية فئة قليلة من أصحاب الامتيازات الأعلياء ، وقد كان العبيد في تلك العهود السالفة أقل قيمة وأنزل منزلة من سائر الآدميين ! والمجهود الذي بذل للقضاء على العبودية يبين كيف أن الحرية أصبحت مرتبطة أشد ارتباط بمسألة الكرامة الإنسانية ، فقد أدرك الناس أن المساس بالحرية معناه التعرض لكرامتهم الإنسانية والنيل منها أو إلغاؤها ، ومن ثم امتزجت فكرة الحرية بفكرة الكرامة الإنسانية .

وفي مستهل القرن العشرين كان الاعتراف بضرورة الحرية وتقدير قيمتها وعرفان فضلها ومزيتها يكاد يكون من المسائل المفروغ منها والتي أصبح الكلام فيها من قبيل تحصيل الحاصل وترديد ما يعلمه الناس جميعاً أو كالنهار في قول الشاعر .

وليس يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل

وكانت هناك أمم لا تزال متخلفة لم تظفر بنصيبها المناسب من الحرية ، ولكن هذه الأمم لم تكن حجة ضد الحرية ، وإنما كانت حجة لها ، وكان إجماع المستنيرين في أنحاء الأرض على أن الحرية لازمة للناس والأمم لزوم الضوء والهواء والماء والغذاء .

فكل أمة من الأمم يجب أن تتولى أمورها بنفسها وتتحرر من سلطة الغير وسيطرة الأجنبي ، وقد حفل القرن التاسع عشر بحوادث تحرير الأمم من طغيان الأجنبي ، واستبداده بعد سقوط نابليون ، ووجدت الجمهوريات في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ، وتحررت إيطاليا ودول البلقان ، ونضجت الديمقراطية في الولايات المتحدة ، وقوى ساعدها ، وأخذت بالنظام النيابي ألمانيا والنمسا وتركيا ، وحتى روسيا وجد فيها الدوما ، وكانت الهند والصين ومصر تجاهد لتظفر بالحرية وتسير في ركب الحضارة وتتعلق بأسباب التقدم .

وفي داخل الأمة يجب أن يكون الفرد حراً في تفكيره واعتقاده ، وفي كلامه وعمله ، له من الحقوق ما لغيره ، وعليه من الواجبات مثل ما على غيره ، ونصيبه من اهتمام العدالة ورعاية القانون مثل نصيب غيره من أفراد الأمة سواء بسواء ، فلا زيادة ولا نقصان ، ومن حقه أن يباشر أعماله ويعبر عن شخصيته في حدود القوانين المرعية .

وبدأ العالم يعرف أن هناك لوناً آخر من ألوان الحرية ليس أقل قيمة ولا أضعف أثراً من الحرية السياسية والحرية الشخصية ، وهو الحرية الاقتصادية ، فمن الواجب تحرير الناس من نير الفقر وأصفاد الحاجة والعوز وإرهاق العمل الممل الرتيب وإنقاذهم من أضرار السكنى في البيئات القذرة الوبيئة ، وليست الحرية في إزالة العقبات فحسب ، بل هي كذلك في التمكين من تعادل الفرص وإفساح المجال لشتى الكفايات ومختلف الطبقات .

وتقرر في الأذهان أن الحرية ليست تصوراً بسيطاً ، وإنما هي نظام له أركانه وجوانبه وأجزاؤه وعناصره ، وأنه لا بد من استكمال جوانبه واستيفاء أجزائه ليتضح معنى الحرية وتؤتي ثمراتها ! فالرجل الكامل الحرية هو الذي يعيش في بلاد مستقلة وفي ظل حكومة ديمقراطية يتساوى فيها الناس أمام القانون وفي نظام اقتصادي يجنبه غوائل الفقر ويتيح له الفرصة لإظهار مواهبه واستعداداته .

ووقعت الحرب الكبرى الأولى ، وفي معاهدة الصلح التي تلتها استرد البولنديون استقلالهم وظفر التشيك والسلوفاك ودول البلطيق بنصيبهم من الحرية ، وقوى أمر دول البلقان ، وأثبتت الدول العربية وجودها ، ومنحت

إرادة الحكم النازى ، وقارت الهند بنصيب منه ، وبدا للعيان أن حركة التحرير نامية متقدمة وأنها لابد مكتسحة كل ما فى طريقها من العقبات .

ولكن هذه الحركة التقدمية القوية أصابها رد فعل لم يكن متوقعاً ، فقد اشتدت فى أوربا الأزمة الاقتصادية ، وهبطت قيمة العملة ، وخفضت الأجور ، وانتشرت البطالة وفقد الكثيرون ثرواتهم ، وأصابهم الإفلاس ، وعضهم الفقر ، وعجزت المجالس النيابية فى بعض الأمم الديمقراطية عن مواجهة الموقف ومعالجة الأزمة ؛ وفى البلاد التى منيت بالهزيمة فى الحرب اشتد التذمر من سوء الأحوال الاقتصادية وفرض عدم التسليح عليها ، واستغل بعض الرجال الأقوياء الطامعون فى النفوذ والسلطان الفرصة ، وسندهم الرأى العام الذى أصبح يميل إلى تركيز السلطة وشد أزرها وتقوية ظهرها ، ويحرص على صيانة النظام والمحافظة على الأحوال العادية ، فاستطاع هؤلاء الرجال الطامعون أن يثبوا إلى مقاعد الحكم ، ويقبضوا بيدهم على مقاليد السلطة ؛ وكانت قد شاعت فى خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين اتجاهات فكرية ونزعات فلسفية تعارض الديمقراطية ، وتغض من قيمة العقل ، وتشيد بذكر الشعور والإحساس والبداهة ، فاستعان هؤلاء الرجال القاصرون بأمثال هذه الآراء واتخذوها قاعدة لنظامهم ؛ وكان من أخطر هذه الآراء وأقواها سحراً رأى هيجل فى إكبار شأن الدولة ورفع منزلتها وإعفائها من التبعات الأخلاقية وجعلها غاية الغايات وفوق كل اعتبار ؛ والدولة عند هيجل كلية حية لها حقوقها التى تعلو على كل الحقوق ، فهى الفكرة المقدسة تسير فى الأرض ؛ وخصوم هيجل وفلسفته يعدونه مسئولاً عن الأفكار الأساسية التى قام عليها النظام النازى والنظام الفاشى ؛ وأنصار فلسفته والمدافعون عنه يقولون إن هيجل حين قال إن حقوق الدولة أسمى من كل الحقوق ، كان يقصد الدولة القائمة على الأسس الديمقراطية ؛ ومهما كان من أمر الخلاف على تفسير مقاصده فإنه من المعروف أن النظامين الديكتاتوريين قد استعانا بآرائه واستمدا من وحيه ، ومما ساعد على تأليه فكرة الدولة ضعف العقائد الدينية فى العصر الحاضر ، وقد ترك هذا الضعف الواضح فراغاً روحياً فى النفوس فسح المجال لتغلب فكرة تأليه الدولة وتقديسها ، وقد صدرت تصريحات كثيرة من زعماء النازيين تنم على فرط تعلقهم بفكرة قدسية الدولة ممثلة فى زعيمهم هتلر(١) .

والواقع أن فكرة تأليه الدولة والقول بعصمتها ، من الخرافات التى فتنت عقول الكثيرين وأضلتهم ، والدولة بطبيعة الحال ليست سوى مجموعة من الرجال والنساء يشتركون فى القيام بأعباء خاصة وتحقيق أهداف معينة ؛ والإنسان ميال بطبيعته إلى الاجتماع أو هو مدنى بالطبع كما يقولون ، فالميل إلى التعاون مع زملائه طبيعى فيه ، ولكن هذا لا يعنى بحال من الأحوال أن الصورة التى يأخذها هذا الاجتماع تخلق حقيقة جديدة لم يكن لها وجود من قبل ، فليست الدولة كائناً عضوياً كما توهم الواهمون ، ولا نزاع فى أن تصرف الفرد فى الجماعة يختلف عن تصرفه وهو منفرد بنفسه ، ولكن ليس معنى هذا أن الجماعة شىء يختلف عن الأفراد ، وغاية ما فى الأمر أن الفرد فى الجماعة يستمد من قوتها ويفقد شيئاً من الشعور بالتبعة فتزداد جرأته ، والأفكار التى يوحيها زعيم من الزعماء قد تثير استجابة فى نفوس الجماعة وتكتسب عطفهم وتؤثر فى نفوسهم ، ولكن ليس معنى ذلك أنه قد ولد مخلوق عضوى جديد ، ولا ينقص ذلك من قيمة فكرة الدولة ، فهى إن لم تكن مخلوقاً عضوياً فإنها نظام لازم للإنسان ، ولولا وجودها لسادت الفوضى وتعذر وجود الإنسان ، والدولة بالقياس إلى الفرد مثل الجو بالنسبة للجسم ؛ فكلما كان الجو نقياً طيب الهواء صح الجسم وقوى ، وكلما كان فاسد الهواء ضعف الجسم وذوى .

وبين الدولة والأمة تفاعل متبادل وتأثير مشترك ، فكما تكونوا يولّ عليكم ، أى أن الدولة تستمد طبيعتها واتجاهاتها من طبيعة الأمة ونزعتها ، والدولة من ناحية أخرى تؤثر فى طبيعة الأمة وتطبعها بطابعها ، ولغة الأمة وقوانينها وعاداتها وتقاليدها قد أعتها الأجيال السالفة

---

(١) يمكن من يحرص على تتبع مثل هذه الأقوال العجيبة أن يرجع إلى كتاب « الحرب ضد الغرب » للكاتب الألمانى كولناى ففيه مجموعة ضخمة من أمثالها مع ذكر قائليها War Against the West.

واشتركت في تكوينها وهي تتمثل في حالتها الحاضرة ، فالجيل الحاضر هو إلى حد كبير ما صنعته الأجيال السالفة ، والجيل المقبل هو كذلك إلى حد كبير ما نشترك نحن في صنعه وتكوينه ، فالجماعة أو الأمة شيء موجود وله كيانه ، وليس وهماً من الأوهام كالذي يسبب بعض الفلاسفة السياسيين « الفوضى » إما من قبيل الخطأ في التفكير والانطلاق مع الأخيلة والأوهام وإما من طريق التضليل والتدجيل .

ولا نزاع في أن النظم الديكتاتورية لها مظهرها الأخاذ البراق وصوتها العالي الضخم وبتها السريع في الأمور وكفايتها الواضحة غير المنكورة في تصريف الشئون ورتق الفتوق ولم الشعث ، ولكنها مع ذلك لها عيوبها الخطيرة ، فآراء الناس قد تختلف ، ووجهات نظرهم في المسائل العارضة والمشكلات الطارئة قد تتعارض وتتباين ، فإذا لم يفصل في هذا الخلاف بالمناقشة الحرة والبحث الطليق وتقليب الأمور على وجوهها في جو من الصراحة والحرية فلا بد من أن يتبع طريق آخر للفصل فيها وتبين الخطأ من الصواب ، وهذا الطريق هو الإملاء والإرغام والفرض والإلزام ! فالديكتاتور هو صاحب الأمر والنهي والفيصل والمرجع الأول والأخير ، وهو يتأثر في إصدار آرائه من غير شك بآراء حاشيته وحوارييه ، ولا يسمح لأحد بأن يرى رأياً غير رأيه أو أن يذهب في علاج المشكلات مذهباً خلاف مذهبه ! ومن اجترأ على التصريح برأيه فجزاؤه الإبعاد والحرمان والطرد من وظيفته أو بلاده أو سجنه واعتقاله ، وفي بعض الأحيان قتله والتخلص منه ! وهكذا تحل المؤامرة محل المناقشة ، والعمل في الخفاء والظلام بدلا من العمل في الجهر والعلانية ، ويكون لذلك كله أثره السيء في إفساد النفوس ، وهدم الأخلاق ، وتعطيل المواهب والملكات ، وتعريض الأمة للسقوط والهلاك ! ولا نزاع في أن التضحية بالحرية السياسية والحرية الشخصية من أجل الحصول على الاستقرار وتجنب الثورات والانقلابات تضحية غالية ، ولا يأتي من ورائها خير ، بل يجيء الضرر المحقق والنكبات المتلاحقة ، والمهم أن نتفادى عيوب الديمقراطية ونصلح أخطاءها ونستدرك نقائصها ، لا أن ننسخها ونلغيها ونستبدل بها النظم الديكتاتورية ، والحرية تسمح للإنسان بالوقوع في الخطأ ليتعلم الصواب ، ولا نزاع في أن الوقوع في الخطأ قد يضر المجتمع ، ولكن مشكلات الحياة كثيرة ومتنوعة ، والإنسان مهما بلغ من القوة فإنه أضعف من أن لا يخطىء في تناول تلك المشكلات الكثيرة المعقدة ، ومن الخطأ يتعلم الإنسان الصواب ، والمجتمع نفسه في حاجة ماسة إلى حرية الأفراد ليكون مجتمعاً سليماً ، والمجتمع السليم أفراده أقوياء أكفاء أحرار ، ومثل هذا المجتمع الحر السليم يرتفع فيه الأفراد بكفاياتهم الذاتية ويسقطون بسبب جهلهم وسوء تصرفهم ، والحرية الفردية هي أصدق محك لقيمة الأفراد وأحسن مقياس لأخلاقهم وشخصيتهم ! فالحرية تختبر الناس ، وتميز طيبهم من خبيثهم ، وتمحص الأخلاق ، وتكشف الدخائل والبواطن ، فيسمو من يسمو ويسقط من يسقط ، ويأخذ كل إنسان حيزه المناسب وقدره الحقيق ، وتلتقي في ذلك مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، وفي خلال عملية الارتفاع والهبوط يكتسب الفرد خبرة وتجربة ، والمجتمع الصالح يحاول على الدوام أن يتعرف نفسه ويتفهم أهدافه أو يحاول على الأقل أن يكون فكرة عن نفسه ، وليس في مكنة إنسان أن يعرف المجتمع من جميع نواحيه ، ولكن إذا حاول كل إنسان أن يصور الناحية التي يعرفها تصويراً صادقاً أمكن أن نكون عن المجتمع صورة عامة مستمدة من ملاحظات الباحثين في نواحيه المختلفة ! وكلما كان هؤلاء الباحثون أحراراً في بحوثهم لا رقيب عليهم غير ضمائرهم أمكن تكوين فكرة عامة عن المجتمع تقارب الحقيقة جهد الطاقة البشرية ، ومثل هذه الصورة تمثل محاسن المجتمع ومساوئه ومزاياه ونقائصه ، ومن ثم أهمية حرية التفكير والارتياء وإبداء الآراء .

وهناك من يرتضون التفريط في الحرية ويرون قبول النظم الجائرة من أجل القضاء على الفقر ، وحجتهم في ذلك أن الفقير المعدم لا يفيد من الحرية ، ولكن هل يفيد الفقير المعدم من فقد الحرية ؟ وحقيقة أن الفقير المحروم قد لا تكون له قدرة على الانتفاع بالحرية ، ولكن فقدان الحرية من أجل ضمان الخبز والقوت للفقراء والمعوزين ليس

(البقية على صفحة ١٥)

لوحـــــة إسرائيل

الأستاذ شحاتة آدم محمد

[هذه قصيدة من الشعر للانتصارات الباهرة التي أحرزها الملك المصري مرنبتاح من عهد الأسرة ١٩ في السنة الخامسة من حكمه على الشعوب والقبائل التي أغارت على مصر شرقاً وغرباً من ليبيا وفلسطين .

وتعتبر هذه القصيدة وثيقة هامة جداً وفريدة ، نظراً لأنها أول وأقدم نص في الأدب المصري القديم والأدب العبري أيضاً ورد فيه لفظ إسرائيل ، وقد وردت هزيمة إسرائيل موجزة جداً ولكن صريحة للغاية على حد تعبير العلامة برستد ، وذلك في خاتمة النص .

ولفظ إسرائيل كما ورد هنا مخصص برجل وامرأة وثلاثة خطوط هي علامة الجماعة فهو لهذا يعني قبيلة أو أناساً ولا يعني بأي حال من الأحوال أرضاً أو وطناً ، وهو ما قصد إليه الكاتب تماماً .

وقد قمنا بترجمة هذه القصيدة عن نصها الهيروغليفي المنشور « بالدليل العام » ولفت نظرنا إلى دراستها الأستاذ الفاضل الدكتور أحمد بدوي وقام ببعض التوجيهات والتفسيرات في أسطرها الأول كما استعين أيضاً بتراجم كل من العلماء برستد وارمان وجولنشيف ، وروعيت حرفية الترجمة] .

التاريخ والمقدمة :

في اليوم الثالث ، من الشهر الثالث ، من فصل الحصاد ، في السنة الخامسة من عهد صاحب الجلالة حورس رع ، الثور القوي ، الذي يغتبط للصدق ، ملك مصر العليا والسفلى (بان رع مري آمون) بن رع (مرنبتاح حتب حر معات) المزيد القوة ، والمعلي سيف حورس رع الثور القوي ، الذي حطم ذوي الأقواس التسعة[1] وجعل لاسمه الخلود دائماً وإلى الأبد .

تمجيد مرنبتاح لمصر :

من طبقت أخبار انتصاراته في كل الأقاليم آفاق الأرض ، ومن العمل الصالح مظهر من مظاهر بطولته ، ملك مصر العليا والسفلى (بان رع مري آمون) بن رع (مرنبتاح حتب حر معات) الثور المفترس ؛ سيد القوى ؛ الماحي أعداءه ؛ الجميل في ميدان معركة النصر ؛ الذي ضربته تظهر في الحق .

من مَدَّ العاصفة التي تلبدت في سماء مصر ، وجعل أرض النيل ترى أشعة الشمس ؛ من أزاح جبلاً من نحاس من فوق أعناق الناس ، وأعطى النسيم لأولئك الذين غشيهم اليأس .

من جعل أفئدة أهل مَنْف تشتفي من أعدائها ، ومكن آلهة منف التاسوعيين من الانتصار على الثائرين عليها .

من فتح أبواب منف على مصارعها بعد أن كانت مغلقة ، ووهب معابدها ما كانت تناله من أنصبة ؛ ملك الصعيد والدلتا (بان رع مري آمون) بن رع (مرنبتاح حتب حر معات) .

الوحيد ، الذي ثبَّت القلوب ، وقلوب مائة ألف نسمة ، والذي أمام بصره دخل الهواء أنوفهم[1] .

هزيمة الليبيين :

من شق بلاد التِّمِحُو إبان حياته ، وبث الهلع في قلوب الشاوشة[2] ، وجعل الليبيين الذين وطأوا أرض مصر يرتدون على أعقابهم وفي قلوبهم رعب عظيم من مصر .

لقد خلفوا طوابيرهم التي في المقدمة وراء ظهورهم ، ولم تستطع أقدامهم الثبات ، بل ولت مدبرة بعد أن ألقى رجال القِسِيّ أقواسهم ، وقلب جيشهم الفار كان مُتعباً من السير ، وقرب الماء التي معهم نُزعت ورميت[3] ، وحقائبهم مزقت وألقيت[4] .

(١) قبائل على حدود مصر تعرف بهذا الاسم ، كانوا مهرة في تصويب القسي والسهام ومصدر هم لفراعنة مصر .

(١) أي تنسموا نسيم الحرية .

(٢) التمحو والتحو والشاوشة قبائل ليبية كانت دائبة الإغارة على مصر .

(٣) لأن الماء الذي معهم نضب .

(٤) حتى يسهل الفرار .

فرار زعيم ليبيا :

هرب زعيم ليبيا الخسيس الساقط تحت ستار الليل وحيداً ، وقد زالت عنه ريشته من فوق رأسه[1] ، وطاشت قدماه في الرمال ، وسُبيت نساؤه أمام بصره ، وسُلب دقيق مؤنه ، ولم يعد عنده ماء في قربه يمكنه من الحياة .

لقد كان وجه إخوته متجهماً لحد قتله[2] ، وكل كان يقاتل رفيقه من بين قواده ، وقد احترق معسكرهم ؛ وصارت خيامهم رماداً ، وكل ما يملك صار نهباً لجنوده .

ولما وصل وطنه صار محزوناً على الدوام في أرضه ، خجلاً محنياً بثقل الجزاء ، على حظه التعس الذي أزال عنه ريشته[3] .

الجميع يتكلمون عنه في بلده يقولون : لقد أصبح في قبضة آلهة منف جميعهم ، الذين جعلوا ملك مصر يلعن اسمه (مريوى) ملعون منف ، ابناً بعد ابن في أسرته حتى الأبد .

إن (باك رع مرى آمون) وراء بنيه ، و (مرنبتاح حتب حر معات) سوف يجعله يلقى حتفه .

الحالة في ليبيا :

لقد أصبح مضرب المثل عند الليبيين ، وكل فئة من الفئة تقول للفئة الأخرى : « لم يقع لنا ما وقع منذ عهد رع ! » ، وكل رجل مُسِن يقول لولده : « وا أسفاه على ليبيا ! » .

لقد انعدمت عن الليبيين الحياة في مظهرها الجميل حين كانوا يخطرون وسط الحقول فانقطع خطاهم في يوم واحد ، بينما احترق التحنو في عام .

الإله سُوتيخ قد ولّى ظهره لزعيمهم ، فهجرت بيوتهم بأمره ، ولم يعد هناك عمل لأحمال في هذه الأيام . صار الاختفاء أمناً ، وأصبحت الطمأنينة داخل الكهوف .

إنه ملك مصر العظيم الذي يقبض على القوة والسلطان ، من الذي يحاربه وهو يعرف سطوته ؟ أحمق هذا الذي سوف يلقاه ! إنه لن يعرف مطلع الصبح هـذا الذي يطأ حدود مملكته .

محاباة مرنبتاح لمصر :

إنهم يقولون عن مصر : منذ بدء الآلهة وهي البنت الوحيدة للإله رع ، وإنه ابن رع الذي يتربع على عرش الإله شو[1] . لا يوجد عقل[2] يفكر في الاعتداء على شعبه ، لأن عين كل إله تطارد من يعتدى عليها ؛ إنها تقبض على نواصي أعدائها .

إن (الفلكيين)[3] يقولون عن نجومهم ، وذوى الفكر عندما يتطلعون للرع : « لقد حدثت معجزة لمصر جعلت كل من يعتدى عليها سجيناً طول حياته مدى الدهر ، بأمر الملك القدوس المنتصر على أعدائه أمام رع .

لقد اندحر مريوى فاعل الشر وباعث الفتنة ، الملعون من كل إله في منف ، وحوكم على يد الملك في هليوبوليس ، حيث قرر الآلهة التسعة أنه مذنب لأجل جرائمه .

الآلهة تتوج مرنبتاح :

قال رب الآلهة : أعط السيف لولدى ، القوى القلب ، الطيب ذى الرحمة (بان رع مرى آمون) بطل منف ، المتحدث عن هليوبوليس ، الذى يفتح المدن المغلقة ليفك سراح الجماهير المكبلة في الأسر في كل بلد ؛ وينعم القرابين المعابد ؛ ويدع البخور يدخل على الآلهة ، ويمكن الأمراء من أن يستعيدوا أملاكهم ، ويعيد البؤساء إلى مُدُنهم .

ثناء هليوبوليس :

إنهم يتحدثون في حضرة عظمائهم في هليوبوليس عن ابنهم (مرنبتاح حتب حر معات) قائلين : هبه البقاء مثل رع ، ودعه يدافع عن كل معتدى عليه من أى بلد أجنبى . مصر قد صارت من قسمته للأبد وقوته في شعبه .

---

(١) دليل المهانة .
(٢) تجهم من الغضب لهزيمته .
(٣) ريشته التى كان يزين بها رأسه وهى شعاره .

(١) شو : إله الهواء .
(٢) حرفياً « قلب » .
(٣) عن إرمان .

تأمل ! من يعش فى عهد هذا البطل تأت إليه أنفاس الحياة سراعاً ، والرخاء يتدفق على كل من كان على حق ، أما الشرير فلن يستطيع أن يحتفظ بغنمه ، ومن يحصل على ثراء بطريق غير مشروع سوف يؤول ثراؤه إلى آخرين لا إلى أبنائه .

قيل : إن مريوى المهزوم الحقير ، الليبى المندحر ، جاء ليطأ حوائط الإله تينن[1] الذى جعل ولده (بان رع مرى آمون) بن رع (مرنبتاح حتب حر معات) يشرق على عرشه .

وقال الإله بتاح عن الليبى المغلوب : « كل جرائمه سوف تتجمع وتنصب على رأسه ، دعه يقع فى يد (مرنبتاح حتب حر معات) حتى يجعله يطرش ما ابتلعه كالتمساح » .

تأمل ! إن الأسرع هو الذى يأخذ بتلابيب من كان سريعاً ، فالملك سوف يقتنصه رغم ما هو معروف عن قوته ، لأن آمون سوف يأخذه بيده ويسلمه إلى روحه فى هرمونتيس[2] ؛ إلى ملك الجنوب والشمال (بان رع مرى آمون) بن رع (مرنبتاح حتب حر معات) .

نشوة النصر :

لقد عم مصر طرب عظيم ، والفرح يتناطر قدماً من مدن مصر ، والناس يتجاوبون الحديث عن الانتصارات التى أحرزها (مرنبتاح حتب حر معات) على التحنو .. يقولون : « كم هو محبوب الملك الظافر ! كم هو مبجل لدى الآلهة ! كم هو ذو حظ عظيم الملك القائد !

(الآن) تستطيع أن تجلس فى نشوة وتتكلم ، وتستطيع أن تمشى حراً فى الطريق .

لم يعد هناك وجل فى قلوب الناس .

الحصون تركت لذاتها ، والآبار فتحت من جديد ، الرسل تتهادى تحت شرف الحوائط تستظل من الشمس حتى يستيقظ الحراس[3] .

(١) أى مدينة منف .

(٢) مدينة جنوب طيبة .

(٣) الرسل لا توقظ الحراس نظراً لأنها لا تحمل رسائل مستعجلة كما هو فى حالة الحرب .

وجنود الماتوى[1] ترقد تغط فى سبات عميق[2] ، وحرس الحدود وسط المزارع وفق هواهم[3] .

وقطعان الماشية فى الحقل تركت تمشى على رسلها بدون رعاة عابرة الجدول الفائض .

لم يعد هناك ارتفاع لصيحة فى الليل : « قف ! تأمل ! شخص قادم ! شخص آت ذو لسان أجنبى ! » .

الناس تروح وتجىء ، تغنى ، ولم يعد هناك عويل لأناس حزانى . عمرت المدن من جديد ، ومن يفلح حباً سوف يأكله . الإله رع أدار وجهه نحو مصر ، لقد ولد ليكون حامياً لها ، ملك مصر العليا والسفلى (بان رع مرى آمون) بن رع (مرنبتاح حتب حر معات) .

انتصار مرنبتاح بفلسطين[4] :

لقد انكفأ الزعماء على وجوههم قائلين : « السلام »[5] ولم يعد أحد يرفع رأسه من ذوى الأقواس التسعة .

خربت تحنو
وسكنت خيتا للسلام
نهبت با كنعان وذهب معها كل شر
خسفت عسقلان وأخذت جزر
اندثرت ينوعام وصارت من عدم
أبيدت إسرائيل ، ولم يعد عندهم حبوب .
وصارت فلسطين أرملة[6] أمام مصر
كل الأقاليم قد وحدت وعم ربوعها السلام
وكل من كان ثائراً أصبح فى قبضة ملك الوجهين
(بان رع مرى آمون) بن رع (مرنبتاح حتب حر معات)
الذى يهب الحياة مثل رع كل يوم .

شحاتة آدم محمد

(١) جنود نوبيون يعملون كشرطة .

(٢) الجند نائمون لأن الأمن قد استتب بعد النصر .

(٣) لأن الحدود آمنة .

(٤) يعدد مرنبتاح فى الاثنى عشر سطراً التالية فى آخر النص الشعوب والمدن التى قهرها بفلسطين .

(٥) أى سقطوا على وجوههم بعد الهزيمة يطلبون السلام ، واللفظ الهيروغليفى الوارد فى النص لكلمة « السلم » العربية هو « شالم » أو « شالُم » .

(٦) أى بلا زوج يحميها من مصر .

مراثي الشعراء

للرسول عليه السلام

— ١ —

للأستاذ الشاعر محمد عبد الغني حسن

هذا موضوع لم أجده مجموعاً في كتاب، ولم أقع عليه بحثاً مستقلاً في كتب السيرة النبوية، أو مطولات التاريخ، أو الأخبار الأدبية، كسيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية، وتاريخ الأمم والملوك للطبري، والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، والبيان والتبيين للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه. ولم أجده حتى في الباب المطول الذي عقده النويري في الجزء الخامس من «نهاية الأرب» تحت عنوان: المراثي والنوادب. ولكنني جمعته من بضعة عشر كتاباً سأذكرها في نهاية البحث تسهيلاً لمن يريد المراجعة

وعجيب جداً أن تمر على الأمة العربية الإسلامية هذه القرون الطويلة، وأن يمر على وفاة هاديها وزعيمها محمد بن عبد الله أكثر من ثلاثة عشر قرناً فلا نجد موضوع «وفاته» صلى الله عليه وسلم مضموماً ملموماً كما نجد موضوع «مولده» وإنما يصادف القارئ عن وفاة النبي نبأ هنا، أو مرثية هناك. حتى إنك لا تجد في كتاب المؤرخ الطبري على طوله وضخامته وتوسعه في أخبار الرسول وولوعه برواية الشعر المناسب لأحداث التاريخ — لا تجد فيه بيتاً واحداً من قصيدة رثى بها النبي عليه السلام. ولو لم يرد في تاريخ الطبري شعر البتة لقلنا إن المؤرخ الإسلامي قد جرى على طبعه من عدم الاهتمام بذكر الشعر في كتابه الكبير. ولكن تاريخ الطبري مملوء بأشعار غزار — جاهلية وإسلاماً — فما باله يغفل مراثي النبي عليه السلام من حسابه(١)؟

ولعل المؤرخ الوحيد الذي لم يغفل ذكر مراثي الشعراء للنبي من حسابه هو أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب «سيرة النبي»، والذي يعد أوثق مصادرنا عن حياة الرسول وعن وفاته. إلا أن ابن هشام — لأمر لا نعلمه — لم يذكر من الشعراء الذين رثوا النبي عليه السلام إلا حسان بن ثابت. فروى له في الجزء الأخير من السيرة أربع قصائد: ثلاثة منها دالية القافية، والرابعة قافيتها رائية.

وأطول قصائد حسان بن ثابت في رثاء النبي عليه السلام — على رواية ابن هشام — هي الدالية التي مطلعها:

بطيبة رسم للرسول ومعهد
منير! وقد تعفو الرسوم وتهمد

وتبلغ عدة أبياتها ستة وأربعين بيتاً، وهو نفس العدد الذي رويت به القصيدة في ديوان حسان بن ثابت، المشروح بعناية الضابط الأديب محمد العناني.

وتبحث في «سيرة ابن هشام» عن مرثية نبوية لغير حسان بن ثابت فلا تجد إلا المراثي الأربع الحسانية التي أشرنا إليها.

ولا شك أن اتصال حسان بن ثابت بالنبي وقربه منه وتصديه نفسه للدفاع عنه وعن دعوته حياً، قد أثار فيه كوامن الشجن حين قبض رسول الله إلى ربه! فإذا شاعرية حسان الغزيرة تنهمر من سيل من المراثي، نحس — ونحن نقرؤها — أثر الفجيعة في نفس شاعر الرسول.

ولم يكن حسان وهو يرثي رسول الإسلام معبراً عن نفسه وحده، أو عن المسلمين بصفة عامة؛ ولكنه صور مصيبة الأنصار في النبي أرق تصوير، حتى لقد خشي على مصير الأنصار بعد وفاته عليه السلام. ولم يكن حسان في هذا إلا معبراً عن شعور قومه، فهو أنصاري، بل هو من السابقين منهم إلى الإسلام. وما أصدقه وهو يقول:

والله أسمع ما بقيت بهالك
إلا بكيت على النبي محمد

(١) ولقد تابع ابن الأثير في «الكامل» الطبري، فلم يذكر مرثية واحدة من مراثي الشعراء للرسول.

يا ويح أنصار النبي ورهطه
بعد المغيب في سواء الملحد
ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا
سودا وجوههم كلون الإثمد

وما أكثر تفجعه وهو يرثيه بهذه الأبيات :

نَبُّ المساكين أن الخير فارقهم
مع النبي تولّى عنهمو سَحَرا
من ذا الذي عنده رحلي وراحلتي
ورزق أهلي إذا لم يؤنسوا المطرا
أم من نعاتب لا نخشى جنادعه(۱)
إذا اللسان عتا في القول أو عثرا
كان الضياء ، وكان النور نتبعه
بعد الإله ، وكان السمعَ والبصرا
فليتنا يوم واروه بملحده
وغيبوه ، وألقوا فوقه المدرا
لم يترك الله منا بعده أحداً
ولم يعش بعده أنثى ولا ذكرا

ورثاء حسان بن ثابت للرسول يجمع بين شعر العاطفة الخاصة التي تعبر عن شعور شخصي واتصال ذاتي ، وبين شعر الرثاء العام الذي يعبر فيه الشاعر عن عظم المصيبة في الرسول وخسارة الناس بفقده ، وحيرة أمرهم من بعده . ونرى ابن ثابت يجمع في المرثية الواحدة للنبي عليه السلام بين هذين النحوين ؛ فبينا يقول من قصيدة :

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت
مثل الرسول نبي الأمة الهادي
ولا برى الله خلقاً من بريته
أوفى بذمة جار أو بميعاد
من ذا الذي كان فينا يستضاء به
مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد ؟

إذا به يقول من القصيدة نفسها :

يا أفضل الناس إني كنت في نهر
أصبحت منه كمثل المفرد الصادي

وبينا يقول في رثائه عليه السلام من قصيدة :

(۱) الجنادع أوائل الشر ، أو ما دب منه .

يا بكر « آمنة » المبارك بكرها
ولدته محصنة بسعد الأسعد
نوراً أضاء على البرية كلها
من يهد للنور المبارك يهتدي

إذا به يقول في القصيدة نفسها :

ما بال عينك لا تنام كأنما
كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً
يا خير من وطئ الحصا لا تبعد !
وجهي يقيك الترب لهفي ليتني
غيبت قبلك في بقيع الغرقد(۱)
بأبي وأمي من شهدت وفاته
في يوم الاثنين ، النبي المهتدي
فظللت بعد وفاته متبلداً
متلدداً ؛ يا ليتني لم أولد
أأقيم بعدك « بالمدينة » بينهم
يا ليتني صبحت سم الأسود

على أن حسان بن ثابت لم يستسلم في مراثيه النبوية إلى البكاء والنحيب والتفجع وتمني الموت — كما فعل في البيت الأخير الذي تمنى فيه أن يسقى في الصباح سم الحيات حتى يرتاح من آلامه وأحزانه . ولكنه اتخذ من مراثيه للنبي معرضاً يعرض فيه أخلاق الرسول وصفاته الكريمة على أنصع ما تعرض عليه الأخلاق حين يطويها الفناء فلا يبقى إلا ذكرها ، ولا بأرج إلا عطرها ؛ اسمعه وهو يقول من قصيدة أخرى في وصف الرسول باكياً عليه مفجوعاً فيه :

إمام لهم يهديهم الحق جاهداً
معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفوٌّ عن الزلات يقبل عذرهم
وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله
فمن عنده تيسير ما يتشدد

(۱) بقيع الغرقد : مدافن المدينة التي دفن فيها الرسول .

فبينا هم في نعمة الله بينهم
دليل به نهج الطريقة يقصد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يثنى جناحه
إلى كنف يحنو عليهم ويمهد
فبينا هم في ذلك النور إذ غدا
إلى نورهم سهم من الموت مقصد

فإذا بلغ حسان بن ثابت هذا المبلغ من وصف النبي مضى إلى وصف وحشة البلاد من فقده ، وانقطاع الوحي الذي كان ينزل عليه فيؤنس الأرض ؛ ووصف حسان هذه البقاع للوحشة الكئيبة لفقد الرسول ، إلا بقعة معمورة اللحد ، ضافها فقيد الإسلام الكريم ، هي البقعة التي ضمت جسده الطاهر ، فهي روضة آنسة بضيافة الرسول . ويقوده هذا الوصف لوحش البقاع إلى البكاء ثانية ، فيستنزف دموع عينيه قطرة قطرة قائلاً :

فبكي رسول الله يا عين عبرة
ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
وما لك لا تبكين ذا النعمة التي
على الناس منها سابغ يتغمد
فجودي عليه بالدموع وأعولي
لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد

فإذا أعقبه انحدار الدمع راحة ، أو شق شجي بلابله ، عاد إلى وصف الرسول قائلاً :

وما فقد الماضون مثل محمد
ولا مثله حتى القيامة يفقد
أعف وأوفى ذمة بعد ذمة
وأقرب منه نائلاً لا ينكد
وأبذل منه للطريف وتالد
إذا ضن معطاء بما كان يتلد
وأكرم صيتاً في البيوت إذا انتمى
وأكرم جداً أبطحياً يسود
وأمنع ذروات ، وأثبت في العلا
دعائم عز شاهقات تشيد
وأثبت فرعا في الفروع ومنبتا
وعوداً غذاه المزن فالعود أغيد
ربّاه وليداً فاستتم تمامه
على أكرم الخيرات رب ممجد

● ● ●

على أن رواية المؤرخ ابن هشام لمراثي حسان بن ثابت وحده في الرسول عليه السلام لا يدل على أن حسان انفرد وحده من بين شعراء عهد الرسالة برثاء الرسول . فهناك شعراء آخرون وشواعر رثوا النبي عليه السلام ، ولكن مراثيهم جاءت متفرقة في غير مظان ... فإن المؤرخ الحافظ المفسر عماد الدين بن كثير روى في كتابه « البداية والنهاية » مرثيتين للرسول : أولاهما دالية حسان بن ثابت التي أشرنا إليها في مطلع البحث ، والتي مطلعها : (بطيبة رسم للرسول ومعهد) . وثانيتهما قصيدة لأبي سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم . وكان أبو سفيان هذا شاعراً وقد أسلم يوم فتح مكة وعرض نفسه على النبي ، فأذن له عليه السلام بعد تمنع لما لقيه من عداوة ابن عمه قبل إسلامه . فلما أدخل على رسول الله أنشد بين يديه قصيدة يعتذر فيها عما مضى منه ويقول في مطالعها :

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدى وأهتدي

فلما مات عليه السلام رثاه بالأبيات التي ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية ؛ ولم يذكرها ابن الأثير ولا الطبري ولا ابن هشام كما سلف القول . ولكن جاء ذكرها في كتاب آخر متأخر اسمه : (الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق) للإمام أبي الحسن بن سلام الباهلي . إلا أن روايتها في البداية والنهاية تختلف عن روايتها في الذخائر . ونحن مثبتون هنا نصها كما في ابن كثير :

أرقت فبات ليلي لا يزول
وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء وذاك فيما
أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت
عشية قيل قد قبض الرسول

وأضحت أرضنـــا مما عراها

تكاد بنـــا جوانبها تميـــل

فقدنا الوحي والتنزيل فينـــا

يروح به ويغـــدو جبرئيـــل

وذاك أحق ما ســـالت عليـــه

نفوس النـــاس أو كربت تسيل

نبي كان يجلو الشـــك عنا

بما يوحى إليـــه وما يقـــول

ويهدينـــا فلا نخشى ضـــلالاً

علينا والرســـول لنا دليـــل

• • •

أفاطم إن جزعت فذاك عذر وإن لم تجزعى ذاك السبيل

فقبر أبيك سيد كل قبر وفيه سيد الناس الرسول

• • •

وأما رواية « الذخائر والأعلاق » ففيها هـذه الأبيات الزائدة :

كأن الناس إذ فقدوه عمي أضر بلُبّ حازمهم غليل

وفيها في وصف النبي :

يخبرنا بظهر الغيب عما يكون ، ولا يجور ولا يحول

وفيها خطاباً لفاطمة عليها السلام :

فعودى بالعزاء فإن فيه ثواب الله والفضلُ الجزيل

• • •

ولا شك أن وفاة النبي عليه السلام كانت حدثاً زلزل بالإسلام ، تلقاه المسلمون بالدهشة ! فهذا عمر بن الخطاب قام في الناس قائلاً : (إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفي ! وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ... فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات .. والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات) . ولم يفق عمر من دهشته إلاَّ حين نبهه أبو بكر في خطبته إلى قوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتـل انقلبتم على أعقابكم) ، وإلى قوله : (إنك ميت وإنهم ميتون) .

فإلى أي مبلغ أثر وفاة النبي في نفوس بقيـة الشعراء غير حسان بن ثابت وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ؟

وأين كان في ذلك اليوم العبقرة آفاق سماءه عبد الله بن الزّبعرى ، وعبد الله بن أنيس ، وضرار بن الخطاب ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وعلي بن أبي طالب ؟ وأين كان من الشواعر السيدة فاطمة بنت محمد بن عبد الله عليها السلام ، وصفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ، والخنساء الشاعرة التي رثت أخويها صخراً ومعاوية ، كما رثت أبناءها الأربعة الذين استشهدوا في حرب القادسية سنة ١٦ هـ ؟!

ذلك موعدنا به في كلمة تالية .

محمد عبد الغني حسن

مشكلة الحرية

(بقية المنشور على صفحة ١١)

شيء ، ومجاهدة الفقر فريضة على المجتمع ، ولكن إضاعة الحرية من ناحية أخرى نكبة يبتلى بها المجتمع ، فكيف إذاً نوفق بين طرفى المشكلة ؟

في اعتقادي أن الحرية يحسن أن يكون لها حدود لوقاية الحرية نفسها ، ولكن إساءة استعمال هذا التحديد قد تعود على الحرية بأفدح الأضرار ، كما أن الحرية المطلقة الجامحة قد تؤدى إلى العنف والطغيان وفقد الحرية ، وتحديد الحرية لا يكون إلا بإقامة حدود للغنى والفقر ؛ فالمجتمع الذي يبيح لفئة قليلة من الناس أن تجمع الثروات الضخمة وتسرف في الامتلاك والاستئثار والاحتكار تتعرض حريته للخطر وطغيان أصحاب رءوس الأموال وتسخيرهم الدولة لأغراضهم الخاصة ومصالحهم الذاتية ؛ والمجتمع الذي يترك طائفة من أفراده تعاني الفقر المدقع ولا يحاول استنقاذهم والأخذ بيدهم وتفريج كربهم تصبح حريته كذلك في مهب الريح ومدرجة الضياع ؛ ولابد من الموازنة بين الفقر والغنى لينعم المجتمع في ظلال الحرية الحقة ، ويظفر بالاستقرار والطمأنينة ، ويوقى شر الهزاهز والاضطرابات والثورات والانقلابات

علي أدهم

نظرات فلسفية

للأديب جلال أحمد أمين

فوق الإطار

من الغريب أننا نعيش مع هؤلاء الممثلين بقلوبنا وأرواحنا ، نبتسم لسعادتهم ، ونبكي على شقائهم ، نلق بأنفسنا على هذه الحياة التي يمثلونها فتذهب عواطفنا وعقولنا حيثما أرادت هذه الحياة ، بينما نحن ندرك كل الإدراك أن هذه ما هي إلا رواية ، وأنهم يقولون شيئاً موضوعاً ، وأنهم يمثلون لا أكثر ولا أقل ، وأنهم مهما أجادوا ومهما سلبوا من عواطفنا ، فهاهي جدران المسرح ومقاعده لا زالت تصيح : إنها رواية !

من الغريب أننا نبكي على حوارهم ثم نصفق لهم ، ويذيبون قلوبنا فنزيد بهم إعجاباً ، يصورون لنا الجمال فنصفق ، ويصورون لنا الدمامة فنصفق ، نعجب بهم أشقياء كما نعجب بهم سعداء ، ثم نخرج لنقول : لقد كان شيئاً رائعاً !

ثم نمضي إلى حياتنا ، لنجد فيها الجمال والدمامة ، فنسعد ونشق ونقهقه حينا وتسيل دموعنا حيناً ، ثم نخرج منها ولا نصفق ..

نعيش مع هؤلاء الممثلين فنمتدحهم على كل ما يسيلون من دموع ، فلا نتحدث عنهم إلا وقد نسينا كل هذه الدموع التي ذرفناها وكل هذه الضحكات ، فلا نذكر إلا هذه الروعة التي وقفوا بها على المسرح فأضحكونا بها وأبكونا ..

ثم نمضي إلى حياتنا ، ونعلم أنها رواية ، ولكننا نبكي ونضحك دون أن نصفق ودون أن نتحدث عنها بكلمة طيبة ؛ فإذا تحدثنا بكلمة طيبة فهي حين نضحك ، وقد كنا في المسرح نمتدح ضاحكين عابسين .

نحن نعلم أن هؤلاء يمثلون ويغرقون في الخداع ، ولكننا نمضي دور التمثيل ونصفق للممثلين ، ونقرأ للشعراء فنفطن إلى ألاعيبهم فلا نلومهم مهما أغرقوا في الكذب ، ولكننا نكفر مع ذلك بالحياة ، نعيشها ونبحث عن حقائقها فإذا وجدناها سخرنا منها وانصرفنا عنها دون أن نصفق .

لست أدري لم كفرنا بالحياة وآمنا بالتمثيل ، ولا لم كفرنا بالناس ولم نكفر بالممثلين ، والجمال في الحياة هو الجمال في المسرح وربما أجمل ، والبشاعة في الحياة أشد منها في المسرح ، والعواطف في الحياة أكثر وضوحاً وأكثر تضخماً وأصدق ، ولكننا نصفق للممثلين ونكفر بالحياة ونمتدح الممثلين ونلعن الأحياء .

ما الذي يحرك قلوبنا نحو العظمة على المسرح ويعمى أبصارنا عن العظمة في الحياة ؟ وما الذي يحرك ألسنتنا بلعن الشقاء في الحياة ، ويحرك أيدينا لتصفق للشقاء على المسرح ؟ نعم أعلم أننا نصفق للفن لا للشقاء ، ولكن من قال إن هذه الحياة تخلو من الفن ؟ ومن قال إن هذا الشقاء في حياتنا خال من العظمة ؟ حقاً ما أتفه هذه الحياة وما أحقر هؤلاء الذين يحيونها ، ولكن من قال إن هذه الحقارة تخلو من الجمال ، ومن قال إن هذه الصورة البشعة في حياتنا لم ترسمها يد فنانة ؟

كلا لا تخلو حياتنا من عظمة ولا تخلو منها هذه التفاهة وكل حقارة ، بل نحن نؤمن أحياناً بهذه العظمة فلم لا نؤمن بها دائماً ، كما نؤمن بها دائماً على المسرح ؟

ذلك لأننا نحن الممثلون في هذه الحياة ، ومعذورون إذ نخرج منها دون أن نصفق ، ودون أن نتحدث عنها بكلمة طيبة ، فهل تحدث الممثلون يوماً وهم على خشبة المسرح بكلمة طيبة عن أدوارهم ؟ وهل صفقوا ؟ إن فيهم العظمة كما هي فينا ، ولكننا صفقنا لهم ولم يصفقوا ، صفقنا لأننا نشرف عليهم ، ولم يصفقوا لأنهم لا يشرفون على أنفسهم ..

كل ما في الأمر أننا نمثل ولا نشرف ، ننظر إلى الناس ولا ننظر إلى أنفسنا ، نرى الحياة ولا نرى مسرحها ، نتحدث بالحوار دون أن نرى ما فيه من فن ، نأتي بالعظمة والحقارة دون أن نرى العظمة في العظمة ولا في الحقارة ، وهكذا كفرنا بالحياة ولم نصفق !

لا أحسب الممثل ينجح لو عاش حياته كلها على المسرح ، دون أن يخرج يوماً لينظر إلى مسرحه ويرى مكانه منه ومكان الناس ، سيرى كل شيء بعين جديدة ، ليست عين الممثل الذي يريد ، ولكن بعين المشرف الذي ينقد ..

فهل حقاً لا ينقص الناس إلا شيء من الإشراف على الحياة ؟ وهل هم حقاً رأوا كل شيء إلا ذلك الإطار الهائل الذي يجمعهم ؟

• • •

رجل فوق الحياة ..

لم تستطع الحياة بكل ما بذلت له من هبات ، وبكل ما رمت إليه من الحبائل ، أن تستل من قلبه شيئاً من الحب ، أو شيئاً من الرضا .

ولم تستطع الحياة بكل ما أسقطت عليه من الأحداث ، وبكل ما رجته به من الكوارث ، أن تستل من قلبه شيئاً من البغض ، أو شيئاً من السخط .

وربما استطاعت حقاً أن تسلبه كثيراً من الفكر ، وأن تدفعه في طريق طويل من البحث ، وربما ألقت إليه في طريقه بسيل عظيم من الهبات ، وخطرت إليه في دلال ، وكشفت له كل ما تملك من الجمال ، ولكنه لم يحبها . وربما استطاعت أن تجمع له كل جبّاتها وتكشر له عن أنيابها ، ولكنه لم يهبها ولو شيئاً ضئيلاً من البغض !

ووهب الحياة عقله ، ومضى يبحث فيها عن الحقائق ، واستطاع أن يكشف منها لنفسه شيئاً عظيماً ، واستطاع أن يرى ما فيها من جمال ، وكل ما فيها من دمامة ، ولكنه نظر إلى الجمال وابتسم ، ونظر إلى الدمامة وابتسم ، ولم يحب منها جمالاً ، ولم يكره منها دمامة ..

نظر إلى الناس ، فإذا نفر منهم يسعون نحو قلبه ، يريدون أن يملكوا من حبه كل ما يستطيع هو أن يهبه ، وإذا نفر منهم يسعون بعيداً عن قلبه ، يبذلون كل ما استطاعوا بذله ليكسبوا شيئاً من سخطه ! فابتعد بقلبه عن هؤلاء وأولئك ، وأتى بعقله لينظر إليهم فقدّر منهم ما استطاع ، واحتقر منهم ما استطاع .

• • •

لم تقم علاقته مع الحياة والناس على الحب ، أو الكره قط ، وإنما قامت على التقدير أو الاحتقار ، فهو لا يستطيع أن يحب غير شيء ، هائل كل ما فيه جمال ، يهب ولا ينتظر هبة ، يوحي بالجمال ، ولا يوحى إليه بشيء ، يحب كل شيء ، ولا يبغض شيئاً .

والحياة لا تستطيع أن تهب كل هذا ! فهي جميلة ودميمة ، تهب لتأخذ ، توحي بالخير كما توحي بالشر ، لا تحب أحداً ، ولا تبغض أحداً ، لأنها عمياء صماء ، لا تعدل لأنها لا تفقه ، ولا تسمع ، ولا ترى شيئاً ، وإنما تهب وتمنع كما تريد ، لا كما يريد العدل ..

والناس كالحياة ، فيهم جمال ودمامة ، لايهبون إلا ليأخذوا ، خيّرون وشريرون ، يحبون لأنهم محتاجون للحب ، ويكرهون لأنهم محتاجون للكره أيضاً ، فهو لايستطيع أن يهب الحياة أو الناس شيئاً من حبه ولا من بغضه ، ولكنه يستطيع أن يقدر ويحتقر .

استطاع أن يتقبل كل شيء من الحياة في يسر ، وأن يترك لها كل شيء في يسر ، فهو لم يترك شيئاً من نفسه للحياة ، ولم يضع شيئاً من قلبه فيما تهبه له ، فهو يستطيع أن ينال ويفقد ويأخذ ويعطي ، لا يأسف لفقد أو عطاء ، لأنه أخذ شيئاً ولم يهبه من نفسه .

سيترك الحياة كما أتاها عارياً ، محتفظاً بكل شيء كان له ، ولم يأخذ شيئاً لأنه عاش فوقها يستعير منها ليرد إليها دون أن يتأثر .

يرحم الناس ولا يحبهم ، ويسخر منهم وليس ساخطاً عليهم ، بل هو يرحم الحياة نفسها ويسخر منها ، لأنها لا تعي ولأنها عمياء ، ولأنها مغرورة ، ولقد ساعدها الناس على هذا الغرور ..

رأى الحياة لحناً والناس عازفين ، عزفوا له اللحن جميلاً ولكن متقطعاً .. يقطعونه ويوصلونه وفق هواهم ، ويسعد السامعون باللحن إذا وصل ، ويبكون عليه إذا قطع . أما هو فيقدر اللحن ولا يبكي عليه ، يقدره إذا عزف ، ولا يبكي عليه إذا قطع ، لأنه كان يقدر الساق النغم ولكنه لم يحبه !

جلال أحمد أمين



إنصاف المرأة

تأليف السيدة وداد سكاكينى

للدكتور شوقى ضيف

هذا كتاب طريف فى موضوعه وفى طريقة عرضه ، دبجته يراعة السيدة الفاضلة وداد سكاكينى دفاعاً عن المرأة عامة ، والمرأة العربية فى عصرنا الحديث خاصة .

وقد اصطنعت فى تأليفها لهذا الكتاب أسلوب الباحثين المحققين ؛ فهى تستعرض المرأة فى الصور المختلفة ، وعند الغربيين والشرقيين ، ومدى ما اضطلعت به فى تاريخ الحضارة وتاريخ الآداب والفنون . كل ذلك لتدخل إلى دفاعها من أقرب الطرق وأوضحها ، ولتتخذ إليه أسلم السبل وأبينها .

وأنت تواجه فكرة السيدة وداد وغايتها من تأليف كتابها فى كل صفحة من صفحات الكتاب ؛ فالرجل يتهم المرأة اتهامات شتى ؛ تارة فى مقوماتها العقلية ، وتارة فى مقوماتها الخلقية ، يُملى عليه ذلك غرضه ؛ فهو الخصم والحكم . وينسى أن الطبيعة الإنسانية واحدة ، وإن افترقت إلى رجل وامرأة ليتم تكوين الجنس البشرى لا ليدعى الرجل لنفسه كل فضيلة عقلية وكل فضيلة خلقية .

وتحتكم المؤلفة فى هذه الدعوى إلى فضليات النساء اللائى أثرن فى تاريخ الإنسانية ، سواء كن من أديبات اليونان ، أو من أديبات فرنسا ، أو من أديبات العرب . والكتاب من هذه الناحية يمكن أن يُعَدّ تاريخاً لما قامت به المرأة فى الأجيال المتعاقبة ، وخاصة المرأة العربية الحديثة منذ صرخ قاسم أمين صرخته ، فمزقت حجابها ، وخرجت من عقر دارها إلى ميدان الحياة العقلية والأدبية تحفر بنانها الرقيق سطوراً فى العلم والأدب ، ومن هنا كنت تطلع فى هذا الكتاب على كل ما نهضت به المرأة العربية فى عصرنا ، سواء فى مصر أو فى فلسطين وسوريا ولبنان والعراق ، وكل ما شاركت فيه من ثورات سياسية أو نهضة اجتماعية . ولن تجد جمعية نسائية فى بلدة من بلداننا ، أو لوناً من ألوان التقدم للمرأة فى شرقنا قد أهمل ، بل كل عمل يتصل بها ، وكل لون معرفة ، قد سجل ورسم بريشة دقيقة بارعة فى التصوير والإخراج .

والسيدة وداد تمتاز بين أديباتنا الحديثات بأسلوب رصين فيه وقار ، وفيه دقة حس ؛ فهى كاتبة متأنية تملك ناصية الكلام ، وتسعى دائماً إلى العبارة الجزلة ترصفها رصفاً . وتشعر أنه لا يستعصى عليها فى هذا الرصف لفظة ؛ فاللغة العربية ذلول لها . وإنها لتعتمد فى صياغتها دائماً على لفظة شعرية قديمة ، أو لفظة قرآنية كريمة ، فيتلألأ الأسلوب ويزداد بياناً ونصاعة .

والكتاب مع أنه إنصاف ودفاع عن المرأة ليس فيه عنف ولا حدة ، بل فيه وصف الحقيقة ومحاولة بسط

صحيح المواقع دون التجني على أحد . وإنه لكسب للأدب غير قليل أن يخرج هذا الموقع في تلك الصورة المتعادلة المتزنة ؛ فقد عرفت الأسواق الأدبية ألواناً من العنف في عرض الآراء حتى ليخيل إلى الإنسان في كثير من الأحوال أنه يرى معارك شجار لا طرق جدل وحوار .

وكتاب السيدة وداد من هذا الجانب ليس فيه ما ينبو على الأذن أو الذوق ، بل على العكس هو كتاب الأذن والذوق ، كتاب الأذن لموسيقى أسلوبه الرصينة ، وكتاب الذوق لهدوء أسلوبه واعتداله . وقد تغلب ناحية الخطابة في بعض جوانبه ، ولكن السيدة الفاضلة مع ذلك تتحدث إليك في أدب ووضوح مبتعدة عن أساليب التفاخر المقيت .

هذا الكتاب إذاً من خير الكتب التي ألفت في قضية المرأة ؛ فقد عرضت فيه هذه القضية مزودة بأدلتها في شكل هادئ ، إذ حاولت صاحبته أن تجادل الرجل بالتي هي أحسن ، وأن ترد عليه اتهاماته للمرأة ، وأن تضع مكانها تقديراً دقيقاً للدور الذي لعبته وتلعبه في تاريخ الحضارة حتى اليوم .

وأنت لن تجد كتاباً أودع فيه بأمانة تاريخ المرأة العربية الحديثة مثل هذا الكتاب ، فهو بيان لكل ما ظفرت به في مختلف أوجه النشاط وفي التعليم وغير التعليم . وهذا ما يجعله كتاباً مهماً ، لأنه يؤرخ لنا نهضة المرأة العربية وما كسبت منذ قاسم أمين ، وتتخلل ذلك آراء السيدة وداد فيما ينبغي أن تكون عليه ثقافة المرأة . وقد وقفت كثيراً عند الجانب الروحي ودعت مراراً إلى الاعتداد به . تقول ص ١٠٦ : « نريد للمرأة ثقافة مكينة تنفذ إلى روحها ، فتصقلها وتثير فيها الشوق للخير والإحسان ، ثقافة ترفع مستواها ، وتحفظ تقواها ، وتشغل فراغها بما يعود على بيتها ومجتمعها بالخير والفائدة . على أن تشتمل هذه الثقافة المنشودة على ما يشوق الفتاة المعاصرة آفاقاً جديدة ، ويوائي الحاجة الراهنة ، كالفنون الجميلة التي تتفتح فيها مواهب الفتيات من موسيقى وتصوير ، وزخرفة وتطريز ، إلى علم النفس وتربية الطفل وأدب اللغة .

وإذا قدر لطالبة هذه الثقافة نصيب من ثقافة أجنبية ولم تدعمه بلغة أجدادها ، وتشعر بشعور بلادها ، فإنها تعيش عدوة لقومها ، غريبة عن مجتمعها » .

فهي تضم إلى الثقافة الفنية ثقافة روحية ، وهي تلح في أن تتلقى المرأة الحديثة بجانب الثقافة الأجنبية الثقافة العربية . والكتاب كله مطبوع بهذا الطابع ، فليس فيه ثورة على تراث الآباء ، بل فيه دعوة إلى الانتفاع به ، وأن لا تتنكر المرأة في ثوب شيطان ، بل تظهر في زي ملاك بما تطهّر الدين من نفسها ، وتقوّم من خلقها ، حتى تتآلف مع رجلها وتنسجم في بيتها .

فالكتاب إنصاف المرأة العربية الحديثة ، ودعوة إلى تهذيبها ، ومد الآفاق أمامها في مختلف نواحي العلم والمعرفة دون أن تهمل هذا النور الروحي من التقوى الدافعة إلى الخير والسعادة . ولا تنسى المؤلفة أبداً هذا الجانب حتى في مواقف الخطابة . واستمع إليها تقول ص ١٤٧ : « لقد مضى العهد الذي كانت تفرض فيه علينا الإقامة الجبرية ، وأصبح من حقوقنا أن نتنفس كما يتنفس الرجال ، فالهواء للجميع والشمس للجميع ... وطريقنا إلى المجد النسوي المنشود أن نكون خير الأمهات والزوجات وأخلص المدبرات والمربيات للبيوت والأبناء ، وأوفى المجاهدات للعروبة والوطن ، على أن لا نهجم على هذه النهضة هجوم الجياع على القصاع ، فما كل امرأة ينبغي أن تكون زعيمة أو معلمة ، ولا كل سيدة يجب أن تصير طبيبة أو موظفة ، فكل من النساء ميسرة لما خلقت له من أمومة وزعامة ومن تدبير المنزل أو تمرس بالفنون . هذا ما أدعو إليه سيداتنا وفتياتنا في نهضتهن الحاضرة ... ولن يجدينا الزهو إذا لم نعتصم بحبل الله » .

والكتاب على هذا النحو فيه اتزان وهدوء ووقار ، وفيه دعوة إلى إصلاح وتهذيب وإرشاد . ونحن نهنئ السيدة وداد بهذا القسم الأول من إنصاف المرأة ، ونأمل أن لا تطول على قرائها فترة إصدارها للحلقات الأخرى من هذا الإنصاف .

شوقي ضيف



الأقمصـــــة

للكاتب التشيكوسلوفاكي كارل كابك

ترجمة الأستاذ محمد فتحي عبد الوهاب

إنه يود لو يفكر في أشياء متعددة ، أشياء أكثر أهمية من ذلك الأمر . ولكن ماذا يفعل وهذا الفكر يثابر على التردد في ذهنه : إن مدبرة داره تسرقه .

كانت تقيم معه منذ سنين عديدة . وكانت قد فارقته عادة انتقاء آخر حاجاته الشخصية . فهو يفتح صوان ملابسه كل صباح ، فيأخذ قميصاً من قمة الملابس المكدسة . ثم تمر جوهانكا بين الفينة والفينة فتعرض أمام عينيه قميصاً ممزقاً ، وتخبره أن جميع الأقمصة على هذه الحال ، وأن على السيد أن يشتري جديداً غيرها . حسن جداً ، سيذهب إذاً السيد ويبتاع نصف دستة من الأقمصة ، ولو أنه لم يغب عن باله أنه قد قام بنفس هذا العمل من وقت ليس ببعيد .

وكان هذا نفس الحال مع الياقات وربطات العنق والملبوسات وغيرها من آلاف الأشياء التي لا غنى للرجل عنها ولو كان أرملاً . إن كل شيء لا بد أن يتجدد من آن إلى آخر ، ولكن .. كانت هذه الأشياء تقدم وتبلى في سرعة ، ويعلم الله ما الذي يحدث لها . لقد كان لا ينقطع عن شراء حاجات جديدة . ومع ذلك فكان كلما فتح صوان ملابسه لا يواجهه إلا خليط من الملابس الرثة الباهتة التي لا يدري متى أصبحت هكذا .

أما الآن ، فللمرة الأولى بعد كل هذه السنين ، تتغلغل في ذات نفسه فكرة أن حاجاته تسرق منه بانتظام . لقد تسلم في ذلك الصباح رقعة دعوة إلى مأدبة تقيمها جمعية أو ما شابه ذلك . فجعل يبحث عما إذا كان لديه قميص فاخر يليق بهذه المناسبة . وأخرج الأقمصة من الصوان فلم يجد فيها قميصاً إلا وقد تهرأت ياقته أو بلي كله . ونادى جوهانكا وسألها : أليست لديه ملابس لائقة ؟ وبلعت ريقها وصمتت لحظة قبل أن تقول في حدة : إنه لا بد للسيد أن يشتري أقمصة جديدة ، فلا فائدة ترجى من مداومة ترقيعها الأقمصة القديمة . إنها أشبه ما تكون بخيط العنكبوت .

وامتلكه شعور مبهم بأنه اشترى بعضها من زمن قريب . ولما لم يكن متيقناً من ذلك ، فقد لزم الصمت وشرع يرتدي سترته حتى يذهب ويبتاع غيرها . بيد أنه عند ما أخذ يرتب حاجاته ، ويخرج بعض الأوراق القديمة من جيوبه ليرى إذا ما لزم الاحتفاظ بها أو إلقاؤها بعيداً ، إذ وجد من بينها كشف حساب أقمصته الأخيرة ، وقد دفع ثمنها منذ بضعة أسابيع . إذاً فمنذ بضعة أسابيع كان قد اشترى نصف دستة من الأقمصة ! وهذا ما جعله يدرك أن أقمصته تسرق منه .

ولم يذهب ليشترى غيرها . بل جعل يجول فى الحجرة مفكراً . ورجع بذاكرته إلى جمع سنين مضت ، تلك التى قضاها وحيداً . فمنذ أن ماتت زوجه ظلت جوهانكا تدير له داره . ولم تساوره فيها مطلقاً أقل شبهة أو خيانة . ولكن ها هو ذا الآن يراوده شعور مؤلم فى أن حاجاته كانت تسرق منه طول هذا الوقت . وتلفت حوله ، إنه لا يستطيع أن يحصى ما الذى فقده من الأشياء . بيد أنه لاحظ فجأة أن المكان أصبح خاوياً مهجوراً ، مقفراً .

كان هناك شىء لا يستطيع أن يفسره . لماذا تسرق مديرة داره حاجاته ؟ وما الذى تفعله بها ؟ أوه ، إنه يعرف السبب . لقد تذكر فجأة واقتنع تماماً أن ذلك هو السبب ! إن لها ابن أخ تحبه حباً شديداً ، ذلك الحب الذى يستولى على عمة مولعة بابن أخيها . ألم يستمع إلى ثرثرتها وهى تتحدث عنه كزهرة من زهور الشباب ؟ واندفع فى غضب شديد ، وهرول إلى المطبخ ، وصاح بجوهانكا قائلاً : أيتها الشمطاء الشريرة ! ثم كرّ راجعاً وغادرها مرتعبة ، والدموع تترى من عينيها .

ولم يكلمها طوال ذلك اليوم . كانت تتنهد كما لو أنها أهينت . وأخذت تحدث ضوضاء بكل ما يصل إلى يديها من أدوات ، وهى لا تدرى سبباً لتهوره . وجعل يرتب ويحصى ما فى صوانه وأدراجه ، وكانت فى حالة مروعة . وأخذ يتذكر شيئاً ، ثم غيره مما كان يملكه زمناً ما . ها هو ذا لا يجد شيئاً منها . لا شىء . كأنما قد حدث حريق أتى عليها . وشعر بالرغبة فى البكاء غيظاً وكمداً .

لو كان قد درى بذلك فى حينه لصفعها على وجهها . ما الذى يفعله معها ؟ أيطردها فى الحال ؟ أو يسلمها إلى رجال الشرطة ؟ ولكن ، من يقوم بالطهى غداً ؟ فليذهب إلى المطعم . ولكن ، من يقوم بتسخين الماء وإشعال النار ؟ .

وأبعد من ذهنه تلك الاعتبارات وقال : سأنهى هذه المسألة غداً . وأقنع نفسه أنه لا بد أن يتغير الحال . وسخر من فكرة أنه مقيد بها .

وعند ما أقبل المساء تمالك زمام نفسه بقدر ما يستطيع ، وذهب إلى المطبخ وقال لها بلا مبالاة : عليك بالذهاب لقضاء بعض حاجات لى من الخارج ، ثم زودها بالتعليمات اللازمة للقيام ببعض المهمات المعقدة التى كان من الطبيعى أن يطلبها . وأمرها أن تقوم بإنجازها فى الحال . كان قد دبر كل ذلك بدقة . ولم تفه جوهانكا بكلمة ، بل تهيأت حتى تنجز طلباته ، وقد بدا عليها جو الشهداء .

وأخيراً اصفق الباب خلفها وتركته وحيداً . وسار إلى المطبخ بقلب واجف ، ثم تردد وقد وضع يده على الزجاج . وتملكه الرعب عندما أدرك أنه لا ينبغى له أن يدفع بنفسه إلى اغتصاب صوانها . إن ذلك من فعل اللصوص . وفى اللحظة التى هم فيها بالتراجع إذا به يفتح الباب ويدخل . كان المطبخ يتلألأ نظافة وقد قام هناك صوان جوهانكا . وكان مغلقاً وليس هناك أثر لمفتاح . وزاد ذلك من رغبته فى إنجاز الغرض الذى أتى من أجله . وحاول أن يغتصب باب الصوان بسكين ، بيد أنه عجز عن فتحه . وجذب كل درج يبحث عن المفتاح . ثم جرب كل مفتاح من مفاتيحه . وأخيراً ، وبعد نصف ساعة من الغضب وجد أن الصوان لم يكن مغلقاً بالمرة ، وكان فى استطاعته أن يفتحه بأية أداة .

كانت الملابس مطوية فى عناية وترتيب على رفوف الصوان ، وشاهد بأعلاها ستة أقمصة من أقمصته لم تزل مربوطة بالشريط الأزرق كما أتت من محل بيعها . وجذب كل شىء من الصوان ووجد جواربه وياقاته وصندوقاً من الصابون ، وفرشاة أسنانه ، وصدرة حريرية قديمة ، وأكياس وسادته . كانت كل هذه الأشياء فى الواقع تخص صوانه . وكان من الجلى أن معظمها يرسل منذ زمن بعيد إلى ابن الأخ . إذاً فهذا

ما يحدث ؟ .... جوهانكا ، جوهانكا ، أأستحق كل ذلك منك ؟

ونقل أشياءه ، الواحد تلو الآخر ، إلى حجرته ، ونشرها على المنضدة . وقذف بما يخص جوهانكا داخل الصوان في المطبخ . كان يود أن يضعه في ترتيبه السابق ، بيد أنه عجز بعد عدة محاولات ، فانسحب تاركا الصوان منفرجاً . ثم شعر بالخوف ينتابه خشية أن تعود جوهانكا ، فيضطر إلى محادثتها حديثاً خطيراً . وشعر بالامتعاض من ذلك ، حتى إنه أخذ يرتدي ملابسه في سرعة وهو يقول : وغداً ، غداً أناقشها الحساب . يكفي اليوم أن تعرف أني اكتشفت الأمر ، وحينما انتهى من ارتداء ثيابه تسلل خارجاً وكأنه اللص ، وظل يتسكع مدة ساعة في الطرقات تحت وابل من المطر حتى حان موعد ذهابه إلى الأدبة .

ولاحت جوهانكا في خاطره وهو سائر في الطريق بعد عودته من الحفلة . وتوالت عليه الأفكار وقد أسرع الخطى ، وجعل يرسم خطته . ما الذي يقوله لها ؟ وتجمعت الكلمات في جمل طويلة قوية ، وارتبطت بعضها في سهولة لم يعهدها من قبل . خطبة طويلة من الاتهامات الخطيرة . إنه لن يلقي بها في الطريق ، فقد تبكي وتتوسل . وقد تستمع إليه في صمت دون أن تثير شفقته أو تحرك عواطفه ، فيقول لها في حزم : جوهانكا ، سأمنحك فرصة تكفري فيها عن تكراتك الجميل فتكوني أمينة مخلصة ، ولا أطلب شيئاً خلاف ذلك . أنا رجل كهل ، ولا أود أن أكون قاسياً نحوك . وتحمس لذلك تحمساً شديداً حتى إنه لم يشعر إلا وهو داخل داره . كان النور مضاء في حجرة جوهانكا . واختلس النظر خلال الستار الذي يحجب عنه المطبخ . يا إلهي ! ما هذا ؟ كانت جوهانكا مندفعة في أنحاء المطبخ بوجه ممتقع متورم من البكاء ، وهي تقذف بحاجاتها في حقيبة كبيرة . وانزعج انزعاجا شديداً . وزحف إلى حجرته سائراً على أطراف أصابعه ، مرتبكا ، خائفاً ، حائراً . هل جوهانكا على وشك الرحيل ؟

ورقدت أمامه على المنضدة كل الأشياء التي سرقت منه . ولمسها بأصابعه دون أن يشعر بأقل سرور ، وحدث نفسه قائلا : لقد فهمت . إن جوهانكا قد اكتشفت معرفتي بأنها مذنبة بارتكابها السرقة . وهي تتوقع أني سأطردها في الحال — وهذا هو سبب جمعها حاجاتها . حسن جداً ، سأتركها على اعتقادها إلى الغد وسيكون ذلك عقاباً رادعاً لها . ثم ، سأتحدث معها صباحاً ، ولكن .. لعلها .. لعلها تأتي إليه الآن طالبة الصفح . ولسوف تجهش بالبكاء ، وتنهمر دموعها أمامه ، وتسقط على ركبتيها وغير ذلك من الأفعال . هذا يكفي يا جوهانكا ، إني لا أود أن أكون فظاً معك . يمكنك أن تظلي بالدار .

وجلس ينتظر الحوادث وقد خيم الصمت عليه ، وغرقت الدار به . كان يسمع كل خطوة تخطوها جوهانكا بالمطبخ ، وصوت انصفاق غطاء الحقيبة في شدة ، ثم أعقب ذلك الهدوء . ما هذا ؟ وهب منزعجاً . لقد تناهى إلى سمعه عويل طويل مرعب ، كما لو أنه صادر من مخلوق لا ينتمي إلى البشر ، ثم أعقب العويل سلسلة من النشجات الهستيرية . كانت جوهانكا تبكي . وكان في الواقع مستعداً لكل شيء إلا هذا . وهب واقفاً بقلب واجف ، وأصغى إلى ما يحدث بالمطبخ ، فلم يسمع إلا نشجات البكاء . عما قريب تأتيك جوهانكا روعها وتطلب منه الصفح . وجعل يذرع الحجرة حتى يستعيد حزمه . ومع ذلك لم تحضر جوهانكا . وكان يقف من آن إلى آخر ويتسمع . لقد تحول عويلها إلى سلسلة من العواء المرتفع الممل . وأصبح يأسها في نظره كريهاً . وعزم على الذهاب إليها . لن يقول لها إلا « فليكن هذا درساً لك يا جوهانكا . فكفي إذاً عن البكاء . سأنسى ما حدث على أن تكوني أمينة في المستقبل » .

وبغتة سمع جلبة عنيفة ، وفتح الباب في شدة ، واندفعت جوهانكا منه ، ثم وقفت بجواره تعوي . كم راعه رؤية وجهها المتورم من البكاء . ولهث قائلاً : جوهانكا .

وخرجت الكلمات من فمها متقطعة : هل ... أنا ... أستحق ذلك ؟ شكراً جزيلاً لهذا .. كما لو أنى لصة .. يا للعار !.

فصاح فى انزعاج : ولكن ياجوهانكا . ولكن .. لقد استوليت على حاجاتى .. كل هــذا .. أترين ؟ ألم تستولى عليها ؟.

قالت وكأنها لم تستمع إليه : مثل هذا العار .. تبحث فى صوانى .. كما لو كنت .. تجربة لصة . تعيرنى أنا .. حقاً كان يجب ألا تفعل ذلك ياسيدى .. لا حق لك فى إهانتى مطلقاً حتى يوم مماتى .. لم أكن أتوقع ذلك منك . هل أنا سارقة حقاً ؟ .

وجعلت تصرخ وتقول : ألم تفكر فى ماتلقى ؟ ذلك لم أكن أتوقعه منك .

فقال وقد تصبب عرقاً : ولكن ياجوهانكا تعقلى . كيف أتت هــذه الأشياء إلى صوانك ؟ أتخصك أم تخصنى ؟.

ونشجت جوهانكا وهى تقول : لا أريد أن أسمع منك شيئاً . يا إلهى . أى عار !.

ثم قالت فى صوت مخيف : ولكن .. حالاً .. فى هذه الآونة .. فى الحال .. لن أمكث حتى الصباح .

فاعترض فى انزعاج قائلاً : ولكن ، افهمى . إنى لا أود أن أتخلى عنك . ستظلين . أما ما حدث ، فليعف الله عن سيئاتنا . إنى لم أقل لك شيئاً حتى الآن . فكفى إذاً عن البكاء .

وقالت جوهانكا وهى تختنق بالدمع : ابحث عن واحدة أخرى غيرى ، فلن أظل هنا حتى الغد . كما لو كان المرء كلباً .. إنى أرفض .

ثم هتفت تقول فى يأس : لن يكون ذلك حتى لو دفعت لى الآلاف . إنى أفضل أن أقضى ليلتى على الإفريز .

فجادلها قائلاً : ولكن لماذا ياجوهانكا ؟ هل جرحت شعورك ؟ ومع ذلك ، فلا يمكنك أن تنكرى .

فقاطعته صائحة فى صوت لا يزال جريحا من الألم : كلا . لم تجرح شعورى ! ليس هــذا يجرح شعور .. بحثك فى الصوان كما لو كنت لصــة .. إنه لا شىء مطلقاً .. لم يسبق لأحد أن فعل مثلما فعلت .. يا للعار !

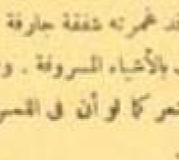
وجعلت تصرخ وقد انهمرت الدموع من عينيها ، ثم اندفعت خارجة ، وصفقت الباب خلفها فى شدة .

ووقف ذاهلاً مشدوهاً ، فبدلاً من الندم ، يأتى هذا المشهد ، ماذا جنى ذلك ؟ إنها تسرق كالغراب ، ولا شك فى هذا ، وتشعر بالإهانة لأنى عرفت سرقتها . وهى لا تخجل من كونها لصة ، بل تشعر بأنها أهينت فى قسوة . هل هى مختلة الشعور ؟.

ولكنه أصبح يغمره شعور من الأسف عليها أخذ يزداد شيئاً فشيئاً . وقال لنفسه : « إن لكل شخص نقطة ضعف فى ذاته . وأشد ما يجرح شعوره ويهينه أن تفتح له عن هذه النقطة . آه ! ما أكثر ما يضمر الإنسان من الحساسية حتى فى أخطائه ! ضع إصبعك على رذيلته المختفية ، ولن تسمع إلا صيحة الألم والسخط إجابة لما حدث » .

وأقبل من المطبخ صوت بكاء مكتوم ، وود لو يدخل إليها . ولكن ، كان الباب موصداً . ووقف هناك يحاول أن يجعلها تحكم صوت العقل والمنطق ، وأن يوبخها ثم يهدئ روعها . ولكن كان ردها عليه ازدياد بكائها . وعاد إلى حجرته مهموماً وقد غمرته شفقة جارفة . وألقى بنظرة على المنضدة وقد حفلت بالأشياء المسروقة . ومس إصبعه عليها فى لطف ، بيد أنه شعر كما لو أن فى المس شيئاً ينتسب إلى الحزن واليأس ...

محمد فتحى عبد الوهاب



من بريد الثقافة

فنان محزون

هل قدر للفن والفنانين في مصر أن يعيشوا معذبين حيارى، يبحثون من أبصار تائهة متأملة، وصار مرهفة متذوقة، فيعودون بالخيبة المضة والإخفاق المرير ؟؟ وهل كانت الفنون والآداب من التفاهة بحيث يعزف عنها الأثرياء وذوو النفوذ ... فلا يجودون عليها بنصيب من الرعاية والاحتفاء ؟ إن مما لا ريب فيه أن الفنون ترمومتر لمجد الأمم وعبقريتها، ومقياس لعظمتها وسيرها في مدارج الكمال .. فليت شعري ما يكون مصير بلاد تغفل الأصالة الفنية وتقبل على مروجي التفاهة والدجل والتهريج ؟

في هذه العجالة سأحاول أن أروي للقراء قصة فنان عراقي مرموق، وفد إلى مصر .. ليعرض مجهود السنين، وزهرة العمر، وعصارة الفكر والأعصاب. آملا أن يلقى حظاً من التقدير والتأييد. جاء وكله أمل .. وعاد وكله ألم ..!!

هو السيد يوسف محمود غلام، مدير إصلاحية الأحداث، والمهندس العملي للفنون العربية الأندلسية ببغداد. أخذ يهتم بالرسوم والكتابات الأندلسية منذ عشر سنوات، واستوعب الكثير مما كتب وصور في هذا الصدد، ثم خطا خطوة عملية جريئة حين أقام داراً خاصة زينها بالرسوم والنقوش الأندلسية البديعة، فأخرج للجماهير تحفة فنية رائعة يحق للعرب أن يباهوا بها وبصاحبها الفنان العظيم. غير أنها بيعت تحت ظروف شخصية، فكان هذا البيع محنة كبرى، لأن حضرة المشتري الهمام طمس النقوش الأندلسية الجميلة ليحل محلها طلاء ممتازاً ... !!

لم يعرف اليأس سبيلاً إلى قلب ذلك الفنان الجبار، فرحل إلى أسبانيا ليدرس الآثار الأندلسية عن كثب، وقضى هناك أربعة أشهر، شهد خلالها كثيراً من تلك الآثار الباقية على الزمن، والتقط طائفة كبيرة من الصور، ولم يفته أن يشتري مجموعة أخرى من الصور النادرة التي تسجل قوة الفن في أعظم المظاهر.

وقد أقام معرضه الأول في كلية الآداب ببغداد، فكان حظه من التوفيق والنجاح خطيراً، وقد قال لي إن عدداً كبيراً من فناني العراق، وألوف الشاهدين المثقفين، كانوا يغمرونه كل يوم بالإعجاب والتقدير والتشجيع، مما أحيى فيه الأمل وبث الاغتباط.

وأقام المعرض الثاني في مدينة الإسكندرية بكلية الآداب أيضاً في أثناء انعقاد المؤتمر الثقافي العربي الثاني، فلم يلتفت إليه إلا عدد قليل، وهذا شيء يؤسف له حقاً !! وحضر إلى القاهرة علّه ينال ما يطمح إليه وما يستحقه، فلم يكن نصيبه هنا أكثر من نصيبه في الإسكندرية !! وشد ما تألمت وهو يقول لي: أين الفنانون المصريون ؟ أين الأدباء والشعراء والمؤرخون ؟ أين الصحفيون ؟ أين تلاميذ مدرسة الفنون ؟.

والواقع أن أديباً مصرياً واحداً هو الذي اهتم الاهتمام اللائق بهذا الفنان البارع، هو الأستاذ عباس خضر المحرر الفني لمجلة الرسالة الغراء، وكم للأستاذ من لفتات تذكر فتشكر ...

والمعرض يحتوي على ٢٥٠ قطعة، بعضها من الصور والرسوم التخطيطية، والبعض الآخر نماذج من الخشب والجبس تمثل أبواب القصور والدقائق العربية. ومن بين ما عرض، صور متقنة لجامع قرطبة، وجوانب من قصر الحمراء، وواجهة من قاعة عيسى للملكة إيزابلا، والنافورات وبهو الأسود، والبساتين، وامرأة أسبانية من جزر كنارية، وفتاة قروية أسبانية، وبنت أندلسية في ملابس الأعياد الوطنية، ونعش كرستوف كولمبس محمولاً على أكتاف أربعة من ملوك الأسبان تقديراً لخدماته. ومما يذكر أن بعض الصور كانت مصحوبة بأبيات من الشعر الأندلسي ونصوص من التاريخ.

أما بعد، فإن من المخجل أن يعود هذا الفنان المكافح إلى وطنه دون أن يظفر بما ينبغي نحو النابغين من تشجيع مادي وأدبي. وإذا كنا لا نقدر الفنون والآداب فكيف نسينا فروض المجاملة نحو ضيف عزيز من أبناء العراق الشقيق ؟؟ ولأدع الفنان يختم القصة الدامية: « سأعود إلى موطني بغداد، غداً أنا وخجلي، وبي ما بي، من الألم المشبوب والأمل الخائب، وعزائي الوحيد أني أديت واجبي، وما أقل الذين يؤدون واجباتهم في هذا الزمان ... » .

محمد محمود مصطفى

مجنونة ...

وَمجنونةٍ تذرعُ الأرضَ طولاً
وعرضاً ، وقد غربت بالسباب

توجه لعناً إلى غير شيء
كأن بها نقمة من عذاب

وتبكي بدمع طليق غزير
يهيل على النفس كل اكتئاب

وفي وجهها من شجون الحياة
حشودٌ تبدَّتْ بغير حجاب

أراها من الثكل ضاعت مُناها
فما وجدت حانياً في اقتراب

سوى قهقهات المقادر هزءاً
بهذا الذي دفنت في التراب

وإغضاء ركب الحياة كأن لم
يكن فيه زين الدنا والشباب

كذا الزهر يفتق حتى إذا ما
عراه الضنى ديس فوق الشعاب

فيا للحياة تقدّس حتى
إذا طويت ذهبت كالسراب

سوى ذكرياتٍ بقلبٍ صبيرٍ
لها أجلٌ مودعٌ في الكتاب

فيا أمُّ وعك لا الحزن يجدى
ولا ولولاتك بعد الغياب

نسيتِ الحياة فأولتك صدّاً
وغدر الحياة كغدر الكعاب

وما دام بينك والموت إلفٌ
فصبراً على ما قضت من عقاب

تسوق وراءك ألفَ لسان
تضجُّ ، وتوغل في الاصطخاب

فإما رجعتِ إليها فغازت
وإما تهاويت دون المآب

• • •

ويا نيل لا زلتَ تمضي سعيداً
تغنى الضفاف نشيد الحباب

وتنظم في الشاطئين رسوماً
لها الدهر يعجب كل العجاب

خيالك يا نيل فوق الجبال
وحلمك يا نيل فوق السحاب

فهلا بصرت بهذا العذاب
تعانيه أمٌّ بليل المصاب

على مدمع الحب ألقت عصاها
وقالت : بُنيّ له كل مابي

فأين حنانك يا نيل يأسو
جنون الجراح ، وفقد الرغاب

وفيم تفصيك دنيا الفنون
وأهلوك نهب الأسى والعذاب

لئن لم تلفّت إليهم بقلب
شفيق ، فزل كزيال الكذاب

أحمد محمود عرفه

في الأصفاد...

توهمت أني في الهوى بك أنعم
وكم لذ للعشاق أن يتوهموا

وأهلكِ — آه — ليت أهلك كلهم
يلاقون مالاقيت فيك فيرحموا !

رأوا أن مثلي في خصاصة عيشه
كثيرٌ عليه نيلُ مثلك منهمو ...

فإنك في ظل الثراء مقيمة
وإني — على فرط اجتهادي — معدم

يعدون بؤسي — بإسعاد — جريمة
فسيان محدودٌ لديهم ومجرم ..

ولم يكفهم أني أهش إلى الندى
وأنثر دراً من بياني وأنظم

وما بين قلبينا من الود ظاهر
وإن لم يفه منا به متكلم

تقاليد .. لا نقوى على رد حكمها
ولكنها فينا تجور وتظلم ..

فيالك من نجم نعمت بوصله
إذا هبطت يوماً إلى الأرض أنعم

وأنّى ؟ وأفق النجم لست أناله
بلى ... إني أرعاه والليل مظلم

يعز على قلبي سهادك في الدجى
وأهلك في ظل القصاصير نوّم

فلا رحم الرحمن أهلك كلهمْ
وكانت لهم مثوىً ذليلاً جهنم

همو أسلموا قلبين للهمّ والأسى
وشكوى جراح مالها — الدهر — بلسم

وحسبك أني لا أطيف بريبة
وأنك أسمى في العفاف وأكرم

وإني — على ما كان من سورة النوى —
ألم على دار الهوى ... فأسلم

محمد علي مخلوف

أشلاء...

[في رحلة إلى الريف ...]

قالوا : « شموس الريف وضاءة
والنسيم العذب همس جميلْ »

« كم يسعد القلب بأرجائه
تمايلُ النخل وسحر الأصيل »

« غدرانه تهتز رقراقة
تحت لحون من بنات الهديل »

قالوا ، وقالوا ، ثم قد أزمعوا
أصيف « أوربا » سريع الرحيل !

فهل دروا أن بآفاقه | يحيا على الويلات عبدٌ ذليلْ ؟
ثيابه الأسمالُ .. بأوعه | وكوخه بين المباني ... طلولْ !
وقوته .. المرُّ .. على صبره | وعوده مما يلاقي .. هزيل !

محمد سعود مصطفى

إعلان عن مسابقات مجمع فؤاد الأول للغة العربية

لتشجيع الإنتاج الأدبي سنة ١٩٥١ – ١٩٥٢

قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية توزيع جوائزه لتشجيع الإنتاج الأدبي على النحو الآتي :

أولاً : تخصص مائتا جنيه لكل فرع من الفروع الآتية على أن يكون المتسابق من أدباء وادي النيل وحدهم .

(ا) أحسن ديوان شعرى لا يقل عن ألف بيت في الشعر الوصفي ، أو القصصي ، أو فيهما معاً .

(ب) أحسن بحث مستوفى مبتكر يسير على المنهج العلمي الحديث في أحمد فارس الشدياق وأثره في اللغة والأدب ، وفي وضع المصطلحات الحديثة ، أو في الشيخ حسين المرصفي من حيث حياته وتآليفه ، وأثره في النهضة الأدبية الحديثة ، على ألا يقل عدد صفحات كل من هذين البحثين عن مائتي صفحة من القطع المتوسط الذي لا تنقص كلمات الصفحة فيه عن مائة وثمانين كلمة .

(ج) أحسن تحقيق علمي على النمط الحديث لكتاب عربي قديم قيم في اللغة أو الأدب لم ينشر من قبل — على أن تقدم له مقدمة علمية في قيمة الكتاب والتعريف بمؤلفه ونسخه التي روجعت الخ .

ويقدم هذا التحقيق للجنة مطبوعاً أو معداً للنشر .

ثانياً : تخصص لأدباء وادي النيل وغيره جائزة قدرها مائتا جنيه لمن يقدم أحسن قصة تعالج مشكلة اجتماعية شرقية باللغة العربية الفصحى ، بحيث لا يقل عدد صفحاتها عن مائة وخمسين صفحة من القطع المتوسط الذي لا تنقص كلمات الصفحة منه عن مائة وثمانين كلمة .

* * *

وعلى الراغبين في الحصول على هذه الجوائز أن يرسلوا إلى المجمع أربع نسخ مطبوعة أو مكتوبة على الآلة الكاتبة كتابة واضحة من الموضوع المقدم للحصول على الجائزة قبل أول أكتوبر سنة ١٩٥١ .

وللمتبارين أن يذكروا أسماءهم أو يختاروا أسماء مستعارة ، وعليهم أن يكتبوا عناوانهم واضحة ، وأن يوقعوا على كل نسخة يقدمونها .

ولا يجوز أن يدخل مسابقات المجمع الأدبية من سبق أن أجازه المجمع على إنتاج له في فرع المسابقة المتقدم إليه ، ولا أن يعاد تقديم أي إنتاج أدبي سبق أن قدم للمجمع ، أو لأية مباراة عامة أخرى ، أو لمناقشة عامة للحصول على لقب أو درجة علمية .

ويشترط في مسابقة تحقيق كتاب قديم ألا يكون قد نشر قبل أكتوبر سنة ١٩٥٠ ، ويشترط في غيره من الموضوعات ألا يكون قد طبع قبل سنة ١٩٤٦ ، ويحتفظ المجمع بنسخة من كل ما يقدم إليه من الإنتاج الفائز وغيره . وترسل الموضوعات بعنوان لجنة الأدب بمجمع فؤاد الأول للغة العربية شارع القصر العيني ١١٠ — القاهرة .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغا

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك
الإدارة
رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦١٦ — الاثنين ٤ من المحرم سنة ١٣٧٠ — ١٦ من أكتوبر سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

محمد خليل عبد الخالق

الأستاذ محمد أحمد الغمراوى

حَكِمٌ فى العلم ، عظيم فى الإصلاح ، مخلص فى الجهاد . ذلك هو محمد خليل عبد الخالق الذى نجحت به لجنة التأليف ، وأصيبت فيه مصر فجأة أحوج ما تكون إلى مثله .

كان رحمه الله متعدد نواحى العبقرية . له فى كل ناحية من نواحيها أشباه ، لكن الذى عز شبيه فيه جمعه بين عبقرية العلم ، وعبقرية الإدارة ، وعبقرية الاقتصاد ، وعبقرية الإصلاح .

كان رحمه الله مصلحاً عظيماً . نبه الناس إلى خطر الطفيليات على مصر ، وقاد حركة مكافحتها حتى ترعرعت وبلغت من القوة والتنظيم ما هى عليه الآن . أسس قسم الطفيليات ، وأنشأ معهد الأبحاث فى الصحة ، وقام بإدارتهما حقبة من الدهر إلى جنب أعمال أستاذيته فى كلية الطب . فإذا قدر الله لمصر أن ينعم جميع أهلها بالسلامة من آفة البلهارسيا والإنكلستوما ؛ فإن لمحمد خليل عبد الخالق فى كل مصرى ينجو أجراً عند الله من غير أن ينقص من أجر غيره شيئاً .

وكان رحمه الله إدارياً لا يشق له غبار . تجلت مقدرته الفائقة فى الإدارة أول مرة حين تولى السكرتارية العامة للمؤتمر الدولى لأمراض البلاد الحارة وعلم الصحة المنعقد فى ديسمبر سنة ١٩٢٨ احتفالاً بمرور مائة عام على تأسيس مدرسة الطب . ونجح ذلك المؤتمر الكبير بفضل سكرتيره العام نجاحاً باهراً ؛ فهو الذى أحسن التحضير له ، وأحسن الإشراف على تنظيمه أثناء انعقاده ، وعلى إخراج مجموعة أعماله فى عدة مجلدات ضخمة استغرق إخراجها على ما تقتضيه من الدقة والتحرى سنوات .

وكان رحمه الله لا يعيى بمشكل إن عرض له . حدث أثناء إعداد ذلك المؤتمر الدولى أن أرسلت الدعوة إلى سفارة كبيرة بالبريد خطأ ، إذ يقضى العرف فى مثلها أن يسلم باليد ، واكتشف رحمه الله الغلطة بعد وقوعها بساعات ، وأدرك ما قد تجره على حكومته من أزمة سياسية إذا فسرت على غير وجهها . فماذا تظنه فعل ؟ قام إلى سيارته وأيقظ مدير البريد من نومه وشرح له الأمر وخطره . واهتم المدير بالحادث واسترد الدكتور خليل الخطاب .

وكان رحمه الله لا يجامل ولا يحابي في الحق ولو أغضب الرؤساء ، وفوت على نفسه بإغضابهم المنافع . كان من بين أعضاء المؤتمر الطبي المذكور آنفاً عدد من كبار الأطباء الإنجليز ذوى الألقاب ؛ وأراد بعض أعضاء لجنة التنظيم أن يخصهم بحفاوة بتخصيص سيارة لكل منهم تكون تحت أمره في التنقل . فعارض الدكتور الفقيد رحمه الله كل المعارضة ، وبين أنه لن ينفذ قراراً كهذا إن اتخذ ، مستنداً إلى أن الأعضاء ذوى المكانة العلمية الواحدة سواء ، وأن العرف في إدارة المؤتمرات العلمية في انجلترا وغير انجلترا يأبى مثل هذا الاستثناء ؛ وأصر على الاكتفاء بما اتخذته إدارة المؤتمر لانتقال كبار الأعضاء من تيسير ركوب الدرجة الأولى في الأوتوبيس والترام بالمجان ، وليركب من لم يرقه هذا على نفقته الخاصة ما يشاء . وقد كان له رحمه الله ما أراد .

وكان رحمه الله علمى النظرة والتفكير في الحياة . فشخصيته كانت واحدة في العمل وخارج العمل ، يزن الأمور بميزان الحق أيا كان الشأن الذى ينظر فيه . وهى صفة تقل حتى في العلماء . فقد يكون العالم شخصيتان : شخصية علمية حين يبحث ، وشخصية نفعية حين يعامل الناس .

وكان رحمه الله لا يفرط في حق إن كان له ، بل يطالب بحقه حتى يناله . لكنه أيضاً كان لا يطلب ما ليس له بحق . بل لقد كان في هذه الناحية كريماً سخياً يبذل من نفسه لبلده أكثر من أجره الذى كان يأخذ . كان مثلاً ينظر إلى إدارة معهد الأبحاث وقسم الطفيليات اللذين أسسا بمصلحة الصحة — أيام كانت مصلحة — كجزء متمم لعمله كأستاذ للطفيليات بكلية الطب ينبغى أن يؤديه بالمجان ، لأن أجره عليه داخل في مرتبه كأستاذ ، مع أن كلا منهما كان يستنفد من جهده ووقته غير قليل .

وقد نال رحمه الله ما كانت تسمو إليه نفسه من الغنى ، لا عن طريق الوظيفة ، ولكن من طريق استغلال مواهبه في ميدان الاقتصاد . وهذا جانب من العبقرية قل أن يجتمع مع العلم في إنسان . وقد حكى هو تاريخ نمو ثروته عاماً فعاماً لما نشر سجل حياته الاقتصادية ، جواباً مفحماً على سؤال « من أين لك هذا ؟ » الذى أثارته الخصومة السياسية في آخر عهد وكالته لوزارة الصحة أول مرة . وفي استطاعته رحمه الله نشر ذلك السجل في أيام معدودات من اتهام خصومه إياه ، دليل آخر على ناحية أخرى من نواحى عبقريته : ناحية النظام والتنظيم . فكم من الناس حتى ممن عملهم اقتصادى بحت يحتفظ بسجل لتاريخ حياته الاقتصادية منذ بدئها بحيث يستطيع — إذا دعت الحال — أن يرد كل حادثة فيها إلى تاريخ مسجل ومستند معروف ؟

وفي الناس من كان يود له لو ظل أستاذاً في كلية الطب طول حياته ولم يتركها إلى وزارة الصحة ولو كوكيل . لكن قبوله وكالة الصحة أيام وزارة صديقه المرحوم عبد الواحد الوكيل ليشد أزره في خدمة بلده صحياً أثناء الحرب كان من رحمة الله بهذا البلد . وقد دفع الله بهما عن مصر وباء الملاريا أن يجتاحها أثناء الحرب لما وفدت بعوضة الجامبيا إليها من أمريكا في بعض طيارات الحلفاء . وكانت هذه هي حجته التى ألزم بها لجنة الحلفاء الصحية بمصر أن تقدم ما أرادت أن تضن به من العقار اللازم لمكافحة الوباء ، معتذرة بحاجة الجيوش إليه . وأكبر الظن أنه لو استمر رحمه الله وكيلاً للحجر الصحى ولم يعزل عن عمله إلى إدارة معهد الأبحاث لحال دون الكوليرا ودخولها مصر ، بإقامة الرقابة الصحية على الطائرات الحربية الوافدة وعلى المعسكرات حول فايد ، كما كان يجاهد لإقامتها في عهده الأخير .

رحم الله الفقيد وعوض مصر وأهله وإخوانه عنه خيراً وإن عزّ من مثله العوض . فقد كان عاملاً للعلم وللإصلاح بالعلم ، لم يكد يكون لصبره على العمل نهاية ؛ وكان مجاهداً بالحق وللحق ، وكان في جهاده الصامت المقتدر آية .

محمد أحمد الغمراوى

خواطـــــر

للدكتور أحمد أمين بك

— ٩ —

كنت أزور معالى عبد العزيز باشا فهمى — أتم الله عليه نعمة الشفاء — فقال لى : « وقاك الله شر العجز ! فإن أحفادى ينتهزون فرصة عجزى عن الجرى وعن سرعة الحركة فيعاكسوننى ، ولست أقدر على ردعهم إلا باللسان ، واللسان وحده لا يكفى » .

فلما ابتليت بالمرض الأخير أدركت قيمة هذه الدعوة ! فقد أصبحت قادراً بغيرى لا بنفسى . لا أستطيع أن أحلق ذقنى إلا بغيرى ، ولا أستطيع أن ألبس بذلتى إلا بغيرى ، وهكذا . وأصبحت أتذلل للخادمة التى تخدمنى خشية أن تغضب علىّ ، وأتذلل لزوجتى خشية أن تغضب علىّ ، وأتذلل لأولادى خشية أن يغضبوا علىّ . وأدركت سر قوله : « وقاك الله شر العجز » .

وسمعت أن الأستاذ محمد كرد على السورى يقول : « إن أدباء المصريين كلاب » ، ففهمت نوعاً آخر من العجز ، وهو عجز غير الذى دعا لى عبد العزيز باشا فهمى أن يقينى الله شره ، وهو عجز العقل إذا شاخ ، بل أدركت أنه نوع من العجز أشد من عجز البصر وعجز الجسم ، وأن الإنسان فى مثل هذه الحالة فى أشد الحاجة إلى القدرة بالغير . فكيف يكون رئيساً لمجمع يتحكم فى مرءوسيه وغير مرءوسيه ؟ .

— ١٠ —

كنت أعددت خاطرة ، فلما أردت كتابتها نسيتها ، فأذكرنى ذلك حكاية مشهورة عن أشعب ، إذ قيل له : ما بالك لا تروى الحديث ؟ فقال : بل حدثت . فقيل له : حدثنا . قال : حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خصلتان من كانتا فيه دخل الجنة » ، نسيت واحدة ونسى محدثى الأخرى ! فآليت أن أكتب هذه الخاطرة بدل التى لم تحتفظ بها الذاكرة ، ووقى الله القراء شر العجز والنسيان .

لقد كان لى ذاكرة — ولله الحمد — تحفظ حتى أرقام الصفحات ، وحتى أهم المسائل فى الكتب . وهذا ما يسر لى كتابة فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام ، ثم كان الأمر كما قال الشاعر :

قــد كنت أمشى ولست أعيى
فصرت أعيى ولســت أمشى

أحمد أمين

فى ضوء الصباح

أصنـــام تحطمت

للدكتور زكى نجيب محمود

صادفتنى أيام الشباب طائفة قليلة من رجال ، نزلوا من نفسى عندئذ منزلة إكبار لا ينتهى وإجلال ليس بعده مزيد ! ثلاثة منهم أو أربعة كانوا دوما أمام عينى مثلا أحتذى به حين أطلب لنفسى ، أو حين أسوق للناس مثلا ، الرجل كيف يصلب عوده وتتعدد جوانبه وتتنوع نواحيه ! كنت أنظر إليهم نظرة الطفل إلى أبيه ، يراه عملاقاً قادراً على كل شىء ، فهو إن شاء أمسك بالقمر ، وهو إن أراد أنزل القطر ، وأرانى بالقياس إليهم قطرة من محيط أو ذرة من جبل ... آه لو كان لى قلم فلان وشهرته ولتنزل بى نكبات الدهر بعد ذلك ألواناً فما أبالى ! أو لو كانت لى هذه الحيوية الدافقة التى لفلان وهذا الأفق الواسع والعلم الغزير ، إن شخصه ليملأ الفضاء حتى ليكاد يتعثر به السمع والبصر أنى مضيت ! وأنظر إلى فلان كيف كسب القلوب بترفعه عن الصغائر وازدرائه لما ينغمس فيه الناس إلى أذقانهم من توافه ، وأين لى مكانة فلان فى هدوئه واعتداده بنفسه حتى لتتوجه إليه الأنظار أينما حل ، أذكر يوم جلس فى جمع كبير من كرام الناس وأحس التعب فى قدميه فخلع الحذاء فى حركة تلقائية طبيعية كأن إنساناً لم يكن معه ؛ أين أنت من هذا وأعصابك تكاد تتقطع حياء من نفسك ... هكذا كان هؤلاء الرجال يملأون منى شعاب الخيال فى عهد الشباب .

ومضت الأعوام وازددت خبرة بالناس وطبائعهم ، ورأيتهم عن كثب وفى شىء من الدقة والتفصيل ، بعد أن كنت أنظر من بعيد وعلى وجه التعميم والإجمال ؛ فأخذ نفر من هؤلاء العمالقة يصغرون ويضؤلون حتى لأراهم اليوم أقرب إلى الأقزام ! كنت أحسبهم أقوياء بنفوسهم فرأيت كيف يضعفون أمام أيسر الدوافع وأصغر ضروب الغواية ! إن الفرق بعيد بين صورة الهرم الأكبر حين تبدو لعينيك من بعد ، وبينها وأنت إلى جواره ، فالمسافة البعيدة تزيل الحفر والنقر والفلطة والخشونة ، وتجعل الجدار أملس صقيلاً ! إن القمر الذى تراه من بعد لامعاً ساطعاً وضاء ، هو على القرب حزون وجبال عتمة مظلمة سوداء ! لقد كنت مع جماعة من الأصدقاء ليلة فى مرقص ، فأبى واحد منا عرفناه بالظرف والفكاهة إلا أن يجلس فى آخر الصفوف ، ولما سئل فى ذلك أجاب بأنه يرى الراقصات على هذا البعد روائع فاتنات ، فماذا يقترب ويرى الغضون والعيوب فيجعل الجميل قبيحاً ؟

والحق أنى حين ازددت خبرة بهؤلاء الناس على مر السنين وصغر فى عينى منهم من صغر ، كبرت عند نفسى على حسابهم ، فلم أعد أرانى قطرة من بحر ولا ذرة من جبل كما كنت أتوهم ، وإن الله لينعم عليك بالنعمة الكبرى إذا وهبك القدرة على وزن نفسك ووزن الناس بميزان صحيح لا تحيز فيه ولا تحيف .

والفضيلة فى هذا الأمر ، كما هى فى شتى الأمور ، وسط بين طرفين كما يقول أرسطو ؛ فرذيلة منك أن تغلو فى قدرك لنفسك حتى تراها أضخم مما هى ؛ وكذلك رذيلة منك أن تحط من قدر نفسك حتى تراها أضأل مما هى ، والفضيلة هاهنا إنما تقع فى الوسط الذهبى الذى يضع النفس فى موضعها الصحيح ، فلا زيادة من طرف ، ولا نقص من طرف آخر ؛ ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه كما يقولون .

كان الخطأ الأكبر عند عبدة الأصنام ، هو أنهم عبدوا شيئاً كان يمكن لخيالهم أن يتصور ما هو أكبر منه ، وإن كان هنالك ما هو أكبر ، ففيم عبادة الأصغر ؟ إن كان إلهك صنماً صغيراً من حجر ، فالجبل الأشم أولى منه بالعبادة ، أو كان جبلاً عالياً فالشمس أعلى ،

أو كان شمساً واحدة فالسماء أوفر شموساً ، وهكذا تستطيع أن ترقى بمعبودك حتى تدرك فى النهاية أن من يستحق العبادة كائن واحد سبحانه وتعالى ! كل ما عداه صغائر عابرة تتجمع حيناً كسحاب الصيف لا يلبث أن ينقشع ويزول ! وكذلك قل فى تقديرك للناس من حولك ، فما دمت تنوى أن تعنو بوجهك لإنسان ، فليكن عظيماً حقاً فى البعد والقرب على السواء .

إن الشيطان الذى أبى أن يعبد الله استعلاء واستكباراً ، لأجدر عندى بالتقدير والتوقير من عابد الصنم الصغير ذلة وخنوعاً ! وليس من العجب أن يخفق « ملتن » فى « الفردوس المفقود » فلا يوفق إلى ما يريده بالشيطان من تحقير ! أراد أن يصف تمرد الشيطان وعصيانه وصفاً يحمل القارئ على مقته وازدرائه ، فأفلت منه الزمام برغم أنفه ، وإذا القارئ يقرأ القصيدة ليرى عملاقاً يوشك أن يكون بين نِدَّين ، فليس يخلو من العظمة من تحدثه النفس أن يخاصم العظيم .

عدم الخوف هو سر النجاح ، فعش حياتك على فوهة بركان — كما قال نيتشه — ولا تركن إلى الأمن والدعة ، فأنت حى بمقدار ما أنت مغامر جرىء ، لا تتمثل أمامك فكرة الموت فتصيبك بالجمود والشلل ! عدم الخوف هو جوهر الحكمة — كما يقول رسل — ومن الجبن أن تكبل نفسك بأغلال الخوف وأصفاده إزاء المخاطر الحقيقية ، فما بالك بما هو فى الواقع ظلال وأشباح ؟ وأول المغامرة أن تحطم الأصنام ؛ فيم عبادتك أصناماً من أناس عبادة الخائف يخشى منهم السطوة والبطش ويرقب منهم الصدقة والإحسان ؟ .

أنظر كم تجنى على حاضرنا عبادتنا لماضينا ! إن موتانا ليتحكمون فى رقابنا بأبشع مما يتحكم به أغلظ الطغاة فى عبيده الأذلاء ! لماذا ؟ لأننا نخشاهم فلا نخشى فيهم إلا وهماً ، كما يخاف الطفل خشخشة الورق فى الظلام ! نخشاهم فنعبدهم فنكيل لهم الحمد والثناء بغير حساب ، وليس بعد ذلك من بأس إن صغرنا نحن بسبب إكبارهم ، وذللنا بسبب إعلائهم !

فاللغة ما نطقوا ، والشعر ما نظموا ، والنثر ما كتبوا ، والحكومة الرشيدة على غرار ما حكموا ، والعلم الصواب ما علموا ! كأن الأرض تدور من الشرق إلى الغرب ، أو كأن الزمان يسير القهقرى ! والأمر كله عبادة أصنام رسمت من ظلال ! إن عبء الوقت يكاد يقصم ظهورنا ، فهلا ألقيناه عنا لنمضى فى الطريق خفافاً ؟ ، ولأمر ما ركبت الأعين فى الجباه لتنظر إلى أمام ، ولم تركب فى مؤخرة الرءوس .

لقد تصور اليونان آلهتهم — أول الأمر — ذوى نزعات ومنازعات كالتى تحدث للبشر ، فهى تلهو وتعبث وتغضب وتصبو وتعترك وتشتجر ، وتحب وتكره وتنتقم ؛ فلما نضج العقل اليونانى أبى أن يمضى فى عبادة هذه الآلهة التى لا ترتفع عن مستوى البشر فى دوافعها وأطماعها ، واختاروا لأنفسهم بديلا لها ، إلهاً عاقلا حكيما خبيراً ، يدبر أمره تدبيراً محكماً فى إرادة صامتة ، فلا نزوة ولا قهقهة ولا ولولة ولا بكاء — كذلك فعلتُ مع أصنامى التى عبدتها حيناً ثم حطمتها لما بدا أمام عينى صَغارها .

ولم أتم بعد عملية التحطيم ، لكنى أخذت أتنفس الصعداء ، وأتنسم الهواء بقدر ما تم من تحطيم ! لقد طالت عبوديتى وعبادتى حتى احلولكت نفسى بسواد سحيم ، وها أنذا أرى شعاعاً من ضياء يشرق فى جنبات صدرى بالقدر الذى خلصت فيه نفسى من ركام الأوهام ! حياتك — أيها القارىء — وحياتى مليئة بالأصنام نعبدها ، عن وعى مرة ، وغير وعى ألف مرة ، إنها تحيط بك وبى ، فهى عن أيماننا وشمائلنا وأمامنا ووراءنا ، هى معنا فى المنازل التى نسكنها ، وفى المكاتب التى نعمل فيها ، بل هى فى رءوسنا نحملها أينما سرنا ، كالذى يقال عن بعض رجال الجاهلية من أن الواحد منهم كان يحمل معه صنمه فى رحاله مصنوعاً من عجوة البلح ، حتى إذا ما استقر فى مكان أكله ! فاحمل فأسك — كما حملت فأسى — وابحث فى رأسك وانظر من حولك ، وحطم الأصنام لا تخش بأسها ، لأنها أضعف جداً مما ظننت بها ، تذق لحرية نفسك واستقلالها طعماً لذيذاً .

زكى نجيب محمود

مدرســـــة الطب المصرية

أول مدرسة عليا أنشأها محمد على

الدكتور جمال الدين الشيال

بدأ محمد على بإنشاء جيشه الجديد بعد سنة ١٨١٥ ، وكان من الضرورى — اقتداء بالجيوش الأوروبية التى ينقل عنها — أن يلحق عدداً من الأطباء بكل فرقة من فرق الجيش ، وأن تنشأ لهذه الفرق المستشفيات الثابتة والمتنقلة .

واستعان محمد على — أول الأمر — بطائفة من أدعياء الطب والحلاقين ، لعدم وجود غيرهم ! يؤيد دعوانا هذه المؤرخ الفرنسى « إدوار جوان » ، فقد وصف الأطباء المصاحبين للحملة المصرية فى السودان بأنهم « من أفاق اليونان والطليان » ، كما لاحظ « مسيو هامون » أن الأطباء الأجانب فى العهد الأول من عصر محمد على كان من بينهم « نادل فى مقهى ، وصانع أحذية فى مرسيليا وعامل تلغراف » وأن ثلث هؤلاء الأطباء كانوا بلا « دبلومات » .

وفى سنة ١٨٢٥ استدعى محمد على الدكتور « كلوت بك » ليكون طبيباً ورئيساً لجراحى الجيش المصرى ، وقد سعى هذا الرجل سعياً متواصلاً — منذ التحق بخدمة محمد على — للقضاء على نفوذ الإيطاليين ، وإحلال الفرنسيين محلهم ، وما زال بمحمد على بعرضه على إنشاء مدرسة للطب لتعليم أبناء البلد حتى وافقه على ذلك ، وأنشئت المدرسة فى سنة ١٢٤٢ (١٨٢٧) إلى جانب مستشفى الجيش بأبى زعبل ليسهل على الطلاب الدراسة العملية إلى جانب الدراسة الطبية .

وقد اعترضت كلوت بك صعوبات كثيرة فى أول الأمر ، أهمها : صعوبة التشريح وقد تغلب عليها ، ثم صعوبة اللغة التى يدرس بها ، وكانت هذه أخطر الصعوبات ، غير أن كلوت بك بذل كل جهده حتى استطاع التغلب عليها .

كانت هيئة التدريس عندما أنشئت المدرسة تتكون من أساتذة فرنسيين وإيطاليين ، كما كان من بينهم واحد أسبانى ، وقد كانوا جميعاً لا يعرفون غير الفرنسية أو الإيطالية ، والطلبة الجدد لا يعرفون غير العربية ، فلذلك لجأ كلوت بك إلى تعيين عدد من المترجمين لينقلوا الدروس عن الأساتذة إلى الطلاب ، وكانت الخطة التى وضعها كلوت بك تتلخص فيما يأتى :

١ — كان المترجمون ينقلون الدروس إلى اللغة العربية فى حضرة الأستاذ ، وكان الأستاذ يمد المترجم بالشروح والتفسيرات اللازمة ليسهل عليه مهمته ، لأن هؤلاء المترجمين لم يكونوا على علم بالمواد التى يترجمونها فى أول الأمر .

٢ — وليتيقن الأستاذ من حسن فهم المترجم لما قال كان يطلب إليه أن يعيد ما ترجم باللغة الفرنسية أو الإيطالية .

٣ — كانت هذه الدروس المترجمة تملى على الطلاب بعد ذلك فيسجلونها فى دفاترهم الخاصة .

٤ — كان المدرس يقوم بعد ذلك بشرح الدرس الذى أملى على الطلاب ، ويجيب على أسئلتهم إذا أشكل عليهم فهم بعض عناصر الدرس ، وذلك عن طريق المترجم أيضاً .

٥ — كان الطلبة يمتحنون آخر كل شهر فيما درسوه ، وكان الاختيار لرياسة الأقسام على أساس التفوق فى الامتحانات .

كانت هذه هى الطريقة الوحيدة الممكنة للتدريس فى مدرسة الطب أول إنشائها ، وطبيعى أن تظهر لهذه الطريقة عيوب ، وأن يوجه إليها النقد المر ! وقد أحست هذه العيوب هيئة التدريس قبل غيرها ، فاعترفت فى خطابها إلى ديوان المدارس بأن « الدروس التى يدرسها المدرسون الأجانب الذين لا يلمون باللغة العربية أو اللغة التركية كان ينقلها للطلبة مترجمون لا يفهمون شيئاً من معناها ، كما أنه لا يمكن شرحها لهم لعدم إلمامهم بهذا العلم ، وهذا هو السبب الوحيد فى تأخر الطلبة » ، وكان ذلك فى مجال التعليل لسوء النتيجة فى مدرسة الطب .

هذا ما اعترفت به هيئة المدرسة فى خطاب خاص لديوان المدارس . ولكن هذه الهيئة نفسها لم تكن لتقبل أى نقد على يوجه لطريقتها هذه فى التدريس ؛ فقد حدث أن كتبت جريدة « أزمير » فى أحد أعدادها سنة ١٨٢٨ نقداً لاذعاً لمدرسة الطب ولطريقة التدريس بها بوساطة المترجمين فانبرت لها هيئة التدريس فى المدرسة ، وأرسلت لها رداً مطولاً على هذا النقد ، جاء فيه خاصاً بطريقة النقد ما يلى :

« نحن لا نشارككم فيما ذهبتم إليه من ضرورة تمكن الشخص المنوط به أمر الوساطة بين الأستاذ والتلاميذ من العلم الذى يلقيه الأستاذ ويقوم هو بنقله إلى اللغة العربية ، فإنه يكفى — فيما نراه — أن يكون هذا الناقل حسن الإلمام باللغتين ، ومن الكفاءة بحيث يفهم الدروس التى يفسرها الأستاذ له ، ومن الميسور للأستاذ متى تم النقل على الصفة المتقدمة ، أى بطريق الرواية عن الأستاذ ، أن يراقب صحة ما ألقاه الوسيط فى حضرته بتكليفه إياه أن يترجم إلى الفرنسية ما كان قد عربه عنها ؛ ومثل هذا القرين المضاعف ينتهى بالمترجم إلى الاطلاع بخصوص الدرس والإحاطة بأطرافه ، فيكون مما لاشك فيه أن الدرس الذى حضر على هذا المثال قد نقل نقلاً دقيقاً ، وروعيت فيه الأمانة التامة » .

ومهما يكن من شيء فقد أحس « كلوت بك » نفسه ما يشوب هذه الطريقة من فساد ، واتخذ وسائل مختلفة لعلاج هذا الفساد والقضاء عليه ، منها :

أولاً — بدأ يكلف هيئة المترجمين فى المدرسة بترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية ، واشترك المترجمون فى هذا العمل ، وكان أول كتاب طبى ترجم فى هذه المدرسة هو كتاب « القول الصريح فى علم التشريح » ، وهو من تأليف « بايل Bayle » ، وبه زيادات للدكتور كلوت بك ، وقد ترجمه يوحنا عنحورى ، وطبع فى مطبعة المدرسة بأبى زعبل سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢) . وإذا كان هؤلاء المترجمون لايتقنون اللغة العربية ، فقد عينت فى مدرسة الطب طائفة من المحررين والمصححين من شيوخ الأزهر ؛ وقد استطاع هؤلاء الشايخ بما لهم من معرفة بكتب الطب العربية القديمة أن يمدوا المترجمين بالمصطلحات الطبية الصحيحة ، كما كان لهم فضل كبير فى تقويم أسلوب الترجمة العربى وتصحيحه ، والبعد به — على قدر استطاعتهم وعلمهم — عما يشوبه من ركة وعجمة وركاكة ؛ أما المصطلحات الطبية الجديدة فقد اجتهدت الهيئتان معاً فى ترجمتها أو وضع مصطلحات جديدة تؤدى معناها ، « ومن هؤلاء الرجال مجتمعين تكونت « أكاديمية » تكفل أمانة الترجمة وصحتها ، وأصبح للطب فى خمس سنين قاموس « Vocabulaire » تزيد كلماته على ستة آلاف كلمة » .

ثانياً : ألحق المترجمين تلاميذ بالمدرسة ليتلقوا العلوم الطبية ، فيسهل عليهم بعد ذلك معرفة المصطلحات وتفهم المواد التى ينقلونها عن الأساتذة للتلاميذ ، والكتب التى يترجمونها ، وقد أثنى كلوت بك فى تقاريره عليهم وعلى نشاطهم ثناء جماً .

ثالثاً : ورأى كلوت بك أن يشجع تلاميذ المدرسة على تعلم اللغة الفرنسية ، فأنشأ لهم مدرسة لتعليمهم هذه اللغة ، وألحقها بمدرسة الطب ، « وقد عمل الشيخ رفاعة رافع فى هذه المدرسة مدرساً للترجمة لشهرين تقريباً بعد عودته من فرنسا » .

رابعاً : ومن الوسائل التى اتبعت للإقلال من عيوب طريقة الترجمة أن عهد لتلاميذ الفرق المتقدمة بتدريس بعض علوم الطب للتلاميذ المبتدئين ، وأن يشرحوا لهم ما صعب عليهم فهمه .

خامساً : اختار كلوت بك بعد مضى خمس سنوات على إنشاء المدرسة اثنى عشر تلميذاً من أوائل الخريجين ونوابغهم ، وسعى حتى أرسلوا فى أول بعثة طبية إلى فرنسا (سنة ١٨٣٢) ، وسيكون لأعضاء هذه البعثة بعد عودتهم شأن خطير فى التدريس بمدرسة الطب وإدارة شئونها ، وفى الترجمة والتأليف ؛ فقد أصدر مجلس إدارة المدرسة — بعد عودة هؤلاء المبعوثين — لائحة تعين الأعمال التى يناط بهم القيام بها ، كان منها — إلى جانب اشتغالهم كمعيدين ومساعدين للأساتذة الأجانب — أن يقوموا بترجمة الكتب التى يختارها لهم أعضاء مجلس المدرسة ، وأن تعرض هذه الكتب قبل ترجمتها على شورى المدارس ، ثم تدفع إليهم ، وبعد الفراغ من ترجمتها ، ومنعاً للشك فى صحتها « يجب أن لا يطبع كتاب ما بعد الانتهاء من

(البقية فى صفحة ٦١)

ثقـــافة القرآن

للسيدة وداد سكاكيني

إذا كانت كلمة الثقافة فى مصطلح المعاصرين تدل على المعرفة الشاملة ، فقد حالفنى التوفيق باتقاء العنوان ، حين جعلته لمقالى هـذا « ثقافة القرآن » لأن كتاب الله جمع فأوعى ، فهو معرفة عامة بشئون الدين والدنيا ، وسفر جامع لخوالص العبر والعظات ، وهدى للضالين ونور وإعلان للمتقين .

فى القرآن فن قصصى من الطراز الأول ، يصور خلجات القلوب ويعبر عن نزعات النفوس ، وفيه تاريخ محكم يبعث ذكر الأولين ، وفيه تشريع وفلسفة وأخلاق وبيان ، فهو من أقطاره وأغواره ، وفى سوره وأسراره ثقافة كبرى ، ومورد معرفة لا ينضب فى مطلب المتعلمين والمثقفين .

وما كنت فى هـذا المقال متزمتة مستنطقة ، أستطلع التقوى لأحض على الطاعة مرهّبة بالعقاب أو مرغّبة بالثواب ، وإنما يقتضينى الحق أن أدعو إلى هذه الثقافة السامية ، وأن يكون كتابها فى كل يد وشغل كل طالب إلى جانب درسه وبحثه ، فما تخلى الله عن قوم إلا حين تخلوا عن كتابه وغفلوا عن خطابه ، ورحت أسائل نفسى : ماذا صنعنا بثقافة القرآن ، أنعرف الناشئة عندنا منه قليلاً أو نعى كثيراً ، وهل أخذ أولو الأمر من رجال التعليم بما يجب على الأمة من العناية بهذه الثقافة ؟ .

كنت وأنا بمصر أرى الكتاب الأعز فى حجرات المدارس ورفوف البيوت والخزائن ، وأسمع ترتيله فى مجالس الكبار والصغار ، وتنساب أمامى آياته وسوره على ألسنة لاهجة ببيانه العذب وأسلوبه المكين ، فكأنما نبع الفصاحة لأولئك الخطباء والشعراء والمحدثين الذين منهم زغلول وشوقى والبشرى ، وما قرأت مقالاً لعظيم أو سمعت رأياً لأديب أوتى بسطة فى التعبير والتفكير إلا أدركت أنه ينضح كلامه من وحى القرآن وبيانه ! ولقد يخالجنى الوجوم حين أتتبع أدبنا السورى الحديث بشعره ونثره فأرى انسياب الركاكة وعجاجة الأسلوب ، على أنى قد اهتديت إلى سبب الداء ، فهو إهمال ثقافة القرآن ! أفما يكون من الصواب أن يحمل هذا الكتاب فى بعض الفصول من المدارس والمعاهد مشحذة بلاغة ومواهب للطالبات والطلاب ؟ .

كان التعليم فى ماضى السنين آخذاً فى بلادنا بطرف من هـذه الثقافة إلى جانب زهر الآداب والعقد الفريد وكليلة ودمنة ، أما اليوم فقد ألغيت قراءة النصوص فى الفصول الثانوية التى تتأهب للحصول على الشهادة ، فيخرج الناشئون وهم فقراء من بيان العرب لا يعرف أكثرهم كيف يدير لسانه بجملة معربة .

هذه خواطر عرضت لى وأنا أقرأ تفسيراً جليلاً لجزء « تبارك » وهو الجزء التاسع والعشرون من الكتاب الكريم ، وإنه لتفسير قيم حكيم وضعه العالم الجليل الشيخ عبد القادر المغربى وأنفقت وزارة المعارف المصرية على طبعه ونشره وأقرته مشيخة الأزهر ، لما فيه من العناية بتحرير المسائل التى تمس إليها الحاجة ، وقد أشارت بتعميمه فى المعاهد وبين الجمهور ، وإذا عرف القارئ أن شيخنا المغربى من الثقات الأفذاذ فى حقائق الإسلام ودقائق اللغة والبيان ، أدرك قيمة هذا التفسير الذى جاء فى جزء « تبارك » وقدر جهد المؤلف وتحريه الحق والصواب فى التأويل والتعليل .

والتفسير للقرآن ثقافة قديمة عرفها المسلمون منذ أنزل الله كتابه على نبيه ، فلم يكد رسول الله يوسد ثراه حتى عكف صحبه على سور القرآن يرتبونها ويجمعونها حتى إذا كان الخليفة عثمان ثواب هذا الجمع أخذ مصحفه ينتشر فى أمصار المسلمين ويصل إلى أيدى العلماء والمفكرين ، وأخذ الصحابة ثم التابعون يشرحون منه ما يشرحون ويفسرون آياته موضحين مقاصدها بما أثر عن حديث رسول الله وسنته وسيرته ، وكانت تفاسير القرآن منذ الإمام البيضاوى إلى الإمام محمد عبده آفاقاً منيرة أعانت على تفهم القرآن تفهماً عصرياً مفيداً ، وقد لقى الشيخ محمد عبده ما لقى من المتاعب فى سبيل تفسيره القويم ، وكانت آراء الشيخ المصرى العظيم نبراساً جديداً فى فهم القرآن فهماً عقلياً يأخذ من الآداب

بيانها ومن العلوم تعليلها . ولمع في أفق الثقافة القرآنية كوكب الشيخ الكبير محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ، فانتشرت بآثاره ودعوته هذه الثقافة . وكان الجامع الأزهر حصن هذه الثقافة القرآنية الحديثة أواخر القرن التاسع عشر ولا يزال إلى اليوم حافظ هذا الذخر العربي المجيد .

ويشاء الله أن يسهم علماؤنا الأعلام بالشام في هذه النهضة المرجوة فيكون من الشيخ المغربي تفسيره لجزء تبارك ، وللأستاذ الجليل طريقة حصيفة في هذا التفسير ، بل هو ذو منهج علمي في تبيان القرآن ؛ إذ يستهل تفسيره لكل سورة بنبذة تاريخية عن مكان نزولها وسببه ، ثم يبسط القول في معاني الآية ومراميها ، بأسلوب مبين ، يكون شرحاً أدبياً عاماً للآية ووسيلة إلى التبسيط من أجل التعميم في التفهيم ، وبعد ذلك يأخذ في شرح الكلمات شرحاً لغوياً معجمياً ، ولا يجد عليه من بأس في أن يتناول أخبار العلوم الحديثة ، فيجعل منها شرحاً لبعض الآيات كما صنع حين فسر قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير » ؛ لقد استطاع الأستاذ المغربي من الحذق ما جعلنا في أنداده من المفسرين المعاصرين ، جامعاً بين الرأي القديم والفكر الحديث ، ذاكراً بأن التفسير الذي أجمع عليه القدامى هو أن الشياطين طائفة من المخلوقات الشريرة لا نعرفها بأعيانها ، وإنما نعرفها بآثارها ، ومن جملة هذه الآثار خواطر السوء ونزوع الأنفس إلى الشر والنكر ، ثم يتخلص المؤلف من التفسير القديم إلى تفسيره الحديث بهذه العبارة « إن الله النجوم خلقت زينة للسماء ورجوماً للشياطين ، ولا ينافي هذا أن تكون النجوم خلقت لأسباب أخر ككونها علامات يهتدي بها المسافرون في ظلمات البر والبحر ، إذ ليس في الآية ما يستدعي الحصر ، ثم ينطلق المؤلف لابساً حلة فلكي حاذق ، وكأنه يجري حديث العلامة الفلكي « فلاماريون » حين كان يتحدث عن النجوم قائلاً : والنجوم أجرام كبيرة ثابتة في مراكزها ، وتسمى ثوابت ، أو متحركة في أفلاكها ، وتسمى سيارات ، وحين يجاور كلمة الرجوم يقول : والرجوم وهي الشهب أجرام صغيرة مضيئة منفصلة عن النجوم وسابحة في الفضاء ، حتى إذا اقترب منها واحد من تلك الأرواح الشريرة للسماء شياطين انقضت عليه بهيئة شعلة نارية وأحرقته ، على أن تفسيره هذا وسط بين العقل والنقل ، أما التفسير الأخير فكان منه عقلاً محضاً ، لقوله : ورأي العلماء المتأخرون في سبب انقضاض الرجوم المسماة في اصطلاحهم « نيازك » أنها بعد انفصالها عن الأجرام السماوية بسبب من الأسباب تبقى سابحة في الفضاء حتى إذا اتفق اقترابها من كوكب آخر ، أو من كوكبنا الأرضي ودخلت في منطقة نفوذه جذبها إليه بسرعة هائلة فتحترق وتتلاشى هباء منثوراً ، أو تبقى منها بقية تسقط على سطح الأرض ، وهي ما يسمونه « الحجر النيزكي » .

وهكذا يكون من الأستاذ الكبير تفسير يأخذ بالاعتقاد الإسلامي الجازم ، ولا ضير عليه في أن يأخذ بأطراف العلم الحديث لتوضيح الدين بالدنيا والغيبيات بالحقائق العلمية الحديثة ، وقد سن له هذه السنة الشيخ محمد عبده في كثير من آي الذكر الحكيم ، وكان الشيخ الإمام قد تقدم بتفسير جزء « عم » ؛ فكان الأستاذ المغربي متمماً لفضله ، ناسجاً على منواله .

(دمشق) وداد سكاكيني

مدرسة الطب المصرية

(بقية المنشور على صفحة ٩)

ترجمته قبل أن يعرض على مترجمي المدرسة ومصححيها أجمعين » .

كذلك نص في لوائح سنة ١٨٣٦ التي أصدرها ديوان المدارس لتنظيم التعليم في مصر على أن يجتمع مدرسو مدرسة الطب المصريون في غرفة الترجمة بالمدرسة ليشتغلوا بالترجمة ساعتين قبل الظهر وساعتين بعد الظهر .

وقد ظلت إدارة المدرسة يتولاها الأجانب منذ أنشئت حتى سنة ١٢٦١ (١٨٤٥) ، أي حتى أواخر عصر محمد علي تقريباً ؛ فقد تولى إدارتها بالتتابع : الدكتور كلوت بك ، ثم الدكتور دفينو ، ثم الدكتور برون ؛ وأخيراً عهد بإدارتها إلى أحد أعضاء البعثة المصريين ، وهو الدكتور إبراهيم النبراوي ، ثم تولاها من بعده عضو آخر هو الدكتور محمد الشافعي .

دكتور
جمال الدين الشيال

الكُتّاب والقــــراء

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

فى مقدمة « هكذا تكلم زرادشت » يقول نيتشة : إن زرادشت قد هجر بيته فى سن الثلاثين ، وخرج إلى الجبال حيث استطاع أن يستطعم روحه وأن ينعم بفكره الخاص بين مظاهر الصمت الرهيب والعزلة الضاربة . ولكن قلبه تغير فى النهاية ونهض يوماً مع الفجر الوردى فواجه الشمس وخاطبها قائلاً : أيها الكوكب العظيم .. ماذا كانت تكون سعادتك إذا لم يكن لديك أولئك الذين تُشرقين لهم ؟ ثم قال : إنه قد صعد هنالك فى كهفه منذ عشر سنوات وأخذ يجمع فى الحكمة حتى فاضت لديه كما لو كان نحلة قد أكثرت من الشهد ثم غدا الآن محتاجاً إلى الأيدى التى تمتد لتقطف من أزاهير حكمته الغالية . فهو يشبه نفسه بالشمس التى ما كانت لتساوى شيئاً بغير الناس الذين تشرق من أجلهم ! ويقول : إنه من الضرورى أن يقلدها فى نزولها إلى الغرب كما تُسعد أولئك الذين يعيشون فى النصف الآخر من الأرض . فلا بد له من أن يهبط هو الآخر بحكمته حتى تلاقى من بين الناس من يزنها ويعطيها قدرها فتكون ذات قيمة .

وفى هذه الإشارة من جانب نيتشة دلالةٌ بالغة على حياة الأديب أو المفكر عموماً بالنسبة إلى هؤلاء الذين يكتب لهم ويوجه كلامه إليهم . فهناك نوع من الإحالة المتبادلة دائماً فيما بين الكاتب والجمهور . أو نستطيع أن نقول إن ثمة صلة قوية جداً فيما بين كل من الأديب وقرائه . وهى صلة لا تقل فى خطورتها وأهميتها عن الصلة القائمة بين البائع والمستهلك فى الأسواق التجارية . ولكنها مع الأسف الشديد كانت موضع احتقار الناس تبعاً لما يعتقدونه فى الأديب من الارتفاع عن مناقشة أمثال هذه المسائل المادية . وبذلك بقيت حتى الآن من غير أن تكون ثابتة الأصول قوية الدعائم . فكل شىء فى الدنيا قد تحددت تسعيرته ودُرست مقوّماته وعُرفت مكاسبه وخسائره إلا الكتابة ... وأبعد خطرة عن ذهن شعبنا هذا بالذات هى أن يدرك قيمة معنوية . فالناس يفهمون جيداً ثمن شىء يبتلعونه فى بطونهم ويعرفون العقار الذى يملكونه ويدر عليهم المال الوفير .. أما المعنى الذى يتلقونه من حكيم ، وأما الأدب الذى يصدر عن قلم كاتب من الكتاب ، وأما الأشياء التى تدخل إلى دماغهم عن طريق العقل فلا يستطيعون بحال أن يقوّموها تقويماً مادياً ولا يتخيلون أن لها ثمناً مادياً كالسلع المشتراة .

ولو علم القراء أن كتابهم الأفاضل لا يستطيعون أن يحيوا ولا أن يمضوا فى الكتابة بغير هذه القراءة المعدودة التى يلقونها فى أيديهم عند نهاية الكلام ، وأدركوا حقيقة الصلة التى تربط الكتاب بهم وتشد الأقلام إليهم لغيّروا من أساليبهم فى احتقار الكاتب الذى يطالب بأجره غير هياب ولا وجل . بل حينئذ فقط يسمحون لنا بالإقبال على دارسة العلاقة القائمة بين الكتاب والقراء دراسة اقتصادية بحتة بعيدة عن التأثيرات الروحية المزعومة فى هذا الباب . لأننا لو خلّينا جانباً متعة القارئ بما يقرأ واستفادة الجمهور من المواد التى يطالعها ، ونحّينا أثر الكاتب فى الأفراد والجماعات ، لما استطعنا بحال أن نتجاهل المجهود النفسىّ الذى يلازم مجهود الفكر ، وخسارة الجسم التى تصادف دماغاً عبقرياً .

فحياة الأديب المفكر سلسلة من التلازعات النفسية والقلاقل الوجدانية التى تسبب له الألم والتعب . وتأمل حياة واحد من المفكرين والكتاب الحاذقين تلمس بوضوح آلام القلب ومعاناة الخاطر وحيرة الضمير . فهى من هذا الجانب عذاب فى عذاب ، لا يخلص من هم إلا ليركبه هم ، ولا ينزع عن باله فكرة سخيفة إلا ليحل محلها ما هو أسخف وأدعى للتألم والقلق . ولا بد من أن ننتبه الآن إلى هذه الطاقة النفسية أو الحالة الباطنة التى توازى عمل الأديب المفكر ، فكأنما هناك نوع من الملازمة الصامتة بين أعمال العقل وإفرازات النفس . وكل ما نشاهده فى تراجم الأدباء من معانى الثورة والاضطراب والشذوذ لا يمكن أن نفهمه إلا من هذا الباب الذى نلفت النظر إليه ها هنا .

وليست طاقة النفس عند الأديب هى موضع الاستهلاك وحدها ، وإنما يلاحظ إلى جانب هذا — أن الكاتب يفنى من عصارة جسمه فى ساعة قدر ما يستهلك التاجر أو الصانع أو المزارع فى ساعات . ولهذا السبب وحده كانت هناك صلة وثيقة جداً بين الأعمال الفنية أو الفكرية وأمراض الصدر

فما تكاد تقرأ عن واحد من المفكرين أنه مات بسبب شيء أصابه غير ذات الرئة . ولو عددت لك أسماء هؤلاء الذين أصابهم السل من الكتاب وأودى بحياتهم داء الصدر لهالك الأمر ، وامتلأت بالدهش من خطورة هذا التعداد ، وتبينت لك حقيقة العمل الأدبي ومهمة صاحب القلم .

فساعات الانبساط التي تقضيها أنت مع كتاب ما ، قد دفع ثمنها كاتبه من دمه وحياته . مثلك في هذا كمثل الإنسان المستفيد بشهد النحل . وقد أجريت على نفسي تجربة من هذه الناحية كيما أقف على حقيقة العمل الذي يُناط بالكاتب ، فوجدت أنني كنت أخسر في الليلة الواحدة التي أمضيها في الكتابة وحدها أكثر من كيلو ونصف كيلو من وزن جسمي ، ثم أستعيد بعض هذا الوزن في الصباح إذا كان الإفطار ذا قيمة غذائية .

فهذه الكلمات التي تطالعك على صفحات الثقافة وغيرها من المجلات والكتب الأدبية ليست خطاً أسود متصلاً ، أو مجموعة من الحروف المرصوصة ؛ إنها في الحقيقة دماء ممزوجة بالجهود والأذواق الفنية .. إنها شيء يبكي من أجله البعض ، ويضحك من أجله البعض ، ومات من أجله البعض ! ! حقيقة يطالب الكاتب بثمن المقال الذي يؤلفه ، والقصة التي يبدعها ، والبحث الذي يقوم بدراسته وعرضه ، لا يفعل شيئاً غير التأليف والإبداع والدراسة . وقد يكون ما يطلبه ثمناً لدواء يقي به الجسم من التداعي والبال من المرض والصدر من الهلاك .

وقد كان من طبيعة الكاتب أو الشاعر أو الفنان في العصور الماضية أن يجد حماية لدى أمير من الأمراء أو واحد من الأغنياء . ولم يكن عليه في مقابل ذلك إلا أن يحمل هموم هذا الأمير الغني وأن يشاركه متاعبه وأن يعبر بآدابه وفنونه عن المحن الخاصة به والمشاعر الموقوفة عليه . فالأديب في العصور الماضية (الوسطى خصوصاً) كان مكلفاً بالانفعال من أجل شخص واحد بالذات : يغني لأفراحه ويرثي لأحزانه ويزهو بمجده . وكان يثاب في مقابل ذلك بالمال الوفير ، أعني أنه على الرغم من الأقفال الدائرة التي يعمل فيها وانحصار المجال الذي يختص به ، لم يشعر بالفقر ولم يحس بوطأة العيش ولم يشارك الصعاليك حياتهم . وكثير من الأدباء كانوا حكاماً أو وصلوا بمقدرتهم وفنهم ويراعتهم إلى مقامات الحكم .. فساووا الأمراء والكبراء ، وعاشوا مع خاصة البلاط .

أما الآن فلم يعد يجد الأديب حماية من الأغنياء والأعيان كما كان الأمر في العصور السالفة ، وصار مصدر الرزق بالنسبة إليه شيئاً آخر سوى العمل في صفوف الأغنياء والأعيان . ولا تتمثل ديمقراطية الأدب إلا في هذا المظهر الجديد ، ولا تتجلى حرية الأديب إلا في هذا الميدان حيث تضيع غلبة الفرد وسيطرته ، وتختفي معالم الانفعال الفردي من أقلام الكتاب . ومعنى ديمقراطية الأدب ها هنا أنه يعبر عن هموم الجماعات بأسرها ويعلن عن مصالحهم جملتها .. فليس ثمة أدب موقوف لمصلحة أفراد ولا أدب خاص بالأهواء الشخصية ؛ وإنما هناك أدب أمة لها أهواؤها وشهواتها ومطالبها ، وجيل له نزعاته ورغباته وأفكاره . وبذلك كبرت المهمة المناطة بالأديب وصار مضطراً إلى الكتابة للدلالة على كل الانفعالات التي تطرأ على نفسية الجماعة التي يعيش فيها وكل الخواطر التي تساور عقول أبنائها .. فهو شاعرها الذي يمجد أعمالها ويمتدح خصالها ويرفع من قدرها .. وهو كاتبها الذي يسجل خطوات تطورها ويعبر عن مكنون ضميرها ويهتز لكل ما يصيبها من الأحداث ويزيل بساحتها من المصائب . ومن ذلك نفهم أنه قد اتسع نطاق تعبيره ولم يعد مختصاً بأفراد وآحاد ، بل أصبح مديناً في أدبه الموحى الذي يتلقاه من عواطف الجموع وإحساسات الجماهير . فلذا نراه موزعاً بين أهواء شتى وأغراض كثيرة .. ممزقاً من شدة الاختلاف والتنوع في الأهداف والآراء بين أبناء وطنه . فهو يحمل في صدره آمال أمة ويخزن في صدره مشاعر دولة ، ويحتفظ في باطنه بالتوتر الذي يقتسمه عشرون مليوناً فيما بينهم . والفرق واضح طبعاً بين انفعالات الفرد الواحد التي كان الأديب في العصور الفائتة يقف نفسه عليها وبين انفعالات الجماعة الكبيرة التي صار عبداً لها في العصر الحديث . فقد تعددت مناحي الاختصاص في عمله كما هو ظاهر الآن ، وكان منتظراً أو متوقعاً بالتالي أن يزيد خطره وأن يعظم رزقه ويكثر كسبه . ولكن ها نحن أولاء نشهد على عصرنا هذا بأنه عصر الفوضى والنصب من جانب الناشر والناشر وصاحب الجريدة أو المجلة ، ونسجل بأنفسنا محنة الكتابة وهي تحتضر على أيدي مرتزقة الرأي السائر ، ونرى زملاءنا وهم يسقطون صرعى في الطريق الفقر وهم بسبيل الارتقاء لغاية مجهولة .

فالكتابة هي الفن الذي يجعل صاحبه غضبان دائماً مهتاجاً دائماً منفعلاً دائماً بغير أجر معلوم . ولئن يغضب ويثور ويكره من أجل نفسه وفي سبيل مصلحته الشخصية ، فذلك شيء لا يؤذيه ولا يضيره . ولكن الحاصل أنه يفعل ذلك كله من أجل آخرين ألقوا إليه بعواطفهم الجامحة ثم تركوه يحمل عبء الشعور وثورة الإحساس بمفرده .

ولذلك تدهشك دائماً هذه الظاهرة عندما تخالط أديباً من الأدباء ؛ فهو لا يخلو من طيش ونزق ولا يغار على شيء قدر ما يغار على مصالح الآخرين . ويبدو لك من كثرة ما يذكر أمور العامة ومشاكل الناس أنه لا يحيا من أجل نفسه . ونحن هذا كله لا بد أن يدفع . فمن الضروري أن نوفي للأديب حقه في العيش الكريم حتى لا يخطىء في التحقيق ولا يذل عند الطلب ولا يتكسر وهو في أوج الاشتغال بالمسائل العامة .

وجماعة الكتاب والأدباء هم عنوان هذه الأمة وغيرها من الأمم . فهم الدليل المحسوس على أننا قد غدونا مدركين لحقيقة المسئولية الفكرية . وكل تقدير أو عناية تصدر من جانبنا بالنسبة إليهم فهي نوع من الإحساس الفطري بأهميتهم وقت الأزمات . وإذا جاءت المناسبة التي تقتضي ظهور الأدباء والخطباء والشعراء والكتاب في مصر وأخذنا نبحث هنا وهناك عن مقطوعة واحدة سليمة تعبر عن رغباتنا ثم نعثر لها على أثر ، لا ينبغي أن نأسف ونغضب ما دمنا نحن أنفسنا السبب المباشر في إحداث هذه الظاهرة .

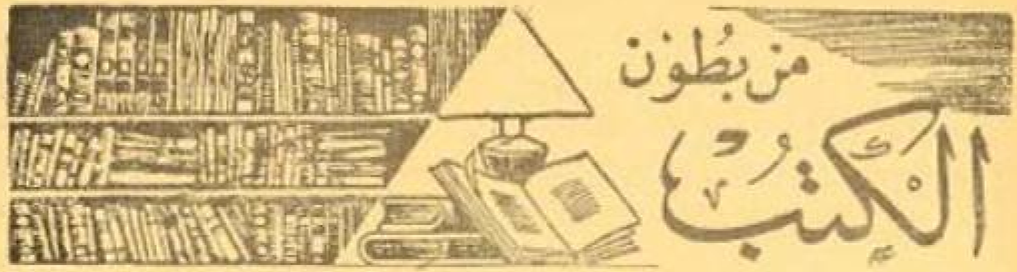
والغربيون قد تقدموا عنا كثيراً في معرفة المهمة المنوطة بالكاتب ومقدار المتاعب التي تجرها عليه . ولذلك استطاعت الدول الأوربية أن تنتج قوماً لا عمل لهم إلا الكتابة ، وصار صاحب القلم صاحب حرفة محترمة في المجتمع الذي يعيش فيه . ونحن في مصر — إذا استثنينا عباس العقاد — فلن نجد كاتباً واحداً بعد ذلك يعيش من قلمه ويقتات من الصفحات التي يدبجها يوماً بعد يوم . ومعنى ذلك أن وظيفة الكاتب بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة لم توجد بعد في مصر ولم تأخذ محلا ظاهراً في حياتنا الاجتماعية . فلا حاجة بنا إلى من يثور من أجلنا ونحن لا نعرف الثورة ، ولا حاجة بنا إلى من يغضب لنا ونحن لا نعرف الغضب ، ولا معنى لأن نقف إنساناً للانفعال بدلاً منا ونحن من البرود والذل والخنوع في أسفل قرار . فنحن لا نوجد الكاتب ثم نميته بعدم العناية وقلة الاكتراث .. وإنما لا نحتاج إليه مقدماً فيهلك وهو في الأحشاء جنين .

والباحث الذي يريد أن يقف على الأسباب وأن يعثر على العوامل المرجحة لوظيفة الكاتب في مصر حالياً لن يبلغ به التعب مبلغاً يذكر . فحالة التعليم عندنا لا تجعل الإنسان يطمع في تكوين فئة مثقفة نشيطة ، والذوق لم يرتق عندنا لدرجة الإقبال على الفنون والسعي إليها ، والقدرة الاقتصادية عند أبناء الطبقة المتوسطة التي يظهر من بينها عادة هواة القراءة والاطلاع لم تزل أضعف من أن تقيم أود كاتب .. فهذه أسباب مباشرة تحول دون ظهور الجمهور القارىء المصرى ، ولا تسمح بناء على ذلك بظهور الكاتب ؛ فطالما لا يوجد جمهور قارىء عاقل لن يوجد الكاتب الحر المتخصص .

وهكذا تتكشف لنا روابط الأديب بالمجتمع .. فهو يتغذى من لبابه ويعيش على أفكاره ، ولا يستطيع أن يكتب حرفاً بغير أن يستوحى القوم الذين يخصهم بكلامه . وكان من الضروري أن تستقر هذه الحقيقة في أذهان الناس حتى يقدروا ما للكاتب عليهم من حقوق أو حتى يقدروا ما للكاتب في أموالهم من نصيب . ولكنهم أبعدوها عن خيالهم بعداً دفع الكاتب إلى الحضيض واضطره إلى السقوط ، وشغله عن أدبه وفنه بما يجده في الحياة من شواغل . ولو أنهم عرفوا أن صلة الكاتب بهم صلة حيوية ، وأنه لا يملك الاستقلال والاستغناء عنهم في فترة من فترات حياته ، وأنه مسوق إليهم بحكم الصناعة والمعيشة ، لرقت له قلوبهم الآن فبادروا بتشجيعه على نحو طبيعي ظاهر .

هل عرفت مقدار ما تعانيه زهرة قد اكتملت بغير أن تعثر على اليد التي تقطفها .. وهل عرفت شقاء الفتاة الجميلة البائسة عندما لا تلقى الشباب الذي يتهافت عليها .. وهل أحسست يوماً بتعاسة الشمس التي لا تصادف إنساناً تنير له .. إن هؤلاء جميعاً لا يشعرون بجزء مما يشعر به الكاتب الذي يحس في نفسه القدرة على العمل ، ويأنس في نفسه الكفاءة لحمل القلم ، من غير أن يجد الجو اللازم لكتابة سطر واحد ، أو من غير أن يحاوره الجمهور في خاطر من خواطره على الأقل . فذلك يعني بالنسبة إليه موتاً تعباً ربما خالصاً !

عبد الفتاح الديدى



طفـــولة زنجي

للأستاذ صلاح الدين المنجد

« مبونو أوجيك » نجيري من إفريقية . شاءت له الأقدار أن ينبت نباتاً متمدناً برغم زنجيته ، وشاءت له بعد ذلك أن يخرج من البيئة التي قضى فيها طفولته وطرفاً من أيام شبابه . فطوّف في أوربا وأمريكا . ولمع نجمه ورف ذكاؤه ، وبرع في الدراسات التي طرقها . وصار عضواً في معهد الطلاب الشرقيين لدراسة العلاقات الإنسانية .

وقد قرأت كتابه المسمى « بلادي إفريقية My Africa » فوجدته من أطرف الكتب وأمتعها ، مُلِيء فوائد وحشي غرائب . وهو أشبه ما يكون بمذكرات يصف فيها حياته وبلاده . وطرافة الكتاب آتية من ناحيتين : الأولى أنه يصف وصفاً دقيقاً حلواً ، بلاداً لا نعرف عن عاداتها وطرائق الحياة فيها إلا القليل . والثانيـة أن كاتبه زنجي اللون ، لكنه أوربي العقل والثقافة .

ومن أمتع صفحات الكتاب ، أحاديثه عن طفولته ، ومن أبيه ، وهأنذا أنقل طرائف منها .

• • •

يقول : « كان أبي ، وهو رجل دولة في نجيريا ، يعتقد ، تبعاً للعقيدة الإفريقية في التناسخ ، أني كنت ذات أخيه الشوق . أطلعني ذات يوم على ندبة في صدري ، من الناحية اليسرى — وهي علامة أحملها منذ مولدي — وأبان لي أن في هذا الوضع بعينه نفذت رصاصة في صدر أخيه « أودو » .

ما أدري إذا كان عليّ أن أعتقد ذلك ، ولكن شيئاً واحداً هو يقين عندي : ذلك أني أحتفظ دائماً بأثر الجرح : بقعة مستديرة قاتمة اللون ، عرضها سنتيم وربع سنتيم ، وأن شكلها لم يتبدل قط .

• • •

إن قطعة من فصل ، لا تكفي حقاً ، كي أقص بشكل تام ، كيف حدث أن تزوج أبي عشراً من النساء . إذ ينبغي لهذا كتاب كله . لنضرب مثلاً زوجته الأولى . إن اسمها وحده « أغابا » يكفي ليوحي لماذا شغف أبي بها حباً . إن معنى أغابا « كاعب أوتيت من الفتنة أن كل إنسان يفخر بالتطواف معها في بلد غريب » .

أما النساء الأخريات ، فقد تزوجهن لأسباب مختلفات : ليزيد عدد أولاده ، أو ليحالف بأقارب جديرين أن يشاركوا في حسن تدبير أعماله ، أو ليرفع من شأنه في أعين الناس ؛ لأن رجلاً في مثل غناه ، إذا أوتي زوجتين أو أكثر معاً ، كان محل الإعجاب والإجلال . أو لأن الزواج كان يفيده ليتقي صلات ود مع أسر قوية أخرى .

وكانت زوجاته يتفقن معاً على ما تطلبه كل واحدة

منهن ، من أبي . ففي سنة ، مثلاً ، طلبن قطعاً من القماش المختلف ، لكل واحدة . وتعهدن ، مقابل ذلك ، أن يقدمن له الطعام طوال نصف عام .

لكن أبي رفض ، بلطف ، هذا الطلب . فاحتججن عليه ، وقررن أن يُشقينه من غير طعام . ولم تقبل أية واحدة أن تهيء له طعامه . فبقي يوماً كاملاً صائماً . ثم دعاهن إلى اجتماع ، وعقد معهن اتفاقاً أرضاهن .

وأولى أبي أولاداً كثيرين ، ولم يقصر في العناية بهم جميعاً . كان يحبهم . وكان يسعى لإرضاء كل واحد منهم . كان عدد الذكور تسعة عشر ذكراً . أما الإناث فكن ثلاثين بنتاً وبنتاً .

* * *

وكان أبي يهتم كثيراً بطعامه . كان ينبغي أن يأكل ثلاث مرات في اليوم . وكانت كل واحدة من نسائه تهيء الطعام يوماً . وكان لا يتناول طعامه وحيداً . فإذا لم يكن عنده ضيفان ، فالزوجة التي صنعت الطعام هي التي تأكل معه .

وصنعت أمي ذات يوم سمكاً ، وحملت الطبق إلى القصر . وحملتُ أنا ماء في وعاء ، فغسلا به أكفهما قبل أن يأكلا من الطبق معاً . ولقد وددت أن أدعى ، لكنهما لم يتفوها بكلمة . كنت أنظر إليهما ككلب يرى صاحبه يأكل لحماً . كان كل منهما يتناول قطعة فيغمسها في كوب فيه زيت النخيل ، ثم يمضغها .

ورأى أبي أني كنت أنظر إليه ولسان حالي يقول : « وأنا جائع أيضاً ...! » ، فقال لي مؤنباً :

— لا تنظر إلينا . اذهب والعب . عندما تعود أمك إلى بيتها ، فستقدم لك طعامك .

وسألت أمي بعد ذلك ونحن نأكل معاً : لماذا لم يطعمني أبي طرفاً من طعامه ؟ .

قالت : إن على الصبي أن يأكل في بيت أمه .

قلت : وإذاً فلماذا يريد دائماً أن نبقى أمامه ، إذ يأكل ننظر إليه ؟ .

قالت : يريد أن تتعلم كيف تأكل ، ويريد أن تتعلم الصبر عن شيء ، تراه أمامك وتتوق إليه ، ولكنك لا تستطيع الحصول عليه ، والآن أسرع في طعامك ، ولا تثرثر على المائدة ، فالصغار لا ينبغي أن يتحدثوا وهم يأكلون .

* * *

فلما بلغت من العمر قرابة سبعة أعوام ، بدأ أبي يرسلني أحياناً إلى موضع يبعد ستة كيلو مترات عن قصرنا ، لأبحث له عن شيء ، أو لأحمل رسالة ما . فإذا بدا له أني تأخرت كان يقول لي :

— يوم كنت في سنك ، كنت أمشي وأجري إلى بعد ثلاثة عشر كيلومتراً . انظر . هاأنذا أبصق على الأرض ، أرني إذا كنت تستطيع أن تذهب وتعود قبل أن يجف بصقي .

وأنا ولدت متأخراً . فلم أعرف جمجمة أبي إلا وهي صلعاء تماماً . هذه الجمجمة الصلعاء كانت تعتبر مقدسة . فإذا اتهمت بخطيئة ما كان أبي يقول :

— احلف برأسي .

وكنت طبعاً ، أخاف أن أحلف .

ولكن ذلك لا يعني أن أبي لم يكن لديه أعصاب حقاً ، بل كان لديه كثير منها . وكان يقسم بأوفو . وأوفو هو رمز القوة والعدل والحق التي ورثناها عن أجدادنا .

كان أوفو أبي ، له شكل مطرقة ضخمة ذات رأسين . وكان لكل واحدة من زوجاته أوفو صغير إذ يكون لها بيتها الخاص بها . وقد لجأ أبي إلى أوفو مرة ليمنع نساءه من أن يشتركن في بعض الأندية . كان يهز بأوفو فوق رأسه ويقول « كا ، آتو ، كج با ، أوفو آ ، غبو كوام » أي بدلاً من أن أراكن تحضرن هذه الاجتماعات ليقتلني أوفو » . وكان نساؤه يخفن من أوفو ، فلا يخضن في حديث الأندية أبداً .

* * *

وكنت في السادسة من عمري إذ تناقش أخي (أباوغو) وأبي في أمر إرسالي إلى المدرسة . مانع أبي بادىء الأمر ، وأيده أخي . ومن غير أن أعرف الشيء الذي يبحثون فيه ، انضممت إليهما .

ولكن (أباوغو) اشترى لي صداراً من الصوف الأبيض . وكنت حتى ذلك اليوم ما ارتديت قط ثياباً . فالصبيان لا يرتدون الثياب حتى يبلغوا الحلم . وبهذه الصدرة أفهمني أخي رأيه . فلما علم أبواي أني قررت الذهاب إلى المدرسة عادا عن رفضهما .

ورأيت في المدرسة لمرة الأولى ساعة كبيرة . فإذا أشارت إلى السابعة صباحاً كانت دقات الطبول تنبه الأطفال كافة ، البعيدين حوالي المدرسة ، عشرة كيلومترات ، أن الوقت حان للبدء بالسير . وفي الثامنة يكون معظمهم قد وصل . أما أنا فكنت أصل في الوقت تماماً . كان طريقي لا يزيد بعده عن خمسة كيلو مترات .

وكنت أحياناً أحمل صداري على كتفي ، فلا ألبسه إلا عند بلوغي المدرسة . وكان الأساتذة يرتدون صداراً بدلاً من القميص ، وتحته السراويلات ، وفي أرجلهم الأحذية . وكان لهم في أنفسنا احترام عميق . وكان السوط بأيديهم دائماً ، في الصف ، وحتى عندما كانوا يزوروننا . الأمر الذي دفعني أن أقرر أن أكون أستاذاً .

وكان أخي أباوغو يدفع نفقات تعليمي . كان يشتري لي الثياب والكتب والدفاتر التي أحتاج إليها . وكانت النفقات تزداد ، فاضطررنا إلى الالتجاء إلى أبي . فرفض مساعدتنا صراحة وقال لي :

— إنك تسرق ساعات العمل بذهابك إلى المدرسة . إن من الشذوذ أن أعطيك الدراهم لتسرق .

فلما أبنتُ له فائدة ذهابي إلى المدرسة قال : بني ! لن تستطيع أن تصبح أكثر حكمة أو أوفر مالاً مني بذهابك إلى المدرسة وتنفك عادات البيض .

* * *

وكنت في السنة الثالثة عندما رأيت لمرة الأولى فتى وفتاة من البيض يمشيان معاً . فاضطربتُ لرؤيتهما . كان لونه هو ، شاحباً . وكان لهما أنفان طويلان جداً . كانا حقاً غريبين . فكرت أنهما إذا أرادا أن يشربا فلا بدَّ لهما أن يغمسا رأسي أنفيهما في الكأس ، قبل أن يصل الماء إلى فميهما .

وتساءلت أيضاً : كيف يستطيعان التقبيل والعناق . كنت أعتقد أن الأنوف تتشابك فتمنع الشفاه عن أن تتلاقى ، ولم أتبين خطئي إلا بعد تسعة عشر عاماً عندما زرت أمريكا وأوربة .

* * *

كان المبشرون يلقون الحماسة في نفوسنا لتلقي ثقافتهم الغربية وعاداتهم في جميع النواحي ؛ وكان على كل من يصبح نصرانياً أن يتخذ لنفسه اسماً غربياً ساعة تعميده ، ويوم عمدت اتخذت لنفسي اسم « روبنسن » .

حملت هذا الاسم عشرة أعوام . حتى الساعة التي استيقظ فيها شعوري بقوميتي وفهمت غرابة ما فعلت ، فعدت عندئذ إلى الاسم الذي أعطانيه أبي ، « ميونو » ومعناه « العمل خير من الكلام » . وقد يكون هذا الاسم أقل جمالاً من روبنسن ولكنه حتماً أكثر أصالة .

إن الثقافة الغربية قد أعطيت للأفريقي بصورة سيئة . وستبقى ألعوبة في أيدي الشعوب طالما لم تقدم إليه هذه الثقافة بصورة أحسن .

* * *

وأمطرت السماء مصائب على أبي ؛ بلغ سن الشيخوخة . وأصبح لا يستطيع أن يتزوج . ومات أول أولاده بأزمة قلبية . ثم رأى سور قصره الواسع ينهار أمام عينيه . ثم فاتت شمسه رويداً رويداً .

لقد عفت مصيره منذ رأيته يبكي أخي الأكبر . وتيقنت من ذلك عندما سافرت إلى أوربة برغم تمنعه وبكائه . إن هذه الخيبات قد قصرت عمره . كان يدعو ويبتهل أن يبقى ، ويبقى إلى جانبه أبناؤه . لكنه كان رجلاً لم يستمع الكون إلى صلاته ونداءه . »

(دمشق) ممدوح الديب المنجد

سحر الموسيقى

للأستاذ جمال الدين الرمادى

نشرت الصحف الصباحية الكبرى منذ أيام معدودات في خبر لوكالة الأنباء العربية من وشنجطن أنه قد أجريت في قسم الجراحة بجامعة شيكاغو عملية التخدير بالموسيقى قبل إجراء العمليات الجراحية للمرضى ، وقد دلت التجربة على نجاح كبير جداً ، حدا بالجامعة إلى اعتزام إدخالها بالعمليات الكبيرة لاستئصال السرطان وغيره من الأمراض .

هذا خبر صغير أكبر الظن أن كثيراً من القراء قد مر عليه مر الكرام ، فلم يثر في نفسه غبطة ولا ألماً ، ولم يحرك على ثغره ابتسامة رضى أو ضحكة سخرية . ولكن الواقع أنه قد اعتبر فتحاً عظيماً وخطباً جسيماً بالنسبة إلى الموسيقى والمرض ، ومع أن التخدير بالموسيقى قديم منذ عهد الفراعنة كما أشارت وكالة الأنباء العربية ، فإنه ليس إلا خطوة صغيرة بالنسبة إلى علاج الأمراض بالموسيقى ومواساة المرضى بها وتخفيف آلامهم وكربهم بوقعها .

وقد اتضح أن أنشودة المسرة لبتهوفن وشوبرت تلائم المرضى بالانقباض النفسي والحزن ، كما اتضح أن قطعة لفاجنر تلائم مرضى الغضب السريع . وقد أجرى بعض الأطباء الأمريكيين تجارب على قطعة فالكوريزت من فاجنر ، فزادت حركة التنفس — وكانت تبلغ ثماني عشرة مرة — فصارت ثلاثين مرة ، وزادت سرعة النبض كذلك ؛ ولا غرو في هذا ، فإن لفاجنر قوة عجيبة على التأثير في النفس بموسيقاه التي قال عنها الشاعر الإيطالي جوفان سوباتينو « إذا كانت هنالك أشياء نراها بوجداننا واضحة جلية ونحس بها كأننا نشاهدها وتضطرب لها نفوسنا كما تضطرب أمام أعاصير الحياة وعواصف الدهر فهي موسيقى فاجنر » .

وقد وصفها المؤلف الإيطالي (شارل ستيفن) فقال : « إنها هدير الأمواج الثائرة وأصوات الرعود القاصفة وساعات الخريف الوادعة وليالي الصيف الجميلة الضاحكة وآلام النفس وأحزان الحب وكل ما في الحياة مما نحسه ونراه » .

وإن المتتبع لتاريخ الفلسفة الألمانية يجد أن شوبنهور قد تأثر أي تأثر بموسيقى فاجنر ، كما أنها أثرت في نيتشة فترة معينة من حياته ، ولكن هذه الموسيقى لم تكن تثير في نفس شوبنهور قوة وسطوة كما يقول نيتشة ، إنما كانت تثير في نفسه ارتخاء وإبطاء أشبه شيء « بالتخدير » ولذلك وجدنا في فلسفة شوبنهور مسحة ظاهرة من التشاؤم ، وظل التشاؤم يلازمه حتى أخرج فلسفة الموت وفلسفة الحب والموت .

ولكن الأمر ليس مقصوراً على موسيقى فاجنر فحسب ، فقد أسفرت التجارب الطبية على أن قطعة شوبان Etude en sol Majeur وقطعة بتهوفن المعروفة Sonate pathetique تشفي كثيراً من الأمراض النفسية والجسمية وتؤثر في الدورة الدموية ، وذلك لأن أداة السمع هي الأذن ، ومن طبلة الأذن تمتد الأوتار العصبية إلى مركز السمع في الدماغ عن طريق الحبل الشوكي الممتد من الدماغ في سلسلة الظهر ، ومنه تتفرع جميع الأعصاب في الجسم وإليه ترجع . فهو الطريق الرئيسي لجميع الأعصاب ، وجميع النبضات الشعورية الحسية للشعور تمر فيه . وهذه الأوتار العصبية كالوتر الموسيقي تهتز اهتزازاً فسيولوجياً مطابقاً لاهتزاز الوتر الموسيقي فتحمل نغمه إلى مركز الأنغام في الدماغ .

وتحدثنا الأساطير الإغريقية كثيراً عن سحر الموسيقى وعن أثرها في الإنسان والحيوان ، ومن هذه الأساطير أسطورة أورفيوس الذي استطاع بموسيقاه الساحرة وأنغامه الرقيقة الوادعة أن يبعث السحر في الحيوانات ، فإذا الأسد يهدأ بعد ثورة ويأمن بعد فورة ويخفت زئيره شيئاً فشيئاً ويصبح كالحمل الوديع الهادئ وتقوده أورفيوس إلى حيث يريد ! وكان الإغريق كقدماء المصريين يلجئون إلى الموسيقى للتخدير والتأثير في أعصاب المرضى ، وكان الفيلسوف يرى أن معرفة الموسيقى واجب عليه ، فكان يؤلف في الفلسفة

والشعر والخطابة والموسيقى كذلك ؛ فأرسطوطاليس الفيلسوف المشهور أخذ من الموسيقى بنصيب موفور .

وكذلك كان الحال عند العرب ؛ فقد استعملوا الموسيقى في إراحة الأعصاب ومعالجة العلل والنوبات ، وبديهي أن موسيقى العرب لم تكن كموسيقى فاجنر أو بيتهوفن السمفونية ، إنما كانت موسيقى لها آلاتها الخاصة ولها معداتها الخاصة ، ولها بعد ذلك تأثيرها الخاص في النفس وسريانها الخاص إلى القلب .

وعن أبي بكر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر مرا بالحبشة وهم يلعبون ويرقصون ، فلم ينكر النبي عليهم ؛ وبهذا الحديث استدل الأئمة على جواز الرقص حيث خلا من التكسر ، وقد تواترت الأخبار بإنشاد الأشعار بين يديه بالأصوات الطيبة مع الدف وغيره . وبذلك استدل الأئمة على جواز الضرب بالدف ولو فيه جلاجل لأنه سبب لإظهار السرور .

وقد قال ابن عبد ربه في العقد الفريد (إن الصوت الحسن يسرى في الجسم ويجرى في العروق فيصفو له الدم ويرتاح له القلب وتنتشي له النفس وتهتز الجوارح وتخف الحركات ، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خير الدنيا والآخرة) .

وقد اشتهر الخلفاء الأمويون والعباسيون بحب الغناء ، كما اشتهر العصر الأموي والعصر العباسي بكثرة القينات اللاتي كن يتفنن في الغناء تفنناً ويتقن الإيقاع إتقاناً شديداً . وتحدثنا كثير من الأخبار أن الخلفاء كانوا عندما يضيقون بالحياة أو يختل مزاجهم يأمرون بالمغنين والعازفين ليصرفوا عنهم الهم والكرب ، وكان بعضهم يستمع إلى الغناء والموسيقى من وراء ستار ، والبعض الآخر يستمع إلى الغناء والموسيقى عن قرب ، فيهتز لها اهتزازاً ويطرب منها طرباً شديداً ، فيقبل على الحياة باسم الثغر رضى النفس منشرح الصدر يتوقد بالنشاط .

وكان إبراهيم الموصلي وزلزل يزلزلان الآذان طرباً كما يقول الأصفهاني في الأغاني ، وكان الخليفة الرشيد ومن قبله ومن بعده من الخلفاء العباسيين لا يألون جهداً ولا يدخرون وسعاً في إسباغ العطايا والهدايا على أهل هذا الفن من مغنين وموسيقيين على نحو ما جاء في ضحى الإسلام للدكتور أحمد أمين بك .

وقد ذكر ابن خلدون فضل الموسيقى فقال (إن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك ، فيصيب مزاج الروح نشوة يسهل معها الصعب ويزيد ذلك تأثيراً إذا كانت الأصوات متناسبة ، ولأجل ذلك يتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية فيحدو المغنون بالسلطان في موكبه بآلاتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم للاستماتة) .

فابن خلدون في هذه النبذة يبين فضل الموسيقى في الحروب ، وليس هذا بخاف علينا منذ خلق المجتمع إلى يومنا هذا ، وهو — وإن لم يفطن إلى الناحية الطبية في تأثير الموسيقى — فإنه قد استطاع أن يبين لنا فضلها بحجة نفسية وظاهرة اجتماعية ، ولكن إخوان الصفا قالوا في إحدى رسائلهم (من الألحان والنغمات ما يسكن سورة الغضب ويحل الأحقاد ويكسب الألفة والمحبة) وهذه النظرة من إخوان الصفا تشبه إلى حد ما نظرة ابن خلدون ، ولكن فيها النزعة الروحية والغاية النفسية .

وكان الفارابي الفيلسوف المعروف يستخدم آلة موسيقية يستطيع أن يثير بها الضحك كما يثير بها البكاء ، ويلعب بها على أوتار القلوب ، كما كان ابن سينا يشفي بعض المخبولين بسحر الموسيقى .

ولا تزال الموسيقى حتى عصرنا هذا مجلبة لكثير من السعادة ومبعدة لكثير من الشقاء ، وممهدة للشفاء من كثير من العلل والأمراض .

وقد ذكر الدكتوران الفرنسيان بيناى وكورتياى أن أكثر الأنغام تقوية للدم أكثرها ألفة ، وأن النبض يزداد سرعة عند ما تعزف الألحان المرحة ، على عكس الحال عند عزف الألحان الموسيقية الجدية التي تضيق الأوعية الدموية . وقد نقل عن أوميروس وبلوطرخس وتيوفرست أن الموسيقى تشفي من الطاعون ، وذكر بوييت وكرخر أنها تشفي من السل والنقرس وأم المفاصل وداء الكلب ؛ وقد نصح الدكتور بيناى مريضة كانت تشكو من نوبات

(البقية على صفحة ٣٤)

مراثى الشـــعراء

للرسول عليه الســـلام

– ٢ –

للأستاذ الشاعر محمد عبد الغنى حسن

كان نصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قبض إلى ربه أبياتاً رثاه بها كعب بن مالك الأنصارى ، وهو فى هذا يشترك مع أخيه فى الإسلام وشريكه فى النسبة إلى جماعة الأنصار : حسان بن ثابت . ومقام كعب بن مالك فى الشعر معروف مشهور ، وقصائده فى دفع الأذى عن صاحب الدعوة الإسلامية مذكور كثير منها فى كتب السيرة ، وخاصة «سيرة ابن هشام» . وقد شهد له صاحب «نكت الهميان» بقوله : (كان مجوداً مطبوعاً ، قد غلب عليه فى الجاهلية أمر الشعر وعرف به ، وأسلم وشهد أحداً والمشاهد كلها ، حاشى تبوك ، فإنه تخلف عنها) . وقد ترجم له الصفدى فى « نكته » عن العميان ، لأنه أصيب بالعمى فى آخر عمره . ولم ترد مرثية كعب بن مالك للرسول فى الطبرى ، ولا ابن الأثير ، ولا ابن كثير ، ولا ابن هشام ، ولا المقريزى فى «إمتاع الأسماع» ، ولا النويرى ، ولا ابن الجوزى ، ولا ابن قتيبة ، ولا اليعقوبى ، ولكنها وردت فى « الذخائر والأعلاق » للباهلى — وهو متأخر كما سبق القول — ولا أدرى عن أى مصدر نقلها . وهى أبيات خمسة فقط — ولعلها منتقاة من قصيدة طويلة . وهذه هى :

وباكيـــة حراء تحزن بالبكا
وتلطم منهـــا خدها والمقـــلدا

على هالك بعـــد النبى محمـــد
ولو علمت لم تبك إلا محمـــدا

لجنا بخير النـــاس حياً وميتاً
وأدناه من رب البرية مقعـــداً

وأفظعهم فقـــداً على كل مسلم
وأعظمهم فى النـــاس كلهم يدا

لقد ورثت أخلاقه المجد والتقى
فلم تلقه إلا رشيـــداً ومرشداً

ونحمد الله على هذا القدر الذى وصل إلينا من مرثية كعب بن مالك ؛ فإن كثيراً من شعره قد ضاع . لولا ما حفظه لنا ابن هشام صاحب السيرة من شعر كعب الذى قل أن نجده فى كتاب سواه .

أما عبد الله بن أنيس — بصيغة التصغير — فقد روى له صاحب « الذخائر والأعلاق » خمسة أبيات لا غير فى رثاء الرسول ؛ ولم أعثر على مصدر آخر لهذه المرثية غير « الذخائر » . وابن أنيس من الصحابة الذين شهدوا بيعة العقبة ، وكان من شجعان المسلمين ؛ ويذكر ابن هشام صاحب السيرة أنه كان من الذين تسابقوا إلى قتل ابن أبى الحقيق لأنه أحد من حزبوا الأحزاب على النبى وأصحابه . وقد تحامل ابن أنيس على ابن أبى الحقيق بسيفه فى بطنه حتى أنفذه .. وهو يقول : قطنى ! قطنى ! أى حسبى ! حسبى ! وكان ابن أنيس شاعراً فوق شجاعته . وقد روى له ابن هشام قصيدة يصف بها قتاله لابن سفيان بن نبيح الهذلى ، الذى كان يؤلب الناس على قتال الرسول . وقد ظفر ابن أنيس بالهذلى فقتله ، وقدم على رسول الله يبشره بقتله فلما رآه النبى قال : أفلح الوجه[1] . وليس من بابنا أن نذكر هنا قصيدة ابن أنيس فى قتله لابن نبيح الهذلى . ولكن مرثيته للرسول عليه السلام هى كما رواها الباهلى الأشبيلى :

تطاول ليـــلى واعترتنى القوارع
وخطب جليـــل للخلائق جامع

غداة نعى الناعى إلينا محمـــداً
وتلك التى تستك منهـــا المسامع

وقد قبض الله النبيين قبـــله
وعاد أصيبت قبله والتوابع[2]

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٩٤ .

(٢) هكذا بالذخائر والأعلاق ولعلها التبابع جمع تبع .

فآليت لا آسى على هلك هالك
مدى الدهر ما رسا ثبير وفارع
قبـالَ قريش قلدوا الأمر بعضكم
فإن نصير القـوم للقوم نافع

* * *

أما عبد الله بن الزبعرى فلم نقع في مصدر تاريخي أو أدبي على مرثية له في الرسول عليه السلام ؛ ولقد كان شاعراً فحلا ؛ بل كان شاعر قريش في الجاهلية . ومهما كان من أمر شدته على النبي والسفيه بالأذى بلسانه فقد أسلم واعتذر للنبي ومدحه ، فأمر له النبي بحلة . ولقد عاش حتى سنة ١٥ من الهجرة ، أعني أنه أدرك وفاة الرسول ؛ فما الذي أسكته عن رثائه ؟ أو ما الذي أسكت المصادر عن أن توصل إلينا رثاءه للنبي — لو كان وقع منه رثاء ؟ سؤالان لا نقطع فيهما بجواب إلا إذا ادعينا أننا أحطنا بأخبار ابن الزبعرى كلها ، وبشعره كله ، وبحوادث السيرة النبوية كلها . وهيهات هيهات !!

أما زميله في الشاعرية — عبد الله بن رواحة — الذي كان أحد شعراء الدعوة الإسلامية وأحد أمرائها البارزين ، فقد استشهد في السنة الثامنة من الهجرة في غزوة مؤتة ، فلم يكن له أن يدرك وفاة الرسول ، وبالطبع لم يكن له أن يكون في أصحاب المراثي النبوية .

أما ضرار بن الخطاب الصحابي الفارس الشاعر فلم نجد له في أصحاب المراثي النبوية ذكراً ، على حين تمتلئ صفحته بالبطولة والفروسية ؛ وقد عاش إلى سنة ١٣ من الهجرة حتى شهد موقعة « أجنادين » واستشهد فيها ؛ وله في فتح الشام أخبار طوال . فأين شعره الذي رثى به الرسول يوم وفاته ؟ أم لم تتحرك شاعريته في ذلك اليوم الذي هز عواطف المسلمين ، بل هز كيانهم هزاً عنيفاً ؟!.

* * *

على أننا بينا لا نجد مراثي نبوية لابن الزبعرى وضرار بن الخطاب وهما من شعراء الرسول وألسنة دعوته ، فإننا نجد عند « الباهلي الأشبيلي » قصيدتين ، إحداهما لعمر بن الخطاب والثانية لعلي بن أبي طالب . وقد انفرد صاحب « المختار والأعلاق » بذكر الرثائيتين . أما مرثية عمر بن الخطاب فهذا نصها كما رواها الباهلي :

ما زلت مذ وضع الفراش لجنبه
وثوى مريضاً ، خائفاً أتوجع
شفقاً عليه أن يزول مكانه
عنا فنبقى بعده نتفجع
نفسي فداؤك من لنا في أمرنا
أم من نشاوره إذا نتوجع ؟
وإذا تحل بنا الحوادث من لنا
بالوحي من رب رحيم يسمع ؟
ليت السماء تفطرت أكنافها
وتناثرت منها النجوم الطلّع
لما رأيت الناس هد جميعهم
صوت ينادي بالنعي فيسمع
وسمعتُ صوتاً قبل ذلك هدني
عباس ينعاه بصوت يقطع
فليبكه أهل المدائن كلها
والمسلمون بكل أرض تجزع

* * *

وأما أبيات علي بن أبي طالب فهي كما يلي نقلاً عن المصدر السابق :

ألا طرق الناعي بليل فراعني
وأرقني لما استقل مناديا
فقلت له لما رأيت الذي أتى
أغير رسول الله إن كنت ناعيا
فحقق ما أشفقت منه ولم يبل
وكان خليلي عزة وجماليا
فوالله ما أنساك أحمدُ ما مشت
بي العيس في أرض وجاوزت واديا
وكنت متى أهبط من الأرض تلعة
أرى أثراً منه جديداً وعافيا

* * *

هذا شعر الرجال في رثاء محمد عليه السلام ، أو على الأقل ، هذا هو الشعر الذي وصل إلينا عنه وأحطنا به

خيراً فيما بين أيدينا من مصادر ومراجع . ولم ينفرد الرجال وحدهم برثاء نبي هذه الأمة الكريمة ؛ فقد روت بعض المصادر شعراً للسيدتين الطاهرتين فاطمة بنت محمد عليه السلام وصفية بنت عبد المطلب عمة النبي . أما فاطمة الزهراء عليها السلام فقد روى لها ابن رشيق القيرواني في « العمدة » أبياتاً مؤثرة حزينة في رثاء أبيها محمد صلى الله عليه وسلم ؛ كما روى هذه الأبيات أيضاً أبو إسحق الحصري صاحب كتاب « زهر الآداب » . ونقلها أيضاً الأستاذ عمر رضا كحالة في موسوعته « أعلام النساء » جـ ٣ ص ١٢٠٤ . والأبيات كما رواها صاحب « زهر الآداب » هي :

اغبرّ آفاق السماء وكورت
شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبي كئيبة
أسفاً عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها
وليبكه مُضَرٌ وكل يمانِ
وليبكه الطور(١) المعظم جوه
والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه
صلى عليك منزل الفرقان

* * *

وقد جعل ابن رشيق القيرواني هذه المرثية مثلاً يحتذى في الرثاء ؛ وعتب على شاعر كالكميت أن يقول مثله في رثاء الرسول بدلاً من قوله في إحدى (هاشمياته) :

وبورك قبر أنت فيه وبوركت
به وله أهل بذلك يثرب
لقد غيبوا براً وحزماً ونائلاً
عشية واراه الضريح المنصب(٢)

ويذكر صاحب « أعلام النساء » أن فاطمة عليها السلام وقفت على قبر النبي وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينيها وبكت وأنشأت تقول :

(١) في « العمدة » الطود بالدال لا بالراء . والطود هو الجبل العظيم .

(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٢٢ .

ماذا على مَنْ شمَّ تربة أحمد
أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت عليّ مصائب لو أنها
صبت على الأيام صرن لياليا

وقالت على قبره :

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نعيت ، وحالت دونك الكتب

* * *

وأما صفية عمة النبي ، فقد روت لها صاحبة « الدر المنثور » خمسة أبيات في رثاء محمد عليه السلام ؛ إلا أن الباهلي الأشبيلي روى لها هذه المرثية في عشرة أبيات نذكرها هنا :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا
وكنت بنا براً ولم تك جافيا
لعمرك ما أبكي النبي لموته
ولكن أمراً بعده كان آتيا
أفاطم صلى الله رب محمد
على جدث أمسى بيثرب ثاويا
فدًى لرسول الله أمي وأسرتي
وعمي ونفسي والجدود وخاليا
وكنت لنا حرزاً حصيناً نبيا
ليبك عليك اليوم من كان باكيا
كأن على قلبي لذكر محمد
وما خفت من بعد النبي المكاويا
أبا حسنٍ أيتمته وتركته
يبكي ويدعو جده اليوم نائيا
صبرت وبلغت الرسالة صادقاً
وقمت صليب الدين أبلج صافيا
فلو أن رب الخلق أبقاك سالماً
سعدنا ، ولكن أمره كان ماضيا

عليك من الله السلام تحية
وأدخلت جنات من العدن راضيا

•••

على أن لها قصيدة يائية في رثاء، التي ذكر صاحب « أعلام النساء » بيتاً واحداً منها. أما الأبيات كلها، فقد ذكرت كاملة في « الذخائر والأعلاق »، وهي من أرق ما رثي به النبي عليه السلام. وهذه هي :

ما لعينيّ لا تجودان ريا
إذ فقدنا خير البرية حيا
يوم نادى إلى الصلاة بلال
فبكينا عند النداء مليا
لم أجد قبلها ولست بلاق(1)
بعدها غصة أمرّ عليا
جلّ يوم أصبحتَ فيه عليلاً
لا تُرد الجواب منك إليا
ليت يومي يكون قبلك يوماً
أنضج القلب بالحرارة كيا
خلقاً عالياً وديناً كريماً
وصراطاً يهدى إليه سويا
وسراجاً يجلو الظلام منيراً
ونبياً مسدداً عربيا
حازماً عازماً حليماً كريماً
عائداً بالنوال براً تقيا
إن يوماً أتى عليك ليوم
كورت شمسه .. وكان جليا
فعليك السلام منا ومن ر
بك بالروح بكرة وعشيا

•••

وقد أخرج الطبراني عن جماعة أنه لما قبض النبي عليه السلام خرجت عمته صفية تلمع بردائها وهي تقول :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم فقد شغبوا

وقد روى الجاحظ هذا الخبر في « البيان والتبيين » ج ٣ ص ٢٠٤ بتحقيق الأستاذ حسن السندوبي ذاكراً « هنتشة » بدلاً من « هنبثة ». والصواب ما ذكرناه. والهنبثة = الأمر الشديد؛ أما الهنتشة فلا معنى لها ...

ومن أغرب الروايات أن صاحب « أعلام النساء » قد روى البيتين السابقين منسوبين إلى السيدة فاطمة بنت النبي عليه السلام [ج ٣ ص ١٢١٣]؛ وأضاف إليهما بيتاً ثالثاً هو :

فليت بعدك كان الموت صادفنا
لما قضيت وحالت دونك الكثب

ويلاحظ القارئ الكريم أن بعض هذه الأبيات البائية مشترك بين السيدة فاطمة الزهراء، والسيدة صفية بنت عبد المطلب.

على أن أغرب ما في مراثي النبي عليه السلام هو ما ذكره صاحب (الذخائر) منسوباً إلى هند بنت عبد المطلب تخاطب فاطمة الزهراء عليها السلام قائلة :

أفاطم فاصبري فلقد أصابت
مصيبتك التهائم والنجودا
وأهل البر والأبحار طرا
فلم تخطئ مصيبته وحيدا
ألم يك خير من ركب المطايا
وأكرمهم — إذا نسبوا — جدودا
وكان المجد يصبح في ذراه
سعيد الجد قد ولد السعودا
قوى إن قدرت بأن تقوى
فقدت الطيب الرجل الحميدا ..
رسول الله خير الناس حقاً
فلست أرى له أبداً نديدا

•••

ومهما تكن هذه الأبيات من سلامة في حسن سبك فإنك لو بحثت في تاريخ عصر النبوة عن شخصية تحمل اسم

(1) كان المقتضى أن تكون « ولست بلاقية »، لأن صاحبة الشعر أنثى ...

« هند بنت عبد المطلب » فلن تجد له وجوداً ... وإذا كان ظاهر هذا الاسم يوهم أنه لعمة من عمات النبي وأخت من أخوات صفية بنت عبد المطلب فإن المؤرخ الأخباري ابن قتيبة يذكر في « معارفه » أن بنات عبد المطلب وعمات النبي عليه السلام هن : عاتكة ، وأميمة ، والبيضاء ، وبرة ، وصفية ، وأروى ؛ وكذلك يذكر ابن الجوزي المؤرخ في كتابه « صفة الصفوة » — طبع حيدر آباد ، جزء ١ ص ٥٦ .

. فمن أين هذه « الهند المطلبية » التي جاء بها الباهلي الأشبيلي ؟ ومن أين جاءت هذه الأبيات في رثاء الرسول التي ينسبها صاحب « الذخائر والأعلاق » إلى المزعومة « هند بنت عبد المطلب » ؟؟.

أحسن الله إلى من يدلنا على وجه الصواب في هذه الأبيات ؛ وشد أواصر المسلمين بذكر محمد بن عبد الله وجميل ذكراه .

* * *

مراجع البحث :

البداية والنهاية لابن كثير ج ٥ ؛ الكامل لابن الأثير ج ٢ ؛ تاريخ الطبري ج ٣ ؛ نهاية الأرب ج ٥ ، الدر المنثور ؛ المعارف لابن قتيبة ؛ نكت الهميان للصفدي ؛ البيان والتبيين ج ٣ ؛ العمدة لابن رشيق ؛ إمتاع الأسماع للمقريزي ؛ سيرة ابن هشام ؛ أعلام النساء لعمر رضا كحالة ؛ تهذيب الأسماء واللغات للنووي ؛ الذخائر والأعلاق للباهلي ؛ زهر الآداب ج ١ ؛ صفة الصفوة لابن الجوزي طبع حيدر آباد ؛ ديوان حسان بن ثابت .

محمد عبد الغني حسن

سحر الموسيقى

(بقية المنشور على صفحة ١٩)

صرعية يشتد فيها صراخها ويزداد احمرار وجهها وينصب عرقها وتهدج أنفاسها ، بالاستماع إلى الموسيقى التصويرية الهادئة وقراءة الشعر ، فنجحت التجربة ، وكانت النتيجة مرضية .

وإن من يتتبع تاريخ الموسيقى منذ القدم يجد أثرها في العلاج واضحاً ؛ فكان الملك شاول ملك إسرائيل قد تخبطه روح السوء ، فكان داود يضرب له بالعود فيجد روحاً وسعادة في ذلك . واستعملت الموسيقى عند المصريين القدماء في الطقوس الدينية ورقع السحر والشعوذة والتخدير ، وكذلك الحال عند الصينيين وفيلسوفهم كنفوشيوس .

وقد وجدت بين نقوش قدماء المصريين فوق آثارهم رسوم كثيرة عن الآلات الموسيقية والوترية ، ويتضح منها أنهم كانوا يستخدمونها في الحروب ، وفي الأفراح ، والأعياد ، وعند الحصاد .

ويحدثنا التاريخ أن الملك فيليب الخامس أحد ملوك إسبانيا أصابه مس من خبال ، فكان لا يعتني بمظهره ولا بملبسه ، وصدرت عنه بعض الأفعال التي عدها كثير من خلطائه وخلصائه مضيعة لهيبة الملك ذاهبة بوقاره وجلاله ؛ ولكن زوجته كانت تعلم أشد العلم هيامه بالموسيقى وشغفه بسماعها وتلهفه على الاستمتاع بها ، فاستدعت الموسيقار المشهور (فارنيلي) في مدريد وأقامت له حفلاً عظيماً . فطرب الملك من سحر الموسيقى وأخذته النشوة ، فاستطاع فارنيلي أن يملي رأيه عليه في رقة ولطف ، وأن يدعوه إلى العناية بمظهره وملبسه ؛ فما يصبح الصباح إلا ويقبل الملك على شئون بلاده ، طلق المحيا ، وضاء الأسارير ، بهي المنظر ، ساحر الهندام .

وقد ذكر الدكتور تيشنسكي أحد أطباء بطرسبرج أنه عالج بالموسيقى طفلة تبلغ أربع سنوات كانت تخاف الظلام والأشباح ، وكان الطبيب الأمريكي ليوتار كوركنج يعالج مرضاه بطريق السمع والبصر ، أي أنه كان يضع سمعتين متصلتين بالحاكي في أذني المريض ، ويضع أمام بصره حجاباً أبيض تتراءى عليه صور جميلة من الفانوس السحري .

ولكن الموسيقى ليست مقصورة على الأصوات الصاعدة من الآلات الموسيقية ؛ فالطبيعة موسيقى جميلة تتمثل في خرير الموج وحفيف الشجر وتغريد الطير وزقزقة العصافير ونسمات الهواء ؛ وقد كتب الشاعر الإنجليزي بليك : « إن في وسعي أن أصوغ من موسيقى الطبيعة نغمة حلوة يلذ لسكان السماء أن يستمتعوا بها ...!! » .

جمال الدين الرمادي

قصة سافو SAPHO

للكاتب الفرنسي « ألفونس دوديه »

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

إذا قرأت لهذا الكاتب قصة « سافو » ، وإذا قرأت له تلك الصور القلمية التي سماها « خطابات من طاحونتي » ، وإذا قرأت كتابه الذي سماه « ذكريات رجل من رجال الأدب » فكأنما قرأ « ديكنز » ، فهو متأثر به وسائر على نهجه

وقلم « ألفونس دوديه » إذا جرى على القرطاس فهو إما يبعث الدمع في المآقي ، أو يبعث الضحك في القلوب .

وهو كصاحبه « ديكنز » تكاد كل كتاباته تكون ترجمة ذاتية لقصة من قصص حياته ، وهو لا يألو جهداً في أن يجعل قارئه يلمس هذا ويحسه .

فأنت تراه في قصته التي سماها « الشيء الصغير » يبدأ بقوله على لسان بطل القصة : ولدت أنا في الثالث عشر من شهر مايو عام (— ١٨) في مدينة من المدن .

فإذا تتبعنا حوادث القصة عرفنا أن عام (— ١٨) المقصود هو عام ١٨٤٠ .

ثم إن « ألفونس دوديه » قد ولد في مدينة (نيم) في الحادي والثلاثين من مايو عام ١٨٤٠ . فإذا عرفنا أن قلب تاريخ اليوم هو من مألوفات الكتاب ، وإذا عرفنا أن هذا القلب هو — في الأعم الأغلب — الشيء الوحيد الذي يلجأ إليه الكاتب إذا أراد تحويل الحقيقة إلى الخيال .

إذا عرفنا هذا أيقنا أن (ألفونس دوديه) في قصة « الشيء الصغير » إنما يتحدث عن نفسه .

والمعين الذي ينبع منه في حالتي البكاء والسرور ، معين قليل الغور ، قريب النابع ، وهو إذا قيس إلى « بلزاك » و « فلوبير » بل إذا قيس إلى « موباسان » عد قزماً من الأقزام .

ولكنك يكفيك منه حبه للحياة ، والضوء ، ولكل مظهر من مظاهر الأشياء الجميلة ، ويكفيك منه وصفه لكل ما يتخذه الناس زينة ولهوا .

ولما اشتد به المرض في أخريات حياته كان يخيل إليه أنه بطل من أبطال الإغريق القدماء ، شُدّ إلى جبل من الجبال وكان يقول : إن المرض الذي حل بساحتي هو كالطير الذي لا يترك الساق إلا ممسكا ساقاً ، فهو يحط في كل ناحية ! فتارة هنا ، وطوراً هناك .

وكان يقول : إني أذوق الموت ألف مرة ومرة قبل أن أموت الموتة الكبرى . وقد ولد صاحبنا عام ١٨٤٠ ومات عام ١٨٩٧ .

وقد تزوج عام ١٨٦٧ من الشاعرة الأديبة جوليا آلار التي كانت تكتب تحت اسم مستعار هو « كارل ستين » وكان زواجهما زواجاً موفقاً سعيداً .

أما ولده « ليون دوديه » (١٨٦٨ — ١٩٤٢) فكان صحافياً وكان يكتب مقالات في الفلسفة .

قال الكاتب :

لقي الفتى (جان جوس سن) فتاته (فاني ليجران) أول مرة في حفلٍ تنكري أقامته جماعة ممن لا يقيمون وزناً للمثل العليا الأخلاقية ، وذلك في ليلة من ليالي باريس البوهيمية ، ولم يكن بين أفراد تلك الجماعة من اختلفت أهواؤهم ومشاربهم اختلاف ذينك الصاحبين ، وعلى الرغم من هذا فقد كان كلاهما مفتوناً بصاحبه .

أما الفتى (جان) فكان سليل قوم طابت أرومتهم ، وكرم محتدهم . وكان قد غادر ديار قومه ليدرس العلوم السياسية ويعد نفسه ليكون في الخدمة القنصلية .

أما الفتاة (فاني) فهي في العشرين من عمرها ، وهي تكبر الفتى سناً ، وهي امرأة ذات ريبة ، وهي في الوقت نفسه واحدة من هواة الفنون الجميلة .

وهي إذا أرادت أن تنتسب فسوف تصدمها الحقيقة الواقعة ، وهي أنها قد ولدت في مهاد الفقر والشقاء ، ولكن ذكاءها وجمالها قد فتحا لها أبواب بيوت رجال العلم والأدب ، فإذا جلست تعدّ من وقعوا أسرى عيونها الساحرة كانوا عشرات .

ولقد كانت هي التي فتنت بشباب (جان) وحسن منظره فسعت إليه تخطب وده ، وذلك بأن صحبته بعد نهاية الحفلة التنكرية إلى حيث يقيم ، وظلت معه يومين كاملين ، ولما غادرته عاد الفتى إلى دراساته . وقد علقت بنفسه ذكرى ذلك الوصال القصير المدى .

ولكن سرعان ما عادت الفتاة إليه ، ثم تتابعت بعد ذلك ساعات اللقاء ، ثم استطاعت إقناعه أن يمضي ليلة في بيتها .

وفي اليوم التالي ذُهل صاحبنا إذ سمع بعض الناس يتهامسون بما دار من عراك بين (فاني) وبين إلفها الماضي التي لا تزال تعيش على ماله ، وكان هـذا المحب المنبوذ يرجو منها ملحًّا أن تعود إليه ، ولكن (فاني) كانت مشغولة عن حبه ، وكان هواها مع (جان) الذي كانت به جِدّ مفتونة .

وثار ثائر (جان) إذ علم أن رجلاً آخر يعول حبيبته ، وسرعان ما غادرت (فاني) بيتها الصغير الأنيق لتعيش إلى جانبه عيش الكفاف .

وقد اطمأن (جان) فيما بينه وبين نفسه إلى أن من الخير له ولصاحبته أن يعيشا معاً ، ولقد سره — أول الأمر — أن يعود بعد عناء يومه إلى بيت أنيق فيلقى طعاماً شهياً صنعته تلك الحبيبة المليحة .

ولكن خيال ماضي تلك المرأة ظل يطوف بعقل صاحبنا ، إلى أن جاء يوم سمع فيه حديثاً دار بين رجلين من أشهر رجال الفنون أفاضا فيه القول عن (فاني) كامرأة يملكها الرجال مِلك حيازة ، وظل كلا الرجلين يفاخر صاحبه بأنها كانت حظيته يوماً ما .

وفي تفصيل بالغ ظل كلاهما يعدد ويسمي أحبابها الماضين . وقالا إن قضية من قضاياها كانت حديث المجتمع الباريسي في يوم من الأيام .

وتفصيل تلك القضية أن حفاراً اسمه (فلامان) قد فتن بها بل قد جن بها جنوناً ، ومخافة أن يفقد ودها بسبب فقره ، فقد زور أوراق النقد ، وما لبث أن قبض عليه ثم حوكم فحكم عليه بالسجن عشر سنوات . وكان ولاؤها له سبباً في الحكم عليها بالسجن ستة أشهر ، على الرغم من ثبوت براءتها .

فتثبت نفس (جان) لدى سماعه هذا الحديث وملكه الرعب والفزع ، ثم فاضت نفسه بالكره لها عندما سمع أنها كانت تقف عارية ليصنعوا على مثالها تمثالاً لسافو (شاعرة إغريقية عاشت قبل ميلاد المسيح) وأنها اشتهرت بهذا الاسم بين رجال الفنون . وما لبث الفتى أن واجه فتاته بهذا الحديث ، فطمأنت خاطره بقولها إنها قد نسيت ماضيها وقطعت كل صلة به .

وظلت روابط الحب متصلة ولكن فتونه بها أصبح فتوناً تغشاه غاشية من السخط ؛ فقد أحس الفتى أن حب تلك الفتاة قد حط من قدره .

وتجاذبه عاملان يدفعانه إلى العودة لبلده وأهله : هما الرغبة في أن ينقض ما بينه وبين تلك الفتاة من عهود ، ثم حنين أصيل إلى قومه وبلده .

فلما عاد إلى البيت الذي أحب لم يستطع أن يمحو من خاطره ذكرى تلك الفتاة ، ولم تُفِده استثارة ذكرياته الحلوة الماضية في بيت أبيه .

وظل خاطره مرآة تعكس — في جلاء ووضوح — الأيام التي قضاها في أسر فاتنته .

ثم حلت بأهله نكبة مالية ، فرأى الفرصة سانحة أن يعلن تلك المرأة بأن ما بينهما من روابط لا بد أن تقطع ، ذلك لأنه قد بات معسراً .

ولزمت الفتاة الصمت خمسة أيام ، ثم كتبت إليه تقول : إنها تاركة النزل الذي يضمهما ، وإنها قد ظفرت بوظيفة ، هي وظيفة المدير لأحد الفنادق ، وإن يوم الأحد من كل أسبوع سوف يكون إجازة لها تقضيها معه .

وقبل (جان) ما عرضته الفتاة كحل وسط ، قد يعينه على الانفصال آخر الأمر ، ثم عاد إليها وإلى باريس .

وكان صاحبنا يعرف منذ اللحظة الأولى أنه هو وصاحبته لن يكون زادهما إلا الشقاء ، ذلك أنهما لن يلتقيا بعد اليوم إلا ساعات قليلة ، وذلك أيضاً لأن صاحب الفندق الذي تعمل فيه (فاني) ليس إلا متهتكاً قديماً ، و (جان) لا يملك أن يصد نفسه عن الغيرة مخافة أن تعود صاحبته إلى عشرائها القدماء .

وأخيراً اقترح (جان) أن يقيم وإياها في بيت واحد ، فابتهجت لهذا الخبر ، وفرحت به ، ثم أقاما معاً في كوخ يقوم في ضاحية المدينة .

ولم يستمتعا بمنزلهما الجديد إلا أياماً ، ذلك لأن (جان) قد عاودته الغيرة ، وقد سمرت نفسه في عينيه ، وأحس إحساس الهوان .

وزاد الأمر تعقيداً أن (ڤانى) قد تبنت غلاماً صغيراً لا يُعرف من أبوه ، فظن (چان) أن هـذا الغلام ابن (ڤانى) جاءت به ثمرة علاقة من علاقاتها الماضية .

وزاد العراك بينهما ، وتتابعت نوباته ، ولولا خوف (چان) أن تقتـل (ڤانى) نفسها لفارقها فراقاً لا لقاء بعـده .

وكانت ثالثة الأثافى أن أحب (چان) وجُنّ جنونا بفتاة بريئة صغيرة من بيت كريم اسمها (إيرن بوشرو) ، وسرعان ما عرف الناس أن (إيرن) تبادله ذلك الحب ، وشاع فى الناس الخبر أن أهل الفتاة قد باركوا ذلك الحب ، ورضوا بالفتى زوجاً لفتاتهم .

وأخيراً قال (چان) (لڤانى) : إن العلاقة بينهما قد انفصمت عراها ، وإنه لا بد مفارقها .

واستسلمت (ڤانى) أول الأمر ورضيت بالفراق ، وظل (چان) بضعة أسابيع لا يسمع شيئاً عنها غير تلك الخطابات التى تبعث على الإشفاق والرثاء . ولـكنه علم بعد قليل أن واحداً من أحباب (ڤانى) القدماء ، هو ذلك المزيف (فلامان) قد خرج من سجنه ، وأنه ذهب من فوره إلى بيت (ڤانى) ؛ فجن (چان) لهذا النبأ ، وأعمته الغيرة ، فجرى إلى بيتها ، فأيقنت المرأة أن (چان) أصبح أسير هواها مرة أخرى .

وأيقن (چان) أنه سوف يظل خدين تلك المرأة وعشيرها ما دام حيًّا ؛ فأنكره أهله ، وبوعد بينه وبين خطيبته .

فلذلك لم ير الفتى بدًّا من أن يعيش مع تلك المرأة موظفاً مبعداً فى إحدى المستعمرات النائية .

ولـكن فى اللحظة الأخيرة جاءه نبأ فكاك من ذل ذلك الأسر فى صورة خطاب بعثت به إليـه تلك المرأة ، وهو على ظهر السفينة تنبئه أنها قد نقضت عهده ، وأنها عقدت عزمها على أن تعيش زوجة فى حمى صاحبها القديم (فلامان) ...

(عن الإنجليزية)　　　　مبارك ابراهيم

منطقة قنـــا التعليمية

تعلن عن وجود وظائف محضرين بمعاهدها ، ويشترط فى التعيين ما يأتى :

١ — أن يكون المرشح للوظيفة مصرى الجنس لا يزيد عمـره على ثـلاثين سـنة ، ولا يقـل عن الثمـانى عشرة سنة .

٢ — أن يكون حاصلاً على إحدى الشهادات الآتية :

١ — دبلوم الفنون والصناعات .

٢ — شهادة الدراسة الثانوية القسم الثانى العلمى .

٣ — شهادة الدراسة الثانوية القسم الخاص شـعبة العلوم .

٣ — أن يكون لائقـاً فى الـكشف الطبى أمام القومسيون الطبى العام .

٤ — أن يكون مستوفياً جميع مسوغات التعيين .

٥ — أن يكون التعيين فى الدرجـة السابعة أو الثامنـة بالماهية التى يتقاضاها وفقاً لمؤهله .

٦ — أن ينجح فى امتحـان المسابقة العملى فى صيانة الأجهزة وتحضيرها .

فعلى من يرغب فى شـغل هـذه الوظيفـة تقـديم طلب للمنطقـة على الاسـتمارة ١٦٧ ع . ح فى مظـروف موصى به ، وذلك فى ميعـاد لا يتجـاوز ٢٦ / ١٠ / ١٩٥٠ . وسـتقوم المنطقـة بإخطار المتقدمين بموعد امتحان المسابقة .

٦١٧٧

بمناسبة حلول الأربعين :

المرحوم كمال الدين بك فهمى

أحد ضحايا الطائرة المشئومة

للأستاذ عبد الله أمين

عرفت الفقيد العزيز حين شرفت وسعدت بمعرفة المرحوم والده العظيم عبد الرحمن فهمى بك ، وكان حينئذ فى أول عهده بالدراسة الثانوية فى المدرسة الخديوية ، فعرفت فى والده رجلاً من أعظم الرجال ، وعرفت فيه فتى من أعظم الفتيان ، فتى يافعاً يتدفق حياة ونشاطاً وجداً ومهارة وإقبالاً على التزود بكل وسيلة من وسائل القوة ، وانصرافاً تاماً عن مراتع اللهو الحسيس الرخيص التى يتبارى فيها شبانُ هذا العصر .

لقد كان له فى كل ميدان من ميادين الرياضة البدنية أثرٌ بارز محمود ، فى فجر حياته كان فى فرقة التمثيل فى المدرسة الخديوية كأبرع الممثلين الفنيين المحترفين ، وأحب ركوب الدراجات فكان يأتى فيها بالمعجزات ، وفى آخر عهده بهذه الدار الفانية كان طياراً من الطيارين الهواة البارعين ، وفيما بين هذين العهدين لم يدع شيئاً متداولاً منها لم يبرع فيه . أما الرحلات وهى من أعظم ضروب الرياضة البدنية فقد كان مشغوفاً بها شغفاً عظيماً .

وضرب فى ميادين العلوم والمعارف بسهام صائبات ، فحصل من الثقافة العامة فى التعليم العام أكبر قسط ، ومن العلوم والفنون الهندسية فى الجامعات المصرية والانجليزية والأمريكية أوفر نصيب . ولم يقنع من هذا وذاك بما حصل من علوم ومعارف جمة ، بل قضى كل حياته العامرة الزاهرة فى البحث والتنقيب عن الحقيقة ، يلتقف كل كتاب حديث بشغف ولهفة ، ويقرؤه ويناقش فيه ويجادل ، ولا همَّ له إلا الوصول إلى الحقيقة الخالصة التى لا يشوبها لَبْسٌ أو غموض ، ولم يشتد من ذلك ما كان يضطلع به من أعمال جسام .

وضم إلى هذا وذاك ما ورثه عن المرحوم والده العظيم من الخلق المتين : الشجاعة التى لا يشوبها تهوّرٌ ، والصراحة التى لا تبالى العواقب ، والصدق الذى لم تشبه كذبة ، والوفاء الذى لا يعتريه غدر ، والأمانة التى تضرب بها الأمثال ، والحق الذى لم يدنسه باطل ، والجد الذى لا يكدره هزل ، والحزم الذى لا يتسرب إليه هوادةٌ .

ومن أخص صفات والده العظيم التى ورثها عنه بلا نقص الدقة التامة ، والنظام الراتب الثابت فى النوم واليقظة والعمل والراحة والأكل والزيارات والمقابلات . هذا إلى ما امتاز به من طموح إلى العلا لا حدّ له ، وآمال فى الحياة كبار ، ومرح حلو لذيذ حبيب إلى كل نفس .

أصبح الفقيد العزيز بكل هذا مجموعة فذة نادرة من القوى الجسدية والنفسية والعقلية ، جديرة بأن تكون من خير الأمثلة للشبان ، وخاصة فى هذا العصر الذى ضج فيه عشاق الإصلاح الاجتماعى من ضعف أخلاق الشبان وانحلالها وانصرافهم عن الجد والكد إلى اللهو الحسيس الرخيص ، حتى صاروا بالآنسات الخليعات أشبه منهم بالرجال . فواحسرتاه عليك يا كمال ، وما أفدح خسارة الشبان بفقدك !

ولقد ضاقت همته العالية بوظائف الحكومة ذرعاً فتركها غير مبال إلى ميدان العمل الحر ، ولم يخب ظنه فيه ، فنجح نجاحاً باهراً ، ولم أره يوماً — على كثرة ما رأيته وسألته — آسفاً على الوظائف الحكومية التى يسيل عليها لعاب الزهاد فى الجد والكد من الشبان .

كان يعلم حق العلم أن الوقت أغلى ما عملك لأنه هو العمر نفسه ، ولذلك كان من أحرص الناس عليه ، فلم ينفق شيئاً منه إلا في عمل نافع أو رياضة محمودة ، والرياضة نفسها أكبر عون على العمل النافع ! وما كان أحد حتى أقرب المقربين منه — يظفر منه بدقائق يبثه فيها ما في نفسه ، أو يتعرف فيها أحواله ، إلا بشق الأنفس ، وما اختياره الطائرات لأسفاره إلا من ذلك ، كان يريد أن يملأ هذه الدنيا أعمالا نافعة ، فما ضاقت به زكيها .

فأصبح في لحد من الأرض ميتاً
وكانت به حياً تضيق الصحاصح

كان شعلة ملتهبة من الحماسة والنشاط والجد والكد لا يخمد لها لهب ، ويريد الحكيم العليم أن يذهب إليه شعلة ملتهبة حقاً ، وأن يترك في كل قلب جمرة متقدة لا يخمد لها جذوة حتى يلقاه . فوداعاً وإلى اللقاء أيها الحبيب .

فالنفس تبغي الحياة جاهدة
وفي عين المليك مقودها

فلا اقتحام الشجاع مهلكها
ولا توقي الجبان مخلدها

لكل نفس من الردى سبب
لا يومها بعده ولا غدها

ما أجمل أخلاقه وآدابه وأعماله ، وما أبلغها تأثيراً في نفوس الناس وبخاصة الشبان ، حين كان فينا حياً يمثلها أصدق تمثيل وأحسنه ، رائحاً وغادياً ، ومقيما وظاعنا ، فتقع موقعا حسناً في النفوس ، ويشع منه نورها على من حوله ! وأين من هذه الفضائل الحية الفضائل التي نقرؤها في الكتب ؟ إنا لنقرأ عن الفضائل كثيراً ، ونجد فيما نقرأ روائع ذوات تأثير بليغ في نفوسنا ! ولكن لا يمكن أن يكون تأثير الفضيلة المقروءة مهما تبلغ من الروعة كتأثير الفضيلة الحية الملموسة ، يمثلها إنسان فاضل حازم ، فيؤثر فينا بخلاله وفضائله ، ويغرينا بتقليده ، ويقنعنا بالعمل بأنا نستطيع — ونحن بشر مثله — أن نقلده فيما يتحلى به من صفات ، ويدفعنا إلى ذلك حب التقليد والسبق . ولقد كان الفقيد في ميدان الفضيلة خير مثال ، فإلى رحمة الله .

أي بني العزيز كمال — ورب ابن في الوفاء أحب إلى النفس من ابن في الولاد — لقد قدمت الباقيات الصالحات بالانصراف عن المعاصي إلى الأعمال النافعة ، وبالبحث الدائم وراء الحقيقة التي كنت تذوب شوقاً إلى الوصول إليها . فطب نفساً وقر عيناً ، فرحمة الله وسعت كل شيء ، وإنك إن شاء الله لمن المقبولين الفائزين . وأنشد :

أيتها النفس أجملي جزعا
إن الذي تحذرين قد وقعا

عبد الله أمين

أغاني الجمال

أيها الشادن الغرير ترفق
بفؤاد يهوى الجمال ، معتق

قد تجافيت منذ حين فماذا
يا منى القلب صد قلبك عنا ؟

أدلالاً — فيا ترى — أم عتاباً
ذاك ما نرتجي وما نتمنى !؟

كل شيء سهل إذا أنت راض
إن ترد شدة نجد نحن لنّا

من حقوق الهوى وهدي التوافي
مثلما نحن من حقوقك صنا

* * *

أأنا بلبل لحسنك دعني
كلما هجت به أتغنى

أتغنى بآية الله في النا
س وأشكو إذا الجمال تجنى !

قد عهدناك فتنة كالصباحا
ت حبيباً إلى النفوس مغنيا

وألفناك نشوة القلب والرو
ح فماذا لو بنت يوماً وبنا ؟

يجزع القلب قبلها عند الذكـ
ـر وتخشى انطلقين : كنتم وكنا

(الخرطوم) جعفر حامد البشير

الحياة فساد ..!!

— ١ —

لم تجد أيها اليتيم شفيعا
لا ولا بعد والديك سميعا
لك إذ جئت أو ذرفت دموعا
لم تثر عطفهم، ولن تستطيعا
جشعٌ يدفع النفوس وحبُّ الـ
ـنفس طاغٍ على النفوس جميعا

— ٢ —

إنما الحرصُ في النفوس طبيعه
يتساوى خسيسها والرفيعه
ليس في الشكل دونه في الوقيعه
مذ برى الله آدماً في الطليعه
أيهذا الحكيمُ خلِّ جهوداً
فمن الصعب أن تهذب طبعه

— ٣ —

إن ذا الحرصَ مصدر للرزايا
كلف الصعبَ في الحياة البرايا
كيف نحيي ضمائر وطوايا
قبل أن تسمو بالنفوس السجايا
مظهرُ الإنس قد تغيَّر لكن
من طباع الوحوش فيه بقايا

— ٤ —

هتكوا الستر واستحلوا الحراما
وردوا منهل الشرور ازدحاما
وادّعى الخير جاحدوه تماما
لا يراعون في الحياة الذماما
نحن في عالم النفاق جميعا
افتقدنا من الشعار السلاما

— ٥ —

ظلموا الناس في الحياة وجاروا
وعلى العدل والشرائع ... ثاروا
ثم قالوا بأنهم .... أحرار
ربِّ، اقهرْ فإنك ... القهار
بالضعيف الذليل في هذه الدنيا —
استبدت بجرأة أشرار

— ٦ —

أوهمونا بأنهم .... أتقياء
وهمو في الحقيقة .. اللؤماء
إن تمادَوا إلى الصلاح ادّعاء
إنما منهمو الصلاح ... براء
لا تغرّنك سبحة وصلاة
وسجود وراءه أشياء

— ٧ —

جمعوا المال باسم الاحسان يوما
ثم لم يرجعوا به البؤس رجما
إنهم قد تصرّفوا فيه ... حتما
قد فشا فيهم الفسادُ وعمّا
طمع النفس — والمواقع شتى —
أدنأ النفس بالصغائر قدما

— ٨ —

قسماً باطلاً وألف يمين
نطقت ألسنٌ بغير يقين
طُمس الحق فهو غير مبين
واستبان البطلان غير دفين
كلنا في حياته، وإن استنكرت —
قولي، منافق لحدين

— ٩ —

فسد الأمر، فالحياة فساد
ليس يُرجى مع الفساد اطراد
قيل إن الحياة هذي جهاد
قلت أيضاً تفانٍ واضطهاد
حذراً ما استطعت عش في حياة
لو تفكرت ليس فيها شهاد

(بور سعيد) محمد عثمان محمد

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٢٠ — الاثنين ٣ من صفر سنة ١٣٧٠ — ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

مظاهرة النساء فى القاهرة

قبل مظاهرة النساء فى باريس بسبعة قرون

للدكتور جمال الدين الشيال

فى سنة ١٧٨٩ قام الفرنسيون بثورتهم الكبرى التى غيرت مجرى التاريخ ، وأثرت فى تاريخ العالم أجمع ؛ فقد حملت إلى الشعوب جميعاً المبادئ الإنسانية الثلاث : الحرية والإخاء والمساواة .

وحوادث هذه الثورة مليئة بصفحات المجد والبطولة . ولعل أروع هذه الصفحات ما سجله نساء باريس فى مظاهرتهن التى قمن بها فى ٥ أكتوبر سنة ١٧٨٩ من باريس إلى فرساى ، وقد تقدمتهن فتاة تحمل فى عنقها طبلة تدقها منادية : « الخبز .. الخبز ... »

عنى المؤرخون والأدباء من كل الشعوب بهذه الصورة فرسموها بأقلامهم يمجدون المرأة الفرنسية وشعورها الوطنى ؛ أما نحن ففى تاريخنا صفحات كثيرة مجيدة ، ولكننا لا نعلم عنها شيئاً ، وإن علمنا فإنا نمر بها مر الكرام دون أن نشيد بها وننشرها لمواطنينا ، ونستغلها لإذكاء الروح وإحياء النفوس ، كل ذلك لأن تاريخنا القومى لم يكتب بعد .

وإن كان المؤرخون والكتاب قد مجدوا وطنية المرأة الفرنسية وبطولتها ، وهم يؤرخون لمظاهرة النساء فى باريس فى القرن الثامن عشر الميلادى ، فما أحرانا نحن أن نمجد وطنية المرأة المصرية وشجاعتها ، وقد سبقت أختها الفرنسية بسبعة قرون ، فقامت مظاهرة القاهرة تنادى نفس النداء : « الخبز .. الخبز » ؛ وكان لهذه المظاهرة أثرها الفعال ، فقد دفعت أولى الأمر إلى اتخاذ التدابير الحاسمة لإنقاذ الشعب المصرى من مجاعة طاحنة كانت توشك أن تقضى عليه .

كانت مصر ولا تزال هبة النيل ، هذا النهر الخالد المبارك المدوات والروحات ، يحمل إلى الوادى المقدس الخصب والرى والخير ؛ وفى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤م) — فى خلافة المستنصر الفاطمى — قصَّر النيل فى فيضانه فقلَّت المحصولات واختفت الأقوات — وخاصة القمح والخبز — من الأسواق ، واستغل التجار الجشعون الفرصة كالعادة فاختزنوا الغلال والدقيق ليبيعوها فى السوق السوداء ، يطلبون بذلك الثراء الحرام الفاحش .

وظل النيل على قصوره سبع سنوات طوالاً ، والحالة تتطور من سيئ إلى أسوأ ، سنة بعد سنة ويوماً بعد يوم ، حتى اختفى الخبز تماماً من أسواق القاهرة والفسطاط ،

وطلب الناس الرغيف الواحد بخمسة عشر ديناراً (سبعة جنيهات ونصف تقريباً) فما وجدوه؛ فأكل المصريون بعضهم البعض الآخر، وجمعوا الكلاب والقطط من الطرقات، واختطفوا الأطفال الصغار يأكلونها.

ويروى التاريخ(١) أن سيدة غنية من نساء القاهرة آلمها صياح أطفالها الصغار وهم يبكون من الجوع، فلجأت إلى حجرتها الخاصة وفتحت صندوق حليها وأخذت تقلب ما به من در ولؤلؤ وذهب وعقيق؛ إنها تملك ثروة طائلة، ولكنها لا تستطيع شراء رغيف واحد. واختارت السيدة من هذه الحلى عقداً ثميناً من اللؤلؤ قيمته ألف دينار، وخرجت تطوف به أسواق القاهرة والفسطاط تعرضه للبيع، فما رضى أحد أن يشتريه، وأخيراً استطاعت أن تقنع أحد الباعة فأخذه منها وباعها به كيساً صغيراً من الدقيق.

واستأجرت السيدة بعض الرجال يحمون لها هذا الكيس من النهابة حتى تصل إلى بيتها، ولكنها لم تكد تخطو بعض خطوات حتى هاجمها الجياع من كل ناحية، فاغتصبوا الكيس وما فيه. ورأت هي هذا المنظر فهجمت مع الهاجمين، واختطفت لنفسها حفنة من الدقيق، وانطلقت تجرى بها حتى وصلت إلى دارها.

وآلم السيدة ما حدث، وأحست في نفسها دافعاً قوياً أن تفعل شيئاً من أجل بلدها وشعبها، فنسيت أطفالها وجوعهم، وعجنت هذه الحفنة من الدقيق قرصة صغيرة، وخبزتها، ثم أخفتها في ملابسها، وخرجت إلى الشارع وفي عنقها طبلة كبيرة تدقها وهي تنادى: «الجوع .. الجوع .. الخبز .. الخبز».

والتف حولها الرجال والنساء والأطفال، واتخذت الجموع طريقها إلى قصر الخليفة المستنصر. واعتلت المرأة نهداً من الأرض أمام القصر، وأخرجت القرصة من طيات ثيابها ورفعتها في يدها وصاحت: «أيها الناس: فلتعلموا أن هذه القرصة تقومت على بألف دينار، فادعوا معى لمولاى السلطان».

وسمع الخليفة صياح الصائحين، فأطل من شرفته، وعلم ما حدث فاشتد به الجزع على شعبه، وأرسل فاستدعى والى القاهرة، وأمره أن يتخذ التدابير الحاسمة الحازمة كى تخرج الغلال إلى الأسواق وإلا فصل رأسه عن جسده.

وكان الوالى ماكراً، وزاده الحرص على الحياة مكراً ودهاء، فخرج في الحال، وأرسل فاستدعى جماعة من المجرمين المحكوم عليهم بالسجن سنوات طوالا، وألبسهم ملابس التجار الأثرياء، وحجزهم في غرفة من داره؛ ثم أرسل فاستدعى تجار القمح والدقيق والخبز بالقاهرة والفسطاط، فلما تكامل عددهم أمر حاجبه فأحضر واحداً من أولئك المجرمين، ولم يكد الرجل يدخل وهو يرفل في ثيابه الأنيقة كأنه أغنى التجار وأوسعهم رزقاً حتى فاجأه الوالى بقوله: «ألم يكفك أيها الرجل أن عصيت أمر مولانا الخليفة حتى احتجزت الغلال ومنعتها عن الأسواق، وتسببت في هذه المجاعة التي كادت تودى بالمصريين»؟! وقبل أن يفيق الرجل من ذهوله، وقبل أن يفتح فمه للدفاع عن نفسه، أمر الوالى السياف فقطع رأسه.

واستدعى الوالى مجرماً آخر ففعل به ما فعل بزميله؛ وهنا علت التجار صفرة الموت، وخروا ركعاً يتوسلون إلى الوالى أن يعفو عنهم على أن يخرجوا القمح والدقيق إلى الأسواق في الحال، وعلى أن يرخصوا الأسعار فيبيعوا الخبز كل رطل بدرهم. ولكن الوالى لم يقبل، بل طلب إليهم أن يبيعوا كل رطلين بدرهم، فأسرعوا بإجابته إلى طلبه.

وفي ساعات قليلة امتلأت الأسواق بالقمح والدقيق والخبز، ووقف الباعة أمام حوانيتهم ينادون على الخبز كل رطلين بدرهم؛ وطعم الشعب وفرح.

وخرجت سيدة الأمس الطيبة — التي لم يحفظ لنا التاريخ اسمها — فقادت مظاهرة أخرى تهزج أهازيج الفرح والسرور، وتغنى أغاني الشبع والرضى، وتنشد أناشيد الشكر للخليفة أمير المؤمنين.

دكتور

جمال الدين الشيال

---

(١) أخذت المادة التاريخية لهذا المقال من كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة» لتقي الدين المقريزي، وقد قام على نشره كاتب المقال بالاشتراك مع الدكتور محمد مصطفى زيادة.

في ضوء الصباح

صـــــومعة خاوية

للدكتور زكي نجيب محمود

شغلني «أحدب الحياة» طول الليل — ذلك الرجل العجيب المكتئب العابس الذي يحمل عبء حياته قتباً بارزاً على ظهره — شغلني طول الليل، يملأ أحلامي إذا ما غفوت، وتتمثل صورته أمام عينيّ إذا ما صحوت؛ وما زلت طول ليلي بين غفوة وصحو حتى كان الصباح.

تُرى لماذا يحمل هذا المسكين حياته كالحمل الكبير فوق ظهره؟ أيكون ذلك لأنه ركّز انتباهه فيها فوضحت له علتُها وبرز سخفها، ولو قد تغافل عنها كما يفعل سائر الناس لسَرَتْ في دمه وخفيت عن بصره؟ يجوز، كما تكرر لفظة وتركز سمعك في جرسها، فسرعان ما تعجب لصوتها السخيف يكون بين الناس ذا دلالة ومعنى؛ كرر — مثلاً — كلمة إمبراطور عدة مرات: إمبراطور، إمبراطور، إمبراطورميرا، طورميرا، طورميرا، طورميراطور... صوت عجيب منكر، ظهر نكره وشذوذه بتركيز السمع فيه؛ وكان يمكن ألا تقف عنده هذه الوقفة الفاحصة، فيظل له في النفس جلال وهيبة.

كذلك صاحبنا «أحدب الحياة»، ربما كان الفرق بينه وبين سائر الناس أنه قد أنعم النظر في معنى الحياة، فانتهى به النظر إلى أنها أنفاس فاترة واهية من هواء، تردد في صدره شهيقاً وزفيراً، لا شيء أكثر من ذلك؛ وهو لذلك في عجب كيف يمكن أن يُشد وثاقه إلى الأرض بخيوط هي أوهى من خيوط العنكبوت.

وأحسست رغبة قوية في نفسي أن ألقى هذا الرجل لقاء آخر، فقصدت إلى المكان المهجور الهادئ الذي لقيته فيه أول مرة، ووقفت أرقب من بعيد، حتى رأيته يسري في غير صوت بين الظلال كأنه الشبح؛ إنك لا تخطئه من بعيد، فالحمل الذي على كتفيه يبرزه، وله مشية خاصة يتأرجح فيها الجذع وتلتف الساقان.

ووقفت في مكاني حتى رأيته يستقر في موضعه من الجدار الذي لم يتم بناؤه، صعد إليه على كومة وطيئة من هشيم الصخر، ومسح جبهته بمنديل، ومال مرتكزاً على ذراعه اليسرى فدنوت منه.

قلت: السماء الليلة أكثر غماماً، والدنيا أشد ظلاماً من ليلة الأمس، رغم القمر.

قال: ولم يرتفع لرؤيتي — وماذا يصنع القمر في الدنيا إذا اسودّت بظلامها وغمامها؟ إن من أراد الضوء فضياً رائقاً خالصاً من شوائب الظلمة، فليرتفع عن الأرض وغلافها حتى يجعل الغمام من دونه، وعندئذ لا يكون ظلام... لكن الإنسان مشدود إلى الأرض بأحمال وأثقال، أستغفر الحق، بل مشدود إليها بهذه الخيوط الواهية، بنفخات من هواء، وإذاً فلا رجاء له في ضوء أكثر مما قد يتسرب له خلال فتحات السحاب... العجيب في هذه الدنيا أنها بيع وشراء، لا بد أن تدفع لكل شيء ثمنه؛ أتريد أن تمد بك الحياة؟ إذاً خذ حبةً من الهواء على شرط أن تردّ مكانها حبةً مثلها؛ أتريد أن تخلص من ظلام الأرض ليصفو لك الضوء؟ إذاً فاصعد إلى قمة هذا الجبل العالي حتى تجاوز السحاب، عندئذ تجد الضوء الساطع، لكنك ستجد كذلك برودة الثلج...

قلت : وماذا يشقيك من غمام السماء وظلمة الليل ؟! انظر إلى الدنيا بعين الفنان تَر السماء القاتمة فى مثل جمال السماء القمرة ؛ ألا يكون ظلام الليل أحياناً أشد فتنة من ضوء النهار ؟ سل العاشقين يجيبوك أيهما أفعل فى النفس سحراً : الليل الوسنان فى ستره ، أم النهار اليقظان فى نشاطه وصحوه ؟ سل العابدين متى تصفو لهم قلوبهم للعبادة ؟ سل المفكرين متى تهدأ لهم عقولهم للفكر ؟ سل المجان متى يطيب المجون ؟ سل المتآمرين لماذا يدبرون الأمر بينهم بليل ؟... لماذا لا تلتمس يا أخى فى كل شىء وجهه الجميل ؟ إن الذى ينقصك هو الخيال .

قال : الخيال الذى أهرب به من الواقع ! .

قلت : ليكن ذلك ، ولماذا تستعبد نفسك للواقع إذا أمكن العيش الهانئ فى جو من الخيال ؟ أتدرى ماذا تكون المرأة الجميلة فى « الواقع » ؟ إنها كيس من الجلد محشو بالقذر والبلغم ومختلف السوائل والتضاريف ! أتدرى ماذا تكون الصورة الجميلة فى « الواقع » ؟ إنها خرقة من قماش ، صُبّ عليها خليط من الأحمر والأصفر والأخضر وما شاء الله من ألوان ؟ واعصر الوردة الجميلة لترى ماذا عساها فى « الواقع » أن تكون بين إصبعيك ؟... إن الذى ينقصك — كما قلت — هو الخيال ، الذى يجعل لك من المرأة شيئاً جميلاً ، ومن الصورة شيئاً جميلاً ، ومن الوردة شيئاً جميلاً ، ومن غمام السماء شيئاً جميلاً ، ومن ظلمة الليل شيئاً جميلاً ! لماذا تنظر إلى الأرض كما تفعل الديدان ولا تشخص إلى السماء كما تصنع الآلهة ؟ .

لست أدرى لماذا أخذنى الاهتمام بهذا « الأحدب » ، فامتلأت حرارة وأنا أبادله الحديث ؟ لقد أوحى إلىّ عندئذ أن هذا « الأحدب » عليل النفس ، مريض القلب ، كليل الحياة ، وأن الواجب الخلق يقتضينى أن أقوم فيه ما اعوجّ إذا استطعت إلى تقويمه من سبيل ؛ إنه عابس ولا بد أن يبتسم ، يائس ولا بد أن ينبسط أمامه الأمل ، كافر ولا بد أن يؤمن ، أعماه « الواقع » ولا بد له أن يبصر بعين الخيال .

وضاق « الأحدب » صدراً بحديثى فيما يظهر ، وأخذ يعتدل فى جلسته مرة ويميل على هذه الذراع أو تلك مرة ، ويشيح بوجهه عنى ، كأنه يريد أن يصمّ الأذن عما أقول ؛ لكنى لم أعد أنظر إلى موقفى منه نظرة التسلية والعبث ، فلا أقل من أن أستطلع بعض سره وأستخرج شيئاً من مكنون نفسه . وسادت فترة قصيرة من سكون ، فنزل عن مكانه من الجدار ، وقال فى صوت فيه افتعال وتصنع :

— أنا مضطر أن أعود ، وسينقطع بعودتى هذا الحديث الجميل .

قلت : الأرجح أن طريقنا واحد ولو إلى حين .

ولعله لم يطب نفساً لهذه الصحبة الثقيلة فى طريق عودته ، لكنى تجاهلت ما يريده لنفسه من عزلة الطريق ، وسرت إلى جانبه ؛ سرنا بخطوات بطيئة خفيفة ، لكن وقع أقدامنا على حصباء الرمل ومنثور الحجر ، كان له رنين فى ذلك الركن الهادئ البعيد .

قلت : نعم إن الذى ينقصك هو الخيال ، ينقصك مثل أعلى تعمل من أجله فينسيك الهدفُ مشاهدَ الطريق .

قال — وقد ازداد تثاقلاً فى خطاه — أصابنى مرض الخيال وعلة المثل الأعلى منذ خمسة وعشرين عاماً ، ولبثت آثار المرض تتراكم حتى كان هذا البروز الذى تراه ناشئاً فوق كاهلى .

قلت لنفسى عندئذ ، دع عنك الواقع والتمس لنفسك سُلّماً فى دنيا الخيال تصعد على درجاته إلى أجواز الفضاء ؛ فصحبة الأصدقاء واقع فلا تأبه لها ، والمرأة واقع فلا تُلق بالك إليها ، والطعام والشراب واقع فلا تحتفل بطعام أو شراب ؛ هذا الذى حولك كله واقع فاخرج من نطاقه ، وهناك فى صومعة وقفتُ عليها فى جوف الجبل ، آثرت الكفاح فى سبيل الخيال .

ولبثت الصومعة يعمرها خيالى عاماً فى إثر عام ، وعقداً من السنين بعد عقد من السنين . لم تكن الصومعة خالية فى بصرى وسمعى . كنت أرى فيها الخيال مجسماً حتى لأنسى أنه من خلق أوهامى ، وأحدثه وأسمع لحديثه ، وأعانقه ويبتسم فى وجهى ؛ وظللت فى صومعتى أعبد آلهة خيالى ، لا أشهد نور الشمس ولا أريد أن أشهده ؛ ولا أرتد إلى دنيا الناس والعمران ولا أريد أن أرتد إليها ؛ ولا استنشق الهواء الطلق النقى ولا أريد أن استنشقه . . . كنت على نقيض فاوست :

فقد اتفق الشيطان مع فاوست أن يمهله ردحا من الزمن ، يعمل فيه فاوست ما يشاء ، على شرط أن يأتيه الشيطان بعد ذلك فيتقاضى أجر إمهاله ، وليس أجره بأقل من روح فاوست . وكان فاوست عند أول اتفاقه مع الشيطان يظن أنه الكاسب فى هذه الصفقة ؛ فماذا يهمه من نفسه إذا ماترك له الحبل على الغارب عشرين سنة أو ثلاثين ؟ لكن السنين انقضت ، وصَبْرُ الشيطان جميل طويل لا ينفد ، وجاء الشيطان ليستل من فاوست حياته ، وعندئذ فقط أدرك فاوست أنه خسر فى اتفاقه مع الشيطان خسراناً مبيناً ، كيف يبيع نفسه وحياته بعشرين عاماً أو ثلاثين مهما يكن ما يملأ هذه الأعوام ؟

وأما موقفى من شيطانى فعلى نقيض ذلك ، عقدت معه اتفاقاً أن أبيعه حياتى ردحاً من الزمن ، على أن يردها لى بعد ذلك خصبة مليئة قوية ؛ وذهبت إلى صومعتى تلك لا أعرف فيها الحياة ولا أخالط الأحياء ، أعلل النفس طوال السنين بأن حياتى السلبية مردودة إلىّ بعد حين ، بعد أن تكون كل حبة فيها قد أنبتت مائة سنبلة ، وفى كل سنبلة مائة حبة .

فلما انقضى على عريق عهد طويل ، طلبت من الشيطان أن يفى بوعده كما وفيت له بعهدى ، وفعل ، فإذا ما يعطينيه نفخات من هواء ، هى هذه الأنفاس أرددها فى صدرى شهيقاً وزفيراً ، ثم لا شئ غير ذلك . وضحك منى الشيطان ضحكة قوية حدثتْ الأرض تزعج لها تحت قدمى ، فابتسمت ابتسامة من زالت عنه غشاوة الخيال لأول مرة ، وأبصر بحقيقة الواقع لأول مرة . وقلت : أستريح إذاً بعد هذا العناء الطويل . إن الصومعة التى عمرها لى الخيال قد باتت خالية خاوية إلا من أصداء أنفاسى . .

لكن مضجعى لم يستقم تحت ظهرى حين أردت الراحة ، لأن عهد الصومعة قد خلّف لى هذا الورم الأليم ، الذى تراه بارزاً عند كتفى ، نسجته لى الأعوام طبقة فوق طبقة ، كما يفعل مر الأعوام فى جذوع الشجر .

وكنا قد بلغنا العمران ، وأراد «الأحدب» أن ينصرف إلى سبيله ، فقلت له : إن لى معك حديثاً آخر .

زكى نجيب محمود

العقيدة والعمل

للأستاذ محمود محمود

يقول السيو چين مارتن في كتابه عن چورج كلنسو : إنك قد لا تعترف به كرجل سياسي ، وقد لا تعجبك أساليبه في الحكم ، غير أنك لا تستطيع — برغم هذا — إلا أن تقدره قدراً عظيماً ، وذلك لميزة فيه نادرة ، وتلك هي « القوة » .

ليس هناك ما يدعو إلى الإعجاب أكثر من القوة . ولا نعني بها قوة الحكومة المنظمة التي تتميز بها الجماعات المتقدمة المستقرة ، والتي يفقدها الشعب في أكثر الأحيان ، وإنما نعني قوة الفرد الطبيعية ، ذلك النشاط الحيوي الذي يتميز به الأفذاذ من الرجال . وقد كان حظ كلنسو من هذه القوة الطبيعية الموروثة ، وهذا النشاط الحيوي الدافق كبيراً موفوراً . إن الرجل العظيم يختلف من عامة الناس في تنوع مواهبه ، وكأن له بدلاً من الروح الواحد أرواحاً متعددة . وقد تميل هذه الأرواح إلى الخير وقد تميل إلى الشر ، ولا يهم كثيراً في تقدير العظمة أن تميل هذه الأرواح إلى الخير أو تميل إلى الشر ، وإنما يجب أن تتميز بقوة لا تتصف بها الأرواح البشرية العادية ، لأننا لا نعجب إلا بالقوة الخارقة للطبيعة — وهذه القوة هي سر العظمة في الرجال — حتى أولئك الذين لا يعرفون غير التدمير والقتال . وقد كانت لكلمنسو هذه القوة الخارقة من غير شك . وكان بركبه شيطان يسير به في اتجاه غير الذي تحب أن تسير فيه ، ليحقق أهدافاً غير ما تهدف إليه ، غير أن هذا الشيطان كان خارقاً في قوته للطبيعة ، ومن ثم كان إعجابنا بالرجل .

بهذه الكلمة عن كلنسو قدم أولدس هكسلي مقاله له عن قوة العقيدة ، وأبان لنا كيف أن العمل العظيم لا يصدر إلا عن عقيدة قوية . وقد رأى في حياة كلنسو خير مثال لذلك .

كان كلنسو يقيس شجاعة الرجل بقوة عقيدته أو (فكرته) . سئل مرة عن رأيه في الاشتراكيين الثائرين فقال عنهم : « هؤلاء القوم يصيحون ما دمت تسمح لهم بالصياح ، فإن قلت لهم : كموا أفواهكم ، كفوا عن الصياح ، لأن أكثرهم أصاف عقلاء ، ولا يفوقون في شجاعتهم أبناء الطبقة الغنية — ولو تدبرت معنى هذه العبارة لوجدتها تنطوي على معنى عميق ، لأن الأفكار هي مصدر الشجاعة عند الإنسان ، وهؤلاء الثائرون لا يملكون من الأفكار أكثر مما تملك أطراف الأقدام . ليس عندهم غير الحسد والغيظ يملأ نفوسهم ، ولا يتقدم المرء بالحسد والغيظ . لقد شهدتهم خلال الحرب ، وتحدثت إليهم ، وحاولت أن أتحسس في عقولهم ما يستحق التقدير ، غير أني عدت مشفقاً عليهم ولم ألاق في معاملة هذه المخلوقات الضعيفة أية مشقة أو صعوبة » .

« الأفكار هي مصدر الشجاعة عند الإنسان » . هذه عبارة مشحونة بالمعنى ، وتستحق منا التدبر والروية . إن الأفكار لا تولد الشجاعة فحسب ، وإنما تولد كذلك قوة العزيمة ، والقدرة على العمل ، والسير فيه باهتمام وبغير انقطاع .

ولسنا ننكر أن أكثر ما لدينا من أفكار ليس سوى تبرير عقلي لما تجيش به صدورنا من عواطف . غير أن ذلك لا يعني أن العاطفة أشد دفعاً إلى العمل من الفكرة ، فإن العاطفة تمد المرء بالدفعة الأولى من النشاط ، إلا أن هذه الدفعة سرعان ما تخور حدتها إذا لم تجد العاطفة لها تبريراً من العقل ، لأن العقل يبرر العاطفة المشبوبة ، ويحتل مكانتها ، بل ويزيدها اشتعالاً عندما تخبو . فالمرء لا يستطيع — بطبيعة تكوينه النفساني — أن يبقى ملتهب العواطف

بغير فتور أو خمود . أما الفكرة فلا تبرح تلح على صاحبها بغير انقطاع ، وإن اقتنع بصدقها دفعته إلى عمل متصل لا تستطيع العاطفة أن تدفعه إليه وهى فى حدتها . الفكرة تملى على صاحبها نوع العمل وطريقته . وهى فوق ذلك تلهب العاطفة الأولى التى كانت مبعث الفكرة فى أول تكوينها ، وتظهرها بمظهر جديد .

ولنضرب لذلك مثلاً عاطفة الحسد . إن المرء قد يشعر بالحسد نحو الأثرياء المحظوظين أو العاشقين الموفقين ؛ هذا الحسد يتحول إلى نظرية سياسية أو اقتصادية أو خلقية ، فيصبح الرجل الغنى فى نظر الحسود جشعاً ظلوماً للفقراء ، ويمثل نظاماً اجتماعياً ممقوتاً هو نظام الطبقات ، ويمسى العاشق المحب رجلاً يتميز بالفسق والفجور . وبذلك لا يرى الحاسد فى نفسه الحسد ، ويعمل بوحى من النظريات التى تبعثها فى نفسه عاطفة الحسد ، كالشيوعية أو الاشتراكية ، أو حب الفضيلة وحفظ كيان المجتمع ، ويعمل جاهداً شجاعاً (فالأفكار هى مصدر الشجاعة عند الإنسان) .

وهنا نتساءل : ما هى الأفكار السائدة فى العصر الحديث التى تمدنا بالشجاعة وتوحى إلينا بالعمل ؟ لا شك فى أنها تختلف كل الاختلاف عن الأفكار التى كان يعتنقها أسلافنا بغير جدل ، فقد نبذنا أكثرها نبذاً تاماً أو ضعفت عقيدتنا فيها ضعفاً شديداً . كانت الآراء الدينية مصدراً لكثير من النشاط الإنسانى ، كانت سبباً فى حروب طاحنة ، كما كانت وحياً لكثير من المصورين والفنانين ، وكانت باعثاً على عمل الخير وحب الفضيلة . وكذلك استبدلنا بالآراء السياسية القديمة آراء جديدة نبرر بها كثيراً مما لدينا من عواطف ومشاعر . ولعل أهم هذه الآراء الجديدة فكرة القومية ، فهى الفكرة التى تلح على كثير من الأفراد والشعوب وتدفعهم إلى العمل المتواصل وبذل الجهود . وفكرة القومية هى التى مدت كلنسو بنشاطه المندفع الذى لا يقهر ولا يعرف الهزيمة ، فقال عن خبرة وتجارب (الأفكار هى مصدر الشجاعة عند الإنسان) .

ومن الأفكار الأخرى التى تسود العصر الحاضر وتحفز أبناءه إلى العمل فكرة التقدم والعمل لمصلحة الجماعة ، وهى الباعث على كثير من المطامع الشخصية ، والجشع ، وحب النفوذ وشهوة السلطان . يعمل المرء للغنى والجاه ، وينافس زملاءه منافسة شريفة وغير شريفة ، ويخيل له أنه إنما يعمل لمصلحة المجموع .

وقد أخذت هذه الفكرة نفسها — فكرة التقدم — تفقد حدتها فى الجيل الناشئ فى السنوات الأخيرة . الجيل الحديث يعمل لكى يستمتع باللهو والتسلية فى أوقات الفراغ ، ومن ثم قلت حماسته لجمع الثروة وحب السلطان ، وقلت الحماسة للعمل ، لأن ما يكفى للاستمتاع فى أوقات الفراغ لا يقاس إلى ما يحتاجه المرء ليصبح صاحب نفوذ أو ذا ثراء .

وهنا يواجهنا سؤال آخر : هل الجيل الحديث أكثر تشككاً من الجيل الذى سبق ؟ وإن صح هذا ، فما هى الآراء الجديدة التى حلت فى النفوس محل الآراء القديمة ، والتى توحى إلى الناس بالعمل ، وتبرر ما يقومون به من نواحى النشاط المختلفة ؟ لا مراء فى أن الشك قد وجد سبيله إلى أكثر النفوس ، وبخاصة فى مجال الأخلاق . وقد انهارت تلك العقائد الثابتة التى كانت مصدر الوحى فى كثير من الأعمال ، وأصبحت الكثرة الغالبة من الناس تعمل وفقاً لما ينبت فى أذهانهم من ميول موقوتة وأهواء ، ففتر بذلك النشاط فى العمل ، وقل فى كميته ونوعه .

ولكن الإنسان لا يستطيع أن يعيش مطمئناً راضياً ، وأن يتحمس لعمله وينشط له وهو شاك فى كل شىء . ويجب عليه أن يبحث له عن مجموعة من الآراء يتشبث بها ويعتقد فى صحتها . إن ظروف الحياة الجديدة بما تنطوى عليه من تطور فى حوادث السياسة ، وفى المكتشفات العلمية الحديثة ، وفى التأملات الفلسفية ، تدعونا إلى الشك فى أكثر الآراء الدينية والخلقية والسياسية التى كان أسلافنا

(البقية على صفحة ١٣)

ابن حيـــان الغرناطى

إمام النحـــاة

— ٢ —

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

كان ابن حيان النحوى يحق سلطان العلماء ؛ فكانت الأمداح ترفع إليه من كل مكان . وكان أرفع العلماء مكانة وجاهاً عند سلاطين المماليك لا يجد بأساً فى أن يمدح ابن حيان ، لا زلفاً إليه ولا تملقاً ، لأن الرجل لم يكن من أصحاب النفوذ وعشاق السلطان . ولكن كان يمدح اختياراً لا اضطراراً . وقد مدحه من الرؤساء والأدباء القاضى محى الدين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الرسائل فى مصر ، والشيخ صدر الدين بن الوكيل ، وشرف الدين ابن الوحيد ، ومجير الدين عمر بن اللبلى ، ونجم الدين الإسكندرى ، ونجم الدين الطوفى ، والقاضى ناصر الدين شافع ، والشاعر خليل بن أيبك الصفدى . ويكاد يجمع مادحوه على إمامته فى النحو واللغة ومشيخته فى الأدب . والحق أنه مدح كما يمدح السلاطين والأمراء . وقد فطن إلى هذه اللفتة الشيخ صدر الدين بن الوكيل الذى زاره ابن حيان فى داره فلم يجده ، فكتب بالجص على مصراع الباب شيئاً يفيد أنه حضر للزيارة . فلما رأى ابن الوكيل ذلك قال :

قالوا : أبو حيـــان غــير مدافع
ملك النحـــاة فقلت : بالإجمـــاع
اسم الـــملوك على النقـــود وإننى
شاهدت كنيته على المصراع ...

ولا شك أن علم ابن حيان لم يكن وحده السبب فى مدح المادحين له ؛ فقد كانت له جوانب من الخلق حببته إلى الناس جميعاً . ولا أدرى كيف يذكر تلميذه كمال الدين الأدفوى أنه (كان يقع فى ذم من هو بألسنة العالم ممدوح ، وبسبب ذلك وقع فى نفس جمع كبير منه ألم كثير) .

فإن الصفدى — وهو تلميذ آخر لصاحبنا — ينكر ذلك ويقول : (أنا لم أسمع منــه فى حق أحد من الأحياء والأموات إلا خيراً) .

ويخيل إلى أن انحرافه عن الإمام ابن تيمية وحملاته على الشيخ ابن دقيق العيد جعلت الأدفوى وأمثاله يقولون عنه مثل ذلك القول ؛ أما انحرافه عن ابن تيمية ، فسببه الخلاف على قول قاله سيبويه ، فرمى ابن تيمية سيبويه بالخطأ فى ثلاثين موضعاً ، فعز ذلك على أبى حيان ، وكان يعظم سيبويه تعظيماً شديداً ، فوقعت بين ابن حيان وابن تيمية قطيعة . ولما كتب ابن حيان تفسيره للقرآن المسمى « بالنهر » وهو مختصر « البحر المحيط » رمى فيه ابن تيمية بكل سوء[1] .

ويخيل إلى أن هناك سبباً آخر للخصومة بين أبى حيان وابن تيمية[2] ؛ فقد كان ابن تيمية — على سلفيته فى الحديث — من أصحاب الرأى والاجتهاد فى الإسلام ، وله فى ذلك الفتاوى المشهورة . ولم يكن ابن حيان من أنصار هذا المذهب . ودليلى على هــذا الذى أميل إليه ما رواه قاضى القضاة ابن جماعة من شعر لابن حيان يقول فيه :

أمـــا إنه لولا ثلاث أحبهـــا
تمنيت أنى لا أعـــد من الأحيا
فمنهـــا رجائى أن أفوز بتوبة
تكفّرُ لى ذنباً وتنجح لى سعيا
ومنهن صون النفس عن كل جاهل
لئــيم فلا أمشى إلى بابه مشيا

(١) بغية الوعاة للسيوطى ص ١٢٢ .

(٢) ويقال إنه انحرف عن ابن تيمية لما وقف على كتابه فى « العرش » — النفح ص ٥٩٣ ج ١ .

ومنهن أخذى بالحديث إذا الورى

نسوا سنة المختار واتبعوا الرأيا

أترك نصاً للرسول وتقتدى

بشخص لقد بدلت بالرشد الغيا

وإشارته في البيتين الأخيرين تؤيد ما أذهب إليه ؛ فهو لا يتبع الرأى ، ولا يمضى مع الذين نسوا سنة المختار ، ولا يترك نصاً للنبي ليقلد شخصاً ... ويخيل إلى أن شيخ ابن تيمية كان أمامه وهو ينظم هذه الأبيات ...

على أننا إذا تركنا هذا الجانب من خصومة ابن حيان ، فإننا نرى فيه جوانب من الخلق الكريم ؛ فقد ذكر الصفدى « الرعيني » عنه أنه « شيخ فاضل ما رأيت مثله ، كثير الضحك والانبساط ، بعيد عن الانقباض ، جيد الكلام ، حسن اللقاء ، جميل المؤانسة ، فصيح الكلام ، طلق اللسان » . وهذه صفات تجعل من العالم المتزمت رجلاً اجتماعياً ، يألَفُ ويُؤلَفُ ، ويأنس ويُؤنَسُ إليه .

إلا أن هذه المزايا الاجتماعية لا يؤكدها لنا شعره الذى يقول فيه :

لقد زادنى بالناس علماً تجاربى

ومن جرّب الأيام مثلى تعفا

وإنى وتطلابى من الناس راحة

لكالبتغى وسط الجحيم تنعما

سأزهد حتى لا أرى لى صاحباً

وأنجد حتى لا ألاقى مُتهماً

فهذا كلام رجل ضاق بالناس وتعب منهم والتمس البعد عنهم . فهل كان ذلك الزهد فى آخر حياته الطويلة التى زادت على تسعين عاماً ؟ أم هو كلام شاعر يدل به على أنه قادر على النظم فى أى باب ، كما رأينا منه قبلاً شعراً يمدح به السواد ، وشعراً آخر يذمه به أشنع الذم ؟ .

لاشك أن حياته تدلنا على أنه لم يكن من العلماء المتاجرين الطامعين فى المناصب والرواتب كابن خلدون ، وابن الخطيب الذى جنت عليه مطامعه ؛ فما سمعنا أنه غاص فى العصر المملوكى القلاوونى ليصيب عند سلاطينهم جاهاً أو نفوذاً ، ولكن السلاطين أنفسهم هم الذين أحبوه وأجلوه لعلمه وفضله .

وقد كان العلم والفقه والحديث والكتب تشغله عن بريق المناصب . وعلى الرغم مما شرق وغرب فى العالم الإسلامى ، فقد كان يجد فى العلم أسمى مطالبه ، وكانت الكتب أحب شىء إليه ، وجد فيها صداقة أغنته عن صداقة الناس التى تفضى إلى العداوات . ولا شك أن عفة فيه وإباء قد صاناه عن التبذل فى طلب الحياة ، وقد عبر عن كل ذلك فى أبيات يقول فيها :

أعاذل ذرنى وانفرادى عن الورى

فلست أرى فيهم صديقاً مصافياً

ندامای كُتْبٌ أستفيد علومها

أحبّاى تغنى عن لقائى الأعاديا

وآنسها القرآن فهو الذى به

نجاتى إذا فكرت أو كنت تاليا

لقد جلت فى غرب البلاد وشرقها

أنقب عمن كان لله داعيا

فلم أر إلا طالباً لرياسة

وجماع أموال ، وشيخاً مرائياً

فيممت بيتى عنهم وآثرت عزلة

عن الناس واستغنيت بالله كافيا

وقد بلغ من حبه للعلم أنه كان يحب طلبته ، وخاصة أهل الذكاء منهم ، وكان عنده تعظيم لهم[1] ، وينوه بقدرهم[2] .

● ● ●

وصادفنا فى شعر ابن حيان ما يقفنا أمامه موقف التحير من وقوع التناقض فيه ؛ فنخشى أن يكون سلوكه مظهراً لهذا التناقض ... إلا أنى أدركت من كثير من شعر صاحبنا أنه يحب « المنازرة » فى الكلام على مذهب البلاغيين . فإذا مدح السواد اليوم فإنه يذمه عامة اليوم أو غداً ... وإذا رأيت فى شعره نزعة زاهدة صادفتك فى بعض أشعاره نزعة

---

(١) بغية الوعاة ص ١٢٢ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٠٢ .

مرحة معابثة منبسطة ؟ وإذا قرأت له فى الجود وبذل ما فى اليد مثل قوله :

وقصر آمالى مــآلى إلى الردى
وأنى وإن طال المدى سوف أهلك
فصنت بمـاء الوجه نفساً أبيــة
وجادت يمينى بالذى كنت أملك

قرأت له فى البخل افتخاراً كما يفتخر الكريم بالكرم، وصحت له وصية لأحد تلاميذه يقول فيها : (أوصيك احفظ دراهمك ، ويقال عنك بخيل ، ولا تحتج إلى السفل) . وليس هذا البخل عند أبى حيان طبعاً ، ولكنه عارض لخوفه من الأيام ، وخشيته من الحاجة إلى اللئام . وقد اضطرب صاحبنا بين الحرص والبذل ، فبينا يقول :

رجاؤك شكلنا قد غدا فى حبالى
قنيصاً ، وجاه التاج من العُقم
أأتعب فى تحصيلــه وأضيعــه
إذا كنت معتاضاً من البرء بالسقم ؟

إذا به يقول :

وزهّدنى فى جمع المــال أنه
إذا ما انتهى عند الفتى فارق العمرا
فلا روحه يوماً أراح من العنا
ولم يكتسب حمداً ، ولم يدخر أجرا

* * *

على أن هذه الصور المختلفة من شعر ابن حيان تدعونا إلى التساؤل عن القيمة الفنية لشعره ؟ ومن حسن الحظ أن الأبيات التى عرضناها ليس فيها من تكلف الصنعة ما يسىء الرأى فيه ؛ ولكن الحكم على الشاعر ببعض شعره لا يجوز . فإذا عرضنا له البيتين التاليين :

سأل البدر هل تبــدّى أخوه
قلت يا بدر لن تطيــق طلوعا ؟
كيف يبـــدو وأنت يا بدر بادٍ
أوَ يدرانِ يطلعانِ جميعا ؟

وجدنا فيهما تكلفاً فى الصناعة .

وإذا عرضنا الأبيات التالية :

شوقى لذاك المحيــا الزاهر الزاهى
شوق شديد وجسمى الواهن الواهى
أسهرت طرفى وولهت الفؤاد هوى
فالطرف والقلب منى الساهر الساهى
نهيت قلبى ونفسى أن أبوح بمـا
يلقاه والشوقه للساهب الناهى
يورث كل مليح بالبهـاء فمـا
فى البرين شبيه البــاهر الباهى
لهجت بالحب لمــا أن لهوت به
عن كل شىء فويح اللاهج اللاهى

وجدنا فيها من صناعة البديع ومحسنات اللفظ ما لا يعد صدوره من ذلك العصر . إلا أن الحكم أيضاً ببعض الشعر لا ينصف الشاعر ولا يرضى قوة الحق فيه .

على أن من الأنصاف لابن حيان أن نذكر أن له شعراً ارتفع به إلى مرتبة المجيدين فى عصره وفى كل العصور . وما أجمل وأصدق بيتيه المشهورين اللذين قالهما فى فضل الأعداء :

عداى(١) لهم فضــل علىّ ومنة
فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا
هموا بحثــوا عن زلتى فاجتنبتها
وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

ولا بأس هنا أن نسمع رأى الأدباء السابقين فى شعره . فهذا لسان الدين بن الخطيب يذكر فى كتابه « الإحاطة فى أخبار غرناطة » أن شعر ابن حيان كثير يتصف بالإجادة وضدها .. وهذا ابن تغرى بردى المؤرخ المشهور يقول : « ومذهبى فى أبى حيان أنه عالم لا شاعر »(٢) .

وأعجب ما فى أبى حيان الفقيه المفسر النحوى الشاعر أنه مال إلى نظم الموشحات ؛ وقد روى له صاحب « النجوم الزاهرة » موشحته المشهورة التى أولها :

(١) هكذا فى « شذرات الذهب » ج ٦ ص ١٤٧ ؛ وفى البقية . وفى بعض المراجع : عداتى بدلا من عداى .
(٢) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ١٠ ص ١١٤ .

إن كانَ ليلٌ داجْ   وخانَنا الإصباحْ
فنورُها الوهّاجْ   يُغني عن المصباحْ

* * *

سُلافةٌ تبدو   كالكوكبِ الأزهرْ
مزاجُها شُهْدُ   وعَرْفُها عنبرْ
يا حبّذا الوِرْدُ   منها وإن أسكرْ

* * *

قلبي بها قد هاجْ   فما تَرانِي صاحْ
من ذلك الْتِهاجْ   ومن هوًى يا صاحْ!

وهي طويلة . وقد ذكرها صاحب « نفح الطيب » ، وابن شاكر الكتبي صاحب « فوات الوفيات » . ولكن ابن تغري بردي ذكرها — كما سلف القول — في نجومه الزاهرة ثم عقب عليها بهذه العبارة : « ولم أذكر هذه الوشحة هنا لحسنها ، بل قصدت التعريف بنظمه بذكر هذه الوشحة » .

* * *

وقد انطفأ سراج هذه الحياة الحافلة الشاعرة اللغوية المتمكنة بعد واحد وتسعين عاماً قضاها ابن حيان متنقلاً من أرض إلى أرض ، كما كان متنقلاً في العلوم من فن إلى فن ، ما بين فقه وتفسير وحديث ونحو وصرف وشعر ولغات سامية . ومات في سنة ٧٤٥ هـ كما تجمع كل المصادر الشرقية ، وكما ذكره تلميذه ومعاصره خليل بن أيبك الصفدي الذي يعد أوسع وأوثق مصدر لترجمة ابن حيان . وقد رفض صاحب « نفح الطيب » أن يقبل ما قاله كثير من أهل المغرب من أن ابن حيان توفي بمصر سنة ٧٤٣ هـ ، ورد عليهم قائلاً : « إن أهل المشرق أعرف بذلك إذ توفي عندهم » .

ولا تزال كتب التاريخ والتراجم تحتفظ بمرثية الشاعر صلاح الدين الصفدي للشيخ الإمام أثير الدين بن حيان التي يقول في أولها :

مات أثير الدين شيخ الورى
فاستعر البارق واستعبرا
ورقّ من حزنٍ نسيم الصبا
واعتل في الأسحار لما سرى

محمد عبد الغني حسن

العقيدة والعمل

(بقية المنشور على صفحة ٩)

يبررون بها ما يحسون من عواطف وما يختلج في صدورهم من مشاعر ، لأن أكثر هذه الآراء كانت تفترض وجود قوى وراء العقل . وظروف الحياة الحديثة تشككنا فيما وراء العقل ، وتحثنا على أن نكون واقعيين ، لا نؤمن بغير الحقائق المحسوسة ، ولا نلبي سوى دواعي الرغبات الملحة ، والعواطف الثائرة ، والحالات العقلية المتغيرة . ولهذا نرى أكثر الناس لا يفكرون إلا في كسب القوت الذي يسد رمقهم . غير أن هذه « الواقعية » التي تسيطر على الأذهان ليست تافهة مهينة فحسب ، إنما هي كذلك فاحلة مجدبة ، تترك النفوس خلواً من الشجاعة — كما يقول كلسو — ينقصها الباعث والقوة المتابعة السير في عمل له أثر أو له قيمة . لذلك نرى الكثيرين يبحثون عن عقائد أو أفكار يبررون بها أعمالهم ، وتستند إليها حياتهم ، ويقوم على أساسها نشاطهم . وهذه الآراء — كما ذكرت من قبل — ينبغي ألا تنبت من وراء العقل بأية حال من الأحوال ، بل ينبغي أن نجد لها سنداً من علم النفس الحديث .

ينبغي أن يعمل المرء ما يحب ، لا لأنه يتبع في ذلك نظرية خاصة في الخير المطلق ، ولكن لأن ما يعمل هو خير في حد ذاته . وقد يكون ذلك تبريراً ضعيفاً للعمل ، لا يبعث الناس على النشاط ، ولا يبث في نفوسهم الشجاعة والإقدام ، ومع ذلك فإن ظروف الحياة الراهنة تقتضينا أن نكتفي بذلك . وإذا كانت هذه المبررات التي تؤيد بها ما نقوم به من عمل في العصر الحديث لا تحل تماماً محل المبررات التي كانت فيما مضى تستند إلى ما وراء العقل ، فهي خير من عدمها على كل حال .

محمود محمود

كيف ؟

طرائف عن النمل

قصة تجارب طريفة أجراها العالم الروسي الأشهر « فرولوف » على النمل ؟ تلك المخلوقات الصغيرة العجيبة ذات الأفعال المثيرة للاهتمام .

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

من منا لم ير النمل ولم يعجب به ؟؟ .

إن فى حياة هذه المخلوقات طرافة وإبداعاً ، وإن فى أعمالها ما يثير الاهتمام ويدعو إلى التأمل وإعمال الفكر ... تراها وهى تتعاون مع بعضها كل التعاون ، وتعمل وتعمل بغير كلل ولا توقف ، من مطلع الفجر حتى مغرب الشمس ... فطوال اليوم تجد جموع النمل وهى تحمل إلى بيوتها ومستعمراتها حمولاً مختلفة من مؤن وأطعمة ومواد متباينة للبناء أو لإصلاح ما تهدم من البيت وما انهار منه . وإذا ما أعيا نملة رفع ثقل ما أو واجهتها أية صعوبة تجد عديداً من أخواتها وقد اتجهت إليها تساعدها وتأخذ بيدها ، فالتوافق بين أفراد الجماعة الواحدة تام والتفاهم متوافر ...

وما أبدعه من منظر حين ترى آلاف النمل وقد خرجت من بيتها لتستقبل الجمع القادم الذى يحمل الطعام والمؤن ... إنها لتنطلق من المستعمرة كانطلاق النهر لا تحيد يمنة أو يسرة ، وغالباً ما تصطدم مع النمل القادم المحمل وتتلامس قرون الاستشعار ، وكأنها تقول لبعضها : « كيف الحال ؟ » .

ويتقدم النمل كما قلت فى طريق مستقيم . فإذا اعترضه جذع شجرة مثلاً فليس ذلك بالشىء المهم ... إنك لتجده يجتازه بكل سهولة وبروح مثابرة وقد أخذ يتسلق جانب هذا العائق ، الذى يعلو فى القمة تقريباً ما تعلو ناطحة من ناطحات السحاب للإنسان ..!!.

معارك محببة :

وأفراد الجماعة الواحدة يتعاونون كل التعاون ، ولكن تحدث فى بعض الأحيان معارك محببة بينهم وبين الغرباء من جماعة أخرى .. وتحدث تلك المعارك والشجار عادة ، كنتيجة لوجود طعام شهى يرغب الاثنان فى الاستيلاء عليه . فإذا ما انتهت المعركة فإنك تلقى الأشلاء وقد تناثرت فى الساحة التى شهدت المعركة الحامية الوطيس ، فهنا وهناك ترى أرجلاً ورءوساً وأجساماً مقطعة مشوهة وغير ذلك من بقايا الضحايا التعسة التى استشهدت أثناء الحرب !!.

وأوضح مثل لهذه الحروب ما يقع بين جماعات الأرض الأمريكى (النمل الأبيض) .

مسرح وستار :

والآن لننتقل إلى وجه بديع من وجوه قصة النمل قادم الأستاذ « فرولوف » وهو عالم روسى شهير من علماء

الأحياء يعرض لنا بعض ما أجراه من تجارب على النمل فيها من الطرافة والروعة الشيء الكثير ...

« إن الأعمال التي يقوم بها النمل الشائع تثيرنا وتدعونا إلى أن نلاحظها . ومن أجل ذلك فقد أنشأنا مستعمرة على صناعية .. وقد يبدو للقارئ أن هذا شيء من الصعوبة بمكان ، ولكنه كان في الحقيقة جد سهل وبسيط ، فقد استخدم في بناء المستعمرة صندوق خشبي عادي ، رفع أحد جوانبه ووضع عوضاً عنه لوح زجاجي شفاف حتى يمكن مشاهدة كل ما يحدث داخل الصندوق ، وسدت جميع الحروق والفتحات بعجينة من الجبس والماء ، ولكن ترك أعلى الصندوق مفتوحاً ليدخل منه الهواء ، وفقط غطى بإحكام بقطعة من الموسلين حتى لا يتاح للنمل أن يهرب .

واستخدام جاروف وإناء خشبي أمكن نقل بيت من بيوت النمل بسكانه (حوالى الألف) من الغابة ووضعه في في الصندوق . كما وضع ستار على الجانب الزجاجي للصندوق يمكن إزالته وإزاحته ليمنع الضوء أو يدعه يمر خلال الزجاج ... وما كان أشبهه بستار المسرح .. !! .

في البيت الجديد :

وقد أقيمت استعراضات متميزة على هذا المسرح الصغير الفريد في نوعه .. ! فبعد أن استقر النمل في بيته الجديد بعد الرحلة التي قطعها في الإناء الخشبي من الغابة إلى الصندوق ، بدأ يتابع أعماله العادية ، وكأنه ما زال يعيش في الغابة .. فبدأ يجمع إبر الصنوبر من مكان إلى مكان ، ويعيد بناء البيت المهدم ، ويدفن البيض في أعماق البيت . وكم شعر زوارنا بالبهجة والانبساط حين رفعنا ستار الصندوق وأبنّا لهم تتابع أعمال النمل ، إذ رأوا مبنى عديد الطوابق ، به مداخل ومخارج وممرات تحت الأرض ، وحجر تجمعت فيها مئات من النمل وأماكن للنفس حمل إليها النمل البيض الذي ستخرج منه الصغار ...

اختفاء النمل :

وقد دعتنا هذه الأعمال إلى أن نفكر في أن النمل قد تأقلم الجو الجديد ، ورتب حياته ليعيش في هذا المحيط ، وأنه سيمكث آمناً تحت مشاهدتنا وملاحظتنا لأمد طويل . ولكننا كنا نخدع أنفسنا . ففي الصباح الثالث حين أزحنا الستار لننظر إلى مستعمرتنا لم نجد هناك أية علامة من علامات الحياة ، وكل ما بدا لأعيننا لم يتعد كومة من الهملات تبدت وكأنها أطلال مدينة قديمة مهجورة .. !!

وكان أول ما خطر ببالنا أن النمل كنتيجة لحادث سيء ما قد مات وقضى عليه ... ولكن بتخل أطلال المستعمرة لم نعثر على جسد حشرة واحدة منه ، والأعجب من ذلك أننا لم نجد بيضة واحدة . وبالكشف عن الصندوق لم تتبين به أي شق أو فجوة يمكن أن يهرب منها النمل .. !! فما هو السر ؟؟ .

إعادة الكرة :

وعدنا ثانية إلى المكان الذي أخذنا منه النمل أول الأمر ؛ فنحن لم نكن قد نقلنا كل ما حوته المستعمرة ، بل بالقدر الذي أمكن للإناء الخشبي أن يسعه . وهناك وجدنا أن أعمال الترميم كانت قد قاربت التمام ، وأن المستعمرة بنيت من جديد . وباستخدام جاروف وإناء خشبي أخذنا الكرة ونقلنا ما وسعه الإناء من مستعمرة النمل إلى بيت النمل الذي أنشأناه . ولكن في هذه المرة علّمنا عدداً كبيراً من النمل بطلاء أحمر بمساعدة فرشاة دقيقة ، وقد أخذ البعض يتلوى من جراء هذا الدهان الأحمر ، ولكن لم يلبث أن اعتاده ، وبدأ عمله في إصلاح وبناء ممراته ، وحمل بيضه إلى الأماكن الآمنة . وكنا قد أزلنا من قبل مخلفات النمل الهارب من الصندوق ...

النتيجة :

فماذا كانت النتيجة ؟؟ .

هل اعتاد النمل الجديد بيته الجديد ؟؟ وهل بدأ

يحيا فى سكون وهدوء حياته العادية التى كان يحياها فى الغابة ؟؟.

كلا..!! إنه لم يلبث هو الآخر أن هرب واختفى حين تفقدناه فى صبيحة اليوم الثالث..!! فأخذنا نفحص جميع جوانب الصندوق بعدسات مكبرة، وإذا بنا نلقى خروقاً غير بينة للعين العادية فى غطاء الوسطين صنعها النمل وهرب منها..!

إلى الغابة:

وعدنا إلى الغابة، إلى مكان المستعمرة التى تركناها فاحلة لا ديار فيها ولا نافخ نار من جراء غاراتنا عليها.. لم تكن هناك دلائل على الحياة، لم يكن هناك إلا مجموعة قليلة من إبر الصنوبر، ولكنا لاحظنا قرب السكان عدداً من النمل الذى دهناه بدهان أحمر..!! لم يكن هناك كثير منه، إذ ربما كان الباقى ما زال فى الطريق إلى الغابة، أو هلك، أو عاد إلى البيت، وهو الآن يجمع إبر الصنوبر ويبحث عن الطعام..

النمل يتغلب:

ولكن يمكن أن يقال إن النمل قد حل مشكلته. فهو قد تغلب على العوائق التى وضعناها فى طريقه. فظل يبحث حتى وجد الطريق إلى البيت القديم الذى يبعد ثمانين ياردة عن البيت المصطنع برغم أنه لم تكن لديه أية معرفة بالطريق الذى سلكناه فى نقله..!!

عناد النمل:

فما هو أعجب شىء فى هذه القصة عن النمل ؟؟ إنه بلا شك التصميم العنيد للعودة إلى الوطن... فهذا العناد من خصائص النمل ! لمرتين بجده قد نجح فى اختراق الصندوق، والهرب أثناء الليل وتحت جنح الظلام، والقيام برحلة تماثل الذهاب من لندن إلى إدنبرة على الأقدام..!!

حالة غريبة:

ولكن لعل أغرب حالة تتطلب التفسير، هى أن النمل استغرق فى العمل والبناء مرتين، فشيد فى صندوقنا الذى اصطنعناه له بيتاً صالحاً بعمراته الأرضية وحجره وأماكن البيض. فإذا نحن تصورنا أن لهذه المخلوقات مثل هذا الحنين الرائع والعاطفة المتقدة لوطنها الأول، وبيتها الأصلى فى الغابة، حتى إنها كانت على استعداد للتغلب على كل الصعوبات للعودة، بل وملاقاة الموت والهلاك فى الطريق ! فما الداعى لبذل هذا المجهود وتلك الطاقة فى بناء بيت جديد داخل الجدران غير المألوفة للصندوق الخشبى ؟؟ ولماذا يتحمل النمل كل هذه المتاعب ما دام لا ينوى البقاء والاستقرار ؟؟.

هذه فى الحق أشياء تتطلب التفسير، ولكن ليس لنا أن نسأل النمل عنها أو نحاسبه عليها، لأنه لا يتبع فى أعماله أصول المنطق والأسباب والمسببات كما نفعل، بل هو يحيا ويعيش وتخضع أعماله للغريزة، والغريزة دافع فطرى... وهذا الدافع الفطرى أو الغريزى متأصل فى دماغه وفى كل جهازه العصبى، وهو أساسى للحيوان كلونه أو كتكوين جسمه..

لقد دفعت الغريزة النمل حين نقل إلى الصندوق الخشبى أن يبنى بيتاً ليستقر فيه، ولكن بعد أن أشبعت هذه الغريزة، وبعد أن أنشىء البيت، اكتشف النمل انعدام الطعام وعدم وجوده فى المحيط الجديد، فانطلق عائداً إلى مكانه الأصلى فى الغابة، تاركاً البيت المصطنع، وهو هنا هذه المرة يعمل مدفوعاً بغريزة جديدة هى غريزة البحث عن الطعام.. كما دفعته غريزة ثالثة هى غريزة المحافظة على النوع، إلى أن يجمع بيضه ويأخذه معه فى عودته..

وفى هذا ما يفسر لنا سلوك النمل الغريب..

جمال الدين محمد موسى

صور طريفة من معلقة قديمة

خاتمـــة المعلقة

للأستاذ جمال الدين الرمادي

أكبر الظن أننا تركنا امرأ القيس بجانب فرسه عند البيت ، فلنرجع إليه لأنه يتأهب أن يمتطي صهوته وينطلق عليه كالريح الهبوب ليستأنف صيده وطرده . وها هو ذا الفرس الآن يعدو ويجد في عدوه ، وها هو ذا امرؤ القيس يصيب القنائص التي يعدو خلفها بسهامه القاتلة ، وها هي ذي الدماء تنزف من القنائص غزيرة النزيف حتى تلطخ صدر الفرس وتخالط الدماء بياضه كأنها عصارة الحناء . ولكن ماذا ؟! ما هذا الذي يبدو عند الأفق ؟ أترى أنت شيئاً ؟... إني لست أرى الآن شيئاً ...

ولكن ها هو كل شيء قد وضح أمام عينك وعيني . وها هو قطيع من البقر الوحشي تحوم نعاجه كما تحوم العذارى عند نسكهن ولا يلبثن أن يتفرقن كقلادة الخرز الأبيض والأسود التي يتحلى بها الصبي الكريم الأعمام والأخوال .

وها هو امرؤ القيس يرى كل هذا فيهرع في عدوه حتى يبلغ أوائل هـذا القطيع من بقر الوحش الذي لما تتفرق أواخره برغم ما أحاطها من نقع وثار حولها من غبار .

ولكن ها هو ثور يدبر ، وها هي نعجة تدبر ، وها هو امرؤ القيس يعدو بفرسه خلفهما حتى يدركهما ، والفرس برغم هذا كله لا يكل وهناً ولا يتصبب عرقاً ..

هل يكتفي امرؤ القيس بالعدو خلف القطيع دون أن ينتفع بشيء — أو يأكل شيئاً بتعبير أوضح — من هذا القطيع ؟.

ليأمر امرؤ القيس الطهاة أن ينحروا ما شاء من الذبائح أو ما شاءوا هم من الذبائح ، وليتركهم بين منضج اللحم وشاو له — إن صح هذا التعبير — فلنترك امرأ القيس وطهاته الذين تركهم يطهون ما شاءوا أو شاء هو من صنوف الطعام ، ولنرجع لتحليل أبياته السابقة كعادتنا ...

تشبيه الدماء بعصارة الحناء تشبيه مستمد من التجارة الجاهلية بين الطهاة ، فقد كان العرب يتجرون كثيراً بهذا العرض من عروض التجارة . فأنا أستسيغ التشبيه من هذه الناحية ولا أستسيغه من ناحية أخرى ، لأنه يذكرني بالمتعبات والمجاز وهن يصبغن شعورهن بعصارة الحناء ، والجواد في هذه الحال مثلهن ! وهـذا ينقص من قوته ويقلل من فتوته ...

والتشبيه بالحناء أو عصارة الحناء قد يكون طريفاً بالنسبة إلى الأدب الجاهلي ، ولكنه لا يوجد اليوم في الشعر العربي ، أو هو قد بطل في الشعر العربي كما بطل عند الطبقات الراقية ! فقد كانت العروس قديماً تحلى يديها بالحناء ، أما اليوم فقد بطل هذا التقليد وأصبح من مخلفات العصر القديم وآيات التأخر وعدم مجاراة الحضارة الحديثة .

على أن تشبيه بقر الوحش بسرب العذارى تشبيه بديع كل الإبداع ، رائع كل الروعة . فقد وضع هذا الضرب من الحيوان في منزلة الإنسان وأي إنسان ؟!..

فشبه بالعذارى الحسان وهن يحمن حول نسك من الأنساك وقد تحلين بملاءات مختلفة الألوان ...

هذا تشبيه يلائم روح العصر ، أو قل المشبه به يلائم روح العصر بتعبير أدق . فأنت تستطيع أن تتصور موكباً من الغيد أو ثلة من الحسان وقد أمسكت كل واحدة منهن في يد صاحبها ، وهن في حلبة من حلبات الرقص ، أو دون

في حلبة من حلبات الانزلاق — أو الباتيناج كما يقول الفرنجة — أو على مسرح من مسارح باريس ، أو على الجليد كما يقول الفرنسيون ، أو على شاشة هوليود البيضاء كما يحب أن يقول الأمريكيون ؛ بينما أخذت إحداهن ترقص في وسط هذه الحلقة من الحسان لتكسب النظر جمالاً على جمال وبهاء فوق بهاء ، والحسان أثناء ذلك يرتدين أثواباً تنكرية طوالاً ، يجتمعن ثم يتفرقن كما يتفرق الخرز في قلادة من القلائد يتحلى بها جيد صبي كريم الأعمام والأخوال .

وعليك أن تتصور تشبث العرب بالأنساب وتحمسهم للأحساب لتتصور منزلة هذا الصبي بين قومه وجمال القلادة في عنقه ...

وعدم تفرق أواخر القطيع مع أن امرأ القيس أدرك أوائله دليل على استيلاء امرئ القيس عليها وأخذه لها . وعدم انصباب العرق من الفرس دليل على سرعة الفرس حتى إنه وصل إلى ما يريد أن يصل إليه قبل أن يدخل في مرحلة التعب والعرق ...

أما البيت الذي يصور ما يفعله الطهاة ، فدليل على ثراء امرئ القيس وتفننه في صنوف الطعام . فامرؤ القيس لا يطهى بنفسه ، إنما يطهى له غيره ، ويطهى له طهاة لا طاه واحد ، ويطهون صنوفاً شتى لا صنفاً واحداً ، مما يدل على وفرة الصيد ، والتعود على الثراء في الغذاء ...

أكبر الظن أن الطهاة قد فرغوا من طهيهم ، وامرؤ القيس قد فرغ من طعامه . فلنمض إليه الآن ؛ فما كنا نحب أن نلحظه وهو يأكل ، بل ما كنا نحب أن نقترب من طهاته وهم يطهون ، حتى لا تحن بطوننا وتسيل لعابنا لرائحة شوائه !!

أكل امرؤ القيس حتى شبع ، وما أجدره أن ينظر إلى الفرس الذي هيأ له الأكل والشبع نظرة إعجاب ...

وها هو ينظر إلى الفرس ويطيل النظر ! يرفع بصره تارة ، ويخفض بصره تارة أخرى ، حتى يستتم النظر إلى جميع جسده . وهبط الليل على امرئ القيس وفرسه فبات الفرس وسرجه ولجامه عليه ، وبات امرؤ القيس وفي عينيه خيال من الفرس حاضر جاثم غير مهمل أو في غفلة عنه ...

والأبيات تمثل إعجاب العربي بفرسه واعتزازه به وحرصه عليه تمثيلا صادقاً ليس فيه تكلف أو تجاوز ...

ماذا ؟ الدنيا تصخب ، والطبيعة تتقلب ، فتدفع امرأ القيس أن يحول نظرات الإعجاب من فرسه إلى السماء ، ولكن ماذا في السماء ؟ إن السحاب يرعد ، وإن البرق يلتمع بين أكاليل السحاب كما تلتمع اليد إذا ما أخرجت من الجيب بيضاء من غير سوء ... ويضيء البرق كما يضيء مصباح الراهب الذي لا تخبو جذوته ولا تخمد وقدته .

وامرؤ القيس وصحبه أثناء ذلك ينظرون ويمعنون النظر ، ويتأملون ويمعنون التأمل ، حتى ينهمر المطر انهماراً ، وحتى يعلو الجبل وينحدر ذات اليمين وذات اليسار ، حتى يوشك أن يهدم ذلك الستر الذي أقامه امرؤ القيس وصحبه بينهم وبين السيل ، وحتى يخر دوح الكنهبل على أعناقه أو أذقانه من شدة الانهمار وحدة التيار ، وحتى تنزل الوعول المعتصمة بقمم الجبال إلى الوادي لأنها لا تستطيع أن تصمد أمام عنف السيل ، وحتى يحرك المطر والسيل قرية تيماء فيجرف جذوع النخل ويهدم البيوت المسقفة ، ولا يبقي ولا يذر شيئاً ، اللهم إلا البيوت المشيدة بالجص القوي .

يحدث كل هذا أمام عيني امرئ القيس وصحبه بينما يبدو جبل ثبير وقد حفه الماء والغثاء كرجل شيخ تزمل برداء مخطط ، وبينما يبدو جبل طمية في أرض الغبيط يدور حواليه الماء والغثاء كفلكة المغزل التي يغزل بها العربي الصوف ، وبينما تبدو الصحراء المنخفضة قد وصل إليها الماء والغثاء فخرج النبات منها مختلفاً ألوانه كثياب الرجل اليماني المختلفة الألوان . وترى الأطيار والعصافير ، كل هذه تنهل من الماء ما طاب لها الانتهال ، وتغني ما طاب لها الغناء ، وتحلق بين الأجواء سكارى كأنها قد ارتوت براح جادة ألقيت فيها ضروب من التوابل ، ويحرك الزبد والماء والغثاء كل شيء حتى السباع يحركها الغرق لا يبدو منها إلا أطراف متشبثة مغبرة كأنها عروق الأبصال .

هذا الجزء من المعلقة الذي يصور فيه امرؤ القيس الطبيعة وما أدركها من تحول وتغير ، من أجمل أجزاء المعلقة ، ويربو في جماله عندي من الجزء الذي سبقه في وصف الفرس .

والحق أني أشعر نحوه بشعور خاص لا أستطيع أن أبين مصدره أو أعلم مبعثه، ولكن من يدري؟ لعل مصدره ومبعثه هو أن هذا الجزء يصور الطبيعة الصامتة، والجزء الذي سبقه يصور الفرس. وأنا أحب السماء والجبال والمياه أكثر مما أحب الفرس، وليعذرني عشاق الجياد في هذا، ولكن ليعلم هؤلاء وغير هؤلاء أن تشبيه لمعان البرق بلمعان اليد الخارجة من جيب من الجيوب تشبيه ساحر؛ فاليد أكثر حركة وأوضح وأسطع أجزاء الجسم التي تقع عليها العين. وقد قالوا في حلكة الظلام إن الإنسان إذا ما أخرج يده من جيبه لم يكد يراها مع نصاعتها ولمعانها. وتشبيه امرىء القيس البرق بمصباح الراهب الذي لا يعرف منه صوتاً ولا يلق منه عزة تشبيه رائع كذلك. أكبر الظن أني لست في حاجة إلى سرد روعته بعد الذي ذكرته آنفاً.

والبيت الذي يصور تأمل امرىء القيس بيت بسيط يسير، صنع في أسلوب واضح غير مستغلق على الأفهام، أو نابٍ في الأسماع، ولولا أن به بعض أسماء لأماكن تضخمه تضخيماً وترده إلى العصر الجاهلي رداً سريعاً. وتصوير المطر وآثار المطر في أبياته يبدو كأنه تصوير سينمائي قد أبدع المصور في تصويره وأتقن المخرج في إخراجه. فسيل المطر ينحدر جهة اليمين وجهة اليسار، وسيل المطر يندفع اندفاعاً، ويسقط الأدواح على أذقانها، ويرهب الوعول المعتصمة بأعالي الجبال تفر إلى بطن الوادي، ويأتي على المدائن فيخرب بيوتها الخربة ويبقي بيوتها القوية، ويأتي على الصحراء الجدبة الناحلة فينمو النبات مختلفاً ألوانه.

كل هذه صور جميلة، تمر سراعاً تباعاً كأنها شريط سينمائي جميل يعرض أمام العين، ولولا أن امرأ القيس أخطأ في تصويره أو في إخراجه حينما جعل النبات ينمو سريعاً ويشب ويترعرع، ويبدو كأثواب الرجل اليماني، ولم يمض على انسكاب الغيث إلا أمد وجيز.

وكم أحب أن تمهل معي هذا الشريط السينمائي — إن قيل رواد الأدب الجاهلي هذا التعبير — وتمعن النظر معي في هذه الصورة، أو هذه اللقطة على حد تعبيرهم، لقطة الجبل الشامخ السامق الذي أنبتت القرى والمدائن بالقرب منه واكتنفه الماء والغثاء من كل صوب. لا يفك حصاره منه إلا ليضيق حصاره عليه، ولا يبتعد عنه إلا ليقترب منه؛ فكأنه كبير أناس متدثر بثوب مخطط. فالجبل كبير عظيم قد رقدت القرى والمدائن بالقرب منه، والرجل كبير عظيم قد التف الناس حواليه، والمياه حول الجبل عنيفة دائرة، والثوب حول الرجل مطوي، والخطوط دائرة. وكم أحب أن تمهل معي هذا الشريط السينمائي، وتمعن النظر معي في هذه اللقطة كذلك، لقطة الجبل الأخر والأمواه والأمواج تحته والدوامات تدور حوله وتدور، فيبدو كفلكة المغزل عندما تدور وتدور. ولو أن شاعراً وصف اليوم جبلاً من الجبال قد حف به الماء وانهمر منه السيل، هذا الوصف الذي ساقه امرؤ القيس منذ قرون، لما وجدنا في وصفه ضيقاً ولا حرجاً، إنما وجدنا شيوعاً وتعميماً يلائم كل عصر. وإن كنا نجد في فلكة المغزل والرجل اليماني وصحراء الغبيط وثبير والمجيمر، ألفاظاً إقليمية محصورة على زمان معين، وهو الزمان الجاهلي، وعلى مكان معين، وهو المكان الذي حدث فيه المطر وانهمر منه السيل. وتصوير المكاكي بالسكارى تصوير جذاب خلاب؛ فالطير تترنح في الفضاء، وتتغنى في الأجواء عندما تشهد الخصب وتحس المطر. وتشبيه أطراف الأسود بأنابيش العنصل تشبيه إقليمي لا يخلو من جمال كما لا يخلو من قطاطة في الألفاظ في لفظ أنابيش، وهي الأطراف، أما العنصل فهو نوع من الأبصال.

إلى هذا الحد يحسن أن تنتهي من هذه الصور الطريفة. وقد تسألني: ما الذي دفعك أن تلجأ إلى هذا الأسلوب؟ فأقول: إن الذي دفعني إليه هو أثر القصص في النفس وسحره في القلب. وقد تسألني: أين المعلقة؟ فأقول: إنها في مشروح التبريزي وغير التبريزي، وما أحببت أن أسمع لك شعراً يحتاج إلى عددين من المجلة القراء، إنما أحببت أن أسوق إليك، وأن أعرض عليك المعلقة في صور خاطفة سريعة.

جمال الدين الرمادي

فى النقـــــد الأدبى

« بين يديكم أيها الباحثون فى النقد أضع هذا المقال »

الأستاذ بركات

هـذا أبو أمامة زياد ، نابغة ذبيان ، وشاعر النعمان ، مطمئن فى مكانه من عكاظ ، وما على الشعراء من كل صوب وفج إلا أن يتوافدوا عليه ، ويقف كل واحد منهم بباب قبته ، لينشد بين يديه الفرائد الغرائز من القصائد ، وما يغمره غير أمل واحد هو أن يحكم له « النابغة » بالشاعرية المتفوقة ليكون بين الأنداد رفيعاً فرداً لا يوافقه فى سلطانه قرين .

وإنه لفى مجلسه القضائى ذاك إذ يأتيه « أبو بصير الأعشى » فما يسمع منه حتى يحكم له بالأهلية والأسبقية ! ثم يترادف من بعده فرسان الشعر ومن بينهم « أبو الوليد حسان » الأنصارى ، حتى تنتهى النوبة لأخت صخر « الخنساء » فتلقى على مسمعيه من فرائد الرثاء قصيدتها المشهورة :

قذى بعينيك أم بالعــين عوار
أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

والتى من روائعها :

وإن صخراً لـكافينا وسيدنا وإن صخراً إذا نشتوا لنحار
أغر أبلج تأتمّ الهداة به كأنه علم فى رأســه نار

فلا يملك حكم « عكاظ » نفسه من أن يقول : « لولا أن أبا بصير أنشدنى قبلك لقلت إنك أشعر من بالسوق » .

ويسمع ذلك حسان فيغضب ويثور ، ويقول للنابغة : « أنا أشعر منها ومنك ومن أبيك ! » . فيرد عليه : « حيث تقول ماذا ؟ » فيقول : حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسـيافنا يقطرن من نجدة دما

عند ذلك قال أبو أمامة له : « إنك شاعر ، ولكنك أقللت جفناتك وسيوفك وقلت : « يلمعن بالضحى » ، ولو قلت « يبرقن بالدجى » لـكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف فى الليل أكثر . وقلت : « يقطرن من نجدة دما » ولو قلت : « يجرين » لـكان أكثر لانصباب الدم ، ولن تستطيع أن تقول :

فإنك كالليــل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وإلى هنا تنتهى القصة فى سلام ، فلا تجد من نفس قارئها إلا كل إعجاب وتقدير ، لأنه أمام حكومة عادلة ، وقضاء نزيه . يعارض الشاعر فى الحكم زياداً عن مكانته ، فيمسك الناقد البارع بيده ليضعها على الأسرار الفنية التى على هديها قضى ، وهو هادئ لا يغضب ، ثابت لا يثور .

إن النقد الصادق إذا كان دل على وعى كامل ، ونضج تام ، وهو فى دنيا الأدب علامة صادقة على فن رفيع مزدهر أصله ثابت وفرعه فى السماء ، يؤتى أكله كل حين ! وإنه لمن المسلم به أن يقال إنه فى كيان الأدب كالنبض فى قلب الإنسان ، دلالة على الحيوية والوجود ، ولا يستطيع الباحث المنقب أن يحدد الدرجات الدقيقة للتطور الفكرى إذا لم يرصد على رأس مراجعه أبحاث النقد فى الأطوار المتتابعة .

ومهمة الناقد بين جمهوره كمهمة الرسول بين قومه ، كلاهما فى حدود رسالته يقوم المعوج ، وينير السبيل ، ويحدد الهدف ؛ لذلك فالعبء شاق عسير يحتاج إلى الدقة فى البحث ، إلى جانب الحكمة فى القول ، وهدوء الطبع ، وقوة الحجة . هذى هى الدعائم الأولى فى شخصية الناقد . وإهمال واحدة يذهب بعدالتها ، ويسقط هيبتها .

قد يقال : « لـكل ذوق خطة ، ولـكل رأى طريقة » . وذلك بدهى لا يقرب منه ريب ، ولـكن اختلاف الذوق والرأى لا يكون فى زمن ما ذريعة يحتمى بها لتحكيم العاطفة على غير سداد ، وطغيان الأهواء بلا ضابط من روية أو أناة ، فذلك من غير شك مسلك شائك كريه ، يرفضه الضمير الأدبى الحر ، ويلقى به تحت مواطئ الأقدام . وإنما المتفق عليه أن يكون معراجاً لآفاق جديدة فيها الخير والنور ،

(البقية على صفحة ٣٠)

المسرحيات الدينية بين الغرب والشرق

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

هذا موضوع يرودنى كلما أقبل عيد من أعيادنا الدينية . وقد راودنى بإلحاح فى هذه الأيام إذ تعاقبت أعياد واحتفالات مختلفة (عيد الأضحى ثم عيد الهجرة ثم يوم عاشوراء فضلاً عن الاحتفالات بالحمل) فى الوقت الذى كثرت فيه الاستفسارات بشكل ملحوظ عن أسباب ضعف المسرح المصرى . لذلك أحببت — ونحن فى مستهل الموسم — أن أعاود بحوثى المسرحية بادئاً به ، راجياً المعونة من قادتنا الأفاضل لعلنا نصل إلى الحقيقة .

• • •

من المحقق أن الأوربيين استطاعوا أن ينشئوا — خلال احتفالاتهم بأعيادهم الدينية فى العصور الوسطى — مسرحاً دينياً كان النواة الأولى لمسرحهم الحديث الرائع . فهل هناك ما يمنع من أن نحذو حذوهم فيما يتصل بمسرحنا ؟ .

ربما يُظن أننا نختلف عنهم باختلاف طبيعة الطقوس والتراتيل الدينية التى تطورت عندهم إلى فن تمثيلى منذ القرن الثامن الميلادى . لكن العجيب أن تلك الطقوس هى — أصلاً — نفس الطقوس التى عرفها الشرق قبلهم ، وكذلك التراتيل فإنها — كما يقول E.K. Chambers — منقولة من تراتيل أعياد كنيسة أورشليم فى القرن الرابع الميلادى .

وربما يظن أيضاً أننا نختلف عنهم باختلاف وجهتى نظر رجال الدين إلى الفنون التجسيدية بصفة عامة والتمثيلية بصفة خاصة . ونحن نعلم حقاً أن قساوستهم هم أنفسهم الذين كانوا أول الأمر يقومون بتمثيل تلك الطقوس فى رحاب الكنيسة ذاتها .. ولكننا نعلم فى نفس الوقت أنهم لم يكونوا يقصدون بهذا وجه الفن ، بل إنهم عندما أحسوا بتطور ذلك التمثيل وخروجه عن النطاق الكنسى ، سواء من حيث اللغة إذ أخذت اللهجات العامية — أى القومية — تختلط باللاتينية ، أو من حيث المكان إذ بدأت تقام بعض الاحتفالات خارج الكنيسة ، أو من حيث الموضوع إذ اختلطت القصص الدينية ببعض قصص دنيوية ... عندما أحسوا بمثل هذه التطورات التى اعتبرت فيما بعد فى صالح الفن التمثيلى أصدروا قرارات مختلفة بتحريم التمثيل ، وأعلن أحد أقطابهم Robert mannyng أن مجرد مشاهدته خطيئة .

إذاً لماذا نشأ عندهم — دوننا — مسرح دينى ؟ .

• • •

الواقع أن هذا المسرح كان وليد عدة عوامل ، من أهمها فطنتهم إلى الإمكانيات الفنية فى أعيادهم الدينية فى مضمون القصص المقدسة التى كانت محور تلك الأعياد . وتاريخ المسرح منذ نشأته الإغريقية يؤكد قيمته الروحية ، ويدل على أن أوضاعه الفنية لا تكتمل إلا إذا كانت وثيقة الصلة بما تضمره العقيدة وتذكيه العاطفة الدينية .

ولعله من الغريب إذاً أننا — بالرغم مما تلوكه الألسن من روحانية الشرق ، وبالرغم أيضاً من تشابه مغزى بعض الأعياد والقصص الدينية فى الغرب والشرق جميعاً — لم نفطن إلى ما ساعدتهم ظروفهم على الفطنة إليه .

ولنضرب مثلاً بعيد الأضحى ، فإننا إذا قرناه بشبيهه وعديله عندهم (قصة الضحية Abraham's Sacrifice) وجدنا أننا وقفنا عند حد الانتشاء بنشوة عيدنا فى حين أنهم أخرجوا قصتهم بما يفصح عن مدى قدرتهم على الإخراج الفنى التمثيلى . ويتجلى ذلك فى كل مقطع من مقاطع هذه التراجيدية — إن صح إطلاق هذا الاسم عليها — وفى الحوار المثير الذى يدور بين بطليها : الوالد (إبراهيم) وولده (إزاك أو إسحاق) ، وفى حيرة الوالد بين الصدوع

بأمر ربه وبين الحنين إلى فلذة كبده . وفى رضوخ الولد هذا الرضوخ للؤثر الذى تنتهى به التمثيلية : «أبى : أحقاً أمرك الله بذبحى ؟ ... لا ريب أنك ستجد عند عودتك إخوتى الذين تحبهم ... أما أنا فسوف يتلاشى حزنك على يوماً ما ... أبى ! لامناص من طاعة أمر الله . أبى ! لا تخبر أمى بحتفى» .

وقل مثل ذلك عن سائر القصص الدينية التى اقتبسوا منها تلك التمثيليات التى أطلق عليها أولاً Liturgical Plays ثم تطورت إلى Miracle Plays ، ثم ظلت تتطور متخذة أسماء شتى وقوالب شتى إلى أن استكملت إطاراتها وأوضاعها ومضامينها الفنية .

* * *

ومما يلفت النظر أنهم — منذ البداية لم يقصروا اهتمامهم على الحوار ورسم الشخصيات واستبطان مكنوناتها ، بل اهتموا أيضاً بالمناظر والملابس والأداء المسرحى ، وهذه العناصر فى غاية الأهمية لأنها من ضروريات التجسيد والتصوير والتعبير .

فالمناظر كانت تقام فى إنجلترا مثلاً على عربات ذات طبقتين ، العليا منهما للتمثيل والسفلى لارتداء الملابس ، وكان يراعى فى بنائها مجاراة الحوادث التى يجرى تمثيلها بقدر الإمكان . ففى تمثيلية (سفينة نوح Noah's Ark) نجد المنظر يحاكى سفينة ركب فى أحد طرفيها أعوان فاغر الفم رمزاً للجحيم الذى تستحقه امرأة نوح جزاء سلاطتها وشراستها واعتدائها على زوجها . وفى تمثيلية (عيد الميلاد) نجد أن القسيس فرانسيس فى Greccio يستخدم ثوراً وجحشاً إمعاناً فى مشاكلة الموضوع الواقع . وهكذا .

وكانوا يصنعون لكل شخصية ما يناسبها من الملابس . فلشخصية (جبريل) ملابس تشى بالمهابة والجلال ، ولشخصية (الشيطان) ملابس تثير الضحك ... الخ .

كذلك كانوا يضعون لتحركات الممثلين تعليمات لا يحيدون عنها ؛ من هذا القبيل ما وضعه (إثلولد Ethelwold) راعى كنيسة ونشستر فى القرن العاشر بصدد تمثيلية « القيامة » من تعليمات جاء فيها : « عندما ترتل الفقرة الثالثة يظهر منذ بدايتها أربعة من الشمامسة .. وفى وسطها يتقدم أحدهم نحو الضريح مستخفياً فى هدوء حاملاً فى يده غصناً .. وفى نهايتها يتبعه الثلاثة الآخرون حاملين فى أيديهم مباخر ذات رائحة ذكية ويخطون فى تؤدة ، وكأنهم يبحثون عن شىء ما ... » .

وغنى عن البيان أن ذلك كله — سواء من حيث التأليف أو الإخراج أو التمثيل — كان يجرى بوسائل بدائية أول الأمر . ولكن لا جدال فى أن هذه التمثيليات البدائية كانت ذات أثر جوهرى فى الفن المسرحى ، مما حدا بكثير من المؤرخين إلى القول بأنها هى التى خلقت الإحساس الدرامى فى أوربا ، ووضعت أسس التطور المسرحى ، ومهدت للعصر الإليزابيثى المظيم .

* * *

فهل لنا ونحن دائبو التساؤل عن أسباب ضعف مسرحنا أن نمارس هذه التجربة الفنية التى مارسها الأوربيون بنجاح فى العصور الوسطى — ولو بجانب تجاربنا الحالية — لعلنا نصل بهذه وتلك إلى ما وصلوا إليه فى عصر النهضة مثلاً ؟ .

عبد الفتاح البارودى

مهزلة قيصر وكليوپاترا

نقد وتحليـــــل

للأستاذ محمد حلمي

لا شك أن هذا الفيلم سقط ، أسقطه برنارد شو نفسه ! فلقد استحوذت على القصصي الكبير شهوة الدراما فكتب قصة شائقة مسلية ! على أنها من الناحية العلمية أعنى التاريخية هباء ، فإنها تشوه أحداث التاريخ تشويهاً مزرياً . ولا ريب أن المؤلف جعل رائده في كتابة القصة فن القصة ذاته ، دون ما نظر في دقائق التاريخ التي ينبغي أن يكون لها الاعتبار الأول في هذه الحالة ، إذ أنها تتناول شخصيات تاريخية لها صفاتها الخاصة ونوازعها ، وأحداثاً تاريخية أيضاً لها ملامحها ولها أشكالها ومميزاتها . ولا ريب أن المخرج قد هدف إلى أن يجعل الفيلم صورة طبق الأصل مما كتب برنارد شو ، فجاء الأصل المكتوب والصورة المتحركة كامرأة دميمة قد رأت خيالها في المرآة . وسنعرض هنا لأحداث هذا الفيلم بشيء من الإيجاز فنقول : أولاً : نرى يوليوس قيصر وهو يناجي أبا الهول على حافة الصحراء ، ونرى فتاة تخرج إليه من بطن التمثال فيؤخذ القيصر قليلاً للمفاجأة ، ويدور بين البطلين حوار يجري فيه ذكر الرومان ، فتنصح كليوپاترا قيصر بالاختفاء خشية أن يأكله الرومان ، حتى إذا صارحها بأنه هو روماني يأخذها الدهش ، لأن تعلم أن الرومان أناس مثلنا ، وتعلن إليه أنها سمعت بعض الناس يذكرهم بأن لهم أنوفاً كخراطيم الأفيال ، وما إلى ذلك من الصفات التي تسلك الرومان في زمرة العجماوات لا في جماعة الجنس الإنساني . فكيف نتوقع مثل هذا الظن من « ملكة » عكف على تثقيفها وتعليمها خيرة المثقفين في ذلك العصر من فلاسفة اليونان وغيرهم ، مهما تكن تلك الملكة طفلة حدثة صغيرة السن لمّا تبلغ الحلم ... !؟

وإذ يدخلان — قيصر وكليوپاترا — أحد قصور الإسكندرية الأثرية وقيصر يمسك في يده بالشعلة ، فيرى على الجدران رسوماً وآثاراً لقدماء المصريين ، يمضي قدماً دون أن يعير تلك الآثار الخالدات أقل اهتمام ، أو يلقي عليها نظرة متأملة فاحصة في وقت قد سار فيه العالم أجمع بذكر تلك الآثار ، وأشاد بعظمتها ومهارة الذين تركوها . كيف ؟ إن الرجل العادي الذي لم يؤت من العلم نصيباً ولا يعنيه من التاريخ إلا أنه قصة تروى ومشهد يستمتع به الرائي ، لا بد متوقف ليتأمل مثل تلك العجائب الباهرة ! فما بالك بقيصر العظيم ، قيصر واسع المعرفة الذي كان ولا يزال معدوداً من أساطين التاريخ والمؤرخين في العالم أجمع ، شأنه شأن هيرودوت وبوليبيوس وتوكوتيدس وغيرهم ... !!

وحين يدخل على قيصر أحد العلماء ، ولعله أمين مكتبة الإسكندرية فيخبره أن المكتبة قد شبت فيها النار ، وأن هذا التراث الخالد قد سار إلى زوال ، يقابله قيصر بهز الكتف وبابتسامة عابرة ، أو بالأحرى ساخرة ، كأن ما يحرق من كتب هو بعض الفحم أو الهشيم أحرق للدفء والصلى ...

مأخذ آخر : أحد الشبان يبادر أمام قيصر فيلقي بنفسه في اليم من علو شاهق ، فينظر قيصر إلى من حوله في شيء من الزهو والفخر بالنفس ، وكأنه يراهن على أنه يستطيع هو الآخر إلقاء نفسه في اليم ، ثم لا يلبث أن يخلع طيلسانه ويثب في الماء كأنه غلام يلعب على الشاطئ ، أو كأنه متسابق لنيل الجائزة . فكيف يكون ذلك الرقاعة قيصر العظيم !؟ قيصر الذي وصفه « كاسياس » ، أو بالأحرى

(البقية على صفحة ٣٠)

الشعوب تريد السلام

للأستاذ حافظ أحمد أمين

فى اليوم الثالث عشر من هذا الشهر يقام مؤتمر السلام العالمى بلندن ، وهو مؤتمر عالمى ، تشترك فيه جميع دول العالم ، ويأتى إليه الأعضاء من جميع البقاع يدعون للسلام ونزع السلاح . وقد نجحوا فى مؤتمرهم الأول الذى عقد فى استكهلم فى سبتمبر الماضى فى أن يتفقوا على رأى خطير ، هو اعتبار الحكومة التى تبدأ باستخدام السلاح الذرى ضد أية دولة أخرى مجرمة حرب ، تقترف أبشع الجرائم ضد البشرية .

وفى هذا المؤتمر الثانى الذى سيعقد بلندن ، ينتظر أن تصدر اللجنة الدائمة للمؤتمر العالمى لأنصار السلام قرارات أخرى يكون من جرائها نشر السلام وإبعاد شبح الحروب عن العالم .

وبهذه المناسبة ، أحب أن أعرض للقارئ رأيين عظيمين من شخصين أحسا بقسوة الحروب وما تجره على الشعوب من كوارث : أولهما جندى روسى اشترك فى أكثر من حرب ، يصف ما رآه بعينه ، متأثراً بما لمسه من مصائب وويلات أثناء اشتراكه فيها ، والثانى فيلسوف كبير منطقى ، يتحدث عن الحرب متأثراً بالحكمة والمنطق . قال الجندى :

« اشتركت فى حملتين حربيتين بصفتى جنديا فى الحرس الروسى ، وما أشد كرهى للحرب ، فقد صيرتنى تعساً إلى حد لا يوصف . إننا نحن الجرحى لا ننال سوى مكافأة سخيفة نخجل معها من كوننا كنا ذات يوم وطنيين غيورين . فأنا مثلا أتقاضى تسعة بنسات فى نظير ضياع ساعدى الأيمن . لقد طلبت الخدمة وكنت فى هذا الوقت أشغل مركزاً سامياً لم أتمكن من الحصول عليه فيما بعد . واشتركت فى الحرب ، وشاهدت من الفظائع ما لا يحتمله قلب بشر ، ومنذ هذا الوقت لا أستطيع السير على رجلىّ . ولقد انتهت نشوة الوطنية التى كانت تسوقنى ، وأصبحت أعيش الآن على ما تقدمه لى الحكومة من الإحسان .

فى هذه الحياة التى يتطاحن الناس فيها كالبهائم ، دعنى أقل على الأقل إنى أود السلام . دعهم يقولوا عنى مايشاءون ، فإنى راسخ الإيمان ثابت العقيدة بأن الحرب تجارة واسعة تباع فيها سعادة الناس وهناؤهم .

أى آلام قاسيناها نحن المحاربين ، ولن أنسى طول حياتى تلك الزفرات التى كانت تتصاعد حولى ، وتلك الأنات التى كانت تملأ الجو من جميع الجهات . أناس لا ثأر بينهم يتقاتلون ويتطاحنون كحيوانات مفترسة ، ويتضرع كل منهم إلى الله أن يأخذ بناصره ، كأنهم يريدون أن يكون الله شريكا لهم فى هذه المذابح .

من هم هؤلاء الذين تتكون منهم الجيوش المعادية ؟ أليسوا جيراننا وإخواننا الذين انطلى عليهم ادعاؤهم بأن خدمة الوطن خدمة لله ؟! ليس لنا أعداء سوى هؤلاء القوم الذين يدعون بأنهم يجبون منا الضرائب لإيجاد ماهو لازم لنا . بهذه الطرق يستنزفون أموالنا ويحولون إخواننا أعداء لنا .

لن نستمع إليكم بعد الآن ، سنكون أحراراً فى تصرفاتنا . لنا زوجات وأولاد ومنازل وآباء مسنون نهواهم ولا نريد الابتعاد عنهم لمحاربة أى كان . إننا نكره الحروب من صميم أفئدتنا . نحن متدينون ونريد أن نتبع ما أمرنا به الله من أن نحب للغير ما نحبه لأنفسنا » .

أما الرأى الثانى الذى أعرضه الآن ، فهو للعالم الإنجليزى برتراند راسل :

لا ينكر أحد تلك الحقيقة التى تقول إن الشعوب تريد السلام وترى أن الحرب ليست سوى الثمرة الناضجة فى شجرة الشرور العالمية ، وأنها نكبة مهلكة تصيب الشعوب بالمصائب والويلات .

والسبب المباشر لتلك الحروب البغيضة هو دافع التملك والاستحواذ ، ذلك الدافع الذى هو أصل كل ما يعانيه العالم

من آفات . فإذا أضعفنا من قوة هذا الشعور وسيطرته على حياتنا اليومية أمكن وجود هيئات تستطيع أن تنفع الجنس البشرى نفعاً عظيماً .

ومن المستطاع وجود مثل هذه الهيئات التي تلطف من حدة الطمع ، إذا أعدنا بناء النظام الاقتصادى من جديد . فالرأسمالية ونظام الأجور الحالى يجب اختفاؤهما من الوجود ، فهما الوحشان اللذان ينهشان جسد العالم العليل ، ونحتاج في مكانهما إلى نظام آخر يلجم الغرائز الوحشية في الحياة الإنسانية ، فنقل بذلك النظام الاقتصادية التي تمكن الكثيرين من الثراء الفاحش دون أن يعملوا شيئاً ، وتسبب الفقر والألم لمن يقومون بأشق الأعمال ، ويكدحون ويكدون طوال أيامهم ولياليهم .

ويوماً بعد يوم ، وبعد تقدم المخترعات ، تزداد الحرب هولاً ، ويعظم ما تجره في أذيالها من الخراب والمصائب على المحاربين وعلى الشعوب المسكينة ، في الوقت الذى يجنى فيه أصحاب رءوس الأموال أرباحهم الفاحشة على حساب هؤلاء المساكين الذين يغرهم الزهو الوطنى ، ذلك الزهو الذى يعتمد على احتقار الأجناس — وهو جريمة واختلال — وعلى الفخر والاعتزاز بالقوة والتملك — وهى حماقات أطفال .

ما دامت الكراهية والعواطف البغيضة تسيطر على حياة الأفراد ، وما دام الخوف والشك يسيطر على حياة الشعوب ، فليس لنا أن نرجو أن نتفادى طغيان العنف والقوة والوحشية .

يجب أن يتعلم الرجال الشعور بالمصالح العامة للجنس البشرى الذى يصبح الكل فيه واحداً ، بدلاً من المصالح الموهومة التي تتقسم من أجلها الدول .

يجب أن يتعلم المرء ألا يشتهى الأشياء التي يمكن تحصيلها على حساب الآخرين ، وإنما يشتهى تلك الأمور التي تعظم بها البلاد وتسمو بالعالم كله . يجب على المرء أن يعمل على أن تكون بلاده عظيمة في فنون السلام ، وأن تكون عادلة كريمة سامية ، وأن تساعد البشر جميعاً في طريقهم إلى عالم من الحرية أفضل يسوده التعاون العقلى الذى لا يمكن أن نرجو للإنسان سعادة بدونه .

يجب على المرء ألا يرغب لدولته الانتصارات البغيضة العابرة في التملك والسيطرة ، وإنما يتطلع إلى الانتصارات الخالدة التي ساعدت على وجود روح الإخاء الذى نادى به المسيح وتبدته الكنيسة الآن ، ونرى أن هذه الروح لا تشمل الأخلاق السامية فحسب ، ولكنها تشمل الحكمة الحقة كذلك ، ونرى أنها الطريق الوحيد الذى يجب على الأمم الممزقة من الحروب أن تسلكه .

إن الأعمال التي يمليها الحقد لا تؤدى إلى الحقيقة ، وإن الحياة والأمل للعالم لا وجود لهما إلا بالحب والتعاون والسلام .

ذلك عرض لرأى جندى يتحدث بعواطفه التي قاست ، ورأى فيلسوف يتحدث بعقله الذى يعقله ، فهلا انصرفنا إليهما عن عواطف تشتهى ولا تقاسى ، وعقول لا تفقه .

حافظ أحمد أمين

مهزلة قيصر وكليوباترا

(بقية المنشور على صفحة ٢٣)

شكسبير بأنه إله ، والذى يصف نفسه في الفيلم بأنه (بعضه وحش ، وبعضه امرأة ، وبعضه إله) . أى أنه مزاج من القسوة والرقة والقدسية . .

وأخيراً نراه يلبس لباساً من قطعتين كأنه (مايوه من قطعتين) ، أو كما يلبس الاسكتلنديون من أهل هذا الزمان !

وكيف يستبيح قواد قيصر لأنفسهم ، بل كيف يبيح هو لهم أن يرفعوا معه الكلفة إلى حد أن يلتصقوا به في سيرهم وجلوسهم التصاقاً ، بل يذهبوا إلى أبعد من هذا فيمزحوا معه مزحاً سافراً ويسخروا منه في مواقف عدة من الرواية ، كما فعلوا حين هم بإلقاء نفسه في اليم .. وفوق هذا نرى قيصر في الرواية من مفتتحها حتى إسدال الستار يضحك ملء شدقيه ، ويرسل النكتة وراء النكتة ، ويمشى خافض الرأس يترنح ويهتز كأنه (بودكيوث ولوكوستيللو) لا قيصر العظيم الذى دانت له أوربا وعنت له أمم العالم القديم . . .

محمد حلمى

الأمثال عند مختلف الأمم ...

للأستاذ مبارك إبراهيم

(ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مَثَل) .

(وَمَثَل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) .

(مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) .

« قرآن كريم »

وجاء فى الإصحاح العاشر من سفر الأمثال من كتب العهد القديم :

(الابن الحكيم يسر أباه . والابن الجاهل حزن أمه) .

و (من يجمع فى الصيف فهو ابن عاقل . ومن ينام فى الحصاد فهو ابن مخز) .

و (فعل الرذيلة عند الجاهل كالضحك . أما الحكمة فلذى فهم) .

ويقول جلال الدين السيوطى فى كتابه المزهر فى علوم اللغة وأنواعها :

قال أبو عبيدة[1] : الأمثال حكمة العرب فى الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها فى المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه .

وقد ضربها النبىّ صلى الله عليه وسلم وتمثل بها هو ومن بعده من السلف .

وقال (الفارابى) : المثل ما ترضاه العامة والخاصة فى لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم ، وفاهوا به فى السراء والضراء . واستدروا به الممتنع من الدر ، ووصلوا به إلى المطالب القصية ، وتفرجوا به عن الكرب . وهو من أبلغ الحكمة ، لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر فى الجودة ، أو غير مبالغ فى بلوغ المدى فى النفاسة .

والأمثال قد تخرج عن القياس فتحكى كما سمعت ، ولا يطرد فيها القياس فتخرج عن طريقة الأمثال .

وقال أبو عبيدة فى المثل : (أجناؤها أبناؤها) أى الذين جنوا على هذه الدار بالهدم ، هم الذين كانوا بنوها (قال) : وأنا أظن أن أصل المثل « جُناتها بُناتها » لا أبناؤها ، لأن فاعلا لا يجمع على أفعال إلا أن يكون هذا من النوادر لأنه يجىء فى الأمثال ما لا يجىء فى غيرها ...

ويقول شيشرون : « إن الأمثال كالبحيرات التى يستطيع المرء أن يستخرج منها الملح فيضعه حيث يشاء » .

« والأمثال يستطيع المرء أن يحيك خيوطها فى نسيج كل حديث يجرى به لسانه .

«والأمثال تصلح أن تحفظ عن ظهر قلب لتتلى وتُروى فى مناسباتها » .

ويقول « سرفانتس » : المثل جملة موجزة تقوم فى ثناياها خبرة زمان طويل .

(١) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى ، منسوب إلى تيم قريش ، وكان مولى لهم . قال الجاحظ :

لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلوم من أبى عبيدة ، وكان أعلم الناس باللغة وأخبار العرب وأنسابها . وقال المبرد : كان أبو عبيدة عالماً بالشعر والغريب والأخبار والنسب . وكان الأصمعى أعلم منه بالنحو .

ولما استقدم الفضل بن الربيع « أبا عبيدة » من البصرة ، فلما حل بمجلسه سأله إبراهيم بن إسماعيل الكاتب عن قوله تعالى : (طلعها كأنه رءوس الشياطين) ، وقال له : إنما يقع الوعد والوعيد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف . فقال له أبو عبيدة : إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم . أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به . فاستحسن « الفضل » رد أبى عبيدة ، واقتنع به السائل ...

ومن الأمثال ما ينبئك عن موطنه وبلده . فأنت إذا سمعت المثل الإنجليزي الذي يقول : Make your hay while the sun shines وترجمته الحرفية : « جفف البرسيم في اليوم الشامس » ، أيقنتَ أنه مثل إنجليزي ، ذلك لأن الشمس قلما تصحو في بلاد الإنجليز .

وأنت إذا سمعت الأمثال الآتية حكمتَ أنها عربية النبت والوطن :

١ — (أوسع من الدهناء) و (أوحش من مفازة) والدهناء والمفازة هما الفلاة .

٢ — لا حُرَّ بوادي عَوْف (وعوف هذا كان رجلاً منيعاً ، أي أنه يقهر كل من حل بواديه) ، فكل من فيه كالعبيد له لطاعتهم إياه .

٣ — وهل يُنبت الخطيَّ إلا وشيجه
وتُغرس إلا في منابتها النخل .

٤ — آلف من حمام مكة .

٥ — تسمعُ بالمعيدي خيرٌ من أن تراه .

٦ — أتبعْ الفرس لجامه ، والناقة زمامها .

٧ — أبلغُ من قُس (وقس هـذا هو أحد حكماء العرب) .

٨ — رجع بخُفَّي حُنين .

٩ — شِنشنةٌ أعرفها من أخزم (قاله أخزم جد حاتم الطائي . كان ابنـه أخزم يضربه ثم مات في حياة أبيه ، وترك بنين ، فوثبوا يوماً على جدهم فأدموه ، فكان هذا المثل ، أي أن ضربهم له خصلةٌ يعرفها من أبيهم أخزم .

١٠ — أن ترد الماء بماء أكيس ...

ومن يقرأ المثل الذي يقول : « ليس كل كاهن يستطيع أن يلبس حذاء لوثر » ؛ أيقن أن قائله بروتستانتي من شيعة « لوثر » .

كما أن من يقرأ المثل القائل : « إن الموت جمل ينيخ بباب كل بيت » ، لا يشك أبداً أن هـذا المثل يرجع إلى أرومة عربية ، وإن كان الأتراك قد تبنوه ، وضموه إلى مجموعة أمثالهم .

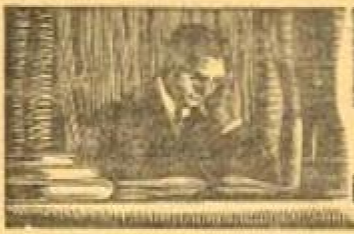
والأمثال في كل أمة تبقى ما بقيت تلك الأمة ، فهي لا تهرم ولا تبلى جدتها . وكثير من الأمثال قد جاوز حدود بلاده ، وغزا أمماً أخرى فأصبح ذا صبغة عالمية ؛ وكثير منها قد انحدر إلينا من خلال القرون المتعاقبة في القدم ، وكثير منها قد قاوم أمواج البحار ، وتصدى للرياح الهوج ، ولذلك فإن عسيراً على المرء ألا يلقي بالا إلى الأمثال ، وقد أصبحت ذخيرة من ذخائر المعرفة الإنسانية . وأنت ترى أن بعض كبار الفلاسـفة ومشهوري الأدباء والشعراء ممن رزقهم الله الحجى ، وآتاهم العبقرية والنبوغ ، قد جعلوا من الأمثال حليـة لأقوالهم ، وطرازاً لقصائدهم ؛ وإن كان بعض الذين لا يعجبهم العجب يرون أن الأمثال إنما هي كقدح الراكب التي يعلقها في آخرة الرحل .

من أولئك الفلاسفة ، والأدباء ، والشعراء الذين كانوا يحفلون بالأمثال ويقدرونها حق قدرها : الفيلسوف « أرسطو » فقد جمع منها كثيراً . ولم ير في جمعه للأمثال ما يحط من قدره .

ثم الشاعر « شكسـبير » الذي بلغ من إكباره لها أن اتخذ منها عنواناً لبعض رواياته ؛ فسارت تلك الأمثال مسير الشمس في كل بلدة كقوله Measure for measure وكقوله : „All's Well that ends well„ . وكذلك الـكاتب « سرفانتس » الذي يجيء في الخالدين تالياً لشكسـبير ؛ فقد جعل الوصيف « سانشو بانزا » في رواية « دون كيشوت » لا يفتح فمـه إلا لينثر الأمثال نثراً .

وأنا أختم المقال بقوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) ...

مبارك إبراهيم



نقد الكتب

الشعر الأندلسى

وصل إلى « المستمع العربى » مجلد ثمين عنوانه «الشعر الأندلسى وعلاقته بشعر الغنيين القدماء فى جنوب فرنسا» . وقد زاد من قيمته أنه جاء هدية من مؤلفه المستشرق الكبير الدكتور أ . ر . نيكل (Dr. A. R. Nykl) .

ولا أغالى حينا أقول إن الكتاب جدير بأن يحتل مكانه بين مؤلفات أزهى عصر من عصور الأدب العربى . وهو ليس بكتاب القارئ العادى الذى يبغى القراءة العابرة والتسلية الخفيفة كما يجدها فى صحيفة يومية أو قصة روائية ، بل هو كتاب القارئ الملم بالأدب العربى المطلع على تاريخ الأندلس الواقف على ثقافتها . لمثل هذا القارئ يجد فى الكتاب روضة فسيحة الأرجاء ساطعة الضياء ، تزينها القصور والأبهاء ، وتتخللها التلال والبحيرات وتنتشر فيها الأشجار الوارفة ، يجلس القارئ فى ظلها يمتع الطرف بما حوله ، أو يمضى فى طوافه متنقلا من صفحة إلى صفحة فيرى من الجمال نواحى لم يكن ليعثر عليها وحده دون طويل بحث وشديد عناء . ولا يقتصر الكتاب على ما يهيئه من متعة الحواس بل يتعداه إلى ما يوقظ الذهن ويثير القريحة . فالمؤلف من فطاحل الأدباء ، واثق من علمه ومعرفته ، ولا يتردد فى التصريح برأيه مشفوعاً بالحجة والبرهان حينما يعالج أمراً اختلفت فيه الآراء . وهو بحر فى العلم والأدب ، واسع الاطلاع ، بعيد النظر قوى الملاحظة ، لم تنج من نقده حتى مجلة « المستمع العربى » ! فقد بين خطأً مهماً فى عددها الثامن عشر من المجلد السادس فى عام ١٩٤٥ ، وقد تحرينا الأمر ووجدناه على صواب فيما أشار إليه ، ولا يسعنا إلا الاعتذار عما وقع من خطأ .

والكتاب يضم بين دفتيه أكثر من أربعمائة صفحة . ويبدأ بمقدمة تليها نبذة تاريخية عامة تستعرض فى إيجاز ووضوح تاريخ الأندلس من عام ٧١١ إلى عام ١٤٩٢ . وتأتى بعد ذلك فصول خمسة تتناول العصور الرئيسية فى تاريخ الأندلس وهى عصر الإمارة والخلافة ، وعصر ملوك الطوائف ، وعصر المرابطين ، وعصر الموحدين ، وعصر بنى نصر فى غرناطة ؛ وتتضمن هذه الفصول مذكرات تاريخية قيمة ونماذج من أدب كل عصر ، وقد ترجمت إلى اللغة الانكليزية ؛ يلى ذلك فصول يتحدث فيها المؤلف عن الشعر الدارج أى « الزجل » ، مستشهداً بالأمثلة التى نقلها إلى قراءته بالأحرف الإنكليزية وألحق بها ترجمتها الإنكليزية . وينتهى الكتاب بفصل عن العلاقة بين شعر الأندلس وشعر الغنيين القدماء فى جنوب فرنسا . وكل فصل مذيل بحواش عن المراجع وتعليقات مستفيضة عن النقط التى تعتبر مثار جدل ونقاش .

وقد أصدرت دار العلم للملايين فى بيروت كتابا يرافق هذا المجلد وفيه النصوص العربية للأشعار التى ذكرها المؤلف ونقلها إلى قراءته بالإنكليزية . (المستمع العربى)

October 1950

(الثقافة)

ونحن مع مشاركتنا لمجلة المستمع العربى فى حسن تقديرها الكتاب وأهميته ، نأخذ عليه أنه عنى بالجانب التاريخى أكثر من عنايته بالجانب الأدبى ، فقد حمله الجانب التاريخى على أن يختار من العصور المختلفة ما يمثل كل عصر ، وإن كان بعض هذا الشعر إذا قيس بالمقياس الفنى البحت لم تكن له قيمة كبيرة .

وأيا ما كان فنحن نشكر المؤلف على حسن عنايته وترجمته هذا الشعر إلى اللغة الإنجليزية ، والتعريف به لأوساط لا تعرفه من قبل .

أحمد أمين

من غير عنوان !

لا تدعني مع الهموم وحيدا
يا نديمي ، ولا تخلني فريدا
جف نبعي ، وبدد السهد جفني
وصباحي وضحوتي .. تبديدا
فاملأ الكأس جمرة واسقنيها
لنزيح الظلام عني بعيدا
لا تقل لي : غداً فتوقظ عقلي
ومن الخير أن يظل بليدا
لي يومي وفي غدٍ لست أدري
ما ألاقي : أشقوةً أم سعودا
وتولى أمسي فأصبح عهداً
ضاع مني وكم أضعت عهودا
كل شيء يمضي فياليت شعري
أحرامٌ إن كنت أمضي سعيدا ؟

•••

هذه اللحظة التي أنا فيها
ما يضان بها عقباً شريدا ؟
ما يقال عن الجفاف وكأس
جذوة مسها يذيبُ الحديدا ؟
فاملأ الكأس واسقني يا نديمي
إن كأس الحياة كانت صديدا
جُنت الأرضُ والعباد فأمسى
كل حر يعيش فينا فقيدا
كم ذكي يموت موتاً بطيئاً
وغبي يعيش عيشاً رغيدا
وجريء في قيده يتلوى
وجبان غر يقود الجنودا
وقبيح قد ألبسوه حديدا
وعمي ساقوا إليه الوفودا
ووضيع له الرجال مطايا
بينما أصبح العزيز مسودا
كم أديب كم عالم كم شريف
مات سهواً أو عاش كماً زهيدا
سنة العيش والحياة فهيا
يا نديمي فلستُ إلا شريدا
لا تقل لي : غداً فتوقظ عقلي
ومن الخير أن يظل بليدا
لي يومي وفي غد لست أدري
ما ألاقي : أشقوة أم سعودا

•••

إيه يا آدم العظيم سلاماً
لك نهديه والداً ووليدا
عشت في جنة النعيم زماناً
ثم خلفتها .. لأمر أريدا
لِمَ تعصي الإله ، هل كنت تبغي
من نعيم الحياة شيئاً جديدا ؟
إنها المرأة التي خلقتنا
تركت آدم الحكيم عميدا
فعصى ربه ومال إليها
وهي مالتْ فكان يوماً شديدا
كم حبيب جنى الجدود عليه
وجنوا فهل نلوم الجدودا ؟؟
فاملأُ الكأس واسقنيها جهاراً
يا نديمي فقد سئمت القيودا
إنني الوارث الذي أثقلوه
تبعات ، وأتعبوه وعيدا
لا تقل لي : غداً وهذا حلال
أو حرام .. فلست إلا حفيدا
لي يومي وفي غد لست أدري
ما ألاقي : أشقوة أم سعودا !

•••

الهشيم الذي تراه نثاراً
في ثرى الروض كان – يوماً – ورودا
والتراب الذي تدوس عليه
كان وجهاً أو وجنة أو خدودا
والثمار التي تعيش عليها
من دماء ارتوت وصارت حصيدا
والقبور – التي تضم خليطاً
من رفات العباد – تبغي مزيدا

ضاقت الأرض بالحساد فأضحى
كل شبر فيها يضم لحودا
يا نديمي غدا الفناء علينا
حين أبقى مع الرموس الدودا
إنها سنة الطبيعة تبلى
كل صرح مما تراه وطيدا
فاملأ الكأس واسقني يا نديمي
ثم سلني : هلاّ عرفت الوجودا ؟
لا تقل لي : غدا فتوقظ عقلي
ومن الخير أن يظل بليدا
لي يومي وفي غد لست أدري
ما ألاقي : أشقوة أم سعودا

* * *

والحياة التي تراها متاعاً
ونعيما .. وجنة .. وخلودا
والجمال الذي يلوح مضيئاً
شعّ منه الضياء عطفاً وجيدا
لخضعنا لحكمه .. وامتثلنا
وسجدنا لمن يراه سجودا
والشموس للمخدّرات الأواني
تنشر النور غامراً ومديدا
والقصورُ التي تضم رجالاً
ونساء وسادةً وعبيدا
والنزاعُ الطويل ما بين قوم
فهموا العيش عدةً وعديدا
أشعلوا الحقدَ والعداوة حتى
باتت الأرض للحروب وقودا
كل هذا ... يمضي ، ولا شيء يبقى
كل هذا يبيدُ فيا أبيدا
فدعوني أمتع اليوم نفسي
بشبابي فإنه لن يعودا
لي يومي وفي غد لست أدري
ما ألاقي : أشقوة أم سعودا ؟

علي بيرم

في النقد الأدبي

(بقية المنشور على صفحة ٢٠)

ولنسمع إلى « قدامة بن جعفر » إذ يقول : « وأما الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين . ويستعمل في المذاهب ، والديانات ، وفي الحقوق ، والخصومات ، والتنصل في الاعتذارات ، ويدخل في الشعر والنثر . وهو ينقسم إلى قسمين : أحدهما محمود والآخر مذموم ، فأما المحمود فهو الذي يقصد به الحق ويستعمل به الصدق ؛ وأما المذموم فما أريد به المماراة والغلبة ، وطلب به الرياء والسمعة » .

ولا يغيبن عن الفطنة أن الزعم بالتجديد لا يزيد عن فقاعات من زبد تنسفها حركة يسيرة تبدر في محيط الوعي الأدبي العميق ، ما دام هذا الزعم عاريا من الحجة ، قائماً على الزيف . وأعتقد أن أصدق مثل يلوح كالعلم كما بحث ظاهرة من تلك الظواهر ، هو ما قصه الله سبحانه عن موقف المعاندين العاجزين أمام القرآن القوي حين قال : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

ليس النقد الأدبي متعة عارضة يتلهى بها ، وإنما هو رسالة تطوق بها الأعناق ، ويحاسب حاملها على كل صغيرة وكبيرة مما اشكرته عقليته ليرى هل يتحرى الحق في منهجه ، أو أنه يحكم نفسه وهواه ؟ وما على من يرشح نفسه لتلك الرسالة الكبرى إلا أن يأتي بنقده فينظر إليه مدققا ليدرك مدى مستطاعه فيها ، وليسأل ضميره : هل في طاقته تقدير الإنتاج الفكري من جميع نواحيه ؟. وهل أوتي قوة الحزم بحكم فصل له تخضع الجباه ، وتعنو الآراء ؟ وهل أعطى قوة الحجة وحكمة الأسلوب حتى يقبت المراجعة والمجادلة ؟ . فإن كان الإيجاب عقب كل سؤال فليطمئن وليتقدم غير هياب ولا وجل ، وسيجد أمامه التقدير والاحترام .

وبعد ، فتلك كلمة حق لا يقصد بها كاتب بعينه ، وإلا كانت عبثاً ، وإنما يرمى بها إلى غاية أبعد مدى ، وأنبل مقصداً ، وهي حفظ القلم الذي أقسم به الله في كتابه ، عن الهبوط إلى مستوى لا يليق بالكرامة والأمانة .

(طنطا) بركات

الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز الدكتور أحمد أمين بك — الإدارة — رئيس التحرير المسئول محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٢١ — الاثنين ١٠ من صفر سنة ١٣٧٠ — ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

أســـــباب الحرب

للأستاذ علي أدهم

لا نزاع في أن الحرب آفة من الآفات القديمة المستعصية ، وهي في العصر الحديث أشد نكراً وأفدح ضرراً وأسوأ آثاراً ؛ وكان المأمول أن الإنسانية في عصر الحضارة والاستنارة قد تهتدي إلى أسلوب آخر في علاج خلافاتها ومشكلاتها أكثر تهذيباً وأسمى غاية ، وما قيمة التجارب إذا كان الإنسان لا يتعلم منها ولا ينتفع بها . وقد اختلفت آراء المفكرين الاجتماعيين في تعليل بواعث الحرب وتفسير أسبابها ، ولم يستقر لهم قرار على رأي من الآراء ، ولم ينعقد إجماعهم على باعث من البواعث ، وأوضح الأسباب التي يعللون بها الحرب وأبرزها ثلاثة أسباب : السبب الأول هو وجهة النظر الاشتراكية ، وهي ترجع الحروب إلى الأسباب الاقتصادية المحضة ، وتفسر الحرب باعتبارها عنصراً لازماً في مرحلة خاصة من مراحل التقدم الاقتصادي ؛ والرأي الثاني وهو في الأغلب رأي المفكرين الأحرار والاقتصاديين القائلين بمذهب حرية التجارة ، وهو ينكر وجود علاقة محتومة بين الرأسمالية والحرب . والحرب في رأي أصحاب هذا الرأي نوع من الارتداد والرجعى ، وأثر من آثار ميول غرستها في النفوس الأحوال الاجتماعية القديمة ، وتصور للدولة كما كانت تتصورها الأسر المالكية السالفة الطامعة في المجد وبسط النفوذ وامتداد السلطان ؛ ويضاف إلى ذلك حالة الفوضى الدولية السائدة في العلاقات الأممية والتشبث بمعتقدات فاسدة زائفة ، وأوهام فارغة تقيم العقبات في طريق التفاهم المعقول والنظر الصحيح ، وتغري الناس بالجري وراء سياسات ما كانوا ليتعلقوا بها لو فطنوا لما تجره عليهم من النكبات والرزايا . والرأي الثالث هو رأي أنصار التحليل النفسي ، وأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن السبب الرئيسي للحرب هو الميل إلى الاعتداء الكامن في غرائز الإنسان وإخفاق بواعث الكبح وعجزها عن كف عاديته ، وما دام هذا الميل إلى الاعتداء مستولياً على النفوس ، فلا التربية ولا النظم السياسية ولا النظم الاقتصادية بمجدية في استئصال العلة وحسم الشر ، والأمر يستدعي قبل كل شيء بذل جهود جبارة لإزالة التوترات اللاواعية والعقل النفسية وتجفيف ينابيع الهم والكراهة والحقد والضغينة .

والرأي الاشتراكي في تعليل الحرب يقوم على نظرية في الإمبريالزم تكفل بشرحها البحاثة الاقتصادي القدير

هبسن ، واستوفى بيانها فى كتابه القيم عن الإمبريالزم . وهبسن يفرق بين الاستعمار والإمبريالزم ؛ فالاستعمار هو هجرة جزء من الأمة إلى ناحية خالية أو مكان قليل السكان ، واحتفاظ هذا الجزء من الأمة بتبعيته لبلاده الأصلية ، وإيجاد نظم فى البلاد المستعمرة مماثلة لنظم أمته واحتفاظه بسيطرتها والخضوع لأحكامها ؛ أما الإمبريالزم ، فهى أن تحتل فئة قليلة من الناس بلاد غيرهم من الأمم متذرعين إلى ذلك بمختلف الذرائع ، زاعمين أن السكان الأصليين عاجزون عن الحكم الذاتى وغير صالحين له . والإمبريالزم بهذا المعنى مصدرها الأصيل فى رأى هبسن ضغط رأس المال الصناعى على الأسواق والرغبة فى توظيف المال وتصدير الزائد عن الحاجة من الإنتاج الصناعى فى الوطن الأصلى ؛ فالإنتاج الزائد من الحاجة ، كذلك رأس المال الزائد الذى لم يجد أصحابه مكاناً لتوظيفه ، قد أرغما بريطانيا وألمانيا وهولندة وفرنسا على الاندفاع فى سياسة الإمبريالزم وضم مساحات شاسعة من الأرض إلى أملاكها .

ومصدر الشر فى رأى هبسن هو سوء توزيع قوة الاستهلاك ، لأنها تمنع من امتصاص أو استنفاد السلع والانتفاع برأس المال فى حدود البلاد الأصلية ؛ وطلب أسواق جديدة فى رأى هبسن ليس ضرورة محتومة للتقدم الصناعى ، وإنما هو كما قدمت شىء سببه سوء توزيع قوة الاستهلاك ، بحيث إنه لو وجد توزيع عادل للأرباح والسلع لانتفت البواعث على طلب الأسواق الخارجية .

والدور الذى تلعبه العوامل غير الاقتصادية لا يمكن إنكاره ؛ فالوطنية المتطرفة وحب المغامرة والجشع السياسى والمطامع الحربية لها تأثيرها فى حب التوسع وبسط النفوذ ، وغاية ما يقال هو أن الشئون المالية تحفز الهمم المتوثبة وتنصب لها الغرض الذى تقصده وتهدف إليه ؛ والتنافس على توسيع الممتلكات وبسط النفوذ استوجب الإمعان فى التسلح والتأهب للحرب ، وقد مهد ذلك بطبيعة الحال لحدوث التصادم ونشوب الحرب ، وقد أوقع ذلك فى نفوس الأقوام أن مصالح الدول متعارضة ، وأن الحرب وسيلة لا متحول عنها فى تحقيق المطالب ، وأنه لا وسيلة للخلاص من خطر الحرب الدائم ؛ وأصحاب هذا الرأى يرون أن النزعة القومية ليست عقبة فى طريق السلم ، وأن حب التوسع والعدوان هو الذى جعل النزعة القومية المسالمة نزاعة إلى الحرب مولعة بالأذى والشر ، والقوة الدافعة إلى ذلك ليست قوة قومية ، وإنما هى قوة حزبية طبقية ، فهناك طبقة من الناس تستفيد من ذلك . وليس معنى ذلك أن هذه الطبقة تبحث عن الحرب وتمهد لها لبواعث أنانية مادية تسترها بالكلمات الرنانة والصيغ الأخلاقية والمسوغات الأدبية ، فإن الأمر أدق من ذلك وأخفى مدباً ؛ والذين يؤيدون سياسة التوسع والامتداد لا بد لهم فى بادئ الأمر من مخادعة أنفسهم قبل أن يخدعوا غيرهم ويغرروا به .

ورأى الماركسيين يشبه رأى هبسن من بعض الوجوه ، ولكنهم لا يقتصرون فى تعليل الإمبريالزم على مسألة نقص الاستهلاك المحلى ، وإنما يرون أن الإمبريالزم مرحلة لا بد منها من مراحل النظام الرأسمالى وهو فى طريقه إلى الإفلاس والانهيار . والإمبريالزم فى نظرهم هى الرأسمالية فى حالة التدهور والانقراض ، فالدول التى تعيش على تصدير رأس المال مضطرة إلى أن تسير فى طريق التأهب الحربى وخوض غمار المعارك .

وبعض أحداث التاريخ الحديث تؤيد هذا الرأى ، ومنشأ التوتر فى العلاقات الدولية بين الأمم كان مرده فى كثير من الحالات إلى التنافس فى التوسع وبسط النفوذ والتسابق فى اقتحام الأسواق الخارجية وإيجاد مناطق النفوذ ؛ وقد كانت أزمة فاشودة تحدث حرباً بين إنجلترا وفرنسا فى سنة ١٨٩٨ للسيطرة على السودان ، وقد تركت فى النفوس أثراً سيئاً ظهر فى الخلافات التى كانت تنشأ بين الدولتين بعد ذلك . وقد كادت أزمة مراكش التى وقعت فى سنة ١٩٠٥ وعادت إلى الاشتداد فى سنة ١٩١١ كادت تحدث حرباً عالمية ، وسببها تصادم المصالح التجارية والتزاحم على مناطق النفوذ بين فرنسا وألمانيا وانجلترا . ومهما كانت الأسباب التى أدت إلى نشوب حرب البوير من التعقيد

والاختلاط ، فمما لا شك فيه أن المصالح المالية كان لها فيها الضلع الأكبر والأثر الأقوى . ومن أسباب احتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ الخوف على الأسهم الأجنبية ، يضاف إلى ذلك الرغبة في حماية قنال السويس . ونشأت الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ بسبب النزاع على كوريا ومنشوريا . واستيلاء اليابان على جزء كبير من الصين قبل الحرب الكبرى الأخيرة كان سببه البواعث الاقتصادية والرغبة في التوسع .

وقد وجهت إلى النظرية القائلة بوجود علاقة محتومة بين سياسة التوسع الإقليمي وضغط رأس المال الزائد نقدات كثيرة جديرة بالنظر والتأمل ؛ فقد لوحظ في بلاد الإنجليز مثلاً أن تصدير رأس المال قد بلغ نسبة كبيرة سنة ١٨٧٥ وأن هذا التصدير لم يكن مرتبطاً بفكرة التوسع الإقليمي ، لأن اشتداد حركة التوسع كان بين سنة ١٨٨٤ وسنة ١٩٠٠ . وأصحاب هذا الرأى يحاولون أن يثبتوا أن تصدير رأس المال يمكن أن يحدث بدون توسع إقليمي محتوم . والحجة الأقوى من ذلك هي أن بعض حالات التوسع الإقليمي قد لا يمكن تفسيرها بمسألة الرغبة في توظيف رأس المال ، فروسيا القيصرية لم تكن تملك رأس مال زائد من الحاجة ، ورغم ذلك كانت من أحرص الدول على التوسع الإقليمي في العصر الحديث ؛ وأسباب الرغبة في التوسع هنا هي الطموح السياسي وشهوة السيطرة والتملك وجنون العظمة والمجد الغالب على الأسرات المالكة . ومما لا شك فيه أنه كان هناك الكثير من التوسع الحربي قبل ظهور رأس المال والتنافس على المصالح التجارية ، ولكن روسيا في القرن التاسع عشر كانت تجارى الدول الراغبة في التوسع ، ولم يخل الأمر من دوافع اقتصادية ، فقد كان رأس المال الفائض يستعار من الماليين الفرنسيين .

والتوسع الإقليمي الإيطالي قد لا يثبت النظرية التي ترد الحرب إلى الأسباب الاقتصادية ، فقد كانت إيطاليا فقيرة ، وما أفادته من مستعمراتها موضع الشك ، ويبدو أن الرغبة في الفخار القومي والتمجد كانت هي الدافع على التوسع ، ولكن بالرغم من أن الأمة الإيطالية بوجه عام لم تفد من هذا التوسع ، فإن بنك روما وبنك إيطاليا لا بد أن يكونا قد غنما من ذلك الأرباح الطائلة . ولا نزاع في أن المثل الذى ضربه الإنجليز لسائر الأمم في التوسع الاستعمارى كان يحفز هذه الأمم إلى الاقتداء بها في الأخذ بهذه السياسة وترسم خطواتها . وكأنما عز على الدول أن تترك إنجلترا منفردة في هذا الميدان !.

ويرى بعض المفكرين الاقتصاديين أن رأس المال لم يكن هو السبب الأصيل في التوسع الاستعمارى ونشوب الحرب ، وقد تتبع أحد هؤلاء المفكرين بعض الأمثلة الحديثة البارزة مثل النزاع الإيطالى الفرنسى على تونس ، ومثل النزاع الإيطالى التركى على طرابلس ، ومثل النزاع الروسى البريطانى على النفوذ في إيران ، فوجد أن التدخل المالى قد اتخذ في جميع هذه الحالات وسيلة للأهداف السياسية ، أى أن أسباب النزاع كانت سياسية قبل أن تكون اقتصادية ، ومن رأيه أن الخلافات بين الأمم على توظيف رأس المال لا تصبح خطيرة منذرة بالشر إلا حينما تكمن وراءها الأغراض السياسية ، وأن الأهداف المالية لا تلقى تأييداً إلا إذا ساندتها الأسباب السياسية ، والواقع أن الأغراض السياسية مرتبطة ارتباطاً شديداً بالأهداف المالية الاقتصادية .

ونرى من ذلك أن النقد الموجه إلى التفسير الاقتصادى للحرب لا ينقض فكرته الأساسية ، وإنما يبصرنا بالدوافع الأخرى التى تشتبك به وتشد أزره ، مثل الرغبة في بسط النفوذ وطلب المجد وحب الفخار وسمو الشأن .

والاقتصاديون الأحرار لا ينكرون أن تدخل الحكومات في المسائل الاقتصادية كان من أقوى أسباب التصادم بين الدول ، ولكنهم يرون مع ذلك أن اشتباك العوامل الاقتصادية بالعوامل السياسية ليس من المسائل الكامنة في طبيعة النظام الرأسمالى ، بل هى تشويه له وقلب لأوضاعه ، وليس بين الرأسمالية والإمبريالزم علاقة محتومة ، بل إن

القوة فى أيدى أغنياء قلائل ، أما الباقون الذين لا يملكون رءوس أموال فليس لهم إلا الإرهاق والعمل الشاق مع الفقر والحرمان ، فعمل على ضمان العدل ، وعلى تهيئة نظام العمل ، واستطاع بواسطته أن يرفع من مستوى المعيشة فى روسيا للعمال والفلاحين ، وذلك بكثرة الإنتاج وتسهيل التقدم الفنى فى الصناعات .

أما غاندى ، فقد خصص حياته لتربية الروح والنفس والسمو بهما . لقد رأى المجتمع لا يقدر المشكلات الروحية والنفسية حق قدرها ، ورأى تهافت الناس على الثروات والسلطات المادية ، ورأى أنه إن اهتم الفرد بروحه وخلقه وقدر استقلاله الذاتى وحريته الشخصية استطاع أن يصل إلى درجة عظيمة من الرقى والكمال ؛ فدعا دعواته الروحية بين الشعوب ، وبث عقيدته هذه فى الملايين ؛ وقد نجح غاندى نجاحاً جعلنا نعتبره من أكبر المصلحين الذين أخرجتهم الحياة منذ بدء الخليقة .

لقد رأى برنارد شو أن للحياة اتجاهين ، اتجاهاً تتحكم فيه المادة والقوة ، وقد استطاع ستالين أن يبلغ الذروة فى تنظيم هذا الاتجاه ، وبلغ غاندى الذروة فى تنظيم الاتجاه الآخر ، وهو الاتجاه الروحى والخلق .

ربما استطاعت فلسفة القوة أن تعيش وحدها ، وربما استطاعت فلسفة الروح أن تعيش وحدها ، ولكنى لا أعتقد أنهما يستطيعان أن يجتمعا معاً إلا كصورتين فوق سرير الفيلسوف .

أحمد أمين

أسباب الحرب

(بقية المنشور على صفحة ٦)

أنه ينظر إلى المسألة من وجهة فردية محضة ، ولا يلقى باله إلى مسألة تأثير النظم فى سلوك الأفراد ، والتغيرات التى تطرأ على النظم السياسية أو الاقتصادية يكون لها تأثير بعيد المدى فى سلوك الأفراد . وربما كان الأصوب حينما نقدر تأثير العوامل النفسية فى مسألة الحرب أن ننظر كذلك إلى ضغط العوامل الاقتصادية وتأثيرها فى توجيه الأفراد والجماعات . ولا نزاع فى أن بواعث العدوان والحرب لها جانبها النفسى ، ولكن ليس معنى ذلك أن نهمل النظر إلى جانبها الاقتصادى وجانبها السياسى ، وأى تغيير يستحدث فى نظم التربية لعلاج الأحوال النفسية لا بد أن يصحبه تغيير فى النظم الاقتصادية والسياسية ليؤتى ثمرته ويحقق غايته .

ويمكن أن نستخلص من ذلك أننا لا نستطيع أن نعلل كثرة الحروب فى العصر الحديث بسبب واحد ، لأن أسبابها كثيرة متنوعة مختلطة متشابكة ، وهناك الأسباب المباشرة وإلى جانبها الأسباب التى تجعل الأحوال مواتية والظروف مهيأة لنشوب الحرب ؛ فهناك مثلا التنافس على الاستعمار واستغلال الأسواق ، ووجود مساحات واسعة تسكنها بعض الأمم المتخلفة مما يتيح الفرص للتسابق والتزاحم ، وهذا الميل إلى التوسع الاستعمارى قد شجعه وجود النظام الرأسمالى الذى يستدعى البحث عن أسواق لتصريف فائض الإنتاج ، وبذلك يخلق العداوات والاحتكاكات والمنافسات التى تؤدى إلى الحرب وتفسد جو العلاقات الدولية . وما أحسب الأخذ بالنظام الاشتراكى يقضى على أسباب هذا التنافس ويجتث جذور الشر ؛ فالدول التى تنقصها المواد الخام ، أو التى زاد إنتاجها عن استهلاكها ستجد نفسها فى موقف منافسة يشبه من أكثر الوجوه موقف الدول الرأسمالية .

والحرص على السلم يقتضينا معالجة الأسباب الاقتصادية والأسباب السياسية والأسباب النفسية ، فمن أى ناحية يبدأ العلاج ؟ المسألة على ما يظهر شديدة التعقيد ، والظاهر أن العلاج لا بد أن يكون شاملا لجميع النواحى فى وقت واحد ، وهو أمر لست أدرى هل هو فى طوق البشر ؟ وأفضل ما فى الموضوع أنه لا مفر من هذا العلاج الشامل إذا أريد تجنيب العالم ويلات الحرب واستئصال شأفتها والقضاء على جرثومتها .

على أدهم

في ضوء الصباح

لعبــــة الحصان

للدكتور زكي نجيب محمود

حسب صاحبنا « الأحدب » حين افترقنا أني أدبرتُ عنه كما أدبر عني ؛ لكني تعقبته لأرقبه وهو يتحسس لنفسه الطريق في زحمة الناس أمام الحي الذي يخشى أن تلتقي بعينيه عينان ؛ إنه على وعي شديد من نفسه ؛ إن ذراعيه تجرانه وتربكانه ، أين يضعهما ؛ وذلك دليل على حيرة نفسه وارتباكها ؛ ألا إن الذراعين لتخبرانك بمكنون النفس كما تحدثك العيون والشفاه ... إنه لا يمشي في ضوء الصباح إذا وجد الظلام ، ولا يقصد إلى مزدحم الطريق إذا رأى الفضاء المهجور ؛ عيناه مصوبتان نحو الأرض دائماً ، وقدماه تحتكان الأرض حتاً خفيفاً .

عبر الطريق في موضع كثر فيه العابرون ؛ إنه في العابرين بارز واضح ؛ إنه لا يفنى في الزحام ، ولا يذوب في الناس ؛ إنه فيهم كنقطة من الزيت صُبّت في قدح من الماء ، تحركها إلى أعلى وأسفل ، وإلى يمين ويسار ، فما زال شيئاً متميزاً عن الماء الذي حولها ؛ إنه في أمواج الناس على طول الشارع لم يفقد معالمه ، أخذ يعلو على تلك الأمواج البشرية حيناً ويهبط حيناً ، أعني أنه كان يظهر لي حيناً ويختفي حيناً آخر ، حتى انتهى إلى شارع هادئ متباعد المصابيح .

كان ظله مروعاً مخيفاً ، يقصر ويطول ، ثم يطول ويقصر ؛ هو الآن مطروح أمامه ، وهو الآن إلى جانبه ، وهو الآن ممدود وراءه يتابعه ويلاحقه ، وهو في كل أوضاعه أبعد ما يكون الظلال عن صورة البشر .. وما هو إلا أن دخل « الأحدب » داراً ، بخطوات سريعة ، كأنه الأرنب الفازع يأوي إلى جحره ليسكن فيه آمناً من طراد الصائدين .

فوقفتُ بغتة ، ثم سرتُ مسرعاً نحو الباب الذي قذف « الأحدب » بنفسه فيه ؛ لم أر شيئاً هناك إلا مصباحاً كهربائياً خافت الضوء جداً في الركن الأعلى من بهو السلم ، إنه بناء عال من ستة طوابق أو سبعة ؛ وحين صعدت بصري في لمحة سريعة إلى أعلاه ، لم أر إلا نوافذ وشرفات ، أكثرها معتم وأقلها مضيء .

من عسى هذا « الأحدب » أن يكون ؟ ترى هل ينطوي جنباه على سر دفين ، أم أنه لا سر في الأمر ، وكل ما في جوفه قد برز وَرَماً على ظهره ؟ لكنه شاذ غريب بغير شك ؛ إنه يستوقف النظر ، بل يستوقف الفكر ؛ إنه لا يندمج مع الناس في عجينة واحدة ، ولا ينطمس مع من حوله في سديم ؛ إنه قطعة منثورة وحدها ؛ والويل كل الويل ، ثم الخير كل الخير ، من هذه القطع التي تنثرها عجلة الحياة بعيداً عن إطارها ، فتظل دائرة في فلك وحدها ؛ من هؤلاء يكون الثائرون الساخطون الهادمون ، ومن هؤلاء يكون العظماء المصلحون ، ومن هؤلاء يكون الأنبياء والأولياء ، ومن هؤلاء يكون المجرمون النوابغ في إجرامهم ، ومنهم يكون الفنانون النوابغ في فنهم ؛ الشبه قريب جداً بين هؤلاء جميعاً ، على بعد ما بينهم من تفاوت واختلاف ، كسيل الماء العرم ، هو الذي يصلح الزرع ، وهو الذي يفسده ، حسب ما يحيط به من ظروف .

و « الأحدب » — فيما يظهر لي — قطعة بشرية منثورة وحدها ، تدور في فلك وحدها ، ترى من ذا يكون وماذا يكون ؟

وبتُّ ليلتي أفكر فيه وأفرض في أمره الفروض ، وعاودني الشعور بالواجب أن أصلح ما فسد ، فأقيم في هذا

المسكين ما التوى ، وأقوّم ما مال واعوجّ ؛ أو قل إن حبي لاستطلاع أمره قد غلبني ، فسترت نفسي وراء الشعور بالواجب . وتذرعت بهذا السلاح ومضيت عصر اليوم التالي إلى الدار التي دخلها « الأحدب » ليلة الأمس ، مضيت لا ألوى على شيء ، وأخذت أسرع الخطو حتى لا يصرفني التردد عن غايتي .

لم أجد عند الباب أحداً ، وتلفتُّ هاهنا وهاهنا ، وتحركتُ خطوتين هنا وخطوتين هناك ، ثم دخلت وصعدتُ الدرج مبطئاً غاية الإبطاء شاخصاً ببصرى إلى أعلى . الأبواب كلها مغلقة . صعدت الدرج حتى نهايته ، ونهايته سطح نظيف ، وقفت قليلاً وقلبي ينبض نبضاً شديداً ، من الصعود ومن الخوف معاً ؛ الخوف من هذا البناء المهجور الذي لا يعمره إنس ولا جن . لكني رأيت الضوء منبعثاً من نوافذه ليلة الأمس ... وهممت بالنزول ، لولا أني بلَفتَةٍ غريزية لويت عنقي ونظرت إلى نافذة مغلقة الزجاج في ركن السطح ؛ إن وجهاً يطل من خلف الزجاج ، إنه هو ، إنه « الأحدب » .

لم يعد بيني وبين كشف الغطاء إلا بضع خطوات خطوتها نحو غرفة « الأحدب » . وفتح لي الباب قبل أن أقرعه ... إن روحي لتهدأ قليلا قليلا ، إن الخوف ليزاح عني إزاء هذا الوجه الباسم الذي فتح لي الباب ليتقبلني مسروراً مرحِّباً ؛ ليس الوجه العابس في الطريق عابساً هنا ، والصدر الضيق على الجدار الذي لم يتم بناؤه رحيب واسع هنا ؛ ولولا بروز الورم فوق ظهره لقلت إنه إنسان آخر ؛ إنه استدبر في الطريق إشفاقي ، لكنه في داره استثار حبي وإعجابي ! إنه هاهنا يمزج في حديثه الجد بالفكاهة ، ويقول النكتة في إثر النكتة ويضحك من كل قلبه ، ألا سبحانك اللهم ، تضع الرجلين ، بل جمهوراً من الرجال في رجل واحد ! !

إن مشكلة « الذاتية » التي تحير الفلاسفة لم تعد تحيرني . إن الفلاسفة يصدعون رءوسهم تصديعاً في محاولة الجواب عن هذا السؤال : كيف يحتفظ الشخص الواحد بذاتية واحدة مع اختلاف ظروفه ؟ إنه يكون صحيحاً ويكون مريضاً ، ويكون طفلا ويكون رجلا ، ويكون شبعان ويكون جائعاً ، ويكون غضبان ويكون راضياً ، ويكون يقظان ويكون نائماً ، ومع هذا الاختلاف الشديد الذي يطرأ على حالاته يظل إنساناً واحداً ، فما الذي فيه يخلع عليه تلك الوحدانية مع تعدد حالاته وأوضاعه ؟ ... لم تعد تحيرني المشكلة التي تحير الفلاسفة ، بعد أن رأيت « الأحدب » في الطريق وفي داره ؛ فلا وحدانية هناك . ليس الرجل رجلا واحداً ، ولكنه عدة رجال ، هو في كل حالة رجل غير الرجل الذي يكونه في الحالة الأخرى ، فيستحيل أن يكون « الأحدب » العابس الجاد المهموم الحزين الذي رأيته وتحدثت إليه وهو جالس على الجدار الذي لم يتم بناؤه ، هو نفسه « الأحدب » الضاحك الفكه المرحِّب بي وهو في داره .

أدخلني « الأحدب » فبهرني روعة لاحظت خلاءها من الأثاث تقريباً ، وانتهينا إلى غرفة هي مأواه ؛ فيها كل شيء ، فيها السرير وصوان الملابس ومكتب ومكتبة ومنضدة ومقاعد ومرآة ؛ أثاثها هزيل لكنه نظيف ، وتتسدل على النافذة ستارة رقيقة فيها خروق ممزقة ، لكنك تشعر في غرفته بالطمأنينة وراحة النفس . وليست ديار الناس في ذلك سواء ، فقد أزور الدار وأحس أثناء زيارتي أني أتقلب على الشوك ، دون أن يكون بيني وبين صاحب الدار مايدعو إلى النفور ، ثم قد أزور الدار فينبسط صدرى وتطيب نفسي ، وأتمنى لو بقيت فيه اليوم كله . وقد قلت ذلك لصاحبي « الأحدب » فور جلوسي على مقعده الوثير ، الذي كان — فيما يظهر — جالساً عليه لتوّه ، لأن الحشية كانت ما تزال دافئة بحرارته .

قلت — إن النفس لتحس الطمأنينة في غرفتك هذه ، والمنظر الذي يطالعك من نافذتك رائع جذاب .

قال — إذن لا أحسب الفجوة بين نفسينا عميقة كما يبدو للوهلة الأولى ، فقد أعجبك مأواى هاهنا ، كما أعجبك ملاذى الهادئ الذي ألوذ به من صخب الحياة ؛ إن النفوس

الإنسانية لتشعر بالتقارب والتدانى فى حالات هدوئها ، حتى إذا ما عج بها عجيج الحياة ألفيتها متنافرة متعاركة ، لا عجب أن يكون الناس جميعاً سواء وهم نيام ، ثم يأتى الموت فيسوى بينهم إلى الأبد ...

وخشيت أن ينتقل صاحبى بذكر الموت إلى حالة من حالاته الكئيبة السوداء ، فغيرت موضوع الحديث ، وجعلت موضوعه أقرب ما وقعت عليه يدى على المنضدة الصغيرة الواطئة التى كانت أمام مقعدى .

فقلت : ما هذه المكعبات الخشبية الملونة المصورة ؟.

قال : وكان ورائى مشتغلاً بقلب الفناجين والأكواب — تلك لعبة من لعب الأطفال اشتريتها ألهو بها ! إنها مكعبات تُرَصُّ فتكون هذه الصورة أو تلك .

ودنا منى « الأحدب » وأشار بأصبعه إلى اللعبة وقد رَصَّ ما يقرب من نصفها ، فإذا هى صورة جواد عليه راكبه ولم يبق من الصورة إلا أرجل الجواد .

قلت : وأحسبك كنت فى سبيل إتمام الحصان بأرجله ؟.

قال : هذا ما حرتُ فيه ! حاولت عبثاً منذ ساعة الغداء ، فلم تستقم للحصان أرجل ، حتى لقد مللت فوقفت أنظر من نافذتى حين رأيتك قادماً .

قلت : وما فائدة الحصان بغير أرجله ؟ إن راكبه المسكين سيظل مشلول الحركة حتى تتم لحصانه الأرجل فيسير .

هنا وضع « الأحدب » قدحين كانا فى يده ، وضعهما على ظهر مكتبه ، وجلس . إنه « الأحدب » الذى رأيته هناك على الجدار ، وهو « الأحدب » الذى رأيته فى الطريق . عبس وجهه وتجهم ، ثم ساده استرخاء الذى فقد القدرة على الوقوف والحركة ؛ وابتسم لكنها ابتسامة غير التى ألفيتها ، هى ابتسامة صاحب النفس المريضة المعبأة بالهموم . ما أسرع التغير فى سماء هذا الرجل : صفو فى لحظة ، وغمام كثيف فى اللحظة التى تليها .

قال : لعل ذلك بعينه ما أعجزنى عن إقامة الحصان على قوائمه ؛ وإذاً فما أشبه الجد باللعب ... كأنى بك يا صديقى قد أتيتنى لتستطلع شيئاً من أمرى ، هذا هو أمرى قد كشفتُ عنه فى لحظة واحدة ؛ فى هذا الحصان المُقعد تتلخص قصة حياتى ؛ لكل امرئ جواده ، وكل جواد يسير إذا استقام على أرجله ؛ وجوادى كابٍ ، والأرجل هناك ، لكنها كانت تنتظر العين البصيرة لتضعها مكانها من جسم الجواد فيسير ؛ إن الذى يرى أحرف الهجاء أمامه ولا يستطيع أن ينشئ منها قصة مطردة أو قصيدة من الشعر يكون العجز فيه ولا يكون العيب فى أحرف الهجاء ؟.

قلت : دع عنك الآن هذا الحصان ولعبته ، وانظر ماذا أردت أن تضع فى هذين القدحين من شراب ...

لكنى صممت أن أستطلع قصة « الأحدب » أو قصة هذا « الجواد الكابى » .

زكى نجيب محمود

ألبير بابيـــه
وإعلان حقوق الإنســـان

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

عرفت الأستاذ ألبير بابيه قبل اليوم حينما قدمه صديقنا الدكتور عثمان أمين إلى العالم العربى فى كتابه « دفاع عن العلم » . وكنت أعرف أن اسم الكتاب فى اللغة الفرنسية : (La morale de La Science) أى « أخلاق العلم » ، ولكن الدكتور عثمان أمين لم تعجبه هذه الترجمة الحرفية لعنوان الكتاب ، فغيرها إلى هذا العنوان الشائق الجذاب « دفاع عن العلم » ! وهو تغيير عرضه صديقنا المترجم على أستاذه « ألبير بابيه » فأقره عليه ووافق على تغييره أيضاً فى الطبعة الفرنسية الثانية .

ومن ذلك الحين وهو يقرب من أربع سنوات ، لم ألق « ألبير بابيه » فى كتاب ولم أصادفه فى بحث ، إلى أن وجدت اسمه على كتاب جديد ترجمه الدكتور محمد مندور إلى العربية ، وأعانت على إخراجه الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ... فقلت فى نفسى : هذا كتاب صادفه الحظ وواتاه السعد تأليفاً وترجمة وإخراجاً ونشراً . فمؤلفه أستاذ الأخلاق والاجتماع فى السوربون ، ومترجمه أديب ملحوظ المكانة ، ومخرجته إدارة نرجو الله أن يزيدها توفيقاً فى ميدان الثقافة العربية ، وناشرته لجنة لم تضن على العرب بنفائس الغرب وروائعه ، كما كان لها فى إحياء التراث العربى القديم مقام محمود ، ومكان مشهود .

وحقوق الإنسان لا ترجع فى نظر « ألبير بابيه » إلى تلك الوثيقة التى أقرتها الجمعية التأسيسية فى فرنسا سنة ١٧٨٩ والتى احتفلت فرنسا — فى سنة ١٩٣٩ ، وقبيل الحرب العالمية الثانية بأسابيع — بمرور ١٥٠ عاماً على إعلانها . وإنما كانت المناداة بحق الإنسان فى الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية نتيجة لجهود بشرية ضخمة قام بها أحرار الرجال فى كل أرض وعصر منذ أكثر من ألفى عام .

ولقد كانت النكسة الروحية والردة الخلقية التى أصابت العالم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، كما كانت طلائع الانتكاس الذى سبق الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ من أهم الأسباب التى دفعت « ألبير بابيه » إلى تأليف كتابه « تاريخ إعلان حقوق الإنسان » ، الذى لم يكد يظهر فى طبعته الفرنسية الأولى حتى أعلنت الحرب الثانية نتيجة للحماقة السياسية التى أبدتها ألمانيا النازية ، ونتيجة لتلك الروح الدكتاتورية والنزعات الفاشية والعنصرية ، التى كان من أهم دعائم قيامها كبت الحريات ، والعودة بالإنسانية إلى ظلام القرون الأولى ، وما فيها من تقديس عبادة الرئيس وتمجيد حقوق القوة .

وفى دخان هذا الجو الذى يخنق الأنفاس فى الجبهتين النازية والفاشية بأوربا ، عكف « ألبير بابيه » على مكتبه فى باريس مدينة العلم والنور ليخط فى إيجاز دقيق تلك الخطوط العالية لحقوق الإنسان ، وليعود إلى الوثيقة الفرنسية التى أعلنت سنة ١٧٨٩ ، فيستعرض مبادئها مبدأ مبدأ ، ومادة مادة ؛ وليردها فى سلسلة من الصراع الإنسانى الحر الكريم إلى أصولها الأولى منذ قدمت مدينة « أثينا » فى عصر « بركليس » النحوى اليونانى مثالاً للمدينة التى يعيش فيها المواطنون على قدم المساواة والحرية . فقد كان الشعب نفسه فيصلاً فى كل ما يمس مصالح المدينة من غير أن يكون له نائب ... وكان من حق كل مواطن أن يدخل الجمعية كما أراد ، وأن يتكلم فيها إذا أراد . ولكن المناصب لم تكن مشاعة لكل سائل ، ولا ممكنة لكل طالب ، وإنما يصل إليها ذوو الكفاية وأصحاب الامتياز . ومقياس الامتياز ليس فى شرف النسب ومكانة الطبقة ، وإنما هو فى « الموهبة » التى تؤهل صاحبها لأن يكون « خادماً » للمدينة مهما كانت حالته المادية وطبقته الاجتماعية .

وكانت هذه الديموقراطية الأثينية التي وصفها « بركليس » ونسبها إلى « توسيديد » إلهاماً للذين كتبوا الوثيقة الفرنسية سنة ١٧٨٩ . ففي المادة الخامسة منها : « إن جميع المواطنين لما كانوا متساوين أمام القانون ، فإنهم متساوون في إمكان الوصول إلى كافة المراتب والمناصب والوظائف العامة ، تبعاً لكفاياتهم ودون أي تمييز بينهم ، غير ما يتحلون به من فضائل ومواهب » .

ولا يقف « ألبير بايه » صامتاً أمام نظام الرق في بلاد اليونان ، ويبدي دهشته من أن ديموقراطية مثل ديموقراطية « أثينا » كيف تبيح لنفسها أن يقوم بجانبها نظام الرق الإنساني ! ولكن قيام العرف اليوناني على هذا النظام لم يمنع أن يقوم أكثر النفوس حرية لينادي : « إننا جميعاً ، وفي كل شيء ، متساوون في الميلاد ! إننا جميعاً نستنشق الهواء من الفم والأنف » . ولم يمنع أن يرتفع صوت آخر قوي يقول : « إني — ياسيدي — وإن أكن رقيقاً إلا أن هذا لا يمنع من أن أعتبر إنساناً مثلك ... لقد خلقنا من نفس اللحم .. وليس هناك أرقاء بالفطرة » .

وأكاد ألمح من كلام « ألبير بايه » أنه يريد أن يقول إن المنطق في الدفاع عن الحرية والحق الإنساني شيء ، والتقاليد والمواضعات الاجتماعية شيء آخر .. فإن أفلاطون — على الرغم من عبقرية تفكيره الإنساني — قد قبل الرق كوضع قائم في بلاد اليونان ، أو كشيء مسلم به في غير مشقة ولا صعوبة .

وعلى الرغم من أن الديموقراطية اليونانية قد تعرضت للامتحان على يد الرومان ، فإنها استطاعت أن تبلغ أمانة الحق الإنساني إلى أفراد الشعب الروماني الذين حاولوا أن يحصلوا على حق التشريع بواسطة الاستفتاء الشعبي ، وعلى حق المساواة أمام القانون ، وعلى حق الإصهار إلى طبقة النبلاء ، وحق الحصول على الوظائف العامة والمناصب الحكومية . وهو ذلك الحق الذي تمتعت به مدينة « أثينا » اليونانية زماناً في عصر « بركليس » .

ولا يزال « ألبير بايه » يمشي بنا في دروب الرومان نحو حقوق الإنسان حتى نلتقي معه بالزعيم الشعبي « ماريوس » الذي ثار ورفع علماً لحقوق الشعب ضد طبقة النبلاء التي لم يكن يعنيها من أمر الشعب شيء ، وكانت تحاول — في قوة وعنف — أن تقيم كل يوم بينها وبينه سداً . وما كان أصدق « ماريوس » وهو يقول : « إني أعتقد أنه ليست هناك غير طبيعة بشرية واحدة ، هي طبيعة مشتركة بين الجميع ! وأكثر الناس نبالة إنما هو أكثرهم حزماً ونشاطاً .. » . أو يقول عن هؤلاء النبلاء الذين يتعالون على بقية الشعب ، ويظنون في أنفسهم أن لهم عليهم مزية من فضل : « لقد خلف لهم أجدادهم ما استطاعوا أن يخلفوا ! خلفوا لهم ثروات ، وصوراً ، وذكريات ... ولكنهم لم يخلفوا لهم الفضيلة النفسية ! وما كان باستطاعتهم أن يخلفوها ... لأن الفضيلة هي الشيء الوحيد الذي لا يوهب ولا يورث .. » .

وفي هذا الجو الخليط من صلصلة القيود وهمهمة التحرر كان يسود بلاد الرومان جو من التسامح الديني ! فالعبادة حرة لمن يشاء ، والمذاهب المادية تقوم بجوار المذاهب الروحية من غير اعتراض ، والمؤمن والملحد يدفن كل منهما بجوار صاحبه ، والمصريون الذين يقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر يوسدون الثرى في جوار الذين يؤمنون بالعالم الآخر ...

وفي هذا الجو المختلط أيضاً قامت أصوات جريئة قوية تقاوم الرق من جديد .. فيعلن المشرع « فيليوس » : « إن الطبيعة مشتركة بين الأحرار والعبيد » . وينادي الفقيه « أليان » : « بأنه لا يمكن في نظر القانون الطبيعي أن يولد إلا رجال أحرار .. وبموجب هذا القانون لن يكون لنا جميعاً غير اسم واحد ؛ وهذا الاسم هو : بنو الإنسان » . ثم يزيد على ذلك قائلا : « إن العبيد في نظر القانون الوضعي لا يعتبرون موجودين .. ولكن الأمر ليس كذلك أمام القانون الطبيعي .. وذلك لأن هذا القانون يعتبر جميع الرجال متساوين » .

وهذا الحق الطبيعي الذي لفت المشرع « أليان » إليه الأنظار كان مصدراً آخر من مصادر الإلهام في الوثيقة الفرنسية لحقوق الإنسان .

وأجمل ما في « ألبير بايه » هو تلك الصراحة النادرة

(البقية على صفحة ١٦)

كيف؟

العنب والبنجر ينافسان قصب السكر

للأستاذ عبد البارى نعمت

لعلك قد سمعت عن السكر المستخرج من العنب أو لعلك قد ابتعته مرة من الصيدلية باسم الجلوكوز Glucose على هيئة مسحوق أبيض — إن الجلوكوز يوجد على حالته الطبيعية فى العنب بكميات كبيرة — ولو أنك تتذوق طعم هذا السكر عندما تأكل العنب ، إلا أنك لا تستطيع أن تراه فوق هذه الفاكهة اللذيذة أو بداخلها ، ولست مستطيعاً رؤيته إلا عندما تجففه الشمس ويتحول إلى زبيب ، والزبيب من الأطعمة الشهية الغنية بالسكر ، وينتجه جنوب إفريقيا وأستراليا وكاليفورنيا وفرنسا وكثير من بلاد جنوبى أوربا .

وعندما يصير العنب زبيباً يمكن رؤية الجلوكوز الذى يحتويه عصيره على هيئة حبيبات صغيرة صفراء ، وربما ظننتها فى بادئ الأمر من ذرات الرمال وخلتها ألصقت بحبات الزبيب ، ولعلك قد لاحظت لزوجة الزبيب وما تتركه هذه اللزوجة من الأثر بين أصابعك .

ويمتاز سكر العنب بأنه سريع المفعول فى إنعاش الشخص الذى أنهكه التعب نظراً لسرعة هضمه وسهولته ، وإلى ذلك يعزى السبب الذى من أجله يصفه الأطباء للمرضى ويستحسنون تعاطيه لهم ، ويصفونه على الخصوص للمصابين بعسر الهضم أو الإمساك وينصحونهم بإحلاله فى طعامهم محل سكر القصب لأن الأخير يبطئ هضم الطعام فى حين أن الجلوكوز على العكس من ذلك كما قدمنا .

ويستعمل الجلوكوز أيضاً فى صنع الفطائر والربيات . ولما كان من المتعذر الحصول من العنب على جميع الكمية التى تلزم العالم من الجلوكوز ، فقد لجأ العلماء إلى سد النقص صناعياً . وتصنع اليوم كميات كبيرة منه بغلى النشا المضاف إليه حمض الكبريتيك المخفف ، وهذا فخر يضم إلى مفاخر الكيميائيين ومآثرهم العديدة لما أنتجوه بمعاملهم من مواد تنفع الناس .

والمنافس الحقيقى القوى لسكر القصب هو السكر المصنوع من البنجر ، وقد استخرج منه لأول مرة منذ مائتى عام ، ولكن لم يتم تشييد أول مصنع له إلا بعد مرور خمسين عاماً ، وتم ذلك بمدينة برسلاو بألمانيا — ولم تتركز زراعة البنجر ببريطانيا إلا بعد مرور أكثر من مائة عام منذ بدئ فى استخراجه . وتزرع بريطانيا منه الآن ٣ آلاف الأفدنة ، وقد بلغ متوسط غلة محصول الفدان الواحد فى سنة ١٩٤٦ — ٤٧ أحد عشر طناً ، وأمكن استخراج ٥٧٠,٠٠٠ طن من السكر من جملة غلة الأفدنة المزروعة .

وليس بنجر السكر نباتاً طبيعياً ، بل هو هجين من نوع واطئ من بنجر البحر الذى ينمو برياً بالمستنقعات الطينية القريبة من شواطئ البحار . والبنجر الأحمر الذى نأكله سلطة يحتوى على كمية من السكر ، ولكن كمية السكر التى يحتويها البنجر المائل لونه إلى البياض تفوق كثيراً هذه الكمية .

ولا تقتصر زراعة بنجر السكر الآن على المزارع الواسعة ببريطانيا ، بل انتشرت كذلك فى روسيا وألمانيا وكندا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وفى غيرها من البلاد ؛ ونظراً لوجود تنافس قوى بين منتجى سكر البنجر للحصول على أكبر كمية ممكنة

من كل نبتة على حدة ، فقد انتخبت منه أنواع أكثر تحسناً وأعظم إنتاجاً حتى وصل إنتاج النبتة الواحدة من البنجر الآن أكثر من ضعف كمية السكر التي كانت تنتجها منذ السنوات القليلة الماضية .

ويداوم أكثر من ٥٠٠٠٠ مزارع في بريطانيا على زراعة البنجر سنوياً ؛ ولما كان هدف الجميع الحصول من الأرض على كل أوقية ممكنة فإنهم يعمدون إلى زرع ٣٠،٠٠٠ نبتة في كل فدان من أرضهم ، ويشتمل الفدان الإنجليزي على ٤٨٤٠ ياردة مربعة — ولكي يتحقق الزارع الحصول على ٣٠،٠٠٠ نبتة فإنه يضطر إلى زرع ١٥ رطلا من البذور ويكون ذلك في فصل الشتاء بعد حرث الأرض — وزرع البنجر في شهر أبريل في خطوط يبلغ البعد بين كل منها ١٤ بوصة ، وهذه المسافات الصغيرة الكائنة بين الخطوط تمكن العمال من وضع أقدامهم عند تنقية الحشائش وعند إجراء العمليات الزراعية اللازمة قبل أن يكون المحصول صالحاً للجمع .

وعندما تنبت البذور وينمو نبات البنجر قليلاً تخف النباتات فتقلع الضعيفة منها وتترك القوية ، ويتم هذا الخف والتقليع باليد ، وهذه العملية من أهم العمليات ، ويؤدي تأجيلها أو التأخير في إجرائها إلى خسائر جد فادحة يقدرها العلماء بما لا يقل عن طن من البنجر بالنسبة لكل فدان عن كل أسبوع من أسابيع التأخير ؛ وذلك لأن النبات لا يتيسر له النمو إلى الحجم المطلوب إذا كان يجاهد للحصول على الضوء والهواء جهاداً عنيفاً في ذلك الخضم من النبات الكثيف ؛ ولكن إذا هيئ المجال الحيوي اللازم لكل نبتة ، فما يوافي ميعاد جمع المحصول حتى يبلغ وزن كل واحدة من البنجر رطلاً ، أو ما يقرب من الرطل ، وبجانب عملية خف المحصول تتم عملية تنقية الحشائش .

وزراعة البنجر تختلف عن زراعة القصب من حيث عدم بقاء البنجر بالحقل إلى أكثر من سنة ، وقد يزرع الحقل الواحد بنجراً كل سنة ، ولكن لضمان نجاح الزراعة يجب تغيير الحقل . وليس البنجر من النباتات شديدة العطش ، بل هو من النباتات كثيرة الجوع ، والحكمة في ضرورة تغيير الحقل الذي يزرع فيه البنجر سنوياً ترجع إلى حدوث الإنهاك بالأرض التي يزرع فيها ، فلو عادت إليها زراعته ثانية لما وجد المحصول التالي في تربتها المنهكة حاجته من الغذاء الضروري ، ولذلك يزرع البنجر في دورة تشمل القمح والبطاطس ، كما أن هذا الإجراء يساعد في القضاء على آفة بالغة الضرر تكمن في داخل الأرض ، ويطلق عليها اسم « الدودة الثعبانية » . وإذا لم يزرع البنجر في حقل معين وغاب عنه مدة عامين أو أكثر ، فإن هذه الآفة التي قد تكون كامنة في التربة منذ المحصول السابق تكون قد هلكت جوعاً ، وعندئذ لا يحدث ضرر لو أعيد زرع هذا الحقل بالبنجر .

إن ما تقدم يعطيك فكرة لا بأس بها عما يعانيه زارع البنجر ، ويبدأ هذا الزارع يحصد ثمرة تعبه ويتلقى مكافأة جهوده في موسم الحصاد الذي يبدأ في شهر أكتوبر من كل سنة ، وهو وقت ملئ بالأعمال والمشاغل ، وقد يمتد أحياناً حتى آخر شهر نوفمبر . وإذا كانت الأرض مفككة تفكيكاً طبيعياً ، فإن وحدات البنجر الكاملة النمو يسهل نزعها باليد ، ولكن لو كانت الأرض متماسكة فنزع البنجر باليد يكون وقتئذ مستحيلاً ؛ فتستعمل لهذا الغرض آلة رافعة يجرها حصان أو جرار . ومهما تكن الطريقة المستعملة لنزع البنجر من الأرض ، فإن العمال يجوسون خلال الصفوف ينزعون جذور النبات كل اثنين منها دفعة واحدة ، وبعد تخليصها مما قد يكون عالقاً بها من أجزاء التربة يضعونها فوق الأرض ثانية جاعلين من الصفين صفاً واحداً ، وعندما يتم ذلك بالنسبة لجميع الصفوف يزود العمال بسكاكين طويلة متينة ، ويأخذون في فصل سيقان النبات وأوراقه ، وبذلك يتجمع البنجر الكبير الحجم في كومات كبيرة ، كما تتجمع سيقانه وأوراقه في كومات أخرى .

يأتي بعد ذلك دور نقل البنجر من الحقل إلى المصنع ، ويتم ذلك إما بواسطة اللوريات ، أو بواسطة عربات تجرها الخيول ، وإذا كانت مصانع السكر غير قريبة فينقل البنجر إليها بواسطة السكة الحديدية ، أو بواسطة طرق النقل المائية .

وعندما تصل كميات البنجر إلى مقرها الأخير تفرغ في كومات عالية ، ثم يبدأ في غسلها . وتزود مصانع سكر البنجر بمجار مائية تلتقي بجوارها هذه الكومات العالية ،

ويسير البنجر فيها حتى تتلقاه آلات الغسل فتنظفه جيداً، ويتجه البنجر الذي تم تنظيفه آلياً إلى حيث يوزن، ثم يدفع إلى آلات تقطعه وتجعل منه شرائح، وهذه تحمل على ناقلات تذهب بها إلى أوان حديدية يغمرها الماء الساخن فتنقع بها وتظل بها بعض الوقت، وتتصل هذه الأواني بعضها ببعض بأنابيب تسمح بدوران الماء الساخن بداخلها جميعاً، وهو يجمع في أثناء دورانه هذا جميع العصير السكري الذي تحتوي عليه هذه الشرائح المنقوعة.

وهذا الشراب الرقيق الذي كان من قبل ماء ساخناً يتجه من أوانيه الحديدية إلى أوان أخرى كبيرة حيث يمكث بها حتى ترسب جميع الشوائب بأسفلها، ثم يصفى ويغلى ويكرر كما يعامل عصير القصب سواء بسواء، حتى تستخلص منه بلورات السكر ويتبقى العسل الأسود.

وبعد أن يجف السكر ويحزم نستطيع أن نعود إلى الأواني الحديدية التي وضعت بها شرائح البنجر واستخرج منها عصيرها؛ فإننا نجد لباب البنجر، أي متخلفاته قد نقلت منها وجففت وأعدت للبيع، ويقبل على شرائها الزراع غذاء للماشية الذين عندهم؛ وخلط هذه المتخلفات بأجزاء العليقة اليومية لهذه الماشية يحسّن نوع لبنها ويزيد كمية إدراره، وتعرض من هذا النوع من العلف في الأسواق مئات الآلاف من الأطنان سنوياً.

عبد الباقي نعمت

ألبير بابيه

(بقية المنشور على صفحة ١٣)

المثال — إلا عند العلماء — حينما يناقش الفيلسوف الفرنسي «برجسون» فيما رآه من أن المسيحية انتهت بعد جهود مضنية إلى إعلان حقوق الإنسان. وما أجمل هذه الصراحة التي ينادي بها «ألبير بابيه» قائلاً: «إن هذا الرأي الظالم بالنسبة للإنسانيات القديمة ليصطدم بكل الحقائق الثابتة، فالإمبراطورية المسيحية والقرون الوسطى المسيحية كانت أبعد ما تكون عن الانطلاق نحو الحرية والمساواة، وهي على العكس — قد احتفظت بنظام الطبقات، وباستعباد الشعب سياسياً، كما أصّلت تعصباً مروعاً لم يعرفه العالم القديم».

وما وجدت — في الزمن الأخير — مسيحياً يهاجم المسيحية كما هاجمها الأستاذ «ألبير بابيه» في كتابه هذا؛ فقد كان شديد الوطأة عليها وعلى رجال الكنيسة في الصفحات ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦ من الترجمة العربية لكتابه هذا.

وإذا كان التعصب الديني قد ساد في أوربا سيادة كان من أثرها قيام حركة الإصلاح على أساس من التحرر العقلي، وقيام طائفة من المصلحين الدينيين من أمثال «لوثر» و«كلفن» و«زونجلي»، فإن الأدباء لم يقفوا صامتين أمام حركة «الحق الإنساني»، كما كانت أصوات الفلاسفة ترتفع منادية بالإعلان عن هذا الحق. حتى نبلغ القرن الثامن عشر فنرى فيه أن فكرة «النبالة» تعود من قديم لكي يعلن أصحابها أن «النبل والشرف» ليسا في سمو الميلاد ولكن في فضيلة الأعمال. وهي الفكرة التي نادى بها «ماريوس» الروماني من قرون عديدة، ثم نادى بها «بوالو» الشاعر الناقد الفرنسي في القرن السابع عشر، حينما نقد عدم المساواة الاجتماعية نقداً مراً، مهاجماً الأشراف (الذين يلتمسون مجداً باطلاً في الأوسمة والبراءات العتيقة البالية.. ويظنون أنهم قد نحتوا من طين غير الذي نحت منه بقية الناس... ويعلن أن الفضيلة النفسية هي آية النبل الوحيدة)؛ وهو كلام يذكرنا بقول الشاعر أحمد شوقي:

لا يقولون امرؤ أصلي فما أصله مسك وأصل الناس طين

كما يذكرنا بقول الشاعر العربي من عدة قرون.

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

• • •

الحق إن تاريخ إعلان حقوق الإنسان كما يعرضها «ألبير بابيه» تعد تلخيصاً دقيقاً لتاريخ الحرية الإنسانية التي حاول الإنسان أن يدافع عنها منذ دب على الأرض، ولا يزال يدافع عنها ليضمن كيانه الإنسان الكريم...

محمد عبد الغني حسن
الأستاذ بكلية البوليس الملكية

القبح والعمل الفني

للأستاذ عز الدين إسماعيل

هربرت ريد من الشخصيات اللامعة في المحيط الفني لكثرة ما ألف في الفن والنقد الفني ، حتى يعد الآن من أبرز الكتاب في إنجلترا . ونحن نطالع في أوائل كتابه «معنى الفن» رأياً هاماً ، فيه لفت النظر إلى معرفة علاقة الفن بالجمال . فيشير إلى أننا نحاول أن نعد كل ما هو جميل فناً ، وأن كل ما هو فن فهو جميل ، وأن ما ليس جميلاً لا يكون فناً ، وأن القبح يتنافى مع الفن . وهو بطبيعة الحال يستنكر هذا الفهم للعلاقة بين الجمال والفن ، ويذهب إلى أن الفن ليست له صلة ضرورية بالجمال . وهذا الرأى في الواقع يلفتنا لا إلى علاقة الفن بالجمال فحسب — وكيف هي غير ضرورية — بل أيضاً ينبهنا إلى أن الفن له شأن بغير الجميل أو بالقبيح دون أن يغير ذلك من حقيقته كفن . فإذا كانت فلسفة الجمال وثيقة الصلة بالفن أو فلسفته ، فإن فلسفة القبح — ذلك الوجه المقابل — لا تقل عنها مساساً بالفن أو فلسفته ؛ لأن الفن كما يعبر عن الشيء الجميل فهو أيضاً — كما لوحظ — يعبر عن القبيح . وتأخذ المشكلة صورة أخرى فنتساءل : كيف يستوى الجمال والقبح في نظر الفن ، أو كيف يتخذ الجمال والقبح مادة للفن ؟ والسؤال التالي بطبيعة الحال هو : كيف رضى الناس عن الفن الذى ينقل إليهم الشيء القبيح رضاهم عنه حينما ينقل إليهم الشيء الجميل ؟ .

هذه المشكلة التي لفت إليها ريد ليست في الواقع حديثة ، فإن فلسفة القبح قد سارت منذ اللحظة الأولى موازية لفلسفة الجمال . فنحن نذكر أن أرسطو اعتبر الفن يصور الناس كما هم أو خيراً مما هم أو شراً مما هم ؛ وهو يصورهم شراً مما هم في مجال الكوميدى . والمضحك في نظر أرسطو ضرب من القبيح ؛ فالكوميدى إذاً فن ينقل ما هو قبيح . وكذلك يلاحظ أرسطو ملاحظة تعد متممة للرأى الأول وتتكرر كثيراً ، وهي أن الفن التقليدى Imitative غالباً ما يكون التقليد فيه مقبولاً ولو أن الشيء المقلد أو المنقول يكون غير مقبول . وعبارة أرسطو في كتابه «Poetics» ترجمة بتشر ص ١٥ : (والسبب في أن الناس يستمتعون برؤية الشبيه هو أنهم بتأملهم فيه يجدون أنفسهم يتعلمون ويستنبطون الأفكار وربما يقولون : «آه ! هذا هو !» ؛ لأنه إذا حدث أنك لم تر الأصل فإن المتعة لن يكون سببها التقليد ، وإنما ترجع إلى الإتقان أو اللون أو أى سبب آخر من هذا القبيل) . وأرسطو حريص على أن يشير إلى أن إثارة الذهن والشعور بالإعجاب متعة ، ولذا كانت هناك متعة في العمل الفني رغم خلو محتواه من الجاذبية .

وكما قلت إن المشكلة ظلت تتنقل على أقلام الباحثين ، ويهمنا الآن مجرد استعراض الآراء المختلفة فيها . تساءل بوزانكيت : هل يمكن أن يصير ما هو قبيح حقاً جميلاً في الفن ؟ فإذا أجبنا بنعم فهل يكون العمل الفني موافقاً ومناسباً أصله ؟ وإذا كان لا فكيف نعجب بمثل هذا العمل ؟ في الحقيقة إن الشيء القبيح لا يمكن — كما يرى بوزانكيت — أن يصير جميلاً ، ولكن التقليد يثير إعجابنا عندما يكون مطابقاً . صورة الشيء القبيح لا يمكن أن تكون صورة جميلة ، وإذا كانت فلا يمكن أن تكون متساوقة مع أصلها . فالجمال ، والتقليد الجميل (ليس المقصود عمل صورة جميلة بواسطة هذا التقليد ، والمقصود النجاح في التقليد) هما شيئان مختلفان تمام الاختلاف . والسبب في أننا نعجب بمثل هذه التمثيلات في الفن هو العلاقة التي تنشأ بين ذهننا وبين ذكاء الفنان ومهارته بالضبط ، كما تتفق لعب الحيوانات وعقلية الأطفال فيعجبون بها .

وهنا ما يزال بوزانكيت — مثل أرسطو — يتكلم عن

استجابة ذهننا لمهارة الفنان وذكائه ، في حين أنه من المهم أولاً وقبل كل شيء، أن يكلمنا عن العلاقة بين ذكاء الفنان وأهمية الأشياء التي يصورها ، لأنه كما ينقل إلينا الشيء الجميل — في نظرنا أو كما هو معروف لنا — فإنه كذلك ينقل إلينا ما هو قبيح في حد ذاته ، أو في نظرنا ، أو كما هو معروف لنا أيضاً . والمتعة التي تحدث لنا بسبب مهارة الفنان في نقل القبيح تحمل في طيها ضمناً أن ما هو قبيح كل القبح ، ولكنه معجب في الفن ، فيه شيء يستطيع الإدراك أن يفهمه على أنه جميل . وهذا الإدراك بطبيعة الحال هو إدراك الفنان أولاً وإدراك المستمتع بفنه ثانياً .

وأفلوطين لا يوافق أرسطو وبلوتارك على الأهمية التي أعطياها لمهارة الفنان في التقليد ، وينزع منزعاً روحياً فيرى المعنى من عمل العقل ، وأن الصورة هي التي توصف بالجمال أو عدمه . والشيء القبيح هو الذي يكون غير قادر على الحصول على صورة عقلية متميزة ؛ ومن هنا كان الجمال في الصورة فقط لا في المادة .

وأهم ما نلاحظه عند بركه Berke بخصوص القبيح هو أنه لا يجد مانعاً من أننا نقبله في الفن مثلما نقبل العواطف المؤلمة ويلذ لنا مشاهدتها في الحقيقة ، لأنها بمجرد اعتبارها عواطف تعد ممتعة وإن كانت مؤلمة (كما يمكن أن يقال) في محتواها . كذلك الأمر بالنسبة للقبيح ؛ تكون مهمة الفنان دائماً أن يرتفع بالحقيقة إلى مرتبة الشبه الفني (الجمالي) بدلاً من أن يهبط بها إلى مرتبة الحقيقة الناقصة (أي المجردة) وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال إن الحقيقة يمكن أن ينظر إليها نظرة فنية إذا لم تكن تلك النظرة قاصدة إلى المتعة العملية . والطبع الفني يتكون في غياب هذا النوع من المتعة . وكما كان الفن والحقيقة في مستوى واحد لا يكون هناك مجال لتشخيص الجمال بعمقنا قراءة الحقيقة ، بل سيحدث أننا سنرى الجميل على حقيقته والقبيح على حقيقته . وإذن فالمتعة الفنية تحدث عندما تكون الحقيقة — وإن كانت تعبر عن قبيح — معبّراً عنها التعبير الفني .

ويأتي « لسنج » فيرفض حجة أرسطو في حدوث الأثر الممتع لتقليد الحقيقة غير الممتعة مشيراً إلى أن القبيح في الصورة يحدث أثره غير المقبول منفصلاً تماماً عن الرجوع إلى أي مصدر لوجوده الحقيقي ، فمهما قيل من مهارة في التقليد فالمظهر أو الصورة ما تزال قبيحة مثل الحقيقة . و «لسنج» على وجه العموم يخرج القبيح من ميدان الفنون الجميلة ، أو بمعنى آخر يفصل بين القبيح والجميل .

وهناك خطاب فريد بعث به شلر إلى جوته ويظهر لنا فيه أثر فكرة شليجل في الجمال والقبح حيث يقول شلر : يخطىء الكثيرون في إرجاع فكرة الجمال إلى محتوى العمل الفني بدلاً من معالجته ؛ ثم إنهم بعد ذلك يحتارون بطبيعة الحال عندما يجدون أنفسهم — لاعتناقهم هذه الفكرة عن الجمال — يسيل إدراك الجمال في تمثال أبولو في الفاتيكان والتماثيل الأخرى التي تشبهه والتي يكفي محتواها لجعلها جميلة ، بجانب تمثال لوا كون .. أو غيره من التماثيل المؤلمة أو الوضيعة ؛ وهكذا الشأن في الشعر ... وبودي لو تمحى هذه الفكرة من الوجود ومعها كلمة الجمال نفسها التي اتصلت بها في الحقيقة كل تلك المعارف الزائفة ، وأن يوضع مكانها — كما هو المعقول — كلمة الصدق Truth ، بأكمل معاني الكلمة .

ومن هذا الخطاب يتبين لنا أن اعتبار المحتوى هو مقياس الجمال أو القبح خطأ ، لأنه لا يهم مطلقاً أن يكون محتوى أبولو جميلاً ومحتوى لوا كون قبيحاً ، ومع ذلك يعجب الناس بكلا التمثالين ويجدون فيهما متعة فنية . وإن لم يكن هذان التمثالان من أبولو ولوا كون يصوران الفكرة في صدق ، لإمكان فهم محتواهما فهماً آخر غير الذي فهمه الفيلسوف ، فإن الفكرة في حد ذاتها على كل حال تهدف إلى أن الجميل والقبيح يصلحان — وقد صلحا في التمثالين — لأن يكونا مادة للعمل الفني الممتع . وإذا ما بلغت الحيرة بالنفوس أمام هذا التناقض العجيب لم يكن هناك بأس من أن تمحو كلمة الجمال من الوجود لتزيل هذا التناقض الذي تحدثه الاصطلاحات من جهة والذي لا يعبر عن حقيقة ثابتة محدودة ، ومن جهة أخرى لتضع مكانها كلمة الصدق الذي هو جوهر الفن .

ثم يأتي هيجل . وهو يفرق بين الجمال في الطبيعة والجمال في الفنون بأن الأول لم يحدث بقصد التأثير الفني

أو الجمالى . ومعنى ذلك أن العملية الفنية فى حد ذاتها تكتسب جمالها من التأثير المقصود إليه بواسطة الفنان . ومهما عبر لنا الفنان من شىء قبيح — بمفهوم هيجل — فإنه مع ذلك لن يقدم لنا عملاً قبيحاً .

وهيجل يعتبر القبح شيئاً نسبياً ، وتسيطر عليه تماماً فكرة التطور بين الكائنات ، فإذا كانت أول صور الكائنات هى الجمادات كان جمالها أقل نسبياً من صورة الكائنات التى تليها والتى تتمتع بلون من الحياة وهى النباتات ، وهذه بدورها فى جمالها أقل نسبياً من الحيوانات التى تتميز فيها الحياة بصورة أوضح ، حتى إذا كانت أعلى صور الحياة هى صورة الإنسان كان الإنسان أجمل المخلوقات . فعلى مقدار ما يستمتع الكائن بالحياة يكون نصيبه من الجمال ! وإذاً فكل الكائنات جميلة وإن كان ذلك جمالاً نسبياً ، وكلها بالتالى صالحة لأن تكون مادة للعمل الفنى . ولكن متى إذاً يكون الكائن قبيحاً ؟ أو ما هو مفهوم القبح عند هيجل ؟ يكون الكائن قبيحاً عندما تبدو لنا صفاته عكس الحيوية على وجه العموم ، أو عكس ما اعتدنا أن نعتبره صورة الوجود الحى . ولكن نعود لنكرر أن الفنان مهما عبر لنا عن شىء قبيح فإنه مع ذلك لن يقدم لنا عملاً يقال إنه قبيح .

وإذا كنا هنا بسبيل عرض الأفكار لا نقدها ، فإن هذا لا يمنعنا من أن نشير إلى أن الترتيب الطبيعى لدرجات الجمال بحسب الترتيب الطبيعى لدرجات الكائنات فى الوجود أو الحيوية لا يكاد يستقيم مع النظرة الفنية الخالصة ، وإن استقام — عقلا — مع النظرة الطبيعية المجردة . ذلك لأننا قد نجد فى بعض الجماد من الجمال ما لا نجده فى الأحياء . وكم كانت الوردة من الورود جميلة حتى لكأنها مثال الجمال ! وإذا لم تكن الوردة يمكن حسابها فى عداد الجماد فقل كم كانت الشمس أو كم كان القمر !

عند هيجل إذاً تعد مسألة الحيوية هى الفاصلة فى مشكلة الجمال والقبح . ولكن هناك رأيا لا يقل أهمية عن هذا لروزنكرانز Rosenkranz هو أنه مع اعتبارنا الصورة الناقصة أو فقدان الصحة والزيف درجتين يظهر فيهما الميل نحو القبح ، فإن القبح الحقيقى أو الصحيح لا يحصل حتى نجد صفة عدم الحرية — مع إمكان القدرة على الحرية — معطلة — فى وضع إيجابى واضح — فى المكان الذى يجب أن يكون فى حيز الحرية .

ويسأل روزنكرانز : عندما نرى الفن ينقل القبيح مثل ما ينقل الجميل ألا يكون ذلك تناقضا عظيما ؟ وإذا أجبنا بأنه ينقل إلينا القبيح فقط باعتباره شيئاً جميلا ، ألا يكون نتيجة ذلك سوى وضع تناقض آخر على قمة التناقض الأول ؟ على أن ما هو قبيح لا يمكن أن يكون له وجود مستقل فى الفن . فإذا ظهر القبيح فى الفن فإنه لا يجب بتاتاً كيد أن يصير جميلا ، ومع ذلك فإنه يجب أن يأخذ صورة مثالية تمنحها له قوانين الجمال العامة كالتناسق والإيقاع والتناسب وقوة التعبير . وهذه المثالية لا تخفف أو تدارى القبح ، ولكنها على العكس تقوى الجانب الهام البارز المميز له .

وهكذا نرى أخيراً أن هربرت ريد حين لم يشترط الجمال فى الفن إنما كان ذلك الرأى خلاصة سلسلة من النظريات فى فلسفة القبح وفلسفة الجمال تلك التى عرضناها بكل إيجاز . ولكن ما زال لنا كلمة بشأن المشكلة نعرض فيها رأينا أيضاً بكل إيجاز .

من كل ما سبق نلاحظ أن واحداً من الباحثين لم يلتفت إلى الفرق بين علاقة الفنان بالكائنات وعلاقة الأشخاص العاديين بها . فكل ما سمى قبيحاً لم ندر إن كانت التسمية من وجهة نظر الفنان أم الشخص العادى . ذلك أن نظرة الفنان إلى الأشياء تختلف فى نفاذها وعمقها بحيث تتأثر بما فى أعماق الشىء أو ما هو خلف مظهره الخارجى ، عن نظر الشخص العادى الذى ألف الحكم المبنى على النظرة السطحية إلى الكائنات . والذى يحدث بالضبط — فى رأينا — أن شيئاً مما اعتدنا أن نسميه قبيحاً بناء على النظرة السطحية ، تقع عليه عين فنان نافذة فيحاول أن ينقله إلينا ، لا كما يظهر لنا ، بل ليبرز لنا ذلك الجانب الغائر الذى نفذ إليه فى ذلك الشىء . وغالباً ما يكون ذلك الجانب قريب المساس بعاطفة الفنان ومشاعره ، بحيث إنه حينما ينقله إلينا ينقل إلينا معه عاطفته ومشاعره . وطالما كانت العاطفة والشاعر معبرا عنها التعبير « الصادق » بمفهوم خلال السابق — كانت قريبة إلى نفوسنا محببة إليها وممتعة لها ، لأنها كشفت لها أو فسرت لها جانبا عميقاً فى بعض الكائنات تفسيراً عاطفياً هو لباب الفن وجوهره . وفى ذلك يستوى ما يقال عنه فى الظاهر جميل وغير الجميل .

عز الدين اسماعيل



روسو وحيـــاؤه

للأستاذ إدوار ملحمى

لا يشبع إعجاب الناس بتراجم العظماء سواء كانت بأقلامهم أو بأقلام مؤرخى حياتهم . إنها اللذة أن يعرف القارئ حياتهم الخاصة : ظروف نشأتهم ، بيئاتهم ، تفاعلهم مع هذه البيئات ؛ كيف كانوا يعيشون ، كيف كانوا يفكرون ؛ العوامل التى تدخلت فى تكوين شخصياتهم .. الخ . واعترافات روسو أعظم ترجمة كتبها رجل لنفسه . إنه فريد بين من دونوا قصص حياتهم ، ذلك لأنه قال كل شىء ، ولم يخف عنا شيئاً ، ذكر التافه من الحوادث بمثل الصراحة التى ذكر بها الهام ؛ ذكر سيئاته بمثل الإخلاص الذى ذكر به حسناته ، فعرض بذلك حياته كما كانت دون مواربة أو تزويق ، وهو جد فخور بما انتهى إليه . « لقد كشفت عن دخيلة نفسى كما رأيتها أنت نفسك (يا الله) . أيها الكائن الخالد ، اجمع حولى من أشباهى جمعاً لا يحصى ، وليستمعوا إلى اعترافاتى ، وليكشف كل منهم بدوره عن قلبه عند أقدام عرشك بنفس الإخلاص ؛ وليقل لك واحد فقط ، إن جرؤ : لقد كنت أحسن من هذا الرجل »[1] .

شىء واحد فى سلوك روسو العام قد يجذب انتباه القارئ كلما توغل فى اعترافاته ؛ شىء واحد قد كان يستبعده فى رجل له هذه الشهرة وهذا الصيت ، وما كان ليرضاه قط فيمن أعلن ما أعلن من أفكار وكتب ما كتب من أدب ، ألا وهو : الحياء . الحياء بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . فنحن نراه يحمر خجلا عند محادثته رجلا آخر ، ويتلجلج ويتلعثم إذا ما اضطر إلى إجابة سؤال شخص فى مجتمع ما ، ويهرب خائفاً من هذا ، ويختلق المعاذير عن لقاء ذاك . وما أكثر ما كان يعتكف فى داره تاركا صخب المجتمعات وما تضطرم من الأحاديث والمناقشات ! وما أكثر ما كان يخفض ناظريه أمام امرأة أو فتاة !

ما أصل هذا السلوك وما أسبابه ؟ أمنشؤه شعوره المتأصل بالذنب ، كما يقول روسو نفسه ، أم شعوره المتأصل بالذنب مضافاً إليه شعور متأصل بالنقص ، كما يمكن أن نقول ؟ ذلك ما سنوضحه فى هذه الكلمة ، أو ما سنحاول توضيحه .

• • •

ولد جان جاك بجنيف فى الثامن والعشرين من يونيو عام ١٧١٢ من إسحاق روسو وسوزان برنار . وكان والده فقيراً ليس له من دخل غير ما يكسبه من إصلاح الساعات فى جنيف ، بينما كانت والدته إلى جانب حكمتها وجمالها من عائلة غنية معروفة . وقد نحابا منذ كانا طفلين ونما معهما الحب وترعرع ، فتزوجا . وكان روسو ثانى ثمرات هذا الرباط[1] ... وآخرها ، فقد دفعت والدته حياتها ثمناً له .

(١) الكتاب الأول من الاعترافات .

(١) كان له أخ أسن منه بسبع سنوات ولكنه ترك أباه فى السنة السابعة عشرة ، ولم يعرف عنه شيئاً بعد ذلك .

« لم أعرف كيف تحمل أبي هذه الخسارة ، ولكني أعرف أنه لم يعز عنها أبداً . فقد كان يعتقد أنه يراها فيّ دون أن يتمكن من نسيان أني الذي انتزعتها منه ؛ لم يكن يضمني إلى صدره قط دون أن أشعر في تنهداته وفي ضمائه القوية بأن أسفاً مريراً يمتزج بمداعباته ... وعندما كان يقول لي : جان جاك ، لنتكلم عن أمك ، كنت أقول له : إيه ، حسناً يا أبي ، سنشرع في البكاء إذاً ، فكانت هذه الكلمة وحدها كفيلة باستدرار الدمع من مآقيه . آه ، هكذا كان يقول متنهداً ، ردها إلي . عزّني عنها ، املأ الفراغ الذي تركته في نفسي . ومات بعد أربعين سنة من فقدها بين ذراعي زوجة ثانية ، واسم الأولى على شفتيه وصورتها في أعماق قلبه »[1] .

لم تتبع هذه الصورة وصور أخرى من مخيلة جان جاك روسو ، بل جعلته حتى أخريات أيام حياته واقعاً تحت ما فيه من الشعور بالذنب ، وقد تأصل فيه منذ الطفولة منذ أن قصت عليه هذه الحادثة ، فتولد عنده مركب الذنب كما يتولد عند الآخرين مركب النقص أو أي من هذه المركبات الأخرى ! فنجده يقول : « كان (والده) يعتقد أنه يراها فيّ ، دون أن يتمكن من نسيان « أني » الذي انتزعتها منه » . فهو يرى نفسه مذنباً ! وهو لا يرى فيما اقترفه ذنباً واحداً ، بل ذنبين ترتب أحدهما على الآخر . فلئن دفعت والدته حياتها ثمناً لحياته ، فقد حرم أباه منها وقد كان يحبها بل يعبدها .

ولكن روسو ، بعد هذا كله ، أو قبل هذا كله ، لم يأت هذا العالم صحيح البدن موفور الصحة ؛ فإنه على العكس جاء ضعيفاً عليلاً ، بل جاء وهو بين الحياة والموت ، وكان الأمل ضئيلاً في بقائه . ولولا اعتناء عمته به عناية فائقة لما عاش . وقد لازمه الضعف وصحبته العلة حتى آخر أيامه على هذه الأرض . وكان من أثر ضعفه وعلته أن صار موضع اهتمام المحيطين به ورعايتهم ، فلم يكن يلقى منهم غير كل تدليل وعطف : كان « لعبة » الدار ، وكان معززاً محبوباً من كل إنسان ، ولم يكن ، حتى خروجه من البيت الأبوي ، يسمح له باللهو مع أترابه في الشارع ، ولم يكن يرفض طلباته أو تحد من رغباته إذا دعاه هواه أو إذا لحت عليه نوازع الطبيعة أن يرضي إحداها . كانت تربيته ناعمة فصار رخواً رقيقاً ليناً ؛ ولا ريب أن العطف الزائد من شأنه أن يركز انتباه الطفل على مرضه خاصة وإن كان مستديماً . ولهذا أصبح روسو شخصاً منكمشاً راكداً متباعداً منزوياً ... وهذا هو الشعور بالنقص المتكون من الضعف الجسمي . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تحول إلى ضعف الثقة بالنفس ؛ ومن مظاهره ، عند روسو ، التشدد والمبالغة في الرغبة في الإتقان للوصول إلى درجة الكمال . فتراه يقول : « ليس فيها [في مخطوطاتي] ما لم تلزمني نسخها أربع أو خمس مرات قبل دفعها المطبعة[1] » . فهو لا يرضى عن عمله ، فيعيد كتابته محاولاً التحسين ، ثم يعيد نسخه ... وهكذا ، حتى يرضى ، وهيهات أن يرضى تماماً ، ذلك أنه يبحث عن الكمال ... وأين الكمال في أعمال البشر !

ولا يدري روسو متى تعلم القراءة ، ولكنه يذكر أنه كان يقرأ مع أبيه القصص والروايات التي خلفتها أمه ، وأنهما تحولا عنها ، بعد أن فرغا منها ، إلى مكتبة جده لأمه ، وقد تجاوز السابعة بقليل ، وكانت تحوي لحسن الحظ أسفاراً لأعلام الكتاب والمؤرخين . كان أوقعها في نفسه : « رجال بلوتارخ » . في هذه القراءات اللذيذة كان يناقش أباه مناقشة الند للند ، ومن ثم تكونت عنده هذه الروح الحرة ، وهذا الطابع الشامخ غير القابل للخضوع . « في شغل دائم بروما وأثينا ، عائشاً مع رجالها العظام ، إن أمكن القول ، مولوداً أنا نفسي مواطن جمهورية ، وابن أب كان حبه للوطن العاطفة الكبرى ، كنت ألتهب بها على غراره ؛ كنت أتوهم أني إغريقي أو روماني ، وقد أصبحت الشخصية التي كنت أقرأ عنها : كانت قصص ثباتهم وجسارتهم تؤثر في نفسي بحيث تبعث الشرر في عيني والقوة في صوتي[2] » . وحتى في أيامه الأخيرة نجده يقول : « بين العدد الصغير من الكتب التي

(١) الكتاب الأول من الاعترافات .

(١) الكتاب الثالث من الاعترافات .
(٢) الكتاب الأول من الاعترافات .

ما زلت أقرؤها ، بلوتارخ أكثر ملازمة لى وإفادة . لقد كان أول قراءة لى فى طفولتى ، وستكون الأخيرة فى شيخوختى(١) » .

« هكذا كانت أولى انطلاقاتى عند مواجهتى الحياة ، هكذا بدأ يتكون أو يظهر هذا القلب الشامخ والرقيق فى نفس الوقت ، هـذا الطابع النسوى والجموح فى نفس الآن ، والذى — متأرجحاً بين الضعف والشجاعة ، بين الرخاوة والفضيلة — وضعنى حتى النهاية فى تناقض مع نفسى(٢) » .

* * *

أثرت فى حياة جان جاك روسو إذاً ، منذ طفولته ، ثلاثة عوامل : الشعور بالذنب وقد وضعه فى موقف اتهام دائم لذاته ؛ والضعف والذلة وقد جعلاه دائم التقليل من قيمة نفســه والتصغير من قدراته ... أما هذان العاملان فقد صنعا من روسو انكماشياً ، « انطوائياً » ، إن أمكن القول ، فى نفس الوقت الذى كان فيه متشبعاً بروح الإقدام والطموح ، وقد بذرتهما فى قلبــه المتـقد المشتعل أبطال روما وأثينا ، وهو العامل الثالث ؛ ومن ثم كان التناقض التام الظاهر بين قلمه ولسانه ، بين قلبه وفكره ، بين مظهره ومخبره ! وهو من أجل هــذا مبتلى حزين . فهو إذ يكون وحده ، فى عزلته ، يفكر ويكتب ويقول كل ما يمكن أن توحيه الجرأة والحرارة من فكر أو كتابة أو قول . وهو إذ يكون وحـده ، فى غرفته أو فى نزهتـه ، فهو الخطيب المفوه والمحدث الذى لا يُـدّ والناظر الذى لا يعلى عليــه ، فإذا خرج إلى الناس فقد ترك فى غرفته أو ودّع فى نزهتــه كل شىء إلا حياءه وانطواءه وانكماشه . القلب والفكر عند روسو لا يستجيب أحدهما للآخر ؛ فبينما نرى مزاجه مشتعلاً وأهواءه حية فائرة ، نرى تفكيره بطيئاً وبديهته غائبة ، وإن حضرت فبعد أن تكون قد فات أوانها . « قد يقال أن قلبى وروحى لا ينتميان إلى نفس الشخص(١) » . فهو يشعر ، فيمتلئ قلبه بشتى العواطف ، فإذا أراد ترجمة ما يصطخب فيه من الأحاسيس كلاماً خذله فكره ، وعصاه لسانه فامتنع عليه القول . إنه يود لو يقول كثيراً ، ولكنه لا يقول حتى القليل . فإذا تحدث ففى تخبط وارتباك . فى الجماعة « لأتكلم كلاماً مناسباً ، يجب أن أفكر جملة وللتو فى ألف شىء ... إنى لا أفهم كيف يتجرؤون على الحديث فى جماعة : لأنه يجب استعراض الحضور عند كل كلمة ؛ يجب معرفة كل طباعهم ونوازعهم للتيقن من عدم قول ما يمكن أن يغضب أحدهم ... هناك فى الحديث مواجهة صعوبة أخرى تفوق سابقتها ، هى ضرورة التكلم دائماً : فهم عندما يتحدثون إليك عليك أن تجيبهم ، وإن لم يتفوهوا بكلمة فيجب أن تبدأ أنت الحديث . إن هذا الإجبار غير المحتمل كان كفيلاً بأن يكرّهنى فى المجتمع ، فلست أجد شيئاً أكثر مدعاة للضيق غير ضرورة الحديث للتو ودائماً(٢) » .

ألا يحق لنا هنا أن نتساءل : أكان روسو يكره المجتمعات لما كانت تحتمه من « ضرورة الحـديث للتو ودائماً » ؟! أم كان ، وقد عهد فى نفسه بطء التفكير وغياب البديهة ، يدّعى هذه الكراهية ويظهر هـذا الزهد ؟! أفإن لم يكن حيياً خجولاً أكان موقفه من المجتمع هو هو لا يتغير ؟! لم يجب روسو عن هذا السؤال فى اعترافاته إجابة صريحة سافرة ، ولكنه قال عاضاً على أسنانه ، كما يلوح : « أى ظرف سعيد ، وأى نصر لى إن كنت عرفت أساليب الكلام ، وأن تكون ، إن أمكن القول ، ريشتى فى فمى »(٣) ولا يتمنى معرفة أساليب الكلام إلا الذى يريد الاندماج فى المجتمع والأخذ فى الحياة الاجتماعية بنصيب ، أما كاره المجتمع الزاهد فيه ، فأى حاجة به أن يعرف أساليب الكلام ؟! .

إذاً كان روسو ساخطاً على حيائه وانكماشه وانطوائه ، وهو فى نفس الوقت لا يجد من الحياء مهرباً وعن الانكماش

(١) الجولة الرابعة من « أحلام جوّال منفرد » .
(٢) الكتاب الأول من الاعترافات .

(١) الكتاب الثالث من الاعترافات .
(٢) الكتاب الثالث من الاعترافات .
(٣) الكتاب الثانى عشر من الاعترافات .

مفراً ، وعن الانطواء بديلاً . لم يكن روسو اجتماعياً وإن أحبه الناس . وقد وقعت له مآزق كثيرة ظهر فيها حياؤه وخجله من الناس وانكماشه عن مواجهتهم ، سنختار منها مأزقين على سبيل المثال .

كان روسو فى الثالثة والأربعين من عمره عندما كان ينزل ضيفاً على مسيو لومارشال دى لوكسمبورج وزوجته بقصرها بمونمورنسى ، وكانت للزوجين حفيدة وكانت تدعى إميلى ، وكانت شخصاً فاتناً ذا محيا جميل وعذوبة وحياء عذرى ... كانت طفلة لا تتجاوز الحادية عشرة ! وكانت مدام لامارشال التى تجدها خجولاً جداً تبذل قصارى جهدها فى بث الحياة فيها . ولقد سمحت لى مراراً أن أقبلها (الطفلة) وهو ما كنت أفعله avec ma maussaderie ordinaire (لا أجد فى اللغة العربية ترجمة لكلمة maussaderie غير كلمة عامية قد تقرب أو تبعد قليلاً عن معناها ، وهى «الطوخية !») وبدلاً من الحديث اللطيف الذى قد كان يقوله غيرى فى مكانى ، كنت أبقى أبكم ... ولا أعرف من كان منا أكثر خجلاً وحياء من صاحبه : أهى الصغيرة المسكينة أم أنا . وقد التقيت بها ذات يوم ، وكانت وحدها ، على درج السراى الصغرى ... وإذ لم أعرف ماذا أقول لها ، سألتها قبلة ، وبراءة قلبها لم تأبها على ... ولو كنت تمكنت فى هذه اللحظة من تجنب لقائها لفعلت ، لا لأن رؤيتها لا تملأ نفسى بالبهجة ، ولكن للارتباك الذى أجده عند مرورى فى العثور على بعض كلمات مقبولة أقولها لها . كيف يحدث أن تخجل طفلة رجلاً لم تخفه جبروت الملوك ! »[1] .

ولعل من أبدع ما قاله روسو عن نفسه فى مناسبة أخرى ، وإن بالغ فيها بعض المبالغة ، ما وقع له إبان لجوئه إلى موتييه ، من أعمال سويسرا ، وكان ذلك فى الثلث الأول من عام ١٧٦٥ ، حين تعرض له الكاهن مونمولان طالباً إليه أن يبين عقيدته الدينية ويوضحها أمام مجمع الكرادلة . عندئذ تدبر الأمر وجعل يفكر : هنالك ، يجب

(١) الكتاب العاشر من الاعترافات .

أن يتكلم ويتكلم أيضاً ، وأن يجد الأفكار و «التركيبات» والكلمات فى وقت الضرورة ، وأن يكون حاضر البديهة رابط الجأش ثابت الجنان لا يضطرب لحظة ولا يرتبك . ما الذى كان يأمله وهو يشعر بعدم قدرته على التعبير عن نفسه ارتجالاً ؟ كما تدبر هذا الموقف كما لاحت له خطورته . وهو إذ يشعر باستحالة خروجه من هذا المأزق بنجاح ، يفكر فى أمر آخر . لم لا يكتب الكلام الذى سيقوله فى هيئة خطبة يستذكرها ، حتى إذا تأكد أنه قد استوعبها كرّها من الذاكرة كراً أمام مجمع الكرادلة الموقر كما يعيد التلميذ قطعة المحفوظات من الذاكرة أمام لجنة الممتحنين ؟! هكذا جعل يفكر فى الخطبة التى سيلقيها غيباً على مجمع الكرادلة ليعفيه من الكلام ارتجالاً . وأى شىء أسهل عليه من الكتابة ؟! ها هى ذى الخطبة قد أعدت . وها هو ذا يدرسها عن ظهر قلب ويحفظها ، و «يصمها» كما يصم التلميذ قطعة المحفوظات سواء بسواء ليضمن نجاحه فى الامتحان ! آه . كم كان منظره يبعث على السخرية والضحك وهو يتمتم ويعيد — دون توقف — نفس الجمل والعبارات ليعمل على إدخالها رأسه ... وأعتقد آخر الأمر أنه قد استذكر خطبته تماماً . وفى ليلة اليوم المحدد كان «يحفظ !» خطبته عن ظهر قلب ويتلوها دون خطأ ... وظل يستعيدها فى ذاكرته طوال الليل : ولكن ... وأسفاه ! ما أن انبلج الصبح وافتقد خطبته العتيدة فى رأسه وبحث عنها فى ذاكرته حتى وجدها قد تبخرت ! فهو يتردد عند كل كلمة كما تخيل مثوله فى مجمع الكرادلة اللامع ، ويضطرب ويتعثر ويتلجلج ويفقد السيطرة على أفكاره . وأخيراً ، وقد كاد يذهب ، يتفقد شجاعته فلا يجدها ، فيعدل عن الذهاب ، ويسرع إلى ورقة يخط عليها رسالة سريعة إلى مجمع الكرادلة يشرح فيها عقيدته ، موفراً على نفسه «مشقة» قيامه بين أعضائه حيث لا يمكنه الكلام دون تعلثم ، وحيث تخونه أفكاره ، ويخذله لسانه ويعمه الارتباك والحياء[1] .

إدوار حنين

(١) الكتاب الثانى عشر من الاعترافات .



نقد الكتب

كتاب « سيرة القاهرة »

تأليف لين بول

وترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن وإدوار حليم

الناشر : مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥٠

ما رأي سادتي القراء في من يتناول كتاباً إنجليزياً ذائعاً في الناس ، كتبه مؤلفه عن « قصة القاهرة » منذ خمسين سنة ، وترد في ترجمته عبارات مثل :

— « وكان للخلفة أمير من الرهبان بمثابة ساعده الأيمن » .

— « وبنى مدرسة أخرى للشافعيين وخاصة المالكانيين » .

— « وهو عربي من أسكالون » .

— « وبذلك أحرز السلطان نصراً مبيناً في إمبيتسا » .

— « كذلك استولى على مينائي سواكن وإيدهاب » .

— « ومنذ أن فتحها سليم العوري » .

— « موقعة مرج دابق بالقرب من ألبو » .

— « قوات ال Jannizaries » .

— « وانتصر عليه أب الدهدهاب » .

« ونساؤها حواري الجنة » .

— « تعطر الندا » .

— « فإنه ليعدم أن يدعك تذهب بعد أن يكون قد قدم إليك إبريقاً من الشاي العجمي » .

— « السلطان العادل حفيد الصالح » .

« إسحق الدين شجرة الدر » (يريد عصمة الدين) إلى آخره ... آخره .

لا تظن يا سيدي أن المترجم طالب في المدرسة الابتدائية ، ولا تدهش إذا علمت أن الذي قام بالترجمة ليس واحداً بل ثلاثة ، أولهم كان أستاذاً للتاريخ الإسلامي في أعظم جامعات مصر ، وهي جامعة فؤاد .. وظل أستاذاً أكثر من عشرين سنة يفيض على الطلبة من علمه الغزير ..

والثاني يشغل كرسي التاريخ الإسلامي في نفس الكلية الآن وسيصبح بعد قليل أستاذاً فخماً ضخماً ..

والثالث تلميذ هذين وحاصل على إجازة في التاريخ ، ولا لوم عليه ، ومن شابه أستاذيه فما ظلم ، ونحن إذ نطالبه بالفهم وجودة الترجمة ، « كمتطلب في الماء جذوة نار » كما يقول المعري ..

أجل والله .. عكف الثلاثة على ترجمة هكذا الكتاب البسيط السهل وأهدوه لقراء العربية نوراً مبيناً ..

إني أتحدى أن تكون في هذا الكتاب ورقة واحدة تخلو من الأخطاء ، من العنوان نفسه حتى الصفحة الأخيرة !

وأستطيع أن أقسم ملاحظاتي على هذا الكتاب إلى الأقسام الآتية :

أولا : الجهل الفاضح بأبسط المعلومات التاريخية التي لا بد من توافرها لمن يتصدى لأصغر عمل تاريخي .

ثانياً : سوء الترجمة بل قبحها الذي يتراوح بين عدم الدقة والركاكة وبين ضعف مستوى المترجم في الإنجليزية والعربية على السواء ، مما أدى في كثير من المواضع إلى عدم فهم المترجم لما يراد من النص الإنجليزي ، وبالتالي ترجمته ترجمة خاطئة بل وأحياناً ترجمة معكوسة ، كما سيظهر لنا بعد .

ثالثاً : عدم التعليق في المواضع التي يعتبر التعليق فيها واجباً بل فرضاً علمياً .

رابعاً : الأخطاء اللغوية الفاحشة .

خامساً : عدم مراعاة الأمانة العلمية الواجبة فى الترجمة .

هذا وقد اعتمدت فى تحقيق ملاحظاتى على الطبعة الأولى من الأصل الإنجليزى (سنة ١٩٠٢) ، وسأكتفى بالإشارة إلى مواضع النصوص من هذه الطبعة دون إيرادها ، اللهم إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

أولاً — الجهل التاريخى :

إنى فى الحقيقة مذهول بل غير مصدق أن يقع المترجمون — وهم من ذكرت — فى هذه الأخطاء التى يجدر وصفها بالجهل وصفاً غير دقيق بل غير كاف . وإذا لم يصدقنى القارئ فليطلع على هذه القائمة العجيبة :

ص ١٢٠ س ١١ : « وكان للخليفة (أمير) من الرهبان بمثابة ساعده الأيمن » . وبصرف النظر عن خطأ الترجمة الذى سأعرض له فى حينه ، فإن المراد هو الخليفة (الآمر) ص ١٤٥ س ٥ « حينما أمر الخليفة الأمير » والخليفة هو الآمر لا الأمير . والعجيب أن الكلمة الإنجليزية مكتوبة بطريقة تسمح بقراءتها قراءة صحيحة ، وهى الطريقة التى شرحها المؤلف فى مقدمة كتابه ، والتى تعتمد على وضع إشارة (Accent) فوق الحروف الممدودة . ولكن يظهر أن عدم فهم المترجم لهذا الشرح قد أدى إلى عدم قراءته لأسماء الأعلام قراءة صحيحة ، وبالتالى إلى انكشاف جهله التاريخى واضحاً جلياً ، والأمثلة التالية تؤيد ما أقول .

ص ١٦٠ س ١٣ : « كانت هناك مخاوف من هجوم Almohades » أى والله تركها حضرة المترجم الفاضل هكذا دون أن يترجمها إلى معناها العربى « الموحدين » .

ص ١٦٤ س ٣ : « وبنى مدرسة أخرى للشافعيين وخاصة للمالكيين » ، هكذا قالها المترجم الفاضل لا فض فوه ، لأن معلوماته عن الإسلام ومذاهبه غير كافية ليعلم أن هناك مذهباً اسمه المذهب المالكى نسبة إلى الإمام مالك ، وأن أتباعه يسمون بالمالكية ، هذا فضلاً عن أنه لم يستطع أن يقرأ أو بالأحرى (يتهجى) الكلمة الإنجليزية "Mâlikis" وواضح بعد ما قاله المؤلف فى مقدمته أن الحرف الثانى بما عليه من حركة يقابل الألف فى « مالك » . وقد تكرر هذا ، ففى ص ١٦٧ س ١١ « والمذهب للمكالى » مع أنها فى الأصل الإنجليزى "Mâliky" هذا إذا تركنا جانبا الاختبار الخاص بمعلومات المترجم التاريخية ، وكذلك نجد فى ص ٢٣٩ س ٢٠ : « وكانوا يراعون فى دقة وصرامة حكم للمكاليين » .

ص ١٥١ س ٦ : « وبعد فترة طويلة سقطت "Ascalon" » . وص ١٦٨ س ١ : « وهو عربى من أسكالون » ، هكذا دون أن يدرى المترجم المحترم أن « أسكالون » هى « عسقلان » .

ص ١٧٧ س ٥ : « وذلك فى Caesarea of Cappadocia » ولعل المترجم خشى إذا هو عربها أن يقع فى خطأ ما فتركها هكذا دون أن يكتب اسم المدينة بالعربية (قيصرية) .

ص ١٧٧ س ١٠ : « وبذلك أحرز السلطان نصراً أميناً فى إمسا » ، وفى نفس الصفحة س ١٢ : « انخذل هذه المرة فى معركة ... بالقرب من Emesa » ، ومعلومات المترجم لا تسمح له بمعرفة أن إمسا هى حمص !.

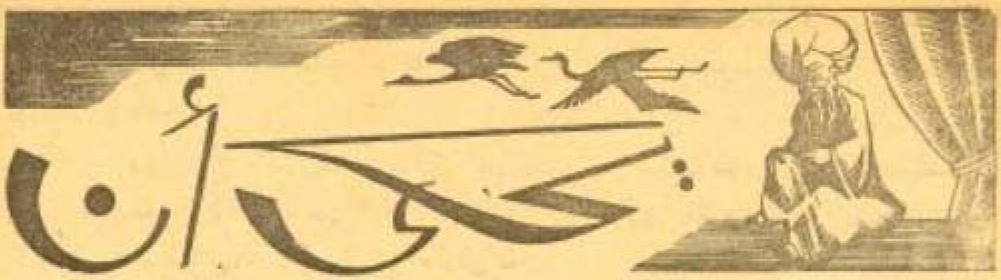
ص ١٧٩ س ٢ : « كذلك استولى على ميناء (سواكن) و (ايدهاب) Aydhab على البحر الأحمر » ، وايدهاب هى « عيذاب » . وإذا كانت معلومات المترجم لم تسعفه فلماذا لم يقرأ الكلمة الإنجليزية قراءة صحيحة ؟ إن اقتران الحرفين d و h فى الإنجليزية يعطينا الحرف العربى « ذ » ، وقد تكرر هذا أيضاً فى ص ٢١٦ س ٢٦ « القصير وعيدهاب » .

ص ٢٠٩ س ٢٥ : « فى موقعة مرج دابق المشئومة بالقرب من ألبو Aleppo » ، وتلاميذ المدارس الابتدائية يستطيعون أن يقولوا : إن لم يكن من معلوماتهم ، فمن سياق الكلام ، أن « ألبو » هى « حلب » !.

ص ٢٣٥ س ١٠ : « منذ أن فتحها سليم الغورى » ترجمة لـ "S. the Grim" ، وهكذا أضاف المترجم إلى معلوماتنا التاريخية شيئاً جديداً ، إذ أثبت وجود قرابة بين السلطان سليم والسلطان الغورى !.

ص ٢٣٦ س ١٣ : « قوات Azabs and Janizaries التركية » ، هكذا دون تعريب ، لأن المترجم لا يعلم أنهما تعنيان « الانكشارية والعزب » ، وكذلك فعل فى س ٢٣ من نفس الصفحة « مثل Kâsimis و Fikâris » ، ولو أتعب المترجم نفسه قليلاً لعرف أنهما تعنيان « القاسمية والفقارية » .

(البقية على صفحة ٣٠)



مســـــــاومة

للأستاذ أحمد سعيد أمين

كانت واقفة تحت مصباح من مصابيح الطريق ، يلفها الظلام في غلالة باهتة . وعندما رأيتها في هذه الساعة المتأخرة من الليل تيقظت غرائزي ، وتصاعدت إلى رأسي أبخرة حارة وأفكار خبيثة ، كعادتي كلما رأيت أنثى . أحل هي يبعث في إحساساً عارماً بأني رجل ، في حين أن إهانة رئيسي في المكتب وسبه إياي تحبس رجولتي . وكيف أطلق رجولتي من عقالها وشبح الجنيهات العشرة التي أقبضها من وظيفتي يتراقص أمامي ؟ وماذا تجدي الرجولة حينذاك ؟ إنها لن تمدني بالطعام على أي حال .. إلا أن الأمر يختلف الآن ، يختلف تماماً . فثمة امرأة وحيدة في الطريق المقفر . وامتد أنفي بحركة لاشعورية وشم الرائحة ، كما تشم كلاب الصيد رائحة الفريسة ، وأدركت بحاستي التي نادراً ما تخطيء أنها إحدى بنات الليل . وشملت الطريق من أوله إلى آخره بنظرة خاطفة فوجدته خالياً مثل طريق القابر . حسناً .. حسناً إن الحظ يحالفني الليلة بعد أن تخلى عني في الشهور الماضية . إني لم أصادف أبداً في حياتي مثل هذا الجو المهيأ كأنما أعده القدر بإحكام كيما يرضيني بعد أن عبث بي طويلاً .. وابتهجت واعتراني الجذل ، واستطعت أن أسمع صوت لساني وهو يلعق فمي .

واقتربت منها ، ولدهشتي لم أجدها وحيدة . فقد كانت تحمل طفلاً صغيراً على أحد كتفيها . وكان يبدو نائماً مستغرقاً في أعذب أحلامه ، تحيط وجهه هالة من البراءة . وأعجبتني هذه المرأة . هذه الأم الحنون التي تأبى أن تخرج بدون طفلها حتى لا تتركه في أيد غريبة . وفي نفس الوقت خامرني الأسف والحسرة لأني تخيلت أني لم أجد الفريسة المنشودة . ولعنت أنفي وحظي السيء .

كنت سأمضي في طريقي لولا أني لمحت على شفتيها ابتسامة ، بينما سألتني في صوت متراخ :

— أمعك نقود ؟ .

وأطلقت ضحكة خافتة وقلت :

— لقد أرعبتني يا عزيزتي .

وتأملت وجهها بينما كنت أشعل لها الثقاب . لم أتمكن من تمييز لون بشرتها الحقيقي ، لأن طبقة كثيفة من الأصباغ كانت تغطيه . لكنها كانت ذات جمال كجمال الورود التي لم تنم في الضوء والهواء النقي ، ولمحت في عينيها بريقاً قوياً يدل على شيء غامض لست أدري أهو الجشع أم الأمل ... وأمعنت النظر في قوامها اللدن ، فاهتز بدني وأنا أذكر فراشي البارد ، وارتعشت شفتي وأنا أنظر إلى شفتيها المتلثتين ، واشتد صعود الأبخرة إلى رأسي حتى حجبت العقل ، بل أحسست به يتلاشى شيئاً فشيئاً . وأصبحت لجاة بلا رشد ، إنما تسيطر على غريزة هوجاء . لذلك قلت دون مقدمة :

— تعالي إلى المنزل .

— كم تدفع ؟ .

ووقع بصري على الرضيع الماجع في سكون . وكنت سألعنه وألعنها معه وأمضي في طريقي مرة أخرى ، لولا أني كنت جائعاً . كنت محروماً من اللحم شهوراً طويلة ... واستنكفت أن يشاركني الطفل هذه الليلة ، وراقني وأنا

أتذوق طعم اللحم . لكنى تغلبت على مضضى ، وطمأننى أنى رأيته غارقاً فى نومه . فأجبتها :

— بهذا الطفل لا أكثر من ربع جنيه .

* * *

وبعد قليل كنا أمام باب حجرتى المعتمة فوق سطح أحد المنازل . لكنها ذكرتنى بأجرها قبل أن تخطو إلى الداخل ، فأجبتها برقتى المعهودة :

— ادخلى أولاً . واطمئنى تماماً ، فأنا رجل شريف ! .

وأقنعها ردى فدخلت . ووضعت الرضيع النائم بعناية على المقعد الوحيد فى الحجرة ، وهى ترسل إلى نظرات ماجنة أشعلت النار فى جسدى . وراقبتها وأنا أغبطها على هذا الوليد الوديع الذى لا يضطرب ولا يصخب . وانفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة ، لكن شفتىّ ظلتا على صمتهما المطبق ، فقد كنت شارداً . تخيلت الساعات الهنيئة التى سأقضيها فيما يشبه الأحلام . وأحببت أن أكون عملياً . فاقتربت منها فى خطوات بطيئة ، وأنا أكاد أحبس أنفاسى من الانفعال . وكان الصمت يرفرف علينا حتى أنى سمعت دقات قلبى السريعة . وكلما اقتربت منها أحسست بالعدم يحوطنى معها ، فلا كائنات فى العالم إلا أنا وهى . وشعرت أن بركاناً هائلاً على وشك الانفجار . ولم ألبث إلا هنيهة حتى شعرت بانفجاره عندما وضعت شفتى على شفتيها الطليتين ، وانتفض جسدى من الحمى كما انتفض من قبل ، عندما أصابتنى الملاريا . ورحت فى عالم بديع نشوان كالذى كنت أتيه فيه عندما أجرع كاسات الخمر فى حانة السلسلة . ما ألذ طعم شفتيها .. إنه مثل قطعة ساخنة من الضأن المشوى .. لكنى حرمت من هذا فجأة ، عندما رفعت شفتيها ، وأبعدت جسدها عنى .

يالها من خبيرة بالرجال ! لكنها حمقاء ككل بنات جنسها . أى شىء تريد أن تمنعه فىّ وأنا ألتهب كالأتون المتقد ؟ ربما أرادت أن تحولنى إلى رماد .. يالها من أنثى .. حسناً لن أتركها حتى تحولنى إلى رماد . وأسرعت فأطبقت عليها ، لكنها افلتت من ذراعى واثبة . وجريت وراءها والشبق يغلى فى نفسى كالمرجل ، وحاصرتها فى ركن ضيق ، ولففت ذراعى حولها وضممتها بعنف إلى صدرى ثم أهويت على شفتيها بقبلة عريضة . آه ! إنى أريد مزيداً من الحمى والخمر واللحم .. إن جسدى جائع يضج من جوعه ، وما يحتمل الانتظار أكثر من ذلك .

ولم أنعم طويلاً فقد تسربت من أحضانى حين مزق السكون صراخ حاد أشبه بعواء القطط . كان الرضيع يصرخ عندما استيقظ ولم يجد أمه بجواره . وامتلأت بالضيق لما أفقت من نشوتى ، ولعنت الحظ الذى أوقعها فى طريقى .. واشتد ألمى وكربى عندما رأيتها تأخذه فى أحضانها بحلأمى ، وهى لا تحس بوجودى . بل بدا لى أنها لا تشعر بمدى الغيظ الذى كنت أتميز منه . وربتت عليه بحنان وهدهدته كأن مافعله شىء طبيعى . ولو علمت فى تلك اللحظة أنى كنت أود أن أخنقه ، إذاً لهربت به واختفت عن ناظرى .

ماذا أفعل ، وأنا أرى الطفل فى سبيله إلى أن يهدأ كما رأيته فى نظرتى الأولى ؟ لا شىء بالطبع سوى الاستسلام . جلست وأنا برم على الفراش الخاوى الذى ينتظر ضجعة الشيطان . ولم أفه بحرف ، بل انتظرت حتى هدأت حركة اللعين وكف كلية عن صراخه . عندئذ وضعته أمه الحنون على المقعد وأقبلت نحوى . أقبلت نحوى كأنما كانت تستجيب لنداء الاستغاثة الذى ترسله عيناى . كنت ملهوفاً جائعاً ، وكان الغذاء أمامى ..

ولم أنتظرها حتى تأتى ، بل نهضت واقتربت منها . وحين أوشكت أن أحتويها بين ذراعى شق السكون الصراخ الحاد مرة أخرى . وتصاعد الدم الحار إلى رأسى فقد كان ذلك فوق طاقتى ، وأكثر مما تحتمله أعصابى ، فإن الجوع يبعث فىّ اللهفة والشره ؛ وأنا حين أجوع أحب أن ألتهم الطعام دون عائق حتى أمتلىء وأشبع . لذلك أسرعت إلى مكان الطفل وصحت فيه :

— ألا تكف عن صراخك أيها الأحمق .

ولوحت بيدى مهدداً إياه . لكن اللعين استمر على صياحه المزعج ، دون أن يعيرنى التفاتاً ، أو يأبه لكلامى . وصمت آذانى وأعمانى الغضب فلم أشعر إلا ويدى تهوى على الرضيع صفعة قاسية ، وفى الحال كف عن صراخه .

* * *

كف الطفل عن صراخه لكن صراخ أمه ارتفع ، وتبدد ارتياحى الذى حصلت عليه بهذه الصفعة . واعترانى شعور غامض رهيب وأنا أسمع العاهرة تناجى ابنها فى نبرة أشبه بالبكاء :

— ولدى .. روحى .. حبيبى .

وتناولته بعناية من على الأرض ، بعد أن ألقته صفعتى

القوية عليها . كانت عيناه مغلقتين ، ووجهه متقلص العضلات ، وأصبح لونه في بياض الشمع . ثم ضمته إلى صدرها بشوق أعنف من ذلك الذى انتابها وهى تضمنى . وعندما أحست ببرودة جسده هزته بلطف وهى تتضرع إليه :

— كلمنى يا حبيبى . كلمنى . ماذا فعل بك ؟.

لكنه لم يجب . ونظرت إلى فالتقت نظراتنا واشتبكتا فى صراع جبار . واتجلى الموقف وبان كل شىء . فصاحت والرعب يملأ صوتها :

— قتلته . آه يامجرم .

وفغرت فاهى ذهولا وأنا أسمع كلماتها . أيمكن أن يحدث هذا ؟ وكيف .. آه حقاً لقد كانت ضربتى قاسية : لكنه السبب وأنا معذور فيما فعلت . وفجأة قفزت إلى ذهنى صور عديدة ... البوليس ، والأحجار الضخمة والسلاسل ووجه السجان الغليظ . يالله أيمكن أن يحدث هذا ؟. كلا إنها أوهام إنسان متعب . لكن لا . هذه هى الحقيقة ، فقد ارتكبت جريمة قتل . وارتعد بنيانى وأنا أسمعها تقول وهى تشنج تشنج الثكالى :

— سأبلغ البوليس . سأبلغه كى تنال عقابك .

وحاولت أن أهدئها لكن محاولاتى ذهبت سدى . كانت مثل اللبؤة التى تدافع عن أشبالها حين يغيب الأسد . تماما كاللبؤة ذات ناب وعين من شرر . وتراءت لى فى تلك اللحظة بوجهها الملطخ كأنما قد هربت من الغاب لتقتنص ضحية بريئة . واستطعت أن أميز فى عينيها بريقاً مخيفاً كذلك الذى تبرق به عيناى عندما أبصر صيداً سهلا .

وكفت عن التشنج دون سبب ظاهر ، وكادت تبتسم وهى تضع طفلها الميت على المقعد .

ثم اقتربت منى حتى لاصقتنى . وغمغمت فى صوت لين :

— لن أبلغ البوليس .. إنما سأطلب منك شيئاً .

— وقلت لها وأنا فى غاية الاطمئنان :

— اطلبى النجم فى السماء .

إنى أحس أنها ستطلب بضعة جنيهات ثمناً لطفلها . فهذا هو التفكير المنطقى العادى . لكنى ارتعبت عندما أجابت :

— تزوجنى ..

وخيل لى فى بادىء الأمر أن هذا الطلب أكثر استحالة من طلب نجوم السماء ، ووقع عرضها فى نفسى كما يقع نبى شخص حبيب ، لكن الصور التى قفزت إلى ذهنى منذ لحظة عادت إلى الظهور . أجل ما أنا إلا مجرم يريد الفرار من جرمه بأى ثمن . فلذلك لم يكن لدى اختيار ، فقلت وكلى أسى :

— لن أخونك أبداً يا زوجتى العزيزة !

أحمد سعيد أمين

كتاب « سيرة القاهرة »

(بقية المنشور على صفحة ٢٠)

وهما — كالعزب — من الفرق المملوكية المعروفة .

وقد تكرر هذا فى ص ٢٣٧ س ٢١ « قوات الـ Azab » .

وكذلك فى ص ٢٣٩ س ٧ : « قواد الـ Azab » .

ص ٢٤٣ س ١١ : « أبو الدهداب » ، وليحاول القارىء ما شاء أن ينطق هذه الكلمة أو يفهم مدلولها ، وعندما يعجز — وسوف يعجز — فليقرأ أصلها الإنجليزى ، وهو « Abu-dh-Dhahab » ، وعندها سوف يعلم بسهولة أن صحة الكلمة « أبو الذهب » ، لأن اقتران الحرفين d و h كما قلت يعطينا ذالاً عربية سليمة ، ولكن ماذا أقول ؟ .

ص ٢٤٦ س ٨ : « يتقاضون مرتبات قد تصل فى بعض الأحيان إلى مائة وخمسين Paras » ، هكذا دون أن يكلف المترجم نفسه عناء ذكر الكلمة العربية (بارة) للدلالة على تلك العملة التركية القديمة . وكذلك فى س ٩ من نفس الصفحة « عشرة Paras فى اليوم » ، بل قال حضرة المترجم العالم فى ذيل الصفحة ذاتها : « كان ثمن رطل اللحم فى ذلك الوقت two paras » ! وفى السطر الثانى عشر من نفس الصفحة « قفاطين من الفراء الأبيض أو السمورى » ، والقفاطين لا تصنع من الفراء أو السمورى ، هذا فضلاً عن أن الكلمة ترجمة لـ (cloaks) . والصواب أن يقال : أقبية (جمع قباء) ، أو جُبب (جمع جبة) ، أو طيالس (جمع طيلسان) .

(له بقية) (باحث)

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر